التاريخ الإسلامي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

التاريخ الإسلامي

— ١ —

قبل البعثة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي

— ١ —

قبل البعثة

الطبعة الثامنة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على منهجه وبَعْـد:

فإن لكل أمَّةٍ تاريخاً تسجله من منطلق عقيدتها وواقع حياتها، وتحرص على تنقيته من كل ما يخالف تلك العقيدة حتى يكون ناصعاً منسجماً مع ما تصبو إليه نفوس أبنائها، وما تريد أن تنشأ عليه الأجيال في المستقبل، هذا بالنسبة إلى كل أمم الأرض، إلا الأمة المسلمة فإن تاريخها قد لعبت فيه الأيدي المنحرفة في الماضي، وحرَّفته أقلام المستعمرين وأنصارهم في الحاضر، حتى غدا تبعاً لتاريخ الانحراف في الأدوار التي مرَّت، وشبيهاً بتاريخ أوربا في العصر الحديث، يتماشى معه، ويتممه على أرضنا التي نحيا عليها. ومع هذا فلم تبدأ الأقلام الحرة بعد تخط التاريخ الإسلامي بشكله النقي.

إن الأمة القوية تحاول أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة أو التي أخضعتها بالسيف، ولقد طغت الدول الأوربية على البلدان الإسلامية خلال القرون القليلة الماضية، وفرضت تاريخها عليها، وحاولت فرض لغتها أيضاً، إلا أن وجود القرآن الكريم قد حال دون ذلك بالنسبة إلى اللغة، أما التاريخ فقد بقي يدرَّس حتى بعد زوال الاستعمار في البلدان الإسلامية، بل ويعلَّم في أكثر بلدان العالم، يدرس تاريخاً أوربياً خالصاً، وحتى التاريخ المحلي، فإنه يعطى من وجهة نظر أوربا، ذلك لأن الأوربيين كانوا يسيطرون على أكثر أجزاء الكرة الأرضية، وأصبح تاريخهم عالمياً حسب مصطلحهم، لأن أكثر الدارسين كانوا يتجهون إلى أوربا يتلقون فيها

العلم، ويأخذون منها التوجيه، ومن بين ذلك مادة التاريخ التي حرص عليها الأوربيون حرصاً شديداً، وعملوا على توجيهها حسب وجهة نظرهم ومنطلقهم الخاص، وعندما يعود الدارسون إلى مناطقهم التي خرجوا منها، فإنهم يسجلون ما تعلموا، ويدرّسون ما أخذوا وما نهلوا، وينشأ الجيل بعد الجيل على هذا التوجيه، وتسطر الكتب، وتصبح مراجع ومصادر لكل باحث جديد.

هذا التاريخ الذي يزعمون أنه عالمي لا ينطبق بالفعل إلا على أوربا، ولا يشمل غيرها، ويقسّم تاريخ العالم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما مرَّ في أوربا، وهذه الأقسام هي:

١ ـ **التاريخ القديم**: ويبدأ منذ معرفة الإنسان الكتابة حوالي عام ٣٢٠٠ق.م. وينتهي بسقوط مدينة روما بيد البرابرة الجرمان عام ٤٧٦م، ويمتاز أواخر هذا القسم من التاريخ بقيام إمبراطوريات واسعة، وظهور حضارات حسب المفهوم الأوربي.

أما المدة التي سبقت فتعرف باسم ما قبل التاريخ، ويعدّون أن الإنسان كان فيها بدائياً متأخراً، لا يعرف اللباس، ولا يجيد النطق، ولا يحسن التعبير، يستر الشعر جسمه، هذا ما يتفق مع مفهوم أوربا العلماني، إذ لا يأخذون بعين الاعتبار الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله من القديم لهداية البشر منذ أن خلق الناس في الأزمنة الغابرة.

٢ ـ **التاريخ الوسيط**: ويبدأ من سقوط روما عام ٤٧٦م، وينتهي بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني، ويمتاز هذا العصر بسيطرة الكنيسة، ورجالات الإقطاع، وبالجهل.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: ويبدأ من فتح القسطنطينية، وينتهي في الوقت الذي نعيش فيه، ويتسم بالثورة الصناعية، وانتشار العلم، وقيام الحضارة الحديثة حسب المفهوم الأوربي الخاص، كما يقسم هذا الجزء من التاريخ إلى قسمين:

أ ـ التاريخ الحديث: وينتهي بقيام الثورة الفرنسية عام ١١٩٣هـ.

ب ـ التاريخ المعاصر: ويبدأ من قيام الثورة الفرنسية، ويمتد حتى وقتنا الحالي.

وإن نظرة واحدة إلى هذا التقسيم توضح لنا أن هذه الأحداث والسمات الخاصة بكل جزء منها إنما ينطبق على أوربا وحدها، ولا يتفق مع ما سواها.

في التاريخ القديم تتحدث أوربا العلمانية عن الحضارات القديمة، ونحن لا نعدّ هذه المظاهر في مفهومنا حضارات، وإنما مظهراً من مظاهر البناء، فالحضارة تتسم بالصفة الإنسانية، فإذا زالت عنها فإنما هي تسلُّط وإرهاب، وما البناء الذي يعدّونه حضارة إلاَّ بناء شيَّدته أيد على جماجم إخوتها، ورفعته على جثث آلاف البشر، أُرغموا على العمل به، وأُكرهوا على الكدّ فيه حتى لقوا حتفهم، والسوط على أظهرهم، والسيف مسلط على رؤوسهم. تعدّ أوربا ما بقي من آثار عمرانية حضارة، وما اندثر ضاع معه الناس وما شادوا، ولو أنهم ملؤوا الخافقين عدالةً وسمواً بالنفس، فكأن الظلم باقٍ والعدل زائل.

أما في التاريخ الوسيط الذي امتاز بالإقطاع، وسيطرة الكنيسة، والجهل في أوربا، فإن هذه الميزات لم تكن موجودة إلاَّ في تلك القارة، فالكنيسة لم تكن مسيطرة إلا في أوربا، أما في بقية أنحاء العالم، فليس هناك من كنائس، وإن وجدت فأصحابها قلة، ولا يمكن لهم السيطرة، ولا يستطيعون الطغيان، وأما الإقطاع فلم يكن هناك إقطاع بالمفهوم الموجود في أوربا، وهو أن يكون عمال الأرض وفلاحوها يباعون ويشترون، ويتصرف بهم المالك كيف يشاء، يقتل من يرغب دون محاسب، ويرتكب من أعمال السوء مع أفراد أسر فلاحية ما يبتغي دون ممانعة، وأما الجهل فلم يكن منتشراً في مكان آخر بالشكل الذي كان ينتشر في أوربا، وبصورة عامة غدت كلمة التاريخ الوسيط تعني التأخر، والجهل، والفوضى، وسوء النظام، والاستهتار بكل القيم، وإذا نظرنا إلى هذا الزمن الذي نتكلم عنه

كيف كانت بلادنا الإسلامية فيه، فنلاحظ انتشار العلم، وسيطرة النظام، ووجود القيم، فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات، وهي قبلة المتعلمين، ومساجدها مراكز إشعاع، هذا إضافة إلى الحضارة التي تتسم بالإنسانية، بل تعدت إلى الرفق بالحيوان، فالحضارة أعمال يبتكرها البشر، وتنظيم وتخطيط لخدمة الإنسان، فإذا لم تخدمه فليست بحضارة.

لقد كان اهتمام الحضارة الإسلامية بالإنسان، والإنسان وحده، الأمر الذي لم يلتفت معه المسلمون إلى البناء والإشادة، وإجبار الناس على العمل وإكراههم على مزاولة أعمال لا تخدمهم، ولا تخدم عقيدتهم، وإنما تخدم حكامهم، كما فعل غيرهم، وإنما انصرفوا إلى الدعوة والفتوحات التي كانت وسيلةً لنشر عقيدتهم فلم يخلِّفوا أبنية، ولم يتركوا قصوراً، ونستطيع أن نعطي صورة بسيطة عن صور من الحضارة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده تجلت في العدل والمساواة وإحقاق الحق والاهتمام بمصالح الرعية بشكل تبقى مثلاً أعلى للحضارة لكل من يريد الخير للبشر، فعاش الناس يومذاك حياة سعيدة ملؤها الراحة والطمأنينة والأمن وتأمين الحاجات الضرورية، ولم يلتفت المسؤولون آنذاك عما سوى ذلك من مظاهر تنهك الإنسان، وليس فيها أية خدمةٍ له، ولا يشعر بأية سعادة في ظلها، وإنما فرضت عليه، وكان يئن من وطأتها. وعندما انتهت الفتوحات، شيَّد المسلمون مواضع لا لخدمة الحكام والرؤساء، وإنما لخدمة رعاياهم وسعادتهم، أماكن على الطرق العامة كانت مراكز للبريد، ثم عرفت فيما بعد باسم (خانات)، على الرغم من وجودها في وقت مبكر، ولكن وصل إلينا هذا من آخر عهد له، والخان: كلمة مختصرة من (خاقان) وهو الأمير باللفظ التركي، وهو الذي ينفق على هذه المراكز، أو تقام باسمه. وكانت هذه المراكز مضافات على الطرق، يحق لكل مارٍّ أن يبقى فيها ثلاثة أيام تقدم له فيها الأطعمة، والشراب، ووسائل النوم والراحة، وكل ما يحتاج دون مقابل، وإلى جانب ذلك يُقدَّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاور. وكان بين المركز والآخر مرحلة، وهي تساوي

الأربعين كيلومتراً تقريباً، وهي مسيرة يوم آنذاك، وقد توجد على مفترق الطرق، وعندها تكون المسافة بين مركزين متتابعين أقل من ذلك، وفي المدن كثير من هذه الخانات لكثرة زوَّار المدن وحاجاتهم المستمرة فيها، ولا تزال آثار هذه الخانات قائمة إلى الآن، سواء أكانت في المدن أم على الطرق، وتعرف بأسمائها في أماكنها، وإن زالت معالمها، وهي في المدن على شكل طابقين، وغالباً ما يستعمل الأول ـ وهو الأرضي ـ للحيوانات، والثاني للمسافرين. وقد يكون بجانب كل خان دار للثياب فيما إذا اضطر أحد المسافرين إلى تغيير ثيابه لسببٍ من الأسباب، كأن يصيبها شق أو تمزيق، أو يلحقها أذى من زيت أو دهن، فإنه يستبدلها بالمقياس نفسه، واللون نفسه، والطراز نفسه، ويترك ثيابه دون مقابل ولا منَّة، ويُصلح المركز الثياب المتروكة، وتُنظَّف، ويدبّر أمرها، ويعتني بها، لحاجة تستجد في المستقبل، ولما ضعف المسلمون، وسيطر عليهم غيرهم، انهارت حضارتهم، وأصبحت الخانات أماكن للحيوانات فقط، وغدت كلمة خان تعني: اصطبلاً. وتعدّى الأمر في هذه الحضارة فوصل إلى الخدم، فكانت توجد في المدن دور تسمى: دار (الزبادي)، ومهمتها تقديم الآنية والأوعية إلى الخدم الذي كُسرت آنيتهم معهم وهم في طريقهم إلى جلب حاجات لسادتهم، كي لا يجد هؤلاء الخدم عقوبة تصيبهم، أو أذى ينالهم، أو كلاماً قاسياً يسمعونه من أولئك السادة الذين ربما كان منهم الظالم القاسي أو الجاهل العاصي. وزاد الأمر على ذلك فوصل إلى الرفق بالحيوان، فكان في كل مدينة ما يسمى بـ (مرج الحشيش)، وهو مكان متسع مليء بالأعشاب، محاط بالأسوار، وفيه بعض الحظائر، فإذا ما عجزت دابة عند فلاح في المنطقة عن العمل، فإنه يرسلها إلى ذلك المكان بدلاً من أن يتركها في العراء، فلربما عجزت عن الحركة، وماتت جوعاً، وربما كان في مكان قريب من السكن، وعندها يتفسخ جسمها، وتضرّ بصحة الأهالي، أما إذا نقلت إلى (مرج الحشيش)، وهو ما يشبه مأوى العجزة بالنسبة إلى البشر، فيصبح القائمون على المركز مسؤولين عنها، فإذا كانت تستطيع الرعي سائمة تركت وشأنها ترعى، ولا تستطيع الخروج من المرج، وإذا

كان لا يمكنها ذلك، وضعت في الحظائر، وقُدِّم لها العلف والماء، حتَّى إذا انتهت حياتها، نقلت إلى خارج دائرة السكن لتأكلها سباع الفلاة، أو ليردم عليها التراب. ومن آثار هذه المروج وآخرها: (مرجة الحشيش) في دمشق التي بقيت تحمل هذا الاسم حتى مدة قريبة، ثم أصبحت ملعباً للرياضة، فعرفت باسم (الملعب البلدي)، ثم أقيمت في ذلك المكان أبنية المعرض، وهذا المكان محصور بين نهر بردى وفرعه نهر «بانياس» والتقاء هذين النهرين، أما الجهة الرابعة فكان محجوزاً ببناء الحظائر، وهو مكان المتحف اليوم، مقابل تكية السلطان سليمان العثماني المعروفة، فهل عرفت حضارة من حضارات العالم تحمل أمثال هذه المعاني؟

هذه هي المعاني الإنسانية التي يجب أن تتوفر للنهضة كي تسمى حضارة، أو للمدنية حتى يطلق عليها هذا الاسم، وهو ما يجب أن نرسِّخه في نفوس الأجيال، ونعلمهم إياها باستمرار لينشؤوا على مفهوم الحضارة الصحيح، وما قدَّمته أمتنا في هذا المجال، وما هي القيم التي تحملها الحضارة؟ ويجب ألا ننقل إلى تلك النفوس بعض مظاهر العلم أو البناء ونطلق عليه اسم حضارة، كما هو بالمفهوم الأوربي، فتضيع الحضارة بين بعض مظاهرها الضعيفة، ويتيه النشء بين الاصطلاحات ومداخل التعاريف.

هذا التاريخ بالنسبة إلى أوربا. أما التاريخ الإسلامي فيمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام أيضاً حسب مثلنا وقيمنا وعقيدتنا ومفاهيمنا، وهي:

١ ـ **تاريخ ما قبل الإسلام**: وقد استمر مدة طويلة كانت جاهلية بأكثر معالمها باستثناء جماعات عاشوا مع أنبيائهم، وساروا على نهجهم واتبعوهم، لذا يمكن أن نسمي هذه المدة بالجاهلية الأولى لما فيها من حيدان وانحراف عن منهج الله الذي أنزله على الرسل الذين بعثوا إلى شعوب تلك المدة من الزمن.

٢ ـ **التاريخ الإسلامي**: ويشمل حياة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وقد سار الخلفاء على النهج الذي رسمه الرسول الكريم، لم

يحيدوا عنه قيد أنملة، وبعد ذلك بدأت زاوية الانحراف تظهر منذ انتهاء العهد الراشدي، وبدأ مع الزمن يزداد انفراج زاوية الانحراف شيئاً فشيئاً في العهدين الأموي والعباسي، حتى طغت على الدائرة كلها في نهاية الدولة العباسية. ويمكن أن نلاحظ أن تسجيلنا للتاريخ يجب أن يكون قبل الإسلام بأعوام قبل الهجرة، والتاريخ الإسلامي بالأعوام الهجرية فقط، ليكون لنا تاريخنا المستقل وشخصيتنا المتميزة.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: وهو مرحلة الجاهلية الثانية، حيث انحرف الحكام عن النهج الإسلامي، وبدأت الحكومات تتخبط في الفوضى والجهل، وتسير بالتبعية، وإن كنا لا نستطيع أن نعد جميع الحكام بمستوى واحد، فلربما كان بعضهم أقل انحرافاً من بعضهم الآخر، وقد حكم في هذه المدة المماليك والعثمانيون ومن جاء بعدهم. وإن ظهر أحد منهم بالصلاح والعمل لمصلحة الرعية إلا أنها كانت أياماً قليلة ثم لا تلبث الجاهلية أن تتحكم بالأمر. ومع الأسف فقد اتخذ التقويم الميلادي تقويماً في هذه المدة، الأمر الذي أحدث ازدواجية في تسجيل تاريخنا بصورة عامة، إذ نسجل الأحداث حتى نهاية الدولة العباسية على أثر سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦هـ بالتقويم الهجري، ونسجل بعد ذلك بالتقويم الميلادي، وكذلك المدة التي سبقت هجرة رسول الله صلَّى الله عليه وسلم.

هذا التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي، وبينهما فرق جوهري، فيجب أن نفصل أحدهما عن الآخر لتتوضح عندنا الرؤية، ولنتميز بشخصيتنا التي حرص بعضهم على إلحاقها بالغرب. واستمر ذلك مدة ليست قصيرة من الزمن. كما يجب أن نرسخ هذه الفروق بين الأجيال لتتمسك بتاريخها، وتعتز به، ويجب أن نوضح المعاني الحضارية التي عمل أسلافنا من أجلها، وتوصلوا إلى أزهى الحضارة، وقد خدموا بها العالم، فأسرعوا في تقدمه أشواطاً إلى الأمام.

ومن خلال هذا فإننا سندرس التاريخ الإسلامي على النحو التالي:

١ ـ قبل البعثة.
٢ ـ السيرة.
٣ ـ الخلفاء الراشدون.
٤ ـ الحكومة الإسلامية.
٥ ـ العهد الأموي.
٦ ـ العهد العباسي.
٧ ـ عصر المماليك.
٨ ـ الدولة العثمانية.
٩ ـ العصر الحديث.

وعلى هذا فإن تاريخ العالم إنما كان تاريخاً جاهلياً سيطرت عليه الجاهلية بكل مفاهيمها وقيمها باستثناء مدة وجيزة هي: عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، تغيَّرت فيها المفاهيم والقيم، وتبدَّلت الأرضية التي يعيش عليها المجتمع، ثم لم تلبث أن عادت الجاهلية تسيطر شيئاً فشيئاً حتى عادت لها هيمنتها في النهاية.

ولا يزال التاريخ ـ وبخاصة القديم منه ـ يأخذ مقتطفات من سجل هذه المنطقة ومن تلك، الأمر الذي يبدو فيه كثير من الفجوات، إضافة إلى أن هناك تعارضاً بيِّناً بين ما يخطه المؤرخون الماديون من خلال نظرتهم إلى الحياة، ويفسرون كل شيء من خلال تلك النظرات، ويعدونه حقيقة، ويقدمونه للمجتمعات من خلال آرائهم، وبين الواقع الذي عاشه البشر في تلك المدة، والذي أشارت إليه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله عن الأقوام الماضية التي خالفت أوامر الله، ورفضت دعوة رسلها، لذا فقد أخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم على ما اقترفوه من ذنوب، وما تلك الإشارات الواردة في القرآن بتاريخ مفصل عن منطقة ما، وإنما إشارة إلى حوادث تاريخية فيها العبرة والذكرى من خلال إيرادها، وهي تعطي ضوءاً على التاريخ.

ولقد حرصت أن أملأ تلك الفجوات الموجودة، وأن أتلمس حوادث

التاريخ من خلال الإشارات الواردة في كتاب الله، وأن أضعها ضمن إطارها بحيث لا تخرج عن واقعها، الأمر الذي جعلني أضع هذا القسم تحت العنوان العام (التاريخ الإسلامي) على الرغم من أنه كان قبل الإسلام، وأقصد بذلك التسجيل لهذه المدة من حياة البشر من وجهة نظر إسلامية، وتأريخاً للجماعات التي جاءتها رسلها المعروفون، فما كان القرآن لترد فيه حوادث غير واقعية، وإنما يذكر أحداثاً تاريخية صحيحة لها سجلها في حياة البشر، وفيها العبرة لمن أراد أن يعتبر.

ونرجو من الله أن أستطيع تقديم خدمات لهذا التاريخ الذي وطدت العزم على إصداره ـ إن شاء الله ـ وأن يكون هذا حافزاً لغيري كي يتوسع في هذا المجال، وأن يقدم لأمته ما ترجوه ـ فأنا لا أدعي أنني قمت بعمل جليل كبير، وإنما قدمت الخطوط العريضة ليتوسع فيها أهل العلم وأصحاب الاختصاص ـ مع العلم أنني لن أتقيد بالروايات التاريخية الكثيرة المتشعبة التي وردت في بطون أمهات الكتب، وذلك لأن أولئك المؤرخين قد أجهدوا أنفسهم كثيراً فيما سمَّوه بالأمانة العلمية، فنقلوا إلينا كل ما وصل إليهم من أخبار، لذلك جاءت روايات كثيرة متناقضة أحياناً، وأكثرها يخالف رأي الحكام القائمين آنذاك، ويظهر أنها جاءت من خصومهم السياسيين الذين حرصوا على إشاعة هذه الروايات وتسجيلها أكثر من المسؤولين الذين أهملوا وجهة نظرهم، كما أن الحكام قد شجعوا وروّجوا الروايات التي تطعن بمن سبقهم ليبرروا قيامهم هم، ويرفعوا أنفسهم عليهم، لهذا فالروايات كانت بحاجةٍ إلى تحقيق وتدقيق، وتطبيق منهج علماء الحديث على الرواة «الجرح والتعديل»، وسأقبل كل ما طبق على الروايات من هذا المنهج، وسأرفض كل ما سواها، وسيكون الإيمان رائدنا في البحث ما أمكننا ذلك.

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله، وأن يكون سبحانه وتعالى عوننا في كل عمل فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلاَّ به.

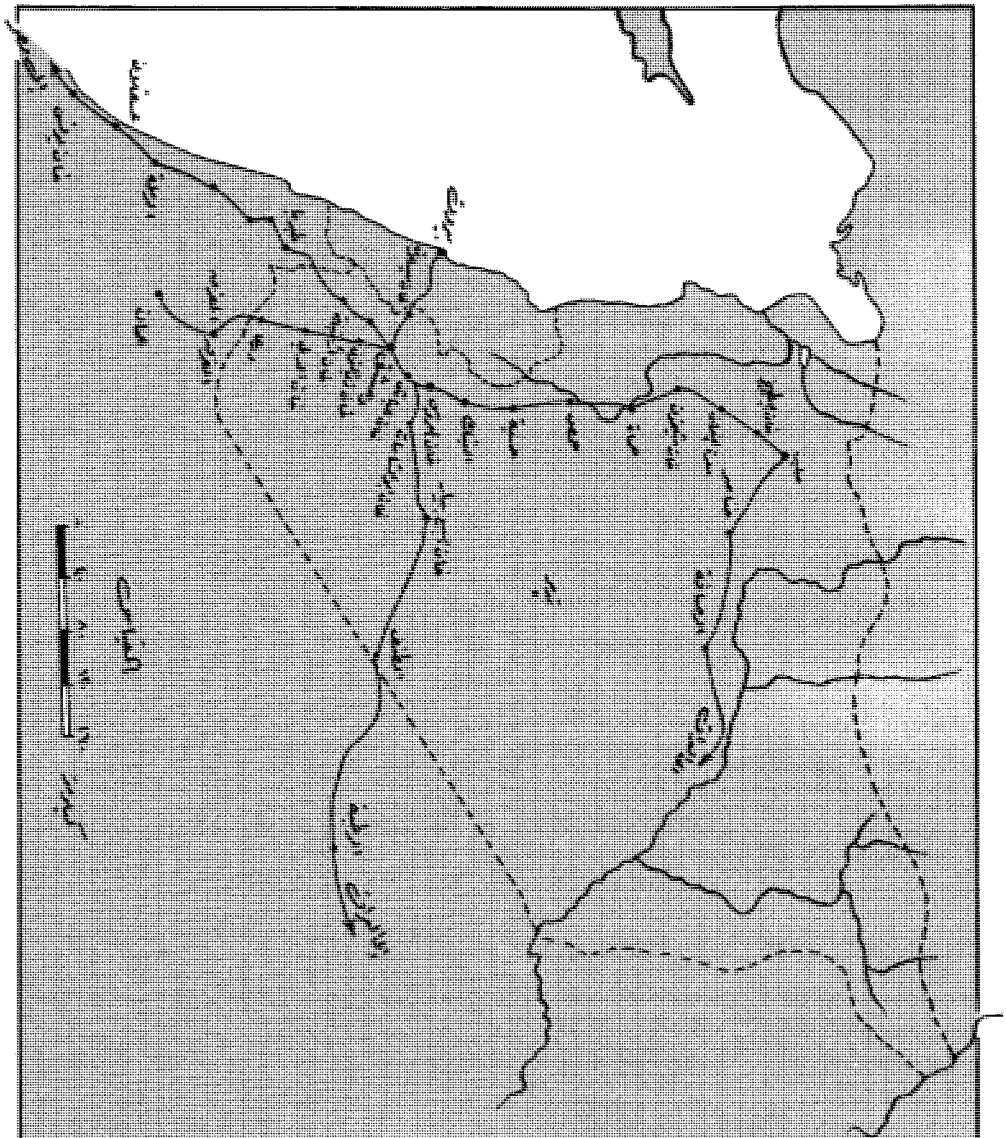

الأمّة المُسْلِمَة

لما كنّا نؤرخ للأمة المسلمة فلا بدّ من أن نعطي فكرة عن الأمة وبنائها وعامل تكوينها قبل أن نبدأ بتسجيل تاريخها، ونعطي فكرة عن عقيدتها في التاريخ.

الأمة جماعة من الناس عاشت بعقيدةٍ واحدةٍ على مدار التاريخ، فما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة، فالجماعات الذين اتبعوا الأنبياء الذين بعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشوا بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، واعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أنزل الله إليهم من ربهم، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور، يؤلفون أمّةً واحدةً على مدى هذا التاريخ، فهم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحد؛ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربهم واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مستسلمون لأمر الله، مسلمون لما بعث، وبما قضى. هذه الجماعة هي الأمة المسلمة التي تتميز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها، فالله سبحانه وتعالى بعد أن يُعدّد رسل الله والصالحين من عباده يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

ولا ترتبط الأمة المسلمة ببقعةٍ معينةٍ من الأرض، وإنما ساحة عملها الأرض كلها، فحيثما تمكنت من إقامة حكم الله فذلك مقرها الأول ونقطة

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

انبعاثها، وبعد ذلك تتوسع دائرتها منه بالدعوة ونشر الفكرة حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت لا تعمّ الفكرة الأرض كلها، ولا تحكُم كافةً بما أنزل الله فمهمة الأمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله، حتى تتمكن من تطبيق منهج الله في الدنيا قاطبة. والأرض في نظر الإسلام قسمان:

١ ـ دار الإسلام: وهي البقعة من العالم التي يطبق فيها منهج الله، وإن لم يكن سكانها جميعهم من المسلمين.

٢ ـ دار الكفر: وهي المنطقة من الأرض التي لا تحكم بما أنزل الله ولو كان سكانها كلهم من المسلمين. وليست دار الكفر دار حرب، وإنما دار الحرب جزء من دار الكفر، أعلن إمام المسلمين عليها الحرب وأجاز فيها إجراء أحكام دار الحرب. وتنقلب دار الكفر إلى دار حرب إذن بإذن الإمام، تحت ظروف خاصة منها: الوقوف في وجه الدعوة، والضغط على المسلمين، أو تعريف الأعداء على ثغراتهم، وإعلان الحرب عليهم و. . . المسلم الموجود في دار الكفر عليه واجب الدعوة، والعمل على نشر الفكرة، والتمكين للمسلمين، ولا يهاجر أحد من هؤلاء المسلمين القاطنين في دار الكفر إلا في حالات:

١ ـ إذا احتاج المسلمون إليه في دار الإسلام ـ إن وجدت ـ حاجة فردية أو عامة، وتقتضي الدعوة وجوده هناك.

٢ ـ إذا كان لا يستطيع إقامة شعائره في دار الكفر، فعليه آنذاك الهجرة والالتحاق بدار الإسلام ليعيش بين المسلمين، يقوم بدوره، ويؤدي عبادته هناك، فأي شيءٍ يمكن للمسلم أن يتساهل فيه سوى العبادة فإنه لا يمكنه أن يتركها أبداً، أو يتساهل فيها، وهو مسلّم بقواه العقلية. أما ما يقوله بعض ضعاف النفوس: من كتم الإيمان والتقية فيجب ألا يصل إلى العبادة أبداً، ولا إلى ما حرم الله، أو تحريم ما أحل وإحلال ما حرم، فإن وصل إلى ذلك فهو الكفر البواح.

٣ ـ إذا طرد من دار الكفر وأجبر على المغادرة[١].

ولا ترتبط الأمة بالأصل، فالخلاف يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين متباينتين، فلقد حدث الخلاف على أشده بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم المشركين وأفراد قبيلتهم قريش، وحتى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى سيفان أحدهما بيد الأب والآخر يحمله الابن، فرَّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر. وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين، أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وينتمون إليه مهما كانت الخلافات واهية والأسباب بسيطة، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلا وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة، والذين يرتبطون بأصل واحد بل وقبيلةٍ واحدةٍ، وعشيرةٍ واحدةٍ، وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأمة باللغة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحِّد بينهم فكر خاص، فإذا كان الأصل هو الذي يجمع انطبق عليها ما انطبق عليه، وما الصراع الدائم الذي يقع بين أبناء الشعب الواحد إلا نتيجة خلاف العقيدة. ويمكن أن نلحظ على مدى تاريخنا أن أفراداً نلتقي وإياهم بالأصل، ونفترق بالفكر والعقيدة. نجتمع بطرفٍ من اللسان الذي أوجده الأصل، ونختلف بطرف آخر وهو ما فرقتنا فيه العقيدة، فيبقى الطرف الثاني هو الغالب، وهو المتميز باستمرار، فمنذ صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتفق مع الفرس بالمبدأ، لذا حرص على تعلم لغتهم، ويترجم من الرومية وإليها من يعتنق النصرانية ويلتقي مع الروم بالعقيدة، لذا حرص على تعلم لغتهم،

---

(١) ولا يترتب على هذا التعريف في الوقت الحاضر أي إجراء عملي متعلق بالأحكام الفقهية لدار الإسلام أو دار الكفر؛ لأن الطرف الأول غائب اليوم عن سطح الأرض، والعلاقة متبادلة بين الطرفين. فإن غاب طرف اقتضى غياب الأحكام بالنسبة إلى الطرف الثاني. ومن المعلوم أن المواقف العملية لتطبيق الأحكام الفقهية بدار الإسلام ودار الكفر إنما يتخذها إمام المسلمين، وليست عامة أفراد المسلمين بصفتهم الفردية.

واستمر ذلك حتى عُرِّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وحتى في العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في بلاد الشام الشمالية ممن كانوا يجيدون لغتها وهم ممن كانوا يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم بالعقيدة بعد تعلم لغتها، على حين لم يفعل ذلك من لا يتصل بها بفكرة، ولا يلتقي معها بمبدأ، ولو فرضت اللغة الفرنسية على الشعب لما أقبل عليها أحد سوى أبناء دينها، اللهم إذا استثنينا أصحاب المصالح وأرباب التجارة، وما استعملته فرنسا في مناطق نفوذها سارت عليه إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وهولندة وروسيا في الجهات التي سيطرت عليها. إن الذين يعتنقون عقيدة أمة يحرصون على تعلم لغتها، وهذا ما نشاهده في أكثر أرجاء العالم الإسلامي، وهو أن أكثر الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية فكراً، ويتخذونها منهجاً، ويسعون في تطبيقها على أنفسهم، وعلى أسرهم، وعلى مجتمعاتهم، إنما يتعلمون العربية، ويحرصون على التحدث فيها على أنها لغة القرآن الكريم أي: لغة العقيدة التي يدينون بها، فاللغة إذن: لغة العقيدة، وليست لغة الأصل الواحد التي نشأت على أرض معينة، وارتبطت بالبشر الذين عاشوا على تلك الأرض، وتطورت معهم أو واكبت اللغة الأصل على مر الزمن ـ حسب زعم بعضهم ـ.

وليس التاريخ بأكثر ربطاً للمجتمعات من اللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأمة، والأمة مرتبطة بالعقيدة، فالتاريخ يتحدث عن البشر الذين يحملون تلك العقيدة، ومن منطلق العقيدة تُرسم الخطوط العريضة للتاريخ، فالمراحل التي تطبق فيها العقيدة يراها أتباعها ما داموا من حملتها، ومن المتأثرين بها، والداعين لها، والحريصين على تطبيقها أنها مراحل شموخ وارتفاع يجب أن يقتدى بها، ويسار على نهجها، وأن رجالها مثل أعلى من الضرورة بمكان الاقتداء بهم، والتركيز عليهم لتلقين ذلك للأجيال، لترسيخ المعاني في النفوس، على حين يرون أن الفترات التي لم يطبق فيها منهج العقيدة فترات ضعف وانتكاس وتراجع وتأخر، وأن رجال ذلك الزمن لم يكونوا على مستوى المسؤولية، لذلك لم يستطيعوا أن يطبقوا ما اعتقدوا، ولا أن يسيروا على الخط الذي تفترضه عليهم عقائدهم، لذا فقد تعبوا

وأتعبوا، وسببوا ضعفاً في كيان الحكم، تأثرت الأمة بسببه، فوهنت وضعفت شوكتها، وأطمع ذلك الأعداء فيها، لذا تكون هذه الأيام في زوايا ميتة من التاريخ، ويحاولون عدم التركيز عليها والإقلال من شأنها. فالتاريخ الإسلامي لم يصل في مرحلة من مراحل قوته إلى ما وصل إليه أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده، فأول سبب الضعف بعد ذلك إنما يعزى إلى بدء الانحراف عن العقيدة التي يؤمنون بها، وعن السياسة التي سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، والتي تنبع من عقيدتهم، ومع استمرار الانحراف، وزيادة انفراج زاوية ذلك الانحراف زاد الضعف، حتى إذا زاد الانفراج استسلمت الأمة فوقعت أمام أعدائها. فسقطت بغداد عام ٦٥٦هـ بيد المغول، وسقطت غرناطة بيد الإسبان عام ٨٩٨هـ، وتجزأت بعد ذلك أشلاء الأمة، وتفرَّقت كلمة المجتمع، والتاريخ الإسلامي يُدرس في بلاد المسلمين جميعاً، وبخاصة سيرة رسول الله ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين، يدرس عند أصناف متعددين من البشر، وأجناس متغايرين تجمع بينهم العقيدة، ولا يدرس على أنه تاريخ عربي نشأ على أرض عربية، وحملت تلك الرسالة جماعة من العرب إذ لا يجمع بين تلك الأجناس والعرب جامع، ولا تربط بينهم وشيجة سوى الإسلام، ولولا ذلك لما درسوا ذلك الجزء من التاريخ.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والحضارة والثقافة وما إلى ذلك من جوانب فكلها تنبع من العقيدة التي توجهها بالشكل الذي تفرضه، وتقيِّدها بالنهج الذي ترسمه، فللبناء أسلوبه الخاص، وللزخرفة شكلها المعين، وللأفراح طابعها، وللأحزان مراسيمها، وللتعليم طريقته ومنهجه وحتى التحية، والاحتفال، والاستقبال، والسير، واللباس، وكل القضايا الاجتماعية تتدخل فيها العقيدة، وتفرض عليها صفةً خاصة، وسمةً معينة.

وأما ما عرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي، أو المصلحة الاقتصادية التي تجمع بين المجتمعات، أو العناصر التي تكون أمة، فهذا أضعف العوامل أثراً، وأقلها شأناً، حتى في العوامل التي يتبناها المنحرفون

وأصحاب المصالح، فتبقى في مستوى المصلحة فتتغيَّر معها، وتسير تبعاً لها، وتتذبذب حسبها، وما أكثر تغيرات المصلحة وتبدلاتها.

وليست هذه العوامل التي يقال عنها إنها تكوّن الأمة - باستثناء العقيدة - إلاَّ عوامل طرحت على الشعوب الضعيفة، أوجدتها الجهات الأجنبية التي فرضت سيطرتها على هذه الشعوب - كما ذكرنا - ففرضت معها آراءها، أو توجيهاتها فأخذها تلامذة الغرب وعملاؤه والمفتونون بحضارته المادية، ولا يقصد من ذلك سوى زعزعة المسلمين عن عقيدتهم، وإبعادهم عن مواقعهم التي يحتلونها.

وسنؤرخ للأمة المسلمة، بغض النظر عن الأفكار الدخيلة، والآراء المستوردة. على الرغم من سيطرتها على بعض العقول، وتسلطها على بقاع عديدة، الأمر الذي جعل هوة سحيقة بين الحاكم والمحكوم، حتى إن المتأمل من بعيد ليظن أن هذا رأي الأمة جمعاء وعقيدتها المستحدثة، وذلك بسبب سيطرة الأفكار الغريبة على هذه الأمة، والواقع أن هذا ليس إلا رأي فئة قليلة، تمكنت من السيطرة بواسطة من سبقها، فملأت الدنيا صراخاً بهذه الأفكار المستوردة.

الخلق الأول

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق على هذه الأرض مخلوقاً يكون مستخلفاً فيها، يملك زمامها، وتُطلق يده فيها، ويكشف عما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وقد سخَّر الله لهذا المخلوق كل ما في هذه الأرض، حتى يتمكن من القيام بعملية الاستخلاف المنوطة به، ولا يهمنا هنا أن يكون هذا المخلوق هو أول من وجد على الأرض أم وجدت مخلوقات أخرى قبله، أفسدت وسفكت الدماء، أم أن الجنّ هم الذين فعلوا هذه الفعلة الأمر الذي جعل الملائكة تتساءل أمام الله ـ وقد عرفت ما حدث ـ فتقول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، ولكن المهم هنا أن هذا المخلوق قد وجد، وهو آدم عليه السلام، وهو أول المخلوقات من البشر التي ننتمي إليها نحن، ونتصل بأنسابنا إليه.

ولقد كرم الله هذا المخلوق بأن وهبه العقل الذي يفكر فيه، وبه يختلف عن باقي المخلوقات، الأمر الذي يجعله باستطاعته التمييز بين الخير والشر، والنافع والضار، ويتوقع النتائج التي تؤدي إليها الأعمال التي يقوم بها، هذا التميز هو الذي يجعلنا لا نطلق عليه اسم حيوان ناطق، فالنطق أمر ثانوي فالببغاء تقلد البشر، وبعض الحيوانات يحاكي الإنسان ببعض التصرفات، ولها أصوات هي نطقها، وطريقة تخاطبها بعضها مع بعض، وأسلوب تعايشها وتفاهمها، فالإنسان إذن مخلوق عاقل، وبالعقل وحده يتميز، ويفترق عن بقية المخلوقات.

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثانيةٍ بأن خلقه على أجمل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

صورة وأكرم خِلقة، وأوجد فيه عنصر الحياء، فهو يسكن إلى أهله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، ويتوارى عن الأعين فيما يقوم به من حاجات خاصة يختلف بذلك اختلافاً بيِّناً عن باقي المخلوقات التي تمارس أعمالها الجنسية أمام أسرابها، وتقضي حاجتها أمام فصائلها.

ولقد كرَّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثالثة بأن جعله منذ بداية خلقه ساتراً عورته، ناطقاً يجيد التحدث، على عكس الصورة التي يعطيها الماديون للإنسان القديم التي تجعل أباهم وأولهم أكثر بدائية منهم، إلا أن الإنسان الذي يتكلمون عنه إنما هو الإنسان الذي تقوقع على نفسه في مجاهل الغابات، أو اعتكف في فيافي الصحراوات، وله وضعه الخاص الذي نتعرض له باختصار، ولا يستنتج من وضعه أنه صورة عن الإنسان القديم، فهذا بيئته أثرت فيه، وذلك خلقه أوجد فيه. إن أصل الإنسان واحد، وهو آدم عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[2]. ولقد كان الإنسان منذ ذلك اليوم كاملاً في شكله الجمالي، وعلى الصورة التي نراه عليها اليوم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[3]. ونلاحظ أن أجسام الفراعنة المحنطة وقد مضى عليها ما يقرب من أربعة آلاف عام، وهي بصورة إنسان اليوم لا تختلف عنه بشيء إلا بالطول الذي يتحدث عنه بعض الناس والذي كان للإنسان القديم، إذ كان العمالقة في بعض جهات جزيرة العرب، واختلفوا بأطوالهم لا بأشكالهم، ولكن انتهوا قبل ألفي عام قبل الهجرة، كما لا يختلف بتطوره الذي يتحدث عنه أصحاب نظرية التطور. وكان آدم عليه السلام منذ أول خلقه يجيد النطق، ويحسن الكلام، ويعرف التعبير ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) سورة التين: الآية ٤.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾(١).

وكان الإنسان الأول وذريته من بعده، يستر جسمه، ويخفي عورته، هكذا خلق الله آدم، ولكن الشيطان غرَّر به وبزوجه حواء حتى ذاقا الشجرة التي نهاهما الله عنها فبدت لهما سوآتهما حيث عرَّاهما الله من اللباس الذي كساهما إياه قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآها، والمعصية التي ارتكباها، وعندها جعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما، ويخصفان عليهما من هذا الورق كهيئة الثوب ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٢). فالله سبحانه وتعالى قد أنزل على الإنسان اللباس بأن خلقه لهم أو دلهم على صناعته وذلك ليواري به السوأة. ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾(٣)، وإذا فسَّر بعضهم اللباس بالمطر إلا أنه قال: الذي يُنبت القطن والكتان، ويقيم البهائم التي منها الأصواف والأوبار والأشعار.

أما الجماعات البدائية التي تعيش في مجاهل القفار والغابات اليوم فليست من مخلفات الإنسان القديم الذي يتصوره الماديون، وينقلون صورته إلى الأطفال لينشؤوا في بُعدٍ عن عقيدتهم التي تصور لهم المخلوقات على الصورة نفسها التي يرونها اليوم. لقد كانت هذه الجماعات جزءاً من أقوام رسل الله الذين بعثوا لهدايتها، فأبوا الدعوة، ورفضوا الفكرة، ووقفوا في

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣١ ـ ٣٣. (٢) سورة الأعراف: الآيات ١٩ ـ ٢٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

وجه نبيهم، وعتوا عن أمر ربهم فسلط الله عليهم من يحاربهم ويلاحقهم من مكان إلى مكان، فلو كانت هذه الجماعات منعزلة في مواطنها، متقوقعة في مواضعها من الأصل الذي وجدت فيه، لكان المعنى أن أصول البشر متعددة، وهذا ما يخالف العقيدة الإسلامية بل الديانات السماوية كلها، ولو وجدت من الأصل هناك لجاءها هاد، وإلا لما كان عليها حساب ولما حق عليها العذاب ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[1]، إذ ما من قوم إلا وجاءهم بشير ونذير. فآدم عليه السلام كان يعلم أبناءه وأحفاده التوحيد ويبلغهم دعوة الله، واستمرت هدايته، حتى كان (شيث) و(إدريس)، ثم كانت دعوة نوح عليه السلام، وهكذا فبداية الخلق لها دعاة وهداة، وفيها قول وتعبير وأسلوب، وللبشر لباس، وسترة، وأدوات تستعمل، واجتماعات يدعى لها الناس، وأحاديث تدور فيها، فمن الجماعات من هدى الله، وقبل دعوة الرسل، وسار حسب إرشاداتهم وتعليماتهم فكانوا أن استخلفوا في الأرض وعمروها حتى حين، وأخذوا من خيراتها، واستفادوا من كنوزها، حتى عتوا عن أمر ربهم، ومن الجماعات من ركب طريق الضلالة أصلاً، وسار على درب الغواية، فكتبت عليه الشقوة، وحبطت أعماله في الدنيا والآخرة، وما له من ناصرين، ووقعت في حمأة الجهل إذ ردَّت دعوة الله، فسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب، ويلاحقها ويقاتلها ويفتك بها، وهي تفر أمامه، ولكنها أينما انتقلت تراه وراءها يجتاز خلفها اليم، ويقطع الفيافي، ويرتقي المرتفعات، حتى دخلت في أماكن مجهولة، أو مناطق نائية لا تصلح لسكن البشر، فأقامت فيها، وتفرقت بطونها بين مجاهلها، وهناك ذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً، إذ أعد الله لهم عذاباً شديداً.

ولما كانت مناطقها التي وصلت إليها حديثاً لا توجد فيها حاجاتها الأساسية من طعام ولباسٍ ومأوى، اضطرت أن تتخذ مما تقدمه لها تلك البيئة من مواد، فمن أقام منها في المناطق الحارة لم يكن بحاجةٍ إلى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

اللباس فظل عارياً، وإنما ستر عورته بلحاء الشجر وأوراقه، ومن عاش منها في البلاد الباردة اتخذ من جلود الحيوانات التي وجدها هناك، واقتات بها لباساً وريشاً، وكما استفادت من موارد بيئتها في اللباس، استفادت منها كذلك في الطعام والسكن، فهذا الإنسان الذي عاش في المناطق الحارة قد عاش على جمع الثمار، والتقاط النباتات والجذور الدرنية، وسكن جذوع الأشجار، وعلى أغصانها، وبنى من أطرافها أكواخاً على فروعها، وذاك الذي عاش في المناطق الباردة قد أقام حياته على لحوم الحيوانات، واتخذ من عظامها أدوات له، وبنى من الثلج له كوخاً، يأوي إليه شتاءً، وفي الصيف من الجلود والإهاب أقام خياماً يسكن فيها، ويجمع صيده.

ولما كانت هذه الجماعات قد وجدت في أماكنها الجديدة التي حلت فيها أشجاراً غير التي اعتادت أن تراها في بيئتها القديمة، وعرفت نباتات لم تكن تعرفها من قبل، وتعرضت لحيوانات لم تكن تتعرض لها في السابق، لذا فقد أطلق كل بطن من القبيلة على هذه الأشياء أسماء خاصة يعرفها هو لا سواه، ويدعوها بها دون غيره، ومن هنا لم تعد تعرف بعض البطون لغة بعضها الآخر، بل عاش كل في متاهاته، وضلَّ كل في مجاهله.

ولما كان كل فرد يعيش لنفسه ضمن أسرة صغيرة قد لا تتعدى الزوج وبعض الأولاد، ولما كان كل يسير في بقاع مجهولة ليحصل على قوته وليؤمن غذاءه، يسير وحده في أغلب الأحيان، ويرى أنواعاً عديدة لم يرها من قبل، سواء أكانت من الحيوانات أم من النباتات، فكان يعطيها صفة خاصة، أو اسماً معيناً، لا يعرفه إلا هو بالذات، فكان يصفه لأسرته بالإشارات، أو يحدثهم عنه بالصفات، فكان أن ضاعت لغة التفاهم فيما بينهم، وسادت لغة الإشارات والأصوات، أو بعض الكلمات التي يعرفها بطن من قبيلة، وأقلها ما تعرفه القبيلة كلها.

وظلت حالة هذه الجماعات إلى هذا العصر تعيش منعزلة في بقاعها عن العالم، مبتعدة في مناطقها عن بقية الشعوب، متقوقعة على نفسها، فنشأت عندها مع الزمن عادات خاصة وتقاليد تنفرد بها عن غيرها، ينظر إليها بعض الناس الآخرين على أنها نوع من البساطة الموغلة في التأخر حتى لتقترب من صفات بعض الحيوانات التي تعيش مجاورة لها، أو كل

منها يقترب من الآخر في مسكنه، ويسابقه في مرتعه وتسلقه على الأشجار، ومن كان منهما أمهر افترس الآخر، ومن كان أكثر قدرة على الحركة أو أسرع في عدوه اتخذ من الآخر وجبة طعام شهية له، فملأ بها بطنه بحيث لا يستطيع بعدها المشي إلا ببطء؛ لأنه لا يعرف متى يحصل على وجبة ثانية، فقد تطول به الساعات حتى يظفر بصيد.

وإذا كانت تلك الجماعات التي يسمونها بدائية لأنها تعيش على درجة من البساطة في مأواها ولباسها، في عاداتها وطعامها، فإن هناك جماعات أخرى تعيش بين أهل الحضارة ولكنها موغلة في البدائية في تفكيرها أكثر من تلك بكثير، ولو أنها تلبس الرياش وما يكتسيه أهل المدن من حُلل، وتتغذى بأنواع الطعام وما اعتاد عليه أهل الحضارة من غذاء، وتسكن القصور وأحسن الأبنية التي أشرف عليها كبار المهندسين، فالبدائية في التفكير أشد مرارة من البدائية في اللباس أو السكن، إذ أن هناك أناساً يلبسون كما نلبس، ويأكلون كما نأكل، ويسكنون حيث نسكن، ولكنهم لم يخرجوا من دائرة رسمها حولهم طفل صغير بعصا يعبث بها ويلهو، ويبقون فيها ما شاء لهم تفكيرهم أن يبقوا حتى يفتحها لهم غيرهم بخطٍ أو بإشارة.. إن هؤلاء لأشد بدائية ولو كانوا في ثياب المدنية، ومن هذه الجماعات من احتفظ بأفكار البدائية عنده ممزوجة بالأساطير والخرافات، إذ لا يزالون يقدسون الحيوانات وبخاصةِ الأبقار، فيتبركون بروثها، ويدّهنون ببولها، إذا وقفت إحداها بالطريق تعطلت حركة المرور، ويزيد الأمر على ذلك فكل المخلوقات مقدسة في نظرهم، إذ في أرواحها كنه التقديس وجوهره، وإن الأعضاء التي تسبب الإنجاب والتواجد هي مصدر إيجاده، لذا أقيمت لها المعابد، وأوجد لها أماكن خاصة بها تمثل فيها هذه الأعضاء مجسمة، وليست هذه المجموعة كبقية الشعوب البدائية. قليلة العدد، صغيرة الحجم، معزولة في رقعة من الأرض، مجهولة بين أمم العالم، بل هي مئات الملايين، تحتل أراضي واسعة، وتسكن بقاعاً ذات أهمية، ولها مركزها بين دول الأرض. ومن هذه الجماعات من كان مسلماً، فعندما حدثت خلافات في المجتمع الإسلامي أيد طرفاً، وتطرف في حبه حتى عبَدَ إمامه، ثم اعتقد

أنه حلّ بالقمر أو حلّ بالشمس، وكانت عقيدته مجموعة أمور باطنية مستمدة من اليهودية، والفارسية المجوسية، والأساطير الإغريقية، والفلسفات النظرية، ثم انكفؤوا على أنفسهم وسط مجتمعهم يظهرون الإسلام ويبطنون غير ما يبدون، ويحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم من بعض الطيبات، ويحلون لأنفسهم ما حرم الله عليهم من النساء، إذ يعدون أن المرأة لا دين لها، بل هي سلعة تباع وتشترى، وتقدم وتهدى، ويتاجر بها، وهي الواسطة المبررة للوصول إلى الغاية، وهؤلاء ليسوا بالقلة أيضاً، إذ يزيدون على المليون، ويقبعون في مناطق جبلية. ومن هذه الجماعات من عبد إلهاً شخصاً، وأدخل في عقيدته النظريات الفلسفية، وانكفأ على نفسه يبرر الأعمال التي يقوم بها، وهذه الجماعة لا تقبل في عدادها جديداً، إذ أن الباب قد أغلق ـ حسب رأيهم ـ. كما أن هناك جماعات كبيرة تعتقد أنها شعب الله المختار، وليس عليها في الأميين من سبيل، ولا وزر عليهم بما يفعلونه مع الآخرين، وأن ديانتهم قد اقتصرت على أتباعها ولا مجال لغيرهم. ولكن هذه الجماعات من بدائيي الفكر لا يسميها الماديون بدائية، وذلك لأنهم يشتركون وإياهم في الجاهلية بالبعد عن العقيدة الصحيحة، ويجتمعون وإياهم على الضلالة والفساد وارتكاب المنكرات، الأمر الذي يدل على أن الماديين في جاهلية، إذ يلتقون وبدائيو الفكر على صعيد واحد، على حين يسمون بدائيي المسكن واللباس بدائيين، لأنهم لا يجتمعون وإياهم في المفاسد، لأن البدائيين منعزلين عنهم، بعيدين عن اللقاء بهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأوقعهم في حمأة الجهل. فضلّ هؤلاء بعقولهم، وتاه أولئك في مواطنهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأضلهم الله باتباعهم أهل البغي، فعبدوا الإنسان وألّهوه، أو قدّسوا الحيوان وأنزلوه منزلة الإله.

إذن يعيش اليوم في العالم أنموذجان من الجماعات البدائية، الأول منهما بدائي في طرق حياته يعيش في بيئات واسعة منعزلة، والثاني منهما بدائي في طرق تفكيره يحتك مع الماديين ويشاركهم في أعمالهم، ويدعمهم في السيطرة على بلاد كثيرة، ويستفيدون منه في تسلّطهم، ويكونون معاً أداة في تحكم الجاهلية.

خطوط عريضة

وجد آدم عليه السلام على أغلب الظن في جنوب غربي آسيا، وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال، وإن كانت هناك آراء تقول: إنه وجد في الهند، وأخرى تنادي بأنه كان في أول أمره في شمالي العراق.

وبدأ البشر يتكاثر في منطقة الخلق الأول، ويزداد عددهم بسرعة، ومن هذا المكان بدأ الانتقال إلى مختلف الجهات، فعمرت البقاع القريبة من الجزيرة إذا عددناها البقعة الأولى للمخلوق الأول، فتعددت بذلك الشعوب، واختلفت اللغات تبعاً للبيئات التي وجدوا فيها، وكانت من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل شعب رسولاً منهم يبلّغهم أوامر ربهم، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمور تفرضها العقيدة، وكان كل رسول يتحدث بلسان قومه حتى يمكن تبليغهم الدعوة، فآمنت جماعات وكفرت أخرى، وبذا تشكلت الأمم وافترقت.

ولما كانت المناطق المأهولة هي الجزيرة العربية وما حولها؛ لذا كانت الرسل في هذه البقاع، إذ بعثت لأقوام هذه الأراضي، ومن هنا نرى أن الرسل الذين نعرفهم لا يتعدون هذه الجهات، وخاصة هذه المناطق التي كانت أكثر سكاناً من غيرها مثل العراق وفلسطين ومصر، إضافة إلى جزيرة العرب، أما المناطق الأخرى فلم تكن آنذاك معمورة ليبعث الله فيها رسلاً، وإن وجد فيها قلة من البشر فإنما هم من الذين فرُّوا إلى تلك النواحي، وهم من أقوام الرسل الذين ذكرنا، ولذا فإن الدعوة تكون قد وصلت إليهم عن طريق رسلهم الذين بعثوا إليهم في مناطقهم الأولى التي كانوا فيها قبل أن يفرّوا، وبهذا ينطبق عليهم الحساب، ويحق عليهم العذاب ما دام الله قد

بعث إليهم رسلاً ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١].

هذا إضافة إلى الأنبياء الذين كانت مهمتهم هداية البشر دون أن يكلّفوا بحمل رسالة، وعدد هؤلاء كبير جداً، ولا نعرف إلاّ عدداً قليلاً منهم، وربما وجد عدد منهم في وقت واحدٍ، وفي منطقة واحدة، هؤلاء الأنبياء وأولئك الرسل باستثناء آخرهم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام كانت مهمتهم خاصة بأقوامهم لا تتعداها، أو بجماعات منها لا تزيد عليها، لذلك كانت رسالاتهم متعلقة بتلك الأقوام، وعندما تتنزل رسالة عامة فلا بدّ من أن تنسخ كل ما قبلها، وهذا ما كان من رسالة سيد البشر إذ نسخت كل ما قبلها.

لقد سادت الجاهلية كل المدة التي كانت قبل الإسلام إلاّ في أوقات قليلة وفي مناطق محدودة، إذ أنه لم يؤمن بدعوة الأنبياء إلا أفراد قلة من جماعتهم وأقوامهم، ونتج عن هذا أمور كثيرة منها: إن الله قد أهلك هذه الأقوام التي لم تؤمن بما جاء به الأنبياء والرسل، فمنهم من أُغرق، ومنهم من خُسف بهم الأرض، ومنهم من دمرت الريح ديارهم، ومنهم من أمطرتهم السماء بمطرٍ من سجيل، وجاءت بعد هؤلاء الطاغين أقوام أخرى، فبُعثت إليهم الرسل حتى إذا فعلوا ما فعل سابقوهم، كان مصيرهم شأن أولئك الذين سبقوهم، وهكذا.

ولما كان دور الرسل في الحكم ضعيفاً، لذا لم تكن لتتنزل عليهم آيات فيما يتعلق بالحكم والتشريع والقانون تخص سوى قومهم، وهكذا فقد خلت الرسالات السابقة لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين من أي أثر عامٍ للحكم. فرسالة سيدنا موسى عليه السلام كان فيها بعض التشريعات، إذ أن سيدَنا موسى قد كان بمنزلة الحاكم لبني إسرائيل، وحكمه نافذ فيهم، قائم عليهم، إلاّ أن تلك التشريعات كانت خاصة ببني إسرائيل؛ لأنه لم تتعد سيطرته هذا القوم من البشر.

استبد الملوك والمتنفذون والطغاة بشعوبهم، وسخّروهم لأعمالهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، فأقاموا لهم الأبنية بالإكراه، وأنشؤوا لهم المشروعات، وبقيت هذه المنشآت آثاراً عدّها المعاصرون حضارات على

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

الرغم من أنها لم تكن لتحمل أي معنى إنساني، بل كان ظلم الحكام واستبداد الطغاة هو الذي يحمل الناس على العمل في هذه الأبنية، وذهبت آلاف البشر ضحية في كل مركز بناء خدمة لمستبد، أو طاعة لطاغية.

ووضع الملوك والحكام قوانين خاصة من أجل تسيير شؤون شعوبهم، وما كانت هذه القوانين لتخدم سوى مصالح المسؤولين، ولذا فهي بتغيُّرٍ دائم، تتبدل مع تبدل الحكام، وهكذا شأن القوانين الوضعية باستمرار ليس لها صفة الدوام، ولا تخدم سوى الذين وضعت في أيامهم كمسؤولين، ولذا لا نستطيع أن نعدها أبداً جوانب حضارية مهما سما الفكر فيها، حيث لا تخدم الرعايا، ولا مصالحهم؛ لأنها لم توضع أصلاً لهم، وإنما وضعت للحكام.

واستخفَّ أصحاب السلطة بأقوامهم فخضعت لهم، وعبدتهم من دون الله، وغالباً ما كان هؤلاء المتنفذون يستفيدون من أصحاب النفوذ وأصحاب المال الذين يمارسون الضغط السياسي والاقتصادي على المحكومين، ويظهرون الخضوع أمامهم للحاكم، فما يكون من المستضعفين إلاَّ أن يقلدوهم، ويصدقون ما يقوله الكبار عندما يرون أصحاب النفوذ المالي وذوي السلطة يقومون بأعمال العبادة، وإذا ما جاءهم رسول من عند الله، اشتركوا جميعاً في تكذيبه واستنكار ما جاء به ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

أما الشعوب فقد كانت في حالة من التعب الشديد، إذ أنهم إضافة إلى عبادتهم للحكام كانوا يعبدون قوى الطبيعة، وفي كل مكان قوى خاصة. فالشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار الكثيفة، والمناطق الرهيبة، والرعد، والبرق، والسحاب كل هذه قوى تُعبد، وتُقام لها المعابد، وكل منطقةٍ تختلف آلهتها بعضها عن بعض. وكذلك وُجدت الأصنام، وأغلب الظن أن هذه الأصنام كانت أسماء رجال صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٥.

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أيضاً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولكنها لم تعبد حتى ضاعت معرفة الأشخاص عن هذه الأنصاب، وهؤلاء الرجال الصالحون كانوا قد عاشوا قبل سيدنا نوح، عليه السلام، حيث عاش في تلك المدة رجال صالحون بالدرجة الأولى. وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم. وأصبح لكل صنم من هذه الأنصاب عبيد مخصصون له من الناس، ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً. وهذا ما ينتشر في كثير من الأزمان، إذ أن عدداً من أتباع عالم من العلماء يتصورون أنه لا يمكنهم الخشوع في عبادتهم إلاّ إذا تصوروا سيدهم أمامهم، ولربما إذا مات تصوروا ذلك، أو صوَّروا ذلك العالم، ووضعوه أمامهم، وهذه بداية عبادة الأوثان والأصنام.

وكانت الشعوب على درجة من الضعف والإهانة، فالقوي يستخدم الضعيف، والحكام يسخّرون رعاياهم جميعاً، سواءً أكان ذلك في الأعمال العامة أم في الأعمال الخاصة دون أن يستطيع إنسان أن يرفض، أو يفرّ من العمل، وإذا فكر بشيء من هذا فالموت ينتظره دون أية مسؤولية أو محاسبة من أي شخص مهما ارتفع شأنه، أو سما به الوضع، لذا فالشعوب مستضعفة مهانة لا ترتفع قيمتها في كثير من الأحيان عن مستوى الحيوانات، وإذا ما أنكر شخص تصرف مسؤول استغرب الناس هذا الإنكار، وعدوه مجنوناً أو في عقله شيء من ذلك، إذ أن الموت يقف وراء هذا الإنكار، وكذلك فالحاكم يستغرب هذا الإنكار، لأنه ما تجرأ أن يفعل أحد من قبل مثل هذا الفعل.

وعاشت الشعوب على درجة من الفقر إذ لا يستطيع رجل أن يؤمن حاجاته الأساسية، ويعدّ الحاكم أن ما يناله الفرد من رعاياه إنما هو رزق

منه يتعطف به على أفراد مجتمعه، ونتيجة الخوف من المسؤول يؤمن المجتمع بهذا إيماناً مطلقاً بالإكراه، وإن لم يكن بالقناعة، ووراثة هذه المفاهيم.

وعاشت الشعوب على درجةٍ من الجهل، ويحرص أصحاب السلطة على ترك رعاياهم بحالة من الجهل، حتى يتقبلوا كل ما يملونه عليهم من آراء وتعاليم، وما يفرضونه عليهم من عقائد ونظم وطقوس، إذ عندما يفكر المرء فإنه يرفض الخرافات، ويرفض الظلم، ويرفض الإكراه على تعاليم معينة أو أنظمة وطقوس معينة، وهذا ما يخشاه الحكام على مدى التاريخ.

لهذا كله أطلقنا على تلك الأزمنة جاهلية. إذ أن عبادة الأشخاص من الأفراد هي السائدة، والقوانين الوضعية هي التشريعات المعمول بها، وهي التي تتبدل في عهد كل حاكم بناءً على مصلحته ونظرته إلى المجتمع، ونظام السخرة هو المعترف عليه، والظلم والفوضى والبؤس هي الأمور القائمة، والإنسانية لا يوجد لها أي معنى في ذلك الزمن، وفي كل الأزمنة التي تحكم فيها الجاهلية.

ولقد تكاثر السكان في جزيرة العرب وبدؤوا ينتقلون منها إلى مختلف الجهات، وكانت حركة السير بشكل عام تأخذ أحد الاتجاهات التالية:

١ ـ **الشمال الشرقي**: باتجاه بلاد الرافدين، ومن هناك حدثت تنقلات أخرى باتجاه آسيا وأمريكا، أو تجمعات على الطريق قبل الوصول إلى بلاد الرافدين.

٢ ـ **الشمال**: باتجاه الشام، وربما توقفت جماعات عن خط السير إذا ما وجدت ما يناسبها من خصوبة الأرض أو المواقع الحصينة، ومن بلاد الشام حدثت موجات ثانية إلى جهات أخرى من مناطق البحر الأبيض المتوسط.

٣ ـ **الجنوب**: باتجاه بلاد اليمن، وكانت الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب على اتصال بإفريقية مكان مضيق باب المندب، ومن هناك تنتقل الجماعات إلى إفريقية، أو تبحر عن طريق اليَمّ إلى جهة الهند. وقد تكون منطقة من هذه المناطق الثلاث مكان دفع آخر، وربما يعود منها إلى مقرها الأول كما حدث في جنوب العراق بعد طوفان نوح إذ توزّع أبناؤه.

في بلاد الرافدين

لما تكاثر السكان في جزيرة العرب خرجت جماعة منهم واتجهت نحو الشمال الشرقي، وانتهى بها المطاف في جنوب بلاد الرافدين، فاستقرت هناك حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة، فأقامت العمران، وعملت بالزراعة، ولم تلبث أن اتخذت لها أصناماً، وعبدتها من دون الله، كآلهةٍ ترجو خيرها، وتتقي شرها، فبعث الله لها نوحاً عليه السلام، ودعاها إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا تَعبد تمثالاً ولا صنماً ولا طاغوتاً، وأن تعترف بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، فلم يقدر لتلك الدعوة أن تنجح، ولم يؤمن معه إلا قليل من قومه، على الرغم من طول الزمن إذ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان كلما انقرض جيل في حياة سيدنا نوح أوصى الجيل الذي يخلفه بألا يؤمن لنبيه، حتى إذا طالت المدة وكثر الجدال بين الطرفين ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ولما يئس سيدنا نوح عليه السلام من إيمان قومه دعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2]، فأوحى الله إليه بعد ذلك أن يصنع الفلك، لينجّي به المؤمنين، ويُغرق الباقين الذين لم يؤمنوا ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟

---

(١) سورة هود: الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]، حتى إذا انتهى العمل، وركب بها من قد آمن مع نوح، ساق الله السحاب فهطلت أمطار غزيرة، وانبجست ينابيع كثيرة، وطغى البحر في منطقة الخليج العربي، وارتفعت مياه البحر المتوسط حتى اتصلت المياه بعضها مع بعض، وامتلأت المنطقة بالمياه وفاضت، وتحركت السفينة باتجاه الشمال، حتى رست على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم، أو ما يسمى الآن جبال (أرارات) حيث كانت تلك المرتفعات تعتو على الماء، ثم انحسر البحر، وهدأت الأمطار، وغاضت المياه، وجفت العيون، وخرج ركاب السفينة منها، واستقروا هناك، وبذا انتقل مقر السكان من جنوبي بلاد الرافدين إلى المنطقة الجبلية في الشمال، وبدأت زيادة السكان مرة ثانية في تلك الجهات، وتكاثر أبناء سيدنا نوح عليه السلام الذين ركبوا معه في السفينة، فخرج سام وأبناؤه نحو الجنوب الغربي باتجاه جزيرة العرب، وتفرقوا هناك، وانطلق حام وأولاده نحو الجنوب، فقامت فئة منهم في جنوبي العراق تارة أخرى، وكانت الأرض قد جفت، وبدت خصوبة أرضها، وتابع الآخرون، فتوزعوا: فسار بعضهم نحو الجنوب الشرقي نحو الهند، واتجه الآخر نحو الجنوب الغربي حيث انتقلوا عبر مضيق باب المندب إلى إفريقية أو أن تلك القارة كانت على صلةٍ بالجزيرة، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال وبقية المناطق فعمروها، وأما ولد نوح الثالث وهو يافث فقد تحرك وذريته نحو الشرق. ومنهم من سار نحو الغرب.

استوطنت الجماعة القادمة من الشمال مع إخوتها في أرض السواد الذي كان يعرف باسم سهل (شنعار)، وسميت هذه الجماعة بالسومريين، ولما كانت الأرض هناك ذات خصوبة ومياه وفيرة فقد اشتغلوا بالزراعة ونبغوا فيها، وبنوا السدود، وشقوا الأقنية، وكتبوا بالأحرف المسمارية. وفي الوقت نفسه رجعت مجموعة من جزيرة العرب، وأقامت بجانب السومريين، وعرفت باسم الأكاديين نسبةً إلى المدينة التي أقاموها، وكانت حاضرتهم،

---

(١) سورة هود: الآيات ٣٦ ـ ٣٩.

وقد تعلم هؤلاء الزراعة من جيرانهم السومريين. ولما كثر سكان المنطقة بدأ يرتحل عنها أقوام، فسكن بعضهم في المرتفعات الشرقية من هذه البقعة، وبنوا مدينة (سوزا) واتخذوها قاعدة لهم، وأطلق عليهم اسم العيلاميين.

كان السومريون القوة الرئيسية في المنطقة قبل أن يتغلب عليهم الأكاديون، وكانت من مدنهم الشهيرة بلدة (أور) التي تقع جنوب نهر الفرات، وكانت مياه البحر تصل إلى القرب منها، وهي غرب (هور الحمَّار) اليوم.

عبدت هذه الأقوام التماثيل، وتمادت في غيِّها، فبعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام، وقد نشأ في مدينة (أور) السابقة الذكر، وكان أهلها يعبدون الكواكب كما يعبدون التماثيل، فناقشهم في هذه العبادات، وجادلهم، كما ناقش ملكهم، وتغلب عليهم جميعاً، ولكن النقاش والجدال لا يجديان مع الكفار، إذ يرون الحقيقة مرّة، والهزيمة في المناقشة أمر صعب، لذا فهم يصرون على كفرهم وعنادهم، ويحاولون أن يسخروا ممن هزمهم، ويدّعون أن كلامه بسيط، وفيه سخف وخرافة، وهذا ما يستوجب أن يكون مجنوناً فلا يؤبه لكلامه، وقد بدأ دعوته لقومه بمختلف الأساليب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟

حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]. كما جادلهم في عبادة الكواكب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2]، ولقد ناقش سيدنا إبراهيم الملك (النمرود) الذي كان يتغطرس على قومه ويستعبدهم، ويدّعي أمامهم الألوهية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[3]. وبعد هذه المناقشات والجدال والدعوة لم يؤمن من هذه الأقوام سوى لوط ابن أخي إبراهيم، وزوجه سارة ابنة عمه، عندها التفت مرة أخرى إلى أبيه يؤكد على دعوته له، ويتلطف به، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٧٠. (٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٧٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[١]. ولما هجر قومه في الله، هاجر من بين أظهرهم ومعه أخوه هاران وزوجه (ملكا)، ولم يكونا مؤمنين، وابن أخيه لوط، وقد آمن وأسلم، وزوجه سارة ابنة عمه، كما سافر معه أبوه آزر حناناً عليه وتعطفاً، وكانت جهة السفر لبلاد الشام، وكان الطريق على مجرى نهر الفرات، حتى وصلوا إلى بلدة (حرَّان) التي تقع في تركيا اليوم شمال سورية على مجرى نهر (البليخ)، وقد نسبت إلى أخيه (هاران)، وهناك مات أبوه آزر (تارخ)، فوجد هناك قوماً يعبدون الكواكب فناقشهم في عبادتهم لها، فلم ينفعهم ذلك، بل أصروا واستكبروا، واستمروا في عتوهم. لذلك غادرهم. ويبدو أنهم جماعة من أحفاد وذرية (يافث بن نوح) استقروا في تلك الناحية. واتجه نحو بيت المقدس، وكان طريقه على بحيرة قطينة، ودمشق، وقد مرَّ على بلدة (برزة) وصلَّى هناك، ولا يزال هناك مقام له مكان مصلاه، ومنهم من يزعم أنه ولد هناك. وكانت بلاد الشام قد انتشرت فيها بعض الأقوام، منها القادمة من الجزيرة العربية، ومنها الجماعات التي جاءت منفردة من العراق، وكانت قليلة فلم تعرف، حتى إذا كثرت وزاد عددها اشتهر أمرها، ومنها من قدم من الشمال من أحفاد وذرية (يافث)، وكان أكثر هذه الجماعات يعبد الكواكب، وكانوا يتجهون في عبادتهم إلى القطب الشمالي على جهة نجم القطب، وكان على أبواب دمشق القديمة هيكل لكل كوكب، على كل باب من أبوابها. وكانت نهاية مطاف رحلته إلى شرق بيت المقدس، ثم تابع إلى البلدة التي عرفت باسم (الخليل) فأقام هناك، وجاءت سنوات عجاف فارتحل إلى مصر، وأقام ابن أخيه لوط في جنوبي البحر الميت الذي يسمى بحيرة لوط، ونترك الحديث مع سيدنا إبراهيم إلى موضوع بلاد الشام.

أما الأقوام التي كانت تقيم في جنوبي بلاد الرافدين والتي بُعث إليها سيدنا إبراهيم فقد تمادت في غيِّها، وعتت عن أمر ربها، وظلمت نفسها،

---

(١) سورة مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٨.

فسلط الله عليها جماعات ظالمة مثلها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1]، فأتت مجموعات من الجنوب الغربي فرَّت من ظلم لحقها من ظالمين آخرين اشتركوا جميعاً في عتوهم عن طاعة الله وتكذيبهم أنبياءهم، أو كثر عددهم فضاقت عليهم الأرض بمرعاها، فخرجوا يبتغون أرضاً أخرى، أو أجدبت عليهم بعد إخصاب فانطلقوا يفتشون عن دار يحلّون فيها، يجدون فيها الخصب، يحصلون على الكلأ، فوصلوا إلى ديار قوم إبراهيم الخليل الأوائل (السومريون)، فقاتلوهم، وانتصروا عليهم وأقاموا مكانهم، وكانت عاصمتهم مدينة (بابل) لذا عرفت الدولة التي أسسوها باسم الدولة (البابلية) نسبة إلى حاضرتهم. وقد اشتهرت هذه الدولة بالاهتمام بالزراعة، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي وضع قوانينه التي عرفت باسم (شريعة حمورابي) وكانت الغاية منها فرض هيمنته على الدولة، وازدهارها، إلا أن هذه السلطة لا يمكن أن تدوم، وهذه القوانين لا يعمل بها إلا في العهد الذي وضعت فيه ولخدمته، فلم يلبث خلفاء حمورابي أن أصدروا تشريعات جديدة، ولما كانوا قد استمروا في عبادة التماثيل التي ورثوها من الأماكن التي انطلقوا منها، ومن الأرض التي أقاموا فيها، والتي أخذوها من السابقين لهم ـ أقوام سيدنا إبراهيم ـ ولم ينتبهوا إلى ما أصابهم من قبل، ولا إلى ما أصاب سابقيهم ولم يعودوا إلى أنفسهم، ويقبلوا دعوة الله من أنبيائهم الذين بعثهم الله إليهم، لذا فقد سلّط الله عليهم أقواماً آخرين، جاء أكثرهم من الشمال، بعضهم من الذين انتقلوا إلى تلك الجهات، وبعضهم من أحفاد يافث بن نوح، وقد عرفوا بأسماء مختلفة حسب الأماكن التي تكاثروا فيها، أو الأصول التي انتموا إليها، أو الأسر التي انتسبوا إليها، ومنهم الحثيون، والميتانيون، والآشوريون. وآل الأمر إلى الآشوريين الذين كانوا في شمالي العراق، وقد اتخذوا من مدينة (نينوى) عاصمة لهم، وهي تقع بالقرب من مدينة الموصل اليوم. وقد ضمت (نينوى) مكتبة عامرة، واستطاع الآشوريون أن يبسطوا

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

نفوذهم على جنوبي العراق وبلاد الشام، وأن يهاجموا المصريين، واشتهر من ملوكهم (سلمنصر الثالث) و (آشور بانيبال). وقد تابع هؤلاء الآشوريون عبادتهم للتماثيل والكواكب، وهو ما أخذوه من سابقيهم، واستمروا عليه، فلم يفكروا، ولم يعملوا عقولهم، ولم يتعظوا بما حلَّ بسابقيهم، ولم يقبلوا من أنبيائهم، وفي النهاية بعث الله إليهم يونس بن متى رسولاً، فدعاهم فلم يؤمنوا، فضاق بهم ذرعاً، فخرج مغاضباً، فركب سفينة في نهر دجلة، وكان يومذاك أكثر اتساعاً، وأوفر غزارة، وأكبر عمقاً، فاضطربت السفينة وماجت بهم، وقد ثقلت بما فيها، ورأوا أنهم غارقون لا محالة إذا استمر الحمل الذي عليها، لذا قرروا أن يقترعوا على من يلقوه في البحر تخفيفاً عنها وخوفاً على أنفسهم فإن ذلك خير من أن يموتوا جميعاً، فاقترعوا فكانت القرعة على نبي الله يونس، فأعادوا الاقتراع مرات ثلاث، وكانت القرعة نصيب يونس عليه السلام في كل مرة، فلما ألقي التقمه الحوت، ويبدو أن بطن الحوت كان مثقوباً، ثم لم يلبث أن خرج الحوت من النهر، ولفظ يونس إذ تضايق منه، ولم يستطع هضمه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2]. ورجع يونس عليه السلام إلى قومه فأعاد عليهم النصح والإرشاد والدعوة إلى الله، وكانوا قد ندموا على رفضهم دعوته، وأبدوا أسفهم وبخاصةً أنه وعدهم بحلول العذاب عليهم ونزوله بهم لتعنتهم وظلمهم، فأظهروا الإيمان ونتيجة هذا الندم فقد كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا إلى حين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1]، إلا أن هذه الندامة لم يرافقها العمل الصالح والتقيد بما يأمرهم به رسولهم؛ لذا كان تأجيل العذاب عنهم في الحياة الدنيا مدة ندامتهم، أما في الآخرة فلهم العذاب الذي يستحقونه بما كسبت أيديهم، ولما مرّ الزمن عليهم نسوا ما ندموا عليه، فلما عادوا إلى الظلم والطغيان واقتراف الجرائم وعبادة الأصنام، أرسل الله إليهم جماعات منهم كانوا يحكمونهم، ويخضعون لهم، ويدينون لهم بالولاء، فنهضوا في وجههم، وقاتلوهم، وفي النهاية سقطت نينوى بيد المحاربين الجدد عام ١٢٣٤ قبل الهجرة، وأصبح حكام المنطقة يعرفون باسم الكلدانيين، واتخذوا من بابل أيضاً عاصمة لهم، لذا عرفت دولتهم باسم (الدولة البابلية الثانية)، وكان من أعظم ملوكها بختنصر الذي استولى على بلاد الشام، وفتح القدس، واستباحها لجنده، ثم أخذ اليهود أسرى إلى عاصمته، وقد عرف هذا الحادث باسم (الأسر البابلي)، وقد بقي اليهود في بابل مدة سبعين عاماً، كما هاجم مصر عام ١٢٢٧ قبل الهجرة، وبنى بختنصر برج بابل المشهور، واستمرت هذه الدولة حتى غزاها الفرس عام ١١٦١ قبل الهجرة، وقضوا عليها.

بعد أن تكاثر السكان في بلاد الرافدين، بدأ عدد منهم يتحرك نحو الشرق، ويستقر في مناطق خاصة به، إضافة إلى أن الحروب المتكررة، والثورات الدائمة جعلت عدداً من السكان يغادرون ديارهم، ويفتشون عن بقاع ثانية بعيدة عن مناطق الحروب والغزوات علّهم يجدون فيها الراحة والهدوء، الأمر الذي جعل بلاد فارس تعمر بالبشر، وعندما كثر عددهم، تجمّعوا في دولة، وغزوا الكلدانيين، واحتلوا بلادهم عام ١١٦١ قبل الهجرة، كما هاجموا مصر، وسيطروا عليها، وبقوا فيها حتى جاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها.

ومن بلاد فارس انتقلت جماعات أيضاً نحو الشرق، فراراً بأنفسهم، واستقروا في أواسط آسيا وصحاريها. ومع الزمن نشأ هناك العنصر المغولي الذي أثرت على جسمه تلك الصحاري الباردة، فأخذ سمته الخاصة بها،

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٨.

وقد عاشوا هناك آمنين مطمئنين، وأمدهم الله بأموال وبنين، فتكاثروا بسرعة، وتدفقت عليهم الخيرات، فأعجبهم عددهم، وأبطرتهم النعمة، فكان غناهم ضرراً عليهم، إذ ظنوا أن لهم القوة ولهم العزة والمنعة، وأنه لا غالب لهم فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون، إذ أرسل إليهم جماعات أولي بأس شديد وقوة، فجاؤوهم من جهة الغرب، فجاسوا خلال الديار، وقاتلوا أهلها، ففروا تاركين منازلهم، لا يلوون على شيء من شدة الصدمة وهول الضربة، منهم من اتجه إلى الجنوب، ووصل إلى شبه جزيرة الملايو، ومنهم من سار نحو الشمال، وتفرّق في الصحارى الباردة في شمالي آسيا، وقد توقفت عندها أقدام خصومه لمتاهات الصحراء واتساعها وشدة بردها، ومن هذه القبائل التي لا تزال هناك قائمة إلى اليوم، ومنهم من بقي في مكانه، وهم الضعفاء الذين لا يستطيعون الفرار والانتقال.

ولكن لم تكن هذه النازلة لتعيد إلى تلك الشعوب العصاة صوابها، وترجعها إلى عقلها، بل تمادت في غيّها، وزادت كفراً وعتواً، كما بغى الذين حلّوا محلّهم، فضرب الله بعضهم ببعض، وسلّط جماعات منهم على الآخرين، فأعيدت عليهم الكرة، وحدثت الهجرات مرة أخرى تحت ضغوط أخرى، فتفرق الملاويون في الجزر، ووصلوا إلى استراليا وتاسمانيا، وجزر المحيط الهادي، وانتقل آخرون عن طريق مضيق (بهرنغ). وسواء أكان موجوداً أم كان البر متصلاً، فدخلوا أميركا، وتوزعوا فيها، فمنهم من تابع سيره نحو الجنوب حتى أضناه التعب، وأنهكه الانتقال، فاستقر في أقصى جنوبي أمريكا، أو أنه وصل إلى نهاية المطاف، ومنهم من أقام في الغابات الاستوائية، واتخذ منها ملجأ، ومن مجاهلها ملاذاً له، ومنهم من عاش في البراري في المناطق المعتدلة في أمريكا الشمالية، وبقيت جماعات منهم في المناطق الباردة في أقصى شمال أمريكا.

إن هذه الشعوب جميعها من ملاوية وآسيوية، ومن يسكن منها في أمريكا لتعود إلى أصل واحد، وتمت إلى عرق واحد ألا وهو العرق الأصفر الذي يعرف بالجنس المغولي، والذي أخذ صفاته الأصلية من وسط آسيا في صحراء منغولية، هذا الأصل الواحد والصفات المشتركة بين هذه الشعوب هي التي تحدد هذه الهجرات، وترسم طريق سيرها وخط انتقالها.

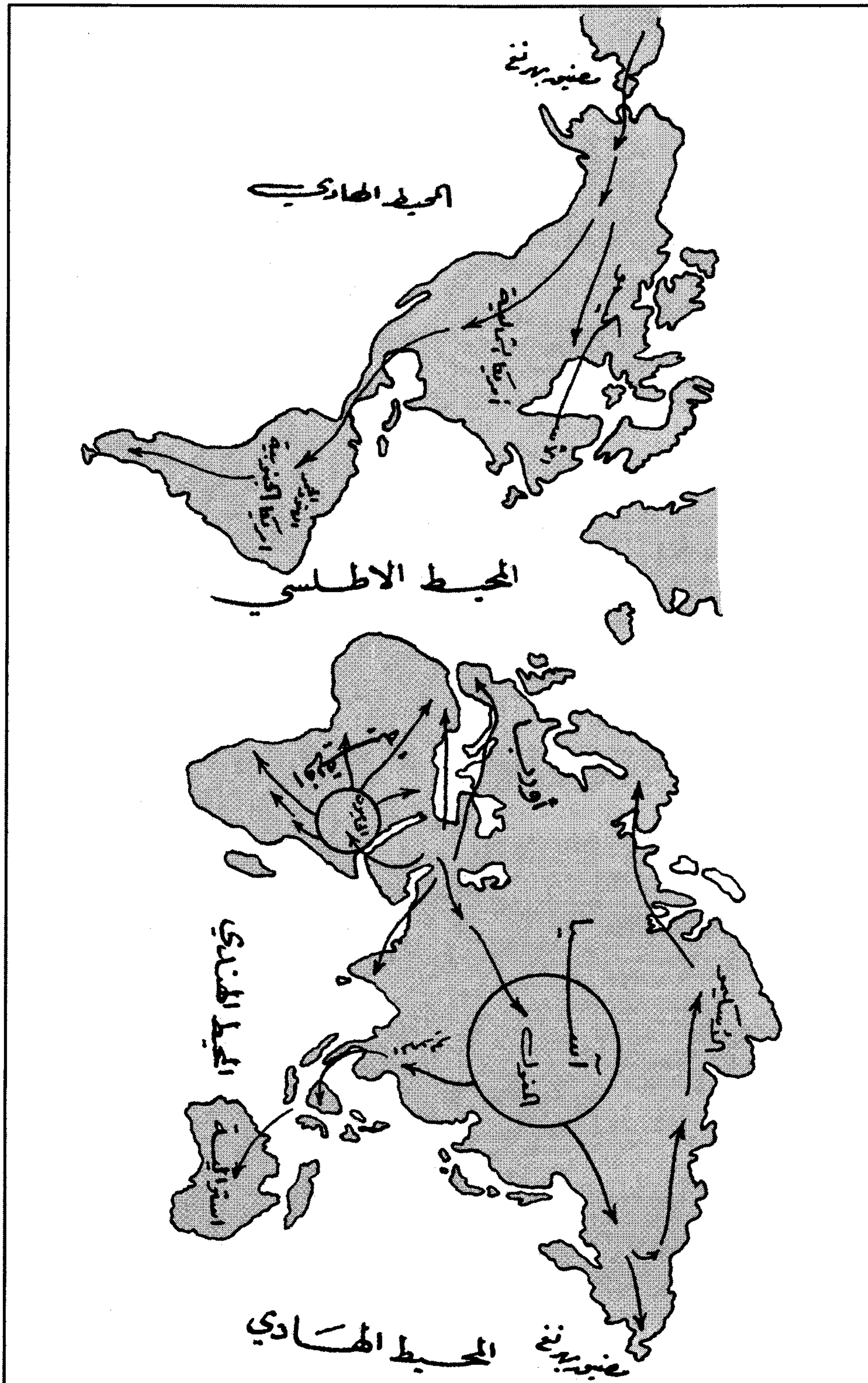
مضيق بهرنغ
المحيط الهادي
المحيط الاطلسي
المحيط الهادي
مضيق بهرنغ

في بلاد الشّام

كان البشر قد وصل إلى بلاد الشام وتوزّع فيها على شكل تجمعات قليلة أكبرها ما كان في المناطق الخصبة التي تشبه بلاد الرافدين مثل غوطة دمشق، والغوطات الصغيرة الأخرى، ومناطق الساحل، وعلى ضفاف الأنهار، وأقيمت قرى صغيرة هنا وهناك، لذا لم تقم حكومات يمتد نفوذها على مناطق واسعة، وإنما حكومات تشمل هذه القرى أو المدن الصغيرة، وهذا ناشئ أيضاً عن الوحدات التضارسية المتباينة على عكس ما هي الحال في بلاد الرافدين.

ولما وصل الخليل إبراهيم إلى البلاد الشامية، وأقام في منطقة الخليل بعد رحلته من بلاد بابل، أصاب المنطقة سنوات قحط وجوع، فهاجر إلى مصر، ومعه امرأته سارة، فلما رآها ملك تلك الديار، وكان جباراً من الجبابرة أرادها لنفسه، وأمر أن تحضر إليه، ولم تستطع هي ولا زوجها إبراهيم إلا تنفيذ أوامر حاكم البلاد، لذا طلب منها زوجها أن تقول عنه: إنه أخي ويقصد أخوها في الله، وذلك خوفاً من أن يقتله الحاكم ليصطفيها لنفسه، وعندما دخلت على الملك وسألها عن الذي معها. قالت: إنه أخي، وامتنعت عنه بإرادة الله ومشيئته، وعندما علم الملك حقيقة أمرها تركها، وقدَّم لها أمة تدعى هاجر لتخدمها، ولكنه أمرها ورجلها بالخروج من البلاد.

عاد إبراهيم عليه السلام إلى منطقته الأولى (الخليل) ومعه امرأته (سارة)، وأمتها (هاجر)، واستقروا هناك، وكان ابن أخيه لوط عليه السلام في منطقة الغور في مدينة (سدوم) جنوب البحر الميت، إلا أن جماعة من

الجبارين قد هاجموا سيدنا لوط وأسروه، وأخذوا أنعامه وأمواله، وساروا به نحو دمشق، فطاردهم الخليل وعسكر شمال دمشق في (برزة)، ثم عاد منتصراً، ومعه ابن أخيه عليهما السلام، وأقام كل في مستقره الأول.

عاش الخليل إبراهيم مع امرأته سارة عشرين عاماً، وهي عقيم لا تنجب ولداً، فقالت لزوجها: أرى أن تتزوج (هاجر) عسى الله أن يرزقنا منها غلاماً، ففعل، وحملت هاجر، ووضعت ولدها إسماعيل، إلا أن سارة لم تلبث أن دبت الغيرة فيها، ولم تعد تستطيع رؤية هاجر ولا ابنها إسماعيل، كما أن أم إسماعيل قد تعاظمت على سيدتها الأولى، لذا فقد طلبت سارة من زوجها أن يغيِّب عنها هاجر وابنها إسماعيل، وما كان عليه إلا أن يمتثل لأمر الله، فسار بهما نحو الجنوب حتى وصل إلى موضع مكة المكرمة، فتركهما هناك وعاد، وكان إسماعيل رضيعاً. فسألت (هاجر) إبراهيم قبل أن يغادرهما: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيِّعنا. وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[1].

أكلت هاجر ما تركه إبراهيم لها من طعام، وشربت ما أبقاه لها من ماء، ولما نفد أصابها وابنها الظمأ، وبدأت تسعى بين الصفا والمروة تفتش عن الماء، حتى دُلَّت على مكان بئر زمزم، فانبجس منه الماء، وبدأت تشرب ورضيعها منه، ثم سمحت لقبيلة جرهم أن تقيم معها، لتجد فيها الأنس والطمأنينة، ونشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية لغتهم.

عاد الخليل إبراهيم من رحلته إلى الحجاز وقد ترك زوجه (هاجر) وابنه إسماعيل، وأقام ثانية في منطقة الخليل مع امرأته سارة، وكان ابن أخيه لوط، عليه السلام، لا يزال في منطقة الغور في مدينة (سدوم)، وقد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

بُعث إلى قوم كانوا يأتون الفواحش، ويعدون آنذاك من أفجر الناس، وأكفرهم، وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكور من دون النساء، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن ترك الفواحش والمحرمات وما يتعاطونه من منكرات، فتمادوا في ضلالهم، واستمروا في طغيانهم وفجورهم، فأحل الله بهم العذاب الذي جاءهم من حيث لم يحتسبوا، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1]، ولا تزال بلدة (سدوم) تحت مياه البحر الميت وعلى عمق ما يقرب من عشرة أمتار.

وبُشِّر الخليل إبراهيم بولد من زوجه سارة، وذلك بعد مولد سيدنا إسماعيل بحوالي ثلاث عشرة سنة، وكانت البشرى عن طريق الملائكة وهم في طريقهم إلى قوم لوط ليهلكوهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٨٠ ـ ٨٤.

إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾[1].

نشأ إسحاق، عليه السلام، في منطقة الخليل وتزوج، وجاءه غلام سمي يعقوب، عليه السلام، وهو إسرائيل، وبعث إسحاق ليتابع دعوة أبيه إبراهيم الخليل. واضطر ابنه يعقوب أن يرحل إلى أرض حرّان في شمال بلاد الشام، وأن يقيم فيها مدة من الزمن، وأن يتزوج من هناك من ابنة خاله، ثم يعود مع أهله، وكان قد ولد له عشرة من الأولاد الذكور من عدة نساء أثناء إقامته بحران. كما ولد له اثنان آخران في الأرض المقدسة، أحدهما هو بنيامين شقيق سيدنا يوسف، عليه السلام، وقد توفيت أمه (راحيل) أثناء الوضع، ودفنت في بيت لحم.

وبعث سيدنا يعقوب ليتابع دعوة أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل، في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان يحب أبناءه الصغار يوسف وبنيامين أكثر من غيرهما عطفاً عليهما لوفاة أمهما (راحيل)، وذكرى لها، وحدثت له قصة ابنه يوسف، عليه السلام، المشهورة، وملخصها: أن إخوته قد شعروا بالغيرة والمضايقة من حب أبيهم لأخيهم يوسف أكثر من حبه لهم، لذا أجمعوا أن يتخلصوا من يوسف، وقرروا أن يلقوه في

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ ـ ٨٣.

الجب، وكان أبوهم لا يرغب في ذهاب يوسف مع إخوته خوفاً عليه وحباً له، ولكن الأولاد أقنعوا والدهم بحبهم لأخيهم، وطلبوا من أبيهم السماح له بالذهاب معهم حتى ينال حظه في اللعب والتسلية معهم، فوافق، وذهبوا بأخيهم صباح يوم، وعندما رجعوا مساءً عادوا دونه وهم يبكون، وقد ألقوا أخاهم في الجب، وادعوا أمام أبيهم أن الذئب قد أكله.

وجاءت قافلة تتجه من بلاد الشام إلى بلاد مصر، ومرّ ساقيها على الجب ليحمل الماء إليها، فوجد يوسف فأخذه، وعُدّ عبداً بيع في مصر لمصلحة رجال القافلة جميعاً، واشتراه عزيز مصر، ولم يكن له من ولد، وطلب من امرأته أن تعتني به عسى أن ينتفعوا به أو يتخذوه ابناً لهما، وشب يوسف، وكان جميلاً، فراودته امرأة العزيز عن نفسه فأبى، وادعت عندما رآهما زوجها، أنه هو قد حاول الاعتداء عليها، ومع قناعتهم جميعاً بصدقه وزعمها الباطل فقد أدخلوه السجن، وبقي فيه بضع سنين، ثم خرج عندما علم الجميع ببراءته وقدرته على إدارة الأعمال والتخطيط للمستقبل، وأصبح مديراً للإدارة المالية ومخططاً لأعمال التصدير، فكان يوزع القمح على من يأتي من البلاد المجاورة إذ كانت فيها سنوات عجاف، على حين كانت مصر تعيش برخاء وخير كبيرين.

وجاءت القوافل من بلاد الشام تبتاع الحبوب، وتقايض على بعض المنتجات، وكان من جملة من جاء مع القوافل إخوة يوسف، وقد عرفهم لأنه لم يتغير كثير من أجسامهم إذ كانوا كباراً أو على الأقل بعضهم عندما فارقهم، وبمعرفة بعضهم عرف الآخرين، أما هو فقد كان صغيراً عندما انقطع عنهم، وألقي في الجب وانتقل إلى مصر، فتغير جسمه كثيراً لذا لم يعرفوه. وبعد أن أعطاهم حاجتهم من الحنطة، وهي حمل بعير لكل فرد منهم، طلب منهم أن يأتوا في المرة القادمة مع أخ لهم من أبيهم حتى يعطوا حمل بعير إضافي، وإن لم يفعلوا فإنهم لن يحصلوا على أية كمية مهما صغرت، أو أنه لن يكيل لهم أبداً. ورجع الركب إلى أبيهم، وقصّوا عليه ما حدث، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم أخاهم

(بنيامين)، وأقنعوه بذلك بعد محاولته الرفض والامتناع، إذ ذكَّرهم بما فعلوه بشقيقه يوسف، وبعد أن وافق على رحلة ابنه مع بقية إخوته، زوَّدهم ببعض النصائح، وودَّعهم، وانطلقوا في القافلة.

ووصل إخوة يوسف إليه فأعطاهم مطلبهم، وعندما انطلقوا وقطعوا مسافة قصيرة طُلب منهم الوقوف إذ أن صواع الملك مفقود، ففتش عليه في أحمالهم فوجده في رحل بنيامين، فأعيد صاحب الرحل إليه، وكان يوسف قد عرَّف بنيامين على نفسه، ورغب في إبقائه إلى جانبه، ولذا وضع صواع الملك في رحله حتى يحصل على ما تمَّ. وشعر أبناء يعقوب أنهم قد نكلوا بما وعدوا به أباهم، وحاول كبيرهم ألا يعود حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ورجع بقية الإخوة إلى أبيهم، وحدّثوا أباهم يعقوب بما حدث معهم، فتأثر تأثراً عظيماً، وفقد بصره من شدة الحزن، وطلب منهم أن يعودوا مرة أخرى يفتشون عن يوسف وأخيه.

وذهب أبناء يعقوب إلى مصر، وتعرَّفوا على يوسف، وعفا عنهم وعما فعلوه، وشعروا هم أن الله قد فضَّله عليهم، وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ويأتوا بأهلهم جميعاً، ففعلوا. وهكذا انتقل بنو إسرائيل إلى مصر، وبقوا فيها مدة، ومات يعقوب، عليه السلام، فنقل إلى الخليل، ودفن هناك، ثم توفي يوسف، عليه السلام، فحنِّط وبقي في التابوت حتى نقله معه نبي الله موسى، عليه السلام، عندما خرج ببني إسرائيل من مصر.

وضعف أمر بني إسرائيل بعد يوسف، عليه السلام، وكانوا قد تكاثروا فيها، وقد دخلوها ولا يزيد عددهم على المائة، وبدأ الفراعنة يضطهدونهم، وخاصة أن الإسرائيليين كانوا يشيعون أن أحد أبنائنا سيخلّص مصر من ملكها، وسيقتله وذلك جزاءً لما فعله سلفه من الفراعنة الذي حاول أن يعتدي على أمنا سارة زوج أبينا إبراهيم، لهذا أمر فرعون أن يقتل كل مولود لبني إسرائيل وأن تترك الإناث، ولكن أمر الله لا يرد، وولد موسى، عليه السلام، وألقته أمه في النيل ضمن صندوق، فأخذه فرعون، ورباه عنده، ولم يكن ينجب أولاداً، فعندما كبر موسى، عليه السلام، دعا

فرعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وجادله وناقشه، فلم يؤمن فرعون. وبدأ الانقسام واضحاً بين بني إسرائيل والقبط، واختلف رجلان من الفريقين، فاستنجد الرجل الإسرائيلي بموسى على القبطي، فوكزه موسى فقضى عليه، وكادت الحادثة تتكرر، وشاع بين الناس جميعاً أن موسى قوي، ورأى القبط أن يقتلوه، فخاف على نفسه، وفرَّ إلى بلاد مدين، وبقي فيها مدة تقرب من عشر سنوات تزوج خلالها ثم عاد بأهله إلى مصر، وأثناء الطريق كلمه الله في سيناء، وبعثه رسولاً إلى فرعون وملئه، كما بعث الله أخاه هارون ليكون دعماً لأخيه.

دخل موسى، عليه السلام، مصر، وذهب وأخوه هارون إلى فرعون فدعواه إلى عبادة الله الواحد القهار، فأبى واستكبر، وجمع لهما السحرة فكان أن آمنوا، وأبعد قومه عن موسى، عليه السلام، فكان أن آمن بعضهم، وكتموا إيمانهم، وما زاد ذلك فرعون إلاً كفراً وعتواً في الأرض، وعلم أن القتال سيدور في المستقبل بين الفريقين: بنو إسرائيل والقبط. لذا أمر فرعون أن يعاد تقتيل أبناء بني إسرائيل واستبقاء نسائهم حتى يكونوا قلة في المستقبل، ولا يستطيعون قتال القبط فيما إذا فكروا بذلك، وإذا وقع فإن عدوهم سيكون قليلاً، وستكون الهزيمة دائرة عليهم. وأصاب عذاب الخزي في الحياة الدنيا فرعون وقومه، وعندها حلفوا لموسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ما هم فيه ليؤمنن بالله وبما يدعو له موسى، وليرسلن معه بني إسرائيل، فرفع الله عنهم، فعادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والاستكبار، وأعرضوا عما جاءهم من الحق، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية أخرى فعادوا إلى إيمانهم ووعدهم وعهدهم، حتى إذا كشفت عنهم أصرُّوا على بغيهم وتكررت معهم الحادثة مرات ومرات، ثم إن موسى قد دعا على فرعون وملئه، واستأذنه بالخروج مع بني إسرائيل إلى عيدٍ لهم، وما كان ذلك إلا حيلة، فخرجوا واستعاروا حلياً من القبط، وساروا متجهين إلى بلاد الشام، وبلغ ذلك فرعون فلحقهم هو وجنوده، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، وأيقنوا أنه لا بدّ من

القتال، وخاف أصحاب موسى، عليه السلام، لقلتهم، واعتقدوا أنهم مدركون، وتوقف بنو إسرائيل أمام البحر حتى اقترب منهم فرعون وجنوده، وعندها أوحى الله لنبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فانطلق بنو إسرائيل بين الفرقتين، وتبعهم فرعون وجنوده، فلما خرج بنو إسرائيل من مكان الماء كان فرعون وجنوده جميعاً في ذلك المكان ـ مكان الماء المفترق ـ فعاد الماء إلى ما كان عليه، فغرق فرعون ومن معه ولم ينج منهم أحد، وكان الجميع قد غرقوا باستثناء جثة فرعون فقد طفت على الماء، فأخذت وحنطت لتكون عبرة لكل طاغية، وكان ذلك البحر امتداداً لخليج السويس، أما بنو إسرائيل فقد خرجوا، وأصبحوا في الضفة الثانية للبحر، أي: في شبه جزيرة سيناء، أو في بلاد الشام.

دخل بنو إسرائيل مصر مع أبيهم إسرائيل (يعقوب) وعددهم لا يزيد على المائة، وخرجوا مع موسى، عليه السلام، ويزيد عددهم على الألف وستمائة رجل عدا الذراري، وبقوا هناك ما يقرب من خمسمائة عام.

ولما خرج بنو إسرائيل من البحر، وغرق فرعون وجنوده، شعروا أنهم أصبحوا في أمن، وأنهم أصبحوا أحراراً فتكبَّروا وعتوا، وبدؤوا يطالبون رسولهم موسى، عليه السلام، بمطالب تدل على أنهم قد نسوا ما كانوا عليه، ونسوا الإيمان الذي بفضله أُنقذوا من فرعون، وبسببه تغلبوا على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[1].

وكانت بلاد الشام قد أصبحت مسرحاً لانتقال أعداد من القبائل وصلت إليها، بعضها جاءت عن طريق العراق، وبعضها الآخر جاء مباشرة من جزيرة العرب، وتوزعت هذه المجموعات في المناطق الخصبة، فمن أقام في المناطق الشمالية عرف باسم العموريين، ومن استقر في الساحل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٨ ـ ١٣٩.

سمي باسم الفينيقيين، ومن عاش في الجهات الجنوبية أطلق عليه اسم الكنعانيين. وقد أقام هؤلاء السكان الجدد بجانب مجموعات سبقتهم إليها سواء أكانوا من الفلسطينيين الذين سكنوا سواحل جنوبي بلاد الشام والسهول الساحلية أم بقايا الجبابرة والعمالقة الذين كانوا متفرقين في البلاد وقلة. ولقد أشركت هذه الجماعات فعبدت غير الله، وجعلت لنفسها أصناماً خضعت لها ودانت، فأرسل الله إليها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، ولكنهم رفضوا الدعوة وتنكروا لها، وركبوا طريق الضلالة. وقد أرسل الله أيوب، عليه السلام، للجماعات التي كانت تقيم في منطقة حوران فعاش بينهم سبعين عاماً يدعوهم، فما آمن له من قومه إلا قليل، ثم ابتلاه الله ثمانية عشر عاماً آخر، وأناب أمره إلى الله، وعافاه الله فعاش سبعين سنة أخرى، يتنقل في شمال سورية على دين الحنيفية دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، إلا أن الناس قد غيَّروا بعده ما دعاهم إليه. كما بعث الله في تلك المنطقة (اليسع)، عليه السلام، وبعث لأهل إنطاكية (يس) قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾(١)، ومن هذا يبدو أن أنبياء الله كانوا كثيرين لهذه الأقوام، ولكن لا نعرف إلا بعض رسلهم وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم، وكذلك فإن عدد المؤمنين الذين صدقوا الرسل، وآمنوا بما جاءوا به إنما كان عددهم قليلاً أيضاً. كما أرسل الله نبيّه (إلياس) إلى أهل بعلبك الذين كانوا يعبدون صنماً كبيراً يدعى (بعل)، وإضافة إلى المدينة فهو رسول إلى تلك الجماعات التي كانت تعيش في منطقة البقاع الشمالية،

---

(١) سورة يس: الآيات ١٣ ـ ٢٠.

فدعاهم إلى ترك عبادة بعل، والاتجاه نحو عبادة الله تعالى الذي خلقهم، فكذبوه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[1].

كان على الكليم موسى أن يقاتل مع بني إسرائيل تلك الأقوام الموجودة في بلاد الشام، فقد وجب عليه القتال ما دام قد أصبح سيد قومه الوحيد، وصاحب الكلمة المسموعة، وعليه أن ينفذ فيهم حكم الله، وأن يقاتل من يقف في وجه الدعوة والمشركين عامة، فقال لقومه ذلك، فخافوا وجبنوا، وضعفوا عن القتال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[2] وذهب الكليم موسى، عليه السلام، لميقات ربه فعبد قومه العجل من بعده قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٢٣ ـ ١٣٢. (٢) سورة المائدة: الآيات ٢٠ ـ ٢٦.

أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾[1]، وكان الرسول موسى، عليه السلام، يذكّرهم بنعم الله عليهم، ويطلبون منه المعجزات والمطالب، ويغفر الله لهم، ويمدهم بمزيد من النعم، ومع ذلك فهم يتنكرون ويرفضون الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وقد تأثر موسى، عليه السلام، منهم أشد التأثر وكذلك أخوه هارون.

توفي الرسول هارون، عليه السلام، وبنو إسرائيل في التيه، ثم لم يلبث أن توفي أخوه موسى، عليه السلام، وقومه لا يزالون في تيههم، وبعد ذلك خرج من بقي من بني إسرائيل من سيناء مع يوشع بن نون.

خرج يوشع بن نون من التيه وسار بهم نحو بيت المقدس، وكان جيشه مقسَّماً إلى اثني عشر قسماً حسب الأسباط أبناء النبي يعقوب، عليه السلام. وكان طريقه من ناحية الأردن، وعبر النهر، وحاصر مدينة (أريحا) مدة ستة أشهر، ثم استطاع فتحها، وتوجَّه إثر ذلك إلى بيت المقدس فدخلها، وطلب من جنده أن يسجدوا لله الذي هيّأ لهم هذا الفتح العظيم، ولبث فيهم أكثر من ربع قرن ثم توفي، وبدَّل بنو إسرائيل ما قيل لهم وما أنزل الله عليهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٣. (٢) سورة البقرة: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

أثناء هذا الزمن جاءت جماعات أخرى من الجزيرة العربية تعرف باسم (الآراميين)، وتنقلت في منطقة الهلال الخصيب، ثم استقرت في سورية، وأسست عدة ممالك نتيجة استقرار كل مجموعة في مكان، وأشهر هذه الممالك: دمشق، وحماة، وسامال التي تقع شمالي البلاد، وتعدّ اللغة السريانية التي تعرف في بعض قرى القلمون من بقايا اللغة الآرامية. ولم تكن دياناتهم لتختلف كثيراً عن ديانات السابقين لهم، إذ كان لكل مدينة إله خاص، وتقدم له القرابين والضحايا والهدايا وسط ساحة مكشوفة، في وسطها تمثال وأمامه مذبح تقدم عليه الضحايا، ومن أشهر آلهتهم التي عبدوها (عشتار) والإلهة (أدونيس).

وتولى أمر بني إسرائيل بعد يوشع بن نون (حزقيل بن بوذي)، إلا أن عهده لم يطل فيهم، وتفرقت بعده بنو إسرائيل، وضعف أمرهم إذ كانوا يقتلون أنبياء الله. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فسلط الله عليهم أعداءً من الداخل إذ استبدل بالأنبياء الذين كان يبعثهم لهم ملوكاً جبَّارين طغاة يسفكون دماءهم ظلماً، ويعذبونهم قهراً، كما سلط عليهم أعداءً من الخارج إذ تغلب عليهم أهل (غزة) و (عسقلان)، وسلبوا منهم التابوت، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبَوا من أبنائهم عدداً كبيراً، وانقطعت بينهم النبوة، وانقسمت دولتهم، واستمر ذلك ما يقرب من أربعمائة عام، إذ بعث الله فيهم بعد ذلك (شمويل) نبياً، فطالبوه بالقتال وأن يعين عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت إمرته، فلما عيَّن عليهم ملكاً تولوا عن القتال قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.

دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾(١).

ولكن بني إسرائيل الذين اعتادوا على المماطلة، وكثرة السؤال، والتهرب من المسؤولية، وعدم الرضا بشيءٍ يطلب منهم الانصياع له والخضوع إليه، فلما طلب منهم نبيهم أن يخضعوا لطالوت، وجدوا في أنفسهم حرجاً إذ رأوا فقر طالوت وهم يقوّمون الأمور بالمال ولا ينظرون إلى العلم والصلاح، مع العلم أن المال أمر زائل، كما أن النبوة بينهم كانت في أبناء السبط (لاوي)، والملك في أبناء السبط (يهوذا)، فلما كان

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١.

(طالوت) من أبناء (بنيامين) استغربوا ولم يقبلوا، وإن لم يكن هذا الأمر هو المهم عندهم وإنما الرفض واللجاجة في كل شيء.

وحدث القتال في مرج الصفر جنوب دمشق بينها وبين حوران بين بني إسرائيل وبين خصومهم وذلك في الشمال كما حدث قتال في الجنوب بين إسرائيل وبين أعدائهم الذين يقودهم جالوت، واستطاع داود أن يقتل جالوت واشتهر داود بين قومه، واضطر طالوت أن يتنازل لداود عن الملك، وآتاه الله النبوة إضافة إلى الملك، وكان، عليه السلام، مجاهداً في سبيل الله يقاتل أعداء الله، كثير العبادة والطاعة، وعندما توفاه الله خلفه ابنه النبي سليمان، عليه السلام، بالملك كما بعثه له رسولاً فكان ملكاً رسولاً كما كان أبوه داود قبله.

تابع النبي سليمان، عليه السلام، الجهاد، واستطاع أن يصل إلى دمشق، كما استطاع أن يخضع اليمن، وأن يستذل حكامها من السبئيين، وأن يتزوج ملكتهم بلقيس، وأبقاها على اليمن تخضع لأمره، وقد آمن أكثر قومها، ومن قبل كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، وأنه قد جدد بناء المسجد الأقصى الذي شيَّده يعقوب بن إسحاق، عليهما السلام، أو أبوه النبي إسحاق وكان بين بناء البيت الحرام الذي شيده إبراهيم في مكة وبين البيت المقدس الذي أقامه ابنه في القدس أربعون عاماً، واستمر في ملكه عشرين عاماً، وخلفه ابنه رحبعام، وبعده عادت بنو إسرائيل إلى الفرقة والضعف.

وكان الكلدان قد قوي أمرهم في بلاد الرافدين وهاجموا بلاد الشام، وقصد ملكهم (سنحاريب) بيت المقدس، ولكنه عجز عن دخولها، إلا أنّ بني إسرائيل لم يحاولوا العظة والبعد عن المعصية، وكانوا لا يتناهون عما يجري في المجتمع من منكرات. قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1] وجاء الكلدان مرة ثانية بقيادة ملكهم (بختنصر) فجاس خلال الديار، وحاصرهم في بيت المقدس، ولما طال عليهم الحصار نزلوا على حكمه، فقتل منهم الثلث، وسبى الثلث، وترك الثلث وهم الشيوخ والعجائز، وهدّم بيت المقدس، وخرَّب الحصون، ودكّ المساجد، وحرق التوراة، وحمل الأموال، وانصرف راجعاً يسوق أمامه السبايا والأسرى والصبيان، وكان ممن أخذ معه (دانيال) أحد أنبياء بني إسرائيل، و (عُزيراً).

وجاء الفرس ـ كما ذكرنا ـ وقضوا على دولة الكلدانيين، ودخلوا بلاد الشام ومصر، وسيطروا على كثير من المناطق، وبقيت لهم الهيمنة مدة من الزمن تقرب من مائتي عام.

وكان الناس ينتقلون من بلاد الشام عن طريق البحر وخاصة الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الأخرى، وكانوا قد أسسوا لهم مراكز في كثير من تلك السواحل وخاصة الجنوبية منها، كما كانوا ينتقلون عن طريق البر، هذا بالإضافة إلى أبناء (يافث) وأحفاده الذين تحركوا لجهة الغرب، وكان هذا الانتقال وهذه الحركة باتجاه الأناضول وإلى أوروبا الجنوبية وخاصة الجهات المشرفة على البحر الأبيض المتوسط حيث الدفء والاعتدال، وبذلك فقد عمرت تلك الجهات بالبشر على حين بقيت أوروبا الشمالية خالية تقريباً، وفيما بعد صارت تنتقل إليها قبائل من حوض الفولغا ومن شمال بلاد القفقاس، ونحن نعلم أن المسلمين عندما قاتلوا الأوروبيين الذين قادهم شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤هـ، كان عدد من القبائل المقاتلة في صفوف شارل مارتل، لا يزال بدائياً إذ كانوا عراة لا يعرفون الثياب بعد. وهكذا عَمُرَ جنوبي أوروبا، وبقي شمالها حتى ذلك الزمن يكاد يكون خالياً، وأكثر المناطق عمراناً أكثر السواحل امتداداً نحو

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٧٨ ـ ٨٠.

الجنوب، ومنها شبه جزيرة البلقان، وشبه جزيرة إيطاليا، وقد كثر السكان فيهما، فأسسوا حكومات، وقوي أمرها، وخرج الإغريق ـ سكان شبه جزيرة البلقان ـ يتوسعون، ويقاتلون من يقف في وجههم، وقادهم الإسكندر الكبير المقدوني فضرب شرقاً حتى وصل إلى وادي السند. أي: دخل بلاد الشام بعد الأناضول، وبلاد مصر، وبلاد الرافدين، وفارس، ووادي السند ثم عاد، وأدركته المنية، فتقاسم قادته ما فتح، فأخذ البطالمة مصر، وكانت عاصمتهم الإسكندرية، وحكم السلوقيون الشام وكانت قاعدتهم إنطاكية، وذلك حوالي عام ٩٥٥ قبل الهجرة.

وقوي شأن الدولة الرومانية التي كان مقرها روما عاصمة إيطاليا اليوم، فورثت الإغريق في مناطق نفوذهم، وسيطرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه كان الفرس قد استقلوا بعد أفول نجم الإغريق، وعادت إليهم قوتهم، وبدأوا في صراع مستمر مع الرومان.

وجاءت مجموعة من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبل الهجرة، وأقامت في جنوبي بلاد الشام في المنطقة المشرفة على خليج العقبة ووادي العربة، واستطاعت هذه المجموعة أن تنتصر على الدويلات الكنعانية في تلك المنطقة، والدويلات الآرامية،وأن تؤسس دولة عرفت باسم: دولة (الأنباط). وقد اتخذت من مدينة (بطرا) قاعدة لها. وقد امتهنوا التجارة بعد الرعي مما قوى مركزهم الاقتصادي والسياسي، ونتيجة موقع بلادهم فقد كانوا عامل توازن بين الدولتين الإغريقيتين البطالمة في مصر، والسلوقيين في إنطاكية. ولما استطاعت الدولة الرومانية دخول بلاد الشام، ضمت إليها أيضاً هذه المنطقة ـ عام ٧٢٨ قبل الهجرة ـ بعد أن تسرب إلى الأنباط الضعف والوهن، ولقد عبد الأنباط ما عبد غيرهم من الأوثان وقوى الطبيعة، وكتبوا بالخط الآرامي، ثم تطور الخط النبطي حتى كان بصورته العربية القديمة.

وتأسست أيضاً دولة في واحة (تدمر) وسط الصحراء، دولة كانت عامل توازن بين الرومان والفرس، ونتيجة التقاء الطرق التجارية في (تدمر)

فقد أَثْرَت البلاد، وأقيمت الأبنية والقصور، ولكن الرومان استطاعوا الانتصار عليهم في النهاية وأسروا ملكتهم زنوبيا، وزالت تلك الدولة التي لعبت دوراً في الحياة السياسية آنذاك.

وفي القرن السابع قبل الهجرة وصلت إلى جنوبي بلاد الشام قبائل بني غسان الذين انطلقوا من منطقة اليمن إثر سيل العرم بعد خراب سد مأرب، وقد استقروا في منطقة (حوران) عند بئر غسان، وتركوا حياة الرعي، وأقاموا في القصور، وكانوا عمالاً للبيزنطيين يحمون لهم حدودهم ضد غارات البدو وهجمات المناذرة عمال الفرس، ولم تكن لهم عاصمة معينة، إذ كانت لهم بصرى، ثم انتقلوا إلى الجابية، وكلاهما في منطقة حوران، ثم توسع نفوذ الغساسنة نحو الشمال على أطراف البادية، فأقاموا لهم قاعدة بالقرب من مركز سادتهم في دمشق، فاتخذوا (جلق) مقراً لهم، وهي على أطراف دمشق إلى الشمال الشرقي منها، وعلى تسعة كيلومترات في الموقع المعروف اليوم باسم (حرستا)، وإذا كانت العاصمتان الأولى والثانية قد خلفوا فيها بعض الآثار نتيجة وجود الصخور، إلا أنهم لم يخلفوا في (جلق) أي أثر بسبب وجود التراب فقط، وإن كان بعض أسماء مراكزهم لا تزال قائمة إلى الآن مثل البلاط، والحدائق، والنهر الغربي الذي شقوه لتكون قصورهم بين نهرين، ولتروى من النهر الذي شقوه، ولما توسعت دمشق واقتربت من جلق اطلق اسم الجزء على الكل، وغدت جلق كلمة مرادفة لدمشق وقد كان الشعراء يزورونهم في قصورهم ومنهم النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت وهو الذي يقول:

لله در عصابة نادمتهم بجلق يوماً في الزمان الأول

وانتشرت النصرانية بينهم، وقد استمروا دعماً للرومان حتى الفتوحات الإسلامية حيث وقفوا أيضاً بجانب سادتهم الرومان، وقاتلوا المسلمين بضراوة، وإن كان قليل منهم قد ساعد المسلمين في فتوحاتهم.

أما بالنسبة إلى بني إسرائيل فقد عادوا من بابل بعد أن مات بختنصر

وضعف أمر الكلدان من بعده، وقد بقوا في أسرهم مدة سبعين سنة، ورجعوا إلى بيت المقدس، وأعادوا عمارته من جديد، إلا أن شأنهم بقي ضعيفاً، إذ كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويكذّبونهم، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر الذي يفعلونه، الأمر الذي أبقاهم في ذلة فدانوا للفرس، وخضعوا للإغريق، وحكمهم الرومان، ومن أشهر أنبيائهم في أواخر أيامهم النبي زكريا، عليه السلام، فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الصلاة والصيام والصدقات فرفضوا ذلك، وجاءهم بالدعوة نفسها ابنه النبي يحيى، عليه السلام، وحثهم على ترك المنكرات فعظم ذلك الأمر على ملوكهم أصحاب المصالح والهوى، فأمروا بقتل النبي يحيى، كما قتلوا أباه النبي زكريا.

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث نبيًا لبني إسرائيل يذكرهم بأيام الله ومنته وفضله عليهم، ويعرفهم بالجانب الروحي، وقد طغت عليهم المادة طغياناً كبيراً، وليذكروا قدرة الله العظيمة، وأنها فوق كل قدرة. وقد هيّأ الله جلّ وعلا لهذا النبي البيئة البيتية لتكون علامة الطهر والصلاح، إذ ولدت الأم التي ستنجبه في بيت الفضيلة، وتربت في مكان العبادة عند نبي من أنبياء الله وهو زكريا، عليه السلام، زوج خالتها، وقد عرفت بالعفة والطهارة والعبادة، وقد نبتت على ذلك قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[1]. هذه الفتاة هي التي اصطفاها الله لهذا الأمر الجليل، وقد حملت من غير أب، فكان ذلك

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

مفاجأة لها غريبة مخيفة ومثيرة، وهي التي لم تعرف الرجال، ولم تتصور هذا الأمر أبداً، وكان مفاجأة لقومها إذ جاءتهم بأمر غريب، وهي المعروفة بينهم بالطهر، والمشهورة عندهم بالعفة، ولما كان هذا الأمر مفاجئاً لهم اتهموها بعفتها، والأمر المستغرب يكون مدعاة لمثل هذا الاتهام. لكن الله سبحانه وتعالى المطلع على كل شيء أراد أن يفاجئهم بأمر غريب آخر يردُّ اتهامهم وينفي كلامهم، ويبين لهم قدرته ومعجزاته التي تظهر على لسان نبيه؛ هذا الطفل المولود حديثاً المهيأ لحمل الرسالة ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده دون سواه، وترك الحياة المادية والزهد فيها. وقد سألها قومها عما فعلت، وقد جاءت تحمل مولودها الحديث، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[1]. فماذا تتكلم والأمر غريب مفاجئ؟ ولم يكن لها من بدّ من أن تشير إليه، فإذا به يتكلم، وإذا بالأمر أكثر مفاجأة: مولود جديد ينطق بحكمة بالغة ولسان مبين، الأمر الذي أسكتهم، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[2] وعلى الرغم من أن بني إسرائيل قد بهتوا من كلام الفتى إلا أنهم قد أكثروا الكلام فيه وفي أمه، وكانوا يسمونه (ابن البغية)، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[3]. ولكن عيسى، عليه السلام، بعد أن تكلم وهو مولود جديد سكت حتى تكلم كما يتكلم الأطفال في سن عادية أو تقرب من السنة. وأخذ إلى مصر هرباً من هيرودس ملك اليهود، ثم رجع وهو في سن الثلاث عشرة تقريباً، وأقام في الناصرة، وبعث في الثلاثين من عمره، وعمِّد في الأردن، وجادل بني

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) سورة مريم: الآيات ٢٩ ـ ٣٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٥٦.

إسرائيل كثيراً، ووعظ كل من التقى به، وكان يشفي المريض، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وقد لازمه في دعوته الحواريون وعددهم اثنا عشر حوارياً، واختار سبعين رجلاً معهم وأرسلهم إلى قرى بني إسرائيل وإلى بلاد الجليل في شمالي فلسطين للدعوة والتبشير بعبادة الله، والزهد في الحياة الدنيا، ولما رأى ملك بني إسرائيل أن الأمر كاد يفلت من يده عمل للتخلص منه، وتآمر معه بنو إسرائيل، وشكوه ظلماً إلى حاكم فلسطين من قبل الرومان واسمه (بيلاطس)، وكذبوا عليه، ثم أمسكوه، وسلموه إلى الحاكم الروماني، فقضى عليه بالموت صلباً. ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك به، إذ شُبّه لهم غيره فصلبوه، ورفع الرسول عيسى، عليه السلام.

نزلت الكوارث وحلت البلايا بأتباع الرسول عيسى، عليه السلام، بعد ارتفاعه عن هذه الأرض، الأمر الذي جعلهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحياناً، ويستشهدون أحياناً أخرى، وهم في كلتا الحالتين لا شوكة لهم، ولا قوة تحميهم وتحمي ديانتهم، وقد كان قياصرة الروم لا يتورعون عن القتل الذريع في أتباع السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وخاصة القيصرين اللذين جاءا بعد القيصر (طيباروس) الذي عاصر السيد المسيح، وفي عهد الثاني منهما دوّن إنجيل متى بالعبرية أو بالسريانية في الحبشة، ومات متى هناك عام ٥٥٢ قبل الهجرة، ثم ترجم الإنجيل إلى اليونانية. ولم يكن الاضطهاد من قبل الرومان فقط، وإنما من قبل اليهود أيضاً الذين كان أذاهم أشد وأنكى، لأنهم يعيشون معهم، وعلى معرفة بهم وبداخلهم.

وزاد الاضطهاد والأذى في عهد نيرون عام ٥٥٨ قبل الهجرة الذي اتهمهم بإحراق مدينة روما، فتفنن في العذاب وطرقه، وفي عهده كتب مرقس إنجيله عام ٥٦١ قبل الهجرة، وكان في مصر، كما دوّن لوقا إنجيله، وفي آخر عهد نيرون سجّل يوحنا إنجيله. وفرّ في هذه المدة قسم من اليهود من بلاد الشام، وسكنوا وادي القرى، ويثرب، وخيبر، وفدك في الحجاز.

ولقي النصارى الاضطهاد في عهد (تراجان) وكثيراً من الأذى، وكذا في عهد القياصرة كلهم، وإن كان بعضهم أقل أذى وأخف وطأة، ولكن أشدهم كان (دقلديانوس) الذي انتقل إلى مصر وقتَّل الكثير منهم، وهدم الكنائس، وأحرق الكتب، وسجن الأساقفة وذلك عام ٣٧٤ قبل الهجرة، واضطر الكثير منهم في كل الدولة الرومانية أن يظهر الوثنية وأن يخفي النصرانية، الأمر الذي جعل الفكر يضم خليطاً من الديانتين، وزاد في ذلك الفلاسفة الذين استخدموا النظريات العلمية اليونانية لتهذيب الآراء الدينية، فالتحمت الفلسفة بالدين التحاماً عضوياً، ونشأ عن هذا اختلاف في الآراء بين أتباع الكنائس، ووجد قسطنطين أن يجمع بين هؤلاء المختلفين، فعقد مجمع (نيقية) عام ٢٩٧ قبل الهجرة، ولم يكن قد اعتنق النصرانية بعد، وإنما كان لا يزال وثنياً، ونشأ في المجمع خلاف كبير فرض عليهم قسطنطين الرأي الأقرب إلى فكره على الرغم من قلة أتباعه، وانقسمت الكنيسة. ووجدت المذاهب المختلفة المتباينة.

وكانت اليهودية قد انتشرت في مناطق ضيقة في جنوبي بلاد العرب، وسكن بعضهم قرى في الحجاز ويثرب، كما انتشرت في بلاد الخزر. أما النصرانية فقد انتشرت في مصر والحبشة ومنها انتقلت إلى بعض جهات الجزيرة مثل نجران، وفي بقية بلاد الشام إضافة إلى فلسطين، وبلاد الرافدين، ثم أصبحت ديانة الدولة الرومانية. أما بقية الجهات فقد كانت تسود فيها الوثنية التي تختلف بين منطقة وأخرى تبعاً لرجالاتها الذين ظهروا فيها، والذين قد يكونون من الصالحين فعبدهم من جاء بعدهم، وأقاموا لهم التماثيل، ففي الهند كان (براهما) ثم ظهر (بوذا)، وفي الصين كان (كونفوشيوس)، وظهر في فارس (زرادشت)، وكذا في أمكنة كثيرة كان ما كان في هذه البلاد وشبيهاً لها. وبقيت بلاد الشام على هذه الحال حتى جاء المسلمون إليها فاتحين.

في مصر وافريقية

ذكرنا أنه بعد طوفان نوح قد اتجه ابنه سام وبعض أبنائه، وحام بن نوح وعدد من أولاده نحو الجنوب، وقد سكن بعض أولاد سام وأحفاده في موطنهم الأول الذي كان قبل الطوفان في جنوبي بلاد الرافدين، كما توزعوا في الجزيرة العربية فمنهم من تابع السير نحو الجنوب الغربي، واستقر بعضهم في الأحقاف، وتابع آخرون طريقهم إلى أن وصلوا إلى اليمن حتى استوطنوا هناك، كما أن جماعات منهم قد ساروا من جنوب العراق مباشرة نحو الغرب حتى وصلوا إلى شمالي الحجاز فأقاموا هناك. أما حام مع أبنائه فقد غزّوا السير مبتعدين عن البلاد التي حدث فيها الطوفان، فمنهم من انتقل إلى الهند وسواء أكان عن طريق البر أم عن طريق البحر، ومنهم من انتقل إلى إفريقية وسواء أكان موجوداً مضيق باب المندب أم لا ـ كما ذكرنا ـ وعندما وصلت هذه الجماعات إلى إفريقية تفرقت هناك بعد أن جاءتهم أنبياؤهم، ورفضوا ما دعوهم إليه، وأصرّوا على عنادهم واستكبارهم، فانطلق (البوشمن) نحو الجنوب الغربي، وقد لحقهم (الهوتنتوت) يقاتلونهم، وقد سلطهم الله عليهم، وأذاق الأولين من الآخرين ظلماً وعذاباً، واندفع وراء المجموعة الثانية أيضاً (البانتو) يعملون فيهم قتلاً وتشريداً، ولم يختلف هؤلاء عن المجموعتين السابقتين في العقيدة. ولكن ليذيق بعضهم بأس بعض ذلك بما عصوا وكانوا يستكبرون في الأرض، ولم تختلف فئة عن أخرى إلاّ أن الثانية تكون أقوى أجساماً وأكثر ظلماً، ويمكن أن نلحظ هذا التفاوت في البنية حتى هذا العصر، فالبوشمن دون الهوتنتوت، وهؤلاء أقل من البانتو بسطة في الأجسام، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا

عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾[1].

وللسبب نفسه سارت مجموعات أخرى حتى دخلت الغابة الإستوائية فاختفت فيها وضاعت بين مجاهلها عن أولئك الذين يلاحقونها أولئكم هم الأقزام الذين لا يزالون يعيشون في تلك البيئة حتى الآن منذ أن رفضوا دعوة أنبيائهم فسلّط الله عليهم الزنوج من البانتو فعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً حتى ألجؤوهم إلى تلك المجاهل، فضلُّوا فيها، كما تاه سابقوهم في صحراء (كلاهاري).

وانطلقت جماعة من أولئك الذين نزلوا في شرقي إفريقية نحو الشمال الغربي وكان منهم البربر، كما سارت جماعة أخرى نحو الشمال باتجاه مجرى نهر النيل وفي واديه فأقامت في أسفله، وكان منها المصريون القدماء.

ونتيجة للبيئات المختلفة التي عاشت فيها كل جماعة فقد أثرت عليها مع الزمن، وأعطتها صفة معينة في الجسم والشكل، وسمة خاصة في الحياة الاجتماعية حتى غدت كل واحدة تتميز عن الأخرى بصفات تفرّقها بعضها عن بعض وكأنها ذات أصول متباينة، وأصبحت كل فئة منها رأس قبائل عديدة افترقت عنها وانقسمت منها.

ونتيجة ما كانت تعتقد هذه الجماعات قبل انطلاقها من مكانها الأول يوم جاءتها أنبياؤها بالحق المبين ومقاومةً منها لذلك، وكراهية للنور الواضح، وتمسكاً بما كانت تؤمن، فقد استمرت في عبادتها للأوثان، وتابعت ديانتها القديمة الوثنية بالإضافة إلى ما دخلها مما وجدته في البيئة وبما أخذته من أقوام مجاورين لها في السكن ومشابهين لها في العقيدة فقد جعل لكل جماعة ديانة خاصة بها، وإن كانت تشترك جميعاً في أنها وثنية ظالمة لنفسها.

تكاثر السكان في مصر أكثر من غيرها نتيجة خصوبة التربة والمياه

---

(١) سورة الطلاق: الآيات ٨ ـ ١٠.

الوفيرة التي يحملها نهر النيل، وكانوا على شكل قبائل تعيش على ضفاف النهر، على حين كانت الدلتا آنذاك على شكل أراض مستنقعية ينمو فيها القصب، وكان لكل قبيلة أرضها الخاصة بها، ورؤساؤها، ومعبوداتها، وطقوسها الدينية. وبسبب ما تقتضيه المشروعات العامة من بناء للسدود وشقٍّ للأقنية، فقد وجدت حكومات محلية ضمت كل واحدة منها عدة قبائل أو مجموعة من المدن، وكان لكل حكومة معبودها المعين، وجيشها الخاص بها. ودب التنافس بين هذه الحكومات، وكل منها يطمع في ضم أجزاء إليه، أو أخذ محصولات وفيرة مما عند جيرانهم، أو حماية معبودهم من أن يذل وأن يخزى، وكانت الحرب بين هذه الدول الصغيرة، وتجمعت نتيجة ذلك في دولتين إحداهما في الشمال وعاصمتها (منف)، والثانية في الجنوب وقاعدتها (طيبة) ثم توحدتا على يد (مينا).

كان حاكم مصر يعرف باسم «فرعون»، وهذا الاسم يطلق على جميع الحكام، وينتقل الحكم بالوراثة، «فرعون» ذو صلاحية مطلقة، ويَدَّعي الألوهية، ويستعبد الشعب، ويكلفه بالأعمال سخرةً، ويفعل ما يريد، ويقتل من يشاء دون حساب، وقد أجبر الفراعنة الأوائل الشعب على بناء الأهرامات لهم، فخلَّدوا بذلك ذكرهم، وسجلوا طغيانهم، ولا تزال هذه الأهرامات شاهدة على الظلم آنذاك، والبناء يلعن من أشاده على ظهور أبناء الشعب وجماجم الرجال ويقول: بناء قام على ظلم لا يسمى حضارة لأنه لم يشعر أحد آنذاك بسعادة، وإذا لم يشعر الناس بالسعادة والطمأنينة فليس هناك من حضارة مهما بقي من آثار ومهما بقي من عمران، وفي هذه الأيام وصل الخليل إبراهيم إلى مصر مع امرأته سارة، وأراد فرعون اصطفاء سارة لنفسه، ولكن الله أنقذها منه، وطلب فرعون منهما مغادرة مصر، وأعطاهما (هاجر) خادمة لسارة.

إن الظلم لا يمكن أن يدوم، والقسوة لا يمكن أن تستمر، وصبر الناس لا بدّ من أن ينفد، وتحمّل الأذى له حدود، فقد ثار الناس على حكامهم، وعمت الفوضى، وعادت التجزئة إلى البلاد، الأمر الذي ساعد الرعاة من البلاد الشامية أن يأتوا إلى المنطقة، وأن يصبحوا فيها ملوكاً،

وقد عرفوا باسم (الهكسوس). وفي أيامهم جاء يوسف، عليه السلام، إلى مصر ثم استقدم أباه، وإخوته، وأهله إليه فعاشوا فيها حتى خرجوا منها فيما بعد مع موسى، عليه السلام، وكان هؤلاء الرعاة يعرفون شيئاً من دين إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويميزهم القرآن عن بقية حكام مصر باسم الملوك، على حين يطلق على غيرهم اسم الفراعنة.

لم يكن ملوك الرعاة بأفضل من الذين حكموا قبلهم إذ ورثوا عنهم الاستبداد، وأخذوا عنهم الظلم، وتعلموا منهم استعباد الناس، والاستكبار في الأرض، وبعث الله إليهم يوسف بن يعقوب، عليه السلام، نبياً ورسولاً، ولكن الهوى والمصلحة أعمتهم عن تقبل الحق. فلما اتهمت امرأة العزيز يوسف، عليه السلام، وثبتت براءته، وظهرت خيانتها وكذبها، ومع ذلك فقد أدخلوه إلى السجن ظلماً وزوراً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[1]. ودعاهم يوسف بن يعقوب إلى الحق، ولكن لم يقبلوا منه، وشكّوا فيما جاءهم به، حتى توفاه الله فتنبهوا إلى ما كان يقوله لهم، وقالوا لن يبعث الله بعده أحداً كي نسير معه، تمهيداً لأنفسهم حتى لا يؤمنوا لأحد ولو كان رسولاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ولما لم يرعوا ملوك الرعاة، ويقبلوا الحق الذي جاءهم به يوسف، عليه السلام، سلّط الله عليهم جماعات أكثر منهم ظلماً فأذاقوهم مرّ العذاب، فأذلوهم، واستضعفوهم، وبدؤوا يقتلون الرجال منهم، ويستحيون النساء، هؤلاء الطغاة هم من سكان وادي النيل الأصليين، إذ قام أحد القادة من الجنوب وهو (أحمس) فانتصر على الشمال وحكامهم من الرعاة، ووحّد البلاد، واستبد بالسكان، وأعطاهم الله الفرصة ليرجعوا إلى الحق، ومكنهم من أعدائهم، ووسع لهم رقعة أرضهم إذ وصلت دولتهم إلى حدود

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٤.

نهر الفرات أيام (تحتمس الثالث)، و (رمسيس الثاني) اللذين حاربا الحثيين في بلاد الشام، وانتهت الحروب بين الدولتين بصلح بعد معركة (قادش) المشهورة. ومع هذا الامتداد الواسع للدولة، والخيرات الكثيرة التي جاءتها من كل مكان، ما كانوا ليؤمنوا ويأخذوا العبرة من غيرهم، ومما حدث لأسلافهم، وبما تمَّ لخصومهم، فلم يتعظوا، بل زادتهم الخيرات بطراً، والنعمة كفراً، والعمران تكبراً، والقوة ظلماً، وأخذوا حيطة من الذين يمكن أن يخلِصوهم الحكم وهم الرعاة، لذا قرروا قتل رجالهم واستحياء نسائهم لتبقى لهم السيطرة في الأرض، والتمكُّن في البلاد، قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[1].

أرسل الله إلى هؤلاء جميعاً موسى، عليه السلام، ليكون منقذاً لهم مما هم فيه من الظلم والطغيان، ومحذراً لهم من عاقبة الأمر إن استمروا في غيِّهم وتمادوا في عتوهم، وكان فوق كل هذا من عدوهم الذين يخشون أن يقهرهم ويغلبهم على أمرهم، وقد نجا موسى، عليه السلام، من القتل، بإذن الله، وبطريقة أدت إلى أن يربيه فرعون في بيته، ويشرف عليه بنفسه ليكون له في المستقبل عدواً وحزناً، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى

---

(١) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٦.

بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

لقد نشأ موسى، عليه السلام، نشأة قوية بإذن الله، وأصبح رجلاً يُخشى بأسه، وعلم أنه ليس من آل فرعون، وإنما تربى هو عندهم، لظلمهم وقسوتهم على الرعاة عامة وبني إسرائيل خاصة، وأنه يمت بالأصل إلى بني إسرائيل الذين خافوا على ابنهم من القتل فألقوه في اليم، ولربما كان هذا العلم قد جاءه من أمه التي أرضعته واعتنت به صغيراً فكان يلقاها أو يزورها على علم من فرعون وهو لا يعلم الصلة بين موسى وأمه، ويظن أنه يقرّ لفرعون وأهله بالطاعة، وأنه يعتقد أنه منهم، فبينهم نشأ، وعندهم تربى، وبصلته مع أمه ومن يلتقي بهم عندها صار عنده ميل إلى قومه بني إسرائيل بالفطرة، وكان بعض بني إسرائيل يعرفون ارتباط موسى بهم، ولما كان الخلاف قائماً بين المصريين الأصليين وبين الرعاة، ومنهم بنو إسرائيل فإنه من المحتمل أن يحدث تماس بين الأفراد الذين يعيشون معاً في كل وقت، وأن تندلع شرارة الفتنة في كل لحظة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا

---

(١) سورة القصص: الآيات ٧ ـ ١٣.

بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾(١).

وصل موسى، عليه السلام، إلى بلاد مدين، ووجد على بعض مائها جماعة يسقون أغنامهم، ولمح امرأتين تمنعان أغنامهما من الورود إلى الماء حتى ينصرف الرعاة إذ لا تريدان الاحتكاك بهم، ووجد الأمر غريباً، فسأل الفتاتين وعرف سبب تأخرهما فأكبر فيهما العفة والحشمة، وأقبل بصورة الرجل الشهم صاحب النخوة والمروءة، وهو الذي آتاه الله القوة فرد أغنام الرعاة، ورفع الصخرة عن البئر، وهي الضخمة التي يعجز عن رفعها عدة رجال، فاستغرب القوم فعلته وقوته، ثم سقى للفتاتين غنمهما، وتركهما تسيران إلى قصدهما، وذهب هو يستظل تحت شجرة هناك، يجد الراحة، ويسبح فكره إلى الوراء وماذا خلّف في مصر؟ ولا يعرف أحداً في هذه الديار، وبينما هو كذلك إذ جاءته إحدى الفتاتين تطلب منه أن يسير معها إلى أبيها ليتعرف عليه إكراماً لما قام به..... ولم يكن له إلا ليمتثل، وسار أمامها بسبب الريح بعد أن كان خلفها... ووجد أباها.. فتعارفا، ووجده رجلاً صالحاً، وطمأنه على أنه قد وصل إلى كنف الأمان.... واستأجره ليعمل عنده ٨ ـ ١٠ سنوات مقابل أن يزوجه إحدى ابنتيه، وعمل عنده، وتم العقد.

انتهت المدة التي اتفقا عليها موسى، عليه السلام، وأبو زوجه، ذلك الرجل الصالح، فأراد أن يعود بأهله من حيث جاء من مصر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وفي الطريق بعثه الله وأمره أن يسير إلى فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ

---

(١) سورة القصص: الآيات ١٤ ـ ٢٢.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾(١).

رأى موسى عليه السلام أن المهمة صعبة فهو يخاف على نفسه من القتل في مصر، إذ كان قد قتل نفساً وفرّ منهم عندما علم أن القوم يريدون أن يقتلوه، وكذلك فهو ليس بالفصيح إذ يتلعثم أثناء الحديث، ولكن المهمة لا بدّ له من أن يقوم بها ويؤديها، فدعا ربه أن يدعمه بأخيه هارون الذي هو أفصح منه لساناً، فاستجيبت دعوته، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾(٢).

---

(١) سورة القصص: الآيات ٢٣ ـ ٣٢. (٢) سورة القصص: الآيات ٣٣ ـ ٣٥.

وسار موسى، عليه السلام، حتى دخل مصر خائفاً يترقب، ووصل إلى داره، وكلّم أخاه هارون، فوجد أنه قد أوحي إليه، وأوكل بالمهمة مع أخيه موسى، عليهما السلام، ولكنهما خافا من الذهاب إلى فرعون خشية طغيانه على الرغم مما أوحي إليهما بالاطمئنان وعدم الخوف، ولكنها النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[1]. ولقد هزتهما الآية هزاً ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ وهزت مشاعرهما، فالله الذي بيده كل شيء، ويملك نفس فرعون وغيره إن شاء أخذها في كل لحظة، إنه معهما يسمع ما يقولون وما يردّ عليهما فرعون ويرى ما يتصرف، فعليهما إذن ألا يخافا.

ذهب موسى وهارون، عليهما السلام، إلى فرعون، وكان اللقاء الأول ونأخذه من كتاب الله ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾[2]. ولما وجد فرعون نفسه عاجزاً عن الجواب أمام الحق الواضح لجأ إلى إظهار المنة والفضل على موسى في التربية والتنشئة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى

(١) سورة طه: الأيات ٤٢ ـ ٤٧.
(٢) سورة طه: الآيات ٤٨ ـ ٥٦.

رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وفي اللقاء الثاني أراد فرعون أن يظهر قوته على موسى وأخيه هارون، وأن يهدد من يفكر في الإيمان بما جاء به من قومه، وأن يسخر من قول نبي الله. . . . فجمع لذلك حشداً من الناس من أعوانه ومخلصيه وبعض وجهاء بني إسرائيل وعندما حضر الجمع بدأ فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى، عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[2]. وهذا فعل الجبابرة والطغاة إذ جاءهم الحق قالوا لمن يحمله إنه مجنون، واتخذوا طريق التهديد. وعندما جاءهم موسى بالآيات البينات قال فرعون عنه: إنه ساحر. ووجه السؤال إلى وجهاء بني إسرائيل أنه يريد أن يسير بكم ويخرجكم من أرضكم فما رأيكم؟ فما كان منهم إلا أن يقولوا له: افحص سحره مع كبار السحرة، وكان السحر شائعاً آنذاك ومنتشراً، فاستحسن فرعون هذا الرأي، وضرب موعداً لموسى ليلتقي مع السحرة، ليريه وليري الناس جميعاً أن موسى قد تعلم السحر أثناء غيابه، وهو يستعمله ليخرج بني إسرائيل من مصر.

وجاء اليوم المحدد، وَجُمِعَ الناس، وجاء السحرة، وخرج فرعون وحاشيته، وجاء موسى، عليه السلام، ووقف فرعون خطيباً في ذلك الحشد ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٨ ـ ٢٢. (٢) سورة الشعراء: الآيات ٢٣ ـ ٣٧.

تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1]. هذه المفاهيم التي تقوم عليها الجاهلية دائماً وفي كل مكان، يقوّمون الأمور بالمادة، ويقدرون الرجال بها، ويعرفون الحق بواسطتها، وأحب السحرة أن يستفيدوا من هذا الخلاف فوقف كبيرهم، فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾[2]. ووقف موسى، عليه السلام، خطيباً في الحشد ووجه كلامه للسحرة فقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾[3]. ثم تكلم السحرة فقال كبيرهم: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾[4]. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾[5]. وخاف موسى، عليه السلام، مما رأى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾[6] فبطل الباطل، وظهر الحق، واهتاج أصحاب البغي والعدوان، وألقيت الكلمات جذافاً، قال فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾[7].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٤.
(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) سورة طه: الآية ٦١.
(٤) سورة طه: الآيات ٦٢ ـ ٦٥.
(٥) سورة الشعراء: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.
(٦) سورة طه: الآيات ٦٦ ـ ٧٠.
(٧) سورة طه: الآية ٧١.

قال السحرة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾[1] لقد قتل فرعون السحرة، وبطش بالناس، فدب الخوف ووقع الذعر، ولذا لم يؤمن مع موسى، عليه السلام، إلا القليل وحتى من قومه خوفاً من فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وابتدأت المفاصلة بين المؤمنين والكافرين فسكن المؤمنون بعضهم بجانب بعض، واتخذوا بيت موسى قبلة لهم بناءً على أوامر ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

وأخذ الله آل فرعون بالسنوات العجاف، ونقص الأموال، وقلة الأثمار لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً، ولكن إذا جاءهم الخير حسبوا ذلك لحسنٍ في أعمالهم وتخطيطهم، وإذا أصابهم الشر تشاءموا وقالوا لوجود موسى بيننا، ويظن بعضهم أن هذا من قوة سحر موسى فما يزيدهم ذلك إلا عتواً في الأرض واستكباراً، ثم أرسل الله عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع لعلهم يتذكرون بهذه الآيات. فما كان لينفعهم، وإنما كلما جاءتهم آية قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يزيلها عنا فإذا تمّ آمنا بما آمنت، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل كما تريد وترغب، حتى إذا خفف الله عنهم نكثوا بعهودهم، ونقضوا ما وعدوا به، وتنكروا لما قالوا... حتى جاء أمر الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا

---

(١) سورة طه: الآية ٧٢. (٢) سورة يونس: الآية ٨٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٧.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾(١).

ووقف بجانب فرعون كل قوى الشر، وأصحاب المصالح ولو كانوا من قوم موسى، ووقف بجانب موسى، عليه السلام، كل قوى الخير ولو كانوا من قوم فرعون. وتضافرت عناصر السوء فكان يمثل الطغيان فرعون، ويمثل المصلحة هامان، ويمثل قارون أولئك الذين أبطرتهم النعمة، مع أن قارون كان من قوم موسى ولكن مصلحته اقتضت أن يكون بجانب فرعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾(٢). ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه القوى الثلاث: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾(٣). أما الذين آمنوا من آل فرعون فقد كانوا يكتمون إيمانهم خوفاً من فرعون ورهباً من سلطته، فلما كان انقسام الفريقين والمفاصلة التامة بدأ كل يأخذ صفه إما بين المؤمنين أو بين الكافرين إذ لا رابطة غير رابطة العقيدة، ولا وشيجة تقوم بين الطرفين غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥. (٢) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٣) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٦.

جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وكان فرعون يتهكم ويحاول أن يظهر سلطته وقوته وأن بإمكانه أن يفعل الكثير والمستحيل، وكان هامان يظهر أيضاً أنه ينفذ كل ما يطلبه فرعون ولو كان مستحيلاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2].

ولما كثر ظلم فرعون وقومه وحاشيته، وزاد فسادهم، ولم يرعووا مع كثرة الآيات كان لا بدّ من أن ينالهم ما نال الأقوام التي سبقتهم، فأوحى الله إلى موسى أن يسير مع بني إسرائيل باتجاه الشرق، ولحقهم فرعون وجيشه وكبار قومه، فكانت النتيجة أن غرق الظالمون بكفرهم، ونجا موسى وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[3].

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٨ ـ ٣٤.
(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) سورة طه: الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

ومع موت فرعون وأسرته وكبار قومه ضعفت الدولة، ولما يبق فيها من يتسلم الأمر، وكانت دولة الفرس قد قويت، فاتجهت نحو مصر ودخلتها بقيادة (قمبيز)، واستمر الفرس، حتى قوي أمر الإغريق، فجاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها عام ٩٥٤ قبل الهجرة، ومع وفاة الإسكندر حكم البطالمة خلفاء الإسكندر مصر، ثم جاء الرومان، وأصبحت مصر ولاية من ولاياتها، ثم انتشرت فيها النصرانية، وأضحت كنيستها خاصة، وتختلف عن كنيسة الدولة الرومانية الأمر الذي جعل بينهما خلافاً، وعرف سكانها بالقبط أو الأقباط، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام، فأنقذ السكان مما هم فيه.

في جزيرة العرب

ذكرنا أن سام بن نوح قد انحدر مع أبنائه وذريته من الجبال حيث رست سفينة أبيه، وبعد مدة من الحياة هناك اتجه إلى جنوبي بلاد الرافدين مهدهم الأول، فاستقرت هناك جماعة تكاثرت فيما بعد وعرفت باسم السومريين، على حين انطلقت جماعات أخرى وتوزعت في الجزيرة العربية، ومنهم عاد، وثمود، وجديس، والعماليق، وإذا كانت العماليق قبيلة خاصة إلا أن هؤلاء كانوا كلهم من العمالقة إذ كانت أجسامهم أكثر طولاً من الذين ظهروا فيما بعد، كما أنهم كانوا من الذين يمتد بهم العمر أكثر، ونستطيع أن نعد سكان الجزيرة قد كانوا كلهم بهذا الشكل حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة تقريباً، وإن بقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك، وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك الجسم من الطول، ولا يعمرون ما كان يعمر به أسلافهم.

وفي هذه البيئة المتشابهة في هذه المنطقة كلها، ظهرت بداية اللغة التي عرفت فيما بعد باسم (العربية)، ومنها حملت البيئة اسمها فأصبح يطلق عليها (بلاد العرب).

أما عاد فقد أقاموا في منطقة الأحقاف في الوادي الذي يعرف اليوم باسم حضرموت، وامتدوا حتى البحر، حيث تعد مدينة (الشحر) التي تقع على الساحل شرق مدينة (المكلّا) من المدن التي أقيمت على أنقاض ما أشادت عاد. وتعد قبيلة عاد أنها أول قبيلة عبدت الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة وهي (صدا) و (صمودا) و (هرا)، وكانوا أقوياء أصحاب شدة وبأس، وقد أشادوا القصور العالية فوق المرتفعات،

وأجرى الله لهم الوادي، فزرعوا الوادي وسقوا زراعاتهم، فكانت الجنات ذات الزروع والعيون، وعتوا عن أمر ربهم، فأرسل الله إليهم نبياً منهم هو هود، عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله جلّ شأنه، فردّوا ذلك، وأخذتهم العزة بالإثم، وغرّتهم قوتهم، وما شيدوا، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

وكانوا قد كثروا وزاد عددهم حتى انتشر (قحطان بن عاد) وذريته في اليمن، وأسسوا مجموعة خاصة. أما عاد فعندما عتوا عن أمر ربهم أهلكهم بريح صرصر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2].

وأما ثمود التي أقامت في الحجاز بين المدينة وتبوك في شمال وادي القرى في منطقة (العلا)، وقد كانت بعد هلاك قوم عاد، ونطقوا بالعربية أيضاً. وجعلوا أوثاناً لهم عبدوها من دون الله، فأرسل الله إليهم صالحاً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فرفضوا ذلك، وردّوا عليه كما

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٦٥ ـ ٧٢. (٢) سورة الحاقة: الآيات ٦ ـ ٨.

ردّت الأقوام الأخرى، فقالوا: مجنون، وقالوا: ساحر، وسفيه و.... وقد اجتمعت ثمود يوماً في ناديها؛ فجاءها رسول الله صالح، عليه السلام، فدعاها إلى الله، عز وجل، وذكّرهم، وحذّرهم، ووعظهم، فأرادت سفهاء القوم أن تسكته بطلب معجزة، فقالت له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة بشكل معين، وبدؤوا يضعون لها أوصافاً معينة حتى انتهوا قالوا: إن فعلت ذلك آمنا بما جئتنا؛ وإلا فنحن على غير استعداد لأن نستمع إليك بحرف واحد، فأنت وما تشاء، فأخذ عليهم عهداً وموثقاً بما قالوا، ثم انصرف يدعو ربه، فاستجاب له، وكانت الناقة، فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾(١). ولهذه الناقة يوم تشرب فيه ماء ينبوع البلدة، وللسكان يوم يشربون فيه، ولهذه الناقة أن ترعى حيث شاءت، فآمنت جماعة من قوم صالح، واستمرت جماعة أخرى على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وقد تضايق المنكرون من أمر هذه الناقة، فاجتمعوا واتفق رأيهم على أن يعقروها، وينتهوا منها، وأغرت بعض النساء سفهاء القوم بقتل الناقة، وكان عددهم تسعة رجال قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾(٢)، وقد حسّن هؤلاء الرهط للقبيلة قتل الناقة، وأقدموا هم على عقرها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾(٣). فمكثوا ثلاثة أيام حسب ما وُعدوا، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾(٤)، وبعد هذا الموعد جاءتهم صيحة من السماء، من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، فأصبحوا جاثمين في دارهم جثثاً لا حراك فيها كأن لم يغنوا فيها. وقد فكروا بقتل صالح وتآمروا على ذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٢) سورة النمل: الآية ٤٨.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٧.
(٤) سورة هود: الآية ٦٥.

﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وأقام إسماعيل، عليه السلام، مع أمه هاجر في جبل (فاران) وهي أرض مكة، وانبجست مياه عين زمزم وكانت قبيلة (جرهم) قد جاءت من اليمن باتجاه الشمال، ومروا على تلك المنطقة، ووجدوا الماء، فطلبوا من (هاجر) أن تسمح لهم بالإقامة بالقرب منها على مقربة من الماء، فوافقت، ونشأ ابنها إسماعيل بينهما، وتعلم لغتهم فاستعرب، وتزوج منهم بعد أن ماتت أمه هاجر.

وكان إبراهيم الخليل يزور أهله وولده بين المدة والأخرى، يطمئن عنهم، ويتفقد الأحوال، وقد قام مع ابنه إسماعيل، عليهما السلام، في بناء البيت الحرام، وذلك في حدود عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة. وبعث إسماعيل بن إبراهيم نبياً ورسولاً لأولئك القوم الذين عاشوا بالقرب منه.

وفي الوقت نفسه كان ابن إبراهيم الخليل الآخر وهو مدين من زوجه (قنطورا بنت يقطن) يعيش في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تعرف اليوم باسم بلاد مدين، ولما كثرت ذريته من بعده، وبدؤوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها في الأرض عوجاً، أرسل الله إليهم رسولاً منهم يذكّرهم بآيات الله عليهم، وهو نبي الله شعيب، عليه السلام، ويبدو أنه كانت لهذه القبيلة منطقة واسعة تشمل الأودية المتجهة نحو خليج العقبة ونحو شمالي البحر الأحمر الذي توجد فيه اليوم ما يسمى باسم (مغاير شعيب)، وكانوا في هذه الجهة ينقصون الكيل والميزان فإذا وزنوا للناس أنقصوهم حقهم، وإذا كالوا لأنفسهم زادوا في نصيبهم. كما شملت المنطقة أرض تبوك، وسكان هذه الجهة قد عبدوا شجرة ضخمة وسط الأيكة وهي غابة معروفة هناك، إضافة إلى عدم الوفاء في الكيل والميزان. وشملت المنطقة أيضاً جزءاً من أرض معان جنوبي الأردن المعروفة الآن، وقال

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

تعالى في حق المجموعة الأولى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[1].

فرفضوا دعوته، وتنكّروا إلى ما أمرهم به، وأبوا أن يتركوا قطع الطريق، وأخذ عشر أموال المارة، ولما أصروا على بغيهم وتنكرهم للطريق المستقيم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جثثاً كأن لم يحيوا فيها، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[2]. وكذلك كان شأن أصحاب الأيكة سكان تبوك، إذ اتهموا نبيهم شعيب بالسحر، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً، فإنهم لا يخافون، ويعلمون عدم صدقه، وعدم صحة ما يقول، وأنزل الله في حقهم ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾[3]

إذن جاءت الصيحة إلى جماعة من قوم شعيب، وأصاب جماعة أخرى منهم

---

(١) سورة هود: الآيات ٨٤ ـ ٨٧. (٢) سورة هود: الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٧٦ ـ ١٨٩.

عذاب يوم الظلة. ويبدو أن شعيباً كان ذا قوة فيهم، وعصبية كبيرة أخافتهم من قتله، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾[1].

ومن أبناء عاد (قحطان) الذي أقام في منطقة اليمن وكثر نسله، فعمروا اليمن، وتزايدوا بسرعة، فكانت تخرج منهم جماعات باتجاه الشمال والشمال الشرقي، ومنهم قبيلة جرهم التي أقامت في مكة، وصاهرت إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام.

ولقد أقام القحطانيون في بلاد اليمن دولة اشتهر أمرها، وكثرت أسفارها، وركب البحر أبناؤها، وعرفت هذه الدولة باسم (معين)، وكان مركزها يقع إلى الشمال الشرقي من صنعاء، وحكمتها أسرة دامت مدة من الزمن، ثم دالت، وجاءت أسرة أخرى عرفت باسم (سبأ) نسبة إلى جدها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد اهتمت بالزراعة، وأقامت لذلك السدود، وكان من أشهرها سد مأرب، وقد عبد أهل سبأ الشمس والقمر والنجوم، ولم ينتبهوا إلى ما أصاب غيرهم من الأمم المجاورة، وكان من آخرهم (بلقيس) التي انتقلت إلى جهات الشام في عهد سليمان بن داود، عليهما السلام، حوالي العام ١٦٠٠ قبل الهجرة الأمر الذي جعل الدولة ضعيفة، فأهملت شؤون الزراعة، وضعفت العناية بالسدود، فتهدمت، وانهار سد مأرب فكان سيلاً عارماً جعل الناس يفرون من منطقتهم، ويتجهون إلى مختلف الجهات، وانقلبت الجنان الوارفة والحدائق الغناء إلى مناطق شبه جافة لا ينبت فيها إلاّ الأثل وقليل من السدر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ

---

(١) سورة هود: الآيتان ٩١ ـ ٩٢.

وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[(١)].

وذلك جزاؤهم إنهم لم يؤمنوا كما آمنت ملكتهم بلقيس، ولم يقبلوا دعوة سليمان بن داود لهم، بل لجّوا في عتوهم فظلموا أنفسهم، فعاقبهم الله بذلك العقاب المادي البسيط عسى أن يرجعوا إلى أنفسهم.

لم يخرج كل أهل اليمن من بلدانهم بعد خراب سد مأرب، وإنما بقيت جماعات منهم متفرقة متوزعة بعيد بعضها عن بعض، الأمر الذي أدى إلى ظهور عدد من الإمارات الصغيرة، تشمل الواحدة منها منطقة زراعية، تسمى (محفداً)، ويعرف سيدها باسم (ذو) أي صاحب، ويجتمع عدد منها بيد أحد (الأذواء) فتؤلف (مخلافاً)، ويسمى سيدها (قَيْل)، ولذا فقد كانت اليمن تتألف من عدد من المخاليف، التي تشكل منها النواة الأولى للدولة. وكانت منطقة (ظفار) قد بدأ يعلو اسمها، فلما انهارت دولة (سبأ) حلت محلها حكومة ظفار وعرفت باسم دولة حمير. وأصبح الملك يعرف باسم (ملك سبأ وحضرموت وذو ريدان) على حين كان أيام المعنيين يسمى ملكاً، وأيام سبأ أطلقوا على الحاكم في البداية اسم (مكرب)، ثم أعطوه لقب ملك. ولكنه في أواخر دولة حمير أصبح يعرف باسم (تبع) وجمعه (تبابعة). وازدهرت تجارة أهل اليمن في عهد كل دولها فوصلت إلى الشام شمالاً، وقطعت اليمّ باتجاه إفريقية والهند. وعندما قويت دولة الرومان رغبت في السيطرة على البحر الأحمر لتأمين تجارتها، ولكن عجزت لوجود الدولة اليمنية التي وقفت في وجه (جالوس) حاكم مصر من قبل الرومان.

وكانت القبائل التي بقيت في اليمن بعد خراب سد مأرب هي:

---

(١) سورة سبأ: الآيات ١٥ ـ ١٩.

مذحج، وكندة، وحمير، والأشعريون، وبجيلة، وأنمار، ومن أنمار كانت خثعم.

أما القبائل التي خرجت فهي الأزد واتجه فرع منها نحو عُمان، وعرفت هناك باسم أزد عمان، واتجه فرع آخر نحو جبال عسير وعرف باسم أزد شنوءة، والغساسنة الذين ذهبوا إلى الشام، والمناذرة الذين أقاموا بالعراق، والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب، وخزاعة التي حلت في مكة محل جرهم.

وكانت بعض فرق من اليهود قد جاءت لقتال العمالقة في بلاد الحجاز، فقضت على أكثرهم، وأقامت مكانهم في تيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى، ويثرب، وكانت تفرّ إلى هذه القرى بعض الجماعات اليهودية عندما تحلُّ بدارهم قارعة، أو يحلّ بهم عذاب أليم سواء أكان أيام بختنصر البابلي أم أيام الرومان، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى اليمن وأن يؤثر على آخر ملوكها وهو (يوسف ذو نواس) الذي تعصب لعقيدته، وجاء إلى نجران وكانت النصرانية قد انتشرت بين أهلها ولم يلحقها بعد التحريف الذي لحق غيرها من المناطق، فدعاهم إلى عقيدته، فأبوا عليه، فأحرقهم في الأخدود، ونجا أحدهم فسار إلى قيصر الروم فطلب منه نجدتهم ما داموا يحملون عقيدة واحدة، فأرسله إلى الحبشة، وكانت قد انتشرت بين أهلها النصرانية واتبعها غالبية السكان، فبعث النجاشي حاكم الحبشة جيشاً قوامه سبعون ألفاً وعليه (أرياط) ومعه (أبرهة الأشرم)، واستطاع هذا الجيش أن يدخل اليمن، وأن يقضي على دولة حمير، ويتخلص من ذي نواس، ويصبح (أرياط) حاكم اليمن من قبل الحبشة، إلا أن أرياط لم يلبث أن اختلف مع أبرهة الأشرم، واستطاع الأخير أن ينتصر، وأن يقضي على خصمه، وأن يصبح سيد اليمن، ولم يكن لملك الحبشة بد من أن يعترف بهذا التغيير.

بنى أبرهة الأشرم كنيسة كبيرة في صنعاء، وأسماها، (القليس)، وأخبر بذلك ملك الحبشة، وأراد أن يوجه أنظار العرب إليها ليحجوا إليها

بدلاً من بيت الله الحرام في مكة، ولكنه لم يستطع، لذا قصد الكعبة ليهدمها كي يضطر العرب للحج إلى القليس وسار بجنده، وكلما حاربته قبيلة انتصر عليها، حتى وصل إلى الطائف، فاستقبلته ثقيف، وأرسلت معه (أبا رغال) ليدله على الطريق، إلا أن الله قد ردّه بأن أرسل عليه طيراً أبابيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[1]. فهلك أبرهة وأكثر جنده، فقام ابنه (يكسوم) من بعده في اليمن، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، وبعد ذلك استعاد الحكم سيف بن ذي يزن الحميري الذي سار إلى الروم فلم ينصروه، فذهب إلى النعمان بن المنذر عامل الفرس على الحيرة، فوفد به إلى كسرى ملك الفرس فأنجده، وانتصر على الحبشة، وقتل مسروق بن أبرهة واستعاد ملكه، بعد أن حكمت الحبشة اليمن اثنتين وسبعين سنة، وبقي الفرس في اليمن حتى بعثة رسول الله ﷺ، وكان والي الفرس على اليمن هو (باذان) وقد دان بالإسلام هو ومن معه. والعرب الذين أقاموا باليمن ومن خرج منها قد عرفوا بالعرب العاربة لأنهم أصل العرب وأول الذين تكلموا العربية إذ أنهم ينتمون إلى قحطان بن عاد من نسل سام بن نوح، عليه السلام.

وأما العرب المستعربة فهم الذين ينتمون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، إذ لم يتكلم العربية حتى جاورته قبيلة (جرهم) وصاهرها، وتعلم العربية منها، وعندما توفي تولى مكانه ابنه نابت، ثم تغلبت (جرهم) على مكة وحكمتها، واستمرت في حكمها حتى بغت، وأكثرت الفساد فيها، وغدت الفاحشة في البيت الحرام، وزنا رجل اسمه (أساف) بامرأة يقال لها (نائلة)، وكانت عقوبة الله عليهما مباشرة، وكان لهما تمثالان في الكعبة، ليعتبر الناس، وكان أن أدى إلى عبادة هذين التمثالين فيما بعد. ولم يحدث قتال بين (جرهم) وبني إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم لصلة القربى بينهما ولحرمة البيت.

(١) سورة الفيل: الآيات ١ ـ ٥.

وجاءت خزاعة من اليمن إثر سيل العرم، وسكنت قرب مكة، فلما بغت (جرهم) قامت إليها خزاعة، ووقف بنو إسماعيل على الحياد، فتغلبت خزاعة، وأجلت جرهم عن البيت، فعادت إلى اليمن على حين حكمت خزاعة مكة، وفي أيامها دخلت عبادة الأصنام، إذ أن أحد حكامها وهو (عمرو بن لحي الخزاعي) قد خرج من مكة إلى الشام، فلما وصل إلى (مؤاب) من أرض (البلقاء) وجد فيها قوماً من العماليق يعبدون الأصنام، فقال لهم: وما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. كما يقال: إن بني إسماعيل وكانوا قد أبعدوا عن أمر البيت فكانوا إذا خرجوا منها أخذوا معهم حجراً من حجارتها، فإذا أظعنوا في مكان وضعوه، وطافوا به على أنه جزء من الكعبة، فانتشرت بعد ذلك عبادة الأصنام والأوثان. وهكذا بُدّل دين إبراهيم، عليه السلام، ولم يبق من أثره إلا تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفات ومزدلفة، وهدي البُدن، والإهلال بالحج والعمرة.

وتكاثر بنو إسماعيل، وكانت كنانة قد أقامت قريباً من البحر، إلى الغرب والجنوب الغربي من مكة، وقريش فرع منها، إذ أن قريش إنما هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقد استطاع أحد وجهاء قريش وهو قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ أن يجُلي خزاعة عن مكة، وأن يحلّ هو محلّها، وكان سيد قريش آنذاك. وكان لقصي من الأولاد عدد أشهرهم عبد مناف الذي كان له هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل فتقاسموا الزعامة، ونافس أمية بن عبد شمس عمه هاشماً، وكان لهاشم عبد المطلب الذي كان سيد مكة يوم حاول أبرهة الأشرم غزوها، ولما رأى أنه لا يستطيع ردّ الأحباش عنها خرج إلى ظاهر مكة وقال: إن للبيت رباً يحميه، فردّ الله كيد الأحباش في نحرهم، وأهلكهم بالطير الأبابيل ـ كما ذكرنا ـ وعرف هذا العام بعام الفيل إذ كان أبرهة يركب فيلاً عظيماً، وفي

هذا العام ولد سيد البشر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عليه أفضل الصلاة والسلام، قبل الهجرة باثنين وخمسين عاماً.

وكان أبناء إسماعيل قد توزعوا في أماكن متعددة فكل من ينتمي إلى فهر (قريش) يعد قرشياً، وهم اثنا عشر بطناً، ومن لا يتصل به من ولد إسماعيل يعد من العرب المستعربة أو العدنانيين، وليس من قريش. ومن أشهرهم: عبد القيس في البحرين، وبنو حنيفة في اليمامة، وتغلب في الجزيرة الفراتية، وعبس، وشيبان، وغطفان في نجد، وثقيف، وسليم، وهوازن في شرقي مكة وشمالها، وغفار، وجهينة، وبلى، وتنوخ على الساحل، وأشجع، وفزارة حول المدينة.

وانتشرت عبادة الأصنام في كثير من ديار العرب، فقد كان صنم (ود) في دومة الجندل (الجوف)، وهو لكلب وقضاعة، وكان (يعوق) لقبيلة مذحج، وكانت أرض الطائف مقره، وكان (نسر) في اليمن، وتعبده حمير، وهو على شكل طير، كما كان (يغوث) بأرض اليمن أيضاً، وتعبده همدان.

إذن فإن الأنبياء الذين جاءوا لسكان بلاد العرب كان عددهم قليلاً، وذلك قبل محمد بن عبد الله وهم: هود وقد كان في الأحقاف حوالي عام ٤٦٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة عاد.

صالح وقد كان في وادي القرى حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل إلى قبيلة ثمود.

شعيب وقد كان في بلاد مدين حوالي عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لشعب مدين وما حولها.

إسماعيل وقد كان في مكة المكرمة حوالي عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة جرهم.

وعلى هذا تكون جزيرة العرب قد بقيت دون نبي أكثر من ٣٤٠٠ عام دون رسول منذ أيام شعيب، عليه السلام، عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة وحتى بعثة رسول الله ﷺ عام ١٣ قبل الهجرة، ولهذا كانت بعثة محمد بن

عبد الله، عليه أفضل السلام، على فترة من الرسل، وكان الناس قد غيرّوا كثيراً وبدّلوا، فأشركوا بالله وعبدوا الأصنام، وارتكبوا المحرمات، وفعلوا المنكرات، وظلموا أنفسهم، وظلموا الناس، وما انتشر في البلاد من عقائد نصرانية ويهودية لم تفعل شيئاً، لأن أتباعها قد حرّفوا ما جاءت به من صفاء، واتبعوا أهواءهم، ولم تكن أعمالهم أفضل بكثير من أعمال المشركين الذين يعيشون معهم إن لم نقل أنها كانت تتشابه في كثير من الطقوس والشعائر، ويتفق بعضها مع بعض. هذا إضافة إلى الجهل وقبول الخرافة والإيمان بالأساطير، ولعلنا نستطيع أن نلقي أضواء على بعض جوانب حياة المجتمعات في تلك الأرض قبيل بعثة رسول الله ﷺ وباختصار شديد.

كان أكثر السكان في البوادي يحيون حياة الرعي والبداوة، ويتنقلون باستمرار بحثاً عن الماء والمرعى، ولا يجدون مجالاً للاستقرار والراحة، وحيث وجدوا ما يسعون إليه ضربوا خيامهم، وأخذوا يفتشون عن مكان سواه، وكثيراً ما يحصل التنازع بين القبائل على إحدى البقاع التي تتوفر فيها المراعي أو عرفت بوجود المياه فيها، ولكل قبيلة منازلها المعروفة وبقاعها المحدودة لا تتعداها، وتقوم الحروب بين هذه القبائل، وقد تستمر السنوات ويكون السبب تافهاً لدرجة. وتقوم حياة هؤلاء السكان على تربية الماشية وما تنتجه من ألبان ولحوم وأصواف، واقتصرت بيوتهم على الخيام لسهولة نقلها معهم حيثما رحلوا، وسهولة اقتلاعها وضربها حيثما حلوا.

وإذا وجدت المياه في مكان قامت عليه واحة، وقامت معه الزراعة، وقامت معه البلدة، وإن كان غالباً ما تكون الزراعة بأيدي العبيد إذ يأنف الناس الزراعة، ويعدونها من عمل الضعفاء كالنساء والعبيد، أما هم فمهمتهم الانتقال وراء الحيوانات أو السعي وراء الغزو، وإذا قامت البلدة شيدت دورها من المادة التي تقدمها لهم الطبيعة بسخاء، فتكون من الحجارة أو الطين، مثل (يثرب) و (الطائف)، و (حجر) وغيرها، كما أن المنطقة التي تقع على أطراف البادية توجد فيها بعض المدن التي قامت

بسبب وجود أسواق يتبادل فيها سكان البادية والحضر منتوجاتهم، الأمر الذي جعل عدداً من المدن تقوم على طول أطراف البادية، وتشتهر بالتجارة مثل مكة، ويثرب، ودومة الجندل وغيرها، وغدا لهذه المدن تجارات واسعة تتجاوز الجزيرة فكان أهل مكة يصلون إلى بلاد الشام في فصل الصيف، وإلى اليمن في فصل الشتاء، وكان سوق دائم في دومة الجندل، لذا كانت المدن هذه طريقاً للقوافل، فهي إذن سوق ومركز على طرق التجارة، كما كانت هناك أسواق موسمية، وأشهرها عكاظ التي تعقد في موسم الحج في كل عام.

ولكل قبيلة أفرادها الذين يفتخرون بها، وتدافع عنهم. وتُعد القبيلة كتلة واحدة تشترك جميعها في دفع الدية إذا اقتضى الأمر، وتحاول أن تأخذ بثأر من يصيبه مكروه من أفرادها. والفرد فيها يطيع ويسمع، فإذا رفض شيئاً لفظته القبيلة وعُدّ طريداً، وقد يأخذ طريقه إلى قبيلة ثانية يتحالف معها ويعد مولى لها. وقد تتحالف قبيلة مع أخرى لصلة في النسب أو لمصلحة ضد قبيلة ثالثة. وربما لفظت قبيلة أحد أفرادها ولم يلجأ إلى غيرها، وإنما يبقى وحيداً، يغير على القوافل، ويسطو على ما ليس له، وهذا ما يسمى بالصعلكة، وقد يلجأ الصعلوك إلى الكسب من الغارة وإعطاء من يجد أنه بحاجة ولا يستطيع الإقدام على ما يقوم به هو لضعف، أو عجز، أو صغر في السن، أو أن تكون امرأة.

ونتيجة للتفاخر بالقبيلة فقد وجدت معرفة النسب، كما وجد لكل قبيلة شاعر يفتخر بأيامها وأحسابها وفضائلها، ولها خطيبها أيضاً المدافع عنها لذا كان للأدب دور بارز في تلك الحياة، وما اشتهر من القصائد، وأجمع على قوتها علقت على جدران الكعبة فعرفت باسم المعلقات.

ومن حياتهم العامة في الانتقال بالأسفار والسير وراء القطعان، فقد رصدوا النجوم وموقع الكواكب، لتهديهم السبيل في سيرهم ليلاً، وتأثروا بالقمر الذي يمدهم بالنور ليلاً حيث يسمرون، لذا كان التقويم على أساسه، على حين أن الشمس تعطيهم الحرارة الشديدة التي تجبرهم على

البقاء في خيامهم نهاراً. وأعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال مستعملة حتى الآن مثل عطارد، والزهرة، والثريا، والفرقدان و. . . . كذلك فقد كان للقيافة ومعرفة الأثر دور كبير في حياتهم العامة.

وكان لطبيعتهم والانتقال وراء الحيوانات في سبيل المرعى والماء أثر في معرفة الجو، وترقب هطول الأمطار، ومعرفة الغيوم الممطرة منها، والخلب، وهو ما عرف بعلم الأنواء.

وأفادوا من النباتات في التداوي، وكان للكاهن أثر في حياتهم الاجتماعية ومداواة مرضاهم، هذا بالإضافة إلى النظر في النجوم، والتطير. . .

أما المجتمع فكان ينقسم إلى طبقات يأتي في رأسها شيوخ القبائل إذ كان لكل قبيلة شيخ لا تخرج القبيلة إلا برأيه، ويساعده مجلس من رجال القبيلة أكثرهم من المسنين الذين يعرفون مساقط القطر وأنساب القبائل أكثر من غيرهم هذا بالنسبة إلى البداوة، أما بالنسبة إلى سكان المدن فكان يأتي في رأس الطبقات الأغنياء وأصحاب التجارة الذين يستطيعون بأموالهم أن يشتروا العبيد، وأن تكون لهم الكبرياء في الأرض، ويضاف إلى الأغنياء الأقوياء الذين لهم عدد من الأولاد والإخوة يستطيعون بهم أن يفرضوا رأيهم، وأن تكون كلمتهم هي المسموعة، وإذا خالفهم أحد أرهبوه بالقوة وأسكتوه بالعنف، لذا يخشى جانبهم وتكون لهم السيادة. وفي مكة بشكل خاص كان يضاف إلى رأس الطبقات سدنة البيت الحرام وحجّابه وحملة لواء قريش. وقد كان قصي بن كلاب سيد قريش هو الذي بيده الحجابة والسدانة وحمل اللواء، وقد تسلم هذا بعد أن تولى أمر مكة من خزاعة، وأحدث الرفادة وهي إطعام الحجيج، والسقاية، وبنى دار الندوة. فلما كبر قصي وضع هذا الأمر في يد أكبر ولده وهو عبد الدار، إلا أن الأبناء قد اختلفوا بعد أبيهم، وانقسمت قريش فرقتين، ثم اتفقوا أن تكون الرفادة والسقاية بيد عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء ودار الندوة في بني عبد الدار، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام.

وقريش كلها كانت تفتخر على العرب، فتقف في مزدلفة على حين تقف بقية العرب في عرفة، وتجبرهم أيضاً على لباس نوع خاص من الثياب أو تستعير من قريش وإلا كان عليهم أن يطوفوا عرايا، واستمر ذلك حتى أبطله الإسلام.

أما بقية أفراد المجتمع فكانوا في الدرجة الثانية إلا إذا قوي أحدهم بماله الذي آتاه الله، أو بعبيده الذين اشتراهم فيما بعد، أو بقوته حيث يستطيع أن يمنع نفسه، حتى إن الضعيف كثيراً ما كان يخشى الفقر فيقتل ولده أو يئد ابنته خوف الفقر والعار. يضاف إلى هذا العبيد والإماء الذين كانوا يكثرون في كل مكان، وعلى كاهلهم تقوم الحياة الاقتصادية، فهم الذين يحلبون النوق والأغنام، ويزرعون إن كانوا يقيمون في الواحات، أو يسيرون وراء الحيوانات بإشراف أحد الكبار، أو يخدمون في القوافل التجارية التي يشرف عليها أحد الزعماء، وقد يمتهنون مهنة أخرى كالحدادة وغيرها وهذه المهن يأنف المجتمع العربي بأفراده أن يعملوا فيها لذا عليهم أن يوكلوها إلى الأرقاء والعبيد واستمر هذا الوضع حتى جاء الإسلام.

وكانت المرأة على مستوى من الانحطاط لا يصل بها إلى درجة الإنسانية إلا في حالات قليلة، فكان يتصرف بها كالمتاع، وكانت الدعارة في صور شتى، شأنه في ذلك شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث. وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذا طهرت من طمثها ـ: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن

يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل. والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عمن جاءها... وهن البغايا وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافه، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك».

وكانت الخمرة والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية، ومن مفاخره كذلك، وكان يجتمع الكثير من الناس من أجل شرب الخمرة ومعاقرتها، وتدار الكؤوس... وتدور الرؤوس... واستمر ذلك حتى جاء الإسلام وحرمهما.

وكانوا يفخرون بالكرم الذي يصل إلى كثير من الأحيان إلى حد الإسراف الذي يجعل المرء بعدها فقيراً معدماً خوفاً من أن ينعت بالبخل أو عدم الكرم على الأقل، وبقي ذلك حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك الإسراف.

وكان القتال بين القبائل بعضها مع بعض ضد قبيلة أخرى، وإن أشهر الحوادث الحربية هي التي دارت رحاها بين القبائل العدنانية نفسها أو بينها وبين القبائل القحطانية، وقد عرفت باسم «أيام العرب» وقد تحدث بين بطني القبيلة الواحدة، كما تم بين عبس وذبيان أو بكر وتغلب، وأشهر هذه الأيام:

١ ـ حرب الفجار التي دارت رحاها بين قيس من جهة وكنانة وقريش من جهة ثانية، وسميت بحروب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

٢ ـ يوم داحس والغبراء: وقد وقعت بين عبس من جهة وذبيان وفزارة من جهة ثانية.

٣ ـ يوم بعاث: ووقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب.

٤ ـ حرب البسوس: ووقعت بين بكر وتغلب...

هذا المجتمع كان بأشد الحاجة إلى نبي يأخذ بيده نحو الخير ويهديه السبيل، كما كان العالم كله بحاجة إلى رسول يعيده إلى الحق بعدما لعبت أهواء الجاهلية فيه فعاش بحالة من البؤس، وكانت الديانات السماوية قد حُرِّفت وبدلت وأصبحت تعاليميها الموضوعة وفق أهواء واضعيها، وكانت الرسالة الجديدة تقتضي أن تكون عامة للبشر جميعاً، ناسخة ما قبلها وهذا ما كان برسالة محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، وهو ما نجده في القسم الثاني ـ إن شاء الله ـ.

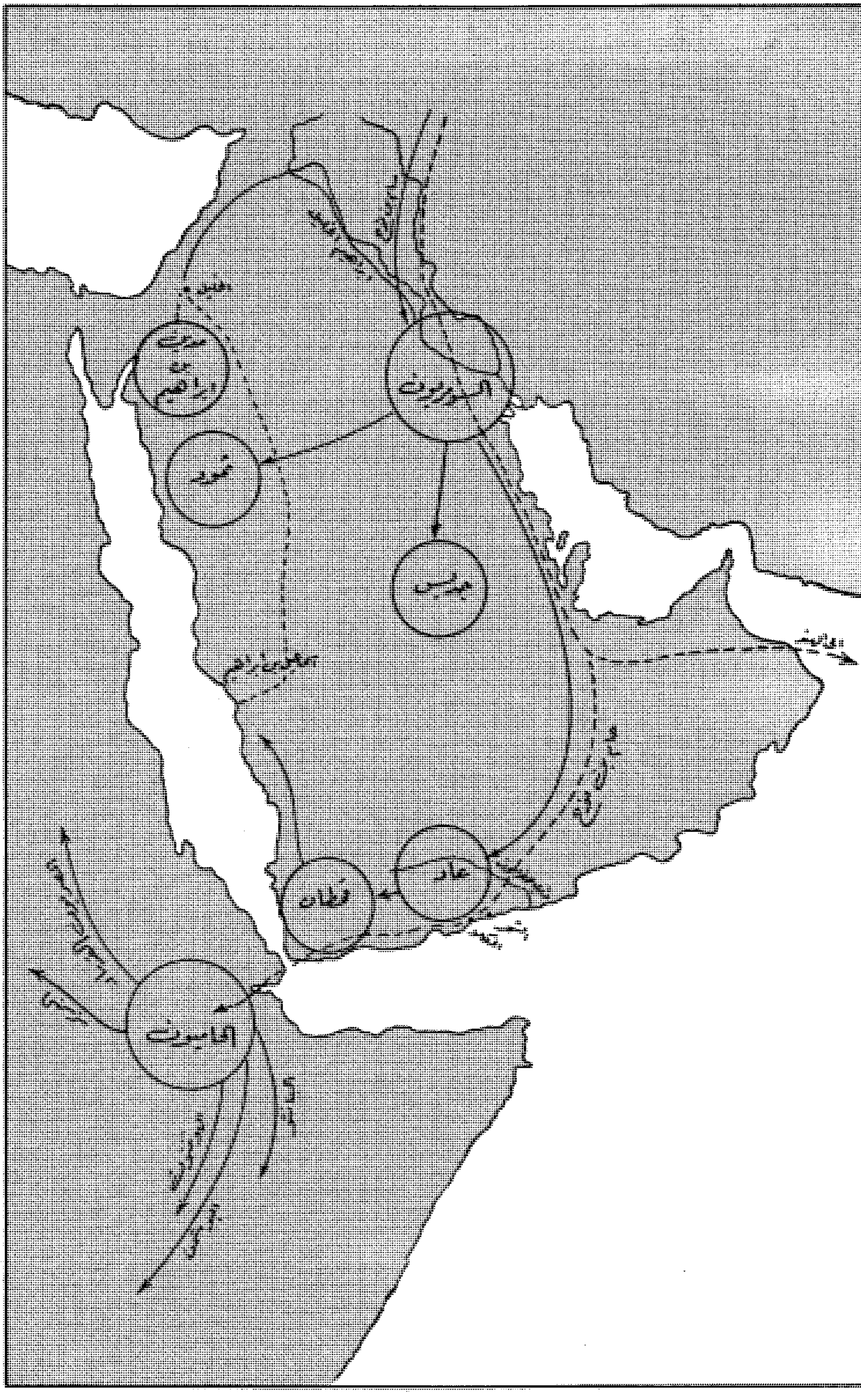
عاد
قحطان
الحاميون
ثمود
جديس

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

— ٢ —

السيرة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

[الأحزاب: ٢١]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذا هو الجزء الثاني من كتاب التاريخ الإسلامي الذي قررت وضعه - بإذن الله - ليعطي صورة واضحة عن هذا التاريخ الطويل، بعد أن عبثت به أيدي مؤرخي الفرق وأدبائها، فبدا مشوهاً. وإذا كان الجزء الأول قد شمل مدة تاريخية طويلة تمتد عشرات القرون، بينما شمل هذا الجزء الثاني مدة لا تزيد كثيراً على نصف قرن، فذلك لأن مرحلة ما قبل الإسلام لا تهمنا كثيراً في مرحلتنا الحاضرة في بناء الأمة وسلوك الأفراد، وانتشار الدعوة، إضافة إلى أننا لا نعرف عن تلك المرحلة شيئاً كثيراً، بل لا تزال بعض نقاط منها غامضة على الرغم من التوسع العلمي، وكشف الحضارات. فقد تأخرت معرفة الكتابة، واندثرت معالم حضارات، وأبيدت أقوام، ولا نعلم عنها شيئاً، وما نعرفه لا يكاد يوثق به، اللهم إلا إذا استثنينا ما ورد منها في القرآن الكريم، والقرآن ليس كتاب علوم يبحث في الحضارات أو تاريخ الأمم، وإنما هو كتاب هداية ومنهج حياة، وإذا كانت قد وردت فيه بعض الآيات التي تشير إلى حياة مجتمعات سابقة فما ذلك إلا لأخذ العبر والدروس منها، وكذلك فقد وردت فيه بعض الآيات الكونية التي تدل على حكمة الله وتدبيره وأنّه هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، لا لتبحث في الفلك والكون.

ولأن سيرة محمد بن عبد الله ﷺ، وهو خاتم الأنبياء وآخر الرسل كانت أسوةً لكل إنسان في سلوكه وعمله، وقدوةً لكل داعية في تصرفه ونشاطه، ونبراساً لكل قائد في منهجه ومعاملته لجنده، وكانت دولته التي أنشأها منهجاً لكل دولة تريد أن تسير على نهج الله، وتطبق شرعه، وترغب لأتباعها السعادة والحياة الفاضلة الكريمة. وسيرة هذا الرسول الكريم سيرة تاريخية كاملة لا توجد فيها أية ثغرة مجهولة أو مرحلة غامضة.

وسيرة الأنبياء والرسل هي التي تصلح أن تكون قدوة للناس على حين لا يصلح غيرها من سير الأبطال والزعماء التي لا تحوي إلا جانباً معيناً من جوانب الكفاءات والقدرات، مكّنها أن تحتل هذا المركز، وصعّد ميولها مصلحة أو هوى، فعنترة أبرزته فتاة، ونابليون أظهره ولعه بالنساء، وكم من رجل مشهور ما طارت شهرته إلا من وراء ماله الذي حرص عليه، أو حبه للزعامة التي سعى إليها، وأمضى حياته في سبيل ذلك، وهذه سبيل غير المسلمين، بينما تشمل سير الرسل والأنبياء جوانب الإصلاح كلها، وقد جبلوا بالفطرة عليها، فالله أعلم حيث يضع رسالته، ولم يكن لرسول غرض في هذه الحياة الدنيا سوى رضاء الله وتنفيذ ما أمره به.

وإذا كان قد كتب في سيرة رسول الله ﷺ، الكثير إلا أن هذا لا يمنع من كتابة الأكثر، فربما أطنب كل كاتب في جانب، وأجاد في ناحية، فيتمم عندها بعض هذه الكتب بعضها الآخر، وتكون الفائدة المرجوة، ولربما سلّط بعض الكتاب الأضواء على ناحية، فاستطاع من خلال ذلك أن يأتي بجديد، فتكون السيرة بذلك أكثر نمواً، وتمدّنا بالجديد باستمرار، ونتلمس منها الخطا الحركية على الدوام، هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من أنها القدوة الصالحة، فهي لذلك بحاجة إلى الكتابة فيها باستمرار، ليطلع النشء عليها، ويتعرف الناس عليها بأساليب مختلفة ومستويات متنوعة، وخاصة أن لكل كاتب قراءَ معينين، فلو كتب فيها عدد من الرجال لكان الاطلاع أكثر، ولكانت الفائدة المرجوة أكبر - بإذن الله -.

وإذا كان المؤرخون السابقون قد اقتصر أكثرهم على ذكر الأحداث

والوقائع والروايات التي وصلت إليهم عن حادثة معينة، فقد حرصت على إعطاء الصفة العامة للسيرة من خلال ما يتراءى لي، وقد أوفق في بعض الجوانب، وقد يجانبني التوفيق في جهات أخرى، وكنت أحرص على قراءة بعض الخطا الحركية في سيرة رسول الله ﷺ، لتكونِ نبراساً لنا، ودافعاً حركياً لمن يبغي الحركة والدعوة، والذي أرجوه أن يكون عملي خالصاً لله. كما أني لم أكن حريصاً على ذكر الوقائع حسب تسلسلها التاريخي، وإنما كنت أضع الحادثة ضمن إطارها العام بغض النظر عن تاريخها الزمني، وإن كان هذا لم يحدث إلا خلال عدد قليل من الحوادث، ولم تتأخر كثيراً عن زمنها.

وقد قسمت الموضوع إلى أربعة أبواب: تحدثت في الأول منها باختصار عن طبيعة الرسالة، وتكلمت في الثاني منها عن نشأة محمد ﷺ، وشرحت في الثالث منها عن الدعوة في مكة، وجعلته فصولاً ثلاثة هي: دعوة الرسول ﷺ السرية، والجهر بعد ذلك بالدعوة، ثم العمل على تأسيس الدولة، أما الباب الرابع فقد فصّلت فيه عن الدعوة في المدينة وجعلته أيضاً ثلاثة فصول هي: العمل على تأسيس الدولة ومحاولة المشركين القضاء على هذه الدولة، ثم بدء توسع الدولة الإسلامية.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطا والأجر في الآخرة، وهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة المحرم ١٣٩٩هـ

محمود شاكر

الباب الأول

الرسالة

طبيعة الرسالة

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل أمةٍ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين، ويعرّفهم بالله جلت قدرته، ويرسم لهم الطريق السوي ليسلكوه، وليعيشوا في راحةٍ وأمن وطمأنينة، فيؤلفون مجتمعاً فاضلاً، وأمة مسلمة قائمةً بأمر الله تطبّق نظامه في الأرض، لتكون أمة مستخلفة في هذه المعمورة كما أراد لها ربها.

وما دام الرسول لشعبٍ من الشعوب فلا بدّ من أن يكون منهم، يخاطبهم بلسانهم، ويتعامل معهم في حياتهم اليومية العادية، وبذلك يكون أسوة لهم، ولا يمكن أن يكون إلا منهم، لأنه لو كان من غيرهم لما فهموه أو لكانت عاداتهم تختلف عن عاداته فيقع الانفصام بين الطرفين، ولا يمكن أن يتمّ الذي أراده الله لهذا الشعب من الهداية والخير، حتى ولو كان من الملائكة لما تمت الحكمة من الرسالة إذ يحتج بنو البشر فيقولون: إنا لا نستطيع أن نقوم بما تقوم به الملائكة فطبيعتنا غير طبيعتهم، وطاقاتنا تختلف عن طاقتهم، وما كان الله ليكلف نفساً إلا وسعها.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[1] ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾[2] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٨ ـ ٩.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٥.

هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

ولما كان كل شعب يعيش منعزلاً تقريباً عن بقية الشعوب لصعوبة الاتصالات آنذاك، ولطبيعة الحياة في ذلك الوقت، أرسل الله لكل شعبٍ نبياً، ولكل مجتمع رسولاً خاصاً بهم، فلما تطورت المواصلات وزادت الاتصالات بين الشعوب، كان لا بد من دعوة جامعة لبني البشر تتمثل في رسول يجمع الدعوات، ويختم الرسل، ينسخ ما كان خاصاً بقوم، ويضم ما تشترك به البشرية جمعاء، وهذا ما كان في نهاية المطاف. وكانت دعوة الأنبياء جميعهم إلى عبادة الله وحده والاستسلام والانقياد إليه سبحانه وتعالى، وكانت الجماعات التي تتبعهم أمة مسلمة واحدة من بداية الخلق إلى آخره. يقول الله جلت قدرته بعد أن يعدد أكثر الرسل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾[3].

ولما كانت الشعوب كثيرة ومتعددة كان لا بد من أن يكون هذا الرسول الخاتم للأنبياء من أحد هذه الشعوب، ولا داعي لأن تحتج بقية الشعوب على أنه ليس منها، إذ لو لم يكن من واحد منها لكان من غيرها، ولو كان من غيرها لكان قول البقية كذلك، ولكان لها الاحتجاج نفسه، ولكن يمكن أن يكون من شعب وسط بين هذه الأمم، وهذا ما كان في الشعب العربي، الذي تقع بلاده في موقع وسط يمكن أن تكون الدعوة من هذا المكان إليها جميعها، وإذا كانت الأرض كروية ويمكن أن تكون كل بقعة هي المنطقة الوسط إلا أن ما كان معموراً تقريباً لم يكن ليزيد على البر القديم أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وفي منتصف هذه البقعة تقع جزيرة العرب، هذا إضافةً إلى أن القسم الباقي تغطي المياه

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.
(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

أكثره، ويقصد بالوسط ما كان من اليابس. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾(١)، وكذلك يجب أن يكون في أمة قد قل فيها الأنبياء لتكون له قيمته إذ لو كان في أمة كثر فيها الأنبياء لعُدّ مثل واحد منهم، وقد اعتاد الناس أن يسمعوا كثيراً بهذه الكلمة، وهذا ما كان في العرب، فلم يكن فيهم من الأنبياء إلا إسماعيل وهود وصالح، عليهم الصلاة والسلام. وكذلك يمكن أن يكون على فترة متباعدة من الرسل في هذه الأمة حتى تتهيأ النفوس لتقبل الدعوة، وتنتظر ذلك النبي لينقذها مما تعاني، فقد مضى على رسالة إسماعيل أكثر من ألفين وخمسمائة عام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾(٢)، وقد كان أهل الكتاب يعلمون بعثة خاتم الأنبياء وقرب موعد ظهوره بل ومكانه حيث كانت كتبهم تشير إلى ذلك، وعرف هذا الأحبار والرهبان وكانوا يستفتحون على المشركين بقرب ظهور الرسول وأنهم سيؤيدونه، ويدعمونه، ويؤمنون به، ويقاتلونهم معه، فلما بعث النبي الكريم، وعرفوه حقاً، أعماهم الحقد، وأضلهم اللؤم، فكفروا به، وعادوه، ووقفوا بكل إمكاناتهم في وجه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾(٤)،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٨٩.
(٤) سورة الصف: الآية ٦.

ويبدو من حديث سيدنا سلمان الفارسي، رضي الله عنه، أن النصرانية كانت عند اقتراب بعثة سيدنا محمد ﷺ، قد انتهت بشكلها الصحيح، وحرّفت إلى شكل أقرب إلى الشرك منه إلى التوحيد. قال سيدنا سلمان: «كنت رجلاً فارسياً من أهل (أصبهان)[١] من قريةٍ يقال لها: (جَيّ)[٢]، وكان أبي (دِهقان)[٣] قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت (قَطْن)[٤] النار الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، وهم يصلّون، وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم، أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي، فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت له: يا أبت، مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير

(١) أصبهان: أصفهان مدينة بإيران تقع إلى الجنوب من طهران على بعد ٣٥٠كم منها.
(٢) جي: ناحية أصبهان، وتسمى هناك شهرستان، وهي الآن أطلال خربة.
(٣) الدهقان: المرجع الأول في شؤون الزراعة بالقرية.
(٤) قطن النار: خادم النار.

منديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟. قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه، قال: وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. قال فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. قال: فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله. قال: فأقمت معه زمناً طويلاً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بنيّ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل،

وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالْحق به. قال: فلما مات وغُيّب، لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بنيّ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين(١)، وهو فلان فالحق به.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبه، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان قد أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، قلت: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بنيَّ والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا، آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية(٢) من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فائْتِه، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل، على هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حُضِر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس، آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو

---

(١) نصيبين: بلد من بلاد الجزيرة، وهي الآن في تركيا على الحدود السورية تقابل بلدة القامشلي.

(٢) عمورية: بلدة في تركيا، في الجزء الغربي منها إلى الجنوب الغربي من أنقرة، وهي على بعد عدة كيلومترات منها.

مبعوث بدين إبرهيم، عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجِره إلى أرض بين حرتين[١]، بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[٢]. وقد انتقل سيدنا سلمان إلى هناك وأسلم، وكان من الصحابة المعروفين، رضي الله عنه.

وكذلك فإن أهل الشرك في جزيرة العرب قد شعر بعضهم بما آل إليه أمر قومهم من الشرك والبعد عن دين سيدنا إبراهيم على الرغم من أنهم كانوا يدّعون ذلك. قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنةٍ يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً[٣]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم. وقد فارق زيد دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه. وروي أنه كان يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.

كل هذا يدل على أن الأوضاع كانت بحاجة إلى رسول ينقذ هذه

---

(١) الحرة: الأرض البركانية ذات الصخور الوعرة، والمدينة المنورة تقع بين حرتين إحداهما في الغرب منها والثانية إلى الشرق.
(٢) سيرة ابن هشام.
(٣) النجي: الجماعة يتحدثون سراً عن غيرهم، ويقع للاثنين والواحد بلفظ واحد.

البشرية التي تتخبط في الظلمات، وكانت النفوس مهيأة لذلك، والكتب السماوية قد أخبرت، والأحبار والرهبان يعرفون ما في هذه الكتب، وصفات النبي معلومة، وكل شيء يشير إلى ذلك.

فالرسالة الإسلامية جامعة للرسالات ناسخة لها، وهي للبشر جميعاً، وصاحب الرسالة محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والرسل كلهم، وكان من أمة وسط، وكان شهيداً على الناس جميعاً، جاء على فترة من الرسل، وتنطبق أحكام منهجه على أبناء البشر أجمعين.

وتختلف رسالة الإسلام عن بقية الرسالات، فإذا كانت كلها خاصة بشعب أو أمة واحدة، وقد ضمت تشريعات تتفق ومصالح تلك الأمة، وإن بعض هذه الرسالات لم تكن تضم تشريعاً في الأصل، إذ لم تكن لدعوتها دولة قامت في عهد نبيها، فالرسالة الإسلامية كانت جامعة. أما النصرانية مثلاً فليس فيها تشريع عام لأنها لم تقم لها في عهد سيدنا عيسى، عليه السلام، دولة لتتنزل إليها التشريعات، وإنما قامت الدول النصرانية من بعده حين انتشرت الفكرة، ورفع سيدنا عيسى إلى السماء، وهو لم يزد عمره على الثلاثة والثلاثين عاماً، بينما نلاحظ أن سيدنا محمداً، عليه الصلاة والسلام، قد بعث وهو في الأربعين من عمره، وانتشر الإسلام في أيامه وكوّن حكومة في المدينة المنورة امتد سلطانها على جزيرة العرب كاملة. وهذا أمر طبيعي فما نزل من القرآن الكريم قبل أن يكون للإسلام دولة عندما كانت الدعوة لا تزال في مكة لم يكن ليضم تشريعاً، وهذا ما نلاحظه في السور المكية، وإنما نرى التهديد والوعيد للمشركين والوعد والبشرى للمؤمنين، ونرى آيات الله بينات على قدرته، ونعمه على مخلوقاته، أما الآيات التي نزلت في المدينة فكان فيها التشريع لتلك الدولة القائمة للإسلام. أما الديانة اليهودية فقد نزل لها منهج خاص ببني إسرائيل، يتفق وأسلوبهم في الحياة، ولا يصلح لغيرهم من الناس. ولما كانت الديانتان اليهودية والنصرانية ليستا آخر الديانات فقد جدت بعدهما على المجتمعات أمور تحتاج إلى تبيان وحكم، وهذا ما وجد في الرسالة

الإسلامية على كونها آخر الرسالات وخاتمتها، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[(١)].

كان كل نبي يبعث لقومه فقط، ولمدة معينة من الزمن، فما من أمةٍ إلا وأرسل لها بشير ونذير، وكانت تنتهي هذه المهمة بانتهاء تلك المدة من الزمن، أو بهلاك القوم المنذرين، أو البعد عما كانوا يقترفون من آثام، أو التخلص مما كان يلحقهم من أذى، فإبراهيم، عليه السلام، أرسل لردع قومه عن عبادة الأوثان وتعريفهم على الله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾[(٣)]. وأرسل سيدنا لوط، عليه السلام، لمحاربة الفاحشة التي كان قومه يأتونها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[(٤)]. وأرسل سيدنا شعيب، عليه السلام، لمنع الغش الذي شاع بين بني قومه ولإيفاء الكيل والميزان: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ١٤٥ ـ ١٤٦. (٢) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٥٤.

(٣) سورة مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٤. (٤) سورة الأعراف: الآيتان ٨٠ ـ ٨١.

غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1]. وأرسل سيدنا موسى، عليه السلام، لينقذ قومه من ظلم فرعون وملئه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[2]. وأرسل سيدنا عيسى، عليه السلام، لهداية خراف بني إسرائيل الضالة. وهكذا فلكل نبي مهمة بين قومه.

وامتاز بعض الأنبياء بالإنذار كنوح وموسى، حتى إذا نفذ صبر نوح، دعا على من لم يؤمن من قومه، وما آمن معه إلا قليل: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. واتصف بعضهم بالتبشير والتسامح والعفو كإبراهيم وعيسى. واتصف بعضهم بشهادة الحق كإسحاق ويعقوب. وعُرف بعضهم بالثبات والصبر كأيوب ويحيى و... وهكذا فلكل نبي سمة خاصة في دعوته، ولكن محمداً ﷺ، كانت صفاته تجمع ميزات الأنبياء كلهم. فقد كان بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لذلك يمكن القول: إن الاقتداء به إنما هو اقتداء بالأنبياء جميعاً، ويمكن أن نجد في سيرته ما يمكن أن نأخذه من سيرهم من الصفات البارزة والسمات الواضحة المعالم.

وكذلك فدعوته تجمع الدعوات السابقة حيث جاءت جامعة فهي لبني البشر كافة، بينما كانت دعوات من سبقه من الأنبياء لأقوام معينة، وقد شملت دعوته هذه الأقوام، وكذلك شملت الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فهي تعمّ الأقوام أجمعين، وكذلك كانت خاتمة الدعوات كلها فلن تنزل بعدها شريعة لتشملها وتشمل الزمن كله، وبذا فتمثّلها إنما يكون تمثّلاً لكل دعوات الأنبياء الآخرين جملةً واحدة، فلو أخذنا دعوة واحدة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٢) سورة طه: الآية ٤٧.

(٣) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

سواها لكان أخذاً لجانبٍ واحدٍ وطمساً لبقية الجوانب. وكذلك فهي ناسخة لما قبلها ومتممة لها في الوقت نفسه، فلم يعد للدعوات السابقة بوجودها شأن فقد انتهت مهمتها، أو هلك من كانت لهم، وعلى هذا لا يمكن قبول قول من يقول: إننا ندعو إلى تطبيق الشريعة الموسوية أو الديانة العيسوية ما دامتا من عند الله فإضافة إلى أنهما لا تتضمنان تشريعاً أو نظاماً. وكانتا لبني إسرائيل خاصة، وعملت بهما يد التحريف، فإنهما منسوختان، والمنسوخ لا يعمل به، بل لا يمكن قبول هذه الفكرة لأنها محاولة خبيثة لبذر الشك وإبعاد الناس عن طريق الحق. وكذلك الدعوات التي تنادي بالإبراهيمية. وهي مجموعة الأديان الثلاثة. فهذا تشويه وتلبيس على الخليقة في دعوة الحق.

الباب الثاني

نشأة محمد صلى الله عليه وسلم

عهد الطفولة

لقد كانت الرسالة الإسلامية جامعة الرسالات وخاتمتها، وناسخة ومتممة لها، وكانت لبني البشر كافةً، ولهذا لا بدّ من أن يكون صاحبها على درجةٍ تؤهّله لحمل هذه الرسالة كي يؤدي الأمانة كاملة، ولا شك أن هذا الاختيار كان من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾(١).

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا الرسول من الأمة الوسط بين الأمم، وجعله في قريش أفضل قبائل العرب وأوسطها، ومركزها مهوى أفئدتهم جميعاً منذ أيام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾(٢)، وجعل نسبه في أشرفها، حيث لا يوجد بين أجداده من ولد من سفاح أو غيره، أو يُطعن في نسبه، أو يُعاب.

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا النبي من شعب أقرب إلى البداوة التي لم تفسدها المدنية، والبساطة التي لم تغيّرها الرفاهية، ولم يكن من أمّةٍ متحضرةٍ عرفت الفلسفة والمناقشات، وعلمت المعارف والعلوم، تناقش في كل موضوع، وتجادل في كل بحث، ولو كان كذلك لكثر الجدال، وقيل: إن هذا الرجل قد اقتبس من علوم الأقدمين، وخالط الفلاسفة فأخذ عنهم، وفوق كل هذا فقد كان، عليه الصلاة والسلام، أمّيّاً لا يحسن القراءة ولا

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

يجيد الكتابة لكيلا يقول عنه أحد: إنه قد قرأ على بعض الأعجمين، أو درس الكتب التي كانت خارج الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

لقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله، وتكفّل بالعناية به، منذ أن كان نطفة، حتى وُلد وبُعث، ثم جاهد وأسس دولةً، وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكانت الرعاية الإلهية تحوطه في كل لحظة، فكانت سيرته كاملةً لا انقطاع فيها، وليس فيها مدة مهما قصرت غير واضحةٍ على الناس أو مجهولة في التاريخ لئلا يخفى شيء من السيرة حيث يمكن أن تكون حوادث هذه المدة المجهولة ذات فائدة وتكون أسوة للأتباع في بعض شؤون حياتهم. وحتى اللحظات التي يخلو فيها بنسائه، حيث كنّ يحدّثن عن هذه اللحظات بكل أدب وحكمة، ويجد المرء من ذلك القدوة لعلاقة الزوج بزوجه.

وقد كانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة تاريخية، حدثت في الواقع، وسجلها العلم، وليست من نسج الخيال وتصور الكتّاب، كما لم تكن أسطورة تعتمد على الخرافة، وتُبنى على الوهم، لذا فهي واقعية يمكن أن يتمثلها المرء في الحياة حيث تنسجم مع ما فطر عليه البشر. وهذا الواقع من السيرة معروف لدى الأعداء قبل الأنصار، وعند الخصوم الذين عاصروه قبل أصحابه الذين عاشوا معه.

وكانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة جامعة تشمل جميع نواحي الحياة، فيها حياة الشاب مع أقرانه، والزوج مع أزواجه، والرجل مع أبنائه، والفرد مع مجتمعه، والمرء في محيطه، والقائد مع جنده، والحاكم مع رعاياه، فيها صفة القائد الحكيم المنتصر، وحالة الرجل المنهزم، المرء الذي مات أبناؤه، وفقد زوجته، ومات بين يديه أصحابه، والذي غدر به الغادرون، وحمل عليه الأهل والجوار، وعتا عليه الوجهاء، وخاصمه

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

الزعماء، وناصره المستضعفون، وعُذِّب أمامه أنصاره وهو لا يقدر على شيء. في حياته المنهج الذي شرعه، والطريقة التي سار عليها، فيها علاقة الدولة مع غيرها، فيها حياته في العسر واليسر، والمنشط والمكره، في الشدائد والعقبات، في الهزائم وعند النصر، وبذلك يجد كل إنسان في حالته التي هو فيها مثلاً لها في حياة ذلك الرسول فيأخذ منها ويقتدي بها، كما في هذه السيرة حياة الطفل اليتيم والرجل الفقير، والتاجر المستأمن، والزوج الذي دون زوجه مدة من الزمن، والإنسان الذي مات أبناؤه الذكور عنه، وعاشت الإناث فقط، ثم مُتْنَ كلهن في حياته سوى واحدة منهن، ومن بناته اللاتي أنجبن، ومنهن من كن عقيماً، ومَن تعددت أزواجه فمنهن المرأة المسنة، والفتاة الصغيرة، والمختالة بجمالها، والغيور...

وكانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة عملية يستطيع الناس ممارستها وتطبيقها، فلو كانت فوق مستوى البشر لصعب الاقتداء بها والسير على منوالها، حيث يمكن للرسول تطبيقها بقدرةٍ إلهية، ولم تكن سيرته، عليه الصلاة والسلام، لتجمع تناقضاً بين حوادث متشابهة؛ لأن ذلك أيضاً يحول دون ممارستها. وليس معنى هذا عدم وجود المعجزات له أو أمور خارقة للعادات والمألوف، ولكن كانت هذه المعجزات في غير حياته الإنسانية التي يمكن أن تكون قدوة، فالشجر والحجر قد سلّما عليه، ونبع الماء من بين أصابعه الكريمة، ونزلت الملائكة تنصره في الحرب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾[(٢)]، وقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾(1)، وفوق كل هذا فالقرآن الكريم يُعدّ المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، من الناحية الأدبية والتشريعية، حيث اشتهر قومه بالأدب والبلاغة ومع ذلك فقد تحداهم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(2)، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾(3) وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(4)، وفي القرآن الكريم آيات معجزات، سواء أكانت في الإخبار عن الأمم السابقة حيث كانت مجهولة لا يعرفها أهل الجزيرة أبداً، أم في الحديث عن المستقبل كالإخبار عن انتصار الروم قريباً بعد هزيمتهم، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾(5)، أم كانت جوانب اقتصادية واجتماعية وتشريعية تدعو صاحب كل فكر ليقنع بأن ما في القرآن ليس من كتابة إنسان مهما سمت منزلته وعلت عبقريته، إذ لا يمكنه أن يأتي بتشريع يقترب من مستوى ما في القرآن من تشريع، والذي لو طبق لعاش الناس في حياة سعيدة تماماً كما حدث في صدر الإسلام عندما طبق

---

(1) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦. (2) سورة البقرة: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(3) سورة هود: الآيتان ١٣ ـ ١٤. (4) سورة الإسراء: الآية ٨٨.
(5) سورة الروم: الآيات ١ ـ ٥.

التشريع الإسلامي، ولم لا؟ والله هو الذي خلق البشر وصوّرهم، فلا شك أن ما يشرعه لهم، وما ينزله عليهم سيؤمن لهم حياة سعيدة من كل جوانبها لا من جانب واحد، ولا يهمل بقية الجوانب، والله على كل شيء قدير.

عندما تتوفر هذه الشروط تكون السيرة صالحة للاقتداء، ومن خلال معرفتنا بسير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا نجد سوى سيرة سيدنا محمد ﷺ، تتوفر فيها هذه الشروط، لأن كثيراً من الأنبياء لا نعرف من سيرهم إلا النذر اليسير، ومن نعرف من حياتهم الكثير تفوتنا حوادث وأخبار مدة من الزمن من حياتهم، الأمر الذي يحدث انقطاعاً في سيرتهم، وكلهم تقريباً - عدا محمد ﷺ - تفتقد حياتهم شمول جميع نواحي الحياة، فسيرة سيدنا موسى، عليه الصلاة والسلام، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، ونعرف الكثير من أخباره، ولكننا نجهل كيف تربّى في بيت فرعون؟ وكيف نجا أخوه هارون من القتل؟ وكيف كانت علاقته مع زوجه وأسرته وأقربائه وأبنائه؟ وهذه نقاط أساسية في الحياة الاجتماعية، وكذلك نجهل النظام الاقتصادي والسياسي الذي سار عليه ودعا إليه. وكذلك لا يمكن الثقة بما ترويه التوراة حيث جمعت أسفارها بعد حياة سيدنا موسى، عليه السلام، بعدة قرون، الأمر الذي جعل التحريف يشمل الكثير منها مع ما أضيف عليها، وما ضاع منها، وبقيت كتابَ سيرةٍ ضمّ الكثير من آراء المؤرخين، ونظرتهم إلى صاحب السيرة، وتصورهم عنه، إضافة إلى المتناقضات التي تضمها، فلكل حادثةٍ روايتان، وقد تكونان متباينتين تماماً.

وسيرة سيدنا عيسى، عليه الصلاة والسلام، لا نعرف منها إلا القليل، إذ لا نعلم إلا شيئاً عن ولادته وطفولته، ثم تغيب عنا مراحل حياته مدة ليست بالقصيرة لتعود إلينا مرة ثانية في السنوات الأخيرة من حياته، إضافة إلى أن الأناجيل قد دوّنت بعد ارتفاعه بأكثر من ستين سنة، بل نجهل اللغة التي دونت فيها، ومن قام بترجمتها؟ فهي إذن كتب سيرة لا يوثق بها لأنه لا يعرف كاتبها وصدقه، ولا غايته وقصده، ثم نُسبت إلى الحواريين،

وحتى الكنيسة لا تعترف ببعض الأناجيل التي تنسب إلى حواريين آخرين حيث لم يرق لها ما تحويه. كما أن رهبان الكنيسة قد اجتمعوا بعد حياة المسيح بعدة قرون ليدرسوا طبيعته، وكذلك فإن حياة سيدنا عيسى لم تشمل جميع نواحي الحياة، فلم تكن له زوج لنعرف العلاقة بينهما، ولم يكن له أبناء، ولم يؤسس دولة يقودها، لنسير على خطاه وهديه في تسيير دفة الحكم وسياسة الأمور الاجتماعية والاقتصادية، ولنعرف كيف تكون علاقتنا مع الحكومات والأمم الأخرى.

هذا بالنسبة إلى الأنبياء والرسل الذين نعرف عنهم الشيء الكثير فكيف بالذين لا نعرف عنهم إلا النذر اليسير أو الذين لا نعرف إلاّ أسماءهم والأقوام التي أرسلوا إليها.

أما سيرة سيدنا محمد ﷺ، فإننا نعرفها كاملة منذ ولادته حتى انتقاله، لا يفوتنا منها شيء، ولا يغيب عنا طرفة منها حتى في خلوته مع نسائه، حيث كان ﷺ يسمح لهن بالتحدث عن تلك الخلوة والنقل عنه، إضافة إلى أن عدداً من الصحابة قد تفرغوا لصحبته والأخذ عنه، ونقلوا إلينا أخباره بدقة وأمانة، ووصلت إلينا بطرق صحيحة، ثقة عن ثقة من غير انقطاع حتى لا يغيب عنا شيء منها. وأنه، عليه الصلاة والسلام، قد عاش ثلاثة وخمسين عاماً بين أعدائه وخصومه، فلم تصل إلينا أخباره من طرفٍ واحدٍ وهو ما دوّن من جانب أصحابه وأتباعه، بل ما سجل من جانب أعدائه وخصومه أيضاً، ومن عاصروه وكان السجل واحداً تقريباً من حيث الصفات الأخلاقية والأمانة والاستقامة. وحكومته دامت أكثر من عشرة أعوام وضم نظامها التشريع الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والإداري، وجميع مرافق الحياة، وكان نجاح التطبيق كاملًا، وهو يصلح لكل وقت، ولأية مجموعة من الناس، وفي أية بقعة من الأرض. وبذا فحياته ﷺ تصلح أن تكون أسوة لمن يريد التأسي من الأفراد، ونظامه يصلح منهاجاً لمن أراد الاقتداء من الحكومات للسير في طريق الحق. إذ يتعرف كل متبع لدين على أمور دينه من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها، ثم يقتدي بها،

ويفرغ حياته في قالبها. وتتعرف كل دولة تريد سبيل الصلاح على طريق سير نبيها في حكومته، ونهجه وشرعه، ثم تقتدي بذلك، وتطبق ذلك عليها وعلى رعاياها، وعلى هذا يجب أن تكون سيرة سيدنا محمد هي السيرة الواجبة الدراسة، الواجبة الاتباع، الواجب التمسك بها.

نشأ محمد ﷺ، في مجتمع جاهلي لا يهتدي إلى الله، ولا يتبع الوسائل التي تؤدي إلى الهداية، وإنما يعبد من دون الله أصناماً وأوثاناً، ويدَّعي أنها تقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[1]، وإضافة إلى هذا الشرك فقد كان تصورهم عن الله تصوراً خاطئاً إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، وأن هناك صلة نسب بينهم وبين الجن، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾[3]، هذه العقيدة جعلت بعض العقلاء في المجتمع يلمسون سوء هذا التصور وجهل هذا المعتقد، وبعده عن الصواب، ولكنهم لم يعرفوا طريق الحق، فانزووا، وادعوا أنهم حنفاء على دين إبراهيم دون أن يتوصلوا إلى التصور الصحيح والحقيقة التي ينشدونها، ولم ينكر هؤلاء الحنفاء جاهلية مجتمعهم، ولم يدعوا إلى تصور صحيح، فكان عملهم سلبياً فلم يؤثروا بأحد، ولم يظهر لعملهم هذا أي مردود. فالعمل لا يفيد بالانزواء، ولا ينفع بالعزلة، ولايجدي بالتحصن في الصوامع، والإسلام دعوة للحق في كل مجال وعلى كل صعيد، والإسلام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وقتال ضد الباطل، وإذا وجدت المفاسد ولو على نطاق ضيق، ولم ينكرها

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

أحد، فمعنى ذلك تعاون المجتمع على تفشيها ومساعدة منه على انتشارها، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2].

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[3]. فالبقاء في غرفٍ خاصةٍ وفي أماكن العبادة والاقتصار على روادها طريقة لم يعهدها المسلمون الأوائل، ولم يعرفها المصلحون، وإنما سار عليها أولئك الذين قبلوا أسهل الأمور، وأخف الجهاد، وأضعف الإيمان.

نشأ محمد ﷺ في مجتمع يعجّ بالظلم فالقوي يستعبد الضعيف، والغني يستبد بالفقير. والعبودية معروفة، والرق قائم، ومصادره كثيرة، فالغزو والسلب والاعتداء والحروب ـ وما أكثر الحروب، وأيام العرب مشهورة ـ وكل هذا يمد المجتمع بأفواج جديدة من الرق. والأغنياء قلة والفقراء كثرة. وطريقة الإغارة مشهورة، وهي من أكبر وسائل العيش وطرق الرزق والحصول على الغنيمة والربح، والخوف على الحرية موجود في كل خطوة يخطوها الإنسان، والخوف على الملك قائم في كل لحظةٍ يغفل فيها صاحبه أو يضعف عن الدفاع عنه، ولا يستطيع أحد أن يضع حدّاً لما يحدث، ولا أن يغيّر ما يجري، بل لم تقم دعوة لذلك، وإن كان التذمر من الأوضاع القائمة يساور بعض النفوس، ولكن سيطرة الظلم أقوى من الدعوة الكامنة ضده.

نشأ محمد ﷺ، في مجتمع تكثر فيه المفاسد وتعم الرذائل، فالبغاء، والاستبضاع، والزنى الجماعي والإفرادي، وزواج أسبق الرجال إلى من

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩. (٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) رواه مسلم (٤٩) في الإيمان: باب كون النهي عن المنكر من الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري.

مات زوجها أمور كلها قائمة، وخطف الفتيات والاعتداء على الأعراض كله شائع، لا ينكره أحد، ولا تحاربه جماعة، هذا بالإضافة إلى وأد البنات، وقتل الأولاد خشية الفقر أو العار، وكله معروف، ولعب الميسر وشرب الخمر أمور تعد من المفاخر والتباهي، وليس شرطاً أن يكون المجتمع كله يرتكب هذه الأعمال حتى نقول عنها: إنها من صفاته أو إنها ملازمة له، وإنما عدم إنكارها من عدد مقبول دليل الرضى بها، وهذا ما يدعو إلى انتشارها، إلى جانب الأفكار الأخرى، وإن كانت دعوة الإصلاح قد تجد بعض التأييد لو حدثت.

نشأ محمد ﷺ، في أرض العرب التي كانت أطرافها الغنية بيد غير أبنائها، فالأحباش، والفرس، والروم يسيطرون على أجزاء منها، سواء في اليمن، أم العراق، أم الشام، وكانت قبائل عربية تدين لهؤلاء الغرباء بالولاء، وأنصار آخرون لا يؤيدونهم، وليس في العرب من يدعو إلى حرب هؤلاء الغرباء وطردهم، ولو قامت دعوة إلى ذلك لوجدت لها أنصاراً من أجل كسب المغانم على الأقل، فالحرب مصدر رئيسي لها، وهي من أهم موارد الرزق. أما وسط الجزيرة الفقيرة فكانت تنتقل فيه القبائل العربية الكثيرة، وتقوم بينها معارك طاحنة، وصراع دائم، وحروب لا تنفك، تستل السيوف لأتفه الأسباب، وتشرع الرماح لأحقر الأمور، والقبائل تفتخر بأيامها، وتعتز بأمجادها وأبطالها وباختصار: فأوضاع الجزيرة على حالةٍ لا تحسد عليها، والسكان في حالة لا ترتفع إلى مستوى بقية الأمم، وهم في وضع من التفكك، والتجزئة وانتشار الظلم والمفاسد.

نشأ محمد ﷺ في قبيلة تعد من أشرف قبائل العرب، وفي بيت من أفضل بيوت قريش وأمنعها، نشأ يتيماً فلم يعرف الأب، ولم يدرك تماماً الأم، ولم ينعم بحياة الجد ليكون في منتهى حالات اليتم، ولم يشعر بحالات الرخاء والرفاهية عند عمه أبي طالب الكثير العيال القليل المال ليكون في منتهى حالات الفقر، وهو رسول الله وأفضل خلقه، ليكون القدوة لمن فقد أهله والأسوة لمن ذاق مرارة العيش، ولم يعرف من طعم الحياة حلاوة.

نشأ محمد ﷺ، بين قومه فكان صادقاً لا يعرف الكذب، وأميناً لا يعرف الخيانة، ووفياً لا يعرف الغدر، حتى كان معروفاً في مجتمعه بهذه الصفات، مميزاً بها عن غيره، لا يجهل ذلك أحد، ولا يساويه فيها رجل، لا ينكر ذلك عدو، ولا يمكن أن يتهمه خصم. بعث ﷺ، وناصبه قومه العداء، ولكن لم يستطع رجل واحد منهم أن يتهمه بصفة غير لائقة، أو خلق يعيبه به، ولو عرفوا شيئاً من ذلك وقد عاش بينهم أربعين عاماً لأراحهم من التنقيب عن خصلةٍ غير حميدة يتهمونه بها عندما يحل الموسم، ويلتقي بالناس في الحج حتى يبعدوه عنهم، فعجزوا حتى وجدوا أن كلمة ساحر هي أفضل الصفات التي يطلقونها عليه حيث يفرق بدعوته بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والرجل وصاحبته، كما عرضوا فكرة المسّ (أصابه شيء من مس الجن فهو مجنون)، وعندما عرضت كلمة كاذب، قالوا: ما جربنا عليه كذباً.

فالصدق من أولى صفات المسلم التي يجب ألا يبتعد عنها مهما كانت النتائج، ومهما كانت الدواعي، ويكون الصدق في القول، وفي النية، وفي العزم والوفاء به، والصدق بالعمل.

والصدق بالقول هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، ويكون بالإخبار، فإن نقل خلاف ما هو عليه فهو كاذب ومفتر، ويعدّ عندها من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (١) ويقول ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(٢). وعلى الجماعة المسلمة أن تنقي صفها من أولئك الذين يتخذون الكذب ليسوغوا به أعمالهم، وذلك من أخطر الأمراض التي تتعرض لها أثناء سيرها.

والصدق بالنية هو الإخلاص في العمل ليكون خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٢) البخاري ١/٨٣ في الإيمان: باب علامات المنافق، ومسلم (٥٩) في الإيمان: باب بيان خصال المنافق. من حديث أبي هريرة.

والصدق بالعزم على العمل كأن يقول الرجل المريض: لإن عافاني الله لأجاهدن في سبيله، فإذا عوفي دخل الصدق بالوفاء في الجهاد حيث يظهر عند الشفاء نوع من الضعف وتردد في التنفيذ حيث ذكر الله عدم الصدق في الوفاء بالعزم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1] وهو كما قال سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحبُّ إلي من أن أتـأمر على قوم فيهم أبو بكر، رضي الله عنه، إلا أن تسوِّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك، فتتغيّر عن عزمها».

والصدق في العمل يكون بأن لا يختلف ظاهر عمل المسلم عن باطنه.

ومن الصدق: الوفاء بالوعد، والمحافظة على العهد، وعدم الغدر بمن أمنه، وكان ﷺ، أميناً محافظاً على الأمانة أشد المحافظة، وعلى الرغم من العداوة التي كانت بينه وبين قومه، فقد كانوا يحفظون عنده الأمانات، ويحسن أن نذكر: كيف أخّر سيدنا علياً، رضي الله عنه، عن الهجرة معه حتى يؤدي الأمانات التي كانت لقريش عنده إلى أهلها على الرغم من ترك الدار والأملاك لأعدائه أصحاب الأمانات.

والمسلم هو الذي يتصف بهذه الصفات، ويتحراها تحرياً شديداً متخذاً رسول الله ﷺ أسوة حسنة ومثلاً أعلى له.

حملت آمنة بنت وهب الزهرية برسول الله ﷺ، من زوجها عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي بعد أن بنى بها، ولكن الزوج لم يلبث أن توفي، ولم تزد مدة الحمل على الشهرين، توفي وهو عائد من الشام

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

بتجارة له، وقد مرّ أثناء رجوعه على أخواله من بني النجار في يثرب، وهناك أدركته منيته. ولما تمّت مدة الحمل ولد ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول، وكان ذلك في ٢٠ نيسان عام ٥٧١ لميلاد سيدنا عيسى، عليه السلام، وهو ما يوافق السنة الأولى من عام الفيل إذ أن المجتمعات كثيراً ما كانت تؤرخ في الحوادث الهامة التي تمر عليها، وحادثة الفيل بالنسبة إلى أهل مكة أمر هام، إذ أراد (أبرهة الأشرم) تهديم البيت الحرام، ولكن الله حماه ورد كيد أعدائه في نحورهم، وقد سماه جده عبد المطلب محمداً، وكانت قابلة سيدنا محمد ﷺ، (الشفاء) أم عبد الرحمن بن عوف، وكان أول من أرضعه (ثويبة) جارية عمه أبي لهب، وحضنته (بركة) أم أيمن أمة أبيه عبد الله. وبهذا نشأ محمد ﷺ يتيماً لا يعرف أباه أبداً، وهي الصورة الأولى من اليُتم التي تجعل المرء يجد في نفسه تعزية فيما لو ولد يتيماً إذ أن سيد البشر قد ولد يتيماً.

وكان من عادة قريش وأهل المدن عامة أن يرسلوا أطفالهم إلى البادية ليتلقنوا فيها سلامة اللسان، وفصاحة اللغة، وكانت العادة أن تأتي المرضعات من البوادي على شكل جماعات يأخذن الرضّع. وجاءت مكة مرضعات بني سعد، وحصلت كل واحدةٍ منهن على أطفال يكفونها، وامتنعن عن أخذ محمد الطفل اليتيم الفقير، أما واحدة منهن وهي (حليمة)، زوجة أبي كبشة، فلم تحصل على أحد، فاضطرت أن تأخذ محمداً ﷺ، ولعل في ذلك حكمة بأن الإنسان لا يعرف الخير أين هو؟ فلربما كان الخير كل الخير في ما أحجم عنه. وما إن أخذت (حليمة) رضيعها وسارت به مع صويحباتها إلا وكانت تشعر باللبن يتدفق في ثدييها، أما هنّ فكن لا يرغبن بالحديث في هذا الموضوع أمامها تعزية ومواساة لها بطفلها الفقير، ولكن إذا انفردت إحداهن بثانية أو انعزلت (حليمة) عن الركب تحدثن وضحكن ورثين لحالها. وما إن وصلت مرضعات بني سعد إلى باديتهن، وكانت مقفرة، وحيوانات القوم تكاد تجفّ أضراعها من الجدب وقلة المرعى، وبوصول محمد ﷺ، الطفل الرضيع إلى أولئك القوم

جادت عليهم السماء بخيرها، واخضوضرت الأرض، وارتفعت الأعشاب، وشبعت الأغنام، فاكتنزت لحماً، وأترعت أضراعها باللبن، بل أضحت تبدو حفّلاً، وهي سائمة في مراعيها، وشعر بنو سعد بما لحق أراضيهم من خير، وإن كانوا لا يستطيعون عزو ذلك إلى شيء سوى أسرة (حليمة) بالذات التي كانت تشعر بما حل عليها من نعيم، وبما اطمأنت له نفسها عندما حلّ بدارها هذا الرضيع اليتيم محمد ﷺ، وخاصة عندما حدثت له حادثة شق الصدر. تقول (حليمة): بينما هو وإخوته في بَهم[1] لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قدَ أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[2]، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقعاً وجهه، فالتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني، فأضجعاني، فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه، ولا أدري ما هو. فخافت حليمة من تلك الحادثة فردته إلى أمه، وإن كانت لا ترغب في فراقه لما رأت من بركات أثناء وجوده عندها، وليس فقط عندها وإنما حلت في بني سعد كلهم، وفي بواديهم وقطعانهم إضافة إلى هدوئه ولطفه وعلاقته مع إخوته الذين كانوا معه في رعايتها وكنفها.

عاد سيدنا محمد ﷺ إلى أمه، ولم يزد عمره على الرابعة، ولم يلبث عندها إلا قليلاً، إذ سارت به إلى يثرب لزيارة أقربائه، وقبر أبيه، وأثناء عودتها أدركتها منيتها في الطريق ببلدة (الأبواء)[3]. ماتت (آمنة) وهي في مقتبل العمر وأول سن الصبا، ولم يكن أبوه أثناء موته بأكبر منها بكثير فكلاهما دون العشرين من العمر، وقلما يموت الزوجان معاً في هذه السن

(١) البهم: الصغار من الضأن والمعز، واحدتها: بهمة.

(٢) يسوطانه: يحركانه.

(٣) الأبواء: بلدة بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وهي إلى الشمال الشرقي من رابغ وعلى مسافة ٤٠كم منها.

المبكرة، ولكن حكمة الله فوق كل حكمة، وتدبيره فوق كل تدبير، إذ يريد الله أن يكون رسوله ـ كما ذكرنا ـ أنموذجاً لكل يتيم ومثلاً لكل فقير، فما من يتيم إلا وهو دونه في اليتم، وما من فقير إلا وهو دونه في الفقر.

توفيت آمنة فانتقلت كفالة الطفل إلى جده عبد المطلب، وحضنته بركة أم أيمن التي ورثها من أبيه فكانت أماً له، وكان لها ولداً مطيعاً، وقد رأت منه من النجابة الشيء الكثير، لم تر مثلها في أقرانه، ولم تعلم هذا في أترابه بل ممن يفوقونه سناً بكثير. وعاش مدة في بيت جده، وربما قال بعضهم: إن الجد هو الأب الثاني، وعبد المطلب سيد قريش وشيخها المطاع، وعلى هذا فقد نشأ محمد ﷺ في بيت الوجاهة فأفاد منه، واقتبس من تربيته، ونشأ على المعرفة بما خالط وسمع من حضور منزل عبد المطلب. ولكن هذه الكفالة لم تطل، ومدة هذه الحياة كانت قصيرة، ومحمد ﷺ كان في سن صغيرة لا تمكنه الإفادة من مركز جده، هذا بالإضافة إلى أن عبد المطلب كان قد أصبح مثقلاً في أواخر حياته فقلّ رواد داره إذ ظهر سادة جدد من بطون قريش كلها، وحتى من بني هاشم بالذات، حيث قام أولاده مكانه، إذ أصبح الزبير سيداً مكان أبيه، وكذلك أبو طالب والحارث وغيرهم، ولم يكن منهم في سن صغيرة سوى حمزة والعباس اللذين كانا في سن قريبة من سن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومات عبد المطلب ولم يزد عمر رسول الله ﷺ على الثامنة، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه، إذ لم يكن من بين أعمامه جميعهم سوى الزبير وأبي طالب شقيقان لعبد الله والد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم هناك بنات عبد المطلب كلهن شقيقات عبد الله باستثناء صفية، رضي الله عنها، فإنها كانت شقيقة سيدنا حمزة، رضي الله عنه. وكان أبو طالب يحب محمداً حبّاً جمّاً، فهو ذكرى شقيقه عبد الله الذي مات، ولم تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد، ولم يسعد بزواجه سوى أشهر قليلة، ومات بعيداً، وكان ثانياً وصية أبيه عبد المطلب، ومن جهة ثالثة فقد رأى منه ما لم ير من غيره من الأدب والنجابة والتربية والطاعة، فضمه إلى أولاده

الكثيرين، وكان يعتني به العناية التامة، ويفضله على أبنائه جميعهم.

وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لحظ هذا رسول الله ﷺ، مع صغر سنه، فطلب منه أن يعمل، إلا أن أبا طالب لم يكن برأيه عمل ابن أخيه تكريماً له وتقديراً، ولكنه وافق العم مع طلب الطفل وإلحاحه، فبدأ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟؟ فقال: نعم، كنت أرعاها عى قراريط لأهل مكة»[1]. يقول ابن حجر رحمه الله: قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها.

ومرت السنون، وشعر أبو طالب أن ابن أخيه قد بدأ في مرحلة الشباب، فقد غدا عمره قريباً من الثانية عشرة، ويجب عليه أن يترك عمل الرعي الذي لايعطي من الربح إلا القليل، ولا يقوم به وجهاء القوم، لذا يجب عليه أن يدربه على التجارة مهنة قريش الرئيسية والتي تدر أرباحاً أكثر، ويعمل بها سادة القوم. وسار أبو طالب في تجارة، وصعب على

---

(١) رواه البخاري ٤/ ٣٦٣ في الإجارة: باب رعي الغنم على قراريط.

محمد ﷺ فراقه، وهو أنيسه، فرقّ له أبو طالب، وأخذه معه، وبذا تحققت رغبة أبي طالب برغبة سيدنا محمد وطلبه. وسارت القافلة إلى بلاد الشام، ووجد أبو طالب من محمد ﷺ، الأخ الرفيق، والولد المطيع، والتاجر المستنير، والزميل ذا العقل الراجح، وكان العم يشعر أنه يصطحب رجلاً كبيراً ذا قلب واسع، وعقل سليم، وخبرة عالية ومعرفة عامة، وكان هذا يسره ويشعره أن لابن أخيه مركزاً عريقاً ينتظره، وسيكون صاحب مركز بين قريش لا ينافسه فيه أحد مع علمه بأهلية قريش ورجالها، ومكانتها، ودرايتها. ووصلت القافلة إلى بصرى الشام من بلاد حوران في الشام، وكانت بها سوق عامة دائمة. وهناك التقى أبو طالب براهب يدعى (بحيرا)، فسأل الراهب أبا طالب عن ظهور نبي في بلاد العرب، فأجابه بأنه لم يظهر إلى الآن.

فقال الراهب: إننا نرى في كتبنا المقدسة أن موعد ظهوره قد حان، وكثيراً ما كان من أهل الكتاب من يهود ونصارى يذكرون قرب بعثة نبي من أرض العرب، ثم سأل الراهب أبا طالب عن الفتى الذي معه؛ ويعني بذلك محمداً، فأجاب أبو طالب: إنه ابني، فقال له: عد به فلربما رآه بعضهم فعرفه فسعى في التخلص منه، فإنه سيكون له خبر[1]. لم يكن وقع هذا الكلام غريباً في أذن أبي طالب وإنما كان تحقيقاً لما في نفسه، وتأكيداً لما يتحدث فيه أبو طالب مع نفسه.

عاد أبو طالب مسرعاً بقافلته متخوفاً، وقد زاد حبه له حباً، وحرصه عليه حرصاً، ولما عاد رسول الله إلى مكة انصرف إلى الحياة في خضم مجتمعها، يخالطهم ويتعامل معهم، ويرعى الغنم، فعرفه القوم معرفة تامة.

---

(١) حديث بحيرا الراهب رواه الترمذي (٣٦٢٤) وأصحاب السير، وقد تكلم في متنه، انظر «تاريخ الإسلام» ١/ ٣٨ للحافظ الذهبي، فقد قال: حديث منكر جداً.

الفصل الثاني

مرحلة الشباب

١ ـ الحياة العامة:

قارب محمد ﷺ الثامنة عشرة من العمر، وغدا في سن الشباب، وكان يتعامل مع المجتمع الذي يعيش فيه، ويتفاعل معه، ويشارك في الأمور العامة والتي كان من أشهرها:

١ ـ **حروب الفُجَّار**: وقد جرت بين قريش وكنانة من جهة، وبين قيس من جهة ثانية، وسببها أن أحد الكنانيين قد قتل أحد القيسيين، وهبت قيس لتأخذ بثأرها، والتقى الفريقان عند (نخلة) شمال شرقي مكة خارج الحرم، وعندما حميت قيس احتمت قريش بحرمها الآمن، فنادت قيس: إن موعدنا العام المقبل في (عكاظ). ولما استدار العام التقى الطرفان في المكان المحدد، وكانت قريش قد جمعت كنانة والأحابيش وحلفاءها، ودارت الدائرة على قيس، ثم تم الصلح بين الجانبين، وعدت القتلى ودفعت الديات.

كان رسول الله ﷺ، قد ناهز العشرين من العمر واشترك في هذه الحرب مع أعمامه، وكان عمه الزبير قائد بني هاشم، ومعه إخوته أبو طالب، والحمزة والعباس، وكان حرب بن أمية قائد قريش. وكان، عليه الصلاة والسلام، ينقل النبال ويجمع السهام.

٢ ـ **حلف الفضول**: وعندما عادت قريش من حرب الفجار تحالفت بعض البطون وتعاقدت على ألا تجد بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته. وكان بنو هاشم من

بين هذه البطون المتحالفة، وحضره من بينهم محمد ﷺ، وكان الحلف في دار عبد الله بن جدعان أحد وجهاء قريش. وقد قال رسول الله ﷺ، بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1].

وشاع خبر الفتى في أندية قريش، وأصبح حديث الناس في كل محفل عن أمانته وصدقه، عن أدبه وسلوكه، عن انفراده ببعض الصفات التي تخوله أن يكون سيداً بل أكبر من ذلك بكثير، وقد عرف بين القوم باسم «محمد الأمين» و «الصادق».

٣ ـ **بناء البيت:** أصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عارم، فتصدعت جدر الكعبة، فأرادت قريش إعادة بنائها من جديد، فجمعت من أجل ذلك المال الحلال، وشرعت في البناء بعد الهدم، وجعل أشرافها ووجهاؤها يحملون الحجارة على أعناقهم لمكانة الكعبة في قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ، فيمن يحمل، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

وتم البناء، وأرادوا وضع الحجر في مكانه، ولكنهم اختلفوا فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت الحرب تنشب بين بطون قريش، واستمر الخلاف أربع ليالٍ، ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان أسن القوم ـ قال: يا قوم لا تختلفوا بل حكِّموا من ترضون بحكمه. فقالوا: نكل الأمر لأول داخل. وما لبثوا إلا قليلاً حتى دخل محمد ﷺ، فاطمأنت القلوب لما يعرفون من صدقه وأمانته، وحكمته ورأيه، وقالوا: هذا محمد الأمين رضيناه.

شرح الوجهاء لسيدنا محمد ﷺ، القضية فما كان منه إلا أن خلع رداءه وبسطه، ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ولترفع، حتى إذا وصلوا به إلى مكانه أخذه بيديه الشريفتين ووضعه في موضعه المحدد.

---

(١) رواه ابن هشام ١/ ١٣٣ عن إسحاق.

وكان ﷺ، آنذاك في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. ولم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع صغيرة أم كبيرة إلا ويشارك فيها. وهكذا فالإنسان المسلم عليه أن يعيش مع مجتمعه يصل رحمه، ويعود المريض، ويحمل العبء عن بعضهم، ويشارك في الأفراح، ويصلي في مسجد حيه، ويبتاع من سوقه. يقول ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1]. وأدرى الناس بالرجل أهله وجيرانه، فإذا عاملهم المعاملة الإسلامية فلا يكذب، ولا يغش، ولا يغتاب، ولا يتكلم إلا بخير، فإذا فعل ذلك كان عندهم قدوة، وحاولوا أن يقلدوه ويسيروا على نهجه، وإذا أصابه مكروه حموه ومنعوه، ولكن إذا انزوى عنهم وابتعد كان بينهم نكرة لا يؤثر فيهم ولا يستفيد منهم. وكذلك فعليه أن يكون سمحاً في معاملتهم في بيعه وشرائه، كريماً معهم، يقول ﷺ: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»[2]، ويقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3] ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[4]. وسأل رجل رسول الله ﷺ، أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[5].

وميدان عمل المسلم هو المحيط الذي يعيش فيه، فليمهد هذا الميدان لذلك وليعرفه وليتعهده.

٢ ـ الحياة الخاصة:

كانت حياة رسول الله ﷺ، الخاصة أسوة صالحة للرجل المؤمن حتى قبل البعثة، فما من عمل يقوم به إلا وكان مثلاً أعلى للشباب، إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويتعهده. ومن أعماله الخاصة:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩) في صفة القيامة: باب مخالطة الناس مع الصبر على أذاهم، وابن ماجه (٤٠٣٢) في الفتن وغيرهما وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري وغيره من حديث جابر. (٣) (٤) (٥) متفق عليه.

١ ـ **كسب الرزق:** كان ﷺ، يرعى الغنم، وكان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب، وذهب بتجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشام على جزء من المال يأخذه، وبعد أن تزوج بها كان يتاجر بمالها، ويأكل من عمل يده، ويقول ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً مما يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[١]، ومنّ الله عليه بأن أغناه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾[٢].

٢ ـ **السمر:** كان من عادة شباب قريش السهر في الأندية واللهو والشرب فيها، وقول الشعر أحياناً، أو الذهاب إلى الأصنام وعبادتها، ولكن رسول الله ﷺ لم يفعل شيئاً من هذا إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحول بينه وبين هذه الأعمال منذ صغره حتى لم يكن يحضر الاحتفالات أو الأعياد التي تقام للأصنام، ويقول، عليه الصلاة والسلام: «لما نشأت بُغضت إلي الأوثان، وبُغض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر، كما يسمر الشباب، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك»[٣]. وكان ﷺ، لا يشرب الخمر. فقد حرمها على نفسه على الرغم من أنها كانت شائعة في ذلك المجتمع لدرجة كبيرة، كما لم يكن ليأكل مما يذبح على النصب، كل هذا زاد قومه حباً له.

وهكذا فالمسلم يجب أن يبتعد عن مواطن الشبهات ومواضع التهم، وحذار أن يُقال: إن هذا هو السائد في المجتمع وعلينا المسايرة، فالمسلم

(١) رواه البخاري. (٢) سورة الضحىٰ: الآيات: ٦ ـ ٨.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه ابن كثير في البداية ٢/ ٢٨٧.

يعيش في المجتمع ليؤثر فيه، ويحاول أن يغير ما فيه من أعمال غير حسنة لا أن يتأثر فيه ويعمل كما يُعمل، فما يفعل هذا إلا الرجل الضعيف الإمّعة، ورسول الله ﷺ يقول: «لا يكن أحدكم إمعة إذا أحسن الناس أحسن، وإذا أساؤوا أساء»[1]. هذا صحيح، ولكن لا يقرب مسلم مواطن السوء فهذا أمر يختلف عن ذاك.

٣ ـ الزواج: أصبح محمد ﷺ، شاباً كامل الرجولة، فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وغدا هدفاً لكثيرٍ من القبائل والبطون تريد أن تناسبه لتحصل على الشرف شرف القرابة، وما هذا بالذي يخفى على الفتيات، وكل واحدةٍ تريده بعلاً، وإن كان قليل المال، فالمال ظلّ زائل، أما الشرف فأثر دائم، ولكن أنى للفتاة أن تتحدث بما يجول في نفسها في المجتمع القبيلي إلا من كانت من الوجاهة ما تحول بينها وبين نقمة القوم، ومن الشرف ما يمنع أن تتحدث عنها القبيلة، أو من الغنى ما تذود به عن نفسها، أو تكون أرملة ثرية عركت الحياة، وقرفت الزواج، وحضرت منازل الرجال بمالها في مجتمعها من أثر الثراء والوجاهة.

وكانت خديجة بنت خويلد الأسدية ذات شرف ووجاهة، إذ أن بني أسد أحد بطون قريش المشهورة بالمجد والسؤود. وكانت تاجرة تستأجر الرجال في مالها ليتاجروا لها، وتضارب بقية التجار وتنافسهم، وكانت أرملة قد تزوجت أبا هالة، وأنجبت منه ولداً هو (هالة) ربيب سيدنا محمد ﷺ، كل هذا جعلها تستطيع أن تتحدث بما في نفسها.

سمعت خديجة بسيدنا محمد ﷺ وأمانته، وصدقه، ودرايته، وعلمه فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره. كل ذلك لتستوثق لنفسها. فسافر سيدنا محمد ﷺ، مع غلامها ميسرة، فباعا ما حملا معهما، واشتريا ما عادا به، وربحا ربحاً عظيماً وظهر سيدنا

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨) وفي إسناده ضعف، وقد صح موقوفاً على ابن مسعود.

محمد ﷺ لميسرة على حقيقته رجلاً لا كالرجال، وإنما معجزة لهم على مدى الأيام. ولما عاد الرجلان إلى مكة، وسمعت خديجة من ميسرة ما رأى من صاحبه، سرت سروراً بالغاً، وطمعت في زواجه، وأرسلت تخطبه لنفسها، وكانت تقارب الأربعين من العمر.

وذهب رسول الله ﷺ، مع أعمامه، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد، فخطبوها منه فزوجه منها، وخطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئي[1] معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً، ونبلاً، وفضلاً، وإن كان في المال قلاً فإن المال ظلّ زائل، وأمر حائل، وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق (كذا)» وعلى ذلك تم الأمر.

وقد عاش ﷺ، مع خديجة حياة زوجية هادئة مثالية، وقد عرف كل صاحبه معرفة حقة عن قرب، فعرفت خديجة في زوجها الرجل المثالي في الصدق، والأمانة، والكرم، والوفاء، والمحبة، والخير وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في المستقبل.

٤ ـ **الخلوة**: وفي أواخر العقد الثالث من عمره، حببت إليه الخلوة، ليبتعد عن مشكلات ذلك المجتمع المليئة بالمفاسد الحافلة بالمظالم، المعقدة، الكثيرة المآسي، وليعبد الله على دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، فإن في العزلة صفاء السريرة، وسلوة النفس، فكان، عليه السلام، يرتقي إلى جبل قرب مكة، ويخلو في غار هناك يدعى: «غار حراء» ينظر إلى مكة أمامه صغيرة فتصغر في عينيه مكة ومن فيها والدنيا بأكملها، وينظر إلى

---

(١) الضئضئ ـ بكسر المعجمتين ـ الأصل والمعدن.

أعاليها فيرى أنها دون موضع قدمه فيصغر العظماء، والقادة، والجبابرة، والمتغطرسون في نظره.. وهكذا ينظر المسلم دائماً إلى الطغاة على أنهم دونه بكثير ما دام هو مؤمناً بالله[1].

كان محمد ﷺ، يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد، فيدوم بقاؤه عشرة أيام، وأحياناً شهراً، وكان يتزود لذلك الانقطاع، فإذا فرغ زاده رجع إلى زوجه خديجة فمكث الأيام القليلة ثم عاد لخلوته وهكذا حتى جاءه الوحي الأمين.

ومن هذا يتبين أن على المسلم أن يترك جزءاً من اليوم لعبادته وتفكيره ودعوته، ويوماً من الأسبوع، ووقتاً من الشهر لكي يبقى على صلة بالله لا تلهيه الحياة المادية التي انخرط فيها الناس حتى أنستهم أنفسهم وأهليهم، وأبعدت عنهم أولادهم وتركتهم في فراغ روحي عظيم كل ذلك في سبيل الحرص على المادة والادعاء بأنها ضرورة من ضرورات الحياة، وتحت اسم هذه التعقيدات التي فرضناها على أنفسنا، والمتطلبات الضرورية التي لهثنا في طلبها... هناك فرق بين الحاجة إلى المادة وبين عبادتها، هناك فرق بين الاكتفاء بالحاجة والجشع في الطلب.. فرق بين الضروري والكمالي فرق بين... و...

---

(١) انظر فصل استعلاء الإيمان في «المعالم».

الفصل الثالث

البعثة

بينما كان رسول الله ﷺ، ذات يوم في غار حراء يتعبد إذ جاءه الوحي، وكان ذلك في ١٧ رمضان عام ١٣ قبل الهجرة وهو ما يوافق أول شباط من عام ٦١٠ من ميلاد سيدنا عيسى، عليه السلام، وكان رسول الله ﷺ قد أتم الأربعين عاماً. وقد قالت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالث، ثم أرسلني فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾»[1] فرجع بها رسول الله ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ،

(١) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٣

وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب بالعبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[1]. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[2].

وفتر الوحي مدة أصح ما قيل فيها: أربعون يوماً، وذلك ليشتد شوق رسول الله ﷺ، إلى الوحي، حتى صار كلما ارتقى جبلاً خطر له أن يرمي نفسه منه خوفاً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى بأن يكون إلى الخلق رسولاً، وكان كلما فكر في ذلك يتبدى له الملك قائلاً له: أنت رسول الله، فيطمئن خاطره، ويبعد عن نفسه ما عزم عليه.. وبقي كذلك حتى عاد إليه الوحي، ومع الشوق كان يتخوف من الوحي لما أصابه في المرة الأولى.

فبينما كان مرة رسول الله ﷺ، يسير إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع بصره فإذا الملك الذي غطّه في غار حراء جالس بين السماء والأرض فرعب أشد الرعب وتذكر ما حدث معه في ذلك الغار، فعاد إلى البيت مسرعاً فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[3] كما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾[4].

---

(١) أي شاباً ـ وهو بفتح الجيم والذال ـ وذلك ليتمكن من نصرته والإيمان به.
(٢) فتح الباري ١/٢١ ـ ٢٦: كتاب بدء الوحي.
(٣) سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٧. (٤) سورة الضحى: الآيات ١ ـ ٤.

وعن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام، رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة، رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1]. وتتابع الوحي بعد ذلك.

كان اللقاء الأول مع الوحي قاسياً ـ كما رأينا ـ وذلك ليشعر رسول الله ﷺ، بقسوة العمل والمهمة الشاقة الملقاة على عاتقه، وكان التنزيل دائماً يحثه على ضرورة الصبر ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]. ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[3]. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[4]. ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[5]. ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[6]. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾[7]. ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[8]. ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[9]. ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾[10]. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾[11]. ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٥ ـ ٢٦ كتاب بدء الوحي.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠٩.
(٤) سورة هود: الآية ٤٩.
(٥) سورة هود: الآية ١١٥.
(٦) سورة النحل: الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٧) سورة طه: الآية ١٣٠.
(٨) سورة الروم: الآية ٦٠.
(٩) سورة لقمان: الآية ١٧.
(١٠) سورة ص: الآية ١٧.
(١١) سورة ق: الآية ٣٩.

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾[1]. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾[2]. ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾[3]. ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[4]. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾[5]. الصبر على ما يلقى من وجهاء قومه، وغطرسة مجتمعه، وإصرارهم على شركهم، وتعنتهم في سبيل البقاء على عاداتهم الجاهلية وتقاليدهم الفاسدة، والتأكيد على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[6].

كانت آيات الصبر تتنزل في مكة وفي المدينة وفي كل مناسبة، وإذا كانت هذه القسوة التي يلقاها رسول الله ﷺ، أثناء الدعوة تحلو لقلبه الكريم للإكرام الذي أكرمه الله به إذ اختاره من بين عباده ليكون رسوله إلى خلقه، وللنعمة التي أنعمها عليه في هدايته، ورعايته، وكفالته منذ الصغر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[7] وإذا كان رسول الله ﷺ، يشعر بهذا كله، ويقدره قدره، فإن على الداعية أن يعلم من بداية الطريق أن دربه الذي يسير فيه طويل شاق محفوف بالمكاره مليء بالأشواك، فيه مقاومة للنفس التي تنزع دائماً إلى التحرر من القيود المفروضة عليها، وفيه مقارعة للمجتمع الذي يفضل مصلحته على كل شيء، ويدور دائماً وراء أطماعه، وفيه خلاف مع المتنفذين الذين لا يريدون أن يقف شيء أمام رغباتهم الشخصية، ويحاربون كل من يريد أن يحدّ من سلطانهم أو يقف في وجه أهوائهم وجبروتهم. ويشعر الداعية أيضاً بحلاوة الإيمان في عمله لانتصاره إذا حقق نجاحاً،

---

(١) سورة الطور: الآية ٤٨.
(٢) سورة القلم: الآية ٤٨.
(٣) سورة المعارج: الآية ٥.
(٤) سورة المزمل: الآية ١٠.
(٥) سورة المدثر: الآية ٧.
(٦) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(٧) سورة الضحى: الآيات ٦ ـ ٨.

ولما ينال من أجرٍ من الله إذ يكون جزاؤه جنات تجري من تحتها الأنهار، وإذا كان يشعر بمرارة العيش أو الضغط عليه والحد من نشاطه من قبل أصحاب النفوذ في هذه الحياة الدنيا الفانية التي ليس فيها إلا متاع الغرور، وهي زمن محدود فإنه يعرف أن الآخرة التي ينال فيها نصيبه هي ذات نعيم لا يزول، ولا نهاية لمدتها، وهي حياة الاستقرار.

الباب الثالث

الدعوة في مكة المكرمة

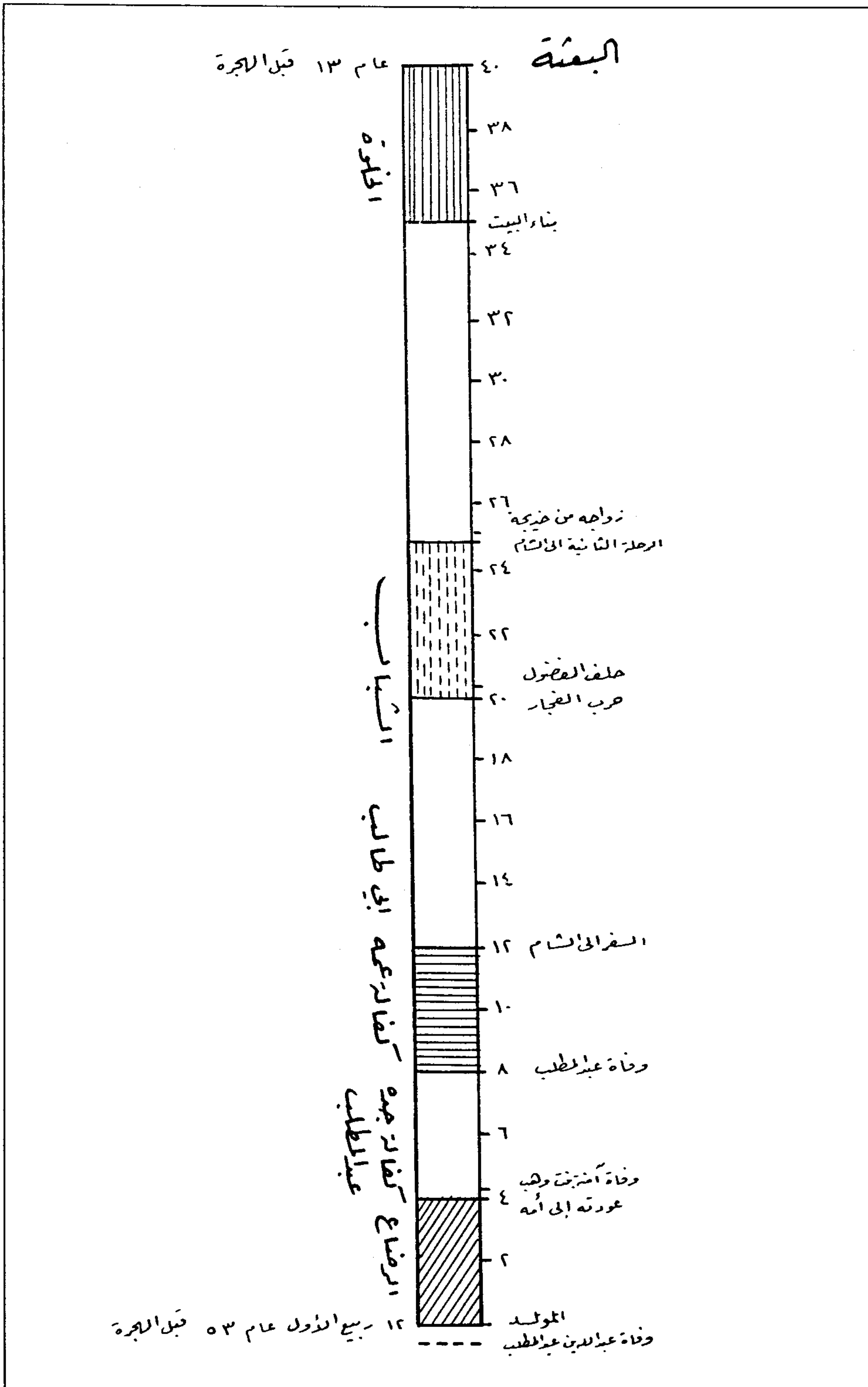
البعثة
٤٠ عام ١٣ قبل الهجرة
٣٨
٣٦
بناء البيت
٣٤
٣٢
٣٠
٢٨
٢٦
زواجه من خديجة
الرحلة الثانية الى الشام
٢٤
٢٢
حلف الفضول
٢٠ حرب الفجار
١٨
١٦
١٤
١٢ السفر الى الشام
١٠
٨ وفاة عبد المطلب
٦
وفاة آمنة بنت وهب
٤ عودته إلى أمه
٢
المولد
١٢ ربيع الأول عام ٥٣ قبل الهجرة
وفاة عبد الله بن عبد المطلب
الخلوة
الشباب
كفالة عمه أبي طالب
كفالة جده عبد المطلب
الرضاع

الدَّعْـــوَة سِـــرًّا

بُعث محمد ﷺ، فحمل الأمانة، وبدأ يؤدي الرسالة، ويدعو من قومه أولئك الذين تربطهم به روابط القربى القريبة أو الصداقة القوية، أو من يتوقع منهم تلبية الدعوة لدين الحق، فلبى الدعوة أولئك النفر الأوائل لما عرفوا من أخلاقه وصدقه. فآمن ابن عمه (عليّ) الذي يعيش في كنفه، وزوجه (خديجة) التي في بيته، وخادمه (زيد) الذي يخدمه في منزله، وصديقه (أبو بكر) الذي كان على صلة كبيرة معه، وكان دور صديقه كبيراً في دعوة رجال كان لهم أثر عظيم في الإسلام أمثال: (عثمان بن عفان)، و(الزبير بن العوام)، و(عبد الرحمن بن عوف)، و(سعد بن أبي وقاص)، و(طلحة بن عبيد الله)، ومن صدق نبوته ﷺ، تلبية أهله وأصدقائه لدعوته فإنهم هم أكثر من يعرف حقيقته، ويعلم صدقه، ولم يكن إيمانهم من أجل تحقيق مصلحة عاجلة، فهذا أمر رجال الدنيا وطلّابها، وإنما كان إيمانهم بوحي السماء، ولا يمكن أن يؤمن أحد بآخر يدعي النبوة إلا إذا عرف منه الأخلاق التي تخوله تلك المنزلة من الله.

ولم يكن رسول الله ﷺ، يظهر الدعوة في مجامع قريش العامة كالأندية والحرم، وإنما كانت دعوته لأفراد بأعينهم. ولم يكن المسلمون الأوائل يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريشٍ لدينها ووثنيتها، وإنما كانوا يخفون ذلك، وكان كل من أراد العبادة يذهب إلى شعاب مكة، ويصلي هناك مستخفياً. ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم رسول الله ﷺ، على شكل جماعاتٍ يرشدهم ويعلمهم ليكوّن منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها أولئك الذين

يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار رسول الله ﷺ، لذلك الاجتماع دار (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي)، فكان يلتقي بهم على شكل أسر يعلمهم أمور دينهم، ويوضح لهم الطريق. وكان إلى جانب دار (الأرقم) المركز الرئيسي دور أخرى تكون مراكز فرعية حيث يذهب إليها رسول الله دون انتظام، أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم رسول الله، مثل: دار (سعيد بن زيد)، التي كان يلتقي فيها مجموعة من قومه من بني عدي بينهم: سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام العدوي، ويلتقي معهم خبّاب بن الأرت، وكأن اللقاء كان يضمّ أبناء البيت الواحد إن توفّر العدد في سبيل السرية التامة، وحتى تستفيد النساء اللواتي يصعب خروجهن إلى الاجتماعات.

لم يكن أولئك الذين لبّوا دعوة رسول الله ﷺ، من مجموعةٍ واحدة أو طبقة، كما يقولون هي الفقراء والعبيد والموالي الذين نقموا على النظام الجاهلي الذي منعهم حق الحياة الكريمة، وإنما كان المؤمنون من مختلف المستويات، بل إن بعضهم من وجهاء قريش وأبنائهم، كانوا في طليعة المصدّقين، ومن الذين تعرضوا للأذى أكثر من غيرهم إذ لا يمكن أن نقول: إن نور الفكر محصور في مجموعة أو طبقة من الناس، ولعلنا نرى أولئك السادة من قريش. نحن نعلم أن قريشاً كانت اثني عشر بطناً، ويعد أفراد كل بطن بمنزلة واحدة، وهم السادة، وإن كان يختلف بعضهم عن بعض بالغنى والثراء أو كثرة الأبناء والأفراد، وهذا ما يزيد في المنزلة بعض الشيء، وإن كان ذلك لا يمنع أن نعدّ بقية أفراد قريش دون منزلة السيادة أو مركز الوجاهة، وعندما تتوفر لأحدهم بعض مقومات المال أو البنين يرتفع مباشرة، وهذا ليس للوراثة فيه أي أثر. بل إن قريشاً كانت نفسها وحدة متكاملة متساوية في المنزلة، وتعدّ بقية القبائل دونها وأقل مرتبة منها. ومن هؤلاء الأعيان:

من بني عبد مناف: عثمان بن عفان، خالد بن سعيد بن العاص، عمرو بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهؤلاء الأربعة من بني عبد شمس: قوم أبي سفيان.

من بني هاشم: علي بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن أبي طالب.

من بني المطلب: عبيدة بن الحارث.

من بني عبد الدار: مصعب بن عمير.

ومن بني أسد: الزبير بن العوام[١].

ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله.

ومن بني عدي، قوم عمر بن الخطاب: سعيد بن زيد، ونُعيم بن عبد الله النحّام.

ومن بني عامر قوم سهيل بن عمرو: أبو سبرة بن أبي رهم[١]، وسليط بن عمرو، وحاطب بن عمرو، وحطاب بن عمرو، والسكران بن عمرو.

ومن بني الحارث: أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح.

ومن بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير بن أبي وقاص، والمطلب بن أزهر.

ومن بني مخزوم، قوم أبي جهل وخالد بن الوليد: عياش بن أبي ربيعة، وأبو سلمة بن عبد الأسد[١] والأرقم بن أبي الأرقم.

ومن بني سهم، قوم عمرو بن العاص: خنيس بن حذاقة.

ومن بني جمح: عثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله وابنه السائب، وحاطب بن الحارث.

وهذه أشهر بطون قريش وأكثرها وأقواها، فليس من بطنٍ إلا ودخله الإسلام، وكان منه أفراد كثيرون، ومجموعهم أكثر المسلمين في ذلك الوقت أيام كانت الدعوة سراً، بل وحتى وقت الجهر بها. فكيف يقال: إن

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة «بناة دولة الإسلام» بقلم المؤلف، صدر عن المكتب الإسلامي.

أول من أسلم كان من الطبقات الدنيا التي منها الموالي والعبيد؟ وعدد هؤلاء الوجهاء واحد وثلاثون، ولم يزد عدد المسلمين على الستين مسلماً بينهم اثنتا عشرة امرأة هُنَّ: خديجة بنت خويلد، أسماء بنت أبي بكر، أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، أم أيمن زوج زيد بن حارثة وحاضنة رسول الله ﷺ، فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوج سعيد بن زيد، فاطمة بنت المجلل زوج حاطب بن عمرو، فكيهة زوج حطاب بن عمرو، رملة بنت أبي عوف زوج المطلب بن أزهر، أمينة بنت خلف زوج خالد بن سعيد، أسماء بنت سلامة زوج عياش بن ربيعة، سمية زوج ياسر.

وهناك ثلاثة من قبائل أخرى هم: عامر بن ربيعة، عبد الله بن مسعود من هذيل، مسعود القاري من القارة.

أما الموالي وعددهم أربعة عشر منهم: خباب بن الأرت حليف بني زهرة، صهيب بن سنان حليف بني تيم، عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، عمّار بن ياسر، وأبوه ياسر حليف بني مخزوم، زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، واقد بن عبد الله، خالد بن البكير، أخوه عامر، أخوه عاقل، أخوه إياس، حلفاء بني عدي، وعبد الله بن جحش، أخوه عبد، حليفا بني عبد شمس، بلال بن رباح مولى أمية بن خلف.

وبذا يكون عدد المسلمين:

٣١ من وجهاء قريش وأبنائهم.

٠٣ من قبائل أخرى.

١٢ امرأة.

١٤ موالي وحلفاء.

———

٦٠ مسلماً.

فأكثرية الذين دخلوا في الإسلام يوم كانت الدعوة سراً إنما هم من وجهاء قريش وأبنائهم، وليسوا من الأرقاء والموالي وحلفاء القبائل كما اعتاد

أن يتكلم في ذلك كثير من الذين كتبوا في السيرة، وخاصة من المستشرقين.

أما ما ورد من آيات في شأن الضعفاء: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1]، فإن هذا لا يدل على كثرة الضعفاء، وإنما يدل على المحافظة عليهم، وعلى كل مؤمن مهما كان وزنه الاجتماعي.

وفي هذه الدعوة مخالفة لعادات الجاهلية ونظرة الجاهلية إلى أولئك الضعفاء من الازدراء والاحتقار، ففي الآيات تربية وتعليم وترك لكل ما اعتاده الجاهليون، وليس فيها ما يدل على الكثرة أبدا.

وقد حاول كثير ممن يعادي الإسلام أن يتكلم في هذا الموضوع ليعطي صورة سيئة عن الإسلام فيقول: إن الأغنياء وأصحاب الفكر والمستنيرين لم يقبلوا على الإسلام إلا بعد أن خضد شوكتهم فاضطروا إلى إظهار الإسلام، وهم ينتظرون الفرصة لمحاربته، ولكن الذين آمنوا بالإسلام كانوا من المحتقرين والضعفاء، وكذلك يريد المستغلون في البلاد الإسلامية أن يظهروا الإسلام بأنه التربة الخصبة للفقراء الذين يشكلون أكثرية المجتمع في سبيل استغلال العوام وتسييرهم وراءهم.

غير أن هناك نقطة يجب أن نفهمها وهي أن الذين أسلموا قد كانوا من المستضعفين، ويراد بالمستضعفين أنه لم تكن لديهم القوة ليواجهوا قريشاً، ولم تكن لهم قدرة على حمل قريش لتأدية مهمة ما، فهم من هذه الناحية مستضعفين، كما أنهم مستضعفون لأنهم خارجون عن قبيلتهم بالعرف الجاهلي ما داموا يخالفونها في العقيدة، فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومصعب، والحمزة، وطلحة، وعبد الرحمن، والزبير، وأبو حذيفة مستضعفون ولو أنهم من السادة.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

وفي هذه المرحلة من الدعوة فرضت الصلاة فكانت في كل وقت من الأوقات الخمس ركعتين، وفي الإسراء زيدت الركعات في الحضر، فأصبحت أربعاً في كلٍ من الظهر، والعصر، والعشاء، وثلاثاً في المغرب، أما في السفر والفجر فبقيت كما هي عدا المغرب التي هي ثلاث حضراً وسفراً. وكان أصحاب رسول الله ﷺ، إذا أرادوا أن يصلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. واستمرت هذه الدعوة السرية مدة ثلاث سنوات، وقريش لا تعلمها حتى نزل قول الله مخاطباً رسوله الكريم:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٩٤ ـ ٩٦.

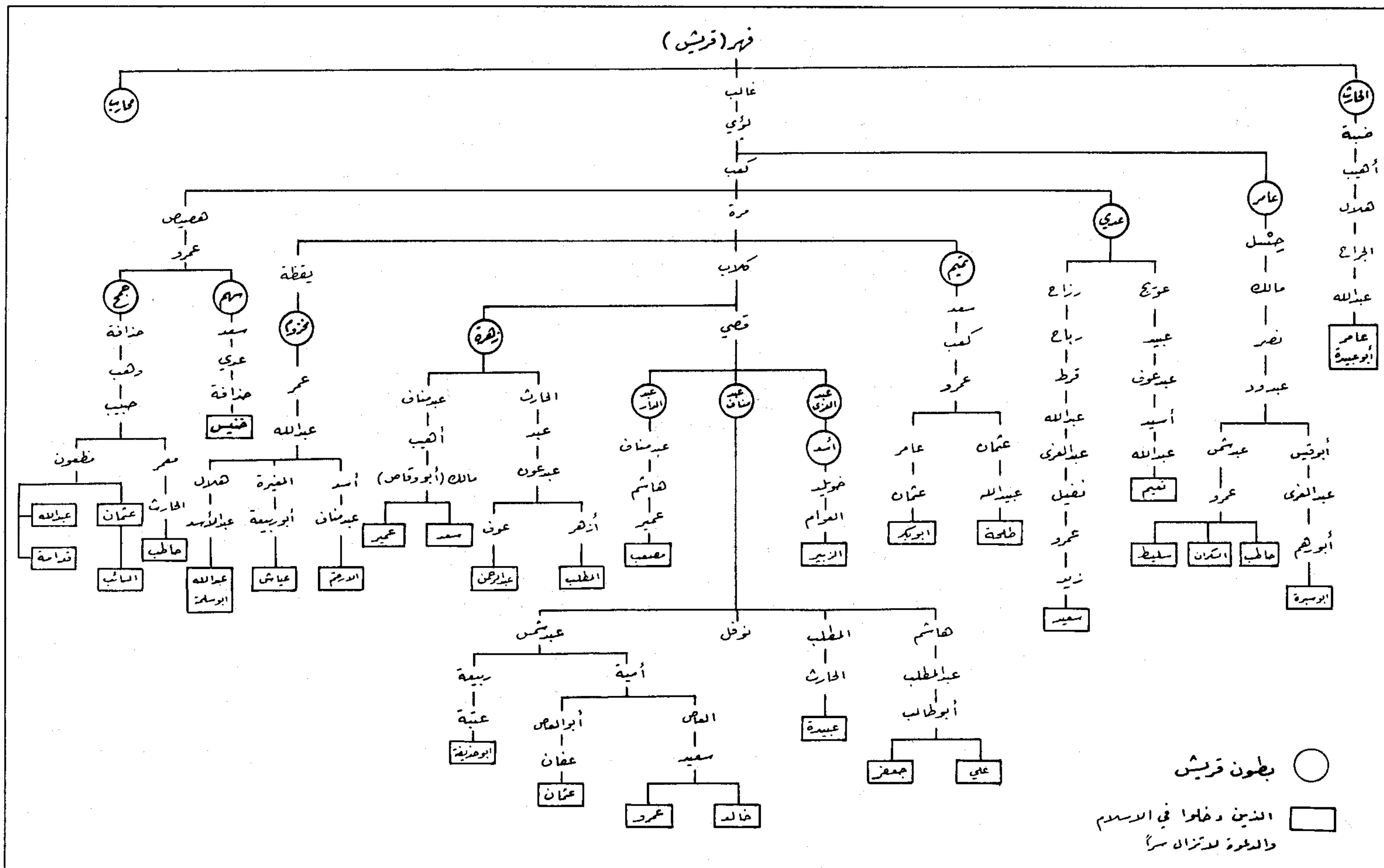
فهر (قريش)
الحارث
ضبة
أهيب
هلال
الجراح
عبدالله
عامر أبوعبيدة
محارب
غالب
لؤي
كعب
عامر
حسل
مالك
نصر
عبدود
أبوقيس
عبدالعزى
أبورهم
أبوسبرة
عبدشمس
عمرو
حاطب
السكران
سليط
عدي
عويج
عبيد
عبدعوف
أسيد
عبدالله
نعيم
رزاح
رباح
قرط
عبدالله
عبدالعزى
نفيل
عمرو
زيد
سعيد
مرة
تيم
سعد
كعب
عمرو
عثمان
عبيدالله
طلحة
عامر
عثمان
أبوبكر
كلاب
قصي
عبدالعزى
أسد
خويلد
العوام
الزبير
عبد مناف
عبدالدار
عبدمناف
هاشم
عمير
مصعب
هاشم
عبدالمطلب
أبوطالب
علي
جعفر
المطلب
الحارث
عبيدة
نوفل
عبدشمس
أمية
العاص
سعيد
خالد
عمرو
أبوالعاص
عفان
عثمان
ربيعة
عتبة
أبوحذيفة
زهرة
الحارث
عبد
عبدعوف
أزهر
المطلب
عوف
عبدالرحمن
عبدمناف
أهيب
مالك (أبووقاص)
سعد
عمير
يقظة
مخزوم
عمر
عبدالله
أسد
عبدمناف
الأرقم
المغيرة
أبوربيعة
عياش
هلال
عبدالأسد
عبدالله أبوسلمة
هصيص
عمرو
سهم
سعد
عدي
حذافة
خنيس
جمح
حذافة
وهب
حبيب
معمر
الحارث
حاطب
مظعون
عثمان
السائب
عبدالله
قدامة
بطون قريش
الذين دخلوا في الاسلام والدعوة لاتزال سراً

الفصل الثاني

الجهر بالدّعوة

بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بالجهر بالدعوة، ودعوة الناس جميعاً، فامتثل محمد ﷺ للأمر، وبدأ بالدعوة العامة وبصورة علنية، وهو واثق بوعد الله ونصره ودعمه وتأييده، فصعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: يا بني فهر (قريش)، يا بني (عدّي)، يا بني الحارث، يا بني.... وجعل يعدد بطون قريش بطناً بطناً، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً عنه لينظر الخبر، حتى إذا اجتمعوا إليه قال، عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: «تباً لك ألهذا جمعتنا»[1]..... ثم أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[2] فقام رسول الله ﷺ، فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[3]، ثم دعا أقرباءه، فاجتمعوا إليه فقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤ ـ ٢١٦.
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

شريك له». ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتجزوُن بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً، أو النار أبداً»[1].

بدأ رسول الله ﷺ الجهر بالدعوة، فكان يدعو الناس في كل مجمع وناد وفي المسجد الحرام يحدثهم، ويتلو عليهم القرآن، كما وينتهز كل عام موسم الحج ليلتقي بالقبائل قبيلة قبيلة، يعرض عليها الإسلام، ويُبيِّن لها الطريق، فيستجيب منهم من يستجيب، ويرفض من يرفض، ويسخر من يسخر. ولكنه في الوقت نفسه الذي كان يدعو فيه قريشاً دعوة عامة في الأندية والمحافل، والقبائل في المواسم، لم يكن ليترك أبداً التربية والعناية الخاصة لأولئك الذين قبلوا الدعوة ليبني منهم القاعدة الصلبة المتينة، فكان يجمع المسلمين في البيوت بشكل سري على شكل مجموعات مغلقة تماماً لا يعرفها أحد خارج أعضائها، بعيدة عن أعين قريش، وعلى غفلةٍ منها، وتتكون هذه الأسر من أولئك الذين عقد عليهم رسول الله ﷺ الأمل في حمل العبء والمهام الجسيمة لنشر الإسلام، وبذا تكوّنت طبقة خاصة من المسلمين الأوائل، قوية في إيمانها، متينة في عقيدتها، مدركة لمسؤوليتها، منقادة لقائدها، مطبقة لكل أمرٍ يصدر عنه باندفاعٍ لا يعادله اندفاع، وحبٍ لا يساويه حب. وبهذه الطريقة استطاع سيدنا محمد ﷺ أن يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة. وبذلك تكون طريقته هذه قدوة لنا في عملنا الذي نسير فيه ودربنا الذي نسلكه حسب هديه ﷺ. ويمكن أن نلاحظ في طريقته النقاط التالية:

أولاً: بدأ الدعوة بعناصر اختارها، فلبت الدعوة وآمنت.

ثانياً: كانت دعوته عامة للناس، وأثناء هذه الدعوة يركِّز ﷺ على من يجد فيهم الإمكانات أو يتوقع منهم ذلك.

---

(١) في إسناده من لا يعرف.

ثالثاً: كان يجمع المؤمنين في مجموعات خاصة لا يعلمها أحد إلا أعضاؤها، وكانت هذه الأسر نواة القاعدة الصلبة التي ثبتت عليها أركان الدعوة.

وعلى هذا يجب أن يكون العمل الإسلامي والدعوة على كل أرض، وفي كل وقت، والسير بالناس في طريق الحق والهدى، ويجب أن تكون الطريق حسب المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ، وفق الخطوط التالية:

أولاً: انتقاء العناصر المؤمنة النشيطة وبدء العمل الإسلامي، ويكون هذا العمل بمثابة الجماعة الإسلامية الأولى، ويلتزم الأفراد بالإسلام التزاماً كلياً، وقد روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «لا إسلام إلا بجماعة». ولا يضيرنا أبداً ما يقال عن هذا العمل إذ أن الأحزاب السياسية البعيدة عن الإسلام وتصرفاتها قد أعطت صورة سيئة عن كل عمل إسلامي، كما أن الشائعات التي روّجها أعداء الإسلام عن الحركات الإسلامية بقصد تشويه سمعتها أمر غير خافٍ على أحد. ويجب ألا ننسى أن هناك عدد من الذين يستغلون الإسلام في سبيل مصالحهم وأطماعهم الشخصية فينتحلون الإسلام وصفة أبنائه وما هم كذلك، إن هم إلا يكذبون، ويزينون لأتباعهم أعمالهم، ويسوّغون لهم مواقفهم، فيصدق الكثيرون، فأكثر الناس بسطاء وخاصة العوام أو ممن ينتفعون من المنتفعين، هذا بالإضافة إلى أن الحكومات تتخذ لها أنصاراً من بين من يدّعي الإخلاص، وقد يكونون من أهل العلم، وتوجّههم حيث تريد تبعاً لمناهجها ومخططاتها. وما أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الآونة من الزمان الذي ضعف فيه المسلمون وضعفت شوكتهم إلا صنيعة دول كبرى يسلمونهم الأمر ليقدموا لهم الخدمات، ويقلّلوا من شأن الدين وأهل العلم، ونظرة واحدة إلى مرتبات العلماء ومن يقومون بخدمة المؤسسات والدوائر الإسلامية كافية لأن تعطي الدليل على ذلك وما يلقاه المخلصون والدعاة على أيدي هؤلاء بين الآونة والأخرى في كل وقت ـ وما خلا منه مصر إسلامي ـ لدليل قوي آخر على ذلك. ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]،

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

ولكنهم يسعون وراء مصالحهم التي يستطيع أن يحققها لهم أصحاب السلطة والنفوذ، لذلك فهم يتبعونهم وينافقون لهم، وكلما ارتقى إنسان تركوا من حطه القدر إلى من رفعه، لذا كان نصيب المتنفذين البقاء مدة أطول في مناصبهم، وبدا لمن ينظر بعين المصلحة والهوى أن أصحاب السلطة لهم الأتباع ومنهم الذين يؤدون العبادات أو يظهرون التدين، ولكن يبدو للذين ينظرون بعين الواقع أن هذا كله زبد يذهب جفاءً بأقل شيء ليظهر في مكان آخر زبداً مرة ثانية، وفي الآخرة يكون هؤلاء من الخاسرين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[1]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

وعلى كل مسلم أن يكون ضمن الصف الإسلامي الصحيح لا ينحرف عنه، ولا يحيد، ولا يبتعد عنه، ولا يقف موقف المتفرج أو الموقف الحيادي ـ كما يزعم بعضهم ـ إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يسمى حيادياً، فالمحايد إنما هو بجانب القوي وضد الضعيف، إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقه، ولكن إذ ترك الأمر فإنما سمح للضعيف أن يؤكل من قبل القوي، والقوي إنما هو صاحب السلطة والنفوذ، فعندما يقف من يدعي الإسلام ويعلن أنه محايد، فإنه يكون بذلك من أنصار السلطة وضد المسلمين قولاً واحداً، ولا ننسى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الأولى بعد توليه الخلافة: «القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردّ إليه حقه. . .».

وإذا لم يطمئن المسلم إلى هذا الصف أو لاحظ بعض الهنات، فعليه أن يسعى في إصلاحها، فإن وجدها كبيرة، أو أن في الخط انحرافات لا تقوّم، أو لا يصح السير فيها، فعليه أن يفتش عن جماعة أخرى يرتضي سيرها، والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض، وإنما

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤٥.
(٢) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤.

دعت الظروف لقيامها، أو تعددت بتعدد الأمصار، وإن لم يجد جماعة قائمة فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعة أو يسعى في ذلك ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأدية للفريضة وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه. أما إذا كانت هناك جماعة تؤدي واجبها الإسلامي بحق، وتخلص في العمل، وعمل على إيجاد جماعة أخرى فعمله باطل يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، وعليه وزر كبير، وما من زمن إلا وكانت فيه جماعة من المسلمين تؤدي دورها، وتقوم بعمل جاد ومثمر بغضّ النظر عن هذه الجماعة، وحجمها، وإمكاناتها، وأثرها في المجتمع.

والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام، وخاصة أن الفرد لم يعد له دور في هذه المجتمعات الحالية التي لا تقيم له أي وزن، وتقوم على التكتلات والتنظيمات، فالفرد مهما كان ذا فكر ضاع في خضم هذه الجاهليات، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري أن رسول الله ﷺ، قال: «آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثِيّ[1] جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[2] وهذا ما يدل على أن تكوين الجماعة ضروري وهو قبل كل شيء، ثم يليه عدم الخروج من الجماعة حيث أن مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تتكامل إلا بالجماعة والجهود الجماعية. وقد نجد أثناء الطريق من ينفر من الجماعة، ويدعو إلى نبذ التجمع، والاقتصار على الدعوة العامة، فهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما رغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالة فارغة، وإما خوفاً وتهرباً من تحمل المسؤولية.

---

(١) بضم الجيم، جمع جثوة، وهي الشيء المجموع من حجارة وتراب وغيره، والمعنى هنا: أي هو من جماعات جهنم.

(٢) الترمذي (٢٨٦٧) والإمام أحمد، وإسناده صحيح.

ثانياً: تقوم الجماعة بدعوة الناس عامة لالتزام الإسلام، وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة العامة منها والخاصة.

ثالثاً: وتقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية، ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلى العمل، وتشكل منها أسراً خاصة لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا تتناقض الدعوة العامة مع سرية العمل، بل على كل عضو في الجماعة أن يدعو إلى الإسلام علناً، ويجب أن يظهر أثر ذلك في كل تصرفاته وأعماله وأسرته وحياته، ولكنه في الوقت نفسه يخفي جماعته عن الأعين، وخاصة في هذا الوقت الذي تتكالب فيه قوى الشر في العالم كله ضد الإسلام.

رابعاً: يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضم الحياة المادية العنيف، إذ ما إن يقع الفرد حتى يتخبط فيه، ويبدأ بمصارعة التيارات، فأعماله المادية لا يمكن أن يتركها لأنه يتوقف على ذلك نجاحه أو دماره وإفلاسه، وحياته الإسلامية أساسية بالنسبة إليه، ويبدأ التهاون تدريجاً حتى يصبح سيره كسير الماديين الكبار، وليس معنى هذا إهمال متطلباته الأساسية وشؤونه المادية تماماً وأبداً، ولكن أن يعيش الحياة الحرة الكريمة لا يحتاج أحداً، ولا ينصرف إلى المادة فقط، والحياة المادية اليوم تتطلب المزيد من الحاجيات التي تتبدل بين الآونة والأخرى، وأصبح الناس يعدّون الكمالي منها أساسياً فيجب ألا نسير في هذه الحسابات، وألا نكون متأثرين بالمجتمع غير مؤثرين فيه.

خامساً: يجب عدم إهمال الروح المعنوية كالثقة بتأييد الله ونصره إذا استقمنا على الطريقة واتبعنا أوامر الله عز وجل إضافة إلى التدريب والاستعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

وقد نشأ أيام رسول الله ﷺ كل فرد مقاتلاً، حيث كان القتال بين القبائل مستمراً، ويتدرب المرء أثناء الغارات وأيام المعارك، وكذلك كانت أعمال السلب والنهب وقطع الطريق وكلها تستدعي معرفة فنون القتال، فكان كل فردٍ مدرباً بشكل طبيعي، أما الآن فنحن بحاجةٍ إلى العمل والاستعداد لذلك، وقد تغيّرت أساليب القتال، وتبدلت أسلحة الحرب، واختلفت قيادات المعارك، وتنظيمات الجيوش.

هذه طريقة رسول الله ﷺ، وهو الموحى إليه من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1] فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقة غيرها تعدّ ناقصة بل وقاصرة إذ لا يمكن الاعتماد على الدعوة العامة فقط، كما يتبنى ذلك الكثيرون، إذ يكون العمل بلا جماعة، ولا نستطيع بهذه الطريقة تكوين القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور وتمسك بناصيتها، وكذلك ينعدم التنظيم الذي يحتاج إلى السرية لنجاح العمل. ولو لم يكن في صحابة رسول الله ﷺ مثل هذه النواة في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن، وأبي عبيدة، وسعيد بن زيد لضاع كثير من الإسلام أيام الردة، بل لما كان الإسلام خاتم الرسالات وصاحبه خاتم النبيين، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما لا يمكن الاعتماد على القوة فقط كما يتبنى ذلك بعضهم، حيث يضيع الحكم بعد تسلمه بمدة وجيزة إذا لم توجد الفئة الواعية التي يمكنها أن تسير بالحكم إلى النهاية، والفئة المدركة لأوضاع العالم وما فيه من أساليب ماكرة لضرب الإسلام، وكل حركةٍ تهدف إلى النهوض به، أو أن الأفراد الذين يتسلمون مراكز القيادات سيختلف بعضهم مع بعض، وتنتقل المعركة بينهم إلى داخل الصف، وكل يظن أن طريقه هي الصحيحة، وأن اجتهاده هو السليم، والذي يتفق مع الخط الإسلامي الصحيح، وقد حدثت أيام صحابة رسول الله ﷺ، قضايا صعبة لو لم تكن فيهم التربية الإسلامية

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ ـ ٤.

القوية لاختلفوا فيما بينهم ولانقلب بعضهم على بعض قبل أن يتولى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، الخلافة، وقد حدث في هذا العصر أن تسلمت بعض الجماعات غير الإسلامية الحكم، وما إن تربعت على كرسيه حتى ظهرت اتجاهات متناقضة حيث يعمل كل لتأمين هواه، وله اتجاهاته، ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس، وبقيت تتكرر الصدامات المسلحة بين الأجنحة المتعددة بين آونة وأخرى. وكذا إذا لم تأخذ الجماعة الإسلامية نصيبها من التربية، وترسيخ العقيدة في النفوس.

وكذلك لا يصحّ أن تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي أو التخلص من أفراد بأعينهم لسبب من الأسباب. إذ لم يلجأ رسول الله ﷺ لهذه الطريقة أبداً، وكان بإمكانه ذلك وبكل يسر إذ كان يستطيع أن يكلف أحد الصحابة بقتل بعض قادة الكفر كالوليد بن المغيرة المخزومي، أو العاص بن وائل السهمي، أو أبي جهل عمرو بن هشام، أو غيرهم وكان أمره لا يردّ بل ينفذ على أنه نوع من أنواع التعبد، ولكن لم يفعل رسول الله ﷺ مثل هذا الفعل. فإن مثل هذا العمل قد يودي بالجماعة الإسلامية كاملة، أو يعرقل على الأقل مسيرتها مدة ليست قليلة من الزمن كرد فعل من قبل أعداء الإسلام الذين يتكالبون على حربها، بل وتجتمع قوى الشر في العالم أجمع لتنفيذ مثل هذا العمل وتباركه وتؤيده وتدعمه بكل إمكاناتها، ولا يمر يوم دون تحرش بالمسلمين للقيام بمثل هذه الأعمال ليكون ذلك مسوّغاً للقضاء عليهم، أو إشارة من جهات عالمية تحرض المسؤولين في الأمصار الإسلامية للإقدام على مثل هذه التصرفات. ثم لا ندري فلربما يكون أشد أعداء اليوم من الأنصار في المستقبل أو من الدعاة. وكثيراً ما حدث مثل هذا الانعطاف في حياة الكثيرين من الرجال. ورسول الله ﷺ، كان يدعو لأعدائه بالهداية والتأييد فهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام» وعمرو بن هشام هو أبو جهل ألد أعداء الإسلام، فلو كتبت له الهداية لكان أحد سيوف الإسلام، وهذا ما حدث لعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد،

وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأبي سفيان، رضي الله عنهم جميعاً. وما دام رسول الله ﷺ، لم يقم بمثل هذه الأعمال وحياته في مكة تشبه إلى حد كبير المجتمعات التي نعيش فيها اليوم ونحن مكلفون باتباع سنته، ومسؤولون عن مخالفتها، لذا لم نقم بها نحن، ولا نشجع عليها. وعندما بعث رسول الله ﷺ إلى كعب بن الأشرف من قتله، كان للمسلمين دولة، ويستطيعون حماية المسلمين بل وقتال من تسول له نفسه بالاعتداء على أي فرد منهم.

والجماعة الإسلامية هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وقائدها هو الأمير بالنسبة إلى الدولة الإسلامية، والأمير إنما هو يمثّل رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول من طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] فالسمع واجب للقائد، وطاعته في طاعة الله فرض «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2]. وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في خطبة له: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ولنعد إلى حديث رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم». والأمير هو إمام المسلمين ورئيسهم، وكما أن طاعته واجبة فالقتال تحت رايته واجب أيضاً، روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ، قال: «الإمام جُنَّةٌ يقاتل من ورائه ويتقى به»[3]. والهجوم عليه والكلام عنه بسوء، مخالفة لأمر الله ورسوله، وخلع للبيعة، وتهديم للعمل الإسلامي، وتفرقة للصف،

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

(٢) حديث صحيح، وهو في «الصحيحين» بلفظ: «لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف».

(٣) رواه مسلم بلفظ: «إنما الإمام جُنَّةٌ فإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا. . .» برقم ٤١٦ في الصلاة.

وتقويض للمجتمع. وقد كان للخليفتين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - هيبة، وللخلافة مركزها أيامهما، لأنه لم يجرؤ أحد أن يتكلم عنهما بسوء أو يتحدث عنهما إلا بخير، لعدم وجود أولئك النفر المنحرفين والخارجين على النظام بين الرعية، ولقرب العهد برسول الله ﷺ، حيث لم تكن السرائر قد فسدت بعد، ولم يندس أصحاب الأطماع بين الصفوف، ومن هنا كانت تنقية الصف يجب أن تتم بين المدة والأخرى بالاختبار والابتلاء للمحافظة على الجماعة الإسلامية والتأكد من خلوها من الشوائب التي قد تتسلل إليها على حين غفلة من أهلها، ولكن عندما تسلل بعض اليهود إلى الداخل، وبدأ أحدهم وهو (عبد الله بن سبأ) يتكلم عن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وينتقل في الأمصار يروج الشائعات، ويزرع بذور الفتنة، والمسلمون لم يعرفوا أمثال ذلك من قبل، فجاءتهم من حيث لم يحتسبوا، ووقع بعضهم في شباكها، وكانت رحابة صدر الخليفة وقوة إيمانه قد فسحت لهم المجال، فحاول أن يجنب المسلمين المصيبة وأن يتلقاها هو بقلبه الكبير، فكان أن زُعزع المجتمع الإسلامي، وحدثت الفتنة، وذهب ضحيتها الخليفة نفسه، وتفرقت كلمة المسلمين، ولم تتوحّد إلا مدداً قصيرة هدأت فيها العواصف لأسباب وقتية، منها قوة الخليفة وسيره في خط سليم بالنسبة إلى أسلافه، ومحاولته رأب الصدع وردم الهوة بين الأطراف المتباينة الآراء، وإما لوجود خطر خارجي داهم يقتضي توحيد الجهود وإنهاء الصراع الداخلي وخاصة في أواخر العهد الإسلامي. وإذا كان المسؤول معرّضاً للحرب الكلامية أو النقد الدائم ضعف مركزه، وقل شأنه، وبالتالي تضعف معه قيمة الدولة. والأمير رئيس المسلمين سمعته من سمعتهم، وقوته من قوتهم، وهيبته من هيبتهم.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته إلى العالم، وهو غاية كل دعوة إسلامية، وأمل كل داعية، وفرض على المسلمين كافة، ومن هنا كان واجب عليهم البيعة لأمير، وقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من خلع يداً من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا حجة له. ومن مات وليس

في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1] ولا يجوز أن يوجد إلا أمير واحد للمسلمين، فإن نازعه أحد وجب قتاله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[2].

ولما لم توجد اليوم دار للإسلام يطبق فيها شرع الله، فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة طاعته واجبة، والبيعة له حتمية، وإن لم يستطع أن يطبق المنهج ويقوم بتنفيذ الحدود والأحكام: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »، وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ، ولم تكن هناك دولة إسلامية تقيم الحدود، وتطبق منهج الله، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم»[3]. وتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنة، ومتى أعطى المبايع البيعة كانت أمانة في عنقه لا يحلّ له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عن ذلك لا يجوز له، إلا أن يخلّ الأمير بشروط البيعة فعندها يتم التشاور في استبداله بعد النصح، وطلب الالتزام بالشروط. وليس من شروط البيعة أن يبايع كل فرد، ولكن تنعقد بيعته للأمير بقبوله الانضواء في الصف. ويجب ألا يخطر في بال إنسان أنه لم يبايع ما دام لم يضع يده في يد الأمير ويبايعه. وكل رغبة في تقويض الجماعة أو الإساءة إليها إنما تستهدف أول ما تستهدف القائد بالدرجة الأولى، لذلك نرى التهم تكال للأمير، وتروّج الشائعات ضده وضد جماعته من قبل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الأطماع من المسلمين وهم أصعب هؤلاء وأدهاهم، لذا يجب الحذر منهم، ومعرفة القصد من وراء كل كلمة تقال في هذا المجال. وقد كان المسلمون الأوائل يحافظون على تجمعهم فلا يتعرضون للقيادة إلا بخير، ولا يتلقون إلا من

---

(١) رواه مسلم (١٨٥١). (٢) جزء من حديث رواه مسلم ـ ١٨٤٤ ـ .

(٣) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

المسؤول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدثون إلا له، ويمثله الآن الأمير، وكان ﷺ يوجه اهتمامه وانتباهه الكبير إلى الأسرة التي تعد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء فيها التلقي والعطاء فقط وإنما الحياة بين أعضائها حياة إسلامية تصور الحياة في ظل الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها، وتعطي أهل مكة صورةً عمليةً عنهم حتى تتوضح لهم الحقيقة، ويعرفون صلاحية الدعوة وبالتالي كسبهم إلى صفها، ولم تكن المجموعة التي نشأت في دار (الأرقم بن أبي الأرقم) على يد رسول الله ﷺ، إلا صورة حية لهذا الأنموذج.

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تأخذ طريقها إلى النفوس، وتجد فيها مستقرها ومستودعها، ويزداد عدد أفرادها يوماً بعد يوم، وهذا ما أخاف قريشاً وزعماءها، خاف الزعماء على مصالحهم أن تنتهي، وعلى مراكزهم أن يقضى عليها، ويأتي غيرهم من أصحاب محمد، عليه الصلاة والسلام. وخشيت قريش على دينها أن يزول، وعلى أصنامها أن تتحطم، وعلى وثنيتها أن تترك، فأرادت أن تنقذ الموقف وتحتفظ لها بشيء من الهيبة والعقيدة، لذا رغبت في المساومة لإبقاء بعض عناصر الشرك ومظاهر الجاهلية فيما تعتقد. وبينما كان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، اعترضه بعض زعماء قريش فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظ منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه... وجاء الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة لله وحده ليس لمحمدٍ فيه شيء، إنما هذا أمر الله الذي لا مرد لأمره، ولا راد لحكمه فلا مساومة، ولا اتفاق، ولا لقاء: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1].

(١) سورة الكافرون الآيات ١ ـ ٦.

تأكيد يليه تأكيد على أن هذه أول خطوة في الطريق يجب أن يسير عليها رسول الله ﷺ كما يجب أن تكون أول الشوط أمام كل داعيةٍ فيتيمز بها خطه، ويعرف بها طريقه في شعوره وسلوكه، ابتعاد عن درب الجاهلية، وانعزال عن دربها، ومفاصلة في طريقها وسلوكها. وإذا كانت بعض أعمال المنحرفين كثيراً ما تتلبس بأعمال المسلمين، وخاصة الجماعات التي تتحدث عنه على الرغم من أن الفارق بينهما بعيد والبون شاسع، فإن السبيل الوحيد للتميز والسير في الخط المستقيم القويم هو الخروج من الجاهلية بجملتها والسير في طريق الإسلام بجملته، والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

والمفاصلة مفاصلة شعورية لا مفاصلة انعزالية، إذ كان رسول الله ﷺ في مكة يعامل المشركين يبيعهم ويبتاع منهم يدعوهم ويقبل دعوتهم، فقد لبى دعوة (عقبة بن أبي معيط)، وكان جاراً له، وقد دعا إليها عقبة كبراء قريش وفيهم رسول الله ﷺ، وقال له، عليه الصلاة والسلام: «والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله، فتشهد عقبة ثم عاد فنكث، وبدأ يسخر من رسول الله ﷺ. وإذا كانت المفاصلة انعزالية لا يمكن للمرء أن يقوم بالدعوة الإسلامية أصلاً، وهل يدعو إلا البعيدين عن الإسلام؟ فكيف يبتعد عنهم ويدعوهم ويوجههم؟ ولكن يكفي المسلم أن يشعر أنه يختلف عن المحيط الذي يعيش فيه، يختلف في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك، وفي كل جوانب الحياة. وفي الاحتكاك مع مجتمعه يظهر لهم سلوك المسلم وأهمية دعوته ومحاسنها فيؤثر فيهم وهذه غايته، وكلما كان الاحتكاك والتطبيق سليماً كان التأثير واسعاً.

وكثيراً ما يحاول أصحاب الدعوات السائرة في طريق الجاهلية التي تنهل من نبعها، وهي شريكتها في الدنيا والآخرة، يحاول أصحاب هذه الدعوات أن يكسبوا إلى صفهم بعض البسطاء من المسلمين، أو الذين ينتمون إلى الإسلام انتماءً، أو لهم مصالح وأطماع بتزيين جاهليتهم إليهم بأن فيها كثيراً من الإسلام وما يدعو له، وأن ما في أعمالهم لا يخالفه، بل

مما يؤيده، وأنهم عندما يصلون إلى بعض مطالبهم يكونون قد اقتربوا من الإسلام، أو يكونون قد قطعوا مرحلة انتقالية، وهكذا يتدرجون مرحلة إثر مرحلة حتى يستطيعوا تطبيق مبادئهم التي يقرها الإسلام. ذلك ما يقولونه بألسنتهم إذا التقوا بهؤلاء البسطاء والله يعلم ما تخفي قلوبهم، والله يعلم إنهم لكاذبون.

يقول بعضهم: إن الاشتراكية من الإسلام فهي تدعو إلى العدالة وعدم الاستغلال وهذا من الإسلام، أو يقولون إننا ندعو إلى المساواة وعدم سيطرة طبقة على أخرى وهذا ما دعا إليه رسول الله ﷺ وأيده.

ويقول بعضهم: إننا ندعو إلى إنصاف المرأة وإعطائها حقوقها، فالإسلام أول من اعترف بحقها كاملاً ولكن الظروف السيئة التي مرت بهذه البلاد قد جعلها تتردى وتهمل وتعود إلى أسوأ الذي كانت عليه، ونحن نريد أن نعيد إليها مرةً أخرى ما فقدته.

ومنهم من يقول: نعتقد أن الأمة لا يمكن أن تتماسك وتأخذ طريقها اللائق بها إلا عن طريق الأخلاق ومحاربة الرشوة والانتهازية والنفاق، ومتى سادت الأخلاق يمكن عندها الدعوة إلى الإسلام، أما الآن والأخلاق سيئة والفقر مسيطر، ولا أخلاق مع الفقر، وكاد الفقر أن يكون كفراً، لذا فإننا ندعو إلى إزالة الفقر وسيادة الأخلاق حيث لا يمكن الآن أن ندعو إلى الإسلام، لأن المقاومة عنيفة والجهل مستحكم، ويقال عنا إذا فعلنا ذلك: رجعيون ومتخلفون و....

ومنهم من يقول: إننا نعمل بكل جهدنا للوحدة، والإسلام يدعو لها، والآيات التي تحث على اجتماع الرأي ووحدة العمل وتحض على عدم الفرقة كثيرة، ومتى وصلنا إلى ما نبغي، وتمت الوحدة لم يعد أمامنا من طريق إلا الإسلام، فنسلكه، أما الآن فلا يمكننا العمل للإسلام لأنه في البلاد الأخرى قد لا يوافقونا على ذلك، فيحاربوننا، ولكن إذا أصبحت الوحدة صار المجتمع تحت إمرة واحدة تطبق الإسلام، وحتى نحن لا نستطيع تطبيق الإسلام على أنفسنا حتى لا ينفر منا الناس ويبتعد عنا أفراد

المجتمع، فالوحدة طريق يلتقي عليه الجميع على اختلاف أفكارهم، بل لا يستطيع أحد أن يقف في وجهها.

وهكذا جماعات وجماعات توقع في حبالها بعض البسطاء من المسلمين، وتستفيد منهم داخل صفوفها لتخدع الناس بأنها مسلمة وتضلل آخرين وآخرين، وهكذا يضربون بعضهم ببعض ويحاربونهم بأنفسهم، ويهدمون بهم كل ما يحملون في قلوبهم من عقيدة وفكرة. فرق كبير بين طريقة جاهلية تعد الوسيلة غاية، لترفد الجاهلية وتكون داعية لها، وبين دعوة الحق والهداية التي تعد الوحدة والأخلاق والعدالة وسيلة، ويجب أن تكون وسائل الدعوة مشروعة منسجمة مع الإسلام، وليست الغاية سوى عبادة الله تعالى وتطبيق منهج الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله وهذه سبيل الدعوة الإسلامية لا سوى ذلك مهما زينت دعوات الجاهلية. إذ لا يمكن الدعوة إلى الوحدة وكل مجموعة لها أفكار معينة، وارتباطات معينة، وتصرفات معينة، وكلها لا يرضى عنها الإسلام، ولا يقبلها بل يحاربها، ولا يمكن الدعوة إلى الأخلاق، والخمور منتشرة، يعاقرها دعاة الأخلاق، والزنى شائع، ويأتيه دعاة الأخلاق، والربا والرشوة والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يمكن الدعوة إلى العدالة وأنصارها يستبيحون أموال الناس بالباطل، ويثرون على حساب الفقراء، ويحقدون على الأثرياء جشعاً وطمعاً، ويشجعون الكسالى على الأغنياء مكيدة واستغلالاً، والدعوة إلى الإسلام دعوة لكل خير، ونهي عن كل شر دفعة واحدة، لا تجزئة ولا تفرقة، ولا مرحلة ولا تقسيطاً، نأخذ جزءاً ونترك الآخر حتى يأتي وقته، ونرتكب المنكرات وندعو إلى بعض الأعمال المفيدة أو التي لا ضرر فيها، أمور متناقضة يراها كل ذي عقل مجرد، يُعمل عقله، ورسول الله ﷺ، لم يتبع إلا طريقاً واحدة اختارها الله له، وسار هو عليها، لم يحد عنها - معاذ الله أن يحيد - ولم تكن على مراحل ينعطف بعد كل مرحلة إلى جهة ثانية أو ينتقل بعدها إلى مرحلة جديدة، وإنما كانت دعوة واضحة من أول الطريق متميزة منذ البداية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1] ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

لم يتزعم رسول الله ﷺ الدعوة إلى التعصب لقومه، والعمل على توحيد بلاد العرب، وقتال الفرس والروم والأحباش الذين كانوا يسيطرون على أجزاء واسعة من أرض العرب، وهو من أشرف قريش أفضل القبائل العربية نسباً، وأجدرها بالدفاع عن الأرض وتحريرها، ولم يعدَّ الدعوة إلى هذه العصبية مرحلة من مراحل عمله، وأن الوحدة من متطلبات الإسلام حتى إذا طرد الأعداء ووحد البلاد وأطاعته القبائل، ولمع نجمه، وملك ناصية الأمر تحول بهم إلى الدعوة إلى الله، وإنما جاءه الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولم يتصدر رسول الله ﷺ الدعوة إلى الأخلاق التي كانت على مستوى منخفض، فالظلم والزنى والبغاء والربا والخمر والميسر وقطع الطريق والإغارة على الناس والقبائل أهم صفات ذلك المجتمع الجاهلي، ومع أن فضائل الأمور يقرها الإسلام ويدعو لها، فإذا ما نجح في هذه الدعوة وسار وراءه الذين يبغون الإصلاح ـ وهم في كل مجتمع كثيرون ـ تحول بهم إلى الدعوة إلى الإسلام.

ولم يناد عليه الصلاة والسلام بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس فربما كانت الأكثرية تؤيده حيث كانت طبقة قليلة تتحكم بالأكثرية فتتعامل بالربا، وتكسب الأموال وتسيطر على التجارة، وتملك الرق الذي يمدها

---

(١) سورة الكافرون: الآيات ١ ـ ٦. (٢) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

بمزيد من الثروة بعمله وإنتاجه، حتى إذا نجحت دعوته، ومشت وراءه الجموع تغلب فيها على الأقلية، وتم له الأمر، ثم انتقل بعدها إلى الدعوة إلى الله.

وهذه كلها ليست بطريقة رسول الله ﷺ، التي أوحى الله إليه بها، وإنما كانت طريقته أن يبدأ دعوته منذ اللحظة الأولى بتعريف الناس بخالقهم، ووجوب انقيادهم له الانقياد التام. حتى إذا استقرت هذه العقيدة في النفوس، أمكن تطبيق حكم الله عليهم، واستقر معه النظام الذي ترتضيه هذه النفوس المؤمنة، وتستسلم كلياً له، وهذا هو الإيمان. وقد جاء العتاب الشديد لرسول الله ﷺ عندما حوّل نظره عن (عبد الله بن أم مكتوم) ذلك الرجل الضرير الذي جاء يستوضح عن بعض الأمور واتجه نحو قادة قريش (عتبة بن ربيعة)و(عمرو بن هشام) و(أمية بن خلف) و(أبي بن خلف) الذين طمع في إسلامهم فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾[(١)].

ظنت قريش في بداية الأمر أن دعوة محمد ﷺ ستقتصر عليه، وعلى أفراد قلائل تربطهم به بعض الروابط، وتجمعه به بعض اللقاءات، ولهذا فلن يكون لهذه الدعوة أثر في مجتمع مكة، وأنها لن تغير شيئاً من معالمه الواضحة؛ لأنها كانت تعلم أن أمر تغيير الدين شيء عظيم، وتبديل العقيدة أمر صعب مهما كان الدين بدائياً، ومهما كانت العقيدة بسيطة، كما أن إيجاد دين جديد أمر بعيد لن يقدم عليه فرد، وإن حدث فهو صابئ ينتهي أمره بنهايته. ولم تكن قريش لتدرك ما حقيقة هذه الدعوة الجديدة، وما راحة النفس واستقرارها بالعمل لله والجهاد في سبيله، وبمعرفة المصير والاطمئنان إلى النهاية، فإنها على الشرك، والأمر عندها سهل يصنع فتاها

---

(١) سورة عبس: الآيات ١ ـ ١١.

إلهه من تمر، فإن جاع أكله بعد أن عبده. كما اعتقدت قريش في البداية أن أمر محاربة هذه الدعوة الجديدة لن يطول وسينتهي بيسر، وستزول هذه العقيدة بتركها من قبل أتباعها القلائل المغرورين، وإن أخذت هذه الحرب مظهر الشدة منذ البداية فذلك لأن أحلام قريش قد سفهت منذ اللحظة الأولى، وآلهتها قد عيبت، وأصنامها قد استهزئ بها، والمرء لن يتأثر بشيء أكثر مما يتأثر لو أصيب بدينه أو أهين بعقيدته، ولو كان الدين بدائياً والعقيدة وثنية، فإن الإنسان متدين بالفطرة، مرتبط بدينه أشد الارتباط، ومتعلق به أشد التعلق، وإن بدا في بعض المراحل غير مبال به.

رأت قريش في دعوة محمد ﷺ غير ما توقعت، ولمست فيها غير ما كانت تظن، فقد بدأت الدعوة تنتشر بين مختلف الفئات والطبقات والمستويات ودخلها عناصر من بيوتات قريش الأولى التي تقف بشدة في وجه هذا الدين الجديد. فكان بين صفوف المؤمنين الرجل الشريف، والإنسان الوضيع، بينهم السيد المطاع والعبد المباع، وكان بينهم الشيخ الهرم والفتى اليافع، بينهم الرجل الناضج والشاب في مقتبل العمر، وكان بينهم التاجر الغني الثري والخادم المسكين، وبينهم المرأة الفاضلة والأمة المغمورة، وفيهم السيدة الكبيرة والفتاة الصغيرة. وعندما رأت قريش ما رأت غيّرت طريقتها الأولى في الدعوة إلى الكف عن هذا الأمر والرجوع إلى دين الآباء ومحاولة النصح وطلب الاتباع تارة باللين والتوسط، وأخرى بالحزم والتوعد، واستبدلت بذلك كله حرباً عامة شاملة شملت مختلف جوانب الحياة من دعاية وأذى وتجويع ومطاردة وقطيعة وملاحقة شأنها في ذلك شأن الحروب التي تشنّ على الدعاة اليوم، ولننظر إلى جوانب هذه الحرب.

١ ـ **الحرب الدعائية**: أطلقت قريش على محمد ﷺ منذ المدة الأولى لقب صابئ، وكذا نعتت كل متبع له، ثم كان أفرادها يلقبونه تارة بالكاهن وأخرى بالساحر أو المجنون، وتارة يظنون أنه يريد الزعامة أو يبغي الشهرة، وثانية يحسبون أنه قد أصابه شيء من المس، ولنذكر ما قاله

(عتبة بن ربيعة) لرسول الله ﷺ حين كلفه قومه أن يبذل جهده في محاولة يائسة لإقناع محمد ﷺ ليغير خطه ويبدل طريقه.

قال عتبة: «يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت، من السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها».

قال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من مالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (أحد من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى منه» حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه.

قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟». قال عتبة: نعم.

قال رسول الله ﷺ: «فاستمع مني». قال عتبة: «أفعل».

فقال رسول الله ﷺ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ حتى إذا وصل إلى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[١].

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١ ـ ١٣.

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم مضى رسول الله ﷺ، يقرأ السورة حتى أتمها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ، إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وكان هناك كلام كثير يُتهم به سيدنا محمد ﷺ، وأصحابه معه، ورسول الله لا يبالي بما يقوله قومه عنه. فهو ماضٍ إلى آخر الشوط، سائر إلى نهاية الطريق حتى يبلّغ دعوة ربه ثم يُحكم الله أمره.

ولم يقتصر رسول الله ﷺ، على دعوة قومه، ولم تكن دعوته خاصة بمجتمع، أو قبيلة، أو جنس، أو عرق كغيرها من الدعوات السابقة، وإنما كانت للناس جميعاً، وعليه أن يقوم بها، فكان يغتنم مواسم الحج التي تصل فيها الوفود إلى مكة، فيعرض نفسه على القبائل، ويدعوها إلى عبادة الله، ونبذ ما كانت تعبد من دونه، فرأت قريش أن تسرع للوقوف في وجهه، وتسد هذه الثغرة أمامه خوفاً من استمالة القبائل إليه أو التأثير على الأفراد، فكانت توجه رجالاتها للدعاية ضده، وتنظم أمر الدعاية وتحبك خيوطها، وتحاول أن تحصر أمره في مكة. ولكيلا يختلف رجالاتها بعضهم مع بعض فيما يقولون عنه، ويكذب بعضهم بعضاً: اقترحوا أن يقولوا عن سيدنا محمد ﷺ: إنه كاهن أو مجنون، ولم تقابل هذه الاقتراحات

بالقبول، واتفقوا أخيراً أن يقولوا: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين صاحبته وبنيه، وبين عشيرته التي تؤويه، وكلما جاء موسم الحج أسرع رجال قريش إلى القبائل يعلنون الدعاية ضد محمد، عليه السلام، ويحذرون الناس منه، وهنا يبدأ الصراع الفكري المرير بين رجل فرد وحده، يتحدّى العالم ويسفه الأوثان، وبين مجتمع يستمد وجوده من هذه الأوثان، ويقيم صرح حياته الاجتماعية والاقتصادية على أساسها.

تلقى المسلمون الأوائل هذه الدعاية بصبرٍ وتحمل شديدين، وهل أشد على المرء من أن يسمع دعاية عن قائده وسيده ونبيه أنه ساحر ومجنون؟ ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم القول عنه هو إنه من المغرّر بهم وإنه صابئ أو تابع لمجنون، ولكن عليه الصبر ما دام يعتقد أنه على حق، وأن نهايته واضحة ومصيره بيّن: إنها الجنة ماثلة أمام عينيه، فيلقي هذه وراء ظهره ويستمر في الجهاد.

هذه الدعاية ضد المسلمين منذ بداية الدعوة إلى اليوم لم تتبدل، وإن اختلفت أساليبها لاختلاف الوسائل وتغيّر الأساليب وتطور الظروف وتبدل الأحوال. لقد بدأت الدعاية ضد الدعاة بأنهم يدّعون الإسلام ولا يطبّقونه، ويتظاهرون بالدين، وهو منهم بريء، ولكن هذه الدعاية لم تلبث أن فشلت أمام الحق الواضح وتبيّن للناس كذبها وزورها. وأمام هذا الوضوح تبدّلت الدعاية ضد الأفراد والمبادئ، وانتقلت إلى القيادات، لأن الناس يعرفون الأفراد، ويحتكون معهم، ويعاملونهم، ويعيشون بين ظهرانيهم فالكلام الكاذب عنهم لا يصدق مهما كان مصدره إن كانوا صالحين، ومن معرفة الأفراد تعرف المجموعة كاملة، لذا صوّبت الدعاية ضد القادة الذين لا يعرفهم الأفراد في المجتمع جميعاً، ولا يخالطهم الناس كثيراً، وفي هذا خبث كبير فهذه التهم لا تدرك بالحواس، ولا تعرف أضدادها إلا باللقاء، ولا يوجد لقاء، ومع هذا فقد فشلت كل التهم فالمسلم لا يمكن أن يكون إلا مخلصاً صادقاً ناصحاً وفياً مهما كانت المغريات. والمسلم لا يقدم إلا

على حق، ولا يعرف إلا الخير، ولا يحب لنفسه إلا ما يحب للناس عامة والمسلمين خاصة، وكل مسلم يعرف هذا لذا لا يمكن أن يصدق أية تهمة على أخيه، ولكن ذلك ينطلي على الذين لا يعرفون الإسلام سواء أكانوا من أعدائه أم ممن ينتمون إليه إذ يظنون أن جميع الناس أمثالهم يسعون وراء المادة والمنصب والشهوة، وتفتنهم الحياة بمباهجها، بل لا يمكنهم أن يتصوروا أن هناك رجالاً لا يفتنهم عن دينهم شيء مهما كانت الأسباب إذ ليس في الحياة الدنيا عندهم إلا ما هو متاع الغرور.

وإذا كان المسلمون الأوائل قد تحملوا هذا الصراع بالصبر المرير، فإن المسلمين اليوم يمكن أن يتحمّلوا كما تحمّل أسلافهم إن استقاموا على الطريق، وأخلصوا النية. وإن الفرد الذي يخشى ما يقال عنه ويخاف على نفسه من الدعاية لا يصلح للعمل، وسيسقط على الطريق ثم يكون مع الأعداء تدريجياً حتى ينحرف تماماً ويحق عليه القول ويلقى جزاءه يوم الحساب، وإن سقوط بعض الأفراد ليس دليل ضعف وظاهرة مرض، وإنما ظاهرة صحة تنقيها من الشوائب التي تعيق العمل، وتدفع إلى الكسل.

وإذا كان المجتمع الجاهلي في مكة قد حارب الدعوة الأولى ووقف في وجهها خوفاً على مصالحه التي ستزول بنجاح الدعوة، لذا أطلق الدعاية ضدها في كل ميدان وبين القبائل جميعها، فإن العالم اليوم بأسره يحارب الدعوة ويقف في وجه نجاحها متخذاً الوسائل الحديثة والدراسات الفنية جميعها التي توصّل إليها العلم؛ لأن نجاحها نهاية لمصالحه وخاتمة لسيطرة المهيمنين عليه، فالدول الأجنبية تنتهي مصالحها في بلاد المسلمين بنجاح الدعوة الإسلامية، ويبدأ بعدها انتشار الفكر النيّر بين أبنائها للتخلص من الظلم ولنشر الإسلام كما حدث في الماضي. والدول التي يعيش في ربوعها مسلمون تقف في وجه الإسلام لأن معنى نجاحه القضاء على الظلم الذي يمارسه الحكام، وانتهاء سيطرة أصحاب الهوى والمنافع، والتخلص من المفاسد التي يريدها أهل الشهوات، والتطبيق لمنهج الله في الأرض ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾(١).

وسيصبر الدعاة بإذن الله على كل دعاية مهما كانت، ويقفون أمام كل تحدٍّ، لا يخشون كلام الناس، وإنما يزيدهم ذلك إيماناً، ويبغون رضاء الله وحده، ويعاملون الناس بسلوكهم الإسلامي الذي يرتضيه لهم دينهم، ثم يكون لهم النصر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾(٣).

٢ ـ الحرب الاقتصادية: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ، قد هاجروا إلى الحبشة، وأصابوا بها أمناً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل، اجتمع رجال قريش، وتداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب الذين يمنعون رسول الله ﷺ منهم، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم كتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب في شعبه واجتمعوا إليه عدا أبي لهب بن عبد المطلب حيث خرج إلى قريش، فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦. (٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٣) سورة الحج: الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم، حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إِلا سراً، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، يرد عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفت أثداء النساء من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذوت الأبدان، وذبلت الأعضاء، وكان رسول الله ﷺ، يمر بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملون، فيرى فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرة ممتلئة بالثقة تشكل مجتمعاً متكافلاً. وبقي الوضع هكذا حتى استيقظ الضمير الإنساني عند بعض رجال قريش، وقد كانت تغطيه ظلمة الوثنية وأوهام الجاهلية، فقاموا بتمزيق الصحيفة، وأعلنوا سخطهم على ما جاء فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم، وقد انتصر الصبر، وعتا على الحرب الاقتصادية وعلى ظلم المجتمع وذوي القربى. وما حدث بالأمس يحدث اليوم، وربما كان أشد مرارة بسبب الوسائل الحديثة والدراسات الفنية حيث أغلقت أبواب الكليات أمام المسلمين، ومنعت عنهم الوظائف، وحوربوا في رزقهم، ولكن المسلم لا يمكن أن يبالي في مثل هذه الأمور إذ يعتقد عقيدة لا يداخلها شك أن الرزق مقدر له، وهو بيد الله وكذلك أجله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[3].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٢.
(٢) سورة لقمان: الآية ٣٤.
(٣) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

٣ ـ **الحرب النفسية**: حين حوصر بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب حرموا من الزواج، فأوضاعهم المادية لا تساعد في كثير ولا قليل على الاحتفاظ بمن يحبون للبعد وللوضع الذي هم فيه، فصحتهم أصبحت عرضة للتلف، وأموالهم عرضة للضياع، ومنظر الفرد منهم مال إلى الذبول، والنضارة قد ذوت، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل ما يعتز به الفرد قد سار إلى البوار فطوى الشباب والفتيات ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشباب الذين سجنهم ذووهم، ومنعوا عنهم المال، فأوضاعهم لا تختلف عن أوضاع إخوانهم في الشِّعب.

وحين كان أهل الشِّعب ينزلون في الأشهر الحرم إلى مكة يرى شبابهم صخبها فيذكرون حياتهم الماضية، وهم بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوسة قد أضناها الجوع والألم، فيعافون هذا النعيم الذي يرونه، وينظرون إلى المستقبل فإذا هذا النعيم ينقلب في أعينهم إلى جحيم يتصورونه، ويتملاه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين فيخلد أهله في النار، بينما هم في روضة يحبرون، في الجنة خالدون، فرحون بما آتاهم الله من فضله، فيرى روضة الإيمان في ذلك الشِّعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لا يسمع فيها إلا بكاء الرضع الجياع، وصياح الأطفال مع بعض التأوهات يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد تنطلق من المسلمين الذين يقيمون مع أهلهم، سواء أكانوا على عقيدتهم أم لا.

والحرب النفسية قائمة بما هو شائع وموجود في كل مكان من سفور واختلاط وتهتك وفجور، ويردع الشباب المسلم إيمانهم، ويمنعهم دينهم من أن يتمرغوا في هذه الأوحال، فيترفعون عن الأقذار، ولكنها لواعج النفس وفطرة العاطفة، وتقع الحرب النفسية فينتصر المسلم تارة بالصوم وأخرى بالعبادة، وتارة بالابتعاد عن هذه الأجواء ما أمكنه وهي التي يعيش فيها مكرهاً غير راض. ولعل هذه الحرب من أقوى الحروب وأشدها فتكاً بجسم الأمة، والتي تسير بالشباب نحو الهاوية، وتقودهم إلى طريق

الانحراف، وبالتالي يبيعون كل شيء في سبيل تأمين هذه الشهوات، وقد يكون الثمن إيمانهم.

هذه الحرب النفسية إضافة إلى ما كان المسلمون يلاقونه من سخرية وتهكم، وتكذيب واتهام فيصبر عليهم الإنسان، وإن كانت لا تجد الراحة للنفس سبيلاً.

٤ ـ **الأذى البدني**: غدت قريش على من أسلم من رجالها واتّبع محمداً رسول الله ﷺ، فنالت منه، إذ وثبت كل قبيلة على من كان منها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتد الحر، ويفتنون من استضعفوا عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصْلُب، ويعصمه الله منهم.

فكان (أمية بن خلف) يُخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال وهو في ذلك البلاء: أحد... أحد، وبقي على هذه الحال حتى أنقذه أبو بكر، رضي الله عنه، وأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه، وأمه سمية ـ وكانوا أهل إسلام ـ إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ، ، وهو لا يملك إلا عبرة لهم تغرورق في عينه، وحسرة في كبده فيقول لهم وهو حزين: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[١]. أما سمية فقد أصابها سهم في موضع عفافها، وماتت، وكانت أول شهيدة في الإسلام.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام إذا سمع برجل أسلم ذهب إليه، فإن كان له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في «المستدرك» ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وصححه ووافقه الذهبي، وله طرق أخرى يصح بها.

منك، لنسفهن حلمك، ولنخطئن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال له: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويُعطّشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من المسلمين بل نال الجميع ما نالهم من العذاب حتى رسول الله ﷺ، فإضافةً إلى الإهانة التي أصابته منهم من تكذيب وسخرية وهزء، فيقال إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه لا حر ولا عبد، إضافة إلى هذا فقد هموا بقتله عدة مرات ولكن الله حفظه، وألقوا الشوك في طريقه والتراب على رأسه وفتات العظام وسلا البعير على ظهره فلا يستطيع الارتفاع من السجود حتى تأتي ابنته فاطمة وترفع عنه سلا البعير. وضربه عدد من أفراد قريش، فلم يخلصه من أيديهم إلا أبو بكر، رضي الله عنه، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. ويجب أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ، لم يكن ذلك الرجل الضعيف الذي يستكين هذه الاستكانة، ولكن حكمة الله حتى لا يقع القتال بين أطراف من قريش، ولم يكن المسلمون قد تكاملت قوتهم، ولا اكتمل الدين الإسلامي، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وأصاب رسول الله ﷺ، ما أصابه في الطائف عندما سار إليها، ولم يستطع دخول مكة عندما عاد حتى أجاره (المطعم بن عدي).

كانت قريش تنال من المسلمين، وخاصة المستضعفين منهم، ولم يكن بمقدورهم الرد عليهم إلا بتلاوة آيات من القرآن الكريم، تنال المشركين وتتوعدهم بالنار تارة باسمهم، وأخرى بالتلميح إذ تشير الآيات الكريمة إلى حادثة معينة، فتعرف أشخاصها. وقد كان هؤلاء المستضعفون يهابون الجلوس مع ساداتهم وأشراف قريش فإذا بهم بعد إسلامهم يتجرؤون عليهم ويتوعدونهم بالعاقبة الوخيمة كلما تلوا القرآن الكريم أمامهم وبغيابهم، بل وكل ساعة.

إن أساليب التعذيب اليوم تفوق ما عرفته الجاهلية الأولى بكثير. لقد صبر المؤمنون الأوائل، وحققوا هدفهم في الحياة، ونرجو أن يصل المسلمون إلى مبتغاهم الآن بما صبروا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1].

٥ ـ **الحرب السياسية**: لم تكن الأمور السياسية بمفهومها الحالي قد وجدت في مكة يوم ظهر الإسلام حيث كان المجتمع صغيراً، والاتصال مع بقية الجهات ضعيفاً، والسياسة لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً، إلا أنها اليوم في هذا المجتمع الذي نعيش فيه تعد ركناً كبيراً في الحياة الاجتماعية، فإضافة إلى الدعاية الموجهة من قبل الأعداء الذين لا ينحصرون في مدينة من المدن أو مصر من الأمصار، وإنما يتجاوزون ذلك حتى يشملوا العالم كله، وتتفق على محاربة الإسلام اليهودية، والصليبية، والوثنية، والبدائية لا يتخلف عن ذلك منهم أحد، بالإضافة إلى جاهليي المسلمين الذين يتحكمون في أرض الإسلام، ويسيرون بها حسب مصالحهم وتعاليم أسيادهم.

وإضافة إلى الدعاية الموجهة التي ألمحنا عنها في الحرب الدعائية والتي تشمل وسائل الإعلام كافة، فإن خصوم الإسلام قد بدؤوا يصطنعون تنظيمات تنادي بالفكرة نفسها، وتدعو بالدعوة نفسها، تحمل شعار الإسلام، وتزاود، ولكنها تتحرك من خارج الفكرة، وتتلقى التعليمات من أعداء الإسلام، وقد ترتبط بالحكم الجاهلي، وتستفيد منه، ويسخرها لمصلحته، وقد يكون ارتباطها أبعد من هذا. ويستفيد الخصم من هذا الموضوع أيضاً، إذ يضيع الفرد المسلم وسط الدعاية، وتظهر إشارات الاستفهام حول حملة اللواء حيث يُتهم الجميع، ومن بينهم العمل الصحيح، وتكثر الخلافات بين الرايات.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

٦ ـ **اختلاف المفاهيم**: كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، وتنظم رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، وتعيش حياة مادية صرفة، تقيس الرجل بمقاييس المادة، وتعد مركزه بتجارته وغناه، وقيمته من قبيلته ونسبه. وعندما بدأ محمد ﷺ، دعوته ظنت قريش أن ذلك لا يعدو أن يكون من هذا القبيل يريد من ورائها عرضاً من أعراض الدنيا، ولكن عندما عرضوا عليه الملك، والجاه، والمال، والنساء ورفض ذلك كله وأعرض عنه، استغربوا رفضه، واستغربوا أن تنطلق دعوته من غير هذه المنطلقات فاتهموه بالجنون، ولما لم يُجد معه شيء من الاتهام والعروض والمقاومة، واستمر في طريقته لا يبالي بشيء مما حوله وجدوا أن الأمر غريب، وكيف يكون رسولاً؟ وهل يختار الله فقيراً؟ فلو اختار الله رجلاً رسولاً لكان يجب أن يختار أحد الأغنياء أمثال (الوليد بن المغيرة) في مكة، أو (عمرو بن عمير الثقفي) في الطائف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]، فمفهوم الدعوة والجهاد، والتضحية، والإخلاص، والعمل الصالح في سبيل الله، كلها مفاهيم لا يعرفونها، وإذا وردت فإنما القصد منها عند الجاهليين الحصول على المادة لا يتعدى الأمر ذلك.

وتفسير اليوم كتفسير الأمس فبُعد المسلم عن قول الفحش وهتك الأعراض، ودعوته إلى غض البصر والعفة والأخلاق الفاضلة الكريمة لا يفسّر عند الجاهليين إلا أنه الكبت وعدم الصلاحية للنساء، أو إظهار النسك في سبيل تحقيق أغراض خاصة له. كما يفسرون عدم تعاطي المسكرات بعدم اكتمال الرجولة، وعدم سريان روح الشباب عند هؤلاء المؤمنين.

واشتد أذى قريش على المسلمين، والشدة يعقبها الفرج، وينبلج الفجر بعد شدة الظلمة. وكان من أثر هذا الأذى أن أسلم (حمزة بن

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.

عبد المطلب) عم رسول الله ﷺ، إذ أدركته الحمية عندما عيرته إحدى الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فتوجه حمزة مباشرة إلى ذلك الشقي، وقد احتمله الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف عند أحد على غير عادته، مُعدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد، نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُد ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وثبت حمزة، رضي الله عنه، على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ، من قوله. فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ، قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. وكان حمزة، رضي الله عنه، أعز فتى في قريش، وأشدها شكيمة.

أراد المشركون أن يغيّروا طريقتهم بتعجيز الرسول بطلب الآيات منه، فطلبوا منه شق القمر، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشق القمر فرقتين كل فرقة فوق جبل، وعندما رأى ذلك المعاندون قالوا: لقد سحركم ابن أبي كبشة[١] فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[٢]. عن عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[٣]. وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ، أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين[٤].

(١) أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ، فكانت قريشٌ تقول عنه: ابن أبي كبشة، إذا أرادت النيل منه.

(٢) سورة القمر: الآيتان ١ ـ ٢. (٣) رواه الشيخان وغيرهما.

(٤) رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن كثير: قد كان هذا في زمن رسول الله ﷺ، كما ورد في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون منها إلا التعنت والعناد فقالوا له كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

وبعثت قريش (النضر بن الحارث)، و(عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود يثرب، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب! وسلوه عن رجلٍ طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي معيط)، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً »، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ، مكث الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وعلى قوله، عليه الصلاة والسلام، غداً وليس الأمر بيده، وإنما لله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾[1] كما جاءه بخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح. ضعفت قريش عن مقارعة المسلمين بالحجة والبرهان، وعجزت عندما رأت الآيات والحق المبين لذلك عادت إلى الأذى، وزادت فيه على كل من أسلم محاولة صدّهم عن اتباع رسول الله ﷺ، ولم يتركوا طريقة إلا اتبعوها.

الهجرة إلى الحبشة :

لما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنه بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

ولكن المشركين لن يتركوا الدعوة تنطلق بحرية في أرض فيها الحرية، بل اتخذوا جميع الوسائل للكيد لها، وهذا في كل مكان، وفي كل وقت تجد فيه الدعوة مجالاً للعمل، وأرسلت قريش وفداً مؤلفاً من (عمرو بن العاص السهمي) و(عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي)، و(عمارة بن الوليد المخزومي) يؤلب النجاشي على نزلائه، ويوغر صدره على ضيوف بلده، متخذين الكذب والافتراء والدس، وإن لم يمكنهم ذلك لظهور الحق ورجاحة عقل النجاشي ولكننا نلاحظ عدة ملاحظات:

١ ـ إن الدعوة محاطة في كل وقت بالأعداء من كل جهة، ولن يترك لها أعداؤها الفرصة لتنطلق بحرية، فهم يراقبونها في كل مجال، ويتتبعون أفرادها في كل بقعة، فعليها أن تأخذ الحيطة، وتحتاط لكل أمر، وتخطط لأمنها وسلامتها، لا أن تسير معلنة عن مواقفها مبينة خط سيرها، كما يتبادر لذهن بعضهم في أن تكون الدعوة عامة دون حذر، الأمر الذي يجعل الأعداء يفسدون عليها الطريق.

٢ ـ لم تكن الدعوة لتنحصر في بقعةٍ من الأرض، أو في مساحة من العالم، وإنما تنتقل إلى المكان الذي يتوفر فيه العمل، والمناخ الملائم، وتنطلق منه، ولعلّ الهجرة الأولى كانت إلى أرض الحبشة التي لا يسكنها العرب حتى لا يُخيَّل لبعض الناس أن الدعوة يجب أن تنطلق من الأرض التي انطلقت منها أول مرة وهي أرض العرب، وإنما حيثما تتهيأ الظروف وتساعد العوامل يجب أن ينطلق المسلمون، فلربما كانت الانطلاقة الثانية من غير أرض العرب، وإن كان لا يمنع أن تكون منها بل الأحرى أن تكون.

٣ ـ يجب أن تتجمع جهود المسلمين في منطقةٍ واحدةٍ للاندفاع منها فإذا ما تهيأت الأسباب انطلقت نحو هدفها تطبق منهجها، فالرسول ﷺ، لم يسمح للمسلمين أن ينتشروا في أرض الله الواسعة ويتفرقوا كيف يشاؤون، يحاول كل منهم أن يجد المأوى يتخلص فيه من أذى قريش واضطهادها، وإنما سمح لهم أن يهاجروا إلى أرضٍ واحدةٍ يعيشون فيها حياة واحدة

مجتمعين، فيها من معاني الإسلام مما تلقوه من رسول الله ﷺ، في مكة، يساعد كل أخاه على حياة الغربة والتمسك بمبادئ الإسلام والعمل به.

هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة، وكان عددهم عشرة رجال وخمس نسوة:

١ ـ عثمان بن عفان، ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

٢ ـ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه زوجه سهلة بنت سهيل بن عمرو.

٣ ـ الزبير بن العوام[١].

٤ ـ مصعب بن عمير.

٥ ـ عثمان بن مظعون.

٦ ـ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، ومعه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومي[١].

٧ ـ أبو سبرة بن أبي رهم العامري وزوجه أم كلثوم[١].

٨ ـ عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

٩ ـ عبد الرحمن بن عوف.

١٠ ـ سهيل بن البيضاء.

وكان أميراً عليهم عثمان بن مظعون. فالركب يجب ألا يسير دون أمير، ورسول الله ﷺ، يقول: «إن كنتم ثلاثة فأمّروا عليكم»، فلا يصح للدعوة أن تكون دون أمير.

ثم خرج جعفر بن أبي طالب مهاجراً في الدفعة الثانية وهو ما عرف بالهجرة الثانية إلى الحبشة[٢]، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة بناة دولة الإسلام للمؤلف صدرت عن المكتب الإسلامي.

(٢) انظر كتاب «معَ الهجرة إلى الحبشة» للمؤلف نفسه.

الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه، وكان عددهم جميعاً ثلاثة وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا، وهم فيها.

هاجر المسلمون الأوائل ـ رضوان الله عليهم ـ إلى الحبشة في سبيل الله، خوفاً على إسلامهم وحفاظاً على عقيدتهم، وكانوا قدوة الدعاة إلى الله، وأسوة المخلصين في سبيل الله، وهنالك في الحبشة ارتد (عبيد الله بن جحش) ابن عمة رسول الله ﷺ، ودخل النصرانية، وبدأ يؤذي المسلمين ويسخر منهم، وبعد أن كان قدوة للمسلمين أصبح بعيداً منهم غريباً عنهم، فالمسلمون لا يرتبطون بالرجال، وإنما يرتبطون بالدعوة، فقد ينحرف الرجل فيزول عندها مركزه من بين الصفوف، أما الدعوة فتستمر. فما أن ارتد (عبيد الله بن جحش) حتى أصبح في عداد الكافرين، وابتعد عنه المهاجرون الذين كانوا بالأمس إخوانه فالقرب والبعد إنما يكون على أساس العقيدة، حتى زوجه (رملة بنت أبي سفيان، أم حبيبة) قد حرّمت عليه، وفارقته، على الرغم من أنها هاجرت معه، وفضّلت صحبته على الحياة في مكة موطنها ومرتع شبابها، ومقر أهلها، وأبوها أبو سفيان صاحب الكلمة المسموعة والأمر المطاع، فضّلت عشرته عندما كان مسلماً وفارقته عندما ارتد. وقد حفظ لها رسول الله ﷺ، هذا الإيمان، وأراد إكرامها، وعدم إضاعتها، فطلب من النجاشي أن يخطبها له، ففعل وأمهرها أربعمائة دينار، ثم انتقلت إلى المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، وهذا غاية الإكرام. وهنا يجب أن نتوقف على ملاحظتين:

١ ـ الزواج لا يصح بين صاحبي عقيدتين مختلفتين إلا إذا كانت الزوجة من أهل الكتاب، ولا يصح العكس، وإذا كان الزواج قائماً، وتبدلت عقيدة أحدهما حُرّم أحدهما على الآخر، وتجب المفارقة.

٢ ـ ترك المسلمون (عبيد الله بن جحش) عندما ارتد، أي عندما بدل عقيدته، ولكن لو تساهل في تطبيق بعض الواجبات وضعف عن أدائها

لوجبت عندها العناية به، والاهتمام بشؤونه، وزيادة الصلة به، وإظهار المحبة الزائدة حتى يعود إلى عقله، ويرجع عن غيّه.

إسلام عمر بن الخطّاب:

كان إسلام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى الحبشة في العام السادس من البعثة النبوية، وكان من قبل شديداً على المسلمين، كثير الأذى لهم، قالت ليلى بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة: والله إنّا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ، وهو على شركه ـ قالت: وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا. حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته، وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لما كان يُرى من غلظته، وقسوته على الإسلام.

وكان ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلم، وأسلمت زوجه فاطمة أخت عمر، كما أسلم نُعيم بن عبد الله النحام من قومه بني عدي، وكانوا جميعاً يخفون إسلامهم عن عمر. وكان خبّاب بن الأرت يختلف على فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج يوماً عمر متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ، ورهطاً من أصحابه، وقد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، هو بيت الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهم قريب من أربعين مسلماً، ومع رسول الله ﷺ، عمه الحمزة بن عبد المطلب، والمسلمون الذين لم يخرجوا إلى الحبشة، فلقيه قريبه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله، ورأى نعيم

الغضب يحتمل عمر والشرر يتطاير من عينيه فخاف، ورأى أن يثنيه عن عزمه، ولكن أنى له هذا، ففضّل أن يوجهه إلى بيت أخته[1] ولو أدى إلى قتلها هي، وزوجها، وخبّاب، فإن قتلهم يعوّض، أما فقد رسول الله ﷺ، فلن يعوّض، وستموت الدعوة. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما، فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها صدر من سورة (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر، تغيّب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة (الصوت الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكم تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه فاطمة بنت الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشّجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة (طه). فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله

---

(١) ربما كان لقاء هذه المجموعة أيضاً في الوقت نفسه، ونعيم بن عبد الله في طريقه إلى هذا اللقاء.

إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ، حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزلَ الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله ﷺ، تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ، أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ، من مكانهم، وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم. وقال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا لا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وفي رواية لعمر نفسه عن إسلامه يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بـ (الخرورة) عند دار آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً، فأشرب منها، فخرجت، فجئته فلم أجده قال: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً.

قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ، قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه أستمع لأروعنّه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ، قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ، صلاته ثم انصرف، و. . . قال عمر رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ، حسّي عرفني، فظن رسول الله ﷺ، أني إنما تبعته لأؤذيه فنهمني[1]، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

رجوع المهاجرين من الحبشة:

لم ترق الحياة للمهاجرين في الحبشة، إذ ابتعدوا عن رسول الله ﷺ، وقد اعتادوا الحياة بقربه يتلقون منه، وهو الذي ارتبطت حياتهم به، وابتعدوا عن بلدهم الذي نشأوا فيه، وعن بعض إخوانهم الذين آمنوا معهم، ووجدوا أنفسهم في محيط غريب عنهم في اللغة، وفي العادات والتقاليد، وعددهم قليل وسط مجتمع واسع لا يستطيعون التأثير فيه، فهم ينتظرون أقل إشارة لعودتهم، وبعد ثلاثة أشهر من إقامتهم في الحبشة وصل إليهم خبر مفاده أن بعض زعماء قريش دخل في الإسلام، ولم يكن بالواقع سوى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقرر بعضهم العودة، فرجع منهم

---

(١) النهم: صوت وتوعد وزجر، يقال: نهم إبله: زجرها.

ثلاثة وثلاثون مسلماً في شهر شوال من السنة السادسة، وكانوا قد غادروا مكة في شهر رجب من العام نفسه. وما إن وصلوا إلى مكة حتى خابت آمالهم، ولم يستطع بعضهم دخولها إلا بعد أن دخل في جوار وجهاء قريش. فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة. ورأى هؤلاء المهاجرون أن قريشاً لا تزال تؤذي المسلمين فيها، بل قد ازدادت عتواً وسفاهة وحقداً وحسداً.

الصَّحيفَة الجَائِرَة :

لما رأت قريش أن بني عبد مناف لا يمكن أن يخذلوا محمداً، وأن عمه أبا طالب ما زال ينصره، وأن قومه قد رفضوا تسليمه مقابل ديةٍ مضاعفةٍ، وأن عمه قد أبى أن يأخذ سيداً من شبابهم بدل ابن أخيه الذي سيسلمه إليهم ليقتلوه.. إذ كان وجهاء قريش قد مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخي خالد بن الوليد)، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله لا يكون أبداً.

لما رأت قريش ذلك ورأت أن أصحاب رسول الله ﷺ، يزيدون يوماً بعد يوم، وأنهم قد وجدوا في الحبشة مكاناً آمناً لهم وقراراً، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل الأخرى، وأنه قد امتنع في قريش إذ أسلم عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب وهما من أشداء قريش ووجهائها، لما رأت كل هذا اجتمع وجهاؤها، وائتمروا فيما بينهم على مقاطعة من ينصر محمداً من قومه مقاطعة اقتصادية، وقرروا كتابة ذلك في صحيفة على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فلما فعلت قريش ذلك انقسمت بنو عبد مناف قوم محمد ﷺ إلى

قسمين: بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش، فظاهرهم، والقسم الثاني وهو: بنو نوفل، وبنو عبد شمس انضموا إلى قريش.

هجرة الحبشة الثانية:

لما دخل بنو هاشم وبنو المطلب شعب أبي طالب مع محمد رسول الله ﷺ، أمر الرسول الكريم المسلمين بأن يهاجروا إلى الحبشة، وينضموا إلى إخوانهم الذين بقوا هناك، حتى يكون عددهم كبيراً، ويساعد بعضهم بعضاً، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم فهاجر معظم المسلمين من مكة. ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هذا الخروج من مكة إلى الحبشة هو خروج جعفر بن أبي طالب ومن تبعه من المسلمين مهاجرين، وأن خروج العشرة الأوائل هو الهجرة الأولى، وأنه كان قبل إسلام عمر، وقبل أن يرجع أحد من الحبشة.

ولما رأت قريش ذلك، أرسلت وفداً إلى النجاشي ملك الحبشة يحمل إليه الهدايا ورسالة من قريش تطلب فيها إعادة المهاجرين إليهم، إذ أنهم نابذوا قومهم العداء بعد أن سفهوا أحلامهم وعابوا آلهتهم، وشتموا دين آبائهم، وتألف هذا الوفد من عمرو بن العاص السهمي، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعمارة بن الوليد المخزومي.

وصل الوفد القرشي إلى النجاشي وسلم البطارقة هداياهم، ثم ذهب إلى النجاشي... وكلمه أمام البطارقة، فاقترحت البطارقة تسليم المسلمين إلى الوفد لإعادتهم إلى قومهم، لكن النجاشي رفض ذلك وقال: لا والله، لا أسلمهم إليهم، ولا يقاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هؤلاء في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهم، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

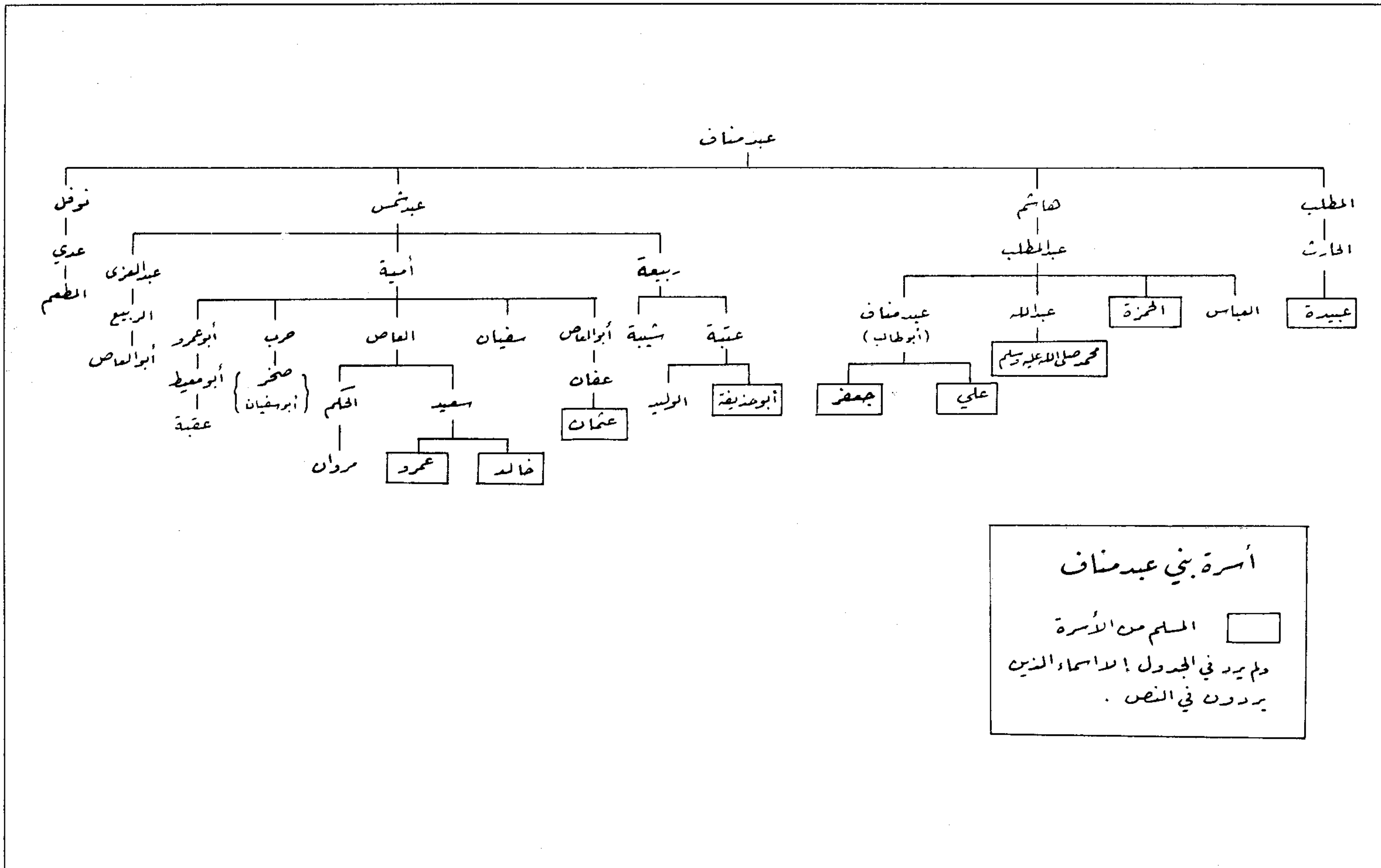
أسرة بني عبدمناف
المسلم من الأسرة
ولم يرد في الجدول إلا أسماء الذين يردون في النص .
عبدمناف
المطلب
الحارث
عبيدة
هاشم
عبدالمطلب
العباس
الحمزة
عبدالله
محمد صلى الله عليه وسلم
عبدمناف (أبوطالب)
علي
جعفر
عبدشمس
ربيعة
عتبة
أبوحذيفة
الوليد
شيبة
أمية
أبوالعاص
عفان
عثمان
سفيان
العاص
سعيد
خالد
عمرو
الحكم
مروان
حرب
صخر (أبوسفيان)
أبوعمرو
أبومعيط
عقبة
عبدالعزى
الربيع
أبوالعاص
نوفل
عدي
المطعم

أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته. سألهم فقال لهم: ما هذا الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام و... فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا. فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك... فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم. فلما سمع النجاشي ذلك بكى وبكت معه أساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقوا، فلا والله لا أسلمهم إليكم.

وعاد عمرو بن العاص في اليوم التالي فقال للنجاشي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما

يقولون فيه. ولما وصل الخبر إلى صحابة رسول الله ﷺ، اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، إلا أن البطارقة قد نخروا[1] من حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبَّكم غرم، من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ووقع الخلاف بين النجاشي والبطارقة، ثم طلب من البطارقة وأتباعه أن يردوا للوفد هداياه، فقال: لا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه. وخرج الوفد من عند النجاشي مقبوحاً وقد ردت إليه الهدايا وما جاء به، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار مع خير جار.

نقض الصحيفة الجائرة: مكث بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنوات، وقد ضاقوا ذرعاً بتلك المعيشة، إلا أن أفراداً من قريش شعروا بجور هذه الصحيفة، وجور قريش على بطنٍ من بطونها، فتدارسوا الأمر، وبدأ بذلك هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، فكلم زهير بن أمية المخزومي، ثم المطعم بن عدي من بني عبد مناف ثم أبا البختري العاص بن هشام الأسدي، ثم زمعة بن الأسود الأسدي، ثم اجتمعوا فتعاقدوا على تمزيق الصحيفة، وغدوا على أندية قريش، فتكلم زهير فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تمزق هذه الصحيفة الظالمة، فأيده

---

(١) النخر: مد الصوت في الخياشيم.

أصحابه، وقالوا: نتبرأ مما جاء فيها، وأنكر أبو جهل وقال: هذا أمر قضي بليل، وتشاورتم فيه بغير هذا المكان. وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

وكان رسول الله ﷺ، قد قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ فقال: نعم. قال: فوالله ما يدخل عليك أحد.

وعندما قام المطعم بن عدي ليمزق الصحيفة كان أبو طالب جالساً في ناحية من المسجد، فقام فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم، فإن كان ما يقول ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً[1].

ومزقت الصحيفة وبطل ما فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وبقي الأذى للمسلمين من قريش التي كانت ترىٰ زيادة عددهم، فتزداد ضغناً ولؤماً، ولننظر إلى هذا المجتمع الإسلامي الصغير في مكة ونظرته إلى الجاهليين الذين حوله، والذين يؤلفون معظم المجتمع، ثم لننظر إلى عوامل الارتباط بين أفراده بعضهم مع بعض.

المجتمع الجاهلي:

جاء الإسلام وقام رسول الله ﷺ، يدعو إلى ترك العادات الاجتماعية السيئة ونبذها والتمسك بمكارم الأخلاق وكريم الخصال التي تنبع من دعوة الإسلام، وقد بيّنها لهم بشكل دقيق، وأوضح لهم الطريق السوي. وآمن المسلمون الأوائل، واتبعوا النبي الأمي، وأسلمت ألسنتهم وقلوبهم وجميع

---

(١) انظر الخبر بإسناده في «عيون الأثر» ١/١٢٦.

جوارحهم، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يعيشون ضمن ذلك المجتمع الجاهلي الذي يضغط عليهم، ويضطرون للتعامل معه، فتكاد نفوسهم ترنو إلى بعض مطالبها وأهوائها في بعض الأوقات من الضعف البشري، الذي ينتاب النفوس أحياناً، فتحلو لها الزعامة أو كثرة المال، وخاصة عندما يرون أصحابها يتحكمون في المجتمع ويسيطرون على الناس بما لهم من مال أو بما عندهم من جاه وسيادة، ويتدخل الشيطان ليزين إلى تلك النفوس المؤمنة أثر هذا المال وعظمة السيادة، وأن هذا لو كان للمسلمين لتمكنوا من تبليغ دعوتهم، ولأسلمت لهم النفوس، وخضعت لهم الرجال، ودانت لهم القبائل، ودالت دولة الشرك، وزالت آثار الوثنية، ويوحي بعضهم إلى بعض أنه يمكنهم السير في هذا الطريق ليتم على أيديهم تحقيق هذا كله، وليسيروا وراء هذه المطالب، وتكون هدفاً لهم ومطلباً، وينعطف بهم المسعى، ويتغير الخط، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليترك عباده المؤمنين يخضعون لضغط تلك الآثار النفسية وتزيين الشيطان لهم، وفتنته لهم، وصدهم عن سبيل الحق والطريق المستقيم، ووسوسته الدائمة لهم، وقيادتهم إلى الهاوية، وحملهم إلى الضلالة، فكان القرآن الكريم يتنزل على محمد ﷺ، ليقرأه على المسلمين، ويبين لهم أن هذه المظاهر لا تزن شيئاً في ميزان الله، وأن هذه الفترات من الضعف البشري التي تنتاب النفوس إن هي إلا من وسوسة الشيطان الدائمة في الوقت الذي تنقطع فيه الصلة بين العبد وربه، ويسمو القرآن الكريم بنفوس المؤمنين لترتفع فوق مستوى ذلك المجتمع الجاهلي بالارتباط الدائم بالله، ويحذرها من همزات الشياطين، ويطلب منها اليقظة الدائمة والتنبه المستمر، ويوضح لها كيف يوسوس الشيطان؟ وما هي طرقه ومجالاته؟

وقد حافظ الإسلام على أبنائه الذين عاشوا في مكة بين الجاهليين محافظة قوية، واستطاع أن يحميهم من ذلك المجتمع، ومن كيد الشياطين وذلك بـ:

١ ـ تذكير المسلمين بشكل مستمر بخط الإسلام ومقاييسه وموازينه.

٢ ـ تنبيه المسلمين إلى الأبواب والمداخل التي ينفذ منها الشيطان.

٣ ـ استمرار اللقاء بين المسلمين والسماع إلى النصائح والتوصيات.

٤ ـ الوعد بالجنة والتخويف من النار والعذاب.

وليس المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أفضل من ذلك المجتمع الجاهلي إن لم نقل إنه أكثر منه تردياً، وإن ضغطه لأقوى وطريقته لأشد وأنكى، وعلى المسلمين الآن أن يتذكروا تلك النقاط على الدوام.

نظرة المسلمين للجاهلية :

رأينا نظرة قريش للمسلمين، وهي نظرة كلها عداء وخصومه وكراهية، ويرون من خلالها ضرورة القضاء على المسلمين والتخلص منهم، وبينما كانت هذه نظرة قريش، كان المسلمون يريدون لهم الخير، ويطلبون لهم الهداية، وينظرون إليهم نظرة ملؤها العطف والشفقة من العذاب، الذي ينتظرهم يوم الحساب، والجهل الذي كان يرين على قلوبهم فيحجبها عن الهدى، ويمنعها من الإيمان، بحجب من المادة والشهوة والجاه الكاذب، ويربطها إلى الأرض بروابط زائلة، ويقيدها بقيود فانية، يدعونهم إلى الهدى فلا يستجيبون، ويرشدونهم فلا يعقلون، وعلى الرغم من هذا فلا يدخل اليأس نفوس المسلمين ولا أفئدتهم، ويأملون أن يأتي يوم يستجيب فيه الجاهليون لداعي الله، وعلى الرغم مما يلاقيه المسلمون من إهانة واضطهاد على أيدي الجاهليين، فهم يرجون هدايتهم. وأبلغ ما في ذلك دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وبينما يرى الجاهليون الدنيا جامدة مقفرة لا حياة فيها إلا بما يحصلون عليه من متاع وشهوات، وبما يحققونه من مصالح وزعامات، يرى المسلمون أن الدنيا كلها حياة تعج بالمعاني والشعور بالراحة عندما يؤدي الإنسان واجبه، ويرضي ربه، وإن كان ما في الدنيا يخضع لله، ويسير حسب مشيئته، وعلى طبيعة فطرته التي فطره الله عليها. قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[2] فالوجود كله ساجد لربه، مسلم لأمره. والحياة كلها مستسلمة لله، فلماذا يكفر هؤلاء الجاهليون؟ ومن هنا يأتي مصدر الإحساس بالإشفاق عليهم والعطف نحوهم على الرغم من شدة بأسهم عليهم.

هذه النظرة الإسلامية للناس لا تختلف بين غنيِّهم وفقيرهم، فالناس كلهم سواء، فليس هناك من فروق في الطبقات أو الأجناس أو العروق أو الألوان أو الغنى، أو الأنوثة والذكورة قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ، في حجة الوداع: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى»[4] وليست نظرة المسلمين لأهل الكتاب إلا من هذا القبيل، فالأصل أن يكون أهل الكتاب أسبق الناس للإسلام لما لديهم من كتب تدعو إلى الإيمان بالله وتبشر برسول الله ﷺ، ولكن أبعدهم عن الإيمان أحبارهم ورهبانهم الذين زينوا لهم السوء وصدوهم عن السبيل حسداً واستكباراً، وغيّروا كلام الله وبدّلوه وحرّفوه بعدما عرفوه.

وإذا كان المسلمون قد حاربوا هؤلاء الجاهليين فليسوا لأنهم أعداء، ولكن لأنهم هم الذين ناصبوهم العداء، وأصلَوْهم وابلاً من الاتهامات، وعرّضوهم لأنواع الأذى، وحارب المسلمون الشر الذي في نفوسهم، والجهل المسيطر عليهم، فالمسلمون ليسوا خصوماً لأحد، فهم دعاة دين سماوي، لا يعد ملكاً لأحد، فيتعصب له، وإنما كل همهم أن يؤمن الناس

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٣.
(٢) سورة فصلت: الآية ١١.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) رواه أحمد ٥/ ٤٠٠، بإسناد صحيح.

بمثل ما آمنوا به، وأن يؤدوا هذه الأمانة، والناس هم الحقل الذي يعمل فيه المسلمون وليس من الخير أن ينسفوا ذلك الحقل، أو يزرعوا فيه شوكاً، وحروب الثأر غير معروفة في الإسلام، فمهما اعتدى إنسان على المسلمين، ونالوا منه الأذى، ثم اعتنق الإسلام أصبح أخاً لهم في الله، فالإسلام يجبّ ما قبله، ولننظر إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد كان من أشد أعداء الإسلام فإذا به يصبح بين لحظة وأخرى من أولهم قربى، وعرف أبو جهل عمرو بن هشام بعدائه الشديد للإسلام، ولرسول الله، وكان رسول الله ﷺ، يطلب من الله أن يهديه، وأن يؤيد الإسلام به، لما عرف من قوته، فكان، عليه الصلاة والسلام، يقول: «اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين»(١)، ويقصد بهما عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، وكذا ابنه عكرمة الذي أهدر رسول الله ﷺ دمه، ثم جاء معتذراً، فعفا عنه، وأصبح من الأبطال المجاهدين في سبيل الله. وما دخل المسلمون معركة إلا طلبوا من أعدائهم ـ مهما تمادوا في بغيهم وعدائهم قبل بدء القتال ـ إحدى ثلاث: إما الإسلام، وعندها يصبحون إخوة لهم، وإما الجزية، وعندها يدخلون في ذمة الله ورسوله، وإما السيف حتى يحكم الله بينهم والله خير الحاكمين.

ومع مرور الأيام، وتبدل الأحوال لم تتغير نظرة الجاهليين إلى المسلمين في الكراهية والعمل على استئصال شأفتهم، وفي الوقت نفسه لم تتغير نظرة المسلمين أيضاً إلى الجاهليين في حب الخير لهم وطلب الهداية والإيمان لهم، وذلك بدعوتهم المستمرة، وإبانة الطريق، وتأسيس منظمات للتبليغ والإرشاد. ومع هذه النظرة فقد لا يمر عام دون حدوث مذابح للمسلمين على أيدي الجاهليين بتلفيق مختلف التهم والدسائس.

المجتمع الإسلامي:

لننظر إلى ارتباط المسلمين بعضهم مع بعض، وإلى شعورهم تجاه أفرادهم، وهل يمكن أن يؤسسوا دولة تقوم على هذا المجتمع؟.

---

(١) رواه الترمذي بمعناه (٣٦٨٢) من حديث ابن عمر وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

١ ـ **الأخوة**: يشعر المسلم منذ أن يعتنق الإسلام، ويدخل الإيمان إلى قلبه أن المسلمين جميعاً إخوة له ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] يرتبط بهم أشد الارتباط، ولا رابطة تجمع إلى هؤلاء المؤمنين إلا الإسلام أينما كانت ديارهم، ومهما كانت قومياتهم ولغاتهم، وأنه بدخوله في الإسلام قد اكتسب جنسية جديدة، وانتسب إليها، وأنه قد خلع عند عتبتها كل ما كان يحمله من صفات جاهلية أو رواسب قديمة، وأن جميع أتباعها يبادلونه هذا الشعور، ويحبون له ما يحبون لأنفسهم، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]، وأن هذه الرابطة أقوى من رابطة الدم والنسب، وأكثر تماسكاً من رابطة الجنس والحسب، وأكثر انسجاماً من رابطة اللغة والمصالح الاقتصادية والعلاقات المتبادلة، وأن المسلمين هم إخوته الحقيقيون، لا أشقاؤه إن كانوا يختلفون عنه في العقيدة.

٢ ـ **الشعور**: يشعر المسلمون جميعاً أنهم يشكلون مجتمعاً خاصاً بهم، ولو كانوا متفرقين بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة، أو مبعثرين في مناطق واسعة لقلتهم، أو يخضعون للضغط بسبب الأحكام الجائرة المستبدة بهم، أو موزعين بسبب الفكرة الطبقية الهدامة المتبناة. ويشعر كل فرد منهم أنه يؤدي واجباً معيناً تجاه مجتمعه الإسلامي، وبهذه الواجبات يتكامل البناء الاجتماعي ويسير نحو الأفضل ويقترب تدريجياً من الكمال، يقول رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى»[3].

وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم بالشعور، وأنه متكامل يؤدي كل عضو فيه دوره المكلف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه ـ وتشبه القلب الذي لا يميز عضواً عن عضو،

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٢) رواه البخاري ١/٥٣ في الإيمان. ومسلم (٤٥) من حديث أنس.

(٣) مسلم (٢٥٨٦) في البر والصلة: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

فكلهم إخوة متساوون في حاجتهم إلى الدم - هي الفكر المحرك الذي يعطي التوجيه إلى جميع الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومشكلاته ومتطلباته، وتنقي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تنقي الرئة الدم للجسم. ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع إن لم يكن ذلك المجتمع مسلماً، إذ لا ينتمي إليه، وإنما ينتمي إلى مجتمع آخر، وهو المجتمع الإسلامي، ولو كان بعيداً عنه.

فنرى المسلم الذي يعيش خارج العالم الإسلامي، يشعر دائماً بارتباطه بمكة مصدر الإشعاع الرباني أكثر مما يرتبط بمجتمعه الذي يعيش بين جوانحه، لأنه مجتمع غير إسلامي.

٣ - **التعاون**: وليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما في المادة أيضاً وتكافل الحياة، وليس أدل على هذا التكافل المادي من إنفاق خديجة، رضي الله، لمالها الكثير في سبيل الدعوة، وشراء أبي بكر العبيد الذين أسلموا وعتقهم لتخليصهم من الرق والعبودية، وقد لامه أبوه عثمان أبو قحافة، ولم يدر بعد طبيعة هذا الدين فقال له: يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً، يمنعونك، ويقومون دونك؟. قال أبو بكر، رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل. كما أن المسلمين من أصحاب الأموال قد وضعوا أموالهم بين يدي الرسول عند المحنة. وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يقدمون الأموال بين المدة والمدة للدعوة ولكل ما تحتاج إليه، وعندما سأل رسول الله ﷺ، أبا بكر، رضي الله عنه، وقد أتى بمال كثير: «ماذا أبقيت لعيالك؟» أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، أي كان قد قدم ماله كله. ويعتقد المسلم أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولم يقتصر الأمر على التعاون المادي، وإنما زاد على ذلك، فقد يزهد بعض الرجال بالمادة، ولكنه وصل إلى الأذى البدني الذي لا يقبله حر، ولا يقوى عليه إنسان. فقد صعب على بعض المسلمين أن يروا

إخوانهم من الضعفاء يعذبون، ولم ينلهم هم الأذى لقوة عشيرتهم ومركزهم أو لحمايتهم من قبل بعض الزعماء، وقد كان الجوار هو السائد والمعروف، فمن دخل في جوار أحد حماه؛ وإن أصيب بأذى، وقعت الإهانة على صاحب الجوار، وشعر أن الأذى قد لحق به. فقد روى ابن هشام أن المسلمين الذين عادوا من الحبشة بعد هجرتهم إليها لم يستطع بعضهم الرجوع إلى مكة حتى دخل في جوار بعض قادة قريش، فأبو سلمة قد دخل في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى عثمان بن مظعون ما في أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال له: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد رد عليَّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت.

وتابع لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال

رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري[1] أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، فقد كانت في ذمة منيعة. قال عثمان: بل والله، إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك، فقال: لا.

أما أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فقد ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ، وأصحابه ما رأى، فاستأذن رسول الله ﷺ، بالهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه (مالك بن الدغنة)، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني، وضيّقوا عليّ، قال؛ ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له إلا بخير فكفوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن بكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة ونحو فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء، فمشى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا

(١) شري ـ كرضي ـ يقال: شري الشر بينهم، أي: عظم واستطار.

بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، إنهم كرهوا مكانك الذي أنت فيه وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أو أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟. قال: فاردد علي جواري، قال: رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردّ علي جواري، فشأنكم بصاحبكم. فلقي أبا بكر سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل، فقال أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. فكان أبو بكر يكرر: أي رب ما أحلمك!![1].

٤ ـ الطاعة:

هذا المجتمع كان يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله ﷺ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾[2]، ويشعر كل فرد أنه أولى منه بنفسه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3]، وكان المثل الأعلى للمؤمنين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾[4].

كما أن طاعته واجبة بصفته رأس المجتمع وقائده وبه تتمثل الدعوة، فلم يكن مسلم يتصرف دون إذنه، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه، وهذا ما يدعو إليه المسلم. وكذلك فالأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيساً يمثل المجتمع الإسلامي، ويقيم حدود الله بينهم، وهو يمثل رسول الله ﷺ.

٥ ـ التضحية:

وكان المسلمون يضحون بكل شيء في سبيل رسول الله ﷺ، ودعوته

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٧٣.
(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

نتيجة تقديرهم العميق له، ونتيجة كونه رمزاً لهذه الدعوة وصاحبها، وتتجلى هذه التضحية عندما نام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في فراش النبي ﷺ، يوم الهجرة، وكان هدفاً للقتل، بل وتتجلى في كل معركة خاضها رسول الله ﷺ، حيث كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يحمونه بأنفسهم، ويتلقون الضربات عنه.

٦ ـ الموقع:

كان الفرد المسلم يعرف موقعه تماماً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به، ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقفاً، ويتعرف على ما يحاك ضده من مؤامرات، وعلى الجهات التي تخطط وتنفذ ذلك، فيراقبها من جهته مراقبة دائمة، يعرف من خلالها تحرك الأعداء، ويبلغ قيادته بشكل دائم ومتصل لتتخذ الموقف المناسب الذي يحبط عمل الخصم، ويحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه، وقد كانت أحوال قريش وتحركاتها اليومية تصل إلى رسول الله ﷺ، ومن خلال هذه المعلومات يعطي الرسول الكريم أوامره، وقد ينقلها إلى بعض المسلمين الذين يرى ضرورة معرفتهم لها.

٧ ـ النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يقدّر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة، بل هو بمقدار قربه من رسول الله ﷺ، قائده وموجهه، وتطبيقه للإسلام وانقياده له ووعيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٨ ـ الحماية:

هذا المجتمع الإسلامي الصغير الذي نشأ في مكة كان لا بد له من حماية من المحيط الذي يعيش فيه، والذي يريد القضاء عليه، ولا تتوفر له الحماية إلا إذا وجد له التنظيم الدقيق والسرية التامة، وهذا لا يضمن إلا إذا توفرت الطاعة

التي تكلمنا عنها. وقد كان رسول الله ﷺ، ينظم العمل، ويقيم سراً لقاءات تتم في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تحدثنا عنها في البداية، فلم يعلم ما يدور فيها إلا الذين يدخلون الدار، ولم يعلم باللقاء إلا الذين يجتمعون فيه، هذا بالنسبة إلى الذين لا تعلم قريش إسلامهم، أما الذين يجهرون بالدعوة، وتعرفهم قريش فكان لا بد من توفير الحماية لهم أيضاً، وكانت تتم إما:

أ ـ بالدخول بجوار بعض زعماء قريش ممن تربطهم بهم الصداقة أو القرابة، وقد تكون أحياناً من باب الشهامة أو حب الشهرة، وذلك في سبيل حمايتهم من الاضطهاد دون أن يمس ذلك شيئاً في عقيدتهم أو سلوكهم الإسلامي أو دفاعهم عن إخوانهم في الدين من المستضعفين.

ب ـ بالهجرة من البلد: والقيادة هي التي تؤمن ذلك لحماية أفرادها من وقوعهم في أيدي الجاهليين، وخوفاً عليهم من الفتنة، فكانت القيادة هي التي تشير إلى بعض المسلمين بالهجرة إلى مكان معين كما حدث في الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ولم يكن مسلم ليخرج إلى أية جهة يريدها كيفما اتفق، أو يخرج دون أن يستأذن القائد أو المسؤول الذي هو رسول الله ﷺ، فالقيادة هي التي تقدر الأمر، وليس الأفراد.

ويتساءل بعضهم: هل يصح الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذ مظلة يتقي بها شر الأعداء؟ ويعمل من خلالها لفكرته، ويستندون في هذا التساؤل إلى دخول رسول الله ﷺ، في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، ودخول أبي بكر، رضي الله عنه، في جوار مالك بن الدغنة، ودخول ابن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول رسول الله ﷺ، مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، والجواب لا يصح ذلك للأسباب التالية:

أولاً: دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخول فرد في حماية مؤسسة، إذ أن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية ربما تتوطد وتزداد أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه وهذا ما حدث عندما ردّ أبو بكر، رضي الله عنه، جوار ابن الدغنة،

وعندما ردّ عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة مع مؤسسة فما دام الفرد عضواً فيها فيجب أن يخضع لها، ويسير على نهجها، ويتبع أفكارها ولو أنها تباين أفكاره، وخاصة أنه ضعيف.

ثانياً: دخول رسول الله ﷺ، مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب كان دخول فرد مع أسرته وحُماته، ولكنه لم يسمح للمسلمين من غير هذين الحيين بالدخول معهم، وإنما طلب منهم أن يهاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية، وخاصة الضعفاء في قبائلهم أو الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومعنى هذا رفض رسول الله ﷺ، دخول فرد مسلم في حماية جماعة على الرغم من وجوده هو فيها.

ثالثاً: دخول رسول الله ﷺ، في شعب أبي طالب لم يكن دخول فرد، وإنما كان هو المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع، والعنصر المحرك فيه، فكان إذا جن الليل، وأوى رسول الله ﷺ، إلى فراشه ورأى الناس ذلك، طلب منه أن ينتقل إلى فراش غيره من أبناء عمومته، وينتقل صاحب الفراش إلى مكان رسول الله ﷺ، حتى لا يصاب الرسول بأذى إن أراد أحد به مكراً أو اغتيالاً، وإنما يصاب غيره. أما غير رسول الله ﷺ، فإذا انضم إلى مؤسسة ضاع بين أفرادها وخاصة إذا كانت المؤسسة ذات سلطة، وكان هو ضعيفاً، وأراد أن يحتمي بها، وهذا سبب دخوله أصلاً إليها.

رابعاً: كثيراً ما يتخذ الإنسان هذا الدخول لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوغات له، وبعد المناقشة تتبلور المسوغات في ذهنه حتى تصبح حقيقة عنده يدافع عنها.

تنقية الصف:

ولم يكن هذا المجتمع ليخلو من هزات تصيبه بين مدة وأخرى، فتنقيه من الشوائب التي يمكن أن تتسرب إليه، وتصفيه من ضعاف الإيمان عند وجودهم فيه، فإما أن يقوى إيمانهم ويسايروا الركب، ويكونوا أعضاء

عاملين فيه، أو يسقطوا على الطريق، وبهذا يصبح المجتمع أكثر تماسكاً وأشد تجانساً، فإن وجود عناصر مرضى يعيق السير ويبطىء من الحركة، وقد تؤدي إلى ضعف النمو، وبالتالي إلى التخاذل وتوقف الحيوية. وإن حادثة الإسراء والمعراج كانت إحدى هذه الهزات التي أصابت المجتمع الإسلامي الصغير، فعندما حدَّث رسول الله ﷺ، بقصة إسرائه أنكرت قريش عليه، وقال الناس: هذا والله الأمر البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟! فارتد بعض من كان أسلم.

صحيح أن الهزات كانت تقلل العدد، فيضمر المجتمع، ولكن متى كان للعدد تلك الأهمية؟ إن الأهمية كل الأهمية في القلوب التي في الصدور، القلوب التي يعمرها الإيمان، فتحرّك الرجال، وتدفعهم كي يتجشموا المخاطر، ويتحملوا النوازل، ويتلقوا المصائب، ويستهينوا بقوة العدو أمام قوة الله، هذه القلوب المؤمنة هي التي كانت سبب النصر في كل المعارك التي خاضها المسلمون على الرغم من قلة العدد وقلة العتاد وما انتصر المسلمون في معركة بكثرة العدد، أو ضخامة العتاد، وإنما انتصروا بالإيمان والتأييد من الله، وقد هزموا في حنين في البداية عندما أعجبتهم كثرتهم، وداخلهم شيء من الأمر، وظن بعضهم أن النصر بالكثرة، فخابت آمالهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(١) وأضعف المنافقون الصف يوم أحد، ونشروا الفوضى وانسحبوا من الجيش، وهذا شأن ضعاف الإيمان في كل معركة وفي كل ميدان.

لذا يجب ألا نبالي بهذه الهزات، وألا نعدها ظاهرة مرض تضعف الجماعة الإسلامية، إنما هي في الحقيقة ظاهرة صحة تقوي التماسك في

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٦.

الصفوف، وتدبّ فيها الحيوية والحركية، إذ لا يسقط من الصف ويتخلى عن الفئة المؤمنة إلا الذي في قلبه مرض، أو في نفسه هوى وقد طال أمد تحقيقه ورأى الطريق شاقاً، فاستهوته شياطين الإنس، فانحرف بغية تحقيق بعض مصالحه..

وفاة خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها:

بعد أن خرج بنو هاشم وبنو المطلب من شِعب أبي طالب بقليل توفيت زوج رسول الله ﷺ، خديجة بنت خويلد الأسدية، رضي الله عنها، وهي أولى زوجاته، ولم تكن له زوج غيرها عندما كانت على قيد الحياة، وهي التي أنجبت له أولاده الذكور جميعهم عدا إبراهيم إذ ولدته مارية القبطية، وبناته كلهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وحزن رسول الله ﷺ، على خديجة حزناً كبيراً فهي أول من صدّقه، ومن بذل ماله له وللدعوة، وأنجبت له الأولاد، وكانت العطوف عليه وقت الشدة.

أما الذكور فقد توفوا صغاراً وهم: القاسم، وعبد الله الملقب بالطيب، والطاهر، وكذلك إبراهيم، وأما البنات فقد تزوج زينب في الجاهلية ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأنجبت له أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة زوجه فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وهي خالتها.

وتزوج عثمان بن عفان رقية وهاجر بها إلى الحبشة، ولما توفيت في المدينة بعد غزوة بدر تزوج أختها أم كلثوم، ولم تنجب الأختان. وتزوج علي بن أبي طالب فاطمة في المدينة بعد غزوة بدر، وأنجبت الحسن والحسين وزينب.

وهنا نجد أيضاً القدوة برسول الله ﷺ، الذي لم يعش له من الذكور أحد، بل ماتوا صغاراً في حياته، وعاشت البنات، منهن من أنجبت، ومنهن من لم تنجب، وماتوا كلهن في حياته إلا فاطمة فقد عاشت بعده ستة شهور فقط.

زواج رسول الله ﷺ سودة:

بعد أن توفي السكران بن عمرو إثر عودته من الحبشة إذ هاجر مع زوجه سودة مع المجموعة الثانية، بقيت سودة مع المجموعة الثانية، بقيت سودة بلا معيل، فهي من بني عامر من أشراف قريش الذين منهم سهيل بن عمرو أخو زوجها السكران، وهو من أشد الذين وقفوا في وجه الإسلام. فهي شريفة، وأسلمت، وخالفت قبيلتها وأسرتها، وهاجرت مع زوجها، ولم يجد رسول الله ﷺ، بداً من أن يتزوجها، وكانت خديجة قد توفيت منذ شهر تقريباً.

وفاة أبي طالب:

وبعد وفاة خديجة بشهر توفي عمه أبو طالب الذي وقف بجانبه، وحماه من قريش، وكان يطمع رسول الله ﷺ، في إسلامه إذ كان يُصدّقه، ولا يكذبه أبداً فيما يقوله، ولكنه لم ينطق بالشهادة، وكان رسول الله ﷺ، يقول له: قلها ولو في أذني، ولكنه رفض وخشي أن تعيره قريش. وقد نالت قريش من رسول الله ﷺ، بعد وفاة عمه ما لم تنله في حياته.

عقد رسول الله ﷺ على عائشة:

عقد رسول الله ﷺ، على عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، بعد وفاة عمه أبي طالب بشهر تقريباً، وكانت صغيرة فلم يبن بها إلا في المدينة أي بعد خمس سنوات من العقد، إذ دخل عليها في أواخر السنة الثانية للهجرة.

الإسراء والمعراج:

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، إذ نام يوماً بمكة بعد أن صلى العشاء الآخرة وقبيل الفجر أسري به على البراق إلى بيت المقدس فصلّى هناك، ثم عرج به إلى السماء حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما

رأى، وفرضت عليه الصلاة فكانت خمسين صلاة في اليوم، ثم سأل ربه التخفيف فوضعها عنهم إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة فمن أداهن إيماناً بهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة. ثم عاد إلى بيت المقدس ومنها إلى مكة، ولم يخرج النهار، فصلى الصبح، تقول أم هانئ هند بنت أبي طالب ابنة عمه: ما أسري برسول الله ﷺ، إلا وهو في بيتي. نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا[1] رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشفت عن بطنه كأنه قبطية[2] مطوية فقلت له: يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس، فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدّثنهموه. قالت: فقلت لجارية لي حبشية: ويحك! اتبعي رسول الله ﷺ، حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له.

فلما خرج رسول الله ﷺ، إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فندّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى كنت بـ (ضَجَنان) مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب[3] من البيضاء[4]: ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء. قالت: فابتدر القوم الثنية، فلقيهم أول ما لقيهم من الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء، ثم غطوه، وأنهم هبّوا فوجدوه مغطى

(١) أهبنا: أيقظنا.

(٢) القبطية ـ بكسر القاف وضمها ـ ثياب من كتان في مصر، نسبة إلى القبط.

(٣) يصوب: ينزل من عل.

(٤) هي عقبة قرب مكة تهبطك إلى فخ.

كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذكره، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

وحدَّث رسول الله ﷺ، أبا جهل أيضاً بما جرى، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي فأقبل إليه كفار قريش، فأخبرهم الرسول الخبر، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به ضعفاء القلوب. وسعى رجال إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ فقال: إني أصدقه على أبعد من ذلك. إني أصدقه بخبر السماء، فسمِّي من ذلك اليوم صدِّيقاً.

ثم أخذ الكفار يمتحنون رسول الله ﷺ، ويسألونه أن يصف لهم بيت المقدس، ومعهم رجال يعرفون ذلك البيت، ولم يكن رسول الله ﷺ، يعرفه قبل حادثة الإسراء، فجلاه الله، فصار يصفه لهم مكاناً مكاناً، فقالوا: أما الوصف فقد أصاب.

وكانت هذه الحادثة اختباراً للمسلمين نقَّت صفوفهم من ضعاف الإيمان، فأصبحت أكثر تماسكاً وأشد ارتباطاً. والله غالب على أمره، وله في كل حادثة حكمة، وفي كل أمر شأن.

الفصل الثالث

البَحثُ عَن مَكانٍ يُتّخذُ قَاعِدَةً للدَّعوَة

رأى رسول الله ﷺ، أن القاعدة الصلبة قد تكونت، وأن عدد المسلمين غدا جيداً، وهم يزدادون يوماً بعد يوم، وأن الدعوة قد زادت حمايتها بدخول حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب في عدادها، وأن القبائل الثانية قد بدأ خبر الإسلام يصل إليها، وأخذ يعتنق الدين الجديد أفراد من تلك القبائل، فقد دخل في الإسلام عبد الله بن مسعود من هذيل، ومسعود بن القاري من القارة، وعامر بن ربيعة من اليمن، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر الغفاري، ووفد نصارى نجران، ويزيد عددهم على العشرين، وقد وصل إليهم خبره عن طريق المهاجرين إلى الحبشة، فوفدوا على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا جميعاً، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم! فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، وأبو موسى الأشعري من اليمن، وهاجر قومه فيما بعد إلى الحبشة، إذ ألقى بسفنهم الموج وهم في طريقهم إلى المدينة، في الوقت الذي كان فيه جعفر ومن معه في سفينتين يريدون المدينة أيضاً، وكانوا قد بقوا فيها ما يزيد على عشر سنين.

لما رأى رسول الله ﷺ، ذلك بدأ يفكر بتأسيس الدولة التي تحمي الدعوة وتعمل على حملها ونشرها، وقد بدأ هذا العمل منذ الهجرة إلى الحبشة، إذ كانت الغاية إضافة إلى حماية الذين أسلموا دراسة أوضاع الحبشة، فإذا كانت التربة صالحة، والمناخ ملائماً، انتقل رسول الله ﷺ، بعد المهاجرين إليها، يعمل هناك إلا أن ظروف الحبشة لم تناسب ذلك، إذ

اختلفت البطارقة مع النجاشي ـ كما رأينا ـ ثم نازعه رجل على الملك، ولكن الله نصره عليه، وعاش المسلمون عنده في خير منزل، إلا أن الوضع كان بشكل عام لا يلائم انتقال رسول الله ﷺ، إليها لأن الخلاف مع البطارقة يمكن أن ينفجر معه الوضع في كل وقت ـ وقد حدث ـ.

الهجرة إلى الطائف:

وفكر رسول الله ﷺ، في الطائف، فهي بلد قريب من مكة لا يبعد عنه أكثر من ثمانين كيلاً، وهي مكان مرتفع، وثقيف قبيلة مشهورة بين العرب، وذات منعة، وهوازن كذلك، فإذا وجد هناك المنعة والحماية من قومه الذين اشتد أذاهم له بعد وفاة عمه أبي طالب هاجر إلى هناك، فإذا تم ذلك ربما أمكن اتخاذه مكاناً يكون قاعدة الدعوة. فسار إلى الطائف وحده.

وعمد إلى نفر منهم، هم آل عمير، ويعدون من سادة ثقيف إلا أنهم ردوه بعد أن دعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، فلما يئس منهم، طلب منهم أن يكتموا عنه، إذ خشي أن يعلم قومه بما قام به، فيزداد أذاهم له، ولكنهم لم يفعلوا، وإنما أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش، فرجع عنه سفهاء ثقيف، وابنا ربيعة ينظران ما فعل بمحمد ﷺ، وعمد إلى ظل شجرة عنب فلما اطمأن هناك توجه بالدعاء! إلى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». وقد رقّ له ابنا ربيعة فأرسلا له قطفاً من عنب مع غلامهما (عداس). وهو من أهل نينوى بالعراق، إلى

الشرق من الموصل، فلما بدأ رسول الله ﷺ، يأكل من العنب قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فاستغرب عداس، فلما كلمه رسول الله ﷺ، وعرف بلده، بلد رسول الله يونس بن متى، أكب عداس على رأس رسول الله ﷺ، يقبله، وعلى يديه وقدميه، وقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر لما رأيا ذلك: أفسد علينا الغلام. فلما رجع إليهما، قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

انصرف رسول الله ﷺ، من الطائف راجعاً إلى مكة إذ يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة(١) قام من جوف الليلي يصلي، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا إليه، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

وعندما وصل إلى مكة، وكان خبر رحلته إلى الطائف قد وصل إلى قريش، فلم يستطع دخول بلده حتى أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

العرض على القبائل:

ولما يئس رسول الله ﷺ، من إيمان قريش في مكة، وثقيف في الطائف، بدأ يذهب إلى المواسم التي تقام في الأسواق مثل عكاظ وذي مجنة وغيرها، وتحضرها القبائل العربية للتجارة والاستماع إلى ما يلقى فيها من شعر، ويعرض نفسه على هذه القبائل يدعوها إلى الله، وإلى نصرته، ومنعته حتى يؤدي رسالته، وكذلك يعرض نفسه على هذه القبائل في موسم الحج، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله،

(١) نخلة: اسم واديين إلى الشمال الشرقي من مكة على طريق الطائف، يقال لأحدهما نخلة الشامية، وللآخر نخلة اليمانية.

ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به». ولكن قريشاً لم تكن لتتركه وشأنه مع القبائل إذ كانت ترسل إليها أفراداً منها يُحذّرون تلك القبائل منه، ويرمونه بالسحر والكهانة أو الجنون، حتى إن عمه أبا لهب كان يسير وراءه في كثير من الأحيان ويرد أقواله فيقول: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. ومن هذه القبائل من كان يرد رداً لطيفاً، ومنها من كان يرد رداً قبيحاً، ولعل أقبح رد ما كان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب. أما بنو عامر بن صعصعة فقد قال كبيرهم فراس بن عبد الله: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتهدف[1] نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا. فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هل لذناباها من مطلب[2]، والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط[3]، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟.

---

(١) تهدف ـ بالبناء للمجهول ـ أي: تصير هدفاً يرمى.

(٢) هذا مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به.

(٣) أي: ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

وهكذا يبدو أن رسول الله ﷺ، لم تكن غايته جمع الناس حوله ومقاتلة خصومه، وعند نجاح أمره، يطبق المنهج الذي يريد، وإنما كانت غايته تثبيت العقيدة من البداية والسير على هدى الله من أول الطريق، فليس هناك من مراحل في الدعوة وليس هناك أنصاف حلول. . فالحكم لله يضعه حيث يشاء لا مزاودة فيه ولا عمل من أجله بحد ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق منهج الله في الأرض.

وجاء وفد من يثرب من الأوس إلى مكة، يبغون نصرة قريش لهم على إخوانهم الخزرج، وعليهم أبو الحيسر، أنس بن رافع، فسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان معهم غلام حدث هو إياس بن معاذ، فقال: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء فضرب وجه إياس، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، وقد أتت على أكثر رؤسائهم إذ لم يبق من زعماء الخزرج سوى عبد الله بن أبي بن سلول، ومن الأوس أبو عامر الراهب. وربما كان ذلك تقدمة لمقدم رسول الله ﷺ، إذ أن الوجهاء عادة يقفون أمام كل مصلح خوفاً على مصالحهم، وهذا ما كان بمكة وكذلك في يثرب إذ نلاحظ أن هذين الوجهين كانا من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وإن أسلم أولهما ظاهراً، وكان رأس المنافقين لا يترك مناسبة إلا ويحاول فيها الوقيعة بين المسلمين أو شقّ صفوفهم أو نقداً لرسول الله ﷺ. أما الثاني فقد عادى رسول الله ﷺ، وخرج مغاضباً إلى مكة وسار مع أبنائها لقتاله. ومات كافراً. أما إياس بن معاذ فلم يلبث أن مات، ويعتقد أنه مات مسلماً إذ كانوا يسمعونه يكبر الله ويحمده ويسبحه.

وجاء الموسم، وبينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، التقى بجماعة من الخزرج عند العقبة. فلما سألهم من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. وكانت الغلبة في يثرب لليهود. وذلك أنه لما كانت حادثة سد مأرب، وتفرق العرب من حوله، وساروا في مختلف الجهات، إذ سار أزد عمان نحو عمان، وانتقل أزد شنوءة إلى بلاد عسير، واتجه المناذرة نحو العراق، وحطت رحال الغساسنة في بلاد الشام، وتوقف حارثة وولداه الأوس والخزرج في يثرب، وقد حارب العرب في البداية يهود، وانتصروا عليهم، وأصبحوا أصحاب النفوذ في يثرب، ثم تفرقت كلمتهم، ووقعت العداوة والبغضاء بين الأوس وبين الخزرج، أثارها يهود ليعود نفوذها إليهم، ولتستفيد من بيع السلاح للفريقين كعادة يهود على مدار التاريخ، وكان بين الحيين أيام وحروب، كان آخرها يوم بعاث التي كانت للأوس على الخزرج، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير من يهود الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس. فلما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكانوا يسمعون من يهود في بلادهم، كلما كان بينهم شيء أن نبياً مبعوث الآن، وقد أظل زمانه، وتقول يهود: إننا نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. وواعدوا رسول الله ﷺ، العام المقبل في الموسم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، وعدد هؤلاء النفر ستة. فلما قدموا إلى المدينة ذكروا لقومهم ما كان معهم، وحدثوهم عن رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، فانتشر

بينهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا ويذكر فيها اسم رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى:

استدار العام، وأقبل الناس إلى الحج، وكان بين حجاج يثرب اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وذكوان بن عبد قيس، وعقبة وقطبة ابنا عامر. وهؤلاء من الخزرج. وأبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، وهما من الأوس. وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ﷺ، عند العقبة، وأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ، ويقول عبادة بن الصامت، رضي الله عنه: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ، على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض القتال، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف ثم قال لنا رسول الله ﷺ: «فإن وفيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وعندما غادره القوم أرسل معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فسار معهم، فلما وصلوا إلى يثرب نزل على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يسمّى هناك بالمقرئ. وقد صلى مصعب بالمدينة الجمعة لأول مرة، ولم يزد عددهم على الأربعين.

وذهب يوماً أسعد بن زرارة، ومعه مصعب بن عمير إلى بستان من بساتين بني عبد الأشهل ـ أحد بطون الأوس ـ فجلسا فيه، واجتمع حولهما عدد من الذين أسلموا، فرآهما سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وهما يومئذ سيدا بني عبد الأشهل، ومن سادة الأوس أيضاً، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا

ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فأصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين. قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، فقام، واغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع،

فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً: قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم قائداً، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

بيعة العقبة الثانية:

رجع مصعب بن عُمير إلى مكة، وجاء موسم الحج، وخرج من خرج من يثرب مسلمين ومشركين، ولما قدموا مكة واعد المسلمون رسول الله ﷺ، العقبة، من أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثلث الأول منه، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وقد أمرهم ألا ينبّهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً.

فلما فرغ الحُجَّاج من حجهم، ونام أهل يثرب في رحالهم مسلمهم

وكافرهم، ومضى ثلث الليل من يوم الموعد، خرج المسلمون من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ، وتسللوا تسلل القطا حتى اجتمعوا في الشِّعب، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومع الرجال امرأتان هما: نسيبة بنت كعب المازنية من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، ووافاهم رسول الله ﷺ، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال على دين قومه ظاهراً، جاء يستوثق لابن أخيه، فقال العباس: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أشترط لربي أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم متى قدمت عليكم». فتقدم البراء بن معرور فأخذه بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر.... فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها: ـ يعني يهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[1]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

---

(١) العرب تقولها عند عقد الحلف والجوار، أي: دمي دمك وهدمي هدمك، فما هدمت من الدماء هدمته أنا.

وابتدأت البيعة، فبايع البراء بن معرور أول من بايع، ثم تتابع الجميع، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: البراء بن معرور، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو، وهؤلاء من الخزرج، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ومالك أبو الهيثم بن التيهان، وهؤلاء من الأوس.

وبعد البيعة قال رسول الله ﷺ: «ارفضّوا[1] إلى رحالكم». فقال له سعد بن عبادة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا حتى الصباح.

فلما أصبح الصباح جاء وفد من قريش، فقالوا لهم: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، أما المسلمون فقد صمتوا وكان ينظر بعضهم إلى بعض، وأما المشركون فقد اندفعوا يحلفون بالله أنه ما كان من هذا شيء، ولا يعلمون شيئاً من هذا... ثم انصرف وفد قريش، وقد صدقوا ما قيل لهم، وذهبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فسألوه، فقال: والله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا، وما علمته كان... ثم انصرفوا ولما سافر حجاج يثرب.. انتشر الخبر في مكة كثيراً فوجدت قريش أن الأمر قد تمّ فخرجت في طلب القوم، فأدركت سعد بن عبادة، وكان أحد النقباء، فأخذوه أسيراً إلى مكة، وأفلت منهم المنذر بن عمرو... وقد عذّب سعد بن عبادة في مكة، ثم أجاره جبير بن

---

(١) ارفضوا: تفرقوا.

المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية إذ كان يجير لهما تجارتهما في يثرب.

فلما رجع مسلمو يثرب إليها، أظهروا الإسلام فيها، وكان عمرو بن الجموح قد اتخذ في بيته صنماً إلا أن من آمن من أهله كان يلقي الصنم في الليل على المزابل فيعيده عمرو بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه، ولما تكررت الحادثة أدرك عمرو ما قيمة الصنم فألقاه وأسلم.

أما مكة فقد اشتد أذى مشركيها على من أسلم بعد أن علموا أن محمداً ﷺ، قد حالف أهل يثرب عليهم. وعندها أمر رسول الله ﷺ أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا، والذين معه من المسلمين بمكة بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، أي أمر أن يتجمع المؤمنون كلهم في مكان واحد حتى تقوى كلمتهم ويمكن إقامة الدولة الإسلامية لتطبيق منهج الله في الأرض.

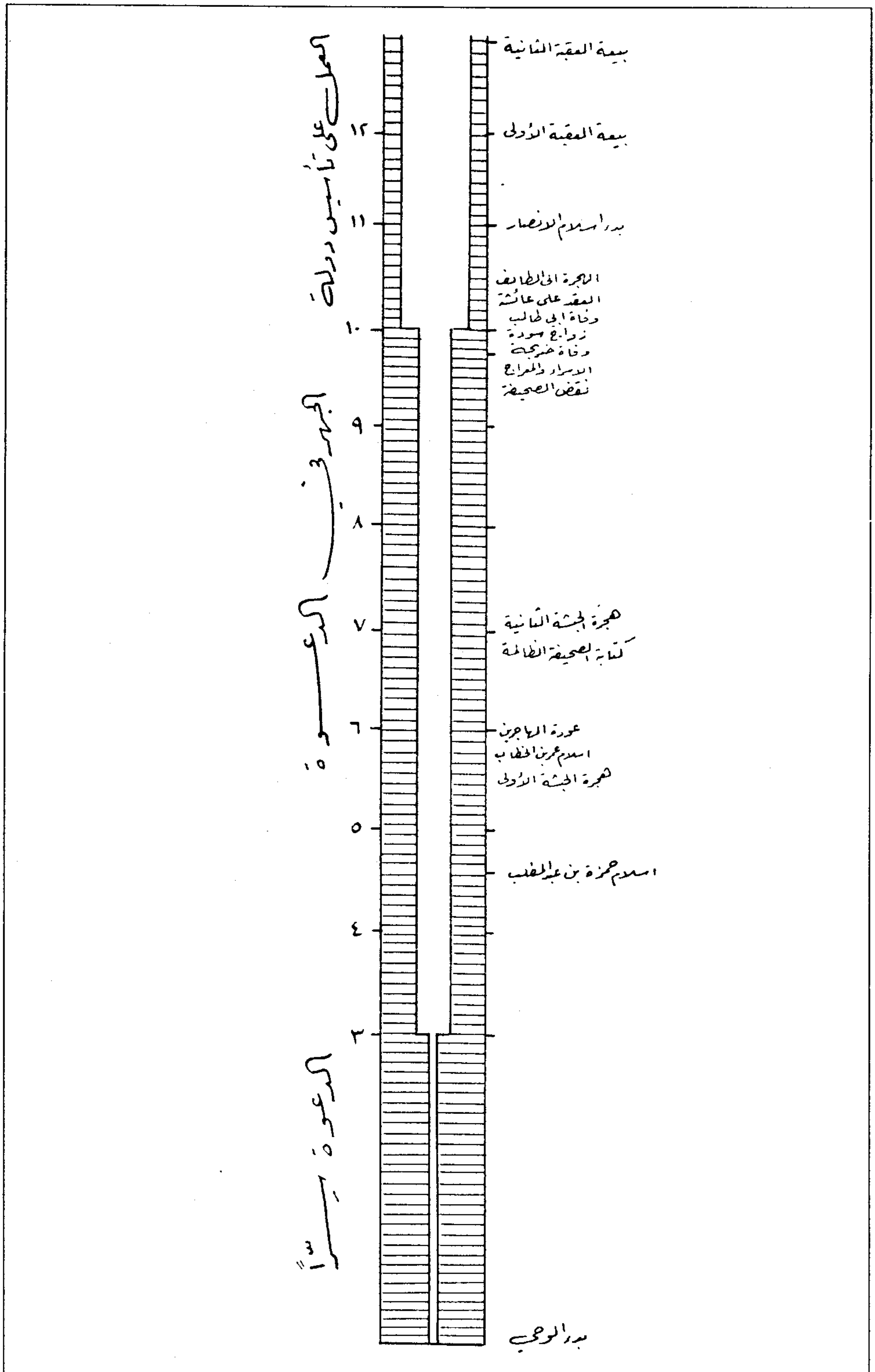

بيعة العقبة الثانية
بيعة العقبة الأولى
بدء إسلام الأنصار
الهجرة إلى الطائف
العقد على عائشة
وفاة أبي طالب
زواج سودة
وفاة خديجة
الإسراء والمعراج
نقض الصحيفة
هجرة الحبشة الثانية
كتابة الصحيفة الظالمة
عودة المهاجرين
إسلام عمر بن الخطاب
هجرة الحبشة الأولى
إسلام حمزة بن عبد المطلب
بدء الوحي
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
العمل على تأسيس دولة
الجهر في الدعوة
الدعوة سراً

الهجـــرة

بدأ المسلمون ينتقلون حسب أوامر رسول الله ﷺ، إلى يثرب لحاقاً بإخوانهم المسلمين، وفراراً بدينهم، وكان أول من هاجر من مكة إلى يثرب أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ[1]، وقد هاجر إلى يثرب قبل بيعة العقبة الثانية بعام تقريباً، إذ اشتد أذى قريش عليه بعد أن رجع من الحبشة، وعلم بدء انتشار الإسلام في يثرب فانتقل إليها، وكانت معه زوجه أم سلمة، وولده سلمة إلا أن أهلها قد حالوا دون خروجها معه، ثم لحقت به بعد مدة، وتتحدث هي عن هجرتها فتقول: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بنيّ سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة،

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة «بناة دولة الإسلام» للمؤلف، صدر عن المكتب الإسلامي.

فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قلت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحّى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري، فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع بي ذلك حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وعبد الله بن جحش، وأخوه عبد أبو أحمد وأهلهما، ثم تتابع المسلمون حتى لم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر، وعلي، وصهيب، وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالتهم من الهجرة، وعندما أراد أبو بكر الهجرة قال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ، ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك.

ولما أراد صهيب الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك،

والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وأقام رسول الله ﷺ، بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، رضي الله عنهما.

أما قريش فقد علمت وسمعت كل ما حدث فتداعت إلى اجتماع في دار الندوة لتبحث بما هي فاعلة. فتشاوروا في الأمر، فاقترح بعضهم أن يدعوه يخرج لتستريح منه مكة وأبناؤها، فرفض هذا الاقتراح، إذ قالوا: تجتمع هناك حوله رجال القبائل وربما رمانا بها، واقترح بعضهم أن يصفد بالحديد ويترك، حتى يقضى عليه بالموت، فرفض أيضاً هذا الاقتراح، وقالوا: ربما حاول أتباعه أن ينقذوه فتقع الحرب بيننا، ونحن في غنى عنها. ثم تم اتفاق على رأي اقترحه طاغيتهم أبو جهل إذ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

وأعلم الله نبيه ما تم في دار الندوة، وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه، وأذن له بالهجرة. فأسرع رسول الله ﷺ، فأخبر أبا بكر بذلك، وأنه صاحبه في الرحلة، فعرض عليه أبو بكر إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك، فجهزاهما أحسن الجهاز، ووضع الطعام في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط وكان مشركاً على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه الراحلتين، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، وكان ابن أريقط دليلاً ماهراً، وخرِّيتا في الطريق. ثم فارق رسول الله ﷺ، أبا بكر، وواعداه الالتقاء بعد منتصف الليل خارج مكة في مكان حدداه بالدقة. وكانت هذه

ليلة التنفيذ لدى قريش لقتل رسول الله ﷺ، ولما كانت عتمة الليل اجتمعوا أمام داره يرقبونه حتى ينام، فإذا فعل انقضوا عليه. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ، أمر ابن عمه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أن ينام على فراشه وأن يتسجّى ببرده، كعادته هو إذا نام. وكانت وظيفة علي، رضي الله عنه، التمويه عن رسول الله ﷺ ليلاً، وتأدية الودائع التي عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها.

وحان موعد الخروج، فخرج رسول الله ﷺ، من داره وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾[1]...

فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، وسار رسول الله ﷺ، لموعد الصديق، فالتقيا، وانطلقا إلى غار ثور، فأقاما فيه. أما قريش فبقيت تنتظر، وينظر رجالها من خلال ثقوب الباب فيرون إنساناً نائماً، ولا يعدو عندهم محمداً، وأتاهم طارق لم يكن معهم فسألهم عما ينتظرون، فقالوا: محمداً، قال: قبحكم الله لقد خرج محمد، وانطلق لحاجته، فأسرعوا فنظروا من ثقوب الباب فرأوا النائم مكانه، فلم يصدقوا، وانبلج الصبح، واستيقظ علي، فلما رأوه سألوه عن محمد قال: لا أدري، فانطلقوا مسرعين من كل جهة يفتشون عن رسول الله ﷺ، وقادهم الطلب حتى غار ثور، إلا أن الله أعماهم عنهما، وقد بكى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذ لاحظ أنه لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».

وأقام رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاث ليال حتى قطع

---

(١) سورة يس: الآيات ١ ـ ٩.

عنهما الطلب. وكان يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر، ويخرج من عندهما في السحر، فيصبح مع قريش بمكة كأنه نائم بها، وفي المساء يأتي إليهما، ومعه أخبار مكة وأهلها جميعاً، كما يغدو ويروح عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، ومعه عدد من الأغنام يرعاها، ويتبع أثر عبد الله بن أبي بكر حتى لا يظهر، ويسقيهما من لبن الغنم. فلما انقطع الطلب خرجا، وقد جاءهما الدليل صبح ثلاث مضت.

أما قريش فقد ذهب بعض أعيانها إلى دار أبي بكر، فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي، فضرب أبو جهل خدها ضربة قاسية.

خرج رسول الله ﷺ، من الغار مع صاحبه أبي بكر، ومعهما عامر بن فهيرة، والدليل عبد الله بن أريقط، وانطلقوا يسلكون طريق الساحل، وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي بمحمد أو صاحبه قتلاً أو أسراً، وسار أصحاب الأطماع يفتشون، وبينما كان سراقة بن مالك يجلس في نادي قومه بني مدلج، وهو ممن عرف بالعدْو والصعلكة إذ يدخل رجل فيقول: لقد رأيت ثلاثة ما أظن إلا أنهم محمد وصحبه، فأومأ إليه أن اسكت، وقال: ولكنهم بنو فلان، ثم خرج هو إثرهم ويقول في ذلك: «لما خرج رسول الله ﷺ، من مكة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركباً ثلاثة مروا علي آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنهم هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله، ثم سكت. قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي، ثم أخرجت قداحي، فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: وكنت أرجو أن أرده على

قريش، فآخذ المائة ناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك، أنه قد منع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ، لأبي بكر: «قل له: وما تبتغي منا؟» قال: فقال ذلك أبو بكر. قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: «اكتب يا أبا بكر». فكتب له. فرجع سراقة، وتابع رسول الله ﷺ، ومن معه حتى وصل إلى قباء قبيل الظهر في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، في السنة الثالثة عشرة للبعثة يوم الاثنين.

أقام رسول الله ﷺ، بقباء في بني عمرو بن عوف مدة خمسة أيام إذ سار يوم الجمعة، وبنى هناك أول مسجد في الإسلام، ووضع رسول الله ﷺ، أول حجر في اتجاه القبلة، ووضع أبو بكر حجراً بجانب حجر رسول الله ﷺ، وأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاّها في بطن وادي (رانوناء)، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. وسار نحو المدينة وكانت القبائل تعترض سبيله ترجوه أن ينزل عندها، وتتعهد بحمايته وإكرامه، ولكنه ﷺ، كان يقول: «دعوا الناقة فإنها مأمورة»، فبقيت تسير حتى بركت في دار بني مالك بن النجار مكان مسجده ﷺ، اليوم في محل يجفف فيه التمر، وكان يسمى مربداً، وهو لغلامين يتيمين، هما سهل وسهيل ابنا عمرو، فنزل رسول الله ﷺ، عن الناقة ونزل بدار خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري، واشترى المربد من ابني عمرو، وبدأ ببناء المسجد. وعرفت يثرب بعد ذلك باسم مدينة الرسول، ثم المدينة المنورة.

ونلاحظ في هذه الرحلة الثقة التامة من الناس برسول الله ﷺ، والثقة التامة من رسول الله ﷺ، بنصر الله وتأييده، فأهل مكة من المشركين على الرغم من عدائهم لرسول الله يضعون عنده أماناتهم، وعلى الرغم من اتهاماتهم له بشتى التهم من جنون، وسحر، وكهانة، وتفريق بين المرء وزوجه كانوا لا يجدون مكاناً لودائعهم إلا عنده، فأية أمانة وأية ثقة أكبر من هذا، عدو مأمون، ومكروه محبوب، وعلى الرغم من أن المسلمين قد تركوا أموالهم في مكة ودورهم وأملاكهم، وأن المشركين قد منعوا خروج صهيب حتى يترك ما جناه لنفسه عندهم من تعبه وعرق جبينه، فإن رسول الله ﷺ، لم يستحل درهماً واحداً مقابل هذا فأبقى رسول الله ﷺ، علياً حتى يؤدي الأمانات، ويعطي الودائع، وقد تخلّف علي، رضي الله عنه، ثلاثة أيام عن رسول الله ﷺ، فأدى مهمته، ثم لحق برسوله الكريم، ووصل إلى قباء ولم يزل رسول الله ﷺ، فيها.

عندما مضت الأيام الثلاثة، ورسول الله ﷺ، وصاحبه في الغار، جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين، فقدم أبو بكر أفضلهما لرسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا أركب ما ليس لي»، فقال له أبو بكر، رضي الله عنه: يا رسول الله فداك أبي وأمي، الراحلتان لك، فقال له: «لا، ولكن أركبها بالثمن». وقد يستغرب المرء هذا القول، فأبو بكر قد قدم جلّ ماله في سبيل الدعوة، وهو يعطي الكثير الكثير، والآن وفي هذا الموقف الحرج يقول رسول الله ﷺ، ما يقول، ولكن الأمر أعمق من هذا بكثير وأبعد، فرسول الله ﷺ، على الرغم مما هم فيه من موقف حرج وشدة في الطلب لا ينسى أنه المعلم وأنه الأسوة الحسنة للمسلمين على مدى الأيام، فيريد أن يعلم الناس، ويعرّف الدعاة أن المسلم يجب ألا يكون عالة على أحدٍ في حياته كلها مهما اشتدت به الحال، وعليه أن يسعى ويجدّ ليحصل على حاجاته كلها ومتطلباته، وأن رسول الله ﷺ، سيوفي ثمن الناقة عندما يتهيأ لديه المال، وأنه إذا أصابها شيء فهو صاحبها والمسؤول عنها.

انطلق رسول الله ﷺ، من مكة مطارداً، خائفاً يترقب، مهدداً بالقتل،

ومعرضاً للأسر، ولكنه كان واثقاً من نصر الله وتأييده إلى أبعد الحدود، فعندما أدركه سراقة بن مالك يريد ردّه لقريش قال له رسول الله ﷺ: «يا سراقة ما رأيك بسواري كسرى؟» وهو في تلك الحالة يمني ملاحقه بانهيار أكبر إمبراطورية وقتذاك وهي إمبراطورية فارس، وأن يأخذ ذلك البدوي من بني مدلج الطامع في مائة ناقة من قريش مقابل رد رسول الله ﷺ، أن يجلس مكان كسرى وأن يلبس سواريه... ولقد صدق الله وعده ونصر عبده.

ونلاحظ أنه بهجرة رسول الله ﷺ، إلى المدينة التي غدت داراً للإسلام وجب على كل مسلم أن يهاجر إلى دار الإسلام. إذ تجب الهجرة إلى البلاد التي يستطيع المسلم أن يؤدي فيها شعائر دينه إذا كان في موطنه لا يستطيع ذلك. كما تجب الهجرة إذا اقتضت الظروف لتجميع المسلمين والإفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية والعسكرية. أما إذا كان غير ذلك بحيث يستطيع الإنسان تأدية شعائره والدعوة إلى عقيدته فمن الأفضل أن يبقى حيث هو ليقوم بدوره في تبليغ الإسلام، والعمل في سبيل الله.

ودار الحرب يقتضي وجودها وجود دار للإسلام، فقبل هجرة الرسول ﷺ، لم تكن توجد هناك دار إسلام وبمقتضى الحال لا توجد دار للحرب، فلم تكن مكة داراً للحرب، وعندما بدأ الإسلام يطبق في المدينة أصبحت مكة دار حرب، وكانت الهجرة واجبة على المسلمين منها، حتى إذا فتحت أصبحت داراً للإسلام ولم تعد الهجرة واجبة منها لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[١].

ودار الإسلام هي الدار التي يطبق فيها شرع الله، ولو لم يكن أكثر أهلها من المسلمين، ودار الحرب هي البلاد التي لا يطبق فيها شرع الله، ولو كان سكانها جميعهم من المسلمين. وعلى هذا فإن الزمن الذي لا

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

يوجد فيه مكان يطبق فيه الإسلام وشرعه لا توجد دار للحرب وبالتالي لا توجد دار للإسلام، وعلى كل مسلم، وعلى المسلمين جميعاً في أي مصر كانوا، أن يعملوا للإسلام، ويدعوا له، ويجاهدوا في سبيل الله، حتى إذا أمكنهم إقامة دولة إسلامية، أصبحت توجد داران أحدهما للإسلام، وأخرى للحرب وفي أية بقعة لا يتمكن مسلموها من إقامة شعائرهم فعليهم أن يهاجروا، وفي أية بقعة احتاجت منها دار الإسلام أخصائيين أو فنيين أو قادة أو أفراداً بأعينهم عليهم أن يهاجروا لتتقوَّى دار الإسلام، وتعمل على نشر الإسلام والدعوة له في كل مكان حتى يزول الظلم، وتنتهي الطواغيت من سطح الأرض.

الباب الرابع

الدعوة في المدينة المنورة

تأسيس الدولة

وعندما وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك:

١ ـ المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام، وعاهدوا الله ورسوله على نصرة نبيه، وإقامة شرعه، وهم يتفاوتون من الناحية المادية، وهذا أمر طبيعي في كل مجتمع.

٢ ـ المسلمون المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بعقيدتهم، وقد تركوا أموالهم وأملاكهم في موطنهم الأول، فهم فقراء، وبحاجة إلى دعم إخوانهم من سكان المدينة.

٣ ـ أناس أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، لكي لا يفقدوا المركز، ويتركوا الدعم القبيلي، وبخاصة بعض الوجهاء أمثال عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه يهيئون له التاج ليسودوه عليهم، فلما جاء الإسلام فقد ذلك المنصب، الأمر الذي جعله يحقد على الإسلام وعلى نبيه، ولكن لا بد له من مسايرة قومه حتى تبقى له بعض الوجاهة تمكنه من العمل ضد ما يحقد عليه، فأظهر الإسلام بعد غزوة بدر، وفي نفسه شيء.

٤ ـ المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد. وكان لكل قبيلة ناد خاص يلتقون فيه.

٥ ـ اليهود وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وكانوا يتحكمون في يثرب سياسياً واقتصادياً قبل قدوم الرسول ﷺ إليها، مستغلين أوضاعهم المالية، يوقدون نار الخلاف بين الفريقين، ويعطون السلاح لكلا الطرفين، فيتاجرون بالسلاح، ويمصون دم الحيين، ويشعرون بالسعادة حين يرون هلاك الآخرين من غير دينهم ، وزيادة في الكيد فقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس، وذلك ليتمكنوا من إثارة الخلاف وإيقاد نار البغضاء. وإضافة إلى هذه القبائل اليهودية، وجد أفراد آخرون من اليهود لا ينتمون إلى القبائل الكبرى.

وكان اليهود حينما يصطدمون مع سكان يثرب ويخسرون الجولة، يستفتحون عليهم، ويقولون لهم: لقد أظل زمان نبي من هذه البلاد، نتبعه، ونحاربكم معه، فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به حقداً ولؤماً فلعنة الله على الكافرين. ومن حقدهم بدأ تكذيبهم للرسول الكريم ﷺ، وإعلانهم للمسلمين أنه ليس هذا هو النبي المنتظر، ثم بدؤوا محاولة الدس والافتراء.

٦ ـ كان هناك خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية، وآخرها يوم بعاث، ولا يزال في النفوس شيء منها.

كان على رسول الله ﷺ، أن يحل هذه المشكلات جميعها بأن يزيل آثار الماضي، ويوحد قلوب المسلمين، ويوجد حلًّا للمعضلة المالية، ويؤلف بين سكان المدينة من مسلمي الأوس والخزرج والمهاجرين، ويجعلهم كتلة واحدة تقف في وجه اليهود فيما إذا أرادوا الغدر وهو ديدنهم في الحياة، وأن يعاهدهم ما دام لم يظهر منهم شيء.

كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ، أن بنى المسجد العام في الفناء الذي بركت فيه ناقته، وذلك بعد عمارة مسجد قباء، وكان الفناء مربداً للتمر، وفيه قبور وشجرات نخل، وجذوع هرمة، وحفر مهجورة، فنبشت القبور، وقطعت الجذوع، وسويت الحفر، واشترك المسلمون جميعاً في

هذا العمل بما فيهم رسول الله ﷺ، وكانت تنشد الأراجيز، وكان أول عمل تعاوني عام وحد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل.

وكان لكل حي في المدينة مكان يلتقون فيه، يسمرون ويسهرون، يتقايضون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على التفرقة والاختلاف، فعندما بني المسجد كان مركز المسلمين جميعاً، ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل حين، يسألون رسول الله ﷺ، فيأخذون منه، يرشدهم ويوجههم، يبيعون ويشترون، ويستقبلون ويجتمعون، حتى إذا حدثت أصوات تزعج المصلين خصص جانب من المسجد لأعمال الدنيا، وآخر للصلاة والعبادة. بهذا تجمعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، وانتقلت التجزئة إلى انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات بل قائد واحد هو رسول الله ﷺ، يتلقى من ربه، ويعلم أمته.

ولم يكن المسجد مركزاً لحي معين أو أسرة خاصة كدار الأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنه، في مكة، وإنما أصبح عاماً للمسلمين كافة، يأتيه المسلم في الوقت الذي يراه، ولم تعد ضرورة لوجود جماعة إسلامية معينة ولا للدعوة السرية التي كانت موجودة في مكة، وإنّما أصبح المسلمون كلهم صفاً واحداً، ترعاهم الدولة متمثلة بقيادة الجماعة التي كانت ترعى جماعة مكة. وقد خفي هذا الأمر على الكثيرين، فأنكروا قيام جماعة بعد أن اكتمل الإسلام في المدينة، وأنه لا ضرورة لوجود الجماعة بعدها حيث لم تكن في المدينة جماعة، ولكن العصر الذي نحن فيه إنما يتمثل بمكة حيث لا توجد دار إسلام، ولا دار حرب.

إننا نعيش في المجتمع المكي بكل ما في هذا المجتمع من مقومات ومعانٍ، لذا فإننا نستفيد من خطوات رسول الله ﷺ، في مكة، ونسير على نهجه، وهو القدوة الحسنة لنا، ولكننا وإن كنا نعيش في مجتمع مكة إلا أننا لا نطبق ما كان يطبقه المسلمون في مكة، ولكننا نطبق الإسلام الذي اكتمل في المدينة، قبيل وفاة رسول الله ﷺ بقليل، فلا يصح أن ندع شيئاً

أنزل، أو أمر به رسول الله ﷺ، أو فعله إذ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. نأخذ طريقة رسول الله ﷺ، التي استطاع بها أن يتغلب على المجتمع الجاهلي في الوقت الذي نطبق على أنفسنا، ونلزمها تعاليم الإسلام كافة.

المؤاخاة: كان من نتائج العمل الأول لرسول الله - وهو بناء المسجد - أن امتزجت النفوس والعقليات، وتقوت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام، فكان المسجد مركزاً لعملهم وندوة لهم - إن صحَّ هذا التعبير - ثم جاء عمل رسول الله ﷺ، الثاني تأكيداً للأول وزيادة في مفهوم وحدة النفوس، فكانت المؤاخاة. ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[2]، وإنما بين المسلمين، ولم تكن الغاية منها مادية بحتة واقتصادية صرفة، وهو المتعارف عليه والمشهور، وعلى هذا يركز المؤرخون، إذ لو كانت كذلك لكانت فعلاً بين المهاجرين والأنصار فقط ولكننا نجد أن رسول الله ﷺ، آخى بينه - وهو سيد البشر - وبين ابن عمه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر. وبين عمه حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وكلاهما مهاجر، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وجعفر غائب، وبين بلال وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت بين أنصاري وآخر فلو كان الجانب اقتصادياً صرفاً لما كانت المؤاخاة بهذا الشكل.. وكذلك لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجر وعدد من الأنصار حتى يمكنهم مساعدته. فالأنصار أكثر من المهاجرين، ويشكلون أكثر من ثلاثة أمثالهم، ثم لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية فحسب لآخى رسول الله ﷺ، بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين، ولكن هذا لم يحدث

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) ترد في بعض النصوص المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والقصد منها بين المسلمين إذ لم يكن المسلمون يومذاك إلا المهاجرون والأنصار. وهذا ما يفهم من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

أبداً. ولكن إيثار الأنصار، رضوان الله عنهم، وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى هذا الجانب فقط، ويركزون عليه، الأمر الذي جعل المستشرقين يعتمدون على هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين. وقد كتب حمزة بن عبد المطلب وصيته قبل غزوة أحد لأخيه زيد بن حارثة. وعندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين وسأل بلالاً عن حقه، ولم يكن لبلال عقب قال: هو لأخي عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي أبي رويحة. ولننظر إلى سعد بن الربيع يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف: «إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما، فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها، تزوجها»[1] فأجابه عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فإني رجل تاجر»، هذا الإيثار من الأنصار، والمساعدة التي قدموها بلا منة، والعون الذي لا ترفّع فيه، إنه الحق الذي يدفعه الرجل لأخيه فيريح به نفسه، والأمانة التي يؤديها فيرفعها عن كاهله، وقد قال الله تعالى في هذا الإيثار: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فلقد كان الأنصار يستبقون لاستقبال المهاجرين واستضافتهم حتى أصبحوا يقترعون فيما بينهم لأخذ إخوانهم القادمين، ولا يوجد أجمل من هذه المحبة، وهذه الأخوة، وهذا الإيثار، ولم يعش المهاجرون عالة على الأنصار ـ كما يتصور بعضهم ـ بل انصرفوا يعملون في الزراعة والتجارة،

(١) سعد بن الربيع أكثر الأنصار مالاً، وعبد الرحمن بن عوف تاجر له خبرة في التجارة حتى لا يحتاج إلى مساعدة وقد آخى رسول الله ﷺ، بينهما رغم غنى الأخوين.

(٢) سورة الحشر: الآيتان ٨ ـ ٩.

ويجنون منها الكسب الحلال مستعينين بالصبر والنشاط وكرم إخوانهم الأنصار، ولم يقبلوا أن يكونوا عالة على المجتمع، فالمسلم لا يقبل إلا أن يكون بنّاءً ومنتجاً في المحيط الذي يعيش فيه. إنه كرم الأنصار، وعفة المهاجرين، وأخوة الإيمان، وهكذا يجب أن يستقبل المسلمون في كل عصر إخوانهم الذين يأتون إليهم إما لدعم مجتمعهم الناشئ، أو فراراً من حكم غاشم يريد أن يفتنهم عن دينهم، ويسومهم سوء العذاب.

إن هذه المؤاخاة قد جعلت المسلمين من مهاجرين وأنصار من أوس وخزرج أمة واحدة وكتلة واحدة متراصة، يشد بعضها بعضاً، ويمكن أن يقفوا وقفة واحدة أمام يهود إذا ما حدثتهم أنفسهم بالغدر، ولم يبق للأحلاف بين يهود وسكان يثرب من الأوس والخزرج إلا أثر من خيوط واهية أوهى من خيط العنكبوت. ولم تعد هناك خلافات بين الأوس والخزرج أو بين قبيلة وثانية فالإسلام يجبّ ما قبله، وغدا الجميع أسرة إسلامية واحدة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وأصبحت العقيدة هي التي تربط بين النفوس وتسمو على كل رابطة سواها من روابط الدم والنسب والعصبية والقوم والولاء، وغدا المسلمون من سكان المدينة إخواناً متحابين في الله، وكان الرجل منهم مجرد أن يدخل في الإسلام يترك قبل انتسابه إليه كل رواسب الجاهلية من خلاف، وتناحر، وعصبية، وتفاخر، ويدخل إليه نقي القلب طاهر النفس، ليرفد المجتمع الإسلامي، ويزيده عضواً، ويكون لبنة من لبناته يساهم في دعمه وبنائه، يشعر بالراحة حين يرى السعادة تخيم على الآخرين. وما استدار العام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وأسلم أهلها، إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس بقوا على شركهم.

ولم تكن تلك المؤاخاة معاهدة دوّنت على الورق فحسب، ولا كلمات قيلت باللسان فقط، بل كانت مؤاخاة سجلت على صفحات القلب، وارتبطت بشغافه، فكانت أقوى من التدوين الذي يمكن أن يؤول، وأمتن

من الكلمات التي يمكن أن تفسر وتغيّر، كانت أسمى من كل معاهدة سطرها البشر في سجله منذ أن وجد البشر، وأسمى من كل اتفاق يمكن أن يعقده إنسان، إنها كانت عهداً أمام رسول الله ﷺ، كلمات خرجت من القلب، شهد عليها الله ورسوله وكفى بهما شهيدين، إنها مؤاخاة في القول والعمل، في المال والنفس والمتاع والأملاك، في العسر واليسر.

الموادعة: وبعد هذه المرحلة انتقل رسول الله ﷺ، ليوادع يهود لتكون المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدة أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشاً ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة، ومن ناحية ثانية حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد. وكتب رسول الله ﷺ، كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفيد عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

---

(١) الربعة: الحال التي جاء الإسلام، وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين ينبئ بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بيّنة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ[4] إلا نفسه،

---

(١) المفرح ـ بوزن معدم ـ هو المثقل بالدين والكثير العيال.
(٢) الدسيعة: العظيمة.
(٣) اعتبطه: قتله بلا جناية منه توجب قتله.
(٤) يوتغ: يهلك.

وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا[1]، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ؛ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحون ويلبسونه، فإنه يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[2].

وبهذا أصبح أهل المدينة جميعاً على اختلاف فئاتهم يداً واحدة ضد

---

(١) على أبر هذا: أي راض كل الرضى عن هذا.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠١ ـ ٥٠٤.

الأعداء الخارجين على تطبيق النظام، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة:

١ ـ أن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقها أن تؤمّن المطيع وتعاقب المفسد.

٢ ـ الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من طرف ظلم أو إثم.

٣ ـ على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً وعسكرياً وأدبياً، وعليهم أن يردوا متساندين أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم.

٤ ـ رسول الله ﷺ، هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة جميعهم.

٥ ـ الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بغض النظر عن الجوار والقرابة، أو الأرض، أو النسب، أو المصلحة، أو اللغة، أو الهوى فكل هذا يداس بالأقدام أمام العقيدة، فالمسلمون يؤلفون أمة واحدة، ويؤلف اليهود أمة واحدة على الرغم من الجوار واللغة والأحلاف السابقة.

هذا بالنسبة إلى العمل داخل المدينة، أو ما يسمى اليوم الجبهة الداخلية، أما الجبهة الخارجية فعلى المسلمين أن يخضعوا القبائل التي تعيش حول المدينة والتي يحالف بعضها سكان يثرب، وكلها تعرف مداخل المدينة وعلى اتصال دائم بمن في داخلها وتفاعل تام معهم.. وذلك حتى لا يكونوا أعواناً للأعداء الخارجين، فإن أثرهم ملموس، وإن كان أقل نسبياً من أثر من يعيش في الداخل، وفي الوقت نفسه فعليهم أن تبرز قوتهم خارجياً حتى لا تطمع بهم القبائل، وتسعى قريش في القضاء عليهم هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن القوة تساعد على انتشار الإسلام ووصول أخباره إلى بقية القبائل وفي كل الاتجاهات إذ أن الضعيف لا يهتم به أحد ولا يسمع به أحد، ويخاف الناس أن يعتنقوا فكرة أصحابها وهم على درجة من الضعف، هذا عموماً، وبالأخص في ذلك الوقت من الجاهلية التي كان فيها يأكل القوي الضعيف، ويسطو عليه، ويغزو أرضه، ويشن الغارات عليه. ولهذا رأى رسول الله ﷺ، أنه لا بدّ من إرسال السرايا إلى أطراف المدينة

لإثبات الوجود بالاصطلاح الحديث، ولجعل قريش تعترف بالوضع الجديد، وهذا يشبه ما يحصل هذه الأيام عندما تتسلم فئة ما الحكم في بلد، فإنه يسعى إلى أن يثبت وجوده حتى تعترف به بقية الدول.

المجتمع: اتجهت الآيات القرآنية إلى التشريع لهذا المجتمع الجديد. وتطبق هذه النظم في جميع مجالات الحياة، وعاشت المدينة الحياة الفاضلة التي يحلم بها بنو البشر، من أخوة صادقة، وصدق في المعاملات والحياة، وتكافل تام بين الأفراد جميعهم، وبقيت هذه المدينة أنموذجاً لكل من يريد السعادة في الدنيا والآخرة. ووضع رسول الله ﷺ، الأسس السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية للمجتمع الجديد، وأصبحت المدينة تعيش في إطار واحد في ظل نظام واحد هو النظام الإسلامي، ومحمد بن عبد الله ﷺ، هو القائد الأعلى له، لذا كان السكان يؤلفون في المدينة مجتمعاً خاصاً هو المجتمع الإسلامي.

والمجتمع هو جماعة من الناس تعيش في مكان واحد، وتخضع لمنهج واحد، وليس من الضروري أن يكون كل من يخضع لنظام معين مؤمناً به، عاملاً له، فليس كل من يعيش في ظل النظام الاشتراكي اشتراكياً يعتقد بصلاحية النظام، وليس كل من يحيا ضمن المجتمع الرأسمالي يُعدّ رأسمالياً، ويعد ذاك في عداد المجتمع الاشتراكي.

في المجتمع الواحد تختلف العقيدة، وتتباين الآراء، والنظام الذي يسود المجتمع، ويطبق عليه، هو الذي يعرف به، وعندما نقول المجتمع الإسلامي في المدينة فإنما يشمل كل من يسكن المدينة آنذاك، ويخضع لنظامها العام على الرغم من وجود عدة فئات مغايرة في الفكرة، متباعدة في الهدف، ففي المدينة المسلمون، وأهل الكتاب من اليهود، والأعراب فيها وما حولها الذين لا يزالون على الوثنية، إضافة إلى المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، وهم ضده، ولكن النظام الإسلامي هو الذي كان يلفّ هؤلاء جميعاً، إذ كان محمد رسول الله ﷺ، هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة كلها ـ كما رأينا ـ فلو وقع خلاف بين مسلم ويهودي لطبق عليهما

حكم الله، ونفذ على كليهما، أما إذا وقع بين يهوديين فلهما أن يتحاكما أمام لجنة يهودية، أو يحكما التوراة، والأعراف بينهما، وفي الوقت نفسه لهما أن يتحاكما إلى الشريعة الإسلامية، ولهذا نقول عن المجتمع إنه إسلامي لأنه يخضع لنظام الإسلام.

وإذا كنا قلنا عن جماعة المسلمين في مكة: إنهم يشكلون مجتمعاً إسلامياً، ولم تكن لهم هيمنة على مكة، بل لم تكن لهم سلطة، فذلك لأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً خاصاً منفصلاً شعورياً تمام الانفصال عن المجتمع المكيّ الوثني، ويعدون لأنفسهم كياناً خاصاً، ويخضعون لنظام خاص يطبقونه على أنفسهم، ولم تكن مفهومات قريش وأحكام الجاهلية لتطبق عليهم، أو لم يكن للجاهلية أي تأثير عليهم، ولهم رئيس أعلى يرجعون إليه في كل أمر، وتنفذ أحكامه بدقة، ولا يجدون حرجاً مما يقضي، ويسلمون التسليم كله.

ظنَّ بعض المسلمون أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت والموادعة التي حصلت مع يهود، ظنوا ذلك حسب الارتياح النفسي والقناعة الذاتية بأنهم سيعيشون حياة فاضلة بما لحظوه في المحيط الجديد مع إخوانهم الذين يشكلون أعضاء المجتمع، ولكن رسول الله ﷺ، ومن بعده أصحابه الذين عرفوا حقيقة الدعوة وطبيعتها، عرفوا أنهم سيخوضون معركة قاسية طويلة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، ومع المحيط الذي حولهم، ثم مع العالم المعروف آنذاك، والمأهول كله وقتذاك، علموا أنهم سيحاربون على عدة جبهات، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع الدول الكبرى يومئذٍ.

الأعداء في الداخل:

أولاً: اليهود: سيحاربون على الجبهة الداخلية العداوة المتأصلة في طبيعة بعض العناصر الذين يشكلون جانباً من مجتمع المدينة، ويعادون كل

شيء ليس لهم فيه نصيب، أو ليسوا الرأس فيه، حسداً وغيظاً، ألا وهم يهود. حدّثت صفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين، رضي الله عنها، فقالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي ياسر، فلم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فقالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحداً منهما، لما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي ياسراً يقول لأبي حيي بن أخطب:

أهو هو؟ يعني النبي ﷺ.

قال: نعم، والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟.

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟.

قال: عداوته والله ما بقيت.

وحدّث عبد الله بن سلام ـ وكان يهودياً ثم أسلم ـ قال: جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بُهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا بهتوني. وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ، في بعض بيوته، ودخلوا عليه وكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا؛ قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، قال:

فقلت: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟.

هذه إحدى جبهات المعركة الداخلية التي سيخوضها المسلمون. وقد ظنَّ يهود، وهم من أعضاء هذه الجبهة الرئيسية أنّ المدة إن طالت ضاعت عليهم الفرصة، وتمكن الإسلام في المدينة ، لذا لا بد من إثارة الفتنة وإيقاع الخلاف بين هؤلاء الإخوة المتحابين، وإعادة الخلافات العصبية، وإشعال نار الحرب القبلية، وصادف أن مرّ أحد زعماء يهود وهو (شاس بن قيس) على جماعة من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أبعد الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساءه هذا الاتفاق، ودعا أحد شباب يهود الذين يجلسون مع هؤلاء النفر من الأنصار، وأمره أن يذكر أمامهم يوم بعاث وما قبله، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة، ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرة، على حين غفلةٍ من الروح التي غرسها فيهم الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً وقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم» فما أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى انقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية. ولكن يهود لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبات لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي وتقويض أركانه.

ثانياً: المنافقون: علم المسلمون أنهم سيحاربون على الجبهة الداخلية رجالاً همهم الزعامة، والمصلحة، والجاه، هؤلاء يظهرون وقت السلم والرخاء، ويتنطحون للقيادة، ويختفون أثناء الشدة، ليعملوا من الخلف، ويتهجموا على قائد المسلمين، وأصحابه وأنصاره، كان على رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، رأس النفاق، وهو من الخزرج، وقد اتهم رسول الله ﷺ، يوم بدر بالغرور، وقد نصح أصحابه ـ بعد معركة بدر ـ أن

يعلنوا إسلامهم، حين قال مشيراً إلى اشتداد شوكة المسلمين: هذا أمر قد توجه، فلا مطمع في إزالته، ثم أعلن إسلامه، وتبعه على ذلك فئات المنافقين، فتظاهروا بالإسلام، ولكنهم مع هذا ظلّوا في الباطن يتربصون به الدوائر، وقد سبقه جماعة أظهروا الإسلام، والله يشهد إنهم لكاذبون. وقد بلغ بهؤلاء المنافقين الأوائل أن شيدوا مسجداً ضراراً للتفريق بين المسلمين، وهو على طبيعتهم، ظاهره العبادة، وحقيقته التجزئة، وإمكانية الحركة للمنافقين، وتنسيق جهودهم، وأخبر رسول الله ﷺ، بحقيقة أمره، فأمر بهدمه، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1].

وبعد تهديم مسجد الضرار عاد المنافقون يجتمعون في المسجد النبوي بعضهم مع بعض، ويسخرون من المسلمين، ويهزؤون، ويشيعون الأكاذيب، وقد رآهم رسول الله ﷺ، يوماً يتحدثون فيما بينهم، خافضي رؤوسهم، وقد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، ولكن المنافقين لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبة لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي، وتقويض أركانه وراء مصالحهم، ولم يفتّ تصرف المسلمين وحكمة رسول الله ﷺ، في عضدهم كثيراً بل استمروا في غيهم.

ثالثاً: أصحاب المصالح: علم رسول الله ﷺ، أن المسلمين سيحاربون على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها،

---

(١) سورة التوبة: الآيات ١٠٧ ـ ١١٠.

هؤلاء الأعراب الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم، ولا يسيرون إلا وراءه، ولا يسعون وراء البينة لذلك يقودهم هواهم، وفوق ذلك فهم جهلة سذج يستطيع أقل الناس أن يغيّر آراءهم، ويعدّل مواقفهم، وقد أفاد يهود والمنافقون من هذه السذاجة، فكانوا يحرضونهم ضد المسلمين لأخذ أموالهم والإغارة على أملاكهم وبيوتهم، فلم يكن للأعراب موقف محدد يسلك المسلمون مقابله سلوكاً معيناً، وهذه خطورة الجهل، لذا كان الإسلام حرباً على الجهل وكل ما يمت إليه بصلة.

وقد استطاع المسلمون بفضل الله، ورعاية رسول الله ﷺ، وإيمانهم، وحسن تطبيقهم، وتصرفهم، وانقيادهم لأوامر رسول الله ﷺ، أن يبقوا على تماسكهم، وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا التماسك استطاع المسلمون أن يقفوا في وجه هذه العداواة كلها، وأن يخرجوا من معاركهم ظافرين.

إن المعارك التي خاضها المسلمون في أول عهدهم في المدينة هي نفسها التي يخوضونها اليوم في كل مكان، والأعداء هم الأعداء أنفسهم، والأسلوب هو نفسه، والجبهة هي نفسها، وإن اختلف الزمن، وتبدلت الأسماء، وتغيرت الصور، وتحولت المفاهيم، وتباينت المخططات والدراسات حيث دخلت اليوم المناهج العلمية والبحوث النفسية، فكان وقعها أشد، وأثرها أعظم، واحتمال نجاح العدو أكبر، مع ضعف المسلمين اليوم، وتركهم أوامر نبيهم وتعاليم دينهم.

الأعداء خارج المدينة: أما الجبهة الخارجية فكان القصد منها ـ كما ذكرنا ـ فرض الهيمنة على القبائل والأعراب المجاورين للمدينة، وإثبات الوجود حتى تعترف قريش بوضع المسلمين في المدينة، وإظهار القوة حتى ينتشر الإسلام بين القبائل، ويشعر الفرد المسلم أينما كان، ومن أية قبيلة كان أن هناك قوة تحميه، وينتسب إليها، وكما ذكرنا فإن الضعيف لا ينتشر اسمه، ولا يعرف خبره، ولا ينتمي إليه أحد بعيد عنه، والدعوة بحاجة إلى انتشار خبرها، وحماية أتباعها. وكانت هذه الغاية ـ في هذه المرحلة ـ من

تأسيس الدولة. وكانت تتمثل هذه الجبهة بالدرجة الأولى في قريش التي اضطهدت رسول الله ﷺ، والمسلمين معه اضطهاداً يدل على غطرستها وتكبرها، حتى خرجوا من بلدهم مكة، ثم هناك القبائل العربية التي كانت جزيرة العرب مجال تنقلها، والتي كانت تدين بالوثنية، وتخضع لأحكام جاهلية كقريش، هذا إضافة إلى كل دول العالم المعروفة آنذاك، والتي طغى عليها الكفر، وعرفت بالظلم، وخاصة دولتي فارس والروم اللتين كانتا على تخوم بلاد العرب، واللتين كان لهما نفوذ على بعض قبائل العرب المجاورة لهما، كما لا توجد بقعة في أرض العرب لا ينظر سكانها إلى هاتين الدولتين نظرة الاحترام والتقدير من جهة، ونظرة الخوف والخشية من جهة ثانية، وتنظر هاتان الدولتان إلى العرب نظرة الازدراء والامتهان، وتعدهم متأخرين، يعيشون في بواديهم وقراهم على الشح والقلة لذا فإن بدرت منهم بادرة، أسكتوهم بحفنات قليلة من المال أو الطعام، يعودون بها إلى فيافيهم شاكرين حسن الصنيع، الذي لا يضيع معهم للوفاء، فيكونون أعواناً أوفياء، أو أنصاراً عملاء. وإذا حدث خلاف بين قبائل العرب تقوّى طرف على خصمه بإحدى الدولتين، فالغساسنة أعوان الروم، والمناذرة أنصار الفرس، وامرؤ القيس يلحق بقيصر ليستعيد ملك أبيه المغتصب و...

أولاً: قريش: كان رسول الله ﷺ، مطمئناً إلى أن أول صدام سيكون مع قريش عدو المسلمين الأول، والتي لا تزال تسعى للقضاء على الإسلام، وتظن أن بمقدورها ذلك، فتحبس المستضعفين في مكة، وتحول دون التحاقهم بالركب الإسلامي في المدينة.

كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، ينتقل أفرادها إلى الشمال وإلى الجنوب، في رحلتي الصيف والشتاء، وكان ذهابهم شمالاً في الصيف يتم عن طريق المدينة أو المسالك القريبة منها، فكانت هذه البقعة نقطة التماس بين الجانبين، أو ستكون، وفيها يمكن أن تدور رحى المعركة المرتقبة، لذا كان على المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفة جيدة، إذ لا يمكن

لجماعة أن تخوض معركة في أرض لا تعرف معالمها هذا بالإضافة إلى أن سكانها يمكنهم أن يلعبوا دوراً في هذه الحرب، أو تكون لهم يد في التحرش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريش ورواحها منها.

مضى على الهجرة ما يقرب من ستة أشهر، وطد القائد، عليه الصلاة والسلام، خلالها الجبهة الداخلية، ونظم أمورها، وبدأ يستعد بعدها للجبهة الخارجية، والقتال المنتظر، فأخذ يسيّر السرايا، وينطلق مع الغزوات، وإن كانت استطلاعية بالدرجة الأولى غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وفجاج المنطقة التي هي ممر لقوافل قريش، ثم التعرف على القبائل التي تقيم على تلك الأرض لإمكانية كسبها للإسلام، أو لصف المسلمين في البداية، أو لضمان حيادها على الأقل فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وقريش في مواطن تلك القبائل ومنازلها، ثم إن استطاعت هذه السرايا التعرض لقوافل قريش، ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات الكيان الإسلامي، وإجبار قريش على الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوة المسلمين وضعف قريش، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوة في الجزيرة، وإسماع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك - إن استطاعوا - بخبر هذا الدين الجديد، ومبادئه السامية التي تتماشى مع فطرة البشر، وأنه تنزيل من خالق البشر، ومدبر الكون، فيقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة.

الغزوات والسرايا الاستطلاعية:

بلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزوات وأربع سرايا، ابتدأت في شهر رمضان من السنة الأولى، وانتهت في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أعقبتها سرية عبد الله بن جحش في شهر رجب لاستطلاع أخبار العدو في عقر دارهم بين الطائف ومكة في مكان (نخلة) عندما بدأ انتهاء التعرف على ساحة المعركة المنتظرة، وظهر اكتمال استعداد المسلمين نفسياً لخوض أي قتال ينشب بين الخصمين.

١ ـ **سرية الحمزة**: أرسل رسول الله ﷺ، عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين ليعترض طريق قافلة لقريش، عائدة من الشام بإمرة أبي جهل مع ثلاثمائة رجل، فوصل حمزة، رضي الله عنه، إلى ساحل البحر من جهة (العيص)، والتقى بالعير، ومع الفارق في عدد الخصمين إلا أن حمزة، رضي الله عنه، أصر على المواجهة مهما كانت النتائج إذ لا بد من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، واصطف الطرفان للقتال إلا أنه حجز بينهما أحد أفراد قبيلة جهينة وهو (مجدي بن عمرو الجهني)، ورضخ الطرفان للتسوية، وانصرف كل إلى مقره، وقد شكر رسول الله ﷺ، لمجدي صنيعه هذا لقلة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة إلى جماعة أبي جهل.

٢ ـ **سرية عبيدة بن الحارث**: وأرسل رسول الله ﷺ، ابن عم أبيه عبيدة بن الحارث بن المطلب في شهر شوال من العام نفسه في ثمانين راكباً كلهم من المهاجرين ليعترض سبيل قافلة لقريش، تتألف من مائتي راكب، فالتقى بها قرب (رابغ) وابتدأ القتال بالرمي بالنبل، إلا أنه لم يستمر، إذ انهزم المشركون على الرغم من كثرتهم، وخافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً إذ لم يتوقعوا أن ينازل ثمانون رجلاً مائتي راكب، ولم يعرفوا بعد الروح المعنوية لدى المسلمين، وكانت عير قريش بإمرة عكرمة بن أبي جهل، وفر رجلان من المسلمين كانا مع المشركين وهما: المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان والتحقا بالمسلمين.

٣ ـ **سرية سعد بن أبي وقاص**: وأرسل رسول الله ﷺ، سعد بن أبي وقاص في ثمانية رجال من المهاجرين إلى (الخرار) من أرض الحجاز، ولكنه لم يلق عدواً فعاد.

٤ ـ **غزوة ودّان**: وخرج رسول الله ﷺ، بنفسه من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة، وسار حتى وصل إلى (ودّان) شمال شرقي (رابغ)، وذلك من أجل أن يعترض عيراً لقريش، ولكنها فاتته، وهناك صالح بني ضمرة، وعقد معهم معاهدة على أن ينصر بعضهم بعضاً هم والمسلمون،

ورجع رسول الله ﷺ، بجماعته بعد غياب دام خمس عشرة ليلة.

٥ ـ غزوة بواط: لم يمكث رسول الله ﷺ، في المدينة إلا قليلاً حتى بلغه أن قافلة لقريش آيبة من الشام بإمرة أمية بن خلف ومعه مائة رجل، تضم هذه القافلة ألفاً وخمسمائة بعير، فخرج رسول الله ﷺ، مع مائتين من المهاجرين، باتجاه جبل رضوى، فلما وصل إلى ثنية (بواط) رأى أن القافلة قد فاتته.

٦ ـ غزوة العشيرة: ولم يمض غير وقت قصير من وصول رسول الله ﷺ، إلى المدينة حتى علم أن قريشاً قد أرسلت أعظم قافلة لها إلى الشام بإمرة أبي سفيان بن حرب، وليس معه إلا عدد قليل من الرجال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، في مائة وخمسين من المهاجرين وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من هجرته، عليه الصلاة والسلام، واستخلف على المدينة ابن عمته أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، فلما وصل إلى (العشيرة) شمال (ينبع النخل)؛ وجد القافلة قد فاتته، فحالف بني مدلج ورجع إلى المدينة، ولكنه أبقى سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله ليخبراه عن عودة تلك القافلة، ووجههما شمالاً، إذ لاحظ رسول الله ﷺ، أن الخروج والعودة دون قتال لا يمنع قوافل قريش من التحرك نحو الشام، وتعطيل تجارتها لا يجبرها على الاعتراف بوضع المسلمين في المدينة، ولا يرتفع ذكرهم، فلا تتشجع القبائل للدخول في الإسلام، إذن يجب مراقبة القافلة، وكل قافلة أثناء حركتها، وفي أي مكان تكون كل يوم.

٧ ـ غزوة بدر الأولى: ولم يلبث رسول الله ﷺ، في المدينة إلا قليلاً حتى أغار على المدينة (كرز بن جابر الفهري)، وهرب، فلحقه رسول الله ﷺ، في جماعة من قومه بعد أن استخلف على المدينة زيد بن حارثة، وتابعه حتى ناحية (سفوان) وهو أحد أودية بدر، ولكنه لم يدركه، وتسمى هذه الغزوة (بدر الأولى).

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش: وعندما رجع رسول الله ﷺ، إلى المدينة من بدر الأولى بعث في شهر رجب عبد الله بن جحش، ابن عمته، مع ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

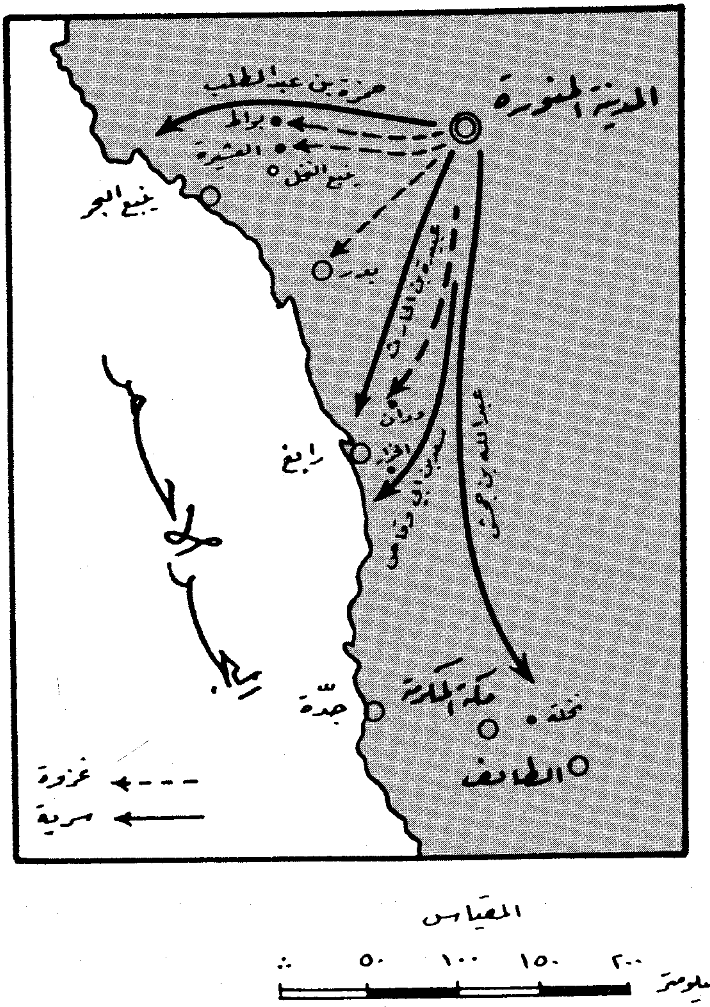

فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل (نخلة)، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ، أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، ولم يتخلف عنه منهم أحد.

وفي الطريق أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعاقبان عليه، فتخلفا عن الركب، وسار عبد الله وبقية أصحابه إلى نخلة فنزلوا بها، فمرت بهم قافلة لقريش تحمل زبيباً وجلوداً ، وتجارة من تجارتهم، وعليها عمرو بن الحضرمي.. فلما رأوا ذلك، وكان آخر يوم من أيام رجب، رغبوا في القافلة، وخاصة أن من فيها أقل منهم عدداً، وتشاوروا في الأمر، فقال بعضهم: إن تركتم القافلة اليوم فإنها ستدخل الحرم وستمتنع فيه، وتكون قد أفلتت غنيمة منكم، وقال الآخرون: لئن أخذناها لنكونن قد انتهكنا حرمة الشهر الحرام. وهذا ما أحدث التردد، وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم، وقرروا الهجوم على القافلة، وقتل من يمكن قتله، وأخذ العير غنيمة لهم. فتقدموا نحوها ورموها، وأصاب سهم أميرها عمرو بن الحضرمي فقتل، وأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، والحكم بن كيسان، وفرّ نوفل بن عبد الله بن المغيرة... وسار عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فلما وصلوا قال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ورفض أن يتسلم شيئاً من القافلة، وظن القوم أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا، واتخذت قريش ذلك ذريعة فشنت هجوماً إعلامياً على المسلمين بأن محمداً يستحل الشهر الحرام، فقد سفك أصحابه الدم فيه، وأخذوا الأموال فيه، وأسروا الرجال فيه، أما المسلمون المستضعفون في مكة فكانوا يردون على ذلك، بأن الحادثة كانت في أول شعبان.

ولما كثر حديث الناس في هذا الشأن أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، وعند

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

ذلك تسلم رسول الله ﷺ، الأسيرين والعير، ولم يقبل بفداء الأسيرين بناءً على طلب قريش حتى رجع سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، إذ خشي رسول الله ﷺ، أن يكونا قد أسرا، وخاف عليهما من قتل قريش، فلما رجعا فدى الأسيرين، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم، وحسن إسلامه واستشهد في بئر معونة، وأما عثمان بن عبد الله فقد مات كافراً، وكانت هذه الغنيمة أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول رجل قتلوه، والحكم وعثمان أول أسيرين أسروهما. وكان عبد الله بن جحش قد وزع على صحبه أربعة أخماس العير، وعزل الخمس الباقي لله ولرسوله، وجاء تقسيم الفيء على هذا النحو فيما بعد، وبذا يكون هذا الصحابي، الجليل، رضي الله عنه، قد وقع على الحقيقة.

وربما كانت سرية عبد الله بن جحش إلى مكة أهم من السرايا السابقة لها رغم قلة عدد رجالها إذ كانت غزواً لقريش بعقر دارها، وذلك أنها وقعت على مقربة من مكة، كما وقع فيها قتال، وحدث أسر، وذهبت قافلة كاملة غنيمة للمسلمين، فبعُد صداها، وشعر العرب بقوة المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وكثرة إمكاناتهم وهذا ما يريده المسلمون، وأخذت قريش صورة مغايرة تماماً.

الشخصية المتميزة: وبينما كانت الغزوات تنطلق إلى مختلف الجهات تجوس في الأرض بين مكة والمدينة، وتدرس الطرق والفجاج، وكانت كلها من المهاجرين لأن الأنصار إنما بايعوا في العقبة على أن يحموا رسول الله ﷺ، لا أن يخرجوا معه في قتال خارج المدينة، أو يتعرضوا للقوافل بعيداً عن منازلهم، ولأن المهاجرين هم الذين لا يعرفون هذه البقاع من الأرض لأنهم غرباء عنها، فيجب أن يتعرّفوا عليها على حين يعرفها الأنصار ولا حاجة لمزيد من المعرفة، وبينما كانت السرايا والغزوات تسير إلى النقط المرسومة لها.. كانت الجماعة الإسلامية تتكامل شخصيتها، ويتنزل التشريع يحدّد المنهج، ويرسم لها الطريقة التي توصلها إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد كان المسلمون يجتمعون للصلاة بمواقيتها دون دعوة، ثم فكروا أن يجعلوا بوقاً يأتي المسلمون إلى المسجد حين يسمعونه، ثم كره رسول الله ﷺ ذلك، لأنه تقليد لليهود، ثم فكروا بالناقوس، ولكن كره ذلك وبينما هم كذلك، إذ أتى أحد الأنصار، وهو عبد الله بن زيد، وقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال، فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك». فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد على ذلك. وبهذا كان للمسلمين شخصيتهم المتميزة في الدعوة إلى العبادة.

ثم اتجه المسلمون في صلاتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً في المدينة، وكان رسول الله ﷺ، يحب أن تكون الكعبة قبلته، وكان يقوم في الصلاة، ويدعو ربه بذلك، وبينما كان ذات يوم يصلي إذ جاءه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحوّل وتحوّل من وراءه، وقد فُتن بعض المسلمين بهذه الحادثة ممن كانوا ضعفاء الإيمان، وأكثر اليهود الحديث عن هذا الأمر، فكانوا يقولون: هل صلواتكم السابقة غير صحيحة؟ ولماذا هذا التحول؟ و. . . فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[1]. وبهذا كان للمسلمين قبلة، وتوجه في الصلاة متميزين عن غيرهم.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله على المسلمين صوم شهر رمضان، ومن قبل كان رسول الله ﷺ، يصوم في الشهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، وهو ذكرى خلاص سيدنا موسى، عليه السلام، من فرعون، وقال ليهود: نحن أولى بموسى منكم، ثم قرر صيام التاسع تمييزاً عن يهود، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجب صوم رمضان، وأصبح للمسلمين شخصية متميزة في صومهم. كما أوجب زكاة الفطر عقب صوم رمضان.

كما أن الزكاة قد فرضت في هذا العام، وهذا النظام خاص أيضاً بالمسلمين، وقد بيّن الشارع الوجوه التي تنفق فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[2]. ولا تنفق إلا في هذه الوجوه الثمانية أما الصدقات الأخرى فحيث يرى المنفقون.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥. (٢) سورة التوبة: الآية ٦٠.

وكذلك قامت الحدود، وفرض الحلال والحرام.

وفي هذه المدة جاء رؤساء نجران، وهم من النصارى إلى المدينة، وصلُّوا في مسجد رسول الله ﷺ، وكانت صلاتهم إلى جهة المشرق، وأسلم ملكهم، وحسن إسلامه، وأمّا هم فقد اختلفوا فيما بينهم، ورفضوا الملاعنة، وطلبوا رجلاً يحكم بينهم، فأرسل رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح معهم.

وفي هذه المدة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون، أخو رسول الله ﷺ، من الرضاعة، وقد كان من المسلمين الأوائل، وكان أمير المهاجرين الأوائل إلى الحبشة. وتوفي من الأنصار أسعد بن زرارة، أبو أمامة، أحد نقباء العقبة، وكذلك البراء بن معرور، وهو أحد نقباء العقبة أيضاً، والناطق باسمهم يومذاك، أما من المشركين في مكة فكان قد مات العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو بن العاص، والوليد بن المغيرة المخزومي أبو خالد بن الوليد.

غـزوة بـدر:

شعرت قريش أن طريق قوافلها إلى الشام قد أصبحت معرضةً للخطر، والتجارة عماد حياتها، وأرباحها سبب سيادتها، وأكبر من هذا وذاك فإن المسلمين خصومهم الألداء، وأعداؤهم الأوائل قد أصبحوا على درجة من القوة، حيث يرسلون الدوريات إلى قرب مكة بالذات، وبلغت بهم الجرأة إلى أن يقتلوا من أفرادها، ويأخذوا أسلابهم، ويسوقون ما تحمله القوافل غنائم لهم، الأمر الذي جعل قريشاً تفكر في طريقة للقضاء على خصومها المسلمين الذين أصبحوا يتحكمون في طريق القوافل، وليتخلصوا منهم قبل أن يشتد ساعدهم ويقوى عودهم أكثر مما هم عليه. ومن جهة ثانية فإن المسلمين لا يزالون يُشكّلون جماعةً صغيرةً يرعاها الله بعنايته، ويوجهها في أمورها عن طريق رسول الله ﷺ، فكان لا بدّ من دروس لتستكمل الإيمان، وتستوعب طريق الإسلام.

إن المؤاخاة التي تمت بين المسلمين على يد رسول الله ﷺ، عند وصوله إلى المدينة قد أعطت صورةً صادقةً عن الأخوة الحقة، وعلى الاستعداد الكبير للتضحية بالمال والإيثار في كل شيء. وإذا كان المال يعد معادلاً للنفس في غالب الأوقات، وقد يقدم عليها أحياناً في التضحية، وذلك لما يبذل الإنسان من جهد لتحصيله، ويدفع به عن نفسه غوائل الأيام وأحداث الزمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[1] إلا أن بعض الرجال يجودون بالمال ولكنهم يضنّون بالنفس، ويصعب عليهم الجود بها، وخاصة في الجاهلية التي عرف فيها الكثيرون ممن وصلوا إلى الإفراط في الكرم والإسراف في بذل المال. والإسلام يطالب المسلم أن يبذل في سبيل الله كل شيء: يجود بالمال، ويجود بالنفس معاً، ولا يبخل بجانب من جوانب الحياة، ما دام يصل بهذا البذل إلى حياة أخرى هي النعيم الدائم والاستقرار الخالد والطمأنينة الأبدية. ولقد نجح المسلمون في بذل المال يوم المؤاخاة فلا بدّ من أن يخوضوا تجربة في البذل بالنفس، هذا جانب. ومن جانب آخر فالدعوة لا بدّ ـ كما ذكرنا ـ من أن تعترضها العقبات، ولا بدّ من أن تخوض معارك في كل ميدان.

نصت بيعة العقبة بين رسول الله ﷺ، والأنصار على أن يحموه في مدينتهم، أما خارجها فلم تنص على ذلك. وقد أصبح محتماً على المسلمين من الأنصار والمهاجرين على حدٍ سواء أن يخوضوا معركة مع خصومهم في كل ساحة تفرضها المعركة وتقتضيها الدعوة، لذا يجب أن تتبدل البيعة عملياً لا نظرياً. كانت هاتان الناحيتان مهمتين:

أولاً: أن يمتحن المسلمون في خوض معركة البذل بالنفس.

---

(١) سورة الصف: الآيتان ١٠ ـ ١١.

ثانياً: أن يبدلوا طريقتهم في المعركة، وأن لا يتقيدوا بنصوص بيعة العقبة، وإنما المعركة هي التي تفرض ذاتها، وتحدد أسلوبها.

كانت الجماعة الإسلامية تنمو، وتسير برعاية الله تحت سمعه وبصره، فكان لا بد من أن يعرضها لمعركة قوية تؤمن فيها هاتان الناحيتان، وكانت المعركة المرتقبة يخطط لها من السماء، بينما يظن بعضهم أنها كانت تتم بتخطيط من قبل أهلها.

رأى رسول الله ﷺ، أن المسلمين قد خرجوا من ديارهم مهاجرين، وقد تركوا كل ما كانوا يملكون في سبيل عقيدتهم، وقد أخذت قريش هذه الأموال والأملاك، وآن للمسلمين أن يعوضوا بعض ما فقدوا، وقد أصبح بإمكانهم ذلك ما دامت قوافل قريش تغدو وتروح بالقرب من مدينتهم. وها هي قافلة أبي سفيان تحمل بضائع قريش، وفيها أموال أثريائهم وكبرائهم الذين سطوا على أموال المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ، أن يتعرض لها، وقد فاتته في الذهاب، ورأينا كيف ترك طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد يرصدانها حين عودتها. وجاء إلى رسول الله ﷺ، خبر عودتها، وفيها أربعون رجلاً بينهم عمرو بن العاص، فندب المسلمون إليهم، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ، يلقى حرباً، إذ لم يجعل الخروج واجباً، فلم يكن التأهب للقتال، وإنما لأخذ القافلة، والقافلة ليس فيها سوى أربعين رجلاً، هذا ما رآه المسلمون، وهذا ما أرادوه، ولكن الله أراد غير ذلك، لقد أراد القتال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾[١].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٥ ـ ٧.

كان أبو سفيان عند عودته ولما اقترب من الحجاز، يرسل الطلائع أمامه، ويسأل الركبان، يتحسّس الأخبار، ويتلمّس أحوال الطرق، خوفاً على قافلته، فأصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أهل المدينة للقافلة، فخاف عليها، فاستأجر أحد رجال القبائل، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها إلى أموالهم، ويخبرهم الخبر، وما سيؤول إليه الأمر إن تأخروا في نفيرهم. فخرج ضمضم سريعاً حتى وصل إلى مكة.

وفي هذه الأثناء حدث أن رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضمضم بثلاث ليالٍ، وبعثت إلى أخيها العباس عم رسول الله ﷺ، تحدثه بها، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به، فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لَغُدُر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل (قام) به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس لأخته: اكتمي ذلك ولا تذكريه لأحد.

ذكر العباس هذه الرؤيا لصديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة، واستكتمه على ذلك، وذكرها الوليد لأبيه، ففشا خبرها في مكة، وتحدث بها الناس في الأندية، فقال أبو جهل للعباس: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ فأنكر العباس أن يكون قد سمع شيئاً. ولامت نساء بني عبد المطلب العباس على سكوته عما تحدث أبو جهل، فخرج إليه يريد أن ينال منه، وإذا بالناس يسمعون صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على

بعيره، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. وشغل العباس وصاحبه كل عن الآخر، وتجهز الناس سراعاً حاقدين، وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه غيره، وخرجت قريش كلها، فلم يتخلّف أحد من أشرافها، إلا أن أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب تخلّف، وأرسل مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.

ولما تجهزت قريش تذكّرت أن بينها وبين كنانة تارات، فخشيت إن اتجهت شمالاً أن تأتيها كنانة من خلفها، إلا أن الشيطان قد أغراهم بالخروج إلى المدينة، إذ ذكروا أن الإسلام قد حجز بينهما، وأنه العدو المشترك لهما، فساروا نحو الشمال.

وكان رسول الله ﷺ، قد خرج من المدينة، يريد قافلة أبي سفيان، وقد استعمل عليها عبد الله بن أم مكتوم، يصلي بالناس، وخرج معه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً من المسلمين، ومعهم فرَسان وسبعون بعيراً، يعتقبون عليها، أما الفرسان فهما للزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو. وكان خروجه ﷺ، يوم الجمعة لثمان خلون من رمضان، واتجه نحو الجنوب الغربي، حتى إذا قطع ثلاثة وأربعين ميلاً، وكان بالروحاء، أعاد أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر ليكون أمير المدينة. وكان الجيش يضم كتيبتين: أولاهما للمهاجرين، ويحمل لواءها علي بن أبي طالب، وتضم نيفاً وسبعين رجلاً وأخراهما للأنصار، ويحمل لواءها سعد بن معاذ وتضم مائتين وأربعين رجلاً، وقيادة الكتيبتين العليا كانت بيد رسول الله ﷺ، ويحمل لواءها مصعب بن عمير، وكان على ميمنة الجيش الزبير بن العوام، وعلى ميسرته المقداد بن عمرو، وعلى مؤخرته قيس بن أبي صعصعة.

أرسل رسول الله ﷺ، الاستطلاع أمامه، وأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل حذراً، وعندما غادر الروحاء، وصل إليه خبر خروج قريش،

وأنها بعد ليلتين ستكون في بدر. وكان عدد قريش تسعمائة وخمسين رجلًا، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعير.

أما أبو سفيان فبقي يسير مسرعاً باتجاه مكة، وبطريقه الطبيعي نحو بدر. ولكنه كان حذراً متيقظاً وكاد قبل أن يصل إلى بدر يلتقي بجيش المسلمين، إلا أنه لقي (مجدي بن عمرو) فسأله عن جيش رسول الله ﷺ، فقال له: ما رأيت أحداً أنكره إلا أنني رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا، وانطلقا، فأسرع أبو سفيان إلى مناخ راحلتي الرجلين، وتفحّص بعراتهما، فوجد فيها نوى المدينة، فعلم أنهما من أصحاب رسول الله ﷺ، فعاد إلى قافلته مسرعاً وتوجه نحو الغرب باتجاه الساحل، ونجا بما معه، ولما تأكد من النجاة أرسل لقريش رسالة يقول فيها: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا، وقد وصلت رسالته إلى قريش، وهم في (الجحفة). ولكن أبا جهلٍ رفض هذه النصيحة، وأصر على استمرار السير، وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم بها ثلاثاً، نذبح الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا، وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا. ولكن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، وقائد حملتها، قد عارض أبا جهل، وقال: يا بني زهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلص صاحبكم (مخرمة بن نوفل)، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا. فأطاعه قومه، ورجعوا من (الجحفة)، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل.

أما رسول الله ﷺ، فقد شعر بحراجة الموقف عندما بلغه مسير قريش، فإنه قد خرج بأصحابه يريد العير، ولا يريد القتال، إذ لم يكن المسلمون قد استعدوا لذلك، حتى لم يخرج عدد من سراة القوم من المدينة لعلمهم أن الخروج إنما كان للقافلة وليس للقتال، والقافلة لا تحتاج لجزء ممن خرج، ولو علموا القتال ما تخلفوا. فأراد رسول الله ﷺ، أن يستشير القوم، وإن كان يعلم أن الله لن يضيعه، وقد أفلتت عير أبي سفيان من قبضته.

جمع كبار الصحابة، وقال: «أشيروا عليَّ أيها القوم»، فقام أبو بكر، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. فأثنى عليهما رسول الله ﷺ، وقال: «أشيروا عليَّ أيها القوم»، فقام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً، ودعا له به. ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس، وذلك أنه كان ﷺ، يريد أن يعرف رأي الأنصار فهم أكثرية الجيش ـ كما رأينا ـ وهم أهل المدينة، وإنهم حينما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله ﷺ، إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته خارج المدينة، وأنه ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو بعيد عن ذلك. فلما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وقف سعد بن معاذ، رضي الله عنه، قائد كتيبة الأنصار، وسيد الأوس فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل». قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ، بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) برك الغماد: ناحية باليمن في أقصى الجزيرة.

تابع رسول الله ﷺ، سيره باتجاه بدر، ثم نزل قريباً منها، فركب هو وأبو بكر الصديق، فالتقيا بشيخ من العرب، يقال له: سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ، عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال سفيان: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: «أذاك بذاك»؟ قال: «نعم». قال سفيان: «فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ فعلاً، مما يدل على صحة تقدير الرجل ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي كانت فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. قصد رسول الله ﷺ، من الجنس الذي خلق من ماء، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]، وظن سفيان أنهم من أهل ماء معين. وانصرف رسول الله ﷺ، وأبو بكر إلى المسلمين. فلما كان المساء أرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص مع نفر من الصحابة يتحسسون أخبار قريش على ماء بدر، فوجدوا رجلين يسقيان لقريش، فأتوا بهما، ورسول الله ﷺ، قائم يصلي، فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم منهما ما قالا، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتى أوجعوهما، فقالا: نحن سقاة لأبي سفيان، فتركوهما، فلما انتهى رسول الله ﷺ، من صلاته قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟»

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ، على الناس، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». ثم سار رسول الله ﷺ، بالمسلمين حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً، بعضهم جُنب، وبعضهم محدث، ووسوس لهم الشيطان، بأن المشركين لا ينتظرون أكثر من أن تموتوا ظمأ، فأرسل الله لهم الغيث، فشربوا، وسقوا، واغتسلوا، وتوضؤوا وملؤوا أسقيتهم، وثبتت الأرض تحت أقدامهم، على حين كان هذا المطر بلاء على المشركين، إذ أصبحت أرضهم وحلاً، فلم يستطيعوا الحركة والانتقال، فبقوا في مكانهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[1].

ثم تحرك رسول الله ﷺ، نحو ماء بدر ليسبق عدوه إليها، قبل أن يمنعوه، فلما وصل إلى أول بئر نزل بها، فقال له الحُباب بن المنذر الأنصاري: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

ثم أمر بالقُلُب، فغوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملؤوه ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء عريش رسول الله ﷺ:

وقال سعد بن معاذ، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كانَ ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله. وبُني العريش، وجلس فيه رسول الله ﷺ.

وفي صباح يوم المعركة السابع عشر من رمضان تحركت قريش نحو بدر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: إن يكن في أحدٍ من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا.

المعرفة والجحود:

قدّم أحد بني غفار هدايا لقريش مع ولدٍ له، وهي إبل، وطلب منه أن يسألهم إن كانوا يريدون رجالاً أو سلاحاً أمدهم بما يطلبون، فأجابت قريش: وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليه، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة.

الخبرة والرأي:

أرسلت قريش أحد رجال استطلاعها، بعد أن استقر بها المقام، وذلك ليتعرف على أحوال المسلمين وجيشهم، فانطلق، وهو عمير بن وهب الجمحي، فدار حول معسكر المسلمين ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى قطع مسافة خلف جيش المسلمين فلم ير أحداً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وسمع أحد أشراف قريش وهو حكيم بن حزام ما قاله عمير بن وهب فمشى بين الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي[1]، قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك إنما هو حليفي، فعليَّ عقله[2] وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية (يعني أبو جهل)، فإني لا أخشى ألا يخالف غيره.

الحكيم الذي لا يطاع:

ووقف عتبة بن ربيعة فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك

(١) عمرو بن الحضرمي: هو الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش في نخلة.

(٢) عقله: ديته.

الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون.

الحماقة والغطرسة:

وسار حكيم بن حزام إلى أبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره[1] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه[2]، فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك[3]، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي، وبدأ يصرخ واعمراه واعمراه، فحميت الحرب، واجتمع الناس، وظهر الشر، وأفسد الرأي الذي اقترحه عتبة وهو الرجوع بالناس.

الصريع الأول:

بينما كان المسلمون لا يحتاجون إلى الماء، فحوضهم مليء، وبئرهم وافرة المياه، كانت قريش بحاجة ماسة إلى ذلك، فقد ظمأ أفرادها، وخرج منهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي أخو أبي سلمة، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فما خرج من بين قومه حتى خرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة ضربة أطاحت بنصف ساقه، فوقع

---

(١) انتفخ سحره: ظهر جبنه وخوفه. (٢) ابن عتبة: أبو حذيفة كان بجانب المسلمين.
(٣) اطلب من قريش عهودهم إذا كان حليفاً لهم وجاراً.

على الأرض، ومع هذا فقد بدأ يحبو نحو الحوض، فأتبعه الحمزة بأخرى أودت بحياته.

المبارزة:

ثم خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة، يدعو إلى المبارزة رداً على أبي جهل الذي اتهمه بالجبن والخوف من المعركة، فخرج لهم فتية من الأنصار هم: عبد الله بن رواحة، وعوف بن الحارث، وأخوه معوذ بن الحارث، فقال عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قال القرشيون: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. ويبدو من هذا أن المشركين يرون أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة ولا قيمة لرابطة الدم أو القوم فمن هم أكفاؤهم الذين يريدون أن يقتلوهم؟ أليسوا من قومهم؟ أليسوا الأهل والأقارب؟ أليسوا الأبناء والآباء؟ فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة بن عبد المطلب، وقم يا علي بن أبي طالب»، فلما قاموا، ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فعرَّف الصحابة أنفسهم، فقال المشركون: نعم أكفاء كرام. فوقف عبيدة، وكان أسن القوم، أمام عتبة، ووقف حمزة أمام شيبة، ووقف علي أمام الوليد. أما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر، فأسرع حمزة وعلي فضربا عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، وكان جريحاً ينزف الدم من رجله، فأضجعوه إلى جانب رسول الله ﷺ، فأفرشه رسول الله ﷺ، قدمه الشريفة، فوضع خده عليها، وبشّره عليه السلام بالشهادة فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]

ثم لم يلبث أن فارق الحياة، رضي الله عنه.

---

(١) هذا بيت من قصيدة طويلة لأبي طالب يستعطف فيها قريشاً، وهي في ابن هشام ١/ ٢٧٢.

التقاء الفريقين:

وتقدم كل جيش من الآخر، وأمر رسول الله ﷺ، أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل.

وخرج رسول الله ﷺ، يسوي الصفوف، وفي يده سهم يُعدل به القوم، فمر بسوّاد بن غزية، وهو بارز قليلاً في النسق الأول، فأصابه السهم، وقال رسول الله ﷺ: «استو يا سوّاد»، فقال: يا رسول الله ﷺ، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: «فأقدني». فكشف رسول الله ﷺ، عن بطنه، وقال: «استقد»، فاعتنقه سوّاد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ذلك يا سواد؟» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير. ورجع رسول الله ﷺ، إلى العريش بعد أن سوى الصفوف.

التباين بين الجيشين:

رأينا أن جيش قريش منقسم على نفسه بعضه يريد العودة، وبعضه متغطرس يريد القتال، وهو ممتلئ حقداً، بعضه يتهم الآخرين بالجبن والخور، الحكيم فيهم غير مطاع، والسيد غير مسموع الكلمة، وأبو جهل يفرض نفسه على الجيش وأشراف قريش، أما المسلمون فكتلة واحدة، يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ، وهم على الطاعة والسمع كأحسن ما يكون جندي لقائده بل إنسان لنبيه وسيده وحبيبه، يفدونه بأنفسهم وأموالهم، لا يصدر أمر إلا عنه، ولا يتكلم متكلم إلا بأمره، ولا يشير مشير إلا بإذنه، وهو في منتهى التواضع والتقدير.

مناشدة الرسول ﷺ ربه:

عاد رسول الله ﷺ، بعد أن عدَّل الصفوف إلى العريش ومعه أبو بكر، فكان رسول الله ﷺ، يناشد ربه ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». ويقول له أبو بكر: يا نبي الله. بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك. ثم أخذت رسول الله ﷺ، سنة من النوم، ثم صاح فقال: «أبشر يا

أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع».

وخرج رسول الله ﷺ، من العريش إلى الناس يحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحُمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمراتِ من يده، وأخذ سيفه، فقاتل حتى قتل. وبهذه الروح المعنوية خاض المسلمون المعركة فانتصروا، وخاضوها في بقية المعارك، فكتب الله لهم النصر، ولكن عندما أضاعوها، وأهملوا الإيمان كانت عاقبتهم الهزيمة. فالجندي المؤمن عندما يدخل المعركة لا يهاب الموت، وإنما يطلبه، ولأن المشتاق إلى الجنة، لا يمكن أن تقف الرجال أمامه، ولا تحد الأسلحة من زحفه، ولكن إذا زج الجندي في الميدان زجاً وليس له هدف، ولا رغبة، فإنه يدافع عن تراب، أو يقاتل من أجل أمور زائلة، وشعارات فارغة فلن يثبت في الساحة، وإنما ينتهز فرصة غياب العيون عنه ليولي الأدبار، لا يسأل عن شيء، لأن الذي يعمل من أجله شيء زائل، يعوض ويستبدل.

ولما التقى الفريقان، قال أبو جهل: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا يُعرف، فأحنه[١] الغداة، فكان هو المستفتح[٢].

ثم إن رسول الله ﷺ، أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها. وأمر أصحابه، فقال: «شدّوا»؛ فكانت هزيمة قريش بإذن الله. وقال رسول الله ﷺ، لأصحابه يومئذ: «إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن حارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً»، قال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنّه السيف، فبلغ رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص

---

(١) أحنه: أهلكه.

(٢) المستفتح: الحاكم على نفسه بالدعاء.

أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. يقول عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ، بأبي حفص. ويقول أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة[1].

واقتضت حكمة الله تعالى أن يرفع معنويات المسلمين، فقد رأى رسول الله ﷺ، المشركين في المنام قلة، مما شجعه، لأنه لو رآهم كثرة لكثر النقاش في الموضوع المتعلق بالحرب، ولأنهم إنما خرجوا للعير ثم رأى المسلمون المشركين قلة أثناء اللقاء للسبب نفسه، فكان كل فرد منهم مقداماً، وفي الوقت نفسه فقد رأى المشركون المسلمين قلة حتى يندفعوا أيضاً للحرب إذ لو رأوهم كثرة لهابوهم، ولاستمعوا لكلام عتبة بن ربيعة في ترك القتال، كل ذلك لتكون النتيجة التي أرادها الله للفريقين، لتتم بأيدي الطرفين لا بمعجزة. الإسلام يطبق بأيدي أتباعه، لا بالمعجزات، هكذا أراد الله لدينه، ويقول تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[2].

وكذلك فقد أنزل الله سبحانه وتعالى ملائكة ليطمئن المسلمون، ولتثبت أقدامهم، لا ليقاتلوا[3]، إذ لو كان ذلك لكفى ملك واحد ليهلك ما شاء الله له أن يهلك، بل لكفى أن تكون إرادة الله في قتلهم، ليقتلوا جميعاً ولو كان عددهم عدد الحصى . . . ولكن كان إنزال الملائكة بهذه الأعداد ليثبت المسلمون، وتطمئن نفوسهم، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ

---

(١) استشهد رضي الله عنه في اليمامة أثناء قتال المرتدين.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) اختلفت آراء العلماء حول مباشرة الملائكة للقتال، ويبدو ـ والله أعلم ـ من آيات سورة الأنفال أنهم قاتلوا.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

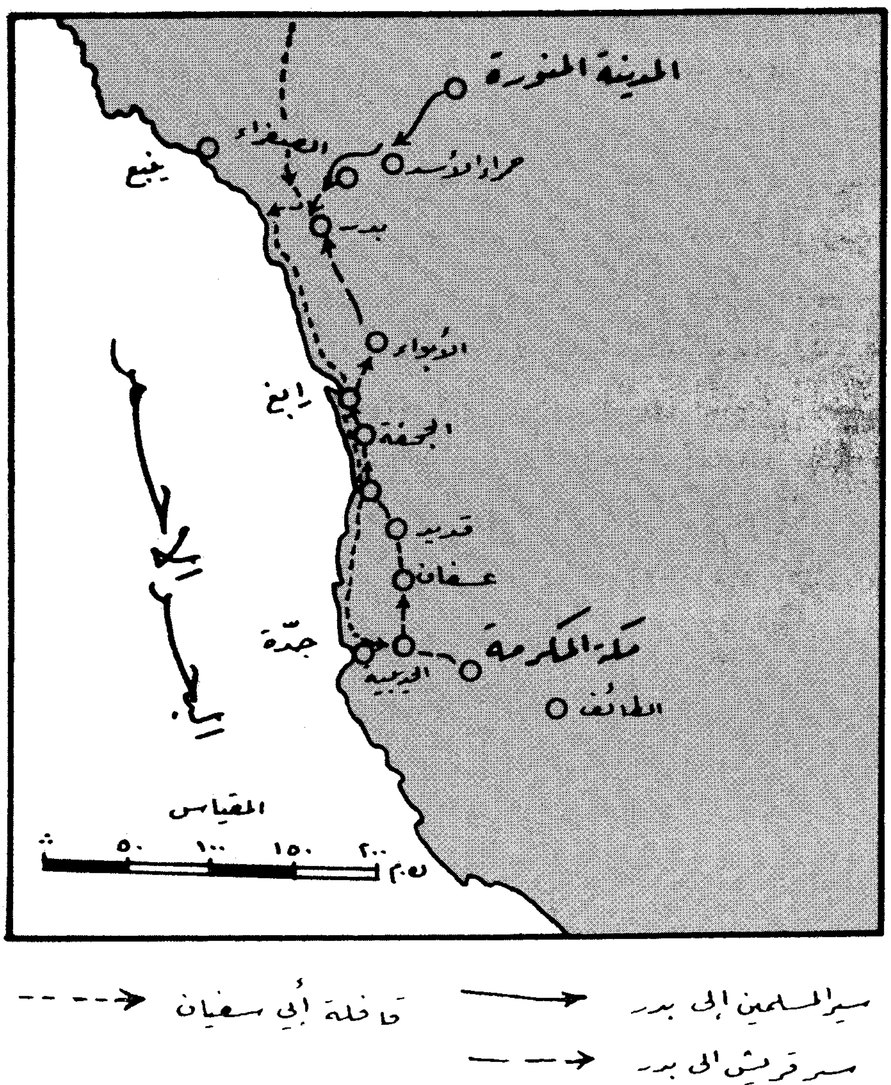

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ـ ١٤.

وكانت المعركة وفاز المسلمون كل الفوز، ونجحوا في البذل في النفس، ونجحوا في تحقيق معاني الأخوة الصحيحة، فكانت فوق القرابة والأرحام، وفوق كل ما يمت بصلة سوى صلة العقيدة، فقد قتل المسلم أباه المخالف له، وقتل أخاه المغاير له في العقيدة، لم يقتله في الحرب فقط، وهو ثائر متحمس، لا يعي، ولا يفكر، ويخشى على نفسه من أن تنتاشه سيوف الأعداء ورماحهم قبل أن ترتفع كلمة الله، وهو يحيا لتعلو، وإنما أيضاً يريد قتله وهو أسير بين يديه بعد نهاية المعركة، وهو ينظر إليه نظرة الإنسان الضعيف، وتنبعث في نفسه ذكرى الأيام الخالية التي قضياها معاً، أو ربّى فيها أحدهما الآخر، وكان العطف يغمر نفسيهما، ولكن هذا كله يداس بالأقدام إذ لا يجتمع الإيمان مع الكفر. لقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام المخزومي، ورغب أبو بكر بمنازلة ابنه عبد الرحمن ولكن الولد كان يفر من وجه أبيه.

كانت معركة بدر تشير إلى أن الفئة المؤمنة إن استقامت على الطريق، وأخذت بأسباب النصر، لا بد من أن يأتيها نصر من الله بغض النظر عن العدد وتكافؤ السلاح، كانت أول معركة في الإسلام، وكانت الإشارة الخالدة لهذه الحقيقة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

كانت معركة بدر تتمة لبيعة العقبة التي تقضي بالدفاع عن الإسلام في يثرب، وتشمل مجالاً أرحب يجمع العالم كله، يقاتل فيه المسلمون عامة في كل ميدان تفرضه المعركة، ويدافعون عن العقيدة في كل بقعة تقتضيها الدعوة، ولم تعد المدينة وحدها مجال الدفاع عن رسول الله ﷺ، والمهاجرين.

كانت معركة بدر المعركة التي أثبتت أن الأخوة في الإيمان أقوى من رابطة النسب والجنس بل لا قيمة لأية رابطةٍ سواها أمامها، وقد تجلّت

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

ببذل النفس في سبيل العقيدة، كما تجلت المؤاخاة ببذل المال بين المسلمين في يثرب يوم وصل إليها رسول الله ﷺ، هذه الحقيقة الخالدة قد سُجّلت في أول معركة من معارك المسلمين فكانت فرقاناً بين الحق والباطل.

ولم تتغير الجبهات التي يقاتل المسلمون ضدها اليوم، فالطغاة اليوم في كل أرض وحتى من الذين ينتسبون للإسلام، وأصحاب المصالح والأهواء في كل مكان، والحاقدون من أهل الديانات الأخرى، وتمدُّ كل هذه الفرق أيضاً دول العالم اليوم، فعلى المسلمين اليوم أن يتبعوا الخطة نفسها التي سار عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

على المسلمين أن يدرسوا الأرض التي يتوقّعون أن تدور عليها المعركة الفاصلة بينهم وبين أعدائهم، وهي البقعة التي تصلح لإقامة الحكم الإسلامي، ويجب أن تكون هذه الدراسة كاملة، ويعرفوا أن عليهم أن يخوضوا عليها أولى معاركهم ضد خصومهم، وأن يوجهوا عنايتهم التامة نحو هذه المعركة المنتظرة.

على المسلمين أن يكونوا على وعي تام فلا يجرهم الخصوم إلى معركة قبل أن ينتهوا من استعدادهم، عليهم أن يقرروا زمن المعركة ومكانها هم لا خصومهم، وهي نقطة أساسية وحساسة جداً، إذ أن المسلمين يسعون لاستكمال استعدادهم وقبل أن يتم استعدادهم يجرهم العدو إلى معركة بسبب العناصر الانتهازية أو التي تسعى وراء الشهرة وبذا تتأخر الدعوة وتتراجع الحركة، ويبدأ العمل ثانية من جديد من نقطة الصفر وقبل أن يعدوا العدة اللازمة تُعاد إليهم الضربة بجرهم لمعركة أخرى وهكذا. . . هذا الأمر الذي يصاب فيه المسلمون اليوم في كل أرض تقوم عليها حركتهم.

على المسلمين أن يرسلوا الدعاة إلى المناطق المجهولة، والقبائل التي لا تزال وثنيةً، والتي تسكن المناطق النائية في الغابات والصحارى، والتي اتّجه نحوها المنصّرون من النصارى، وأهملها المسلمون، فاكتفوا بما وصل

إليه الإسلام في المناطق المعروفة، فقد انطلق المسلمون الأوائل إلى القبائل المشركة يكسبونهم إلى صفهم أو يدخلونهم في الإسلام.

على المسلمين أن يتجردوا من كل رابطة سوى رابطة الفكرة والعقيدة تجرداً تاماً، فليس الأب ولا الأخ ولا الزوج ولا أي نوع من القرابة يجب أن يكون له أهمية إذا تعارضت أفكاره في أي نقطة مع الإسلام.

على المسلمين الاستعداد التام للقتال في كل ميدان، فليست المنطقة القريبة منهم هي الواجب عليهم القتال فيها، وإنما في كل منطقة تقتضيها ظروف الدعوة، وفي كل بقعة تحتم الدعوة القتال فيها، وهذا بالتالي يستدعي التعرف على أوضاع المسلمين وبلادهم في كل أرجاء العالم، والتعرف كذلك على البلاد التي لم يصل إليها الإسلام بعد، وعلى سكانها، وإمكانية نشر الدعوة بينهم.

وانتهت معركة بدر بنصر عظيم للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للمشركين الذين فقدوا في ساحة المعركة أكثر من سبعين قتيلاً، بينهم زعماؤهم والذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا رسول الله ﷺ، ومثلهم من الأسرى وفيهم بقية الزعماء والقادة، فكان من بين القتلى، عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وشيبة بن ربيعة أخو عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، وعبيدة بن سعيد بن العاص، والعاص بن سعيد بن العاص، وأبو البختري العاص بن هشام، ونوفل بن خويلد أخو أم المؤمنين خديجة، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن هشام المخزومي، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد، وأمية بن خلف، وابنه عليّ بن أمية.

وكان من بين أسرى قريش: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعقيل بن أبي طالب أخو علي بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، وعمرو بن أبي سفيان، وأبو العاص بن الربيع ختن رسول الله ﷺ، زوج ابنته زينب، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو.

وأمر رسول الله ﷺ، بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان رسول الله ﷺ، أخبر بها قبل المعركة إلى قليب بدر فدفنوا فيه، ثم قام على ظهر راحلته على شفة قليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ﷺ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال: «فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وتقول عائشة، رضي الله عنها: إنما قال، إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وروي أنه لما سحب عتبة بن ربيعة إلى القليب نظر رسول الله ﷺ، في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغيّر لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجوه له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ.

ثم أرسل رسول الله ﷺ، عبد الله بن رواحة مبشراً أهل العوالي، وزيد بن حارثة مبشراً أهل السافلة، وقد وصلا إلى المدينة وقت انصراف المسلمين من دفن رقية بنت رسول الله ﷺ، زوج عثمان بن عفان، فسُر المسلمون من سكان المدينة بما حمله المبشران، أما المنافقون والكفار واليهود فقد بدأوا يرجفون برسول الله المسلمين، ويقولون: لقد عاد هذان منهزمين من المعركة.

وساق رسول الله ﷺ، الأسرى أمامه وعاد باتجاه المدينة، وكان قد ترك من المسلمين أربعة عشر شهيداً في معركة بدر. وعندما أمر أن يُجمع ما حواه الناس من الغنائم اختلف المسلمون في ذلك، اختلف الجامعون والمقاتلون، اختلف الذائدون عنها والذائدون عن رسول الله ﷺ..

فجعل الله ذلك كله لله ولرسوله ثم أمر أن توزع بالتساوي على أن تكون أربعة أخماس الغنائم للمقاتلين والخمس الباقي لله ولرسوله، يوزعها رسول الله ﷺ، على الفقراء، وقد جعل رسول الله ﷺ، بين المقاتلين أشخاصاً لم يحضروا بدراً، منهم: سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، وكانا ينتظران عودة العير من الشام، وقد كلفهما بذلك رسول الله ﷺ، عندما فاتته العير، وهي في طريقها إلى الشام، وأبو لبابة، وقد خلفه رسول الله ﷺ، أميراً على المدينة، والحارث بن حاطب وكلفه رسول الله ﷺ، بمهمة في بني عمرو بن عوف، والحارث بن الصمة، وقد كسر بالروحاء، ولم يتمكن من السير، وعثمان بن عفان وكان رسول الله ﷺ، قد تركه عند زوجه المريضة، رقية بنت رسول الله ﷺ، وعاصم بن عدي وكان أميراً على أهل قباء والعالية من قبل رسول الله ﷺ، ثم شهداء معركة بدر الأربعة عشر ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾[1].

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطي درساً للمسلمين بأن المعركة كانت فرقاناً، وهي أعظم بكثير من هذه الغنائم والأموال التي مآلها إلى الزوال، بينما المعركة هي فاصل هام في تاريخ البشرية كلها، وقد تمت بتدبير الله وقدرته، في كل حركة وفي كل خطوة حدثت فيها، ليقضي من وراء ذلك أمراً عظيماً أراده هو، فلم يكن هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور دون تدبير، وسواء أكانت تلك الغنائم أم نتائجها الكبيرة فكلها من فعل الله وتدبيره.

وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، وتبعه الأسرى بعد يوم، فاستشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال أبو بكر: يا رسول الله،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة. فقال ﷺ: «إن الله ليليّن قلوب أقوام حتى تكون (ألين) من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وإن مثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾»[2]. وأخذ رسول الله ﷺ، برأي أبي بكر، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء»، ووصاهم عليه السلام بهم، وكان قد فرقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»، قال أبو عزيز بن عمير ـ وكان أحد الأسارى ـ: مرّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ، إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فأستحيي، فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها، وكان أبو عزيز زرارة بن عمير صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث، وقد أسره أبو اليسر، وعندما قال مصعب بن عمير لأبي اليسر ما قال، قال له أخوه أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك. وقد فدته أمه بأربعة آلاف درهم، وهذا المبلغ أعلى مبلغ فدي به قرشي في بدر.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦. (٢) سورة نوح: الآية ٢٦.

وصول خبر بدر إلى قريش:

ووصل خبر معركة بدر ونتائجها إلى قريشٍ عن طريق الحيسمان بن عبد الله الخزاعي فإنه أول من قدم مكة بذلك الخبر، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، فلما صار يعدد أشراف قريش لم يكد يصدق من يستمع إليه، وظنوا أنه مجنون حتى إن صفوان بن أمية بن خلف، وكان جالساً في الحجر قال: سلوه عني، لعلّي بين القتلى، فلما سألوه عنه، قال لهم: ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه قتلى.

وعندما تأكدت قريش من الخبر ناحت على قتلاها، ثم قالت: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه، فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، ولكن تأخروا في ذلك، كي لا يشتد محمد في الفداء فيطلب الكثير.

ثم بعثت قريش في فداء أسراها، ولم يبالغ رسول الله ﷺ، في الفداء، إذ لم يكن المال شاغله، ولا شاغل أصحابه، وإنما هداية الناس، وإعلامهم رأيه ليجذبهم إلى الدين، وإبلاغهم دعوة الله. فعندما جاء مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به، فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً». وروي أنه قال: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه».

قال ابن إسحاق: فلما قاولهم مكرز، وانتهى إلى رضاهم، قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكِ بفدائه، فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرز مكانه عندهم، حتى أرسل سهيل الفداء.

ورفض أبو سفيان أن يفدي ابنه عمراً، وكان ابنه الآخر حنظلة قد قتل فصعب عليه أن يفقد الولد ويدفع المال، وبقي ابنه في الأسر حتى احتجز أبو سفيان سعد بن النعمان الذي جاء معتمراً، وكان شيخاً هرماً، فافتداه رسول الله ﷺ، بترك عمرو بن سفيان يرجع إلى مكة.

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله ﷺ، إذ كانت عنده زينب بنت رسول الله ﷺ، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وتزوجها قبل البعثة، وعندما أوحي لأبيها محمد ﷺ، أسلمت، وبقي زوجها على شركه، وفرّق بينهما رسول الله ﷺ، ولكنه لم يستطع عزلهما لما كان فيه من الاضطهاد. وبينما طلق عتبة بن أبي لهب زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وترك أخوه عتيبة بن أبي لهب زوجه أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بناء على رأي وجهاء قريش في سبيل إضعاف رسول الله ﷺ، وزيادة الهم عليه، وتعهدت قريش بتزويجهما فتاتين من قريش يختارانهما، ولكن رفض أبو العاص ذلك وقال: لا أرضى بديلاً بزينب. ولما كانت بدر خرج أبو العاص مع قريش، وكان بين الأسرى، وأرسلت زينب مالاً وقلادة كانت قد أهدتها لها أمها خديجة فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ، رقّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتعيدوا لها مالها فافعلوا»، فقالوا: نعم، وفعلوا ذلك، وقد أخذ رسول الله ﷺ، عهداً على ختنه أن يرسل زينب من مكة لتلحق بأبيها في المدينة حيث لا يجمع بينهما دين، فلما أطلق سراح أبي العاص، ووصل إلى مكة، أرسل زينب إلى أبيها. وكان رسول الله ﷺ، قد أرسل زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ليصحباها في الطريق، وقبل أن تصل إليهما مع أخي زوجها كنانة بن الربيع، روعها هبّار بن الأسود، وكانت حاملاً، فأسقطت، وأصابها النزيف حتى وصلت إلى المدينة، فأصابها المرض، وخاصة أنها اضطرت إلى أن تعود إلى مكة، وتخرج ثانية على حين غفلة من أهلها، إذ خرجت في الأولى علانية وعلى رؤوس الأشهاد الأمر الذي جعل هبّاراً وغيره يتبعانها. أما زوجها أبو العاص فقد بقي على شركه، وفي مكة على حين مكثت هي عند أبيها في المدينة إذ فرق الإسلام بينها وبين بعلها. وخرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشام، وأثناء عودته وقع في قبضة سرية لرسول الله ﷺ، فأخذت ما معه، وفر هارباً، حتى إذا كان الليل دخل المدينة سراً، ولجأ إلى بيت زينب، واستجار بها فأجارته، فطلب رسول الله ﷺ، من السرية التي أخذت ماله أن ترده عليه إن شاءت،

وإن أبت فهو لها، فرد رجال السرية كل ما كان لديهم، فاحتمله أبو العاص وسار به إلى مكة، فلما وصل إليها أعطى كل ذي حق حقه من أهل مكة ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها، أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ، مسلماً، فرد رسول الله ﷺ، زوجه زينبَ بنكاح ثانٍ.

وكذلك فقد منَّ رسول الله ﷺ على بعض الأسرى الآخرين من غير فداء، فقد أطلق سراح المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وكان قد أسره خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري كما أطلق سراح صيفي بن أبي رفاعة المخزومي، وأبو عزة، عمرو بن عبد الله الجمحي، وكان فقيراً، ذا بنات، وقد أخذ عليه عهداً ألا يظاهر على المسلمين. أما العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو أحد الأسرى، فقد أمره رسول الله ﷺ، أن يفدي نفسه، وأن يدفع الفداء عن ابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، كما أمره أن يدفع عن حليفه عتبة بن عمرو بن جحدم، فاعتذر محتجاً بأنه لا مال له، فقال له رسول الله ﷺ: «أين المال الذي وضعته عند أم الفضل، وقلت لها: إن أصبت فللفضل كذا، ولعبيد الله كذا»، قال: والذي بعثك بالحق، ما علم أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، وفدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وكان المسلمون قد أخذوا أربعين أوقية من الذهب من العباس بن عبد المطلب أثناء غزوة بدر عند أسره، وعندما جاء وقت إطلاق الأسرى، طلب العباس من رسول الله ﷺ، أن يحسب كمية الذهب التي أخذت منه من الفداء، فرفض رسول الله ﷺ ذلك، وقال: «لا، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل»، أي أصبح غنيمة للمقاتلين المسلمين بعد أخذها منه أثناء القتال.

وقد جاء عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في شأن فداء

الأسرى، فقال جل جلاله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1] ويبدو - والله أعلم - أن هذه الآية قد نزلت أثناء معركة بدر إذ كان بعض المسلمين يحرصون على الأسر أكثر مما يحرصون على القتل، وقد تمعّر وجه سعد بن معاذ لما يفعله بعض هؤلاء، فأنزل الله هذه الآية[2]، ثم عفا الله عنهم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾[3].

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، بعد أن قضى بافتداء الأسرى فإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر قاعدين يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من رسول الله ﷺ).

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ - ٦٨.

(٢) انظر تفسير هذه الآية عند ابن عطية.

(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٦٩ - ٧٠.

محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى

أقام رسول الله ﷺ، الدولة الإسلامية الأولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة، ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أي عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة، وكان قائدها رسول الله ﷺ، المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه الخير والسعادة وإنقاذه من الجهالة والظلم والظلمات. ولهذا ـ وغيره كثير ـ فإن على دعاة الإسلام اليوم أن يوضّحوا للناس معالم هذه الدولة وأن يدعوا إلى القيام بدولة مثلها، وهي التي لا يستطيع إنسان مهما أوتي من شجاعة وجرأة وعلم ونفاذ بصيرة أن يضع أقل نقدٍ فيها، أو أن تكون له ملاحظات عليها، إلا من طمس الله على قلبه وبصيرته، وهذا لا نعيره اهتماماً، لأننا إنما ندعو المسلمين وإليهم نتوجه في هذا الأمر، وعلى هؤلاء الدعاة أن يأخذوا المفاهيم التي كانت تسود مجتمع المدينة آنذاك، ويدعوا إليها بتدبر وحكمة ويقظة وبصيرة حتى تعم المجتمع الذي نعيش فيه، وتكون مجال بحث ودراسة، حتى إذا تم ذلك الخير، وأضحى الأمل قريباً، وفي أخذ هذه المفاهيم رد على سواها لما فيها من قوة وبيان.

بنى رسول الله ﷺ، المسجد النبوي لتظهر شعائر الإسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطي مظهر المجتمع في عقيدته، كما كان هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمنتدى الذي تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي باعدت بينها النزعات الجاهلية،

وتأخذ المفاهيم الإسلامية الواحدة، وتستقي الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز (تجمع) المسلمين، وكان القائد ﷺ، يلقي المحاضرات المنتظمة في كل أسبوع في خطبة الجمعة، ثم محاضرات إضافية كلما دعت إليها الحاجة خلال الأسبوع يوضح فيها الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء. ومن هذا المنطلق يجب أن تكون اليوم جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف كلما وجد، وتبقى على تنظيمها ولو صار المجتمع إسلامياً، ولو غدا الحكم بيدها، خوفاً من الانحراف، إذ أنها هي صمام الأمان، وقد كان رسول الله ﷺ، يعد رأس التنظيم، وأصحابه رضوان الله عليهم أعضاؤه وحفظة الخط الذي يوجههم إليه قائدهم، وبانتهاء جيل الصحابة بدأت زاوية الانحراف بالانفراج وإن كانت على قدر بسيط إلا أنه بدأ يزداد مع الزمن، فالجماعة هي التي تحافظ على سير الدعوة، وتحول دون الانحراف. وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم إلا أنه موجود من حيث الفكرة وطريقة التطبيق، إذ تلقى الجميع من مدرسة واحدة ومن معلم واحد، تلقياً ليس بالسماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد والاستقاء من منهل واحد لتتوحد الأفكار، وتكون المشارب مشرباً واحداً، فإنه عندما كثرت المدارس وتعددت المناهل زاد الانفراج في زاوية الانحراف ثم بدأ الاختلاف.

أعلن رسول الله في دولته أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، فالأمة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، بغض النظر عن انتماء أبنائها لمجموعات من الأجناس أو الشعوب أو العروق، وبغض النظر عن اللغة التي يتكلمها أفرادها واختلافها، وبغض النظر عن كل شيء سوى العقيدة.

أقام رسول الله ﷺ الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام رأس هذه الحكومة، يطبق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه رضوان الله عليهم مستشارين ووزراء له. كما كان، عليه الصلاة والسلام، قائد الجيش، فإذا سار إلى حرب ولّى مكانه أحد أصحابه على المدينة، وإذا

مكث عيّن أحد صحابته على الجيش، هذه الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ من رئاسة للدولة، وقيادة للجيش، وتعيين مقر عام لتلقي الأفكار والتعاليم لمبدأ الإسلام، وإلقاء المحاضرات لتلك الغاية، وتحديد الروابط التي تجمع بين الناس، هي تعريف خاص للأمة المسلمة من دون الأمم، وتنظيم وإعداد لهذه الأمة إعداداً خاصاً، وإيجاد مفاهيم خاصة بها، والاعتماد على مستشارين يرجع إليهم في الملمات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصلات مع غير المسلمين، كل هذه من الأمور السياسية الأساسية التي يجب أن يقوم بها أولو الأمر، وكان رسول الله ﷺ يجمع إلى جانب هذه الأمور النواحي الدينية، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ولما كان أسوة حسنة، وقائداً لكل حاكم، ورائداً لكل صاحب سلطة، فهذه الأمور كلها من اختصاص الحكام، بل لا يحق لحاكم ترك جانب منها، فالدين يشمل جميع جوانب الحياة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية، بل تقع كلها ضمن إطار الدين، وتحت عنوانه، وما دام الحاكم يمارس الإشراف على الحياة لرعاياه فهو يشرف على هذه الجوانب كلها. ولم يكن رسول الله ﷺ ليقصر في ناحية على حساب أخرى، ولا يهمل جانباً لتقوية آخر. وكذا كان اختصاص كل خليفة جاء من بعده، ولم يخطر في خلد أحدهم أن هناك نواحي يجب أن يمارسها وأخرى عليه أن يهملها ليمارسها غيره، كما لم يحاول أحد من المسلمين أن يفصل الأمور السياسية عن الدين، أو أن ينتقد الحكام المسلمين بأنهم يمارسون السياسة والدين، واستمر هذا الأمر بشكل طبيعي حتى سيطر الأجانب على بلاد المسلمين بالقوة، وأرادوا الإبقاء على الأوضاع التي مكنتهم من السيطرة لاستمرارهم فيها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين العنيفة التي تنبع من دينهم الذي يمنع أتباعه من قبول الخضوع لغير المسلمين، أو للحكام الذين لا يطبقون منهج الله ولو كانوا من المسلمين فوجد الأجانب أن أفضل طريق لهم هو عزل الدين عن الحياة، كما هي الحال في دينهم الذي لا تشريع فيه، وإنما يمارس رجال الدين فيه الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتسيير الأمور الدنيوية، وتكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدينية

داخل كنائسهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخل قصورهم، وعندما يحدث خلاف لا بد من أن يرضخ أحدهما للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية، واعتزل رجال الدين في كنائسهم، ليقوموا ببعض التراتيل والطقوس التي شعر الناس في النهاية أنها لا فائدة منها، وإنما هي أمور ميتة لا تضر ولا تنفع، لا تزيد إيماناً، ولا تدفع بالعقيدة لتلهب الروح وتنطلق بالحياة وتنعشها بالحضارة، وإنما غايتها أن يُحيي منها رجال الدين بعض ما فقدوه في الصراع، وليظهر أنهم يمارسون سلطة ولو داخل جدران أربعة، ولهذا جهد هؤلاء الأجانب على إيجاد فكرة الفصل بين الدين والحياة (الدولة) في بلاد المسلمين، فزعموا أن في هذا الحضارة، وأن التقدمية تستدعي ذلك، وأشاعوا أن للمسلمين الإشراف على الأمور الدينية، ولا علاقة لهم بالسياسة، بينما هم ـ الأجانب ـ يسيّرون أمور الدولة، ولا يتدخلون في جانب الدين ما داموا من غير المسلمين أيضاً، وفي هذا تقسيم الحياة، وقد وافقهم على فكرتهم هذه المغرضون من أصحاب المصالح والهوى، والذين يقبلون الدنية، والذين يريدون إرضاء الحكام بتأييدهم في كل تصرفاتهم، ليتسنى لهم التقرب منهم، والإفادة من ذلك بحكم قربهم في إرواء شهواتهم، والذين يريدون أن يهيئوا أنفسهم أو يهيئهم الحكام الأجانب ليحلوا محلهم إذا رأوا في ذلك مصلحة، بحيث تؤمن مصالحهم، بل ويحافظ عليها الحكام الجدد، ويمارسون الطريقة نفسها التي كان يمارسها الحكام الأجانب في عزل الدين عن الحياة، ويمارسون الضغط على المسلمين الذين يرغبون في تطبيق منهج الله، ويكيلون لهم التهم وشتى أنواع العذاب، بل ربما كان بعضهم ـ مع الأسف ـ من الذين يحملون جانباً من العلم، أو يلبسون زي أهله، في هذا العصر الذي ابتدع فيه لهم زي خاص، بل وربما يعطون الفتاوى في ذلك، ويتصدون لإصدارها، وفي كل عصر لا يعدم الحكام الوسيلة للوصول إلى غايتهم عن طريق هؤلاء فإن في كل مجتمع طلاب مصلحة وزعامة، ومن لا يردعه دينه فإنه يركب كل مركب للوصول إلى هدفه، وسار بعض المسلمين وراء هؤلاء مخدوعين،

أو على بيّنة، حتى عمي على الكثيرين الأمر عندما رأوا أدعياء العلم أمامهم، وظنوا أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدين عن واقع الحياة. وعلينا بعد هذا أن نعود لرسول الله ﷺ نقتبس من هديه، ونأخذ منه الأسوة الحسنة، ونقتدي بسلوكه وعمله في المدينة عندما كان الحاكم عليها، ليعود إلينا الأمر، ونرد على كل بدعيٍّ.

بعد النصر:

لقد كانت معركة بدر، وكان للمسلمين فيها النصر، وليس نجاح الحق في معركة معناه أن يجني رجالها الراحة إثرها، وإنما التعب، والدخول في معركة جديدة مزدوجة تضم أولئك الذين كانوا ينتظرون نتيجة القتال، ويتمنون الأماني وعند انتصار الحق يعميهم ظهوره فينطلقون يقاتلونه، ويحرضون عليه، كما تضم أولئك الموتورين الذين يطمعون بالثأر، ويرغبون في إطفاء شعلة الإيمان الذي يقف أمام مصالحهم وأهوائهم.

وعندما وصل نبأ القتال إلى المدينة انطلقت الشائعات ضد المسلمين، وتوقع المغرضون ما لم يحدث، وانبثت الأراجيف في كل مكان على لسان اليهود والمنافقين، وعندما وصل خبر نتيجة المعركة، بدأ السخر والتهكم من حملته، وقالوا: هذا زيد بن حارثة قد رجع على ناقة محمد ﷺ، ووصل رسول الله فخرست بعض الألسن عن هذا، ولكن استمرت ألسن أخرى تتحدث عن هزيمة المسلمين ووصول فلولهم الواحد إثر الآخر، ولكنهم شُدهوا عندما وصل الجيش يسوق سادة قريش أسارى مكبلين، وانقدحت نار الحقد فجأة.

اليهود أدركوا نتيجتهم لما يعلمون ما في نفوسهم من ضغائن وحقد، فأظهروا ما في نفوسهم من كره للمسلمين، وبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار قدمت بحلي لها لتبيعه في سوق بني قينقاع، ولما جلست إلى صائغ هناك، اجتمع حولها عدد من اليهود يتحرشون بها، ويجرحون شعورها، وأرادوا أن

تكشف وجهها رغبة في إضعاف الإيمان من النفوس بترك جزء بعد جزء تهاوناً في شأنه واستصغاراً له، ولكنها رفضت، فعقد أحد هؤلاء اليهود طرف ثوبها إلى ظهرها على حين غفلة منها، فلما قامت انكشف جزء من عورتها، فبدأ اليهود يضحكون ويسخرون، ويقولون ترفض كشف الوجه ولكنها تكشف العورة، فاستغاثت، فإذا بأحد المسلمين، وكان حاضراً في السوق، يثب على اليهودي ويقتله، فحمل اليهود على المسلم فاغتالوه وهكذا اندلعت شرارة الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع. وسار رسول الله مع بعض أصحابه إلى سوق بني قينقاع، فجمع تلك الفئة من اليهود، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا من الله عزّ وجلّ مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم». قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا عِلم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[1] فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف من بني قينقاع». وسار إليهم في شهر شوال من السنة الثانية أي بعد معركة بدر بأقل من شهر، وكانوا قد اعتصموا في حصونهم، فحاصرهم مدة خمس عشرة ليلة، ثم فكّ الحصار عنهم بعد إلحاح رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، وقد كانوا حلفاء الخزرج، ثم أمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن نزلوا على حكمه. بإجلاء الذراري وغنيمة السلاح والعتاد، ولم تكن لهم أراضٍ، وإنما كان عملهم الصياغة. وكانوا أشجع يهود المدينة، ولم يجرؤ بقية اليهود على مساندتهم خوفاً من المسلمين، على الرغم من كرههم الشديد للمسلمين وحقدهم الدفين. وكان الذي قاد حصارهم أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، والذي ساقهم خارج المدينة عبادة بن الصامت، وقد انتقلوا إلى أذرعات (درعا) من بلاد الشام، ولم يستدر عليهم العام حتى

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

هلكوا. وكذلك فإن كعب بن الأشرف أحد زعماء بني النضير حيث كانت أمه منهم، قد آلمه انتصار المسلمين في بدر، فقال: بطن الأرض خير من ظهرها، وكان أحد الأغنياء المعروفين، وعرف أنه من كبار المرابين، ولم يتعظ بما أصاب بني قينقاع، ولم يحسب حساباً للمعاهدة التي بين المسلمين ويهود والتي تنص على عدم مظاهرة قريش أو تأييدها بل نكث بالعهد، وخرج من المدينة يحرض قبائل العرب على رسول الله ﷺ ويدعوهم إلى حربه، حتى وصل إلى مكة، فشجع قريشاً على قتال المسلمين وأثار حقدها، ووعد بدعمها، وأجاب أبا سفيان في مكة بأن قريشاً أكثر هداية من المسلمين فأنزل الله في حقه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

ورجع من رحلته، فأقام بالمدينة يحرض على قتال المسلمين، ويتغزل بنسائهم، ويذكر أسماءهن صراحة، الأمر الذي آذى المسلمين أشد الإيذاء، وبهذا لم تعد له ذمة ولم يبق له عهد، والتف حوله جماعة من اليهود أغراهم بماله ليمالئوه، ويظهروا حقيقة ما في نفوسهم، وأصبح خطراً على المسلمين، يخشى بأسه، ويجب القضاء عليه قبل أن يشتد ساعده، فأرسل له رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري مع جماعة من الأنصار قاموا بقتله خارج حصنه المنيع في ضواحي المدينة بعد أن استدرجوه منه. وبعد هذا القتل لجأ اليهود إلى السكوت، وخافوا من أن يقوموا بأية حادثة، وأظهروا أنهم على عهودهم ومواثيقهم.

أما المنافقون فقد أجمعوا كيدهم، وأعلن رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه، ودعا جنده لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم وهم على علم بما يبطنون من حقد، وبما تخفي نفوسهم

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

من شر، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تتهيأ لهم الفرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً وعملوا بجانب اليهود، فلما نزل يهود بني قينقاع على حكم رسول الله، قام إليه عبد الله بن أبي بن سلول فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر عبد الله بن أبي طلبه، فأعرض عنه رسول الله، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله، فتغير لون النبي، عليه الصلاة والسلام، وقال له: «أرسلني»، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم أعاد رسول الله، وهو مغضب: «أرسلني ويحك» فقال ابن أبي: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر فقال رسول الله: «هم لك».

هذا ما كان داخل المدينة من يهود والمنافقين. أما خارجها فالأعراب في المدينة وما حولها ساءهم انتصار المسلمين في بدر، لأن هذا الانتصار معناه سيطرة القانون الإسلامي الذي سيحول بينهم وبين السلب والنهب الذي اعتادوا عليه، أو قانون الغاب الذي يطبقونه على أنفسهم، ولم يكن أثر انتصار المسلمين على هؤلاء الأعراب يحمل وجهة نظر سياسية أو عقيدية، وإنما فقط خوفاً من أن يحرموا ما اعتادوا عليه. وقد بدأت بعض القبائل تتجمع بعضها مع بعض، وتشكل أحلافاً تريد غزو المدينة، وإظهار قوتها، بعد هزيمة قريش سيدة العرب، ولسلب أموال المدينة التي غدت غنية بعد انتصارها، وغدت محط أنظار القبائل التي اعتادت أعمال الإغارة.

غزوة بني سُليم:

بلغ رسول الله ﷺ أن قبائل غطفان وسُليم قد كونت حلفاً فيما بينها تريد غزو المدينة، وقد أخذت في الاستعداد لذلك، فرأى أن يداهمها في عقر دارها قبل أن يشتد ساعدها فسار إليها بمائتي راكب، وباغتها في مكان تحشدها في (قرقرة الكدر) على الطريق التجارية الشرقية بين مكة والشام،

ففر الأعداء بعد أن علموا بالهجوم المفاجئ، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير، فغنمها رسول الله فأعطى أربعة أخماسها لجنوده، فكان لكل رجل منهم بعيران، وبقي في أرضهم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة، ولما ينقض شهر شوال من السنة الثانية، وما كان هذا البقاء إلا لإظهار قوة المسلمين.

غزوة ذي أمر:

واحتشدت جموع من بني ثعلبة، وهم فرع من غطفان، وجموع من بني محارب، في (ذي أمر) يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم رسول الله ﷺ، على رأس حملة قوامها أربعمائة وخمسون مقاتلاً بين راكب وراجل، وخلف على المدينة عثمان بن عفان، ولما علم الأعداء بمسير المسلمين إليهم فروا إلى رؤوس الجبال، ووصل المسلمون إلى مكان تجمعهم في ذي أمر، ولم يجدوا أحداً، فمكثوا مدة ليرهبوا الأعداء، ولتسمع الأعراب بقوتهم فيخافوهم فلا تحدثهم أنفسهم بغزو المدينة. وهطلت الأمطار على تلك الديار، فابتلت ثياب رسول الله، فانزوى جانباً يجففها على شجرة، واضطجع ينتظر جفافها، وكان جنده مشغولين، كل بأعماله الخاصة، ويظهر أن الأعداء كانوا يرقبونهم من بعض التلال، فلما رأى ذلك قائد جيش العدو (دعثور بن الحارث الغطفاني)، تسلل بين صفوف المسلمين، على غفلة منهم، ووصل إلى رسول الله، فرآه مضطجعاً، فوقف على رأسه، شاهراً سيفه يريد الفتك به، والنبي ﷺ أعزل ليس في يده سلاح، فقال دعثور للنبي ﷺ: من يمنعك مني الآن؟ فقال له رسول الله: «الله»، وبينما هما كذلك، إذ وقع دعثور على ظهره، وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، ووقف على رأس دعثور، فقال له: «من يمنعك مني الآن؟» فقال دعثور: لا أحد، ثم أعلن إسلامه، فأعاد له رسول الله سيفه، وتوجه دعثور إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما حدث معه، وأن الذي أوقعه على الأرض رجل طويل دفعه في صدره، ولا شك أنه ملك... وعاد المسلمون إلى المدينة يحملون الروح المعنوية العالية.

غزوة بحران:

وبلغ رسول الله ﷺ أن بني سُليم عادوا لحشد قوات لغزو المدينة، فأسرع إليهم بقوة قوامها ثلاثمائة مقاتل، فلما بلغهم ذلك تفرقوا في الجبال، فبقي في ديارهم شهرين تخويفاً لهم، وإرهاباً لبقية الأعراب.

وأما أولئك الموتورون من قريش فقد بدأوا بالاستعداد للأخذ بالثأر، والتخلص من الإسلام ورسوله مباشرة، ورأى بعضهم أن أقرب طريق إلى ذلك إنما هو التخلص من محمد ﷺ وذلك قبل البدء بالمعركة. فقد كان عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين آذوا رسول الله والمسلمين أشد إيذاء. وقد وقع ابنه وهب بن عمير في أسر المسلمين يوم بدر، فجلس يوماً في الحجر يتحدث مع صفوان بن أمية الذي قُتل أبوه وأخوه في بدر، فقال عمير: أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم (أي له في ذهابه إلى المدينة حيلة هي فكاك أسر ابنه) فاغتنم ذلك صفوان، فقال له: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم، فقال عمير: فاكتم شأني، فقال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسمّ، ثم سار حتى أتى المدينة، فرآه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: «فأدخله عليّ»، فأقبل عمر إلى عمير، وأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل على رسول الله، ومن معه، فلما رآهم رسول الله، قال لعمر: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير»، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً.

فقال رسول الله: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام: تحية أهل الجنة».

قال عمير: أما والله يا محمد، إن كنت بها لحديث عهد.

قال رسول الله: «فما جاء بك يا عمير؟»

قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال رسول الله: «فما بال السيف في عنقك؟»

قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟.

قال رسول الله: «اصدقني، ما الذي جئت له؟».

قال عمير: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي، وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق. قال رسول الله: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره». ففعلوا.

قال عمير بعد أن عزم على السفر والعودة إلى مكة: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان دين على الله عزّ وجلّ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ. فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاّ يكلمه أبداً، ولا ينفعه أبداً.

غزوة السويق:

لقد تأثر أبو سفيان كثيراً لغزوة بدر، وخاصة أنه لم يحضرها، وقد قتل ابنه حنظلة، وأسر ابنه الثاني عمرو، فأقسم ألا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً في المدينة، فخرج في مائتي راكب من قريش، وسار بهم حتى اقترب من المدينة، فانتظر حتى أقبل الليل، فدخلها تحت جنح الظلام خائفاً يترقب، وقد اتجه إلى حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير من اليهود، فرفض استقباله، فسار إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير، فاستقبله وأكرمه، وأخذ منه أخباراً عن المسلمين، ثم عاد في ليلته إلى أصحابه وهم ينتظرونه خارج المدينة، وبعث رجالاً من قريش ليفسدوا في الأرض، فحرقوا بعض النخل فيها، ووجدوا رجلًا من الأنصار فقتلوه، وولوا هاربين، وانطلقوا مع جمعهم نحو مكة لا يولون على شيء، وقد تخففوا من كل شيء حتى من أزوادهم، وكان أكثرها من السويق، وهو من الحنطة المحمصة المطحونة، وبعضها ممزوج بالعسل والسمن، أو مجبولة بالماء، ووصل الخبر إلى رسول الله فتبعهم مسرعاً بمائتي مقاتل، وترك على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر، ولكنهم فاتوه، وغنم المسلمون كميات من الزاد، من السويق، الأمر الذي جعل الغزوة تعرف بذلك، وكانت هذه الغزوة في أوائل ذي الحجة من العام الثاني للهجرة.

سرية زيد بن حارثة:

خافت قريش من إرسال قوافلها إلى الشام عن طريق الغرب بعد الذي كان في بدر، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى الطريق الشرقية عن طريق نجد، وأرسلت قافلة كبيرة فيها أبو سفيان بن حرب، ومعه كميات من الفضة، وفيها صفوان بن أمية وغيرهما من وجهاء قريش، وكان دليلها فرات بن حيان، وعلم رسول الله بهذه القافلة فأرسل لها سرية بإمرة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء (القردة) من مياه نجد، وما إن وجدوا سرية الرسول الله ﷺ، حتى هرب رجال القافلة وتركوا عيرهم غنيمة للمسلمين، فأخذها زيد، وسار بها إلى المدينة، فخمسها رسول الله.

غزوة أُحُد:

بعد معركة بدر والمعارك الأخرى التي سبقتها، والتي تلتها، والتي كان النصر فيها كلها للمسلمين ظن بعضهم أن النصر سيكون حليفهم كيفما فعلوا ما داموا على دين الله، وغيرهم كفاراً، وسواء استعدوا أم لم يستعدوا، وأخذوا بالأسباب أم لم يأخذوا، فإن الله ناصرهم ومؤيدهم بدعم من عنده، وخاصة أنهم رأوا الملائكة في بدر بجانبهم، تثبتهم وتطمئن نفوسهم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمهم درساً من أن النصر لا يكون إلا بأخذ الأسباب والاستعداد للقتال، والله بعدئذ يؤيد بنصره من يشاء، ولم يكن الدرس بآيات قرآنية تتنزل على رسوله يتلوها عليهم، ولم تكن توجيهاً، وإنما كانت درساً عملياً قاسياً، ذاقوا مرارته فقد خلفوا في ساحة المعركة شهداء كراماً منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله، وسعد بن الربيع أحد وجهاء الأنصار، ومصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وعمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، وخمسة وستون آخرون، كما جرح أكثر من مائة وخمسين، وفوق كل هذا وأصعب من كل هذا فقد جرح رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته الشريفة، ووقع في الحفرة، وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر حتى لقد قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: «أنى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا، ونحن المسلمون؟.

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغزاها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة

وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ دون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول[1].

وفي معركة بدر ومن خلال المعارك التي سبقتها والتي تلتها تبين أن أمر المسلمين قد توجه كما قاله كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فمن لم يكن قد آمن أظهر الإيمان، ومن لم يكن قد أسلم أظهر الإسلام، ومنهم عبد الله بن أبي الذي كان يطمع أن يكون ملكاً على المدينة بعد يوم بُعاث ذلك اليوم الذي ذهب فيه أكثر زعماء الحيين من الأوس والخزرج سكان المدينة وبقي ابن أبي، وقد كانوا يعدون له التاج، فلما جاء الإسلام، وهاجر رسول الله ﷺ، لم يعد يلتفت إليه أحد لأنه لم يسلم، فضاع مع من ضاع، أسلم قومه، وتوانى هو، فاعتقد أن رسول الله قد سلبه ملكه، وأضاعه عليه، فحقد عليه، وعلى الإسلام، وعلى قومه الذين أسلموا، وعلى حد زعمه الذين نصروا محمداً فأعطوه هذا المركز، وبوؤوه هذا المنصب، فلما وجد أن أمر الإسلام قد قوي، وانتصر المسلمون في كل ميدان، وفي كل ساحة التقوا فيها مع أعدائهم، لم يعدَّ هذا تأييداً من الله ودعماً، بل عدَّه قوة وشجاعة، فأظهر الإسلام، وطلب من أنصاره أن يظهروا ذلك، وهكذا اختلط أمر المنافقين بين المسلمين، وقد كانوا يظهرون الورع فيسرعون إلى الصلاة في الصف الأول، وإن كانوا لا يتركون فرصة تناسبهم إلا ويعملون فيها ضد المسلمين ونبيهم، عليه الصلاة والسلام، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أطلع رسوله عليهم، وعلى أعمالهم، إلا أن حكمته جلّ شأنه قد اقتضت أن يضع أعمال المنافقين والذين في قلوبهم مرض أمام الملأ جلية مكشوفة في العراء، وأن يكرم المؤمنين والذين لم ترتب قلوبهم بإحدى الحسنيين فإما الثبات وزيادة الإيمان والنصر على أنفسهم وعلى أعدائهم، وإما الشهادة في سبيل الله متخذاً منهم شهداء يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب. الجزء الرابع ص٧٨.

عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[1]. فكانت حكمة الله تقضي بتنقية الصف صف المسلمين من الذين دخلوا معهم من المنافقين، وصاروا جزءاً منهم حسب الظاهر، وتنقية الصف تكون بعزل المنافقين عن الصف الإسلامي لترتفع الجماعة الإسلامية الصافية الخالية من كل شائبة إلى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها.

هذه إرادة الله ـ والله أعلم ـ وتتحقق على أيدي خلقه من الفريقين. فلننظر إلى الدوافع ومجريات الأحداث في المعركة التي جعلت كل فريق يقوم بأعمال معينة تؤدي في النتيجة إلى ما أراده الله جلّ شأنه، وتكون الحكمة الربانية في تمييز الشخصية المسلمة وإقامة الحجة على شخصية النفاق، وإنزال العقوبة على شخصية الكفر.

وعندما هزمت قريش في معركة بدر، ولحقها من الخزي والعار ما لحقها قررت الأخذ بالثأر والقضاء على المسلمين، وغزوهم في عقر دارهم وذلك لإعادة هيبتها واستعادة مركزها بين قبائل العرب، وزادها تصميماً على ذلك غنيمة المسلمين للعير التي سلكت الطريق الشرقية بعد أن قطعت الأمل بالطريق الغربية السهلة القريبة من المدينة، وبهذا توقفت تجارة قريش إلى الشام تماماً إذا لم تقم بعمل حاسم، وهذا ينطبق على ما قاله صفوان بن أمية عندما قرروا التحول إلى الطريق الشرقية: «إن محمداً وصحبه عوّروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادَعوهم، ودخل عامتهم معه؟ فما ندري أين نسلك؟

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٧ ـ ١٤٣.

وإن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء».
ولكن ذلك لم يفدهم شيئاً إذ وقعت قافلتهم، وهو فيها، وقد فرّ من وجه زيد بن حارثة، وذلك عندما انتقلوا إلى الطريق الشرقية ـ كما ذكرنا ـ.

بدأ النشاط للاستعداد لمعركة مقبلة، وكان أكبر المتحمسين لها بنو مخزوم، وخاصة عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي ربيعة إضافة إلى أبي سفيان وصفوان بن أمية، فقد حرضوا قريشاً ومن جاورها من ثقيف وكنانة. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقرر المجتمعون بالإجماع أن يكون تجهيز الجيش المرتقب إرساله إلى المدينة من أموال قافلة أبي سفيان التي نجت من قبضة المسلمين قبيل غزوة بدر، لذا فقد احتجزت تلك الأموال في دار الندوة، ولم يدفع لأصحابها شيء منها. وانطلقت قريش تحرض القبائل الأخرى، خاصة كنانة، وقد نجحت في مسعاها إذ تطوع عدد من أفراد هذه القبيلة للقتال وتكامل الجيش، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، ألفان وتسعمائة من قريش والأحابيش من بني المصطلق وبني الهون، ومائة من كنانة، ومع الجيش ثلاثة آلاف بعير أي أنهم جميعاً من الركبان، ومع الجيش أيضاً مائتا فرس، لم يمتطوها حتى وصلوا إلى أحد، إضافة إلى ٧٠٠ درع، وقد أخرجوا معهم النساء تشجيعاً لهم، وظناً منهم أن ذلك أدعى للثبات، وكان قائد الجيش أبو سفيان بن حرب، وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وخرج مع الجيش أبو عزة الجمحي وقد حرضه على ذلك صفوان بن أمية، وكان قد وقع أسيراً في بدر، ومنّ عليه رسول الله ﷺ، يومذاك، كما خرج أبو عامر الراهب الأوسي الذي فارق المدينة كرهاً لرسول الله ﷺ، وخرجت مع قريش القيان يعزفن على الدفوف. وكانت النقمة أكبر ما تكون على حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله لما أبلاه في بدر من البلاء الحسن، لذا دعا جبير بن مطعم بن عدي غلاماً حبشياً يدعى وحشي، وكان يرمي بالحربة، وقلما يخطىء بها، وطلب منه أن يضرب حمزة، وأنه حر إن قتله.

انطلق جيش مكة إلى عسفان ومنها إلى خُليص، الجحفة، رابغ، الأبواء، المدينة... واقترحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قائد الجيش العام، أن تنبش قريش قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، الموجود في الأبواء حيث دفنت هناك أثناء زيارة لها للمدينة، ومعها رسول الله، وكان في السادسة من عمره، إلا أن هذا الاقتراح قد رفض.

وصل إلى رسول الله ﷺ، خبر مسيرة قريش، إلى المدينة عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج هذه المرة مع قريش معتذراً بما أصابه في بدر، وقد قرأ رسالة العباس لرسول الله أبي بن كعب، وكتم الخبر عن سكان المدينة على الرغم من استعدادها... وبعد التأكد استُنفر المسلمون، وكانوا على حذر، فلم يتركوا سلاحهم حتى أثناء صلواتهم، كما نشطت دوريات المدينة الاستطلاعية، وجاءت بخبر قدوم جيش مكة عن طريق وادي العقيق حتى إذا وصل إلى (ذو الحليفة) تحرك نحو اليسار في غربي الحرة الغربية ثم استقر في السبخة من وادي قناة الواقع شمالي المدينة بالقرب من جبل الرماة.

ورأى رسول الله ﷺ في المنام رؤيا تشير إلى حصول أشياء كثيرة، قال: رأيت بقراً لي تذبح؟ ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولها بقوله: أما البقر فهم أناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأما الدرع فهي المدينة.

مشاورة المسلمين:

استشار رسول الله أصحابه عن المكان الذي سيواجهون فيه قريشاً، وقد كان رأيه أن يبقوا في المدينة، وأن تكون هي وشوارعها ساحة المعركة فقال: «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها». وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يحضر هذه المشاورة بصفته أحد زعماء الخزرج، ويرى هذا الرأي

فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط، إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

أما الصحابة الذين فاتتهم بدر، فقد كانوا متحمسين للخروج ولقاء المشركين خارج المدينة، وكذا أغلبية الشباب، وحجتهم في ذلك حتى لا يرموا بالجبن، وكان على رأس الذين يرون الخروج حمزة بن عبد المطلب إذ قال لرسول الله: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة، ومالت الأكثرية إلى هذا الرأي، إذ كانوا يرون أنهم منصورون لا محالة ـ بإذن الله ـ ومن يستشهد في سبيل الله فيا حبذا الجنة، ومن لا يطلبها من المسلمين؟ وهذا الأمر الذي كان يدفعهم لطلب الخروج فهي إحدى الحسنيين: الشهادة لمن يستشهد، والنصر لمن يبقى ليجاهد في المستقبل.

رأى رسول الله ﷺ، أن أكثرية المسلمين ترى الخروج، وعلى خلاف رأيه، فعدل عن رأيه، واستجاب للأغلبية، وأعلن أنه خارج لمقاتلة العدو حيث هو في وادي قناة. وكان يوم جمعة الرابع عشر من شوال، وبعد أن صلى رسول الله ﷺ، الجمعة بالمسلمين، وصلى على جنازة مالك بن عمرو النجاري، دخل بيته، وتسلح فلبس درعاً فوق درع، وخرج على المسلمين، وأذّن فيهم بالخروج إلى العدو. وندم أولئك الذين ألحوا عليه بالخروج حيث شعروا أنهم استكرهوه على ذلك، فأبدوا طاعتهم له، وندمهم على ما ظهر منهم، وأنهم تركوا الأمر لله ولرسوله، وأنهم على استعداد للتنازل عن رأيهم والعودة إلى رأيه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأَمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا».

واجتمع الجيش وتجهز، فقسم رسول الله ﷺ، المقاتلين إلى ثلاثة كتائب:

١ ـ كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها لمصعب بن عمير.

٢ ـ كتيبة الأوس: وتسلم لواءها أسيد بن حضير.

٣ ـ كتيبة الخزرج: وأخذ لواءها الحباب بن المنذر.

وكان عدد الجيش الإسلامي ما يقرب من ألف مقاتل، معهم مائة درع، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرس الزبير بن العوام.

وسأل الأنصار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ضد هؤلاء الأعداء فقال: «لا نستنصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فالكافر لا يمكن أن يقاتل بإخلاص إذ لا إيمان يدفعه، وهو عدو ظاهر للإسلام، وإنما يقاتل لمصلحة، فإن وجد في قتاله مصلحة في الغنيمة أو في شيء آخر جالد وإلا ترك ساحة المعركة وانصرف، وعندها يكون عامل إضعاف وخذلان، إذ يقع الوهن في صفوف المحاربين الآخرين، بل وربما يتعاون مع أهل الشرك ضد الإسلام، وأثناء احتدام المعركة يقلب ظهر المجن، وينتقل إلى صفوف الأعداء، وعندها تكون الطامة الكبرى كمن يستجير من الرمضاء بالنار، إذن لا يمكن الاستنصار بأهل الكفر أبداً، وخاصة إذا وجد المسلمون في أنفسهم الإمكانية التامة والروح المعنوية العالية والاستعداد لمجابهة الخصوم وهذا ما كان أثناء سير رسول الله ﷺ، لغزوة أحد، أما إذا وجد المسلمون في أنفسهم ضعفاً، وأمنوا أهل الكفر كلياً ـ وهذا لا يمكن ـ، ولم يكونوا في قتال لأهل مكة هؤلاء الكفار بالذات، فيمكن الاستعانة بهم مع بقاء الحذر، والقتال يكون متميزاً كل فريق يقاتل وحده.

استعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم، وانطلق بالجيش نحو العدو، وفي الطريق استعرض الجند فأجاز من أجاز، وأعاد من أعاد إلى المدينة إذ رأى في بعضهم سناً صغيراً لا تؤهلهم لخوض معركة قاسية تحتاج إلى صلابة في العود، ومراس على الصبر، وصبر على الشدة

وتحمل المشاق، إلا أن الروح الإيمانية كانت تدفع هؤلاء الشباب لطلب القتال حباً في الشهادة ورغبة في قتال أهل الباطل، فقال رافع بن خديج أحد هؤلاء الذين طلب منهم رسول الله العودة: يا رسول الله إني ماهر في الرمي، وشهد بذلك من يعرفه، فأجازه... وعندها قال سمرة بن جندب، وهو من الذين استصغرهم رسول الله: يا رسول الله، إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله المصارعة، فصرع سمرة رافعاً، فأجاز رسول الله سمرة أيضاً، وأعاد عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعمرو بن حزم.

وبات رسول الله ﷺ، ليلة مع المسلمين بين المدينة وأحد، وصلى هناك المغرب والعشاء. وقام خمسون من المسلمين بحراسة المعسكر ليلاً بإمرة محمد بن مسلمة، على حين تولى حراسة القيادة الخاصة برسول الله ذكوان بن عبد قيس.

وانطلق رسول الله بالجيش قبل الفجر، واقترب من العدو، وأدركته هناك صلاة الفجر، فصلى بالناس وعليهم السلاح، حيث كانوا على رؤية من العدو إذ يرى كل منهم الآخر. وفي هذه الساعة الحرجة انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس عن المسلمين يريد أن تضعف المعنويات، وينزل الوهن، ويحل الضعف، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فلحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري يطلب منهم العودة والانضمام إلى الجيش قائلاً لهم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عندما حضر عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، وأصروا على الانصراف، وعندها قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه. وهذا شأن المنافقين في كل زمان وفي كل ميدان، يسيرون مع من يرونه قوياً، فإذا أحسوا منه ضعفاً تركوه، ويكونون مع الحاكم ما دام يقبض على السلطة بيد قوية فإذا لاحظوا ضعف القبضة تراخوا في مساندته ودعمه، حتى إذا ضعف

تماماً انقلبوا عليه، وتركوه حتى يسقط، فإذا قام عهد جديد انتظروا حتى إذا لمسوا منه قوة ساروا معه، كما فعلوا مع سابقه. وقد لاحظ عبد الله بن أبي والمنافقون معه أن المشركين أكثر عدداً وأكثر عدة ومتاعاً، وهذا عندهم سبيل النصر، فخافوا أولاً على أنفسهم فانخذلوا، وفي الوقت نفسه ظنوا أنه سيكون لهم أياد بيضاء عند المشركين الذين سيكون النصر بجانبهم على هذا الانسحاب الذي جاء في الوقت المناسب، هذا مع ملاحظة الكراهية والحقد الذي في نفوسهم على المسلمين، وربما يكون خذلانهم سبباً في الانتهاء من المسلمين في المدينة على الأقل، وعودة الزعامة لرئيس المنافقين عبد الله بن أبي الذي كان مرشحاً لأن يكون ملكاً على يثرب، وما منع الأمر أن يتم له إلا انتشار الإسلام وهجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب، حيث أصبح سيدها، وحاز على درجة من المحبة من أهلها الذين أسلموا لا يحلم بها أحد. هذا ما أراده المنافقون وكادوا ينجحون إذ همّ بنو حارثة من الأوس، وهمّ بنو سلمة من الخزرج بالانسحاب والعودة إلى المدينة ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

ولكن الله أراد غير هذا، أراد أن يميز الخبيث من الطيب، وأن يصفي صفوف المؤمنين من كل شائبة حتى تبقى صفوفاً نقية سليمة مؤمنة، خارجة لله، تقاتل في سبيله، لا تبغي عرضاً من أعراض الدنيا، ولا تختلف أثناء القتال، ولا تفترق ساعة المعركة. وبعد هذا الانشقاق وقع خلاف بين المسلمين حياله، ففريق يرى أنه يجب تأديب هؤلاء المتمردين الذين لا يختلفون كثيراً عن أعدائهم الذين أمامهم، فما انسحابهم إلا مناصرة لهؤلاء الأعداء ودعماً وتقوية، وفريق آخر يرى إهمالهم وترك أمرهم لله، لأن في قتالهم خوفاً على المسلمين من أن يقعوا بين نارين نار المنافقين من جهة، ونار المشركين من جهة ثانية، وربما كان هذا هو هدف المنافقين في انسحابهم، إذ أن عدد المنافقين ليس قليلاً حيث يقدرون بنصف عدد المسلمين، وما إن يرى المشركون المسلمين قد بدأوا بقتال المنافقين حتى

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

يعملوا فيهم السيف. وإذا لم يحدث هذا مع احتماله الكبير، فإن قتال المسلمين للمنافقين يضعفهم بأن يقلل من عددهم، وينهكهم في القتال، وعندها يصبحون لقمة سهلة الابتلاع عند المشركين، وكان رسول الله ﷺ، يرى هذا الرأي الأخير، وما دام المسلمون قد بقوا كتلة واحدة من الإيمان فلم يمكن أن يصدروا عن غير رأي رسولهم الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾[(١)].

سار رسول الله ﷺ، بأصحابه نحو جبل أحد، وقد سار في طريق يوصلهم إلى الجبل من غير أن يمروا على معسكر قريش الموجود في وادي قناة منذ وصولهم إلى ذلك المكان قبل خروج المسلمين من المدينة، وكان دليلهم في هذه الطريق أبو خيثمة أحد الأنصار من الخزرج، ورغبة رسول الله بالوصول إلى (أحد) كي يحمي ظهره بالجبل، وقطع المسلمون وادي قناة حتى إذا وصل إلى فم الشعب من جبل أحد عسكر هناك في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره إلى الجبل، وكان قد بقي عدد المسلمين سبعمائة مقاتل يقابلهم ثلاثة آلاف من قريش وأحلافها.

بدأ رسول الله ﷺ، في تعبئة الجيش للقتال، فاختار من عسكره خمسين مقاتلاً، وضعهم على جبل الرماة بإمرة عبد الله بن جبير، وأمرهم بأن ينضحوا المشركين بالنبل، وألا يغادروا أمكنتهم مهما كانت النتائج سواء انتصر المسلمون أم هُزموا، وذلك خشية أن يلتفّ المشركون على المسلمين من وراء الجبل، فإن لدى المشركين قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل تسهل عليهم الحركة والالتفاف، فقال مخاطباً عبد الله بن جبير: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك». ثم رتّب باقي الجند صفوفاً وهيأهم للقتال، وقال لهم: «ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٧.

إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده». وجعل في مقدمة صفوف المسلمين: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن جحش، وأبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، ومصعب بن عمير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأبا دجانة، وأنس بن النضر، والزبير بن العوام وهو الفارس الوحيد في صفوف المسلمين، والمقداد بن عمرو[1]. وقد أوكل رسول الله إلى الزبير والمقداد مهمة الصمود أمام خيل قريش التي يقودها خالد وعكرمة.

وأخرج رسول الله ﷺ سيفاً، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال منهم الزبير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة، فقال: أنا، وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، إذا كانت. فلما أخذ السيف من يد النبي، عليه الصلاة والسلام، أخرج عصابة حمراء، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين.

فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

وعندما انتهت تعبئة رسول الله للمسلمين قال لهم: «لا تبدؤوا حتى آمركم».

أما قريش فقد عبأت جيشها على شكل صفوف على غير عادتها وكان على الميمنة خالد بن الوليد، وهو على الخيل، وعلى الميسرة عكرمة بن

---

(١) وفي رواية: أن المقداد بن عمرو، رضي الله عنه، كان فارساً أيضاً.

أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أبو سفيان هو القائد العام للجيش، ويحمل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري. وقد اتجه أبو سفيان إلى حملة اللواء من بني عبد الدار فحرضهم على القتال قائلاً لهم: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به، وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.

وكانت نسوة قريش خلف الرجال يضربن بالدفوف ويحرضنهم على القتال، ومنهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة، وبرزة بنت مسعود زوج صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد زوج الحارث بن هشام وهي أخت خالد بن الوليد، وريطة بنت منبه بن الحجاج زوج عمرو بن العاص، وخناس بنت مالك أم أبي عزيز بن عمير، وهي أم مصعب بن عمير، وسلافة بنت سعد زوج طلحة بن أبي طلحة، أي أن النسوة كن نساء زعماء قريش.

وكان أبو عامر الفاسق عبد عمرو بن صيفي أحد زعماء الأوس قبل الإسلام، فلما انتشر الإسلام في المدينة شعر هذا الفاسق أن أمره قد ضعف. فذهب مغاضباً إلى قريش مع عدد من أتباعه يحرضهم على قتال المسلمين، ويعدهم أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما كان يوم أحد، ووصلت قريش إلى مكان معسكرها قام هذا الفاسق بحفر بعض الحفر وتغطيتها ليقع فيها أبطال المسلمين. ولما التقى الجمعان كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش، وعبدان أهل مكة، ومن معه من الأوس الذين خرجوا معه مغاضبين قومهم. وعددهم مختلف فيه بين الخمسة عشر والخمسين رجلاً، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية بالراهب، فسماه رسول الله بالفاسق. فلما سمعهم وما قالوا، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ولقد قاتل هذا الفاسق قتالاً شديداً، وكان يرمي المسلمين بالحجارة.

وطلب أبو سفيان قائد جيش قريش من الأنصار التخلي عن محمد فهو دخيل عليهم، وأنه من قريش فهم أولى به، وأن قريشاً لم تأت لتقاتل أهل المدينة، إنما أتت لقتال قومها الذين جاؤوا إلى المدينة دخلاء. إلا أن الأنصار ردوا عليه رداً عنيفاً، وأسمعوه ما أغاظه.

كان جيش مكة بين معسكر المسلمين والمدينة، وفي مكان أدنى من جيش المدينة إذ كان في وسط وادي قناة على حين كان جيش المسلمين على العدوة الشمالية للوادي في السفوح الجنوبية لجبل أحد.

بدأت المعركة بهجوم من قبل ميمنة جيش مكة بقيادة (أبو عامر الفاسق) تساندهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد على ميسرة جيش المسلمين، إلا أن الرماة الذين على الجبل قد نضحوا الخيل بالنبال فتراجعت، وتقهقرت أمام الزبير ومن معه... وتكرر الهجوم مرات ثلاثة على هذا الجانب وما اختلفت النتيجة في المرات الثلاثة، هذا خالد بن الوليد الذي عرف عنه أنه ما تراجع أمام عدو، ولم يتراجع فعلاً أمام باطل ولكنه تقهقر هنا لأنه أمام حق، فالحق أقوى من أن يقف أمامه باطل خالد وغير خالد.

وقام المسلمون بهجوم معاكس، وركزوا هجومهم على حملة اللواء، فاللواء عنوان النصر أو الهزيمة، وطلب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة المبارزة فتقدم إليه الزبير بن العوام، وعاجله بطعنة قبل أن ينزل عن جمله، ووثب حتى صار معه على الجمل، ورماه، وبرك فوقه، واحتز رأسه بالسيف. وأخذ لواء المشركين أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة بعد أخيه، فقتله حمزة بن عبد المطلب، فرفع اللواء أخوهما الثالث أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فقتله، فأخذ الراية القرشية مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن الأقلح فقتله، فأخذها أخوه كلاب فقتله الزبير بن العوام، فرفعها الجلاس أخوهما فطعنه طلحة بن عبيد الله فقتله، وتتالى أبناء عبد الدار يرفعون اللواء حتى قتلوا جميعاً وعددهم عشرة أفراد يعدون من أبطال قريش المشهورين، وأخذه بعدهم رجل قاتل أفضل منهم حتى قُتل، وسقط اللواء، وديس بالأقدام، واندفع المسلمون اندفاع رجل واحد، وتسابق حمزة، وأبو دجانة في حصد الأعداء، وهزم

المشركون ـ بإذن الله ـ على كثرتهم، إذ كان كل واحد من المسلمين يقابل أكثر من أربعة من المشركين، ومع ذلك فقد ولّت قريش الأدبار، لا تعي على شيء، وبدت المعركة أنها قد انتهت.

وفي هذه الأثناء بينما كان حمزة بن عبد المطلب يحصد في القوم إذ جاءته حربة من وحشي، عبد جبير بن مطعم، وقعت في ثنته[1] وخرجت من بين رجليه، فوقع، ومات، رضي الله عنه. وقد حدث وحشي نفسه بعد إسلامه عن قتل حمزة فقال: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير إن قتلت حمزة عم محمد بعمي، فأنت عتيق، قال فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هداً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له، أريده واستتر منه بشجرة أو حجر، ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إليّ يا ابن مقطعة البظور. قال فضربه ضربة ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته، وأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق[2].

---

(١) الثنة: ما بين أسفل البطن إلى العانة.

(٢) أعتق وحشي عندما عاد إلى مكة، وأقام بها حتى فتحها رسول الله ﷺ، فهرب إلى الطائف، فمكث بها حتى أسلمت، وتحير إلى أين يذهب، ثم قدم على رسول الله ﷺ بمكة وتشهد أمامه شهادة الحق، وحدثه عن قتله حمزة بناء على طلب رسول الله ﷺ، ثم قال له: «ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك»، فكان يحرص ألا يراه. ولما خرج المسلمون إلى اليمامة لقتال المرتدين، خرج وحشي معهم، وقتل مسيلمة الكذاب بالحربة نفسها التي قتل فيها حمزة، فكان يقول: قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلت شر الناس. وبقي حتى أيام معاوية بن أبي سفيان بحمص، وكان مدمناً على الخمر، وحدّ عليها كثيراً حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي تقول له: ويها أبا دسمة اشف غليلي. وعندما مرت هند على جثة حمزة بقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها. وأعطت وحشياً خذمها وحليها. وعلَت يومذاك على صخرة مشرفة بعد انتهاء المعركة وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة[1] لي من صبر ... ولا أخي[2] وعمه[3] وبكري[4]
شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي علي عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري

وقتل من المسلمين في هذه الأثناء مصعب بن عمير، حامل لواء المسلمين، وقد قتله ابن قميئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً، وتسلم لواء المسلمين بعده علي بن أبي طالب.

أما أبو دجانة فقد كان أيضاً يحصد في جيش المشركين، والتقى أثناء عمله هذا ببطل يرتدي لباس الميدان فرفع عليه السيف يريد حصاده، فإذا بها امرأة إذ رفعت صوتها مولولة عندما رأت الموت يدنو منها، فرفع السيف عنها، فإذا بها هند بنت عتبة. يقول أبو دجانة: رأيت يوم أحد إنساناً يحمس الناس حماسة شديدة فصمدت له، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة، وكانت المرأة هند بنت عتبة.

ولما بدت المعركة أنها قد انتهت وولّى المشركون الأدبار، وركب المسلمون ظهورهم يعملون فيهم قتلاً وأسراً وغنيمة، وراية قريش قد ألقيت على الأرض تدوسها الأقدام، عندها رأى بعض أفراد رماة المسلمين الذين

---

(١) عتبة بن ربيعة: أبو هند وقد قتل يوم بدر بالمبارزة، وطعنه عبيدة بن الحارث وعاونه حمزة وعلي بالإجهاز عليه.

(٢) أخوها الوليد بن عتبة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله علي بن أبي طالب.

(٣) عمه: عم أخيها أي شيبة بن ربيعة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله حمزة بن عبد المطلب.

(٤) بكرها: حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر.

يرابطون في الجبل أن ينزلوا من مكانهم الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ، ليشاركوا إخوانهم في مطاردة أعدائهم، وليجمعوا الغنائم المبعثرة على الأرض، فإن القتال قد انتهى حسبما رأوا، وإن النفس قد بدأت تفكر بالغنيمة. ولكن قائد الرماة عبد الله بن جبير كان يرى غير هذا الرأي، إذ كان يرى أن يبقى في مكانه لا يحيد عنه، وقد وضعه فيه رسول الله، وتعاليم رسول الله يجب أن تنفذ حرفياً، ولهذا أصر على البقاء حتى تأتيه تعاليم رسول الله، وأمام هذا الإصرار تمرد أكثر الرماة على قائدهم، وتركوا مواقعهم، والتحقوا بالجيش يعملون في جمع الغنائم. وبهذا انكشفت مؤخرة المسلمين إذ لم يبق على الجبل سوى عشرة رماة مع قائدهم، واهتبل قائد ميمنة قريش خالد بن الوليد قائد الفرسان هذا النزول، فأسرع بخيله، وارتقى الجبل من الخلف، وقتل من عليه ممن بقي من الرماة بعد أن قاتلوا بضراوة ولكنهم عشرة أمام مائتين من الفرسان فقتلوا كلهم وقائدهم عبد الله بن جبير. وأصبح المسلمون بين نارين، إذ نزل خالد بن الوليد من خلفهم بخيله بعد أن قضى على الرماة، والتفت المشركون ورأوا ما حدث، وقد سمعوا صياح خالد، فانقلبوا وقاموا بهجوم معاكس، وأسرعت إحدى النساء القرشيات من اللواتي كن مع القوم، وهي عمرة الحارثية، فرفعت اللواء، وتنادت قريش، وقد رأت لواءها قد رفع، وعاد المنهزمون، وبدأت المعركة من جديد... وفقد المسلمون تنظيمهم، وعمت بينهم الفوضى، وبدأ بعضهم يقتل بعضاً، وخاصة عندما ارتفع صياح ابن قميئة قتلت محمداً. فرسول الله قائد المعركة وعنوانها، وقتل القائد بداية الهزيمة، وقد قتل اليمان (حسيل بن جابر) والد حذيفة بيد المسلمين، ولم ينتبهوا إلى أنفسهم، حتى قال حذيفة: أبي أبي، فعرفوا أن بعضهم يقتل بعضاً، ولكن اليمان كان قد قتل.

كان المسلمون ساعة التفاف خالد من الخلف على شكل تجمعات. فجماعة صغيرة مع رسول الله ﷺ، لا تفارقه، وتعد هيئة الأركان. وجماعة أخرى صغيرة أيضاً لم تبتعد في مطاردة العدو، والجماعة الثالثة ـ وهي أكثرية الجيش ـ قد استمرت في ملاحقة العدو، واحتلت مقر قيادته،

واستولت على ما فيه، فعندما جاء خالد من الخلف، وقعت هذه الجماعة بين نارين فطوقت، وقتل عدد منها، حتى انهزم بعضها نحو المدينة، وفكر بعضها الآخر في الاستسلام، ولكن شجّع بعضهم بعضاً، ورغبوا في الشهادة، ومن هؤلاء أنس بن النضر إذ قال لهم: مالكم هكذا؟ فقالوا له: قتل رسول الله ﷺ، فقال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. واستقبل المشركين بسيفه، وظل يقاتل، وهو يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (المشركون)، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء (المسلمون)، واستمر في جهاده حتى استشهد، ومنهم ثابت بن الدحداح الذي استشهد مع جماعة من قومه استبسلوا في القتال. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

كان رسول الله ﷺ، يراقب الموقف بشكل جيد، ولما رأى ماراٰى من هزيمة المسلمين، وانخفاض الروح المعنوية، وجد أنه من الضروري بمكان أن يعلن عن مكان وجوده مع ما في ذلك من مخاطرة على نفسه إذ أنه هو الهدف لا بصفته القائد فحسب وإنما بصفته صاحب الدعوة. فإن هذا الإعلان يؤدي إلى:

١ـ تجمع الناس غير المطوقين حوله، ويستطيع أن يقوم بهم بهجوم معاكس يجعل جماعة خالد محصورة بين نارين.

٢ـ ارتفاع الروح المعنوية عند الناس المطوقين، فيقاتلون بحماسةٍ عندما يعلمون أن نبيهم لا يزال على قيد الحياة، وأن المعركة لا تزال قائمة.

٣ـ اتجاه عدد من المقاتلين المشركين نحو المكان الذي فيه رسول الله ﷺ، حيث هو الهدف الأول من المعركة الأمر الذي يخفف الضغط عن المسلمين المطوقين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

وتترس رسول الله ﷺ، بسفح جبل أحد، وبدأ ينادي بأعلى صوته: «هلموا إلي أنا رسول الله». قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[1] وما أن سمع المسلمون صوت نبيهم حتى اطمأنت نفوسهم، وارتفعت معنويات المقاتلين المطوقين، واستطاعوا شق طريقهم عبر صفوف أعدائهم غير مبالين بما يصيبهم، ووصلوا إلى رسول الله ﷺ، كما تجمع حوله أولئك المبعثرون من المسلمين، والتف الجميع حول قيادتهم من جديد، وكذلك فقد اتجهت جموع المشركين نحو مركز قيادة رسول الله ﷺ، إذ عرفوا مكانه، وأصبح هدفهم القائد والتجمع الجديد. ودارت المعركة مرة أخرى وبشكل أشد عنفاً وأكثر ضراوة، وكان الهدف الرئيسي رسول الله ﷺ، فتترس المسلمون أمامه، وجعلوا حوله سوراً من الأبطال، وقاتلوا دونه، ومن هؤلاء الأبطال سعد بن أبي وقاص الذي دافع بسهامه هو وأبو طلحة زيد بن سهل، وسهل بن حنيف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو دجانة الذي جعل ظهره هدفاً لسهام المشركين من أجل أن يحمي رسول الله ﷺ، وحاطب بن أبي بلتعة الذي انتقم من عتبة بن أبي وقاص عندما ضرب رسول الله ﷺ، بحجر فكسر رباعيته، فقتل حاطب عتبة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر الصديق، وعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وقتادة بن النعمان، ونسيبة بنت كعب وغيرهم وقد حمل على رسول الله ﷺ، أحد فرسان المشركين ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير، وقد ضربه بسيفه ضربة قوية ذهبت في درع رسول الله ﷺ، وآذته، وضربه ضربة أخرى فدخلت حلقتان من حلق مغفر رسول الله ﷺ، في وجهه فجرح من أثرها في وجنته الشريفة، وبدأ الدم الشريف يسيل، وشجّه في وجهه عبد الله بن شهاب الزهري، وضربه عتبة بن أبي وقاص بحجر فكسرت رباعيته السفلى، وانشقت شفته، ووقع في حفرة فجرحت ركبتاه، وأغمي عليه، فأخذ بيده علي بن أبي طالب،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

ورفعه طلحة بن عبيد الله. وعندما سال الدم على وجهه الشريف أخذ رسول الله ﷺ يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

لاحظ رسول الله ﷺ قلة جنده، فأراد أن ينقذهم من خطر الإحاطة بهم، فلما اجتمع حوله، انسحب بهم عبر الشعب إلى الجبل الذي ما اختار رسول الله ﷺ، مكان المعركة إلا ليستفيد منه في مثل هذه الساعة، وكان الانسحاب منظماً بحيث تنسحب جماعة جمعهم تحت حماية مجموعة مقاتلة، وهجم أحد المشركين وهو أبي بن خلف الجمحي على رسول الله ﷺ، فوقف له النبي ﷺ، وقذفه بحربة قبل أن يصل إليه فأرداه قتيلاً، وهو الرجل الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ، بيده الكريمة، وارتقى المسلمون هضبة عالية في جبل أحد فتحصنوا بها، وصدوا جميع المحاولات التي قام بها المشركون للقضاء على رسول الله ﷺ، والمسلمين الذين معه، لأنهم كانوا في مكان حصين يستطيعون منه بالنبال صد أي هجوم. وصعد رسول الله ﷺ، على صخرة ليشرف منها على تحرك المشركين، ولكنه لم يستطع الارتقاء إلا على ظهر طلحة بن عبيد الله لما أصابه من إعياء وتعب، وطلب الماء، فأتاه علي بن أبي طالب ببعض الماء فغسل به وجهه لأنه لم يكن صالحاً، ثم جاءه محمد بن مسلمة بماء عذب فشرب منه، وصلى قاعداً للسبب نفسه.

ثم قام المشركون بآخر هجوم بقيادة أبي سفيان وخالد بن الوليد إلا أن رماة المسلمين وخاصة سعد بن أبي وقاص قد ردوهم على أعقابهم خاسرين، وقاد الدفاع عمر بن الخطاب. ولما فشل هذا الهجوم القرشي يئس المشركون من أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وكان التعب قد أضناهم، والإعياء قد أنهكهم، لما وجدوه من ضراوة قتال الصحابة وشدة بأسهم عليهم وبصورة خاصة في بدء المعركة عندما كانت الجولة للمسلمين. ولهذا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

قرر أبو سفيان ـ القائد العام لجيش قريش ـ إنهاء القتال.

أمر أبو سفيان الجند بالتهيؤ للرحيل، ولما تم ذلك، ارتقى على تلةٍ قريبة من المسلمين وقال: أنعمت فعال. ثم خاطب المسلمين قائلاً: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسر. ثم قال: اعلُ هبل. فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب قائلاً: «قم يا عمر فأجبه» فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: العزى لنا ولا عزى لكم، فأجابه المسلمون حسب أوامر رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال منادياً المسلمين بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. ثم نادى: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوا.

ثم نادى: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة. ولما يجبه أحد، التفت إلى جيش قريش، وقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، أي قتلوا. ولكن عمر بن الخطاب لم يملك نفسه من أن يجيب عندما سمع أبا سفيان وقوله لجنده، فأجابه: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك. فلما سمع أبو سفيان صوت عمر، طلب مقابلته، فقال: هلم إلي يا عمر. فأمر رسول الله ﷺ، عمر أن يستجيب ويلبي... فلما التقيا، قال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر.

ثم وقف أبو سفيان مرة أخرى على التلة وخاطب المسلمين قائلاً: إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت.

ولما انصرفت قريش نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام القابل؛ فقال رسول الله ﷺ، لرجل من أصحابه: «قل لهم: هو بيننا وبينكم موعد».

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: «اخرج في آثار

القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم». ولما خرج علي في أثرهم وجد أنهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل واتجهوا نحو مكة.

وبعد أن انصرفت قريش التفت المسلمون يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا أنظر لك يا رسول الله، ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ، أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ، عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف، ولم يلبث أن فارق سعد الحياة، ولم يغادره بعد محمد بن مسلمة.

وقد بلغ عدد خسائر المسلمين في معركة أحد ما يقرب من سبعين شهيداً أي عشر عدد المقاتلين، منهم أربعة فقط من المهاجرين، وهم: حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان المخزومي. أما عدد شهداء الأنصار فكان خمسة وستون شهيداً منهم أربعة وعشرون من الأوس، وواحد وأربعون من الخزرج، ومن أشهر شهداء الأوس، عمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، وحنظلة بن أبي عامر الذي كان أبوه أبو عامر الفاسق مع قريش، وقد كان حنظلة، رضي الله عنه، عروساً يوم الاستعداد للخروج إلى أحد فلما سمع صيحة الجهاد ترك عروسه، وحمل سلاحه، وخرج بسرعة، والتحق برسول الله ﷺ، ولم يغتسل من الجنابة، فلما استشهد، قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه؟» فقالت زوجه جميلة بنت أبي بن سلول: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، لذا

شُهر باسم (غسيل الملائكة). وقد التقى حنظلة هذا في ساحة المعركة أثناء احتدامها بأبي سفيان، قائد جيش المشركين، فعقر حنظلة فرس أبي سفيان فوقع أبو سفيان على الأرض فعلاه حنظلة، وبرك على صدره، وأراد أن يذبحه فلاحظ أحد مرافقي أبي سفيان هذا المنظر، وهو شداد بن الأسود المعروف بابن الشعوب، فأسرع لإنقاذ قائده، وضرب حنظلة بالسيف فقتله وهو فوق أبي سفيان، ومنهم عبد الله بن جبير أمير جماعة الرماة، ومن أشهر شهداء الخزرج: سعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وعمرو بن الجموح، وعبد لله بن عمرو بن حرام، أما عدد الجرحى فكان يزيد على المائة والخمسين جريحاً، ولم يقع أسرى من المسلمين بيد المشركين. أما عدد قتلى المشركين فكان اثنين وعشرين قتيلاً. ثم أمر رسول الله ﷺ، بدفن الشهداء بدمائهم في ثياب المعركة، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. وقد دفن أكثر من شهيد في قبر واحد، فقد دفن حمزة بن عبد المطلب، وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ودفن سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد في قبر واحد. وبلغ رسول الله ﷺ، أن بعض الناس قد نقلوا شهداءهم إلى المدينة، فأمر بأن يعادوا إلى مضاجعهم في مكان المعركة.

وكان بين صفوف المسلمين رجلان قاتلا معهم من غير إيمان، أحدهما يدعى قزمان وهو من أعراب المدينة، قاتل دفاعاً عن أرض المدينة كي لا تطأها قريش، وكان شجاعاً مقداماً، قتل أحد عشر بطلاً من أبطال المشركين، وكانت نتيجته أن انتحر بعد أن اشتد ألمه من كثرة الجراح، وكان من أهل النار، كما حدث رسول الله ﷺ، عندما سأل أحد المسلمين رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ، أيهم في سبيل الله الرجل يقاتل رياءً أم يقاتل حمية أم يقاتل شجاعة؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وكذلك قاتل بجانب المسلمين أحد اليهود، واسمه مخيريق، قاتل على ما قاتل عليه قزمان، وكره أن تصل قريش إلى المدينة، ورأى أن يدافع عن مدينته، وأن يشترك مع المسلمين في هذا الدفاع، تنفيذاً للموادعة التي بين يهود المدينة والمسلمين، ولم يوافق يهود

على اعتذارهم، بأن ذلك اليوم كان يوم السبت، وهو يوم عيدهم، ثم حمل سلاحه وقاتل يوم أحد مع المسلمين، وقتل، ولكنه من أهل النار، فالدفاع عن الأرض، وعن الجنس لا يغني شيئاً. وخرج مع المسلمين يوم أحد رجل من الأوس يدعى (الأصيرم) يقاتل في سبيل الله، وعلى عقيدة الإسلام، ولم يكن قبلها مسلماً، بل يكره ذلك، ويعيب على قومه اتّباع محمد ﷺ، وأصيب يوم أحد، ومات، وكان في عداد الشهداء على حين أنه لم يصل ولم يصم.

ولما انتهى المسلمون من دفن موتاهم تحركوا نحو المدينة، وخرج من فيها لاستقبالهم والسؤال عنهم، وكان من بين من خرج امرأة من بني دينار تسأل عن رسول الله ﷺ، وأهلها، فنعي إليها أبوها وأخوها وابنها وزوجها فلم تكترث، وسألت عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: بخير، فقالت: أرونيه، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل. والتقى رسول الله ﷺ، في طريقه بحمنة بنت جحش فقال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ فقال: «خالك حمزة»، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. فقال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ قال: «أخاك عبد الله بن جحش»، قالت: وإنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. ثم قال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ فقال لها: «زوجك مصعب بن عمير». فقالت: واحزناه، وصاحت وولولت، ثم قال لها: «لم قلت هذا»؟ قالت: تذكرت يتم بنيه، فراعني. فدعا لها رسول الله ﷺ. ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ، أم سعد بن معاذ سيد الأنصار، وكان يركب فرسه وابنها سعد آخذ بلجامها. فقال سعد: أمي يا رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً بها»، فلما اقتربت منه عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد هانت مصيبتي. فدعا لها رسول الله ﷺ، وقال لها: «أبشري وبشّري أهلهم أن قتلاهم ترافقهم في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً»، بعد أن دعا لأهلهم.

وكانت من عادة العرب أن تنوح النساء على القتلى، وقد ارتجت

المدينة بأصوات الباكيات النائحات، ومرّ رسول الله ﷺ، على دور بني عبد الأشهل، فسمع نواح النساء، ولكن حمزة لا بواكي له... فأمر سعد بن معاذ أن يبكين على حمزة ففعلن، فقال لهن رسول الله ﷺ: «ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن»، ثم نهى رسول الله ﷺ، عن النياحة أبداً بعدئذ.

لقد كانت معركة أحد نصراً اسمياً لقريش إذ استطاعت أن تقتل سبعين رجلاً من المسلمين، وأن تحصر جماعة منهم، وأن تعمل فيهم السيف، كما أنها حاصرت المسلمين في مكان من الجبل، إلا أن هذا كله لا يعد نصراً في الاعتبارات العسكرية إذ لا تعد الانتصارات بعدد الضحايا من الخصم، وإنما بالنتائج فلو أن جيشاً استطاع أن يهزم عدوه في معركة، ويتقدم حتى يحصره في قلعة يتحصن بها، ثم لا يستطيع أن يقتحمها عليه، ولا يبقى محاصراً، وإنما يضطر إلى مغادرة ميدان المعركة بسرعة، دون أن يحقق شيئاً، هل نعد هذا نصراً؟ وقال قائدها: الحرب سجال يوم بيوم، ثم انسحب مسرعاً لم ينسحب ليدخل عاصمة عدوه المكشوفة الخالية من أي مقاتل، ولكنه انسحب فراراً إذ قطع في اليوم الأول أكثر من ستين كيلو متراً ليبتعد عن المكان الذي يسيطر عليه المسلمون خائفاً منهم، فقد لقي منهم في المعركة شدة لم يعهدها من غيرهم، وكان بينه وبين الموت لحظة إذ عقر حنظلة بن أبي عامر فرسه، وألقاه على الأرض وبرك فوقه يريد ذبحه، حتى أيقن أبو سفيان بالهلاك ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئة إذ ضُرب حنظلة بالسيف فمات ونجا أبو سفيان. وكذلك عدّ المنافقون واليهود والأعراب الذين من حول المدينة أن معركة أحد كانت نصراً اسمياً لقريش شماتة وحقداً. أما المسلمون فقد عدّوها نصراً لهم أيضاً، فقد انتصروا في بداية المعركة وأعملوا السيف في خصومهم، كما فعل أعداؤهم في نهاية المعركة، وصمدوا ثانياً لقريش صموداً قوياً حتى أنها لم تستطع أن تزيلهم عن مواقعهم التي تحصنوا فيها، ولا أن تتقدم إليهم، ثم فرّت قريش من ميدان المعركة فراراً، لا انسحاباً تسير فيه ببطء تتبختر بنصرها، وتفتخر بالظفر الذي حصلت عليه. وهذا يدل على المعنويات الضعيفة بل المنهارة

التي كانت عند جند قريش لا على التعب، فلو كان التعب لفكرت قريش أن تأخذ شيئاً من الراحة قريباً من ساحة المعركة ما دامت لا تبالي بخصم، ولا تهتم بجيش المدينة، ولم تفكر قريش آنذاك بالتوجه نحو المدينة على حين فكر المسلمون بذلك، وتوقعه اليهود والمنافقون، وإنما كانت تفكر بالفرار مباشرة ولكن بعد أن قطعت مسافة، وأخذ أفرادها قسطاً من الراحة، وتنفسوا الهواء بطلاقة خطر على بالهم: أن لو دخلوا المدينة قاعدة المسلمين، وفعلوا فيها ما فعلوا أو ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا. ولاحظ المسلمون أن مدينتهم (بقيت كما هي لم تمس بأذى، ومعنوياتهم بقيت مرتفعة عالية، لم يستطع العدو أن يحطمها حسبما كان يتراءى له، وعندهم من القوة في نهاية المعركة ما يمكنهم من منازلة العدو مرة ثانية أو تجديد المعركة والبدء فيها من جديد، وهذا ما سنلاحظه، إذ عدّوا أنفسهم قد انتصروا، فلم يبالوا باليهود، وأجلوا قبيلة أخرى من يهود غير مبالين بهم ولا بحلفائهم، كما دخلوها من غير اهتمام بالمنافقين الذين انخذلوا عنهم ، ولا بالأعراب الذين حول المدينة والذين كانوا من وراء المنافقين أيضاً بل عادوا ليهدّدوهم وليتلوا عليهم القرآن الذي يتوعدهم، وينذرهم والكفار من أهل الكتاب والمشركين من قريش وغيرها من الأعراب بنار جهنم والعذاب في الدنيا والآخرة. وعادوا إلى المدينة ليلاحقوا قريشاً ولينازلوها من جديد، ومع هذا فقد عدّت أحد هزيمة لسببين:

أولاً ـ لكثرة عدد الضحايا التي فقدت في المعركة، وبينهم عدد من صناديد القتال أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وغيرهم، كما فقد حامل اللواء مصعب بن عمير، مقرئ المدينة، وحامل لواء الدعوة فيها قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

ثانياً ـ لما أصيب به رسول الله ﷺ، من جروح وكسور وتعب وإنهاك، وكان هذا أصعب شيء عليهم في الدنيا، وهذا ما أغمّهم، وأبقى أثراً كبيراً في النفوس، وكلما تذكروا ذلك شعروا أن المعركة لم تكن في

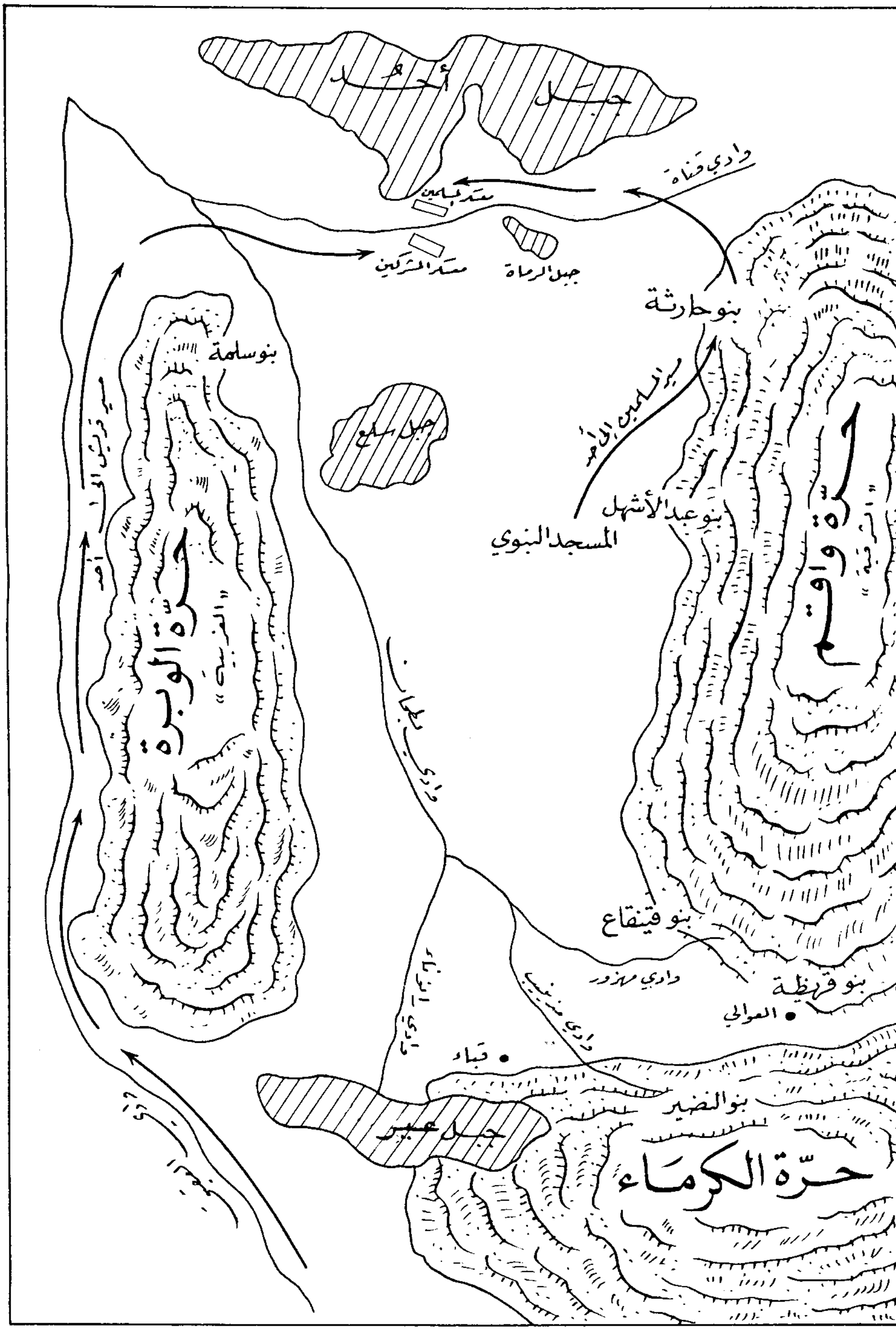
جبل أحد
وادي قناة
معسكر المسلمين
معسكر المشركين
جبل الرماة
بنو حارثة
بنو سلمة
جبل سلع
سير المسلمين إلى أحد
بنو عبد الأشهل
المسجد النبوي
حرة واقم
الشرقية
حرة الوبرة
الغربية
سير قريش إلى أحد
وادي بطحان
بنو قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
العوالي
وادي مذينيب
قباء
بنو النضير
جبل عير
حرّة الكرماء

صالحهم، وشعروا بالضيق، فلهذا لم يعدّوا غزوة أحد لصالح المسلمين.
ويجب ألا ننسى أبداً أن المسلمين لم يبالوا بعدد قريش الكبير ولا بانسحاب المنافقين وانخذالهم عنهم، وبقائهم قلة، ولا بيهود الذين في المدينة مع أن قوات المسلمين خارجها، وكذلك لم يبالوا بعدد قريش وكثرتهم عندما لاحقوهم إلى حمراء الأسد مع أن عدد المسلمين قد قلّ بما فقدوه، ولم يقبل رسول الله ﷺ، أن يخرج في هذه الملاحقة إلا من كان يوم أحد. كل هذه الأشياء من ملاحقة قريش، وإجلاء يهود بني النضير، والتصدي للمنافقين، لا يدل على فعل المنهزم الذليل، وإنما يدل على عمل المنتصر المعتز بعقيدته الذي يشعر أنه هو الأعلى ما دام متمسكاً بإيمانه.

غزوة حمراء الأسد:

أراد رسول الله ﷺ، أن يرد على يهود والمنافقين والأعراب ردّاً عملياً يبين أن المسلمين يتمتعون بروح معنوية عالية، وأن بإمكانهم المحافظة على كيانهم، والحماية للمدينة، والرد على كل من تحدّثه نفسه بإلحاق أذى بالمسلمين، وأراد أن يكون هذا الرد هو الخروج بالمسلمين ومطاردة قريش.

عاد المسلمون من أحد مساء السبت الخامس عشر من شوال في السنة الثالثة للهجرة، وما إن أصبح الصباح وخرج الناس من صلاة الفجر إلا وأذن مؤذن رسول الله ﷺ، بالتهيؤ على جناح السرعة لمطاردة العدو، وألا يخرج مع الناس إلا من شهد أحداً، فاستجاب الناس لنداء رسول الله ﷺ، مع ما بهم من جراحات وتعب، وكان في مقدمتهم رسول الله ﷺ، ولم يسمح لعبد الله بن أبي بالخروج معه، ولا لأحد لم يشهد أحداً إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الذي استشهد أبوه في أحد، وكان قد منعه من الاشتراك في بدر وأحد ليبقى عند أخواته البنات السبع برأي رسول الله ﷺ، وانطلق القوم بسرعة وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، ويحمل اللواء لواء أحد نفسه علي بن أبي طالب، واستعمل رسول الله ﷺ، على المدينة ابن أم مكتوم. ووصل المسلمون بقيادة

رسولهم الكريم إلى حمراء الأسد التي تبعد عن المدينة ثلاثة عشر كيلاً، حيث حطوا الرحال فيها. وقد أدهشت هذه الحركة اليهود والمنافقين لما فيها من جرأة وشجاعة، وعلموا فعلاً أن المسلمين لم يهزموا في أحد، وأن الروح المعنوية عندهم عالية، وإنهم لو هزموا لما عملوا على مطاردة قريش، وأن حالتهم لو كانت ضعيفة لما تحركوا بهذه السرعة، ولما كان تجاوبهم بهذه الحالة، ولو كان عندهم شيء من الخوف لما غادروا المدينة بهذه الصورة.

وفي الوقت نفسه كانت قريش قد حطت الرحال في منطقة الروحاء التي تبعد عن المدينة ثمانية وأربعين كيلاً وفي مكان غير بعيد عن حمراء الأسد التي نزل فيها المسلمون، وفي الروحاء وبعد أن أخذ جند قريش قسطاً من الراحة بدؤوا يتساءلون، إذا كانت هزيمة المسلمين في أحد كبيرة، كما تتبجح قادة قريش، فلماذا لم نتوجه إلى المدينة، ونقضي على من فيها، ونأخذ السبايا منها؟ وما دمنا قد حصلنا على النصر الكبير الأكيد فلماذا لا نرجع الآن إلى المدينة ونقضي على الجيش المدني الذي وصل إليها مثقلاً بالجراح، منهكاً بالتعب فنقضي عليه نهائياً؟ ولكن القادة يعرفون تمام المعرفة أن نصرهم كان اسمياً، وأن الخوف يملأ قلوبهم، وخاصة أبا سفيان القائد العام وصفوان بن أمية قائد المشاة، وبدأت المناقشة حول العودة، وبينما هم كذلك إذ فاجأتهم الأخبار بأن المسلمين بقيادة النبي الكريم يطاردونهم وقد نزلوا حمراء الأسد فأخذ الخوف من قريش كل مأخذ إذ اعتقدت أن محمداً ﷺ، قد جاء بمدد من المدينة وعمل على مطاردتهم، وزاد الأمر عندهم يقيناً عندما جاء معبد الخزاعي، وقال لهم: إن محمداً مصر على منازلتهم، وأن معه قوة لم ير مثلها من قبل، وأنه من الأفضل لقريش أن تتابع الانسحاب إلى مكة.

خاف أبو سفيان أن تذهب سمعة النصر المزيف الذي حققه عندما تسمع القبائل أن المسلمين قد طاردوه لمنازلته ولكنه خشي لقاءهم، ففر من وجههم، لذا فقد بقي قليلاً في (الروحاء) يتظاهر بالثبات، وإن كان قد

رغب ألا يلحقه المسلمون فيظهر للملأ أنهم على خوف من جيش أبي سفيان بسبب هزيمتهم، وينسحبوا إلى المدينة بالتهديد، ويبقى هو في مكانه، وعندها تزداد قوة النصر المزيف.

ووجد الفرصة مناسبة له إذ رأى جماعة من بني عبد القيس يتجهون إلى المدينة فحملهم رسالة إلى محمد ﷺ، مفادها أن قريشاً قد وافقت على النزال بل أصرت عليه، وأنها سائرة إلى حيث يعسكر في حمراء الأسد. وعندما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، رغب في هذا اللقاء، ومكث ينتظر قدوم قريش، ويوقد النار طوال الليل ليؤكد على بقائه، ويعلم عن موقعه ومكث ثلاثة أيام على هذه الحال، إلا أن قريشاً عندما لاحظت إصرار المسلمين على القتال، وعدم خوفهم علمت قوتهم وارتفاع معنوياتهم فخافت مغبة الأمر، وخاصة القادة منها، ففضلوا الانسحاب وعدم اللقاء، وتابعوا المسير نحو مكة، وبعد أن سارت قريش آيبة إلى بلدها رجع رسول الله ﷺ، إلى المدينة وقد حقق ما خرج من أجله في إظهار قوة المسلمين وقدرتهم على القتال على الرغم مما يشيعه اليهود والمنافقون في المدينة من هزيمة المسلمين في أحد، وأنهم قد غدوا جماعة ضعيفة لا تستطيع حماية نفسها والمحافظة على كيانها.

يوم الرجيع:

وظن الأعراب كما ظن اليهود والمنافقون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة إلا بعد مدة من الزمن لذا طمعوا في المدينة ولكن أنى لهم هذا، وقتال المسلمين يرعبهم، ونزالهم يقطع القلوب، لذا لجأ الأعراب إلى الخداع والحيل الرخيصة التي يلجأ إليها الجبان، والتي لا يقدم عليها إلا الوضيع، وجاء رجال قبيلة عضل ورجال قبيلة القارة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام فبعث رسول الله ﷺ، ستة من أصحابه وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وهو أمير القوم،

وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق. فخرجوا معهم، وساروا باتجاه مكة، حتى إذا صاروا على ماء الرجيع بين عسفان ومكة، غدر بهم رجال القبائل، إذ بينما هم على الماء مطمئنون انسحب رجال القبائل من بينهم، واستصرخوا رجال هذيل ليساعدوهم عليهم، وبينما المسلمون على حالهم إذ بأكثر من مائتي رامٍ يحيطون بهم وقالوا لهم: والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكمْ شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

أما مرثد، وعاصم، وخالد فقد قالوا: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا، أما الثلاثة الباقون فقد سلموا أيديهم لأعدائهم، فأسروهم، وساقوهم أمامهم. وأرادت هذيل أن تأخذ رأس عاصم لتبيعه لسلافة بنت سعد بن شهيد التي كانت قد نذرت حين قتل ولديها مسافع والجلاس ابني طلحة العبدريين، وقد حملا لواء المشركين يوم أحد، فرماهما عاصم، فكان الواحد منهما يأتي أمه سلافة، فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح. فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم، أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركاً أبداً، ولا يمسه مشرك. فحمته الدبر عندما أرادت هذيل أخذه، إذ تجمعت الدبر عليه بكثرة، فقالوا: ننتظر حتى يمسي، فما جاء المساء حتى جرى السيل في الوادي، واحتمل رأس عاصم.

وسارت هذيل ورجال القبائل بأسراها الثلاثة حتى إذا كانوا بالظهران عند الحديبية، نزع عبد الله بن طارق يديه من الحبل الذي يشدهما. وأخذ سيفه، فخافه القوم، وابتعدوا عنه، ورموه بالحجارة حتى قتلوه. ثم واصلوا السير بالأسيرين إلى مكة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا عند قريش. وقد ابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، وقد بعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ليقتله هناك،

والتنعيم خارج الحرم، في الحل، وخرج عدد من قريش ليحضروا هذا القتل، بينهم أبو سفيان بن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ماأحب محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتل رضي الله عنه.

وأما خبيب بن عدي فقد ابتاعه رجل يقال له حجير ليقتله بأحد أقربائه، فوضعه عند مولاة له يقال لها ماوية، فحدثت بعد أن أسلمت فقالت: كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً، وإن في يده لقطفاً من عنب، مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، وكذلك حدثت فقالت: قال في حين حضره القتل: ابعثي لي بحديدة أتطهر بها للقتل، قالت: فأعطيت ابني الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره، بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ، ثم خلّى سبيله. ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل، لا ستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل، ثم رفعوه على الخشبة، فلما شدّوا وثاقه، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قتلوه، رضي الله عنه. وكان معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض، فرقاً من دعوة خبيب.

بئر معونة:

وحدثت حادثة ثانية من الغدر تشبه الأولى، فقد أقبل على رسول الله ﷺ، في المدينة، في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة أي بعد أربعة أشهر من غزوة أحد أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد من الإسلام، إلا أنه قال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم، فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله ﷺ، أربعين رجلاً من أصحابه، وجعل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب الشرقي من المدينة بين حرة بني سليم ومنازل بني عامر، فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله ﷺ، إلى عامر بن الطفيل مع رجل منهم فلما سلمه الكتاب، قتله دون أن ينظر فيه، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فلم يطيعوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء في جواره؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصية، ورعل، وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا المسلمين، وأحاطوا بهم من كل جهة، فاستل المسلمون سيوفهم، وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً، لم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد، سقط جريحاً بين الموتى، ثم صحا بعد مدة، وسار حتى لحق بالمدينة، وشهد الخندق واستشهد فيها، كما نجا رجلان منهم، كانا يرعيان للقوم هما: عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد، ولم يعرفا مصرع القوم إلا من الطير، فاتجهوا نحو المكان، فإذا إخوانهم صرعى، وأعداؤهم لا يزالون في أماكنهم، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكني ما كنت لأرغب بنفسي من موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل، وأخذ عمرو أسيراً، ثم أطلقه عامر بن الطفيل، فوجد أثناء عودته رجلين من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فعدا عليهما، وقتلهما، ولم يعلم أن معهما عقداً من رسول الله، فلما وصل عمرو إلى رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر، دفع رسول الله ﷺ، ديتهما.

إجلاء بني النضير:

ووقعت حادثة غدر أخرى، ولكنها من سكان المدينة من يهود، الذين يحقدون على الإسلام وعلى رسوله الكريم، وهؤلاء يعلمون قوة المسلمين حق العلم لمجاورتهم إياهم، وكلما ظنوا أن أمرهم قد ضعف، وأنه آن ليهود أن تتحرك، وجدوا أن القوة لدى المسلمين كبيرة، وأنه ليس بإمكانهم فعل شيء، وأن عليهم أن يعودوا إلى جحورهم، يختبئون فيها، وأخيراً رأت فرقة منهم أن يغدروا برسول الله ﷺ، وخرج محمد، عليه الصلاة والسلام، إلى بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة يستعينهم في دفع دية ذينك الرجلين من بني عامر الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فوافق بنو النضير، وقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه، وكان رسول الله ﷺ، جالساً بجانب جدار لهم، فقال بعضهم لبعض: من يستطيع أن يعلو البيت، ويلقي صخرة على محمد، عليه الصلاة والسلام، فتعهد بذلك أحدهم، وهو: عمرو بن جحاش بن كعب، فصعد إلى السطح، وهمَّ بذلك. ولكن رسول الله قد أخبر بذلك من السماء، فترك مكانه من بين أصحابه الذين كانوا معه، متشاغلاً ببعض حاجته، ورجع إلى المدينة، فلما تأخر عن أصحابه، قاموا يسألون عنه، فالتقوا مع رجل قادم من المدينة، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ، قد دخلها، فلحقوا به، حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما كان من يهود ومحاولة الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ، الناس بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. ولما استعد الناس سار إليهم، واستعمل ابن أم مكتوم على المدينة، حتى إذا وصل إلى منازلهم تحصنوا بحصونهم، وكان عبد الله بن أبي كبير المنافقين، قد وعدهم بالنصر، وأمرهم بالثبات، وقال لهم: إن قوتلتم لنقاتلن معكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحداً وإنا لن نسلمكم أبداً، إذ كان بينهم حلف. وحاصرهم رسول الله ﷺ، ست ليالٍ وهم متحصنون في حصونهم، ثم أمر رسول الله بقطع النخيل وحرقه، فنادوه من وراء الحصون: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن

الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ واليهود أحرص الناس على الحياة وعلى الأموال. وقذف الله الرعب والخوف في نفوس المنافقين، فلم يجرؤوا على نصرتهم، وألقاه في قلوب يهود، فطلبوا من رسول الله ﷺ، أن يجليهم عن المدينة، ويكف عن دمائهم، على أن يكون لهم أخذ ما تحمله الإبل دون السلاح، فوافق رسول الله. فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من رحل إلى الشام. ومن أشرافهم الذين نزلوا بخيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوا فيها قدّمهم أهل خيبر عليهم، ودانوا لهم، وقسّم رسول الله ﷺ، أموالهم على المهاجرين الأولين دون الأنصار الذين لم يعط منهم سوى أبي دجانة، وسهل بن حنيف لفقرهما. وأنزل الله في حق بني النضير سورة الحشر كاملة. وهكذا لم يبق في المدينة من يهود سوى بني قريظة.

غزوة ذات الرقاع:

تأثر رسول الله ﷺ، مما حدث من الأعراب في ماء الرجيع، وبئر معونة، وما حدث من يهود بني النضير إذ كل منهم كان يفكر في أن يغتنم فرصة ما حلّ بالمسلمين في أحد، ويغدر ما يسمح له هواه من الغدر، فأجلى بني النضير، وأراد الالتفات إلى الأعراب، فجاءه خبر تجمع في نجد لغزو المدينة علناً من قبائل محارب، وثعلبة من غطفان، فسار في الناس إليهم بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، حتى إذا وصل إلى ذات الرقاع، وكان الفريقان قريبين بعضهما من بعض، فوجد رسول الله جموعاً غفيرة من غطفان، وخاف كل طرف من الآخر، فصلى رسول الله بالناس صلاة الخوف، ولم يحدث حرب بين الجانبين، ورجع رسول الله بالناس في جمادى الأولى. وفي هذه الغزوة حاول أحد جند بني محارب قتل رسول الله بعد أن طلب من رسول الله سيفه لينظر فيه، ولقد همّ بالفعل ولكنه لم يستطع، وردّ إلى رسول الله السيف. ولم يحدث قتال في هذه الغزوة إلا أنها أرهبت هؤلاء الأعراب، وأعلمتهم أن لدى المسلمين قوة كبيرة وأن لديهم معنوية عالية.

غزوة بني أسد:

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، بأن بني أسد بزعامة طليحة بن خويلد يتجمّعون لغزو المدينة، فأرسل لهم سرية قوامها مائة وخمسون راكباً من المهاجرين والأنصار بإمرة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، فسارت السرية في كتمان شديد، تتحرّك ليلاً وتكمن نهاراً، حتى فاجأت العدو قبل أن يتهيّأ، ففرّ بنو أسد، وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والأغنام وتعدّ بنو أسد من القبائل القوية الكبيرة في جزيرة العرب.

تأديب هذيل:

وجاءت الأخبار إلى المدينة أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع، ليقوم بالإغارة على المدينة، ولما كانت ديار هذيل قريبة من مكة، لم يكن من المصلحة إرسال غزو إلى تلك الديار النائية عن المدينة، والتي يمكن أن تجعل قريشاً وبني سليم وغيرها من القبائل تناصر هذيلاً، وبالتالي تكون النتيجة غير سليمة، ولكن لا بدّ من تأديب هذيل، لذا فقد أرسل رسول الله ﷺ، عبد الله بن أنيس ليستطلع الأمر، وإذا وجد الخبر صحيحاً، فعليه أن ينتهي من خالد بن سفيان المحرض على الحشد وصاحب الكلمة المسموعة هناك. وقد وجد عبد الله بن أنيس الجهني أن الخبر كان صحيحاً، وقد عرف حقيقة الأمور عن قرب، ففتك بخالد بن سفيان، وأراح المسلمين من الحركة.

وهكذا كان تأديب القبائل كل واحدة في موطنها الأمر الذي يدلّ على قوة المسلمين، وكان تأديب اليهود بإجلاء بني النضير عن ديارهم، ولم يبق إلا قريش العدو الأول، وكان العام قد استدار على أحد، وجاء الموعد المضروب من أبي سفيان للّقاء في بدر.

غزوة بدر الآخرة:

خرج أبو سفيان من مكة على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل،

وفي نفسه رغبة ألا يحدث هذا اللقاء الذي ينتظر نتيجته كثير من رجال القبائل والأعراب وأهل المدن، إذ قضت المدينة ومكة عاماً في الاستعداد له، وكان في خروج أبي سفيان محاولة لإخافة المسلمين وإرهابهم كي لا يخرجوا، فيكونوا هم الذين نكلوا عن الخروج، وقد بعث للغرض نفسه نعيم بن مسعود ليُخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريش وقوتها، وجعل له عشرين بعيراً إن أدّى هذه المهمة، ولم يخرج محمد، وقال له: إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا، فيزداد المسلمون جرأة، فلأن يكون الخُلف من قبلهم أحبّ إلي من أن يكون من قبلي، فالحقْ بالمدينة، وأعلمهم أنا في جمع كثير، ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون، أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو.

وصل نعيم بن مسعود إلى المدينة، وبدأ يبث إشاعاته، وساعده على ذلك المنافقون واليهود، وقالوا: لا يفلت محمد من هذا الجمع... ولعبت هذه الإشاعات دورها، وسار أبو بكر، وعمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وقالا له: يا رسول الله، إن الله مظهر نبيه، ومعزّ دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحبّ أن نتخلّف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسِرْ لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيراً، فسرَّ النبي، عليه الصلاة والسلام، مما قاله صاحباه، وأعلن أنه في طريقه إلى بدر، وقال: والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد. ونادى في الناس للخروج، فاجتمع حوله ألف وخمسمائة مقاتل، وسار بهم إلى بدر، بعد أن أناب عنه على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي.

وصل رسول الله ﷺ، إلى بدر في جيشه، وعسكر هناك وبقي ثمان ليال ينتظر قريشاً، ولكنها لم تأت، إذ عادت جموعها من عسفان، خوفاً من اللقاء حقيقة، وحجتها في ذلك أن الظروف غير ملائمة للحرب، إذ كانت سنوات قحط وجدب.

وهكذا دان عدو المسلمين الأول، وهو قريش، وهي أقوى قوة في الجزيرة، وجيشها أكثر الجيوش تنظيماً وعتاداً، وكانت هي المتحدية، وهي

الفارّة من اللقاء، وخافت القبائل، وأجلي جزء من يهود، وبدا أن غزوة أحد لم تكن ضربة أليمة يخنع المسلمون بعدها. ودان كذلك رجالات الأعراب فيما حول المدينة والمنطقة كلها، وأثناء وجود رسول الله ﷺ، في بدر جاء مخشي بن عمرو الضمري إليه، وقال له: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء الواقع في أراضي بني ضمرة؟ أي يريد أن يقول تتحدّى بني ضمرة، ولم تحسب لهم حساباً، وكأن البئر وما حولها مشاع لكم ـ وكان بين رسول الله ﷺ، وبني ضمرة معاهدة عدم اعتداء منذ غزوة (ودان) قبل غزوة بدر الكبرى ـ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم يا أخا ضمرة وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك»، فلما رأى الضمري شدة رسول الله ﷺ، وثقته بالله، قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة.

غزوة دومة الجندل:

لم تتأدّب القبائل كلها، بل تأدّبت التي وصل المسلمون إلى ديارها فقط، واغترّ غيرها من الأعراب، وظنّوا أن بإمكانهم غزو المدينة، وأن غيرهم ليس مثلهم، فهم يستطيعون تحقيق ما لا يستطيعه غيرهم، ومن هؤلاء المغرورين الأعراب الذين حول دومة الجندل، والذين بدأوا يتجمعون للإغارة على المدينة، وعندما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، أسرع إليهم بألف مقاتل، ففرّوا من وجهه، وأخذ المسلمون كثيراً من حيوانات القوم، وأثناء العودة عقد رسول الله ﷺ، مع (عيينة بن حصن) معاهدة عدم اعتداء وسمح الرسول لعيينة أن يرعى بأراضي المسلمين التي تقع على بعد ستين كيلاً لأنه اشتكى جدب أراضي فزارة.

غزوة بني المصطلق:

وظن بنو المصطلق بأنفسهم قوة، وغرّتهم كثرة أعدادهم، وموقعهم بين مكة والمدينة حيث كان الناس يجاملونهم أثناء مرورهم بمنازلهم في طريقهم إلى الشام أو آيبين منها، وحسبوا أن خزاعة كلها تناصرهم ما داموا بطناً منهم، فأخذوا يستعدون للإغارة على المدينة، وبلغ رسول الله ﷺ،

خبرهم، فأرسل إليهم بريدة بن الحصيب يستوضح الأمر، فإذا به حق. فأسرع إليهم رسول الله، وخرج معه في هذ المرة المنافقون الذين يطمعون في الغنيمة، كما يطمعون ببذر الخلاف. وكان زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار قد أرسل عيونه يستطلعون له الطريق قبل سيره، ويُنبّئونه عن حركات المسلمين وتحركاتهم، فالتقى المسلمون بأحد هؤلاء العيون، فسيق إلى رسول الله فعرض عليه الإسلام فأبى، ولما كان رسول الله يريد مفاجأة القوم لذا فقد أمر بإعدام هذا الجاسوس، فضرب عمر بن الخطاب عنقه، وعلم بنو المصطلق بما حدث فأصابهم ذعر شديد الأمر الذي جعل أعداداً منهم تتفرّق عن ذلك التجمّع وفاجأهم رسول الله وهم على ماء (المريسيع)، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فحمل عليهم المسلمون، وأحاطوا بهم من كل مكان، ولم يفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة أفراد، ثم استسلموا جميعاً، وغنم المسلمون ديارهم وأملاكهم، وسبوا نساءهم. وزادت الغنائم على ألفي رأس من الإبل وخمسة آلاف من الأغنام، وبلغ عدد السبايا سبعمائة فتاة. وقد أطلق سراح بعض الأسرى والسبايا، وافتدي بعضهم، ولم يقتل أحد من الأسرى. وتزوّج رسول الله ﷺ، جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد أن كاتبت ثابت بن قيس بن شماس الذي كانت من نصيبه، ثم جاء أبوها ليفتديها فخطبها رسول الله ﷺ، من أبيها، وتزوجها على مهر قدره أربعمائة درهم، وأسلم أبوها بعد أن رأى معجزة من رسول الله، كما أسلم بنو المصطلق جميعاً، وعندها أطلق الناس ما بأيديهم من الأسرى والسبايا إكراماً لنبيهم الكريم.

وحدثت في هذه الغزوة حادثتان كان لهما وقع شديد في نفوس المسلمين، أما أولاهما: فهي أن رجلاً حليفاً للأنصار من جهينة تخاصم مع رجل من غفار حليف للمهاجرين، فدعوَا بدعوى الجاهلية إذ نادى أحدهما يا لكنانة، وصرخ الثاني يا للأنصار، فأخذت الحمية بعض الصحابة وكادت تقع فتنة لولا أن أسرع رسول الله ﷺ، إلى ذلك المكان مستنكراً ما حدث، وقال: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة، من دعا بدعوى الجاهلية كان من جُثا جهنم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وقد انتهت هذه الفتنة، وتنازل الجهني عن حقه في الضرب.

وغضب عبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين لما تمّ، وغضب على ضرب الرجل الأنصاري، وهو يعد نفسه كبير الأنصار، وغضب على هدوء الفتنة بهذه السرعة التي تمّ فيها، وهو يريد أن تشتعل فقال ـ وعنده رهط من قومه بينهم شاب حدث اسمه زيد بن أرقم ـ: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم اتجه إلى من كان عنده فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم. ومشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ، وأخبره بما حدث، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ، غضباً شديداً حتى تغيّر وجهه، فقال عمر: مر به عبّاد بن بشر[2] فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يرتحل فيها، فارتحل الناس، وسار بهم رسول الله ﷺ، جاداً بالرحيل مدة تقرب من ثلاثين ساعة، وذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي تحدث به عبد الله بن أبيّ، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وقعوا نياما مجرد أن جلسوا. وجاء أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ، وهو من سادات الأوس من الأنصار، وقال له أثناء الرحيل: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله، قال: «عبد الله بن أُبيّ»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ»، قال: فأنت يا رسول الله، والله لتخرجنه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم

---

(١) جلابيب قريش: لقب المهاجرين المسلمين، لقبهم بذلك كفار قريش، إذ كانوا يأتزرون بأزرة غليظة.

(٢) عباد بن بشر بن وقش من الأوس من الأنصار، أحد الأشداء من بني عبد الأشهل، وذكر ذلك عمر حتى يكون قاتله من الأنصار من سكان المدينة لا من المهاجرين إليها.

قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وعاتب ابنَ أُبيّ قومُه، وقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك، فأخبر به النبي، فليستغفر لك ولا تجحده فينزل ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﷺ، فاعتذر له. فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ، وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئاً مما نقله إليه زيد بن أرقم.

وأنزل الله سورة (المنافقون) في حق ابن أبيّ، يقول جل شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ . . .[(١)].

والواقع أن ابن أبي لم يعرف حقيقة الإيمان لذا لم يدرك حبّ أصحاب رسول الله لنبيهم، ومن هذا كان يظنّ أنه سيد في قومه، وقد يطيعونه في أمر صدّ رسول الله ﷺ، ولو عرف الإيمان، وأدرك حب الصحابة لمحمد، عليه الصلاة والسلام، لعرف مركزه، وعلم وزنه، وتكلم على ذلك القدر، ولننظر إلى بعض هذا الحب الذي يبدو من هذه الحادثة

---

(١) سورة المنافقون: الآيات ١ ـ ٨.

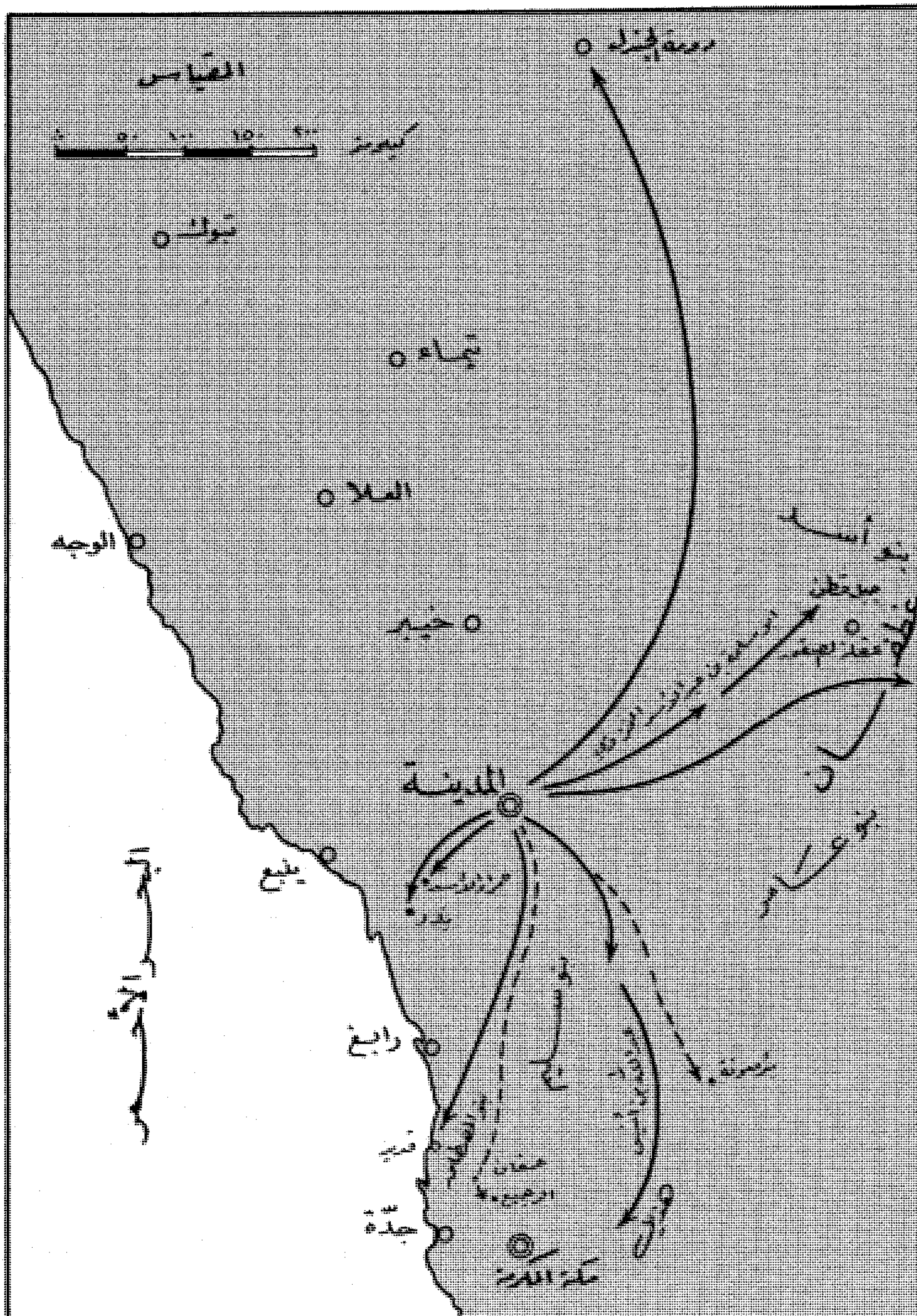
دومة الجندل
المقياس
كيلومتر
تبوك
تيماء
العلا
الوجه
خيبر
المدينة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
البحر الأحمر
بنو أسد
بنو عامر

فقط... فقد رأينا كلام أسيد بن حضير، رضي الله عنه، وكذلك زيد بن أرقم الذي نقل الحديث لرسول الله ﷺ، فقد لامه بعض المنافقين على هذا النقل فأجابه وهو الغلام الحدث: والله لو تكلم أبي كلمة عن رسول الله ﷺ، لأخبرته. وحتى ابن عبد الله بن أبي بالذات عبد الله جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا». وعندما وصلوا إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أمام بابها فلما جاء أبوه منعه من الدخول، وقال: والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله، وتقول: إنه العزيز، وإنك الذليل. وقال ﷺ، لعمر بن الخطاب: «يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت، لأُرْعِدَتْ له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ، أعظم بركة من أمري.

أما الحادثة الثانية التي وقعت إثر غزوة بني المصطلق فهي حديث الإفك وهو الذي تولى كبره المنافقون وأشاعوه، وأكتفي بذكر ما روته عائشة، رضي الله عنها، عن نفسها قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق[1] لم يهجهن[2] اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج،

---

(١) العلق ـ بضم العين وفتح اللام ـ جمع علقة، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء.

(٢) التهييج كالورم في الجسد.

فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ، من سفره ذلك، وجّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار[1]، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل، ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير، ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع إليّ. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته[2]، فلم يبت مع الناس فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة في ثيابي، قال: ماخلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني، قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتجّ العسكر، ووالله ماأعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني

---

(١) الجزع: الخرز، وظفار: مدينة قرب اليمن.

(٢) كان صفوان على ساقة الجند، ومن مهمته التأخر عنهم قليلاً، ليفتش مكانهم بعد ارتحالهم، فإن وجد شيئاً لهم حمله.

من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ. وإلى أبوي، ولا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ، بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني، قال: كيف تيكم؟، لا يزيد على ذلك. قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي، فمرضتني؟ قال: لا عليك. قالت: فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قالت: فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح! ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين، قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أوَقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدّثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! قالت: أي بنية، خففي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثّرن، وكثّر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ، في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي

قال مسطح، وحمنة بنت جحش، وذلك أن زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني[1] في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها، فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش، فأشاعات من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ، تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق، تجادل عن المنافقين، قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل عليَّ. قالت فدعا علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ، بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً، ويقول: أصدقي رسول الله ﷺ، قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجينتي، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ، وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله،

---

(١) من المناصاة: وهي المساواة.

وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده»، قالت: فوالله ماهو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي، حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبويّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلما، قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد، ويصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ، في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، قالت، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعجبا علي، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقالت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ، مجلسه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، فقد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سري عن رسول الله ﷺ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ، فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. فقالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدّهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

أما المؤمنون فقد قالوا مذ سمعوا الإشاعة إن هذا بهتان وباطل وكذب صريح، وما ظنوا إلا خيراً، وما قالوا إلا كذلك، وكان ظنهم أحسن مما يظنون هم بأنفسم، ويكفي أن نأخذ مثلاً على ذلك أبا أيوب خالد بن زيد الذي قالت زوجه أم أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى. وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. كما نعرف رأي المؤمنين تماماً مما أنزل الله، وأنه ما كانت الشائعات إلا من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

وقال أبو بكر الصديق: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً. وذلك بعد أن قال عن عائشة ما قاله الناس، وكان من قبل ينفق عليه لقرابته وحاجته. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[2]. فقال أبو بكر بعد ذلك: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

غـــزوة الخنـــدق:

يحقد اليهود على الناس جميعاً، ويقولون: ليس عليهم في الأميين سبيل، وأكثر حقدهم على المسلمين، وقد حرصوا على ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الأول، ولكن لم يتمكّنوا من ذلك بل رُدّ كيدهم في

---

(١) سورة النور: الآيات ١١ ـ ١٣. (٢) سورة النور: الآية ٢٢.

نحرهم، وأُجلوا عن المدينة فرقة بعد فرقة، فلما أجلي بنو النضير، زاد حقد قادتهم، وخاصة الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ رأوا أن الإسلام تزداد قوته يوماً بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تغير على أبنائه، أصابتها الضربة القاسية، ونزلت المصيبة بديارها، وخرج المسلمون أقوى ممَّا كانوا، لذا فكر الحاقدون أن يُحزّبوا الأحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجل واحد على المدينة، فيقضوا على الإسلام، ويجتثّوا جذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من خيبر حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم، واتجهوا إلى مكة قاعدة قريش العدو الأول للمسلمين، ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لها: إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فسرّت قريش، وأعدّت العدة لتلك الحرب المرتقبة. وسأل القريشيون اليهود، فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1] وقد تركوا قريشاً بعد أن تواعدوا، واتجهوا إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد اتفقت معهم، فوافقوا على ذلك، ووافقوا على الموعد المضروب بين قريش ويهود.

خرجت قريش حسب الموعد المقرر بإمرة أبي سفيان بن حرب، وخرجت من غطفان فزارة، ومرة، وأشجع بإمرة عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري، ومسعر بن رخيلة الأشجعي. ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، جمع أصحابه، واستشارهم فأشاروا عليه بحفر الخندق حول المدينة، وقيل: إن سلمان، رضي الله عنه، هو الذي أشار عليه بحفر

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

الخندق فابتدؤوا بالعمل فيه، وكان رسول الله ﷺ، يعمل معهم ويشجعهم، أما المنافقون فكانوا يختفون عن العمل، ويفرّون منه دون إذن.

وما أن انتهى العمل من الخندق بين الحرتين حتى جاءت قريش، ونزلت عند مجمع الأسيال (التقاء وادي قناة مع وادي العقيق)، وكان عددها مع الأحابيش، ومن وافقها من كنانة وأهل تهامة عشرة آلاف مقاتلٍ، وجاءت غطفان ومن سار معه من أهل نجد ونزلت قرب جبل قريباً من التقاء وادي بطحان ووادي قناة إلى يمين ذلك. وخرج رسول الله ﷺ، مع المسلمين وجعلوا جبل سلع إلى ظهورهم، وكان بين الفريقين الخندق الذي حفر.

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي في ديار بني قريظة فردّه، فبقي يحاوره حتى أجابه، وعاهده أن ينقض ما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، من عهد، وصعب على رسول الله ﷺ، ما كان من بني قريظة من يهود، إذ أن دياره إلى الجنوب من المدينة إلى جهة الشرق، وليس من فاصل بينها وبين سكان المدينة التي خلت تقريباً من المحاربين إذ لم يبق فيها إلا النساء والأطفال، فأرسل إليهم وفداً يستطلع أخبارهم، فوجدهم الوفد على أخبث حال، وتنكروا أن يكون بينهم وبين رسول الله ﷺ، عهد أو ميثاق.

عظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وداخلهم كل ظن، وظهر المنافقون، وقالوا: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً.

ولما رأى رسول الله ﷺ، المسلمين وما هم عليه، أراد أن يفرق الأحزاب فأرسل وفداً إلى غطفان يدعوهم إلى ترك مواقعهم، والسفر إلى بلادهم، وتكون لهم ثلث ثمار المدينة، فوافقوا، وكتبت بذلك الكتابة، وبقي التوقيع على ذلك، فأرسل رسول الله ﷺ، إلى سيدي الأنصار سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يستشيرهما في ذلك بصفتهما سادة سكان

المدينة، وأهل الزروع فيها، فقالا له: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالَبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال ليجهدوا علينا.

حاول بعض فرسان قريش اقتحام الخندق، ومنهم عمرو بن عبد ودّ العامري، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وضرار بن الخطاب المحاربي، وقد لبسوا للقتال، وطلبوا من قومهم التهيؤ له، فلما وصلوا إلى الخندق، وقفوا عليه، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم ذهبوا إلى مكان ضيق فضربوا خيلهم، فاقتحمت الخندق، فخرج عليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فوقفوا حيالهم، فقال عمرو بن عبد ودّ: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فقال له يا عمرو: إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا بن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك. فأخذت عمرواً حينئذ الحمية، فنزل عن فرسه، وعقره، وضرب وجهه، ونزل لعلي، فقتله علي ـ بإذن الله ـ وفرّت خيل المشركين مقتحمة الخندق.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم، فقطع منه الأكحل، وشعر بالألم،

فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان رسول الله ﷺ، يشعر بما حلّ بالمسلمين، وما هم عليه من الجوع والتعب، ومن الصبر على ذلك، والثبات على الحق، ولكن لا يملك إلا الدعاء، وهو واثق بنصر الله وتأييده، وجاء نصر الله، وكان من أسبابه أن رجلاً من أشجع، وهو نُعيم بن مسعود قد أسلم ساعتئذٍ، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة». فخرج نعيم بن مسعود إلى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه؛ فقالوا له: لقد أشرت بالرأي. وكان اليهود قد وعدوا قريشاً وغطفان أن يباشروا بالقتال مجرد أن يصطدموا بالمسلمين فيأتونهم من الخلف، ولكن لم يحدث هذا الصدام، ولم تتحرك بنو قريظة رسمياً، إلا أنها قد أرسلت قافلة للمشركين مؤلفة من عشرين بعيراً تحمل زبيباً، وتمراً وتيناً، ولكنها لم تصل إليهم إذ استولى عليها المسلمون، حيث التقوا بها عرضاً بينما كانوا يدفنون أحد موتاهم، فأخذوها، ووجدوها لقمة سائغة أثناء اشتداد أزمة الجوع عليهم، إذ كانت سنتهم عام قحط وجدب. كما أن

قريشاً وغطفان قد طلبوا من بني قريظة أن يشاغلوا المسلمين ويتحرّشوا بهم حتى يتمكنوا من اقتحام الخندق، وقد حاولوا ذلك، ولكن الخوف جعل الحذر منهم شديداً، ولم يتمكنوا من أن يقوموا بعمل - بإذن الله -.

ثم خرج نُعيم حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل؛ قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. وكانت قريش قد يئست من القتال، فقد طال عليهم الوقت، ولم تدخل معركة حاسمة، وكانت العادة في القتال الكر والفر، فلما لبثوا ما يقرب من عشرين ليلة دون قتال ضاقوا ذرعاً به، وإن استمروا هذه المدة كلها يحاولون اقتحام الخندق، مفتشين عن أضيق نقطة فيه، ليشغلوا المسلمين وليجعلوهم في ذعر شديد، وخوف كبير، وقد حدث هذا، إلا أن الإيمان تغلب، وثبت المسلمون ثباتاً لا يعادله ثبات، وشعرت قريش أن تفوقها العددي إذ أن جيشها يزيد على عشرة آلاف على حين أن جيش المسلمين لا يصل إلى ثلاثة آلاف على أكبر تقدير إذ أن بعضهم يقدره بتسعمائة مقاتل فقط، إن هذا التفوق العددي لا يساوي شيئاً أمام الإيمان، وهذا ما جعل اليأس يقع في صفوف جند قريشٍ بل في نفوس قادتها.

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذّرهم ما حذّرهم.

أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل مع نفر من قريش وغطفان إلى

بني قريظة يحثّونهم على مناجزة المسلمين والبدء بالقتال حتى يلتفت إليهم رسول الله ﷺ، ويتمكن الأحزاب من اقتحام الخندق، وكان يوم السبت الخامس من شوال سنة خمس، فقال لهم عكرمة: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغتدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ منها بيننا وبينه. فقالوا له: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجع عكرمة مع من كان معه إلى الأحزاب، وأخبروهم بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: صدق والله نعيم، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا؛ فقالت بنو قريظة: صدق والله نعيم، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً؛ فأبوا عليهم، ووقع الخلاف بينهم.

وجاء نصر الله، إذا هبّت عليهم ريح عاصف في ليلةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فانقلبت قدورهم، وأزيلت خيامهم، وعمّتهم الفوضى. وعلم رسول الله ﷺ، بما حدث من خلاف بين يهود والأحزاب، فأرسل حذيفة بن اليمان ليدخل في القوم، ولينظر ماذا يصنعون، وأمره ألا يحدث شيئاً حتى يعود، قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان؛ ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله فامتطاه، وأعطى أوامره للفرسان بحماية الانسحاب، ففعلوا، وغادرت قريش مواقعها، وغادرت غطفان مواقعها، ثم انسحب الفرسان، ولما أصبح الصباح وجد رسول الله ﷺ، أن الأحزاب قد ذهبوا، فانصرف إلى المدينة راجعاً،ووضع المسلمون السلاح. وانتهت غزوة الأحزاب، وانتهت مؤامرة اليهود، وباء الجميع بالفشل، وكانت هذه آخر إغارة على المدينة أو آخر حرب يشنّها المشركون واليهود إذ أصبح المسلمون بعدها هم الأقوياء ويقومون بالجهاد ونشر الدعوة ، وقتال كل من يقف في وجه الإسلام مهما بلغت قوته.

وقد استشهد ثمانية من المسلمين في هذه المعركة، وكلهم من الأنصار، اثنان منهم كانا يقومان بأعمال الدورية لنقل أخبار الأحزاب إلى رسول الله ﷺ، فقبض عليهما المشركون، وقتلوهما. وكان عدد قتلى المشركين أربعة فقط.

الفصل الثالث

تَوسّع الدّولـةِ الإسْلاميّة

تجمعت الأحزاب ليقضوا على المسلمين وينتهوا منهم، وهؤلاء الأحزاب هم أعداء الله جميعاً في الجزيرة العربية، اليهود والمنافقون في داخل المدينة، وقريش والأعراب في خارجها. وفشلت الأحزاب بل وخرجت متنافرة لا يثق بعضها ببعض. وانصرف الأحزاب، وكان على المسلمين أن يضربوا عدواً بعد عدو إذ افترقوا بعد اتفاق، وكانت الضربة الأولى يجب أن تتوجه إلى يهود بني قريظة يعيشون مع المسلمين في ضاحية المدينة، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه، عندما وجدوا أن قوة تحيط بالمسلمين، ومعنى هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدر جديد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن التوسع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيء ثم يكون الانطلاق خارجه، ويطهر جزء بعد جزء، والبدء باليهود لذلك أمر طبيعي حيث أن المنافقين يظهرون الإسلام ويحقدون على أتباعه، ولا يعرفهم المسلمون كلهم. وإنما يعرف بعضهم أفراداً منهم من تصرفاتهم، ولما كنا غير مكلفين بالشق على القلب ومعرفة الخفايا فإننا نحكم على الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا على أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجدوا قوة تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبزغ قرن النفاق ويظهر جلياً، أما إذا قوي المسلمون اختفى المنافقون وزاد إظهارهم للنسك والطاعة.

غزوة بني قريظة:

عندما نفض بنو قريظة يدهم من قريش وغطفان في غزوة الأحزاب آخر الأمر، رأوا أن يناوروا ويخاتلوا على المسلمين خوفاً على حياتهم،

فطلبوا من رسول الله ﷺ، أن يعيدوا العهد الذي بينه وبينهم شريطة أن يعود بنو النضير إلى ديارهم إلا أن الرسول ﷺ، قد رفض ذلك لما رأى من غدرهم. فلما انصرف الأحزاب، وعاد المسلمون من الخندق، ووضعوا السلاح، إذا بأمر من السماء يأتي به جبريل، عليه السلام، فيقول له: «أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟» قال: «نعم»، قال: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزلهم.

أمر رسول الله ﷺ، مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فأسرع المسلمون إلى بني قريظة، ومنهم من صلى بالطريق، وأخذ الأمر على باب السرعة، ومنهم من لم يصل حتى وصل إلى هناك حسب الأمر فصلى متأخراً، وفي غير وقت الصلاة وعندما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، لم يعنف أحد الطرفين، ولما رأى بنو قريظة المسلمين دخلوا حصونهم، واعتصموا بها، ودخل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وحاصرهم رسول الله ﷺ، خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحصار، ورأوا أنهم سيموتون جوعاً إن استمر، قال لهم سيدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم؛ قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم، ونسائكم؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء؛ قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا

لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة؛ قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً، وألقى باللوم على حيي بن أخطب الذى حملهم على الغدر بالمسلمين ونقض عهد رسول الله ﷺ.

وطلب بنو قريظة من رسول الله ﷺ، أن يسمح لهم بالجلاء عن ديارهم بالشروط التي جلا فيها بنو النضير، بحيث يحملون أموالهم معهم، ويتركون سلاحهم، فلم يقبل رسول الله ﷺ منهم، وإنما طلب منهم أن ينزلوا لحكمه دون شروط، ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم أحد حلفائهم من الأوس ليستشيروه، وهو أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكت النساء والأولاد في وجهه فأشفق عليهم، وسألوه: هل ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زلت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ، بل ذهب إلى المسجد فربط نفسه في أحد أعمدته، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وعاهد الله، ألا يطأ بني قريظة أبداً، حتى لا يرى أبداً في بلد خان فيه الله ورسوله.

استبطأ رسول الله ﷺ، أبا لبابة فسأل عنه، فقيل له: فعل كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم تاب الله عليه وأنزل في توبته: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وعندما علم أبو لبابة بما أنزل الله في توبته أراد أن يتصدق بكل ماله تتمة لتوبته، ولكن رسول الله ﷺ، قال له: «يجزئك الثلث أن تتصدق به».

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

انهارت معنويات بني قريظة رغم أنهم داخل حصونهم، وفيها مؤنهم، على حين كان المسلمون في العراء، ويتعرضون للفحات برد الشتاء القارصة، ومع الجزع الشديد الذي أصاب اليهود، إلا أنهم ماطلوا في الاستسلام مع أنهم لم يكونوا ينتظرون نجدة من أية جهة، واشتد على المسلمين الموقف، ورأوا ما أصاب اليهود من انهيار، ، لذا هدد المسلمون بني قريظة باقتحام الحصون عليهم إن لم يسرعوا في التسليم، ولم يكن بدّ عند اليهود من ذلك لما لحقهم من خوف وذعر، وخاصة عندما وجدوا المسلمين قد هموا فعلاً بالانطلاق، فأعلن بنو قريظة استسلامهم، وفتحوا أبواب حصونهم، وألقوا سلاحهم، وخرجوا. فأمر رسول الله ﷺ، أن توضع القيود في أيدي الرجال، ويعزلوا في جانب بإشراف محمد بن مسلمة، ثم نقلوا إلى المدينة حيث سجنوا في دار أسامة بن زيد. أما النساء والأطفال فقد عزلوا في جانب آخر، ونقلوا إلى المدينة أيضاً حيث أُنزلوا في دار إحدى النساء من بني النجار، وكان ينزل فيها الوفود عادة. وكان عدد الرجال تسعمائة مقاتل، والنساء والأطفال يقاربون ذلك أو يزيدون قليلا، وقد يصلون إلى الألف.

وقد ذكرنا أنه كانت في الجاهلية أحلاف بين يهود وسكان المدينة من الأوس والخزرج، وكان الأوس قد حالفوا بني قريظة، على حين حالف الخزرج بني قينقاع، وبني النضير. ولقد شفع الخزرج في حلفائهم بني قينقاع وبني النضير عندما أجلوا عن المدينة، كما مر معنا، وقد لعب آنذاك عبد الله بن أُبيّ دوراً في ذلك حيث يُعدّ من وجهاء الخزرج وأعيانهم. ولما رأى الأوس بني قريظة في سجنهم، وذكروا قبول وساطة الخزرج بحلفائهم عند رسول الله ﷺ، ذهب بعضهم إلى الرسول وقالوا له: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فذاك سعد بن معاذ». فطمع الأوس في أن ينجو بنو قريظة من القتل على الرغم من معرفتهم بما ارتكبوه من جريمة شنعاء في حق المسلمين في الغدر بهم،

ونقض عهودهم، وأسرع عدد من الأوس إلى سيدهم سعد بن معاذ يطلبون منه الرأفة بمواليه، وكان سعد جريحاً مما أصابه يوم الخندق، ومقيماً في خيمة في المسجد النبوي، وتشرف عليه رفيدة إحدى الصحابيات الجليلات، فحملوا سعداً إلى رسول الله ﷺ، على حمار، ولما كلموه في الرحمة والرفق بمواليه أجابهم: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، عندها يئس الأوس من الرفق ببني قريظة، وعلموا أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

وصل سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ، للأنصار: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه»[1]، فقاموا وأنزلوه، فقال له رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم يا سعد». فقال سعد: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال عليه الصلاة والسلام: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فوقف سعد واتجه إلى الأوس خاصة وإلى من في المعسكر عامة، وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم، ثم اتجه إلى الجهة التي فيها رسول الله ﷺ، وهو مطرق رأسه إجلالاً لرسول الله ﷺ، وإكباراً، وقال: وعلى من هنا وأشار بيده إلى جهة رسول الله ﷺ، فقال نبي الله عليه أفضل الصلاة والسلام: «نعم»، ثم اتجه إلى بني قريظة المسجونين فقال لهم: أترضون بحكمي؟ فقالوا: نعم، ومع خوفهم الشديد، وارتجاف حواسهم كلها، فقد بقي عندهم أمل من الرجاء في العفو. واتجهت الأنظار نحو سعد لا تكاد تتحرك شاخصة كأنها تريد أن تستخرج الكلمة من لسان سعد، فإذا به يقول: أحكم في بني قريظة أن تُقتّل الرجال، وأن تُسبى النساء، وأن تكون أموالهم غنيمة للمحاصرين لهم من المسلمين، وأن تكون ديارهم كلها للمهاجرين دون الأنصار. فقال

---

(١) يستدل بعضهم بهذا الحديث على وجوب القيام للرجل الكبير أو العالم أو... ولا دلالة فيه، لأن سعداً رضي الله عنه، كان جريحاً يحتاج إلى المساعدة لينزل عن الدابة كما أن هناك فرقاً بين القيام إلى فلان والقيام له، وكان الصحابة لا يقومون لرسول الله ﷺ لما يعلمون من كراهته لذلك.

رسول الله ﷺ، لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». ثم أمر رسول الله ﷺ، بحفر خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناق بني قريظة، جماعات جماعات، وألقيت جثثهم في الخندق، وكانوا إثر قتل كل جماعة يوارون جثهم بالتراب. وكان بين القتلى امرأة واحدة اسمها (مزنة) قتلت خلاد بن سويد بحجر طاحون من فوق الحصن، وكان خلاد يستظل في ظل الحصن أثناء الحصار، فعدّت بين المقاتلين وقتلت. ووزعت الغنائم بين المحاربين بعد استبقاء خمسها، كما وزعت السبايا وأمر رسول الله ﷺ، ألا يفرق بين الأم وولدها، وعن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ، قال: «لا يفرق بين والدة وولدها» فقيل: إلى متى؟ قال: «حتى يبلغ الغلام، وتحيض الجارية».

أما سعد بن معاذ لم يلبث أن انفجر عليه جرحه ومات شهيداً، رضي الله عنه، وهكذا فقد تحققت أمنيته، وسُمع دعاؤه بألا يموت حتى تقرّ عينه من بني قريظة، وذلك حين أصيب يوم الخندق إذ قال ـ كما ذكرنا ـ: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان تقتيل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، يدل على حكمة بالغة، إذ أن كثيراً من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم بعد المقدرة، والظن بهم خيراً بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يشجعهم على القيام بأعمال ضد المسلمين ثم يرجون العفو...

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا أن سعداً، رضي الله عنه، حين حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملاً، لذا كان معهم حازماً، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة، وأن للعطف موضعه،

وأن للحزم موضعه أيضاً، وأن الأعداء عندما يتمادون في غيهم لا بد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعاً كما أبيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درساً لمن عاش أيامهم ولمن يعيش من بعدهم. وكان في مقتل بني قريظة الانتهاء من العدو الداخلي، والاتجاه نحو العدو الخارجي.

قتل سلام بن أبي الحقيق:

كان من الذين حزبوا الأحزاب سلام بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير الذين أقاموا في خيبر بعد أن أجلاهم رسول الله ﷺ، عن المدينة. وقد خرج خمسة رجال من المدينة من الأنصار من الخزرج بأمر رسول الله ﷺ، إلى خيبر، وقتلوا هذا الطاغية في بيته ليعلم الطغاة أن أيدي المسلمين بإمكانها أن تصل إليهم، وتنال منهم، ولو كانوا داخل بيوتهم، في منأى من الأرض، حتى لا يعودوا إلى معاداة المسلمين والعمل ضدهم وضد دعوتهم، ويجب أن ينتبه الدعاة إلى أن فعل رسول الله ﷺ، هذا لم يكن إلا بعد أن صار للمسلمين دولة.

زواج رسول الله ﷺ، بزينب بنت جحش:

كانت حياة زينب بنت جحش، رضي الله عنها، ساحة لتطبيق بعض الأحكام، وتغيير بعض المفاهيم. لقد كانت زينب ابنة عمة رسول الله ﷺ، أميمة، وكان لها من طيب الأصل والجمال ما تفتخر به على غيرها. وأراد رسول الله ﷺ، أن يزوجها من مولاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، فأبدت هي وأهلها جفاء وتمنعاً من هذا الزواج إذ وجدوا هذا الزوج غير كفء لابنتهم الجميلة ذات الشرف والجاه، لأنه من الموالي، إلا أن الإسلام لا يعرف هذه الطبقات التي اعتاد الناس أن يصنفوا أنفسهم فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. لذا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

لم يكن رسول الله ﷺ، ليقبل هذا التمتع منهم، وأصر على ذلك، ولم يكن لهم من الأمر شيء ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1]. وتم الزواج.

وأراد الله ـ عز وجل ـ أن يلغي التبنّي، إذ أن هذه الظاهرة كانت شائعة في الجاهلية، واستمرت في الإسلام، حتى أراد الله عزّ شأنه أن يلغي تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسرة، وما يتعلق بذلك من إرث وغيره. وكان رسول الله قد تبنّى زيداً، لذا كانوا يدعونه زيد بن محمد. فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾[2]. إلا أن الحياة الزوجية لم تستقم بين زيد وزينب، ولم يطيقاها، واستشار زيد رسول الله ﷺ، في طلاق زينب، وبيّن له بعض الأسباب الداعية إلى ذلك؛ فطلب منه رسول الله ﷺ، أن يتريث، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله بأنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد، وتنقضي عدتها، إلا أن رسول الله ﷺ، كان يخشى إظهار ذلك لأن الناس سيقولون: إن محمداً قد تزوج زوجة متبناه وكان هذا محرماً في الأعراف التي كانت سائدة آنذاك، إذ يعدون المتبنى كابن المتبني فعلاً، ولم يحرمه الإسلام بعد، ولكن الله سيأمر بذلك، وسيطلق زيد زينب، وسيتزوجها محمد، لأنه الوعد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾[3]. وهكذا ألغي التبني، وتزوج رسول الله ﷺ، بزينب بنت جحش، رضي الله عنها، وفرض الحجاب، كما فرض الحج في هذه الآونة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦. (٢) سورة الأحزاب: الآية ٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

أما العدو الثالث فقد كان الأعراب، فأراد رسول الله ﷺ أن يؤدبهم، قبيلة قبيلة، ما داموا متفرقين، حتى لا يفكروا أبداً في الإغارة على المدينة بعد ذلك، ولكيلا يفكروا في التجمع وتأليف الأحزاب في محاولة للهجوم على المدينة والقضاء فيها على الإسلام. وجهز لذلك السرايا وسار في الغزوات، ومنها:

١ ـ سرية محمد بن مسلمة:

أرسله في بداية السنة السادسة للهجرة في ثلاثين راكباً لشنّ غارةٍ على بني بكر بن كلاب الذين كانت منازلهم إلى الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ثمانين ومائتي كيلومتر منها على طريق البصرة، واستطاع أن يفاجئهم في ديارهم فقتل عشرة منهم وفرّ الباقون، ورجع محمد بن مسلمة إلى المدينة ومعه الغنائم من الأنعام والأغنام، وأثناء عودته أسر ثمامة بن أثال أحد وجهاء بني حنيفة في نجد، وبقي ثلاثة أيام في المدينة أسيراً، وقد رفض أن يسلم، ثم أطلقه رسول الله ﷺ، بعد أن أكرمه، ثم عاد فأسلم، وثبت حين ارتدّ قومه.

٢ ـ غزوة بني لحيان:

غزا رسول الله ﷺ، بني لحيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت في حادث ماء الرجيع، بعد أن أظهر رسول الله ﷺ، أنه يريد الشام، وقد كان معه مائتا راكب، ووصل إلى ماء الرجيع، فتفرق بنو لحيان في الجبال، وأرسل وراءهم من يطاردهم، فلم يعثروا على أحد، كما أرسل بعض أصحابه إلى عسفان لكي يعلم عن طريقهم أهل مكة فيقع الرعب في نفوسهم، ثم عاد مع أصحابه.

٣ ـ غزوة الغابة:

أغار عيينة بن حصن في أربعين راكباً على الغابة التي تبعد ٤٠ كيلاً عن المدينة إلى جهة الشرق، والتي يوجد فيها عشرون من الإبل

لرسول الله ﷺ، فاستاقها من راعيها، وفرَّ، وخرج رسول الله ﷺ، في أثره بعد أن أرسل له من يشاغله حتى تصل النجدة، ولكنه نجا إلا أن المسلمين قد خلصوا أكثر الإبل التي سرقت.

٤ ـ سرية عكاشة بن محصن:

كان بنو أسد يؤذون من يمر ببلادهم من المسلمين، فأرسل لهم رسول الله ﷺ، عكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، فلما علموا، هربوا من وجه عكاشة، وغنم المسلمون في هذه السرية مائة من الإبل.

٥ ـ سرية محمد بن مسلمة الثانية:

أرسل رسول الله ﷺ، محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين للإغارة على الأعراب الذين يقيمون قرب المدينة، وقد بلغه أنهم يريدون الإغارة على إبل المسلمين هناك، فكمن الأعراب لسرية المسلمين، وتمكّنوا من قتلهم، ولم ينج منهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة ظناً منهم أنه قد قتل فعاد إلى المدينة، فأرسل لهم رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح ليثأر منهم، فلما علموا به فرّوا من وجهه.

٦ ـ سرية زيد بن حارثة:

بعث رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة على رأس سرية لتغير على بني سُليم الذين كانوا مع الأحزاب، فلما وصل إلى ديارهم، تفرّقوا، وفرّوا من أمامه، وعادت السرية بالغنائم من الأنعام والأغنام.

٧ ـ سرية زيد بن حارثة الثانية:

بعث رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة على رأس مائة وسبعين راكباً، ليعترض قافلة آيبةً من الشام في طريقها إلى مكة، واستطاع زيد أخذ القافلة، وأسر رجالها، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت

رسول الله ﷺ، ولم يكن قد أسلم بعد فاستجار بزوجه زينب فأجارته، فقال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت» وردّ رسول الله ﷺ، إليه ماله كله، فسار إلى مكة، فأعطى الأمانات، وأدّى لكل رجلٍ ماله، ورجع إلى المدينة مسلماً.

٨ ـ سرية زيد بن حارثة الثالثة:

وانطلق زيد بن حارثة للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة، وكان في خمسة عشر مقاتلاً، فلما رآهم بنو ثعلبة ظنّوا أنهم طليعة جيش المسلمين الكبير، ففرّوا، وتركوا حيواناتهم، فاستاقها المسلمون، وعادوا بها إلى المدينة.

٩ ـ سرية زيد بن حارثة الرابعة:

كان زيد في تجارة في الشام فلما عاد تعرّض له بنو فزارة المقيمون في وادي القرى، فأخذوا تجارته، وكادوا يقتلونه، فلما وصل إلى المدينة، أرسله رسول الله ﷺ، مع رجاله للإغارة على بني فزارة المعتدين، فسار إليهم حتى داهمهم ، وأحاط بهم، وقتل منهم عدداً كبيراً.

١٠ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف:

أرسل رسول الله ﷺ، عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة رجل إلى بني كليب في دومة الجندل، فلما وصل إليهم دعاهم للإسلام مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو، وكان نصرانياً، ثم أسلم أكثر قومه، ومن بقي منهم قبل بدفع الجزية.

١١ ـ سرية علي بن أبي طالب:

بعث رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب في مائة مقاتل لغزو بني سعد بن بكر بجهات فدك، لأنه وصل إلى رسول الله ﷺ، خبر مفاده أنهم

يجمعون جموعهم لمعاونة اليهود في خيبر لمحاربة المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر من التمر، فسار عليّ، وفي طريقه قبض على جاسوس للأعداء في طريقه إلى خيبر لعقد المعاهدة، فأمّنه، وقد دلّه على قومه، فساروا إليهم، وفي الطريق أخذوا الحيوانات، وقد هرب رعاتها، وخوّفوا قومهم، ففرّوا، وقد استغنوا عن حيواناتهم، وعاد المسلمون بها، وعددها خمسمائة بعير وألف شاة.

١٢ ـ سرية عبد الله بن رواحة:

لما قتل سلام بن أبي الحقيق، ولّى يهود خيبر عليهم أسير بن رزام، فأراد أن يتفق مع غطفان كلها لمحاربة رسول الله ﷺ، فوصل الخبر إلى المدينة، فبعث رسول الله ﷺ، عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً من الأنصار، فعرضوا على أسير بن رزام أن يسير إلى المدينة، فيوليه رسول الله ﷺ، على خيبر فيكون عاملاً لرسول الله ﷺ، على اليهود فيها، ويترك ما عزم عليه من الحرب، ويعيش اليهود عندها بسلام، فوافق أسير على ذلك.

كان هدف رسول الله ﷺ، أن ينتهي من الجبهة الشمالية التي قوامها اليهود، ليلتفت إلى الجبهة الجنوبية التي قوامها قريش.

سار أسير بن رزام إلى المدينة مع ثلاثين من اليهود، كل يهودي رديف لمسلم، فلما كانوا في الطريق ندم أسير بن رزام على ما فعل، ورأى أن يقتل المسلمين، فمدّ يده إلى سيف عبد الله بن رواحة يريد انتزاعه منه وقتله به، فقال له عبد الله بن رواحة: أغدراً يا عدو الله! ثم نزل وقتله، وقام المسلمون على من معهم من اليهود، وقتلوهم جميعاً.

١٣ ـ أرسل أبو سفيان رجلاً ليغدر برسول الله ﷺ، في المدينة ولكنه كُشف أمره، وأسلم الرجل، وأرسل رسول الله ﷺ، عمرو بن أمية الضمري ورفيقاً له ليقتلا أبا سفيان جزاءً له، فلما وصلا إلى مكة طافا بالبيت قبل القيام بالمهمة، فعرفهما أهل مكة، فلم يجدا بداً من الهرب.

١٤ ـ جاء إلى رسول الله ﷺ، في المدينة جماعة من قبيلة عكل وعرينة، وأظهروا الإسلام، وبايعوا رسول الله ﷺ، فلم يوافقهم جو المدينة،

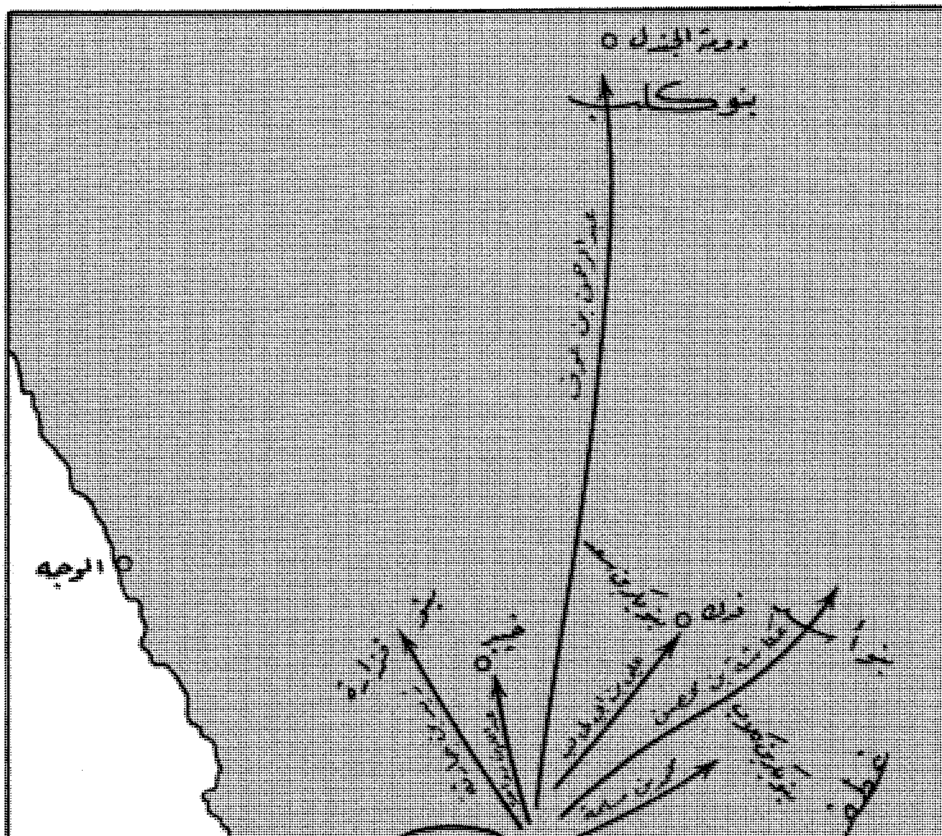
دومة الجندل
بنو كلب
الوجه
فدك
المدينة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة

فأصابهم المرض، فأرسلهم رسول الله ﷺ، مع راع وإبل إلى خارج المدينة، فعُوفوا ، وكان جزاء الإحسان، أن قتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ، في أثرهم كرز بن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم، وقبضوا عليهم جميعاً، وأعادوهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ، أن يُمثّل بهم كما مثّلوا بالراعي، كمعاملة بالمثل حتى لا يطمع المشركون في رحمة المسلمين.

لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلى الأعراب وإلى أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعراب المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوة في المنطقة، وأصبح كل إنسان يريد أن يتعرّف على هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام، فإن هناك من يحميه، وإذا هاجر إلى المدينة فقد وصل إلى مأمنه.

صُلحُ الحُدَيْبيَةِ

رأى رسول الله ﷺ، أن العدوّ الداخلي قد انتهى أمره، وأن جو المدينة قد خلص من كل شائبةٍ ظاهرة، وأن الأعراب لا يمكنهم في تلك الظروف القيام بعمل حربي، وأن الخطر إنما يأتي من جبهتين وهما: الجبهة الجنوبية، حيث قريش العدوّ الأول، وبإمكانها القيام بحركةٍ وخاصةً إذا حرّضها ماكر، والجبهة الشمالية، حيث اليهود في خيبر، ولا يمكنهم التحرّك وحدهم، ولكن عندهم إمكانية التحريض، والعمل على تأليف الأحزاب، وهذه طريقتهم المعروفة، ومكرهم الكبير، وعمل المسلمين يجب أن يكون على إحدى هاتين الجبهتين ليتخلص من إحداهما ثم يلتفت إلى الثانية، وما دامت الجبهة الشمالية لا يمكنها التحرك لذا اتجه المسلمون نحو الجنوب، فإن البدء والعمل من الأفضل أن يكون على الجبهة الجنوبية. . . إذ لو تحرّكوا نحو الشمال ربما هاجمتهم قريش من الجنوب، واستغلّت خلو المدينة من جيشها وانصرافه إلى تأديب اليهود الذين لا يمكنهم الهدوء وترك الناس في راحةٍ، بل لا بدّ من إشعال الحروب ورمي القبائل بعضها مع بعض.

رأى ﷺ، في نومه أنه دخل وأصحابه البيت الحرام آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومقصّرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، وفي العمرة عبادة وفيها جسّ لنبض قريش ومعرفة لأحوالها، وفيها اعتراف ضمني من قريش بالمسلمين الذين دخلوا عليها مكة، وفيها إظهار لقوة المسلمين الذين جاؤوا إلى قاعدة قريش لا يهابونها، وفيها نصر للمسلمين بين الأعراب، وفيها تعظيم لبيت الله كسائر العرب، البيت الذي بناه أبواهم إسماعيل وإبراهيم،

عليهما السلام، فهم على الحنيفية السمحاء وليسوا بصابئين كما تزعم قريش، إضافة إلى إشعار المستضعفين من المسلمين والموجودين في مكة بقرب الخلاص وبداية الفرج.

واجتمع الأنصار والمهاجرون حول رسول الله ﷺ، للخروج إلى العمرة، وأبطأ عليه الأعراب الذين استنفرهم، وظنّوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وطلبوا الاستغفار من رسول الله ﷺ لهم. وخرج المسلمون وعددهم ١٥٠٠ رجل، وخرج مع رسول الله ﷺ، أم سلمة، رضي الله عنها، زوجه، وولّى رسول الله ﷺ، ابن أم مكتوم على المدينة، وأرسل العيون أمامه ليأتوه بأخبار قريش، وأحرم من ذي الحليفة، وساق الهدي أمامه، دلالة على أنه لا يريد الحرب، وسار نحو مكة، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان، فقال له: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة». ثم قال رسول الله ﷺ: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم فيها؟» فسار بهم رجل من أسلم في طريق ذات أحجار، ثم سلك بهم رسول الله ﷺ، طريقاً حتى خرج من ثنية المرار. وهناك بركت ناقة رسول الله ﷺ، فلم تتحرك، فقال الناس خلأت القصواء، فقال ﷺ: «ما خلأت، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة» ثم قال:

---

(١) العوذ المطافيل: يعني خرجوا بأبنائهم ونسائهم، والاصطلاح استعارة من الإبل التي ولدت حديثاً، والإبل التي معها أولادها.

«والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطةً يُعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفرة قليلة الماء، فقال للناس: «انزلوا»، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليبٍ من تلك القُلُب فغرزه في جوفه، فجاش بالرَّواء. ولما جلس رسول الله ﷺ، وأصحابه هناك جاءهم بُديل بن ورقاء الخزاعي مع رجال من قومه، فسألوا رسول الله ﷺ: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لا يريد حرباً، وإنما جاء معتمراً ومُعظّماً لبيت الله، فرجعوا إلى قريشٍ وأخبروهم بما قال محمد ﷺ، فاتهموهم لأن بني خزاعة كانوا نصحة لرسول الله ﷺ، لا يكتمون عنه خبراً من أخبار مكة، وقالت قريش: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تَحدّثُ بذلك عنا العرب. ثم عادت قريش فأرسلت مكرز بن حفص بن الأحنف، فكان أمره كأمر بديل، ثم بعثت الحُليس بن علقمة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رأى الهدي عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، إعظاماً لما رأى. وعندما سمع لم تسمع منه قريش غضب وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيُصدّ عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده لتُخلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأَنُفِّرَنَّ الأحابيش نفرة رجلٍ واحدٍ. فبدؤوا يسترضونه. وبعثوا إلى رسول الله ﷺ، عروة بن مسعود الثقفي، فجاءه فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت إلى بيضتك لتفضّها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فقال أبو بكر له: امصص بظر اللات، أنحن نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «ابن أبي قحافة»، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك، ولكن هذه بها، وجعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ، وهو يكلمه، فجعل المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ، قبل أن تصل إليك، فيقول له عروة:

ويحك! ما أفظك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ؛ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»؛ قال: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس، (ذلك أن المغيرة قد قتل قبل الإسلام ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، فدفع عروة ديتهم عنه، حتى أصلح الأمر بعد هياج الحيين). ثم رجع إلى قريش فقال لهم: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً، فروا رأيكم.

وبعث رسول الله ﷺ، خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش، ليخبر أشرافهم عن سبب مجيء محمد وأصحابه إلى البيت، وأنهم ما جاؤوا إلا معتمرين، فعقروا به الجمل، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى رجع إلى رسول الله ﷺ.

وبعثت قريش خمسين مقاتلاً من رجالها، يجولون حول معسكر المسلمين، علّهم يصيبون أحداً، فقبض المسلمون عليهم وسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، مع أنهم قد رموا العسكر بالحجارة والنبال.

ودعا رسول الله ﷺ، عمر بن الخطاب، ليبعثه إلى قريش، فيخبرها بالذي جاء له رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجلٍ أعزّ بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ، عثمان بن عفان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش. يخبرهم بالذي جاء له رسول الله ﷺ.

خرج عثمان بن عفان إلى مكة، وفي الطريق التقى بأبان بن سعيد بن العاص، فأجاره، وسار معه حتى دخل مكة، فأتى أبا سفيان وعظماء قريش، وبلّغهم رسالة رسول الله ﷺ، وقالت قريش لعثمان: إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ. وتأخّر عثمان عن العودة، وشاع خبر بأن قريشاً قتلت عثمان.

وبلغ رسول الله ﷺ، ما أُشيع فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وبايع الناس جميعاً، ولم يتخلّف إلا الجد بن قيس. ثم ظهر أن تلك الإشاعة كانت باطلة. وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليصالح المسلمين على ألا يدخلوا مكة عامهم هذا، فجاء سهيل رسول الله ﷺ، وتمّ الصلح بعد محادثات، ولم يبق إلا الكتابة. فوثب عندها عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، إلزم أمره، فإني أشهد أنه رسول الله؛ قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله؛ ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني!» فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب فكتب الصلح ونص على ما يلي:

١ ـ أن تضع أوزارها بين الطرفين مدة عشر سنوات، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢ ـ أن من يأتي محمداً من قريش دون إذن وليه يردّه إليهم.

٣ ـ من جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه.

٤ ـ ألا يكون بين الطرفين عيبة مكفوفة، ولا إسلال ولا إغلال أي لا تظهر عداوة، ولا خيانة، ولا سرقة خفية.

٥ ـ من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فقالت خزاعة: نحن في عقد محمد وعهده، وقالت بنو بكر: نحن في عقد قريش وعهدهم.

٦ ـ أن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، ويأتوا في عام قابل ويمكثوا في مكة ثلاثة أيام، وليس معهم إلا سلاح الراكب، السيوف في القُرب.

ولقد كان في هذا الصلح فائدة للمسلمين كبيرة، فالهدنة فسحت المجال للدعوة، وأعطت الفرصة ليتفرغ المسلمون للانتهاء من الجبهة الشمالية والتخلّص من خطر اليهود نهائياً، أما إعادة من جاء مسلماً دون إذن وليه فإن من مصلحة المسلمين أن يكون لهم عيون بين المشركين يخبرونهم بكل خبر، ويرسلون إليهم خبر كل كيد يحاول المشركون أن يكيدوهم به، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يكون لهم من تأثير على معارفهم وأقربائهم، وما يكون من سلوكهم، فانتشار الإسلام لا يكون بطريقة واحدة، وإنما بعدة طرق، منها الدعوة، ومنها التأثير في السلوك، ومنها القوة. . . . وأما عدم إعادة قريش من جاءهم مرتداً، فإنا نكره أن يكون بيننا عيون لأعدائنا، وبالأصل فلا خير فيمن يرتد، بل لو بقي في صفوفنا لوجب قتله ردّةً. وكذلك فإن في هذا الصلح اعترافاً صريحاً من المشركين بالمسلمين بوضعهم وقوتهم، ولقد حرص المسلمون على ذلك مدة ليست بالقصيرة ولربما كان ذلك منذ أن وصل رسول الله ﷺ، مهاجراً إلى المدينة، وأسس دولته فيها، وكان من هذا الاعتراف أن دخلت قبائل في حلف مع المسلمين مثل خزاعة على الرغم من قرب منازلها من ديار قريش. وأما ما كانوا سيستفيدونه من العمرة، فإنه سيتم في العام المقبل. ولكن المسلمين آنذاك لم يدركوا أبعاد هذا الصلح لذا بدا منهم ما بدا من عمر بن الخطاب، ولربما حدثت بعض الأحداث زادت من هذا الشعور أو أوجدته، إذ بينما كان رسول الله ﷺ، يكتب كتاب الصلح هو وسهيل بن عمرو، وقد انتهى من الاتفاق كل شيء، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود إلى رسول الله ﷺ، فقام سهيل إلى ابنه أبي جندل يضربه على وجهه، ويجذبه جذباً شديداً ليرده إلى قريش، ويقول: يا محمد لقد انتهت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال رسول الله ﷺ: «صدقت» وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أأُرَدّ

إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل؛ اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم». وأسرع عمر بن الخطاب نحو أبي جندل، ومشى إلى جانبه، وصار يقول له: اصبر، ولكنه يدني منه السيف، فكأنه يقول له: تناوله، واضرب به رأس أبيك سهيل بن عمرو، ثم انج بنفسك إلى جانب المسلمين. وهكذا كانت عهود المسلمين لا تنقضها أمور نفسية أو عواطف أو مصالح دنيوية، وإنما يستمسك بها ما تمسك بها الآخرون.

وتمّ عقد الصلح، وما على المسلمين بعده إلا الحِل والرجوع إلى المدينة، فطلب رسول الله ﷺ، من أصحابه الحل، فتوانوا جزعاً مما حدث، فدخل رسول الله ﷺ، إلى خيمته وفيها زوجه أم سلمة، فقال: «يا أم سلمة، هلك المسلمون»، فقالت: وما صنعوا؟ فقال: «أمرتهم فما أطاعوا، طلبت منهم أن يحلّوا فلم يفعلوا»، فقالت، رضي الله عنها: لو فعلت أمامهم لاتّبعوا، فخرج رسول الله ﷺ، فحلق رأسه، ونحر هديه، فتسابق المسلمون إلى ذلك محلقين رؤوسهم ومقصرين، وكل يسرع إلى هديه ينحره.

وعاد رسول الله ﷺ، وأصحابه إلى المدينة، وما أن وصلوا إليها حتى أتاهم أبو بصير، عتبة بن أسيد بن جارية، وكان ممن حبس في مكة التي كان فيها عدد من أمثاله كالوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وما إن وصل أبو بصير حتى جاء في أثره رجل من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى، وقد قدما إلى رسول الله ﷺ، بكتاب من الأخنس بن شريق، وزهر بن عبد عوف، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»، قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني! قال:

«يا أبا بصير، انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»، فانطلق معهما، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، أخذ سيف العامري، وقتله به، وهرب المولى راجعاً إلى رسول الله ﷺ، وكذا رجع أبو بصير، وقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني للقوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن، أو يعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه الرجال».

وخرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر بين مكة والمدينة على طريق قريش التي كانوا ينتقلون عليها إلى الشام، وخرج بعض المستضعفين من مكة إلى أبي بصير، فاجتمع عنده سبعون منهم، يقتلون من قريش من وجدوا منها، ويأخذون من العير ما التقوا بها، حتى ضاقت قريش بهم ذرعاً، وكتبت إلى رسول الله ﷺ، ترجوه أن يؤويهم، وتسأله ذلك بأرحامها، فاستدعاهم رسول الله ﷺ، فقدموا المدينة، وأقاموا بها.

وجاءت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة، حتى قدما المدينة ليرداها وفق صلح الحديبية، فرفض رسول الله ﷺ، ذلك.

غزوة خيبر:

رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في أواخر ذي القعدة، وأقام في المدينة ما يقرب من شهر ونصف، ثم أمر بالاستعداد للمسير إلى خيبر، ولم يورّ رسول الله ﷺ، في حركته هذه، وكان أهل خيبر لا يشكّون في أنه سيسير إليهم عندما تتهيأ الفرصة المناسبة، بعد أن فعلوا ما فعلوه من تحريض على غزو المدينة، وجمع الأحزاب في غزوة الخندق.

وأراد الأعراب أن يسيروا معه في هذه الغزوة، وهم الذين تخلّفوا عنه يوم الحديبية، وظنوا أن لن ينقلب هو والمسلمون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا يومذاك أنهم قد شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فلما عاد المسلمون من الحديبية ظافرين، وأرادوا التوجّه إلى خيبر، رغب الأعراب في المشاركة في هذا

السير، وما شكّوا أنهم سيحصلون على مغانم كثيرة يأخذونها، إلا أن الرسول ﷺ، رفض أن يصحب معه إلا من سار إلى الحديبية، إذ هؤلاء الأعراب لم تكن غايتهم الجهاد في سبيل الله، ولا صحبة رسول الله ﷺ، ولا قتال أعداء الله، وإنما المغانم فقط.

ولننظر إلى الوضع في المدينة قبل أن يتحرّك الجيش نحو خيبر، لقد استاء المنافقون كثيراً من تحرّك المسلمين نحو خيبر، وعلموا أن وضع اليهود هناك سينتهي، وسينتهي معه كل قاعدة يمكن أن يستندوا عليها، لذا فقد أخبر رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ يهود خيبر بتحرّك المسلمين، وشجّعهم على الثبات والمقاومة. وكان في المدينة أيضاً بعض اليهود على شكل أسر أو مجموعات صغيرة. لم يشاركو في غدر بني قريظة، لذا لم يتعرض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أملاكهم، وأموالهم، وأعراضهم، في ذمة الله وذمة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدة، وأكثر المسلمون يستدين منهم، وما إن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، على الرغم من قلتهم، وحياتهم في أمن وطمأنينة، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي ظل حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنوياتهم بالتحدث عن قوة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي: أن أحد جند المسلمين إلى خيبر قال: فلما تجهزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك ـ إن شاء الله ـ إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الأعراب، فيها ـ والتوراة ـ عشرة

آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ، يحرك شفتيه بشيء لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم هذا قد ظلمني، وحبسني بحقي، وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: أعطه حقه. قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليَّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين، ونفلني الله خيراً، وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال[1].

تحرّك الجيش الإسلامي نحو خيبر، وعدده ألف وخمسمائة مقاتل، ومنهم مائتا فارس، وقد أمن الجبهات الأخرى، فهناك هدنة مع قريش، والأعراب لا يستطيعون القيام بعمل بعد الغزوات والسرايا التي سارت إلى كل جهة منطلقةً من المدينة، ويهود المدينة ليسوا سوى أفراد لذا فلن يوضعوا بالحساب كما سبق أن قلنا: إن الوضع الداخلي في المدينة قد خلا من كل شائبة أي: ذات قوة. ولما كان وضع المنافقين واليهود في المدينة ـ كما علمنا ـ ولا بد لهم من إعلام يهود خيبر، وقد فعلوا، لذا أعلن رسول الله ﷺ، أنه قاصد خيبر، ولم يورّ كعادته.

وصلت أخبار المدينة إلى خيبر، وبدأ اليهود بالاستعداد، وفرّوا إلى حصونهم، وأخلوا الحصون الأمامية من النساء والأطفال، فنقلوهم إلى الحصون الخلفية التي ملؤوها بالمؤن والعتاد حساباً لكل طارئ. أما القتال فقد اختلفوا فيه، فبعضهم رأى أن يقاتلوا ـ كعادتهم ـ من وراء الحصون. حتى يمل المسلمون من الحصار فينسحبوا فاشلين، ورأى بعضهم الآخر أن يواجهوا المسلمين في العراء حتى إذ دعت الحاجة رجعوا إلى حصونهم،

---

(١) الواقدي: ٢/ ٦٣٤.

ورأى بعضهم أن يسرعوا فيغزوا المدينة قبل أن يتحرّك المسلمون منها، ويستنجدوا باليهود في فدك، وتيماء، ووادي القرى، والأعراب من أهل الشرك حيث إن المسلمين عدو مشترك لهم جميعاً، ولكن فكرة القتال داخل الحصون هي التي غلبت، وإن كانت طلبات النجدة قد حصلت على الموافقة، وبالفعل فقد جاءت نجدات لا تقلّ عن ألف مقاتل من غطفان وبطونها فزارة، وبني أسد، وكانوا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، وطلحة بن خويلد الأسدي، وفي الوقت نفسه فقد وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل تكون سنداً وقت الطلب، ودخلت الفرقة الأولى مع اليهود في حصونهم، فكان عدد الذين داخل الحصون أحد عشر ألفاً من المقاتلين. ولكن بعض الأعراب قد رفضوا نجدة يهود خيبر، ومنهم بنو مرّة الذين شاركوا في غزوة الأحزاب، وهم الآن يرفضون الاشتراك في القتال، بل نصحوا غيرهم بعدم تورطهم في مساندة اليهود الذين سيغلبون حسبما سمعوا من أحبار يهود أنفسهم، إلا أن النصح لم يفد هؤلاء الأعراب، وأصرّوا على البقاء بجانب حلفائهم اليهود، كما أن رسول الله ﷺ، حرص على ألا يشترك الأعراب بمناصرة اليهود خوفاً على جنده من الحصار فيما إذا تحرك الأعراب خلف المسلمين بعد مغادرتهم المدينة، واقترابهم من خيبر، واتصل بزعماء الأعراب بواسطة الرسل، ولكن ذلك لم يفد أيضاً.

سار جيش المسلمين نحو خيبر، تتقدمه جماعة من الاستطلاع بإمرة عباد بن بشر أحد قادة الحرس النبوي خوفاً من كمائن العدو، ولكشف الطريق، والقبض على الجواسيس قبل أن يتعرفوا على الجيش الإسلامي. وأثناء تحرك الجيش نحو الشمال اندفعت وراءه قوة الأعراب المؤلفة من أربعة آلاف مقاتل، ولكنها لم تلبث أن ولّت الأدبار باتجاه ديارها إذ خطر لها أن يكون في بلادها قوات تسوق الذراري والأنعام ورجالها عنها بعيدون.

وربما يتساءل بعض الناس كيف خاطر رسول الله ﷺ، بجيشه الذي لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل بالسير إلى خيبر وفيها أحد عشر ألفاً من المقاتلين، تحميهم حصونهم، وتجمع أبنيتهم الأقوات الكثيرة، وفوق

كل هذا فهناك أربعة آلاف من المقاتلين الأعراب الذين يمكنهم أن يتحركوا خلف الجيش الإسلامي، ويجعلوه محصوراً بين قوتين أقلها أكثر من ضعفه، وأكبرها تزيد على ستة أضعافه، وأن حركة الجيش كله ستكون فوق أرض العدو، وأكثر المسلمون يجهلونها؟ والواقع فإن كل المعارك التي خاضها المسلمون أول عهدهم لم تكن لينطبق عليها التقويم والتقدير العسكري، فهي خاسرة كلها بالحساب العسكري، ولكنها نجحت جميعها، وكانت نتيجتها النصر المؤزر، بل نستطيع أن نقول: إن أكثرها معارك حاسمة، والسبب في ذلك المعنويات القتالية العالية التي كان يتمتع بها المسلمون فثقتهم بنصر الله وتأييده تلعب الدور الرئيسي، وشجاعتهم بل ومخاطرتهم في القتال من أجل كسب النصر أو الحصول على الشهادة كانت السبب الثاني في غلبتهم لأعدائهم، ثم هناك عدم تفكيرهم إلا في الحرب وترك كل ما يجول في أذهانهم من أمور الدنيا، وجعل القتال خالصاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وعبقرية القائد العسكرية، والرعب الذي يتملك نفوس أعدائهم، وحرص خصومهم على الدنيا، كل هذه الأشياء لعبت دورها في تلك المعارك، وما كانت غزوة خيبر إلا إحدى هذه المعارك وصورة عنها.

وصل رسول الله ﷺ، مع جيشه إلى ضواحي خيبر فبات هناك، وفي الصباح توجّه إلى خيبر - كعادته في عدم الهجوم ليلاً - وأرسل علياً فدعا أهل خيبر إلى الإسلام، فلم يقبلوا، فبدأ الهجوم الإسلامي، وكانت خيبر قسمين: القسم الأول يمثل خط الدفاع الأول، وفيه خمسة حصون: ثلاثة منها في منطقة تسمى «النطاة»، واثنان في منطقة تسمى «الشق» والقسم الثاني: يمثل خط الدفاع الثاني، وفيه ثلاثة حصون.

بدأ الهجوم الإسلامي من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود باتجاه إخوانهم في تيماء، ووادي القرى، وفدك، ونحو بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة النطاة، وقد لقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات أبواب الحصون، واندفعوا نحو المسلمون يقاتلونهم، حتى إذا

رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أصيب عدد من المسلمين يومذاك بجراح نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم، فوجد المسلمون أن موقعهم كان غير مناسب إذ كانوا عرضة للنبال فالمكان مكشوف، والحصون مرتفعة تطل على معسكر المسلمين بسهولة، إضافة إلى أن المعسكر وجد في منطقة موبوءة بين النخيل، الأمر الذي استدعى إلى تغيير مكان المعسكر في الليل بعد أن أتموا نهارهم الأول في القتال.

قاوم اليهود في النطاة مقاومةً عنيفةً، وخاصة أمام أول الحصون وهو حصن (ناعم) الذي لم يفتح حتى قتل قادة المدافعين عنه وهم: مرحب وأخواه: الحارث أبو زينب، وياسر، وبعد ذلك اقتحمه المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب، ثم انتقل المسلمون لحصار الحصن الثاني في منطقة (النطاة) بقيادة الحباب بن المنذر، وقد تم الاستيلاء عليه بعد قتال عنيف، وخرج اليهود عدة مرات يشنون الهجوم على المسلمين، وقد قتل فيه سلّام بن مشكم، وحصل منه المسلمون على غنائم كثيرة، فرَّجت عنهم ما كانوا فيه من ضائقة، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الكثيرة التي حصلوا عليها منه، أما الحصن الثالث فقد قاوم مدة، ثم قطع المسلمون المياه عنه بعد أن عرفوا منابعها من أحد اليهود، فاضطر اليهود للخروج منه والقتال بضراوة ولكنهم هزموا، ودخل المسلمون الحصن، وبذا انتهت منطقة النطاة كلها.

وفتح المسلمون حصون منطقة «الشق» بعد قتال عنيف، وأخذوا منها السبايا، ومنهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت زوج كنانة بن أبي الحقيق، ثم تزوجها رسول الله ﷺ، بعد أن أعتقها.

وزحف المسلمون إلى الشطر الثاني من خيبر ودخلوا الحصن الأول، فانهارت معنويات اليهود، واستسلموا، واتفقوا مع رسول الله ﷺ، على أن يخلي اليهود الحصون كلها، ويسلموا ما فيها إلى المسلمين إضافة إلى أسلحتهم، وأن يجلوا عن خيبر إلى الشام، وأن يأخذوا من الأموال ما

يمكن حمله، وأن يدلوا على كنوزهم، وألا تسبى الذراري على الرغم من أن البلاد تعدّ قد فتحت عنوة إذ انهارت كل مقاومة لليهود، ولكن رسول الله ﷺ، قد تسامح معهم. ثم سمح الرسول لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا أجراء في الأرض مقابل جزء من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفق على أن يكون لهم نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يخرجوا اليهود منها في أي وقت شاؤوا.

وبعد الغزوة أهدت زينب بنت الحارث زوج سلّام بن مشكم شاة مذبوحة مسمومة لرسول الله ﷺ، وما إن تناول منها قليلاً حتى شعر أنها مسمومة، فمنع أصحابه عن متابعة الأكل منها، فمات منهم من مات، وبقي رسول الله ﷺ، يعاني من أثر السم حتى توفي بعد أربع سنوات. وكانت زينب متأثرة لقتل أبيها الحارث، وعميها ياسر، ومرحب، وزوجها سلّام بن مشكم، وقد قُتلت بعد اعترافها وكان قتلها قصاصاً بموت بشر بن البراء الذي مات مسموماً بالشاة، وقد استشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلاً، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

وبعد انتهاء المعارك وصل إلى خيبر جعفر بن أبي طالب من مهاجري الحبشة، وقد فرح رسول الله ﷺ، بقدوم جعفر فرحاً شديداً.

الصلح مع أهل فدك:

عندما سار رسول الله ﷺ، إلى خيبر أرسل رسولاً له إلى يهود فدك، يدعوهم إلى الإسلام، فماطلوا في الجواب بانتظار نتيجة الحرب في خيبر، فلما وصل إليهم خبرها، صالحوا رسول الله ﷺ، على نصف الأرض، دون أن يسير إليهم، وقد بقوا في بلدهم حتى أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مع يهود خيبر إلى الشام.

قتال يهود وادي القرى:

كانت جماعات من اليهود تقيم في وادي القرى، ولها حصون ومناعة، وقوة لا بأس بها، فلما انتهى رسول الله ﷺ، من خيبر سار

إليهم، وقبل أن يدعوهم إلى الإسلام حاولوا الهجوم على المسلمين، ومع ذلك فقد وجه إليهم النداء حقناً للدماء، فأسرعوا بالحرب، واستمر القتال يوماً مبارزة، وقد قتل منهم كل من برز للقتال، وفي اليوم الثاني بدأ الهجوم الإسلامي، فاستسلم اليهود، فعقد معهم صلحاً يقضي ببقائهم في أرضهم والعمل فيها مقابل نصف الثمار. ولم يسلب أحد منهم إذ صدر عفو عام عنهم.

وربما فعل رسول الله ﷺ، هذا مع يهود خيبر، وفدك، ووادي القرى حتى يستثمروا الأرض، فلا تبقى دون استثمار فيما إذا أجلوا عنها، إذ لم يكن يرغب أن يشتغل المسلمون بالأرض، ويخلدوا إليها، ويتركوا الدعوة، والفتوحات، والجهاد في سبيل الله.

يهود تيماء:

وعندما وصل خبر اليهود في شمال المدينة إلى يهود تيماء، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ، يطلبون منه قبول الجزية منهم، وعدّهم ذميين في ظل الدولة الإسلامية، فوافق رسول الله ﷺ، على ذلك، وأخذ منهم الجزية. وعندما أجلى سيدنا عمر بن الخطاب اليهود من قراهم إلى الشام لم يجل أهل تيماء، باعتبارهم ذميين، وأبقاهم في بلدهم.

وأراد بنو فزارة قطع الطريق على رسول الله ﷺ، أثناء عودته من خيبر، علّهم يحصلون على بعض المغانم مما غنمه من حركته على اليهود، إلا أن الرسول الكريم أعلن استعداده لملاقاتهم، فانهارت معنوياتهم، وأصابهم الخوف، وولوا هاربين.

بعد خيبر:

أصبحت قوة المسلمين بعد فتح خيبر أكبر قوة في الجزيرة العربية، ولكن القبائل العربية التي اعتادت الإغارة، وتعودت الكر والفر، لم تعترف تماماً بهذه القوة، بل غرّها أبناؤها وكثرة أفرادها، وفكرت في الإغارة على المسلمين، وخاصة القبائل الكبيرة أمثال هوازن، وغطفان وغيرها، لذا فكّر رسول الله ﷺ، بإرسال السرايا إليها لإخضاعها.

أرسل رسول الله ﷺ، سريةً استطلاعيةً عدد أفرادها ثلاثون رجلاً بإمرة عمر بن الخطاب إلى ديار هوازن في (تُربة) التي تبتعد أكثر من أربعمائة كيلومتر عن المدينة، وعلى هذه السرية أن تسير هذه المسافة ضمن ديار قبائل لا تزال كلها على الوثنية، وتعادي الإسلام، فسار سيدنا عمر بأفراد سريته إلى حيث وُجّه غير وجل ولا خائف، حتى وصل إلى تربة، وعندما سمعت هوازن القبيلة الكبيرة بهذه السرية فرت من وجهها، فعادت السرية إلى المدينة دون أن تجد شيئاً، وكأن هذه الحركة كانت استعراضية، ولكنها إن دلت على شيءٍ، فإنما تدلّ على ما أصبح عليه المسلمون من قوة.

وبعث رسول الله ﷺ، بشير بن سعد إلى بني مرة حول فَدَك في ثلاثين راكباً، فقتلوا جميعاً، ولم ينج منهم سوى جندي واحد، وأمير السرية الذي أثخنته الجراح، فظنوا أنه قد قُتل، ثم استطاع بعد ذلك العودة إلى المدينة.

وسار أبو بكر الصديق على رأس حملة إلى ديار بني كلاب بن بكر في نجد، فغنم، وسبى، وطارد الأعداء ثم عاد.

وتوجه غالب بن عبد الله الليثي على رأس مائة وثلاثين مقاتلاً إلى شرقي المدينة، وقد استطاع قتل الكثير من الأعراب، وأخذ الغنائم من الإبل والأغنام، ولم يقع بيده أحد من الأسرى. وفي هذه السرية التقى أسامة بن زيد برجل كان ضمن معسكر المشركين، فرفع أسامة السيف عليه، فقال ذلك الرجل، وهو مرداس بن نهيك: أشهد أن لا إله إلا الله، إلا أن أسامة اعتقد أن هذا الرجل ما نطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل وأجهز عليه، وقتله وعند عودة السرية، أُخبر رسول الله ﷺ، فأجرى تحقيقاً مع أسامة الذي قال: إن مرداساً لم ينطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «هلا شققت على قلبه؟».

وانطلقت حملة إلى وادي القرى لتأديب القبائل التي عمل عيينة بن حصن على تجميعها للإغارة على المدينة، وكانت هذه الحملة بإمرة بشير بن سعد، فهزم الأعداء، واستاق الأنعام، وأخذ أسيرين، فأسلما..

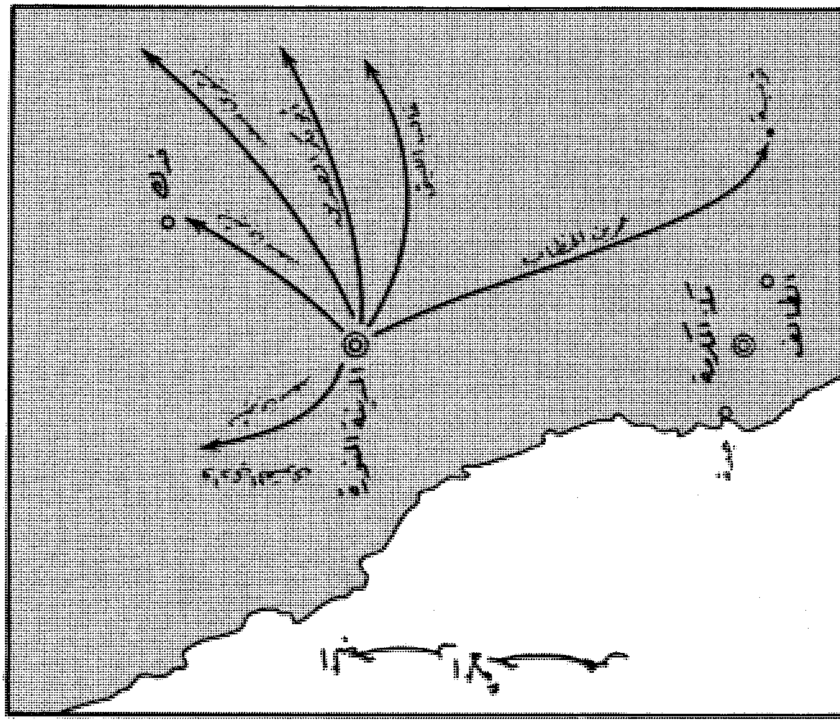

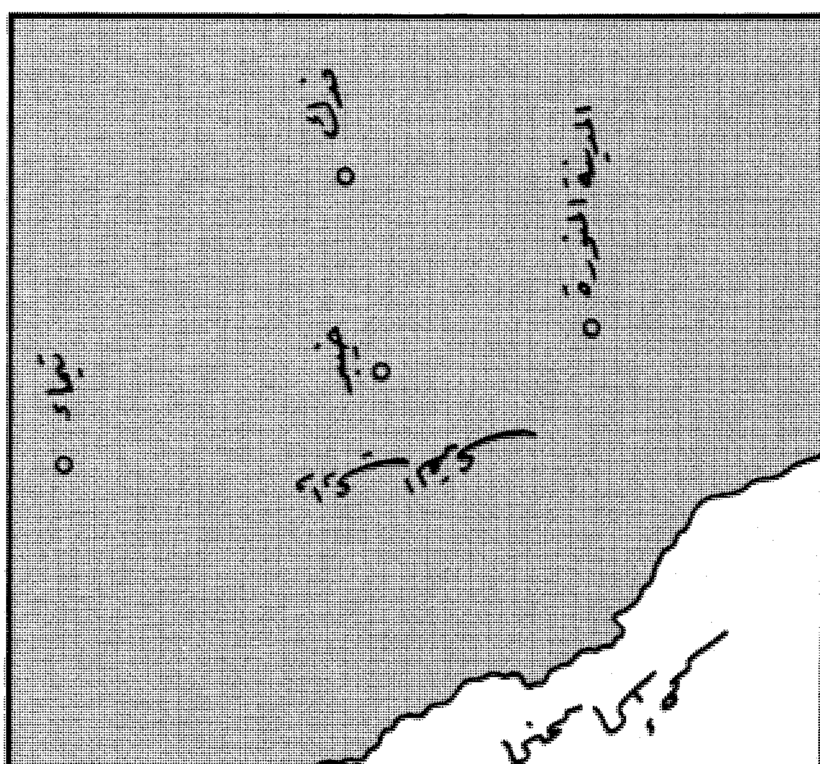

عُمْرَةُ القَضَاءِ :

كان العام قد استدار على صلح الحديبية، وأهلَّ شهر ذي القعدة من العام السابع لهجرة المصطفى، فسار رسول الله ﷺ، مع ألفي مسلم ليؤدوا العمرة، وقد أخذوا معهم السلاح الكامل، ومائتي فرس بقيادة محمد بن مسلمة احتساباً لكل طارىءٍ، وأحرم رسول الله ﷺ، والمسلمون من باب المسجد حيث ساروا عن طريق الفرع بعيدين عن ذي الحليفة، فلما وصلوا إلى مرّ الظهران، وصلت أخبارهم إلى قريش فأرسلت رسلها، فقالوا له: يا محمد لِمَ جئت بهذه الأسلحة إلى قومك، تريد أن تغدر بهم، وما عرفنا هذا عنك صغيراً ولا كبيراً؟ فقال لهم: «لن أدخل عليهم بها». فعادت الرسل إلى قريش وأخبرتهم بالذي كان. أما قريش فقد شق عليها أن ترى محمداً وصحبه داخل مكة، لذا فقد أخلوها، وصعدوا إلى الجبال المحيطة بها، أما رسول الله ﷺ، فقد ترك السلاح والخيل خارج الحرم، وعندها مائتا مسلم يحمونها، وسار مع البقية نحو البيت، فأدوا مناسك العمرة وصعد بلال على ظهر الكعبة فأذن بذلك النداء السماوي، فتأثرت قريش تأثيراً بليغاً، ثم إن رسول الله ﷺ، أرسل مائتي مسلم إلى مرّ الظهران ليحموا السلاح والخيل ليتمكن حماتها الأوائل من تأدية العمرة، ففعلوا، وبعد ثلاثة أيام من دخول المسلمين مكة، خرجوا منها حسب بنود صلح الحديبية. وقد كان لعمرة القضاء أثر في نفوس بعض الأفراد لما شاهدوه من نظام ومن قوة.

إسْلامُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيْد :

لما كان لبعض الشخصيات أثر في التاريخ من ناحية القدوة أو المعارك التاريخية الحاسمة كان لا بد من بحث الأمور التي غيّرت مجرى حياتهم. وخالد بن الوليد من هذه الشخصيات، وقد غيّر دخوله في الإسلام مجرى حياته، ولما كان له دور في قيادة الجيوش الإسلامية كان لا بد من دراسة دخوله في هذا الدين هو وأمثاله، لقد كان خالد أحد فرسان قريش المعروفين بل قائد فرسانها في المعارك التي يشترك فيها بلا منازع وأبوه

الوليد بن المغيرة أحد أثرياء قريش وزعمائها، ومن الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بكل إمكاناتهم، وقد توفي وهو مشرك في مكة قبل غزوة بدر، وبموته برز ابنه خالد كقائد لفرسان قريش، وقد اشترك مع المشركين في قتال المسلمين يوم أحد، ويوم الأحزاب، وفي الحديبية، ثم اعتنق الإسلام، وقد روى، رضي الله عنه، قصة إسلامه فقال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ، إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ، في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه، وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتّبع محمداً وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقي. فبينما أنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، في عمرة القضية، فتغيبت، ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد[1] قد دخل مع النبي ﷺ، في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني

---

(١) الوليد بن الوليد: شهد بدراً مع المشركين، وأسر يومذاك، ثم افتداه أخوه هشام، أسلم بعد فكاك أسره، وحبس في مكة، ثم خرج هارباً منها، حيث التحق بأبي بصير قائد جماعة العيص، وبعد أن أعيت الحيلة قريشاً، طلبت من رسول الله ﷺ قبولهم في المدينة، فانتقلوا إليها، وخبث عليه جرح أصابه في الحرة فمات من أثره.

رسول الله ﷺ، عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: «مثله جهل الإسلام؟» ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد واتّبعناه فإن شرف محمد لنا شرف، فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً. فافترقنا، وقلت: هذا رجل قتل أخوه، وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية، قلت: فاكتم عليّ، قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر، لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم، قال: وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخ مناخة، قال: فاتّعدت أنا وهو (يأجج) إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً، فلم يطلع الفجر حتى التقينا في (يأجج)، فغدونا حتى انتهينا إلى (الهدة) فنجد عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتّباع محمد ﷺ، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا

رسول الله ﷺ، فسرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسُرّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطّلعت عليه فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فردّ عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «تعال» ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعو الله أن يغفر لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله» قلت: يا رسول الله، على ذلك قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيل الله»، قال خالد: وتقدم عثمان، وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ، قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، قال: والله ما كان رسول الله ﷺ، يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[1].

إسلام عمرو بن العاص:

وقال عمرو بن العاص عن إسلامه: كنت للإسلام مجانباً معانداً. حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، قال: فقلت في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرنّ محمد على قريش، فلحقت بمالي بالرهط وأقللت من الناس ـ أي من لقائهم ـ فلما حضرت الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ، في الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول: يدخل محمد قابلاً بأصحابه، ما مكة ولا الطائف بمنزل، ولاشيء خير من الخروج، وأنا بعد ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلّها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي، وكانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم. فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا[2] في يمن

(١) البداية والنهاية ٤/٢٣٨ ـ ٢٤٠ لابن كثير.

(٢) المِدرَه: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

نفسه وبركة أمره، قال: قلت: تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وأني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا: هذا الرأي. قال: قلت: فاجمعوا ما نهديه له ـ وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ـ فحملنا أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ، قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وفي شأن جعفر وأصحابه، ويدعوه فيه إلى الإسلام، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي، فسألته إياه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سُرّت قريش، وكنت قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت على النجاشي، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمته، فأعجبه، وفرّق منه شيئاً بين بطارقته، وأمر بسائره، فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب، ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه، قلت: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول عدوٌ لنا، قد وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطنيه، فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك، قال فاستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟ قال عمرو: فغيّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم، وتخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتّبعه، فوالله إنه لعلى حق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط

يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم، وكساني ثياباً - وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها - ثم خرجت على أصحابي، فلما رأوا كسوة النجاشي سرّوا بذلك، وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه من أول مرة، وقلت: أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت. قال: ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجةٍ، فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت، تدفع، قال: فركبت معهم، ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة، وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً، وخرجت أريد المدينة، حتى مررت على مرّ الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهدّة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير، يريدان منزلاً، وأحدهما داخل في الخيمة، والآخر يمسك الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قال: قلت: أين تريد؟ قال: محمدا، دخل الناس الإسلام، فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا والله أريد محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه بشّر رسول الله ﷺ، بقدومنا، فكان كما ظننت. وأنخنا بالحرة، فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه، وإن لوجهه تهللاً، والمسلمون حوله قد سرّوا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه. قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر، فقال: «إنّ الإسلام يجبّ ما قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها» قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ، وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب(١).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الرابع.

إسلام خزاعة:

أسلمت قبيلة خزاعة كافة، وكانت قد دخلت في حلف رسول الله ﷺ، في صلح الحديبية، ولكن لم تلبث أن اعتنقت الإسلام، بعد الصلح بقليل.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام:

وجد رسول الله ﷺ، أن الوقت قد أصبح مناسباً لدعوة الحكام، سواء أكانوا داخل الجزيرة أم خارجها، فاليهود قد انتهوا من الساحة، وقريش في هدنة معه، أما الأعراب فلا بد من غزو ديارهم باستمرار، لأنهم اعتادوا على شنّ الغارات، فإن لم يغزهم قطعوا الطرق، أو قاموا بشنّ الغارات على من جاورهم، أو على مناطق المدينة بالذات.

وقد كتب الرسائل إلى الحكام وبعثها مع رسل له، فأرسل:

١ ـ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم.

٢ ـ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.

٣ ـ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر.

٥ ـ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.

٦ ـ سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي أمير منطقة اليمامة.

٧ ـ شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير الغساسنة في حوران.

٨ ـ المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث الحميري حاكم اليمن.

٩ ـ عمرو بن العاص السهمي إلى ملكي عُمان جيفر بن جلندي، وعبد ابن جلندي.

وقد أسلم ملك البحرين المنذر بن ساوى، وملك الحبشة النجاشي الذي كان عهده بالملك حديثاً، إذ توفي النجاشي الذي سبقه والذي كان قد أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وملكا عمان ابنا جلندي، وحاكم اليمن الحارث الحميري وأخواه.

وخاف على ملكه كل من هرقل ملك الروم، والمقوقس حاكم مصر.

أما كسرى ملك الفرس فقد مزق كتاب رسول الله ﷺ، فمزق الله دولته، بينما عامله على اليمن باذان فقد اعترف بنبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، وأسلم.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني ملك حوران فقد هدد بغزو المدينة، بينما أسلم جبلة بن الأيهم وهو أحد أمراء الغساسنة إذ جاءه كتاب خاص من رسول الله ﷺ.

وأما أمير اليمامة هوذة بن علي الحنفي، فقد اشترط أن يجعل له الأمر من بعده.

سرية غالب بن عبد الله:

أرسل رسول الله ﷺ، سرية بإمرة غالب بن عبد الله إلى بني الملوح وهم فخذ من بني الليث من كنانة، ومنازلهم عل سواحل البحر جنوب منازل بني غفار، وقد أدت هذه السرية غرضها بنجاح على الرغم من أن عددها لا يصل إلى العشرين رجلاً، إذ قتلوا بعض الرجال، وأخذوا الأغنام، ولما جاءت جموع القبيلة، فصل بينهم السيل، ورجعت السرية إلى المدينة آمنة لم يصب أحد منها بأذى.

سرية شجاع بن وهب:

وبعث رسول الله ﷺ، شجاع بن وهب على رأس أربعة وعشرين مقاتلاً إلى قبيلة هوازن شرقي الطائف، ففزع المشركون عندما وصلت إليهم

أخبار هذه السرية، وظنوا أن عددها كبير، ولم يتوقّعوا أن يسير هذا العدد هذه المسافة الطويلة، لذا فقد هرب أفراد قبيلة هوازن، وتركوا بعض النساء سبايا بأيدي أفراد السرية الذين استاقوا الأغنام.

وجاء وفد من هوازن معلنين إسلامهم، وكلموا رسول الله ﷺ، في إطلاق سراح السبايا، فكلّم السرية في ذلك فوافقوا، وأطلق سراح السبايا.

سرية كعب بن عمير:

بعث رسول الله ﷺ، أربعة عشر رجلاً للدعوة إلى الإسلام في جهات بلاد الشام الجنوبية، بإمرة كعب بن عمير، فاعتدى عليهم الغساسنة، وقتلوا أفراد السرية جميعاً بعد معركة حامية بين الطرفين.

غَـــزوَة مُؤتَـــة

كانت نظرة الروم الذين يسيطرون على بلاد الشام، ومصر، وسواحل إفريقية الشمالية كلها إضافة إلى بلاد الأناضول وغيرها إلى العرب نظرة ازدراء واحتقار يسمعون بغارات بعضهم على بعض في سبيل السلب والنهب وأخذ شيء من الغنائم من العدو في سبيل الرزق، ويعلمون فقر جزيرتهم وجدبها، وإذا جاءتهم سنوات عجاف انطلقوا إلى أطرافها يغيرون، وكثيراً ما كان الروم يكلون إلى عملائهم الغساسنة ردّ تلك الغارات دون الحاجة إلى شغل أنفسهم بها أو التفكير بأمرها، وعندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغير نظرتهم بادئ ذي بدءٍ، فلما طرد اليهود من المدينة ووصل بعضهم إلى بلاد الشام، ثم وصلت كتب رسول الله ﷺ، إلى الملوك والأمراء، فآمن من آمن، وخاف على ملكه من خاف ومنهم هرقل ملكهم بالذات، وعاملهم على مصر، ولولا الخوف على الملك والمصالح لغدت دولتهم تتبع المدينة عاصمة المسلمين، فحقد لذلك المتعصبون من أتباع الكنيسة، وكادت قلوبهم تتميز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة، وأوعزوا إليهم أن يقضوا على أي أثر يصل إلى جهاتهم من قبل المسلمين، ولهذا فقد قتل الغساسنة دعاة المسلمين الأربعة عشر رجلاً مع كعب بن عمير، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الملك الغساني الحارث بن أبي شمّر رسول النبي ﷺ، الحارث بن عمير الأزدي عندما التقى به في مؤتة، وسأله عن قصده، فقال: الشام، فقال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فقيد، ثم قتله صبراً. هذا إضافة إلى تهديد الملك الغساني الحارث بن أبي شمر بغزو الجزيرة، واحتلال

المدينة، لهذا كله أراد رسول الله ﷺ، أن يعطي الروم وعملاءهم الغساسنة معاً صورة حقيقية عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يقاتلوا للأسلاب وإنما للدعوة إلى الله، وأن قوتهم إنما هي تختلف عن قوة القبائل البدوية المتنقلة التي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كقتال الكر والفر، وليس كالقتال من أجل التراب، والديار، والمنازل، والأملاك أو الأعشاب والمياه.

لهذا أرسل رسول الله ﷺ، جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وجعل عليه زيد بن حارثة الذي قاد عدداً من السرايا، وأبدى كثيراً من فنون الشجاعة والحرب، وقال: «فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب» وكان قد جاء من الحبشة. «وإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، ثم يختار المسلمون من شاؤوا»، وكان في هذا الجيش خالد بن الوليد، وهذا أول بعث سار فيه خالد إذ لم يكن قد مضى على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر إذ وصل إلى المدينة مسلماً في غرة صفر من السنة الثامنة للهجرة، وكان هذا البعث في جمادى الأولى من السنة نفسها، وانطلق الجيش الإسلامي، ووصلت أخباره إلى عامل الروم على بلاد الشام الجنوبية شرحبيل بن عمرو الغساني، فأخبر الروم، وبدأ بجمع المقاتلين من القبائل العربية التابعة للروم، وأرسل أخاه (سدوس) طليعة له مع خمسين مقاتلاً من أجل استطلاع الأخبار عن الجيش الإسلامي، إلا أن سدوس قد وقع بأيدي المسلمين في وادي القرى وقتل، فخاف شرحبيل بعد مقتل أخيه خوفاً شديداً وطلب النجدة من الروم، كان هرقل ملكهم آنذاك في بيت المقدس. وجاءت نجدة الروم وكان قوامها مائة ألف مقاتل إذ أيقن أن الأمر جدّ، وما اعتادوا أن يطلب عملاؤهم نجدة منهم لرد غارة عربية إذ أنهم يكفونهم ذلك، بل قد لا يحتاجون إلى حشد الجيوش واستنفار القبائل المؤيدة، أما وإنهم قد طلبوا النجدة المستعجلة مع ما كانوا قد جمعوه من قبائلهم وأحلافهم وزاد عددهم على المائة ألف مقاتل، وأنجدهم الروم بقوة مثلها بقيادة تيودور أخي هرقل.

جاءت أخبار قوة الروم وعملائهم إلى الجيش الإسلامي، وكان قد

وصل إلى معان، فوقف للتشاور، فرأى فريق منهم إعلام المدينة، وطلب المدد، وانتظار الجواب، ورأى الفريق الثاني ضرورة ملاقاة العدو، فالجهاد لا يتوقّف على العدد وحساب العسكريين من غير المسلمين، وأنهم إن انتظروا فقد لا يمهلهم عدوهم فإما العودة وهي ليست بالحساب، وإما ملاقاة الأعداء، وكان عبد الله بن رواحة القائد الثالث على رأس الفريق الثاني، وقد قال: «إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فانطلقوا بنا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان». وبعد هذه الكلمة اشتدت حماسة المسلمين للقتال، وأصدر قائدهم زيد بن حارثة أمره بالتحرك لملاقاة الأعداء.

كان جيش الروم وعملاؤه يتألف من مائة ألف من الروم بقيادة تيودور أخي هرقل، ومائة ألف من الغساسنة والعرب المتنصّرة بقيادة مغالك بن رافلة البلوي، ومع هذا الجيش العرمرم عشرات الألوف من الخيل تزيد على خمسين ألفاً. أما الجيش الإسلامي فلم يكن ليزيد على ثلاثة آلاف.

وصل الجيش الإسلامي إلى مؤتة فتحصن بها خوفاً من التطويق، أما الروم فقد توقعوا أن يبيدوا الجيش الإسلامي إبادة تامة خلال ساعة أو ساعات قلائل، أو يضطروه إلى الاستسلام، ولكنهم رأوا غير ما توقعوا فقد وجدوا أناساً يندفعون إلى القتال دون مبالاة، وكأنه لا شيء أمامهم، أو كأنهم يحصدون حقولاً من القمح تمايلت سنابلها، وقد استمرت المعركة سبعة أيام، وجد الروم خلال الأيام الستة الأهوال كلها وعانوا الشدائد، وشُدهوا من الشجاعة البالغة لهؤلاء الذين يقاتلونهم، وكلما حاولوا اقتحام مواقع المسلمين باؤوا بالفشل على الرغم من كثرتهم الكبيرة، ورجعوا إلى أماكنهم مخلفين عدداً كبيراً من القتلى في ساحة المعركة، وظل المسلمون في صمود تام. وفي اليوم السادس استشهد زيد بن حارثة بعد أن دخل

صفوف الأعداء، وقتل منهم الكثير كعادته في كل يوم من أيام المعركة، وفي هذه المرة تناوشته رماح الأعداء فخرَّ صريعاً، ولم يسقط اللواء من يده بل تناوله القائد الثاني جعفر بن أبي طالب والذي كان يقاتل بجانب زيد طيلة أيام المعركة السابقة، فقاتل قتالاً شديداً شُدِهَ له الروم، فكان يدفع جحافل الأعداء أمامه وتسير كتائب المسلمين خلفه، ثم أقحم فرسه وسط جموع الخصوم ولكثرة الزحام وشدة الالتحام عجزت فرسه على قوتها عن الحركة، فألقى نفسه عنها، وعقرها، وقاتل مترجلاً قتالاً لم يكد يسبقه أحد إليه، وأحاط الروم به من كل جهة، وهو يشتت شملهم حيث اتجه حتى أُنهك، وقطعت يده اليمنى التي تحمل الراية فأخذها باليسرى فقطعت، فاحتضنها بعضده خوفاً من أن تقع لأن وقوع الراية دليل هزيمة الجيش، وبوقوعها تنهار معنويات المقاتلين، ثم أثخنته الجراح فوقع شهيداً، وبه أكثر من تسعين ضربة، منها ضربة رمح قد أنفذته، وضربة سيف شطرته، ثم تناول الراية عبد الله بن رواحة فاستبسل في القتال حتى لقي مصرعه كسابقيه، وسقط لواء المسلمين في الأرض، فضعفت المعنويات، وبدأ بعض المسلمين بالتراجع، إلا أن قطبة بن عامر الأنصاري قد رفع اللواء، وأخذه منه ثابت بن أقرم، وبدأ يصيح في الناس، فثابوا إلى رشدهم، وطلب من المسلمين أن يعملوا على اختيار قائد لهم يرفع لهم اللواء، فاختاروه فأبى، ولكنه أخذه فسلمه إلى خالد بن الوليد، فوافق وجوه الجيش، وكان اليوم السادس قد انتهى، وأرخى الظلام سدوله، ومنع الليل بعض الفريقين من بعض، وأثناء الليل نظم خالد الجيش من جديد، وفكر في إنقاذ الموقف، فاختار كتائب من الفرسان، وطلب منها المرابطة خارج مؤتة، فإذا أصبح الصباح والتحم الناس، جاء بعضها إثر بعض مرتفعة أصواتها بالتكبير، وعدو الخيل يثير النقع، ثم تشترك في المعركة، كما أبدل مواقع فرق الجيش، إذ جعل الميمنة مكان الميسرة والساقة بدل المقدمة...

ومع انبلاج الفجر عاد القتال، وشنّ خالد هجوماً معاكساً زلزل فيه الروم، فوجد المقاتلة الروم أمامهم غير الذين عرفوهم، فظنوا أن مدداً قد جاء للمسلمين فخافوا مغبة الأمر، ثم تتالت كتائب فرسان المسلمين تصل إلى

المعركة وكأنها فرق جديدة وكبيرة حسبما يظهر من الغبار المرتفع والأصوات المتعالية، وزاد خوف الروم، وأيقنوا أن المدد قد وصل، واعتقدوا أنهم لا قبل لهم بقوات إضافية كبيرة، وقد أنهكتهم قوة صغيرة فكيف لهم بجموع كثيرة لم تعرف التعب بعد.

وصبر المسلمون يومهم السابع ببسالة، ولكن بشيء كثير من التعب، وعندما جاء المساء وفصل الظلام بين الجيشين انسحب خالد بالجيش على شكل كتائب يحمي بعضها أثناء التراجع بعضها الآخر خوفاً من ملاحقة الروم ومطاردتهم، وعندهم الإمكانات الضخمة، فعندهم من سلاح المطاردة خمسون ألفاً من الفرسان، إلا أن الروم أيقنوا أن هذا الانسحاب إنما هو مكيدة حربية بعد أن جاءتهم القوات الجديدة، وأنهم ينصبون الكمائن ليوقعوا الروم فيها، فأحجموا عن المطاردة، ونجا الجيش الإسلامي الصغير بهذه الخطة.

وعلم رسول الله ﷺ، بما حدث، وتأثر التأثر البليغ، وأخبر المسلمين، وعندما عاد الجيش ظنّ بعض الناس أن الجنود قد فروا من المعركة، فقذفوهم بوابل من الكلمات حتى برأهم رسول الله ﷺ، مما أُلصق بهم، وأثنى عليهم وعلى قتالهم.

معركة ذات السلاسل:

يبدو أن الروم بعد معركة مؤتة شعروا بقلة المسلمين الذين لم يستطيعوا جمع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل يرسلونهم إلى منطقة يزيد بعدها على الألف كيلومتر، وإلى دولة واسعة مترامية الأطراف تستطيع زجَّ مئات الألوف، ولهذا فقد أوكلوا مرة ثانية إلى عملائهم من العرب المتنصِّرة غزو قاعدة المسلمين وحاضرتهم المدينة المنورة، وخاصة قبيلة قضاعة وبطونها المتعددة الذين اشتركوا في معركة مؤتة، وكانوا قوامها، ودفعوا إليها مائة ألف مقاتل، وقد لقي قائدهم مالك بن رافلة مصرعه في تلك المعركة. وبعد هذه الأوامر من الروم إلى عملائهم من العرب المتنصِّرة فقد بدأت

قبيلة قضاعة تحشد جموعها، وتستنفر بطونها المتعددة، وهي على خوف من القتال مع المسلمين لما لقيت في مؤتة، ولكن لا بد من تنفيذ أوامر ساداتها.

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، بجموع قضاعة، فأراد أن يفاجئها قبل استكمال عدتها، كما أن يبعث إليها بقوة قليلة تدلّ على قيمة قضاعة في نظر المسلمين، وأن الثلاثة آلاف مقاتل الذين كانوا في مؤتة كان هدفهم الروم وليس قضاعة وغيرها من تلك القبائل الضاربة في تلك الجهات.

أرسل رسول الله ﷺ، قوة مؤلفة من ثلاثمائة رجل بإمرة عمرو بن العاص، ومعهم ثلاثون فارساً، وعمرو بن العاص لم يمض على إسلامه أكثر من أربعة أشهر، ويكون قتاله هذا أول قتال إسلامي يشترك فيه، ويكون هذا البعث على قلّته من أفضل البعوث إذ يضم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين في الإسلام، وفي هذا البعث تربية للمسلمين على الطاعة والسمع للقائد ـ أياً كان ـ ما دام يجيد الفن الذي يعمل فيه، وعمرو بن العاص من المقاتلين من الدرجة الأولى. تحرك الجيش الإسلامي في جمادى الآخرة من المدينة، وسار حتى دخل في أرض العدو، ونزل على ماء يسمى ذات السلاسل، وجاءت المعلومات إلى عمرو بن العاص، أن قوة العدو كبيرة لا يستطيع ملاقاتها بمن معه، لذا طلب المدد من المدينة على جناح السرعة، وخرج من أرض العدو خشية الصدام قبل وصول المدد، كما منع إشعال النار وخاصة في الليل على الرغم من البرد الشديد في تلك الأيام وتلك الجهات زيادة في كتم الأخبار.

وصل المدد بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ويضم مائتي مقاتل، وبقي عمرو بن العاص هو القائد الأعلى للجيش على الرغم من طلب بعضهم أن يكون أبو عبيدة هو القائد، ولكن أبا عبيدة رضي الله عنه، لم ير الخلاف على القيادة في الظروف القائمة، ولا بأية حال، ولا بأية ظرفٍ:

التحم الخصمان، ولكن قضاعة عجزت عن مواجهة المسلمين، فلم تصمد إلا قليلاً، ثم ولّت الأدبار على الرغم من كثرتهم ومدّ الروم لهم

بالسلاح والمال، وقد طاردهم المسلمون، ثم منع القائد المطاردة خوفاً من الكمائن.

رجع الجيش الإسلامي إلى المدينة ولم يصب أحد من أفراده بأذى، وكان قد سبقه عوف بن مالك الأشجعي[1] ليخبر رسول الله ﷺ، بما تمّ، فسُرّ رسول الله ﷺ، سروراً كبيراً، وأقر تصرفات القائد وأثنى على أبي عبيدة.

---

(١) عوف بن مالك الأشجعي، أسلم في السنة السادسة، وشهد فتح مكة مع المسلمين، وكانت معه راية أشجع، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، شهد فتوح الشام، وتوفي عام ٧٣هـ.

فتح مكة المكرمة

دخلت خزاعة إثر صلح الحديبية في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، ثم لم تلبث خزاعة أن اعتنقت الإسلام، وكان بين الحيين في الجاهلية ثارات، وبعد صلح الحديبية أثيرت حوادث الجاهلية، فهجمت بنو بكر على خزاعة، وهي على ماء لها يدعى الوتير، وقتلوا منها رجلاً، واشتبك الحيان، وأمدت قريش حليفتها بني بكر بالمال والسلاح، وعاونتهم بالرجال أثناء قتال الليل استخفاء، حتى اضطرت خزاعة إلى دخول الحرم، ولكن ذلك لم يمنعها من أعدائها الذين انتهكوا الحرم، فلجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وما كان من خزاعة إلا أن استنجدت بإخوانها المسلمين الذين يشكلون معها أمة واحدة.

خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، بالمدينة، وأخبره بما أصاب خزاعة، فقال له: «نصرت يا عمرو بن سالم».

وخرج أيضاً بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، وقدموا المدينة، وأخبروا رسول الله ﷺ، بما أصيب منهم، وبمناصرة قريش لبني بكر.

وأرسلت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليؤكد الصلح ويزيد في مدته، والتقى أبو سفيان وهو في طريقه إلى المدينة مع بديل بن ورقاء عائداً منها وذلك في عسفان، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن

هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلمه، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها ابنها الحسن بن علي بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحكم يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً، يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فأقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أوَ ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبِمَ أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

أخبر رسول الله ﷺ، المسلمين بما عزم عليه من السير إلى مكة، وأمر بالتهيؤ لذلك، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

وخاف حاطب بن أبي بلتعة على أهله في مكة، فأراد أن يصانعهم فأرسل إليهم كتاباً يعلمهم بمسير رسول الله ﷺ، إليهم، بعثه مع امرأة مقابل شيء يؤديه لها، فجعلت الكتاب في شعرها، وضفرت عليه ضفائرها، وانطلقت به، وأخبر رسول الله ﷺ، بذلك من السماء، فبعث في إثر المرأة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأدركاها بذي الحليفة، فسألاها فأنكرت، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فهدداها وأعلماها أن رسول الله ﷺ، لم يُكذّب، فأخرجت الكتاب من ضفائرها، فجاءا به إلى رسول الله ﷺ، الذي سأل حاطباً عن سبب فعله هذا، فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة. وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بذر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

خرج رسول الله ﷺ، من المدينة لعشر خلون من رمضان في السنة الثامنة للهجرة صائماً والمسلمون، حتى إذا كان بالكديد أفطروا. وخرج العباس مع أهله من مكة مهاجراً مسلماً، والتقى برسول الله ﷺ، بالجحفة بالقرب من رابغ، فتابع عيال العباس إلى المدينة، وصحب العباس المسلمين في طريقهم إلى مكة.

والتقى رسول الله ﷺ، في الطريق بين مكة والمدينة بابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابن عمته عاتكة عبد الله بن أمية المخزومي أخي أم المؤمنين أم سلمة، فأسلما أيضاً.

ووصل رسول الله ﷺ، إلى مرّ الظهران (وادي فاطمة) فنزل هناك،

فجاءه أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يستطلعون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب، فأخذ أبا سفيان ليستأمن رسول الله ﷺ له، ورجع صاحباه وكان العباس يرغب ألا يدخل رسول الله ﷺ، مكة عنوة فتهلك قريش إلى آخر الدهر، ولكنه يريد أن يأتوه فيستأمنوه فيدخل مكة دون قتال. واستأمن العباس رسول الله ﷺ، في أبي سفيان فأمّنه، وأسلم أبو سفيان. فقال العباس: أسرع إلى قومك يا أبا سفيان.

رجع أبو سفيان إلى مكة، فلما وصل إليها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس، ودخلوا دورهم والمسجد. وبهذا فقد استأمن قومه، ودخل رسول الله ﷺ، مكة دون قتال، واتجه إلى ذي طوى، واضعاً رأسه تواضعاً لله سبحانه وتعالى على ما أكرمه به من الفتح، حتى إن لحيته لتكاد تمس واسطة الرحل.

وفي ذي طوى قسم رسول الله ﷺ، الجند فسار الزبير بن العوام بقسم من الجيش، وكان على الميسرة، ودخل مكة من كدى، وانطلق سعد بن عبادة بقسم آخر، ودخل مكة من كداء. ثم أخذ الراية منه علي بن أبي طالب، ودخل خالد البلد الحرام من أسفله، وكان على الميمنة، وسار أبو عبيدة بن الجراح بين يدي رسول الله ﷺ، من «أذاخر» حتى نزل أعلى مكة، وضربت له هناك قبته. ولم يلق المسلمون أية مقاومة أثناء دخولهم مكة سوى ما كان من بعض الرجال الذين تعرضوا لخالد بن الوليد في «الخندمة»، وعليهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهم، وكانت بين الطرفين مناوشات فرّ المشركون على أثرها.

وكان رسول الله ﷺ، قد أمر المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أشخاصاً سمّى لهم منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، والحويرث بن نقيذ، ومقيس بن حبابة،

وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وقينتان، وصفوان بن أمية، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهبار بن الأسود، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان قد أسلم، وكتب لرسول الله ﷺ الوحي، ثم ارتد وافترى الكذب، وفرّ إلى قريش. فعندما دخل رسول الله ﷺ، مكة أمر بقتله، فهرب إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه في الرضاعة، فغيبه قليلاً، ثم استأمن له رسول الله ﷺ، فأمّنه، فأسلم وحسن إسلامه، وولاه عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وكان من الولاة المعروفين والقادة المشهورين في قتال الروم.

وأما عكرمة بن أبي جهل فقد فرّ إلى اليمن عندما دخل رسول الله ﷺ، إلى مكة، وأسلمت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له عند رسول الله ﷺ، وخرجت في طلبه إلى اليمن، فجاءت به إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، وحسن إسلامه، وكان من الأبطال في فتح الشام.

وأما عبد الله بن خطل فقد كان مسلماً، فقتل رجلاً مسلماً، وفرّ إلى قريش مرتداً، فعندما دخل المسلمون قتلوه بأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وأما الحويرث بن نقيذ فقد كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، وآذى أهله بعد هجرته إلى المدينة، ولذا كان مصيره القتل عند فتح مكة.

وأما مقيس بن حبابة فقد كان مسلماً فقتل رجلاً أنصارياً، وهرب مرتداً، وقد قتل، وإن حكم المرتد هو القتل.

وأما كعب بن زهير بن أبي سلمى فقد كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ، ثم إنه عاد معتذراً إليه بعد أن فرّ وجاء إلى المدينة، وأنشده قصيدته الطويلة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول[1]

---

(١) بانت: فارقت وبعدت. متبول: أسقمه الحب وأضناه. متيم: ذليل مستعبد. مكبول: مقيد.

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزوميان فقد التجآ إلى أم هانئ بنت أبي طالب، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأمّنتهما، ثم أسلما بعد أن عفا عنهما رسول الله ﷺ، وكان الثاني منهما، وهو زهير ابن عمة رسول الله ﷺ، عاتكة.

وأما القينتان فكانتا لعبد الله بن خطل وكانتا تغنيان له بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه.

وأما صفوان بن أمية فقد هرب إلى جدة يريد أن يركب البحر منها إلى اليمن، فأخذ له الأمان من رسول الله ﷺ، عمير بن وهب، ولحق به إلى جدة فعاد به، وأسلم صفوان، وكانت عنده فاختة بنت الوليد أخت خالد بن الوليد، وقد أخذت له الأمان أيضاً من رسول الله ﷺ، بعد أن أسلمت.

أما هبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكان زوج أم هانئ بنت أبي طالب ـ فقد فرّ، وبقي كافراً حتى مات، وقد تأثر من إسلام زوجه أم هانئ.

وأما هبّار بن الأسود فقد جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو في الجعرانة فأسلم، وكذا أسلم وحشي، وهند بنت عتبة يوم الفتح.

وبعد أن هدأت أوضاع الناس في مكة طاف رسول الله ﷺ، حول الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له باب الكعبة فدخل إليها فأزال ما بها من صور، وحطّم ما فيها من أصنام، ثم أعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة وأبقى السدانة معه. ثم وقف رسول الله ﷺ، على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها

بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(١)... ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وجلس رسول الله ﷺ، في المسجد فبايعه الرجال، ولما تمت بيعة الرجال بايعته النساء على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الرسول في معروف. ثم أمر رسول الله ﷺ، بأن يؤذن على ظهر الكعبة.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد، وفي اليوم الخامس من إقامته بمكة أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد على رأس ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى، وهي أكبر صنم لقريش، ومكانها ببطن نخلة.

وأرسل عمرو بن العاص لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، ومكانه على بعد ثلاثة أميال من مكة. كما بعث سعد بن زيد الأشهلي على رأس عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة، ومكانها على جبل يعرف باسم «السلل» على ساحل البحر الأحمر شمالي مدينة جدة بـ١٧٠ كيلاً.

كما أرسل رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى بني جذيمة في تهامة داعياً، ولم يرسله مقاتلاً، ولكنه قتل من القوم، ولما علم رسول الله ﷺ، بعث إليه علي بن أبي طالب ليوقف القتل ففعل.

غزوة حنين:

بعد فتح مكة وإقبال الناس على الإسلام أخذت قبيلة هوازن وقبيلة

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

ثقيف العزة بالإثم، وقالوا: فلنغزهم قبل أن يغزونا، وأجمع أشراف القبيلتين على ذلك، وجعلوا أمرهم لمالك بن عوف النصري، وانضمت إليهم قبائل كثيرة منهم بنو سعد بن بكر قبيلة حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، وانطلقوا وقد أخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم ليعينهم ذلك على الثبات والمقاومة حسب رأيهم.

وعلم رسول الله ﷺ، بما تفعل هوازن وثقيف فرأى أن يسير إليهم قبل أن يداهموه في مكة، ويستبيحوا حرمتها، فإن رجالاً ربما لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، فينقلبوا عليه أو لا يرون القتال حيث يجب. فسار إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون ممن خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وأعجب المسلمون يومئذ بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، إذ أن القوة ليست بالكثرة كما أنها ليست بالسلاح وحده وإنما الروح المعنوية لدى الجند، وبالإيمان بالمبدأ الذي يقاتلون في سبيله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. وأثناء سير المسلمين إلى عدوهم خرج لمقدمتهم كمين كان قد كمن لهم في مضيق الوادي وعلى جنباته ففاجؤوهم قبل أن ينبلج الفجر وقابلوا خيلهم بوابل من النبل فتقهقرت الخيل وولّت الأدبار، فوجئ المسلمون بذلك فأصابهم ذعر شديد، فتفرّقوا من غير نظام، وثبت رسول الله ﷺ، وحوله جماعة من أصحابه وأهل بيته منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، والفضل بن العباس، والمغيرة (أبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، وجعفر بن المغيرة بن الحارث، ومتعب بن أبي لهب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وعدد من المهاجرين والأنصار. أما

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

حديثو العهد بالإسلام من قريش فقد قالوا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وأسرّها بعضهم وأعلنها بعضهم الآخر. وصمد رسول الله ﷺ، بمن معه للأعداء وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس ـ وكان جهوري الصوت ـ أن ينادي بالمسلمين فصار يصرخ بأعلى صوته: يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان، فأقبل الناس نحوه وثابوا إلى رشدهم. وعادوا إلى رسولهم، فاجتمع حوله عدد كبير، وأنزل الله سكينته عليهم وأنزل جنوداً لم يروها شدّت من عزيمتهم، وكرّ المسلمون على أعدائهم ففرّت هوازن وثقيف من أمامهم، ولم يلتفت أفرادهم إلى النساء والذراري الذين أخذوهم معهم لذلك، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وقد جمعوا الأنعام وأخذوا النساء والذراري.

وشعر الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش بتأييد الله ورعايته للمسلمين، وتغيّرت فكرتهم، فدخل الإيمان في قلوبهم، وحسن إسلامهم، على حين ساروا في البداية مع الجيش من أجل الغنائم، وكانوا سبب الهزيمة من قبل إذ لم يكونوا مؤمنين، ونصر المسلمين وهزيمتهم عندهم سواء، فكانوا في الجيش عدداً بلا فائدة بل سبباً في الفرار حيث لا يجدون داعياً للثبات، وعلى هذا ليس من الفائدة بل لا يصحّ أن يدخل في عداد الجيش أفراد لا يؤمنون بالإسلام ولا يدينون به، ولذا فإن أهل الكتاب لا يقاتلون في صفوف المسلمين، ولا يمتهنون الجندية، وإنما يدفعون الجزية مقابل حمايتهم.

وجمع رسول الله ﷺ، الغنائم في الجعرانة، وكانت ما يقرب من أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. وتفرق المشركون فذهب قسم منهم إلى الطائف وفيهم مالك بن عوف النصري سيد القوم، وتجمّع قسم في نخلة، وعسكر قسم في وادٍ يعرف باسم «أوطاس».

أرسل رسول الله ﷺ، أبا عامر الأشعري في سرية لقتال أولئك الذين تجمعوا في «أوطاس» من المشركين فقاتلهم وشتت شملهم، واستشهد أمير السرية أبو عامر أثناء القتال نتيجة سهمٍ أصابه، فتولى أمر السرية بعده ابن أخيه أبو موسى الأشعري.

غَــزوَة الطّـائِف:

سار رسول الله ﷺ، بمن معه من المسلمين إلى الطائف فتحصنت فيها ثقيف ومن معها من هوازن، وجمعوا في الحصون ما يكفيهم من الأقوات، ومن داخل الحصون أمطروا المسلمين بوابل من النبال فأصيب عبد الله بن أبي بكر، وفقئت عين أبي سفيان بن حرب، واستشهد سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن أبي أمية ابن عمة رسول الله ﷺ، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، وضرب المسلمون الحصون بالمنجنيق، وحاولوا اقتحامها في دبابتين ففشلوا، واضطروا إلى فكّ الحصار، ودعا رسول الله ﷺ، لثقيف فقال: اللهم اهد ثقيفاً، وأت بهم مسلمين.

ورجع رسول الله ﷺ، ومن معه من المسلمين إلى الجعرانة حيث جمعت الغنائم والسبايا، فجاءه وفد من هوازن يطلب منه أن يمنّ عليهم بإعتاق سبايا هوازن ففعل، وأرسل إلى مالك بن عوف النصري، وكان قد بقي مع ثقيف في الطائف بأنه إن جاء منَّ عليه بإعتاق أهله وإعطائه ماله، وفوقها مائة من الإبل فجاء وأسلم. ثم وزع الغنائم بعد أن رفع خمسها فأعطى المؤلفة قلوبهم، والذين يطمع في إسلامهم. فأعطى أبا سفيان بن حرب، وابنيه معاوية ويزيد، وحكيم بن حزام، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام وغيرهم كثير.

وجد بعض الأنصار في أنفسهم شيئاً عندما أعطى رسول الله ﷺ، تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ولم يكن للأنصار منها شيء، ثم كلم سعد بن عبادة رسول الله ﷺ، في هذا الأمر، فطلب منه أن يجمعهم له،

ففعل، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بِمَ نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

ومن الجعرانة دخل رسول الله ﷺ، مكة معتمراً، ثم رجع إلى المدينة فوصل إليها لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن.

وفي المدينة جاء وفد قبيلة «صداء» إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا. وأرسل رسول الله ﷺ، عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب لقتال بني تميم الذين حالوا دون (بشر بن سفيان العدوي) رسول الرسول إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقاتهم، فقاتل عيينة بني تميم، وأسر منهم أحد عشر رجلاً، وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً فجاء في أثرهم إلى المدينة وفد بني تميم المؤلف من عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وأنزلت فيهم سورة الحجرات ثم أسلموا، وبقوا مدة في المدينة ليتفقهوا في الدين.

---

(١) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

كما أرسل رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فجاؤوا لاستقباله فظنّ أنهم جاؤوا مقاتلين فرجع خائفاً، وأخبر رسول الله خبرهم فبعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على إسلامهم.

وعلم رسول الله ﷺ، أن الأحباش جاؤوا في مراكب لهم للهجوم على جدة فأرسل إليهم علقمة بن مجزر في ثلاثمائة رجل، ففرّ الأحباش وعاد علقمة، وأثناء الطريق أمر بعض القوم أن يسرعوا، وولّى عليهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان رجلاً ذا دعابة، فأوقد لجماعته ناراً وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم. قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار! وهمّ بعضهم بذلك إطاعة للأمير فمنعهم عبد الله، وقال لهم: ما كنت إلا مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، قال: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق».

وفي ربيع الأول من العام التاسع للهجرة أرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم صنم لطيء يدعى «الفلس»، فسار إلى هناك فهدم الصنم وأحرقه، وحارب الذين يعبدونه، وانتصر عليهم، وأخذ الإبل والأغنام غنيمة للمسلمين، كما أخذ السبايا، وكان بينهن سفّانة بنت حاتم الطائي، ولما عاد علي بن أبي طالب بغنائمه إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنَّ عليها، فأجابها، فدعت له، وكان مما قالته له؛ شكرتك يد افتقرت بعد غنىً ولا ملكتك يد استغنت بعد فقرٍ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سُلب كريم نعمة إلا وجعلك سبباً لردها عليه. وكانت معاملة رسول الله ﷺ، هذه لسفانة بنت حاتم سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الذي كان قد اختفى عندما رأى المسلمين يقصدون بلاده، وهرب إلى الشام وعندما أطلق سراحها، جهّزها رسول الله ﷺ، وخرجت إلى الشام، ولحقت بأخيها، فقدمت عليه، فسألها عن رأيها في رسول الله ﷺ، فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن

ملكاً فأنت. ثم جاء عدي إلى المدينة فالتقى برسول الله ﷺ، فسأله عن اسمه، فقال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته وأكرمه، فأسلم، وكان نصرانياً من قبل.

غزوة تبوك:

يبدو أن السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ، إلى الجهات المختلفة، لم يكن لتستوعب المسلمين كلهم، وإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة لا يمكن أن تتوقف عن الغزو والجهاد أبداً حتى ينتهي الظلم من سطح الأرض كلها، لذا كان لا بد من الإعداد لغزوة تضم المسلمين جميعاً لكي يبقى كل مسلم على استعداد دائم للحركة والانتقال من ساحة إلى ساحة، ولكيلا تميل النفوس إلى الفتور، وترغب في الاستقرار والرخاء، وكانت غزوة تبوك في وقت كان الناس فيه في عسرة من جدب الأرض، وقلة النتاج، ومُحل في السماء، ونقص في العشب، مما يجعل الاستعداد للجهاد صعباً، كما جاءت في وقت زاد فيه الحر واشتدّ، وأينعت الثمار، ورُغب في الظلال، الأمر الذي يجعل النفوس تميل إلى الراحة وتطلب هناء العيش، وهنا تطلب النفوس المريضة عدم القتال وترغب عنه، وتستعلي النفوس المؤمنة على ما في هذه الدنيا من متاع زائل، وتطلب النعيم المقيم في الآخرة وترغب فيه.

ويبدو أن الروم قد تغيّر عليهم وضع عرب الجزيرة وحروبهم بعد أن دانوا بالإسلام، وبعد أن رأوا قتالهم في مؤتة، وسمعوا عن حروبهم في ذات السلاسل ضد قضاعة وقبائلها، ووجدوا أنه لم يعد يجدي معهم تكليف حلفائهم من العرب المتنصّرة وعملائهم من الغساسنة في تأديب عرب الجزيرة المسلمين إذ لا بد من أن يمدوهم بالجند ويدعموهم بالسلاح، ولهذا بدأوا في حشد الجموع والاستعداد لغزو المدينة.

وعلم رسول الله ﷺ، بخبر الروم وتحشدهم، فأمر المسلمين بالتهيؤ للقتال، وقد مضى عليهم وهم ماكثون أكثر من ثمانية أشهر بعد أن عادوا

من مكة، إذ أقاموا منذ ذي الحجة من السنة الثامنة إلى شهر رجب من السنة التاسعة، كما استنفر أهل مكة والقبائل الأخرى، وأخبرهم أنه يريد الروم، وكان من عادته ﷺ، أنه إذا أراد جهة لم يذكرها وورّى بها إلا ما كان في هذه الغزوة إذ بيّنها للناس، لبُعد الشقة، وقسوة الواقع، وشدة العدو الذي يقصده، وكثرة عدده، ليتأهب الناس لذلك، ويأخذوا عدتهم الكاملة.

وحثّ رسول الله ﷺ، الموسرين على البذل لتجهيز الناس. فدفع عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وقدم ثلاثمائة بعير، وخمسين فرساً، فقال، عليه الصلاة والسلام: «اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه»، وقدم أبو بكر الصديق كل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فسأله رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فأجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، وقدم عمر بن الخطاب نصف ماله، وقدم عبد الرحمن بن عوف مائة أوقية، وقدم العباس، وطلحة مالاً كثيراً، وكذلك كل الموسرين أمثال عاصم بن عدي وغيره إذ لم يكن مسلم ليبخل بالمال الذي لا يعده أكثر من وسيلة يستعين بها على مرضاة الله، وخير عمل يعمله في هذه الحياة الدنيا إنما هو الجهاد في سبيل الله، لذا يجود المسلم بكل ماله وعندما يفعل ذلك لا يعتقد أنه قد عمل عملاً كبيراً، بل يعتقد أن هذا واجبه، وأنه من مقتضى إيمانه، وعندما يضم المجتمع المسلم أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكون فيه المحتاج، كما ينعدم الضعف الذي ينتاب الأمة لقلة ما تملك. ولكن عندما تتغير المفاهيم، وتتبدل المقاييس، ويصبح همُّ الإنسان جمع المال وتكديسه للمباهاة والخوف في المستقبل من الأزمات التي قد تعترض الموسرين وأصحاب السلطة الذين ينتظرون أن يرتقي إليها غيرهم، كما جاؤوا إليها هم بدعم خارجي لتأدية مهمة انتهت وانتهى معها دورهم، فيجمعون المال في مصارف بعيدة دون النظر إلى مصدر المال أجاء عن طريق مشروع أم غير مشروع، عندما يكون هذا تتخلف الأمة، وتتنابها الأمراض، وتقل المشروعات، بل يصبح تحقيقها ضرباً من المستحيل،

وتزداد السرقات، وتعم الفوضى، وتسير البلاد عند ذلك إلى الوراء وهذا ما أصاب أمتنا، ويصيبها لأنها تخلت عن نظامها الذي أراده الله لها.

وجاء نفر من فقراء الأنصار يطلبون من رسول الله أن يحملهم، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فجهز عثمان بن عفان ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين آخرين، وجهز يامين بن عمرو اثنين أيضاً.

سار رسول الله ﷺ، بالمسلمين، ويقرب عددهم من الثلاثين ألفاً، وقد ولّى على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله. وتخلف المنافقون برئاسة عبد الله بن أبيّ كبيرهم، واعتذر الأعراب، وكلهم يتوقع الهزيمة للمسلمين مع الروم، وهم يرون المسلمين على ما هم عليه من الفقر والضعف والقلة، ولكن إذا كانوا فقراء بما في أيديهم فإنهم أغنياء بقلوبهم، أقوياء بالله، أقوياء بإيمانهم، ولن يهزم جمع هذه صفاتهم وفيه أمثال صحابة رسول الله ﷺ، من الإيمان، والجود، والشجاعة، وحب الشهادة، وإطاعة الله ورسوله. واعتذر الجد بن قيس خوف الفتنة من نساء بني الأصفر، وأرجف هؤلاء جميعهم بالمسلمين. كما تخلّف نفر قليل من المسلمين منهم أبو خيثمة، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ثم لحق أبو خيثمة بالركب قبيل وصوله إلى تبوك.

وكان اللواء بيد أبي بكر الصديق، وراية المهاجرين بيد الزبير بن العوام، وراية الأوس بيد أسيد بن حضير، وراية الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وكان حرس الجيش بإمرة عبّاد بن بشر.

ولما مرّ رسول الله ﷺ، بالحجر (مدائن صالح) غطى ثوبه على وجهه، واستحثّ راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وصل رسول الله ﷺ، إلى تبوك، ولم يجد أثراً لتجمع الروم فيها كما

جاءه الخبر، فأقام فيها بضع عشرة ليلة جاءه أثناءها يوحنا صاحب أيلة[(١)]، وأهالي جرباء[(٢)]، وأهل أذرح[(٣)]، فصالحوه على دفع الجزية، وبعد ذلك رجع إلى المدينة.

وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، فوجد أن المنافقين قد شيدوا مسجداً ضراراً لتفريق جماعة المسلمين، وطلبوا منه ﷺ، أن يصلي فيه، ولما سألهم عن سبب بنائه حلفوا بالله إن أرادوا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر الرسول بهدمه، فهُدم.

وجاء المخلفون يعتذرون لرسول الله عن تخلفهم بأقوال كاذبة فقبل رسول الله علانيتهم، ووكّل ضمائرهم إلى الله، سبحانه وتعالى، واستغفر لهم.

وجاء الثلاثة الذين خُلّفوا عن رسول الله، وهم من المؤمنين: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع مُقرّين بذنوبهم، ولنسمع كعب بن مالك يتحدث عن نفسه في هذا الموضوع، قال: (ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ، في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ورسوله أحداً تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ، إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ، العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها.

قال: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة،

---

(١) أيلة: مدينة كانت مكان العقبة اليوم.

(٢) جرباء: مدينة مكانها في الأردن اليوم في جنوب شرقي عمان على بعد خمسين متراً منها.

(٣) أذرح: مدينة في جنوبي بلاد الشام إلى الشمال الغربي من معان، وعلى بعد عشرين كيلومتراً منها، وهي في جبال الشراة.

ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ، قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ، في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلّى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من أتباع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ، تلك الغزوة حين طابت الثمار، وأُحبت الظلال، فالناس إليها صُعْر، فتجهز رسول الله ﷺ، وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي، أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل، فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ، حتى بلغ تبوك فقال، وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ، قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ، غداً، وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ، قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه

إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له، ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ، علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقمت، وسار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ، بما اعتذر به إليه المخلَّفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ، فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما ما قيل لك، قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي؛ فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ، عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه، وهو في

مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكتب كتاباً في سرقة من حرير، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك». قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها. فأقمنا على ذلك، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ، يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك؛ قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان، إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ، لي في ذلك، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ، المسلمين

عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيتٍ من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت عليّ نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلْع، فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ، بتوبة الله علينا، حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقّاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ، جالس وحوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله، فحياني وهنأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي، ووجهه يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله»، قال: وكان رسول الله ﷺ، إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عزّ وجلّ أن انخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام،

كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، يومئذ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

قال: وكنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ، حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[2].

وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه.

ولننظر إلى المجتمع الإسلامي من خلال هذه الغزوة ومن خلال حديث كعب بن مالك هذا، فنرى المجتمع المطيع الذي يعرف كل فرد فيه حدوده، ويعرف مسؤولياته، فلا يحتاج إلى مراقبٍ يراقب أعماله، وإنما هو يراقب نفسه، ويخشى الله في كل عمل يقوم به، فثلاثون ألفاً لهم قائد واحد، يرجعون إليه في أمورهم كلها، يرشدهم فيسمعون، ويأمرهم فيطيعون، ولا يراقب أي عمل يقوم به أي فرد، ولنقارن هذا المجتمع مع مجتمع في هذا العصر ابتعد عن منهج الله لنرى أن ثلاثين ألف جندي يحتاجون إلى خمسة آلاف ضابط صف وألفي ضابط، وكل منهم يراقب الجند، ومع هذا فالوضع لا يستقيم، فسرقات وتصرفات، وأوضاع وأوضاع، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن ثلاثين ألفاً قد انطلقوا إلى الغزو دون إنذار، ساروا من تلقاء أنفسهم بمجرد أن طلب منهم رسول الله ﷺ، الاستعداد والتهيؤ للقتال، أما الآن فلو ترك للناس حرية الذهاب إلى

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٩٥ ـ ٩٦. (٢) سورة التوبة: الآية ١١٨.

الحرب، لما سار رجل واحد، ولو طلب منهم الرأي، لاعتذروا جميعاً ولو غُزوا في عقر دارهم، وداهمهم العدو في بيوتاتهم. ولننظر الآن إلى هذا المجتمع بعد المعركة، فعندما طلب منهم رسول الله ﷺ، مقاطعة أولئك الثلاثة الذين تخلفوا، قاطعوهم جميعاً في السر والعلانية حتى أقرب الناس إليهم، وأحبهم إلى نفوسهم، حتى ذاق هؤلاء المخلفون عاقبة أمرهم، بل أكثر من ذلك، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، فوافقوا، وهذا أمر خفيٌ لا يعلمه أحد إلا الله، ويمكن للإنسان أن يبدي الالتزام، ويمتنع سراً عن التنفيذ، ولكن كان يعلم أن الله مطلع عليه، ولا يخشى أوامر السلطان فيتهرب منها على حين غفلة منه، لأن السلطان لا يستطيع أن يطلع عليه. والمسلم ينفذ ما يؤمر به رغبة لا رهبة، وطمعاً لا خوفاً وقد لاحظنا كيف ضرب كعب بن مالك بمغريات الغساسنة في أشد الساعات حرجاً بالنسبة له، وفي أكثر الأوقات التي يمكن أن يقوم بها بردّ فعل ضد مقاطعة المجتمع له. وأخيراً يمكن أن نلاحظ الدولة التي تطمئن من منهجها وتطبيقه، وتعرف رعاياها وما هم عليه من الطاعة، فتسمح حتى لأعدائها أن يدخلوا كأفراد إلى عاصمتها يتاجرون، أما اليوم فأجهزة الأمن بأعدادها الكبيرة لا تراقب الأعداء فحسب بل المجتمع حتى لا ينفلت أفراد منه ويتصلوا بالخصوم حتى بالخارج فكيف هم إذا وجدوا في الداخل! وما ذلك إلا لما تعلمه من أعمالها و... وحتى غدت مراقبة الرعايا هي السائدة لا مراقبة الأعداء.

وفد الطائف:

ولما رجع رسول الله ﷺ، من تبوك جاءه وفد من الطائف. وكان عروة بن مسعود أحد وجهاء ثقيف قد تبع رسول الله ﷺ، إثر انصرافه من الطائف، وأدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فاعتنق الإسلام، وطلب من رسول الله ﷺ، أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له: «إنهم قاتلوك»، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان محبباً بينهم ومطاعاً، فلما جاءهم بالإسلام رموه بالنبال، وقتلوه، وبعد مدة شعروا

بضعفهم أمام ما حولهم من الأعراب التي دانت بالإسلام، فأرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ. فأسلم الوفد، وولّى عليهم رسول الله عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم سناً، وأحرصهم على الفقه. ولما رجعوا، أرسل رسول الله ﷺ، أبا سفيان، والمغيرة بن شعبة لهدم اللات صنم ثقيف، فهدموه. وأسلمت ثقيف.

حج أبي بكر الصديق:

وفي أواخر ذي القعدة من السنة التاسعة، أرسل رسول الله ﷺ، أبا بكر الصديق ليحج بالناس، فسار معه ثلاثمائة من المسلمين، وقد ساقوا الهدي معهم، وما إن خرج حتى نزلت أوائل سورة التوبة (براءة) فأرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب ليتلوها على المسلمين، فقرأها عليهم في منى يوم النحر، وفيها نبذ عهود المشركين الذين لم يوفوا بها، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم عدم حج مشرك بعد هذا العام، وعدم طواف عريان بالبيت، كما كانت عادات الجاهليين. وكان أبو بكر هو الذي يصلي بالناس، ويقتدي علي به.

وفي ذي القعدة من هذا العام توفي في المدينة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وتخلّص منه المسلمون.

الوفود:

بعد غزوة تبوك بدأت الوفود تصل إلى المدينة من مختلف الجهات ومن أكثر القبائل الضاربة في جزيرة العرب وما حولها.

فقد جاء وفد بني عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وأراد الزعيمان الغدر برسول الله ولكن لم يفلحا، وحال الله بينهما وبين ما يدبران، ثم رجعوا إلى بلادهم، وأثناء الطريق مات عامر بن الطفيل بالطاعون، وأصابت صاعقة أربد بن قيس فأحرقته بعد عودته إلى دار قومه بيومين.

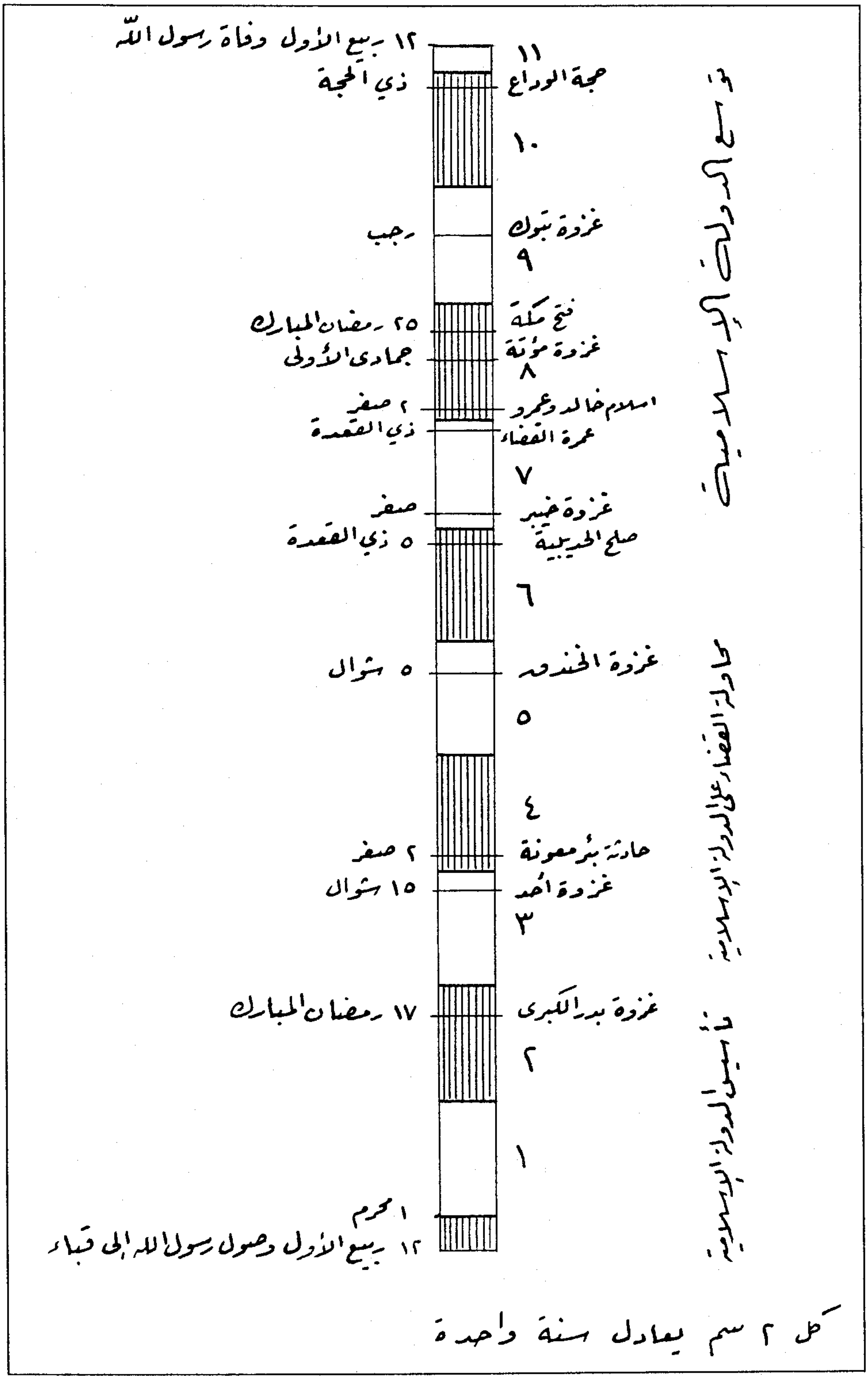

١٢ ربيع الأول وفاة رسول الله
١١
ذي الحجة
حجة الوداع
١٠
رجب
غزوة تبوك
٩
٢٥ رمضان المبارك
فتح مكة
جمادى الأولى
غزوة مؤتة
٨
٢ صفر
اسلام خالد وعمرو
ذي القعدة
عمرة القضاء
٧
صفر
غزوة خيبر
٥ ذي القعدة
صلح الحديبية
٦
٥ شوال
غزوة الخندق
٥
٤
٢ صفر
حادثة بئر معونة
١٥ شوال
غزوة أحد
٣
١٧ رمضان المبارك
غزوة بدر الكبرى
٢
١
١ محرم
١٢ ربيع الأول وصول رسول الله الى قباء
توسع الدولة الاسلامية
محاولة القضاء على الدولة الاسلامية
تأسيس الدولة الاسلامية
كل ٢ سم يعادل سنة واحدة

وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضمام بن تعلبة فأسلم، وعندما رجع إلى قومه دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً ما تخلّف منهم رجل واحد.

وأقبل وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود بن عمرو، وكان نصرانياً، فأسلم، وحسن إسلامه، وعندما ارتدّ من قومه بعض من أسلم وقت الردة، بقي هو على إسلامه.

وقدم وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب، فأسلموا، فلما رجعوا إلى بلادهم اليمامة، تنبأ عدوّ الله مسيلمة، وارتدّ معه أكثر قومه.

وقدم وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، فأسلموا وسمى رسول الله ﷺ، سيدهم زيد الخير، ولم يلبث أن توفي.

وجاء فروة بن مسيك المرادي من شمال اليمن فأسلم، واستعمله رسول الله ﷺ، على مراد، وزبيد، ومذحج كلها، وبعث خالد بن سعيد بن العاص معه على الصدقات، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

وجاء وفد من زبيد بإمرة عمرو بن معدي كرب، فأسلم وتبع فروة إلا أن عمراً ارتدّ حين ارتدت العرب.

ووفد الأشعث بن قيس على رأس وفد من كندة يضم ثمانين رجلاً، فأسلموا.

ووفد على رسول الله ﷺ، وفد من الأزد من عسير وعليهم صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلموا، وقد جعل رسول الله ﷺ، صرد بن عبد الله على من أسلم من قومه، فرجعوا وقاتلوا قومهم، وحاصروهم في مدينة جُرش، ثم تركوهم، فلحقوا بهم، فقاتلوهم قتالاً شديداً. ثم خرج وفد من جُرش إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا.

وجاء إلى رسول الله ﷺ، وفد يحمل كتب ملوك حمير يخبرونه فيه بإسلامهم، وترك ما كانوا يعبدون من دون الله، وأرسل رسول الله ﷺ، معاذ بن جبل إلى الكورة العليا من اليمن، وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى منها، وأوصاهما. وقد بقي معاذ بن جبل حتى توفي

رسول الله ﷺ، وقدم أبو موسى الأشعري مكة ورسول الله في حجة الوداع.

وجاء وفد من نجران يضم ستين راكباً، وكانوا من النصارى، ورضوا بدفع الجزية، وعادوا إلى بلادهم.

وجاء رسول من فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على العرب في معان وما حولها إلى رسول الله ﷺ، يعلمه بإسلام فروة بن عمرو، ويقدم له هديته، ولما بلغ الروم إسلام فروة أخذوه، وسجنوه، ثم قتلوه.

وقدم وفد من همدان إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ.

وقدم وفد ثعلبة، ووفد بني سعد بن هذيم من قضاعة، ووفد بني أسد، وفيهم ضرار بن الأزور، وطليحة بن خويلد الذي ادّعى النبوة فيما بعد، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد بني مرة، ووفد خولان باليمن، ووفد بني محارب، ووفد بني عبس، ووفد غسان و. .

وبعث رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، فدعاهم فاستجابوا، فرجع إلى المدينة مع وفد منهم بناء على رأي رسول الله ﷺ.

حجة الوداع:

تجهّز رسول الله ﷺ، للحج في أوائل ذي القعدة من السنة العاشرة، وأمر الناس بالتهيؤ لذلك، وولّى على المدينة أبا دجانة، وانطلق منها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وكان معه جمع غفير يقرب من التسعين ألفاً، ولما وصل إلى مكة دخلها من كداء، وفي التاسع من ذي الحجة توجّه إلى عرفة، فأرى الناس مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم، وخطب في الناس خطبة بيّن فيها كثيراً من جوانب الدين، وكان مما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا،

في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاتقوا الله بالنساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، اعقلوا قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم. وإنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمن أنفسكم، ولا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله

أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا بلغت؟ اللهم فاشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». وفي هذا اليوم أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ، مناسك الحج، وأقام بمكة عشرة أيام، رجع إلى المدينة.

جيش أسامة بن زيد:

أقام رسول الله ﷺ، بالمدينة بعد حجه ـ وهي الحجة الوحيدة التي حجها رسول الله ـ بقية ذي الحجة وشهر المحرم وفي الرابع من صفر من السنة الحادية عشرة جهز جيشاً بإمرة أسامة بن زيد، وأمره أن يصل إلى تخوم بلاد البلقاء في الأردن، وكان في هذا الجيش كبار الصحابة أمثال: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، مع أن أسامة لم يكن ليبلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يسر هذا الجيش لمرض رسول الله ﷺ.

مرض رسول الله ﷺ:

مرض رسول الله ﷺ، في أواخر شهر صفر، وبقي في مرضه ثلاثة عشر يوماً، ولما تعذر عليه الخروج للصلاة قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وتوفي في ضحى الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة، وحفر له في حجرة عائشة، ودفن يوم الأربعاء الرابع عشر من الشهر نفسه.

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

زَوْجَاتُ رَسُولِ ٱللهِ
صلى الله عليه وسلم

تزوّج رسول الله ﷺ، عدة زوجات لأسباب عدة اقتضت هذا الزواج دون أن يكون لداعي الشهوة والهوى أي أثر إذ تزوجهن كلهن عدا عائشة أرامل وكبيرات في السن، وأهم هذه الأسباب القربى، والإسلام، والإعالة في الوقت الذي انقطعت فيه إعالتهن من غيره، ثم اتصال النسب، وتآلف القبائل، وتربية المسلمين إذ كانت بيوتهن مدارس للمؤمنين والمؤمنات وهؤلاء الزوجات هن:

١ ـ خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها:

وقد تزوجها رسول الله ﷺ، قبل البعثة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، بينما كان سن زوجته الأربعين، وهي أول من تزوج، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك، ومن قبل كانت عند عُتيّق بن عابد بن عبد الله المخزومي. وقد ولدت لعتيق عبد الله، ولأبي هالة بن أبي هالة هالة وهند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة. وقد بقيت عنده خمسة وعشرين عاماً: خمسة عشر قبل البعثة وعشرة بعد البعثة، ولم يتزوج في حياتها غيرها. وقدمت الكثير في سبيل الدعوة، رضي الله عنها.

وأنجبت له أولاده الذكور: القاسم، الطيب، الطاهر. والبنات كلهن زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وماتت بمكة قبل الهجرة بثلاثة سنوات، وقد ناهز عمرها الخامسة والستين.

٢ ـ سودة بنت زمعة، رضي الله عنها:

وقد تزوجها بعد وفاة خديجة بحوالي الشهر، وكانت قبله عند السكران بن عمرو أحد بني عامر بطن قريش المعروف، وقد أسلم السكران، رضي الله عنه، على الرغم مما لاقى من أهله، وذويه، وأخيه سهيل بن عمرو، فهاجر إلى الحبشة، وهاجرت معه زوجه، وابنة عمه سودة، وعندما رجع من الهجرة إلى الحبشة توفي، وبقيت زوجه بلا معيل، بل لا تستطيع الحياة بين أقاربها المشركين الذين ربما فتنوها عن دينها، فكان لا بد له من أن يضمها إليه، رضي الله عنها، وهي ابنة الخامسة والخمسين، وعاشت معه خمس سنوات، ثم توفيت بالمدينة المنورة بعد الهجرة بعامين، ولم تنجب له، إذ كانت في سن اليأس.

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها:

وهي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله ﷺ، والغاية من زواجها زيادة أواصر المودة مع صديقه أبي بكر الصديق، وقد خطبها صغيرة في مكة بعد وفاة خديجة بشهرين، وبنى بها في المدينة.

وقد كانت صغيرة مع قاعدة زواج الفتيات المبكر آنذاك، والنضج المبكر في البلاد الحارة، وهو الأصح، وإذا كان ما ذكره ابن هشام في سيرته وبعض أصحاب السير الآخرين في أنها كانت من السابقات للإسلام، فمعنى ذلك أن سنها كانت تزيد على الخامسة عشرة، وكذلك كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدي قبل رسول الله ﷺ، كل ذلك يدل على أنها كانت قد جاوزت السابعة عشر، مع العلم أن خولة بنت حكيم زوج عثمان بن مظعون هي التي عرضت عليه هذا الزواج بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، فهل تعرض فتاة للزواج لكي تقوم مقام سابقتها، أم ليضم إليه طفلة يرعاها؟

وقد عاشت عائشة مدة طويلة بعد وفاة رسول الله ﷺ، إذ توفيت عام ٥٨هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه. ولم تنجب عائشة لرسول الله ﷺ.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، رضي الله عنها:

تزوج رسول الله ﷺ، حفصة لربط النسب بينه وبين صاحبه الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد كانت حفصة قبل رسول الله ﷺ، عند خنيس بن حذافة السهمي القرشي، وقد استشهد في بدر بعد أن أبلى البلاء الحسن، وضحّى كثيراً في سبيل الإسلام، ولم تكن ذات جمال، ولم يرض بها أحد، إذ عرضها أبوها، رضي الله عنه، على عدد من الرجال، ولم يجد رسول الله ﷺ، في مواساتها بزوجها حلاً خيراً من زواجها.

وعاشت بعد رسول الله ﷺ، وتوفيت بالمدينة عام خمسة وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولم تنجب لرسول الله ﷺ.

٥ ـ زينب بنت خزيمة، رضي الله عنها:

تزوجها رسول الله ﷺ، وهي ابنة الستين من العمر، وكانت قبله عند ابن عمه عبيدة بن الحارث بن المطلب شهيد بدر بالمبارزة، وقد تأثرت بعد فقد زوجها، إذ لم يعد لها معيل، ولم يتزوجها أحد لسنها، وزوجها ابن عم رسول الله ﷺ، ولم يجد بداً من أن يضيفها إلى أسرته، وعاشت عنده عامين، ثم توفيت في حياته.

٦ ـ هند بنت أبي أمية، رضي الله عنها:

وهي أخت أبناء عمة رسول الله ﷺ، عاتكة، الذين منهم عبد الله، وزهير ابني أبي أمية، وشقيقة المهاجر بن أبي أمية. وقد كانت عند ابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة رسول الله ﷺ. وكان زوجها أبو سلمة أول من هاجر إلى المدينة، وحبسها أهلها في مكة، ثم سمحوا لها بالهجرة... وقد أصيب زوجها في أُحُدٍ بسهم، ثم عوفي، وأرسله ﷺ، بعد ذلك لقتال بني أسد، فلما عاد مات إذ انكفأ عليه جرحه، وبقيت معيلة لأبنائها سلمة، وعمر، ورقية، وزينب، أبناء أبي سلمة، وهي مسنة، فتزوجها رسول الله ﷺ، مواساة لها، وقد كانت تدعو فتقول بعد فقد زوجها أبي سلمة: «اللهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها».

٧ ـ زينب بنت جحش: رضي الله عنها:

وهي ابنة عمة رسول الله ﷺ، أميمة بنت عبد المطلب، وقد أسلمت زينب مع إخوتها عبد الله، وعبد، وعبيد الله، وحمنة، وكان اسمها برة، فسماها رسول الله زينب، وكانت معتزة بجمالها ونسبها، وزوّجها رسول الله ﷺ، إلى مولاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، بعد ممانعة منها ومن أهلها لوضع زيد حتى أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

ولكن زيداً، رضي الله عنه، لم يستطع الحياة معها لتعاليها عليه، وقد شكاها عدة مرات لرسول الله ﷺ، ثم اضطر أن يطلقها، وأمر الله رسوله أن يتزوجها وذلك ليبطل التبنّي، إذ كان يقال لزيد: (زيد بن محمد) ولا يصح أن يتزوج الرجل مطلقة ابنه، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ فأطلق عليه زيد بن حارثة، إذن كانت زينب الساحة التي ألغيت عليها عادة التبنّي التي كانت منتشرة عند العرب.

فالزواج كان من عند الله، وكذلك فإن زينب هي ابنة عمة رسول الله ﷺ، وهو الذي أجبرها على الزواج من زيد، فهو المسؤول عنها إذن، ويجب ألا يضيّعها، وأن يأخذها من هو أفضل من زيد، وكان هو الذي تزوجها ﷺ.

لم تنجب زينب من رسول الله ﷺ، وعاشت بعده حتى توفيت عام عشرين للهجرة أيام خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

٨ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها:

وهي زوج ابن عمة رسول الله ﷺ، عبيد الله بن جحش، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ارتدّ زوجها ففارقته، وبقيت في

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

الحبشة، ولما كان أبوها سيد قريش، ولا تستطيع الرجوع إلى أهلها، وهي على إسلامها لعدائهم الشديد للإسلام، فكان لا بد من أن يتزوجها نظيره، ومن هو أفضل من ابن عمته عبيد الله، لهذا طلب رسول الله ﷺ، من النجاشي أن يخطبها له، ففعل، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة الذي كانت معه أمه، ولما عادت إلى المدينة تزوجها رسول الله ﷺ.

وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ، ولم تنجب منه، وتوفيت في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان عام ٤٤هـ.

٩ ـ جويرية بنت الحارث، رضي الله عنها:

وهي ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، وكانت تحت مسافع بن صفوان الذي قتل في غزوة بني المصطلق، والتي وقع في تلك الغزوة قومها جميعهم في الأسر، وقد جاء أبوها ليفتديها بما عنده من إبل، وقد ترك جملاً من الفدية استحسنه لنفسه دون أن يعلم أحد ، فعندما أخبره رسول الله ﷺ، بما فعل، أسلم، وزوّج ابنته من رسول الله ﷺ.

وقد أطلق المسلمون أسراهم وسباياهم من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكأن رسول الله ﷺ، كان يريد أن يفعلوا ذلك اختباراً لإيمانهم وحبهم لرسولهم وبذلهم في سبيل ذلك.

لم تنجب جويرية بنت الحارث من رسول الله ﷺ، وعاشت بعده مدة طويلة، وتوفيت عام ٥٦هـ، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه.

١٠ ـ صفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنها:

وهي ابنة سيد بني النضير، وكانت قبل رسول الله ﷺ، تحت كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل في حصار خيبر، ووقعت أسيرة، ورأى الصحابة، رضوان الله عنهم، أن تكون لرسول الله ﷺ، بصفتها ابنة سيد بني النضير، وقد كانت في سهم (دحية)، فأخذها رسول الله ﷺ، لنفسه،

وأعتقها، وخيّرها بين الإسلام وبين العودة إلى أهلها، فاختارت الإسلام، واستحسن رسول الله ﷺ، مقالتها عندما خيّرها، فتزوجها إكراماً لها. وعسى أن يلاحظ اليهود هذا الإحسان إليهم فيرعووا ويسلموا، ولكن أنّى لتلك النفوس المشحونة بالحقد أن تتراجع عن غيها؟

١١ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية، رضي الله عنها:

وهي أخت زوج العباس بن عبد المطلب لبابة، أي خالة عبد الله بن العباس، كما أنها خالة خالد بن الوليد، وقد تزوجها رسول الله ﷺ، في مكة أثناء عمرة القضاء في أواخر السنة السابعة للهجرة، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله، وكان اسمها (برة) فسماها الرسول ميمونة، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، وقد مات عنها.

وتزوجها رسول الله ﷺ، وهي ابنة سبع وثلاثين سنة في (سرف)، ولم تنجب له، وماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥١هـ في (سرف) في المكان الذي تزوجت فيه نفسه.

أما مارية القبطية فليست زوجة لرسول الله ﷺ، وإنما هي أمة، أهداها المقوقس له عام ٧هـ، هي وأختها سيرين، فقدم رسول الله ﷺ، سيرين إلى حسان بن ثابت.

ولدت مارية لرسول الله ﷺ، ابنه إبراهيم فأعتقها ولدها، وعاشت بعد رسول الله ﷺ، وتوفيت عام ١٦هـ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

زوجات رسول الله ﷺ اللاتي فارقهن

أولاً: تزوّج رسول الله ﷺ، **فاطمة بنت الضحّاك** بن سفيان الكلابية في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة، فلما دخلت عليه فدنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك».

وتوفيت سنة ستين من الهجرة.

اختلف الرواة في اسم هذه الزوجة، فقال بعضهم: تزوّج رسول الله ﷺ، امرأة واحدة من بني كلاب، لكن اختلف في اسمها، وقال بعضهم الآخر: بل تزوّج عدة زوجات من بني كلاب.

ثانياً: تزوّج رسول الله ﷺ، **أسماء بنت النعمان** بن أبي الجون بن الحارث بن شراحيل بن الجون بن آكل المرار الكندي. وكانت عند ابن عم لها، فمات عنها، فتأيمت، وكانت من أجمل نساء العرب، وقد عرضها أبوها على رسول الله ﷺ، فوافق، وبعث رسول الله ﷺ، أبا أسيد الساعدي مع أبيها ليأتي بها، فأتى بها، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسعٍ من الهجرة.

فلما أُتي بها إلى رسول الله ﷺ، تعوّذت بالله منه، فانحرف عنها، وأعادها إلى أهلها.

ثالثاً: **قتيلة بنت قيس بن معدي كرب** بن معاوية بن جبلة الكندية: أخت الأشعث بن قيس، عرضها أخوها الأشعث على رسول الله ﷺ، فوافق، وذهب الأشعث ليأتي بها، حتى إذا فصل من اليمن بلغه وفاة النبي ﷺ، فردّها إلى حضرموت، وارتدّ، وارتدت معه فيمن ارتد، ففسد

النكاح بالارتداد. وكان تزوجها قيس بن مكشوح المرادي. وقيل تزوجها عكرمة بن أبي جهل.

رابعاً: مليكة بنت كعب الليثي، وتزوجها رسول الله ﷺ، في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة. وقد فارقها قبل أن يبني بها.

خامساً: سنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة السلمية، ماتت قبل أن يصل إليها رسول الله ﷺ.

سادساً: بنت جندب بن ضمرة الجندعي، وذلك رواية أن رسول الله ﷺ تزوجها، وفارقها قبل أن يبني بها[١].

(١) طبقات ابن سعد.

نِسَاءٌ خَطَبَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ

أولاً: ليلى بنت الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر بن الحارث الأوسية: قد وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فقال: «قد قبلتك، ارجعي حتى يأتيك أمري». فأتت قومها، فقالوا: أنت امرأة ليس لك صبر على الضرائر، وقد أحلّ الله لرسوله ﷺ، أن ينكح ما شاء. فرجعت فقالت: إن الله قد أحلّ لك النساء، وأنا امرأة طويلة اللسان، ولا صبر لي على الضرائر. واستقالته. فقال رسول الله ﷺ: «قد أقلتك».

ثانياً: أم هانئ فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف: ابنة عم رسول الله ﷺ.

خطب النبي ﷺ، إلى أبي طالب ابنته أم هانئ في الجاهلية، وخطبها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فتزوجها هبيرة، فقال النبيّ ﷺ، لعمه: «يا عمّ زوّجت هبيرة وتركتني؟» فقال: يا ابن أخي إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم. ثم أسلمت، ففرّق الإسلام بينها وبين هبيرة، وفرّ هبيرة يوم فتح مكة، وبقيت أم هانئ، فخطبها رسول الله ﷺ، إلى نفسها، فقالت: والله إن كنت لأحبك في الجاهلية فكيف في الإسلام؟ ولكني امرأة مصبية وأكره أن يؤذوك. فقال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن المطايا نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده».

وفي روايةٍ أنها قالت لرسول الله ﷺ: كيف بهذا ضجيعاً، وهذا رضيعاً؟ لولدين بين يديها. فاستسقى فأُتي بلبن فشرب، ثم ناولها فشربت سؤره، فقالت: لقد شربت وأنا صائمة. قال: «فما حملك على ذلك؟»،

قالت: من أجل سؤرك، لم أكن أدعه لشيءٍ لم أقدر عليه، فلما قدرت عليه شربته، فقال رسول الله ﷺ: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على زوجٍ في ذات يده، ولو أن مريم بنت عمران ركبت الإبل ما فضّلت عليها أحداً».

وفي روايةٍ أن أم هانئ قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من سمعي وبصري، وحقّ الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أُضيّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أُضيّع حق الزوج، فقال رسول الله ﷺ: «إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعلٍ في ذات يده».

وفي روايةٍ أنها قالت: يا رسول الله، إني موتمة وبني صغار. قيل: فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه، فقال: «أما الآن فلا» لأن الله أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ...﴾[1] ولم تكن أم هانئ من المهاجرات. كانت من الطلقاء.

ثالثاً: ـ **ضباعة بنت عامر العامرية**: وكانت عند هوذة بن علي الحنفي، فهلك عنها فورثت منه مالاً كثيراً، فتزوجها عبد الله بن جدعان التيمي، وكان لا يولد له، فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجها هشام بن المغيرة، فولدت له سلمة، وكان من خيار المسلمين، فتوفي عنها هشام. وكانت من أجمل نساء العرب، وأعظمهن خلقاً، فذُكر جمالها عند النبيّ ﷺ، فخطبها إلى ابنها سلمة بن هشام بن المغيرة، فقال: حتى استأمرها، وقيل للنبي ﷺ: إنها كبرت. فأتاها ابنها فقال لها: إن النبي ﷺ، خطبك إليّ. فقالت: ما قلت له؟ قال: قلت: حتى استأمرها.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

فقالت: وفي النبي ﷺ، يستأمر؟ ارجع فزوّجه. فرجع إلى النبي ﷺ، فسكت عنه.

رابعاً ـ صفية بنت بشامة العنبرية: وكانت قد أصابها سباء، فخيّرها رسول الله ﷺ، فقال: «إن شئت أنا، وإن شئت زوجك». فقالت: بل زوجي. فأرسلها، فلعنتها بنو تميم.

خامساً ـ أم شريك غُزيّة بنت جابر بن حكيم الدوسية من الأزد: كانت عند أبي العكر، فأسلم، وأسلمت معه، وهاجر مع أبي هريرة إلى رسول الله ﷺ، مع دوس حين هاجروا، وبقيت عند أهل زوجها فعذبوها، ثم أسلموا، وهاجروا جميعاً إلى رسول الله ﷺ، وقد عرفوا فضلها، وكان زوجها قد مات، فعرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة قد أسنّت، فقالت: إني أهب نفسي لك، وأتصدّق بها عليك. فقبلها النبي ﷺ. وأنزل الله فيها: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ....﴾[1].

سادساً ـ خولة بنت حكيم السلمية: كانت عند عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ومات عنها، وكانت من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فأرجأها، وكانت تخدم النبي، صلى الله عليه وسلم.

سابعاً ـ أمامة بنت الحمزة بن عبد المطلب: ابنة عم رسول الله ﷺ، وأمها سلمى بنت عميس الخثعمية أخت أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه. عن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ما لك تتوق في قريش، ولا تتزوج إلينا؟ قال: «عندك شيء؟» قال: قلت: نعم، ابنة حمزة، قال: «تلك بنت أخي من الرضاعة».

ثامناً ـ خولة بنت الهذيل التغلبية: وأمها أخت دحية بن خليفة، وقد تزوج رسول الله ﷺ، خولة ولكن هلكت قبل أن تصل إليه.

تاسعاً ـ شَراف بنت خليفة بن فروة، أخت دحية بن خليفة الكلبي بعد

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

أن هلكت خولة بنت الهذيل، تزوج رسول الله ﷺ، شَراف بنت خليفة، ولم يدخل بها.

مهور نساء النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان صداق رسول الله ﷺ، اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، فذلك خمسمائة درهم. قالت عائشة: الأوقية أربعون، والنش عشرون.

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لا تغالوا في صدقات النساء فإنه لو كان تقوى الله، أو مكرمة في الدنيا كان نبيّكم ﷺ، أولاكم بذلك، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وهي؛ ثمانون وأربعمائة درهم(١).

(١) طبقات ابن سعد.

أولاد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

أنجبت خديجة بنت خويلد لرسول الله ﷺ، أبناءه جميعاً عدا إبراهيم، وبناته كلهن، ولم تنجب له غيرها من نسائه، فقد ولدت له زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، ثم أنجبت له القاسم، وعبد الله.

١ ـ القاسم ابن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة بثلاثة أعوام تقريباً، ولم تنته مدة الرضاعة حتى توفي، وإن كان قد مشى.

٢ ـ عبد الله ابن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة، فلما بعث رسول الله ﷺ، سماه أو لقّبه الطيب، والطاهر، ولهذا عدّه بعضهم اثنين، وعده آخرون ثلاثة، وكذلك لم تطل حياته إذ توفي بعد مدة لم تتجاوز العامين أيضاً.

٣ ـ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ:

وأمه مارية القبطية، وهو الوليد الوحيد لرسول الله ﷺ، من غير خديجة، وقد ولد في السنة الثامنة للهجرة، وتوفي في العاشرة إذ لم تطل حياته أيضاً.

أما بنات رسول الله ﷺ، فهن:

١ ـ زينب بنت رسول الله ﷺ:

وهي كبرى بنات رسول الله ﷺ، تزوجت قبل البعثة ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، فلما بعث أبوها، أسلمت، ولم يسلم زوجها، وأسر في

غزوة بدر، وافتدته وكانت في مكة، وأطلق سراحه رسول الله ﷺ، على أن يرسل زينب ففعل إذ فرّق بينهما رسول الله ﷺ، ثم أسر ثانية مع قافلة، فأجارته زينب، رضي الله عنها، في المدينة، فأطلق المسلمون سراحه مع القافلة، فلما رجع إلى مكة، وأدى أمانات الناس وأموالهم، أسلم، وعاد مهاجراً إلى المدينة، فأعاد له رسول الله ﷺ، زينب بعقد جديد على ما في العقد السابق.

ولدت زينب لأبي العاص علياً، وأمامة. أما علي فقد توفي صغيراً، وأما أمامة فقد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء.

عاشت زينب حتى الثامنة للهجرة، وتوفيت في حياة أبيها، عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنها.

٢ ـ رقية بنت رسول الله ﷺ:

ثانية بنات رسول الله ﷺ، ولدت قبل البعثة، وتزوجت كذلك من عتبة بن أبي لهب، فلما بعث رسول الله ﷺ، أسلمت، وغضب أبو لهب فأمر ابنه بمفارقتها ففعل ولم يكن قد دخل بها.

تزوجت بعدئذ سيدنا عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم استقرت في المدينة، وأنجبت من عثمان ولداً أسماه عبد الله، وبلغ سنه سنتين، ومات، وكان عثمان، رضي الله عنه، يكنى به، وتوفيت في حياة أبيها، وهو في غزوة بدر، وكان عثمان قد تخلّف عن تلك الغزوة لتمريضها بأمر رسول الله ﷺ.

٣ ـ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ:

وهي ثالثة بناته، عليه الصلاة والسلام، ولدت، ونشأت، وتزوجت قبل البعثة، وكان زواجها من عتيبة بن أبي لهب، وبعد البعثة طلب أبو لهب من ابنه مفارقتها، كما فعل أخوه عتبة لزيادة عائلة رسول الله ﷺ، ولم يكن عتيبة قد دخل بها، فتزوجها عثمان بكراً.

هاجرت إلى المدينة مع عيال رسول الله ﷺ، ثم تزوجت سيدنا عثمان بعد وفاة رقية، ولكنها لم تلبث أن توفيت في السنة التاسعة في حياة أبيها، ولم تنجب لسيدنا عثمان.

٤ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة، وتزوجها سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في المدينة في السنة الثانية للهجرة، وولدت له الحسن، والحسين، وأم كلثوم، وزينب، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر، إذ توفيت في السنة الحادية عشرة، وهي الولد الوحيد لرسول الله ﷺ، الذي عاش بعده.

كُتّابُ رَسُولِ اللهِ

صلى الله عليه وسلم

على الرغم من قلة المعرفة للقراءة والكتابة في مكة وقت ظهور الإسلام إذ لم يزد عدد الذين يعرفونها على سبعة عشر رجلاً فإن عدداً منهم قد دان بالإسلام منذ أول عهده، وكتب لرسول الله ﷺ، الوحي، وما يحتاج إليه، ومن هؤلاء الكتّاب في مكة: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وخالد بن سعيد بن العاص، وعامر بن فهيرة، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وجعفر بن أبي طالب، وحاطب بن عمرو، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن أبي بكر، وأضيف إليهم في المدينة:

أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومعاذ بن جبل، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعبد الله بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وبريدة بن الحصيب، وثابت بن قيس بن شماس، وحذيفة بن اليمان، وحنظلة بن الربيع، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وزاد بعد الحديبية وفتح مكة:

أبو سفيان صخر بن حرب، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وجهم بن سعد، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب، والحصين بن النمير، وحويطب بن عبد العزى، وعبد الله بن الأرقم، والعباس بن عبد المطلب، وأبان بن سعيد بن

العاص، وسعيد بن سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، والعلاء بن الحضرمي[1].

وأضحى في المدينة لكل كاتب اختصاص تقريباً.

فكان علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأُبي بن كعب يكتبون الوحي، ويكاتب الملوك والأمراء زيد بن ثابت، ويكتب المعاهدات علي بن أبي طالب، ويكتب حوائج الناس المغيرة بن شعبة، والمداينات في المجتمع عبد الله بن الأرقم، ويسجل الغنائم معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، كما كان حنظلة بن الربيع يكتب عندما يتغيب أي كاتب لذا عرف بالكاتب.

---

(١) وانظر: «كتاب النبي» للدكتور مصطفى الأعظمي، طبع المكتب الإسلامي.

صحابة رسول الله
صلى الله عليه وسلم

يزيد عدد صحابة رسول الله ﷺ، على مائة وعشرين ألف صحابي، ولكن لا بد من أن يكون لبعضهم دور بارز في بعض جوانب الحياة أكثر من بعضهم الآخر الذين قد يمتازون في نواحٍ أخرى.

ففي بدء الدعوة برز أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، كداعية ورجل إيمان ومرافق لرسول الله ﷺ، وباذل للمال. كما امتاز سعيد بن زيد، رضي الله عنه، بالدعوة، واتخذت دار الأرقم بن أبي الأرقم كمقر للعمل، وكان عثمان بن مظعون المسؤول عن المهاجرين للحبشة في المجموعة الأولى، وجعفر بن أبي طالب في المجموعة الثانية. وعندما أسلم حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب كانا دعامة المسلمين. وكان كل من علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله في مقتبل الشباب.

ولم يكن القتال قد فرض لذا لم تبرز الأبطال بشكل جلي في هذه المرحلة، وإنما كان المسلمون جميعاً لهم دور واحد تقريباً، كما أن بعضهم كان لا يزال مستضعفاً.

وفي المدينة ظهر دور مصعب بن عمير الداعية الأول هناك، والذي عرف باسم المقرئ، كما برز أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي نزل عنده مصعب بن عمير، وكان دور لأصحاب بيعة العقبة الأولى أمثال عبادة بن الصامت من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان من الأوس، ومن أهل بيعة العقبة الثانية البراء بن معرور، وسعد بن عبادة، وسعد بن الزبير،

وعبد الله بن رواحة إضافة إلى من عرف وارتفع اسمه. وكذلك كان أثر سيدي الأوس سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير.

وعندما هاجر رسول الله ﷺ، ارتفع ذكر خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عنده رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وعندما فرض القتال بدأ رسول الله ﷺ، يرسل السرايا، ويسير مع الغزوات يدرس الأرض، ويعترض عير قريش، ويتفق مع القبائل، وكان اعتماده على المهاجرين من دون الأنصار فبرز دور حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقاص، وأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وعبد الله بن جحش، وزيد بن حارثة، أما من الأنصار فكان سعد بن عبادة الذي استخلفه رسول الله ﷺ، على المدينة أثناء غيابه. وفي هذه المدة مات عثمان بن مظعون من المهاجرين، وأسعد بن زرارة، والبراء بن معرور. وعندما حدثت غزوة بدر برز دور علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب.

ونستطيع أن نقول: إن المعارك التي خاضها المسلمون مع رسول الله ﷺ، كانت تتركز على مجموعة من الرجال الأشداء الذين يلتفون حول رسول الله ﷺ، ويعدون أركاناً له أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص من المهاجرين، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير من الأنصار، وعلى مجموعة ثانية كانت تجول في ساحة المعركة تحصد الأعداء حصداً، وعرفت بشدة البأس، وحسن البلاء لذا فقد ارتفع ذكرها كثيراً أمثال علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، والزبير بن العوام من المهاجرين وأبي دجانة وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، والحباب بن المنذر من الأنصار.

ومن الرجال الذين اشتهروا في حراسة المعسكر النبوي سعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وعباد بن بشر وهؤلاء من الأوس، ويبدو أنه كان يعتمد على هؤلاء الثلاثة كثيراً في هذه المهمة.

وظهر من القادة إضافة إلى المهاجرين المعروفين الحباب بن المنذر، وبشير بن سعد، وعبد الله بن رواحة ثم أضيف إلى هؤلاء القادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص بعد إسلامهما، كذلك جعفر بن أبي طالب بعد أن عاد من الحبشة.

وبعد فتح مكة رفدت المسلمين برجال أقوياء أمثال: العباس بن عبد المطلب وأبنائه، وأبي سفيان صخر بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأصبح أسامة بن زيد من الشباب القادة. أما الولاة والدعاة فقد عرف منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أم مكتوم، وأبو لبابة بن عبد المنذر وغيرهم، ورضي الله عنهم جميعاً.

فهرس الموضوعات

الباب الرابع:
الدعوة في المدينة المنورة

التاريخ الإسلامي

— ٣ —

الخلفاء الراشدون

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثامنة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٣ —

الخلفاء الراشدون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وَبَعْد

فإن المدة القليلة التي لا تزيد على الثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ يطلق عليها الخلافة الراشدة، والتي تعاقب عليها أربعة خلفاء فقط، وذلك لأنهم ساروا على نهج رسول الله ﷺ، حسب الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده، فكانت هذه المدة إذن تتمة لحكم رسول الله ﷺ، وبذا تكون الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة المنورة منذ أن وصل إليها رسول الله ﷺ في بداية الهجرة وإلى مقتل سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، سنة أربعين من الهجرة هي الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي كمدة متصلة، ولم تعد بعدها مرة أخرى على وجه الأرض في كل جوانبها ومعطياتها، وإنما أخذت بعض الجوانب الشكل العام لمدة قصيرة كما حدث أيام سيدنا عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أو بعض أجزاء في صور في عصور شتى في حياة بعض المصلحين من الحكام، وهي القدوة لكل حاكم يريد لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة ولشعبه الصلاح والحياة السعيدة، وهي الشكل من الحكم الذي يطالب به المسلمون حكامهم للسير على نهجه، ويدعون إلى تطبيقه فيما إذا آلت إليهم دفة الحكم، وتسيير شؤون الدولة.

وما هذه المطالبة من قبل المسلمين بالسير على منهج الدولة الإسلامية والدعوة إلى ذلك إلا لأن الحضارة في هذه المدة قد بلغت أوجها، والحضارة التي نعنيها هنا هي التي تنبع من عقيدة المسلم، والتي هي تحقق سعادة الإنسان، وليست الحضارة المادية التي تستعبد الإنسان وتذله، وتطلق له عنان شهواته، وتخضعه لبهيميته، فينشأ الصراع، وتكثر المفاسد، وتعم

الجرائم، ويستبد القوي، ويطغى الغني، وتتحكم مجموعة من اللصوص لتحقيق رغباتها وتأمين مصالحها، وهذا الذي يجمعها بعضها إلى بعض، وأصبحت الحضارة عندهم غايةً شخصيةً وليست غاية كل فرد من أفراد المجتمع كما يجب أن تكون.

لقد أعطى الإسلام الإنسان الصورة الصحيحة عن الحياة، فعرّفه أنه ليس أعظم مخلوق في هذا الكون بما منحه الله من ميزات يحق له أن يتغطرس، ويظلم الآخرين من بني البشر، كما أنه ليس هناك من أمة أعلى من أمة يحق لها السيطرة والطغيان على غيرها، وفي الوقت نفسه فالإنسان ليس مخلوقاً وضيعاً لا قيمة له أمام الكائنات الثانية الأمر الذي يجعله خاضعاً لها يسجد لها ويعبدها، كما فعل الوثنيون الذين عبدوا الشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار سواء أكان ذلك في القديم أم في العصر الحديث، وإنما الإنسان مخلوق مكرم مستخلف في هذه الأرض. ولم يكن هذا الاستخلاف ليجعل الإنسان مستقلاً بأمره يفعل ما يشاء بمحض إرادته، وإنما هو مسؤول أمام الله الذي خلقه، واستخلفه، ورسم له المنهج الذي ينظم أمور حياته، مسؤول عن كل ما يفعل، وعن كل ما ينتج عن فعله، فإن أحسن كوفئ أفضل مكافأة، وإن أساء عوقب على قدر الإساءة. فالإنسان المسلم مقر بسيادة مولاه على ما يملك وكل ما تحت يده هو، ومسؤول: أمام ربه عن كل فعل، وفي الوقت نفسه فهو بهذا المنصب من الاستخلاف يعد أعلى ممن سواه من المخلوقات الأخرى.

ومن هذا المنطلق فإن كل فرد مسلم في المجتمع كان يأخذ دوره كاملاً نتيجة وعيه الصحيح ومعرفة الموقع الذي هو فيه، وكان عضواً صالحاً في المجتمع، ويؤلف لبنة من لبنات البناء المتماسك بعضه مع بعض، وبذا تكوّن المجتمع الصالح، وبسبب ذلك وبسبب الوعي الروحي كان الانطلاق للجهاد تلقائياً للحصول على الشهادة فكانت الانتصارات، وكانت الفتوحات الواسعة، وكان المسؤولون وهم الخلفاء أكثر عناصر المجتمع إدراكاً لهذه الموضوعات وتفهماً لمعطياتها. لذا فقد سادت الحضارة الإنسانية، وحصل

الأفراد على السعادة التامة في المساواة، والعدل، والأمن، والطمأنينة، والحاجات الأساسية كلها، وتأمنت الرفاهية. ويمكن أن نعطي أمثلة مقارنة بين الخلفاء الراشدين وحكام هذا العصر، لنرى الفارق البين بين من صبغه الإسلام بصبغته وبين من طغت عليه المادة والمصالح الدنيوية فطبعته بطابعها، ولما كانت حياة الخلفاء الراشدين صورة واحدة تقريباً، لذا سنجتزئ صوراً منها وهي الشائعة بين الناس السائرة على ألسنة المجتمع، لنصل إلى النتيجة التالية: وهي أن الناس يعرفون المعرفة العامة لحياة الراشدين الذين يعدونهم قدوة لهم، ولكن لا يستطيعون مطالبة الحكام بذلك، حيث الطغيان قائم، والظلم شديد، والناس على رغبة شديدة بتطبيق الإسلام، وعندما يرون أول بادرة لذلك فإنهم ينطلقون وراءها، ويعملون لها بكل إخلاص وتضحية، ويمكن أن نلاحظ هذا في إيران التي قطعت شوطاً بعيداً في المفاسد أيام حكم الشاه، حتى نستطيع أن نقول إنها سبقت غيرها من دول العالم الإسلامي كله، وتسلط سيف الشاه أكثر من غيره أيضاً، وكانت قوة المخابرات السرية تفوق كل ما سواها، ووضعت الدول الأجنبية صاحبة المصالح النفطية كل طاقاتها للمحافظة على الوضع ومراقبة كل تحرك يهدف إلى تغيير النظم، إلا أن المجتمع عندما رأى الاتجاه نحو الإسلام في الحركة المعادية للشاه انطلق يدعمها، وفوجئت الدول الأجنبية بهذا التحرك، وهذا التغير الذي حدث سريعاً نحو الإسلام، ولم تكن لتتوقع ذلك، لذا فالمفاجأة كانت بالنسبة لها صدمة كبيرة إذ ضاعت مصالحها وساد الإسلام ـ حسب المفهوم الذي رفع رايته أولئك الذين دعوا إليه وعملوا له، وهو أصعب الأمور بالنسبة لها وأكثرها مرارة ـ وستكون الصور التي سنعطيها عن الخلفاء الراشدين بما يتعلق بالحياة الاجتماعية بالدرجة الأولى، لما لها من علاقة في الحياة العامة.

لقد كان الخلفاء الراشدون على أعلى مثل من التواضع، إذ كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب أغنام الحي الذي يقيم فيه وهو السنح، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منايح

(أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن. وبقي على ذلك ما أقام في السنح، فلما انتقل إلى المدينة بعد ستة أشهر من توليه الخلافة ترك ذلك بالضرورة.

وكان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذا سقط خطام ناقته ينزل ليأخذه، فيقال له: لو أمرتنا أن نناولكه، فيقول: أمرنا رسول الله ﷺ ألا نسأل الناس شيئاً.

هذا التواضع قد فُقد بعد تلك الصفوة إلا من رحم ربك، وغدا الرجل إذا تسلم المسؤولية ترفّع عن الناس، وأصبح لا يكلمهم إلا من وراء حجاب، وبأنف شامخ، وبعد اجتياز عدد من السدود والأسوار من الجند والمخابرات العامة منها، والسرية.

ولننظر إلى جانب آخر من المصلحة العامة وهو السهر من قبل المسؤول الأول على حياة رعيته وشؤونهم، فقد كان الخليفة يتجول في النهار في الأسواق، ويسأل عن شؤون الناس، ويتجول في الليل يتفقد أحوال الأمة والمحتاجين، والذين يبيتون حول المدينة من الأعراب والتجار والمنقطعين ومن ألجأتهم الحاجة إلى ذلك، يؤمن لهم حاجاتهم. فبينما كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعس في المدينة ليلاً أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة، فسألها عن شأنها، فذكرت أن لها عيالاً، وأنه ليس لها خادم، وأنها تخرج في الليل فتسقيهم الماء، وتكره أن تخرج بالنهار، فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها، وقال: اغدي على عمر غدوة يخدمك خادماً. قالت: لا أصل إليه، قال: إنك ستجدينه إن شاء الله تعالى. فغدت عليه فإذا هي به، فعرفت أنه الذي حمل قربتها، فذهبت تولي! فأرسل في أثرها، وأمر لها بخادم ونفقة.

أما بعد ذلك العصر فالحاكم لا يجرؤ على مغادرة مقره، بل لا يستطيع زيارة أهله، وصلة رحمه، وإذا خرج كانت المخابرات السرية أرتالاً من أمامه، وأنساقاً من ورائه، وكان رجال الأمن صفوفاً ولمسافات طويلة،

وينتشر بعضهم على جنبات الطريق، والسيارات المتشابهة تسارع الريح، وتنطلق بعضها إثر بعض حتى لا يُعرف الحاكم في أيها يكون.

ولننظر إلى الجانب المالي الذي عليه مدار الحياة حسنه وسيئه. لقد كان أبو بكر، رضي الله عنه، رجلاً تاجراً يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، فلما استخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر، وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالا: انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

وجاء في الرياض النضرة أن رزقه الذي فرضوه له خمسون ومائتا دينار في السنة وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك وعياله، وكان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده في بيت مال المسلمين، فخرج إلى البقيع فتصافق (بايع)، فجاء عمر، رضي الله عنه، فإذا هو بنسوة جلوس، فقال: ما شأنكن؟ قلن: نريد خليفة رسول الله ﷺ، فانطلق يطلبه فوجده في السوق، فأخذه بيده فقال: تعال ها هنا. فقال: لا حاجة لي في إمارتكم، رزقتموني مالا يكفيني وعيالي. قال: فإنا نزيدك. قال أبو بكر: ثلاثمائة دينار والشاة كلها، قال عمر: أما هذا فلا! فجاء علي، رضي الله عنه، وهما على حالهما تلك، قال: أكملها له. قال ترى ذلك؟ قال: نعم، قال: قد فعلنا. قال أبو بكر: أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا؟ وانطلق أبو بكر، رضي الله عنه، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فقال: أيها الناس إن رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ مني بطنها، ورأسها وأكارعها، وإن عمر وعلياً أكملا لي ثلاثمائة دينار والشاة. أفرضيتم؟ قال المهاجرون: اللهم نعم؟ قد رضينا. فقال أعرابي من جانب المسجد: لا والله ما رضينا فأين حق أهل البادية؟ قال أبو بكر: إذا رضي المهاجرون شيئاً فإنما أنتم تبع.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعمل بالتجارة أيضاً، فلما

ولي الأمر لم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته، لأنه اشتغل عنها بأمور الرعية، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم فقال: إني كنت امرءاً تاجراً، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يصلح لي من هذا المال؟ فقال عثمان، رضي الله عنه، كل وأطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد، وأكثر القوم، وعلي، رضي الله عنه، ساكت، فقال له: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره. فقال عمر: القول ما قال علي بن أبي طالب.

وكان عثمان، رضي الله عنه، إذا أعطى الأعطيات، وزع من ماله الخاص أيضاً إلى الذين لا تكفيهم أعطياتهم، وهو المعروف بكرمه، وصدقاته، وبذله ماله في الجهاد.

وكان علي، رضي الله عنه، شأنه شأن عمر، رضي الله عنه.

وأين نحن اليوم من أولئك الصحابة رضوان الله عليهم؟ فإن الخزينة أضحت بعدهم بيد الحكام ينفقون كيف يشاءون، ويتصرفون كما يريدون، كما أصبحت لهم نفقات مستورة لا حصر لها، وفوق هذا فقد تكدست لهم الأموال في المصارف خارج البلاد، حتى غدت دول أجنبية تعيش على هذه الأموال لكثرتها، وأكثرها يعود إلى حكام أمراء المسلمين، مع أنه قد ظهر أن هذه الأموال مهما بلغت، والعقارات مهما كثرت، فإنها لا تكفي شيئاً، ولا تغني صاحبها شيئاً؛ فإن الشاه وضخامة ما يملك ومع ذلك فإنه لم يجد أرضاً تقبله ليأوي إليها، هذا في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم، وذلك جزاء الظالمين.

ولعل أفضل حكمة تقال عن المال ما قاله عبادة بن الصامت[1]،

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي من الموصوفين بالورع. وشهد العقبة ـ وكان أحد النقباء ـ وبدرا وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، كان طويلاً شديد السمرة، توفي ببيت المقدس عام ٣٤هـ.

رضي الله عنه، للمقوقس حاكم مصر قبل فتحها أثناء حديثه معه «لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه».

ولننظر إلى جانب من جوانب المساواة في عهد الراشدين، أتت علياً، رضي الله عنه، امرأتان تسألانه، عربية ومولاة لها. فأمر لكل واحدة منهما بكُرٍ من طعام، وأربعين درهماً. فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت. وقالت العربية: يا أمير المؤمنين! تعطيني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة؟ قال لها علي، رضي الله عنه: إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وجاء جعدة بن هبيرة إلى علي ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أمير المؤمنين! يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه وأهله وماله. والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا! فلهزه، علي رضي الله عنه، وقال: إنّ هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء من الله.

لا شك بأن حكاماً هذا عملهم، وهذا دأبهم ستستقيم رعيتهم، وسينظرون إليهم بعين التقدير والإكبار، وسيشعرون أنهم في طمأنينة، وسيعيشون في أمن وسلام، كل آمن على نفسه، وماله، وعرضه، وستكون عندها السعادة. ولا شك بأن في كل مجتمع وفي أي وقت عناصر تحاول الإساءة، وتسعى للفساد، وترغب في مصالحها الخاصة، إلا أن أعين الخلفاء الراشدين لم تكن غافلة عنهم بل كانت لهم بالمرصاد، تجبرهم على الاستقامة والسير على الطريق المستقيم، وذلك بالقوة إن لم تجد معهم النصيحة، إذ لم يكن سلوك أولئك الخلفاء نتيجة ضعف وخوف، وإنما نتيجة التربية الإسلامية السليمة، والخوف من الله سبحانه وتعالى، والسير على منهجه.

ولا شك بأن الإسلام هو الذي تربى عليه هؤلاء الخلفاء فكانوا أئمة، وكذلك نشأت عليه الرعية فخافت الله واتقته، فنصحت لأئمتها ولسائر

المسلمين، وشعرت بأخوتها لكل أبناء مجتمعها فكانت الأمة الفاضلة، وخير أمة أخرجت للناس، وذلك ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. فكان الأفراد ينصحون أمراءهم فيقبلون منهم، ويأمرونهم بالحق فيلبون، فقد وقف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مرة على المنبر وقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا (وميل رأسه). فقام إليه رجل فقال: أجل كنا نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع). فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ قال: نعم إياك أعني بقولي. فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا اعوججت قومني. وكانت النساء تطلبنَ من أزواجهن قبل الخروج للعمل: أن يتقوا الله فيهن وبطعامهن، فإنهن يصبرن على الجوع ولكن لا يصبرن على الطعام الحرام.

تاريخ هذه المرحلة

لكل أمة تاريخ يسجله أبناؤها بصورة ما، فإذا كانت هناك أخطاء فيه وضّحوا الظروف التي أدت إلى وقوع الأخطاء حتى ليجد القارئ أن العذر معهم في تصرفاتهم، فيسوّغ بذلك لهم أعمالهم، فيبقيهم في نظر الناس رجالاً مخلصين، وتشعر الأجيال من أمتهم أنهم أمة مجيدة، يفخر فيها الخلف، ويعتز بها الأبناء، ويأخذ الجيل العبر من أخطاء الأجداد، ويحاول عدم الوقوع فيها، وأن بناء أمته إنما كان بشكل سليم، وفي الوقت نفسه فإن الأحفاد يعرضون الجيد من تاريخهم بشكل رائع وبصورة براقة توضح عظمة الأمة وماضيها الحافل بالأمجاد، وفي كلا الحالين يبقى التاريخ مفخرة للأجيال.

أما الأمة المسلمة فقد اعترى ـ مع الأسف ـ تاريخها الشيء الكثير من التشويه بسبب الفرق التي وجدت، حيث يحاول كل منهم أن يضع من شأن الآخرين، ويعدهم معتدين على حقوق غيرهم، وذلك ليعلي مركز من يتبعهم أو يعمل لهم أو يعتقد بصلاحهم دون سواهم، وبذا حدثت ثغرات في تاريخ العظماء، ثم سلطت الأضواء على نقاط الخلاف، وهُوّل من شأن القتال الذي حدث بين الأطراف، حتى غدا تاريخنا كله قتالاً ومعارك بين الفريقين وأعطيت هذه المعارك أكبر من حجمها، وصورت بأكثر من واقعها، وصار لا يذكر غيرها من الصفحات المشرقة في هذه المرحلة، والأفضل أن تسوّغ هذه المعارك بالظروف التي أدت إلى حدوثها.

من الأمة المسلمة من أحب علياً، رضي الله عنه، حبّاً أفسد عليه أمره كله، فنسب إليه ما لا يُقبل من الحوادث والأخبار، ومن خلال هذا الحب

حاول أن يضع من شأن غيره، ويعد الآخرين معتدين على حقه ظالمين له، ولأنفسهم، بل زاد به ذلك الحب حتى عد أحفاد علي، رضي الله عنه، أئمة منصوص عليهم، وأعطاهم العصمة، وسواهم بمنزلة النبوة، ولكن هذه المبالغة لم تحدث في صدر الإسلام، وإنما وجدت فيما بعد، بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، إذ لا نجد هذا الكلام عند الفقهاء الأوائل والمؤرخين، كما لا نجد الكراهية بين وجهاء آل البيت والخلفاء والولاة، بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة، ولكنها غدت مع الزمن فكراً خاصاً وعقيدة خاصة، ونسب إلى الأوائل أقوال لم يقولوها، وأخبار لم يعرفوها، وأفكار لم تخطر على بالهم أبداً.

لقد فسح المجال أمام أدعياء نصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، أن يكتبوا ما شاء لهم هواهم في ذم خصومهم، والذين وقفوا في وجههم، وأن يروّجوا الروايات التي تلائم ما يدعون! حتى كثرت الفرق، وتعددت الفئات التي تريد من ذلك تأمين مصالحهم، وتبغي تحقيق أهوائهم، وظهرت الباطنية، وزادت المغالاة إذ لم يبدأ تدوين التاريخ إلا في العهد العباسي الذي يرغب بل لا يهمه سوى تهديم الحكم الأموي، ليكون ذلك مبرراً لقيام الدولة العباسية، الأمر الذي ساعد على الطعن في الأمويين جملة، ووصل إلى من قامت دولتهم على أساس المطالبة بدمه، وهو الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه. ونسبت أمور لعلي، رضي الله عنه، ووضعت أحاديث لرسول الله ﷺ تحدد الخلافة لعلي، رضي الله عنه، الأمر الذي جعل من سبقه غاصباً لحقه، غير معترف بأفضليته، ووضعت كتب نسبت لسيدنا علي تنطق بهذا، وما هي له، وأعوذ بالله أن يتكلم أحد الصحابة ومن هو بمستواه عن غيره من الصحابة بهذا الكلام أو يتفوه فيه، وقد انتشرت الأخبار، وشاعت الروايات التي تتحدث بهذا، وجاء المؤرخون فوجدوا من الأمانة العلمية أن يدونوا لسلفهم كل ما في المجتمع من أخبار، وينقلوا إلى أحفادهم كل الروايات، ومن هنا جاء التضارب في الروايات حسب الأصول التي وردت منها، إذ لا تعترف

كل فرقة إلا برواة خاصين بها، تعدهم ثقة، على حين تقدح بغيرهم.

ومما زاد الأمر مشقة وبعداً في الشقة أننا ننظر إلى تلك الحوادث التي وقعت آنذاك من خلال واقعنا اليوم من حيث سرعة وصول الخبر ونقله، والرغبة في الوصول إلى الحكم والتكالب على الدنيا، ومن خلال ما ثبت في ذهننا من عداء بين الفريقين بما دون في التاريخ، ومن خلال عدم دراسة الظروف التي أدت إلى ذلك.

كانت المسافة بين المدينة ودمشق تقطع في مدة شهر ذهاباً ومثله إياباً، وخلال هذين الشهرين وحتى تعود الرسل تكون حوادث قد جدت، ومشكلات جديدة قد طرأت تحتاج إلى معالجة وتبيان، وأمور قد انتهت، وقضايا نسيت لا حاجة لإبرازها من جديد وإعادة المزعجات إلى النفوس، كما أن الموضوعات تكون قد نقلت بشكل مخالف لواقعها نتيجة النقل عن فلان عن فلان، فتصل عن طريق غير الطريق التي نقلها الرسول المأمون الثقة، فتكاد النفس لا تصدق، ويحدث الحرج ويقع الارتباك؛ ونتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الهاتف، واللاسلكي، والمذياع والطائرة، والأقمار الصناعية، وانتقال الأخبار بواسطة هذه الأجهزة ولا تتعدى سرعتها الدقائق بل الثواني.

كان الخلفاء الراشدون أبعد الناس في الرغبة بالحكم، بل في إعطاء الرأي، فكان السؤال يأتي إلى الصحابي فيحيله إلى صحابي آخر، وهو بدوره إلى آخر وآخر حتى يعود السؤال إلى الأول، وكل يحاول ألا يفتي في المسألة، ولننظر إلى يوم السقيفة وأبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، كل يدفع الأمر عن نفسه ويلقيها على الآخر، ولنذكر دائماً ما كان يقوله علي، رضي الله عنه: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولاها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».

نتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الرغبة في الحكم، والتمسك

في السلطة، والقتال من أجلها، وعدم ترك الأمر إلا بالسيف، والانقلاب، والثورة.

وكان الصحابة عامة والخلفاء الراشدون خاصة يحب بعضهم بعضاً، ولا يحب أحد أحداً كما يحب الخليفة صحابة رسول الله، ولن نتحدث عن استشارة أبي بكر، عمر، وعثمان، وعلياً وبقية الصحابة، ولا استشارة عمر عثمان وعلياً، وتولية عمر علياً المدينة إذا خرج منها، ولا استشارة عثمان علياً، واعتماده على رأيه، لأنه ربما يقول أحدنا أنه كان يداري الصحابة ليسكتوا عنه ـ معاذ الله ـ ولكن سنقف قليلاً عند محبة الخلفاء لأبناء الصحابة وخاصة أبناء آل البيت، ثم رأي الخليفة فيمن سبقه. وسنزيد على ذلك لنرى موقف الخلفاء الأمويين والعباسيين الأوائل من وجهاء آل البيت وكبارهم خاصة وجلهم عامة لنكون على بينة من الواقع ولنبتعد قليلاً عما رسخ من نفوسنا من العداء التقليدي، والبغض الكبير بين الفريقين.

كسا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصحاب النبي ﷺ فلم يكن فيها ما يصلح للحسن والحسين، فبعث إلى اليمن فأتى بهما بكسوة فقال: الآن طابت نفسي[١].

وأمر عمر بن الخطاب الحسين بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة.

قال الحسين: فلقيت عبد الله بن عمر، فقلت له: من أين جئت؟ فقال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي، فرجع الحسين فلقيه عمر فقال: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟

قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت.

فقال عمر: وأنت عندي مثله؟ وأنت عندي مثله؟[٢]. (أي أعز عليه وأكرم من ولده عبد الله).

---

(١) ابن الجوزي: ٩٧.

(٢) ابن الجوزي: ١٦٤.

وأخرج الترمذي عن عمر، رضي الله عنه، قال: أبو بكر سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج البخاري وأحمد، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي (يعني علي بن أبي طالب، رضي الله عنه) أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر! قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان.

قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وسئل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقال للسائل: على الخبير سقطت، كانا والله إمامَيْ هدى، هاديين مهديين، راشدين مرشدين، مصلحين منجحين، خرجا من الدنيا خميصين.

وقال: جعل الله أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً، وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً.

وبينما كان علي ذات يوم يقضي في الكوفة، إذ قال رجل: يا خير الناس انظر في أمري، فوالله ما رأيت أحداً هو خير منك. قال: قدموه، فقدم، فقال له: هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قال: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا، قال: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ﷺ لضربت عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً.

وكان علي، رضي الله عنه، يقول إذا ذكر عنده أبو بكر: السباق، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير، إلا سبقنا إليه أبو بكر.

وجاء رجل إلى علي، رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر، وأنت أسبق منه سابقة؟ فقال علي: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن، ولم أعتض منهن بشيء، سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجرة، ومصاحبة النبي في الغار، وإتمام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب، يظهر الإسلام وأخفيه، وتستحقرني قريش وتستوفيه. والله لو أن أبا بكر زال عن مزّيته، ما بلغ الدين العبرين، ولكان الناس

كرعة ككرعة طالوت، ويلك إن الله ذم الناس، ومدح أبا بكر فقال: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» فرحمة الله على أبي بكر.

وفي العهد الأموي والعباسي الأول كان بنو هاشم موضع الاحترام، والتقدير سواء من كان ينتمي منهم للعباس، رضي الله عنه، أم لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان هذا الاحترام عاماً على كافة المستويات، سواء أكانت الأوساط الشعبية أم الرسمية، فكان الخلفاء إذا دخل أحد الهاشميين أوسع له الخليفة بجانبه، وأجلسه بالمكان المناسب له، وأوصله بالأعطيات، بل كان موقف المأمون يزيد على غيره في هذا الأمر؛ فقد جعل كبير الطالبيين علي الرضا ولياً لعهده، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على موضع التقدير لهؤلاء الأئمة من الطالبيين، إذ كانوا بالفعل أئمة علم وهدى ومكانة وتقوى، وكانوا يعطَوْن حقهم اللائق بهم. واستمر هذا حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما قامت الادعاءات في النسب الطالبي، وقامت الحركات الباطنية من قرامطة، وزنج، وعبيدية، كلها تدعي الانتماء إلى علي، رضي الله عنه، وما هي كذلك، وابتدأت تعمل على تهديم الحكم وتقويض أركان المجتمع الإسلامي، وفي الوقت نفسه قامت حركات تدعي الزهد والتصوف، وتعمل على إماتة روح الجهاد حتى لا يستطيع المسلمون مقاومة الحركات الهدامة، ويمكن أن نلاحظ الصلة بين هذه الحركات في العصبية، إذ كلها تعود إلى الأصل الفارسي المجوسي، وفي الأفكار، كلها تحمل فكرة التناسخ والحلول، وفي الأهواء كلها تعمل على إرواء الغرائز والشهوات تارة بالإباحية الظاهرة وأخرى بالمستترة. ومنذ ذلك الوقت بدأت تنفرج زاوية الانحراف ويبتعد ضلعاها بعضهما عن بعض، يحمل الأول الفرق التي تدعي التشيع، ويحمل الثاني الإسلام ويعرف بأهل السنة، وبدأت تظهر الأفكار الغريبة عن الإسلام وعن النبع الصافي، أما الذين يرون مناصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، ولم تدخل إلى أفكارهم شوائب وآراء غريبة مخالفة، فهم من المسلمين بغض

النظر عمّا يحملون من اسم، وأما الفرق التي قامت على أفكار وعقائد دخيلة فقد ابتعدت عن الإسلام بغض النظر عما تدعيه من انتماء أو تشيع.

أما ما يقال عن المآسي والنكبات التي لحقت بآل البيت خلال العهدين الأموي والعباسي فإن الأمر لا يقتصر على آل البيت فقط، وإنما نالت المصائب جميع الطامحين بالسلطة والثائرين من الناس جميعاً، سواء أكانوا من آل البيت أم من غيرهم؛ فإذا كان الحسين بن علي، رضي الله عنهما، من آل البيت فإن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، من غيرهم، وإذا كان زيد بن علي بن الحسين من آل البيت فإن عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق من بني أمية بالذات. هذا في عهد الأمويين، أما في عهد العباسيين فإن المنصور قد قاتل محمد ذا النفس الزكية وأخاه إبراهيم ولكنه في الوقت نفسه قد حارب عمه عبد الله بن علي، وقضى عليه، وقتل أبا مسلم الخراساني؛ فالأمر إذن لا يتعلق بآل البيت وحدهم، وإنما بكل ثائر مهما كان نسبهُ، ومهما كانت عصبيته، إنه الحكم الذي غدا غاية تراق من أجله الدماء، ويقاتل في سبيله الأهل والولد. أما الذين لا يثوروا من آل البيت فإن مكانتهم محفوظة، ومركزهم معروف لا يستطيع إنسان مهما علا شأنه أن يضع منه شيئاً؛ فعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، ومن قبلهم الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وأخوه محمد بن الحنفية بن علي لم يتعرض أحدهم لشيء، وإن حدث فأمر موقت يتعلق بالدعاية ضدهم، أو المعلومات التي يحصل عليها الخليفة أو الوالي من قبل بعض المغرضين، ثم لم يلبث أن يعفو عنه، ويعتذر إليه، وتقدم له الأعطيات.

فالمآسي والنكبات التي يعظم من أمرها بالنسبة إلى آل البيت لحصول الفرقة بين صفوف المسلمين، إنما هي تشبه ما أصاب غيرهم، ولم تكن هناك فروق في الأفكار والعقائد أبداً، وإنما أوجدها المغرضون فيما بعد، وقبل ذلك المتأخرون الذين لم يدققوا الأمر بشكل صحيح.

الخلافة والبيعة

الخلافة هي استخلاف أحد المسلمين لحكم الناس حسب منهج الله سبحانه وتعالى وهو ما ارتضاه لعباده المؤمنين، وهو أمر ضروري لاستقامة الحياة «إن مجموعة القوانين لا تكفي لإِصلاح المجتمع، ولكي يكون القانون مادة لإِصلاح وإسعاد البشر فإنه يحتاج إلى السلطة التنفيذية، لذا فإن الله عز وجل قد جعل في الأرض إلى جانب مجموعة القوانين حكومة وجهاز تنفيذ وإدارة. الرسول الأعظم ﷺ كان يترأس جميع أجهزة التنفيذ في إدارة المجتمع الإسلامي. وإضافة إلى مهام التبليغ والبيان وتفصيل الأحكام والأنظمة، كان قد اهتم بتنفيذها، حتى أخرج دولة الإسلام إلى حيز الوجود، في حينه كان الرسول الأعظم ﷺ لا يكتفي بتشريع القانون الجنائي مثلاً بل كان يسعى، إلى تنفيذه، كان يقطع اليد، ويجلد، ويرجم، ومن بعد رسول الله كانت مهام الخليفة لا تَقِل عن مهام الرسول ﷺ. ولم يكن تعيين الخليفة لبيان الأحكام فحسب، وإنما لتنفيذها أيضاً. وهذا الهدف هو الذي أضفى على الخلافة أهمية وشأناً.

ويشعر الخليفة بأنه مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل شيء في هذا المجتمع، وما يحدث منه من تقصير محاسب عنه يوم القيامة. لذا كان خوفه شديداً من الله، الأمر الذي جعل الحاكم يعمل ليلاً ونهاراً على خدمة الناس يتفقد أحوالهم في كل ساعة في السوق، وخارج المدينة، وداخل الأزقة.

ولقد كان الخليفة الأول أبو بكر، رضي الله عنه، يسمى خليفة رسول الله ﷺ، على اعتبار أن رسول الله ﷺ كان هو المكلف من الله جل شأنه بتنفيذ أحكام الله، وحاول كل خليفة بعده أن يقال له خليفة خليفة... رسول الله، إلاّ أن كثرة تكرار كلمة خليفة جعلت الأمر يقتصر على كلمة

الخليفة، ومنذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصبح يحمل أيضاً لقب أمير المؤمنين.

وكان الخليفة إما أن يستشير أهل الحل والعقد قبل موته فيمن يخلفه، كما فعل أبو بكر الصديق، أو يعين من أهل الحل والعقد أناساً يختارون بعده من بينهم رجلاً ممن يرضون عنه أو يرتؤون، كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أو أنهم يلتقون بعد وفاة الخليفة ليختاروا خلفاً له، كما حدث بعد مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إذ اختار أهل الحل والعقد سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ولا تكون الخلافة في أسرة واحدة، مهما كان نوعها ومركزها، وسواء أكانت من آل البيت أم من غيرهم، فالحكم الوراثي غير متعارف عليه في الإسلام، والصلاح ليس بالنسب، والأحقية ليست بالقرابة وإنما بالعمل الصالح، والأفضلية بالتقوى، وعندما قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يختار من بعده ابنه عبد الله، أو قال له المغيرة بن شعبة: أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. ولقد نال بنو أمية ما نالوا من النقد بسبب عهد بعضهم إلى بعض بالخلافة وترك الشورى، إلا أن ذلك لا يعني أن غيرهم من الأسر أولى منهم، كما ادعى بعض من يدّعي أنه من أنصار سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في وجوب الخلافة في آل البيت، وآل الأمر عندهم في النهاية إلى القول بإمامة بعضهم بالنص، وذلك عندما لم يحصلوا على ما يبغونه.

ومع أن الفقهاء قد وضعوا شروطاً للخلافة، إلا أنها تبقى أموراً عامة فيمن يمكن أن يكون خليفة للمسلمين، وقد نصوا على أن تتوفر في الخليفة شروط الإسلام والذكورة، والرشد، والعدالة، واختلفوا في النسب القرشي. وقد اعتبر الإسلام شرطاً لأنه لا يمكنه أن يتولى إنسان أمراً لا يعتقد

بصلاحية نظامه، إذ كيف يتولى أمر المسلمين رجل من غيرهم لا يؤمن بصلاحية النظام الإسلامي، وهو يريد أن يطبقه، ويعاقب من يخالفه، وكذا الأمر ضروري بالنسبة إلى الذكورة، إذ أن المرأة كثيرة العاطفة، ضعيفة البنية غالباً، لا تستطيع القيام ببعض المهمات المترتبة على صاحب هذا المنصب كإمامة الصلاة، وقيادة الجيوش، وإقامة الحدود.

أما بالنسبة إلى العدالة فقد يختلف الناس في بعض الأفراد أيهم أكثر عدالة، إذ لا يوجد مقياس محدود بالنسبة لها، وقد يوجد جماعة من الناس كلهم عدول، وخاصة بين الصحابة الذين نتحدث عنهم، لهذا قد يرى أناس أن فلاناً له أفضلية على فلان، ويرى غيرهم غير ذلك، ومن هنا كانت تصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فليس من الضروري أن يكون الخليفة أفضل الناس، فقد يساويه عدد، أو قد يفوقه بعضهم، وقد قال أبو بكر، رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم... ومع أنه الأفضل إلا أن ذلك يدل على جواز وجود من هو أفضل منه، ومع وجود الأفضل إلا أن الخلافة صحيحة والطاعة له واجبة. أما الرشد فإنه بالإمكان الموافقة على البيعة لشاب بلغ سن الرشد، وإمامته صحيحة، إلا أن النفس البشرية تنظر بوقارٍ إلى الرجل الكبير السن، المليئة حياته بالتجارب، وعندما ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد قيادة الجيش المكلف بالسير إلى الشمال لملاقاة الروم، وافق المسلمون، ولا يمكنهم إلا أن يوافقوا، فرسولهم الكريم صاحب الأمر بذلك، وهو أولى بهم من أنفسهم، ولكن بعضهم مع الموافقة لم يتمكن من السكوت فأعطى رأيه أن في الجيش من هم أقدر من أسامة، إذ في الجيش أمثال عمر، وأبي عبيدة، رضي الله عنهما، وفعل رسول الله ﷺ تشريع، وفيه دلالة على جواز إمارة الراشد، وفي الجيش من هو أقدر، وأكفأ من القائد. وهذا الأمر هو الذي جعل النفوس تتجه إلى بيعة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي جاوز الستين من العمر، ولم تتجه إلى غيره من كبار الصحابة الذين يشار إليهم بالبنان كعلي، والزبير، وسعد، رضي الله عنهم، إذ لم تكن سنهم تتجاوز الثلاثين كثيراً، بل هم لا يخطر على بالهم الخلافة والبيعة.

والخلافة واجبة شرعاً وعقلاً، فالمسلمون لا بد لهم من حاكم يرعى أمورهم، ويتولى إدارة شؤون دولتهم، والخلافة هي الدولة الإسلامية، فكما لا نتصور مجتمعاً منظماً دون دولة، وكذلك لا نتصور مجتمعاً إسلامياً يؤدي دوره في الحياة دون خلافة، وإذا انعدمت الدولة انقلب المجتمع إلى فوضى، واختل النظام، وساد الفساد، وعمت الجرائم، وأكل بعض الناس بعضاً، وبانعدام الخلافة تصبح ديار المسلمين نهباً، وتسود شريعة الغاب، حتى تسيطر قوانين الكفر عليهم، كما حدث بعد زوال الخلافة.

وتنعقد البيعة في الإسلام للخليفة من قبل أهل الحل والعقد، وهم رجال العدالة، والعلم، والتقوى، ومن الولاة وهم في الأصل من المجموعة الأولى، إذ أن شروط الخلافة تنطبق على شروط الولاية، ومن حول الولاة من رجالات العدالة الذين يستشيرونهم، أو أهل الحل والعقد بالنسبة إلى الولاية، ويأخذ الولاة منهم البيعة للخليفة. وكانت المدينة المنورة في عهد الخلفاء الراشدين مركز تجمع أهل الحل والعقد إذ تضم أكبر عدد من صحابة رسول الله، ﷺ، ويضاف إليهم الولاة الذين كانوا من الصحابة كذلك.

ولم تكن البيعة من قبل الناس جميعاً كما يحدث في العصر الحالي، وإنما الأمر على أهل الحل والعقد فقط. وإن جرت العادة أن يبايع أكثر الناس، ولكن لم يكن ليؤبه لبيعتهم، وإنما ينظر إلى رجالات الإسلام المعروفين، وليس من الشرط أن تتم البيعة حتى يبايع أهل الحل والعقد جميعاً؛ وإنما يكفي أكثرهم، وبهم تنعقد البيعة، ولذا فإن تخلف عدد قليل من الصحابة ليس معنى ذلك أن البيعة لم تتم، وإن اهتم الخلفاء بهذا الأمر فهذا دلالة على حب معرفة وضع الخلفاء لأنفسهم، وسماع رأي الصحابة فيهم، ورجالات الإسلام بوضعهم.

ولما كانت البيعة تتم برأي أهل الحل والعقد، فالإسلام لا يعرف الانتخابات التي شاعت في وقت متأخر، وذلك لأن النتائج تعطي دائماً لجانب ومصلحة الحاكم أو حسب رأيه مهما كان نوعه كما نرى في هذه

الأيام، ومن هنا اتخذ المسؤولون طريقة جديدة اسموها الاستفتاء، وهي نوع من الألاعيب لإضفاء الصفة الشرعية على الوضع. والناس في الاستفتاء يؤيدون المرشح أو يعارضونه، ويصوتون إلى جانب مشروعات الرئيس أو يخالفونها، وما كان الاستفتاء في يوم من الأيام ليقدم نتائج تقل عن ٩٦٪ لمصلحة ما يريده الحاكم، دلالة على أن المجتمع الذي يضم صوراً متعددة من فئات الشعب لا يمكن أن يقف بجانب المصلحة لعدم معرفتها، أو بجانب الحق لجهله به، وإنما يقف بجانب المسؤول الذي يزيّن له آراءه أو يخيفه بسوطه المصلت، وفي غير الاستفتاء من الانتخابات يكون الرعاع ـ وهم أكثر المجتمعات اليوم مع الأسف ـ دائماً بجانب المال أو الأهواء، فتعطى الأصوات لمصلحة الذي يقدم أكثر أو يستطيع الدعاية بصورة أفضل بما يبذل، إذ أن الرعاع تنطلي عليهم حيل الدهاة والمحنّكين الذين يمارسون ألاعيبهم يومياً على الناس، ومن صور هذه الانتخابات حادثة تروى: جاءت فتاة عامية إلى صندوق الاقتراع، فقدم لها أصحاب الدعاية لأحد المرشحين اسم مرشحهم وصورته، فلم تعجبها الصورة، فأعطوها صورة مرشح آخر جميلة، وقالوا لها هذا فلان، فأيّدت الصورة وصوتت إلى جانب الاسم، ونجح أصحاب دعاية المرشح لبساطة المنتخبة ولمعرفة أنواع المكر والدهاء، وهذا الأمر شائع في الانتخابات، وبصورة عامة كلما كان الشعب على درجة من الجهل قدّم أناساً لتمثيله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً للخدمة، أو ساروا وراء عواطفهم وشهواتهم ومصالحهم. وعندما تكون الدولة ظالمة وتريد أن تستبد بالوضع تحرص أن يكون ممثلو الشعب على مستوى أقل من الوعي والفكر والخوف من الله، أو من أصحاب المصالح والأطماع وذلك حتى تستطيع أن تفعل ما تشاء، وتأخذ التأييد سلفاً ممن سمّوا على الشعب وهم الذين يحرصون على وضعهم ومصالحهم. ومن هذا فالإسلام يكتفي بأخذ البيعة من أهل الحل والعقد الذين يوجدون في كل أنحاء البلاد، يعرفهم الولاة، ويعرفهم المجتمع الذي يشير إليهم، فيكونون من أهل الإشارة وإبداء الرأي، ولديهم من الخوف من الله ما يمنعهم أن يتكلموا غير الحق، ويكونون نصحةً لله ولرسوله وللمؤمنين.

الباب الأوّل

أبو بكر الصّدّيق

رضي الله عنه

حياتـه في الجاهليـة

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، يُلقب بالعتيق، ويُكنى بأبي بكر، ويُعرف بالصدّيق، يلقب أبوه عثمان بأبي قحافة، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر من بني تيم أيضاً، وهي ابنة عم أبيه. وبنو تيم أحد بطون قريش الأثني عشر، وليست هي من البطون القوية المعروفة كبني عبد مناف، وبني مخزوم.

ولد في السنة الحادية والخمسين قبل الهجرة، وهو بذلك يكون أصغر من رسول الله ﷺ بحدود سنتين وبضعة أشهر.

تزوج أبو بكر، رضي الله عنه، في الجاهلية امرأتين وهما: قتيلة بنت عبد العزى، وأولدها عبد الله، وأسماء، وتزوج أم رومان بنت عامر الكنانية، وأنجبت له عبد الرحمن، وعائشة.

كان من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن. فالعباس بن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام، وأبو سفيان بن حرب من بني أمية، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه. والحارث عامر من بني نوفل، وكانت إليه الرفادة، وهي ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع الحاج. وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وكانت إليه السدانة والحجابة. ويزيد بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة فلا تجمع قريش على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق والاهم عليه، وإلا تخيّر، وكانوا له أعواناً. وأبو بكر

الصديق من بني تيم، وكانت إليه الأشناق وهي الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه، وامضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه. وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجتمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب. وعمر بن الخطاب من بني عدي، وكانت إليه السفارة في الجاهلية. وصفوان بن أمية من بني جمح، وكانت إليه الأزلام. والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم.

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، نسابة قريش، يقول ابن هشام في السيرة النبوية: كان أبو بكر، رضي الله عنه، أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاركاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته.

وكان تاجراً يرتحل إلى البلاد، ودخل بصرى الشام، وكان مع أبي طالب في قافلته إلى الشام، وكان رأسماله جيداً، كريماً، فكان ينفق من ماله في كرمه، وعلى أصدقائه، إذ كانت قريش تحبه، ويستشيره رجالها.

حرّم على نفسه الخمرة في الجاهلية فلم يشربها قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وذلك أنه مرّ وهو في الجاهلية برجل سكران يضع يده في العَذِرة يدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرمها أبو بكر على نفسه. وأخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية[١].

وأخرج ابن عامر بسند صحيح عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية[٢].

---

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

ولقد روي له ثلاثة أبيات من الشعر منها:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوئت المها العينا[١]

ولم يسجد أبو بكر كذلك لصنم قط، قال أبو بكر، رضي الله عنه، في مجمعٍ من أصحاب رسول الله ﷺ. ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما ناهزتِ الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مُخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشمّ العوالي، وخلّاني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يجبني، فقلت: إني عار فاكسني فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه[٢].

وكان خدناً للنبي ﷺ وصفياً له قبل البعثة. وكان معه حين ذهب مع عمه إلى الشام، واجتمع ببحيرا الراهب. وكان النبي ﷺ في بدء الوحي إذا برز سمع من يناديه: يا محمد! فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فأسرّ ذلك إلى أبي بكر، وكان نديماً له في الجاهلية.

وعلى الرغم من شهرة أبي بكر في الجاهلية بين أفراد قبيلة قريش وبين غيرها إلا أن تاريخه في تلك المرحلة غير معروف بدقة، وكل ما يعلم أنه كان تاجراً نسابة تألفه قريش، صديقاً لمحمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو بذلك مثل معظم رجالات ذلك الزمن، إلا أن دخوله في الإسلام وسبقه في ذلك قد رفعه عمن سواه، وكان الشخص الثاني بعد رسول الله ﷺ. وإذا كان الإسلام قد رفع كل من اعتنقه إلا أنه قد جعل بعضهم دون بعض حسب سبقه، وإخلاصه، وتقواه، وتضحيته، وكل هذا ما امتاز به أبو بكر، رضي الله عنه.

وقال ﷺ لخديجة، رضي الله عنها: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت، فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ـ

---

(١) شذور الذهب: ابن هشام.

(٢) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.

ولم يكن رسول الله ﷺ هناك ـ ذكرت له حديثه وقالت: يا عتيق! اذهب مع محمد إلى ورقة.

أما صفاته فقد قالت عائشة، رضي الله عنها: كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ (منحنياً) لا يستملك إزاره، يسترخي عن حقويه (كشحيه) ـ والكشح عند الخاصرة ـ معروق الوجه، غائر العينين، نائي الجبهة، عاري الأشاجع.

الفصل الثاني

حياته في الإسلام

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، صديق رسول الله ﷺ فما أن بعث محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، حتى آمن أبو بكر بدعوته. ويبدو أن إسلامه كان بسبب ما عرف من سلوكه وأخلاقه وأنه أهل لحمل الرسالة وذلك أثناء صداقته له ولقائه معه، ثم بسبب ما سمع من الناس الذين كانوا يدّعون أنهم على الحنفية دين أبينا إبراهيم «عليه السلام»، وما ذكره الذين يدّعون أنهم لهم علم بالكتاب بقرب ظهور نبي.

أخرج ابن عساكر عن عيسى بن يزيد، قال: قال أبو بكر الصديق، كنت جالساً بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمرّ به أمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كلّ دين يوم القيامة إلا ... ما قضى الله في الحقيقة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم، قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي، ينتظر، ويبعث، قال: فخرجت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً ـ ولي علم بالنساب، وقومك أوسط العرب نسباً. قلت: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم، ولا يُظلم، ولا يُظالم، فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته[1].

(١) تاريخ الخلفاء: الحافظ جلال الدين السيوطي.

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، خرجت أريد اليمن قبل أن يبعث النبي ﷺ، فنزلت على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكتب، وعلم علماً كثيراً. فلما رآني، قال: أحرميّ أنت؟ قلت: نعم أنا من أهل الحرم. قال: وقريشي؟ قلت: نعم أنا من قريش. قال: وتيميّ؟ قلت: نعم أنا عبد الله بن عثمان من تيم بن مرة (فأخبره أنه سيكون صاحباً لنبي يبعث في الحرم، وذلك في خبر طويل)[1].

وقال ربيعة بن كعب: كان إسلام أبي بكر شبيهاً بالوحي من السماء، وذلك أنه كان تاجراً في الشام فرأى رؤيا، فقصها على بحيرا الراهب[2]، فقال له: من أين أنت؟ قال: من مكة، قال: من أيها؟ قال: من قريش، قال: فأي شيء أنت؟ قال: تاجر، قال: إن صدق الله رؤياك، فإنه يبعث نبي من قومك، تكون وزيره في حياته، وخليفته بعد موته، فأسرّ ذلك أبو بكر في نفسه[3].

وبعث رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، رضي الله عنه، صديقاً له، فلما بعث انطلق رجال قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك. . . . قال: وما شأنه؟ قالوا: هو ذاك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي! قال أبو بكر، رضي الله عنه: وقال ذاك؟ قالوا: نعم. فأقبل أبو بكر إلى النبي ﷺ، فطرق عليه الباب فاستخرجه، فلما ظهر له قال: يا أبا القاسم! ما الذي بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني يا أبا بكر؟ قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله، قال: يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني في دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً، قال أبو بكر، رضي الله عنه، والله ما جربت عليك كذباً، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مدّ يدك فإني مبايعك.

---

(١) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.
(٢) الراهب بحيرا: من كبار الذين عرفوا بالعلم في بلاد الشام آنذاك.
(٣) أبو بكر الصديق ـ علي الطنطاوي.

ويروى أنه قال له: يا محمد ما الدليل على ما تدّعي؟ قال: الرؤيا التي رأيت في الشام، فعانقه وقبّل بين عينيه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله[1].

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حكمت في الإسلام أحداً إلا أبى عليّ، وأرجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه»[2].

وصحب أبو بكر، رضي الله عنه، النبي، عليه الصلاة والسلام، من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفراً ولا حضراً، إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه، وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ﷺ، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد، ويوم حنين، وقد فر الناس[3].

وكان رضي الله عنه من أشجع الناس، يثبت في المعارك كالجبال الرواسي لا يحيد خطوة عن رسول الله ﷺ يدافع عنه، ويذود، ولذا لم تكن له تلك الحركة والصولة بين صفوف الأعداد كما يفعل بعض الصحابة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وأبي دجانة، رضي الله عنهم جميعاً. ومن هنا لم تظهر شهرته أمثالهم إذ يذكر الشجعان بعدد الذين يقتلونهم من الأعداء أو يأسرونهم من الخصوم، ويختلف عنهم أبو بكر، رضي الله عنه، إذ يبقى بجانب رسول الله ﷺ يدافع عنه بكل شجاعة، ويتلقى الضربات عنه.

---

(١) الرياض النضرة. (٢) تاريخ الخلفاء: السيوطي.
(٣) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

وكان رضي الله عنه كريماً سخياً، وقد أنفق جل ماله في سبيل الله ورسوله، وقد نزلت في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾. وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟ وقد كان ماله يوم أسلم أربعين ألف دينار أنفقها كلها على رسول الله ﷺ، ولم يبق منها يوم الهجرة إلا خمسة آلاف.

وأخرج أبو داود، والترمذي عن عمر بن الخطاب، قال: أمرنا رسول الله، عليه الصلاة والسلام، أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا كافأناه إلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر.

ولقد أسلم عدد من كبار الصحابة على يد أبي بكر، رضي الله عنه، ومنهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله وذلك في بدء الدعوة، بل كان هؤلاء من أول من أسلم، ثم تبعهم عثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.

وابتنى أبو بكر بفناء داره مسجداً، يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه الناس، ويستمعون إلى قراءته وصلاته وبكائه، فكان ذلك سبباً في إسلام كثيرين.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، إذا مرّ على أحد من العبيد يعذب

اشتراه من سادته، وأعتقه ابتغاء وجه ربه الأعلى: اشترى عامر بن فهيرة من سيده الطفيل بن عبد الله بن الحارث، وأعتقه، والطفيل ربيب أبي بكر إذ هو ابن زوجه أم رومان، أي هو أخو عائشة، رضي الله عنها، لأمها، وكان عامر أحد السابقين للإسلام، وقد عذب في سبيل الله، وشهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، بلال بن رباح، وكان من قبل مولى لأمية بن خلف الجمحي الذي أذاقه العذاب المر، وقد اشترى أبو بكر بلالاً بخمس أواق من الذهب، وبعد أن اشتراه، قال أمية بن خلف لأبي بكر: لو أبيت إلا أوقية لبعناك، فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. وكان بلال، رضي الله عنه، صادق الإسلام، مؤذناً لرسول الله، شهد بدراً والمشاهد كلها، ومات بدمشق عام ٢٠هـ رضي الله عنه، أما أمية بن خلف فقد استمر على شركه، وقتل يوم بدر كافراً.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، زنّيرة، وكانت أمة عمر بن الخطاب قبل أن يسلم، وكان يعذبها ويضربها ـ وكانت قد أسلمت ـ وذهب بصرها من شدة الضرب، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت وهي لا تبصر: والله ما هو كذلك وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري، فرد الله عليها بصرها تلك الليلة. فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر فأعتقها، وكانت قريش تقول: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زِنّيرة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾.

واشترى جارية كانت أمة في بني عدي، قوم عمر بن الخطاب، وقد أسلمت، فكان عمر بن الخطاب قبل إسلامه يعذبها ويضربها لتترك الإسلام، فاشتراها أبو بكر، رضي الله عنه، وأعتقها.

واشترى أمة في بني عبد شمس، وكانت تدعى أم عبيس وأعتقها.

ولعل أبا بكر، رضي الله عنه، كان أكثر من دافع عن رسول الله ﷺ،

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لما كان بعد وفاة أبي بثلاثة أيام اجتمعت قريش تريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يعنه يومئذ إلا أبو بكر. ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجادل هذا، ويدفع هذا ويقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم». والله إنه لرسول الله. وتقطعت في ذلك اليوم إحدى ضفيرتي أبي بكر.

وأخرج البخاري عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشياً. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض: وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا رجلاً بكاءً، لا يملك عينه إذ قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك،

ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، قال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني خفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة. واشتد أذى قريش على المسلمين في مكة، وكانت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ وبعض أعيان أهل المدينة من الأنصار وذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة في العام الذي سبق الهجرة، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: «قد رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر من المسلمين إلى المدينة، ورجع أكثر من كان منهم بأرض الحبشة إلى المدينة.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلاً لهم: إن الله جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا أرسالاً، وأقام النبي ﷺ ينتظر أن يؤذن له، ولم يتخلف من المسلمين إلا من حُبس أو فُتن، وتخلف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: فإني أرجو أن يؤذن لي. قال أبو بكر: وترجو ذلك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه لصحبة رسول الله ﷺ، وعلف ناقتين كانتا عنده ورق السمر.

وجاء الإذن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة مع هلال شهر ربيع الأول، فأتى دار أبي بكر، رضي الله عنه، في الظهيرة على غير عادته، إذ كان يأتي ذلك المنزل إما صباحاً وإما مساءً، وأخبره بمجيء الإذن من السماء بالهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال: نعم، فبكى أبو بكر من شدّة الفرح وقال: بأبي أنت يا رسول الله، فخذ إحدى راحلتي هاتين، وقدم له أفضلهما، وقال: اركب بأبي أنت وأمي. فقال: إني لا أركب راحلة ليست لي. قال: فهي لك يا رسول الله، قال: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها له، قال: ابتعتها بكذا وكذا، قال: قد

أخذتها بذلك. وعلى الرغم من الصلة القوية الصادقة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلى الرغم من أن أبا بكر قد وضع ماله تحت تصرف الدعوة. وأنفق الأموال الكثيرة في سبيل ذلك، إلا أن رسول الله ﷺ لم يرغب أن يعيش المسلم على إخوانه وهو قادر على العمل، ولا الأمير على رعيته وهو يستطيع الإنتاج، إن كل عمل يقوم به رسول الله ﷺ إنما هو أسوة للمسلمين.

وسار رسول الله ﷺ وصديقه باتجاه غار ثور، ووعدا دليلهما عبد الله بن أريقط غار ثور بعد ثلاث ومعه راحلتاهما. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يمشي أثناء الطريق تارة أمام رسول الله، وتارة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له: ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال: يا رسول الله: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك.

ودخل أبو بكر، رضي الله عنه، الغار قبل رسول الله ﷺ، فسوى أرضه، ووجد فيه ثقوباً، فشق إزاره وسد تلك الثقوب، إلا أنه بقي اثنان منها، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل.

فدخل رسول الله ﷺ، فجلس أبو بكر وقد سد الثقبين برجله، وطلب من رسول الله أن ينام على رجله، فوضع النبي رأسه في حجر أبي بكر ونام. فلدغت حشرة أبا بكر في رجله من الثقب، فلم يتحرك مخافة أن يتأذى رسول الله أو يتنبه، إلا أن الألم قد أبكاه وسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل له رسول الله على مكان اللدغ فذهب عن أبي بكر ما يجد من الألم.

وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي إليهما مساء فيبيت عندهما، ويتركهما قبل الفجر، فيصبح في مكة كأنه نائم فيها، يسمع من قريش، ويرجع إلى الغار بالأخبار مساء، ويأتي عامر بن فهيرة مساء باللبن من أغنام يرعاها، وهكذا ثلاثة أيام وفي صبيحة اليوم الثالث منها جاءهما عبد الله بن أريقط براحلتيهما، وأتت أسماء بنت أبي بكر لهما بالطعام. وسارا مع الدليل،

ومعهما أيضاً عامر بن فهيرة. وامتطى كل بعيراً، وانطلقوا إلى المدينة.

وأصابت حمى المدينة أبا بكر حين نزل فيها، وعندما سألته عائشة، رضي الله عنها، عن صحته قال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وذكرت عائشة، رضي الله عنها، ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة.

وعندما رجع الدليل عبد الله بن أريقط من المدينة إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان وجود أبي بكر، فخرج عبد الله بعيال أبيه إليه، وصحبهم طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

ويوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأجاد، ويوم كانت المعركة، كان رضي الله عنه شاهراً سيفه يذود عن رسول الله ﷺ. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوماً، وهو في جماعة من الناس: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر: لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، وقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد، إلا أبو بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله ﷺ.

وانتهت غزوة بدر بنصر مؤزر للمسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من صناديد قريش، وأسروا مثلهم، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

ورأى عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، قتل الأسرى، وكان رسول الله ﷺ أن يأخذ برأي أبي

بكر، وأخذ الفدية من المشركين. ولما كان الغد جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فوجده قاعداً مع أبي بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني ما يبكيك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (وأشار إلى شجرة قريبة). وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾[1].

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر يوم بدر من المشركين، فقال مرة لأبيه بعد أن أسلم: لقد أهدفت لي يوم بدر، فطفت عنك ولم أقتلك. فقال: لكنك لو أهدفت لي لم أطف عنك. أي لم يكن أبو بكر، رضي الله عنه، لتأخذه عاطفة الأبوة فيعدل عن قتل ابنه، إنه الإسلام، وإن ابنه لفي شركه، ولا يتفق الإسلام مع الشرك، ولن تكون مودة أبداً بين المسلمين والمشركين مهما كانت الصلات المادية في هذه الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ...﴾[2].

وثبت أبو بكر، رضي الله عنه، ثبوت الجبال يوم أحد حول رسول الله ﷺ يدافع عنه، وكانت غزوة بني المصطلق، وكان فيها حديث الإفك الذي افتري فيه على عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، ثم جاءت براءتها. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، ينفق على مسطح بن أثاثة[3]، وكان من الذين اشتركوا في حديث الإفك أو خاضوا فيه، فقال أبو بكر: والله لا

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٩. (٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، اسمه عوف، ولقبه مسطح، كان وأمه من المهاجرين الأولين، مات أبوه وهو صغير فكفله أبو بكر لقرابة أمه منه، جلد في حادثة الإفك، وشهد صفين مع سيدنا علي، ومات في ذلك العام ٣٧هـ.

أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفق بنفع بعد الذي قال لعائشة، وأدخل علينا ما أدخل، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1] فقال أبو بكر، رضي الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

وشعر المسلمون ببعض الانقباض من صلح الحديبية، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي يقول: أتيت النبي ﷺ يوم الحديبية فقلت: يا رسول الله! ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: وألست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أو أخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يعصيه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أفأخبرك أنك تأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنه آتيه ومطوف به. فكانت أجوبته رضي الله عنه تشبه إجابة رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر، رضي الله عنه، فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

وفي غزوة تبوك، ساعة العسرة، كانت راية المسلمين بيد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

---

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

ويوم حنين أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغنهم شيئاً، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم الأعداء في شعاب الوادي، وثبت حول رسول الله أبو بكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، رضي الله عنهم جميعاً، ثم ثاب المسلمون إلى رشدهم واجتمعوا إلى رسول الله بعد نداء العباس بن عبد المطلب، ونصرهم الله، وهزم المشركين.

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة للهجرة وذلك بعد الرجوع من غزوة تبوك بثلاثة أشهر تقريباً. وانطلق مع أبي بكر، رضي الله عنه، ثلاثمائة حاج، وأرسل رسول الله ﷺ معه عشرين بدنة، وساق أبو بكر نفسه خمس بدنات، وبعد مسير الحاج أنزلت سورة براءة فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في أثره بأربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس يوم التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول. وذلك بعد كلمات كان أبو بكر، رضي الله عنه، يخاطب بها الناس، ويعلمهم مناسكهم.

وحدث خلاف بين بني عمرو بن عوف من الأوس، كانوا يقيمون بالقرب من قباء، فذهب رسول الله ﷺ ليصلح بينهم، وأمر بلالاً قبل ذهابه أن يقدم أبا بكر إذا حانت الصلاة ولم يرجع رسول الله، وكان ذلك، ورجع رسول الله فما دخل المسجد إلا وأبو بكر قد دخل في الصلاة، فنبه المسلمون أبا بكر فأشار رسول الله إلى أبي بكر أن يستمر، إلاّ أن أبا بكر قد تراجع وتقدم رسول الله، وأتم الصلاة، فلما انتهت، قال رسول الله لأبي بكر: يا أبا بكر ما منعك إذا أومأت إليك أن لا تكون مضيت؟ فقال أبو بكر: لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ. فقال للناس: إذا نابكم في صلاتكم شيء فليسبح الرجال، وليصفق النساء.

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس (قالت) فقلت: يا

رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (سريع الحزن والبكاء)، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر. فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنكن أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فأمروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة، فقام يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض (قالت): فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حسه فذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ أقم مكانك، فجاءه رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالساً وأبو بكر قائماً. يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر.

ولما انصرف الناس من هذه الصلاة، وهم يظنون أن رسول الله قد عوفي من مرضه الذي هو فيه، وكذلك كان ظن أبي بكر، الأمر الذي جعله يقول للنبي ﷺ: يا نبي الله! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم حبيبة بنت خارجة أفآتيها؟ قال: نعم.

ثم دخل رسول الله ﷺ حجرته، وخرج أبو بكر، رضي الله عنه، إلى أهله بالسنح (في العالية).

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي من ليلته تلك، وجاء أبو بكر فنزل بباب المسجد، وقد بلغه الخبر، وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يحدث الناس، ويقول لهم: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات. ولم يلتفت أبو بكر إلى ما في المسجد، ودخل إلى بيت رسول الله في حجرة عائشة، رضي الله عنها، وكان مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن

وجهه، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أخرى. ثم رد الثوب على وجهه. ثم خرج إلى المسجد، وعمر بن الخطاب لا يزال يخطب الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت... ولكن عمر استمر في كلامه. فقال أبو بكر: أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1] فكان الناس كأنهم سمعوا هذه الآية لأول مرة، وكأنها ما نزلت على محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد انقطع الوحي، ومات رسول الله، ولم يعد الصحابة يرونه، ولم يعد المسلمون يتلقون التوجيه والإرشاد، وهذا ما جعل المسلمين يشعرون بصدمة كبيرة، طاشت معها أحلامهم، وفقدوا صوابهم، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أن رسول الله لم يمت، وهذا ما كان من كلام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وتزوج أبو بكر رضي الله عنه في الإسلام حبيبة بنت خارجة الأنصارية فأولدها أم كلثوم بعد وفاته، وتزوجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

تيم

سعد

كعب

عمرو

عامر

عثمان [أبو قحافة] أسلم يوم الفتح، وتوفي سنة ١٤هـ بعد وفاة ابنه بستة أشهر.

عبد الله [أبو بكر الصديق] رضي الله عنه.

حبيبة بنت خارجة الأنصارية
- أم كلثوم: ولدت بعد وفاة أبيها زوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

أسماء بنت عميس
- محمد: ولد سنة ١٠هـ وقتل سنة ٣٧ نشأ في حجر علي، وهو ربيبه وولي مصر لعثمان ثم لعلي

أم رومان
- عائشة: زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت سنة ٥٨
- عبد الرحمن: شهد بدراً وأحداً مع المشركين، أسلم في هدنة الحديبية، شهد اليمامة، شهد الجمل مع عائشة. توفي سنة ٥٣

قتيلة بنت عبد العزى العامرية
- أسماء: ولدت سنة ٢٧ قبل الهجرة تزوجت الزبير ابن العوام توفيت سنة ٧٣
- عبد الله: جرح بالطائف وتوفي سنة ١١ في خلافة أبيه

وتزوج أسماء بنت عميس، وكانت قبله تحت جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، واستشهد عنها في غزوة مؤتة، ولدت لأبي بكر محمداً في السنة العاشرة للهجرة، وبعد وفاته تزوج أسماء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بيعته

توفي رسول الله ﷺ، وشعر الأنصار وهم أهل المدينة المنورة أنهم بحاجةٍ ماسة إلى اختيار خليفة منهم يتولى شؤون المدينة وأمر المسلمين، فمدينتهم مهددة بعد وفاة رسول الله ﷺ من الأعراب ورجال القبائل، إذ يعرفون أن كثيراً من الأعراب وكثيراً من القبائل لم تؤمن، ولم يدخل الإيمان في قلوبها، وإنما أسلمت بلسانها خوفاً من القوة التي بلغتها الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ، وقد ظهرت الردة في بعض المناطق قبيل وفاة رسول الله ﷺ.

شعر الأنصار أنهم هم مهددون قبل غيرهم من قبل الأعراب ورجال القبائل لأنهم كانوا دعامة رسول الله ﷺ، وهم الذين نصروه، وفتحوا بيوتهم للمهاجرين من أهل مكة، واستطاعوا مع المهاجرين أن يكوِّنوا الدولة الإسلامية الأولى أيام النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام، والتي تمكنت من إخضاع الأعراب، والسيطرة على ديار القبائل.

وشعر الأنصار أن المهاجرين ربما تركوا المدينة ورجعوا إلى بلدهم الأول مكة المكرمة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهم ما هاجروا بالأصل إلا من أجله وأجل عقيدتهم، وقد خرجوا من مكة عندما كان سكانها على شركهم، فلما دانوا بالإسلام، ودخلوا في دين الله، فمن المحتمل أن يعود المهاجرون إلى ديارهم وقد تركوا فيها بيوتاتهم، وتركوا أملاكهم، وغادروا أهليهم، بل إن هذا قد خطر في بال الأنصار منذ أن دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً في السنة الثامنة للهجرة، وعندما كانوا هم مع رسول الله ﷺ في ذلك الفتح، وقد كلموا رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وأجابهم

وذلك بعد توزيع غنائم هوازن وثقيف في الجعرانة بعد غزوة حنين «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم شيئاً، حتى كثرت منهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه!! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال: فأين أنت من ذلك يا سعد! قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي! قال: فاجمع لي قومك في الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاءه رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد فقال: قد اجتمع إليك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله؛ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل! فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار! قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم، ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقال: رضينا برسول الله

قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[1].

فيمكن إذن أن يعود المهاجرون بعد وفاة رسول الله ﷺ، لذا فإن الأنصار هم بالدرجة الأولى المسؤولون عن إيجاد خليفة لرسول الله ﷺ بغض النظر عن وجود المهاجرين، هذا الأمر هو الذي جعلهم يلتقون في سقيفة بني ساعدة وحدهم، ولم تعوزهم الشورى، فالخزرج هم أكثر الأنصار، وزعيمهم هو سعد بن عبادة، وهو من كبار الصحابة، ومن الذين توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، لذا فقد اتفقوا على بيعته.

أما المهاجرون فقد كانوا أكثر بعداً عن هذا الموضوع، بعضهم قد شغل بوفاة رسول الله ﷺ ودفنه، وبعضهم لا تزال صدمة وفاة رسول الله ﷺ تملأ نفسه، وبعضهم لم يفكر في اختيار خليفة بعد، إذ أن النبي، عليه الصلاة والسلام، لم يدفن بعد ولم يفكر إلاّ بهذا الموضوع، ولم يبحث بموضوع فيه خلاف حيث أن هذا الأمر هو آخر ما يمكن أن يقع فيه الاختلاف ـ حسب رأيه ـ. وبينما عدد من المهاجرين في بيت رسول الله ﷺ إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إليّ يا ابن الخطاب. فقال عمر: إليك عني فإنا عنك مشاغيل، فقال: إنه قد حدث أمر لا بد منك فيه: إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون بيننا وبينهم فيه حرب. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من هؤلاء الأنصار. وأدركا هنا، رضي الله عنهما، قيمة وجود الخليفة لتسيير الأمور وشؤون الناس احتساباً لكل حادث. وسارا باتجاه سقيفة بني ساعدة فوجدا أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، فأخذاه معهما. ووجدوا في طريقهم رجلين من الأنصار هما: عويم بن ساعدة[2]، ومعن بن عدي[3]، فسألوهما، فقالا: لا عليكم

---

(١) تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام.

(٢) عويم بن ساعدة: من الأوس، حضر بيعتي العقبة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

(٣) معن بن عدي: حضر بيعة العقبة، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله بينه وبين زيد بن الخطاب واستشهدا معاً في اليمامة.

ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم بينكم، فإن اتفقتم فيما بينكم لن يكون خلاف بينكم وبين الأنصار. إلا أن المهاجرين قد تابعوا السير حتى وصلوا إلى سقيفة بني ساعدة. ومن هذا يبدو أنه لم يكن خلاف بين مهاجرين وأنصار، وإنما دعت الضرورة إلى لقاء الأنصار ـ كما ذكرنا ـ.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد ﷺ سعد بن عبادة، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسمع القوم كلهم كلامي، ولكنك تلقَّ مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله، فيرفع صوته فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب: إن محمداً ﷺ لبث بضع عشر سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقلهم على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أغنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت له بأسيافكم العرب، وتوفاه الله، وهو عنكم راض، وبكم قرير العين». وهذا ما يدل أيضاً على أن الأنصار كانوا يعتقدون أنهم سيكونون هدف العرب الأمر الذي جعلهم يفكرون بمبايعة خليفة بشكل سريع.

وجاء المهاجرون، والأنصار مجتمعون، وجلس المهاجرون فقام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين حي منّا، وقد دفت إلينا دافة منكم، فإذا أنتم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحضنوا الأمر من دوننا

(وقد كان رسول الله ﷺ إذا استعمل رجلاً منكم، قرن معه رجلاً منا، فأرى أن يلي الأمر رجلان: أحدهما منكم والآخر منا).

يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما قضى الأنصاري مقالته، أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك فكرهت أن أغضبه، ولقد كان أحلم مني وأوقر، فتكلم أبو بكر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني مما كنت قد زورت في نفسي إلا أتى بمثلها أو أفضل منها في بديهته، ولم يدع شيئاً أنزل في الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ إلا ذكره. فقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار، وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله. ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. هم أوسط العرب داراً وأنساباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم (وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة)، فوالله ما كرهت من مقالته غيره، ولأن أقدم فتضرب عنقي لا يكون في ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. فلما قضى أبو بكر مقالته قالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا، ولا أرضى عندنا منكم، ولكن نشفق مما بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم، فإذا هلك اخترنا رجلاً من الأنصار فجعلناه مكانه، فإذا هلك اخترنا رجلاً من المهاجرين فجعلناه مكانه كذلك أبداً. وكان ذلك أجدر أن يشفق القرشي إن زاغ أن ينقض عليه الأنصاري، وأن يشفق الأنصاري إن زاغ أن ينقض عليه القرشي.

ويبدو من هذا أن الأنصار لما وجدوا أن المهاجرين باقون في المدينة، رأوا أن الحق لهم، وأن الخلافة يجب أن تكون بينهم، ولكن أصبح في الأمر شيء من الحراجة، فإن بيعة سعد بن عبادة قد تمت، والخليفة أضحى قريباً من القيام بواجبه، إلا أن الحق للمهاجرين الذين هم أولى بالأمر، فالخطأ قد وقع، والتراجع أمر لا بد منه، وإن كان صعباً في

حالة كهذه، إذ فيها استهتار بالخليفة المبايع، وهو زعيم الأنصار، إذ لا بد من أن يكون التراجع بشكل تدريجي، فالنفوس بشرية، ولا بد من معاملتها حسب الطبيعة التي فطرها الله عليها، إذن يجب أن تستمر المناقشة ويتراجع الأنصار بهدوء.

ثم قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن سمع مقالة الأنصار: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف الإِمارة إلا له، والله ما يخالفنا أحد إلا قاتلناه.

ثم وقف الحباب بن المنذر الأنصاري[(١)] وكرر: منا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر بن الخطاب: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورها منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانفٍ لإثم، أو متورطٍ في هلكة.

وأصرَّ الحباب بن المنذر على موقفه، ودعا الأنصار إلى التمسك بهذا الرأي.

فقال أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه[(٢)]: يا معشر الأنصار! إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغير. فقام بشير بن سعد

---

(١) الحباب بن المنذر: شهد بدرا، وأشار على رسول الله ﷺ بالمكان المناسب للمعركة، فوافق رسول الله، وشهد المشاهد كلها، وأشار كذلك على رسول الله في خيبر بتغيير المكان الذي نزل به المسلمون، فوافقه أيضاً، لذا كان يعرف بـ (ذي الرأي) توفي، رضي الله عنه، في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٢) أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله أمين الأمة، قاد فتوح الشام، وتوفي عام ١٨هـ بطاعون عمواس.

الأنصاري[1] رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك. ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وقام أسيد بن حضير رضي الله عنه[2]: وأظهر ما يدعو إلى ترك الأنصار للأمر، والمبايعة للمهاجرين فأبدى ما يمكن عليه أن يحدث من خلاف بين الأوس والخزرج فيما إذا تسلمت الأنصار الأمر، لذا دعا إلى بيعة المهاجرين.

وروى النسائي والحاكم أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قد قال للأنصار يومذاك: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدّم أبا بكر للصلاة؟.

قالوا: بلى.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله ﷺ؟

قالوا: لا أحد!

ثم قام زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه،[3] فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإِمام إنما يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله.

---

(١) بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولاه رسول الله المدينة أثناء عمرة القضاء، استشهد عام ١٢هـ في عين التمر، وكان في جيش خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

(٢) أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي: سيد الأوس، أحد نقباء العقبة، لم يحضر بدراً إذ لم يعلم أنه سيكون قتال، توفي عام ٢١هـ في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٣) زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه: ولد عام ١١ قبل الهجرة، كتب الوحي، وكتب لأبي بكر وعمر، تعلم السريانية أيام رسول الله ﷺ، وكان عثمان رضي الله عنه يستخلفه على المدينة إذا خرج منها، وهو الذي جمع القرآن أيام أبي بكر، وكان له دوره ورئاسة لجنة الجمع أيام عثمان، توفي عام ٤٥هـ.

فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: جزاكم الله من حي خيراً، وثبت قائلكم، أما والله لو قلتم غير ذلك لما صالحناكم... ثم قال لعمر بن الخطاب: أبسط يدك نبايع لك. فقال عمر: أنت أفضل مني. قال: أنت أقوى مني، فقال عمر: فإن قوتي لك مع فضلك. وقال عمر، وأبو عبيدة: لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمّرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقام أسيد بن حضير، وبشير بن سعد، رضي الله عنهما، يستبقان للبيعة، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، فلم يبق أحد لم يبايع في السقيفة سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، وما منعه أن يبايع سوى حراجة وضعه، وصحة جسمه، ولكنه لم يتكلم بشيء.

وهذا يدل تمام الدلالة على أنه لم يكن هناك خلاف على البيعة بين المهاجرين والأنصار، وإنما وقع خطأ في سرعة الأنصار بسبب ما توقعوه. الأمر الذي أدى إلى المناقشة والتراجع البطيء حرصاً على وضع سعد بن عبادة، رضي الله عنه. كما أن اللقاء في سقيفة بني ساعدة لم يكن القصد منه الاستئثار بالخلافة من أجل المهاجرين أو الرغبة في الزعامة والوجاهة أو دعم فلان دون فلان، فلم يكن سعد بن عبادة إلا صحابياً جليلاً، له موضع الاحترام بين جميع الصحابة، ولكن كانت المصلحة العامة للمسلمين والإسلام لا غير، خوفاً على وضع المدينة، وتسيير الأمور، وإدارة الشؤون. وكان ذلك في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ.

وفي اليوم الثاني من بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة دعي إلى الصلاة، ووقف أبو بكر على المنبر، وقام عمر وتكلم بين يديه، وقبله، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاّ عن رأيي، وما وجدتها في

كتاب الله عزّ وجلّ، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ. ولكني كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى معكم كتابه الذي به هدى رسول الله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا.

فبايع الناس بيعة عامة بعد بيعة سقيفة بني ساعدة، ثم تكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد عليه حقه، إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله تعالى. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ولم يتخلف عن البيعة إلا الذين كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ، فلما انتهوا من ذلك بايعوا، ولم يتخلف منهم أحد، سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، الذي تأخر قليلاً من الوقت، ثم بايع، وخرج مجاهداً، واستشهد في بلاد الشام بعد قليلٍ من خروجه.

أما ما أشيع عن تحريض أبي سفيان لعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهما، فهو أمر غير مقبول، إذ لا يمكن أن يفعل هذا، وهو من الطلقاء ولا يمكن أن يقبلاه منه وهما على تلك الصورة من الإيمان، وعلى تلك الحالة من الوعي، ثم إن هذا الخبر لو صح لكان على أبي بكر وهو بوضعه أن يسأل أبا سفيان عن هذا التصرف الذي عليه أن ينشأ عنه خلاف وتفرّق، ويحدث بنتيجته خصام وقتال. ولما لم يحدث شيء من هذا فهو من عمل الرواة.

وما أشيع عن وصية رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب،

رضي الله عنه، فهو محض اختراع وتلفيق، إذ أن وصية رسول الله للمؤمنين إنما هي من الدين الذي يجب ألا يحيد عنه أحد من المسلمين، فالحيدان عنه إنما هو اتهام للمسلمين كافةً، وطعن في إيمان صحابة رسول الله ﷺ جميعهم. فكيف يقبل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في ترك هذه الوصية، وهو الذي لم يعرف عنه أنه توقف لحظة عن أمر رسول الله ﷺ؟ ثم كيف يقبل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في السكوت عن هذه الوصية وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم؟ وإذا ذكر بعضهم أنه بايع في الظاهر، فمتى كان علي، رضي الله عنه، والصحابة أجمعين يظهرون غير ما يبطنون؟ ومعنى ذلك اتهامهم بالنفاق، ونعوذ بالله من هذا الكلام.

أما ما أشيع عن تأخر سيدنا علي، رضي الله عنه، في بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، حتى وفاة زوجه فاطمة، رضي الله عنها، فهو افتراء أيضاً، فما كان علي ليفارق جماعة المسلمين مدة ستة أشهر، وهو الذي عرف بالإيمان، ودعا إلى وحدة القلوب، وأحسّ بأخوة الإِسلام منذ نعومة أظفاره. إلا أنه قد حدث شيء من جفوة بين الإِمامين الجليلين والصحابيين الكريمين، ولكن ليس بسبب الخلافة وإنما بسبب الإرث، إذ طلبت فاطمة، رضي الله عنها، من أبي بكر حقها بإرث أبيها رسول الله ﷺ من فدك وسهمه في خيبر، فلم يقبل أبو بكر، رضي الله عنه، هذا الطلب، وأجابها بحديث والدها عليه أفضل الصلاة والسلام «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة» ومع التسليم بهذا الحديث وفاطمة وعلي، رضي الله عنهما، على علم بهذا، وهي من أهل العلم إلا أنه حدث شيء من جفوة، ولم تتعدّ ذلك، وكان علي، رضي الله عنه، يومذاك معتزلاً في البيت، لا يتردد كثيراً على أبي بكر، ينصحه، ويستشيره، وإن كان بجانبه في معضلات الأمور مثل الدفاع عن المدينة، وحرب المرتدين كما سنرى، ولعل ذلك كان بسبب مرض زوجهِ فاطمة، رضي الله عنها، إذ شغل بتمريضها حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام. وما يقال عن هجرانها لأبي بكر فهذا كلام من لم يعرف

طبيعة الإسلام، فمتى كانت النساء تتردد على الرجال أو يتردد الرجال على النساء، ثم إنها كانت مريضة لا تستطيع الخروج من بيتها، وأبو بكر كان مشغولاً بأعباء الخلافة، إذ كانت تلك الأيام من أحلك ما مرّ على الدولة الإسلامية[1] ـ كما سنرى ـ.

إذن بايع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والعباس بن عبد المطلب، وبنو هاشم كافة يوم بايع الناس، ولم يخالف أحد على أبي بكر لا من بني هاشم ولا من غيرهم. والقرآن الكريم لم يحدد نظاماً معيناً

---

(١) ملخص الموضوع أن الرواة مزجوا تأخير بيعة علي، رضي الله عنه، في موضوع ما حدث من جفاء، وذلك أن فاطمة بنت محمد ﷺ، ورضي الله عنها قد جاءت مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى أبي بكر يطلبان ميراثها من رسول الله ﷺ في خيبر وفدك فقال لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد في هذا المال» وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته. فحدثت الجفوة التي ألمحنا عنها، فلما توفيت فاطمة رضي الله عنها اجتمع عدد من بني هاشم عند علي رضي الله عنه وأرسلوا إلى أبي بكر أن يأتيهم، فجاءهم، فقام علي رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضلك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا (ويقصد به الميراث)، ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، ولم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما سكت علي تشهد أبو بكر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصلهم من قرابتي، وإني والله ما آلو بكم في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم على الخير، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا نورث ما تركنا صدقة، وإنما يأكل آل محمد في هذا المال) وإني والله لا أذكر شيئاً صنعه فيه إلا صنعته إن شاء الله، ثم قال علي رضي الله عنه: موعدك للبيعة العشية، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر وذكر فضله وسابقته، ثمّ مضى إليه فبايعه، وأقبل الناس إلى علي رضي الله عنه فقالوا: أصبت وأحسنت.

ويبدو من هذا أن تأخر البيعة إن كان قد حدث فهي بسبب موضوع الميراث، ويبدو أن هذه البيعة قد حدثت مرة ثانية بعد البيعة العامة، وكانت بمثابة تأكيد. والاعتذار إنما كان على الجفوة، وعدم التردد على دار أبي بكر، رضي الله عنه، لانشغاله بتمريض زوجه فاطمة، رضي الله عنها.

لاختيار الخلفاء، ولم يشر رسول الله ﷺ إلى مثل ذلك، وإنما اعتاد المسلمون أن يبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام،، ولا يجوز لأحد من الطرفين المتبايعين أن ينقض العهد سواء أكان من قبل الخليفة أم من قبل الرعية. والخلافة عهد بين الخليفة والمسلمين، يلزم الخليفة بموجب هذه البيعة نفسه العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والنصح للمسلمين، ويلزم المسلمون أنفسهم بموجب البيعة الطاعة للخليفة وتنفيذ أوامره. فإذا انحرف الخليفة عن سيره الإسلامي بطلت طاعته، وعلى المسلمين مطالبته بالوفاء بما وعد فإن استقام انقضى وإلا اعتزل الخلافة، أو عزل من قبل أهل الحل والعقد (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم).

أعماله وفتوحاته

على الرغم من قصر مدة خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، إذ لم تزد على سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، إلا أنها كانت مليئة بالأعمال الجليلة التي تحتاج إلى السنوات الطوال لإنجازها ولترسيخ معاني الإسلام في قلوب أبنائه إلا أن تطبيقه العلمي وإصراره على ما اعتقد، كل ذلك كان يدل على وعي تام بالإسلام، وعزيمة ثابتة راسخة كالجبال بالإيمان، وهذه الأمور هي التي رسخت دعائم الإسلام، ووطدت أركانه، لذا يعدُّ رضي الله عنه هو الذي أرسى الدعائم، وأثبت المفاهيم، وكان رضي الله عنه بعيد النظر في الأمور كلها، واسع الأفق.

كان كثير من الأعراب قد أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[3]، فالنفاق كان أيام رسول الله ﷺ، والأعراب على رأس المنافقين، وقد أنبأ الله رسوله بهذا، كما هو

(١) سورة الحجرات: ١٤.
(٢) سورة التوبة: ٩٧ ـ ٩٨.
(٣) سورة التوبة: ١٠١.

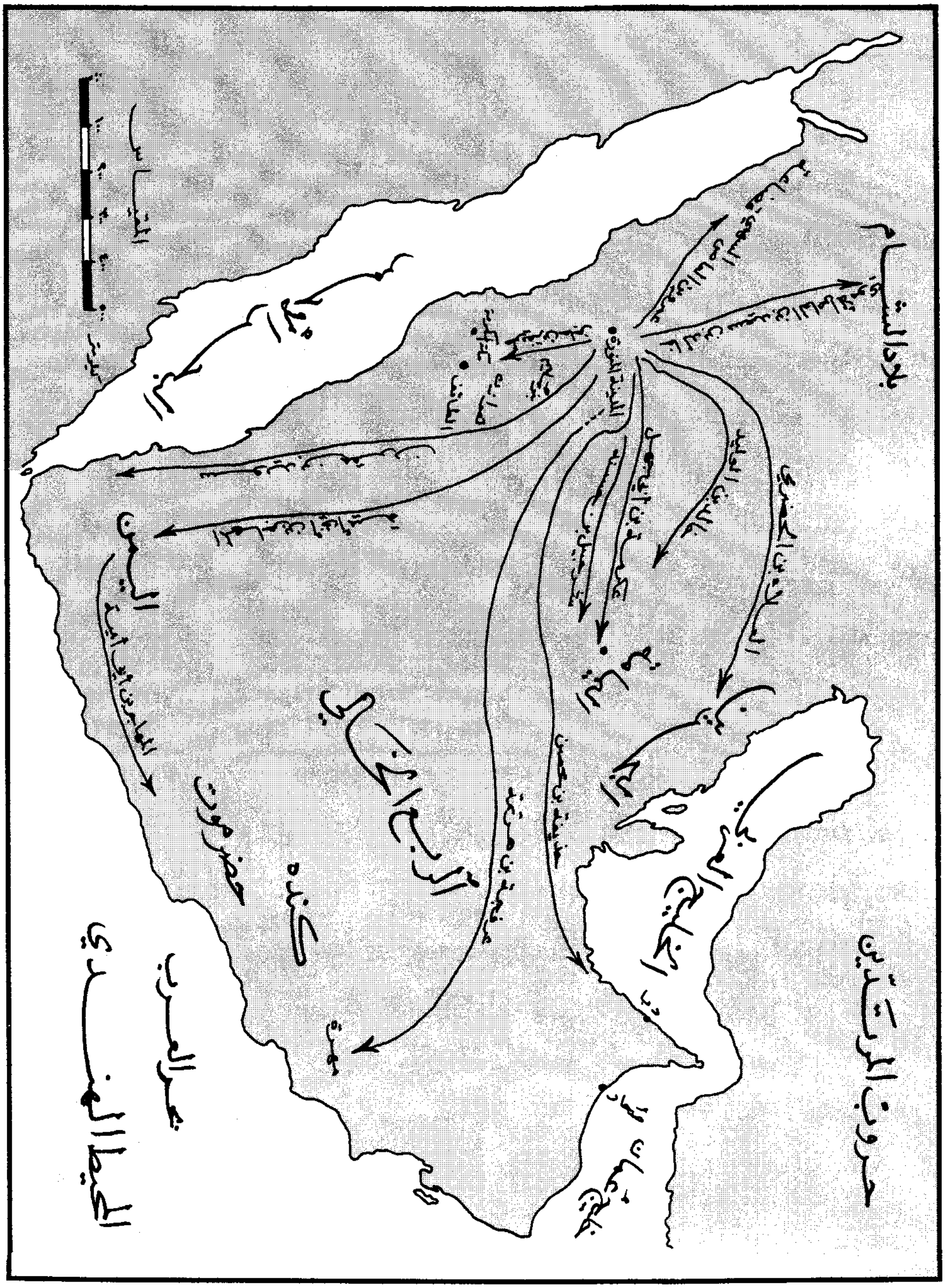
حروب المرتدين
بلاد الشام
الخليج العربي
الربع الخالي
اليمن
حضرموت
كندة
بحر العرب
المحيط الهندي

واضح في آيات كتاب الله. وهؤلاء سيرتدون عن الإسلام عندما يجدون الفرصة المناسبة لهم، بل إن ظواهر الردة قد ظهرت في أيام رسول الله ﷺ إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة، وطليحة الأسدي في بني أسد في نجد أيضاً، إلا أنهم لم يجرؤوا إعلان ذلك ولو فعلوه لقاتلهم رسول الله ﷺ. فلما انتشر خبر وفاة رسول الله ﷺ أعلن هؤلاء ارتدادهم، وصرّحوا بنبوءتهم، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن أكثر قبائل العرب قد أظهرت نفاقها، وأعلنت عودتها إلى الجاهلية، ولم يسلم من ذلك سوى مدن: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، وما أن قام أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالأمر حتى أرسلوا رسلهم إليه، يطلبون منه أن يعفيهم من الزكاة، وظنوا أنه سيوافق على ذلك، ما دام الأمر لا يشمل إلا جزءاً صغيراً ومادياً، ولم تكن الناحية المادية ليهتم بها المسلمون ذلك الاهتمام الذي يجعلهم يقاتلون بسبب ذلك، ولم يعلم المنافقون من الأعراب أن الزكاة ركن من أركان الإسلام لا يمكن التساهل به أبداً، إذ أن التساهل به نسف للمبدأ كله فالإسلام نظام متكامل لا يمكن أن يطبق جزء منه ويترك جزء، وقد انطبقت عليهم الآية الكريمة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وأيقنوا أن كثرتهم وقوتهم بجانب قلة وضعف جند المدينة سيضطر أبا بكر للموافقة على مطلبهم، وبذلك يتخلصون من الزكاة التي يعدونها لجهلهم ضريبة ولكن ظنهم قد خاب، فأبو بكر، رضي الله عنه، كان أقوى في إيمانه من أن يحل عقدة من عقد الإسلام، أو يسكت على انتهاك ركن من أركانه، ما دام فيه عرق ينبض. وأعلن أبو بكر، رضي الله عنه، أنه سيقاتلهم، وكان في الوقت نفسه قد أصرّ على إنفاذ جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، وهنا كانت المعضلة الكبرى، وكانت قوة الصديق في إيمانه هي التي حلت المعضلة، وأنهت المشكلة:

جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما: وأسامة بن زيد بن حارثة، وأمه أم أيمن بركة حاضنة رسول الله ﷺ، وأسامة حبّ رسول الله ﷺ وابن

حبّه. وكان زيد بن حارثة، رضي الله عنه، قد استشهد في معركة مؤتة أميراً، فأراد رسول الله ﷺ أن يولي ابنه قيادة جيش يغزو تلك الجهات، وقد جهز رسول الله الجيش، وأمره أن تطأ خيله أرض البلقاء في جنوبي الأردن والداروم في جنوبي فلسطين بالقرب من غزة، فتجهز الناس، وتعبأ في جيش أسامة المهاجرون الأولون، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو آخر جيش جهزه رسول الله ﷺ، وبينما كان الجيش يستعد، ويتجهز إذ مرض رسول الله مرضه الذي توفاه الله فيه، ولم يخرج آخر جندي من المدينة إلا والتحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى فتوقف أسامة بالجيش، فلما بويع أبو بكر، رضي الله عنه، بالخلافة، ومضى ثلاثة أيام على وفاة رسول الله ﷺ أمر أبو بكر الجيش بالحركة والسير إلى الجهة التي أمره رسول الله ﷺ، إذ نادى منادي أبي بكر، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ: ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف[1]. وقام بالناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها؛ ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في شعاركم وأبشاركم، وأنتم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غيّب عنكم علمه! فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلموا آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدّ الجدّ! والوحا الوحا، والنجاء النجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مره سريع. احذروا الموت. واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات[2].

---

(١) الجرف: مكان في شمال المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.

(٢) تاريخ الطبري.

فقال أسامة لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وكان المسلمون فعلا قد أحسوا بالخطر من جراء استشراء النفاق في جزيرة العرب، وردة القبائل عن الإسلام. وقال الأنصار: فإن أبى إلا أن يمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة. وما كانوا يعلمون أن أبغض شيء على أبي بكر أن يخالف أمراً من أوامر رسول الله ﷺ مهما كانت الظروف، ومهما كانت النتائج.

خرج عمر بن الخطاب بأمر أسامة وجاء إلى أبي بكر فأخبره بما قالوا عن أسامة، فقال أبو بكر، لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ! قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة؛ فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال امضوا، ثكلتكم أمهاتكم. ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله[1].

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، فأشخصهم وشيعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعةً، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل! فأذن له ثم قال: يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تُغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً

---

(١) تاريخ الطبري.

ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب: فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون[١].

ثم قال أبو بكر لأسامة: اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيت آبلَ[٢]. ولا تقصّرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجبنّ لما خلّفت عن عهده. فمضى أسامة مُغَذّاً على ذي المروة والوادي، وانتهى إلى ما أمره به النبي ﷺ من بث الخيول في قبائل قضاعة، والغارة على آبل، فسلم وغنم، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه راجعاً[٣].

وفي إرسال جيش أسامة ما يدل على قوة إيمان أبي بكر، رضي الله عنه، ومحاولة تنفيذه لما أوصى رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج، وهو يعتقد أن النتائج لا تكون إلا خيراً ما دام رسول الله قد أمر بذلك.

وفي إرسال هذا الجيش قوة معنوية كبيرة للمسلمين، وإضعاف واضح لمعنويات المنافقين والمرتدين الذين شعروا أن لدى المسلمين على الأقل قوة معنوية كبيرة جداً، ولو لم يكن ذلك لما تم إرسال هذا الجيش إلى تلك المناطق النائية التي تقع على أطراف الجزيرة العربية وحتى خارج نطاقها أيضاً، ولم يخشوا أبداً ما يتهدد المدينة من الخارجين على حكمها، والذين يحيطون بها من كل جانب.

---

(١) تاريخ الطبري.
(٢) آبل: منطقة في جنوب بلاد الأردن اليوم.
(٣) تاريخ الطبري.

حروب الردة: لما توفي رسول الله ﷺ اتسع نطاق الردة، ونجم النفاق في كل مكان إلا ما كان من المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين، ثم إن المناطق التي تقع إلى الشمال من المدينة، قد خاف أهلها بإرسال جيش أسامة، وقالوا: لو لم يكن للمسلمين من قوة لما أرسلوا مثل هذا الجيش، فلنترك الأمر إلى قتالهم مع الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وهذا ما جعل الردة والنفاق لا تظهر في تلك البقاع.

وكان المرتدون فريقين، أولهما قد سار وراء المتنبئين الكاذبين أمثال مسيلمة، وطليحة، والأسود، وآمنوا بما يقول هؤلاء الكذّابون، وثانيهما بقي على إيمانه بالله، وشهادته بنبوة محمد ﷺ وإقام الصلاة، إلا أنه قد رفض تأدية الزكاة، وعدّها ضريبة يدفعها مكرهاً، وقد أرسل هذا الفريق الثاني وفداً إلى المدينة لمفاوضة خليفة رسول الله، وقد نزل على وجهاء الناس في المدينة، عدا العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وقد وافق عدد من كبار المسلمين على قبول ما جاءت به رسل الفريق الثاني، وناقشوا في ذلك الأمر، أبا بكر، ومنهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، إلا أن أبا بكر، رضي الله عنه، قد رفض منهم ذلك، وقال قولته المشهورة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه».

وقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً(١) لقاتلتهم على منعهم، وهكذا رأى أبو بكر، رضي الله عنه، أن الإنسان كل لا يتجزأ، وليس هناك من

(١) العناق: السخلة، الأنثى الصغيرة من الماعز.

فرق بين فريضة وأخرى، والزكاة وإن كانت من النظام الاقتصادي، إلا أنها ركن من أركان الإسلام، وعبادة بحد ذاتها، ولا يمكن تطبيق جزء من الإسلام وإهمال آخر. ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل إذ زلزلت الأرض بالردة والنفاق.

وقال عمر، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وارفق بهم، فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أوَينقص وأنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ إلا بحقها، ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وردّ أبو بكر وفد المنافقين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، مسفهاً رأيهم، مصراً على رأيه في إجبارهم إلى الخضوع الصحيح للدين فعاد رجال الوفد إلى قبائلهم وأخبروهم بقلة عدد المسلمين ـ وكان جيش أسامة قد انطلق ـ وأطمعوهم بغزو المدينة.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، عندما عاد إلى المدينة بعد أن شيّع جيش أسامة قد جعل كبار الصحابة على منافذ المدينة إلى البادية، ومنهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وطلب من أهل المدينة أن يكونوا في المسجد استعداداً لكل طارئ، وقال لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدّوا.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، يريد أن يؤخر قتال المنافقين والمرتدين حتى يعود جيش أسامة، لذا كان يستقبل الرسل ويبعث بآخرين، إلا أنه في الوقت نفسه قد أحب بعض المنافقين أن يستغلوا الفرصة، ويهاجموا المدينة قبل عودة الجيش الإسلامي من بلاد الروم، وقبل استكمال المسلمين لقوتهم. فلم تمض أيام ثلاثة على عودة أبي بكر إلى المدينة من تشييع

أسامة حتى داهمت المدينة غارة ليلاً، وقد اطمأن المغيرون إلى أن الجيش الإسلامي قد ابتعد عن المدينة، أوغل في البعد.

وصلت الغارة إلى المدينة المنورة وقد خلفت وراءها قوةً ردءاً لها في (ذي حسى)[١]، وعندما طرقت الغارة الأنقاب وجدت عليها المقاتلة، ووراءهم أقوام أشبه بالمراسلين، فأوصلوا الخبر إلى أبي بكر في المسجد، فأرسل أبو بكر إلى المقاتلة على الأنقاب أن اثبتوا، وصار بأهل المسجد إلى الأنقاب، فانهزم المغيرون وولوا الأدبار، ولحقهم المسلمون على إبلهم حتى (ذي حسى)، فوجدوا الردء هناك، وقد نفخوا الأنحاء[٢]، وربطوها بالحبال، ودهدهوها[٣] بأرجلهم في وجه إبل المسلمين، فنفرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة، فأرسل المنافقون إلى إخوانهم في (ذي القصة)[٤] بالخبر، فأسرعوا إليهم، وحضر أبو بكر ليلته يتهيأ، ثم خرج في آخر الليل ماشياً، وعلى الميمنة النعمان بن مُقَرّن[٥]، وعلى الميسرة عبد الله بن مقرن[٦]، وعلى الساقة سويد بن مقرن[٧]، فلما أصبح الصباح لم يشعر المنافقون إلا والمسلمون يعملون فيهم السيف، فلما كانت ضحوة ذلك النهار ولّى المنافقون الأدبار، ووصل المسلمون إلى (ذي القصة)، فترك أبو بكر هناك النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، ورجع هو بالناس إلى المدينة.

---

(١) ذي الحُسى: موقع قرب المدينة. (٢) الأنحاء: ضروف السمن.

(٣) دهدهوها: دفعوها.

(٤) ذي القصة. مكان يبعد ٣٥ كيلومتراً عن المدينة.

(٥) النعمان بن مقرن بن عائذ المزني: أبو عمرو، صحابي فاتح، من الأمراء القادة الشجعان، كان معه لواء مزينة يوم فتح مكة، استشهد يوم نهاوند عام ٢١هـ. وله عشرة إخوة كلهم من الشجعان.

(٦) عبد الله بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان.

(٧) سويد بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان، أبو عائذ، أسلم مع أسرته، شهد فتح العراق، وحضر القادسية والمدائن، قاتل تحت لواء أخيه النعمان بنهاوند، وتحت لواء أخيه نعيم في الري وهمدان، ثم قاد فتح طبرستان وجرجان، سكن الكوفة ومات بها.

ارتفعت معنويات المسلمين في هذا النصر، وثبت مسلمو القبائل على دينهم، وجاء نصر آخر إذ وصلت إلى المسلمين أموال الصدقات من عدة جهات، فقد جاء صفوان بن صفوان[1] بصدقات بني عمرو وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص[2]. وجاء الزبرقان بن بدر[3] في وسط الليل بصدقات بني عوف من جهة النقب الذي عليه عبد الرحمن بن عوف[4] وجاء عدي بن حاتم الطائي[5] في آخر الليل بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبد الله بن مسعود[6]، وكان ذلك بعد مسير جيش أسامة بن زيد بشهرين كاملين، ثم كان النصر الثالث إذ لم تمض عشرة أيام حتى رجع جيش أسامة غانماً ظافراً، فاستخلف أبو بكر أسامة بن زيد على المدينة، وقال له: أريحوا وأريحوا ظهركم، ثم خرج في الذين خرجوا إلى (ذي القصة) والذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله، ألاّ تعرض نفسك، فإنك إن

---

(١) صفوان بن صفوان بن أسيد من بني تميم: كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات بني عمرو الذين هم فرع من بني تميم.

(٢) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الزهري، أبو إسحاق: من المسلمين الأوائل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، فاتح القادسية والمدائن، فارس الإسلام، أحد رجال الشورى، اعتزل الفتنة، وتوفي قرب المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥٥هـ.

(٣) الزبرقان بن بدر التميمي: صحابي، أحد وجهاء قومه، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، وبقي عليها حتى أيام عمر، رضي الله عنه، كف بصره في آخر حياته، ومات عام ٤٥هـ في أيام معاوية، رضي الله عنه، وكان شاعراً.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي، أبو محمد: صحابي جليل، من العشرة المبشرين بالجنة، وأحد رجال الشورى، من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان تاجراً مشهوراً، توفي عام ٣٢هـ أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

(٥) عدي بن حاتم الطائي، أبو طريف وأبو وهب: أمير: صحابي، أسلم في السنة التاسعة للهجرة، شهد فتح العراق، وحضر الجمل وصفين والنهروان مع علي، رضي الله عنه، وفقئت عينه يوم صفين، مات بالكوفة عام ٦٨هـ أيام عبد الله بن الزبير.

(٦) عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من السابقين للإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، خدم رسول الله ﷺ، كان قصيراً، توفي في خلافة عثمان، رضي الله عنه، عام ٣٢هـ، قال عنه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: وعاء ملئ علماً.

تصب لم يكن للناس نظام، ومقامكم أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر، وجاء علي بن أبي طالب بزمام راحلته وقال له: أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شمّ[1] سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة. فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي. فخرج إلى (ذي الحسى) و (ذي القصة)، والنعمان بن مقرن وأخواه كما كانوا في التشكيل السابق، ثم نزل أبو بكر بمن معه على الربذة بالأبرق، وقاتل المنافقين وغلبهم، فولّوا الأدبار، ورجع أبو بكر إلى المدينة، وجاءت صدقات كثيرة إلى المسلمين تزيد على حاجاتهم، وكان جند أسامة قد أخذوا الراحة المطلوبة، فعقد أبو بكر أحد عشر لواءً لقتال المرتدين في كل أنحاء الجزيرة العربية وهم:

١ ـ خالد بن الوليد[2]: وأرسله إلى طليحة بن خويلد الأسدي[3]! فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة اليربوعي التميمي[4] بالبطاح[5].

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل[6]: وأرسله إلى مسيلمة الكذاب

---

(١) شم: اغمد.

(٢) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أبو سليمان، سيف الله: الصحابي الجليل، من أشراف قريش في الجاهلية، كان يلي أعنة الخيل، أسلم عام ٧هـ، سر به رسول الله وولاه الخيل، اشتهر بحروبه ضد المرتدين، قاد الفتوح في العراق ثم الشام، توفي في المدينة عام ٢١هـ، وقيل بحمص.

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي ارتد: ثم عاد إلى الإسلام، وبايع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قد استخلف، ورجع طليحة إلى دار قومه وبقي فيها حتى خرج مجاهداً إلى العراق، وقد أبلى بلاء حسناً في الفتوحات.

(٤) مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة: فارس شاعر، أسلم، وولاه رسول الله صدقات قومه، وعند وفاة رسول الله اضطرب أمره وفرق ما جمع من صدقات في قومه، وقيل ارتد، قتله ضرار بن الأزور بأمر خالد بن الوليد أثناء حروب المرتدين.

(٥) البطاح: منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وتقع جنوب وادي الرمّة في بعض الأودية المتجهة إليه من الجنوب.

(٦) عكرمة بن أبي جهل المخزوني، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد فتح مكة، وحسن إسلامه، كان على رأس كردوس في اليرموك واستشهد يومذاك عام ١٣هـ.

الحنفي[1] في اليمامة.

٣ ـ شرحبيل بن حَسَنة[2]: وأرسله دعماً إلى عكرمة بن أبي جهل في اليمامة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية[3]: وبعثه لقتال أتباع الأسود العنسي[4] في اليمن، فإذا فرغ سار إلى حضرموت.

٥ ـ عمرو بن العاص[5]: وسيره إلى قبيلة قضاعة في الشمال.

---

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي، أبو تمامة: متنبئ كذاب، ولد ونشأ باليمامة في بلدة الجبيلة القائمة حتى الآن في وادي حنيفة شمال الرياض بأربعين كيلا. عرف في الجاهلية برحمان اليمامة، وعندما ظهر الإسلام في الحجاز جاء مع وفد بني حنيفة قوم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ويقال أنه تخلف عن الوفد، وأسلم الوفد، ولما رجعوا كاتب رسول الله، وأراد أن يشاركه في الأمر، وأن يكون لهم نصف الأرض ولقريش النصف الآخر، وأظهر أن قريشاً قوم يعتدون، وانتقل رسول الله ﷺ ولم يقض على فتنة مسيلمة، وعندما ولي أبو بكر أرسل له الجيوش فقضت عليه عام ١١هـ. واستشهد في قتاله عدد كبير من الصحابة.

(٢) شرحبيل بن حسنة الكندي حليف بن زهرة: صحابي من القادة، أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة، وأوفده رسول الله إلى مصر، قاد جيشاً لفتح الشام، عزله عمر، وولى معاوية مكانه، وتوفي بطاعون عمواس عام ١٨هـ، وحسنة أمه أما أبوه فقاسم بن عبد الله.

(٣) المهاجر بن أبي أمية: صحابي، من القادة المشهورين، شهد بدراً مع المشركين، أسلم المهاجر، وأخته هي أم المؤمنين أم سلمة هند، أرسله رسول الله إلى اليمن، تخلف عن تبوك، ولاه رسول الله على صدقات كندة، وقبل أن يسير توفي رسول الله، أرسله أبو بكر لقتال من بقي من المرتدين في اليمن، وتولى إمرة صنعاء.

(٤) الأسود العنسي: عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي: متنبئ كذاب، أسلم لما أسلمت اليمن، وارتد أول من ارتد في الإسلام وذلك أيام رسول الله ﷺ، وادعى النبوة، اغتيل أيام رسول الله، وقبل انتقال رسول الله بشهر واحد تقريباً.

(٥) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله: أحد قادة فتوح الشام، وفاتح مصر، من أهل الرأي والحزم، أسلم بعد الحديبية، ولاه رسول الله إمرة ذات السلاسل، ثم استعمله على عُمان، وفتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية، تولى أمر فلسطين، ثم مصر، عزله عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن مصر، ثم عاد إليها عام ٣٨ بأمر من معاوية، رضي الله عنه، وتوفي بالفسطاط عام ٤٣هـ.

٦ ـ خالد بن سعيد بن العاص[١]: ووجهه إلى مشارف الشام.

٧ ـ حذيفة بن محصن: وأمره بالحركة إلى أهل دَبا.

٨ ـ عرفجة بن هرثمة[٢]: وسيّره إلى مهرة، وأمره أن يلتقي مع حذيفة.

٩ ـ طريفة بن حاجز: ووجه إلى بني سُليم، ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ سويد بن مُقَرن: وبعثه إلى تهامة اليمن.

١١ ـ العلاء بن الحضرمي[٣]: وقد اتجه إلى بلاد البحرين.

وبعد أن قاتل أبو بكر الصديق عبس وذبيان (بالأبرق) من أرض (الربذة)[٤] وهزمهم، اتجه قسم منهم إلى (البزاخة)[٥]، وهي ماء لبني أسد، وهناك طليحة بن خويلد الأسدي، فلما عقد أبو بكر الألوية، طلب من خالد أن يسير إلى أرض طيء لتنخذل طيء، وعبس، وذبيان، وأظهر أن أبا بكر سيتجه إلى خيبر ومن هناك سيرفد خالداً في بلاد طيء.

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة المجاهدين، أسلم في بداية الدعوة، لقي العذاب الشديد في سبيل دينه، هاجر إلى الحبشة، شهد فتح مكة وتبوك، أرسله رسول الله إلى اليمن، وتوفي رسول الله، فاستدعاه أبو بكر، فجاءه، وخرج مجاهداً، شهد فتح أجنادين، واستشهد في مرج الصفر قرب دمشق عام ١٣هـ.

(٢) عرفجة بن هرثمة الأزدي، من أهل البحرين، ثم قاتل تحت إمرة العلاء بن الحضرمي فوجهه للعمل في البحر ففتح جزيرة، ثم سار مددا إلى عتبة بن غزوان حين غزا (الأبلة)، ثم صار إلى الموصل، وتوفي في خلافة عمر في عام ٢٠هـ.

(٣) العلاء بن الحضرمي: أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد العلاء فيها، ونشأ في ربوعها، أسلم وهاجر، ولاه رسول الله البحرين، وجعله عاملاً على الصدقات فيها. وأقره أبو بكر وعمر عليها، ويعد أول مسلم ركب البحر للغزو، مات في طريقه إلى البصرة عام ٢١هـ.

(٤) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام منها، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز، إذا رحلت من فيد تريد مكة.

(٥) البزاخة: ماء لطيء بأرض نجد، وقيل ماء لبني أسد.

سار خالد بن الوليد إلى بلاد طيء ولكن عدي بن حاتم طلب من خالد أن يمهله ثلاثة أيام ليكسب إليه قومه ففعل، ومن بلاد طيء، نزل خالد إلى (بُزاخة)، وقتلت طليعته (عكاشة بن محصن)[1] (وثابت بن أقرم)، ولما التقى الجمعان هزم (عيينة بن حصن)[2] مع قومه فزاره، فانفصل عن القوم، وفرّ طليحة بعدها نحو بلاد الشام، وكان طليحة قد ارتد في أيام رسول الله ﷺ فأرسل إليه ضرار بن الأزور[3]، فنزل المرتدون في (سميراء) وبدأ عددهم بالتناقص، وفي هذه الأثناء توفي رسول الله ﷺ، فزاد عدد المرتدين وانضمت غطفان بإمرة عيينة بن حصن إلى بني أسد، وكانوا قد خالفوا طيئاً (عوف وجديلة وغوث)، فلما انضمت غطفان إلى أسد فرّ ضرار بن الأزور ببعض من معه إلى المدينة، وانفضت جموعه. وعندما جاء خالد وهزم أعداءه في البزاخة أسلمت أسد، وعامر، وغطفان. وبعد انتهاء خالد من بني أسد وأحلافهم اتجه بأمر الخليفة إلى بني يربوع من تميم في البطاح وعليهم مالك بن نويرة. وكان الخلاف في بني تميم على أشده وقد جاءتهم سجاح[4] من الجزيرة ببني تغلب فدخلت بلادهم، فوادعها من وادعها، وفرّ من وجهها من فر. وسارت بعد ذلك إلى اليمامة فكان أمر مسيلمة قد قوي، فخافها مسيلمة فاستأمنها، فأمنته، وتزوجها،

---

(١) عكاشة بن محصن: من بني أسد، صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة إذ أنه حليف الأنصار مع أنه مع المهاجرين، شهد المشاهد مع رسول الله، قتل في حروب الردة، وكان طليعة للمسلمين.

(٢) عيينة بن حصن: سيد فزارة، قاتل المسلمين أميراً لقومه، ثم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم كان مع طليحة الأسدي مرتداً، فأسر وأرسل إلى المدينة موثوقاً.

(٣) ضرار بن الأزور بن أوس، من بني أسد، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام، صحابي قاتل يوم اليمامة، شهد اليرموك وفتح الشام، وقطعت ساقاه، وتوفي بعدها بأيام.

(٤) سجاح بنت الحارث بن سويد بن غطفان من بني تميم، فرع بني يربوع، أم صادر: متنبئة كذابة، كانت في بني تغلب في الجزيرة، متنصرة، شاعرة، جاءت من الجزيرة فتبعها بنو تميم، وسارت بهم إلى بني حنيفة، فالتقت بمسيلمة وتزوجت به، ثم رجعت إلى الجزيرة، وأسلمت بعد مقتل مسيلمة، وأقامت بالبصرة، وتوفيت في خلافة معاوية، رضي الله عنه، عام ٥٥هـ، وصلى عليها والي البصرة سمرة بن جندب.

وبقيت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى أرض قومها، وكانت قد تنبأت مثل مسيلمة، وسار معها عدد من وجهاء بني تميم، وكانت قد صالحت مسيلمة على نصف غلات اليمامة... وعندما عادت إلى الجزيرة، وجاء المسلمون أسلمت، وحسن إسلامها.

ولما عادت سجاح إلى الجزيرة، تحير بنو تميم الذين وادعوها، وندموا على ما كان منهم، ولم يلبثوا طويلاً حتى وصلت إليهم جيوش خالد بن الوليد، فعندما جيء برؤسائهم إلى خالد، جادلهم، وشهد جماعة على بني يربوع أنهم لم يؤذنوا فقتلهم، وقتل ضرار بن الأزور الذي كان على طليعة خالد مالك بن نويرة... وحدثت خلافات في قتله، فتزوج خالد امرأته أم تميم ابنة المنهال بعد انقضاء عدتها.

وسار عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة، وتبعه شرحبيل بن حسنة، ولكنه لم يدركه، وكان عكرمة قد أسرع فهزمته جموع بني حنيفة، فبقي شرحبيل ينتظر المدد، وجاء أمر أبي بكر لعكرمة بالانتظار أيضاً، وإذا فرغ سار إلى حذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة لقتال المرتدين في عُمان حتى يلتقوا مع المهاجر بن أبي أمية الذي يكون قد فرغ من اليمن وسار إلى حضرموت.

وكان خالد قد عاد إلى المدينة والتقى بأبي بكر وذلك بعد الانتهاء من البطاح، فاعتذر لأبي بكر فرضي عنه، وأرسله إلى مسيلمة الكذاب، فسار إلى البطاح والتقى بجنده هناك وانتظر حتى جاءه المدد، فقام إلى مسيلمة... ولما وصل إليها كان شرحبيل بن حسنة قد سابقه في قتال القوم فهزم، وكان يساعده بعض بني حنيفة بإمرة ثمامة بن أثال[1]،

---

(١) ثمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، من بني حنيفة، أبو أمامة: صحابي، من سادات اليمامة، أسر بيد المسلمين، وهو في طريقه لزيارة البيت، أطلق سراحه بأمر رسول الله، أسلم بعد أن أدى العمرة، ولما ارتد بنو حنيفة ثبت على إسلامه، وقاتل المرتدين بجانب عكرمة، وشرحبيل، ثم سيره أبو بكر إلى البحرين فقاتل المرتدين هناك تحت إمرة العلاء بن الحضرمي، واستشهد هناك.

رضي الله عنه، فلام خالد شرحبيل في تسرعه: وعسكر مسيلمة في بني حنيفة في عقرباء في أعلى وادي حنيفة ـ وتسمى اليوم الجبيلة ـ وسلك خالد ثنية في جبل اليمامة (طويق) وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب[١] أخو عمر، وأبو حذيفة بن عتبة[٢] وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس[٣]، وكان ضرار بن الأزور قد سار في قسم من الجند من ثنية من الشمال، ونزلوا من جهة (ملهم)[٤] إلى عقرباء، وجرت معركة حامية الوطيس تراجع المسلمون في أولها حتى دخل بنو حنيفة على خالد في فسطاطه، ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد أزالت المرتدين عن مواقعهم، وأجبرت مسيلمة الالتجاء إلى حديقة عرفت باسم حديقة الموت، وفيها صرع مسيلمة الكذاب وعدد كبير من قومه، واستشهد من المسلمين عدد من القراء ووجهاء الناس، منهم زيد بن الخطاب، وثابت بن قيس وغيرهم كثير.

وفي عُمان ظهر لقيط بن مالك الأزدي، وغلب عليها، واضطر جيفر وعباد الالتجاء إلى الجبال وعلى سواحل البحر، وأرسل جيفر إلى أبي بكر الصديق يستنجده، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن إلى عمان، وعرفجة بن هرثمة إلى مهرة، وأوصاهما إذا التقيا أن يبتدئا بعمان، وإذا اقتربا منها راسلا جيفرا وعباداً، ثم أتبعهما بعكرمة بن أبي جهل الذي كانت وجهته اليمامة، فلما هزم طلب من الخليفة أن يسير بمن معه إلى عمان.

---

(١) زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي: أخو عمر بن الخطاب، وكان أسن من عمر، وأسلم قبله، صحابي، يعد من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام، كانت راية المسلمين بيده يوم اليمامة، وثبت يومذاك حتى استشهد، وقبره هناك.

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن عبد شمس: صحابي، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، شهد بدراً مع المسلمين، وفيها قتل أبوه، وعمه، وأخوه كفاراً، وحضر المشاهد كلها، واستشهد يوم اليمامة.

(٣) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، خطيب رسول الله ﷺ، شهد المشاهد التي بعد أحد كلها، وكانت راية الأنصار بيده يوم اليمامة، واستشهد يومها.

(٤) ملهم: قرية من قرى اليمامة، ولا تزال معروفة، تقع إلى الشمال من الرياض على بعد ستين كيلاً منها.

اتجه عكرمة في أثر حذيفة وعرفجة فأدركهما قبل الوصول إلى عُمان، وهناك راسلوا جيفرا وعباداً، وعسكر المسلمون في صحار[1]، وتجمعت جموع لقيط في دبا، وجرت معركة بين الطرفين كاد ينجح فيها لقيط لولا النجدات التي وصلت للمسلمين من البحرين وغيرها، فانتصر المؤمنون، وهزم لقيط، واستولى المسلمون على الغنائم، وأرسلوا الخمس مع عرفجة إلى أبي بكر الصديق، وبقي حذيفة يدير شؤون عمان، وسار عكرمة إلى مهرة. وكان القوم فيها قد ارتدوا، إلا أنهم اختلفوا فقسم منهم في السواحل مع (شخريت) وهم أقل عدداً، وبدأ بهم عكرمة، فدعاهم للإسلام، فوافقوا، الأمر الذي أضعف القسم الثاني الذين كانوا في المناطق المرتفعة مع (المصبح)، فهزموا أمام المسلمين الذين حازوا على الغنائم، فأرسل عكرمة الخمس مع (شخريت) إلى المدينة المنورة.

وأما اليمن فقد كان عليها عدد من الولاة كلٌ على جزء، وقد ادعى فيها النبوة الأسود العنسي، وأرسل له رسول الله ﷺ الرسل والكتب، واستمر ذلك حتى مات، وهدأت الأمور باليمن، فلما انتقل رسول الله ﷺ انتقضت اليمن، فالتجأ عمال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام إلى المسلمين إلا عمرو بن حزم،[2] وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما عادا إلى المدينة، ووصل الخبر إلى أبي بكر فحارب المرتدين بأن أرسل إليهم الرسل والكتب كما كان يفعل رسول الله ﷺ ـ فلما رجع جيش أسامة من غزوه، وعقد أبو بكر، رضي الله عنه، الألوية، بعث (عتابُ بن أسيد)[3]

---

(١) صحار: قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها. ولا تزال قائمة إلى الآن بين مسقط والفجيرة.

(٢) عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، أبو الضحاك: وال، صحابي، شهد الخندق، وما بعدها، استعمله رسول الله على نجران وتوفي عام ٥٣هـ. في أيام معاوية، رضي الله عنه.

(٣) عتاب بن أسيد بن أبي العيض بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمن، وال أموي قرشي مكي، من الصحابة. كان شجاعاً عاقلاً، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله رسول الله عليها عند مخرجه إلى حنين، وكان عمره ٢١ عاماً، وبقي عليها، وأقره أبو بكر، واستمر فيها إلى أن مات.

عامل مكة أخاه خالد بن أسيد[1] إلى المرتدين في تهامة فغلبهم، وبعث عثمان بن أبي العاص على الطائف ابن ربيعة إلى شنوءة فقهرهم.

وتحرك كذلك بتهامة اليمن الأخباث من (عك) و (الأشعريون) فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة، وأخبر بذلك أبا بكر، فانتصر الطاهر قبل أن يصل إليه كتاب وجواب أبي بكر.

وأرسل أبو بكر جرير بن عبد الله البجلي إلى (بجيلة) و (خثعم) فانتصر عليهم، وأقام بنجران حسب أوامر خليفة رسول الله.

وأرسل أبو بكر كتاباً إلى طاهر بن أبي هالة يأمره بأن يسير إلى صنعاء لمساعدة المسلمين، كما كتب إلى عبد الله بن ثور أن يجمع إليه من استجاب له من أهل تهامة، وينتظر التعليمات.

أرسل أبو بكر، رضي الله عنه، المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن، فسار عن طريق مكة، فمشى معه خالد بن أسيد، ومرّ بالطائف، فمشى معه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم انضم إليه جرير بن عبد الله البجلي بالسراة، وعبد الله بن ثور بتهامة، كما انضم إليه من نجران فروة بن مسيك[2]، فأوثق المهاجر عمرو بن معد يكرب[3]، وقيس بن عبد يغوث المكشوح وهما من المرتدين، إلى أبي بكر، رضي الله عنه. ووصل المهاجر إلى صنعاء ودخلها، ولاحق شذاذ القبائل الذين هربوا.

وارتدت حضرموت، وكان عمال رسول الله ﷺ عليها (عكاشة بن

---

(١) خالد بن أسيد: أخو عتاب بن أسيد، وهو من الفرسان المشهورين.

(٢) فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي المرادي، أبو عمر: وال من الصحابة، وهو من اليمن، وفد على النبي وأسلم، فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد، وقاتل المرتدين بعد وفاة رسول الله، توفي بالكوفة عام ٣٠هـ.

(٣) عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فارس اليمن، وفد على رسول الله في عشرة من زبيد فأسلموا جميعاً، ولما توفي رسول الله ارتد عمرو، ثم أسلم، وبعثه أبو بكر إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وفقد إحدى عينيه. وسار إلى العراق فشهد القادسية، توفي عام ٢١هـ.

محصن) و(زياد بن لبيد البياضي) ثم أرسل إليها المهاجر بن أبي أمية، ولم ينطلق من المدينة بعد حتى توفي رسول الله، ﷺ، فسيَّره أبو بكر إلى اليمن، وهو في طريقه إلى عمله الجديد، فوصل إلى صنعاء ودخلها، وكان عمال أبي بكر ينتظرون والي حضرموت الجديد. وسار المهاجر إلى حضرموت، كما سار إليها عكرمة بن أبي جهل، فالتقيا في مأرب، فاقتحما حضرموت، وأرسل المهاجر خمس الغنائم إلى أبي بكر ومعها الأشعث بن قيس الكندي[1] أسيراً، وبقي في المدينة حتى خرج مجاهداً إلى العراق، واختار المهاجر بن أبي أمية العمل في اليمن فكان هو وفيروز، وبقي في حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعبيدة بن سعد.

وأما البحرين فكان فيها بنو عبد القيس، وبنو بكر، وكان عامل رسول الله ﷺ المنذر بن ساوى[2]، وتوفي في المدة التي مات فيها رسول الله ﷺ، فارتدت البحرين، أما بنو عبد القيس فقد ثبتت على الإسلام بفضل (الجارود)، وأما بكر فثبتت على ردتها. وأما الجارود فكان رجلاً نصرانياً، وقد وفد على رسول الله ﷺ وأسلم، وبقي بالمدينة حتى فقه في الدين، ثم رجع إلى قومه فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رسول الله ﷺ، فارتد قومه وقالت بنو عبد القيس: لو كان محمد نبياً لما مات، وبلغ ذلك الجارود فجمعهم وقال لهم: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عمّا بدا

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي: أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وفد على رسول الله وأسلم، ولما ولي أبو بكر الخلافة امتنع الأشعث وبعض كندة من تأدية الزكاة، ولكنه هزم وسيق موثوقاً إلى أبي بكر في المدينة، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، وحسن إسلامه، وحضر اليرموك وفقد عينه، وحضر فتح العراق مع سعد، وكان مع علي في صفين والنهروان، وتوفي عام ٤١هـ.

(٢) المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي: أمير في الجاهلية والإسلام، كان صاحب البحرين، أرسل له رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي يدعوه فيها إلى الإسلام فأسلم، واستمر في عمله، وتوفي قبل ردة أهل البحرين أي قبل وفاة رسول الله بشهر واحد.

لك، قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوه؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وَأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على إسلامهم، وحصرت جماعته في مكانين، وقاد المرتدين الحطم بن ضبيعة، وأرسل أبو بكر، رضي الله عنه، العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وكان من قبل أميراً عليها من قبل رسول الله ﷺ، فلما اقترب من البحرين التحق به ثمامة بن أثال، رضي الله عنه، من مسلمة بني حنيفة وذلك بأمر رسول الله ﷺ، فكان الجارود ومن معه من عبد القيس يقاتلون الحطم بن ضبيعة، والعلاء ومن معه يقاتلون المرتدين في جهة هجر، ونصر الله المسلمين، وأيدهم، وخذل الكافرين، وهزمهم.

الفتوحات: لم تكد الدعوة لتقف في أرض معينة، فالأرض كلها ساحتها وميدانها، وإذا توقفت قليلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ فذلك بسبب الردة، فلما انتهت الردة كان لا بد من أن تعاود نشاطها، وتسير بشكل طبيعي، ويقاتل كل من يقف في وجهها وذلك هو الجهاد.

وانتهت حروب الردة، وكان لا بدّ من الجهاد، فالفرس يقفون في وجه الدعوة، ويحاولون دعم أعدائها، ومدّ المرتدين عليها، والروم يحاربون الدعوة، وينصرون خصومها، ويحرضون القبائل المنتصرة ضدها، وكان لا بدّ من قتال الطرفين، والاستعانة بالله عليهما وبالإيمان القوي بأن النصر من الله يؤتيه من يشاء ممن استقام على منهجه، وإذن كان على المسلمين أن يقاتلوا على جبهتين لم تكونا متفقتين، وهذا ما ساعدهم على القتال وحرية الحركة دون الخوف من الطرف الآخر.

أ ـ الجبهة الفارسية: كان الفرس يسيطرون على مناطق واسعة تبدأ من بادية الشام في الغرب، وشمال جزيرة العرب من الجنوب، وتتوسع منطقتهم في الغرب وتتناقص حسب انتصارهم على الروم، أو هزيمتهم أمامهم، فتارة يتوسعون، وقد وصلوا إلى سواحل البوسفور ثم ارتدوا حتى حدود الفرات، وكان عدد من القبائل العربية تقيم في المناطق التي يسيطر

عليها الفرس سواء في منطقة السواد أم على ضفاف الفرات والجزيرة، ومن هذه القبائل تغلب، وبكر، وشيبان، وربيعة، وطيء، وبعضها كانت مُتنصّرة في أغلبها كتغلب، وكانت طيء تعلو ويقيم رئيسها في بلدة الحيرة على مقربة من الفرات، ويعمل للفرس على توطيد سلطانهم في تلك الأنحاء، وكان من بني شيبان فارس مقدام قد دخل في الإسلام هو المثنى بن حارثة الشيباني[١]، وقد طلب من أبي بكر بعد أن انتهى من حروب المرتدين في البحرين أن يؤمره على قومه وممن دان بالإسلام في تلك الجهات ليجاهد الفرس، ويقاتل أعداء الله، فأمّره أبو بكر فصار يناوش الفرس، وينتصر عليهم وقعة بعد وقعة إلا أنه في عدد قليل من المجاهدين، والفرس كثير، ومعهم عدد كبير من العرب المُتنصّرة، والقوة ستتناقص مع الأيام أمام الكثرة فكان لا بدّ من إرسال المدد للمثنى.

وانتهى خالد من حرب اليمامة، فجاءه الأمر من أبي بكر بالتوجه إلى العراق ليدعم المثنى بن حارثة الشيباني وليكن دخوله من الجنوب على حين يدخلها عياض بن غنم[٢] من جهة الشمال، وليكن لقاؤهما في الحيرة[٣] ومن سبق إليها كانت له الإمرة على صاحبه. وكان ذلك في مطلع العام الثاني عشر للهجرة. وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[٤]، وأنجد عياض بن غنم بعبد بن عوف الحميري.

---

(١) المثنى بن حارثة الشيباني: صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم عام ٩هـ، غزا بلاد فارس أيام أبي بكر، أمده أبو بكر بخالد بن الوليد، وأمده عمر بأبي عبيد، وجرح في معركة الجسر، ثم أمده بسعد بن أبي وقاص، ولكنه توفي قبل وصول سعد إليه.

(٢) عياض بن غنم بن زهير الفهري: قائد من شجعان الصحابة، شهد المشاهد مع رسول الله، وفتح الجزيرة الفراتية، وتوفي بالشام عام ٢٠هـ.

(٣) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف (الخورنق) إلى الشرق منها على بعد ميل، والدير إلى الغرب منها في بادية الشام.

(٤) القعقاع بن عمرو التميمي: أحد فرسان العرب المشهورين وأبطالهم في الجاهلية والإسلام، له صحبة، قال فيه أبو بكر: صوت القعقاع في الحرب خير من ألف فارس، شهد اليرموك وفتح دمشق، والقادسية وأكثر وقائع العراق، وسكن الكوفة، وشهد صفين بجانب سيدنا علي، وتوفي عام ٤٠هـ.

سار خالد بن الوليد مباشرة باتجاه الحيرة، والتقى في طريقه ببعض القريات (ألّيس)[1] وما جاورها فصالح صاحبها (بُصْبُري بن صلوبا)، ثم اتجه نحو الحيرة، وكان عليها من قبل الفرس هانئ بن قبيصة الطائي[2]، فقال له خالد: إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته، وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر. فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم. وكان المثنى بن حارثة الشيباني يقاتل تارة في جهات كسكر[3] وأخرى في جهات الفرات الأسفل، يقاتل الهرمزان في تلك البقاع، فاستدعى خالد المثنى ونزلوا إلى جهات الأُبلّة[4] لتجميع قوات المسلمين، وكانوا في ثمانية عشر ألفاً، وقد سار المثنى قبل خالد بيومين، وسار عدي بن حاتم، وعاصم بن عمرو التميمي[5] بعد المثنى بيوم، وأعطاهم خالد موعداً في الحفير[6]، وقد التقوا بهرمز في أرض الأُبلّة، وكانت المعركة، وأراد هرمز أن يغدر بخالد إلا أن القعقاع بن عمرو قتل هرمز، والتحم مع حماته الذين أرادوا أن يغدروا بخالد، وركب المسلمون أكتاف أعدائهم حتى غشاهم الليل، وكان الفرس

(١) أُلّيس: هي غير موجودة الآن، وهي في أول أرض العراق من ناحية البادية.

(٢) هانئ بن قبيصة الطائي: وهو أخو إياس بن قبيصة الذي تولى أمر الحيرة بأمر كسرى بعد استدعاء النعمان بن المنذر إلى فارس، وجعل ودائعه عند هانئ بن مسعود الشيباني، وجرت معركة ذي قار بين جيوش كسرى بقيادة إياس وبين هانئ بن مسعود الشيباني الذي يقود بني بكر.

(٣) كسكر: كورة واسعة، وقصبتها واسط التي مصرّها الحجاج بن يوسف، ومن قبل كانت قصبتها خسر وسابور، وهي في وسط السواد.

(٤) الأُبلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، لأن البصرة مصرّت أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وكانت الأبلة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى، وقائد، وهي غير موجودة الآن وموقعها شمال موقع البصرة الحالي.

(٥) عاصم بن عمرو التميمي أخو القعقاع، شاعر، له صحبة، أبلى في القادسية البلاء الحسن توفي عام ١٦هـ.

(٦) الحفير: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة.

قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل لذلك سميت هذه المعركة ذات السلاسل. . . وأرسل خالد بن الوليد المثنى بن حارثة في أثر القوم، وبعث معقل بن مُقرّن[١] إلى الأبلّة ليجمع المال والسبي، وسار المثنى حتى بلغ نهر المرأة، فحاصرها في الحصن الذي كانت فيه وكان على مقدمته أخوه المعنى[٢]، فصالحت المرأة المثنى، وتزوجها المعنّى، أما المثنى فقد استنزل الرجال من الحصون، وقتل مقاتلتهم، وأقر الفلاحين الذين لم ينهضوا للقتال مع الفرس.

كان أردشير قد أمر بجيش كبير بقيادة (قارن بن قريانس) فلما وصل إلى (المذار)[٣] وصل إليه خبر هزيمة هرمز ومقتله، فتجمع هناك، فسار إليه خالد،ونشبت معركة قتل فيها معقل بن الأعشى القائد الفارسي (قارن)، وقتل عاصم بن عمرو وخصمه (الأنوشجان) وقتل عدي بن حاتم عَوه (قُباذ)، وقتل يومذاك من الفرس عدد كبير، وصل إلى ثلاثين ألف مقاتل. وبعدها وزع خالد الغنائم وقسّم الفيء.

وتجمع الفرس ثانية في (الولجة)[٤] مع ما جاءهم من مدد قوامه جيشان الأول بقيادة (الأندرزغر) والثاني بإمرة (بهمن جاذويه) فسار إليهم خالد، وقد خلّف سويد بن مقرن في الحفير، وقد هُزمت الفرس هزيمة منكرة أيضاً في هذه الجولة.

وتأثر نصارى العرب من هذه الانتصارات فكاتبوا الفرس، وتجمّعوا في (أُلّيس)، فأسرع إليهم خالد، وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً، وقتل منهم ما يقرب من سبعين ألفاً، ثم اتجه نحو الحيرة ثانية.

ولما انتهى خالد من الحيرة ولّى عليها القعقاع بن عمرو، وخرج يريد

---

(١) معقل بن مقرن: أحد إخوة النعمان بن مقرن.
(٢) المعنّى بن حارثة: أخو المثنى بن حارثة الشيباني، وكان على مقدمة أخيه.
(٣) المذار: على ضفة نهر دجلة اليسرى تقع شمال القرنة بـ ٣٧ كيلاً، بين البصرة وواسط، وهي قصبة ميسان.
(٤) الولجة: موضع وسط السواد قريبة من كسكر.

دعم عياض بن غنم الذي كلف بشمال العراق، فنزل خالد إلى الفلّوجة، ومنها إلى كربلاء فولى عليها عاصم بن عمرو، وكان على مقدمته الأقرع بن حابس[1]، أما المثنى فكان يناوش الفرس على شواطئ دجلة. وسار خالد إلى الأنبار[2] ففتحها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر، وقصد عين التمر[3]، فهزم جموع أهلها الذين هم من العرب المُتنصّرة والعجم، ثم حصرها فنزلوا على حكمه، فقتل من قتل منهم، وأسر وسبى. واستخلف على عين التمر عويم بن الكاهل، وسار باتجاه عياض بن غنم الذي علم أنه لا يزال في دومة الجندل[4] وقد كتب إليه يستنجده، فكتب إليه خالد: «من خالد إلى عياض إياك أريد».

ولما علم أهل دومة الجندل مسير خالد إليهم استنجدوا بالقبائل المُتنصّرة من العرب من كلب، وغسان وتنوخ، والضجاعم فأمدوهم. ولما اقترب خالد من دومة الجندل اختلف رئيساها وهما: أكيدر بن عبد الملك[5]، والجودي بن ربيعة، فاعتزل الأكيدر، وهُزم الجودي ومن معه ومن جاءه من الدعم الذين لم يتسع لهم الحصن. وأقام خالد بدومة الجندل. وأرسل الأقرع بن حابس إلى الأنبار، وبعد مدة لحق خالد بالحيرة.

وخرج خالد من الحيرة وولّى عليها عياض بن غنم، وكان على

---

(١) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية، وفد على رسول الله مع وفد قومه وأسلم، وشهد فتح مكة، وحنين، والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، استشهد بخراسان بالجوزجان عام ٣١هـ أيام سيدنا عثمان.

(٢) الأنبار: تقع قريباً من ضفة الفرات اليمنى، وقريباً من الفلوجة.

(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار، إلى الغرب منها.

(٤) دومة الجندل: وهي في شمال جزيرة العرب، ومكانها اليوم مدينة الجوف.

(٥) أكيدر بن عبد الملك الكندي: ملك دومة الجندل في الجاهلية، بعث رسول الله خالد بن الوليد إليه، فأسره، وقدم إلى المدينة، فأسلم وأعيد إلى بلاده، فلما توفي رسول الله نقض العهد، ومات عام ١٢هـ.

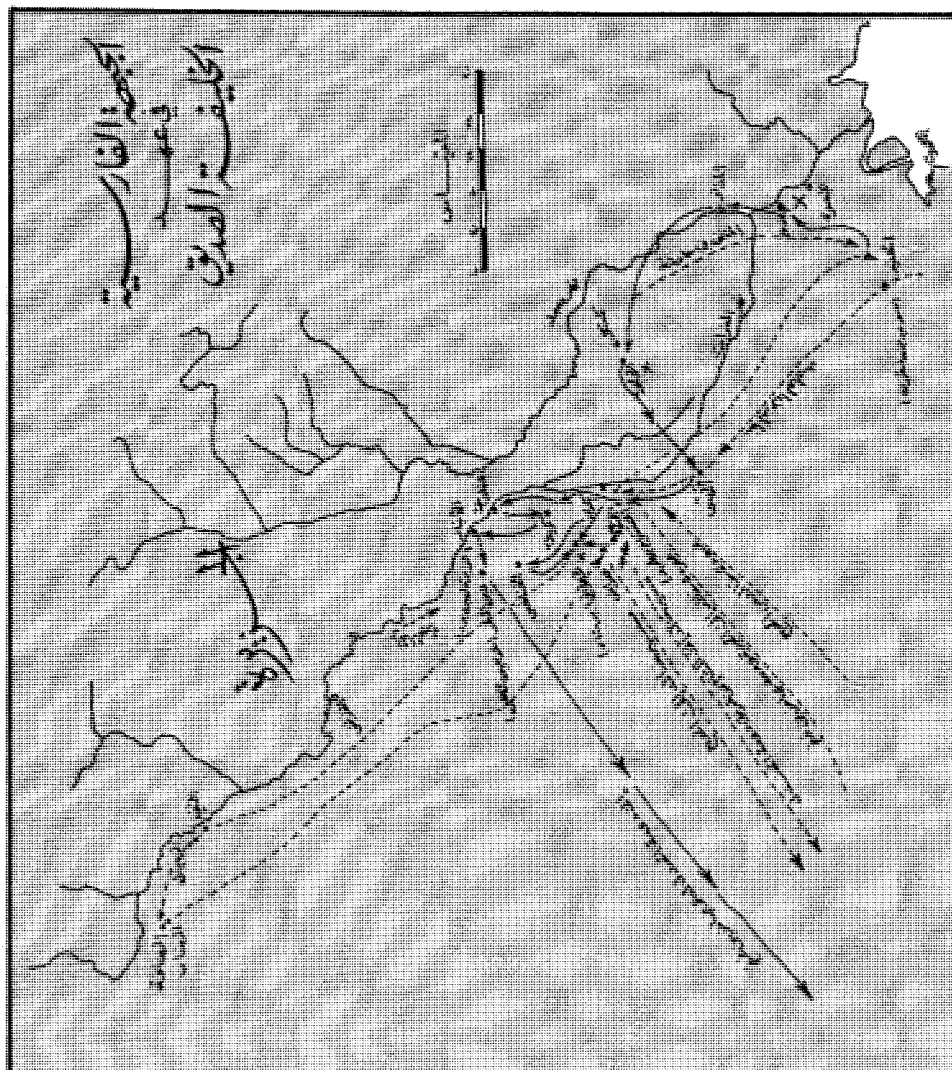

مقدمة خالد الأقرع بن حابس. . . ثم بعث وهو بـ (العين) أبا ليلى بن فركي إلى الخنافس[1] والقعقاع إلى حُصيد[2]. فانتصر القعقاع في حُصيد، وفر من بالخنافس إلى المُصَيّخ[3] إذ لم يجد أبو ليلى، بالخنافس كيداً. وسار خالد وأبو ليلى والقعقاع إلى المصيخ وكان قد اجتمع فيه من هرب من الخنافس والحصيد، وهناك انتصر المسلمون انتصاراً مبيناً. ثم ساروا إلى (الثني)[4] و (الزُمَيْل)[5] فانتصروا على أعدائهم، ثم ساروا إلى (الرضاب)[6]، وبها هلال بن عَقّة، وقد ارفض عنه أصحابه عندما سمعوا بدنو خالد وجيشه، ثم ساروا إلى (الفراض)[7] وهي على تخوم الشام والعراق والجزيرة وذلك في شهر رمضان، وتعاون الفرس والروم ضد المسلمين، والتقت الجموع على نهر الفرات فقتل من الفرس والروم والعرب المُتنصّرة أكثر من مائة ألف. . .

أقام خالد بن الوليد عشرة أيام بالفراض، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس، وأظهر خالد أنه في الساقة، وسار مع عدة من أصحابه إلى مكة يؤدي الحج، ورجع من الحج، فوصل إلى الحيرة ولم تدخل الساقة البلدة بعد، ولم يدر الخليفة أبو بكر، رضي الله عنه، بما فعل خالد إلا بعد مدة، فعتب عليه، وصرفه عن العراق إلى الشام.

وصل كتاب أبي بكر إلى خالد وهو بالحيرة وفيه: أن سر حتى تأتي

---

(١) الخنافس: موقع قرب الأنبار. (٢) حصيد: واد بين الكوفة والشام.

(٣) المصيخ: مصيّخ برشاء، وهو بين حوران والعراق، وهو غير معروف الآن، أما مصيخ بهراء فهو آخر ماء من بلاد الشام، ورده خالد بن الوليد بعد سُوى.

(٤) الثني: مكان بالجزيرة الفراتية يقع إلى الشرق من الرصافة، تجمعت فيه بنو تغلب.

(٥) الزميل: موقع إلى الشرق من الرصافة.

(٦) الرضاب: موقع إلى الشرق من الرصافة، أو مكانها قبل أن يعمرها هشام بن عبد الملك.

(٧) الفراض: موضع بين إلى الشرق من البوكمال على بعد ٤٠ كيلاً منها، قريبة من الحدود بين العراق وسورية اليوم.

جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء.

وجاء فيما كتب أبو بكر لخالد: أما بعد فدع العراق وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم، وهم فيه، وامض مختفياً من أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك في الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام.

سار خالد من الحيرة في العراق، وقد استخلف المثنى بن حارثة الشيباني على جند العراق، وسار هو إلى الشام، وكتب إلى أبي عبيدة[1]: أما بعد فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلي النار والسلام عليك ورحمة الله.

سار خالد من الحيرة إلى دومة الجندل، وخرج منها مع وادي السرحان إلى الشمال.

ب ـ فتوح الشام: بعد أن رجع خالد بن سعيد بن العاص من اليمن

---

(١) أبو عبيدة الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي فاتح الديار الشامية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين الأمة، وهو من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

أمره أبو بكر أن ينزل بتيماء وأمره ألا يبرحها، وأن يدعوا من حوله بالانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأتيه أمره. فأقام فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فاستنفروا العرب الذين بالشام على المسلمين، فاستنفرت كلب، وتنوخ، ولخم، وجذام، وغسان، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تحجم، واستنصر الله، فسار إليهم خالد بن سعيد، فلما دنا منهم تفرقوا، فاتخذ موقعه مكانهم، وكتب إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. وحدث قتال؛ وطلب خالد بن سعيد من أبي بكر المدد، فأمده بالوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل، وانتصر على (ماهان) قرب القدس، وانتقل ماهان إلى دمشق فلحق به خالد بن سعيد، فلما كان بمرج الصفر جاءت جموع كبيرة من الروم بقيادة (ماهان) الأمر الذي جعل خالد بن سعيد يتراجع إلى ذي المروة على حين وقف عكرمة بن أبي جهل يحمي المتراجعين، ووصل المجاهدون من اليمن، وكانت قد دخلت السنة الثالثة عشرة، فطلب أبو بكر استبدال عمال الصدقات. ومنهم عمرو بن العاص الذي كان قد سيره في السنة الحادية عشرة إلى قضاعة، ثم استدعاه فولاه ما كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات عُمان ثانية، وكتب إليه أبو بكر، رضي الله عنه: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاكه مرة، وسماه لك أخرى، ومبعثك إلى عُمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت ـ أبا عبد الله ـ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها، وأخشاها، وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

وصل خالد بن سعيد بن العاص إلى ذي المروة[1] هرباً من جند

---

(١) ذو المروة: قرية بوادي القرى.

(ماهان)، ووصل الخبر إلى أبي بكر فكتب إليه: أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام محجام، نجّاء من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق، ولا تصبر عليه. ولما كان بعد؛ وأذن له في دخول المدينة ـ كما سنرى ـ.

عبأ أبو بكر الصديق الجيوش إلى الشام في مطلع السنة الثالثة عشرة فسار:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان[1] في سبعة آلاف بعد عزل خالد بن سعيد، وكانت وجهته دمشق، وكان أول الأمراء الذين ساروا إلى الشام، وكان في جنده سهيل بن عمرو. ثم أمد أبو بكر يزيد بن أبي سفيان بأخيه معاوية بجند كثير، ولما مرّ معاوية بذي المروة أخذ من بقي من جند خالد بن سعيد، وسمح بعدها الصديق لخالد بدخول المدينة.

٢ ـ عمرو بن العاص وكانت وجهته فلسطين.

٣ ـ شرحبيل بن حسنة وسار إلى الأردن، وقد استعمل على جند الوليد بن عقبة[2]، وأخذ عندما مر بذي المروة جمهور جند خالد بن سعيد.

٤ ـ أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حمص.

وبقي عكرمة في ستة آلاف من الجند ردءاً لجيوش المسلمين.

وعلم الروم بما عبأه المسلمون، فانتقل هرقل إلى حمص، وجمع جموعاً غفيرة من جنده، وأرسل أخاه (تذارق) ليواجه عمرو بن العاص، وبعث (جرجة بن توذرا) نحو يزيد بن أبي سفيان، ووجه (الدُّراقص) نحو

---

(١) يزيد بن أبي سفيان، أبو خالد، أسلم يوم فتح مكة، وبقي على صدقات بني فراس، وكان أحد قادة فتح الشام، ولاه عمر فلسطين، ثم دمشق، توفي في طاعون عمواس عام ١٨هـ.

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أبو وهب: من فتيان قريش وشعرائهم، أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، ولاه عمر صدقات بني تغلب، ولاه عثمان الكوفة ثم عزله، توفي عام ٦١هـ.

شرحبيل بن حسنة، وأعطى أوامره لـ (الفيقار بن نسطوس) أن يسير نحو أبي عبيدة بن الجراح، وصل عدد الروم يومذاك إلى ٢٤٠ ألف مقاتل على حين كان المسلمون واحداً وعشرين ألفاً و٦ آلاف مع عكرمة بن أبي جهل في المؤخرة دعماً لجموع المسلمين.

هاب المسلمون الروم لما رأوا كثرتهم فكتب قادتهم إلى عمرو بن العاص يستشيرونه، فاقترح أن يجتمع المسلمون في مكان يلتقون فيه مع الروم، ولن يهزموا من قلة حينذاك، كما كتبوا إلى الخليفة أبي بكر وطلبوا منه المدد، فكان رأيه الاجتماع كما رأى عمرو، وأضاف أن يكون مكان المعركة في موقع يسهل الاتصال فيه مع المدينة قاعدة الحكم، ووافق على اللقاء باليرموك، وكتب إلى خالد بالعراق أن يقدم إلى اليرموك لدعم المسلمين هناك، وأن يكون هو الأمير.

سار خالد بن الوليد من الحيرة إلى (قراقر) حيث شيعه إليها المثنى بن حارثة، ومنها إلى (سوى)، ثم تحرك إلى دومة الجندل، وأغار خالد على (مصيخ بهراء) ثم تحرك نحو الشمال مع وادي السرحان إلى شرقي جبل حوران (الدروز) حتى وصل إلى (أرك)[١] ومنها إلى تدمر فالقريتين[٢]. ولما علمت غسان بذلك، اجتمعوا له بمرج راهط[٣] فسار إليهم، وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتصر عليهم، ثم سار إلى بصرى الشام[٤] وكانت أول مدينة افتتحها من بلاد الشام، ثم ذهب إلى اليرموك فوصل إلى المسلمين في تسعة آلاف وغدا جند المسلمين ستة وثلاثين ألفاً. وفرح المسلمون بوصول خالد لأن الروم كانوا قد وصلت إليهم إمدادات

---

(١) أرك: مدينة صغيرة قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون، وكل أهلها كانوا من النصارى.
(٢) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص، وهي التي تدعى حوارين.
(٣) مرج راهط: يقع إلى الشمال من دمشق، والمسافر من دمشق إلى حمص ما كان على يساره فهو مرج راهط، ومن كان على يمناه فهو مرج عذراء حتى الثنايا (ثنية العقاب).
(٤) بصرى الشام: مدينة بحوران، من قواعد الغساسنة، وكانت مدينة رومانية، وفيها سوق دائمة للعرب. ولا تزال فيها آثار رومانية، منها المدرج الروماني الشهير.

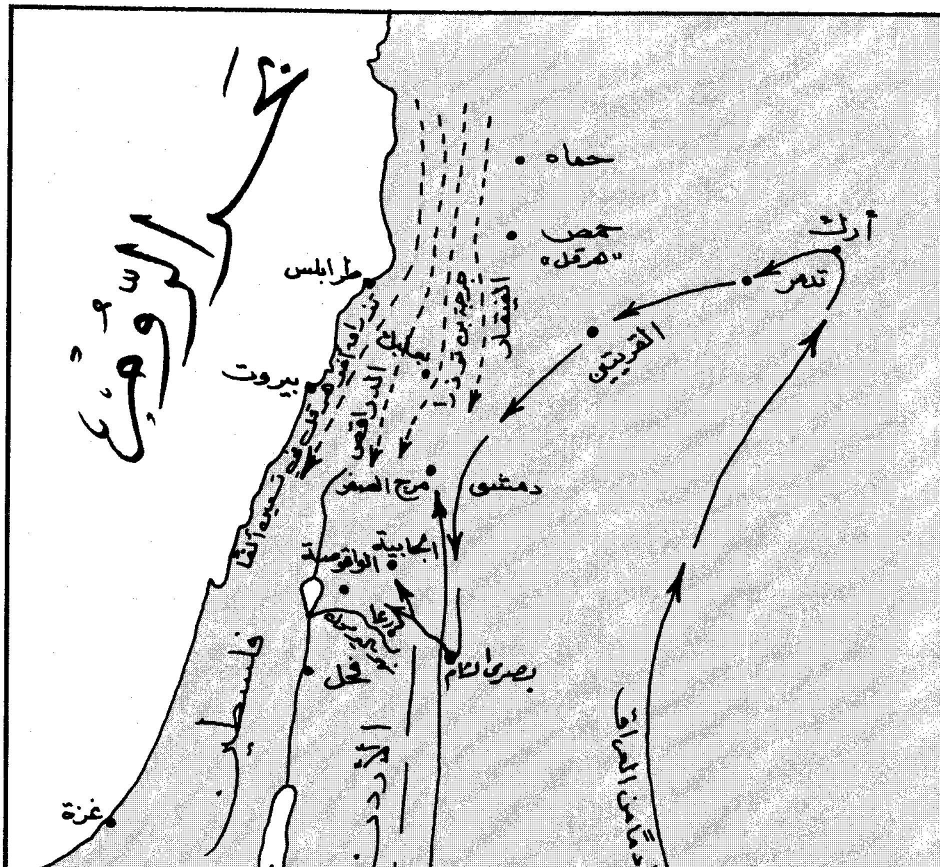
بحر الروم
حماه
حمص
"هرقل"
أرك
تدمر
القريتين
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
مرج الصفر
الجابية
الواقوصة
بصرى الشام
فحل
فلسطين
الأردن
غزة
اجنادين
عمرو بن العاص
خالد بن الوليد قادما من العراق
دومة الجندل
عكرمة بن أبي جهل
احتياطي
ستة آلاف مجاهد
تبوك

بإمرة ماهان ومعه القساوسة والمطارنة والرهبان من أجل تشجيع المقاتلين. وربما يتساءل المرء لماذا هذه الطريق الطويلة التي قطعها خالد بن الوليد؟ إنه أراد ألا يصطدم مع الروم قبل الالتقاء بالمسلمين وبخاصة أنه أصبح أمير المقاتلين في الشام فلا بد من الوصول إلى جنده ليقودهم في القتال، وإن خطة المسلمين كانت تقضي أن يكون القتال مجتمعين لا متفرقين ليتمكنوا من قتال الروم الذين يملكون أعداداً كبيرة تفوقهم بعشرة أمثال، وللروم ثغور وسط البادية حيث كانت من قبل مسرحاً للمعارك الدائرة بينهم وبين الفرس، فلو سار من الحيرة مباشرة نحو الغرب لاصطدم بتلك الثغور، ولأضاع على المسلمين تجمعهم في اليرموك وقيادته لهم، ولهذا اضطر أن يسير نحو الجنوب ليتجاوز تلك الثغور عن طريق دومة الجندل ثم اتجه شمالاً، وعندما وصل إلى الشرق من بصرى الشام وجد نفسه أمام جبل حوران (الدروز اليوم) البركاني الصعب الاجتياز، فأراد الالتفاف حوله فوجد نفسه بسرعته المعروفة في منطقة تدمر، لذا عاد فرجع إلى الغرب عن طريق القريتين فثنية العقاب (الثنايا) فشرقي دمشق إلى بصرى ففتحها ومنها سار إلى اليرموك. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن لخالد بن الوليد طريقته الخاصة في القتال وهي التحرك بسرعة في عمق العدو والإغارة على مواقع خصمه المتأخرة، ثم الانسحاب للخوض في معركة حاسمة، وعندها يشعر العدو أن مجموعات من خصمه لا تزال تعمل خلف خطوطه الأمامية، وستداهمه في الوقت المناسب من القتال الأمر الذي تضعف فيه معنوياته، ويبقى جزء من جنوده خارج المعركة لصد أي هجوم مرتقب من الخلف، وهذا ما رأيناه في قتاله في العراق إذ وصل إلى نقاط بعيدة من أرض العدو على حين لم تطهر أرض السواد بعد بل ولا منطقة الحيرة نفسها، ولم يأمن جانب المصالحين بشكل صحيح إذ سنراهم ينقضون العهد بعد ذلك. كما أن حركته كانت خلف ثغور الروم الأمر الذي جعل الروم لا يستطيعون ترك مواقعهم خوفاً من أن يكون هناك اتفاق بين المسلمين والفرس وبخاصة أن خالداً كان في أرض فارس، كل هذا يجعل حركة خالد سهلة ويتنقل بحرية كأنه يقوم بمناورة معروفة الخطة.

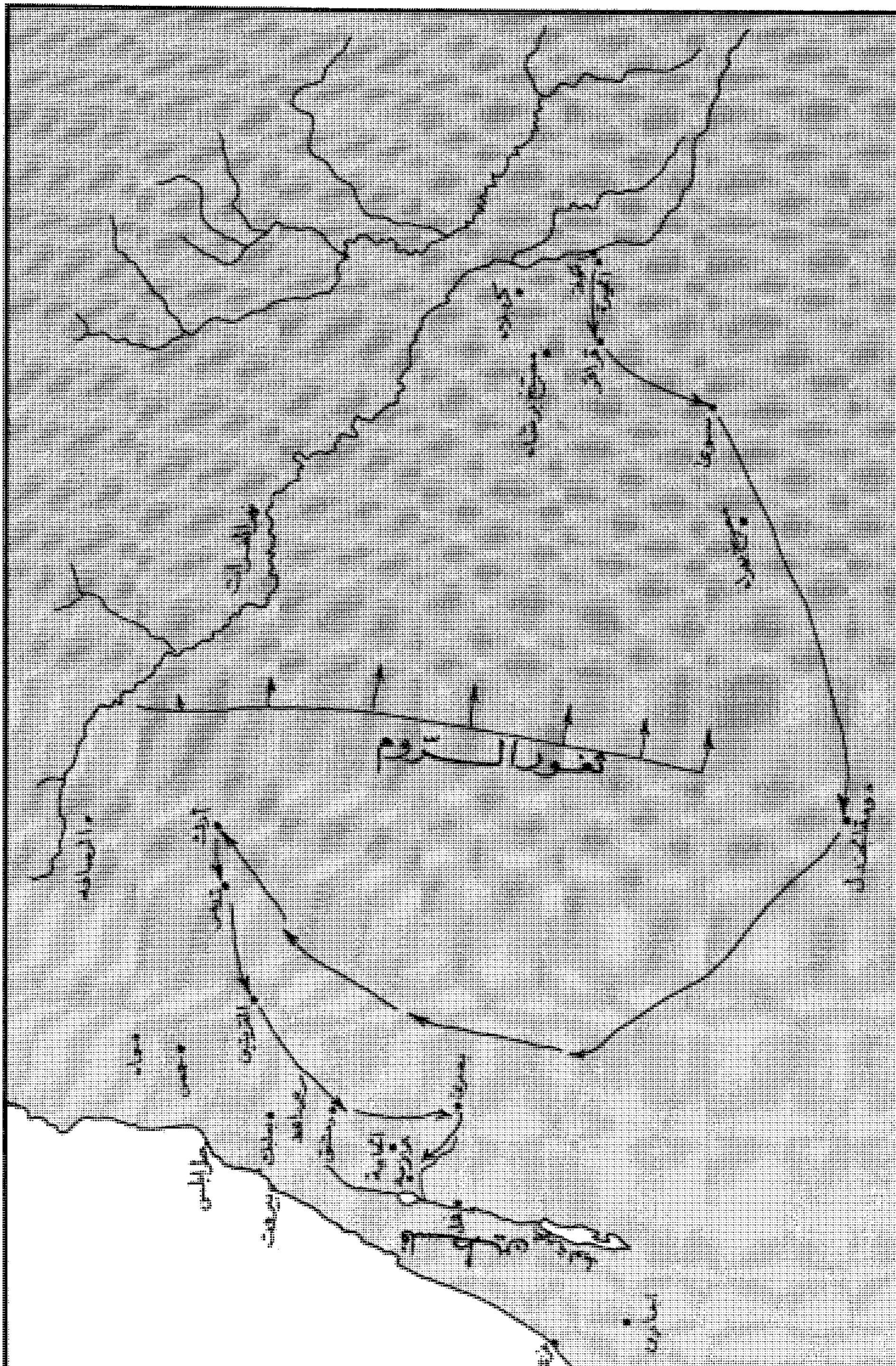

وصل خالد بن الوليد إلى اليرموك، وصلّى في اليوم الأول بجنده الذين قدموا معه من العراق، ورأى الروم مجتمعين فجمع المسلمين وخطب فيهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده؛ ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته، قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون، لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا فإن هؤلاء تهيئوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإِمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم.

قسم خالد المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها بين ٣٦ ـ ٤٠ كردوساً ويضم الكردوس الواحد ما يقرب من ألف مقاتل. وكان أبو عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، ومن أمراء الكراديس يومذاك القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص[1]،

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: صحابي، خطيب من الفرسان، ابن أخي سعد بن أبي وقاص، أقام بالشام بعد فتحها، فقد عينه باليرموك، وذهب مدداً لعمه سعد في القادسية، شهد صفين مع علي، وكان قائد الرجالة فيها، وقتل في آخر أيامها.

وسهيل بن عمرو[1]، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحبيب بن مسلمة[2]، وصفوان بن أمية[3]، وسعيد بن خالد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص[4]، وعبد الله بن قيس[5]، ومعاوية بن حديج[6]، والزبير بن العوام[7]، وضرار بن الأزور.

وكان قاضي الجيش أبو الدرداء[8]، والقاص أبو سفيان بن

---

(١) سهل بن عمرو العامري القرشي: من الذين وقفوا في وجه الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، حسن إسلامه، خرج مجاهداً إلى الشام، وهو خطيب قريش، توفي بالطاعون بالشام عام ١٨هـ.

(٢) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري: قائد فاتح، خرج مجاهداً أيام أبي بكر، وشهد اليرموك، وفتح دمشق،، ولاه أبو عبيدة إنطاكية، توغل في أرمينية، تولى أمر الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان توفي عام ٦١هـ.

(٣) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي، أبو وهب: من السادات في الجاهلية والإسلام، وقف ضد الدعوة، أسلم بعد الفتح، شهد اليرموك، توفي عام ٤١هـ، بمكة المكرمة.

(٤) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة الغزاة، من أوائل الذين أسلموا، ونال العذاب من أبيه (أبو أحيحة)، هاجر إلى الحبشة، غزا مع النبي، حضر فتح مكة، وغزوة تبوك، كتب لرسول الله، وبعثه مع ملأ على اليمن، استدعاه أبو بكر، وخرج مجاهداً، استشهد في مرج الصفر عام ١٤هـ.

(٥) عبد الله بن قيس الحارثي، حليف فزارة: أمير البحر في صدر الإسلام، استشهد عام ٥٣هـ، وهو يطوف متخفياً في أحد الموانئ.

(٦) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر، أبو نعيم الكندي: الأمير الصحابي، شهد صفين مع معاوية، وتولى له مصر بعد أن أخذها له، وولي غزو المغرب عدة مرات، توفي عام ٥٢هـ.

(٧) الزبير بن العوام الأسدي القرشي، ابن عمة رسول الله، أبو عبد الله: الصحابي الشجاع، أول من سل سيفه في الإسلام، من أوائل الذين أسلموا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وحضر اليرموك، وهو أحد رجال الشورى، قتل غيلة عام ٣٦هـ. بعد معركة الجمل.

(٨) أبو الدرداء: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة، اشتهر بالشجاعة والعبادة، وفي الحديث «عويمر حكيم أمتي» و «نعم الفارس عويمر» ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، توفي عام ٣٢هـ.

حرب[1]، وعلى الغنائم عبد الله بن مسعود، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وكان المقرئ المقداد بن عمرو[2]، وقد كان عدد الصحابة في اليرموك أكثر من ألف صحابي بينهم مائة من أهل بدر. وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله! إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك! اللهم أنزل نصرك على عبادك!

ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، ولم يلبث الأمر قليلاً حتى جاء البريد، يحمل موت أبي بكر، وتولية عمر، وعزل خالد وتأمير أبي عبيدة، رضي الله عنهم. وكان الرسول محمية بن زنيم، ولكن خالداً عندما سئل عن البريد، قال: السلامة، وقرب وصول الأمداد.

وكانت وفاة أبي بكر، رضي الله عنه، يوم الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ، وبذا تكون خلافته، سنتين وثلاثة أشهر، وعشرة أيام.

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الصديق تبدو ضيقة الرقعة إلا أننا يجب أن نضع في خلدنا الملاحظات التالية:

١ ـ قصر مدة خلافة الصديق.

٢ ـ القضاء على حروب الردة التي شملت الجزيرة كلها.

٣ ـ كانت المعارك التي جرت في عهد الصديق بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة ثانية، قد دوخت أعداء الإسلام، وأظهرت قوة المسلمين وإمكاناتهم القتالية.

---

(١) أبو سفيان حرب: صخر بن حرب الأموي القرشي، وقف في وجه الإسلام، وقاد قريش في ذلك، أسلم يوم الفتح وهو وأولاده من الشجعان، قاتل تحت راية ابنه يزيد، فقد عينه الأولى في حنين والثانية في اليرموك، توفي عام ٣١هـ.

(٢) المقداد بن عمرو ويعرف بابن الأسود، أبو عمرو: صحابي، من الأبطال، من أوائل الذين أظهروا الإسلام، كان من سكان حضرموت فر منها إلى مكة، توفي عام ٣٣هـ.

شعر أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بشيء من الراحة النفسية بعد أن قضى على المرتدين، وانطلقت الفتوحات في كل الجهات، وتحطمت كبرياء الدولتين الكبريين اللتين كانتا تقفان في وجه الدعوة، وتدعمان المرتدين، وتستنفران قواتهما ومن والاها من العرب المتنصرة، كل ذلك في سبيل القضاء على الفكرة الجديدة، وفي الوقت نفسه، فقد شعر أن مهمته في الحياة قد انتهت، فقد توطد الأمر. وثبت كيان الإسلام، وسيتابع الأمر الخلفاء من بعده، كما زاد شعوره في هذا الأمر أن سنه قد اقترب من سن حبيبه ورسوله محمد ﷺ عندما فارق الحياة الدنيا، وانتقل إلى الرفيق الأعلى. كما شعر أن استخلاف رجل من بعده وهو على قيد الحياة، يجنب المسلمين الكثير من الصعاب، وقد أشفق عليهم أن يختلفوا، ويزهد في هذا المنصب أهله، ويبتعد عنه من يستحقه، وقد تداعى إلى ذهنه ما حدث عند وفاة رسول الله ﷺ عندما لم يخطر على بال المسلمين وفاة نبيهم، وحين ثقل عليهم مصابهم، والأمر لا بدّ له من خليفة يطبق منهج الله في الأرض. إذن لا بدّ من استخلاف رجل يخلفه، ولا بد من الاستشارة، ولاح في ذهنه أولئك الصحابة الذين كان رسول الله ﷺ يستشيرهم، وكبرت في نفسه شخصية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومواقفه في الإسلام، وقوته في الحق، وهيبته في النفوس، ونظرة المسلمين إليه، ولكن كان لا بدّ من أخذ رأيهم واستشارتهم، ولو كان الأمر منهم لكان أفضل.

وشعر أبو بكر بالمرض، واشتد عليه، وثقل فجمع عدداً من الصحابة المعروفين الذين كان رسول الله ﷺ يشاورهم في الأمر، وقال لهم: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم. فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي.

فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه، ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا:

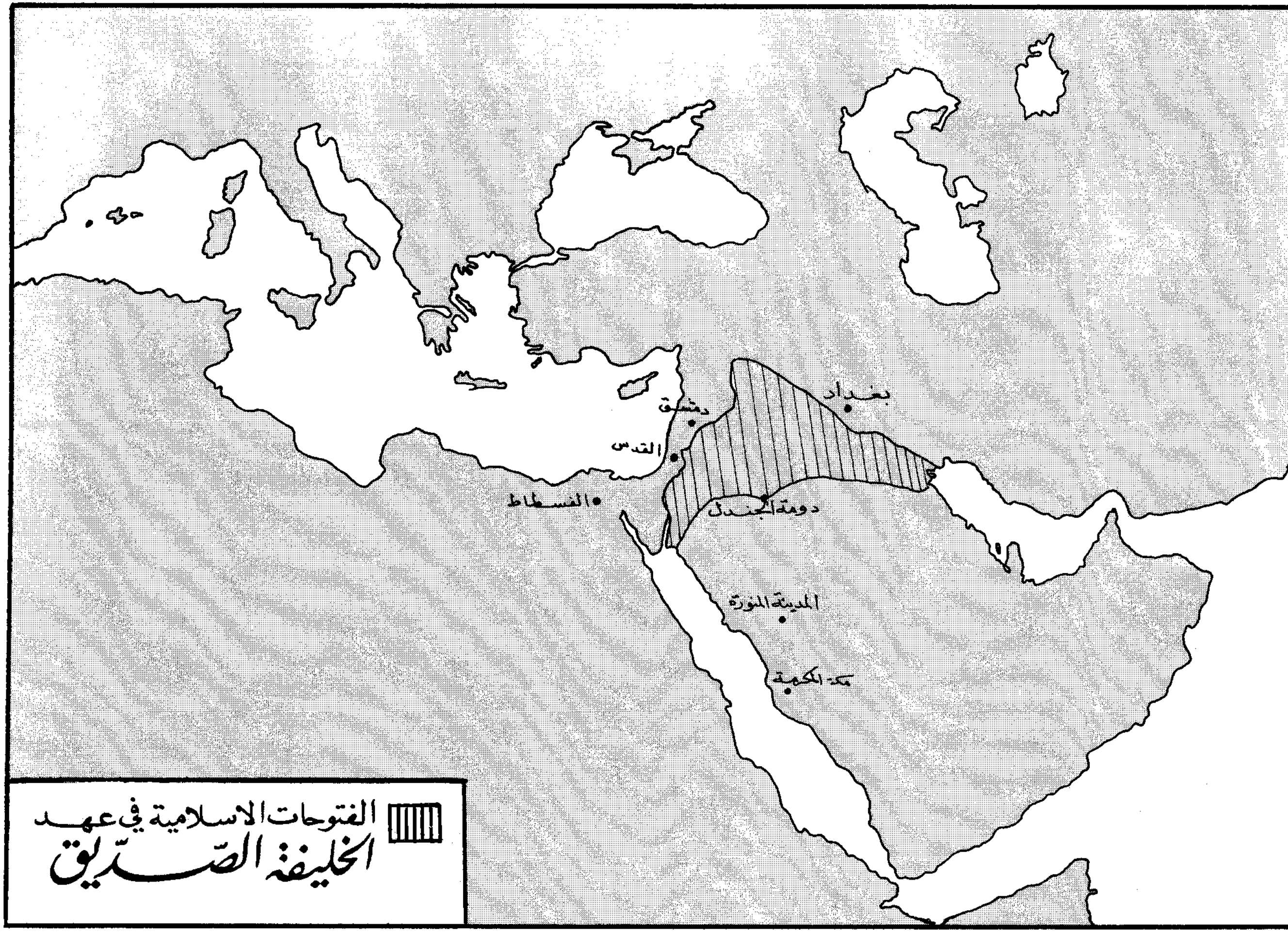
بغداد
دمشق
القدس
الفسطاط
دومة الجندل
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الفتوحات الاسلامية في عهد
الخليفة الصديق

رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده..

دعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب: فقال له: ما تسألني عنه أمراً إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن، فقال عبد الرحمن: هو أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال له مثل ذلك، فقال: علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يسرّ خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمر إلا رجل خاف من شدته، وقد عاتبه بعضهم باستخلافه فقال أبو بكر: لا والله ولا نعمة عين، هو والله خير لكم، والله لو وليتك لجعلت أنفك في السماء ولرفعت نفسك فوق قدرك حتى يكون الله هو الذي يضعك، تريد أن تردني عن رأيي وتفتني في ديني؟ فوالله لئن بلغني أنك عصيته أو ذكرته بسوء لأفعلن ولأفعلن... ثم دخل على أبي بكر عثمان، وعلي، فقال لهما مباشرة لعلكما تقولان في عمر ما قال فلان آنفاً؟

قالا: وماذا قال يا خليفة رسول الله؟

قال: زعم أن عمر أحدثكم إسلاماً و....

فقال عثمان، رضي الله عنه: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته مع سابقته.

وقال علي رضي الله عنه: بئس ما قال، عمر عند ظنك به، ورأيك

فيه، إن وليته ـ مع أنه كان والياً معك ـ نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن مالاً تظن لم ترد إلا الخير.

ودخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر الصديق يعوده في مرضه الذي مات فيه فوجده مقنعاً، فقال له عبد الرحمن: أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أبرء ذاك؟ قال: نعم، قال: أما إنى على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عليّ من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت. ولما تقبل، وهي مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير، ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان[2]، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، ثم أنتم غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً، لا تضيعوهم عن الطريق، يا هادي الطريق جرت، إنما هو الفجر أو البجر[3] فقال له عبد الرحمن: حفظ الله عليك يرحمك الله فإن هذا يهيضك إلى ما بك، إنما الناس في أمرك رجلان: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل رأى ما لم تر فهو يشير عليك بما يعلم، وصاحبك كما تحب أو كما يحب، ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحاً مصلحاً مع أنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

ودخل بعض الصحابة على أبي بكر وقد علموا باستشارته في عمر، فقال أحدهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظ وأغلظ؟ فقال أبو بكر: أجلسوني فلما جلس، قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول:

---

(١) الأذربي: نسبة إلى أذربيجان، وهو صوف شديد النعومة.
(٢) حسك السعدان: نبات كثير الشوك.
(٣) البجر: الدهماء والمعنى في الفجر تبصر الطريق، وفي الظلمة تنزل بالمكروه.

اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم بعدي... وأخذته غشية قبل أن يسمي أحداً. فكتب عثمان، رضي الله عنه: إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب... ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يتمم فأملى عليه: فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم أمره فختم الكتاب وخرج به مختوماً، ومعه عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير. وأشرف أبو بكر على الناس من كوته فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر.

فأقروا بذلك جميعاً، ورضوا به، ثم بايعوا، فرفع أبو بكر: رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أول ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، فأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعيته، ثم دعاه فأوصاه.

وَصيَّـة أبي بَـكر
رضي الله عنه

قالت عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، قال: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، وابرأوا منه، فإني قد كنت أستحله، وأستصلحه جهدي.

وسأل عن يوم هذا فقيل له: الاثنين، قال: فأي يوم قبض رسول الله؟ فقيل الاثنين، وسأل عن كفن رسول الله فقيل له ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة. فقال أبو بكر: انظروا ملاءَتيَّ هاتين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما. فقيل له: قد رزق الله وأحسن نكفنك في جديد، قال: إن الحي هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميت، إنما يصير الميت إلى الصديد، وإلى البلى.

وقال: إن عمر لم يدعني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها، وهذا المبلغ هو مجموع ما أخذه من بيت المال مدة خلافته كراتب له أو كتعويض عن تركه التجارة، واشتغاله بأمور المسلمين وهي حق له.

إذن كانت وصية أبي بكر، رضي الله عنه، ما يلي:

١ ـ يرد ما عنده من مال إلى بيت مال المسلمين عن طريق الخليفة عمر بن الخطاب.

٢ ـ يرد بستان يملكه إلى بيت مال المسلمين عوضاً عما أخذه من بيت المال مدة خلافته.

٣ ـ أن يتصدق بمقدار خمس ما يملك من أرض العالية[١]، وما يبقى يقسم بين أولاده وهم:

عبد الرحمن.

محمد.

أسماء.

عائشة.

وما تضع حبيبة بنت خارجة، ويتوقع أن تكون أنثى. وقد أوصى بها أولاده خيراً. (وبالفعل فقد وضعت أنثى ـ وهي أم كلثوم ـ).

٤ ـ أن يكفن بثوبيه بعد غسلهما.

٥ ـ أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، وأن يدفن بجانب رسول الله ﷺ.

ولما مات أبو بكر أرسل أهله ما ترك إلى الخليفة، وإذا هي عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح يسنى عليه فيسقي بستاناً له، وجرد قطيفة... فلما تسلمها الخليفة عمر سالت دموعه، وقال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، ويردد هذه العبارة...

وأمر الغلام أن يرفع تلك التركة. فقال عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله! تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً، وبعيراً ناضحاً، وجرد قطيفة ما تساوي خمسة دراهم؟ قال: فماذا تأمر؟ قال: تردهن على عياله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق لا يكون هذا في ولايتي أبداً ولم يكن أبو بكر ليخرج منهن عند الموت، وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك.

---

(١) من أموال بني النضير، كانت من نصيبه بعد إجلاء بني النضير عنها.

أما البستان، فقد قال عمر فيه: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالة، وأنا ولي الأمر من بعده قد رددتها على عياله، ورفض أن يأخذ البستان.

واستمر مرض أبي بكر مدة خمسة عشر يوماً، ثم توفي يوم الاثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة.

وغسلته زوجه أسماء بنت عميس حسب وصيته، ودفن جانب رسول الله ﷺ، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل في قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن.

وجاء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوم وفاة أبي بكر فوقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناءً، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقاً، وخُلقاً، وهدياً، وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، صدقت رسول الله حين كذب الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقاً (والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون) يريد محمداً ويريدك، وكنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك كنت كالجبل الذي لا تحركه المواصف، ولا تزيله القواصف ـ كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك.

نظرة إلى المجتمع
أيام خليفة رسول الله

إن أول وأهم صفة يتميز بها المجتمع الإسلامي عدم وجود الطبقات فيه، فالناس كلهم متساوون كأسنان المشط الواحد، لا فرق فيه بين الأجناس أو الألوان بل وحتى بين العقائد من حيث الحقوق والواجبات، وهذه المساواة مساواة حقيقية تنبع من العقيدة التي مقرها القلب، وليست مساواة نظرية مدونة تنطلق من النظريات الفلسفية التي يقصد منها المزاودة والمتاجرة لتأمين المصالح والوصول إلى بعض الأغراض. وأعضاء المجتمع الإسلامي يحترم فيه الكبير، ويعطف بينهم على الصغير، ويحرص على تأمين الحاجات لأصحابها. ويعيش الناس كلهم ضمن أسرة واحدةٍ كبيرةٍ متعاونةٍ متكاتفةٍ متكاملةٍ، فالخليفة وهو يمثل رأس السلطة لا يعد أفضلهم أو أكرمهم أو له ميزات تجعله يختلف عمن سواه أو يتميز عن غيره، فهو لا يتميز عن بقية أفراد المجتمع في ركوبه، أو لباسه، أو طعامه، أو في سكنه واحتجابه عن رعاياه، كما ليست له صفة تجعله في طبقة خاصة هو وأسرته يستطيع من خلالها التسلط أو نيل حقوق لا يتمكن غيره من الحصول عليها. بل هو فرد عادي أوصلته إمكاناته، واستعداداته الفطرية، وإخلاصه في عمله، وتضحياته من أجل عقيدته للوصول إلى مركز قيادة الأمة وإدارة شؤونها، فهو يعيش بين أفراد المجتمع، يسير معهم في الشوارع، ويذهب معهم إلى السوق يبيع ويشتري ويساوم، وقد يكون بيته أكثر تواضعاً، وليس له بيت عام يعيش فيه، وأثناء ذهابه هذا، وفي وقت وجوده في السوق يعطي التعليمات لمن يراها ضرورية له، ويلاحظ مقدار انسجام معاملة الناس مع الشريعة الإسلامية، ويراقب إن كان هناك ذوو

حاجة، ويُسأل في الطريق عن بعض الموضوعات، ويلتقي مع الأفراد في الندوات، ويتبادل معهم الآراء، ويناقش في ضرورات الناس وحاجاتهم، وما تقتضيه ظروف الدولة، وأخبار الجهاد، وأنباء المقاتلين.

لقد كان خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب شياه الحي لأصحابها، وفي الليل يتفقد الناس، ويسهر على مصالحهم، وهم نيام، ويحرس طرقات المدينة عندما خلت من القوة بعد تسيير بعث أسامة بن زيد، رضي الله عنهما.

وقد انصرف الناس أيامه إلى قتال المرتدين، وإلى الفتوحات، وبقي في المدينة عدد من الصحابة أمثال: عمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وأسيد بن حضير وغيرهم، ولم يكن بقاء هؤلاء تقاعساً عن الجهاد ـ معاذ الله ـ. وإنما استبقاهم الخليفة لاستشارتهم والاستنارة بآرائهم إضافة إلى حماية المدينة فقد كانوا ـ كما رأينا ـ على أنقابها، وعلى صلة مستمرة بالمسلمين الذين كانوا في المسجد مع الخليفة على أهبة الاستعداد لكل طارئ، وعلى اتصال بالخليفة نفسه، ولم يكن هؤلاء مع جلالة قدرهم ليتميزوا عن بقية المسلمين، وإن كانوا يلقون كل احترام وتقدير من كافة المسلمين، وما ذلك إلا بسبب سابقتهم في الإسلام وصحبتهم المستمرة لرسول الله، وجهادهم الطويل في سبيل الله، وتضحيتهم من أجل الدعوة، ومع هذه النظرة التي ملؤها التوقير، واستشارة خليفة رسول الله لهم فلم يكن لهم أية ميزة، بل كان كل فرد من المجتمع يمكن أن يقاضيهم، وأن يقتص منهم فيما إذا أخطؤوا، وأن يرد عليهم، وليس بينهم وبين أي فرد من عامة الناس أي فرق.

أما المجاهدون الذين اندفعوا إلى القتال من تلقاء أنفسهم، إذ لم تكن هناك جندية إجبارية أو إكراه على الخروج، وإنما كان المسلمون يخرجون للجهاد في سبيل الله لنيل الشهادة أو إحراز النصر والدعوة في سبيل الله، يدفعهم إلى ذلك كله طلبهم لإرضاء الله بأداء مهمتهم في الحياة على الصورة المطلوبة.

لقد كان هؤلاء المجاهدون كتلة واحدة وإخوة حقيقيين بمعنى الأخوة الإيمانية، وقد وقعت حوادث كثيرة كان الرجل فيها يسرع ليتلقى الضربة عن أخيه يسبقه فيها إلى الشهادة حرصاً على أخيه، ودفاعاً عنه، وتفضيلاً له، وكان طعامهم واحداً ولباسهم يتشابه في البساطة لا يختلف في ذلك الأمير قائد الجيش والجندي الصغير، بل إذا قُدّم طعام لأمير كان يسأل هل أكل الجند جميعاً من هذا النوع؟ ولم تكن يده لتمتد قبل أن يتأكد أن جنده كافة قد حصلوا على ما ناله هو، وقد يكون قائد الجند اليوم، ويصبح غداً جندياً يقاتل تحت إمرة أحد جنده بالأمس، ولا يختلف الأمر عنده أبداً بين كونه قائداً أو جندياً، لا من حيث القتال فقط، وإنما من حيث احترام الأفراد له، ولكن تختلف طاعة الأفراد له، وتنفيذ الأوامر والسؤال في الخطة وأسلوب القتال.

ولم يكن الجندي في الثغور ليفكر في أهله أو بلده،، إذ أن أهله يعيشون بين أفراد مجتمعهم الذين هم إخوانهم، وهم يكفلونهم إضافة إلى العقيدة الراسخة التي تقضي أن يعتقد المرء أن الله هو وليهم في الدنيا والآخرة، ومن هذا المنطلق لم يفكروا في بلدهم، فإن لها حماتها، وهم المسؤولون عنها، وعمن يعيش فيها، والخليفة هو المسؤول الأول. أما الجند فكان همهم الجهاد ونشر الدعوة.

وتوزع الغنائم بالتساوي بين المشاة، وكذلك بين الفرسان، ومن قتل رجلاً فله سلبه، وما كان القتال والالتقاء حول الرايات حسب القبائل إلا لتمتاز بالشجاعة، ومحاولة عدم الهزيمة حتى لا تعير، وقد كان عباد بن بشر، رضي الله عنه، ينادي الأنصار يوم اليمامة أن يمتازوا عن غيرهم بالإقدام والحمل على الأعداء.

وأفراد المجتمع الذين يعيشون في المدن والقرى والبادية، ولم يخرجوا للقتال لضعفهم، وكلهم من النساء والأطفال والعجزة، ولا يعدّ الإنسان نفسه عاجزاً ما دام يستطيع حمل السلاح. وكم من رجل قد جاوز الثمانين فإذا دعا داعي الجهاد انخرط بين صفوف المقاتلين وراح يقلد

الشباب، وذلك لأن الجهاد غاية يسعى كل مقاتل للحصول عليها. وهؤلاء القعدة متعاونون بعضهم مع بعض الآخر حدود التعاون، وكل إنسان موجود بينهم يعدهم أهله، وهو مسؤول عنهم في كل شيء. وهم يشرون ويشترون بكل صدقٍ وأمانة، لا يوجد غش ولا خداع، ولا يعرف مكر ولا نزاع في أية قضية من القضايا ما دامت الشريعة تمنع هذا وتحاربه. وأعضاء هذا المجتمع متعاونون أشد أنواع التعاون، متكافلون، ولم تحدث هناك حوادث أخلاقية أو جرائم إذ أن تطبيق الحدود يحول دون استشراء الفساد بل على العكس يعمل على الحد منها، وما حدثت من حوادث أيام تطبيق الإسلام كلها سوى حوادث لا تصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.

والمرأة تؤدي دورها كاملاً، فهي تعرف حاجة الأمة وتلبي ذلك، بتربية الأولاد التربية الصالحة، وشحنهم بالإيمان الشحنة الكافية، والحياة مع الضرائر، إن تعددوا، حياة الأخوة الحقة، ومع الجوار تعيش عيشة الإخلاص والتضحية، تشارك في المواساة والتعزية،فتئن مع أنينهم، وتبكي لبكائهم، وكذا في المسرات فتضحك مع ابتسامة الحياة لهم، وتوحي إليهم بأعمالها أنها تسعد بحياتهم السعيدة.

الباب الثاني

عمر بن الخطّاب

رضي الله عنه

حياته في الجاهلية

عمر بن الخطاب من بني عدي، وهم بطن صغير من قريش، وقد عُرف أبو الخطاب بجلافة طبعه، وقسوة قلبه، فعرف بعذابه لابن أخيه زيد بن عمرو الذي أنكر على قريش عبادتهم للأصنام مع من أنكر أمثال ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث. إذ اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عليه ويدينون له، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وهم الذين ذكرناهم، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية، دين إبراهيم.

لقد همّ زيد بن عمرُو بالخروج من مكة يطلب دين إبراهيم إلا أن زوجه صفية بنت الحضرمي كانت له بالمرصاد، فكلما رأته تهيأ للخروج وأراده أعلمت عمه الخطاب بن نفيل فمنعه من الخروج، وهو الذي كان قد كلف صفية بذلك، وقال لها: إذا رأيتيه قد همّ بأمر فآذنيني به. ولم يدخل زيد في يهودية ولا نصرانية، ولكنه فارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وكان زيد يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم

أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته. وكان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد، قال: لبيك حقاً حقاً، تعبّداً ورقاً.

وكان الخطاب يعذب زيداً، ويعاتبه، ويلومه على مفارقة دين قومه، ويمنعه من الخروج، وكل هذا بمنتهى الشدة والجلافة، والقسوة وعدم الشفقة. وورث عمر عن أبيه هذه الطباع.

ولد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في السنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، فكان عمره يوم بعث رسول الله ﷺ تسعة وعشرين عاماً، واستمر بعدها على جاهليته مدة ست سنوات إذ معلوم أنه قد أسلم في السنة السادسة للبعثة، ثم دخل في الإسلام، وبذا يكون قد عاش في الجاهلية خمسة وثلاثين عاماً، وعاش ثلاثين عاماً في الإسلام.

عاش عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خمسةً وثلاثين عاماً في الجاهلية لم يكن له فيها مركز ولا شهرة، ولولا الإسلام لما اشتهر، ولما عرفه أحد بعد ذلك. قضى تلك المدة في الجاهلية، وعرف أنه كان سفير قريش بينها وبين القبائل الأخرى فيما إذا وقع بينها خلاف أو حدث قتال. ولم تكن هذه التسمية إلا صورة لأن قريشاً لم تكن قبيلة محاربة، ولم تعرف بالغزو والقتال، وإنما كانت قبيلة متحضرة تجارية يهمها الأمن والاستقرار حرصاً على قوافلها ومصلحة لتجارتها، وهي تعيش في حرمها آمنة مطمئنة... هذا إضافة إلى أن مركزها بين القبائل العربية الأخرى كان موضع الاحترام لا موضع الخصام والعناد لأنها تعيش في الحرم الآمن، وتحج القبائل إلى البيت الأول الذي فيه ذكر أبيهم إبراهيم وإسماعيل، وتؤدي المناسك، وقريش تقوم بسدانة البيت وحجابته، كما تقوم برفادة الحجاج وسقايتهم. وما وقع من حروب الفجار، واشتركت فيه قريش ومن معها من كنانة ضد قيس عيلان، وهو آخر ما وقع من حروب، فقد كان عمر، رضي الله عنه، آنذاك صغيراً لم يتجاوز التسع سنوات من العمر، وهذه آخر الحروب التي وقعت بين قريش وغيرها أيام عمر، وبالتالي لم تكن هناك من سفارات، أو أن عمر لم تكن له مهمة في قريش، فهو فرد عادي في المجتمع، وبالأحرى فهو عضو مهمل الذكر ضعيف الشأن،

شأنه في ذلك شأن أسرته القليلة الأهمية بين الأسر المعروفة آنذاك مثل بني عبد مناف، وبني مخزوم، وبني عبد الدار وغيرها، بل كان أقل أهمية من أسرته التي كان عضواً فيها، إذ أن المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش فيه يقوّم الرجال حسب مقاييس معينة واعتبارات محددة، ولعل أهم هذه المقاييس هو المال وعمر لا يملك إلا القليل منه، والقوة أيضاً أحد جوانب هذه المقاييس، والقوة تتعلق بالأسرة وكبرها، وكثرة أفرادها، وبنو عدي عدد قليل كما ذكرنا، وعمر لا يملك إلا أخاً واحداً أسن منه، وهو زيد، إضافة إلى صبية صغار. وليست هذه السفارة إلا أنه يمثل بطناً من بطون قريش.

ومات زيد بن عمرو ومات عمه الخطاب، وبقي عمر وجيه بني عدي، وسفير قريش، وطباعه الجلفة هي التي تميّزه، ويُعرف بها.

وشع نور الإسلام في مكة، وآمنت به جماعات من فئات شتى، وقبائل عدة، وكان من بني عدي أن آمن سعيد بن زيد، ابن عم عمر، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، ونُعيم بن عبد الله، من قوم عمر، وآخرون من بني عدي، أما عمر فلم يسلم، وتمسك بجاهليته تمسك الإِنسان الجلف الذي إذا اقتنع بشيء لا يمكن أن يغيّر أبداً إلا إذا اقتنع بشيء آخر ولن يكون هذا بسهولة. وإذا عمر قد ورث عن أبيه هذه الطباع الصعبة، إلا أنه قد أخذ عن خاله أبي جهل عمرو بن هشام معاداته الصريحة للإِسلام، والوقوف في وجهه، فأم عمر حنتمة بنت هشام، وهي أخت أبي جهل عمرو بن هشام، لذا فقد قسى على ابن عمه سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة قسوة كبيرة، كما قسا القسوة نفسها على شقيقته فاطمة إذ أسلما دون علمه.

كان رسول الله ﷺ يجمع المسلمين الاثنين والثلاثة والأربعة منهم في بيت من البيوت، ويرسل إليهم من يعلمهم مبادئ الإسلام ويقرئهم القرآن، وكان من جملة هذه الأسر، أسرة ضمت سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام رجل من قوم عمر، وكان خبّاب بن الأرت[1] يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام.

---

(١) **خبّاب بن الأرت**: رجل ينتسب إلى تميم، وقع في السبي، فاشترته أم أنمار بنت سباع =

شعر عمر بن الخطاب بالغضب الشديد، والأسى الكبير، عندما لاحظ تفرّق كلمة قريش بين مسلمها وكافرها، بعد أن وقف وجهاء قريش في وجه الدعوة، وحاولوا منعها. وبينما كان مرة في البيت إذ ذكروا له أن محمداً ﷺ يجتمع مع رهط من أصحابه الذين لم يهاجروا إلى الحبشة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وذلك في بيت عند الصفا فاشتد غضبه، فتوشح سيفه نحوهم، يريد إنهاء هذه المشكلة، ويقضي على ما حلّ في قريش من تفرقة، وانطلق يبدو على وجهه الغضب، والتقى بالطريق مع نُعيم بن عبد الله، وهو رجل من قومه، ومن الأسرة المسلمة التي يلتقي فيها سعيد بن زيد ابن عم عمر، وزوجه فاطمة أخت عمر... وسأل نعيم عمر، إلى أين يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، قال نعيم ذلك: خوفاً من انطلاق عمر إلى رسول الله، فلربما حدث ما يكره، ففضل أن ينال سعيد وزوجه فاطمة بعض الأذى وينجو محمد «عليه الصلاة والسلام»... ولم يقل ذلك كراهية بالإِسلام، إذ كان هو مسلماً، بل ومن الأسرة المسلمة التي تجمعه معهما، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهو يعرف رقة قلب عمر إن لم يكن مغضباً، ولم يثره أحد. وهكذا تغيّرت وجهة سير عمر، وكانت النتيجة أن تغيرت عقيدته ودخل في الإِسلام ـ كما سنرى ـ.

= الخزاعية، وأعتقته، فكان لذلك خزاعياً بالولاء، وكان أبوها حليفاً لبني زهرة، لذا نشأ زهرياً بالحلف، كان من أوائل الذين أسلموا، وتفقه في الدين، وتولى تعليم غيره، حضر المشاهد كلها. توفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد أن شهد مع علي صفين، والنهروان.

بَنو عـَدي بن كَعب

قوم عمر بن الخطاب

▭ الذين أَسلموا قبل اسلام عمر

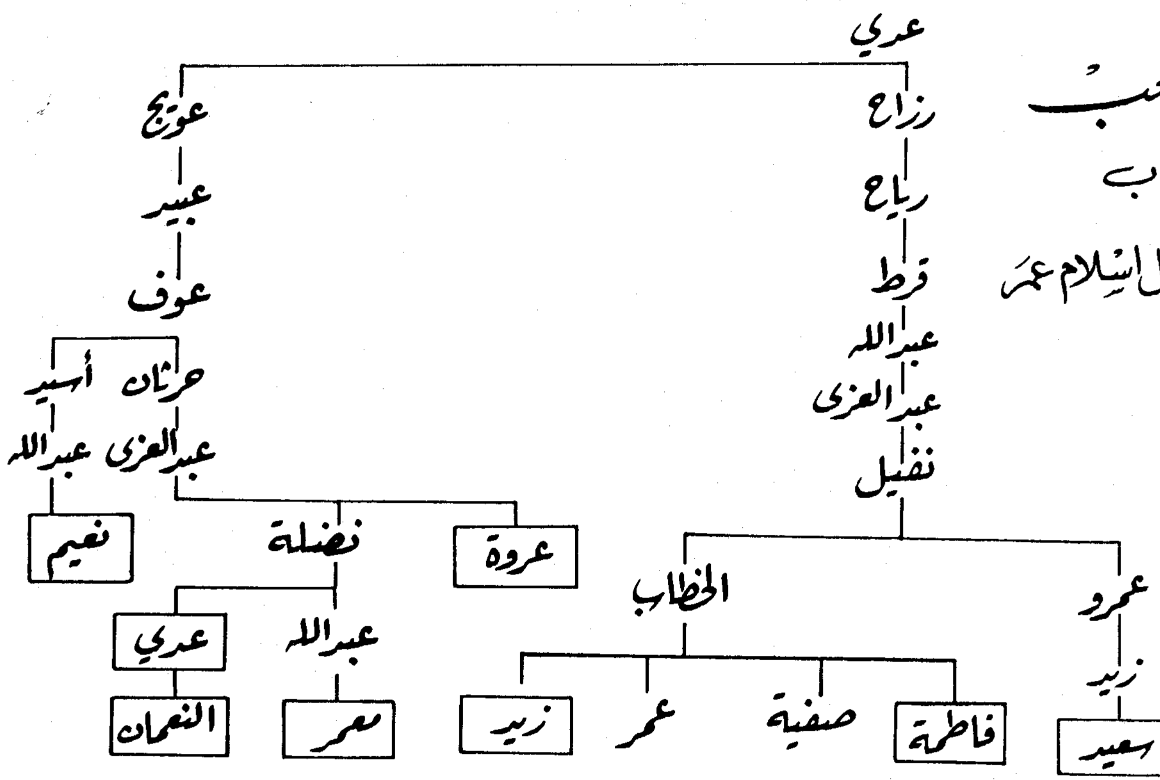

مع شدة عمر وجلافة طبعه كان رقيقاً طيب القلب، إذا لم توجه إليه كلمات تغضبه أو إذا لم تكن إثارة مباشرة له. فمع ما عرف من عناده للإسلام في جاهليته وشدة إيذائه للمؤمنين فإن قلبه كان يرق عليهم أحياناً، إذ عندما انطلق المهاجرون الأوائل إلى الحبشة، وكان فيهم عامر بن ربيعة، وهو من بني عدي بالحلف، ومعه زوجه ليلى (أم عبد الله) بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم، فمر عليهم عمر بن الخطاب، وهو على شركه، وكان عامر قد مضى لبعض حاجته، فوقف عمر على زوجة عامر، فقال لها: إنه للانطلاق يا أم عبد الله، قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قال: صحبكم الله، ورأت له رقة لم تكن تراها، لقد وجدت حزنه على خروجهم، فلما جاء عامر من حاجته قالت له، يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، فقال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، وذلك يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على المسلمين.

وتزوج عمر قبل الإسلام أربع نساء وهن:

١ ـ زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون: وقد أنجبت له: حفصة أم المؤمنين، التي تزوجت خنيس بن حذافة السهمي، فلما توفي عنها، تزوجها رسول الله ﷺ. كما أنجبت له عبد الرحمن الأكبر. وعبد الله الذي ولد في العاشرة قبل الهجرة.

٢ ـ سبيعة: ولم تنجب له.

٣ ـ أم كلثوم مليكة بنت عمرو الخزاعية: وقد ولدت له عبيد الله الذي يعد من شجعان قريش، وهو الذي قتل الهرمزان الذي اتهم مع أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة بقتل أبيه الخليفة عمر بن الخطاب، وانجبت له أيضاً زيد الأصغر، وحضر عبيد الله صفين مع معاوية، وقتل يومذاك.

٤ ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومية: وهي أخت أم المؤمنين أم سلمة، ولم تنجب له أيضاً.

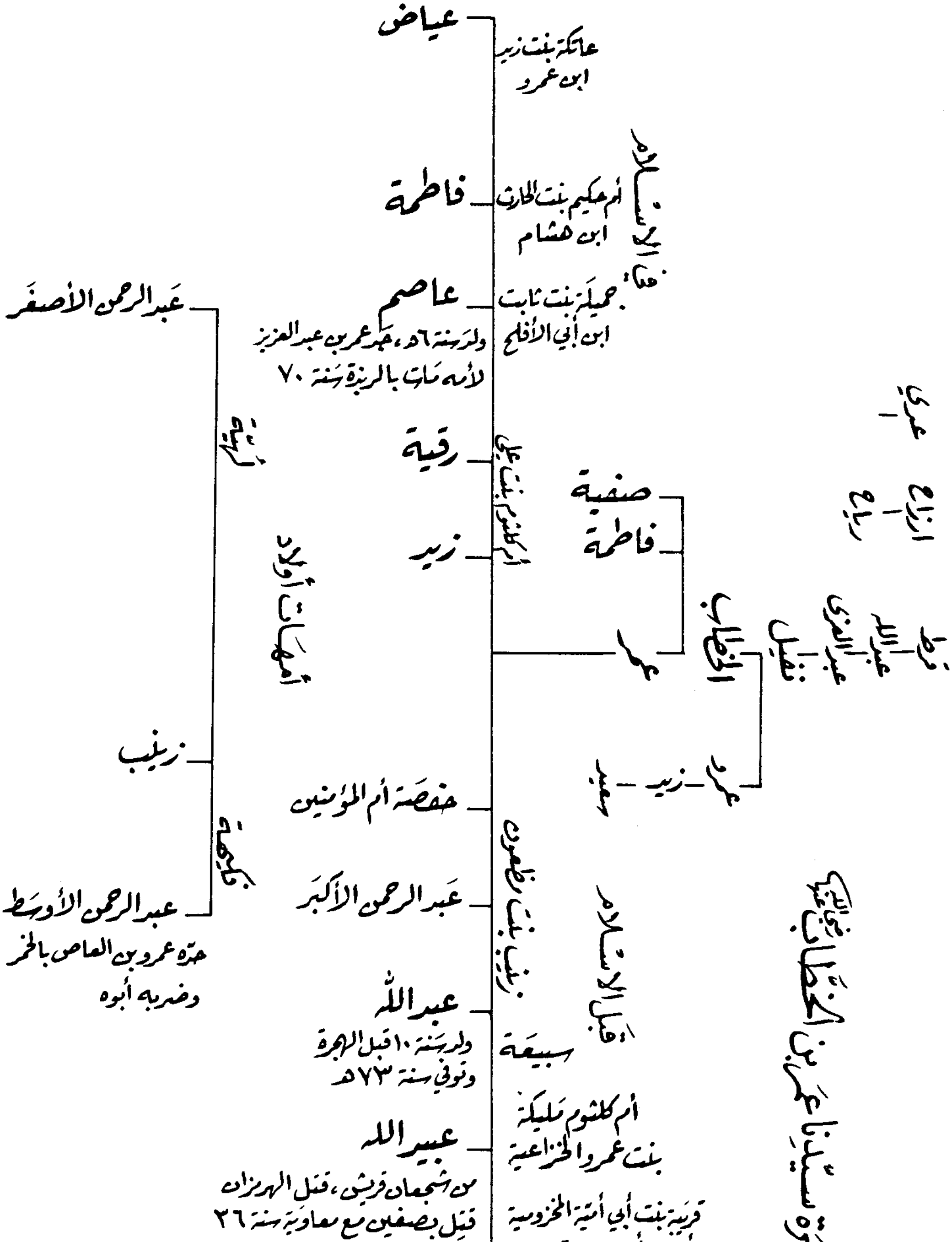

أسرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه
عدي
رياح
عبد الله
قرط
عبد العزى
نفيل
الخطاب
عمر
زيد
سعيد
صفية
فاطمة
عمر
أهل الإسلام
قبل الإسلام
عاتكة بنت زيد ابن عمرو
عياض
أم حكيم بنت الحارث ابن هشام
فاطمة
جميلة بنت ثابت ابن أبي الأفلح
عاصم
ولد سنة ٦هـ، جد عمر بن عبد العزيز لأمه مات بالربذة سنة ٧٠
أم كلثوم بنت علي
رقية
زيد
أمهات أولاد
عبد الرحمن الأصغر
أمية
زينب
فكيهة
عبد الرحمن الأوسط
حده عمرو بن العاص بالخمر وضربه أبوه
زينب بنت مظعون
حفصة أم المؤمنين
عبد الرحمن الأكبر
عبد الله
ولد سنة ١٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ٧٣هـ
سبيعة
أم كلثوم مليكة بنت عمرو الخزاعية
عبيد الله
من شجعان قريش، قتل الهرمزان قتل بصفين مع معاوية سنة ٣٦
قريبة بنت أبي أمية المخزومية أخت أم سلمة.

حياتـه في الإسـلام

اتجه عمر بن الخطاب إلى ابن عمه سعيد بن زيد، وإلى أخته فاطمة يرى شيئاً عن إسلامهما بعد ما ذكر له نُعيم بن عبد الله ما ذكر، وكان عندهما خبّاب بن الأرت، ومعه صحيفة فيها (سورة طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيّب خبّاب في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما، فلما دخل، قال: ما هذه الهمهمة (الصوت الخفيف الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم وندم على ما صنع، ورجع، وقال لأخته وقد رقّ قلبه، أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، انظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذ قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، ولا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة طه. فقرأها، فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خبّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإِسلام بأبي الحكم عمرو بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على

محمد ﷺ حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فاذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له؛ فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذه بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لاؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم.

ويروى عن إسلام عمر أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني، قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه استمع منه لأروِّعنّه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ يصلي يقرأ القرآن، حتى

قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه حتى يجزع(١) المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهري، ثم دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ في دار الرقطاء، التي كانت بيد معاوية بن أبي سفيان. قال عمر، رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأوذيه، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

ويروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لما أسلم قال: أيّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ فما راجعه حتى قام يجرّ رداءه، واتبعه عمر، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر من خلفه كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وأعياه التعب، فقعد وقاموا على رأسه، فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا، وبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حُلّة حِبْرة، وقميص

---

(١) يجزع: يقطع.

موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلوا عن الرجل. قال عبد الله بن عمر: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك؟ جزاه الله خيراً. قال يا بني، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيراً.

ويروى أن عمر كان يقول: لمّا أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل. قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه. قال: فخرج إليّ أبو جهل، قال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدّقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: وقبّح ما جئت به.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول أيضاً: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

ويروى أن عمر بن الخطاب لما أسلم قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قا ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق، إن متم إن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن، وكان الرسول على ما يبدو قد رأى أنه قد آن الأوان للإعلان، وأن الدعوة التي كانت كالوليد الضعيف الذي لا بدّ له من الرعاية والحفظ، قد غدت قوية تمشي وتستطيع أن تدفع عن نفسها، فأذن بالإعلان وخرج ﷺ في صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر،

ولهم كدير ككدير الطحين، حتى دخل المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها قط، وسماه رسول الله ﷺ يومئذٍ الفاروق.

إلا أن عمر لم يكن يجرؤ أحد من قريش على إيذائه، بينما يصيب الأذى المسلمين الآخرين، ولعل هذا كان من أكثر ما يزعج عمر، فكان يقول: لا أحب إلا أن يصيبني ما أصاب المسلمين. لذا كان يتعرض لرؤوس الكفر، ويعلن أمامهم إسلامه، بل يذهب إلى بيوتهم، ويطرق أبوابهم ليخبرهم بنبأ إسلامه، علهم يقومون بشيء ضده، فيناله ما ينال إخوانه المسلمين، ويستطيع في الوقت نفسه أن ينتقم من تلك الرؤوس. ولم يرد عمر أبداً أن يكون في نعمة ليست للمسلمين، فيكون هو في عافية وراحة وهم في إيذاء وتعب. وعندما أعلن إسلامه، وبدأت قريش تقاتله وثب على عتبة بن ربيعة، فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل إصبعه في عينه، فجعل عتبة يصيح، الأمر الذي جعل الناس يتنحون عن عمر، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، حتى أحجم الناس عنه.

واشتد أذى قريش على المسلمين، وكان قد انتشر الإسلام في يثرب، فطلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يهاجروا إلى إخوانهم في المدينة، وابتدأت وفود المسلمين تترك مكة متجهة إلى المدينة وكلها متخفية في هجرتها وانتقالها، إلا هجرة عمر، فقد روي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلّد سيفه وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف في البيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذا المعاطس، من أراد أن يثكّل أمه، أو يوتّم ولده، أو يرمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي، رضي الله عنه: فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ثم مضى لوجهه.

وكان لما عزم على الهجرة قد أخبر صديقيه عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص، واتفقوا على الصحبة على أن يجتمعوا في منازل غفار على عشرة أميال من مكة، فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا، فجاء عمر، وعياش، وحُبس هشام في مكة، وفُتن عن دينه، فواصلا حتى وصلا قباء، فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر فلحقهما أبو جهل عمرو بن هشام، وأخوه الحارث بن هشام، وهما أخوال عمر، وأبناء عمّ عياش وأخواه لأمه، أما عمر فلم يخاطباه لما يعلمان من شدته في الحق وصلابته، أما عياش فقد قالا له: إن أمك قد نذرت ألا يظلها سقف، ولا يمسّ رأسها دهن حتى تراك، فاستشار عمر، فأجابه: والله ما أرادا إلا ردك عن دينك، فاحذرهما ولا تذهب، فوالله لو آذى أمك القمل لادهنت وامتشطت، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت: إلا أن عياشاً قد مال إلى الذهاب معهما، فبدأ يوجد المبررات لنفسه، فقال: إن لي بمكة مالاً لعلي آخذه فيكون قوة للمسلمين، وأكون قد بررت قسم أمي.

فقال عمر: إنك لتعلم إني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. فأبى عياش إلا أن يخرج معهما، فلما أبى، قال له: أما إذا قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فلما كان بضجنان[1] قال أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك؟ قال عياش: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه رباطاً، حتى دخلا به مكة، فقالا: كذا يا أهل مكة فافعلوا بسفهائكم. ثم حبسوه.

ولبث عمر عند رفاعة بن عبد المنذر حتى لحق به أهله وقومه: أخوه زيد بن الخطاب، وابن عمه سعيد بن زيد، وخنيس بن حذافة السهمي صهره زوج ابنته حفصة، وواقد بن عبد الله حليف لهم. ثم قدموا المدينة.

ولكن عمر بقي يذكر صديقيه، ويتمنى لهما الخلاص من ظلمة

---

(١) ضجنان: جبل إلى الشمال من مكة على ٤٠ كيلاً منها.

الكفر، ومن ربقة الأسر، حتى أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد ليخلّص عيّاشاً، وقد استعمل الوليد الحيلة والقوة حتى أنقذ عيّاشاً ومعه سلمة بن هشام وعاد بهما إلى المدينة.

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من الصحابة الذين يستشيرهم رسول الله ﷺ فيما يعرض له من مشكلات، ولربما نزل الوحي بما يؤيد رأي عمر. ويعد عمر الصحابي الثاني بين المسلمين بعد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان فيها من الرجال المعدودين بالقوة وشدة البأس، ومن الذين يقفون بجانب رسول الله ﷺ يدافعون عنه، ويحمونه من الأعداء كأبي بكر، ولم يكن من الذين يجولون في الميدان. وكان يتقيد بأوامر رسول الله ﷺ حزفياً، ولم يحاول أن يجتهد، ويفسر الأمر من عنده.

وكان يؤثر رغبة رسول الله ﷺ على هوى نفسه، فقد فرح بإسلام العباس بن عبد المطلب عم رسول الله يوم أسلم أكثر من فرحه بإسلام أبيه الخطاب لو أسلم، وذلك لأن إسلام العباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

سار رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى بدر للتعرض لعير أبي سفيان، إلا أن القافلة قد نجت، ولكن كان لا بدّ من اللقاء مع جيش مكة الذي خرج لإنقاذ القافلة وتأديب المسلمين على حد زعم رؤوس الكفر آنذاك، فأراد رسول الله ﷺ أن يستشير المسلمين وبخاصة الأنصار الذين كانوا يشكلون أكثرية المسلمين، فوقف أبو بكر فتكلم فأحسن، وتكلم عمر فأجاد، وتكلم المقداد بن عمرو فأحسن، وكان رسول الله يقول في كل مرة أشيروا عليّ أيها القوم حتى وقف سعد بن معاذ، رضي الله عنه وقال: كأنك تريدنا يا رسول الله فقال: أجل فتكلم رضي الله عنه فأحسن وأعلن الاستعداد لخوض المعركة.

وكانت إرادة الله في اللقاء، وكانت غزوة بدر الكبرى، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، ولم يرد العير التي لا يؤدي أخذها إلى

شيء ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾[1].

وكانت نتيجة المعركة أن انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً على الرغم من قلة عددهم التي لا تصل إلى ثلث عدد الكفار، هذا بالإضافة إلى قلة الاستعدادات المادية والمعنوية، إذ كانوا قد خرجوا للقاء القافلة وليس للحرب، كما أن سلاحهم قليل، وركابهم أقل، ودروعهم وطعامهم كله غير كاف. وترك المشركون نتيجة المعركة سبعين قتيلاً من صناديد قريش ورؤوس الكفر فيهم، وراح مثلهم أسرى بيد المسلمين من وجهاء القوم.

وكانت هذه أول معركة تدور رحاها بين الإسلام والكفر، وتميزت من أول المطاف أن العقيدة هي الرابطة الوحيدة التي تربط الناس بعضهم إلى بعض، وهي الوشيجة القوية بين المسلمين، وليس هناك من مهادنة مع الكفر مهما كان نوعه. وقد قتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في هذه المعركة خاله العاص بن هشام ضارباً بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة، بل كان يفخر في ذلك تأكيداً لهذه الفكرة، ومرّ يوماً عمر بسعيد بن العاص، فوجد منه إعراضاً فقال له: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن إني قتلت أباك في بدر، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور فحدت عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله.

وساق المسلمون أمامهم سبعين أسيراً منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، ومنهم عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول الله، وقد شاور

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥ ـ ٨.

رسول الله أصحابه فيما يفعل بالأسرى، وكان ممن استشار أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن رواحة، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم فدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يُعلم أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار، هؤلاء صناديدهم، وقادتهم، وأئمتهم، وأيد عمر كل من علي، وعبد الله بن رواحة. وسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم. ودخل بيته. ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. ومثلك مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4]، ثم قال رسول الله ﷺ أنتم عالة، فلا يطلقن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما أن كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذ هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال النبي ﷺ: الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عُرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة)،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٣) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) سورة يونس: الآية ٨٨.

وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾[١]، ثم أنزل الله بعد ذلك آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٢].

وكان من بين الأسرى خطيب قريش سهيل بن عمرو، فقال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنتزع ثنيتي سهيل بن عمرو فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وإن عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه (وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ همّ عدد من أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، حتى خافهم والي مكة عتّاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ، وقال: (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس عن رأيهم).

وكان من بين أسرى قريش يوم بدر وهب بن عمير بن وهب الجمحي، وكان أبوه عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، وجلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان صفوان بن أمية مفجوعاً بأبيه أمية بن خلف وأهله الذين قتلوا يوم بدر مع المشركين، وتحدثا عن قتلى بدر والأسرى، فقال صفوان: والله ما لنا في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لو لا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم. فاستغل صفوان ذلك وقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك. وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم. قال له عمير: فاكتم شأني وشأنك. قال أفعل.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨. (٢) سورة محمد: الآية ٤.

وكان عمر بن الخطاب في المدينة في مجلس قرب المسجد يتحدثون عن بدر وما أكرم الله عباده المؤمنين، وبينما هم كذلك إذ نظر عمر فرأى عميراً متوشحاً سيفه، وقد أناخ راحلته أمام المسجد، فقال: هذا الكلب، عدو الله، عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر وهو الذي حرّش بيننا وحَزَرَنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله، عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله عليّ. فأقبل عمر إلى عمير، وقيّده بحمالة سيفه، وطلب من بعض الأنصار أن يكونوا معه، خوفاً على رسول الله من هذا الشيطان فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله مقيداً قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير! فدنا عمير وقال أنعموا صباحاً: فقال رسول الله، ﷺ، قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير بالسلام ـ تحية أهل الجنة فقال: أما والله يا محمد وإن كنت بها لحديث عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك! قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله. قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هو هداني للإِسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

واستدر عام من بدر، وكانت غزوة أحد، وأصاب المسلمين ما أصابهم بعد نصر، وثبت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مع من ثبت، وذاد عن رسول الله مع من ذاد، ولما انتهت الغزوة، وأراد قائد المشركين أبو سفيان الانصراف وقف على مرتفع ثم صرخ بأعلى صوته أفيكم محمد؟

فقال ﷺ: (لا تجيبوه) ثم سأل ثانية وثالثة فلم يجيبوه ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، قالها ثلاثاً، ثم قال أفيكم ابن الخطاب قالها ثلاثاً فلم يجيبوه أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يتمالك عمر نفسه أن قال كذبت يا عدو الله. إنا أحياء ولك منا يوم سوء. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، اعل هبل، فقال عمر: اسمع يا رسول الله ما يقول عدو الله! فقال رسول الله ﷺ لعمر: قل، الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: هلم يا عمر، فقال النبي لعمر: ائته فانظر ما شأنه. فجاءه. فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال: أنت أصدق من ابن قمئة (الذي زعم أنه قتل محمداً، على حين كان قد قتل مصعب بن عمير، رضي الله عنه).

وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى بني المصطلق الذين تجمعوا يريدون غزو المدينة، فانطلق إليهم رسول الله قبل أن ينهوا استعدادهم، فالتقوا على ماء (المريسيغ)، وانتصر رسول الله على بني المصطلق، وأخذ جلهم أسرى، واستاق شياههم، وأنعامهم، وذراريهم. وبينما كان المسلمون على ذلك الماء إذ ازدحم عليه أجير عمر وهو جهجاه من بني غفار، وسنان الجهني حليف الخزرج، واقتتلا فنادى سنان يا معشر الأنصار، ونادى جهجاه يا معشر المهاجرين! ووصل الخبر إلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وكان في جماعة من الخزرج بينهم غلام صغير يدعى زيد بن أرقم، فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أمرنا وجلابيب قريش هذه، إلا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل، ثم التفت إلى قومه الذين كانوا معه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. وعندما سمع ذلك الفتى الحدث المؤمن هذا الكلام من عبد الله بن أبي انطلق إلى رسول الله ﷺ، ونقل إليه مقالة ابن أبيّ، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله، فقال عمر: مُر عبّاد بن

بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا. ولكن أذّن بالرحيل. وصار الخزرج قوم ابن أبيّ هم الذين يعاتبونه ويعنفونه على مقالته تلك. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب بعدما حدث من تعنيف الناس لعبد الله بن أبيّ: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لارعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

وأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في سرية تضم ثلاثين مقاتلاً، ووجهها إلى (تربة) في الجنوب الشرقي من مكة، وهي بلدة تقع على وادٍ يحمل اسمها، حيث تجمعت هوازن هناك للنيل من المسلمين، فسار عمر، وكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل يرشده على الطريق، فلما وصل إلى هدفه وجد عدوه قد ابتعدوا بمواشيهم وأموالهم، فرجع إلى المدينة، وأثناء عودته قال له الدليل: هل لك في تجمع آخر من خثعم. فلم يرض عمر وقال: لم يأمرني رسول الله بذلك، وإنما أمرني بقتال هوازن.

وسار رسول الله ﷺ بأصحابه من المدينة إلى مكة يريد زيارة البيت وتعظيمه، إلاّ أن قريشاً قد وقفت في وجهه في الحديبية ومنعته من ذلك، وظنت أنما جاء مقاتلاً، كما خشيت أن تسمع العرب بذلك فتقل هيبتها وتقوى سمعة المسلمين. وأراد رسول الله ﷺ أن يبعث رسولاً له إلى قريش يعلمها أنه إنما جاء زائراً للبيت ومعظماً له، ووقع اختياره على عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله إن أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فأرسل رسول الله عثمان، وجرت مباحثات ـ كما مرّ معنا في السيرة ـ وأخيراً جرى الصلح بين الطرفين، ولم يبق إلا كتابة ما اتفقوا عليه، فجاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولم يرق له الصلح، أو لم يفهم بُعده، فقال: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال:

بلى، قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال أبو بكر يا ابن الخطاب! إنه رسول الله، ولم يضيعه الله أبداً. وكان عمر قد ذهب إلى رسول الله، وسأله الأسئلة نفسها، فكانت الأجوبة نفسها تقريباً، ثم أنزل الله سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر. فقال عمر: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم. يقول عمر بعد ذلك. فما زلت أتصدق، وأصلي، وأصوم، وأعتق مخافة كلامي هذا الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً، وبينما كان رسول الله ﷺ يملي على علي بن أبي طالب نصوص الصلح، وسهيل بن عمرو مندوب قريش يراجعه في الصيغة، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه يضربه على وجهه، ويقول: يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك، إذ كان من شروط الصلح أنه إن جاء إلى رسول الله رجلاً من قريش مسلماً دون إذن أهله فعليه أن يرجعه... ولم تكن بنود الصلح قد انتهت كتابتها إلا أنه قد اتفق مشافهة على بنودها، ويقصد سهيل أن أبا جندل قد جاء مسلماً ودون إذن، فعلى المسلمين أن يرجعوه إلى قريش. أما أبو جندل فكان يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ ولقد أثار هذا الصراخ المسلمين ووقعوا في أمر عظيم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ولا نغدر بهم. أما عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد وثب يسير مع أبي جندل ويحرضه ضمناً على قتل أبيه، ويقرب منه السيف، ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب... إلا أن أبا جندل لم ينتبه إلى هذه القضية، إذ كان يعيش مع نفسه فيما آل إليه أمره أو أنه لم يقس على أبيه فتطاوعه نفسه بقتله. وكتب الصلح وشهد عمر بن الخطاب على الصلح مع من شهد من المسلمين ومن أعدائهم.

ونقضت قريش صلح الحديبية، وغدرت بالمسلمين، إذا دعمت حلفاءها بني بكر على حلفاء المسلمين بني خزاعة الأمر الذي جعل بُدَيل بن ورقاء الخزاعي ينتقل إلى المدينة، ويلتقي برسول الله ﷺ، يستنصره على قريش، ويشرح له غدر قريش بقومه. وشعرت قريش بالأمر، فأرسلت أبا سفيان ممثلاً عنها يجدد صلح الحديبية، ويؤكد تمسك قريش، ويزيد في مدته إن استطاع. وسار أبو سفيان إلى المدينة، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، ورغب أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ إلا أن أم المؤمنين قد طوته عنه، فقال لها أبوها أبو سفيان: يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. وخرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ وكلمه فلم يرد عليه بشيء، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله. فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعنده فاطمة، رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ وعندهما ولدهما الحسن، رضي الله عنه، يدبّ بين يديهما، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن لما جئت خائباً فاشفع لي عند رسول الله، فقال علي: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد! هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس. وما يجير أحد على رسول الله. قال يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعرف لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، ففعل.

وعمد المسلمون بإمرة رسول الله إلى السير إلى مكة لفتحها، وساروا حتى أضحوا على مقربة منها حيث عسكروا هناك، ونظر العباس إلى قوة المسلمين، وكان قد أسلم، ورغب في نفسه أن يأتي أهل مكة يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عليها عنوةً، وإذ بصوت أبي سفيان فأخذه العباس وأردفه وراءه على بغلة رسول الله، وكان كلما مرّ على نار سأله عن أهلها حتى إذا وصل إلى نار عمر بن الخطاب رآه فأراد أن يقتل أبا سفيان إلا أن العباس قد أسرع بالبغلة فوصل إلى رسول الله ﷺ قبل وصول عمر إليه، فلما وصل عمر إلى رسول الله قال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته. وألح عمر في شأن أبي سفيان، فقال العباس: مهلاً يا عمر، لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، أو لكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

وتقدمت قوافل المسلمين نحو مكة، وكانت راية الأنصار بيد سعد بن عبادة، فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، وسمع عمر بن الخطاب ذلك، فأسرع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها.

ودخل المسلمون مكة، والتقى رسول الله ﷺ بقريش، وعفا عنهم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، والتقى بالرجال فبايعهم، فلما انتهى من مبايعتهم، اجتمعت إليه نساء من قريش، فبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف. وكانت بين النساء هند بنت

عتبة زوجة أبي سفيان، وتناقش رسول الله، وكان عمر حاضراً، ويضحك من مناقشتها، ثم قال رسول الله لعمر: بايعهنّ، واستغفر لهن رسول الله. فبايعهن عمر.

وعندما عرض رسول الله ﷺ الإِسلام على أبي سفيان، فقال: كيف أصنع بالعزى، فسمعه عمر، رضي الله عنه، فقال له: تخرأ عليها.

وانطلق رسول الله ﷺ بعد فتح مكة إلى حنين لمداهمة هوازن وثقيف ومن والاهما، وقد اجتمعوا للهجوم على المسلمين قبل أن يشتد ساعدهم على حدّ زعمهم، إلا أن هوازن وجموعها قد كمنت للمسلمين وفاجأتهم، وكانوا قد أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً، ففروا، وولوا مدبرين، وثبت حول رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث.

وجاء في فتح الباري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن يحيى عن عبيد بن حنين أنه سمع ابن عباس، رضي الله عنهما، يحدث أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة، وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به. قال: ثم قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسّم لهن ما قسم، قال: فبينما أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولم ها هنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام

عمر فأخذ رداءه، وانطلق حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسول الله ﷺ. يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها ـ يريد عائشة ـ قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه. فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. فقلت: رغم أنف حفصة، وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت حتى جئت، فإذا رسول الله ﷺ في مَشْرُبَةٍ له يرقى عليها بعجلة، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة، فقلت له: قل: هذا عمر بن الخطاب. فأذن لي. قال عمر: فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مصبوراً، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟

وتوفي رسول الله ﷺ، وقد مر معنا في بحث أبي بكر، رضي الله عنه، موقف الصديق رضي الله عنه المستشار له، واليد اليمنى له، والمشارك له في تسيير شؤون الدولة، ثم استخلفه من بعده.

وتزوج عمر في الإسلام ابنة عمه عاتكة بنت زيد بن عمرو، وأنجبت له عياضاً. كما تزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية، وكانت

تحت عكرمة بن أبي جهل، وأولدها عمر فاطمة. كما تزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وهي أخت عاصم، وأنجبت له عاصماً وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، وقد ولد في السنة السادسة، ومات بالربذة عام ٧٠هـ. ثم تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكان له منها زيد، ورقية. وكانت عنده فكيهة، وأنجب منها زينب وعبد الرحمن الأوسط، ولهيّة وولدت عبد الرحمن الأصغر.

ولم يعرف عن عمر أنه بكى في الجاهلية إلا أنه في الإسلام أصبح رقيق القلب شديد العاطفة كثير البكاء، إذ كان يبكي كلما قرأ أو سمع آيات التخويف والوعيد في القرآن الكريم، كما كان يبكي كلما رأى شظف الحياة التي يحياها رسول الله ﷺ، وإذا ذكّر بالله أو قرئ أمامه وكان على درجة من الغضب لا يلبث أن يبكي ويرق قلبه.

وكان صاحب خمر في الجاهلية إلا أنه في الإسلام كان يتمنى دائماً أن تحرم الخمرة ويتنزل الوحي في تحريمها، وكان يصرح بهذا الرأي، ويكثر في رغبته تلك، وعندما أنزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1] لم يرض عمر كلياً، وبقي يتمنى تحريماً كلياً، ويسأل الله تعالى أن يبين أمر الخمر بياناً شافياً، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾[2]، وهنا طابت نفس عمر.

وكذلك كان موقفه من الحجاب، فكان يتمنى أن يفرض الحجاب وبخاصةٍ على نساء النبي، وكلم رسول الله ﷺ في ذلك، وطابت نفس عمر كذلك عندما نزلت آيات الحجاب.

وتوفي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وجاء ابنه يسأل

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

النبي ﷺ أن يصلي عليه، فأجابه النبي إلى ما أراد، وذهب رسول الله، وصلى على ابن أبي، إلا أن عمر راجعه وجادله، ثم جاء الوحي مطابقاً لرأي عمر، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

وكما كان مع رسول الله ﷺ في مراجعة له في أمور كثيرة، فقد كان كذلك يراجع أبا بكر، ونراه كيف كان يلح في عزل خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص عن الإمارة، وعندما تولى الأمر أسرع فعزل خالداً وأعطى الإمرة لأبي عبيدة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٤.

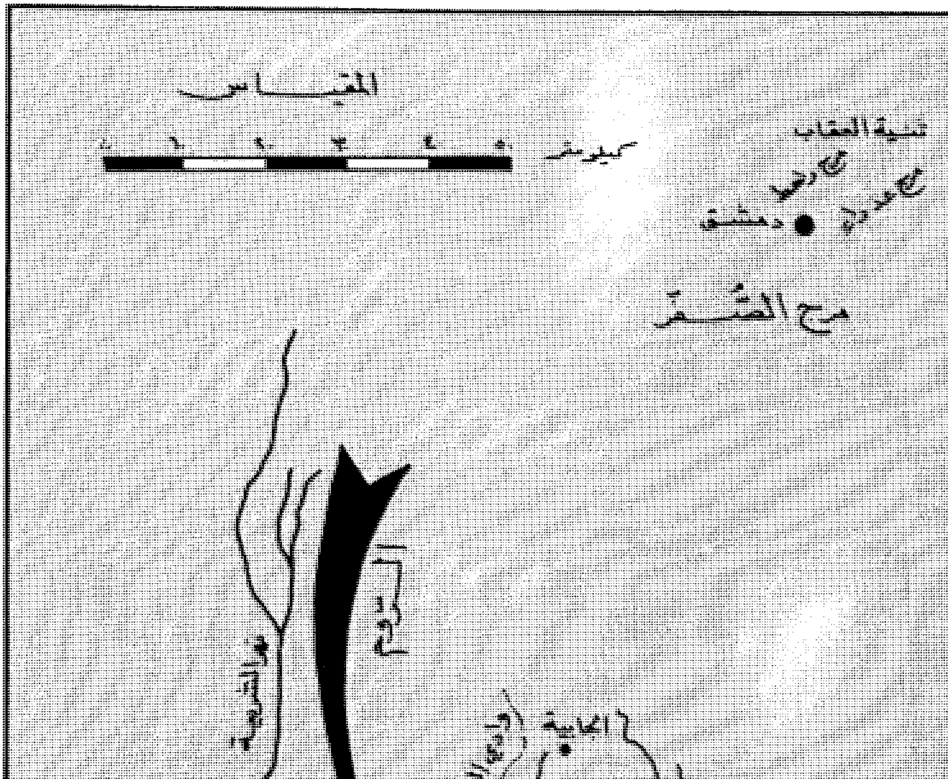
المقياس
كيلومتر
ثنية العقاب
مرج راهط
مرج عدراء
دمشق
مرج الصفر
الروم
الجابية
نوى
درعا
بحيرة طبرية
طبرية
الواقوصة
نهر اليرموك
نهر الأردن
فحل
بيسان

الفتوحات في عهد عمر

يبدو أن القيادة الإسلامية في المدينة المنورة بعد أن انتهت من حروب الردة، وقررت مواجهة الدولتين العظميين آنذاك، كانت الخطة الموضوعة أن تفتح المعركة بكل ثقلها على جبهة، وتقوم بدور الدفاع على الجبهة الثانية، وتعتمد على سرعة الحركة بالانتقال من جبهة إلى أخرى حيث تبقى الدولتان في ذعر شديد، وضعف معنوي كبير يحول دون التفاهم بينهما، إذ تستمر المعركة قائمة على الجبهتين معاً حيث تخاف كل دولة على وجودها فلا تحرص أن تتفق الواحدة مع الأخرى، وإزالة ما كان بينهما من آثار الحرب.

ومع انتهاء حروب الردة كانت الدولة الفارسية هي التي تشكل الخطر الأكبر بالنسبة إلى المسلمين إذ كان الفرس يدعمون المرتدين، ويحاولون إن استطاعوا القضاء على المسلمين، ويمدون كل متنبئٍ كذابٍ، أو مرتدٍ خارجٍ على الحكم بكل ما يمكنهم دعمه، لذا كانت الخطة البدء بالقتال على الجبهة الفارسية، لذا وافقت قيادة المدينة المنورة على طلب المثنى بن حارثة الشيباني بالتحرش بالفرس ومنازلتهم. وعندما انتهى خالد بن الوليد من حروب الردة طلبت منه القيادة التوجه إلى العراق لدعم المثنى بن حارثة، كما طلبت ذلك من عياض بن غنم، وأعطته قوة يتحرك بها نحو شمالي العراق.

استطاع خالد بن الوليد أن ينتصر على الفرس، وأن يجول بأرض العراق، وأن تجوس خيله منطقة السواد وجزءاً من أرض الجزيرة، هذا بالإضافة إلى مناطق غربي الفرات، وهذا ما جعل الفرس يشعرون بقوة

الجيش الإسلامي وإمكاناته القتالية والتعبوية ـ على عكس ما كانوا يظنون ـ الأمر الذي جعلهم يستعدون الاستعداد الكبير للمعركة الحاسمة المقبلة، وحشد الجنود لذلك. وفي هذا الوقت كانت القوة الإسلامية على الجبهة الرومية تقوم بالدفاع فقط حيث كان خالد بن سعيد بن العاص يرابط بقواته قرب مناطق سيطرة الروم والقبائل العربية المتنصّرة المتحالفة مع الروم. ثم جهز الخليفة الصديق الجيوش وأرسلها إلى الشام ـ كما رأينا ـ إلا أن الروم كانوا يستعدون لذلك، ويتوقعون حرباً عامة شاملة، لذا فقد جمعوا أعداداً كبيرة، وبعثوها باتجاه الجيوش الإسلامية الأربعة، كما نقل هرقل مقر قيادته إلى حمص لتكون على مقربة من ساحة المعركة، ولما رأى المسلمون ذلك طلبوا المدد من المدينة والدعم، وكان على القيادة الإسلامية أن تنقل المعركة الرئيسية من العراق إلى الشام إذ كان الفرس في حالة من الضعف بعد الهزيمة التي منوا بها، وهم بحاجةٍ إلى مدة للاستعداد والتفاهم على الحكم بعد الخلاف الواقع بينهم، لذا طلب الخليفة من خالد بن الوليد أن ينتقل بمن معه من الجند الذين كانوا معه في نجد، والذين جاءوه دعماً من المدينة واليمن إلى الشام لدعم المسلمين هناك.

انتقل خالد بن الوليد إلى الشام وجرت معركة اليرموك بين الروم والمسلمين، وكانت معركة حاسمة، ولم تبدأ حتى كانت الخلافة قد آلت إلى عمر بن الخطاب، وبعد انتهاء المعركة كان استعداد الفرس قد تم، واتفاقهم قد حصل بعد اختلاف، وقرروا تصعيد القتال ضد المسلمين، الأمر الذي جعل القيادة الإسلامية في المدينة تطلب من القيادة العسكرية في الشام إعادة قسم من جند العراق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى العراق، هذا بالإضافة إلى إعلان النفير في جزيرة العرب للسير إلى العراق ودعم قوة المسلمين هناك وبدأت الإمدادات تصل، قوة إثر أخرى إلى العراق. أما في الشام فقد تمّ طرد الروم وإنهاء الوجود البيزنطي فيها بعد عددٍ من المعارك، وهذا ما نلاحظه في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وبدأت المعارك في العراق ثم انتقلت إلى فارس حتى قضي على

الدولة الفارسية نهائياً، ولم ينته عهد الفاروق بعد. وبانتهاء المقاومة على الجبهة الشرقية عاد القتال إلى الجبهة الغربية، إذ انتقل القتال إلى مصر، وشمالي إفريقية، وجزر البحر المتوسط، واستمر ذلك في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

معركة اليرموك: تولى عمر بن الخطاب الخلافة في بداية القتال العنيف على الجبهة الغربية، إذ كان المسلمون قد تجمعوا في اليرموك أمام تحشدات الروم الهائلة.

كان تجمع المسلمين في المنطقة الغربية من درعا اليوم، وقد أخطأ كثير من المؤرخين، فجعلوا نهر اليرموك المنطقة الفاصلة بين المسلمين والروم، ومن يجول في تلك البقعة يدرك مباشرة أنه لا يمكن لهذا الوادي السحيق أن يكون ميداناً لمعركة أو تكون جنباته ساحة لها، هذا بالإضافة إلى أن الخليفة الصديق كان قد طلب من القيادة العسكرية في بلاد الشام أن يكون تجمع جندها في مكان يسهل معه الاتصال مع المدينة لإمكانية وصول الإمدادات وسهولة الاتصال، ولو قطع المسلمون الوادي قبل احتدام المعركة وانتقلوا منه إلى الجهة الثانية وبصعوبة كبيرة لما أمكن وصول الإمدادات إليهم، ولما أمكن الاتصال مع المدينة بعد نشوب الحرب، فكيف بالانتقال والحركة السريعة أثناء القتال كما يحلو لبعض المؤرخين أن يخططوا ذلك، لهذا كله فقد جعل المسلمون مؤخرة جندهم إلى الشمال الغربي من درعا، لتكون درعا طريقاً لوصول الدعم إليهم والاتصال مع المدينة، حيث يمكن في هذا المكان قطع الوادي بسهولة. هذا مع العلم أن خالد بن الوليد قد انتقل إلى اليرموك من بصرى فيكون طريقه عن درعا أو إلى الشمال قليلاً منها. وتكون معركة اليرموك قد وقعت على جانبي أحد روافد اليرموك وهي إما (الرقاد) أو (العلق)، ويكون عمرو بن العاص الذي كان على ميمنة المسلمين إلى الشمال، ويزيد بن أبي سفيان الذي كان على الميسرة في الجنوب، على مقربة من نهر اليرموك وأبو عبيدة بينهما.

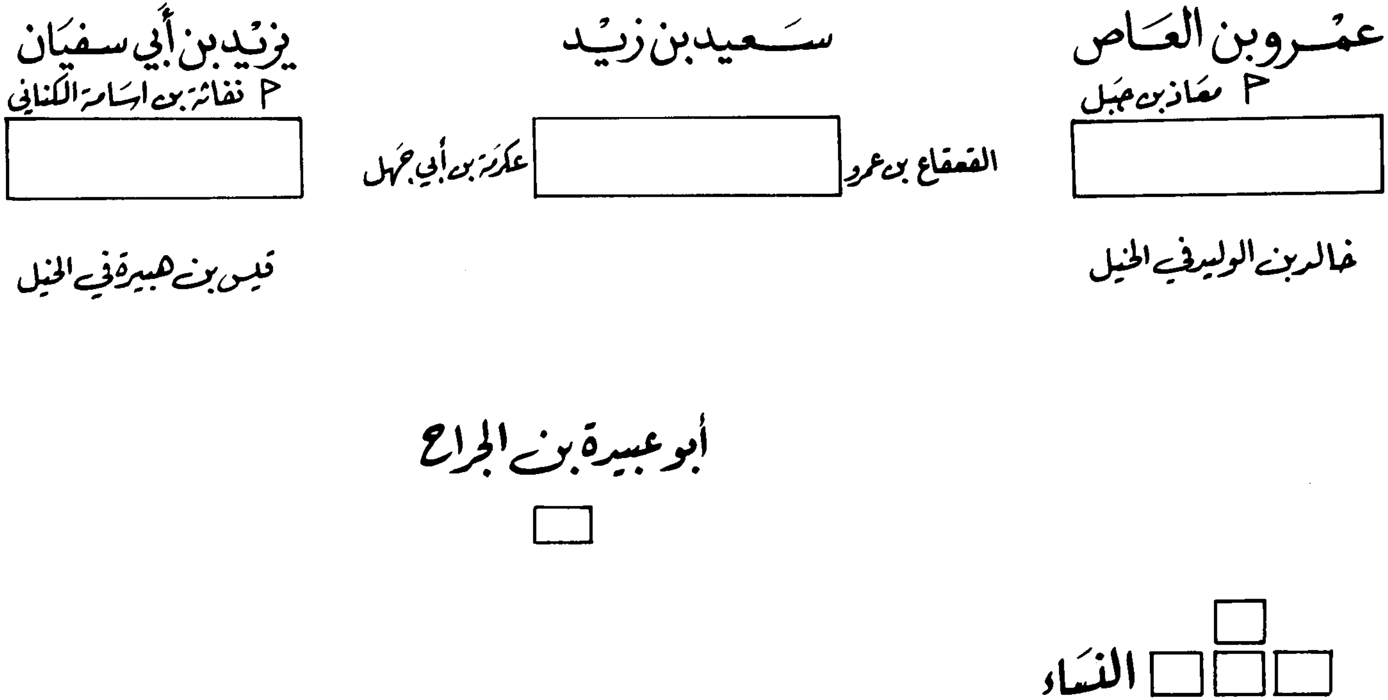
عمرو بن العاص
م معاذ بن جبل
خالد بن الوليد في الخيل
سعيد بن زيد
القعقاع بن عمرو
عكرمة بن أبي جهل
يزيد بن أبي سفيان
م نفاثة بن اسامة الكناني
قيس بن هبيرة في الخيل
أبو عبيدة بن الجراح
النساء

وخرج المسلمون على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد، وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه، ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل، ويحثونهم على القتال، وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش، فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لا بدّ لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حتى إذا صدّوهم كانوا لهم ردءاً فنأتيهم من ورائهم. فقال له: نعم ما رأيت. فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله حتى إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة، رضي الله عنهم. وساق خالد إلى النساء أن يكنّ من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه مولياً فاقتلنه. ثم رجع إلى موقفه، رضي الله عنه.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، واشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وخرج معاذ بن جبل[1] على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: كان عمره يوم=

القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ الآية، فاستحيوا ـ رحمكم الله ـ من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثبت عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحساناً ـ لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[1] وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين، وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وأن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد

= هجرة المصطفى عشرين عاماً، أسلم وهو فتى، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبيه جعفر بن أبي طالب، شهد العقبة الثانية، ثم حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كان عالماً بالحلال والحرام، أرسله رسول الله إلى اليمن مرشداً، خرج مجاهداً إلى الشام، كان مع أبي عبيدة، واستخلفه عندما أصيب، وأقر ذلك عمر، ولكنه توفي في ذلك العام ١٨هـ، ولم ينجب.

(١) الكفر: المزرعة.

فنادى: يا معشر أهل الإِسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه رحمه الله.

وقد وعظ الناس أبو هريرة أيضاً فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين، وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم. ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم[١].

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، ومعهما ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو، ونادوا: إنما نريد أميركم لنجتمع له، فأذن لهم في الدخول عن تذارق، وإذا هو جالس في خيمة من حرير. فقال الصحابة: لا نستحل دخولها، فأمر لهم بفرش بسط من حرير، فقالوا: لا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبوا.. وهكذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، لا يقبلون الاستهانة بشيء من حرمات الله مهما قل، ومع أنه ليس فيه اللباس إلا أنهم رغبوا أن يأخذوا أنفسهم بالشدة، ورفض هذه الأمور وأمثالها، الأمر الذي جعلهم يعظمون في عين أعدائهم فيسايرونهم، ويرتفعون في أنفسهم. وهذا ما وضعهم حيث وضعوا هم أنفسهم، وتميزوا بشخصيتهم فكان لهم ما تمنوا.

وعرض الصحابة على الأعداء: الإسلام، أو الجزية، أو السيف، وكان من تعنت الروم أن كان لا بدّ من القتال.

وطلب ماهان خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

كنا نحدث به عن العرب، وهكذا كلمة واحدة بعزة النفس تميت معنويات الخصم.

تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو ـ وهما على مجنبتي القلب ـ أن ينشبا القتال، وهكذا بدأت المعركة. وكان ذلك في أوائل شهر رجب من السنة الثالثة عشرة، وحملت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين فمالوا إلى جهة القلب، وكان معاذ بن جبل، رضي الله عنه، يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل السكينة علينا، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء. وانكشفت زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا، وحملوا على الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف، وردت النساء من فرّ، فرجع الناس إلى مواقعهم.

وقال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى من يبايع على الموت؟ فبايعه ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، عم عكرمة، وعدد من المسلمين، ووصل عددهم إلى أربعمائة رجل من أعيان الناس، وقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جرحى، وقتل منهم عدد كبير منهم ضرار بن الأزور. ويذكر أنهم استسقوا ماء وهم جرحى فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً، ولم يشربها أحد منهم.

ثم حمل خالد بن الوليد بالخيل على ميسرة الروم التي حملت على ميمنة المسلمين، فأزالهم إلى القلب، وقتل المسلمون في حملتهم هذه ستة آلاف من الروم، ثم حمل بمائة فارس على ما يقرب من مائة ألف من الروم فانهزموا أمامهم بإذن الله، وتبعهم... ولما عاد المسلمون من حملتهم جاء البريد ـ الذي ذكرنا ـ يحمل وفاة الصديق، وبيعة عمر، وتولية أبي عبيدة إمرة القتال.

وخرج من بين الروم أحد أمرائهم الكبار وهو (جرجه) واستدعى

خالد بن الوليد إلى بين الصفوف حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجه: يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، وبايعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين. ودعا لي النصر، فسميت سيف الله بذلك فأنا أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجه: يا خالد إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإِقرار بما جاء به من عند الله عز وجل: قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب، ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. قال جرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنه وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقةٍ ونيةٍ كان أفضل منا، فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك، وأن الله ولي ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جرجه الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشنّ عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين... فحملت الروم عند ذلك على المسلمين حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم إلى المدافعين أمثال عكرمة بن أبي جهل، وعمه الحارث بن هشام.

وحمل خالد، وجرجه بالمسلمين على الروم حتى هزموهم بإذن الله. . . وقتل جرجه، رحمه الله، ولم يصل سوى هاتين الركعتين مع خالد، وصلى المسلمون يومذاك صلاة الظهر والعصر إيماء، وأخّروا صلاة العشاءين. وفرّ الروم ليلاً إلى الواقوصة، وسقط الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل.

وكان ممن شهد اليرموك الزبير بن العوام، رضي الله عنه، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين في كتفه. وقُتل عكرمة بن أبي جهل وعمه الحارث بن هشام، وابنه عمرو بن عكرمة، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي. وانهزم يومذاك عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا إلى النساء فزجرنهم فعادوا. وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه فتراجعوا فوعظهم الأمير فرجعوا. وثبت يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله، فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب، رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وروي أن الأشتر قد شهد اليرموك ولم يشهد القادسية، فخرج يومئذٍ رجل من الروم، فقال: من يبارز؟ فخرج إليه الأشتر؛ فاختلفا ضربتين، فقال للرومي: خذها وأنا الغلام الإيادي، فقال الرومي، أكثر الله في قومي مثلك! أما والله لو أنك من قومي لآزرت الروم، فأما الآن فلا أعينهم(١).

وروي أن هرقل قال وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني(٢).

وروي أن أحد أمراء الروم وهو (القُبُقلار) بعث رجلاً عربياً من قضاعة عيناً له بين المسلمين، وقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يوماً وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم، لإقامة الحق فيهم. فقال له القبقلار: لئن صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم علي(٣).

وفقد عدد من المسلمين عيونهم يوم اليرموك منهم: أبو سفيان، وكان قد فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية في اليرموك، وعاش بعدها ضريراً، والمغيرة بن شعبة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح وغيرهم.

---

(١) تاريخ الطبري: الجزء الثالث. (٢) البداية والنهاية: الجزء السابع.
(٣) تاريخ الطبري: الجزء الثالث.

وبعد معركة اليرموك التي فر منها الروم، وتابعهم المسلمون فصالحهم أهل دمشق، وأهل حمص، إذ خلت أكثر هذه المناطق من الجنود الروم، كما أن هرقل قد انتقل من مقره في حمص إلى إنطاكية التي اتخذها قاعدة له يسير فيها الجند، وتصدر عنه الأوامر.

وانتقل أبو عبيدة بالجيش من اليرموك إلى مرج الصفر ببقية الجيش الذي لم يلاحق الروم، وفي المرج وصل إليه الخبر بأن الروم قد تجمعوا بفحل بغور الأردن، فتوقف لا يدري بأي الأمرين يبدأ، أبدمشق، ويتركزّ المسلمون فيها أم يعود إلى فحل؟ فكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الموقف، ويستشيره بالأمر، وجاء الأمر من أمير المؤمنين أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم، فانهد لها، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فحل فسر أنت وخالد إلى حمص واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

معركة فحل: بعث أبو عبيدة عمارة بن مُخِشّ إلى فحل، فوجد أن الروم يقاربون ثمانين ألفاً، وقد طوفوا المياه في المنطقة إلا أن المسلمين استطاعوا، بإذن الله، إحراز النصر، ودخول (فحل) و (بيسان)، وذلك قبل فتح دمشق.

فتح دمشق: أرسل أبو عبيدة أبا الأعور السلمي إلى طبريا ليفتحها وليكون ردءاً للمسلمين المتجهين إلى دمشق، وحائلا دون وصول إمدادات رومية إلى دمشق التي نقض أهلها الصلح بعد أن رأوا أن الروم لا تزال لهم قوة في المناطق الجنوبية، وكذلك أهل حمص، ويبدو أن المناطق الداخلية من بلاد الشام كان تقدم المسلمين فيها سهلاً وذلك لقلة السكان إذا استثنينا المدن، ولسهولة حركة الجند، ووجود الحياة القبيلية التي يمكن أن يكون لها أثر في الصلح أو الخوف ومغادرة الديار على حين كانت المناطق الساحلية في المنطقة الجنوبية كثيرة السكان لخصوبتها، ومنها مدينة القدس

ذات الطابع الديني، والدفاع عنها يكون كبيراً لذلك السبب، والمناطق الشمالية من الجهات الساحلية جبلية وعرة المسالك، إضافة إلى قسوة السكان لطبيعة بلادهم الجبلية، وكان فيها المردة والجراجمة، وهم من قدامى السكان، وبعضهم من بقايا العمالقة، ولهم ارتباطات كبيرة بالروم أيضاً.

سار أبو عبيدة باتجاه دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وسار هو في الميسرة، وعمرو بن العاص في الميمنة، وكان عياض بن غنم على الخيل، وشرحبيل بن حسنة على الرجالة. وفي الوقت نفسه بعث ذا الكلاع في فرقة لترابط بين دمشق وحمص لتحول دون وصول الإمدادات إلى دمشق من جهة الشمال، كما جعل أبا الدرداء في فرقة أخرى لتكون في برزة على مقربة من دمشق ردءاً للجيش الإسلامي الذي يحاصر المدينة.

وبعث أبو عبيدة طليعة تتألف من ثلاثة عناصر أحدهم وأميرهم أبو أمامة الباهلي الذي يقول: فسرت فلما كنا ببعض الطريق، أمرت أحد من معي أن يكمن، وبعد مسافة أمرت الآخر فكمن هناك وسرت أنا وحدي حتى باب البلد، وهو مغلق في الليل وليس هناك أحد، فنزلت وغرزت رمحي بالأرض ونزعت لجام فرسي، وعلقت عليه مخلاته ونمت، فلما أصبح الصباح قمت فتوضأت وصليت الفجر، فإذا باب المدينة يقعقع فلما فتح حملت على البواب فطعنته بالرمح فقتلته، ثم رجعت والطلب ورائي، فلما انتهينا إلى الرجل الذي في الطريق من أصحابي ظنوا أنه كمين فرجعوا عني، ثم سرنا حتى أخذنا الآخر، وجئت إلى أبي عبيدة فأخبرته بما رأيت، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر فيما يعتمده من أمر دمشق، فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها، فساروا إليها حتى أحاطوا بها، واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك[1].

---

(١) البداية والنهاية ـ الجزء السابع ـ ابن كثير.

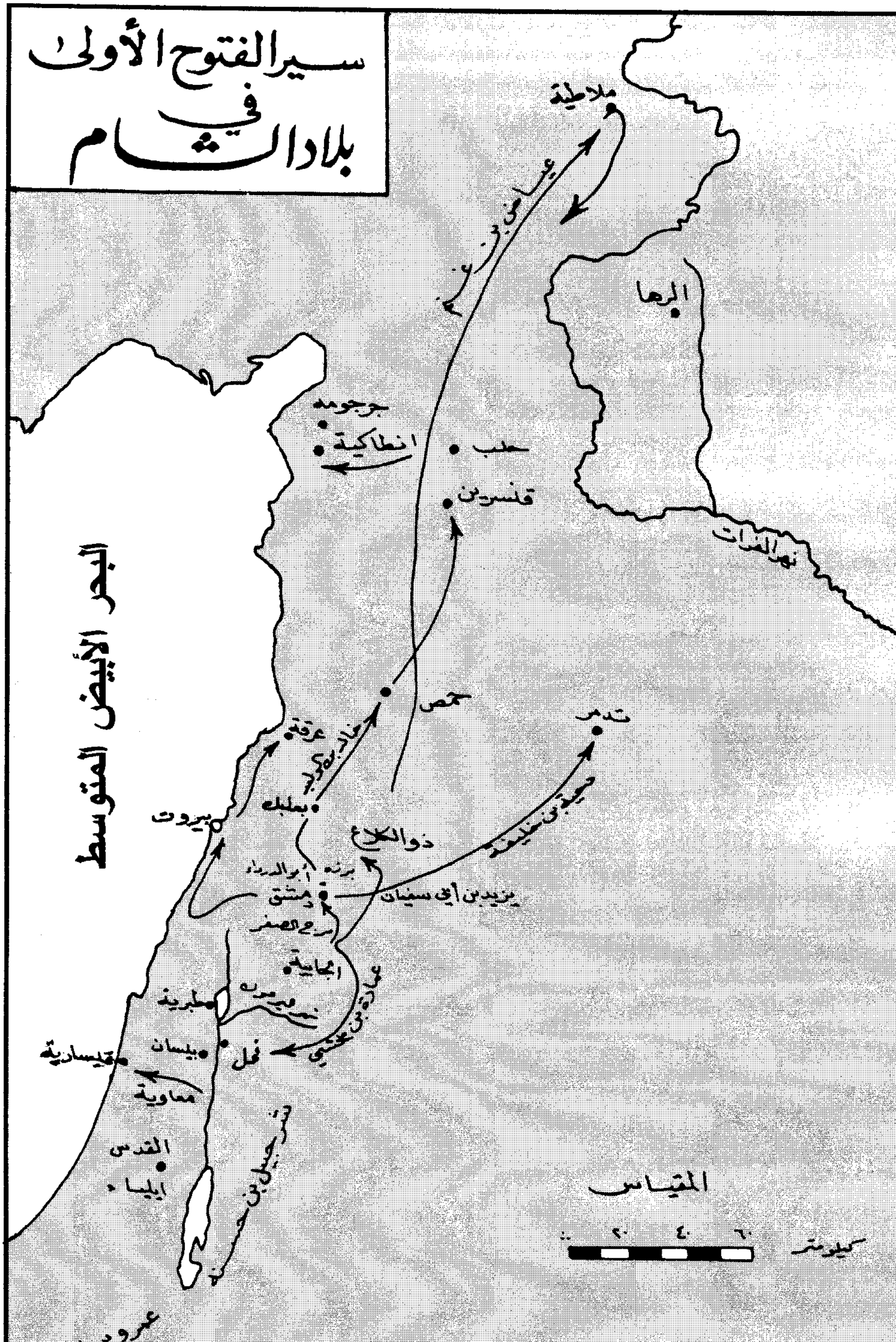
سير الفتوح الأولى
في
بلاد الشام
ملاطية
الرها
جرجومه
انطاكية
حلب
قنسرين
نهر الفرات
البحر الأبيض المتوسط
حمص
تدمر
عرقة
بعلبك
بيروت
ذو الكلاع
دمشق
يزيد بن أبي سفيان
مرج الصفر
الجابية
طبرية
بيسان
فحل
قيسارية
معاوية
القدس
إيلياء
المقياس
كيلومتر
٢٠
٤٠
٦٠
عمرو بن العاص

ولا شك فإن الإيمان وحده هو الذي كان سبب نصر المسلمين في معاركهم التي خاضوها ضد أعدائهم على الرغم من قلتهم وقلة إمكاناتهم، وبالإيمان نفسه استطاع هذا الصحابي الجليل أبو أمامة أن ينطلق منفرداً إلى باب مدينة دمشق، وأن يبيت ليلة ونفسه مطمئنة، وفكره هادئ فيما سيكون وأن يصبح فيتوضأ ويصلي الفجر، ويقتل البواب وينطلق... وهذا ما أرعب الروم، وأخاف السكان، وأضعف المعنويات إذ شعروا أن الغارات قد بدأت تصل إليهم، وأن الفرد من المسلمين وحده يمكن أن يكون غارة، يغير، ويقتل، وينصرف ولا يبالي.

انطلق الجيش الإسلامي نحو دمشق، فدخل الغوطة واحتلها كي لا يأمل أهل دمشق بمساعدات وتموينات منها، ووصل إلى دمشق من ناحية الشرق، فتوزع يحاصرها حسب التشكيل الذي يسير عليه، فتوقف خالد، وهو على قلب الجيش، على الباب الشرقي وحتى باب كيسان، وسارت الميسرة على جنوب دمشق، فنزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير وإلى باب كيسان، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية من جهة الغرب وحتى الباب الصغير. وسارت الميمنة على شمالي دمشق فنزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، وباب السلام.

استمر حصار دمشق عدة أشهر، وشعر أهل دمشق أن الإمدادات لا يمكن أن تصل إليهم، وجاء وقت البرد، وكان قاسياً، فصعب القتال، وفي إحدى الليالي ولد لبطريق المدينة مولود، فأقام وليمته للجند والناس، فباتوا ليلتهم تلك سكارى، وشعر خالد بن الوليد بذلك نتيجة ضعف قتال الذين فوق الأسوار، وقلة حركة الناس عامة، ونتيجة المعلومات التي وصلت إليه من العيون، وهو على عين يقظة لا ينام إلا قليلاً ولا ينيم، وكانت عنده سلالم مهيأة. فلما أحس بذلك استدعى بعض صناديد القوم أمثال القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وأحضر جنده عند الباب، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور فارقوا إلينا. ثم إنه قطع الخندق وهو

وأصحابه سباحة وقد وضعوا قرباً في أعناقهم تساعدهم على السباحة. إذ كانت الخنادق تحيط بدمشق وهي مليئة بالماء عدا الجهة الشمالية حيث كان نهر بردى هناك يعد بمثابة الخندق، وكان السور على ضفافه يتعرج حسب المجرى على حين كانت الأسوار في الجهات الأخرى تسير بشكل مستقيم، وأثبت خالد وصحبه السلالم على شرفات السور، وصعدوا عليها، فلما صاروا أعلى السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لإرهاب العدو، ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوة، وقد كسروا مغاليقه، واندفع الجند من الباب إلى الداخل.

وانطلق خالد بن الوليد مع جنده داخل المدينة يعمل فيمن وقف في وجهه قتلاً، ويتجه نحو مركزها، وأسرع وجهاؤها نحو بقية الأبواب وخاصة نحو الغرب حيث باب الجابية خوفاً من أن ينالهم القتل، فيعلنون الاستسلام وفتح مدينتهم، وطلب الصلح، ودخل بقية قادة المسلمين وجيوشهم من الأبواب الأخرى صلحاً يتجهون نحو داخل المدينة والتقوا مع مركزها، خالد يعمل السيف، وهم في السلم، فقالوا له: يا أبا سليمان إن القوم قد استسلموا، وطلبوا الصلح، وفتحوا الباب لنا، ودخلنا سلماً، فقال لهم: وإنما دخلت أنا ومن معي المدينة عنوة، ولم يزل يعمل السيف حتى طلب منه أبو عبيدة الكف عن ذلك. والتقى الأمراء عند المقسلاط قرب سوق النحاسين اليوم (المناخلية). وكان فتح دمشق في رجب من السنة الرابعة عشر أي بعد معركة اليرموك بسنة كاملة. وقد استمر حصارها عدة أشهر.

وبعد فتح دمشق طلب أمير المؤمنين من أبي عبيدة أن يسير بعض جند العراق الذين جاءوا منها مع خالد بن الوليد إلى العراق مرة ثانية ليدعموا الفاتحين فيها، فسيرهم بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وولى أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وسيّر شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، أي سار كل من الأمراء إلى المنطقة التي كانت وجهته الأولى إليها.

بعث يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق دحية بن خليفة إلى تدمر، كما

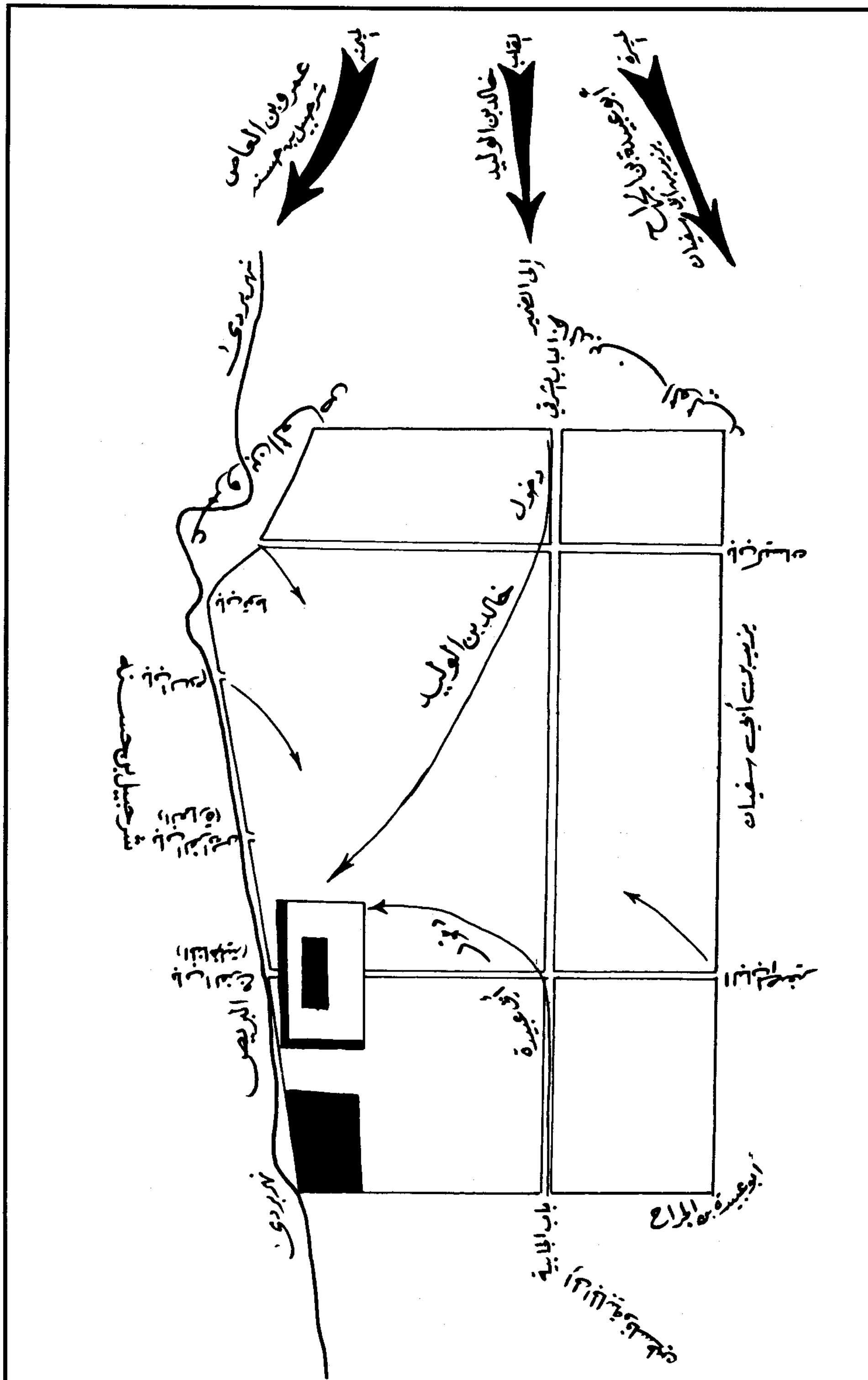

عمرو بن العاص
خالد بن الوليد
يزيد بن أبي سفيان
باب الجابية
أبو عبيدة بن الجراح
نهر بردى

بعث أبا الزهراء القشيري إلى حوران فصالح أهلها، إذ كان طريق المسلمين إلى دمشق عن طريق مرج الصّفرّ ومن جهة الغرب من حوران، لذا فقد بقيت حوران دون مصالحة.

في البقاع: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى البقاع، وعندما وصل إلى تلك الجهة جاءت حملة من الروم عن طريق ما يعرف اليوم باسم ظهر البيدر تحت إمرة سنان، واستطاع قتل عدد من المسلمين عند (عين ميسون)، وعرفت تلك العين بعد ذلك باسم عين الشهداء. ثم تابع خالد سيره في البقاع نحو الشمال فصالحه أهل بعلبك.

معركة مرج الروم وفتح حمص: وكان أبو عبيدة قد اتجه إلى الشمال أيضاً فنزل على ذي الكلاع[1] الذي كان في آخر ثنية العقاب، ويشرف على (القطيفة) اليوم، وإذ وصل إليه خبر إرسال هرقل بطريقاً من قبله يدعى (توذرا) إلى مرج الروم (منطقة الصبورة اليوم) لينازل دمشق فسار إليه أبو عبيدة وخرج (إلى توذرا)، وجاء خالد من الخلف، وبدأ القتال فلم ينج من الروم إلا من شرد، وقتل خالد (توذرا)، وكان أبو عبيدة قد التقى ببطريق آخر يدعى (شنس) نزل بجانبه فتنازلاً، وقتل أبو عبيدة شنس أيضاً، وفر أتباعه باتجاه حمص فلاحقهم أبو عبيدة، ولما انتهى خالد من (توذرا) تبع أبا عبيدة نحو حمص فحاصراها معاً، وطال الحصار، وجاء فصل الشتاء، وكان شديد البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً، ولما انسلخ الفصل البارد اشتد الحصار، وأجبر الأهالي المسؤولين بالاستسلام، وطلبوا الصلح حسب الصلح الذي صالح عليه أهل دمشق على نصف المنازل، وضرب الخراج على الأرض، وأخذ الجزية على الرقاب حسب الغنى والفقر. وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود... كما طلب منه الرأي بشأن هرقل... فجاءه الجواب بالبقاء في حمص بالنسبة إلى أبي عبيدة.

---

(١) ذو الكلاع: يزيد بن النعمان.

فتح قنسرين: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فقاتل أهلها بعد حصار واعتذار بعد هزيمة أولى، وإثر ذلك دخل المدينة عنوة، وذلك في السنة الخامسة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ. هذا التقدم السريع في المناطق الداخلية كان لا يوازيه تقدم آخر في المناطق الساحلية للأسباب التي سبق أن ذكرناها، الأمر الذي اقتضى أن يقوم عمرو بن العاص الذي ولي أمر فلسطين بحرب عنيفة في مناطقه الجنوبية حتى يستطيع المسلمون أن يتقدموا في الساحل والداخل بصورة متوازية، واقتضى الأمر من القيادة أن توجه حملات من الداخل إلى الساحل لتقطع المناطق الساحلية إلى وحدات، ولتقلل الضغط أمام الفاتحين المسلمين المتقدمين من الجنوب، وليُضعف معنويات المتعنتين من الروم، وليقلل أملهم في إمكانية التشبث بالأرض والبقاء في تلك الجهات، لذا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان بالتحرك نحو قيسارية وتولي أمورها وكتب إليه: أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها، واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وقاتل أهلها عدة مرات وفي النهاية انتصر عليهم، وقتل منهم ما يقرب من ثمانين ألفاً، وبهذا الفتح انقطع رجاء الروم في النصر... ثم كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى إيلياء (بيت المقدس).

فتح أجنادين: سار عمرو بن العاص إلى أجنادين وهي موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب، إذ رابط فيها الأرطبون، كما كانت قوة للروم في الرملة، وأخرى في بيت المقدس، وكانت إذا جاءت قوات داعمة إلى عمرو أرسل بها تارة إلى الرملة، وأخرى إلى بيت المقدس ليشاغلوا الروم في تلك الجهات خوفاً من دعمهم للأرطبون في أجنادين. وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يشف أحدها غليل عمرو، فسار بنفسه باسم رسول، ودخل على الأرطبون، وجرى الحديث بينهما، استنتج الأرطبون على أن هذا الرسول إنما هو

عمرو بالذات أو أنه شخص ذو قيمة وأثر بين المسلمين، وقال في نفسه: ما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله. فدعا حرسياً فسارّه وأمره بالفتك به فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره. وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فائتني بهم، ودعا رجلاً فسارّه فقال: اذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو بن العاص فرجع إلى جيشه، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص نفسه فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب. وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: لله درّ عمرو. وحدث قتال عظيم في أجنادين كقتال اليرموك.. ثم دخل المسلمون أجنادين، وتقدموا نحو بيت المقدس.

فتح بيت المقدس: لقي المسلمون عناداً قوياً من الروم الأمر الذي جعل الجيوش الإسلامية تجتمع مرة أخرى، وولى أبو عبيدة على دمشق سعيد بن زيد، وسارت الجيوش لتحاصر بيت المقدس وتضيق على من فيها حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. أرسل أبو عبيدة إلى عمر يخبره الخبر، واستشار عمر الصحابة فأشار علي بن أبي طالب عليه بالمسير، ورأى عثمان بن عفان غير ذلك، فأخذ عمر برأي علي، وولاّه على المدينة، وسار هو إلى الشام وعلى مقدمته العباس بن عبد المطلب، واستقبله في الجابية أمراء المسلمين أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، ومن الجابية سار عمر إلى بيت المقدس، ثم صالح النصارى، واشترط عليهم إخراج الروم خلال ثلاثة أيام، ثم دخل المسجد من حيث دخل رسول الله ﷺ يوم الإسراء، وصلى فيه مع المسلمين، ثم سار إلى الصخرة، وجعل المسجد في قبلة بيت المقدس. وبعد فتح بيت المقدس رجع كل أمير إلى مكانه.

فتح حمص ثانية: وما أن وصل أبو عبيدة إلى مركزه في حمص حتى

حاصره الروم، وقد استنفروا معهم أهل الجزيرة، وكان أبو عبيدة قد استشار المسلمين في التحصن بالمدينة أو قتال الروم خارجها، فأشاروا عليه بالتحصن إلا خالد بن الوليد الذي كان قد استقدمه من قنسرين لمساعدته ودعمه، فقد رأى قتال الأعداء خارج البناء، إلا أن أبا عبيدة رأى ما رآه بقية المسلمين، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يعلمه الخبر. وكانت بقية بلدان بلاد الشام كل منها مشغول بما فيه، ولو جاءته نجدة من أية مدينة فلربما اختل النظام في بلاد الشام كافة. وبخاصة أن هناك جيوباً رومية كثيرة، ويختلط السكان، لذا فقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق يطلب منه أن يسيّر مدداً بإمرة القعقاع بن عمرو إلى حمص، وأن يبعث بعثاً بإمرة عياض بن غنم إلى بلاد الجزيرة الذين مالؤوا الروم. خرج من الكوفة جيشان أولاهما اتجه نحو حمص وقوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة القعقاع بن عمرو، والآخر اتجه نحو الجزيرة بقيادة عياض بن غنم، وفي الوقت نفسه خرج عمر بن الخطاب نفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة. علم أهل الجزيرة أن الجيش الإسلامي قد طرق بلادهم، فتركوا حمص ورجعوا إلى أرضهم. وأخبر الروم أن أمير المؤمنين قد سار إلى الشام ليدعم حمص فانهارت معنوياتهم، وضعف أمرهم، وأشار خالد على أبي عبيدة بأن يبرز لهم ليقاتلهم فوافق، فنصر الله عباده المؤمنين على أعدائهم، ولم يصل بعد القعقاع إذا وصل إلى حمص بعد انتصار المؤمنين بثلاثة أيام، كما أن عمر بن الخطاب كان قد وصل إلى الجابية وجاءه خبر المعركة وهو فيها، وعدّ المدد بين المقاتلين ونال نصيبه من الغنائم. كما صالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية.

فتح الجزيرة: أما عياض بن غنم فقد وصل إلى الجزيرة، وصالح أهل (حران)، و(الرها)، و (الرقة)، وبعث أبا موسى الأشعري إلى (نصيبين)، وعمر بن سعد بن أبي وقاص إلى (رأس العين)، وسار هو إلى (دارا)[1]

---

(١) دارا: مكان دير الزور اليوم، وهي قرب قرقيساء التي هي مكان البصيرة عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات.

ففتحت هذه المدن، كما أرسل عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فحدث قتال ثم صالح عثمان أهل البلاد على جزية مقدارها دينار على كل أهل بيت.

فتح سواحل الشام: وفتحت (قرقيساء) على يد عمر بن مالك، وصالح أهل (هيت)، وكان يزيد بن أبي سفيان قد أرسل أخاه معاوية على مقدمته ففتح بناء على أوامر أبي عبيدة المدن الساحلية صور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعرقة[1]، وطرابلس. وبهذا أصبحت بلاد الشام كلها بيد المسلمين. إلا أن خطأ قد وقع أثناء الفتح، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليمشّطوا البلاد التي يفتحونها تمشيطاً كلياً حيث يخلونها من كل من يمكن أن يتمرد في المستقبل أو يكون عوناً للروم الذين يفكرون في استعادة بلاد الشام، ويعتقدون أنه لا تزال لهم مراكز قوة فيها، إذ أن المسلمين كما رأينا قد بدؤوا بالمناطق الداخلية التي هي مجال حركتهم، وعلى صلة بالمدينة المنورة قاعدة الحكم الإسلامي، بناءً على أوامر القيادة العامة، وحاولوا الابتعاد عن السواحل التي كانت للروم فيها قواعد بحرية، والأسطول الرومي يجوب تلك السواحل على حين لم يكن للمسلمين بعد أية قوة بحرية، فهم بالدرجة الأولى أبناء داخل وصحارى ولربما كان أكثرهم لم ير البحر بعد، ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه. وكذلك فقد تركوا الجزر الجبلية والتفوا حولها ظناً منهم أن أولئك السكان الذين كانوا على درجة من القلة لا تمكنهم من عمل شيء، لذا فإنهم ينزلون على حكم المسلمين راضين أو كارهين إضافة إلى فقر تلك الجهات، هذا، ويزيد ذلك وعورة تلك الأماكن وصعوبة مسالكها، وهذه الخطيئة نفسها تكررت في الأندلس، فكان من تلك الجزر الجبلية البلاء العظيم الذي أطاح بالمسلمين من الأندلس بعد مدةٍ طويلةٍ من الزمن، والذي لا نزال نذوق منه الويلات في بلاد الشام حتى الآن، إذ كان سكان الجبال عوناً للروم ودعماً لهم كلما

---

(١) عرقة: مدينة كانت تقع إلى القرب من طرابلس، وهي غير موجودة الآن.

ظهر الروم على الشواطئ الشامية، وهذا ما كان يستشعره الروم من أن لهم قوةً تعتصم في المناطق الجبلية كلما دعت الحاجة، كما أن قوةً أخرى كانت لهم، وهي أن الروم عندما أُجبروا على ترك البلاد الشامية جلت معهم بعض القبائل العربية الحليفة لهم، والمتنصّرة من غسان، وتنوخ، واياد، ولخم، وجذام، وعاملة، وكندة، وقيس، وكنانة ظناً من هذه القبائل أن الروم لا يمكنهم أن يتركوا الفاتحين الجدد في البلاد الشامية، وكان لهذه القبائل مراكزها وأنصارها في المنطقة، كل هذا كان يشجع الروم على التفكير ومحاولة استرجاع البلاد، وقد تمكن الروم فعلاً من استعادة بعض السواحل اللبنانية، ولكنهم لم يلبثوا أن طُردوا منها. ولعل من الأخطاء التي وقعت آنذاك الاستعانة بالجراجمة، وهم سكان منطقة الجرجومة وهي مدينة تقع في جبل الأمانوس (اللكام) شمال إنطاكية، وقد كانت لهم دولة مركزها مرعش، ويعتقد أنهم من بقايا الحثيين. وعندما صالح أبو عبيدة بن الجراح أهل إنطاكية همّ الجراجمة بالانتقال إلى بلاد الروم خوفاً على أنفسهم، إلا أن المسلمين لم يأبهوا بهم آنذاك، ولكن إنطاكية لم تلبث أن نقضت العهد، واضطر المسلمون إلى فتحها ثانية، وعين أبو عبيدة عليها (حبيب بن مسلمة الفهري) الذي استعد لغزو جرجومة، فاضطر أهلها لطلب الصلح، وكانوا يساعدون المسلمين أحياناً عندما يرون فيهم القوة، ولكنهم إن وجدوا في الروم قوة كاتبوهم على أن ينقضّوا على المسلمين، وهذا ما كان يشجع الروم، ويُبقي عندهم الأمل في العودة إلى بلاد الشام، ولربما كان المسلمون بحاجة إلى الجند آنذاك، وقد وجدوا في الجراجمة عنصراً محارباً ودعماً عسكرياً فاستفادوا منهم، إلا أنه لا يؤمن لهم ولا لعهودهم ما داموا لا يدينون دين الحق، ولا ينظرون إلا إلى مصالحهم، وهذا ما كان يجعلهم يقفون بجانب الروم أحياناً وبجانب المسلمين مرة أخرى، ثم توزعوا في المناطق الجبلية الغربية عوناً للروم، وبقي لهم خطر على البلاد ولأحفادهم الذين اعتقدوا عقائد غريبة حتى الآن.

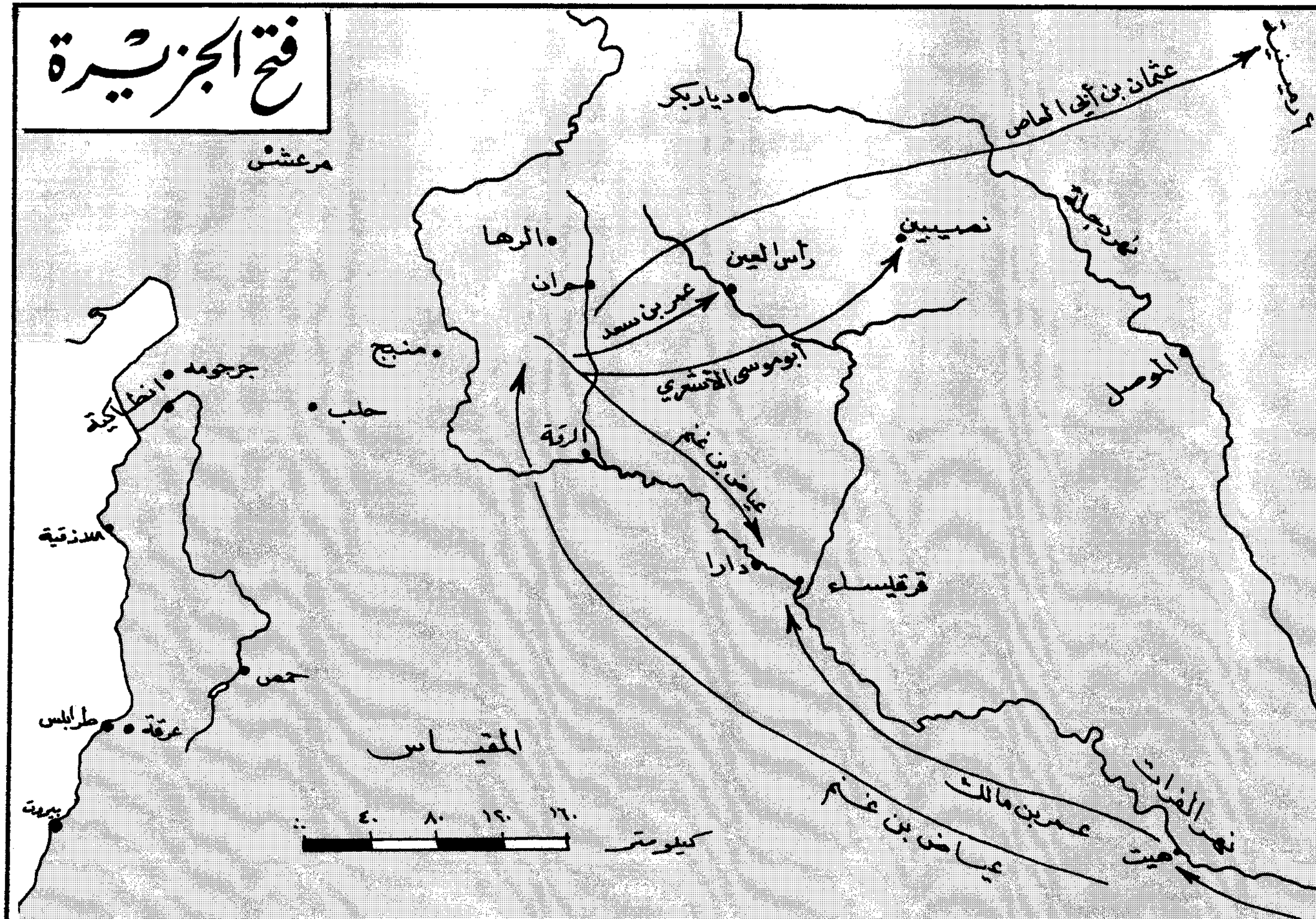
فتح الجزيرة
مرعش
ديار بكر
عثمان بن أبي العاص
أرمينية
الرها
حران
رأس العين
نصيبين
عمر بن سعد
أبو موسى الأشعري
نهر دجلة
الموصل
منبج
جرجومة
انطاكية
حلب
الرقة
عياض بن غنم
دارا
قرقيسياء
اللاذقية
حمص
طرابلس
عرقة
المقياس
بيروت
٤٠
٨٠
١٢٠
١٦٠
كيلومتر
عمر بن مالك
عياض بن غنم
نهر الفرات
هيت

فتح مصر: لما انتهى فتح المسلمين لبلاد الشام، وانتهى عمرو بن العاص من فتح فلسطين، طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السير إلى مصر للفتح، فوافق عمر، وسيّره إليها، ثم أمده بالزبير بن العوام، ومعه بسر بن أرطأة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي، فالتقوا مع أهل مصر عند باب مصر، ولقيهم أبو مريم، ومعه الأسقف أبو مريام وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهم عمرو بن العاص إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأمهلهم ثلاثة أيام، فطلبوا منه أن يزيد المدة فزادها لهم يوماً واحداً، ثم نشب القتال، فهُزم أهل مصر، وقتل منهم عدد كبير، منهم الأرطبون الذي فرّ من بلاد الشام إلى مصر، والذي أجبر أهل مصر على المقاومة، وحاصر المسلمون عين شمس، وارتقى الزبير بن العوام السور، فلما أحس السكان بذلك انطلقوا باتجاه عمرو على الباب الآخر، إلا أن الزبير كان قد اخترق البلد عنوة، ووصل إلى الباب الذي عليه عمرو، فصالحوا عمراً، وأمضى الزبير الصلح، وقبل أهل مصر كلهم الصلح، إذا كان عمرو بن العاص قد وجه عبد الله بن حذافة إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى الإسكندرية حيث يقيم المقوقس، وحاصر الجيش المدينة، واضطر المقوقس إلى أن يصالح المسلمين على أداء الجزية، واستخلف عمرو بن العاص عليها عبد الله بن حذافة. وأُنشئت مدينة الفسطاط مكان خيمة عمرو حيث بني المسجد الذي ينسب إليه الآن، وأقيمت البيوت حوله.

وأَرسل عمرو قوة إلى الصعيد بإمرة عبد الله سعد بن أبي سرح بناءً على أوامر الخليفة ففتحها، وكان الوالي عليها، كما أرسل خارجة بن حذافة إلى الفيوم وما حولها ففتحها وصالح أهلها، وأرسل عمير بن وهب الجمحي إلى دمياط، وتنيس وما حولهما فصالح أهل تلك الجهات.

ثم سار عمرو بن العاص إلى الغرب ففتح برقة، وصالح أهلها،

وأرسل عقبة بن نافع ففتح (زويلة)، واتجه نحو بلاد النوبة، ثم انطلق عمرو إلى طرابلس ففتحها بعد حصار دام شهراً، كما فتح (صبراته)، و (شروس) ومنعه عمر بن الخطاب أن يتقدم أكثر من ذلك إلى جهة الغرب.

٢ ـ الجبهة الشرقية: كان الفرس على خلاف فيمن يحكمهم، كما كان الحكام على خلاف فيما بينهم، فلما غادر خالد بن الوليد العراق إلى الشام شعر الفرس بقلة من بقي من جند المسلمين هناك، فأرادوا النيل منهم، وطردهم من أرض العراق، فأرسل شهريار مالك الفرس جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل إلى المثنى بن حارثة الشيباني قائد جند المسلمين، إلا أن الفرس قد هُزموا هزيمةً منكرةً أيضاً.

طلب المثنى بن حارثة المدد من المدينة، إلا أن أخبار الصديق قد تأخرت عليه لانشغاله بقتال الشام الأمر الذي جعل المثنى يسير بنفسه إلى المدينة، وقد خلّف وراءه على المسلمين بشير بن الخصاصية، فلما وصل المثنى إلى قاعدة الحكم وجد أبا بكر في آخر عهده، وقد استخلف عمر من بعده. فلما رأى أبو بكر المثنى قال لعمر: إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه. فلما مات الصديق ندب عمر المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق، وأمر على المجاهدين أبا عبيد بن مسعود الثقفي حيث كان أول من لبى النداء، ولم يكن من الصحابة، مع العلم أن عمر لم يكن ليولي إلا من كان صحابياً، وعندما سئل في هذا الأمر أجاب: إنما أؤمر أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً. وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وسار المجاهدون إلى العراق.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الوقت نفسه إلى أبي عبيدة في الشام أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد بن الوليد إلى العراق، فسيّرهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وأرسل عمر أيضاً مدداً آخر بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قوامه أربعة آلاف، فسار باتجاه الكوفة، والتقى بقائد فارس فهزمه شر هزيمة، وسقط أكثر جند الفرس في النهر.

معركة النمارق: بعث رستم جيشاً لقتال أبي عبيد فالتقى الطرفان في النمارق بين الحيرة والقادسية، وكان على خيل المسلمين المثنى بن حارثة، فهُزم الفرس، وولّوا الأدبار، وساروا إلى (كسكر) فلحقهم أبو عبيد، ثم هزمهم ثانيةً بعد أن جاءتهم قوة داعمة لنصرتهم، وفرّ الفرس إلى المدائن.

معركة الجسر: بعد أن هزم الفرس في النمارق وما بعدها اجتمعوا إلى رستم، فأرسل جيشاً كثيفاً ومعهم راية (كسرى)، وراية (أفريدون) التي تسمى (الدرفس)، وسار هذا الجيش نحو المسلمين فالتقوا، وبينهم جسر، فقال الفرس: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم، فقال المسلمون لأبي عبيد: امرهم أن يعبروا إلينا، فقال أبو عبيد: ما هم أجرأ منا على الموت بل نعبر إليهم ثم اقتحم الجسر إليهم، وجرت معركة عنيفة بين الطرفين. وكانت فيلة الفرس تؤذي المسلمين حيث تخافها خيولهم الأمر الذي جعل أبا عبيد يأمر المسلمين بقتل الفيلة فقتلوها وكان بين الفيلة فيل عظيم هجم عليه أبو عبيد، فضرب خرطومه، فاستدمى الفيل، وصرخ، وقتل أبا عبيد، وبرك فوقه، وقتل القادة الذين تولوا أمر المسلمين بعد أبي عبيد، حتى جاء دور المثنى بن حارثة في الإمارة، وكان قد ضعف أمر المسلمين، وأرادوا التراجع، وعبر بعضهم الجسر، ولتزاحمهم عليه تحطم، الأمر الذي جعل ظهور المسلمين للفرس، وبدأ القتل فيهم حتى عظم، فقتل منهم من قتل، وغرق من غرق. فجاء المثنى ووقف عند مدخل الجسر يحمي المسلمين ليقطعوا الطريق ببطء فأصلحوا الجسر وعبروا خلاله، حتى انتهوا، والمثنى وشجعان المسلمين يحمونهم. وقد وقعت هذه المعركة بعد معركة اليرموك بأربعين يوماً أي في شهر شعبان في السنة الثالثة عشرة للهجرة، واختلف الفرس ثانية على الحكم إذ خلعوا رستم، ثم عادوا فولوه، وأضافوا إليه الفيرزان، وسار الفرس إلى المدائن فلحقهم المثنى، وهزم من اعترض

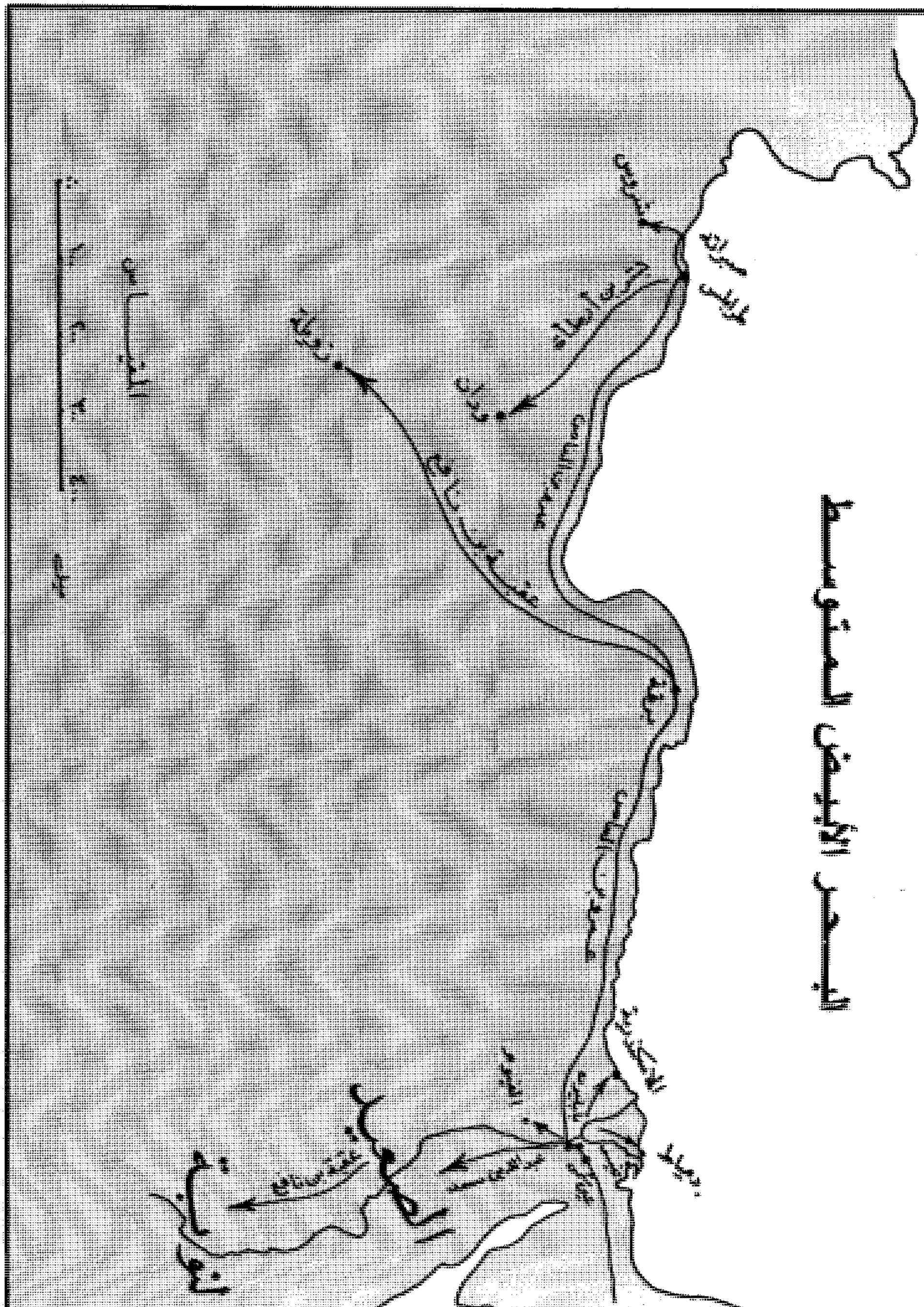
البحر الأبيض المتوسط

سبيله منهم، وأسر عدداً كبيراً ضرب أعناقهم، وطلب النجدة والمدد من أمراء المسلمين، فوافوه، كما كان قد وصل إليه جرير بن عبد الله البجلي ومن معه.

معركة البويب: لما علمت الفرس باجتماع عدد من جيوش المسلمين بعثت جيشاً كثيفاً، والتقى الطرفان في مكان يقال له (البويب) قرب الكوفة، وطلبت الفرس أن يعبر المسلمون إليهم، أو يعبرون هم إلى المسلمين، فأجاب المثنى بأن يعبر الفرس، فعبر الفرس، وجرت معركة عنيفة هُزمت فيها المجوس، وقتل منهم عدد كبير قتلاً وغرقاً في النهر، وكانت هذه المعركة عظيمة إذ اقتص فيها المسلمون من معركة الجسر، ونالوا غنائم عظيمة، وقتل فيها قائد الفرس مهران، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

وبعد معركة البويب التي أقضت مضاجع الفرس اجتمع أمراؤهم على تمليك يزدجرد بن شهريار بن كسرى، واتفقوا على ذلك فيما بينهم، وأرسلوا بالخبر إلى أتباعهم في الأمصار كافة، الأمر الذي جعل المجوس، وأنصارهم الذين صالحوا المسلمين، وأظهروا الطاعة ينقضون العهد. وأخبر المسلمون بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

حث عمر بن الخطاب المسلمين على الجهاد وخرج بنفسه على رأس الجيش من المدينة بعد أن ولّى مكانه علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان، وسادات الصحابة حتى وصل إلى ماء يقال له (الصرار) فعقد مجلساً استشارياً في الذهاب، وقد أرسل إلى علي أن يأتي من المدينة، فكلهم وافقه على رأيه إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه قال له: إني أخشى إن كسرت أن تضعف أمر المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع إلى المدينة، فمال عمر إلى هذا الرأي، ووقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص قائداً للجيش، فأوصاه، وكتب إلى المثنى بن حارثة، وجرير بن عبد الله البجلي في إطاعة سعد، كما أصبح جميع أمراء العراق تبعاً له، ولكن المثنى قد توفي قبل وصول سعد إذ انتقض عليه جرحه الذي أصابه يوم الجسر.

اجتمع المسلمون في القادسية حسبما واعدهم سعد بن وقاص بناء على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب، كما طالب الخليفة أن يكون على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، والقاص سلمان الفارسي، وكان في الجيش أكثر من ثلاثمائة من الصحابة، بينهم أكثر من سبعين من أهل بدر.

ولما بلغ سعد ماء العذيب اعترضه جيش للفرس، فهزمه، وغنم منه غنائم كثيرة. وبيدو من هذه المعارك أن المسلمين كانوا يتوغلون في أعماق العدو دون تطهير كامل للمناطق الخلفية مما يجعل الفرس يستطيعون تحريك جيوشهم إلى قرب أماكن المعارك الأولى.

معركة القادسية: ثم سار سعد حتى نزل القادسية، فمكث فيها شهراً لم ير فيه أثراً للفرس، وكان يبث سراياه في كل الجهات، فكانت تأتيه بالغنائم الأمر الذي جعل الفرس وحلفاءهم يتضايقون جداً، وأخبروا ملكهم (يزدجرد) بأنه إن لم ينجدهم فإنهم سيضطرون إلى تسليم ما بأيديهم إلى المسلمين أو يصالحونهم، وهذا ما جعل (يزدجرد) يدعو رستم، ويؤمّره على الحرب بجيشٍ كثيفٍ، وقد حاول رستم أن يعفيه الملك من ذلك، وأبدى الأعذار بأن إرسال جيش كثيف واحد إلى المسلمين فيه شيء من الخطأ، وإنما من الصواب أن يرسل جيشاً إثر آخر لإضعاف المسلمين، إلا أن الملك قد أصر على إرساله بهذا الجيش اللجب الذي يبلغ قوامه مائة وعشرين ألفاً، ويكون مثلها مدداً لها.

سار رستم وعسكر بساباط، وكان سعد يكتب في كل يوم إلى الخليفة حسب أوامره إليه، ولما اقترب رستم من المسلمين بعث إليه سعد جماعة من سادات المسلمين يدعونه إلى الله عز وجل وكان بينهم: النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان، وعطارد بن حاجب، وحنظلة بن الربيع، وعمرو بن معد يكرب. فقال لهم رستم: ما أقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا، أخذ بلادكم، وسبي نسائكم وأبنائكم، وأخذ أموالكم، ونحن على يقينٍ من ذلك. وقد تأخر رستم في الخروج من المدائن للقاء سعد في القادسية مدة أربعة أشهر عسى

أن يضجر سعد ومن معه من المسلمين، كما أن رستم كان يعتقد أن النصر سيكون حليف المسلمين لما يرى ويسمع عن معاركهم وأخلاقهم. وقد ضعفت معنويات رستم ومن معه بعد أن سمعوا كلام الوفد، وما فيه من ثقةٍ بالله ويقينٍ بالنصر.

ولما اقترب الجيشان طلب رستم من سعد أن يبعث له رجلاً عاقلاً عالماً يجيبه عن بعض أسئلته، فأرسل له سعد المغيرة بن شعبة. فقال له رستم: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إن ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ. فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً، قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم، قال: وحسن أيضاً؛ ثم قال رستم: أرأيتم إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضاً: وإن هذا الحديث قد زاد إلى إضعاف معنويات رستم والفرس، وزاد يقينهم في انتصار المسلمين، وزادت قناعتهم بهذا الدين الجديد حتى إن رستم قد ذاكر وجهاء قومه في الدخول في الإسلام، فأنفوا وأبوا فأخزاهم الله.

وحاول رستم والفرس أن يلجؤوا إلى طريق الإغراء فزينوا مجلس رستم بالنمارق المذهبة والحرير، وأظهروا اللآلئ والياقوت والأحجار الكريمة الثمينة، وزينوا الزينات العظيمة، وجلس رستم على سرير واسع من الذهب، وعليه تاج مرصع، ثم طلب رستم ثانية من سعد إرسال رجل

آخر، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فسار إليه بثياب صفيقة، وأسلحة متواضعة، وفرس صغيرة، ولم يزل راكبها حتى داست على الديباج والحرير، ثم نزل عنها وربطها في قطع من الحرير مزقها مما رأى أمامه، وأقبل على رستم وعليه سلاحه الكامل، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فنقلوا ذلك لرستم فقال: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق أكثرها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله؟ قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا! ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث الفرس في اليوم الثاني يطلبون رجلاً آخر يديدون أن يعرفوا نماذج من المسلمين، فهل كلهم على هذا اليقين وهذا الرأي؟ علهم يجدون ثغرة يستطيعون أن ينفذوا منها، فبعث إليهم سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر هو حذيفة بن محصن، فتكلم على النحو الذي تكلم فيه ربعي بن عامر.

وتكرر الطلب في اليوم الثالث فأرسل إليهم سعد ثالثاً هو المغيرة بن شعبة. فقال رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخول أرضنا مثل الذباب رأى العسل. فقال: من يوصلني إليه وله درهمان؟ فلما سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلم يجده، وجعل يقول: من يخلصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل حجراً في كرم، فلما رآه صاحب الكرم ضعيفاً رحمه فتركه، فلما سمن أفسد شيئاً كثيراً فجاء صاحب الكرم بجيشه، واستعان عليه بغلمانه فذهب ليخرجه فلم يستطع لسمنه فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا، ثم ازداد غضباً وحمقاً، وأقسم بالشمس لأقتلنكم غداً.

فقال المغيرة: ستعلم. فقال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا.

فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم؟

كان سعد بن أبي وقاص مريضاً لا يستطيع الركوب، لذا فقد جلس في القصر متكئاً على صدره فوق وسادة ينظر إلى الجيش يدبر أمره ويصدر تعليماته، وقد أعطى القيادة إلى خالد بن عرفطة، وكان على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح.

بدأت المعركة بعد الظهيرة وبعد أن صلى سعد الظهر بالناس، وخطب فيهم وحثهم على القتال، واستمر القتال حتى الليل، ثم استؤنف في اليوم الثاني ولمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع اشتد أثر الفيلة الفارسية على الجيش إذ كانت الخيول تنفر منها الأمر الذي جعل الصحابة يوجهون اهتمامهم إليها حتى قتلوها مع من عليها، وقد أبلى جرير بن عبد الله البجلي، والقعقاع بن عمرو، وطليحة الأسدي، وعمرو بن معد يكرب، وخالد بن عرفطة، وضرار بن الخطاب بلاء كبيراً، إذ كانوا يقلعون عيون الفيلة فتشرد بمن عليها، ثم تقتل، ويقتل أصحابها، فلما كان الزوال من

ذلك اليوم الذي عرف بالقادسية وهو الاثنين الرابع عشر من شهر محرم من السنة الرابعة عشرة هبت ريح شديدة على الفرس فأزالت خيامهم وما كان منهم إلا الهرب. وقد قتل القعقاع بن عمرو التميمي وهلال بن علقمة التميمي رستم قائد الفرس، وفرّت جماعة منهم، ولحقهم المسلمون حتى دخلوا وراءهم مدينة المدائن مركز الحكم ومقر يزدجرد بن شهريار. وقد قتل من الفرس في اليوم الرابع عشرة آلاف ومثلهم في الأيام السابقة، فكان مجموع القتلى عشرين ألفاً، وهو ما يقرب من ثلثي الجيش الفارسي، واستشهد من المسلمين في الأيام كلها ألفاً وخمسمائة شهيد، وغنم المسلمون غنائم كبيرة جداً، وأرسلت البشارة إلى أمير المؤمنين الذي كان في غاية الاهتمام بالمعركة حتى كان يخرج وحده أحياناً إلى خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصى الأخبار حتى جاءه النبأ. وكانت المناطق التي فيها خالد بن الوليد من قبل قد نقضت العهد، فلما كانت معركة القادسية رجع أهلها إلى عهودهم، وادعوا أن الفرس قد أجبروهم على ذلك النقض.

ثم تقدم المسلمون بإمرة زهرة بن حوية أميراً إثر أمير نحو المدائن فالتقوا بجيش فارسي فهزموه، واتجه المنهزمون نحو بابل، وانطلقت جماعة أخرى نحو نهاوند، فأقام سعد في بابل عدة أيام، ثم سار نحو المدائن، فالتقى بجيشٍ آخر من الفرس فهزمه، وفي ساباط التقى بكتائب أخرى ليزدجرد أصابها كلها ما أصاب سابقتها، وقتل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أسد يزدجرد الذي وضع في الطريق لإخافة المسلمين، وكان ذلك في نهاية السنة الرابعة عشرة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتحصن الفرس في (بهرسير) وهي قرية من المدائن لا يفصل بينها سوى نهر دجلة بعد أن هزموا أمامها، إلا أن حصارهم لم يهن من عزيمة المسلمين، وكان أن فرّ الفرس إلى المدائن، وسار المسلمون وراءهم، فلما اقتربوا منها لاح لهم القصر الأبيض قصر كسرى. وكان المسلمون قد قطعوا نهر دجلة، وكان في حالة فيضان كبير الأمر الذي جعل الفرس يخافون لقاء المسلمين ويهابونهم.

فتح المدائن: ودخل المسلمون المدائن فلم يجدوا بها أحداً بل فرّ أهلها كلهم مع الملك سوى بضعة من المقاتلة بقوا في القصر الأبيض، فدعاهم سلمان الفارسي، رضي الله عنه، ثلاثة أيام، نزلوا بعدها منه، وسكنه سعد، وجعل الإيوان مصلى وتلا حين دخوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، كما صلى الجمعة في الإيوان وذلك في شهر صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة. وأقامت أسر المسلمين في المدائن حتى فتح الله عليهم جلولاء، وتكريت، والموصل، وبعدها تحولت الأسر إلى الكوفة. وأرسل سعد السرايا تتعقب الفارين فحصلت هذه السرايا على غنائم كثيرة لم يستطع الفارون حملها فتركوها وأكثرها من ثياب كسرى ولباسه. وقد خمّس سعد الغنائم، وبعث بها إلى المدينة مع بشير بن الخصاصية، وفيها بساط كسرى، وتاجه، وسواريه، فلما رآها عمر، رضي الله عنه، قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء، فقال له علي، رضي الله عنه: إنك عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعت.

فتح جلولاء: فرّ يزدجرد من المدائن، وسار باتجاه حلوان، والتف حوله أثناء سيره عدد كثير من الفرس، فأمر عليهم مهران، وأقاموا بجلولاء، وقد تحصّنوا بها، وحفروا الخنادق حولها، فبعث سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فأمره أن يقيم هو بالمدائن وأن يرسل إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأن يكون على المقدمة القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى الميمنة سِعْر بن مالك، وعلى الميسرة عمر بن مالك، وعلى المؤخرة عمرو بن مرة الجهني، ففعل، فسار هاشم وحاصرهم، واشتد القتال، وكانت تصل النجدات إلى الطرفين، وأخيراً فتح الله على المسلمين جلولاء، وقد قتلوا من الفرس الكثير حتى

---

(١) سورة الدخان: الآيتان ٢٥ ـ ٢٩.

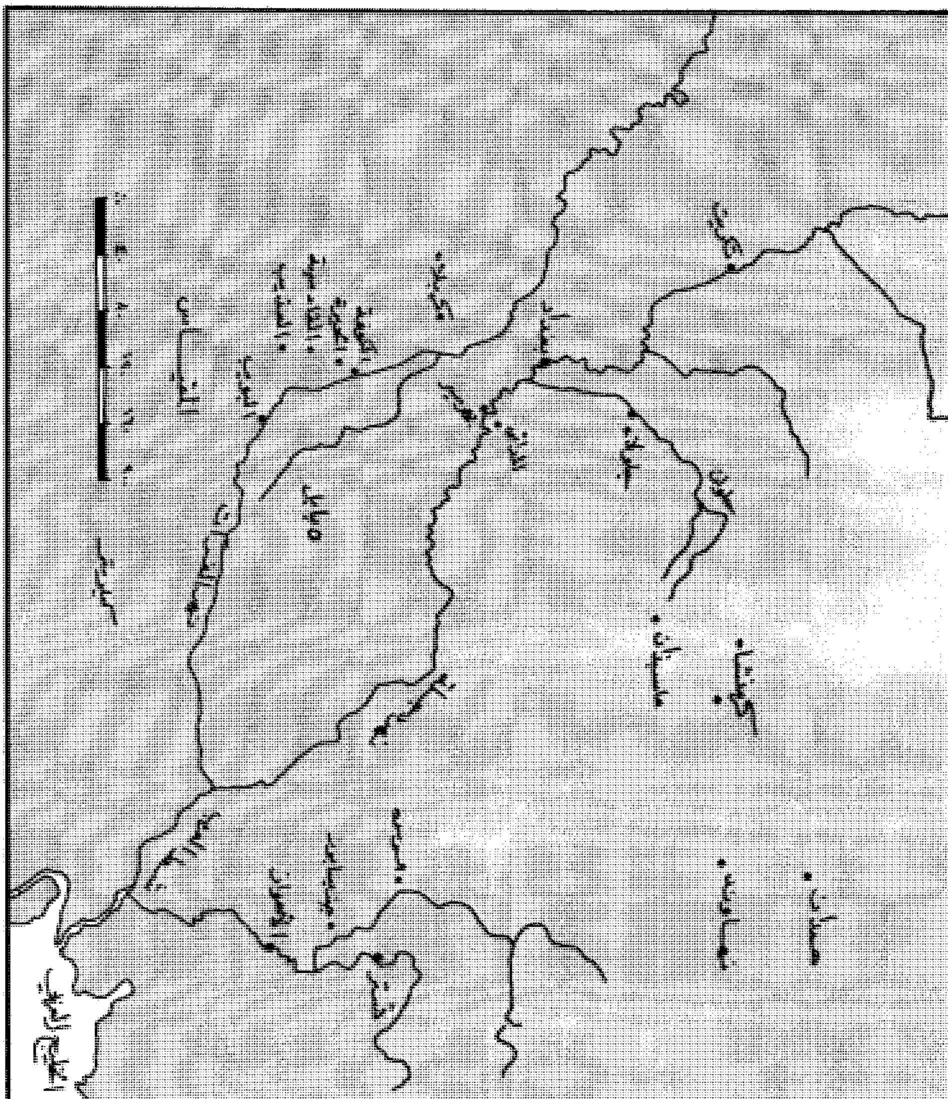

تجللت بجثثهم الأرض، وبرز من الأبطال في هذه المعركة القعقاع بن عمرو، وعمرو بن معد يكرب، وحجر بن عدي، وقيس بن مكشوح، وطليحة الأسدي.

فتح حلوان: وبعث هاشم في أثر الفرس المنهزمين القعقاع بن عمرو فكانوا يفرون من وجهه، وقد غنم الكثير أثناء تحركاته تلك. وقد كانت غنائم جلولاء لا تقل عن غنائم المدائن. وقد أدرك القعقاع مهران وقتله، ونجا الفيرزان فسار إلى حلوان، وأخبر يزدجرد فترك المدينة بعد أن ترك عليها قائداً، وسار هو إلى الري (طهران اليوم)، وسار القعقاع إلى حلوان فانتصر على حاميتها ودخلها.

فتح تكريت والموصل: في الوقت الذي سار فيه هاشم بن عتبة إلى جلولاء سار أيضاً إلى تكريت عبد الله بن المعتم على رأس جيش بأمر الخليفة أيضاً، فلما وصل إلى تكريت وجد فيها جماعة من الروم، ومن نصارى العرب، من إياد، وتغلب، وعدداً من أهل الموصل فحاصرهم أربعين يوماً نازلهم خلالها أربعاً وعشرين مرة، وانتصر فيها كلها، ثم دخل المدينة عنوة، وقد قتل جميع من فيها سوى من أسلم من الأعراب. وسار ربعي بن الأفكل بعدها إلى الموصل، واضطر أهلها إلى الصلح والتسليم، وفُرضت عليها الجزية.

فتح ماسبذان: بلغ سعداً أن جماعة من الفرس قد تجمعت في ماسبذان الواقعة على يمين حلوان على الطريق إلى همدان، فأخبر بذلك أمير المؤمنين فطلب منه أن يرسل لهم جيشاً بإمرة ضرار بن الخطاب الفهري، ففعل وانتصر عليهم، وهرب أهل ماسبذان إلى رؤوس الجبال، فدعاهم ضرار فاستجابوا له، ومنهم من أسلم، ومنهم من لم يسلم، فوضع عليه الجزية.

فتح الأهواز: تغلب الهرمزان على منطقة الأهواز، وهو من أحد بيوتات فارس المشهور وكان من الذين فروا من القادسية، وأصبح يغير على المناطق التي دانت لحكم المسلمين، فسار إليه جيشان من المسلمين،

انطلق أحدهما من الكوفة من قبل واليها عتبة بن غزوان، وسار الثاني من البصرة من قبل حاكمها أبي موسى الأشعري، وانتصر المسلمون عليه، وهذا ما أجبره على طلب الصلح، فأعطوه ذلك. ثم نقض الهرمزان الصلح بعد أن استعان بجماعة من الكرد، فبرز إليه المسلمون فهزموه فتحصن في تستر (ششتر اليوم)، إلا أن أهل المنطقة قد صالحوا المسلمين عندما رأوا إصلاح بلادهم، ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهذا ما جعل الهرمزان يطلب الصلح ثانية، ويصالح على عدد من المدن منها (تستر) و (جنديسابور)، وكان حرقوص بن زهير قد فتح سوق الأهواز. ثم نقض الهرمزان الصلح ثانيةً بناءً على تحريض يزدجرد، وبلغ الخبر عمر، فأمر أن يسير إليه جيش من الكوفة بإمرة النعمان بن مقرن، وكانت الكوفة مقر سعد بن أبي وقاص، كما أمر أن يسير جيش آخر من البصرة بإمرة سهيل بن عدي، وأن يكون على الجميع أبو سبرة بن أبي رهم، فالتقى النعمان بالهرمزان فهزمه، ففر إلى تستر فسار إليه سهيل بن عدي، كما لحقه النعمان، فحاصروه هناك، وكان أمير الحرب أبو سبرة بن أبي رهم ابن عمة رسول الله ﷺ، وقد وجد أن مع الهرمزان عدداً كبيراً من المقاتلين، فكتبوا بذلك إلى أمير المؤمنين، فطلب من أبي موسى الأشعري أن يذهب إليهم مدداً، فسار نحوهم، وحاصروا الفرس، واضطروهم إلى الاستسلام بعد فتح البلد عنوة، ولجأ الهرمزان إلى القلعة، فحاصروه، وأجبروه على الاستسلام، وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب بالمدينة مع وفد فيه الأحنف بن قيس، وأنس بن مالك.

ثم سار أبو سبرة بن أبي رهم في قسم من الجيش، ومعه أبو موسى الأشعري، والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، وساروا حتى نزلوا (السوس) فحاصروها، وكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأجابهم بأن يرجع أبو موسى الأشعري إلى البصرة، وأن يسير زر بن عبد الله بن كليب إلى جنديسابور، فسار، وبعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان إلى المدينة، ولما وصل الوفد بالهرمزان إلى المدينة اتجه إلى بيت أمير المؤمنين، فقيل

لهم: إنه بالمسجد للقاء وفد الكوفة، فانطلقوا إلى المسجد، فلم يروا فيه أحداً، ولما هموا بالعودة قال لهم غلمان يلعبون أمام المسجد: إنه نائم في زاوية المسجد، فانطلقوا فوجدوه نائماً، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فأشاروا إليه، وقد دهش لعدم وجود الحرس والحجاب كما اعتاد أن يرى في ملوك فارس وأكاسرتها.

وفُتحت السوس عنوة بعد حصار حتى طلب أهلها الصلح، وكذلك فقد فتح زر بن عبد الله جند يسابور.

وتقدم المسلمون في بلاد فارس أيام عمر بن الخطاب من جهة ثانية، فقد كان العلاء بن الحضرمي والي البحرين يسابق سعد بن أبي وقاص في الفتح، فلما كتب الله النصر لسعد في القادسية، وكان له ذلك الصدى الواسع، أحب العلاء أن يكون له النصر على فارس من جهته، فندب الناس إلى الجهاد ضد فارس، فاجتمع الجيش وعبر العلاء بن الحضرمي البحر إلى فارس من جهته وذلك دون إذن أمير المؤمنين، اتجه العلاء نحو اصطخر، إلا أن الفرس قد حالوا بين المسلمين وسفنهم، فوجد المسلمون أنفسهم بين العدو والبحر، فعملوا جهدهم وقاتلوا بقوة فنصرهم الله على عدوهم، ثم خرجوا يريدون البصرة، فلم يجدوا سفنهم، كما رأوا أن الفرس قد قطعوا عنهم الطرق، فاضطروا إلى البقاء محاصرين، ووصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتأثر جداً، وأمر بعزل العلاء، وطلب منه الالتحاق بسعد بن أبي وقاص، وطلب من عتبة بن غزوان أن ينجد العلاء، فأرسل قوة بإمرة أبي سبرة بن أبي رهم، ومعه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، والأحنف بن قيس، وحذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وكان عدد هذه القوة اثنا عشر ألفاً، وسارت هذه القوة حتى وصلت إلى مكان حصار المسلمين، وكاد القتال أن ينشب بين المحاصرين والفرس، فجاءت القوة في الوقت المناسب، وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً، ثم عاد الجميع إلى عتبة بن غزوان في البصرة.

وتجمع الفرس في مدينة نهاوند، وكان أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون في بلاد فارس الواسعة خوفاً عليهم من ضياعهم فيها، وخوفاً عليهم من الفرس، واستمر ذلك مدة حتى وصل إليه الأحنف بن قيس في الوفد الذي يسوق الهرمزان معه، فسأل عمر الأحنف بن قيس عن الأحوال، وكان عمر يخشى أن يكون المسلمون يحيفون على أهل الذمة الأمر الذي يجعلهم ينقضون العهد، فقال عمر: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم، فأجاب: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة، قال: فكيف هذا؟ فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان يتفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه: وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيل ملكهم عن فارس، ونخرجه عن مملكته وعزّ أمته: فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر: صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه.

وجاءت الأخبار إلى عمر بن الخطاب أن الفرس قد تجمعوا في نهاوند، وهذا ما جعله يأمر بالانسياح في أرض فارس، وقد رغب أن يسير هو بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، إلا أنه عندما استشار الصحابة رأوا غير ذلك، فعدل عن رأيه، وكان الذي أقنعه بذلك علي بن أبي طالب، فكتب إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده، فإذا التقوا فكل على جنده أميراً، وعلى الجميع النعمان بن مقرن فإن قتل فقيس بن مكشوح و. . . حتى سمى عدة أمراء.

وسار المسلمون نحو نهاوند ولا يزيد عددهم على الثلاثين ألفا إلا قليلاً، وكان قد تجمع فيها من الفرس ما يزيد على المائة والخمسين ألفاً، وكانت المعارك سجالا بين الطرفين مدة يومي الأربعاء والخميس، ثم انتصر

المسلمون على أعدائهم الأمر الذي جعل الفرس يدخلون المدينة ويتحصنون فيها، فحاصرهم المسلمون، ولما طال الحصار استشار النعمان رجاله فأشاروا عليه بالتراجع أمامهم حتى إذا ابتعدوا من حصونهم انقضوا عليهم، فوافق النعمان على ذلك، وأمر القعقاع أن يبدأ القتال مع الفرس وأن يتراجع أولهم ففعل فلحقه الفرس. وعندما ابتعدوا من حصونهم بدأ النعمان بالقتال ونشبت معركة حامية قتل فيها من الفرس أكثر من مائة ألف رجل، وتجلل وجه الثرى بالجثث، وسقط النعمان عن فرسه واستشهد، ولم يعلم بذلك سوى أخيه نعم، فأخفى ذلك، وأخذ الراية وسلمها لحذيفة بن اليمان فقاد المعركة إلى النهاية، وبانتهائها أعلم نعيم الجند عن مصرع قائدهم النعمان. أما قائد الفرس الفيرزان فقد فر، ولحقه القعقاع وقتله عند ثنية همدان، ودخل المسلمون نهاوند عنوة، ثم فتحوا أصبهان (جي). وفتح أبو موسى الأشعري (قم)، وقاشان، وفتح سهيل بن عدي مدينة (كرمان). ولما وصلت أخبار نهاوند إلى عمر بن الخطاب بكى بكاء مريراً على شهدائها، وكلما ذكر له شهيد زاد بكاؤه، ولما وصلوا إلى ذكر أسماء لا يعرفها بكى وقال: وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر.

ولعل المرء يستطيع هنا أن يقف وقفة على اختيار عمر للأمراء وقادة الجند، وصحيح أنه كان لا يختار إلا الصحابة، إلا أنه في الوقت نفسه كان يعين الجندي أميراً ثم لا يلبث أن يضع أميراً عليه ويعيده جندياً يقاتل تحت راية من كان بالأمس يقاتل تحت رايته، وذلك حتى لا ترتفع بإنسان نفس، وكي يشعر دائماً بالتواضع ويعرف مكانه الحقيقي، وأن قتاله إنما هو لله، وكذلك يشعر كل جندي في الجيش.

ولما فتحت نهاوند أمر عمر بن الخطاب المسلمين بالانسياح في أرض فارس، وأعطيت الأوامر لسبعة أمراء بالتوغل في أعماق فارس بغض النظر عن عدد الجيش المنطلق وبغض النظر عن عتاده وتجهيزاته وبغض النظر عن القوة التي يمكن أن يلاقيها وعددها إذ أن المسلمين لم يكونوا

ليقاتلوا بعدد أو بقوة تجهيزات وإنما بقوة الإيمان الذي يحملونه بين جوانحهم.

١ ـ سار نعيم بن مقرن إلى همدان ففتحها، واستخلف عليها يزيد بن قيس، وسار هو باتجاه الري (موقع طهران اليوم) ففتحها، ثم بعث بأخيه سويد بن مقرن بناء على أوامر الخليفة إلى قومس فأخذها سلماً، وصالح أهلها، وجاء إليه أهل (جرجان) و (طبرستان) وصالحوه. وكان نعيم قد بعث، وهو بهمدان (بكير بن عبد الله) إلى أذربيجان، ثم أمده بسماك بن خرشة ففتح بعض بلاد أذربيجان على حين كان عتبة بن فرقد يفتح البلدان من الجهة الثانية.

٢ ـ سار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب على سواحل بحر الخزر الغربية، وكان على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فصالح عبد الرحمن ملكها بعد أن أرسله إلى سراقة بن عمرو، ثم بعث سراقة إلى الجبال في تلك المناطق بكير بن عبد الله، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة، ومات هناك سراقة بن عمرو، واستخلف مكانه عبد الرحمن بن ربيعة، وأقر الخليفة ذلك.

٣ ـ سار الأحنف بن قيس على رأس جيش حتى دخل خراسان من الطبسين[١] ففتح هراة عنوة، واستخلف عليها (صحار بن فلان العبدي)، وسار نحو (مرو الشاهجان)[٢] عن طريق نهر هراة، فامتلكها واستخلف عليها (حارثة بن النعمان)، ومنها سار إلى (مرو الروذ) مع وادي (مورغاب) ليلاحق يزدجرد حيث فر إليها، ووصلت الإمدادات من الكوفة إلى

---

(١) الطبسين: قصبة ناحية في ولاية قوهستان، وهي تثنية طبس إذ هما بلدتان كل واحدة يقال لها طبس. إحداهما طبس العناب، والثانية طبس التمر، والفرس لا يتكلمون بها إلا مفردة، والعرب يثنونها، ويقال لها الطبسان إذ أنهما في موضع واحد. وتعد باب خراسان حيث تنخفض الجبال بينها وبين خراسان. وتكون ممراً ينفتح نحو هراة.

(٢) مرو الشاهجان: هي مدينة مرو قصبة خراسان، ونسبت إلى الشاهجان لأنها القصبة إذ أن معنى (جان) بالفارسية السلطان، وتفريقاً لها عن مر والروذ.

الأحنف بن قيس، وسار المدد نحو (بلخ) حيث انتقل يزدجرد إليها، واستطاع أهل الكوفة دخول بلخ، ففر يزدجرد إلى بلاد ما وراء النهر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة في بلخ، وقد نصرهم الله على عدوهم، وأصبح الأحنف سيد خراسان إذ تتابع أهلها الذين كانوا قد شذوا في مكان أو تحصنوا في مكان إلى الصلح. وكان الأحنف وهو في طريقه إلى مرو قد بعث (مطرف بن عبد الله) إلى نيسابور، كما أرسل الحارث بن حسان إلى سرخس.

عاد الأحنف إلى مرو الروذ بعد أن استخلف على (طخارستان) (ربعي بن عامر التميمي)، وكتب الأحنف إلى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح خراسان، فكتب عمر بن الخطاب إلى الأحنف «أما بعد: فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا».

٤ ـ واتجه عثمان بن أبي العاص على رأس جيشٍ إلى اصطخر، وقد اجتاز مياه الخليج العربي من البحرين ففتح جزيرة (بركاوان) ونزل أرض فارس، ففتح جور، واصطخر، وشيراز، وكان قد انضم إليه أبو موسى الأشعري بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وكان الحكم بن أبي العاص عون أخيه في فتوحاته.

٥ ـ واتجه سارية بن زنيم الكناني نحو تحشد للفرس فحاصرهم فاستنجدوا بالأكراد فأمدوهم، فتكاثر العدو على المسلمين، وأصبحوا في خطر عظيم، عندئذ التجأ سارية إلى سفح جبل واتخذ ذروته درءاً له يحمي مؤخرته، وواجه الفرس من جهة واحدة، واستطاع الانتصار عليهم. وفي هذا التحرك من قبل سارية نحو الجبل يذكر أن عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر يوم الجمعة، فعرض له في خطبته أن قال: «يا سارية الجبل... الجبل... من استرعى الذئب فقد ظلم»، ويذكر أن سارية قد سمع كما سمع المسلمون الذين يسمعون خطبة عمر ذلك الكلام في ذلك اليوم وتلك السرعة، وأن الصوت الذي سمعه يشبه صوت عمر فعدل بالمسلمين إلى الجبل، ففتح الله عليهم.

٦ ـ وسار عاصم بن عمرو التميمي على رأس قوة من أهل البصرة إلى إقليم سجستان، ففتح المنطقة، ودخل عاصمتها (زرنج) بعد حصار طويل اضطر أهلها إلى طلب الصلح، وتولى عاصم إدارة المنطقة، وعمل على توطيد الأمن فيها.

٧ ـ وسار سهيل بن عدي الخزرجي بجيش إلى كرمان ففتحها.

٨ ـ وانطلق الحكم بن عمير التغلبي بقوة إلى (مكران)، وتبعه مدد، والتقى المسلمون بأعدائهم على شاطئ نهر هناك، وعبر الفرس إلى المسلمين، ولكنهم لم يصمدوا طويلاً أمامهم، فدخل المسلمون معسكر الفرس، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفتحوا المنطقة كاملة.

٩ ـ واتجه عتبة بن فرقد إلى جهة شمال غربي بلاد الفرس ففتحها ـ كما مر معنا ـ.

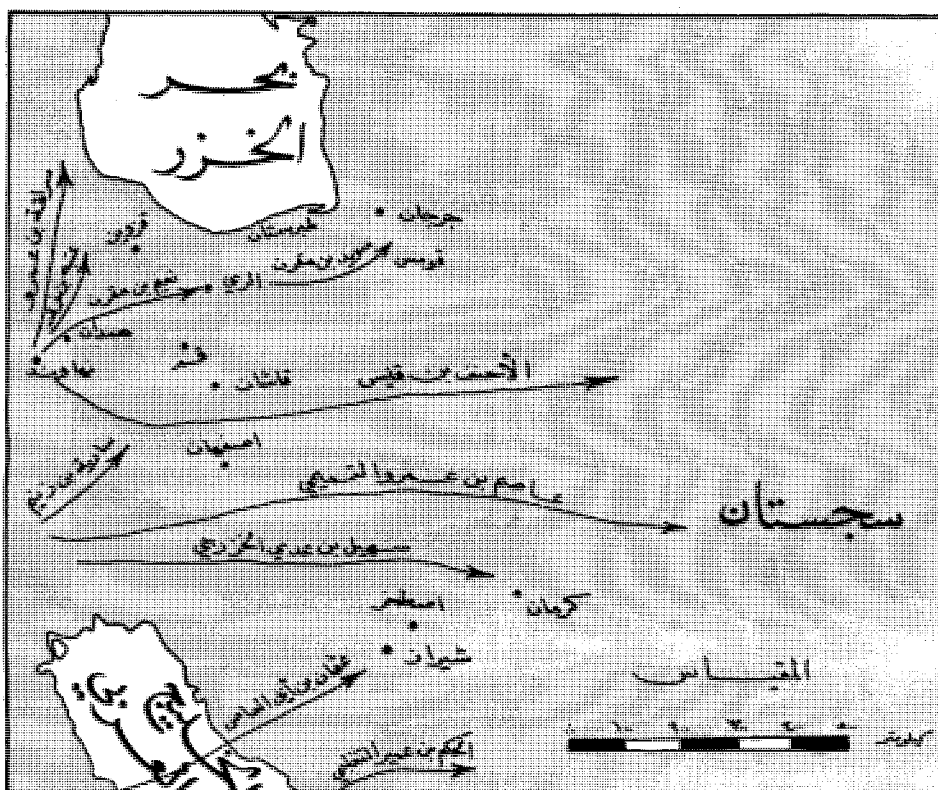

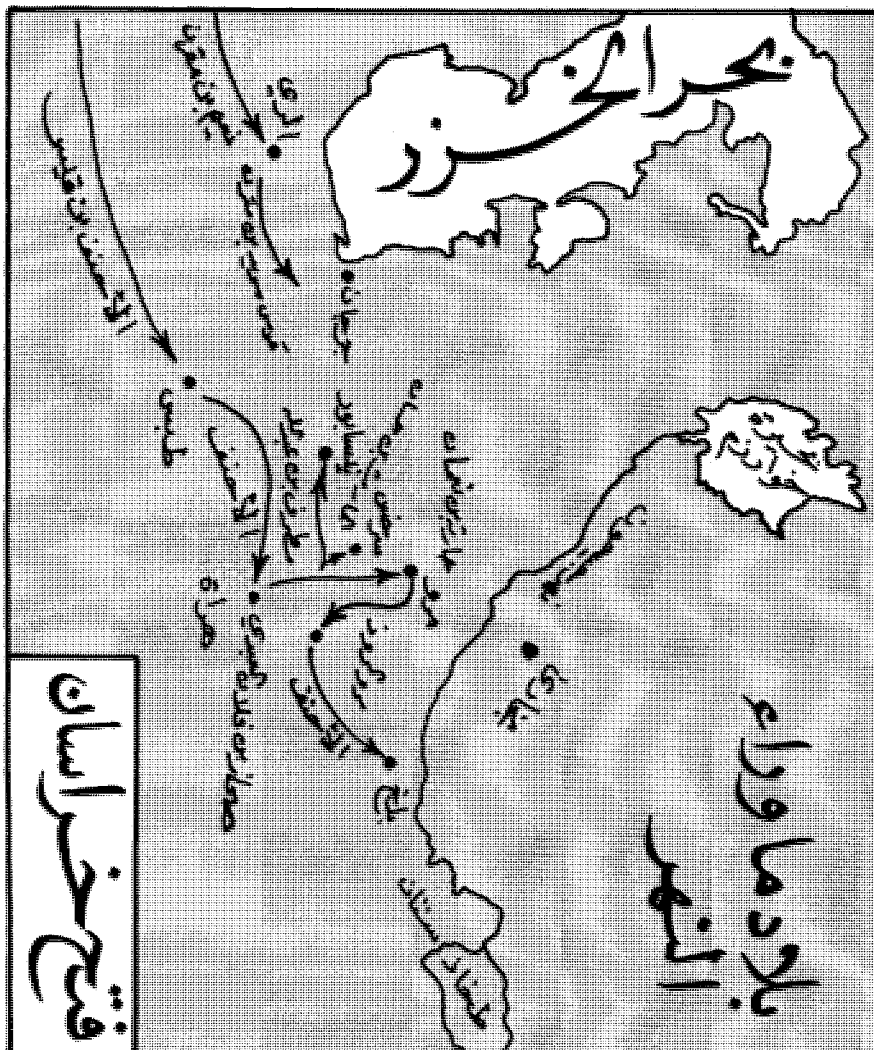
فتح خراسان
بحر الخزر
بلاد ما وراء النهر

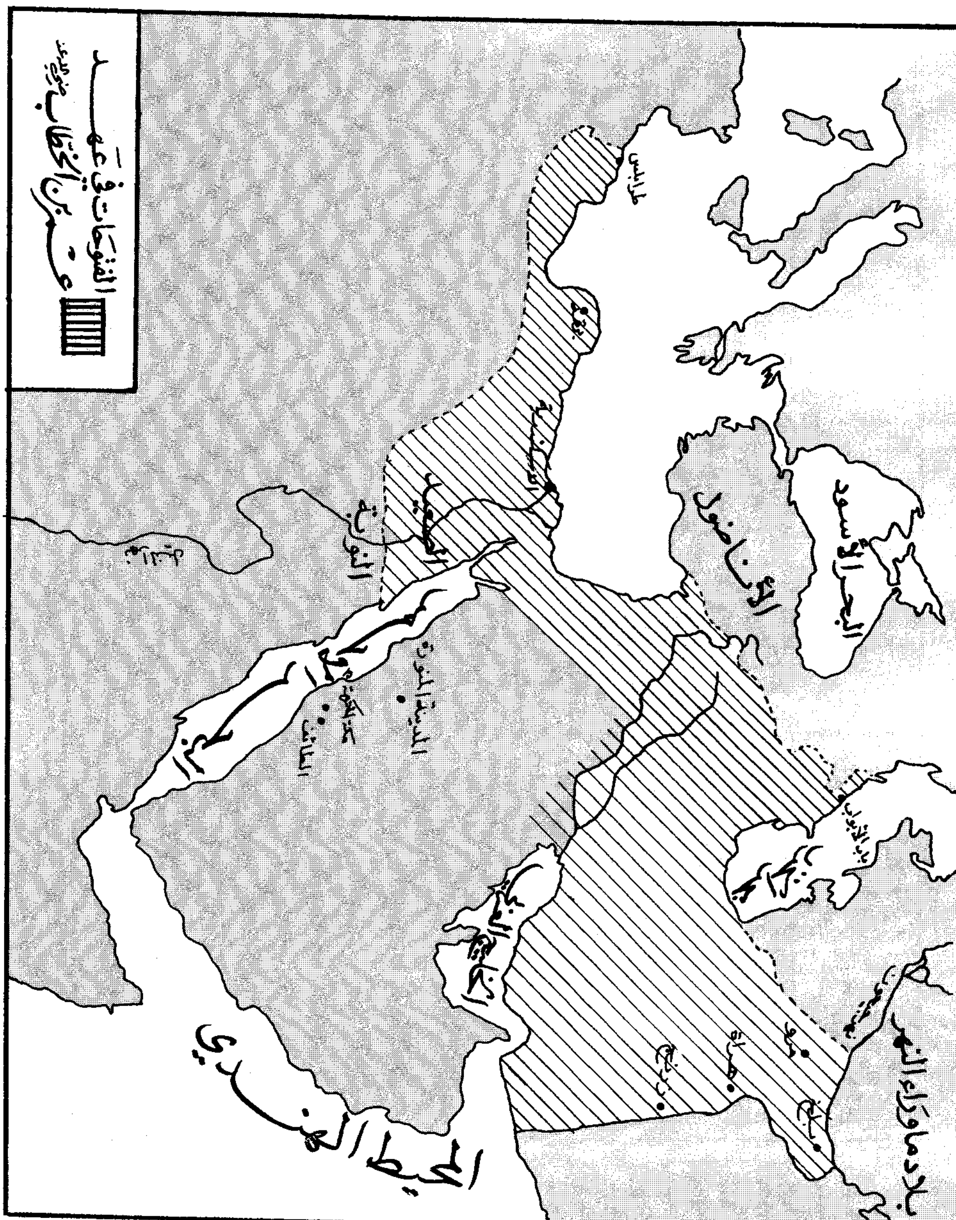
الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب
المحيط الهندي
البحر الأسود
بلاد ما وراء النهر
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الطائف
طرابلس

مَقتَل الخليفة عُمَر بن الخطّاب

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعيد النظر واسع الفكر، يخشى على المجتمع الإسلامي من التلوث، ويخاف عليه من عدم التجانس بوجود عناصر غريبة فيه، تضيع معها الرقابة، وتنتشر آراء متباينة بالاختلاط، وتكثر فيه الإساءة والنيل من مقوماته، يخشى أن يقوم الذي يأتون من خارج المجتمع من المجوس وسبي القتال بأعمال يريدون بها تهديم الكيان الإسلامي، لهذا فإنه منع من احتلم من هؤلاء دخول مدينة الرسول ﷺ، إلا أن عدداً من الفرس الذين دالت دولتهم قد أظهروا الإسلام، ودخلوا المدينة، ولا تزال عندهم من رواسب الماضي صلات مختلفة بعقيدتهم المجوسية القديمة، وارتباطات بحكومتهم السابقة، أو أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وكانت لهم مخططات رهبية تنطلق كلها من الحقد على الخليفة الذي زالت دولة الفرس على يديه، والكره للدين الجديد الذي أبدوا أنهم دانوا به، ولم تتهيأ الفرص لبعضهم بعد للتفقه في الدين والاطلاع على حقيقته، ومعرفة الخير، وكان الحاقدون من الفرس الذين لم يعد لهم مقر لدولة يلجؤون إليها، أكثر من الروم الذي بقيت لهم دولة قائمة على الأراضي التي لم يصل إليها الفتح بعد، تمكن أن يعيش عليها من ينطلق إليها، وقد فعل هذا عدد كبير من الروم الذين كانوا يسكنون في البلاد التي فتحت، وعدد غير قليل من العرب المتنصّرة الذين فارقوا أراضيهم التي كانوا عليها، وفروا من المسلمين، والتجؤوا إلى أرض الروم ودولتهم، واستمر هذا قائماً حتى بعد منتصف القرن التاسع الهجري حيث فتحت القسطنطينية، وزالت دولة الروم من الوجود. وفوق كل هذا كانت يهود الذين أظهر بعضهم الإسلام عندما غلب على أمرهم، ووجدوا ألا سبيل

للمقاومة، وأنه من الأفضل لهم التهديم من داخل الصف الإسلامي، وقد أضمر هؤلاء الحقد على الإسلام وبالأساس هم يحقدون على كل من يدين بغير عقيدتهم، وكان حقدهم على الإسلام عظيماً إذ فضح دسائسهم التي كانوا يقومون بها، وبيّن مخططاتهم التي يلجؤون إليها، وأوضح مكرهم الذي يمكرونه، لذا بذلوا جهدهم للقضاء على الإسلام وقادته. والتقى المكر اليهودي مع المخطط المجوسي للعمل على ضرب الإسلام بإثارة الفتن داخل المجتمع الإسلامي، وقتل القادة المسلمين الذي يتمكنون من قتلهم، ويبدو أن النصرانية قد أدلت بدلوها في هذا الميدان، واشتركت في هذا الأمر.

طلب المغيرة بن شعبة أمير الكوفة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يسمح لغلامه (فيروز) الذي يُدعى (أبا لؤلؤة) بدخول المدينة للعمل فيها خدمة للمسلمين حيث هو رجل ماهر يجيد عدداً من الصناعات التي تفيد المجتمع وتخدم الدولة، فهو حداد، ونقاش، ونجار، فأذن له عمر. وكان أبو لؤلؤة خبيثاً ماكراً، يضمر حقداً، وينوي شراً، يحن إلى المجوسية ولا يستطيع إظهارها، وتأخذه العصبية ولا يمكنه إبداءها، فكان إذا نظر إلى السبي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي، ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو لؤلؤة يتحين الفرص، ويراقب عمر وانتقاله وأفعاله، ويبدو أنه قد وجد أن قتل الخليفة وقت الصلاة أكثر الأوقات مناسبة له، إذ يستطيع أن يأخذه على غفلة منه، ويغدر به دون مواجهة، وكان عمر، رضي الله عنه، إذا مر بين صفوف المصلين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيها خللاً تقدّم فكبّر ودخل في الصلاة.

فلما كانت صلاة فجر الثالث والعشرين من ذي الحجة في السنة الثالثة والعشرين من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفعل عمر كعادته، فما هو إلا أن كبر حتى سمُع يقول: قتلني الكلب، وقد طعنه أبو لؤلؤة ست طعنات، وهرب العلج بين الصفوف، وبيده سكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر

رجلاً مات منهم ما يزيد على النصف، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ذلك ألقى عليه برنساً له، وأحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ لا محالة، لذا فقد أقدم على الانتحار بالسكين ذاتها. وجاء عبد الرحمن ليرى ما حلّ بالخليفة فوجده صريعاً، وعليه ملحفة صفراء قد وضعها على جرحه الذي في خاصرته، ويقول: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً). وأخذ عمر بيد عبد الرحمن فقدمه للصلاة، وفقد عمر بعد ذلك وعيه، أما عبد الرحمن فقد صلى بالناس صلاة خفيفة. وقد رأى هذا من كان على مقربة من الإمام، أما الذين كانوا في نواحي المسجد فإنهم لم يعرفوا ما الأمر، وإنما افتقدوا صوت عمر، فجعلوا يقولون: سبحان الله... سبحان الله... حتى صلى عبد الرحمن فانقطع صوت التسبيح.

فلما أفاق عمر قال: أصلى الناس؟ وهكذا لم ينقطع تفكيره بالصلاة على الرغم مما حلّ به.

قال عبد الله بن عباس: نعم.

قال عمر: لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى، وإن جرحه لينزف.

ثم احتمل إلى بيته، فقال لابن عباس ـ وكان معه ـ: اخرج، فسل من قتلني، فخرج فقيل له طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ثم طعن رهطاً معه، ثم قتل نفسه. فرجع وأخبر عمر بذلك، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط.

وخشي عمر، رضي الله عنه، أن يكون له ذنب إلى الناس لا يعلمه، وقد طعن من أجله، فدعا ابن عباس وقال له: أحب أن تعلم لي أمر الناس، فخرج إليه ثم رجع فقال يا أمير المؤمنين، ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم.

وجيء له بطبيب من الأنصار فسقاه لبناً فخرج اللبن من الجرح، فاعتقد الطبيب أنه مُنتهٍ، فقال: يا أمير المؤمنين اعهد. فبكى القوم لما

سمعوا ذلك. فقال عمر: لا تبكوا علينا، من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله عليه.

وكان عمر، رضي الله عنه، يخشى ما هو قادم عليه، فالمؤمن بين الخوف والرجاء، فيخاف عمر أن يكون قد قصر بحق الرعية ومسؤوليته، ويقول لمن كان حاضراً «وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه». وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، يريد أن يطمئنه ويخفف عنه، فيذكره بمكانه عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وأن رسول الله قد بشره بالجنة، فكان عمر يقول: «والله لوددت أني نجوت منها كفافاً لا عليّ ولا لي»، «والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر».

وقال له ابن عباس: لقد كان إسلامك عزّاً، وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً. فقال عمر: أتشهد لي بذلك يا ابن عباس؟ فقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لابن عباس: قل نعم وأنا معك.

وطلب عمر من ابنه عبد الله أن يفي ما عليه من الديون. ثم أرسله إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يستأذنها في أن يدفن بجانب صاحبيه، وقال له: قل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فمضى عبد الله فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلم عليها وقال: يقرأ عليك عمر السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده (المكان) لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

وكان عمر، رضي الله عنه، لا يريد أن يستخلف إلا أن ابنه عبد الله قد أقنعه بذلك. فعن عبد الله بن عمر أنه قال: دخلت على حفصة ونوساتها (ضفائرها) تقطر ماء فقالت: علمت أن أباك غير مستخلف؟ قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل.

فحلفت أن أكلمه في ذلك، فغدوت عليه ولم أكلمه فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، ثم قلت له إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف. أرأيت لو أنك بعثت إلى قيّم أرضك ألم تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض، قال: بلى. قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكس رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سن لي، إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلف فقد استخلف أبو بكر.

فعلمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله ﷺ وأنه غير مستخلف.

قال عمر: قد رأيت من أصحابي حرصاً شديداً، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم قال: لو أدركني أحد رجلين، فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح فإن سألني ربي عن أبي عبيدة قلت: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، وإن سألني عن سالم قلت: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله.

قال: المغيرة بن شعبة: أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر.

قال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد.

وجعلها شورى في ستة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم. وجعل

عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم، وأجّلهم ثلاثاً، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس.

وكان طلحة بن عبيد الله غير موجود آنذاك بالمدينة حيث كان مشغولاً، خارجاً ببعض أعماله. فدعا عمر القوم، وقال لهم: إني قد ظهرت لكم في أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم، فإن كان شقاق فهو منكم، وقال إن قومكم إنما يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة (لعثمان، وعلي، وعبد الرحمن) فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين، ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين. وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس. ثم قال قوموا فتشاوروا فأمّروا أحدكم.

فلما خرجوا قال: لو ولوها الأجلح (علي) لسلك بهم الطريق، فقال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدّم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وذكر عمر سعد بن أبي وقاص فقال: إن وليتم سعداً فسبيل ذاك، وإلا فليستشره الوالي فإني لم أعزله عن عجزٍ ولا خيانة.

وقال عمر: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب ـ مولى بني جدعان ـ ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه.

وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بقليل فقال له: كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك، فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم. وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد

فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم.

وقد لزم أبو طلحة أصحاب الشورى بعد دفن عمر حتى بويع عثمان بن عفان.

وبقي عمر ثلاثة أيام بعد طعنه ثم توفي يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقد غسله وكفنه ابنه عبد الله، وصلى عليه صهيب.

ويبدو أن سيدنا عمر، رضي الله عنه، سار في جعل الأمر بين رجال الشورى على غير الطريق التي كان يتبعها وهي طريقة الحسم في الأمر، إذ أن الاختيار ربما يجعل الرجل يفكر في أمر لم يكن يخطر في باله من قبل، بل ربما حدثت خلافات لم تكن لتحدث لو استخلف رجل معين فالكل يطيعون، والجميع لا يرغبون في هذا الأمر، هكذا الفطرة البشرية ترغب عند الاختيار، وتطلب حين الترشيح.

وربما ظن بعضهم أن هذه خطيئة وقع فيها سيدنا عمر، ويحاولون تخفيف ذلك الخطأ بأنه كان مصاباً ومن أجل ذلك حدث ما وقع، إلا أن التخطيط للانتخاب، ومحاولته معرفه سبب قتله، والنظرة البعيدة إلى المستقبل مع إصابته لتدل على مدى صحة تفكيره وسلامة عقله وعدم إضاعة أي شيء من النظر لمصلحة المسلمين. ولكن الخوف مما هو قادم عليه، جعله يريد أن يرفع المسؤولية عن نفسه، لقد كان يريد أن يستخلف إلا أنه خاف من تحمل التبعات وهو قادم للقاء الله عز وجل، وقد قال: لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق، ويعني علياً، ولما قال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وكان دائماً يخشى موضوع الإمارة والمسؤولية، وهذا ما جعله يقول: وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه. ونراه يقول للمغيرة بن شعبة عندما اقترح عليه استخلاف عبد الله بن عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً ولا وزر ولا أجر إني لسعيد. ونراه لا يدخل ابن عمه سعيد بن زيد في رجال الشورى على الرغم من أنه لم يبق غيره من المبشرين في الجنة خارج رجال الشورى وما ذلك إلا لقرابته منه.

وعمر إذن قد جعل الأمر في رجال الشورى من المسؤولين وتحمل العقبات والسؤال عن ذلك يوم الحساب، وحرصاً على نفسه. ولم يدخل ابن عمه، ولم يقبل ابنه نصيحة لأهله ولنفسه حتى لا يكون ذلك سنة من بعده تتخذ ذريعة في استخلاف الأبناء والأقرباء وينتقل الحكم ملكياً وراثياً، كما حدث بعد وقت حيث قامت الدولة الأموية ومن بعدها العباسية، ومع هذا فإن في ذلك خطأ حصد المسلمون نتائجه، وكان سبباً بعيداً لما وقع فيما بعد.

ويبدو أنه كان في نفسه رغبةً إلى تولية علي بن أبي طالب، ويظهر ذلك من كلامه «لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق» ويظهر ذلك من فعله، فإنه ما خرج من المدينة إلا وخلف عليها علي حتى يعود، ويلاحظ من بدئه بعلي عندما خاطبه «فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين» ـ وإن كان التقديم لا يدل على الترتيب ـ إلا أن الخوف هو الذي حمله أن يسلك هذا السلوك ويجعل الأمر شورى بين ستة نفر.

ومع هذا تعد طريقة سيدنا عمر سنة يمكن أن يؤخذ ويستأنس بها عندما يضطر إليها الخليفة، فيلجأ إليها لاختيار خليفة جديدٍ من بعده عندما

يكون الحكم إسلامياً. ويعد عمله هذا اجتهاداً ويؤجر عليه ـ إن شاء الله ـ.

وأما الذين قتلوا عمر فيبدو أنهم يمثلون جوانب متعددة تشمل الأطراف المعادية للإسلام والحاقدة عليه من مجوس، ويهود، ونصارى وربما كان لبعض زعماء الأعراب دور في الحادث، ولكن الذي قتلوا بقتله إنما هم الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة، وإن كانت بعض أصابع الاتهام تشير إلى كعب الأحبار، وعيينة بن حصن وغيرهما وهذا بعيد ـ والله أعلم ـ وكعب الأحبار صادق في إسلامه، قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين قتل عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة، والهرمزان، وهم نجيّ، فلما باغتُّهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر، فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه السيف، حتى دعا الهرمزان، فلما خرج إليه قال: انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي، وتأخر عنه حتى إذا مضى بين يديه علاه بالسيف.

قال عبيد الله بن عمر: فلما وجد حر السيف قال: لا إله إلا الله.

وقال عبيد الله: ودعوت جفينة، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه المدينة للملح الذي كان بينه وبينه، وكان يعلم الكتابة والقراءة بالمدينة. قال: فلما علوته بالسيف صلّب بين يديه. ثمّ انطلق عبيد الله فقتل ابنةً لأبي لؤلؤة صغيرة. وأراد عبيد الله ألا يترك سبيّاً يومئذ بالمدينة إلا قتله، إلا أن الصحابة قد نهروه، ثم قُبض عليه، وسُجن حتى يُنظر في أمره الخليفة الجديد.

المجتمع الإسلامي أيام عمر

لم يكن عهد الصديق طويلاً، وكان مليئاً بالأحداث الجسام التي كادت تعصف بالدولة، وقد شغل الارتداد جزءاً منه الأمر الذي جعل المجتمع الإسلامي، لم يتبلور بصورةٍ واضحةٍ إلا في أواخر ذلك العهد حيث قضي على أهل الردة، وزالت الشوائب التي عشعشت في بعض الزوايا مدة من الزمن، وبدا المجتمع جلياً في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، والتي طالت مدته نسبياً فزادت على عشر سنوات.

والسمة العامة للمجتمع الإسلامي عندما يحكمه شرعه ألا فوارق ولا طبقات توجد فيه، وإنما مساواة تامة، لا مساواة شعارات، أو مساواة نسبية حسب مراكز السلطة ومقامات الأفراد، وإنما هي مطلقة. وإذا بحثنا المجتمع على أساس أقسام، فإنما هو لإعطاء الصورة الواضحة له ومعرفة الخطوط العريضة، وليس يعني هذا أن هذه الأقسام هي طبقات متباينة يتميز بعضها عن بعض بالواجبات والمسؤولية، وإنما جميعها ذات حقوق واحدة، وواجبات واحدة، ومسؤولية واحدة، وهي أمام الشرع واحدة، لا يختلف في ذلك رأس السلطة الذي هو الخليفة عن أدنى رجل في المجتمع حتى أهل الكتاب من الذمة.

١ ـ **الخليفة**: وهو فرد من المجتمع لا يتميز عن أي فرد آخر، وقد سلمته الأمة قيادتها، وأعطته السلطة عليها، ليحافظ عليها، ويرعى حقوقها، ويتعهد أبناءها. وكان عمر يشعر بالمسؤولية التامة، ويحسّ بالعبء الثقيل الملقى على عاتقه، لذا كان دائم التفكير بالرعية، يخشى على نفسه من التقصير بواجباته فيكون حسابه عسيراً أمام الله، وهذا ما يخافه ويرهبه، لذا

فقد أجهد نفسه، فكان قليل النوم، ضئيل الطعام، بسيط اللباس، وأضنى جسمه، وأتعب أهله ومن أتى بعده، وأثقل على ولاته.

فكان مع نفسه شديد البكاء من خشية الله، فكان يمر بالآية وهو يقرأ فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء، ويُسمع نشيجه في الصلاة من آخر الصفوف. وكان أكثر الناس صياماً وصلاة.

وقال علي بن أبي طالب: رأيت عمر على قتب يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عناقاً (عنزة) ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

وكان يشعر أن الأموال التي جاءته من الفتوح إنما هي ابتلاء له واختبار، وإلا فلماذا لم تأت لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر، لذا كان يبكي ويقول: والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر إرادة الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وكان يريد أن يعرّف نفسه قدرها، فخطب الناس مرة فقال: أيها الناس! لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب. ثم نزل عن المنبر ولم يزد على ذلك. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرّفها قدرها؟

وكان إذا فعل فعلة عاد إلى نفسه فحاسبها على تلك الفعلة فإن راقت له قضي الأمر، وإلا بدأ يعاتب نفسه ويقرّعها ويبكي على ما فعل. فقد قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأعدني على فلان فإنه قد ظلمني. فرفع عمر الدرة

فخفق بها رأس الرجل وقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرّض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني أعدني! فانصرف الرجل وهو يتذمّر، فقال عمر: عليّ بالرجل: فألقى إليه المخفقة وقال: امتثل (اضربني كما ضربتك). فقال الرجل: لا والله ولكن أدعها لله ولك. قال عمر: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك. قال: أدعها لله. فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه، فصلى ركعتين وجلس فقال: يا ابن الخطاب! كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

وكان خشن الطعام لا يأكل إلا أدماً واحداً، ويترك الطيبات والاستمتاع بها في الحياة الدنيا، ويخاف الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، ويريد ألا يأكل إلا ما يستطيع أكله فقراء المسلمين.

عن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر: أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ ما تخاف الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

ودخل على ابنته حفصة أم المؤمنين فقدّمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد؟ لا آكله حتى ألقى الله عز وجل.

وقدم الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً.

وكانت ثيابه مرقعة، ونعله مخصوقة، لا يلبس الخز. لذا كانت حياته على نفسه قاسية، وعندما خطب إلى عائشة، أم كلثوم بنت أبي بكر،

رضي الله عنهم، وهي صغيرة، قالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إنه خشن العيش شديد على النساء. وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً.

وكان مع أهله شديداً: فكان إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر.

ويمنع أهله أن يتدخلوا في أمر من أمور المسلمين، كما يمنعهم في الربح في التجارة إذ يظن أن في ذلك ممالأة لهم لمكانهم منه. ويصلي بالليل حتى إذا انتصف أيقظ أهله ويتلو الآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

وكان يعاتب الولاة إذا تساهلوا على أهله ويوبخهم أشد التوبيخ، ويقيم الحد على من خالف من أهله حتى ولده، فقد روي عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال يوماً ـ وقد ذكر عمر فترحم عليه ـ: ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر، رضي الله عنه، أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد. ثم قال: والله إني لفي منزلي في مصر، إذ أتاني آت: فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. فزبرتهما وطردتهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. قال عمرو: فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود: ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله

عمر إلى العاصي بن العاصي، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليّ وخلافك عهدي، فما أراني إلا عاز لك. تضرب عبد الرحمن في بيتك، وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين. وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع. فبعث به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتاباً اعتذر فيه أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال عمر: يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟ وكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت إليه. فجعل عبد الرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي! فضربه ثانية، وحبسه فمرض ثم مات رحمه الله.

وكان مع الولاة يختار القوي الأمين منهم فليس المهم أن يكون الوالي صالحاً فقط فإن صلاحه لنفسه وضعفه يعود على الأمة، وإنما يجب أن يكون قوياً فقوته للأمة كلها وعدم صلاحه لنفسه، ولا يعطي الولاية إلا لصحابة رسول الله ﷺ، ويختار القوي منهم ويقول: إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه. وقد استعمل المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان وفي الصحابة من هو أفضل منهم أمثال عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وما ذلك إلا لقوة أولئك في العمل وخبرتهم، ولأن عمر يريد أن يُشرف عليهم، ويريد أن يهابوه، كما أنه لا يريد أن يدنس كبار الصحابة بالعمل، وقلما كان يريد أن يستعمل بني هاشم وآل البيت، ويقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم.

وكان يشترط على الولاة حين يستعملهم بأن لا يظلموا أحداً في

جسمه ولا في ماله، ولا يستغلّ منصبه في فائدة خاصة أو مصلحة له أو لأهل بيته، ويكتب بذلك كتاباً للوالي ويشهد عليه عدداً من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار. ويقول للوالي: إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، وإنما أستعملك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل.

وكان يراقب الولاة، ويتدخل في طعامهم، وشرابهم، ولباسهم، ومسكنهم، أي كانت بيده السلطة كلها، وإضافة إلى ذلك يطلب من عماله أن يوافوه في كل موسم حج. كما يسأل الناس عن ولاتهم، وتمسكهم بالشرع، وحكمهم بالعدل، ويستمع إلى شكوى الناس على أمرائهم. وكان محمد بن مسلمة، رضي الله عنه، يعد من كبار المحققين مع الولاة إذا سمع عن أحدهم شيئاً. فقد أرسله للتحقيق مع سعد بن أبي وقاص عامله على العراق، كما سمع شكوى على المغيرة بن شعبة؛ وعمرو بن العاص، وقدامة بن مظعون، وسعيد بن عامر، وعياض بن غنم وغيرهم، ولعل أشهر شكوى وأبلغها ما كان على عمرو بن العاص والي عمر على مصر.

قال أنس: كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك! قال: وما لك؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال: فرسي ورب الكعبة. فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة. فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عمراً أباه، وخشي أن آتيك فحبسني في السجن، فانفلت منه، وهذا حين آتيتك. فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس. ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك. فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟

قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟

فقدم على عمر.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري؟

قال: ها أنذا.

قال: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينتزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال عمر: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني.

قال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. أيا عمرو! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

فجعل عمرو يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا.

ثم التفت عمر إلى المصري وقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي.

وكان مع الرعية خير أمير إذ كان يمر على النساء اللواتي ذهب رجالهن إلى الجهاد، ويطلب منهن أن يذكرن حاجاتهن في البيع والشراء، ويسير إلى السوق ووراءه أولادهن وجواريهن، ويؤمن لكل صاحبة بيت طلبها. وإذا جاء البريد من الثغور أوصل الرسائل إلى أصحابها، وطلب من يقرأ هذه الرسائل لمن لا تعرف القراءة أو قرأها بنفسه إن أرادت صاحبة العلاقة، وقبل أن ينصرف يخبرهن بسير البريد، ويحدّد لهن الوقت إن كن يردن الكتابة لأزواجهن.

وإذا كان مع قوم في سفر تأخر عنهم يفتش عما نسوه، ويساعد من أبطأت به دابته، أو من أصابه حادث.

وكان يعسّ بالليل يتفقد من ينزل حول المدينة، ويحرس القوافل، ويسأل أصحاب الحاجات، فيؤمن طلبات ذوي الاستحقاق وما يجد في طريقه، وإذا دعا الأمر عاد إلى بيته فأخذ زوجته لتدخل على النساء اللواتي تستدعي حالتهن مهمةً نسائية.

قال: أسلم (غلام عمر): خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة (واقم)، حتى إذا كان بـ (صرار) إذا نار تُؤرّث (تؤجج) قال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. (كره أن يقول: يا أصحاب النار). فقالت: وعليكم السلام.

فقال: أأدنو؟ فقالت: ادن بخير أودع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟

قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذا القدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا. والله ما بيننا وبين عمر. فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم.

قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا.

فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، وقال: احمله عليّ.

قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أُمّ لك!

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذرّي عليّ وأنا أحرّ لك. وجعل ينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم. ثم أنزل القدر، وقال: أبغني شيئاً.

فأتته بصفحةٍ فأفرغ القدر فيها، وجعل يقول ها أطعميهم وأنا أسطح لهم (أبرد لهم).

فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام، وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا أولى من أمير المؤمنين. فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ـ إن شاء الله ـ ثم تنحى ناحيةً عنها، ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟.

فلا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا، وهدؤوا.

فقام يحمد الله ثم أقبل علي فقال: يا أسلم. إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

وكان عمر يطوف بالأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكان يصلي الصلاة ثم يقعد، فيكلمه من يشاء، وليس على داره باب ولا حجاب.

وكان مع الجند نعم القائد فهو القائد العام للقوات الإسلامية، يعين القائد من الصحابة، ويختاره على هذا الأساس، وقد عيّن أبو عبيد الثقفي لكونه أول من لبى نداء الجهاد، وقد يعزل القائد فيصبح جندياً عادياً في الجيش، ويرقي الجندي فيصبح قائداً كبيراً، وما ذلك إلا لتقدير الشجاعة والإقدام، وحتى لا يطمع القائد في منصبه، ولا يضعف الجندي لمركزه، وقد عزل خالد بن الوليد عن القيادة حتى لا ينسب له النصر، فالله هو الفعال لما يريد، وما النصر إلا من عند الله، وكاد أن يفتن بخالد بعضهم.

وكان يبعث بأوامره وتعليماته إلى القادة بصورة مستمرة، ويسأل عنهم، ويعرف كل شيء من أمرهم حتى كأنه يعيش معهم، ويذكّرهم بالله

والخوف منه، والإخلاص له، ويحضّهم على القتال. ويسأل عن نتائج المعارك فإذا أبطأ عليه الخبر، خرج خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصىّ الأخبار، وإذا عصب الأمر يقرر الخروج بنفسه إلى ساحة القتال، ثم يستشير بذلك الصحابة كعادته عند كل قضية، وينزل عند رأيهم إذا اقتنع به. وكان يدير المعارك من مكانه الذي هو فيه على الجبهات كلها، ويرسل البريد السريع بالتعليمات، وتعيين القادة والطلائع والمقدمة والميمنة والميسرة والساقة، ويرتب الأفراد، ويوزع الأمراء على المدن وفي الجهات المقرر التوجه إليه.

وكان يفكّ أسرى المسلمين من بيت المال، ويقول: لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليَّ من جزيرة العرب.

وكان مع الذميين نعم الحاكم العادل كان يفرض على الذميين ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وركوبهم، وما عدا ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في أمور قليلة معروفة، وكان إذا أسلم الذمي سقطت عنه الجزية، وإذا ثبت أن عليه دين يستغرق ماله كله، يعفى من العشر ومن الجزية.

وكتب إلى ولاته يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة، وأوصى بأهل الذمة أن يوفى لهم عهدهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم.

ومرّ عمر بسائل شيخ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟

قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال. ثم أرسل إلى خازن

بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم.

٢ ـ **الصحابة**: كان كبار الصحابة يعيشون في المدينة، لا يسمح لهم الخليفة بالخروج منها وحتى للجهاد، فقد كفاهم جهادهم مع رسول الله ﷺ، ويريد أن يعرض عليهم الأمور التي تجد، ويستشيرهم في القضايا، ويستفتيهم في المشكلات التي تقع له وللمسلمين، فكثيراً ما كان يسأل عثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة. كما يريد منهم أن يكونوا قدوةً يحتذى بها في الوسط الذي يعيشون به.

وكان الصحابة ينصحون الخليفة، ويعيشون معه قضايا الدولة، ويرون تعبه الشديد من أجل الرعية وحرصه الكبير على مصلحة المسلمين فيقولون له: رحمك الله أتعبت من بعدك. وكانوا مع الرعية صورة مصغرة عن الخليفة فالناس جميعاً يضعونهم موضعهم، وهم يلينون لهم كما يلين عمر. كما يوجهونهم ويفقهونهم في الدين. وكانت أفضلية الصحابة بالسابقة في الإسلام، فصهيب، وسلمان أسبق وأفضل من طلقاء مكة أمثال أبي سفيان، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فيروى أن سهيل بن عمرو والحارث بن هشام كان على باب عمر، فأذن لسلمان وصهيب وأمثالهما فتمعّر وجه الحارث وقال لسهيل: ما فعل بنا الرجل، فأجابه نحن فعلنا بأنفسنا دعوا ودعينا فأجابوا وأبطأنا فهم أسبق منا وأقرب، وفي اليوم التالي جاءا إليه وقالا: عرفنا ما فعلنا بأنفسنا، فهل لنا من عمل حتى نلحق بالركب، فأشار إليهم بالغزو فخرجا مجاهدين وقد استشهدا، رضي الله عنهما[١].

أما بالمسؤولية والعدل فكان الجميع على مستوى واحد، ليس لسابق منزلة فوق منازل الآخرين ولا لغيرهم دون ذلك، والصحابة كلهم إخوة محبتهم بعضهم لبعض فوق مستوى محبة الأشقاء.

---

(١) يبدو أن الحادثة قبل أن يتولى عمر الخلافة، إذ خرجا للجهاد قبل ذلك حيث استشهد الحارث بن هشام يوم اليرموك.

٣ ـ **الرعية**: كان الناس كتلة واحدة متراصة يشعر كل من بقي في مقره أنه المسؤول عن أسر المجاهدين الذين في الغزو، وبخاصة أنه يرى الخليفة بنفسه يقوم بهذه المسؤولية، ويتحمل التبعات، وتشعر الأسر بالترابط والمودة ما دام يجمعها جامع العقيدة ويربطها رابط الموقف الواحد وهو أن الرجال في الجبهات وعلى الثغور يعملون لإعلاء كلمة الله الأبناء والأمهات والمسنون ينتظرون نتائج المعارك وحوادث الجهاد، ويُرعون الرعاية التامة من خليفتهم وأمرائهم فيقلدون، والإيمان يدفعهم إلى ذلك، والإسلام يحثهم على المودة والرحمة «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى» فما من حادثة تحدث في المجتمع إلا ويشارك فيها جميعه، فأخبار النصر سرور للجميع بل وكلهم فيه مشاركون، وعام المجاعة الذي عرف بعام الرمادة وهو عام١٨ هـ قد جاع الناس جميعاً، فاشتركوا بالضراء، وتناولوا ما عند بعضهم جميعاً، وعندما بدأت تصل الأقوات من الأمصار بدأت توزع على الأفراد في المناطق التي أصابها البلاء، وعمها الضر بلا استثناء، فكل بيت يناله ما ينال جواره بغض النظر عن الأسبقية في الإسلام والأفضلية وبغض النظر عن العقيدة التي يدين بها أبناؤه، فالمسلمون والذميون على حد سواء، ينال الجميع الخير كما أصاب الجميع الضر.

٤ ـ **الذميون**: وهم أهل من أهل الكتاب من نصارى ويهود، ويضاف المجوس إليهم، وهم الذين عاهدوا المسلمين، ولم ينقضوا عهدهم، وحافظوا على مواثيقهم، فلم يأووا عدواً، ولم يراسلوا خصماً، وقد عاشوا سعداء شملهم عدل الإسلام، فأقاموا آمنين على أملاكهم وأموالهم وأبنائهم، لا يُعتدى على أحدٍ منهم، وإن حدث شيء أصاب العدل موقعه فأخذلهم حقهم ونال المعتدي جزاءه، وكانت المساواة بين الناس جميعاً وبلا استثناء، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في نواحٍ قليلة، وكانوا يدفعون الجزية، ولا تعدل ما يدفعه المسلم من زكاة، ولا يخرجون للقتال،

وهم آمنون، ولهم الحق بالتقاضي حسب شرائعهم، كما لهم الحق في التقاضي بشرع الله المطبق في المجتمع الإسلامي.

وأخيراً فإن عمر، رضي الله عنه، قد أجلاهم عن الجزيرة لما ظهر منهم، ولقول رسول الله ﷺ: «لا يجتمع في الجزيرة دينان»، أما في بقية أمصار الدولة الإسلامية فقد بقوا على سعادتهم وحريتهم.

وهكذا كان المجتمع سعيداً بكل أفراده، فاضلاً بكل سلوكه، متماسكاً بكل لبناته، تسوده المساواة، وتنطلق فيه الحرية، وتعشعش فيه المودة، وتعيش فيه الرحمة.

الباب الثالث

عثمان بن عفّان

رضي الله عنه

حيـــاته

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وبذا يلتقي برسول الله ﷺ من ناحية أبيه بعبد مناف أو بالجد الرابع، ويلتقي به من ناحية أمه أيضاً، فأم عثمان هي: أروى بنت كريز، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

ولد عثمان، رضي الله عنه، في الطائف سنة ٤٧ قبل الهجرة أي أنه أصغر من رسول الله ﷺ بست سنوات تقريباً. وكان أبوه (عفان) ثرياً صاحب تجارة، وقد مات في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام من أجل التجارة، وتوفي فيها. وخلّف مالاً لابنه عثمان، فأتجر به وربح، وجاد على قومه بما لديه من مال، فأحبه قومه، وقدموه، وكان وجيهاً بينهم، سيداً في قومه بني أمية، وأحد أعيان قريش كلها. وهذا كله ما حفظه لنا التاريخ من حياته في الجاهلية شأنه في ذلك شأن بقية الصحابة. ولكن تاريخهم في الإسلام معروف بكامله إذ أن الإسلام هو الذي صنعهم رجالاً من جديد فسجل التاريخ حياتهم كاملة في أنصع صفحاته.

وبعث محمد ﷺ وعثمان في الرابعة والثلاثين من عمره، ولم يلبث أن أسلم وكان من السابقين، إذ كان إسلامه قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم، بل وكان من العشرة الأوائل. وتروي الأخبار عن طريقة إسلامه، فيقال: إنه كان عائداً من الشام في تجارة له مع طلحة بن عبيد الله فسمع وهو بين النائم واليقظان منادياً يخبر ببعثة محمد ﷺ في مكة، وروى ابن حجر في الإصابة: أن سعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفان ـ وكانت تتكهن في الجاهلية ـ أخبرته بمبعث النبي ﷺ، قال عثمان:

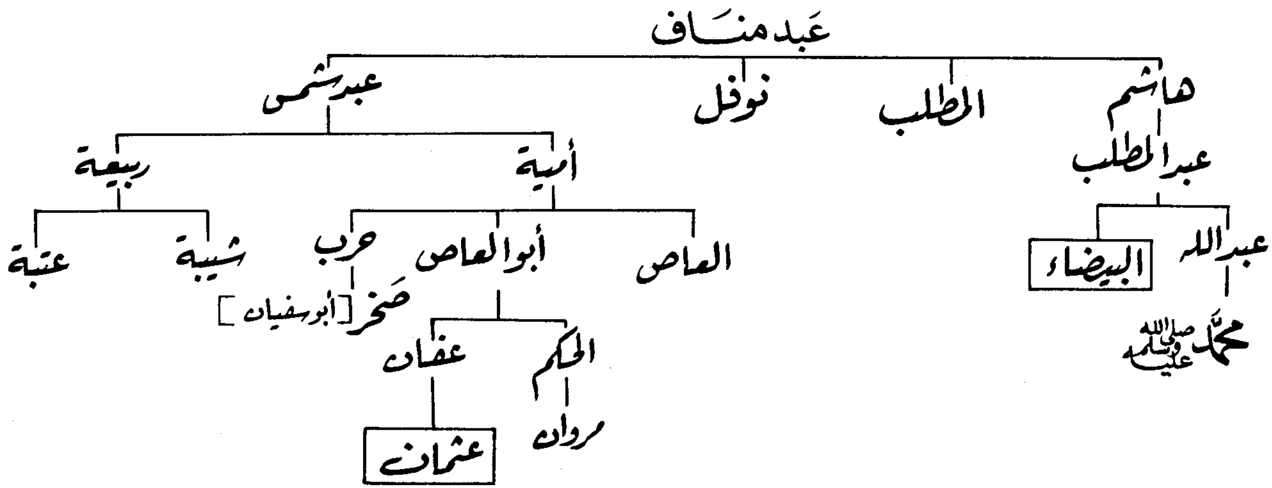
عبد مناف
هاشم
المطلب
نوفل
عبد شمس
عبد المطلب
أمية
ربيعة
عبد الله
البيضاء
العاص
أبو العاص
حرب
شيبة
عتبة
محمد صلى الله عليه وسلم
صخر [أبو سفيان]
الحكم
عفان
مروان
عثمان

فوقع كلامها من قلبي، فجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلس عند أبي بكر، فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرآني مفكراً، فسألني أمري، وكان رجلاً متأنياً، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان! إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم، لا تسمع ولا تبصر؟... قلت: بلى، إنها كذلك، فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه لتسمع منه؟ قلت: لا، فمر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب، فقام إليه أبو بكر، فساره في أذنه بشيء، فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك، وإلى خلقه، فما تمالكت نفسي حين سمعت قوله أن أسلمت.

وتأثرت قريش تأثراً كبيراً بإسلام عثمان إذ كان محبوباً من أفرادها، وله مكان بين أبنائها. وحاول عمه الحكم بن أبي العاص أن يثنيه عن إسلامه فلم يفلح، وعذّبه عذاباً شديداً، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من عزمه، ولما رآه ثابتاً على عقيدته، ماضياً في طريقه تركه وشأنه. وحاولت أمه أروى بنت كريز أيضاً أن تقنعه بالعدول عن رأيه، وتبديل خطه لكنها باءت بالفشل، واستمر هو على النهج الذي رسمه لنفسه.

وامتاز سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بناحيتين مهمتين جداً وهما: الحياء، فما كان يعرف إنسان أشد حياءً منه، حتى كان رسول الله ﷺ يستحي منه وحتى قال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة، وروى ابن عساكر أن النبي ﷺ قال: عثمان حيي تستحي منه الملائكة. أما الناحية الثانية فهي الكرم، فكان جواداً إذا لم يكن في قريش من هو أكثر منه جوداً، بل لا يوجد آنذاك من يعادله في السخاء والبذل.

وتزوج رضي الله عنه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأنجب منها ولداً اسمه عبد الله، ولكنه لم يعش طويلاً، وتوفي وعمره ست سنوات.

ولما اشتد أذى قريش على المسلمين، وهاجر بعضهم إلى الحبشة،

استأذن عثمان رسول الله ﷺ في أن يهاجر مع زوجه رقية فأذن له، وهاجر، ثم عاد إلى بلده مكة.

وعندما بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة بعد بيعة العقبة، هاجر عثمان بن عفان إليها مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ. وعندما حدثت معركة بدر الكبرى بين المسلمين وقريش لم يشهدها سيدنا عثمان، إذ كانت زوجه مريضة فبقي بجانبها يمرضها بإذن من رسول الله ﷺ، وعدّه رسول الله من البدريين، وأسهم له بينهم. وما رجع المسلمون من تلك الغزوة حتى كانت رقية، رضي الله عنها، قد توفيت، فحزن عليها عثمان أشد الحزن. وكان في الجاهلية يُكنّى بأبي عمرو، فلما أنجبت له رقية ابنه عبد الله أصبح يكنى به، ولكنه توفي صغيراً ـ كما ذكرنا ـ وتزوج بعد رقية أختها أم كلثوم، ولكنها لم تنجب له، وتوفيت أيضاً.

وتزوج فاختة بنت غزوان، وأنجبت له عبد الله الأصغر، وقد هلك. وتزوج أم عمرو بنت جندب فولدت له عمراً، وخالداً، وأبان، وعمر، ومريم. وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له سعيداً، والوليد، وأم سعيد، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك إلا أنه هلك، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة فولدت له عائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ولم تنجب له ذكوراً. وتزوج نائلة بنت الفرافصة فولدت له مريم. وبهذا يكون قد تزوج ثمان زوجات، واستشهد وعنده ثلاث هن: أم البنين بنت عيينة، وفاختة، ونائلة. ووُلد له ٩ أولاد مات ثلاثة منهم صغاراً، وهم عبد الله وعبد الله الأصغر، وعبد الملك، وعاش الباقون وهم: عمرو، وخالد، وأبان، وعمر، والوليد، وسعيد. كما ولد له ست بنات وهن: مريم، وأم سعيد، وعائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ومريم الصغرى.

وشهد عثمان، رضي الله عنه، المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي السنة السادسة سار رسول الله مع المسلمين إلى مكة ليزور البيت، ويؤدي مناسك العمرة، إلا أن قريشاً قد اعترضت سبيله، وظنت أنه قد جاء غازياً

على حين أنه قد ذهب زائراً للبيت ومعظماً له، وعلى الرغم من أن عدداً من زعماء قريش قد أقروا بذلك، ومع هذا فقد أصرّت قريش على تعنتها ورفضها، ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل أحد صحابته ليفهم قريشاً ما أتى المسلمون من أجله لتخلي بينهم وبين ما أرادوا. ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

انطلق عثمان بن عفان إلى مكة، ووصل إلى أشراف قريش، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فأجابهم رضي الله عنه «ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ». وأبلغ عثمان قريشاً ما جاء من أجله، إلا أن قريشاً استمرت على إصرارها بمنع المسلمين من زيارة البيت، واحتبست عثمان بمكة حتى طال لبثه بها على رسول الله والمسلمين، وترامى إليهم أن قريشاً، غدرت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم». وأخذ رسول الله في مبايعة أصحابه، فتمت بيعة الرضوان من أجل عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وبايع رسول الله عن عثمان بإحدى يديه الأخرى.

وروى البخاري في صحيحه قال: جاء رجل من أهل مصر، حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني أسألك عن شيء فحدثني عنه، قال: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم. قال هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبيّن لك.

أسرة سيدنا عثمان بن عفان

الزوجات	الأولاد
نائلة بنت الفرافصة	مريم الصغرى
رملة بنت شيبة بن ربيعة	أم عمرو أم أبان عائشة
أم البنين بنت عيينة بن حصن	عبد الملك
فاطمة بنت الوليد المخزومية	أم سعيد سعيد الوليد
أم عمرو بنت جندب	مريم عمر أبان خالد عمرو
فاختة بنت غزوان	عبد الله الأصغر
أم كلثوم بنت رسول الله	
رقية بنت رسول الله	عبد الله مات صغيرًا

أما فراره يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك لأجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى، هذه يد عثمان، فضرب بها على يده اليسرى، فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

ولما أراد رسول الله ﷺ السير إلى تبوك، كان الناس في ضيق، وكان الجيش مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي، فطلب رسول الله التبرع من المسلمين وأعاد الطلب، فجهز عثمان الجيش حتى لم يفقد عقالاً ولا خطاماً. ويقال: إنه قد جهزه بتسعمائة وخمسين بعيراً، وخمسين فرساً، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ، فقال رسول الله: «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم: وتوفي رسول الله وهو عنه راض».

وكان في عهد أبي بكر يعدّ الكاتب الأول للخليفة، ويعدّ ثاني اثنين في تسيير شؤون الدولة بعد عمر بن الخطاب. وكان أصاب الناس في ذلك العهد قحط، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر، فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فماذا تصنع؟ قال: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرّج الله عنكم، فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام، وتصبح في المدينة فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة براً، وزيتاً، وزبيباً، فأناخت بباب عثمان، رضي الله عنه، فلما جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس، قال: حباً وكرامة كم تربحوني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة

تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين.

وكتب عثمان لأبي بكر كتاب استخلاف عمر بيده.

وكان عثمان في عهد عمر الرجل الثاني في الدولة، فإذا أراد الناس أن يسألوا عمر شيئاً لاذوا بعثمان لمكانه منه. فهو الذي أشار على عمر بتسجيل الناس في سجلات خاصة وإنشاء الدواوين، وهو الذي أشار عليه بكتابة التاريخ الهجري بدءاً من شهر المحرم، وكان لين عثمان مع شدة عمر تعادل شدة عمر مع لين أبي بكر، لذا فلم يتغير شيء في شؤون الدولة لين مع حزم وشدة مع عطف.

خلافة عثمان بن عفان

لما دفن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن صلى عليه صهيب، جمع المقداد بن عمرو أصحاب الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وكانوا خمسة وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، ومعهم عبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله غائب، وكان أبو طلحة الأنصاري يحرسهم، ويحجبهم من أن يدخل الناس إليهم.

تداول القوم الأمر، وتكلم كل منهم بكلمة تبيّن الإشفاق على الأمة والخوف من الفرقة. ثم قال عبد الرحمن بن عوف وقد كان في البداية أول المتكلمين «أيكم يخرج منها نفسه، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها؛ فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض أمين في السماء»، فقال القوم: قد رضينا ـ وعلي ساكت ـ فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة! فقال: اعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغيّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، عليّ ميثاق ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلّي: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك، وسابقتك، وحسن أثرك في الدين ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان؛ فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ، وابن عمه، لي سابقة وفضل ـ لم

تبعد ـ فلن يصرف هذا الامر عني، ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط أحق به؟ قال: علي. ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان، فقال: علي. ثم خلا بسعد، فكلمه، فقال: عثمان، وهكذا حصر الأمر بين علي وعثمان، ولم يرد عبد الرحمن بن عوف أن يختار هو فيرجح الكفة، ويُنظر إليه أنه هو الذي اختار أو عيّن، فقد كانوا، رضي الله عنهم، يريدون أن يبتعدوا عن مثل هذه المواقف والمواطن.

ودار عبد الرحمن يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، فكان أكثرهم يشير إلى عثمان، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل، وهو ثلاثة أيام، أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار من الليل، فأيقظه فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق هذه الليلة كثير غمض! انطلق فادع الزبير، وسعداً. ويبدو أن عبد الرحمن رغب أن ينهي القضية بين أصحاب الشورى بالذات بالمناقشة، وأن يدع رأي من استشار خارجهم، وعسى أن يوفق في كسب رأي الزبير وسعد إلى جانب أحد صاحبي الأمر عثمان أو علي، وبعد اجتماعه بالزبير ثم بسعد رأى أن رأيهما لا يزال كالسابق، عندها حزم رأيه أن يأخذ البيعة لأحدهما أمام الصحابة حتى تكون أقوى وحتى لا تكون محاباة ـ معاذ الله ـ وحتى لا يستطيع أحدهما أن يعترض أو يظن شيئاً. وبعد أن صلى المسلمون الفجر في المسجد، جمع عبد الرحمن أصحاب الشورى، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى غصّ المسجد بأهله. فقام عبد الرحمن وقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم. فأبدى بعض المسلمين رأيهم فتكلم سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأعطى رأيه لصالح عبد الرحمن إذ قال: إن نراك لها أهلاً، فقال عبد الرحمن: أشيروا عليّ بغير هذا! فقام عمار بن ياسر وأيّد علياً، ووافقه المقداد بن عمرو، ثم قام عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأيد عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة. وكادت الأصوات تعلو، وعندها

وقف سعد بن أبي وقاص وقال: يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتن الناس، فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايعه، وبايع الناس جميعاً.

وهكذا استطاع عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، ألا يجعل خلافاً ولا فرقة، وألا يدخل رأي غير أصحاب الشورى الذين كانوا بجانب عثمان، وألا يقف بجانب واحدٍ من الرجلين وقد تساوت الآراء وتعادلت الأصوات، لقد استطاع هذا بمعرفة طبيعة الصحابيين الجليلين، رضي الله عنهما.

وفي اليوم الذي بويع فيه عثمان قدم طلحة بن عبيد الله أحد رجال الشورى ـ وقد كان غائباً ـ فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكل قريش راضٍ به؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيت، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه، وبايعه.

وقد أكثر الرواة في ذكر رجال الشورى وما دار بينهم في هذه الأيام الثلاثة، وظهرت التناقضات بين الرواة، كما بدا الخلاف بين الصحابة حتى إن القارئ ليشعر أولئك النخبة المختارة قد تنافسوا على الإمارة تنافس أهل هذا الزمن إن لم نقل إنهم قد سبقوهم في ذلك، وما هذا بطبيعتهم، كما لا يتفق هذا مع إيمانهم وخوفهم في تحمل التبعة وفتنة الدنيا. والواقع أن بيعة سيدنا عثمان لا تعقيد فيها ولا منافسة، لذا لم يتخلف رجل عن البيعة، ولم يعقبها أية حادثة تدعو إلى الشقاق أو يؤول بها إلى ذلك.

وصعد عثمان بعد بيعته المنبر وهو أكثر أهل الشورى كآبة، وتكلم كلمة قصيرة نصح فيها الناس وذكّرهم بالآخرة، وحذّرهم من فتنة الدنيا.

وكانت بيعته، رضي الله عنه، في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة

إلى غرة المحرم من السنة الرابعة والعشرين من هجرة رسول الله ﷺ: وكان الولاة على الأمصار كما يلي:

والي مكة المكرمة: نافع بن عبد الحارث الخزاعي.

والي الطائف: سفيان بن عبد الله الثقفي.

والي صنعاء: يعلى بن منبه، حليف بني نوفل بن عبد مناف.

والي جَنَد: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

والي الكوفة: المغيرة بن شعبة الثقفي.

والي البصرة: أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري.

والي الشام: معاوية بن أبي سفيان الأموي.

والي حمص: عمير بن سعد.

والي مصر: عمرو بن العاص السهمي.

والي البحرين: عثمان بن أبي العاص الثقفي.

الفصل الثالث

الفتوحات في عهد عثمان

لقد كان عهد عثمان، رضي الله عنه، مليئاً بالفتوحات، وهي تتمة لما كان أيام الخليفة السابق له وهو عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولقد استمرت هذه الفتوحات في البر والبحر مدة عشرة أعوام إلا أن ما حدث في العامين التاليين لها من فتنة، قد جعلها تنسى فطغت الفتنة حتى حسب الناس أن عهد عثمان لم يكن سوى فتنة واختلاف نشأت من بيعته ودامت بقية حياته التي انتهت باستشهاده.

كان أمير الشام معاوية بن أبي سفيان قد قام بغزو الروم ووصل إلى عمورية قريباً من انقرة اليوم، وكان معه من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وأبو ذر الأنصاري، وشداد بن أوس.

لقد فتح المسلمون مناطق واسعة، وكان عدد جندهم قليلاً بالنسبة إلى تلك الأراضي الشاسعة، وبالنسبة إلى أعداد أعدائهم الكبيرة، وهذا ما جعلهم لا يتركون في المناطق التي يصالحونها إلا الجند القليل، ولا يبقون في البقاع التي يفتحونها إلا العدد الضئيل، وبخاصةٍ أنه كانت هناك جبهات مفتوحة، وثغور يجب حمايتها، ومراكز يجب الدفاع عنها والتجمع فيها للإمدادات في الأوقات اللازمة، كل هذا جعل عدد المسلمين قليلاً في البلاد المفتوحة حديثاً، وجعل أهلها يشحون في دفع الجزية، ويظنون أن بمقدورهم هزيمة المسلمين وقتالهم، وأن ما حدث معهم في المرة الأولى لم يكن سوى أخطاء ارتكبوها وقد عرفوها فيما بعد، ثم يتحسرون على عزهم الزائل وأيام مجدهم الخالية، لذا كانوا يتحينون الفرص للانقضاض

على المسلمين ونقض عهودهم معهم ـ هكذا النفس البشرية ـ ومن هنا كان نقض العهد كثيراً. وقد انتهز الفرس والروم في المناطق التي دخلها المسلمون وفاة خليفتهم عمر بن الخطاب، ونقضوا العهد، وظنوا أن أمر المسلمين قد ضعف، ولكنهم فوجئوا بأن قوة المسلمين على ما هي عليه لم تختلف أيام عمر عن أيام عثمان الخليفة الجديد، وقد أدب المسلمون خصومهم مرة ثانية.

الجبهة الغربية: نقضت الإسكندرية عهدها عام ٢٥هـ، فسار إليها أمير مصر عمرو بن العاص، وقاتل أهلها، وأجبرهم على الخضوع، والعودة إلى عهدهم.

وكان عمر بن الخطاب قد منع عمرو بن العاص من الانسياح في إفريقية بعدما فتح طرابلس، إلا أن عثمان بن عفان قد سمح بذلك، وأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس قوة، فاجتاز طرابلس، واستولى على سفن للروم كانت راسية هناك على الشاطيء، ثم واصل سيره في إفريقية، والتقى بجيوشٍ للبيزنطيين عام ٢٧هـ في موقع يقال له (سبيطلة) في جنوب غربي القيروان التي لم تكن قد أسست بعد، وقد قتل عبد الله بن الزبير، وكان مع الغزاة في تلك الموقعة القائد البيزنطي (جرجير)، وكان ذا أثر فعّال في الانتصار الذي أحرزه المسلمون على الروم، إلا أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد اضطر إلى عقد معاهدة للصلح مع البيزنطيين مقابل جزية سنوية يدفعونها على أن يخلي إفريقية، وكان ذلك الاضطرار بسبب سيره إلى مصر لمواجهة النوبة الذين هددوا مصر من ناحية الجنوب.

وفي أيام عمر بن الخطاب ألح أمير الشام معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه؛ فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد

فيه اليقين قلةٌ، والشك كثرةٌ، هم فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً). فلما ولي عثمان لم يزل به معاوية؛ حتى عزم على ذلك بأخرة، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تُقرع بينهم، خيّرهم؛ فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي[1] حليف بني فزارة.

غزا معاوية قبرص وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك عام ٢٨هـ، وساعد أهل مصر في تلك الغزوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما وصل إلى قبرص، كان معاوية على الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وكانت مع عبادة بن الصامت زوجه أم حرام.

وغزا حبيب بن مسلمة بعض أرض سورية التي كانت لا تزال بيد الروم وذلك عام ٢٨هـ.

وفي عام ٣١هـ جرت معركة بحرية حاسمة بين المسلمين والروم بالقرب من شواطئ كيليكيا، وهي التي تعرف بذات الصواري، وعرفت بذلك لأن صواري السفن ربطت بعضها مع بعض المسلمة والرومية، وذلك بعد أن أمن بعضهم بعضاً واختار الروم قتال البحر، وكان قائد المسلمين

---

(١) غزا عبد الله بن قيس خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم، وكان هناك ناس يسألون فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من الذين كانوا يسألون إلى القرية، وقالت: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى، قالوا: ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك،، فعرفت أنه عبد الله بن قيس. فثاروا إليه، فتجمعوا عليه، وقاتلوه حتى أصيب وحده، وأفلت الملاّح حتى رجع إلى أصحابه، فتسلم الإمرة بعده سفيان بن عوف الأزدي.

أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقائد الروم الأمبراطور نفسه قسطنطين الثاني الذي كان يقود أكثر من خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد فرّ من المعركة، وهزم الروم شرّ هزيمة. وكانت صواري السفن من أشجار السرو والصنوبر وهذا ما يدل على أهمية الأشجار والغابات لكلا الطرفين، وجبال تلك الشواطئ كانت مليئة بهذه الأنواع من الأشجار.

وفي عام ٣٣هـ غزا أمير الشام معاوية بن أبي سفيان حصن المرأة من أرض الروم قرب ثغر ملاطية.

ونقضت إفريقية العهد عام ٣٣هـ فسار إليها أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ففتحها ثانية، وأجبر أهلها على الخضوع والعودة إلى دفع الجزية بعدما منعوها.

الجبهة الشرقية: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينيا، وكان أهلهما قد منعوا ما صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب، وكان على مقدمة الوليد سلمان بن ربيعة الباهلي، واضطر سكان المنطقتين إلى المصالحة من جديد.

وأمد أهل الكوفة أهل الشام بثمانية آلاف رجل بإمرة سلمان بن ربيعة الباهلي، وذلك عندما كان حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري يغزو أرمينيا من الغرب، فاجتمع له عدد كبير من جند الروم الأمر الذي أخافه وطلب المدد فأنجده الوليد بن عقبة بسلمان بن ربيعة الباهلي.

وسار أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد غازياً حتى وصل إلى فرغانة وذلك عام ٢٩هـ، كما سار في العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثي فوصل إلى كابل، وانطلق أمير كرمان عبيد الله بن معمر التميمي فوصل إلى نهر السند. وانتفض أهل اصطخر فسار إليهم عبد الله عامر بن كريز أمير البصرة، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص.

وسار أمير الكوفة سعيد بن العاص يريد خراسان ومعه الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر،

وعبد الله بن الزبير، إلا أن أمير البصرة عبد الله بن عامر قد سبقه نحو خراسان الأمر الذي جعل سعيداً يسير إلى قومس وهي لا تزال على الصلح الذي أعطته لحذيفة بن اليمان بعد معركة نهاوند، ومن قومس سار إلى جرجان فصالحه أهلها على مائتي ألف، وسار نحو الشمال حتى وصل إلى الصحراء، ولكن أهل جرجان لم يلبثوا أن كفروا واستمروا في قطع الطريق حتى تولى أمر خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.

وسار عبد الله بن عامر إلى فارس بعد أن انتفضت، فافتتحها وهرب يزدجرد إلى كرمان، فأرسل في أثره مجاشع بن مسعود السلمي ففر يزدجرد إلى خراسان، وطلب المال من مرو فمنعه، ثم التجأ إلى رجل على شاطئ نهر مورغاب يعمل في نقر أحجار الرحى فقتله.

ووصل عبد الله بن عامر إلى خراسان، وكانت قد انتفضت، وكان الأحنف بن قيس على مقدمته، ففتح طوس، وأبيورد، ونسا، وبلغ سرخس، وصالح أهل مرو، وأعاد فتح خراسان.

وفي عام ٣٢هـ كتب عثمان إلى أمير الكوفة سعيد بن العاص أن أرسل سلمان بن ربيعة الباهلي للغزو في منطقة الباب، فسار سلمان إليها، وكان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي يخوض معركة ضد خصومه، فاستشهد فيها وتفرق المسلمون هناك، فمنهم من سار إلى جيلان وجرجان ومنهم أبو هريرة، وسلمان الفارسي، ومنهم من سار نحو سلمان بن ربيعة الباهلي فحماه، وكان على الحرب مع سلمان حذيفة بن اليمان، وطلب عثمان من أهل الشام في أرمينيا بإمرة حبيب بن مسلمة أن ينجدوا سلمان بن ربيعة الباهلي في منطقة الباب ففعلوا.

وعادت خراسان فانتفضت من جديد فبعث عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ فصالح أهلها، واجتمع عليه أهل (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و (طخارستان) فانتصر عليهم بإذن الله، وصالح أهل (بلخ)، وأرسل الأقرع بن حابس إلى (الجوزجان) ففتحها. ثم عاد الأحنف إلى خراسان مرة ثالثة في عام ٣٣هـ.

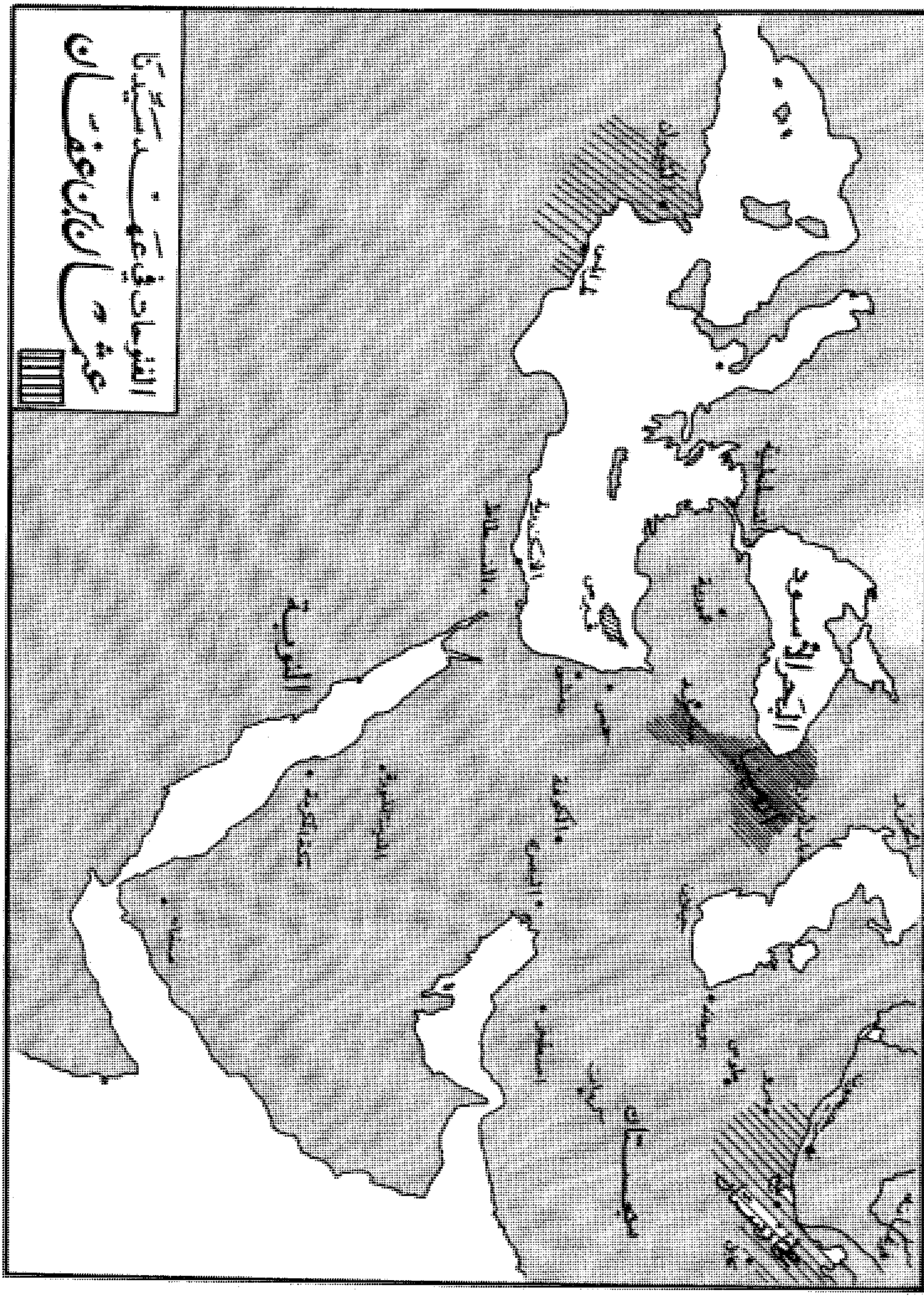

الفتوحات في عهد سيدنا
عثمان بن عفان
البحر الأسود
النوبة
الكوفة
البصرة
مكة المكرمة
دمشق
الإسكندرية

وهكذا فقد كانت الفتوحات أيام سيدنا عثمان بن عفان واسعة إذ أضافت بلاداً جديدة في إفريقية وقبرص وأرمينيا، وأجبرت من نقض العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب، وضمت هناك إضافة إلى ذلك فتوحات جديدة في بلاد السند، وكابل، وفرغانة.

المجتمع الإسلامي أيام عثمان

كان المجتمع الإسلامي أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فاضلاً ومتماسكاً، ولم يختلف يوم تولى الأمر عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إن لم نقل أن الرضا كان من عثمان أكثر من عمر للينه، وقد ملّ المجتمع الحزم، ولرفقه وقد تعب الناس من الشدة وإن حاول الكثير إظهار الخلاف الكبير بين العهدين، والرضا بعهد عمر، وإنقاص حق عهد عثمان. ولم يكن للشورى التي أوصلت عثمان إلى الخلافة أي أثر في المجتمع، إذ تمت بشكل طبيعي ودون أن يحاول أحد رجالها أن يسعى للحكم أو يعمل، فعبد الرحمن بن عوف ـ كما نعلم ـ سلخ نفسه منها، والزبير رشح غيره، وكذا سعد، ولم يبق إلا علي وهو رجل زاهد فيها من البداية إلى النهاية، وبايع عثمان كما بايع غيره، ولم يختلف أحد من المسلمين.

إلا أن المشكلة التي كثر البحث فيها هي قتل الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة على يد عبيد الله بن عمر، فالحادثة التي قتل فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جريمة سياسية اشتركت فيها أطراف متعددة من مجوس، ويهود، ونصارى... بعضهم كان يظهر الإسلام، وبعضهم من بلاد ثانية كان لهم دور في التخطيط للقتل... والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحد من جرائم القتل وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بتنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب رأيه وهواه باسم إقامة الحدود... ولما قام بالأمر عبيد الله بن عمر فلا بدّ من حسابه، ولكن الخليفة أيضاً هو الذي يحاسبه وينظر في أمره

وليس سوى ذلك، لذا فقد حُبس عبيد الله بانتظار رأي الخليفة الجديد، فلما تولى عثمان كانت هذه أول مشكلة واجهته، ولا بدّ من إقامة الحد وهو القتل، وهذا ما أشار به علي بن أبي طالب وعدد من الصحابة، وقد صعب على عدد آخر أن يقتل عمر بن الخطاب بالأمس بأيدٍ قذرةٍ واليوم يقتل ابنه، إلا أن المسلم لا يقتل بغير المسلم، وشك الناس في إسلام الهرمزان لذا فقد عرضوا على عثمان أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الدية من بيت المال وتعود، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم، وفكر بعضهم أن يقوم الخليفة بدفع الدية من ماله الخاص، وعلى كلٍ فإن الخليفة لا يمكن أن يقبل بهذا التحايل لتعطيل حدٍ من حدود الله، ولكنه دفع عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بابيه، إذ عدَّ الهرمزان مسلماً، فيقول القماذبان: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد الله فقتله، ولما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منّا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي فيه. فقلت لهم: ألي قتله؟ قالوا: نعم ـ وسبّوا عبيد الله ـ فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه فتركته لله ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم[1]. وبهذا فقد عفا صاحب الحق، وعندها قام عثمان بدفع الدية من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليهم، وقد دفع الدية لهم ثم ردت إلى بيت المال. وهكذا حلت هذه المشكلة بطريقة سليمة، وانقطع الحديث فيها، وعاد للمجتمع تماسكه ورجع فاضلاً كما كان، إلا أنه مع الزمن بدأ يفقد مقوماته تدريجياً، وهذا الأمر يعود لأسباب منها ما تتعلق بالخليفة بالذات، ومنها ما يتعلق بتغير الظروف، ومنها ما يتعلق بالسياسة التي سار عليها.

---

(١) تاريخ الطبري: الجزء الرابع.

كان عمر بن الخطاب حازماً شديداً على أمرائه وهذا ما أخاف الناس وجعل له هيبة بينهم بحيث لا يجرؤ أحد على مخالفته، فقد روى ابن الجوزي: أن عمر قدم مكة، فأقبل أهلها يسعون، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن أبا سفيان ابتنى داراً فحبس مسيل الماء ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً، فقال عمر: ارفع هذا، فرفعه ثم قال: وهذا، وهذا، حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي يجعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه[1].

وروى الطبري: أن عمر، رضي الله عنه، جاءه مال، فجلس يقسمه بين الناس فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرة، وقال: أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك.

أما عثمان فقد كان ليناً للناس الأمر الذي أطمعهم فيه، وطالبوه بأشياء كثيرة منها عزل الولاة، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى سعد بن أبي وقاص، ثم عزله وولى الوليد بن عقبة، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، ثم عزله وولى أبا موسى الأشعري. وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز. وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح. كما كان ليناً على الولاة فتطاول بعضهم عليه. فعثمان، رضي الله عنه، كان بطبعه ليناً، وعمر بطبعه حازماً.

واشتد عمر على أهله، فكان إذا نهى عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير

(١) الحادثة غير صحيحة حيث كان أبو سفيان أثناء خلافة عمر أعمى إذ فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية يوم اليرموك، والأعمى لا يستطيع أن يرفع الحجر ويضعه في مكان محددٍ.

إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، إني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا اضعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر، أما سيدنا عثمان فقد كان ليناً على أهله وأقربائه كما كان لينا للناس جميعاً، بل الأولى والأحرى أن يكون ذا رفق بذي رحمه، ويوم قامت الدولة الإسلامية كان ينفق ما شاء الله أن ينفق على الدولة وتجهيز الجيوش، وإعداد الغزو، فلما قامت الفتوحات، وجاءت الغنائم والفيء، وأصبحت الدولة بحالة غنى وثراء التفت عثمان إلى أقربائه يعطيهم ويتقرب إليهم ويقربهم، وهذا أمر محبب ومطلوب يصل الإنسان رحمه، فهذا اللين لهم قد أطمعهم فيه أيضاً، وولى بعضهم لقدرته على العمل، وكفاءتهم في الإمارة، وقد كان بعضهم صاحب ولاية من قبل عثمان، وقد عرف رضي الله عنه أنه يحب أقرباءه لدرجة كبيرة.

عندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة كانت ماديات الدولة لا تزال ضعيفة وأحوال الناس المالية لا تزال قليلة، لذا كانوا أقرب إلى الحياة البسيطة الهادئة، والرضا بكل ما يأتي، والصبر على الشدائد، وقبول أوامر الولاة والأمراء، إضافة إلى انشغالهم بالجهاد والسير إلى الثغور والانطلاق من وراء الفتوحات في سبيل الدعوة ونشر الإسلام، فلما توسعت الدولة، وجاءتها الغنائم من كل جهة، وزعت الغنائم على المقاتلين، وأعطيت الأموال إلى الناس حتى كثرت بأيديهم، وبطبيعة الحال فإن سيدنا عثمان كان يعطي ويوزع ما في بيت المال لكثرة ما يدخل، ولحاله وكرمه المعروفين، بل كان أحياناً يعطي من ماله الخاص إن لم يكن في بيت المال من فائض، وهذا ما جعل الحال تتغير تدريجياً عن أيام عمر حتى أواخر عهد عثمان حتى زادت زاوية التغير انفراجاً، ووصلت إلى درجة واسعةٍ نسبياً في نهاية أيام عثمان.

وجاءت الفتوحات وحملت العرب والمسلمين إلى الأمصار يجاهدون في سبيل الله، ومنهم من يقيم في الثغور، ومنهم من يستقر في البلاد التي مصّرت ليكون قريباً من ساحات القتال، وهناك يبتني داراً له، ويتخذ لنفسه

أسرة، وليسوا هؤلاء كلهم من صحابة رسول الله ﷺ الذين اهتدوا بهديه فساروا على نهجه وإنما كثير منهم من الأعراب من تميم، وكندة، وقضاعة، وكلب، وباهلة، وعبد القيس، وبكر بن وائل، وكانت لهم في الفتوحات يد فكانوا يشعرون بأن لهم فضلاً ما للسابقين، ولهم قوة يجب أن يحسب لها حساب، ورأي يجب أن يسمع بل ويؤخذ به، وكثرت بأيديهم الأموال ـ كما ذكرنا ـ فعندما يتوقف الغزو سيكون أمرهم صعباً، وأخذهم بالحزم مشكلة. وفي الوقت نفسه قلّ سكان المدن في الجزيرة وبخاصة مدينة الرسول ﷺ إلا أنه قد جاءها نتيجة الفتوح الموالي والأرقاء فتغيرت طبيعتها الأولى التي كانت متشابهة، وأقرب إلى البساطة وأميل إلى البداوة، فأصبحت متنوعة تنوع من جاء إليها ومختلفة باختلاف حضارات الذين دخلوا إليها، وهذا ما جعل تمازجاً بين السكان من بيئات متباينة جعلت في النهاية سياستها صعبة أو على الأقل تختلف عما كانت عليه، وينظر الناس بعضهم إلى بعض نظرات متباينة يكاد ينشأ عنها نوع من الطبقات لا يعرفها الإسلام ولا يقرّ بها، وفي هذه الأثناء تظاهر جماعات بالإسلام، وفي نفوسهم شيء يريدون أن يحققوه ومنهم عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وهو من يهود صنعاء، ومعروف ما يريده اليهود، ومعروف مكرهم، وقد رأى أن تظاهره بالإسلام يرفعه إلى مستوى المسلمين جميعاً، إذ ليس في الإسلام طبقات وفروق اللهم إلا ما كان في الأعطيات لأصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار ومن شهد بدراً، والإسلام يجب ما قبله.

كان عمر بن الخطاب قد منع كبار الصحابة من الخروج من المدينة، وأبقاهم بجانبه ليكونوا مستشارين له، وحتى يبقوا أسمى من مغريات الدنيا التي تعترض سبيلهم في البلاد المفتوحة، وخوفاً على المسلمين الذين يدخلون في الإسلام جديداً من أهل الأمصار من أن يفتنوا بهؤلاء الصحابة فيقولون: هؤلاء صحابة سيد الخلق، وصحابة رسول الله و. . . وقال لهم رضي الله عنه: كفاكم ما جاهدتم به مع رسول الله ﷺ، فلما جاء

عثمان بن عفان سمح لهم بالانسياح في أرض الله، والانطلاق أينما شاءوا، وقد زاد حالهم وكثرت أملاكهم، وبنوا الدور في الأمصار، فقد بنى الزبير بن العوام داراً له بالبصرة وغيرها في الكوفة وفي مصر، وبنى طلحة بن عبيد الله داراً له في الكوفة، وكانوا ينتقلون بين أملاكهم وضياعهم، وهذا بالإضافة إلى ما بناه عبد الرحمن بن عوف في المدينة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وارتبط أهل الأمصار بمن كان يتصل بهم ويحتك معهم من صحابة رسول الله ﷺ.

وهكذا تغير المجتمع في عهد عثمان بن عفان، إلا أنه رضي الله عنه لم يغيّر ولم يبدل، ولم يحدث جديداً، ولم يبتعد عن سيرة رسول الله ﷺ، ولا عن نهج الشيخين من قبله، وإنما لينه وحبه لأقربائه وكرمه في العطاء قد أطمع فيه فكثر القول، ووجود الموالي والأرقاء في المدينة والصحابة خارجها قد شجع أصحاب الأهواء البدء في العمل بالخفاء، وكثرة الأموال في أيدي الناس واكتفاؤهم قد جعل الألسنة تتكلم وبدأ الحديث عن الخليفة نقطة انطلاق، والتهديم في المجتمع بدء ارتكاز.

بدأت الفتنة عندما أشعلها عبد الله بن سبأ (ابن السوداء)، وهو من يهود صنعاء، وكانت أمه سوداء، لذا عُرف بذلك، وقد أسلم أيام عثمان ليستطيع التأثير على نفوس أولئك الأعراب والبداة والذين دانوا حديثاً بالإسلام من سكان الأمصار، إذا تنقل في بلدان المسلمين فبدأ بالحجاز، ثم سار إلى البصرة، ومنها إلى الكوفة، ثم إلى الشام، إلا أنه لم يستطع التأثير على أحد من أهل الشام، وبعدها أخرجوه إلى مصر حيث استقر هناك، وكان في كل مكان يحلّ فيه يتصل بالأشخاص ويتحدث إليهم ويبدي تفهمه للإسلام، ويُظهر معرفته، ويقف موقف العالم، فيقول: عجيب من يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، والله سبحانه وتعالى يقول: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد». فمحمد أحق بالعودة والرجوع من عيسى. وهكذا بدأ بالتشكيك في العقيدة، والناس على فطرتهم حديثو العهد بالإسلام في الأمصار لا يعرفون الفلسفات

والمناقشات، والبدو الذين يعيشون معهم أكثر جلافة وإذا اقتنعوا بشيء صعب استخلاصه من نفوسهم بالأمر السهل. ورأى هذا اليهودي أن علي بن أبي طالب على رأس الصحابة الذين بقوا من حيث الاحترام والتقدير، بل يعد الشخص الثاني بعد الخليفة، وله عند الشيخين مركز ووزن يستشار في كل أمر، ويدعى في كل معضلة، ويؤخذ رأيه في كل مشكلة، هذا بالإضافة إلى قرابته من رسول الله ﷺ وعلمه وفهمه، لذا رأى هذا الخبيث أن يركز على هذا الصحابي الجليل، وأن يدعو له لا حباً به وتقديراً، وإنما لبذر الفتنة في المجتمع، وحتى لا يُعرف مخططه فيظهر أنه يدعو للشك والريبة، فدعوته لأحد البارزين من الصحابة تخفي ما يضمر، وتقرّبه من نفوس بعض الرجال الذين يعرفون قدر علي. فكان يقول: إن علياً هو وصي محمد ﷺ، فإن لكل نبي وصياً. ثم انتقل بعد بذر الفتنة وإلقاء جذور البلاء في المجتمع يطعن بالخليفة نفسه وبولاته وأمرائه وأنهم دون الصحابة الأجلاء، وأنهم لم يحتلوا هذه المراكز إلا لكونهم من ذوي رحم الخليفة الذي بلغ من العمر عتياً، وأنهم قد أثروا عليه، وأصبح أداة طيعة في أيديهم، مع العلم أن إمرة المفضول تصح مع وجود الفاضل، وأن إمارة القوي المسلم خير من إمارة المؤمن التقي الورع إذا لم يكن في قوة ذاك، إضافة إلى أن أكثر ولاة سيدنا عثمان كانوا قد تسلموا الإمارة أيام سيدنا عمر...

ظهرت بذور الشر أول ما ظهرت في الكوفة إذ بدأ الحديث عن الوالي سعيد بن العاص حتى وصل إلى الخليفة، وذلك على ألسنة العوام وأولئك البداة والذين دانوا بالإسلام، ومن هؤلاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وثابت بن قيس النخعي، وكميل بن زياد النخعي، وزياد بن صوحان العبدي، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأمثالهم من أهل الصحراء والقبائل. وكان ذلك في أواخر عهد سيدنا عثمان، وبعد مرور عشر سنوات على تسلمه الخلافة، وفي عام ٣٤هـ، سُيّر هؤلاء المنحرفون من الكوفة إلى

الشام، إلا أنهم ردّوا مرة ثانية إلى الكوفة، فقالوا: إن الكوفة والشام ليستا لنا بدار، فاتجهوا إلى الجزيرة، فشدد عليهم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وسيّر الأشتر إلى المدينة، فخيّره الخليفة في المكان الذي يرغب سكناه، فاختار منطقة عبد الرحمن بن خالد، وسار إليه. وكان ابن السوداء في مصر يراسل من أثّر عليهم في كل الأمصار، ويزيد في إضرام نار الفتنة.

جمع الخليفة عثمان بن عفان أمراء الأمصار في موسم الحج عام ٣٤هـ وهم: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، واستشارهم في أمر هؤلاء المنحرفين، وما يتكلمون به، فأشير عليه بأن ينقل هؤلاء المنحرفين إلى الثغور فينشغلوا بأنفسهم كما اقترح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا. ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذلك. ولما كثر الكلام عن سعيد بن العاص أمير الكوفة، والمطالبة بأبي موسى الأشعري بدلاً عنه، استجاب الخليفة للطلب فعزل سعيداً وولّى أبا موسى مكانه، وكتب لأهل الكوفة «أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتهم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم علي حجة». وفي الوقت نفسه سار حذيفة بن اليمان غازياً إلى باب الأبواب.

لم تفد المخربين أعمال الخليفة ولينه لهم بل استمروا في تصرفاتهم وكلامهم، فأرسل الخليفة بعض الصحابة إلى الأمصار يستطلعون آراء الناس، ويعرفون أخبار المسلمين وموقفهم، فقد بعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمّار بن ياسر إلى مصر، ورجالاً آخرين سواهم، فرجع الجميع ولم ينكروا شيئاً، إلا عمّار بن ياسر فقد تأخر واستمع إلى ما كان يشاع.

وجاء وفد من مصر في رجب عام ٣٥هـ إلى الحجاز يظهرون أنهم يريدون العمرة، وفي نيتهم مناظرة الخليفة ومناقشته في المدينة لبلبة الآراء وإشعال نار الفتنة، وتمت مقابلة الخليفة، وأبدى رأيه، وأقنع الوفد خارج المدينة بنفسه أو بواسطة بعض الصحابة منهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة، ودخل بعضهم المدينة، وحضر خطبة للخليفة أثنى فيها على الوفد، واستغفر الله، وبكى وأبكى الناس، وانصرف المصريون راجعين إلا بلادهم.

إلا أن أهل مصر عندما رجعوا بدؤوا يحرّضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى والتأفف من العمال والأوضاع العامة لأن المدينة أحرى بالفوضى أن تؤثر فيها، إذ أنها مقر الدولة، ومركز الخليفة، ومكان الصحابة، ومدينة رسول الله ﷺ، ثم اتفقوا على أن يسيروا إلى المدينة في شهر شوال في ذلك العام، وأن يكون مسيرهم مع الحجاج لمغافلة الصحابة، وإمكانية نشر الفساد على نطاق أوسع. وانطلق أهل مصر وعددهم ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل، وفي الوقت نفسه انطلق أهل الكوفة، وأهل البصرة، وقد خرجت كل جماعة على شكل فرق أربع، وعلى كل فرقة أمير، وعلى الجميع أمير، فالأمر يبدو على تخطيط وتنظيم واحد دقيق، وكان على أهل مصر الغافقي بن حرب العكي، ومعهم ابن السوداء، وهم يريدون البيعة لعلي بن أبي طالب، وعلى أهل الكوفة عمرو بن الأصم، ومعهم زيد بن صوحان العبدي، وعلى أهل البصرة حرقوص بن زهير السعدي، ومعهم حكيم بن جبلة العبدي. وبمسيرهم مع الحجاج لم يعلم الأمراء عدد الناقمين، ولم يكونوا ليتصوروا أن هذه الشرذمة قادرة أو تفكر بقتل الخليفة أو تجرؤ على القيام بهذا العمل في دار الهجرة، لذا لم يبذلوا جهداً بإرسال قوة تحول دون خروجهم، أو تسير إلى المدينة لتمنع أمير المؤمنين، ووصل المنحرفون إلى مقربة من المدينة، فنزل المصريون بذي المروة، ونزل أهل الكوفة بالأعوص، واستقر أهل البصرة بذي خُشُب.

وسمع أهل المدينة بما يحدث، وأبوا أن تقتحم عليهم المدينة،

وتكلموا في الأمر، وحدّث الخليفة علياً في أن يركب ويركب معه المسلمون ليمنعوا المنحرفين من دخول المدينة عنوة ففعل وخرج معه طلحة، والزبير، ومحمد بن مسلمة، وكبار الصحابة، ولما رأى المنحرفون استعداد الصحابة للدفاع عن دار الهجرة وقع الخوف في نفوسهم، فعندما كلمهم علي أظهروا الطاعة والخضوع، وأبدوا الرغبة في العودة إلى أمصارهم والهدوء فيها، وبالفعل فقد رجعوا أدراجهم، وظنَّ علي والمسلمون أن الخطر قد زال عن دار الهجرة فعادوا إليها، ولم يستقروا فيها حتى أروعهم التكبير داخل أزقتها، ومحاصرة دار سيدنا عثمان، وعندما سألهم سيدنا علي عن سبب رجوعهم قالوا: إن الخليفة قد أرسل كتاباً لقتلنا، وأظهر أهل مصر كتاباً فيه قتل محمد بن أبي بكر، قال علي: فما بال أهل الكوفة قد عادوا؟ فقالوا: تضامنا مع رفاقنا، وكذا أهل البصرة، لكن من الذي أخبر كل فريق بما حدث مع الآخر؟ وهنا يبدو الاتفاق المسبق والتخطيط لدخول المدينة على حين غفلة من أهلها، وهنا يظهر تلفيق الكتاب الذي أظهره المصريون.

كان حصار دار عثمان يسيراً حيث كان يخرج الخليفة ويصلي بالناس، ويأتي الصحابة إليه، ويأتي إليهم. ثم بعث إلى العمال في الأمصار يأمرهم أن يرسلوا إليه الجند لينصروه، ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين، وعندما عرف المنحرفون هذا الخبر، وأن حبيب بن مسلمة قد سار من الشام، ومعاوية بن حديج من مصر، والقعقاع بن عمرو من الكوفة، ومجاشع السلمي من البصرة، وكل على رأس قوة لنصرة الخليفة تغيّر حصار الدار واشتد عمل المنحرفين.

وخرج عثمان كعادته إلى الصلاة، يوم الجمعة، وخطب، وخاطب المخربين، فقام محمد بن مسلمة فشهد على قوله فأسكته حكيم بن جبلة، وتكلم زيد بن ثابت فأسكته محمد بن أبي قتيرة، وثار الناس، وحصب بعضهم بعضاً، وأصيب عثمان، وأغمي عليه، ونقل إلى داره، وثار الصحابة وأبناؤهم ومنهم الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص، وأبو

هريرة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وأرادوا قتال المنحرفين إلا أن الخليفة قد منعهم، وأراد ألا يحدث شيء بسببه، وزار بعد ذلك عثمان كلا من علي، وطلحة، والزبير، ثم عاد فدخل بيته، وشُدّد عليه الحصار فلم يعد يخرج أبداً حتى كان يوم استشهاده رضي الله عنه.

أقام المنحرفون رجلاً منهم يصلي بالناس، وهو زعيم المصريين الغافقي بن حرب العكي، وإذا وجد علي أو طلحة صلى بالناس أحدهما. ومُنع الماء عن الخليفة، فأرسل إلى علي، وطلحة، والزبير، وعائشة، وأمهات المؤمنين فأسعفه علي، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان. وزجر علي الثائرين فلم يرعووا، وكان بين الحين والآخر يطل الخليفة بنفسه على أولئك المنحرفين المحاصرين له فيعظهم، ولكن لا يأبهون لأحد حتى أن أم حبيبة لم تستطع الوصول إليه لإسعافه بالماء، إذا ضربوا وجه بغلتها وكادت تسقط عنها، وهذا ما ألزم الناس بيوتهم لا يخرج منهم أحد إلا ومعه سيفه، إذ اختل نظام الأمن في دار الهجرة، ودخل دار عثمان بعض أبناء الصحابة فيهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن، والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة وغيرهم، وطلب منهم عثمان ألا يقاتلوا، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة.

سارت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، إلى الحج، وطلب عثمان من ابن عباس أن يحج بالناس هذا العام، وكان على الباب مع أبناء الصحابة، فأراد أن يبقى مجاهداً إلا أن عثمان أصرّ عليه فخرج إلى الحج.

وصلت الأخبار إلى المدينة بأن الأمداد قد دنت من المدينة، وأن من جاء منها من الشام قد وصل إلى وادي القرى فخاف المنحرفون، وأرادوا دخول الدار على عثمان فمنعهم من فيها: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وغيرهم، فتسوروا الدار من خوخة بينها وبين دار عمر بن حزم، ثم أحرقوا باب الدار، وسيدنا عثمان يقسم على أبناء الصحابة أن يلقوا سيوفهم حتى ألقاها بعضهم، وهجم المنحرفون على الخليفة، فضربه الغافقي بن حرب العكي

بحديدة، ثم ضرب قتيرة بن حمران زوج الخليفة نائلة التي رفعت يدها تدافع عن زوجها فقطع أصابعها، ثم ضرب الخليفة أخوه سودان بن حمران السكوني، وكذلك كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي فقتل رضي الله عنه، وقيل بل قتله عمرو بن الحمق، وقتل غلام لعثمان سودان بن حمران فقتل قتيرة الغلام، ثم قتل غلام آخر لعثمان قتيرة، ونُهبت الدار، كما نُهب بيت المال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وكان قتل الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في ١٨ ذي الحجة من عام ٣٥ من هجرة المصطفى ﷺ، وبذا تكون مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وكان عمره إذ ذاك اثنتين وثمانين سنة.

وعاد الحجاج فوجدوا خليفتهم مقتولاً رضي الله عنه، والأمن غير مستتب.

وسيدنا عثمان هو الذي اشترى بئر أرومة وجعلها للمسلمين، وجمع القرآن الكريم، وأول من وسع مسجد رسول الله ﷺ، استجابةً لرغبة رسول الله حين ضاق المسجد بأهله، وله من الفضائل الكثيرة رضي الله عنه.

الباب الرابع

عليّ بن أبي طالب

رضي الله عنه

حيـــاته

علـي بـن أبـي طـالـب رضـي الله عـنـه أمـيـر الـمـؤمـنـيـن، ابـن عـم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة، رضي الله عنها، أحد الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن أوائل الذين أسلموا.

ولد في سنة ٢٣ قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله بثلاثين عاماً، أبوه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ويكنى بأبي طالب وبذلك اشتهر، وهـو عـم رسـول الله وشـقـيـق أبـيـه، يـعـد أحـد شـيـوخ قـريـش، دافـع عـن رسول الله وحماه، ودافع عن المسلمين، ولم يسلم فمات كافراً. وأم علي هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أسلمت وهاجرت. نشأ علي في بيت رسـول الله ﷺ، إذ كـان أبـو طـالـب فـقـيـراً كـثـيـر الـعـيـال، فـكـلـم رسول الله ﷺ أعمامه في أخيهم أبي طالب ومساعدته، فذهبوا إليه، وطلبوا منه تربية بعض ولده، فقال لهم: خذوا من شئتم ودعوا لي عقيلاً، فأخذ رسول الله علياً، وأخذ العباس جعفراً.

بُعث رسول الله ﷺ فأخبر أهل بيته ومنهم علي فأسلم، ولم يبلغ العاشرة بعد، ويعد أول من أسلم من الأولاد، ومن السابقين للإسلام، ولم يعرف وثنية، فهو قد نشأ على الإسلام. ولما هاجر رسول الله ﷺ بات مكانه في فراشه، يسلم الودائع والأمانات التي كانت عند ابن عمه لأصحابها، وكان عمره قريباً من الثالثة والعشرين، ثم هاجر. ولما بدأت المعارك بين المسلمين وأعدائهم كان بطلها وأشد الناس على الخصوم. ففي السنة الثانية من الهجرة جرت معركة بدر الكبرى فكان بين المتبارزين فقتل الوليد بن عتبة، وشارك عمه الحمزة في قتل عتبة بن ربيعة، وبعد المعركة

بنى بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن في غزوة أحد بأقل من سابقتها، وكان هو وعمه حمزة في كلتيهما وكل منهما أسداً هصوراً يجول في ميدان المعركة، وأينما حمي الوطيس تجده، ثم عندما يزدحم الرجال لا يلبث أن يتفرق جمعهم ويكون هو المبدد لهم قتلاً وتشريداً. وفي غزوة الخندق وقف مع المسلمين مدافعاً وعندما قطع بعض المشركين الخندق ومنهم البطل العربي الجاهلي عمرو بن ود العامر الذي وجلت الأبطال عن منازلته تصدى له علي وقتله فكبر المسلمون، وعرف رسول الله ﷺ أن علياً قد قتل عمراً، وشهد بيعة الرضوان، وحمل لواء المسلمين يوم خيبر، وبقي في المدينة أميراً عليها يوم غزوة تبوك. وأرسله رسول الله ﷺ في السنة التاسعة وراء أبي بكر الذي حج في الناس ذلك العام ليتلو على المسلمين سورة (براءة) التي أنزلت بعد خروج المسلمين حجاجاً. توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وكان يتوكأ عليه يوم مرضه، وقد شغل بدفنه.

بايع المسلمون أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان علي من أوائل الذين بايعوا، إلا أنه شغل بتمريض زوجه فاطمة بنت رسول الله التي أصابها المرض إثر وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام، فكان يحضر الجماعة، ويعود إلى زوجه حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رسول الله ﷺ، إلا أن أبا بكر كان يدعوه ليستشيره في بعض الأمور، وبعد وفاة زوجه كان مع الصديق في كل أمر وبخاصة عندما كان أمر المرتدين والذين امتنعوا عن الزكاة وهاجموا المدينة، وتوفي الصديق وهو عنه راض.

اختار الصديق للمسلمين عمر بن الخطاب، فكان علي أول المبايعين، بل صرخ لا نقبل إلا أن يكون عمر عندما سأل أبو بكر المسلمين هل ترضون من اخترت لكم؟ وكان علي بجانب عمر وقاضيه، فعمر يقول: أبو الحسن أقضانا، وأمير المدينة إذا خرج عمر منها، والمستشار الذي يؤخذ برأيه، وقد زوج ابنته أم كلثوم لعمر، وعندما طعن عمر كان علي أحد رجال الشورى الذي اختارهم عمر ليكون أحدهم خليفة للمسلمين، وكان

عمر يقول: لو ولوها الأجلح لأخذهم على الجادة، وكان أشبه الناس بعمر في حزمه وحكمته وعدم الخوف في الله من لومة لائم.

وكان عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين بعد عمر بن الخطاب فبايعه علي، وكان بجانبه يدلي برأيه، وعثمان يستشيره، ولما حوصر عثمان بقي بجانبه، وكان أولاد علي من المدافعين عن عثمان أثناء ذلك الحصار، وبعد مقتل عثمان اختاره المسلمون أميراً لهم، فلم يقبل وأحب أن يكون وزيراً من أن يكون أميراً، إلا أن الصحابة قد أصروا عليه للخلاص من المأزق الذي وقعوا فيه، ولم يجد بداً من القبول للسبب نفسه، فقبل وهو زاهد بالإمارة، وتحمل المسؤولية وهو غير راغب بها.

واختلطت الأمور على المسلمين فاعتزل بعض الصحابة، ولم يبايع بعضهم، وكانت الشام بإمرة معاوية بن أبي سفيان، ولم يبايع حتى يستقر الوضع، فكان أن جرت معارك بين الطرفين يأسف المسلمون لها... وأخيراً استشهد عليّ، رضي الله عنه، في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ وهو يصلي الفجر على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم الحميري. وصلى عليه ابنه الحسن.

تزوج علي، رضي الله عنه، فاطمة بنت رسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ولم يتزوج غيرها أثناء حياتها، فلما توفيت في السنة الحادية عشرة، تزوج أم البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً، وعبد الله، وعثمان، وقد استشهدوا جميعهم مع أخيهم الحسين في معركة كربلاء، ولا عقب لهم سوى العباس. وتزوج ليل بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر، وقد استشهد مع أخيهما الحسين في كربلاء، ولا عقب لهما. وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت تحت أخيه جعفر، فلما استشهد في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق، وأنجبت له محمد بن أبي بكر، فلما توفي أبو بكر تزوجها علي فولدت له يحيى، ومحمد الأصغر، وعوناً، وليس لهم عقب أيضاً. وتزوج أم حبيبة بنت زمعة التغلبية وهي من سبي خالد بن الوليد حين أغار على عين التمر في

العراق، وأنجبت له عمر، وتوفي وعمره خمسة وثلاثون عاماً وله عقب، ورقية. وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية فولدت له أم الحسن، ورملة الكبرى. وتزوج أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وهي ابنة أخت فاطمة إذ أن أمها زينب الكبرى من بنات رسول الله ﷺ فولدت له محمد الأوسط. وتزوج خولة بنت جعفر الحنفية وهي من سبي خالد بن الوليد في حروب الردة فولدت له محمد الأكبر وهو المعروف بمحمد بن الحنفية.

ومات رضي الله عنه عن أربع نسوة وتسع عشر سرية، فمن بناته اللواتي لا تعرف أمهاتهن: أم هانئ، وميمونة، زينب الصغرى، رملة الصغرى، أم كلثوم الصغرى، فاطمة، أمامة، خديجة، أم الكرام، أم جعفر، أم سلمة، جمانة.

وجميع ولد علي أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، وأكثرهم قتل مع الحسين في كربلاء، وعقبه محصور في خمسة منهم هم: الحسن، والحسين عن طريق علي زين العابدين، ومحمد بن الحنفية والعباس، وعمر.

وقبره غير معروف فبعضهم يقول: إنه دفن بالكوفة، ثم نقله أبناؤه إلى المدينة، ومنهم من يقول: حمل على بعير فضل البعير، فوجده جماعة ظنوا أنه يحمل مالاً فسرقوه فلما فتحوا الصندوق وجدوا فيه جثة فدفنوها في جبل طيء، وكثرت الروايات في هذا، أما من يؤكد: إن قبره في النجف فلا سند له في ذلك.

وقد وردت أحاديث في فضائل سيدنا علي، رضي الله عنه.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

أسرة علي بن أبي طالب

▨ إشارة إلى الذين لم يعقب

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
- الحسن توفي عام ٥٠ هـ .
- الحسين استشهد في كربلاء عام ٦١ هـ .
- محسن توفي صغيراً ▨
- زينب الكبرى
- أم كلثوم تزوجها عمر بن الخطاب .

أم البنين بنت حزام الكلابية
- العباس استشهد في كربلاء .
- جعفر استشهد في كربلاء . ▨
- عبد الله استشهد في كربلاء . ▨
- عثمان استشهد في كربلاء . ▨

ليلى بنت مسعود التميمية
- عبيد الله استشهد في كربلاء . ▨
- أبو بكر استشهد في كربلاء . ▨

أم حبيب بنت ربيعة التغلبية
- عمر توفي وعمره ٣٥ سنة .
- رقية

أسماء بنت عميس الخثعمية
- يحيى ▨
- محمد الأصغر ▨
- عون ▨

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع
- محمد الأوسط ▨

خولة بنت جعفر الحنفية
- محمد الأكبر [ابن الحنفية]

أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي
- أم الحسن
- رملة الكبرى

بنات لأم أولاد

١ـ أم هانئ .
٢ـ ميمونة .
٣ـ زينب الصغرى .
٤ـ رملة الكبرى .
٥ـ أم كلثوم الصغرى .
٦ـ فاطمة .
٧ـ أمامة .
٨ـ خديجة .
٩ـ أم الكرام .
١٠ـ أم جعفر .
١١ـ أم سلمة .
١٢ـ جمانة .

بيعته

بعد مقتل سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بقيت المدينة دون أمير، وكان زعيم المنحرفين المصريين الغافقي بن حرب العكي هو الذي يدير شؤونها، وأتباعه هم الذين يسيطرون على أمورها، وأهلها وجلهم من الصحابة وأبنائهم لا يقدرون على فعل شيء، واستمر ذلك خمسة أيام، إلا أنه لا بد من خليفة ليعود الوضع إلى طبيعته، ويرجع الأعراب إلى بواديهم، ويؤوب المنحرفون إلى أمصارهم، والأمر يرجع في هذا إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لذا لا بد من اختيار أحدهم.

كان المنحرفون متفقين على الانتهاء من الخليفة السابق، وقد تم لهم ذلك، إلا أنهم غير متفقين على الخليفة الجديد، وأهواؤهم شتى، فالمصريون يميلون إلى علي بن أبي طالب، ولكنه لا يوافقهم بل ويبتعد عنهم، والبصريون هواهم مع طلحة بن عبيد الله إلا أنهم يطلبونه فلا يجدونه، والكوفيون يرغبون في الزبير بن العوام ولكنه يختفي عنهم ولا يرغب بهم. وتضايق أهل الكوفة وأهل البصرة إذ غدوا تبعاً لأهل مصر عندما لا يرغب من تميل نفوسهم إليه أن يقابلهم أو يوافقهم، وأمير المصريين هو أمير للمدينة في تلك الظروف الحرجة.

ولما لم يوافق أحد من هؤلاء الثلاثة مع المنحرفين في شيء ويرفضون الخلاف كلهم، رأوا أن يطلبوا من سعد بن أبي وقاص ذلك، وهو ممن بقي من أهل الشورى مع أولئك الثلاثة، إلا أنه ارفضّ منهم عندما عرضوا عليه ذلك، وكان قد اعتزل الأمر، وابتعد عن الجو العام، فاتجهوا إلى عبد الله بن عمر، وكان رفضه أشد من سابقه.

وأشتد الأمر على المنحرفين إذ عجزوا عن إيجاد خليفة وقد قتلوا الأمير السابق، واشتد كذلك الأمر على أهل المدينة، وقد وجدوا مدينتهم بيد المنحرفين يتصرفون فيها، وهم لا يقدرون على شيء، ورأوا أنه لا بد من خليفة يخلصهم مما هم فيه، وينقذهم مما يعانون، ويسير الأمور لتعود الحالة إلى طبيعتها، ورأوا في شخص علي بن أبي طالب الخليفة المطلوب، فهو من أهل الشورى، وابن عم رسول الله ﷺ. وله سابقة وجهاد قلما تكون لرجل آخر، وله من العلم والفقه ما يخوله ذلك، وبصورة عامة فقد كان أفضل من عليها، آنذاك، فذهبوا إليه، وطلبوا منه أن يتولى أمرهم فرفض منهم، وقال لهم: لا حاجة لي في أمركم، أن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، وأنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت.

ولما طال الوضع، وخاف المنحرفون من أن تصل جند الأمصار إلى المدينة، وتتسلم زمام الأمور، وتقبض على الثائرين قتلة عثمان وتعاقبهم وتقيم عليهم الحد، لذا كانت رغبتهم السرعة في مبايعة الناس لخليفة وهذا حق المهاجرين والأنصار، فإذا حدثت البيعة كان الخليفة على أقل تقدير منهم مضطراً لأن يأخذ برأيهم ما داموا في مركز قوتهم، ولا يستطيع أن يعاقبهم ما دامت المدينة في قبضتهم وتحت سيطرتهم، أو أن كثرتهم تحول دون أن يقوم بعمل ضدهم، أما إذا وصلت جنود الأمصار إلى المدينة فإنهم حينذاك لا يستطيعون قتالهم وبخاصة أن أهل المدينة ناقمين على قتلة عثمان الأمر الذي يجعلهم ينضمون لأهل الأمصار ويحاربون قتلة عثمان، وعندئذ تنالهم العقوبة، وينالهم القصاص، وتقام عليهم الحدود، ويختار أهل المدينة من يرغبون لا من يفكر به المنحرفون، ومن هذا المنطلق كانت السرعة في اختيار خليفة أهم نقطة يعمل لها المنحرفون، ولما لم يتم لهم ذلك هددوا أهل المدينة بقتل أهل الشورى وكبار الصحابة ومن يقدرون عليه من دار الهجرة إن لم يجدوا أحداً يوافق على قبول الخلافة، وقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً، والزبير وأناساً كثيرين.

عرض صحابة رسول الله ﷺ الأمر على علي بن أبي طالب وجاءه الناس فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا وتواعدوا في اليوم التالي فجاؤوا ومعهم طلحة، والزبير، وبايعوا علياً، وكان ذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

بايع الناس جميعاً إلا سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد وصهيب من المهاجرين، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، ورافع بن خديج، وسلمة بن وقش، وأبو سعيد الخدري، وقدامة بن مظعون ومسلمة بن مخلد، وعبد الله بن سلام من الأنصار، ومن كان قد غادر المدينة إلى مكة وأكثرهم من بني أمية أمثال سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أمام موقفين اثنين لا ثالث لهما.

الأوّل منهما: أن يصر على رفض الأمر وعدم الموافقة على البيعة، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون، ويتصرف في المدينة الأعراب والمنحرفون، بل ربما ازداد الوضع سوءاً وهو المحتمل فيعيث هؤلاء العابثون في الأرض فساداً، ويزداد قتلهم للناس، وقد ارتكبوا أكبر جريمة بقتلهم الإمام ظلماً وعدواناً، ومتى أقدم الإنسان على جريمته الأولى سهلت عليه الجرائم وأسوأ الأعمال بعد ذلك، وبالفعل فقد هددوا أصحاب الشورى وصحابة رسول الله ﷺ. وإذا ما حدث أن جاءت جند من الأمصار أو طُلب منها إبعاد المتمردين عن المدينة وإقامة الحدود عليهم وإعادة نظام الأمن، فإنه يقع القتال داخل دار الهجرة ويذهب ضحيته

أعداد من الصحابة، هذا بالإضافة إلى انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم، وهذا ما يخافه العقلاء وأهل لإيمان، زد على ذلك أن تدخل الجند في شؤون الرعيّة، وتدخلهم في أعمال الناس، وبحثهم في أمر الخلافة وإن هذا لموضوع يجب الابتعاد عنه تمام الابتعاد، وهذا ما كان ينظر إليه علي، رضي الله عنه، ويحرص ألا يحدث، وهو الأمر الذي جعله يقبل الخلافة.

أما **الموقف الثاني**: فهو قبول الخلافة والرضا بالأمر الواقع وذلك من أجل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض، والخوف من تفرقة الكلمة، والعمل على إعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة، وإبعاد المتمردين، والأعراب والمنحرفين، عن المدينة، وإقرار الأمن، وإعطاء الهيبة للخلافة، وتطبيق منهج الله في الأرض، ومع هذا فكان رضي الله عنه على علم بأن السير في الموقف الثاني، وهو أخذ البيعة وتسلم أمر الناس حالة صعبة، وفيه مشقة كبيرة وعناء شديد، إذ لا يستطيع الخليفة إقامة الحدود على الجناة والتحقيق معهم إلا بعد مرور مدة ريثما يستتب الوضع، ويتمكن الحكم، وتستعيد الخلافة هيبتها؛ وهذا ما لا تدركه فئة من الناس فأخذوا يطالبون بالقصاص وهو غير قادر عليه، ويسألونه إقامة الحدود على القتلة وهو لا يستطيع، إذ لا تزال المدينة بأيديهم، ولا بد من إخراجهم قبل ذلك وتوزيعهم في الأمصار، أو إرسالهم إلى الثغور، وتفريق كلمتهم، هذا بالإضافة إلى أن عدداً من الرجال سيتخلّفون عن البيعة، ولكن هذا لا يجعله يتوقف، وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يعرف المداهنة في الحق... فأما البيعة فيمكن أن يترك من لم يبايع باستثناء بعض رجال الشورى الذين ينظر إليهم بعض الناس ويميلون إليهم، ولهذا فقد ترك سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ولكنه أصر على بيعة طلحة، والزبير إن كان بعض المتمردين يظهرون الطمع بهما، وأما استمهال إقامة الحدود على قتلة الخليفة السابق ريثما تتاح الفرصة فظن أن الناس يدركون هذا، إذ أن إعادة الأمن والنظام وإقامة الخلافة أمر أهم وواجب شرعي، يسبق تطبيق المنهج ولهذا أقدم عليه وقبل الخلافة بعد إصرار الناس عليه وبعد تمنع منه ورفض، فهو الزاهد فيها وفي الدنيا جميعها.

رأى علي، رضي الله عنه، وقد تسلم الخلافة أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الأمن، ولن يكون هذا إلا بإبعاد المشاغبين عن المدينة، ولن يحدث هذا إلا باعتقادهم أنه قد تم ما يريدون وهو استقرار النظام في الدولة، وهذا ما يخيفهم فيخرجون وهذا ما يصار إليه بزوال الخليفة السابق وقد قتلوه قبحهم الله ـ ثم بالخلاص من ولاته على الأمصار، هذا بالإِضافة إلى أنه هو رضي الله عنه قد كانت له بعض الملاحظات على بعض الولاة لذا قرر عليّ أن يستبدل الولاة، ولكن نصحه بعض الصحابة وبعض الرجال في أن يؤخر هذا الأمر حتى يستقر الوضع، إلا أنه رفض ذلك حيث رأى أن هيبة الدولة لا تكون إذا لم يستطع الخليفة أن يعزل والياً وأن يعين غيره، وإلا فما معنى أن الوالي يتبع الخليفة، وإذا لم يستطع الإِمام عزل والٍ، فمعنى ذلك أن الوالي بمثابة خليفة، أو أنه يرفض الأوامر، ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه، ويتعدد عندها الخلفاء، وهذا أمر غير جائز، ولا يكون في الإِسلام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العصاة والمنحرفين يرون أن الوضع غير مستقر، وبذا يبقون في المدينة وعندها لا يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً، ولا أن يقيم حدود الله، وهو لا يخاف في الله لومة لائم، إذن فلا بد من عزل الولاة واستبدالهم.

أرسل علي الولاة إلى الأمصار فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار، فدخلها وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامر متجهاً إلى مكة. وأبقى على الكوفة أبا موسى الأشعري الذي أرسل بيعته، وبيعة أهل مصره إلى أمير المؤمنين. وبعث سهل بن حنيف إلى الشام، ولكنه رُدّ من حدودها، ردته خيل معاوية بأمر أو باجتهاد منها. وبعث إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد قتل من تسلمها، وهو محمد بن أبي حذيفة، فدخل مصر وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من أهلها، إلا فريقاً قليلاً منهم اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) لا يشقون عصا الطاعة، ولا يقاتلون أحداً، وبهذا فقد اختار ثلاثة ولاة من الأنصار إلى أهم الأمصار وأكثرها ثغوراً وجهاداً. أما مكة فقد بعث إليها خالد بن العاص بن

هشام بن المغيرة المخزومي، ولكنه وجد فيها كل من اعتزل الفتنة ومن اجتمع فيها من بني أمية، ومن ترك ولايته من الولاة السابقين، لذا فقد رفضت ولايته وبقيت مكة دون وال، ولكل مجموعة رجل يرجعون إليه.
وبعث علي بن أبي طالب إلى اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً له عليها، فلما وصل إليها رحل عنها عاملها السابق يعلى بن أمية واتجه إلى مكة، وهكذا خضعت دار الهجرة مركز الدولة والأمصار كلها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب باستثناء الشام التي كان يسير أمورها معاوية بن أبي سفيان إذ لم يرسل البيعة، وبهذا عقدت بيعة علي بن أبي طالب، وقام بالأمر، وأرسل إلى معاوية يطلب منه البيعة لكنه تأخر بالجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمور، ووضع العصاة في المدينة.

المجتمع الإسلامي أيام علي

لم يختلف وضع المجتمع الإسلامي أيام علي عما كان عليه سابقاً، فالشرع هو المطبق وأحكام الله هي النافذة والمعمول بها، وإنما الشيء الوحيد الذي اختلف هو متابعة الناس لما يجري في الداخل بعد أن كان الاهتمام متجهاً إلى ما يحدث في الفتوح وأحوال الثغور، هذا بالنسبة إلى عامة الناس، أما فيما يتعلق بالعمال والولاة فكان اهتمامهم أكبر بمناطقهم إذ يتعلق الأمر بهم وبأمصارهم لذا فقد اختلف الوضع بين مصر وآخر، وهناك أمر آخر يجب ألا نغفل عنه وهو أن المسلمين استقبلوا خلافة علي بغير ما استقبلوا خلافة عثمان، فقد جاء عثمان بعد عمر القوي الشديد الذي منع الصحابة من الخروج إلى المدينة، وأخذهم بالحزم والشدة، فأعطاهم عثمان اللين والرفق، وأغدق عليهم في الأعطيات حسب ما اعتاد عليه من البذل والعطاء، فلانوا له وأحبوه وخاصة في أيامه الأولى. وفضله بعضهم على عمر. وجاء علي بعد عثمان فسار بالناس سيرة عمر فلم يوسع لهم في الأعطيات، ولم يعطهم النوافل من المال وخاصّة أن واردات بيت المال قلّت لتوقف الفتح، وحجب مال الشام، واشتد على قريش، وحال بينهم وبين الخروج بأية حال، وهيجه افتراق القوم إذ أن عدداً من بني أمية قد اتجهوا إلى مكة، وتفرق بعض الناس في الأمصار، واستأنف فيهم حزم عمر، وشدته، والنفس البشرية يصعب عليها الشدة بعد اللين على حين ترتاح وتطمئن للين بعد الشدة، لذا كانت نفوسهم يشوبها كثير من الوجوم والقلق بتسلم علي الأمر، هذا بالإضافة إلى تسليط المشاغبين الذين قتلوا عثمان على المدينة ولم تطالهم بعد الحدود، ولننظر إلى حالة كل مصر وحده.

فاليمن سار إليها عبيد الله بن عباس والياً عليها من قبل علي فاستقبلته، وخرج منها يعلى بن أمية، واستقر الأمر فيها، تقام الحدود، ويطبق الشرع بصورة تامة.

وأما مكة المكرمة فقد عاد إليها راجعاً عدد من أهل المدينة الذين وصل إليهم خبر مقتل سيدنا عثمان وهم في طريقهم إلى بلدهم بعد أن شهدوا موسم الحج، ورغبوا اعتزال الفتنة، فمكة حرم آمن لا يغار عليه ولا يذعر من أوى إليه، ومنهم من خرج إليها من المدينة غاضباً أو معتزلاً مثل بني أمية، وعبد الله بن عمر: وردت مكة عامل علي عليها وهو خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي وبقيت دون وال، وبعد مدة استأذن طلحة والزبير علياً بالخروج إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما فخرجا، وبقيا فيها إذ وجدا الجو فيها أكثر مناسبة لهم من جو المدينة المليء بالخارجين على عثمان، رضي الله عنه، وبعد مدة جاء قثم بن العباس والياً على مكة، واستقر فيها، واستتب له الأمر. ورأى الذين اعتزلوا الفتنة واستقروا في مكة أن جوها غير مناسب، وأن طلب الرزق غير متوفر، والتجارة التي اعتادوا عليها قد انقضت أيامها وقطع بينهم وبينها الزمن، ووجدوا أن البصرة أكثر ملاءمة، لهذا فقد قرروا السير إليها، وأقنعوا أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بالخروج معهم، وكادت أم المؤمنين حفصة، رضي الله عنها، تسير لولا أن منعها أخوها عبد الله بن عمر، وسار الموكب باتجاه البصرة، وكان يصلي بهم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد، وقد كان أبوه والي مكة لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر. وكان عدد المغادرين مكة/ ٧٠٠/ إنسان جلهم من أهل مكة والمدينة ومنهم طلحة والزّبير، وعبد الله بن عامر، ويعلى بن أمية، وعبد الرحمن بن عتاب، وأم المؤمنين عائشة، ورجع من الطريق سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وفي الطريق تبعهم الناس من الأعراب حتى كانوا ثلاثة آلاف. وهدأ الوضع في مكة بعد خروجهم. وعندما وصل الركب المكي إلى ماء الحوأب نبحتهم كلابه،

فأناخت عائشة، رضي الله عنها، وقالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً ردوني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه «ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب» فقالوا لها: ما هو بالحوأب، فسارت.

أما في المدينة فإن أهلها ينظرون إلى علي نظرة احترام وإكبار كما ينظر له كل المسلمين، إذ كان يومذاك أفضل من عليها، وقد ارتحل عن الدنيا من سبقه، وقد أسرعوا إلى بيعته أو الإصرار على مبايعته لتقديرهم له قبل كل شيء، ثم للخلاص مما لحق المدينة من وجود الفئة الخارجة على النظام من قتلة عثمان، وقد استجاب بعد رفض إذ أن الأمر يستوجب وجود الأمير لإِعادة النظام، وما أن استلم الخلافة حتى طلب منه عدد من الصحابة إقامة الحدود على هؤلاء المنحرفين، ولم يكن ذلك ليغيب عنه، وإنما ينتظر استتباب الوضع وقوة الخليفة بأخذ البيعة العامة والقبض على ناصية الأمر، إذ أن الحل السريع لا يستطيع أن يمارسه ما دام المنحرفون هم الذين يسيطرون على المدينة، وبيدهم القوة، والبيعة لم تأت من بعض الجهات ومنها الشام وبعض الصحابة، والمشكلة أنه في ساعة الفوضى لا يرى المرء الحل السليم إلا من خلال ما استقر في ذهنه، واشتد الصحابة في الطلب، وعلي لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلاّ أن تزيد البلبلة. وأرسل علي الولاة إلى الأمصار، وإذ بوالي الشام سهل بن حنيف يعود إليه، وعلي الذي عرف بالشدة لم يقبل باللين، ولم يعرف التساهل بالحق، فقرر السير إلى الشام على الرغم من نصائح بعض الناصحين بإبقاء معاوية على الشام وإعطاء طلحة البصرة، والزبير الكوفة ريثما تهدأ الأحوال، ولم ير عبد الله بن عباس السّير إلى الشام عندما استشاره علي، وحث علي الناس بالنهوض إلى الشام فرأى توانيا، فلم يرغب بإجبار أحد وإنما نهض وسار مع من نهض، ودفع باللواء إلى ابنه محمد الأكبر بن الحنفية، ووجه عبد الله بن عباس إلى الميمنة، وعمر بن أبي سلمة إلى الميسرة، وأبا ليلى بن عمر بن الجراح إلى المقدمة وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح، وولى قثم بن العباس على المدينة، وكتب إلى عماله على الأمصار وهم

قيس بن سعد والي مصر، وأبو موسى الأشعري والي الكوفة، وعثمان بن حنيف والي البصرة بالنهوض إلى قتال أهل الفرقة، ويبدو من عمله هذا أنه بعيد كل البعد عن المنحرفين قتلة عثمان إذ لم يول أحداً منهم وفيهم الأشداء وأهل المقدرة. وبينما هو كذلك إذ سمع بخبر سير من سار من مكة إلى البصرة، فخرج علي إلى الربذة يريد أن يحول دون انطلاقهم إلى البصرة، إلا أنهم قد فاتوه، وكان قد ولى على المدينة قبل خروجه منها سهل بن حنيف، وبعث قثم بن العباس إلى مكة، وكانت أم المؤمنين أم سلمة تريد أن تسير معه وقالت له: «لولا أني أعصي الله عز وجل وأنك لا تقبله مني لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله لهو أعز عليّ من نفسي، يخرج معك يشهد مشاهدك، فخرج معه، وكان على الميسرة، ولم يزل معه، واستعمله على البحرين ثم عزله. ونصحه بعض الناصحين بأن لا يخرج من المدينة فإن خرج منها فلن يعود إليها، وطلب منه أن يرسل من نهض ويمكث هو في دار الهجرة، ولكنه أصر إلا أن يكون على رأس الناهضين. وبقي سهل بن حنيف في المدينة يسير أمورها، ويطبق شرع الله فيها، ويحكمها لعلي بن أبي طالب. ووصل علي إلى ذي قار ينتظر وصول جند الأمصار.

وأما مصر فقد سار إليها قيس بن سعد بن عبادة، ودخلها من غير جهد، وكان قد خرج منها الوالي السابق عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وتسلمها محمد بن أبي حذيفة إلا أنه قتل، وأخذ قيس البيعة لعلي من عامة أهلها، إلا فريقاً اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) يطلبون بثأر عثمان، ولكن لا يقاتلون أحداً، ولا يشقون عصا الطاعة، فأمهلهم قيس ومنهم: مسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج، وبسر بن أرطأة وغيرهم، إلا أن بعض أصحاب علي كانوا يصرون عليه أن يأمر قيسا بقتالهم أو إعطاء البيعة حتى ينتهوا من مصر من كل معارض، فطلب علي منه ذلك، فرأى قيس أن رأيه هو الأصوب، فترك مصر، واتجه إلى علي مارا بالمدينة، وجاء محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وما زال يلح على من في (خربتا) حتى

جرى القتال بين الطرفين ولم يحرز محمد بن أبي بكر النصر فعزله علي، وولى الأشتر النخعي مكانه، ولكنه مات مسموماً قبل أن يصل إليها، فاضطر علي أن يثبت محمد بن أبي بكر على مصر ريثما يرى رأيه، وانتدب أهل الكوفة لمساعدة إخوانهم في مصر، ولكنهم لم ينتدبوا، وعندما أصر عليهم سار منهم جند قليل، ولكن ما أن وصلوا إلى مصر حتى كان عمرو بن العاص قد دخلها، وقُتل محمد بن أبي بكر، وهكذا أصبحت مصر بعيدة عن خلافة علي وذلك عام ٣٨هـ.

وأما الكوفة فقد كان واليها من قبل أبو موسى الأشعري، وأقره علي على ما تحت يده، رغبة من أهل الكوفة به، وقد بايع عنه وعن أهل الكوفة للخليفة الجديد. وكان أبو موسى محباً للعافية لا يرغب بالقتال وخاصة عندما يكون القتال بين المسلمين بعضهم ضد بعض. ولم يكن أهل الكوفة على رأي واحد، فبعضهم يميل إلى الزبير، وبعضهم يرغب في علي ولكنه لا يحب القتال، وبعضهم متشدد في ذلك و يرى أن القتال أمر لا بدّ منه، وكتب أمير المؤمنين إلى أبي موسى يستنهضه للقتال ولكنه لم يفعل شيئاً، فأرسل له محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، فلم يفد ذلك شيئاً، ثم أرسل له عبد الله بن عباس، والأشتر النخعي فما أجدت المناقشات التي دارت بين الطرفين، ثم أرسل له ابنه الحسن بن علي، وعمار بن ياسر، وتكلم الحسن كلاماً جميلاً. ودعا أهل الكوفة لنجدة خليفتهم وعندما انطلق سار معه عدة آلاف سار بعضهم بالفرات واتخذ بعضهم الآخر طريق البر، وكان مجموعهم تسعة آلاف رجل، وأخرج الأشتر النخعي أبا موسى من قصر الإمارة، فانطلق أبو موسى إلى مكة وأقام بها. وكان الخليفة قد وصل إلى ذي قار فجاءه أهل الكوفة وهو في ذلك الموضع.

وأما البصرة فقد أرسل إليها الخليفة والياً جديداً هو عثمان بن حنيف فسار إليها فدخلها، وخرج منها واليها السابق عبد الله بن عامر الذي سار إلى مكة، وكان في البصرة شيء من الفرقة والخلاف،ولم يلبث أن وصل إليها ركب مكة، فدخلها عبد الله بن عامر على غفلة من أهلها، ووصل

الخبر إلى عثمان بن حنيف فتهيأ إلا أن الناس متخاذلون منهم الخائف، ومنهم القاعد، ومنهم المتخاذل، ومنهم من يطلب بثأر عثمان، ومنهم مع الوالي بجانب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم دخل البصرة ركب مكة كله، والتقى في المربد، فتكلم طلحة، والزبير وردّ عليهم جماعة ابن حنيف، وكاد الناس يقتتلون، ثم تكلمت عائشة، رضي الله عنها، فانقسمت جماعة ابن حنيف، ومال بعضهم إلى جانب عائشة، وكان على خيل البصرة حكيم به جبلة العبدي فأنشب القتال، وهو أحد الغوغائيين الذين تكلموا عن عثمان، رضي الله عنه، وكاد القتال أن يتسع، إلا أن الفريقين قد اتفقا، إذ لم يكن أحد الجانبين لينظر إلى الآخر نظرة العداء أو الحقد بل نظرة الأخوة، والخلاف إنما هو في وجهات النظر، ولكن الغوغاء هي التي كانت تسير بالطرفين إلى التطرف أحياناً، اتفق الجانبان على أن يبعثا رسولاً إلى المدينة لينظر هل بايع طلحة والزبير مكرهين أم لا؟ فإن كان ذلك أخلى عثمان بن حنيف لهما البصرة، وإن كانا قد بايعا عن رضى خرجا من البصرة، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يديه ريثما يعود الرسول، وينزل طلحة، والزبير ومن معهما حيث شاؤوا، وأن يصلي عثمان بن حنيف بالناس، ويبقى بيت المال تحت يده، وله أمر البصرة. وذهب كعب بن ثور إلى المدينة رسولاً، فسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير فلم يجبه أحد، ثم أجابه أسامة بن زيد بأنهما بايعا مكرهين، وكادت تحدث في المدينة حادثة لهذا الجواب، إذ لا يريد الناس إلا إطفاء النار وإخماد جذوتها، ورجع كعب إلى الناس بالخبر فاختلف القوم بالبصرة، وعاتب علي عامله على البصرة، وقال: إنما طلحة، والزبير لم يجبرا على البيعة إلا خوفاً من الفرقة، وقلّ أنصار ابن حنيف حتى غضب عليه الغوغائيون في طرفه لهذا التصرف، وانقضّ أهل السوء عليه فسجنوه، ونتفوا لحيته وحاجبيه، ثم أخرجوه، حيث سار إلى علي بن أبي طالب وهو بذي قار، ولم يقتل عثمان بن حنيف لأنه لم يكن عدواً ولا مجرم حرب، وإنما كان أخاً ضعفت وجهة نظره أمام مناقشيه فقلّ أتباعه، وعدا عليه الرعاع فأخرجوه، ولو كان الخلاف كما يصوّره بعض المغرضين لقتل أو أخذ على الأقل

أسيراً، فهو قائد الخصم، أو رأس الجناح الآخر. وصار يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد. وبخروج عثمان بن حنيف من البصرة أصبحت تحت إمرة الركب المكي فقتلوا من كان فيها من الأشخاص الذين شخصوا إلى المدينة، واشتركوا في حصار عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير العبدي، وكان ممن قتل حكيم بن جبلة العبدي، ولم يكن هذا القتل ليخفف من المشكلة بل زاد النقمة، إذ أن بعض القبائل غضبت لمقتل أبنائها ممن كان من الغوغائيين، ومنهم بنو عبد القيس الذين ثاروا لمقتل حكيم بن جبلة فخرجوا على علي، أما علي فلم يتكلم في قتل هؤلاء لأنه يرغب فيه ولا علاقة له بأحد منهم، وإن كان يرى أنّ في العجلة الندامة فالقتل السريع دون تروٍ أدى إلى النقمة. وكتب الركب المكي إلى بقية الأمصار أن يفعلوا فعلتهم، وأن يقتلوا من عندهم من قتلة عثمان.

أرسل علي بن أبي طالب القعقاع بن عمرو التميمي إلى البصرة، فكلم عائشة، وطلحة، والزبير وبيّن لهم تفرق القوم عنهم بسبب قتل الغوغائيين، وماذا يكون لو حدث هذا في كل مصر؟ قالوا: فما رأيك؟ قال: إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة، وأمن الناس، واطمأن بعضهم إلى بعض، نظرنا في أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة. وإني لأقول هذا وما أراه يتمُّ حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء، فقد انتشر أمرها، وألمت بها الملمات، وتعرضت لبلاء عظيم، فاستحسن القوم رأيه، وقالوا: إن وافق علي على هذا الرأي صالحناه عليه. ورجع القعقاع إلى علي راضيا وأنبأه بما حدث، فسُرّ علي بذلك أشد السرور وأعظمه.

وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي بذي قار، والتقى المضري مع المضري، والربعي مع الربعي، واليمني مع اليمني، وكل يتحدث في الصلح، وظن الناس كل الناس أن الأمر قد استقام، وأن الصلح قد أصبح وشيكاً، ودعا أهل البصرة علياً أن يأتي إليهم، وأراد علي الرحيل وقال:

ألا من أعان على عثمان بن عفان فلا يرتحل معنا. وهنا شعر الغوغائيون من قتلة عثمان أن الصلح سيدور عليهم، وأنه إذا تمّ لا بدّ من أن يكون عليهم، وستطالهم العقوبة، فإذن لماذا نبرمه على أنفسنا؟ وتداولوا الرأي وعبد الله بن سبأ اليهودي لا يعجبه رأي حتى توصلوا إلى إنشاب القتال إذا ما اقترب الطرفان بعضهم من بعض. وأرسل علي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير اللذين أرسلا بدورهما محمد بن طلحة إلى علي وتحدثوا في الصلح وباتوا في ليلة من العافية.

ورحل علي إلى البصرة وعسكر بجانب معسكر أهل البصرة فأنشب الغوغائيون القتال بأسباب بسيطة وتافهة، إذ تسابّ الصبيان ثم تراموا وتتابع العبيد، حتى إذا توترت الأجواء باشر السفهاء، ولم يدخل الغوغائيون من البداية حتى لا يُعرف الكيد، وينكشف الأمر، وتفسد الخطة، وتصافّ الفريقان، وخرج علي بين الصفين ونادى طلحة، والزبير فكلمهما، وقال مما قال للزبير أتذكر أن رسول الله ﷺ قال لك: «... ولكنك ستقاتله وأنت له ظالم» قال: تذكرت ذلك، ولو كنت أذكر ما خرجت، وأراد الاعتزال، وخرج على وجهه وعندما وصل إلى وادي السباع غدر به ابن جرموز وقتله. واستطاعت السبئية أن تنشب القتال، وطلب علي من الناس أن يكفوا إلا أن الأمر قد خرج من يده والتحم الفريقان، وكان جيش البصرة يزيد على الثلاثين ألفاً، وجيش الكوفة يزيد على العشرين ألفاً، وكان اللقاء في منتصف جمادى الآخرة من عام ٣٦هـ.

والتحم الطرفان، واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة، رضي الله عنها، حتى قتل أمامه سبعون رجلاً كل أخذ بخطامه، قتلوا واحداً بعد الآخر، ثم عُقر الجمل فانفرجت المعركة، وهزم أهل البصرة، وأُصيب طلحة وجرح جرحاً بليغاً بدأ ينزف منه الدم، وحملت عائشة بهودجها إلى دار عبد الله بن خلف، وكانت فاجعة أليمة ذهب ضحيتها على رأي المؤرخين عشرة آلاف من جيش البصرة وخمسة آلاف من جيش علي، ومع ما في هذه المعركة من الهول الذي زاد فيه

المؤرخون، علينا أن نتروى قليلاً فننظر هل كانت معركة بين أعداء ألداء كما توصف أم بين أحبة أوقع الشيطان بينهم فطاشت أحلامهم، ثم ثابت؟ ويمكن أن نتعرف على هذا من النتائج، كانت رؤوس جيش البصرة لا شك طلحة، والزبير، وعائشة فلننظر ما الرأي بهم؟ التقى القعقاع بن عمرو التميمي أحد قادة جيش علي وحكمائه أثناء المعركة مع طلحة وهو يقاتل جريحاً فقال له: يا أبا محمد إنك جريح فحبذا لو دخلت أحد البيوتات. فبطل يرى قائد خصومه جريحاً فيطلب منه الخلود إلى الراحة من أجل العافية أم يجهز عليه!

وجاء ابن جرموز بعد المعركة يستأذن علياً وقال: قل له: قاتل الزبير، فقال علي: أئذن له وبشره بالنار. فهل القائد يفرح بقتل قائد خصومه أم يتأثر ثم يقول: إن قاتله لا شك في النار؟

وزار علي عائشة بعد المعركة، وضرب من تكلم عنها، وقال عندما شيعها في غرة رجب مع أخيها محمد بن أبي بكر: إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأعطاها مبلغاً كبيراً من المال، وسير في ركبها عدداً من النساء، وعندما زارها في دار عبد الله بن خلف كان عدد من الجرحى المختبئين في تلك الدار، وهو يعرف مكانهم ومكان غيرهم، وقد تجاهل ذلك وكأن لم يعلم شيئاً، إذ لم يكونوا خصوماً كما يصور ذلك بعضهم فلو كانوا كذلك لنالوا ما نالوا.

كما كان قد طلب من جنده ألا يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا هارباً، ولا يدخلوا داراً، ولا يحوزوا مالاً، ولا يؤذوا امرأة ولا طفلاً ولا غير مقاتل مصر معاند، وهذا كله يدل على الأخوة التامة ولكن أوقع الشيطان بينهم، ولكل وجهة نظره واجتهاده الخاص، وهو عليه مأجور بإذن الله.

وبعد المعركة بثلاثة أيام ولى علي على البصرة عبد الله بن عباس، وكان أهلها قد أعطوا البيعة، وسار هو إلى الكوفة ليتهيأ إلى الشام.

أما الشام فقد كان واليها معاوية بن أبي سفيان منذ أيام عمر، رضي الله عنه، وقد خبر أهلها وخبروه، وأخذهم بأسلوبه الخاص فأحبوه، ولان لهم فأطاعوه، وحزمهم فانقادوا له، ولم يريدوا غيره، فعندما حدثت الفتنة في المدينة، وتسلم الغوغائيون الأمر، وقتلوا الخليفة عثمان بن عفان مظلوماً. وخرج النعمان بن بشير إلى الشام ومعه قميص الخليفة عثمان المملوء بالدماء وعليه أصابع زوجه نائلة مقطعة، وعرضه على الناس فثاروا وبكوا أولاً لقتل الخليفة مظلوماً وهو شيخ طاعن في السن، وكان قتله على يد رعاع الناس، وثانياً لأنه لم يستطع أحد بعد ذلك أن يحرك ساكناً، بل إن هؤلاء الرعاع قد سيطروا على دار الهجرة. ويجب أن نعلم أن الأخبار من المدينة إلى الشام تحتاج إلى شهر ذهاباً ومثلها إياباً وأثناء هذه المدة تجد حوادث، وتحدث مشكلات جديدة، إضافة إلى ما تحمل الأخبار معها من زيادات مع الزمن. ثم جاءت الأخبار بأن البيعة قد تمت لعلي بن أبي طالب، ولكن عدداً من الصحابة لم يعطوا البيعة أمثال: سعد بن أبي وقاص وهو من رجال الشورى، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك وغيرهم، وفوق كل هذا فإن طلحة، والزبير قد أعطيا البيعة مكرهين وهما من رجال الشورى. وإن رجال الشورى الذين بقوا على قيد الحياة هم: علي بن أبي طالب وهو صاحب البيعة، وطلحة، والزبير لم يبايعا إلا مكرهين، وسعد بن أبي وقاص لم يبايع أبداً، فالأمر بحاجة إلى نظر، ومع هذا فإن علياً لم يستطع أن يقبض على زمام الأمر، ويقيم الحدود على قتلة عثمان الذين لا يزالون يتحكمون في أمر المدينة، هكذا وصلت الأخبار إلى الشام، وهذا ما علمه معاوية والي البلاد، وإن كانت هذه الأمور صحيحة، إلا أن روايتها كانت بأسلوب يجعل معاوية يرى التريث بإرسال البيعة إضافة إلى ما يجد في نفسه، وما يراه في المجتمع من حزن على الخليفة المقتول. وتتوالى الأخبار على الشام بأن عدداً من رجالات الأمة قد اجتمعوا في مكة والتجؤوا إليها يعتزلون الفتنة، أو يعترضون على تصرفات الغوغائيين في المدينة. ويرسل علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الجديد عماله إلى

الأمصار ويرسل فيمن يرسل سهل بن حنيف إلى الشام ليتولى أمرها، ويعزل معاوية، ويُردّ الوالي الجديد من حدود بلاد الشام، ويبقى معاوية في حاضرته ينتظر ما يؤول إليه الأمر، ثم تصل إليه أخبار جديدة بأن عدداً قد خرج من مكة إلى البصرة معارضين للخليفة في المدينة، وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وطلحة، والزبير، إذن يفهم من هذه الأخبار، أن الأمر لم يستقر لعلي بعد ولا بد من الانتظار في البيعة، وانتظر، وانتظر معه مجتمع الشام. وحدثت أحداث البصرة التي ذكرنا وقعت معركة الجمل وتأسف المسلمون لما تم، وكل هذا جعل عامل الشام معاوية بن أبي سفيان ينتظر في إعطاء البيعة للخليفة الجديد، وهذا ما رآه، ورآه معه عدد من الناس، ويُعدّ اجتهاداً.

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيرى غير ذلك، إذ ينظر إلى معاوية على أنه عامل للخليفة، إن طلب منه ترك العمل تخلى، وإن طلب منه الاستمرار تابع، فهو تبع وليس بمجتهد في هذا الأمر، والوالي ليس عليه إلا أن يبايع هو وأهل مصره إذا بايع أهل المدينة وقد بايعوا فلماذا هذا التواني؟ فهل أصبح من أهل الشورى ليؤخذ رأيه في البيعة؟ وقد عزله الخليفة فعليه الامتثال والطاعة، هذه نظرة علي إلى معاوية، وهي صحيحة، أما بالنسبة إلى الأوضاع فيرى أنها غير مستقرة والمنحرفون لا يزالون في المدينة، فيجب الانتهاء من موضوع البيعة، وطمأنينة الناس، فمتى تم هذا يستطيع الخليفة صرف المنحرفين إلى أمصارهم، فيتوزع أمرهم، ويضعف شأنهم، وعندها تقام عليهم الحدود ويقتص منهم بما اقترفت أيديهم، أما الآن فلهم قوتهم، ويتمكنون من المدينة فيصعب القصاص، لأنه ربما إن فعل أمير المؤمنين ذلك اعتدوا هم عليه ومن أهل المدينة، وهو اجتهاد، ويؤجر عليه إن شاء الله تعالى. ولم يقبل سيدنا علي من عامل الشام هذا التصرف الّذي هو عليه، وليس أمامه إلا تنفيذ أوامره، وأمير المؤمنين هو الذي لا يعرف إلا الشدة بالحق، ولا يعمل إلا بالحزم، واللين عنده نوع من الضعف، لذا قرر التعبئة والنهوض إلى الشام، وعبأ الجند، وهو يريد

السير إذ جد له أمر الركب المكي فسار وراءهم نحو العراق، وتغير خط حركته من الشام إلى البصرة، ووقعت معركة الجمل في منتصف جمادي الآخرة، ودخل إثرها البصرة، فأصلح فيها، فعفا عن المسيء، وواسى المنكوب، ووزع الأموال على الغالب والمغلوب، ثم ولّى عليها عبد الله بن عباس، وبعد قضاء مدة فيها تحرك إلى الكوفة ليتابع سيره إلى الشام قصده الرئيسي الذي كان.

وصل إلى الكوفة في نهاية شهر رجب من عام ٣٦هـ، ومكث فيها مدة أربعة أشهر استعد خلالها للقتال، وعبأ الجند، ولم يكن يرفق بنفسه ولا بأصحابه، هكذا اعتاد خلال حياته، يسلك الطريق المستقيم مهما اعترضه من صعاب، ويحث السير فيها مهما وجد من عقبات، ولم يكن أصحابه يرفقون بأنفسهم يسيرون سير أميرهم.

أرسل علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يطلب منه أن يبايع، وأن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويبين حجة علي ورأيه فيما يطلب إليه، ولكن معاوية لم يعط جواباً، ورجع جرير دون جواب، ولكن بعض أصحاب علي كانوا يريدون الجواب السريع، لذا عدّوا أن جريراً لم يقم بالمهمة المنوطة به كما يجب، فأسمعه الأشتر كلاماً تأثر منه، فغادر المعسكر، وأقام في قرقيساء عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وبالمقابل فقد أرسل معاوية رسلاً كان منهم أبو مسلم الخولاني، ولكن لم تؤد تلك الرسل إلى نتيجة، وهذا ما جعل أصحاب علي يحثونه للسير، فما دخل شهر ذي الحجة إلا وكانت طلائع علي في بلاد الشام إلا أنه أمرهم ألا يبدؤوا بقتال قبل أن يدركهم...

وعلم معاوية بحركة جيش العراق فأسرع بجند الشام، ووصل قبل علي إلى صفين، ونزل مكاناً مناسباً يمكنه وجنده من الشرب من نهر الفرات، وعندما وصل علي إلى ذلك المكان وجد جنده في ظمأ، فطلب من معاوية أن يكون الماء حراً، ولكنه لم يحصل على جواب، الأمر الذي أدى إلى احتكاك، وانتصر جند العراق وأزاحوا جند الشام عن مواقعهم،

ولكن علياً أمر أن يكون الماء حراً يشرب منه الطرفان بكل وقت يريدون.

وأقام الفريقان عدة أيام يلتقون على الماء، ويسعى بعضهم إلى بعض، وربما يسمرون معاً دون قتال، ولكنه جدال ومناقشات تحدث، وربما يقف المرء أمام هذا طويلاً يسترجع ما صوره المؤرخون عن الخصومة العنيفة بين الجانبين، والرغبة الملحة من كليهما لقتل الآخر، وما هي كذلك إن هي إلا خلاف في الرأي، وأخوة غير ظاهرة بسبب ذلك التباين في الاجتهاد.

ثم وقع القتال، ولم يكن على شكل هجوم كاسح بالإمكانات كلها وبالطاقات كافةً، وكل منهما يبغي استئصال الفريق الآخر، وإنما هذا ما كان يخشاه الجانبان فإن القتل من أي طرف إنما هو إضعاف للمسلمين، لأن هؤلاء الحضور من أي جانب كانوا إنما هم جند المسلمين وقوتهم، وعلى عاتقهم حماية الثغور، وإتمام الفتوحات، لذا كانت تتقدم فرقة إلى فرقة لعل الله يصلح الأمور، وتثوب العقول إلى رشدها، واستمر ذلك مدة شهر ذي الحجة، وأهل شهر المحرم فتوقف القتال، وتصافوا لعلهم يتصالحون، وكثرت السفراء بين الفريقين ولكن دون جدوى. ولا بد هنا من وقفة قصيرة هل يترك الحقد لهم مجالاً للتفكير بالتوقف عن القتال لو كان هناك حقد كما يصوّر ذلك المغرضون؟ ألا أن النفوس طيبة، وفي القلوب محبة صادقة تستغل أي شيء لعل الأمر يهدأ، ويتم الصلح. ومع ذلك فقد بقي كل على رأيه، مصر على موقفه، علي واضح، بيّن رأيه، ومعاوية لا يبدي تجاوباً، وكان لا بد من القتال العام.

عادت الفرق من الجانبين يناوش بعضها بعضاً، واستمر ذلك مدة النصف الأول من شهر صفر من عام ٣٧هـ، فلما رأى الطرفان أن التأخير لا يفيد كان لا بد من حملة عامة، وكانت، واستمر القتال ثلاثة أيام قتل من الفريقين العدد الكثير، فقد قتل عمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص من أصحاب علي، وقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب من أصحاب معاوية، وظهرت علائم الهزيمة على جيش الشام، ورفعت المصاحف،

وتوقف القتال، وعلى الرغم مما قيل من أن قسماً من جند العراق لم يكن يرغب في وقف القتال، ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نفسه، والأشتر النخعي أحد القادة البارزين والذي استمر في القتال على الرغم من إعطاء الأوامر له بالكف عن متابعة القتال، إلا أن الأمر قد تم، وتوقف القتال، فالمسلمون ينتظرون من كل بارقة أمل أن يكون فيها الصلح، ولو لم يكن ذلك لما توقف القتال، والنصر قد لاح لفريق وهو الطرف الشرعي، ويقاتل بضراوةِ الطرف المعاند حسب رأي أمير المؤمنين على الأقل. ولما سأل الأشتر النخعي معاوية بن أبي سفيان عن رأيه، أجابه بفكرة الحكمين.

توقف القتال، وكتبت صحيفة التحكيم، وشهد عليها رجال من الطرفين، وجند الشام راضون وجند العراق بين راض وساخط وساكت مكرهاً. وبعد يومين من ذلك العقد أذن علي بالرحيل إلى الكوفة بعد أن دفنوا موتاهم، وسار الموكب نحو الكوفة، على حين تحرك معاوية بجيشه نحو دمشق.

لم يدخل جيش علي كله الكوفة كما خرج منها، وإنما انحازت جماعة منه إلى حروراء مخالفين ما في صحيفة التحكيم، وغاضبين عما تم، وقد رتبوا أمورهم، فجعلوا أمر الحرب إلى شبث بن ربعي التميمي، وكان عبد الله بن الكواء يصلي بالقوم، فأرسل علي إليهم الرسل علهم يعودون إلى صوابهم، ويرجعون إلى إخوانهم وربما كانوا يفكرون في ذلك، لذلك كانوا يطالبون علياً بالعودة إلى القتال، وترك التحكيم، وعاد بعضهم، ومنهم أمير حربهم شبث بن ربعي التميمي، ثم أرسل علي إليهم عبد الله بن عباس فناقشهم وأطال معهم الجدال، ثم ذهب إليهم علي بنفسه وحاجهم، وعادوا جميعاً فدخلوا الكوفة، وظن أن الأمر قد انتهى، إلا أنهم بقوا على الدوام يعلنون عن آرائهم، ويصيحون صيحتهم (لا حكم إلا الله) التي يقول عنها أمير المؤمنين: كلمة حق أريد بها باطل، ويناقشون، ويظنون أن علياً سيعود إلى القتال، وإنما ينتظر الناس حتى تستريح، وبعدها ينهض للحرب.

اجتمع الحكمان في دومة الجندل، ولم يتفقا على شيء بل رجعا من غير تفاهم، وإنّ ما يردده المغرضون وينقله العامة ليس بالصحيح، فلم يكن أبو موسى الأشعري ذلك الرجل المغفل البسيط الذي يلعب به، وهو الصحابي الجليل، والوالي لعمر بن الخطاب على الأمصار، وعمر لا يمكن أن يولي عاملاً من النوع الذي ينعت به المؤرخون أبا موسى، كما أن عمرو بن العاص لم يكن ذلك الرجل على تلك الدرجة من الغدر وقلة الدين، وعدم الوفاء والمروءة، وإنما افترقا من غير اتفاق.

أراد علي بعد فشل التحكيم أن يستعد للنهوض إلى الشام، وطلب من واليه على البصرة عبد الله بن عباس أن يستعد بأهل مصره، فأرسل ابن عباس المقاتلين، إلا أن علياً قد لاحظ أولئك الذين خرجوا من عسكره بالأمس ثم عادوا، قد بدؤوا يتسللون رتلاً إثر رتل، ويكتبون إلى إخوانهم في البصرة ليوافوهم في النهروان، فسكت عنهم، وأراد أن يتركهم وما خرجوا له، وقال: إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا جادلناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم، ورغب أن يسير إلى الشام ويتركهم وشأنهم، إلا أن فسادهم قد بدأ، فقد قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرث، وذبحوه ذبح النعاج، وقتلوا نسوة معه، فأرسل إليهم رسولاً فقتلوه، عندها اضطر إلى العودة إليهم، والتخلص منهم بصورة من الصور قبل أن يسير ويتركهم وراءه يعيثون في الأرض الفساد، فسار إليهم، وجادلهم، وطلب منهم تسليم قتلة عبد الله بن خباب بن الأرث فقالوا: كلنا قتلة، وتمادوا في الرد، ثم هجموا على جيشه، وبدؤوا بالقتال، فاضطر إلى حربهم وإبادتهم في مكانهم في النهروان، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، وجيشه من أهل الكوفة، فقد قتل زيد بن عدي بن حاتم معهم، وأبوه عدي بن حاتم في جيش علي، وأكثر القتلى كانوا بهذه الصورة أو قريبة منها، فغدا جيشه حزيناً كئيباً على قتلى خصومه أو قتلى أهله فتغيرت النفوس، وتبدلت الطباع، وعلى هذه الصورة كانت تلك المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المسلمين: اختلاف في وجهات النظر وفي الرأي فينحاز كل فرد إلى جانب، ويقاتل فمن قتل فقد انتهى، ومن قتل فقد أصيب بمن فقد.

رأى علي بن أبي طالب أن ينتظر قليلاً ليستريح الناس من تعب القتال، ولينسى الذي أصيب مصيبته، وكان معاوية بن أبي سفيان بالشام قد سمع استعداد علي للسير إلى الشام فأسرع إلى صفين ولكن لم يجد للعراق جيشاً، وانتظر، وجاءت أخبار الخوارج، وما حدث بينهم وبين علي، فعرف الأمر، وقفل راجعاً إلى الشام، وقد أراح واستراح.

رأى علي أن جنده قد استراحوا وحصلوا على ما أحبوا فدعاهم للقتال فلم ينفروا، وحثهم فلم يستجيبوا، وحرضهم فلم يسمعوا، وكان يخطبهم، ويقسو عليهم، فيسمعون ثم يخرجون ولكنهم كأنهم لم يسمعوا كلاماً حتى ضاق بهم علي، رضي الله عنه، ذرعاً وتمنى لو لم يعرفهم، وكانت حياته معهم محنة شاقة، وعيشاً مليئاً بالمشاق والصعاب والمنغصات يأمر فلا يطاع، ويدعو فلا يستجاب له، ولربما حدث هذا مع أهل الكوفة بسبب ما خاضوا من حروب مع إمامهم، إلا أنهم رأوها عندما فكروا أنها بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبسبب الحزن الذي أصابهم فقدوا إخوانهم في النهروان، وربما بسبب ما لاحظوه من توقف الفتوحات، وعدم امتداد سلطان الدولة كما كان، بل أخذ في الاضطراب؛ إذ طمع الروم بثغور الشام فأسكتهم معاوية بدفع جزء من المال ريثما تنتهي خلافات المسلمين، واضطربت ثغور المشرق على عمال علي، وكان ذلك يكلفه العناء الكبير حتى يهدأ الوضع وتستقر الحال. وربما كان بسبب أوضاعهم المادية الحسنة إذ كان علي، رضي الله عنه، يقسم لهم المال باستمرار، ويعطيهم أعطياتهم، ويحب بين المدة والمدة أن يكنس بيت المال ويصلي فيه ركعتين، فلربما وجدوا في ذلك راحة مغرية، ودعة مطمعة فأخلدتهم إلى الأرض، ورغبتهم بالاستقرار. وكل هذا يجعل أمر علي صعباً وحياته قاسية وفي الوقت نفسه يبعد التفكير عند معاوية عن البيعة والدخول فيما دخل فيه الناس، حيث يرى أن وضع الخليفة غير مستقر، وكلمته غير مسموعة، وعدداً من الصحابة لم يبايعوا...

وظهر لعليٍّ أنه قد انتهى من الخوارج في النهروان، إلا أنه قد تبين له

بعد حين أنه ما انتهى إلا من عدد قليل منهم أو جزء منهم، وأن في معسكره في الكوفة عدداً منهم، وكانوا يجاهرون برأيهم، ويناقشونهم، وهذا ما زاده إلا غما على غم، ولما رأى ما رأى، ونظر إلى أنه يدعو فلا يستجاب له، لذا كان هادئ الطبع يناقشهم ويستمع إليهم، ولا يمنع عنهم أعطياتهم، وكانوا يعايشونه ويعايشون عامله على البصرة، ويخرجون تحت جنح الظلام ليلتقي بعضهم مع بعض، وقد يعيثون الفساد، ويقتلون إن رأوا مسلماً، فكان علي لذلك يتمنى الموت، ويقول: ما يُؤخِّر أشقاها؟ أي ما يمنع أشقى الناس أن يقتله، ويريحه مما يجد من أصحابه، وكان يعلم أنه سيموت شهيداً حسبما أخبره رسول الله ﷺ، وأنه سيقتله أشقى الأمة.

وأصبح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة، وواليه عبد الله بن عباس في البصرة يأمران فلا يجابان، الأمر الذي جعل عبد الله بن عباس يفكر في الخلاص مما هو فيه كما يفكر الخليفة بالذات، ويقال إن ابن عباس قد ترك الولاية لزياد بن أبيه، وارتحل إلى مكة، ليعيش فيها بعد أن أعياه أصحابه، والحقيقة أنه لم يترك، بل بقي فيها حتى قتل الخليفة، بل وحتى بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، ثم سافر بعد ذلك إلى مكة، ولربما لو كان علي وزيراً لفعل ذلك لشدة ما وجد من رعاياه، ولكن الأمير لا يمكن أن يفعل ذلك.

ووجد جند الشام أن الخليفة لا يطاع، ولم يعد له إلا الرمز في السياسة الشامية، ولكنه يقوم بإدارة البلاد بكل حزم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فأمعنوا في المعارضة. فاستطاع عمرو بن العاص أن يدخل مصر، وأن يحكمها بعد مقتل محمد بن أبي بكر والي علي عليها، ولم يستطع الأشتر النخعي أن يصل إليها، إذ مات بالطريق وهو ماضٍ إليها وذلك عام ٣٨هـ، إذ أن الأشتر كان مع علي في صفين فلما عاد منها أعاده إلى عمله بالجزيرة أميراً على مدينة (نصيبين) ثم وجهه إلى مصر فمات مسموماً. أما قيس بن سعد بن عبادة فكان على شرطة علي.

أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي

حيث يوجد في هذا المصر من يطالب بثأر الخليفة عثمان بن عفّان، ومن نكب في معركة الجمل، فحدثت اضطرابات، ولكن لم يصل إلى نتائج مرضية له.

وفي عام ٣٩هـ، فرق معاوية جيشه على أطراف أملاك علي، فأرسل النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وأرسل سفيان بن عوف في ستة آلاف إلى هيت، فلم يجد بها أحداً، فسار إلى الأنبار فأغار عليها ثم عاد. وأرسل الضحاك بن قيس إلى جهات تدمر، ولكنه هزم أمام حجر بن عدي الكندي قائد علي. وأرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وكانت غارات أهل الشام هذه أن زادت أهل العراق خوفاً، ورغبة في السلم، وعدم النهوض إلى القتال.

وأرسل معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي أميراً على الموسم ليقيم للناس حجهم، فلما دنا من مكة خافه قثم بن العباس عامل علي عليها فاعتزله، وتوسط الناس في الأمر، واختاروا عثمان بن أبي طلحة أميراً للحج في ذلك العام ٣٩هـ، وعرف علي مسير يزيد بن شجرة فندب الناس لرده فتثاقلوا، ثم أرسل معقل بن قيس في جند فوصلوا عندما كان الموسم قد انتهى، ولكنهم أدركوا مؤخرة يزيد، فأسروا نفراً منهم، وعادوا بهم إلى الكوفة.

ولما اختلف الناس على علي، طمع أهل فارس، وأهل كرمان فحجبوا الخراج، وطردوا سهل بن حنيف عامل علي هناك، فبعث إليهم علي زياد بن أبيه فأعاد الأمن وضبط المنطقة.

وفي عام ٤٠هـ أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطأة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجل، فدخل المدينة، وخرج منها عامل علي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، واتجه إلى الكوفة، وبايع أهل المدينة بسراً ومنهم بعض الصحابة أمثال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن زمعة، وعمر بن أبي سلمة، وذلك برأي أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، إذ خافت عليهم، وخافوا على أنفسهم.

ثم انطلق بسر بن أرطأة إلى مكة المكرمة فخافه أبو موسى الأشعري، إلا أنه عفا عنه، ومن مكة سار بسر إلى اليمن التي عليها عبيد الله بن عباس من قبل علي، وكان قد لقي من أهلها فظاظة فكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأرسل إليهم يستصلحهم، ولكن لم تصلح معهم الرأفة والرحمة، فهددهم فخافوه، فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه فسار إليهم من مكة بسر، وهو يريد الإيقاع بهم، وهمّ بسر أن يقسو على أهل الطائف إلا أن المغيرة بن شعبة نصحه فعدل عن رأيه، ولما وصل إلى اليمن كان عبيد الله بن عباس قد غادرها إلى الكوفة بعد أن استخلف عبد الله بن عبد الله المدان إلا أن بسراً قد دخلها، وأرسل علي إلى جزيرة العرب جارية بن قدامة، ومعه ألفان، ووهب بن مسعود ومعه ألفان، وسار جارية حتى أتى نجران، ففرّ بسر إلى مكة، فتبعه جارية فدخلها، وطلب من أهلها البيعة، فقالوا له: هلك أمير المؤمنين، فقال: بايعونا لمكن بايع له أصحاب علي فبايعوه، ثم سار جارية إلى المدينة فدخلها وكان يصلي بالناس أبو هريرة، رضي الله عنه، ثم بايع أهل المدينة الحسن بن علي.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، خلال هذه المدة كلها لا تشغله الأمور السياسية، ولا تحرفه عن طريقه تصرفات أصحابه وتخاذلهم، ولا يمنعه ما لقي من بعض الولاة أن يتبع الصراط المستقيم وأن ينطلق من خلال فقهه وعلمه، فقد كان عمر بن الخطاب يقول: علي أقضانا، وقد سار علي بالناس سيرة عمر التي عرفت بالحزم، فقد منع الصحابة من مغادرة المدينة، وكان يحمل الدرة ويؤدب الناس بها، ثم الخيزرانة عندما لم تجد الدرة، ويمر بالأسواق، ينظر بالأسعار ويراقبها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجلس للناس في المسجد يحل مشكلاتهم، ويقضي لهم، ويعظ الناس، ويخطبهم.

مقتل علي: اجتمع عدد من الخوارج فتذاكروا فيما آل إليه أمر المسلمين، وتذكروا قتلاهم يوم النهروان، فثارت بهم الحمية، ورأوا أن علياً، ومعاوية، وعمراً من أسباب بلاء الأمة ـ حسب رأيهم وما توصلوا إليه

ـ لذا قرروا التخلص منهم. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم المرادي علياً، وأخذ البرك بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية، ووعد عمرو بن بكر التميمي بالتخلص من عمرو بن العاص، وتواعدوا كتم أمرهم، وأن يسير كل حسب جهته الموكل بها، وأن يكون موعدهم لتنفيذ الخطة صلاة الفجر من يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ.

ومرّ عبد الرحمن بن ملجم على تيم الرباب فوجد بينهم فتاة رائعة الجمال تدعى قطام ابنة الشجنة وكانت ممن أصابها وأصاب قومها النكبات يوم النهروان: فخطبها ابن ملجم، فاشترطت عليه مهراً كبيراً مقداره ثلاث آلاف دينار، وعبد، وقينة، ثم رأس علي، فوافقها وأسرّ لها مهمته بعد أن قال لها: هذا طلب من لا تريد العيش مع زوجها، فأجابته: إن نجوت عشنا خير حياة، وإلا فزت بالجنة ـ حسب زعمها ـ وهو في الواقع أشقى من عليها. وجاء اليوم الذي اتفقوا عليه، فضرب ابن ملجم علي بسيفه المسموم فقتله، وأما معاوية فأصابه يومها البرك بن عبد الله في إليته، فنجا بعد مداواة، فاتخذ بعدها المقصورة، وأما عمرو بن العاص فلم يخرج يومها للصلاة لمرض أصابه، وكلّف مكانه صاحب شرطته خارجة بن حذافة فقتل.

ودخل جندب بن عبد الله على علي بعد إصابته فقال له: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ونهى علي عن المثلة بقاتله وقال: إن مت فاقتلوه بي، وإن عشت رأيت رأيي فيه. ثم لم يلبث أن توفي، وغسله الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفن، وكثرت الروايات حول دفنه، الأمر الذي جعل قبره مجهول المكان.

واتجه الناس إلى الحسن فبايعوه وكان أول من بايعه قيس بن سعد، وبقي الحسن في الخلافة ستة أشهر رأى خلالها تخاذل أصحابه، وضرورة اتفاق الأمة، فآثر الصلح، ودعا معاوية إليه فوافق، وتنازل الحسن له في ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ، ودخل معاوية الكوفة، وانتقل الحسن، والحسين إلى المدينة. ويبدو أن الحسين لم يكن برأي أخيه وكذا قيس بن سعد.

وهكذا انتهت مدة الخلافة الراشدة التي سارت على نهج رسول الله ﷺ، وبدأت بعدها زاوية الانحراف تنفرج تدريجياً.

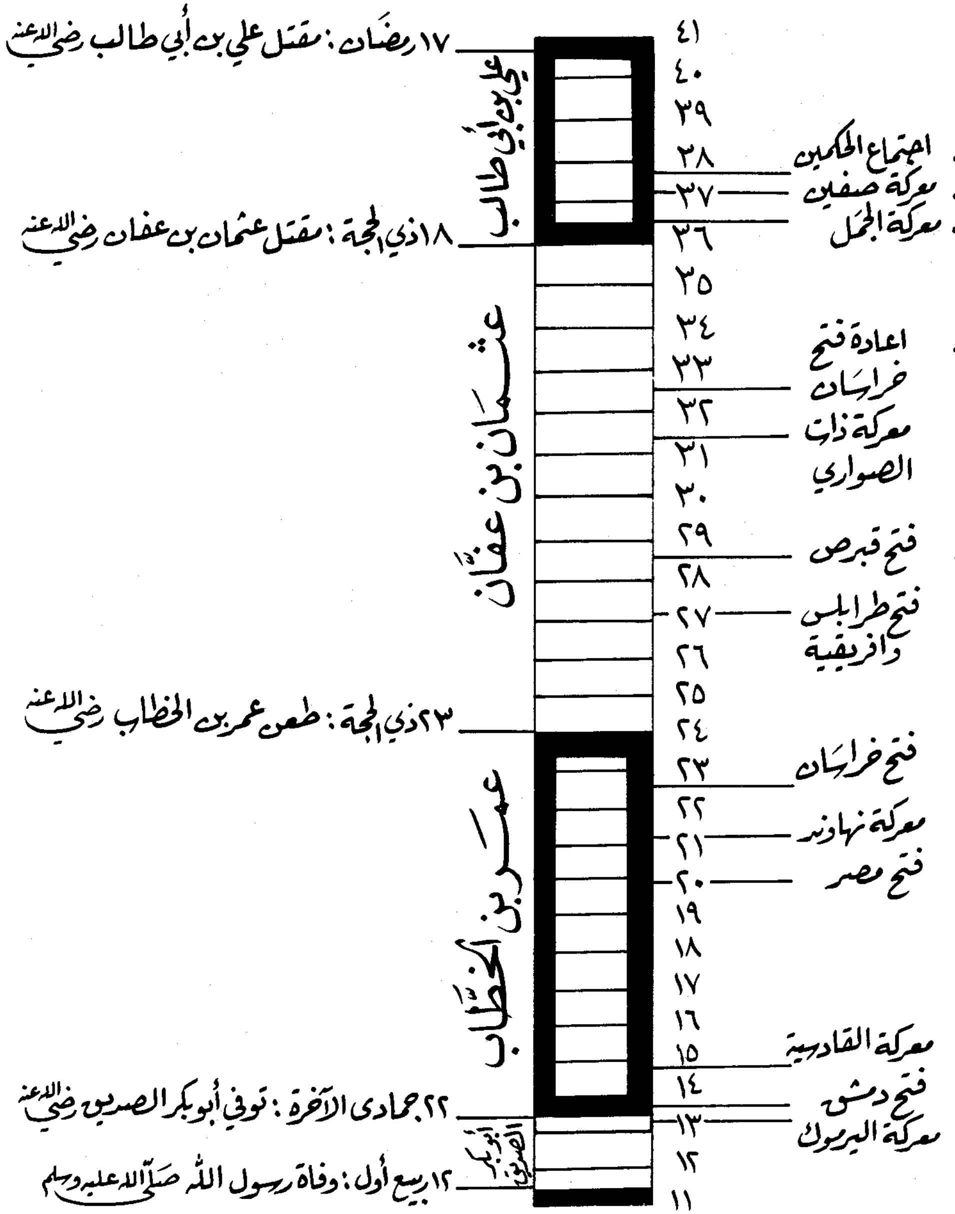
١٧ رمضان : مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٨ ذي الحجة : مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه
٢٣ ذي الحجة : طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٢٢ جمادى الآخرة : توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه
١٢ ربيع أول : وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
علي بن أبي طالب
عثمان بن عفان
عمر بن الخطاب
أبو بكر الصديق
٤١
٤٠
٣٩
٣٨
٣٧
٣٦
٣٥
٣٤
٣٣
٣٢
٣١
٣٠
٢٩
٢٨
٢٧
٢٦
٢٥
٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
١٩
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
اجتماع الحكمين
معركة صفين
معركة الجمل
اعادة فتح خراسان
معركة ذات الصواري
فتح قبرص
فتح طرابلس وافريقية
فتح خراسان
معركة نهاوند
فتح مصر
معركة القادسية
فتح دمشق
معركة اليرموك

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

— ٤ —

العهد الأموي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربه إلى يوم الدين **وَبَعْـد**:

فإن تاريخ بني أمية قد أصابه الكثير من التشويه، وغدا كأنه قد حدث انفصال مباشر بين العهد الراشدي والعهد الأموي دفعةً واحدةً حتى أصبح الكثير من الناس يظنون أن الإسلام لم يُمكّن له إلا في العهد النبوي والراشدي، وإذا وصل الأمر إلى هذه النقطة زيد فيه وقيل إن الحكم الإسلامي لم يقم إلا في عهد رسول الله ﷺ والخليفتين الراشدين من بعده وبذا فإن ذلك الحكم يؤقت بأقل من ربع قرن، وقد تمكن أنصاره من ذلك بسبب الوضع البدوي السائد والحياة الاجتماعية البسيطة القائمة، أما عندما وصلت الحضارة إلى المدينة المنورة بعد الفتوحات التي حدثت، والاحتكاك بالحضارة الفارسية والرومانية فلم يعد الإسلام يثبت أمام تلك الحضارات، وقامت الخلافات بين صحابة رسول الله ﷺ، ويتمثل هذا فيما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، حيث يمثل الأول التمسك بالإسلام، ويمثل الثاني التأثر بالحضارة الرومانية حيث كان على تماسٍّ مباشر معها في بلاد الشام، وقد يكون تشويه تاريخ بني أمية لا يقصد به إلا ذاتهم إلا أن ذلك يمس الحكم الإسلامي أصلاً.

وقد طُعن بهذا العهد من جهات متعددة، طُعن به من جهة خصومهم السياسيين من بني العباس الذين دُوّن التاريخ في أيامهم، وطُعن به من جهة أعدائهم التقليديين من الشيعة والخوارج، وهم الذين ذاقوا على أيديهم

أعنف الضربات، وطُعن به من جهة أصحاب العواطف من المسلمين الطيبين الذين هالهم ما أصاب انتقال الحكم من شورى أيام الخلفاء الراشدين إلى نظام ملكي أيام الأمويين، وهو أمر على غاية من الأهمية، وصعُب عليهم ما نال آل البيت من نكبات، وما حلّ بالبيت الحرام من أذى، وما لحق آل الزبير من مصائب، وما قسا ولاتهم على المسلمين، وطُعن بالعهد من جهة العوام الذين لا يعرفون من التاريخ إلا ما تناقلته الألسن، وشاع بين الناس، وما تداولته الأيدي من كتب - الله أعلم بواضعيها -، هؤلاء جميعاً تكلموا عن الأمويين دون تفريق قد يكون بعضهم بقصد وآخرون من غير قصد، وروّجوا الشائعات التي أشيعت عن بني أمية من غير دراسة أو تحليل أو من غير إلقاء نظرةٍ فاحصة عامة، ثم غدت هذه الشائعات روايات حيكت بشكل مقبول، ونسجت خيوط الأخبار بصورة تدين بني أمية، وتصوّرهم بحالة من السوء كبيرة.

وساعد على قبول هذه الروايات محبة المسلمين جميعاً لآل بيت رسول الله ﷺ، وتعاطفهم معهم هذا بالإضافة إلى أن النفس البشرية تعطف دائماً على من تنزل به نكبة أو تحلّ به نازلة، فتتناقل الألسن المصيبة، وتزيد فيها حتى تصبح حزينة تدمى لها القلوب، وتبكي معها العيون، وتسير معها الأفئدة، وإذا كانت بعض هذه المصائب التي حلّت بآل البيت هي هكذا بل قد تكون أقسى وأصعب مما صُوّرت حتى الآن، ولكن كل مصيبة لا بدّ لها من دراسة وتحليل، وما وقع فيها من اجتهاد، وما حدث فيها من مبالغات وأخطاء، والتفريق بين أصول تطبيق منهج الإسلام وبين العواطف السطحية والمحبة الباردة.

وساعد على قبول مثل هذه الروايات لدى الناس تأخر أكثر بني أمية في قبول دعوة الإسلام حتى وقف أكثرهم في الصف المعادي تماماً للدعوة بل قادوا قريشاً لحرب الإسلام، وجيّشوا الجيوش، وحزّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وكان على رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب الذي تنتسب إليه الأسرة الأموية الأولى، وعندما أسلم قبيل فتح مكة يبدو واضحاً أن إسلامه

إنما كان خوفاً من السيف، وسار مع المسلمين إلى «حنين»، و«الطائف» والأزلام لا تزال في كنانته، وأعطي من الغنائم يومذاك الشيء الكثير هو وأولاده على أنهم من المؤلفة قلوبهم، هذه المواقف قد أنست الناس حسن إسلامه بعد هذه الغزوة مباشرة وتولية رسول الله ﷺ له على نجران، ووفاته عليه الصلاة والسلام وهو عنه راض، وإرسال أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، له إلى اليمن ليكون على الصدقات، وحسن صنيعه في الجهاد، إذ سار مع الجيوش المجاهدة إلى الشام وهو شيخ كبير قد قارب السبعين من العمر، وموقفه في معركة اليرموك، وحثه أبناءه على الجهاد والتضحية في سبيل الله، وكان أبو سفيان في جيش ابنه يزيد الذي كانت وجهته دمشق فقال لابنه القائد قبيل المعركة: يا بنيّ عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين ولّوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: افعل ـ إن شاء الله[1].

ووقف أبو سفيان يوم اليرموك يحث المسلمين على القتال فقال: يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأعداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بازاء عدوٍ كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد فنادى: يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ج٧.

رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، ثم سار إلى موقعه - رحمه الله[1]. . وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوس ويقول: الله الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك[2]. وقال سعيد بن المسيب عن أبيه: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[3]. وانتصر المسلمون في اليرموك، وفقد أبو سفيان عينه الثانية، وكان قد فقد الأولى يوم حصار الطائف، وعاش بذلك بعد اليرموك كفيفاً، منقطعاً للعبادة، يخشى ما سبق منه أن صدّ عن سبيل الله. وكأن الناس قد نسوا أمثاله الذين كانوا لهم المواقف نفسها قبل إسلامهم بل منها ما هو أشد، ثم أسلموا، وأبلوا فأحسنوا، وكانوا قدوةً حسنة للمسلمين لم تطالهم الألسن بشيء أمثال خالد بن الوليد، رضي الله عنه، الذي قاتل المسلمين في كل ميدان، ووقف ضد رسول الله في كل موقف، ونال من المسلمين في أحد وربما كان السبب الرئيسي فيما حلّ بهم يومذاك، ثم أسلم، ويقول هو رضي الله عنه عن إسلامه وبيعته لرسول الله ﷺ: وبايعت رسول الله ﷺ، وقلت: استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صدٍّ عن سبيل الله، فقال «إن الإسلام يجبّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله على ذلك قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك»[4] وهذا ينطبق على خالد بن الوليد كما ينطبق على عمرو بن العاص، وأبي سفيان، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وزهير بن أبي أمية المخزومي، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحي وغيرهم.

وساعد على قبول هذه الروايات أيضاً موقف مروان بن الحكم مؤسس

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - ج٧ ص٩.
(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر نفسه.
(٤) طبقات ابن سعد: ج٤ ص٢٥٢ - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨ هـ.

الأسرة الأموية الثانية الذي برز فجأة ولم يعرف من قبل إذ كان عمره ثماني سنوات عندما توفي رسول الله ﷺ ظهر في أواخر أيام سيدنا عثمان بن عفان يشترك في بعض القضايا المهمة والخليفة يثق به ويوليه الكثير من المهام، وذلك على زعم المؤرخين، ودافع عن الخليفة عثمان رضي الله عنه دفاع المستميت، واشترك في معركة الجمل، وقاتل حتى اثخنته الجراح، وأدخل إلى أحد بيوت النساء ليداوى.

وساعد على قبول هذه الروايات الصورة المشرقة لسيدنا علي، رضي الله عنه، منذ نعومة أظفاره وفي بدء الدعوة والمعارك التي خاضها مع رسول الله ﷺ ضد المشركين واليهود في بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وحنين، فتعلقت به النفوس ـ وهو أهل لذلك ـ فقد كان بطل المشاهد ورجل الحروب. ومنذ بداية الخلافة الراشدة ووفاة رسول الله ﷺ بدأ يخبو نجمه ويخفت صوته بعد أن لمع وتألق كثيراً، وهذا اختفاء ظاهري لا حقيقي وذلك لأن الأنظار قد اتجهت نحو الفتوحات التي لم يشارك فيها علي، رضي الله عنه، لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إبقاء كبار الصحابة في مدينة رسول الله ﷺ يستشيرهم الخليفة، ويدعمونه، وقد كفاهم من جهادهم مع رسول الله ﷺ، وقد تألق قادة الفتح على حين لم يبرز في المدينة سوى الخليفة، والواقع أن مركز سيدنا علي، رضي الله عنه، لم ينزل أيام الراشدين فقد كان ساعد أبي بكر، رضي الله عنه، في أحلك الظروف وقت فتنة الردة، وساعدَ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومستشاره، وواليه على المدينة عندما يخرج منها، وتُحال قضايا الفتوى إليه، وكان ساعدَ عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يستشيره في الملمات ويأخذ رأيه إذا حزب الأمر. وادعى بعضهم أن الخلافة كانت تدفع عن علي دفعاً، ولما كانت النفوس متعلقة به وببطولته لذا فقد رأى بعضها أنه أحق الناس بالخلافة، وبررت رأيها بقرابته من رسول الله ﷺ، وبصفته ختنه، ولكونه أبا للحسن والحسين، رضي الله عنهما، وكأن الخلافة إرثاً يتوارثها الأقرباء بعضهم من بعض، وأن أكبر اعتراض على الأمويين

والعباسيين ومن جاء بعدهم اتخاذ الملكية نظاماً بدلاً من الشورى، ولم ينظر إلى علي، رضي الله عنه، أنه لم يكن يريد الخلافة أبداً وهذا ما يبدو من خطبه التي تنسب إليه «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا[1] على كظة[2] ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة[3] عنز»، وأن علياً، رضي الله عنه، كان لا يزال في مطلع الشباب فلم يزد عمره على الثلاثين كثيراً عندما توفي رسول الله ﷺ على حين كان أبو بكر، وعمر، وعثمان، رضي الله عنهم، في الستين أو ما يقارب منها، والعرب ترى في السن أثراً في تقدم القوم والرئاسة عليهم، ولم ينظر أيضاً إلى ما لقي رضي الله عنه من عنت أنصاره قبل خصومه، وهم الذين ادعوا حبه ونصحه، وكانوا أبعد ما يكون عن الطاعة أثناء الشدائد حتى تكرر في خطبه قوله «ولكن لا رأي لمن لا يطاع»، وحتى ملّهم، وكره العيش معهم، ورغب في مفارقتهم، فكان يقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني وأبغضتهم وأبغضوني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني»، وما وجد منهم وجد أبناؤه كذلك مع دعوى أنصاره بحبهم أيضاً ورغبتهم في نصرة آل البيت وهؤلاء الأشياع قد ركّزوا على ما لقي من خصومه، ونسوا ما وجد منهم، وعلى كلٍ فإن ما لقي من متاعب، وما حلّ به من نكبات، وما وجد من نقض للعهود من أنصاره وخصومه على حدٍ سواء قد جعل المسلمين يميلون نحوه إضافة إلى حبهم الحقيقي له وميلهم الصحيح له فهو أهل لذلك، وهو سيد عصره بلا منازع، وأفضل من عليها يوم آلت إليه الخلافة.

---

(١) ألا يقارّوا: ألا يوافقوا مقرين.

(٢) الكظة: ما يعتري الآكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

(٣) عفطة عنز: ما تنثره العنز من أنفها.

وساعد على نشر الشائعات ضد بني أمية ما كان من فتن في أواخر أيام الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بسبب فتنة ابن السوداء، عبد الله بن سبأ، ومؤمرات اليهود، ومظاهرة المجوس لهم، وكيد النصارى أيضاً، ونسب هذا كله إلى حكم الخليفة وسُمّي عجزاً، وإلى رغبة سيدنا عثمان في عدم الضغط على المسلمين وعدم أخذهم بالشدة، وسُمّي ضعفاً، على حين كانت شدة ولاته على أصحاب الفتن من جملة المؤيدات لأعدائه فحملوا عليهم، وعدوهم قساةً ظالمين، ولما كانوا من البيت الأموي فقد نسبوا إلى الخليفة تقريبه لأهل بيته، وممالأتهم، وقد تحمل الخليفة، رضي الله عنه، تبعة ذلك، وسبحان الله فالحليم ضعيفاً والقوي ظالماً! فمن هو المرغوب فيه؟ ونُظر إلى سيدنا عثمان وكأنه ليس بالخليفة الراشدي، ونُسي إصهار رسول الله ﷺ له، ومواقفه في الدفاع عن الإسلام بالمال والنفس، ويوم الحديبية، وساعة العسرة، وفتوحاته في أول عهده، والرخاء الذي أصاب المسلمين جميعاً في بداية أمره، وكيف كان يواسي المسلمين بماله، ويسعفهم من أملاكه، ولم يذكر منه إلا ما كان في أواخر أيامه يوم حدثت الفتن، وعمت الفوضى.

وساعد في إظهار معايب بني أمية الخلاف الذي جرى بين علي ومعاوية، رضي الله عنهما، وقد اجتهد كل منهما لمصلحة المسلمين والسير على الطريق الصحيح وإن كنا نرى أن الخليفة الشرعي هو سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ولا يحق لوالٍ من الولاة أن يعارض الخليفة، ويدعو إلى قضية هي من حق الخليفة وحده، إلا أنه قد اختلط عليه بسبب الفوضى وسيطرة المشاغبين على المدينة المنورة، إلا أن أنصار علي، رضي الله عنه، أو من يدعون ذلك قد أبعدوا عن معاوية، رضي الله عنه، كل مكرمة، ونسوا صحبته، وكتابته للوحي، وفتوحاته، وتقديره لسيدنا علي، رضي الله عنه، في حياته ومماته ـ وهو ما سنتعرض له في الصفحات القادمة ـ إن شاء الله ـ، ونسبوا إليه لعنه وتحقيره وهو أمر لا يقبله مؤمن، ولا يصدقه مسلم.

وساعد في قبول هذه الروايات النكبات التي حلت بآل البيت بل التي توالت عليهم، فحادثة كربلاء التي تعدّ فاجعة كبيرة نزلت بآل البيت وذهب فيها بطلها سيدنا الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وأكثر إخوانه وأبنائه، وهو أفضل من عليها يومذاك، وإذ كان الحسين، رضي الله عنه، مجتهداً في خروجه إلا أن ذلك الخروج ليس له ما يبرره من الناحية الشرعية، كما أنه ليس بالصحيح من الناحية السياسية والعسكرية والاجتماعية، فجماعته لا تزيد كثيراً على المائة أكثرها من النساء والأطفال تخرج إلى مكان تعم فيه الفوضى ليقوم زعيمها هناك بالثورة ضد الحكم الضعيف، ويحمل لواء الجهاد ليعمل على تطبيق المنهج الإسلامي بشكل أكثر سلامةً، وتتوقع هذه الجماعة القتال والصدام بوالي بني أمية الذي يملك الأمر بشكلٍ قويٍ، ويقسو على أنصارها بكل شدة وإذا نظرنا إلى ما فعله جيش بني أمية بل أحد ولاتهم في هذه الحادثة ألا يجب أن ننظر إلى ما فعله أولئك الذين دعوا سيدنا الحسين للخروج إليهم، ثم تخلّوا عنه ساعة الشدة، وسلموا رسوله، ابن عمه، مسلم بن عقيل وقت الضيق، بل انضم أكثرهم إلى الجيش الذي قاتل الحسين، وشاهدوا مصرعه، ولم ينصروه، ألا يعدّ أولئك هم القتلة الحقيقيون له! وهذا ما يدل على أن الذين تولوا كبر هذه الفاجعة إنما هم الذين سجلوها بهذه الصورة فذكروا ما فعلت خصومهم ونسوا ما اقترفت أيديهم هم منها، فلم يسجلوا خيانتهم له، ومشاركتهم في قتله وأنصاره وأهله. وإضافة إلى فاجعة كربلاء كانت ثورة زيد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، في الكوفة عام ١٢٢ أيام خلافة هشام بن عبد الملك، وكما سلّم أهل هذه المدينة الحسين بن علي سلّموا كذلك حفيده زيد، وقد دعوه للخروج، وحثوه على ذلك فلما قام تخلوا عنه ورفضوه، ومنذ ذلك الوقت عرفوا باسم الرافضة، وزيد هو الذي أطلق عليهم هذا الاسم، وبعد كل هذا لم يرعووا ولم يتفكروا بل قاموا يعلنون توبتهم بعد كل حادثة يرتكبونها، فهم الذين أعلنوا عدم الطاعة لسيدنا علي، وأجبروه مرات كثيرة على ما لم يرد حتى ملّهم، ثم توانوا عن نصرة سيدنا الحسن، وتباطؤوا في القتال حتى رأى أنه لا بدّ من مبايعة سيدنا معاوية،

ثم بدؤوا يظهرون اللوم والتأفف وإذا كانت أئمتهم قد بايعت فما عليهم إلا البيعة والقبول بالخليفة الجديد، وإذا نسبوا لأئمتهم العصمة فكيف يرفضون ما عمل هؤلاء الأئمة، وما قاموا به، ولم يقبلوا عليهم طائعين راضين؟ ثم تخلوا عن الحسين، وعن زيد بعد أن دعوهم للخروج، وأظهروا لهم التأييد ومما يلاحظ أثناء دراسة كتب التاريخ التي بين أيدينا أن الخوارج قد حلّت بهم النكبات أكثر مما حلّت بآل البيت، وأن ما فيها من المآسي أكثر مما في تلك، ومع ذلك فقد سُجّلت حروب الخوارج على أنها ضرورة اقتضتها ظروف الدولة، وكان الحق بجانب الحكم، على حين صوّرت ثورات آل البيت بأن الحق مع الخارجين وأن الدولة ظالمة لهم بعيدة عن تطبيق الشرع، فكيف هي عادلة في جانب وظالمة في آخر؟ وتطبق الإسلام مع فئة وتخالفه مع ثانية؟ على حين أن الخوارج يطلبون أن تكون الخلافة في الصالح لها، ويطالبون بتطبيق الإسلام هذا خطهم العام مع ما فيه من مخالفات أخرى معروفة يكفرون فيها المسلمين الذين لا يرون رأيهم، ويعدّون العصاة خالدين في النار، أما الشيعة فيطالبون بالتسليم لآل البيت بالحكم على أن يكون فيهم متوارثاً بينما ينتقدون الحكم الوراثي إذا كان في غير من يدعون لهم، هذه الحقائق تجعل أصابع الاتهام تتجه إلى ناحيةٍ معينةٍ وتشير إلى جهةٍ خاصةٍ كان لها دور كبير في تسجيل أحداث التاريخ المغلوطة التي شاعت بين الناس حتى غدت عند أكثرهم حقيقة.

وساعد على قبول الشائعات ضد بني أمية ما نال أنصار علي، رضي الله عنه، من بعده، فقد قتل عدد منهم بصورٍ مختلفة، ولعل من أبرزهم حجر بن عدي، وقد كان مقتله في مرج عذراء شمال شرقي دمشق على بعد خمسة وعشرين كيلاً منها، واختلفت الروايات في قتله، واتهم سيدنا معاوية في ذلك.

وساعد في قبول هذه الروايات شدة بعض ولاة بني أمية أمثال زياد بن أبيه الذي أخضع الكوفة والبصرة وما حولهما، وابنه عبيد الله الذي سار على خطة أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتد لتوطيد سلطان

بني أمية، وضربت بهما الأمثلة في الظلم، وقتل الرجال، إلا أن نظرة واحدة إلى هؤلاء الولاة تنبئ أن من ضرب به المثل إنما كانوا ولاة على العراق فقط، وذلك لما عمّ ذلك المصر من فوضى واضطرابات، فإذا جاءهم الوالي الرحيم استضعفوه وقاموا بالحركات، وإذا جاءهم القوي استهابوه وخافوا منه، وسمعوا منه وأطاعوه، واستقر الوضع، وهدأت الأمور، فكان لا بدّ للوالي الذي يلي أمورهم من أخذهم بالشدة، ومسكهم بالحزم والقوة حتى يستقر له الوضع، وتستمر له الولاية، وتتم له الهيبة، ويسود الأمن، ومن سار على هذه الطريقة وهي مطلوبة روّجوا الشائعات ضده، وذكروا ظلمه، وشدة بطشه، ونسوا ما لقيت الرعية في هذا الإقليم من جور، وما نالها من ظلم بسبب أهل الفتنة، فلما تولى أمر البلد زياد بن أبيه أخذهم بالشدة فاستتب الأمن، فلقد خاطب أهل البصرة خاصة والعراق عامة في أول خطبة له بعد أن تسلم أمرها خطبته المشهورة بالبتراء وقد جاء في بعض فقراتها «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها، من بُيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودَلَج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليّ، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقته، ومن حرّق على قوم حرّقناه، ومن نقب بيتاً نقبت قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دَبْرَ أذني، وتحت

قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس، قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وليّنا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم. واعلموا أني مهما قصّرت عنه فإني لا أقصّر عن ثلاث، لست محتجباً عن طالب حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبّانه، ولا مجمّرا[1] لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا. ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم.

أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي[2].

وكان زياد أول من شدّ أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدّم في العقوبة، وجرّد السيف، وأخذ بالظُّنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدر العطاء، وبنى مدينة الرزق[3].

---

(١) تجمير الجند: حبسهم في أرض العدو، ومنعهم من العودة إلى أهليهم.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٢١٩ ـ ٢٢١ طبعة دار المعارف بمصر ـ القاهرة.

(٣) المصدر السابق ص٢٢٢.

وقال الحجاج عندما وصل إلى الكوفة والياً عليها، وهو على منبر مسجدها:

«أنا ابن جلا وطلاع الثنايا.

متى أضع العمامة تعرفوني[1]

أما والله إني لأحمل الشر محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا والقوس فيها وتر عردُ

مثل ذراع البكر أو أشدّ لا بدّ مما ليس منه بدّ

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفّها الليل بسواق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وضم[2]

قد لفّها الليل بعصلبي[3] أروع خرّاج من الدوي[4]

مهاجرٍ ليس بأعرابي

ليس أوان يكره الخلاط جاءت به والقُلص الأعلاط[5]

تهوي هُويّ سابق الغطاط

وإني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين، ولا يقطع لي بالشنان[6]، ولقد فُررت عن ذكاء، وجريت إلى الغاية القصوى. إن أمير المؤمنين، عبد الملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً، فوجّهني إليكم؛ فإنكم طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم

(١) البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحي.
(٢) الوضم: كل ما يقطع عليه اللحم.
(٣) العصلبي: الشديد القادر على العمل والمشي.
(٤) الأرض الفضاء التي يسمع فيها خف الإبل كالدوي.
(٥) الأعلاط: الإبل التي دون أرسان. (٦) الشنان: القربة البالية اليابسة.

سنن الغي، أما والله لألحوَنّكم لحو العود، ولأعصبنكم[1] عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. إني والله لا أعِد إلا وفيت، ولا أخلق[2] إلا فريت[3]. فإياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالا، وما يقول، وفيم أنتم وذاك؟ والله ولتستقيمن على سبل الحق أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده. من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه، وأنهبت ماله».

واستقر الوضع بالعراق لبني أمية بهذه الشدة التي ساس فيها الحجاج الناس، وبعد أن ضعفت سلطة بني أمية فيها بعض الشيء بعد ولاية زياد بن أبيه، وما كان الوضع في هذا المصر ليستقيم لولا هذه الشدة، بل لانتشرت الفوضى وما كان المسلمون لينصرفوا إلى الفتوحات والجهاد لولا استقرار الأوضاع في أمصارهم وأقاليمهم كافة، أو ما كان الإسلام لينتشر في عهد بني أمية لولا استقرار الأمن والأوضاع بفضل هؤلاء الولاة وأمثالهم فقد عرفت الفتوحات أوجها أيام الحجاج فهو الذي سير محمد بن القاسم الثقفي إلى السند، وقتيبة بن مسلم الباهلي إلى بلاد ما وراء النهر، وانتشر الإسلام أيامه أكثر من أي وقت في العصر كله باستثناء أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وصحيح أن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير وهو من أهل العلم وكبار التابعين، وكان سعيد قد اشترك في حركة ابن الأشعث التي كادت أن تُجزّئ الدولة، وتهب عليها رياح الفتن.

وساعد في قبول هذه الروايات ضد بني أمية معركة الحرة التي جرت في أواخر عام ٦٣هـ أيام يزيد بن معاوية، وكان جيشه بقيادة مسلم بن عقبة المري، فقد استباح المدينة ثلاثة أيام وقتل من أهلها ما قتل ثم سار إلى مكة المكرمة لحصار ابن الزبير فيها ولكنه مات في الطريق، وتولى أمر جند الشام بعده الحصين بن نمير فحاصر مكة إلا أن نعي يزيد قد جاءه ففكّ الحصار.

---

(١) أعصبنكم: أقطعكم.
(٢) أخلق: أقدّر.
(٣) فريت: أصلحت.

ولما قوي ملك بني أمية مرة أخرى بالشام، جاء الحجاج بن يوسف الثقفي وحاصر مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير، ودخل البيت الحرام، وهذا ما يثير المسلمين لما لابن الزبير من فضلٍ، وما للحرم من حرمةٍ، وما للكعبة من قدسيةٍ، ومع هذا فإن هذه الحادثة تبقى دون فاجعة كربلاء من حيث التسجيل وإثارة المسلمين، إذ سجلت كل منهما بأسلوب الأمر الذي يوضح الأيدي التي سجلت أحداث التاريخ لهذه المدة من الزمن أو ذلك العهد من العصر الإسلامي.

لقد استغل خصوم بني أمية هذه الأحداث التي وقعت في عهدهم، واستفادوا من بعض الحوادث التي سبقت عصرهم فعملوا على تشويه التاريخ بشكل عام.

شنّ هؤلاء هجوماً عنيفاً على بني أمية حتى أخرجوهم من الإسلام، وكان هجومهم على الخلفاء والولاة والأعوان، لم ينج منهم الصحابة، بل لم ينج منهم حتى أولئك الذين كانوا من أنصار سيدنا علي، رضي الله عنه، إذا بدا الضعف في بعض مواقف لهم أمثال أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، وعدّوا الراشدين، رضي الله عنهم، أنهم تآمروا على سيدنا علي فأبعدوا الخلافة عنه، واستبدوا بها، لذا فقد نالهم من سموم المفترين ما نالهم، وقالوا عنهم أقوالاً ما قالها أحد من ألدّ أعدائهم، على حين أن أولئك الذين كانوا سبباً في الفوضى، ومن زعماء الشغب أمثال الأشتر النخعي قد ناله من الثناء ما ناله، لدعمه لسيدنا علي، ولوقوفه بجانبه وقتاله معه.

لقد سلّطوا الأضواء على بني أمية قبل إسلامهم، ولم يسلم منهم الذين أسلموا منذ بدء الدعوة من بني أمية أمثال عثمان بن عفان، وسعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص رضي الله عنهم جميعاً. لقد وجهوا سمومهم ضد أبي سفيان صخر بن حرب على أنه كبير الأمويين، وعدّوه رأس الكفر ـ وقد كان كذلك قبل ذلك ـ وعندما أسلم لم يعترفوا على إسلامه، وإنما عدّوا ذلك

خدعة خوفاً من السيف، واستشهدوا على ذلك بعطاء رسول الله ﷺ له ولأولاده من غنائم هوازن الكثير وبعد حنين كما أعطى المؤلفة قلوبهم - وقد كان كذلك، وعندما حسن إسلامه لم يوافقوا على ذلك على الرغم من تولية رسول الله ﷺ له، وإرسال أبي بكر، رضي الله عنه، إياه على صدقات اليمن، وتوقفوا عن ذكر موقفه يوم اليرموك، وفقده عينه يومذاك، وحياته كفيفاً بعد ذلك، منقطعاً للعبادة أكثر من سبع عشرة سنة حتى توفي عام ٣١هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

اتهموا سيدنا عثمان بوصوله إلى الخلافة بطريقة غير أمينة، وأن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قد تآمر معه على ذلك في سبيل إبعاد سيدنا علي، رضي الله عنه، عنها، واتهموا عثمان كذلك أنه قد قرّب أهل بيته من بني أمية فأعطاهم الولايات، وقلّدهم المناصب، وترك لهم الأمر يتصرفون به كما يشاءون، وأنه كان ضعيفاً يتلاعب به ابن عمه مروان بن الحكم، وهذا ما سبب الفوضى التي نتج عنها البلاء والفتن.

إن كثيراً من الصحابة الأكفاء كانوا يرفضون العمل والولايات، ولا يستطيع السلطان أن يجبرهم على ذلك، وكان سيدنا عثمان مضطراً لاختيار الأكفاء، وقد تقدم بعض أقربائه يرغبون في الأمر، وهم من قريش وقبل ذلك من المسلمين ومن صحابة رسول الله ﷺ، وما كان له أن يمنعهم عنها، ولكن إذا لاحظ عليهم شيئاً عزلهم وأدبهم وكم عزل منهم! ولم يَتّهم حتى إذا ثبت له صلاحهم أعادهم للولاية، وكان دورهم في الفتح والجهاد ونشر الإسلام.

واتهموا سيدنا معاوية، رضي الله عنه، بأنه صاحب أطماع، وأن ما فعله بما يسمى بالمطالبة بدم عثمان لم يكن سوى مناورة سياسية لتحقيق أطماعه، وهذا ما أدى به إلى الخروج على الخليفة مع ما في الخروج من مخالفات شرعية، وأنه عندما وصل إلى الخلافة نسي ما كان يدعو إليه بالأمس من مطالبة بدم الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

واتهموا سيدنا معاوية بكل من قُتل أو مات ممن كان قد وقف ضده،

مع أن الفوضى كانت سائدة والثارات موجودة، وكل قد خاض في دماء الآخرين، فقد قتل سيدنا علي، رضي الله عنه، بيد الخوارج، وطعن معاوية نفسه، وقتل قاضي مصر خارجة، وصاحبه يظن أنه عمرو بن العاص، ولو لم يكن ذلك لاتهم معاوية بعلي، وعمرو أيضاً، وعلى كلٍ فكل من لم يُعرف قاتله اتهم به معاوية، وكل من مات من الرجال اتهم معاوية بسقيه السم.

اتهم سيدنا معاوية بقتل سيدنا الحسن بن علي، رضي الله عنهما، بالسم الذي دسّ له عن طريق زوجه جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي وقد كان معاوية دسّ إليها: إنك إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوّجتك من يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه، فلما مات وفّى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه[1] ويبدو ضعف الاتهام واضحاً، حتى إن المصدر نفسه يضعفه فيقول على لسان الحسن، رضي الله عنه، «لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، لقد لفظت طائفة من كبدي فرأيتني أقلبه بعود في يدي، فقال له الحسين: يا أخي من سقاك؟ قال: وما تريد بذلك؟ فإن كان الذي أظنه فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي بريء»[2]. ويدل هذا على أن الحسن ظنّ ولم يتهم، ومن ظنّه ليس هو بصاحب السلطان، فإنه يؤخذ منه، والسلطان هو الذي يأخذ ذلك، والخليفة معاوية هو السلطان والإمام الذي يجب أن يقيم الحدود، أما الحسين، رضي الله عنه، فلا يستطيع أن يقيم الحدّ على الإمام.

واتهم سيدنا معاوية بقتل الأشتر النخعي فيروي المسعودي ذلك فيقول «وولى علي الأشتر مصر وأنفذه إليها في جيش، فلما بلغ ذلك معاوية دسّ إلى دهقان كان بالعريش، فأرغبه، وقال: أترك خراجك عشرين سنة،

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٥ طبعة المكتبة التجارية ـ مصر ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٥.

واحتل للأشتر بالسم في طعامه، فلما نزل الأشتر العريش سأل الدهقان: أي الطعام والشراب أحب إليه؟ قيل له: العسل، فأهدى له عسلاً، وقال: إن من أمره وشأنه كذا وكذا، ووصفه للأشتر، وكان الأشتر صائماً، فتناول منه شربة، فما استقرت في جوفه حتى تلف، وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وقيل: كان ذلك بالقلزم، والأول أثبت، فبلغ ذلك علياً، فقال: لليدين والفم، وبلغ ذلك معاوية، فقال: إن لله جنداً من عسل»[١].

واتهم سيدنا معاوية بقتل حُجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبراً في الإسلام، حمله زياد بن أبيه من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها «ولما صار إلى مرج عذراء على اثني عشر ميلاً من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجلٍ أعور، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم: إن صدق الزجر فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه، فلما وصل إليهم قال لحجر: إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك، إلا أن تراجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرؤوا منه، فقال حجر وجماعة ممن كانوا معه: إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من علي، فلما قُدّم حجر ليقتل قال: دعوني أصلي ركعتين، فجعل يطول في صلاته، فقيل له: أجزعاً من الموت؟ فقال: لا، ولكني ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت، وما صليت قط أخف من هذه، وكيف لا أجزع، وإني لأرى قبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، ثم تقدم فَنُحِر، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه»[٢].

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٢ ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص١٢ ـ ١٣.

واتهم سيدنا معاوية بقتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لما كان له من شأن «أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عظم شأنه بالشام، ومال إليه أهلها، لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية، وخشي على نفسه منه، لميل الناس إليه، فأمر ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجاً ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص منصرفاً من بلاد الروم دسّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها فمات بحمص، فوفّى له معاوية بما ضمن له، وولاّه خراج حمص، ووضع عنه خراجه»[1].

واتهم سيدنا معاوية بادعاء زياد بن أبيه ونسبه إلى أبيه أبي سفيان، أي شهد على أبيه بالزنا، ولم يكن بعد قد خلق، وذلك بغية كسبه إلى جانبه، ولو كان في ذلك ترك لدينه، قال المسعودي «ولما همّ معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه ـ وذلك في سنة أربع وأربعين ـ شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازي، ومالك بن ربيعة السلولي، والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه، وأن أبا سفيان قال لعلي عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب:

أما والله لولا خوف شخص	يراني يا علي من الأعادي
لبين أمره صخر بن حرب	ولم يكن المجمجم عن زياد
ولكني أخاف صروف كفّ	لها نقم ونفي عن بلادي
فقد طالت محاولتي ثقيفاً	وتركي فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبي مريم السلولي، وكان أخبر الناس ببدء الأمر وذلك لأنه جمع بين أبي سفيان وسميّة أم زياد في الجاهلية على الزنا، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة إلى

---

(١) الطبري: ج٥ ص٢٢٧.

الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محلةٍ يقال لها حارة البغايا.

وكان سبب ادعاء معاوية له فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن علياً كان ولاّه فارس حين أخرج منها سهيل بن حنيف، فضرب زياد ببعضهم بعضاً حتى غلب عليها، وما زال يتنقل في كورها حتى صلح أمر فارس، ثم ولاّه على اصطخر، وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بسر بن أرطأة عبيد الله وسالماً ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنهما إن لم يراجع ويدخل في طاعة معاوية، وكتب معاوية إلى بسر ألا يعرض لابني زياد، وكتب إلى زياد أن يدخل في طاعته ويردّه إلى عمله، فقدم زياد على معاوية، فصالحه على مال وحلي، ودعاه معاوية إلى أن يستخلفه، فأبى زياد ذلك، وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية: ارم بالغرض الأقصى، ودع عنك الفضول، فإن هذا الأمر لا يمد إليه أحد يداً إلاّ الحسن بن علي، وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك قبل التوطين، فقال زياد: فأشر علي، قال: أرى أن تنقل أصلك إلى أصله، وتصل حبلك بحبله، وأن تعير الناس منك أذناً صماء، فقال زياد: يا ابن شعبة أأغرس عوداً في غير منبته ولا مدرة فتحييه ولا عرق فيسقيه؟ ثم إن زياداً عزم على قبول الدعوى وأخذ برأي ابن شعبة، وأرسلت إليه جويرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية، فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه، وقالت: أنت أخي أخبرني بذلك أبو مريم، ثم أخرجه معاوية إلى المسجد، وجمع الناس فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمّار في الجاهلية، فقال: ابغني بغياً، فأتيته وقلت له: لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة سميّة، فقال: ائتني بها على زفرها وقذرها، فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً، فقال أبو مريم: لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت، والله لقد أخذ بكم درعها، وأغلقت الباب عليها وقعدت دهشاناً، فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان، فقال: ما أحببت مثلها يا أبا

مريم، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها، فقام زياد فقال: أيها الناس هذا الشاهد قد سمعتم ذكرها، ولست أدري حق ذلك من باطله، وإنما كان عبيد ربيباً مبروراً أو ولياً مشكوراً، والشهود أعلم بما قالوا، فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفي ـ وكانت صفية مولاة سمية ـ فقال: يا معاوية، قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش، مخالفة لكتاب الله تعالى، وانصرافاً عن سنة رسول الله ﷺ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان، فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً وقوعها»[1]. ويبدو ضعف هذا فكيف قبل زياد هذا الكلام أمامه؟ وكيف قبل معاوية؟ وكيف رضي المسلمون بهذه المخالفة الصريحة من الإمام؟ فهل ضاع الإحساس، وضاع الدين، ولا يزال الصحابة أحياء؟.

واتهم سيدنا معاوية بطعنه بكبار الصحابة ومنهم أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم جميعاً، ففي رسالةٍ منسوبةٍ إليه موجهةٍ إلى محمد بن أبي بكر والي علي على مصر يقول: «فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده، وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه الله إليه، صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتز حقه، وخالفه على أمره، على ذلك اتّفقا واتّسقا، ثم إنهما دعواه إلى بيتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مُناكما، فخذ حذرك يا ابن أبي بكر، وقس شبرك بفترك، يقصر على أن توازي أو تساوي من يزن الجبال

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص١٤ ـ ١٦.

بحلمه، لا يلين عن قسرٍ قناته، ولا يدرك ذو مقال أناته أبوك مهد مهاده، وبنى لملكه وساده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك، أو دع ذلك، والسلام على من أناب»(١).

يبدو في هذا الضعف، وأنه من وضع الخصوم في وقت متأخر ففي البداية يثني على علي، رضي الله عنه، ثناء غلاة الإمامية، ويطعن في الخلفاء الراشدين الآخرين، ثم يجمع معهم معاوية.

ونُسب إليه أنه كتب إلى قيس بن سعد بن عبادة بعد أن عزله علي عن مصر «أما بعد: فإنك يهودي...»(٢) معاذ الله!

واتهم سيدنا معاوية بأنه كان يلعن علياً على المنابر، ويأمر الناس بذلك، وكذلك يفعل ولاته، وبهذا الاتهام يتهم المسلمون جميعاً الذين يقبلون بهذا، ويسكتون عنه، فما من مسلم إلا ويحب علياً، وما من مسلم يمكن أن يرضى بهذا، وهذا فرية ما بعدها افتراء، فقد كان معاوية على ما بينه وبين علي من خلافٍ في وجهات النظر، ومفارقة في الرأي يحترمه ويجلّه، ويعرف قدره، ويعلم منزلته، ويمدح أمامه، ويترحم عليه، ويترضى عنه، وإنما المتأخرون من الغلاة قد أضافوا وحرّفوا واتهموا حتى كانت الهوة بين الفريقين من أنصار علي وشيعته وباقي المسلمين، ولم يكن هذا من قبل، فكانوا يصلون معاً ويجاهدون معاً، وينطلقون إلى الفتوحات معاً، ثم غدوا الآن فريقين، لا تصلي الشيعة وراء إمام المسلمين، ولا تعترف بمصادر علمهم، ولا تقبل إلا ممن كان مقبولاً عندها ولولا كان من ميمون القداح وأمثاله.

ويحمل على معاوية استخلافه ابنه يزيد لا للاستخلاف فقد استخلف من هو أفضل منه، إذ استخلف أبو بكر، رضي الله عنه، عمر، رضي الله

---

(١) المصدر السابق. ج٣ ص٢١ ـ ٢٢. (٢) المصدر نفسه ج٣ ص٢٥.

عنه، من بعده، وإنما استخلافه لابنه تفضيلاً له ومحبة وفي المسلمين من هو خير منه، وبذا يكون قد نقل حكم الشورى إلى ملك عضوض.

وحمل على معاوية أنه قلّد الأكاسرة والقياصرة في الأبهة بالملك منذ توليه إمرة الشام، ولعل الأمر يستوجب ذلك، لما في عادة أهل البلد، ونظرتهم إلى هيبة السلطان، فذكر الطبري ذلك، إذ قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! وقال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لمكيدة رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك»[1]. ولو وجد عمر في ذلك شيئاً، وهو أكثر الناس زهداً وأبعدهم عن التكلف، وأشدهم على الولاة، لأخذ على يده، ولما أبقاه في الولاية يوماً واحداً. أما اتخاذ المقصورة والخاتم فقد اقتضت الظروف ذلك ولا شيء فيها.

واتهم يزيد بن معاوية، بل يعدّ هو وأبوه أكثر من وجهت إليه التهم، وأشيعت عنهم الشائعات، وكثرت الافتراءات، فأبوه بسبب نزاعه مع سيدنا علي، وهو بسبب حدوث فاجعة كربلاء في أيامه، وإن كانت الافتراءات عامة على بني أمية إلا أنها كانت أكثر ما تكون من الخلفاء على معاوية ويزيد.

- ٢ -

اتهم يزيد بأنه كان السبب الرئيسي في قتل سيدنا الحسين بن علي، رضي الله عنهما، والواقع أنه ما كان كذلك، حيث كان بينه وبين مكان

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥ ص٣٣١.

المعركة مسيرة شهر، فكيف يصدر الأوامر، ويمنع، ويربط، ويقطع وهو الخليفة الذي لم تكن له تلك القوة، ولم يستقر له الوضع بعد، وشخصية عبيد الله بن زياد هي الظاهرة في العراق؟

واتهم أنه سُرَّ بمقتل الحسين ولم يكن كذلك، ولكنه بكى، ولعن شمّراً وابن زياد وقال: والله لو كنت عوضاً عن ابن زياد لعفوت عنه، ثم أدخل النساء الذين وفدوا إلى دمشق من بقايا كربلاء إلى نسائه، واستمر البكاء والنحيب ثلاثة أيام، وما كان يأكل إلا ومعه علي بن الحسين، ثم سيّر الركب مع حامية إلى المدينة.

وكذا لم تكن له السيطرة التامة على الجيش الذي غزا المدينة المنورة واستباحها ثلاثة أيام، بعدما أعلن أهلها العصيان، وخلع البيعة، وإخراج بني أمية منها.

واتهم أنه كان مدمناً على الشراب، بل زادوا إلى أنه قد نشر ذلك في كل البقاع التي تخضع له، ومن الغريب أن يُقبل رأي كهذا، ولم ينتشر الفساد والخمر في يوم من الأيام وبشكل علني في الدولة الإسلامية، فكيف بذلك وأبناء الصحابة موجودون بل وبعض الصحابة لا يزالون على قيد الحياة؟ يقول المسعودي «وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شَربةً تُروِّي مشاستي ... ثم على فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب»[١].

---

(١) مروج الذهب: المسعودي ـ ج٣ ص٧٧.

وقالوا في مروان بن الحكم ما قالوا، فقد جاء في حياة الحيوان ما نصه: روى الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قال؛ كان لا يولد لأحدٍ مولود إلا أتي به لرسول الله ﷺ فيدعو له، فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون» ثم قال: صحيح الإسناد. ثم روى عن عمرو بن مرة الجهني، وكانت له صحبة، أن الحكم بن أبي العاصي استأذن على النبي ﷺ فعرف صوته فقال: «أئذنوا له، عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله إلا المؤمن منهم، وقليل ما هم يترفهون في الدنيا، ويضيعون الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق».

وفي كتاب الإشاعة في أشراط الساعة جميع ما ورد في ذم بني أمية مما هبّ ودبّ فمما قال: وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت في النوم بني الحكم ينزوون عن منبري كما تنزوي القردة». قال: فما رؤي النبي ﷺ بعدها ضاحكاً مستجمعاً حتى توفي، رواه أبو يعلى، والحاكم، والبيهقي. وعن ابن المسيب قال: رأى النبي ﷺ بني أمية على منبره فساءه ذلك فأوحى الله إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه، رواه البيهقي.

وعن الحسن بن علي، عليهما السلام، قال: إن رسول الله ﷺ قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ۝٣﴾ يملكها بنو أمية، قال القاسم بن اليتيم بن الفضل: فحسبنا مدة ملك بني أمية فإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص. رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي. وعن الزهري وعطاء الخراساني أن النبي ﷺ قال للحكم: «كأني أنظر إلى بنيك يصعدون منبري وينزلون»، رواه الفاكهي. وعن جبير بن مطعم قال: كنا مع

النبي ﷺ فمر الحكم بن أبي العاص، فقال النبي ﷺ: «ويل لأمتي مما في صلب هذا» وغير ذلك كثير.

وإن هذه الأحاديث والأخبار ليغنينا ظاهرها الدال على الكذب عن مناقشة سندها. فكم نهى النبي ﷺ عن اللعن، وكم أنزل أصحابه عن الإبل التي كانوا يلعنونها، وقد قال عليه السلام: «ما بعثت لعّاناً». فمن أين هذه الأحاديث التي كثر اللعن في رواياتها لبني أمية التي لم يرد مثلها في حق أبي جهل، وأبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، وأبيّ بن خلف، والوليد بن المغيرة، وعبد الله بن سلول وغيرهم من رؤساء المشركين مع شدة كفرهم وعنادهم[1].

وقد كان مروان بن الحكم خليفة، ويختلف عليه الصحابة ويأمر وينهى بينهم، ويصلي إماماً بهم، وهذا لا شك فيه لأن الخلفاء هم الذين كانوا يتولون الإمامة الصغرى مع الكبرى، بل أمراؤهم أيضاً كانوا يصلون أئمة بالصحابة، حتى كان الحجاج يصلي بهم ومحال أن يسكتوا أو يقتدوا بمن لا يرونه أهلاً للإمامة.

وأما اختلافهم إليه وحكمه فيهم، فقد روى الشيخان واللفظ للبخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا سلمان بن المغيرة قال: حدثنا حميد بن هلال العدوي قال: حدثنا صالح السمان قال: رأيت أبا سعيد الخدري في يوم الجمعة يصلي إلى شيء يستره الناس، فأراد شاب من بني أبي معيط أن يجتاز بين يديه، فدفع أبو سعيد في صدره، فنظر الشاب فلم يجد مساغاً إلا بين يديه فعاد ليجتاز، فدفعه أبو سعيد أشد من الأولى، فنال من أبي سعيد، ثم دخل على مروان فحكى إليه ما لقي من أبي سعيد، ودخل أبو سعيد خلفه على مروان. فقال: ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيد؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صلى أحد إلى شيء يستره من الناس، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان».

---

(١) أغاليط المؤرخين ـ محمد أبو اليسر عابدين ص١٤٦ ـ ١٤٨.

وفي هذا الحديث ما يدل على فضل مروان بسهولة حجابه والدخول عليه وقضائه بما امتثل به أمر رسول الله ﷺ[١].

وكان مروان من رواة الحديث: فقد روى عن عمر بن الخطاب: مَن وهب هبة لصلة رحم فإنه لا يرجع فيها.

وروى أيضاً عن عثمان، وزيد بن ثابت، وبُسرة بنت صفوان، وروى مروان عن سهل بن سعد الساعدي. وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه[٢]. وعده ابن سعد من الطبقة الأولى من التابعين.

ـ ٤ ـ

ويقال: إن الشاعر النصراني الأخطل كان يدخل على الخليفة والصليب في رقبته، والخمر يقطر من لحيته لينشده:

ذهبت قريش بالمكارم والعلى … واللؤم تحت عمائم الأنصار[٣]

فذروا المكارم لستم من أهلها … وخذوا مساحيكم[٤] بني النجار[٥]

إن الفوارس يعرفون ظهوركم[٦] … أولاد كل مُفَسَّحٍ أكّار[٧]

وإذا نسبت ابن الفريعة[٨] خلته … كالجحش بين حمارة وحمار

(١) المصدر السابق ص١٥٢ ـ ١٥٣. (٢) طبقات ابن سعد. ج٥ ص٤٣.
(٣) يعرض بالأنصار إذ أن أكثرهم كان بجانب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٤) مساحي: جمع مسحاة: وهي أداة زراعية، تقشط بها الأرض ليجمع التراب على شكل حد.
(٥) بنو النجار: قوم من الأنصار، أخوال رسول الله ﷺ حيث أم جده عبد المطلب هي سلمى بنت عمرو من بني النجار، كما أن هذا البيت من الأنصار هم قوم حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ.
(٦) يعرفون ظهوركم: كناية عن فرارهم وقت القتال.
(٧) الأكّار: المزارع، وكانت العرب تحتقر الزراعة والصناعة حيث إنهما مهنة العبيد وتفخر بالرعي والغزو.
(٨) ابن الفريعة. حسان بن ثابت لأن أمة كانت تعرف بـ «الفريعة».

أيعقل هذا من خليفة، صحابي، أو تابعي إذ تروى عن سيدنا معاوية كما تروى عن عبد الملك؟ ومن كان في تلك الآونة يشتم أنصار رسول الله، وشاعر رسول الله، وأخوال رسول الله؟

وأي خليفة مسلم، بل أي ملك في أي وقت يرضى أن يدخل عليه رجل وهو سكران؟..

- ٥ -

ويتهم سليمان بن عبد الملك بأنه كان كثير الطعام، وقد عزل قادة الفتح وقتلهم وهم: محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، لأنهم وافقوا الخليفة الوليد بن عبد الملك على عزل أخيه سليمان، وتولية ابنه مكانه، إلا أن المنية قد عاجلت الوليد فلم يتم ذلك، فانتقم سليمان عندما أصبح خليفة من أولئك الرجال.

لقد كان هؤلاء الرجال على ثغورهم، وبينهم وبين الخليفة آلاف الكيلومترات، ويحتاج البريد إلى أشهر لأخذ الرأي. ثم متى كان الخليفة الأموي ليستشير قادة الجند؟ قد يستشير أهل البيت الحاكم، وإنما مشاورة القادة حدثت في العصر العباسي عندما أصبح أمراء الجند هم أهل الرأي والحل والعقد، والقوة هي التي تحكم، والخلفاء أصبحوا بيد القادة العسكريين، وهذا ما يوضح الوقت الذي ألصقت فيه هذه التهم، وهو وقت حكم خصوم بني أمية.

ثم إن موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة الجديد، قد عين مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، وكان ابنه الآخر وهو عبد الله والياً على إفريقية، وقد استمر عبد العزيز بالفتح ومتابعة خطة أبيه، ولو كان استدعاؤه عزلاً لعيّن الخليفة والياً مكانه، أو أرسل قائداً والياً مكان السابق، بل لم يكن ليقبل بأن يتولى ابن الوالي الأمر. ثم إن سليمان قد صحب موسى معه إلى الحج في موسم ٩٧هـ، وتوفي موسى في المدينة، وكان مستشار الخليفة الحربي لمدة تقرب من السنة منذ وصوله من الأندلس حتى وفاته.

وأما محمد بن القاسم فقد قتل ملك السند «داهر» وأسر ابنته صبيتا، فعندما وصلت إلى دمشق افترت على القائد ثأراً لمقتل أبيها، فكان على الخليفة أن يضعه في السجن حتى يحقق معه، وهذا ما كان وأثناء السجن قتل بدسائس من أتباع «داهر» فاتهم به الخليفة.

وأما قتيبة بن مسلم الباهلي، فقد قتل من قبل جنده إذ خالف الخليفة، ودعا لنفسه بعد أن خشي مغبة فعله فاستغل الجند هذه المخالفة وقتلوه، واتهم به الخليفة، ونسجت خيوط الفرية...

- ٦ -

واتهم الخلفاء الأمويون أنهم كانو يبقون الجزية عمن أسلم حرصاً على دخل بيت المال، فهل كان بيت المال فقيراً، والغنائم تأتي إليه من كل حدب وصوب؟ والفيء والخراج وغير ذلك؟... إن بيت المال آنذاك كان عامراً حتى لم يعرف الخليفة أين يذهب بهذه الأموال الكثيرة التي تدخله.

ثم إن وضع الجزية عمن أسلم أمر شرعي فهل يجرؤ الخليفة على التساهل فيه، وأين دور أهل العلم؟ لم يبق إلا ليقال: إن بني أمية قد رفضوا الإسلام وأحلوا بأهله البوار.

إن كل ما حدث أن الجراح بن عبد الله الحكمي عامل عمر بن عبد العزيز على خراسان قد أخذ الجزية من جماعة ثم أسلموا فلم يُعد لهم ما أخذ منهم فأرسل له الخليفة قولته المشهورة «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً» فأخذ بعضهم من هذا الكلام أن الأمويين يبقون الجزية على من يسلم من أهل البلاد المفتوحة.

- ٧ -

وكثر الافتراء على الوليد بن يزيد، وجاء في حياة الحيوان في ترجمته «وكان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً، وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث، وكان جواداً مفضالاً. ومع ذلك لم يكن في بني أمية أكثر إدماناً

للشراب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر الأمة من الوليد بن يزيد. يقال: إنه واقع جارية له وهو سكران وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فحلف ألا يصلي بالناس إلا هي فلبست ثيابه وتنكرت، وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى[1]. ويقال: إنه اصطنع بركة من خمر وكان إذا طرب ألقى نفسه فيها وشرب حتى يبين النقص في أطرافها. وحكى الماوردي في كتاب أدب الدين والدنيا عنه تفاءل بالمصحف فخرج قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾. فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبار عنيد
إذ ما جئت ربك يوم حشرٍ	فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور ببلده.

وقد جاء في الحديث: ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو أشر من فرعون، فأوله العلماء الوليد بن يزيد هذا، ولما دخلوا عليه في قصره نهى أصحابه عن القتال وقال: يوم كيوم عثمان. فقيل له: ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق، ثم نصب على قصره ثم على أعلى سور في دمشق في جمادى الأولى سنة ستٍ وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة، وكان من أجمل الناس وأحسنهم وأقواهم وأجودهم شعراً.

وأعدل الأقوال فيه ما قاله سيد المؤرخين ابن خلدون: ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من الهوى والمجون حتى نسبت إليه في ذلك كثير من الشنائع مثل رميه المصحف بالسهام حين استفتح فوقع على قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وينشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما، ولقد ساءت المقالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه، وقالوا إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به. قال المدائني:

---

(١) هل يعقل هذا؟ ألم يعرف أحد من المسلمين صوت المرأة؟ وكان الخليفة يعترض له الناس يسألونه، ألم يسلم أحد على الخليفة.

دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله: ممن أنت؟ فقال: من قريش. قال: من أيها: فوجم، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد: فقال: رحم الله الوليد، ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه، ارفع حوائجك فرفعها وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي فذكر الوليد فقال المهدي: كان زنديقاً. فقام ابن علانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً! لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه، ويراه في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصبية المصبغة، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نقية فيلبسها ويشتغل بربه، أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علانة، وإنما كان الرجل محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته وبني عمومته مع لهوٍ كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه، وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ، قال يوماً لهشام يغريه في مسلمة أخيه: إن عُقبى من بقي لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام، وسكت القوم[(١)].

وتضاف إلى الوليد افتراءات بني عمومته إضافةً إلى افتراءات خصومه، فقد كان بينه وبينهم خلافات كالتي تحدث بين الأقارب عامةً وبين الذين يتولون أمور الأمة ومن يخلفهم.

وتولى بعد الوليد بن يزيد ابن عمه وقاتله يزيد بن الوليد، وقد سمي بالناقص لأنه نقص من أرزاق الجند والناس، وأعادهم إلى ما كانوا عليه أيام عمه هشام بن عبد الملك بعدما زاد الوليد فيها، وكان عادلاً وتقياً،

---

(١) المصدر نفسه ص١٦٠ ـ ١٦٢.

ومن عدله جرى المثل المشهور: الأشج[1] والناقص أعدلا بني مروان[2].

وعلى كلٍ فقد لقي الوليد مصرعه على يد ابن عمه، وهو الخليفة الوحيد الذي قتل، وما قتل إلا لاستهتاره، وقد نقم عليه أهله وعشيرته لهذا التصرف، فهو إذن لا يمثل بني أمية إذ أن بني أمية قد غضبوا عليه وتبرؤوا منه ثم قتلوه وقضوا عليه.

- ٨ -

واتهموا معاوية، رضي الله عنه، وأهل الشام جميعاً في دينهم وعدم إدراكهم وتعصبهم فلا يفرقون بين الناقة والبعير، ولا يفرقون بين الأربعاء والجمعة، فيصلون الجمعة يوم الأربعاء وليس فيهم من يتكلم فليس منهم رجل رشيد، ولنسمع إلى المسعودي يقول: «وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه (يقصد معاوية) أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير إلى دمشق في حالة منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية. وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيّنة يشهدون أنه ناقته، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه، وبرّه، وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص، أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن

---

(١) الأشج هو عمر بن عبد العزيز.

(٢) وهكذا تختلف الروايات وتتناقض حتى لا ندري أيها أكثر صحةً الأمر الذي يدل على وضع الكثير منها ولم توثق.

جعلوا لعن علي سُنّة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير[1].

قال المسعودي: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن.

وحكى الجاحظ قال: سمعت رجلاً من العامة، وهو حاج، وقد ذكر له البيت يقول: إذ أتيته من يكلمني منه؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد ﷺ: ما تقول في محمد هذا؟ أربنا هو[2]؟

وذكر لي بعض إخواني أن رجلاً من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق، فسأله الوالي عن مذهب الرجل، فقال: إنه مرجئ قدري ناصبي رافضي، فلما قصه عن ذلك قال: إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص، فقال له الوالي: ما أدري على أي شيء أحسدك على علمك بالمقالات، أم على بصرك بالأنساب؟

وأخبرني رجل من إخواننا من أهل العلم، قال: كنا نقعد نتناظر في أبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا، فقال لي ذات يوم بعضهم وكان من أعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان، فقلت له: فما تقول أنت في ذلك؟ قال: من تريد؟ قلت: علي، ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة، قال: امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة علي؟ قال: قتل في غزاة حنين مع النبي ﷺ.

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٤١.

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص٤٢.

وقد كان عبد الله بن علي[1] حين خرج في طلب مروان[2] إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجّه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام فحلفوا لأبي العباس أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ من قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة[3].

وما أرى أن هذه الروايات بحاجةٍ إلى ردٍ عليها لنقضها فهي ترد على نفسها وتنقض ذاتها.

واتُهم المجتمع كله، وعُدّ مجتمعاً فاسداً، ومن هذه التهم وهذه الافتراءات سرت الشائعات بأن الإسلام لم يطبق إلا في مدة محدودة لا تتجاوز عهد الرسول ﷺ وعهد صاحبيه أبي بكرٍ وعمر، رضي الله عنهما، إذ نسب إلى سيدنا عثمان الشيء الكثير بصفته أموياً حتى كادت تضيع المعالم لدى كثير من الناس.

لقد أشاعوا أن المجتمع كان فاسداً ودللوا على ذلك ببعض أقوال الشعراء، وقد اختاروا من عرف منهم بالغزل أو الفحش فنسبوا إليه قصائد أو نحلوا أبياتاً ضمَّنوها قصائده ومن ذلك قصائد عمر بن أبي ربيعة، وصوّروا المجتمع من خلالها، والواقع أن عمر لم يقل كل ما في قصائده أو التي نسبت إليه، وإذا كان قد قالها، فإنما كان أكثرها تخيّلاً، إذ لا يمكن أن يلتقي بسيدات المجتمع اللواتي كنّ في مصر أو الشام أو العراق إلا في الموسم أثناء الحج فيتخيل هذه السيدات وقد جئن مع الموسم وشاهدهن، وتحدث معهن، وأعجب بهن كما أعجبن به، وبحديثه، فكان يرضي نزوته بهذا، وينظم القصائد فيرضي فنّه ويحتفظ بهذه القصائد لنفسه

---

(١) **عبد الله بن علي**: هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم أبي العباس السفاح، قائد العباسيين الذي أنهى حكم بني أمية.

(٢) مروان: هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية.

(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٤٢ ـ ٤٣.

أو يقرؤها لأقرانه وأترابه أثناء السمر، وبعده وجدت هذه القصائد فاستغلها المغرضون وصوروا المجتمع من خلالها، هذا إذا صح نسبها له، أما الوضع والنحل فأمران آخران الله أعلم بهما.

ويمكن أن نلحظ هذا واضحاً في قصائده، فيذكر مثلاً أنه كان في طريقه إلى المصلى بالمدينة المنورة وإذ يلتقي ببعض الفتيات يذهبن إلى المصلى، فألقى ما في جعبته إليهن فبادلنه الحديث، ثم ذهب إلى هدفه، وفي البيت قال:

مـرّ بـي سـرب ظـبـاء	رائـحـات مـن قـبـاء
زمـراً نـحـو الـمـصـلـى	مـسـرعـات فـي خـلاء
فـتـعـرضـت وألـقـيـت	جـلابـيـب الـحـيـاء
وقـديـمـاً كـان عـهـدي	وفـتـونـي بـالـنـسـاء

وتدل الأبيات على خيال، وكانت الفتيات في حشمة وحياء ذاهبات إلى المصلى، وهو كذلك، لكنه تذكر المنظر بعد مدة فنظم هذه الأبيات.

ويقال: إن ابن أبي عتيق قد وصف لعمر بن أبي ربيعة عقل ابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية وأدبها وجمالها فشغف بها وفتن دون أن يراها، ونظم فيها القصائد الطوال، وهذا شأنه مع بقية النساء اللواتي اشتهرن به، واشتهر بهن، سيدات معروفات ذوات سمعة ومكانة لا يمكن أن يطالهن أو يتحدث إليهن، وبذكرهن يعرف ذلك، ومن أشهرهن: سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، لبابة بنت عبد الله بن عباس، فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، أم محمد بنت مروان بن الحكم، رملة بنت مروان بن الحكم، فاطمة بنت محمد بن الأشعث، سكينة بنت خالد بن مصعب، كلثم بنت سعد المخزومية، الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهي زوج سهيل بن عبد العزيز بن مروان، نعم الجمحية، رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية، زينب بنت موسى الجمحية.

هذه النساء هن سيدات عصرهن أو في رأس الطبقة الأولى في المجتمع إذا صحّ أن نقسم المجتمع طبقات ولا يعرف الإسلام هذا النظام وهذه التقسيمات، فهل وصلت قلة الحياء عندهن وقلة الأدب عنده أن يكون موسم الحج مجال التهتك والاستهتار إلى هذا الحد وفي الأماكن المقدسة بالذات وأثناء تأدية المناسك ولا يزال بعض الصحابة على قيد الحياة؟ وهل وصلت الحالة بالمجتمع إلى هذا الوضع من قبول المفاسد وانتهاك الحرمات؟ وهذا بالواقع ما يريد أن يصل إليه خصوم العصر، وما يريدون أن يصفوا به عهد بني أمية، لذا فقد نشروا هذه القصائد وأشاعوها بعد أن بالغوا في أسبابها وأضافوا إليها، وصوروها على أنها حقيقة، وأن بعض هذه النساء كن يأتين من أمكنة نائية ليحضرن الموسم من أجل الالتقاء بعمر ليذكرهن فيشتهرن ويذيع صيتهن. يروون أن (نُعم) استقبلت عمر بن أبي ربيعة في المسجد الحرام، وفي يدها خلوق، فمسحت به ثوبه، ومضت وهي تضحك. ويروون أنه قد ذهب مرة إلى المسجد والتقى بزينب في طريقها أيضاً إلى المسجد، فتركا قصدهما وسارا إلى بعض الشعاب. ورأى مرة لبابة بنت عبد الله بن عباس تطوف بالبيت، فكاد عقله يذهب بها إذ رآها يومذاك أحسن خلق الله، فسأل عنها فأخبر بنسبها فذهب ينظم القصائد بها. فمتى كان البيت الحرام مقراً للعب وسوء الخلق؟ وهل كان الحجاج يقصدون البيت من أجل هذا؟ ومتى كان الحجيج يقف أمام ما يحدث من هذا النوع موقف المتفرج؟ كل هذه الأسئلة يرد عليها بأن هذه القصائد كانت من الخيال وبقيت حتى روّجها خصوم بني أمية، أو ضمّنوها أبيات من نظمهم، أو نظموا قصائد ونسبوها إلى عمر، وأوجدوا من عند أنفسهم سبباً لها.

ثم هل وصل الأمر بأهل هذه النساء ـ وهم سادة ذلك العصر ـ إلى هذا الحد من الرضا بالتشبب بنسائهم والسماح بهذا الكلام عن فتياتهم والسكوت عنه، بل والسماح لهن بالسفر وحدهن إلى الموسم للالتقاء بعمر، مع العلم أن المرأة لا يصح لها أن تحج دون محرم، بل لا تُعدّ

قادرة على الحج إن لم يكن لديها محرم فيروى أن رملة أخت عبد الملك بن مروان قد جاءت إلى الحج، وبعد أداء الفريضة تعرّض لها عمر بن أبي ربيعة، ورافقها إلى الشام، فرأى عبد الملك أن يزوّجه إياها. كما يروى أن عمر قد رأى عائشة بنت طلحة ترمي الجمار فشغف بها، وبدأ يذكرها بشعره حتى جاء أبناء أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يلومونه ويعنفونه على ذكرها، وهي تيمية مثلهم، وابنة عمهم، وبنت أختهم فأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فوعدهم ألا يذكرها بعد ذاك، ولكن حبه لم يسمح له بتركها فكان يكني بها بـ (سليمى) أحياناً، و(سكينة) و(أم بشر) أحياناً أخرى.

وعلى كلٍ فإن اتهامات بني أمية قد اتخذت أشكالاً مختلفة منها:

١ ـ سُلّطت الأضواء على الأحداث التاريخية التي تضع من مكانة بني أمية مثل تأخرهم في الإسلام وقيادتهم قريشاً والأحزاب للوقوف في وجه الدعوة، ومن جهة أخرى فقد عمدوا إلى إغفال دور الأمويين الذي قاموا به بعد الإسلام مثل دورهم في الفتوحات وقيادة الجيوش وكل ما يمت إلى رفع مكانتهم.

٢ ـ سُلّطت الأضواء على النكبات التي حدثت في عهد الأمويين مثل فاجعة كربلاء ومقتل الحسين، ووقعة الحرة واستباحة المدينة المنورة، وضرب مكة ومقتل عبد الله بن الزبير، وثورة زيد بن علي بن الحسين ومقتله... واتهم فيها بنو أمية فقط، وأغفلت جوانب الخطأ التي وقعت والخروج على الحاكم، وتفرقة المسلمين.

٣ ـ سُلّطت الأضواء على بعض النقاط التي تقع أثناء ضعف النفس البشرية من بعض الرجال. وتركت كل جوانب الخير، وأعمال المجد، والتضحية للرجال أنفسهم حتى من الصحابة أمثال عثمان بن عفان، وأبي سفيان، وابنه معاوية، رضي الله عنهم. وكذا صُوّر الرجال الذين وقفوا بجانب بني أمية أو دعموا حكمهم خدمة للإسلام بكل صور التعصب والكره لآل البيت والوقوف بجانب غير الحق فيه واضح، ولم ينج من

الرجال الذين وقفوا بجانب سيدنا علي، رضي الله عنه، ولكنهم اجتهدوا في بعض النقاط أمثال أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. ومن الذين أصابهم أذى التعصب عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وكثير غيرهم.

٤ ـ أشيعت شائعات سامة ضد بعض الخلفاء الذين كانت مدة حكمهم قصيرة فلم تتهيأ لهم الفرص للقيام ببعض الأعمال الجليلة أو عرفوا فعلاً بالضعف أمثال يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد وإبراهيم ابني الوليد بن عبد الملك.

٥ ـ اتخذ من اللقاءات الخاصة لأعداء بني أمية مجالاً لنشر الشائعات، وتلفيق الأكاذيب، وإشاعة الافتراءات ووجدت في يوم من الأيام فعدت من الوثائق ومصادر الكتابة والدسّ.

٦ ـ اتخذوا من الشعراء مجالاً لبث السموم ونشر الآراء عن العهد كاملاً للبرهان على فساد الوضع وما آل إليه من سوء واستهتار بالقيم الإسلامية، واتجهوا إلى الشعراء الذين يمكن أن يصدر عنهم أمثال هذا الكلام وقد لاحظنا منهم عمر بن أبي ربيعة والشاعر النصراني الأخطل، ووضعت قصائد نسبت إلى شعراء معينين، أو على الأقل نحلوا أبيات وضمنوها قصائدهم.

٧ ـ نشروا ما كان مخفياً من الفواحش للطعن في بني أمية زاعمين أنهم كانوا يعملون على نشرها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[1].

إن هذه الافتراءات على بني أمية ليس لها سند صحيح، ومعظمها مجهول المصدر الأمر الذي يدل على كذبها وبذا لا يمكن الاعتماد عليها

---

(١) سورة النور الآية ١٩.

أبداً، وإذا أخذنا بمنهج الحديث في الجرح والتعديل وهو أفضل منهج للوصول إلى صحة الخبر فإننا سنطرح هذه الروايات كلها التي تقوّلت على بني أمية.

إنا لا نقول: إن عهد بني أمية عهد إسلامي سليم كما كان أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين، كما لا نقول عنه: إنه عهد جاهلي كالعهود التي نعرفها قبل الإسلام وبعد عصرهم، والتي تجعل منه الافتراءات عهداً قاتماً في بعض جوانبه أكثر من العصور الجاهلية، ولكننا نقول: إن الوضع الإسلامي قد تدهور قليلاً منذ انتهى العهد الراشدي وبدأت زاوية الانحراف تزداد في انفراجها تدريجياً مع الزمن.

لقد بدأ الانحراف بجعل الحكم ملكياً وراثياً وإن أطلق عليه (خلافة)، ثم زاد بتصرف الحكام والولاة في كثير من الأحيان ببيت المال حسب أهوائهم وآرائهم، وإن كانت لا تخرج عن الجادة إلا في حالات قليلة، أما بقية الجوانب فقد بقيت سليمة بشكل عام.

وإذا كنا ننظر إلى بيوت الخلفاء والأمراء ونرى ما دخل فيها من بعض الانحرافات حسب رواية كتب التاريخ غير الموثوق بصحتها إلا أن أصحاب هذه البيوت كانوا على درجة من الإيمان والخوف من الله بحيث إذا وعظهم واعظ أو ذكرهم منبه اتعظوا وفاضت أعينهم من الدمع وعدلوا من أوضاعهم وأحوالهم، وإن كانوا قريبي العودة إلى ما اعتادوا عليه.

أما المجتمع الإسلامي فقد استمر على ما كان عليه قبل الأمويين إذ بقي سليماً، وعاش حياة الشبه بحياة المجتمع الذي كان أيام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وإن كانوا قد تأثروا بعض الشيء بسبب ما جاءهم من غنائم وما دخل إلى البيوت من إماء وسبايا وذلك أشبه ما كان عليه الأمر في أواخر عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأوائل عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وعلى الرغم من كثرة الغنائم وزيادة الأموال بين أيديهم وأعداد السبايا التي كانت تصل إليهم وكل هذا يجعل الناس يخلدون فيه إلى الراحة، ويرتبطون بالأرض ومع هذا فقد كان عنصر

الإيمان يملأ نفوسهم فما أن يدعو داعي الجهاد حتى يتركوا الحياة المرفهة التي مارسوها والنعيم الذي اعتادوا عليه وينطلقون مباشرة إلى الجهاد في سبيل الله، وبهذه الروح استطاعوا أن يفتحوا مناطق واسعة من العالم المعمور آنذاك فوصلت فتوحاتهم من الصين شرقاً إلى وسط فرنسا غرباً، وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها، ووصلت إلى حدود لم يسبق لها أن وصلت إليها، كما لم تتجاوز تلك الحدود بعد ذلك كدولةٍ واحدة، وإنما بدأت مرحلة من الانكماش والضمور بعد الأمويين، وإذا كان قد توسع انتشار الإسلام في البحر الأبيض المتوسط أيام الأغالبة، والفاطميين، وانتشر عن طريق التجارة في جنوب شرقي آسيا، واتسع في جنوب شرقي أوربا أيام العثمانيين إلا أنه لم تكن هناك دولة إسلامية واحدة في هذه العصور المختلفة تجمع شمل المسلمين جميعاً، كما كانت أيام الأمويين.

وإذا كنا نعلم أن انتشار الإسلام قد حدث خلال القرون الإسلامية كلها وحتى الآن وأن الفتوحات قد نمت في عدد من العهود إلا أننا عندما نقول الفتوحات الإسلامية فإنما نقصد ما حدث منها خلال العصر الإسلامي الأول أي ما حدث أيام الراشدين والأمويين فقط وتعدّ الثانية تتمة للأولى إذ ما حدث من توقف إنما يعود إلى العوامل الداخلية التي وقعت في الدولة الإسلامية، وعندما كانت تستقر الأوضاع تعود الفتوحات إلى انطلاقتها.

أما ما جرت العادة أن يتحدّث عنه المؤرخون المحدثون من انقسام الناس إلى فئات من شيعة وخوارج وغيرهم من زبيريين وأمويين وموالي فإن هذا لم يكن أبداً، وإنما إذا حدثت ثورة أو قامت حركة أيدها من يرى رأيها ودعمها من كان لها نصيراً، أما في الأحوال العادية فليس هناك من فكر متميز أبداً وإنما جماعة واحدة فإذا ما سارت الجيوش بالفاتحين انخرطوا فيها جميعاً، أما تأييد فلان دون فلان فهذا أمر يحدث ويحدث باستمرار مع عدم الاختلاف بالفكر أو وجود جماعة خاصة لها كيان خاص كما يصور ذلك المؤرخون، والإنسان الذي يعيش في منطقة يتبع أميرها ويغزو معه، وحتى الشعراء الذين يصورهم الأدباء يكون الشاعر منهم زبيرياً

مثلاً، ثم يصبح من أنصار آل البيت، ثم أموياً، وهذا أمر غير صحيح أيضاً إذ من المعروف أن الشاعر مدّاحة هجّاء فمن كان بالحجاز مثلاً وكانت تخضع لابن الزبير مدحه، فإذا انتقل إلى الشام مدح الخليفة ولربما عرّض بابن الزبير إذا كان أمره قد انتهى، وهذا ما كان عليه أكثر الشعراء باستثناء الذين عاشوا في الشام لم يغادروها فقد قصروا مدحهم على خلفاء بني أمية ولعل منهم الأخطل النصراني، وربما نستثني من هذا كله الخوارج الذين يبدو لهم بعض الآراء الخاصة بهم والتي لا تظهر بشكل واضح إلا عندما ينطلقون إلى منطقةٍ ما معلنين عن آرائهم وأفكارهم ومظهرين الخروج على السلطة، أما عندما يعيشون داخل المجتمع فلا تعرف آراؤهم، وإنما يظن عن بعضهم أنهم يرون رأي الخوارج، أما البقية فكلهم كتلة واحدة، واستمر هذا طيلة العهد الأموي عندما تنطلق الجيوش أو تتحرك الصوائف والشواتي فلا يمكن التمييز بين جماعة وثانية أبداً، وهو بالأصل غير موجود، أما إذا حدثت حركة داخل المجتمع فعندها تتوقف الفتوحات، وكل من كان في منطقة تابع أميره وقاتل معه، فإذا انتصرت قوة على أخرى أصبح من رعايا الأمير الجديد إذن لا توجد تلك التجمعات التي حلا لبعض المؤرخين المحدثين أن يسموها أحزاباً.

لذا فلن نتحدث عن هذه الفئات لأنها غير موجودة ولا نريد أن نوجد في المجتمع ما ليس فيه كما يريد بعضهم أن يفعل ليظهر أن الإسلام لم يثبت في الواقع إلا أعواماً محدودة وليصل إلى نتيجة يريدها هي: إننا لا يمكن أن نعمل به الآن إذ لا يمكن تطبيقه، وسنكتفي بذكر الحركات التي قامت في العهد الأموي وننسبها إلى زعمائها لأنه لا توجد فكرة عامة لها، وما وجد من فكرٍ شيعي فإنما وضع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وما بعده فنسب لبعض الرجال أفكار لم تخطر على بالهم أبداً، بل لو سمعوا بها لتبرؤوا منها.

كما أننا لن نتحدث عن الروايات التي أشيعت عن العصر الأموي لأنه لا سند لها يدعمها ويجعلها في مستوى الروايات وإنما كلها محض افتراءات.

لذا فإن بحثنا سيكون خاصاً بما صح من الروايات، وما تعارف عليه الناس، وثبت في الكتب المعتمدة، مبتعدين عن آراء الخصوم التي شوهت التاريخ حتى كادت تعمّ.

وعلى كلٍ فإن التاريخ قد ظلم بني أمية ظلماً كثيراً إذ طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات! ولم يتعرض لها أبداً ولم يذكرها، وبالمقابل فإنه توسع في ذكر السلبيات أو افترى عليهم الكذب، فنسب لهم ما لم يكن منهم، وأوجد حوادث لم تقع في أيامهم، ويعود ذلك إلى أن كتابة التاريخ إنما كانت في عهد خصومهم السياسيين من بني العباس هذا من جهةٍ ومن جهة ثانية فإن هذه الكتابة كانت بأيدٍ شيعية وجدت في تلك الحقبة وكانت حاقدة تنتقد الحكم، ومن ورائها أهداف وغايات، وتوجّه سهامها بالدرجة الأولى على بني أمية إذ تثير الحماسة ضدهم لما ناله آل البيت على أيديهم، وبهذه الحماسة تكسب الأنصار وتحصل على المؤيدين. ومن أهم ما وجهت إلى بني أمية من انتقادات اغتصابهم للخلافة، وجعلها وراثية، وقسوة الولاة، وشدة طاعة أهل الشام لهم، والمصائب التي حلّت بآل البيت، وانتشار اللهو والفساد في عصرهم، والاتهامات التي ألمحنا إليها.

ومع هذه الانتقادات التي صحّ بعضها، وغالى أعداؤهم في بعضها مغالاة كبيرة، وسبح خيالهم في تدوين جزءٍ منها ومع هذا فإن لهم فضائل كثيرة أغفل المؤرخون ذكرها، ويمكن الإشارة إلى بعضها بشكل سريع.

١ ـ كان معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، صحابياً جليلاً، والصحابة كلهم عدول، وإن اجتهد في بعض القضايا ولم يوفق في الاجتهاد، ولم يحالفه التوفيق في النتائج إلا أنه صحابياً عدلاً.

وكان مروان بن الحكم من الطبقة الأولى من التابعين، وقد روى الحديث عن عمر بن الخطاب، وعن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وسهل بن سعد الساعدي، وبُسرة بنت صفوان، وكان مروان أثناء ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه.

وكان عبد الملك بن مروان من أهل العلم وقد سمع عثمان، وأبا هريرة، وأبا سعيد، وأم سلمة، ومعاوية، وابن عمر، وأم الدرداء، وبريرة، وحدّث عنه عروة، وخالد بن معدان، ورجاء بن حيوة، وإسماعيل بن عبيد الله، والزهري، وربيعة بن يزيد، ويونس بن ميسرة، وآخرون. وقال جرير بن حازم، عن نافع قال: لقد رأيت أهل المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك.

وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب.

وذكر إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي أنه قال: ما جالست أحداً إلا وجدت لي عليه الفضل إلا عبد الملك[1]. وعدّ ابن سعد عبد الملك بن مروان في الطبقة الثانية من التابعين من أهل المدينة.

وكان سليمان بن عبد الملك ديّناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو. قال عنه ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر. وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء.

وكان عمر بن عبد العزيز من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين، رحمة الله عليه، حدّث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وعامر بن سعد، ويوسف بن عبد الله بن سلام. وعدّه ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة وعندما تولى المدينة أيام الوليد بن عبد الملك كان يستشير أهل العلم وكبار القراء والفقهاء.

٢ ـ كان بنو أمية يقدمون أهل العلم والفضل غالباً فيعطونهم الولايات، ويسلمونهم قيادة الجيوش، وينصبونهم للقضاء، ويستشيرونهم في الأمور والملمات.

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠/ ٢٥٤، وطبقات ابن سعد ٥/ ٢٣٤.

ويكفي أن نذكر من ولاتهم عمرو بن العاص[١] وابنه عبد الله[٢] وبسر بن أرطأة[٣]، والنعمان بن بشير[٤]، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٥]، ومعاوية بن حديج[٦]، ومسلمة بن مخلّد[٧]، وعبد العزيز بن مروان[٨]، ونذكر

---

(١) **عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو عبد الله**: داهية قريش، ولد عام ٥٠ قبل الهجرة، أسلم وهاجر عام ٨ هـ مرافقاً لخالد بن الوليد، سرّ رسول الله بإسلامه، جهّزه لذات السلاسل، روى أحاديث كثيرة، شهد اليرموك وأبلى بلاء حسناً، قاد الجيوش وسار نحو فلسطين وفتح مصر وتولى أمرها، وعزله عثمان، كان بجانب معاوية ودخل مصر وتولى أمرها وبقي فيها حتى مات سنة ٤٣ هـ.

(٢) **عبد الله بن عمرو بن العاص**: ولد عام ٧ قبل الهجرة، صحابي، أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص فغيّره النبي ﷺ بعبد الله، يكنى بأبي محمد، روى عن رسول الله أحاديث كثيرة اتفق مسلم والبخاري على سبعة أحاديث منها، وانفرد البخاري بثمانية أحاديث، وانفرد مسلم بعشرين، هاجر سنة سبع، وشهد بعض المغازي، وكان على ميمنة معاوية يوم صفين، وذكر أنه كان يحمل الراية وما ضرب بسيف ولا رمى بسهم. تولى أمر الكوفة لمعاوية ثم عزل، ومات عام ٦٣ هـ.

(٣) **بسر بن أرطأة**: أبو عبد الرحمن، صحابي، له حديثان، ولد في العام الثاني للهجرة، شهد فتح مصر، وقاتل في بلاد الروم، وكان فارساً شجاعاً، ولي أمر الحجاز واليمن لمعاوية، توفي عام ٧٠ هـ.

(٤) **النعمان بن بشير بن سعد** بن ثعلبة الانصاري، أبو عبد الله: صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، ابن أخت عبد الله بن رواحة، روى ١١٤ حديثاً، ولد في العام الثاني للهجرة، وعد من الصحابة الصبيان باتفاق، تولى لمعاوية الكوفة، مدة كما تولى قضاء دمشق، ثم تولى أمر حمص، دعا إلى عبد الله بن الزبير في حمص: وقتل بعد معركة مرج راهط في إحدى قرى حمص عام ٦٤ هـ.

(٥) **عبد الرحمن بن خالد بن الوليد**: أقام في حمص من بلاد الشام، وكان كثير الغزو في بلاد الروم، واشتهر أمره كثيراً، وأحبه أهل الشام، مات في حمص وقيل أنه مات مسموماً في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(٦) **معاوية بن حديج بن جفنة**: أبو نعيم، وأبو عبد الرحمن السكوني الكندي، له صحبة ورواية قليلة، روى عن عمر، وأبي ذر، ومعاوية، شهد اليرموك، وغزا المغرب، وتوفي سنة ٥٢ هـ.

(٧) **مسلمة بن مخلد بن الصامت**: الأنصاري الخزرجي، أبو معن: ولد عام الهجرة، قيل له صحبة، تولى مصر لمعاوية ويزيد، وكان مع معاوية في صفين، وتوفي في خلافة يزيد عام ٦٢ هـ.

(٨) **عبد العزيز بن مروان**: أبو الاصبغ: ولد في المدينة، ودخل مصر مع أبيه، وتولاها لأخيه عبد الملك مدة عشرين سنة وكان ولي عهده، وتوفي قبله بحلوان بمصر عام =

من قادتهم حبيب بن مسلمة الفهري(١)، وعبد الله بن قيس(٢)، وجنادة بن أبي أمية الدوسي(٣)، ونذكر من قضاتهم بن عبيد(٤)، وأبا بردة بن أبي موسى(٥)، وأبا إدريس الخولاني(٦)، ونذكر من مستشاريهم روح بن زنباع(٧)، ورجاء بن

= ٨٥هـ ونقل إلى الفسطاط. روى الحديث عن أبيه مروان، وعن أبي هريرة، وعقبة بن عامر، وابن الزبير. وثقّه ابن سعد، والنسائي، وله في سنن أبي داود حديث.

(١) **حبيب بن مسلمة الفهري**: أبو عبد الرحمن، وقيل أبو مسلمة: ولد قبيل الهجرة بعام، فقيل له صحبة، ورواية يسيرة جاهد في خلافة أبي بكر، وشهد اليرموك أميراً، وكان على ميسرة معاوية يوم صفين، غزا بلاد الروم كثيراً، وولي أرمينيا لمعاوية، وتوفي عام ٤٢ هـ.

(٢) **عبد الله بن قيس**: حليف بني فزارة، أمير البحر في صدر الإسلام، غزا خمسين غزوة صيفاً وشتاءً، ولم يغرق من جيشه أحد، ولم ينكب، قتله الروم عام ٥٣ هـ وهو يطوف في أحد الموانئ متخفياً دلتهم عليه امرأة كانت تتسول فأعطاها فعرفته فراسة.

(٣) **جنادة بن أبي أمية الدوسي**: من كبار التابعين، حدّث عن معاذ بن جبل، وعمر، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وبسر بن أرطأة. شهد فتح مصر، وتولى غزو البحر لمعاوية، وتوفي سنة ثمانين للهجرة.

(٤) **فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي، أبو محمد**: صحابي، ممن بايع تحت الشجرة، شهد أحداً وما بعدها، وشهد فتح الشام ومصر، وسكن الشام، وولي الغزو والبحر بمصر، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفي فيها عام ٥٣ هـ.

(٥) **أبو بردة بن أبي موسى**: عامر بن عبد الله بن قيس الأشعري: الإمام، الفقيه، الثبت، حدّث عن أبيه، وعلي، وعائشة، وأسماء بنت عميس، وعبد الله بن سلام، وحذيفة، ومحمد بن مسلمة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، والبراء، ومعاوية، وكان ثقة، كثير الحديث. كان قاضي الكوفة للحجاج ثم عزله بأخيه أبي بكر، مات سنة ١٠٣ هـ.

(٦) **أبو إدريس الخولاني**: عائذ الله بن عبد الله: ولد عام الفتح. حدث عن أبي ذر، وأبي الدرداء، وحذيفة، وأبي موسى، وشداد بن أوس، وأبي هريرة، وعبادة بن الصامت، والمغيرة بن شعبة، وابن عباس، ومعاوية وغيرهم كان قاضي دمشق، وعالمها وواعظها، وهو ثقة، وتوفي سنة ثمانين.

(٧) **روح بن زنباع الجذامي**، أبو زرعة: أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها، وخطيبها، وشجاعها قيل: له صحبة، كان وزير عبد الملك ومستشاره، وقال فيه عبد الملك: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز. روى عن أبيه، وعن تميم الداري، وعبادة بن الصامت، وحديثه قليل، وهو صدوق. توفي عام ٨٤ هـ.

حيوة[1]، والزهري[2] وغيرهم كثير: أمثال موسى بن نصير[3]، والمهلب بن أبي صفرة[4]، والسمح بن مالك الخولاني[5].

ولم يتدخل بنو أمية في شؤون القضاء أبداً، وإنما كانوا يعينون القضاة من خيرة أهل العلم ويدعونهم وشأنهم، ويخشون أن تقع منهم حادثة يرجعون فيها إلى القضاء لأن معنى ذلك الحكم عليهم ولا بدّ من تنفيذ ما أمر به القاضي ولو كانوا هم الحكام.

ويكفي أن نقرّ بفضل بني أمية من حديث رسول الله ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه: قرنين أو ثلاثة؟ ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[6].

---

(١) **رجاء بن حيوة** بن جرول الكندي الأزدي: فقيه من جلة التابعين، روى عن معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، كان ثقة، عالماً، فاضلاً، كثير العلم: كان كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك.

(٢) **الزهري**: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، أبو بكر: الإمام، العلم، ولد سنة خمسين للهجرة، وروى عن ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وكان مستشار هشام بن عبد الملك، وتوفي عام ١٢٤ هـ.

(٣) **موسى بن نصير اللخمي**: أبو عبد الرحمن، والي المغرب وفاتح الأندلس، ولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى هناك حصوناً، وكان مع عبد العزيز بن مروان في مصر، ومع بشر بن مروان في العراق، وتوفي بالمدينة عام ٩٧ هـ وكان بالحج مع سليمان بن عبد الملك. روى الحديث عن تميم الداري.

(٤) **المهلب بن أبي صفرة الأزدي**: ولد عام الفتح، وروى الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وعبد الله بن عمر، والبراء بن عازب. غزا الهند عام ٤٤، وتولى أمر الجزيرة لابن الزبير، ثم خراسان، وحارب الخوارج، وأخذ ولاية خراسان، وتوفي غازياً في مرو الروذ عام ٨٢ هـ.

(٥) **السمح بن مالك الخولاني**: استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس، كان تقياً ورعاً استشهد عام ١٠٢ هـ غازياً في فرنسا، كانت قرطبة حاضرة حكمه، وقد بنى فيها قنطرتها المعروفة.

(٦) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن عمران بن حصين، رضي الله عنه.

وبنو أمية عاشوا في القرن الذي يلي قرن رسول الله ﷺ، وفي ذلك القرن خيار كثير من الناس ولا يمكن أن يكون هؤلاء الناس، ويقال ما ينسب لبني أمية، ويسكتون عنه، أو يقبلون فيه، ومع هذا فإن يوجد بعض الشرار الذين ما خلا منهم عصر، وإن تمكن بعضهم يوماً إلا أنه لا يلبث أن يزال، ويذكر فيه ما يستحق.

ونذكر من فضائل بني أمية الفتوحات الواسعة التي تمت على أيديهم والتي امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين في الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في الغرب ولم تكن الفتوحات هنا لتتم على أيدي قادة، والخلفاء وأبناؤهم يعيشون في القصور بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يرسلون أبناءهم إلى الجهاد، ويشهدون القتال، فقد أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مرات للغزو في بلاد الروم، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تعد، وحصاره لمدينة الروم القسطنطينية معروف ومشهور. وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى أمر الغزو في أغلب الأحيان. وأولاد الوليد بن عبد الملك وهم: العباس، وعبد العزيز، وعمر، ومروان يقودون الغزو في بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك. كما أن سليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة في بلاد الروم.

أما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بني مروان جميعاً، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء، وكان أولاده في مقدمة الغزاة ومنهم: معاوية، وسليمان، ومسلمة، وسعيد، وغيرهم.

أما مروان بن محمد فكان نفسه يقود الجيوش ويصبر في القتال صبراً شديداً حتى لقب بالحمار.

وربما تداعى لأذهان الكثير أن أمراء بني أمية كانوا أمثال غيرهم من القادة الذين يتولون أمر القتال فيجلسون في المدينة، ويرسلون نواباً عنهم، إلا أني قد أوضحت ذلك سابقاً، وأعود لأقول إنهم كانوا يمارسون القتال بأنفسهم، ويتعرضون بأنفسهم للقتل، ويكونون أمام المجاهدين.

وربما خطر في بال بعض الناس أن بني أمية كانوا يسلمون القيادة لأمراء منهم خوفاً على أنفسهم من أن يتسلم القيادة غيرهم فيعمل ضدهم، فأقول إن هذا الخاطر إنما يجول في أذهان الذين يعيشون هذه الأيام، ويعرفون الانقلابات العسكرية، وكان يتصرف الجند حيال الحكم المدني، إن أمير الغزو يومذاك لم يكن ذا أثر على جنده إلا في الجهاد وقتال الأعداء أما بعد ذلك فليس له من أثر، وتأثيره أيضاً إنما يكون على ترتيب الجند، وإعطاء الرايات، وأوامر القتال وبعد انتهاء الجهاد يعود المجاهدون إلى ديارهم، فليس هناك من قوة دائمة لحماية العاصمة يقودها أمراء أو غيرهم من أنصار السلطان كما يحدث في هذه العصور، وتشكل خلفية عند أبناء هذه الأجيال.

ولعل من أهم ميزات بني أمية إحياؤهم للأرض، وفتح الأقنية، وشق الأنهار، فقد كان خلفاء بني أمية يخرجون إلى هامش المعمور، ويبنون قصورهم هناك الأمر الذي يؤدي إلى أن تعمر الأرض حيث يأتي الناس الآخرون فيبنون بجانب قصر الخليفة، ويجلبون المياه إليها ويزرعون فتحيا الأرض الموات. على حين كان بإمكانهم لو أرادوا فخامة القصور وجمال المناطق، وكثرة المياه لوجدوا في الأراضي المزروعة والمشجرة ضالتهم بل لكانت أكثر جمالاً وأغزر مياهاً. ونعلم أن يزيد بن معاوية قد توفي في حُوّارين[1] حيث كان يقضي جزءاً من أوقاته.

وأحيى سليمان بن عبد الملك منطقة الرملة، إذ عينه الوليد بن عبد الملك عليها فنزل باللد ثم انتقل إليها ومصّرها، وكان أول ما بنى فيها قصره، وداراً تعرف بدار الصيّاغين، واختلط المسجد وبناه، واحتفر القناة التي تدعى البردة لري أراضي من أقام معه وبالقرب منه.

---

(١) حُوّارين: هي بلدة القريتين المعروفة الآن في بلاد الشام، أو في ضاحية من ضواحيها، وقد مر عليها خالد بن الوليد أثناء انتقاله من العراق إلى الشام. وهي على مرحلتين من تدمر بينها وبين دمشق.

وكان عمر بن عبد العزيز ينزل إلى المرج ويحيي أرضه وقد توفي بدير سمعان[١] في ضواحي دمشق في بداية أرض المرج.

وعمّر هشام بن عبد الملك الرصافة، وكان ينزل بها صيفاً، وفيها توفي، وشق الأقنية إليها، فأحييت أرضها، وزرعت، وكانت جنة ورياضاً.

ولا ننسى حفر الأنهار والمجاري والأقنية في دمشق وغوطتها ولا تزال قائمة إلى الآن[٢] وتدل على اهتمام كبير بالأرض، وعناية عظيمة بشؤون السكان ومصالحهم الحيوية.

هذه بعض أعمال بني أمية وخدماتهم التي قدموها للمجتمع وللإسلام، وإذا كانت الصورة التي في أذهاننا عنهم والتي ورثناها مما قرأناه من الذين سجلوا ذلك عنهم من أعداء وخصوم ومن مستشرقين وغير منصفين قد جعلت الصورة عنهم باهتة إلا أننا نرجو أن تتغير بعد معرفة بعض الجوانب الخيرة.

---

(١) دير سمعان: هي دير سلمان، وهي بلدة معروفة الآن عامرة في أول المرج بينه وبين الغوطة.

(٢) أشهر الأنهار نهر يزيد الذي شقّ من نهر بردى من جهته اليسرى، ويمر من طرف دمشق الشمالي موازياً لجبل قاسيون، ويروي أرض القابون، وأرض حرستا الغربية وينتهي في شمالي حرستا عند أقدام سفوح الجبال.

الخلافة الأمويّة

٤١ هـ - ١٣٢ هـ.

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل سيدنا علي بن أبي طالب يوم ١٧ رمضان عام ٤٠هـ، ويُعدّ بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، في (مسكن) يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ، واستمرت حتى معركة الزاب التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية حيث هزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وذلك في ١١ جمادى الأولى عام ١٣٢هـ. وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف على إحدى وتسعين سنة. وقد توالت عليها أسرتان، وكان خلفاؤهما اثني عشر خليفة.

١ ـ **الأسرة السفيانية**: وقد حكمت أربعة وعشرين عاماً ٤١ ـ ٦٤هـ، وتوالى عليها خليفتان هما:

١ ـ معاوية بن أبي سفيان ٤١ ـ ٦٠هـ
٢ ـ يزيد بن معاوية ٦٠ ـ ٦٤هـ

ولا نعد معاوية بن يزيد خليفة ما دامت الأمة لم تجمع عليه، وإنما كانت البيعة لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما. كما أن معاوية الثاني بن يزيد لم يبق في الحكم سوى عدة أشهر تنازل بعدها عن الخلافة، وترك الأمر للمسلمين.

٢ ـ **الأسرة المروانية**: وقد حكمت تسعةً وخمسين عاماً ٧٣ ـ ١٣٢هـ وتوالى عليها عشرة خلفاء هم:

١ ـ عبد الملك بن مروان ٧٣ ـ ٨٦هـ
٢ ـ الوليد بن عبد الملك ٨٦ ـ ٩٦هـ
٣ ـ سليمان بن عبد الملك ٩٦ ـ ٩٩هـ

٤ - عمر بن عبد العزيز بن مروان	٩٩ - ١٠١هـ
٥ - يزيد بن عبد الملك	١٠١ - ١٠٥هـ
٦ - هشام بن عبد الملك	١٠٥ - ١٢٥هـ
٧ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥ - ١٢٦هـ
٨ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ - ١٢٦هـ
٩ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ - ١٢٧هـ
١٠ - مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ - ١٣٢هـ

ويجب ألا ننسى أن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد بقي تسع سنوات خليفة في الحجاز، واليمن، والعراق، وخراسان، ويعد هو الخليفة الشرعي من ٦٤ - ٧٣ أي من وفاة يزيد وحتى مقتله وفي هذه الأثناء لا يعد ملك معاوية الثاني ومروان بن الحكم وجزء من حكم عبد الملك خلافة وإنما استئثاراً واغتصاباً في جزء من أرض الإسلام.

بنو أمية

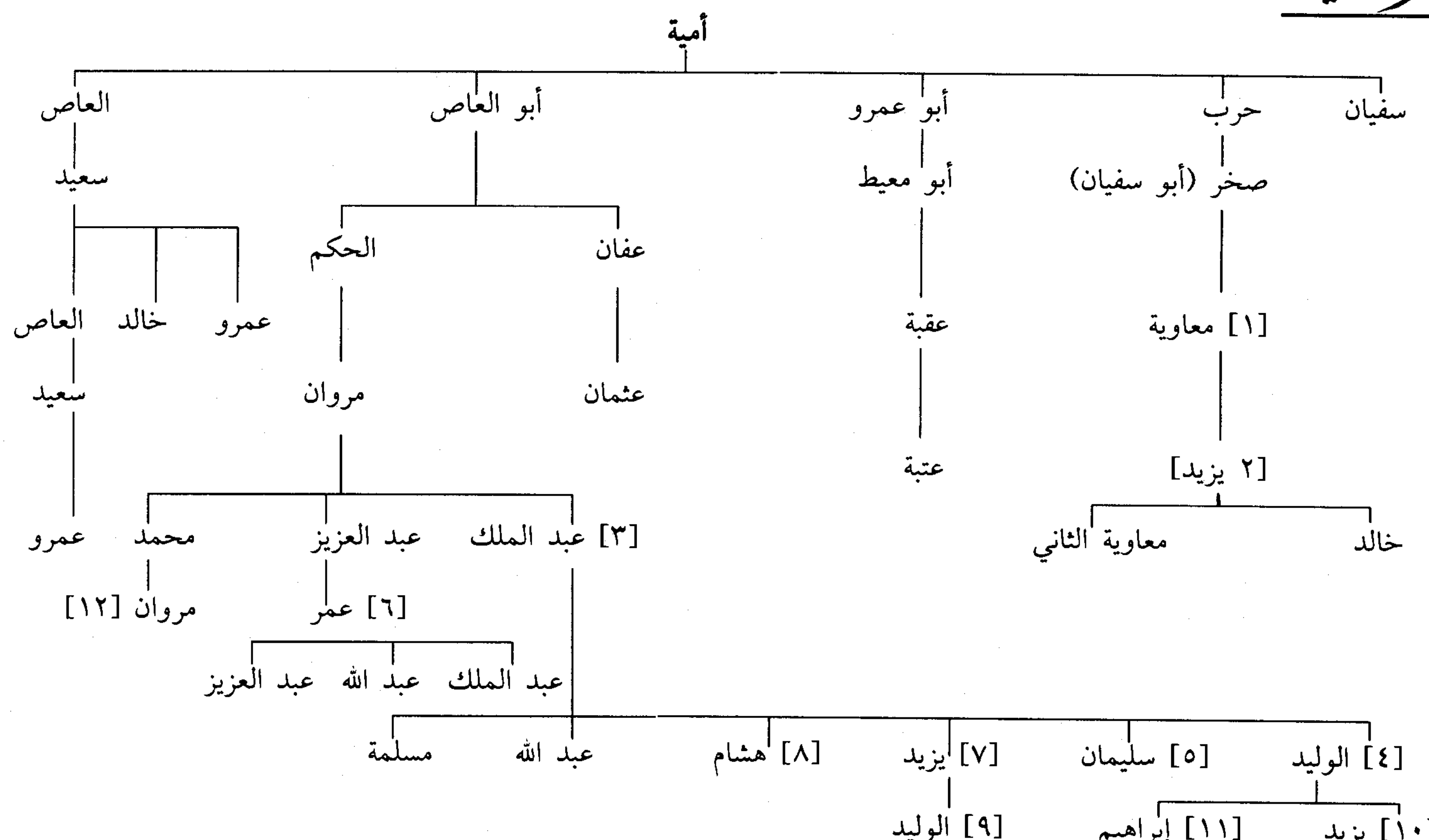
أمية
سفيان
حرب
أبو عمرو
أبو العاص
العاص
صخر (أبو سفيان)
أبو معيط
سعيد
عفان
الحكم
[١] معاوية
عقبة
عمرو
خالد
العاص
عثمان
مروان
سعيد
[٢ يزيد]
عتبة
خالد
معاوية الثاني
[٣] عبد الملك
عبد العزيز
محمد
عمرو
[٦] عمر
مروان [١٢]
عبد الملك
عبد الله
عبد العزيز
[٤] الوليد
[٥] سليمان
[٧] يزيد
[٨] هشام
عبد الله
مسلمة
[١٠] يزيد
[١١] إبراهيم
[٩] الوليد

الأسرة السّفيانيّة

معاويـــة بن أبي سفيـــان

رضي الله عنهما

٤١ - ٦٠ هـ.

نَسَبُهُ

معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، كان أبوه «أبو سفيان» أحد سادات قريش عند بدء الدعوة الإسلامية في مكة، وسيدها بعد غزوة بدر الكبرى التي هلك فيها عدد من السادات. وقف أبو سفيان في وجه الإسلام وصدّ عن سبيل الله، وقاد قريشاً في أُحُد، وحزّب الأحزاب، وقاد الجيوش يوم الخندق. أسلم يوم فتح مكة، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً والطائف، وأعطي يوم تقسيم الغنائم مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكان يومها من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وأرسله رسول الله ﷺ عاملاً على نجران، كما جعله أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، على الصدقات في اليمن، وسار مع الفاتحين تحت راية ابنه يزيد، وخاض معركة اليرموك، وأبلى البلاء الحسن، وفقد عينه الثانية يومذاك، وكان قد فقد الأولى في الطائف، وعاش بعدها كفيفاً منصرفاً للعبادة حتى توفي عام ٣١هـ أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

أما أمه فهي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، فهي عبشمية كأبيه أي يلتقيان في النسب في عبد شمس. كانت قد تزوجت قبل أبي سفيان، ولما افترقت عن زوجها الأول قالت لأبيها: إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوّجني رجلاً حتى تعرضه عليّ. فقال لها: ذلك لك. وعرض عليها يوماً رجلين فاختارت أبا سفيان.

ووقفت مع زوجها وأهلها في وجه الدعوة، ويوم بدر قتل أبوها

عتبة وعمها شيبة، وأخوها الوليد، وابنها حنظلة مما زاد حقدها، وحرّضت يوم أحد على المسلمين، ومنّت وحشي غلام جبير بن مطعم بالأماني إن هو قتل الحمزة[1] عم رسول الله ﷺ، وقد فعل، وقد مثلت به، فبقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، وكان معها عدد من النساء يمثّلن في القتلى، وقالت يومذاك مخاطبة المسلمين:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعْر

ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي، وقضيتُ نذري شفيت وحشي غليل صدري

فشكر وحشي على عمري حتى ترّم أعظمي في قبري

ولما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها، وأتين رسول الله ﷺ وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلمت هند فقالت: يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك، يا محمد إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله. ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة. فقال رسول الله: مرحباً بك. فقالت والله ما كان على الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يذلّوا من خبائك ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحبّ إلي من أن يعزّوا من خبائك فقال رسول الله: وزيادة. وقرأ عليهن القرآن، وبايعهن، فقالت هند من بينهن: يا رسول الله نماسحك؟ فقال: إني لا أصافح النساء، إن قولي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة[2].

وروي أن نسوة أتين النبي ﷺ، فيهن هند بنت عتبة بن ربيعة وهي أم

---

(١) **الحمزة رضي الله عنه** ابن عبد المطلب، ولد قبل رسول الله ﷺ بأربع سنوات، أسلم في السنة الخامسة لبدء الدعوة، كان أحد أبطال المسلمين، واستشهد يوم أحد، وهو سيد الشهداء، ودفن مع ابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٨ ص٢٣٦.

معاوية يبايعنه، فلما أن قال رسول الله: لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسّيك فهل عليّ حرج أن أصيب من طعامه من غير إذنه؟ قال فرخّص لها رسول الله في الرطب ولم يرخّص لها في اليابس. قال: ولا يزنين. قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا يقتلن أولادهن. قالت: وهل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر؟ قال: ولا يعصينك في معروف[١].

وروى أنه لما أسلمت هند جعلت تضرب صنماً في بيتها بالقدوم حتى فلّذته فلذةً فلذة، وهي تقول: كنا منك في غرور[٢].

إذن حسن إسلام أمه، كما حسن إسلام أبيه.

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه.

إخوته

تزوج أبو سفيان صخر بن حرب عدة نساء أنجبن له، فكان لمعاوية عدة إخوة وهم:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان: وأمه زينب بنت نوفل الكنانية، وقد أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً، والطائف، وأخذ من الغنائم مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكان أحد قادة الفتح، وكانت جهته دمشق، وتولى أمرها، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان: وأمه هند بنت عتبة، وقد قتل يوم بدر كافراً.

٣ ـ عمرو بن أبي سفيان: وأسر يوم بدر، وافتداه أبوه.

٤ ـ عتبة بن أبي سفيان: وأمه هند بنت عتبة، وكان سنداً لأخيه معاوية.

٥ ـ عنبسة بن أبي سفيان: وأمه ابنة أبي أزيهر الدوسي، وكان يحج في الناس في أول خلافة أخيه معاوية.

٦ ـ محمد بن أبي سفيان: وهو شقيق عنبسة، وابنه عثمان ولي أمر المدينة.

أما أخواته البنات فهن:

١ ـ رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ وهاجرت معه إلى الحبشة، فلما تنصّر هناك فارقته، وخطبها النجاشي لرسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وقدمت إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة بعد غزو خيبر. وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، وتوفيت في عهد أخيها معاوية.

٢ ـ أمينة بنت أبي سفيان: وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، تزوج أمينة حويطب بن عبد العزى العامري، ثم خلف عليها صفوان بن أمية.

٣ ـ جويرية بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، وتزوجها السائب بن أبي حبيش الأسدي، ثم خلف عليها عبد الرحمن بن الحارث.

٤ ـ أم الحكم بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، وتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله.

٥ ـ هند بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي عمرو بن أمية، وتزوجها الحارث بن نوفل بن الحارث.

٦ ـ صخرة بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي عمرو بن أمية، وتزوجها سعيد بن الأخنس الثقفي.

٧ ـ ميمونة بنت أبي سفيان: وأمها لبابة بنت أبي العاص بن أمية، تزوجها عروة بن مسعود الثقفي، ثم خلف عليها المغيرة بن شعبة الثقفي.

٨ ـ عزة بنت أبي سفيان: وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، وهي التي عرضتها أختها أم المؤمنين على رسول الله ﷺ، فأجابها: «إن هذا لا يحلّ لي».

روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أم حبيبة، رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان؟ قال: أو تحبين ذلك؟ فقلت: نعم، لست لك بمُخلِيَه، وأحب من شاركني في خير، أختي، فقال النبي ﷺ: إن هذا لا يحلّ لي، قلت: فإنا نحدّث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة؟ قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم، قال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلّت لي، لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»[(١)].

تاسعاً ـ الفارعة بنت أبي سفيان: وتزوجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

---

(١) جامع الأصول: رقم الحديث ٩٠٣٦.

نساؤه وأولاده

تزوج معاوية بن أبي سفيان خمس نسوة هن:

أولاً ـ ميسون بنت بحدل الكلبية: وقد أنجبت له يزيداً، وأمةً ماتت صغيرة.

ثانياً ـ كتوة بنت قرظة: وكانت معه في غزوة قبرص، وقد ماتت هناك.

ثالثاً ـ فاختة بنت قرظة: وهي أخت كتوة، وقد أنجبت له عبد الرحمن، ومات صغيراً، وعبد الله وكان على شيء من الحمق.

رابعاً ـ نائلة بنت عمارة الكلبية: ولكن لم يلبث أن طلقها فتزوجها حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها النعمان بن بشير، وقتل وهي عنده.

خامساً ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومي: وأمها عاتكة بنت عتبة بن ربيعة، فهي ابنة خالته، وكانت تحت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تزوجها في الجاهلية، ثم طلقها معاوية فتزوجها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وهي أخت أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية.

ولم ينجب له بعد أن ضربه البرك بن عبد الله الخارجي في إليته عام ٤٠هـ إذ بعث بعدها معاوية إلى الساعدي ـ وكان طبيباً ـ فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد

وعبد الله ما تقرّ به عيني. فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد بعدها[1].

وكان معاوية رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً مهيباً، وكان عمر ينظر إليه فيقول: هذا كسرى العرب، وعن علي قال: لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها، وكان يضرب بحلمه المثل[2].

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

حَيَاته

ولد معاوية في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة، ولم يعرف من أحداث مكة قبل الهجرة إلا القليل، ولم يشهد بدراً على الرغم من بلوغه العشرين إذ حضرها أخواه حنظلة، وعمرو، وقتل الأول منهما، وأسر الثاني. وحضر معاوية مع أبيه مقتل خبيب بن عدي بعد حادثة الرجيع، فلما رفع المشركون خبيباً على خشبة، وأوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. فكان معاوية يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني على الأرض فرقاً من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه، فاضطجع لجنبه زالت عنه.

وحضر معاوية الخندق مع المشركين، وأصابه ما أصاب القوم من الهلع يوم كانت الريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً، ولا ناراً، ولا بناء. وكان رسول الله ﷺ قد دعا حذيفة بن اليمان فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا فذهب فدخل في القوم فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت قال: عمرو بن العاص.

أسلم معاوية عام الحديبية، وكان يكتم إسلامه من أبي سفيان، إلا أن أبا سفيان يبدو أنه قد لاحظ عليه ذلك، فكان يقول له: ابني خير منك ـ يقصد يزيد ـ فهو على ديني.

وجاء عام الفتح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت قريش، وأظهر معاوية إسلامه، ولقي رسول الله ﷺ فرحب به.

شهد مع رسول الله ﷺ حنيناً، والطائف، وأعطاه رسول الله ﷺ، من الغنائم مائة بعير، وأربعين أوقية من الفضة وزنها له سيدنا بلال بن رباح، رضي الله عنه، وعُدّ يومذاك من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وكان أحد الكتاب لرسول الله ﷺ.

روى عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستين حديثاً، وروى عنه من الصحابة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو الدرداء، وجرير بن عبد الله البجلي، والنعمان بن بشير، وروى عنه من التابعين: سعيد بن المسيب، وحميد بن عبد الرحمن.

وكان أبو سفيان قد انتقل وأهله إلى المدينة بعد إسلامهم، وآخى رسول الله ﷺ بين معاوية بن أبي سفيان والحُتات بن يزيد المجاشعي[(١)].

وقال رسول الله ﷺ لمعاوية «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده»[(٢)].

وروى الترمذي عن أبي إدريس الخولاني، رحمه الله، قال: «لما عزل عمر بن الخطاب عمير بن سعد عن حمص وولى معاوية، قال الناس: عزل عميراً، وولى معاوية، فقال عمير: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «واللهم اهد به»[(٣)].

وأخرج أحمد في مسنده عن العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[(٤)].

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) رواه الترمذي في باب المناقب رقم ٣٨٤١ باب مناقب معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، ورواه أيضاً أحمد في مسنده ٤/ ٢١٦.

(٣) رواه الترمذي في باب المناقب رقم ٣٨٤٢.

(٤) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني في الكبير عن عبد الملك بن عمير قال: قال معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاوية إذا ملكت فأحسن»[١].

وتوفي رسول الله ﷺ وهو عن معاوية راض.

وسيّر الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، أربعة جيوش إلى الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وكان كل جيش منها يضم سبعة آلاف مقاتل تقريباً، واجتمع إلى أبي بكر بعدها أناس فوجههم إلى الشام، وأمّر عليهم معاوية بن أبي سفيان وأمره باللحاق بيزيد، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد. وكانت هذه أول مهمة قيادية يتولاها معاوية في الفتوح، وشهد معاوية اليرموك، وفتح دمشق تحت راية أخيه يزيد.

وفي عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أرسل يزيد بن أبي سفيان حملة بإمراة أخيه معاوية إلى سواحل بلاد الشام فافتتحها.

وبقي من بلاد الشام بيت المقدس، وقيسارية، وجاء عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ففتحها صلحاً، وبعد الصلح انسحب عدد من أهلها إلى قيسارية التي كان يدعم الروم أهلها عن طريق البحر. فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان أن يسيّر أخاه معاوية إلى قيسارية، ووصل معاوية إلى البلدة، وعليها (ابنى) فهُزم الروم أمام معاوية، ودخلوا حصونهم، ولم يزل المسلمون يحاصرونها حتى فتحها الله لهم.

وفي عام ١٨هـ حدث طاعون عمواس، وذهب بكثير من رجالات المسلمين منهم: أبو عبيد بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وكان يزيد قد أقام أخاه معاوية مكانه في دمشق، فلما هلك يزيد أمّر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، معاوية على دمشق ثم أضاف له الأردن، وفلسطين،

---

(١) المصدر نفسه.

وحمص، إذ توفي شرحبيل بن حسنة(١) بطاعون عمواس وهو على الأردن، وسار عمرو بن العاص لفتح مصر، وكان على فلسطين، ومات عمير بن سعد(٢) الذي كان والياً على حمص بعد وفاة عياض بن غنم. وهكذا أصبحت بلاد الشام كلها تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان.

وخرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله؛ وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه، قال: ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك.

ولاحظ معاوية وهو ينازل الروم باستمرار أن قوتهم في البحر هي العامل الأساسي في بقائهم، وأن التهديدات البرية للروم لا قيمة لها إذ أن المدن الساحلية في الشام معرضة باستمرار للتهديد لذا فلا بدّ من إقامة قوة إسلامية بحرية توقف سلطان الروم البحري عند حده، وأحب قبل القيام بهذا المشروع استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب له: «يا أمير المؤمنين! إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم،

---

(١) شرحبيل بن حسنة: وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو من كندة حليف بني زهرة. ويكنى أبا عبد الله، أسلم قديماً بمكة، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ وكان أحد الأمراء القادة في عهد أبي بكر، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ، وحسنة هي أمه، وهي عدوية.

(٢) عمير بن سعد بن حِذْيَم بن سلامان: أسلم قبل خيبر، وهاجر إلى المدينة، وشهد خيبراً مع رسول الله ﷺ وما بعدها من المشاهد، ولي حمص بعد وفاة عياض بن غنم، وكانت تصيبه غشية فذكر ذلك لعمر بن الخطاب فسأله، فقال: كنت فيمن حضر خبيباً ـ رحمه الله ـ حين قتل، وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس إلا غشي عليّ، توفي سنة ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص فإن أذنت بركوب البحر». فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ليصف له البحر، فأجابه «إني رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، إن مال غرق، وإن نجا برق» فلما قرأ عمر هذا الوصف كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً. . . وتالله لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء[1] مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك.

وتوفي عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو عن معاوية راض، وأتى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأقرّ معاوية على إمارته.

غزا معاوية أرض الروم، وكان على رأس صائفة، واستطاع أن يصل إلى عمورية إلى الجنوب من أنقرة قليلاً أنقرة اليوم، ومعه عدد من صحابة رسول الله ﷺ منهم عبادة بن الصامت[2]، وأبو أيوب الأنصاري[3]، وأبو ذر الغفاري[4]، وشداد بن أوس[5].

وأمر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، واليه على الشام

---

(١) **العلاء الحضرمي**: وكان قد هاجم الفرس بحراً دون إذن الخليفة، وقد تعرضت قواته للهلاك لولا أن وصلتهم قوة كبيرة أنقذتهم من موقفهم الذي هم فيه.

(٢) **عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري**، ويكنى أبا الوليد، وأمه قرة العين بنت عبادة بن نضلة بن مالك، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، خرج مجاهداً إلى الشام، وبقي حتى توفي فيها، في الرملة علم ٣٤هـ.

(٣) **أبو أيوب الأنصاري**: خالد بن زيد شهد العقبة، نزل رسول الله ﷺ في داره، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان بجانب علي، وتوفي أثناء غزو القسطنطينية عام ٥٢هـ، وعلى الجيش يزيد بن معاوية.

(٤) **أبو ذر الغفاري**، جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قبل الهجرة، وأقام في قومه، ثم هاجر إلى المدينة بعد الخندق، غزا بالشام، وأقام بعدها هناك حتى أرسله معاوية إلى المدينة، مات بالربذة أيام عثمان.

(٥) **شداد بن أوس بن ثابت** النجاري الخزرجي الأنصاري، مات في فلسطين عام ٥٨هـ.

معاوية بن أبي سفيان أن يغزو حبيب بن مسلمة الفهري[١] أرمينيا، وسار حبيب نحو أرمينيا فوجد جيش أعدائه يزيد على ثمانين ألفاً فكتب بذلك إلى معاوية، وكتب معاوية إلى عثمان، وكتب عثمان إلى واليه على الكوفة آنذاك سعيد بن العاص[٢] يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة، فأمده بسلمان بن ربيعة في ستة آلاف، وقد تمكنت قوة المسلمين من تدمير جيش أعدائها.

أعاد معاوية طلب بناء قوة بحرية للمسلمين من الخليفة الجديد، ولم يزل به حتى عزم على ذلك بأخرة، ولكن قال له: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه. ففعل واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي[٣] حليف بني فزارة. وأصبحت السفن تبنى في عكا، وصور، وطرابلس على سواحل بلاد الشام.

غزا معاوية جزيرة قبرص، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك في عام ٢٨ هـ، وساعد أهل مصر في تلك الغزوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح[٤]، وكان معاوية على

---

(١) **حبيب بن مسلمة الفهري**: هاجر إلى المدينة صغيراً، وتوفي رسول الله ﷺ وعمره اثنتا عشرة سنة، نزل الشام، وكان مع معاوية، عرف بغزو الروم، ثم تولى أمر أرمينيا، ومات بها سنة اثنتين وأربعين.

(٢) **سعيد بن العاص بن سعيد العاص**: ولد في السنة الثانية للهجرة، وقتل أبوه يوم بدر كافراً. وقال عمر بن الخطاب لسعيد بن العاص ما لي أراك معرضاً كأنك ترى أني قتلت أباك؟ ما أنا قتلته ولكن قتله علي بن أبي طالب ولو قتلته ما اعتذرت من قتل مشرك ولكن قتلت خالي بيدي العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فقال سعيد بن العاص: يا أمير المؤمنين لو قتلته كنت على حق وكان على باطل. فسرّ ذلك عمر منه. تولى لعثمان أمر الكوفة، وأخرجه أهلها، ورجع عن طلحة والزبير من الطريق يوم أراد البصرة، تولى أمر المدينة مرتين لمعاوية، وصلى على الحسن بن علي رضي الله عنهما عام ٥٩هـ.

(٣) **عبد الله بن قيس الحارثي**: أمير البحر، وبقي على البحر، غزا خمسين غزاة، صيفاً شتاءً، لم يغرق من جيشه أحد، ولم ينكب، قتله الروم عام ٥٣هـ وهو يطوف في أحد المرافئ متخفياً، دلتهم عليه امرأة كانت تتسول فأعطاها فعرفته فراسة.

(٤) **عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري**: من أبطال الصحابة، فارس بني عامر بن لؤى، أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها، وكان من كتاب الوحي، ارتد عن الإسلام، وعند=

الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ المقداد بن عمرو[1]، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وكانت معه زوجه أم حرام.

وفي أيام إمارته على الشام وقعت معركة ذات الصواري البحرية عام ٣١ هـ، وكان قائد المشاة بسر بن أرطأة، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً.

ونقض أهل قبرص عهدهم فأرسل إليهم حملة كبيرة دخلت الجزيرة عنوةً، ثم جهز معاوية حامية مؤلفة من اثني عشر ألفاً ونقلها إلى الجزيرة بمهمة حمايتها، فأقامت المساجد هناك، وبقيت الحامية هناك حتى أيام يزيد بن معاوية.

وغزا معاوية بلاد الروم على رأس صائفة فوصل إلى (حصن المرأة) قرب ثغر ملاطية. وبعدها شغل المسلمون بمشكلاتهم الداخلية، فتوقفت الفتوحات، وطمع فيهم أعداؤهم، وقتل سيدنا عثمان، رضي الله عنه، مظلوماً.

بويع سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالخلافة، فعزل

= فتح مكة شفع له سيدنا عثمان بن عفان فأمنه رسول الله ﷺ بعد أن أهدر دمه، وحسن إسلامه، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، وتولى أمرها بعد عمرو بن العاص سنة ٢٥هـ، وبقي عليها مدة اثني عشرة سنة، زحف خلالها على إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعقبة بن نافع، ولحق بهم عبد الله بن الزبير غزا الروم بحراً وظفر بهم في معركة ذات الصواري عام ٣٤هـ.
خرج إلى الشام عندما تولى أمر مصر قيس بن سعد بن عبادة من قبل علي بن أبي طالب، واعتزل الحرب يوم صفين، ومات بعسقلان، وهو قائم يصلي. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاع.

(١) المقداد بن عمرو الكندي البهراني الحضرمي، أبو معبد، وقيل أبو عمرو: صحابي، من الأبطال، من المسلمين الأوائل، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله. كان في الجاهلية من سكان حضرموت. واسم أبيه عمرو بن ثعلبة، هرب المقداد إلى مكة بسبب خصام مع غيره وقع له في حضرموت فتبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فصار يقال له: المقداد بن الأسود حتى نزلت الآية ﴿ادعوهم لآبائهم﴾، شهد بدراً وغيرها، وسكن المدينة وتوفي على مقربة منها عام ٣٣هـ.

الولاة جميعاً، وتمّ له ذلك إلا أن معاوية رأى أن بلاد الشام لا يمكن تركها أبداً إذ أن الروم لذلك بالمرصاد، فماطل في بيعته وتأخر حتى عُدّ خارجاً على الخليفة على الرغم من اجتهاده في التأخر متعللاً بعدم بيعة الصحابة كافة، وسيطرة البغاة على المدينة، وعدم إقامة الحدود عليهم. وجرت الحروب بين الخليفة ووالي الشام، وكان ينادى أثناءها لعلي بن أبي طالب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين، ويدعى معاوية الأمير، وانتهت الحروب بمقتل سيدنا علي على يد أحد الخوارج على حين نجا من ذلك القتل كل من أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، وأمير مصر عمرو بن العاص.

بايع المسلمون الحسن بن علي بعد مقتل أبيه، وبقي معاوية خارجاً على الحكم حتى تنازل الحسن له وأصبح بعدها خليفة بصورة شرعية، وسمّي بذلك عام (٤١ هـ) عام الجماعة حيث عاد المسلمون إلى وحدتهم بعد خلاف استمر خمس سنوات.

خلافة معاوية

تُعدّ خلافة معاوية بدءاً من عام ٤١ هـ حيث تنازل له الحسن بن علي، رضي الله عنهما، حقناً لدماء المسلمين، وتوحيداً لكلمتهم، وتستمر حتى وفاته في رجب عام ٦٠ هـ وهي بذلك تزيد على تسعة عشر عاماً بحدود ثلاثة أشهر. أما ما قبل الخلافة فكان يعرف بالأمير.

وقد كانت هذه الخلافة خيراً للمسلمين، إذ انتهت مدة الفوضى والقتال، وطمع الأعداء باستعادة المراكز التي تخلّوا عنها، إذ وجّه المسلمون قوتهم إلى الخارج حيث عاد الجهاد وحدثت الفتوحات، وقطع الروم بخاصة أملهم في الرجوع إلى الأماكن التي فقدوها.

وسار معاوية بالناس سيرةً حسنةً فقرّب من كان بعيداً، واستمع ممن كان نائياً، وحرص على جمع الكلمة، إذ أعطى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، ما أراد، وأمّن عبد الله بن عباس ووصله، وكذلك فعل بالنسبة إلى قيس بن سعد[1]، رضي الله عنهما، إذ كان على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً أرسله سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لقتال أهل أذربيجان، فلما قتل علي، وتنازل الحسن، أمّر هذا الجيش قيس بن سعد، وتعاهدوا

(١) قيس بن سعد بن عبادة: صحابي، من أهل المكيدة في الحرب، ومن أهل الرأي، كان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ، ويلي أموره، وفي البخاري أنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير. صحب علياً، رضي الله عنه، في خلافته، فاستعمله على مصر ٣٦ ـ ٣٧، وعزل بمحمد بن أبي بكر، وعاد إلى علي في العراق، وكان على مقدمته يوم صفين، ثم كان مع الحسن حتى صالح معاوية، فرجع إلى المدينة وتوفي فيها عام ٥٨، وقيل إنه سكن تفليس وتوفي فيها. وكان من أطول الناس ومن أجملهم.

على قتال معاوية حتى يشترط لهم، وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله، ويقول: على طاعة من تقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟ فأبى قيس أن يلين له، حتى أرسل له معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله، فقال: اكتب في هذا السجل ما شئت، فهو لك. فقال عمرو لمعاوية: لا تعطه هذا، وقاتله، فقال معاوية: على رسلك! فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أجد من قتاله بُدّاً. فلما بعث إليه معاوية بذلك السجل اشترط فيه قيس له ولمن معه الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً، وأعطاه معاوية ما سأل، فدخل قيس ومن معه في طاعته. وقرّب إليه زياد بن أبيه، وقد كان من أنصار علي ووالي خرسان له، فلما قتل علي، وتنازل الحسن اعتصم زياد بخراسان فما زال معاوية به حتى أرضاه واستقدمه، ثم ولاّه.

وهكذا لم يبق في أيام معاوية معارض له، بل كل دخل في طاعته، وانخرط في صفوف المقاتلين، فعادت الفتوحات إلى أيامها الأولى، وكان الصحابة، رضوان الله عنهم، في طليعة المجاهدين أمثال عبادة بن الصامت، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وشداد بن أوس وغيرهم، كما تسلم بعض الصحابة الأعمال لمعاوية. وإذا كان قد بقي بعض أصحاب الآراء الخاصة إلا أن عددهم قليل، وهم ليسوا على ذلك المستوى إضافة إلى أنه لا يكاد يخلو منهم مجتمع، فقد بقي عدد من الخوارج يخفون آراءهم في الأحوال العادية ويظهرونها إن سنحت لهم الفرصة فأظهروا الشغب وأعلنوا الخروج على الدولة، ولم يكن أثرهم كبيراً أيام معاوية. وبقي عدد من المشاغبين وأهل الفوضى والأهواء، ومركزهم الرئيسي كان في الكوفة ثم في البصرة وهؤلاء يظهر شغبهم وقت اللين، ويختفون وقت الشدة، لذا فقد اشتهر ولاة هاتين المنطقتين بالشدة التي اضطروا إلى اللجوء إليها اضطراراً حتى غدوا نموذجاً في القسوة، وهذا السلوك هو الذي جعل

الكثيرين يحملون عليهم، وكان أهل العراق قد تقاعسوا عن سيدنا علي حتى قتل، وتقاعسوا عن الحسن حتى تنازل، ثم سلموا مسلم بن عقيل، وقاتلوا الحسين بعد أن طلبوا منه الحضور، وثاروا مع زيد بن علي بن الحسين ثم تخلّوا عنه وهكذا، ولهذا السلوك نفسه قتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، وجُهل قاتله فاتهموا به الخليفة.

وقد كثر الحديث في بعض الموضوعات أيام معاوية، رضي الله عنه، ومنها مقتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، وادعاء زياد بن أبيه، وتصرف الخليفة أحياناً ببعض بيت المال، أو تقديم أعطيات في سبيل المصلحة العامة رآها بعضهم تصرفاً ببيت المال، ثم صار الحديث في النهاية عن أخذ البيعة لولده يزيد، وقد عُدّت الأمور الأولى خاصة بمعاوية بينه وبين ربه يحاسب عليها وعلى اجتهاده فيها، أما البيعة فقد وقف ضدها عدد من الصحابة وأبناء الصحابة لأنها إمامة المسلمين جميعاً. وما عدا ذلك فقد كانت مدة خلافة سيدنا معاوية أنموذجاً لوحدة كلمة المسلمين وانتشار الفتوحات وسيادة الشرع، وسعادة الناس.

الولايات

كانت الدولة الإسلامية عدة ولايات رئيسية، وربما يضم بعضها عدداً من الإمارات التي دون الولايات، وكان لبعض الولايات أهمية خاصة، وقد تزداد هذه الأهمية في مرحلةٍ من المراحل فيضاف لها عدد من الإمارات وقد تضعف باقتطاع أجزاء منها، وقد تكون الأهمية قد جاءت لما فيها من ثغور أو بما تتولاه من أمر الجهاد والقتال، ومن أشهر الولايات ذات الشأن أيام خلافة معاوية هي:

١ ـ **الشام**: وقد تولى أمرها يزيد بن أبي سفيان منذ فتحها، فلما هلك بطاعون عمواس عام ١٨ هـ أوكل سيدنا عمر بن الخطاب أمرها إلى معاوية بن أبي سفيان حسبما عهد يزيد أخوه إليه، واستمر أميراً لها حتى آلت الخلافة إليه، وهي مركز ثقله، وأهلها شيعته، قاتل بهم، وأطاعوه في كل أموره. وتشمل الأرض الممتدة من شمال جزيرة العرب حتى ذرا جبال طوروس، وتمتد من البحر الأبيض المتوسط في الغرب حتى أطراف الفرات، كما تضم أجزاء من الجزيرة.

وتعود أهميتها إلى أنها مركز الأمويين جميعاً، وفيها ثغور المسلمين على بلاد الروم، وتتركز فيها الصوائف والشواتي، وعلى موانئها تبنى السفن، وتتحرك الأساطيل لغزو البحر وقتال الروم أيضاً. وفيها عدد من الإمارات منها حمص التي كان من أشهر أمرائها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومنها قنسرين، وانطاكية، وطرابلس، والجزيرة.

ولم يحدث في هذه الولاية ما يُنغّص على الخليفة أي أمر بل كانت سنده في كل موضوع.

٢ ـ **الكوفة**: وتعود أهميتها إلى أنها تتولّى القتال في شمال العراق، والأكراد، وأذربيجان، وبلاد اللان، ومنطقة الجبال. وفي الوقت نفسه هي مركز ثقل بالنسبة للذين يرفضون الحكم الأموي، كما يقيم فيها عدد من الخوارج الذين يعادون أيضاً العهد الأموي واعتاد أهلها الخروج على الحكم ونقده كلما لان لهم الولاة فإذا اشتدوا عليهم خنعوا، ومن هذا التصرف فقد كان ولاة هذا المصر أعنف الولاة وأقساهم، وكان السكان يقبعون إلى بيوتهم ويتركون من تعهدوا نصرته إذا لاحت لهم شدة، وقد قتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، أحد الذين سكنوا الكوفة، وكان لمقتله أثر كبير على الحكم.

خرج الحسن والحسين ابنا علي، رضي الله عنهم، من الكوفة، ومعهما عبد الله بن جعفر ابن عمهما باتجاه المدينة، ودخل معاوية الكوفة في جمادى الأولى عام ٤١ هـ، وولى عبد الله بن عمرو بن العاص، ولكنه عاد فعزله قبل أن يصل إليها، وأعطى أمرها للمغيرة بن شعبة الذي بقي أميراً عليها حتى توفي عام ٥٠ هـ، وقد سار في الناس سيرة لين ودهاء.

وغدت الكوفة بعد وفاة المغيرة تتبع زياد بن أبيه الذي كان يقيم فيها ستة أشهر وفي البصرة مثلها، كما ضمت إليه اليمامة وفي أيامه قتل حجر بن عدي. وعندما توفي زياد عام ٥٣ هـ. تولى أمر الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد مدة سنتين، ثم خلفه الضحاك بن قيس الفهري، واستمر عليها حتى عام ٥٨ هـ حيث عزل، وتولى أمرها عبد الرحمن بن أم الحكم ابن أخت معاوية، ثم تلاه النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، وبقي عليها حتى وفاة معاوية.

٣ ـ **البصرة**: وهي من العراق، وعلى مقربة من الكوفة، ولكن فتوحات المشرق تتبعها وهي: فارس، وخراسان، وسجستان ومن هنا تأتي أهميتها إذ تعدّ من أوسع الولايات، وواليها هو الذي يرسل الأمراء منها إلى الإمارات التي تتبعها، وإن كان الخليفة أحياناً يعينهم، أو يأمر بإرسال أشخاص بأعينهم، وأحياناً قليلة يكونون منفصلين عن البصرة.

بعد تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، غلب على البصرة حُمران بن أبان، فوجه إليه معاوية بسر بن أرطأة فأخذ المنطقة، وفي نهاية العام عزل بسر بن أرطأة، وولي أمرها عبد الله بن عامر[1] الذي بقي فيها حتى عام ٤٤ هـ حيث عزل عنها، وتولى زياد بن أبيه أمرها، وبعد وفاة المغيرة بن شعبة ضمت إليه الكوفة وكذلك البحرين، واليمامة، وعُمان، وانتقل إلى الكوفة، وولي على البصرة سمرة بن جندب الفزاري، أما هو فكان يقيم بالكوفة ستة أشهر، وأخرى مثلها بالبصرة.

وبعد موت زياد عام ٥٣ هـ أصبح سمرة بن جندب هو الوالي على البصرة، ثم خلفه بعد ستة أشهر عبد الله بن عمرو بن غيلان، ثم عزله على ٥٥ هـ، وولى عبيد الله بن زياد البصرة وكان قبلها والياً على خراسان، وبقي فيها حتى توفي معاوية.

٤ ـ **خراسان**: وكانت تتبع البصرة أغلب الأحيان، ويُعيّن أمراؤها من قبل ولاة البصرة. وكانت مقراً للجهاد، لما تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية عن الخلافة كان زياد بن أبيه في خراسان فاعتصم فيها في القلعة المعروفة باسم (قلعة زياد)، فلما استرضاه معاوية وقدم زياد إلى الشام كان عبد الله بن عامر والي البصرة فأرسل إلى خراسان قيس بن الهيثم، ثم عبد الله بن خازم، ولما أصبح زياد أمير البصرة أرسل إلى خراسان عام ٤٤ هـ طفيل بن عمرو اليشكري، ثم أرسل الحكم بن عمرو الغفاري، وبقي فيها حتى مات عام ٥٠ هـ فأرسل زياد إلى خراسان الربيّع بن زياد الحارثي، وكان الحكم قد ولّى مكانه أنس بن أبي ناس، وكتب إلى زياد بذلك، فخلع زياد أنساً، وعين مكانه خليد بن عبد الله الحنفي فبقي فيها شهراً، ثم جاء الربيّع بن زياد الحارثي إليها كما توجه إلى خراسان بأمر زياد غالب بن فضالة الليثي ليساعد الحكم بن عمرو الغفاري.

---

(١) **عبد الله بن عامر**: كان والياً على البصرة من قبل أيام عثمان بن عفان، وقد عزله علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندما تولى الخلافة، وأرسل مكانه عثمان بن حنيف.

وتوفي الربيّع عام ٥٣ هـ وخلفه ابنه عبد الله بن الربيّع، ولم يلبث شهراً حتى توفي أيضاً فخلفه خليد بن عبد الله الحنفي.

وفي عام ٥٤ هـ تولى أمر خراسان عبيد الله بن زياد، ولما أخذ ولاية البصرة في العام التالي بعث إلى خراسان أسلم بن زرعة، وفي عام ٥٧ هـ كان سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان، ثم عزل وتولى مكانه عبد الرحمن بن زياد.

ومن الإمارات التي كانت تتبع البصرة: إمارة سجستان، ومن أشهر أمرائها عبّاد بن زياد، وإمارة كرمان، ومن أشهر أمرائها شريك بن الأعور، وكان من قبل عبيد الله بن زياد.

٥ ـ **المدينة المنورة**: وهي أهم الولايات ومركز الثقل بالنسبة إلى الخلافة إذ فيها الصحابة وأبناؤهم من المهاجرين والأنصار ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعه الناس، ويسيرون برأيهم.

تولى أمر المدينة أيام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قثم بن العباس، ولكنه سيّره إلى مكة، وولى أمرها إلى سهل بن حنيف الذي كان قد أرسله إلى الشام إلا أن خيل معاوية قد أرجعته ولما تنازل الحسن لمعاوية، وعاد إلى المدينة بايعت المدينة، وولى معاوية أمرها مروان بن الحكم، واستمر عليها حتى عزل عام ٤٩هـ، حيث تولى عليها سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص[1]، ثم أعيد إليها مروان بن الحكم مرة ثانية عام ٥٤هـ، ولكنه عزل عام ٥٨هـ، وتسلم ولايتها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وبقي فيها حتى توفي معاوية.

أما بقية ولايات الجزيرة فكانت ذات أهمية قليلة لأنها ليست على ثغور، إضافة إلى بعدها، فكانت ولايات شرقي الجزيرة مثل البحرين،

(١) كان سعيد بن العاص قد تولى أمر الكوفة لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، ثم عزله بناء على رغبة أهل الشغب.

وعُمان أو وسطها مثل اليمامة فكانت تتبع أحياناً البصرة، وتكون أحياناً ولايات خاصة يتسلمها ولاة لم يشتهر أمرهم كثيراً لعدم شهرة ولاياتهم، وكذا الأمر بالنسبة إلى اليمن.

وكانت هناك مكة المكرمة فقد تولى أمرها خالد بن العاص بن هاشم بن المغيرة المخزومي، وهو الذي كان قد أرسله إليها سيدنا علي بن أبي طالب، ثم أعيد، وأخيراً أرسل إليها علي قثم بن العباس، فلما تم الأمر لمعاوية أعاد خالد بن العاص بن هشام على مكة. وهناك الطائف وقد يجمع وال واحد الطائف ومكة، وقد تكونان تبعاً للمدينة.

٦ ـ **مصر**: كان عمرو بن العاص أميراً على مصر منذ أن فتحها أيام سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وبقي أميراً عليها حتى عزله سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما تولى الخلافة سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أرسل إليها قيس بن سعد بن عبادة فدخلها وخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسار قيس بن سعد بن عبادة في مصر سيرة حسنة ورضي أهلها به وإن اعتزل بعضهم منهم: مسلمة بن مخلد، وبسر بن أرطأة، ومعاوية بن حُديج، فتركهم وشأنهم إلا أن بعض أنصاره كانوا يطالبونه بقتالهم ويكتبون إلى الخليفة بذلك، وجاءه الأمر، ولكنه استحسن رأيه فعزل، وولي مكانه محمد بن أبي بكر، وأراد قتال المعتزلين ولكنه هزم، فأرسل الخليفة علي والياً مكانه هو الأشتر النخعي إلا أنه مات في الطريق الأمر الذي اضطر معه أمير المؤمنين على الإبقاء على محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وعندما حارب المعتزلين لم يوافقه كثير من أهل مصر فهزم أمام عمرو بن العاص وقتل، ودخل عمرو بن العاص مصر والياً عليها من قبل معاوية، وهكذا خرجت مصر من قبضة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بقي عمرو والياً على مصر حتى توفي عام ٤٣هـ، فولى أمرها بعده ابنه عبد الله بن عمرو مدةً قصيرةً ثم تولّى عتبة بن أبي سفيان حتى عام

٤٤هـ، ثم تولى أمرها عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني[١] حتى عام ٤٧هـ، وخلفه في أمرها معاوية بن حُديج الذي ولّى أمر المغرب عقبة بن نافع الفهري الذي كان أمير برقة وبناءً على أوامر الخليفة، وفي عام ٥٠هـ عُزل معاوية بن حُديج عن مصر وإفريقية، ووُلّي أمرهما مسلمة بن مخلّد، فعزل عقبة بن نافع عن إفريقية، وأعطى أمرها إلى مولى له يقال له أبو المهاجر، ولم يزل مسلمة بن مخلّد عاملاً على مصر وإفريقية وأبو المهاجر في إفريقية حتى هلك معاوية.

(١) **عقبة بن عامر الجهني**: كان قارئاً، عالماً بالفرائض والفقه صحيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو آخر من جمع القرآن. شهد صفين مع معاوية، ومات عام ٥٨هـ.

الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٤١		المغيرة بن شعبة	حمران بن أبان بسر بن أرطاة	زياد بن أبيه		سهيل بن حنيف مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٢		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	زياد بن أبيه قيس بن الهيثم	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٣		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	عبد الله بن خازم	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٤		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر زياد بن أبيه	عبد الله بن خازم طفيل بن عمرو اليشكري	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عتبة بن أبي سفيان		عقبة بن نافع
٤٥		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	عقبة بن عامر		عقبة بن نافع
٤٦		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	عقبة بن عامر		عقبة بن نافع
٤٧		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	

تابع الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٤٨		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	
٤٩		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		سعيد بن العاص	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	
٥٠		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥١		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٢		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٣		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	عبد الله بن الربيع		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٤		عبد الله بن خالد ابن أسيد	سمرة بن جندب الفزاري عبد الله ابن عمرو بن غيلان	عبيد الله بن زياد		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	

تابع الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٥٥		عبد الله بن خالد ابن أسيد	عبد الله بن عمرو ابن غيلان عبيد الله بن زياد	أسلم بن زرعة		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٦		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	أسلم بن زرعة		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٧		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	سعيد بن عثمان ابن عفان		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٨		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٩		عبد الرحمن بن أم الحكم	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٦٠		النعمان بن بشير	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	

الفتوحات

كان الغزو أيام معاوية، رضي الله عنه، يشمل مناطق واسعة تمتد من المحيط الأطلسي في غربي إفريقية إلى البحر الأبيض المتوسط كله وتساير ذرا جبال طوروس، وبلاد القفقاس، وبلاد ما وراء النهر، وطخارستان، والأفغان، لتصل إلى بلاد السند فسواحل المحيط الهندي على بلاد الهند، وهي مع هذا الامتداد العظيم تشمل جبهتين رئيسيتين:

١ ـ **الجبهة الغربية**: التي تضم مناطق الروم.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: التي تضم مجموعات وثنية تعيش في شمال وشرقي الدولة الإسلامية.

الجبهة الغربية: وتشمل بلاد الروم والمناطق التي يسيطرون عليها سواء أكانت في البر مثل إفريقية ومنطقة الأناضول أم في البحر الذي كان آنذاك البحر الأبيض المتوسط والذي يسيطر عليه الروم، ويعرف وقتذاك ببحر الروم، ثم جاء المسلمون ينازلونهم فيه.

وقد لاحظنا أن الدولتين الكُبريين اللتين كانتا في صراع دائم عند ظهور الإسلام قد وقفتا في وجه الدعوة الجديدة إلا أن دولة الفرس قد انتهت وزالت من الأرض أمام جهاد المسلمين وضرباتهم المتتالية، على حين بقيت دولة الروم لمناعة أرضها، واتساع الأجزاء التي تحتلها، وقوتها البحرية الكبيرة على حين لم يكن للمسلمين في بداية الأمر قوة بحرية، لذا فقد وجه معاوية قوة كبيرة في البر ومثلها في البحر، بعضها إلى قلب بلاد الروم وعاصمتهم ليركز الروم جيوشهم هناك، كي يستطيع المسلمون في الوقت نفسه فتح البلاد الأخرى التي تخضع للروم إذ تضعف قوة الأعداء

وبالتالي مع الزمن يمكن أن يضعف الروم أساساً بزوال أملاكهم فيمكن فتح بلادهم. ومن هنا كانت الجبهة الغربية ثلاث جهات:

أ ـ بلاد الروم: وهي التي تعرف اليوم باسم بلاد الأناضول أو تركيا، وقد وصل المسلمون إلى تلك الجهات وتوقفوا عند أقدام جبال طوروس الممتدة من البحر الأبيض المتوسط عند (مرسين) نحو الشمال الشرقي حتى تصل إلى مناطق قريبة من البحر الأسود في هضبة أرمينيا، وقد أقيمت هناك ثغور وقلاع لكلا الجانبين ومن أشهرها مرسين، المصيصة، ومرعش، وملاطية، والحدث، وزبطرة، وخرشنة، وعين زربة وكانت الغارات على الروم لا تنقطع أبداً، وقد يحدث تقدم في بلاد الروم من قبل المسلمين إثر كثير من الغزوات لكن لا يلبث المجاهدون أن يعودوا إلى ثغورهم وقلاعهم وقد رتّب سيدنا معاوية في هذه الجهات الصوائف التي كانت تقوم بالغزو في فصل الصيف، والشواتي التي تقوم بالقتال في فصل الشتاء حتى تكون حروب دائمة تستنزف قوة العدو وتجعله في النهاية يخضع لحكم المسلمين وفي أثناء قتال مجموعة تكون المجموعة الثانية قد عادت إلى أماكن مرابطتها تجد الراحة وتتمتع بالنشاط مع أهليها حتى يحين موعد جهادها. وقد اشتهر من بين القادة في هذه المنطقة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبسر بن أرطأة الذي تقدم على رأس شاتية عام ٤٣ هـ حتى اقترب من القسطنطينية، ومالك بن هبيرة، وأبو عبد الرحمن القيني، وعبد الله بن قيس الفزاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وسفيان بن عوف الأزدي الذي توفي في أرض الروم، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، ومحمد بن عبد الله الثقفي، وجنادة بن أبي أمية الأزدي، ومعن بن يزيد السلمي، ومحمد بن مالك، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد الله بن كرز البجلي، وعمرو بن مرة الجهني.

وكان هدف الغزوات جميعها القسطنطينية وبعضهم كان يقترب منها، وبعضهم يصل إلى عمورية في جنوب موقع أنقرة اليوم.

وفي عام ٥٠ هـ جهز معاوية حملة كبيرة من البر والبحر لتغزو

القسطنطينية، وأعطى قيادة جيش البر لسفيان بن عوف الأزدي، وجعل ابنه يزيد في قيادة الحملة إلا أن يزيد لم يخرج مع الحملة، أما الأسطول فقد قاده بسر بن أرطأة، وحوصرت عاصمة الروم، وجرت اشتباكات بين الطرفين خسر فيها المسلمون خسائر كبيرة، فعمل معاوية على إرسال نجدة كبيرة كانت بقيادة ابنه يزيد ومعه أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وبوصول النجدة ارتفعت معنويات المجاهدين فاشتد الحصار وأصاب المسلمون من الروم وإن لم يستطيعوا فتح القسطنطينية، وقد استشهد في هذا القتال أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، رضي الله عنه، وعبد العزيز بن زرارة الكلابي، وقد كانا على رأس الذين يثيرون حماسة المقاتلين.

وفي عام ٥٣ هـ أعيد حصار القسطنطينية مرة ثانية، وكان القائد في هذه المرة فضالة بن عبيد الأنصاري، وعلى الأسطول عبد الله بن قيس الحارثي، وجنادة بن أبي أمية، أما أسطول الشام فكان بإمرة يزيد بن شجرة الرهاوي، واستمر الحصار حتى عام ٥٧ هـ، ولم ينقذ القسطنطينية من الفتح إلا هبوب عاصفة هوجاء فرّقت الأسطول الإسلامي، وفي الوقت نفسه وصلت إمدادات إلى الروم من أوربا وخاصة من البلغار.

ب ـ **البحر**: منذ أن تسلم معاوية إمرة بلاد الشام وهو يطمح بمنازلة الروم بحرياً، وما أن سمح له الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بذلك حتى انطلق في ذلك ليحمي المدن الساحلية، ويصدّ عنها غارات الروم وأساطيلهم، ولاحظنا كيف إنه فتح قبرص عام ٢٨ هـ، وأعاده عام ٣٣ هـ، وانتصر على الروم في معركة ذات الصواري، وغزا صقلية غزوة استطلاعية، كما غزا رودوس، وقد نظم التعاون بين الجيوش البرية والأساطيل تنظيماً دقيقاً، واشتهر من قادة البحر بسر بن أرطأة، ومالك بن هبيرة السكوني، والمنذر بن زهير، وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وفضالة بن عبيد الأنصاري، ويزيد بن شجرة الرهاوي، وعقبة بن

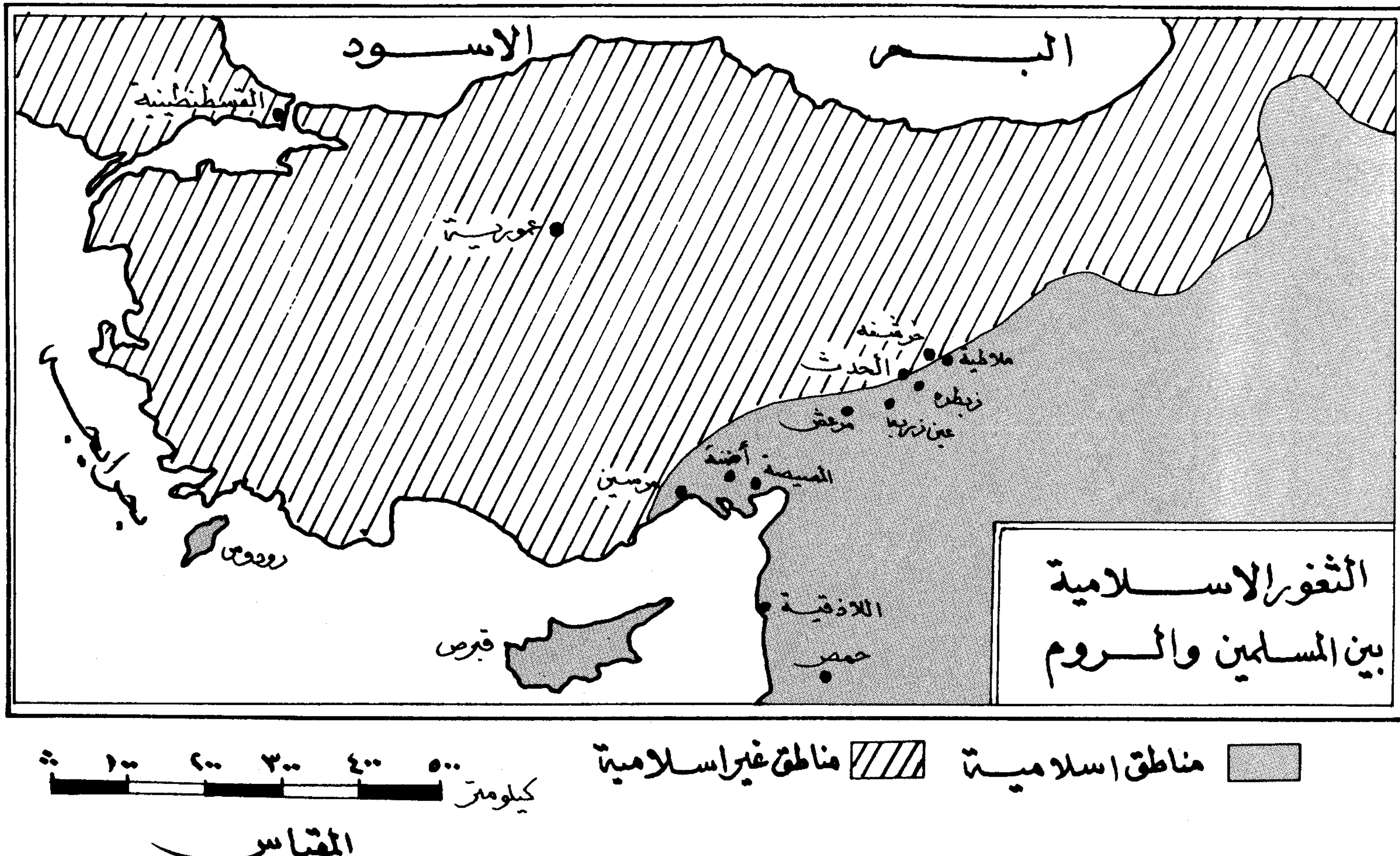
الثغور الاسلامية
بين المسلمين والروم
البحر الاسود
القسطنطينية
عمورية
خرشنة
ملاطية
الحدث
زبطرة
مرعش
عين زربة
أذنة
المصيصة
طرسوس
اللاذقية
حمص
قبرص
رودوس
بحر إيجه
مناطق اسلامية
مناطق غير اسلامية
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
كيلومتر
المقياس

نافع، وجنادة بن أبي أمية الأزدي، وغيرهم، ومن الملاحظ أن بعضهم كان يتسلم إمرة الجيوش البرية تارة أخرى قيادة الأساطيل فلم يكن هناك من اختصاص وإنما الروح المعنوية العالية تدفع المؤمن لأن يجاهد بأية منطقة كانت... كما يجب أن نعرف أن غزو البحر لم يكن محصوراً بأهل الشام من أبناء السواحل ولا بأهل مصر فقط بل أصبح جميع المسلمين مجاهدين في البر والبحر على حدٍ سواء، سواء أكانوا من أهل البادية الذين لم يروا البحر طيلة حياتهم أم من أبناء السواحل الذين اعتادوا على العمل فيه، وكلهم يجيد القتال، ويحسن التصرف، ويضحي بكل شيء ففي عام ٤٨ هـ قاد مالك بن هبيرة السكوني أهل مصر في البحر، وقاد أهل المدينة في البحر المنذر بن زهير وكان على الجميع خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، كما أنه من المعروف أن أكثر هؤلاء القادة كان من جزيرة العرب في الأصل، ومن أهل الداخل والبوادي

أسس معاوية داراً للصناعة البحرية في عكا، وجمع فيها مهرة الصناع الذين استقدمهم من اليمن ومن سواحل الخليج العربي، وأفاد من خشب جبال بلاد الشام، ورمّم ميناء صور، وطرابلس، وكانت تصنع فيهما السفن، كما تصنع في عكا. وأقام معاوية داراً لصناعة السفن البحرية في جزيرة الروضة في مصر عام ٥٤ هـ، وتمتاز السفن الحربية الإسلامية بكبر حجمها، وتنوعها، وإمكانات استيعابها وحملها كميات كبيرة من المواد والعتاد وأعداداً من الجند.

واتخذ معاوية خطة في نقل أعداد من العرب المسلمين إلى الجزر في البحر الأبيض المتوسط لحمايتها ونشر الإسلام على ربوعها.

تمّ نزول المسلمين بصقلية عام ٤٨ هـ، واستطاع فضالة بن عبيد الأنصاري فتح جزيرة (جربا) عام ٤٩ هـ وقد سار إليها على رأس شاتية في ذلك العام.

وفي عام ٥٠ هـ تم حصار القسطنطينية، وقد روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيش من أمتي يركبون

البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم[1]». كما أعيد حصارها لمدة ٤ سنوات من عام ٥٣ ـ ٥٧ هـ.

وفي عام ٥٣ هـ فتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة رودوس، ونقل معاوية جماعة إليها لحمايتها.

وفي عام ٥٥ هـ تمّ فتح جزيرة كريت، وبعد عامين فتحت جزر بحرايجة القريبة من القسطنطينية مقدمة لحصارها من جديد.

حـ ـ إفريقية: بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠ هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب تقدم نحو الغرب حتى وصل إلى طرابلس إلا أن الخليفة لم يأذن له بالتقدم نحو إفريقية، وكان قد وجّه عبد الله بن الزبير ففتح (مصراته)، وسيّر عقبة بن نافع ففتح (زويلة)، وأرسل بسر بن أرطأة ففتح ودّان، وعيّن عقبة بن نافع أميراً على حامية مرابطةٍ في برقة، وعين عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمر الخليفة أميراً على الصعيد.

وعندما تولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الخلافة أذن بفتح إفريقية، فأمر بإرسال قوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح نحوها وأمده بجيش من المدينة فيه الحسن، والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فالتقوا بأمير برقة عقبة بن نافع، ودخلوا طرابلس، وانتصروا على الروم قرب موقع القيروان، وفتحوا (قفصة).

نقضت إفريقية العهد فعاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها، وجدد فتحها. وبقي عقبة بن نافع أميراً على برقة، وكثيراً ما كان يحدث نقض العهد من قبل البربر فيقوم المسلمون بإعادة تسيير الجيوش، ويجددون الفتح.

---

(١) فيض القدير: رقم الحديث ٢٨١١.

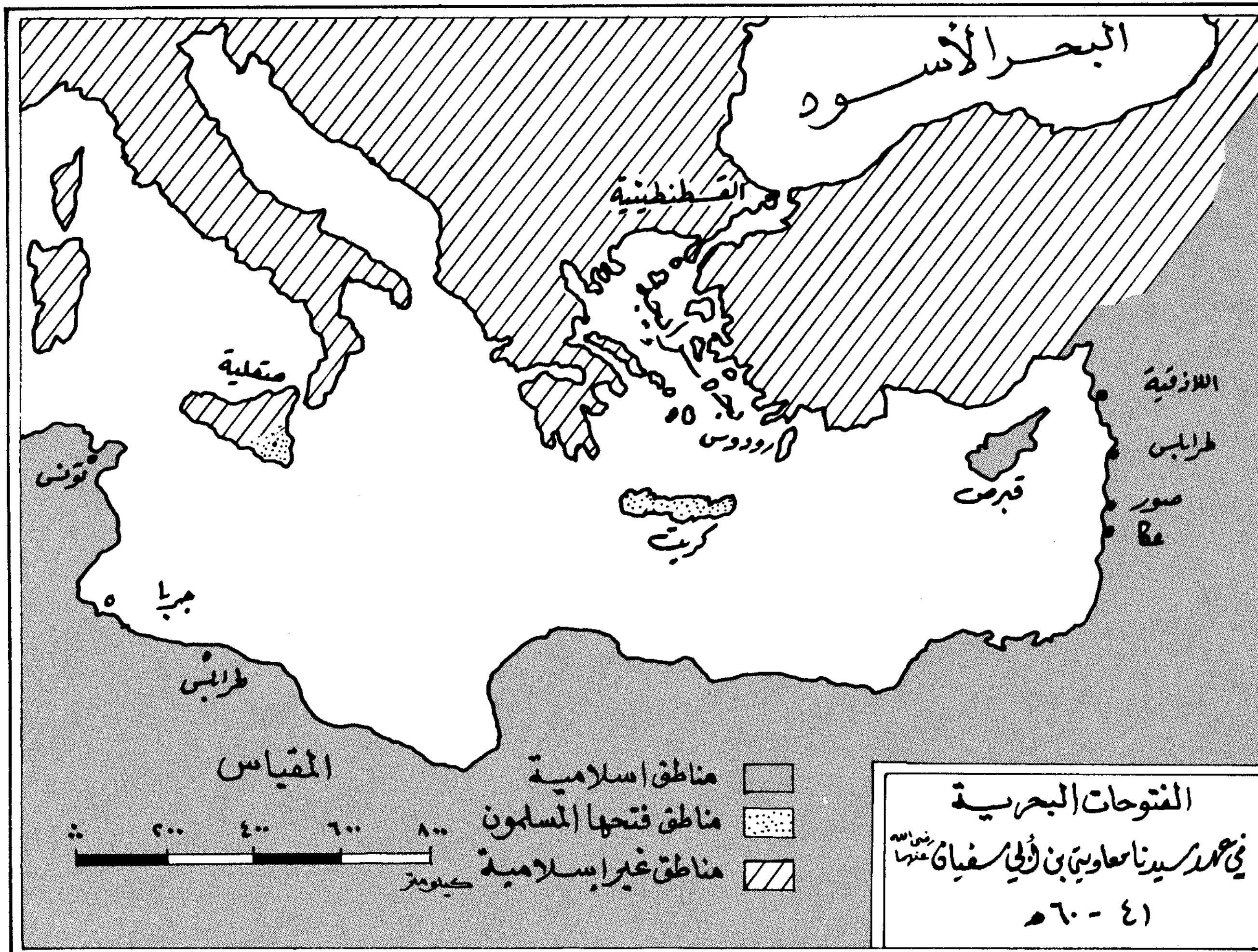
الفتوحات البحرية
في عهد سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما
٤١ - ٦٠ هـ
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
المقياس
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
كيلومتر
البحر الأسود
القسطنطينية
رودوس
كريت
قبرص
اللاذقية
طرابلس
صور
عكا
صقلية
تونس
جربا
طرابلس

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان عاد عمرو بن العاص والياً على مصر، وكان قد دخلها منذ عام ٣٨ هـ، وتولى أمر المغرب معاوية بن حُديج ففتح بنزرت عام ٤١ هـ، كما دخل (قمونية) موضع القيروان عام ٤٥ هـ، وأرسل عبد الله بن الزبير ففتح سوسة في العام نفسه، ورجع معاوية بن حُديج إلى مصر فتولى أمر المغرب رويفع بن ثابت الأنصاري، وبقي عقبة بن نافع على برقة ففتح (سرت) و(مغداس)، وأعاد فتح (ودّان)، ودخل (فزان) ووصل إلى جنوبها إلى (كاوار)، ودخل (غدامس) و(قفصة) وابتنى القيروان كما فتح كوراً من بلاد السودان.

وفي عام ٥٠ هـ تولى أمر مصر مسلمة بن مخلّد فعزل عقبة بن نافع عن أمر المغرب وولى دينار أبو المهاجر فوصل إلى المغرب الأوسط هذا ما كان أيام معاوية في إفريقية، وهكذا جدد المسلمون فتح مناطق عدة مرات.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: ولم تكن ساحةً واحدةً، شأنها في ذلك شأن الجبهة الغربية، فكانت عدة ميادين، لأنها تقع على بلاد عدة أمم، ومعظمها وثنية بعكس الغربية التي يدين غالبية سكانها بالنصرانية، فنرى في الشمال شعوب القفقاس المختلفة التي أشهرها اللان، وفي الشمال الشرقي نجد الاتراك في بلاد ما وراء النهر، وكانوا على الوثنية أيضاً، وفي الشرق نجد طخارستان، وسجستان، وسكانهما من الوثنيين، وفي الجنوب الشرقي بلاد السند.

غزا المسلمون بلاد اللان عام ٤١ هـ، وفتحوا الرُّخّج وغيرها من بلاد سجستان عام ٤٣ هـ، ودخل الحكم بن عمرو الغفاري منطقة القيقان في طخارستان، وغنم غنائم كثيرة عام ٤٥ هـ، كما فتح المسلمون قوهستان، وفي عام ٥٥ هـ قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون ووصل إلى تلال بخارى.

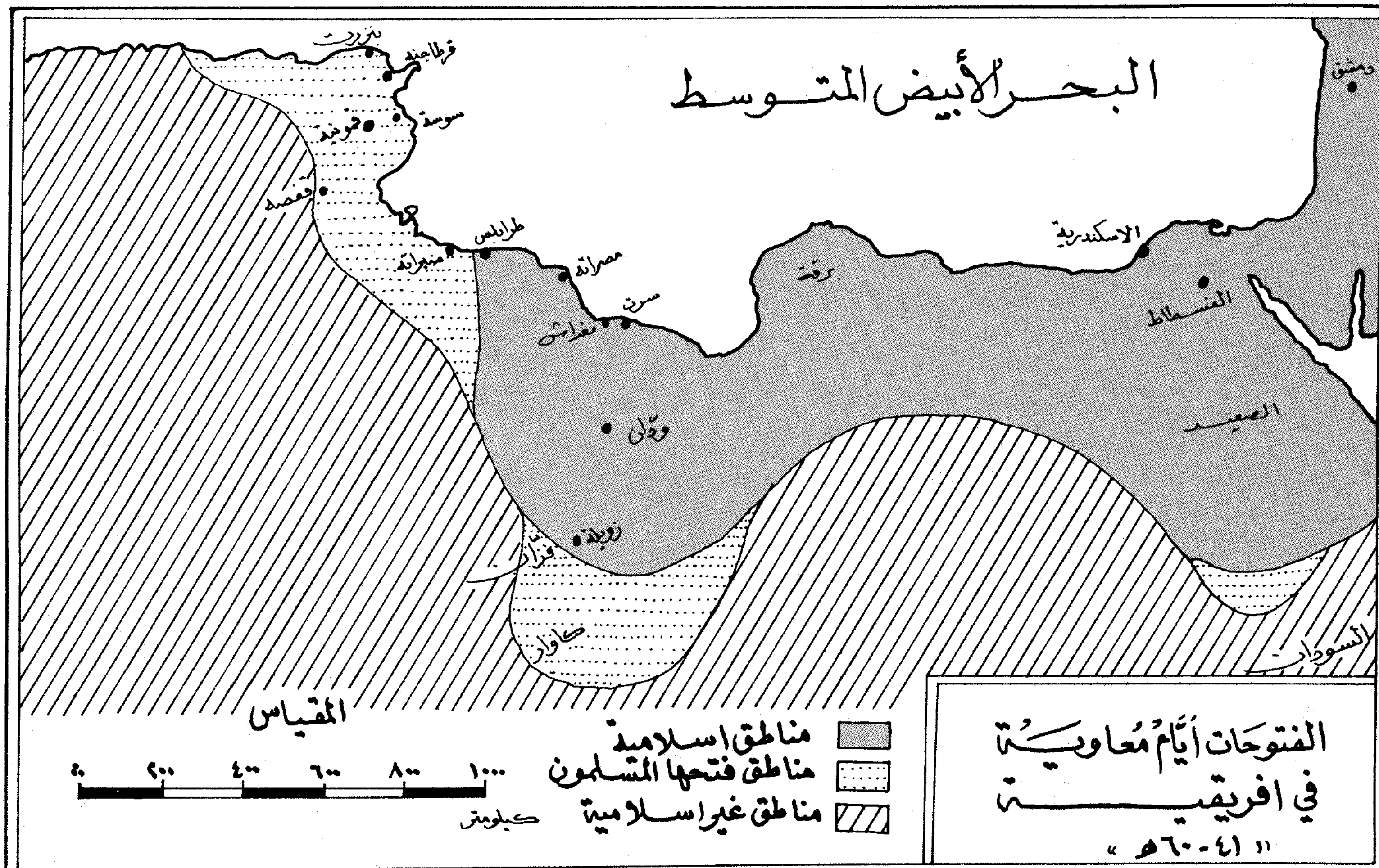
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
الاسكندرية
الفسطاط
الصعيد
برقة
طرابلس
مصراتة
سرت
ودّان
زويلة
كاوار
السودان
صبراتة
قفصة
سوسة
قرطاجنة
بنزرت
الفتوحات أيام معاوية في افريقية "٤١-٦٠هـ"
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
المقياس
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠
كيلومتر

وغزا المسلمون عام ٤٤ هـ بلاد السند بإمرة المهلب بن أبي صفرة، كما غزوا جبال الغور عام ٤٧ هـ، وكان المهلب مع الحكم بن عمرو الغفاري.

وكان سكان المناطق الشرقية ينكثون بالعهد مرة بعد أخرى ويعود المسلمون لقتالهم ودخول أراضيهم لذلك نلاحظ أن مناطق تلك الجهات قد فتحت عدة مرات، واستمرت مدة من الزمن على هذه الحال حتى دانت نهائياً أيام الوليد بن عبد الملك.

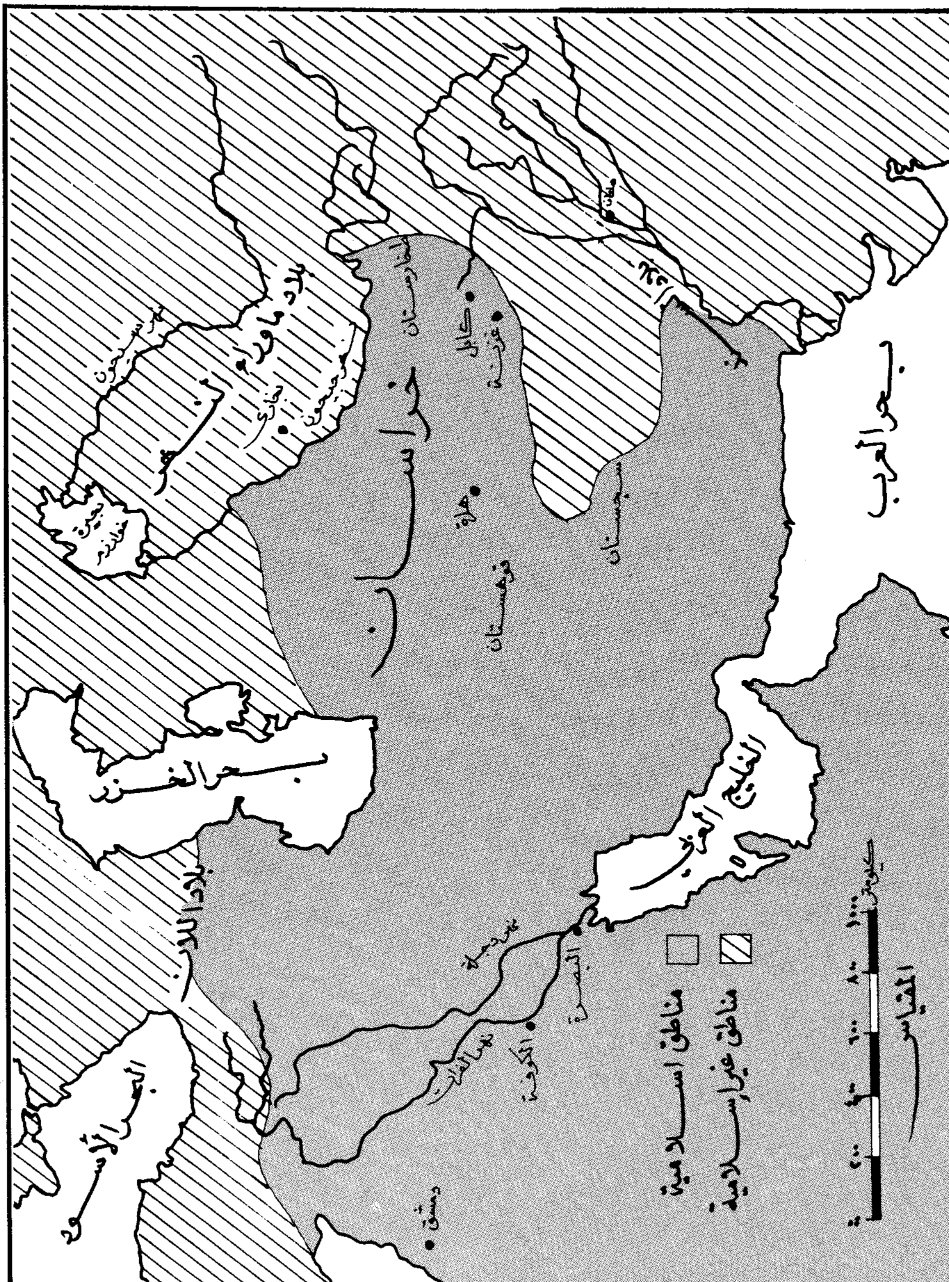
البحر الأسود
بلاد اللان
بحر الخزر
بحيرة خوارزم
نهر سيحون
بلاد ما وراء النهر
بخارى
نهر جيحون
خراسان
طخارستان
كابل
غزنة
هراة
قوهستان
سجستان
ملتان
بلاد السند
دمشق
نهر الفرات
نهر دجلة
الكوفة
البصرة
الخليج العربي
بحر العرب
مناطق اسلامية
مناطق غير اسلامية
كيلومتر
المقياس

الخوارج

وهم الذين أجبروا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على وقف القتال في صفين، ثم رفضوا التحكيم، حتى دبّ الخلاف في جيش علي، رضي الله عنه، ولما عاد الجيش إلى الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً، ولحقوا بقرية من قرى الكوفة تعرف باسم (حروراء) ومن هنا جاءت تسميتهم الحرورية، وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكري من بكر بن وائل، فناظرهم سيدنا علي، وعادوا فدخلوا جميعاً الكوفة، ولكنهم كانوا يرددون (لا حكم إلا الله) وهي الكلمة التي قالها عروة بن أدية أحد هؤلاء الخوارج للأشعث الكندي عندما كان يقرأ صحيفة التحكيم إثر صفين.

ولما حدث التحكيم ورفضه علي وأصحابه، طالب الخوارج علياً بقبوله، وقالوا: دعوت له فلما حكم عليك رفضته، فاجتمع أربعة آلاف منهم واتجهوا نحو المدائن، وقد أمّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، وقتلوا عامل علي عليها، وهو عبد الله بن خباب، فاضطر علي إلى السير إليهم، وترك الحركة نحو الشام التي أزمع الاتجاه نحوها وقتال أهلها. وحاول علي أن يثنيهم عن مقالتهم ويردّهم إلى صفه فكانوا يقتلون رسله، ويتهمونه بالكفر الأمر الذي اضطره إلى قتالهم في (النهروان) فقتل عبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير السعدي وغيرهما من القادة، ولم ينج من الخوارج يومذاك سوى عشرة وأبيد الباقون. ثم كان مقتل علي على يد أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم، وأصيب معاوية بجرح، ونجا عمرو بن العاص إذ لم يحضر صلاة فجر ذلك اليوم لمرض

ألم به، وأناب قاضيه خارجة بن حذافة فكان مصرعه وذلك أن الخوارج قد تعاهد ثلاثة منهم على قتل علي، ومعاوية، وعمرو حيث عدّوهم سبب ما نزل بالأمة.

واعتزل خمسمائة من الخوارج في (شهر زور) أيام علي، فلما قتل علي، وتنازل الحسن لمعاوية خرجوا «قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النُّخيلة، فقالت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهر زور مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم! ما تبغون منا! أليس معاوية عدونا وعدوكم! دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أُصبنا كنتم قد كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهروان، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. وأخذت (أشجع) صاحبهم فروة بن نوفل - وكان سيد القوم - واستعملوا عليهم عبد الله بن أبي الحر - رجلاً من طيء - فقاتلوهم فقتلوا»(١).

وفي عام ٤٢ هـ خرج حيان بن ظبيان السلمي، وكان أحد قادة الخوارج الذين نجوا في النهروان، وبرئت جراحهم، فخرج بعد شهر من معركة النهروان واتجه إلى الري(٢) مع من يرى رأيه، وكان علي، رضي الله عنه، قد عفا عنهم وعددهم أربعمائة رجل، ولم يزالوا هناك حتى بلغهم مقتل علي، رضي الله عنه، فلما كان ذلك دعا حيان بن

(١) تاريخ الطبري ٥ ص١٦٥ - ١٦٦.
(٢) الري: موقع طهران اليوم أو على مقربة منها.

ظبيان أصحابه أولئك ـ وكانوا بضعة عشر رجلاً ـ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الإخوان من المسلمين، إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مراد قد قعد لقتل علي بن أبي طالب عند أغباش الصبح مقابل السدة التي في المسجد، مسجد الجماعة، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة، صلاة الصبح، فشدّ عليه، فضرب رأسه بالسيف، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات فقال سالم بن ربيعة العبسي: لا يقطع الله يميناً علت قذاله بالسيف، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله، رضي الله عنه، ولا رضي عنهم ولا رحمهم! ثم قال حيان لأصحابه: إنه والله ما يبقى على الدهر باق، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تذيقه الموت، فيفارق الإخوان الصالحين، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة، ولم تزل ضارّة لمن كانت له هماً وشجناً، فانصرفوا بنا ـ رحمكم الله ـ إلى مصرنا، فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وولاتنا ظلمة، وسنة الهدى متروكة، وثأرنا من الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم، ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة. فقالوا: كلنا قائل ما ذكرت، وحامد رأيك الذي رأيت، فرِد بنا المصر فإنا معك راضون بهداك وأمرك، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة.

وأقبلوا حتى نزلوا الكوفة، فلم يزالوا بها حتى قدم معاوية، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحب العافية، وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى فيقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج. وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون. فأمنه

الناس، وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر.

وفزع الخوارج إلى ثلاثة نفر منهم: المستورد بن عُلّفة التيمي من تيم الرباب، وإلى حيان بن ظبيان السلمي، وإلى معاذ بن جوين بن حصين الطائي السنبسي - وهو ابن عم زيد بن حصين، وكان زيد ممن قتله علي، رضي الله عنه، يوم النهروان، وكان معاذ بن جوين هذا في الأربعمائة الذين ارتُثُّوا من قتل الخوارج، فعفا عنهم علي، رضي الله عنه، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان السلمي، فتشاوروا فيمن يولون عليهم. فقال لهم المستورد: يا أيها المسلمون والمؤمنون، أراكم الله ما تحبون، وعزل عنكم ما تكرهون، ولّوا عليكم من أحببتم، فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ما أبالي من كان الوالي عليّ منكم! وما شرف الدنيا يزيد، وما إلى البقاء فيها من سبيل، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود. فقال حيان بن ظبيان: أما أنا فلا حاجة لي فيها، وأنابك وبكل امرئ من إخواني راضٍ، فانظروا من شئتم منكم فسمّوه، فأنا أول من يبايعه. فقال لهم معاذ بن جوين بن حصين: إذا قلتما أنتما هذا، وأنما سيدا المسلمين، وذوا أنسابهم في صلاحكما ودينكما وقدركما، فمن يرئس المسلمين، وليس كلكم يصلح لهذا الأمر! وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل أبصرهم بالحرب، وأفقههم في الدين، وأشدهم اضطلاعاً بما حُمّل، وأنتما بحمد الله ممن يرضى بهذا الأمر، فليتوله أحدكما. قالا: فتوله أنت، فقد رضيناك، فأنت والحمد لله الكامل في دينك ورأيك، فقال لهما: أنتما أسن مني، فليتوله أحدكما، فقال حينئذٍ جماعة من حضرهما من الخوارج: قد رضينا بكم أيها الثلاثة، فولوا أيكم أحببتم، فليس في الثلاثة رجل إلا قال لصاحبه: تولّها أنت، فإني بك راضٍ، وإني فيها غير ذي رغبة. فلما كثر ذلك بينهم قال

حيان بن ظبيان: فإن معاذ بن جوين قال: إني لا ألي عليكما، وأنتما أسن مني، وأنا أقول لك مثل ما قال لي ولك، لا ألي عليك، وأنت أسن مني، ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، ثم بايعه معاذ بن جوين، ثم بايعه القوم جميعاً، وذلك في جمادى الآخرة. فاتعد القوم أن يتجهزوا، ويتيسروا، ويستعدّوا، ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ثلاث وأربعين، فكانوا في جهازهم وعدتهم.

وصل أمر الخوارج إلى المغيرة بن شعبة، وأنهم قد اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان استعداداً للخروج، فأرسل إليهم شرطته، فأتوا بهم إليه، فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين؟ فقالوا: ما أردنا من ذلك شيئاً، قال: بلى، قد بلغني ذلك عنكم، ثم قد صدق ذلك عند جماعتكم، قالوا له: أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا القرآن. فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه. فقال: اذهبوا بهم إلى السجن، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة، وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا. وخرج صاحبهم المستورد بن عُلّفة فنزل داراً بالحيرة، وكان أصحابه يتخلفون عليه ويتهجرون، فلما كثر اختلاف أصحابه عليه قال لهم صاحبهم المستورد بن عُلّفة التيمي: تحوّلوا بنا عن هذا المكان، فإني لا آمن أن يُطّلع عليكم.

ووصل الخبر إلى المغيرة بن شعبة فتكلم فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية، وأكفّ عنكم الأذى، وأني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم، فأما الحلماء الأتقياء فلا، وأيم الله لقد خشيت ألا أجد بُدّاً من أن يُعصَب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل، فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم. وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن

بعدهم. فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار.

ثم بعث المغيرة بن شعبة إلى رؤساء الناس فدعاهم ثم قال لهم: إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم، وقد قلت ما قد سمعتم، فليكفني كل امرئٍ من الرؤساء قومه، وإلا فالذي لا إله غيره لأتحوّلن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون، فلا يلم لائم إلا نفسه، وقد أعذر من أنذر. فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلّوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة، أو يفارق جماعة.

ووصل الخبر إلى رأس الخوارج المستورد بن عُلّفة، وكان قد نزل في منزل أحد رجال بني عبد قيس فارتحل عنه، وعلم المغيرة بما تمّ فأرسل إليهم معقل بن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف رجل، ولكنهم انطلقوا ليجدوا تعباً في اقتفاء أثرهم وعندها يقاتلهم الخوارج، وعرف معقل بن قيس خطة الخوارج هذه فأرسل طليعة له مؤلفة من ثلاثمائة فارس فلحقت بهم فاقتتلوا، فلم تثبت هذه الطليعة أمام الخوارج مع العلم أن كلا الفئتين يبلغ عددها ثلاثمائة فارس، وذلك في أرض المذار إلى الشمال من البصرة وفي منطقتها، وهذا ما دعا واليها عبد الله بن عامر أن يرسل في أثرهم ثلاثة آلافٍ آخرين. فلما رأى الخوارج كثرة الطلب عليهم ولّوا وجههم شطر الكوفة ليقاتلوا معقل بن قيس ومن معه وحدهم بعيدين عن جند البصرة، فلحقهم أهل الكوفة حتى أدركوهم، وقاتلوهم فلم ينج منهم إلا خمسة أو ستة، وقُتل زعيمهم المستورد بن عُلّفة، كما قُتل معقل بن قيس الرياحي، قتل كل صاحبه في المبارزة، وخفّ بعد ذلك أثر الخوارج.

ولما ولي زياد بن أبيه أمر البصرة خافه الخوارج فخرج أحدهم وهو سهم بن غالب الهجيمي، وثار في الأهواز فأحدث فتنةً، ثم رجع واختفى، وطلب الأمان فلم يؤمنه زياد، وإنما قتله وصلبه وذلك عام ٤٦ هـ، وفي

الوقت نفسه خرج أيضاً الخطيم، وهو يزيد بن مالك الباهلي، فسيره زياد إلى البحرين، ثم أذن له فقدم، وقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو: اضمنه، فأبى وقال: إن بات بعيداً عن بيته أعلمتك. ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته، فأمر به فقتل، وألقي في باهلة.

وفي سنة ٥٠ خرج اثنان أيضاً من الخوارج في البصرة وهما: زحّافِ الطائي، وقريب الأيادي، ومعهما سبعون رجلاً، ولكنهما قتلا وأصحابهما، وكان زياد شديداً على الخوارج، وكان يولي البصرة سمرة بن جندب، ويأمره بالشدة عليهم أيضاً، حتى قتل منهم عدداً كبيراً.

واشتد عبيد الله بن زياد والي البصرة على الخوارج، فسجن منهم الكثير، وقتل أكثر، وكان ممن قتلهم عروة بن أدية، ومرداس بن أدية أخو عروة، فالأول كان قد زجره وحاول وعظه، أما الثاني وهو مرداس، أبو بلال فقد خرج في الأهواز بعد أن كان سجيناً في سجن ابن زياد بالبصرة، ونجا هو على حين هلك أصحابه، واجتمع بالأهواز حول مرداس هذا أربعون رجلاً، فأرسل لهم ابن زياد جيشاً قوامه ألفا رجل، عليهم ابن حصن التميمي، فانتصر الخوارج عليهم في معركة دارت بآسك فقال قائلهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك ما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة كما علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

كان الخوارج بدواً أجلافاً يُظهرون شدّةً في الإيمان، لا يقتنعون إلا بما في رؤوسهم، ولا يمكن تغيير ذلك بسهولة، ويرون أن المسلمين قد أحدثوا الكثير، فيرمون عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب بالأخطاء بل بالكفر، ويرون أن الناس قسمان: مؤمن، وكافر وليس هناك غير ذلك، لذا عدّوا كل من لا يرى رأيهم من المسلمين كافراً عليه التوبة والتبرؤ مما

أحدثه عثمان، وعلي، رضي الله عنهما. وقد لقي المسلمون منهم الويلات الكثيرة إذ كانوا يستبيحون دم المسلمين، ويقاتلون بضراوة وتضحية، ويعتقدون في ذلك استشهاداً لذلك فقد أبلوا في معاركهم البلاء الكثير. وكانت عبادتهم نموذجاً في الخشوع والإطالة، وتروى الروايات الكثيرة في ذلك، وشعرهم يطفح بالشجاعة والإقدام.

بَيَعَـةُ يَـزِيْد

شعر معاوية بالضعف، وأحس بالتعب بعدما عانى في الإمارة والخلافة الشيء الكثير، ورأى الموت يقترب منه، وهو غاية كل حي، ونظر إلى الدولة وقد توحدت أركانها، واتفق ساكنوها، بعد الذي بذله، وخشي أن تعود أشتاتاً بسبب الحكم والعمل على تسلم السلطة.

ورأى أن العهد بالخلافة أفضل من ترك الأمر على غاربه يختار المسلمون الذي يرونه ولربما يكون هذا هو الأفضل عندما يكون الناس كلهم كالصحابة ولكن أنى لهم في هذا الوقت الذي اختلف فيه أكثرهم، وتصادموا وتقاتلوا، ونظر فرأى أن أبا بكر قد عهد لعمر فسارت المياه في مجاريها بشكل طبيعي، ولكن عندما لم يُعهد حدثت فتن أو كادت أيام بيعة عثمان، وعلي، لذا قرر أن يعهد بالخلافة.

ونظر إلى مقر الخلافة فوجد أن الشام أكثر الأماكن صلاحاً فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذ أن أهلها كلهم على رأي واحد، وهي أقرب البقاع إلى منطقة الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته فيستطيع أن ينفذ الخليفة الجديد أوامره بكل يسرٍ وسهولة، أما العراق فهي مركز الفوضى، ويُحكم أهلها بالقوة والسلطان، وأما مصر فيمكن أن يسيطر عليها سيطرة تامة أي إنسان يحمل لقب الحاكم أو الأمير، على حين أن أهل الشام لا يحكمهم إلا الدهاء وإظهار الكياسة والتقرب إليهم، أما المدينة فهي مركز الثقل، وفيها بقية الصحابة وأبناؤهم، ومنها تؤخذ البيعة، ومنها يكتسب الخليفة السلطة الشرعية فمن أيدته لقي الدعم، ومن رفضته وجد العناء والتعب والمقاومة إلا أن اختلاف الصحابة وأبنائهم يؤثر على وحدة الأمة واجتماع

كلمتها لذا فالأولى أن تؤخذ البيعة من المدينة، ولا يترك لأهلها الأمر فلربما وقع الخلاف وحدث ما قد سبق أن حدث وهو أمر صعب بين الصحابة أو بين أبنائهم، والأمر أخفّ على المجتمع فيما لو وقع بين غيرهم، لذا قرر أن يكون الخليفة من الشام، وبها.

ونظر إلى أهل الشام فغلبت عليه عاطفة الأبوة وبخاصة أن يزيد وحيد إذ أن أخاه عبد الرحمن قد مات صغيراً، وأن أخاه عبد الله كان أحمق، ولربما زيّن له بعض الناس ذلك من قبل فسار هواه في هذا الاتجاه تحت تأثير عاطفة الأبوة، وهذا ما تشير إليه كتب التاريخ من تزيين المغيرة بن شعبة له بذلك على حين توفي المغيرة في سنة ٤٩ هـ، وعلى كل فقد وافق على ذلك، ويزيد شاب مدلل نشأ في بيت الإمارة والخلافة وحيداً، تنقصه الخبرة الاجتماعية، وإن كانت رغبة والده في أن يزيده منها فسيّره كما رأينا على رأس الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية، ولكن لم يكتسب في ذلك الخبرة الكافية على الرغم من وجود بعض الصحابة في ذلك الجيش، وأبناء الصحابة، ولكن هذا التصميم من قبل الخليفة لا بدَّ للحصول على البيعة من موافقة أهل المدينة وما عداهم فالأمر ميسور يكتفي بموافقة ولاة العراق ومصر، والشام أمرها مضمون.

وفي سنة ستٍّ وخمسين دعا معاوية لبيعة ابنه، فبايعه أهل الشام، وكتب إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة ليأخذ البيعة من أهل المدينة فوجد معارضة، فسار معاوية معتمراً، فلما اجتاز المدينة بعد عودته من مكة، ودعا بكتابٍ فقرأه على الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت فيزيد ولي عهده، فاستوسق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر هم: الحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، فكلمهم معاوية جميعاً فكل يقول له: إن اجتمعت الأمة على أحد بعدك بايعت إن لم يبق غيري.

وفي عام ٦٠ هـ وفد عبيد الله بن زياد من البصرة إلى الشام ومعه وفد فأخذ معاوية البيعة ليزيد منهم، ولما مرض معاوية دعا ابنه يزيد فقال له: يا

بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي أستتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس.

ولما حضرت معاوية الوفاة في منتصف رجب من سنة ستين ـ وكان يزيد غائباً، دعا بالضحاك بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المري فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن تُشْهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبته فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

وتوفي معاوية، وصلى عليه الضحاك بن قيس، وكان يزيد بحوارين، فأقبل وقد دفن أبوه، فأتى قبره فصلى عليه، ودعا له، وقد دفن بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير.

توفي معاوية، رضي الله عنه، وكان صحابياً جليلاً يكفي ما ذكرناه من أحاديث في فضله، وإن كنا نرى أنه قد أخطأ في اجتهاده في خروجه على الخليفة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وفي بيعته لابنه يزيد، ومع ذلك يؤجر على اجتهاديه هذين.

ومعاوية أول من خطب الناس قاعداً، وأول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد، وأول من أحدث الأذان في العيد، وأول من نقص التكبير، وأول من قيل له السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله، وأول من وضع البريد في الإسلام، وأول من

اتخذ ديوان الخاتم، وأول من اتخذ المقصورة بالجامع، وأول من أذن في تجريد الكعبة، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها شيئاً فوق شيء، وأول من استحلف في البيعة.

ولما مات معاوية خرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر، وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب، وحد العرب، قطع الله عز وجل به الفتنة، وملكه على العباد، وفتح به البلاد، إلا أنه قد مات، فهذه أكفانه، فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى.

- ٢ -

يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٤ هـ.

حَيَاته

ولد يزيد سنة ست وعشرين للهجرة في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، وكان أبوه أميراً على الشام فنشأ في بيت الإمارة على شيء من الدلال وخاصة أنه كان ـ كما ذكرنا ـ الوحيد بين إخوته إذ توفي أخوه عبد الرحمن صغيراً، أما أخوه الثاني وهو عبد الله فكان على شيء من الحمق. وعندما شب يزيد انصرف إلى اللهو والصيد، واستمر على ذلك، أما ما ينعت به من غير ذلك فهو بعيد الوقوع. ولم يكن على صلة بالحياة الاجتماعية التي تجعله بين القادة والأمراء ورجال الحكم وإنما كان منصرفاً إلى ما هو عليه، ولما صار له من العمر أربع وعشرون سنة أحب أبوه أن يثنيه عما هو عليه فاختاره أميراً للجيش الذي يتجه إلى غزو القسطنطينية فسار مكرها، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى حتى كان عام ثلاث وخمسين إذ أراد معاوية أن يبايع له فكتب إلى زياد بن أبيه يستشيره في ذلك، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النمري يأخذ رأيه في الموضوع، وقال له: إن أمير المؤمنين كتب إلي يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: رويدك بالأمر، فأقمن لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت. وقال عبيد له: أفلا غير هذا! قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وإنك تخوّف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ما تريد، فتكون نصحت

يزيد، وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغش وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ، قال: تقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية، وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[١].

وكان مكانه المفضل بلدة حوارين من قرى حمص، إلى الشمال الشرقي من دمشق، وهي موقع بلدة القريتين اليوم.

(١) الطبري الجزء الخامس.

أسْرَتُهُ

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

١ ـ معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمن، كما يعرف باسم أبي ليلى، وقد بويع بعد أبيه.

٢ ـ خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.

٣ ـ أبو سفيان بن يزيد:

وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم.

وتزوج أيضاً يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر فأنجبت له عبد الله بن يزيد ويعرف بلقب «الأسوار».

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد، ويبدو أن لمحمد هذا الأخير عقب لا يزال موجوداً حتى الآن في شبه جزيرة العرب في المنطقة المعروفة باسم عسير، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البقعة عند قيام الدولة العباسية وملاحقة الأمويين، واستطاع بعد مدة تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة، واستمرت في أمرها حتى العصر الحديث، وكان منها آل عائض بن مرعي الذين كان لهم حكم المنطقة قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة.

خلافته

رشح سيدنا معاوية ابنه يزيد للخلافة، وعهد إليه، وأخذ موافقة الأمصار على ذلك عدا رجالات بالمدينة، ينظر إليهم لذاك المنصب، ويحسب لهم حساباً كبيراً في الدولة الإسلامية كلها، فقد رفضوا هذا الترشيح، وأظهروا أن هذا لم يكن من الإسلام. وولاية العهد هي ترشيح لمنصب، ولا يمكن أن تكون بيعة لاثنين في وقت واحد الخليفة وولي عهده، فإذا مات الخليفة أخذت البيعة من جديد لمن رشحه الخليفة السابق أو رفضت تلك البيعة ورفض الترشيح معها، وعهد لآخر، وأخذت له البيعة، فلا بدّ إذن من بيعة جديدة لأنه الترشيح الأول يكون قد حصل عليه بالإكراه والضغط بصفة المنصب الذي يحتله من أعطى الترشيح وجعله ولياً للعهد، وهذا تقريباً ما تمّ أيام سيدنا معاوية. فلما مات الخليفة بايعت الأمصار من جديد يزيد، عدا النفر الأربعة الذين ذكرنا من أبناء الصحابة، رضوان الله عنهم، وهم: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وتعدّ البيعة ليزيد قد انعقدت ما دامت الأمصار قد وافقت على ذلك وولاتها، وإن بقي عدد من الرجال لم يبايع، فبيعة علي بن أبي طالب صحيحة على الرغم من عدم مبايعته من قبل سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وأسامة بن زيد وعدد آخر. وعلى هذا فقد أصبح يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين.

وكان همّ يزيد، وشغله الشاغل الحصول على البيعة من المدينة وخاصة من هؤلاء لما لهم من مكانة بين المسلمين، ولو تركهم لكان خيراً، فالبيعة صحيحة، وتسير الأمور بشكل طبيعي، ولكن سوّلت له نفسه

متابعتهم وأخذها منهم بأية صورة من الصور، ولربما كان ذلك ليقوّي مركزه بين المسلمين، كما يتصور ذلك، أو خوفاً من منازعة أحدهم له، فكتب إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بعد موت معاوية، وقبل وصول الخبر:

بسم الله الرحمن الرحيم. من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد، فإن معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات براً تقياً والسلام.

وكتب إليه في صحيفة صغيرة ثانية:

أما بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام.

دعا الوليد الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، فحضر الحسين وعندما جلس أقرأه الوليد كتاب يزيد، ونعى له معاوية، ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين! إنا لله وإنا إليه راجعون! ورحم الله معاوية، وعظّم لك الأجر! أما ما سألتني عن البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سراً، ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن نظهرها على رؤوس الناس علانية؛ قال: أجل، قال: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس.

أما عبد الله بن الزبير فقال: آتيكم، ثم تأخر فكثرت عليه الرسل، فغادر المدينة إلى مكة، وبعد يوم تبعه الحسين، ولم ينصرم شهر رجب بعد، وكان خروج الحسين مع أكثر أهل بيته: بنيه، وإخوته، عدا محمد بن الحنفية فقد بقي، ونصح أخاه. وإخوته وأبناءهم.

وبايع عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس بعد أن بايعت الأمصار.

ثم عزل يزيد أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وجعل مكانه

والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، فأرسل جيشاً بإمرة عمرو بن الزبير إلى مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير، ولكن الجيش هزم، وقتل منه أنيس بن عمرو الأسلمي، وأخذ عمرو بن الزبير أسيراً فسجن في سجن أخيه، وهكذا فقد تمت خلافة يزيد ولم يخرج عنها سوى الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وكانت إقامتهما في مكة بصفتها حرماً آمناً.

الولايات

كانت ولايات الحجاز والعراق مسرح الأحداث التي وقعت في أيام يزيد بن معاوية، أما باقي الولايات فكانت عادية لم يحدث فيها ما يعكر الصفو، وحدثت فتوحات في إفريقية فقط، أما باقي الجبهات فقد هدأت حركة الجهاد فيها بسبب الأحداث الداخلية التي تمت.

المدينة: كان أهل المدينة غير راضين على بني أمية عامةً وعلى بيعة يزيد خاصةً، وما أعطوها إلا كرهاً وتجنبا للفتن، وينتظرون الساعة التي ينقضّون فيها على الأمويين وقد تولى أمرها منذ أيام معاوية الأخيرة ابن أخيه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ولما لم يستطع أخذ البيعة ليزيد من الحسين وابن الزبير فقد عُزل، وأعطيت لوالي مكة عمرو بن سعيد بن العاص الذي جمع المنطقتين إليه. ثم عاد الوليد بن عتبة عام ٦١ هـ فتولى أمر مكة والمدينة، ثم أخذت منه المدينة، وأعطيت لابن عمه عثمان بن محمد بن أبي سفيان عام ٦٢ هـ، وهو الذي ثار عليه أهل المدينة، وولّوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل حتى جاء مسلم بن عقبة المري، وعندما خرج إلى مكة ولّى عليها روح بن زنباع، وتوفي يزيد وجيش الشام في مكة.

مكة: كان أهل مكة مثل أهل المدينة لا يرغبون في يزيد، وينظرون إلى أحد أبناء الصحابة ليكون على أمر المسلمين، وخاصة الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، ولكنهم قد سكتوا بعد بيعة ابن عمر، وابن عباس، ولكون مدينتهم بلداً حرماً آمناً لا يريدون أن يحدثوا فيه فتنة، ولأنه لم يدعهم إلى البيعة أحد هؤلاء

الأقطاب الذين لهم مكانتهم في أمصار الدولة كافة، وكان على مكة عمرو بن سعيد بن العاص، ثم أعقبه الوليد بن عتبة مدة عهد يزيد بن معاوية. ولما رفض ابن الزبير البيعة ليزيد جاء جند من المدينة بإمرة أخيه عمرو بن الزبير إلا أنهم هزموا، وسجن عمرو بن الزبير في سجن أخيه. ثم جاء جيش الشام بإمرة الحصين بن نمير بعد موت مسلم بن عقبة المري، وحاصر مكة إلا أن وفاة يزيد جعلته يفك الحصار عنها، ويعود إلى الشام.

الكوفة: وكان أهل الكوفة غير راضيين أيضاً على بني أمية، وهواهم مع أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ولكنهم يخضعون بالشدة ويخنعون، ويحبون الفتنة ويسعون لها فإذا جاءتهم تفرقوا، وخذلوا من كانوا يدعون له ويدعونه، وبذا تختلف عن المدينتين السابقتين، كما تختلف عنهما في أنها تضم أشتاتاً من البشر، ومعظمهم من الجند الذين انطلقوا إليها للفتوحات ثم استقروا، وبذا فهي تضم معظم القبائل العربية وخاصة اليمنية، والطائية، والتميمية، وعبد قيس وغيرها.

وكان عليها النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، عندما توفي معاوية، واستمر فيها أيام يزيد، فلما نزلها مسلم بن عقيل من قبل الحسين بن علي، وبدأ الناس يبايعونه، ووصل الخبر إلى يزيد عزل النعمان بن بشير عن الكوفة لسكوته عن ذلك، وأسند أمرها إلى عبيد الله بن زياد لقسوته وبطشه، وقد احتاج إليه، وقبل ذلك كان يريد أن يعزله عن البصرة، أما وقد احتاج إلى شدته فقد أضاف إليه الكوفة مع البصرة. وبقي عليهما حتى وفاة يزيد.

البصرة: وتشبه الكوفة إلى حدٍ ما، وإن كانت أقل رغبة في الفتنة، وفي مناطقها للخوارج دور، أما خراسان التي كانت تتبعها في الجهاد فقد كان عليها مسلم بن زياد. وتولى أمر البصرة عبيد الله بن زياد منذ عام ٥٥ هـ أيام معاوية بن أبي سفيان وحتى وفاة يزيد بن معاوية.

مصر: وهي هادئة تخضع لكل أمير، وكان عليها منذ عام ٥٥ هـ

مسلمة بن مخلّد، وقد أعطى أمر إفريقية إلى أبي المهاجر، وعزل عقبة بن نافع[1]، واستمر ذلك حتى توفي مسلمة بن مخلّد عام ٦٢ هـ، فقدم عقبة بن نافع بعشرة آلاف جندي من الشام والياً على إفريقية. أما مصر فقد أعطي أمرها إلى سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي.

إفريقية: سار عقبة بن نافع نحو الغرب ففتح بلاد المغرب كلها، ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، ففتح بلاد السوس الأدنى والمعروفة اليوم باسم سهول نهر سبو، ثم انطلق على سواحل المحيط الأطلسي جنوباً حتى وصل إلى بلاد السوس الأقصى، وقرر العودة عن طريق الأطلس الصحراوي إلى القيروان حيث الطريق أقصر وقد أمن العدو بعد انتصاراته الواسعة، وأثناء عودته وجد كميناً عند (تهوده) كان البربر قد نصبوا له كميناً هناك فاستشهد ومن معه، وقد أراد أن يبني هناك قاعدة تكون مثل القيروان، ويعرف اليوم ذلك المكان باسم سيدي عقبة بالقرب من بسكرة جنوب مدينة قسنطينة.

(١) **عقبة بن نافع بن عبد القيس**: الفهري القرشي: ولد في العام الأول للهجرة، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، وقد أرسله عمرو إلى برقة قائداً مستقلاً، فغزا غزوتين في البحر، وفتح مدينة زويلة من أعمال فزان، وكذلك عمل في بلاد النوبة. ثم أصبح والياً على إفريقية عام ٦٢هـ، واستشهد عام ٦٤هـ.

الأحداث

بدأت الأحداث مع بدء خلافة يزيد الذي حرص على أخذ بيعة الحسين وابن الزبير، ولم يمهلهما، فاضطر ابن الزبير إلى السير إلى مكة ثم تبعه الحسين، وبدأت كتب أهل الكوفة تصل إلى الحسين، ورسلهم تتابع، وكلها تقول: إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا، وكان النعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة. فبعث الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ابن عمه، إلى الكوفة وقال له: سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إليّ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم، فخرج مسلم ماراً على المدينة وقد اصطحب معه دليلين، فمرّا به في البرية، فأصابهم عطش، فمات أحد الدليلين، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين: أن امض إلى الكوفة. فقدمها ونزل على أحد أهلها، وبايعه أكثر من اثني عشر ألفاً، وشاع الخبر، وعُزل النعمان بن بشير عن الكوفة، وأُسند أمرها إلى والي البصرة عبيد الله بن زياد، وتحول مسلم من مكانه إلى دار هانئ بن عروة المرادي، وكتب إلى الحسين يدعوه إلى السير إلى الكوفة.

علم عبيد الله بن زياد بمكان مسلم فأرسل إلى هانئ بن عروة يستقدمه فجاء، فسأله عن مسلم فأنكر، ثم اعترف بعد أن حضر من رآهما معاً في منزله، وقال: أصلح الله الأمير! والله ما دعوته إلى منزلي، ولكنه جاء وطرح نفسه عليّ، قال: ائتني به؛ قال: والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه، فضربه عبيد الله وشجه، وسجنه في جانب القصر، وظنت مذحج أنه قتل هانئ فجاءت، فأخبروا أنه سجين فعادت. ووصل الخبر إلى مسلم فخرج، ونادى بشعاره، فتجمع عليه أربعة آلاف من أهل الكوفة

فعبأهم وقصد عبيد الله، وجمع عبيد الله إليه وجوه أهل الكوفة فكلموا عشائرهم المجتمعة حول مسلم، والمحيطة بالقصر، فبدأ أصحاب مسلم يتفرقون عنه حتى بقي في خمسمائة فلما أرخى الليل سدله ذهب الباقون وبقي وحده، فبدأ يتردد في الطريق حتى دخل منزلاً، ولكن لم يلبث أن اكتشف أمره، فأرسل إليه عبيد الله صاحب شرطته مع سبعين رجلًا، ولما رأى مسلم أنه قد أحيط به خرج إلى طلبه، وقاتلهم بسيفه فأعطي الأمان وساروا به إلى القصر، فأمر به فأصعد إلى القصر فضربت عنقه، وألقيت جثته إلى الناس، كما قتل هانئ بن عروة المرادي، وأرسل رأساهما إلى يزيد.

وكان خروج مسلم في الكوفة يوم ٦ ذي الحجة سنة ستين للهجرة، بعد أن خرج الحسين من مكة إلى الكوفة بيوم واحد.

خرج الحسين من مكة باتجاه الكوفة، وقد نصحه كثير ممن يحبه في عدم الخروج مما يدل على أن ذاك الخروج كان فيه سرعة، ولكن الحسين مجتهد، وأمر الله لا بدّ آت. وهذه السرعة تبدو من عدة جوانب سواءً من حيث أصل الخروج أم من ناحية أخذ الاستعداد اللازم، ثم من ناحية الاطمئنان إلى أهل الكوفة وقد عرفهم مع أخيه ومع أبيه من قبل، ثم من ناحية الخروج على الحاكم، وكل هذا يبدو في كلام الناصحين له، ولنستمع إلى بعض هذه النصائح وقد كانت كثيرة فقد قال له أخوه محمد بن الحنفية يوم خرج من المدينة إلى مكة: «يا أخي أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس، فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإن خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً

أضيعها دماً وأذلها أهلاً، فقال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال، وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر ما يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون عليك الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً، قال: يا أخي، قد نصحت فأشفقت، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفقاً[1].

وعندما همّ الحسين، رضي الله عنه، بالرحيل إلى العراق جاءه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد، فإني أتيتك يا ابن عم لحاجة، ذكرها لك نصيحة، فإن كنت ترى أنك تستنصحني وإلا كففت عما أريد أن أقول؛ فقال: قل، فوالله ما أظنك بسيء الرأي، ولا هو للقبيح من الأمر والفعل؛ قال: قلت له: إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق، وإني مشفق عليك من مسيرك، إنك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه؛ فقال الحسين: جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد علمت والله أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومهما يقض من أمر يكن، أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح»[2].

وجاءه عبد الله بن عباس فقال له: «يا ابن عم، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبيّن لي ما أنت صانع؟ قال: إني قد أجمعت المسير في أحد يوميّ هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني رحمك الله! أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن

---

(١) تاريخ الطبري. (٢) المصدر نفسه.

كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغزوك ويكذبوك، ويخالفوك. ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك؛ فقال له الحسين: وإني أستخير الله وأنظر ما يكون»[1].

فلما كان من العشي أو من الغد، أتى الحسين عبد الله بن العباس فقال: يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال؛ إن أهل العراق قوم غُدر، فلا تقربنّهم، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز؛ فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة وطويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل، وتبث دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية؛ فقال له الحسين: يا ابن عم، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير؛ فقال له ابن عباس: فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه[2].

وهؤلاء الناصحون هم من أصحاب الرأي والمعرفة، وقد كانوا صادقين في نصحهم وعلى صواب في رأيهم، قد اجتهد الحسين واجتهدوا، ويبدو فيما بعد أن اجتهادهم قد أصابوا فيه، وقد أخطأ رضي الله عنه في اجتهاده.

وأثناء خروجه من مكة لقي رجلاً من العراق، فقال له: أخبرني عن الناس خلفك؟ قال: القلوب معك، والسيوف مع بني أمية، والقضاء بيد الله.

وكتب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين مع ابنيه عون

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر السابق.

ومحمد (ابني عبد الله) أما بعد: فإني أسألك بالله لمّا انصرفت حتى تنظر في كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجّه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجّل بالسير فإني في أثر الكتاب والسلام.

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص فكلمه. وقال: اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البر والصلة، وتوثق له في كتابك، وتسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال عمرو بن سعيد: اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب، ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له: اختمه: وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه، ويعلم أنه الجد منك، ففعل؛ وكان عمرو بن سعيد عامل يزيد بن معاوية على مكة؛ قال: فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر، ثم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب، فقالا: اقرأناه الكتاب، وجهدنا به، وكان مما اعتذر به إلينا أن قال: رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ، وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له، عليّ كان أو ليّ، فقالا له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحداً بها، وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي.

قال: وكان كتاب عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان، والصلة، والبر، وحسن الجوار لك، الله بذلك عليّ شهيد وكفيل، ومراع ووكيل؛ والسلام عليك.

قال: وكتب إليه الحسين: أما بعد: فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمّن الله يوم القيامة

من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبري فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة؛ والسلام.

أما عبد الله بن الزبير فقد أتاه، وتحدث معه ثم قال: ما أدري ما تركُنا هؤلاء القوم وكفُّنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم! خبّرني ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، وقد كتب إليّ شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله، فقال له ابن الزبير: أما لو كان بي بها مثل شيعتك ما عدلت بها، قال: ثم إنه خشي أن يتهمه فقال: أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا ما خولف عليك إن شاء الله»[1].

هذه أقوال رجال زمانه، ومن يُنظر إليهم، ومن هم ثقة عند الأمة جميعها قد نصحوا له، وبيّنوا مغبة مسيره إلى العراق، ولكنه كان سائراً إلى أمر الله الذي لا بدّ له، فذهابه غلط، لما كان عليه العراق، ولما يحدث من فتنة ولم يتضح الأمر بعد، ولخروجه مع نسائه وأهل بيته وهو يعلم أنه قادم على قتال، ولخروجه على الحاكم. إلا أن حبنا له حيث كان آنذاك أفضل من على الأرض وحبنا لآل البيت جميعاً، ولبشاعة النكبة التي حلّت به وبمن معه جعلنا كل ذلك ننظر إلى النتائج دون النظر إلى الأسباب، هذا بالإضافة إلى ما كتبه قتلته الذين يدعون أنهم شيعة له، وصوروا المأساة وغالوا، فأدموا القلوب، ولم يبق من كتاباتٍ وصورٍ غيرها، وشاعت بين الناس، وأكثر الكتاب من ذكرها، مع أنه قد قتل أبوه وهو مبشر بالجنة وأفضل منه، ولم يذكر عن مقتله مثل هذا، ومن قبل قتل عثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما.

سار الحسين، رضي الله عنه، نحو الكوفة حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له: أين تريد؟ قال:

---

(١) المصدر نفسه.

أريد هذا المصر، قال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه، فهمّ أن يرجع، كما نصحه عبد الله بن مطيع عندما التقى به في الطريق على ماء من مياه العرب، فلما رأى عبد الله الحسين قام إليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله! ما أقدمك! واحتمله فأنزله، فقال له الحسين: كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم، فقال له؛ عبد الله بن مطيع: اذكّرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك! أنشدك الله في حرمة رسول الله ﷺ! أنشدك الله في حرمة العرب! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل، ولا تأت الكوفة، ولا تعرّض لبني أمية، قال: فأبى إلا أن يمضي، وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بأثرنا أو نقتل، فقال: لا خير في الحياة بعدكم! فسار فلقيته أوائل خيل عبيد الله بن زياد، فلما رأى ذلك عدل إلى كربلاء، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل، وكان على رأس جند عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص، ولم يمكن التفاهم بين الطرفين إذ أن أصحاب المصالح في جيش ابن زياد والغوغائيين قد نشبوا القتال فقاتل الحسين ومن معه قتالاً مستميتاً وقتال الأبطال الذين يندر أن يكونوا مثله، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، فقتل الحسين وأصحابه كلهم، وفيهم بضعة عشر رجلاً من أهل بيته، وكان الذي تولى قتل الحسين، رضي الله عنه، شمر بن ذي الجوشن، وحُمل رأس الحسين إلى ابن زياد، وكذلك حرمه ونساؤه. فلما وضع الرأس بين يدي ابن زياد، جعل ينكت بقضيبه، ويقول: إن أبا عبد الله قد كان شمط، وأمر لنساء الحسين بمنزل في مكان منعزل، وأجرى عليهن رزقاً، وأمر لهن بنفقة وكسوة. قال: فانطلق غلامان منهم لعبد الله بن جعفر ـ أو ابن ابن جعفر ـ فأتيا رجلاً من طيء فلجآ إليه، فضرب أعناقهما، وجاء برؤوسهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد، قال: فهمّ بضرب عنقه، وأمر بداره فهدمت[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٩٣.

وكان مقتل الحسين، رضي الله عنه، في عاشوراء (العاشر من محرم) سنة ٦١ هـ. وحمل رأس الحسين، وسرحت نساؤه إلى يزيد بالشام، فلما وضع بين يديه بكى، وقال: لو كان بينه وبينه رحم ما فعل هذا[١]. وقد أكرم أهل الحسين ثم سرحهم إلى المدينة مع رفقة لهم حتى بلغوها.

ولما وصل خبر مقتل الحسين بن علي إلى الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس، وكان ذلك سبباً في عزل عمرو بن سعيد بن العاص عن الحجاز، وتولية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان مكانه، ثم لم يلبث أن عزله، وأمّر عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكثر الحديث في المدينة عن يزيد، فأرسل إليهم النعمان بن بشير يحذرهم الفتنة، ويذكرهم الطاعة، فأبوا عليه، ثم أعلنوا خلع يزيد، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان، والي يزيد، ثم حاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي الألف شخص.

أُخبر يزيد بالخبر فأرسل إليهم جيشاً عليه مسلم بن عقبة المري، وإن حدث عليه حدث فالأمير حصين بن نمير السكوني، وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش، والتقى ببني أمية بوادي القرى وقد أخرجهم أهل المدينة.

وصل مسلم بن عقبة المري إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام فأبوا إلا القتال، وكان عليهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان، وعبد الرحمن بن زهير بن عوف الزهري ابن أخ عبد الرحمن بن عوف. وكان مجيء مسلم عن طريق الحرة الشرقية، ووقعت الوقعة وكانت في أواخر ذي الحجة من سنة ثلاث وستين للهجرة، وقتل أكثر سادة أهل المدينة في هذه الوقعة.

ولما انتهى مسلم بن عقبة المري من المدينة اتجه بجنده نحو مكة يريد عبد الله بن الزبير، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي، ولم

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٩٣.

يقطع مسلم مسافة حتى نزل به الموت، فتولى أمر الجند بعده الحصين بن نمير السكوني حسب وصية يزيد بن معاوية فسار إلى مكة وقد بايع أهلها والحجاز كله عبد الله بن الزبير، فقاومه ابن الزبير وقُتل من أصحابه المسور ابن محزمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وأخوه المنذر بن الزبير، واستمر القتال بقية المحرم وصفر من سنة أربع وستين، وفي أوائل ربيع الأول قُذف البيت بالمنجنيق، وأحرق بالنار. ثم جاءهم نعي يزيد في مطلع ربيع الثاني، وقد توفي في ١٤ ربيع الأول.

توفي يزيد وأهل الشام يحاصرون أهل مكة وابن الزبير، ووصل الخبر إلى ابن الزبير قبل أن يصل إلى أهل الشام، فناداهم أهل مكة لماذا تقاتلون؟ لقد هلك يزيد، فلم يصدقوا منهم، واستمروا في قتالهم، فلما تأكدوا من النبأ توقفوا عن القتال.

بعث الحصين بن نمير إلى عبد الله بن الزبير، والتقى معه، وقال له: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة. ولكن ابن الزبير خشي من الذهاب إلى الشام، ولم يرغب في مغادرة مكة التي احتمى بها، وكان رأي الحصين أن هناك بالشام من يطالب بالخلافة فماذا يكون موقفه؟ أما إذا ذهب عبد الله بن الزبير فإنه لن يطالب فيها أحد لمكانة ابن الزبير أولاً ولعدم وجود أبناء كبار ليزيد أو أحد من أسرته يفكر في هذا الأمر.

ولما لم يتفق ابن الزبير والحصين بن نمير سار جيش الشام إلى بلدهم تاركين الحجاز مبايعاً لابن الزبير.

الخوارج

بعد أن هزم الخوارج جيش عبيد الله بن زياد بآسك أرسل لهم عباد بن الأخضر التميمي على رأس ثلاثة ألاف مقاتل فاستطاع أن يبيد الخوارج الذين كانوا بإمرة أبي بلال مرداس بن أدية، وذلك عام ٦١ هـ.

وبعد مقتل الحسين ثار أبو طالوت نجدة بن عامر الحنفي، وكان قد سار إلى البصرة مع نافع بن الأزرق، ثم خالفه، ورجع إلى نجد فاستولى عليها، واستقل بها. وأصبح وسط جزيرة العرب وشرقيها مسرح نشاط الخوارج.

عبدالله بن الزبير

رضي الله عنهما

٦٤ - ٧٣ هـ.

حَيَاتُه

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. كان أبوه الزبير أحد السابقين في الإسلام، أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ، صفية بنت عبد المطلب، هاجر الهجرتين إلى الحبشة، وإلى المدينة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ، ثبت يوم أحد، وبايعه على الموت، وكانت مع الزبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث في غزوة الفتح واشترك في الفتوحات، واخترق جيوش الروم يوم اليرموك ثلاث مرات، وذهب على رأس مدد لعمرو بن العاص أثناء فتح مصر، وخرج يوم الجمل مع عائشة، رضي الله عنها، ولحق به ابن جرموز إثر المعركة، وقتله غدراً بوادي السباع.

أما أمه فهي أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، أسلمت قديماً بمكة وبايعت رسول الله ﷺ، وهي ذات النطاقين، أخذت نطاقها فشقته اثنين فجعلت واحداً لسفرة رسول الله ﷺ والآخر عصاماً لقربته ليلة خرج رسول الله وأبو بكر إلى الغار، فسميت ذات النطاقين، وماتت عام ثلاثة وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله بمدة وجيزة، وهي آخر من مات من المهاجرات.

ولد عبد الله بن الزبير في قباء أول مقدمهم المدينة مهاجرين، وقد هاجرت أمه أسماء وهي حامل به فنزلت بقباء فولدته، ثم أتت به إلى رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنّكه ودعا له وتبرك

عليه، وسماه عبد الله، وكناه بأبي بكر، فكان أول مولود ولد في الإسلام. وفرح المسلمون بولادته لأن يهود زعمت أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلما ولد ابن الزبير كبّر المسلمون، وأذّن الصديق في أذنه حين ولد، رضي الله عنهما، وطاف به في المدينة ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت يهود. وعندما ترعرع كلم رسول الله ﷺ في غلمة منهم عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي مسلمة، فقيل يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك، ويكون لهم ذكر، فأتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا واقتحم عبد الله بن الزبير فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إنه ابن أبيه» وبايعه. وهو صحابي جليل، روى عن رسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثين حديثاً، وروى عن أبيه، وعمر، وعثمان.

شهد اليرموك مع أبيه وهو صغير، وحضر خطبة عمر بالجابية. دافع عن سيدنا عثمان يوم الدار، وجرح يومئذٍ بضع عشرة جراحة، وكان على الراجلة يوم الجمل، ومشى إلى الأشتر النخعي يومئذٍ فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبد الله الأشتر ضربة خفيفة، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وخرّا إلى الأرض يعتركان، فقال: اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي، وجرح يومذاك تسع عشرة جراحة، ووجد بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة، رضي الله عنها، لمن بشّرها بأنه لم يقتل عشرة آلاف درهم، وسجدت لله شكراً، فكانت تحبه حباً شديداً فهو ابن أختها، وكان عزيزاً عليها.

وقاتل البربر مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقتل القائد البيزنطي (جرجير) في موقعة (سبيطلة) عام ٢٧ هـ. وقدم إلى دمشق لغزو القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما.

كان عارضا عبد الله بن الزبير خفيفين، وما اكتملت لحيته حتى بلغ الستين، وكان نحيفاً ذا أنفة. كثير السجود ولا ينازع في ثلاث: في العبادة، والشجاعة، والفصاحة. قال حماد بن زيد عن ثابت البناني قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا

يتحرك. وقال الأعمش عن يحيى بن وثاب: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط. وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليلة حتى يصبح، ويركع ليلة حتى يصبح، ويسجد ليلة حتى يصبح. وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال: كان قارئاً لكتاب الله، متبعاً لسنة رسول الله، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله، وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، زوجة رسول الله فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله[1]. وكان صيتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان: أبو قبيس، وزرزوراء، وكان آدم نحيفاً ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود، كثير العبادة، مجتهداً، شهماً، فصيحاً، صوّاماً، قوّاماً، شديد البأس ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلاً.

بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالبشارة بانتصار المسلمين على البربر، وقتل ملكهم، وأخذ غنائم كثيرة مع ابن الزبير إلى الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم! فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب الناس وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبيّنت وجهه كاد أن يَرتج عليّ في الكلام من هيبته في قلبي، فرمزني بعينه وأشار إليّ ليحصني، فمضيت في الخطبة كما كنت فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني.

وكان رضي الله عنه فارس الخلفاء لا يوازيه أحد، وقد روى الطبراني عن إسحاق بن أبي إسحاق قال: أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال

---

(١) البداية والنهاية ـ الجزء الثامن.

إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه فصرعته، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أسـمـاء أسـمـاء لا تـبـكـيـنـي لـم يـبـق إلا حـسـبـي وديـنـي
وصـارم لانـت بـه يـمـيـنـي

وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد.

وكانت أبواب الحرم قد قلّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج، وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح، وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلا فرّقهم وبدّد شملهم..

وبويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، وبقي حتى قتل سنة ثلاث وسبعين، وحج بالناس كل هذه المدة، وبنى الكعبة أيام خلافته، وكساها الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح.

واتهم بالبخل وعدم معرفته بتدبير الأمور والنظر بعيداً، فرغم أن معظم الأمصار الإسلامية قد بايعته بالخلافة، ولم يبق مع مروان بن الحكم سوى جزء صغير من بلاد الشام، ومع هذا فقد بدأ يتوسع ملك مروان وتنكمش خلافة ابن الزبير حتى قضي عليه لأنه لم يدر كيف يسوس الأمور[١].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ابن حزم، تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة ـ ص١٢٢.

أولاده

كان لعبد الله بن الزبير ثلاثة عشر ولداً، بعضهم كان له عقب، وبعضهم لم يعقب، وله ابنة واحدة معروفة هي: أم الحسن، وأمها نفيسة بنت الحسن بن علي أمير المؤمنين، رضي الله عنهما، أما الأولاد فهم:

١ ـ خبيب: وبه يكنى، وهو أسن من عمه عروة، وليس له عقب.

٢ ـ حمزة: وله عقب.

٣ ـ عبّاد: وله عقب.

٤ ـ ثابت: وله عقب.

٥ ـ عامر: وله عقب.

٦ ـ موسى: وله عقب.

٧ ـ بكر: وأمه عائشة بنت أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وليس له عقب. ويكنى به أيضاً، وبهذه الكنية كناه رسول الله ﷺ.

٨ ـ هاشم: ولا عقب له.

٩ ـ قيس: ولا عقب له.

١٠ ـ عروة: ولا عقب له.

١١ ـ الزبير: ولا عقب له.

١٢ ـ أبو بكر: ولا عقب له.

١٣ ـ عبيد الله: ولا عقب له.

إخوَتـُه

يقول الزبير، رضي الله عنه: «بلغني أن طلحة بن عبيد الله التيمي يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبي بعد محمد، وإني أسمّي بني بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا».

تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، فولدت له:

١ ـ عبد الله: وقد سماه باسم ابن خالته عبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد، وإن كانت ولادته قبل استشهاد ابن جحش بثلاثة أعوام، وأن رسول الله ﷺ هو الذي سماه عبد الله، ويكون الزبير قد عدّ هذا بعد استشهاد ابن جحش.

٢ ـ عروة: وقد سماه باسم عروة بن مسعود، الذي استشهد بالطائف، وكان يدعو قومه فقتلوه.

٣ ـ المنذر: وقد سماه باسم المنذر بن عمرو، الذي استشهد يوم بئر معونة، ويكنى المنذر أبا عثمان، وقد استشهد مع أخيه عبد الله.

٤ ـ عاصم: وقد سماه باسم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، الذي استشهد يوم الرجيع.

٥ ـ المهاجر: وقد سماه باسم المهاجر بن زياد، الذي استشهد يوم تستر. كما أنجبت أسماء رضي الله عنها من البنات.

١ ـ خديجة الكبرى.

٢ ـ أم الحسن.

٣ ـ عائشة.

وتزوج الزبير بن العوام، رضي الله عنه، أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، فأنجبت له:

١ ـ خالد: وقد سماه باسم خالد بن سعيد، الذي استشهد يوم مرج الصُّفّر، وقد تولى خالد اليمن لأخيه عبد الله.

٢ ـ عمرو: وقد سماه باسم عمرو بن سعيد بن العاص الذي استشهد يوم أجنادين، وقتله أخوه عبد الله قوداً حيث كان مع بني أمية ضد أخيه كما أنجبت أمه من الإناث:

١ ـ حبيبة.

٢ ـ سودة.

٣ ـ هند.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، الرباب بنت أنيف فأنجبت له:

١ ـ مصعب: وقد سماه باسم مصعب بن عمير الذي استشهد يوم أحد. ويكنى مصعب أبا عيسى، وتولى لأخيه العراقين.

٢ ـ حمزة: وقد سماه باسم خاله حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، الذي استشهد يوم أحد.

كما أنجبت له الرباب من البنات ابنة واحدة هي:

١ ـ رملة.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، زينب، وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمرو، وأنجبت له:

١ ـ عبيدة: وقد سماه باسم عبيدة بن الحارث الذي استشهد يوم بدر.

٢ ـ جعفر: وقد سماه باسم جعفر بن أبي طالب الذي استشهد يوم مؤتة وتولى لأخيه أمر المدينة.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف من قبل فولدت للزبير زينب، وتزوج الحلال بنت قيس بن نوفل فولدت له خديجة الصغرى.

وبذا يكون للزبير أحد عشر ولداً هم: عبد الله، عروة، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخالد، وعمرو، ومصعب، وحمزة، وعبيدة، وجعفر، وله تسع بنات هن: خديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة، وحبيبة، وسودة، وهند، ورملة، وزينب، وخديجة الصغرى.

كما تزوج الزبير، رضي الله عنه، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر، ثم تحت عمر بن الخطاب.

بيعته

بعد مقتل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، أعلن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكة خلع بيعة يزيد، وبدأ بعض الناس يبايعون ابن الزبير سراً، ونحّى ابن الزبير عن الصلاة في مكة الحارث بن خالد(١) الوالي من قبل يزيد وقدّم مصعب بن عبد الرحمن(٢)، وكان مصعب، والمسور بن مخرمة(٣)، وجبير بن شيبة(٤)، وعبد الله بن صفوان بن أمية(٥) رجال شورى عبد الله بن الزبير. وفي المدينة ثار الناس على والي يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وطردوه، وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل(٦)، وحاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، ثم طردوهم من

---

(١) **الحارث بن خالد بن هشام بن المغيرة**: أسلم خالد بن هشام يوم الفتح، وولي أمر مكة، وكذا كان ابنه الحارث الذي كان شاعراً.

(٢) **مصعب بن عبد الرحمن بن عوف**: أبو زرارة، تولّى قضاء المدينة والشرطة لمروان بن الحكم عندما كان والياً على المدينة للمرة الثانية. لحق بابن الزبير بمكة. وتوجه على رأس قوة ضد عمرو بن الزبير عندما أرسله بنو أمية من المدينة ضد أخيه عبد الله، وأسَره، وكان من مستشاري ابن الزبير، وتوفي أثناء حصار مكة من قبل الحصين بن نمير عام ٦٤هـ.

(٣) **المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري**: أبو عبد الرحمن: صحابي، ولد في السنة الثانية للهجرة، خاله عبد الرحمن بن عوف، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو الذي حرّض سيدنا عثمان بن عفان أمير المؤمنين على غزوها كان مع ابن الزبير، أصابه حجر أثناء حصار الحصين بن نمير فمات يومذاك سنة ٦٤هـ.

(٤) **جبير بن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة**، أسلم أبوه شيبة يوم هوازن.

(٥) **عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف**: ولد في حياة رسول الله ﷺ، وكان من أنصار ابن الزبير، قتل معه أثناء حصار الحجاج عام ٧٣هـ، وحمل رأسه مع رأس عبد الله بن الزبير إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان.

(٦) **عبد الله بن حنظلة الغسيل بن أبي عامر الراهب**: ولد في السنة الرابعة للهجرة، حملت=

المدينة، ولما وصل الخبر إلى يزيد أرسل إليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري[1] فالتقى مع بني أمية بوادي القرى، ووصل الجيش إلى المدينة وحدثت وقعة الحرة ـ كما ذكرنا ـ وبعد إخضاع المدينة سار الجيش إلى مكة، وتوفي قائده مسلم بن عقبة المري في الطريق فتولى أمره بناءً على أوامر يزيد الحصين بن نمير السكوني الكندي[2]، وأثناء حصار مكة توفي يزيد، فلما علم الحصين بن نمير بالخبر، دعا ابن الزبير والتقى معه بالأبطح، ودعا الحصين ابن الزبير إلى أن يبايعه، وقال له: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة[3]. إلا أن ابن الزبير رفض ذلك لأنه لم يكن ليركن إلى الحصين أو إلى أهل الشام، ولم يكن يرغب في مغادرة مكة المكرمة. وسار الحصين بن نمير مع جيشه نحو الشام، وأجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز عليهم، فكان جند الحصين لا يسيرون إلا مجتمعين، ثم ساروا وقد أخذوا معهم بني أمية.

ويبدو أن ابن الزبير ندم على ما كان منه مع الحصين فأرسل إليه: أما

= به أمه جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد، وقد خرج حنظلة للجهاد جنباً فاستشهد فغسلته الملائكة فيقال له الغسيل وقد رأى عبد الله بن حنظلة رسول الله وأبا بكر وعمر، وروى عن عمر، وكان عابداً صادقاً، قاد الناس يوم الحرة واستشهد يومذاك عام ٦٤هـ.

(١) **مسلم بن عقبة المري**، أبو عقبة: قائد من الدهاة القساة في العهد الأموي، أدرك رسول الله ﷺ، وشهد صفين مع معاوية وكان فيها على الرجالة، وقلعت بها عينه، أسرف في القتل لأخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة. مات في طريق إلى مكة يوم ٦٣هـ بمكان يسمى «المشلل». ثم نبش قبره، وصلب في مكان دفنه.

(٢) **الحصين بن نمير بن نائل**، أبو عبد الرحمن: أقام بحمص، وحاصر مكة أيام ابن الزبير، وضربها بالمنجنيق، كان في آخر أمره على ميمنة عبيد الله بن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر، وقتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل.

(٣) تاريخ الطبري.

أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً، وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هنالك فإني مؤمنكم وعادل فيكم فقال له الحصين: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هنالك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس، فما أنا صانع[1].

دعا ابن الزبير بعد موت يزيد لنفسه فبايعه أهل الحجاز، فأرسل إلى المدينة أخاه عبيدة والياً عليها من قبله، وطلب منه إجلاء بني أمية، فأجلاهم فرحلوا إلى الشام، ومنهم مروان بن الحكم، وابنه عبد الملك.

وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه، واستناب عليها عبد الرحمن بن جحدر.

وأطاعت له الجزيرة.

وأما أهل البصرة فقد بايعوا عبيد الله بن زياد، على أن يقوم لهم بأمرهم حتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه لأنفسهم، ثم أرسل عبيد الله رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة، فأبوا عليه، وحصبوا الوالي الذي كان عليهم، وهو عمرو بن حريث[2] وولوا عليهم عامر بن مسعود بن خلف، فمكث ثلاثة أشهر، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الخطمي من قبل ابن الزبير، وكان على الحرب والثغر الأنصاري، وكان إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج، ثم خالف أهل البصرة عبيد الله أيضاً، فهاجت بالبصرة فتنة، فرّ إثرها عبيد الله بن زياد إلى الشام. واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً منهم يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهراً، ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل فصلى بهم

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) **عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان** بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أبو سعيد: ولد عام الهجرة النبوية أو قبلها بعام، نزل الكوفة، وابتنى بها داراً قرب المسجد، وهي كبيرة مشهورة، وكان زياد بن أبيه إذا انتقل إلى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن حريث، توفي عمرو عام ٨٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان.

شهرين، ثم قدم عليهم عمرو بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير، فمكث شهراً، ثم أرسل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة. وهكذا اجتمع أهل البصرة وأهل الكوفة على ابن الزبير.

وأرسل إلى أهل اليمن فبايعوه.

وبعث إلى خراسان فأعلنوا بيعته.

وأما الشام فقد بايعه فيها الضحاك بن قيس الفهري(١)، وهو على دمشق، والنعمان بن بشير(٢) وهو على حمص، وزفر بن عبد الله الكلابي(٣) وهو على قنسرين(٤)، ودخل ناتل بن قيس(٥) فلسطين، وأخرج منها عاملها روح بن زنباع الجذامي(٦). ولم يبق من الشام إلا بعض جهات الأردن

---

(١) **الضحاك بن قيس بن خالد الفهري**: قبض رسول الله ﷺ ولم يبلغ الضحاك بن قيس الحلم، ويقال أنه أدرك النبي ﷺ، وسمع منه، بايع ابن الزبير، والتقى مع مروان بن الحكم بمرج راهط، وقتل يومذاك عام ٦٤هـ.

(٢) **النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة** الخزرجي، أبو عبد الله: أمير، خطيب، شاعر، صحابي، من الأنصار، روى ١٢٤ حديثاً. ذهب بقميص عثمان إلى الشام فنزل هناك، وشهد صفين مع معاوية، ولي القضاء بدمشق عام ٥٣هـ، وتولى أمر اليمن لمعاوية، ثم الكوفة تسعة أشهر، ثم حمص واستمر فيها حتى مات يزيد بن معاوية فبايع ابن الزبير فتمرد أهل حمص عليه فخرج هارباً فاتبعه خالد بن خليّ الكلاعي فقتله عام ٦٤هـ. وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة.

(٣) **زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ الكلابي**، أبو الهذيل: أمير، من التابعين من أهل الجزيرة، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميراً، وشهد مرج راهط مع الضحاك، فلما قتل الضحاك هرب إلى قرقيسا عند مصب نهر الخابور على الفرات، وبقي متحصناً فيها حتى مات عام ٧٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان..

(٤) **قنسرين**: حاضرة جنوب حلب كانت مركزاً للجند.

(٥) **ناتل بن قيس الجذامي**: والٍ، شجاع من التابعين، كان سيد جذام بالشام. شهد صفين مع معاوية. بعد موت يزيد بن معاوية دعا لابن الزبير، وطرد روح بن زنباع والي يزيد السابق، فأمّره ابن الزبير على فلسطين، وبقي فيها حتى خلافة عبد الملك فبعث إليه عمرو بن سعيد فقتله.

(٦) **روح بن زنباع الجذامي**، أبو زرعة: سيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها، تولى شرطة عبد الملك، وكان له فقه.

وبعض رجالات الشام الذين تجمعوا في دمشق منهم الحصين بن نمير، وعبيد الله بن زياد، وبعض بني أمية ورجال من اليمن وخاصة بنو كلب أرحام يزيد بن معاوية وأخوال أولاده. كما أتاه وجوه الخوارج مثل: نافع بن الأزرق[1] وعبد الله بن أباض[2]. وهكذا انعقدت البيعة لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، ببيعة أكثر الأمصار له، وأهل الحل والعقد فيها، والصحابة، وأبنائهم، وكبار التابعين، وهذا الإجماع يجعل معاوية الثاني، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان في مدته الأولى خارجين على الإمام، وليسوا بخلفاء.

---

(١) **نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي** البكري الوائلي، الحروري، أبو راشد: رأس الأزارقة، وإليه نسبتهم، كان أمير قومه وفقيههم. من أهل البصرة، صحب في أول أمره عبد الله بن عباس، ثار مع أصحابه مع أمير المؤمنين عثمان، ثم والى أمير المؤمنين علي، وخرجوا عليه بعد التحكيم. واشتد عليهم الأمويون، وقتلوا منهم كثيراً، توجهوا إلى ابن الزبير عندما ثار على الأمويين، ثم اختلفوا معه على عثمان فتركوه واتجهوا إلى البصرة، وقاتلهم المهلب، وقد تخلفَ عبد الله بن أباض عنهم، وقتل نافع قرب الأهواز عام ٦٥هـ.

(٢) **عبد الله بن أباض المري التميمي**: رأس الأباضية وإليه نسبتهم، وتوفي سنة ٨٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان.

الولايات

كانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، مدة عدم استقرار وحركات مستمرة، وإن كانت تختلف كل ولاية عن الأخرى، فأوضاع الحجاز كانت مستقرة لابن الزبير، على حين كانت الشام منطقة ساخنة حتى ثبت الأمر فيها لبني أمية، أما العراق فقد تعاقب عليها الولاة المتباينة اتجاهاتهم، وكانت مصر وإفريقية مع ابن الزبير ثم انتقل فيها الأمر للأمويين بهدوء، وبقيت الحالة فيها هادئة وكذا خراسان واليمن.

١ ـ **الشام**: لما مات يزيداً أوصى من بعده لابنه معاوية الثاني، ولكنه لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى مات، وكان بعد ولايته بمدة قد أمر فنودي بالشام الصلاة جامعة! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني نظرت في أمركم فضعفت فيه، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب، رحمة الله عليه، حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر، فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيّب حتى مات، ولم يتجاوز العشرين سنة، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً، وكان في مدة ولايته مريضاً، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس، ويسدّ الأمور. ودفن معاوية بن يزيد بمقابر باب الصغير بدمشق، وكان رحمه الله أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه دقيقه، حسن الجسم، ويكنى أبا ليلى، وأمه أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة.

عندما عاد الحصين بن نمير من الحجاز أخذ معه بنو أمية، وقد

أدركوا وفاة معاوية الثاني، واختلف الناس من بعده، فالضحاك بن قيس أمير دمشق، وزفر بن الحارث أمير قنسرين، والنعمان بن بشير أمير حمص، وناتل بن قيس أمير فلسطين يريدون عبد الله بن الزبير، أما أمير الأردن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي فكان يريد خالد بن يزيد بن معاوية حيث كان أبوه يزيد بن أخت حسان وهي ميسون، ولم يكن هذا رأي بني أمية جميعهم حيث فكر مروان بن الحكم بعدما رأى من بيعة ابن الزبير أن يسير إليه ويبايع ما بايع عليه الناس، إلا أن عبيد الله بن زياد كان قد وصل من العراق، ويخشى على نفسه إن آل الأمر إلى غير بني أمية بسبب ما فعله في كربلاء من قتل للحسين، وكان الحصين بن نمير أيضاً يخشى على نفسه لما فعل في حصار مكة من ضرب الكعبة بالمنجنيق، وما اقترفت يداه في معركة الحرة لذا كان يرى أن يبايع أحد بني أمية.

وبينما كان مروان يفكر في البيعة لابن الزبير التقى بعبيد الله بن زياد فقال له: «استحييت لك ما تريد، أنت كبير قريش وسيدها وتصنع ما تصنعه، فدبّ الأمل في نفس مروان وأجاب: ما فات شيء. وكفل عبيد الله خديعة الضحاك في دمشق فنزل عنده، على حين كان بنو أمية ينزلون تدمر، وأبدى عبيد الله مناصحة الضحاك، وزيّن له أن يدعو لنفسه، ثم أشار إليه أن يترك دمشق وينزل في أطرافها ففعل، فخلت دمشق من راعيها والواقع أن الناس في دمشق قد اختلفوا فالقيسية مع الضحاك تدعو لابن الزبير، واليمانية تدعو لبني أمية، ووقعت فتنة في المسجد كادت أن تستفحل لولا أن الضحاك تدارك الأمر، ورأى أن يدرس الموضوع، واتفق مع بني أمية على أن يلتقوا بالجابية مع حسان بن مالك بن بحدل الكلبي. وسار بنو أمية نحو الجابية، وسار الضحاك مع قومه فجاءه ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي فقال له: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك. وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نسر وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها، فمال الضحاك بمن معه من

الناس فعطفهم، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط[1]. وكتب الضحاك إلى أنصاره على المناطق يستمدهم فأمده النعمان بن بشرحبيل بن ذي الكلاع، وسار زفر بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل فلسطين، فاجتمع الجند بمرج راهط إلى جانب الضحاك.

واجتمع بنو أمية بالجابية من أرض حوران ولا تزال أطلالاً بالقرب من بلدة نوى. وكانت أهواؤهم مختلفة فحسان بن مالك بن بحدل الكلبي يريد خالد بن يزيد، وكذا مالك بن هبيرة السكوني، أما الحصين بن نمير السكوني فكان يرى أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم وقال لهم: لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي، ثم اتفقت كلمة بني أمية ومن والاهم من بني كلب، وجذام، واليمانية عامة على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم، ثم تكون من بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص. وبويع مروان، وسار بالناس من الجابية إلى مرج راهط، وعمرو بن سعيد بن العاص على ميمنته، وعبيد الله بن زياد على ميسرته ومعه السكاسك، وغسان، والسكون، وأهل الأردن.

أما دمشق فقد سار فيها يزيد بن أبي النمس الغساني الذي لم يشهد الجابية فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك منها وبايع لمروان بن الحكم، وغلب على بيت المال وأمد مروان بالرجال والأموال والسلاح.

والتحم الفريقان، واستمرت المعركة عشرين يوماً، وانتصر مروان، وقُتل الضحاك بن قيس، وعاد أهل حمص ففر النعمان بن بشير منها، فلاحقوه وقتلوه، وسار زفر بن الحارث الكلابي إلى قرقيسيا فتحصن بها وثابت إليه القيسية، وفر ناتل بن قيس ولحق بابن الزبير وهكذا أضحى مروان بن الحكم سيد بلاد الشام وذلك في مطلع عام ٦٥هـ.

وبعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ليفتح بلاد الشام فأرسل له

---

(١) مرج راهط: شمال شرقي دمشق بعشرة كيلومترات بين السفوح الجبلية الجنوبية وبلدتي حرستا ودوما.

مروان جيشاً بإمرة عمرو بن سعيد فالتقيا بفلسطين فهرب مصعب وثبت حكم مروان في الشام.

وجهز مروان جيشين أحدهما بإمرة عبيد الله بن زياد ليأخذ العراق من نواب ابن الزبير، والآخر بإمرة حبيش بن دلجة العتيبي، ووجه جيشاً إلى الجزيرة الفراتية بإمرة ابنه محمد ولم تمض مدة حتى توفي مروان بن الحكم، ولم تطل مدة حكمه للشام سوى تسعة أشهر إذ توفي في الثالث من شهر رمضان عام ٦٥هـ، وقد أوصى بالحكم من بعده لولديه عبد الملك، ثم عبد العزيز، وضرب بمقررات مؤتمر الجابية عرض الحائط.

وكان الحكم أبو مروان من أعداء الإسلام، أسلم يوم الفتح، وانتقل إلى المدينة فأرسله رسول الله ﷺ إلى الطائف.

ومروان من كبار التابعين إن لم نقل أنه صحابي، إذ ولد في حياة النبي ﷺ وكان عمره ثمان سنوات عندما قبض رسول الله ﷺ. وقد روى البخاري عنه في صحيحه، وعن المسور بن محزمة عن جماعة من الصحابة حديث صلح الحديبية. وروى هو عن عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وروى عنه ابنه عبد الملك، وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلي بن الحسين زين العابدين ومجاهد وغيرهم. وكان كاتب عثمان، ودافع عنه يوم الدار دفاعاً كبيراً، وشهد الجمل مع عائشة، رضي الله عنها، وكان على الميسرة. ثم بايع علياً، وتقرب منه معاوية حين آل الأمر له فولاه المدينة عدة مرات، حتى حدث ما حدث، وكان له من الأولاد عبد الملك، ومعاوية، وأمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية وقد تزوج معاوية بن مروان رملة بنت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعبد العزيز وأمه كلبية، وهي: ليلى بنت زبّان، وبشر وأمه كلابية، وهي قطّية بنت بشر بن عامر ملاعب الأسنة، ومحمد، وأمه أم ولد، وعبد الله، وعبيد الله، وأمهما أم ولد، وعثمان، وأيوب، وداود وأمهم أم أبان بنت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وعمر، وأمه بنت عمر بن أبي سلمة.

وبعد وفاة مروان جددت البيعة لابنه عبد الملك في الشام ومصر. وسار بالناس يتابع ما سار عليه أبوه في الحكم، ويحاول أن يوطد له الملك في الأمصار جميعها.

وفي مطلع عام ٦٩هـ ركب عبد الملك في جيش، وقصد قرقيسيا ليقاتل زفر بن الحارث الكلابي الذي كان سيد قيس، والذي تحصّن في قرقيسيا منذ فرّ من معركة مرج راهط، والذي أعان سليمان بن صرد زعيم التوابين حين قاتلهم جيش مروان بعين وردة، وكان ينوي أن يتابع سيره إلى مصعب بن الزبير بعد فراغه من زفر، ولكن لم يكد يغادر دمشق - وقد أناب عليها عبد الرحمن بن أم الحكم - إلا ووثب عليها عمرو بن سعيد وتحصن فيها فرجع عبد الملك إليها وحاصرها، وجرى قتال بين الطرفين مدة ستة عشر يوماً، ثم اتفقا على أن يكون عمرو بن سعيد ولي عهد عبد الملك، وأن يكون لكل واحد منهما من العمال بقدر ما للآخر إلا أن عبد الملك بعد ذلك دعا عمرو بن سعيد إليه وقتله غيلة.

وفي عام ٧٠هـ شعر الروم بضعف المسلمين نتيجة الخلاف الذي وقع بين ابن الزبير وبني مروان فصالحهم عبد الملك على أن يدفع لهم كل جمعة ألف دينار خوفاً منهم على الشام.

وصفا الجو لعبد الملك بالشام تماماً بعد الانتهاء من عمرو بن سعيد، وكان قبل ذلك كل عام يريد أن يخرج إلى العراق، ويريد مصعب أن يخرج إلى الشام، ويحول الشتاء بين لقاء الطرفين حتى كان عام ٧١هـ فخرج عبد الملك إلى مصعب، وكان على ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، ولا شك فإن خروج الخليفة يعطي للجيش شجاعة وحماسةً، ويضعف معنويات العدو. والتقى الطرفان بمسكن فراسل عبد الملك أمراء مصعب، ومنّاهم بالولايات، ووعدهم بالأعطيات، وقد جاء مما جاء من كتبه إلى إبراهيم بن الأشتر وفيه تمنية بولاية العراق، فجاء ابن الأشتر بالكتاب إلى مصعب وقال له: أيها الأمير! أنه لم يبق أحد من

أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم (ويعني بكلامه أنه ما دام قد جاء كتاب من عبد الملك إلى ابن الأشتر، فلا يمكن إلا أن يكون قد جاء الجميع ولكن لم يطلعوك على ذلك وهذا دليل عدم طاعتهم لك والأولى قتلهم وإلاّ خذلوك أثناء المعركة). فأجاب مصعب إني لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم (أي اقتنع بكلام إبراهيم بن الأشتر)، فقال ابن الأشتر: فابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه، فإن كانت لك النصرة ضربت أعناقهم، وإن كانت عليك خرجوا بعد ذلك، فقال له مصعب: يا أبا النعمان، إني لفي شغل عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف بن قيس - أن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

وتقدم ابن الأشتر وكان على المقدمة فأزال مقدمة عبد الملك عن مواضعها فأنجدت ميمنة عبد الملك المقدمة فقتل ابن الأشتر، وتخاذل قادة مصعب، وصعب الموقف، وأعطى عبد الملك الأمان لمصعب فرفضه وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً ونادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له مصعب: قد أمنك عمك فامض إليه، قال: لا يتحدث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني فاركب خيل السبق فالحق بعمك فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول ها هنا، فقال له: والله إني لا أخبر عنك أحداً أبداً، ولا أخبر نساء قريش مصرعك، ولا أقتل إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة، فقال: والله لا تتحدث قريش بأني فررت من القتال.

وتقدم عيسى بن مصعب فقاتل حتى قتل بين يدي أبيه، وأُثخن مصعب بالجراح، وهو يكر على الجموع حتى قتل، ومال الناس إلى عبد الملك، وقُدّم له رأس مصعب. وكان لمصعب سبعة أولاد وابنتان، ومن زوجاته سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة التي أمها أم كلثوم بنت أبي بكر.

ونزل عبد الملك النخيلة فبايعه أهل العراق.

وهكذا توسع ملك عبد الملك فشمل مصر والشام والعراق، ولم يبق مع ابن الزبير سوى الحجاز.

ولما انتهى أمر العراق وأراد عبد الملك الرجوع إلى الشام ندب الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة فلم يجبه أحد إلى ذلك، فقام الحجاج بن يوسف الثقفي وقال: أنا له يا أمير المؤمنين، فابعث بي إليه فإني قاتله، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام. وكتب معه أماناً لأهل مكة إن هم أطاعوه فخرج في جمادى الأولى من عام ٧٢هـ، ولم يعرض إلى المدينة بل سار حتى نزل بالطائف، وصار يرسل السرايا إلى عرفة، ويلتقي الفرسان بعضهم مع بعض فيحدث قتال ثم يعود كل طرفٍ إلى مكانه. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم ليحاصر ابن الزبير فإن جنده قد قلّ، وخذله الناس، كما سأله المدد، فأرسل إليه مدداً بإمرة طارق بن عمرو المكي وهو مولى عثمان بن عفان وأذن له. وجاء موسم الحج فحج بالناس ولم يتمكن من الطواف، كما لم يتمكن ابن الزبير من الحج لأنه محصور، وبقي محصوراً من غرة ذي الحجة عام ٧٢هـ حتى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ حيث قتل، رضي الله عنه، فكان حصاره ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، وقد ضربت مكة بالمنجنيق، ومنعت عنها المواد الغذائية والمياه. وكان ابن الزبير، رضي الله عنه، يشد على أهل الشام فيخرجهم من أي باب دخلوا منه؛ إلا أن الناس قد خذلوه وصاروا يخرجون إلى أهل الشام ومنهم حمزة وخبيب ولدا ابن الزبير، حتى شكا ذلك لأمه فقال لها: خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق معي إلا اليسير من جندي والناس يعطونني ما أردت من الدنيا ما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكّن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم

خلودك في الدنيا،؟ القتل أحسن، فدنا فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عز وجل، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم به مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي أخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل أو بعد. فقالت: لا أدعه أبداً لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها ـ وكانت قد أضرت في آخر عمرها ـ فوجدته لابساً درعاً من حديد فقالت: يا بني ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة!! فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به، فقالت: لا يا بني ولكن انزعه فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد وهي تقول: شمر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ وترجّيه القدوم عليهما إذا هو قتل شهيداً، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها، رضي الله عنهما، وعن أبيه وأبيها.

وهكذا غدت الأمصار الإسلامية كلها في قبضة عبد الملك بن

مروان، وبايعته جميعها فأصبح بعدئذٍ الخليفة الشرعي وكان قبلها خارجاً على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما.

٢ ـ مصر: أرسل عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدر والياً على مصر من قبله، فاستولى عليها، واعتزل الوالي السابق سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي، ولكن لم يلبث أن سار مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد إلى مصر فخرج إليهما والي ابن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن جحدر فشاغله مروان، وخلص عمرو بن سعيد بقسم من الجيش من وراء عبد الرحمن إلى مصر.

أقام مروان شهراً بمصر، ثم أبقى ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأبقى معه أخاه بشر بن مروان، وموسى بن نصير وزيراً له، ورجع هو إلى الشام.

وقد سار عبد العزيز سيرة حسنة، فبنى مقياس النيل، وأقام قنطرة على خليج أمير المؤمنين (الترعة التي تصل بين خليج السويس والنيل شمال الفسطاط)، وعني بمدينة حلوان، وحاول أن ينقل مركزه إليها، وكان كريماً.

٣ ـ إفريقية: عندما سار عقبة بن نافع نحو المغرب خلف على القيروان زهير بن قيس البلوي فلما استشهد عقبة أضحى زهير أمير إفريقية، وقد تابع الجهاد حتى استشهد عام ٦٩هـ، وتبلبل وضع إفريقية حتى أرسل إليها عبد العزيز بن مروان والي مصر آنذاك حسان بن النعمان الغساني فعاد الفتح، واستطاع فتح مدينة قرطاجنة (مكان مدينة تونس اليوم).

٤ ـ العراق: اجتمع جماعة من الشيعة بالكوفة على سليمان بن صرد، وتواعدوا بالنخيلة ليأخذوا بثأر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وكان رؤوس القائمين في ذلك خمسة هم: سليمان بن صرد الصحابي[1]،

---

(١) سليمان بن صرد الخزرجي: صحابي جليل، عابد زاهد. روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، وشهد صفين مع علي، وكانت داره مقر اجتماع للذين دعوا الحسين بن=

والمسيب بن نجيبة الفزاري[١]، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي[٢]، وعبد الله بن وال التيمي[٣]، ورفاعة بن شداد البجلي[٤]، واتفقوا على تأمير سليمان بن صرد، وتواعدوا النخيلة[٥]، وقد خطب فيهم المسيب بن نجية فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فقد ابتلينا بطول العمر، وكثرة الفتن، وقد ابتلانا الله فوجدنا كاذبين في نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ، بعد أن كتبنا إليه وراسلناه، فأتانا طمعاً في نصرتنا إياه، فخذلناه وأخلفناه، وأتينا به إلى من قتله، وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار، فما نصرناهم بأيدينا، ولا خذلنا عنهم بألسنتنا، ولا قوّيناهم بأموالنا، فالويل لنا جميعاً ويلاً متصلاً أبداً لا يفتر ولا يبيد دون أن نقتل قاتله والممالئين عليه أو نقتل دون ذلك وتذهب أموالنا وتخرب ديارنا، أيها الناس قوموا في ذلك قومة رجل واحد، وتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان وهو أمير على المدائن يدعوه إلى ذلك، فاستجاب له، ودعا إليه سعد من أطاعه من أهل المدائن.

= علي للقدوم إلى الكوفة، وكان بين الداعين له، ثم خذلوه، ثم ندموا على ما فعلوا، واجتمعوا بجيش أطلقوا على أنفسهم اسم التوابين، وقتل عام ٦٥هـ وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة، وحمل رأسه إلى مروان بن الحكم بالشام مع رأس المسيب بن نجية.

(١) **المسيب بن نجية بن ربيعة** بن رباح الفزاري: تابعي، كان رأس قومه، شهد القادسية وفتوح العراق. ثم شهد مع علي أمير المؤمنين، رضي الله عنه، مشاهده كلها، أقام بالكوفة وقتل في عين وردة عام ٦٥هـ، كان متعبداً ناسكاً.

(٢) **عبد الله بن سعيد بن نفيل الأزدي**، من أزدشنوءة: أحد رؤساء الكوفة وشجعانها، حضر مع سيدنا علي مشاهده كلها، وقتل في عين وردة عام ٦٥هـ.

(٣) **عبد الله بن وال التميمي**: أحد رؤوس التوابين، ، قتل في عين وردة عام ٦٥هـ.

(٤) **رفاعة بن شداد البجلي**: قارئ من الشجعان المقدمين، من أهل الكوفة، كان من أنصار، ومن رؤوس التوابين، آلت إليه قيادتهم، بعد مقتل أربعة قواد قبله، ثم انحاز بالتوابين، وعاد إلى الكوفة، وسار مع المختار، ثم عمل ضده، ثم عاد إليه وقاتل معه حتى قتل عام ٦٦هـ.

(٥) النخيلة: موقع على مقربة من الكوفة على طريق الشام.

وبعد موت يزيد بن معاوية ظن هؤلاء أن أمر بني أمية قد ضعف فأرادوا السرعة في السير إلى الشام لقتل قتلة الحسين حيث كان هناك عبيد الله بن زياد إلا أن سليمان بن صرد قد منعهم في الإسراع قبل الموعد المحدد الذي ضرب لبقية من وافقهم، ولكنهم زادوا في الإعداد لذلك الموعد وأخرجوا نائب عبيد الله بن زياد وهو عمرو بن حريث من القصر، وقدموا عامر بن مسعود الذي بايع ابن الزبير، وفي ٢٢ رمضان عام ٦٤هـ جاء عبد الله بن يزيد الخطمي من قبل ابن الزبير وهو على الحرب والثغر، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج.

وكان قد وصل إلى الكوفة في منتصف شهر رمضان المختار بن أبي عبيد الثقفي[١]، فلما وجد أمر الكوفة على ما هو عليه أخذ يدعو إلى إمامة المهدي محمد بن علي بن أبي طالب وهو محمد بن الحنفية فسارت وراءه جماعة من أتباع سليمان بن صرد، وفارقت سليمان هذا، ولم يكن ابن الحنفية ليرضى عن هذا الأمر ولا يعلم به أصلاً.

وسار سليمان بن صرد بجماعته نحو الجزيرة، وقد تجمع إليه نحو سبعة عشر ألفاً، ولكن عند المسير لم يبق منهم سوى أربعة آلاف، وكانوا

---

(١) **المختار بن أبي عبيد**: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، انتقل مع أبيه أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى المدينة، استشهد أبوه يوم الجسر. وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، ثم كان مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالعراق، وسكن البصرة بعد علي، وسجنه عبيد الله بن زياد أيام مشكلة مسلم بن عقيل، وضربه على عينه، ثم أخرج من السجن بعد أن طلب عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، من يزيد ذلك، وكانت أخت المختار صفية تحت عبد الله بن عمر، فذهب المختار إلى الحجاز وأقام بالطائف فكان يقول: والله لأقطعن أنامل عبيد الله، فلما قوي أمر عبد الله بن الزبير بايعه المختار وكان من قادته، ودافع عنه يوم حصار الحصين بن نمير، فلما مات يزيد بن معاوية واضطرب أمر العراق استأذن ابن الزبير بالذهاب إلى العراق للدعوة له فانتقل إلى الكوفة. وبدأ يدعو بإمامة المهدي فسجن تاركاً الدعوة لابن الزبير، ولما قوي أمره خرج فأخذ الكوفة من عبد الله بن مطيع والي عبد الله بن الزبير، واستولى على الموصل، وتتبع قتلة الحسين، وقتل أمير جيش عبد الملك بن مروان وهو عبيد الله بن زياد، ثم قتله مصعب بن الزبير عام ٦٧هـ.

كلما ساروا مرحلة تخلف عنهم عدد، ووصلوا إلى قرقيسيا فتحصّن منهم زفر بن الحارث، ثم اتفقوا ونصحهم، فانطلقوا إلى عين وردة[1]، وسار جيش مروان إليهم، والتقى الطرفان في الثاني والعشرين من جمادى الأولى عام ٦٥هـ، وكان على الجيش المرواني عبيد الله بن زياد، ومعه الحصين بن نمير، فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً ثبت فيه التوابون جماعة سليمان بن صرد ثباتاً قوياً، حسبما أطلقوا على أنفسهم، وانتصروا في بداية الأمر على جيش الحصين بن نمير، ثم جاء مدد للمروانيين بإمرة شرحبيل بن ذي الكلاع فدارت الدائرة على التوابين، وقتل قائدهم الأول سليمان بن صرد، ثم المسيب بن نجية، ثم عبد الله بن سعد بن نفيل، ثم عبد الله بن وال، ولما أخذ الراية رفاعة بن شداد انتظر حتى جاء الظلام فانشمر راجعاً إلى بلاده فلما وصلوا إلى (هيت) إذ بسعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن قاصدين نصرتهم فلما أخبروه الخبر عاد كل إلى بلده فلما وصل أهل الكوفة إلى بلدهم كان المختار بن أبي عبيد الثقفي في السجن، فتدخل ختنه عبد الله بن عمر ثانية لدى أمير الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة فأخرجاه بعد أخذ العهود عليه إلا أن جماعته قد اجتمعت حوله ومن عاد من التوابين وبايعوه سراً، ولما قوي أمرهم وتمكنوا من اجتذاب إبراهيم بن الأشتر النخعي إليهم خرجوا على الوالي عبد الله بن مطيع فجهز لهم جيشاً بإمرة شبث بن ربعي فانتصر جماعة المختار الذين اتخذو من المناداة بثارات الحسين شعاراً لهم حتى التف حولهم الكثير من أهل الكوفة وخرج ابن مطيع من الكوفة إلى البصرة، وتمكن المختار من المصر، وجعل يتتبع قتلة الحسين.

وأرسل المختار جيشاً لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد الذي بلغهم أنه سار إلى الجزيرة بعد الانتهاء من جيش التوابين فاتجه جيش المختار نحو

---

(١) عين وردة: موقع بين الرقة وقرقيسيا في الجزيرة الفراتية على الطريق الواصل بين الشام والعراق ومن المعروف أن هذا الطريق كان عن طريق وادي الفرات، ولعلها رأس العين الآن عند منابع نهر الخابور.

الموصل لقتال قيس عيلان أنصار ابن الزبير والذين قاتلوا في معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فانتصر جيش المختار ورجع إلى الكوفة عندما بلغهم أن عبيد الله بن زياد قد جاء بجيش من الشام قوامه ثمانون ألفاً. وجهز المختار جيشاً بإمرة إبراهيم بن الأشتر، ولكن لم يلبث أن سار حتى خرج أهل الكوفة على المختار، وعلموا أنه كذاب فأرسل في طلب ابن الأشتر فعاد فاقتتل الناس وانتصرت جماعة المختار، وفرّ وجهاء الكوفة إلى البصرة حيث كان فيها مصعب بن الزبير. وقتل المختار شمر ذي الجوشن الذي شارك في قتل الحسين، رضي الله عنه، وعمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الذي قتل الحسين. وأرسل رسلاً تدعو له في البصرة، ولكنهم منعوا وغُلب على أمرهم.

عاد المختار يصانع ابن الزبير ليتقي جيش الشام قبلاً. وأرسل كتاباً إلى ابن الزبير يعلن فيه الطاعة فأرسل ابن الزبير والياً على الكوفة من قبله ليرى صدق المختار من كذبه، وكان الوالي عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فلقيه على الطريق زائدة بن قدامة من جهة المختار فاعترض سبيله فسار عمر بن عبد الرحمن إلى البصرة واجتمع مع عبد الله بن مطيع.

أرسل عبد الملك بن مروان جيشاً إلى المدينة ليأخذها من ابن الزبير بإمرة ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم. وقد وصل إلى وادي القرى فكتب المختار لابن الزبير إن كنت تريد مدداً، أنجدتك فأجابه إن كنت على طاعتنا فلا بأس من إرسال المدد. فأرسل المختار مدداً قوامه ثلاثة آلاف بإمرة شرحبيل بن ورس الهمداني وقال له: ادخل المدينة فإذا دخلتها فاكتب إليّ حتى يأتيك أمري. وكان يريد أخذ المدينة من ابن الزبير، ثم يركب هو إلى مكة بعد ذلك. إلا أن ابن الزبير كان يعرف خديعة المختار فأرسل لذلك قوة بإمرة العباس بن سهل بن سعد الساعدي فالتقى بقائد المختار فعرف منه مهمته فقضى على أكثر جنده في ليل.

ثم أرسل المختار إبراهيم بن الأشتر في جيش لملاقاة عبيد الله بن

زياد فالتقى به قريباً من الموصل فجرت معركة عظيمة بين الطرفين في مطلع عام ٦٧هـ، قتل فيها من جند الشام عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وامتلك ابن الأشتر المنطقة فولى الولاة على نصيبين والموصل، ودارا (دير الزور)، وسنجار. وأرسل إلى المختار رأس ابن زياد.

أرسل ابن الزبير أخاه مصعباً والياً على البصرة ليكون كفئاً للمختار، وكان ابن الأشتر قد استولى على أكثر الجزيرة بعد أن قتل ابن زياد، واستهان بالمختار فطمع مصعب بن الزبير بابن الأشتر وأرسل مصعب بمحمد بن الأشعث بن قيس إلى خراسان واستقدم نائبه هناك المهلب بن أبي صفرة.

سار مصعب بن الزبير من البصرة نحو الكوفة ومعه الأحنف بن قيس، والمهلب بن أبي صفرة، وخرج المختار والتقى الطرفان، وهزم جيش المختار، وتراجع إلى الكوفة وقتل فيها سنة ٦٧هـ في ١٤ رمضان. فكان المختار كذاباً يظهر أنه يعمل لآل البيت ويدعو لمحمد بن الحنفية ويبطن الدعوة لنفسه، ويدعو لابن الزبير أحياناً على رؤوس الأشهاد ويظهر الكهانة في الباطن فكان كذاباً وكانت تحته أم ثابت بنت سمرة بن جندب، وعمرة بنت النعمان بن بشير.

ودعا مصعب إبراهيم بن الأشتر فجاءه وأكرمه، وأرسل المهلب بن أبي صفرة إلى الجزيرة. وكان قد ولي على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر، واستقر هو بالكوفة، ثم إن عبد الله بن الزبير ولى على البصرة ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير مدة، ثم أعادها مع الكوفة إلى أخيه مصعب.

وخرج مصعب لملاقاة عبد الملك القادم من الشام فهزم أمامه، وقُتل مصعب، ودخل عبد الملك العراق، وبايعه أهلها عندما نزل بالنخيلة قرب الكوفة. وولى على الكوفة قطن بن عبد الله الحري مدة أربعين يوماً، ثم عزله وولى على العراق أخاه بشر بن مروان.

وتولى أمر البصرة أبان بن عثمان بن عفان ثم أرسل عبد الملك والياً عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فأناب عليها عبيد الله بن أبي بكرة.

٥ ـ الحجاز:

أ ـ المدينة: أرسل مروان بن الحكم سنة ٦٥ جيشاً بإمرة حبيش بن دلجة العتيبي إلى المدينة المنورة لينتزعها من ابن الزبير فلما وصل إليها هرب منها واليها جابر بن الأسود بن عوف. فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة جيشاً من البصرة إلى ابن دلجة بالمدينة، فلما سمع بهم حبيش سار إليهم، وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائباً إلى المدينة، وأمره أن يسير في طلب حبيش، فسار في طلبهم حتى لحقهم بالربذة، فقتل حبيش بسهم، وهزم بقية الجيش، وتحصّن خمسمائة منهم في المدينة ثم نزلوا على حكم عباس فقتلهم صبراً.

وأعطى ابن الزبير أخاه عبيدة إمرة المدينة، ثم عزله، وولى مكانه أخاه مصعباً، ثم نقل إلى البصرة، وتولى أمر المدينة عبد الرحمن بن الأشعث سنة ٦٦هـ، جاء جابر بن الأسود بن عوف وبقي فيها من سنة ٦٧هـ حتى عام ٧١هـ حيث تولى له أمرها طلحة بن عبد الله بن عوف، ثم إن المدينة خضعت لحكم عبد الملك فولى عليها طارق بن عمرو الذي أرسله مدداً للحجاج.

ب ـ مكة المكرمة: أكمل عبد الله بن الزبير بناء الكعبة، وكان قد مال جدارها بسبب رمي المنجنيق فهدم الجدار حتى وصل إلى أساس سيدنا إبراهيم وأدخل فيها الحجر (حجر إسماعيل)، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر. وأعاد بناءها على ما كان رسول الله ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل، وذلك كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن عن طريق عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «لولا

حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ فجزاه الله خيراً.

واستمر أمر مكة بيد عبد الله بن الزبير حتى وصل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الطائف في أواخر عام ٧٢هـ ثم نزل إلى الحرم وحاصر ابن الزبير مع مطلع هلال ذي الحجة، واستمر الحصار حتى ١٧ جمادى الأولى حيث قتل ابن الزبير، رضي الله عنه، وتولى الحجاج أمر مكة وخطب الناس فقال: أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهى عنها أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله، [وقيل أنه قال: يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير] ثم ضمت له المدينة وعزل عنها طارق بن عمرو الذي تولي أمرها بعد أن جاء مدداً من قبل عبد الملك إلى الحجاج.

٦ ـ **خراسان**: بايع أهل خراسان بعد موت يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه حتى يبايع المسلمون لهم خليفة، ثم اختلفوا فتركهم، وأبقى عليهم المهلب بن أبي صفرة.

جربت حروب بين عبد الله بن خازم وبين الخرشي بن هلال القزيعي وطالت حروب ابن خازم حتى تم له أمر خراسان، واستمر فيها حتى قتل

سنة ٧٢هـ. وكانت طاعته لابن الزبير. وكان عبد الملك قد كتب له بطاعته على أن تكون له خراسان مدة عشر سنوات فأبى، فراسل عبد الملك نائب ابن خازم على مرو وهو بكير بن وشاح ومناه بولاية خراسان فوافق، وثار على ابن خازم وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها ابن خازم. فأعطى عبد الملك ولاية خراسان لبكير بن وشاح.

الخوارج

اشتد أمر الخوارج في البصرة إلا أن نافع بن الأزرق قد قتل في معركة مع أهل البصرة، . فولى الخوارج عليهم عبيد الله بن ماجور، فسار بهم إلى المدائن فقتلوا من أهلها كثيراً، ثم غلبوا على الأهواز، وجبوا الأموال، وأتتهم الأمداد من اليمامة والبحرين، ثم ساروا إلى أصفهان وعليها عتّاب بن ورقاء الرياحي فهزمهم، وقتل أميرهم عبيد الله بن ماجور، فتولى أمر الخوارج قطري بن الفجاءة الشاعر المشهور.

وجرت معركة بين أهل البصرة والخوارج انتصر فيها الخوارج فخافهم أهل البصرة فعزل ابن الزبير عامله على البصرة عبد الملك بن الحارث، وولى مكانه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وأرسل المهلب بن أبي صفرة الأزدي على عمل خراسان، فلما وصل إلى البصرة طلب أهل البصرة منه قتال الخوارج فقال: إن أمير المؤمنين قد بعثني إلى خراسان، فكتبوا له كتاباً على لسان ابن الزبير للقيام بهذه المهمة فوافق، وأخبر ابن الزبير بذلك، فأمضى لهم ذلك. واشترط المهلب على أهل البصرة أن يكون له ما غلب عليه من أموال الخوارج، وأن يمدوا جيشه من بيت مالهم فوافقوا، فتولى المهلب قتال الخوارج، فانتصروا عليه ثم ثبت لهم، بعد أن جمع إليه المنهزمون وخطب فيهم فقال: أما بعد أيها الناس، فإن الله تعالى ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فينهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، وأنتم فرسان الصبر وأهل النصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزموا معكم الآن (ولو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً) ثم قال: عزمت على كل رجل منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه، ثم أمشوا بنا إلى عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيولهم في طلب

إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع خيولهم إلا وقد استبحتم عسكرهم، وقتلتم أميرهم، ففعل الناس ذلك، فزحف بهم المهلب بن أبي صفرة على معسكر الخوارج فقتل منهم خلقاً كثيراً[1]، وهرب الخوارج إلى كرمان وأرض أصبهان، وأقام المهلب بالأهواز.

ولما نقل مصعب المهلب بن أبي صفرة من خراسان إلى الجزيرة قوي أمر الخوارج، وقاموا بحركات في فارس في نواحي اصطخر وأصبهان والأهواز وكان واليها عمر بن عبيد الله بن معمر، فحاربهم مصعب، وابن معمر، وكانوا كلما هزموا في ناحية انتقلوا إلى أخرى، وقتلوا ما شاء لهم هواهم، فكتب مصعب إلى المهلب وهو على الموصل أن يسير لقتال الخوارج فسار إلى الأهواز وقاتلهم مدة، وكان أبصر الناس بقتالهم. وأرسل مكان المهلب على الموصل إبراهيم بن الأشتر.

وعندما آل أمر العراق إلى عبد الملك أمّر المهلب بن أبي صفرة على الأهواز فقتل منهم مقتلة عظيمة وطاردهم في كل مكان، وكان بشر بن مروان يمده بالجند والأموال حسب أوامر عبد الملك.

وخرج أبو فديك الحارثي[2] بالبحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي[3] الذي كان قد ثار باليمامة واستولى عليها منذ مقتل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، عام ٦١هـ. وبعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد والي البصرة من قبل عبد الملك إليه أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف، فهزمه أبو فديك. ثم وجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال أبي فديك، وسار معه من الكوفة عشرة آلاف ومن البصرة مثلها واستطاعوا قتل أبي فديك. وهكذا ضعف أمر الخوارج في اليمامة والبحرين. وبقيت للأزارقة قوة في الأهواز.

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير.

(٢) أبو فديك: عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب، كان من أتباع نافع بن الأزرق ثم فارقه، قتل نجدة بن عامر الحنفي، وسيطر على البحرين واستقل بها حتى قتل عام ٧٣هـ.

(٣) **نجدة بن عامر الحروري الحنفي**: من بني حنيفة، من بكر بن وائل، وكان رأس الفرقة (النجدات)، انفرد عن سائر الخوارج بآراء ففارق نافع بن الأزرق، استقل باليمامة، وأتى البحرين واستقر بها، وانتصر عدة مرات على الجيوش التي كان يبعثها إليه مصعب بن الزبير، وسيطر على اليمامة والبحرين وعمان.

نظـرة عـامّة

وعلى الرغم من هذه الخلافات الكبيرة التي حدثت بين آل الزبير وبني أمية إلا أنها كانت خلافات في الاجتهاد والرأي فكل طرف يشعر أن خدمة المسلمين إنما تكون على الطريقة التي يراها والخط الذي ينهجه، ويعيب على الآخر سلوكه، فابن مروان يرى في بخل ابن الزبير ما ينفر، وابن الزبير يرى في تمسك بني أمية بالسلطة وحبهم للحكم والإرث في ذلك ما يخالف الشرع، وتعصّب كل لرأيه حتى أدى الأمر إلى القتال وسفك الدماء، ولكن لم يطعن أحدهما بدين الآخر، ولم ينكر كل منهما فضل الثاني، ولننظر إلى مروان بن الحكم كيف بكى بعد معركة مرج راهط التي انتصر جيشه فيها، وجي له برأس خصمه الضحاك بن قيس الفهري، وقال: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك؟ وقول روح بن زنباع الجذامي في خطبته أثناء العمل على مبايعة مروان بن الحكم إذ قال: (... وأما ابن الزبير فإنه ابن حواري رسول الله ﷺ، ولا ينكر أحد فضله ولكنه خلع بيعة خليفتين...) وحتى الحجاج بن يوسف الثقفي قد خطب أهل مكة بعد قتل ابن الزبير فقال: أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع أهلها....».

وكان عبد الملك يحب مصعب بن الزبير حباً شديداً، وكان خليلاً له قبل الخلافة ولما قُدّم إليه رأس مصعب بكى وقال: (والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم. ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بدفنه ومواراته هو وابنه، وإبراهيم بن الأشتر في قبور بمسكن قرب الكوفة.

ولم تكن جماعة تطعن في دين الأخرى أو تتهمها، ، وإنما كان الناس يقاتلون مع أمرائهم. ومن غلب على مصر أصبح عليه أميراً وأطاعه أهله. وعلى كل كانت فتنة أضعفت شأن المسلمين فقتلت الأعداد منهم. وأطمعت فيهم أعداءهم وخاصة الروم حتى صالحهم عبد الملك ودفع لهم أتاوة، وتوقفت الفتوحات أو بالأحرى توقف انتشار الإسلام، ولم يتوسع إلا على رقعة صغيرة في إفريقية، إذ ولّى عبد العزيز بن مروان وهو والي مصر على إفريقية حسان بن النعمان ففتح قرطاجنة (موقع مدينة تونس اليوم).

والمجتمع متماسك رغم تباين الآراء وملتزم بحدود الشرع، لا يبيح أحد حرمة أحد، ولا يقاتل إلا بأمر أو حين يرى معصية، اللهم إلا الخوارج الذين كانوا يستبيحون قتال المسلمين، فيمعنون في القتل، ويعتدون على الآمنين، وقد يصل تعديهم إلى قتل النساء، وذلك لأنهم يرون الناس قسمين مسلم أو كافر، فالمسلم من يرى رأيهم، وما عدا ذلك فهم على غير الجادة.

جدول الولايات
في عهد ابن الزبير

السنة	المدينة	الكوفة	البصرة	مصر
٦٤	عبيدة بن الزبير	عامر بن مسعود	عبد الملك بن عبد الله بن عامر عبد الله بن الحارث	عبد الرحمن ابن جحدر
	جابر بن أسود ابن عوف	عبد الله بن يزيد الخطمي	عمرو بن عبيد الله	
٦٥	مصعب بن الزبير	عبد الله بن مطيع	الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة	عبد العزيز ابن مروان
٦٦	عبد الرحمن بن الأشعث	المختار الثقفي	معصب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٦٧	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان.
٦٨	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	حمزة بن عبد الله ابن الزبير مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٦٩	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٧٠	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٧١	طلحة بن عبد الله ابن عوف	قطن بن عبد الله الحري	أبان بن عثمان ابن عفان	عبد العزيز ابن مروان

السنة	المدينة	الكوفة	البصرة	مصر
٧٢	طارق بن عمرو	بشر بن مروان	خالد بن عبد الله	عبد العزيز ابن مروان
٧٣	الحجاج	بشر بن مروان	بشر بن مروان	عبد العزيز ابن مروان

الأُسرَة المَروَانِيَّة

عبدالملك بن مروان

٧٣ - ٨٦ هـ.

حياته

ولد سنة ٢٦ للهجرة في المدينة، وأبوه مروان بن الحكم، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، فهو أموي من جهة الأب والأم. سمع من سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وشهد يوم الدار (حصار عثمان) مع أبيه وعمره عشر سنوات، وكان قبل أن يلي الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، وقال الأعمش عن أبي الزناد كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذويب، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة.

وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حُديج السكوني سنة إحدى وأربعين، وسار مع المجاهدين مرة أخرى تحت لواء ابن حديج سنة خمس وأربعين، وقد سار على رأس ألف رجل إلى (جلولاء)[١] ففتحها بعد حصار، كما سار على بعث أهل المدينة مع معاوية بن حديج وذلك سنة خمسين للهجرة، وعاد بعدئذ إلى المدينة فأقام بها.

وبقي مروان في المدينة حتى وقعة الحرة حيث أخرج أهل المدينة بني أمية فسار إلى الشام، وملك أبوه الشام، ثم حاز على مصر، ولم يلبث أن توفي، فآل ملك مصر والشام إليه، وكانت بقية الأمصار لأمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، ثم انتزع العراق، وظفر بالحجاز بعد مقتل ابن الزبير، فبايعته بعد ذلك اليمن وخراسان وغدا خليفة للمسلمين منذ عام ٧٣هـ.

(١) جلولاء: مدينة كانت عامرة على مقربة من القيروان تبعد عنها ٤٠ كيلومتراً، وهي الآن أطلال يعرف مكانها عين جلولاء.

وكان أخوه عبد العزيز والياً على مصر منذ دخلها مع أبيه مروان سنة ٦٤هـ، وكان ولي عهده فكتب إليه عبد الملك يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد أو يكون ولي العهد من بعده، فإنه أعز الخلق عليه، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد. فكتب إليه عبد الملك يأمره بحمل خراج مصر، وكان من قبل لا يحمل إليه شيئاً من ذلك، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سناً لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً فإن رأيت ألا تعتب عليّ بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وكتب إليه: لا أعتب عليك بقية عمرك. ومات عبد العزيز قبل عبد الملك سنة ٨٥هـ، ومات عبد الملك بعده بعام.

ووصى بالخلافة من بعده لابنه الوليد، وبه كان يكنى، ثم لابنه الآخر سليمان بعد أخيه الوليد.

كان عبد الملك رحمه الله ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، مفتوح الفم (أفوه)، أبيض، ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف.

تزوج عبد الملك ولاّدة بنت العباس بن جَزء بن الحارث فولدت له:

١ ـ الوليد: الذي تولى الخلافة بعد أبيه.

٢ ـ سليمان: الذي تولى الخلافة بعد أخيه.

٣ ـ مروان الأكبر: مات صغيراً.

٤ ـ عائشة:

وتزوج عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فأنجبت:

٥ ـ يزيد: الذي تولى الخلافة بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ مروان.

٧ ـ معاوية: مات صغيراً.

٨ ـ أم كلثوم.

وتزوج عائشة أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي فولدت له:

٩ ـ هشام: الذي تولى الخلافة بعد أخيه يزيد.

وتزوج عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله فولدت له:

١٠ ـ أبا بكر، واسمه بكار.

وتزوج أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له:

١١ ـ الحكم: مات صغيراً.

وتزوج أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة فأنجبت له:

١٢ ـ فاطمة التي تزوجها عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي. وله من أمهات الأولاد:

١٣ ـ عبد الله.

١٤ ـ مسلمة: القائد الذي حاصر القسطنطينية.

١٥ ـ المنذر.

١٦ ـ عنبسة.

١٧ ـ محمد.

١٨ ـ سعيد الخير.

١٩ ـ الحجاج.

وهكذا كان لعبد الملك من الأولاد ستة عشر، ومن البنات ثلاث.

بويع عبد الملك بعد وفاة أبيه في مصر والشام، وبويع بالعراق بعد

مقتل مصعب بن الزبير، وبالحجاز واليمن وخراسان بعد مقتل عبد الله بن الزبير وغدا أميراً للمؤمنين منذ ذلك الوقت عام ٧٣هـ وقد استقر له الوضع تماماً، الأمر الذي جعله يمكن من أن يعود لمنازلة الروم الذين طمعوا في ضعف المسلمين نتيجة اختلافاتهم، فأعاد فتح المغرب، وردّ الروم في الأناضول وأرمينيا واستعاد بعض الأجزاء، أما الترك في الشرق وبلاد ما وراء النهر فقد حاربهم وانتصر عليهم، إلا أنه لم تحدث فتوحات واسعة هناك بسبب أن المشرق كانت فيه بعض القلاقل إذ عاث الخوارج من الأزارقة في الأهواز وبلاد فارس كثيراً من الفساد، وكذلك الصفرية منهم في الجزيرة وبلاد العراق وأنفق الخليفة عبد الملك وواليه الحجاج على المشرق كثيراً من الوقت لمحاربة هؤلاء الخارجين على الحكم، وكذلك شغلت حركة عبد الرحمن بن الأشعث الدولة وقتاً من الزمن كل هذا جعل بلاد المشرق تبقى على وضعها من حيث التوسع وإن جرى فيها قتال، وكثيراً ما كان لمصلحة المسلمين، وقد برز اسم الملك رتيبل بين أعداء المسلمين من الترك آنذاك.

وبهذا الاستقرار الذي امتاز به عهد عبد الملك عدّ مقدمةً للفتوحات الكبرى التي حدثت في عهد ابنه الوليد من بعده، ومقدمة لأعمال كبيرة حدثت في عهده هو بالذات والعهد الذي تلاه، ولعل منها النقش على الدراهم والدنانير عام ٧٦هـ، وتعريب الدواوين إذ بقي أهم هذه الدواوين وهو ديوان الخراج يستعمل اللغات الأجنبية، هي ذلك الوقت كما كانت حالها فيها قبل الإسلام، فكان يكتب في الشام باليونانية، وفي العراق بالفارسية، وفي مصر بالقبطية واليونانية ويشرف هذا الديوان على الشؤون المالية للدولة، وكان موجوداً في عواصم الأقاليم وله فروع في عدد من المدن. وكان معنى استعمال اللغة الأجنبية لغة لهذا الديوان المحافظة على موظفيه من الأجانب أو من أهل الكتاب الذميين، كما أن لذلك معنى آخر، وهو استمرار وجود هذه اللغات ضمن أقاليم الدولة الإسلامية الأمر الذي يجعل بعض الناس يفكرون في تعلم هذه اللغات، وهذا يتناقض مع

شخصية الدولة الإسلامية المتميزة، هذا إضافة إلى الجانب السياسي إذ أن هؤلاء الغرباء يعرفون أهم شؤون الدولة، ويتعرفون على شيء من أسرارها. وهذا لا يصح أبداً إذ من المحتمل أن تنقل هذه الأسرار إلى الأعداء ما داموا يلتقون مع هؤلاء الغرباء في عقيدة واحدة، لذا أصدر عبد الملك أوامره بتعريب هذه الدواوين. وكان ذلك عام ٨١هـ في الشام، و ٨٢ في العراق، و٨٦هـ في مصر.

وتوفي عبد الملك عام ٨٦هـ بعد أن بايع لولديه من بعده الوليد ثم سليمان.

الولايَـات

كانت أكثر الولايات هادئة باستثناء العراق التي شغلت بأمر الخوارج، وابن الأشعث.

١ ـ **الشام**: استقر الوضع لبني أمية فيها تماماً.

٢ ـ **الحجاز**: تولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر الحجاز بعد القضاء، على ابن الزبير، كما أضيفت له اليمامة واليمن، ثم نقل الحجاج إلى العراق، وأعطيت المدينة ليحيى بن أبي العاص عام ٧٥هـ ثم عزل عنها، وتولى أمرها أبان بن عثمان بن عفان مدة سبع سنوات، ثم خلفه عليها هشام بن إسماعيل المخزومي بقية أيام عبد الملك.

٣ ـ **العراق**: ولي أمر البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد عام ٧٤هـ، وبعدها نقل الحجاج إليها، وأضيفت له الكوفة أيضاً، وبقية المشرق، فكان هو الذي يرسل النواب عنه إلى خراسان وسجستان أو بأمر من الخليفة، واستمر هذا الوضع مدة أيام عبد الملك وإلى ما بعد ذلك. وقد بنى الحجاج مدينة واسط عام ٨٤هـ، فأضحت قاعدة العراق.

وكان على خراسان بكير بن وشاح، ثم أرسل إليها أمية بن عبد الله، ولكنه قتل عام ٧٦هـ، إذ ثار عليه بكير بن وشاح وقتله، ولكن عبد الملك بن أمية تولى أمر خراسان مكان أبيه. ثم تولى عبد الله بن أبي بكرة أمر خراسان عام ٧٨هـ، وفي هذا العام أضحت سجستان إمارة خاصة أعطيت للمهلب بن أبي صفرة، ولكن لم يلبث الحجاج أن نقل المهلب إلى خراسان وعبد الله بن أبي بكرة إلى سجستان.

وتوفي المهلب بن أبي صفرة عام ٨٢ هـ فتولى ابنه يزيد أمر خراسان

حتى عام ٨٥هـ حيث استبدله الحجاج بأخيه الفضل بن المهلب، وبعد عام تولى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان، وتوفي عبد الملك وهو عليها وال.

أما سجستان فقد استشهد أميرها عبد الله بن أبي بكرة عام ٧٩هـ أثناء قتاله الترك، فجهز الحجاج جيشاً، وأعطى إمرته لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وولاه سجستان، ثم لم يلبث أن قام بحركته عام ٨١هـ، وقد دامت عامين.

وكانت حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ذات جذور نفسية وشخصية واجتماعية. إذ كان عبد الرحمن ذا همةٍ عالية ويتطلع إلى أعلى، ويرغب في السيطرة وكان بينه وبين الحجاج كراهية حتى نظر كل منهما إلى الغدر بالآخر، وقد وجد الحجاج أن من باب السياسة والمصلحة والتمكين لنفسه والتخلص منه إبعاده عن العراق والبيئة التي يعيش فيها، وبقي ينتظر الفرصة المناسبة ليقوم بهذا الأمر، فلما استشهد عبيد الله بن أبي بكرة والي سجستان أثناء قتاله للترك عام ٧٩هـ وجد الحجاج الفرصة مناسبة فاستغلها بأن أرسله عام ٨٠هـ على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً من أهل البصرة والكوفة لقتال ملك الترك (رتبيل). وقد وجد ابن الأشعث في هذا ما كان يحلم به، إلا أن عمه إسماعيل بن الأشعث قد نصح الحجاج وقال له: إني أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراة، فقال: ليس هو هنالك، هو لي حبيب، ومتى أرهب أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي. وكان الحجاج يعرف ذلك، وهذا مجال للتنكيل به. هذا إلى جانب أن عبد الرحمن بن الأشعث كان يعرف نقمة الناس وأهل العلم خاصة على الحجاج لقسوته وشدته فيظن أنه إن قام بحركة تبعه الناس عامة وأيده العلماء.

سار عبد الرحمن بن الأشعث بالجيش إلى بلاد الترك، ولما علم رتيبل بسيره حاول أن يعتذر عما وقع منه في العام المنصرم بالنسبة إلى المسلمين وأنهم هم الذين أجبروه على قتالهم، وأنه مستعد لدفع الخراج للمسلمين إلا أن ابن الأشعث لم يأبه بهذا الكلام، ودخل بلاد الترك غازياً،

وتوغل فيها مسافة كبيرة، واقترب الشتاء، ورأى ابن الأشعث أن يتوقف ليصلح المسلمون ما استولوا عليه، فينظمونه ويتمكنون فيه، ويكون الشتاء ببرده القارس في تلك المناطق الجبلية قد انتهى فيعاود الغزو وفي هذا حكمة وسياسة، وأخبر بذلك الحجاج، إلا أن الحجاج لم يوافقه، بل طلب منه التوغل، وألحّ عليه في ذلك، واتهمه بالجبن، وقسا عليه بالكلام، فتضايق ابن الأشعث، وأخبر بذلك جنده، وأعلمهم أنه مصرّ على رأيه وهم الذين يقاسون المشقة في تلك الأصقاع، وأنبأهم بكلام الحجاج الذي فيه غلظة، وأعلمهم أنه قد خلع الحجاج فوافقوه، واتجه نحو الحجاج، وأخبر الحجاج عبد الملك فأمده بالجند، وتقدم نحو ابن الأشعث حتى نزل (تستر) في الأهواز، فهزمت مقدمة الحجاج، وفرّ الحجاج إلى البصرة وتبعهم ابن الأشعث وتمكن من دخول البصرة وخطب الناس فبايعوه على خلع الحجاج وابن مروان، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من فقهاء وقرّاء وشيوخ وشباب لما يقاسون. والتقى الطرفان في معركة الزاوية عام ٨٢هـ فانتصر ابن الأشعث في اليوم الأول ولكنه هزم في اليوم التالي، وانحاز إلى الكوفة فدخلها، وبايعه أهلها على خلع الحجاج وابن مروان.

استشار عبد الملك رجاله بالأمر فأشاروا عليه بخلع الحجاج عن العراق ليرضي أهله فوافق على ذلك وأرسل ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان ومعهما جنود كثيرة، وقال لهما: اذهبا إلى أهل العراق وقولا لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عزلته عنكم، وبعثت لكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان، وقال لهما: فإن لم يجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج هو ما عليه، وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتبه عبد الملك لأهل العراق شق عليه ذلك، وكتب إلى عبد الملك يقول: يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق

نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي علي ابن عفان؟ فلما سألهم ما تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، وإن الحديد بالحديد يفلح، كان الله لك فيما أرتأيت والسلام عليك. ولكن عبد الملك أبى إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق.

وعندما عرض محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك هذه الأمور على أهل العراق ردّوا بأن ننظر في أمرنا غداً، ونرد عليكم الخبر عشية، واجتمع الأمراء مع ابن الأشعث فندبهم بالموافقة حتى أمن عزل خصمه الحجاج، والإمرة لنفسه وهذا ما يعمل له، إلا إن الناس قد نفروا من كل جانب، وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عدداً وعُدداً، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيبهم إلى ذلك أبداً، ثم جددوا خلع عبد الملك والحجاج واتفقوا على ذلك، فلما وصل الخبر إلى محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قالا للحجاج شأنك بهم إذن فنحن على طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين.

وبرز كل من الفريقين للقتال في موقع قرب الكوفة يقال له دير الجماجم، وكانت الحرب يومياً، فأهل العراق يأتيهم الطعام والعلف من الأقاليم، وأهل الشام في ضيق، واستمر ذلك حتى انتهى عام ٨٢هـ وكانت الدائرة في معظم الأيام تدور على أهل الشام.

وفي نهاية القتال انتصر الحجاج بعد صبر مرير، وهرب ابن الأشعث، ودخل بلاد الترك فأكرمه (رتبيل)، وتبع ابن الأشعث جيش من أنصاره فأخذوا إقليم سجستان وطلبوا منه العودة إليهم والسير بهم إلى خراسان، فأتاهم وبعد أن قطعوا شوطاً اختلف معهم فعاد إلى (رتبيل)، وسار بقية الجيش بإمرة عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة إلى خراسان وعليها يزيد ابن المهلب فأراد إبعادهم دون قتال فأبوا فقاتلهم، وقتل منهم كثيراً، وأسر كثيراً، وأرسلهم إلى الحجاج فقتل منهم عدداً كبيراً وعفا عن بعض.

أما ابن الأشعث فقد استقر عند رتبيل ثم إن الحجاج قد أرسل تهديداً لملك الترك بإرسال ابن الأشعث إليه فوافق فقتله، وأرسل إليه رأسه مقابل تخفيف ما عليه من الخراج وذلك عام ٨٥هـ.

وقتل الحجاج من العلماء الكثير ومنهم سعيد بن جبير، رحمه الله، وعفا عن الشعبي إذ كان قد سار إلى مسلم بن قتيبة وكان الحجاج يوم ظهر قد نادى في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بمسلم بن قتيبة فهو آمن، فلحق بمسلم عدد كبير ممن كان مع ابن الأشعث.

٤ ـ **الجزيرة**: وقد ولي أمر الجزيرة وأرمينية محمد بن مروان أخو عبد الملك، فكان جهاده هناك.

٥ ـ **مصر**: كان والي مصر عبد العزيز بن مروان واستمر عليها حتى توفي عام ٨٥هـ، فأعقبه عبد الله بن عبد الملك، وكانت إفريقية في بادئ الأمر تتبع مصر، ويسير إليها الأمير من قبل الوالي في مصر وكان في القيروان زهير بن قيس البلوي[١] يوم استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار سنة ٦٣ فعهد إليه أمرها. ثم أضحت ولاية خاصة منذ عام ٧٤هـ، وتولى أمرها حسان بن النعمان الغساني[٢]، ثم

(١) زهير بن قيس البلوي، أبو شداد: شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، وعمره آنذاك عشرون سنة، ثم أصبح في جيش عقبة بن نافع واستخلفه على مغداش قرب سرت في ليبيا قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط سنة ٤٦هـ ثم استخلفه عقبة بن نافع على القيروان حين سار إلى المغرب سنة ٦٢هـ، وبعد استشهاد عقبة انتقل زهير إلى برقة تحت ضغط أعدائه من الروم والبربر، ورجع إلى مصر، وكان ممن بايع ابن الزبير، وسار لرد مروان بن الحكم عن مصر، ولكنه هزم، وعفا عنه عبد العزيز بن مروان وأرسله إلى برقة وفي عام ٦٩هـ كلف بغزو إفريقية واستشهد عام ٧١هـ.

(٢) حسان بن النعمان الغساني: أهله من الغساسنة الذين كانوا ملوك الشام، وقد أسلم عدد منهم بعد الفتح، وبقي آخرون على ديانتهم النصرانية، اختير والياً على إفريقية عام ٧٤هـ فجاهد، واستقر له أمر إفريقية، وبنى تونس، ثم عزل عام ٨٥هـ بعد أن ولى على المغرب من قبله رجلاً من جنده يسمى أبو صالح، ورفض بعدها تولي منصب لبني أمية. وخرج غازياً إلى أرض الروم تحت لواء مسلمة بن عبد الملك فمات هناك سنة ٨٧هـ.

عزل، وتولى أمرها موسى بن نصير[1] عام ٧٨هـ.

---

(١) موسى بن نصير، أبو عبد الرحمن: من لخم، ولد سنة ١٩هـ، وكان أبوه من سبايا عين التمر الذين سباهم خالد بن الوليد سنة ١٢هـ، وأعتق بنو أمية نصيراً، فأقام بالشام، وأصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان، ثم عليهم، ثم على جيوشه وكان ابنه موسى من بعده، ، إذ تولى البحر، وغزا قبرص وكان نائب معاوية عليها. وفي عام ٦٤هـ كان موسى مع الضحاك بن قيس في مرج راهط فلما هزم الضحاك لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وسار معه إلى مصر.
وفي عام ٧٢هـ كان موسى وزير بشر بن مروان في العراق، وبعد وفاة بشر بن مروان خشي الحجاج فانتقل إلى عبد العزيز بن مروان في مصر الذي عزل حسان بن النعمان الغساني عن إفريقية عام ٨٥هـ، وولى موسى بن نصير مكانه، فأخضع المغرب، وتقدم في الأندلس ففتحها، ثم سار إلى الشام وولى مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، في أثناء عودته وأبقى ابنه عبد الله على القيروان، ووصل إلى دمشق وذهب للحج مع الخليفة سليمان بن عبد الملك فمات بالمدينة سنة ٩٧هـ.

الفتوحات

استغل الأعداء حروب المسلمين فيما بينهم فقاموا بحركات على كل جبهات القتال، وهدد الروم بلاد الشام، واضطر عبد الملك إلى أن يدفع لهم أتاوة سنوية ريثما ينتهي من تدبير أمره، ووصلوا في عام ٧٩هـ إلى أنطاكية، وتمكنوا في إفريقية من قتل عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار عام ٦٣هـ، ثم قتل زهير بن قيس البلوي عام ٧١هـ، وحتى تراجع المسلمون إلى برقة، وتركوا القيروان قاعدتهم الأولى وراءهم.

ونقض أهل أرمينيا العهد، وكذا الترك على الجبهة الشرقية، وهاجموا المسلمين عدة مرات، فلما اجتمع أمر المسلمين على خليفة واحد، وتوحد أمرهم قاموا برد الضربة، وعاد للجهاد أثره وحدثت فتوحات على الجبهات الإسلامية كلها.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ بلاد الروم: لم يحدث تغيير يذكر على هذه الجبهة، وكانت الثغور تُحصّن باستمرار، وتتوالى عليها الصوائف والشواتي، والغزو لا ينقطع أبداً، وكان محمد بن مروان أمير الجزيرة هو الذي يتولى أمر الغزو في أغلب الأحيان فقد غزا الروم عام ٧٣هـ. وهزمهم في العام نفسه عثمان بن الوليد في جهات أرمينيا، وكان في أربعة آلاف مقاتل والروم في ستين ألفاً. وخرج الروم من جهات مرعش متجهين نحو بلاد الشام عام ٧٥هـ فوقف في وجههم محمد بن مروان وردهم على أعقابهم مدحورين. وتوقف غزو أهل الشام عام ٧٩هـ بسبب مرض الطاعون الذي انتشر بينهم في ذلك العام إلا أن الروم قد وصلوا إلى جهات إنطاكية وظنوا أن هناك

مانعاً سياسياً خطيراً حال دون غزو المسلمين فتقدموا نحوهم يريدون استغلال الفرصة. ودخل عبد الملك بن مروان بنفسه المصيصة عام ٨٤هـ على رأس صائفة قادها بنفسه. ثم غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم عام ٨٦هـ.

ب ـ **في البحر**: غزا عطاء بن رافع جزيرة صقلية عام ٨٤هـ.

ـ حـ ـ **في إفريقية**: بعد أن وصل عقبة بن نافع[1] إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقام بفتوحاته هناك عاد إلى قاعدته القيروان، وفي طريق عودته فاجأه الروم وهو في عدد من جنده لا يزيد على ثلاثمائة فارس، وكلموا كسيلة الذي كان في عسكر عقبة فأظهر غدره وجمع أقرباءه وهاجموا عقبة فاستشهد ومعه أبو المهاجر دينار وذلك عام ٦٣هـ. وكان نائبه على القيروان زهير بن قيس البلوي فقصده كسيلة، واضطر زهير إلى العودة إلى برقة، وانتزع كسيلة القيروان من أيدي المسلمين، وقد كثر الروم في إفريقية إذ توقفت هجمات المسلمين عليهم عن طريق بلاد الشام بسبب الأحداث التي وقعت في بلاد المسلمين كما أن البربر قد قويت شوكتهم، وعز أمرهم بمجيء الروم إليهم، وكتب زهير إلى عبد الملك يخبره بذلك فأرسل إليه قوة كبيرة من بلاد الشام سار بهم إلى إفريقية واقترب من القيروان عام ٦٩هـ، ونازل كسيلة في (ممس) إلى الغرب من القيروان فانتصر عليه وقتله، ولاحق المسلمون الروم والبربر حتى المغرب الأقصى، وكانت معركة (ممس) معركة حاسمة ذل بعدها الروم تماماً، وضعفت مقاومة البربر. وجاءت مراكب كثيرة من الروم من القسطنطينية وجزيرة صقلية فأغارت على برقة فسلبت ونهبت كثيراً، وصادف ذلك قدوم زهير فطلب من جنده

---

(١) **عقبة بن نافع الفهري**: ولد قبل الهجرة بسنة، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص الذي وجهه عام ٤٢هـ إلى إفريقية، وفتح كثيراً من المناطق، وبنى القيروان عام ٥٠هـ، عزله مسلمة بن مخلد والي مصر، وأعطى إفريقية لمولاه أبي المهاجر دينار، ثم عاد عقبه والياً عام ٦٢هـ على إفريقية، فوصل إلى المحيط الأطلسي واستشهد في بلاد الزاب عام ٦٣هـ وله ضريح هناك.

الحركة السريعة نحو الساحل لاستنقاذ سبي المسلمين فلما رأوه استغاثوا به وهم يسحبون نحو المراكب فأسرع لنجدتهم وكانت الروم بأعداد كبيرة فجرت معركة استشهد فيها زهير عام ٧١هـ.

وأرسل عبد الملك عام ٧٣هـ حسان بن النعمان الغساني والياً على إفريقية فسار من مصر بأربعين ألفاً، ويقال إنه أول من دخل إفريقية من جند الشام فنزل طرابلس عام ٧٤هـ وسار بعدها إلى القيروان ولم يجد أثناء سيره سوى مقاومة خفيفة ثم سار إلى (قرطاجنة) وأمر بهدمها فهدمت حتى يحرم الروم من الإفادة من مرافئها، ثم أقام إلى الجنوب منها مدينة تونس، ولاحق الروم إلى الساحل فهزمهم في (بنزرت)، و (صطفورة)، ثم عاد إلى القيروان فمكث فيها مدة، ثم انطلق نحو الكاهنة في جبال (أوراس)، وكان البربر يطيعونها، وأمرها عظيم بخشونه الروم، والتقى الطرفان، وهزم المسلمون بعد بلاء عظيم، وأخبر حسان الخليفة عبد الملك بذلك فأمره بالانتظار حتى تصل إليه الأوامر. أما من ناحية الروم فقد سروا بهزيمة المسلمين وحرصوا على استرجاع إفريقية، ووصل أسطولهم عام ٧٨هـ إلى قرطاجنة بإمرة البطريق يوحنا فتمكن من دخولها، وقسا الروم على المسلمين قسوة شديدة تدل على حقدهم ومحاولة الانتقام، وتحصنوا في قرطاجنة والمدن المجاورة لها، وأخبر حسان أمير المؤمنين عبد الملك بما قسا به الروم.

بقي حسان مقيماً في مكان (قصور حسان) بالقرب من سرته مدة خمس سنوات، وهو يستحث عبد الملك لإرسال الجنود إليه إلا أن عبد الملك كان مشغولاً في حوادث المشرق التي شغلته مدة من الزمن وهي حركة الخوارج وحركة ابن الأشعث. وأرسل نجدة إلى حسان عام ٨١هـ وأمره بالسير نحو إفريقية فتحرك حسان نحو الكاهنة، فهزمها وقتلها عام ٨٢هـ، وعمل على الإحسان إلى البربر فحسن إسلامهم، ثم عاد إلى القيروان فاستراح بها مدة ثم اتجه شمالاً نحو قرطاجنة لمنازلة الروم فانتصر عليهم واحتمى البطريق يوحنا بقرطاجنة. وجرت معركة بحرية هزم فيها

الروم، وفتحت قرطاجنة، وانتقل البطريق يوحنا هارباً إلى بيزنطة. وطلب حسان النجدة البحرية من عبد الملك فأرسل له أسطولاً بإمرة عبد الملك بن قطن فاستولى على جزر (كركنة)، ثم أرسل حسان خيلاً إلى المغرب فسيطر على (فاس) وخلصت له المغرب تماماً، وحتى لا يعود الروم إلى قرطاجنة أنشأ حسان مرفأ تونس جنوب قرطاجنة.

قام حسان بتدوين الدواوين وضرب الدنانير والدراهم العربية، ثم عزل عن إفريقية عام ٨٥هـ.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: يعيش على حدود بلاد المسلمين الشرقية قبائل يعود أكثرها إلى أصول تركية، وإن كان يمكن تمييز ثلاث جبهات:

أ ـ **بلاد ما وراء النهر**: وهي التي تقع إلى الشمال الشرقي من بلاد المسلمين، وراء نهر جيحون، وتخضع لإمارات كثيرة، إذ أن أكثر سكانها يعيشون في واحات يديرها أمراء، وتنتقل فيما عداها قبائل رعوية تخضع لأمراء المناطق التي تعيش في جوارها. وقد كان المسلمون يغزون تلك الجهات ثم يعودون إلى خلف النهر. وغزا أمية بن عبد الله، ولكنه حوصر هو وجنوده، وأصابهم الجهد، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك، ثم عادوا إلى مرو وذلك عام ٧٧هـ، وقطع المهلب نهر (بلخ)، ونزل مدينة (كِش)، كما غزا حبيب بن المهلب صاحب مدينة بخارى عام ٨٠هـ، وغزا المهلب بلاد ما وراء النهر وفقئت عينه، ودخل يزيد بن المهلب قلعة (نيزك) بباذ غيس عام ٨٤هـ، كما أن أخاه المفضل قد فتح (شومان) و (باذغيس)، ولكن هذه الغزوات لم تكن للفتح والاستقرار وإنما لإضعاف معنويات الخصم ودراسة أرض المعركة للمستقبل.

ب ـ **شرق سجستان**: وتعيش هناك قبائل تركية، وقد اشتهر فيها أيام عبد الملك بن مروان أمر الملك (رتبيل)، وقد غزاه المسلمون كثيراً، وفي عام ٧٩هـ، هاجم بلاد المسلمين حتى قتل أميرهم عبيد الله بن أبي بكرة، وفي العام التالي غزا بلاده عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وتوغل فيها إلا أنه قام بحركة فيما بعد فتوقف القتال بين الطرفين، كما التجأ إليه ابن

الأشعث بعد هزيمته. وكان رتبيل يدفع مبلغاً من المال للمسلمين مقابل عدم تقدمهم في أرضه.

حـ ـ السند: وهي المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من بلاد المسلمين، وتزدهر الحياة الزراعية فيها بسبب وجود نهر السند، كما يكثر السكان بسبب الحياة المستقرة وكثرة المياه وخصوبة التربة، واشتهر من حكام المنطقة (داهر) الذي قاتله المسلمون، وسبق أن أغار المسلمون على تلك الجهات منذ أيام الخلفاء الراشدين، وفي أيام معاوية سار إليها المهلب بن أبي صفرة الأزدي عام ٤٤هـ ونال شيئاً من النجاح، وأرسل عبد الملك سعيد بن أسلم بن زرعة عاملاً له على ثغر السند، ولكنه قتل، والتجأ قاتلاه إلى داهر ملك السند. وأرسل الحجاج والي المشرق مجاعة بن سعر التميمي فغلب على الثغر، وفتح بعض المناطق، ووافاه الأجل قبل مرور عام، وفي هذه الأثناء اختطف القراصنة الهنود بعض النساء المسلمات، فطلب الحجاج من ملك السند داهر تسليم هذه النساء فأجاب: إن يده لا تصل إلى القراصنة فأرسل إليه الحجاج بعض المقاتلين كان على رأسهم عبيد الله بن نبهان فقتل، فأرسل بُديل ولكن الأجل وافاه، ثم أرسل بعدئذ محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيش كبير.

الخـوارج

تولى المهلب بن أبي صفرة الأزدي قتال الخوارج بأمرٍ من عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أمير العراقين فلاحقهم من مكان إلى آخر، وفي عام ٧٦هـ هاجم صالح بن مسرح[١] أمير الصفرية من الخوارج، وشبيب بن يزيد[٢] خيلاً لمحمد بن مروان أمير الجزيرة لأخيه عبد الملك، ونفروا بها، وأقاموا بمنطقة دير الزور فأرسل لهم جنداً يقدر عددهم بألف رجل فقتلهم الخوارج، ولم يكن يزيد عددهم على مائة وعشرة أشخاص وكان لقاؤهم بأرض آمد. فأرسل لهم ثلاثة آلاف مقاتل ففر الخوارج بعد أن فقدوا أكثر من نصفهم في المعركة التي جرت بين الطرفين، واتجهوا نحو الموصل فأرسل لهم الحجاج ثلاثة آلاف مقاتل مع الحارث بن عميرة فجرى قتال بين الجانبين كان نتيجته هزيمة الحارث بن عميرة لكن قتل صالح بن مسرح زعيم الخوارج، وكان جيش الحارث أول جيش يهزمه شبيب الذي بايعه الخوارج بعد مقتل صالح بن مسرح.

أرسل الحجاج جيشاً لقتال شبيب فهُزم، ثم تمكّن هذا الجيش من جمع جموعه، ونال من جماعة شبيب الذي سار نحو المدائن فهرب جندها إلى الكوفة، فأرسل له الحجاج أربعة آلاف مقاتل اتجهوا نحوه إلى المدائن فخرج منها شبيب فساروا في طلبه، فكان يظهر أنه يفرّ منهم ويكرّ على

---

(١) **صالح بن مسرح التميمي** زعيم الصفرية، وأول من خرج فيهم، كان كثير العبادة يقيم في أرض دير الزور، والموصل، والجزيرة، وله أصحاب يقرأ لهم القرآن ويعظهم، فدعاهم إلى الخروج وإنكار الظلم وجهاد المخالفين له فأجابوه، وقتل عام ٧٦هـ.

(٢) **شبيب بن يزيد بن نعيم** بن قيس الشيباني، أبو الضحاك: ولد عام ٢٦هـ وهو أحد أبطال العالم، بايعه الخوارج بالخلافة، أرهب ملك بني أمية، مات غرقاً عام ٧٧هـ.

مقدمتهم فيهزمها، ويحوز على ما في المعسكر وهكذا عدة مرات وليس معه سوى ستين ومائة رجل، والحجاج يرسل لجيشه المدد والسرايا سرية إثر سرية.

أراد شبيب حصار الكوفة فاتجه نحوها فأسرع إليه الجيش كاملاً فهزمه، ووصلت فلوله إلى الكوفة، وهرب الحجاج منها، والتجأ إلى البصرة، وأناب عنه فيها عروة بن المغيرة بن شعبة، فلما اقترب شبيب من الكوفة أخبر عروة الحجاج بذلك فأسرع إليها الحجاج فدخلها عصراً قبل وصول شبيب إليها، إذ جاء وقت الغروب، وفي آخر الليل دخل شبيب الكوفة، ومعه زوجه غزالة[1] فدخلت مسجد الكوفة، وجلست على منبره، وبدأت تذم الحجاج وآل مروان.

جنّد الحجاج ستة آلاف رجل لقتال شبيب الذي خرج من الكوفة، إلى مكان قريب منها يصلح للنزال، وخرج الجند وراءه فكان لا يبالي بهم ثم يكر عليهم ويهزمهم، وقد قتل منهم خلقاً كثيراً، وكان من جملة من قتل زائدة بن قدامة الثقفي[2] ابن عم الحجاج.

وجه الحجاج بعد زائدة بن قدامة لقتال شبيب عبد الرحمن بن الأشعث ولكن لم يتقابلا. ثم أرسل عثمان بن قطن الحارثي فالتقى بشبيب فقتل عثمان على يد أخٍ لشبيب يدعى مصاد، فقتل ستمائة من جماعته، واشتد أمر شبيب حتى خافه عبد الملك والحجاج والأمراء جميعاً، فأرسل

---

(١) **غزالة الحرورية**: ولدت في الموصل، وخرجت مع زوجها على عبد الملك، فكانت من أشهر النساء في الشجاعة والفروسية إذ كانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، وقد خشي الحجاج منها يوم دخلت الكوفة فاختبأ وتحصن، وقال في ذلك عمران بن حطان شاعر الخوارج مخاطباً الحجاج:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

قتلها خالد بن عتاب الرياحي في معركة على أبواب الكوفة قبل غرق زوجها.

(٢) **زائدة بن قدامة بن مسعود الثقفي**: قائد من الشجعان، من أهل الكوفة، ابن عم المختار قتل في لقائه مع الخوارج عام ٧٦هـ بأسفل الفرات.

عبد الملك جيشاً من الشام بإمرة سفيان بن الأبرد الكلبي، وأخرج الحجاج مقاتلة الكوفة، وعددهم أربعون ألفاً بقيادة عتّاب بن ورقاء[1] لملاحقة شبيب بن يزيد وقتاله، وخرج إليهم شبيب بألف رجل فقط فانتصر شبيب على خصومه وقتل عتاب بن ورقاء، وفر الجيش إلى الكوفة عام ٧٧هـ، واتجه شبيب نحو الكوفة إلا أن جند الشام قد وصلوا إلى الكوفة فاستنصر بهم الحجاج، ونقل جند الكوفة الذين فروا في معركتهم مع الخوارج إلى الحيرة.

سار الحجاج بنفسه مع جند الشام لملاحقة شبيب وأصحابه وعددهم ستمائة رجل، والتقى الطرفان، وجرت معركة رهيبة ثبت فيها كلا الجانبين لخصمه، ثم ذهبت فرقة من جند الحجاج واتخذت لها طريقاً إلى خلف جماعة شبيب وداهمته فصمد لها، وقُتل أخوه مصاد، وزوجه غزالة، وكثير من جنده، وانطلق شبيب بمن بقي معه، وعاد نحو الكوفة فخرجت له السرايا الواحدة تلو الأخرى فكان يردها وينتصر عليها، ثم عاد شبيب واتجه نحو الأهواز فكلف الحجاج نائبه على البصرة وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل[2]، ختنه، زوج ابنته فجهز جيشاً قوامه أربعة آلاف انضمت إلى جند الشام والتقوا مع شبيب فهزموه وفر الخوارج من بين أيديهم إلا أنهم اضطروا إلى أن يسيروا نحو جسر هناك على نهر دجيل بالأهواز، وأجبروا على السير عليه، فوقف شبيب مع مائة من رجاله يقاومون جند الحجاج خوفاً من قطع الجسر، وفي الصباح اجتاز شبيب الجسر فكبا به جواده وهو على الجسر فسقط في

---

(١) **عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو**: أبو ورقاء، الرياحي، اليربوعي، التميمي: قائد من الأبطال، ولاه مصعب بن الزبير إمارة أصفهان، وانتدبه لقتال الخارجين عليه في الري، ففتح الري عنوة، ثم أصبح في جيش المهلب بن أبي صفرة، ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب فقتله عامر بن عمير التغلبي من أصحاب شبيب عام ٧٦هـ.

(٢) **الحكم بن أيوب بن الحكم الثقفي**: أمير، ابن عم الحجاج، تولى له أمر البصرة ثم عزله، ثم أعاده، قتله صالح بن عبد الرحمن الكاتب مع جماعة من أهل الحجاج لما اختزنه من أموال وذلك عام ٩٧هـ أيام خلافة سليمان بن عبد الملك.

الماء وغرق لكثرة ما عليه من حديد الدروع، وكان شبيب رجلاً طويلاً جعداً.

كما جرت حروب كثيرة بين جند الحجاج والأزارقة في منطقة الأهواز، وكان أمير جند الحجاج المهلب بن أبي صفرة. فالأزارقة من الخوارج كانوا في الأهواز، والصفرية كانوا في الجزيرة والسواد، والنجدات كانوا في اليمامة والبحرين.

الوَليد بن عَبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ.

حَيَاته

ولد الوليد بن عبد الملك سنة خمسين لهجرة رسول الله ﷺ، وكان طويلاً أسمر، به أثر جدري خفيف، أفطس الأنف، يتبختر في مشيته. نشأ في الترف فكانت لغته ضعيفة.

تزوج ابنة عمه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فولدت له عبد العزيز ومحمداً. وتزوج ساهفريد بنت كسرى فولدت له يزيداً الذي تولى الخلافة. وتزوج امرأة فزارية فولدت له أبا عبيدة. ومن أولاده أيضاً العباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومسرور، ومروان، وصدقة، وعنبسة، وعمر، وروح، وبشر، ويحيى، ومنصور، ومبشر، فكان عدد أولاده الذكور تسعة عشر ولداً.

بويع بالخلافة أيام أبيه. ثم جددت له البيعة بعد عودة الناس من دفن أبيه في منتصف شهر شوال من عام ٨٦هـ، وبعد شهر من توليه الخلافة شرع في بناء جامع دمشق، ولم يزل في عمرانه مدة خلافته وهي عشر سنوات، وقد كان موضع هذا الجامع كنيسة يقال لها: كنيسة يوحنا، فلما فتحت دمشق جعلها المسلمون مناصفة حسب فتح دمشق نصفها بالسيف والآخر سلماً، فأخذوا الجانب الشرقي منها وهو الجانب الذي فتح حرباً من دمشق وجعلوه مسجداً، وبقي الجانب الغربي كنيسة على حالها منذ فتح دمشق، فعزم الوليد على أخذه، وعوضهم عنه كنيسة مريم على أنها تقع في الجانب الشرقي الذي أخذ بالسيف، كما بنى صخرة المقدس، ووسع مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأعطى المجذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناس، وبنى لهم مشفى

خاصة في ضواحي دمشق إلى الشمال الشرقي منها بعد عشرين كيلو متراً في بداية مرج عذراء في مكان مناسب للجذام حيث يتوقف انتشاره في الجسم في ذلك المكان ـ بإذن الله ـ. ولا يزال يحمل هذا المشفى اسم مشفى الوليد. وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً. وكان يبرّ حملة القرآن، ويكرمهم، ويقضي عنهم ديونهم.

وحدثت في أيامه فتوحات واسعة في المشرق، والمغرب، والأندلس، وفرنسا، وكان يرسل في كل غزوة إلى بلاد الروم أحد بنيه.

وحج عام ٩١هـ فلما قرب من المدينة المنورة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية فأخلي له المسجد النبوي، فلم يبق به سوى سعيد بن المسيّب، لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تنحّ عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه، ويصلي ها هنا وها هنا ويدعو الله عز وجل، قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال: من هذا هو سعيد بن المسيب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك. فقال: قد علمت بغضه لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وشرعت أثني عليه، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ـ وإنما قلت ذلك لأعتذر له، فقال: نحن أحق بالسعي إليه. فجاء فوقف عليه فسلم عليه، فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد! بخير والحمد لله وحده، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا فقيه الناس. فقال: أجل يا أمير المؤمنين[١].

وهرب يزيد، والمفضل، وعبد الملك أبناء المهلب بن أبي صفرة،

---

(١) البداية والنهاية.

من السجن ولحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنهم من الحجاج ووافق الوليد على ذلك، وكانت هند بنت المهلب أختهم تحت الحجاج.

وتوفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وبويع بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان عامله على الرملة، وفكر الوليد في أخذ البيعة لولده عبد العزيز وخلع أخيه سليمان، ولكنه توفي قبل أن يقدم على ذلك، ووافقه في هذا الأمر كل من الحجاج، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وامتنع عليه عمر بن عبد العزيز وقال له: لسليمان بيعة في أعناقنا.

الولايات

كانت الأوضاع في عهد الوليد بن عبد الملك هادئة في الولايات كلها، حتى أن أمر الخوارج قد ضعف، ولم تقم حركة تذكر في أيامه سواء أكانت من الخوارج أم من قبل غيرهم.

١ ـ **الشام**: وبقي الوضع فيها مستقراً لبني أمية.

٢ ـ **الحجاز**: كانت المدينة إمارة وحدها وكذا مكة طيلة أيام الوليد بن عبد الملك.

أ ـ **المدينة المنورة**: وقد تولى أمرها عمر بن عبد العزيز حتى عام ٩٤هـ، ولما قدم الوليد المدينة نزل دار جده مروان بن الحكم، ودخل عليه الناس فسلموا عليه، فما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة، : عروة بن الزبير[١]، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة[٢]، وأبا بكر بن

---

(١) **عروة بن الزبير بن العوام**: أبو عبد الله، عالم المدينة، أحد الفقهاء السبعة: حدث عن أبيه، وعن أمه أسماء بنت أبي بكر، وعن خالته أم المؤمنين عائشة، ولازمها، وعن سعيد بن زيد، وعن علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وجابر، ومحمد بن مسلمة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وأسامة بن زيد، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وقيس بن سعد بن عبادة. ولد سنة ثلاث وعشرين للهجرة، نشأ في المدينة، وفد على ابن عباس في البصرة، ثم لحق بمصر، وأقام مع أخيه عبد الله بمكة مدة خلافته، فلما قتل أخوه انتقل إلى المدينة، ووفد على عبد الملك بالشام، وتوفي سنة ثلاث وتسعين..

(٢) **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود**، أبو عبد الله الهذلي، المدني، الأعمى، أخو المحدث عون، وجدهما، عتبة هو أخو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، أحد الفقهاء السبعة: ولد عام ثلاثة وعشرين، لازم ابن عباس طويلاً. كان بحراً من بحور العلم كما يقول الزهري، وتوفي عبيد الله عام ثمانية وتسعين.

عبد الرحمن[(١)]، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة[(٢)]، وسليمان بن يسار،[(٣)] والقاسم بن محمد[(٤)]، وسالم بن عبد الله بن عمر[(٥)]، وعبد الله بن عبد الله بن عمر[(٦)]، وعبد الله بن عامر بن ربيعة[(٧)]، وخارجة بن زيد[(٨)]، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو

---

(١) **أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث** بن هشام المخزومي، أبو عبد الرحمن، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة: كان يسمى راهب قريش لكثرة عبادته وكان كفيفاً. ولد في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، توفي سنة أربع وتسعين أيام الوليد بن عبد الملك.

(٢) **أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة** بن حذيفة بن غانم، العدوي، أمه أمة الله بنت المسيب بن صيفي المخزومي، سمع من سعد بن أبي وقاص وروى عنه الزهري.

(٣) **سليمان بن يسار**: أبو عبد الرحمن، وقيل أبو أيوب، وأبو عبد الله، المدني، عالم المدينة وفقيهها، مولى أم المؤمنين ميمونة، وأخو عطاء بن يسار؛ ولد عام ٣٤هـ في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وتوفي عام ١٠٧هـ أيام هشام بن عبد الملك، كان أبوه فارسياً. وقد ولي سوق المدينة لأميرها عمر بن عبد العزيز.

(٤) **القاسم بن محمد بن أبي بكر**، أبو محمد: أحد فقهاء المدينة السبعة: ولد في المدينة عام ٣٧هـ، وتوفي بقديد بين مكة والمدينة حاجاً أو معتمراً عام سبعة ومائة، كف بصره في أواخره حياته، وكان من سادات التابعين.

(٥) **سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**، أبو عمر، مفتي المدينة، أمه أم ولد، ولد في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه. قال سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به. وقال: قال لي ابن عمر: أتدري لم سميت ابني سالماً؟ قلت: لا قال: باسم سالم مولى أبي حذيفة.
كان خشن الثياب، كثير العبادة، توفي سنة ست ومائة.

(٦) **عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**: أمه صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أخت المختار. فيكون المختار خاله، وقد تزوج ابنة خاله المختار، وهي أم سلمة بنت المختار. وتوفي عبد الله في أول خلافة هشام بن عبد الملك بالمدينة، وكان ثقة قليل الحديث.

(٧) **عبد الله بن عامر بن ربيعة بن مالك**، أبو محمد: ولد عام الحديبية، وكان عمره يوم قبض رسول الله ﷺ خمس سنين أو ست، روى عن أبي بكر، وعمر، وعثمان وعن أبيه، ومات بالمدينة سنة خمس وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان ثقة قليل الحديث.
ولذا يبدو أن في دعوته من قبل عمر بن عبد العزيز نظر إذ توفي ولم يكن الوليد قد تولى بعد، كما لم يكن عمر بن عبد العزيز قد تولى أمر المدينة.

(٨) **خارجة بن زيد بن ثابت**: الإمام بن الإمام، أحد الفقهاء السبعة الأعلام، أبو زيد: وجده لأمه هو سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه، وتوفي سنة مائة من هجرة رسول الله ﷺ.

أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغني فجرجوا يجزونه خيراً[١].

وضرب عمر بن عبد العزيز سنة ثلاث وتسعين خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد في يوم شتاء بارد، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله. وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن، وكان إذا بشّر بشيء من أمر الآخرة يقول: وكيف وخبيب لي بالطريق؟ وفي رواية يقول: هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق، ثم يصيح صياح المرأة الثكلى، وكان إذا أثنى عليه يقول: خبيب إن نجوت منه فأنا بخير. وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيب فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذٍ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء وكانت تلك هفوة منه وزلة[٢].

ولما استقال تولى أمر المدينة بعده عثمان بن حيان إلى نهاية أيام الوليد بن عبد الملك.

ب ـ **مكة المكرمة**: وكان عليها منذ عام ٨٩هـ خالد بن عبد الله القسري، وبقي عليها طيلة أيام الوليد بن عبد الملك، وكانت مكة تارة تتبع عمر بن عبد العزيز، وأخرى تبقى ولاية خاصة.

٣ ـ **العراق**: كان الحجاج أمير العراقين، وكانت أكثر إقامته في الكوفة، ويقيم نائباً عنه في البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي[٣]، وبقي

---

(١) الطبري.   (٢) البداية والنهاية.

(٣) **الجراح بن عبد الله الحكمي**: أبو عقبة: ولي البصرة من جهة الحجاج، ثم ولي خراسان، وسجستان لعمر بن عبد العزيز، وكان بطلاً شجاعاً، مهيباً طوالاً، عابداً قارئاً، كبير القدر استشهد عام ١١٢ غازياً في بلاد الترك.

ذلك حتى بنى مدينة واسط عام ٨٤هـ فأصبحت قاعدته، ومقر إمارته، وكان المشرق كله يتبع العراق، والحجاج هو الذي يرسل نواباً عنه إلى خراسان، وسجستان، والسند، وقد قامت الفتوحات الواسعة في المشرق وخاصة في بلاد ما وراء النهر والسند.

وتوفي الحجاج في ١٧ رمضان من عام ٩٥هـ أي قبل انتهاء مدة الوليد بأقل من سنة، وولى على الصلاة مكانه ابنه عبد الله، ثم إن الوليد ولّى على المصرين يزيد بن أبي كبشة[١] للصلاة والحرب، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم[٢].

٤ ـ **الجزيرة**: كان والياً على الجزيرة من قبل الوليد عمه محمد بن مروان وبقي ذلك حتى عام ٩١هـ حتى تولى أمرها أخوه مسلمة بن عبد الملك، وكان والي الجزيرة يتولى غزو أرمينيا، وبلاد الروم الشرقية، وأذربيجان.

٥ ـ **مصر**: تولى عبد الله بن عبد الملك أمر مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان، وبقي على مصر حتى عام ٩٠هـ حيث خلفه عليها قرة بن شريك العبسي[٣] وبقي فيها طيلة أيام الوليد حيث توفي عام ٩٦هـ.

٦ ـ **إفريقية**: كان عليها موسى بن نصير، وقامت في عهده الفتوحات الواسعة في بلاد الأندلس بعد أن وطد أوضاع المغرب ودخل البربر في دين الله.

---

(١) **يزيد بن أبي كبشة**: يزيد بن جبريل بن يسار، كان مقدم السكاسك، وصاحب شرطة عبد الملك، ثم ولي العراقين للوليد، وتولى خراج السند أيام سليمان، ومات بالسند عام ٩٩هـ.

(٢) **يزيد بن أبي مسلم الثقفي**، أبو العلاء بن دينار الثقفي: كان مولى الحجاج وكاتبه ومشيره، كان قصيراً دميماً، كبير البطن، مشوهاً، أخذه سليمان بن عبد الملك مغلولاً، أمره يزيد بن عبد الملك على إفريقية، ثار عليه الخوارج هناك، وقتلوه سنة ١٠٢هـ.

(٣) **قرة بن شريك العبسي**: أمير مصر من قبل الوليد، بنى جامع الفيوم، توفي عام ٩٦هـ.

الفتوحات

حدثت فتوحات عظيمة أيام الوليد بن عبد الملك لا يمكن مقارنتها إلا بالفتوحات التي تمت أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، رضي الله عنهما، بل إن الفتوحات الإسلامية نرى لها قمتين أولاهما أيام الراشدين والثانية أيام الوليد، وقد اتسمت هذه الفتوحات بامتدادها على مختلف الجبهات:

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: كان أمير الغزو في بلاد الروم مسلمة بن عبد الملك، وكانت الصوائف والشواتي لا تنفك تغزو، ويقودها أحد أبناء الوليد الذين يساعدون عمهم في شؤون القتال، ومنهم العباس، وعبد العزيز[(١)]، وعمر، ومروان.

وكانت الجيوش الإسلامية تتقدم في أرض الروم، وتفتح بعض الحصون، وتغنم الغنائم، ويكون التقدم أحياناً واسعاً إلى عمق كبير في أرض العدو فقد وصل مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه العباس بن الوليد إلى عمورية موقع أنقرة اليوم ففتحاها، وفتحا هرقلية معها وذلك عام ٨٩هـ،

---

(١) **عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان،** أبو الأصبغ، وهو ابن أخت عمر بن عبد العزيز، ولي نيابة دمشق، أراد أبوه أن يكون خليفة من بعده فامتنع عمر بن عبد العزيز وقال: لسليمان في أعناقنا بيعة، فغضب الوليد، وطيّن عليه، ثم فتح عليه بعد ثلاثة، ومالت عنقه، حج عبد العزيز بالناس، وغزا بلاد الروم، وكان لبيباً عاقلاً، دعا لنفسه بالخلافة بعد عمه سليمان، فلما سمع باستخلاف خاله عمر بن عبد العزيز سكن، ودخل في الطاعة.

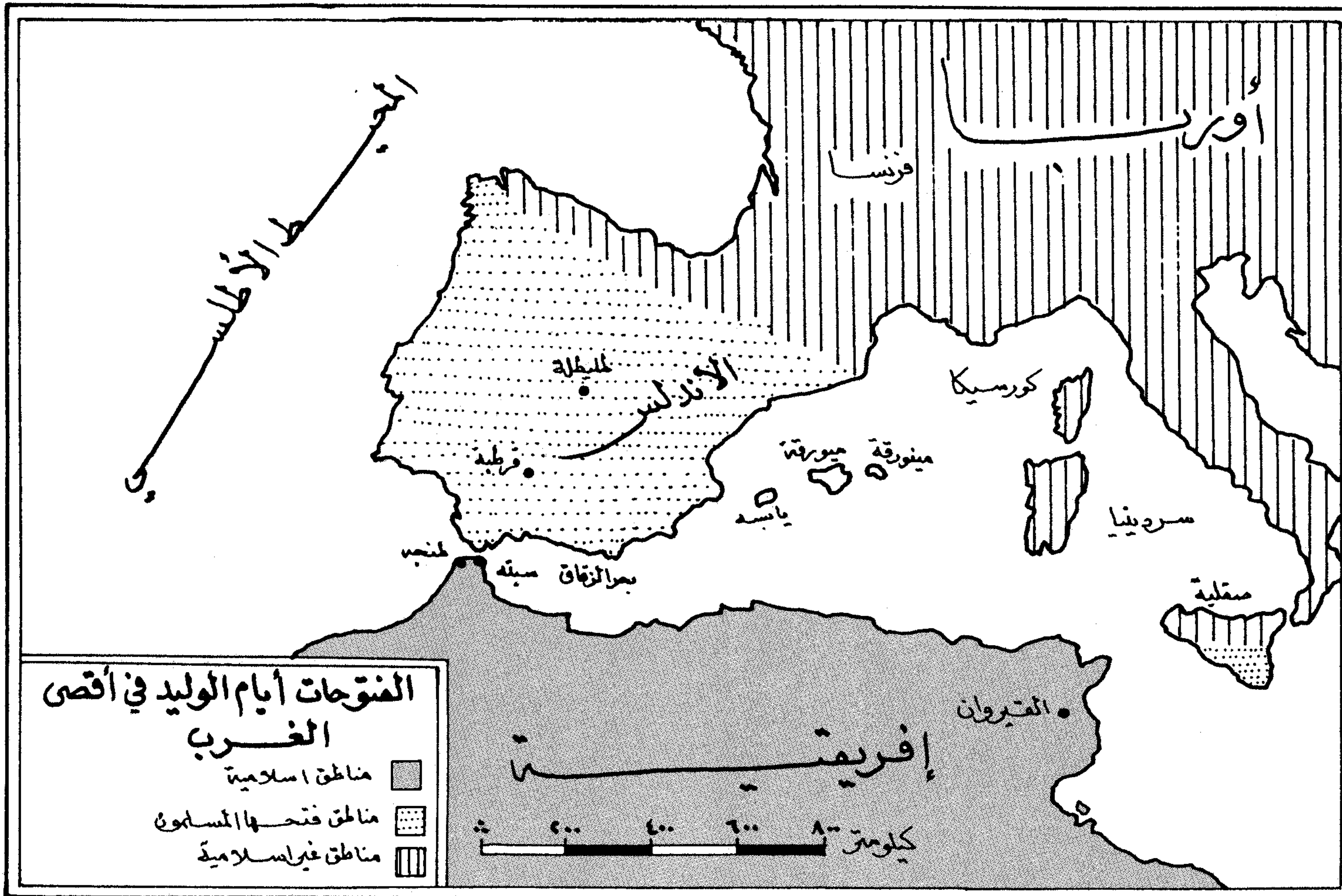

الفتوحات أيام الوليد في أقصى الغرب
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
المحيط الأطلسي
أوربا
فرنسا
الأندلس
طليطلة
قرطبة
طنجة
سبتة
بحر الزقاق
يابسة
ميورقة
مينورقة
كورسيكا
سردينيا
صقلية
إفريقية
القيروان
كيلومتر ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠

وكذلك فقد غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم عام ٩٢هـ ففر الروم إلى أقصى بلادهم، ووصل المسلمون يومذاك إلى خليج القسطنطينية. وكثرت غزوات المسلمين إلى تلك الجهات عام ٩٣هـ وكانت الجيوش الإسلامية تعود إثر كل غزوة إلى الثغور، وأحياناً يتمكن الروم من التسلل إلى الأرض الإسلامية والاستيلاء على بعض المناطق لكن لا يلبث المسلمون أن يسترجعوا ما فقدوا، أما الحدود العامة فيمكن أن نقول: إنها ثابتة والثغور لم تتغير وتتركز في مرتفعات طوروس.

وكان أمير الجزيرة يتولى الجهاد في بلاد الروم الشرقية وأرمينيا وأذربيجان وقد غزا مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه عبد العزيز بن الوليد بلاد الروم من ناحية أذربيجان ووصلا حتى الباب، ولكن وغالباً ما ينقض السكان العهد بعد وقت قصير من الفتح، فيعود المسلمون من جديد للتقدم في أراضيهم وغزوهم الأمر الذي يجبر الأعداء على طلب الصلح مرة أخرى، لذا نرى أن فتوحات المدينة الواحدة أو المنطقة الواحدة يحدث عدة مرات.

ب ـ **في البحر**: دخل المسلمون جزيرة صقلية وميورقة عام ٨٩هـ.

ح ـ **في إفريقية**: وطد موسى بن نصير الوضع في إفريقية، وعمل على نشر الإسلام بين البربر، وقد نجح في مهمته، ودان البربر بالإسلام. ونظر موسى بعدها إلى البلدان التي تجاوره والتي يمكن أن يأتي منها خطر على بلاد المسلمين فوجد بلاد الأندلس أمامه على العدوة الثانية من بحر الزقاق، فالروم لهم نفوذ فيها، ويمكن أن يتحركوا من تلك الجهة، ومن جهة ثانية وجد الظلم القائم هناك ومن واجبه إزالة هذا الظلم فالإسلام حرب على الظلم، فأوكل إلى نائبه على طنجة وهو طارق بن زياد أن يدرس أوضاع بلاد الأندلس، وأن يمهد الأمر للقيام بفتحها، فدخل مدينة سبتة وكانت لا تزال بيد الوندال حكام الأندلس ثم جاز بحر الزقاق باثني عشر ألفاً من الجند من سبتة إلى شبه الجزيرة التي عرفت فيما بعد باسم (جبل طارق) وذلك عام ٩٢هـ، ودخل قرطبة وقتل حاكم البلاد (لذريق).

ثم دخل موسى بلاد الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري[١] ولحقا بطارق. ثم إن طارق بن زياد قد فتح مدينة طليطلة إلا أن موسى قد عزله وولى مكانه ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير[٢].

ثم إن الوليد بن عبد الملك أرسل إلى موسى يستقدمه إلى الشام إذ أصبح شيخاً هرماً قد قارب الثمانين فولى موسى مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، وعاد ولما وصل إلى القيروان ثبت ابنه عبد الله[٣] والياً على إفريقية.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: وكان معظمها على حدود القبائل التركية المنتشرة في تلك الجهات.

أ ـ **بلاد ما وراء النهر**: غزا قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد الترك، وصالح الملك (نيزك) على مال، وعلى إطلاق ولديه من أسارى المسلمين. إلا أن الترك كثيراً ما كانوا ينقضون العهد حتى يجبروا على توقيعه ثانية ودفع مزيد من المال. وقد غزا قتيبة بن مسلم مدينة (بيكند) عام ٨٧هـ وحاصرها، فطلب أهلها الصلح فوافق. وترك عندهم أميراً من قبله، ومعه حامية، فلما رجع عنهم قتيبة لم يلبث الترك أن نقضوا العهد، وجدعوا

---

(١) **حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، الفهري، القرشي**: ولد ونشأ بمصر، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير، وولي بها عدة ولايات، ثم عاد إلى دمشق مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى، ثم عاد إلى إفريقية فتولى قيادة الجيش في قتال من عصى من البربر، وقتل في إحدى المعارك.

(٢) **عبد العزيز بن موسى بن نصير**: ضبط أمور الأندلس بعد أبيه عندما غادرها إلى الشام، وكانت فتوحات واسعة على يديه، كان فاضلاً في أخلاقه وسيرته، قتله الجند وهو قائم يصلي صلاة الصبح في المحراب عام ٩٧هـ أيام سليمان بن عبد الملك، وأرسل رأسه إلى دمشق.

(٣) **عبد الله بن موسى بن نصير**: من رجال الفتح في المغرب كان مع أبيه في إفريقية، واستخلفه على القيروان عندما سار موسى إلى الأندلس، وبقي فيها حتى عام ٩٧هـ حيث عزله سليمان بن عبد الملك فسجنه والي القيروان الجديد محمد بن يزيد مولى قريش وعذبه، ثم قتله بتهمة قتله يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وذلك عام ١٠٣ هـ وأرسل رأسه إلى يزيد بن عبد الملك بدمشق.

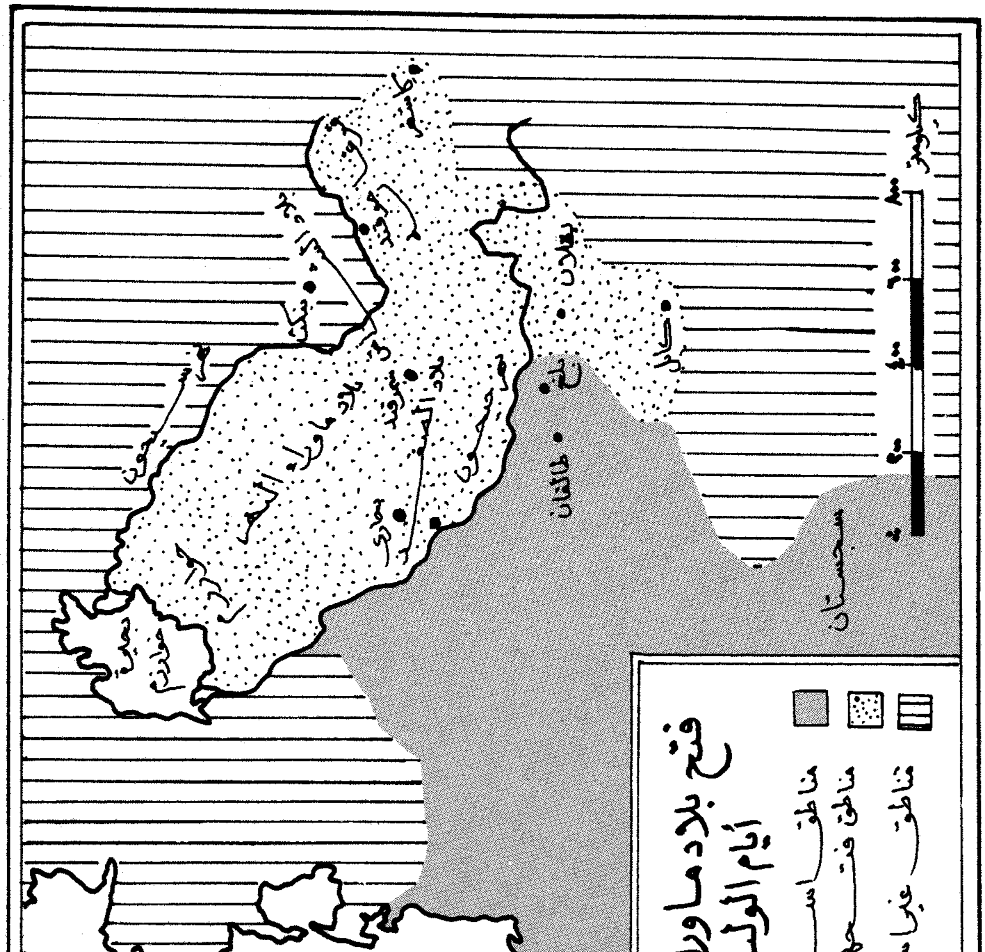
فتح بلاد ما وراء النهر
أيام الوليد
مناطق إسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير إسلامية
بحر الخزر
باب الأبواب
سجستان
طالقان
بلخ
بخارى
سمرقند
بلاد ما وراء النهر
جيحون
سيحون
بحيرة خوارزم

أنوف الحامية، فرجع إليهم قتيبة، وحاصر المدينة حتى فتحها. وفي العام التالي غزا قتيبة بلاد الترك وحمل معه (نيزك) مأسوراً وقد حصل قتيبة على انتصارات كبيرة، وجمع غنائم كثيرة.

وغزا قتيبة عام ٨٩هـ بلاد الصغد، ونسف، وكش وسار نحو بخارى ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد عام (٩٠هـ) وكان لفتحها أثر كبير على معنويات ملك الصغد إذ خشي على نفسه وطلب الصلح من قتيبة. كما غزا في ذلك العام بلاد الترك من ناحية أذربيجان حتى وصل إلى باب الأبواب.

ونقض العهد نيزك خان، وهو ملك الترك الأعظم فسار إليه عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة فتمكن من أسره، وكان ينزل في (بغلان) فقتله قتيبة، كما تمكن من أخذ (الطالقان) وسار إلى (الفارياب) ودخل (بلخ).

وفتح قتيبة مدينة (نسف) و (كش) و (شومان)، وصالح عبد الرحمن ابن مسلم ملك الصغد (طرخون) وبعدها سار عبد الرحمن إلى بخارى حيث كان أخوه قتيبة، ورجعا معاً إلى مرو حاضرة خراسان. وعاد أهل الصغد لنقض العهد، إذ قالوا لطرخون: إنك قد رضيت بالذل، وأعطيت الجزية، وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك. قال: فولوا من أحببتم. فولوا عليهم أخاه (غَوْرَك خان) وحبسوا طرخون الذي انتحر في السجن، ونقضوا هم العهد.

وسار قتيبة إلى سجستان يريد (رتبيل) فقابله. ثم عاد إلى الشمال لقتال بلاد خوارزم فصالحه خوارزم شاه ثم انتقل قتيبة ففتح سمرقند عام ٩٣هـ وكان معه إخوته صالح، وعبد الرحمن، وعبد الله، فولى عبد الله على سمرقند، وعاد إلى قاعدته مرو.

وعاد قتيبة إلى الغزو في العام التالي ٩٤ هـ فغزا بلاد الشاش، وفرغانة، حتى بلغ خوقند، وكاشان وفتح في ذلك العام أيضاً مدينة كابل. وأعاد الغزو في بلاد الشاش عام ٩٥هـ، وفتح في عام ٩٦ هـ مدينة (كاشغر)

في تركستان الشرقية. وطلب منه ملك الصين أن يرسل لهم وفداً يخبره عن المسلمين ويسائله عن دينهم فاختار له قتيبة جماعة وعليهم هبيرة بن الشمرخ الكلابي، وبعد لقاءات مع الوفد دعا فيها الوفد ملك الصين إلى الإسلام أو الجزية أو القتال فقال لهم ملك الصين: ما أحسن ما دبرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فقال هبيرة له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. ثم دفع ملك الصين الجزية، وتوقف قتيبة في تقدمة نحو الشرق.

وهكذا كانت الجبهة التي يقاتل عليها قتيبة بن مسلم الباهلي واسعة تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر ثم تمتد شمالاً لتتعمق في آسيا الوسطى، في بلاد ما وراء النهر وتصل شرقاً إلى أواسط تركستان الشرقية ثم تتجه غرباً نحو كابل فسجستان، ويبلغ طول هذه الحدود ما يزيد على ٤٠٠٠ كيلومتر. وغدت المنطقة التي يسيطر عليها والتي تتبع خراسان التي قاعدتها (مرو) واسعة جداً وتزيد مساحتها على أربعة ملايين كيلومتر مربع.

د ـ **بلاد السند**: تمكن محمد بن القاسم الثقفي من قتل (داهر) ملك بلاد السند وذلك عام ٩٠هـ، وتقدم في بلاده، وقد فتح (الديبل) مكان كراتشي اليوم ٩٣هـ، ثم توسّع في الداخل وباتجاه الشمال ففتح مدينة(الملتان) عام ٩٤هـ، وغدت هذه الرقعة من الأرض ضمن الدولة الإسلامية.

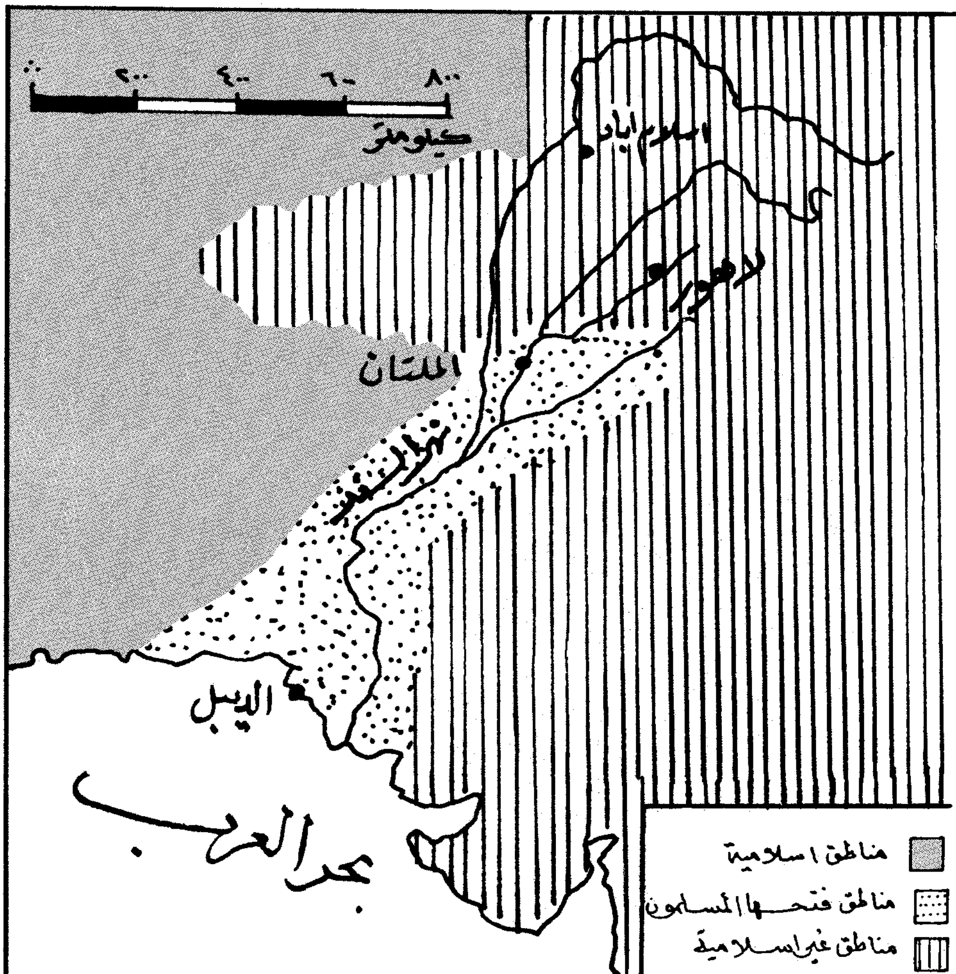

٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
كيلومتر
اسلام اباد
لاهور
الملتان
نهر السند
الديبل
بحر العرب
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية

سليمان بن عَبْدالملك

٩٦ - ٩٩هـ

حَيَاتُه

ولد سليمان بن عبد الملك بالمدينة المنورة عام ٥٤هـ، ونشأ بالشام، كان كثير التردد على البادية. وكان أبيض كبير الوجه، مقرون الحاجب جميلاً.

وتزوج عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فأنجبت له يحيى، وعبيد الله، وتزوج أم يزيد بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية فولدت له يزيد، والقاسم، وتزوج بنت عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية فولدت له عبد الواحد. ومن أولاده أيضاً: أيوب، وداود، والحارث وسعيد، وإبراهيم، وعبد الرحمن، وعمر، ومحمد، وهم من نساء أخر ومن أمهات أولاد.

كان والياً على الرملة عندما توفي أخوه الوليد، وأخذ البيعة من بني أمية، وعلية القوم، ثم من الناس كلهم، وهمّ بالإقامة ببيت المقدس إلا أنه انتقل إلى دمشق بعد ذلك. وعزل ولاة الحجاج، وكان يستعين بابن عمه عمر بن عبد العزيز، وكانت الصلاة تؤخر أيام الخلفاء من بني أمية الذين سبقوه، فأمر بإقامتها بوقتها، واستمر في بناء مسجد بني أمية بدمشق بعد أخيه مدة خلافته، وكان ينهى عن الغناء، وحج عام ٩٧ هـ أيام خلافته. وغزا القسطنطينية براً بأهل الشام، والجزيرة، والموصل، وكان عدد الجيش مائة وعشرين ألفاً، وبحراً بأهل مصر وإفريقية وكان عليهم عمرو بن هبيرة[١]، وعلى المقاتلين جميعاً أخوه مسلمة بن عبد الملك، وابنه داود بن سليمان.

---

(١) **عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين**: أمير العراقين، والد يزيد، غزا القسطنطينية من جهة البحر، تولى أمر العراق عام ١٠٣هـ، وسجنه خلفه على العراق خالد بن عبد الله =

وانتقل إلى مرج[1] دابق للرباط وأقسم ألا يعود حتى تفتح القسطنطينية أو يتوفاه الموت. فوافته منيته، وهو هناك ينتظر الفتح، وقد أصيب بذات الجنب، وقد مات محموماً، وذلك في ٢ صفر عام ٩٩هـ، وقد صلى عليه عمر بن عبد العزيز.

فكر في تولية ابنه أيوب من بعده ولكنه توفي قبل أبيه، وكان عبد الملك بن مروان قد عهد لولديه الوليد، وسليمان من بعده، وأخذ عليهما عهداً بمبايعة ابن عاتكة (يزيد) ومروان ابنه الآخر من بعدهما، فمات مروان قبل أخيه سليمان، وتخطى يزيد، وأراد البيعة لأحد بنيه وهو أيوب، ولكنه لم يلبث أن مات أيضاً. وخطر على باله توليه ابنه داود إلا أن رجاء بن حيوة[2] قد نصحه في توليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز ففعل، قال رجاء: «فلما ثقل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح. فقال سليمان: أنا أستخير الله وانظر فيه. ولم أعزم عليه؛ قال: فمكث يوماً أو يومين، ثم خرّقه، فدعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب عنك في القسطنطينية وأنت لا تدري أحي هو أم ميت! فقال لي: فمن ترى؟ قلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أنظر من يذكر، قال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيّراً فاضلاً مسلماً؛ فقال: هو

= القسري إلا أن غلمانه قد أخرجوه بعد حفر نفق إلى داخل السجن فاستجار بمسلمة بن عبد الملك فأجاره، وتوفي عام ١٠٧هـ.

(١) مرج دابق أرض من ولاية قنسرين في بلاد الشام قبل ممر بيلان الفج الذي يدخل منه بين بلاد الشام وبلاد الأناضول، وكان بنو أمية يقيمون فيه للرباط.

(٢) **رجاء بن حيوة بن جرول**، أبو نصر، الكندي، ولد في بيسان من أرض فلسطين عام ٣٦هـ في أواخر خلافه عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان مستشاراً لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان ثم لعمر بن عبد العزيز فكان ناصحاً لهم، وهو من أعلام التابعين وأهل العلم في ذلك العصر توفي عام ١١٢هـ في خلافة هشام بن عبد الملك.

والله على ذلك، ثم قال: والله لئن وليته ولم أُولِّ أحداً سواه لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم، قال: فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به، قلت: رأيك. قال: فكتب.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم.

وختم الكتاب، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي[١] صاحب شرطته فقال: مر أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل كعب إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي، وأمرهم فليبايعوا من وليت فيه؛ ففعل رجاء، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فدخلوا، فقال لهم سليمان في هذا الكتاب - وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة - عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب، فبايعوه رجلاً رجلاً، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء بن حيوة[٢].

---

(١) **كعب بن حامد العبسي**: قائد، من غزاة البحر، ولاّه عبد الملك شرطته بعد روح بن زنباع، وأقره الوليد وسليمان توفي حوالي عام ١٠٠هـ.

(٢) تاريخ الطبري.

الولايات

لم يكن في الولايات ما يثير الاهتمام إلا ما كان في الجبهات من قتل لبعض الولاة السابقين الذين تمت على أيديهم الفتوح، أو الغزو الذي تمّ وإن كان على نطاق ضيق بالنسبة إلى ما حدث أيام الوليد بن عبد الملك. كما أن الخوارج قد استمر هدوؤهم كما كان أيام الوليد فلم يحركوا ساكناً في كلا العهدين.

١ ـ **الشام:** لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٢ ـ **الحجاز:**

أ ـ **المدينة:** عزل سليمان عن المدينة عثمان بن حيان، وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وبقي أيام سليمان كلها والياً عليها.

ب ـ **مكة المكرمة:** عزل سليمان خالد بن عبد الله القسري، وولى عليها طلحة بن داود الحضرمي، ثم استبدله بعبد العزيز بن خالد بن أسيد بن أبي العصيص بن أمية.

٣ ـ **العراق:** عزل سليمان عن العراق يزيد بن أبي مسلم، وأعطى ولاية المصرين فيها إلى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد بعث يزيد أخاه زياداً إلى عُمان. وبعد تسعة أشهر من ولاية سليمان ضمت إلى يزيد بن المهلب خراسان فانتقل إليها واستخلف على واسط الجراح بن عبد الله الحكمي، واستعمل على البصرة عبد الله بن هلال الكلابي، وجعل أخاه مروان بن المهلب على أموره وأمواله بالبصرة، واستخلف على الكوفة حرملة بن عمير اللخمي أشهراً، ثم عزله وولاها بشير بن حسان النهدي.

٤ ـ **خراسان**: كان أمير خراسان قتيبة بن مسلم الذي فتح الفتوح فلما هلك الوليد وتولى سليمان خاف قتيبة على نفسه لأنه كان قد وافق الوليد على خلع أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد، فلما بلغه نبأ تولية سليمان أرسل إليه كتاباً يعزيه بالوليد، ويهنئه بالخلافة التي آلت إليه، ويذكره بالفتوحات التي تمت على يديه، ويذكر آل المهلب بسوء ويذمهم. ويطلب منه أن يبقيه أميراً وله السمع والطاعة فإن لم يفعل فإنه سيخلعه.

ويبدو أن قتيبة قد خاف على نفسه، ففكر في الأمر فغرته نفسه بما كان تحت يده من جندٍ وبما يسيطر عليه من أرض. فلما وصلت كتب قتيبة إلى سليمان رغب في رأب الصدع، ولأم الجرح إن وجد، وعدم حدوث فتنة فأرسل إليه بكتاب يستخلفه فيه على خراسان ولكن الرسول لم يصل حتى كان قتيبة قد سبق إلى الأمر، وأعلن خلع الخليفة وجمع الجند وذكرهم بما قام به من جهد في سبيل الفتح ونشر الإسلام، وما بذلوه هم وأعلن خلع الخليفة ولما لم يجبه الجند تكلم معهم كلاماً نال به من قبائلهم وشتمهم فقاموا عليه وقتله وكيع بن أبي سود. وأرسل رأسه إلى سليمان، وتولى وكيع أمر خراسان تسعة أشهر، ثم أعطيت خراسان إلى يزيد بن المهلب وضمت إليه فأرسل أمامه ابنه مخلّد بن يزيد، فسجن وكيعاً وعذّبه.

وأما بلاد السند فقد كان عليها محمد بن القاسم الثقفي فعندما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك عزله على أنه من أمراء الحجاج وخاصة أنه كان من أقربائه، وعندما حطّت به الأيام ادعت ابنة الملك داهر أنه راودها عن نفسها أو أرادها لنفسه ولم تمكّنه من نفسها فأخذها بالقوة، لذا فقد سجن في واسط وعذب، وفي السجن كتب شعراً لطيفاً يعتب به على بني مروان، فأطلق سراحه، ثم قتل من قبل معاوية بن المهلب بن أبي صفرة، ويقال: إنه مات تحت العذاب، وكانت وفاته عام ٩٨هـ. إلا أن (صيتا) بنت داهر قد اعترفت بعد ذلك بأنها كانت كاذبة في ادعائها. وتولى أمر بلاد السند بعد محمد بن القاسم يزيد بن أبي كبشة.

٦ ـ **إفريقية**: عاد موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد إلى الشام وقد خلف موسى ابنه عبد الله والياً على القيروان منذ عام ٩٣هـ حينما خرج إلى الأندلس، وأثناء عودته من الأندلس ترك موسى ابنه عبد العزيز عليها فنظم الحكومة، وألف مجلس شورى من العلماء لاستنباط الأحكام الشرعية، ورفع المظالم عن السكان، وخفف الضرائب، وأمّن الأهلين، وشجع المسلمين من العرب والبربر على الاختلاط بالسكان والتزواج معهم، وتزوج أرملة (لذريق)، وحاول إدخال النصارى بالإسلام فبدأ يتقرب منهم بغية تعريفهم على الدين الإسلامي.

ولما أدبرت أيام موسى انحطت مع ابنه عبد العزيز أيضاً فطمع به أعداؤه، ووشوا به إلى سليمان، ثم لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه وأرسل رأسه إلى سليمان، وكان عنده أبوه موسى فقال: هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه صوّاماً قوّاماً، وذلك عام ٩٧هـ. وتولى أمر الأندلس بعد عبد العزيز أمير الجند أبو أيوب بن حبيب الفهري وهو ابن أخت موسى بن نصير، وحمل رأس عبد العزيز حبيب بن أبي عبيدة (مرة) بن عقبة بن نافع الفهري، إلا أن ولايته لم تطل إذ خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي في العام نفسه.

أما في القيروان التي هي قاعدة إفريقية والأندلس فقد تولى أمرها نيابة عن موسى بن نصير ابنه عبد الله سنة ٩٣ كما ذكرنا، ولما عاد موسى إلى الشام عام ٩٦هـ بقي عبد الله أميراً على القيروان حتى عزله سليمان عام ٩٧هـ، وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش فسجن عبد الله بن موسى وعذبه وقتله. وكان محمد بن يزيد قيسياً متعصباً لقومه.

كانت الفتوحات ضعيفة أيام سليمان بن عبد الملك، ولعل ذلك يعود إلى قصر مدة عهده، وإلى استبدال الولاة الذين هم على الثغور، فلا بدّ للأمير من مدة حتى يتعرف على أوضاع المنطقة لذا فإن الأمراء الذين بقوا في مناطقهم قد استمر فيها الغزو والجهاد والفتح مثل مسلمة بن عبد الملك الذي استمر على الجزيرة وأرمينية، أو الأمراء الذين عرفوا المنطقة جيداً

لوجودهم فيها سابقاً مثل يزيد بن المهلب الذي عاد إلى خراسان وكان قد نشأ فيها أيام أبيه المهلب لذا فقد كانت في تلك الجبهة فتوحات، وكذا في المدة التي كان عبد العزيز بن موسى في الأندلس، أما في بلاد السند فقد توقف الجهاد بغياب محمد بن القاسم بن موسى بن نصير. وكذا في الأندلس بعد مقتل عبد العزيز.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: استمر الغزو في بلاد الروم فقد غزاها مسلمة بن عبد الملك عام ٩٦هـ وداود بن سليمان بن عبد الملك عام ٩٧هـ، وعاد إليها مسلمة في العام نفسه، وفي عام ٩٨هـ وجه سليمان أخاه مسلمة إلى القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، فشتّا بها وصاف، وقد استعد لذلك فأخذه معه من المواد الغذائية الكثير وتركها محفوظة على حين كان الجند يأكلون من الغنائم.

ثم جاء إلى المسلمين (إليون) من أرمينية ووعده الروم بأن يملكوه أمرهم إن صرف عنهم المسلمين، فأظهر النصح للمسلمين، فقال لمسلمة: إن الروم مقتنعين بأن حربكم لهم بغير جد ما دام الطعام عندكم متوفراً، فإن أحرقته وحملت عليهم حملة صادقة قنعوا بعدم إمكانية بقائهم محاصرين. ففعل مسلمة وأحرق المواد الغذائية فقوي العدو وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون وسليمان بن عبد الملك مقيم بمرج دابق ينتظر الفتح، وجاء الشتاء ولم يتمكن من إمدادهم، ومات، وهم للروم محاصرين.

وفتح داود بن سليمان عام ٩٨ حصن المرأة بالقرب من ملاطية.

٢ ـ الجبهة الشرقية: غزا يزيد بن المهلب عام ٩٨ جرجان، وطبرستان، وصالح أهلها إلا أن أهل جرجان لم يلبثوا أن نقضوا العهد، وغدروا بجند يزيد فغزاهم ثانية وفتح جرجان.

عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١هـ

حَيَاتُه

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة عام ٦١هـ، وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وانتقل مع بني أمية إلى الشام عندما رحلوا منها بعد وقعة الحرة، ووفاة يزيد بن معاوية، وكان مع أبيه في مصر عندما تولى إمرتها إلا أنه لم يلبث أن طلب من أبيه ترحيله إلى المدينة ليقعد إلى فقهائها، فوافق والده وسيّره إلى المدينة وجعله عند صالح بن كيسان[1] ليؤدبه، وعندما توفي والده عبد العزيز عام ٨٥هـ بعث إليه عبد الملك، وضمّه إلى أولاده، وقدّمه على كثير منهم، وزوّجه ابنته فاطمة، وولاه إمرة خناصرة[2]، وبقي فيها حتى مات عبد الملك، ولما بويع الوليد بالخلافة أعطاه إمرة المدينة، وبقي عليها حتى عام ٩٣هـ، وقد قرب إليه العلماء، وجعل منهم رجال مشورته، وانتقل بعد ذلك إلى دمشق فعاش فيها، فلما كانت خلافة سليمان بن عبد الملك استوزره، ثم عهد إليه بالخلافة من بعده.

كان نحيف الجسم، غائر العينين، أبيض رقيق الوجه، بجبهته أثر شجة دابة، شجته عندما كان صغيراً، لذلك يقال له أشج بني أمية. ويكنى بأبي حفص نسبة إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

---

(١) **صالح بن كيسان، الإمام الحافظ الثقة**، أبو محمد، يقال: أبو الحارث المدني، المؤدب، يقال: مولى بني غفار، ويقال: مولى بني عامر، ويقال: مولى آل معيقيب الدوسي كان جامعاً من الحديث، والفقه، والمروءة، ولد حوالي عام ٥٤هـ، وتوفي بعد ١٤٠هـ، وعاش نيفاً وثمانين عاماً ولم يبلغ التسعين.

(٢) خناصرة: وتعرف الآن باسم خناصر، وهي من أعمال حلب إلى الجنوب منها، وعمّرها الشركس حديثاً بعد أن كانت أطلالاً.

كان في شبابه بالمدينة المنورة كثير التطيب، فإذا أدهن بالطيب عصفت في طريقه رائحة طيبة فتُشم من بُعد، فإذا جاوز الطريق بقيت رائحته مستقرة في المكان الذي يمر به، وقد يتطيب بالعنبر فتبتل يده به، وينتظر الناس ثيابه بباب الغسّال فإذا أرسلها تسابق الناس إليه يعطونه دراهم كثيرة حتى يغسل ثيابهم في أثر ثيابه من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب.

وإذا مشى عمر راح متبختراً متكبراً يتصنع له مشية، هي له وحده، يخترعها بين الكبر والتبختر، كأنها مشية الجارية إذا كعبت. وقد أعجبت مشيته تلك جواري المدينة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية، ويسرن على خطتها وموازينها حتى يرشقن إذا سرن وتحمل رشاقتهن في العيون(١).

وارتدى أغلى الأُزر، ولبس أثمن الأردية حتى كان يشتري الإزار الواحد بمائة دينار، ويشتري مطرف الخز بثمانمائة درهم، ويضع يده عليه يجسه فيستخشنه ولا يعجبه، ويلبسه مكرهاً، وصار الثوب لا يكون بالياً في نظره إذا بلي أو مرّ عليه زمن طويل، ولكنه صار بالياً عنده متى لبسه فوقعت عليه لأول لبسة أنظار الناس. وقد غالى عمر في ذلك وتمادى حتى أوشك ألا يعجبه ثوب، وكاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع، حتى قال ذات مرة: لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ إلا خُيّل إليّ أنه قد بلي(٢).

وبدت على عمر مظاهر التكبر والترف الأموي الصارخ، فإذا سار لم يسر إلا في جماعة من غلمانه وعبدانه(٣).

وظل عمر هكذا يزيد مظاهراً غلواً وتمادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس. إلا أن هذا قد تبدّل كلياً منذ تولى الخلافة بل منذ أواخر إمرته على المدينة وعندما انتقل إلى دمشق بعدها، فبدأ ينصح الخلفاء ويطلب منهم

---

(١) ابن عبد الحكم ص٢١. (٢) ابن الحوزي.
(٣) المصدر نفسه.

محاسبة الولاة الظالمين، ويطالبهم بالعدل واعتقد أن ما عند زوجه فاطمة بنت عبد الملك من حلي وجواهر إنما جاء عن طريق بيت المال لذا فقد خيّرها بين ردّه أو اللحاق بأهلها ففضلت الحياة معه وردت كل ما كان عندها.

وضيق على نفسه وعلى زوجه وأولاده في الطعام والملبس فسألته زوجه أن يجري عليها خاصة، فقال لها: ليس في مالي سعة، قالت: فلم كنت أنت تأخذ منهم؟ قال: كانت المهنأة لي والإثم والتبعة عليهم، أما إذا وليت فلا أفعل ذلك فيكون إثمة عليّ.

وكان له من الإخوة! أبو بكر، ومحمد، وعاصم، وهم أشقاء له: والأصبغ، وسهل، وسهيل، والريان، وهم من أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن العاص، وأم ولد رومية اسمها مارية، وله أختان هما: أم الحكم، وأم البنين التي تزوجها الوليد بن عبد الملك.

وكان له عدد من الأولاد منهم: عبد العزيز، وعبد الله، وعبد الملك.

وقضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئاً قط، وإنما أبقى لنفقة بيته وأهله عيناً بالسويداء كان استنبط ماءها في أرض خربة براح ليس فيها لأحد ضربة معول، فعملها من صلب عطائه فكانت تجيئه غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحاني، وتمر عجوة، فاكتفى بها ولم يجر على نفسه من الفيء درهماً. فلما قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: إن ابن الخطاب لم يكن له مال، وأنا مالي يغنيني. ثم جعل نفقته من ماله في اليوم درهمين. وقالوا إنه لم يبق في يده غير (بدا) و (جزين) من أرض بعلبك.

وأباح الهجرة لمن يشاء إلى حيث يشاء وخاصة الأمراء من بني مروان الذين طلبوا منه ذلك عندما شعروا بقلة أعطياتهم أو بوقفها.

وأصلح كثيراً من الأرض الزراعية، وحفر الآبار، وعمر الطرق، وأعدّ

الخانات لأبناء السبيل. وأقام المساجد ولكنه لم يعتن بزخرفتها وهندستها. أما الأرض المغتصبة والتي لا سجل لها فقد أعلن عمر عن عودتها إلى بيت مال المسلمين. وقد تمكن بإصلاحاته التي عمل فيها طول مدة خلافته أن يقضي على الفقر والحاجة، ولم يعد لهما وجود، ولم يبق من يأخذ من أموال الزكاة.

وقد رفع رواتب عماله حتى بلغت ثلاثمائة دينار، ولما سئل عن ذلك أجاب: أردت أن أغنيهم عن الخيانة.

وتوفي عمر في دير سمعان من أعمال دمشق وبالقرب منها يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٠١هـ، فكانت خلافته بذلك سنتين وخمسة أشهر.

الولايـات

كانت الولايات كما كانت هادئة لم يحدث فيها شيء كبير، وكل ما حدث إنما هو عزل الولاة الذين يرى أنهم ظلموا.

١ ـ **الشام**: وقد عمر بن عبد العزيز في وجه الأمراء وأعطياتهم التي كانوا يأخذونها من الخلفاء وطلب منهم أن يؤدوا ما في أيديهم من حقوق. فوقفوا معاً تجاهه، وحرضوا عليه أقرباءه وأصحابه، ولكن لم يُجد ذلك شيئاً ولم يبق بجانبه سوى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك.

٢ ـ الحجاز:

أ ـ **المدينة المنورة**: كان عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وقد كان منذ أيام سليمان، وأبقاه عمر عليها.

ب ـ **مكة المكرمة**: وقد ولى عليها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

٣ ـ **العراق**: عزل عمر عن العراق وخراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وصالح بن عبد الرحمن، وولى على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. وعلى البصرة عدي بن أرطأة الفزاري. وعلى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي. وقبض على يزيد بن المهلب، وحمل إلى دمشق فسجنه عمر حتى يؤدي ما عليه من أموال أخذها وليس له بها حق. وكان يريد أن ينفيه إلى جزر دهلك إلا أنه نصح بإبقائه في السجن فأبقاه، ثم هرب من السجن لما شعر بمرض عمر بن عبد العزيز

لأنه كان يخشى يزيد بن عبد الملك حيث كانت عند يزيد أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي أي بنت أخي الحجاج، ويزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج.

وعندما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك غلب ابن المهلب على البصرة فسار إليه مسلمة بن عبد الملك فقتله عام ١٠٢هـ.

ونفى عمر آل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى اليمن.

أما على الجزيرة فقد ولى عمر بن هبيرة الفزاري.

٤ ـ **خراسان**: كان على خراسان مخلد بن يزيد بن المهلب من قبل أبيه فعزل بعزل أبيه فجاء إلى دمشق وقابل عمر، ولكن مخلد لم يلبث أن توفي في دمشق، وتولى أمر خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي فلبث سنة وخمسة أشهر، ثم عزله عمر لأنه يبدو أن الجزية لم ترجع إلى من أسلم من أهل جرجان. وطلب عمر من الجراح أن يأتيه إلى دمشق وأن يترك على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، وعلى خراجها عبد الرحمن بن عبد الله القشيري ثم عقبة بن زرعة الطائي وبقيا فيها حتى مات عمر بن عبد العزيز.

٥ ـ **مصر**: عزل عن مصر عبد الملك بن رفاعة وولى أيوب بن شرحبيل(١) كما عزل أسامة بن زيد التنوخي عن صدقات مصر.

٦ ـ **إفريقية**: عزل محمد بن يزيد بن مسلم عن صدقات إفريقية، وكان إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر(٢) قد ولي أمر إفريقية، وقد سرّ

---

(١) **أيوب بن شرحبيل بن أبرهة الأصبحي**، من بني الصباح، ولي مصر لعمر بن عبد العزيز فحسنت أحوالها في أيامه وبقي فيها إلى أن توفي عام ١٠١هـ، واستمرت إمرته سنتان ونصف.

(٢) **إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الأنصاري**، الإمام الكبير، أبو عبد الحميد، الدمشقي، مولى بني مخزوم، مفقه أولاد عبد الملك. بقي سنتين في المغرب والياً عليها. وقد أسلم عامة البربر في أيامه. توفي عامن ١٣٢هـ قبل دخول بني العباس دمشق بثلاثة أشهر.

عندما تولى القضاء فيها عبد الله بن المغيرة، وقد أرسل عمر مع إسماعيل عشرة من الفقهاء للدعوة إلى الإسلام، وقد استجاب البربر لذلك. ثم ولي أمر إفريقية يزيد بن أبي مسلم.

وولى السمح بن مالك الخولاني[1] أمر الأندلس لما عرف فيه من ديانة وتقى وذلك عام ١٠١هـ، وقد عزل الحر بن عبد الرحمن الثقفي عن إمارة الأندلس وكان قد تولاها عام ٩٧هـ، كما عزل أخاه الحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن صدقات الأندلس.

(١) **السمح بن مالك الخولاني**: تولى أمر الأندلس لعمر بن عبد العزيز، اتخذ قرطبة قاعدة له، وبنى فيها قنطرتها، واستشهد غازياً في أرض فرنسا عام ١٠٢هـ.

الخوارج

لم يحرك الخوارج ساكناً أيام الوليد وسليمان ابني عبد الملك فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز خرجوا في أرض العراق فكتب إلى عامله عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أن ادعهم إلى الكتاب والسنة. فلما أعذر في دعائهم بعث عبد الحميد إليهم جيشاً فهزم أمام الخوارج فلما بلغ ذلك عمر أرسل إليهم جيشاً بإمرة مسلمة بن عبد الملك من أهل الشام جهّزه من الرقة، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغني ما فعل جيشك جيش السوء، وقد بعثت مسلمة بن عبد الملك فخلّ بينه وبينهم، فلقيهم مسلمة في أهل الشام فانتصر عليهم.

وكان الذي قاد الخوارج أيام عمر بن عبد العزيز رجل عرف باسم (شوذب) وهو بسطام من بني يشكر، وقد خرج في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً صلباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به. فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة وأمره بما أمره به عمر. وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه، وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك مني، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا فلم يحرك بسطام شيئاً، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. . . وعندما جاءا دخلا على عمر، فقالا له: أخبرنا

عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيّره غيري؛ قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك! فقال: انظراني ثلاثاً، فخرجا من عنده وقد خاف بنو مروان أن يخلع يزيد، فدسوا له سماً فلم يلبث أن توفي.

الفتوحات

منذ أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أرسل إلى الجند الذين يحاصرون القسطنطينية بإمرة مسلمة بن عبد الملك المعونة والطعام والجند، ثم أمر مسلمة بالعودة مع المسلمين وفك الحصار خوفاً على الجند الذين معه من الهلاك.

وأغار الترك على أذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين ونالوا منهم، فوجه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتل الترك، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وجاء على الخليفة وهو بخناصرة بخمسين أسيراً منهم.

وغزا الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي بأهل حمص بلاد الروم على رأس صائفة.

وقد غزا السمح بن مالك الخولاني فرنسا، فاخترق جبال البرانس، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، ثم أغار على أكيتانيا وحاصر طلوشة (طولوز)، فخرج له دوق إكيتانيا بجيش كبير، ونشبت معركة عظيمة بين الطرفين استشهد فيها السمح بن مالك الخولاني عام ١٠٢هـ وتولى إمرة جند المسلمين عبد الرحمن الغافقي فانسحب بفلول الجيش إلى ناربونه (قاعدة سبتماينا).

ولم تطل مدة خلافته إذ توفي ولم يتجاوز الأربعين من العمر ولربما لو طالت لكثرت الفتوحات ولانتشر الإسلام على نطاق واسع إذ لم تكن هناك أحداث داخلية تشغل الناس عن الجهاد، ولم يكن هناك عِوَز يجعلهم بحاجة إلى التفكير في تأمين حاجات أهليهم، والعمل لسد الضرورات في الحياة.

بَدْءُ الدَّعْوَةِ العَبَّاسِيَّة

إن كثيراً من الناس يرغبون في السلطة ويعملون لها، وقد استغل عدد من هذه الشخصيات محبة المسلمين لآل بيت رسول الله ﷺ فدعوا إلى شخص منهم لذا كانت هناك دعوات كثيرة كل منها تدعو لرجل من آل البيت، ولم يكن لهم من هدف سوى ذلك، بل لم يكن من فكر خاص لهؤلاء يدعون له كما يزعم بعض المؤرخين وبخاصة في العصر الحديث إذ أرادوا تطبيق ما حدث من أفكار فيما بعد وما دخل على الفكر الإسلامي من شوائب على ما سبق من التاريخ، كما لم يكن لديهم منهج خاص اجتماعي أو غيره يدعون له، وإنما كانوا يريدون أخذ السلطة من جماعة وتسليمها لجماعة أخرى تقوم بالأسلوب نفسه على طريق الوراثة وذلك ليتسنى لهم الحكم وكسب المنافع وتحقيق المصالح. ولقد ادعى المختار الثقفي كما وجدنا العمل لمحمد بن الحنفية[1] ولم يكن داعية له وإنما كان يعمل لمصلحته، ونشأت على ذلك فرقة عرفت بالكيسانية.. وبعد وفاة محمد بن الحنفية في الطائف عام ٨١هـ، ادعى بعضهم أن الإمامة قد انتقلت منه إلى ابنه عبد الله المعروف باسم (أبو هاشم) وكان أبو هاشم

---

(١) **محمد بن علي بن أبي طالب**: ابن الحنفية، أبو القاسم: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، أمه خولة بنت جعفر الحنفية من سبايا اليمامة، وينسب إليها. كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، كان المختار الثقفي يزعم أنه المهدي ويدعو إلى إمامته، وتزعم فرقة الكيسانة أنه لم يمت وإنما موجود بجبل وضوى شمال غربي المدينة المنورة عنده عسل وماء ولد في المدينة وتوفي عام ٨١هـ بالطائف.

وكان لمحمد عدد من الأولاد هم: جعفر، وعلي، وعون، وإبراهيم، والقاسم وقد أعقبوا جميعاً، وله أيضاً عبد الله، والحسن ولم يعقبا.

ينتقد الأمويين حتى شاع خبره ووصل أمره إلى سليمان بن عبد الملك، وقد زعموا أن سليمان قد أرسل له من سقاه سماً، وعندما أحس بدنو أجله انتقل إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب[1] وكان يقيم بالحميمة قرب معان من أرض الشراة من أعمال الأردن فطلب منه أن يعمل لتقويض الحكم الأموي والدعوة إلى آل البيت وقد وجدت هذه الفكرة عند محمد أذناً صاغية فبدأ يعمل لها منذ عام١٠٠هـ، فوجه ميسرة إلى العراق، وسيّر أبا محمد الصادق إلى خراسان فاختار له اثني عشر نقيباً، وكان يأخذ من أتباعه خمس الأموال يدفعونها إلى النقباء الذين ينقلونها بدورهم إلى الإمام الذي ينفقها في نشر الدعوة وما يرى فيه مصلحة.

---

(١) **محمد بن علي بن عبد الله بن عباس**: ولد عام ٦٢هـ، وكان طويلاً، وسيما، عاقلاً، حليماً مات بالشراة عام ١٢٠هـ.

يزيد بن عَبْدالملك

١٠١ - ١٠٥هـ

حَيَاته

ولد يزيد بن عبد الملك عام ٧١هـ في دمشق أيام خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، واستئثار والده عبد الملك بن مروان بالشام ومصر. لذا فقد نشأ في الرفاهية والدلال، ولم يشعر بقيمة السلطان، إذ أتاه الحكم ولم يتعب بالأمر، ولم يحس بالمعاناة التي قاساها والده وجده من قبل، ومن هنا فقد شغل عن الحكم وأحب جاريتين له هما: حبابة، وسلامة حتى يروى أنه مات كمداً عل أولاهما التي سبقته بأسبوع.

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وقد ماتت بدمشق، ودفنت في المحلة المعروفة الآن باسم قبر عاتكة نسبة لها.

كان أبيض جسيماً، مدور الوجه، وقد كني بأبي خالد.

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يتولى الأمر، وأراد أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز إلا أن قرناء السوء لم يتركوه.

تولى الخلافة وعمره تسع وعشرون سنة، فلم يكن لديه من الخبرة الكافية، والناس تحترم عادة الكبار، وتقدر أصحاب الخبرات، وعندما آل الأمر في أواخر الدولة الأموية إلى الشباب، والذين لم يشعروا بقيمة السلطان، ولم يبذلوا شيئاً في سبيله، وإنما عاشوا على الترف والرفاهية كل هذا قد أدى إلى توقف الفتح الإسلامي الذي تم فيما قبل، وبالتالي أدى هذا إلى ضعف الدولة.

وتوفي في ٢٥ شعبان عام ١٠٥هـ، وله من العمر أربع وثلاثون سنة،

وكانت مدة خلافته أربعة أعوام وشهر كاملاً، وعهد بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك، ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد.

وكانت وفاته في إربد من أعمال الأردن، ونقل إلى دمشق فدفن فيها، وله من الأولاد الذكور عشرة وهم: الوليد، والغمر، ويحيى، وسليمان، وداود وقد مات صغيراً، وعبد الجبار، وعبد الله وأمه سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وأبو سفيان، وهاشم، والعوام، ومات صغيراً.

وله من البنات عاتكة وتزوجها محمد بن الوليد بن عبد الملك.

أما الغمر، وعبد الجبار فقد قتلا يوم أبي فطرس بفلسطين عام ١٣٢هـ، أثناء هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وصلب عبد الله بن عبد الجبار بالحيرة.

الولايات

كانت الولايات الإسلامية قد خضعت في عهد يزيد إلى كثير من التغيير في أمرائها واستبدال الذين ولاّهم عمر بن عبد العزيز، كما تحرك الخوارج في العراق بموت عمر.

١ ـ الشام: كانت أكثر إماراتها بيد أبناء البيت المرواني فلم يحدث فيها شيء من التغيير، ولم تقم فيها أية حركات.

٢ ـ الحجاز:

أ ـ المدينة المنورة: نزع عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري الذي كان أميراً على الطائف، وهو الذي ولاه، وعاد بعد سنتين فعزله، وولى عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري، فكان أحب الولاة إلى أهلها، ولا يقوم على أمر حتى يستشير سالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر.

ب ـ مكة المكرمة: كان أميرها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد فعزله، وضم مكة إلى المدينة المنورة عام ١٠٣هـ فأصبح أمير المدينة هو أمير المدينتين.

٣ ـ العراق: كانت العراق مسرح كثير من الأحداث، والتغيير في الولاة.

أ ـ الكوفة: منذ أيام عمر بن عبد العزيز كان أمير الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، إلا أن مسلمة بن

عبد الملك قد عزله عندما جاء إلى العراق، وولى مكانه محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط المعروف بـ (ذا الشامة)، ثم تسلم مسلمة الكوفة، وأبقى عليها محمد بن عمرو الأمير السابق، ثم غدا عمر بن هبيرة على العراق كله والمشرق مكان مسلمة.

ب ـ البصرة: أرسل عمر بن عبد العزيز إلى البصرة عدي بن أرطأة الفزاري، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وكان يكره آل المهلب، سجن عدي أولاد المهلب وهم: المفضل، وحبيب، وعبد الملك، ومروان، وبقي محمد من أولاد المهلب خارج السجن لكن يزيد بن المهلب قد فر من سجن عمر بن عبد العزيز وتمكن أيام يزيد أن يغلب على البصرة، ويخرج إخوته من السجن، ويسجن الأمير السابق عدي بن أرطأة، ويبعث عماله إلى الأهواز، وكرمان، وفارس، وقد أرسل أخاه مدركاً إلى خراسان، وسار هو إلى واسط وولى على البصرة أخاه مروان.

أرسل يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك لقتال ابن المهلب وأرسل أمامه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك بأربعة آلاف فارس فوصل إلى الحيرة قبل وصول يزيد بن المهلب إليها، وجاء مسلمة بن عبد الملك بأهل الشام وقد سار إلى الجزيرة محاذياً نهر الفرات.

استخلف يزيد بن المهلب ابنه معاوية بن يزيد على واسط، وسار هو لقتال أهل الشام، وقد أرسل أمامه أخاه عبد الملك بن المهلب فالتقى بالعباس بن الوليد فانتصر عبد الملك في أول الأمر ثم هزم وسار نحو أخيه للقاء مسلمة بن عبد الملك قرب الأنبار وكذلك تحرك العباس بن الوليد نحو عمه مسلمة.

جاءت الجموع إلى يزيد بن المهلب فجعل عليها أخاه المفضل، ودارت معركة بين الطرفين قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوته حبيب، ومحمد، وانتصر أهل الشام، وعاد المفضل إلى واسط حيث أن ابن أخيه معاوية بن يزيد بن المهلب الذي قتل الأسرى لديه عندما علم نبأ المعركة ومنهم عدي بن أرطأة وابنه محمداً. وفي الوقت نفسه سار مسلمة بن عبد الملك إلى الحيرة فدخلها.

سار آل المهلب من واسط إلى البصرة ومنها ركبوا السفن وانتقلوا إلى كرمان فأرسل مسلمة بن عبد الملك في إثرهم مدرك بن ضب الكلبي فاقتتلوا فقتل المفضل بن المهلب ومعه النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث كما قتل جريحاً عثمان بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، وطلب الأمان مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي فأعطيه. ثم قتل آل المهلب جميعهم، ولم ينج منهم سوى أبي عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فإنهما لحقا بأرض خاقان ورتبيل.

وقام بأمر البصرة بعد خروج آل المهلب منها شبيب بن الحارث التميمي، فلما ضمت إلى مسلمة بن عبد الملك بعث إليها عبد الرحمن بن سليم الكلبي، ثم عاد فبعث إليه ابن عمه عبد الملك بن بشر بن مروان. ثم عزل مسلمة بن عبد الملك وضمت البصرة تحت إمرة عمر بن هبيرة.

٤ ـ **خراسان**: كان أميرها عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، ثم سيطر عليها آل المهلب، وتولى أمرها مدرك بن المهلب، ولما هزم أرسل مسلمة بن عبد الملك إليها ختنه زوج ابنته سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم ابن أبي العاص المعروف باسم (خذينة) إلا أن عمر بن هبيرة قد عزله وولى مكانه سعيد بن عمرو الحرشي عام ١٠٣ هـ، ولم يلبث سوى عام حتى عزل، وتولى مكانه مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابي.

٥ ـ **أرمينيا وأذربيجان**: كان عليها الجراح بن عبد الله الحكمي، وكانت له غزوات فيها.

٦ ـ **مصر**: توفي أيوب بن شرحبيل الذي ولاه عمر بن عبد العزيز، فولّى يزيد على مصر بشر بن صفوان الكلبي عام ١٠١ هـ ثم بعد مدة أرسله إلى إفريقية والياً عين أخاه مكانه حنظلة بن صفوان فبقي أميراً حتى تولى الخلافة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥هـ.

٧ ـ **إفريقية**: سار الجند في إفريقية على أميرها يزيد بن أبي مسلم فقتلوه وولوا مكانه محمد بن يزيد[1] مولى الأنصار وأخبر بذلك يزيد بن عبد الملك فأقر الوالي الجديد على عمله ولكن لم يطل أمره إذ أرسل الخليفة إلى إفريقية بشر بن صفوان الكلبي من مصر، وأرسل والي إفريقية إلى الأندلس وهو عنبسة بن سحيم الكلبي.

---

(١) **محمد بن يزيد**: أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام والياً على إفريقية عام ٩٧هـ، وعزله عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ فلما تولى يزيد بن عبد الملك ولّى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فأراد أن يسير بإفريقية سيرة الحجاج بالعراق، فقتله الجند وأعادوا محمد بن يزيد، وكان في غزو صقلية ثم عاد، وكتبوا إلى الخليفة: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامناً ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا علينا محمد بن يزيد، فتكتب إليهم الخليفة إني لم أرض بما صنع ابن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على عمله، فكانت ولايته الثانية ولكنها لم تطل.

الفتوحات

غزا العباس بن الوليد بلاد الروم عام ١٠٣ هـ على رأس صائفة، كما غزاها سعيد بن عبد الملك. وغزا عمر بن هبيرة أرمينيا فهزم أهلها وأسر سبعمائة أسير عام ١٠٢هـ، وأما الجراح بن عبد الله الحكمي أمير أرمينيا فقد غزا بلاد اللان عام ١٠٥هـ.

وسار عنبسة بن سحيم الكلبي أمير الأندلس فدخل فرنسا، واستولى على سبتمانيا، ووصل إلى حوض الرون، واستولى على مدينة ليون، وتوغل في إقليم بورغونيا. وغزا محمد بن يزيد صقلية.

ونقض أهل الصغد العهد فغزاهم المسلمون عام ١٠٢هـ، وهزموهم فارتحلوا إلى ملك فرغانة يطلبون معونته ضد المسلمين، وكرر سعيد بن عمرو الحرشي غزو بلاد الصغد عام ١٠٤هـ، كما غزا مسلمة بن سعيد الترك عام ١٠٥هـ.

الخـوارج

لما مات عمر بن عبد العزيز أرسل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب جيشاً بإمرة محمد بن جرير لمحاربة شوذب زعيم الخوارج. فانتصر الخوارج على أهل العراق وتبعوهم حتى وصلوا إلى أخصاص الكوفة والتجؤوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، وقد جرح الأمير محمد بن جرير، ورجع شوذب إلى مكانه ينتظر عودة رسوليه إلى عمر بن عبد العزيز فلما رجعا أخبراه بما صار إليه أمر عمر، وأن قد مات.

أقر يزيد بن عبد الملك عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على الكوفة، وأرسل إلى الخوارج جيشاً يقوده تميم بن الحباب، ويتكون من ألفي رجل. فقتله الخوارج وهزموا أصحابه، ثم وجه إليهم نجدة بن الحكم الأزدي فقتلوه وهزموا أصحابه. فوجه إليهم الشجاع بن وداع في ألفين فقتلوه وقتلوا نفراً من أصحابه منهم ابن عم شوذب هُدبة اليشكري.

جاء مسلمة بن عبد الملك والياً على العراق فدخل الكوفة، ودعا سعيد بن عمرو الحرشي فعقد له على عشرة آلاف ووجهه إلى شوذب، فهزم عدة مرات، ثم حملوا على الخوارج حملة رجل واحد فطحنوهم حيث كانوا قلة، وقتل شوذب.

هشَام بن عَبْدالملك

١٠٥ - ١٢٥ هـ.

حَيَاته

ولد هشام بن عبد الملك في دمشق عام ٧٢هـ، وأمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. كان جميلاً أبيض يخضب بالسواد، أحول، ذكياً له بصر بالأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، يعرف بالبخل، ويكره سفك الدماء.

استخلف هشام بعد وفاة أخيه يزيد، وبعهد منه، لأربع بقين من شعبان عام ١٠٥هـ وعمره آنذاك أربعة وثلاثون عاماً.

كان يولي أبناءه أمر الجهاد والغزو في أرض الروم وخاصة معاوية، وسليمان، وأخاه مسلمة بن عبد الملك، وابن عمه مروان بن محمد، ولم يكن هشام ليعطي أحداً من بني مروان عطاءه حتى يغزو، فكان بعضهم يغزو، ويرسل بعضهم بديلاً عنه للقتال.

وأعمر الأرض وبنى الرصافة بالقرب من الرقة، وكان يقضي صيفه فيها.

تزوج هشام بن عبد الملك أم حكيم بنت يحيى بن الحكم فأنجبت له سليمان أبا الغمر الذي قتله أبو العباس السفاح، ومسلمة، ويزيد، وسعيداً، ومحمداً.

وتزوج أم عبده بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فولدت له يحيى، وعبد الله.

وتزوج أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له مروان.

وله من الأولاد من أمهات أولاد: معاوية الذي توفي في حياة أبيه عام ١١٩هـ، وقاد الصوائف إلى بلاد الروم عشر سنوات، وهو والد عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الأموية في الأندلس. وعبد الرحمن، وعثمان، وقريش، وخلف، والوليد، وعبد الملك وله من البنات عدد أشهرهن: أم سلمة، وأم هشام.

وتوفي في الرصافة يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر عام ١٢٥هـ.

الولايات

كانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق، وثورة زيد بن علي بالكوفة، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمت في خراسان فإذا عرف بعض أتباعها قتلوا، كذلك قامت حركة يحيى بن زيد بعد هشام، أما في الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحات إذ لم تكن وصلت إليها الخلافات، وكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم. ثم انسحب المسلمون من وسط فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبي فرنسا.

١ ـ **الشام**: لم يحدث في الشام ما يلفت الانتباه، وكانت إماراتها بيد أمراء من بني مروان في أغلبها، وتنطلق الغزوات من إماراتها الشمالية حيث يجتمع الغزاة في الصوائف والشواتي نحو بلاد الروم.

٢ ـ **الحجاز**: كانت إمارات الحجاز كلها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف بيد عبد الواحد بن عبد الله النضري، ثم إن هشام بن عبد الملك قد عزله عن الحجاز، وأعطاها لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام ١٠٦هـ. وفي عام ١١٤ هـ عاد فعزل خاله إبراهيم بن هشام عن الحجاز، وأمّر خاله محمد بن هشام بن إسماعيل على مكة المكرمة، بينما أعطى أمر المدينة إلى خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ثم عاد فعزل خالداً عن المدينة وضمها إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي وذلك عام ١١٨هـ.

٣ ـ **العراق**: منذ أن تولى هشام الخلافة عزل عمر بن هبيرة عن

العراق وسائر المشرق، وأعطاها إلى خالد بن عبد الله القسري، ثم بعد أربعة أعوام انتزع خراسان منها وأعطاها إلى أشرس بن عبد الله السلمي.

وفي عام ١٢٠هـ عزل هشام عن العراق خالد بن عبد الله القسري وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي[1] الذي كان عاملاً له على اليمن، ولم يلبث أن خرج فيها زيد بن علي بن أبي طالب، وكان من قبل يقيم بالمدينة وعندما سجن يوسف بن عمر والي العراق سلفه خالد بن عبد الله القسري ذكر أنه قد أودع أموالاً عند زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ولكن زيداً قد أقسم عند والي المدينة بعدم صحة ذلك وسار إلى دمشق، وأقسم أيضاً أمام هشام ثم سار إلى العراق، وبقي فيها عدة أشهر وبيّن للوالي أنه لم يودع عنده أية أموال من قبل خالد بن عبد الله القسري، وكان يوسف بن عمر يدعوه للخروج من العراق فيتعلل ببعض أعماله، وكان يتردد عليه بعض أنصاره يدعونه للخروج على بني أمية حتى خرج عام ١٢١هـ، وقد نصحه بعدم الخروج محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وذكّره بفعل أهل العراق مع علي، والحسن، والحسين إلا أنه خرج بأربعة عشر ألفاً، إلا أن أتباعه قد خذلوه وبدؤوا يسألونه عن رأيه في أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فذكرهما بخير، فانفضّوا من حوله، فأطلق عليهم اسم «الرافضة» وبقي معه عدة مئات، فقاتل بهم قتالاً لا مثيل له، ثم استشهد بعد قتال عدة أيام وذلك عام ١٢٢هـ، وكان يهزم الجموع أمامه، ثم أصيب عند المساء وافترق الطرفان ظناً بحلول الليل، وفي الصباح لم

---

(١) **يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي**: أبو يعقوب، ولد في البلقاء بشرقي الأردن عام ٦٥هـ حيث كانت منازل أهله، وتولى إمرة اليمن لهشام بن عبد الملك عام ١٠٦هـ، ثم نقل إلى العراق، فاستخلف ابنه الصلت على اليمن، وأضيفت إليه إمرة خراسان، عذب سلفه في إمرة العراق خالد بن عبد الله القسري في السجن، ثم أطلقه فأقام بدمشق حتى عاد الخليفة فأرسله إليه فعذبه حتى مات، وهرب يوسف من العراق عام ١٢٦ بعد موت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقبض عليه وسجن في دمشق، فأرسل إليه يزيد بن خالد بن عبد الله القسري من قتله بالسجن عام ١٢٧هـ، ثأراً لأبيه. كان يوسف صغير الحجم، قصير القامة، عظيم اللحية، فصيحاً جواداً، عنيفاً، يضرب به المثل في التيه والحمق فيقال: أتيه من أحمق ثقيف.

تقم لجماعة زيد قائمة. وإلى زيد هذا تنتسب الفرقة الزيدية الموجودة في اليمن، وتعد أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة. أما ابنه يحيى فقد استجار بعبد الملك بن بشر بن مروان فأجاره، فلما بلغ ذلك يوسف أخبره بأنه إن لم يأت به ليكتبن ذلك إلى أمير المؤمنين، فأخبره عبد الملك بأنه لم يكن له أن يخفي من يقاوم سلطانهم أبداً، فقبل منه يوسف، وكفّ عن طلبه، فلما سكن الطلب خرج في جماعة له واتجه إلى خراسان.

٤ ـ **خراسان**: منذ أن تولى خالد بن عبد الله القسري أمر المشرق عزل مسلم بن سعيد عن خراسان وولى أمرها أخاه أسد بن عبد الله القسري، فأرسل أسد إلى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي أن يقوم بأمر الجند فقال مسلم بن سعيد: سمعاً وطاعة، وأبدى أسد شيئاً من العصبية لليمانية فعزله هشام عام ١٠٩هـ عن خراسان، كما فصلت عن العراق حتى تخرج عن يد خالد بن عبد الله، فاستخلف أسد مكانه على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي، ولكن هشاماً لم يلبث أن أرسل أشرس بن عبد الله السلمي.

ثم عُزل أشرس بن عبد الله السلمي عن خراسان عام ١١١هـ، وولي أمرها إلى الجنيد بن عبد الرحمن المري، فتعصب لمضر، ولكنه توفي عام ١١٦هـ، واستخلف مكانه عمارة بن حريم، حتى تولى أمر خراسان عاصم بن عبد الله.

خرج في خراسان عام ١١٦هـ الحارث بن سريج وطالب بإنصاف المظلومين فقاتله أميرها حتى انتصر عليه، وفي عام ١١٧هـ عاد هشام فعزل عاصم بن عبد الله عن خراسان، وأعاد ضمها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري الذي بعث إليها أخاه أسداً.

وعندما تولى العراق وسائر المشرق يوسف بن عمر الثقفي أرسل إلى خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله وولى مكانه نصر بن سيار.

وقد بقي يحيى بن زيد بن علي مختبئاً بخراسان عند الجريش بن عمرو بن داود ببلخ حتى مات هشام.

٥ ـ **أرمينيا**: ولّى هشام بن عبد الملك على أرمينيا عام ١١١هـ الجراح بن عبد الله الحكمي، وبقي عليها حتى استشهد عام ١١٢هـ، وكان قد استخلف أخاه الحجاج، ثم كان مسلمة بن عبد الملك، وقد خلف على باب الأبواب بعد غزوه الحارث بن عمرو الطائي. وفي عام ١١٤هـ تولّى أمر أرمينية مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان.

٦ ـ **مصر**: تولى أمر مصر في بداية عهد هشام بن عبد الملك أخوه محمد بن عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يلبث أن استبدل بالحر بن يوسف الأموي الذي بقي في منصبه عامين (١٠٦ ـ ١٠٨)، ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمي إلا أن عبد الملك بن رفاعة قد عاد مرة ثانية إلى إمرة مصر، ولكنه توفي بعد خمسة عشر يوماً من تسلمه الأمر وذلك في مطلع عام ١٠٩هـ، فاستخلف أخاه مكانه وهو الوليد بن رفاعة فأقره هشام على ذلك، وبقي الوليد في عمله حتى توفي عام ١١٧هـ. فاستعمل هشام بعده عبد الرحمن بن خالد إلا أنه كان ليناً فشكاه أهل مصر إلى الخليفة فعزله، وأعاد إلى الإمرة حنظلة بن صفوان الكلبي للمرة الثانية وذلك عام ١١٩هـ وبقي فيها حتى أرسله هشام إلى إفريقية عام ١٢٤هـ بعد مقتل كلثوم بن عياض القشيري، وولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي واستمر بعد هشام بن عبد الملك أياماً.

٧ ـ **إفريقية**: كان والي إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفي استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في إذلال القيسية ثم إن هشاماً عيّن على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن القيسي فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبآل موسى بن نصير، وفي عام ١١٦ أرسل والي مصر الوليد بن رفاعة إلى إفريقية عبيد الله بن الحبحاب فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي فأساء معاملة البربر، وولى على بلاد السوس ابنه إسماعيل فأساء معاملة البربر أيضاً، الأمر الذي دعاهم إلى الثورة، واستغلوا غياب جيش المغرب خارج البلاد في غزو صقلية عام ١٢١ بإمرة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع.

تحرك البربر عام ١٢١ بإمرة ميسرة الزناتي، وساروا إلى طنجة وقتلوا عاملها عمر بن عبيد الله المرادي، ثم اتجهوا إلى بلاد السوس وقتلوا العامل هناك أيضاً إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، ثم هزموا وتحصنوا في طنجة. ثم رجعوا وحاولوا السيطرة على القيروان فبدد شملهم عامل طرابلس صفوان بن مالك ثم تم لهم إحراز بعض النصر فأرسل لهم الخليفة جيشاً بإمرة كلثوم بن عياض القشيري وأعطاه ولاية إفريقية واستدعى عبيد الله بن الحبحاب إلى الشام.

جرت معركة كبيرة بين جيش الخليفة والبربر فقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة وذلك عام ١٢٣هـ. وتمكن بلج بن بشر القشيري ابن عم كلثوم أن يلجأ إلى طنجة وأن يعتصم فيها..

وبعد مقتل كلثوم بن عياض سيّر هشام بن عبد الملك إلى إفريقية والي مصر حنظلة بن صفوان، وحاول البربر حصاره في القيروان إلا أنه تمكن من إنزال الهزيمة بهم الأمر الذي أعاد الهيبة للأمويين في بلاد المغرب.

٨ ـ **الأندلس**: بعد أن استشهد عنبسة بن سحيم الكلبي في غزوة داخل فرنسا عام ١٠٧هـ، حدثت خلافات استمرت أربع سنوات، ثم تولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، ولكن عبيد الله بن الحبحاب الذي وصل إلى إفريقية قد عزل عبد الملك بأمر الخليفة وأرسل إلى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي العبسي فسار إليها عقبة وملكها، ودخل فرنسا، واستقر في سبتمانيا، كما فتح بعض أراضي جيليقية في شمال بلاد الأندلس، وقد أسلم على يديه أكثر من ألف رجل، ثم سار أهل الأندلس عليه عام ١٢٣ فخلعوه، وتوفي بعد قليل بقرطبة. ونادى أهل الأندلس بعبد الملك بن قطن الفهري أميراً عليهم.

تحرك البربر في الأندلس فأذن عبد الملك بن قطن الفهري لبلج بن بشر بدخول الأندلس، وكان في طنجة، فدخل بشر وتمكن من الانتصار على البربر في معركة شذونة، وبعدها طلب أمير الأندلس من بلج الخروج

من الأندلس فرفض وحدث خلاف بين الطرفين قتل نتيجته عبد الملك بن قطن وغدا بلج بن بشر أمير الأندلس.

لم يلبث بلج بن بشر القشيري أن توفي بعد عام تقريباً متأثراً بجراحه التي أصيب بها في معاركه التي خاضها، وخلفه ثعلبة بن سلامة الذي جاء وبلج مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية ولكن حنظلة بن صفوان أمير إفريقية قد بعث إلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي حسب أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك.

الفتوحات

لم تعد هناك فتوحات واسعة كالتي حدثت أيام الوليد، وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون إثرها إلى ثغورهم، أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانيةً ودفع الجزية.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: استمرت الغزوات في أرض الروم طيلة أيام هشام فكانت تندفع الصوائف والشواتي مجاهدة في البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغييرات في الحدود، وإنما توغل في أرض الروم، ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس.

وكان أشهر قادة تلك الغزوات: مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله البطال، وسعيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن هشام، والوليد بن القعقاع العبسي، والنعمان بن يزيد بن عبد الملك، ومسلمة بن هشام بن عبد الملك. وفي عام ١٠٧هـ غزا معاوية بن هشام الصائفة، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر إلى قبرص.

وفتح مسلمة بن عبد الملك عام ١٠٨هـ مدينة قيصرية، ثم رجع عنها إلى الثغور. ووصل سعيد بن هشام عام١١١هـ إلى مدينة قيصرية أثناء توغله

في أرض الروم. وهزم عبد الله البطال قسطنطين وجيشه، وأسره، ووصل سليمان بن هشام إلى مدينة قيصرية ثانية.

ورابط معاوية بن هشام عام ١١٣هـ في ناحية مرعش، وكان قد فتح حصن خرشنة قبل عام.

ب ـ في البحر: كذلك فقد حدثت غزوات بحرية للجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر قادة البحر: عبد الله بن عقبة بن نافع، وعبد الله بن أبي مريم، وميمون بن مهران، وغزا أمير إفريقية جزيرة صقلية عام ١٢١هـ، وكان قائد الغزو حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الذي استطاع فتح مدينة سرقوسة، وكذا غزا أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا عام ١١٧هـ بإمرة قثم بن عوانة الذي تمكن من الاستيلاء على قلعة الجزيرة إلا أن المقاتلين قد غرقوا في البحر عند عودتهم...

حـ ـ في الأندلس: استشهد عنبسة بن سحيم الكلبي بعد تقدمه في فرنسا وفي أثناء عودته إلى قاعدته، فأضعف قتله معنويات المسلمين فاضطروا إلى الانسحاب إلى ناربونة قاعدته في جنوبي فرنسا، وتولى أمر الأندلس عبد الرحمن الغافقي فخرج في ثمانية آلاف مقاتل، واستولى على إكيتانيا، كما ضم إليه وادي الرون ثانية، واستعان دوق إكيتانيا بالفرنجة فجمع شارل مارتل جنداً كثيراً كان أكثرهم عراة، وجرت معركة في بواتييه بعد مناوشات دامت ثمانية أيام، ووقع اضطراب في صفوف المسلمين، وأصيب عبد الرحمن الغافقي، فاختلفت كلمة رؤساء الجند، فانسحبوا ليلاً دون علم الفرنجة وذلك عام ١١٤هـ وعرفت تلك المعركة باسم بلاط الشهداء، ولم يبق للمسلمين في فرنسا سوى مقاطعة سبتمانيا.

ودخل عقبة بن الحجاج سبتمانيا، وقام بفتح بعض المناطق التي بقيت مستعصية على المسلمين في شمالي بلاد الأندلس.

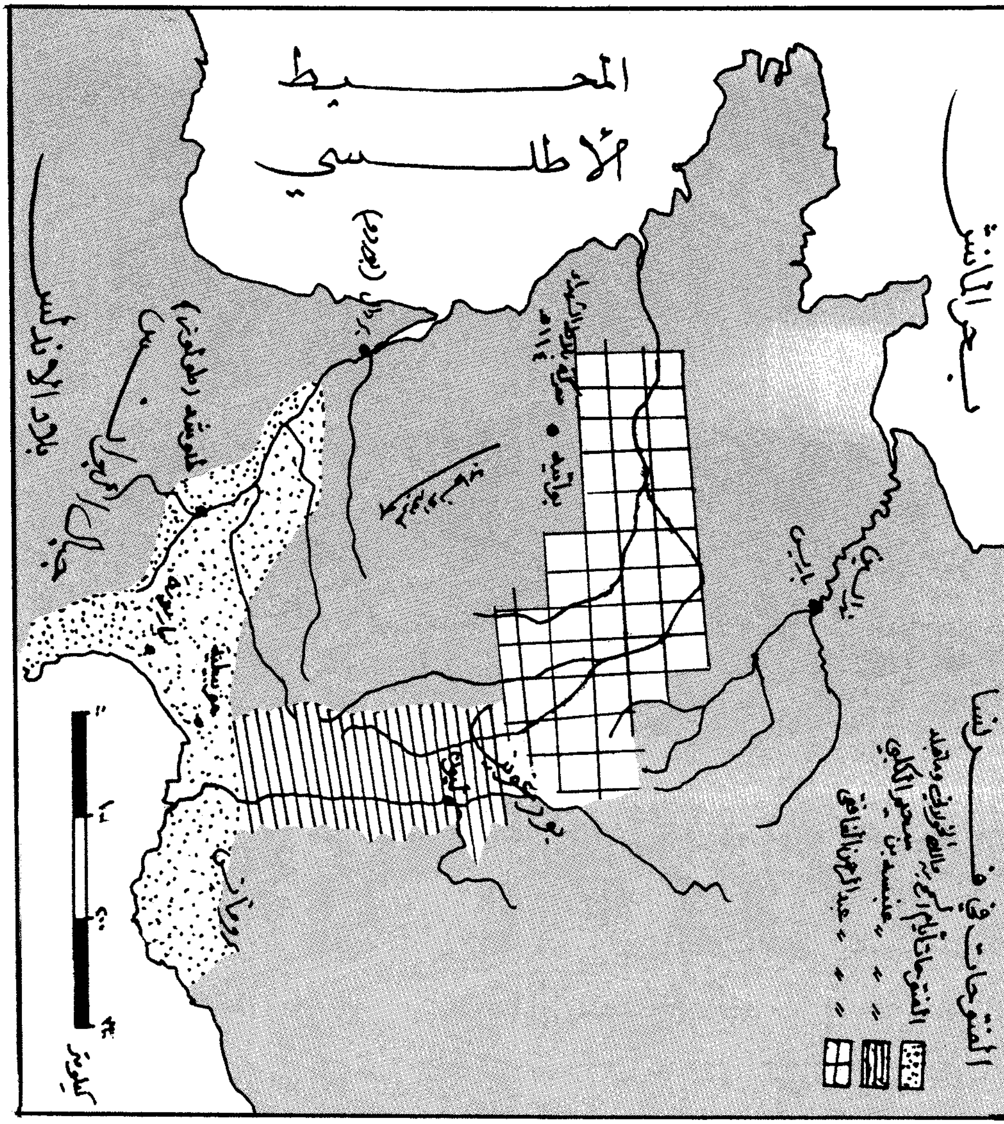

الفتوحات في فرنسا
الفتوحات أيام السمح بن مالك الخولاني وما قبله
عنبسة بن سحيم الكلبي
عبد الرحمن الغافقي
بحر المانش
باريس
المحيط الأطلسي
بواتييه
معركة بلاط الشهداء
١١٤ هـ
بردال (بوردو)
ليون
أربونة
جبال البرانس
بلاد الأندلس
كيلومتر

٢ ـ الجبهة الشرقية:

أ ـ أرمينيا: كثر الغزو في أرمينيا وبلاد اللان أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة، الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمي، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمي، والحارث بن عمرو الطائي، وإسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد.

فقد غزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها على أن يؤدوا الجزية إلا أنهم نقضوا العهد فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام ١١٠هـ، وسار الترك إلى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو عام ١١٢هـ فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان في العام نفسه. ولم يكن جيشه قد اكتمل إعداده بعد فاستشهد هو ومن معه من الجند بأردبيل، وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم حتى تجاوز باب الأبواب فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائي. وعاد إليهم مسلمة، في العام التالي ١١٣هـ ففرق جنده في أرضهم، فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هزم عام ١١٤هـ ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام ١١٧هـ الأمر الذي جعلهم يقرون بالجزية، ولم يلبثوا أن نقضوا العهد فغزاهم عام ١٢٠هـ إسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد الذي افتتح بلاد السرير فدانت له وأدت الجزية عام ١٢١هـ، وتوفي في ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذي دوخ الروم والترك.

ب ـ بلاد ما وراء النهر: ما انقطع القتال في بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة: أسد بن عبد الله القسري، ومسلم بن سعيد، والجنيد بن عبد الرحمن، وسعيد بن عمرو الحرشي، ونصر بن سيار.

غزا مسلم بن سعيد الترك فأتى فرغانة وفروا من أمامه عام ١٠٦هـ، وفي العام الذي تلاه غزا أسد بن عبد الله القسري الجبال فصالحه الملك نمرون وأسلم على يديه، كما سار إلى جبال هراة، ومنها انطلق إلى الخُتّل فحاربهم حتى أجبرهم على الصلح، ثم نقضوا عهدهم فقاتلهم سعيد بن عمرو الحرشي، وهزمهم في عدة وقائع عام ١١٢هـ، لكنهم لم يلبثوا أن هاجموا سمرقند فاستنجد أميرها بالجنيد بن عبد الرحمن، فانتصرت الترك، وقتلت عدداً كبيراً من المسلمين، ثم ثبت المسلمون فردوا الترك وهزموهم.

وغزا أسد بن عبد الله القسري عام ١١٩هـ بلاد الختل، وقتل ملكهم بدر طرخان، كما سار إلى بلاد الترك فلقي خاقان فقتله، وتوفي أسد بعد ذلك عام ١٢٠هـ. وسار نصر بن سيار إلى بلاد ما وراء النهر مرتين، وفي المرة الثالثة أسر الملك كورصول وقتله عام ١٢١هـ، وصالح أهل الصغد عام ١٢٣هـ، وغزا في العام نفسه فرغانة مرتين.

ثم خرج في العام نفسه وزير السختياني بالحيرة واجتمعت حوله جماعة قليلة وعاثت في الأرض فساداً فأرسل لهم والي العراق قوة انتصرت عليهم، وقتلت معظمهم، وأُخذ وزير السختياني وبعض أصحابه أسرى، وحملوا إلى الوالي، فقتل الخوارج واستبقى أميرهم لما رأى من ذكائه وبيانه، وكان يدعوه أحياناً من السجن ويستمع إليه، ووصل خبر ذلك إلى هشام بن عبد الملك فأنّب الأمير وطلب منه قتل الخارجي فقتله.

وخرج الصحاري بن شبيب عام ١١٩هـ بناحية واسط فأرسل له خالد بن عبد الله القسري جنداً، فجرت معركة عظيمة بين الطرفين أُبيد فيها الخوارج.

الخوارج

كانت حركات الخوارج أيام هشام بن عبد الملك موضعية فلم تتجاوز أرض العراق، وعلى نطاق ضيق فلم تتجاوز مساحات صغيرة، ولم تتعد عدداً محدوداً من الرجال، ولم تستمر إلا مدة بسيطة إذ لا يلبث مثيرها ومشعل فتنتها أن يقتل وتنتهي بموته الحركة التي قام بها، ثم تقوم حركة ثانية وهكذا.

فقد خرج بهلول بن بشر الملقب كثارة بأربعين رجلاً في قرية من قرى الموصل عام ١١٩هـ فأرسل إليه والي العراق خالد بن عبد الله القسري جماعة من الشام جاءوا في الأصل مارين بالعراق وذاهبين مدداً لعامل الهند فعندما نزلوا الحيرة أرسلهم خالد بن عبد الله للخوارج إلا أنهم هزموا، فلما بلغت هزيمتهم خالداً أرسل إلى الخوارج جماعة أخرى فالتقت بهم بين الموصل والكوفة ولكنها لم تلبث أن هزمت أمام الخوارج وعادت فلولها إلى الذي أرسلها وهو بالكوفة ينتظر نتيجة المعركة. وأراد بهلول أن يسير إلى الشام فخافه عمال المدن، فأرسل إليه خالد جماعة من الشام وأخرى من العراق، وعبأ له عامل الجزيرة جنداً ولم يكن مع بهلول سوى سبعين رجلاً، والتقى الخوارج بجموع أعدائهم قرب الموصل، فقتل بهلول بعد أن استخلف بعده دعامة الشيباني، ومن بعده عمرو اليشكري، وبعد مقتل بهلول وهزيمة الخوارج ترك دعامة جماعته ممن بقي من الخوارج وفرّ وحده.

وخرج بعدئذ وفي العام نفسه عمرو اليشكري إلا أنه لم يلبث أن قتل.

وخرج العنزي صاحب الأشهب في ستين رجلاً فوجه إليه خالد بن عبد الله القسري أربعة آلاف بإمرة السمط بن مسلم البجلي فالتقى الجمعان على الفرات فهزم الخوارج، وقتلت فلولهم عند الكوفة من عامة الناس.

الدّعوَة العبّاسِيّة

كان بكير بن ماهان مع الجنيد بن عبد الرحمن في السند يعمل ترجماناً له فقدم بكير إلى الكوفة عام ١٠٥هـ في بدء خلافة هشام بن عبد الملك فالتقى هناك بدعاة الدعوة العباسية مثل أبي عكرمة، وأبي محمد الصادق فذكروا له الدعوة لبني هاشم فوافقهما على العمل في عدادها، ودخل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فوجد محمد في بكير ضالته فقدّمه، ومات داعية بني العباس ميسرة فكان بكير مكانه، فوجه إلى خراسان أبا عكرمة، وأبا محمد الصادق فانكشف أمرهما بعد أن وُشي بهما إلى والي خراسان أسد بن عبد الله القسري فقتلهما عام ١٠٧هـ وعاد فوجه دعاة آخرين إلى خراسان عام ١٠٨هـ فكان مصيرهم مصير سابقيهم نفسه، إلا أن الدعوة قد توسعت فقتل الجنيد بن عبد الرحمن أحد هؤلاء الدعاة وأعلن أن دم من يقتل من هؤلاء يذهب هدراً وذلك عام ١١٣هـ، فخاف الناس إلا أن الشدة وحدها لا تكفي للوقوف في وجه دعوة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري مرة ثانية إلى ولاية خراسان وذلك عام ١١٧هـ، واتخذ سبيل الشدة في مقاومة أنصار العباسيين.

ووجه بكير بن ماهان إلى خراسان عمّار بن يزيد ليكون أميراً على أنصار الدعوة العباسية فجاء عمار إلى مرو، وغيّر اسمه إلى خداش فأطاعه عدد من الناس، ثم انقلب على العباسيين ودعا إلى الإباحية ورخص لبعض أصحابه في نساء بعض، وادعى أن ذلك عن أمر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فلاحقه أسد بن عبد الله فعثر عليه وقتله عام ١١٨هـ إلا أن محمد بن علي قد أنكر أمر أنصاره في خراسان واتباعهم خداش،

ونفض يده منهم، وانقطع عن مراسلتهم، فأرسلوا إليه سليمان بن كثير ليتعرف على أسباب الجفوة لكن سليمان عاد دون جواب، فأرسل إليهم بكير بن ماهان كتاباً يعلمهم أن خداش سار على خط لا ترضى عنه الدعوة وفيه مخالفة صريحة إلا أن أنصارهم في خراسان قد استخفوا بكتاب بكير ولم يصدقوه فسار بكير إلى محمد بن علي فبعث لهم معه ما يبين له مخالفتهم للدعوة فرجعوا عن غيّهم وتابوا.

ومات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عام ١٢٤هـ، وقام بعده بشأن الدعوة ابنه إبراهيم بن محمد بن علي.

وظهر في هذه الآونة أبو مسلم الخراساني الذي كان في السجن يخدم أحد عمال خالد بن عبد الله القسري الذي سجنهم والي العراق يوسف بن عمر الثقفي فاشتراه بكير بن ماهان، وأرسله إلى إبراهيم بن محمد بن علي، فأعطاه إلى أبي موسى السراج ليؤدبه فسمع منه وحفظ.

الوَليد بن يزيد

١٢٥ - ١٢٦هـ

حَيَاتُه

ولد الوليد بن يزيد عام تسعين للهجرة، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي ابنة أخ الحجاج بن يوسف والي العراقين أيام عبد الملك وابنه الوليد، ويكنى أبا العباس.

عهد إليه بالخلافة أبوه يزيد بن عبد الملك بعد عمه هشام بن عبد الملك، كان عمه يكرمه حتى ظهرت عليه علامات الاستهتار والشراب فوقعت بينهما وحشة. فعزم هشام على خلعه وتولية ابنه مسلمة بن هشام، ففر الوليد إلى البرية، ولم يزل بها حتى مات هشام، وكان الزهري يحثّ هشاماً على خلعه، ومات الزهري قبل تولية الوليد، ولو عاش لناله من الوليد أذى كبيراً. وكان هشام يخشى الفتنة فلم يقدم على خلعه.

بويع الوليد بعد وفاة عمه هشام في ٦ ربيع الثاني. وعمر خمسة وثلاثون عاماً، فسار في أول الأمر بالناس سيرة حسنة فأعطى زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وزاد في الأعطيات. وكان كريماً وشاعراً مجيداً.

عقد من بعده لولديه الحكم، وعثمان ولاية العهد، وبعث بالبيعة إلى والي العراقين يوسف بن عمر الثقفي، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيّار.

ولّى على الحجاز (المدينة ومكة) خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي وعزل خالي عمه هشام، إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي وأمر خاله أن يقيمهما بالمدينة مهانين، ثم يبعث بهما إلى العراق إلى يوسف بن عمر الذي عذبهما حتى ماتا.

وفي أيامه غزا أخوه الغمر بن يزيد بن عبد الملك قبرص، وخيّر أهلها بين نقلهم إلى الشام أو إلى بلاد الروم لما كان يبدو منهم حيناً بعد حين فانتقلت جماعة إلى الشام واختارت جماعة بلاد الروم.

وفي عهده قتل يحيى بن زيد بن علي زين العابدين إذ كان مختفياً بخراسان عندما مات هشام بدار الحريش بن عمرو بن داود بمدينة بلخ، فوصل خبره إلى يوسف بن عمر فكتب بذلك إلى نصر بن سيّار الذي أرسل إلى نائب بلخ يعلمه بخبر يحيى فبعث نائب بلخ إلى الحريش وضربه ستمائة سوط ولم يعلمه بشيء عن أمر يحيى، ثم أخبر عنه ولد الحريش، فأخذ يحيى، وسجن، وكتب نصر بن سيار بذلك إلى يوسف بن عمر فبعث إلى الوليد بما تمّ، فكتب الوليد إلى نصر يأمره بإطلاقه وإرساله إليه مع أصحابه فامتثل نصر وفعل ذلك، فلما كان يحيى ببعض الطريق توسم نصر به غدراً فأرسل إليه جيشاً من عشرة آلاف فقاتلهم يحيى وليس معه سوى سبعين رجلاً، وهزمهم، وقتل أميرهم، وأخذ منهم أموالاً كثيرة، ثم جاءته قوة أخرى فقتلته وجميع أصحابه.

أساء الوليد لولد عمه فضرب سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وغرّبه إلى عمان حيث حبسه هناك وأرسل العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الرصافة ليحصي أموال هشام وولده إلا مسلمة بن هشام، وأن يأخذ عمّاله وخدمه ففعل ذلك، ثم أساء كذلك إلى أولاد عمه الوليد بن عبد الملك.

وأساء إلى اليمانية إذ قتل خالد بن عبد الله القسري حيث سلمه إلى خصمه يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين وكان يقيم بدمشق منذ عام ١٢١هـ فعذبه يوسف حتى مات.

وأساء إلى نفسه إذ بايع لولديه ولم يبلغا سن الرشد بعد. وأسرف في شهواته، وانتهك المحرمات، فثقل ذلك على الناس، ونقموا عليه، وبايعوا سراً ابن عمه يزيد بن الوليد، وكان معروفاً بصلاحه، فنادى يزيد بخلع الوليد الذي كان غائباً بـ (الأغدف) من عمان من جهات الأردن، وقد وضع

نائباً عنه بدمشق خاله عبد الملك بن محمد بن يوسف الثقفي الذي فرّ إلى قطنا وتحصّن بها، واستخلف ابنه على دمشق، واستطاع يزيد بن الوليد أن يدخل دمشق وأن يرسل جماعة من أصحابه بإمرة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك إلى الوليد بن يزيد فقتلوه في (البخراء) في القصر الذي كان للنعمان بن بشير.

وكان مقتله في ٢٨ جمادى الآخرة فكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر تقريباً.

وكان للوليد من البنين الحكم، وعثمان، ويزيد، والعباس، والعاص، وسعيد، وموسى، والفتح، وفهد، وقصي، ولؤي، وواسط، وذؤابة، والمؤمن. وله عدة بنات.

ومن زوجاته عاتكة بنت عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان بن حرب. وقد أنجبت له عثمان، وأم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، وولدت له سعيداً.

يزيد بن الوَليد

١٢٦ - ١٢٦هـ

حَيَاتُه

ولد يزيد بن الوليد بدمشق عام ٩٠هـ، وأمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى، وقد سباها قتيبة بن مسلم الباهلي، هي وأختاً لها فبعثهما إلى الحجاج بن يوسف، فأرسل بهذه إلى الوليد، واستبقى أختها عنده، فولدت هذه يزيد بن الوليد، وقد عرف بالناقص وذلك لأنه أنقص ما زاده الوليد على الأعطيات، ويبدو أن الذي أطلق عليه ذلك ابن عمه مروان بن محمد.

كان رجلاً صالحاً نقم على ابن عمه الوليد بن يزيد بسبب ما انتهكه من حرمات، وقتله لذلك، وكان يقال: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، والمراد بالأشج عمر بن عبد العزيز.

بويع للخلافة بعد مقتل ابن عمه الوليد بن يزيد في ٢٨ جمادى الآخرة عام ١٢٦هـ، وتوفي بالطاعون في ٧ ذي الحجة من العام نفسه وبذا تكون خلافته ما يقرب من ستة أشهر، ويكون قد عاش ستاً وثلاثون سنة.

كان يزيد أسمر طويلاً، صغير الرأس، بوجهه خال، وكان جميلاً.

وله من الأولاد: خالد، والوليد وقد قتلهما مروان بن محمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، وأبو بكر، وعلي، وعبد المؤمن، والأصبغ.

وقد اضطربت الأمور على يزيد، وانتشرت الفتن، واختلفت كلمة بني مروان.

وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان من سجن الوليد،

فاستولى على الأموال والأرزاق، ثم جاء بعد هذا كله إلى دمشق، وصار يلعن الوليد فأكرمه يزيد، وردّ إليه أمواله التي أخذها منه الوليد، وتزوج أخته أم هشام.

وثار أهل حمص، وساروا إلى دار العباس بن الوليد بن عبد الملك فهدموها، ففر العباس منهم إلى دمشق، وبدأ أهل حمص يطالبون بدم الوليد بن يزيد، وعدوا خليفتهم ابنه الحكم بن الوليد، فخلعوا أميرهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك، وقتلوه وابنه، وأمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين، وكتبوا إلى الأجناد يطلبون الأخذ بثأر الوليد فأتتهم أعداد، ثم ركب أبو محمد السفياني في أهل حمص، وسار إلى دمشق فتلقاهم سليمان بن هشام بجيش كثيف أرسله إليهم يزيد بن الوليد، وجعل جيشاً آخر بإمرة أخيه عبد العزيز بن الوليد يرابط عند ثنية العقاب (الثنايا)، وتركزت جماعة أخرى عند عقبة (السلّيمة)، وجاء أهل حمص فالتقت القوتان في سفوح الجبل، وهُزم أهل حمص وقُتل منهم الكثير، وأخذ السفياني أسيراً، ثم بايعوا يزيداً.

وثار أهل فلسطين وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وبايع أهل الأردن محمد بن عبد الملك بن مروان فأرسل إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام وحمص بإمرة سليمان بن هشام فانتصر عليهم، وبايعوا يزيداً.

وعزل يوسف بن عمر الثقفي عن العراق، وأرسل مكانه منصور بن جمهور، وضم إليه مع العراق السند، وسجستان، وخراسان وفر يوسف إلى أرض البلقاء من نواحي الأردن، فأحضره الخليفة، وحاسبه، وسجنه.

ثم عاد يزيد فعزل منصور بن جمهور عن العراق وولى مكانه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وأقر نصر بن سيار على خراسان.

وكان مروان بن محمد بأرمينيا وأذربيجان يحرض على المطالبة بدم الوليد بن يزيد، وسار نحو دمشق فلما بلغ حرّان أظهر الموافقة وبايع.

ثم إن الخليفة يزيد بن الوليد قد عزل عن الحجاز يوسف بن محمد الثقفي، وولى عليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.

وبايع يزيد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. ولم يلبث يزيد أن توفي بالطاعون في ٧ ذي الحجة من العام نفسه ١٢٦هـ.

وبدأت الفتنة في هذه الآونة تظهر بين القيسية واليمانية، ولطالما كانت مجالاً للحماسة في الجهاد، وتسهيلاً لأمور العطاء، وجمع المقاتلين فلما ضعف الجهاد انقلبت إلى عصبية نتنة، وبدأت تطول قرونها.

وظهرت الفتنة بشكل خاص في خراسان حيث كانت اليمانية تشكل أكثر جندها، وحيث كان لآل المهلب بن أبي صفرة الأزدي أنصار، وخصوم لمن خضد شوكتهم، ثم جاء أسد بن عبد الله القسري، وأخونه خالد بن عبد الله والي العراقين فعادت إلى اليمانية قوتهم، إلا أن يوسف بن عمر الثقفي قد أذلّ القسريين، وغدا نصر بن سيار الكناني والي خراسان وهو من القيسيين. وكان أول من أثار الفتنة بخراسان رجل عرف باسم الكرماني حيث ولد بكرمان.

إبراهِيم بن الوَليد

١٢٧ هـ.

حَيَاته

لما وصل خبر وفاة يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، وهو في حرّان بالجزيرة وبيعة إبراهيم بن الوليد سار نحو دمشق وخلف ابنه عبد الملك بن مروان بن محمد في أربعين ألفاً يرابطون في الرقة، فلما كان في قنسرين وعليها بشر بن الوليد اصطدما وطلب مروان أخذ البيعة لنفسه فمال إليه من جند قنسرين يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية، وأسلموا له بشراً وشقيقه مسروراً، فحبسهما، وسار ومن معه من جند الجزيرة وقنسرين نحو حمص وكان أهلها قد رفضوا بعد يزيد بيعة إبراهيم ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

أرسل إبراهيم بن الوليد إلى حمص عبد العزيز بن الحجاج فحاصرها فلما اقترب منها مروان فكّ عبد العزيز عنها حصار واتجه نحو مروان، فخرج أهل حمص وانضموا إلى مروان، وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها مروان الذي كان يدعو إلى بيعة ولدي الوليد بن يزيد وهما: الحكم، وعثمان، وكانا سجينين في دمشق.

ولما وصلت فلول جيش إبراهيم بن الوليد إلى دمشق رأوا قتل من في السجن فقتل الحكم، وعثمان ولدا الوليد، ويوسف بن عمر الثقفي، ودرأ عن نفسه السفياني إذ لم تلبث أن وصلت جيوش مروان إلى دمشق ودخلتها.

وهرب منها إبراهيم بن الوليد، وسليمان بن هشام، وقتل عبد العزيز بن الحجاج.

وخرج في الكوفة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي

طالب فقد شجعه بعض الناس على الدعوة لبني هاشم وقد وقعت الفتنة في بني مروان ففعل بينما هو قادم لزيارة الأمير عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في الكوفة لا للدعوة إلى البيعة إلا أن أصحابه قد خذلوه فهزم ففر إلى المدائن ومنها إلى الجبال فغلب عليها.

وكان إبراهيم بن الوليد يكنى بأبي إسحاق، وأمه أم ولد، وقد بقي في الحكم مدة سبعين يوماً فقط، ثم خلع، وبقي حتى أصيب عام ١٣٢هـ.

وله من الأولاد: إسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، وموسى، وعبيد الله.

مـــروَان بن محـَمّد

١٢٧ - ١٣٢هـ.

حَيَاته

ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم عام ٧٢هـ بالجزيرة، . وكان أبوه محمد بن مروان والياً عليها، ويكنى مروان بأبي عبد الملك، ويلقب بالحمار لجرأته في الحروب، كما يلقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم.

كان مروان أبيض، ضخم الهامة، بليغاً، وكاتبه عبد الحميد الكاتب المشهور.

غزا أرض الروم عام ١٠٥هـ وفتح مدينة قونية، كما قام بعدد من الغزوات، وهو أمير أرمينيا وأذربيجان بعد أبيه:

ومن أولاده: عبد الله، وعبيد الله، وعبد الملك، وعبد الرحمن، وعبد الغفار، وعثمان، وأبو عثمان، ويزيد، وأبان، ومحمد.

بويع بالخلافة بعد دخوله دمشق في الأيام الأواخر من عام ١٢٦هـ، واستمر خليفة حتى أواخر عام ١٣٢ حيث زال بزوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، فكانت خلافته ما يقرب من ست سنوات، وعاش ما يقرب من ستين عاماً.

لما دخل دمشق فرّ منها إبراهيم بن الوليد، وأخذ سليمان بن هشام ما في بيت المال من أموال وهرب أيضاً، وثار والي الوليد بن يزيد السابق عليها على عبد العزيز بن الحجاج فقتله. وجيء إلى مروان بولدي الوليد بن يزيد وهما: الحكم، وعثمان مقتولين، وكذا يوسف بن عمر فدفنهم، وجاء أبو محمد السفياني الذي كان مسجوناً معهم، وقد نجا من القتل ـ فسلم على مروان بالخلافة، فعندما أجابه مروان: مه، ادعى أن

الغلامين قد جعلاها له من بعدهما، ثم بايعه وبايعه أهل حمص ودمشق، فاختار الأمراء للولايات. ولما استقرت له الأمور بالشام رجع إلى حرّان فأقام بها. ثم إن إبراهيم بن الوليد قد طلب منه الأمان فأعطاه إياه، وكذلك سليمان بن هشام الذي جاءه مع أهل تدمر وبايعه.

ولم يستقر في حرّان سوى ثلاثة أشهر حتى قامت ضده الحركات، فبدأ ينتقل من مكان إلى مكان يقضي على هذه، ويقاتل تلك.

ثار أهل حمص فجاء إليهم بجيش ومعه إبراهيم بن الوليد، وسليمان بن هشام فدخل حمص، وأعلن أهلها الطاعة إلا أنه قتل عدداً منهم.

وثار أهل غوطة دمشق، وأمّروا عليهم يزيد بن خالد بن عبد الله القسري، فبعث إليهم مروان جيشاً انتصر عليهم، وأحرق بلدة المزة، وعدة قرى، وقتل يزيد بن خالد القسري.

وثار ثابت بن نعيم في أهل فلسطين، وسار إلى طبريا فحاصرها، فأرسل إليهم مروان من فك الحصار عن طبريا، وتتبعهم أبو الورد أمير جيش مروان إلى فلسطين.

ورجع مروان إلى الجزيرة عن طريق تدمر، وفي الرصافة استأذنه سليمان للبقاء فيها ريثما يعافى من مرضه فأذن له، واشتغل مروان بقتال الخوارج. وجاءت سرايا من الجند إلى الرصافة، وكان مروان قد أرسلها بمهمات إلى عدة جهات، فكلّم رؤساؤها سليمان في أخذ البيعة لنفسه وخلع مروان ففعل فبايعه الجند، وسار إلى قنسرين، وكاتب أهل الشام ويزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق فأرسل إليهم مروان جيشاً بإمرة عيسى بن مسلم فالتقى الطرفان بأرض قنسرين فاقتتلوا وجاء مروان بنفسه إلى المعركة فانتصرت قواته، وقتل إبراهيم بن سليمان بن هشام أكبر أولاد أبيه، وفرّ سليمان إلى حمص، واحتمى فيها، وساعده أهلها، وجمع حوله فلول جيشه، وجاء مروان إليهم وحاصرهم واستمر الحصار عشرة أشهر،

وانفلت سليمان بن هشام بجماعة من الجند نحو تدمر، ثم إن أهل حمص قد نزلوا على حكم مروان بعد ذلك الحصار الطويل.

ووقعت العصبية في العراق فكانت القيسية مع النضر بن سعيد الحرشي، واليمانية مع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وحدث بين الطرفين صراع إلا أنه توقف بسبب الاتفاق على قتال الخوارج، ثم ولى مروان عام ١٢٩ على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وعزل ابن عمر بن عبد العزيز عنها.

وقاتل يزيد بن عمر بن هبيرة أنصار عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، وقد استولوا على منطقة الجبال فهزمهم وأسر عدداً منهم، من بينهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان معهم.

ورجع إلى خراسان الحارث بن سريح وكان قد لجأ إلى بلاد الترك فكتب إليه يزيد بن الوليد وأعطاه الأمان فعاد عام ١٢٧هـ، وبعودته كادت أن تقع فتنة بسبب مفارقته للوالي نصر بن سيار، ولكن الحارث قتل بعد مدة، كما وقعت الفتنة بين نصر بن سيّار والكرماني، ثم توسعت بين القيسية التي دعمت الوالي نصر بن سيار وبين أتباع أبي مسلم الخراساني الذي اعتمد على اليمانية.

وقتل نصر بن سيّار خصمه الكرماني فانضم أنصاره إلى جند أبي مسلم فزاد عدد أنصاره، وأتباع الدعوة العباسية.

الخــوارج

خرج في العراق سعيد بن بهدل الشيباني أثناء فتنة مقتل الوليد بن يزيد، واجتمع حوله عدد كبير من الخوارج فجاءتهم جيوش الخليفة، وبدأ القتال بين الطرفين، ومات سعيد بن بهدل بالطاعون، واستخلف مكانه الضحاك بن قيس الشيباني الذي قاتل أهل العراق وانتصر عليهم، وقتل عدداً كبيراً من بينهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ثم دخل الضحاك الكوفة بعدما انتصر على أهلها، وجاء أمير العراق إلى الكوفة فجرت بين الطرفين معارك واسعة انتقل بعدها الأمير إلى واسط، وسار وراءه الضحاك فحاصره فيها، فراسله الأمير بأن يفك الحصار، ويسير إلى الخليفة فإن انتصر عليه تبعه، ففعل، وسار الضحاك إلى الموصل فدخلها، وقتل نائبها، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر لحمص فكتب إلى ابنه عبد الله أن يتتبع الضحاك فسار إليه، وهو محاصر نصيبين، وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها الضحاك، وكان قد استخلف مكانه رجل يدعى «الخيبري»، وتبع الخوارج سليمان بن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ومن معه من جيشه، فسار إلى الخوارج مروان بنفسه، وكان في القلب، وعلى ميمنته ابنه عبد الله، وعلى الميسرة إسحاق بن مسلم العقيلي، والتقى الجمعان وشدّ الخوارج على القلب فهزم مروان وهو عليه، وثبتت الميمنة والميسرة فحملوا على الخوارج فأزالوهم عن مواضعهم وقتل الخيبري، وفرّ أصحابه. وتولى أمر الخوارج بعده شيبان بن عبد العزيز اليشكري فاقترح عليه سليمان بن هشام أن يعتصم بالموصل، فتحصن بها، وسار إليه مروان، وجرت هناك معارك بين الجانبين استمرت سنة كاملة.

وكتب مروان إلى والي العراق الجديد يزيد بن عمر بن هبيرة أن يقاتل الخوارج وأن يتتبعهم حيثما ساروا، وقد تمكّن يزيد أن يستعيد الكوفة منهم، وأن يقضي على قسم كبير منهم، ثم أرسل سرية لدعم مروان في حصاره لمدينة الموصل، وعندما جاءت النجدة لمروان ترك الخوارج الموصل وساروا إلى حلوان، ومنها إلى الأهواز، فلحقتهم قوات ابن هبيرة حتى قضت على معظمهم، أما سليمان بن هشام الذي كان معهم فقد سار وأهله إلى السند عن طريق البحر. وعاد مروان بعدها إلى حرّان فأقام بها.

وخرج أبو حمزة الخارجي، وسار إلى الحج عام ١٢٩هـ، وهادن أمير الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وبعد الموسم سار نحو المدينة ودخلها عام ١٣٠هـ واستولى عليها، وبقيت، بيده ثلاثة أشهر، وفرّ منها أميرها عبد الواحد، فأرسل مروان قوة من أهل الشام إلى المدينة فالتقت مع الخوارج بوادي القرى فهزمتهم ودخلت المدينة، ثم تابعت سيرها إلى مكة فاليمن فخرج إمامها عبد الله بن يحيى الذي كان أبو حمزة الخارجي يدعو له ويقاتل باسمه، وقد تمكن أهل الشام من قتل عبد الله بن يحيى هذا. فولى مروان على الحجاز محمد بن عبد الملك بن مروان.

وخرج في خراسان أيضاً شيبان بن سلمة الخارجي عام ١٣٠هـ فأرسل إليه أبو مسلم الخراساني قوة استطاعت قتله والقضاء على أتباعه.

الدّعوَة العبّاسيّة

أرسل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بكير بن ماهان إلى خراسان عام ١٢٦هـ، فقويت شوكتهم هناك، واجتمعت جماعة من الدعاة العباسيين بإبراهيم بن محمد عام ١٢٧هـ، وقدموا له خمس أموالهم.

أرسل إبراهيم بن محمد أبا مسلم الخراساني إلى خراسان، وطلب من شيعته الطاعة له عام ١٢٨هـ، فلم يطيعوه فرجع إلى إبراهيم فأعاده، وطلب منه أن يعتمد على اليمانية إذ أن أمير خراسان نصر بن سيار كان يعتمد على القيسية.

وطلب إبراهيم بن محمد من أبي مسلم الخراساني التوجه إليه عام ١٢٩هـ فسار نحوه، وبينما هو في بعض الطريق جاءه كتاب آخر يطلب منه العودة إلى خراسان، وأنه قد بعث له راية النصر، وعليه أن يعلن الدعوة بعد أن كانت سرية.

أظهر أبو مسلم الخراساني الدعوة، وطلب من سليمان بن كثير أن يصلي العيد بالناس فأرسل إليهم نصر بن سيار قوة، ولكن جند أبي مسلم كانوا قد استولوا على هراة، وكشف أمر إبراهيم بن محمد من الرسائل ومعروف أنه يقيم بالحميمة، فبعث مروان إلى واليه على دمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يقبض عليه، ويقيده، ويرسله إليه، فأرسل إلى نائبه على البلقاء فقبض على إبراهيم في الحميمة فأرسله إلى دمشق، ومن هناك سُيّر إلى حران حيث سجن حتى مات في السجن أو قتل في صفر عام ١٣٢هـ، وقد أوصى عند اعتقاله من بعده لأخيه عبد الله بن محمد وأمره أن يسير إلى الكوفة مع أعمامه فأنزلهم أبو سلمة الخلال في

دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم وكتم أمرهم ٤٠ يوماً، وما زال ينتقل بهم حتى تم لهم فتح البلاد، ثم بويع للسفاح، ثم تمكن أبو مسلم من دخول مرو قاعدة خراسان وانتزاعها من يد نصر بن سيار عام ١٣٠هـ، كما أخذ أبو مسلم مدينة بلخ، وهكذا أصبح القسم الشرقي والجنوبي من خراسان بيد أبي مسلم الخراساني الذي أرسل جنداً وراء نصر بن سيار الذي اتجه غرباً يتعقبه، والتقى الطرفان بطوس، وانتصر جند أبي مسلم وقتل قائد قوات نصر، وهو ابنه تميم. وأرسل يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق مدداً إلى نصر بن سيّار ولكن جند بني أمية قد هزموا ثانية. وتوفي نصر بن سيار عام١٣١ هـ قريباً من مدينة همدان.

سار قحطبة بن شبيب قائد جند أبي مسلم قاصداً يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق، وهزم يزيد أمام قحطبة الذي اتجه نحو الكوفة ليدخلها فتبعه يزيد، وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها قحطبة، وقد تولى قتله معن بن زائدة، واستخلف قحطبة مكانه ابنه الحسن الذي سار نحو الكوفة فإذا بمحمد بن خالد بن عبد الله القسري قد خرج فيها ودعا لبني العباس، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة، فاتجه عندئذٍ الحسن بن قحطبة إلى واسط. وقتل ابن هبيرة في المعارك الدائرة بين الطرفين.

أما مروان فقد غادر حران عام ١٣١هـ ونزل على نهر الزاب الكبير بين الموصل وإربيل.

ولما علم أهل الكوفة بمقتل إبراهيم بن محمد أخرج نقباء الدعوة العباسية السفاح عبد الله بن محمد، وبايعوه، وكان أول من بايعه أبو سلمة الخلال الذي قيل عنه إنه أراد نقل البيعة إلى آل علي. وخرج السفاح إلى المسجد فخطب في الناس، ثم أخذ البيعة منهم، ثم خرج وعسكر خارج الكوفة بعد أن استخلف عليها عمه داود، وبقي في معسكره شهراً أرسل خلال ذلك الوقت القادة ردءاً لجنده في كل جهة.

سار عون بن أبي يزيد نحو نهر الزاب الكبير حيث التقى بمروان، كما جاء عبد الله بن علي عم السفاح، وقاد القتال، وانهزم أهل الشام،

وغرق عدد كبير منهم في النهر من بينهم إبراهيم بن الوليد الخليفة المخلوع، وفرّ مروان إلى حران فمكث فيها قليلاً، ثم استخلف عليها ابن أخته أبان بن يزيد، وانطلق منها هارباً، وهو زوج ابنته أم عثمان، فلما وصل عبد الله بن علي إلى حران استقبله أبان وأعطاه الطاعة فأقره على عمله، وتبع مروان.

سار مروان إلى قنسرين ومنها إلى حمص، وحاول أهل حمص قتله، ولكنهم هزموا، ووصل إلى دمشق عن طريق بعلبك، وكان والي دمشق ختنه الوليد بن معاوية بن مروان. وانتقل مروان من دمشق إلى فلسطين في طريقه إلى مصر. ووصل عبد الله بن علي إلى دمشق وقد كثر جنده إذ جاءه أخوه عبد الصمد على رأس أربعة آلاف مقاتل وهو في قنسرين، وجاءه أخوه صالح على رأس عشرة آلاف مقاتل إلى دمشق، فحاصر الجميع دمشق عدة أيام ثم دخلوها وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً، وأبيحت ثلاث ساعات.

وجاء كتاب أبي العباس إلى عمه عبد الله بن علي يطلب فيه إرسال صالح بن علي على رأس قوة لمتابعة مروان، وأن يبقى عبد الله بن علي والياً على الشام ففعل.

دخل مروان مصر، وتتبعه العباسيون حتى قتلوه في كنيسة (أبو صير) في ٦ ذي الحجة عام ١٣٢هـ، وبقتل مروان زالت دولة بني أمية، وقامت دولة بني العباس.

أما أوضاع الجناح الغربي من العالم الإسلامي يومذاك فقد امتدت إليه الفتنة أيضاً كما امتدت إلى المشرق حتى غمرته.

مصر: بعد أن سيّر هشام بن عبد الملك أمير مصر حنظلة بن صفوان إلى المغرب عام ١٢٤هـ أعطى أمر مصر إلى حفص بن الوليد الحضرمي فبقي أميراً عليها حتى عام ١٢٧ حيث عزل، وأعطيت الإمارة إلى حسان بن عتاهية التجيبي ولكنه لم يبق سوى ستة عشر يوماً، وأعيد حفص بن الوليد

الحضرمي فبقي عاماً في عمله ثم عزل وقتل؛ وتولى أمر مصر الحوثرة بن سهيل الباهلي مدة ثلاث سنوات (١٢٨ ـ ١٣١) ثم أرسل لقتال العباسيين فلقي هناك مصرعه، وولى مروان بن محمد على مصر المغيرة بن عبيد الله الفزاري الذي توفي عام ١٣٢ لكنه استخلف ابنه الوليد مكانه فلم يقره مروان، وأرسل إلى مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وهو آخر من تولى أمر مصر لبني أمية.

إفريقية: زادت الفتنة بين العرب والبربر، وقوي أمر الخوارج، وضعف أمر بني أمية فاستغل هذا الضعف عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع فاستولى على المنطقة، وسار نحو القيروان فحاصرها فخرج منها أميرها حنظلة بن صفوان، واتجه نحو الشام عام ١٢٧هـ، ودخلها عبد الرحمن. وتمكّن عبد الرحمن من قمع حركات الصفرية من الخوارج، وبعد مدة توفي عبد الرحمن بن حبيب فتنازع آله على الإمارة، إذ اختلف حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب وعمه عبد الوارث بن حبيب، وناصر عبد الوارث الخوارج ليؤيدوه ضد ابن أخيه، وبهذا الاختلاف، وضعف الدولة الأموية في الشام عادت إلى الخوارج قوتهم، وتمكنوا من السيطرة على أكثر أجزاء المغرب.

الأندلس: وكثرت الفتنة في الأندلس، فكانت بين العرب والبربر، وبين القيسية واليمانية من العرب، وبين الشاميين والحجازيين.

فعندما أرسل هشام بن عبد الملك والي مصر إلى إفريقية أمره أن يرسل أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي إلى الأندلس، فسار إليها من تونس، وأقام بقرطبة، ولما رأى أن الشاميين قد كثروا في الأندلس رغب في تفرقتهم، فأنزل أهل دمشق (البيرة) لشبهها بها، وسماها دمشق؛ وأنزل أهل حمص (إشبيلية)، وسماها حمص، وأنزل أهل الأردن (رية)، وسماها الأردن، وأنزل أهل فلسطين (شذونه)، وسماها فلسطين.

كان أبو الخطار أعرابياً متعصباً لقومه من اليمانية، وهذا ما أسخط القيسية عليه فثاروا عليه بإمرة الصميل بن حاتم، وجرت معارك بين الطرفين

انتصرت فيها القيسية فعزل أبو الخطار، وتولى أمر الأندلس ثوابة بن سلامة إلا أن الأمر كله كان بيد الصُميل بن حاتم.

انتقل أبو الخطار إلى (باجة)، والتفت حوله اليمانية، فعادت الفتنة من جديد بين القيسية واليمانية وجرت الحرب، وقتل أبو الخطار حيث قتله الصُميل بن حاتم عام ١٣٠هـ، وتولى أمر الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وبقي حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل فقتلا.

المراجع والمصادر

- الاستيعاب في أسماء الأصحاب: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المتوفى عام ٤٦٣هـ طبعة دار الفكر ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) المتوفى عام ٨٥٢هـ طبعة دار الفكر ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- الأعلام: خير الدين الزركلي طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت ١٣٩٩هـ.
- أغاليط المؤرخين: محمد أبو اليسر عابدين.
- البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤ ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.
- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ ـ دار الفكر بيروت ١٣٩٩.
- تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية طبعة عام ١٣٨٤هـ.
- جمهرة أنساب العرب: ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة.
- الخوارج في المغرب الإسلامي: محمود إسماعيل ـ دار العودة ـ بيروت ١٣٩٦.
- الدولة العربية وسقوطها: يوليوس ولها وزن ترجمة يوسف العش ـ مطبعة الجامعة السورية عام ١٣٧٦هـ.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠١هـ.
- صفوة الصفوة: عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧هـ ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر أباد ـ الهند ١٣٥٥هـ.
- الطبقات الكبرى لابن سعد: محمد بن سعد المتوفى عام ٢٣٠هـ ـ دار بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- في تاريخ المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.

- الفيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي - دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ.
- قادة فتح المغرب: محمود شيت خطاب - دار الفكر - الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
- الكامل في التاريخ: عزالدين ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ دار صادر - دار بيروت طبعة ١٣٨٥هـ.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى عام ٣٤٦هـ - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
- مشاهير أعلام الأمصار: ابن حياب البستي المتوفى ٣٥٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٧٩هـ.
- معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى ٦٢٦هـ - دار صادر - دار بيروت.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردى المتوفى عام ٨٧٤هـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة ١٣٨٣هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السادسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة عن الدولة العباسيّة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمّد بن عبد الله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين **وبعد**

فإنّ الشّيعة قد لعبوا في تشويه تاريخ بني العبّاس الدور نفسه الذي عملوه في تغيير صفحات بني أُميّة بالاشتراك مع العبّاسيين، خصوم بني أُميّة السياسيين، وحُكام العصر الذي دُوِّن فيه التاريخ. ذلك أنّ آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أُميّة، قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجههم، بل ومن جانبهم الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العبّاس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

لقد استغلّ كلّ طامحٍ للسلطة حبّ آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصةً فأظهر التشيّع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك. لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكاً فيه كلّ بُعدٍ عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية)، ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية (الاثنا عشرية) التي بدأت تصيغ أفكاراً لها، وتُبلورها، ثم نسبتها للعصور

التي خلت وللرجال الذين مضوا، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرخين المحدثين، وظنّوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحمّلوها عظماء رجال ذلك العهد، أمثال علي زين العابدين بن الحسين، وابنه زيد، وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك. وما جاء القرن الرابع الهجري إلاّ ومدّعو التشيّع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية، ولم يعملوا على وحدة صفوفهم ذلك لأنهم لم يكونوا فرقةً واحدةً، ولم يحملوا فكراً واحداً، بل ولا هدفاً واحداً، وإنما لكلّ إمارةٍ أو دولةٍ رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدلّ على أنّهم رجال طامعون، وأصحاب مصالحِ وغاياتٍ اتخذوا من التشيّع وسيلةً لهم للسيطرة على الحكم وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك. فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثمّ أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العبّاسية، ومع ادعائهم جميعاً للشيعة إلا أن دولهم بقيت متفرقةً، بل كثيراً ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العهد الأموي، وانصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقرّ لهم، وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كلّ من كان يخفي في نفسه شيئاً، وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيّع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلّم بعض الفرس سلطاتٍ واسعةً، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على تهديم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ، والمسلمية، والراوندية، والمقنعية، والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي مسلم الخراساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادةً من وضعه،

وطريقة للتخلّص بعد أن قدّم الذي قدّم، وإلى البرامكة وغيرهم، ومن هنا بدأت تبزغ قرون العصبية.

وطال عهد العباسيين (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعُفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبية فقامت دول على أساسها، ولم يكن لها داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد، فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأتها، ثم نما باسم العصبية لدوامها، ودعم الشعب لها.

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافةٍ مستقلةٍ فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدولة الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معاديةً بعضها لبعض، وكل منها علَى صلةٍ بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم أمويي الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفةٍ واحدٍ، والمسلمون جميعاً تضمّهم دولة واحدة، وهذا يدلّ على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل وفي الصدر الأول.

وكانت أرجاء الدولة متسعةً، وعدد السكان كبيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضمّ أشتاتاً من الناس، وهذا يستدعي جنداً كثيراً يوطّد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوحات الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاقٍ واسع كما كان، وإنّما في أوقاتٍ محددةٍ تقتضيه الظروف، ولهذا فإن السكان لَا يرون ضرورةً للانخراط في الحياة العسكرية. وكان الخليفة عندها مضطراً لاستقدام جنودٍ من مناطق لا تزال غير مترفةٍ بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقتٍ قصيرٍ، أو يأتي بالأسرى والمماليك، وينشئهم تنشئةً عسكريةً بعد أن

يدخلوا في الإسلام. وقد جيء بجندٍ من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادةً، ثم أصبح الأمر بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعيّنون من أرادوا، فضعُفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة. ومن المعلوم أن الترف انصراف عن المهمة الرئيسية للإنسان واتجاه نحو الملذات وجمع المال، والتفاخر بالملك، وما ذكر أبداً ترف بخير، وكثرة المال ابتلاء من الله، فإما أن يُحسن الإنسان بإنفاقه وصرفه في وجوه الخير، وطاعة الله، وإما في غير ما أمر الله. وقد ذكر الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله، تنصبّ كلها على الكافرين، والمجرمين، والفاسقين. يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[(١)]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[(٢)]. ويقول تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[(٣)]. ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[(٤)]. ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[(٥)]. ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[(٦)]. ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.

(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.

نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2]. ومآل الترف إلى الفساد، وضياع السلطة، وانهيار الدولة، وزوال الأمة. وقد زال الأمويون عندما أصابهم الترف، ودالت دولة بني العباس عندما حلّ فيها الترف، وسقطت الأندلس بيد النصارى وضاعت نهائياً بعد أن انصرف السكان إلى الترف...

ومن المعلوم أن الجند إذا أعطوا الحكم استأثروا وتفرّدوا به، استبدوا، وطغوا، وظلموا، فالجند إنما وجدوا للقتال، والقائد لا يملك طاعة جنده إلا أيام الجهاد وقتال أعداء الله، أمّا أن يستخدم جمعهم لتحقيق أغراضه، وقتال المسلمين وأمرائهم، وتغيير الأوضاع فهذا أمر لا تستقيم معه الحياة الاجتماعية، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قادةٍ عسكريين على درجةٍ من القوة والصلاح، ولكن لا يلبث الأمر بعدهم أن يعود إلى سابق عهده. فإن الحاكم الطاغية الذي يفرض سلطانه بالقوة قد يعطي الحكم هيبةً أو سمعةً خارجيةً مدةً من الزمن، ولكن ينهار الوضع بعده مباشرةً. لأن النفوس تكون قد ضعُفت، واعتادت على الذلّ الذي ذاقته وقت الطغيان، ومُنعت من حرية الفكر، فإن الأرض لا تحرر من الظلم بجموعٍ لا يملكون الحرية، والفكر لا ينتشر على أيدي أُناسٍ لا يملكون حريةَ الفكر، والطغيان يسلب الناس الحرية فيجعلهم عبيداً، ويسلبهم حرية الفكر ليتمكن من السيطرة عليهم، ولهذا تحرص الدول التي تعادي الإسلام أن تحاربه بحكام طغاةٍ من الجند. وتجعل من الجيش مرتزقةً مهما تقووا بالسلاح والعتادَ إلاّ أنّ خسارة معركةٍ واحدةٍ تجعل الهزائم تتوالى عليه إذ تنخفض المعنويات مباشرةً. هؤلاء الجند الذين

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

(٢) سورة الواقعة: الآيات ٤١ ـ ٤٥.

سيطروا على الدولة العباسية قد أضعفوا أمرها، واستبدوا بحكمها، وكانوا سبباً في متاعبها، رغم أن دعاة العصبية قد عدّوا هذا الضعف نتيجة سيطرة عناصر من غير العرب، ولكن طغيان الجند لا يختلف بين شعبٍ وآخر، فطغيان العرب كطغيان غيرهم والنتائج واحدة. وما من مرةٍ حكم الجند من أيّ عنصرٍ كانوا إلاّ وتأخّرت البلاد، وتلا حكمهم تراجع مُفاجئ.

وإن كثرة الأموال التي تدفقت على المسلمين زمن الفتوحات، وزادت أعطياتهم، وكثرة المستخدمين الذين جُلبوا، والأرقاء الذين أُخذوا في الحروب، والعبيد الذين اشتروا، كلهم قد اشتغلوا لساداتهم، وقدّموا لهم المال الكثير، ووفّروا لهم الراحة، وهو ما جعل السكان في حالةٍ من الرفاهية والرخاء إذ أعطوا أعمالهم كلها للعبيد، وعاشوا هم في راحةٍ فانصرف بعضهم نحو العلم وأنتج الخير الكثير، واتجه بعضهم نحو العمران فشيّدوا الأبنية، ومال بعضهم نحو المفاسد فغبّ منها ما شاء له هواه، وتمرّغ في حمأتها تمرّغ الحيوان في الوحل، وكان هذا بمفهوم الماديين وأنصارهم حضارةً، فقالوا: إن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها في العصر العباسي، إذ فسّروا الحضارة بمفهومهم المادي البحت فنظروا إلى جانب العلم، والعمران، والمفاسد، وركّزوا على جانب من السكان وهم المترفون المرفهون، وتركوا الجانب الآخر وهم الفقراء وما يعانون، وما نجم عن ذلك من حركات، وبالتالي انهارت الدولة وسقطت تحت ضربات المغول، ولم تستطع أن تقاوم لما أصابها من ترفٍ، وذُلٍّ من طغيان الجند، وتفتتٍ من نشوء العصبيات، وخيانةٍ من الشيعة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تاريخ الدولة العباسية قد أعطاه طابعه في التدوين، والحركات التي نشأت، والدول التي قامت، والضعف الذي حدث أربع نقاط هي:

١ ـ الشيعة والحركات الباطنية.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة.

٣ ـ العصبية التي استفحل أمرها.

٤ ـ المظاهر الحضارية المادية.

ويجب بحث هذه النقاط الأربع بالتفصيل ليتبيّن لنا تاريخ الدولة العباسية بشكلٍ أقرب إلى الواقع مما هو عليه من التسجيل الآن.

* * *

١ ـ الشيعة والحركات الباطنيّة

أ ـ الشيعة:

ينظر المسلمون إلى آل بيت رسول الله ﷺ نظرة احترامٍ وتقديرٍ، وكان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامةً، وينحصر آلُ البيت في أبناء أبي طالب عمّ رسول الله، الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل، رضي الله عنهم، وفي آل العباس عمّ رسول الله والذي أسلم مع أخيه الحمزة، رضي الله عنهما، من بين أعمام رسول الله، ولكن الحمزة سيد الشهداء لم يعقب. ولم يشمل آل البيت بقية أبناء أعمام رسول الله من الزبير، والحارث، وأبي لهب، حيث جاء إسلام هؤلاء الأبناء متأخراً، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الله عنه من زوجه فاطمة ابنة رسول الله، ﷺ، حيث انقطع عقب رسول الله إلاّ منها، هذا إضافةً إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الله، وإصهاره لرسول الله، وحتى رأى بعض المسلمين في هذا سبباً في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائه من بعده. رغم ما في هذا القول من مجانبةٍ عن تعاليم الإسلام، لأن الخلافة ليست وراثيةً، وإنّما لها شروط يفرضها الصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلمٍ تتوفر فيه الشروط، وإن اشترط بعضهم القرشية وليس معهم الدليل.

تسلّم عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخلافة بعد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فهو رابع الخلفاء الراشدين، واختلف مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بشأن قتلة سيدنا عثمان، وقد أدى ذلك الخلاف إلى صراع بين الطرفين انتهى بقتل علي، رضي الله عنه، بيدِ

آثمةٍ من الخوارج، وصفا الجو لمعاوية بعد أن تنازل له الحسن بن علي، رضي الله عنهما، عن الخلافة. وكان عام الجماعة عام ٤١هـ.

اتجهت أنظار المسلمين إلى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، إذ كان أفضل أهل زمانه، وتوفي عام ٥٠هـ، وقيل مات مسموماً. وكان أخوه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بعده سيّد عصره، وقد خرج على يزيد بن معاوية فاستشهد في كربلاء عام ٦١هـ، واستشهد معه اثنان وعشرون من أهله، من إخوته(١)، وأبنائه(٢)، وأبناء أخيه الحسن(٣)، وأبناء عمومته أولاد جعفر بن أبي طالب(٤)، وأبناء عقيل بن أبي طالب(٥).

أقام أبناء علي وأحفاده بعد ذلك في المدينة المنورة، وكانوا جميعاً أهل هدايةٍ وخيرٍ، ولكن المدينة لم تلبث أن ثارت على يزيد بعد أن وصلت إليها أخبار فاجعة كربلاء، فداهمها جيش الشام، وجرت معركة رهيبة بين الطرفين، عُرفت بمعركة الحَرّة، واستشهد فيها اثنان من أولاد عبد الله بن جعفر، وهما: أبو بكر، وعون الأصغر. وبعد مدة قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي عبيد الله بن علي بن أبي طالب.

أما آل العباس فقد برز منهم أبناء عبد الله بن العباس، وأشهرهم علي بن عبد الله(٦) وكان يقيم بالحُميمة من البلقاء من أعمال الأردن.

---

(١) استشهد من إخوته يوم كربلاء: عبد الله، وجعفر، وعثمان، والعباس، ومحمد الأصغر، وأبو بكر.

(٢) استشهد من أبنائه: علي الأكبر، وعبد الله.

(٣) استشهد من أبناء أخيه الحسن: أبو بكر، والقاسم، وعبد الله.

(٤) استشهد من أبناء عبد الله بن جعفر: عون الأكبر، ومحمد، وعبيد الله.

(٥) استشهد من أبناء عقيل وأولادهم: مسلم بن عقيل قبل كربلاء، عبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل، وعبد الله الأكبر بن عقيل، ومحمد بن مسلم، وعبد الله بن مسلم، ومحمد بن أبي سعيد الأحول بن عقيل.

(٦) علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: ولد عام ٤٠هـ يوم استشهد علي بن أبي طالب، ويكنى بأبي محمد، وهو جد الخلفاء العباسيين، ومن أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة، فغلب عليه لقب «السجّاد»، وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم =

ويبدو أن عبد الله بن محمد (بن الحنفية) بن علي بن أبي طالب والملقب بأبي هاشم قد عاد من الشام من زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأحسّ بدنو أجله في الطريق، فعرّج على ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[1]، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية للإطاحة بهم (إذ ذُكر لأبي هاشم أنه قد سُمّ من قبل سليمان بن عبد الملك فأثار ذلك نقمةً بالغةً في نفسه على بني أُمية)، ولم يكن أبو هاشم هذا سيّد بني هاشم، كما لم يكن أبوه محمد، ولم يعدّه كذلك إلا الكيسانية أتباع المختار بن أبي عبيد، ولكن سُلِّطت الأضواء على أبي هاشم بعد هذه الحادثة، وعُدّ سيّد آل البيت، وعُدّ موته بسبب ما سُقي من سمّ على أيدي بني أمية لأغراضٍ سياسيةٍ.

أثار كلام عبد الله بن محمد ما في نفس محمد بن علي من طموحٍ فبدأ يعمل لذلك، ولكنه لم يدع لنفسه، وإنما جعل الدعوة إلى الرضا من آل محمد حنكةً منه كي لا يفرّق صفوف آل البيت، وحتى ينتظم أنصارهم جميعاً في الدعوة، وفي الوقت نفسه يُعمّي عن نفسه، وفي الواقع فإن العمل كان له ما دامت الأمور مرتبطةً به، ويحرّك الدعاة والأنصار حسب ما يشاء، وزيادةً في التعمية فقد بقي هو في الحميمة في الأردن، وجعل مقرّ الدعوة مدينة الكوفة حيث يقيم كبير الدعاة، ويكثر فيها أنصار آل البيت، ولا يأتي إليه في الحميمة إلا كبار دعاته، ويمرون عليها على شكل تجارٍ، أو حجّاجاً إلى بيت الله الحرام، فيلتقون به، ويتلقّون التعليمات منه.

= الهيبة، جليل القدر، أهانه الوليد بن عبد الملك وضربه، واعتقله هشام بن عبد الملك، فمات في السجن عام ١١٨هـ في البلقاء.

(١) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: ولد بالحميمة عام ٦٢هـ، بدأ دعوته سنة مائة للهجرة، كانت تجبى له خمس الأموال من أنصاره يدفعونها إلى النقباء، وتحمل إليه، وينفقها فيما يرى فيه المصلحة. كان عاقلاً حليماً، جميلاً وسيماً، وتوفي بالشراة عام ١٢٥هـ، وقد أوصى من بعده لابنه إبراهيم، وهو والد السفاح والمنصور.

وساعد على قيام الدعوة وانتشارها حركة زيد بن علي[(١)] بالكوفة عام ١٢٢هـ واستشهاده فيها، ثم قيام ابنه يحيى[(٢)] من بعده في مدينة بلخ[(٣)] عام ١٢٥هـ بعد أن فرّ من الكوفة إثر مقتل أبيه، ودعا لنفسه سراً، فقبض عليه، ثم أطلق سراحه بأمر من الخليفة الوليد بن يزيد، وسُيّر إلى الشام، فاعتصم في بعض الطريق، وقاتل أنصار الأمويين حتى قُتل. وكذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[(٤)] بالكوفة أيضاً عام ١٢٧هـ أيام يزيد بن الوليد، ثم انتقل إلى المشرق وقصدته بنو هاشم وفيهم أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور وعمّاهما عبد الله بن علي، وعيسى بن علي، وكذلك بعض بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان، وغلب على المشرق حتى تولى أمر بني أمية مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهُزم عبد الله، وفرّ إلى خراسان، فقبض عليه عامل هراة من قبل أبي مسلم الخراساني، وقتله خنقاً عام ١٣١هـ. وعلى الرغم مما في الخروج على الإمام من مخالفاتٍ شرعيةٍ

---

(١) زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين: ولد عام ٧٩هـ، من خطباء بني هاشم، قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً، وكانت إقامته بالكوفة، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة)، ذهب إلى الشام، فضيّق عليه هشام بن عبد الملك، وسجنه خمسة أشهر، وعاد إلى العراق، ثم إلى المدينة، ولحق به إلى المدينة بعض الكوفيين يحرضونه على الثورة فرجع معهم إلى الكوفة عام ١٢٠هـ فبايعه بعض أهلها، وقاتله والي العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثقفي، ودارت معارك بين الطرفين انتهت بمقتل زيد عام ١٢٢هـ بعد أن خذله أهل الكوفة.

(٢) يحيى بن زيد: ولد عام ٩٨هـ، وكان من الأبطال الأشداء، انتقل إلى بلخ بعد مصرع أبيه، ودعا إلى نفسه سراً، طلبه أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي فقبض عليه نصر بن سيار والي خراسان، وأطلق سراحه بأمر الوليد بن يزيد، وأمر بالسير إلى الشام، فأبطأ بسرخس، ثم انتقل إلى بيهق ثم إلى نيسابور، وامتنع، فقاتله واليها عمرو بن زرارة بعشرة آلاف، ويحيى بسبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل عمراً، ثم انصرف إلى هراة، ثم قاتله نصر بن سيار في الجوزجان فقتل يحيى بسهم أصابه عام ١٢٥هـ.

(٣) بلخ: مدينة في خراسان تقع اليوم في أفغانستان.

(٤) اتهم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بالزندقة، وكان فتّاكاً سيء الحاشية.

إلاّ أن يُظهر كفراً بواحاً، أو يُصاب بجنونٍ فإنّ عامة الناس تنظر نظرة عطفٍ إلى من تحلّ به نكبة، وخاصةً إذا كان من أهل البيت، ويدعو إلى إصلاح ما فسد، وهذه العواطف قد هيأت الجو للدعوة العباسية.

وما ظنّ أبناء علي إلاّ أنّ لهم في الدعوة نصيباً، فلما قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفاً معادياً للعباسيين، وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانبٍ ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانبٍ آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأشاعوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم السياسيين من شيعة أبناء علي، وشدّدوا عليهم، واضطهدوهم، ونكّلوا بزعماء ثوراتهم كي يُلقوا بينهم الرعب، وأحياناً حاولوا استرضاء بعضهم اتقاءً وخوفاً من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم فجعلوا لأنفسهم عقيدةً خاصةً بهم اختلفت عن الإسلام، إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعدّوهم مخصصين من عند الله، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا بصحابة رسول الله، ﷺ، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوّنوا كتباً ونسبوها لسابقين مثل نهج البلاغة الذي نُسب لسيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كما أوجدوا فقهاً خاصاً ونسبوه لجعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وهكذا. . .

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصةً الأقوياء منهم والصالحين أمثال هارون الرشيد الذي كان يحجّ أو يغزو، والمتوكل الذي أحيا السنة، والمعتضد الذي كان قوياً، ولننظر إلى بعض هذه الإفتراءات التي يبدو فيها الاختراع مباشرة. أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك قال: لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف[1]، فسأله: أعندك في هذا

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، ولد في الكوفة =

شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أوَ كلما ادعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصدَّق، لا تُصدِّقها فإنّها ليست مأمونة، قال ابن المبارك[1]: فلم أدرِ ممن أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن خرمة أبيه، أم من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اهتك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيّره في رقبتي[2]. وذكروا أشياء عن الرشيد وأبي نواس[3] يندى لها الجبين، وأبو نواس لم ير الرشيد، ولم يدخل عليه[4]، وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[5]، فقالوا: إن

= عام ١١٣هـ، وتفقّه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ومات ببغداد في خلافة الرشيد عام ١٨٢هـ وهو على القضاء، وهو أول من دُعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

(١) ابن المبارك: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي، أبو عبد الرحمن: الحافظ، المجاهد، التاجر، أفنى عمره في الرحلات حاجاً، ومجاهداً، وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ولد عام ١١٨هـ، وتوفي بهيت على نهر الفرات عام ١٨١، وهو أول من صنّف في الجهاد.

(٢) تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص٢٩١.

(٣) أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء: كان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، انتقل إلى الأهواز، وتزوج هناك، وأنجب أبا نواس. نشأ أبو نواس بالبصرة: ورحل إلى بغداد، ثم إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وعاد إلى بغداد حيث توفي فيها عام ١٩٨هـ.

(٤) انظر مختار الأغاني لابن منظور ـ الجزء الرابع ص١٦٦ طبعة المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٣٨٦هـ.

(٥) زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أم جعفر: زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، وأم الخليفة الأمين، من فضليات النساء. تزوج بها الرشيد عام ١٦٥هـ، ومات عنها، وقتل بعد ذلك ابنها الأمين، فاضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها فعطف عليها وأكرمها، وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الخدم، وتوفيت عام ٢١٦هـ، وإليها تنسب (عين زبيدة) في مكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة، وأقامت له الأقنية حتى أوصلته إلى مكة. وكانت أكثر نساء عصرها ديناً وجمالاً، وطريق الحج من =

أبا نواس دخل مرةً قصر الخليفة فرأى الرشيد نائماً مُغطّى فاستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونهره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرةً يا أمير المؤمنين فقد ظننتك السيدة زبيدة ـ والله ـ.

ويتهمون الأمين بكثرة شربه الخمر[1]، ثم نراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما انتهى إليه أنه يشربها[2].

ولننظر إلى ما قيل عن المتوكل في لهوه وعشقه لجواريه الكثيرات، وهذه الجواري الأديبات الشاعرات اللواتي ينظمن الشعر، وبأفضل من أي شاعرٍ بل يقُلنه إرتجالاً وبشكلٍ جيدٍ قويٍ، وسبكٍ متينٍ، ومعنىً جزلٍ، بل لهن كرامات، بحيث يظهر وضع مثل هذه الروايات والتعب في إخراجها بهذه الصورة المبالغ فيها.

وأخرج عن علي بن الجهم قال: أُهدي إلى المتوكل جارية يقال لها محبوبة، قد نشأت بالطائف، وتعلّمت الأدب، وروت الأشعار فأغري المتوكل بها، ثمّ إنه غضب عليها، ومنع جواري القصر من كلامها، فدخلتُ عليه يوماً، فقال لي: قد رأيت محبوبة في منامي كأني قد صالحتها وصالحتني، فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: قم بنا لننظر ما هي عليه، فقمنا حتى أتينا حجرتها، فإذا هي تضرب على العود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً	أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصيةً	ليست لها توبة تخلصني
فهل شفيع لنا إلى ملكٍ	قد زارني في الكرى وصالحني؟
حتى إذا ما الصباح لاح لنا	عاد إلى هجره فصارمني

فصاح المتوكل، فخرجت، فأكبت على رجليه تقبلهما، فقالت: يا

= بغداد إلى مكة يسمى باسمها (درب زبيدة) حيث المصانع والآبار والبرك والمنازل من آثارها.

(١) انظر مختار الأغاني الجزء الرابع ص٧٣.

(٢) المرجع السابق ص٩٠ ـ ٩١.

سيدي رأيتك في ليلتي هذه كأنك قد صالحتني، قال: وأنا والله قد رأيتك، فردّها إلى مرتبتها، فلما قُتل المتوكل فصارت إلى بغا الكبير، فأمر بها يوماً للمنادمة، فجلست منكسة، فقال: غنّي، فاعتلت، فأقسم عليها وأمر بالعود، فوضع في حجرها، فغنّت ارتجالاً:

أيّ عيشٍ يلذّ لي	لا أرى فيه جعفرا؟
ملك قد رأيته	في نجيعٍ معفّرا
كلّ من كان ذا هيا	مٍ وسقمٍ فقد برا
غير محبوبة التي	لو ترى الموت يشترى
لاشترته بما حوتـ	ـه يداها لتُقبرا
فإنَّ موت الحزين أطـ	ـيب من أن يعمرا

فغضب بُغا، وأمر بها فسُجنت، فكان آخر العهد بها[١].

وأخرج عن أبي العيناء قال: أهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها فضل، فقال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: هكذا زعم من باعني واشتراني، فقال: انشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته:

استقبل الملْكُ إمامُ الهدى	عام ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر	وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى	أن تملك الملك ثمانينا
لا قدس الله امرأً لم يقل	عند دعائي لك: آمينا[٢]

وفي حكايةٍ اخترعت حوالي القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية[٣]، فامتنعت عليه؛ فلما أسرها استولى على

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الأولى ١٣٧١ ص٣٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) جميلة الحمدانية: جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب =

جميع أموالها، وقيل إنه فرض عليها مالاً، وألزمها إما أن تُؤدّيه أو تختلف إلى دار القحاب، لتكتسب ما تُؤدّيه؛ حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها، وغرّقت نفسها في دِجلة[1].

وإذا كان الخلفاء بهذا اللهو المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحياناً، وأحياناً أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته، وأبناء عمومته والذين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم.

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدوّنة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة العظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستوى مما شادته الأمم الأخرى. . . . أهكذا جاءت ودون تعب ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم نسبت لهم.

حقيقةً إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء ولكن التاريخ الذي دُوّن بأيدٍ مغرضةٍ قد حطّ من شأنهم كثيراً.

وإن تواري كثير من الطالبيين واختفاءهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت قد جعل كثيراً من الطامعين في السلطة ينسبون أنفسهم لآل البيت حتى يلتفّ الناس حولهم ثمّ يقومون بحركاتٍ ضد الدولة. ومن هذه الحركات كانت فتنة الزنج، ودعوة العبيديين (الفاطميون)، وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين.

= الموصل: إحدى شهيرات النساء في الكرم والعقل والجمال. لم تتزوج أنفة من أن يتحكم بها الزوج، حجت عام ٣٦٦هـ وأنفقت الكثير. ولما تغلّب عضد الدولة على أخيها أبي تغلب أمير الموصل عام ٣٦٩، فرّ أبو تغلب إلى الرملة، ورحلت معه جميلة في جماعة من حاشيته، فخرج عليه أمير طيء (دغفل بن مفرج) فقتل أبا تغلب وحمل جميلة إلى حلب ثم إلى بغداد، فاعتقلها عضد الدولة في حجرة، ثم أركبها جملاً وشهّر بها، وألقاها في دجلة، فماتت غرقاً عام ٣٧١.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ آدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة دار الكتاب العربي بيروت ـ المجلد الثاني ص١٧٤.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة

لم يكن هناك جند دائمون أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، وإنما يهرع المسلمون للانخراط في صفوف الجيش المنطلق للجهاد كلّما دعا الداعي، ويُعيّن الخليفة لهم أميراً يطيعونه في غير معصية[١]. والأمير بدوره يختار قادة الجناحين، والقلب، والساقة، ويبثّ العيون وهكذا. كما يكون حول الخليفة عدد من الأفراد ينفّذون أوامره في الحدود، وأمور الحسبة. وقد يكون لزعماء القبائل دور في مساعدة الخليفة أو الأمير، وفي تنفيذ ما يُطلب منهم لإلقاء القبض على بعض رجالاتهم إن دعت الحاجة إلى ذلك ـ ولم تدع في تلك الأيام ـ.

وحرص عمر الفاروق، رضي الله عنه، ألا يختلط المجاهدون (الجند) بسكان المدن كي لا يخلدوا إلى الراحة، ويميلوا إلى الدعة، فأمر أن يقيموا في معسكراتٍ خاصةٍ بعيدةٍ عن المدن، ونشأت نتيجة ذلك مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط. ولعلنا نرى اليوم أثر الجند في المدن عندما يختلطون بالأهالي، وما ينتج عنه من تعدي الجند، وغطرسة الضباط، وأثر ذلك أيضاً على الناحية الأمنية.

ولم يختلف الأمر كثيراً في العهد الأموي والعصر العباسي الأول عمّا كان عليه في صدر الإسلام، ما دامت توجد فتوحات أو غزوات على الأقل، وما دام الخلفاء أقوياء، وللحكم هيبة. فلمّا توقّفت الفتوحات، وقلّ الغزو، وضعُف الخلفاء، وذهبت هيبة السلطة اختلف الأمر تماماً، إذ لم

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصيةٍ، فإذا أمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

يعد هناك جند للجهاد، وبدأت حركات التمرّد تحدث، ولم يجد المسلمون دائماً ضرورةً للتطوع في سبيل القضاء عليها حتى يُلزموا إلزاماً، كما أن السكان قد مالوا إلى الرخاء بسبب كثرة الأموال التي وردت عليهم، وقيام الرقيق بشؤونهم وأعمالهم، لذا كان على الخليفة أن يجد له جنداً يساعدونه لتنفيذ أوامره، ويكونون له سيفاً على حركات التمرد، ومن تسوّل له نفسه بالعصيان. ولم يكن هؤلاء من العرب أو من الفرس لأن كليهما قد عاش في حياة الترف الأمر الذي اضطر معه الخليفة إلى إيجاد هؤلاء الجند من الترك الذين كانت بلادهم قد فُتحت أجزاء منها ولا تزال مناطق واسعة منها في أواسط آسيا تعيش على الوثنية، فيأتي منها الرقيق، ويجلب الأسرى حيث تقوم بعض الغزوات، فيأخذ الخليفة أعداداً من هؤلاء الأسرى أو الأرقاء ممن يجد فيهم ملامح النباهة وعناصر الذكاء، ويربيهم تربيةً عسكريةً، ويستعين بهم في الملمات، وكثُر عدد هؤلاء الجند مع الزمن، وقوي نفوذهم لأنهم أصبحوا عصا الحاكم التي يضرب بها خصومه، وأصبح مركز قادتهم عظيماً لأنّهم وحدهم يستطيعون أن يوطّدوا الأمن، ويُخضعوا أية قوةٍ مهما علت، ثم غلبوا على أمر الخليفة نفسه حتى قتلوا الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ. وأصبح الخلفاء بعدئذٍ ألعوبةً بأيديهم يعزلون من شاءوا، ويقتلون من شاءوا، ويمثّلون بمن شاءوا، واستمر ذلك حتى جاء البويهيون فسيطروا على السلطة كعسكريين، وكذلك أتى السلاجقة بعدهم، ولم يختلفوا عنهم من حيث الصفة. هؤلاء الجند أمرهم واحد سواء أكانوا عرباً، أم فُرساً، أم تُركاً، هم عسكريون، فالأمر ليس مقتصراً على جنسٍ أو خاصاً به، فالجندي الذي رُبّي تربيةً عسكريةً، وعاش مع السيف والرمح، وتعامل معهما، هو غير الذي يسوس الأمور، ويدبّر الشؤون، يلين لشخص، ويقسو على آخر، ويستعمل الحكمة، ويضع كلّ شيءٍ في موضعه. والجندي الذي يعيش في الثكنات، ويكون على أُهبة القتال في كلّ وقت، ويخوض غمار المعارك حسب الأوامر التي تُعطى إليه هو غير الذي يحيا بين أهله، يخطط للمعركة من وجهة نظرٍ سياسيةٍ، ويبحث في النتائج، وما تؤدي إليه. وإن الذي يحيا حياةً قاسيةً قد يحقد

على أولئك الذين يعيشون حياة المترفين فيعمل ضدهم، ويحاول أن يسلبهم ذلك، فإذا تمّ له سار على ما كانوا عليه. . . وهذا ما يكون من العسكريين في كلّ وقت. وهذا التسلّط العسكري على الحكم العباسي في عصره الثاني هو الذي أضعف الدولة لا لأن هؤلاء العسكريين ينتمون إلى شعبٍ غير الشعب العربي كما يدّعي دعاة العصبية العربية.

وعندما خضعت الدولة للعسكريين، وسيطر الجند على مقدراتها بدأ أمرها يضعف، وشأنها ينحطّ، وهذا الأمر دائم. وقد يكتسب مع سيطرة العسكريين بعض الدعاية الخارجية، والهيبة المصطنعة، ولكنه أمر ظاهري ولا يلبث أن ينهار بعد زوال حكم الطاغية أو مع أول معركةٍ، وإن كانت صغيرةً، لأن الشعب الذي أُذِلّ لا يمكن أن يُقاتل به، والفرد الذي جُوِّع لا يُمكنه أن يتحرك ويُضحّي بأوامر الذين جوّعوه.

ونلاحظ في العصر الحديث أنّه عندما تعجز الدول الكبرى على تحقيق أهدافها في بعض الدول الضعيفة لعزّة شعبها وأنفته فإن تلك الدول الكبرى تعمل على إخضاع تلك الشعوب بحكوماتٍ عسكريةٍ تنفّذ أغراض الدول الكبرى، ولا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهها. ويضع العسكريون الأمور في غير موضعها، ويُذلّون الشعب، ويُفقرونه، كي يخضع لهم، ويسكت عن تصرفاتهم، وتضعف الروح المعنوية، وتعجز الأُمّة عن تحقيق أيّ نصرٍ، والقيام بأيّ أمر، وهذا ما تريده الدول الكبرى التي تستطيع بعدها أن تحقق كلّ ما تشاء دون أيّة مقاومةٍ، مع أن دعاية السلطة قد تكون قويةً ولكنها بالكلام والإعلام.

* * *

٣- العصبية التي استفحل أمرها

بعد أن فتح المسلمون بلاد فارس دان أهلها بالإسلام، وأقول أهلها أي غالبية أهلها، ولم يكن هذا الدخول واحداً لدى جميع السكان، إذ كان بعضهم صادقاً بإيمانه، وقد أخلص النية، وعمل لدينه بكل طاقاته وإمكاناته، وكان بعضهم دون ذلك، وقد أسلم عن قناعةٍ ويقين، وهذا شأن الغالبية العظمى، ولكن هذا لا يمنع من وجود أشخاصٍ دخلوا في الإسلام تقيةً عندما رأوا دخول الناس في دين الله، أو خوفاً من السيف، وقد أظهروا الإسلام، وأبطنوا المجوسية، ديانة فارس القديمة، ومنهم من اكتفى بذلك، ومنهم من عمل ضد الإسلام، وحاربه تحت ظلّه، فإنّ الذين كانوا سدنة النار، وأفادوا من مهنتهم، وضاعت عليهم الفائدة بمجيء الإسلام، كرهوا الإسلام، وحقدوا عليه، وكذا من كان مستفيداً من السلطة سواء أكان من رجالها أم من أنصارهم فهؤلاء لم يريدوا أن يفهموا الإسلام، بل لم يرغبوا في بحث الأمر مطلقاً، وإنّما نظروا إليه من زاويتهم الخاصة ومما استقر في أذهانهم سابقاً لذا فهم أعداء الإسلام، وإن أظهروه رسمياً، وبقوا على ذلك. وفي كلّ أُمّةٍ وفي كل شعبٍ يمكن أن توجد عناصر من هذا النوع، ألم تبق عناصر من قريش ضد الإسلام رغم انتصاره؟ ألم تبق أشخاص من المنافقين في المدينة المنورة مقرّ حكم رسول الله ﷺ، وبين أظهر صحابة رسول الله؟ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1]. بل رُبمّا نشأت عناصر من هذا النوع أثناء المسيرة، وهذا أمر طبيعي، ألم يكن لنا اعتراضات على المختار بن أبي عبيد الثقفي وأمثاله ممن ادعوا ادعاءاتٍ وادعاءاتٍ ولا نزال في القرن الأول الهجري؟ وفي العصور التي تلت ظهر بين العرب كما ظهر بين غيرهم من ادعى النسب، ومن ادعى النبوة، ومن ادعى غير ذلك.

هؤلاء الذين أظهروا الإسلام من الفرس وبقوا على مجوسيتهم، وإن كانوا قلةً إلاّ أنّهم قد استفادوا من العصبية، ومن صلتهم ببعض أبناء جنسهم، ومعرفتهم لهم، ما داموا لم يصرّحوا بحقيقتهم، وقاموا بأدوارٍ على غايةٍ من السوء. ولكن من طرفٍ آخر نلاحظ العصبية عند العرب ـ ومع الأسف ـ فإن دعاتها بدلاً من أن يتحدّثوا عن هؤلاء المتعصبين من الفرس، وعقيدتهم الفاسدة التي جمعتهم، وحقدهم على الإسلام، والأدوار الخطيرة التي قاموا بها، فإنهم قد قابلوهم بعصبيةٍ أشدّ منها فاتهموا الفرس جميعاً، وجعلوا معاداتهم للعرب والإسلام أساساً لكل عمل، وفسّروا كل تصرفٍ لهم بهذا.

عمّم دعاة العصبية العربية هذا الاتجاه على الفرس جميعاً الأمر الذي جعل العصبية الفارسية تنمو، واستطاع المتعصبون من الفرس أن يدخلوا إلى كثيرٍ من الحركات التي تعادي الإسلام، ذلك أن عدداً من الفرس قد بقيت عندهم خلفية جاهلية، وهي أنّ الحاكم له صفة القدسية، وينتقل الحكم بالوراثة، فأظهروا التشيع لأن الشيعة قالوا بضرورة انتقال الخلافة بعد رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب وأبنائه من فاطمة، رضي الله عنها، من بعده، ويمكن ملاحظة نسل الحسين بن علي بن أبي طالب قد انحصر بولده علي زين العابدين بن الحسين والذي أمه سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد وبذا فقد اتصل نسل ملوك الفرس بأحد أعلام آل البيت، وهكذا فإن أئمة الشيعة التي دوّنت قد حُصرت بنسل علي زين العابدين بن الحسين.

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢.

وكان من هؤلاء الذين أظهروا التشيع الحركات الباطنية، والذين ادعوا النسب إلى رسول الله ﷺ، وحركات بعض المتصوفة الذين ادعوا القيام بأعمالٍ خارجة عن سنن الكون، وكان لهم شطحات وشطحات، كما قال بعضهم بالحلول، ووحدة الوجود، ورفع بعضهم التكاليف عن أتباعه، ومن وراء ذلك كلّه العمل على تهديم الإسلام.

ويمكن أن نضيف في عامل العصبية إعلان إيران أنها خليفة لدولة فارس القديمة، وإعلان قيام دولة الشيعة فيها أيام أولجايتو (محمد خدابنده)[١] عام ٧٠٤هـ، ثم أيام الصفويين[٢] عام ٩٠٦هـ، وكان للخلاف المذهبي دوره في هذا الشأن.

كما أن لعامل التاريخ أثراً كبيراً في نشأة هذه العصبية، وهو ما نتحدث عنه الآن: تمّ فتح بلاد فارس بعد أن انساح المسلمون فيها إثر معركة نهاوند عام ٢١هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلاّ أنّ بعض المناطق قد عادت فانتفضت فجدّد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتحها، واستقر وضع المسلمين هناك نهائياً. ولما نقل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مركز خلافته إلى الكوفة كان المشرق يتبعه، وكان عامله على خراسان زياد بن أبيه، واستمر ذلك حتى استشهد سيدنا علي، ثم تنازل سيدنا الحسن لمعاوية، رضي الله عنه، فأبى زياد بن أبيه واعتصم بخراسان، ولم يتمكن معاوية من خراسان حتى استرضى زياداً، وقرّبه منه.

---

(١) اولجايتو بن أرغون بن اباقا بن هولاكو: تولّى حكم الدولة الإيلخانية المغولية في بلاد إيران عام ٧٠٤هـ بعد وفاة أخيه غازان الذي شبّ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام، ومع هذا فقد استمر في قتاله للمماليك، وهو الذي فاوضه ابن تيمية. وكذا فإن اولجايتو قد نشأ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم (محمد خدابنده)، وقد نشر المذهب الشيعي في منطقة حكمه، وأصبح الدين الإسلامي هو السائد في دولة إيلخانات الفرس، ولكن تجزأت هذه الدولة من بعده.

(٢) أسس دولة الصفويين إسماعيل الصفوي عام ٩٠٦ وتعرف باسم (القزلباشية)، وكانت شيعية متعصبة.

ولم يكن الأمويون أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ وضد الفرس أو الموالي، مع العلم أن الفرس شيء والموالي شيء آخر كما سيمر معنا ـ إن شاء الله ـ، كما تُصوِّر ذلك كتب التاريخ التي بين أيدينا، وليس من أمر تستدلّ به على رأيها سوى حادثةٍ فهمت بشكلٍ غير صحيح، وهي حادثة الجراح الحكمي أيام عمر بن عبد العزيز، وهي أنّه قد أخذ الجزية من بعض الناس من المجوس، ثمّ دانوا بالإسلام بعد مرور مدةٍ من العام فلم يردّ لهم ما أخذ عن عامهم ذلك، واجتهد وعدّ ما أُخذ لا يُردّ، وإنما تسقط الجزية بعد عامهم ذاك، فرفعوا هذا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقضى لهم، وردّ ما أُخِذَ منهم، وأجاب واليه جوابه الشهير «إن الله بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً».

ولم تكن هناك ضرورة لاستقدام عمال وولاة من فارس إلى بلاد الشام أو غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، إذ أن كلّ منطقةٍ تكفي نفسها بعمالها وأمرائها وخاصة أن هناك اختلافاً في اللغة، ومع هذا فقد استعمل الأمويون بعض العناصر الفارسية في المواضع التي هم بحاجةٍ إليها. أما في فارس فقد استفاد الولاة من الفرس في كثيرٍ من المناصب ومراكز الإدارة. وهذا الأمر عام في مختلف الأمصار الإسلامية فلم يستعمل الأمويون البربر في الشام ولا في فارس، وإنما استعملوهم في المغرب والأندلس، كما أن العباسيين لم ينقلوا عمالاً لهم من فارس إلى غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة.

وأما وجود العناصر العربية في بقية الأمصار فإن الفتوحات الإسلامية الأولى قد قامت على سواعد العرب، وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطوناً كاملةً قد استقرت في جهةٍ معينةٍ نتيجة وجود كثيرين من الفاتحين من أبنائها. وأما وجودهم في مركز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وبصفة الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وأما ما يُذكر من عداوة الفرس للعرب في اشتراكهم ضد الأمويين في

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[١]، وحروب ابن الزبير، وحركة ابن الأشعث[٢] فإن هذا الكلام يُعدّ في مُنتهى التجنّي على التاريخ، فإذا كانت هذه الحركات قد قامت في هذه المنطقة فهل يُعقل أن يكون أتباعها من البربر، أو الصقالبة؟ أليس سكان المنطقة هم الذين قاموا بالحركة؟. ومن ناحية أخرى فهل كان أتباعها من الفرس أكثر من أتباعها من العرب؟ وهل كان قادتها ومحركوها إلا من العرب؟ الواقع أن معظم جنودها وقادتهم كانوا من العرب، فلماذا إذن قتال العرب للأمويين أصحاب النزعة والعصبية العربية؟ إن العصبية بين القيسية واليمانية العربيتين كانت أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

وعندما قامت الدعوة العباسية اتخذت الكوفة مركزاً لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون، ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولةٍ ويسر. ثمّ إنّ الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على

---

(١) المختار بن أبي عبيد الثقفي: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة زمن عمر بن الخطاب، واستشهد أبوه يوم الجسر، وبقي هو في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم انتقل إلى العراق مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسكن بعده البصرة. وبعد مقتل الحسين أظهر نقمته على عبيد الله بن زياد، فحبسه، ثم نفاه إلى الطائف بعد شفاعة ابن عمر له. وعندما قام عبد الله بن الزبير بالأمر في مكة كان معه، ثم استأذنه بالدعوة له بالعراق، وانتقل إليها، وهناك دعا لمحمد بن الحنفية، وإلى قتل الذين قتلوا الحسين فتبعه الناس، وخرج بهم على والي الكوفة فغلب عليها، واستولى على الموصل، وقتل قتلة الحسين، وهاجم مكة، ثم قتله مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه عبد الله وذلك عام ٦٧هـ.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: سيّره الحجاج لغزو بلاد الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وانتصر، وأخبر الحجاج بذلك، وأنه يرى ترك التوغل في بلادهم حتى يمضي فصل الشتاء البارد، وكي يتعرف على مداخلها، فخالفه الحجاج، واتهمه، ووبخه، وأمره بالمضي قدماً، واستشار عبد الرحمن جنده فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته، ومبايعة عبد الرحمن، ثم خلعوا عبد الملك، واتجهوا إلى العراق، وجرت معارك ضخمة بين الطرفين، هزم في آخرها عبد الرحمن وقتل عام ٨٥ بعد أن دان له المشرق باستثناء خراسان التي عليها المهلب.

الدعوة في خراسان لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنّما لقيام الصراع على أشدّه بين القيسية واليمانية من العرب حيث يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعاً بهذا النزاع، أو كسب اليمانية التي تشكّل أكثرية المجموعة العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيّار الذي يعتمد على القيسية ويتعصّب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون فعلاً أذناً صاغيةً في خراسان، وتمكّنوا من النشاط حتى تمّ لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خراسان ليسوا من الفرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأنّ خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وشمال شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضمّ اليوم سكاناً من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن ضمّت إضافةً إلى ذلك مجموعاتٍ من الفرس من السكان الأصليين، ومجموعاتٍ من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها. إلاّ أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان، وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفرس قد جعلنا نتصور دائماً سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبو مسلم الخراساني، قد نسب إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن هذا إنما هو اسم حركي، فاسمه إبراهيم بن عثمان.

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان سواء أكانوا عرباً أم فُرساً أم تُركاً، وشكل طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عاليةٍ في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس - مع أنهم أقلّ من غيرهم - ما داموا يشكّلون جزءاً من السكان، وبرز منهم فئة، وظنّ بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير

القادة، وهو أبو مسلم الخراساني. ثمّ لم يلبث أن حصل نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسلطة سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تركياً، وكما تخلّصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلّصوا أيضاً من عبد الله بن علي العباسي الهاشمي عمّ الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركّز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟ فكلاهما صاحب أطماع بغضّ النظر عن فارسية الأول وعربية الثانية.

إن النزاع الذي حصل بين العرب والفرس في العصر العباسي الأول ـ على زعمهم ـ ولم يحدث نزاعاً وليس هو بالمعنى العصبي القومي الذي عرفته البلدان الإسلامية في أيامها الأخيرة نتيجة العدوى التي انتقلت إليها من أوربا. وإذا سلّطنا الأضواء على ذلك الصراع بين العرب والفرس فلماذا نغفل الخلاف بين القيسية واليمانية؟ وعندما نعلم أن اليمانية وقفت مع الفرس تقاوم الأمويين الذين يدعمون القيسية، عرفنا أن النزاع لم يكن قومياً وإنما لتحقيق الأطماع والمصالح. وهو ما حدث تماماً من خلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس.

وإن النزاع الذي حدث بين التجمعات في العصر العباسي الأول، إنما هو تكتلات لتحقيق أغراض قبل أن يكون عصبيةً قوميةً، فقد بقي عدد من الفرس بجانب الخلفاء العباسيين بعد أن ضربوا أبا مسلم الخراساني، والبرامكة وغيرهم، وقام بعضهم بضرب فُرسٍ آخرين، إن القومية العلمانية الحديثة هي التي ركّزت على ذلك التعصب، وزادت فيه، وأعطته تلك الصفة، ووصفت العهد العباسي بنزعةٍ خاصةٍ، إن هذه الصفة وتلك النزعة لم تكن معروفتين يومذاك أبداً.

* * *

٤ ـ المظاهر المادّيّة الحضاريّة

الحضارة هي الاستقرار، والأمن، والسعادة النفسية بتأمين أهداف الإنسان وحاجاته المادية الأساسية المتطوِّرة والتي تتفق والمدة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان، والتي تحقق خدمته ورفاهيته، فإذا وُجدت الحضارة نتج عنها ما يُعرف بمظاهر الحضارة، وهي التي يظنّها الناس ـ غلطاً ـ هي الحضارة. وتختلف هذه المظاهر باختلاف تطور الوسائل وباختلاف مفهوم الإنسان عن الحياة وهو الذي ينبع من العقيدة. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطور وحدها، ويعدّون طلب الملذّات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه، وحب الشهرة تقع كلّها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أي ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمع كاملٍ أو قتل أفراد أمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدون الوسائل التربوية والمادية هي مجال التطور، ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشرعية هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أما الوسائل غير الشرعية فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدمٍ وتطور للوسائل، وتهدم بالتالي ما شُيّد من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل هو من نتائج تصوّر الإنسان للحياة وبيان مهمته فيها، وهذا ما تقدّمه العقيدة، فالعقائد المادية تبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحق أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادع. وأن الوسائل تتطور في سبيل

الحصول على المنفعة المادية سواء أكان للفرد أم للدولة، ومن وراء المنفعة المادية الشهوة والشهرة وما إلى ذلك، وكل يُسمّي ما يعتقد حضارةً. أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حدّاً يقف عنده بحيث لا تطغى الجماعة على الفرد، ولا ينطلق الفرد بلا حدود، ويبحث الإسلام في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدي دوره في الحياة كاملاً. فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسم لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط، فينشأ التطور، ويحدث التقدم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مهمة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس كانت هناك حضارات مختلفة. فالحضارة المادية ينظر بعض أتباعها إلى سعادة الإنسان في الحياة في حريته الكاملة بغضّ النظر عن مصلحة المجتمع، لذا فهي تُهيء المُناخ المناسب ليمارس الفرد حريته كاملةً، ومن هذه الحرية ينطلق ويُطوِّر الوسائل المادية ليتمكَّن من تحقيق كلّ ما تصبو إليه نفسه، على حين ينظر بعض أتباع الحضارة المادية الآخرين إلى مصلحة الجماعة ويجعلون الفرد يذوب ضمنها ويعمل لها، ويطلبون منه أن يعمل ما في وسعه لسعادتها ـ حسب زعمهم ـ.

أما الإسلام فيعدّ الإنسان مستخلفاً في الأرض، وعليه أن يقوم بإعمارها حق القيام، ويؤدي مهمته التي أُنيطت به حق الأداء، ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً، لذا فقد كان على المرء القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما فيها أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية، وما يتبعها في كلّ ما يتعلق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلات، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم، وحماية سيرهم وقوافلهم.

كما يهتم الإسلام بالإنسان ويكّرمه، ويهتم بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتم بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يعلق فيها من شوائب وخُرافات، وحرر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيمٍ، وطيرةٍ، وهامةٍ، ومنع كلّ ما يحول دون انطلاق فكر المسلم، وتحرّره من كل قيدٍ يمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات، والظلم، والاستبداد. ومن الناحية الصحية حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمُوم، ومُسكرات، ومُخدرات، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات، وهي نار جهنم. وكذا اهتم بالمساواة بين الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس المال، أو الأصول والبيئات، أو المسكن والمكان، أو المهنة والعمل كي لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفة أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ. كما أمر بنشر العدالة بين الرعية، والتعاطف والتراحم بين الجوار وأولي الأرحام ثم بين المسلمين جميعاً. واهتم بالعدل، وعدم النظر إلى منصب الأفراد ومركزهم، والخليفة فرد من المجتمع، كما طالب أولي الأمر بالتواضع وعدم الترفع على الرعايا، وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلاّ أنه خصّ أولي الأمر منهم، فهم أحق في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك. ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف - كما كان يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعات الدولة إلاّ إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتم المسلمون ببناء القصور المنيفة والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة كي لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغني نظرة الحقد والبغض، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيام الأخيرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه.

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لرعاياها، وعن مسكنهم، وطعامهم، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغضّ النظر في عقيدة الأفراد الذين تصيبهم هذه الحالات.

فالحضارة الإسلامية إنسانية تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً. وهي حضارة قائمة بذاتها تنبع من العقيدة الإسلامية، من نظرة المسلم للحياة، ومهمته فيها، وما يُحقق للنفس من سموٍ، وما يُؤمن للمجتمع من رفاهٍ وسعادةٍ، على حين أن بقية الحضارات المادية تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يحقق فيها لنفسه من ترفٍ، وما يتمتع من ملذّات، وما يُحقق من شهواتٍ وشهرةٍ وبناء عزٍّ. وتنظر إلى ما شاده القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصور، وهياكل ومعابد، وأهراماتٍ ومقابر، وساحاتٍ ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةٍ تنظر إلى هذه كلها نظرة عادية فهي ليست إلاّ فن عمراني لم يُشد لخدمة البشر وسعادتهم، وإنما أُقيمت حسب أهواء حكامٍ، وقامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس وتكليفهم ما لا يطيقون.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة قد بلغت أوجها عندما استقرّ الناس، وساد الأمن، وعمّ بينهم العدل، وانتشرت المساواة، وأُمّنت حاجاتهم الأساسية، وانطلقوا لتحقيق أهدافهم ومهمتهم في الحياة بكل رضىً للحصول على السعادة النفسية وهذا ما تمّ في صدر الإسلام فكانت الحضارة العظيمة ومن ثَمّ أخذت تبدو مظاهرها من هذا المنطلق فيما بعد، وللحضارة مظاهر متعددة فهناك مظاهر أساسية هي: العلم والأخلاق والإنتاج، ومظاهر كمالية هي: البناء والعمران، وهناك مظاهر ترفيهية هي: الزخرفة والموسيقى والفن و... وإذا وصلت الحضارة إلى المظاهر الترفيهية بدأ الترف أو بدأت نهاية الحضارة وهذا ما حدث في الدولة العباسية حيث بدأت الحضارة تنهار، وسقطت الدولة، ولم تصل الحضارة إلى أوجها كما يتصور الماديون.

عاش الإنسان في أكثر جزيرة العرب قبل الإسلام متنقلاً لا يأمن على

نفسه، ولا على عرضه لكثرة الغارات التي تحدث، والأيام بين القبائل التي لا تنتهي، فإذا انتقل الإنسان إلى مدينةٍ واستقر بها، وترك حياة الترحال والانتقال قالوا: إنه تحضّر، فالاستقرار بداية مراحل الحضارة. فلما جاء الإسلام، وتأسست دولته الأولى في المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ ساد الأمن، وزال الخوف، وأمن الناس على أنفسهم وعلى أموالهم، وأعراضهم، ونال كلٌ حقّه حيث العدل والمساواة، وحصل على حاجاته الأساسية. وبدأ المسلمون بعد ذاك ينطلقون للدعوة لأفكارهم وعقيدتهم ويحققون بذلك مهمتهم في الحياة بالعبادة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فدانت لهم الجزيرة العربية وانطلقوا خارجها يُتممون مهمتهم، وبهذه الدعوة وهذه الفتوحات كانوا سعداء جداً، وبذا وصلت الحياة في الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين إلى السعادة التامة بحيث لا يريد الإنسان أكثر مما هو فيه ـ حسب زمنه ـ من حيث الحاجات الأساسية والعمل العقيدي من عبادةٍ وجهادٍ. . . . . ولما كانت تُحقّق لكلّ إنسانٍ كلّ مبتغاه وما يتمناه فهو في سعادة، وهو في أوج الحضارة وعلى قمتها.

وفي العصر الأموي تتابعت الفتوحات، وبقيت أهداف المسلمين تتأمن بالجهاد، وإن ضعُفت أسس الحضارة قليلاً، حيث ظهرت بوادر العصبية الجاهلية، وكادت المساواة تبدو ضعيفةً، وغدا الخليفة يتصرف ببعض بيت المال، وزاد هذا في أواخر عهد الأمويين، واستمر الوضع في العهد العباسي الأول، وتوقّفت الفتوحات، وتناقصت أعمال الجهاد، إلاّ أنّ ما جاء من أموال بسبب الفتوحات السابقة، وما دخل البلاد من رقيق نتيجة الشراء بسبب الثراء ونتيجة الجهاد فإن مظاهر الحضارة قد بدأت تنحو منحى جديداً فالذين تمسكوا بأسس الحضارة الصحيحة قد انصرفوا نحو العلم فأنتجوا، وعاش آخرون في الترف واتجهوا نحو مظاهر الحضارة الكمالية فكان البناء، والعمران، وشقّ الأقنية، والزراعة، والتجارة وإن كان معظم ذلك كان يتم بأيدٍ غير أيدي السكان الأصليين من رقيقٍ وزنجٍ جُلبوا إلى المنطقة. وانصرف آخرون أيضاً نحو مظاهر الحضارة الترفيهية فعاشوا في

الغناء، والموسيقى، والشراب، ونتيجة الترف بدأت الحضارة تتراجع تدريجياً حتى قضى ذلك على الدولة العباسية إذ أن أُسس الحضارة في الأمن، والعدل، والمساواة، واحترام الإنسان قد بدأت تتراجع، ومع زوال الأُسس والأُصول تداعت الأغصان والفروع وتساقطت الثمار وبعضها لا يزال فجّاً لم ينضج، وبعضها قد جفّ ويبس بانقطاع النسغ الذي كان يأتي عن طريق الأسس.

ويمكن أن نقول: إن أسس الحضارة وأصولها قد بلغت أوجها في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، وبدأت آثارها تظهر بعد الفتوحات إلاّ أن الترف قد أعطى آثاراً ترفيهيةً فتهدّمت الحضارة منذ وضوح مظاهرها إذ زالت أُسسها.

وهكذا فالتاريخ العباسي وقع تحت تأثير الشيعة الذين شوّهوا تاريخ الخلفاء وغيّروا وجه العهد، وفي النهاية سقطت بغداد بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين العلقمي الذي ظاهر المغول وأطمعهم بالسير إلى بغداد ثم سلّمهم إياها. وتحت تأثير العصبية التي جزّأت الدولة، وقطّعت أوصالها، وتحت تأثير الحكم العسكري الذي أذلّ الخلفاء والرعية على حدٍّ سواء، وحكم بالحذاء، ثم هناك الترف الذي صرف الناس عن غاياتهم.

فالشيعة، والقومية، والحكم العسكري، والترف مصيبة الدولة العباسية بالأمس، ومصيبتنا اليوم.

* * *

الدعوة العبّاسية

إنّ حبّ المسلمين لآل البيت، ثم عطفهم عليهم وخاصةً بعد فاجعة كربلاء جعل كلّ طامعٍ يدّعي أنّه يعمل أو يدعو لأحد رجالات آل البيت، ومن بين هؤلاء الطامعين المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في العراق، وسكن البصرة بعده، ثم نفاه عبيد الله بن زياد بعد حادثة كربلاء إلى الطائف بعد أن سجنه مدةً، ثم كان مع ابن الزبير، وتظاهر أنّه من دعاته، وطلب منه السفر إلى العراق ليعمل له، فوافقه، وانتقل المختار إلى العراق، وهناك دعا لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بـ (ابن الحنفية)[1]، ولكنّ محمداً لم يستجب له، وتبرّأ منه، وأعلن كذبه، غير أن المختار ادّعى أنّ هذا الرفض أو عدم الرضا من صفات الإمام. وقد قال محمد بن علي مرةً عندما بلغه أنّ بعض الناس يزعمون أن عند آل البيت كثيراً من أسرار العلم «وإنّا ـ والله ـ ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلاّ ما بين هذين اللوحين، وأشار إلى المصحف. وإنّ من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله فقد كذب». وعلى هذا لم يكن

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم: أُمّه خولة بنت جعفر الحنفية ونُسب لها تمييزاً له عن بقية أولاد علي، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة، كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، ويقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأنا أعلم منهما. ولد عام ١٣هـ، وحمل لواء أبيه يوم صفين، ولم يشهد كربلاء، ورفض بيعة ابن الزبير، وانتقل إلى الطائف هرباً منه، كما رفض بيعة عبد الملك بن مروان، ولما صفا الجو لعبد الملك وبقي خليفةً وحده بايعه، وتوفي محمد بن علي عام ٨١هـ، ولكن الكيسانية من أتباع المختار تدّعي أنه لم يمت، وأنّه مقيم بجبل رضوى قرب المدينة عنده لبن وماء.

محمد بن علي ليطلب لنفسه الأمر، أو يدّعي الإمامة، وكذا كان ابنه عبد الله[١]، وإن ادعت الكيسانية[٢] أنّ الإمامة قد انتقلت إليه بعد وفاة أبيه.

كان بنو أمية يُكرمون بني هاشم، ويُقطعونهم القطائع، ويُعطونهم الأُعطيات، ولكن إذا حرّض بعض الناس أحدهم للخروج على الدولة نكّلوا به، وبمن حرّضه. وإذا كنّا لا نقرّ بني أمية في قسوتهم إلاّ أنّنا في الوقت نفسه لا نرى الخروج على الإمام، أو كلما حلا لأناس الدعوة لشخص دعوه إلى الخروج بحجة أنّه الإمام الشرعي ثم قام يدعو لنفسه، ويقاتل الخليفة القائم بالأمر، وإنّ الإمام الشرعي إنّما هو الذي أخذ البيعة من المسلمين دون إكراهٍ، ودون وراثةٍ، وفي الوقت الذي لا نرى فيه وراثة بني أمية السلطة ولكنّنا في الوقت نفسه لا نرى وراثة بني هاشم أو أية قبيلةٍ أو أسرةٍ أخرى، فالخلافة ليست ملكاً عضوضاً، وإن كان من خرج من بني هاشم هو أفضل من حكام بني أمية الذين خرجوا عليهم، لكنه من ناحيةٍ شرعيةٍ تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل. وكان خصوم بني أمية للإشاعة ضدهم كلما مات رجل من آل البيت ادعوا أنّ الأمويين قد دسّوا له السم أو عملوا على قتله، ولكثرة الإشاعات، كاد يصدق كلّ إدعاء.

ومن باب إكرام بني أمية لبني هاشم فقد أقطع الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي «الحميمة» بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء في الأردن لعلي بن عبد الله بن عباس، فأقام بها، واستقر فيها.

ومن هذا الباب أيضاً فقد زار أبو هاشم عبد الله بن محمد بدمشق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقد أكرمه سليمان، وقدّم له

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، أبو هاشم: كان من وجهاء آل البيت، ولم يطلب الأمر أبداً، وتوفي عام ٩٩هـ في الحميمة.

(٢) الكيسانية: فرقة تنسب إلى أبي عمرو كيسان قائد شرطة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وهو من الفرس، وهناك من يقول: إن كيسان لقب للمختار. وهذه الفرقة تدّعي انتقال الإمامة من علي بن أبي طالب إلى ابنه محمد، ثم إلى ولده عبد الله أبي هاشم هذا، وتزعم أن محمداً لا يزال حيّاً، ويقيم بجبل رضوى...

الأُعطيات، ثم انصرف أبو هاشم متوجهاً إلى المدينة المنورة، وأثناء الطريق شعر بالمرض، وأحسّ بدنو أجله، وحدّث بذلك لمرافقيه، فقال بعضهم لعلّ سليمان قد دسّ لك السمّ، فتوهّم بذلك، كحالة كلّ مريض، فانتشر الخبر، وأصبح الشكّ المزعوم يقيناً، فتأثر أبو هاشم من بني أمية، وعرّج على «الحميمة»، ونقل ذلك لابن عمّه محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية. ولو كان قد وُضع لأبي هاشم السمّ لقُضي عليه بشكلٍ سريعٍ، وعادة الملوك أن تضع السمّ الزُعاف، ولكنّ أبا هاشم قد عاش بعد مغادرة سليمان ما يزيد على الشهرين، وذلك عام ٩٩هـ.

ثم إن الرواة وأصحاب الأغراض قد زعموا أن أبا هاشم قد أعطى محمد بن علي العباسي أسرار الدعوة وتنظيماتها، في الوقت الذي لم يكن له أيّ تنظيم، وإنّ أبا هاشم ووالده محمد بن علي بن أبي طالب ليتبرؤون من الكيسانية، إذ أنّها مارقة منذ ذلك التاريخ. فلم تكن لهم أيّة صلةٍ بالكيسانية التي يدّعي الرواة أن بني هاشم قد اتجهوا نحوها.

والواقع أن محمد بن علي العباسي قد وقع في أذنه كلام أبي هاشم موقع الاستجابة إذ أنّه كان رجلاً طموحاً، وكان له أكثر من عشرين أخاً يدعمونه إضافةً إلى أبنائه فيشكلون بذلك قوةً، كما أنّ أباه علي بن عبد الله بن عباس قد شجّعه على المضي في هذه الطريق، واستمر يشجعه حتى توفي عام ١١٧هـ في «الحميمة». وعلى كلٍّ فقد حمل محمد بن علي العباسي على كاهله الفكرة، وبدأ يعمل على تنفيذها.

نظر محمد بن علي ليعيّن المكان الذي يجعله قاعدة انطلاقٍ لدعوته، وقد رأى أن تكون بعيدةً عن «الحميمة» لتبتعد الأنظار عنه، ويبقى الإمام المرشح مجهولاً كي يضمن جمع أكبر أعدادٍ من المعارضين لبني أمية، إذ لو سُمّي الإمام لابتعدت عنه مجموعات، ولاقتصرت دعوته على فئةٍ واحدةٍ، لأنّ كلّ جماعات ترى رجلاً معيناً من بني هاشم، وعلى هذا فقد جعل دعوته هاشميةً وإلى الرضا من آل محمد، فهي تشمل بذلك أبناء

علي، كما تشمل أبناء العباس، وتضمّ أبناء جعفر، وأبناء عقيل، وأبناء عليٍّ. ووقع اختياره على مدينة الكوفة إذ أنّها قاعدة الناقمين على بني أمية حيث فيها كثير من أنصار أبناء علي أولاً، ثم إن هذه المدينة قد قُتل من أبنائها الكثير مع مسلم بن عقيل(١)، ومع المختار الثقفي، ومع مصعب بن الزبير(٢)، ومع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ومع الخوارج و.... وقد نقم أهل هؤلاء القتلى جميعاً على بني أمية، وعندهم الاستعداد للثورة في كلّ آن تسمح لهم الفرصة فيه، أو تخفّ وطأة الحكم الأموي عنهم.

ورأى أن خراسان تقع في مشرق الدولة، وإذا دعت الظروف يمكن أن يفرّ من يريد إلى بلاد الترك المجاورة، كما فعل من قبل ابن الأشعث وغيره. وفي خراسان يشتدّ الصراع بين العرب، بين القيسية واليمانية، فيمكن الإفادة من هذا الصراع وجلب الجماعات الناقمة على هذا النزاع، والتي تريد أن تقضي عليه، وتتخلص منه، والجماعات التي يؤلمها هذا الصراع الجاهلي الذي يحاربه الإسلام، فهو عصبية فتنة.

ويكثر في خراسان الموالي وهم الذين كانوا أرقاء بغضّ النظر عن أصولهم سواء أكانوا عرباً أم عجماً على خلاف ما يقوله المؤرخون المحدثون من أن الموالي هم المسلمون من غير العرب. فزيد بن حارثة(٣)، رضي الله عنه، كان مولى رسول الله ﷺ، وهو عربي.

---

(١) مسلم بن عقيل بن أبي طالب: تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة، كان مقيماً بمكة، انتدبه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، إلى العراق ليتعرف على أحوال أهل الكوفة، فسار إليها، وأخذ بيعة ثمانية عشر ألفاً من أهلها، وشعر أمير الكوفة من قبل الأمويين عبيد الله بن زياد، فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرقوا عنه، فاختفى في بيت امرأة، ثم عُرف مكانه، فقبض عليه ابن زياد، وقتله عام ٦٠.

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله: ولد عام ٢٦هـ، أحد الولاة الأبطال، تولى أمر البصرة لأخيه عبد الله عام ٦٧هـ، قتل المختار الثقفي، وعزل عن البصرة، ثم أُعيد إليها، وضمّت إليه الكوفة، وخرج إليه عبد الملك بنفسه، بعد أن هُزمت جيوش الشام أمام مصعب، وخذلت مصعباً قواده بعد مراسلة عبد الملك لهم، فقتل عام ٧١هـ.

(٣) زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي: صحابي، اختُطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، ووهبته إلى رسول الله ﷺ حين تزوجها فتبنّاه=

والمقداد بن عمرو(١)، رضي الله عنه، كان مولى الأسود بن عبد يغوث الزهري، وهو عربي. وقد يكون المولى بالحلف فعبد الله بن جحش، رضي الله عنه(٢)، حليف بني عبد شمس وهكذا فالموالي إذن من كان أصلهم أرقاء ثم أعتقوا، أو ما كانوا قد تُبنّوا من قبل أحد، أو من كانوا أحلافاً لقبيلةٍ ذات مكانةٍ، وذلك بغضّ النظر عن أصولهم وألوانهم وسواء أكانوا من العرب أم من الأعاجم، أم كانوا من سود اللون أم من البيض. وخراسان عندما فُتحت وقعت أعداد كبيرة من أبنائها في الأسر، فكانوا أرقاء إلاّ أن الإسلام قد فتح طرقاً عديدةً للعتق كتكفيرٍ للأيمان، والذنوب، والظهار وغير ذلك إضافةً إلى التقرب إلى الله، ثم هناك المكاتبة لتحرير الرقيق نفسه، ولم تمض مدة إلاّ وأضحى الأرقاء أحراراً، وكانوا موالي، وكذا الأبناء، فالأبناء وهم في مقتبل العمر كانت حالتهم المادية لا تزال ضعيفةً، الأمر الذي يجعلهم يميلون إلى الثورة، بل ويحقدون على الأغنياء، والشباب الصغار هم دائماً وقود الثورات، والقوة المحّركة لها.

ولم يكن الناس قد اتجهوا إلى الزراعة بعد بشكلٍ جيدٍ، أو عادوا إليها بعد الإنصراف إلى الفتوحات وأعمال الغزو، وبالتالي فإنّ الدولة لم تكن بعد قد أولت الزراعة عنايتها لاتجاهها إلى الفتح وإلى قمع الحركات التي تحدث بين الحين والآخر، وهذا ما جعل الحياة المادية في الريف دونها في المدن فاتجهت أعداد من الشباب نحو الحواضر ليجدوا حياةً

= النبي ـ قبل البعثة ـ وأعتقه، وزوّجه ابنة عمته زينب بنت جحش، رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يحبّه، ويقدّمه، وما بعثه في سريةٍ إلا أمّره، واستشهد في مؤته عام ٨هـ.

(١) المقداد بن عمرو الكندي المهراني: الحضرمي: صحابي، من أهل بدر، ومن السابقين في الإسلام، كان في الجاهلية من سكان حضرموت فوقع بينه وبين ابن شمر بن حجر الكندي خصام فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فتبنّاه الأسود الزهري حتى عُرف به، وتوفي المقداد رضي الله عنه عام ٣٣هـ على مقربة من المدينة المنورة.

(٢) عبد الله بن جحش: ابن عمة رسول الله ﷺ أميمة، من المسلمين الأوائل، ومن الأمراء الأشداء، استشهد يوم أُحد في السنة الثالثة للهجرة، ودفن مع خاله الحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

أفضل، هؤلاء وأولئك يمكن الإفادة منهم في كلّ حركةٍ، وهم أول ما اتجهت إليهم أنظار محمد بن علي العباسي. ولم تتوجه إلى العرب الذين استحكمت بينهم العصبية إذ يمكن نتيجتها أن تُعرف أسرار الدعوة، ويظهر ما يجب إخفاؤه، ثمّ إنّ ترف أكثر العرب هناك يجعلهم لا يفكرون بتنظيماتٍ سريةٍ، وليس لهم طموحات سياسية، وفي الوقت نفسه لا يبحثون عن تغييرٍ لأوضاعٍ اجتماعيةٍ قائمةٍ أو لتحسين أحوالٍ ماديةٍ هم في غنىً عنها، إذن لم يكن انصراف محمد بن علي العباسي عن العرب كراهيةً لهم، كما يزعم المؤرخون المحدثون، ولا حبّاً بالموالي أو الفرس، أو الترك، وإنما انصرف إلى الذين يمكن أن يؤمّن لدعوته النجاح بواسطتهم، فكان اتجاهه إلى الموالي، على حين كان أغلب النقباء من العرب. فالعرب قادة الدعوة، والشباب من الموالي من جنودها ووقودها.

ورأى أن تكون الكوفة مركز الدعوة، ويُقيم فيها كبير الدعاة، أو كما أسماه داعي الدعاة، وأن خراسان يمكن أن تكون مجال انتشار الدعوة ـ كما ذكرنا ـ وهذا ما يضمن لنفسه زيادةً في السرية ولدعاته كذلك، فأخبار خراسان تأتي إلى الكوفة، ومن الكوفة تنتقل إلى الحميمة، ويكون القدوم لمن يريد من الدعاة على شكل تجارٍ أو حجاجٍ، وتُرسل الأوامر والتعليمات عن طريق الكوفة أيضاً.

وبعد اتصالات قام بها محمد بن علي العباسي أرسل في عام مائة ميسرة العبدي إلى الكوفة ليكون داعي الدعاة فيها، وأرسل إلى خراسان أبا عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)، ومحمد بن خنيس، وحيّان العطار، وأمرهم بالعمل والبدء بالدعوة، فنالوا بعض النجاح، فأرسل دعاة خراسان بكتب من استجاب لهم إلى ميسرة العبدي بالكوفة، وقام هو بدوره فأرسلها إلى الحميمة.

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي العباسي أثني عشر نقيباً، وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من

بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعيُن أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الهروي ـ مولى لبني حنيفة[1]، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ واختار سبعين رجلاً أيضاً[2]. بحيث يكون لكل داعيةٍ اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيبٍ سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرةً يقتدون بها، ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضّح أنهم من أرومةٍ عربيةٍ، ومن قبائل عربيةٍ معروفةٍ مشهورةٍ، وهذا يردّ ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام إبراهيم بن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربيةً، واعتمدت على العرب، فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف يقتلون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أفذاذ علماء العربية؟ إنّ هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تُركياً، إذ يذكر المؤرخون أن إبراهيم بن محمد حين وجّه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع.

(٢) الطبري: ج٧ ص٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدد منها عن لوط بن يحيى الكوفي المتوفى ١٥٧ والمعروف بتشيعه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به.

تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[1].

وأحب هنا أن أوضح نقطةً أخرى وهي أنّ خراسان لم تكن فارسيةً محضةً كما يتصور المؤرخون وإنّما كان يسكنها تُرك، وفُرس، وعرب، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فُتحت فقطن فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو، وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس، وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ ـ أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ ـ إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

٣ ـ التركمان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأبيورد، وعشق أباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإنما سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا بحرب دائمةٍ مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدةً طويلةً من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في المشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى

---

(١) وكيف يكون هذا، وقد أوصاه بأن يلزم القبائل اليمانية وهي قبائل عربية؟

فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تنطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمةً كبيرةً، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يُعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكّن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ونجا منهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعيةً لبني العباس، إلاّ أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩هـ.

وعُزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يُشكلون نسبةً كبيرةً بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عُوانةَ، ثم أشرس بن عبد الله السلمي، ولم تكن عصبيتهما واضحةً، كما أن أولهما لم تزد مدة حكمه خراسان على عدة أشهر، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاّه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ المرابطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفرح به الأهلون، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١١هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبيةٍ مُضريةٍ، وتمكّن من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد توفي بسبب مرضٍ ألـمّ به في بطنه عام ١١٦هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مُدةٍ على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بضمّها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فضمّها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرةً ثانيةً، ولم يستدر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان نائباً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضُمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، وتمكّن من إلقاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن زريق، وخالد بن إبراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنّا أُناس من قومك، وإنما هذه المضرية إنّما رفعوا إليك هذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»[1].

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين أُلقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي

---

(١) تاريخ الطبري ـ الجزء التاسع.

فاستجاب له كثيرون، فلما التفوا حوله دعاهم إلى عقيدة الخرّمية الزنادقة، ورفع عن أتباعه التكاليف، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أنّ محمد بن علي يأمرهم بهذا، وكذب عليه، وذلك عام ١١٨هـ، وانتصرت عليه الدولة، فقطعت يده، وسلّ لسانه، ثم صلب.

وحدث انقطاع بين الحميمة وأتباعها في خراسان، هذا الانقطاع بسبب ما أحدثه خداش، وسيّر أنصار الدعوة وراءه، ودون الأخذ على يده، الأمر الذي أبعد الفكرة عن الإسلام، وأظهرها بمظهر الكفر والإلحاد، ثم لشدة أسد بن عبد الله عليهم حتى لا ينكشف الأمر تماماً. وبعد مقتل خداش شعر أتباع العباسيين بخطئهم، وندموا على ما فعلوا من سيرهم وراء هذا الزنديق، وأرسلوا كبيرهم، وهو سليمان بن كثير، ليعتذر لهم عن ذنبهم، ويرفع للإمام توبتهم، وندمهم على ما قاموا به، وعندما عاد سليمان بن كثير من الحميمة كان يحمل كتاباً مغلقاً، ولما فتحوه لم يجدوا فيه سوى «بسم الله الرحمن الرحيم، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرّمي». ثم أرسل إليهم بكير بن ماهان نفسه فلم يصدقوه، وهمّوا به، إذ أصبحوا يشكّون في كلّ داعيةٍ بعد خداش، ولكن بكيراً لم يرد أن يصطدم بهم، وعاد إلى الحميمة فأرسل لهم الإمام معه عصا ملويةً عليها حديد ونحاس فعلموا أن هذه إشارة إلى أنّهم عصاة، وكان ذلك عام ١٢٠هـ.

وفي العام نفسه توفي أسد بن عبد الله، واستناب مكانه جعفر بن حنظلة، ثم عُزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق وخراسان، ووُلّي يوسف بن عمر الثقفي، فولى على خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله، وولّى نصر بن سيّار، وكان نصر ذا عصبيةٍ مضريةٍ، وهذا ما جعل اليمانية تعاني الشيء الكثير، فتوجه أنصار الدعوة العباسية نحو اليمانية، واستمر الوضع حتى عام ١٢٥هـ لا يتقدم إلاّ ببطء. هذا إضافة إلى أن حركة زيد بن علي زين العابدين كانت قد قامت في الكوفة عام ١٢٢هـ، وفشلت، وكان لا بدّ أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية، ولكن حركة ابنه يحيى لم تلبث أن قامت أيضاً.

وفي ١٢٥ توفي محمد بن علي العباسي، وأوصى من بعده لابنه إبراهيم، وأمره أن يقوم بأمور الدعوة. وبعد هذا العام تغيّرت الأحوال بالنسبة إلى الدعوة العباسية إذ:

١ ـ ضعف الحكم الأموي بعد وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ، وانقسم البيت الأموي على نفسه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً، الأمر الذي كره فيه الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه. هذا إضافة إلى الحركات التي قامت ضدهم.

٢ ـ زادت العصبية القبيلية استحكاماً وخاصةً في خراسان، وكان الوالي نصر بن سيّار مضرياً فتعصّب لمضريته، وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه هذا بالإضافة إلى كراهية صاحب السلطة دائماً بسبب المصالح المستجدة. واتجه أنصار الدعوة العباسية إلى اليمانية، وهكذا جاءتهم التوجيهات أيضاً من الإمام. وكره الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه، كره هذا اليمانيون عامةً، وكرهه المضريون أنصار الكرماني، وكرهه أهل الدين لمخالفته للإسلام، وكره ذلك الفرس كما كرهه الترك لأن ذلك يؤثر على بلادهم وعلى أحوالهم المعاشية دون أن يكون لهم أية علاقة، أو دون أن يكون أحد منهم طرفاً فيه.

٣ ـ إن هذه الصراعات قد أثرت على أوضاع المنطقة فتأخرت الزراعة، ونال هذا الأمر الموالي بالدرجة الأولى، إذ أنهم هم عمال الأرض، والمنتجون الرئيسيون في المنطقة بل وفي الدولة عامةً، وحرصت أعداد كبيرة منهم على الانتقال إلى المدينة لتجد حياةً أفضل فغصّت المدن بالناس الذين لا عمل لهم، وكانوا أرضاً طيبةً لانتشار الأفكار المعادية للأوضاع القائمة، وبالتالي أنصاراً للدعوة العباسية بل ولكلّ تغييرٍ يمكن أن يتمّ.

٤ ـ إن الإشاعات الكثيرة التي روّجها خصوم بني أمية ضدهم قد لعبت دورها في كراهيتهم، ومساندة أعدائهم، والانضمام إلى صفوف الحركات التي تقوم ضدهم أو تعمل لذلك.

٥ ـ إن الحركات التي قامت في هذا الوقت كان لها الأثر السيء على الأمويين، فحركات الخوارج، وحركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرها مثل حركة الكرماني[(١)] وحركة الحارث بن سريج[(٢)]، كما لم تمض مدة طويلة على حركة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وحركة ابنه يحيى.

٦ ـ إن الترف الذي وجد في خراسان قد قسم المجتمع إلى طبقات، فحقدت الفقيرة على الغنية، وشعر الناس بمخالفة هذا للإسلام، وعدّوا الدولة هي المسؤولة عن وجود مثل هذه الطبقات.

٧ ـ إن انقسام الإقليم بين نصر بن سيّار وجديع بن علي الكرماني، قد أضعف أمر الوالي، وفي الوقت نفسه فقد قوّى أبو مسلم الذي ضمّ إليه أكثر أنصار الكرماني بعد قتله، وكانت اليمانية الذين اعتمدت عليهم الدعوة إلى بني العباس قد التفوا حولها بشكلٍ أقوى.

إن القوة التي حصلت عليها الدعوة في خراسان قد جعل من الضروري وجود شخصٍ قويٍّ يتصل بالحميمة مباشرةً دون الرجوع إلى داعي الدعاة الذي مقره الكوفة، وقد كان التفتيش عن هذا الشخص حتى وجد في شخصية أبي مسلم الخراساني[(٣)].

---

(١) الكرماني: جديع بن علي الأزدي، ولد بكرمان فنسب إليها، وولي إمارة خراسان ثم عزل، وولي أمر المنطقة نصر بن سيار فسجنه فغضبت الأزد، وفر جديع من السجن، وثار على نصر بن سيار، ثم اتفق مع أبي مسلم الخراساني على قتال نصر بن سيّار، ثم قتله نصر بن سيار عام ١٢٩هـ.

(٢) الحارث بن سريج التميمي: كان من سكان خراسان، ثار على أميرها عام ١١٦، وسيطر على مناطق كثيرة، ثم هزم على أبواب مرو، فالتجأ إلى بلاد الترك، فبقي فيها ١٢ سنة ثم أمنه الخليفة يزيد بن الوليد فعاد عام ١٢٧، وردّ إليه ما أخذ منه، ثم عاد فثار، وعظم أمره، ثم قتل عام ١٢٨هـ.

(٣) أبو مسلم الخراساني: يبدو أن اسمه الحقيقي هو إبراهيم بن عثمان بن يسار من ولد بزرجمهر، وكان يكنى أبا إسحاق، وغيّر الإمام إبراهيم بن محمد عندما أرسله إلى خراسان اسمه وكنيته. =

وفي عام ١٢٧ توفي بكير بن ماهان داعي الدعاة بالكوفة فعهد بأمر الدعوة من بعده لصهره أبي سلمة الخلال. وبعدها التقى الدعاة ومعهم أبو مسلم بإبراهيم بن محمد في موسم الحج، ودفعوا له نفقاتٍ كثيرةً، وزكاة أموالهم، ولاحظ إبراهيم ما صار إليه أمر أبي مسلم، وذكاءه، وإمكاناته، فقرر في نفسه أن يرسله إلى خراسان، فهو كفء لذلك، وأمر خراسان يحتاج أمثاله، والدعوة تنطلق بشكلٍ جيد، ويمكن إظهارها بعد مدة إن استمرت في إنطلاقها هذا.

= كان أبوه من أهل رستاق «فريذين» من قريةٍ تسمّى «سنجرد» وكانت ملكاً له مع غيرها، وكان يتاجر بالمواشي إلى الكوفة. ضمن رستاق «فريذين» فخسر، وغرم، فأرسل إليه والي البلد من يُحضره فهرب بجاريته التي كانت حبلى، فولدت عام ١٠٠ في بلدة «ماه البصرة» من أعمال أصبهان ولداً، هو أبو مسلم الخراساني. وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج فحمله معه إلى الكوفة، وهو ابن سبع سنين. وتعهده عيسى بن معقل بن إدريس العجلي وأخوه عاصم، وكانا من عمال خالد بن عبد الله القسري والي العراق وخراسان، وبقي عندهما حتى شبّ.

وفي ١٢٠ عزل خالد بن عبد الله القسري عن العراق وخراسان، وتولى أمرهما يوسف بن عمر الثقفي، فسجن سلفه وعماله، ومنهم ابنا معقل العجلي، فكان معهما أبو مسلم الخراساني.

واجتمع أنصار العباسيين في دار، فغُمز بهم، فأخذوا، وسجن بكير بن ماهان وأفرج عن الباقيين. والتقى بكير بن ماهان بابني معقل العجلي، فدعاهما إلى رأيه فأجاباه، وقال بكير لعيسى: ما هذا الغلام؟ قال: مملوك، قال: تبيعه؟ قال: هو لك، قال: أحب أن تأخذ ثمنه وأعطاه أربعمائة درهم. ومن ثم خرجوا من السجن.

وفي عام ١٢٥ كان أبو مسلم مع دعاة بني العباس إذ التقوا بمحمد بن علي العباسي ثم بابنه إبراهيم، وأُعطي أبو مسلم لإبراهيم بن محمد، فبعث به إلى عيسى بن موسى السراج بالكوفة فسمع منه، وحفظ.

فأبو مسلم إذن فارسي وليس من خراسان، ولعلّ هذه النسبة هي التي قرنت الفرس بخراسان.

كان قصيراً، أسمر، جميلاً حلواً، نقي البشرة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية وبالفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفاً بالأمور، لم ير ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، وكان لا يقطّب في شيء من أحواله.

تأتيه الفتوح العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يُرى مكتئباً. وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب.

وفي عام ١٢٨ بعث إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان، وكتب معه كتاباً إلى شيعته جاء فيه: «إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان». ولكنهم لم يلتفتوا إليه: فرجع أبو مسلم إلى الإمام إبراهيم أيام الموسم. فقال له: «يا عبد الرحمن إنّك رجل منا أهل البيت، ارجع عليهم، وعليك بهذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»، وقد سبق أن شككنا في هذا الكلام إذ أن كبار الدعاة هم من القبائل العربية المعروفة - كما مرّ معنا - وهم قادة الدعوة والدولة في المستقبل.

سار أبو مسلم إلى خراسان بناءً على طلب الإمام الذي زوّجه ابنة عمران بن إسماعيل أبو النجم أحد النقباء الإثني عشر الأوائل. وبدأ العمل بنشاطٍ وسريةٍ تامةٍ مع كتمانٍ شديدٍ.

وفي عام ١٢٩ طلب الإمام إبراهيم من أبي مسلم أن يحضر إليه مع كبار أعوانه، فسار إليه مع سبعين من النقباء. فلما كانوا ببعض الطريق جاءهم كتاب آخر من الإمام يقول فيه لأبي مسلم: «إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة، وأمر قحطبة بن شبيب الطائي أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه في الموسم».

رجع أبو مسلم إلى خراسان فدخلها في أول يوم من رمضان، ورفع الكتاب إلى سليمان بن كثير الموجه إليه من الإمام وفيه: أن أظهر دعوتك ولا تتربص. فقدّم الدعاة في خراسان أبا مسلم الخراساني عليهم كداعيةٍ لبني العباس، فبعث دعاته إلى بلاد خراسان كلّها، وأمير خراسان نصر بن سيّار مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري. أما هو - أبو

مسلم ـ فقد نزل على سليمان بن كثير الخزاعي بقرية «سفذنيج» من قرى مرو فتحصّن بها، وأظهر نفسه، وجاءته أنصاره من كل مكان. ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس، ونصب له منبراً، ونودي للصلاة الصلاة جامعة، ولم يؤذن، ولم يُقم خلافاً لبني أمية، وبدأ بالصلاة قبل الخُطبة.

أرسل نصر بن سيّار جيشاً بقيادة مولاه زيد، فَأرسل إليهم أبو مسلم قوة بإمرة مالك بن الهيثم الخزاعي أحد النقباء الإثني عشر الأوائل، ثم أمده بقوة أخرى، فانتصر مالك، وأسر عدداً من قوة نصر، وفيهم أميرهم زيد، فقتل أبو مسلم الأسرى إلا زيداً الذي بعثه إلى نصر ليعلمه عن جماعة أبي مسلم وما هم عليه، وكان هذا أول اشتباكٍ وقع بين قوة بني أمية وقوة بني العباس.

وتمكّن خازم بن خزيمة من السيطرة على مرو الروذ وقتل عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو بشر بن جعفر السعدي، وكتب بذلك إلى أبي مسلم. كما أخذ مدينة «هراة» النضر بن نعيم الذي أرسله أبو مسلم إليها، وهرب منها عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو عيسى بن عقيل الليثي.

وحاول نصر بن سيّار استمالة اليمانية إليه، ولكنه أخفق إذ رفض زعيمهم جديع بن علي الكرماني، حيث كان أبو مسلم يكتب إلى الطرفين، ويقول لكلٍ منهما: إن الإمام قد أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك. ووقع كل منهما في حيرةٍ بمن يعاون على الآخر. وتمكن نصّر من إقناع الكرماني في السير إليه للإتفاق، وذهب إليه في مائة فارس، ووجدها نصر فرصةً فقتله، وانضم عدد من أنصار الكرماني وولده إلى أبي مسلم وصاروا عوناً له على نصر.

وكثر أتباع أبي مسلم إذ كان يُرسل الدعاة إلى الكور يدعو لبني العباس، والناس في خلاف فبعث نصر إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب في جملة كتابه:

أرى بين الرماد وميض نارٍ فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكي وإن الحرب مبدؤها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن كانوا لحينهمُ نياماً فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فقال نصر: إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده.

وكتب نصر بن سيّار أيضاً إلى نائب العراق يستمده وهو يزيد بن عمر بن هبيرة، وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تحققت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضاً إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل واحد.

وبعث ابن هبيرة بكتاب نصر بن سيّار إلى مروان بن محمد، واتفق وصول الكتاب إليه إن وجدوا رسولاً من جهة إبراهيم الإمام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتال نصر بن سيّار والكرماني. وعند ذلك بعث مروان، وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك، يأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة، وهي البلدة التي يقيم فيها إبراهيم بن محمد، فيقيده ويرسله إليه، فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان، فأمر به فسُجن. ولكن الأمر جاء متأخراً إذ كان أبو مسلم قد ظهر وسيطر على مناطق واسعة.

وزادت مشكلات بني أمية إذ خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في فارس وغلب عليها وعلى كورها، واستولى أيضاً على «حلوان»، و «قومس»، و «أصبهان»، و «الري»، ولكنه هُزم فيما بعد بـ «اصطخر»، وأُسر كثير من أنصاره، ومنهم عمّ السفاح عبد الله بن علي الذي تكلم بسوء عن عبد الله بن معاوية حتى نجا. كما أن أبا حمزة الخارجي قد دخل مكة المكرمة بعد الموسم.

ودخل أبو مسلم الخراساني مدينة «مرو» حاضرة خراسان بمساعدة علي بن الكرماني، وفرّ نصر بن سيار منها متوجهاً إلى «سرخس» وذلك عام ١٣٠. وكذلك أرسل أبو مسلم إلى شيبان بن سلمة الحروري قوةً بإمرة بسّام بن إبراهيم مولى بني ليث فقتله، وتتبع أصحابه، كما أن أبا مسلم قد قتل ولدي الكرماني وهما: علي، وعثمان وصفا له الجو في المنطقة التي دانت له، ثم وجه خالد بن إبراهيم أبا داود وهو أحد النقباء الإثني عشر الأوائل إلى مدينة «بلخ»، فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري. ثم بعث قحطبة بن شبيب الطائي إلى «نيسابور» لقتال نصر بن سيّار، فالتقى قحطبة في مدينة «طوس» بتميم بن نصر بن سيّار، فانتصر قحطبة الذي أمده أبو مسلم بقوة بإمرة علي بن معقل تمكّنت من قتل تميم بن نصر، كما أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق دعماً لنصر بن سيّار، ولكنهم هزموا، وقتل عامل «جرجان» نباتة بن حنظلة، وأرسل قحطبة بهذا النصر إلى أبي مسلم.

وزاد من أمور بني أمية أن أبا حمزة الخارجي قد دخل المدينة المنورة وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وبقي فيها ثلاثة أشهر إلا أنه قد هزم أمام قوةٍ أرسلها إليه مروان بن محمد من خيرة رجال أهل الشام.

وفي عام ١٣١هـ وجّه قحطبة بن شبيب الطائي ابنه الحسن إلى «قومس» لقتال نصر بن سيّار، ففرّ نصر إلى الري، ومنها سار إلى همدان،

وقبل أن يصل إليها توفي في «ساوة»[1]، وبوفاة نصر بن سيّار دانت خراسان كلها لأبي مسلم، إذ دخل الحسن بن قحطبة الري، وهمدان، ونهاوند.

وفي عام ١٣٢هـ التقى قحطبة بن شبيب مع أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة فانتصر جند قحطبة، وقتل معن بن زائدة قحطبة الذي استخلف ابنه الحسن بعده، والذي اتجه نحو الكوفة وقبل أن يدخلها خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعياً لبني العباس.

أما إبراهيم بن محمد فقد بقي في سجن مروان بن محمد حتى مات عام ١٣٢، وكان قد طلب يوم ألقي القبض عليه أن يكون الخليفة بعده أخوه عبد الله بن محمد (السفاح)، وأن يرتحل بأهله إلى الكوفة، فسار السفاح من يومها إلى الكوفة، ومعه أعمامه: عبد الله، داود، عيسى، صالح، إسماعيل، عبد الصمد، وأخوه عبد الله بن محمد، وابنا أخيه إبراهيم وهما: محمد وعبد الوهاب، ولما وصلوا إلى الكوفة نزلوا على أبي سلمة الخلال فأسكنهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم، ثم بدأ ينقلهم بعد أربعين يوماً من مكان إلى آخر، ولما بلغهم مقتل أو موت إبراهيم بن محمد في صفر، أراد أبو سلمة أن يُحوِّل الخلافة إلى آل علي إلا أن بقية النقباء والأمراء قد عرفوا مكان السفاح فدخلوا عليه، وسلّموا عليه بالخلافة، وكانت قد دانت أجزاء واسعة لأبي مسلم من العراق وخراسان، وذلك في ١٢ ربيع الثاني من عام ١٣٢.

وخرج السفاح فدخل قصر الإمارة، ثم خرج إلى صلاة الجمعة فخطب الناس، وأخذ منهم البيعة بعدها، وعسكر السفاح في ظاهر الكوفة، واستخلف عليها عمه داود، ثم ارتحل إلى المدينة الهاشمية فنزل في قصر الإمارة.

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمدان في وسط، بينها وبين كل واحد من همدان والري ثلاثون فرسخاً. وأهلها من السنة الشافعية يقع بين أهلها وأهل آوه الشيعية القريبة منها خلافات. وقد خربها التتار عام ٦١٧، وحرقوا مكتبتها العظيمة.

أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين، فبعث أبا عون بن أبي يزيد إلى الزاب الكبير حيث يعسكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في قوةٍ كبيرةٍ، ثم أمده بعمه عبد الله بن علي، وبعث في إثره موسى بن كعب التميمي أحد النقباء الإثني عشر في خراسان الأوائل يأمره بالعمل على قتال مروان، والتقى الفريقان يوم ١١ جمادى الآخرة، وهزم مروان ولحقه عبد الله بن علي إلى حران، فقنسرين، فحمص، فدمشق، وحاصر عبد الله دمشق ومن معه من القادة ثم فتحت، وكان مروان قد هرب فلاحقه ثم جاءه أمر أبي العباس إلى عمه عبد الله بن علي بأن يأمر أخاه صالح بن علي بمتابعة مروان، وأن يبقى هو نائباً على الشام. ودخل مروان مصر، ثم وجد في كنيسة (أبو صير) فقتل. وعاد صالح بن علي إلى الشام، واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد، وتُعدّ دولة بني أمية قد دالت منذ وقعة الزاب الكبير.

وبعث السفاح ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط، ثم أمده بأخيه أبي جعفر حتى دخلوا واسطاً، وقتلوا يزيداً. كما أرسل دعماً إلى بسام بن إبراهيم بالأهواز فدخلوها واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٠٠	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	الجراح بن عبد الله الحكمي	-
١٠١	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	عبد الرحمن بن نعيم الغامدي	-
١٠٢	يزيد بن عبد الملك	محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد العزيز	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٣	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد الله الحرشي	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٤	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	مسلم بن سعيد بن أسلم	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	ميسرة العبدي	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	زياد أبو محمد
١٠٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري ـ الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١١	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١١٢	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٣	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٤	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	عمارة بن حريم ـ عاصم بن عبد الله	عمار بن يزيد (خداش)
١١٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	سليمان بن كثير
١٢٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	جعفر بن حنظلة ـ جديع بن علي الكرماني	سليمان بن كثير
١٢١	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٢	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٣	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٤	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٥	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير

السنة الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٢٦ الوليد بن يزيد	يوسف بن عمر الثقفي منصور بن جهور	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٧ يزيد بن الوليد إبراهيم بن الوليد	عبد الله بن عمر بن عبد العزيز النضر بن سعيد الحرشي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٨ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٣٠ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	دخل أبو مسلم الخراساني مرو	أبو مسلم الخراساني
١٣١ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني
١٣٢ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني

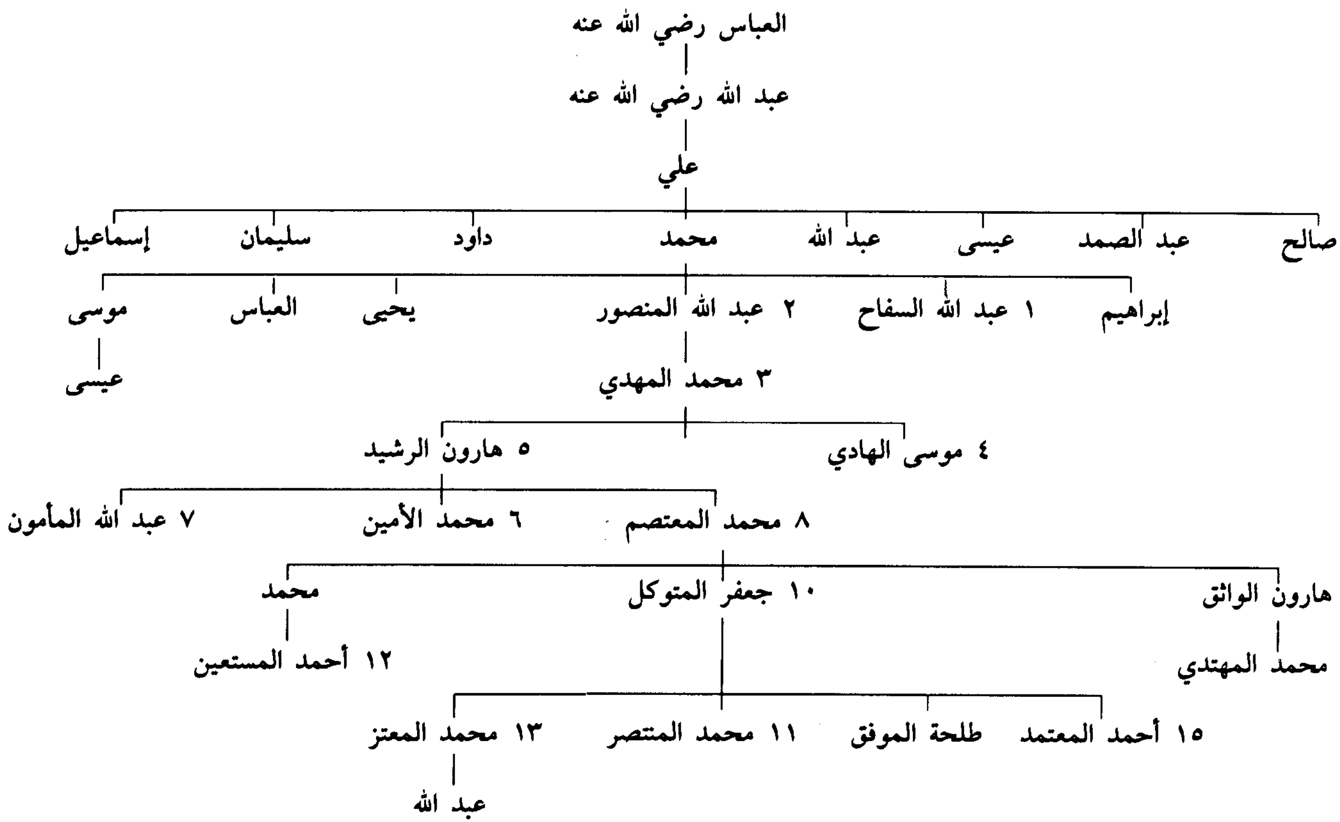

خلفاء عصر القوة وأبناؤهم في عهد بني العباس

خلفاء بني العبّاس

- ١ -

السّفّاح

عَبدُالله بن محمّد

١٣٢ - ١٣٦ هـ

السّفّاح

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ١٠٥هـ، وأمه رَيْطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي.

توفي والده محمد بن علي عام ١٢٥هـ بالحميمة[١]، وهو الذي بدأ بالدعوة العباسية، وكان السفاح قد ناهز العشرين من العمر، وعرف الكثير من الدعوة وأسرارها. وعهد والده من بعده لابنه إبراهيم (أخو السفاح) الذي عُرف فيما بعد بالإمام. وقد عمل على نجاح الدعوة، فقوي أمره، فأظهر نفسه في الموسم فعُرِف، كما وقع كتاب وجهه إلى أبي مسلم الخراساني في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فأرسل إلى واليه على دمشق فبعث من أخذه إلى حرّان[٢] قاعدة مروان فسُجن هناك. وكان قد أوصى من بعده لأخيه السفاح، وأمره أن يسير بأهله إلى الكوفة، وذلك عام ١٢٩هـ.

سار السفاح من الحميمة باتجاه الكوفة عن طريق دومة الجندل[٣]، ومعه من أهله ثلاثة عشر رجلاً هم: أعمامه: صالح، وإسماعيل، وعبد الله، وعبد الصمد، وعيسى.

---

(١) الحميمة: بلدة تاريخية، في الأردن اليوم، على مقربة من مدينة معان.

(٢) حرّان: بلدة تقع في جنوب تركيا اليوم، على بعد ١٣ كم من الحدود السورية، على نهر بليخ الذي يرفد الفرات عند الرقة.

(٣) دومة الجندل: بلدة تاريخية، شمالي الجزيرة العربية، على مقربة من الجوف اليوم، على الطريق بين الأردن والعراق.

أخواه: عبد الله بن محمد «المنصور»، ويحيى بن محمد.

أبناء أخوته: عبد الوهاب، ومحمد، ابنا إبراهيم «الإمام»، وعيسى بن موسى.

أبناء عمه: موسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر بن تمام بن عباس.

وصل هؤلاء الركب إلى الكوفة في شهر صفر عام ١٣٢هـ، وكان محمد بن خالد بن عبد الله القسري[١] قد خرج بالكوفة قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة[٢]، ودخل قصرها ففرّ منه عامل يزيد بن عمر بن هبيرة[٣] عليها، وهو زياد بن صالح، وبعد ثلاثة أيام جاء الحسن بن قحطبة بجنده فدخل الكوفة، وانطلق إلى مكان أبي سلمة الخلال[٤] فأخرجه من مخبئه، فاتجه أبو سلمة إلى النخيلة[٥] فعسكر فيها يومين، ثم ارتحل إلى (حمام أعْيَن)[٦] على بُعد ثلاثة فراسخ من الكوفة، وعسكر هناك، ووجّه

(١) محمد بن خالد بن عبد الله القسري: كان والده خالد بن عبد الله والياً على مكة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، ثم ولي لهشام بن عبد الملك إمرة العراقين من عام ١٠٦ إلى ١٢٦، ثم عزله بيوسف بن عمر الثقفي، وعذب فكان ابنه هذا ناقماً على الأمويين، وعلى القيسية.

(٢) الحسن بن قحطبة: تولى قيادة جيوش العباسيين بعد مقتل أبيه على يد معن بن زائدة في الصراع الدائر بين جيوش الأمويين بإمرة يزيد بن عمر بن هبيرة، وجند أبي مسلم الخراساني.

(٣) يزيد بن عمر بن هبيرة: أمير العراقين لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، كان بطلاً شجاعاً، سائساً جواداً، فصيحاً، خطيباً. وكان من الأكلة، هُزم فتحصّن في واسط، وحاصره المنصور مدة، ثم أمنه، ثم قتله بتحريض من السفاح سنة ١٣٢.

(٤) أبو سلمة الخلال: حفص بن سليمان الهمداني: داعي دعاة بني العباس بالكوفة، وأنفق الكثير من ماله في سبيل ذلك، كان صيرفياً. اتهم بأنه يريد الدعوة لأبناء علي، رضي الله عنه. كتب أبو مسلم الخراساني للسفاح يحسن له قتل الخلال، ولكنه رفض. أرسل له أبو مسلم من قتله ليلاً بالأنبار، بعد قيام السفاح بأربعة أشهر.

(٥) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندما بلغه هجوم أهل الشام على الأنبار.

(٦) حمام أعين: نسب إلى أَعْيَن مولى سعد بن أبي وقاص.

الحسن بن قحطبة لقتال يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، وجعل على الكوفة محمد بن خالد بن عبد الله القسري فكان يقال له الأمير. وفي هذه الأثناء وصل السفاح وركبه إلى الكوفة.

أنزل أبو سلمة القادمين في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم، وأخفاهم عن القادة على حين أن الكوفة قد أصبحت بأيديهم، وخراسان قد تسلّم أمرها أبو مسلم منذ أكثر من عام، وكان يجب أن يظهروا ويقودوا العمل بأنفسهم ما دامت الدعوة لهم، وهم أصحاب الشأن، كما أن الإمام إبراهيم قد مات في هذا الشهر فأصبح خليفته هو صاحب الأمر بالأصالة لا بالنيابة، وهذا ما جعل التهمة توجّه إلى أبي سلمة الخلال داعي الدعاة بأنه يريد حجب الأمر عن العباسيين وتسليمه إلى أبناء عمومتهم من أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وبقي أمر السفاح ومن معه مجهول الوصول والإقامة مدة أربعين يوماً، وكان أبو سلمة كلما سئل عن الإمام أجاب: لم يقدم بعد، وليس هذا وقت خروجه، حتى لقي أحد قادة العباسيين خادم السفاح، وهو يعرفه، فسأله عنهم فقال: إنهم بالكوفة، وإن أبا سلمة يأمرهم أن يختفوا، فأرسل القائد بعض أعوانه مع الخادم حتى عرف منزلهم بالكوفة. وسأل القائد أبا سلمة عن الإمام، فقال: ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد. فتدارس القائد مع البقية الأمر وقرروا أن يلقوا الإمام، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عن القادة في المعسكر، فقيل له: ركبوا إلى الكوفة في حاجةٍ لهم.

ودخل القادة على القوم وسألوهم: أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ لأنهم لم يعرفوه من قبل، فأشار الحضور إلى السفاح فسلموا عليه بالخلافة. وجاء أبو سلمة بعدئذ إلى السفاح وسلّم عليه بالخلافة.

كان السفاح شاباً، مليحاً، مهيباً، أبيض، طويلاً، وقوراً أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية، ذا شعرة جعدة. جواداً حتى كان يضرب المثل بجوده، وقد أعطى عبد الله بن حسن بن الحسن ألفي ألف درهم. وكان عفيفاً عنيفاً متعبداً.

توفي بالجدري عام ١٣٦ لثلاث عشرة خلت من شهر ذي الحجة، وبذا فقد عاش إحدى وثلاثين سنة، ولي الخلافة منها أربع سنوات، وبقي بين بيعته ووجود مروان بن محمد حياً ثمانية أشهر، أي وجود خليفتين في آن واحد.

وتزوج امرأة واحدة هي أم سلمة المخزومية، وذلك قبل أن يلي الخلافة، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فمات، وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات، فتزوجها أبو العباس. ولم يتزوج غيرها بعد أن آلت إليه الخلافة.

* * *

خلافته

خرج أبو العباس السفاح من مخبئه ومعه أهل بيته حتى دخلوا قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني، وكان الناس قد علموا بذلك من قبل فلبسوا سلاحهم، واصطفوا لخروجه. ثم دخل السفاح المسجد من دار الإمارة فصعد المنبر، وقام في أعلاه، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم السفاح فذكر حقهم في الإمامة فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمةً، وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا: حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١)، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٢)، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾(٣)، وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾(٤)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٤) سورة الحشر: الآية ٧.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[1]. فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا: وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية[2] الضلاّل، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم! ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم؛ فتح الله ذلك منّةً ومنحةً لمحمد ﷺ؛ فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدّلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وأخرجوا خماصاً منها. ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمُنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض؛ وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) السبئية: نسبةً إلى عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر. وعمل على تهديم الإسلام من الداخل، وادعى ولاء سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ونسب له أموراً غريبة خارجة عن الإسلام.

وكان موعوكاً فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن علي فقام دونه على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن اقشعت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت الأرض وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها: وبزغ القمر من مبزغه؛ وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى مترعه، رجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً أو عقياناً، ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم؛ واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان! آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام: وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي؛ جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غرّه بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته، ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس؛ إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة؛ أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه من استتمام الكلام بعد أن استحضر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى. ومناهج التقوى.

يا أهل الكوفة؛ إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان، وعز الإسلام، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصراً؛ وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارجٍ منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس ودواد بن علي أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم، حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب، وجنّهم الليل فدخل[1].

ويبدو من خطبة أبي العباس ومن كلمة عمه داود بن علي ثلاث نقاط:

---

(١) تاريخ الطبري.

١ ـ محاولة إظهار أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم على اعتبار أن الخلافة وراثية، ولم تكن الخلافة في الإسلام ملكاً متوارثاً وإنما هكذا أصبح بعد الحكم الراشدي.

٢ ـ الهجوم على بني أمية، وعدّهم ظالمين مستبدين، أخذوا بغير حق وساروا فيه بكل عسف. وهذا شأن كل حاكم جديد بالنسبة لسابقه، يبرر قيامه، ويمكّن لنفسه.

٣ ـ الوعد بحكم ما أنزل الله، واتباع سنة رسول الله، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح، وهذه قناعة الخلفاء، الذين يظنون أن ما سبقهم لم يطبقوا الإسلام بشكل صحيح، والواقع أن الإسلام لم يتبع منهجاً سليماً بعد صحابة رسول الله ﷺ، وإنما حدث فيه تغيير، ولكنه كان تغيير طفيف تزداد زاوية الانحراف وتتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى، ويبقى المظهر العام إسلامياً وذلك كل مدة الخلافة، فالخلفاء متمسكون عامةً بتعاليم الإسلام، ويفخرون بذلك، لذا فهم يأخذون على غيرهم، ويظنون بأنفسهم أنهم بإمكانهم أن يطبقوا بشكلٍ أفضل، ويعملوا بصورةٍ أحسن. والواقع أن العباسيين في أيامهم الأولى بصورةً عامةٍ كانوا أكثر تديناً من الأمويين، وأكثر تمسكاً بالإسلام، ولكنهم أقل خدمةً للأمة، وقد ظهر هذا من كلمة داود بن علي من اليوم الأول «ولا نحفر نهراً»، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جملةً مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيتهم، وإنما القضايا نسبية. فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب ألا تقع، أما ما نسب لهم، وما قيل فيهم فهو بمجمله محض افتراء من صنع الدساسين والخصوم.

وأشار داود بن علي إلى أن منبر الكوفة لم يخطب عليه خليفة بعد رسول الله ﷺ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الذي كان قد اتخذ الكوفة مقراً له، وبعده كانت الكوفة مهملةً من قبل الخلفاء حتى قام الخليفة السفاح هذا، وفي هذا الكلام إثارة لأبناء الكوفة ليعضدوا

الحكم الجديد الذي هو حكمهم إذ أن بلدتهم قد أصبحت قاعدة الخلافة الإسلامية كلها.

وفي اليوم الثاني سار السفاح إلى معسكر حمام أَعْيَن، ونزل في حُجرة أبي سلمة الخلال، ووضع بينهما ستراً. واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي. وبعث عمه عبد الله بن علي في قوة دعماً لأبي عون عبد الملك بن يزيد لقتال مروان بن محمد.

وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى[١] دعماً للحسن بن قحطبة الذي يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط.

وأرسل يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس دعماً لحميد بن قحطبة[٢] الذي يدعو لبني العباس في منطقة المدائن ويقاتل فلول الأمويين هناك.

وأرسل أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمّار بن ياسر على رأس قوة عوناً إلى بسّام بن إبراهيم بن بسّام بالأهواز.

وانتصر عبد الله بن علي على مروان بن محمد في معركة الزاب[٣] يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، وفرّ مروان إلى قاعدته «حرّان» فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، ومنها سار إلى قنسرين[٤]، وعبد الله بن علي متتبع له، ومن قنسرين سار مروان إلى حمص، ومنها إلى دمشق فالأردن ففلسطين، ثم سار إلى مصر، واختبأ ببوصير حتى قتل

---

(١) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو موسى: فارس بني العباس، وسيفهم المسلول، انتدب لحرب ولدي عبد الله بن حسن فظفر بهما. جعله السفاح ولياً للعهد بعد المنصور لكن المنصور أخّره، وقدّم عليه ولده، وبذل له، وتوفي عام ١٦٨ بالكوفة.

(٢) حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي: أمير، من القادة الشجعان، ولي إمرة مصر عام ١٤٣، ثم إمرة الجزيرة، ووجه لغزو أرمينيا عام ١٤٨، ولغزو كابل عام ١٥٢، ثم تسلم إمرة خراسان، وبقي فيها حتى مات عام ١٥٩هـ.

(٣) الزاب: نهر يصب في دجلة على مقربة من الموصل، ويأتي من الشرق.

(٤) قنسرين: كورة بالشام منها حلب، وبينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص.

فيها في ٢٧ ذي الحجة من عام ١٣٢هـ. أما ابناه عبد الله، وعبيد الله فقد فرا إلى الحبشة مع جماعة من الأتباع، ثم قتلت الحبشة عبيد الله، وأفلت عبد الله الذي سلم نفسه أيام خلافة محمد المهدي. وبمقتل مروان بن محمد خلت إمارة المؤمنين للسفاح إذ ليس للمؤمنين إلا أمير واحد لهم في دار الإسلام.

وأما واسط فبقيت محاصرةً من قبل أبي جعفر المنصور، والحسن بن قحطبة حتى جاء إلى ابن هبيرة خبر مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حمله إليه إسماعيل بن عبد الله القسري فطلب عندها ابن هبيرة الأمان وكثر الرسل بينه وبين أبي العباس حتى تَم الأمان فاستسلم ابن هبيرة ومن معه، وبقي يتردد على أبي جعفر مع حاشيته، ثمّ استشار أبو العباس في أمره أبا مسلم فرأى قتله فقُتل ابن هبيرة.

وأقام السفاح عدة أشهر بمعسكر حمام أَعْيَن، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة. ولم يستقر الوضع للسفاح بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، إذ اندلعت الثورات ضد السفاح في بلاد الشام، كما قامت حركات في بعض المناطق.

انتقل السفاح عام ١٣٤ من الكوفة إلى الأنبار حيث أصبحت مقر حكمه حتى توفي.

لم تقم حركة قوية ضد السفاح بعد عام ١٣٤، وفي الوقت نفسه لم تكن دولته موطدة الأركان، واعتمد السفاح في خلافته على دعائم ثلاث هي:

١ ـ أسرته:

لقد كانت أسرة السفاح كبيرة فكانت دعماً له، ومن يريد أن يؤسس أسرةً حاكمةً فإن عدد أفراد أسرته يلعب دوراً كبيراً في تسهيل مهمته فنلاحظ أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، أسس أسرةً لكن لم يطل عهدها، ولم يحكم بعده سوى ابنه يزيد، على حين أن أسرة بني مروان قد استمر أمرها ما يقرب من سبعين سنة لكثرة أولاد عبد الملك بن مروان.

لقد كان للسفاح سبعة أعمام تسلّموا له قيادة الجيوش، وإمرة

الولايات، فضبطوا الأمر، فكانت ولاية الشام لعبد الله بن علي، وفلسطين لصالح بن علي، والبصرة لسليمان بن علي، وجزيرة العرب لداود بن علي، والموصل، والأهواز، وفارس لإسماعيل بن علي، وسار عيسى بن علي إلى فارس، وقاد عبد الصمد بن علي الجيوش في الشام دعماً لأخيه عبد الله بن علي.

ولم يكن أبناء عمومته أقل دوراً من أعمامه فموسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر كلهم كان لهم دور في توطيد دعائم الدولة.

واعتمد على أخويه عبد الله بن محمد، ويحيى بن محمد في قيادة الجيوش وتولّي الإمارة، والاستشارة، فكان المنصور عبد الله بن محمد على رأس القوة التي سارت نجدةً للحسن بن قحطبة في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، ثم كان أمير الجزيرة حتى استخلف، وكان يحيى بن محمد أمير الموصل. ثم كان ابن أخيه عيسى بن موسى سيف بني العباس الصارم، كما كان ولي العهد لأبي العباس بعد المنصور.

لقد كان السفاح يحب أن يكون دائماً أحد أهل بيته على الإمارة أو قيادة الجيوش ليضمن الأمر، فعندما أرسل أخاه أبا جعفر دعماً للحسن بن قحطبة كتب إليه: «إن العسكر عسكرك، والقواد قوادك؛ ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً، فاسمع له وأطع، وأحسن مؤازرته».

وأرسل إلى فارس عمه عيسى بن علي رغم أن أبا مسلم الخراساني كان قد بعث بمحمد بن الأشعث إليها ولما ردّ محمد بن الأشعث عيسى بن علي أصرّ السفاح على أن يكون أحد أهل بيته على فارس فأرسل عمه الآخر إسماعيل بن علي.

وبعد أن فرّ مروان بن محمد من الزاب وغادر الموصل عيّن عبد الله بن علي عليها محمد بن صول غير أن السفاح لم يلبث أن بعث إلى الموصل أميراً من أهل بيته من أخوه يحيى بن محمد ثم استبدله بأحد أهل بيته أيضاً، وهو عمه إسماعيل بن علي.

واستعان السفاح كذلك بأخواله فبعد أن توفي عمه داود بن علي أمير جزيرة العرب ولّى على المدينة زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، ثم علي بن الربيع الحارثي.

٢ ـ أبو مسلم الخراساني:

الذي استطاع بحكمته، وحزمه، وقوته، أن ينجح في الدعوة للعباسيين، وأن يقود الجيوش ضد نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان وأن ينتصر عليه رغم حداثة سنه إذ قامت الدولة العباسية ولم يتجاوز الثانية والثلاثين: وقتل ولم يناهز السابعة والثلاثين من عمره، وبقيت خراسان على عهدها ما بقي فيها أبو مسلم، بل كان سيف الدولة المصلت تضرب به من يخرج عن طاعتها.

٣ ـ العصبية القبلية:

بزغ قرن العصبية أيام الدولة الأموية وهذا ما أضعفها، وهدّ كيانها، وكان سبباً في سقوطها وزوالها، وأفاد العباسيون منها، إذ رأوا الفرقة والخلاف بين القيسية واليمانية، فلما كان آخر ولاة بني أمية من القيسيين لذا فقد ضمّ العباسيون اليمانيين إلى صفوفهم، فلما قامت دولتهم بقوا محافظين على هؤلاء اليمانيين لذا نجد أكثر قادتهم منهم.

وذكر أمام أبي العباس ما صنع أبو سلمة، فقال أحدهم: ما يدريكم، لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم، فقال أبو العباس: لئن كان هذا رأي أبي مسلم إنا لبعرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا. فأرسل أبو العباس أبا جعفراً إلى أبي مسلم ليتعرف على الرأي، فلما وصل استقبله أبو مسلم استقبالاً حسناً، وبعد ثلاثة أيام سأله عن سبب قدومه، فأخبره، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، فذهب وقتله، وقالوا: قتله الخوارج.

الولايات[٧]

١ ـ الكوفة:

كانت مركز داعي دعاة العباسيين، ثار فيها محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأعلن الدعوة للعباسيين فيها، ففرّ منها عامل بن هبيرة عليها، وهو زياد بن صالح، ونزل فيها السفاح سراً مع أهله، وأنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم. وجاء الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائي قائد العباسيين فدخلها، وخرج أبو سلمة من مخبئه، وعسكر خارجها، وتولى أمرها محمد بن خالد بن عبد الله القسري. وعندما قام السفاح ولّى عليها عمه داود بن علي، وعسكر هو خارجها، وعاد إليها بعد أشهر. وبعد عام تولى أمرها عيسى بن موسى لأن داود بن علي نقل إلى إمرة جزيرة العرب كلها [المدينة، ومكة، واليمن، واليمامة].

ثم انتقل السفاح من الكوفة إلى الأنبار عام ١٣٤ هـ، لكنها بقيت مركز قوة للعباسيين.

٢ ـ البصرة:

بعد أن قام السفاح في الأمر، أرسل إلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبي عاملاً عليها من قبله، وبعد عام أرسل مكانه عمه سليمان بن علي، وبقي عليها مدة خلافة السفاح، ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٣ ـ الموصل:

بعد هزيمة مروان بن محمد في الزاب وفراره متجهاً نحو حرّان خلّف

وراءه الموصل فولّى عليها عبد الله بن علي أميراً هو محمد بن صول، ثم أرسل إليها السفاح أخاه يحيى بن محمد أميراً عليها، ثم استبدله بعمه إسماعيل بن علي.

٤ ـ الأهواز:

دخلها بسّام بن إبراهيم بن بسّام، وأخرج من فيها من أتباع الأمويين، وتولّى أمرها، ثم خرج منها وتوجه إلى المدائن فأرسل السفاح إليها عمه إسماعيل بن علي. وأرسل إلى بسام في المدائن خازم بن خزيمة، ففر بسام عام ١٣٤هـ.

٥ ـ فارس:

بعث أبو مسلم الخراساني إلى فارس محمد بن الأشعث، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم، لكن السفاح أرسل إليها عمه عيسى بن علي فردّه محمد بن الأشعث وعندها سار إليها إسماعيل بن علي وتولى أمرها.

٦ ـ خراسان:

كان أبو مسلم الخراساني سيد خراسان ولا منازع له، وهو صاحب الكلمة المسموعة فقط دون غيره، وبقيت هادئة. وخرج زياد بن صالح الذي كان عامل ابن هبيرة على الكوفة خرج مخالفاً وراء نهر بلخ فلما هزم فرّ إلى دهقان الترك فسلمه إلى أبي مسلم فضرب عنقه عام ١٣٥هـ. ومن قبله خرج شريك بن شيخ المهدي فقتله أبو مسلم.

٧ ـ السند:

أرسل السفاح إلى السند منصور بن جهور فملكها، ثم ثار فيها فبعث

له موسى بن كعب[1] عام ١٣٤هـ فأخذها منه وفرّ منصور، واتجه إلى الصحراء فمات عطشاً، وبقي موسى بن كعب والياً على السند حتى توفي، وكان نائبه عليها ابنه عيينة.

٨ ـ الجزيرة:

لما مرّ مروان بن محمد على حرّان فاراً من وجه عبد الله بن علي خلّف عليها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، وهو ختن مروان عنده ابنته أم عثمان، فلما قدم عبد الله بن علي لقيه أبان مبايعاً له، ودخل في طاعته فأمنه ومن معه في حرّان والجزيرة، وترك عبد الله بن علي في حران موسى بن كعب، وسار إثر مروان.

ولما علم أهل الجزيرة بما كان من أمر قنسرين، وأبي الورد، أعلنوا خروجهم على العباسيين: وساروا إلى حرّان وعليها موسى بن كعب فحاصروه ومن معه. وجاء إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينيا، وكان قد تركها عندما علم بهزيمة مروان بن محمد، فسوّده أهل الجزيرة عليهم فحاصر موسى بن كعب مدة شهرين. فوجّه السفاح أخاه أبا جعفر ومن معه من الجند إلى حران، وكان بواسط يحاصر ابن هبيرة، وتحرك أبو جعفر نحو الجزيرة، وكان أهل قرقيساء، والرقة قد وافقوا أهل الجزيرة في حركتهم. وتسلّم أمر الرقة بكار ابن مسلم العقيلي أخو إسحاق.

أرسل إسحاق أخاه بكاراً إلى داراً، وماردين وما حولهما ولكنه هزم أمام أبي جعفر، وعندما وصل أبو جعفر إلى حرّان غادرها إسحاق بن مسلم واتجه إلى الرها، فخرج موسى بن كعب وقد فك الحصار عنه.

---

(١) موسى بن كعب بن عيينة التميمي: من كبار قواد الدولة العباسية الذين رفعوا عمادها، جعله محمد بن علي أحد النقباء الاثني عشر، أخضع لهم أبيورد، وقضى على حركة منصور بن جهور في السند، وملكها، وأصبح على شرطة المنصور ووالي الهند، ومصر، وتوفي عام ١٤١.

جعل إسحاق أخاه بكاراً على الرها، وخرج هو إلى سُمَيْساط[1] فلحقه أبو جعفر وكانت بينهما وقائع.

كتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي يأمره بالمسير على رأس قوةٍ إلى سُمْيساط، فسار، وحاصر إسحاق بن مسلم فيها عدة أشهر، وكان إسحاق يتعلل ببيعة مروان في عنقه فلما أخبر بمقتل مروان طلب إسحاق الأمان، فكتبوا إلى أبي العباس فوافقهم على الأمان له، فأُعطيه، وأصبح من جند العباسيين، وعُيّن أبو جعفر أميراً للجزيرة وأرمينيا، وبقي فيهما حتى استخلف، وينيب على أرمينيا يزيد بن أسيد، وعلى أذبيجان محمد بن صول.

٩ ـ الشام:

كان عبد الله بن علي يتتبع مروان بن محمد من حرّان، إلى منبج، فقنسرين، فحمص، فبعلبك فكان كلما وصل عبد الله بن علي إلى مدينة استقبله أهلها، وبايعوه، ودخلوا في طاعته، فلما وصل إلى دمشق حاصرها وقادته، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان، عنده ابنته أم الوليد، ففتحت دمشق أبوابها في العاشر من رمضان ١٣٢، وقتل الوليد بن معاوية، وسار عبد الله بن علي إلى الكسوة فالأردن فبايعه أهلها، ثم اتجه إلى فلسطين فنزل بيسان، ثم مرج الروم، ثم نهر أبي فُطْرُس[2]، وجاء كتاب أبي العباس إلى عبد الله بن علي أن يوجّه أخاه صالح بن علي ليلاحق مروان بن محمد ويلتفت هو إلى أمور الشام. وبقي بعدها صالح بن علي أميراً على فلسطين. أما عبد الله بن علي فقد اتجه إلى محاربة حبيب بن مرة المري في أرض البلقاء، والبَثَنِيّة[3]، وحوران، وهو أحد قادة

---

(١) سميساط: مدينة على نهر الفرات في بلاد تركيا اليوم.

(٢) أبو فطرس: نهر شمال مدينة الرملة بفلسطين على بعد ٢٠ كيلومتراً منها ينتهي في البحر جنوب يافا.

(٣) البثنية: قرية بين دمشق وأذرعات، وهي غير موجودة الآن، وكان النبي أيوب عليه السلام منها.

مروان. وفي هذه الأثناء خرج أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وقد كان من أصحاب مروان وقواده، فلما هزم مروان وجاء عبد الله بن علي لقيه أبو الورد وبايعه ودخل في طاعته.

كان أبو الورد جاراً لولد مسلمة بن عبد الملك. فجاء قائد من قواد عبد الله بن علي على رأس مائة وخمسين فارساً، وحمل أولاد مسلمة بن عبد الملك ونساءهم قهراً من غير ذنب سوى أنهم أمويون، فشكا بعضهم إلى أبي الورد فأخذته الحمية والنخوة، وهجم على القائد وقتله ومن معه، ودعا أهل قنسرين إلى خلع طاعة عبد الله بن علي ففعلوا، وبايعته قيس، فخاف على نفسه، وأعلن الثورة، وهكذا كان تصرف قائد صغير مدعاة لثورة أربكت الدولة.

وعندما بلغ الخبر إلى عبد الله بن علي صالح خصمه حبيب بن مرة واتجه إلى قنسرين ماراً بدمشق، وما أن اجتاز دمشق حتى انتفضت عليه، لما صدر من أفعال من بعض أتباعه، ونهبوا متاعه فيها، ولم يتعرضوا إلى أهله، إذا لم يرغبوا أن يفعلوا ما اشتكوا منه.

كاتب أهل قنسرين أهل حمص وتدمر فوافقوهم وجاءوا بمدد إليهم، وعليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عرف بالسفياني.

وصل عبد الله بن علي إلى مقربة من معسكر السفياني فوجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف فلقيهم أبو الورد وهزمهم في مرج الأخرم(١)، فعادوا إلى عبد الله بن علي أشتاتاً، فسار إليهم بنفسه ومعه أخوه عبد الصمد، وحميد بن قحطبة وعدد من القادة البارزين، فانكشفت جماعة عبد الله بن علي، ولكنه ثبت هو وحميد بن قحطبة، وأعادوا الكرة وثبت لهم أبو الورد في خمسمائة من أهله وقادته، فقتلوا جميعاً، وهرب

---

(١) الأخرم: مرج إلى الشرق من حمص ويُعرف اليوم مخرم.

أبو محمد السفياني ومن معه من الكلبية ولاذوا بتدمر، ثم فرّ وأبناؤه إلى الحجاز.

أمّن عبد الله بن علي أهل قنسرين فبايعوه من جديد، وأعلنوا ولاءهم له، وعاد إلى دمشق التي انتفضت عليه، وهزمت نائبه أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي، فلما اقترب منها هرب الناس منها وتفرقوا، ولم تحدث بينهم وبين عبد الله بن علي وقائع، فأمنهم، فجاءوا إليه وبايعوه، ولم ينتقم من أحدٍ منهم تهدئةً لأحوالهم وألفةً لقلوبهم.

وبقي عبد الله بن علي أميراً على الشام مدة خلافة السفاح.

١٠ ـ مصر:

كان آخر ولاة بني أمية على مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وقد دخل إليها مروان بن محمد فاراً من وجه العباسيين فقتل فيها، وتولى أمرها أبو العون عبد الملك بن يزيد الأزدي وبقي فيها حتى عام ١٣٦ حيث ولي أمرها صالح بن علي.

١١ ـ إفريقية:

سيطر الخوارج على إفريقية في أواخر عهد الدولة الأموية، وسار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقية، وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري يقاتل الخوارج.

١٢ ـ الأندلس:

فقد كان عليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وصاحب الكلمة فيها الصميل بن حاتم، واستمرا حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل ثم خضعا.

١٣ ـ الحجاز:

عيّن أبو العباس بعد مدة من قيامه عمه داود بن علي على مكة والمدينة واليمن واليمامة بعد أن عزله عن الكوفة، إلا أن هذه الولاية كانت اسمية، وخاصةً على اليمامة إذ كان واليها الحقيقي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، غير أن داود بن علي لم يلبث أن توفي واستخلف مكانه ابنه موسى، ولكن السفاح أرسل خاله زياد بن عبد الله الحارثي على المدينة، فضبط أمرها، وأرسل جيشاً إلى اليمامة بإمرة إبراهيم بن حسان السلمي استطاع أن يخضعها ويقتل المثنى بن يزيد.

وأرسل إلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، فلما توفي عام ١٣٤ كتب إلى عامل مكة علي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي أن يتوجه إلى اليمن فسار إليها.

وتولى أمر مكة العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس.

١٤ ـ أما البحرين وعمان:

فكانت تتبع إمارة البصرة التي عليها إسماعيل بن علي.

* * *

الفتوحات

كان أبو العباس مشغولاً بتوطيد أركان الدولة، كما كانت هناك قوة لأنصار الأمويين في الجزيرة، وفي الشام، وفي اليمامة، وقامت حركات فلا بد من خضد شوكتها لذا فقد انصرف عن الفتوحات والغزو. وكل ما حدث أن توجّه خالد بن إبراهيم[1] عام ١٣٣ على رأس قوة إلى بلاد الترك فيما بعد بلخ وحصل على غنائم، كما سار إلى بلاد ما وراء النهر، وتوغل في بلاد الترك ونال منهم، وربما كان ذلك أن خراسان كانت أكثر استقراراً من غيرها.

وعندما استقرت أوضاع بلاد الشام وجه صالح بن علي لغزو الصائفة سعيد بن عبد الله فحصل على بعض الغنائم. كما عقد أبو العباس لعمه عبد الله بن علي عندما زاره في الأنبار على صائفة تضم أهل خراسان، والموصل، والجزيرة، والشام فسار حتى بلغ دلوك[2]، ولم يغادرها حتى جاء نبأ وفاة أبي العباس.

وفي الوقت نفسه فقد استغل قسطنطين ملك الروم انتفاضة الجزيرة على أبي العباس ودخل مدينة ملاطية، وقاليقلا، وانتصر على المسلمين.

(١) خالد بن إبراهيم الذهلي، أبو داود: تولى أمر خراسان أيام المنصور، وهو من الغزاة، ثار عليه جنده، فأشرف عليهم يصيح بهم فسقط عن الحائط فمات سنة ١٤٠.

(٢) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم.

الخوارج

ظهر الخوارج الصفرية في جزيرة كاوان، كما ظهرت الأباضية في عُمان بإمرة الجلندي فلما غضب أبو العباس على خازم بن خزيمة سيّره على رأس سبعمائة فارس إلى الخوارج، فهرب الخوارج من وجه خازم من جزيرة كاوان وعلى رأسهم شيبان بن عبد العزيز، ووصلوا إلى عُمان فقاتلهم خوارج عمان لاختلافهم معهم، وقتل شيبان ومن معه. وسار خازم إلى عمان، وانتصر على الجلندي وقتله وقتل معه عشرة آلاف ممن تبعه ورجع بعد أن مكث أشهراً.

كما برزت الصفرية في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وظهرت الأباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعةً لنفوذها، وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة يجرد سيفه من القيروان في محاربة الخوارج عندما قامت الدولة العباسية.

إذ أن البربر قد تضايقوا كثيراً من القتال الذي جرى في إفريقية نتيجة الصراع القبيلي بين القيسية واليمانية، والحروب التي خاضها البربر ضد الرومان في صقلية وسردينيا ومع ذلك فإن القادة ليس منهم، ويجرّون إلى الصراع جرّاً، لذا فقد ذهب وفد منهم إلى دمشق لمقابلة الخليفة، وتوضيح ما يعانون، ولكنهم عادوا دون إمكانية مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، وما أن رجع وفدهم إلى بلادهم حتى بايع الخوارج أحد أعضاء الوفد وهو ميسرة الطغري وذلك عام ١٢١ فثار وزحف بمجموعه إلى طنجة فدخلها، وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي، وعيّن عليها عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، ثم توجّه إلى بلاد السوس فقتل إسماعيل بن عبيد الله بن

الحبحاب وتمت لميسرة الطغري السيطرة على بلاد المغرب الأقصى إذ ساعدته في ذلك القبائل التي تؤيده فقامت على من فيها من الأمراء وأزالتهم، وبايعت ميسرة.

أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشاً لقتال الصفرية بإمرة خالد بن أبي حبيب الفهري، كما استدعى جيش حبيب بن أبي عبيدة الفهري من صقلية، ووجهه أيضاً لقتال الخوارج. فانهزم ميسرة بالمعركة ورجع إلى طنجة، وهذا ما قللّ من هيبته، وقدّمت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتي.

سار خالد بن حميد الزناتي لملاقاة جيش خالد بن أبي حبيب الفهري، وعندما اقترب منه حصره بين قسمي جيشه فأباده في معركة الأشراف.

وأصبحت النقمة على عبيد الله بن الحبحاب كبيرة فاستدعاه الخليفة، وأرسل جيشاً بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ومعه بلج بن بشر خليفةً له، ومن بعدهما ثعلبة بن سلامة العاملي. والتقى هذا الجيش ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري بالخوارج في معركة عام١٢٣ قتل فيها كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وتمكّن بلج بن بشر من الفرار مع عشرة آلاف من جنده إلى طنجة، وعادت فلول الجيش الأموي إلى القيروان. وأصبح المغرب الأقصى والأوسط تحت نفوذ الخوارج من الصفرية. وغدا خالد بن حميد الزناتي سيد المغرب الأقصى، أما المغرب الأوسط ففيه عكاشة بن أيوب النغراوي، وعبد الواحد بن يزيد الهواري. وحين خرج كلثوم بن عياض القشيري إلى المغرب وترك المغرب الأدنى وراءه سار إلى قابس عبد الواحد بن يزيد الهواري فدخلها.

أما القيروان فكان عليها عامل كلثوم بن عياض وهو مسلمة بن سواده وقد سار لقتال عكاشة بن أيوب ولكنه هزم أمامه، واضطر إلى العودة مسرعاً لقاعدته في القيروان، وهذا ما جعل جنده يثورون عليه، ويولّون أمرهم سعيد بن بجرة الغساني الذي اعتصم بالقيروان.

سار سعيد بن بجرة عام ١٢٤ إلى قابس، وما أن خرج من القيروان حتى سار إليها عكاشة بن أيوب لكنه لم يتمكن من دخولها إذ صدّه عنها القيراونيون بإمرة عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وفرّ عكاشة بن أيوب إلى الصحراء، وحاول عكاشة، وعبد الواحد تنظيم الخوارج من الصفرية بالاستعانة بقبيلة زناتة التي كان مقدم الخوارج فيها أبو قرة.

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك والي مصر حنظلة بن صفوان على رأس جيشٍ كبيرٍ، وأعطاه ولاية إفريقية، وما أن وصل إلى القيروان حتى بعث بجيشٍ لمنازلة الخوارج في الزاب، وكان هذا الجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فانتصر على الخوارج، ولكنه قتل في معركةٍ ثانيةٍ. وفي الوقت نفسه قُتل عامل طرابلس معاوية بن صفوان على يد الصفرية أيضاً. ولم يبق من عقبةٍ أمام الصفرية سوى القيروان فسار إليها عكاشة بن أيوب، وعسكر بالقرب منها في منطقة القرن، كما سار عبد الواحد من تلمسان على رأس جيش، ومعه أبو قرة، وعسكر في الأصنام، وانتصر على جيش أرسله له حنظلة بن صفوان.

تحصّن حنظلة بالقيروان، وحفر خندقاً وعندما تيقّن من قوته تقدّم إلى عكاشة وهزمه في القرن عام ١٢٥، وأسره وقتله، كما هزم جيش عبد الواحد في الأصنام بعد انتصارٍ جزئي أحرزه.

سيطر عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على المنطقة، وأجبر حنظلة بن صفوان على مغادرتها، واضطر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على الاعتراف بولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية، وتمكّن من القضاء على حركات الخوارج من الصفرية إذ قضى على حركة عروة بن الوليد الصدفي في تونس، كما قمع كل حركة للخوارج.

ودالت دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس، والخوارج من الصفرية في مرحلة من الضعف، وعبد الرحمن بن حبيب هو صاحب الكلمة في إفريقية.

هذا بالنسبة إلى الصفرية أما بالنسبة إلى الأباضية من الخوارج فقد كان نشاطهم في المغرب الأدنى. وقام زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبي بثورة في منطقة طرابلس عام ١٢٦ غير أن عبد الرحمن بن حبيب قد تمكن من القبض عليه وقتله كما فتك بقبيلة هوارة التي تزعّمها الخارجي.

وقام عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي بحركةٍ عام ١٣٠، وحاصر طرابلس، ودخلاها، وقتلا عاملها، وهزما جيوش عبد الرحمن بن حبيب ثلاث مرات، وعندما قررا السير نحو القيروان اختلفا، وانشغل أحدهما بقتال الآخر، وهذا ما أضعف الأباضية، وفتّ في عضدها تماماً عام ١٣١هـ. ولكن لم يمنع هذا من قيام إسماعيل بن زياد النفوسي بثورةٍ عام ١٣٢ فاستولى على قابس، فأسرع إليه عبد الرحمن بن حبيب، وهزم الأباضية.

وهكذا فإن شأن الأباضية لم يكن بأفضل حالاً من الصفرية عندما قامت الدولة العباسية. ولكن مات عبد الرحمن بن حبيب، وحدث صراع بين أسرته، وشغلت الدولة العباسية بأحداثها فنشط الخوارج تارةً أخرى في أيام المنصور، وإن حدثت بعض الحوادث أيام السفاح، إذ خلف عبد الرحمن بن حبيب ابنه حبيب فنازعه عمه عبد الوارث الذي كان على صلة بالخارجي عاصم بن جميل ولكنه أظهر الولاء للعباسيين أو هكذا ظنّ الناس، ولكن حبيب تمكّن من هزيمة الخوارج هزيمة منكرة عام ١٣٥.

* * *

- ٢ -

المنصور

عبد الله بن محمّد

١٣٧ - ١٥٨هـ

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ٩٥هـ، فهو أكبر من أخيه أبي العباس بحوالي عشر سنوات، وأمه سلامة البربرية.

توفي والده محمد بن علي وقد جاوز المنصور الثلاثين، فقد التقى مع والده بكبار الرجال، كما عرف جده علي بن عبد الله الذي توفي عام ١١٨.

كان أسمر طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، معرّق الوجه، رحب الجبهة، أقنى الأنف. وكان فحل بني العباس هيبةً وشجاعةً، ورأياً وحزماً، ودهاءً وجبروتاً، وكان جمّاعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللعب، وحسن المشاركة في الفقه، والأدب والعلم، متديناً كثير الخير.

تولّى إمرة بليدة في فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، ثم عزله وضربه.

خرج على بني أمية مع أخيه السفاح، وعميه عبد الله بن علي، وعيسى بن علي عندما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فلما هزموا، توزعوا واختفوا، وسار المنصور مختفياً في الجزيرة، وتزوج بأم ولد، ثم رجع إلى الحميمة حتى انضم إلى ركب أخيه إلى الكوفة.

انتقل مع أخيه أبي العباس من الحميمة إلى الكوفة، ونزل معه في مخبئه، وخرج منه معه، وكان مستشاره، ومن دعائمه.

وتنكّر أبو العباس لأبي سلمة قبل ارتحاله من عسكره بالنخيلة، ثم

تحوّل عنه إلى المدينة الهاشمية، فنزل قصر الإمارة بها، وهو متنكّر له، وقد عُرف ذلك منه، وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه، وما كان همّ به من الغشّ، وما يتخوّف منه، فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين: إن كان اطلع على ذلك منه فليقتله؛ فقال داود بن علي لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فيحتج عليك بها أبو مسلم وأهل خراسان الذين معك، وحاله فيهم حاله؛ ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وأرسل له أخاه أبا جعفر الذي يقول: فخرجت على وجل؛ فلما انتهيت إلى الريّ، إذا صاحب الريّ قد أتاه كتاب أبي مسلم: إنه بلغني أن عبد الله بن محمد توجّه إليك، فإذا قدم فأشخصه ساعة قدومه عليك. فلما قدمت أتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبي مسلم، وأمرني بالرحيل، فازددت وجلاً، وخرجت من الريّ وأنا حذر خائف فسرت؛ فلما كنت بنيسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبي مسلم: إذا قدم عليك عبد الله بن محمد فأشخصه ولا تدعه يقيم، فإن أرضك أرض خوارج ولا آمن عليه. فطابت نفسي وقلت: أراه يُعنى بأمري. فسرت فلما كنت من مرو على فرسخين، تلقّاني أبو مسلم في الناس، فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ؛ حتى قبّل يدي، فقلت: اركب، فركب فدخل مرو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرّار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته؛ وانته في ذلك إلى رأي الإمام.

وصل مرّار إلى الكوفة، وقدم على أبي العباس في المدينة الهاشمية، وأعلمه سبب قدومه، فأمر أبو العباس منادياً فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة، ودعاه، وكساه. وجاء أبو سلمة بعد ذلك ليلةً إلى أبي العباس، وسهر عنده حتى ذهب عامة الليل، ثم خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده، فعرض له مرّار بن أنس الضبّي ومن كان معه من أعوانه فقتلوه، وأغلقت أبواب المدينة، وقالوا: قتل الخوارج أبا سلمة.

يبدو أن أبا مسلم كان حذراً جداً فخشي أن يلتقي أبو جعفر بالناس أثناء قدومه إليه فيفسد عليه ولايته، لذا رغب ألا يمكث في بلدٍ أبداً، ولاحظ في كتابه الأول إلى صاحب الري بعض عدم الحذر فأراد أن يجليه بالكتاب الآخر الذي بعثه إلى صاحب نيسابور، وعندما وصل أبو جعفر إلى مرو اصطنع أبو مسلم المحبة والاحترام الزائد والتقدير لأبي جعفر، كما رغب أن يبقى سرّه بينه وبين نفسه، لذا لا مانع عنده من أن يتخلّص من كل الدعاة السابقين، ومن لهم شأن سابق ليبقى وحيداً في أمره، وانتهى من أبي سلمة كبير الدعاة فحقق ما يريده العباسيون، وحقق ما تطمح إليه نفسه. أما أبو جعفر فيبدو حذره واضحاً مذ كُلّف بالرحلة إلى مرو حيث كان وجلاً خائفاً منها.

ويزداد الأمر وضوحاً في الرحلة الثانية التي سار بها أبو جعفر إلى خراسان، فبعد أن قُتل أبو سلمة أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مسلم، فلما وصل أبو جعفر إلى مرو مشى معه عبيد الله بن الحسين الأعرج، وسليمان بن كثير، فقال سليمان بن كثير للأعرج: يا هذا، إنا كنا نرجو أن يتمّ أمركم فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ الأعرج أنه دسيس من أبي مسلم، فخاف ذلك. وبلغ أبا مسلم مسايرة سليمان بن كثير إياه، وأتى عبيد الله أبا مسلم، فذكر له ما قال سليمان، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اغتاله ـ إذ كانوا يخشون أبا مسلم خشيةً كبيرةً ـ فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير، فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، فقال: إني قد اتهمتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غشّ الإمام؛ فأمر بضرب عنقه. ووصل الخبر إلى أبي جعفر فغضب غضباً شديداً، ولكنه كظم غيظه، فسليمان بن كثير الخزاعي أحد نقباء الدعوة، وشيخهم، وكان كلما جاء داعية إلى خراسان يُطلب منه أن يسمع ويُطيع لسليمان هذا، ومنهم أبو مسلم نفسه. ورجع أبو جعفر إلى الكوفة، فقال لأبي العباس: لست خليفةً ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد، قال أبو

العباس: اسكت فاكتمها. وأصبح أبو جعفر لا يطيق أبا مسلم ويرى أنه الشبح الذي يهدد العباسيين ولا يمكن مخالفة أمره في خراسان للفزع الذي نشره بين الناس، والأسلوب الذي اتبعه في نقل الأخبار إليه، والقتل المباشر لأدنى شك. ثم تقريب عناصر الإجرام إليه، واستخدامهم أداةً لتنفيذ ما يريد. وكان أبو مسلم كلما قتل أحداً اتهمه بغشّه للإمام وذلك من أجل أن يُرضي العباسيين ويظهر تأييده البارد لهم، وأنه يعمل لهم، وفي الواقع أنه كان يُخطط لمصلحة يراها، ويكتم أمرها.

وعندما عاد أبو جعفر إلى الكوفة أرسله أبو العباس إلى واسط لمحاصرة ابن هبيرة فيها وبعد حصار استمر ما يقرب من أحد عشر شهراً، وصل خبر مقتل مروان بن محمد إلى ابن هبيرة فطلب وقتها الأمان والصلح، وجرت الرسل بين الطرفين، وتمّ الأمر، وخرج ابن هبيرة، وكان يسمر عند أبي جعفر، ويرى أبو جعفر المحافظة على العهد والوفاء بالأمان لابن هبيرة، إلا أن أبا العباس قد استشار أبا مسلم، فقال له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد؛ والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة، ولكن أبا جعفر راجعه، وراجعه، وأبو العباس يلحّ حتى قال له أخيراً: والله لتقتلنّه أو لأُرسلن إليه من يخرجه من حجرتك، ثم يتولى قتله، فأزمع قتله، ونفذ ذلك.

كان أبو جعفر يرى أن استرضاء القادة الذين كانوا دعامة بني أمية قوةً للعباسيين، أما أبو مسلم فيرى في وجود قادةٍ بارزين في صفوف العباسيين إضعافاً لمركزه، لذا كان يرى التخلص منهم كي لا يفسدوا عليه الطريق السهلة التي يراها، وعبّر عنها بجوابه لأبي العباس. وهكذا زادت نقمة أبي جعفر على أبي مسلم.

وما انتهى أمر واسط وابن هبيرة حتى أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر أميراً على الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، وبقي أميرها حتى استخلف.

ولما بايع أبو العباس لأخيه أبي جعفر من بعده بعثه إلى أبي مسلم وكان بنيسابور كي يأخذ البيعة منه ومن أهل خراسان، وكأن أبا العباس كان يحب أن تزول الغمة بين أخيه وأبي مسلم بالصلة والزيارة ولكن ذلك ما كان إلا ليزيدها، وما من تصرف إلا ويُؤول، إذ أن النفوس غير صافية بعضها لبعض ووصل أبو جعفر إلى نيسابور فاستقبله أبو مسلم، واستخفّ به، إذ وجد في استخلافه عقبةً كأداء في وجه مشروعاته، وما يخُطط له. وبقي عدة أيام أبو جعفر في نيسابور حتى فرغ من البيعة، ولما عاد أخبر أبا العباس بما كان من استخفاف أبي مسلم به.

وفي عام ١٣٦ استخلف أبو جعفر على عمله في الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان مقاتل بن حكيم العكّي، وقدم على أبي العباس واستأذنه بالحج، فإذن له، واستعمله على الحج. ولم يلبث أن كتب أبو مسلم لأبي العباس يستأذنه في القدوم عليه، فأجابه إلى ذلك، فقدم في جماعةٍ عظيمةٍ من أهل خراسان، فأمر أبو العباس الناس باستقباله فاستقبلوه، وأكرمه أبو العباس، وأنزله قريباً منه، ثم استأذنه بالحج فقال له: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم.

واستغلّ أبو جعفر وجود أبي مسلم بالأنبار فقال لأبي العباس: يا أمير المؤمنين أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة، فقال: يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه، فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنّوراً لقام مقامه. وبلغ ما بلغ في هذه الدولة.... فوافق أبو العباس ثم تراجع عن ذلك.

وسار أبو جعفر إلى الحج كما سار أبو مسلم، وانتهى الموسم. وكان أبو مسلم يعطي الأعطيات، ويمنح الهبات، ويحفر الآبار، ويتقرب إلى الناس، ولم يكن أبو جعفر كذلك فزاد غضب المنصور من تصرف أبي مسلم، وتحببه للناس.

وتوفي أبو العباس فأخذ البيعة للمنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إلى عمه بذلك، وقام بأمر الناس. ووصل الخبر إلى المنصور وهو

في الطريق، فبايعه أبو مسلم ومن معه، وتابع سيره حتى أتى الكوفة، فصلى الجمعة فيها، وخطب أهلها، وأعلمهم أنه راحل إلى الأنبار.

وقيل: إن خبر موت أبي العباس قد وصل إلى أبي مسلم قبل وصوله إلى أبي جعفر فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. عافاك الله وأمتع بك. إنه أتاني خبر أفظعني وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط، لقيني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين - رحمه الله - فنسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه؛ إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرك مني. وبعد يوم أو يومين بعث بالبيعة إليه. ويبدو أنه أراد المداهنة قبل أن ينتقم منه المنصور.

* * *

خلافته

وصل أبو جعفر إلى الأنبار فوجد العراق أمر منتهياً من حيث البيعة، وقد أخذها له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأرسل الرسل لأخذها، وتسلّم له الأمر، فلما وصل إلى مقره سلّمه المقاليد. وبدأت المشكلات للمنصور تتوالى فأخذها بالحكمة والحزم.

كان عيسى بن موسى قد أرسل إلى عبد الله بن علي بخبر وفاة أبي العباس، وطلب منه البيعة لأبي جعفر، وكان عبد الله بن علي في طريقه إلى الروم، فلما جاءه الخبر، نادى الصلاة جامعة فاجتمع إليه القادة والجند فقرأ عليهم كتاب أبي العباس، وقال لهم: إن أبا العباس لما أراد أن يرسل إلى حرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قال: من يسير إليه وهو ولي عهدي. فتقدّمت ولم يرسل غيري، فكنت ولي عهده، وأنا من بعده، والآن قد رحل فأنا الخليفة من بعده، وشهد بعض القادة على ذلك. فبايعه من معه وسار بها إلى حران، ودعا مقاتل بن حكيم العكّي إلى البيعة فلم يجبه فحاصره مدة دخل بعدها حرّان وقتله، ثم تحصّن بها، وأخذ استعداداته.

يرى عبد الله بن علي أنه الخليفة الطبيعي فهو الذي قد دكّ صرح الدولة الأموية، وثبّت دعائم البيت العباسي، وإذا كان أبو العباس قد تولّى الخلافة بالعهد من أخيه إبراهيم إلا أنه هو الآن أحقّ الناس بالأمر، وإذا كان إخوته جميعهم أكبر منه باستثناء عبد الصمد[1] إلا أنهم دونه في

(١) إخوة عبد الله بن علي:
١ ـ محمد بن علي: ٦٢ ـ ١٢٥هـ.
٢ ـ داود بن علي: ٨١ ـ ١٣٣هـ.

=

المؤهلات كما لم يقوموا بالدور الذي قام به، كما أن أخاه عبد الصمد هو بجانبه ويرى رأيه. وإذا كان ابن أخيه أبو جعفر أكبر منه سناً إلا أنه لم يقم بأي دورٍ يؤهله باستلام الأمر ـ حسب رأيه ـ.

أما أبو جعفر فرأى أن يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه. وأبو مسلم يرهبه الجند، ويخافونه فقد ذاع صيته، وعرفت مقدرته، ثم يطيعه الخراسانيون، ويستمع له القادة وإن من لم يسمع له، ينتهي بطريقة أو بأخرى.

استخلف أبو مسلم خالد بن إبراهيم على خراسان، وسار إلى الأنبار حيث تلقى التعليمات من الخليفة: ومنها انطلق نحو حرّان، ومعه من القادة، الحسن بن قحطبة، وحمد بن قحطبة وكان قد فارق عبد الله بن علي وفرّ منه بعد أن أراد عبد الله قتله، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وخازم بن خزيمة. وكان الحسن بن قحطبة خليفة أبي جعفر على أرمينيا فكتب إليه أن يلحق أبا مسلم فوافاه في الموصل.

كان عبد الله بن علي يعتمد على قوته وجرأته، وشجاعة أخيه عبد الصمد، وقوة أهل الشام. ويعتمد أبو مسلم على طاعة جنده وتفانيهم، ودهائه، وخططه التي يستعملها في القتال. ولكنه كان يخشى الخليفة فهو ابن أخي عبد الله بن علي، فإن تمكّن من عبد الله بن علي أخذ الخليفة ثأره منه، وإن هُزم قتل فالموت في كلا الحالين. ويبدو أن عبد الله بن علي أخذه الخوف فطاشت حكمته إذ خاف ممن معه من أهل خراسان في الجيش فقتل عدداً منهم الأمر الذي أفقده ثقة جنده، ووصل الخبر إلى أبي

= ٣ ـ عيسى بن علي: ٨٣ ـ ١٦٤هـ.

٤ ـ سليمان بن علي: ٨٢ ـ ١٤١هـ.

٥ ـ إسماعيل بن علي: ٨٥ ـ ١٦٦هـ.

٦ ـ صالح بن علي: ٩٦ ـ ١٥١هـ.

٧ ـ عبد الصمد بن علي: ١٠٤ ـ ١٨٥هـ.

٨ ـ عبد الله بن علي: ١٠٣ ـ ١٤٧هـ.

مسلم فاتخذ حكمته، إذ دبّت الحماسة في جنده من أهل خراسان، واقتنعوا بأنهم إن استسلموا كان القتل مصيرهم، وفي الوقت نفسه أعلن لعبد الله بن علي وأخبر جنده أنه لم يأت لقتال عبد الله بن علي وإنما جاء والياً على الشام، وهذا ما جعل جنود الشام يخافون منه على أهلهم ما داموا جنداً مع عبد الله بن علي لذا رأوا السير إلى الشام، وأجبروا عبد الله بن علي على ذلك، فلما سار حلّ أبو مسلم مكانه، وكان قريباً منه، فلما عاد وجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره، فنزل موضعه، واشتبك الطرفان في معارك زادت على خمسة أشهر، وكان التفوق لأهل الشام إلا أن تدبير المعركة قد جعلت الهزيمة تحلّ بعبد الله بن علي في جمادى الآخرة وفرّ إلى العراق، ومضى إلى البصرة فأمنه أخوه سليمان بن علي، أما عبد الصمد بن علي فقد نزل الكوفة وأمنه ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد. وبعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يحصي ما أصابه أبو مسلم من معسكر عبد الله بن علي فغضب أبو مسلم كثيراً فأمّن الناس ولم يقتل أحداً. ولما وصل إليه أبو الخصيب أراد أن يقتله فتكلم فيه إذ قيل إنه رسول فخلّى سبيله وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال، وشتم المنصور، فرجع أبو الخصيب إلى المنصور فأخبره.

أصبح الخلاف واضحاً بين المنصور وأبي مسلم، وبعد الانتهاء من حركة عبد الله بن علي أصبح أبو مسلم الرجل القوي الوحيد في الدولة، ولكن لا يريد أن تطاله يد المنصور، كما أن المنصور قد أصبح يخافه ولا يريد أن يعود إلى خراسان فإن سار إليها واعتصم فإنه يزعج الدولة، ويمكنه أن يقوم بعمل تتجزأ به الدولة، أو يعصف بها أو بخليفتها، ويريد لذلك أن يتخذ الروية والحكمة في تصرفه معه ليصيده قبل أن يفلت منه لذا كتب إليه «إني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجّه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب»[1]. فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يوليني الشام ومصر، وخراسان

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الرابع.

لي. فكتب الرسول إلى المنصور بذلك، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف، وخرج عن وجهه يريد خراسان، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه ـ كأن المنصور قد تنازل وسار شوطاً نحو أبي مسلم ليسير هو الآخر شوطاً، وقد يكون هذا السير تهديداً بأنه إن لم يأت إليه فإنه عازم على الحيلولة دون توجهه إلى خراسان ـ. فكتب إليه أبو مسلم ـ وهو بالزاب ـ: «إنه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي». وكذلك كتاب أبي مسلم فيه إظهار الطاعة وفي الوقت نفسه فيه التهديد على تنفيذ ما يريد وهو السير إلى خراسان إن صمم المنصور فرض رأيه، بل مستعد لنقض البيعة. ولما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم «قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتك في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمعاً ولا طاعة، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك؟.

ثم زادت قسوة الرسائل والكتب، وأصبحت تظهر ما تخفيه النفوس، فكتب أبو مسلم لأبي جعفر «أما بعد فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل

قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلّى بغرور. وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يحملكم، ثم استنقذني الله بالتوبة فإن يعف عني فقديماً عُرف به ونُسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما ربك بظلامٍ للعبيد».

وكتب أبو جعفر لأبي مسلم: «أما بعد فإنه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصي، فَعِ أيها الطائش، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها النائم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، في برزخ دنيا كانت قد غرّت من كان قبلك، وسم بها سوالف القرون (هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً)، وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلاً مهلاً، احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلّى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفهم، واحذر أن تكون سنةً في الذين قد خلوا من قبلك، ومثلةً لمن يأتي بعدك، فقد قامت الحجة، وأعذرت إليك، وإلى أهل طاعتي فيك. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾».

فأجابه أبو مسلم: «أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً، وعن الحق حائداً، إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها، وكتبت إلي فيه آيات منزلة للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإنني والله ما انسلخت من آيات الله، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما، فكنت لهما شيعةً متديناً أحسبني هادياً مهتدياً، وأخطأت في التأويل، وقديماً أخطأ المتأولون، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾، وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي، وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة، وأقدم بالشبهة، وأرفع الرحمة، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا بطاعتكم، وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم. ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم، واستنقذني بالتوبة، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً، وإن يعاقبني فبذنوبي، وما ربك بظلام للعبيد».

وكتب أبو جعفر إلى أبي مسلم: «أما بعد، أيها المجرم العاصي فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بيّنة من ربه، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج السديد، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً، ولأغواهما راكباً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال، وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته أن يقيم بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجه للقائك أقرانك، فأجمع كيدك، وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه ونعم الوكيل».

ومع هذه القسوة في المراسلات إلا أن أبا جعفر قد اتخذ بجانبها الحنكة السياسية فيعد الأمراء ويظهر للرسل تقديره لأبي مسلم حتى حسّنوا له القدوم على الخليفة، سوى نيزك، وهو أمير أشار على أبي مسلم أن يقتل أبا جعفر ويستخلف غيره.

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء، وأمره أن يُكلّم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه، وأن يكون في جملة ما يكلمه به أنه يريد رفع قدرك، وعلو منزلتك، والاطلاقات لك، فإن جاء بهذا فذاك، فإن أبى، فقل: هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو

يموت قبل ذلك، ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن. فلما قدم عليه أمراء المنصور بـ (حلوان) دخلوا عليه ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين، وما هو فيه من مخالفته، ورغّبوه في الرجوع إلى الطاعة، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه، وجنوده طوعاً له فإن استقام له الخليفة، وإلا كان في عزّ ومنعة من الجند. فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به. فلما سمع ذلك كسره جداً وقال: قوموا عني الساعة.

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهم: إن ولاية خراسان لك ما بقيت، وقد وليتكها وعزلت عنها أبا مسلم. فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة: إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام. فزاده ذلك كسراً أيضاً. فبعث إليهم أبو مسلم: إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به. فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو ردّه. فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتهم معظمين لك عارفين قدرك، فغرّه ذلك، وعزم على الذهاب إلى الخليفة، فاستشار أميراً يقال له نيزك، فنهاه، فصمم على الذهاب، فلما رآه نيزك، عازماً على الذهاب تمثّل بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ... ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له: احفظ عني واحدة. قال: وما هي؟ قال: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه. قال أبو أيوب كاتب الرسائل: فدخلت على المنصور وهو جالس في خباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر، وبين يديه كتاب فألقاه إلي فإذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه، ثم

قال الخليفة: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه. قال أبو أيوب؛ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وبتّ تلك الليلة لا يأتيني نوم، أفكر في هذه الواقعة، وقلت: إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شرّ إلى الخليفة، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة. فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له: هل لك أن تتولى مدينة «كسكر» فإنّها مغلّة في هذه السنة؟ فقال: ومن لي بذلك؟ فقلت له فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه. واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له، وقال له: سلّم عليه وقل له: إنا بالأشواق إليه. فسار إليه ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن فلان ـ إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسرّه ذلك وانشرح، وإنما هو غرور ومكر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقّوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤجّل قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم، ثم قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني. فخرج من عنده فجاء الناس يسلمون عليه، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها، قال: فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أقتله. ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرّضهم على قتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى يتبع بعضها بعضاً، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة فيعتذر عن ذلك كله[1]. ثم قال له: فلِمَ قتلت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء العاشر.

سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور، وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني، وصفق بيديه، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولفوه في عباءة[1]. وكان قتله في أواخر شعبان من عام ١٣٧هـ.

ثم إن المنصور شرع في تأليف قلوب أصحاب أبي مسلم بالأعطيات، والترغيب والترهيب، والولايات، ووفّى لأبي داود إبراهيم بن خالد بولاية خراسان إذ أبقاه عليها.

ولم يكن أبو مسلم زنديقاً كما رماه بعضهم، ولكن يظهر أنه كان يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية ـ والله أعلم بأمره ـ. وقد روي أن عبد الله بن المبارك قد سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه. وربما كان اتهامه ادعاء حركات الزندقة بعده بصلتها به استغلالاً لاسمه وجنسه.

كان أبو مسلم يقتل لأقلّ إشارة أو شكٍ في عدم الطاعة، أو تنفيذ الأمر، ولذا كان الناس جميعاً يخشونه، وربما كان أصدقاؤه أكثر الناس خوفاً منه نتيجة صلتهم به فأي تصرفٍ ربما يُفسّره بما يخطر على باله فتكون العاقبة القتل، وقد يكون قواده وخاصة أتباعه أكثر الناس راحةً واطمئناناً بعد قتله، حيث كانوا على خوفٍ دائم، ولذا كانوا يكثرون التملق له، ويزاود في إظهار الطاعة أصدقاؤه وأعداؤه على حدٍ سواء. ومن هنا كان قبضه على ناصية الأمر في خراسان، فالجميع يريدون الخدمة، ويتبارون في إلقاء أنفسهم أمامه لتنفيذ ما يشير إليه. تطال يده القاصي والداني، والصديق والعدو، والقريب والغريب.

---

(١) المصدر السابق.

ويقال: إن المنصور قد استدعى رؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله، فكلهم يشير بقتله، ومنهم من كان إذا تكلّم أسرّ كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا يُنقل إليه، فلما أطلعهم على قتله أفزعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً.

ويقال: إنه لما عزم على قتل أبي مسلم أنشد:

إذا كنت ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يوماً لغدرةٍ ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكتنفتك خلات ثلاث ... جلبن عليك محتوم الحمام
خلافك وامتناعك من يميني ... وقودك للجماهير العظام

ومن شعره أيضاً:

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عمرٍ قد يضرّه
تبلى بشاشته ويبـ ... ـقى بعد حلو العيش مرّه
وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئاً يسرّه
كم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـت وقائلٍ لله درّه[1]

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٤ استخلف على الحيرة والعساكر القائد خازم بن خزيمة، ولما وصل أبو جعفر إلى المدينة استقبله الناس، ومنهم عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فسأله عن ولديه محمد وإبراهيم فحلف له بأنه لا يعرف مكانهما. وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان من جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً.

وذلك لأن المنصور توهّم منهما أنّهما لا بدّ أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان، والذي توهّم منه المنصور وقع فيه، فذهبا هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند فاختفيا بها، فدُلّ على مكانهما فهربا إلى موضع آخر و.... ولم يستطع المنصور العثور عليهما.

وألحّ المنصور على والدهما في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما، فغضب المنصور، وأمر بسجنه، كما أمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بسجن بني حسن عن آخرهم فحبسهم.

وجدّ المنصور في طلب محمد وإبراهيم جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما أحد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولّي عليها غيره ويحرّضه على إمساكهما والتفتيش عنهما، وبذل الأموال في طلبهما... ولكن دون جدوى.

وقد عزم أتباعهما على الفتك بالمنصور في بعض السنوات بين الصفا والمروة إلا أن عبد الله بن حسن قد نهاهما لشرف البقعة، وقد اطلع المنصور على ذلك من بعض أمرائه وهو أبو العساكر خالد بن حسّان إذ كان من أتباع محمد بن عبد الله بن حسن، ومن الذين كانوا يريدون الفتك بالمنصور، إذ عذّبه المنصور حتى أقرّ بما كانوا قرروه. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك.

وجاء محمد بن عبد الله إلى أمه فقال: يا أمه! إني قد شفقت على أبي وعمومتي، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي، فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا ولا كرامة،

بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر، وفرجنا بيد الله إن شاء فرّج عنا، وإن شاء ضيّق. واتفقوا كلهم على ذلك.

ونقل المنصور آل حسن من سجن المدينة إلى سجن العراق، كما نقل معهم محمد بن عبد الله العثماني(١)، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجةً لإبراهيم بن عبد الله بن حسن. وقد هلك أكثرهم بالسجن، وخرج من بقي منهم بعد وفاة المنصور.

ضاق محمد بن عبد الله ذرعاً بوضعه، وأضرّ به شدة الاختفاء، وإلحاح نائب المدينة في طلبه، وتأنيب أهل المدينة له في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج في آخر يوم من جمادى الآخرة إذ سار مع مائتين وخمسين من أتباعه فمر على السجن فأخرج من فيه، وانطلق إلى دار الإمارة فدخلها، وقبض على أميرها رياح بن عثمان المزني فسجنه، ودانت له المدينة، وولى على الناس عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى القضاء عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى الشرطة عثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

ووصل الخبر إلى المنصور فندب له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة وله الأمان. وسار عيسى بن موسى بعشرة آلاف فارس ومعهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة، وجعفر بن حنظلة.

وأرسل محمد بن عبد الله إلى مكة المكرمة الحسن بن معاوية فدخلها، وهزم السري بن عبد الله صاحب مكة. كما بعث برجال إلى أهل الشام ليأخذوا له البيعة من رجالها، فمنهم من أجاب، ومنهم من امتنع وقد انهكت الحرب البلد، ومنهم من قال: خرج محمد بن عبد الله في المدينة وليس فيها مال يستعين به على استخدام الرجال.

---

(١) محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، أبو عبد الله: أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب.

تحصّن محمد بن عبد الله بالمدينة وحفر خندقاً حولها، ووصل إليها عيسى بن موسى فدعا محمد ثلاثة أيام إلى الطاعة فردّه وخذّل عيسى عن محمد أصحابه بإعطائهم الأمان، وأن هدفه هو أخذ محمد إلى العراق إلى الخليفة وحده، فانفرط عقد أهل المدينة وتفرّق عن محمد كثير من أصحابه وخاصةً بعد أن قال لهم: إن جعلتكم في حلٍّ من بيعتي، فمن أحبّ منكم أن يُقيم عليها فعل، ومن أحبّ أن يتركها فعل، فتسلّل أكثرهم، ولم يبق معه إلا قلة منهم.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس من جيشه نزلوا على طريق مكة كي لا يتمكن محمد بن عبد الله من الهرب إلى مكة، واستمرت الرسل بين الطرفين ثلاثة أيام في بداية العشر الثاني من شهر رمضان من العام نفسه. فلما كان اليوم الثالث تضافّ الطرفان، وكان مع عيسى بن موسى أكثر من أربعة آلاف، ولم يزد أصحاب محمد على الثلاثمائة إلا قليلاً. واقتتل الفريقان، وترجّل محمد إلى الأرض وقاتل قتالاً شديداً فقضى على أكثر من سبعين رجلاً من أصحاب عيسى، وأحاط بأصحابه جيش العراق فقتلوا الكثير، واقتحموا الخندق، ولم تزل الحرب حتى صلى الناس العصر، وبعد الصلاة حميت الحرب، وتغلبت الكثرة، وفرّ عدد من أتباع محمد وبقي في قلةٍ تناقصت تدريجياً حتى بقي وحده، وما تقدّم إليه أحد إلا هلك حتى تكاثر عليه القوم، وضربه رجل بسيف فسقط على ركبتيه يحمي نفسه، ثم تقدم إلى حميد بن قحطبة وقد أثخنته الجراح وعجز عن المقاومة فحزَّ رأسه، وأرسله إلى المنصور، ودفن الجثة بالبقيع. أما عيسى بن موسى فقد اتجه إلى مكة وعليها الحسن بن معاوية من قبل محمد بن عبد الله، وكان قادماً إلى المدينة نجدةً له، فلما بلغه مقتله فرّ إلى البصرة حيث قد خرج فيها إبراهيم بن عبد الله. ودخل عيسى بن موسى مكة، وقد أناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً، ثم بعث المنصور لها عبد الله بن الربيع فعاث جنده في المدينة فساداً فثار عليه السودان ففرّ من وجههم بعد أن قتلوا عدداً من جنده ثم رجع إليهم فهزموه

فانهزم منهم، وخاف أهل المدينة مغبة ذلك فكفّوا مواليهم وفرّقوهم، وعاد عبد الله بن الربيع فنكّل برؤوس السودان.

ووصل إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة متخفياً بعد أن اتفق وأخوه على الخروج في وقتٍ واحد. وكان وصوله إليها عام ١٤٣، واختبأ بها، ثم خرج وبايعه الناس، وقد دعا لأخيه محمد، وكان عامل البصرة للمنصور هو (سفيان بن معاوية)، وكان يؤيد إبراهيم ضمناً، وبدأت أعداد تفد إلى البصرة لمبايعة إبراهيم، والمنصور يرسل من يكمن لهم بالطريق ويقتلهم، وخرج إبراهيم في غرة شهر رمضان، وحاصر الأمير سفيان بن معاوية، فطلب منه الأمان، فأمنه وسجنه مقيداً، وأراد بذلك أن يبرئ ساحته عند الخليفة، كما انتصر على جعفر، ومحمد ابني سليمان بن علي عم المنصور، وأرسل إلى الأهواز الرسل فبايعه أهلها، ودخلوا في طاعته، ثم أخذها من محمد بن الحصين بعد انتصاره عليه، كما أخذ فارس، والمدائن، وواسط، والسواد كافةً، وبلغه قتل أخيه محمد الذي لم يستمر في حركته أكثر من ٧٤ يوماً (١ رجب ـ ١٤ رمضان)، ونعى إلى الناس أخاه في يوم العيد، وهذا ما جعل الناس يزداد حقدهم على المنصور، لكنه في الوقت نفسه داخلهم شيء كبير من الخوف والجبن، إذ أيقنوا بالهزيمة.

كانت جنود الخليفة متفرقةً بعضها في إفريقية مع محمد بن الأشعث، وبعضها الآخر في الحجاز مع عيسى بن موسى، وبعضها في الري أرسلها مع ابنه محمد المهدي، وليس عنده سوى ألفي فارس وأهل الكوفة ينتظرون به الدائرة لينضموا إلى إبراهيم، فبعث إلى ابن أخيه عيسى بن موسى أن أقبل بمن معك، وبعث إلى ابنه أن أرسل خازم بن خزيمة إلى الأهواز ليخلّصها من إبراهيم، وقد تمكّن فعلاً من الانتصار على المغيرة عامل إبراهيم عليها. كما بعث إلى كل مدينةٍ خرجت عن طاعته قوةً تردّها.

عسكر إبراهيم خارج البصرة وجعل عليها نملة بن مرة ومعه ابنه

حسن بن إبراهيم. ثم سار هو باتجاه الكوفة، ونزل في (باخمرى)[1] وجاءه عيسى بن موسى في خمسة عشرة ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وكان جيش إبراهيم عظيماً إلا أن الآراء قد اختلفت فيه فمنهم من يرى الذهاب إلى الكوفة من خلف جيشها بطائفة من أهل البصرة والنيل من الخليفة وتسلم الأمر، ومنهم من يرى حفر خندقٍ، ومنهم يرى مباغتة عيسى بن موسى، ومنهم من يرى الكراريس وآخر الصفوف و.....

وتصافّ العسكران في (باخمرى)، ونشب القتال، وهزمت مقدمة عيسى بن موسى بإمرة حميد بن قحطبة وفلّوا منهزمين، وثبت عيسى بن موسى في مائة من أصحابه، وحجز الفارين نهر فعادوا، وعاد القتال من جديد فهزم جيش إبراهيم وثبت هو في خمسمائة من أتباعه، ثم قتل إبراهيم مع من قتل، وكان ذلك في ٢٥ من شهر ذي الحجة من عام١٤٥ أي أن أمره قد دام مائة وخمسة عشر يوماً (١ رمضان ـ ٢٥ ذي الحجة)، وكانت دعوته في بداية الأمر لأخيه محمد فلما جاءه نبأ مقتله دعا لنفسه.

وعندما علم المنصور بخبر مقتل إبراهيم بكى بكاءً مُرّاً، والواقع أن المنصور قد أخطأ إذ أساء التصرف مع عبد الله بن حسن حتى أحرجه فأخرج ولديه محمداً وإبراهيم، وكان مع آل حسن جباراً قاسياً، ولكنه الملك، ولا بدّ برأيه من المحافظة عليه، واللين فيه يخرجه من يديه، والقسوة تثبته، فقبح الله الدنيا وزخرفها وغرورها.

وبنى مدينة بغداد، وسكنها في صفر من عام ١٤٦ حيث تمّ البناء، وكان سورها دائرياً، وعرضه خمسون ذراعاً في أسفله، وعشرون في أعلاه، وله ثمانية أبواب، وكذا السور الداخلي، إلا أن الأبواب الداخلية والخارجية غير متقابلة: ونقل الأبواب من مدينة واسط، كما حاول نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد. كما بنى سوراً لمدينة الكوفة، وأنشأ مدينة الرافقة، ووسع المسجد الحرام عام ١٣٩.

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٧، استخلف على الكوفة ولي عهده ابن

---

(١) باخمرى: موضع بين واسط والكوفة، وهو إلى الكوفة أقرب، وفيه قبر إبراهيم.

أخيه عيسى بن موسى، وطلب منه قتل عمه عبد الله بن علي، فحُذّر عيسى مغبة ذلك، ونُصح بألاّ يفعل، خوفاً من مطالبة المنصور له بدمه، ففعل وخبأه، ولم يقتله خوفاً من القصاص منه، ولما عاد أبو جعفر طالبه بدمه، وأراد قتله، فأحضره عندئذٍ، فسجن المنصور عمه عبد الله، ثم لم يلبث أن مات في السجن، واختلف في موته أكان قتلاً أم موتاً، أم تهدّم السجن عليه. كما خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولّى مكانه ابنه محمد المهدي، وبعد مدةٍ عاد فرضي عن ابن أخيه وجعله ولياً للعهد بعد ابنه.

وذهب للحج عام ١٥٨، وما أن جاوز الكوفة حتى أحسّ بالمرض، الذي اشتد عليه فتوفي في مكة في ٧ ذي الحجة.

تزوج أبو جعفر أروى بنت منصور فولدت له محمداً (المهدي) وجعفر الأكبر، كما تزوج فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله فولدت له عيسى، ويعقوب، وسليمان، وتزوج امرأةً أمويةً أنجبت له فتاةً اسمها العالية، وله جعفر الأصغر من أمّ ولدٍ كرديةٍ، وصالح المسكين من أمّ ولدٍ روميةٍ، والقاسم من أمّ ولدٍ أيضاً. وتوفي ابنه جعفر الأكبر في حياة أبيه.

وحاول أبو جعفر تولية أبي حنيفة النعمان[١] القضاء فأبى.

كان المنصور في أول النهار يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات، والعزل، والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل المنزل واستراح إلى العصر، فإذا صلاّها جلس لأهل بيته، ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه[٢].

---

(١) النعمان بن ثابت: تيمي بالولاء، ولد بالكوفة عام ٨٠هـ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، رفض القضاء أيام عمر بن هبيرة، وكذا رفضه أيام المنصور فسجنه ومات في السجن عام ١٥٠ ببغداد. وهو أحد الأئمة الأربعة في الفقه.

(٢) البداية والنهاية.

الفتوحات

توقفت الفتوحات الواسعة في عهد بني أمية منذ أواخر عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلا أن أعمال الغزو قد بقيت مستمرةً لم تنقطع الصوائف والشواتي عن بلاد الروم الذين بقيت دولتهم قائمة، وإن خرجت من المناطق التي كانت تسيطر عليها في بلاد الشام، وشمالي إفريقية، والأندلس، كما انسحبت من الأجزاء الشرقية من بلاد الأناضول، ودام هذا مدة أيام هشام بن عبد الملك، ثم شُغل الأمويون بأنفسهم، وتضعضعت دولتهم، فتوقفت حتى أعمال الغزو.

وشُغلت الدولة العباسية يوم قامت بتوطيد دعائمها، ويوم رأى أبو العباس أن الأمر قد استقر له أرسل الصوائف إلى بلاد الروم مستأنفاً بذلك الغزو، ومظهراً عودة القوة، وفي الوقت نفسه يريد أن يردع ملك الروم الذي استغل انشغال الدولة وقام بالهجوم على بعض الثغور، وعندما تولّى الأمر المنصور شغل في أول عهده بأحداث عمه عبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، وسنباذ، وهذا ما جعل قسطنطين ملك الروم يدخل ملاطية عنوةً، ويهدم سورها، وإن كان قد عفا عن مقاتليها إلا أنه تقدم في بلاد المسلمين. فلما استقر الوضع للمنصور بعد عام تقريباً من استلامه زمام الأمر، أمر عمه صالح بن علي أن يسير على رأس صائفةٍ فاسترجع ملاطية، وأعاد ما هدّمه قسطنطين، كما سار في الصائفة التالية عن طريق الحدث[1]، وتوغّل في بلاد الروم، كما فادى المنصور عامها بعض أسارى المسلمين.

---

(١) الحدث: ثغر إلى الغرب من ملاطية في جبال طوروس.

وبذا عاد الغزو إلى بلاد الروم بشكلٍ دائم، واشتهر من هذه الغزوات غزوة جعفر بن حنظلة البهراني عام ١٤٦، وغزوة العباس بن محمد أخي المنصور عام ١٤٩ حيث توغّل في بلاد الروم، وكان معه الحسين بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث الذي توفي في الطريق. وغزوة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن أخي المنصور عام ١٥١هـ، وغزوة معيوف بن يحيى الحجوري عام ١٥٣، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة كثيراً، ووقع في أيديهم ستة آلاف أسير، وغزوة زفر بن عاصم الهلالي عام ١٥٤، وغزوة يزيد بن أسيد السلمي عام ١٥٥. وفي الوقت الذي كانت الغزوات تنطلق إلى بلاد الروم كان أبو جعفر يهتم ببناء الثغور كي يرابط فيها المسلمون، وينطلقوا منها مجاهدين فقد بنيت (المصيصة)[1] عام ١٤١ على يد جبريل بن يحيى الخراساني.

أما على الجبهة الشرقية فقد أمر أبو جعفر ابنه المهدي أن يغزو طبرستان، فقام بالغزو، ودخل المنطقة عام ١٤١، إلا أن صاحب طبرستان قد عاد ونقض العهد في العام التالي، وقتل عدداً من المسلمين، فسار إليه خازم بن خزيمة على رأس قوةٍ، فتحصّن في حصنٍ منيعٍ، صعُب على المسلمين اقتحامه عنوةً، فاحتالوا عليه، وسبيت يومئذٍ أم إبراهيم بن المهدي، وأم منصور بن المهدي، وكانتا من بنات الملوك الحسان اللتين تزوجهما محمد المهدي بن المنصور.

وقتل أهل الديلم عدداً من المسلمين عام ١٤٣ فغزاهم المنصور، كما سار إليهم في العام التالي محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه، إذ لا يمكن أن يصاب المسلمون بأذى في بلاد ويسكت إخوانهم على ذلك إذ يؤدي إلى توقف الدعوة وعدم انتشار الإسلام، ولا بدّ من أن يشعر المسلمون في أية بقعةٍ بالعزّة والقوة، وأن وراءهم أمة قوية، وإن ذلك أدعى لأن يكونوا مهيبين، ويقبل الناس إليهم، ويشعروا بعزّة المؤمنين.

---

(١) المصيصة: في منطقة كيليكيا على نهر جيحان، وهي كثيرة البساتين التي تروى من النهر.

وخرج الترك والخزر بباب الأبواب[1] عام ١٤٥ وقتلوا جماعةً من المسلمين في أرمينيا فسار إليهم المسلمون وأدّبوهم.

وأغار اشترخان خوارزم في جيش من الترك على أرمينيا، ودخل تفليس[2]، وقتل كثيراً من المسلمين ومن أهل الذمة، وأسر كثيرين آخرين فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة حرب بن عبد الله الراوندي فقتل في بعض المعارك وذلك عام ١٤٧. وأسرع حميد بن قحطبة إلى تفليس فوجد الترك قد انسحبوا منها.

كما فتحت كشمير عام ١٥٧ أيام ولاية هشام بن عمرو التغلبي، وكانت قد نقضت العهد.

* * *

(١) باب الأبواب: في بلاد الداغستان على بحر الخزر حيث تضيق السهول الساحلية باقتراب جبال القوقاز من البحر، وتسمى الآن دربنت.

(٢) تفليس: عاصمة جورجيا الآن إحدى جمهوريات الإمبراطورية الروسية.

الولايات[٧]

تعرّضت كثير من الولايات لحركات عنيفة، وكاد بعضها يعصف بالحكم قبل أن يتمكّن، وكانت معالجة المنصور لها على درجةٍ من الحكمة والحنكة والحزم والدهاء الأمر الذي قضى عليها قبل أن يستفحل أمرها، ويمتد لهيبها إلى ولايات أخرى.

١ ـ الشام:

قام فيها عبد الله بن علي مذ تولّى ابن أخيه أبو جعفر الخلافة حيث كان يطمع فيها لنفسه، إذ هو الذي وطّد الحكم للعباسيين، وقضى على خصومهم، ومهّد الطريق للحكم، وكان سيفه البتار. وسار معه أهل الشام بل لم يستطيعوا مخالفته إذ أخذهم أخذ الجبابرة، وحزمهم حزم السلمة، ولكن ما أن انتهى أمره حتى هدأت الولاية، وانطلق أهلها للغزو، والمرابطة في الثغور، واستمر ذلك مدة أيام المنصور.

٢ ـ الكوفة:

كان عيسى بن موسى والي هذه الإمارة، وفي عام ١٤١ خرجت فيها جماعة تدعى الراوندية، وأصلهم من خراسان، وقد ادعوا ألوهية المنصور، وقالوا بتناسخ الأرواح، وأن روح آدم، عليه السلام، قد انتقلت إلى عثمان بن نهيك وحلّت به، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل. وقد جاءوا إلى قصر الخليفة، وأخذوا يطوفون حوله. ولكن المنصور أبادهم جميعاً وانتهى أمرهم. كما تولى أمر هذه الولاية محمد بن سليمان، وعزل عنها عام ١٥٥ إذ تولاّها عمر بن زهير.

٣ ـ البصرة:

كان سليمان بن علي أمير البصرة، لكن المنصور قد عزله لما علم أن أخاه عبد الله بن علي مختبئاً عنده، وولّى مكانه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي بعث بعمه عبد الله بن علي إليه فسُجن. ويبدو أن سفيان كان ممالئاً لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن والذي ظهر قبل موت أخيه، وبايعته الأهواز، كما أخذ فارس، وواسط، والمدائن، والسواد كافةً. غير أن خازم بن خزيمة قد سار في أربعة آلاف مقاتل إلى الأهواز فامتلكها، وجاء عيسى بن موسى من الحجاز فالتقى بإبراهيم وهو في طريقه إلى الكوفة، وكان حميد بن قحطبة على مقدمة عيسى ولكنه هزم، وثبت عيسى بن موسى، كما ثبت إبراهيم بن عبد الله، وتخلى عنه عدد من أصحابه فقتل هو مع من قتل من أنصاره، واستتب الوضع للمنصور.

عُزل سفيان عن البصرة وتولّى أمرها مسلم بن قتيبة ثم عزل بعد عام بمجيء محمد بن سليمان بن علي، ولكن أصبح استبدال ولاة البصرة أمراً عادياً كل عام تقريباً إذ تتابع عليها جابر بن زيد الكلابي، ويزيد بن منصور، وعبد الملك بن أيوب بن ظبيان، والهيثم بن معاوية.

٤ ـ الجزيرة:

لم يحدث في الجزيرة من أمر بعد حركة عبد الله بن علي سوى خروج ملبد بن حرملة الشيباني في ألف من الخوارج، ولكن انتهى أمرهم سريعاً، واشتهر من ولاة الجزيرة في تلك الحقبة حميد بن قحطبة، والعباس بن محمد أخو الخليفة المنصور.

٥ ـ الموصل:

لم يحدث في الموصل شيء، وكان أميرها إسماعيل بن علي، ثم موسى بن كعب الذي عزله المنصور وولى عليها خالد بن برمك.

٦ ـ خراسان:

كان أبو داود خالد بن إبراهيم نائب أبي مسلم على خراسان، إلا أن المنصور قد أطمعه في ولاية خراسان إن ردّ أبا مسلم عنها حين همّ بالعودة إليها، وانتهى أمر أبي مسلم، وبقي أبو داود والياً على خراسان لكن لم يلبث أن خرج فيها سنباذ مطالباً بدم أبي مسلم، وكان سنباذ مجوسياً فدانت له خراسان، كما أخذ قومس وأصبهان، فبعث إليه أبو جعفر قوة قوامها عشرة آلاف فارس بإمرة جهور بن مرار العجلي فانتصر على سنباذ وقتله، ولم تزد مدة خروجه على سبعين يوماً. غير أن جهور قد أغرته نفسه بانتصاره هذا فخلع الطاعة عام ١٣٨، فأرسل له المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي فهزمه وقتله.

وثارت جماعة في خراسان على أميرها أبي داود خالد بن إبراهيم وحاصرته في داره فوقع ومات، وخلفه صاحب شرطته عاصم حتى وصل إلى مرو أميرها الجديد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، ولم يكمل عامه حيث عزل، وتولى أمر خراسان بعده محمد المهدي بن الخليفة المنصور فلم يقبل عبد الجبار أمر العزل وإنما خلع الطاعة، فسار إليه المهدي وعلى مقدمته خازم بن خزيمة، ففرّ عبد الجبار ولكن قُبض عليه، وأُرسل إلى المنصور فقتله.

وخرج عام ١٥٠ رجل كافر اسمه استاذسيس فعاث فساداً، واستحوذ على أكثر خراسان، فبعث المنصور لابنه المهدي أن يرسل له خازم بن خزيمة، فبعثه، فقضى عليه. واشتهر من ولاة خراسان حميد بن قحطبة الطائي عام ١٥٢.

٧ ـ السند:

خلع عيينة بن موسى بن كعب الطاعة عام ١٤٢ فأرسل له المنصور قوة بإمرة عمرو بن حفص بن أبي صفرة، فتمكّن عمرو من قهر عيينة، وتسلم ولاية السند والهند، حتى استبدل عام ١٥٧ بهشام بن عمرو التغلبي.

وأعطيت إمرة سجستان لمعن بن زائدة عام ١٥١ غير أن الخوارج قد قتلوه في العام التالي.

٨ ـ الحجاز:

كان والي الحجاز زياد بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد المدان خال السفاح، فعزله المنصور عام ١٤١، وأعطى الولاية لمحمد بن خالد القسري حتى عام ١٤٤ حيث خلفه رياح بن عثمان المزني الذي حدثت في أيامه حركة محمد بن عبد الله بن حسن، وقضى عيسى بن موسى على هذه الحركة وأناب على المدينة كثير بن حصين ولم يبق فيها سوى شهر واحد إذ أرسل المنصور والياً على المدينة عبد الله بن الربيع، وثار السودان عليه ففر من وجههم مرتين، ثم ردّه أهل المدينة بعد أن ردعوا مواليهم خوفاً من النتيجة.

عُزل عبد الله بن الربيع عام ١٤٦، وأعطيت لجعفر بن سليمان بن علي الذي بقي في الإمارة حتى عام ١٥٠ حتى خلفه عليها الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب حتى عام ١٥٥ حيث أعطيت إلى عبد الصمد بن علي، أما بقية إمارات الحجاز فقد كان أمراؤها تختلف مناطقهم بين مدةٍ وأخرى، فقد تسلّم السري بن عبد الله مكة والطائف، ثم خلفه عبد الصمد بن علي، ثم محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي. وتسلّم معن بن زائدة اليمن عام ١٤١، ويزيد بن منصور عام ١٥٣، وتسلّم قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس إمارة البحرين.

٩ ـ مصر:

كانت مصر هادئة كعادتها، وتوالى عليها أمراء عدة أيام المنصور، صالح بن علي، وموسى بن كعب، ومحمد بن الأشعث، ونوفل بن الفرات، وحميد بن قحطبة، ويزيد بن حاتم، ومحمد بن سعيد.

١٠ ـ إفريقية:

ربما كانت ولاية إفريقية أكثر الإمارات مشكلات وذلك بسبب الخوارج الذين نشطوا في حركاتهم فيها، ولبعدها عن مركز الخلافة، ولانشغال الدولة عنها، وهذا ما مكّن للخوارج فيها، كما مَكّن لعبد الرحمن الداخل في الأندلس.

كانت إفريقية في صراع بين الخوارج الأباضية والصفرية وأصحاب النفوذ من آل عقبة بن نافع.

وقامت دولة للخوارج الصفرية في منطقة تافيللت المحصنة طبيعياً إذ أنها على هامش الصحراء وفيها المياه، فكانت دولة صحراوية اقتصرت على التجارة، وقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول الذي عمل هناك راعياً، واتصل مع الرعاة، وأثر فيهم، فلما وصل عددهم إلى أربعين شخصاً بايعوا عيسى بن يزيد الأسود وذلك عام ١٤٠، ثم دعا أبو القاسم قومه مكناسه إلى مبايعة عيسى وطاعته، وبنيت مدينة سجلماسة[١] وغرست أشجار النخيل والعنب، وزرعت الخضراوات، وكانت مياه نهر زيز أساساً لهذه المشروعات، واتجه الصفرية نحو هذه المدينة فزاد عدد سكانها، وكان قوام

---

(١) سِجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل دَرَن، وهي في وسط رمال، كرمال زَرُود ويتصل بها من شماليها جَدَد من الأرض، يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر، وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديد الحلاوة ما لا يحد، وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر، وغلتهم قليلة، ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر، ويعملون منها غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها. «معجم البلدان».

أهلها من السودان، والأندلس، والبربر، والعرب وفئات مختلفة تتبنى كلها المذهب الصفري من الخوارج.

ونُحّي عيسى بن يزيد عن الإمامة، ونُصْب أبو القاسم سمكو، ثم قتل عيسى عام ١٥٥، وبقي أبو القاسم إماماً حتى عام ١٦٨، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته خلافاً للرأي الخارجي في الإمامة بعدم الوراثة.

سالم أبو القاسم سمكو الولاة العباسيين في القيروان، إذ لم ير جدوى من هذه الحركات التي قامت ما دامت دون المستوى المطلوب حتى عده ابن خلدون تابعاً للدولة العباسية، وقد دعا للمنصور والمهدي، وإن هذه المهادنة قد جعلت الدولة الخارجية تستمر وتستقر.

١١ ـ الأندلس:

لم يعلن عبد الرحمن الداخل نفسه خليفة، إذ يعلم أنه لا يصح أن يكون في بلاد الإسلام إلا خليفة واحد، ومن هذا المنطلق فقد كان يدعو للخليفة من العباسيين بصفته أمير المؤمنين ويقيم للناس أميراً في موسم الحج، واستمر على هذه الحالة مدة حتى حدثت عنده أمور منها:

حاول يوسف بن عبد الرحمن الفهري استرداد نفوذه وذلك برأي الصميل بن حاتم، ففرّ يوسف من قرطبة إلى ماردة عام ١٤٢، وجمع جيشاً حوله، وأعلن العصيان، وأراد غزو قرطبة، فسار إليه عبد الرحمن وتمكّن من هزيمته وقتله، أما الصميل بن حاتم فقد سجن في قرطبة ومات في سجنه مسموماً.

وعمل المنصور على القضاء على عبد الرحمن فشجع العلاء بن مغيث الجذامي في باجة[١] على مناهضة عبد الرحمن، والدعوة للعباسيين هناك، وأرسل له الراية العباسية. ولما تقوّى العلاء قام بالثورة عام ١٤٧، فسار

(١) باجة: مدينة في الجزء الجنوبي من البرتغال اليوم.

إليه عبد الرحمن غير أنه قد هزم أمام العلاء فسار إلى قرمونة[١] شرق اشبيلية فتبعه العلاء وحاصره فيها مدة شهرين، لم يجد عبد الرحمن بعدها بُدّاً من القيام بعمليةٍ فدائيةٍ فخرج على خصمه بجرأة مع سبعمائة من أتباعه على حين كان خصومه لا يحصى عددهم، فتمكّن من فك الحصار المضروب عليه ومداهمة العدو وقتل العلاء وأرسل رأسه محنطاً إلى المنصور أثناء الموسم حيث وضع أمامه، فكفّ المنصور بعدها عن العمل في الأندلس. وسمى عبد الرحمن الداخل باسم صقر قريش.

عند ذلك قطع عبد الرحمن الخطبة للعباسيين ولكن لم يعلن نفسه خليفة إذ بقي متقيداً بالفكرة الإسلامية، ولم يحب أن يبدأ بالمخالفة رغم ما أقدم عليه المنصور وحتى المهدي من بعده.

* * *

(١) قرمونة: بلدة في الأندلس، واسمها الصحيح قرمونية.

الخوارج

نشط الخوارج بصورةٍ عامةٍ أيام المنصور، وإن كانوا قد فشلوا في المشرق إلا أنهم قد نجحوا في بلاد المغرب إلى حدٍّ ما، فثوراتهم كانت محدودةً في المشرق حيث يخرج الزعيم في جماعةٍ معدودةٍ في منطقة ويتمكن من هزيمة جيوش الخليفة لكن لا يلبث أن يهزم إذ تأتي النجدات لجيوش الدولة فيفرّ من منطقةٍ إلى أخرى حتى يقضي عليه، وربما كانت نشاطاتهم في المشرق كأنها إشغال للدولة عن أمور المغرب كي يتمكّنوا فيها هناك.

خرج ملبد بن حرملة الشيباني عام ١٣٧ بالجزيرة في ألف مقاتل من الخوارج، وهزم قوات الخليفة فسار إليه حميد بن قحطبة إلا أنه هُزم وتحصّن، واضطر أن يصالح ملبداً على دفع مائة ألف على أن يقلع عنه ففعل، وسار إليه خازم بن خزيمة عام ١٣٨ فانتصر عليه وقتله.

واستطاع عاصم بن جميل أن يهزم حبيب بن عبد الرحمن الذي فرّ إلى قابس، وهذا ما فسح المجال لعاصم من دخول القيروان عام ١٣٩، فولى عليها عبد الملك بن أبي الجعد، وسار هو خلف حبيب الذي فرّ إلى أوراس حيث ألّف هناك قوةً تمكّنت من هزيمة الصفرية، وقتل عاصم. وسار حبيب نحو القيروان بعد انتصاره هذا غير أنه هزم أمام عبد الملك بن أبي الجعد وقتل في المعركة، وهكذا دانت المغرب كلها للصفرية.

أما الأباضية فقد رجع بعض كبارهم من المشرق عام ١٤٠، وركّزوا جهودهم في المغرب الأدنى، حيث كثُر أتباعهم، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي استطاع أن يستولي على طرابلس، ثم سار إلى قابس فأخذها، واتجه إلى القيروان فالتقى بعبد الملك بن أبي

الجعد خارجها فهزمه، وقتله، واستولى على القيروان عام ١٤١، وولى عليها عبد الرحمن بن رستم.

أرسل المنصور إلى إفريقية محمد بن الأشعث، فبعث طلائعه بقيادة أبي الأحوص بن عمرو بن الأحوص فأسرع إليه أبو الخطاب والتقى قرب سرت فهزمه، وانطلق محمد بن الأشعث بنفسه نحو أبي الخطاب فالتقى به عام ١٤٤ في (تاورغا)[1] فانتصر عليه وقتله، وسار نحو القيروان فأخذها وهكذا وطّد محمد بن الأشعث الخزاعي نفوذ الدولة العباسية في المغرب الأدنى، وأزال الأباضيين عن القيروان.

بعد أن هزمت الصفرية في المغرب الأدنى اتجه أنصارها نحو المغرب الأوسط والأقصى، واستطاع أبو قره من تأسيس دولةٍ في ناحية تلمسان، كما استطاع (أبو القاسم سمكو بن واسول) من إرساء قواعد دولة بني مدرار في سجلماسة.

أرسل محمد بن الأشعث جيشاً لمحاربة أبي قره الصفري في تلمسان في المغرب الأوسط بإمرة الأغلب بن سالم التميمي وذلك عام ١٤٨، غير أن الجند قد ثاروا على ابن الأشعث فما كان من المنصور إلا أن أرسل بولاية الأغلب على إفريقية. وسار الأغلب إلى المغرب الأوسط فالتقى بالزاب بجيش أبي قره فانسحب أبو قره إلى تلمسان فلاحقه الأغلب وفي نيته مواصلة السير إلى المغرب الأقصى فأحسّ الجنود بطول المفازة وبعدت عليهم الشقة فثاروا على الأغلب وقتلوه عام ١٥٠.

وصل عمرو بن حفص المهلبي والياً على القيروان بعد أن عزل عن السند، واسترد في طريقه طرابلس وكان قد دخلها الخارجي أبو حاتم الملزوزي عام ١٥٠، وما استقر عمرو بن حفص في القيروان حتى جدّ السير نحو المغرب الأوسط لمداهمة الصفرية، واستقر في الزاب في (طبنة)، وسار خلفه أبو حاتم وحاصر القيروان عام ١٥٣، غير أنه ترك

---

(١) تاورغا: في ليبيا بين طرابلس وسرت على ساحل البحر.

حصارها وتبع عمرو بن حفص الذي تحصّن في (طبنة)، وكان الخوارج قد جاءوه من كل جهة فقد تبعته الأباضية بقيادة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم، وجاءته الصفرية بقيادة أبي قره، وعبد الملك بن سكرديد، وجرير بن مسعود.

انسحب أبو قره بالصفرية من حصار (طبنة) فاستطاع عمرو بن حفص عندها من هزيمة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم والأباضية معهما، وسارت الأباضية نحو القيروان فسبقها عمرو، ودخل القيروان، فحاصرته الأباضية فيها، وقتل عمرو في الحصار، وتولى بعده قيادة الجند أخوه لأمه جميل بن صخر، فعقد أبو حاتم زعيم الأباضية معه صلحاً دخل إثره القيروان في أواخر عام ١٥٤.

وكان عمرو بن حفص قبل أن يغادر (طبنة) قد أرسل (المهنأ بن المخارق بن غفار الطائي) لملاحقة أبي قره فتبعه وهزمه.

وجاء يزيد بن حاتم[١] والياً على إفريقة عام ١٥٥، وأسرع أبو حاتم زعيم الأباضية من القيروان لملاقاته، وانتصر على طلائع جيشه لكنه هزم أمامه فاعتصم بجبل نفوسة. ودخل يزيد بن حاتم القيروان، وثار الأباضيون تارةً أخرى بإمرة أبي يحيى بن فوناس الذي تزعم قبيلة هوارة لكن قضي على هذه الثورة بسرعة وقتل قائدها وعامة أصحابه وذلك عام ١٥٦.

وكما انتصر يزيد بن حاتم على الأباضية في المغرب الأدنى كذلك انتصر على الصفرية وبطش بها في المغرب الأوسط، وكانت دعامته في ذلك ابنه المهلب، والعلاء بن سعيد. وهكذا استطاع يزيد بن حاتم أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠.

---

(١) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة.

-٣-

المهدي

محمّد بن عبد الله

١٥٨ - ١٦٩هـ

ولد محمد المهدي بن المنصور عام ١٢٦ ببلدة إيذج[١]، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، وتُكنّى بأم منصور كما تُكنّى بأم موسى، وكان أسمر طويلاً، جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المنصور في ذي الحجة من عام ١٥٨، وعندما بلغه نبأ وفاة والده كتم الخبر يومين، ثم نادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دُعي فأجاب، وأُمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلّدت جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس أسرّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا، نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، وأخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم».

وكان جواداً كريماً محبباً إلى الرعية فمذ تولّى الأمر أخذ في ردّ المظالم، وأخرج ما جمع أبوه وفرّقه بين الناس، ولم يعط أهله ومواليه.

وأول من عزّاه بأبيه وهنّأه بالخلافة أبو دلامة فقال:

عـينـاي واحـدة تـرى مـسـرورةً　　　بـأمـيـرهـا جـذلـى وأخـرى تـذرف

---

(١) إيذج: كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان، وهي وسط الجبال، تقوم الزراعة فيها على الأمطار، ويشرب أهلها من عين سليمان.

تبكي، وتضحك تارةً ويسوؤها ... ما أنكرت، ويسرّها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرّها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمدٍ ... وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافةٍ ... ولذاك جنّات النعيم تزخرف

أطلق السجناء إلاّ من كان مسجوناً على دم، أو فسادٍ في الأرض، أو عنده حق لأحد.

ومن أخبار جوده أن امرأةً وقفت للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحدٍ غيرها، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم. ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرّقها ابن الخياط وأنشأ يقول:

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فبددت ما عندي

وبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن إبراهيم[1] فحدّثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا في خفّ أو نعل أو حافر». وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأعلم أن غياثاً كذب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح، ولم يذكر غياثاً بعدها.

بنى مسجد الرصافة عام ١٥٩، ووسّع المسجد الحرام عام ١٦٧.

---

(١) غياث بن إبراهيم كذاب: قال عنه أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: سمعت أكثر من واحد يقول: إنه يضع الحديث. وقال البخاري: تركوه.

وولّى القضاء أبا يوسف[1] عام ١٦٦، وتتبع الزنادقة وعمل على إبادتهم.

بايع لولديه موسى الهادي عام ١٦٠ ثم لهارون الرشيد، وذلك بعد أن أكره ابن عمه عيسى بن موسى على خلع نفسه.

وعرف بسماحة الأخلاق، وقد ذهب مرةً إلى البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ ـ يعني المؤذنين ـ فأمرهم بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يُكبّر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء. فكبّر فتعجّب الناس من سماحة أخلاقه.

تزوج عام ١٥٩ ابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، كما تزوج وهو في المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وأعتق جاريته الخيزران وتزوج بها، وهي أم ولديه الهادي والرشيد، وكان مفتتناً بها.

وعزم في أواخر عهده أن يقدّم ابنه الرشيد في الخلافة على الهادي، وكان الهادي بجرجان فدعاه فلم يُلب فسار إليه بنفسه، وبينما هو في ماسبذان إذ أدركته الوفاة في ٢٢ محرم من عام ١٦٩ فكانت خلافته عشر سنوات وشهر ونصف الشهر. واختلف في سبب موته أكان بالسم غلطاً من إحدى جواريه أم بإصابة ظهره بجانب خربةٍ دخل فيها جواده.

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، البغدادي: صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، وولي القضاء أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ولد بالكوفة عام ١١٣، وتوفي ببغداد وهو على القضاء عام ١٨٢.

الغزو والفتح

منذ أن تولّى المهدي الخلافة بعث العباس بن محمد على رأس جيش إلى بلاد الروم، كما أرسل جيشاً آخر إلى بلاد الهند. وكان متجهاً بصورةٍ عامة إلى بلاد الروم حيث ما تنفك الصوائف تنطلق من الثغور فتغير على أرض الروم، وإن كانت لم تحدث فتوح واسعة أو تُضمّ مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام بصورةٍ دائمةٍ إلا أن الانتصارات كانت كبيرةً والغنائم كثيرة، وأعداد الأسرى من الروم وفيرة. وكانت الثغور هي نفسها على ذرا جبال طوروس وتمتد من طرسوس على ساحل البحر المتوسط نحو الشمال الشرقي حتى أرضروم.

وتوغل الحسن بن قحطبة عام ١٦٢ في بلاد الروم، وأحرز انتصاراً واضحاً، ولكن كثرت الفتوح بعد ذلك حيث تولى ابنه الرشيد أمرها إذ سار على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيماً. وأصبح بعد ذلك والياً على الشطر الغربي من الدولة الإسلامية من الأنبار حتى الأندلس.

وسار عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على رأس قوةٍ إلى بلاد الروم عام ١٦٤، وأصاب غنائم كثيرةً، وأسر من الروم الكثير أيضاً. وبعد عام سار الرشيد ووصل إلى سواحل بحر مرمرة، وصالح أغسطة امرأة ليون، وكانت عاهلة الروم. واستمرت الهدنة سنتان ثم نقض الروم العهد عام ١٦٨ فسار إليهم والي الجزيرة وهو يزيد بن بدر بن البطال فغنم وظفر.

الحركات

لقد وطّد المنصور لابنه الأوضاع، وأخضع له الرقاب، لذا لم تقم في أيام المهدي حركات واسعة، ولم ينشط منافسوه سواء من الطالبيين أم من غيرهم، ومع هذا فقد قامت حركات محلية بسيطة منها:

١ ـ خروج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم، وكان خروجه بخراسان عام ١٦٠ فسار إليه يزيد بن مزيد فتمكّن منه وأسره، وأرسله إلى المهدي مع كبار أنصاره فقُتلوا جميعاً.

٢ ـ وخروج المقنع في قرية من قرى مرو حاضرة خراسان، واسمه عطاء، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وأن الله قد ظهر في صورة آدم لذا سجدت له الملائكة، ثم ظهر في صورة نوح، ثم في صور الأنبياء الواحد بعد الآخر حتى كان في صورة أبي مسلم وأخيراً صار إليه لذا فقد ادعى الربوبية. وكان أعور قبيح المنظر لذا فقد اتخذ له وجهاً من ذهب. وكان خروجه عام ١٦١ فأرسل له المهدي عدداً من القادة، ثم أفرد له سعيد الحرشي فلجأ المقنع إلى قلعة (كَشّ)[١]، وكان قد جمع فيها الطعام، وحصّنها، فلما اشتد عليه الحصار وشعر بالغلبة احتسى السم هو وأهله فماتوا جميعاً وذلك عام ١٦٣هـ.

٣ ـ وخروج عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة، وقوي أمره، وأحرز النصر على عددٍ من قادة المهدي وجيوشه، وسار إليه أخيراً

---

(١) كشّ: مدينة في بلاد ما وراء النهر، وهي المقصودة هنا، كما توجد بلدة على جبل بالقرب من جرجان على بعد ثلاثة فراسخ تحمل الاسم نفسه، وثالثة من قرى أصبهان.

شبيب بن واج المروروذي ولكنه هزم أمامه أيضاً، فلما جاء دعم إلى شبيب انتصر وفرّ عبد السلام أمامه إلى قنسرين فتبعه، وتمكّن من قتله فيها عام ١٦٢، وعبد السلام هذا من الخوارج الصفرية.

٤ ـ وخروج دحية بن مصعب بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم عام ١٦٥ وتغلّب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد نفوذ الدولة العباسية ينتهي من الصعيد، وهذا ما جعل الخليفة المهدي يغضب على واليه في مصر إبراهيم بن صالح بن علي العباسي ويعزله ويرسل مكانه موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي عام ١٦٧، ولكنه فشل كذلك في القضاء على ثورة دحية، وقسا على السكان فسلّمه الجند، وتخلوا عنه للثائرين فقتل، وجاء بعده حسام بن عمرو المعافري، وقد فشل كذلك. واستمرت الثورة حتى أيام الهادي.

* * *

الخوارج

بقيت دولة الخوارج في سجلماسة، وتوفي عام ١٦٨ أبو القاسم سمكو وخلفه ابنه إلياس الذي عرف باسم «أبو الوزير». وبقي على سيرة أبيه في موادعة ولاة القيروان.

كما قامت دولة للخوارج من الأباضية في تاهرت[1] إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١، وأصبح عبد الرحمن بن رستم[2] إماماً لهذه الدولة. وقد هادن ولاة القيروان أيضاً مثل حكام الدولة الصفرية في سجلماسة.

---

(١) تَاهَرْت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة. بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. وهي مدينة مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزّول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتُش، ومنه شرب أهلها وأرضها، وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً.

(٢) عبد الرحمن بن رستم: عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبهرام هو مولى سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه. انتقل عبد الرحمن إلى المغرب في نهاية القرن الأول، واتجه إلى المشرق مع الأباضيين حيث بقوا هناك من ١٣٥ ـ ١٤٠. تولى نيابة القيروان عندما أخذها الأباضيون من الصفرية عام ١٤١، وخرج منها لنصرة إمامه المعافري في قابس حيث قتل هناك عام ١٤٤ على يد محمد بن الأشعث الخزاعي، فرجع عبد الرحمن إلى القيروان، ثم غادرها واتجه إلى المغرب الأوسط حيث تحصن فيها من ابن الأشعث، وسار بعدها إلى موقع تاهرت.

حاول المهدي ـ كما حاول أبوه المنصور ـ التخلص من عبد الرحمن غير أنه فشل كسابقه. إذ كان حاكم سرقسطة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي يختلف مع عبد الرحمن الداخل لأمورٍ سياسيةٍ. فاتفق هذا مع شارلمان حاكم الفرنجة لمداهمة عبد الرحمن الداخل، وقد كان المهدي على رضى من هذا الاتفاق، وأرسل هو أيضاً من طرفه عبد الرحمن بن حبيب الفهري لينزل على شواطئ الأندلس الجنوبية، في الوقت الذي يجتاز شارلمان حدود الأندلس من الشمال.

نزل عبد الرحمن الفهري في تدمير[1] (مرسيه) على شاطئ الأندلس الجنوبية، ولكن كان وصوله قبل دخول شارلمان، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وتمكّن من قتله.

ووصل شارلمان إلى سرقسطة غير أن السكان رفضوا تسليم بلدهم لرجل نصراني، وقاموا بثورةٍ قادها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الأنصاري، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه شارلمان وحليفه ابن الأعرابي، وذلك عام ١٦١ فاضطر شارلمان إلى العودة من حيث أتى وأخذ معه سليمان بن يقظان بن الأعرابي كأسير حرب إذ عدّه قد خدعه، وكان من أسباب عودة شارلمان أيضاً أن القبائل الجرمانية ـ السكسونية قد تركت النصرانية وعادت شارلمان.

وبينما كان شارلمان يجتاز الحدود من جبال البرانس إذ هاجمت قبائل

(١) تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جَيّاني، وهي شرقي قرطبة بينهما سبعة أيام.

البشكنس مؤخرة جيشه ومعها أبناء سليمان الذين أعادوا أبيهم، وكان عبد الرحمن الداخل قد شجع هذا الهجوم... ثم قتل سليمان هذا، وحكم الحسين بن يحيى الأنصاري سرقسطة، واستقر وضع الداخل في الأندلس، خاصةً أنه سار عام ١٦٤ إلى سرقسطة ودخلها، وحسّن علاقاته مع شارلمان.

* * *

- ٤ -

الهادي

موسى بن محمد

١٦٩ - ١٧٠هـ

ولد موسى الهادي بالسيروان من الري عام ١٤٤ أيام خلافة جده المنصور، وأمه أم ولد بربرية هي الخيزران. ونشأ في بيت الخلافة. كان طويلاً جسيماً جميلاً، أبيض مشرباً بالحمرة، في شفته العليا تقلّص. ومع ذلك كان فصيحاً، أديباً، قادراً على الكلام. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً. من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما له من المهابة والرياسة. وكان يقول: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك. وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤونة الاعتذار. وعزّى رجلاً في ولده فقال له: سرّك وهو عدو وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

بدأ في عصره صخب الجند، وكثر السلاح. ومشت الرجال بين يديه بالسيوف، والقِسِي، وقلّده عماله في ذلك.

بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وكان بجرجان يحارب أهل طبرستان، وتوفي أبوه في ماسبذان في شهر محرم، وهو قادم إليه، ومعه ابنه الرشيد، وحاجبه الربيع بن يونس مولى أبي جعفر المنصور، ويحيى بن خالد البرمكي. فوارى الرشيد أباه في التراب، وعاد إلى بغداد، ورجع موسى الهادي إلى مقر ملكه فوصل إليه في شهر صفر أي بعد وفاة المهدي بشهر تقريباً فأخذ البيعة، وجلس للأمر.

تتبع الزنادقة وأعمل فيهم السيف مثل والده وحسب وصيته إذ قال له: وقد أمر بضرب عنق زنديق: يا بني، إن صار لك هذا الأمر فتجرّد

لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحوُّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور؛ فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين[1].

واستعمل على الحجابة بعد الربيع بن يونس ابنه الفضل واستوزره.

وعمل على خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه جعفر، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، ووافقه عدد من الأمراء والقادة على ذلك، وخالفته أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها الرشيد أكثر من موسى، وألحّ على أخيه في ذلك، وبعث إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد، فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يحيى: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فأطرق ملياً ـ وكان ذلك ليلاً ـ فأمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء إليه يوماً أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً، ثم قال: يا هارون! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: أي والله، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال: ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده، فحلف الهادي ليجلس معه على السرير، فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد،

---

(١) تاريخ الطبري.

وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد[1].

استحوذت الخيزران على ابنها موسى في أول عهده، كما استحوذت على أبيه من قبل، وبدأت الأمراء تقف على بابها، لكن الهادي لم يلبث أن منعها من التصرف في شيء من المملكة، وحلف لئن وصل أمير إلى بابها ليقطع عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام في الشؤون، وحلفت ألا تكلّم ابنها أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

ومات الهادي في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠، واختلف في موته، أكان سُمّاً، أم بسبب قرحةٍ أصابته في جوفه. وقد حكم مدة سنة واحدة وثلاثة أشهر. وخلّف سبعة أولاد من الذكور، أكبرهم جعفر الذي كان يرشحه للخلافة، وابنتين اثنتين إحداهما أم عيسى التي تزوجها المأمون ابن أخيه الرشيد. وكان يكنّى بأبي محمد.

* * *

(١) البداية والنهاية.

الحركات

لم تطل أيام الهادي، ولم تحدث في هذه المدة القصيرة أحداث واسعة سوى خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان سبب خروجه أن الهادي عندما عزل عن المدينة إسحاق بن عيسى ولى عليها عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فطلب الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بتهمةٍ فاختفى، وكان قد كفله الحسين بن علي بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن فدعاهما الوالي وأغلظ إليهما، ثم أعادها ثانيةً فألجأت الحسين إلى الخروج لما نيل منه، وكان أن خرج الوالي إلى بغداد، فلبس الحسين البياض وجلس في المسجد النبوي والتف حوله جماعة فبايعوه للرضا من أهل البيت، واقتتلوا مع أنصار العباسيين عدة مرات، ثم خرج مع جماعته إلى مكة المكرمة فأقاموا بها إلى موسم الحج، فبعث إليهم الهادي جيشاً فاقتتلوا بعد فراغ الناس من الموسم في وادي فخ فقتل الحسين بن علي وجماعة من أنصاره... وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واتجه إلى مصر، ومنها انطلق إلى المغرب. وكانت مدة خروج الحسين بن علي تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقضى على ثورة دحية المرواني في صعيد مصر والتي قامت منذ أيام والده إذ أرسل والياً إلى مصر الفضل بن صالح بن علي فهزم دحية، وتمكّن منه، وقتله، والفضل هذا هو الذي بنى مدينة العسكر قرب الفسطاط، وقد اتسعت واتصلت بالفسطاط.

- ٥ -

الرشيد
هارون بن محمّد
١٧٠ - ١٩٣هـ

بلغت الدولة العباسية أوجها أيام الرشيد، فآباؤه قد وطدوا له الأمر فعمّ الاستقرار، ووصلت الدولة إلى غاية قوتها فساد الأمن، ولم يحدث الصراع على الحكم إذ كانت الدولة في مرحلة الشباب حيث لا يزال الشعور بالمعاناة قائماً للوصول إلى السلطة وانتزاعها من أيدي الأمويين.

وكان الرشيد شجاعاً قوياً فقد قاد الحملات والصوائف في عهد أبيه ولم يتجاوز العشرين من العمر، وسار على رأس الجيوش إلى بلاد الروم، وهو أمير المؤمنين، فطأطأ الروم رؤوسهم وأحنوا هاماتهم له، ورهبوه، وأخافوا رعاياهم به.

وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً، ويكثر من الحج، فقد ولي أمر المسلمين ثلاثاً وعشرين سنةً حجّ في خلالها تسع مرات وهي مواسم: ١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨١ ـ ١٨٦ ـ ١٨٨، حتى شاع بين الناس أنه يغزو عاماً، ويحجّ عاماً. ويتصدّق من صلب ماله، وقد تتبع الزنادقة وقتل منهم أعداداً.

وكان يستمع إلى الوعّاظ والناصحين، ويبكي من خشية الله. فقد مرّ وهو في طريقه إلى الحج بأحد البهاليل فقال له: قل يا بهلول، فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طرّاً ... ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ... ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله، وواسى في ماله، كتب في

ديوان الله من الأبرار. فظنّ أنّه يريد شيئاً، فقال: إنّا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يُقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنّا أمرنا أن يُجرى عليك رزق تقتات به. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر عليّ رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خُذها. فقال: اردها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال[1]: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[2].

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف بين الجنة والنار، حين يُؤخذ بالكظم، وتزلّ القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُقبل، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة -: يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلّهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق. وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظلّ شاهقة القصور

تسعى إليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرّواح إلى البكور

فإذا النفوس تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصّدور

---

(١) الراوي: وهو الفضل بن الربيع.

(٢) البداية والنهاية الجزء العاشر.

فـهـنـاك تـعـلـم مـوقـنـاً ... مـا كـنـت إلاّ فـي غـرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى. ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس ... ولو تمتّعت بالحجّاب والحرس

واعلم بأنّ سهام الموت صائبة ... لكلِ مُدّرع منها ومُتّرس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

فخرّ الرشيد مغشياً عليه[1].

ولد الرشيد بالري أيام خلافة جده أبي جعفر المنصور عام ١٤٦، وبويع بالخلافة عام ١٧٠، ولم يكن عمره ليزد يوم بويع على أربع وعشرين سنة، وكان أبيض طويلاً، سميناً جميلاً، وتوفي بـ (طوس) في ٣ جمادى الآخرة من عام ١٩٣ فتكون ولايته ثلاثاً وعشرين سنة.

وتزوج بنت عمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأنجبت له ولده الأمين في ١٦ شوال من عام ١٧٠، وكان زواجه من زبيدة عام ١٦٥. كما تزوج عام ١٨٧ العباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور، كما تزوج عدة نساءٍ أُخريات، وتوفي عن أربعٍ منهن. وكانت له عدة جوارٍ أنجبن عدة أولادٍ منهم: المأمون، وهو أكبر أولاده، إذ ولد يوم بويع الرشيد بالخلافة أي ١٥ ربيع الأول، وبذا يكون أكبر من الأمين بسبعة أشهر، وتسمى أم المأمون مراجل، والمعتصم، وتدعى أمه ماردة، والقاسم المؤتمن وتسمى أمه قصف.

---

(١) المصدر السابق.

وكان الرشيد يكنى أبا موسى، ثم عرف باسم أبي جعفر.

ولما بويع بالخلافة في ١٥ ربيع الأول أخرج يحيى بن خالد البرمكي من السجن وولاّه الوزارة، إذ كان الهادي قد سجنه لميله للرشيد، وأكمل الخليفة الجديد بناء مدينة طرسوس، وهي الثغر على ساحل البحر المتوسط، وانتهى العمل فيها في العام الأول من خلافة الرشيد.

وتوفيت الخيزران والدة الرشيد عام ١٧٢. وبايع لابنه محمد الأمين ولياً للعهد عام ١٧٥، ولم يتجاوز الأمين الخامس من عمره، وهذا ما ولّد نقداً للرشيد من أهل العلم والعامة على حدٍ سواء، ومع أنّ ابنه عبد الله المأمون أكبر من الأمين بسبعة أشهر إلا أنّ البيعة كانت للأمين إذ أن أمّه زبيدة بنت جعفر ابنة عمّ الرشيد، وذات الحظوة الكبيرة عنده، على حين كانت أم المأمون أم ولد، هي مراجل، لكنه لم يلبث أن بايع بعد سبع سنوات للمأمون بعد أخيه الأمين.

وكان لآل برمك نفوذ كبير في الدولة أيام الرشيد، إذ كان يحيى بن خالد مربياً للرشيد، حتى كان يناديه أبي، وكان أولاد يحيى وهم: الفضل، وجعفر، وموسى، ومحمد أترابه وأقرانه، وكان الهادي يحقد عليهم، وقد سجن والدهم، فلما بويع الرشيد أخرجه من السجن، وقرّبه، وأعطاه الوزارة، وزاد نفوذ هذه الأسرة كثيراً، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه فقد قادوا الجيوش، وأخضعوا الثورات، وأخمدوا الفتن، فقد نُدب الفضل بن يحيى لقتال يحيى بن عبد الله بن الحسن عندما ثار في بلاد الديلم عام ١٧٦، كما سار الفضل نفسه على رأس قوة إلى بلاد الترك فدخل كابُل، وغزا بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي خدم فيه البرامكة الدولة كانوا يخدمون أنفسهم، إذ كانوا أصحاب النَفوذ والسلطان، وأهل المشورة والرأي، والمقدّمين في كل أمر، وجلساء الخليفة وندماءه، يدخلون عليه

في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدله بآخر غير أن مركزهم لم يكن ليتغيّر، فقد عزل جعفراً عن مصر عام ١٧٦، وعزل محمد بن خالد عن الحجابة وأعطاها للفضل بن الربيع عام ١٧٩.

تغيّرت أحوال البرامكة إذ تبدّل لهم الرشيد فجأةً فقتل جعفر بن يحيى، وسجن يحيى وابنه الفضل، وصادر أملاكهم وأموالهم. ولربما كان لما حلّ بالبرامكة أسباب عامة نتيجة زيادة نفوذهم حتى خافهم الرشيد، ومغالاتهم بالتبذير والمصروفات حتى فاقوا الخليفة نفسه وسبقوه، وعدم اهتمامهم بالخليفة حيث أصبحوا يدخلون عليه من غير إذن، وهذا ما جعل العامة والخاصة تحقد عليهم، وتتناولهم بالنقد بل وتتناول الرشيد نفسه الذي فسح لهم المجال، فخاف الرشيد على ملكه من نفوذهم، ومن نقمة العامة عليه، وجاء موضوع جعفر الخاص فاتخذه السبب في قتله وإنزال النكبة بأهله. فقد ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلّم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً: فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالنا يُدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك؛ والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء قد خصّني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري، حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره؛ وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا ـ قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ـ وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره؛ ولكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذكر عن أحمد بن يوسف أن ثمامة بن أشرس قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالةً إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى بن خالد أمور عبادك! أتراك تحتج بحجةٍ يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع[1].

قال: وحدثني محمد بن الفضل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[2].

وأما السبب الذي اتخذه الرشيد ذريعةً للبطش بالبرامكة فهو فيما يتعلق بجعفر بن يحيى الذي قرّبه الرشيد إليه كثيراً حتى أصبح سميره الذي لا يكاد يفارقه بل لا يكاد يستطيع مفارقته وأمين سرّه الذي لا يستطيع أن يكتم عنه سرّاً. فعندما ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن عام ١٧٦ في بلاد الديلم، ووجّه إليه الرشيد الفضل بن يحيى فأمنه، وجاء يحيى إلى بغداد فدفعه الرشيد إلى جعفر بن يحيى البرمكي فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي فسأله عن شيءٍ من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فوجّه

---

(١) تاريخ الطبري.
(٢) المصدر نفسه.

معه من أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقاً، وانكشف عنده؛ فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل؛ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر - وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيءٍ من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان بنفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان[1]. ويبدو أن هذا كان سبباً رئيسياً لقتله والنكبة بالبرامكة، لكن هناك أمر آخر يبدو أنه أكثر أهميةً، وهو أن الرشيد لم يكن يصبر على بعد جعفر بن يحيى إذ كان يحبه جداً، ويحب أن يكون دائماً بجانبه، وفي الوقت نفسه كان يحب أُخته العباسة بنت المهدي حيث كانت على شيء من الأدب والرأي والحكمة فكان لذلك يحب أن يحضرا مجلسه، ولما كان جعفر لا يحق له أن يرى العباسة أخت الرشيد إذ أنه أجنبي عليها لذا قال له الرشيد: أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا حضرت مجلسي على ألا تمسّها، ولا يكون منك شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوّجها منه على ذلك. فكانا يحضران مجلس الرشيد، غير أن هذا الشرط لا يكون، وما كان، فهما شابان وجرت خلوات بينهما، وأيّ منهما قد مكر بالآخر لا ندري، فالأمر واحد، وحملت العباسة من جعفر، وولدت غلاماً فخافت على نفسها من أخيها كما خاف جعفر إن علم الرشيد بذلك لذا فقد وجهت المولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، وبقي الأمر مستوراً عن الرشيد حيناً من الزمن، حتى وقع خلاف بين

---

(١) تاريخ الطبري.

العباسة وبين بعض جواريها، فأعلمت الجارية الرشيد بخبر العباسة ووليدها، فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ تتبع أمر الوليد في مكة فاستيقن الخبر فأخذته النخوة في رأسه مأخذها، وعدّ أن جعفراً قد خانه، وقرّر قتله والانتقام منه ومن أهله، وإن كان هو نفسه السبب في ذلك لما فرّط في أهله. فلما رجع الرشيد من الحج أرسل مسروراً الخادم مع جماعة إلى جعفر فأخرجوه من منزله كرهاً وقيّدوه، وأتوا به إلى منزل الرشيد فأمر بضرب عنقه، وكان ذلك في أواخر أيام شهر محرم من عام ١٨٧. كما أمر الرشيد بسجن يحيى بن خالد، وأولاده الفضل، ومحمد، وموسى وأولادهم، وأعلن أن لا أمان للبرامكة باستثناء محمد بن خالد إذ كان للخليفة ناصحاً، وصادر أموالهم وأملاكهم، ثم أخرج يحيى من السجن لكبر سنه، كما أخرج أبناء أولاده لصغرهم. ومات الفضل بن يحيى في السجن ١٩٢، كما مات أبوه يحيى من قبل عام ١٩٠.

وبايع لابنه القاسم ولياً للعهد بعد الأمين والمأمون، وسمّاه المؤتمن، وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم، أما الأمين فقد كان والي الشام والعراق، وأما المأمون فوليّ أمر المشرق من همدان إلى آخر المشرق.

وقد أشيعت الشائعات حول الرشيد، ورُوّجت التهم بصفته كان أعظم خلفاء بني العباس، وإنما توجّه التهم إلى العظماء فإذا ضعُفوا كان الصغار أقزاماً، فأشاعوا الكثير عن لهوه، وندمائه وكأسه، ووصلوا إلى زوجه زبيدة، وعرضه، وإتلافه في ماله، وإعراضه عن ملكه.

* * *

الحركات

لم تقم حركات واسعة أيام الرشيد، وإنما كانت حركات محلية يقوم بها والٍ أغراه سلطانه، وأطمعه نفوذه فيخرج على الخليفة ثم لم يلبث أن يهزم فيُقتل أو يُعفى عنه.

ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم عام ١٧٦، وكان يحيى نجا من معركة (فخّ) عام ١٦٩، فدعا لنفسه فبايعه أُناس من أهل الحرمين، واليمن، ومصر، وذهب إلى اليمن فأقام مدةً فيها، ودخل مصر، والمغرب وعاد إلى المشرق فدخل العراق مُتنكراً، وقصد الري وخراسان، ووصل إلى بلاد ما وراء النهر، واشتد الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك، ومعه من شيعته وأنصاره نحو مائة وسبعون رجلًا، فأقام سنتين وستة أشهر. وخرج إلى طبرستان فبلاد الديلم، وأعلن هناك نفسه، وكُثر أتباعه، فندب الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألفاً، ومعه كبار القادة. وضعف أمر يحيى إذ خاف أن يغدر به ملك الديلم. لأن الفضل البرمكي قد كاتب يحيى ورفق به واستماله، وناشده، وحذّره، وأشار عليه، وبسط أمله. كما كاتب صاحب الديلم وجعل له مليون درهم إن حمل يحيى على الصلح وطلب الأمان. وفعلاً أجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده يبعث به إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرّه ذلك، وكتب أماناً إلى يحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن علي، والعباس بن محمد، ومحمد بن إبراهيم، وموسى بن عيسى و.... كما وجه مع كتاب الأمان هدايا، فلما وصل هذا إلى الفضل البرمكي أرسلها إلى يحيى بن عبد الله. قبل يحيى بن

عبد الله هذا فأقبل إلى الفضل فسار به إلى بغداد، فلقيه الرشيد، ورحّب به، ومنحه مالاً كثيراً، وأجرى عليه أرزاقاً، وأنزله منزلاً طيباً بعد أن أقام عدة أيام في بيت يحيى بن خالد البرمكي، وكان يتولى أمره بنفسه، وأمر الناس أن يسلّموا عليه. لم يلبث الرشيد أن تنكّر ليحيى فسجنه عند جعفر بن يحيى البرمكي، فرقّ عليه جعفر وأطلقه، وأرسل الرشيد من أعاده إلى السجن في سرداب وكبّله، ووكّل به مسروراً الخادم، ولم يزل في سجنه حتى مات عام ١٨٠، وكثرت الروايات عن أسباب موته فمنهم من قال: جوعاً وعطشاً، ومنهم من قال: عذاباً، ومنهم من قال: انتهى أجله.

وثارت فرقة من قيس وقضاعة في مصر، فقاتلها عامل مصر يومذاك وهو إسحاق بن سليمان، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين عامل فلسطين فخمدت الفتنة وذلك عام ١٧٧هـ.

وثار أهل إفريقية عام ١٧٨ بإمرة عبدويه الأنباري، فقتل الفضل بن روح بن حاتم، وأخرج من كان بها من آل المهلب، فوجه إليهم الرشيد هرثمة بن أعين فخمدت الفتنة، بعد أن كاتب يحيى بن خالد البرمكي عبدويه رأس الحركة ودعاه إلى الطاعة وأمّنه وأمّله حتى وافق وطلب الأمان، وعاد إلى الطاعة، وقدم إلى بغداد، فوفّى له يحيى، وأحسن إليه، ووصله، وولاّه.

وثار ببلدة (نسا) من خراسان عام ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، وكثر أتباعه، ولكنه غلب فطلب الأمان من والي خراسان علي بن عيسى فأعطاه إياه عام ١٨٤، ثم عاد فخرج ثانيةً، وغلب على (نسا) و (أبيورد) و (طوس) و (نيسابور)، وزحف إلى (مرو) فهزم هناك، فمضى نحو (سرخس)، وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان فانتصر عليه عام ١٨٦ وانتهى أمره.

وثارت العصبية في الشام فكانت فتنة عمياء بين المضرية والنزارية فأرسل لهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيّار بسمرقند من بلاد ما وراء النهر لسببٍ تافهٍ، وهو الزواج من امرأةٍ بحيلةٍ فلما رفع الأمر إلى الرشيد، أمر واليه علي بن عيسى على خراسان أن يفرّق بينهما، وأن يجلد رافعاً، ويعزّره بالطواف به في أسواق سمرقند ليكون عبرةً لغيره، وسُجن رافع، فهرب من السجن، ولحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه علي إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠، وعظم أمر رافع عام ١٩١، وأطاعه أهل (نسف)، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن علي. وولّى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل علي بن عيسى عنها. وقاتل هرثمة رافعاً، وتمكّن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع وأرسله إلى الرشيد وهو في (طوس) متوجه لقتال رافع فضرب عنق بشير. واستمر أمر رافع إلى ما بعد أيام الرشيد. أما الرشيد فقد توفي وهو في طوس عام ١٩٣.

وفي عام ١٨١ تغلب الزنادقة على جرجان وعاثوا فيها الفساد.

وخرجت الخرّمية في أذربيجان عام ١٩٢ فأرسل إليهم الرشيد عبد الله بن مالك بن هيثم الخزاعي فقتل منهم كثيراً، وأسر، وسبى، فأمره الرشيد بقتل الأسارى، وبيع السبي، ففعل.

وثار رجل من بني عبد القيس فأرسل له الرشيد من قتله وذلك عام ١٩٠.

* * *

الخوارج

نشط الخوارج أيام الرشيد إلا أن حركاتهم كانت موضعيةً وذات أثر ضئيل محدود، مع العلم أن إفريقية كان فيها إمارتان للخوارج إحداهما للصفرية، والأخرى للأباضية.

خرج الفضل بن سعيد الحروري عام ١٧٠ ولكنه لم يلبث أن قُتل.

خرج عام ١٧٨ بالجزيرة الوليد بن طريف الشاري، وقتل كثيراً من أهلها، ومنهم إبراهيم بن خازم بن خزيمة الذي قُتل بناحية نصيبين، ثم توجّه الوليد إلى أرمينيا. ورجع إلى الجزيرة في العام التالي وقويت شوكته، وكثُر أتباعه، فبعث له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فالتقى به بالقرب من هيت فقتله، وقد رثته أخته الفارعة بالقصيدة المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مُورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلاّ من التقى ولا المال إلا من قناً وسيوف

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان شكراً لله على نصره على الوليد بن طريف، وانصرف بعد أداء العمرة إلى المدينة حيث بقي فيها إلى موسم الحج، فسار إلى مكة، وحجّ بالناس، وأدّى المناسك كلها ماشياً.

كما خرج في العام نفسه (١٧٩) في خراسان حمزة بن أترك السجستاني، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر حتى قوي أمره عام ١٨٥ فعاث فساداً في (باذغيس) من أرض خراسان، ثم غُلب، وفرّ باتجاه كابُل.

وخرج في الجزيرة أيضاً عام ١٨٠ خراشة الشيباني، فسار إليه مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي فقتله، وتتبع أعوانه من الخوارج.

وفي عام ١٨٤ خرج بالجزيرة أيضاً أبو عمرو الشاري، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى قتل.

وفي عام ١٩١ خرج رجل بسواد العراق يقال ثروان بن سيف، فوجّه إليه الرشيد طوق بن مالك، فتمكّن طوق من الانتصار عليه وقتل عامة أصحابه، وجرح ثروان، فظنه أنه قُتل، وفرّ ثروان جريحاً.

* * *

حروب الرّوم

كان الغزو في بلاد الروم لا ينقطع، وتكاد تكون أيام الصيف كلها حروباً، أما أيام الشتاء فقلما تحدث فيها الحروب لأن البرد شديد في بلاد الروم وخاصةً أن الثغور يقع معظمها في أعالي جبال طوروس حيث تتغطّى بالثلج أغلب فصل الشتاء والربيع.

سار على رأس الصائفة عام ١٧١ سليمان بن عبد الله البكاء. وقادها عام ١٧٢ إسحاق بن سليمان بن علي. واتجه الرشيد بنفسه إلى بلاد الروم عام ١٨١ وافتتح حصناً يقال له: الصفصاف. كما غزا في العام نفسه بلاد الروم عبد الملك بن صالح ووصل إلى أنقرة. وفي العام التالي ١٨٢ سار على رأس الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فوصل إلى بلدة أصحاب الكهف. وفي هذا العام سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وخلعوه، وأقرّوا أمه (ريني) على الحكم، وتلقب (أُغسطه).

وفي عام ١٨٣ خرجت الخزر من ثلمة أرمينيا على الناس فسبوا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وقيل: إن عدد السبي قد زاد على مائة ألف، فأرسل الرشيد إلى تلك الجهات خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد فأصلحوا ما أفسدت الخزر، وطردوهم من تلك الديار.

وفي عام ١٨٧ نقضت الروم العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، والذي عقده الرشيد مع الملكة (ريني)، إذ أن الروم قد خلعوها، وسملوا عينيها، وولوا عليهم (نقفور). ويقال: إنه من سلالة آل جفنة إذ من المعلوم أن جبلة بن الأيهم الغسّاني قد فرّ إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام وبقيت أسرته هناك على النصرانية. وسار القاسم بن الرشيد على

رأس الصائفة فحاصر الجيش الرومي حتى افتدوا أنفسهم بعددٍ كبيرٍ من أسرى المسلمين الذين كانوا بيد الروم يطلقونهم على أن يرجع عنهم. وبعد مدة كتب (نقفور) إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد إليّ ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه، ثم استدعى بدواةٍ وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام. ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور من الموادعة على خراجٍ يؤديه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصارَ بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء.

وفي العام التالي (١٨٨) خرج على رأس الصائفة إبراهيم بن إسرائيل فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج نقفور للقائه، فانهزم نقفور، وجرح ثلاث جراح، وقُتل من جيشه أربعون ألفاً.

وفي عام ١٨٩ رابط القاسم بن الرشيد في مرج دابق. وفادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى لم يبق أسير واحد.

وفي عام ١٩٠ خرج الرشيد لغزو الروم، فخرج إليه نقفور بالطاعة، ودفع الجزية حتى عن نفسه، وعن ابنه، وكان مقدار الجزية خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وطلب نقفور من الرشيد جاريةً أسرها المسلمون، هي

ابنة ملك هرقلة، فاشترط الرشيد عليه ألا يُعمّر هرقلة، وأن يدفع ثلاثمائة ألف دينار سنوياً. ورجع الرشيد، واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى من أهلها كثيراً، وقتل كثيراً.

وفي عام ١٩١ غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه، على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولّى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً. وخرج الرشيد إلى ثغر (الحدث) ليكون قريباً من الغزو. وأمر الرشيد بهدم الكنائس والأديرة، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلدان. ثم سار الرشيد في بلاد الروم فدخل مدينة هرقلة في شوال فخرّبها، وسبى أهلها، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة، والكنيسة السوداء.

وولّى الرشيد على سواحل بلاد الشام ومصر حميد بن معيوف فدخل قبرص، فسبى أهلها، وباعهم.

وفي عام ١٩٢ ولّى الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك فدخل بلاد الروم، وفتح بلدة مطمورة، ثم جرى صلح بين المسلمين والروم.

* * *

الإمارات

بدأت الإمارات المستقلة عن جسم الدولة الإسلامية تظهر، وإن كانت تعود في نشأتها إلى وقتٍ مبكر. أكثر من هذا إذ ظهرت منذ قيام الدولة العباسية وبالتحديد عام ١٤٠ بالنسبة إلى دول الخوارج، وقبل ذلك بالنسبة إلى الأندلس غير أن العباسيين كانوا يحاولون القضاء على هذه الإمارات أو الدول، لذلك كانت تُعدّ حركاتٍ قائمةً في هذه المناطق، ولكن بعد ذاك تركتها الدولة العباسية وشأنها، وأصبحت إماراتٍ منفصلةً بل أعلنت الأندلس الخلافة فيما بعد، وغدت خلافتان في أرض الإسلام، وفي هذا مخالفة شرعية إذ لا يصحّ وجود سوى خليفةٍ واحدٍ. قال عرفجة بن شريح: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ واحدٍ يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه»[١].

١ ـ الدولة الرستمية في تاهرت:

وتوفي مؤسسها عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١ أي في أوائل عهد هارون الرشيد. وخلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن، واستمر حكمه إلى ما بعد أيام الرشيد، وقد هادن والي إفريقية من قبل الرشيد، وهو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة والذي جاء إلى إفريقية بعد وفاة أخيه يزيد في نهاية عام ١٧٠ وتولى أمرها بعد ابن أخيه داود بن يزيد، ولكن روح قد مات عام ١٧٤، ثم جاء ابنه الفضل بن حاتم غير أن ثورة قامت في إفريقية وقضت على الفضل فتولّى أمر القيروان بعد ذلك

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٥٢ باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع.

هرثمة بن أعين، وقد أخرجت الثورة في إفريقية آل المهلب من المنطقة، وهادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ولاة القيروان العباسيين سواء هؤلاء أم الذين جاءوا من بعد وهم الأغالبة الذين تولوا أمر القيروان منذ عام ١٨٤.

ولقي عبد الوهاب بن عبد الرحمن حركات ضده بسبب مخالفته المذهب الأباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد. أما عبد الوهاب فقد تسلّم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علماً لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنُكّار أي الذين ينكرون تصرّف ولي الأمر بالحكم. وجرى قتال بين الطرفين كان في صالح ابن فندين فدعا عبد الوهاب إلى الهدنة لأخذ رأي أهل العلم الذين منهم من أفتى لصالح هذا، ومنهم من أفتى لصالح ذلك، وتجدّد القتال، وانتصر عبد الوهاب وقُتل ابن فندين، ولاذ جماعته بالفرار، منهم من خرج بعيداً عن المنطقة، ومنهم من اعتصم في محلتهم التي عرفت باسم «كدية النُكّار»، واستمر الخلاف طيلة أيام عهد الرشيد، وإن كان من غير المستبعد أن يكون أمراء القيروان يشجعون الحركات ضد الرستميين.

٢ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة:

وتوفي أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة عام ١٦٨، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم «أبو الوزير»، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨، وقد عرف باسم «أبو المنصور»، وقد ثارت الأباضية في أيامه في وادي (درعه) ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الأباضيون ولاة العباسيين في القيروان، وكذلك هادنهم الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجاراً بين الشمال والجنوب عبر الصحراء. وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثياً كالأباضيين.

٣ ـ الأمويون في الأندلس:

حكم عبد الرحمن الداخل الأندلس ١٣٨ ـ ١٧٢ أي أنه عاصر الرشيد

مدة عامين، وعندما توفي تولّى بعده ابنه هشام الرضا، وقد حكم الأندلس مدة ثمانية أعوام ١٧٢ ـ ١٨٠، ووقع خلاف بينه وبين أخيه سليمان الذي هو أكبر منه، وقد أخذ سليمان البيعة لنفسه في طليطلة، ولكنه هزم أمام هشام عام ١٧٤، ونفي إلى المغرب. وبعد أن وطّد هشام حكمه اتجه إلى قتال النصارى في الشمال فأرسل إليهم حملات، كما أرسل جيوشاً إلى سبتمانيا في جنوبي فرنسا.

وخلفه ابنه الحكم الربضي، واستمر حكمه حتى عام ٢٠٦، ونازعه على الحكم عمّاه سليمان وعبد الله، أما سليمان فقد كان في طنجة وعبر إلى الأندلس بقوةٍ من المرتزقة ولكنه هزم وقتل عام ١٨٤، وأما عمه الآخر عبد الله فقد كان عند الخوارج الأباضيين في تاهرت بالمغرب الأوسط فانتقل إلى الأندلس غير أنه هزم، وعفا عنه ابن أخيه الحكم، وأجبره على الإقامة في بلنسية، ويدفع له مرتباً سنوياً ضخماً، كما قامت ضده عدة حركاتٍ أولاهما في طليطلة قضى عليها بالحيلة إذ ولّى عليها عمروس بن يوسف الذي تظاهر بكره الأمير (الحكم) ودعا كبار أهل البلدة إلى وليمة بالقلعة وتخلص منهم عام ١٨١. وكانت الحركة الثانية بالعاصمة قرطبة إذ حاصر قصر الحكم أهل حي الربض لخلافٍ بسيطٍ مع جندي فأرسل سراً من أشعل النار بحي الربض، فاضطر المحاصرون أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق. وعندما انتهت الحركة أمر الأمير (الحكم) أن يهدم حي الربض، وأن يُحرث، ويُزرع مكانه، واضطر عدد من أهله إلى مغادرة الأندلس، فاتجه بعضهم إلى المغرب واستقروا عند الأدارسة هناك، وبين البربر. ووصل بعضهم الآخر عن طريق البحر إلى الإسكندرية ونزلوا فيها.

٤ ـ الأدارسة في المغرب:

فرّ إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز وقد نجا من معركة فخّ عام ١٦٩، واتجه نحو مصر، ومنها إلى المغرب حيث استطاع أن يؤسس بمساعدة السكان دولة الأدارسة عام ١٧٢،

وهي منفصلة عن المشرق، وبنى في المكان المعروف باسم (جراوة) مدينة فاس، واتخذها عاصمةً له، واستمر في حكمه حتى توفي عام ١٧٧ حيث مات مسموماً فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان جنيناً في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشؤون البربر مولى أبيه، وهو راشد، فلما قتل راشد، كفل إدريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨ وبنى مدينة العالية في المكان المعروف بدار القيطون، وهي مقابل مدينة فاس، يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو رافد من روافد نهر (سبو). وقد سكن في هاتين المدينتين الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة الربض عام ١٨١هـ، واستمر في الحكم حتى عام ٢١٣ حيث توفي بفاس.

٥ ـ الأغالبة:

أرسل أبو جعفر المنصور عام ١٤٨ إلى إفريقية الأغلب بن سالم التميمي[١] وعهد إليه بولايتها، فوصل إلى القيروان ودخلها، وتمكّن من دحر الحسن بن حرب الكندي والاستيلاء على القيروان وتخليصها منه، إلا أن الحسن بن حرب قد عاد إلى تونس وجهز حملةً ثانية استطاعت أن تقتل الأغلب. وكان للأغلب ولد عمره عشر سنوات حين قتل هو وهو إبراهيم بن الأغلب الذي سيلعب دوراً كبيراً في إفريقية، والذي يعد المؤسس لدولة الأغالبة.

رحل إبراهيم بعد مقتل أبيه إلى مصر، ودرس الفقه فيها، ثم رحل إلى المغرب، وأقام في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط.

جاء والياً على إفريقية عمرو بن حفص المهلبي عام ١٥١ فاشتدت عليه الثورات حتى قتل، واستطاع خلفه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن

---

(١) كان الأغلب بن سالم من دعاة العباسيين مع أبي مسلم، وشارك أبي جعفر المنصور في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط أثناء الاحتدام بين العباسيين والأمويين، كما شارك أبا مسلم الخراساني في القضاء على حركة عبد الله بن علي عمّ المنصور. ثم أرسله المنصور مع قائده محمد بن الأشعث إلى إفريقية، وقد أصبح والياً عليها بعدها.

المهلب بن أبي صفرة أن يقمع حركات الخوارج حتى عام ١٧٠ حيث توفي، وجاء بعده ابنه داود بن يزيد، ثم أخوه روح بن حاتم، فالفضل بن روح، وفي ١٧٨ ثار عبدويه الأنباري وقتل الفضل بن روح بن حاتم المهلبي، وأخرج آل المهلب من إفريقية.

استطاع العلاء بن سعيد والي الزاب أن يسير إلى القيروان، وأن يستردها، وأن يسلّمها إلى هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد والياً على إفريقية عام ١٧٩، وكان إبراهيم بن الأغلب مع العلاء، وتقرّب إبراهيم بن الأغلب إلى هرثمة فولاه الزاب.

أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة وهو محمد بن مقاتل العكي والياً على إفريقية فثار الشعب والجند ضده، كما ثار عليه واليه على تونس تمام بن تميم التميمي عام ١٨٣، وقد ساعد إبراهيم بن الأغلب العكي في مقاتلة تمام بن تميم، ومكّن له. فعزل الرشيد أخاه محمد بن مقاتل العكي وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب على إفريقية عام ١٨٤، وبدأ إبراهيم منذ توليه الإمارة يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين وخاصةً أن الرشيد كان مشغولاً بحروب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج، وأدارسة، وأمويين. ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب ورأى في ذلك خيراً وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائياً كباقي الإمارات.

ثار على إبراهيم بن الأغلب في المغرب الأدنى حمديس الكندي ولكنه هزم أمام ابن الأغلب. وثار أهل طرابلس عام ١٨٩ على سفيان بن المهاجر عامل إبراهيم على مدينتهم، ولكن ابن الأغلب تمكّن من إخضاعهم، وهكذا قامت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى.

ـ ٦ ـ

الأمين

محمّد بن هارون

١٩٣-١٩٨ هـ

ولد الأمين بالرصافة في شهر شوال من عام ١٧٠ فهو أصغر من أخيه المأمون بحوالي سبعة أشهر، وبويع له بولاية العهد وهو ابن خمس سنين، وقد لقي الرشيد نقداً من هذه البيعة لفتى صغير، ولكن يبدو أن ضغطاً خضع له من زوجه زبيدة صاحبة الحظوة عنده، فهي ابنة عمه، وصاحبة دين وعقل، ومن العباسيين الذين يرون في هذا الغلام صلة لهم فهو عباسي من ناحية الأب والأم. وكانت السرعة في هذه البيعة خوفاً من نزول حادث مفاجئ بالرشيد، ومن منازعة أخيه الأكبر، فإن البيعة وهما صغيران تحلّ المشكلة. غير أن الرشيد لم يلبث عام ١٨٢ من أخذ البيعة لابنه المأمون ولياً لعهد أخيه الأمين، ثم أتبعها ببيعةٍ ثالثةٍ لابنه الآخر القاسم، وقد أطلق عليه لقب المؤتمن. وقد ولّى كلّ واحدٍ من أبنائه الثلاثة جهةً إذ ولّى المأمون المشرق، وأعطى الأمين المغرب الشامي والمصري، وولّى المؤتمن الجزيرة والثغور.

وعندما شبّ الأولاد يبدو أن الرشيد كان أميل لبيعة المأمون منه لبيعة الأمين وذلك لما رأى من جدية المأمون، وحزمه، وعزمه، وحكمته، على حين كان الأمين أميل للهو، وعدم المبالاة، والدعة. غير أن الرشيد يخضع لمؤثراتٍ أخرى سواء في بيته أم في أسرته الذين كانوا أميل للأمين لأسباب أسرية أو بالأحرى عاطفية.

ويبدو أن الرشيد أراد أن يوثّق بين أبنائه، ويؤكّد ما بينهم ولكنه كان في الوقت نفسه يزيد في البعد بينهم. فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ كان معه ولداه محمد الأمين، وعبد الله المأمون، وقواده، وقضاته، ووزراؤه، أما

ابنه الثالث القاسم المؤتمن فقد أرسله إلى منبج ومن ضمّ إليه من القواد والجند. فلما قضى الرشيد مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله من أعمال، وصيّر إليه من الضياع والغلّات والجواهر والأموال، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد، وإشهاده عليه بها الله، وملائكته، ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتّابه وغيرهم.

وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدّم إلى الحجبة في حفظهما، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، فذكر عبد الله بن محمد، ومحمد بن يزيد التميميّ، وإبراهيم الحجبي، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقوّاد والفقهاء، وأُدخلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهد عليهما جماعة من حضر، ثمّ رأى أن يُعلّق الكتاب في الكعبة، فلما رُفع ليُعلق وقع، فقيل: إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أميرالمؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، طائعاً غير مكره. إن أمير المؤمنين ولاّني العهد من بعده، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، برضىً مني وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاّه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها[1] وبريدها، وبيوت أموالها، وصدقاتها وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعده. وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضىً مني وطيب نفسي،

---

(١) الطراز: ما ينسج من ثياب للسلطان.

أنّ لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له؛ وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلّها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعةٍ، أو جعل له من عُقدة[1] أو ضيعة من ضياعه، أو ابتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلى أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دواب، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، موفّراً مسلّماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين بقرماسين[2] وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والريّ والكور التي سمّاها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب، من لدن الريّ إلى أقصى عمل خراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين. ولا يحوّل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاّه إياه هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الريّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها، ولا يشخصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يولّي عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحدٍ من عماله وولاة أموره بُنداراً[3]، ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل

---

(١) العقدة: الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً.

(٢) قرماسين: اسم بلدة في خراسان.

(٣) البندار: كلمة فارسية تعني العامل في الميناء الذي يجبي أعشار السفن.

عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحدٍ من ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتّابه وقوّاده وخدمه ومواليه وجنده؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم، ولا أحد بسبيل منهم، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقوّاده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه؛ فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغرٍ له وقماءٍ حتى ينفذ فيه رأيه وأمره.

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي همذان والكور التي سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين ممن قدم «قرماسين»، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجهٍ من الوجوه، أو بحيلةٍ من الحيل؛ صغُرت أو كبُرت، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين، والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له، والذبّ عنه؛ ما كانت

الحياة في أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا، أو حيث كانوا، أن يخالفه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله، وأنتم في حلّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدّم قبله، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدّم قبله، يحكم في ذلك بما أحب ورأى.

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليه، وأمر به، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين، ووكّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لتفُنّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم، فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً، أو غيّرتم، أو نكثتم، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مالٍ هو

اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجلٍ منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجّة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بذلك؛ وكل مملوك لأحدٍ منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حرّ، وكل امرأةٍ له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، لا مثنوية[1] فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتب عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة.

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، وصدق نيّةٍ فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفةً بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون، وولاّني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيءٍ مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع والعقد والرباع أو ابتعت منه من ذلك، ومما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحدٍ من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة، ولا يتّبع لي في ذلك ولا لأحدٍ منهم أبداً، ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً، في نفس ولا دم ولا شعرٍ ولا بشرٍ ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك، وأقرّ به وكتب له كتاباً، أكّد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله، وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على

(١) لا مثنوية: لا استثناء.

نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشّه، وأوفي بيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النواحي، أو إلى عدوٍ من أعدائه؛ خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولّانا إياه؛ فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصّر في شيءٍ كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يولّي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي؛ فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله، ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلاَّ أن يولّي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمة آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكّدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجلّ ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأةٍ هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبته طلاق الحرج؛ وكل مملوكٍ هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعليّ

المشي إلى بيت الله الحرام، الذي بمكة ثلاثين حجّةً، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلًا؛ لا يقبل الله منّي إلا الوفاء بذلك، وكل مالٍ لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ستٍ وثمانين ومائة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما، وحضروا كتابهما، أن يُعلموا جميع من حضر الموسم من الحاجّ والعمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك.

كما كتب الرشيد بذلك إلى عماله[١].

كان الأمين سميناً أبيض، أقنى الأنف، صغير العينين، فصيحاً، يقول الشعر. وقد تأدّب على الكسائي، وقرأ القرآن عليه، ولكنه كان يلهو بالصيد، ويكثر من إنفاق الأموال، واقتناء السودان. ويكنى بأبي عبد الله، كما كان يكنى بأبي موسى.

توفي الرشيد في الثاني من جمادى الآخرة في طوس، وهو في طريقه إلى خراسان. وكان الرشيد قد أخذ البيعة ممن معه من الجند إلى المأمون

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثامن.

على أن يكونوا معه. وكان الأمين ببغداد، أما المأمون فكان بمرو حاضرة خراسان. ولما توفي الرشيد صلّى عليه ابنه صالح، وكان أكبر ولده الذين معه، ثم كتب صالح إلى أخيه الأمين يعلمه بما حلّ، ويبايعه، ووصل الخبر إلى الأمين يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة، وكتم الخبر حتى اليوم التالي فنعى الرشيد للناس يوم الجمعة وأخذ منهم البيعة.

أما الجند الذين كانوا مع الرشيد بطوس فقد رجع بهم الفضل بن الربيع إلى بغداد.

وأما المأمون فقد استشار من معه من القادة، فأشار بعضهم بإجبار هؤلاء الجند الذين مع الفضل بن الربيع بالعودة إلى المأمون إذ أخذ الرشيد منهم البيعة له على أن يكونوا بجانبه، وأشار بعضهم الآخر بالاكتفاء بإرسال كتابٍ إليهم يأمرهم بالعودة ويسألهم الوفاء، ويحذّرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين. ومع أن بعض الوجوه قد أوهموا المأمون أن بيعة الجند بطوس للرشيد كانت البيعة للمأمون بالخلافة، غير أن المأمون قد أرسل بالسمع والطاعة لأخيه الأمين. وإن الأمين قد أقرّ لأخويه بما تحت يديهما فالمأمون على خراسان وجميع أعمالها، والمؤتمن على الجزيرة والثغور.

ثم إن الأمين قد عزل عام ١٩٤ أخاه المؤتمن عن الجزيرة والثغور، وولّى عليها مكانه خزيمة بن خازم. كما دعا لولده موسى على المنابر من بعده، ثم للمأمون والقاسم وذلك بوحي الفضل بن الربيع وتخطيطه إذ كان يخشى المأمون. فلما بلغ المأمون ذلك قطع البريد عن الأمين، وأسقط اسمه من الطّرز.

وطلب رافع بن الليث الأمان من المأمون فأمّنه فجاء إليه فأكرمه وقدّمه، وانتهت أحداث سمرقند، فرجع هرثمة بن أعين الذي كان مكلّفاً بحرب رافع فأكرمه المأمون وقرّبه، واجتمعت القادة عند المأمون فكره الأمين ذلك، وأرسل رسلاً للمأمون إلا أنّ أحدهم وهو العباس بن موسى

قد انحاز إلى جانب المأمون فرجع إلى بغداد فكان عين المأمون فيها وخاصة أنه من كبار أهل البيت ووجهاء القوم.

وألحّ الفضل بن الربيع على الأمين في أخذ البيعة لابنه موسى وقد سمّاه الناطق بالحق، فسار الأمين وراء الفضل وخلع أخاه، ومزّق الكتاب الذي أودعه أبوه في جوف الكعبة، وبدأ يدعو لولده.

وفي عام ١٩٥ عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان بالإمرة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم، وأمره بحرب المأمون، وجهّز معه جيشاً كبيراً، وخرج مشيعاً له، وتمكّن هذا الجيش من الوصول إلى الريّ فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد المأمون في أربعة آلاف، فاقتتل الطرفان فقتل علي بن عيسى بن ماهان في المعركة وانهزم أصحابه، ووصل الخبر إلى الأمين في شوال فتأثر أشدّ التأثر، وجهّز جيشاً قوامه عشرين ألفاً بإمرة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، ووجهه إلى همذان ليقاتل طاهر بن الحسين، ولكنه هُزم فلجأ وجنوده إلى همذان حيث اعتصموا فيها فحاصرهم طاهر بن الحسين، فطلبوا منه الأمان فأمّنهم، ووفى لهم، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا بأصحابه إذ داهموهم على حين غرّةٍ وقتلوا منهم عدداً كبيراً، فنهض إليهم طاهر وقاتلهم، فقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في شهر ذي الحجة، وفرّ من نجا من القتل، ووصل الخبر إلى بغداد فخاف الناس وكثرت الأراجيف.

ووجه الأمين عام ١٩٦ أحمد بن يزيد في عشرين ألفاً، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في مثلهم أيضاً لقتال طاهر بن الحسين غير أن طاهر استعمل الحيلة، وأوقع بين الأميرين فعادا من غير قتال. وعندها أمر المأمون طاهر بن الحسين أن يسير إلى الأهواز ويأخذها، ويسلّم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ففعل.

أرسل الأمين إلى الشام عبد الملك بن صالح بن علي فسار إلى أهلها، وتحبب إليهم، وأمله أن يجمع الجند لدعم الأمين، غير أن

عبد الملك لم يلبث أن مات بالرقة فتولى أمر الجند الحسين بن علي بن ماهان فعاد بهم إلى بغداد، فدعاه الأمين ليلاً فرفض الحضور وفي الصباح اجتمع عليه الناس، فأرسل إليه الأمين من يحضره فقاتلهم وهزمهم، وألبّ على الأمين، وأنكر عليه لهوه، ودعا إلى بيعة المأمون، وأصبح الرجل القوي.

ضيّق الحسين بن علي بن ماهان على الأمين، ونقله إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، كما أمر العباس بن موسى بن عيسى زبيدة أم الأمين أن تنتقل قهراً من قصرها. وقد انقسم أهل بغداد إلى قسمين، جماعة معه، وأخرى ضده، وأخيراً تغلّبت جماعة الأمين، وقبضت على الحسين بن علي بن ماهان غير أن الأمين قد عفا عنه واستوزره ولكنه فرّ منه على غفلةٍ منه فأرسل إليه الأمين من أدركه وقتله، وجددت العامة البيعة للأمين. واقترب طاهر بن الحسين من بغداد فعاد الناس إلى الاختلاف إذ خلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعت للمأمون. وحجّ في هذا العام العباس بن موسى بن عيسى من قبل المأمون، ودعا هناك له، فكان أول موسم يُدعى فيه للمأمون.

شدّد طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين الحصار على بغداد، وهرب منها القاسم بن الرشيد وعمه المنصور بن المهدي وسارا إلى المأمون فأكرمهما، وولّى أخاه القاسم جرجان، وضعف أمر الأمين كثيراً وخاصةً بعد أن وضع طاهر بن الحسين يده على الضياع والإنتاج، ودعا الأمراء إلى بيعة المأمون وقد أجابه عدد كبير منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان، وكثُر أنصار المأمون في حين لم يبقَ عند الأمين ما ينفقه على نفسه وجنده.

دخل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد عام ١٩٨ واشتد القتال فيها، وتفرّق عن الأمين أصحابه، فجمع من بقي معه، وشاورهم في الأمر، فمنهم من أشار عليه بالذهاب إلى الجزيرة والشام ومواصلة القتال، ومنهم من أشار عليه بطلب الأمان من طاهر بن الحسين فإن أخاه المأمون

به رحيم، ومنهم من رأى أن يكون طلب الأمان من هرثمة بن أعين، فسار إلى هرثمة وطلب منه الأمان فأمّنه، وركب معه في سفينة، فبلغ الخبر طاهر بن الحسين فغضب فأغرق السفينة، ونجا الأمين سباحةً، والتجأ إلى بيتٍ فسارت إليه جماعة من العجم وقتلته في البيت الذي كان فيه وذلك يوم الأحد الرابع من صفر من عام ثمان وتسعين ومائة.

كان الأمين كثير اللهو، محب الصيد، مكثر من اقتناء السودان والخصيان، تاركاً أمور الدولة، وأما ما أشيع من شربه للخمر فغير ثابت، فقد وجد أبا نواس سجيناً مع الزنادقة في سجن الرشيد وذلك في أول تولّيه الخلافة فأخرجه من السجن، فلما علم بشربه الخمر أعاده إلى السجن ثانيةً.

مَعَ الرُّوم

لم تحدث حروب واسعة مع الروم أيام الأمين، إذ كان الروم مشغولين بأحداثهم الداخلية كالمسلمين، فقد مات نقفور عام ١٩٣ في حربه مع البرغان بعد أن ملكَ تسع سنوات، وخلفه ابنه استبراق، وكان جريحاً، فلم يلبث أن مات بعد شهرين من حكمه، فخلفه ختنه، زوج أخته، ميخائيل بن جورجس، ثم ترك ميخائيل الحكم عام ١٩٤ بعد أن أحسّ الغدر من الروم إذ حاولوا قتله، وأصبح بعدها راهباً، وتولّى حكم الروم بعده إليون.

* * *

الحركات[٧٠]

عندما تولى الأمين الخلافة كانت حركة رافع بن الليث لا تزال قائمةً، وقد كُلّف هرثمة بن أعين بالقضاء عليها، وقد تمكّن هرثمة في بداية أيام الأمين من حصار رافع في مدينة سمرقند، ثم دخل حائطها، فلجأ رافع إلى داخل المدينة وراسل الترك فوافوه، وأصبح هرثمة بين الترك ورافع محصوراً، ثم رجع الترك فضعُف أمر رافع.. ثم راسل المأمون وطلب منه الأمان فأمّنه، فجاء رافع إليه فأكرمه المأمون وقدّمه.

وثار أهل حمص على عاملهم إسحاق بن سليمان الذي ولاّه الأمين عليهم، فانتقل إسحاق إلى بلدة السلمية، وأرسل الأمين مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ومعه عافية بن سليمان، فسجن عدداً من وجهاء مدينة حمص، وأحرق بعض أحيائها، فسأله أهل المدينة الأمان فأجابهم، وسكنوا ثم ثاروا، فضرب أعناق بعضهم.

وفي عام ١٩٥ ظهر بالشام السفياني وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودعا إلى نفسه، وقد حاصر والي الأمين على دمشق وهو سليمان بن أبي جعفر، غير أن الوالي قد تمكن من الهرب من دمشق، فأرسل الأمين إلى السفياني الحسين بن علي بن ماهان، فلما وصل إلى الرقة أقام بها، ولم ينفذ إليه.

الإمارات

بقيت الإمارات التي كانت أيام الرشيد هي نفسها أيام ابنه الأمين، فدولة الخوارج الصفرية في سجلماسة، ويحكمها أبو المنصور اليسع بن أبي القاسم.

ودولة الخوارج الأباضيين في تاهرت، ويحكمها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهي الدولة المعروفة بالرستمية، وقد قامت عليه بعض الحركات من الخوارج أنفسهم.

أما الأمويون في الأندلس فقد قوي أمرهم، وكان الحكم هناك للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف باسم الحكم الربضي.

وكانت دولة الأدارسة تحت حكم إدريس الثاني.

وفي القيروان كانت دولة إبراهيم بن الأغلب يقوى أمرها، وقد ثار عليها في تونس عمران بن مخالد التميمي عام ١٩٥، غير أن هذه الحركات لم يُكتب لها النجاح، وتوفي إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وخلفه ابنه عبد الله أبو العباس.

وجاءت أيام المأمون ولم تزل الإمارات المستقلة مقتصرةً على الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، وتتدرج في خلافها للعباسيين من الشرق إلى الغرب، فالأغالبة يعدّون عمالاً للعباسيين والخوارج يهادنون الدولة في بغداد وعمّالها في القيروان، فالأدارسة الذين يختلفون معهم حتى نصل إلى الأندلس الذين هم في عداءٍ مع العباسيين.

-٧-

المأمون

عبد الله بن هارون

١٩٨ - ٢١٨ هـ

ولد المأمون في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠ في اليوم الذي توفي فيه عمه موسى الهادي، وبويع فيه أبوه الرشيد، وأمه أم ولد، وتسمى مراجل.

بويع ولياً للعهد بعد أخيه الأمين عام ١٨٢ مع أنه أكبر منه بسبعة أشهر، وبويع بالخلافة يوم الخميس ٢٥ محرم عام ١٩٨ قبيل مقتل أخيه الأمين بعشرة أيام تقريباً مع أنه قد دُعي له بالخلافة مرةً من قبل عامين، والأمين محصور في بغداد.

كان المأمون أبيض جميلاً، طويل اللحية، ضيق الجبهة، بخده خال أسود.

بعد مقتل الأمين ولّى المأمون الحسن بن سهل الجبال، وفارس، والأهواز، والبصرة، والكوفة، والحجاز، واليمن، وولّى طاهر بن الحسين الموصل، والجزيرة، والشام، والمغرب، وطلب منه أن ينتقل إلى الرقة، وعهد إليه حرب نصر بن شبث. وبقي المأمون في مرو وكأنه رمز لأمير المؤمنين، والولاة الكبار يرسلون العمال عنهم إلى الأمصار، ويتصرفون بشؤون البلاد، وهذا ما أضعف هيبة الحكم، وأطمع فيه، ما دام المسؤولون عنه ليسوا من العباسيين. كما طلب المأمون من هرثمة بن أعين أن يرتحل إلى خراسان.

وجاء الحسن بن سهل إلى بغداد ليتولّى ويرسل عماله منها. وحدثت حركات في بغداد نقمة على الحسن بن سهل الذي كان بالمدائن، ونقمة لما حدث من موت هرثمة بن أعين في السجن بشكلٍ غامضٍ فيه كثير من

الشائعات، وأخرجوا علي بن هشام والي الحسن على بغداد، وكما شارك في هذه الأحداث زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي كان بالسجن وأفلت منه.

وراود أهل بغداد المنصور بن المهدي على الخلافة فأبى عليهم، وطلبوه على الإمارة في بغداد باسم المأمون فوافق على ذلك فأمّروه عليهم.

وبايع المأمون ولياً لعهده علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسمّاه الرضا من آل محمد، وطلب من جنده طرح السواد ولبس الخضرة فأغضب ذلك آل العباس، فبايع أهل بغداد عمّ المأمون إبراهيم بن المهدي وسمّوه المبارك، وبايعوا من بعده ولياً لعهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون، وذلك في أول يوم من عام ٢٠١.

وأخبر المأمون بأسباب ما حدث من ترك أمر الدولة للحسن بن سهل ولأخيه الفضل بن سهل الذي ينقل له الأخبار مشوهةً غير صحيحة، وبُعده من مركز حكمه، فكان أن جاء إلى بغداد عام ٢٠٢، وقُتل الفضل بن سهل بظروفٍ غامضةٍ، وتزوج المأمون بوران ابنة الحسن بن سهل، كما زوّج ابنته أم حبيب لعلي الرضا، وابنته الثانية أم الفضل لمحمد بن علي بن موسى.

ومات علي الرضا فجأةً، وهو مع المأمون، أثناء قدومهم إلى بغداد، وعند مرورهم بطوس، فدفنه جانب أبيه الرشيد، وهو الذي صلّى عليه، وكاتب الحسن بن سهل وأهل بغداد بأن السبب الذي نقموا عليه قد زال بوفاة علي الرضا.

واختلف أهل بغداد ثانيةً، وانتصر خصوم إبراهيم بن المهدي فخلعوه، فاختفى، وبايعوا للمأمون، وكتب المأمون لطاهر بن الحسين أن يوافيه بالنهروان، فترك طاهر الرقة وسار إليه.

أما هرثمة بن أعين فعندما انتهى من أبي السرايا أرسل له المأمون

كتاباً يوليه فيه الشام أو الحجاز، ولكنه أحب المسير إلى المأمون، فسار إليه إلى مرو، وكان الفضل بن سهل قد أوغر عليه صدره فاتهمه بتحريض أبي السرايا الذي لم يكن إلا أحد رجاله، وأنه كان في الواقع بجانبه، فلما وصل هرثمة إلى مرو وبّخه المأمون وبكّته ثم سجنه، وبعد أيام مات بالسجن ـ والله أعلم ما سبب موته ـ.

ودخل المأمون بغداد فولّى أخاه صالح بن الرشيد على البصرة، وولّى عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب على الحرمين. وأعطى طاهر بن الحسين ولاية خراسان من بغداد إلى أقصى مشرق الدولة الإسلامية. وولّى يحيى بن معاذ الجزيرة، وعيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيا وأذربيجان وكلفه بمحاربة بابك الخرّمي، وأما مصر فكانت للسريّ بن الحكم. وولى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله مكانه على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث، وعندما مات يحيى بن معاذ عام ٢٠٥ أصبح عبد الله والياً على الجزيرة.

وتوفي طاهر بن الحسين فجأةً عام ٢٠٧ فتولّى ابنه طلحة المصر مدة سبع سنوات، وقيل باسم أخيه عبد الله، وعندما توفي طلحة، انتقل عبد الله إلى مرو. وكان أحمد بن أبي خالد يساعد طلحة في خراسان ويقوم له بالأمر.

وظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي عام ٢٠٩ متخفياً بلباس امرأةٍ، كما ظفر ببعض الذين بايعوه، وتكلم الحسن بن سهل بإبراهيم فعفا عنه المأمون، ولكنه قتل بعض أنصاره.

وأظهر المأمون عام ٢١٢ القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على سائر الصحابة، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ. وفي عام ٢١٨ حدثت المحنة للعلماء بسبب القول بخلق القرآن،وقد تعرّض عدد منهم للتعذيب ومنهم الإمام أحمد بن حنبل.

وبايع من بعده لأخيه المعتصم أبي إسحاق محمد بن الرشيد. وبينما هو في بلاد الروم إذ أدركته الوفاة في ٢٥ محرم من عام ٢١٨ فدفن في طرسوس.

الحركات

لا شك في أن الخلاف على السلطة يقلّل من هيبة الحكم، ويدع المجال لكلّ طامعٍ في أن يُظهر نفسه، ولكلّ من يُفكّر بالإمرة أن يدعو لنفسه، وأكثر من هذا فيما إذا كان الخلاف بين جماعة الحكم أو أفراد الأسرة الحاكمة إن كان الحكم وراثياً. فلما وقع الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون شجّع عدداً في الظهور وقيادة حركات تناوئ السلطة.

ولا شك أن الحركات التي قامت أيام المأمون بل التي تقوم في كل وقت تختلف في دعوتها، وشعارها، وأهدافها، وزعامتها. ولما كان المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية ينقاد للإسلام وإلى دعوته وشعاره وهدفه لذا فإن الزعماء يتفقون في هذه الأمور ولكنهم يختلفون فيمن يدعون له، فمن يجد في نسبه مجالاً لالتفاف الناس حوله يدعو علناً لنفسه، ومن لم يجد يختفي وراء أسماء موهومة أو غير ظاهرة.

١ ـ ثار الحسن الهِرْش يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد جبى الأموال، وأغار على التجار، ونهب القرى، واستاق المواشي وذلك عام ١٩٨، وعاث في الأرض فساداً تحت شعار هذه الدعوة، وسار إليه أزهر بن زهير بن المسيب فقتله في شهر المحرم من عام ١٩٩، ولم تدم هذه الحركة أكثر من شهرين، ولكن كان لها أثر إذ كانت مجالاً للاختفاء تحت أسماء غامضةٍ والانطلاق من ورائها، كما كانت مجالاً لادعاء نسبٍ كاذبٍ كي ينقاد له الناس وغالباً ما يكون نسباً لآل البيت.

٢ ـ وفي الكوفة نقم على المأمون محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا

نقم عليه لسوء تصرفه، ولتملك الفضل بن سهل وأخيه الحسن من دون بني هاشم، وكان قائده السري بن منصور والمعروف بأبي السرايا. وكان عامل الحسن بن سهل على الكوفة سليمان بن أبي جعفر المنصور، ويقوم مقامه خالد بن محجّل الضبي. وقد أخرج ابن طباطبا عامل العباسيين على الكوفة وسيطر على المنطقة.

أرسل الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف مقاتل فهزموا أمام أبي السرايا الذي استولى على ما كان مع الجيش العباسي من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ، وفي اليوم التالي مات ابن طباطبا فجأةً، ويقال: إن أبا السرايا قد سمّه ليستبد بالأمر ـ والله أعلم ـ. وأقام أبو السرايا فتًى صغيراً مكان ابن طباطبا هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبقي هو يسيّر الأمور. وكان أبو السرايا من قبل من رجال هرثمة بن أعين.

سار عبدوس بن محمد بن أبي خالد في أربعة آلاف مقاتل إلى أبي السرايا فهُزم الجمع وقُتلوا كلهم. ودخل أبو السرايا البصرة وواسط، واتجه نحو المدائن فدخلها، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث هزم فيها وأُخرج منها.

وهاج الطالبيون في الكوفة وانطلق محمد بن محمد بن زيد على رأس الجموع إلى دور بني العباس في الكوفة، فانتهبوها، وأحرقوها، وأخرجوا بني العباس من مدينتهم.

ووجّه أبو السرايا حسين بن الحسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلى مكة ليأخذها ويقيم للناس الحج، فلما وصل إلى ضواحي مكة لم يجرؤ على دخولها فحجّ الناس عامهم بلا إمام إذ خرج من مكة واليها العباسي داود بن عيسى، ولم يرغب في قتال في بيت الله الحرام، واتجه نحو العراق. وبعد الموسم دخل الحسين بن الحسن الأفطس بعد أن شجّعه بعض الطالبيين فاستولى على مكة واستقرّ فيها.

ووجّه أبو السرايا أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فدخلها دون قتال.

وفي عام ٢٠٠ توجه هرثمة بن أعين إلى أبي السرايا فدارت الدائرة على هرثمة، ثم كانت له، وفرّ أبو السرايا من الكوفة، وسار إلى واسط فهُزم أيضاً هرثمة هزيمة نكراء، وفرّ مع من بقي معه يريد بلدة رأس العين، وفي الطريق قُبض عليهم فأخذوا إلى الحسن بن سهل فقُتلوا.

أما البصرة فبقيت بيد زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عُرف باسم زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين في البصرة ولكنه هُزم أيضاً، وأُخذ أسيراً فسُجن في بغداد.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس فقد كرهه أهل مكة لما أساء ولما أقام من ظلم، وحين رأى الطالبيون انصراف الناس عنهم ولّوا عليهم محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على كرهٍ منه إذ كان مخالفاً لتصرّف أهل بيته، محبوباً عند الناس، وهو من أهل العلم والفضل، أخذ العلم عن أبيه جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وأطلقوا عليه اسم أمير المؤمنين، ولم يكن له من الأمر شيء، وإنما المتصرف بشؤون البلد هو ابنه علي والحسين بن الحسن الأفطس، والظلم قائم.

وجاء إسحاق بن موسى من اليمن مغادراً لها. ومرّ على مكة فقاتل الطالبيين أياماً ثم كره الحرب، فتركهم وسار نحو العراق فجاءته نجدة فرجع إلى مكة فهزم الطالبيين ودخل مكة وتفرّق الطالبيون في البلاد. ولكن عاد محمد بن جعفر، وأعلن خلع نفسه، وجدّد بيعته للمأمون، واعتذر مما كان قد حدث منه.

٣ ـ وخرج في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد سار إليها من مكة عندما بلغه خروج أبي السرايا في الكوفة، ولما وصل إليها غادرها واليها إسحاق بن

موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وفعل كما فعل عمه داود بن عيسى في مكة. ولما سيطر على اليمن أرسل أحد أحفاد عقيل بن أبي طالب ليقيم للناس الحج، ولكنه لم يجرؤ على دخول مكة لوجود أبا إسحاق محمد بن الرشيد فيها، ولذا فقد اعترض الحجاج وسلبهم... فأرسل إليه أبو إسحاق من قتله وأخذ منه ما سلب فأعاده إلى الحجاج، وعاد بقية جمعه إلى اليمن.

٤ ـ وثب أخو أبو السرايا عام ٢٠٢ بالكوفة فبيّض، ولكنه قتل بأول لقاء، وأرسل رأسه إلى إبراهيم بن المهدي في بغداد.

٥ ـ خرج في بغداد المطوّعة بزعامة خالد الدريوش، وسهل بن سلامة الأنصاري ضد الفساق والشطّار الذين كثر بلاؤهم، وانتشر فسقهم، وعمّ اعتداؤهم.

٦ ـ تحرّك الخوارج بإمرة مهدي بن علوان فسار إليهم أبو إسحاق محمد بن الرشيد فهزمهم.

٧ ـ خرج عام ٢٠٧ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد (عك) باليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وكان خروجه بسبب سوء تصرف العمال في تلك الجهات، فأرسل له المأمون دينار بن عبد الله، وكتب معه كتاب أمان لعبد الرحمن، فحضر دينار الموسم، واتجه إلى اليمن، فلما وصل إلى تلك الجهات أعطى كتاب الأمان لعبد الرحمن، فقبل ذلك منه، وأقبل إليه، وسار معه إلى بغداد.

٨ ـ وفرّ الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى بلاد كرمان، وتحصّن بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فقبض عليه، وأرسله إلى المأمون، فعفا عنه، وذلك عام ٢٠٨.

٩ ـ وثار نصر بن شبث العقيلي، وكان أسلافه من رجالات بني أمية، ونقم على العباسيين، لانصرافهم عن تقديم العرب، حسبما ارتأى، فلما مات هارون الرشيد وحدث الخلاف بين الأمين والمأمون زادت نقمته،

فعندما بويع المأمون رفض بيعته، ثار في (كيسوم)[1] شمالي حلب حيث كان يقيم وتغلّب على ما جاورها من البلدان، وملك (سُمَيْساط)[2]، وانتقل إلى الجانب الشرقي من الفرات، واجتمع عليه كثير من الأعراب، وقوي أمره، وحاصر حران عام ١٩٩، وحاول أن يتقرّب إليه الطالبيون، فلم يقرّهم على رأيهم، كما رفض البيعة لبعض أفراد بني أمية. وكان عبد الله بن طاهر في الرقة مكلّفاً بحربه حتى عام ٢٠٤، ثم أصبح عبد الله والياً على الجزيرة عام ٢٠٥، ومكلّفاً بالمهمة نفسها، وطالت حرب نصر، حتى ضيّق عليه عبد الله وحصره عام ٢٠٩، وأعطاه المأمون أماناً فوافق ضمن شروط، منها ألا يطأ بساط المأمون، فرفض الخليفة شرطه، واشتد عبد الله بن طاهر في حربه، وطال حصاره في كيسوم، وانتهى أمره بالاستسلام عام ٢١٠، فسيّره عبد الله إلى المأمون، وهو ببغداد، فدخلها في صفر عام ٢١٠.

١٠ ـ وخرج في مصر عبيد الله بن السريّ فلما انتهى عبد الله بن طاهر من قتال نصر بن شبث وجهه المأمون إلى مصر، وتمكّن من هزيمة ابن السريّ وحصاره في الفسطاط، وإرغامه على الاستسلام والموافقة على طلب الأمان. وسار عبد الله بعدها إلى الإسكندرية وقد غلب عليها بعض الأندلسيين الذين انتقلوا من الأندلس بعد موقعة الربض، فآذنهم بالحرب إن لم يُعلنوا الطاعة، ثم اتفق معهم على أن يخرجوا إلى إحدى بلاد الروم وليس إلى البلاد الإسلامية، وأن يقيموا فيها وفعلاً فقد خرجوا إلى جزيرة كريت (إقريطش)، واستقروا فيها بعد أن غلبوا عليها، وذلك عام ٢١١.

١١ ـ وخلع أهل (قم) الطاعة مستكثرين ما عليهم من خراج فأرسل إليهم علي بن هشام فأخضعهم وهدم سور (قم).

---

(١) كيسوم: من أعمال سميساط فيها حصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شبث.

(٢) سُمَيْساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن.

١٢ ـ وفي عام ٢١٣ خرج في مصر عبد السلام، وابن جليس، فسار إليهم عام ٢١٤ المعتصم أبو إسحاق بن الرشيد، وقبض عليهما وقتلهما.

١٣ ـ وفي السند خالف بشر بن داود بن يزيد المهلبي عام ٢١٣ فولّى المأمون على السند غسّان بن عبّاد فاستأمنه بشر عام ٢١٦ فأمّنه، وعفى عنه.

١٤ ـ وخرج عام ٢١٤ بلال الضبّابي الشاري فوجه المأمون إليه ابنه العباس ومعه علي بن هشام، وهارون بن محمد بن أبي خالد، واستطاع هارون أن يقتل بلالاً.

هذه الحركات الكثيرة التي قامت أيام المأمون إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف هيبة الحكم الذي نتج عن الخلاف بين الأخوين على السلطة، ثم بقاء المأمون مدة من الزمن بعيداً عن مركز الحكم في مرو الأمر الذي أطمع الكثير من الطامحين بالمخالفة وعدم الطاعة، وإن قوي الحكم نسبياً عندما رجع المأمون إلى بغداد إذ بدأ يتعرف على الأوضاع بنفسه وعلى قرب منها بينما كانت تصل إليه كثير من الأمور مغلوطةً أو تخفى عنه عن طريق الحسن بن سهل.

١٥ ـ وأعظم الحركات التي قامت أيام المأمون هي حركة بابك الخرميّ الذي كان فقيراً وضيعاً إذ مات أبوه وهو صغير، وقد يكون مجهول النسب، وعمل راعياً لمساعدة أمّه. هذه النشأة قد أثرت على نفسية بابك وجعلته يحقد على مجتمعه وعقيدته. وعمل خادماً بعد ذاك عند «جاويذان بن سهرك» فأخذ عنه بعض الأفكار الخرّمية التي تقوم على العقيدة بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء، وقد تكون هذه الأفكار وجدت لها مكاناً في نفسية بابك السيئة، والتي تحمل حقداً على الناس. وعندما مات «جاويذان بن سهرك» ورثه بابك بتدبيرٍ وتخطيطٍ من زوجة «جاويذان» التي تزوجت بعد ذلك بابك.

وجد بابك الخرّمية على شيءٍ من القوة فتحرّك عام ٢٠١، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مرو فعندما جاء إلى بغداد أرسل الولاة وبعث الجيوش لقتال بابك، وحدث قتال بين يحيى بن معاذ والي الجزيرة وبين بابك عام ٢٠٤ ولم يظفر أحدهما بالآخر. ومات يحيى عام ٢٠٥، واستمر قتال بابك من قبل والي أذربيجان وأرمينيا عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملةً إلى الخرمي استمر تجهيزها سنةً كاملةً، ولكنه هُزم.

وولّى المأمون على أذربيجان وأرمينيا زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك وذلك عام ٢٠٩ فتمكّن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولّى المأمون على أذربيجان إبراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، وأرسل المأمون عام ٢١٢ محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك فتمكّن بابك من محمد بن حميد وقتله عام ٢١٤، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً. وقد رثاه أبو تمام في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر

وفيها يقول:

ألا في سبيل الله من عُطلت له ... فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

تُوفِّيت الآمال بعد محمَّدٍ ... وأصبح في شُغلٍ عن السفر السفر

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردّى ثياب الموت حمراً فما دجى ... لها الليل إلاّ وهي من سندسٍ خضر

وقوي أمر بابك، وبعث له المأمون عام ٢١٨ إسحاق بن إبراهيم غير أن المأمون قد توفي، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه إسحاق على الخرّمية، إلا أن أمرهم بقي قوياً فجاء المعتصم ليتابع ما بدأ به المأمون وقد حصل على ما يريد.

الفتوحات

حدثت فتوحات قليلة أيام المأمون، وبالأصل فإن الفتوحات أيام الدولة العباسية تعدّ محدودةً وعلى نطاقٍ ضيقٍ، بل تمّ توقف الفتوحات الواسعة منذ أواخر الدولة الأموية.

فتح والي طبرستان عام ٢٠٢ (اللاز) و (الشيزر) من بلاد الديلم، وأصبحت هاتين المنطقتين ضمن أرض الدولة الإسلامية منذ ذلك اليوم.

وفتح أحمد بن أبي خالد (أشروسنة) في بلاد ما وراء النهر عام ٢٠٧.

أما الروم فقد بقوا يعانون من مشكلاتهم الداخلية. في عام ٢٠٠ قتل الروم ملكهم إليون، وأعادوا ميخائيل بن جورجس حاكماً عليهم مرةً ثانيةً، وبعد أن حكم إليون ست سنوات، وبقي ميخائيل ملكاً حتى توفي عام ٢٠٩، فخلفه ابنه تيوفيل بن ميخائيل، فلما قوي أمره كان بابك الخرمي قد اشتد ساعده في منطقة أذربيجان القريبة من بلاد الروم، وهذا ما أخاف المأمون من أن يحدث تعاون بين العدوين اللدودين للإسلام هذا من جهة ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد كان المأمون قد انتقل إلى بغداد وتعرّف على حالة البلاد بشكل جيد لذا فقد رغب أن يقاتل الروم لتقوى هيبة المسلمين في نظرهم، ويمنعهم من مدّ يد المساعدة لبابك الخرمي، ولينصرف الناس عن المشكلات الداخلية بتوجيههم نحو الخارج.

سار المأمون بنفسه لحرب الروم عام ٢١٥ عن طريق بغداد ـ الموصل ـ منبج ـ دابق ـ إنطاكية ـ المصيصة ـ طرسوس، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، وفتح حصن «قره» عنوةً وهدّمه، ثم دخل حصن «ماجدة» وعفا عن أهله، وخرج من بلاد الروم إلى دمشق.

وعاد عام ٢١٦ إلى غزو بلاد الروم، وربما كان الغزو في هذه المرة بسبب اعتداء الروم على أهل طرسوس والمصيصة، وخرج المأمون من بلاد الروم إلى دمشق ومصر.

وغزا الروم أيضاً عام ٢١٧، كما وجه ابنه العباس لحرب الروم عام ٢١٨، كما انطلق هو بنفسه على رأس جيش، وأدركته المنية في بلاد الروم حيث نُقل إلى طرسوس ودفن فيها.

ويبدو أن المأمون قد شعر ما آل إليه العرب من رفاهيةٍ فركنوا إليها وتركوا القتال بل إن ذلك قد أضعف عندهم روح الجهاد، كما أن الفرقة قد عصفت ريحها عليهم فمزّقتهم، وأطمعت بعضهم بالمراكز فشجّع ذلك المتمردين وقوّى أمرهم، وأمر الفرس كان قريباً من أمر العرب إضافةً إلى أن بعضهم، وإن كانوا قلةً، لا تزال أفكار المجوسية تراودهم، كما تراودهم فكرة الدولة الفارسية القديمة وأمجادها ـ على حدّ زعمهم ـ لذا فقد بثّوا بعض أفكارهم واستغلّوا بعض أبناء جنسهم باسم العصبية أحياناً، وباسم المعرفة والبساطة أحياناً أخرى، لذا فقد طلب المأمون من أخيه المعتصم أن يجلب الجند الأتراك إذ كانوا على درجةٍ من القوة لم تُفسد طباعهم الرفاهية بعد، كما لم تمزّقهم الخلافات إلى ذلك الحين.

ويمكن أن نعدّ من الفتوحات ما تمّ في بلاد النوبة، والبجاة، وكان النوبيون النصارى قد وقفوا في وجه الفتوحات الإسلامية، وعقدوا صلحاً مع المسلمين، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الصلح، فقاتلهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٣١هـ وأجبرهم على عقد صلح جديدٍ. ثم تجمّعوا من جديد عام ١١٨ للوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي هادنهم إذ كان مشغولاً بأحداث إفريقية. ولكن هؤلاء النوبيين والبجاة لم يحفظوا هذا العهد وكثُرت تعدّياتهم على منطقة أسوان، وزاد أذاهم أيام المأمون فقاتلهم، وعقد معهم عهداً جديداً عُدّت بلادهم ضمن أرض الدولة الإسلامية، وأهم شروط هذا العهد:

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين

دهلك[١] وباضع[٢] مُلكاً للخليفة، وأن يكون كنّون بن عبد العزيز ملكاً على البجاة.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجاة كل عام الخراج على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل وثلاثمائة دينار.

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوءٍ، ولا يُعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مُقيماً أو مُجتازاً أو حاجّاً، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم.

٦ ـ إذا نزل البجاة صعيد مصر مُجتازين أو تُجّاراً فلا يُظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[٣].

كما فتحت جزيرة صقلية في عهد المأمون على يد الأغالبة ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

* * *

---

(١) دهلك: جزر في البحر الأحمر مقابل ميناء مصوع الإريتري.

(٢) باضع: ميناء قديم جنوب مصوع.

(٣) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الثاني.

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في مغرب الدولة الإسلامية، وإنما كانت استمراراً لما حدث في عهد أسلاف المأمون.

١ ـ الدولة الرستمية:

كانت دولة الخوارج الأباضيين في تاهرت تحت حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبقي يحكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٨ أي إلى آخر أيام هذه الدولة.

٢ ـ دولة بني مدرار:

كانت دولة بني مدرار، وهم من الخوارج الصفرية، تحت حكم أبي المنصور اليسع بن أبي القاسم، وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه مدرار بن أبي المنصور، وتزوج ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الأباضية السابقة الذكر، وأنجب منها ولداً أسماه ميموناً، وعرف باسم ميمون ابن الرستمية وذلك لأن مدراراً كان له ولد آخر يحمل الاسم نفسه «ميمون» ومن زوجة ثانية اسمها (بقية) لذا قيل له ميمون بن بقية. وقد حدث الخلاف بين هذين الأخوين فيما بعد.

٣ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان حاكم الأندلس أيام المأمون الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف بالربضي، وتولّى الحكم عام ١٨٠ وبقي في الحكم

حتى عام ٢٠٦، وخرج عليه عمّاه واستوليا على طليطلة وبلنسية، فحاربهم الحكم، واسترد البلاد التي استوليا عليها. واستغل النصارى في الشمال هذا الخلاف وهاجموا أرغونة إلا أن الحكم استطاع أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة واستنجد بشارلمان ملك الفرنج غير أنه فشل في ثورته.

ولما توفي الحكم عام ٢٠٦ خلفه ابنه عبد الرحمن الذي عرف باسم عبد الرحمن الأوسط، وفي عهده استتب الأمن، وساد النظام فانصرف إلى العلم والبناء والاهتمام بشؤون الدولة، كما اعتنق في أيامه الإسلام عدد كبير من النصارى الإسبان. ومع الحرية والأمن التي عاش بهما النصارى إلا أنه قد نشأت عندهم حركات الاستخفاف وهي شتم رسول الله ﷺ، والكلام السيء عن كتاب الله القرآن وذلك بتحريض بعض رجال الدين.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط هاجم أمير ليون وبعض أمراء نصارى في الشمال البلاد الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء.

٤ ـ الأدارسة:

كان همّ إدريس الثاني حرب الصفرية من الخوارج، وقد توفي عام ٢١٣، وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده اختلف الأدارسة إذ نازعه أخوه عيسى بن إدريس وكان والياً على أزمور، فأراد أن يستعين عليه بأخيه القاسم بن إدريس والي طنجة غير أن القاسم قد رفض ذلك، فاستنجد بأخيه عمر والي مكناس فساعده، وهزم أخويه اللذين في أزمور وطنجة.

٥ ـ الأغالبة:

تولى حكم الأغالبة في القيروان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وهو المعروف باسم عبد الله الأول، والمكنى بأبي العباس، وكان

سيء السيرة، وزاد في الضرائب، وملّ الناس حكمه حتى أهله وعشيرته، وتوفي عام ٢٠١، وخلفه أخوه زيادة الله بن إبراهيم أبو محمد الذي قضى ست سنوات آمناً هادئاً، وفي سنة ٢٠٧ ثار عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وحاصر مدينة باجه فسيّر إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة[١].

وفي عام ٢٠٨ ثار على زيادة الله بتونس منصور بن نصير فأرسل له جيشاً بقيادة محمد بن حمزة فهزم، فبعث له جيشاً آخر بقيادة الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهدّد الجيش بالقتل إن هُزم فهُزموا فخافوا من العودة إلى العباسية فالتحقوا بالثائر منصور، واستولوا على عدة مدن.

وسار منصور إلى القيروان وحاصرها ولكنه هُزم، وعاد منصور ثانيةً إلى حصار القيروان عام ٢٠٩، ولم يبقَ تحت يد زيادة الله سوى قابس، والساحل، وطرابلس، وقد ضرب منصور السكة باسمه، ولم تنته ثورة منصور إلا عام ٢١١ حيث اختلف منصور مع قائده عامر بن نافع الأمر الذي مكّن لزيادة الله.

وفي عهد زيادة الله فتحت جزيرة صقلية.

سبق أن غزا المسلمون جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، يوم كان والي مصر وإفريقية معاوية بن حديج، وكان الغزو بقيادة عبد الله بن قيس الفزاري.

ثم غزا المسلمون الجزيرة ثانيةً عام ١٠٣ أيام يزيد بن عبد الملك إذ سار إليها محمد بن إدريس الأنصاري وقد غنم كثيراً.

وغزا المسلمون في إفريقية صقلية عام ١٢٢، واستولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري على مدينة سرقوسة على ساحل الجزيرة الشرقي.

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ـ الجزء الخامس.

وغزاها أيضاً عبد الرحمن بن حبيب عام ١٣٠ ولكن أقدام المسلمين لم تثبت إلا أيام الأغالبة.

ففي سنة ٢١١ عيّن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني على جزيرة صقلية قسطنطين البطريق، فاستعمل قسطنطين هذا على الأسطول رجلاً رومياً اسه فيمي، فأغار فيمي على سواحل إفريقية ونهبها، وبقي مدةً فيها، ولما وصل نبأ هذه الغارة إلى امبراطور الروم كتب إلى عامله على صقلية قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي، ولما بلغ الخبر فيمي أخبر أصحابه وأثارهم فاتجهوا إلى صقلية مُغاضبين ومُخالفين واستولوا على سرقوسة، وسار إليهم قسطنطين فهُزم إلى مدينة قطانيا شمال سرقوسة، فتبعه جيش أخذه وقتله، ونودي بفيمي ملكاً على الجزيرة، ثم ثار عليه أحد عمّاله على بعض نواحي الجزيرة، ووالي «بلرم»، وساروا إليه، واستولوا على سرقوسة ففرّ منهم، واتجه إلى إفريقية وأرسل إلى زيادة الله يستنجده بحكم الجزيرة.

جهز زيادة الله جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات[1]، فانتصر المسلمون، ثم جاءت نجدات من الروم إلى نصارى صقلية، كما انقلب عليهم فيمي، وحلّ الوباء بالمسلمين، ومات أميرهم أسد بن الفرات، لذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا داخل الجزيرة.

ولّى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، وجاءتهم نجدة من القيروان، كما وصلت إلى الجزيرة سفن من الأندلس فساعدت المسلمين، فحاصر المسلمون مدينة «بلرم» عام ٢١٥، ورغم عودة الأندلسيين فقد تمكّن المسلمون من فتح مدينة «بلرم» عام ٢١٦، وتوفي المأمون ولا يزال الفتح في جزيرة صقلية.

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله: ولد عام ١٤٢ بحران، وأصله من خراسان. رحل أبوه في جيش ابن الأشعث إلى القيروان فحمله معه وهو طفل، فنشأ بها. ثم بتونس، ورحل عام ١٧٢ إلى المشرق في طلب الحديث، ثم عاد إلى القيروان، وولي قضاءها عام ٢٠٤، وهو من أصحاب مالك وله مصنف «الأسدية» في فقه المالكية.

- ٨ -

المعتَصِم

محَمّد بن هَارُون الرَشيد

٢١٨ - ٢٢٧هـ

ولد محمد المعتصم بن الرشيد ببغداد في العاشر من شهر شعبان من عام تسعة وسبعين ومائة. وهو أحد ستة أولاد للرشيد كل منهم يدعى محمداً، ويُكنّى المعتصم أبا إسحاق. كان مربوعاً، أبيض مشرّباً بالحمرة، حسن العينين... ضعيف الكتابة أقرب إلى الأمية، قوياً، شجاعاً، له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب. أمه تدعى: «ماردة» أم ولد، ومن مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية.

ولي الخلافة في الثاني عشر من شهر رجب عام ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، وكان قد أوصى له بحضور ابنه العباس بن المأمون، وقد سعى بعض الأمراء في ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس وقال: إني قد بايعت عمي المعتصم. ورجع المعتصم إلى بغداد من طرسوس بعد دفن أخيه.

كان على المعتصم أعمال جسام منها قتال بابك والقضاء عليه، وقد تمكّن من ذلك، ومنها حرب الروم وتأديبهم على مناصرتهم أعداء الدولة وخاصةً بابك، وقد استطاع ذلك.

واستخدم المعتصم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد، وتضايق الناس منهم، حتى اضطر أن يُقيم مدينة سامراء في مكان «القاطول» حيث كان يصيف الرشيد أحياناً أو يقضي بعض وقته، وهي إلى الشمال من بغداد على بعد مائة كيلو متر منها، وانتقل إليها عام ٢٢٠. ولعلّ من الأمور التي استدعت المعتصم إلى زيادة الجند الأتراك قضية ابن أخيه العباس بن المأمون إذ ندم على ما يظهر على هذه البيعة بعد أن لامه

عدد من الأمراء والقادة، وحرّضه بعضهم على المخالفة والفتك بعمّه وخاصةً عندما كان معه في طريقهما إلى عمورية، غير أن العباس رفض ذلك كي لا يحرم المسلمين من الغزو، وفي العودة حرّضه بعض الأمراء للفتك بعمّه في بعض الفجاج فأحسّ المعتصم بذلك فقبض على العباس وقيّده وسجنه، وحقق في الموضوع حتى أحاط بكل دقائقه، ثم قتله ومن كان معه في هذه القضية، وربما أكثر المعتصم بعدها من جلب الأتراك إذ أن عدداً من الأمراء بدا عليه الخوف، ولم يعُد يأمنهم.

وغضب المعتصم على قائده الإفشين بما وصل إليه من تشجيعه لمازيار، كما اتُهِم أنه من وراء «منكجور»، وتغيّر فلما شعر الإفشين بهذا التغيّر، فكر بالفتك بالمعتصم وقوّاده بالسمّ، كما فكر بالفرار إلى أرمينيا، ومنها إلى بلاد الخزر، فاستدعاه وحبسه وذلك في عام ٢٢٥، ولم يلبث أن مات الأفشين في السجن عام ٢٢٦. وأما ابنه الحسن بن الأفشين فقد كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر أن يحتال عليه، فكتب عبد الله بن طاهر للحسن بولايته على المشرق مكان نوح بن أسد، وكتب إلى نوح يأمره أن يعتقل الحسن عندما يأتي إليه، وكانت ضغائن بين نوح والحسن. وسار الحسن بن الأفشين إلى المشرق ليتولى أمره من نوح فقبض عليه نوح وسيّره إلى عبد الله بن طاهر الذي وجّهه بدوره إلى المعتصم.

واحتجم المعتصم فأصابته علّة فتوفي من أثرها، وكانت وفاته في السابع عشر من شهر ربيع الأول من عام ٢٢٧، وكان عمره يومذاك ثماني وأربعين سنة.

وتابع المعتصم مقالة المأمون في خلق القرآن، وقد امتحن أحمد بن حنبل، رحمه الله، في هذه القضية وناله ما ناله من العذاب.

الحركات(٧٠)

١ ـ توفي المأمون ولا يزال أمر بابك الخرمي قوياً، واعتنق عدد من سكان الجبال مذهب الخرمية في السنة التي توفي فيها المأمون، فأرسل إليهم المعتصم جيشاً قوياً بإمرة إسحاق بن إبراهيم فانتصر عليهم. ثم سيّر إليهم عام ٢٢٠ جيشاً آخر بإمرة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصراً آخر على هؤلاء الخرمية، وجهز جيشاً أيضاً بإمرة حيدر بن كاوس الأشروسني وهو المعروف باسم الإفشين، والإفشين لقب أمراء أشروسنة قبل الإسلام، وأمدّ الإفشين بقوةٍ كبيرةٍ أيضاً بقيادة بُغا الكبير. تعرّف الإفشين قبل قتاله الخرّمية على مناطقهم وطريقتهم في الحروب التي غالباً ما كانت ليلاً وعلى شكل غاراتٍ سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات. وبقي الإفشين سنتين كاملتين في قتال بابك، وتمكّن من دخول مدينة «البذ» مقر بابك وحصنه المنيع في التاسع من رمضان عام ٢٢٢.

وكان أتباع بابك عندما تحلّ بهم الهزيمة يلجؤون إلى بلاد الروم فيقيمون في المرتفعات، ويضمّهم الروم إلى جنودهم الذين يرسلون لقتال المسلمين. وعندما حوصر بابك في «البذ» أرسل إلى تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم يحثّه على مهاجمة المسلمين، ويشجّعه بأن الخليفة لم يبقَ لديه من الجند ما يكفي لحراسته إذ بعث بكل ما لديه إلى القتال في أذربيجان ضد الخرّمية. وقد دفع هذا تيوفيل إلى الاعتداء على المسلمين. وفرّ بابك من «البذ» غير أن الإفشين قد تمكّن من إلقاء القبض عليه، وحمله إلى سامراء مع بعض أتباعه ووصل إلى سامراء عام ٢٢٣. فقُتل بابك ومن حمل معه من الأسرى. وهكذا انتهت حركة بابك الخرمي بعد أن أقضّت مضاجع المسلمين مدةً تزيد على عشرين سنة.

٢ ـ في عام ٢١٩ خرج في الطالقان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فانتصر عليه عبد الله بن طاهر ففرّ مختفياً، فلمّا كان بـ (نسا) دُلّ عليه فأُخذ إلى عبد الله بن طاهر فسيّره إلى المعتصم، فسجنه فلما كانت ليلة عيد الفطر هرب من السجن، واختفى عن أعين الدولة.

٣ ـ وعاث الزطّ الفساد في منطقة البصرة فأرسل إليهم المعتصم قوةً بإمرة عجيف بن عنبسة فغلبهم، وبقي في ملاحقتهم وتتبع أفرادهم ما يقرب من تسعة أشهر، وقد أرهبهم إذ كان يقتل كل من يستطيع القبض عليه.

٤ ـ أظهر «مازيار بن قارن» خلاف المعتصم في طبرستان، وقد كان مازيار على خلافٍ مع عبد الله بن طاهر، ويبدو أن الأفشين قد شجّع مازيار إذ كان يطمع في ولاية خراسان، فوجه عبد الله بن طاهر جيشاً لقتال «مازيار» عن أمر المعتصم، كما بعث المعتصم جيشاً من بغداد لقتاله فلما أحدقت الجيوش بمازيار طلب الأمان فأُعطيه.

٥ ـ وفي عام ٢٢٤ أظهر الخلاف منكجور الأشروسني، وكان الإفشين قد ولاه أذربيجان بعد الانتهاء من قتال بابك الخرمي، فأصاب على مالٍ عظيمٍ من قرى الخرّمية، فأخذه لنفسه، ولم يُعلم الإفشين، ولا الخليفة، فأخبرَ عنه بعض الشهود، فأنكر منكجور وهمّ بقتل المخبر الشاهد الذي التجأ إلى أردبيل واستغاث بأهلها فمنعوه، ووصل الخبر إلى المعتصم فطلب من الإفشين أن يعزله، فوجّه إليه الإفشين قوةً كبيرةً فلما علم منكجور خلع الطاعة، وجمع حوله الصعاليك، واعتصم بالحصون، ولم يلبث سوى شهر حتى وثب عليه أصحابه، وسلموه لجيش الإفشين فحُمل إلى سامراء.

٦ ـ وخرج في فلسطين عام ٢٢٧ أبو حرب المبرقع اليماني وذلك بسبب قتله جندي اعتدى على داره فهرب عندما طلبه الخليفة، ولجأ إلى بعض جبال الأردن، ووضع على وجهه برقعاً كي لا يعرف، وادعى أنه من بني أمية عندما كثر أتباعه أرسل له المعتصم، وكان عليلاً في علّة المرض الذي مات فيه، رجاء بن أيوب فوجده كثير الرجال فتركه حتى وقت الزرع إذ تركه رجاله وانصرفوا إلى أعمالهم، فنازله وتمكّن من أسره وحمله إلى سامراء.

مَعَ الرُّوم

لما حثّ بابك تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم على قتال المسلمين، وأن جندهم جميعهم في أذربيجان طمع تيوفيل في بلاد المسلمين فسار على رأس مائة ألف، وسارت معه الخرمية الذين التجؤوا إلى بلاده، واتجه إلى حصن «زبطرة» فخرّب البلد، وسبى النساء، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى ومثّل بكل من وقع في يده، ولما انتهى من «زبطرة» سار إلى ملاطية فأغار على أهلها، وعلى حصون المسلمين.. ووصل الخبر إلى المعتصم فأعلن النفير، وسار على رأس الجيش، وعسكر في غربي نهر دجلة. وبعث عجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني نجدةً لأهل زبطرة فوجدا أن الروم قد ارتحلوا عنها بعد أن فعلوا بأهلها ما فعلوا.

ولما انتهى المعتصم من أمر بابك سار إلى بلاد الروم، وسأل عن أقوى الحصن فقيل له عمورية ولم يتعرض لها أحد من القادة المسلمين من قبل، وأنها عين النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية[١]. وأقام هو على نهر سيحان[٢]، وأمر الإفشين أن يدخل بلاد الروم عن طريق «الحدث»، كما أمر «أشناس» أن يدخل بلاد الروم عن طريق طرسوس، وحدد لهما يوماً يلتقيان فيه عند أنقرة. ودخل المسلمون أنقرة، وساروا بعدها إلى عمورية، وكان المعتصم على القلب، والإفشين على الميمنة، وأشناس على الميسرة، وأرهبوا السكان فيما بين أنقرة وعمورية والمسافة

(١) تاريخ الطبري، الجزء التاسع.

(٢) سيحان: نهر يصب في البحر المتوسط شرقي طرسوس، ويسميه ابن الأثير «السن» والطبري «اللمس».

بينهما سبعة مراحل (١٤٠ كيلو متر)، ووصل المعتصم إلى عمورية في السادس من رمضان عام ٢٢٣، وحاصر المسلمون المدينة، وتمكّنوا من إحداث ثغرة في سورها، دُلّوا على مكانها، كان السيل قد هدّمها، ورُفعت بشكلٍ سريعٍ على حجرٍ واحدٍ سُمكاً، فدكّها ودخلوا المدينة، وكان لهذا الفتح أثر عظيم بما قوّى من معنويات المسلمين، وما أضعف من معنويات الروم. وخلّد هذا النصر أبو تمام بقصيدته التي يذكر فيها هذا الفتح ويمدح المعتصم والتي يقول فيها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب[١] في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في مُتونهنّ جلاء الشّكّ والرّيب
والعلم في شُهب الأرماح لامعةً بين الخمسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً مُلفقةً ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولا غرب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تَفَتّحُ أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفّلاً معسولة الحلب
أبقت جَدّ بني الإسلام في صعدٍ والمشركين ودار الشرك في صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
تدبير معتصم بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ في الله مرتغب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
لبيت صوتاً زبطرياً[٢] هرقت له كأس الكرى ورضاب الخُرّد العُرُب

---

(١) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.

(٢) كانت امرأةٌ اعتدي عليها في «زبطرة» فصرخت «وامعتصماه» فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

حتى تركت عمود الشرك مُنعفراً ولم تعرّج على الأوتاد والطُّنُب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ موصولةٍ أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

الإمارات

لم تتغير أوضاع الإمارات المستقلة عن الدولة العباسية أو المنفصلة عما كانت عليه أيام المأمون.

١ ـ **الدولة الرستمية** كان يحكمها أفلح بن عبد الوهاب.

٢ ـ أما دولة **بني مدرار** فقد خلع مدرار بن أبي المنصور نفسه من الحكم، وولى مكانه ابنه ميمون بن الرستمية، وطرد ابنه الآخر ميمون بن بقية وذلك عام ٢٢١ فنشأ خلاف بين الطرفين استمر ثلاث سنوات، تغلّب إثر ذلك ميمون بن بقية حيث كانت الصفرية تدعمه، وعندما استقر الوضع لميمون بن بقية طرد أخاه ميمون بن الرستمية إلى وادي درعه، ونصّب أباه ثانيةً إماماً، وهكذا عاد مدرار بن أبي المنصور مرةً أخرى حاكماً للدولة غير أنه عاد وطلب ابنه ميمون بن الرستمية فعندها أرغمت الصفرية ميمون بن بقية على قبول الإمامة، وطرد أبيه، فطرد إلى إحدى قرى سجلماسة حيث بقي فيها حتى توفي عام ٢٥٣.

وبقي ميمون بن بقية حاكماً لدولة بني مدرار وإماماً للصفرية حتى عام ٢٦٣.

٣ ـ وكان يحكم **الأندلس** عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقد أرسل إليه تيوفيل بن ميخائيل ملك بيزنطة وفداً وهدايا في محاولةٍ لعقد حلف بينهما ضد العباسيين، وقد كان ذلك عام ٢٢٥ بعد الهزيمة التي مُني بها الروم أمام المعتصم في أنقرة وعمورية. وقد ذكّر تيوفيل عبد الرحمن بمعاداة العباسيين لبني أمية وتخليص الحكم منهم، وما قُتل من الأمويين على أيدي بني العباس، وردّ عبد الرحمن بإرسال وفدٍ إلى القسطنطينية،

ونال من العباسيين، ولكن لم تتعد الوفود الكلام المعسول الذي يلائم كلا الطرفين.

٤ ـ **الأدارسة**: توفي محمد بن إدريس الثاني عام ٢٢١ فخلفه ابنه علي بن محمد، وكان عمره تسع سنوات عندما تولى الحكم، ولُقِّب باسم حيدرة، واستمر في الحكم ثلاث عشرة سنة حيث توفي عام ٢٣٤. ولم يحدث في أيام علي بن محمد ما يستحق الذكر.

٥ ـ **الأغالبة**: توفي زيادة الله بن إبراهيم عام ٢٢٣، ولم يتمكن المسلمون من فتح (قصر يانه) إذ ساروا إليها عام ٢١٩ ولم يستولوا عليها، وكانوا يعودون إليها مرةً بعد أخرى ثم يرتدون عنها فيحاولون دخول غيرها من المدن.

وعندما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عفان الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب فأزال المظالم، ومنع الخمر في القيروان، وأرسل الجند إلى صقلية، وأخذ المسلمون عدة حصون في الجزيرة في أيامه، كما انتصروا على أسطولٍ رومي فعاد إلى القسطنطينية مهزوماً، وسارت سرية إلى (قصر يانة) فحاصرتها، وتوفي أبو عفان عام ٢٢٦ وهو في الثالثة والخمسين من عمره وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

* * *

- ٩ -

الوَاثِـق

هَـارُون بن محـمّد

٢٢٧-٢٣٢هـ

ولد هارون الواثق في العشرين من شهر شعبان من عام ستةٍ وتسعين ومائة بطريق مكة المكرمة، وكان أبيض مشرباً بالحمرة، جميلاً، ربعة، حسن الجسم، على عينه اليسرى نكتة بياض، شاعراً، وراوية للشعر، حليماً صابراً. وكان عمه المأمون يفضّله على بعض ولده. وأمّه أمّ ولدٍ تُدعى «قراطيس».

بويع بالخلافة في التاسع عشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وعشرين ومائتين بعد وفاة أبيه المعتصم. وكان يقول بخلق القرآن كأبيه وعمّه وذلك في أول أمره، وأرسل إلى أمير البصرة يمتحن الأئمة وأهل العلم بهذا القول. وقتل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي كان ذا منزلةٍ إذ كان جده مالك بن الهيثم أحد دعاة بني العباس الأوائل والمقدّمين، كما كان أحمد من أهل الحديث والعلم، وقد رفض القول بخلق القرآن، وتهجّم وحمل على القائلين تلك المقالة، وبدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأحضره الواثق من بغداد إلى سامراء وقتله، غير أن الواثق قد عدل عن هذه المقالة في آخر أمره.

ولما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق وحاصروا أميرهم فبعث إليهم الواثق قوةً بإمرة رجاء بن أيوب الحضاري وقد عسكروا في مرج راهط فقاتلهم في دوما، وانتصر عليهم، وأصلح أمر دمشق وسار بعدها إلى فلسطين لقتال أبي حرب المبرقع.

وفي عام ٢٢٩ حبس الواثق كتّاب الدواوين، وضرب بعضهم، وفرض على بعضهم مالاً كبيراً، إذ اتهم هؤلاء الكتّاب بالخيانة وعدم الإخلاص بالعمل.

وفي عام ٢٣٠ عاث الأعراب حول المدينة فساداً فأرسل إليهم الواثق جيشاً عليه بغا الكبير فغلبهم، وأدّب القبائل التي أساءت كبني سُليم بين مكة والمدينة، وغطفان في شرق المدينة، وبني نمير من تميم.

أما بالنسبة إلى بلاد الروم، فقد مات تيوفيل بن ميخائيل عام ٢٢٧، وكان ابنه ميخائيل صبياً صغيراً، فحكمت الروم أم ميخائيل «تيودورة». وقد تبادل المسلمون والروم الأسرى عام ٢٣١ وكان عدد أسرى المسلمين ٤٣٦٢ أسيراً، وعدد أسرى الروم أكبر من هذا بكثير. وبعد تبادل الأسرى غزا أحمد بن سعيد بلاد الروم شاتياً.

ومات عبد الله بن طاهر والي خراسان عام ٢٣٠ فولّى الواثق مكانه ابنه طاهراً، فأصبحت ولاية خراسان وراثيةً.

وخرج محمد بن عمرو الخارجي في ديار ربيعة، فأُسر وسيق إلى سامراء حيث قُتل.

وتوفي الواثق في نهاية عام ٢٣٢ (٢٤ ذي الحجة)، وبويع بعده أخوه المتوكل بن المعتصم، ولم يزد حكمه على خمس سنوات، وتسعة أشهر وعدة أيام.

أما بالنسبة إلى الإمارات فلم يتغير وضع دولتي الخوارج الأباضية في تاهرت والصفرية في سجلماسة فالأولى يحكمها أفلح بن عبد الوهاب والثانية يحكمها ميمون بن بقية. وكذلك فإن دولة الأدارسة يحكمها علي بن محمد بن إدريس من قبل عهد الواثق.

وكان حاكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقامت الحرب بينه وبين والي «تطيلة» موسى بن موسى وذلك عام ٢٢٨. وأغار الفرنجة على بلاد المسلمين عن طريق البحر، فأغاروا على شذونة وانتقلوا منها إلى إشبيلية، وهزموا المسلمين عدة مرات، وباتوا على مقربة من إشبيلية يوماً وليلة ثم خرجوا إلى مراكبهم في النهر، وسمع عبد الرحمن بالخبر فأرسل

قوةً لأهل أشبيلية قاتلت الفرنجة الذين تراجعوا وخرجوا إلى «لبله» حتى قُهروا.

أما الأغالبة فقد كان والي القيروان أبو العباس محمد بن الأغلب الذي سيّر عام ٢٢٨ الفضل بن جعفر الهمداني على رأس قوةٍ بحريةٍ نزلت في ميناء «ماسينا»، وبقي الفضل هناك يقاتل مدة سنتين، واستطاع المسلمون من دخول مدينة «ماسينا» عام ٢٣٢، وكذلك سار أبو الأغلب العباس بن الفضل الفزاري على رأس سريةٍ عام ٢٢٩ دعماً للمسلمين هناك، وقد تولى قيادة فتح صقلية وإتمامه.

ووقعت الحرب بين محمد بن الأغلب وأخيه أحمد بن الأغلب فانتصر محمد بعد هزيمة، ونفى أخاه أحمد إلى المشرق فمات بالعراق. ولما انتهى محمد من أخيه أحمد فوجئ بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب، وكان محمد قد عزله عن هذه الإمارة فأظهر الخلاف، وسار نحو القيروان، وجرت بين الطرفين معارك كان نتيجتها قتل سالم وانتهاء أمر حركته.

* * *

- ١٠ -

المتوكّل

جَعفر بن محمّد المعتَصِم

٢٣٢-٢٤٧هـ

وُلد جعفر المتوكل عام ٢٠٥، وأمّه أمّ ولد تُسمّى «شجاع»، وكان أسمر، حسن العينين، خفيف العارضين، نحيفاً. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق في ذي الحجة من عام ٢٣٢، وكان الجند الأتراك يرغبون في تولية محمد بن الواثق، ولكنهم استصغروه فعدلوا عنه إلى جعفر المتوكل، وكان أول من بايعه أحمد بن أبي دؤاد.

أمر بالقبض على وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيّات حيث كان يكرهه إذ كان ابن الزيّات يرغب بأخذ البيعة لمحمد بن الواثق، ويحرص في زيادة بغض الواثق للمتوكل وقد مات في السجن بعد مدة وجيزة من العذاب. كما غضب على جماعةٍ من كتّاب الدواوين، وولّى ابنه المنتصر على الحجاز واليمن.

وأمر بالقبض على القائد «إيتاخ» وأودعه السجن الذي بقي فيه حتى مات.

وأمر أهل الذمّة أن يتميزوا بلباسهم عن المسلمين. كما أمر بهدم البيع والكنائس المحدثة في الإسلام.

وأمر بهدم قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، في كربلاء، وكذلك المنازل التي حوله.

وغضب بعد ذلك وفي عام ٢٣٧ على أحمد بن أبي دؤاد، وكان قد أصابه الفلج ثم توفي سنة ٢٤٠.

وبايع لأبنائه الثلاثة من بعده بولاية العهد: محمد وسمّاه المنتصر،

والزبير وسمّاه المعتز، وإبراهيم وسمّاه المؤيد. وضمّ لابنه المنتصر إفريقية والمغرب، وجزيرة العرب، والثغور الشامية، وضمّ للمعتز خراسان، وطبرستان، والري، وفارس، وأرمينيا، وأذربيجان. وضم لابنه المؤيد بلاد الشام.

ومنع القول بخلق القرآن، وكتب بذلك المنع إلى الأمصار، وأزال المحنة التي وقعت بسبب ذلك، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل، واستدعاه من بغداد إليه وأكرمه، ولم يكن ليولي أحداً القضاء حتى يستشيره، وكان تعيين يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة مكان ابن أبي دؤاد عن رأيه. وقد أخذ المتوكل بمذهب الإمام الشافعي، ويعدّ أول الخلفاء بهذا الأخذ. وفي سنة ٢٤٠ عزل يحيى بن أكثم من منصب قاضي القضاة.

سار المتوكل إلى دمشق بعد أن أحبها وأراد أن ينتقل إليها ويجعلها مقراً للحكم، ووصل إليها عام ٢٤٤، وأمر ببناء القصور، ونقل الدواوين، ثم لم يطب له جوها فغادرها، وقد عمل على بناء القصور على طريق داريّا أي من جهة الجنوب من دمشق، وبنى له قصراً بداريّا. وكان يقول: إن الخلفاء تتصعب على الرعية لتطيعها، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني.

وعندما رجع من دمشق التي لم يمكث فيها أكثر من شهرين وعدة أيام أمر ببناء مدينة الماحوزة قرب سامراء، وعرفت باسم المتوكلية، كما تعرف باسم الجعفرية، وبنى فيها قصر الخلافة الذي يُدعى قصر اللؤلؤة وسمي بالجعفري نسبةً إليه، وانتقل إلى المدينة الجديدة سنة ٢٤٦.

وفي أواخر حياته أراد تقديم المعتز على أخيه المنتصر، فطلب من المنتصر أن ينزل عن العهد فرفض، فكان بعدها يُحقّره، ويحطّ من منزلته أمام العامة، وهذا ما أوغر صدر الابن على أبيه. وانحرف الترك عن المتوكل لأمور، فاتفقوا مع ابنه المنتصر على قتل أبيه فدخلوا عليه في أواخر أيام عيد الفطر، وقتلوه في جوف الليل مع وزيره الفتح بن خاقان، وبايعوا للمنتصر، وقد رثاه البحتري بقصيدةٍ إذ كان حاضراً مصرعه، ولكن لم ينله أذى إذ اختبأ، ومطلع هذه المرثية:

محل على «القاطول»أخلق داثره … وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

ويقول فيها:

تغيّر حسن «الجعفري» وأُنسه … وقوِّض بادي «الجعفري» وحاضره
تحمّل عنه ساكنوه فُجاءةً … فعادت سواءً دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى … وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سِربه … وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهُتّكت … على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به … أنيس، ولم تحسُن لعينٍ مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً … بشاشتها، والمُلك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها … وبهجتها والعيش غضّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت … بهيبتها أبوابه ومقاصره؟
وأين عميد الناس في كلّ نوبةٍ … تنوب، وناهي الدهر فيهم وآمره؟
تخفّى له مُغتاله تحت غِرّةٍ … وأولى لمن يغتاله لو يُجاهره
فما قاتلت عنه المنونَ جنودُهُ … ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر «المعتز» من كان يُرتجى … له، وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرّض ريب الدهر من دون «فتحه» … وغيّب عنه في خراسان «طاهره»
ولو «لعبيد الله» عون عليهم … لضاقت على ورّاد أمرٍ مصادره
حلوم أضلّتها الأماني، ومدّة … تناهت، وحتف أوشكته مقادره
ومغتصَب للقتل لم يُخش رهطه … ولم يحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً … يجود بها والموت حمر أظافره
أُدافع عنه باليدين، ولم يكن … ليثني الأعادي أعزال الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي … درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى … دماً بدمٍ يجري على الأرض مائره

وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر ... يد الدهر، والموتور، بالدم واتره؟

أكان وليّ العهد أضمر غدرةً؟ ... فمن عجبٍ أن وُليّ العهد غادره

فلا مُلّي الباقي تراث الذي مضى، ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ولا وأل المشكوك فيه، ولا نجا ... من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفر» ... هرقتم، وجنح الليل سود دياجره

كأنّكُمُ لم تعلموا مَنْ وليّه ... وناعيه تحت المرهفات وثائره

وإني لأرجو أن تردّ أموركم ... إلى خلفٍ من شخصه لا يغادره

مُقلّب آراءٍ تُخاف أناته ... إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

* * *

الحركات[70]

١ ـ فرّ محمد بن البعيث من السجن، وكان قد جيء به من أذربيجان أسيراً، واتجه بعد فراره إلى أذربيجان، وقصّر واليها محمد بن حاتم بن هرثمة في طلبه فقوي أمره. فولّى المتوكل على أذربيجان حمدويه بن علي بن الفضل السعدي فسار إلى ابن البعيث الذي اعتصم بمدينة «مرند» وأرسل إليه القوة إثر الأخرى حتى تمكّن بغا الشرابي من محاصرته، ثم أسره، وحمله إلى سامراء فعفا عنه المتوكل بعد أن همّ بقتله.

٢ ـ ادعى محمود بن الفرج النيسابوري النبوة في سامراء وأيّده بعض الناس، فقبض عليهم، وضُرب النيسابوري حتى مات، وألقي أصحابه في السجن.

٣ ـ طلب كبير البطارقة في أرمينيا الإمرة فقبض عليه الوالي يوسف بن محمد وقيّده وبعث به إلى الخليفة، فأسلم وابنه، أما نصارى أرمينيا فقد حاصروا يوسف بن محمد فقاتلهم حتى قُتل فأرسل إليهم المتوكل جيشاً بقيادة بُغا الشرابي فسار إليهم عن طريق الجزيرة فأخذ قتلة يوسف بن محمد فقتل من قتل، وباع من باع، ووطّد الأمن بأرمينيا ثم سار إلى تفليس فحاصرها ودخلها.

٤ ـ وفي ٢٤٠ ثار أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل أحد أشرافهم، وأخرجوه من مدينتهم، فأرسل إليهم المتوكل عاملاً جديداً فقبلوه رغم أنه أغلظ عليهم، وهو محمد بن عبدويه، وسكن الوضع، غير أن نصارى حمص قد حرّكوا الفتنة من جديد فوثب السكان على محمد بن عبدويه، وأرادوا قتله وذلك عام ٢٤١ فكتب إلى

الخليفة المتوكل الذي أمر والي دمشق أن يدعم عامل حمص، وأن يُخرج النصارى من حمص، وأن يهدم كنيستها العظمى.

٥ ـ ظهر في سجستان عام ٢٣٧ يعقوب بن الليث، وكان من قبل مع صالح بن النضر الكناني الذي غلب على المنطقة، ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان استعادها منهم. ثم عاد فغلب عليها درهم بن الحسين، وكان معه يعقوب، ولما كان درهم ضعيفاً لذا فإن المخالفين قدّموا عليهم يعقوب بن الليث.

* * *

مَعَ الرُّوم

أغار الروم على الميناء المصري دمياط عام ٢٣٨، وقد جاءوا في ثلاثمائة مركب، ففر الناس من وجههم فمروا على بحيرة المنزلة فنجا الرجال وغرق عدد من الصبيان والنساء. وقد أحرق الروم ما وصلوا إليه من دورها، ونهبوا ما استطاعوا نهبه، وقتلوا ما أمكنهم قتله من الرجال، وسبوا حوالي ستمائة امرأة، وحرقوا المسجد الجامع، ثم رجعوا دون أن يتعرّض لهم أحد.

وغزا علي بن يحيى الأرمني بلاد الروم على رأس صائفة في عامين متتاليين ٢٣٨ و ٢٣٩.

وفي عام ٢٤١ قتلت ملكة الروم «تيودورة» اثني عشر ألف أسير من المسلمين، وكانوا قد قاربوا العشرين ألفاً، وقد عرضت الملكة على الأسرى النصرانية فمن قبلها منهم عاش بين الروم، ومن رفضها قُتل فرفضها الأسرى فقتلت منهم هذا العدد، وأغار الروم هذا العام على عين زربة قرب المصيصة، وأسروا أعداداً من الزط وذلك بعد طلب الفداء، وتمّ فداء سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومائة وخمس وعشرين امرأة من المسلمين. وغزا بعدها علي بن يحيى الروم.

وفي العام التالي أغار الروم على بلاد الجزيرة من ناحية شِمشاط[(١)] وذلك بعد خروج علي بن يحيى، ونهبوا عدة قرى، وأسروا ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، وقاربوا مدينة آمد، ثم رجعوا إلى بلادهم فارّين ولحق

---

(١) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات.

بهم المتطوعة من المسلمين وعمر بن عبد الله الأقطع فلم يدركوا أحداً منهم، وكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يدخل بلاد الروم شاتياً.

أزاح ميخائيل بن تيوفيل أمه عن حكم بلاد الروم، واتهمها في أخلاقها و. . . وتسلّم هو الأمر وكان قد كبر.

وفي عام ٢٤٣ وجه المتوكل من دمشق القائد بغا لغزو بلاد الروم فدخلها على رأس صائفة.

وطلب ملك الروم ميخائيل بن تيوفيل المفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٤٥ ولكن لم تتم إلا بعد عام، وأغار الروم في هذه السنة على مدينة «سُميساط» فقتلوا وسبوا ما يقرب من خمسمائة مسلم، وغزا علي بن يحيى الأرمني الروم على رأس صائفة، كما غزا الصائفة أيضاً في العام التالي، وغزا أيضاً عمر بن عبد الله الأقطع في العام نفسه وفي الصيف وكان على رأس قوة، وغزا المسلمون بلاد الروم عن طريق البحر إذ سار الفضل بن قارن في عشرين راكباً إلى إنضاليا وفتحوها، وكان ما أخذ المسلمون من الروم، أسارى في هذا العام أكثر من ثمانية عشر ألفاً. وتمّ فداء ٢٣٦٧ مسلماً، منهم عشرون امرأةً، وعشرة من الصبيان.

وأغار البجاة على جيش في مصر، ونهبوا كثيراً، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين فأرسل لهم المتوكل جيشاً بإمرة محمد بن عبد الله القمي فأقبل إليه ملك البجاة علي بابا في جموع عظيمة، فانتصر المسلمون عليهم ـ بإذن الله ـ وأُخذ علي بابا أسيراً فحمل إلى سامراء فعفا هناك عنه المتوكل. وجعله ملكاً على بلاد البجاة باعتبارها جزءاً من أملاك الخليفة حسب المعاهدة السابقة. كما جعل المتوكل الأمير محمد بن عبد الله القمي أميراً على المنطقة المجاورة لبلاد البجاة.

الإمارات

لم يتغير شيء في وضع دولتي الخوارج الأباضية والصفرية في بلاد المغرب.

أما في الأندلس فقد توفي عبد الرحمن الأوسط عام ٢٣٨ فخلفه ابنه محمد الأول، وقامت في عهده ثورات في شمالي الأندلس في برشلونة، وطليطلة وغيرها فأرسل إليها حملات أحرزت النصر، ووطدت الأمن في تلك الجهات، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٢٧٣.

وأما الأدارسة فقد ملكهم علي بن محمد حتى توفي عام ٢٣٤ فخلفه أخوه يحيى «الأول» بن محمد فتوسعت في عهده الدولة، وهدأت الأوضاع، ولما مات خلفه ابن أخيه يحيى«الثاني» بن علي بن محمد وكان سيئاً فثار عليه الناس واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على مدينة فاس، فأرسلت زوجة يحيى إلى أبيها والي بلاد الريف علي بن عمر بن إدريس فجاء وأخمد حركة ابن أبي سهل وسيطر على البلاد.

وأما الأغالبة فقد خرج عمرو بن سليم التجيبي بمدينة تونس على محمد بن الأغلب، وانتصر على جيشٍ بعثه ابن الأغلب إليه غير أنه هُزم في المعارك التي تلت ذلك وقُتل. وفتح المسلمون في جزيرة صقلية مدينة «قصريانة» وهي مقر الحكم بعد أن كانت «سرقوسة» إذ نقل إلى الأولى بعد أن دخل المسلمون الثانية وكان فتح «قصريانة» عام ٢٣٧. وتوفي أمير الأغالبة أبو العباس محمد الأول عام ٢٤٢ فخلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وفي عهده ثار البربر في منطقة طرابلس وهزموا عاملها عام ٢٤٥ فأرسل إليهم أحمد أخاه زيادة الله فانتصر عليهم وغلب على أمرهم.

ومع انتهاء حكم المتوكل على الله انتهى العصر العباسي الأول وهو عصر القوة، وبدأ عصر الضعف حيث تسلّط العسكر على الحكم فحكموا من وراء الخلفاء الذين كانوا صورةً بل ألعوبة أحياناً بيد العسكريين، وأذلّوا الشعب وبالتالي بدأت الدولة تتداعى وينهدّ منها ركن بعد ركن حتى تهاوت على أيدي التتار، وقد تراخى أبناؤها وذُلّ أفرادها . . . الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

— ٦ —

الدولة العباسية

الجزء الثاني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السادسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مُقدِّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدّين **وَبَعْد**

فإنّ بداية العصر العباسي الثاني لهي بداية عهد الضعف الذي أصاب المسلمين واستمر مدةً زادت على عشرة قرون. ولم يكن هذا العصر عصر ضعفٍ فحسب وإنما يُعدّ زمناً مجهولاً بالنسبة إلى كثيرٍ من الناس، وذلك لأنه مرحلة ضعفٍ أولاً، ولظهور دويلاتٍ ذات شأن، وقد حملت هذه الدويلات على عاتقها مقاومة أعداء الإسلام فبرزت كآل زنكي والأيوبيين في بلاد الشام وقد قاوم كلاهما الصليبيين، والحمدانيين في شمالي بلاد الشام، في الموصل وحلب، وقد قاتلوا الروم، وكانوا على الثغور، والغزنويين في أفغانستان، وقد فتحوا أجزاء من بلاد الهند، وعملوا هناك على نشر الإسلام، فظهرت هذه الدويلات، وطغت في كثيرٍ من الأحيان على مركز الخلافة في بغداد رغم أنها كانت دويلاتٍ تابعةً لها.

وامتاز هذا العصر بنقاطٍ يحسُن بحثها مقدماً كي أتمكّن من إعطاء صورةٍ واضحةٍ عن هذه المرحلة التاريخية، ويُمكن بعدها أن أذكر الجوانب السياسية التي تطغى عادةً على بحوث المؤرخين فتترك الصورة للسياسة بارزةً وتُهمل الميزات العامة الأساسية التي يمكن أن تشمل على أفكارٍ ومعايير مهمةٍ بالنسبة إلى الفكر، ولعلّ أهم ما امتازت به هذه المرحلة التي تمتدّ من ٢٤٧ ـ ٦٥٦ أي على أكثر من أربعمائة سنة بـ:

١ ـ السيطرة العسكرية على مركز الخلافة.

٢ ـ نشوء دويلاتٍ نتيجة بروز قادةٍ استقلّوا في مناطقهم، ولم يكن للخليفة من أمرٍ سوى الاعتراف بالواقع، واعتماد قيام القائد بأمر الولاية.

٣ ـ ظهور نتائج الحضارة الإسلامية السابقة لهذا العصر على شكل علمٍ وعمرانٍ ورفاهيةٍ.

٤ ـ ظهور نتائج الرفاهية، وقيام حركات ردّ فعلٍ بصبغةٍ تحمل اسم الدين بادعاء النسب الهاشمي، وقيام الحركات الباطنية من وراء ذلك كلّه.

٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد المسلمين.

٦ ـ الغزو المغولي، والقضاء على الخلافة العباسية، وسقوط بغداد عام ٦٥٦ كنهاية هذا العصر.

وسأتعرّض لشرح هذه النقاط ـ إن شاء الله ـ كي أعطي الصفة العامة لهذه المرحلة، ثمّ أنتقل لدراسة الخلفاء، وما حدث في عهد كل واحدٍ منهم، وفي هذه الدراسة لن تُدرس الدويلات التي نشأت بشكلٍ تفصيلي ومتتابعٍ وإنما على شكلٍ متقطّعٍ، ويمكن جمعها من عهد كل خليفةٍ عاصرته، وكذلك سيكون الغزو الصليبي والغزو المغولي فأرجو من الله أن أوفّق في بحثي هذا، وأن يكون عملي خالصاً لله الذي أستعين به، وأتوكّل عليه، وأطلب منه الهداية، وأبدأ باسمه.

١ - السيطرة العسكرية على مركز الخلافة

قد تختلف فكرة العسكرية في ذلك العصر وما قبله عمّا هي عليه اليوم إذ كان المجاهدون أو المقاتلون يُدعون حين الجهاد أو وقت الحاجة إليهم، وهم ممن يستطيع القتال، منهم من يندفع في سبيل الله إذا كان الغزو في بلاد الكفر، ومنهم من يرغب في الغنائم سواء أكان جهاداً أم قتالاً وذلك عندما ضعُف الإيمان، ومنهم من يُجبر على الخروج إذا فُرض على منطقةٍ معينةٍ عدد من المقاتلين وذلك بعد أن توقّفت الفتوحات وانتهى أمر الجهاد، وغدت الحروب تُشنّ على العُصاة والخارجين على الحكم أو المتمردين وطالبي الزعامة، ومنتقدي الحكم، والخوارج و.... ويُعيّن الأمير أو الخليفة قائداً لهذا الجيش وينطلق، وبعد معركةٍ أو الانتهاء من مهمةٍ يتغيّر القائد، وفي مهمةٍ جديدةٍ قد يصبح قائداً من كان بالأمس جندياً، ويغدو قائد الأمس جندياً، وهكذا تتبدّل القيادة ولا تبقى بيد شخصٍ يُطاع بصورةٍ دائمةٍ. فإذا ما استمر رجل يحمل اللواء لشجاعةٍ فيه، أو لفنٍ في قيادته، وشعر الجند دائماً أنهم تحت إمرته كانت له سيطرة ونفوذ عليهم، واضطر الجند لطاعته، فإذا كان هذا القائد من أصحاب الطموح فإن نفسه تحدّثه في الحصول على السيطرة على الوضع أو الاستقلال عن مركز الخلافة، وتأسيس دولةٍ تحمل اسمه، ولننظر إلى بعض الحوادث التاريخية.

كان خالد بن الوليد في الجاهلية قائد خيلِ قريش ونعرف دوره في غزوة أحد وفي الحديبية، ولما أسلم برز كقائدٍ فذٍّ وبطلٍ مغوارٍ، واشترك بعد أن أسلم مباشرة في غزو مؤتة كجندي ولكن آلت إليه القيادة إذ اختاره المسلمون أميراً عليهم بعد استشهاد القادة الثلاثة، رضي الله عنهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وقد تسلّم الإمرة

فأحسن، واستطاع أن ينسحب بالجيش ويُنقذه من عملية سحقٍ تكاد تكون مؤكّدة، بعد أن بدّل مواقع الفرق وأخّر بعضها وجاء من بعيد مُثيراً سحباً من غبار، والتحم مع العدو بقتال مستميت وأوهم الروم بأن نجدات قد جاءت من المدينة إلى المسلمين. وفي أيام الصدّيق، رضي الله عنه، برز خالد، رضي الله عنه، في حروب الردّة، ثم في فتح العراق، وانتقاله إلى الشام بشجاعةٍ فائقةٍ، وفي معركة اليرموك، ونتيجة هذه المعارك التي خاضها والتي نجح فيها نجاحاً كبيراً، وتجلّت فيها عبقريته الفذّة في القتال أصبح كثير من المسلمين ينظرون إليه نظرةً خاصةً، ويُطيعونه، ويرغبون في قيادته، ويتمنون القتال تحت إمرته، بل إن ذلك ليشجّعهم في الانخراط في صفوف المجاهدين، وحتى ظنّ بعضهم أنه لا يُقهر، ولما خرج أحد قادة الروم الأشدّاء في معركة اليرموك وطلب المبارزة خرج له أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، وأبو عبيدة فارس مقدام وبطل صنديد قد يفوق خالداً، غير أن بعض المسلمين قد طلبوا منه أن يعود ويتقدّم خالد للنزال فإن المعركة في بدايتها وقتل أحد القادة رفع لمعنوية الصديق كبير، وهزيمة لمعنوية الخصم، وألحّ بعض المسلمين على خالد في ذلك حتى اضطروه أن يطلب ذلك من أبي عبيدة ـ وهو خجل منه ـ غير أن أبا عبيدة رفض وأصرّ على البقاء في موضعه، وتمّ النزال، وقتل أبو عبيدة خصمه، وخالد ممن يحترم أبا عبيدة كثيراً، ويعرف فضله ويُقدّمه لما فيه من صفات ولسابقته، وكذا كل مسلم، وخالد مسلم. ولما تولّى أمر المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خاف بفطرته ما آلت إليه نظرة المسلمين بخالد، فكان أول عملٍ عسكريٍ قام به أن عزل خالداً، رضي الله عنه، عن القيادة، وولّى أبا عبيدة، رضي الله عنه، ولم يُبد ما في نفسه، ولكن تكلّم عن أحقية أبي عبيدة وأهليته وسابقته في الإسلام، وقوته وشجاعته التي لا تقلّ عن شجاعة خالد وقوته، وكان عمر، رضي الله عنه، يختار السابقين في الإسلام للإمرة ويُقدّمهم، غير أنّ كثيراً من المؤرخين رجعوا إلى الماضي يفتّشون عما كان بين عمر وخالد، رضي الله عنهما، ليجدوا فيه سبباً لهذا التصرّف، ولكنهم ابتعدوا عن الحقّ، ولم يوفّقوا في تعليل هذا التصرّف، فالماضي جاهلي

يمقته عمر، رضي الله عنه، والإسلام يجبّ ما كان قبله كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وفي العصر الأموي نلاحظ أن بقاء المهلّب بن أبي صفرة والياً على خراسان مدةً قد جعل له طاعةً في المشرق عامةً، وأن دوره الكبير في محاربة الخوارج قد جعل له مهابةً واسعةً في أرجاء الدولة الإسلامية واستمرت لأبنائه من بعده، فابنه يزيد وولايته على العراق وطاعة الناس له عند حركته وكذا بقية أولاده، ودور أحفاده عمر بن حفص في السند والمغرب، ويزيد بن حاتم وأبنائه المهلب وداود وخالد، وأخيه روح في المغرب. وما كان للمهلّب من أثرٍ في المشرق كان لعقبة بن نافع في المغرب حيث يُعدّ قائد الفتح، ولقي الشهادة هناك، وورثت أسرته هذا المجد من بعده فبرز حفيده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، وابنه عبد الرحمن بن حبيب الذي سيطر على المنطقة بالقوة وفرض نفسه، وغزا صقلية، وقاتل الخوارج وخضد شوكتهم هناك، وأخوه الياس، وابنه حبيب، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري في الأندلس. ونجد في العراق عمر بن هبيرة، وابنه يزيد، ويوسف بن عمر الثقفي، وخالد بن عبد الله القسري. وفي خراسان نصر بن سيّار. وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، هؤلاء كلهم بقي لهم أتباع وأنصار بعد ذهابهم بمدة وذلك لأن مدة ولايتهم قد طالت، فقد ثار أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي أيام السفاح ووجد له أعواناً دعموه وحموه، وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيّار في سمرقند ولقي أنصاراً استمروا بجانبه مدةً طويلةً.

وفي العصر العباسي الأول نلاحظ أن عبد الله بن عليّ عمّ السفاح والمنصور قد ارتفع اسمه وعلا ذكره في بلاد الشام وخافه الناس حتى أطاعوه وذلك بعد الانتصار على مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وتتبّعه في بلاد الشام من مدينةٍ إلى أخرى حتى قضى عليه أخيراً في مصر، وما فعله ببني أمية عامة حتى في قبورهم، وهذا الخوف منه والطاعة له قد مكّن له في بلاد الشام حتى طمع بالخلافة أو حدّثته نفسه في ذلك فتحرّك

لها ووافقه الشاميون وساروا معه حتى قُبض عليه. والأمر نفسه بالنسبة إلى أبي مسلم الخراساني الذي اتخذ القتل وسيلةً أرهب به الناس حتى خشيه أنصاره قبل أعدائه، واستمر في خراسان مدةً منذ سار إليها حتى قُضي عليه عام ١٣٧ أي ما يقرب من عشر سنوات، وهذا ما جعل له أتباعاً كثيرين ليس من بني جنسه فحسب كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصفوا ذلك وإنما من الناس الذين يعيشون في تلك الرقعة من الأرض جميعاً بل كان القادة العسكريون العباسيون كلهم يقرّون لهم بالطاعة ويخافونه حتى من كان منهم من بني هاشم بالذات.

ولكل حاكمٍ يصبح أتباع سواء أكانوا من الذين شعروا بعدله وإخلاصه فأحبّوه وساروا معه أم من الذين استفادوا منه أم من الذين يتوقّعون الإفادة منه في المستقبل، فالأمويون قد بقي بعضهم يقوم بحركاتٍ حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويجد له الأتباع والأنصار يدعمونه في حركته، وأكثر حركات الأمويين على العباسيين كانت من قِبَل الأسرة السفيانية وذلك لأن العباسيين عندما قضوا على الأمويين إنما كان همّهم منصرفاً على الأسرة المروانية التي كانت بيدها السلطة والتي كان عدد أفرادها كبيراً بينما لم يهتموا بالأسرة السفيانية كثيراً لأنها تخلّت عن السلطة منذ مدةٍ طويلةٍ ولأن عدد أفرادها كان قليلاً وقد انصرفوا إلى أعمالهم الخاصة وتركوا الحكم وشأنه، وقد فرّ أكثر أبناء الأسرة المروانية أو قتلوا وبقي السفيانيون فقاموا بحركاتٍ ضد العباسيين ووجدوا من يدعو لهم ويؤيدهم لذا عرفت كل حركة لهم باسم «السفيانية». وإذا كان المروانيون الذين نجوا من العباسيين قد انتقلوا إلى الأندلس بعد وصول عبد الرحمن الداخل إليها ونجاحه فيها فإن السفيانيين قد انتقلوا إلى جهات أخرى سواء الذين هربوا من وجه العباسيين أو الذين كانوا يفرّون عندما تفشل حركاتهم فقد كانوا يتجهون إلى جنوبي جزيرة العرب حيث كان لهم شأن بعد ذلك في اليمن وعسير وفي الجهة المقابلة من البحر الأحمر حيث السودان وبلاد النوبة. وإن سابق حكم بني أمية في الشام قد سهّل لعبد الرحمن الداخل في الأندلس لوجود من يساعده في

مهمته، فليس كل إنسانٍ يمكنه أن يذهب إلى منطقةٍ نأت أرضها أم قرُبت ويجد له الأعوان ويتمكّن من إقامة دولةٍ له كما فعل عبد الرحمن هذا، ولو لم يكن للأمويين سابق مجدٍ وعزٍّ لم يستطع أن يدخل الأندلس أبداً بغاية الزعامة وتسلّم الأمر فيها.

ومن هذا المنطلق فقد كان العثمانيون في الزمن الأخير يحرصون على تغيير الولاة باستمرار كي لا يتمكّن الواحد منهم في ولايته كثيراً، ويكسب ودّ أبنائها، ورغم ما في التغيير من أغلاط إلا أنها تبقى أخفّ بعرف الحاكم من الاستقلال بالولاية كالمماليك في مصر والمعنيين والشهابيين في لبنان، والأشراف في الحجاز، ومن هذا المنطلق بالذات يتمّ نقل الضباط القادة وتغيير مواضعهم في هذا الزمن في الدول غير المستقرة والتي تخضع لهزّات، أو التي اعتاد قادتها على التفكير في تغيير الأوضاع واستلام المسؤولية بين الحين والآخر أو كلما سمحت لهم الفرصة حتى أصبح هذا طموحاً أو أملاً عند الكثير منهم.

ويمكن أن نضيف إلى الزعامة العسكرية القيادة الدينية وإن كنّا لا نستطيع أن نفرّق بين هذه وتلك أو نفصل الأمور الدينية عن أية ظاهرةٍ أو حادثةٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ أو عسكريةٍ، وإنما لنوضّح هنا بعض هذه الجوانب فآل البيت لهم منزلة خاصة بين المسلمين لذا يمكن لأحدهم أن يتبوأ مركزاً مهماً إذا كان صالحاً، ويصل إلى هدفه بشكلٍ سهلٍ حيث يجد له المؤيدين والمحبين، وهذا ما سهّل لإدريس بن عبد الله بن حسن مهمته في تأسيس دولةٍ له في بلاد المغرب، وهناك منطقتان عرف فيهما التأييد لآل البيت إحداهما المدينة المنورة حيث يقيم عدد منهم وخاصةً من أبناء الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وهم عادةً أهل دينٍ وصلاحٍ، وقامت لهم فيها حركات منها حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وثانيتهما الكوفة وفيها تأييد لآل البيت أو نكاية لخصومهم من الأمويين والعباسيين أو فيها من يحبّ آل البيت حباً بارداً، وكان أهل الكوفة يدعون آل البيت إليهم حتى إذا جاءوهم، وقاموا

يطلبون الأمر تخلّوا عنهم وذلك منذ أيام الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد خذلوه، وأكثر من الكلام عليهم في خطبه، ومن بعده أبناؤه الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ثم زيد بن علي بن الحسين، رحمه الله.

وإذا كان العصر العباسي الأول قوياً فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوةٍ تعتمد عليها في حكمها للمنطقة، وإذا ما تمّ وحدّثت نفس بعض القادة بذلك فقد كان يُقضى عليها بسرعة، وهذا ما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولةٍ واحدةٍ هي دولة الأغالبة في تونس، إذ كان إبراهيم بن الأغلب أمير المنطقة واعتمد على نفوذه وجنده فأسس دولته، وسكت عنه العباسيون لتقف إمارته هذه في وجه الإمارات الأخرى الخارجة على العباسيين والمخالفة لهم، وهي إمارات الخوارج في «تاهرت» و«سجلماسة»، وإمارة الأدارسة في المغرب الأقصى في فاس، ودولة الأمويين في الأندلس، وبهذا فلم تقم سوى دولةٍ واحدةٍ في عصر القوة العباسي اعتمدت على الجند.

وشعر الخليفة المأمون أن بعض القادة الذين أصبح لهم نفوذ لم يعد بالإمكان وضع حدٍّ لهم بسهولة لذا فقد خاف مغبة الأمر، وفي الوقت نفسه فإنّ الجند لم يعد بالإمكان السيطرة عليهم بيسرٍ لأن الناس قد خلدوا إلى الراحة، وركنوا إلى الأرض، وبقي أمر القوة بيد هؤلاء الجند لذا فقد طلب من أخيه المعتصم الإكثار من جلب الأتراك من بلاد ما وراء النهر على شكل مماليك فحياة المدن لم تُفسد طباعهم بعد، ويمكن تدريبهم تدريباً عسكرياً كي يمكن تأمين الجند المطلوب عند اللزوم منهم، وتربيتهم تربيةً خاصةً كي يكونوا أداةً طيعةً بيد الخليفة يحمي بهم الثغور، ويضرب بهم خصوم الدولة في الداخل، وبدأت أفواج الترك تفد إلى بغداد حتى ضجّ منهم سكانها، وما أن أصبحوا جنوداً لهم نفوذ حتى كثرت تعدياتهم فقد أفسدتهم حياتهم الجديدة، وحدث الخلاف بينهم وبين البغداديين، واضطر المعتصم إلى بناء مدينة «سامراء» والانتقال بهم إلى هناك، ومع الزمن أصبح

منهم قادة اشتهر منهم «الإفشين» و«بغا» و«وصيف» وغيرهم، وزاد نفوذهم في الدولة، وأخيراً تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل عام ٢٤٧ فانتهى العصر العباسي القوي وهو الذي تكلّمنا عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب، وجاء عصر الضعف الذي نتحدث عنه في هذا الجزء - إن شاء الله - حيث سيطر العسكريون على الحكم.

ومع مجيء هؤلاء الجند إلى مركز السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسماً أو صورةً في قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثيرٍ من الأحيان أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة حتى وصف الخليفة أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفصٍ   بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي، والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس مجبرون على الخضوع سواء أكان الأمر حقاً أم باطلاً، وعليهم أن يقولوا عن كل شيء أنه حق وصحيح وجيد ما دام مفروضاً من القادة، ومن قال غير ذلك كان السيف أقرب إليه من إجابته بالرفض، وهذا ككل حكمٍ عسكريٍ. وقال أحد الشعراء:

لله درّ عصابةٍ تركيةٍ   جعلوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمدٍ   وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وهكذا فسد الوضع فلم يأمن الناس بعد ذلك على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم، وهُدرت الكرامة، وفقد الناس حريتهم، وضاعت العزّة، وأصاب الأمة الذلّ ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها، ولم تعد قادرةً على القتال ولا على المجابهة، وأصبح المجتمع مضطراً للخضوع للقادة المتسلّطين، وقبول كل رأيٍ يقوله العسكريون، وهذا ما يريدونه عادةً، ولم يعرفوا نتائجه، وإنما يعرفون مصالحهم وبسط نفوذهم وسيطرتهم وإشباع رغبات نفوسهم، هذا في الداخل، وهو نفسه ما يريده

أعداء الإسلام في الخارج، ولا يختلف الوضع العسكري في أي زمانٍ ولا أي مكانٍ عن هذا أبداً.

واستمر وضع الجنود الأتراك هؤلاء ما يقرب من مائة سنة ٢٤٧ - ٣٣٤ وقوي بعد ذلك نفوذ جنودٍ من الفرس أو تجمّع لآل بويه، وهم من الشيعة، ولم يختلف الأمر كثيراً عن الوضع السابق، فكلا الوضعين عسكري، وأن ما في الوضع العسكري بيّن واضح، بل أستطيع أن أقول: إن الوضع قد زاد سوءاً، إذ عمّت الفوضى بشكل أكبر، وساد الفساد والمنكرات على نطاق أوسع، وكثر الخلاف بين السنة والشيعة، واضطر السنة إلى أن يحتفلوا بأعياد الشيعة، وأن يقوموا ببعض الخرافات والضلالات التي يقوم بها الشيعة في عاشوراء وغيرها. وظهرت إمارات ودول شيعية تطرّفت بشكل أوسع من ذلك مثل: إمارة الحمدانيين في شمالي بلاد الشام، والدولة الفاطمية في مصر وفي المغرب من قبل، وسيطر القرامطة على أغلب الجزيرة العربية، وانتشروا في سواد العراق، ووصلوا إلى أطراف بلاد الشام وحدود مصر. وكثرت الدول في المشرق، فكانت الصفارية، والسامانية، والغزنوية، ولم تكن هذه الدويلات سوى صورةٍ مصغرةٍ عمّا كانت عليه الخلافة في بغداد، فالعسكريون المسيطرون سواء أكانوا تركاً أم فُرساً.

واستمر وضع الجنود الفرس أكثر من مائة سنة أيضاً ٣٣٤ - ٤٤٧ حيث قوي نفوذ السلاجقة الأتراك الذين كانوا يقيمون في بلاد ما وراء النهر بعد مدينة بخارى بحوالي مائة كيلومتر، وجاءوا على شكل موجات من الجيوش فسيطروا على البلاد، ودخلوا بغداد، وقضوا على نفوذ البويهيين، وكأن انقلاباً عسكرياً قد وقع على حكم عسكري سابقٍ له، فلم يتغير الوضع كثيراً وإن تحسّن الأمر نسبياً، إذ كان السلاجقة من أهل السنة، فقضوا على ضلالات الشيعة، وتمكّنوا من القضاء على القرامطة في جزيرة العرب وعلى أتباعهم الأخيضريين في اليمامة وسط بلاد العرب، كما قضوا على الدولة الفاطمية، وفي الوقت نفسه فقد انتصروا على الروم البيزنطيين،

ووقفوا في وجه الصليبيين، وظهرت إمارة آل زنكي والدولة الأيوبية فأعطوا للخلافة الإسلامية شيئاً من الهيبة أمام أوربا، وإن كان وضعهم لا يختلف كثيراً عن الوضع العسكري إلاّ بوجود بعض الحكام الصالحين أمثال محمود نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، لكن لم يلبث أن يعود الوضع بعدهم إلى سابق عهده، وانتهى الوضع بالغزو المغولي، وسقطت بغداد عام ٦٥٦ تحت ضربات المغول، وخيانة الشيعة متمثلةً بالوزير ابن العلقمي.

ويكمن الخطر والسوء في الحكم العسكري في العلاقات القائمة بين الناس، فعندما يكون الجند طرفاً ويقع خلاف بين الجانبين يكون فرق بين خصمين يحمل أحدهما السلاح والآخر أعزل، يتكلّم الأول بسلاحه والثاني بعقله فينتصر السلاح، ويسكت العقل مرغماً، فتنعدم الحرية، ويقع الجور، ويتم كبت الفكر، ويحدث للناس الذلّ: فيكرهون المتسلّطين، وتكون المفاصلة بين المسؤولين والرعية، ولكن لا يمكن للسكان أن يظهروا ذلك، وإنما يكون سرّاً، وتتأخر البلاد اجتماعياً، كما تتأخر اقتصادياً إذ يحرص الطغاة على الإفادة من وضعهم فيجمعون ما يمكنهم جمعه، ناهيك عن أعمال السلب والنهب والتعديات التي يقوم بها القادة العسكريون وأتباعهم سواء أكان عن طريقهم مباشرة أم عن طريق جندهم والذين يقلدونهم أيضاً، ويقل الإنتاج لأن السكان يهملون ذلك كي لا يتعرضوا للنهب أو الدفع، أو الطغيان عليهم، وتضعف المعنويات، فلا يمكن للناس أن يقاتلوا، فباسم من يقاتلون؟ ولمن يحاربون؟ ولماذا يسيرون للغزو؟ وكيف يقاتل الذليل؟ وهل تفتح البلدان بقطعانٍ من العبيد؟ لذا تضيع البلاد ويدخلها الأجنبي. وقد كان المغول هم الأعداء الداخلون للدولة العباسية، والمزلزلون لها، والقاضون عليها.

وقد لوحظ هذا الأمر من القديم لذا كان الجند يقيمون بعيداً عن أهل المدن في معسكراتٍ خاصةٍ بهم، نائيةٍ نسبياً عن تجمّعات السكان كي لا يحدث هذا الصدام غير المتكافئ، ويحدث عنه انشقاق، رغم أن الجميع في الماضي جند وغير جند كانوا مسلحين، وسلاحهم واحد، غير أن للجند

مزية مهما يكن هي أنهم ذاهبون للقتال فلا بد من اللين لهم والتساهل معهم بل والدعاء لهم كي يذهبوا بمعنوياتٍ عاليةٍ لعله يُكتب لهم النصر على أعدائهم، كما لا بدّ من تشجيع أمير الجند وإظهار محبته وطاعته، ويُخشى جانبه إذا كان من الذين لا يخافون الله. وحرص الخلفاء في صدر الإسلام على أن يبقى المجاهدون في مدنٍ خاصةٍ بهم كي لا يميلوا إلى الدعة وحب الاستقرار، ومن هنا نشأت مدن الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها لتكون قواعد للجهاد وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثم مُصّرت بعد ذلك، هذا مع علمي أن المسلمين في أول أمرهم كانوا على غير مستوى من المجتمعات الأخرى سواء في ماضيها أم في حاضرها إذ كان خوفهم من الله يجعلهم لا يتصرّفون في أمر ليس فيه رضا لله، أو ليس فيه إخلاص لله ومراقبة له، ومَن أولى بهم أن يُراعي هذا الجانب؟ وتكون المعسكرات أيضاً في العصر الحديث خارج المدن للأغراض نفسها، ويُحذّر على العسكريين أن يدخلوا إلى التجمّعات السكانية بسلاحهم بل وبزيّهم العسكري كي لا يحدث ما تحدّثنا عنه.

ولكن حين يكون الحكم عسكرياً فلا بدّ من أن يحمي نفسه بالجند المسلّحين الذين يكونون بجانبه في المدن، في مقرّ الحكم، وفي الدوائر الرسمية، ودائماً بأسلحتهم، ويغدون ويروحون بها، وهنا يقع الخطر و... بل وبلباسهم العسكري دائماً كي يُعرفوا فلا يُؤذون، بل ويُفضّلون ذلك على طريقة الشباب الذين يحبون التباهي، والجند شباب، وذلك كي يرهبهم الناس، ويتصرفون بما يحلو لهم، ويدعمهم قادتهم في كل شيء كي يضمنوا جانبهم، ويكسبوا طاعتهم، ويُنفّذوا أوامرهم وقت الشدّة وأثناء الملمات، وهنا يقع الفساد، وتعمّ المنكرات، ويحدث الصدام الشعوري والعملي.

كما يكمن الخطر في المسؤول نفسه فهو يملك الجند جميعاً، وعليهم طاعته سواء أكانت طاعة الأمير وأولي الأمر، أم طاعة الجندية التي تفرض ذلك، أم طاعة جبرية في الوقت الحاضر إذ ألزم الجند عليها سواء

أكانت في غير معصية أم في معصية، فالقائد يبقى قائداً باستمرار والجندي يبقى جندياً على الدوام، ومعنى ذلك أن القائد يتصرّف بأمور الجندي، ويكلّفه بما يحلو لنفسه، ولا يمكن ردّ أمرٍ له، أو مخالفته، فإن ذلك يؤدي إلى الموت وخاصةً أثناء الحرب أو الحركة، وتكون أوامر القائد حسب الهوى، ويقلّد القائد الأقل رتبةً من هو أعلى منه وهكذا. . . . والضابط قد تربّى على السيف وعاش معه فلا يُحكّم عقله، وإنما ينطق بالسيف، ويتعامل معه، وينفّذ به رأيه وهواه.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد قادة عسكريون صالحون على مدار التاريخ، فلقد وجد أمثال محمود نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي و. . . كما ذكرنا، ولكن هذه نسبة قليلة، وما أن ينتهي الضابط الصالح حتى يرجع العرف العسكري، بل إن العسكري الصالح قلّما يطول أمره لأنه يقف أمام أهواء الذين دونه، فيشعرون بالضغط والكبت فيعملون على إزاحته بصورةٍ أو بأخرى. ومن هنا كان أصحاب القوة من العسكريين في العصر العباسي الثاني هم سبب الضعف الذي أصاب الأمة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فُرساً، فالسيف واحد بأية يدٍ كان، وذلك رغم تبجح أصحاب العصبيات المنتنة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فُرساً فإن ذلك تبجح لا يستند إلى حقيقةٍ وإنما هو فخر جاهلي بأقوامهم فالعرب يعدّون سبب الضعف الذي أصاب الدولة الإسلامية إنما يعود إلى تسلّط الفرس والترك، والفرس والترك يعدّون سبب ذلك الضعف إنما يعود إلى الزعامة العربية التي غدت ليست كفئاً لذلك المركز الذي تتبوؤه.

* * *

٢- نشوء الدويلات

المسلمون أمة واحدة أينما كانت ديارهم، ولهم خليفة واحد، ولا يصحّ أن يوجد أكثر من خليفةٍ من آنٍ واحدٍ، وإنما توجد ولايات تتبع الخليفة، وليس لها حدود ثابتة، ومصلحة الدولة هي التي تُحددها، وبقيت الدولة الإسلامية على هذه الصورة أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، واستمرت كذلك في العهد الأموي مع وجود خليفتين حقبةً قصيرةً من الزمن، ولكن نعدّ نحن أن أحدهما كان ثائراً على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فلما جاء العهد العباسي، ولوحق الأمويون فرّ أكثر من نجا منهم من القتل إلى مناطق نائيةٍ أو حصينةٍ وعاشوا بتكتّم شديدٍ كبقية أفراد المجتمع، وإذا وجد أحدهم الفرصة مواتيةً له ظهر وبرزَ، وكان أن وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، واستطاع أن يصل إلى إمرتها بعد صعوباتٍ تجاوزها، ولم يفكر في الانفصال عن الدولة الإسلامية وإن كان قد اعتصم فيما آلت إمرته عليه، بل بقي يدعو للخليفة العباسي مدة عشرة أشهر، ولو أن العباسيين أمهلوه لكان خيراً، ولما تجزّأت الدولة الإسلامية في وقتٍ مبكرٍ إلا أن محاولة أبي جعفر المنصور في تخليص الأندلس من عبد الرحمن الداخل وقتله وإرسال العلاء بن المغيث الجذامي لهذا الغرض عام ١٤٦ قد جعل الداخل يقطع الخطبة عن العباسيين أولاً ثم ينفصل عنهم، ولكنه لم يعلن نفسه خليفة وإنما احتفظ بلقب أمير، واستمر الأمر كذلك في أبنائه وأحفاده مدة مائة وثمان وسبعين سنة ١٣٨ ـ ٣١٦، وهي مدة طويلة بالنسبة إلى دولتين مختلفتين بل إن إحداهما انتزعت الحكم من الأخرى، وقتلت من أبنائها الكثير، وشرّدت كثيراً، وفي عام ٣١٦ أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه

خليفةً، وذلك بعد أن حكم الأندلس مدة ستة عشر عاماً وهو أمير، كل ذلك في سبيل المحافظة على وحدة المسلمين، وتمشّياً مع العقيدة الإسلامية التي تقضي بعدم وجود خليفتين في وقتٍ واحدٍ. وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي عام ١٤٠ إحداهما للأباضيين في «تاهرت»، والأخرى للصفرية في «سجلماسة»، ورغم أن الخوارج يختلفون فكرياً مع أهل السنة إذ يُكفّرون من لم ير رأيهم، ومع ذلك فلم تعلن هاتان الإمارتان الخلافة. وقامت دولة الأدارسة عام ١٧٢ في المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن حسن ومع أنه كان قد نجا من معركة «فخ» عام ١٦٩ في أحد شعاب مكة، وقد قتل فيها كثير من أهله وذويه، وفرّ ناجياً بنفسه، خائفاً من تعقُّب العباسيين وأنصارهم، وتحمّل الصعوبات، ووجد في طريقه المشقّات، ولما تمكّن من أن يقيم دولةً بما وهبه الله من إمكانات لم يُعلن نفسه خليفةً. وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام ١٨٤ ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارةً عباسيةً أو ولايةً تتبع بغداد ولكنها وراثيةً في ولاتها.

إذن مضى العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبعون خليفةً واحداً، وإن وجدت ولايات لا تقرّ بالخليفة القائم بالأمر، أو تختلف معه قليلاً أو كثيراً، ويمكن أن نعدّها إمارات على خلافٍ موقتٍ مع أمير المؤمنين، هذا رغم ما يقال عن العداء بين العباسيين والأمويين، وصلة العباسيين بالفرنجة أعداء الأمويين، وصلة الأمويين بالبيزنطيين أعداء العباسيين، لكنها في الواقع لم تكن أكثر من صلات مجاملة وتبادل هدايا، ووعود لم ينتج منها أي شيء من حروب، أو لقاء مؤمنين مع كافرين ضد مؤمنين آخرين.

وإذن وجدت إمارات في العصر العباسي الأول، وكانت هذه الإمارات محصورةً في مغرب الدولة الإسلامية، وقد أسس بعضها العرب كما هي الحال في دولة بني أمية في الأندلس ودولة الأغالبة في تونس، والأدارسة في فاس في المغرب الأقصى، كما أسس بعضها الآخر البربر كما هي حال

دولتي الخوارج، أو يمكن أن نقول بأسلوب آخر: إن عناصر سكان الدولة الإسلامية في المغرب هم الذين أسسوا هذه الدويلات، وهم من العرب والبربر، أو أن هذه الدول قد نشأت نتيجة طموحات عربية وبربرية.

أما في العصر العباسي الثاني فقد نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية إضافةً إلى ما نشأ في مغربها، ولا شك فإن عناصر سكان هذا الجزء هم الذين أقاموا هذه الدويلات، ولما كانت أكثرية هذه العناصر من الفرس والترك لذا يجب أن نتوقّع مسبقاً قيام الفرس والترك بتأسيس هذه الدول، ويجب ألا نستغرب ذلك، ولا نضع اللوم على هؤلاء السكان باسم العصبية الجاهلية منا فهذا أمر طبيعي له مثيله في بلاد المغرب بل كان أسبق منه، وإن هذه الدول لم تقم حتى زاد ضعف الدولة العباسية، وعندما كانت قويةً أو كان الحكم قوياً لم يقم الترك ولا الفرس بمحاولاتٍ لتأسيس مثل هذه الدول وإنما الذي أقام الدول هم العرب والبربر فقط، وربما نعت بعضهم هذا التأخر بالجبن والضعف على حين كان العرب والبربر أكثر شجاعةً في هذا الميدان، ولكن يمكن أن نقول: إنه لا داعي لقيام دولٍ صغيرة عندما يكون الحكم المركزي قوياً، ولكن إذا ضعف فقد يضطر بعض الطامحين للعمل على تأسيس دول تكون قويةً لتقف في وجه العدو أو لتعيد إلى الدعوة شبابها وانتشارها، وإعادة الفتح، ودبّ الروح المعنوية في حياة السكان من جديد كما كان في الدولة الغزنوية التي أعادت الفتح في بلاد الهند تارةً أخرى وعملت على نشر الإسلام هناك، وإذا كان عناصر السكان هم الذين يؤسسون الإمارات المستقلة إلا أنه يمكن أن يأتي غرباء عن المنطقة وينجحون في إقامة مثل هذه الإمارات وذلك إذا كان لهم شهرة سابقة أو حكم مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس، أو مركز ديني مثل إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى، أما الولاة الذين يستقرون في ولايةٍ مدةً من الزمن ثم يستقلون فيها وينفصلون مثل إبراهيم بن الأغلب فنعدهم من عناصر السكان الأصليين حيث أقام بين أظهر السكان مدةً، ثم أفاد من مركزه فشكّل حوله قوةً تحدثنا عن مثلها في الجانب العسكري.

قامت في المشرق الإسلامي الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠) إذ برز يعقوب بن الليث الصفاري بحربه ضد الخوارج، وزهده الذي عُرف به، وإذا كانت هذه الدولة قد قضت على الإمارة الطاهرية عام ٢٥٩ إلا أن الدولة الطاهرية تعدّ إمارةً عباسيةً لأنها بقيت مدة بقائها تعترف بالخليفة العباسي وتدين بالولاء له على حين أن الدولة الصفارية قد قطعت الخطبة للخليفة وحاربته وقصدت بغداد، ولكن جيشها قد هزم عندما رأى الخليفة أن يخرج بنفسه لقتالها. وقامت الدولة السامانية الفارسية (٢٦١ ـ ٣٨٩) ومقرها سمرقند، وقامت الدولة الغزنوية التركية في غزنة (٣٥١ ـ ٥٨٢)، هذا إضافةً إلى دولٍ أخرى أكثر صغراً وأقل أهمية كالدولة الطاهرية التي تحدثنا عنها عرضاً وهي في خراسان، والدولة العلوية في طبرستان و. . . .

وكذلك زادت الدول المستقلة في مغرب الدولة وخاصةً في مصر، أو أن الدول المستقلة بدأت تتقدم نحو الشرق حيث قام المماليك يؤسسون لهم إمارات فالدولة الطولونية (٢٥٦ ـ ٢٩٢) التي أسسها مملوك تركي هو أحمد بن طولون، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨) التي أسسها محمد بن طغج الإخشيدي، وهو أيضاً من أصلٍ مملوكي من فرغانة إذ كان يُلقب ملوك فرغانة بالإخشيد، ولا نستغرب تأسيس دولٍ لهم في مصر إذ أن سكان هذه المنطقة من طبيعتهم أن يقرّوا لأي إنسانٍ بالطاعة إذا تسلّم الزعامة عليهم أو أظهر قوةً أمامهم، ويدينون بالولاء له، ولم تقم حكومات للمماليك في أي جزءٍ آخر من المنطقة العربية في الدولة الإسلامية، وصحيح أن دولة المماليك توسّعت حتى شملت أجزاءً كبيرةً من بلاد الشام والحجاز، ولكن كانت هذه المناطق ضمن توسّعها ولم تكن مقرًّا لها، كما لم يكن أهلها جندها الذين تُقاتل بهم، وتضرب خصومها بأيديهم.

وظهرت دول أيضاً وسط الدولة الإسلامية إذ قامت دولة بني حمدان في الموصل (٣١٧ ـ ٣٦٩) وفي حلب (٣٣٣ ـ ٣٩٢) وبنو حمدان من قبيلة بني تغلب العربية. كما قام الأيوبيون في الشام (٥٦٧ ـ ٦٤٨) والأيوبيون جزء من سكان هذه المناطق فهم من الأكراد الذين يقيمون في

جهات «إربيل» شمالي العراق، وقد تولّوا مسؤولية الدفاع عن بلاد المسلمين، وقد كانوا أشداء بصفتهم سكان جبال، لم تفسد المدنية طباعهم بعد، بل إن صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ قد نقل أعداداً من سكان الجبال من هؤلاء الأكراد ووضعهم في المناطق المتاخمة للأجزاء التي سيطر عليها الصليبيون كخطٍ للمواجهة، أو لقتال الصليبيين وحماية الأجزاء الأخرى من خطر هؤلاء الدخلاء أو كي لا يتمكّن الصليبيون من التوغل إلى الداخل. وقد أسكن الأكراد في القلاع القائمة أو شيّد لهم قلاعاً خاصةً بهم، ولا تزال بقاياهم قائمةً إلى الآن في مدن هذه المناطق أو التي كانت خط دفاعٍ، وفي قلاع تلك الجهات، والبقاع ذات الأهمية، وقد امتزجوا بالسكان، واستعربوا، ونسوا لغة الأكراد ونجد منهم في شمال اللاذقية، وحماه، ودمشق، ودرعا، وصفد، والكرك ويعرفون بذلك حتى الآن.

وقام القرامطة وهو تعريف لكل أولئك الذين حقدوا على الأغنياء المرفهين خاصةً وعلى المجتمع عامةً لوضعهم الاجتماعي الذي عاشوا فيه، فدعوا سرّاً إلى شيوعية المال والنساء، واستغلّوا حقد زرّاع الأجزاء الجنوبية من العراق حيث كثر الزنج هناك، كما استغلّوا جهل البداة، ومراهقة الشباب ومتطلبات الطرفين، وأسسوا على كواهل هذه المجموعات دولتهم التي شملت أغلب أجزاء جزيرة العرب، ووصلت إلى أطراف الشام وحدود مصر، ولا أستطيع أن أؤكد أصول زعماء هؤلاء، وإنما جمعتهم كلمة قرامطة، وهم أخلاط من أجناسٍ شتّى. وهكذا لم تنج رقعة من رقع الدولة الإسلامية من استقلال إمارةٍ فيها حتى أن مركز الخلافة قد خضع للسيطرة عليه أو لمجموعةٍ حكمت تحت اسم الخليفة وحمل سيّدها لقب أمير الأمراء، أو سلطان، أو ملك أو. . . .

ولا شك فإن قيام الدول المنفصلة عن جسم الخلافة كان على أطرافها أكثر منه في وسطها فنجد في المغرب دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١) ودولة الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧)، وفي اليمن دولة بني زياد (٢٠٤ ـ ٤٠٧) في زبيد، ودولة بني نجاح في زبيد أيضاً (٤١٢ ـ ٥٥٤)، ودولة

الصليحيين في صنعاء (٤٢٩ ـ ٥٣٤)، وهم من الإسماعيلية، ودولة بني مهدي في زبيد (٥٥٤ ـ ٥٦٩)، ودولة بني زريع في عدن (٤٧٦ ـ ٥٦٩)، ودولة بني رسّ (٢٨٠ ـ ٧٠٠) وهم الأئمة الزيديون بصعدة وصنعاء، كما قامت دولة بني رسول عام ٦٢٦ واستمرت إلى ما بعد المرحلة التي نحن بصدد دراستها، وفي الهند دولة الغوريين (٥٤٣ ـ ٦١٢)، وفي بلاد ما وراء النهر الدولة الخوارزمية و.... هذه الدول كان لبعضها شأن لذا فقد درست منفصلةً عن الخلافة الإسلامية لذا فقد حدث تشتت في تاريخ هذه المرحلة هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانيةٍ أهمل تاريخ مركز الخلافة، وعرف تاريخ هذه الدول المتناثرة فظهر الضعف بصورةٍ أكبر، وكان تاريخ دويلات.

وإن أول مرةٍ فُتقت فيه عرا الإسلام فوجد خليفتان في آنٍ واحد عام ٢٩٧ عندما قامت الدولة العبيدية في المغرب، وادعت النسب الفاطمي كناحيةٍ دينيةٍ، وهي بذلك ككثير من دول القرامطة لا تجد أساساً تستند عليه لتقف على أرجلها إلا ذلك الادعاء، وآل البيت من هذا برءاء، وفي الوقت نفسه فإن النسب لا يُغني شيئاً، فلو كان رجل صحيح النسب وغير ملتزم بمنهج الله الذي سار عليه رسول الله وأصحابه فلا وزن له في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1]. ولم تجد هذه الدولة العبيدية قاعدةً صلبةً لها في بلاد المغرب فاتجهت نحو مصر لا للتوسع فقط وإنما لتأخذ مصر حيث تجد هناك الخضوع التام من أهلها ـ كما عهدنا ذلك ـ، وتمّ لها ما أرادت، وحصل ما توقّعته من وداعة السكان وحبهم للسلم أو للاستسلام، هذا رغم ما كان يلقى العبيديون من مناهضةٍ كلامية على شكل شعرٍ أو قصصٍ ساخرةٍ فيها تبكيت وتجريح بنسبهم، وقد يصل ذلك إلى مسامع الخليفة دون معرفة مصدره. وأصبح في الدولة

---

(١) سورة هود: الآيتان ٤٥ و٤٦.

الإسلامية خلافتان إحداهما في بغداد والأخرى في المهدية وذلك مدة تسع عشرة سنة (٢٩٧ ـ ٣١٦) ثم انتقلت من المهدية إلى القاهرة، ثم غدا ثلاثة خلفاء إذ أُضيفت خلافة في قرطبة عام ٣١٦، وبقي ذلك مدة سبع وثمانين سنة (٣١٦ ـ ٤٠٣) إذ انتهت خلافة قرطبة، وجاء دور ملوك الطوائف، وبقي خليفتان مدة أربع وستين ومائة سنة (٤٠٣ ـ ٥٦٧)، وعاد الأمر بعد ذلك إلى بقاء خليفةٍ واحدٍ في بغداد حتى سقوط الدولة عام ٦٥٦، وينتهي معها العصر العباسي الثاني الذي هو موضوع بحثنا في هذا الجزء من الكتاب.

ومع هذه الدول المتعددة إلا أنه لم يحدث من إحداها مساعدة كافرٍ ضد أُخراها، بل يمكن أن نقول: إنه كان يوجد تعاون حسب الإمكانات الضعيفة ونذكر على سبيل المثال مراسلة صلاح الدين الأيوبي في المشرق إلى يعقوب بن يوسف الموحدي في المغرب، وهديته له، وطلبه دعمه لمحاربة الصليبيين، وقد فعل ذلك وجهز المنصور يعقوب بن يوسف ثمانين ومائة سفينة، وحال دون وصول الصليبيين لقتال صلاح الدين، وبرهن ابن خلدون بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[1]. كما يجب ألا ننسى أن الخلافة العباسية والعبيدية قد عملت كلاهما لقتال الصليبيين رغم ما بينهما من عداء.

وأخيراً يمكن أن نقول: إن وجود هذه الدويلات إنما يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود الدويلات قد زاد في الضعف، أو هو سبب من أسبابه، ومردّ كل ذلك إلى ضعف الإيمان في النفوس، وتراجع الفكر الإسلامي من العقول، وعدم فهم طبيعة الإسلام في الجهاد، وإنصاف الأجراء فإن عدم إنصافهم قد دفعهم إلى السير وراء أصحاب المنكرات والأطماع مجرد ادعائهم الانتساب إلى آل البيت مع وضوح ضلالهم وضلالاتهم، كما دفعهم إلى القيام بحركاتٍ ضد الدولة

---

(١) العبر: ابن خلدون الجزء السادس ص٤٩٥.

استغلّها أهل السوء، وقد نُعيد ذلك إلى الجهل الذي يؤدي إلى ذلك، ولكن الجهل ليس هو إلا من ظاهرات ضعف الإيمان، وكل ذلك أدّى إلى وجود أكثر من خليفةٍ في بلاد المسلمين وتعدد الدول المنفصلة عن جسم الخلافة.

* * *

٣ - نتائج الحضارة الإسلامية

رفرف لواء العدل والحق فوق الأراضي التي حكمها المسلمون فعاش الناس في رغدٍ ورخاءٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ، وهذا ما فسح لهم المجال كي يركبوا متن الحضارة، وهل الحضارة سوى تحقيق المعاني الإنسانية كي ينعم أفراده بالسعادة!.

وعرف المسلمون من عقيدتهم معنى الحياة ومهمة الإنسان فيها فانطلقوا يؤدون دورهم فعملوا على إنهاء الظلم من وجه الأرض، وفي إخراج سكان هذا الكوكب من عبادة العباد، وعبادة المال، وعبادة الشهوات إلى عبادة الله الواحد القهار الذي لا شريك له ولا معبود سواه، وخرجوا صادقين مخلصين من مركزهم الأول يدكّون عروش الظلم، ويقدّمون للمجتمعات المعاني الإنسانية فكانت الفتوحات الإسلامية الواسعة، وحصل المسلمون فيها على ما يريدون من تحقيق مهمتهم في الحياة فنال الشهادة منهم من نالها، وعاش بنعيم بعد النصر من كتب الله له الحياة، هذا بالإضافة إلى المغانم الدنيوية الأخرى والتي لا تُذكر أمام ما ينتظر الإنسان من جنّات النعيم في الآخرة، ومن هذه المغانم الأموال، والأملاك، والأرض، والخدم، والسبايا، وإذا كانت هذه كلها قد أفاد منها المسلمون في عصر صدر الإسلام إلا أنهم كانوا يُطبّقون فيها شرع الله، فكانت الأموال تُنفق في سبيل الله، والأملاك والأرض يذهب جزء كبير من مواردها في سبيل الله، ويُعامل الخدم المعاملة الإسلامية الطيبة من حيث الحقوق والرفق بهم، وإطعامهم، وكسوتهم، ومبيتهم، وكل جوانب حياتهم حتى لم يعد يشعر هؤلاء الخدم أو الرقيق أنهم من طبقةٍ خاصةٍ، ولم يذكروا بعد ذلك حياتهم الأولى بشيء من الفارق، ولعلنا نذكر كيف رفض زيد بن حارثة، رضي الله

عنه، وهو فتى يافع أن يذهب مع أبيه وعمّه، وفضّل البقاء عند مولاه محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، لما رأى منه ومن معاملته، وعجب أبوه وعمّه من إنسانٍ يؤثر العبودية - بمفهومهم - على الحرية، وفي الإسلام لا توجد طبقات اجتماعية وإنما يشعر الناس جميعاً في ظلّ الإسلام أنهم متساوون ضمن أسرةٍ واحدةٍ ساداتهم كآبائهم بهم رحماء، ويتزوّجون ويعيشون مع زوجاتهم ككل أسرةٍ في بيئتهم لهم واجبات وعليهم حقوق، وككل أفراد المجتمع لا فرق بينهم ولا تمييز. وبهذا فقد استفاد المسلمون بما منحهم الله بالطريقة السليمة التي لا عوج فيها ولا اختلال والتي يجب أن يتبعها بنو الإنسان.

وتوقفت الفتوحات لأمرٍ يريده الله، ولم يُنه المسلمون مهمتهم كاملةً في الحياة إذ بقيت بعض عناصر الظلم متحكّمةً في مناطق كبيرةٍ، وبقيت بعض الطواغيت متسلّطة في بعض جهاتٍ من العالم، وانصرف المسلمون عندها إلى حياتهم الخاصة، منهم من انصرف إلى تجارته يُنمّيها فكان تاجراً أفاد من دنياه بما جنى من أرباح، وأفاد لأخراه بما عمل وقدّم وبذل في سبيل نشر الإسلام، إذ انتشر الإسلام بالتجارة والدعوة كما انتشر بالجهاد والفتح، ومنهم من انصرف إلى أرضه فأحياها وعمّرها فخدم نفسه بما حصل عليه وخدم الأمّة بما قدّم لها من خيرات الأرض وبركاتها، ومنهم من اتجه إلى العلم فنهل منه ما شاء الله له أن ينهل، ودفع بمركبة العلم شوطاً إلى الأمام، فتُرجمت علوم السابقين وأُضيفت إليها إضافات واسعة، وتفتّقت عبقريات، واستنبطت أحكاماً، ووضّحت أموراً على غايةٍ من الأهمية، وتسابق الحكام إلى تقريب العلماء وتشجيعهم على البحث، وتأسيس المكتبات، وتقديم الدعم والعون لأهل العلم في كثير من الأحيان، وإن كان بعض هؤلاء العلماء يرفضون كل شيء وأحياناً حتى الصلة، فكانت نتاج ذلك العلم ثروةً ويساراً وخيراً مدراراً، وكانت عواصم الدويلات ومركز الخلافة مراكز إشعاع للعلم ومناراً يُنير درب السالكين، ومن الحكام من بنى وشيّد، بنى للعلم دوراً وشيّد قصوراً،

وعمّر مساجد، وأسس خانات[1] على طرق المسافرين لإيوائهم وراحتهم، وتنافس الأمراء في ذلك فكانت حواضرهم مُتعةً.

هذه الثمار كانت نتاج الحضارة التي سبقت هذا العصر وليست هي الحضارة كما يُصوّرها لنا الماديون ويوهموننا بذلك.

وفي الوقت نفسه فقد انصرف بعض الناس إلى ترفهم ولهوهم فغنّوا وطربوا، ولحّنوا وشربوا، وعاشوا في دوامة الحياة يدورون معها أو تدور بهم، وعبّوا من الهوى ما شاء لهم هواهم أن يعبّوا كل هذا على حساب ما جُلب من رقيق كانوا بالأمس أحراراً، فكان هذا الرقيق أداة إنتاجهم وعملهم، وخدم لهوهم ومجونهم، إذ زرع لهم الأرض كما رغبوا، وصنع لهم ما بغوا، وعمل في مختلف مجالات العمل، يدور لهم كالرحى ويأخذون ما ينتج، وعاشوا هم على ما بذل هذا الرقيق فكان يشقى ويسعدون، فنقم الرقيق على أسياده وتصرفاتهم وحقد عليهم، ثم تحرّك وثار فكانت الفتن وكان البلاء.

وبرز هؤلاء اللاهون في المجتمع لنعيمهم أو شقائهم الذي هم فيه حتى أعطوا العصر سمتهم فأُضيفت هذه الرفاهية ـ نتيجة الجهل ـ إلى نتاج ما سبق من حضارة، وظُنّ أنه جزء من نتاجها وثمارها والواقع أنه كان الترف والبطر، وكان الفساد، وكانت النتيجة الضياع والانهيار لا للحضارة التي ظهرت من قبل فحسب وإنما للأمة جميعاً، إذ من أخذ نِعم الله وأدّاها حقّها كانت له خيراً وكانت حضارةً، ومن بَذَلَ ذلك في سبيل هواه كانت النعمة نقمةً، وكانت العاقبة شرّاً ليس عليه فقط وإنما على أفراد الأمة جميعاً الذين لم يأخذوا على يده ولم يردعوه من غيّه، وكان ذلك دماراً وبؤساً وشقاءً.

---

(١) الخان: مكان يبنى في المدن، وعلى طرق المسافرين الرئيسية، ينزل فيه المسافرون لمدة ثلاثة أيام، ويقدم لهم الطعام والشراب، والمأوى، وبالقرب منه مكان ثانٍ للرواحل يقدم إليها العلف كل ذلك على حساب الدولة، وغالباً ما يكون بينه وبين الآخر مرحلة، وهي أربعون كيلومتراً تقريباً.

وجاء أمر الله الذي لا مردّ له فاقتتل من اقتتل، وطغى من طغى حتى تولّى أمرهم جميعهم عدوّهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

٤ـ الحركات الباطنيّة

الحركات الباطنية حركات سياسية بمنشئها هدفها القضاء على الإسلام بأيّة صورةٍ، ويُعدّ مُحرّكها بقايا الجماعات الدينية المتعصبة التي قضى الإسلام على نفوذها أو على دولها، ومن هذه الجماعات اليهود، والنصارى، والمجوس، فقد قضى الإسلام على نفوذ اليهود في المدينة المنورة أولاً ثم في الجزيرة العربية عامةً، وأزال الوجود النصراني من أرض العرب وقاتل سادتهم الروم البيزنطيين وأزاحهم عن مواقعهم في بلاد الشام والشمال الإفريقي، وأنهى دولة المجوس في فارس وفي كل مناطق نفوذها، هؤلاء هم قطب الرحى بالنسبة إلى الحركات الباطنية، وإذا كان المجوس هم محورها فإن اليهود هم المخططون لها، وكان النصارى مؤيدين لها.

بدأت الحركات الباطنية في وقتٍ مبكرٍ، ولكنها كانت ضعيفةً، وكان أثرها محدوداً للقرب من عهد رسول الله ﷺ، وللوعي الإسلامي الذي كان موجوداً. بدأت هذه الحركات تعمل على تهديم الإسلام من الداخل فادّعى عبد الله بن سبأ اليهودي الإسلام، وبدأ يتنقّل في الأمصار يُثير الفتنة، ويُؤلّب على سيدنا عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، الخليفة الراشدي، ولم يجد بُدّاً من أن يتّخذ أحد الصحابة ستاراً يستتر به، ويدعو له، فكان يفضّل ـ على زعمه ـ سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم قال بألوهية عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ورجعة محمدٍ ﷺ، فأحدث فتنةً ـ قبّحه الله ـ، كما نشأت الكيسانية التي قالت بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) إلاّ أن أثر هاتين الحركتين قد بقي محدوداً وانتهى سريعاً.

فلما مضى وقت على بدء الإسلام، وبدأ الضعف يظهر على بعض أبنائه بدا حقد هؤلاء الأعداء واضحاً، ووجدوا فرصةً لهم في أن أحفاد صحابة رسول الله ﷺ قد كثروا وتفرّقوا في الأمصار فيمكن أن ينتحل بعضهم الانتساب إلى أحدهم، ووجدوا في الانتماء إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، مفيداً لهم ويحقّق أغراضهم لما لسيدنا عليّ من مكانةٍ في نفوس المسلمين، فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنّة، ومن المقاتلين الأشدّاء الذين بذلوا الكثير في سبيل الإسلام، وله شيعة وأنصار يمكن الإفادة منهم وتسخيرهم لأغراضهم، وكذا كان ابناه الحسن والحسين، رضي الله عنهما، من زوجه فاطمة، رضي الله عنها، فهما حفيدا رسول الله ﷺ وعقبه في ذُرّيتهما، وهما من المبشرين بالجنّة، فبدأ الأعداء ينتحلون نسباً إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وخاصةً عن طريق ابنه الحسين، رضي الله عنه، لأن استشهاده في كربلاء كان له صدى واسع في نفوس المسلمين، فصوّروا المعركة بأساليب كثيرة، واستفادوا من ذلك لذا كان أكثر أتباعهم من أنصار سيدنا علي، رضي الله عنه، أو كانت هذه الحركات تحمل صفة أنصار علي وليست هي كذلك، والتحق بها بالفعل الجهلة من أنصار آل البيت، وهم لا يدرون ماذا يُراد بهم!

ويجب ألا ننسى اتصال أحفاد الحسين، رضي الله عنه، بالنسل الفارسي، إذ أن ابنه علي زين العابدين الذي عقبه منه أمه أم ولد تدعى سلّامة أو سُلافة، أو غزالة، وهي بنت ملك الفرس يزدجرد.

واتخذت هذه الحركات الباطنية كل وسيلةٍ لتجميع الناس حولها سواء أكانت هذه الوسائل شريفةً أم غير ذلك. كان زعماء الحركات الباطنية يُظهرون الزهد في بداية أمرهم كي يُقبل عليهم الناس، ويدّعون الانتساب إلى أحفاد الحسين بن علي، رضي الله عنهما، إذ أن المجتمع الإسلامي لا يخضع غالباً إلا للذين يُعرفون بتقواهم أو على الأقل يخضع للأتقياء أكثر مما يخضع لغيرهم، حتى إذا ما دان لهم أتباعهم، ووثقوا بهم أخضعوهم

لمرحلةٍ ثانيةٍ فثالثةٍ إلى أن يصلوا بهم إلى مرحلةٍ يرفعون فيها عنهم التكاليف الشرعية، وأخيراً يُحلّون لهم ما حُرّم عليهم من أموال ونساء.

ووجدت الحركات الباطنية في إباحة النساء وسيلةً لها كي يلتفّ حولها الناس، وبهذه الوسيلة تستفيد من الشباب المراهقين الذين يسيرون وراء إرواء غرائزهم، ومن الزرّاع الذين يعملون لغيرهم وهم غرباء عن مناطقهم، ومن الأرقاء، والزنج الذين جلبوا للعمل في جنوبي العراق، وهؤلاء جميعاً يحقدون على الحكام والأثرياء، ويرون أنهم يحصلون على ما لا يحصلون هم، ويعيش أصحاب الأملاك في الظلال الوارفة ويُهيأ لهم كل شيء عن طريق الخدم، بينما يعيش الزنج في لظى الشمس اللافحة، ولا يحصلون على شيء، لذا فقد دعت أكثر الحركات الباطنية وخاصة القرامطة منهم إلى شيوعية النساء، ولكن سرّاً، ولمن تثق بهم إلا بعد أن يمرّوا بعدة مراحل كي لا يثور عليهم المجتمع الذي يعيشون فيه إذ في ذلك انتهاك للحرمة، ولأعراف المجتمع وتقاليده، وخروج على عقيدته وهذه الناحية المهمة.

وكذلك فقد عمل القرامطة على شيوعية المال للإفادة من الفقراء والبداة وجماعاتٍ كثيرةٍ. وإضافةً إلى هذا فقد اعتمدت الحركات الباطنية على الإرهاب كي يخافها الناس ويرهبوها ويسيروا وراءها، كما نظمت نفسها تنظيماً دقيقاً، ليبقى أفرادها مجهولين وسط مجتمعهم الذي لا يؤمن بهذه المبادئ، فكانت التقية بصورةٍ عامةٍ سمةً لها، وأمكن ذلك لأتباعها أن يُظهروا غير ما يخفون أو أصبح بإمكانهم التلوّن بصورٍ شتّى.

واستغلّت الحركات الباطنية حقد الأرقاء على ساداتهم، والحالة الاجتماعية التي وصل إليها المجتمع من الضعف والتفكك والفوضى وسيطرة الجند فأعلنت نفسها وقامت بحركاتها، وكان أكثر أتباعها من الشباب الذين يُغريهم دقة التنظيم والقوة، وإرواء الغرائز، وهم دائماً الوقود الرئيسي للحركات، لذا سخّر الباطنيون الشباب لتحقيق مآربهم.

٥ـ الغزو الصليبيّ

بعد أن تقدّم المسلمون في البلاد التي كانت تخضع للروم سواء في بلاد الشام أم في الشمال الإفريقي أم في الأندلس والتي تنتشر فيها النصرانية تحت تأثير حكامها سواء أكانوا من الرومان أم من البيزنطيين، وبعد أن بدأت الفتوحات الإسلامية تتوسّع كلّ يوم وتضمّ أرضاً جديدةً إلى ديار الإسلام، وبعد أن أحسّ النصارى بالهزيمة وخيبة الأمل بصورةٍ لم يكونوا يتوقعونها، وشعروا بقوة المسلمين والروح المعنوية العالية التي يحملونها بشكلٍ ما اعتادوا أن يروه، ولم يكونوا يحلمون به، بعد كل هذه آثرت النصرانية الهدوء ومحاولة الدفاع عن مواقعها التي تراجعت إليها في بلاد آسيا الصغرى، والقيام أحياناً ببعض الغارات لا بقصد الهجوم المعاكس وردّ الفعل لاسترجاع ما فقدته، ودحر المسلمين عمّا أخذوه وإنما بغاية إثبات الوجود كي لا يندفع المسلمون بقوةٍ أكبر لظنّهم من أن إمامهم قد انتهى، أو ليبقوا على تخوّفٍ وحذرٍ من ردّ فعلٍ فلا ينطلقون.

وانتظرت النصرانية مرور موجة الاندفاع الإسلامي كي تهدأ حتى تقوم بردّ الفعل، وفعلاً فقد توقّفت الفتوحات الإسلامية، وبدأت الخلافات تظهر بين المسلمين، وبدأ الضعف يبدو عليهم هنا وهناك فحاولت النصرانية عندها أن تقوم بردّ الفعل. وإذا كانت النصرانية منقسمةً أيضاً بعضها على بعض فالأرثوذكس في بيزنطة ومقرّهم القسطنطينية على خلافٍ مع الكاثوليك الذين يخضعون للبابا ومقرّهم روما، ويُقيم البابا في حاضرته الفاتيكان إلا أن كلا الفريقين يحاول القيام بردّ الفعل من جهته، فالبيزنطيون يحاولون التقدّم في المشرق على حين تحاول روما التقدّم في الأندلس، وكلاهما

يساهم أيضاً بحرب المسلمين في جزر البحر الأبيض المتوسط التي ويمّها تخضع للنفوذ الإسلامي.

لما شعرت بيزنطة أن العباسيين ضعُف أمرهم، وانفصلت الإمارات عنهم، وانبرى بعضها يقاتل بعضاً رأت أن الجوّ أصبح ملائماً لردّ الفعل لكنها أحسّت بهذا الوقت بقوةٍ جديدة تتقدّم من المشرق، وتحمل روحاً قتاليةً كبيرةً، وتندفع باسم الإسلام نحو الغرب تلك هي مجموعة السلاجقة الأتراك، وعندما أرادت بيزنطة أن تتصدّى لهم وتقف في وجههم هُزمت هزيمةً منكرةً في «ملا ذكرت» عام ٤٦٣هـ، وهذا ما جعل أمبراطور بيزنطة ميخائيل السابع يتجه نحو روما لتصفية الجوّ بين الكنيستين المختلفتين، أو يعقد اتفاقاً ودّياً بينهما، ويستغلّ مناسبة انتخاب الكاردينال «هيلد براند» بابا في روما، وهو الذي اتخذ لقب البابا «غريغوري السابع»، فأرسل الأمبراطور عام ٤٦٦ وفداً للتهنئة، وكلّف الوفد بأن يعلن عن رغبة الأمبراطور في توثيق الصلة بين روما وبيزنطة، ووافق البابا الجديد، وأرسل وفداً برئاسة بطريرك البندقية إلى القسطنطينية يحمل شكراً للتهنئة وإشارةً للرغبة نفسها من قبله، وإن كان البابا الجديد ينوي في قرارة نفسه أن يبعث بقواتٍ له إلى آسيا الصغرى لطرد السلاجقة المسلمين الذين كثرت غاراتهم على الحجاج النصارى إلى بيت المقدس، وحالت دون وصولهم إلى هدفهم عن طريق البر ـ على زعمه ـ وفي الوقت نفسه تتوطد أقدامه في آسيا الصغرى، ويقوى نفوذه، وينهي الخلاف مع بيزنطة بالقضاء عليها. وأراد أيضاً أن تزداد دعايته في أوربا كلها ليطيعه الناس بالقيام بعمله هذا لذا بدأ يحرّض على قتال المسلمين في الأندلس، ودعا إلى الهجوم عليهم، وتمت الهجمات النصرانية على المسلمين في الأندلس ودعمتها أوربا بكل ثقلها ومن خلفها البابا، ولكن هذا لم يُفِده كثيراً إذ تقدّم المرابطون من المغرب، واجتاز أميرهم يوسف بن تاشفين بنفسه بحر الزقاق، وانتقل إلى العدوة الأندلسية، وسار المسلمون معه لحرب النصارى فانتصروا عليهم انتصاراً كبيراً في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩، وبذا فإن محاولة التفاهم بين روما وبيزنطة لم تفد النصارى شيئاً.

عادت العلاقات فساءت بين الكنيستين وخاصةً بعد وفاة البابا «غريغوري السابع» عام ٤٨٠، ودبّ الخلاف بينهما، وتحالف ملك ألمانيا المعادي للبابا مع أمبراطور بيزنطة ضدّ روما.

وفي عام ٤٨١ اختير إيربان الثاني بابا لروما، وقد زاد نفوذه كثيراً وأصبح السيّد المطاع في أوربا، ومع أن النصارى في الأندلس قد بدأ وضعهم يتحسّن فقد استولوا على وشقة عام ٤٨٩ وعلى مناطق ثانية، وبذل إيربان الثاني كل ما يستطيع من دعم إلا أنه وجد أن يغزو المسلمين في عقر دارهم أو في قلب بلادهم فإن الإصابة في القلب أشدّ وقعاً وأكثر أثراً، وإذا ما نجح فإن الأطراف بطبيعة الحال تتداعى وتتساقط.

دعا البابا إيربان الثاني إلى اجتماعٍ لرجال الدين يعقد في «كليرمونت» بين [١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني] عام ١٠٩٥، ويوافق [١ ـ ١٠ ذي الحجة ٤٨٩]، وعُقد المؤتمر في الموعد المحدد وحضره ثلاثمائة مندوب، ودارت المناقشات حول الأمور الكنسية، وقبل اختتام المؤتمر بيوم واحد يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة ألقى البابا خطبةً بيّن فيها الهدف الأساسي من المؤتمر وهو الحرب الصليبية، ودعا الأمراء في أوربا إلى نبذ الخلاف فيما بينهم وتوجيه ذلك الجهد لحرب المسلمين، والاستيلاء على بلادهم وامتلاكها وتوارثها مُحتجّاً بقصة الحجاج إلى بيت المقدس والحيلولة دون وصولهم إلى مبتغاهم، وقد اتخذت هذه القضية ذريعةً لكل من يريد أن يزيد من نفوذه في أوربا، وشجّع الأساقفة على القيام بدورهم في هذا العمل المقدّس، وخاطب الجمهور بأن من يموت منهم هناك فله المجد إذ سيموت في المكان الذي مات فيه يسوع، وقدّم للحضور صليب الخلاص ليحملوه على كواهلهم أثناء حركتهم، وقال: إن الكنيسة ستحمي أملاك كل غائب، وسيحلل البابا الأمراء، وكل إنسان من العقوبات الدنيوية المترتبة على الذنوب التي ارتكبت إذا ما اشتركوا بإخلاصٍ في هذه الحرب، وأن على كل منطلقٍ أن يحمل إشارة الصليب، وعليهم الاستعداد الذي يجب أن يكون تاماً في عيد العذراء [١٥ آب] من عام ١٠٩٦م الموافق لعام ٤٩٠هـ.

بدأ البابا يتنقّل في مدن أوربا يدعو إلى هذه الحرب الصليبية، وطلب من الأساقفة أن يُبشّروا بذلك، وقام بطرس الناسك بدورٍ كبيرٍ في هذا المجال إذ لبس رداء الزهد، وسار حافياً يدعو إلى الحرب الصليبية، وساعد الجميع في هذه المهمة انتشار الفقر في ذلك العام، واجتياح السيول المدمّرة عدة مناطق من أوربا.

دعا البابا إلى اجتماع الجيوش في مدينة القسطنطينية، وكلّف مندوباً عنه ليقودها وهو «أدهمار» غير أن الجموع الشعبية التي انطلقت بدعوة بطرس الناسك قد سارت مُسرعةً كالسوائم لا يجمعها نظام، ولا يتولّى قيادتها أحد، يدفعها الحقد، ويُسيّرها الطمع في النهب والأسلاب، وكان البابا يأمل من هذه الجموع أن تنتظر ليقودها مندوبه والعسكريون ليدخلوا جميعاً مدينة القسطنطينية.

ولما رأى أمبراطور بيزنطة «الكسيوس» هذه الجموع بهذه الصورة من الوحشية والفوضى وما ألحقته من خرابٍ على طول الطريق التي سلكتها إلى القسطنطينية طلب منها أن تبقى خارج أسوار المدينة ريثما يصل بطرس الناسك، على حين أنه هو الذي قد سبق وطلب هذه القوات بسرعة لتقف في وجه السلاجقة، فلما وصل بطرس الناسك إلى القسطنطينية أكرمه ونصحه بالانتظار ريثما تصل إليهم جيوش الأمراء النظامية غير أن الحقد العارم والطمع والرغبة في النهب والأسلاب قد جعلها تتحرك نحو بلاد المسلمين، ولما لم تنج من اعتداءاتها البلدان الأوربية التي اجتازتها، كما لم تنج منها بلاد البيزنطيين فشكل طبيعي أن يعمّ الدمار والخراب كل أرضٍ تطأها من البلدان الإسلامية وفعلاً كانت في منتهى الوحشية والإجرام، وارتكاب الجرائم، وانتهاك الحرمات، لم يسلم منها دار، ولا حقل، ولا إنسان، ولا حيوان، وتلتها جيوش الأمراء وكانت أقل فوضويةً، ولكن لم تقل عن سابقتها سوءاً، ولم تختلف عنها فتكاً، وتوالت الحملات الصليبية، وأحرزت بعض النصر، وأسست إماراتٍ لها، واستقرّت بعض الوقت، ثم تحرّكت العاطفة عند المسلمين وبعض قادتهم فبدأوا يعملون لقتال

الصليبيين، ولتوحيد جهود الأمة، وأخيراً تمّ النصر، وأُخرج الصليبيون من البلاد، وقد قاوم هؤلاء الدخلاء المسلمون في الأندلس، والفاطميون، والسلاجقة، والأتابكة، والأيوبيون، والمماليك، وقد طردوا الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ومصر، وجاء دور العثمانيين فأنهوا الأثر الصليبي في ليبيا وتونس والجزائر.

ونتيجة الحروب الصليبية فقد سادت الفوضى، وعمّ الخوف، وزاد تفكك المسلمين وضعفهم في بداية الأمر حتى قيّض الله لهم من جمع شملهم وخذل عدوّهم.

* * *

٦- الغَـزو المغُـولي

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون في حالة احتضار نشأت قوة مخيفة في شرق بلاد المسلمين، وسط الصحارى، تلك هي قوة المغول التي تملك إمكاناتٍ قتاليةٍ كبيرةٍ إذ أن أبناءها من أهل البوادي الأشداء الذين يندفعون إلى هدفهم من غير تفكير لا يصدّهم عنه مانع، وهم على غير دين، من الوثنيين، الذين يعبدون عدداً من الآلهة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدّمون إليها القرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كان يعتبرونها ذات سلطانٍ عظيمٍ على حياة أعقابهم، وكان المغول يلجؤون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذٍ خفيٍ وسلطانٍ غريبٍ على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة[١]. وقد كانت حياتهم رعويةً، ونظامهم قبلياً، مع طاعةٍ لرؤسائهم، وحبٍ للحرب والسلب والنهب، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب، يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرّمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه[٢]. ويدين بعض أفرادٍ من جنسهم بصورةٍ سطحيةٍ بديانات الإسلام أو النصرانية أو البوذية وهم غالباً الذين يعيشون على أطراف ديار المغول.

نظر الصليبيون إلى هذه القوة نظرة خوفٍ من شدّتها، وخشوا أن

---

(١) تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن، الجزء الرابع.

(٢) المصدر نفسه.

تدخل في الإسلام باحتكاكها مع المسلمين كما حدث لغيرها من أبناء جنسها كالسلاجقة وغيرهم، وإذا ما تمّ هذا فإن أمر النصرانية في خطرٍ ليس في الشرق فحسب وإنما قد يتعدّى ذلك إلى الغرب وخاصةً إذا ما اندفعت هذه القوة الجديدة نحو أوربا، لذا حاولوا أن يتداركوا الأمر قبل وقوعه فعملوا على جذب هؤلاء المغول نحو النصرانية هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد حرّضوا المغول ضدّ المسلمين، وبنوا على ذلك آمالاً بأنه إذا ما تمّ هذا فإن المسلمين سيقعون بين نارين، نار النصرانية من الغرب، ونار المغول من الشرق، واتخذوا لذلك عدة أساليب، اتخذوا طريقة النساء ليغروا المغول من ناحية، ولتحرّض هذه النساء أزواجهن من داخل بيوت المغول من ناحيةٍ ثانيةٍ، ولتحاول جذبهم نحو النصرانية من جهةٍ ثالثةٍ، فقد تزوّج «جنكيزخان» فتاةً نصرانيةً من أسرةٍ تتاريةٍ تدين بالنصرانية بطريقةٍ ما، وتزوّج ابنه الثالث وخليفته «أوجتاي» فتاةً نصرانيةً بالطريقة نفسها أو بالأحرى كانت عنده خليلة نصرانية. وكان «جغطاي» الابن الثاني لجنكيزخان من ألدّ أعداء الإسلام، وكذلك ابن أخيه «كيوك بن أوجتاي» وذلك تحت تأثير النصرانية والبوذية. وتزوّج «هولاكو» فتاةً نصرانية كانت الدافع الرئيسي في شرّه الذي حلّه في العراق والشام، وتزوّج ابنه وولي عهده على الأسرة «الإيلخانية» «أباقاخان» ابنة أمبراطور القسطنطينية، ونشأ ابن هولاكو الآخر «تكودار» على النصرانية، وذلك قبل أن يدين بالإسلام، ونتيجة إسلامه قُتل بيد ابن أخيه «أرغون»، وكان أرغون هذا «ابن أباقاخان» من أشدّ أعداء الإسلام وأعنفهم على أهله. كما اعتنق عدد من المغول النصرانية في جورجيا وأرمينيا عن طريق الإغراء.

وفي الوقت نفسه كان البوذيون من جهةٍ أخرى يحرّضون المغول على المسلمين، وكلاهما يصف لهم جنّات بلاد المسلمين وأنهارها، وفاكهتها، وإنتاجها الوفير، وخيرها العميم، والمغول أهل صحارى تتوق نفوسهم لهذا، وتتعطّش لمثله.

وساعد على هذا ما علمه جنكيزخان عن اختلاف المسلمين وقتال

بعضهم بعضاً، وأثاره قتل شاه خُوارزم لرسله فبينما كان مُيمّماً وجهه نحو الشرق يُقاتل خصومه توقّف واتجه نحو الغرب، وسارت وراءه جموعه كالذئاب الجائعة، وبأعداد الجراد، فلم تأت عل شيءٍ إلا تركته كالرميم، فخافها الناس، وفرّت من وجهها القبائل، وذُعرت الأهالي فتركت مدنها وقراها وتحرّكت نحو الغرب، وتخاذلت الجند عن قتال المغول، ورهب القادة نزالهم، وتقدّمهم الرعب مسيرة شهر لما فعلوه من فسادٍ وقتلٍ وتمثيل تقشعرّ له الأبدان، وتعجز عن وصفه الأقلام.

وهذا ما زاد المسلمين ضعفاً على ضعف فمنهم من رغب في مهادنة المغول، ومنهم من فضّل التفاهم معهم، ومنهم من فكر في الخضوع لهم، وهرب بعضهم من وجههم، وحاول بعضهم الوقوف أمامهم وجهادهم، وهذا التفرّق ما ساعد المغول على اقتحام البلاد، ودخول مدينة بغداد بعد خيانة ابن العلقمي الذي تهاون في الدفاع عن المدينة وترك فيها ثغرات، ودلّ الأعداء على هذه الثغرات، وترك جماعته مواقعهم، وشجّع الخليفة على مقابلة هولاكو والسير إليه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فسقطت الدولة العباسية على أيدي هؤلاء المغول، وانتهى أمرها.

وهكذا فإن ضعف الدولة العباسية إنما يعود إلى:

- تسلّط العسكريين على الحكم.
- نشوء الدويلات.
- الترف.
- الحركات الباطنية.
- الغزو الصليبي.
- الغزو المغولي.

ويمكن أن نُضيف اختلاف العباسيين بعضهم مع بعض، وولاية العهد لأكثر من واحدٍ الأمر الذي يؤدي إلى الخلاف، وتولية الصغار أحياناً، وهذا ما يؤدي إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فينتج تسلّط غيرهم عليهم.

وقد قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول حسب سيطرة القادة العسكريين، فالفصل الأول شمل المدة كانت فيه السيطرة للقادة الأتراك، وكان الفصل الثاني للمرحلة التي سيطر فيه بنو بويه، أما الفصل الثالث فقد شمل مرحلة سيطرة السلاجقة.

* * *

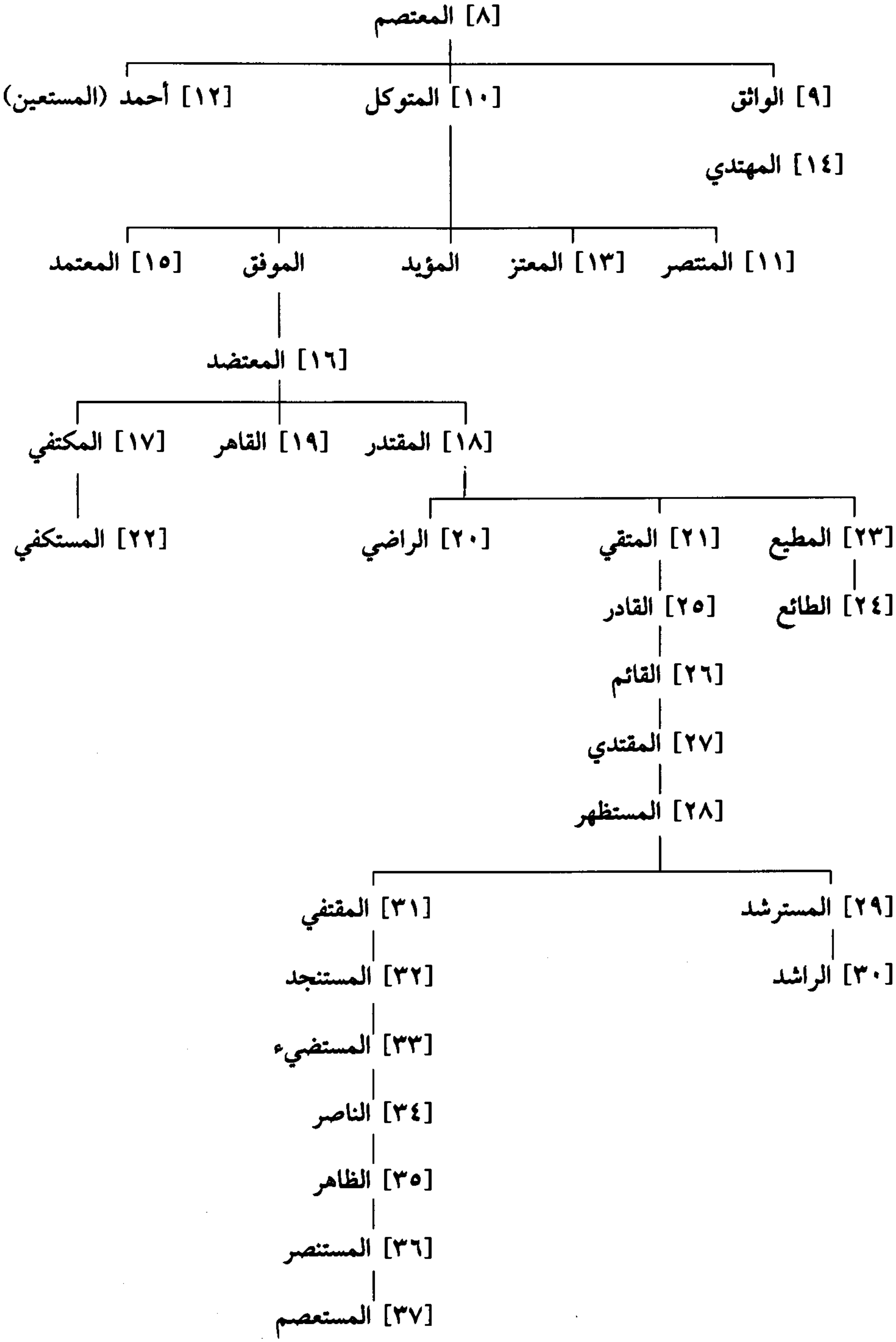
[٨] المعتصم
[٩] الواثق
[١٠] المتوكل
[١٢] أحمد (المستعين)
[١٤] المهتدي
[١١] المنتصر
[١٣] المعتز
المؤيد
الموفق
[١٥] المعتمد
[١٦] المعتضد
[١٨] المقتدر
[١٩] القاهر
[١٧] المكتفي
[٢٢] المستكفي
[٢٣] المطيع
[٢١] المتقي
[٢٠] الراضي
[٢٤] الطائع
[٢٥] القادر
[٢٦] القائم
[٢٧] المقتدي
[٢٨] المستظهر
[٢٩] المسترشد
[٣١] المقتفي
[٣٠] الراشد
[٣٢] المستنجد
[٣٣] المستضيء
[٣٤] الناصر
[٣٥] الظاهر
[٣٦] المستنصر
[٣٧] المستعصم

الخلفاء العباسيون في الدور الثاني:

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
١١	المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨	الأتراك
١٢	المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢	
١٣	المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥	
١٤	المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦	
١٥	المعتمد	٢٥٦ ـ ٢٧٩	
١٦	المعتضد	٢٧٩ ـ ٢٨٩	
١٧	المكتفي	٢٨٩ ـ ٢٩٥	
١٨	المقتدر	٢٩٥ ـ ٣٢٠	
١٩	القاهر	٣٢٠ ـ ٣٢٢	
٢٠	الراضي	٣٢٢ ـ ٣٢٩	
٢١	المتقي	٣٢٩ ـ ٣٣٣	
٢٢	المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤	
٢٣	المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٤	البويهيون
٢٤	الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١	
٢٥	القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢	
٢٦	القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧	

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
٢٧	المقتدي	٤٦٧ ـ ٤٨٧	السلاجقة
٢٨	المستظهر	٤٨٧ ـ ٥١٢	
٢٩	المسترشد	٥١٢ ـ ٥٢٩	
٣٠	الراشد	٥٢٩ ـ ٥٣٠	
٣١	المقتفي	٥٣٠ ـ ٥٥٥	
٣٢	المستنجد	٥٥٥ ـ ٥٦٦	
٣٣	المستضيء	٥٦٦ ـ ٥٧٥	
٣٤	الناصر	٥٧٥ ـ ٦٢٢	
٣٥	الظاهر	٦٢٢ ـ ٦٢٣	
٣٦	المستنصر	٦٢٣ ـ ٦٤٠	
٣٧	المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦	

الفصل الأول

عصر سيطرة العسكريين الترك

بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعيُن أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الهروي ـ مولى لبني حنيفة[(١)]، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ واختار سبعين رجلاً أيضاً[(٢)]. بحيث يكون لكل داعيةٍ اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيبٍ سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرةً يقتدون بها، ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضّح أنهم من أرومةٍ عربيةٍ، ومن قبائل عربيةٍ معروفةٍ مشهورةٍ، وهذا يردّ ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام إبراهيم بن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربيةً، واعتمدت على العرب، فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف يقتلون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أفذاذ علماء العربية؟ إنّ هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تُركياً، إذ يذكر المؤرخون أن إبراهيم بن محمد حين وجّه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع.

(٢) الطبري: ج٧ ص٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدد منها عن لوط بن يحيى الكوفي المتوفى ١٥٧ والمعروف بتشيعه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به.

تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[1].

وأحب هنا أن أوضح نقطةً أخرى وهي أنّ خراسان لم تكن فارسيةً محضةً كما يتصور المؤرخون وإنّما كان يسكنها تُرك، وفُرس، وعرب، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فُتحت فقطن فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو، وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس، وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ ـ أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ ـ إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

٣ ـ التركمان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأبيورد، وعشق أباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإنما سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا بحرب دائمةٍ مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدةً طويلةً من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في المشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى

---

(١) وكيف يكون هذا، وقد أوصاه بأن يلزم القبائل اليمانية وهي قبائل عربية؟

فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تنطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمةً كبيرةً، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يُعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكّن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ونجا منهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعيةً لبني العباس، إلاّ أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩هـ.

وعُزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يُشكلون نسبةً كبيرةً بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عُوانةَ، ثم أشرس بن عبد الله السلمي، ولم تكن عصبيتهما واضحةً، كما أن أولهما لم تزد مدة حكمه خراسان على عدة أشهر، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاّه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ المرابطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفرح به الأهلون، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١١هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبيةٍ مُضريةٍ، وتمكّن من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد توفي بسبب مرضٍ ألمّ به في بطنه عام ١١٦هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مُدةٍ على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بضمّها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فضمّها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرةً ثانيةً، ولم يستدر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان نائباً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضُمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، وتمكّن من إلقاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن زريق، وخالد بن إبراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنّا أُناس من قومك، وإنما هذه المضرية إنّما رفعوا إليك هذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»(١).

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين ألقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي

---

(١) تاريخ الطبري ـ الجزء التاسع.

-١١-

المنتصر بالله
محمد بن جعفر المتوكل
٢٤٧ - ٢٤٨

هو محمد المنتصر بن جعفر المتوكل، ولد عام ٢٢٢ بسامراء، وأمّه أمّ ولد رومية، تُدعى حبشية، يُكنّى أبا جعفر، وقيل: أبا عبد الله. وكان مليح الوجه، أسمر، أعين، أقنى، ربعة، جسيماً، بطيناً، مليحاً، وافر العقل، مهيباً، راغباً في الخير، قليل الظلم، محسناً إلى العلويين، وصولاً لهم، أزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسين «فَدَك»(١). وكان أعين، أقنى، قصيراً، جيد البضعة. وكان - فيما ذكر - مهيباً(٢).

بويع بالخلافة بعد قتل أبيه في الرابع من شوال من عام ٢٤٧، واتهم الفتح ابن خاقان بقتل أبيه، لذا فقد قتله بأبيه. كان يحب الأتراك قبل توليه الخلافة فلما تولاّها أصبح يسبّهم، ويقول عنهم: قتلة الخلفاء.

وقد حرّضه أحمد بن الخصيب وزيره، والقائدان التركيان وصيف وبغا على عزل أخويه: المعتز، والمؤيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه عبد الوهاب، ولم يزالوا يلحّون عليه حتى فعل، وقد وافق المؤيد خوفاً، ورفض المعتزّ فأُهين ثم أقنعه أخوه المؤيد فوافق. ولم يلبث المؤيد أن وُجد مقتولاً على فراشه بيد خادمه، وفي روايةٍ أنه بقي حتى خُلع وقُيّد وضُرب فمات في خلافة أخيه المعتز.

---

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي.

(٢) تاريخ الطبري.

وأرسل القائد وصيف التركي لغزو بلاد الروم عن طريق ملاطية بمكر أحمد بن الخصيب، وطلب الخليفة من وصيف أن يبقى في الثغور أربع سنوات يغزو كلما حان وقت الغزو.

وخرج محمد بن عمرو الشاري بالجزيرة في ناحية الموصل، فأرسل إليه المنتصر القائد إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره، وأرسله إلى الخليفة حيث قتل مع بعض أنصاره الذين أخذوا أسرى معه.

ومات المنتصر في الخامس من ربيع الثاني أي أن مدة حكمه لم تزد على ستة أشهر سوى يوم واحد، وقد اختلف في سبب موته، فقيل: إنه مات بالذبحة التي أصابته في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وبقي فيها عشرة أيام ثم مات، وقيل: إنه سُمّ بالكمثري، وقيل: إنه فُصد بمبضع مسموم و.... وهو أول خليفةٍ من بني العباس ـ فيما بعد ـ عُرف قبره؛ وذلك أن أمه طلبت إظهار قبره[1].

وبويع بعده ابن عمه المستعين.

أما الإمارات فلم يتغير وضعها بعد عن العصر العباسي الأول وخاصةً أن خلافة المنتصر ليست سوى ستة أشهرٍ، وبقيت الإمارات محصورةً في المغرب، أما في المشرق فلا نعدّ إمارة الطاهريين دولةً أو دويلةً لأنها لم تخرج على العباسيين أبداً، وبقي الوالي يُعيّن من قبل الخليفة، وإن كانت الإمرة محصورة في أبناء طاهر بن الحسين. وأما الإمارة الصفّارية فلم تظهر كدولة بعد إذ لم تخرج على الخليفة، وإن كان مؤسسها يعقوب بن الليث الصفّار قد بدأ يتوسع فانطلق من سجستان نحو هراة وضمّها إلى إمرته.

وفي الأندلس كانت الإمارة لمحمد بن عبد الرحمن الثاني منذ عام ٢٣٨، وقد سار المسلمون في هذه الآونة إلى برشلونة فملكوا ضواحيها،

---

(١) المصدر السابق.

ودخلوا قعلتين من قلاعها، ثم عادوا، ولم يستطيعوا اقتحامها، وكانت قد أصبحت بيد النصارى.

وكانت إمارة الأدارسة في خلافاتٍ شديدة إذ كانت تخضع تارةً لحكم صاحب الريف علي بن عمر بن إدريس وتارةً لحكم أولاد القاسم بن إدريس إضافة إلى ثورة عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية الذي أجبر علي بن عمر بن إدريس إلى الفرار إلى أوربا، ولكن أهل فاس استدعوا ابن أخيه، وهو يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس وبايعوه وبقي طيلة وقته يقاتل الخوارج حتى قتله الربيع بن سليمان عام ٢٩٢.

وأمّا إمارة الخوارج الصفرية في سجلماسة فكان إمامها ميمون بن بقية، وقد استمر حكمه لها من ٢٢٤ ـ ٢٦٣، وكانت منصرفةً إلى أمورها الخاصة بها.

وإمارة الخوارج الأباضية في تاهرت كان إمامها أفلح بن عبد الوهاب والذي دام حكمه من ٢٠٨ ـ ٢٥٨ وكذلك فهي إمارة قد اهتمت بقضاياها الداخلية.

وإمارة الأغالبة في القيروان يحكمها أحمد بن محمد الأول أبو العباس (٢٤٢ ـ ٢٤٩)، وكان الفتح الإسلامي يسير في جزيرة صقلية، وقد توفي القائد العباس عام ٢٤٧ فولّى الناس عليهم ابنه عبد الله، وقد تمكّن من فتح عدة قلاع، وبعد خمسة أشهر أرسل الأغالبة أميراً على الجزيرة خفاجة بن سفيان.

وإمارة بني زياد في اليمن وقاعدتها زبيد كان أميرها إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد، وحكم الإمارة (٢٤٢ ـ ٢٨٩).

وإمارة بني يَعْفُر في صنعاء، وقد بدأت في (شبام)، ثم استولت على صنعاء أيام أسعد بن أبي يعفر الحوالي من بني زياد، وأسس هذه الدولة إبراهيم بن يعفر (٢٢٥ ـ ٢٦٠).

-١٢-

المستعين بالله

أحمد بن محمد المعتصم

٢٤٨ - ٢٥٢

بعد وفاة المنتصر خشي القادة الأتراك أن يتولّى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم لقتلهم أباه لذا فقد اختاروا المستعين أحمد بن محمد المعتصم فهو عمّ المنتصر.

وُلد المستعين عام ٢٢١، وأمّه أمّ ولد اسمها مخارق؛ وكان مليحاً أبيض، بوجهه أثر جُدريٍّ، ألثغ، خيّراً، فاضلاً، بليغاً، أديباً، وهو أوّل من أحدث لبس الأكمام الواسعة.

استوزر المستعين القائد التركي «أتامش»، كما أوكل إليه مهمة تربية ابنه العباس، فبذّر الأموال وتطاول فحسده بقية القادة الأتراك وعملوا على التخلّص منه فقتلوه. وعيّن المستعين القائد وصيفاً على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم اجتمع رأي المستعين ووصيف، وبغا الصغير على قتل «باغر» التركي، وكان من القواد الكبار الذين باشروا قتل المتوكل فقُتل عام ٢٥١، أما بغا الكبير فقد توفي عام ٢٤٨، وأصبح ابنه موسى قائداً مكانه، كما مات في العام نفسه طاهر بن عبد الله بن طاهر فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر على خراسان، ولمحمد بن عبد الله بن طاهر على العراق.

وتنكر القادة الأتراك للخليفة المستعين فانتقل إلى بغداد، فبعث الأتراك إليه يعتذرون منه، ويسترضونه فلم يقبل، فأظهروا الشغب في سامراء،

ودخلوا السجن، وأخرجوا من فيه ومنهم: المعتز، وأخوه المؤيد، وبايعوا المعتز وقوي أمره، أما بغداد فقد بقيت على بيعتها للمستعين، وأرسل المعتز أخاه أبا أحمد لقتال المستعين، وجرى القتال بين أهل بغداد بإمرة محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وأهل سامراء بإمرة أبي أحمد بن المتوكل، وطالت الحرب حتى أقنع محمد بن عبد الله بن طاهر الخليفة المستعين بأن يخلع نفسه ويشترط فوافق، واستسلم، وكتب شروطه وبايع للمعتز، وبايعت بغداد، وطلب المستعين أن ينتقل إلى مكة فلم يوافقوه ولا إلى البصرة، فانتقل بعدها إلى واسط، فأرسل إليه المعتز من قتله بعد تسعة أشهر (٣ شوال ٢٥٢)، وكان قد خلع نفسه (٤ محرم ٢٥٢).

أما بالنسبة إلى الغزو فقد غزا وصيف بلاد الروم عام ٢٤٨، وسار إليها أيضاً جعفر بن دينار على رأس صائفة عام ٢٤٩، واستأذن عمر بن عبد الله بن الأقطع بالغزو فسار على رأس قوة، والتقى بالروم إلى القرب من «ملاطية»، فاقتتلوا في يوم الجمعة منتصف رجب من عام ٢٤٩، فاستشهد في هذه المعركة أمير المسلمين ابن الأقطع، واستشهد ما يقرب من ألفٍ من المسلمين، ووصل الخبر إلى علي بن يحيى الأرمني، وكان عائداً من أرمينيا فانطلق على رأس قوةٍ من المسلمين إلى بلاد الروم فاستشهد ومعه أربعمائة مسلم، وثارت العامة في بغداد لتهاون الخليفة والجيش في شأن الثغور، وانصرافهم إلى مشكلاتهم الخاصة، وجمع أصحاب اليسر من أهل بغداد أموالاً كثيرةً للنهوض إلى ثغور المسلمين بعد الذي حدث.

وكثرت الحركات نتيجة ضعف الخليفة وتسلّط القادة على أمور الدولة واستبدادهم بها وبالخليفة نفسه، فشغب أهل حمص على عاملهم عام ٢٤٨، وتكرر شغبهم فأخرجوا عاملهم عام ٢٤٩، ثم خرجوا على عاملهم الجديد عام ٢٥٠ فسار إليهم موسى بن بغا الكبير فاقتتلوا بأرض الرستن عام ٢٥١، وقد أُسر في هذه المعركة أشراف حمص، وخلدوا بعدها إلى الهدوء.

وظهر بالكوفة أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأخذ ما في بيت مال الكوفة، وكان قليلاً، وأخرج السجناء، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وتبعه أناس كثير، ولكنه هزم في النهاية وقتل عام ٢٥٠.

وظهر بناحية طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك أن الخليفة أقطع محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أرضاً بتلك الجهات، فأراد محمد أن ينتزعها بالقوة من أيديهم فثاروا ودعوا الحسن وبايعوه، فاجتمع حوله جماعة من الديلم، ثم تقدّم فانتصر على سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير طبرستان من قبل الخليفة المستعين، ثم دخل الري وأخرج من بها من آل طاهر بن الحسين.

وخرج بناحية قزوين وزنجان الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو المعروف باسم الكوكبي.

وخرج بالريّ يوم عرفة أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وصلّى بالناس العيد، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وهزم محمد بن علي بن طاهر، ثم عاد إلى الري عبد الله بن عزيز فأسر أحمد بن عيسى، وأرسله إلى نيسابور حيث قتل وذلك في خلافة المعتز.

وخرج بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولكنه لم يلبث أن هزم وقتل.

وخرج بمكة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وظلم الناس، وانتقل إلى المدينة فخرج منها عاملها وفعل فعله بمكة فكرهه الناس جداً، وسار إلى

جدة فنهب أموال التجار، وسلب ما وصلت إليه يده، ومنع الناس من الوقوف بعرفة، فلم يقف عامها إلا إسماعيل بن يوسف هذا وعدد من جماعته، وارتكبوا المنكرات.

أما الإمارات فلم يتغير في وضعها شيء.

* * *

-١٣-
المعتز بالله
محمد بن جعفر المتوكل
٢٥٢ - ٢٥٥

وُلد بسامراء عام ٢٣٢، وأمّه أمّ ولد روميّة تُدعى «قبيحة»، كان أبيض، أسود الشعر كثيفه، حسن العينين والوجه، ضيّق الجبين، أحمر الوجنتين، حسن الجسم طويلاً، أقنى الأنف، مدور الوجه، حسن الضحك، وقد أثنى عليه الإمام أحمد في جودة ذهنه وحسن فهمه وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل[١]. وروى الخطيب عن علي بن حرب قال: دخلت على المعتز فما رأيت خليفةً أحسن وجهاً منه. وقال الزبير بن بكار: سرت إلى المعتز وهو أمير فلما سمع بقدومي خرج مُستعجلاً إليّ فعثر فأنشأ يقول:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِجْلِ

فعثرتُهُ مِنْ فيه ترمي برأسه ... وعثرته في الرِجْلِ تبرأ على مَهْلِ[٢]

بُويع المعتز بالخلافة بعد خلع المستعين، وله تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه، وخُطب له على المنابر يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم من مطلع عام ٢٥٢، وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب، وكان الخلفاء قبل يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة[٣].

---

(١) البداية والنهاية، الجزء ١١، ابن كثير.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ الخلفاء، السيوطي.

وكانت خلافته أربع سنوات وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وتوفي وعمره أربع وعشرون سنة.

وأما وضع كبار القادة فقد مات «أشناس» عام ٢٥٢، وهو الذي استخلفه الواثق على السلطنة، وغضب المعتز على وصيف وبغا وهما في بغداد، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يقتلهما، وخافا، واستعدا، للمواجهة، ثم كلّمه أخوه المؤيد في وصيف، وكانت سعاد أخت وصيف مربية المؤيد، وكلّمه أخوه أبو أحمد في بغا، فرضي عنهما. ثم شغب الجند الأتراك، وقُتل وصيف عام ٢٥٣ فجعل المعتزّ ما كان لوصيف لبغا الشرابي، وألبسه تاجاً ووشاحين، ولكنه قتل عام ٢٥٤. وقُتل بندار الطبري عام ٢٥٣ في قتاله للخوارج. وعقد المعتزّ لبايكباك على مصر فأرسل إليها نائباً عنه أحمد بن طولون عام ٢٥٤. وكان المعتز يخاف من صالح بن وصيف، وجاءته جماعة من قادة الجند الأتراك وقالوا له: أعطنا أرزاقنا ولنقتل صالح بن وصيف، فلم يجد عنده ما يعطيهم، فجاءوا إليه ثانيةً إلى دار الخلافة ومعهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا فأخرجوه وأهانوه، وكان ذلك سبب عزله.

خلع المعتزّ أخاه المؤيد وقيّده حتى مات، كما سجن أخاه أبا أحمد. وتوفي محمد بن عبد الله بن طاهر في بغداد فعقد المعتزّ لأخيه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على العراق من بعده، كما تولّى أخوه الآخر سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد.

خرج عن طاعة المعتز بناحية همذان عبد العزيز بن أبي دلف، فسار إليه موسى بن بغا الكبير فهزم ابن أبي دلف، وقُتل عدد كبير من أصحابه.

أغار أصحاب الديلم ابن جستان على الريّ، ومعه أحمد بن عيسى، والحسين بن أحمد الطالبيين، فقتلوا، وسبوا، وهرب منها أميرها عبد الله بن عزيز، غير أن أهل الريّ صالحوا ابن جستان على ألفي درهم فارتحل عنهم، وعاد ابن عزيز إليها، وتمكّن من أسر أحمد بن عيسى فبعث به إلى محمد بن طاهر بنيسابور فقتله.

وتحرّك الحسن بن زيد الطالبي في طبرستان فسار إليه مفلح وتمكّن من هزيمته فلحق الحسن ببلاد الديلم.

وخرج مساور بن عبد الحميد الخارجي، والتف حوله ما يقرب من سبعمائة رجل فسار إليهم بندار الطبري فقُتل من الخوارج خمسون، وقُتل من أصحاب بندار مائتان بينهم بندار نفسه، وسار مساور بعد ذلك إلى حلوان فقاتله أهل حلوان والحجّاج الخراساني الذين كانوا في طريقهم إلى مكة، فقتل الخارجي منهم ما يزيد على أربعمائة رجل.

واستولى يعقوب بن الليث الصفّار على كرمان عام ٢٥٤، ثم اتجه إلى فارس واستولى عليها.

انطلق موسى بن بغا إلى ناحية قزوين لقتال الحسين بن أحمد الطالبي المعروف بالكوكبي فهزمه، ولحق الكوكبي ببلاد الديلم.

وغزا محمد بن معاذ بلاد الروم في شهر ذي القعدة من عام ٢٥٣ من ناحية ملاطية فهُزم المسلمون وأُسر أميرهم محمد بن معاذ.

ولما أخذ القادة العسكريون المعتزّ وأهانوه، وخلعوه، وألزموه على البيعة لابن عمّه المهتدي بالله محمد بن الواثق. وكان المهتدي قد أبعده المعتز من سامراء إلى بغداد، فأحضروه من بغداد إلى دار الخلافة بسامراء فسلّم المعتز إليه الخلافة وبايعه وذلك في ٢٩ رجب من عام خمسٍ وخمسين ومائتين، ثم أخذ القادة المعتز بعد خمسة أيام من خلعه وعذّبوه حتى مات في أوائل شهر شعبان.

* * *

- ١٤ -
المهتدي بالله
محمد بن هارون الواثق
٢٥٥ - ٢٥٦

هو محمد بن هارون الواثق أي ابن عمّ المعتزّ، أمه أم ولد تسمى «وردة»[(١)]، ولد بسامراء عام ٢٠٩ أيام خلافة جدّه المعتصم، يُكنّى أبا إسحاق وقيل: أبا عبد الله.

كان أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً، متعبّداً، عادلاً، بطلاً، قويّاً في أمر الله، شجاعاً، لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً. أقام ببغداد إذ أبعده ابن عمه المعتزّ من سامراء، فلما غضب القادة العسكريون على المعتزّ أحضروا المهتدي من بغداد، وأرادوا بيعته فرفض بيعة أحدٍ حتى أُتي بالمعتزّ، فقام له المهتدي وسلّم عليه بالخلافة، وجلس بين يديه فجيء بالشهود فشهدوا على المعتزّ أنه عاجز عن الخلافة، فاعترف بذلك ومدّ يده فبايع المهتدي، فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس، وكان ذلك لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

قال الخطيب: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قتل، وقال هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدي عشيةً من رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس، فجلست، وتقدّم فصلّى بنا، ثم دعا بالطعام، فأحضر طبق خلاف وعليه رغيف من الخبز النقي، وفيه آنية فيها ملح وخلّ وزيت،

---

(١) تسمى «قرُب» عند ابن جرير الطبري.

فدعاني إلى الأكل، فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام، فنظر إليّ وقال: ألم تك صائماً؟ قلت: بلى، قال: أفلست عازماً على الصوم؟ فقلت: كيف لا وهو رمضان؟ فقال: كُل واستوف فليس ها هنا من طعامٍ غير ما ترى، فعجبت، ثم قلت: وَلِمَ يا أمير المؤمنين وقد أسبغ الله نعمتهُ عليك؟ فقال: إن الأمر ما وصفت، ولكني فكرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز ـ وكان من التقلل والتقشف ما بلغك ـ فغرت على بني هاشم؛ فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشي، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يُخالَف ـ أشير إلى من مضى من آبائه ـ فقال: رحم الله أحمد بن حنبل! والله لو جاز لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه، ثم قال لي: تكلّم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبُل في عيني.

وقال نفطويه: حدثني بعض الهاشميين أنه وجد للمهتدي سفطاً فيه جبة صوف، وكساءً كان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد أطرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين. يجلس بنفسه، ويجلس الكتّاب بين يديه، فيعملون الحساب وكان لا يخل بالجلوس الاثنين والخميس، وضرب جماعة من الرؤساء، ونفى جعفر بن محمود إلى بغداد، وكره مكانه؛ لأنه نُسب عنده إلى الرفض[١].

وعندما أخذ المهتدي من بغداد إلى سامراء لمبايعته بالخلافة لم يدر أهل بغداد سبب ذلك إلا أنهم قد عرفوا استبداد القادة العسكريين بالأمر، وضعف المعتزّ فقاموا بأعمال الشغب، وساروا إلى أمير الشرطة سليمان بن عبد الله بن طاهر، وطالبوا ببيعة أحمد بن المتوكل أخي المعتز خليفة، إذ لم يدروا ما حدث في سامراء فلما علموا ببيعة المهتدي سكنوا وسكتوا.

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي.

وظهرت قبيحة أم المعتز في شهر رمضان «وقد كانت قبل ذلك مختفيةً عند صالح بن وصيف عدو ولدها، ثم تزوجت به، وكانت تدعو عليه تقول: اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدّد شملي، وغربني عن بلدي»[1] وكانت من قبل تملك أموالاً كثيرةً، وتجمع جواهر ثمينةً، فتسلّط عليها صالح بن وصيف وأخفاها عنده، ولما طلب ولدها المعتزّ خمسين ألفاً ليعطيها للعسكريين أظهرت الفقر والحاجة، وقتل صالح بن وصيف ولدها، وسطا على أموالها، ثم التفت إلى الوزير أحمد بن إسرائيل فأخذ أمواله وضربه حتى مات، وإلى عيسى بن إبراهيم كاتب قبيحة فضربه وأهانه حتى دلّه على كل ما تخبئه قبيحة، ثم مات بالعذاب، واستبد صالح بن وصيف كثيراً وطغى، ولم يستطع الخليفة أن يفعل شيئاً معه، ولم تكن أعماله ليرضى عنها.

كان موسى بن بغا في قزوين يقاتل الحسين بن أحمد المعروف بالكوكبي، وقد هزمه، لحق الكوكبي ببلاد الديلم فأراد موسى مطاردته غير أن الخليفة استدعى موسى ليتقوّى به على صالح بن وصيف، وكان موسى قد غضب من صالح لاستئثاره بأموال قبيحة، وقتله المعتز، وزواجه من أم المعتز، وتصرفاته. ولما وصل موسى إلى سامراء طلب الإذن من المهتدي فلم يأذن له لأنه كان جالساً في دارالعدل، فهجم بمن معه عليه، وأقاموه من مجلسه، وحملوه على فرسٍ ضعيفةٍ، وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى دار أخرى وهو يقول: يا موسى اتق الله، ويحك! ما تريد؟ فقال موسى: والله ما نريد إلا خيراً فاحلف لنا أنك لا تمالئ صالح بن وصيف، فحلف لهم، فبايعوه حينئذٍ.

وطلب موسى بن بغا بن وصيف ليناظروه فيما قام به من أعمال وما أخذ من أموال فاختفى. وطلبهم المهتدي للصلح عسى أن ينصرفوا للمصلحة العامة بدلاً من الخلاف بينهما والعمل كل لمصلحته، فاتهمه

---

(١) البداية والنهاية.

موسى ومن معه من القادة أنه يعرف مكان صالح، وتكلموا وحاولوا التهديد فخرج إليهم المهتدي من الغد متقلداً بسيفه، وقال لهم: قد بلغني شأنكم، ولست كمن تقدّمني مثل المستعين، والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا مُتحنّط، وقد أوصيت، وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي، أما دين، أما حياء، أما دعة؟ لِمَ يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟ ثم قال: ما أعلم علم صالح، فرضوا، وانفضوا.

وأعلن موسى أن يعطي عشرة آلاف دينار لمن يأتي بصالح، فلم يظفر ثم وُجد وقُتل. وغضب المهتدي من هذه الأفعال التي لا يستطيع أن يقاومها، ولم يأخذ قائد رأيه فيما يقوم به، فليس قتل القائد بالأمر السهل وليست هذه الاعتداءات بالذي يرضى عنه، وفكر الخليفة بأن يتخلّص من كبار العسكريين الذين يستبدون بالناس وبالحكم، وذلك بأن يضرب أحدهم بالآخر.

وسار موسى بن بغا ومعه «بايكباك» ومفلح لقتال الخارجي مساور بن عبد الحميد، فكتب الخليفة المهتدي إلى القائد «بايكباك» أن يقتل موسى بن بغا، ومفلح القائد التركي الآخر، وأن يتولّى هو قيادة الترك جميعهم غير أن «بايكباك» قد أطلع موسى بن بغا على الكتاب، وفهم القادة العسكريون أن الخليفة يريد القضاء عليهم واحداً إثر واحد فساروا إليه فقاومهم بمن معه غير أنه هُزم وقُتل في منتصف رجب من عام ٢٥٦ فكانت خلافته أقلّ من سنةٍ بخمسة عشر يوماً. ولما قام العسكريون على الخليفة ثارت العامة تؤيد المهتدي، وكتبوا رقاعاً وألقوها في المساجد: يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه[١]. وقتل أيضاً بايكباك إذ دخل على الخليفة مظهراً الطاعة فقتله الخليفة وألقى رأسه إلى الأتراك، فأرهبهم واجتمعوا حول أخي بايكباك.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

وبعد قتل المهتدي انطلق العسكريون إلى أحمد بن المتوكل وأخرجوه من السجن وبايعوه خليفةً باسم المعتمد على الله.

مع هذه الفوضى التي عمّت بسبب تسلّط القادة العسكريين واستبدادهم، وعدم إمكانية أحد للوقوف في وجههم ما داموا يملكون القوة من الجند الذين يطيعونهم بسبب ما يقدمون لهم من بعض الأعطيات بعد السلب والنهب الذي يقومون به. وهذا ما حرّك في نفوس الطامعين القيام بحركات أو الثورة على السلطة الشرعية، ولم يجد هؤلاء الطامعون بدّاً من انتحال نسبٍ هاشمي حيث يمكن أن يجتمع حوله أناس كثيرون من ناقمين على السلطة أو حاقدين على الأوضاع القائمة الاجتماعية والاقتصادية أو مستغلّين فرص الفوضى للقيام بالسلب والاعتداء على الحرمات، ولعلّ أخطر حركة قامت في هذه الآونة هي حركة الزنج، وصاحبها هو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس، وهو أجير من الأجراء، وأمّه قره بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قريةٍ من قرى الريّ يقال لها: «ورزنين» وفيها ولد وبها نشأ. ويقول عن نفسه أن جده (لأمّه) محمد بن حكيم من أهل الكوفة وكان أحد الذين خرجوا على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلما قُتل زيد هرب جده محمد بن حكيم فلحق بالري، ولجأ إلى «ورزنين» فأقام بها. وأما جده (لأبيه) عبد الرحيم فهو رجل من بني عبد القيس ولد في «الطالقان» من أعمال خراسان، وانتقل إلى العراق وأقام بها، واشترى جاريةً سنديّةً، فأولدها أباه محمداً، ويُفهم من هذا الكلام أن محمداً أباه قد انتقل إلى «ورزنين» وتزوج قرة بنت علي فولد هو، فهو من بني عبد القيس. وكان أجيراً حاقداً صاحب أطماع، وعنده إمكانات التلوّن.

انتقل علي بن محمد العبدي هذا إلى البحرين فظهر فيها عام ٢٤٩ وادّعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسين بن عبد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس في «هجر» إلى طاعته فأيّدته جماعة، وخالفته أخرى فحدث قتال بين الطرفين بسببه فتحوّل من تبعه عنه فخرج

من هجر والتجأ إلى حيّ من بني تميم بالإحساء، ومشت معه فئة، وأبغضته ثانية فاقتتلوا من أجله، ووقع عدد كبير من القتلى بينهم فتنكّر له من سار معه في البداية، فسار إلى البادية، وادّعى هناك أنه أبو الحسين يحيى بن عمر الذي خرج بالكوفة وقتل، فنصره أقوام وقاتل بهم خصومهم فقُتل منهم عدد كبير فازورّوا عنه، فاتجه ببصره إلي البصرة فسار نحوها عام ٢٥٤، وزعم هناك أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأراد أن ينضمّ إلى بعض فئاتها فلم يقدر فرحل إلى بغداد، وأقام بها ما يقرب من سنة، ثم عاد إلى البصرة في رمضان من عام ٢٥٥، وأقام بظاهرها، واجتمع إليه الزنج الذين يعملون في الأرض لساداتهم، فيشقون ويعيش الملاك على أتعابهم ولا يعاملونهم المعاملة الطيبة التي أمر بها الإسلام، الأمر الذي نشأ عندهم حقد عليهم استغلّه هذا الدعيّ، فحرّضهم عليهم ومنّاهم الأماني فتركوا أعمالهم، والتفّوا حوله، وبدأ بأعمال النهب والتعدّيات، ويقدّم لهم بما يأتون به من هذه الأعمال اللصوصية. وخرجت جيوش الدولة فبدأ ينتصر عليها إذ كانت في شغلٍ شاغل بين القادة العسكريين والخليفة، وبينهم بعضهم مع بعض، وبين الدولة والحركات المناوئة في طبرستان، وقزوين و.... وما كان يربحه من هذه المعارك يجهّز به جماعته ويقوّيهم، ثم تمكّن من دخول الأُبُلّة وعبادان، فدخل الأولى لخمس بقين من شهر رجب من عام ٢٥٦ فقتل عدداً كبيراً من أهلها وحرقها فخاف أهل عبادان من ذلك ودخل الرعب إلى قلوبهم فاستسلموا للزنج الذين دخلوا مدينتهم. ثم انتقل الزنج إلى الأهواز فدخلوها وفعلوا بأهلها الأفاعيل، ولم ينتصف شهر رمضان من ذلك العام.

* * *

-١٥-
المعتمد على الله
أحمد بن جعفر المتوكل
٢٥٦-٢٧٩

هو أحمد بن جعفر المتوكل، وُلد عام ٢٢٩، وأمه أم ولد تُعرف باسم «فتيان»، بويع بالخلافة لأربع عشرة بقيت من رجب من عام ٢٥٦ فكان عمره يوم ولي الخلافة سبعاً وعشرين سنة. ولّى أخاه أبا أحمد الموفق الكوفة، وطريق مكة، والحرمين، واليمن، ثم أضاف له بغداد والسواد وواسط والبصرة والأهواز وفارس، وفي عام ٢٥٨ ضم إليه أيضاً الجزيرة وقنسرين، وسُمّي الخليفة المعتمد على الله.

جلس المعتمد على الله عام ٢٦١ في دار العامة، وولى ابنه جعفراً العهد من بعده وسمّاه المفوّض إلى الله، وولاّه المغرب، وضمّ إليه موسى بن بغا، وولاّه إفريقية، ومصر، والشام، والجزيرة، والموصل، وأرمينيا، وولّى أخاه أبا أحمد الموفق العهد بعد ابنه جعفر، وولاّه المشرق، وضمّ إليه مسرور البلخي، وأعطاه جزيرة العرب، والأهواز، وفارس، والري، وخراسان، وطبرستان، وقزوين، وسجستان، والسند.

وفي ٢٦٤ ردّ المعتمد على الله إلى الوزارة الحسن بن مخلد، وعزل سليمان بن حرب دون علم أخيه الموفق، فسار إليه أخوه الموفق من بغداد، واقتحم عليه سامراء، ولم يقع بينهما قتال إذ اصطلحا غير أن الحسن بن مخلد قد ترك الوزارة، وهرب من سامراء، وأعيد سليمان بن حرب إلى الوزارة من جديد. ومع هذا الصلح فقد بقي المعتمد على الله

يتخيل أن أخاه الموفق يريد أن يضغط عليه، ويكفّ يده، لذا فقد أراد اللحوق بمصر إلى عند الطولونيين غير أن أخاه الموفق قد أمر نائب الموصل إسحاق بن كنداج أن يردّ المعتمد عن غيّه فردّه. ولم يكن إليه مع أخيه شيء من الأمر حتى أن المعتمد طلب في بعض الأيام ثلاثمائة دينار فلم يصل إليها فقال الشاعر في ذلك:

ومن العجائب في الخلافة أنْ ... ترى ما قلّ مُمتنعاً عليه
وتُؤخذ الدنا باسمه جميعاً ... وما ذاك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طُرّاً ... ويُمنع بعض ما يُجبى إليه

وفي عام ٢٧٨ مات الموفق أخو الخليفة، وهو أصغر منه بستة أشهر، وبويع ابنه أبو العباس أحمد بن الموفق ولياً للعهد باسم المعتضد بالله. وبعد عام خلع المعتمد على الله ابنه جعفراً المفوّض إلى الله من ولاية العهد وأعطاها لابن أخيه حيث كان العسكريون يؤيدونه، وفي العام نفسه توفي الخليفة.

كان المعتمد أول خليفةٍ انتقل من سامراء إلى بغداد، ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء بل جعلوا إقامتهم ببغداد. وكان عمره يوم توفي خمسين سنة، فكانت خلافته بذلك ثلاثاً وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر هذه المدة إلى اللهو، وكان قائماً بأمر الدولة أخوه الموفق الذي تلقّب بناصر دين الله، وصار إليه العقد، والحلّ، والولاية، والعزل، وإليه يُجبى الخراج، وكان يُخطب له على المنابر، فيقال: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفّق بالله، ولي عهد المسلمين، أخا أمير المؤمنين، وكان غزير العقل، حسن التدبير، يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جداً[١]. وهو الذي قاد الجيوش ضد الزنج، وعلى يديه ـ بإذن الله ـ تمت هزيمتهم. وتوفي قبل أخيه الخليفة

---

(١) البداية والنهاية.

بستة أشهر بمرض النقرس فتورّمت رجلاه حتى عظمت جداً، واستمر في مرضه حتى ملّه أهله والقائمون عليه.

وفي أيام المعتمد على الله كثرت الحركات، وزادت غارات الروم، وقامت إمارات جديدة غير التي قامت من قبل، وعمّت تعدّيات القادة العسكريين ولولا أن قبض الموفق على زمام الأمر لانهارت الدولة أو لاستبدل الخليفة.

الحركات:

فقد ظهر بالكوفة علي بن زيد الطالبي، فوجّه الخليفة إليه جيشاً فهُزم جيش الخليفة، وقُتل عدد كبير من أفراده، ، ونجا أميره. وتمكّن علي بن زيد من دخول الري.

وخرج محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي بفارس، وغلب عليها، لكنه عاد في عام ٢٥٨ فدخل في طاعة الخليفة، وحمل إليه الخراج، لكنه لم يلبث أن عاد إلى خلافه، وخلع طاعته عام ٢٦١ غير أنه هُزم أمام يعقوب بن الليث الصفّار، ثم فرّ من فارس أمامه عام ٢٦٢.

ودخل محمد وعلي ولدا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدينة المنورة عام ٢٧١ وعملا بها نهباً.

وثار ابن عيسى ابن الشيخ بالقرب من دمشق غير أنه هُزم أمام القائد «أماجور»، ورضي الخليفة عنه بعد ذلك، وعيّنه نائباً على أرمينيا.

الخوارج:

وأزعج مساور بن عبد الحميد الخارجي البلاد، واستمرت الدولة في قتاله، وهو في تعدّياته حتى توفي عام ٢٦٣. وفي عام ٢٦٧ استولى أحمد بن عبد الله الحجابي على خراسان، وكرمان، وسجستان، وضرب السكة باسمه، وفي نهاية العام قتله أحد جنوده، وأراح المسلمين منه.

وكذلك فقد سيطر الخوارج على مدينة هراة، أو استمرت سيطرتهم على هذه المدينة والتي دامت ثلاثين سنة حتى أنقذها منهم يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ حيث ظفر بأميرهم الذي انتحل الخلافة طيلة هذه المدة.

وسبّبت الإمارات التي قامت مشكلاتٍ للدولة وخاصةً الدولة الصفارية، والطولونية، والطالبية. غير أن أصعب الحركات وأشدّها كانت حركة الزنج.

الزنج:

كُلّف سعيد بن الحاجب بقتال الزنج فسار إليهم في رجب من عام ٢٥٧ وهزمهم في أول معركة غير أنه هُزم أمامهم في المعارك التي تلت، وفقد قسماً كبيراً من جيشه، وقُتل هو، واشتدت شوكتهم، واستطاعوا دخول مدينة البصرة في شوال من العام نفسه، وكان أهلها قد أصابهم الرعب والخوف بسبب بما كانوا يسمعون من أعمال هؤلاء الزنج الحاقدين، فغادرت البصرة أعداد كبيرة من أهلها، واتجهوا إلى عدة جهات، ولما دخل الزنج المدينة هدّموا دورها وأحرقوها، ثم نادى إبراهيم بن المهلبي بالأمان لأهلها فاجتمع منهم عدد كبير فلما رآهم أمر بقتلهم فأُبيدوا.

وفي مستهل ذي القعدة من عام ٢٥٧ أرسل الخليفة جيشاً كثيفاً بقيادة الأمير محمد ـ المعروف بالمولد، وأردفه بجيشٍ آخر في ربيع الأول من عام ٢٥٨ بإمرة أخيه الموفق، ومعه القائد مفلح، فقُتل مفلح، كما أُسر أحد قادة الزنج، وهو يحيى بن محمد البحراني، وحدث بين الطرفين قتال عنيفٍ في شهر رجب، وانتقل الموفق بعد ذلك إلى واسط حيث اتخذها مقراً لقيادته، ورجع بعدها إلى سامراء، وعهد للأمير محمد بتوليّ مهمة القتال.

وتوالت الجيوش إلى حرب الزنج فسار موسى بن بغا نحو البصرة، ومعه إسحاق بن كنداج، وإبراهيم بن سيما، كما سار عبد الرحمن بن مفلح نحو الأهواز وذلك عام ٢٥٩، واستطاع عبد الرحمن بن مفلح أن ينتصر على قائد الزنج في منطقة الأهواز، وهو علي بن أبان المهلبي في

عدة معارك، وأن يأسر من أتباعه عدداً كبيراً، وفرّ نتيجة ذلك المهلبي إلى صاحب الزنج، وملك عبد الرحمن بن مفلح الأهواز.

وفي عام ٢٦٠ دخل الزنج الكوفة، وقتلوا علي بن زيد الطالبي الذي امتلكها، كما أن الزنج قد تمكّنوا في العام التالي من العودة إلى الأهواز فقتلوا، وسبوا، وسلبوا، وانتهبوا ما شاء لهم هواهم، ثم أحرقوا الدور.

وكانت سنوات حالكات على الدولة، فالطولونيون يحاربونها من الغرب، والصفاريون يقاتلونها من الشرق، والروم يغزون أطرافها من الشمال، والذعر ينتشر في جنوبي العراق بسبب أعمال الزنج وأفعالهم الدنيئة، وعندها شمّر الموفق عن ساعد الجدّ فخلّص واسط من الصفاريين عام ٢٦٢ غير أن الزنج قد دخلوها بإمرة سليمان بن جامع، ولكن تمكّن أبو العباس بن الموفق من استرجاعها عام ٢٦٧، ثم سار الموفق بنفسه إلى صاحب الزنج، وهو بالمدينة التي أنشأها، وسمّاها «المنيعة»، فدخلها الموفق عنوةً، فقتل وأسر كثيراً، وغنم من (المنيعة) أموالاً وفيرةً، وأنقذ خمسة آلاف امرأةٍ مسلمةٍ كانت بيد الزنج. ثم سار الموفق إلى بلدة صاحب الزنج الثانية، واسمها «المنصورة» وبها سليمان بن جامع قائد الزنج، وتمكّن الموفق من دخولها بعد أن قاتل الزنج دونها قتالاً عنيفاً، وكان لها خمسة أسوار، وأنقذ منها عشرة آلاف امرأة مسلمة جلّهم من أهل البصرة.

وكان الموفق ـ رحمه الله ـ يدعو الزنج إلى الرجوع إلى الحق، والتوبة عما قاموا به، ويبذل الأمان لمن عاد واستنكر فعل صاحب الزنج الدعيّ، ومن أبى قتله، وفوق كل هذا فقد عمل الموفق على إزالة الأسباب التي دعت إلى حقد هؤلاء الزنوج بإزالة الفوارق التي وجدت، والمعاملة الإسلامية التي يجب أن تسود، وإكرام الخدم كل هذا أدّى إلى عودة الكثيرين، ومن ثم وجّه كتاباً إلى صاحب الزنج يدعوه فيه إلى التوبة والرجوع عما ارتكبه من منكرات ومحارم، ودعوى النبوة، واستحلال ما حرّم الله وبذل له الأمان، فلم يردّ عليه صاحب الزنج، فعدّها الموفق إهانةً واستخفافاً، وسار من فوره على رأس خمسين ألفاً نحو مدينة صاحب الزنج

«المختارة»، وحاصرها، وقدّم ابنه أبا العباس بين يديه فهزم من خرج إليه، وثبت «بهبوذ» كبير أمراء صاحب الزنج. ثم نادى الموفق بالأمان لأصحاب الدعيّ فطلبه كثيرون، وانتقلوا إلى صفّ الموفق، وأصبحوا على صاحب الزنج بعد أن كانوا معه. وبنى الموفق مدينة تجاه مدينة «المختارة» وجلب إليها الأرزاق كافةً. وجرت الحروب بين الطرفين طيلة عام ٢٦٧، وفي العام التالي دخل المسلمون المختارة دون رأي الموفق، ووصلوا إلى وسط المدينة، فخرجت إليهم كمائن الزنج من حيث لا يدرون فاضطروا إلى الفرار. وظفر أبو العباس بجماعةٍ من الأعراب كانوا يجلبون الطعام والمؤن إلى الزنج فقتلهم، كما ظفر ببهبوذ بن عبد الوهاب فقتله، وهو كبير أمراء صاحب الزنج. وتمكّن الموفق بعد أن عوفي من سهمٍ أصابه أن يجدّد القتال، وأن يدخل المختارة عام ٢٦٩، وهرب صاحبُ الزنج إلى مدينة أخرى فتحصّن بها فأرسل الموفق وراءه لؤلؤ مولى أحمد بن طولون الذي جاءه مُفارقاً سيّده، فكان طليعةً لجيش الموفق، وفرّ صاحب الزنج من المدينة التي تحصّن بها، فبعث الموفق السرايا خلفه فأتوا برأسه، وأسروا قائده سليمان بن جامع، وعاد الموفق إلى مدينة الموفقية، ثم جيء له بابن صاحب الزنج «انكلاي»، وعلي بن أبان المهلبي أسيرين، وانتهت بذلك حركة الزنج بعد أن دامت أكثر من أربعة عشر عاماً ٢٥٥ ـ ٢٧٠.

وتحرّك الزنج ثانيةً في مدينة واسط عام ٢٧٢، ونادوا «انكلاي يا منصور» فاستدعى الموفق أسرى الزنج، وكانوا في سجن بغداد، وقتلهم، وفي مقدمتهم انكلاي، وسليمان بن جامع، وعلي بن أبان المهلبي فانقطع أمل الزنج بقادتهم، ثم ضرب المشاغبين ضربةً قاصمةً سكنوا بعدها نهائياً.

القرامطة والإسماعيلية:

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تحتضر ظهرت دعوة الإسماعيلية ودعوة القرامطة، وكلها تنبع من معينٍ واحدٍ وهو إطلاق العنان للشهوات واصطياد الشباب، وهم في سن المراهقة، وهم وقود الحركات عادةً، ثم

تنفيذ الأهداف والمرامي السياسية والدينية من وراء ذلك كله. وفي هذه الآونة ظهر أدعياء كثيرون انتسبوا للبيت الهاشمي وما هم كذلك، ولما كان عدد من أصحاب الوجاهة من الهاشميين قد اختفوا من وجه العباسيين كي لا ينالهم أذىً بسبب ما يفعله آخرون من الهاشميين سواء أكانوا من طالبي السلطة أم من الذين يدخلون المدن ويعيثون فيها فساداً أم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ومما سهّل ادعاء كثيرين للبيت الهاشمي اختفاء عدد من الهاشميين فعلاً.

أشيع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أن أسرة محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد انتقلت إلى السلمية في بلاد الشام إلى الشمال الشرقي من حمص، وفي الوقت نفسه فقد انتقلت أسرة ميمون القداح إلى السلمية، وميمون القداح قد عاصر محمد بن إسماعيل السابق الذكر، وكان والد ميمون وهو ديصان يهودياً فأسلم ميمون، أو أظهر الإسلام وله أهداف سياسية ودينية وانتسب إلى الدعوة الإسماعيلية، ولما مات ميمون خلفه ابنه عبد الله المتوفى عام ١٨٠هـ، وأوصى ميمون أن يُسمّى أحفاده بأسماء أحفاد محمد بن إسماعيل كي يختلط الأمر، وفعلاً كان لميمون عبد الله، ولعبد الله أحمد، ولأحمد الحسين، وللحسين عبيد الله وعبيد الله هو المهدي الذي ظهر في المغرب. كما كان لمحمد بن إسماعيل الأسماء نفسها لولده وأحفاده ومما زاد اختلاطاً أن أبناء محمد بن إسماعيل كانوا يحملون ألقاباً وأحياناً أسماءً حركيةً تخفي حقيقتهم، ويبدو أن السلمية أصبحت مركزاً لدعوة هذه الأسرة القداحية أو الميمونية وربما كان صاحب الدعوة يضع شخصاً يلتقي بالدعاة زيادةً في الحيطة على نفسه أو خوفاً على دعوته، وربما يكون قد وجد شخصان أحدهما فعلاً ينتمي إلى أسرة محمد بن إسماعيل وعندها لا يكون انتقال تلك الأسرة إلى السلمية دعايةً وشائعةً ويقوم بالدعوة لنفسه، وآخر يحمل الاسم نفسه وينتمي إلى الأسرة الميمونية ويعمل لنفسه ويترقب نشاط الأول كي يستغله في الوقت المناسب. وبالجملة فقد كان النشاط قائماً

والدعاة ينتشرون في مناطق كثيرة وكان من جملتهم شخص حمل اسم «أبو عبد الله الشيعي» وقد وجد في جنوبي العراق يدعو لأبناء محمد بن إسماعيل، ومن أنصاره «رستم بن الحسين بن حوشب»، وكان في اليمن رجل يُدعى «محمد بن الفضل» كثير المال والعشيرة، ويعد من رؤوس الشيعة هناك، وقد سافر إلى كربلاء ليزور قبر الحسين، فرآه أبو عبد الله الشيعي، ورستم بن الحسين بن حوشب وهو يبكي بكاء مُرّاً بجانب القبر، فأحبا كسبه إلى دعوتهما، أو وجدوا فيه ما يصلح لئن يكون من أتباعهما، ففاتحاه بالموضوع ولقيا عنده استعداداً كبيراً، وسارا معه إلى اليمن، وهناك بدأت الدعوة تنطلق، واتجه إليها عدد من الذين كانوا يعيشون جنوبي العراق فكثر الأتباع، وكان من قادتها «رستم بن الحسين بن حوشب»، وقد زار أبو عبد الله الشيعي السلمية والتقى بالإمام المستور ـ على حدّ تعبيرهم ـ ووصلت الأخبار إلى أن المغرب أرض صالحة لبثّ الدعوة فيها فسار إليها أبو عبد الله الشيعي كما سار إليها قبله رجل اسمه «الحلواني» وآخر يُدعى «أبو سفيان» ولعل هذه الكنية وجدت لإبعاد الشبهة إذ لا يمكن للرافضة وما تفرّع عنها أن تُكنّى بهذه الكنية، وبدأت الدعوة تأخذ طريقها نحو النجاح. أما في اليمن فقد أسس «رستم بن الحسين بن حوشب» إمارةً له، وعرف عندهم باسم منصور اليمن، وكان من قادته الكبار علي بن الفضل.

وكان من الدعاة في جنوبي العراق «مهرويه» وهو أحد الذين يُخفون عقيدتهم المجوسية، وهو من أصلٍ فارسي، وكذلك كان «حسين الأهوازي»، وهو من الفرس أيضاً، وربما كانت نسبته إلى الأهواز لإخفاء شخصيته إذ كان رسولاً متنقلاً لإمام الإسماعيلية المستور، وقد يكون على صلةٍ وثيقةٍ بصاحب الدعوة الأول. وكان عبد الله بن ميمون القداح رأس الدعوة الإسماعيلية الظلّ، وكان يريد أن يُعمّي عن نفسه، فوزّع دعاته في الأمصار، وخاصةً أبناءه حتى لا تتجه الأنظار إلى مكان إقامته، فأرسل ابنه أحمد ليقيم في الطالقان من بلاد خراسان، وطلب من دعاته أن يراسلوه إلى هناك، كما أعلن أحمد عن موت ابنه «حسين»، ولم يمض وقت طويل

حتى خرج من الأهواز حسين هذا، وعُرف باسم «حسين الأهوازي»، وربما كان هو بالذات حسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، كما يقال: إن حسين الأهوازي هو رسول الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، وهنا يبدو تشابه الأسماء بين أسرة حسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأسرة حسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، ومن هنا جاء الاختلاف وادعاء النسب القداحي إلى آل البيت.

عرف حسين الأهوازي كداعيةٍ إسماعيلي في جنوبي العراق بغض النظر عن أصله ونسبه، وقد التقى مرةً بـ «حمدان بن الأشعث» الذي عرف باسم «قرمط»، وهو في طريقه إلى السلمية حسبما تدّعيه الرواية القرمطية، وقد استطاع «حسين» استمالة «حمدان» إلى دعوته، وسار معه إلى قريته حيث بدأ العمل هناك بنشاط إذ أن حمدان كان صاحب علاقاتٍ اجتماعيةٍ كثيرةٍ، وناقماً على المجتمع لوضعه، وكثير الكلام عن الأوضاع، وكان المحيط الذي يعيش فيه حاقداً أيضاً على الحكم العباسي فيستمع إلى كل ناقد، فتوسّعت الدعوة بحيث لم يعد أحد ينكر مركزها، وترقّى حمدان في سلم الدعوة، ووصل إلى مكانٍ مرموقٍ فيها، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يعود إلى الفرس المجوس الذين كانوا يكثرون في ذلك الوسط، ويخططون للعمل ضد الدولة، ويعملون على تهديم الإسلام، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يرجع إلى يهود نجران الذين كانوا يشبهون المجوس في الخطة والهدف، وكثيراً ما عمل الفريقان في مخططٍ واحدٍ ضد الإسلام.

في هذا الوقت كانت حركة الزنج قائمةً في جنوبي العراق، وقد سيطرت على مدينة البصرة، والأهواز، وواسط، وامتد نفوذها، واستطاعت الانتصار على الجيوش العباسية في عددٍ من الوقائع، فرغب حسين الأهوازي أن يشارك في هذه الحركة كمرحلةٍ من مراحل عمله، إذ لا يستطيع وحده آنذاك أن يقوم بعملٍ مثمرٍ، والحركات الانتهازية يستغل عادةً

بعضها بعضاً أو يركب بعضها طريق الآخر حتى إذا تمّ له ما يريد انفرد وحده فالغاية عندهم تبرر الواسطة.

التقى حسين الأهوازي بصاحب الزنج عام ٢٦٤، وعرض عليه المساعدة ما دامت الغاية واحدةً والوسيلة واحدةً إلا أن صاحب الزنج قد عرف رغبة حسين الأهوازي في استغلال الحركة أو كما يقال سرقة الثورة فرفض المساعدة حيث كان الزنج في أوج القوة التي وصلت إليها حركتهم فلم يبالوا بالعون.

لم تلبث حركة الزنج أن فشلت وقتل صاحبها عام ٢٧٠ ـ كما رأينا ـ وقضى عليها العباسيون بعد أن عرف الموفق الأسباب التي دعت إليها أو ساعدت على نجاحها فحاول التخلص من تلك الأسباب ودعا إلى تطبيق الإسلام الذي يقضي على دواعيها، فوجد الدواء لها فانفرط عقد الزنج وتخلّص العباسيون من حركتهم. وعندما هدأت الأوضاع استطاع حسين الأهوازي أن يُجدّد نشاطه، وأن يُقنع أتباعه ويُمنّيهم بأنهم سيملكون الأرض، وفرض ديناراً على كل من أجابه لدعوته ليضمن انتظامهم، ووضع عنهم الصوم، والصلاة، والفرائض جميعها، وأحلّ لهم أموال المخالفين لهم ودماءهم وأعراضهم، ونظّمهم تنظيماً دقيقاً إذ جعل منهم اثني عشر نقيباً، وكان من أبرزهم حمدان بن الأشعث (قرمط).

مات حسين الأهوازي فخلفه في رئاسة الدعوة حمدان بن الأشعث (قرمط)، فابتنى لأتباعه داراً للهجرة في سواد الكوفة عام ٢٧٧، وسار على طريقة سلفه، وهكذا أصبح للدعوة القرمطية مركز يؤمّونه، وقاعدة يمكنهم الانطلاق منها. اختار القرمطي دعاته وكان من أشهرهم ابن عمه وصهره (عبدان) وهو الذي نسبت إليه كثير من كتب القرامطة، (زكرويه بن مهرويه) الذي أخذ الدعوة عن أبيه كما ورث عنه ما كان يشغل باله في القضاء على الإسلام وتأسيس أسرةٍ فارسيةٍ يعود إليها الحكم وتعتمد على المجوسية، و (أبو الفوارس) الذي قاد ثورة القرامطة عام ٢٨٩.

فرض القرمطي على أتباعه مبالغ من المال عليهم أن يدفعوها،

وتصرّف في هذه الأموال فجذب إليه الفقراء الذين قدّم إليهم المساعدات، واشترى السلاح فأخاف الناس فالتحقوا بدعوته تخلّصاً من شرّه وطمعاً في الغنائم التي منّاهم بالحصول عليها من أموال المخالفين له، وربما كان هذا القرمطي يعمل لنفسه، أو أنه مقتنع بالعمل لإمامة الإسماعيلية الذين يعملون بدورهم للغاية نفسها أو هكذا كان يُظنّ.

كان القرامطة دعاةً للإسماعيلية، ثم انحرفوا عنهم عندما علموا أن الدعوة في السلمية لم تعد لأولاد محمد بن إسماعيل وإنما لأولاد عبد الله بن ميمون القداح، وأصبح الاختلاف واضحاً بين الفريقين في الوسائل التي اتخذوها وفي العقائد التي غدت للقرامطة وعدّهم الإسماعيليون ملاحدةً، وربما عدّ القرامطة الإسماعيليين مخالفين.

كان أتباع قرمط يتلقّون التعليمات من السلمية، ويسيرون حسبها بشكلٍ دقيقٍ ومنتظمٍ، وذات مرةٍ أرسل قرمط رسوله إلى مقرّ الدعوة في السلمية، والتقى الرسوَل هناك بصاحب الدعوة الأول وبينما كان الحديث يدور بينهما عن الإمام المنتظر إذ أُجيب الرسول أن هذا الموضوع إنما هو خرافة، والدعوة هي لأولاد عبد الله بن ميمون القداح، إذ ظنّ صاحب الدعوة الأول أن القرامطة قد التزموا بالخط تماماً، وأنهم أصبحوا مرتبطين به بشكلٍ أكيدٍ، وقد آن له أن يفاتحهم بالأمر.

عاد الرسول إلى سواد الكوفة ونقل الخبر إلى قرمط الذي أدرك اللعبة وترك الصلة بالسلمية، وبدأ العمل وحده منفرداً ولنفسه. وعندما حدث هذا التغير في طريقة (قرمط) حضر أحد أبناء أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من (الطالقان) إلى الكوفة، وهو كبير الدعاة، وصلة الوصل بين السلمية ودعاتها فعاتب (عبدان) ابن عم (قرمط)، وهو مفكر القرامطة، عاتبه على السير على نهج خاص والعمل على انفراد، وشقّ عصا الطاعة إلا أن (عبدان) عنّفه، وطرده من منطقة السواد، غير أن (زكرويه بن مهرويه) قد استقبله، وتآمر الاثنان معاً على قتل (عبدان)، فثار أهل السواد لأن أكثرهم من أتباع (عبدان)، فخرج القداحي خائفاً يترقب، واختفى

(زكرويه). وهنا يبدو اتفاق (زكرويه) و (السلمية) كمرحلةٍ من مراحل العمل، ولكن يبدو أن كلاً منهما يريد الاستقلال والعمل لنفسه، ويبغي استغلال الطرف الآخر لمصلحته، إذ أن (زكرويه) يريد أن يكسب السلمية مركز الدعوة إلى جانبه كي يربح الأنصار، ويبقى على رأس العمل، وتريد السلمية ألا تخرج منطقة السواد من قبضتها وإنما تريد أن تحافظ على بعض الدعاة أمثال (زكرويه) الذي يمكنه كسب تأييد المجوس المتسترين ودعم اليهود المادي. ومع هذا الاتفاق المرحلي حرص كل طرفٍ على كسب أنصار له في منطقة نفوذ الآخر، ففي الوقت الذي حرصت فيه السلمية على وجود أعوان لها في جنوبي العراق رأى (زكرويه) أن بلاد الشام منطقةً خصبةً للعمل إذ أن ضعف الطولونيين يساعد على النشاط هناك بينما هو محصور في مخبئه في منطقة السواد خوفاً من أنصار (عبدان).

الروم:

ونستطيع أن نقول: إن الروم في هذه المرحلة قد بدأت كفتهم ترجح على المسلمين وإن لم يكن رجحاناً واضحاً إلا أنهم قد تشجّعوا على دخول بلاد المسلمين، أو أن هيبة المسلمين قد قلّت في أعين الروم بعد أن كانت كبيرةً. وخاصة بعد حركة الزنج واستفحال أمرها، وانشغال الدولة بها، وبقتال الإمارات الأخرى.

وثب بسيل الصقلبي عام ٢٥٧ على ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وقتله وغلب على الملك، وكان ميخائيل قد حكم بلاد الروم مدة أربع وعشرين سنة.

وهاجم الروم سميساط، وغلبوا عليها، وانتقلوا إلى (ملاطية) فحاصروها فنفر عليهم أهلها وأعانهم الله فانتصروا عليهم وردّوهم على أعقابهم خاسرين. غير أن الروم تمكّنوا في عام ٢٦٠ من أخذ (لؤلؤة) من أيدي المسلمين، وهي إحدى قلاع الثغور. ودخل المسلمون بلاد الروم عام ٢٦٤ في أربعة آلاف مقاتل بإمرة عبد الله بن رشيد بن كاوس غير أنهم

هُزموا وأُسر أميرهم. وفي العام التالي (٢٦٥) خرج بطارقة الروم في ثلاثين ألفاً إلى بلاد المسلمين من جهة (أضنة) ووصلوا إلى مصلّى المدينة، وقد أسروا والي الثغور «أرخوز» ومعه أربعمائة مسلم، وقضى البطارقة أربعة أيام بالقرب من (أضنة)، ثم عادوا إلى بلادهم، وكرّر البطارقة هجومهم في العام التالي (٢٦٦) ووصلوا إلى ديار بكر، وأسروا مائتين وخمسين مسلماً، فنفر لهم أهل نصيبين فرجع الروم وقد قُتل بطريق البطارقة.

وغدا بعد ذلك جزء من ثغور بلاد الشام يتبع الطولونيين فسار عام ٢٦٦ ثلاثمائة من أهل طرسوس، ودخلوا بلاد الروم، فخرج عليهم أربعة آلاف من أعدائهم فانتصر المسلمون رغم قلتهم، وقتلوا عدداً كبيراً من الروم.

وجاء مائة ألف من الروم فنزلوا قرب طرسوس عام ٢٧٠، وكانوا بإمرة بطريق البطارقة، فخرج عليهم المسلمون، وهزموهم، وقتلوا الكثير منهم، ومنهم بطريق البطارقة.

وفي عام ٢٧٣ قُتل بسيل الصقلبي ملك الروم بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، وقد عدا عليه أولاده، فقتلوه، واستلم الأمر بعده أحدهم.

وفي عام ٢٧٤ غزا نائب طرسوس «يازمان» بلاد الروم، وأوغل فيها، وقتل كثيراً، وغنم.

* * *

الإمارات

بقيت الإمارات القديمة كما هي ليست على صلاتٍ كبيرةٍ أو على تماسٍ مع الخلافة، وإن بدأ الوهن والضعف يظهر عليها بشكلٍ أكبرٍ أو أنها أصبحت في مرحلة الهرم، ونشأت إمارات جديدة دخلت في صراعٍ مع الخلافة وإن كانت أحياناً تتحسن العلاقات بينهما، ويُعطى الأميرَ الولاية أو يُضاف إليه مقاطعات أخرى إرضاءً له.

١ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان أمير الأندلس الأموي محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، وقد حكم منذ عام ٢٣٨، واستمر حتى وفاته عام ٢٧٣ حيث خلفه ابنه المنذر، وفي أيام محمد الأول توطّد الأمن، وأرسل حملاتٍ إلى الإمارات النصرانية، وقد تكلّلت أكثر حملاته بالنصر. ولم تطل أيام المنذر إذ لم يدم حكمه سوى سنتين توفي بعدها عام ٢٧٥ وقد أحبه الناس، وكان عادلاً، وخلفه أخوه عبد الله، وكان قاسياً، انتشرت الفوضى في أيامه، وخرج الولاة عليه، وأعلنوا استقلالهم عنه، واستمر حتى عام ٣٠٠هـ حيث خلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله.

٢ ـ دولة الأدارسة:

كان الخلاف يعمّ منطقة المغرب الأقصى، إذ يتنازع على الحكم أبناء الأسرة الواحدة ويستعين بعضهم بغيرهم على بعض.

٣ ـ دولة الخوارج الأباضية الرستمية:

توفي أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٥٨، وخلفه ابنه أبو بكر، وفي أيامه استبد محمد بن عرفة بالأمر، أو كان هو المتنفذ، واستاءت قبيلة نفوسة من هذا باستثناء بطن منها وهو «هوارة»، وتسلّم أخو الإمام أبي بكر بعض المسؤوليات وهو «أبو اليقظان محمد بن أفلح» فأحسن فيها العمل، ولما ارتفعت أسهمه وخاصة عند قبيلة نفوسة، وعند أسرته بالذات بدأ يحرّض أخاه أبا بكر على قتل محمد بن عرفة، وتمّ هذا، واعتزل أبو بكر الإمامة عام ٢٦٠، وتولى أمرها أخوه أبو اليقظان، فحدثت خلافات عصبية اضطر إثرها أبو اليقظان أن يغادر «تاهرت» وتسلّم الجند الأمر بعد أن سيطروا على المدينة، ولكن لم يلبث أن اقتحم بدو «هوارة» المدينة، ونصبوا عليها محمد بن مسالة، وقد اتسم حكمه بالهدوء، ووقع خلاف بين قبيلتي «هوارة» و «لواته» فأُخرجت الأخيرة من المدينة فانضمت إلى أبي اليقظان فاستطاع من العودة إلى حكم تاهرت عام ٢٦٨، واستقر له الأمر حتى عام ٢٨١.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية المدرارية:

كان أمير بني مدرار ميمون بن بقية أو إمام الصفرية في «سجلماسة»، وبقي حتى عام ٢٦٣، وكان قاسياً، وقد اضطر إلى هذا السلوك لمواجهة الخوارج الأباضيين في إمارته، والذين يدعمون أخاه ابن الرستمية، وقد هجر أكثر الأباضيين مدينة «سجلماسة»، واتجهوا نحو وادي «درعه»، وخلفه ابنه محمد بن ميمون، وقد طارد الأباضيين، وبقي حتى توفي عام ٢٧٠، وخلفه اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبي القاسم، ولُقّب بالمنتصر، واستمر حتى مقتله على يد العبيديين عام ٢٩٧.

٥ ـ دولة الأغالبة:

كان يحكم دولة الأغالبة (٢٥٠ ـ ٢٦١) محمد الثاني بن أحمد،

ويُلقّب بأبي الغرانيق، وتابع فتح جزيرة صقلية، كما حاول مدّ الفتح إلى جنوبي إيطاليا، وعندما توفي خلفه ابنه، لكن لم يلبث بالإمرة سوى عدة أيام حتى أخذ عمه الإمارة، وهو إبراهيم الثاني، الذي فتح المسلمون في عهده مدينة «سرقوسة» في صقلية عام ٢٧٤، واستمر حكمه حتى عام ٢٨٩، وقد قاتل العباس بن أحمد بن طولون الذي خرج عن طاعة أبيه، واتجه نحو الغرب، وراسل إبراهيم الثاني هذا، وادّعى أن الخليفة قد قلّده أمر المغرب، وطلب أن يُدعى له على منابرها، وسار العباس حتى وصل إلى مدينة (لبدة) فاستقبله أهلها فاستباحها، وغرّته نفسه فتابع السير نحو الغرب فقاتله إبراهيم الثاني أمير الأغالبة وهزمه واضطره إلى العودة إلى برقة، وكان إبراهيم الثاني حازماً عادلاً في أموره، أمّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم، وينصف بينهم.. وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان، تصدّق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها[1].

٦ ـ دولة بني زياد:

وكان يحكمها إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد (٢٤٢ ـ ٢٨٩) أي مدة سبع وأربعين سنة، وكان مقره زبيد، وقد كانت اليمن كلها تحت نفوذهم، ثم استولى بنو يعفر على صنعاء عام ٢٢٥، وبنو الكرندي على جند.

٧ ـ دولة بني يعفر:

وكانت في صنعاء، واستمر حكم مؤسسها إبراهيم بن يعفر ٢٢٥ ـ ٢٦٠، وجاء ابنه عبد الرحيم الذي خلفه ابنه يعفر ودام ملكه ٢٦٠ ـ ٢٨٢.

٨ ـ الدولة الطولونية:

تقلّد القائد «بايكباك» مصر فأرسل إليها من قبله أحمد بن طولون[2]

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

(٢) ولد أحمد بن طولون عام ٢١٤، وكان أبوه طولون قد أُهدي إلى الخليفة المأمون عام=

فدخلها عام ٢٥٤. وقُتل «بايكباك» عام ٢٥٦، وتولّى أمر مصر «يارجوخ»، وهو صهر أحمد بن طولون فكتب إليه «تسلّم من نفسك لنفسك» وبذلك أقرّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها فقوي مركزه وتغلّب على منافسيه. وفي عام ٢٥٩ مات «يارجوخ» صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابةً عنه، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطّدت قدمه في هذه البلاد، وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرةً، وفي عام ٢٦٣ كتب الخليفة المعتمد إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فردّ عليه «لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري»، فقلّده خراج مصر، وولاّه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده[1].

كان الخليفة المعتمد على الله يميل إلى أحمد بن طولون غير أن أخاه الموفق كان لا يرغب فيه وأمور الدولة بيد الموفق، وهذا ما أجبر الخليفة على عزله عن الثغور الشامية، ولكنه عاد فردّها إليه مستفيداً من انشغال أخيه الموفق بحرب الزنج ومحتجاً باضطراب تلك الثغور بعد إبعاد ابن طولون عنها. وعندما توفي والي الشام «ماجور» سار إليها فدانت له مدنها، ودُعي له على منابرها عام ٢٦٥، ودخل إنطاكية وخافه الروم فأرسلوا له الهدايا، ثم اضطر إلى الانسحاب منها بعد خلع طاعة ابنه العباس إذ رجع إلى مصر، فانسحب ابنه إلى برقة، فأرسل إليه جيشاً أعاده فسجنه والده حتى مات.

ترك مولى ابن طولون «لؤلؤ» سيّده، وكان واليه على الرقة، وحمص، وحلب، وقنسرين وانحاز إلى جانب الموفق فسار ابن طولون إلى بلاد الشام، وأراد الخليفة المعتمد على الله الالتجاء إليه، والتخلّص من أخيه

= ٢٠٠ من قبل صاحب بخارى نوح بن أسد الساماني. وتوفي طولون عام ٢٣٠، وقد نشأ ابنه أحمد نشأةً دينية فكان يعيب على الأتراك ما يرتكبونه من منكرات، وكان من حفظة كتاب الله، ويكرم أهله، كثير الصدقات، كريماً عادلاً في الرعية.

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، الجزء الثالث.

الموفّق الذي شعر بأن كل شيءٍ في الدولة أصبح بيده، غير أن والي الموصل والجزيرة إسحاق بن كنداج قد ردّ الخليفة إلى سامراء، وأعلن الخليفة عن عزل ابن طولون عن مصر، وإعطائها إلى إسحاق بن كنداج، فضعف مركز ابن طولون، وهُزمت جيوشه في طرسوس، كما هُزمت في مكة، غير أن ابن كنداج لم يستطع الوصول إلى مصر فبقيت لابن طولون الذي توفي في العام التالي، فاختار الجند ابنه خمارويه والياً على مصر، ولم يكن للخليفة إلا أن يوافق على ذلك.

تحركت جيوش الخليفة من بغداد وجيوش خمارويه من مصر، وانتصرت جيوش الخليفة ودخلت دمشق بعد معركة الطواحين عام ٢٧١ فسار خمارويه بنفسه على رأس جيش فدخل دمشق عام ٢٧٣، وواصل التقدم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ووافق الخليفة وأخوه الموفق على إعطاء مصر لخمارويه وأولاده لمدة ثلاثين سنة.

واختلف إسحاق بن كنداج صاحب الموصل وابن أبي الساج صاحب قنسرين فدعا ابن أبي الساج إلى خمارويه فدعمه، وحارب إسحاق بن كنداج الذي فرّ إلى قلعة ماردين، وأخذ ابن أبي الساج الموصل والجزيرة، وخطب على منابرها الخمارويه، ثم عاد فاختلف معه عام ٢٧٥، واقتتلا عند ثنية العقاب (الثنايا) شمال شرقي دمشق فهُزم ابن أبي الساج، ولاحقه خمارويه من كل جهة حتى فرّ إلى الخليفة، وعاد إسحاق بن كنداج إلى الجزيرة. ثم زادت سلطة خمارويه بعد موت الموفق وإسحاق بن كنداج عام ٢٧٨ ثم موت الخليفة المعتمد على الله عام ٢٧٩، وبيعة المتعضد بالله إذ أقرّه الخليفة الجديد والياً على الأرض الممتدة من الفرات إلى برقة هو وأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً، كما تزوج من ابنة خمارويه «قطر الندى»، وتوفي خمارويه ٢٨٢.

٩ ـ الدولة الصفارية:

احتل يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية على

غير رأي الخليفة مدعياً أن أهل خراسان طلبوه بسبب الضعف الذي آل إليه الطاهريون، كما حارب ملوك الترك الذين يجاورون سجستان حتى أذعنوا له. وكان قد تولّى أمر بلخ، وطخارستان، وكرمان، وسجستان، والسند بكتاب من الموفق أخي الخليفة على أن يعود عن فارس عندما اتجه إليها عام ٢٥٧ فوافق ورجع.

وسار يعقوب إلى طبرستان فدخلها وهزم الحسين بن زيد الطالبي، ثم عاد فانسحب منها فرجع إليها الطالبي وذلك عام ٢٦٠، وفي العام التالي سار إلى الأهواز فدخلها ورغب في الاتجاه إلى بغداد حيث حصل بينه وبين رجال الدولة خلاف ثم أرسل رسله إلى الخليفة وسأله ولاية خراسان، وبلاد فارس، وكل ما كان تحت يد طاهر بن الحسين، وشرطتي بغداد، وسامراء، وولاية كرمان وسجستان، وأن يُقرأ خلاف ما قرئ من قبل من لعنٍ له فوافق الموفق أخو الخليفة، ومع هذا فقد زادت أطماعه فاتجه نحو بغداد ودخل واسطاً قهراً فالتقى بجند الدولة وقد تقدّمهم الخليفة المعتمد على الله فثار الجند على يعقوب وهُزم وذلك عام ٢٦٢، ولكنه في العام نفسه دخل فارس، واستولى على جنديسابور عام ٢٦٣، وأخذ الأهواز من صاحبه الزنج بعد معارك عنيفة. ومات يعقوب بن الليث عام ٢٦٥ بالأهواز، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي كتب إلى الخليفة بالسمع والطاعة فأقرّه الموفّق على خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، والسند، وكرمان والشرطة، ببغداد فأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد وسامراء.

عاد الخليفة فعزل عمرو بن الليث عن خراسان عام ٢٧١ وأمر بلعنه على المنابر، وولّى محمد بن طاهر على خراسان غير أن هذا قد آثر البقاء في بغداد وأناب عنه رافع بن هرثمة، وانتصرت جيوش الخلافة على جيوش الصفاريين، وخرج الموفّق لحرب عمرو بن الليث عام ٢٧٤ غير أنه لم يستطع دخول كرمان وسجستان واضطر إلى العودة، وبقي الوضع على ما آل إليه طيلة أيام المعتمد على الله الباقية.

١٠ ـ الدولة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى أحد رجالات الفرس المسمى «سامان» والذي كان مجوسياً، واعتنق الإسلام في أواخر عهد الدولة الأموية، وسمّى ابنه أسداً باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في ذلك الحين، وظهر أولاد أسد كزعماء في عهد المأمون فولى أحمد بن أسد «فرغانة»، ونوح بن أسد «سمرقند»، ويحيى بن أسد «الشاش» و «أشروسنة»، والياس بن أسد «هراة» وذلك حوالي عام ٢٠٤، ولما آل حكم خراسان والمشرق إلى طاهر بن الحسين أقرّ أولاد أسد بن سامان على ما تحت أيديهم، ولما توفي أحمد بن أسد خلفه ابنه نصر فحكم فرغانة أو أقره الطاهريون عليها، وفي عام ٢٦١ ولاّه الخليفة المعتمد على الله بلاد ما وراء النهر كلها فجعل قاعدة ملكه مدينة «سمرقند»، وولّى أخاه إسماعيل مدينة بخارى، ولكن وقع الخلاف بينهما فسار نصر لحرب أخيه إسماعيل عام ٢٧٢ غير أنهما تصالحا، ثم عادت الحرب بينهما عام ٢٧٥، وانتصر إسماعيل على نصر الذي وقع في الأسر، وحُمل إلى أخيه إسماعيل فلما وصل إليه ترجّل إسماعيل وقبّل يديه، وأعاده إلى سمرقند وعدّه هو الوالي أما هو فعدّ نفسه نائباً لأخيه على بخارى، وبقي الأمر هكذا حتى مات نصر عام ٢٧٩ فآلت زعامة السامانيين إلى إسماعيل.

١١ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

أصاب أهل طبرستان حيف فحدثت فوضى فاستدعى أهلها الحسن بن زيد فجاءهم فبايعوه، واستطاع أن يُخرج منها واليها سليمان بن عبد الله بن طاهر، ثم وجه جيشاً إلى الريّ فدخلها وأخرج منها الطاهريين غير أن أهل الريّ كرهوا واليهم، فوجّه محمد بن طاهر جيشاً أخذ الري التي استمر الطرفان يتنازعانها، وفي العام التالي دخل سليمان بن عبد الله طبرستان، وفرّ منها الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم، وبعد مدةٍ عاد إليها، وفي عام ٢٥٥ دخل مفلح طبرستان والتجأ الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم لكن رجع

إليها لأن مفلح تركها وسار نحو بغداد. وأراد الحسن بن زيد إن يتوسّع في بلاد خراسان فحاربه موسى بن بغا، وانتصر عليه، وبقي الحسن هذا شأنه حتى توفي عام ٢٧١ بعد أن حكم طبرستان تسعة عشر عاماً وستة أشهر، وخلفه فيها أخوه محمد بن زيد، وقد هُزم أمام جند الخليفة عام ٢٧٢ وخرج من الري.

* * *

- ١٦ -

المعتضد بالله
أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل
٢٧٩ـ ٢٨٩

هو أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل، أبو العباس، ولد في ذي القعدة من عام اثنين وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد تدعى «صواب»، بويع بالخلافة لعشر بقين من رجب من عام تسعة وسبعين ومائتين بعد عمه المعتمد على الله. كان ملكاً شجاعاً، مهيباً، ظاهر الجبروت، وافر العقل، شديد الوطأة، من أفراد خلفاء بني العباس، وكان يقدم على الأسد وحده لشجاعته، وكان قليل الرحمة إذا غضب على قائد أمر بأن يلقى في حفيرةٍ. ويطمّ عليه، وكان ذا سياسةٍ عظيمةٍ. قال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت. وقال لإسماعيل القاضي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وكان المعتضد شهماً، جلداً، موصوفاً بالرجولة، وقد لقي الحروب، وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس، ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته.

وكانت أيامه طيبةً، كثيرة الأمن والرخاء، وقد أسقط المكوس، ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرعية. وكان يُسمّى «السفاح الثاني»؛ لأنه جدّد ملك بني العباس، وكان قد خَلِقَ وضعف، وكاد يزول، وكان في اضطرابٍ من وقت قُتل المتوكل.

وفي أول سنة استخلف فيها منع الورّاقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق[1]. وكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان بعض الناس يبخلّه، ومن الناس من يعده من الخلفاء الراشدين المذكورين في الحديث، حديث جابر بن سمرة فالله أعلم[2].

كان أسمر، نحيف الجسم، معتدل القامة، قد وخطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء. وكان أمر الخلافة قد ضعُف في أيام عمه المعتمد، فلما ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها، وكان شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأة وإقداماً وعزمة. وكذلك كان أبوه[3].

وتوفي ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الثاني من سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي سنة ٢٨٢ أمر بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران، وسمّي ذلك النيروز المعتضدي، فأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد بها، وورد كتابه بذلك على يوسف بن يعقوب يعلمه أنه أراد بذلك الترفيه على الناس، والرفق بهم، وأمر أن يُقرأ كتابه على الناس، ففعل[4].

وسار الخليفة المعتضد إلى هارون الشاري بناحية الموصل عام ٢٨٣، وأرسل إليه الحسين بن حمدان بن حمدون الذي اشترط شروطاً لحمله إليها منها: إطلاق سراح والده حمدان بن حمدون المسجون في سجن الخليفة،

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تاريخ الطبري.

وقد ظفر به، وحُققت شروطه. وسار عام ٢٨٥ إلى آمد فوصل إليها في العام التالي، وحاصر فيها محمد بن أحمد بن عيسى الذي تحصّن فيها، وجرت حروب بين الطرفين أجبر محمد بن أحمد بعدها أن يطلب الأمان، ونزل للخليفة من قلعته.

وفي أيام المعتضد بالله زاد الغزو في بلاد الروم سواء أكان عن طريق الثغور الشامية وخاصةً طرسوس التي غالباً ما كانت بأيدي الطولونيين أم عن طريق ثغور الجزيرة. وكذلك فقد كان غزو بلاد الترك التي بعد ما وراء بلاد النهر حيث كان يقوم السامانيون بالغزو، وقد سار إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني عام ٢٨٠ إلى بلاد الترك، وأسر ملكهم وزوجته «خاتون»، وجرى تبادل الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٣، وكان عدد الأسرى من المسلمين أربعةَ وخمسمائة وألفين.

القرامطة:

نشطت الحركات القرمطية، وتعددت جماعاتها، وإذا كانت قد نُسبت في أول أمرها إلى قرمط وهو حمدان بن الأشعث إلا أنه قد أصبحت كل جماعة تحمل فكرة قرمط تُنسب إليه، وهي تعتمد على إطلاق العنان للشهوات البهيمية لاستغلال الشباب، واستغلال المحرومين من الحياة الزوجية لبعدهم عن مواطنهم وعدم إمكاناتهم من الزواج، والحاقدين في الوقت نفسه على المتزوجين المنعمين، كما تعتمد على شيوعية الأموال واستغلال الفقراء والناقمين على الأثرياء، أو استغلال الأرقاء على ساداتهم، ثم الإفساد بالأرض بكل وجوهه وأساليبه.

ففي جنوبي العراق وجد زكرويه بن مهرويه شدةً عليه فمن ناحية ينقم عليه أتباع قرمط، وابن عمه عبدان، ومن ناحية ثانية فقد اشتد الخليفة المعتضد في ملاحقة أتباع هذه الأفكار الكافرة من جهةٍ والدنيئة من جهة أخرى، فأما الناحية الأولى فقد انتهى منها بالتخلّص من «عبدان» بقتله ويبدو أن يحيى بن زكرويه هو الذي تولّى عملية القتل، ثم تلاه التخلص

من حمدان، أما الناحية الثانية وهو ضغط الخليفة فلم يستطع التخلّص منه بل اشتدت وطأته عليه لذا فقد بقي في مخبئه وظنّ أنه يمكنه أن يضمّ إليه أتباع قرمط في المستقبل بزوال رئيسهم حمدان، ومفكرهم عبدان ما دامت الفكرة واحدةً، ورأى أن بلاد الشام تعمّها الفوضى والحكم الطولوني فيها قد أصبح ضعيفاً لذا يمكن أن تكون مجالاً لنشاطه فأرسل أولاده، بعث يحيى بعد أن بايعه أتباع أبيه زكرويه في سواد الكوفة عام ٢٨٩، ولقبوه بالشيخ، كما كان يعرف بأبي القاسم. ادعى يحيى نسباً إسماعيلياً فزعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وادّعى لجماعته أن ناقته مأمورة، فإن تبعوها ظفروا، وأظهر لهم عضداً ناقصةً وزعم أنها آية، وقد تسمّوا بالفاطميين، وأرسل لهم هارون بن خمارويه جيشاً بقيادة «طغج بن جف» فهزمته القرامطة، وسارت نحو دمشق بعد أن انتهبت، وانتهكت البلاد التي مرّت عليها كلها، وحاصرت دمشق عام ٢٩٠ ولكنها عجزت عن فتحها، وأرسل الطولونيون لها جيشاً بقيادة بدر الكبير غلام أحمد بن طولون، فانتصر على القرامطة، وقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه.

أرسل زكرويه بن مهرويه من مخبئه ابنه الثاني «الحسين» وادعى الآخر نسباً إسماعيلياً فزعم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ووضع شامة على وجهه لذا عرف باسم (صاحب الخال) أو (أبو شامة) وذكر لأصحابه أنها آية له، وسار في إثر أخيه قبل أن يقتل.

لما شعر يحيى بن زكرويه أنه عاجز عن فتح دمشق إذ جاءت لأهلها نجدات من بغداد، ومن مصر، وأحسّ أنه مقتول لا محالة ادّعى أنه سيطلع إلى السماء غداً، وأنه سيبقى فيها أربعين يوماً، ثم يعود، وأن أخاه «الحسين» سيأتي غداً في نجدة ـ وكان قد بلغه ذلك ـ فعليهم بيعته والقتال معه والسير وراءه، وفي اليوم الثاني جرت معركة قرب دمشق قتل فيها يحيى بن زكرويه وكان قد عرف يومذاك بصاحب الجمل حيث كان يمتطي جملاً خاصاً.

وكما اشتدت وطأة المعتضد على القرامطة في جنوبي العراق اشتدت في كل مكان، ففي السلمية في بلاد الشام زاد الطلب على أسرة ميمون القداح التي تزعم أنها تعمل لأبناء محمد بن إسماعيل، وتريد في الواقع أن تعمل لنفسها وتخفي في الباطن ما تدعو له، ولها هدف سياسي واضح من أصلها اليهودي، وبسبب هذا الطلب فقد فرّ عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من السلمية وهو رأس هذه الأسرة، واتجه نحو الجنوب حيث اختفى بالرملة، وفي هذا الوقت كان الحسين بن زكرويه في طريقه من الكوفة إلى أخيه يحيى بدمشق، فعرّج الحسين إلى الرملة وعرف مكان عبيد الله، والتقى به، وحاول استرضاءه وإظهار الطاعة له عسى أن يستفيد منه، وأظهر عبيد الله رضاءه عنه وموافقته على عمله خوفاً من أن يقتله أو يرشد عليه عامل العباسيين، حيث كان آل زكرويه يريدون التفرد بالسلطة ويرجعون بأصولهم إلى المجوسية، وإن عبيد الله أقوى من يقف في وجههم، وما أن غادر الحسين بن زكرويه الرملة، حتى انصرف منها أيضاً عبيد الله متجهاً نحو مصر.

سار الحسين من الرملة إلى دمشق، فوجد أخاه يحيى قد قتل، فالتف القرامطة حوله، وحاصر بهم دمشق، لكنه عجز عن فتحها، فطلبه أهل حمص فسار إليهم، فأطاعوه، ثم انتقل إلى السلمية فامتنعت عنه، ثم فتحت أبوابها له بعد أن أعطى أهلها الأمان، وما أن دخلها حتى نكّل بقاطنيها، فأحرق دورها، وهدّم القلاع فيها، وقتل الهاشميين فيها دلالةً على الحقد الذي يغلي في صدور هذه الفئة على آل البيت رغم ادعاء زعمائها بالانتساب إلى آل البيت، ودلالةً أيضاً على كراهية الإسلام الذي قضى على المجوسية في فارس، ثم قتل من استطاع قتلهم من آل محمد بن إسماعيل الذين يدّعي العمل لهم، كما قتل آل عبيد الله بن الحسين القداحي حيث كل منهم يعمل لنفسه وكان عبيد الله قد رفض إعطاء آل زكرويه مراكز مهمةً في الدعوة التي يعمل لها. ثم سار الحسين بن زكرويه من السلمية على رأس قرامطته إلى حماه، والمعرة، وبعلبك وعمل القتل في أهل كل بلدٍ

وصل إليها، وأغارت جماعته على حلب، غير أن القرامطة قد هزموا في جهات حلب لذا عادوا فاتجهوا إلى جهات الكوفة وهناك قاتلهم الخليفة (المكتفي) فوقع الحسين بن زكرويه أسيراً فحمل إلى بغداد حيث قتل وصلب فيها عام ٢٩١. وعندما قُتل ولدا زكرويه يحيى والحسين خرج أبوهما من مخبئه الذي اختفى فيه مدةً تقرب من ثلاث سنوات، وعندما خرج سجد له أنصاره المقربون الذين يعرفون أهداف الحركة، وسار بأتباعه نحو بلاد الشام فأمعنوا في القتل، واعترضوا طريق القوافل والحجاج، وارتكبوا من الفواحش ما يصعب وصفه، واتجه نحو مدينة دمشق فحاصرها، ولكنه عجز عن فتحها، وأخيراً هزم وقتل عام ٣٠١ بعد أن عاث في الأرض الفساد، وتشتت أتباعه فمنهم من انتقل إلى البحرين، ومنهم من سار إلى بلاد الكلبية وبهراء في بلاد الشام فاختلط مع أهلها الذين يعيشون في قلاعهم ومعاقلهم في الجبال الشمالية الغربية من بلاد الشام والذين يلتقون معهم ببعض الأفكار، وإن كانوا أقرب إلى الأسرة القداحية حيث الأصل اليهودي، ومنهم من اختفى في البوادي ثم تحالف مع القبائل الضاربة فيها أو سار إلى أماكن نائية حيث ضاع فعله بين السكان الآخرين. وهكذا انتهى القرامطة من جنوبي العراق، واتجهوا إلى بلاد الشام فهزموا وذابوا.

أما عبيد الله بن الحسين القداحي فقد علم ما حلّ بأهله بالسلمية، وما نزل بآل محمد بن إسماعيل فيها أيضاً، فنسب نفسه إلى آل محمد بن إسماعيل، وعلم كذلك أن الدعوة الشيعية قد قويت في بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي الذي سار من اليمن عن طريق رستم بن الحسين بن حوشب الذي يدعو إلى آل البيت عن طريق آل محمد بن إسماعيل فيمم عبيد الله القداحي وجهه نحو المغرب على أنه عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

أما في اليمن فقد كان نجاح رستم بن الحسين بن حوشب واضحاً إذ أسس دولته الإسماعيلية وبدأ يرسل الدعاة إلى عدة جهات ومنها المغرب،

وكان من أكبر أعوانه وقادته علي بن الفضل الذي اختلف معه، وافتتن بالتفاف الناس حوله، فسار شوطاً بعيداً في الفساد فحكم البلاد، ودخل زبيد، وصنعاء، وادعى النبوة، وأباح المحرمات، وكان المؤذن في مجلسه يؤذن «أشهد أن علي ابن الفضل رسول الله»[١]. وأنشد شاعره.

خذي الدفّ يا هذي والعبي	وغنّي هزاريك واطربي
تولّى نبيّ بني هاشم	وهذا نبي بني يعرُب
لكلّ نبيٍّ مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة	وحطّ الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلّوا فلا تنهضي	وإن صُوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب[٢]

ثم امتد به عتوّه، فجعل يكتب إلى عمّاله: «من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان». ثم مات مسموماً عام ٣٠٣[٣]، ولم تلبث دولة القرامطة في اليمن أن دالت.

أما في البحرين فقد قدم إليها عام ٢٨١ رجل يقال له: يحيى بن المهدي نزل القطيف، ودعا أهلها إلى بيعة المهدي فاستجاب له رجل يقال له: علي بن العلاء بن حمدان الزيادي، وساعده في الدعوة إلى المهدي، وجمع الشيعة الذين كانوا بالقطيف فاستجابوا له، وكان من جملة من استجاب له أبو سعيد الجنابي، واسمه الحسن بن بهرام، ويعود في أصله إلى بلدة (جنّابا) قرب سيراف، وقد نزل إلى البحرين منفياً فعمل سمساراً في الطعام يبيعه، ويحسب للناس الأثمان، ثم بدأ يعمل بالفراء وينتقل بين البحرين وسواد الكوفة، وصحب عبدان أو حمدان وتأثر به، وعندما رجع إلى القطيف برز بين جماعته بدعوته، أما يحيى بن المهدي فقد ادعى

(١) الأعلام، الزركلي.
(٢) إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة.
(٣) الأعلام، الزركلي.

النبوة، وانفرد بمجموعةٍ، وتزعّم أبو سعيد الجنابي بقية المجموعة، وأجابه عدد من السوقة، ومن ساءت حالتهم المعاشية، وعدد من الشباب الذين أغراهم بالنساء التي جعلها مباحةً بينهم، كما منّاهم بالمال وامتلاك الأرض، وهيأ لهم طريق الشهرة بالقوة التي أظهرها إذ زاد عددهم، وبدا لهم أنهم أصبحوا جماعة يخشى جانبها فظهروا عام ٢٨٦ فعاثوا في الأرض الفساد إذ قتلوا وسبوا في بلاد هجر كثيراً، ثم ساروا إلى القطيف فقتلوا الكثير من أهلها، وأظهر أبو سعيد الجنابي أنه يريد البصرة فجهز له الخليفة جيشاً قوامه عشرة آلاف بإمرة العباس بن عمرو الغنوي، فانتصر القرامطة، وأسروا الجيش العباسي كله، وقتل أبو سعيد الجنّابي الأسرى جميعهم باستثناء أمير الجيش الغنوي الذي أطلق سراحه. واستمر نشاط القرامطة حتى عام ٣٠١ حيث قُتل الجنّابي على يد خادمه بالحمام، ثم قتل خمسة آخرين من كبارهم وحتى فطن الباقون إلى أمرهم فاجتمعوا على الخادم وقتلوه. ويبدو أن قرامطة البحرين كانوا من أنصار حمدان القرمطي وابن عمه عبدان، لذا لم يدعموا أبناء زكرويه عندما قاموا بحركاتهم، وإنما عملوا منفردين في منطقة البحرين.

* * *

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في عهد الخليفة المعتضد.

١ ـ الأمويون في الأندلس:

كان الأمير عبد الله بن محمد مكروهاً، فكثرت الفوضى في أيامه، وانفصلت مقاطعات عن الدولة، واشتدت وطأة النصارى في الشمال، ولعل أبرز ما في الأندلس حركة عمر بن حفصون الذي ارتد إلى النصرانية، وأثار سكان الجبال في مقاطعة غرناطة، وهزم جيوش الأمير عبد الله أكثر من مرة. وأضحت إشبيلية تنافس قرطبة.

٢ ـ دولة الأدارسة:

وكانت في فوضى واضطراب بسبب القتال بين أبناء إدريس والخوارج من الصفرية وبسبب هذه الحروب فقد ساءت الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

٣ ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

وكان أميرها المنتصر اليسع بن ميمون بن اليسع بن أبي القاسم وقد بدأ يقاتل الأدارسة لأن قبيلة «مطغرة» كانت تحت حكم الأدارسة، وعدد غير قليل من أبناء هذه القبيلة يحمل الفكر الخارجي، وبدأ الأدارسة يضطهدون الخوارج الصفرية فاستنجدوا بالمنتصر اليسع حيث يعد إمام الصفرية، فأخذ على عاتقه حرب الأدارسة.

٤ ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

كان أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان إمام الخوارج الأباضية وقد عمّ الخلاف، وكثرت الفوضى، وطُرد أبو حاتم من المدينة ومعه أسرته وأعوانه من قبيلة نفوسه غير أنه لجأ إلى قبائل صنهاجة ولواتة وجمع منها ومن أنصاره السابقين وهاجم مدينة تاهرت وحاصرها وكادت المدينة تستسلم لولا تعنت أبي حاتم وطلبه بتسليم زعماء المدينة، وعندها رفض أهل المدينة الاستسلام، واستدعوا عمه يعقوب بن أفلح من (زواغة) وبايعوه بالإمامة عام ٢٨٢. وعمل أبو حاتم على استمالة بعض زعماء المدينة عن طريق الأموال فانحازوا إلى جانبه، ولما شعر عمه يعقوب بن أفلح بذلك غادر المدينة بعد أن حكمها مدة أربع سنوات، ودخل أبو حاتم مكانه عام ٢٨٦، وأصدر عفواً عاماً عن الأهالي، وأصبح زعماء العامة يتدخلون في شؤون الدولة، وكذلك فإن يعقوب بن أفلح قد عمل في دعم الطيب بن خلف بن السمح في زواغة في منطقة طرابلس، وحدث احتكاك بين زواغة ونفوسة فهما متجاورتان وأصبحتا تؤيدان زعيمين متنافسين كل واحدةٍ منهما تدعم واحداً منهما. حتى قبض على الطيب وسجن بجبل نفوسة من قبل الياس بن منصور عامل أبي حاتم على الجبل. وأخيراً قُتل أبو حاتم عام ٢٩٤ على يد أبناء أخيه، وآلت الإمامة إلى يقظان بن أبي اليقظان، وعدّه الأباضية مغتصباً، واتسم عهده بالفتن والفوضى التي كانت تثيرها الفرق غير الأباضية أو أبناء أخيه أبي حاتم للأخذ بثأر أبيهم حتى إن دوسر بنت أبي حاتم وأخاها قد توجها إلى أبي عبد الله الشيعي ودعواه إلى تاهرت ودخولها انتقاماً من قتلة أبيهما، كما أن الشيعة، والصفرية تضايقوا من أمرهم ووجدوا في أبي عبد الله منقذاً لهم.

إمارة الخوارج الأباضية
الرستمية
١٦٢ ـ ٢٩٧

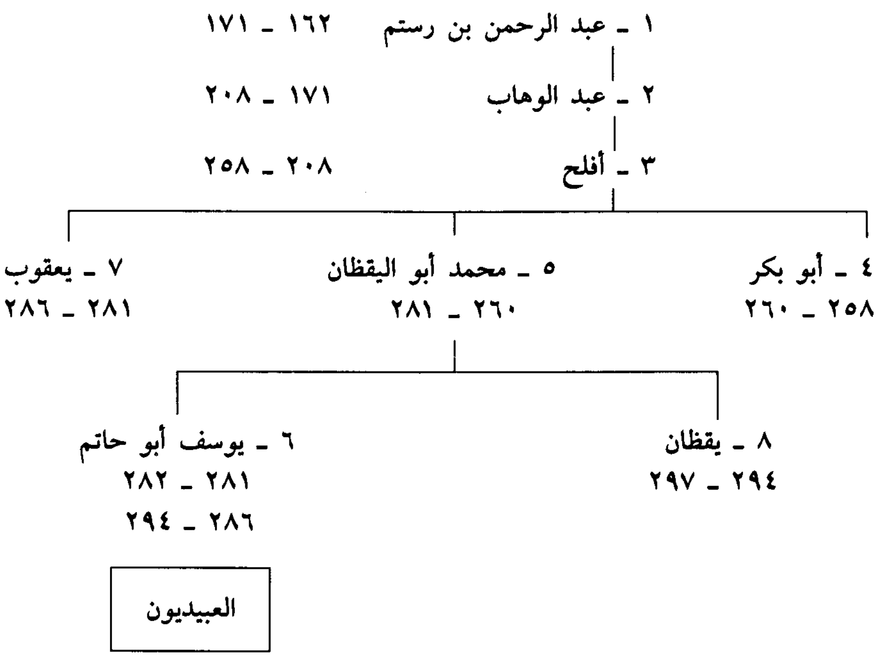

٥ ـ دولة الأغالبة:

كان إبراهيم الثاني أمير الأغالبة (٢٦١ ـ ٢٨٩)، وكان عادلاً، وعندما توفي خلفه ابنه عبد الله الثاني، ولم يدم حكمه أكثر من سنة.

٦ ـ الدولة الطولونية:

حكم خمارويه بن أحمد بن طولون ٢٧٠ ـ ٢٨٢، وكان صلته بالمعتضد جيدةً، إذ تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه، وكانت الثغور الشامية تحت إشراف الطولونيين، ويقوم الغزو إلى بلاد الروم منها، وبإمرة أمراء من قبل الدولة الطولونية. وقُتل خمارويه عام ٢٨٢ بيد أحد خدّامه

وهو نائم، وكان يومذاك بدمشق، وسار ابنه جيش أبو العساكر بجنده إلى مصر، وتولّى الأمر إلا أن الناس قد أخذوا عليه أموراً أثارتهم عليه، كما تنكر له كبار الأمراء العسكريين وخلع طاعته (طغج بن جف)، ووثب عليه الجند وخلعوه، وسجنوه فمات بالسجن بعد أيام ٢٨٣، كما تبرأ العلماء من بيعته، وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه أبا موسى، وكان صغيراً لم تزل سنه دون الخامسة عشرة، غير أن بعض الجند استقدموا عمه ربيعة بن أحمد بن طولون من الإسكندرية، ووعدوه بالنصر فسار ربيعة بجيشٍ إلى الفسطاط فلما اقترب منها خرج إليه جند هارون بن خمارويه وغلبوه، وأسروه، وضربوه حتى مات تحت العذاب وذلك عام ٢٨٤.

الإمارة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢

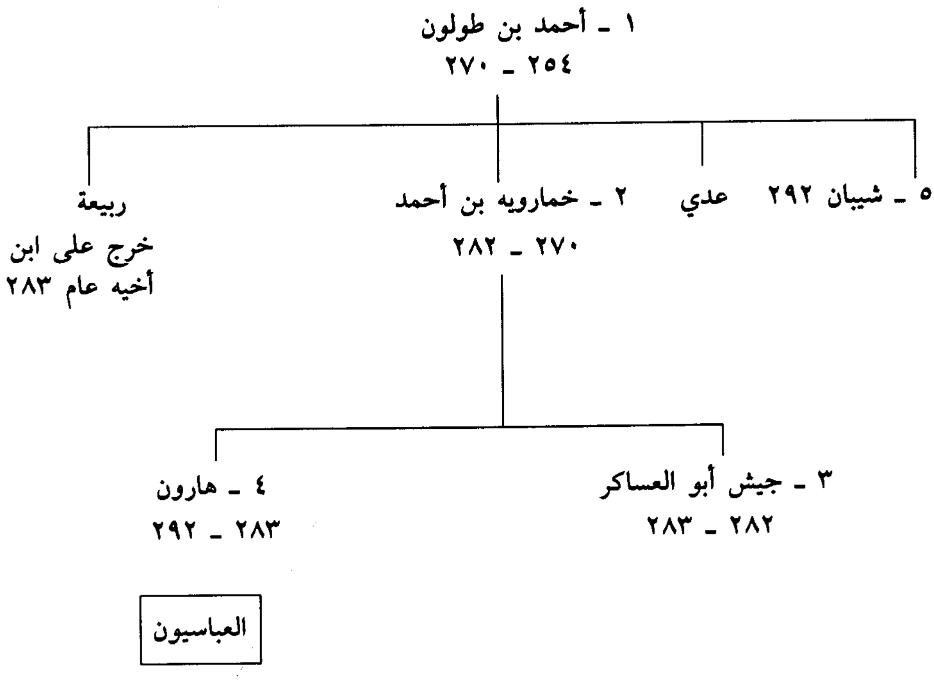

أرسل هارون جيشاً إلى الشام لقتال القرامطة لكن حلّت به الهزيمة وذلك عام ٢٩٠، وعندها فكرت الدولة العباسية بإنهاء الدولة الطولونية واستعادة السيطرة عليها وأرسلت جيشاً بإمرة محمد بن سليمان فوصل إلى فسلطين ودخلها واتجه نحو مصر، وفي الوقت نفسه سار أسطول عباسي، وخرج الأسطول المصري لملاقاة الأسطول العباسي والتقيا في تينس وهزم الجيش المصري والأسطول على يد محمد بن سليمان ومولاه أحمد بن فضلان بن العباس، وفرّ هارون بن خمارويه إلى العباسة وهو منشغل باللهو فقتله عمّاه شيبان وعدي ولدا أحمد بن طولون، ولم يناهز الثانية والعشرين من عمره. ورجع شيبان ليتولى أمر الفسطاط إلا أن العسكريين قد غضبوا عليه لما فعل وكتبوا إلى محمد بن سليمان يستقدمونه إلى الفسطاط، فسار إلى العباسة وهناك استقبله طغج بن جف بجموع القادة. وانتهت الدولة الطولونية.

٧ ـ دولة بني زياد في زبيد:

كان إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد أمير الدولة إلى نهاية أيام المعتضد بالله عام ٢٨٩ حيث مات، وخلفه ابنه إسحاق بن إبراهيم، وفي أيامه هاجم علي بن الفضل القرمطي مدينة زبيد وانتهبها.

٨ ـ دولة بني يعفر في صنعاء:

كان يعفر بن عبد الرحيم يحكم صنعاء ٢٦٠ ـ ٢٨٢، وخلفه أسعد بن أبي يعفر حيث دام أمره حتى عام ٣٣١، وقد هاجم صنعاء علي بن الفضل القرمطي، وأخرجه منها عدة مرات منها عام ٢٩٣، و ٢٩٨هـ. كما كان في حرب مع الهادي الزيدي الذي أنشأ له إمارة في صعدة عام ٢٨٤.

٩ ـ الدولة الزيدية في صعدة:

كان يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يقيم بالمدينة المنورة

فجاءه وفد من اليمن يدعوه إلى بلادهم ليقوم بأمرهم فسافر إليهم عام ٢٨٠ غير أنه لم يجد ما كان يتوقعه لذا رجع إلى المدينة المنورة، فجاءه ثانيةً وفد آخر ووعدوه بالنصر، واعتذروا إليه عما كان منهم من تقصير فوافق ورجع إلى اليمن عام ٢٨٤ فأقام في صعده والتف حوله أهلها، فأراد التوسع فاصطدم بمقاومة حكام اليمن وكان أشدهم عداءً له بنو يعفر في صنعاء التي أراد غزوها عام ٢٨٥، غير أنه عجز عن دخولها، ولكنه دخلها عام ٢٨٨ بمساعدة أبي العتاهية الطريفي[1] الذي قتل في معركة حدّين قرب صنعاء وهو يقاتل مع الزيود عام ٢٨٨.

١٠ ـ الدولة الصفارية:

عندما تولّى المعتضد بالله أمر الخلافة العباسية عزل رافع بن هرثمة عن خراسان وكان محمد بن طاهر قد أنابه عليها، وأعادها إلى عمرو بن الليث، غير أن رافعاً قد رفض ذلك وشق عصا الطاعة وحارب عمرو بن الليث إلا أنه هُزم، ودخل عمرو بن الليث نيسابور عام ٢٨٠، وخرج عمرو منها فرجع إليها رافع، وخطب لمحمد بن زيد الطالبي فرجع عمرو إلى المدينة وحاصرها وأخيراً قتل رافعاً عام ٢٨٣.

وطلب عمرو بن الليث ولاية ما وراء النهر وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني، ولم يجد الخليفة بُدّاً من موافقته غير أن إسماعيل بن أحمد الساماني حاول صدّه عن هذا الطلب، وأن يقنع بما تحت يده فلما لم يقبل جرت الحرب بين الطرفين ووقع عمرو بن الليث أسيراً بيد إسماعيل بن أحمد الساماني الذي سيّره إلى الخليفة، ولم يلبث أن مات، فآل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث عام ٢٨٨، وكان صغيراً فاستبد بالسلطة (سبك السبكري) غلام عمرو بن الليث ودخلت

---

(١) أبو العتاهية الطريفي: من آل طريف الذين ثاروا على بني يعفر ودخلوا صنعاء بإمرة أبي العتاهية عام ٢٦٥، غير أن أبا العتاهية هذا قد دخل في طاعة الإمام الزيدي، وقاتل آل يعفر، وآل الضحاك، وقومه آل طريف الذين قاوموا الزيود.

جنوده فارس. ثم إن السبكري قد قبض على طاهر وأخيه يعقوب، وبعث بهما إلى بغداد عام ٢٩٦. ولكن الليث بن علي بن الليث الصفّاري قد طرد السبكري من فارس عام ٢٩٧، فاستنجد السبكري بالخليفة فأمده بجيش فحلت الهزيمة بالليث. واستبد السبكري بما تحت يده، واستعصى على الدولة فأرسلت له الجيش إثر الجيش حتى استطاع أحمد بن إسماعيل الساماني من القبض على السبكري ومحمد بن علي بن الليث الصفاري وإرسالهما إلى بغداد عام ٢٩٨ ودالت الإمارة الصفّارية.

الإمارة الصفّارية

٢٥٤ ـ ٢٩٨

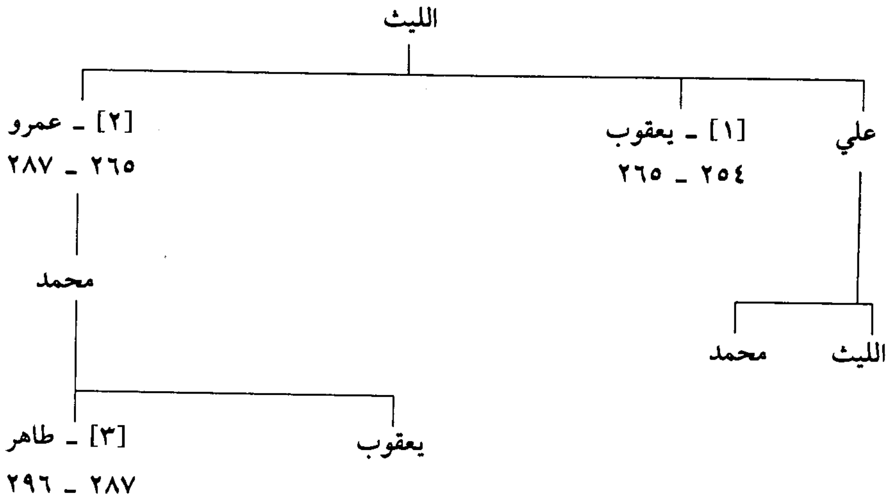

الدولة السامانية

١١ ـ الدولة السامانية:

أصبح إسماعيل بن أحمد الساماني سيد السامانيين بعد وفاة أخيه نصر عام ٢٧٩، وكان خيراً يحب أهل العلم ويكرمهم، كما كان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً. وطمع محمد بن زيد الطالبي صاحب طبرستان بخراسان وسار إليها فأرسل إليه إسماعيل جيشاً بإمرة محمد بن هارون وفي المعارك بين الطرفين أصيب محمد بن زيد، وأسر ابنه زيد، ودخل محمد بن هارون طبرستان وذلك عام ٢٨٧، غير أن محمد بن هارون لم يلبث أن خالف إسماعيل واستبد بما سيطر عليه فسار إليه إسماعيل وجرت معركة بالريّ هرب إثرها محمد بن هارون والتجأ إلى بلاد الديلم ودخل إسماعيل الري، وتوفي إسماعيل عام ٢٩٥.

١٢ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

كان محمد بن زيد الطالبي أمير هذه الدولة في هذه المرحلة وقد هُزم أمام محمد بن هارون قائد إسماعيل بن أحمد الساماني فخرج من طبرستان عام ٢٨٧ ثم عاد إليها بعد مدة خليفته إذ توفي هو بعد إصابته بقتاله مع محمد بن هارون.

-١٧-

المكتفي بالله
علي بن أحمد المعتضد
٢٨٩ - ٢٩٥

هو علي بن أحمد المعتضد، ولد في غرة ربيع الثاني من عام ٢٦٤، وأمه أم ولد تركية اسمها (جيجك) ويضرب بحسنها المثل. كان ربعة جميلاً، رقيق اللون، حسن الشعر، وافر اللحية، يُكنّى أبا محمد.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه المعتضد لثمان بقين من ربيع الثاني من عام ٢٨٩، وكان يومها بالرقة، فأخذت البيعة له، فجاء إلى بغداد فدخلها في السابع من جمادى الأولى، وسار بالرعية سيرةً حسنةً فأحبه الناس ودعوا له. وتوفي في الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام ٢٩٥، فكان عمره اثنتين وثلاثين سنةً.

وفي عهده فتحت إنطاليا عنوةً من بلاد الروم وذلك عام ٢٩١.

وقد انتشرت القرامطة في أيامه كثيراً، وانصرف لقتالهم، وتمكن من أولاد زكرويه، ومن زكرويه نفسه - كما مرّ معنا -، وكذلك فقد تخلّص من الطولونيين بعد أن ضعف أمرهم، أما الدعوة الشيعية ثم العبيدية في بلاد المغرب فقد انتشرت على نطاقٍ واسعٍ.

ذكرنا أن رستم بن الحسين بن حوشب النجار قد أرسل من اليمن إلى المغرب داعيتين هما: «الحلواني»، و «أبو سفيان» وقد نشطا بالدعوة هناك، وبذرا بذرة التشيّع. ولم يلبثا أن ماتا، فلما أتى خبر وفاتهما إلى ابن

حوشب قال لأحد أصدقائه وهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا من أهل صنعاء، وقد صحبه بعدن، وكان من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك[1].

خرج أبو عبد الله إلى مكة واجتمع إلى حجاج كتامة بعد أن سأل عنهم، ثم صحبهم فوصلوا إلى أرض كتامة في منتصف شهر ربيع الأول من عام ٢٨٠ فاجتمع عليه البربر حتى عظم أمره، وبلغ خبره إلى إبراهيم الثاني بن أحمد بن الأغلب فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمره فصغّره له، فسكت عنه، وتفرّقت كلمة البربر بسببه، ووقعت بينهم حروب ثم اصطلحوا، واشتد خطره فأرسل إليه إبراهيم الثاني الأغلبي ابنه الأحول في اثني عشر ألفاً فهزم أبا عبد الله، فركن أبو عبد الله إلى الهدوء وبنى لنفسه داراً للهجرة وأتاه البربر، ثم توفي إبراهيم الثاني أمير بني الأغلب عام ٢٨٩ ثم ولده عبد الله عام ٢٩٠، وتولّى أمر الأغالبة زيادة الله الثالث وكان منصرفاً إلى اللهو، وهذا ما دعا إلى زيادة قوة أبي عبد الله، وكان قد قاتل الأحول أيام أخيه عبد الله، وانتصر عليه إلا أن الأحول قد بقي قريباً منه ينازله، فلما تولّى أبو مضر زيادة الله استدعى الأحول وقتله، فدعا عندئذٍ أبو عبد الله للمهدي، وانتشرت فكرة المهدي حتى غدا عدد من وزراء الأغالبة من الشيعة، ويرغبون في نجاح أبي عبد الله.

وأمّا المهديّ، فإنّه لما تُوفّي عبد الله بن ميمون القداح ادّعى ولده أنّهم من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون ويُسرّون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم، وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم قد توفي، وخلفه ولده محمد، وكان هو الذي يكاتبه الدعاة في البلاد، وتوفي محمد، وخلفه الحسين، فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص وله بها ودائع

---

(١) الكامل في التاريخ.

وأموال من ودائع جدّه عبد الله القداح ووكلاء وغلمان، وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ، وكان الحسين يدّعي أنّه الوصيّ وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجلٍ يهوديٍ حدادٍ مات عنها زوجها ـ وهي في غاية الحسن ـ فتزوّجها، ولها ولد من الحداد يُماثلها في الجمال فأحبّها، وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها وأدّبه وعلّمه فتعلّم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية ـ وهو الحسين ـ مات ولم يكن ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد ـ وهو عبيد الله ـ وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ وأين الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وأنه الإمام الوصي، وزوّجه ابنة عمه أبي الشلغلغ وهذا قول أبي القاسم الأبيض العلوي وغيره، وجعل لنفسه نسباً وهو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبعض الناس يقولون ـ وهم قليل ـ إن عبيد الله هذا من ولد القداح، وهذه الأقوال فيها ما فيها، فيا ليت شعر ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة حتى يُخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويُسلموه إلى ولدِ يهودي؟ وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يثاب عليه؟[1].

ولما انتشرت دعوة أبي عبد الله الشيعي في المغرب أرسل رجالاً من كتامة إلى الشام ليخبروا المهدي بما فتح الله عليه، إلا أن سلمية كانت مهددة من قبل القرامطة، وكان عبيد الله في الرملة قد فرّ من وجه الخليفة واستطاع أن يلتقي برجال كتامة وأن يوهمهم أنه الإمام فأسرّوا له بما عندهم، فشدّ العزم واتجه نحو مصر ومعه ابنه نزار أبو القاسم، واتخذ عبيد الله صفة التاجر، وشاع الخبر أيام المكتفي فأرسل إلى عامله بمصر

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، الجزء السادس ص١٢٨.

يأمره بطلب عبيد الله، وقد قبض عليه ولكن أوهمه أنه غير ما يطلب وأظهر التدين أمامه فَرَقَّ له وأطلقه، فسار إلى طرابلس، وأرسل بعض من معه إلى القيروان، فوجدوا الخبر قد سبقهم، وقُبض عليهم فأنكروا. وسار عبيد الله إلى قسطيلة ومنها إلى سجلماسة، وكان ما يسير من مكانٍ إلا ويطلبه العامل بعد أن يكون قد خرج. وأهدى عبيد الله إلى صاحب سجلماسة وهو المنتصر اليسع بن ميمون بن مدرار، فقربه المنتصر وأحبه حتى أتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يعرفه أن ضيفه إنما هو الذي يدعو له أبو عبد الله الشيعي عندئذ قبض عليه وحبسه، وبقي في سجنه حتى أخرجه أبو عبد الله.

واشتد ساعد أبي عبد الله، فأرسل له زيادة الله الجيش إثر الجيش فكانت تهزم أمامه فدخل قسنطينة، وتبسة، والقصر، وسار نحو رقادة فهرب منها زيادة الله إلى مصر، وهرب منها أهلها هائمين على وجوههم إلى القصر القديم، وإلى القيروان، وإلى سوسة، ودخل أهل القيروان مدينة رقادة ونهبوا ما فيها، ونُهبت قصور بني الأغلب، وجاء إبراهيم بن أبي الأغلب ابن عم زيادة الله وقائد جيشه فدخل القيروان، وتكلم عن زيادة الله وإفساده ووعدهم بالدفاع عنهم، وطلب منهم الطاعة والمساعدة فرفضوا، فخرج عنهم. وجاء أبو عبد الله ودخل رقادة، ووجد الناس ينهبون فلم يتعرض لهم، ونُقل الخبر إلى القيروان ففرح أهلها وخرج وجهاؤها إلى لقاء أبي عبد الله وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح، وتكلموا عن زيادة الله، فأعطاهم أبو عبد الله الأمان وذلك في مطلع رجب من عام ٢٩٦، ثم ولّى على إفريقية أخاه أبا العباس محمداً، وسار هو نحو سجلماسة بجيشٍ كبير.

* * *

إمارة الأغالبة

١٩٦ ـ ٢٩٦هـ

الأغلب بن سالم

١ ـ إبراهيم ١٨٤ ـ ١٩٦

٢ ـ عبد الله الأول
١٩٦ ـ ٢٠١

٣ ـ زيادة الله الأول
٢٠١ ـ ٢٢٣

٤ ـ الأغلب أبو عفان
٢٢٣ ـ ٢٢٦

٥ ـ محمد الأول أبو العباس
٢٢٦ ـ ٢٤٢

٦ ـ أحمد
٢٤٢ ـ ٢٤٩

٧ ـ زيادة الله الثاني
٢٤٩ ـ ٢٥٠

٨ ـ محمد الثاني
٢٥٠ ـ ٢٦١

٩ ـ إبراهيم الثاني ٢٦١ ـ ٢٨٩

١٠ ـ عبد الله الثاني ٢٨٩ ـ ٢٩٠

١١ ـ زيادة الله الثالث ٢٩٠ ـ ٢٩٦

العبيديون

-١٨-
المقتدر بالله
جعفر بن أحمد المعتضد
٢٩٥ _ ٣٢٠

هو جعفر بن أحمد المعتضد، ولد في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان من عام اثنين وثمانين ومائتين، وأمّه أم ولد، اسمها «غريب». ولما مرض أخوه المكتفي سأل عنه وعلم أنه بلغ الحلم فعهد إليه، ولا يزيد عمره على الثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه وبويع يوم الأحد لأربع عشرة مضت من ذي القعدة من عام خمسة وتسعين ومائتين. وقد استصغره الوزير العباس بن الحسن وجماعة من الأعيان فعملوا على خلعه، وتولية عبد الله بن المعتز، فقد وافق ابن المعتز بشرط ألا يراق دم، وبلغ المقتدر ذلك فأرضى الوزير العباس بن الحسن بالمال فرجع عما عزم عليه، وأما الآخرون فقد ركبوا عليه في العشرين من ربيع الأول، وكان جعفر بن أحمد صغيراً يلعب لما جاءوا إليه، فهرب ودخل، وأغلقت الأبواب، وقُتل دونه الوزير وجماعة معه، وأُرسل إلى ابن المعتز فجاء وبايعوه بالخلافة، ولقّبوه «الغالب بالله»، ونفذت الكتب بخلافة ابن المعتز.

أرسل ابن المعتز إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار محمد بن طاهر كي يسير ابن المعتز إلى دار الخلافة فوافق المقتدر، فهو صغير ولم يكن لديه قوة، إذ لم يبق عنده سوى مجموعةٍ صغيرةٍ فشجّعوا أنفسهم وهجموا على جماعة ابن المعتز فخافوا، وفرّوا من أمامهم فلحقوا بهم، وساروا إلى

مكان ابن المعتز فهرب ومعه وزيره وقاضيه، وحدثت فوضى في بغداد، وقبض جماعة المقتدر على الذين بايعوا ابن المعتز وقتلوا أكثرهم، وسُجن ابن المعتز، وأُخرج بعد مدةٍ ميتاً، واستقام الأمر للمقتدر؛ فاستوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات، فسار أحسن سير، وكشف المظالم، وحضّ المقتدر على العدل.

أمر المقتدر ألا يُستخدم اليهود، ولا النصارى. ثم ولي الوزارة عام ٣٠١ علي بن عيسى فسار بعفةٍ وعدلٍ وتقوى، وأبطل الخمور، وأبطل من المكوس ما ارتفاعه في العام خمسمائة ألف دينار.

وخرج مؤنس الخادم الملقّب بالمظفّر على المقتدر لأنه بلغه أنه يريد أن يولّي إمرة الأمراء هارون بن غريب مكانه، وأُخرج المقتدر من دار الخلافة، وحُبس في دار مؤنس، وأُحضر أخوه محمد بن المعتضد وبايعوه ولقّبوه القاهر بالله، ولكن لم يبق سوى يومين إذ طالبه العسكر بالأرزاق فلم يدفع لهم، فهاجوا وتصايحوا وذهبوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر وأعادوه إلى الخلافة، أما القاهر بالله فقد بدأ يبكي فأقبل إليه المقتدر وقبّله وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك.

وفي عام ٣٢٠ ركب مؤنس الخادم على المقتدر وجرت بينهما معركة قتل فيها المقتدر وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

كان المقتدر ربعة من الرجال حسن الوجه والعينين، بعيد ما بين المنكبين، حسن الشعر، مدور الوجه، مشرباً بحمرة، حسن الخلق، قد شاب رأسه وعارضاه، وقد كان معطاءً جواداً، وله عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأرباب الوظائف، وكان كثير التنفّل بالصلاة والصوم والعبادة، ولكنه كان مؤثراً لشهواته ومبذّراً، كثير العزل والولاية والتلوّن، وقد غلب النساء عليه، وكانت مدة خلافته خمس وعشرين سنة إلا قليلاً، وقد عاش ثمان وثلاثين سنة.

الروم:

تمت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٩٥، وكان عدد أسرى المسلمين ثلاثة آلاف أسير. وعاد الغزو فقاد الصائفة عام ٢٩٧ القاسم بن سيما، وبعدها فادى مؤنس الخادم الأسارى الذين وقعوا بأيدي الروم. ثم غزا حسين بن حمدان الصائفة عام ٣٠١، وأسر مؤنس الخادم مائة وخمسين بطريقاً مع أعداد كبيرة من الروم، وطلبت الروم عقد هدنة بين الطرفين وأرسلت الهدايا، وتمت المفاداة وذلك عام ٣٠٥.

ودخل الدمستق ملك الروم ملاطية وعاث فساداً في سواحل بلاد المسلمين عام ٣١٤، وفي العام التالي دخل الروم سميساط على الفرات كما هاجموا ثغر دمياط في بلاد مصر ودخلوه فوثب المسلمون على الروم فأجلوهم عن المناطق التي دخلوها، كما انتصر المسلمون على الروم عام ٣١٩ في جهات طرسوس، وأسروا ثلاثة آلاف رومي، وفي الوقت نفسه تقدّم الروم نحو سميساط فوقع الذعر بين أهلها واستنجدوا بأمير الموصل سعيد بن حمدان فأنجدهم ففرّ الروم، ومرّوا على ملاطية فنهبوها فلاحقهم سعيد بن حمدان، ودخل بلادهم، وقتل كثيراً منهم.

وفتحت فرغانة عام ٣١٢ علي يد والي خراسان.

القرامطة:

انتهى قرامطة الشام بعد مقتل يحيى بن زكرويه عام ٢٩٠ ثم مقتل أخيه الحسين عام ٢٩١، وتشتّتوا في البلاد وتفرّقوا، كما قُضي على قرامطة العراق بعد خروج زكرويه بن مهرويه ومقتله عام ٣٠١، وكذلك فقد دالت دولة قرامطة اليمن بعد موت علي بن الفضل مسموماً عام ٣٠٣. ولكن زادت شوكة قرامطة البحرين في هذه الآونة وهم أخبث القرامطة وأكثرهم فساداً، فبعد أن قتل أبو سعيد الجنابي عام ٣٠١ على يد خادمه في الحمام قام مقامه ابنه سعيد إلا أن أخاه سليمان أبو طاهر قد تغلب عليه وقاد القرامطة، وقد عاث في المنطقة فساداً وأرهب الناس، وارتكب المنكرات،

وهتك المحارم، وما ترك رذيلةً إلا وفعلها، واستطاع أن يدخل البصرة عام ٣١١، والكوفة عام ٣١٣ وفعل بالأهالي الأفاعيل، وسار في وادي الفرات حتى شمال دير الزور حالياً، كما اتجه إلى الشمال الشرقي فاقترب من الموصل، وفي كل أرض كانت تطأها أقدام قرامطته ينتشر الرعب ويعم الفساد، وتُنتهك الأعراض بأبشع العادات، ومن منطقة الموصل انتقل نحو مكة فضجت الأعراب والبوادي من أفعاله حتى انقطع الحج، وقد انتصر على جيش المقتدر وذلك كله عام ٣١٦، وفي العام التالي دخل مكة المكرمة في أثناء الموسم وقتل الحجاج ورمى جثثهم ببئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر حيث بقي حتى عام ٣٣٩. ثم صار إلى الكوفة فانقطعت قلوب أهل بغداد عام ٣١٩ هلعاً إذ أشيع أنه سائر إليهم.

* * *

الإمارات

حدث في هذه الآونة تغيير كبير في الإمارات فقد زال بعضها كدولة الأغالبة، ودولتي الخوارج، ودولة الأدارسة، ووجدت دول جديدة كدولة العبيديين (الفاطميون)، والدولة الحمدانية، وأعلنت الدولة الأموية الخلافة، وكذا أعلن العبيديون ذلك فأصبح ثلاثة خلفاء في ديار الإسلام.

١ ـ دولة الأمويين في الأندلس:

توفي عبد الله بن محمد الأول عام ٣٠٠ وخلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، وتمكّن عبد الرحمن أن يقضي على عمر بن حفصون المرتد، وأن يخضع الأندلس كلها لحكمه بعد مضي عشرين سنةً من حكمه، وفي هذا الوقت بلغه مقتل الخليفة العباسي المقتدر على يد مؤنس الخادم، واستبداد القادة العسكريين الترك بالخلفاء فأعلن نفسه خليفةً عند ذلك. وقد قاتل عبد الرحمن الذي حمل لقب الناصر الإمارات النصرانية في الشمال، وانتصر عليها في كثيرٍ من المعارك، كما تعرض للخطر العبيدي من الجنوب من بلاد المغرب، وقد ازدهرت الخلافة الأموية في الأندلس في عهده ازدهاراً كبيراً، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٣٥٠ أي أن حكمه قد دام خمسين سنةً.

٢ ـ الأدارسة:

بعد أن اغتيل يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس عام ٢٩٢ تولّى أمر الأدارسة يحيى الرابع بن إدريس بن عمر بن إدريس وبايعه أهل فاس، وامتد سلطانه على بلاد المغرب الأقصى كلها، وكان عظيم القدر، عادلاً

في رعيته، كثير الفضل، بطلاً شجاعاً، ذا بيانٍ وفصاحةٍ، حافظاً للحديث، فقيهاً، صاحب دينٍ وورع.

غزا دولة الأدارسة عام ٣٠٠ قائد العبيدين مصالة بن حبوس، والتقى به الأمير يحيى قرب مكناس فهُزم الأدارسة، وحاصر العبيديون فاس، واضطر يحيى إلى الصلح على أن يدفع مبلغاً من المال، وأن يبايع لعبيد الله المهدي فتم ذلك عام ٣٠٣، وأصبح مصالة بن حبوس أمير فاس، وابن عمه موسى بن أبي العافية أمير بلاد المغرب الأقصى، ولما عاد مصالة بن حبوس عام ٣٠٩ إلى فاس أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه، ونفاه إلى بلاد الريف، ثم سجنه موسى بن أبي العافية، ثم أطلق سراحه بعد عشرين سنة فقصد بلدة المهدية عاصمة العبيدين فمات بها عام ٣٣٢.

وعندما اعتقل يحيى بن إدريس ولّى مصالة بن حبوس على فاس ريحان الكتامي ولكن لم يلبث أن ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم عام ٣١٠ واستولى على فاس، وقتل ريحان، وأخذ البيعة من الناس، وبدأ في قتال موسى بن أبي العافية غير أن الحسن قد مات عام ٣١٢،واستولى موسى على دولة الأدارسة الذين لجأ أكثرهم إلى بلاد الريف، وكانوا زعماء فيها، وتعد هذه الدولة قد انتهت.

خلع موسى بن أبي العافية الفاطميين، ودعا للأمويين في الأندلس. فأرسل عبيد الله المهدي جيشاً إليه ففر موسى من وجهه وترك مدينة فاس، إلا أن أمير الفاطميين على فاس قد قُتل، وعاد موسى بن أبي العافية إلى نفوذه ويدعو إلى أمويي الأندلس وذلك بعد وفاة عبيد الله المهدي عام ٣٢٢.

رغم القضاء على دولة الأدارسة فقد قام القاسم بن الحسن المتوفى ٣٣٧ يدعو إلى العبيديين، وبرز، وخلفه ابنه أحمد الملقب بأبي العيش

إمارة الأدارسة في المغرب

١٧٢ ـ ٣١٢

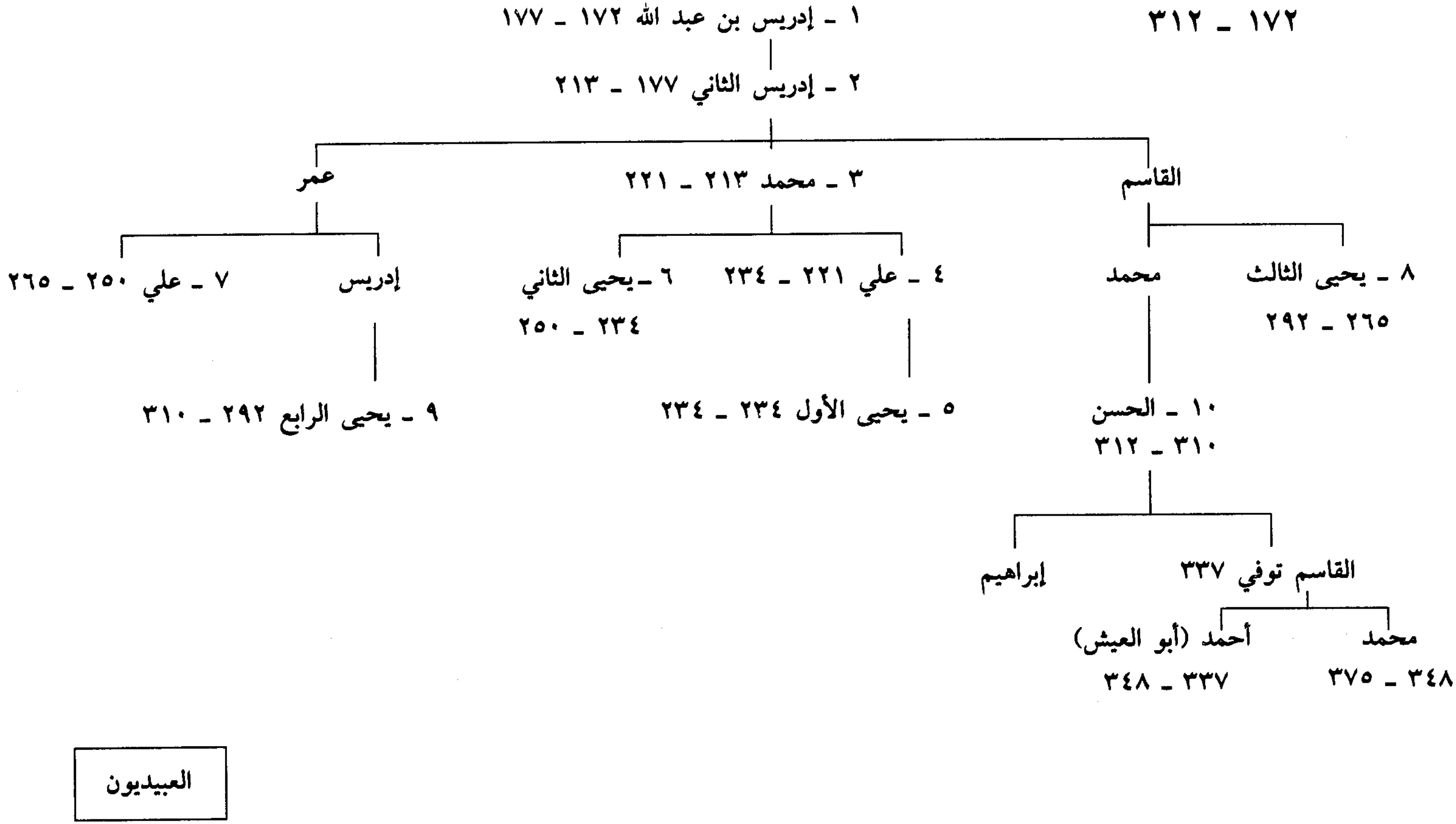

يعمل للعبيديين، ثم لم يلبث إلى أن انتقل إلى الأمويين في الأندلس يدعو لهم، وسيطر على المغرب الأقصى، وتوفي عام ٣٤٨، ثم قام أخوه محمد أبو القاسم وسيطر على بلاده العبيديون في النهاية عام ٣٧٥.

٣ ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي رقادة قاعدة الأغالبة اتجه إلى سجلماسة قاعدة الخوارج الصفرية، غير أنه في طريقه قد عرج على تاهرت، وكانت الدولة الأباضية قد وصلت إلى مرحلة في منتهى الضعف. والتنازع على السلطة، وقد جاءه بعضهم وهوّنوا عليه دخول تاهرت فبعث إلى يقظان ابن أبي اليقظان وبنيه فجاءوه فقتلهم، وسار إلى عاصمتهم فدخلها، وقتل كل من فيها من الأسرة الرستمية، ولم ينج منهم إلا من فرّ ثم استباح المدينة وأحرقها، وإذا كان أبو عبد الله الشيعي قد نجح في القضاء على الأسرة الرستمية إلا أنه لم يقض على المذهب الأباضي إذ تحصّن بعض الأباضية في (ورغلة) بصفتها واحة في الصحراء، وفي جبل نفوسة، ولم يستطع العبيديون دخول هاتين المنطقتين رغم المحاولات.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي تاهرت سار إلى سجلماسة، وكان فيها عبيد الله المهدي وابنه نزار أبو القاسم مسجونين فيها، وأرسل أبو عبد الله الرسل إلى اليسع بن مدرار يلاطفه، ويبعد فكرة القتال خوفاً على عبيد الله إلا أن اليسع قد قتل رسل أبي عبد الله، فأعاد الملاطفة وإرسال الرسل فأعاد اليسع قتل الرسل فما كان من أبي عبد الله إلا أن جدّ السير لحصار سجلماسة فخرج إليه اليسع وجرى قتال ضارٍ بين الطرفين لم يفرّق بينهما سوى هجوم الظلام، فلما جنّ الليل فرّ اليسع وصحبه وأبناء أسرته، وعندما كان الصباح خرج أهل المدينة لاستقبال أبي عبد الله، وأعلموه أن

إمارة الخوارج الصفرية

بنو مدرار

١٤٠ ـ ٢٩٧

١ ـ عيسى بن يزيد الأسود ١٤٠ ـ ١٥٥

٢ ـ أبو القاسم سمكو ١٥٥ ـ ١٦٨

٣ ـ الياس ١٦٨ ـ ١٧٤
أبو الوزير

٤ ـ اليسع ١٧٤ ـ ٢٠٨
أبو المنصور

٥ ـ مدرار ٢٠٨ ـ ٢٢٤
المنتصر

٦ ـ ميمون بن بقية ٢٢٤ ـ ٢٦٣

ميمون بن الرستمية

٨ ـ اليسع
٢٧٠ ـ ٢٩٧

٧ ـ محمد
٢٦٣ ـ ٢٧٠

ساور

محمد

المعتز
والياً على
سجلماسة للعبيديين
٣١٠ ـ ٣٢١

محمد (أبو المنتصر)
٣٢١ ـ ٣٣١

سمكو (المنتصر) ٣٣١

الفتح (واسول)
٢٩٧ ـ ٣٠٠
ثار على العبيدين

الفتح

محمد

أحمد
٣٠٠ ـ ٣٠٩
ثار على العبيديين

العبيديون

اليسع قد فرّ بجماعته، فدخل المدينة، وأخرج عبيد الله وابنه، وأرسل في طلب اليسع فقبض عليه فسجن ثم قتل، وهكذا دالت دولة بني مدرار الخارجية من الصفرية.

ترك عبيد الله سجلماسة وسار إلى رقادة في ربيع الآخر عام ٢٩٧ بعد أن بويع بالخلافة، وهكذا أصبح بعد عام ٣١٦ ثلاثة خلفاء في العالم الإسلامي، الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الأموي في قرطبة، والخليفة العبيدي في رقادة.

وهنا نقطة لا بدّ من أن أتعرض لها باختصار وهي أن أبا عبد الله الشيعي عندما دخل سجلماسة والتقى لأول مرةٍ بعبيد الله على أنه الإمام لم ير الرجل الذي سبق له أن التقى به بسلمية في بلاد الشام وإنما رجل آخر فمنهم من يرى أنه التقى بسلمية بأحد أبناء البيت الإسماعيلي الذين يعمل لهم، وهذا أحد أبناء البيت القداحي أو ربيب البيت القداحي، وهو ابن الحداد اليهودي. ومنهم من يقول: إن اليسع بن مدرار قد قتل عبيد الله قبل أن يفرّ وكان في سجنه فعندما دخل أبو عبد الله الشيعي سجلماسة وجد رجلاً يهودياً مكان عبيد الله فاضطر أن يدّعي أنه هو المهدي ريثما تستقر الأوضاع وقد خاف من قبيلة كتامة التي حملها على الدعوة والقتال من أجل المهدي ثم تكون الدعوة والقتال على الهواء. وعلى كلٍ فسواء أكان الرجل يهودياً، أم ربيب القداحيين اليهودي، أم سليل الأسرة القداحية ذات الأصل اليهودي فالأمر واحد وهو أن أبا عبد الله الشيعي لم يعرفه، وأنكره، وإنما اضطر إعطاءه اسم المهدي ريثما يجد له مخرجاً.

وما أن وصل عبيد الله إلى رقادة واستقر بها حتى وقع الخلاف بينه وبين أبي عبد الله الشيعي وحتى قام الخوارج الصفرية في سجلماسة بثورات ضد العبيديين وساعدهم على ذلك بُعد سجلماسة ونأيها على أطراف الصحراء، والخلاف العقيدي بين العبيديين والصفرية، ومحاولة العبيديين فرض فكرتهم بالقوة، والمنكرات التي ارتكبوها، والمحرّمات التي فعلوها، وتهجّمهم الصريح على صحابة رسول الله ﷺ، وعلى أمهات المؤمنين،

وهذا ما يتفق مع فكرتهم وأصولهم، كما ساعدهم على ذلك خلع موسى بن أبي العافية طاعتهم في فاس وبدأ نفوذ الأمويين في المغرب الأقصى ينتشر، إذ دعا لهم موسى بن أبي العافية وأحياناً بقايا الأدارسة، ثم الخلاف الذي نشب بين أبي عبد الله الشيعي وعبيد الله، وثورة كتامة بعد أن استبد عبيد لله بالأمر وتخلص من أبي عبد الله يضاف إلى هذا كره الناس للعبيديين بما اتخذوه من بطش وظلم وما فرضوه من ضرائب، وما فعلوه في سجلماسة.

ترك عبيد الله قائده إبراهيم بن غالب المزاتي عاملاً له على سجلماسة عندما غادرها إلى رقادة، ولم يلبث أن ثار الصفرية في العام نفسه وقتلوا إبراهيم بن غالب المزاتي وجنده الخمسمائة الذين بقوا معه، وولّى الصفرية عليهم الفتح بن ميمون الملقب بـ (واسول)، ولم يستطع عبيد الله إعادة نفوذه إلى سجلماسة لما عنده من شغل في قضية أبي عبد الله وثورة كتامة، وإنما كان الفتح يظهر شيئاً من التقية بعدم الثورة، وبقي الفتح صاحب النفوذ في سجلماسة حتى توفي عام ٣٠٠ فبايع الصفرية عندها أخاه أحمد بن ميمون فبقي كذلك حتى عام ٣٠٩ حيث أرسل عبيد الله القائد مصالة بن حبوس فدخل سجلماسة وقتل أحمد بن ميمون؛ وقد حاول مصالة بن حبوس استرضاء الصفرية فلم يُعيّن لهم والياً، وإنما ولّى المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار ثم بعد مدة جعله عاملاً لعبيد الله، واستمر في أمره حتى توفي عام ٣٢١.

سار المهدي العبيدي عام ٣٠١ يريد مصر ومعه أربعون ألف مقاتل، وحال النيل دون تقدّمه شرقاً، والوصول إلى الفسطاط، فرجع إلى الإسكندرية وقتل فيها من قتل حسب هواه، وعاث الفساد، وتبعه جيش الخليفة المقتدر وجرت بين الطرفين معارك في منطقة برقة هُزم فيها العبيديون واضطروا للعودة إلى المغرب. وسيطر العبيديون على الفيوم، كما عاد القائم خليفة عبيد الله المهدي، وسيطر على الصعيد عام ٣٠٦ غير أن الخليفة المقتدر أرسل له مؤنس الخادم في جيش هزم العبيديين، وأجبرهم بالرجوع إلى المغرب.

٥ ـ الدولة السامانية:

توفي عام ٢٩٥ إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، وكان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً كريماً، وخلفه ابنه أحمد بن إسماعيل، وقد قتل على يد غلمانه عام ٣٠١، وخلفه ابنه نصر، وكان صغيراً لم يزد عمره على ثمان سنوات فاستصغرته أسرته فطلب عم أبيه إسحاق بن أحمد ولاية خراسان، وكان قد استمال بلاد ما وراء النهر إليه عدا بخارى، وكذا عم أبيه الآخر المنصور إلا أن الخليفة أقرّ نصراً على البلاد التي كانت لأبيه رغم صغره فأدار له شؤون الدولة محمد بن عبد الله الجيهاني.

وما أن سارت الأمور في بلاد ما وراء النهر وخراسان باسم نصر بن أحمد حتى ثار عليه عم أبيه إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق وسارا نحو بخارى غير أنهما قد هزما أمام جيوش نصر التي استولت على سمرقند. وأسر إسحاق بعد اختفائه، أما إلياس فقد فرّ إلى بلاد فرغانة. وثار ابن إسحاق الثاني، وهو منصور عام ٣٠٢، وانضم إليه بعض قواد نصر، واستولوا على سجستان وحكموها باسم منصور، وكذلك على نيسابور، واستمرت الحرب بين نصر ومنصور حتى عام ٣٠٦ حيث انتصر نصر، وعادت نيسابور وسجستان إليه.

رجع إلياس بن إسحاق يستعدّ لمنازلة نصر، وتمكّن أن يجمع جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وتقدّم به عام ٣١٠ نحو سمرقند غير أن الهزيمة قد حلّت به، واضطر للرجوع إلى فرغانة، واختفى بها غير أن جيوش نصر قد فتحت فرغانة عام ٣١٢، وبدأ إلياس يعمل لإعادة الكرة على نصر، وتعاون مع صاحب الشاش غير أنه هُزم ثانيةً، وأُسر صاحب الشاش الذي مات في السجن.

٦ ـ الدولة الحمدانية:

يعود الحمدانيون في أصولهم إلى قبيلة بني تغلب التي كان بعض

بطونها يعيش قريباً من الموصل، وأمير هذا البطن في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري هو حمدان بن حمدون، وقد بدأ يشترك في الحوادث السياسية التي تجري في منطقته منذ عام ٢٦٠، وتحالف مع الخوارج الذين يقودوهم هارون الشاري عام ٢٧٢، ودخلا الموصل معاً، ثم استولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وشنّ الخليفة المعتضد حرباً عليه فاعتصم بقلعة ماردين، فسار إليه عام ٢٨١ فهرب من القلعة وترك ابنه الحسين فيها، ودخل جند الخليفة القلعة، وأظهر الحسين الطاعة، وتتبع الخليفة حمدان حتى ظفر به فسجنه في بغداد، ولم يخرجه من السجن سوى تكليف الخليفة ابنه الحسين بن حمدان بمحاربة هارون الشاري إذ اشترط الحسين إطلاق سراح أبيه مقابل حمل هارون إلى الخليفة، وحدث ذلك.

أصبح الحسين بن حمدان قائداً من قادة الخليفة البارزين وقد شُهر بحروبه التي قادها ضد القرامطة، وبرز إخوته كذلك عبد الله، وسعيد، وداود، وإبراهيم. أما الحسين فقد ناصر عبد الله بن المعتز الذي بويع بالخلافة لمدة يومين عام ٢٩٦ فكرهه المقتدر، وعزله عن مناصبه، ثم عفا عنه، وولاّه قم وقاشان، ثم عاد فاختلف معه، وسجنه ومات في السجن عام ٣٠٦، ثم خلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم عام ٣٠٧ وتوفي عام ٣٠٨، ثم أخوه داود حتى عام ٣٠٩، وبقي مع الخليفة المقتدر، وقاتل بجانبه ضد مؤنس الخادم، وأصابه سهم فقتل عام ٣٢٠.

أما سعيد والمكنى بأبي العلاء فقد تولّى أمر الموصل ونهاوند. وقد كان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد ناصر القاهر ضد أخيه المقتدر، فلما فشلت الجهود، وعاد المقتدر، قُتل أبو الهيجاء وذلك عام ٣١٧، أما أبو السرايا نصر بن حمدان فقد هرب إلى الموصل، وتولى أمرها عام ٣١٨ ثم قتله القاهر عام ٣٢٢، وقد انتهى أمر أولاد حمدان كلهم قبل نهاية عام ٣٢٢، غير أن عبد الله أبا الهيجاء قد أناب عنه في الموصل ابنه الحسن ناصر الدولة فاستطاع أن يحتفظ بها منذ تولّى أمرها عام ٣٠٨ حتى توفي

عام ٣٥٨ باستثناء مدةٍ قصيرة ٣١٧ ـ ٣١٩ بسط عمّاه سعيد ونصر نفوذهما عليها بأمر الخليفة المقتدر.

وكان هؤلاء الملوك رافضة[١].

* * *

---

(١) البداية والنهاية، سنة ٣٥٦.

ـ١٩ـ
القاهر بالله
محمد بن أحمد المعتضد
٣٢٠ ـ ٣٢٢

هو محمد بن أحمد المعتضد، ولد عام ٢٨٧، أمّه أمّ ولد تدعى «فتنة». فبعد مقتل أخيه المقتدر جيء به وبابن أخيه عبد الله بن علي المكتفي، وكان عبد الله زاهداً بالخلافة فلم يجبهم إلى ما يريدون، وقال: عمي أحقّ بها مني، وكان عمره يومذاك سبعاً وثلاثين سنة، وبعد أن بويع القاهر بالخلافة عذّب آل أخيه المقتدر. وكان بطّاشاً سفّاكاً للدماء، سيء السيرة، يكنّى أبا منصور.

شغب عليه الجند عام ٣٢١، واتفق مؤنس الخادم وآخرون على خلعه: منهم محمد بن مقلة أبو علي، وعلي بن بليق، ووصل الخبر إليه فاحتال عليهم، وذبحهم، وتمكّن أبو علي محمد بن مقلة من الاختفاء. واستقام الأمر بعدئذ للقاهر. فأمر بمنع الخمر، وتحريم القيان، وبيع المغنيّات من الجواري، وقبض على المغنين، وكسر آلات اللهو، ونفى المخابيث ومع هذا كله كان مُغرماً بسماع الغناء، وتعاطي الخمرة.

وفي عام ٣٢٢ دخل الديلم أصبهان بإمرة «مرداويج بن زياد الديلمي» الذي كان من قواده علي أبي الحسن بن بويه فالتقى مع قائد الخليفة محمد بن ياقوت وانتصر عليه، وخرجت خراسان وفارس من حكم الخلافة.

حرّض ابن مقلة من مخبئه على القاهر، فدخل عليه الجند فهرب،

فلحقوا به، وقبضوا عليه في ٦ جمادى الآخرة، فامتنع عن خلع نفسه، فكحل بقضيب حديد محمى، ثم حبس حتى عام ٣٣٣ ثم أطلق سراحه، وبقي حتى مات عام ٣٣٩، وأصابته الحاجة حتى سأل الناس في أواخر حياته. وكان عمره عندما توفي اثنتين وخمسين سنة، ومدة خلافته سنة وستة أشهر وأسبوع.

* * *

-٢٠-
الـرّاضي بالله
محمّد بن جعفر المقتدر
٣٢٢ـ ٣٢٩

هو محمد بن جعفر المقتدر، ولد عام ٢٩٧، وأمه أم ولد تُدْعَى «ظلوم» يُكنّى أبا العباس، بويع بالخلافة بعد خلع عمه القاهر وذلك عام ٣٢٢ فكان عمره خمسة وعشرين عاماً، كان سمحاً، كريماً، أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، له شعر مدون، وسمع الحديث من البغوي. ومن شعره:

كل صفوٍ إلى كدر كل أمر إلى حذر
ومصير الشباب للـ ـموت فيه أو الكدر
درّ درّ المشيب من واعظٍ يُنذر البشر
أيها الآمل الذي تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا؟ ذهب الشخص والأثر
ربّ اغفر خطيئتي أنت يا خير من غفر

مات مقدم الديلم «مرداويح» وغدا علي بن بويه سيد الموقف في فارس وخراسان، وقاطع الخليفة على البلاد التي استولى عليها بمائة مليون درهم، لكنه كان يماطل بالدفع.

وقلّد الراضي ولديه أبا الفضل، وأبا جعفر المشرق والمغرب.

وانقطع الحج من بغداد في أيامه بسبب القرامطة الذين يعيثون الفساد

في البلاد، واستمر انقطاعه حتى عام ٣٢٧ حيث تدخل في الأمر الشريف أبو علي محمد بن يحيى إذ كان القرامطة يحترمونه، ووافق القرامطة على أن يُدفع لهم عن كل جملٍ خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير.

استدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق من واسط ليوليه إمرة الأمراء فجاء ومعه الأمير «بجكم»، وأصبح كل شيء بأمر محمد بن رائق، وضعف أمر الخلافة جداً، واستقل الولاة كل بما تحت يده، ولم يبق للخليفة سوى بغداد وما حولها والأمر فيها أيضاً لمحمد بن رائق، والخليفة ألعوبة بيده أو صورة على الأقل.

وجاء الأمير «بجكم» مخالفاً لابن رائق الذي اختفى، فقرّب الخليفة «بجكم» وحلّ محلّ ابن رائق.

وطلب ملك الروم مفاداة بين المسلمين والروم وأرسل الهدايا إلى الخليفة، وتم ذلك في عام ٣٢٦، وكان عدد أسرى المسلمين الذين بيد الروم حوالي ستة آلاف مسلم.

ومات الخليفة الراضي عام ٣٢٩، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريباً. وكان أسمر، أعين، خفيف العارضين، أسمر رقيق السمرة، ذري اللون، أسود الشعر، سبطه، قصير القامة، نحيف الجسم، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعره رقة، يحب مجالسة الأدباء والفضلاء، وقال في رثاء أبيه المقتدر:

ولو أن حيّاً كان قبراً لميّتٍ لصيّرت أحشائي لأعظمه قبرا

ولو أنّ عمري كان طوع مشيئتي وساعدني المقدور قاسمته العمرا

بنفسي ثرىً ضاجعت في تربة البلى لقد ضمّ منك الغيث والليث والبدرا

* * *

-٢١-
المتّقي لله
إبراهيم بن جعفر المقتدر
٣٢٩ - ٣٣٣

هو إبراهيم بن جعفر المقتدر، ولد عام ٢٩٥، فهو أكبر من أخيه الراضي، أمه أم ولد تدعى «خلوب» بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي، وعمره أربع وثلاثون سنة، لم تغيّر الخلافة من أمره شيئاً، فلم يتسر بغير جاريةٍ كانت له من قبل، ولم يشرب مسكراً لا من قبل ولا من بعد، كان كثير التلاوة للقرآن، كما لم يكن له من أمر الخلافة شيء، إذ كان أمير الأمراء متسلّطاً عليه بل كاتب أمير الأمراء «بجكم».

قتل «بجكم» فولّى مكانه «كورتكين الديلمي» بإمرة الأمراء. وخالف محمد بن رائق الخليفة وقاتل «كورتكين» وهزمه، فاختفى «كورتكين» وأصبح ابن رائق أميراً للأمراء. وخرج أبو الحسين محمد بن علي البريدي من واسط لقتال ابن رائق، وهُزم ابن رائق ومعه الخليفة المتقي لله وهربا باتجاه الموصل فلما وصلا إلى مدينة «تكريت» وجدا سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان وأخاه ناصر الدولة الحسن. وقُتل محمد بن رائق غيلةً فولّى الخليفة الحسن بن عبد الله بن حمدان إمرة الأمراء، ولقّبه ناصر الدولة، ولقّب أخاه علي سيف الدولة، ورجع الخليفة إلى بغداد ومعه ابنا حمدان فهرب البريدي منها، ورجع إلى واسط، ولاحقه سيف الدولة فهرب إلى البصرة.

هاج الأمراء بواسط على سيد الدولة فهرب إلى بغداد، وهرب أخوه الحسن ناصر الدولة إلى الموصل، وسار «توزون» من واسط إلى بغداد فدخلها، وأصبح أمير الأمراء، وفرّ سيف الدولة إلى أخيه ناصر الدولة بالموصل. ثم اختلف الخليفة المتقي مع «توزون» فأرسل توزون جيشاً إلى بغداد بإمرة أبي جعفر بن شيرزاد فدخلها وتحكّم فيها، وكاتب المتقي أمير الموصل ناصر الدولة ابن حمدان فقدم بجيش كبير واختفى ابن شيرزاد، وسار الخليفة بأهله إلى تكريت والتقى ابن شيرزاد وابن حمدان في معركة هُزم فيها ابن حمدان والخليفة، وهربا إلى الموصل، وسار ابن شيرزاد وراءهما وجرت معركة ثانية دارت الدائرة فيها أيضاً على الخليفة وابن حمدان ففرا إلى «نصيبين».

راسل الخليفة الإخشيد صاحب مصر وطلب منه أن يحضر إليه، ثم ظهر له أن ابني حمدان قد ضجرا منه، وأنه قد ملّهما، فرأى أن يراسل «توزون» يعرض عليه الصلح فوافق، ووصل الإخشيد إلى الخليفة وهو بالرقة فتكلم عن العسكريين الأتراك وغدرهم، وطلب منه أن يسير معه إلى مصر، فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر، وسار الخليفة إلى بغداد فاستقبله «توزون»، وترجّل له ومشى بين يديه حتى وصلوا إلى المخيم المعدّ لهم، فكحّله بميلٍ محمى، وأدخله إلى بغداد مسمول العينين، وأحضر عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة كما بايعه الخليفة المتقي المخلوع، ثم سُجن المتقي في جزيرة بالنهر وبقي في سجنه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي عام ٣٥٧هـ.

وفي أيام المتقي هاجم الروم المسلمين ووصلوا إلى نصيبين فقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا.

* * *

-٢٢-

المستكفي بالله
عبد الله بن علي المكتفي
٣٣٣ - ٣٣٤

هو عبد الله بن علي المكتفي، ولد عام ٢٩٢، أمه أم ولد تُدعى «أملح الناس» بويع بالخلافة بعد خلع ابن عمه المتقي، وكان عمره أربعين سنة أو يزيد قليلاً.

مات «توزون» أمير الأمراء فأصبح كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد سيد الموقف، فطمع وبدأ يعمل لنفسه، وقد خشيه الخليفة فقرّبه وقدّمه.

دخل أحمد بن بويه بغداد فاختفى أبو جعفر بن شيرزاد، وقرّبه الخليفة ولقّبه «معز الدولة»، كما لقّب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاه الآخر الحسن «ركن الدولة»، ولقّب المستكفي نفسه «إمام الحق»، ثم إن معز الدولة قوي أمره فحجز على الخليفة، وقدّر له نفقةً يوميةً قدرها خمسة آلاف درهم. وشغل الناس بالسباحة والمصارعة، وانهمك الشباب فيهما بشكلٍ كبيرٍ.

وفي جمادى الآخرة من عام ٣٣٤ تخيّل معز الدولة من المستكفي شيئاً فدخل على الخليفة وانتزعه بعض جنود معز الدولة من سريره وجرّوه، ثم نهب الجند دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء، وسار معز الدولة إلى منزله راكباً، وساقوا المستكفي ماشياً إليه، ثم خلع وسملت عيناه، ثم أحضر الفضل بن المقتدر، وبويع بالخلافة باسم المطيع، وبايعه ابن عمه الخليفة المخلوع المستكفي، وقد شهد على نفسه بالخلع، ثم سجن إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

الإمارات

١ ـ دولة الأمويين في الأندلس:

خضعت الأندلس لعبد الرحمن الثالث الناصر، وانقادت الولايات لحكمه، وكان خطر النصارى يتهدده من الشمال، كما كان خطر العبيديين من الجنوب، واستفاد عبد الرحمن من الصقالبة الذين يجلبهم الإغريق والبنادقة فيشتريهم، ويُربيهم تربيةً إسلاميةً، ويُدربهم على الجندية.

خلع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة طاعة عبد الرحمن الناصر فسار إليه وأخضعه، ثم سار إلى إمارة «نافار» النصرانية التي دعمت التجيبي فانتصر عليها.

بنى الناصر أسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة، وتسابقت رسل دول فرنسا، وإلمانيا، وإيطاليا إلى مقرّ حكمه تقدّم له الاحترام.

٢ ـ الدولة العبيدية:

توفي عبيد الله المهدي عام ٣٢٢، وخلفه ابنه نزار أبو القاسم القائم، وتمّ في عهده فتح جنوه عام ٣٢٣ مروراً بجزيرة سردينيا. وفي جزيرة صقلية ثار الناس على عامل العبيديين فأرسل إليهم جيشاً أخضعهم.

وثار الخوارج الأباضيون في طرابلس على العبيديين غير أن حركتهم قد اقتصرت على أباضية «هوارة» لذا كانت ضعيفةً، وأرسل القائم قوةً بحريةً حاصرت أهل طرابلس من البحر، وقطعت عنهم المؤن، فاضطروا إلى الاستسلام مقابل دفع مبلغ من المال وتسليم ثلاثة من رؤسائهم حملوا إلى (رقادة) حيث قتلوا هناك وذلك عام ٣٣٠.

وقامت ثورة أخرى للخوارج الأباضية تُعدّ أهم الثورات التي واجهت العبيديين، وقد قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد، وقد ظهر منذ عام ٣١٦ في جبال أوراس، وقوي أمره عام ٣٢٥ إذ انضمت إليه الأباضية بفرقها كلها كما انضم إليه أهل السنة ضد العبيديين الذين أساءوا إلى الإسلام وانتهكوا حرماته، وأرسل القائم إلى عامله على «قسطيلة» ليحمل إليه أبا يزيد فاعتقله أبو يزيد، فأرسل القائم عندئذٍ جيشاً قوياً حاصر منطقة الأوراس غير أن أبا يزيد قد تمكن من فكّ الحصار، وانضمّت إليه بعض القبائل فأحرز نصراً على جيوش العبيديين وتتبعهم، وبدأت المدن تسقط أمامه حتى دخل (رقادة) ثم (القيروان) عام ٣٣٣، واتجه نحو (المهدية) فخندق القائم حولها، وكاد ينتهي أمر العبيديين لولا استنهاض همة كتامة وصنهاجة وخندقة القائم حول المهدية، وأرسل القائم الجيوش للقاء أبي يزيد لكنها هُزمت وتشتّت شملها، ولم يتابع أبو يزيد فلولها، وقوي بعدئذ أمر القائم. أما أبو يزيد فقد أخبر عبد الرحمن الناصر بالانتصارات التي أحرزها، وفرح المسلمون إذ توقّعوا انتهاء أمر العبيديين.

وكما ثار الأباضيون من الخوارج فقد ثارت الصفرية أيضاً ضد العبيديين إذ استغل محمد بن الفتح بن ميمون فرصة ضعف ابن عمه سمكو بن محمد أبي المنتصر واشتعال ثورة الأباضيين فدعا لنفسه وخلع طاعة العبيديين، وتلقّب بالشاكر لله، وأظهر تأييده للعباسيين لكسب أهل السنة إلى جانبه، وكان حسن السيرة، وهذا ما جعل بعضهم يقول: إنه كان من أهل السنة.

٣ ـ الدولة الإخشيدية:

الإخشيد كلمة يُلقّب بها ملوك فرغانة، وقد جاء «جفّ» جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم فأكرمه، ثم اتصل بالخليفتين الواثق والمتوكل، وتوفي في العام الذي توفي فيه المتوكل ٢٤٧ بل وفي الليلة نفسها التي مات فيها المتوكل، وبرز ابنه طغج في أيام الطولونيين، وقتال الروم، ولما دخل

الجيش العباسي مصر، استقبل طغج بن جف القائد العباسي محمد بن سليمان بالعباسة، ومعه كبار القادة، ثم سار بمن بقي من الطولونيين وقادتهم إلى بغداد، ولما لم يترجّل للوزير العباسي فقد أوغر صدر الخليفة عليه فسجنه وابنيه محمد وعبيد الله وذلك عام ٢٩٢، وتوفي طغج في السجن عام ٢٩٤، وأطلق الخليفة ابنيه فدخلا في خدمة الخلافة، ولما حانت لهما فرصة الثأر من الوزير العباس بن الحسن لم يتركاها وذلك عندما ضربه الحسين بن حمدان بالسيف فوقع عن جواده فأسرعا وأجهزا عليه، وهرب بعدئذٍ محمد بن طغج إلى ديار ربيعة، وفرّ عبيد الله إلى شيراز، ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالخليفة المقتدر وعلا شأنه.

اتصل محمد بن طغج بعامل الشام ابن بسطام، ولما أُعطي ولاية مصر انتقل محمد معه، وتوفي ابن بسطام عام ٢٩٧ فاتصل بابنه أبي القاسم علي بن بسطام، وحارب تحت إمرة (تكين) الذي التقى بالعبيديين بإمرة حباسة بن يوسف الكتامي وقد أبلى يومها بلاءً حسناً، وقد تولّى إمرة الأردن نيابةً عن «تكين» عام ٣٠٦، ثم الإسكندرية عام ٣٠٧ ـ ٣٠٩، وقاتل العبيديين الذين غزوا مصر، وعندما انتصر عليهم عام ٣٢١ ـ ٣٢٤ أمر الخليفة إضافة اسم الإخشيد عليه، وولاّه إمرة مصر والشام، فساد النظام، وصالح العبيديين.

وفي ٣٢٨ غضب الخليفة على الإخشيد، وأرسل محمد بن رائق والياً على مصر، فسار إلى حمص فدخلها، وانطلق إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الإخشيد والياً عليها للإخشيد فأخرجه ابن رائق منها، ودخلها، وسار منها إلى الرملة فأخذها، ثم اتجه إلى عريش مصر، فلقيه الإخشيد محمد بن طغج فهُزم الإخشيد وشُغل أصحاب ابن رائق بالأسلاب فخرج عليهم كمين للإخشيد فهزمهم وتفرّقوا، فأعمل جند الإخشيد فيهم قتلاً ولكن نجا ابن رائق مع سبعين من رجاله، ورجع إلى دمشق، فسيّر إليهم الإخشيد أخاه عبيد الله أبا نصر في جيشٍ كثيفٍ فالتقى مع جيش ابن رائق بـ «اللجون»، وانتصر ابن رائق انتصاراً كبيراً، وقُتل أبو نصر عبيد الله بن طغج

أخو الإخشيد، فأخذه ابن رائق وكفّنه وأرسله إلى أخيه مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق واعتذر إليه، فكانت النتيجة أن اصطلحا على أن تكون الرملة الحدود بين الطرفين.

وقتل ابن رائق عام ٣٣٠ فأصبحت بلاد الشام كلها للإخشيد وقد دخلها دون حرب، كما تبعته الحجاز، كما أن الخليفة المتقي قد طلب منه دعمه فسار إليه والتقى به بالرقة، ورجاه أن يسير معه إلى مصر فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر.

وفي عام ٣٣٢ استولى الحمدانيون على قنسرين فولاّها ناصر الدولة إلى ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (أخي أبي فراس)، كما استولى سيد الدولة على حلب عام ٣٣٣، وقاتل الإخشيديين الذين اضطروا إلى دفع الجزية له.

٤ ـ الدولة الحمدانية:

قتل ناصر الدولة عمه سعيد أبا العلاء والد أبي فراس عندما أراد أن ينتزع منه الموصل عام ٣٢٣، وكان ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة بجانب الخليفة حتى جاء البويهيون فوقعوا في صدامٍ معهم ثم تصالحوا لكن عادوا فاختلفوا. كما حاربوا البريديين الذين كانوا في الأهواز، ودخلوا مدينة واسط، وتغلب توزون على بغداد، وأصبح أمير الأمراء.

استولى ناصر الدولة على قنسرين عام ٣٣٢ من الإخشيد وأعطى إمرتها لابن عمه الحسين بن سعيد الحمداني أخي أبي فراس، كما استولى سيف الدولة على حلب عام ٣٣٣ وتولّى أمرها. ومات توزون عام ٣٣٤، وأصبح ابن شيرزاد أميراً للأمراء، ودخل بنو بويه بغداد، وحاولوا الحد من نفوذ الحمدانيين، واستطاع ابن شيرزاد أن يدخل بغداد وأن يحكمها باسم ناصر الدولة الحمداني، ويأتي ناصر الدولة إليها ويخطب باسم المتقي، غير أن البويهيين يدخلون بغداد بعد أربعة أشهر، ويعود ناصر الدولة الحمداني إلى الموصل، ثم يعقد الصلح بين الطرفين في أوائل عام ٣٣٥ غير أنه لم يستمر طويلاً ويقع الخلاف.

الإمارة الحمدانية

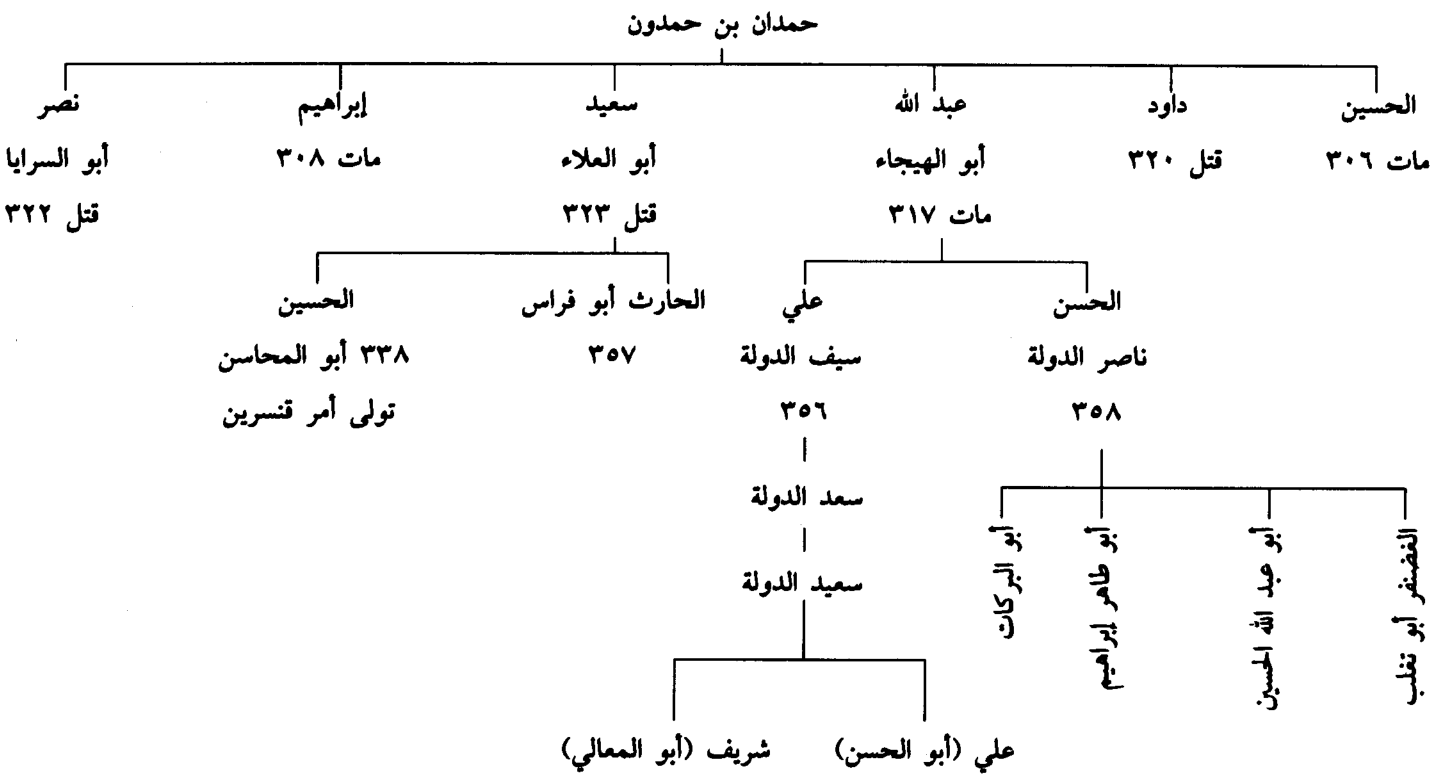

٥ ـ الدولة السامانية:

ثار أبو علي محمد بن إلياس على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فأرسل له نصر جيشاً كبيراً هزم أبا علي محمد بن إلياس ودخل كرمان وحكمها باسم السامانيين عام ٣٣٢.

وتوفي نصر بن أحمد عام ٣٣١ وكان حليماً كريماً، عاقلاً، وقيل: إنه أخذ مبادئ الإسماعيلية، وراسل عبيد الله المهدي فدبّر القواد مؤامرة لاغتياله، وأدرك نصر الخطر فتنازل عن الحكم لابنه نوح غير أن هذا التصرف لم ينجه فقضي عليه عام ٣٣١.

عفا نوح بن نصر عن بعض الأمراء المخالفين له ليؤلّف بين القلوب، ووقع الخلاف بين البويهيين ونوح بن نصر فهُزم نوح، ثم جهز نفسه ثانيةً وتمكّن من استرداد الري ودخول الجبل أيضاً عام ٣٣٣.

القرامطة

استمر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي يعيث الفساد في المناطق التي يصل إليها وخاصةً طرق الحجّاج حتى عام ٣٢٦ حيث اختلف بعض القرامطة مع بعض إلا أن أبا طاهر قد استطاع الاحتفاظ بمركزه، وتخلّص من خصومه، وهذا الخلاف جعلهم يتمسكون في منطقتهم ويحافظون عليها، ويمكثون فيها مدةً، ويتركون الفساد في الأرض وقطع طرق الحجاج والقوافل، وقد لاحظنا أن حجاج بغداد تمكّنوا من الحج عام ٣٢٧ بعد حرمانهم مدةً من الزمن.

وكانت الدولة الأخيضرية في اليمامة شيعيةً وخضعت لسيطرة القرامطة أو أن الأخيضريين بقي نفوذهم قائماً وإن كان باسم القرامطة أو تحت إشرافهم، وذلك منذ أن بدأ طغيان أبي طاهر على المنطقة وحتى زوال القرامطة نهائياً في منتصف القرن الخامس أو حتى زوال الدولة الأخيضرية.

ومات أبو طاهر بن أبي سعيد الجنّابي عام ٣٣٢ فخلفه إخوته الثلاثة سعيد أبو القاسم، وأحمد أبو العباس، ويوسف أبو يعقوب، وكانت كلمتهم في البداية متفقةً، وبقي الحجر الأسود في هجر حتى عام ٣٣٩ حيث أعيد إلى مكانه في ذلك العام.

وفيها (٣٣٢) أقبلت طائفة من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان فقصدوا بردعة فحاصروها، فلما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم، وغنموا أموالهم، وسبوا من استحسنوا من نسائهم، ثم مالوا إلى المراغة، فوجدوا بها ثماراً كثيرةً، فأكلوا منها فأصابهم وباء شديد فمات أكثرهم، وكان إذا مات أحدهم دفنوا معه ثيابه وسلاحه، فأخذه المسلمون وأقبل إليهم

المرزبان بن محمد فقتل كثيراً منهم. وفي ربيع الأول منها جاء الدمستق ملك الروم إلى رأس العين في ثمانين ألفاً فدخلها، ونهب ما فيها، وقتل وسبى منهم نحواً من خمسة عشر ألفاً، فقصدته الأعراب من كل وجهٍ فقاتلوه قتالاً عظيماً حتى انجلى عنها[1].

* * *

(١) البداية والنهاية، ابن كثير.

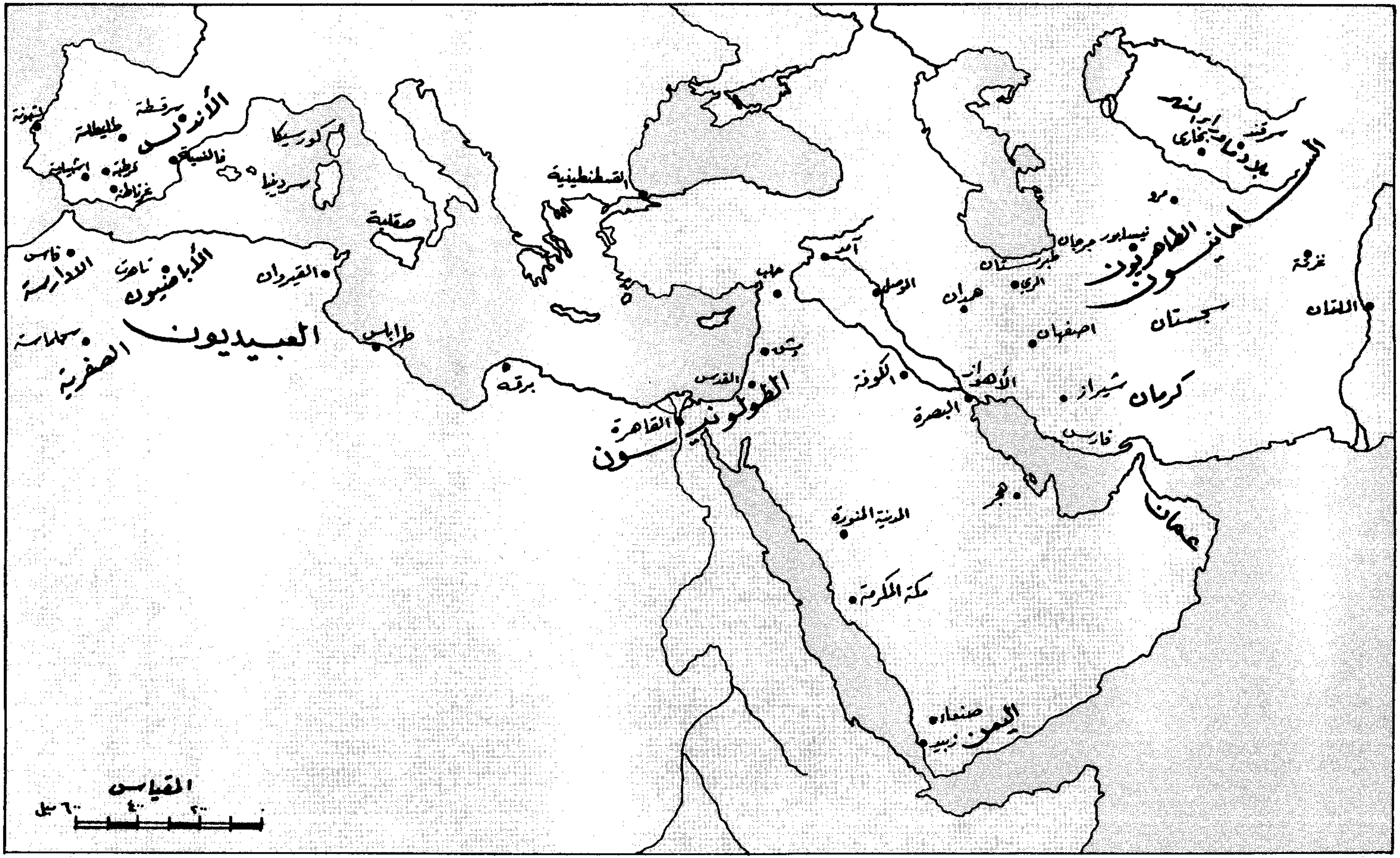

الأندلس
سرقسطة
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
بلنسية
كورسيكا
سردينيا
صقلية
القسطنطينية
فاس
الأدارسة
تاهرت
الأباضيون
القيروان
سجلماسة
الصفرية
العبيديون
طرابلس
برقة
القاهرة
الطولونيون
القدس
دمشق
حلب
آمد
الموصل
الكوفة
البصرة
الأهواز
همذان
الري
طبرستان
نيسابور
جرجان
مرو
بخارى
سمرقند
السامانيون
الطاهريون
غزنة
سجستان
اصفهان
شيراز
كرمان
فارس
الملتان
هجر
عمان
المدينة المنورة
مكة المكرمة
صنعاء
زبيد
اليمن
المقياس

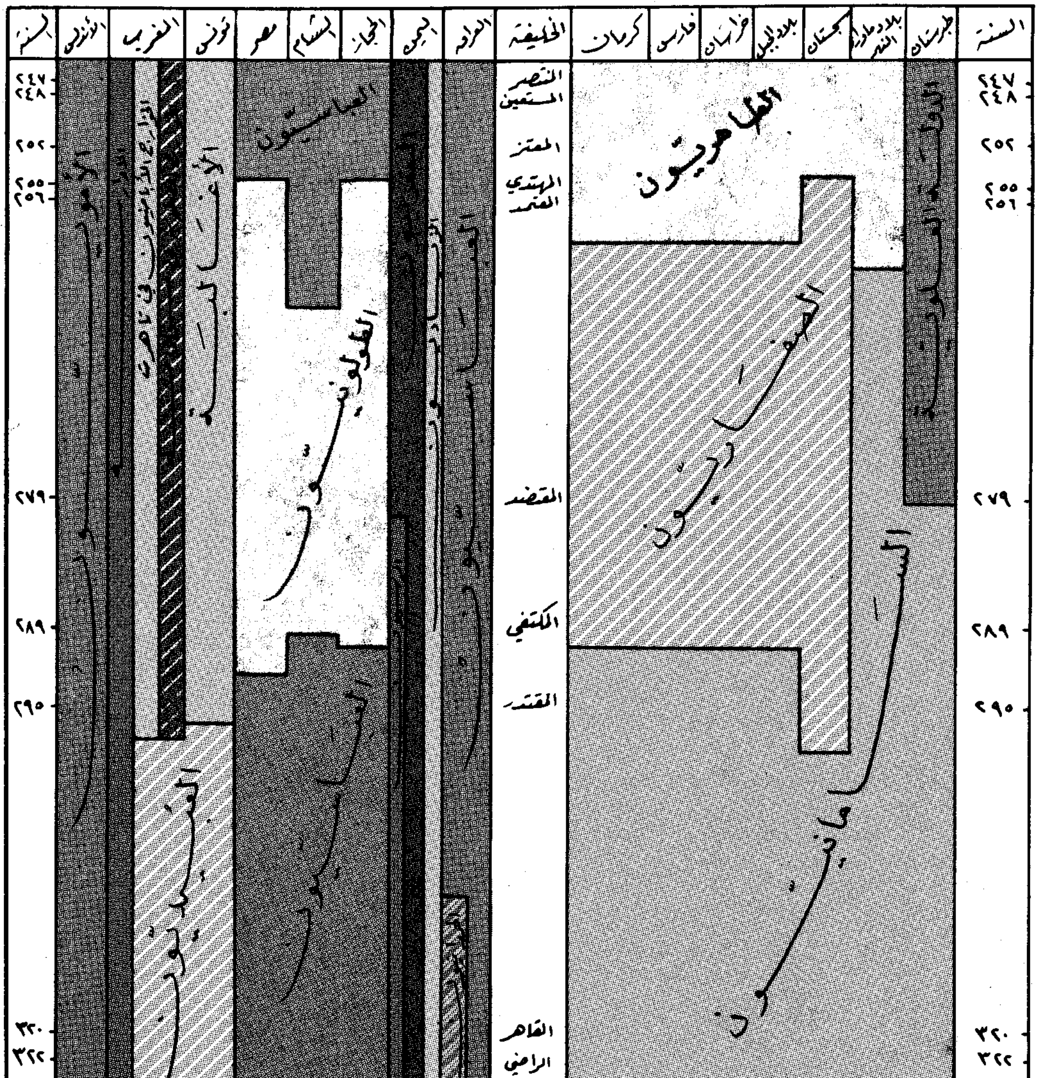

مخطط توضيحي للإمارات في عهد سيطرة القادة الأتراك على الدولة العباسية

الفصل الثاني

عصر السيطرة العسكرية البويهية

وتمتد هذه المرحلة من ٣٣٤ ـ ٤٤٧ أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، وتعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء فقط، إذ أن أيامهم قد طالت، فأقلهم حكم ثماني عشرة سنة، وهو الخليفة الطائع أي الثاني في هذه المرحلة، على حين وصلت أيام الخليفة القادر إلى إحدى وأربعين سنة، وهذه مدد طويلة بالنسبة إلى خلفاء يتعاقبون.

امتازت هذه المرحلة بسيطرة آل بويه الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس، وربما كان أحد ملوك فارس القدماء من أجدادهم، وسكنت هذه الأسرة بلاد الديلم فعرفوا كأنهم منهم، وكانوا من الرعية العاديين، وأول ما برز منهم أبو شجاع بويه، وكان من صيادي السمك في بحر الخزر، وكان له ثلاثة أولاد، هم: علي، وحسن، وأحمد، وقد دخلوا كجنود عاديين في جيش (ما كان بن كالي)، وأبدوا شيئاً من الشجاعة فأصبحوا في رتبة الأمراء، غير أن (ما كان بن كالي) لم يلبث أن اختلف مع (مرداويج بن زياد)، وانحاز أولاد بويه إلى مرداويج عندما رأوا أن قوته تميل إلى الرجحان، فأكرمهم (مرداويج) وولّى علي بن بويه بلاد الكرج، ثم غضب عليهم وأمر أخاه بصرفهم فصرف حسن وأحمد أما علي فلم يصرفه لما اشتهر من شجاعة ولما عرف عنه من كرم، إلا أن (مرداويج) قد قرر طرده، وأرسل له جيشاً فترك علي بلاد الكرج واتجه إلى أصفهان، وانتصر على المظفر بن ياقوت، وانضم إليه عدد من الديلم، وأصبح عدد جنوده سبعمائة، ثم سار إلى (اصطخر)، وانتصر على المظفر بن ياقوت، ودخل (شيراز) عام ٣٢٢، ثم حاول أن يتقرب ثانية إلى (مرداويج) الذي قتل عام ٣٢٣، وبقي علي بن بويه في

الميدان فدانت له بلاد فارس. أما أخوه الحسن الذي كان عند (مرداويج) رهينة لأخيه فقد استطاع بعد موت (مرداويج) أن يحتل الري، وأصفهان، وهمذان. وكذلك احتل أحمد بن بويه (كرمان)، ثم دعاه أخوه علي لمعاونته فترك (كرمان)، واحتل الأهواز عام ٣٢٦.

ساءت العلاقة بين الخليفة المتقي وتوزون فدعا الخليفة أحمد بن بويه لدخول بغداد، فاتجه نحوها غير أنه هزم أمام توزون عام ٣٣٢، وهكذا فقد أصبحت سلطة علي بن بويه تمتد من بلاد الكرج حتى الأهواز، ويسيطر أحمد على بلاد فارس الجنوبية، على حين أن شمال بلاد فارس تحت نفوذ أخيهما الحسن.

طلب قواد بغداد من أحمد بن بويه السير إليهم والاستيلاء على مدينتهم، فسار نحوهم واستقبله الخليفة المستكفي، وأكرمه ولقبه معز الدولة، كما لقّب أخاه علياً عماد الدولة، أما الحسن فقد لقّبه ركن الدولة. وهكذا أصبح لكلٍ من هؤلاء الإخوة الثلاثة منطقة يسيطر عليها ويتعاقب أبناؤه وأحفاده على حكمها.

لقد كانت أسرة آل بويه شيعيةً فبدرت منهم أعمال منكرة، ففي عام ٣٤١ ظهر قوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يدعي أنه جبريل، فضربوا، فتعززوا بالانتماء إلى أهل البيت، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لميله إلى أهل البيت، فكان هذا من أفعاله الملعونة[١].

وفي سنة إحدى وخمسين كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد لعنة معاوية، ولعنة من غضب فاطمة حقها من فدك، ومن منع أن يدفن مع جده، ولعنة من نفى أبا ذر، ثم إن ذلك محي في الليل، فأراد معز الدولة أن يعيده فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محي «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ» وصرحوا بلعنة معاوية فقط.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

وفي سنة اثنتين وخمسين يوم عاشوراء ألزم معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبيخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين، وهذا أول يوم نيح فيه عليه ببغداد، واستمرت هذه البدعة سنين.

وفي ثاني عشر ذي الحجة منها عمل عيد غدير خم، وضربت الدبادب[1].

وسيطر الشيعة على مناطق واسعة بل إن دولاً كثيرة قامت باسمهم سواءً أكانت شيعيةً حقيقةً أم ادعاءً، فالدولة العبيدية دانت لها المغرب ثم مصر وأجزاء من الشام في أوقاتٍ متفاوتةٍ، والدولة الحمدانية في الموصل والشام، والقرامطة الذين حكموا البحرين وخضعت لهم الإمارات في اليمامة وأجزاء من جزيرة العرب بل احتلوا دمشق، هذا بالإضافة إلى بني بويه الذي يحكمون العراق، وفارس، والري والجبل، والكرج، والأهواز، ثم هناك الدولة السامانية التي هي أقرب إلى الإسماعيلية هؤلاء جميعاً يدّعون الشيعة غير أن منهم الغلاة كالحمدانيين، ومنهم أقل غلواً مثل بني بويه، ومنهم أصحاب الأصول اليهودية كالعبيديين، ومن ينتمي إلى المجوس كالقرامطة ونتيجة هذه الأصول والأهداف المتباينة والمختلفة والتي تخفي وراءها أهدافاً سياسية ودينية تقصد منها هدم الإسلام من الداخل وتسلّم السلطة لتتمكن من التهديم بصورةٍ أوسع أو بشكلٍ مخططٍ له، فلو كانت صادقةً في دعواها وأهدافها واحدة لتمكنت من تحقيق مقصدها إذ لم يبق من أصحاب السلطة في الدولة الإسلامية الواسعة سوى مناطق ضيقة قليلة هم من أهل السنة، وهذه المناطق: هي الأندلس وإمارات صغيرة وضعيفة في بعض الأجزاء من جزيرة العرب والإمارة الغزنوية عندما قامت في شرق الدولة الإسلامية. ونتيجة التباين في المقاصد فقد وقعت الحروب بين هذه

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الجماعات فقد حاربت القرامطة العبيديين، وقاتل العبيديون الحمدانيين، وكان الحمدانيون وبنو بويه في صراع، ولم يكن السامانيون في منأى عن هذا الصراع. وقد حُفظ هذا الإسلام ـ ولله الحمد ـ بسبب هذا الخلاف بين هذه الفرق الضالة والمدعية كذباً وزوراً الانتساب إلى آل البيت أو العمل لهم أو السير على سنتهم، والله سبحانه وتعالى الذي تعهّد بحفظ هذا الدين وكتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1] فحفظه بايقاع الخلاف بينهم والتناحر بعضهم مع بعض.

كما تمتاز هذه المرحلة بكثرة الفتن التي أثارها الشيعة وهذا ما كان يؤدي بدورها إلى القتال المستمر بين السنة والشيعة وهذا بسبب تشيّع البويهيين وعددٍ من حكام الإمارات الثانية.

وأصبح في الخلافة سلطان أو ملك واحد أو أمير للأمراء من البويهيين بيده الأمر والنهي على حين كان في المرحلة السابقة أيام سيطرة الجنود الأتراك عدد من الأمراء القادة يتقاتل بعضهم مع بعض ويتباين هؤلاء الأمراء في أصولهم ومراتبهم، وصحيح أنه وقع الخلاف بين البويهيين ولكنهم كانوا من أسرة واحدةٍ اختلف أبناؤها بعضهم مع بعض.

وقد كان الخلفاء على درجة طيبةٍ من الاستقامة والتدين ولكنهم كانوا مغلوب على أمرهم، فالبويهيون بيدهم كل شيء، وقد وصل الناس إلى درجة من كراهية الشيعة بسبب تعصب الشيعة وخاصة البويهيين الذين يسيطرون على الخلفاء أنفسهم.

وأخيراً فإن الإمارات قد قل عددها في المغرب فلم يبق منها سوى الأمويين، والعبيديين الذين سيطروا على منطقةٍ واسعةٍ وحلّوا محل إماراتٍ متعددةٍ، أما في المشرق فقد كثرت الإمارات وزادت الدول وانتشرت على رقعات متباينة.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

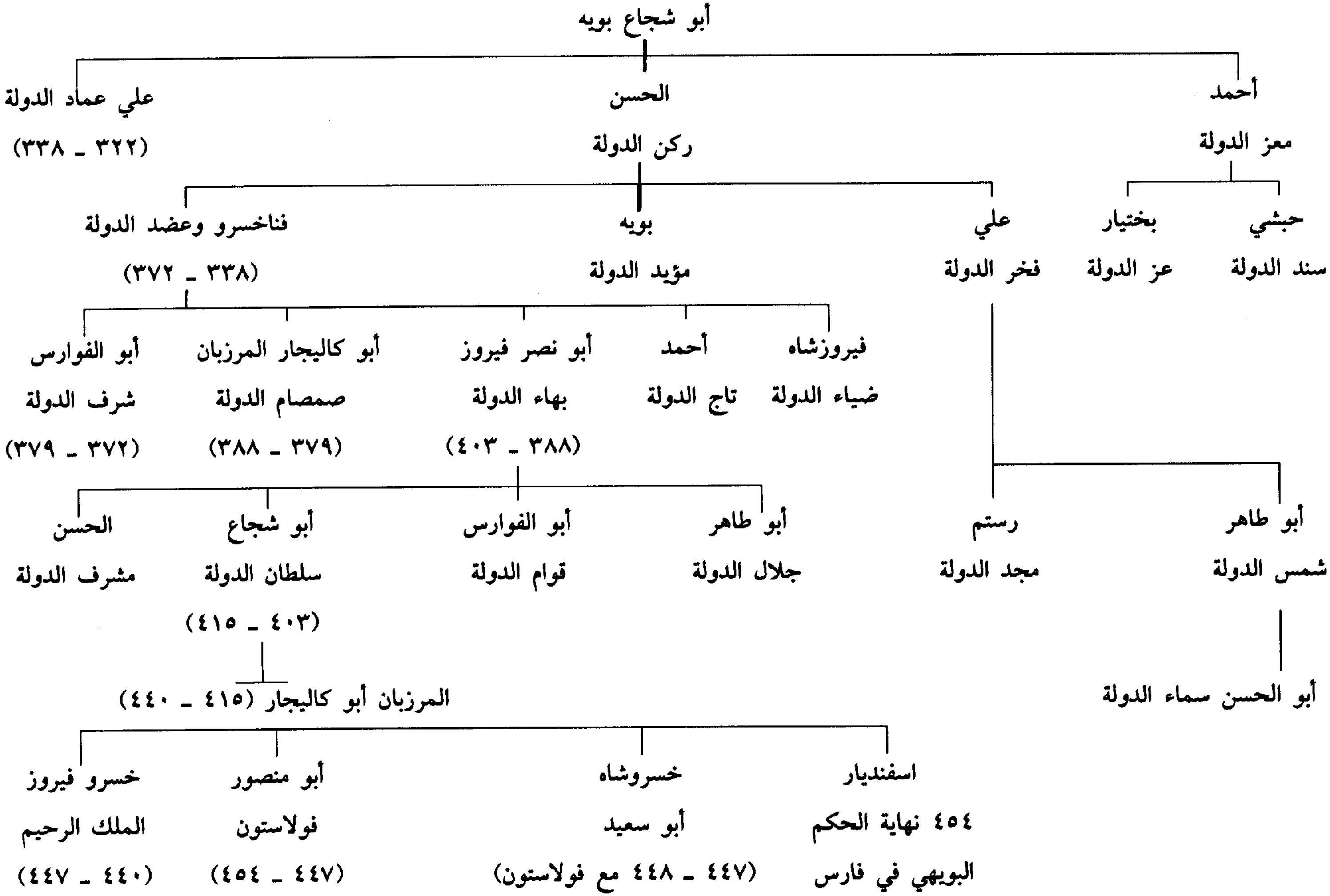
أبو شجاع بويه
أحمد
معز الدولة
حبشي
سند الدولة
بختيار
عز الدولة
الحسن
ركن الدولة
علي
فخر الدولة
أبو طاهر
شمس الدولة
أبو الحسن سماء الدولة
رستم
مجد الدولة
بويه
مؤيد الدولة
فناخسرو وعضد الدولة
(٣٣٨ ـ ٣٧٢)
علي عماد الدولة
(٣٢٢ ـ ٣٣٨)
فيروزشاه
ضياء الدولة
أحمد
تاج الدولة
أبو نصر فيروز
بهاء الدولة
(٣٨٨ ـ ٤٠٣)
أبو كاليجار المرزبان
صمصام الدولة
(٣٧٩ ـ ٣٨٨)
أبو الفوارس
شرف الدولة
(٣٧٢ ـ ٣٧٩)
أبو طاهر
جلال الدولة
أبو الفوارس
قوام الدولة
أبو شجاع
سلطان الدولة
(٤٠٣ ـ ٤١٥)
الحسن
مشرف الدولة
المرزبان أبو كاليجار (٤١٥ ـ ٤٤٠)
اسفنديار
٤٥٤ نهاية الحكم
البويهي في فارس
خسروشاه
أبو سعيد
(٤٤٧ ـ ٤٤٨ مع فولاستون)
أبو منصور
فولاستون
(٤٤٧ ـ ٤٥٤)
خسرو فيروز
الملك الرحيم
(٤٤٠ ـ ٤٤٧)

الخلفاء:

١ ـ المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٣
٢ ـ الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١
٣ ـ القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢
٤ ـ القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧

-٢٣-
المطيع لله
الفضل بن جعفر المقتدر
٣٣٤ - ٣٦٣

هو الفضل بن جعفر المقتدر، ولد عام ٣٠١، وأمه أم ولد تدعى «شغلة» يُكنّى أبا القاسم، كان مستخفياً من ابن عمّه المستكفي، وهو يطلبه، بويع بالخلافة بعده يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة من عام ٣٣٤، وأُحضر المستكفي عنده فسلّم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع، وازداد أمر الخلفاء إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيّعون ويُغالون في التشيّع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثّهم على الطاعة، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعةً من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي[1] أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفةٍ تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة

---

(١) يقصد العبيدي صاحب إفريقية ومصر.

ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك[1]. فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيا وطلب التفرّد بها، وتسلّم معز الدولة العراق بأسره ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته[2].

وخرج الخليفة المطيع لله مع معز الدولة لقتال ناصر الدولة الحمداني ووصلا إلى عكبرا، واستطاع ناصر الدولة أن ينتصر عليهما وأن يدخل بغداد فضعف أمر معز الدولة، ثم مكر بناصر الدولة فتغلب عليه، ثم تصالحاً وخرج ناصر الدولة إلى الموصل، وتمكّن معز الدولة في العراق فحجز على الخليفة وقرر له كل يوم مائة دينار نفقةً، غير أنه بعد عام أي سنة ٣٣٥ قد عاد فرفع عنه الحجز، وأعاده إلى دار الخلافة، وسارا معاً عام ٣٣٦ إلى البصرة حيث أخذاها من يد أبي القاسم البريدي.

وخرج في الكوفة عام ٣٥٣ المتبرقع وادعى أنه هاشمي، وكان معز الدولة يومئذٍ مشغولاً بقتال ناصر الدولة الحمداني في الموصل. وخرج ببلاد الديلم رجل اسمه أبو عبد الله محمد بن الحسين، وادعى أنه من نسل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وقد عظم شأنه في بلاد الديلم.

وأصيب المطيع لله بفالج عام ٣٦٣، وثقل لسانه فخلع نفسه، وتسلّم الأمر بعده ولده الطائع لله، ثم توفي المطيع في مطلع عام ٣٦٤ في شهر المحرم.

---

(١) قال صاحب التكملة: وعزم معز الدولة على أن يبايع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي فمنعه الصيمري من ذلك، وقال: إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك.

(٢) الكامل في التاريخ.

الرُّوم

كانت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٣٣٥ على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة الحمداني، وكان عدد أسرى المسلمين٢٤٨٠ أسيراً من ذكر وأنثى على حين كان عدد أسرى الروم ٢٢٥٠ أسيراً فاضطر سيف الدولة أن يدفع مقابل زيادة ما بيد الروم من أسرى وهو مائتان وثلاثون أسيراً.

وازدادت هجمات الروم في النصف الثاني من القرن الرابع، فقد أخذوا جزيرة اقريطش (كريت) من أيدي المسلمين عام ٣٥٠. وجاء ملك الروم، وملك الأرمن إلى جهات (طرسوس)، وحاصرا حاضرتها، ولكنهما عجزا عن اقتحامها، كما هاجم ملك الروم بجيش عظيم ثغر (المصيصة) وأخذها قسراً، ثم سار إلى طرسوس عام ٣٥٤، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وأجلاهم عن مدينتهم. وفي العام التالي اتجه الروم إلى (آمد) وحاصروها، ولم يتمكّنوا من دخولها، فساروا إلى نصيبين وكان سيف الدولة فيها. وسار الروم عام ٣٥٧ إلى مدينة إنطاكية وقتلوا وسبوا ورجعوا عنها غانمين، وبعد عامين تمكّنوا من دخول إنطاكية، وساروا إلى جهات حلب وصالحوا (قرعويه) مولى سيف الدولة.

وبدأ الروم بعد ذلك يتوغلون في أعماق بلاد المسلمين فقد تسلّلوا عام ٣٥٨ إلى مدينة حمص وأحرقوها، كما دخلوا مدينة طرابلس.

وهاجمت الروم الجزيرة وديار بكر، وقتلوا كثيراً من أهل (الرها)، ولم ينهض معز الدولة البويهي لقتالهم بل أنفق الأموال التي جمعت لسدّ الثغور على لهوه، فغضبت العامة عليه، وفي العام التالي أرسل معز الدولة

جيشاً لقتال الروم، وتمكّن هذا الجيش من إحراز النصر فسكتت حملة العامة عن معز الدولة.

وسار الروم عام ٣٤٢ إلى (آمد) ومعهم ملكهم، وقد حاصروا المدينة وعليها هزرمرد غلام أبي الهيجاء الحمداني فاستنجد بأبي تغلب بن ناصر الدولة فأرسل له أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، فنصرهم الله على الروم، وأسروا الدمستق ملك الأرمن والذي مات في السجن عام ٣٦٣.

وكانت أكثر الحروب مع الروم تحدث بينهم وبين الحمدانيين الذين كانت مهمة حماية الثغور قد آلت إليهم ووقعت على كاهلهم غير أن ضعفهم وتشيّعهم قد شجّع الروم فدخلوا حلب عدة مراتٍ ولكن قتالهم المستمر للروم أعداء المسلمين قد جعل المسلمين يثنون عليهم ويمدحون سيف الدولة حتى أصبح في نظر الناس بطلاً عظيماً وشجاعاً مغواراً وما هو كذلك، وإن مغالاته في التشيّع قد أغفلت وربما كانت سبباً في إهماله للثغور وهو ما شجّع الروم على المسلمين.

* * *

الإمارات

١ ـ البويهيون:

كان بنو بويه يُمثّلون إماراتٍ محليةٍ وإن كانوا يسيطرون على مقدّرات الخلافة في بغداد، وكانت إماراتهم متعددة إذ كان كبيرهم علي أبو الحسن عماد الدولة يحكم فارس وهو أمير الأمراء، ويحكم أخوه أحمد أبو الحسين معز الدولة باسمه العراق، والأهواز، وكرمان ونيابةً عنه، ويحكم أخوه الآخر أبو علي الحسن ركن الدولة الري، وهمذان، وأصبهان. وكان فيهم تعسف شديد، ومغالاة في التشيّع حتى كان عهدهم عصر صراع بين السنة والشيعة بشكلٍ واسعٍ، وتقوم مناحات الشيعة في عاشوراء بشكلٍ سيىءٍ، وبدعةٍ بشعةٍ.

مات عماد الدولة عام ٣٣٨، وقام ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع خسرو ابن ركن الدولة إذ لم يكن لعماد الدولة ولد مكانه. وتمكّن ركن الدولة من أخذ طبرستان، وجرجان من أمير الديلم (وشمكير) وضمّ هذه المناطق إلى إمارته، وأخذ معز الدولة بعد ذلك أمراً من الخليفة بولاية أخيه ركن الدولة على خراسان.

ومات معز الدولة عام ٣٥٦ وكان في عهده قد قوي شأن الأتراك، وقل شأن الديلم الذين انضموا إلى الذين ثاروا ضد معز الدولة، وقام بعده في بغداد ابنه بختيار وقد تلقب باسم عز الدولة، ويقال أن معز الدولة قد رجع إلى السنة والجماعة قبل موته[١]. وطمع منصور بن نوح الساماني في

(١) البداية والنهاية.

أملاك بني بويه لأن عز الدولة بختيار كان منصرفاً إلى اللهو والنساء والصيد غير أن ركن الدولة قد دعم ابن أخيه عز الدولة وردّ منصور بن نوح الذي مات في رحلة صيدٍ له بعد أن وقع عن ظهر جواده وبعد أن تصالح منصور بن نوح الساماني مع ركن الدولة بن بويه وابنه عضد الدولة على أن يحملا له كل عام مائة ألف دينار.

واختلف عز الدولة بختيار مع سُبُكْتُكين، وحاصر سبكتكين دار عز الدولة، وأخذ أهلها، وتغلب الأتراك على بني بويه، وكان عز الدولة في الأهواز ولم يستطع دخول بغداد وذلك عام ٣٦٣ فراسل عمه ركن الدولة فأرسل إليه أبا الفتح بن العميد كما استنجد بابن عمه عضد الدولة وكذلك راسل أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، فسار الأتراك ومعهم الخليفة الطائع لله وأبوه المطيع نحو واسط للقاء عز الدولة ولكن لم يلبث أن توفي المطيع لله المخلوع ثم توفي سبكتكين، فالتف الأتراك حول أمير منهم اسمه «افتكين» والتقوا مع عز الدولة بختيار الذي ضعف أمره وقوي أمر ابن عمه عضد الدولة فملك العراق.

٢ ـ الحمدانيون:

تقاتل ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل مع القائد «تكين» التركي، وقد وقعت عدة اشتباكات بينهما، وأخيراً تمكن ناصر الدولة من «تكين» واستقر له الأمر بالموصل والجزيرة في عام ٣٣٥.

عاد الخلاف بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني عام ٣٣٦ وتقدم معز الدولة نحو الموصل ففر ناصر الدولة إلى «نصيبين»، وعزم معز الدولة على أخذ كل ما يسيطر عليه الحمدانيون، ووقع ظلم من البويهيين على أهل الموصل فضاقوا ذرعاً بمعز الدولة، وساعدتهم الظروف إذ أن ركن الدولة قد استنجد بأخيه معز الدولة لقتال أهل خراسان، فاضطر معز الدولة أن يصالح ناصر الدولة الذي يغادر الموصل مقابل أن يدفع ناصر الدولة كل عام ثمانية آلاف درهم، وأن يدعو على المنابر لآل بويه: عماد الدولة، ومعز الدولة وركن الدولة.

وسار معز الدولة عام ٣٤٥ من بغداد إلى الأهواز للقضاء على بعض الحركات فيها فاستغل ناصر الدولة هذا الخروج ودخل بغداد، فلما انتهى معز الدولة البويهي من مهمته عاد إلى بغداد فرحل عنها الحمدانيون، غير أن ناصر الدولة قد امتنع عن دفع الأموال إلى معز الدولة الأمر الذي حمل معز الدولة إلى متابعة السير إلى الموصل وقتال ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة ووعده بأن يحمل الأموال إلى دار الخلافة في كل عام، ومع هذا التعهد فقد سار إليه معز الدولة في العام التالي ودخل الموصل فهرب ناصر الدولة إلى «نصيبين» فلاحقه معز الدولة، ففر إلى حلب حيث يستقل أخوه سيف الدولة، فراسل سيف الدولة الحمداني معز الدولة وأصلح بينه وبين أخيه وتعهد بأن يحمل ناصر الدولة إلى دار الخلافة في بغداد في كل عام مليونين وتسعمائة ألف درهم، كما تعهد أن يؤدي سيف الدولة ما على أخيه من أموال.

وعقد ناصر الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل، وديار ربيعة، والرحبة مقابل مال مقرر وذلك عام ٣٥٣، ثم اختلف ناصر الدولة مع ابنه أبي تغلب فسجن الولد أباه وظل في السجن حتى مات في شهر ربيع الأول من عام ٣٥٨، واختلف أبناء ناصر الدولة مع أخيهم أبي تغلب بعد وفاة أبيهم.

أما الحمدانيون في حلب فقد كان أميرهم سيف الدولة في صراعٍ دائم مع الروم بصفته كان أمير الثغور أو أن الثغور قد آلت إمرتها إليه لا بصفته مجاهداً أو بطلاً مغواراً إذ لم يكن كذلك كما تصفه كتب الأدب من خلال مدح المتنبي له حيث كان يطمع من ورائه الحصول على إمارة، فمديحه قول شاعرٍ طامعٍ صاحب غايةٍ أو أنهما يلتقيان على فكرةٍ واحدةٍ هي فكرة المغالاة في التشيّع حتى لتقترب من فكرة القرامطة. وكان سيف الدولة في المعارك في مؤخرة الجند لا أمامهم فينجو عند الهزيمة ويفخر عند النصر.

دخل سيف الدولة عام ٣٣٧ بجيشٍ كثيفٍ بلاد الروم غير أنه هزم، وأخذ الروم كل ما بأيدي هذا الجيش الحمداني، كما نال أهل طرطوس

أذى كثير من الروم، ولم يستطع سيف الدولة حماية أحد من رعاياه لما اتصف به من خوف وخور. وعاد سيف الدولة عام ٣٣٩ فدخل بلاد الروم بجيش عظيم فانتصر وأخذ عدداً كبيراً من الروم أسارى، غير أن الروم قد قطعوا عليه الطريق أثناء العودة فهزموه وأخذوا ما معه من الأسرى، وقتلوا أكثر من معه، ونجا سيف الدولة بنفرٍ يسيرٍ معه لأنه كان في مؤخرة الركب. وعاد سيف الدولة إلى بلاد الروم عام ٣٤٢ وتمكّن من إحراز النصر في هذه المرة، وفي العام التالي أغار على زبطرة، وملاطية وهي ثغور إسلامية استولى عليها الروم فقتل وأحرق وسبى، والتقى مع قسطنطين بن الدمستق فانتصر عليه، وقتل أعظم رجاله، ثم التقى بجيش الدمستق عند «مرعش» وتغلّب عليه وأسر صهر الدمستق وابن ابنته، وهذا ما شجعه فعاد إلى بلاد الروم عام ٣٤٥ فأحرز انتصاراً كبيراً وعاد إلى حلب غانماً، فثارت ثائرة الروم فجمعوا جموعهم وهاجموا بعض مدن المسلمين قتلوا وأحرقوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، كما ركبوا البحر إلى ميناء طرطوس فقتلوا من أهلها ثمانمائةٍ وألف، وسبوا عدداً آخر، وأحرقوا عدة قرى، وكانت هذه أعظم انتصارات سيف الدولة على الروم.

وفي عام ٣٤٨ دخل الروم «الرها» و «طرطوس» وقتلوا، وسبوا، وأخذوا الأموال، فقابل سيف الدولة بذلك بدخول بلاد الروم عام ٣٤٩ واستطاع من إحراز النصر، وفتح عدة حصون، وقطع الروم عليه طريق الرجعة فقتلوا أكثر جيشه ولم ينج إلا سيف الدولة مع ثلاثمائة فارس. وسار جيش عظيم من إنطاكية باتجاه طرطوس فخرج عليه كمين من الروم فقتلوهم عن بكرة أبيهم ولم يفلت منهم سوى أمير أنطاكية وبه جراحات، ومن جهةٍ ثانيةٍ دخل «نجا» غلام سيف الدولة بلاد الروم ورجع غانماً.

وفي عام ٣٥١ دخل الدمستق حلب، وسيطر على دار سيف الدولة وكانت بظاهر حلب، وأخذ ما فيها من أموال وأمتعة ونساء، وقتل كثيراً من أصحاب سيف الدولة أما الأمير سيف الدولة فقد فرّ من بيته ومن حاضرته بعد أن ترك نساءه لخصمه، وبقي جيش الدمستق في حلب تسعة أيام وقد

فعل الجند فيها كل ما هو سيء، وكان الروم قد دخلوا قبل ذلك عين زربة وهي أحد ثغور المسلمين المهمة، وأُسر أبو فراس الحمداني يومها وكان نائب مدينة منبج لابن عمه سيف الدولة. كما أغار الروم على ضواحي «طرطوس».

أعاد سيف الدولة بناء ثغر «عين زربة»، وأرسل غلامه «نجا» فدخل بلاد الروم، إلا أن «نجا» لم يلبث أن خلع طاعة مولاه، وتحصّن في مدينة «حران» ثم سار إلى أذربيجان، وساعده في التغلّب عليها «أبو الورد» أحد الأعراب في تلك المنطقة، فسار إليه سيف الدولة وتمكن من قتله.

وفي عام ٣٥٤ ثار أحد القرامطة واسمه «مروان» في مدينة حمص وامتلكها من سيف الدولة، فأرسل إليه سيف الدولة مولاه بدراً، فالتقيا في معركة أصيب فيها مروان بسهم مسموم مات نتيجة ذلك بعد عدة أيام، وفي الوقت نفسه فقد أسر بدر في هذه المعركة وقتله أصحاب مروان. وفي العام ٣٥٥ تمت المفاداة بين سيف الدولة والروم وكان من أسرى الحمدانيين أبو فراس الحمداني. ولم يلبث أن توفي سيف الدولة عام ٣٥٦ فخلفه ابنه سعد الدولة أبو المعالي فاصطدم مع خاله أبي فراس فقتله عام ٣٥٧ غير أن «قرعويه» مولى أبيه قد غلبه واستولى على حلب، وهرب أبو المعالي، ولكنه عاد فعبر نهر الفرات وسار إلى حماه فامتلكها، ثم اتجه إلى حمص، وأعاد بناء ما خربه الروم عندما أغاروا عليها عام ٣٥٨، وصانع «قرعويه» الروم عندما اشتد بأسهم، ثم تصالح «قرعويه» و «أبو المعالي» عام ٣٥٩، واستقر وضع أبو المعالي في حلب نسبياً. وامتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين[١].

٣ ـ السامانيون:

تولّى أمر السامانيين عام ٣٣١ نوح بن نصر، واختلف مع ركن الدولة

---

(١) البداية والنهاية.

البويهي على خراسان، وهزم أمامه إذا انضمت بعض فرقه إلى ركن الدولة غير أنه تمكن من استعادة ما فقد عام ٣٣٣، ولم يلبث أن خرج عليه أحد قادته وهو أبو علي بن محتاج وهذا ما أحدث الفوضى في البلاد، ولم يكتف الأمر على ذلك بل إن بعض قادته قد كاتبوا إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الساماني وكان قد انضم إلى ناصر الدولة الحمداني، فجاءهم فبايعوه واستطاع أن يستولي على نيسابور، ومرو، وبخارى عام ٣٣٥ بعد أن دعمه المتمرد أبو علي، فسار إليهما نوح بن نصر، واختلف أبو علي مع إبراهيم، فرأى إبراهيم أن يتفق مع ابن أخيه نوح على أن يتولى قيادة جيوش السامانيين، وأن يخلع نفسه من البيعة التي بايعه بها بعض الجند والأمراء، وتّم هذا غير أنه عاد فدعم ابن أخيه الآخر محمد بن نصر ضد أخيه نوح بن نصر وبايعه، وبسبب هذه الفوضى ضعف أمر السامانيين فاستولى البويهيون على الري وبلاد الجبل.

تصالح نوح بن نصر مع قائده المتمرد أبي علي فقوي أمره واسترد ما فقده في الري وبلاد الجبل، لكن ركن الدولة البويهي قد أثار القائد أبا علي ضد سيده عام ٣٣٩ غير أن هذا الجفاء لم يلبث أن زال وتصالح أبو علي مع أميره وتسلّم قيادة الجند، وأرغم ركن الدولة البويهي على دفع جزية سنوية لنوح بن نصر.

شكّ نوح بن نصر بقائده أبي علي فعزله من القيادة، فراسل ركن الدولة، وسار إليه في الري، وتدخل الخليفة في الأمر، وأقرّ ركن الدولة على الري بمساعدة معز الدولة البويهي أخي ركن الدولة وذلك عام ٣٤٣، وفي هذا العام توفي نوح بن نصر، وخلفه ابنه عبد الملك بن نوح فقلّد إمرة الجيوش إلى بكر بن مالك وأرسله إلى بخارى لإخراج أبي علي منها، وقد تمّ له ذلك إذ انضم بعض فرق أبي علي إلى بكر وهذا ما أجبر أبا علي إلى الفرار والالتجاء إلى ركن الدولة في الري، ومات عبد الملك بن نوح عام ٣٥٠ بعد أن وقع عن ظهر جواده، وخلفه أخوه أبو صالح منصور بن نوح فخرجت عليه «سجستان» ودامت الحرب بينهما مدة سبع سنوات.

وعادت الحرب بين ركن الدولة البويهي ومنصور بن نوح عام ٣٥٦ واستمرت حتى عام ٣٦١ حيث تمّ الصلح بينهما على أن يدفع ركن الدولة مائة ألف دينار ويدفع ابنه عضد الدولة مبلغ خمسين ألف دينار لمنصور بن نوح الساماني، وتزوج نوح بن منصور ابنة عضد الدولة. ومات منصور بن نوح عام ٣٦٦ وخلفه ابنه نوح بن منصور باسم نوح الثاني.

٤ ـ القرامطة:

أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة عام ٣٣٩ بعد أن بقي عندهم في هجر اثنتين وعشرين سنة، وبعد أن طلب الفاطميون منهم ذلك إذ أن الناس قد تحدّثوا كثيراً في هذا الأمر وما آل إليه حكم أكثر أجزاء الدولة الإسلامية من رفض وقرامطة وأنهم جميعاً يرضون عما قام به القرامطة فخاف الفاطميون أن ينقلب هذا إلى ثورةٍ عامةٍ ضد الرافضة في كل مكان.

سار القرامطة عام ٣٥٣ إلى طبريا ليأخذوها من يد الإخشيد، ولما رأوا عجزهم طلبوا النجدة من سيف الدولة بالحديد فأمدهم بذلك، وتمكنوا من دخول دمشق عام ٣٥٧.

وأُجلي القرامطة عن عمان عام ٣٥٥.

ورجع القرامطة إلى دمشق عام ٣٦٠ وكان أمرها قد آل إلى العبيديين فتمكنوا من دخولها وكان نائبها جعفر بن فلاح، وزعيم القرامطة يومذاك الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمده عز الدولة البويهي من بغداد بالسلاح. ثم ساروا إلى الرملة فأخذوها أيضاً، واتجهوا نحو القاهرة غير أنهم هزموا على أبوابها ورجعوا إلى الشام، وذلك أنهم لما ساروا إلى مصر كان معهم أمير العرب ببلاد الشام حسان بن الجراح الطائي، وقد ضعف المعز لدين الله العبيدي عن قتالهم فراسل حسان بن الجراح ووعده بمائة ألف دينار فانهزم عند اللقاء بمن معه وهزمت بذلك القرامطة، وساروا إلى الشام، فلاحقهم العبيديون وأخذوا منهم الشام.

٥ ـ الإخشيديون:

مات الإخشيد محمد بن طغج الفرغاني عام ٣٣٤، وكان شجاعاً مهيباً، وقام مكانه ولده أبو القاسم أنوجور، وكان صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فكان كافور يدبر له الأمر. اضطرب أمر الشام، وأخذ سيف الدولة الحمداني دمشق من أصحاب الإخشيد، فسار إليه كافور فأجلى سيف الدولة عن دمشق وتبعه إلى حلب بعد أن انتصر انتصاراً حاسماً في مرج عذراء قرب دمشق، وأخرجه من حلب أيضاً، ولما رجع كافور إلى مصر رجع سيف الدولة إلى حلب، وعقد صلح بعد ذلك بين الطرفين. وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على توليته الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرطوس. وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية[١]. وكان كافور يقدم لأنوجور سنوياً أربعمائة ألف دينار، ولما كبر أنوجور حدثت وحشة بينه وبين كافور بسبب استبداد الثاني بالأمر رغم أن السلطة باسم الأول.

توفي أنوجور وخلفه أخوه أبو الحسن علي بن الأخشيد، وبقي كافور صاحب السلطة الفعلي بل منع الناس من الاجتماع بأبي الحسن فبقي رهن قصره يأخذ راتبه إلى أن توفي عام ٣٥٥، وخلفه اسماً ابنه أحمد غير أن كافور قد حال دون تعيين هذا الأمير خلفاً لأبيه وبقيت مصر ما يقرب من شهر دون والٍ بصورة رسمية، وتمكن كافور من أن يستصدر كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده إمرة مصر، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي عام ٣٥٧. وفي هذه المدة التي تزيد على السنتين من ولاية كافور تعرّضت مصر والشام لغارات القرامطة من الشرق، وتعرضت أيضاً لغارات العبيديين من جهة الغرب، كما أغار ملك النوبة على مصر من جهة الجنوب.

---

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن.

وبعد أن توفي كافور اختار امراء الجيش أحمد بن علي أبي الحسن والياً، ولما كان صغيراً فقد عُيّن وصياً عليه والي الشام الحسن بن عبيد الله فاستبد بالأمر، ثم اضطر أن يعود إلى الشام، وجاء العبيديون فدخلوا مصر ثم الشام، وأسر الحسن بن عبيد الله ونقل إلى المغرب وبقي فيها حتى مات عام ٣٧١.

٦ ـ العبيديون:

مات أمير العبيديين أبو القاسم القائم نزار بن عبيد الله المهدي عام ٣٣٤ وتولى الإمر بعده ابنه المنصور أبو طاهر إسماعيل، وكان القائم شرّاً من أبيه، زنديقاً ملعوناً، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي: إلعنوا الغار وما حوى، وقتل خلقاً من العلماء[١]. ومات المنصور إسماعيل العبيدي عام ٣٤١، وولي الأمر بعده ابنه معد وتلقب بالمعز لدين الله، وكان المنصور حسن السيرة بعد أبيه أبطل المظالم فأحبه الناس[٢].

وبعد أن مات كافور الإخشيدي عام ٣٥٧ اختلّ النظام، وقلّت الأموال على الجند فكتب جماعة من مصر إلى المعز يطلبون منه عسكراً ليسلّموا إليه البلد، وكان القرامطة قد قصدوا مصر ليملكوها، فأرسل المعز قائده جوهر الصقلي في مائة ألف فارس فملك مصر، واختط القاهرة وبنى دار الإمارة، وقطع الخطبة لبني العباس، ومنع لباس السواد، وأمر الخطباء أن يلبسوا البياض، وأن يقال في الخطبة: اللهم صليّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، وصلي على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز بالله وذلك في شهر شعبان من عام ٣٥٨. وفي شهر ربيع الثاني من عام ٣٥٩ أمر أن يقال في الأذان بدعة «حي على خير العمل»، وشرع في بناء الجامع الأزهر. ثم دخل دمشق وتولّى أمرها عن المعز جعفر بن فلاح، وأضيف

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) المصدر السابق.

إلى الأذان البدعة المعروفة أيضاً «حي على خير العمل» عام ٣٦٠، وانتقل المعز إلى مصر في شهر رمضان من عام ٣٦٢. وإن ما فعله الفاطميون في دمشق من قتل، وحرائق، وفتن قد جعل خطباءها يلعنون العبيديين على المنابر بل طلب أهلها النجدة من القرامطة وهم على سوئهم أيضاً، ظنوا بأن يكونوا أقل سوءاً من العبيديين وكذا فعلوا بطبريا بعد أن قضوا على أميرها من قبل الإخشيديين وهو فاتك، وكذا بالرملة عندما انتصروا على الوصي، وأمير الرملة الحسن بن عبيد الله بن طغج.

لما أرسل جوهر الصقلي قائد العبيديين خبر انتصاراته إلى سيّده وتوسّل له بالقدوم إلى مصر، غادر المعز حاضرته «المنصورية»[1]، واستخلف على إفريقية شيخ صنهاجة «بلكين بن زيري بن مناد» ومرّ على جزيرة سردينيا التي خضعت هي وصقلية لنفوذه، ومنها سار إلى القاهرة، حيث غدت حاضرةً له فقلّت بذلك سطوته على المغرب فاستقلّ واليه «بلكين بن زيري» في منطقة تونس عام ٣٦٢، وأسس الدولة الزيرية وإن بقي يدعو للمعز. وبوجود الخليفة العبيدي في القاهرة أفل نجم بانيها جوهر الصقلي غير أن اشتداد ضغط القرامطة، وزيادة نفوذ الأتراك قد أجبر الخليفة العبيدي على إعادة جوهر إلى قيادة الجيوش، وتوفي المعز لله عام ٣٦٥، وخلفه ابنه نزار أبو منصور الملقب العزيز بالله، ودعي للعبيديين بالحرمين عام ٣٦٣.

ومن قبل قام الخوارج بثوراتٍ على العبيديين في المغرب، الأباضيون، والصفريون على حدٍ سواء، ولكن لم يكتب لهذه الثورات النجاح، فمذ عجز أبو يزيد مخلد بن كيداد الأباضي عن دخول المهدية

---

(١) المنصورية: مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية، استحدثها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب عام ٣٣٧، وعمّر أسواقها، واستوطنها، ثم صارت منزلاً للملوك الذين لهم والذين زعموا أنهم علويون، وملكوا مصر، ولم تزل منزلاً لملوك إفريقية من بني باديس حتى خربتها العرب لما دخلت إفريقية وخربت بلادها بعيد سنة ٤٤٢ فكانت هي فيما خربت في ذلك الوقت.

انقسمت جيوشه إلى فرقٍ مختلفة الهوى متباينة الرأي، وهذا ما جعل الهزيمة تحلّ به أمام المنصور عام ٣٣٥، ثم وقع أسيراً وهو مثخن بالجراح بعد أن توالت عليه الهزائم، ومات في السجن عام ٣٣٦ متأثراً بجراحه. وحاول الفضل بن أبي يزيد القيام بحركة بعد وفاة أبيه ضد المنصور العبيدي غير أنه هُزم وقُتل، وحاول أخوه أيوب بن أبي يزيد زعامة ثورة إلا أنه هُزم واغتيل على يد أحد رؤساء قبيلة «مغراوة» وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي.

واستغل محمد بن الفتح بن ميمون الملقب باسم الشاكر لله قيام الأباضيين بحركتهم بإمرة أبي يزيد وانشغال العبيديين بالقضاء عليها فقام يقود الصفرية لقتال العبيديين، وعندما آل أمر العبيديين إلى المعز لله عام ٣٤١ أثار قبيلة كتامة للقيام بمهمة قتال الشاكر لله لكنها تثاقلت بحجة بُعد الشقة وصعوبة الطريق، وهذا ما زاد من كثرة المتمردين في المغرب على الحكم العبيدي الأمر الذي جعل المعز لله يُعدْ حملةً كبيرةً تعيد للحكم هيبته في المغرب وقد أوكل إمرتها إلى جوهر الصقلي. سارت الحملة إلى سلجماسة وحاصرتها مدة ثلاثة أشهر، وحاول قائدها جوهر أن يعطي الأمان لسكان المدينة مقابل تسليمهم الشاكر لله فلم يفلح، وتمكن الشاكر لله أن يفرّ من المدينة وأن يلتجئ إلى أحد الحصون القريبة منها، ودخل بعدها جوهر سجلماسة وأصدر عفواً عاماً عن السكان، وبعد مدةٍ تسلّل الشاكر لله إلى المدينة لقتال خصومه داخلها، فقُبض عليه، وأخذ أسيراً إلى القيروان، وبقي في سجنه حتى توفي عام ٣٥٤، وعيّن جوهر والياً من قبله على سجلماسة، وعاد هو إلى المنصورية، وما أن غادر جوهر سجلماسة حتى ثارت الصفرية على الوالي العبيدي، وقتلته، ونصبّت عليها أحد أبناء الشاكر لله أميراً ولقبته المنتصر لله، وحتى لا تعود الحرب كتبت الصفرية إلى المعز لله أنهم على الطاعة، وهو بدوره حرصاً على السلامة وعدم تجدد الثورة فقد وافق على تعيين الوالي الذي تّم اختياره من قبلهم وهو المنتصر لله، ودعاهم لزيارته في المنصورية فساروا إليه فاستقبلهم وعفا

عنهم وأيّد اختيارهم الأمير وقدم لهم الهدايا وعادوا أدراجهم، غير أنه لم يلبث ابن الشاكر لله الآخر وهو أبو محمد أن ثار على أخيه وقتله وخلع طاعة العبيديين وذلك عام ٣٥٢ وتلقب باسم المعتز، وانتهى نفوذ العبيديين نهائياً من سجلماسة منذ ذلك الوقت.

وجاءت أعداد كبيرة من الروم والفرنجة عام ٣٥٣ ويزيد عددهم على مائة ألف يريدون صقلية فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم ففروا بعد أن فقدوا الكثير منهم فلاحقهم المسلمون في المراكب فأغرقوا عدداً من سفنهم وأسروا عدداً آخر ممن فر.

٧ ـ الأمويون:

كان عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي في الأندلس، وقد بنى مدينة «سالم» عام ٣٣٥ وتقع شمال شرقي مدريد بمائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً، كما بنى مدينة «المرية» على ساحل البحر المتوسط لتكون قاعدةً للأسطول الأندلسي عام ٣٤٤. وحدث في هذا العام قتال بين عبد الرحمن الناصر الأموي والمعز لدين الله العبيدي.

وتوفي عبد الرحمن الناصر عام ٣٥٠ بعد أن وطد أركان البلاد وخلفه ابنه الحكم الثاني الذي تلقّب باسم المستنصر بالله، واستمرت أيامه حتى عام ٣٦٦، وكانت أيامه هادئةً، والبلاد مستقرةً على أسسٍ ثابتةٍ، ازدهرت فيها العلوم، ونعمت بالعمران، وقد أعدّ عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم إعداداً جيداً وهيأه لتسلّم أمور الأندلس، وكان الحكم ميّالاً للسلم فاستغل النصارى في الشمال هذه النقطة، وظنّوا فيه ضعفاً، فبدأوا بالهجوم على أطراف البلاد فجّهز جيشاً قوياً قاده بنفسه لتأديب النصارى فردّهم على أعقابهم خاسرين، وأمّن حدود بلاده.

هاجم النورمان في عهده الأندلس، وهم من شمالي أوروبا ولا يزالون على الوثنية وأطلق عليهم اسم المجوس، وأغاروا على عدة مناطق، وقد

استقر بعضهم في شمال غربي فرنسا بعد الغارة على تلك الجهات وأخذت اسمهم (نورماندي)، وتشير المصادر إلى أن أصلهم من جهات الدانمارك، وأقام بعضهم في جنوبي إيطاليا، واستعملتهم الكنيسة للهجوم على المسلمين فدخلوا صقلية فيما بعد.

تعرّضت سواحل بحر الغرب (المحيط الأطلسي) لغارات هؤلاء النورمان المجوس وقد تركّزت غاراتهم على منطقة لشبونة وذلك في عام ٣٥٥ وعام ٣٦١، كما تعرضت السواحل الشرقية سواحل البحر المتوسط لهجمات المغيرين أنفسهم وذلك في عام ٣٥٤ وعام ٣٦٠ وتركّزت غاراتهم على مرفأ (المرية).

ويمكن أن نقول في هذا المجال: إن المسلمين قد أسسوا لهم دولةً في شمال مرسيليا امتدت من ساحل البحر إلى سويسرة وشملت شمالي إيطاليا وجنوب شرقي فرنسا وجزءاً من سويسرا، وعرفت باسم دولة جبل القلال، ودامت أيامها من عام ٢٧٧ إلى عام ٣٦٥، وظن الأوربيون أن هذه ذات صلة بالمسلمين في الأندلس لذا فقد انطلقت سفاراتهم إلى قرطبة لبحث شأن هذه الدولة، ولم يكن لأهل الأندلس علاقة بها.

٨ ـ اليمن:

قامت في اليمن عدة دولٍ منها في هذه المرحلة دولة بني زياد في زبيد، ودولة بني يعفر في صنعاء، ودولة بني الرسّ في صعدة، وهم الأئمة الزيود، وكان الإمام في هذه المدة المنصور يحيى ودام حكمه من عام ٣٢٥ إلى عام ٣٦٦.

-٢٤-

الطائع لله

عبد الكريم بن الفضل المطيع

٣٦٣-٣٨١

هو عبد الكريم بن الفضل المطيع، أبو بكر، ولد عام ٣٢٠[١]، وأمه أم ولد تدعى «هزار»[٢]. تنازل له أبوه المطيع عن الخلافة عام ٣٦٣ فكان عمره ثلاثةً وأربعين عاماً، فركب وعليه البردة ومعه الجيش، وسار بين يديه سبكتكين، وفي اليوم التالي خلع على سبكتكين، وعقد له اللواء، ولقّبه نصر الدولة.

كان شديد الانحراف إلى الطالبيين، سقطت هيبة الخلافة في أيامه جداً حتى هجاه الشعراء، إذ كان يخرج لاستقبال عضد الدولة على غير عادة الخلفاء.

وقبض بهاء الدولة البويهي عام ٣٨١ على الخليفة الطائع لله، وانطلق الناس ينهبون ويسرقون، وكتب بهاء الدولة كتاباً على الخليفة يخلع فيه نفسه، وأشهد عليه، وأعطيت الخلافة من بعده للقادر بالله، وبقي الطائع لله عند الخليفة الجديد حتى توفي عام ٣٩٣ ليلة عيد الفطر، وقد صلّى عليه الخليفة.

كان أبيض مربوعاً، حسن الجسم، وكان أنفه كبيراً. وكان شديد القوة كثير الإقدام.

---

(١) وقيل: إن مولده كان سنة ٣١٧.

(٢) وذكر أن اسم أمه «عتب».

الرّوم

لما مات ملك الروم أرمانوس خلّف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان يوم موته نقفور (الدمستق) يغير على بلاد المسلمين فلما رجع وعلم بموت أرمانوس طمع بالحكم وسوَّل له بعض القادة ذلك إذ لا يصلح الطفلان الصغيران لهذه المهمة الكبير، فتزوج من أمهما وتسلّم أمر السلطة، غير أنه قد حصلت جفوة بينه وبين أم الملكين زوجته فراسلت (ابن الشمشقيق) وحسّنت له أمر قتل نقفور والقيام بالأمر مكانه ففعل وتمّ له الوضع فقبض على أخي نقفور وهو (لاون) وعلى ابنه (ورديس) وسجنهما، ثم قام بالغارة على بلاد المسلمين، وبلغ طرابلس.

تمكّن خال الملكين الصغيرين أن يسقي (ابن الشمشقيق) السمّ ومات، وعظم أمر الملكين الصغيرين، غير أن (ورد بن منير) أحد عظماء البطارقة قد طمع بالحكم وأراد أن يستعين بالحمدانيين في تحقيق أمره فراسل أبا تغلب الحمداني فوعده بالدعم، فجمع (ورد) جموعه وبدأ من قرب الثغور واتجه إلى الروم، فسيّر له الملكان الصغيران جيشاً إثر جيش فكان (ورد) ينتصر في قتاله ويتابع سيره فلما اقترب من القسطنطينية خاف الملكان الصغيران عاقبة الأمر فأخرجا ورديس بن لاون من السجن وقدماه على الجيوش فهزم خصمه، وفرّ (ورد) إلى بلاد المسلمين وراسل عضد الدولة غير أن الملكين قد راسلا أيضاً عضد الدولة الذي رأى أن يأخذ جانب الصغيرين فقبض على (ورد) وسجنه عام ٣٦٩، وبقي ورد في سجن المسلمين حتى عام ٣٧٥ حيث أطلق سراحه صمصام الدولة بشرط أن يطلق عدداً من أسرى المسلمين، وأن يسلم له سبعة حصون من بلاد الروم برساتيقها، وألا يقصد بلاد المسلمين ما دام حياً لا هو ولا أحد من أصحابه، فرجع إلى بلاد الروم، ولم يتمكن من الحكم وإن حصل على جزءٍ سيطر عليه.

الإمارات

١ ـ البويهيون:

وقع خلاف بين عز الدولة بختيار وبين نصر الدولة سبكتكين فدعم الأتراك نصر الدولة ووقعت حروب بين الطرفين، واضطر عز الدولة أن يستنجد بعمه ركن الدولة وبابن عمه عضد الدولة، وكان من قبل لا يستشير عمه إذ ترك الاستشارة، ويناوئ ابن عمه عضد الدولة، ولكن عندما اشتدت الأمور عليه لم يجد بُدّاً من الاستشارة وطلب النجدة، كما طلب دعم أبي تغلب بن حمدان.

وجاء عضد الدولة لدعم ابن عمه عز الدولة عام ٣٦٤ ودخل بغداد وطاب له المقام فيها فملكها واستمال الجند إليه فشغبوا على عز الدولة الذي لم يجد بُدّاً من أن يلزم بيته ويغلق بابه. وكتب عضد الدولة إلى الأمصار على لسان الخليفة باستقرار الوضع لعضد الدولة.

وقعت جفوة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة الأمر الذي استدعى أن يقطع عضد الدولة الخطبة عن الطائع مدةً تزيد على الشهر والنصف.

ولما اعتزل عز الدولة بختيار الملك كتب ابنه المرزبان من البصرة وكان والياً عليها من قبل أبيه كتب إلى عمّ أبيه ركن الدولة يشكو له ما حلّ بأبيه وأعمامه من عضد الدولة ووزيره أبي الفتح بن العميد، فأجابه بدعم والده وحتى السير إلى العراق إذا اقتضى الأمر وإخراج عضد الدولة منها.

واضطربت أحوال العراق على عضد الدولة إذ خلع طاعته المرزبان بن عز الدولة في البصرة، كما خلع الطاعة كل من محمد بن بقية في واسط،

وسهل بن بشر في الأهواز، وكل يظهر الأسف لما حلّ بعزّ الدولة، ولما سار عضد الدولة لتأديب محمد بن بقية في واسط هزمت جيوشه أمام جند ابن بقية. وحاول عضد الدولة كسب والده ركن الدولة إلى جانبه وعدم دعمه لعز الدولة بإظهار ضعفه والخوف من ذهاب الملك من الأسرة نهائياً نتيجة هذا الضعف غير أن الأب قد بقي بجانب ابن أخيه وأصرّ على ولده بترك بغداد لابن عمه، فاضطر عضد الدولة إلى مغادرة بغداد والانتقال إلى فارس وترك الأمر لابن عمه عز الدولة على أن يكون نائباً له كما ترك معه أخاه أبا إسحاق يعاونه. وأرسل عضد الدولة إلى عُمان المطهر بن عبد الله فاستولى عليها، وخلت كرمان من جند البويهيين فخلع أهلها الطاعة فأمر عضد الدولة أن يسير إليهم المطهر بن عبد الله فسار إليهم وأخضعهم.

وتنازل ركن الدولة عمّا تحت يده لأولاده فأخذ عضد الدولة فارس وكرمان، وأخذ مؤيد الدولة الري وأصبهان، وأخذ فخر الدولة همدان والدينور وبعدها بقليل توفي ركن الدولة[1] عام ٣٦٦.

ولما مات ركن الدولة تجهز ابنه عضد الدولة للسير إلى العراق لما كان يبلغه عن ابن عمه عز الدولة من التحريض عليه، ثم سار عام ٣٦٧، وأرسل إلى عز الدولة يدعوه إلى طاعته، وأن يسير إلى أي جهةٍ يريدها مبتعداً عن العراق فوافق وعزم السير إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة الحمداني، فلما قطعا شوطاً في السير ووصلا إلى (عكبرا) اقترح حمدان على عزّ الدولة المسير إلى الموصل وأخذها فهي أفضل من الشام فوافقه.

---

(١) كان ركن الدولة حليماً كريماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجباً إلا فيما لا بدّ منه، وكان يحامي عن أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام. (الكامل).

وتبعهما عضد الدولة يريد الموصل وتخليصها من أبي تغلب الحمداني، فراسل أبو تغلب عزّ الدولة بأن يسلمه أخاه حمدان فإن فعل قاتل معه عضد الدولة وأعاده إلى بغداد ليملكها ففعل عز الدولة ذلك، فسجن أبو تغلب أخاه حمدان في قلعة وسار إلى عزّ الدولة فالتقيا في (الحديثة) وعلم بذلك عضد الدولة فسار إليهما فالتقى الجمعان بالقرب من (تكريت) فانتصر عضد الدولة وأخذ ابن عمه عزّ الدولة أسيراً وقتله، واستقر له ملك العراق، وسار إلى الموصل فملكها وهرب أبو تغلب إلى (نصيبين)، واستمر عضد الدولة يلاحق أبا تغلب الذي ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى دمشق ولم يتمكن من دخولها فاتجه نحو طبريا فقتل هناك. وبقي عضد الدولة[1] في ملكه حتى توفي عام ٣٧٢ بعد أن ملك بلاد أخيه فخر الدولة الذي كان مناوئاً له، كما استولى على جرجان، وقام بعده ابنه المرزبان أبو كاليجار وتلقب صمصام الدولة.

وتوفي مؤيد الدولة بن ركن الدولة عام ٣٧٣ فبعث أبو القاسم بن عباد الوزير إلى فخر الدولة فولاه الملك وقد تصالح بعدها فخر الدولة مع صمصام الدولة.

واختلف شرف الدولة بن ركن الدولة مع أخيه صمصام الدولة ووقع القتال بين الطرفين وانتصر شرف الدولة ودخل بغداد وملكها عام ٣٧٦ وسجن أخاه صمصام الدولة في بعض قلاع فارس، واختلف شرف الدولة مع عمه فخر الدولة.

---

(١) عضد الدولة: خسرو أبو شجاع بن ركن الدولة، وهو أول من تسمى شاهنشاه أي ملك الملوك. كان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا، وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم ويعارضهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب. وعمل المصالح في سائر البلاد كالمستشفيات والقناطر غير أنه فرض الضرائب الجائرة في أواخر حياته.

وتوفي شرف الدولة عام ٣٧٩ وتولى الملك بعده أخوه أبو نصر الذي تلقب باسم بهاء الدولة وضياء الملة. ولم يلبث صمصام الدولة أن فرّ من سجنه وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة ثم تصالحا على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس ولبهاء الدولة العراق والأهواز، ثم عاد الخلاف فدبّ بينهما من جديد.

٢ ـ الحمدانيون:

رجع أبو المعالي إلى حلب بعد أن كان قد ملكها مولى أبيه تغلب قرعويه، وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بحمص فكاتبه أهل حلب فجاء إليهم وحاصر المدينة أربعة أشهر ثم دخلها عام ٣٦٦، ولكن تحصّن بقلعتها نكجور، وامتنع عن أبي المعالي، ثم تصالح معه على أن يُعطى نكجور الأمان ونيابة حمص فأُعطي ذلك وانتقل بعدها إلى نيابة دمشق للعبيديين ثم اختلف معهم فعاد إلى حمص والياً لأبي المعالي.

ولما تغلب عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة سار فأخذ الموصل من أبي تغلب الحمداني وديار بكر وربيعة وتسلّط على أبي المعالي بن سيف الدولة في حلب. ثم قُتل أبو تغلب الحمداني في طبريا بعد أن حاصر دمشق وعجز عن دخولها، وقد أنهكته كثرة الحروب وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني وزوجته ابنة سيف الدولة أخت أبي المعالي فحمل بنو عقيل ركبه إلى حلب فأخذ أبو المعالي أخته وسيّر جميلة الحمدانية إلى أبي الوفا في الموصل نائب عضد الدولة فسيّرها أبو الوفا بدوره إلى عضد الدولة فسجنها عنده.

وعاد سعد الدولة أبو المعالي فاختلف مع واليه نكجور نائب حمص الذي طلب مساعدة العبيديين فطلب أبو المعالي دعم الروم ووقعت الحرب وانتصر أبو المعالي، وتوفي سعد الدولة عام ٣٨١.

واستعاد أبو طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة وأخوه أبو عبد الله الحسين عام ٣٧٩ نفوذهما في الموصل لمدة سنة واحدة.

٣ ـ السامانيون:

توفي منصور بن نوح عام ٣٦٦ وقام بعده ولده أبو القاسم نوح بن منصور وتلقب بالمنصور، وكان صغيراً إذ لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، فاستغل هذه السن قائد الجيش الساماني في خراسان واستقل بما تحت يده، وقامت الحرب بين نوح بن منصور الساماني وعضد الدولة البويهي الذي استولى على جرجان، وإن هزيمة السامانيين هذه قد جعلت بعض أفراد البيت الساماني يقومون بالثورة. وبالجملة فإن أيام هذا الأمير قد طالت حتى عام ٣٨٧ إلا أنها كانت مليئةً بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سن الأمير، كما كثر تدخل أمه في شؤون الحكم، وكذلك الوزراء الذين لم يقل تدخلهم عن تدخل أمه، وقد طمع بنو بويه في بلاده وكذلك طمع الأتراك، وقامت فوق كل ذلك المنافسة بين أمراء البيت الساماني نفسه.

٤ ـ الغزنويون:

كان أحد الموالي الأتراك المقدمين عند السامانيين يدعى البتكين، وقد عين والياً على مدينة (هراة) ثم عزل عن منصبه فانتقل إلى مدينة (غزنه) التي كان والده والياً عليها من قبل السامانيين أيضاً، فلما توفي حل محله في حكمها وناوأ السامانيين الذين أبعدوه عن حكم هراة ولكنه توفي بعد عام أي ٣٥٣، وقام ابنه إسحاق في غزنه بالدور نفسه غير أنه لم يستطع توسعة رقعة نفوذه، وتوفي عام ٣٥٥، وقام من بعده مواليه ومنهم سبكتكين الذي آل إليه الأمر عام ٣٦٦ إذ قدمه الجند (لما عرفوا من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولّوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة»[1]، وهو زوج ابنة البتكين.

بدأ سبكتكين بتوسعة رقعة أملاكه فاستولى على (قصدار) قرب غزنة

---

(١) الكامل في التاريخ.

وعلى (بست) بين هراة وسجستان، كما ساعد السامانيين فأخذ ولاية خراسان، وكذلك استولى على جزء من الهند فأخذ بعض المواقع الجبلية منها حيث مدينة كابل. وكان سبكتكين يعترف بسلطة السامانيين عليه رغم استقلاله.

٥ ـ القرامطة:

عندما حدثت فتنة الأتراك في بغداد وهزم سبكتكين ثم توفي، فرّ الفتكين في جماعة من أصحابه وسار نحو حمص، واتجه إليه ظالم بن موهوب العقيلي نائب دمشق للعبيديين ليأخذه فلم يتمكن فعاد، وسار الفتكين إلى دمشق فدخلها برأي كبارها، وقد وعدوه بالطاعة ووعدهم بالحماية، وأخرج نائب دمشق للعبيديين ريان الخادم، وقطع الخطبة للمعزّ وخطب للطائع، ثم راسل المعز ليداريه، فشكره وأظهر سروره وطلب منه القدوم إليه على أن يعيده إلى دمشق والياً عليها من قبله، غير أن (الفتكين) لم يثق بالمعز فلم يقبل، فجمع المعزّ جنده، ورغب في السير إلى دمشق لكن المنية أدركته دون تحقيق مأربه فاستغل (الفتكين) موت المعز وأغار على مدن الساحل الشامي التي تتبع العبيديين مثل صيدا التي كان فيها ظالم بن موهوب العقيلي.

سمع العزيز بالله العبيدي بما يفعله (الفتكين) فسيّر جيشاً إليه بإمرة جوهر الصقلي والتقى الطرفان، ودامت الحرب بينهما شهرين فاستنجد (الفتكين) بالحسين بن أحمد القرمطي فجاءه من الإحساء فلما علم جوهر بذلك غادر دمشق، وسار في إثره (الفتكين) والقرمطي، وحاصراه في عسقلان وضاقت عليه الحال، ثم إن جوهراً قد التقى بـ (الفتكين) واتفقا، وسمح (الفتكين) لجوهر بالانسحاب إلى مصر، وجاء العزيز بجيش إلى القرمطي والفتكين وقد رجعا إلى الرملة، والتقى الطرفان، وتمكن العزيز من أسر (الفتكين) ببذل المال لمن يأتي به، فأكرم العزيز الفتكين كثيراً وأخذه معه إلى مصر، وبقي فيها حتى مات مسموماً. وسار القرمطي إلى طبريا

فطلب العزيز منه أن يأتي إليه فيكرمه أكثر من (الفتكين) فلما رفض أرسل له عشرين ألف دينار، وجعلها كل سنة له، فأخذها القرمطي ورجع إلى الإحساء.

وفي عام ٣٦٦ توفي مقدم القرامطة أبو يعقوب يوسف بن أبي سعيد الجنابي، وقام من بعده ستة لم يختلفوا فيما بينهم أبداً، وكانوا يعرفون باسم السادة، كما توفي في العام نفسه الحسين بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي زعيم جيوش القرامطة إلى الشام، وكان يظهر الطاعة للخليفة العباسي.

وفي عام ٣٧٣ سار القرامطة إلى البصرة والكوفة ليأخذوهما وذلك بعد وفاة مؤيد الدولة بن ركن الدولة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٣٧٥ أفسد القرامطة في منطقة الكوفة فأرسل إليهم صمصام الدولة جيشاً طردهم من منطقة الكوفة وقتل مقدمهم وهو أحد سادتهم.

٦ ـ العبيديون:

توفي المعزّ أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل عام ٣٦٥، وقام بعده ابنه نزار الذي لُقّب بالعزيز، وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة ثم أظهره وأمر الدعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حدٍ يذم[١].

اتسعت رقعة الدولة العبيدية أيام العزيز إذ ضم بلاد الشام كلها بعد أن فتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب أبوابها، وأرسل جيشاً إلى مكة ودخلها بعد أن حاصرها وخُطب له فيها عام ٣٦٥، كما خطب له في الموصل عام ٣٨٢.

---

(١) الكامل في التاريخ.

أقرَّ العزيز والي أبيه يوسف بلكين بن زيري بن مناد[1] شيخ صنهاجة على إفريقية بل ضم له أيضاً طرابلس، وسرت، وأجدابيه، فاستبد يوسف بما تحت يده، وإن بقي يظهر الطاعة والمجاملة للعزيز.

وزحف إلى سجلماسة خزرون بن فلفول المغراوي وقتل أبا محمد المعتز إمام الصفرية وبعث برأسه إلى قرطبة عام ٣٦٥ فزالت الصفرية من المغرب نهائياً. وقاتل يوسف بلكين زناتة في المغرب، وأزال عمال الأمويين منها.

وكان أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين قد فتح عدة حصون، ثم سار إلى صقلية بردويل بجموعٍ كثيرةٍ من الفرنجة، وحاصر مالطة وملكها، فخافه أبو القاسم ففر منه فلحقت به الفرنجة، وأدركته، وجرت معركة بين الطرفين عام ٣٧٢ قُتل فيها أبو القاسم، وقام مكانه ابنه جابر، وعاد إلى منازلة الفرنجة فانتصر عليهم.

ومات يوسف بلكين بن زيري عام ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور الذي سار إلى المغرب ليردّ الزناتيين إلى طاعته فهُزم أمامهم.

وثارت كتامة بتحريضٍ من العزيز الفاطمي فاتجه المنصور نحوها فانتصر عليها عام ٣٧٧، ولكنه خرج أبو الفرج الكتامي مرةً ثانيةً غير أنه هُزم أيضاً أمام المنصور كما هُزم سلفه.

وخالف المنصور عمه أبو البهار غير أنه ندم فعاد وصالح ابن أخيه المنصور.

ووجه العبيديون أيام العزيز اهتمامهم لنشر فكرتهم متظاهرين بالتشيّع

---

(١) كان بدء أمر بلكين أنه من قواد المعز، وأبلى في إخضاع زناتة بالمغرب البلاء الحسن، فلما استولى العبيديون على مصر، وانتقل المعز إليها ولاه إفريقية ما عدا صقلية وطرابلس إذ كان الكلبيون يحكمون الأولى ويحكم الثانية كتامة، وسماه يوسف بدلاً من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة، وفي أيامه ثار أهل المغرب الأقصى وخلعوا الطاعة وخطبوا للأمويين في الأندلس فسار إليهم وأخضعهم.

لذا عملوا على نشر الفكر الشيعي الذي بدأ يُصاغ بشكلٍ يظهر الماضي حسب هذا الفكر.

وكان العزيز فوق هذا كريماً محباً للعفو، واشتهر بتسامحه مع النصارى واليهود كما كان أبوه من قبل، وتزوج بنصرانيةٍ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية وقلّد عيسى بن نسطوريوس النصراني الوزارة، كما عيّن منشابن إبراهيم اليهودي بلاد الشام[1].

٧ ـ الأمويون:

في عام ٣٦٦ توفي الحكم وهو المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، وقد كان هذا من خيار الملوك وعلمائهم، وكان عالماً بالفقه، والخلاف، والتواريخ، محباً للعلماء محسناً إليهم، توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر، ومدة خلافته منها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده ولده هشام وله عشر سنين، ولقب بالمؤيد بالله، وقد اختلف عليه في أيامه، واضطربت الرعايا عليه، وحُبس مدة ثم أُخرج وأعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري[2]، وابناه المظفر والناصر، فساسوا الرعايا جيداً وعدلاً فيهم، وغزوا الأعداء، واستمر لهم الحال كذلك نحواً من ست وعشرين سنة[3].

---

(١) تاريخ الإسلام.

(٢) محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، المعروف بالمنصور بن أبي عامر، كان جده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق بن زياد. ولد المنصور في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس، وفد إلى قرطبة في حداثة سنه، ودرس بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي. تقرب من أم الخليفة هشام وهي (صبح) ثم أصبح الحاجب. واشتهر بالأدب والتواضع والكرم والعطف على البائسين، وقد كسب في حياته حب العلماء والشعب والجند، وبقي حتى توفي عام ٣٩٣ وهو في غزوه لبلاد النصارى في الشمال.

(٣) البداية والنهاية.

غزا الحاجب المنصور مملكة ليون النصرانية في الشمال، واستولى عليها، وهدَّم حصونها وقلاعها، وقهر برشلونة. واتخذ جنداً من المرتزقة من المغرب ومن نصارى الشمال ليأمن جانب الجند السابقين من العرب والإسبان والصقالبة.

٨ ـ اليمن:

استمرت دولة بني زياد في زبيد وكان حاكمها في هذه المرحلة إسحاق بن إبراهيم، وكذلك كانت دولة بني يعفر في صنعاء ويحكمها عبد الله بن محمد بن قحطان، وقام آنذاك آل الضحاك. وأما بنو الرس في صعدة فكانت الإمامة للداعي يوسف الذي امتدت إمامته من ٣٦٦ ـ ٤٠٣هـ.

* * *

-٢٥-
القادر بالله
أحمد بن إسحاق بن المقتدر
٣٨١ - ٤٢٢

هو أحمد بن إسحاق بن الخليفة المقتدر، أبو العباس، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائةٍ، أمه أم ولد اسمها «تمني». كان أبيض كثَّ اللحية يخضب، ديّناً، عالماً، متعبداً، وقوراً من جِلّة الخلفاء وأمثلهم. عدّه ابن الصلاح[١] في الشافعية. تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي الشافعي.

قال الخطيب: كان من الدين، وإدامة التهجد، وكثرة الصدقات على صفةٍ اشتهرت عنه. وصنّف كتاباً في الأصول، ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال: بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعةٍ في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر[٢].

بويع بالخلافة بعد خلع الطائع عام ٣٨١، وكان غائباً، فقدم في عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوساً عاماً، وهُنّئ.

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن موسى، الكردي، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح: أحد القضاة المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، وهو صاحب المقدمة المشهورة في مصطلح الحديث، توفي بدمشق عام ٦٤٣هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي.

وفي عام ٣٨٣ تزوج القادر بالله سكينة بنت الملك بهاء الدولة. وعقد بولاية العهد لابنه الغالب بالله وذلك عام ٣٩١، وكان عمر ابنه تسع سنوات، وعجّل بذلك، لأن الخطيب الواثق[(١)] سار إلى خراسان، وافتعل كتاباً من القادر بأنه وليّ عهده، واجتمع ببعض الملوك فاحترموه، وخطب له بعد القادر، ونفّذ رسولاً إلى القادر بما فعل، فأثبت فسق الواثقي، ومات غريباً[(٢)].

وفي هذا الوقت انبثت دعاة الحاكم في الأطراف، فأمر القادر بعمل محضر يتضمّن القدح في نسب العبيدية، وأنهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر منصور بن نزار الحاكم حكم الله عليه بالبوار، وأن جدهم لما صار إلى الغرب تسمى بالمهدي عبيد الله، وهو وسلفه أرجاس أنجاس خوارج أدعياء، وأن هذا الناجم وسلفه كفار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية[(٣)].

واستتاب القادر فقهاء المعتزلة، فتبرؤوا من الاعتزال والرفض، وأُخذت خطوطهم بذلك[(٤)].

وفي سنة ثمان وتسعين وقعت فتنة بين الشيعة والسنة في بغداد، وكان الشيخ أبو حامد الإسفراييني أن يقتل فيها، وصاح الرافضة ببغداد: يا حاكم، يا منصور، فأحفظ القادر من ذلك، وأنفذ الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة فانكسر الروافض[(٥)].

وفي ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وعاش سبعاً وثمانين سنة.

---

(١) من ولد الخليفة الواثق بالله، هارون بن محمد المتوفى سنة ٢٣٢، وكان يلي الخلافة.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ - البهويهيون:

بدأ وضع البويهيين يسير نحو الضعف بسبب قتال بعضهم بعضاً، وبسبب قوة نفوذ القادة الأتراك، وضعف نفوذ الديلم الذين كانوا جند البويهيين والسيف الذي يضربون به، ويعد بهاء الدولة أول من سعى لزيادة قوة الأتراك. وغدت مناطق العراق، والأهواز، وكرمان، وفارس مسرحاً لصراع أبناء بويه. وهذا الضعف كاد يساعد على امتداد نفوذ العبيديين للعراق حتى أن قرواش بن المقلد أمير بني عقيل قد خطب للعبيديين في الموصل عام ٤٠١، ولكنه اضطر بالقوة أن يعود إلى طاعة بني العباس.

توفي بهاء الدولة عام ٤٠٣ فتولى مكانه ابنه سلطان الدولة وبدأ الصراع مع إخوته، والتجأ أخوه قوام الدولة إلى محمود الغزنوي فأمده بقوة.

وفارق سلطان الدولة بغداد واستخلف عليها أخاه مشرف الدولة، ثم اختلف معه وحاول العودة إليها بإرسال جيش بإمرة ابنه أبي كاليجار ولكنه لم يفلح، وتصالح مع أخيه أخيراً. ومات مشرف الدولة فحكم بغداد أخوه الثالث جلال الدولة وقد جاء من البصرة التي كان يتولى أمرها، واختلف مع ابن أخيه أبي كاليجار، ثم استقر الوضع له في بغداد وزاد نفوذ القادة الأتراك بشكل كبير.

وربما كان هذا الخلاف الكبير بين أبناء بويه هو الذي أبقى هيبة الخلافة على شيء من القوة ولو نسبياً، وبقيت كلمة الخليفة القادر مسموعة إلى حدٍ ما.

٢ ـ الحمدانيون:

توفي أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة عام ٣٨١، وخلفه ابنه سعد أبو الفضائل، وكان سعد الدولة قد أوصى غلامه لؤلؤاً بابنيه أبي الفضائل، وأبي الهيجاء وبابنته ست الناس.

أخذ لؤلؤ البيعة لسعد أبي الفضائل والذي تلقّب باسم سعيد الدولة، وفي عهده وقع القتال بين الحمدانيين والعبيديين، ولم يتمكن منجوتكين قائد العبيديين من دخول حلب واضطر أن يرجع إلى دمشق، وتأثر العزيز العبيدي لهذا التراجع فسار بنفسه لقتال الحمدانيين ولكن الموت أدركه قبل أن يخرج من مصر.

كان لؤلؤ يتصرف بشؤون الدولة من دون سعيد الدولة، وقد عمل على التخلص منه بل ومن ابنته التي كان لؤلؤ قد تزوج منها، وحكم بعدها باسم ولدي سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف.

قبض لؤلؤ على أبي الحسن وأبي المعالي وأرسلهما مع بقية أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة عام ٣٩٤، وبقي هو الحاكم الوحيد في حلب، وجعل ابنه منصوراً ولياً لعهده.

مات لؤلؤ عام ٣٩٩، وخلفه ابنه منصور فاعترف بسلطان العبيديين عليه، وأصبحت حلب بعد ذلك تتبع السلطة العبيدية.

٣ ـ السامانيون

ثار بعض قواد السامانيين عام ٣٨٣ على أميرهم نوح بن منصور، واتصلوا بالأمير التركي شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك، وأطمعوه بالاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، كانت إمارته تقع شرق الدولة السامانية وتمتد حتى حدود الصين، وتقدم فعلاً إلى بلاد ما وراء النهر وهزم السامانيين وتمكن من دخول مدينة بخارى. غير أن موت شهاب الدولة إيلك والمعروف باسم (بغراخان) قد مكن نوح بن منصور من استعادة بخارى.

وفي عام ٣٨٤ استعان نوح بن منصور بصاحب غزنه سبكتكين ضد الأمراء الثائرين فهزمهم وفروا إلى جرجان، واستطاع أيضاً أن يستعيد نيسابور التي أعطى إمرتها إلى محمود بن سبكتكين، ولكن محموداً لم يلبث أن هزم أمام الأمراء الثائرين.

توفي نوح بن منصور عام ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور بن نوح، واستغل هذه الفرصة الأتراك فاستولوا على سمرقند، وساعدهم فائق الخاصة أحد الثائرين فاستولى على بخارى واستدعى منصور بن نوح ليعود إلى حاضرته فهو لم يدخل بخارى إلا لخدمة سيده رعايةً لحق أسلافه فجاء الأمير الساماني إلى قاعدة ملكه، وأوكل أمر الدولة إلى فائق الخاصة، وولى إمرة جيش خراسان إلى (بكتوزون).

بدأ الخلاف بين محمود الغزنوي ومنصور بن نوح حول خراسان إذ طلب محمود الغزنوي إعادته إلى خراسان فلم يجب منصور بن نوح طلبه.

قبض فائق الخاصة وبكتوزون على الأمير منصور بن نوح وسملا عينيه، ووليا مكانه أخاه الصغير عبد الملك بن نوح، واستغل محمود الغزنوي ضعف السلطة السامانية فتقدّم إلى بلادهم واستولى على بخارى ونيسابور، وأزال نفوذ السامانيين وخطب للخليفة العباسي القادر بالله. أما خانات تركستان خلفاء بغراخان فقد استولوا على بلاد ما وراء النهر وقبضوا على الأمراء السامانيين، وبذا فقد زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥.

في عهد السامانيين بدأ الفرس يكتبون بلغتهم المحلية وشجعهم السامانيون على ذلك، ولعل أهم الكتب الأدبية آنذاك كتاب الشاهنامه للفردوسي، أما الفلك والطب فكان يدون كلاهما باللغة العربية مثل كتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي، وكتب ابن سينا وغيرها.

٤ ـ الغزنويون:

توفي سُبُكْتُكين عام ٣٨٧ وخلفه ابنه الأصغر إسماعيل وكان ضعيفاً

فاتصل قادة الجند بأخيه محمود وشجعوه على تسلّم الأمر، وهو الكبير، فتمّ له ذلك عام ٣٨٨.

كان محمود الغزنوي قوياً وهو أول من تلقّب من الغزنويين بلقب سلطان، وكان يعرف من قبل بالأمير، ولقبه الخليفة العباسي القادر بيمين الدولة وأمين الملة.

قضى محمود الغزنوي على سلطان البويهيين في بلاد الجبل والري، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة وابنه أبي دلف.

ودخل بلاد قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحاب الباطنية، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلاسفة، والمعتزلة، والنجوم.

وحارب الأتراك الغز أصحاب أرسلان بن سلجوق، وكانوا يقطنون صحاري بخارى، وقبض على كبيرهم أرسلان ونفاه إلى بلاد الهند. وهرب قسم منهم إلى خراسان فتتبعهم وقد قويت شوكتهم هناك.

وسيطر على خراسان، وأنهى نفوذ السامانيين منها.

واستولى على سجستان من صاحبها خلف بن أحمد عام ٣٩٣هـ.

وقاتل الغور وهم جماعة يقيمون في المناطق الجبلية بين هراة وغزنة، وكانوا لا يدينون بالإسلام، ويقطعون الطريق، ويخيفون الناس فأخضعهم لسلطانه وعمل على نشر الإسلام بينهم، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلّمونهم أصول الدين.

ولعل أكثر ما اشتهر به محمود الغزنوي إنما هي فتوحاته في بلاد الهند إذ أنه ضمّ أجزاء جديدة إلى بلاد الإسلام، وعمل على نشر هذا الدين بينهم لأن حروبه السابقة إنما كانت في بلاد الإسلام بأكثرها، بينما قتاله في بلاد الهند حملت صفة الجهاد، وقد زادت حملاته إلى بلاد الهند على اثنتي عشرة حملة بدأها عام ٣٩٢ إذ انتصر على ملك البنجاب (جيبال) وأسره، كما أسر أكثر من نصف مليون إنسان، ثم أطلق سراح

الملك (جيبال) وكان من عادة الهنود أنه إذ وقع أحد منهم بالأسر وكان رئيساً ألا تعود له الرئاسة فيما بعد إذا تخلّص من الأسر، فلما فدى (جيبال) نفسه عاد، وحلق رأسه، وألقى نفسه بالنار وترك ملكه لابنه أنندبال، وقد قضى السلطان محمود على هذه العادات الجاهلية بنشر الإسلام في تلك الجهات.

وفي عام ٣٩٤ قصد إقليم (ملتان) جنوب البنجاب ودخله وعمل على نشر الإسلام هناك، وولّى على الإقليم أحد المسلمين وعهد إليه بتعليم الإسلام للأهالي.

وفي عام ٣٩٦ سار السلطان محمود إلى مدينة ملتان، وقد سار إليها عن طريق البنجاب ولما لم يسمح له ملك البنجاب أنندبال بن جيبال بالمرور عبر بلاده قاتله وانتصر عليه وتابع طريقه، ومن المعلوم أن الملتان كانت قد فتحت أيام محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٢هـ، وكان يحكمها أبو الفتوح داود ولكن يأخذ بمبدأ القرامطة فلما سمع بمسير السلطان محمود إليه فرّ إلى جزيرة سرنديب (سيلان) فقضى محمود على مقاومة أهلها وفرض عليهم الجزية بصفتهم يدعون مذهباً خاصاً.

وفي عام ٣٩٧ سار إلى ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد السلطان محمود ثم عاد فارتدّ وشق عصا الطاعة فحاربه وانتصر عليه وضم البنجاب إلى مملكته.

وجرّد حملة لقتال إيلك خان الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من السامانيين وبينما كان السلطان محمود مشغولاً في تلك الحملة إذ علم أن ملوك الهند قد شكّلوا حلفاً لقتاله فسار إليهم عام ٣٩٨، وعبر نهر السند، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً إذ غنم غنائم لا تحصى فانتثر عقد هذا الحلف وفقد ملوك الهند هيبتهم.

وعاد داود أبو الفتوح صاحب الملتان إلى بلده الملتان وعاد إلى مبدأ القرامطة فشنّ السلطان محمود عليه حملتان عام ٤٠٠ و ٤٠١ ودخل إثرها

الملتان، وأخذ داود أسيراً حيث نفاه إلى بلاد الغور وبقي في منفاه حتى مات.

وغزا الهند عام ٤٠٤ وهدّم صنم (سومنات) المشهور وغنم غنائم كثيرة.

وشنّ غزواتِ ثلاثاً على بلاد كشمير في سبيل ضمّها إلى سلطانه، ولكنه لم يوفق فيها رغم تعددها، وعلى التوالي في السنوات ٤٠٤ و ٤٠٥، ٤٠٦هـ إذ فقد كثيراً من جنده، وقد ذهب أكثرهم غرقاً في فيضان الأنهار.

واشتغل عام ٤٠٧ بقتال خوارزم إذ كان مأمون شاه خوارزم قد تزوج أخت السلطان محمود، واعترف بسلطانه على بلاده غير أن بعض قواده قد قتلوه وأجلسوا ابنه مكانه فسار السلطان محمود إلى بلاد خوارزم، واستولى عليها، وعاقب الثوار القتلة، وولّى على خوارزم أميراً من قبله.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك نحو كشمير فأخضع حاكمها الذي أسلم على يديه، كما أسلم بعض راجات الهند عندما اقترب السلطان محمود الغزنوي من بلادهم إذ كان يتملكهم الخوف والفزع، وفي كل مكان يدخله كان يحطّم الأصنام التي كان بعضها مصنوعاً من الذهب.

ثم سار محمود الغزنوي نحو قنوج على نهر الغانج فهرب منها صاحبها، فهدّم الأصنام، واستولى على قلاعها.

وبدأ راجات الهند يجمعون أنفسهم، وانضم إليهم من سبق له وخضع لغزنة فسار إليهم السلطان محمود عام ٤٠٩ وفلّ جموعهم، ووطد الأمن في المناطق الجبلية التي كان بعض قطاع الطرق يعيثون الفساد فيها.

وفي عام ٤١٦ سار نحو الهند فقطع صحراء ثار، وتجمع أمراء كوجرات بعد فرارهم. وكانت آخر غزواته لبلاد الهند عام ٤١٨ التي أعد لها أسطولاً إذ غدا لدولته منطقةً ذات ساحل.

وعندما حضرت الوفاة السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ أوصى من بعده لابنه محمد، وهو الأصغر، وكان نائباً له ببلخ، بينما ابنه الأكبر مسعود والذي كان ولياً لعهده من قبل قد أزال عنه العهد، وجاء محمد إلى غزنة، وأخذ البيعة وانشغل باللهو فأساء ذلك بعض القادة فدعوا أخاه مسعوداً وبايعوه بعد أن قبضوا على محمد، وبعد أن وقع خلاف بين الأخوين.

تولى مسعود الأمر عام ٤٢١، واستولى على مكران عام ٤٢٢، وأصبحت الدولة الغزنوية تضمّ أكثر أجزاء المشرق الإسلامي بل سار مسعود إلى خراسان لفتح العراق إلا أن استغلال نائبه في لاهور ذلك فرصةً للوثوب على ما تحت يده قد حال دون ذلك وعاد مسعود إلى مقره في غزنة.

٥ ـ العبيديون:

توفي العزيز العبيدي عام ٣٨٦ وخلفه ابنه أبو علي منصور وتلقب باسم الحاكم بأمر الله، وكان صغير السن لا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة إذ أنه ولد عام ٣٧٥، فكانت أمور الدولة بيد أبي الفتوح برجوان أحد خدام العزيز ومدبّري دولته. وبعد أربعة سنوات من حكمه تسلّم الحاكم شيئاً من أمره فأظهر تعصباً شديداً لفكرة العبيديين.

كان الحاكم شيطاناً مريداً جباراً عنيداً كثير التلوّن، سفّاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدّحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها. أمر بسبّ الصحابة، رضي الله عنهم، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع، وأمر عماله بالسبّ، وبقتل الكلاب[1]. أبطل الفقع، والملوخية، وحرّم السمك الذي لا قشر له، حرّم بيع الرطب. أمر النصارى بتعليق الصلبان

---

(١) سير أعلام النبلاء.

في رقابهم، وألزم اليهود أن يعلقوا قرمية في رقابهم. هدم كنائس مصر، فأسلم عدد من أهل الكتاب، نهى عن تقبيل الأرض، وعن الدعاء له في الخطب، نفى المنجمين، منع النساء من الخروج من البيوت، ثم عاد فأمر بإعادة بناء الكنائس وبتنصر من أسلم. أظهر التفقه، وطلب فقيهين يدرسان مذهب الإمام مالك ثم عاد فقتلهما صبراً.

وقد حُبّب في الآخر إلى الحاكم العزلة، وبقي يركب وحده في الأسواق على حمار، ويُقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم فاجر، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يولج فيه، والمفعول به يصيح[1].

وأمر بحريق مصر، واستباحها، ثم بعث خادمه ليشاهد الحال، فلما رجع، قال: كيف رأيت؟ قال: لو استباطها طاغية الروم ما زاد على ما رأيت، فضرب عنقه.

وولي للحاكم عدة أمراء ما كان يدع النائب يستقر حتى يعزله.

وأبطل الحاكم عمل المنجمين، وأعتق أكثر مماليكه، وجعل ولي عهده ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس.

ووصل إلى مصر عام ٤٠٥ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني[2] ويبدو أنه دخل في خدمة الحاكم الخصوصيين ثم أصبح من دعاة الإسماعيليين الذين انتشروا في مصر بشكلٍ واسع، وجهر بالدعوة إلى ألوهية الحاكم عام ٤٠٨ فثار الناس عليه فاختفى في قصر الحاكم أو خارجه مدة سنةٍ ثم هرب إلى وادي التيم في لبنان حيث تقيم بطون من تنوخ وتدين بالولاء للعبيديين.

ثم ظهر الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف باسم الأخرم عام ٤٠٩ وقال بألوهية الحاكم أيضاً، ولكنه لم يلبث أن قُتل، وكذلك ظهر محمد بن

(١) سير أعلام النبلاء عن تاريخ ابن إياس ١/ ٥٣.

(٢) ولد حمزة بن علي في بلدة (زوزن) من أعمال خراسان.

إسماعيل الدرزي (نشتكين) وهو أول من كشف عن فكرة ألوهية الحاكم والدعوة إليها وذلك عام ٤٠٧ وهو العام الذي وصل فيه إلى مصر، ويبدو أن قتل بمجرد أن قال بذلك، ومنهم من يقول: إنه اختفى في القصر حتى هدأ الجند ثم فرَّ إلى بلاد الشام حيث استقر في إحدى قرى بانياس جنوب وادي التيم ونافس حمزة بن علي فكان سبباً في قتله عام ٤١١هـ.

طلب أمير مكة أبو الفتوح الخلافة وتسمّى بالراشد بالله، ولحق بآل جرّاح الطائيين بالشام، ومعه أقاربه، ونحو من ألف عبدٍ، وحكم بالرملة، فانزعج العزيز بمصر وتلطّف بالطائيين، وبذل لهم الأموال، وكتب بإمرة الحرمين لابن عم الراشد، فوهن أمر الراشد، فأجاره أبو حسان الطائي، وتلطّف له حتى عاد إلى إمرة مكة.

وظهر أبو ركوة الأموي[1]، والتف حوله عدد من الأتباع، فحارب الحاكم ولعنه، فجهز الحاكم له جيشاً مؤلفاً من ستة عشر ألفاً تمكّنوا من القبض عليه وقتله في أرض خروجه وهي منطقة برقة.

وقُتل الحاكم بأمر الله عام ٤١١ بالاتفاق بين أخته ست الملك والأمير ابن دوّاس، وذلك بسبب ما أساء إلى أخته إذ اتهمها بالزنى، وإلى الناس بتصرفاته، وكان قتله سراً.

وأما عبد الرحيم بن إلياس العبيدي، فإن الحاكم قد ولاه عهده، ثم بعثه على نيابة دمشق سنة ٤١٠ فانصرف إلى اللهو فاضطرب الجند، فلما مات الحاكم قبض الأمراء عليه وسجنوه ثم قتلوه. لذا فإن ست الملك قد أخرجت ابن أخيها الحاكم وهو علي، أبو الحسن، الظاهر لإعزاز دين الله، وتوّجته، وبقيت تشرف عليه حتى توفيت عام ٤١٥، وكان ابن دوّاس يدبر أمر الدولة.

أما إفريقية فكانت تتبع العبيديين اسمياً، وقد توفي المنصور بن يوسف

---

(١) أبو ركوة: هو الوليد بن هشام العثماني الأندلسي.

بلكين عام ٣٨٦ وكان كريماً شجاعاً حازماً حسن السيرة محباً للعدل والرعية، وخلفه ابنه باديس ويكنّى أبا مناد، وقد عيّن عمه حمّاد بن يوسف بلكين على منطقة (أشير) وأقطعه إياها، وهو جدّ بني حمّاد، ثم أضاف إليه الجزء الغربي من الدولة عندما وجد باديس صعوبة في ضبط أمور الدولة الواسعة، وبذا تأسست الدولة الحمادية في أشير الواقعة على نهر الشليف جنوب مدينة الجزائر الحالية بمائة وعشرة كيلومترات.

اختلف باديس مع عمّه حمّاد، وأدّى هذا الاختلاف إلى قتالٍ بين الطرفين عام ٤٠٦، وأعطى باديس ولاية العهد لابنه منصور، وتوفي باديس وبايع أمراء الجند كرامة بن المنصور الذي سار إلى حماد واقتتل معه وهزمه، وعندما رجع إلى المنصورية وجد أن الناس قد بايعوا المعز بن باديس وهو صغير لا يتجاوز الثامنة من العمر إلا قليلاً فدخل مع الجماعة وبايع، وأرسل الحاكم العبيدي موافقته على تعيين المعز وأعطاه لقب شرف الدولة. وسار المعز لقتال حماد وانتصر عليه ثم تصالحا. وجاء من الأندلس زاوي بن زيري بن مناد وكان قد انتقل إليها مع إخوته لخلاف وقع بينهم وبين أخيهم حماد، وقد جاهدوا هناك النصارى.

وفي عام ٤٠٧ قتلت الشيعة على أيدي الناس لأنهم كانوا يسبون أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وكان المعز يدافع عن السنة، وهو الذي نشر مذهب الإمام مالك، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة هو السائد من قبل.

٦ ـ الأمويون:

سيّر محمد بن أبي عامر جيشاً إلى بلاد النصارى فنال منهم وغنم المسلمون كثيراً، وأسروا أحد ملوك النصارى. وتوفي محمد بن أبي عامر عام ٣٩٣، فحدث خلاف بين أمراء البيت الأموي فملك سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وأعيد هشام المؤيد إلى الخلافة ثانية عام ٤٠٠، ثم عاد الحكم لسليمان ثانيةً عام ٤٠٣هـ.

كان علي بن حمود الإدريسي الحسيني في مدينة (سبتة) في بلاد المغرب، وكان أخوه القاسم بن حمود يحكم الجزيرة الخضراء في الأندلس، وكانا من أنصار سليمان بن الحكم.

كان خيران العامري من أنصار هشام المؤيد وخالف سليمان وقاتله، واضطر أخيراً أن يفرّ من قرطبة، فسار إلى (المرية)، وكان في (مالقة) عامر بن فتوح وزير هشام المؤيد فراسل علي بن حمود الذي كان يطمع في السلطة فأجابه، وهكذا أصبح جنوبي الأندلس مخاصماً لسليمان إذ أن أمير غرناطة وقف بجانب المعارضين أيضاً، وسار الجميع نحو قرطبة وقاتلوا سليمان وهزموا جنده، وأسروه، ودخل علي بن حمود قرطبة وبايعه الناس خليفةً على أساس أن هشام المؤيد قد قتل وقد جاءوا باسمه، ولُقّب علي بن حمود بالمتوكل على الله، ولم يلبث أن خالفه خيران العامري وخرج من قرطبة.

بايع خيران العامري أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولُقّب بالمرتضى، وخرج علي بن حمود من قرطبة، ودخلها المرتضى لكنه قتل عندما سار إلى الجنوب لحرب زاوي بن زيري بن مناد.

سار علي بن حمود إلى (جيان) غير أنه قتل وتولى مكانه أخوه القاسم بن حمود، وهو أكبر منه، وبقي في قرطبة حتى عام ٤١٢ يحكمها.

خالف القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود، وعندما خرج القاسم من قرطبة متجهاً نحو إشبيلية أسرع يحيى من مالقة، ودخل قرطبة، وأخذ البيعة من أهلها، ولُقّب بالمعتلي وأصبح في الأندلس خليفتان يحيى بن علي بن حمود في قرطبة والقاسم بن حمود في إشبيلية.

خرج يحيى بن علي إلى مالقة فأسرع عمه القاسم ودخل قرطبة وأخذ البيعة من أهلها لنفسه، غير أن أمر ابن أخيه يحيى بن علي قد قوي في الجنوب كما قوي أمر أخيه إدريس فطمع أهل قرطبة بخليفتهم فعمت

الفوضى، وساد النهب، واضطر القاسم أن يغادر قرطبة واتجه نحو إشبيلية فلم يقبله أهلها بل ولوا أمرهم ابن عبّاد.

وقع القاسم بن حمود أسيراً بيد ابن أخيه يحيى الذي سجنه وبقي في سجنه حتى مات عام ٤٣١، وعندما توفي يحيى بن علي خلفه أخوه إدريس بن علي، أما قرطبة فقد تولّى أمرها أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وبايعته خليفةً عام ٤١٤ ولقب بالمستظهر بالله، ولكن لم تلبث قرطبة أن ثارت على خليفتها، وقتله أهلها، وبايعوا مكانه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر عام ٤١٤ ولقبوه بالمستكفي، وبعد مدة ثاروا عليه فخرج من مدينتهم واتجه نحو مدينة سالم، ولم يلبث أن مات مسموماً على ما يبدو. وكاتب أهل قرطبة يحيى بن علي بن حمود في مالقة ليتولى أمرهم فأرسل إليهم نائباً عنه فأخذ البيعة له عام ٤١٦ ثم ثار عليه الناس خوفاً من هجوم العامري على مدينتهم. وقتل يحيى بن علي بهجوم على مدينة إشبيلية فبويع في مالقة مكانه أخوه إدريس بن علي ولُقّب بالمتأيد وبقي حتى عام ٤٣١هـ.

اجتمع وجوه قرطبة وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم وبايعوا أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقّبوه المعتد بالله، ثم خلع وبويع أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وخرج أبو بكر هشام من قرطبة ثم قتل غدراً، أما أمية فقد اختفى بعد أن طلب منه القرطبيون مغادرة مدينتهم مع المعتد.

استقل بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وفي إشبيلية ابن عباد، وكان في كل مدينة ملك وسلطان.

٧ ـ اليمن:

انتهت دولة بني زياد في زبيد عام ٤٠٢ بعد موت الحسين بن سلامة

الذي تولى أمر بني زياد وهو أحد مواليهم حيث لم يبق من بني زياد من يصلح للحكم سوى طفل صغير اسمه أبو الجيش بن إسحاق، وكان الحسين بن سلامة حازماً فاضلاً حسن الإدارة، وقد بعث دولة بني زياد من جديد، وخضعت له أكثر اليمن وأجزاء من الحجاز، وعندما مات تمزقت دولته وتغلب بنو نجاح على تهامة، وبنو يعفر على صنعاء، وغيرهم على بقية مدن اليمن وأقاليمها.

وعندما مات الحسن بن سلامة قام بأمر الدولة نجاح مولى بني زياد، وأعلن نفسه سلطاناً على تهامة، وراسل الخليفة العباسي القادر بالله معلناً له الطاعة والولاء، واستمر نجاح في الحكم حتى عام ٤٥٢هـ.

وأما دولة بني يعفر فقد توفي أميرها عبد الله بن محمد بن قحطان عام ٣٨٧، وقام بعده ابنه أسعد وبقي حتى عام ٣٩٣ حيث دخل في طاعة الإمام القاسم بن علي العياني في (عيان).

وخلف الإمام القاسم بن علي العياني الملقب بالمنصور ابنه الحسين بن القاسم والملقب بالمهدي وذلك عام ٣٩٣، وبقي الحسين حتى عام ٤٠٣ حيث قتل في معركة مع آل الضحاك في ريدة. أما صعده فكان فيها الإمام الداعي يوسف، وبقي أيضاً حتى عام ٤٠٣.

* * *

- ٢٦ -

القائم بأمر الله
عبد الله بن أحمد القادر
٤٢٢ - ٤٦٧

هو عبد الله بن أحمد القادر، أبو جعفر، ولد عام ٣٩١ من أم ولد أرمنية اسمها بدر الدجى وقيل: قطر الندى، ولي أمر الخلافة عام٤٢٢، فكان عمره إحدى وثلاثين سنة بعهد من أبيه، وأبوه هو الذي لقبه القائم بأمر الله.

كان جميلاً، مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديّناً، زاهداً، عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصدقة والصبر، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً العدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيءٍ طُلب منه.

كان أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري أحد موالي بني بويه قد طغا حتى خافه الناس جميعاً، وثبت للخليفة أن البساسيري سيئ العقيدة، وأن عنده رغبة في القبض على الخليفة وإلغاء الخلافة العباسية فما كان من الخليفة إلا أن راسل طغرل بك أبا طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق سلطان الأتراك الغز وهو بالري يستنهضه للقدوم إليه، ثم أحرقت دار البساسيري، وقدم طغرل بك إلى بغداد، واستأذن الخليفة بدخولها فأذن له فدخلها عام ٤٤٧، وكانت قد وقعت وحشة بين الخليفة والبساسيري، فترك البساسيري بغداد ولم يدخلها مع الملك الرحيم الذي جاء من واسط وطلب الخليفة منه أن يخضع لطغرل بك، واتجه البساسيري إلى الرحبة، ومنعت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وعقد الخليفة على خديجة بنت داود أخي طغرل بك، وقد تمكن البساسيري من أخذ الموصل.

راسل البساسيري صاحب مصر المستنصر العبيدي، وطلب منه أن يبايعه ويدعو له، وأن يمده هو بالجند والأموال، وأن يأتي إليه ليبايعه، ويدخل بغداد باسمه غير أن المستنصر لم يكن يثق كلياً بالبساسيري لذا فقد اكتفى بمده بالجند من الشام وبالمال ولكنه لم يأت إليه. وفي الوقت نفسه فقد تمكن البساسيري من الإيقاع بين طغرل بك وبين أخيه لأمه (إبراهيم ينال) إذ أطمع إبراهيم بمنصب أخيه، واشتغل طغرل بك بقتال أخيه فاستغل البساسيري هذا القتال واتجه إلى بغداد ودخلها عام ٤٥٠ ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بين الطرفين، وخطب في بغداد للمستنصر العبيدي باستثناء جامع الخليفة.

قبض البساسيري على الخليفة، وأرسله إلى حديثة عانة[١] حيث سجن هناك، وروي أنه كتب قصته وهو بالسجن وأنفذها إلى مكة، فعلقت في الكعبة وفيها: إلى الله العظيم من المسكين عبده، اللهم إنك العالم بالسرائر، المطلع على الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك، واطلاعك على خلقك، عن إعلامي، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها، وألغى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عُتُوّاً وعدواً. اللهم قلّ الناصر، واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم، المنصف الحاكم، بك نعتز عليه، واليك نهرب من بين يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك، وقد حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك، ووثقنا في كشفها بكرمك، فاحكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين[٢]. كما قتل البساسيري وزير الخليفة وهو ابن مسلمة الذي كان يكره البويهيين لتشيّعهم، وصلتهم بالعبيديين في مصر.

---

(١) عانة: مدينة بالعراق، على نهر الفرات، إلى الشرق من الحدود السورية وعلى بعد ٩٠ كيلومتراً منها، والحديثة مدينة على نهر الفرات أيضاً إلى الجنوب الشرقي من عانة على بعد ٥٠ كيلومتراً منها.

(٢) تاريخ الخلفاء، واستبعد هذا إذ أن مكة كانت تحت حكم العبيديين، ولا يمكن للخليفة القائم بأمر الله أن يتضرع لله سبحانه وتعالى بصيغة الجمع، ويدعوه بصيغة المفرد.

ظفر طغرل بك بأخيه، إبراهيم وقتله، وتفرّغ لأمر البساسيري فعاد إلى بغداد ودخلها عام ٤٥١، ولم ينفرد فيها البساسيري بأكثر من سنة، وظفر بالبساسيري وقتله، ورجع الخليفة إلى داره، ولم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه، ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يسترد شيئاً مما نهب من قصره إلا بالثمن، وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه على مخده[1].

وزوّج الخليفة ابنته لطغرل بك عام ٤٥٤، وزفّت إليه ٤٥٥، وضمن بغداد ورجع إلى الري فمات بها في رمضان عام ٤٥٥ وعمره آنذاك سبعون سنة، كان حليماً، كثير الاحتمال، شديد الكتمان للسر، محافظاً على الصلوات، وعلى صوم الاثنين والخميس، وعلى لبس البياض، ولم يكن له ولد، فبايع من بعده لابن أخيه سليمان بن داود، غير أن ابن أخيه ألب أرسلان قد تغلّب على أخيه سليمان، وتسلّم الحكم ولقب بعضد الدولة وبقي حتى قتل عام ٤٦٥.

توفي الخليفة القائم بأمر الله عام ٤٦٧ وخلفه حفيده.

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ البويهيون:

زاد ضعف البويهيين وزادت خلافاتهم فيما بينهم وهذا ما قوّى السلاجقة وضاعف من قوتهم. اختلف الجند مع جلال الدولة البويهي عام ٤٢٣ فخرج من بغداد ودخلها أبو كاليجار البويهي فولى حماية الجانب الشرقي من بغداد إلى أحد القادة الأتراك وهو أبو الحارث أرسلان البساسيري عام ٤٢٥ غير أن جلال الدولة قد جمع جموعاً كثيرة، واستمال إليه البساسيري، وتمكّن من العودة إلى بغداد، وجرى صلح بين أبي كاليجار وجلال الدولة، وتزوّج أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة جلال الدولة، ولكن لم يلبث الخلاف أن عاد بين الطرفين، واستطاع أبو كاليجار أن يعود إلى بغداد عام ٤٣٦ بعد وفاة جلال الدولة عام ٤٣٥، وعندما عاد أبو كاليجار إلى بغداد أرسل طغرل بك السلجوقي أخاه لأمه (إبراهيم ينال) إلى بلاد الجبل فدخلها، ثم تصالح أبو كاليجار مع طغرل بك، وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار، وتزوج أبو منصور بن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرل بك.

توفي أبو كاليجار عام ٤٤٠، وتولى بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وتسمى الملك الرحيم. ولم تكن الصلة حسنة بين الخليفة والبويهيين في أواخر أيامهم، فمنذ أيام أبي كاليجار بدأ البويهيون يتقرّبون من العبيديين حكام مصر بسبب العقيدة التي تجمع بينهم قبل كل شيء، ثم إنهم قد اتخذوا هذا التقارب وسيلةً أو سلاحاً للضغط على الخلفاء العباسيين. وبدأ أبو كاليجار يقرأ كتب الإسماعيلية، ويحضر دروس هبة الله الشيرازي داعي

العبيديين في فارس، وقد سمح له البويهيون بالنشاط في مناطق نفوذهم بل إنهم قد دعموه، ثم دعوه إلى العراق فقام بنشاطٍ ملحوظٍ، وبلغ من نشاطه أن خطب في شيراز إلى المستنصر العبيدي.

طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله من أبي كاليجار تسليم هبة الله الشيرازي، وهدده بدعوة السلاجقة إلى بغداد غير أن أبا كاليجار لم يُنه هذا الموضوع.

ووقع الخلاف بين الملك الرحيم وإخوته وكان الصراع على الأهواز وفارس، وهذا ما زاد في إضعاف أمرهم وبدلاً من أن يقفوا جبهة واحدة لردّ السلاجقة كانوا متفرقين، وهذا ما شجع خصومهم على الهجوم على أملاكهم وما تحت أيديهم.

وعندما اتجه طغرل بك نحو بغداد عام ٤٤٧، اتجه أيضاً الملك الرحيم إليها، وكان في واسط، وفارقه البساسيري سائراً إلى الرحبة، ولما وصل الملك الرحيم إلى بغداد أظهر له الخليفة خيانة البساسيري، وأن الخليفة له على الملك الرحيم الطاعة والنصح، وطلب منه أن يقبل الخضوع لطغرل بك، وبذا انتهى نفوذ البويهيين وزال سلطانهم.

٢ ـ السلاجقة:

في الوقت الذي كان يضعف فيه أمر البويهيين كانت قوة السلاجقة في ازدياد، فقد استولى محمد طغرل بك على نيسابور، وأرسل أخاه جعفر بك داود إلى خراسان فدخلها، وانتقل طغرل بك إلى جرجان وطبرستان فضمّهما إلى أملاكه. ثم اتجه إلى أصبهان فحاصرها مدة سنة، وتمكن من دخولها عام ٤٤٢، وأسر بعض ملوك الروم فراسله إمبراطور القسطنطينية في مفاداة الملك فشرط عليه عمارة مسجد في القسطنطينية وتم ذلك. وترك طغرل بك الري، وانتقل إلى أصبهان فجعلها قاعدته.

غزا طغرل بك بلاد الروم، وغنم كثيراً، وخُطب له في الموصل والأنبار عام ٤٤٦، ثم دخل بغداد في العام التالي، وقضى على نفوذ بني بويه فيها. وتوطّدت أواصر الصلة بين الخليفة والسلاجقة إذ عقد الخليفة العباسي القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي طغرل بك عام ٤٤٨. ثم اضطر طغرل بك إلى مغادرة بغداد للخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه لأمه (إبراهيم ينال)، وبخروجه من بغداد دخلها البساسيري عام ٤٥٠ غير أن طغرل بك تمكن من القضاء على أخيه فرجع إلى بغداد عام ٤٥١، وقتل البساسيري واستقر له الأمر، وعقد على ابنة الخليفة ثم توفي عام ٤٥٥، ولم يكن له أولاد فخلفه ابن أخيه سليمان بمساعدة وزير طغرل بك عميد الملك منصور بن محمد أبي منصور الكندري إلا أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش قد ثارا عليه وانتصرا، وتسلم السلطنة ألب أرسلان، وقتل عميد الملك الكندري عام ٤٥٧.

وفي عام ٤٦٢ أقبل ملك الروم أرمانوس بجموع لا حصر لها وعلى رأسهم البطارقة وينوي بهذه الحشود الكبيرة أن يقضي على الإسلام وأهله حتى أنه لفرط أمله قد أقطع البطارقة مناطق العراق، وتلقاه ألب أرسلان عام ٤٦٣ في عشرين ألف مقاتل فقط فدارت معركة بين الطرفين انتصر فيها ألب أرسلان رغم قلة جنده، وأسر ملك الروم أرمانوس نفسه، وعرفت هذه المعركة باسم معركة ملاذكرت، ثم عفا ألب أرسلان عن أرمانوس وأطلق سراحه فعندما رجع إلى بلاده وجد أن الروم قد ملّكوا عليهم غيره، وتوفي ألب أرسلان عام ٤٦٥ قتيلاً، وخلفه ابنه ملكشاه.

٣ ـ الغزنويون:

سار مسعود إلى بلاد الهند وفتح قلعة سرستي الجبلية جنوبي كشمير، وحاول أبوه من قبل فتحها فلم يوفق، وانتصر على واليه الذي خلع الطاعة وأجبره إلى الفرار، ثم عاد إلى غزو الهند بعد عام، وولى ابنه مجدوداً على بلاد البنجاب، ولما أمّن وضع تلك الجهة اتجه ثانيةً إلى خراسان فأجلى

عنها الأتراك الغزّ عام ٤٣١، وقاتل السلاجقة الذين قوي أمرهم وانتصر عليهم، غير أنهم عادوا فانتصروا عليه، واستولوا على معظم خراسان عام ٤٢٩، ومسعود مشغول بالهند، فرجع إلى غزنة ثم انطلق نحو السلاجقة فانتصر عام ٤٣٠ على طغرل بك، وطرده من خراسان غير أن مسعوداً قد هُزم ثانية عام ٤٣١ وكاد أن يقع في الأسر. أتعب مسعود جنده في الانتقال من الجبهة الشمالية الغربية إلى الجبهة الجنوبية الشرقية فملّوه وثار عليه مواليه وقتلوه، ونادوا بأخيه محمد أميراً عليهم وكان مسمول العينين، فعاد محمد إلى غزنة وأرسل ابن أخيه مودود بن مسعود يعزّيه بوالده ويتنصل من جريمة القتل هذه، غير أن مودوداً قد ترك خراسان واتجه إلى غزنة وحارب عمه محمداً وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل عمه وأولاده جميعاً باستثناء عبد الرحيم الذي كان غاضباً لقتل عمه، كما قتل كل من له ضلع في عملية القتل، وتسلّم الأمر عام ٤٣٢.

خلع مجدود والي البنجاب من قبل أبيه طاعة أخيه مودود وسار نحو غزنة غير أنه توفي قبل أن يصل إليها. وتمكّن مودود من الانتصار على ملوك الهند الذين تحالفوا ضده وأعاد للغزنويين هيبتهم في بلاد الهند، وحرص على قتال السلاجقة، ووافته المنية عام ٤٤١، وتولّى مكانه ابنه مسعود الثاني غير أن عمه أبا الحسن علي بن مسعود الأول قد نازعه الحكم واستلم الأمر منه بعد خمسة أيام من توليه الأمر، ولم يلبث أن قام أيضاً عبد الرشيد بن محمود الغزنوي ودعا لنفسه، وسار نحو غزنة ففر منها أبو الحسن علي بن مسعود الأول فدخلها عبد الرشيد، واستقر له الأمر عام ٤٤١، وقد حاول طرد السلاجقة من خراسان غير أن قائده لهذه المهمة قد عاد إلى غزنة وقبض على عبد الرشيد وقتله عام ٤٤٤ غير أن القادة الآخرين قد غضبوا من هذا الفعل وقبضوا على هذا القائد وقتلوه، وولوا عليهم أحدهم وهو (فروخ زاد) الذي حاول قتال السلاجقة ولكنه توفي عام ٤٥١ وخلفه إبراهيم بن مسعود الذي دام حكمه حتى عام ٤٩١، وفتح كثيراً من قلاع الهند، وتصالح مع السلاجقة.

٤ ـ العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي أبو الحسن علي الظاهر[١] عام ٤٢٨، وخلفه ابنه أبو تميم محمد[٢] الذي تلقّب بالمستنصر، وكان صغير السن لم يزد عمره على الثامنة، وامتد نفوذه إلى بلاد الشام، والحجاز، وشمالي إفريقية، إلا أن المعز بن باديس واليه في إفريقية قد قطع الخطبة له وخطب للعباسيين عام ٤٣٥، فما كان من المستنصر إلا أن شجع قبائل بني هلال التي نزلت الصعيد وأضرت فيه أن تتحرك نحو الغرب فوصلت إلى بلاد المعز بن باديس وعاثت فيه الفساد، وانتصرت على جنده، ودخلت مدينة القيروان وخربتها عام ٤٤٣، ولم يبق للمعز سوى المهدية وما حولها، ولكن لم يلبث بعد مدة أن قوي أمره.

تمكّن المستنصر أن يدخل مدينة حلب في بلاد الشام عام ٤٤١ بعد أن أجلى عنها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس. وبعد ذلك بدأت الدولة العبيدية تتقلّص إذ ظهرت دولة المرابطين في المغرب عام ٤٤٨، وبدأت تتوسع، وزال نفوذ العبيديين عن الحجاز عام ٤٦٢، ودعي للعباسيين على المنابر، كما زال أثر العبيديين عن حلب عام ٤٦٣.

كانت علاقة العبيديين حسنة مع الروم أيام المستنصر إذ عقد صلح بين الطرفين أيام الأمبراطور ميخائيل الرابع، كذلك جرى اتفاق عام ٤٤٦ أيام الأمبراطور قسطنطين التاسع الذي تعهد بأن يمدّ مصر بالغلال غير أن قسطنطين هذا قد توفي وخلفته الأمبراطورة تيودورا فلم توافق على الصلح إلا بشروط أهمها أن يتعهد العبيديون بمساعدة الأمبراطورة إذا ما اعتدي عليها فلم يقبل الخليفة العبيدي المستنصر الأمر الذي أدّى إلى حدوث قتال

---

(١) ولد أبو الحسن علي الظاهر عام ٣٩٥ في شهر رمضان، وتولى أمر العبيديين عام ٤١١ بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله، وأشرفت عليه عمته ست الملك حتى توفيت عام ٤١٥، وكان سمحاً عاقلاً، لين العريكة، يعطف كثيراً على أهل الذمة.

(٢) ولد أبو تميم محمد المستنصر عام ٤٢٠.

بين الجانبين انتصر فيه العبيديون في القتال البري بينما هُزموا في القتال البحري وهذا ما دفع المستنصر إلى عقد هدنة تمت عام ٤٤٧.

٥ - الأندلس:

تفرّقت كلمة المسلمين في الأندلس، وأصبح في كل مدينة ملك ولعل أهم هؤلاء الملوك هم: بنو جهور في قرطبة بعد بني حمود، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو هود في سرقسطة، وبنو أبي عامر في بلنسية، ومجاهد العامري في دانية.

٦ - اليمن:

كانت دولة بني نجاح في تهامة، وقد توفي مؤسسها الأمير نجاح عام ٤٥٢ فخلفه ابنه سعيد بن نجاح المعروف بالأحول، وقد استمر حتى عام ٤٨١، وقد أغار وهو في طريقه إلى مكة عام ٤٥٨ على علي بن محمد الصليحي وقتله.

أما الصليحيون فقد قامت دعوتهم الإسماعيلية عام ٤٣٩ إذ أظهرها علي بن محمد الصليحي بعد أن تحصّن بجبل مسار بناحية حراز، وكانت قد انقطعت بعد اختلاف علي بن الفضل وابن حوشب، إذ سيطر الأول على المنطقة، وأعلن كفره الصريح حتى مات مسموماً عام ٣٠٣ على حين اعتزل ابن حوشب في مغارب اليمن، وتبعه ابنه جعفر، ثم ابن أبي الفضل حتى كان سليمان بن عبد الله الزواحي الذي أوصى تلميذه علي الصليحي أن يكون خليفته.

أظهر الصليحي التدين، وعمل على توحيد كلمة اليمنيين فأطاعته القبائل المحيطة بحراز، وشكل قوة انتصر على عددٍ من الزعماء، ودخل صنعاء وأخرج منها بني يعفر، كما احتل زبيد بعد أن سقى الأمير نجاح سماً، ووصل إلى عدن ودانت له سائر بلاد اليمن. ثم ثار عليه من أيده بالأمس وهم رؤساء همدان عام ٤٤٨، ودعا الصليحي للمستنصر العبيدي

فولاه أمر مكة. وفي عام ٤٥٨ اتجه نحو مكة ويريد الموسم، وبعدها زيارة المستنصر في مصر، فسار في موكب، وأناب ولده (المكرم) على البلاد، وكان الصليحي قد تأخر عن الركب، ولم يكن معه غير ابنه الموفق، وزوجته أسماء بنت شهاب، وأخواه عبد الله، وإبراهيم، وجماعة قليلة من آل الصليحي فأغار عليه سعيد بن نجاح في تهامة وقتله في يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة. وقام مقامه ابنه المكرم فاستطاع قتال بني نجاح والانتصار عليهم، وإطلاق سراح من كان أسيراً من الصليحيين وذلك عام ٤٦٠ ومن هؤلاء الأسرى أمه أسماء بنت شهاب على حين نجا سعيد الأحول من المعركة وفر إلى جزر دهلك. واستمر المكرم في حكمه حتى عام ٤٨٢.

وضعف أمر بني رسّ فبعد موت الداعي يوسف ٤٠٣ وموت المهدي الحسين بن القاسم في العام نفسه، وقد كانا إمامين في وقت واحد، انقطعت دولتهم حتى عام ٤٢٦ أي مدة ثلاثٍ وعشرين سنة إذ قام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن، واستمر أمره حتى عام ٤٣١، ثم انقطعت الدولة ثانية مدة ست سنوات أخرى حيث قام أبو الفتح الديلمي عام ٤٣٧ ثم قتل عام ٤٤٤ في معركة (فيد) في أثناء حروبه مع علي بن محمد الصليحي، وتوقّف أمر الأئمة ما يقرب من مائة سنة بعد ذلك.

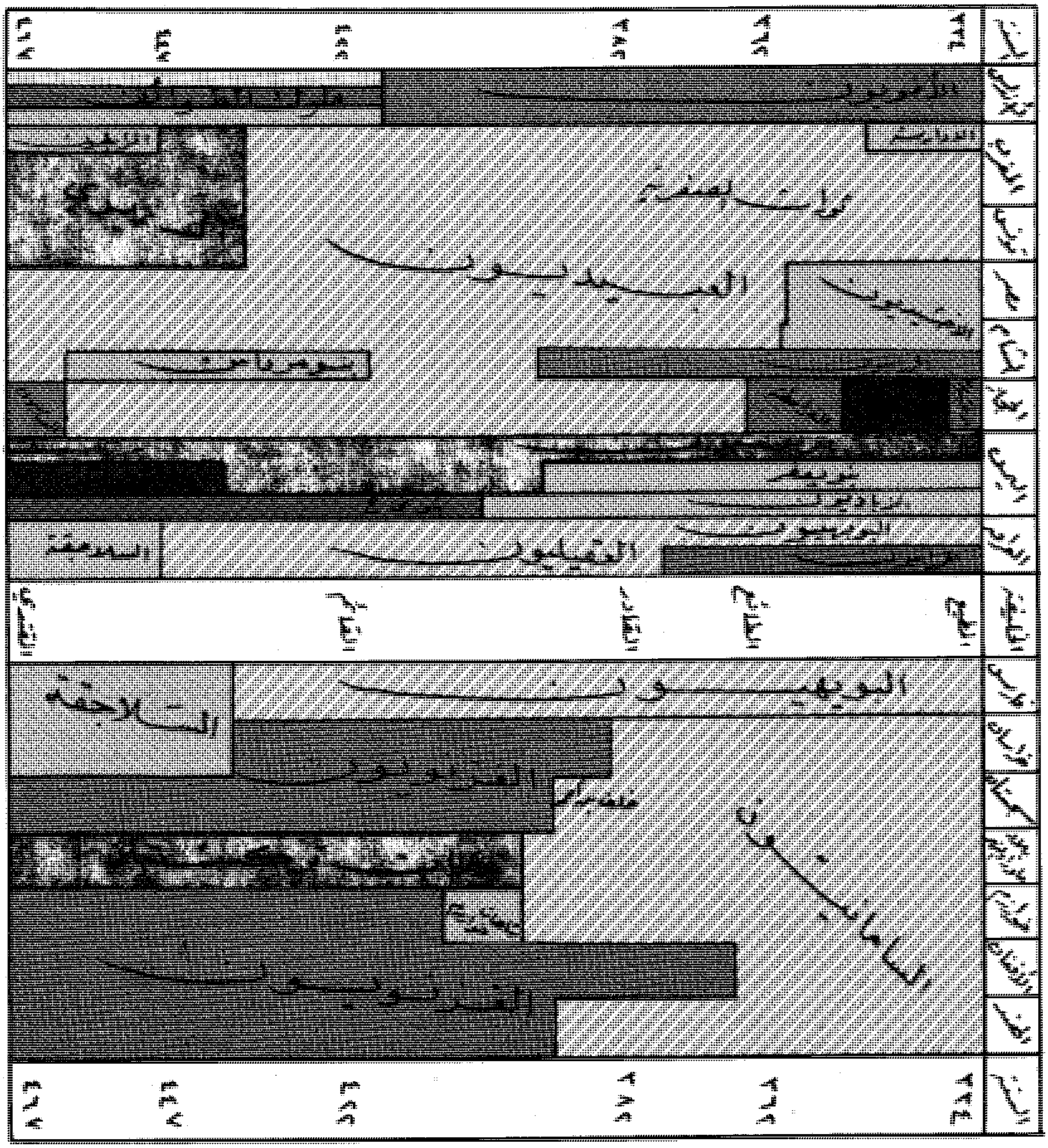

مخطط توضحي للإمارات في عهد السيطرة البويهية على الدولة العباسية

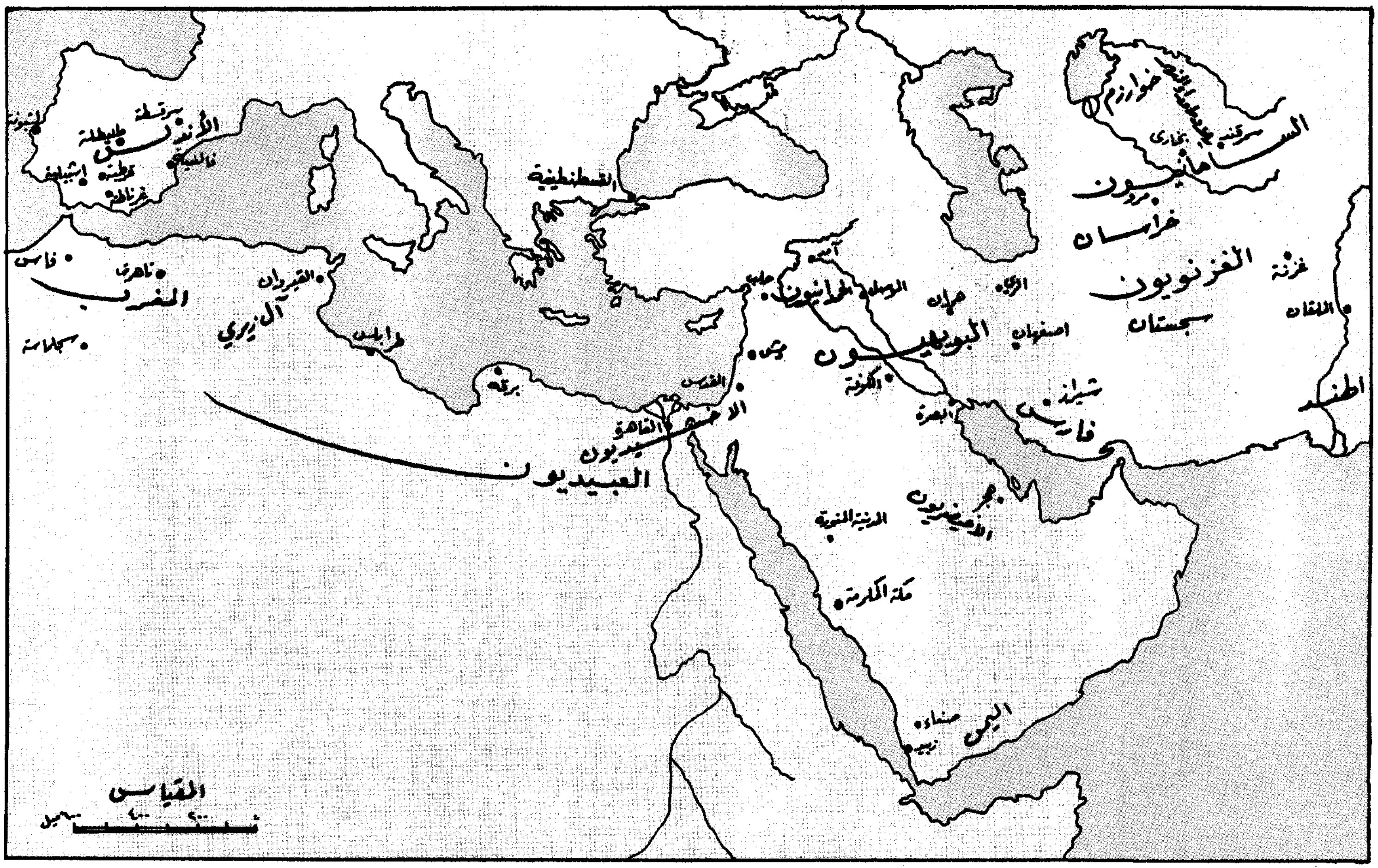
الأندلس
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
فاس
تاهرت
المغرب
القيروان
آل زيري
سجلماسة
طرابلس
برقة
القدس
القاهرة
العبيديون
القسطنطينية
حلب
دمشق
الكوفة
البصرة
البويهيون
همذان
الري
أصفهان
شيراز
فارس
سجستان
غزنة
الغزنويون
خراسان
مرو
بخارى
سمرقند
السامانيون
خوارزم
المدينة المنورة
مكة المكرمة
هجر
صنعاء
زبيد
اليمن
المقياس

الفصل الثالث

عصر سيطرة السلاجقة

امتدت هذه المرحلة من عام ٤٤٧ يوم دخل طغرل بك السلجوقي بغداد إلى عام ٦٥٦ يوم سقطت بغداد بيد هولاكو المغولي الذي قضى على الخلافة العباسية، وتمتد هذه المرحلة على تسعٍ ومائتي سنة تعاقب عليها اثنا عشر خليفة تفاوتت مدة خلافتهم بين سبع وأربعين سنةً وهي مدة الخليفة الناصر وبين سنةٍ واحدة وهي خلافة كل من الراشد، والظاهر.

كان خلفاء هذه المرحلة على درجةٍ من العدل والتقوى والإحسان والعطف على الناس، وقد أحبتهم الرعية حباً كبيراً حتى ليعمّ الحزن البلاد عندما يتوفى أحد الخلفاء، ولما قُتل المسترشد ظهر التأثر واضحاً على الرعية وكذا الحال عندم قُتل الراشد، ولم يقتل من هؤلاء الخلفاء جميعهم سوى المسترشد وابنه الراشد.. أما قتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد فقد كان على أيدي المغول الأعداء فكأنما هو استشهاد. وقد عاش الخليفة الأول من هذه المرحلة وهو القائم مدة عشرين سنة ٤٤٧ ـ ٤٦٧ وهو الذي استنهض همة طغرل بك السلجوقي لدخول بغداد، وبه بدأت هذه المرحلة وإن كان قد تولى الخلافة في المرحلة السابقة مدة خمسٍ وعشرين سنةً أيضاً.

ولم يكن السلاجقة ـ وهم القوة المسيطرة على الخلافة ـ يتصرّفون مع الخليفة ذلك التصرّف السيء الذي كان يقوم به من سبقهم سواء من القادة الأتراك أم من البويهيين، فالقادة الأتراك كانوا عسكريين جهلةً ومختلفين فيما بينهم فإذا ظنّ أحدهم أن الخليفة مال لآخر سعى إلى قتله بصورةٍ من الصور أو إلى سمل عينيه وإهانته، وكان البويهيون من الشيعة الحاقدين على

الخلفاء أولاً وعلى الفكر الإسلامي الصافي ثانياً، إذ أن التشيّع بدأت توضع له في تلك المرحلة أسسه ومبادئه التي فيها بُعد عن الإسلام، والتي حرص واضعوها على سحبها على الأوقات السابقة فنسبوا لبعض آل البيت ما لم يقولوه، ولم يسمعوا به بل لم يفكروا به، وليس التشيّع هو محبة آل البيت عامةً وعلي وأبنائه رضي الله عنهم، خاصة كما يتصوّر بعض عامة المسلمين بل بعض عامة الشيعة لأنه هذا ما وصل إليهم وما تناقلوه وما روته لهم ساداتهم هذا بالنسبة إلى الشيعة أما بالنسبة إلى المسلمين فهذا ما يظنونه أو يسمعونه حسب ما تناقلته كتب التاريخ التي للشيعة دور في وضعها وتأريخها وإنما أصبح فكر خاص له منهجه وسلوكه، بل عقيدة خاصة تختلف عن صفاء الإسلام، بادعاء العصمة للأئمة ومعرفتهم ما لم يعرف غيرهم، لذا فإن تصرّف البويهيين مع الخلفاء لم يكن تصرف التابع، أو تصرف المبايع للخليفة الحريص على هيبة الحكم والنظام وما يقتضي به الشرع بالنسبة إلى معاملة الخليفة الشرعي. وإن سلوك السلاجقة مع الخلفاء الطيب نسبياً قد أعاد للخليفة هيبته أو مكانته وإن كان بصورةٍ نسبيةٍ أيضاً أي يختلف الأمر عما كانت عليه مكانة الخليفة أيام البويهيين ومن سبقهم من المستأثرين بالسلطة المستبدّين بالأمر لما يتبع لهم من جند وعسكر، وإن كان هذا غير معروف للناس لأن تاريخنا يضرب صفحاً عن الخلفاء الأواخر بسبب الضعف الذي اعترى الدولة العباسية وخلفاءها بل قلّ من يعرف الخلفاء بعد المتوكل على الله، فهذه المدة الطويلة من الضعف والتي زادت على مائتي سنة (٢٤٧ ـ ٤٤٧) قد طغت على ما بعدها، وخاصةً أن هذه المرحلة التي نتكلم عنها والتي جاءت بعدها لم يحدث فيها تغيير جذري كتبديل البيت الحاكم أو انتهاء السيطرة الكاملة عن الخلفاء، ويزيد الأمر من حجب هؤلاء الخلفاء ظهور دولٍ قويةٍ برزت في المنطقة وكان لها دورها في صراع النصارى سواء في الأندلس مثل دولة المرابطين ودولة الموحدين أم في المشرق مثل إمارة آل زنكي ودولة الأيوبيين اللتين انصرفتا إلى قتال الصليبيين بل وحتى العبيديين، وإن كانت بعضها تتبع الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء مثل المرابطين وآل زنكي والأيوبيين فإن بعضها الآخر لا

يعترف بسلطة العباسيين عليها وتعد نفسها دولةً قائمةً بذاتها مثل الموحدين حيث يدعى سلطانهم بأمير المؤمنين أو تعد نفسها خلافةً خاصةً مثل الدولة العبيدية في مصر، وجميعهم كان لهم دور في مقارعة الصليبيين.

كان خلفاء هذه المرحلة على صورةٍ واحدةٍ تقريباً من حيث الاتجاه الإسلامي العام ولم يكن بينهم سوى الخليفة الناصر الذي مال إلى التشيّع، وكان يفضّل علياً على أبي بكر، وليس في هذا التفضيل خروج، وإنما فيه مخالفة، وبُعد عن المعرفة الصحيحة إذ كان رسول الله ﷺ يستشير أبا بكر، وعمر أكثر مما يستشير علياً أو غيره، وصحبته في الهجرة، وإمامته للمسلمين في حياة رسول الله ﷺ بأمر وتوجيه من رسول الله ﷺ الكافية لتفضيله، وليس هذا إنقاص لفضل علي، رضي الله عنه، ومكانته فهو على درجةٍ كبيرةٍ من الفضل يعرفها المسلمون جميعاً بل إن حبهم لعلي، رضي الله عنه، خاصةً ولآل البيت عامةً أكثر من حب الشيعة الذي يصل إلى حد التأليه أحياناً، والعياذ بالله وفيه برود أحياناً أخرى فهم يدّعون حبه وهم الذين خذلوه، ثم خذلوا أبناءه وأحفاده بعد أن دعوهم إليهم وشجعوهم على الخروج فلما خرجوا خذلوهم وابتعدوا عنهم وتركوهم وحدهم أمام خصومهم. كما أن هذا ليس فيه إنقاص لفضل أي من صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم جميعاً، والمسلمون جميعاً يرون فضل أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي على التوالي، رضي الله عنهم، كما أن الصحابة كلهم عدول، وقد سئل ابن الجوزي أمام الخليفة الناصر: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أفضلهم من كانت ابنته تحته، ولم يستطع أن يصرح بتفضيل أبي بكر، وإن كان في هذا الجواب معنيان إذ يمكن أن يفهم تفضيل أبي بكر إذ كانت ابنته عائشة، رضي الله عنها، تحت رسول الله ﷺ كما يفهم منه تفضيل علي إذ كانت تحته فاطمة بنت رسول الله ﷺ تحته، رضي الله عنها وعن زوجها.

وفي هذه المرحلة قلّت الخلافات بين السنة والشيعة وإذ كُسرت شوكة الشيعة بعد أن زالت دولهم المتعددة سواء أكانت شيعيةً مبتعدةً كالبويهيين

والحمدانيين أم كانت منحرفةً ضالةً ولكنها تدّعي التشيّع مثل العبيديين والقرامطة وبعض السامانيين إذ دالت دولة الحمدانيين عام ٣٩٤، وانتهت دولة السامانيين عام ٣٩٦، وزال البويهيون عام ٤٤٧، وبزوال البويهيين ضعف أمر القرامطة، ثم قضي عليهم عام ٤٧٠، إذ خرجت جزيرة أوال (البحرين) عن طاعة القرامطة عام ٤٥٨، وخضعت للعباسيين وكان أول الأمر أن بنى المسلمون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم وخطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة العبيدي فعزل القرامطة واليهم عن الجزيرة وفرضوا على أهلها ضرائب جديدةً الأمر الذي أثار السكان فهبّوا ضد القرامطة، واستطاعوا الانتصار عليهم. وقد هيأ هذا الانتصار أن يتصل المسلمون في البحرين بالخليفة العباسي ويطلبوا منه الدعم إذ اتصل عبد الله بن علي العيوني زعيم قبيلة عبد القيس بالخليفة العباسي القائم بأمر الله وبالسلطان السلجوقي ملكشاه عام ٤٦٢ ووجد عندهما تجاوباً، وأرسلا له جيوشاً دعمته ضد القرامطة فاستطاع أن يهزم القرامطة عام ٤٦٧، وتجمع المسلمون من كل ناحيةٍ في تلك الجهات، وهزموا القرامطة في معركة الخندق عام ٤٧٠ في شمال الأحساء، وقضوا عليهم، وبزوال القرامطة من منطقة هجر زال حكم عمالهم في اليمامة من الأخيضريين. أما العبيديون فقد كان أمرهم يضعف وهم رغم إظهارهم التشيّع إلا أن أصولهم وانتماءهم وسلوكهم يدل على ضلالتهم العقيدية والفكرية ويلقي ضوءاً على أهدافهم السياسية البعيدة وهذا ما أصبح يتضح للرعية عندما بقوا وحدهم في الميادن وزال الشيعة والمتشيّعون الآخرون الذين كانوا يغطّون الساحة فيختفي فيها العبيديون وعندما انكشفوا أصبح الناس يكرهونهم فبدأ أمرهم بالضعف حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمة الله عام ٥٦٧هـ.

وفي هذه المرحلة حدث هجوم صليبي شرس على بلاد المسلمين ابتدأ في الأندلس ومنها انتقل إلى الأناضول فبلاد الشام ومصر وكان يحمل الحقد الأسود على الإسلام ولذا فقد ارتكب جرائم بشعةً جداً وأهلك الزرع والضرع أثناء سيره، وكان يتذرع النافخون فيه أن المسلمين كانوا يسيئون إلى الحجاج النصارى الذين يقصدون بيت المقدس، وقد حدث هذه

الهجوم بعد الهزائم المنكرة التي مُني بها النصارى سواء في المشرق في معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ على يد ألب أرسلان السلجوقي رغم التفاوت الكبير في قوات الطرفين إذ لم تزد قوات ألب أرسلان على ١/١٠ قوات الروم البيزنطيين وسواء في المغرب في بلاد الأندلس في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وقد وحّدت هاتان الهزيمتان بين الكنيستين النصرانيتين الشرقية والغربية موقتاً وحّمست النصارى على الانسياح البربري الوحشي على ديار المسلمين الذي روّع الآمنين وأخاف الناس جميعاً، ولقد حصل هذا الهجوم على بعض النصر واستقر بعض الصليبيين في إمارات لهم ولكن كان لهذا النصر من جهة ثانية أثر آخر إذ أيقظ المسلمين وحرّك في بعضهم الإيمان، وهيّج فيهم روح الجهاد والدعوة إلى الوحدة فقاموا يقاتلون الصليبيين حتى دحروهم في النهاية وأخرجوهم صاغرين.

وإذا كان الصليبيون قد خرجوا من ديار المسلمين مهزومين إلا أن الحقد لا يزال يغلي في قلوبهم وفي نيتهم البقاء والتشفّي من المسلمين ولكن لا يقدرون على فعل شيء، وقد خرجوا وكأنهم ينظرون إلى الخلف، وقد رأوا من بعيد في شرق بلاد المسلمين قوةً طاغيةً تتكوّن من جديد وفيها عناصر القوة كلها، ومظاهر الإجرام كلها، نظروا إليها مفكرين وخشوا أن تحتك بالمسلمين فتدين بدينهم وعندئذٍ يكون الخطر الداهم على النصرانية في أوروبا كلها، لذا فكّروا وهم يسيرون إلى الغرب مهزومين بأن يكسبوا هذه القوة الجديدة إلى صفهم، وفكّروا بإغرائها بالنساء وبتحريضها على المسلمين بوصف بلاد المسلمين لها بأنها الجنان العظيمة التي تنتج العسل وأن أنهارها تجري باللبن، وهذه القوة ينتقل أهلها في الصحارى المقفرة المجدبة ولعابهم يسيل لهذه الأوصاف مجرد سماع هذه الكلمات وخاصةً أن الصينيين كانوا أيضاً يشجعونهم على الانطلاق نحو الغرب إلى ديار المسلمين ليبعدوهم عن ديارهم هم فاتفق الوصف والتشجيع وسارت جموع المغول نحو الغرب بعد أن دفعها قتل شاه خوارزم لرسل جنكيزخان.. انطلقت هذه الحشود المغولية كالقطعان السائمة تحرق

الأخضر واليابس. . . . فارتاح لذلك الصليبيون فكان يشيرون إليها بأيديهم للتقدم وهم ينسحبون نحو الغرب مهزومين، حتى دكّ المغول المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، ووصلوا إلى بغداد فأعملوا فيها الخراب، وقوّضوا الدولة العباسية وذلك عام ٦٥٦.

وفي هذه المرحلة ظهرت دول كان لها الأثر الكبير في محاربة الصليبيين لذلك علا شأنها وارتفع ذكرها حتى طغى اسمها على الخلافة العباسية بالذات فحجبها، ولم يعد يذكرها الناس على حين كان يذكر دائماً تلك الدولة الثانية التي تتبع الدولة العباسية أو لا تتبعها مباشرة، فكانت في المغرب دولة المرابطين الذين اجتازوا بحر الزقاق، وانتقلوا إلى العدوة الأندلسية، وقاتلوا النصارى الإسبان هناك، وانتصروا عليهم في معركة الزلاقة عام ٤٧٩، وهناك الموحدون الذين خلفوا المرابطين وانتقلوا أيضاً إلى الأندلس دعماً للمسلمين، وانتصروا على النصارى الإسبان في معركة الأرك عام ٥٨٥. وظهرت في الوقت نفسه دولة آل زنكي في المشرق وقد عملت على تقوية صفّ المسلمين ومنازلة الصليبيين، ثم قامت بعدها دولة الأيوبيين وقد تمكّن صلاح الدين الأيوبي أن ينتصر على الصليبيين وأن يدخل بيت المقدس عام ٥٨٣. وإضافةً إلى هذه الدولة التي علا اسمها كانت دولة خوارزم في الشمال الشرقي من العالم الإسلامي وبقيت قائمة حتى قضى عليها المغول عام ٦٢٩، كما قامت دولة الغوريين في الجنوب الشرقي من العالم الإسلامي، وقد عملت على نشر الإسلام في بلاد الهند، إذ تمكنت من فتح دهلي، وبيهار، والبنغال حوالي عام ٥٩٧، وبذا ضمت أجزاء واسعةً من الهند إلى بلاد المسلمين.

وإذا كانت الشيعة قد ضعف نفوذها في هذه المرحلة لزوال دولٍ شيعيةٍ إلا أن بعض الأفكار بقيت تراود أذهان بعض الحكام للإفادة من وضع خاصٍ فقد انتحل خوارزمشاه علاء الدين محمد عقائد الشيعة وظنّ أنه يستفيد من الشيعة عامةً ليقضي على الخلافة العباسية في بغداد وذلك عام ٦١٤هـ.

وفي الوقت الذي بدأت تضعف الدولة العبيدية في مصر بدأ أنصارها في اليمن بالظهور فقامت الدولة الصليحية عام ٤٥٥، وعندما توفي الخليفة المستنصر العبيدي عام ٤٨٧ انقسمت الدعوة إلى فرعين، فرع يؤيد المستعلي وينتشر في اليمن، والآخر يؤيد نزار وينتشر في فارس والشام، والفرع الأخير هو الذي حمل اسم الباطنية أكثر من غيره رغم أن الحركات الباطنية كثيرة، كما أُطلق على أصحابه اسم الحشاشين، وقد لعب هذا الفرع دوراً كبيراً في قتل الشخصيات البارزة وكان أولها الوزير نظام الملك الذي قتل عام ٤٨٥، وقد حرصوا على قتل صلاح الدين الأيوبي ولكن أنقذه الله منهم، وكانوا يقيمون في قلاع جبليةٍ حصِينةٍ، وكما انتشرت هذه الجماعة التي أطلق عليها اسم الإسماعيلية أيضاً فقد ظهرت بقية الفرق الباطنية من نصيرية، ودروز، وإن كانت قد اختلف بعضها مع بعض، وكفّر كل فريق الفريق الآخر، إلا أنها جميعها كانت معاديةً للإسلام وأبنائه، وتدّعى عندما تعيش في وسط مجتمع إسلامي أنها تنتمي إلى الإسلام.

وانتشرت في هذه المرحلة الألفاظ الأعجمية فنلاحظ «الأتابكة» ومعناها الوالد الأمير و «شحنكية» ومعناها المقاطعة وغيرها من الألفاظ التي غدت متداولةً في كل الدولة وخاصةً في جناح المشرق.

كانت السيطرة الحقيقية للسلاجقة الذين يعودون في أصولهم إلى الغُزّمن الترك، ويدينون بالإسلام، ويأخذون برأي أهل السنة والجماعة، ويرجع أول أمرهم إلى سلجوق بن تقاق الذي هرب من بلاد الترك خوفاً على نفسه من سلطان الترك الذي أوغرت صدره زوجته لما رأت من محبة الناس لسلجوق وطاعتهم له. ولما دخل سلجوق بلاد المسلمين اعتنق الإسلام مع جماعته بل بدأ يُغير على بلاد الترك الذين كانوا لا يزالون على الكفر، وكانوا إذا ما هاجمهم غازٍ ورأوا أنهم لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد. وكان سلجوق إذا دخل أيضاً ضمّها إلى بلاد الإسلام.

استعان السامانيون بسلجوق في ردّ غارات الترك على بلادهم، فأرسل

إليهم قوةً بإمرة ابنه أرسلان الذي استطاع أن يستردّ من الترك ما أخذوه من بلاد السامانيين. وتوفي سلجوق بعد أن بلغ من العمر سبعاً ومائة سنة. كما قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو في بلاد الكفر من الأتراك، وكان لميكائيل هذا ولدان برزا من بعده هما طغرك بك محمد، وداود جعفر بك، ودانت لهما جماعتهما بالطاعة والولاء، وانتقلا بمن معهم نحو صحارى بخارى حيث أقاموا هناك فخافهما أميرها فساروا إلى بلاد بوغراخان ملك التركستان ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبينهما فسجن الملك (بوغراخان) طغرل بك غير أن داود قد داهم بمن معه بوغراخان وأنقذ أخاه طغرل بك ومن ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك، غير أن الدولة السامانية قد كانت في أواخر عهدها، وكانت تبرز قوة جديدة هي قوة الغزنويين وقد اصطدموا معهم، وانتهى الصدام بأسر أرسلان بن سلجوق عم طغرل بك، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى زعماء السلاجقة إمرة بعض المدن والمناطق، وطلب أبناء الأخ من الغزنويين إطلاق سراح عمهم أرسلان بن سلجوق.

زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥، ودخل الغزنويون خراسان على حين دخل إيلك خان بلاد ما وراء النهر، ورجع الخلاف مرةً أخرى بين الغزنويين والسلاجقة فتمكّن طغرل بك أن يستولي على مرو عام ٤٢٩، وذكر اسمه في خطبة الجمعة باسم ملك الملوك، ثم استولى على نيسابور عام ٤٣٢ وعلى جرجان وطبرستان عام ٤٣٣، كما ضم كرمان وبلاد الديلم إليه في العام نفسه، ثم استولى على خوارزم عام ٤٣٤، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين، فدخل طغرل بك أصبهان عام ٤٣٨ ثم تمّ الاتفاق معهم وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار البويهي، كما تزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرل بك عام ٤٣٩.

انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فاتجه إلى دياربكر، وقاتل الروم، وانتصر عليهم، وعقد هدنة معهم واشترط بناء مسجد في القسطنطينية فأقيم، وأقيمت فيه الصلاة، وخطب لطغرل بك فيه.

تقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم، وانتخب ملكاً عليهم جميعاً طغرل بك ولم يكن له أولاد، واتخذ مدينة الري حاضرةً له، وقد اختير ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ليكون مع عمه طغرل بك مساعداً له، ونتيجة ما قدّم طغرل به من خدمات، ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي الملك الرحيم، ثم استأذن طغرل بك الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد عام ٤٤٧، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي الملك الرحيم أن يتبع ويخضع لطغرل بك، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة.

اضطر طغرل بك أن يقاتل أخاه لأمه (إبراهيم ينال) الذي تمرّد عليه، أو أن البساسيري قد أوقع بينهما، كما اشتغل داود أخو طغرل بك بقتال الغزنويين فاستغل البساسيري هذا الموقف ودخل بغداد عام ٤٥٠ غير أن داود قد عقد صلحاً مع سلطان الغزنويين إبراهيم بن مسعود، وانتصر طغرل بك على أخيه إبراهيم وقتله فصفا الأمر للسلاجقة واتجه طغرل بك إلى بغداد فدخلها عام ٤٥١ وقضى على البساسيري الذي لم ينعم بالتفرد بالسلطة في بغداد، وسجن الخليفة بأكثر من سنة. وكان الخليفة قد تزوج خديجة بنت داود أخي طغرل بك. ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة عام ٤٥٤ وتزوجها بعد تردّد وتمنّع من الخليفة. واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفي عام ٤٥٥ بعد أن وصل إلى الري. وكان وزيره عميد الملك منصور بن محمد أبي نصر الكندري.

كان طغرل بك عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلاة، ويصوم يومي الاثنين والخميس. وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريماً[1].

وكان طغرل بك قد أوصى بمن بعده لابن أخيه سليمان بن داود إذ أن أمه كانت عنده، وقد جلس على كرسي السلطنة بمساعدة الوزير

---

(١) الكامل في التاريخ.

الكندري، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه وانتصر عليه وتسلّم السلطة وقبض على الوزير الكندري وأرسله إلى مرو حيث سجن فيها ثم قتل عام ٤٥٧. ولعل أهم حدث خلّد ذكر ألب أرسلان انتصاره الحاسم على الروم في ملاذكرت، وكان جيش الروم يزيد على مائتي ألف ويضمّ الروم، الروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها على حين أن جيشه لم يكن ليزيد على عشرين ألف مقاتل، كما أُسر أمبراطور الروم في هذه المعركة التي جرت عام ٤٦٣، وكان هذا الأمبراطور هو (ديوجنيس رومانوس) ففداه السلطان، وأطلق سراحه مع جماعة من أمرائه وقواده بشرط أن يطلق سراح كل أسير مسلم بيد الروم، وأن يرسل إليه عساكر الروم وقت طلبها.

وتمكّن أحد قادة ملكشاه بن ألب أرسلان في هذا العام أن يفتح بيت المقدس والرملة وينقذها من أيدي العبيديين. وفي عام ٤٦٥ سار ألب أرسلان على رأس مائتي ألف مقاتل باتجاه بلاد ما وراء النهر وقصد الصين، ولكن خرج له كمين فقتله، فكان رحمه الله كريماً عادلاً عاقلاً، وكان رحيم القلب مُقراً بأنعم الله عليه، وكان يتصدّق على الفقراء ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار(١). وكان وزيره نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق.

واستمر سلطان السلاجقة حتى سيطر على مناطق نفوذهم الخوارزميون عام ٥٩٠، واستمر ذلك حتى جاء المغول، ثم دخل هولاكو بغداد عام ٦٥٦ فزال سلطان الدولة العباسية.

---

(١) الكامل في التاريخ.

قَائِمَة بخلفَاءِ هذهِ المرحَلَة:

١ ـ المقتدي	٤٦٧ ـ ٤٨٧
٢ ـ المستظهر	٤٨٧ ـ ٥١٢
٣ ـ المسترشد	٥١٢ ـ ٥٢٩
٤ ـ الراشد	٥٢٩ ـ ٥٣٠
٥ ـ المقتفي	٥٣٠ ـ ٥٥٥
٦ ـ المستنجد	٥٥٥ ـ ٥٦٦
٧ ـ المستضيء	٥٦٦ ـ ٥٧٥
٨ ـ الناصر	٥٧٥ ـ ٦٢٢
٩ ـ الظاهر	٦٢٢ ـ ٦٢٣
١٠ ـ المستنصر	٦٢٣ ـ ٦٤٠
١١ ـ المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦

-٢٧-

المقتدي بأمر الله

عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم

٤٦٧ - ٤٨٧

بعد أن دخل السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ بقي القائم بأمر الله خليفةً مدة عشرين سنة أخرى، بل إن هذا الخليفة هو الذي أذن لطغرك بك زعيم السلاجقة أن يدخل بغداد.

كان للقائم بأمر الله ولد توفي في حياته عام ٤٤٨ واسمه محمد، وكانت أم ولده «أرجوان»[١] حامل فوضعت بعد وفاة زوجها محمد بن الخليفة القائم ولداً، أسماه جده على اسمه عبد الله، ولقبه المقتدي وقد بويع بالخلافة بعد وفاة جده القائم عام ٤٦٧ وعمره تسع عشرة سنة فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله. كان ديّناً، خيّراً، قوي النفس، عالي الهمة، من نجباء بني العباس[٢]. ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد[٣]. وكان يكنى أبا القاسم، وقد خطب الخليفة ابنة السلطان ملكشاه عام ٤٧٤ وتزوجها عام ٤٨٠، لكنها لم تلبث أن توفيت عام ٤٨٢.

دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩ ونزل في دار المملكة ومكث مدة ثم

---

(١) كانت تدعى قرة العين.

(٢) تاريخ الخلفاء.

(٣) المصدر نفسه.

رجع إلى أصبهان، وكذلك جاء ثانية في عام ٤٨٤ وبقي مدة ثم عاد إلى قاعدته غير أن قدومه الأخير عام ٤٨٥ كان يضمر فيه الشرّ، فقد أرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يغادر بغداد، ويتركها له، وأن يسير إلى حيث يشاء من البلدان، فغضب الخليفة وطلب من ملكشاه أن يمهله ولو شهراً، فأجابه: إنه لا يمهله ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام غير أن الموت لم يمهل ملكشاه إذ مرض وتوفي في هذه الأثناء، وقيل: إن الخليفة كان يصوم ويدعو على ملكشاه.

وفي أيام المقتدي استردّ المسلمون من الروم إنطاكية على يد سليمان بن قطلمش السلجوقي عام ٤٧٧، وكان الروم قد أخذوها من المسلمين عام ٣٥٨. كما استردّ المسلمون منبج عام ٤٦٨ على يد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس. وانتصر المسلمون في الأندلس في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩ على النصارى الإسبان بعد أن دعم الأندلسيين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب، وكان هذا النصر مؤزراً، وكانت المعركة حاسمةً. كما فتح المسلمون في أيامه أجزاء من الهند، وأخذوا قلاعاً حصينة هناك على أيدي الغزنويين.

وفي أيام المقتدي أعيدت الخطبة للعباسيين في دمشق عام ٤٦٨، وفي مكة عام ٤٧٤ بعد أن انقطعت ثانية عام ٤٦٧هـ.

وتوفي الخليفة المقتدي ـ رحمه الله ـ في مطلع عام ٤٨٧ في ١٤ المحرم، وبذا تكون خلافته قد قاربت العشرين عاماً، وكان فيها خير للمسلمين.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

بعد معركة ملاذكرت ضعفت الدولة البيزنطية ضعفاً ظاهراً بحيث لم تعد تقوى على شيء وخاصةً أن إمبراطورها قد أُسر في تلك الموقعة الشهيرة، فتقدّم السلاجقة في بلاد الأناضول ثم قامت إمارات سلجوقية لعل أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان الأول بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق والتي عُرف السلاجقة فيها باسم سلاجقة الروم وكان مقرها قونية، وكانت هذه أول الإمارات السلجوقية في بلاد الأناضول ثم أعقب ذلك قيام إمارات أخرى.

ولما تأسست إمارات سلجوقية في الأناضول قامت كذلك إمارات أخرى في أرمينيا إلى جانب دويلات أرمينية هذا بالإضافة إلى الأرمن الذين فرّوا نحو الغرب من وجه السلاجقة وأسسوا إمارةً لهم في كيليكيا في شمال غربي بلاد الشام وكانت مستقلةً وبقيت حتى انهارت على أيدي المغول في أواخر القرن السابع الهجري.

وتوسع ملك السلاجقة أيام ملكشاه كثيراً إذ ضمّ إليه دمشق عام ٤٦٨ وانتهت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وسار صاحب دمشق الملك المعظم الإقسيس وهو اتسز بن أوف الخوارزمي بملاحقة العبيديين إلى مصر عام ٤٦٩، وألقى الحصار عليهم فيها غير أنه لم يتمكّن من دخولها، وعندما عاد إلى دمشق سار إليه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان أخو ملكشاه، فلم يحسن الإقسيس استقباله لذا فقد قتله عام ٤٧١ وحكم دمشق مكانه.

وضمّ السلاجقة إليهم حمص وحلب، وبعد هذا الضم دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩، ومعه وزيره نظام الملك، فزارا معالم المدينة ومشاهدها وعادا بعدها إلى أصبهان في شهر صفر من عام ٤٨٠، وفي هذه الأثناء تزوج الخليفة ابنة السلطان ملكشاه.

وضمّ السلاجقة إليهم بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها من أحمد خان عام ٤٨٢، ووصلوا إلى كاشغر في تركستان الشرقية، وحملت جزية الروم إلى السلطان ملكشاه وهو في كاشغر ليرى رسل الإمبراطور البيزنطي سعة أملاك ملكشاه، وبعد ذلك اتجه ملكشاه إلى بغداد عام ٤٨٤، وعاد بعدها إلى أصبهان؛ كما اتسع سلطان ملكشاه إلى اليمن وعدن، وانتصر على الغزنويين بعد أن هُزم عمه عثمان أمامهم وأُسر وحمل إلى غزنة.

اختلف ملكشاه مع أخيه صاحب دمشق تتش، وجرى قتال بين الطرفين، كما أن أخاه الثاني تكش صاحب طخارستان قد استولى على بعض أجزاء من خراسان. وانتصر ملكشاه على عمه تاروت صاحب كرمان وقتله.

ولم يقتصر السلاجقة في أيام ملكشاه على توسعة نفوذهم في البلاد الإسلامية بل تخطّوها فتوسعوا بانتشارهم في بلاد الروم، واستردوا بعض ما كان الروم قد أخذوه من المسلمين، إذ استرد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس منبج من الروم ٤٦٨، كما استرد سليمان بن قطلمش صاحب قونية من الروم مدينة إنطاكية عام ٤٧٧ وقد كانت بيد الروم منذ سنة ٣٥٨هـ.

وعاد ملكشاه ثانيةً إلى بغداد، وكان في هذه المرة يضمر الشرّ للخليفة، فما أن دخلها حتى طلب من الخليفة أن يغادرها ويتركها له، ويرتحل إلى أية جهةٍ يشاء، فطلب الخليفة من أن يمهله شهراً فرفض ملكشاه إمهاله ساعةً واحدةً فطلب الخليفة عندئذٍ من الوزير أن يرجو السلطان مهلة عشرة أيام على الأقل، غير أن السلطان قد غادر بغداد في أثناء ذلك، وتوجّه ملكشاه نحو أصبهان ومرض في الطريق، وما أن وصل إلى مقصده حتى أدركته منيته وذلك عام ٤٨٥.

كتمت زوجة السلطان «تركان خاتون» موته، واستدعت الأمراء، وأعلمتهم بالأمر، واستخلفت ابنها محمود وهو صغير السن إذ لا يزال في الخامسة من عمره.

كان ملكشاه أحسن الملوك سيرةً حتى كان يلقب بالسلطان العادل[1]. وكان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يتصل به في سهولة ويسر لرفع ظلامته أو للتعبير عما لحقه من اضطهاد. وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام في أمنٍ وطمأنينة[2]. كما حفر ملكشاه الآبار في طريق مكة، وبنى منارة القرون بالسبيعي في طريق مكة، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر. وأسقط المكوس عن حجاج بيت الله، وقد سارت مهارته في الصيد على كل لسان[3].

واستوزر السلطان ملكشاه وزير أبيه السلطان ألب أرسلان وهو أبو الحسن علي بن إسحاق المعروف بنظام الملك[4]، وكان ألب أرسلان قد عهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه، فلما تولى ملكشاه الأمر بعد أبيه ألب أرسلان استبقاه وجعله مدبر ملكه ومستشاره الأمين، وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت، وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، واشتهر ببناء المدارس وخصص لها النفقات العظيمة، وأملى الحديث ببغداد ونيسابور، وكان قد تعلم العربية منذ صغره، وصدف عن الدنيا في أواخر حياته.

قبض نظام الملك وأولاده الاثنا عشر على زمام الدولة بشكل جيد،

---

(١) وفيات الأعيان ـ ابن خلكان.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكامل في التاريخ.

(٤) ولد نظام الملك بمدينة طوس عام ٤٠٨، وكان أبوه من أصحاب محمود بن سبكتكين الغزنوي.

وقتل نظام الملك وهو صائم بالعاشر من رمضان عام ٤٨٥ على يد أحد غلمان الباطنية. وكان السلطان ملكشاه قد لقبه أتابك أي «الوالد الأمير»، ومات السلطان ملكشاه بعده بشهر وخمسة أيام.

توفي ملكشاه في منتصف شوال عام ٤٨٥ وخلف عدداً من الأولاد أكبرهم بركيارق ولد عام ٤٧٢، ومحمد ولد عام ٤٧٣، وسنجر ولد عام ٤٧٧، ومحمود ولد عام ٤٨٠، أما ولده الكبير أحمد فقد توفي عام ٤٧٤ وكان يريد توليته العهد من بعده.

استطاعت زوجة ملكشاه «تركان خاتون» بمساعدة الوزير تاج الملك تولية ابنها محمود الصغير السلطنة بعد أبيه ملكشاه، ووافق الخليفة بعد تردد على تلك التولية، وخطب له بعد الخليفة، وكان الوزير تاج الملك يقوم بالوصاية عليه.

كان محمود بن ملكشاه في بغداد، وكان أخوه بركيارق في أصبهان، وخشيت تركان خاتون من منافسة بركيارق لأخيه الصغير محمود فأرسلت إلى أصبهان من قبض على بركيارق وسجنه، غير أن أحد أبناء نظام الملك قد أخرجه من السجن، وانتقل به إلى الري ونصبه ملكاً، ووقع القتال بين الطرفين، وهزم جيش محمود واعتصم بأصبهان، وحاصره أنصار بركيارق، وتم بعدئذ الصلح بين الطرفين مقابل مبلغ من المال يدفع لبركيارق. وقُتل في هذه الأثناء عام ٤٨٦ الوزير تاج الملك. وعاد الصدام بين الأخوين بعد أن حرّضت أم محمود «تركان خاتون» على بركيارق خاله إسماعيل إلا أن إسماعيل قد هزم. وانتصر بركيارق في النهاية، واتجه إلى بغداد، ونودي به سلطاناً في مطلع عام ٤٨٧ (١٤ المحرم)، على حين بقي محمود بأصبهان، ووافق الخليفة على سلطنة بركيا رق وقلّده، وفي اليوم التالي لهذا التقليد توفي الخليفة نفسه (١٥ المحرم).

٢ ـ شاه خوارزم:

كان أحد سقاة بلاط السلطان ملكشاه رجل يُدعى: «أنوشتكين»

ووظيفة الساقي هي الإشراف على موائد القصر، وقد اشترك «أنوشتكين» في القتال الذي دار بين السلاجقة والغزنويين، وكان له باع في إحراز النصر السلجوقي بعد الهزيمة التي حلت بهم فكافأه السلطان ملكشاه وأعطاه إقطاعية خوارزم (مدينة خيوه) الواقعة جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) بمائتين وثلاثين كيلومتراً، فبدأ أنوشتكين ملكه عام ٤٧٠، واستمر في حكمه مدة عشرين سنة حيث توفي وخلفه ابنه قطب الدين عام ٤٩٠.

٣ ـ الغزنويون:

حكم الدولة الغزنوية إبراهيم بن مسعود من عام ٤٥١ حتى عام ٤٩٢ وكان قوي الشكيمة، انتصر على السلاجقة، وأسر عثمان عمّ السلطان ملكشاه وحمله أسيراً مع خزائنه إلى غزنة غير أنه لم تمض مدة حتى هزم أمام السلاجقة وذلك عام ٤٨٢، وقد عرف باسم ظهير الدين، وبدأت الدولة الغزنوية منذ ذلك الوقت بالأفول.

٤ ـ العبيديون:

بعد أن امتد نفوذ العبيديين كثيراً في أوائل أيام المستنصر بدأ هذا المد بالانحسار تدريجياً إذ انسحب العبيديون من الحجاز ومن بلاد الشام، واضطر المستنصر أن يسحب واليه على عكا بدر الجمالي عام ٤٦٦، هذا من ناحية المشرق، أما من ناحية المغرب فقد زال سلطانهم عنها أيضاً، ولم يبق لهم سوى مصر، وتوفي المستنصر عام ٤٨٧، وآل الحكم من بعده لولده الأصغر أحمد أبو القاسم المستعلي وأبعد ابنه الأكبر نزار.

٥ ـ آل زيري:

بعد وفاة المعز بن باديس عام ٤٥٤ آل أمر الدولة من بعده إلى ولده تميم وكان في أيام أبيه والياً على المهدية، وقد استطاع تميم هذا أن يسترد مدن سوسة وتونس وصفاقس بعد أن كان الهلاليون وغيرهم قد غلبوا أباه

عليها وأخرجوه إلى المهدية، وهاجمت مراكب الإفرنج إفريقية، واستولوا على المهدية عام ٤٨٠، ثم صالحهم على مال أخذوه وانصرفوا.

أما صقلية فقد كان بعض أهلها قد استعانوا بالنورمانديين فجاءوا واحتلوا عدداً من مدنها، وجاء فريق منهم مستنصرين بالمعز بن باديس فأرسل إليهم أسطولاً غرق أكثره، وعندما قام تميم بالأمر أرسل لأهل صقلية أسطولاً مساعدة لهم ضد النورمانديين، فحدث خلاف بين المسلمين في صقلية استغله النورمانديون فهاجموا الجزيرة، واستطاعوا السيطرة عليها تماماً عام ٤٨٤، وبذا زال نفوذ آل زيري نهائياً من صقلية. وكانت صقلية بيد المسلمين منذ سبعين ومائتي سنة.

هاجم الطليان تميم بن المعز في أسطول كبير غير أنه تمكن من هزيمتهم والانتصار عليهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم. واعتلّت أموره في أواخر أيامه فكان ينتقل بين المهدية وقابس وجربا وصفاقس إلى أن توفي في المهدية عام ٥٠١، وكان شجاعاً ذكياً له عناية الأدب، ينظم الشعر، وله ديوان كبير.

وفي إمارة آل حماد توفي الناصر بن علناس بن حماد، وتولى مكانه ابنه المنصور عام ٤٨١.

٦ ـ الإمارة المغراوية:

عندما قامت صنهاجة في بلاد المغرب بدعوة العبيديين ثبتت زناتة على الدعوة للأمويين في الأندلس، وقادها زيري بن عطية من قبيلة مغراوة وهي فرع من زناتة فملك مدينة فاس ثم اتسع سلطانه، وخاض حروباً كثيرة كان آخرها قتاله لجيوش ابن أبي عامر من الأندلس، فأثخن بالجراح ومات عام ٣٩١، وخلفه ابنه المعز بموافقة أبناء عمه وجاءه تقليد المظفر بن أبي عامر بولايته على المغرب كله، ما عدا سجلماسة، فأقام تابعاً لقرطبة إلى أن انقرضت الدولة الأموية بعد انقراض الدولة العامرية، فاستقل بالأمر، واستمر إلى أن توفي بفاس عام ٤٢٢ وكانت أيامه أيام هدوء وأمن. ثم

تولّى الأمر من بعده بعض أبناء عمومته وفي عام ٤٥٧ آل الأمر إلى منعصر بن المعز، وقد كان في أيام أبيه بقرطبة رهينةً لدى المظفر بن أبي عامر فلما شبت الفتنة بالأندلس عاد إلى فاس وبقي حتى أصبح له أمرها، قاوم المرابطين وفقد إحدى عينيه عام ٤٦٠، وقام ابنه تميم مكانه، فهاجمه المرابطون ودافع عن فاس إلى أن قتل عام ٤٦١ ودخل المرابطون فاس وانقضت دولة مغراوة.

٧ ـ المرابطون:

كانت القبائل التي تقيم في صحاري المغرب كثيرة وكلها تنتمي إلى الإسلام، ولكن لم تكن لتعرف إلا القليل من أحكامه، وكان أكثرها حماسةً قبيلة لمتونةً، ومن القبائل الأخرى جدالة التي هي فرع من صنهاجة أيضاً، وفي عام ٤٤٠ ارتحل رجل من جدالة يدعى يحيى بن إبراهيم إلى المشرق لأداء فريضة الحج وفي أثناء عودته حضر بمدينة تونس حلقة علم لعالم يدعى أبا عمران الفاسي الذي لاحظ ميل يحيى نحو العلم وعندما اختبره وجده لا يعرف شيئاً رغم أنه أمير قومه، وعندما سأله عن موطنه أخبره وأعلمه أن الجهل يسود تلك المواطن، ثم طلب منه أن يرسل معه أحد تلامذته ليفقه الناس، وعندما سأل الشيخ طلابه في الارتحال مع يحيى لم يستجب أحد لبعد الشقة وطول الطريق رغم أنه قد شجعهم كثيراً، ولما وجد هذا أرسله إلى أحد فقهاء المغرب وزوّده بكتاب، ويدعى هذا الفقيه «واجاج بن زللو» اللمطي فاستقبل (واجاج) ضيفه يحيى ورحّب به، وبعث معه عبد الله بن ياسين الجزولي إلى حيث تنتقل لمتونة، ومسوفة، وجدالة الصنهاجية، وأصله من مدينة سجلماسة.

بدأ عبد الله بن ياسين في تعليم رجال القبائل أمور دينهم، ولكنه لم يجد صلاحاً في سلوكهم لذا قرر الرحيل عن ديارهم مغاضباً لما وجد من إعراض، غير أن يحيى بن إبراهيم الجدالي قد تمسك به وانتقل معه إلى جزيرة في نهر السنغال حيث أسسا هناك رباطاً للمحافظة على الدين والبعد

عن العادات المخالفة للإسلام لكن سرعان ما اتجه أناس نحو هذا الرباط، وتتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين وقبلوا نصائحه وقد وصل عددهم إلى ألف شخص، وقد أثار فيهم روح الجهاد لإحياء نظام الإسلام وقتال الظالمين الذين يقفون في وجه الدعوة وأمام تطبيق المنهج الإسلامي بشكل سليم، ولما بلغ عدد المرابطين هذا العدد وهو الألف قادهم شيخهم عبد الله بن ياسين إلى الجهاد.

انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، لذلك زاد تحول قبيلة صنهاجة إلى الإسلام الذي بدأ من عهد عقبة بن نافع، وقام تحالف بين قبائل الملثمين جميعاً بزعامة قبيلة لمتونة، ولم يكن هذا التحالف ليستطيع التوسع نحو الشمال بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من (زناتة ومصمودة) لذا فقد أخذ هذا الحلف ينتقل بأبنائه نحو الجنوب ويتوسع في تلك الجهة، وتمكن هذا الحلف إلى أن يستولي على مدينة (أودغشت) التي اتخذها قاعدة له، وفرض على أهلها المغلوبين الجزية.

تفككت عُرا هذا الحلف عام ٣٠٦ مما جعل إمبراطورية غانة تستعيد مدينة (أودغشت)، وبعد مدة وجدت قبائل الملثمين نفسها بحاجة إلى إعادة الوحدة التي فيها دعائم القوة فعاد الحلف وتمكّن ثانيةً من السيطرة على (أودغشت) عام ٣٥٠ ثم لم يلبثوا أن تركوها مرةً أخرى لغانة بعد أن تصدع الحلف ولم تكن نتائج هذا التصدع ضياع مدينة (أودغشت) فقط وإنما قتل زعيم لمتونة سيدة هذا الحلف. وأمام هذه الهزيمة فقد تخلّت أيضاً قبيلة لمتونة عن زعامة الملثمين، وتولّت أختها (جدالة) هذه الزعامة، ويبدو أن حظها في القتال كان أفضل من سابقتها وربما كان لقرب منازلها من إمبراطورية غانة. وكان سيد جدالة يومذاك يحيى بن إبراهيم الذي التقى مع العالم أبي عمران الفاسي، ثم انطلق مع عبد الله بن ياسين إلى الرباط الأول للملثمين.

انطلق عبد الله بن ياسين برجاله نحو غانة واستطاعوا فتح (أودغشت)

عام ٤٤٦ وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام، وقد استشهد يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فتحت فيها مدينة (أودغشت)، وخلفه في زعامة المرابطين يحيى بن عمر سيد لمتونة.

استنجد أهل سجلماسة، ودرعة بالمرابطين فسار إليهم عبد الله بن ياسين وجماعته من المرابطين، واستطاعوا تخليص هذه المناطق من حكم دولة مغراوة، وفي إحدى المعارك استشهد يحيى بن عمر اللمتوني فأعطى عبد الله بن ياسين قيادة جيش المرابطين إلى أخيه أبي بكر بن عمر اللمتوني، وأمره بغزو بلاد السوس، فعيّن أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين، واستولى المرابطون على بلاد السوس، وفتحوا بلاد جزولة وماسة، ثم اتجهوا إلى بلاد المصامدة ففتحوا مدينة نفيس، ثم ساروا إلى أغمات وعليها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ففر إلى أبناء عمومته بني يفرن، ملوك سلا، وتادلا، واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات عام ٤٤٩ وأن يجعلوها قاعدةً لهم.

اتجه عبد الله بن ياسين بجماعته إلى قتال قبيلة برغواطة التي تقيم على ساحل المحيط الأطلسي بين سلا وآسفي في سهول الشاوية الحالية جنوب مدينة الدار البيضاء، وقد استشهد عبد الله بن ياسين أثناء قتال هذه القبيلة وذلك عام ٤٥١، واستمر أبو بكر بن عمر في قتال برغواطة حتى خضعوا له، ثم انصرف هو إلى الحرب في الصحراء على حين ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين لقتال مغراوة.

سار أبو بكر للقتال في صحارى الجنوب فتقدّم في بلاد السودان وأحرز انتصارات واسعة ورجع إلى أغمات بعد انتهاء مهمته فوجد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد نظم أمره، وقوّى جيشه، ونازل خصومه، وانتصر عليهم، فتنازل أبو بكر ليوسف عن إمارة المرابطين أمام سادات القوم، وعاد إلى الجنوب يجاهد في سبيل الله، وقد تمكن من دخول عاصمة إمبراطورية غانة مدينة كومبي صالح عام ٤٦٩ وذلك بمعاونة قبائل التكرور،

وفرض الإسلام على جميع البلاد التي دخلها. وقبل ملك غانة (تنكامنين) الدخول في الإسلام، والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل كثير من رعاياه في الإسلام. وتوفي أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، وضعف أمر المرابطين فاستقلت قبائل السوننكي، وأعلنت الارتباط بالدولة العباسية، وبدأت تدعو إلى الإسلام، وأصبحت مملكة غانة مسلمة، وغدت اللغة العربية لغتها الرسمية.

أما يوسف بن تاشفين فقد أرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي يعلمه ببيعته، وكان يوسف رجلاً ديناً خيّراً حازماً داهيةً مجرباً. وتمكّن أن يدخل مدينة فاس عام ٤٦١ وأن يقضي على دولة مغزاوة. وابتنى يوسف مدينة مراكش وجعل حاضرة ملكه، وانتقل إلى الأندلس لدعم المسلمين، وقاتل النصارى الإسبان في معركة الزلاّقة.

٨ ـ الأندلس:

كانت بلاد الأندلس مقسمة بين ملوك الطوائف، وكان أشهرهم المعتمد بن عباد حاكم مدينة إشبيلية، واستطاع أن يتغلب على بني جهور في قرطبة، وقد استنجدوا به ضد المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة الذي استولى على مدينتهم فجاء ابن عباد، ودخل قرطبة وغدت تابعة لإشبيلية.

وفي عام ٤٧٨ سقطت طليطلة بيد النصارى الإسبان الذين هددوا أملاك ابن عباد فدفع لهم الأتاوة غير أنهم قد طلبوا تسليم عدة قلاع، فرأى ابن عباد أن يستنجد بيوسف بن تاشفين ضدهم، وفي عام ٤٧٩ عبر ابن عبّاد بحر الزقاق إلى العدوة المغربية، وكان ابن تاشفين في سبته فالتقى به، وطلب ابن عباد من ابن تاشفين نجدة المسلمين في الأندلس والجهاد في سبيل الله فأجابه: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، واستقدم من بقي من جنده في مراكش، ثم عبر البحر في مائة مركب تحمل سبعة آلاف جندي، واتجه إلى الجزيرة الخضراء

فتلقّاه ابن عباد في وجوه دولته. ويمم وجهه شطر العدو مباشرةً، ورفض الاستراحة في إشبيلية أياماً حسب طلب ابن عباد، واتجه عدد من المتطوعين المسلمين إلى جيشه حتى زاد على العشرين ألفاً، وجاء جيش ملك النصارى الفونس السادس وكان جراراً يضم جموع النصارى من أقاصي المملكة مع من يدعمهم، والتقى الطرفان في سهل الزلاّقة بالقرب من مدينة بطليوس، ووقف جيش المعتمد بن عباد في المقدمة، واصطف جيش يوسف به تاشفين خلف أكمةٍ عالية من الجبل. وحاول الفونس السادس الخديعة إذ تبادلت الرسل بين الفريقين لتحديد يوم القتال، واقترح النصارى ألا يكون الجمعة لأنه عيد المسلمين ولا السبت لأنه عيد اليهود وهم وزراء النصارى في الأندلس وكتّابهم ولا الأحد لأنه عيد النصارى. غير أنه ما حان يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة حتى بدأ هجوم النصارى، غير أن المعتمد بن عباد كان يخشى هذه الخديعة لذا فقد بقي في سلاحه وتصدّى لهجوم النصارى، وانتهى المرابطون من صلاتهم وحملوا على النصارى وبدأوا فيهم قتلاً حتى قيل إنهم قد أفنوهم عن آخرهم وذلك في منتصف رجب من عام ٤٧٩، وقيل في أوائل رمضان. واستولى المسلمون على كل ما كان مع النصارى، وقد آثر يوسف بن تاشفين بهذه الغنائم من انضم إليه من ملوك الأندلس لذا فقد أحبوه، كما أحبه الشعب. أما ملك النصارى الفونس السادس فقد نجا من المعركة إذ فرّ منها. وبعد المعركة ثارت عوامل حقد النصارى وملكهم على ابن عباد الذي استدعى ابن تاشفين، لذا فقد ركّز الفونس السادس غاراته على أطراف مملكة ابن عباد.

عاد المعتمد بن عباد إلى المغرب وطلب نجدة يوسف بن تاشفين ثانية فوافقه واتجه يوسف إلى الأندلس ولكن لم يأت إليه من ملوك الأندلس إلا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وابن عبد العزيز صاحب مرسية، وبدأ المسلمون بشن الغارات على بلاد النصارى الذين لم يجرؤوا على مواجهة المسلمين، وكان هناك خلاف بين ابن عباد وابن عبد العزيز،

وألقي القبض على ابن عبد العزيز حسب رأي ابن عباد، وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب وفي نفسه شيء على ملوك الأندلس.

وفي عام ٤٨٣ جاز يوسف بن تاشفين بحر الزقاق إلى العدوة الأندلسية وهي المرة الثالثة، وسار نحو طليطلة وحاصر بها الفونس، وقتل كثيراً، وقطع الثمار، ولم يأت لمساعدته أحد من ملوك الأندلس، ولم يتمكن من دخول طليطلة ففك الحصار عنها، وعاد نحو غرناطة فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح الفونس وظاهره، وحاصر غرناطة وطال حصاره فطلب صاحبها منه الأمان فأمنه يوسف وحمله معه وأخاه تميم صاحب مالقة إلى مراكش، وولّى على غرناطة ومالقة سيري بن أبي بكر اللمتوني وطالبه بملاحقة ألفونس، وانتقل هو إلى المغرب في شهر رمضان عام ٤٨٣.

قبل انتقال يوسف بن تاشفين إلى المغرب طلب من واليه على غرناطة أن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين، ويلحق أمراءها بالمغرب، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة، وألا يتعرض للمعتمد بن عباد حتى يستولي على سائر الإمارات ويولي عليها أمراء جنده.

استولى سيري بن أبي بكر على جيّان، وقرطبة، وقرمونة، فاستنجد المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بألفونس السادس الذي أمده بعشرين ألفاً، فسار إليه عندئذٍ سيري بن أبي بكر، والتقى به على مقربة من حصن المدور، ثم ضيق عليه حتى فتحت إشبيلية أبوابها له فدخلها، وطلب ابن عباد الأمان، فأُعطي له، وحمله وولده وأهله معه، وحزن الناس على ابن عباد حيث كان موصوفاً بالكرم وحسن السيرة والعشرة والإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وأرسلهم إلى أمير المسلمين يوسف به تاشفين فأنزلهم بأغمات قريباً من مراكش، وهذا كله قد حدث بأقل من نصف سنة من عام ٤٨٤، وفي العام التالي دخل المرابطون بإمرة يوسف بن داود بن عائشة مدينة المرسية، ودانية، وشاطبة، والمرية، وبلنسية، وكان صاحب الأخيرة القادر بن ذي النون يخضع للألفونس السادس، ويدفع له أتاوةً سنويةً.

وتوفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ وخلفه ابنه علي، وكان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم، ويسند إليهم مناصب الدولة، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب، ويستمع إلى الموعظة في خشوع، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠هـ[١].

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة.

٩ ـ اليمن:

استقر حكم الصليحيين في اليمن ودانت لهم المناطق كلها، بل استولى الصليحيون على المدينة المنورة عام ٤٧٧، وكان سعيد الأحول بن نجاح قد فرّ إلى جزر دهلك، ورجع بعد مدةٍ وقاتل المكرم به علي الصليحي غير أنه قد هزم أمامه عام ٤٨١ ثم قُتل، وفرّ أخوه جيّاش بن نجاح إلى الهند.

عاد جيّاش بن نجاح من الهند بعد سنتين، وقاتل المكرم بن علي الصليحي، واستطاع أن ينتصر عليه وأن يعود إليه حكم اليمن. أما المكرم الصليحي فقد توفي عام ٤٨٤ وهو في طريقه إلى صنعاء، وقد أوصى في الملك من بعده لزوجته أروى بنت أحمد الصليحي[٢]، وفي الدعوة إلى ابن

---

(١) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الرابع.

(٢) أروى بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي، توفي أبوها عامل الصليحي على عدن، وكانت طفلة صغيرة، فكفلها الصليحي وربتها زوجته أسماء بنت شهاب، فلما كبرت تزوجها المكرم بن الصليحي، كانت راجحة العقل، حسنة التدبير للملك.

عمه سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي، وقد تزوج سبأ أروى بعد وفاة المكرم بخمسة أشهر بعد أخذ الإذن من الخليفة العبيدي المستنصر حسب اقتراحها، وحكم سبأ الصليحيين حتى عام ٤٩٢، والتقى مع بني نجاح في عدة معارك.

وتبعت عدن الصليحيين بعد أن أخذوها من عمال بني يعفر، وولّى علي بن محمد الصليحي على عدن أحد أبناء أسرته وهو أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي والد أروى، ثم توفي أحمد بن جعفر بسبب انهدام منزله عليه، فتولى أمر عدن للصليحيين علي بن محمد بن معن، ولما توفي خلفه ابنه معن بن علي فخلع طاعة المكرم الصليحي عام ٤٦٧، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً على عدن.

وفي عام ٤٧٠ غزا المكرم الصليحي عدن، وطرد معن بن علي، وولّى عليها العباس، والمسعود ابني المكرم اليامي الهمداني المعروفين بابني الزُّريع واستمر لهما الأمر حتى توفي العباس عام ٤٧٧ فخلفه ابنه زريع بن العباس، وتوفي المسعود عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبو الغارات بن المسعود الذي توفي عام ٤٨٥ فخلفه ابنه محمد حتى عام ٤٨٨. كما توفي الزريع بن العباس عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبوالسعود بن الزريع واستمر في حكمه حتى عام ٤٩٤[١].

* * *

(١) انظر اليمن عبر التاريخ، أحمد حسين شرف الدين.

-٣٨-
المستظهر بالله
أحمد بن عبد الله المقتدي
٤٨٧ ـ ٥١٢

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدي بالله، ولد في شوال من عام ٤٧٠، كان خيّراً فاضلاً ذكياً بارعاً، كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها أعياد، وكان راغباً في البر والخير، مسارعاً إلى ذلك، لا يردّ سائلاً، وكان جميل العشرة لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس، ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعلمها، وكان لديه علم كثير، وله شعر حسن[١]. ومن العجب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده المستظهر هذا، في سادس عشر ربيع الثاني، وله من العمر إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً[٢].

بويع بالخلافة عند وفاة أبيه وعمره سبع عشرة سنة، وفي أيامه بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي.

وتوفي عام ٥١٢.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

أصبح بركيارق سلطان السلاجقة في بغداد عام ٤٨٧، وكان عمه تُتُش تاج الدولة صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة. وسار بالجيش نحو بغداد، ووجد آق سنقر[١] صاحب حلب نفسه مضطراً إلى الانضمام إليه لعدم إمكانية مقاومته، وكذا صاحب الرها بوزان هذا بالإضافة إلى أن استقرار سلطنة بركيارق قد جاءت متأخرة، وقد استطاعت قوات تُتُش والأمراء المتحالفين معه الاستيلاء على أكثر مدن الجزيرة، وهزموا جيوش بني عقيل في الموصل، ثم اتجهوا إلى أذربيجان لملاقاة بركيارق، وما أن التقى الجيشان حتى استطاع آق سنقر أن يلعب دوراً لمصلحة بركيارق إذ أقنع بعض الأمراء بضرورة الوفاء لسلطانهم، فانسحبوا من جيش تتش، وانضموا إلى جيش بركيارق، وهذا ما أضعف تتش فانسحب بمن معه إلى بلاد الشام.

---

(١) كان آق سنقر مملوكاً تركياً من مماليك ملكشاه، وقد تربى معه منذ الصغر، فلما تولى ملكشاه السلطنة عام ٤٦٥ بلغ آق سنقر عنده منزلةً رفيعةً إذ كان يعتمد عليه في المهمات، وفي عام ٤٧٧ أمره ملكشاه أن يسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة للاستيلاء على الموصل من بني عقيل، كما سار عام ٤٧٩ مع ملكشاه للسيطرة على حلب من نواب آل عقيل فلما تمّ لهما ذلك أعطاه ولايتها، ولقبه قسيم الدولة، كما لقبه الحاجب، تسلّم آق سنقر حلب وأعمالها مثل منبج واللاذقية وحماه، ثم فرض طاعته على شيزر عام ٤٨١ ثم ضم إليه حمص عام ٤٨٣، وقلعة أفاميا عام ٤٨٤، وقتل في ٩ جمادى الأولى عام ٤٨٧.

أمر بركيارق قائده الجديد آق سنقر بالتوجه إلى حلب والتضييق على عمه تُتُش، وأمده بقوة كبيرة، وسار تتش نحو آق سنقر والتقيا على مقربة من حلب، وهزم آق سنقر وأسر وقتل. «اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسةً عادلةً. فأحسن السيرة فيهم، ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الإيمان، أنفق الكثير من الأموال على إعمار مسجد حلب، وأقام الحدود الشرعية في بلاده، وكان ـ كما وصفه ابن واصل ـ «ذا وفاء عظيم، وحسن عهد، ومروءة غزيرة. وإنما كان قتله وفاءً لسلطانه ورب نعمته: ملكشاه، وحفظاً لولده ـ بركيارق ـ من بعده»[1].

وسار تتش بعد ذلك لقتال ابن أخيه بركيارق في الري، غير أنه هزم، وقتل، وابنه دقاق، وكان قتله على يد أحد مماليك آق سنقر. وكان يوسف بن أبق التركماني قد سار إلى بغداد ليدعو إلى تتش فلما وصل إليه خبر مقتل تتش عاد إلى دمشق وامتلكها، وكان عبد الله بن تتش في حلب، ورضوان بن تتش في حماه.

وثار في خراسان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان على ابن أخيه بركيارق فحاربه عام ٤٩٠ غير أن أرسلان أرغون قد قتل، وسلّم بركيارق أخاه سنجر بلاد خراسان مكان عمه المقتول.

كان مؤيد الملك بن نظام الملك من أنجب أبناء نظام الملك، وكان وزير بركيارق غير أن بركيارق لم يلبث أن عزله وولّى مكانه أخاه عز الملك وأبا الفتح علي بن الحسين الطغرائي الشاعر المعروف فأصبح مؤيد الملك عدواً لبركيارق، واستطاع أن يؤثر على الخليفة فيقلّد السلطنة إلى محمد أخي بركيارق وقد لقبه «غيات الدنيا والدين»، وقد طالت الحروب التي نشبت بين الفريقين حتى زادت على خمس سنوات، يتصالحان ثم يعودان إلى القتال.

---

(١) عماد الدين زنكي، عماد الدين خليل.

توفي عام ٤٩٨ بركيارق فخلفه ابنه ملكشاه ولقبه الخليفة جلال الدولة غير أنه كان صغيراً لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولم يتم له الأمر سوى شهر حتى عزل وخلا الجو لمحمد بن ملكشاه وبقي في السلطنة حتى عام ٥١١ ولعل أهم الحوادث التي وقعت في أيامه.

١ ـ مناوأة ابن عمه أياز الذي حاول استلام السلطنة.

٢ ـ حرب صدقة بن مزيد صاحب البصرة، والحلة، وواسط، الذي انضم إلى الأمير ابن أياز، وقد استولى على تكريت عام ٤٩٩، وانتصر على السلاجقة ثم هزم، وقتل في عام ٥٠١، كما أسر ابنه دبيس، وهرب ابنه الآخر إلى الحلة. وكان صدقة بن مزيد جواداً حليماً صدوقاً، كثير البر والإحسان، ما برح ملجأ لكل ملهوف، يلقى من يقصده بالبر والتفضيل، ويبسط قاصديه ويزورهم. وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعةٍ. وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها، فما ظنك بغير هذا، ولم يصادر أحداً من نوابه، ولا أخذهم بإساءة قديمة، وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزانته، ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد، ولم يسمع برعيةٍ أحبت أميرها كحب رعيته له، وكان متواضعاً محتملاً يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا. وعاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل إلى الحلة، وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجة صدقة وأمرها بالظهور، فأصعدت إلى بغداد فأطلق السلطان ابنها دبيساً، وأنفذ معه جماعة من الأمراء إلى لقائها فلما لقيها ابنها بكيا بكاءً شديداً، ولما وصلت إلى بغداد أحضرها السلطان، واعتذر عن قتل زوجها، وقال: وددت أنه حمل إليّ حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس به من الجميل والإحسان لكن الأقدار غلبتني، واستخلف ابنها دبيساً لأنه لا يسعى بفساد[1].

٣ ـ **الحروب مع الباطنية**: كثر أتباع الباطنية في أصبهان عام ٤٩٢، ثم انتشروا إلى العراق بسبب الخلاف على السلطنة بين بركيارق ومحمد،

---

(١) الكامل في التاريخ.

فلما صفا الجو للسلطان محمد جرّد حرباً على الباطنية واستطاع عام ٥٠٠ أن يحتل قلعة أصبهان.

٤ ـ **القتال مع الصليبيين**: إذ أرسل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه جيشاً كثيفاً، وسار فيه أيضاً أمراء الموصل والجزيرة، واتجهوا إلى بلاد الشام، وحاصروا الرها غير أنهم لم يتمكنوا من دخولها، وتابعوا سيرهم... وسار معهم سلطان بن منقذ أمير شيرز، كما حصل قتال عام ٥٠٧ عند طبريا وانتصر فيه المسلمون، وقد قتل يومئذ مودود صاحب الموصل بدمشق على يد أحد الباطنيين. كما أمر بتسيير الجيوش عام ٥٠٩ لحرب الصليبيين.

وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً، وتوفي عام ٥١١، وخلفه ابنه محمود، وكان عمره أربع عشرة سنة.

٢ ـ دولة خوارزم:

لما مات أنوشتكين خلفه ابنه قطب الدين،وكان ذا همةٍ عاليةٍ فعينه السلطان بركيارق حاكماً على بلاد خوارزم، ولقبه شاه أي ملك، وعندما ملك سنجر خراسان أقر قطب الدين على ما تحت يده، وبقي مدة حياته خاضعاً للسلطان إذ توفي عام ٥٢١.

وفي بلاد ما وراء النهر قُتل أحمد خان صاحب سمرقند لأنه أظهر الزندقة فقبض عليه الأمراء وأحضروا الفقهاء فأفتوا بقتله فقُتل.

٣ ـ الغزنويون:

توفي ظهير الدين إبراهيم بن مسعود عام ٤٩٢، وخلفه ابنه مسعود الثالث، وظل حتى عام ٥٠٨ إذ توفي وخلفه أبناؤه الثلاثة:

١ ـ **شيرزاد**: ولقب كمال الدولة وتوفي عام ٥٠٩.

٢ ـ **أرسلان**: ولقب سلطان الدولة وتوفي عام ٥١٢.

٣ ـ **بهرام شاه**: ولقب يمين الدولة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٧.

٤ ـ العبيديون:

توفي بدر الجمالي صاحب جيوش مصر، ومدبر المملكة العبيدية عام ٤٨٧، وكان عاقلاً كريماً محباً للعلماء، وقام مقامه ابنه الأفضل، ثم توفي المستنصر العبيدي في العام نفسه، وكان قد عهد إلى ابنه الأكبر نزار إلا أن الأفضل بن بدر الجمالي قد خلع نزاراً، وولّى مكانه أخاه الأصغر أحمد ولقبه المستعلي، فهرب نزار إلى الإسكندرية وتحصّن بها، وأخذ البيعة فيها لنفسه، فسار إليه الأفضل وتمكن من هزيمته وأسره، وسجنه بين جدارين إلى أن مات، واستقر الأمر للمستعلي.

وفي عام ٤٩٠ خطب للعبيديين لمدة شهر في حلب، وأنطاكية، والمعرة، وشيزر، ثم أعيدت الخطبة للعباسيين.

وتوفي المستعلي عام ٤٩٥ وعمره ثمان وعشرون سنة، وقد حكم منها ما ينوف على السنوات السبع، وخلفه ابنه المنصور أبو علي، وعمره خمس سنوات، ولقب الآمر بأحكام الله، وقام بتدبير الدولة الأفضل بن بدر الجمالي.

ولما خلع نزار لم تعترف جماعة من الإسماعيلية بخلافة المستعلي، وبقيت بجانب نزار، ولما مات بقيت على رأيهم الخلافة أو الإمامة في عقبه، وتعرف هذه المجموعة بالإسماعيلية الشرقية، ومنها الحشاشون جماعة الحسن بن الصباح أو الذين عرفوا بالباطنية كجزءٍ من كل، وهم الذين كان لهم الدور الكبير في الاغتيالات السياسية التي تعرّض لها كثير من زعماء المسلمين وهم على ثغور الجهاد ضد النصارى في الحروب الصليبية أو في أماكنهم.

٥ ـ آل زيري:

توفي تميم بن المعز بن باديس عام ٥٠٢ وكان من خيار الملوك حلماً

وكرماً وإحساناً ملك ستاً وأربعين سنة، وعمر تسعاً وتسعين سنة، وملك بعده ابنه يحيى[1]. وفي هذه السنة في رجب توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية، وكان شهماً شجاعاً ذكياً له معرفة حسنة، وكان حليماً كثير العفو عن الجرائم العظيمة وله شعر حسن[2].

قام يحيى[3] بالأمر، وكان من قبل والياً على المهدية منذ عام ٤٩٧ من قبل أبيه، ولما استقل جعل الخطبة للعبيديين، وكانت للعباسيين. كان عاقلاً شجاعاً محباً للفتح بنى أسطولاً ضخماً غزا به جنوه وسردينيا، وضع على أهليهما الجزية، وله اطلاع على الأدب، كان يقول الشعر، وتركه بعد أن تولى. مولده ووفاته في المهدية. كان قد نفى بعض إخوته من بلاده، فاحتال عليه ثلاثة منهم، وأثخنوه بجراح سنة ٥٠٧، ومات بعد ذلك فجأة عام ٥٠٩[4] يوم عيد الأضحى، وخلفه ابنه علي، وحدثت معارك بينه وبين الأعراب، واشتد ما بينه وبين روجر الثاني صاحب صقلية فأعد عدته ليهاجم صقلية فعاجلته المنية، وكان شجاعاً حازماً توفي عام ٥١٥.

أما بنو حمّاد في بجاية فقد توفي عام ٥٠٠ باديس بن المنصور، وخلفه أخوه العزيز.

٦ ـ المرابطون والأندلس:

عندما توفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ بويع بعده ابنه علي، ولم يكن أكبر إخوته، وكان أبوه قد جعله ولياً للعهد، وأخذ البيعة له في قرطبة عام ٤٩٧، وأوصاه بالإحسان إلى أهل قرطبة وإلى قبيلة مصمودة ومهادنة بني هود ملوك سرقسطة.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) الكامل في التاريخ.

(٣) ولد يحيى بالمهدية عام ٤٥٧.

(٤) الأعلام للزركلي.

نازع علي بن يوسف ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف صاحب فاس، فسار إليه ففر من وجهه. تطلع علي إلى القضاء على مقاومة النصارى، وخاصة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي أصبح يغير على أطراف بلاد المسلمين في الأندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين، فولّى: علي أخاه تميماً على غرناطة وجعله قائد الجيش المرابطي في الأندلس، وقد استطاع تميم أن ينتصر على النصارى انتصاراً كبيراً في معركة «إقليش» التي تعد من أكبر المعارك بعد «الزلاّقة»، وذلك عام ٥٠٢، وقد قتل في «إقليش» ابن ألفونس السادس قائد جيش النصارى ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من جنده، وعندما وصل خبر المعركة إلى علي بن يوسف فرح فرحاً شديداً، وقرر المسير إلى الأندلس والقضاء على شأفة النصارى فيها، فاجتاز بحر الزقاق عام ٥٠٣، وسار إلى قرطبة، ومنها توجه للجهاد، واستطاع أن يفتح ثمانيةً وعشرين حصناً من حصون النصارى من بينها حصن مجريط (وهي اليوم مدينة مدريد)، ثم حاصر طليطلة شهراً كاملاً لكنه لم يتمكن من دخولها. كما سار إلى الجهاد عام ٥٠٤، واستطاع أن يفتح عدة حصون في غرب الأندلس من بينها أشبونه (لشبونة)، كما هزم النصارى هزيمة منكرة عام ٥٠٥، وأسر عدداً كبيراً، وحصل على غنائم لا تحصى، غير أن النصارى قد استطاعوا عام ٥١٣ أن يستولوا على مدينة سرقسطة، وأن يدخلوا قلعة أيوب في شرقي بلاد الأندلس التي تعد من أقوى القلاع وأحصنها، وربما كان لسقوط هذه القلعة بيد النصارى أثر على ضعف المرابطين.

وفي عام ٥١٤ وقعت فتنة بين أهل قرطبة وجند المرابطين أدت إلى فرار الوالي المرابطي ثم قدوم علي بن يوسف من المغرب واستنكاره لما وقع، وتم الصلح.

٧ ـ اليمن:

في عام ٤٨٣ عاد جيّاش بن نجاح من الهند إلى زبيد وملكها،

واستمر في حكمها حتى عام ٤٩٨ حيث خلفه ابنه فاتك بن جياش حتى عام ٥٠٣، حيث تولى بعده ولده منصور بن فاتك حتى عام ٥٢١.

أما الصليحيون فكان أميرهم سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي تزوج أروى بنت أحمد الصليحي، وتوفي سبأ عام ٤٩٢، فبقيت سيدة الموقف أروى وقد خرج عن طاعتها ابن بخيت واليها على جَنَد فوجهت إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً أسره، وجاء به للسيدة أروى مستغفراً طائعاً، وكان الخليفة العبيدي يطلبه فرفضت تسليمه، ثم إن أعداءه قد عظموا للسيدة أروى خلافها للعبيديين فأرسلته، وأرسلت إلى الخليفة العبيدي تستعطفه في الإحسان إليه. وتوفيت أروى عام ٥٣٢ في مدينة (ذي جبلة).

وفي عدن كان بنو زريع يحكمونها، وكان في هذه الآونة أبو السعود بن زريع الذي توفي عام ٤٩٤، ومن جهة ثانية كان محمد بن أبي الغارات الذي توفي عام ٤٨٨ فخلفه ابنه علي، وقد حاربه سبأ بن أبي السعود قرابة عامين، واستطاع سبأ أن ينتصر على خصمه، وأن يحكم المنطقة كاملةً، وقلده الخليفة العبيدي بمصر الدعوة لذا لقب بالداعي، وتمكن أن يقتل أبناء عمه أولاد ابن أبي الغارات جميعاً، واستمر سبأ في حكمه عدن حتى عام ٥٣٢.

* * *

الصَليبيُّونَ

إن الحقد النصراني على الإسلام والمسلمين والذي امتد عدة قرون بسبب الانتصارات الإسلامية على النصرانية وانتزاع أجزاء واسعة من أملاك النصرانية في بلاد الشام وشمالي إفريقية، وقد كان هذا الحقد مع كل انتصار جديد يحققه الإسلام، ولما كانت النصرانية وأبناؤها عاجزةً عن القيام بردّ فعل لذا فقد انتظرت حتى تمرّ موجة الفتوة الإسلامية، ولكن زاد انتظارها، وطالت مدة هذا المدّ الإسلامي فعندما بدأ الضعف يظهر على المسلمين أرادت النصرانية أن تقوم برد الفعل السريع وشجعها على ذلك.

الخوف من عودة القوة إلى المسلمين بعد الانتصارات التي أحرزها السلاجقة عام ٤٦٣ في معركة ملاذكرت بقيادة ألب أرسلان، والانتصار في معركة الزلاّقة في الأندلس عام ٤٧٩ بقيادة يوسف بن تاشفين، والانتصارات التي تلتها، فخافت النصرانية من عودة الروح من جديد لتدب في العالم الإسلامي الذي يتوسع باستمرار، وتدخل الإسلام مجموعات محاربة جديدة مثل السلاجقة والمرابطين، وخاصةً بعد تدفّق السلاجقة في آسيا الصغرى.

وشجعها دخول عناصر بربرية محاربة في النصرانية وهي القبائل التي كانت تنتقل في أوروبا وهذا ما أدى إلى ظهور روح حربية جديدة تدعم النصرانية، ومن هذه المجموعات، المجموعة الجرمانية، والمجرية، وإن دخول المجر في النصرانية قد جعل الشعوب النصرانية على اتصال بعضها مع بعض من الغرب إلى الشرق في آسيا الصغرى.

وشجّعها بعض الانتصارات التي حصلت عليها الإمارات الإيطالية إذ تغلبت على أمراء البحر المسلمين الذين كانوا يعيقون عمل السفن الإيطالية

في البحر الأبيض المتوسط إن لم تستجب لمطالبهم، فكانت هذه الإمارات الإيطالية ترغب في نشر تجارتها في البحر المتوسط، وبانتصارها على البحارة المسلمين زاد في رغبتها بل في محاولة إظهار قوتها ومدّ نفوذها إذ غدت لها قوة في البحر المتوسط تستطيع أن تستفيد منها في نقل جنودها، وتحرك سفنها في هذا البحر، ومن الانتصارات التي شجعتها أيضاً احتلال النورمانديين لجنوب إيطالية وجزيرة صقلية، وطرد المسلمين منها عام ٤٨٤.

وشجعها الضعف الذي حصل على دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه عام ٤٨٥ فأحبت النصرانية أن تهتبل هذه الفرصة قبل العودة إلى القوة ثانيةً، وخاصة أن العبيديين الذين هزموا أمام السلاجقة وتخلوا عن بيت المقدس عام ٤٧١، ورأوا زيادة قوة السلاجقة خصومهم في العقيدة أيضاً لذا قد استنجدوا ببعض أمراء أوروبا لدعمهم ضد السلاجقة.

ولعل أهم الجوانب النصرانية التي دفعت بالموضوع هي النفوذ الذي حصل عليه البابا إيربان الثاني الذي اختير بابا لروما عام ٤٨١ إذ أصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية بل وبين الأمراء وهذا ما يجعله أهلاً لأن يستغل نفوذه لدى النصارى، ويدعوهم للحرب الصليبية فدعا إلى اجتماع لرجال الدين عام ٤٨٩ في كليرمونت بفرنسا، ودعا إلى الحرب الصليبية، ونادى الأمراء بترك الخلافات القائمة بينهم، وقدّم لهم الصليب، وجعل مبرراً لهذه الحرب ما يقوم به السلاجقة من مضايقة للحجاج النصارى الذين يريدون بيت المقدس، وطلب أن يحتل النصارى بيت المقدس، وساهم بهذه الدعوة بطرس الناسك، وسار بجموع المتطوعين وسبق جيوش الأمراء النصارى النظامية، ولما كان هؤلاء المتطوعون يسيرون بلا نظام فقد سببوا الفوضى والدمار لكل المناطق التي مروا عليها حتى النصرانية منها وحتى شكا منهم إمبراطور القسطنطينية وعندما وصلوا إلى بلاد المسلمين صبوا جام غضبهم فأهلكوا الزرع والضرع، وأحرقوا الأخضر واليابس، وعاثوا في الأرض الفساد، وقتلوا ومثّلوا، وانتهكوا من الحرمات

ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا ذلك، وتصدى لهم السلاجقة فالتقوا بهم في نيقية فأفنوهم عن بكرة أبيهم عام ٤٨٩. وكان إمبراطور القسطنطينية قد أراد أن يتقي شرهم فساعدهم إلى السير إلى آسيا الصغرى والتقدّم إلى نيقية.

في هذه الأثناء كانت جيوش الأمراء النظامية تتحرك نحو القسطنطينية وقد أمر البابا أن تجتمع خارج أسوار القسطنطينية، ولم تكن هذه الجيوش أقل حقداً من الأولى ولا أقل فساداً ودماراً، كما لم يكن لها قائد واحد ينظمها ويصدر أوامره لها جميعاً وإن كان لها عدد من القواد أغلبهم من فرنسا، ولم يكن هؤلاء القادة خطة واحدة، ولم يشترك ملوك أوروبا في هذه الحملة لأن ملوك نصارى الأندلس كانوا مشغولين بقتال المسلمين، ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة. بلغ عدد المشتركين النصارى في هذه الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الأولى أكثر من مليون غير أن عدد المقاتلين لم يزد فيها على ثلاثمائة ألف، والباقي إنما هم من المرافقين من الرجال والنساء.

وصلت هذه الحملة الصليبية إلى أبواب القسطنطينية وخاف إمبراطورها منهم فاتفق مع بعض القادة على أن يمدهم بالمؤن والذخيرة وعلى أن لا يدخلوا المدينة، وأن يردوا عليه ما يستولون عليه من أملاكه. فاجتازوا البوسفور، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها، ونقل أميرها قليج أرسلان مقره إلى قونية، واتفق مع الإمبراطور أن يدخل جنده نيقية دون القادمين من أوروبا وبهذا غضب الصليبيون لأن الإمبراطور بهذا التصرف لم يسمح لهم بنهب المدينة وبهذا يكون الإمبراطور البيزنطي قد دعم الصليبيين بكل قوته وسار معهم نحو نيقية، وحصل خلاف بين الصليبيين القادمين من أوروبا والبيزنطيين إذ وجد الإمبراطور أنه لا يستطيع التفاهم مع هؤلاء القادمين فانصرف لاسترداد آسيا الصغرى من السلاجقة فاتجه نحو الغرب، ودخل أزمير، وأفسوس، وأخذهما من أمراء السلاجقة فيهما لانقطاعهم عن دولة السلاجقة، ولم يعد يدعم الصليبيين بل حرص أن يضم له ما أخذوه هم. فكان دعمه بقتال المسلمين بجهات ثانية، ثم بعد مدة عاد لتقديم الدعم.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعض فاتجه بعضهم إلى الرها تلبية لدعوة أميرها فدخلها، وأسس بها إمارةً نصرانيةً لاتينيةً، وكان يطمح بتأسيس دولة صليبية في أرمينيا، وقد دعمه في الأمر الأرمن. وسار باقي القادة إلى إنطاكية فألقوا الحصار عليها، ودخلوها عنوةً عام ٤٩١ بعد حصار دام سبعة أشهر، وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف، ومثلوا بالقتلى وبالناس، وفعلوا أبشع الجرائم، وولوا عليها أحدهم، وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحاب، ثم اتجهوا بعدها نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم كربوقا صاحب الموصل، وصاحب دمشق دقاق، وصاحب حمص جناح الدولة غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم، ودخلوا معرة النعمان، ووصلوا إلى بيت المقدس، ودخلوها عام ٤٩٢ فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً، وخاضت خيولهم ببحر من الدماء، وانتخب غودفري ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي قبر المسيح. وكان العبيديون قد استغلوا تقدم الصليبيين من الشمال فتقدموا هم من الجنوب، ودخلوا القدس، وطردوا السلاجقة منها (قبل وصول الصليبيين إليها) وجرت مفاوضات بين الأفضل بن بدر الجمالي الوزير العبيدي وبين الصليبيين على أن يكون شمالي بلاد الشام للصليبيين وجنوبيها للعبيديين، ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

لقد فقدت هذه الحملة أكثر مقاتليها فقد جاءت بثلاثمائة ألف مقاتل، ودخلت إلى القدس بأربعين ألف مقاتل فقط، ومهما بالغنا بعدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها فإن عددهم لا يزيد على أربعين ألفاً، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولى ما يقرب من ثمانين ألفاً، ويكونوا قد فقدوا مائتين وعشرين ألفاً، قتلوا في المعارك، وقتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرف هؤلاء القادمين، يثورون على كرهٍ، ورغم خوفهم الشديد، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرّف الصليبيين كان على درجةٍ من السوء والوقاحة والقباحة ما يثير أية نفسٍ مهما بلغ بها الذلّ والخوف.

وبسيطرة الصليبيين على بيت المقدس ارتفعت معنويات سكان الإمارات، الإيطالية فبدأت سفنهم تجوب أطراف البحر المتوسط، وتقدم المساعدات والدعم للصليبيين فاستطاعوا أن يأخذوا حيفا وقيسارية عام ٤٩٤، وأخذوا عكا عام ٤٩٧، وأخذوا طرابلس عام ٥٠٣ بعد حصار سنتين، كما أخذوا جبلة في العام نفسه، ثم أخذوا صيدا عام ٥٠٤. وطلب المسلمون هدنةً فرفض ذلك الصليبيون ثم وافقوا مقابل مبالغ كبيرة يدفعها لهم المسلمون، وبعد أن استلموا الأموال غدروا بالمسلمين وذلك عام ٥٠٤هـ. وحاصر الصليبيون مدينة صور عام ٥٠٥ وكانت بيد العبيديين، فأمدهم بالمؤن والمساعدات طغتكين صاحب دمشق فامتنعت صور عن الصليبيين.

أما من جهة الداخل فقد جاء الصليبيون من جهة الجنوب فالتقى بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم الذين وصل بعضهم إلى ملاطية، وقد استطاع أن يدخلها، وأن يتملكها وذلك عام ٤٩٣.

وهاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال عام ٤٩٧ ولكنهم هزموا وأسر أمير الرها الصليبي، غير أنهم استطاعوا في العام نفسه أن يدخلوا حصن أفاميا.

لقد دعم العبيديون الصليبيين في أول الأمر، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين. ضد السلاجقة خصومهم، وقد ذكرنا أنهم اتفقوا معهم على أن يحكم الصليبيون شمالي بلاد الشام ويحكم العبيديون جنوبيها، وقد دخلوا بيت المقدس، غير أن الصليبيين عندما أحسّوا بشيءٍ من النصر تابعوا تقدمهم، واصطدموا بالعبيديين، وبدأت الخلافات بينهما فالعبيديون قد قاتلوا الصليبيين دفاعاً عن مناطقهم وخوفاً على أنفسهم ولم يقاتلوهم دفاعاً عن الإسلام وحمايةً لأبنائه، ولو استمر الصليبيون في اتفاقهم مع العبيديين لكان من الممكن أن يتقاسموا وإياهم ديار الإسلام.

لقد استقبل سكان البلاد من النصارى والأرمن الصليبيين استقبالاً حاراً، ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً، وقد ظهر هذا في أثناء دخولهم إنطاكية

وبيت المقدس، كما قد دعموهم في أثناء وجودهم أيام وجودهم في البلاد، وقدّموا لهم كل المساعدات، وقاتلوا المسلمين، وكانوا عيوناً عليهم للصليبيين.

وتشكّلت أربع إمارات صليبية في بلاد الشام وهي:

إمارة في الرها - إمارة في طرابلس، إمارة بيت المقدس - إمارة إنطاكية.

لم يجد الصليبيون الأمن والاستقرار في بلاد الشام في المناطق التي سيطروا عليها، وشكلوا فيها إمارات رغم انتصارهم، إذ كان السكان المسلمون ينالون منهم كلما سنحت لهم الفرصة، كما يغير عليهم الحكام المسلمون في سبيل إخراجهم من البلاد، ودفاعاً عن عقائدهم ومقدساتهم التي كان الصليبيون ينتهكونها.

* * *

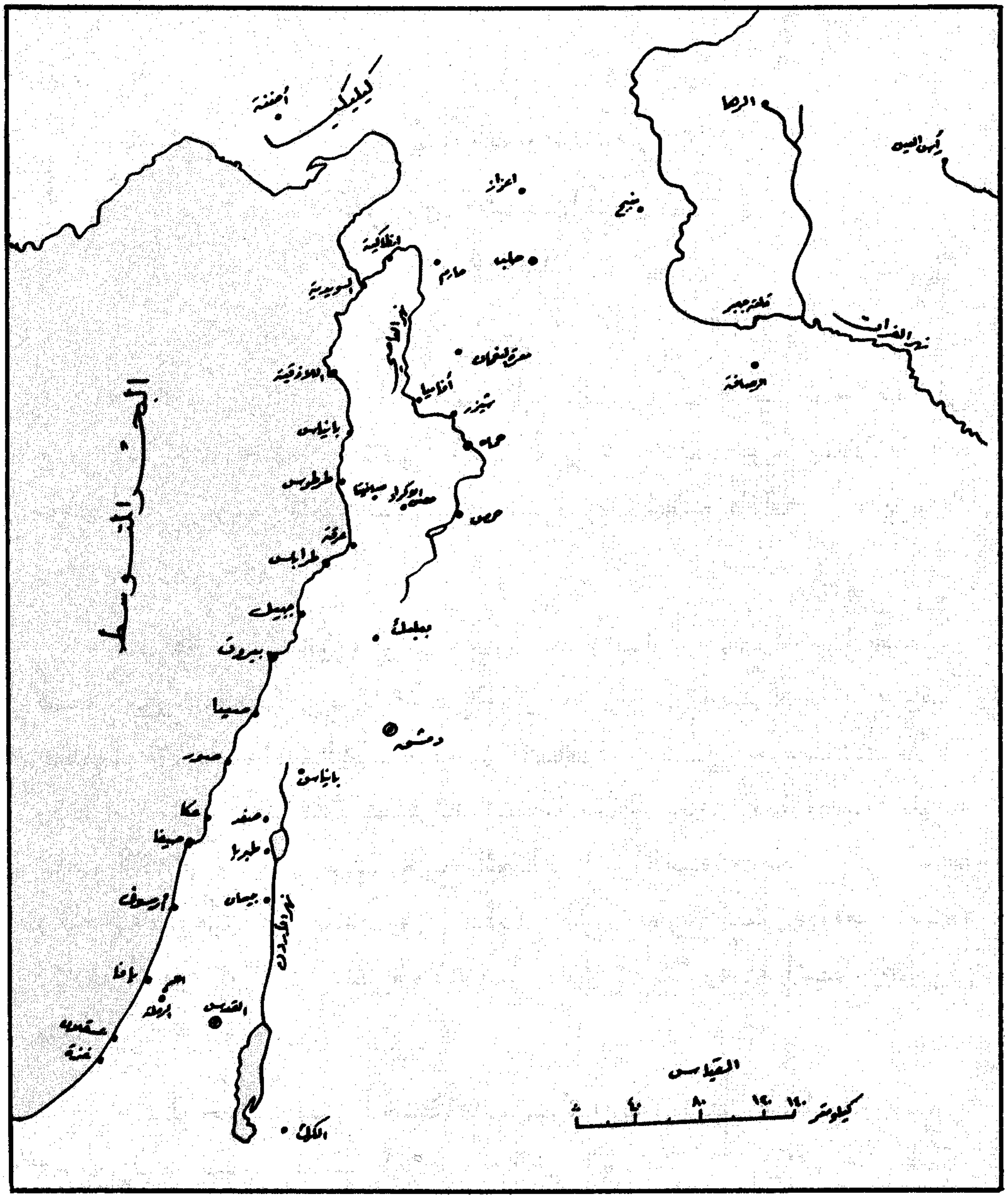
قيليقية
الرها
منبج
اعزاز
انطاكية
حلب
حارم
السويدية
نهر العاصي
معرة النعمان
أفاميا
شيزر
حماة
قلعة جعبر
نهر الفرات
الرصافة
اللاذقية
بانياس
طرطوس
حصن الأكراد
صافيتا
حمص
عرقة
طرابلس
جبيل
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
بانياس
عكا
صفد
حيفا
طبريا
أرسوف
بيسان
نهر الأردن
يافا
القدس
عسقلان
غزة
الكرك
المقياس
كيلومتر
البحر المتوسط

-٢٩-

المسترشِد بالله
الفضل بن أحمد المستظهر
٥١٢ - ٥٢٩

هو الفضل بن أحمد المستظهر، أبو منصور، المسترشد بالله: ولد في ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأمه أم ولد، بويع بالخلافة عند موت أبيه في ربيع الثاني سنة اثنتي عشرة وخمسمائة فكان عمره يومذاك سبعاً وعشرين سنة.

كان ذا همةٍ عاليةٍ، وشهامةٍ زائدة، وإقدامٍ ورأيٍ، وهيبةٍ شديدةٍ، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيى رسم الخلافة، ونشر عظمها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه[١]. وقال ابن كثير: وقد كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة فصيحاً بليغاً، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الحظ، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيباً، قتل وعمره خمس وأربعون سنة، وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً[٢].

حدث خلاف بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود السلجوقي، فسار أحدهما للآخر، والتقى الجمعان، ففر كثير من عسكر

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

الخليفة فانتصر مسعود، وثبت الخليفة فأسر ومعه عدد من خاصته فساقهم مسعود إلى همذان وسجنهم بقلعة قربها، ولما وصل الخبر إلى أهل بغداد حثوا التراب في الأسواق على رؤوسهم، وبكوا وضجوا، وخرجت النساء سافرات يندبن الخليفة، ومنعوا الخطبة.

ووصل الخبر إلى السلطان سنجر السلجوقي عم السلطان مسعود، وعلم ما فعله أهل بغداد بأنفسهم فكتب كتاباً إلى ابن أخيه يقول فيه: ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح، ويتنصل غاية التنصل؛ فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة: من العواصف: والبروق والزلازل، ودام ذلك عشرين يوماً، وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خفت على نفسي من جانب الله، وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع، ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله تتلافى أمرك، وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزّه، وتحمل الغاشية بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، ففعل مسعود جميع ما أمره به، وقبل الأرض بين يدي الخليفة، ووقف يسأل العفو.

ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى مقرّ عزّه، فجاء في العسكر سبعة عشر من الباطنية، فذكر أن مسعوداً ما علم بهم، وقيل: بل علم بهم، وقيل: بل هو الذي دسّهم، فهجموا على الخليفة في خيمته، ففتكوا به، وقتلوا معه جماعةً من أصحابه، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم، فأخذوهم وقتلوهم إلى لعنة الله. وجلس السلطان للعزاء، وأظهر المساءة بذلك، ووقع النحيب والبكاء، وجاء الخبر إلى بغداد، فاشتد ذلك على الناس، وخرجوا حفاةً محرّقين الثياب، والنساء ناشرات الشعور يلطمن ويقلن المراثي؛ لأن المسترشد كان محبباً فيهم لبره، ولما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم.

وكان قتل المسترشد ـ رحمه الله ـ بمراغة يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين[1]. وكان شاعراً، فقد قال يوم أسر:

ولا عجباً للأُسدِ إنْ ظَفِرَتْ بها   كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم

فحربةُ وحشيٍ سقتْ حمزةَ الردى   وموتُ عليٍ من حسامِ ابن ملجم

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

الامارات

١ ـ السلاجقة:

توفي السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥١١، وخلفه ابنه محمود، وكان عمره أربع عشرة سنة. وتوفي بعد ذلك الخليفة المستظهر عام ٥١٢، وشق الطاعة طغرل بن محمد ملكشاه على أخيه محمود عام ٥١٣، كما دخل محمود في حربٍ داميةٍ مع عمه سنجر الذي كان شيخ آل سلجوق يومذاك، وصاحب خراسان والمشرق، ويبدو أن محموداً كان الظالم لعمه. وانتصر سنجر عام ٥١٣، وبعد الهزيمة التي مني بها محمود سار إلى أصبهان على حين سار عمه سنجر إلى همدان، وراسل سنجر ابن أخيه محموداً للصلح بينهما، والتقى به، وعفا عنه، وجعله ولي عهده، وقلّده ولاية العراق، وزوجه ابنته.

وفي عام ٥١٤ خرج مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه محمود بعد أن رمى بينهما الواشون الذين حرضوا مسعوداً على أخيه لما رأوا من صغر محمود وهزيمة جنده أمام عمه سنجر، وتفرّق جيشه، غير أن محموداً قد انتصر على مسعود ثم عفا عنه، وقلده ولاية بغداد.

حارب دبيس بن صدقة جند السلطان، كما سار الخليفة إليه بنفسه فحلت الهزيمة بدبيس، ثم عاد فاستولى على البصرة، ثم التحق بالصليبيين وأطمعهم بدخول حلب، ثم عاد فالتحق بالسلطان طغرل بن محمد السلجوقي عام ٥١٩.

بعد أن قاتل الخليفة بنفس دبيس خاف السلطان محمود من قوة الخليفة فرغب بدخول بغداد فنصحه الخليفة بالتريث فظن محمود بالخليفة سوءاً فقرر دخول بغداد، فغادرها الخليفة وأهلها، وبكى الناس لخروجه، وعاد السلطان محمود فاستعطفه بالعودة، ولم يقلل، وحدث الخلاف بين الخليفة والسلطان، وجرى بينهما القتال، وانتصر السلطان على الخليفة، ودخل بغداد عام ٥٢١، ونهبت عساكره دار الخلافة.

عاد القتال إذ دخل الخليفة بغداد من جانبها الشرقي على رأس ثلاثين ألف مقاتل غير أن مغادرة أبي الهيجاء بجزء من جيش الخليفة وانضمامه إلى السلطان، ووصولُ عماد الدين زنكي أمير واسط لدعم السلطان كل هذا قد جعل الخليفة يميل إلى السلم، فعفا الخليفة عن السلطان، واعتذر السلطان للخليفة، وغادر بغداد عام ٥٢١، وتوجه إلى همدان، ثم عاد إلى بغداد عام ٥٢٣ ليقوم بالصلح بين الخليفة ودبيس به صدقة، وقد تم ذلك إلا أن دبيساً لم يلبث أن شق عصا الطاعة على الخليفة والسلطان معاً، فأرسل السلطان له جيشاً أجبره على الفرار والاختفاء مغادراً البصرة.

خالف مسعود أخاه السلطان محموداً وسار كل منهما إلى الآخر غير أنهما تصالحا وتوفي السلطان محمود في شوال ٥٢٥، وخلفه ابنه داود. كان محمود حليماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافّاً أصحابه عن التطرق إلى شيء منها[١]. وكان متوقد الذكاء ملماً بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير[٢]. وكان ميالاً إلى العفو فنلاحظ عفوه عن أخيه طغرل، وعن أخيه مسعود، واستعطافه للخليفة، وعفوه عن أهل بغداد وقد حاربوه، وأشار عليه بعض الناس بحرق مدينتهم. وقام بأمر عظيم وهو محاربة الباطنية، واستطاع أن يدخل قلعة

---

(١) الكامل في التاريخ.

(٢) وفيات الأعيان.

ألموت في فارس، وقلعة بانياس في بلاد الشام، وهاتان القلعتان من أقوى حصون الباطنية، وإن صغر سنه عند توليه الأمر قد أطمع فيه الأمراء فقاتلوه، وانتصر عليهم، ثم عفا عنهم.

نازع مسعود بن محمد ابن أخيه داود بن محمود واحتل تبريز، ثم تصالحا، وسار مسعود إلى بغداد وفي رغبته استلام السلطنة، وطلب من الخليفة ذلك فاستشار الخليفة سنجر شيخ البيت السلجوقي فأشار عليه أن تكون الخطبة للخليفة وحده.

ذهب طغرل بن محمد إلى عمه سنجر في الري وتحدثا في رغبة مسعود في استلام السلطنة فسارا إلى مسعود والتقيا به في نهاوند، فهُزم مسعود، وأُخذ أسيراً مع وزيره وبعض أمرائه في عام ٥٢٦. وحكم طغرل الري باسم عمه سنجر.

اقتتل داود مع عمه طغرل، وقد انتصر طغرل الذي اصطدم مع أخيه مسعود، وانتصر مسعود الذي التقى مع ابن أخيه داود وانتصر عليه، وسار مسعود إلى بغداد، ودخلها مع ابن أخيه داود واتفقا على أن يكون مسعود سلطاناً على السلاجقة وأن يكون ابن أخيه داود ولياً لعهده. ومات طغرل عام ٥٢٨. أما مسعود فقد التقى مع الخليفة وأسره، وطلب سنجر من ابن أخيه إطلاق الخليفة والإحسان عليه ففعل على أن الباطنية قد قتلوا الخليفة عام ٥٢٩.

٢ ـ خوارزم:

تسلّم أمر خوارزم قطب الدين عام ٤٩٠، وقد أطاع السلاجقة وتحبب إلى سنجر الذي ملك خراسان ٥١٢ فأقره على ولايته، وتوفي قطب الدين عام ٥٢١،وخلفه ابنه اتسز، وسار سيرة أبيه لكنه طمع في الاستقلال وقام بثورة على سنجر فعزل عن ولايته غير أنه عاد واستلم ما كان تحت يده من قبل.

٣ ـ الغزنويون:

حكم بهرام شاه غزنة عام ٥١٢ وبقي على حاله.

٤ ـ العبيديون:

تولّى أمر العبيديين عام ٤٩٥ الآمر أبو علي المنصور، وقد تخلص من الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان على ما يبدو مختلفاً عن العبيديين إذ ألغى الاحتفالات التي كانت تقوم بمصر بمناسبة المولد النبوي، ومولد فاطمة، وعلي، رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر، وقد قتل الأفضل عام ٥١٥، وقام مقامه ابنه أحمد أبو علي بن الأفضل والذي تلقّب بالأكمل.

وفي عام ٥٢٤ قتل الآمر على يد الباطنية لأنهم كانوا يرون أن الخلافة العبيدية يجب أن تكون في أولاد نزار، وخلفه ابن عمه الحافظ أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن الخليفة المستنصر، وبخلافة الحافظ قوي أمر الأكمل، وقد قبض على الخليفة وحبسه وأخذ ما في قصر الخلافة. ويبدو أنه كان من الشيعة إذ دعا للإمام الثاني عشر، كما دعا لنفسه، وأسقط عبارة «حي على خير العمل» و «محمد وعلي خير البشر» من الأذان، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة، وهذا ما جعل العبيديين يكرهونه ويريدون التخلص منه فكمنت له جماعة وقتلته، وأخرجت الحافظ من سجنه، وأخذ الحافظ الأموال التي نقلها الأكمل إلى داره، واستوزر أبا الفتح يانس الحافظي، ثم ابنه بعد قتله.

وفي عام ٥٢٩ جاء إلى القاهرة والي الغربية بهرام الأرمني، وحاصر القاهرة، فلم ير الحافظ بدأ من تعيينه وزيراً على الرغم من أنه نصراني، وبدأ يتقوى ويستقدم الأرمن من أرمينية.

الخلفاء العبيديون:

[١] المهدي ٢٩٧ ـ ٣٢٢

[٢] القائم ٣٢٢ ـ ٣٣٤

[٣] المنصور ٣٣٤ ـ ٣٤١

[٤] المعز ٣٤١ ـ ٣٦٥

[٥] العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦

[٦] الحاكم ٣٨٦ ـ ٤١١

[٧] الظاهر ٤١١ ـ ٤٢٧

[٨] المستنصر ٤٢٧ ـ ٤٨٧

نزار

[٩] المستعلي ٤٨٧ ـ ٤٩٥

[١٠] الآمر ٤٩٥ ـ ٥٢٤

محمد

[١١] الحافظ ٥٢٤ ـ ٥٤٤

[١٢] الظاهر ٥٤٤ ـ ٥٤٩

[١٣] الفائز ٥٤٩ ـ ٥٥٥

يوسف

[١٤] العاضد ٥٥٥ ـ ٥٦٧

٥ ـ آل زيري:

بعد أن توفي الأمير علي بن يحيى عام ٥١٥ خلفه ابنه الحسن، وكان عمره اثنتي عشرة سنة، وكان الوزراء يقومون بتدبير أمور الدولة، وقد جاء النورماندوين إلى قتال المسلمين، وحاصروا جزيرة قوصرة، واستمر الصراع بين الأمير الحسن والنورمانديين مدة من الزمن.

أما إمارة بني حماد فقد توفي العزيز بن المنصور عام ٥١٥، وخلفه ابنه يحيى الذي بقي حتى قضي على الدولة الحمادية عام ٥٤٧.

٦ ـ المرابطون:

بدأت دعوة الموحدين عام ٥١٤ على يد محمد بن تومرت الذي ينتمي إلى قبيلة «هرغة» إحدى بطون قبيلة مصمودة التي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى، ويقول بالانتساب إلى رسول الله ﷺ، ومنهم من أيد هذا الانتساب ومنهم من أنكره، وكان يرى التأويل، وينكر على أهل المغرب في عدولهم عن التأويل، وقد سار إلى الشرق ودرس العلم، وعاد إلى المغرب والتقى بعبد المؤمن بن علي الذي أصبح خليفته، وأصبح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد أخذ على المرابطين سفور نسائهم على عادة الملثمين، والتقى بعلي بن يوسف بن تاشفين، واجتمع بالعلماء واختلف معهم، إلا أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يقبل أن يلحق به أذى لتقواه وورعه، وانتقل ابن تومرت إلى أغمات حيث أهله وقبيلته، وبدأ يعمل بدعوته وينتقد مفاسد المرابطين، وألف جيشاً ضمّ عدة قبائل، كان مقره حصن تينمُل، وبدأ يناوئ المرابطين، وقد التقى الطرفان بمعركة البحيرة التي انتصر فيها المرابطون، وقتل فيها قائد الجيش الموحدي وأعداد كبيرة معه، وكان الجيش المرابطي بقيادة أبي بكر علي بن يوسف بن تاشفين. ومرض بعدها ابن تومرت، وتوفي عام ٥٢٤، وخلفه عبد المؤمن بن علي في قيادة الموحدين، واستطاع أن يعيد للموحدين قوتهم، وأن يستولي على أكثر بلاد السوس.

٧ ـ الأندلس:

مع ظهور قوة الموحدين ومناوأتهم للمرابطين، ضعفت قوة المرابطين في الأندلس، وعاد الخلاف بين ملوك الطوائف، وازداد تفكك المسلمين.

٨ ـ اليمن:

كان يحكم دولة بني نجاح منصور بن فاتك، وقد توفي عام ٥٢١، وخلفه ابنه فاتك بن منصور، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٠.

أما الصليحيون فكانت أروى بنت أحمد الصليحي هي سيدة دولتهم، وكان ارتباطها بالعبيديين بمصر.

وفي عدن كان بنو زريع، وقد خلص للداعي سبأ بن أبي السعود حكم المنطقة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٣٣.

وتغلب على صنعاء وما جاورها حاتم بن علي المغلّسي الهمداني، وأطاعته قبائل همدان، وبقيت المنطقة في أيدي بني حاتم حتى استولى عليها الإمام المتوكل أحمد سليمان عام ٥٣٢، وقد تعاقب عليها السلاطين الآتية أسماؤهم:

١ ـ حاتم بن علي الهمداني ٤٩٢ ـ ٥٠٢

٢ ـ عبد الله بن حاتم ٥٠٢ ـ ٥٠٥

٣ ـ معن بن حاتم ٥٠٥ ـ ٥١٠

وقد خلع معناً أحمد بن عمران بن المفضل اليامي بعد أن جمع قبائل همدان وجعل الإمارة في بني قتيب.

٤ ـ هشام بن القتيب ٥١٠ ـ ٥١٨

٥ ـ حماس بن القتيب ٥١٨ ـ ٥٢٧

ثم أقام أهل همدان بعد موت حمّاس بست سنوات حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وبدأ الصراع بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان.

الصَليبيّونَ

لم يصف العيش للصليبيين في ديار الإسلام إذ كانوا يتعرضون للغارات باستمرار، ولهجوم المسلمين بشكلٍ دائم، فبعد أن دخلوا القدس عام ٤٩٢ ونقضوا ما كان بينهم وبين العبيديين من اتفاق في أن يحتل الصليبيون شمالي بلاد الشام ويأخذ العبيديون جنوبيها غير أن الصليبيين قد تجاوزوا هذا وأخذوا بيت المقدس غير مبالين بالعبيديين بعد أن شعروا بالنصر، وساروا نحو هدفهم وهو بيت المقدس غير مهتمين بالنتائج وما تؤول إليه، عندما تصرفوا هذا التصرف كانوا مخطئين سياسياً وغير مقدرين للظروف إذ أصبح الهجوم يأتيهم من قبل العبيديين من الجنوب ومن قبل السلاجقة من الشمال.

وجه الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي حملةً كبيرةً بقيادة سعد الدولة الذي كان حاكم بيروت، وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان، واتجهت عام ٤٩٤ إلى الرملة لتهديد بيت المقدس ويافا غير أنها فشلت ولم تؤد الغرض الذي قامت من أجله.

وعاد الأفضل فوجه عام ٤٩٥ حملةً ثانيةً، وجعل إمرتها لابنه شرف المعالي. واتجهت إلى اللد والرملة كسابقتها ولتهديد بيت المقدس ويافا، فخرج للقائها ملك بيت المقدس الصليبي (بلدوين) فانهزم، وفرّ إلى الرملة ولاحقه المسلمون ففرّ متنكراً، واستعاد المسلمون الرملة. وحاصر المسلمون يافا فجاءتها نجدات من البحر فاستغل (بلدوين) هذه النجدات وهاجم بها المسلمين وانتصر عليهم.

وأرسل الأفضل حملتين إحداهما برية والأخرى بحرية، واستنجد

(بلدوين) بأمير الرها، وأمير إنطاكية فأنجداه، واستطاع بعدها إحراز النصر.

وجهز الأفضل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه سناء الملك، ودعمه بأسطول بحري، وطلب دعم السلاجقة أيضاً فأجابوه، وجرت أول معركة عام ٤٩٨، وظهر فيها التعاون بين السلاجقة والعبيديين، ومع ذلك فلم تكن نتائجها واضحةً.

وبدأت بعد ذلك غارات العبيديين على البلدان التي سيطر عليها الصليبيون فقد أغاروا عام ٤٩٩ على يافا، وفي العام التالي على الخليل، وفي العام الذي بعده وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وكذلك عادوا للإغارة على بيت المقدس عام ٥١٨، وحاصروا مدينة يافا.

أما من جهة الشمال فقد قضى السلاجقة على حملةٍ صليبيةٍ جاءت من غربي أوربا لدعم الوجود الصليبي في بيت المقدس، ولم يصل منها إلى هدفه إلا من فلّ هارباً ونجا من القتل، وذلك عام ٤٩٤.

ونصب الأمير غازي كمشتكين كميناً لأمير إنطاكية الصليبي، وأخذه أسيراً عام ٤٩٤، واستطاع في العام التالي أن يستعيد ملاطية من الصليبيين وأن يأخذ أميرها أسيراً. وفي عام ٤٩٧ سار أتابك الموصل جكرمش، والأمير سقمان بن أرتق صاحب ماردين لقتال الصليبيين في الرها، وتمكنا من إبادة الجيش الصليبي في معركة جرت بين الطرفين قرب «حرّان» ووقع «بلدوين» و «جوسلين» في الأسر.

وفي عام ٤٩٩ أغار أمير دمشق طغتكين على بلاد الجليل شمال فلسطين.

وأغار أمير الموصل مودود عام ٥٠٥ على الصليبيين، وفي العام التالي سار إلى جهات طبريا، وأغار على مدينة طبريا.

ووجه السلطان محمد السلجوقي حملةً كبيرةً لقتال الصليبيين بإمرة برسق فهاجمت أفاميا عام ٥٠٩.

وفي عام ٥١٣ سار إيلغازي بن أرتق بمن معه من التركمان لقتال الصليبيين في إنطاكية والتقى معهم في معركة قرب حلب فدمر الجيش الصليبي، وقتل قائده روجر في المعركة.

وفي عام ٥١٤ هاجم النصارى الكرج، ومن معهم من القفجاق، وهم من الكفار هاجموا ديار المسلمين، وأحرزوا نصراً على المسلمين.

وفي عام ٥١٨ هاجم الصليبيون مدينة صور، وكانت للعبيديين، وسار بلدوين الثاني أمير الصليبيين في بيت المقدس إلى الشمال لفكّ أسر (بلدوين) و (جوسلين) اللذين وقعا في الأسر عام ٤٩٧، فأسرع إليه «بُلك الأرتقي» فهزم جيشه، وأخذه أسيراً أيضاً وضمّه إلى بقية الأمراء الأسرى عنده.

وفي عام ٥٢٣ حاصرالصليبيون دمشق، ولكن فشلوا في اقتحامها. وفي العام التالي استطاع الصليبيون أن يدخلوا قلعة القدموس، لكنهم هزموا عام ٥٢٦ أمام شمس الملوك صاحب دمشق، واضطروا إلى ترك مدينة بانياس وقلعتها.

وفي عام ٥٢٧ جاءت أعداد كبيراً من التركمان من الجزيرة، واتجهوا إلى طرابلس فقاتلوا الصليبيين فيها. وفي العام التالي هاجم سوار أمير حلب الصليبيين في معرة النعمان.

وبدأ عماد الدين زنكي في عام ٥٢٩ يوجه هجماته على مراكز الصليبيين الواقعة شرق نهر العاصي ليكون الفتح تدريجياً فاستولى على معرة النعمان، وأغار على قنسرين وشيزر وحمص.

وهكذا كان الهجوم على الصليبيين من الجنوب ومن الشمال، ثم امتد على إمارة طرابلس في الغرب فكانت هذه الهجمات تقضّ مضاجعهم وتقلقهم باستمرار، ثم بدأت تظهر دولة عماد الدين زنكي، وتتوسع على امتداد الإمارات الصليبية، ويخطط عماد الدين للسير بالفتح بصورةٍ تدريجيةٍ ومركزةٍ.

-٣٠-

الراشد بالله

منصور بن الفضل المسترشِد

٥٢٩ - ٥٣٠

هو منصور بن الفضل المسترشد، أبو جعفر، الراشد بالله. ولد عام اثنين وخمسمائة، خطب له أبوه بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فكان عمره إحدى عشرة سنة، وبويع بالخلافة بعد مقتل أبيه في شهر ذي القعدة من عام تسعةٍ وعشرين وخمسمائة، فكان عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنة.

طالب السلطان مسعود السلجوقي الخليفة الراشد بالله بمبلغ أربعمائة ألف دينار كان المسترشد قد التزم بدفعها حين أسره مسعود، فامتنع الراشد من الدفع ووقع الخلاف بين الخليفة والسلطان، فاستدعى الخليفة عماد الدين زنكي من الموصل فجاءه والتف الأمراء والناس حول الخليفة، وجاء إلى بغداد داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه فخطب له الخليفة وبايعه على الملك، وأصبح الخلاف كبيراً بين السلطان مسعود والخليفة، وبعدت الشقة بينهما، ولم يعد بالإمكان رتق ما انفتق.

خرج الخليفة إلى ظاهر بغداد، وجاء السلطان مسعود بجيوش كبيرة، ودخل بغداد، وأقنع عماد الدين زنكي الخليفة بالسير معه إلى الموصل فوافقه. واستفتى السلطان مسعود الفقهاء بخلع الخليفة فأفتى له بعضهم فخلع في منتصف ذي القعدة من عام ٥٣٠، وبذا لم يكمل الراشد بالله السنة في خلافته. واستقدم السلطان مسعود عم الراشد، وهو محمد بن المستظهر وبايعه بالخلافة.

خرج الراشد بالله من الموصل عندما بلغه خبر خلعه وسار إلى أذربيجان، ثم انتقل إلى همدان مع جماعةٍ من خاصته، ثم سار بهم إلى أصبهان فحاصروها، وأصاب المرض الراشد هناك ودخل عليه جماعته من الأعاجم، وقتلوه في السادس عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وقيل إن الباطنية هم الذين قتلوه.

كان الراشد فصيحاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً، سمحاً، جواداً، حسن السيرة، يؤثر العدل، يكره الشر. قال العماد الكاتب: كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمي[١].

وقال ابن كثير: وقد كان حسن اللون، مليح الوجه، شديد القوة، مهيباً، أمه أم ولد[٢].

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

-٣١-

المقتفي لأمر الله
محمد بن أحمد المستظهر
٥٣٠ـ ٥٥٥

هو المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله؛ ولد في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة، وأمه حبشية. بويع بالخلافة بعد خلع ابن أخيه الراشد بالله بن المسترشد، وكان عمره إحدى وأربعن سنة، وفي عام ٥٣١ تزوج أخت السلطان مسعود فاطمة بنت محمد بن ملكشاه. وخطب لابنه المستنجد بولاية العهد عام ٥٤٢.

ودخل السلطان مسعود بغداد عام ٥٤١، واختلف مع الخليفة ثم اصطلحا.

وضعف أمر العبيديين كثيراً وخاصةً بعد مقتل الظافر بالله العبيدي عام ٥٤٩ فكتب المقتفي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، وولاه مصر، وأمره بالمسير إليها، وكان مشغولاً بحرب الفرنج، وهو لا يفتر عن الجهاد، وكان تملك دمشق في صفر من هذا العام، وملك عدة قلاع وحصون بالسيف وبالأمان من بلاد الروم، وعظمت ممالكه، وبعُد صيته؛ فبعث إليه المقتفي تقليداً، وأمره بالمسير إلى مصر، ولقبه بـ «الملك العادل»، وعظم سلطان المقتفي، واشتدت شوكته، واستظهر على المخالفين، وأجمع على قصد الجهات المخالفة لأمره، ولم يزل أمره في تزايد وعلو إلى أن مات ليلة

الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة[1]. وبذا يكون قد عاش ستاً وستين سنة.

قال الذهبي: كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالماً، أديباً، شجاعاً، حليماً، دمث الأخلاق، كامل السؤدد، خليقاً للإمامة، قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر ـ وإن صغر ـ إلا بتوقيعه[2].

قال ابن السمعاني: وكان محمود السيرة، مشكور الدولة، يرجع إلى دين وعقل وفضل ورأي وسياسة. جدّد معالم الإمامة، ومهّد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة، وامتدت أيامه[3].

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

أهان الخليفة الراشد رسول السلطان مسعود بمقتل أبيه وهذه ما جعل السلطان مسعوداً يقدم إلى بغداد ويحاصرها ويجبر الخليفة إلى الهرب إلى الموصل حيث عماد الدين زنكي، أما مسعود فقد استفتى الفقهاء لخلع الراشد فأفتى له بعضهم، وبايع السلطان الخليفة المقتفي عم الراشد وذلك عام ٥٣٠، وبعد عام تزوج مسعود بسفرى بنت دبيس بن صدقة أمير الحلة وزعيم جنوبي العراق وذلك ليقوى أمره.

أما في خراسان فقد بدأت المعارك بين سنجر ملك خراسان وبين ملك خوارزم (اتسز) عام ٥٣٣ الذي ثار على سنجر، وقد انتصر سنجر، غير أن (اتسز) قد عاد إلى إمرته ورجع لقتال سنجر إلا أنه هُزم وقُتل ابنه في المعركة، واستولى سنجر على خوارزم وأقطعها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه، ولما رجع سنجر إلى مرو، رجع (اتسز)، واستردّ خوارزم، واستعان بالكفار في بلاد الخطا، وهاجم معهم سنجر فهزمه هزيمةً منكرةً في صيف ٥٣٦، وأسروا زوجته، واضطر إلى الفرار إلى ترمذ فبلخ، ودخل اتسز مدينة نيسابور عام ٥٣٧، وفي العام التالي حاول سنجر حصار خوارزم لكنه عجز عن دخولها، وتصالح الطرفان عام ٥٥١.

وسار السلطان مسعود عام ٥٣٨ لأخذ الموصل وبلاد الشام من زنكي، ولكن لم يتم له ذلك وتصالحا.

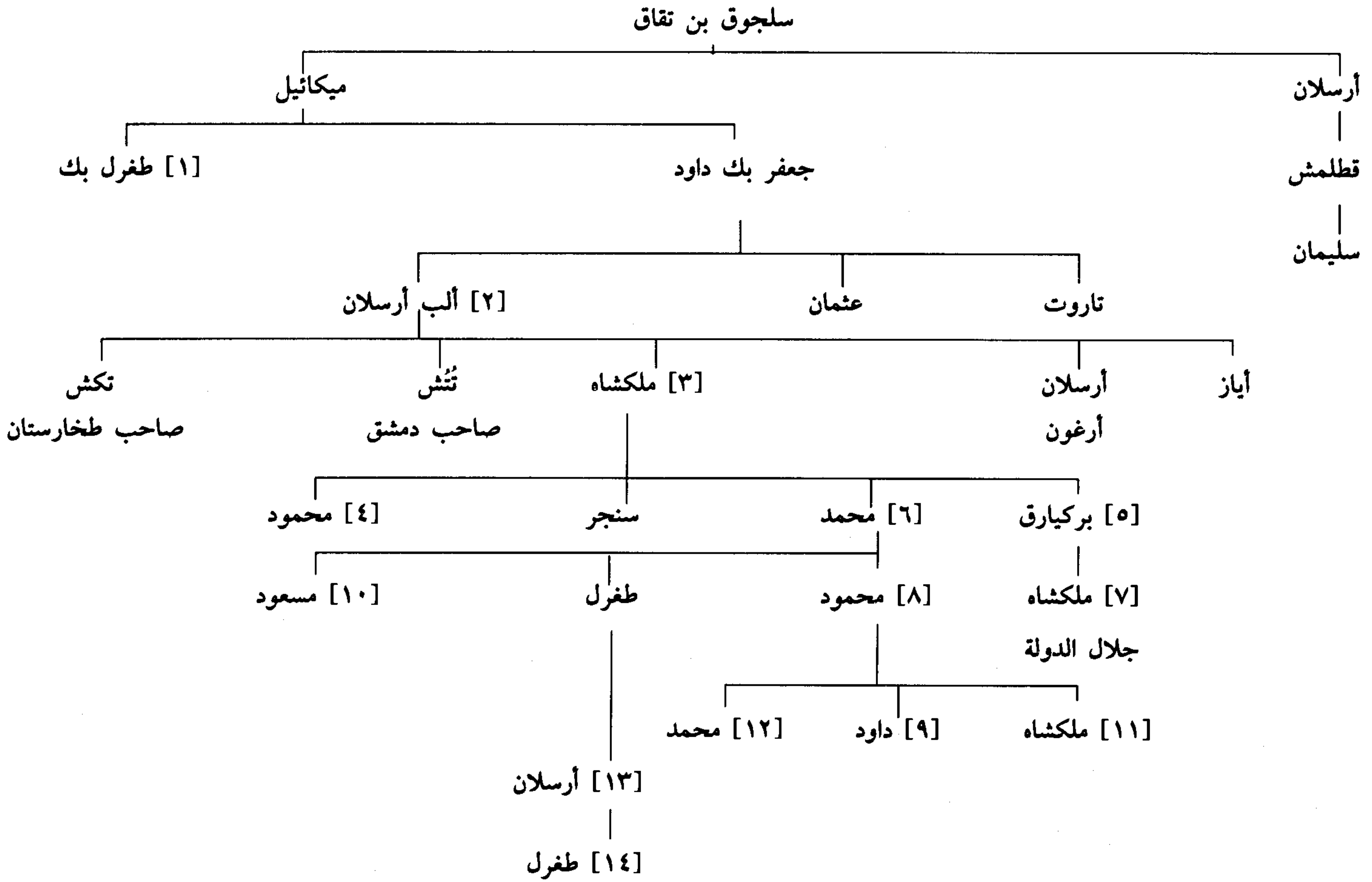
سلجوق بن تقاق
ميكائيل
أرسلان
[١] طغرل بك
جعفر بك داود
قطلمش
سليمان
[٢] ألب أرسلان
عثمان
تاروت
تكش
صاحب طخارستان
تُتُش
صاحب دمشق
[٣] ملكشاه
أرسلان
أرغون
أياز
[٤] محمود
سنجر
[٦] محمد
[٥] بركيارق
[١٠] مسعود
طغرل
[٨] محمود
[٧] ملكشاه
جلال الدولة
[١٢] محمد
[٩] داود
[١١] ملكشاه
[١٣] أرسلان
[١٤] طغرل

اختلف السلطان مسعود مع أولاد أخيه محمد وملكشاه اللذين سارا إلى بغداد عام ٥٤٣، وحاصراها وما رفعا الحصار عنها حتى دفع لهما الخليفة ثلاثين ألف دينار.

وفي عام ٥٤٧ أصيب مسعود بالحمى وهو بهمذان ومات بها عام ٥٤٧، وقام بعده ابن أخيه ملكشاه بن محمود. وكان مسعود «حسن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع الناس، وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم. وكان من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكةً، سهل الأخلاق لطيفاً. لقد ماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم».

اصطدم سنجر ملك خراسان بملك الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين، وانتصر سنجر، وأسر علاء الدين. ولكن سنجر هزم عام ٥٤٨ أمام الغز الأتراك الذين دخلوا طوس ونيسابور، وأُخذ أسيراً في بعض المعارك، وبقي أسيراً حتى أطلق سراحه عام ٥٥١ عن طريق بعض خواصه، ونقلوه إلى مرو، وأخذ يستعد للقتال غير أن المنية وافته في ١٤ ربيع الأول ٥٥٢.

وانصرف ملكشاه بن محمود إلى اللهو وترك أمور الدولة إلى وزيره خاصبك بن بلنكري الذي استدعى أخاه محمد بن محمود للقيام بأعباء السلطنة فتوفي عام ٥٥٤. وعمل بعض الخلفاء بعدئذ على استرداد سلطتهم. وقام بعد محمد ابن عمه أرسلان بن طغرل.

٢ ـ خوارزم:

بقي اتسز يحكم خوارزم من ٥٢١ حتى توفي عام ٥٥١، وإذا كان قد هزم أمام سنجر في بعض المعارك وغادر مقر حكمه إلا أنه يوم توفي كانت دولته متسعة الأركان وتشمل الجناح الشرقي من ديار الإسلام كله باستثناء ولايتي فارس وخوزستان.

وخلف اتسز ابنه أيل أرسلان.

٣ ـ الغزنويون:

كان بهرام شاه يحكم غزنة، وفي عام ٥٢٩ ارتاب سنجر في ولاء بهرام شاه، فسار سنجر إلى غزنة فاستعطفه بهرام شاه فرجع عنها على أن يأتيه بهرام شاه فخافه ولم يذهب إليه فرجع سنجر إلى غزنة ودخلها فرجع بهرام شاه يعتذر فغادر سنجر غزنة وعاد إليها بهرام. وفي عام ٥٤٣ ثار ملك الثغور سولي بن الحسين واتجه إلى غزنة فدخلها على حين غادرها بهرام شاه الذي سار إلى فرغانة واستنجد بملكها وجاء على رأس جيشٍ كبير استطاع به أن يدخل غزنة وأن يقبض على سولي ويقتله.

وفي عام ٥٤٣ دخل غزنة علاء الدين الحسين الغوري، وغادرها بهرام شاه، فولى علاء الدين أخاه سيف الدين على غزنة ورجع، غير أن أهل غزنة قد ثاروا على سيف الدين، وجاء بهرام شاه ودخل المدينة وقتل سيف الدين.

توفي بهرام شاه وخلفه ابنه خسرو، وجاء علاء الدين الغوري إلى غزنة فهرب منها خسرو بن بهرام، وانتهى أمر الغزنويين من غزنة إلا أن سلطتهم بقيت في لاهور حتى عام ٥٥٩ حيث أسر خسرو على يد شهاب الدين الغوري الذي حاصره في لاهور، وأرسله بعد أن قبض عليه إلى أخيه غياث الدين فقتل عام ٥٨٢، وانتهى الغزنويون.

٤ ـ الغوريون:

الغوريون قوم جبليون يقيمون بين غزنة وهراة، وبلادهم جبلية موحشة، فيها قلعة «فيروز كوه» المشهورة وقد برز من الغوريين قطب الدين محمد الغوري الذي تزوج بنت ظهير الدين إبراهيم الغزنوي وأخت بهرام شاه، وفي عام ٥٤٢ دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري، وقد أثار هذا إخوته، فسار سيف الدين سوزي وأخوه علاء الدين إلى غزنة ففر منها بهرام شاه، واتجه إلى الهند، وتولّى أمر غزنة سيف الدين سوزي نيابة عن أخيه علاء الدين حسين جهان سوز.

وعندما هجم فصل الشتاء البارد، وصعب الانتقال بسبب الثلوج، قبض السكان على سيف الدين، ودعي بهرام شاه للعودة فرجع إلى غزنة، وقتل سيف الدين. فما كان من علاء إلا أن رجع إلى غزنة عام ٥٤٤ وخرّبها، وفر بهرام شاه الذي توفي عام ٥٤٧، كما أن علاء الدين قد هدم غزنة عام ٥٥٠.

قوي أمر علاء الدين، واتسعت مملكته، فعيّن ابني أخيه بهاء الدين سام الذي توفي عام ٥٤٤، وكان حاكم قلعة «فيروز كوه» وهما: غياث الدين محمد، وشهاب الدين محمد، وقد سارا بالبلاد التي يشرفان عليها سيرةً حسنةً، وأحبهما الناس، غير أن الوشاة قد أوقعوا بينهما وبين عمهما علاء الدين، وأخبروه أنهما يريدان قتله والاستيلاء على ملكه، فدعاهما فلم يحضرا إليه فأرسل إليهما جيشاً فلم يصل معهما إلى نتيجة بل هزم أمامهما، فما كان من علاء الدين إلا أن سار إليهما بنفسه غير أنه هزم أيضاً، وأخذ أسيراً، غير أنهما قد أحسنا معاملته، فأجلساه على مجلس الملك ووقفا في خدمته، فتأثر كثيراً، وعرف أن الواشين والمغرضين هم الذين أوقعوا بينهم. لذا فقد أوصى لغياث الدين من بعده وزوّجه بابنته، وتوفي علاء الدين عام ٥٥٦.

٥ ـ آل زنكي:

زنكي هو لقب عماد الدين بن آق سنقر الذي كان والياً على حلب، وقتل عام ٤٨٧، وكان عمر ابنه عماد الدين يومذاك عشر سنوات.

استولى كربوغا على الموصل عام ٤٨٩ فأخذ عماد الدين زنكي لعنده، واعتنى به وأكرمه إكراماً لأبيه آق سنقر، وتوفي كربوغا عام ٤٩٥ فخلفه على الموصل شمس الدولة جكرمش، فقرّب عماد الدين زنكي إليه وأولاه حبه، وظل كذلك حتى توفي عام ٥٠٠، فخلفه على الموصل (جاولي سقاو) فبقيت علاقته مع عماد الدين زنكي جيدة، غير أن جاولي سقاو قد أعلن عصيانه للسلطان محمد السلجوقي، وانتقل إلى بلاد الشام عام ٥٠٢ فانفصل عنه عماد الدين زنكي.

وفي عام ٥٠٢ عين والياً جديداً على الموصل هو مودود بن التونتكي

فانضم إليه عماد الدين زنكي، وبقي بجانبه حتى قتل عام ٥٠٧ في دمشق، ورجع عماد الدين إلى الموصل لينضم إلى الوالي الجديد جيوش بك، ثم انضم عماد الدين إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي سار لقتال الصليبيين، وأبدى عماد الدين شجاعةً فائقةً في قتاله، وعندما انتهت حروبه طلب السلطان محمد السلجوقي من والي الموصل تقديم عماد الدين واستشارته في المهمات.

وقاتل عماد الدين زنكي مع جيوش بك، ومسعود ضد السلطان محمود الذي خلف أباه محمداً، غير أنهم فشلوا في جعل مسعود يتسلم السلطنة، واستقر الأمر لمحمود، وفي عام ٥١٤ حاول جيوش بك أن يجدد المحاولة لمسعود غير أن عماد الدين زنكي لم يوافقه، وعندما فشلت المحاولة الثانية عزل جيوش بك عن الموصل، وعرف السلطان محمود موقف عماد الدين زنكي، لذا فقد أوصى والي الموصل الجديد آق سنقر البرسقي بتقديم زنكي وإكرامه.

عيّن آق سنقر البرسقي على العراق عام ٥١٦، ورافقه عماد الدين زنكي، واشترك معه في حرب دبيس بن صدقة غير أنهما قد هزما، وولّى البرسقي عماد الدين زنكي على واسط، وكلّفه بقتال دبيس فانتصر عليه، وهذا ما جعل البرسقي يضيف إليه البصرة. واشترك الخليفة والبرسقي وزنكي في قتال دبيس، واتبع زنكي خطةً كان لها دور في التغلب على دبيس.

وعندما ترك زنكي البصرة كلّف أميراً لحمايتها تمكن دبيس من العودة إلى البصرة، وقتل أميرها، فرجع زنكي إلى البصرة ففر منها دبيس والتحق ببلاد الشام عام ٥١٧.

أعيد آق سنقر البرسقي والياً للموصل ليعمل على قتال الصليبيين فطلب من زنكي أن يسير معه، غير أن زنكي فضّل غير ذلك فقد ترك البصرة وسار إلى أصبهان ليلتحق بحاشية السلطان محمود.

وفي عام ٥١٨ كلّفه السلطان محمود بأن يسير إلى البصرة إذ غدت

مسرحاً للحوادث بعده، وأقطعه إياها، وكلفه في الوقت نفسه بالإشراف على واسط، وأن يصد عنها جيوش الخليفة إذا ما اتجهت نحوها، وفعلاً فقد صدّ جيوش الخليفة عنها عام ٥١٩.

ووقع الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان محمود، وسار الأخير نحو بغداد، وطلب من زنكي دعمه ضد الخليفة فلبى الدعوة، وسار بمقاتليه نحو بغداد، واضطر الخليفة إلى الصلح. ورشح عماد الدين زنكي لتولية أمر العراق عام ٥٢٠، وصدر الأمر بتوليته وغادر السلطان محمود بغداد بعد أن أمن العراق ما دامت بيد عماد الدين زنكي.

توفي عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي والي الموصل بعد أبيه وذلك عام ٥٢١، وتولى مكانه أخوه الصغير، واستبد بالأمر جاولي الوصي على الأمير الصغير غير أن السلطان عيّن عماد الدين زنكي على الموصل فسار إليها ولم يتول أمر العراق سوى أربعة أشهر. وقد أعطي عماد الدين زنكي ولاية الموصل لقتال الصليبيين الذين استأسدوا بعد وفاة والي الموصل آق سنقر البرسقي عام ٥٢٠، وقيام ابنه عز الدين مسعود مكانه.

تقدم عماد الدين زنكي إلى حلب عام ٥٢٢ ودخلها.

سار دبيس بن صدقة إلى الملك سنجر سلطان السلاجقة في خراسان، وهو عمّ السلطان محمود، وقد تقرب دبيس من سنجر، وفي الوقت نفسه وصل السلطان محمود لتصفية الخلاف بينهما، وقد تمّ ذلك، وعندما أراد السلطان محمود العودة طلب منه عمه سنجر أن يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل، وأن يولي دبيس بن صدقة مكانه فوافق، وأخذه معه.

طلب السلطان محمود من الخليفة تناسي الخلافات والسماح لدبيس بدخول بغداد، ووصل الخبر إلى عماد الدين زنكي فترك الموصل واتجه إلى بغداد، واستغرب كيف يعطي ولاية الموصل من ساعد الصليبيين وحاصر معهم حلب، وإمارة الموصل من مهمتها قتال الصليبيين! ووافقه الخليفة بسبب كراهيته وكراهية أهل بغداد لدبيس، ووافق السلطان محمود

الذي من مصلحته أن يكون عماد الدين زنكي على الموصل ولا يكون دبيس الذي قد يكون عيناً عليه.

توفي السلطان محمود عام ٥٢٥، وتولى مكانه ابنه داود، واختلف السلاجقة بعضهم مع بعض، ووقف زنكي بجانب سنجر، وقاتل الخليفة، وهزم وعاد إلى الموصل. وتمكن مسعود السلجوقي من الانتصار على أقربائه وجلس على كرسي السلطنة.

اختلف الخليفة مع زنكي، وسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها، واضطر أن يرفع الحصار عندما سار السلطان مسعود إلى بغداد، وتصالح الخليفة مع زنكي عام ٥٢٨، وربما كان الصلح للخلاف مع مسعود، بل اشترك زنكي مع الخليفة في صراعه مع السلطان مسعود عام ٥٢٩.

استمرت العلاقات غير طيبة بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكي غير أن المهادنة قد وقعت لانشغال عماد الدين زنكي بقتال الصليبيين ومطالبة رجالات مسعود بإبقاء إمارة الموصل حاجزاً ضد أطماع الصليبيين.

في الوقت الذي كان عماد الدين زنكي فيه يدخل في الصراعات الدائرة في العراق وبين الأسرة السلجوقية بعضهم مع بعض لم يكن ليولي وجهه نحو المشرق فقط بل كان أكثر الأيام متجهاً نحو الغرب يعمل على قتال الصليبيين أولاً ومن هذا الجهد كان يعمل على توحيد البلاد وتجميعها تحت إمرة واحدةٍ ليمكن مقاومة الصليبيين وطردهم من البلاد إذ كانت بلاد الشام يومذاك مجزأة بين أمراء المدن، وكان أشهر هؤلاء الأمراء حكام دمشق أكبر مدن بلاد الشام ومقرها الرئيسي، وكانت بيد أسرة طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي، وقد كان في الأصل مملوكاً لتتش بن ألب أرسلان الذي كان والياً على الشام عند وفاة أخيه ملكشاه وطمع أن يمد نفوذه إلى حلب والجزيرة وأذربيجان، وقد قتل عام ٤٨٨ أثناء صراعه مع ابن أخيه بركيارق، وبعد مقتله خلفه ابنه دُقاق الذي أناب عنه طغتكين في حكم الشام، فاستمر في ذلك حتى عام ٤٩٧، فجاء بعده ابنه تاج الملوك بوري حتى عام ٥٢٢ فشمس الملوك إسماعيل حتى عام ٥٢٩، فشهاب الدين محمود حتى

عام ٥٣٣، فجمال الدين محمد حتى عام ٥٣٤ فمجير الدين أبق حتى استولى على دمشق نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٤٩.

توسع سلطان عماد الدين زنكي فقد ضم إليه بعد أن تولى أمر الموصل جزيرة ابن عمرو عام ٥٢١، وحلب ٥٢٢، وسنجار والخابور وحران عام ٥٢٣، وأربيل عام ٥٢٦، والرقة عام ٥٢٩، وعانة والحديثة عام ٥٣٨، وقد أسدى حكام تكريت لعماد الدين زنكي معروفاً وهما الأخوان نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، فلما أبعدوا عن تكريت انتقلوا إليه فأكرمهم وسلمهم بعلبك حينما استولى عليها عام ٥٣٤، وفي الوقت نفسه فقد ضم ديار بكر، وماردين، ونصيبين إليه وكذلك منطقة الأكراد.

ضم عماد الدين زنكي إليه مدينة حماه عام ٥٢٤ غير أن إسماعيل بن بوري حاكم دمشق قد استردّها منذ عام ٥٢٧، ثم دخلها عماد الدين زنكي ثانية عام ٥٢٩ وألقى الحصار على دمشق في ذلك العام، وفكر كثيراً في حكم دمشق وخاصة أن حاكمها مجير الدين يتسلط عليه (إنر) ويتعاون مع الصليبيين ضد زنكي بل قد سلّمهم مدينة بانياس عندما كان نائبها يعطي الطاعة لزنكي، وفشل عماد الدين زنكي في كل محاولاته لدخول دمشق.

هادن عماد الدين زنكي في أول أمره أمير الرها الصليبي جوسلين وذلك من أجل توسعته منطقة نفوذه وتقوية سلطانه، ثم اتجه إلى حصن الأثارب جنوب غربي حلب حيث كان الصليبيون فيه يقاسمون سكان حلب ضواحي المدينة الغربية، ويقومون بغارات دائمة عليهم. ولما علم الصليبيون في بلاد الشام نية عماد الدين اتجهوا بقوات كبيرة نحوه، فترك حصار الحصن والتقى بهم بعيداً عنه وجرت بين الجانبين معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون، وقتلوا الكثير من الصليبيين، وأسروا الكثير، ثم اتجه عماد الدين إلى الحصن وفتحه عنوةً، ثم تقدم إلى حارم وحاصرها فهادنه أهلها، ودفعوا له نصف دخل بلدهم.

فتح عماد الدين زنكي عام ٥٢٩ معرة النعمان، وكفر طاب. وعندما كان يحاصر حمص عام ٥٣١ حشد له الصليبيون حشداً كبيراً ضم جموعهم

في بيت المقدس بقيادة ملكهم (فولك)، وجموعهم في طرابلس بقيادة أميرهم ريموند، فترك عماد الدين حصار حمص والتقى بهم في معركة قاسية انتصر فيها عليهم، وأسر عدداً كبيراً منهم كان من بينهم ريموند أمير طرابلس الصليبي، أما (فولك) ملك بيت المقدس فقد هرب إلى حصن بعرين، ثم استطاع عماد الدين أن يتسلم حصن بعرين، وأن يستمر في قتاله للصليبيين، حتى أخذ إمارة الرها عام ٥٣٩، واستمر صراعه مع الأعداء حتى قتل عام ٥٤١ وهو يحاصر قلعة جعبر على نهر الفرات.

خلف عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي على الموصل على حين خلفه على حلب ابنه الثاني نور الدين محمود، وقد عمل محمود نور الدين على قتال الصليبيين وفق سياسة أبيه بتوحيد بلاد الشام، وحاول الصليبيون استرداد الرها غير أن نور الدين لم يمكنهم من ذلك، وكانت ذات أهمية كبيرة بنظر الصليبيين حتى قامت أوربا بإرسال الحملة الصليبية الثانية لاسترداد الرها غير أن هذه الحملة قد تركت هدفها الرئيسي واتجهت إلى دمشق حلفهم القوي ضد نور الدين محمود الأمر الذي جعل نور الدين محمود يتمكن من دخول دمشق عام ٥٤٩ لإنقاذ المدينة من أن تقع بأيدي الصليبيين بناءً على رغبة أهلها الذين كانوا يخالفونه من قبل، كما فتح عام ٥٤٥ مدينة أعزاز، وأسر (جوسلين)، وابنه في المعركة التي جرت معهما، واستمر في سياسته حتى توفي عام ٥٦٩.

أما الموصل فقد حكمها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حتى عام ٥٤٤ حيث تولى أمرها بعده أخوه قطب الدين مودود، وبقي حتى عام ٥٦٥.

٦ ـ العبيديون:

بدأ الضعف على الدولة العبيدية يظهر بوضوح إذ بدا الصراع بين الوزراء والخلاف بين الجنود، وكان الخلفاء يتولون الأمر وهم صغار فلم يكن بأيديهم من الأمر شيء.

في عام ٥٣١ هرب الوزير النصراني بهرام فطلبه الخليفة حتى أخذه وسجنه، ثم أطلق سراحه، فاعتزل وصار راهباً. واستوزر الخليفة بعد بهرام رجلاً اسمه رضوان، وكان شجاعاً وشاعراً، ولقبه الملك الأفضل غير أنه لم يلبث أن عزل ففر إلى بلاد الشام وطلب من عماد الدين زنكي مساعدته، فخشي الخليفة الحافظ فأرسل إليه أسامة بن منقذ فأمنه واسترضاه وأعاده إلى الخليفة، فسجنه الخليفة عشر سنوات تمكن بعدها من الفرار من السجن، وجمع حوله جماعة قاتل بها جنود الخليفة غير أنه هُزم وقُتل.

وفي عام ٥٤٤ توفي الخليفة الحافظ بعد يومين من مقتل الوزير رضوان، وخلفه ابنه الظافر إسماعيل وكان صغيراً لا يزيد عمره على السادسة عشرة وقام الخلاف بين الجند، ثم امتد إلى الوزراء إذ عزل هذا الخليفة الجديد الوزير الملك العادل ابن سلار وقلّد الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروهاً من الرعية، فجمع ابن سلار جماعته وسار بهم نحو الجيزة ففر منها نجم الدين بن مصال، ولم يكن قد مضى على وزارته أكثر من خمسين يوماً، وسار ابن مصال نحو الصعيد وجمع قوةً فسار إليه جند ابن سلار، والتقى الطرفان في معركة قتل فيها ابن مصال، واضطر الخليفة أن يقلّد ابن سلار الملك العادل الوزارة، غير أن هذا الاضطرار يعني الكراهية والمنافسة بينهما.

طلب الملك العادل سيف الدين ابن سلار من نور الدين محمود أمير حلب مساعدته لقتال الصليبيين بحيث يغزو نور الدين طبريا في الوقت الذي يسير فيه الملك العادل سيف الدين إلى غزة وعسقلان، وبهذه الطريق يمتنع الصليبيون من غزو مصر. وكان ابن سلار يطمع في دعم نور الدين محمود عسكرياً كما يطمع في مساعدته للقضاء على العبيديين الإسماعيليين إذ كان هو ينتمي إلى الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة وفي الطلب أحس نور الدين محمود أن الدولة العبيدية قد أصبحت ضعيفة غير قادرةٍ على حماية نفسها وربما طمع الصليبيون فيها وهاجموها فيتسع نفوذ الصليبيين في الوقت الذي يريدون تقويض إماراتهم وطردهم من بلاد الشام.

وأحس الخليفة العبيدي الظافر بما يدبر ابن سلار فعمل على الكيد له، وعمل على أن يتولّى نصر بن عباس اغتياله. واغتيل ابن سلار عام ٥٤٨، ثم تلاه قتل الخليفة الظافر، وكان عباس بن نصر قد تولى الوزارة إثر قتل ابنه نصر لابن سلار، كما عمل نصر لقتل الخليفة ولما ثارت الرعية على عباس فر وابنه نصر إلى بلاد الشام، فلاحقته جماعة من الصليبيين أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فقُتل عباس، وأُخذ ابنه نصر إلى القاهرة حيث قتل هناك أو صلب حياً.

تولى بعد الظافر ابنه الفائز أبو القاسم عيسى عام ٥٤٩ وكان صغيراً لا يزيد عمره على الخامسة. وجاء الأمير طلائع بن رزيك أحد الولاة إلى القاهرة، وتسلم الوزارة وأعاد الأمن، وتلقب بالملك الصالح، غير أن الصليبيين قد احتلوا مدينة عسقلان من العبيديين، ولكن لم يتمكنوا إلى أن يسيروا إلى أبعد من ذلك بسبب قيام نور الدين محمود الذي دخل دمشق عام ٥٤٩، وقويت دولته وكان يقف في وجه الصليبيين فإذا ما سار الصليبيون نحو مصر اتجه نور الدين محمود نحو بيت المقدس.

وفي عام ٥٥٥ توفي الخليفة الفائز بنصر الله فاختار الملك الصالح ابن رزيك خليفةً بعده ابن عمه عبد الله بن يوسف بن الحافظ وكنيته أبو محمد، ولقبه العاضد لدين الله، وكان في ذلك الوقت مراهقاً قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوّجه ابنته (ابنة الملك الصالح ابن رزيك).

٧ ـ آل زيري:

كان الحسن بن علي الصنهاجي أمير آل زيري منذ أن تولّى أمر المهدية عام ٥١٥، واستمر الصراع بينه وبين روجر النورماندي حاكم صقلية، ثم جرى بينهما عهد. وفي عام ٥٤٠ خرج أسطول للنصارى الصقليين، واستولى على جزر قرقنة المقابلة للساحل التونسي، فأرسل إليهم الحسن من يذكّرهم بالعهود بينه وبينهم. وفي عام ٥٤١ أرسل روجر أسطولاً استولى على طرابلس الغرب وما استطاع دخولها إلا بعد خلاف بين

أهلها أدّى إلى قتال بعضهم مع بعض إذ وقع قتال بين بني مطروح الذين كانوا يحكمون البلد وبين الملثمين، فأخذ النصارى الرهائن من المسلمين، ثم أعادوهم، وولّوا على طرابلس أحد بني مطروح، وأجبروا أهلها على أن يسمحوا لسفن صقلية بالمرور من بلدهم.

وفي عام ٥٤٢ استبد بمدينة قابس مولى اسمه يوسف فأرسل إليه الحسن بن علي ينذره، فاتصل يوسف بحاكم صقلية روجر وبذل له الطاعة، فأرسل له الحسن جيشاً فما كان من يوسف إلا أن خلع طاعة آل زيري، وزادت صلته بـ (روجر)، أما أبناء المدينة فقد قاوموا يوسف وتصرفاته وسلموا بلدهم لجند الحسن بن علي آل زيري، وأُخذ يوسف أسيراً. وسار أهل يوسف إلى صقلية واستنجدوا بروجر فأرسل روجر أسطولاً بإمرة وزيره جورج وصل إلى جزيرة قوصرة رغم العهد بين الحسن وروجر، ثم انتقل جورج إلى مدينة المهدية فغادرها الحسن بن علي، واتجه إلى بني حماد فحصروه في جزيرة بني مزغنان مقابل مدينة الجزائر اليوم وذلك عام ٥٤٣، وبقي هناك حتى دخل عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين المنطقة فسار معه إلى المهدية عام ٥٥٤ فولاه عليها، وهكذا زالت دولة بني زيري بعد حكم دام تسع ومائتي سنة، وتوالى عليها تسعة حكام من آل زيري: تسعة من أبناء المنصور ومثلهم من أبناء حماد في أشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، كما هو مبين في الجدول التالي:

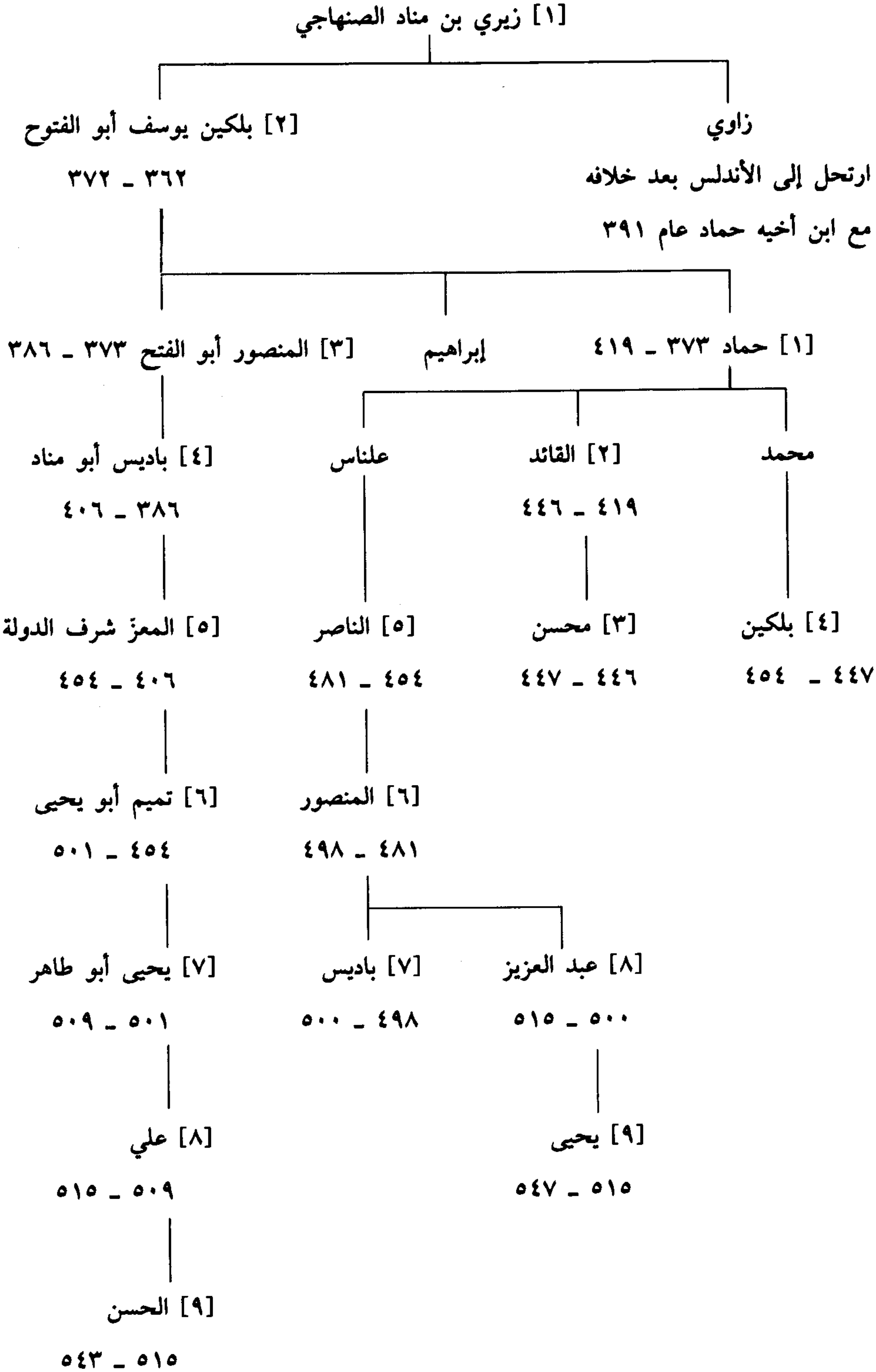
[١] زيري بن مناد الصنهاجي
زاوي
ارتحل إلى الأندلس بعد خلافه
مع ابن أخيه حماد عام ٣٩١
[٢] بلكين يوسف أبو الفتوح
٣٦٢ ـ ٣٧٢
[١] حماد ٣٧٣ ـ ٤١٩
إبراهيم
[٣] المنصور أبو الفتح ٣٧٣ ـ ٣٨٦
محمد
[٢] القائد
٤١٩ ـ ٤٤٦
علناس
[٤] باديس أبو مناد
٣٨٦ ـ ٤٠٦
[٤] بلكين
٤٤٧ ـ ٤٥٤
[٣] محسن
٤٤٦ ـ ٤٤٧
[٥] الناصر
٤٥٤ ـ ٤٨١
[٥] المعزّ شرف الدولة
٤٠٦ ـ ٤٥٤
[٦] المنصور
٤٨١ ـ ٤٩٨
[٦] تميم أبو يحيى
٤٥٤ ـ ٥٠١
[٨] عبد العزيز
٥٠٠ ـ ٥١٥
[٧] باديس
٤٩٨ ـ ٥٠٠
[٧] يحيى أبو طاهر
٥٠١ ـ ٥٠٩
[٩] يحيى
٥١٥ ـ ٥٤٧
[٨] علي
٥٠٩ ـ ٥١٥
[٩] الحسن
٥١٥ ـ ٥٤٣

٨ ـ المرابطون:

توفي علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧ وخلفه ولده تاشفين، فولّى ابنه إبراهيم على مدينة مراكش، وأخذ بنفسه متابعة أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي، وسار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها، والتقى الطرفان في معركة، انتقل تاشفين إثرها إلى مدينة وهران ليتخذها قاعدةً له، فسار وراءه عبد المؤمن، وحاصره فيها، فحاول تاشفين النجاة فهوى عن صخرة بجواده فقتل عام ٥٣٩.

تولى بعد تاشفين أخوه إسحاق بن علي، فسار إليه عبد المؤمن بن علي وتمكن من دخول مراكش والقضاء على دولة المرابطين عام ٥٤١هـ.

٩ ـ الموحدون:

بعد أن قضى عبد المؤمن بن علي على دولة المرابطين سار إلى بني حماد فملك مدينة بجاية عام ٥٤٧، واستسلم يحيى بن عبد العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد، ثم حارب صنهاجة وانتصر عليها، وسار بعدها إلى قلعة بني حماد جنوب غربي صطيف وتمكّن من احتلالها، وتقع شمال شط الحضنة في جبال الحضنة شمال شرقي بلدة المسيلة وعلى بعد ٢٥كم منها، وإلى الجنوب من بجاية على بعد ١٠٠كم منها.

تحالفت بعض القبائل العربية من بني هلال وبني زعب من سُليم وغيرها عام ٥٤٨ لمحاربة عبد المؤمن بن علي، فانتصر عليهم، وكان روجر حاكم صقلية النصراني قد عرض على هذه القبائل مساعدته ودعمه لها، فرفضت وأبت أن تستعين بكافر على مسلم.

واستطاع عبد المؤمن بن علي أن يفتح مدينة المهدية عام ٥٥٤، وكانت بيد النورمانديين منذ عام ٥٤٣، وبذا دانت المغرب كلها للموحدين أيام عبد المؤمن بن علي الذي بقي حتى عام ٥٥٨.

١٠ ـ الأندلس:

استطاع النصارى أن يدخلوا شنترين، وماجة، وماردة، واشبونة عام ٥٤٠ إذ ضعف أمر المرابطين. وفي عام ٥٤١ بينما كان عبد المؤمن بن علي يحاصر مراكش إذ جاءه وفد من أهل الأندلس يطلب منه مناصرة المسلمين في الأندلس، فسيّر معهم جيشاً وأسطولاً فسار الجيش نحو إشبيلية، ودخل الأسطول النهر إليها فحاصرها ثم أخذها عنوةً من يد المرابطين.

غير أن النصارى كان وضعهم يسير إلى تحسنٍ في الأندلس، وقد ملكوا المرية عام ٥٤٢، ثم أخذوا عام ٥٤٤ كلاًّ من طرطوشة ولاردة، وفي العام التالي حاصر ملك طليطلة النصراني، وهو الأذفونس الملقب بالسليطين قرطبة فبعث له عبد المؤمن جيشاً أجبره على الرحيل عنها.

وتحسن وضع الموحدين بعد الإنتهاء من حروبهم في إفريقية والقضاء على دولة المرابطين، وبني حماد، وامتلاك كل بلاد المغرب، فانصرفوا نحو الأندلس، وتمكن عبد المؤمن بن علي أن يستعيد مدينة المرية من النصارى عام ٥٥٢ بعد أن حكموها عشر سنوات، ولم يبق للمرابطين سوى جزيرة ميورقة مع حمود بن غانية.

١١ ـ اليمن:

كان بنو نجاح يحكمون تهامة، وكان أميرهم فاتك بن منصور الذي توفي عام ٥٤٠، وفي أيامه ظهر المهديون، فهاجموا بإمرة علي بن مهدي بلاد بني نجاح عام ٥٣٨ غير أنهم هزموا، وانسحب علي بن مهدي إلى الجبال.

وخلف فاتكاً فاتك بن محمد بن فاتك، وبقي حتى عام ٥٥٥، وهو آخر ملوك بني نجاح، وفي عهده أغار علي بن مهدي على زبيد فاستنجد أهلها ببني الرس، وكان إمامهم المتوكل أحمد بن سليمان فأنجدهم، ودفع عنهم غارات علي بن مهدي الذي استطاع أخيراً دخولها عام ٥٥٣.

وفي عدن كان يحكم بني زريع الداعي سبأ بن أبي السعود منذ عام ٤٨٩ حتى عام ٥٣٣ حيث توفي، وخلفه ابنه محمد بن سبأ حتى عام ٥٥٠، فخلفه ابنه عمران بن محمد بن سبأ، ولقب بالمكرم، وبقي حتى عام ٥٦٠.

وفي صنعاء حكم حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وهزم أحمد بن سليمان إمام بني الرس في صعدة ٥٤٦ غير أن أحمد بن سليمان قد عاد واحتل صنعاء عام ٥٥٠، وذهب حاتم إلى حصن جنوب صنعاء وبقي فيه حتى توفي عام ٥٥٦هـ.

وبالنسبة إلى بني الرس فإن أحمد بن سليمان قد برز في صعده، وبقي حتى عام ٥٦٦، ولم يكن وضعه مستقراً.

الصَليبيُّونَ

لقد قلّ عدد الصليبيين في بلاد الشام بسبب ما قُتل منهم، وتوزّعوا في شريطٍ طويلٍ يمتد من الرها إلى أنطاكية فطرابلس فبيت المقدس، وحلّت بهم هزائم كثيرة، فطلبوا معونة أوربا والكنيسة، وكان البابا أربان الثاني قد توفي، ولم يعد تأييد الكنيسة ذا أثر، وبخاصة أنه قام نزاع بين رجال الكنيسة على كرسي البابوية، وزادت ثروة أوربا، وزادت قوة الملكية في بعض الدول مثل فرنسا وألمانيا وصقلية، ولهذا لم تستطع الكنيسة، كما لم تستطع أوربا تلبية نداء الصليبيين، كما حدث في جمع الصليبيين في المرة الأولى.

لقد نشأت قوة جديدة للمسلمين تزعمها عماد الدين زنكي، وبدأ يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولتوسعة رقعة البلاد التي يسيطر عليها في سبيل الوقوف في وجه الصليبيين ومحاولة طردهم من بلاد المسلمين، غير أن وجود هذه القوة الجديدة قد دفع نصارى أوربا للمناداة للدفاع عن البلاد التي احتلوها من بلاد الشام، والتي كلفتهم كثيراً، واستطاع أحدهم أن يجمع أعداداً كبيرة من النصارى الحاقدين على المسلمين تحت شعار الدفاع عن المكتسبات التي حصلوا عليها، ولما كانت الملكية قد قويت في ألمانيا وفرنسا وتريد منافسة الكنيسة لذا فقد انضم إلى هذه الجموع كل من ملك ألمانيا كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، وسارت حملة كبيرة متجهة نحو الشرق.

أما روجر ملك صقلية وجنوبي إيطاليا فقد اتجه نحو شمالي إفريقية، ودخل طرابلس الغرب، كما دخل المهدية: أولاهما عام ٥٤١، والثانية

٥٤٣ غير أن اختلافاً قام بينه وبين أمبراطور القسطنطينية عام ٥٤٤، ثم مات وزيره جورج عام ٥٤٦ الذي قام بحملاته الصليبية في شمالي إفريقية فاستراح منه الناس، كما مات هو عام ٥٤٨ بعد أن هاجم بونه ودخلها.

أما الحملة الصليبية الثانية فقد شجّعها على الإنطلاق فتح عماد الدين زنكي لإمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩، وعندما انطلقت هذه الحملة عام ٥٤٢ كان عماد الدين زنكي قد توفي عام ٥٤١، واتجهت الحملة إلى بلاد الشام عن طريق البحر للخلاف الذي كان قائماً بين أمبراطور القسطنطينية وبين الصليبيين. اتجه الفرنسيون نحو أنطاكية على حين سار الألمان نحو عكا.

رغبت قادة هذه الحملة الصليبية أن يحتلوا دمشق حاضرة بلاد الشام ولقطع الصلة بين المسلمين شمال بيت المقدس وجنوبه فارتكبوا بذلك خطأً كبيراً، وهو أن أمير دمشق يومذاك وهو مجير الدين كان يخشى من سيطرة آل زنكي على مدينته ويعتمد على الدعم الصليبي فيما إذا اتجه آل زنكي نحوه. بالإتجاه الصليبي نحو دمشق جعل أميرها مجير الدين يستنجد بنور الدين محمود آل زنكي ضدهم وهذا ما هيأ لنور الدين باحتلال دمشق عام ٥٤٩ وأضاع على الصليبيين مخططاتهم، واضطر ملك ألمانيا كونراد الثالث بعدها العودة إلى بلاده، كما تبعه ملك فرنسا لويس السابع بعد مدةٍ وجيزةٍ. وهكذا فشلت هذه الحملة الصليبية الثانية.

أما نور الدين محمود فقد حمل مهمة والده في قتال الصليبيين، وقد استطاع أن يفتح عدة حصون على الساحل الشامي عام ٥٤٢ كانت للصليبيين.

وفي عام ٥٤٣ حاصر الصليبيون مدينة دمشق بجيشٍ قوامه مائة ألف يقوده كونراد الثالث ملك ألمانيا، فاستنجد أميرها مجير الدين بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، وجاء محمود نور الدين، وانتصر على الصليبيين في بصرى، ولما سمع الصليبيون بقدوم ولدي زنكي إلى دمشق رحلوا عنها.

وفي عام ٥٤٤ دخل نور الدين محمود حصن أفاميا، وسار نحو أنطاكية، وحاصر في طريقه مدينة حارم، وصالحه أهلها على نصف أرزاقهم. غير أنه هزم عام ٥٤٦ عندما سار لقتال جوسلين أمير الرها الصليبي، ثم تمكّن من أسر جوسلين فيما بعد، واستطاع أن يأخذ إعزاز، وعينتاب، ومرعش.

واستنجد مجير الدين بنور الدين محمود ضد الصليبيين فجاءه ودخل دمشق عام ٥٤٩، ثم سار إلى بعلبك ودخلها عام ٥٥٠، كما أخذ شيزر عام ٥٥٢.

وأخفقت الحملة الصليبية الثانية، وظهر ضعف الصليبيين في بلاد الشام، وقوي شأن المسلمين إذ أصبحت أكثر بلاد الشام تحت إمرة نور الدين محمود، وحُصر الصليبيون في المناطق الساحلية وبيت المقدس، وقلّ أملهم في مساعدة، بعض أمراء المسلمين ضد بعض، وقلّ عدد النصارى الذين كانوا يأتون لزيارة بيت المقدس، ولم تعد أوربا تفكر بإرسال حملةٍ جديدة إلى بلاد الشام لدعم الصليبيين هناك.

-٣٢-

المستنجد بالله
يوسف بن محمّد المقتفي
٥٥٥ - ٥٦٦

هو يوسف أبو المظفر المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وأمه أم ولد كرجية تدعى «طاووس».

كان المستنجد أسمر طويل اللحية، كان من خيار الخلفاء وأعدلهم، وأرفقهم بالرعايا، ومنع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكساً، وكان شديداً على المفسدين، سجن رجلاً كان يسعى بالناس فساداً مدة، وقد شفع له بعض أصحابه، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلّني على آخر مثله لأحبسه، وأكفّ شرّه عن الناس. كان أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر.

قال ابن الجوزي: وكان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والأسطرلاب وغير ذلك.

ومن شعره:

عيّرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيّرتني بما هو عار

إن تكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الأقمار[١]

(١) الكامل في التاريخ.

بويع بولاية العهد وعمره تسع وعشرون سنة أي عام ٥٤٧، وبويع بالخلافة يوم موت أبيه يوم الأحد الثاني من ربيع الأول من عام ٥٥٥.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين، وكانت الساحة بلاد الشام ومصر، ويقود القتال محمود نور الدين في كلا الساحتين حيث ضعفت الدولة العبيدية لدرجة كبيرة وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولى أمر الدفاع عن مصر.

وفي أيامه هاجمت الكرج عام ٥٥٧ بلاد المسلمين ونهبوا وسبوا وقتلوا كثيراً فاجتمع لهم حكام أذربيجان ومراغة وخلاط وثأروا منهم.

وتوفي في ثمان ربيع الثاني من سنة ست وستين وخمسمائة، وبذا تكون خلافته قد زادت على إحدى عشرة سنة.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

ضعف أمر السلاجقة كثيراً، وقوي أمر الخلفاء نسبياً، وإن كانت السلطة الحقيقية إنما هي بيد أمراء الولايات أو الذين عرفوا باسم الأتابكة، حيث تعني كلمة أتابك الوالد الأمير.

توفي السلطان ملكشاه بن محمود عام ٥٥٥، وحرص على تسلم السلطنة عمه سليمان بن محمد بن ملكشاه غير أنه قتل عام ٥٥٦، وبويع ابن أخيه أرسلان شاه بن طغرل.

٢ ـ خوارزم:

كان إيل إسلان بن اتسز هو شاه خوارزم، وكانت الأمور مستقرةً له، والبلاد التي يسيطر عليها واسعة الأرجاء، وبقي في حكمه حتى توفي عام ٥٦٨.

٣ ـ الغوريون:

توفي علاء الدين حسين عام ٥٥٦ فخلفه ابنه سيف الدين محمد الذي طرد من عرف من الإسماعيلية من بلاده، وسار إلى محاربة الغز الأتراك في بلخ فهزم وقتل عام ٥٥٨، ولم يتجاوز من العمر العشرين عاماً. وتولّى بعده ابن عمه غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام الذي أرسل جيشاً كبيراً بإمرة أخيه شهاب الدين فأنقذ غزنة من الأتراك الغز، وقد حكموها خمس عشرة سنة، كما سار إلى السند، غير أن الترك الغز قد عادوا إلى غزنة

وحكموها. وسار شهاب الدين عام ٥٥٩ مع جيش قوي فاستولى على لاهور بعد حصارٍ لها، وقضى على الدولة الغزنوية إذ أسر فيها خسرو شاه وأرسله إلى أخيه غياث الدين فقتله.

اتسعت دولة غياث الدين، وقوي أمره، وامتدت أيامه.

٤ ـ آل زنكي:

تابع نور الدين محمود مهمته في قتال الصليبيين وقد كان القتال بينهما سجالاً في المرحلة الأولى، ثم حرص على حصرهم بين جبهتين عندما ضعُف العبيديون فنال منهم كثيراً.

لقد هزم نور الدين محمود أمام الصليبيين عام ٥٥٨ عند حصن الأكراد حيث فاجأته قواتهم، واضطر المسلمون إلى الفرار. وسار الصليبيون في العام التالي ٥٥٩ إلى مصر بأعداد كبيرة نجدةً لشاور وفي نيتهم التسلط على مصر، فهاجمهم نور الدين محمود عندها في الشمال وأرسل قائده أسد الدين شيركوه بن شادي إلى مصر. لقد سار نور الدين محمود إلى حصن حارم، وأسر صاحب أنطاكية (بيمند)، وصاحب طرابلس (القومص)، وأمير جيوش القسطنطينية إذ تجمّع كلهم ضده فنصره الله عليهم، واتجه نحو بانياس ففتحها، وكان معه أخوه نصر الدين أمير ميران وفقد يومها إحدى عينيه في المعركة.

وبعد أن ضعفت الدولة العبيدية وجّه نور الدين محمود جهده إلى الجنوب لدعم مصر ضد الصليبيين الذين ركّزوا جيوشهم إلى تلك الجهات ليبسطوا نفوذهم على مصر بإيجاد الفرقة بين المتنازعين في مصر وفي الوقت نفسه لم ينس نور الدين محمود تقديم الجهد للقتال في الشمال للتخلص من الصليبيين في إماراتهم الشمالية وجعل الصليبيين في بيت المقدس بين جبهتين فيضعف أمرهم ويمكن القضاء عليهم وهذا ما تمّ بالواقع عندما أصبحت مصر وأكثر بلاد الشام تحت نفوذ نور الدين محمود.

٥ ـ العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي الفائز عام ٥٥٥، وعمره أحد عشر عاماً، وكان يدبر أمر دولته الوزير الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك، وتولّى بعد الفائز ابن عمه العاضد أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، واستمر طلائع بن رزيك في تسيير أمور الدولة غير أنه قتل عام ٥٥٦، وتسلم بعده ابنه رزيك أبو شجاع الملك العادل، وكان يحذر نائبه على الصعيد شاور بناءً على وصية أبيه، وهو الذي قدّمه، وشاور هو أبو شجاع بن مجير الدين السعدي.

استطاع شاور أن يخلع رزيك بن طلائع وأن يحلّ محلّه في الوزارة، وفي عام ٥٥٨ قتل طي بن شاور رزيك بن طلائع، وكان لهذا القتل أثره في نفوس الأهلين، فأجمع أنصار الملك العادل على القيام بثورة ضد شاور، واستغل هذا الحقد أحد المقدمين وهو ضرغام وقام بحركة ضد شاور الذي فرّ إلى بلاد الشام، وتمكن ضرغام من الانتصار وقتل ولدي شاور، وسجن الثالث، وتسلّم ضرغام الوزارة مكان شاور.

طلب شاور بن مجير الدين الغوث من نور الدين محمود، وتعهد له بدفع نفقات الحملة، وتقديم ثلث خراج مصر إلى نور الدين محمود لقتال الصليبيين، فوافقه نور الدين محمود، وفي رغبته حكم مصر ليستطيع تنفيذ مهمته في حصار الصليبيين وخاصة أنه يعلم أن العبيديين على درجة من الضعف لا يستطيعون معه الوقوف أمام الصليبيين. فأرسل مع شاور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه بن شادي.

كان المصريون يدفعون أتاوةً للصليبيين، واختلف ضرغام مع عموري ملك بيت المقدس الصليبي، فسار عموري إلى مصر عام ٥٥٩ ليفرض أتاوةً سنويةً كبيرةً على مصر، وليفرض رأيه، وانتصر على ضرغام في بلبيس وأراد ضرغام أن يتجنب الهزيمة الأكبر ففتح السدود على النيل وكان وقت الفيضان بل في أوسع مدىً له، فأُغرقت الدلتا واضطر عموري أن يعود إلى مقره، وتمّ لضرغام ما أراد.

بعد أن رجع عموري وصل إلى مسامع ضرغام اتفاق شاور مع نور الدين محمود فأسرع إلى عقد حلف مع عموري وزاد من قيمة الأتاوة التي يدفعها للصليبيين. غير أن شاور وصل وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن نجم الدين أيوب قبل أن يصل عموري، والتقى الفريقان في بلبيس، وانتصر أسد الدين شيركوه، واستولى شاور على الفسطاط بينما كان ضرغام في قصر القاهرة وقد قتل وهو يُحرّض الناس إذ تخلّى عنه أنصاره. وتسلّم شاور الوزارة، وتصالح مع الخليفة العبيدي العاضد، وشعر بقوته فرفض أن يدفع لأسد الدين شيركوه نفقات الحملة بل نقض عهده معه، وطلب منه أن يرجع إلى بلاد الشام، فلم يستجب أسد الدين لطلبه، فحالف شاور الصليبيين، وحاصروا أسد الدين شيركوه في بلبيس فاضطر أن يعود إلى بلاد الشام بعد حصار دام ثمانية أشهر، ولم يتمكن من فك الحصار عنه إلا بعد أن قام نور الدين محمود بهجوم على الأجزاء الشمالية التي بيد الصليبيين، وانتصر على جموعهم، وأسر أمراءهم - كما ذكرنا - وفتح حارم وبانياس، فأُجبر الصليبيون في بلبيس إلى فك الحصار والاتجاه نحو الشمال للوقوف في وجه نور الدين محمود.

أفاد أسد الدين شيركوه من هذه الحملة حيث عرف أوضاع مصر وطبيعة أهلها، واختلاف أبنائها، ورأى من الضرورة بمكان امتلاكها كي يستطيع أن يقضي على الصليبيين فبدأ يعد العدة، واستمر في إعداد حملة قوية مدة عامين.

سار أسد الدين شيركوه بن شادي بجيش كبير إلى مصر، ووصل إلى بلبيس وهزم المصريين، غير أن شاور قد استنجد بالصليبيين فجاءوا إلى مصر بأعدادٍ كبيرةٍ، وحاصروا شيركوه في بلبيس، وأجبروه على العودة إلى الشام. وبعد مدة رجع الصليبيون أيضاً إلى مناطقهم في فلسطين.

وقامت ثورة يحيى بن الخياط الذي طلب الوزارة لنفسه، وهو من أنصار طلائع بن رزيك، وقد قمع هذه الثورة شاور لكن قامت ثورات متعددة لكنها كانت كلها أقل أهمية من ثورة ابن الخياط. وبلغ شاور أن

نور الدين محمود يعد العدة لغزو جديد لمصر، ورأى شاور أن يستنجد ثانيةً بالصليبيين، ووعدهم بموطن دائم في بلده.

سار أسد الدين شيركوه من الشام عام ٥٦٢ وفي الوقت نفسه اتجه الصليبيون نحو مصر أيضاً ومشى الجيشان على شاطئ نهر النيل، والتقيا في معركة جنوب مدينة المنيا، وقد انتصر شيركوه، وانسحب الصليبيون نحو القاهرة حيث كان معسكر أميرهم عموري. ولم يجد أسد الدين شيركوه نفسه قادراً على السير إلى القاهرة لذا فقد وطد أقدامه في الصعيد، وجبى الخراج، ثم سار عن طريق الصحراء إلى الإسكندرية فدخلها من دون مقاومة، فولى عليها ابن أخيه صلاح الدين، وترك معه نصف الجيش، وعاد هو إلى الصعيد. وسارت القوات المصرية والصليبية نحو الإسكندرية وحاصرتها براً وبحراً إذ جاء أسطول صليبي إلى مياهها، واستمر الحصار أربعة أشهر، واستنجد صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه فجاء إليه مسرعاً، وجرى صلح بين الطرفين ينسحب بموجبه أسد الدين شيركوه من مصر مقابل خمسين ألف دينار، ولم يقبل الصليبيون بالصلح إلا لأن قوتهم ضعفت ورأوا من المصلحة السير بقوتهم إلى الشمال حيث سار نور الدين محمود ومعه أخوه قطب الدين مودود إلى البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون في منطقة طرابلس حيث فتحا صافيتا، وأغارا على عرقة وحلبا.

قرر الصليبيون احتلال مصر إذ رأوا أن الوقت مناسب لهم، فزحفوا عليها فما كان من شاور إلا الاستنجاد بنور الدين محمود فأرسل إليه حملة بإمرة أسد الدين شيركوه، ومعه أخواه، وابن أخيه صلاح الدين، وقد وجد نور الدين في التعاون مع شاور الانتصار على الصليبيين ثم يمكن بعدئذ التخلص من شاور وحكم مصر، وعندها تقوى جبهة المسلمين حيث تصبح واحدة ويمكن وقتئذٍ طرد الصليبيين من المناطق التي سيطروا عليها.

سار الصليبيون في صفر عام ٥٦٤ إلى مصر، ودخلوا بلبيس وأساءوا إلى الأهالي، ثم اتجهوا إلى القاهرة فأحرق شاور الفسطاط كي لا يدخلها الصليبيون، فالتجأ أهلها إلى القاهرة، وخاف الناس من وصول الصليبيين

إليهم لما سمعوا من أفعالهم في بلبيس والمناطق التي مروا عليها لذا أخذت الحماسة أهل القاهرة، وقرروا مجابهة الصليبيين بكل إمكاناتهم.

بدأ شاور يفاوض عموري قائد الصليبيين، ووصل شيركوه إلى القاهرة في جمادى الآخرة ولا يزال عموري على أسوارها وقد رأى أنه لا قبل له بقتال شيركوه لذا فضل الإنسحاب والعودة إلى فلسطين دون قتال، ودخل شيركوه القاهرة فاستقبله المصريون بالترحاب كعادتهم مع كل قادم قوي.

رأى شيركوه أن الأمر لا يستقر إلا بالتخلص من شاور وقد قام صلاح الدين بهذه المهمة وتخلص من شاور عام ٥٦٤، وولّى العاضد الوزارة إلى شيركوه الذي توفي عام ٥٦٥ فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ولُقّب بالملك الناصر.

وفي الوقت نفسه استولى نور الدين محمود في بلاد الشام على قلعة جعبر وأخذها من أيدي الصليبيين.

كسب صلاح الدين ثقة أهل مصر، غير أن الخليفة العبيدي العاضد كان يخشى من صلاح الدين للخلاف بينهما في العقيدة لذا بدأ يحيك المؤامرات ضده ومنها محاولة قتل صلاح الدين بيد نجاح، وهذا ما جعل صلاح الدين يقتل نجاحاً، وعندما ثار أتباعه انتصر عليهم غير أن حركتهم بقيت عدة سنوات.

اتفق الصليبيون والبيزنطيون على القيام بحملة مشتركة ضد مصر، وساروا بحملةٍ بحريةٍ نزلت بالقرب من دمياط، فأسرع صلاح الدين إلى دمياط وتحصن فيها، كما أن نور الدين محمود قد أسرع إلى غزو البلدان التي يسيطرون عليها، فحاصر الكرك، وأرسل نجدة إلى صلاح الدين وكانت القوة تتحرك إثر القوة وكان على رأس إحداها أبو صلاح الدين يوسف نجم الدين أيوب وقد نصحه نور الدين محمود عندما أرسله أن يأمر ابنه صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي المستنجد.

استمر حصار الصليبيين لمدينة دمياط خمسين يوماً اضطروا بعدها إلى

رفع الحصار عنها نتيجة الإمدادات التي كانت تصل إليها من نور الدين محمود، وشدة مقاومة صلاح الدين، ودعم الخليفة العبيدي العاضد، واستيلاء نور الدين محمود على أجزاء من مملكة الصليبيين في بيت المقدس.

غادر الصليبيون دمياط، وتفرغ صلاح الدين لتوطيد أقدامه، فجاءت أسرته من بلاد الشام، وعيّن أباه على بيت المال، وأسند مناصب القضاء إلى جماعة من المسلمين بدلاً عن العبيديين، وضعف بهذا أمر الخليفة العبيدي العاضد، وخاصة بعد أن أسند صلاح الدين إلى أنصاره بعض قيادات الجيش، وعزل من يشك في إخلاصهم له.

وأقام صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد بهاء الدين قراقوش، وحصر الأسرة العبيدية في جناح خاص من القصر، وعقد مجلساً للأمراء، واستشارهم في الخطبة للخليفة العباسي المستضيء فوافقوه وتم ذلك، وتوفي العاضد في مطلع عام ٥٦٧، ولم يدر ما تم، وبذا انتهت الدولة الفاطمية بموت العاضد، وتسلّم صلاح الدين أمر مصر كلها.

٦ ـ الموحدون:

توفي عبد المؤمن بن علي عام ٥٥٨ وهو يستعد للإبحار إلى الأندلس للجهاد فيها، وخلفه ابنه الأكبر محمد غير أن أمره قد اضطرب، فاتفق الموحدون برأي أخويه يوسف، وعمر على خلعه وتولية يوسف بن عبد المؤمن، غير أن إخوته الآخرين لم يقبلوا بهذا الرأي، ومنهم أبو عبد الله صاحب قرطبة وأبو محمد صاحب بجاية، وبقيا على خلافهما مدة سنة ثم أعلنا الخضوع والطاعة.

وعندما بويع يوسف أبو يعقوب سار على سياسة أبيه في الجهاد. ونازعه «مَرْزدغ» الصنهاجي فقضى على ثورته عام ٥٥٩. وأرسل أخاه أبا حفص للجهاد في الأندلس فسار على رأس عشرين ألفاً عام ٥٦٥ فغزا طليطلة، وأحرز النصر، وحصل على غنائم كثيرة وسبي.

كما حدث قتال بين يوسف أبي يعقوب وبين محمد بن سعيد بن مردنيش الذي كان يحكم شرقي الأندلس، وقد امتنع على عبد المؤمن، وعلى ابنه من بعده، وذلك عام ٥٦٥.

٧ ـ اليمن:

لم يتغير شيء في اليمن إذ بقي بنو زريع في عدن، وبنو حاتم في صنعاء، وبنو مهدي في زبيد، وبنو الرسيّ يسيطرون أحياناً على صعده، وبرز منهم يومذاك المتوكل أحمد بن سليمان.

٨ ـ **برزت أسر في جهات مختلفة من الجزيرة العربية** فقد حكمت الحجاز أسرة بني موسى التي تنتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، عام ٣٥٩ بعد زوال القرامطة، وبقيت حتى عام ٤٥٣ وتعد هذه الأسرة من عمال العبيديين، وقامت بعدها أسرة بنو فليتة (بنو هاشم)، وتنتسب أيضاً إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وبقيت حتى عام ٩٥٨، وقد سارت في الناس في بداية أمرها سيرة حسنة، ثم أساءت المعاملة، ونهبت قوافل الحجاج، وخاصة في عهد آخر أمراء هذه الأسرة وهو مكثر.

وفي اليمامة زال حكم الأخيضريين عمال القرامطة عام ٤٦٧، وتجزأت المنطقة إلى عدد من الإمارات.

وفي البحرين حكم العيونيون بعد زوال القرامطة عام ٤٦٧، وكان عبد الله بن علي العيوني أول أمرائهم وينتسب إلى بلدة العيون، وهو من قبيلة بني عبد القيس المعروفة.

* * *

الصَّليبيُّونَ

ضعف أمر الصليبيين بعد الانتصارات الواسعة التي أحرزها نور الدين محمود، وبعد السيطرة على مصر، وبقيت قواتهم محصورة بين قوات نور الدين محمود من كل جهة، وبقيت المناطق التي يسيطرون عليها عبارة عن شريط يمتد على الساحل الشامي من بدايته عند إسكندرون في الشمال إلى عسقلان في الجنوب وإن كانت بعض الجيوب التي تمتد نحو الداخل عند بيت المقدس، وكانوا يتوقعون الهجوم الإسلامي عليهم في كل وقت، وطردهم وإلقائهم في البحر، لذا كانت أنظارهم تتجه دائماً نحو أوروبا يطلبون منها الدعم محافظةً على أوضاعهم والمكاسب التي حصلوا عليها في خلال هذه الصراعات مع المسلمين، والتي طالت أيامها حتى زادت على السبعين سنة، والتي ضحّوا فيها بالكثير من القتلى.

* * *

-٣٣-

المستضيء بأمر الله
الحسن بن يوسف المستنجد
٥٦٦ - ٥٧٥

هو الحسن أبو محمد المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله، ولد عام ستة وثلاثين وخمسمائة، وأمه أم ولد رومية اسمها «غضة».

بويع بالخلافة يوم مات أبوه صبيحة يوم الأحد التاسع من شهر ربيع الثاني عام ٥٦٦، وكان من خيار الخلفاء، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مزيلاً عن الناس المكوسات والضرائب، مبطلاً للبدع والمعائب، وكان حليماً وقوراً كريماً[١].

قال ابن الجوزي: فنادى برفع المكوس، وردّ المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا[٢]،

وقال ابن الجوزي عنه أيضاً: واحتجب عن أكثر الناس، فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه غيرهم[٣].

وقال الذهبي: في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهى، وأمن الناس، ورزق سعادة عظيمة في خلافته[٤].

---

(١) تاريخ الخلفاء، البداية والنهاية.
(٢) تاريخ الخلفاء.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق نفسه.

وفي عهده انتهت الدولة العبيدية بمصر، وبذلك عاد الأمر الشرعي فلم يبق سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار الإسلام، وذلك عام ٥٦٧.

وتوفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٦٩ في دمشق فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل وكان صغيراً، فتحرك الصليبيون فصالحهم على مال يؤديه لهم.

وخطب للمستضيء في بلاد اليمن هذا بالإضافة إلى مصر وإفريقية وبلاد الشام.

وتوفي في شوال من عام ٥٧٥ فكانت خلافته تسعة أعوام.

* * *

ـ ٣٤ ـ

الناصر لدين الله
أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله
٥٧٥ ـ ٦٢٢

هو الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن الحسن المستضيء بأمر الله، ولد في العاشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من أم ولد تركية تُدعى «زمرد».

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه في مستهل شهر ذي القعدة من عام خمسة وسبعين وخمسمائة. كان فصيح اللسان، بليغ البيان، شجاعاً، شهماً، ذا فكرة صائبة، وعقل رصين، ومكر ودهاء. وكان له من يأتيه بالأخبار من الجهات كافةً، واشتغل برواية الحديث. وكان مع ذلك رديء السيرة في الرعية، مائلاً إلى الظلم، وأخذ الأموال، وكان يفعل أفعالاً متناقضة، ومال إلى التشيّع.

لم يكن في أيامه خليفة سواه، وفي عهده ضعف أمر الصليبيين، وظهر الأيوبيون وعلا سلطانهم، وكان الجميع يخطب له، وفتح صلاح الدين القدس عام ٥٨٣، وعقد صلح الرملة عام ٥٨٨، ثم توفي عام ٥٨٩، فكانت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز، ودمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

وقوي أمر خوارزمشاه وقضى على سلطان السلاجقة فزالت دولتهم وزال سلطانهم عام ٥٩٠، وسار خوارزمشاه على رأس خمسين ألفاً، وبعث إلى الناصر يطلب السلطنة، وإعادة دارها إلى ما كانت عليه، وأن يجيء هو

إلى بغداد، ويكون الخليفة من تحت يده، كما كانت الملوك السلاجقة، فهدم الخليفة دار السلطنة، وردّ رسول خوارزمشاه بلا جواب، وكان خوارزمشاه قد وصل إلى همدان في طريقه إلى بغداد، فتساقط على المنطقة التي هو فيها ثلج عظيم مدة عشرين يوماً، فأثر على جيشه، كما بلغه أن شعوب الترك قد تألبت عليه، وطمعت في بلاده، فما كان عليه إلا أن يرجع، وكفى الله الخليفة القتال.

وتوفي الناصر لدين الله سنة اثنتين وعشرين وستمائة فكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة.

* * *

- ٣٥ -

الظاهر بأمر الله
محمد بن أحمد الناصر لدين الله
٦٢٢ - ٦٢٣

هو الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن أحمد الناصر لدين الله، ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وبويع بالخلافة عند وفاة أبيه سنة اثنتين وعشرين وستمائة، فكان عمره يومذاك اثنتين وخمسين سنة. وقد أحسن إلى الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال.

قال ابن الأثير: لما ولي الظاهر أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل: إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه أعاد من الأموال المغصوبة، والأموال المأخوذة في أيام أبيه وقبلها شيئاً كثيراً[١].

وتوفي - رحمه الله - في الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين، فكانت خلافته تسعة أشهر وعدة أيام، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة.

---

(١) الكامل في التاريخ.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

زاد أمر السلاجقة ضعفاً، وتولى أمرهم بعد أرسلان شاه بن أرطغرل ابنه طغرل الثاني، غير أنه لم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد، وقد غدت منطقة نفوذه ضيقة، على حين كانت تتسع رقعة الدولة الخوارزمية، واستطاع علاء الدين تُكُش أخيراً أن يستولي على البلاد التي كان يسيطر عليها السلاجقة، وأن يقتل طغرل الثاني هذا عام ٥٩٠ وينهي أمر السلاجقة.

٢ ـ خوارزم:

توفي إيل أرسلان بن أتسز عام ٥٦٨ فخلفه ابنه الأصغر سلطان شاه محمد، وكان صغيراً فكانت أمه وصيةً عليه، فخرج عن طاعته أخوه الأكبر علاء الدين تُكُش فاستولى على بلاد خوارزم، وقضى على السلاجقة في العراق عام ٥٩٠ إذ قتل طغرل بن ألب أرسلان، وتوسع في نفوذه في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكانت الري منطقة نزاع بينه وبين الخليفة الناصر العباسي. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٥٩٦ فخلفه ابنه علاء الدين محمد.

وفي عام ٦٠٤ أسر علاء الدين محمد في حروبه في بلاد الخطا شرق بلاد ما وراء النهر، فأعلن أخوه علي شاه استقلاله في طبرستان وجرجان وكان عاملاً لأخيه عليهما. وأخذ هراة وقاتل الغوريين عام ٦٠٥، وقتل غياث الدين محمود، وهزم أهل الخطا هزيمةً منكرةً.

واستولى على كرمان، ومكران، وبلاد السند عام ٦١١، ثم استولى على غزنة عام ٦١٢، وحاول أن يحلّ محل السلاجقة فرفض الخليفة الناصر، فحاربه وقطع الخطبة له، وأظهر التشيع، ونصّب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، خليفة.

وقتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان، بل قتل رسله وهذا ما جعل جنكيزخان يهاجم بلاد خوارزم، ولم يتمكن علاء الدين من صدّ الهجوم المغولي فانهزم أمامهم، فدخلوا خراسان، واتجه إلى جهة الغرب ومات في إحدى جزر بحر الخزر عام ٦١٧، وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي، فهرب إلى الهند، ثم عاد بعد سنتين إلى بلاده، وقاتل المغول وهزم فعاد هارباً مع جيشه الصغير إلى الهند، فلاحقته جموع المغول فقاتلهم، وغرق أكثر جيشه في نهر السند. وفي الوقت نفسه قاتل أخاه غياث الدين، وحارب الخليفة العباسي، وقاتل الحشاشين، والتركمان، وحاكم كرمان. وعاد فرجع إلى بلاده وفتح جورجيا ودعا أمراء المسلمين للتحالف ضد المغول، وفاجأه المغول فهرب منهم، وقتل في قرية كردية من قبل أحد الفلاحين عام ٦٢٩ وهو لا يعرفه.

٣ ـ الغوريون:

توسع نفوذ غياث الدين محمد الغوري، وقاتل خوارزمشاه علاء الدين محمد، واسترد منه خراسان، ثم اختلف مع أخيه شهاب الدين، وهذا ما جعل خوارزمشاه يسترد خراسان، وتوفي غياث الدين محمد عام ٥٩٩، وخلفه أخوه شهاب الدين فكثر غزوه في بلاد الهند، وقتل عام ٦٠٢، ولم يكن له ولد فمال وزيره والأتراك إلى تولية ابن أخيه، وهو غياث الدين محمود.

واختلف الغوريون على الحكم، كما كثر المتمردون عليهم، وهذا ما مكّن لعلاء الدين محمد خوارزمشاه أن يقضي على الدولة الغورية بعد أن ملكت الهند، ووصلت إلى البنغال.

٤ ـ آل زنكي:

سار نور الدين محمود إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي في آسيا الصغرى حيث يعرفون هناك باسم سلاجقة الروم وذلك عام ٥٦٨ فأصلح ما وجد من خلل، ثم سار ففتح مرعش وغيرها.

وسار أيضاً نور الدين محمود عام ٥٦٩ إلى بلاد الروم، ومعه ملك الأرمن، وصاحب ملاطية فهزم الروم وحاصرهم فصالحوه، وعاد إلى دمشق فتوفي في العام نفسه، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيراً فتحرك الصليبيون فصالحهم على مالٍ يؤديه لهم.

وعزم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٠ إلى السير إلى الشام لما ظهر من سوء الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ومن ابن عمه سيف الدين غازي أمير الموصل، وكان من قبل لا يجرؤ أن يقوم بأي عمل أيام عمه نور الدين محمود، واستناب مكانه أخاه الملك العادل أبا بكر فدخل دمشق، وانتقل الملك الصالح إسماعيل إلى حلب.

ولى صلاح الدين على دمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين، وسار إلى حلب، وأخذ في طريقه حمص وحماه وقاومت حلب واستنجدت حاشية إسماعيل بالقومص ريموند صاحب طرابلس الصليبي الذي أسرع لاحتلال حمص ومناصرة أمير حلب، وهذا ما أجبر صلاح الدين عن رفع الحصار عن حلب، ورجع إلى حمص فهزم ريموند صاحب طرابلس الصليبي، ورجع إلى حلب فدخلها، واعترف الملك العادل إسماعيل بسلطان صلاح الدين على بلاد الشام كلها.

توفي الملك العادل إسماعيل عام ٥٧٧، ولم يكن له ولد فأوصى الأمير الموصل عز الدين، فأصبحت حلب والموصل له. فطلب ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار أن يأخذ حلب ويسلم عز الدين سنجار فتكون أملاكه متصلة، وقصد عماد الدين محاربة صلاح الدين وهذا ما أجبر

صلاح الدين على العودة إلى حلب ودخولها فتنازل عنها عماد الدين مقابل تسليمه سنجار، وأصبحت حلب ضمن أملاك صلاح الدين وآلت من بعده إلى ابنه الطاهر، وبقيت بأيدي الأيوبيين حتى جاء المغول فملكوها منهم.

أما في الموصل فقد تولى أمرها بعد وفاة عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي الذي توفي عام ٥٤٤، فخلفه أخوه قطب الدين مودود الذي استمر في حكمه لها حتى توفي عام ٥٦٥، وخلفه ابنه سيف الدين غازي الثاني، والذي بقي يسلك مسلكاً معتدلاً مدة حياة عمه نور الدين محمود، فلما توفي عمه عام ٥٦٩ تبدل مسلكه حتى توفي عام ٥٧٦، وخلفه عز الدين مسعود، فنور الدين أرسلان شاه عام ٥٨٩، ثم عز الدين مسعود الثاني عام ٦٠٧، ثم نور الدين أرسلان شاه الثاني عام ٦١٥، ثم نور الدين محمود عام ٦١٦، ثم بدر لؤلؤ عام ٦٣١ فإسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧، ثم جاء المغول عام ٦٦٠.

وفي سنجار تولى عماد الدين زنكي الثاني به قطب الدين مودود الأمر عام ٥٦٦، وخلفه قطب الدين محمد عام ٥٩٤، ثم عماد الدين شاهنشاه عام ٦١٦، وخلفه ابنه محمود عام ٦١٧، ثم دخلها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف، ثم خربها المغول عام ٦٢٨.

وفي الجزيرة تولى آل زنكي حكمها أيضاً، وعندما توفي سيف الدين غازي الثاني عام ٥٧٦ أوصى لابنه سنجر شاه بأمر الجزيرة، وكان سيئاً، وخلفه عليها ابنه الذي قتله معز الدين محمود، ثم خضع معز الدين محمود لصلاح الدين الذي وحد البلاد لقتال الصليبيين.

٥ ـ الأيوبيون:

ذهب صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ لفتح بلدة الكرك في الأردن، واستناب أباه مكانه على مصر، فتوفي أثناء غيابه، وكان أبوه نجم الدين أيوب بن شادي كثير الصلاة والصدقة والصيام، كريم النفس، جواداً.

وفي عام ٥٦٨ أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه إلى بلاد النوبة ففتحها، واستولى على معقلها، وهو حصن يقال له «أبريم»، ولما رأى توران شاه بلاد النوبة قليلة الخيرات لا يكفي خراجها بكلفتها، استخلف على الحصن المذكور رجلاً كردياً اسمه إبراهيم، وأبقى معه جماعة من الأكراد أيضاً فكانوا يشنون الغارات على بلاد النوبة وما جاورها ويحصلون على الغنائم.

وفي عام ٥٦٩ أرسل صلاح الدين فرقة إلى اليمن بإمرة أخيه شمس الدولة توران شاه فاستطاع أن يملكها، وأن ينهي حكم آل مهدي في زبيد، وآل حاتم في صنعاء، وآل زريع في عدن. وبقي في اليمن حتى عام ٥٧٠ فاستخلف عليها، ورجع إلى الشام، ومات عام ٥٧٦ بالإسكندرية، ثم خلفه أخوه السلطان العزيز طغتكين الذي اتخذ صنعاء حاضرة له ثم انتقل إلى تعز، واتسع نفوذه إلى حضرموت، وبقي من عام ٥٧٩ ـ ٥٨٣، وقد أرسله أخوه صلاح الدين من الشام إلى اليمن.

وعندما توفي السلطان العزيز طغتكين سيف الإسلام خلفه ابنه إسماعيل الملقب بالمعز، وتبنّى الإسماعيلية أيام أبيه فطرده، ولكن الوالد لم يلبث أن توفي، فعاد المعز، ودخل زبيد، وظلم فثار عليه الأكراد، وقتلوه عام ٥٩٨. وفي أيامه ظهر المنصور عبد الله بن حمزة الرسي، واشتبك مع المعز في عدة معارك.

وتولى أمر اليمن بعد المعز أخوه أيوب بن طغتكين، وتوفي مسموماً عام ٦١١، ويعرف باسم الناصر. وخلفه يوسف (المسعود، صلاح الدين، أبو المظفر) ابن محمد (الكامل) ابن الملك (العادل) أبي بكر محمد بن أيوب، سيّره جده العادل إلى اليمن عام ٦١٢ فضبط أمورها، وقاتل شريف مكة حسن بن قتادة وهزمه، وسافر إلى مصر فأناب عنه عام ٦٢٠ عمر بن علي بن رسول (وبنو رسول جماعة من التركمان جاءوا إلى اليمن مع الأيوبيين) ثم بلغه خبر قوة بني رسول فخاف من استقلالهم فعاد إلى اليمن عام ٦٢٤ فعاقب بعض بني رسول وسجنهم إلا عمر بن علي نائبه، وسافر

إلى دمشق، واستخلف عمر بن علي، ومات في مكة، وهو في طريقه إلى دمشق عام ٦٢٦، وهو آخر ملوك بني أيوب في اليمن. وقامت بعده دولة بني رسول.

وعند وفاة المسعود الأيوبي استقل عمر بن علي باليمن، ولقب بالمنصور نور الدين، وبقي في الحكم حتى عام ٦٤٧، وقد قاتل الإمام الرسي أحمد بن الحسين (أبو طير)، وعندما توفي خلفه ابنه المظفر يوسف بن عمر.

أما الملك الناصر يوسف صلاح الدين بن أيوب فقد كان في مصر عند وفاة نور الدين محمود، ولما عزم السفر إلى الشام وصل أسطول للصليبيين من صقلية ونزل بالإسكندرية فتصدى له أهلها، وانتصروا على من فيه وذلك عام ٥٧٠. كما أن أحد أنصار العبيديين قد جمع الناس حوله في أسوان فأرسل إليه صلاح الدين أخاه العادل محمد أبو بكر فهزمه وقتله. وامتد نفوذ صلاح الدين نحو الغرب إذ أرسل سريةً عام ٥٦٨ إلى إفريقية فاستطاعت أن تدخل مدينة طرابلس الغرب.

وسار صلاح الدين إلى دمشق فدخلها، وهادن الصليبيين وهو في مرج الصُفَّر عام ٥٧١، ثم ملك حلب غير أنه أبقاها للملك العادل إسماعيل بن نور الدين محمود الذي اعترف له بسلطانه عليه ثم رجع إلى مصر، وأخذ يستعد لقتال الصليبيين.

وفي أثناء غياب صلاح الدين في مصر حاول الصليبيون عام ٥٧٣ أخذ مدينة حماه فلم يتمكنوا فارتدوا لأخذ حصن حارم فلم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٥٧٥ كان صلاح الدين في تل القاضي قرب بانياس عند منابع نهر الشريعة فجاءه الصليبيون بقوة كبيرة فهزمهم عند مرجعيون هزيمة منكرة. وأرسل سرية مؤلفة من ثمانمائة فارس إلى بلاد الروم، فانتصرت على جيش رومي قوامه عشرون ألفاً.

وتوفي الملك العادل إسماعيل بن نور الدين محمود عام ٥٧٧ فبسط صلاح الدين نفوذه على حلب الموصل، وبذا أصبحت المناطق التي تحت سلطان صلاح الدين متصلة وعلى امتداد أملاك الصليبيين، وتحيط بها من كل جهة، وتحصرها في الساحل.

وبلغه خبر إغارة (رينولد) صاحب حصن الكرك على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج، وأخذه بعض القوافل المسلمين الحجاج، عندها هاجم صلاح الدين المناطق الصليبية، وهزمهم هزيمة منكرة في حطين ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٨٣، ثم استولى على طبريا، وتابع طريقه إلى عكا فاستولى عليها، ثم دخل نابلس، والرملة، وقيسارية، ويافا، وبيروت وما حولها، وعسقلان وبذا أصبحت المناطق الصليبية قسمين إحداها في أنطاكية في الشمال، والثاني في الجنوب، وهو بيت المقدس الذي أصبح داخلياً معزولاً عما حوله ويحيط به صلاح الدين من كل جهة، وأخذ يستعد للهجوم عليه، فسار إلى القدس بجيشٍ عظيم، ورأى الصليبيون أنفسهم عاجزين عن المقاومة لذا فقد طلبوا الصلح على أن يسلموا بيت المقدس، ويخرجوا منه بأموالهم وأولادهم مقابل فديةٍ يدفعها كل منهم، فكان يأخذ من الرجل عشرين ديناراً، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن الطفل دينارين، وضمن لهم الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس، ودخل صلاح الدين القدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣.

وجاءت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥، وأحرز ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا انتصاراً على جيش صلاح الدين في أرسوف، وتابع زحفه نحو عسقلان فوجد نفسه أمام قوة كبيرة فبدأ في إجراء مفاوضات حتى تم صلح الرملة عام ٥٨٨ الذي ينص على وقف الحرب لمدة ثلاث سنوات بين الطرفين، وأن تبقى القدس بيد المسلمين، ويسمح للنصارى بزيارة الأماكن المقدسة عندهم فيها، وأن تكون سواحل بلاد الشام من صور إلى يافا تحت حماية الصليبيين.

وتوفي صلاح الدين ـ رحمه الله ـ عام ٥٨٩ في دمشق، وخلفه ابنه

عثمان العزيز عماد الدين[1] وقد حكم ست سنوات حتى توفي عام ٥٩٥ حيث خلفه ابنه المنصور محمد، ولم يبق سوى سنة وعدة أيام إذ خلع عام ٥٩٧ حيث تسلم السلطة الذي خلعه، وهو وزيره، وعم أبيه أخو صلاح الدين، وهو الملك العادل سيف الدين، وبقي حتى عام ٦١٥، وفي أيامه استولى الصليبيون الجرمان بإمرة جان دي بريين على دمياط، وتوفي العادل في ذلك العام، وأوصى خليفته ابنه محمد الكامل بإخراج الصليبيين منها، وقد عمل الكامل بنصيحة أبيه فطلب النجدات فجاءته من بلاد الشام، فسار إلى الصليبيين فالتقى بهم عند مدينة المنصورة فأغرق الكامل السفن في نهر النيل ففاض فلم يستطع الصليبيون التقدم وحلت بهم الهزائم، واضطروا إلى طلب الصلح فأجابهم إلى ذلك عام ٦١٨، فانسحبوا من مصر بعد أن بقوا في دمياط ثلاث سنوات وأربعة أشهر. وكانت مدة الصلح ثمان سنوات.

اختلف الكامل محمد مع أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، في حين خرج أمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني بحملة إلى فلسطين، وتزوج بابنة الملك جان دي بريين التي ورثت من أبيها بيت المقدس حسب الزعم النصراني. وهذا ما أجبر الملك الكامل محمداً أن يعقد صلحاً مع فريدريك، وأن يتنازل بموجبه عن بيت المقدس بشرط أن يبقى مسجد عمر وما جاوره بيد المسلمين، وأن يطلق الملك الكامل الأسرى الصليبيين جميعهم وذلك عام ٦٢٦. وتوفي الكامل عام ٦٣٥، وكان قد أرسل ابنه الملك المسعود إلى مكة فدخلها عام ٦٢٠، وامتد نفوذه من الجزيرة الفراتية إلى الحجاز ومصر وتوفي بدمشق، فبايع الأمراء بمصر ابنه محمد العادل بن محمد الكامل بن محمد العادل أبا بكر سيف الدين، ونافسه نجم الدين أيوب أبو الفتوح الملك الصالح وهو أخوه الأكبر، ودخل إلى مصر، وقبض على العادل وسجنه عام ٦٣٧، وتولّى هو السلطنة.

---

(١) أبو الفتح: كان نائباً عن أبيه بمصر فلما توفي أبوه بدمشق استقل بمصر، وحاول أخذ دمشق من أخيه الأفضل فلم ينجح مرتين ونجح الثالثة عام ٥٩٢.

سلاطين الدولة الأيوبية

- نجم الدين أيوب بن شادي
  - [١] الناصر صلاح الدين يوسف ٥٦٤ ـ ٥٨٩
    - [٢] العزيز عثمان عماد الدين ٥٨٩ ـ ٥٩٥
      - [٣] المنصور محمد ٥٩٥ ـ ٥٩٧
    - الأفضل نور الدين دمشق
  - [٤] العادل سيف الدين محمد ٥٩٧ ـ ٦١٥
    - [٥] الكامل محمد ٦١٥ ـ ٦٣٥
      - [٦] العادل محمد ٦٣٦ ـ ٦٣٧
    - [٧] الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٨ ـ ٦٤٧
      - [٨] توران شاه ٦٤٧ ـ ٦٤٨

وفي عهد الملك الصالح شن لويس التاسع ملك فرنسا هجوماً على دمياط واستولى عليها، وتقدم نحو المنصورة، وانتصر في بداية الأمر، ثم ردّه المماليك بقيادة الظاهر بيبرس، وفي هذه الأثناء توفي الملك الصالح فكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته ٦٤٧، وبقيت تدير هي الأمر بنفسها باسمه، وأرسلت إلى ابنه توران شاه تستقدمه، وعندما وصل إلى القدس انتقلت إلى القاهرة، واختلفت مع ابن زوجها، وقتله بعض المماليك في (فارسكور) ولم يصل توران شاه إلى القاهرة، وإنما جاء مباشرة إلى ميدان المعركة وقاتل الصليبيين واستردّ دمياط، وكانت وفاته عام ٦٤٨، ومدة سلطنته أربعون يوماً. وبموته انتهى أمر الدولة الأيوبية.

تابعت شجرة الدر حكم الدولة، وكانت توقع باسم «أم خليل» و«المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين» ولم يستقر أمرها سوى ثمانين يوماً، وخرجت الشام عن طاعتها، وجعلت عز الدين أيبك وزيراً لها وكان وزير زوجها، ثم تزوجته، وتنازلت له عن السلطنة، لكنها كانت هي المسيطرة عليه، وتلقب عز الدين أيبك بالملك المعزّ، وعندما أراد أن يتزوج عليها، قتله مماليكها، وعلم ابنه علي فعمل على قتلها عام ٦٥٥.

٦ ـ الموحدون:

سار يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٨٠ بجيشٍ كثيف إلى الأندلس، فاستولى على المدن في طريقه، واتجه إلى أشبونة في غربي الأندلس، وحاصرها، وأشاع النصارى في إحدى الليالي أن يوسف قد ارتحل عائداً إلى المغرب فسرى هذا الخبر في صفوف الجيش الإسلامي فساده الاضطراب، وبدأ الناس بالرحيل أيضاً، وفك النصارى الحصار بذلك، وخرجوا نحو خيمة يوسف فاستقبلهم وقاتلهم، فقتل عدد من حرسه، وأصيب هو بطعنات بليغة، وشعر المسلمون بما تم فعاد التماسك إلى صفوفهم ورجع من غادر، ونشبت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون،

ورجع الجيش، وتوفي يوسف في طريق العودة، وكان يوسف - رحمه الله - من أعظم خلفاء الموحدين حباً للعلم وأهله وتقديراً لرجاله، وعاش في أيامه الطبيب ابن زهر، ومن الفلاسفة ابن الطفيل وابن رشد.

تولى بعد يوسف ابنه يعقوب أبو يوسف، وقد اصطدم مع ابن غانية[1]، كما سار إلى الأندلس عام ٥٨٥ وأغار على أشبونة، وحصل على غنائم كثيرة. وطلب الفونس أمير نصارى الأندلس من يعقوب هدنة لمدة خمس سنوات، فأجابه يعقوب إلى طلبه، غير أن الفونس قد شعر بقوته فنقض العهد، وأرسل إليه كتاباً فيه تهديد فلما وصل الكتاب إلى يعقوب أعاده إليه وبعد أن كتب على ظهره ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ - من سورة النمل - وجمع الجنود وسار إلى الأندلس حتى اقترب من حصن الأرك، وقسم جيشه إلى قسمين: الأول: يقوده أبو يحيى بن أبي حفص الهنتاني، وهو في المقدمة، والثاني: يقوده يعقوب بن يوسف، والتقى أبو يحيى مع جيش النصارى فانتصروا عليه واستشهد أبو يحيى، ثم جاء يعقوب بقوته، وطوق جيش النصارى من الخلف، وعمل فيهم قتلاً فلم ينج منهم سوى الفونس وثلاثين فارساً من حرسه الخاص وذلك في ٣ شعبان عام ٥٩١. ودخل يعقوب حصن الأرك.

---

(١) ابن غانية: أرسل علي بن يوسف بن تاشفين والياً على بلنسية رجلاً من قبيلة مسوفة يدعى يحيى بن غانية (نسبة إلى أمه) وكان يحيى هذا بطلاً مغواراً وفقيهاً ورعاً، ثم ولاه قرطبة، وبقي فيها حتى مات، وكان قد استعمل أخاه محمداً على بعض أعماله، فلما ضعف أمر المرابطين وقوي أمر الموحدين خاف محمد بن غانية على نفسه ففر إلى جزيرة ميورقة وملكها، ووسع نفوذه على بقية جزر البالئار، وهي منورقة ويابسة، ودعا هناك لخلفاء بني العباس، ولما مات خلفه ابنه إسحاق ثم حفيده علي بن إسحاق، وقد استغل علي هذا موت يوسف بن عبد المؤمن، وانشغال الموحدين بقتال نصارى الأندلس فاتجه إلى المغرب، واحتل بجاية وقلعة بني حماد، وساعده بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي، فسار إليهم يعقوب بن يوسف وقاتلهم، وانتصر عليهم عام ٥٨٤.

عاد الفونس فجمع حشوده وسار إلى قتال يعقوب الذي كان قد طلب أيضاً نجدةً من المغرب، والتقى الفريقان، وانتصر المسلمون وغنموا كثيراً عام ٥٩٢، وفي العام نفسه أغار يعقوب المنصور على طليطلة وما جاورها، ورجع بعدها إلى إشبيلية، وصالح بعض أمراء النصارى الذين طلبوا تمديد مدة الهدنة معه، ورجع بعدها إلى المغرب.

كان ابن غانية في هذه الأثناء قد قصد المغرب ويعقوب المنصور مشغول بحروبه في الأندلس، وعاث ابن غانية الفساد في شمالي إفريقية، فسار إليه يعقوب المنصور بعد أن هادنه النصارى وانتصر عليه.

في هذا الوقت كانت الحروب الصليبية على أشدها في المشرق وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يُخلّص القدس من أيدي الصليبيين عام ٥٨٣، وجاءت بعدها حملة صليبية كبيرة إلى بلاد الشام فما كان من صلاح الدين الأيوبي الناصر إلا أن أرسل هدية وكتاباً إلى المنصور يعقوب بن يوسف يطلب منه الدعم لردّ الصليبيين عن بلاد المسلمين غير أن المنصور لم يكن بوسعه ذلك إذ لم تقل الحرب الصليبية في الأندلس لهباً عن الحرب الصليبية في المشرق، ومع ذلك فقد أرسل له مائة وثمانين سفينة لتكون عوناً لأسطول المسلمين في المشرق ضد الأسطول الصليبي.

وتوفي يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٩٥ ودفن في تينمال، وخلفه ابنه محمد، ولقب الناصر لدين الله.

سار محمد الناصر إلى حرب ابن غانية، وكان قد استولى على المهدية، وانتصر على الموحدين في تونس، فهزمه وخلّص مدن شمالي إفريقية منه الواحدة تلو الأخرى حتى فرّ ابن غانية، ورجع إلى جزر البالئار وذلك عام ٦٠٢، وولى الناصر على تونس الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني.

أغار الفونس أمير نصارى الأندلس على ثغور المسلمين فيها فسار إليه الناصر وقد جمع جيشاً كبيراً، وانتقل إلى الأندلس عام ٦٠٧، ووصل إلى إشبيلية، وقسم جيشه إلى خمس فرق، وأمر كل فرقة أن تنزل في ناحية من

الأندلس لإضعاف معنويات النصارى بإظهار كثرة حشود المسلمين، ووقع الرعب في نفوس النصارى وقد طلب أمير بنبلونة الصلح من الناصر، وسار الناصر إلى حصن «سلبطرة» فحاصره مدة ثمانية أشهر حتى ضعف أمر المسلمين المحاصرين، وشعر الفونس بما حلّ بجنود المسلمين نتيجة حصارهم للحصن فسار إليهم واحتل قلعة «رباح» من الموحدين، فاقتحم الناصر الحصن عندئذ، وسار نحو الفونس، والتقيا في حصن العقاب فانتصر النصارى عليه في تلك المعركة التي جرت في ١٥ صفر عام ٦٠٩، وكانت هذه الهزيمة ضربةً شديدة على المسلمين.

توفي محمد الناصر عام ٦١٠، وتولى مكانه ابنه يوسف أبو يعقوب، وقد عرف باسم يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعض أفراد أسرته في الحكم لصغره، وأصبح المتسلطون من الأمراء وغيرهم من الوزراء يولون الصغار ليبقى لهم نفوذهم. وولي بعد يوسف الثاني عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان رجلاً كبيراً، فلم يلبث أن خلع لأنه لم يقو على القيام بأعباء الحكم، ونُصّب عبد الله بن المنصور ولُقّب بالعادل، غير أنه عُزل، وبعد عزله بثلاثة عشر يوماً مات مخنوقاً، ونُصّب أخوه الآخر، وهو إدريس ولُقّب بالمأمون، ثم نكثوا ببيعته ٦٢٤ وبايعوا يحيى أبا زكريا بن محمد الناصر فخرج عليه عمه المأمون عام ٦٢٦، وهُزم يحيى، ودخل المأمون مراكش، وخرج المأمون من مراكش في بعض حروبه فاقتحم يحيى مدينة مراكش، ودخلها ثانية عام ٦٢٩، وهلك المأمون في وادي العبيد، وبويع ابنه عبد الواحد، ولُقّب بالرشيد، وهاجم مراكش، وهزم يحيى عام ٦٣٠، وفر إلى الصحراء ودخل الرشيد مراكش، وبعد مدة عاد يحيى بجيش من البربر وقاتل الرشيد ودخل مراكش عام ٦٣٢، وفرّ الرشيد إلى سجلماسة، فجمع جيشاً، ودخل مراكش عام ٦٣٣، وهرب يحيى منها، ولكنه لم يلبث أن اغتيل. أما الرشيد فبقي حتى توفي عام ٦٤٠ وفي أيامه دخل النصارى قرطبة عام ٦٣٦.

وفي عام ٦٤٠ تولّى أمر الموحدين علي بن إدريس المأمون أبو الحسن السعيد، ولقب بالمعتضد، وذلك بعد وفاة أخيه الرشيد، وحارب بني مرين الذين قوي أمرهم، وقد وصل إلى تلمسان فتصدى له أميرها يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد، وقد قتل المعتضد في المعركة عام ٦٤٦.

وتولى بعد المعتضد عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، أبو حفص، وتلقّب بالمرتضى، وفي أيامه استولى النصارى الإسبان على إشبيلية، كما حاصر بنو مرين مراكش عام ٦٥٥، ثم ثار عليه ابن عمه الواثق بالله إدريس أبو العلاء الذي تحالف مع بني مرين، واحتل مراكش، فاختفى المرتضى، فأرسل إليه الواثق من قتله عام ٦٦٥.

تولى إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن أمر مراكش، قوي أمر الخارجين عليه، وقتله بنو مرين عام ٦٦٧ فانقضى أمر الموحدين بموته بعد أن حكموا ١٥٢ سنة (٥١٥ ـ ٦٦٧).

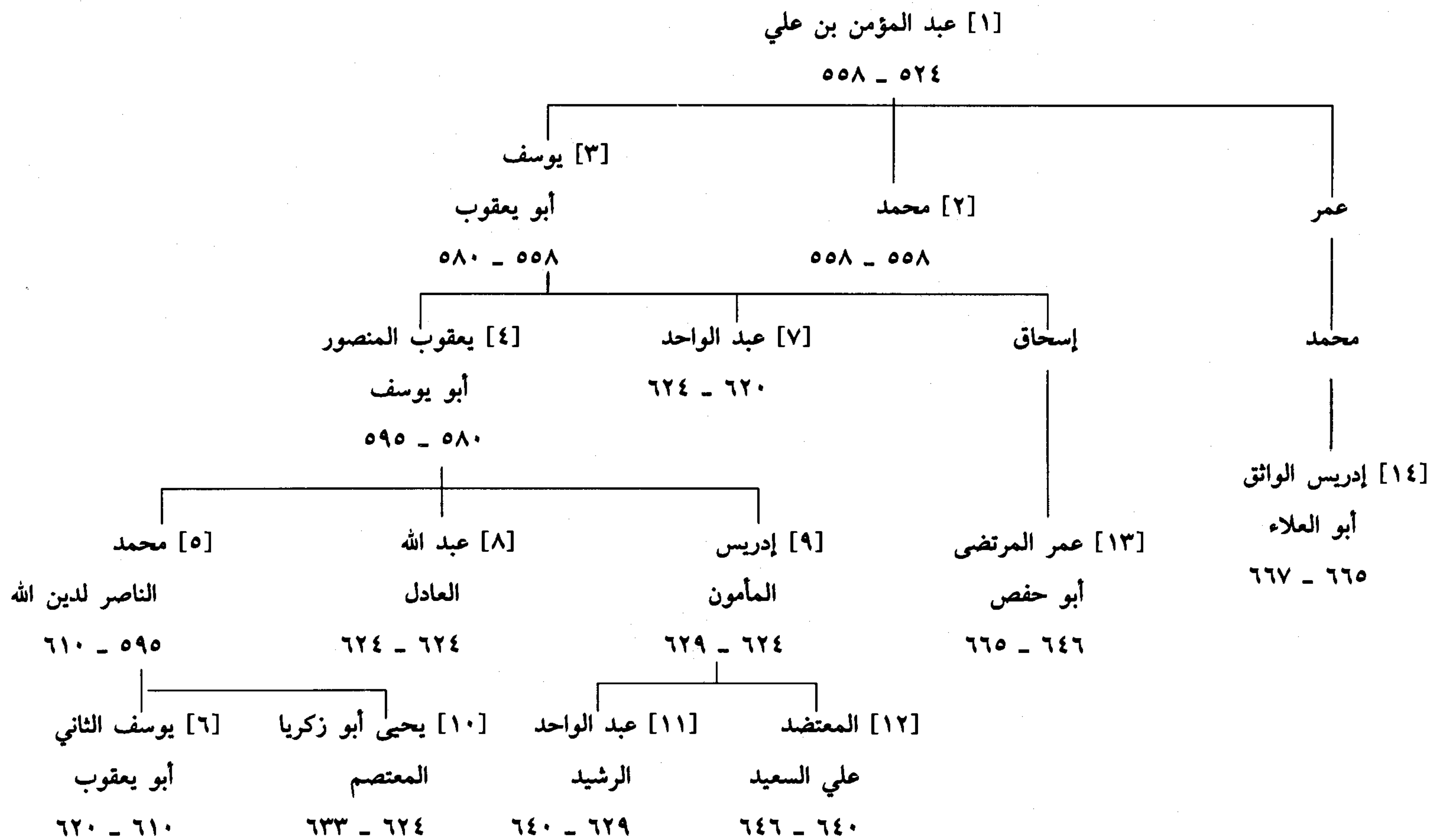
[١] عبد المؤمن بن علي
٥٢٤ ـ ٥٥٨
[٣] يوسف
أبو يعقوب
٥٥٨ ـ ٥٨٠
[٢] محمد
٥٥٨ ـ ٥٥٨
عمر
[٤] يعقوب المنصور
أبو يوسف
٥٨٠ ـ ٥٩٥
[٧] عبد الواحد
٦٢٠ ـ ٦٢٤
إسحاق
محمد
[١٤] إدريس الواثق
أبو العلاء
٦٦٥ ـ ٦٦٧
[٥] محمد
الناصر لدين الله
٥٩٥ ـ ٦١٠
[٨] عبد الله
العادل
٦٢٤ ـ ٦٢٤
[٩] إدريس
المأمون
٦٢٤ ـ ٦٢٩
[١٣] عمر المرتضى
أبو حفص
٦٤٦ ـ ٦٦٥
[٦] يوسف الثاني
أبو يعقوب
٦١٠ ـ ٦٢٠
[١٠] يحيى أبو زكريا
المعتصم
٦٢٤ ـ ٦٣٣
[١١] عبد الواحد
الرشيد
٦٢٩ ـ ٦٤٠
[١٢] المعتضد
علي السعيد
٦٤٠ ـ ٦٤٦

الصليبيُّون

بعد الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ على الصليبيين عام ٥٧٥ في مرجعيون، ومهاجمة أسطول المسلمين لمدينة عكا اضطر بالدوين الرابع إلى عقد صلح مع المسلمين، كما قام صلاح الدين بالهجوم على انطرطوس الأمر الذي أرعب ريموند الثالث، واضطر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين.

انصرف صلاح الدين بعد هذه الهدنة إلى تعزيز أوضاعه الداخلية، وتقوية جيوشه غير أن أرناط أمير حصن الكرك الصليبي استغل فرصة انشغال صلاح الدين لأمور بلاده فاتجه إلى تيماء راغباً في الوصول إلى المدينة المنورة، واستولى في طريقه على قافلة للحجاج المسلمين، وسلب الأموال، وأسر الرجال، ووصل إلى ساحل البحر الأحمر فأغضب بذلك صلاح الدين فذكّر الصليبيين بالهدنة، وطلب من ملك القدس الصليبي أن يأمر أرناط بالكفّ عن تعدياته فلم يستمع أرناط، ولا حزم بالأمر بالدوين الرابع، وهذا ما حدا بصلاح الدين أن يسير من مصر للهجوم على حصن الكرك في الأردن، وأن يسير نائبه على دمشق ابن أخيه فرخشاه للهجوم على طبريا وعكا، وقد استولى على الشقيف، والتقى الجيشان المسلمان مع الصليبيين في معركة كان النصر فيها حليف المسلمين.

وصل صلاح الدين إلى دمشق، ثم خرج منها عام ٥٧٨، وأرسل ابن أخيه للهجوم على بيسان، وسار هو بعده وهزما الصليبيين هزيمةً منكرةً.

رأى صلاح الدين أن أهم أمر لديه هو أن يفصل الإمارات الصليبية بعضها عن بعض، وحشد جنده من دمشق، ومصر، وحلب، والجزيرة،

وسار عام ٥٧٩ إلى بيسان فاستولى عليها، وحاصر الكرك والشوبك، وانتصر على الصليبيين قرب صفورية، وتجمع الصليبيون هناك فسار هو إلى طبريا واحتلها، ثم عسكر قرب حطين وتقدّم إليه النصارى، وهم متعبون عطشى، فاستقبلهم المسلمون فعملوا فيهم قتلاً وأسراً، فكان ممن أُسر الملك وأخوه، وأرناط، وأمير جبيل، وقتل صلاح الدين أمير الكرك بيده نتيجة ما اقترف، وكانت معركة حطين في ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٨٣، وهي من أعظم الانتصارات، ثم تقدمت الجيوش الإسلامية على الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ويافا، والرملة، وغزة، وبيت جبرين، وعرض على الصليبيين تسليم القدس فدخلها عنوةً في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣، ثم استولى على عسقلان، وعكا، واستسلمت صرفند، وصيدا، وبيروت، وجبيل، ولم يبق للصليبيين بعد هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين من إمارة بيت المقدس سوى صور فكانت مركزاً لتجمعهم، ومن إمارة طرابلس سوى المدينة نفسها وحصن الأكراد وانطرطوس، ومن إمارة إنطاكية سوى المدينة نفسها والسويدية وحصن المرقب.

وكان لفتح صلاح الدين للقدس وللانتصارات الواسعة التي حققها أثر كبير في أوربا إذ أخذت الصيحات الصليبية تتعالى، والنصارى يتنادون للسير إلى بيت المقدس لدعم إخوانهم ومهاجمة المسلمين، ووجّه البابا غريغوري الثامن كتباً إلى ملوك فرنسا، وألمانيا، وإنكلترا يحثهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء لهذا النداء، وحشدوا جموعهم، وتحركوا نحو ديار الإسلام فكانت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥.

سارت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب أغسطس، وإمبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا. وقد انطلق ملكا انكلترا وفرنسا إلى جزيرة صقلية عن طريق البحر وقضيا فصل الشتاء. وأما أمبراطور ألمانيا فسار وانطلق براً ماراً على القسطنطينية رغم خلافه مع الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني كذلك عبر أراضي سلاجقة الروم في قونية، ولقي ترحيباً من الأرمن في كيليكيا غير أنه غرق وهو يعبر

نهر سيحان في كيليكيا فتفرّق جنده، وأصاب المرض بعضهم، وتابعه ابنه الطريق بعد أن عوفي واتجه نحو عكا فألقى الحصار عليها عام ٥٨٦، ثم وصل إلى عكا ملكا انكلترا وفرنسا مع جندهما وقاومت مدينة عكا، والتقى صلاح الدين مع الصليبيين في عدة معارك غير أنه اضطر أن يغادر المنطقة بسبب الأوبئة التي انتشرت، وضيّق الصليبيون الحصار على عكا فاضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام عامين، وبرز ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا بين الصليبيين لما عرف عنه من قسوة وسوء فقد قتل أسرى عكا جميعاً، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده. وطمع ريتشارد قلب الأسد في دخول القدس فاستولى على حيفا وأرسوف بعد أن انتصر في الثانية منهما على صلاح الدين بعد معركة حامية، ثم اتجه نحو اللد والرملة فوقف صلاح الدين في وجهه وأحكم الدفاع عن القدس حتى يئس ريتشارد قلب الأسد من الوصول إلى هدفه، وانتشرت الأمراض بين الصليبيين، واضطربت الأمور في إنكلترا فاضطر ريتشارد قلب الأسد إلى عقد صلح مع صلاح الدين عام ٥٨٨ عرف باسم صلح الرملة، وبذا تكون الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت ولم تصل إلى هدفها.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ عام ٥٨٩ رأى البابا أن أمر المسلمين سيتفرق لذا فيجب الاستعداد لانطلاق حملة صليبية رابعة تستردّ القدس ثم تأخذ كل ما قد سبق واحتلوه، ودعا البابا أنوسنت الثالث أمراء النصارى إلى هذا عام ٥٩٤، وتولى عدد من الأمراء هذه الدعوة وعلى رأسهم الفرنسيون، ورأوا أن تسير الحملة إلى مصر ومنها تنطلق إلى القدس، كما رأوا أن يستعينوا بالأسطول البندقي لنقل المحاربين بحراً فاشترطت البندقية مساعدة الصليبيين لها لاسترداد مدينة (زارا) من الهنغاريين فاستجاب الصليبيون لذلك من غير موافقة البابا، وتم للبنادقة ما أرادوا، وبينما كان الجميع يستعدون للانطلاق إلى مصر إذ يثور في القسطنطينية الأمير الكسيوس على أبيه الإمبراطور إسحاق الثاني، وتفشل ثورته فيفر إلى الغرب، ويطلب من البابا ومن الصليبيين مساعدته ضد أبيه، ويتعهد في

حالة نجاحه إخضاع الكنيسة البيزنطية للبابوية، كما يتعهد بمساعدة الصليبيين في حملتهم ولقي هذا المطلب هوى في نفس البابا ومن الصليبيين فساروا براً نحو القسطنطينية واحتلوها عام ٦٠٠، وخرّبوها، وتمنى أهلها أن يكون المحتلون المسلمين لا النصارى لأنهم كانوا يجدون الرحمة المعروفة عند المسلمين والمنزوعة من نفوس النصارى. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الرابعة ولم تؤد غرضها، وإنما أظهرت للناس جميعاً أن الحملات الصليبية كانت وحشيةً معبأةً بالحقد والضغينة على المسلمين، وكان من نتائجها أن ترك بعض الصليبيين بلاد الشام، واتجهوا إلى قبرص أو اليونان ليعيشوا حياةً رغيدةً بعدما عاشوا حياة مليئة بالأحداث الدامية. كما زادت من الخلاف بين النصارى البيزنطيين والنصارى الغربيين.

وحاول الصليبيون في حصن الأكراد الاستيلاء على حمص عام ٦٠٤ فاستنجد صاحبها أسد الدين شيركوه الثاني بصاحب حلب الملك الظاهر وقاوموا الصليبيين. وهاجم القراصنة الصليبيون في قبرص بعض السفن المصرية، وأخذوا من فيها أسرى فسار الملك العادل الأيوبي نحو عكا، وأجبر الصليبيين أن يردوا الأسرى المسلمين، ثم سار الملك العادل إلى حمص لدعمها، وأغار على حصن الأكراد،وعلى طرابلس، فاضطر صاحب طرابلس الصليبي بوهيمند الرابع إلى عقد صلح مع العادل، كما عقد الملك حنا برين صلحاً مع الملك العادل لمدة ست سنوات، ولكنه في الوقت نفسه كان يراسل البابا، ويطلب منه الدعم والعمل لإرسال حملة صليبية جديدة تصل إلى بلاد الشام مع انتهاء الصلح الذي يمتد من ٦٠٨ ـ ٦١٤.

دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة جيش صليبي جديد يتجه إلى بلاد الشام مباشرةً، وسارت الحملة بقيادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريه الثاني، ثم لحق بهما ملك قبرص بهمايو، ووصلت هذه الحملة الصليبية الخامسة إلى بلاد الشام ٦١٥، واجتمعت جموعها في عكا، وساروا، فاستولوا على بيسان في الغور، ووصلوا إلى بلدة نوى. ولم يتفق ملك هنغاريا مع دوق النمسا لذا قرر العودة إلى بلاده.

وخرج حنا برين للهجوم على دمياط وجاءته جموع صليبية بإمرة مندوب البابا الكاردينال «بلاغيوس» وجموع من قبرص. وتوفي الملك العادل، وخلفه ابنه الكامل الذي جاءه دعم من أخيه المعظم صاحب دمشق، ولكن بدأ في هذا الوقت الهجوم المغولي فعرض الكامل الصلح فلم يقبله الصليبيون الذين استولوا على دمياط، وشعروا بنشوة الظفر، فقرروا الهجوم على القاهرة لكنهم فشلوا بسبب الفيضانات التي حدثت بقطع المسلمين السدود، فطلبوا الصلح، وسلموا رهائن، وهم صاغرون حتى يجلوا عن دمياط، وتم الجلاء عام ٦١٨، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة، ولم تحقق شيئاً.

ضعف أمر الصليبيين، واهتزّ مركزهم، وهذا ما جعل بعضهم يتجه إلى البابا ويطلب منه العمل على إرسال حملة تعيد لهم وضعهم السابق غير أن البابوية كانت في صراع مع الأمراء والمتنورين فلم يكن بإمكانها تلبية الطلب سريعاً. ومن ناحية أخرى ضعف مركز الأيوبيين، وبدأت خلافاتهم بعضهم مع بعض تظهر فقد دب الخلاف بين أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين، وتسلّم الكامل السلطنة، واختلف مع أخويه الأشرف والمعظم، فخاف الكامل على سلطانه، وفي الوقت نفسه فقد هددت العراق والشام من قبل الخوارزميين الذين تجمعوا في أصفهان بعد أن شرّدهم المغول، وهذا ما جعل الملك الكامل يطلب نجدة من إمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني الذي وافق على ذلك إذ عرض عليه الكامل تسليمه القدس، وشجعه البابا هنريوس الثالث، ثم البابا غريغوري الذي جاء بعد الأول، فأبحر فريدريك من جنوبي إيطاليا، ثم رجع عن رأيه، وعاد مظهراً المرض، فأصدر البابا قرار الحرمان ضده عام ٦٢٤، وخاف الإمبراطور من غضب البابا وانطلق نحو المشرق متجهاً نحو عكا، ووصل رجاله إليها عام ٦٢٥ بينما تخلف الإمبراطور في قبرص ثم لحق بهم بعد مدة.

لم يكن لوصول هذه الحملة الصليبية السادسة أية آثار إذ أن الإمبراطور فريدريك لم يرغب في محاربة المسلمين، وإنما يرغب في الحصول على بيت المقدس، والملك المعظم قد مات، ولم يعد الملك

الكامل يخشاه، ولم يرغب في قتال الصليبيين لأن استعداداته قليلة، والصليبيون لم يتقبلوا مجيء الحملة لأن قائدها على خلاف مع البابا. غير أن الكامل قد وافق وسلّم الإمبراطور القدس، فتوّج فريدريك نفسه على غير رضىً من الكنيسة، وعقد هدنة مع الكامل لمدة عشر سنوات، وذلك في يافا عام ٦٢٦، ورجع فريدريك إلى بلاده إلا أن البابا حرّض على التعدي على أملاك فريدريك في إيطاليا، ووصل فريدريك إلى إيطاليا عام ٦٢٦، وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وإن لم تقاتل إلا أنها تسلمت القدس من الكامل الذي أضاع ما بذله عمه صلاح الدين.

ضعف الأيوبيون، وشجع تسليم الكامل بيت المقدس الصليبيين فهاجموا صاحب حماه الملك المظفر، وكان يدفع أتاوة لهم غير أنه انتصر عليهم، ولكنهم بقوا يغيرون على بلاده، وزاد من ضعف الأيوبيين قتالهم لخوارزمشاه، وسلاجقة الروم بقيادة علاء الدين كيقباد، ثم انقسام بعضهم على بعض إذ عمل إخوة الملك الكامل على الإطاحة به غير أنهم فشلوا، وتوفي عام ٦٣٥، وهذا كله أطمع الصليبيين في ديار المسلمين إذ توقعوا أن يحصلوا على نصر مبين، فدعت الكنيسة إلى إعداد حملة صليبية جديدة، وهي الحملة السابعة، فاستعد الفرنسيون وانطلقت بقيادة ثيبوب الرابع فوصلت إلى عكا عام ٦٣٧. ولما كان الناصر داود أمير الأردن قد هاجم القدس وفتحها لأن الصليبيين نقضوا ماعاهدوا عليه من عدم تحصينها، وبذا رجعت منطقة مسلمة، واختلف الصليبيون فيما بينهم على جهة السير فمنهم من يرى القدس، ومنهم من يرى دمشق، ومنهم من يريد عسقلان، وآخر يبغي مصر. ثم اتحدت كلمتهم إلى السير إلى عسقلان، ولكنهم هزموا أمام المسلمين فرجعوا هاربين إلى عكا.

وفي عام ٦٣٧ عزل العادل الثاني، وتسلم الأمر الصالح نجم الدين أيوب، فغضب من ذلك الصالح إسماعيل، وتحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بني أيوب، وسلّم الصليبيين مقابل هذا الاتفاق القدس وعسقلان وطبريا، إلا أن العزّ بن عبد السلام قد انسحب من جيشه ومعه عدد كبير،

وانضم إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب فهزموا الصليبيين هزيمة كبيرة، وبهذا فشلت الحملة الصليبية الفرنسية، واضطرت إلى العودة إلى بلادها بعد أن عقدت صلحاً عام ٦٣٩ مع الصالح نجم الدين أيوب.

وبعد عودة الحملة الفرنسية جاءت حملة إنكليزية بقيادة ريتشارد كورنول أخي ملك إنكلترا هنري الثالث، غير أن الصالح نجم الدين أيوب تحالف مع الخوارزميين ضد أمراء بني أيوب الذين اتفقوا مع الصليبيين فاتجه الخوارزميون نحو بلاد الشام، ودخلوا القدس عام ٦٤٢، وانتصروا على الصليبيين في غزة انتصاراً باهراً، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجانب الخوارزميين، ويقود جيوشه الظاهر بيبرس، وغدا الصالح نجم الدين أيوب صاحب النفوذ في مصر والشام وفلسطين، وأظهر أمراء بني أيوب له الطاعة.

وحاول بطريق القدس أن يستقدم حملة صليبية بإلحاحه المستمر غير أنه لم يوفق، وفي عام ٦٤٦ قاد ملك فرنسا لويس التاسع حملةً صليبية فرنسية بعد أن عوفي من مرضه، ومرت الحملة على قبرص، وراسلت المغول ثم اتجهت إلى مصر فاحتلت دمياط، وجاءت نجدة فرنسية بإمرة الفونس أخي لويس التاسع، وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملكت الأمر زوجته شجرة الدر، واستدعت ابنه توران شاه فجاء مباشرة إلى أرض المعركة فانتصر على الصليبيين وقتل أخا الملك لويس التاسع وهو روبرت، فانسحب الصليبيون إلى دمياط، وفاوض الملك لويس التاسع توران شاه في أن يسلم الأيوبيين دمياط مقابل تسليمهم القدس له فرفض طلبه، ودارت معركة ثانية بين الطرفين انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً، وأسر ملك فرنسا لويس التاسع، ولم يطلق سراحه حتى أمليت الشروط على الصليبيين فوافقوا عليها، وانسحبوا إلى عكا، ثم انسحب لويس التاسع إلى فرنسا عام ٦٥٢ بعد أن فشل في التحالف مع بعض الأمراء الأيوبيين بل ومع المغول الذين كانوا لا يزالون بعيدين عن ساحة المعركة. وبعد أن جاء المماليك قضوا على ما بقي للصليبيين من آثار في بلاد الشام.

الحملات الصليبية
في هذه المرحلة
٤٨٩ ـ ٦٥٦

الحملة الصليبية	عام البداية	القيادة	الأسباب	النهاية
الأولى	٤٨٩	بطرس الناسك ـ وأمراء	الحقد الصليبي	استقرت
الثانية	٥٤١	كونراد الثالث ملك ألمانيا لويس السابع ملك فرنسا	استعادة الرها	٥٤٩
الثالثة	٥٨٥	ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا فيليب أغسطس ملك فرنسا فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا	استعادة بيت المقدس وما أضاعه الصليبيون بحروبهم مع صلاح الدين الأيوبي	
الرابعة	٥٩٤	أمراء فرنسيون		
الخامسة	٦١٥	ليوبولد دوق النمسا أندريه الثالث ملك هنغاريا بهمايو ملك قبرص	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام.	٦١٨
السادسة	٦٢٥	فريدريك ملك ألمانيا	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام	٦٢٦
السابعة	٦٣٧	ثيبوب الرابع الفرنسي	دعت الكنيسة إلى هذه الحملة عندما رأت ضعف المسلمين واختلاف بعضهم مع بعض	٦٣٩
	٦٣٩	ريتشارد كورنول الإنكليزي	اتجهت إلى تونس	٦٥٢
	٦٤٩	لويس التاسع ملك فرنسا		

-٣٦-
المستنصر بالله
منصور بن محمّد الظاهر بأمر الله
٦٢٣ ـ ٦٤٠

هو منصور، أبو جعفر بن الظاهر بأمر الله ولد من جاريةٍ تركيةٍ عام ثمانية وثمانين وخمسمائة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في شهر رجب من عام ثلاثةٍ وعشرين وستمائة، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرّب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمدارس، والمستشفيات وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبّه الناس، وكان ذا شجاعةٍ وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الذي خافهم البشر. وكان له أخ شجاعَ أيضاً صاحب همةٍ عاليةٍ يُقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيد التتار وأستأصلهم غير أنه لم يتولّ، وإنما الذي تولّى الخلافة بعد المستنصر ابنه عبد الله أبو أحمد المستعصم حيث فيه ضعف مكّن للوزراء الذين عملوا على توليته أن يُسيّروا أمور الدولة من دونه.

توفي المستنصر في العاشر من جمادى الآخرة من عام أربعين وستمائة فكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر. وكان جميل الصورة، حسن السريرة، جيد السيرة، كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الربُط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من

محال بغداد دار ضيافةٍ للفقراء، لا سيما في شهر رمضان. وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث، وحماماً، ودار طبٍ، ووقف فيها كتباً نفيسة.

وكان المستنصر ـ رحمه الله ـ كريماً حليماً رئيساً، متودّداً إلى الناس، وكان جميل الصورة، حسن الأخلاق، بهي المنظر[1].

* * *

(١) انظر البداية والنهاية.

-٣٧-
المستعصم بالله
عبد الله بن منصور المستنصر بالله
٦٤٠ - ٦٥٦

هو عبد الله، المستعصم بالله، أبو أحمد بن منصور المستنصر بالله، آخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولد سنة تسع وستمائة من أم ولد اسمها هاجر، بويع بالخلافة عند وفاة أبيه يوم الجمعة في العاشر من جمادى الآخرة عام أربعين وستمائة. خرّج له الشرف الدمياطي أربعين حديثاً. أجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه.

كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده، ولكن لم يكن مثلهما في الحزم والشجاعة وعلو الهمة، وكان فيه لين وضعف، وركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي الذي كان يوجّه الخليفة بشكل غير صحيح، ويسير به بطريقٍ غير مستقيمة، وقد أطمع التتار بالسير إلى العراق، وأخذ بغداد، ونصح لهم، وإذا جاء خبر عنهم كتمه عن الخليفة على حين كان يخبرهم بأحوال الخليفة وأوضاع البلاد، وكان يريد أن يقضي على الدولة العباسية ويُقيم خليفةً من آل علي، وكانت الرسل تنتقل بين العلقمي والتتار خفيةً، والناس في غفلةٍ عما يُراد بهم، والخليفة تائه لا يطّلع على الأمور.

كان الخليفة المستنصر والد المستعصم قد استكثر من الجند ليدافع بهم عن دولته، ومع ذلك كان يصانع التتار، ولكن إذا تعدوا قاتلهم وقهرهم، وعندما جاء المستعصم أشار عليه العلقمي بأن يُقلّل من الجند ولا فائدة لهذه الأعداد فوافقه، كما أشار عليه بمصانعة التتار وإكرامهم، وفي

الوقت نفسه كان الوزير يتصل مع التتار، ويشجّعهم على القدوم إلى العراق، وطلب منهم أن يكون نائبهم والمقدم عندهم، فوعدوه بذلك، وساروا إلى بغداد، وكان قد استوزره عام ٦٤٢، وكان من قبل أستاذاً بدار الخلافة فجعل مكانه ابن الجوزي.

قتل المستعصم بالله على يد التتار يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر من سنة ست وخمسين وستمائة. وقد كان حسن الصورة، جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر في العدل وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد. وكان ـ رحمه الله ـ سنياً على طريقة السلف، واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ، ومحبة للمال وجمعه.

وبمقتله انتهت دولة بني العباس في العراق، فهو آخر خلفاء هذه الدولة، والسابع والثلاثون منهم.

* * *

التتار

في الوقت الذي بدأ يضعف فيه المد الصليبي في بلاد الشام وينحسر عن مناطق سبق له أن سيطر عليها، وترحل بعض الجماعات من الصليبيين عن جهات كان لها أن سطت عليها لما أصابها من يأسٍ في الاستقرار، ولما حلّ بها من هزائم، وقبل أن يودّع الصليبيون إماراتهم التي أسسوها بعد أن ألقوا بوحشيتهم عليها، وأذاقوا همجيتهم لسكانها قبل الرحيل الأخير بدأت تظهر في شرق ديار الإسلام قوة عظيمة تتمتع بقدرةٍ كبيرةٍ على الحركة وعندها إمكانات قتالية ضخمة، تلكم هم التتار.

لقد خشي الصليبيون أن يُسلم التتار باحتكاكهم مع المسلمين كما حدث لأبناء عمومتهم من الترك: من السلاجقة والغزّ وغيرهم وإذا ما حدث هذا فإن المسلمين يزدادون قوةً إلى قوتهم ويُخشى على أوروبا وليس على الصليبيين في بلاد الشام فحسب، لذا يجب أن يكون عمل الصليبيين بالدرجة الأولى الحيلولة دون حدوث ذلك، ثم العمل لجعل التتار يقاتلون المسلمين الذين يقعون عندئذٍ بين نارين: نار التتار في الشرق، ونار الصليبيين في الغرب، ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل إلى التتار، وحسّنوا لهم ديار الإسلام وغلاتها، ومنتجاتها، وخيراتها، وإمكاناتها، وجمالها، وأهميتها، وإمكانية الإفادة منها، وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها هذا بالإضافة إلى الرسل كانت النساء النصرانيات التي دخلت بيوتات التتار على شكل حليلات أو خليلاتٍ تعمل عمل الرسل بشكلٍ مستمرٍ، وهذا ما أوجد الفكرة عند التتار للانطلاق نحو الغرب والاستيلاء على ديار الإسلام ولم يبق عندهم إلا وجود مبرر للقيام بهذا العمل أو محرّض له دوافعه المباشرة.

والتتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي. «أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان براري، ومشهورون بالشر والغدر»[1]. حياتهم رعوية، ونظامهم قبلي يطيعون رؤساءهم طاعةً كبيرةً، ويحبون الحرب والسلب، يعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، يأكلون لحوم الحيوانات جميعها حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يُقدّمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة ويُقدّسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعاً من مغول، وترك، وسلاجقة وغيرهم. وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلةٍ من مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهناك من يقول: إن التتار والمغول أخوان وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيزخان يدك الدول، وعلى كل فإن كلمة تتار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في شرق روسيا وسيبيريا وشبه جزيرة القرم. على حين تطلق كلمة المغول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان. وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيز خان واسمهم يعمّ القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل اسمهم القبائل كلها.

ولما جمع جنكيزخان قبائل التتار حوله وانطلق نحو الشمال الشرقي في بلاد الصين يضم البلاد إليه بدأ التحريض من قبل الصليبيين على بلاد المسلمين، فاتجه جنكيزخان نحو الغرب. وظهرت جماعة من التتار حوالي عام ٦٠٦ في بلاد فرغانة فخرّب خوارزمشاه محمد تكش فرغانة، والشاش، وكاسان خوفاً من أن يستولي عليها التتار. وبدأ التتار يُتخطّفون في تلك الجهات، واستمرت الحالة حتى عام ٦١٥.

أرسل جنكيزخان رسلاً للمهادنة بينه وبين خوارزمشاه محمد تكش، وليسير التجار بين المملكتين فأجابه خوارزمشاه إلى ذلك، وجاء بعض

---

(١) تاريخ الخلفاء.

التجار التتار إلى بلاد ما وراء النهر ليشتروا ثياباً لجنكيزخان الذي انطلق إلى بعض نواحي تركستان فلما وصلوا إلى بلاد خوارزم شاه أخبره نائبه على تلك البلاد بذلك فأمره بقتل التجار، وأخذ ما معهم، وذلك لأن خوارزمشاه بعد أن ملك بلاد ما وراء النهر من (الخطا) قطع الطريق بينه وبين بلاد تركستان ليحول دون هجوم (الخطا) عليه وليقطع عنهم البضائع والحاجيات فلما استولى التتار على تركستان بدؤوا يُغيرون على بلاد ما وراء النهر للحصول على حاجاتهم ورغبةً في السلب والنهب فلما جاء تجارهم أمر خوارزمشاه بقتلهم، وأرسل عيوناً له إلى تركستان ليعرف خبر التتار وأعدادهم فلما رجعت إليه الأخبار بكثرة التتار وقدرتهم القتالية وصنعهم بأنفسهم للسلاح الذي يقاتلون به ندم على ما بدا منه، وبدأ يستشير أصحابه وبينما هو في المشاورة جاءته رسالة من جنكيزخان مفادها التهديد إذ يقول: تقتلون تجاري وتأخذون أموالهم فإني قادم إليكم بجنود لا قبل لكم بها، فما كان من خوارزمشاه إلا أن قتل رسول جنكيزخان وحلق لحى من معه، وأعادهم إلى جنكيزخان ليُعلموه بما فعل بهم، ويُخبروه أن خوارزمشاه قادم إليهم أيضاً، وسار خوارزمشاه فعلاً فأغار على بلاد التتار، ورجالها عنها غائبون مشغولون بقتال أحد أمرائهم، فقتل من وجد من الأطفال وسبى النساء، وعاد التتار وعلموا وهم على طريقهم بالخبر، فجدّوا السير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر ديارهم بعد فوقعت بين الجانبين معركة رهيبة كادت تفنيهما لما صبروا، وغادر كل صاحبه يائساً من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بُخارى، وبدأ يستعد للقتال، فحصّن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

وجاء التتار وخوارزمشاه غائب للاستعداد فدخلوا مدينة بخارى بعد أن طلب أهلها الأمان، ولكن اعتصم من اعتصم بالقلعة فملكها عنوةً، وعمل الطاغية جنكيزخان بأهلها العجائب والمبيقات، ثم اتجهوا إلى سمرقند فتصدى لهم أهلها، وتراجع التتار وتبعهم أهل سمرقند ظناً بالنصر، وكانت الكمائن فأصيب أهل سمرقند، وفعل بهم الطاغية ما فعل ببخارى، ووجّه

عشرين ألف فارس في أثر خوارزمشاه، فانطلق إلى مازندران، ومنها إلى همدان، ثم رجع إليها، ثم انتقل إلى جزيرة في بحر الخزر مات بها عام ٦٢٠.

وسار الفرسان التتار إلى مازندران فأخذوها، ثم اتجهوا إلى الري، وهمدان، ثم ساروا إلى أذربيجان وأخذوها، وانتصروا على الأكراد والتركمان والكرج، ودخلوا باب الأبواب (دربند)، وانطلقوا إلى بلاد القفقاس فقاتلوا اللان، والجراكسة، وانتصروا عليهم، وانطلقوا عام ٦٢٠ إلى بلاد روسيا فدخولها ونهبوها، وقاتلهم البلغار فانتصروا عليهم، وقتلوا كثيراً من التتار، وعاد الباقي ممن بقي منهم إلى جنكيزخان، وخلت أرض روسيا، والقفقاس منهم.

أما جنكيزخان قد بقي في سمرقند، وأرسل قسماً ممن بقي معه إلى فرغانة، وآخر إلى ترمذ، وكل احتل ما سار إليه، وفعل بالسكان فعل التتار، ورجع إلى جنكيزخان، ولما اجتمعت لديه الجيوش ثانيةً أرسل جيشاً عظيماً بإمرة أحد أولاده إلى خوارزم، ووجه جيشاً آخر إلى خراسان فوصل إلى بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وعندما وصل إلى الطالقان لم يستطع دخول قلعتها فأخبر جنكيزخان فسار إليها بنفسه، وملكها ورجع إلى سمرقند بينما اتجه الجند إلى مرو فحاصروها، ثم نكثوا بعهدهم عندما دخلوها، ثم ساروا إلى نيسابور، ومنها إلى طوس، فهراة. ثم رجعوا إلى جنكيزخان بعد أن انتهوا من خراسان.

وأما الجيش الذي سار إلى خوارزم فقد دخلها ثم عاد إلى جنكيزخان. وعندما اجتمعت الجيوش لديه، جهز جيشاً قوياً وسيّره إلى غزنة وعليها جلال الدين خوارزمشاه فانتصر المسلمون، وفرّ التتار عائدين إلى الطالقان. والتقى المسلمون ثانيةً مع التتار في كابل، وانتصر المسلمون مرةً أخرى، ثم اختلفوا ففارقهم سيف الدين الخلجي (والخلجيون من الأتراك)، واتجه إلى الهند وملكها، وحاول جلال الدين إعادته بكل وسيلةٍ فلم يتمكن. وشعر جلال الدين بضعف المسلمين فسار نحو السند، وشعر

كذلك جنكيزخان فلاحقه، ولم يتمكن جلال الدين من عبور نهر السند فاضطر إلى قتال التتار، وهُزم المسلمون، واستطاعوا في النهاية اجتياز النهر، ورجع التتار إلى غزنة فملكوها وليس فيها جند فجعلوها أثراً بعد عين بناءً وسكاناً، بعد أن مثّلوا وارتكبوا المنكرات التي لا تذكر من هولها.

ووجه جنكيزخان جماعةً من جنده إلى الري وهمدان وكان العمران قد عاد إليها فقتلوا من فيهما وخربوهما. وكان التتار يخرجون بالأسرى ويطلبون منهم القتال معهم وإلا قتلوهم لذا كانوا يضحّون بأعداد كبيرةٍ، ويُوهمون الأعداء بكثرتهم، ويُخيفونهم بأفعالهم فيفرّون من المعارك، وتتقطع قلوبهم رعباً قبل لقاء التتار.

وصمد غياث الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش في أصفهان، وامتنع عن التتار الذين عجزوا عن دخول مدينته فلما انصرفوا عنها توسّع وملك أجزاء من فارس، وفي عام ٦٢٢ وصل إليه أخوه جلال الدين عائداً من الهند، واتجه من أصفهان إلى خوزستان ليملكها فلم يتمكن فنهبها، وسار إلى العراق فقابله جند الخليفة ومنعوه، ثم سار إلى أذربيجان فملكها، وهُزمت الكرج أمامه فدخل بلادهم، وولّى عليها أخاه غياث الدين، وعاد هو إلى تبريز، ثم عاد إلى تفليس عاصمة الكرج وفرض الإسلام على أهلها، وتصرّف تصرف الفاتح الظالم..

والغريب أن المسلمين كانوا يواجهون التتار وفي الوقت نفسه يقاتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم أرض بعض إذا دخلها، والمحنة دائرة عليهم، والشدة نازلة بهم، ويتصوّر كل واحدٍ منهم أنه عمل لجمع المسلمين للوقوف في وجه التتار، وهذه هي المحنة في هذه المرحلة وبداية الضعف الذي جاء في المستقبل.

سار جلال الدين إلى كرمان حيث استبد بها نائبه، وراسل التتار، وبعد دخولها رجع إلى تفليس لنقمة أهلها عليه، ومنها سار إلى بلاد الأبخاز على ساحل البحر الأسود وقاتل الكرج، ثم قاتل الملك الأشرف في خلاط، وحارب التركمان.

ورجع الكرج إلى تفليس، وليس بها جند من المسلمين فدخلوها وأحرقوها.

وسار جلال الدين إلى التتار بالقرب من الري وقد وصل إليه خبر مسيرهم نحو بلاد المسلمين فالتقى بهم وهزمهم.

ومات جنكيزخان عام ٦٢٤ وخلفه ابنه الثالث أوجتاي، وتأثر بذلك الولد الأكبر منه، (جغطاي) وهو الثاني لمخالفة ذلك التعيين لتقاليد المغول التي تقضي بتعيين الولد الأكبر، وقد ذبح أوجتاي أربعين فتاةً جميلةً على روح أبيه وكثيراً من الخيل، وبقي في عاصمة المغول (قره قورم) في منغوليا.

اتجه أوجتاي فقضى على إمبراطورية شمالي الصين «كين» بمساعدة إمبراطورية جنوبي الصين «سونغ» ثم التفت إلى الغرب فأرسل جيشاً قوامه خمسين ومائة ألف مقاتل، وأمره بالتحرك نحو مملكة خوارزم، وكان خوارزمشاه جلال الدين قد اختلف مع أخيه غياث الدين الذي التجأ إلى الإسماعيلية فحموه.

وصل التتار من جديد إلى جهات الري لقتال جلال الدين، وقد آلمهم توسعه الجديد بعد رجوعه من الهند، وسار إليهم جلال الدين، وجرت حروب كثيرة بين الفريقين، كانت الدائرة في أغلبها تدور على خوارزم، وكان النصر في آخرها لجلال الدين، ثم هُزم فرجع إلى أصفهان، وقاتل التتار من جديد، وفارقه قبل المعركة أخوه غياث الدين مع فرقة من الجيش وظن التتار أنها خديعة فانهزموا، وكذلك كان ظنه هو أيضاً فانهزم، وشعر التتار بما كان فرجعوا يحاصرون أصفهان، وجاء إليها جلال الدين، وهزم التتار وتبعهم إلى الري، ثم رجع إلى أرمينيا ونهبها، وجاء جيش آخر من التتار ففر من وجهه، وهام على وجهه وقتله أحد الفلاحين عام ٦٢٩ في إحدى القرى الكردية.

وجاء التتار إلى أذربيجان عام ٦٢٨ فملكوها واتجهوا إلى ديار بكر

والجزيرة، ووصلت جماعة منهم إلى أربيل وحاصروها وأرسل الخليفة نجدةً لأهلها، فانشمر التتار راجعين عنها، وقد أخضعوا الجميع، وارتكبوا أبشع الجرائم، وأفسدوا أعظم الفساد حتى خافهم الناس، وقتلوا الكثير من الأكراد والتركمان، وفرّ من وجههم الخلق. قال الموفق عبد اللطيف في خبر التتار: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغّر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض، وهذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند، لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين مكة أربعة أشهر، وهم بالنسبة إلى الترك عراض الوجوه، واسعو الصدر، خفافُ الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأي، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم، لأن الغريب لا يتشبه بهم، وإذا أرادوا جهةً كتموا أمرهم، ونهضوا دفعةً واحدةً، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل، وتضيق طرق الهرب، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، وأكلهم أي لحم وُجد، ولا في قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال[1].

وقال ابن الأثير: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك! فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يُجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمّن الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصّت

---

(١) نقلاً عن تاريخ الخلفاء.

المسلمين، فلو قال قائل أن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينةٍ واحدةٍ ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجّال فإنه يُبقي على من تبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإن لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعمّ ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح[1]. ويقول: ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرةٍ ومددٍ يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحدٍ من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه[2].

وجه أوجتاي بن جنكيزخان عام ٦٣٧ ثلاثة جيوش: أحدها إلى كوريا، والثاني إلى إمبراطورية (سونغ) في جنوبي الصين التي ساعدته بالأمس ضد إمبراطورية شمالي الصين (كين): والثالث إلى شرقي أوروبا،

(١) الكامل في التاريخ.

(٢) المصدر نفسه.

وجعل قائد هذا الجيش الثالث ابن أخيه (جوجي) أكبر إخوته، وهو (باتو بن جوجي)، فدخل باتو بلاد البلغار (قازان)[1]، ثم دخل التتار موسكو، واتجهوا إلى كييف أكبر مدن روسيا آنذاك فأبادوها. وانقسم جيش (باتو) بعدها إلى قسمين: قسم بإمرته وسار نحو بلاد المجر، والآخر بأمرة (بيدار) واتجه نحو بولندا، وقد انتصر الأول على المجري وذبح الجيش المجري كاملاً، وأحرق الثاني ما استطاع عليه من مدن بولندا، ومات أوجتاي عام ٦٤٤ فاستدعي ابن أخيه (باتو) للرجوع إلى بلاد المغول. وخلف (أوجتاي) ابنه (كيوك) الذي مات عام ٦٤٦، وخلفه ابن عمه مانجو بن تولوي بعد اضطرابات في قره قورم حول الملك، وقد وجه أخاه كوبيلاي إلى الصين فاتخذ عاصمةً له في بكين، وسيّر أخاه الآخر هولاكو لغزو بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، وتوفي مانجو عام ٦٥٥ فخلفه أخوه (كوبيلاي) فأخضع الصين، وأصبحت بكين عاصمته حاضرة المغول بدلاً من قره قورم.

ووصل التتار إلى أذربيجان، واتجهت فرقة منهم إلى أربيل عام ٦٣٤ وحاصرتها، ثم دخلتها غير أن القلعة قد امتنعت عنها فأرسل الخليفة نجدةً لأهل أربيل فانهزم التتار، وسارت جماعات من خوارزم بعد هزيمتهم أمام التتار، وانطلقت إلى الغرب، ولعبت دوراً في أحداث بلاد الشام، وتحالفت مع بعض ملوك الأيوبيين ضد بعضهم الآخر.

وفي عام ٦٣٨ كتب (أوجتاي) خان التتار الأعظم إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيها إلى الطاعة. ولما تولّى مانجو قيادة التتار جهّز حملة بقيادة أخيه هولاكو للاتجاه نحو الغرب ودخول فارس والعراق والشام. ولما تمّ إعداد الحملة انطلق نحو بلاد ما وراء النهر، فجاءه الأمراء يعلنون طاعتهم، ثم سار إلى فارس وطلب من الأمراء معاونته للقضاء على الإسماعيلية، وجاءه أمراء من خراسان وأذربيجان وجورجيا، وقد تمكن من هزيمة

(١) كانت بلاد البلغار في حوض نهر الفولغا الآن حيث تقع قازان اليوم.

الإسماعيلية وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله، واتخذ من مدينة همدان مقراً لقيادته، وكتب إلى الخليفة المستعصم يعاتبه على عدم مساعدته في قتال الإسماعيلية، كما طلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويتنازل لابنه عن السلطة، ويحضر هو لمقابلته أو يرسل إليه نيابةً عنه الوزير سليمان شاه، ويهدده إن لم يقبل النصح.

أرسل له الخليفة رسالةً حملها إليه شرف الدين بن الجوزي فيها شيء من إظهار القوة والاستعداد، واستشار هولاكو من معه من المسلمين فأشار عليه حسام الدين الفلكي بعدم التعرض للخلافة وبغداد، على حين أن نصير الدين الطوسي قد شجعه على المضي لبغداد. وانطلق إلى بغداد يقود هو قسماً من الجيش لحصارها من المشرق، ويرافقه عدد من المسلمين أمثال أمير الموصل، وأمير شيراز، ونصير الدين الطوسي، وأعطى إمارة القسم الآخر من الجيش إلى «باجو» وعهد إليه بإلقاء الحصار على بغداد من جهة الغرب.

وكانت قد وقعت فتنة في بغداد عام ٦٥٥ بين أهل السنة والرافضة وسببها ممالأة الوزير ابن العلقمي الرافضي للطاغية هولاكو. وكان ابن العلقمي قد اجتمع مع هولاكو، وعندما استشاره الخليفة المستعصم أشار عليه بمصانعة التتار، وقال: أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثّق منهم لنفسه، وورد إلى الخليفة وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويُبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون الطاعة، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه، فخرج إليه في جمعٍ من الأعيان، فأُنزل في خيمة.

ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم، وصار كذلك: تخرج طائفة بعد طائفةٍ حتى قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار. ثم مدّ الجسر،

وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً فبلغ القتل أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أوقناة، وقتل الخليفة رفساً[1].

كان باجو قد أسرع للهجوم على بغداد من جهة الغرب، واشتبك مع قوات الخليفة في معركةٍ ضاريةٍ يوم عاشوراء، فخلا الجو لهولاكو من ناحية الشرق فتقدّم، وكان جيش التتار يقدرِ بمائتي ألف مقاتل، وتصدّى جيش المسلمين، للتتار، واستمر في المقاومة مدةً حتى التاسع عشر من شهر محرم، ورأى الخليفة أنه لا بد من الاستسلام فأرسل إلى الطاغية هولاكو مرةً ثانيةً شرف الدين بن الجوزي، ويحمل له الهدايا معلناً التسليم والرغبة في وقف القتال، وخدعه المغول بالوعود الكاذبة.

وفي ٤ صفر خرج الخليفة لمقابلة هولاكو ومعه أولاده الثلاثة: أحمد أبو العباس، وعبد الرحمن أبو الفضائل، ومبارك أبو المناقب، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والأمراء وأعيان المدينة، وعندما اقتربوا من هولاكو أُخذ الخليفة لخيمة، وحُجب البقية عنه، وطُلب منه أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح ففعل، وما أن ألقى السكان السلاح حتى أمر هولاكو جنده بالانقضاض على المدينة وبدؤوا بالقتل والسلب وارتكاب المنكرات، وتهديم البيوت، وتخريب القصور، وإتلاف الكتب، واستمر ذلك أربعين يوماً.

وقد سيّر الخليفة إلى بغداد، ومعه نصير الدين الطوسي، وابن العلقمي ليدلّ جند هولاكو على أماكن الذهب والنفائس والمجوهرات، ولما عاد إلى هولاكو قتل في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ست وخمسين وستمائة.

وأصبحت بغداد بعد الأربعين يوماً من التدمير خاويةً على عروشها ثم أعطي الناس الأمان فخرج من خرج من الأقنية والآبار والمقابر كأنهم الموتى خرجوا من قبورهم، ولكن انتشرت الأوبئة والأمراض فأتت على أعدادٍ كبيرةٍ منهم أيضاً.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

ورجع هولاكو إلى مقر حكمه في شهر جمادى الأول من العام نفسه، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادور ومعه ابن العلقمي[1].

وهكذا دالت الدولة العباسية بعد أن امتدت أيامها أربعاً وعشرين وخمسمائة سنة.

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن علي: الوزير مؤيد الدين، أبو طالب، ابن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي وخادمه في زمن المستنصر، أستاذ دار الخلافة مدةً طويلةً، ثم صار وزير المستعصم، وكان وزير سوء مع أنه ذا شأنٍ كبيرٍ في الأدب والإنشاء، وكان رافضياً خبيثاً، رديء الطوية على الإسلام وأهله. وبعد أن ساعد هولاكو ضد المسلمين ناله من الإهانة والذل الشيء الكثير على أيدي من ناصرهم من التتار، وقد مات وعمره ثلاث وستون سنة كمداً وضيقاً، وتولى بعده ابنه الخبيث الوزارة، ثم مات في العام نفسه، وذلك سنة ٦٥٦هـ.

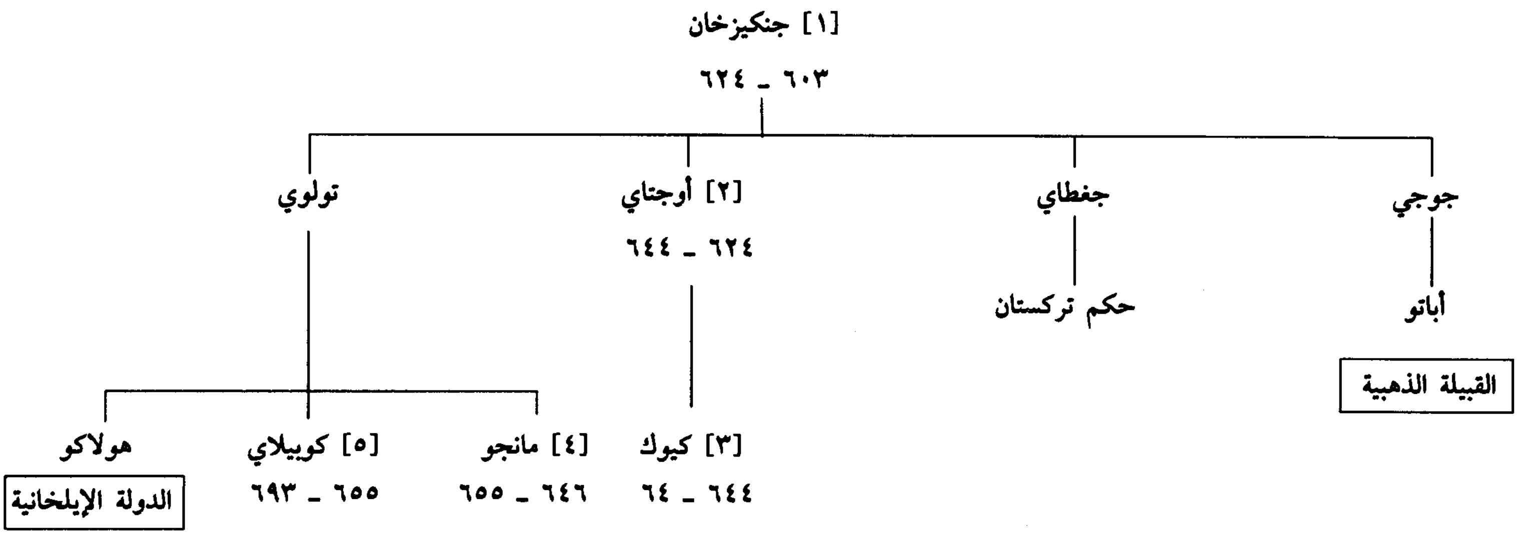
[١] جنكيزخان
٦٠٣ ـ ٦٢٤
تولوي
[٢] أوجتاي
٦٢٤ ـ ٦٤٤
جغطاي
جوجي
حكم تركستان
أباتو
القبيلة الذهبية
هولاكو
الدولة الإيلخانية
[٥] كوبيلاي
٦٥٥ ـ ٦٩٣
[٤] مانجو
٦٤٦ ـ ٦٥٥
[٣] كيوك
٦٤٤ ـ ٦٤

الخاتمة

من خلال قراءتنا لتاريخ الدولة العباسية، هذه القراءة الموجزة السريعة يتبين لنا أن الخلفية التاريخية المحفوظة عن هذه المرحلة ليست حقيقيةً إذ ليس هناك ضعف شامل يمتد على مدى العصر العباسي الثاني وهو أكثر من أربعة قرون، ويشمل الخلفاء، والقوة الحربية، والتوسع الفكري، والغلبة الحضارية، وقد لعب في هذه الخلفية ما كتبه أعداؤنا، وما درسناه باقتضابٍ، ومقارنتنا هذه المرحلة مع ما يجب أن تكون على ما كان عليه ذلك الجيل المثالي من صحابة رسول الله ﷺ.

لقد رأينا أكثر الخلفاء إن لم نقل جلهم كانوا أصحاب شجاعةٍ، وهمّةٍ عاليةٍ، ودينٍ وتقوى، ومحبةٍ للرعية وعطفٍ عليهم، وتقديرٍ للعلماء، وتؤيدهم شعوبهم وتعطف عليهم غير أن التسلّط العسكري الذي كان في هذه الحقبة من الزمن قد أذلّ الرجال ولوى أعناقهم وتصرّف بالبلاد وبأولي الأمر كما شاء له هواه فنظرنا إلى هذا التسلّط وما نتج عنه، وتركنا ما يضمّ خلفه من صورٍ طيبةٍ. ولعل القصاصين والمغرضين قد لعبوا دوراً كبيراً في تصوير ما كان يحدث داخل القصور فبالغوا فيه لجذب السامع إليهم وتشويق القارئ، والنيل من الحكم لأهدافٍ سياسيةٍ ودينيةٍ فعلقت هذه الصور في أذهاننا رغم بعدها عن الواقع وكذب مضمونها جملةً واحدةً.

وقد حدث في هذه المرحلة انتصارات واسعة بل وحاسمة في جهاتٍ متعددةٍ من ديار الإسلام يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال: معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ بين السلاجقة المسلمين والروم البيزنطيين النصارى، ومعركة الزلاّقة عام ٤٧٩ بين المرابطين المسلمين ونصارى الأندلس ومن

ورائهم أوربا، ومعركة الأرك عام ٥٩١ بين الموحدين المسلمين ونصارى الأندلس الذين يقف نصارى أوربا خلفهم، ومعركة حطين بين المسلمين والصليبيين عام ٥٨٣ و...

ولم تكن هذه الانتصارات انتصارات عسكرية كما يتوهّم بعضهم وإنما كانت انتصارات فكرية إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرت وضمّوا إلى ديار الإسلام مساحةً تزيد على ٤٠٠ ألف كلم٢، وعمّ الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن قد دخلها أبداً من قبل. وبعد ست سنوات من هذه المعركة أي في عام ٤٦٩ استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا (كومبي صالح)، وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد، وقد وافق ملك غانا (تنكامنين) على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذا تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقية على مساحةٍ جديدةٍ تقرب من نصف مليون كيلومتر مربع، وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي إذ نشر الغوريون الإسلام في الهند وفتحوا مساحاتٍ واسعة من شمال تلك البلاد، ووصلوا إلى بلاد البنغال وذلك عام ٥٩٧، وبذا فإن هذه المرحلة كانت مرحلة امتدادٍ وتوسع أيضاً، ولم تكن مرحلة جمودٍ وتوقفٍ كما يتصور كثير من الناس ممن يقرؤون التاريخ الإسلامي على عجالةٍ ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول، ويجملون العصر الثاني بكلمات تدل على الضعف والتفكك والتوقف.

ولم يكن أعداء الإسلام يومذاك من نصارى ووثنيين من التتار ينظرون إلى المسلمين على أنهم دونهم أو يساوونهم في المستوى الحضاري فيقاتلونهم لينتهوا من بربريتهم وهمجيتهم، وليقفوا أمامهم خوفاً على حضارتهم، وإنما كانوا يحاربون ليقضوا عليهم، ويتسلموا مكانهم، ويتعلموا ما حصلوا عليه. ففي الوقت الذي كان النصارى في أوربا يُحرّضون نصارى الأندلس لقتال المسلمين ويمدونهم بالرجال والمال ويدعمونهم بكل الإمكانات كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدن الأندلس ليتلقّوا العلم على يد

المسلمين، ويتذوقون حضارتهم ومعارفهم. كما كان الصليبيون في بلاد الشام يتلقّون العلم في منارات العلم القائمة في المناطق التي سطوا عليها، وينهبون الكتب، ويتعرفون على الصناعة وإن كثيراً من الصناعات والكتب قد نقلت إلى أوربا في تلك الأثناء بعضها سرقةً وبعضها بالممارسة والتعلم. وكذلك كان شأن المغول فقد كانت كتبهم إلى ملوك المسلمين تطفح بالاستشهاد بالآيات والأحاديث والحكم مما يدل على شعورهم بمدنية المسلمين وحضارتهم ففي كتب هولاكو إلى الملك الناصر صاحب دمشق توضح ذلك فقد جاء في الكتاب الأول: «يعلم السلطان الملك الناصر - طال بقاؤه! - أنه لما توجّهنا إلى العراق، وخرج إلينا جنودهم، فقاتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدّموها، فكن قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوس تستحق الإهلاك، وأما ما كان من صاحب البلدة فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحق الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً و. . .». وجاء في الكتاب الثاني: «. . . فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وابد ما في نفسك: إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره، وتنل بره، واسع إليه بأموالك ورجالك، ولا تعوق رسلنا، والسلام».

وجاء في الكتاب الثالث: «أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبّر، وطغى وتكبّر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمّر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد. . . .»[1].

لا شك أن كتابة هذه الرسالة كانت من قبل كتّاب مسلمين ممن مالؤوا الطاغية هولاكو وعملوا عنده كتبةً مأجورين، راغبين في هوى، أو مجبرين على ذلك، كانت بلادهم محتلةً وهم على ذلك مقهورين، ولكن لم يكن ليتم هذا إلا برأي الطاغية، وكل كلمة يعرف مصدرها ومراميها.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

لقد كان النصارى والمغول يُدركون أنهم دون المسلمين، وأنهم متوحشون، وهذا ما بدا في قتال الأوائل وحروب الأواخر، وما فعلوه في الدور، والمدن، والزروع، وأمكنة الصناعة، والسكان، والتمثيل في القتلى، والأعمال الوحشية، وإبادة كل ما لاقوة في طريقهم وأثناء تحرّكهم، ويعلمون أن المسلمين كانوا فوقهم ولم يكن قتالهم سوى قتال البرابرة الذين يُقبلون ليدكّوا معالم الحضارة لما يحملونه في صدورهم من حقدٍ وضغينةٍ وجهل. فالنصارى كان يدفعهم الحقد الصليبي على الإسلام إضافةً إلى الضغائن التي تولدت في نفوسهم ضد الإسلام وانتصاراته، والجهل الذي يطغى عليهم فيحقدون على العلم الذي ينتشر في ديار الإسلام، وأما المغول فكان يدفعهم حقد البدوي على أهل الواحات، ومن يعيش في الشمس على من يتفيأ الظلال، والظمآن على المرتوي، والبائس على المترف. وقد دكّ كلا الجانبين كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، ونتيجة ضعف مستوى التتار الحضاري فقد ذابوا في المجتمع الإسلامي بعد مدةٍ وجيزةٍ، إذ كانوا يشعرون أن المسلمين أعلى منهم وأكثر مدنية.

أما بعد سقوط بغداد بيد التتار فقد ضعُف المسلمون كثيراً، وربما كان هذا التاريخ حداً مميزاً أو فاصلاً بين تاريخ الخلافة الإسلامية وبين تاريخ الضعف والانقسام وهذا ما نراه في الجزء السابع - إن شاء الله - وهو الذي يتحدث عن المماليك.

انتهى - بإذن الله - الجزء السادس

ويليه الجزء السابع - إن شاء الله -

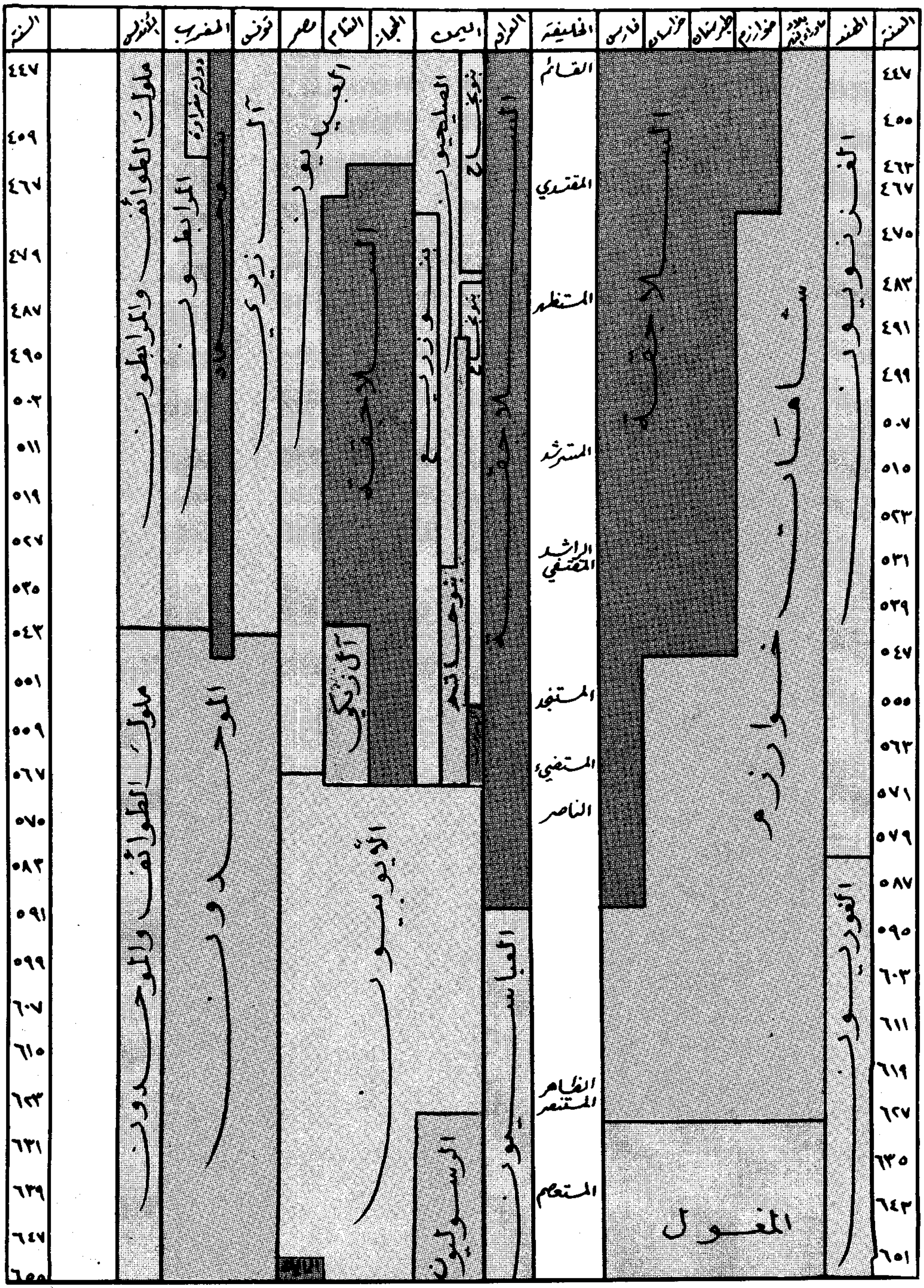

السنة
الهند
خوارزم
خراسان
فارس
الخليفة
الروم
اليمن
الحجاز
الشام
مصر
تونس
المغرب
الأندلس
السنة
القائم
المقتدي
المستظهر
المسترشد
الراشد
المقتفي
المستنجد
المستضيء
الناصر
الظاهر
المستنصر
المستعصم
الغزنويون
الغوريون
السلاجقة
المغول
الأيوبيون
آل زنكي
الصليحيون
الرسوليون
آل زيري
المرابطون
الموحدون
ملوك الطوائف والمرابطون
ملوك الطوائف والموحدون
٤٤٧
٤٥٠
٤٦٣
٤٦٧
٤٧٠
٤٨٣
٤٩١
٤٩٩
٥٠٧
٥١٥
٥٢٣
٥٣١
٥٣٩
٥٤٧
٥٥٥
٥٦٣
٥٧١
٥٧٩
٥٨٧
٥٩٥
٦٠٣
٦١١
٦١٩
٦٢٧
٦٣٥
٦٤٣
٦٥١

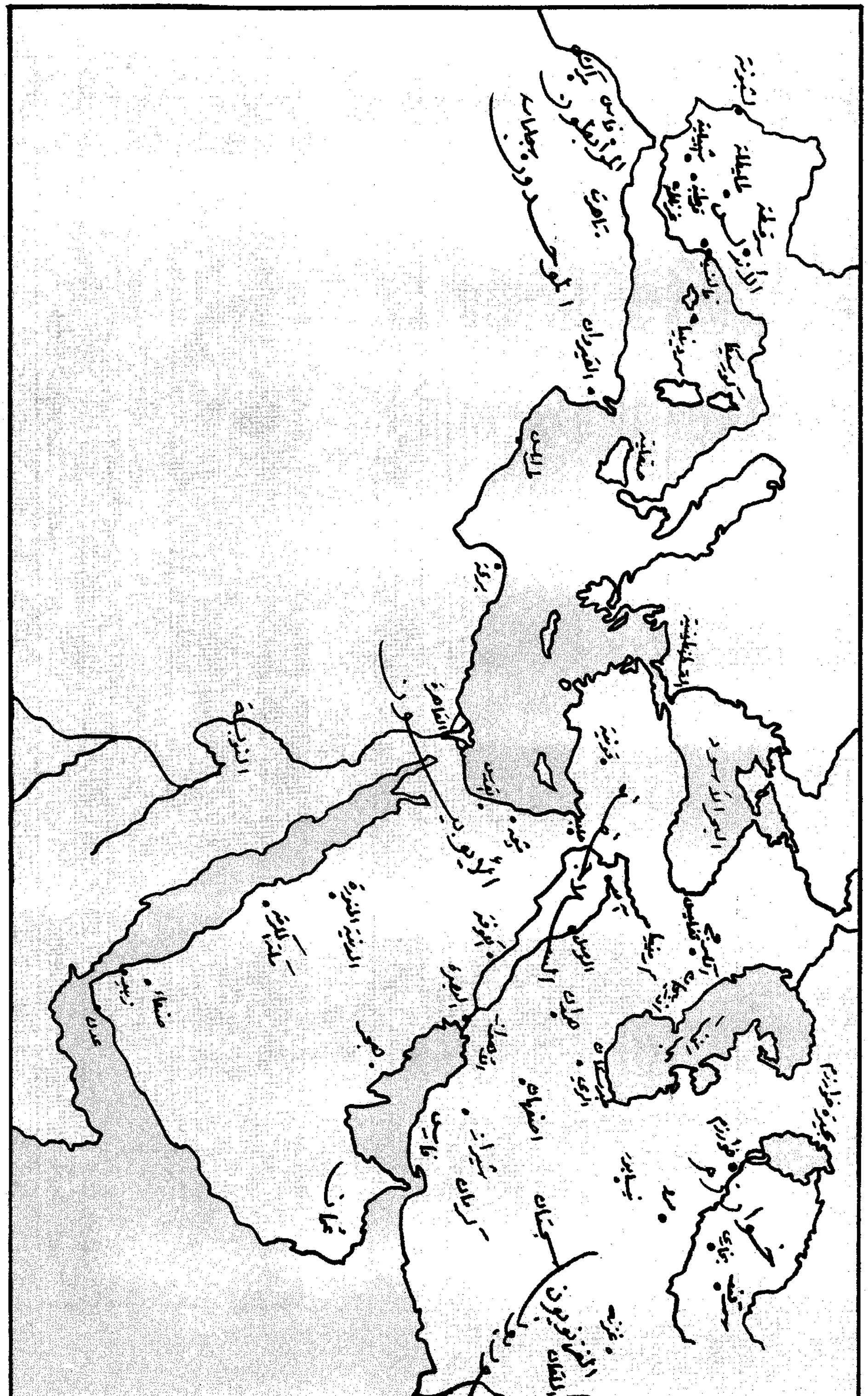

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي

— ٦ —

الدولة العباسية

الجزء الثاني

التاريخ الإسلامي

— ٧ —

العهد المملوكي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الخامسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٧ —

العهد المملوكي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله سيد المرسلين وإمام المتقين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين **وَبَعْد**:

فإننا نطلق على مرحلة التاريخ الإسلامي الممتدة من عام ٦٥٨ إلى ٩٢٣ اسم العهد المملوكي رغم أن دولة المماليك التي وجدت في هذه الآونة لم تكن لتضمّ أكثر أجزاء العالم الإسلامي يومذاك، وإنما كانت تشمل رقعةً صغيرة المساحة نسبياً إذ كانت تحكم مصر والشام والحجاز فقط. ولا بدّ لهذه المرحلة من اسم يُطلق عليها، تحمله، وتُعرف به. ومن الأسماء التي تُطلق على العهود ما يكون اسم دولة، أو صفةً عامةً لذلك العهد كالعهد الراشدي مثلاً. ولما كانت عدة دول قامت في هذه المرحلة وهي ذات أهميةٍ واحدةٍ تقريباً، وإن كانت دولة المماليك تمتاز عليها جميعها.

لقد حملت دولة المماليك صفة مركز الخلافة وسواء أكانت هذه الخلافة صحيحة النسب والشرعية أم لا فإن عدداً من الدول الإسلامية المعاصرة كان ينظر نظرة الصحة إلى هذه الخلافة، ويطلب من الخليفة أو يقلّد هذا الملك أو ذاك السلطان حكمه على بلاده ليكسب الصفة الشرعية وليحصل على التأييد من قبل شعبه.

ولقد عظُمت هيبة دولة المماليك في نظر المسلمين بعد أن انتصروا على المغول الذين اقتحموا أجزاء واسعة من الدنيا وما صدّهم أحد، وما وقف في وجههم جيش فانبرى لهم المماليك وانتصروا عليهم، وردّوهم

على أعقابهم، وتعقّبوهم، وأخرجوهم من بلاد الشام، وكما وقفوا أمام المغول بقيادة هولاكو ومن أتى بعده من أسرته، وقفوا كذلك أمام التتار بإمرة تيمورلنك، وفوق هذا وذلك فقد تمكّنوا من طرد الصليبيين أيضاً من بلاد الشام ومصر، وتابعوهم إلى قبرص فأخضعوا الجزيرة إلى سيطرتهم، ثم تعقّبوهم إلى جزيرة رودوس، ولولا الدعم الأوربي الصليبي الكبير للحقت رودوس جزيرة قبرص في تبعيتها للمماليك.

وخضعت بلاد الحجاز للمماليك وهي مهوى أفئدة المسلمين في كل مكان حيث هناك بيت الله الحرام، ومهبط الوحي، ومنطلق الدعوة، ومدينة الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا ما جعل لهذه الدولة مكانةً خاصةً في سائر بلاد المسلمين إضافةً إلى لفّها خلفاء بني العباس وأبنائهم، وإعادة الخلافة بعد سقوطها، وهذا ما زاد من مركز دولة المماليك وهيبتها.

وإن موقف دولة المماليك المتوسط بين جناحي العالم الإسلامي شرقيّه وغربيّه ما جعل مكانهم مركز الرحى بالنسبة لكل تقارب أو تفاهم يمكن أن يتم بين المسلمين وهو ما يوجبه دينهم عليهم، أو يحول دون صدام ذانيك الجناحين إلا عن طريق المماليك فيما لو حدث نزاع وتمت مخالفة أوامر الله التي تقضي أن يكون المسلمون أمةً واحدةً في ظلّ خلافةٍ واحدةٍ.

وفي نهاية أمر المماليك كانت مهمتهم الدفاع عن بلاد المسلمين ضد الغزو الصليبي الجديد الذي تمثّل في البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوبي بلاد العرب، وقاموا بحرب صليبيةٍ جديدةٍ حملت مجازاً اسم الاستعمار حتى عرفت به أو هكذا أطلق الأوربيون هذا الاسم بمعنى الإعمار حتى صار علماً، هذه المهمة الجديدة رفعت المماليك مرة ثانيةً في نظر المسلمين في كل جهةٍ من جهات العالم، وإن كان المسؤولون عن المماليك يومذاك لم يقدروا الأمور حق قدرها، فلم يسيروا بجانب العثمانيين الذين وضعوا الأمور آنذاك في موضعها، وعرفوا خطر الصفويين

الشيعة الذين تحالفوا مع البرتغاليين ضد المسلمين، وهددوا المماليك والعثمانيين لذا فإن العثمانيين قد تركوا القتال في أوربا، واتجهوا إلى الصفويين، وحاربوهم حتى أنهكوا قوتهم، ودخلوا عاصمتهم. لم ينتبه المسؤولون في مصر يومذاك على هذا الأمر فوقفوا - حسب رأيهم - على الحياد، والحياد عادةً نصر المعتدي ودعم القوي، ولكن أنصارهم أو أتباعهم في إمارة (ذو القادر) تصدت للعثمانيين، وهم يتحركون باتجاه الصفويين فسُجّل هذا الموقف على المماليك، كما سُجّل عليهم موقف آخر وهو عدم السماح للعثمانيين بالمرور في أرض المماليك لمنازلة البرتغاليين في جنوبي بلاد العرب وللدفاع عن المسلمين وأرضهم ومقدساتهم وقد هدد البرتغاليون المسلمين، فكان هذان الموقفان سبباً في القضاء على دولة المماليك.

وقد رأيت أن أدرس دولة المماليك، وما قام من دولٍ في تلك المرحلة في جزيرة العرب، والهند، ودول المغول والتتار، ودول المغرب والأندلس بحيث يكون كل جزءٍ في بابٍ خاصٍ، وتشكّل كل إمارةٍ أو دولة في أي قسم فصلاً خاصاً بها، وذلك لنتعرف على مختصر تاريخ هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي.

والله نسأل التوفيق، وسداد الخطا، والتأييد والنصر فهو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأوّل

المماليك

يعدّ العهد المملوكي مجهولاً بالنسبة إلى كثيرٍ من المسلمين بل أكثر مراحل التاريخ غموضاً وذلك لأن المسلمين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً عن العهد النبوي، والراشدي اللذين تمثّل فيهما الإسلام بصورةٍ كاملةٍ، وابتعد الناس بعد ذلك عن التطبيق بصورةٍ تدريجيةٍ حتى وصلوا إلى هذا الوقت الذي ضاع فيه كثير من التعاليم الأساسية، ونتيجة هذا الابتعاد فقد أصبحوا على صورةٍ من الاختلاف والصراع واضحة فانقسمت خلافتهم إلى دول شتى، وتجزأت دولهم إلى إماراتٍ متعددةٍ، وبلغت الطموحات الشخصية مداها والأطماع الفردية أقصاها، ومع هذا كله فقد كان كل أمير ينتقد الآخرين من أمثاله على بعدهم عن الإسلام، وعدم تطبيقهم منهجه، ويتصوّر أنه بإمكانه أن يقوم بدور التطبيق الصحيح فيما لو أتاحت له الظروف السيطرة الكاملة، وأطاعه الآخرون، وخضعوا له، ونفّذوا أوامره لذا كان يعمل ما في وسعه من أجل هذه الغاية وفي الواقع أنه كان يعمل لتحقيق ما تصبو إليه نفسه من نفوذٍ وسيطرةٍ وإزالة الخصم الذي لا يقرّه على رأيه، ونلاحظ أنه في كل وقت كان يظهر فيه الصدق بل شيء منه كانت تتوحّد بعض عناصر الأمة وتستطيع أن تؤدي دوراً، بل إن النصر ليقترب بمقدار ما تقترب فيه من الإخلاص للأخذ بتعاليم الإسلام وتطبيق منهجه، ويتأخر النصر بمقدار ما نتفرّق ونختلف ونبتعد عن الإسلام.

ووصل المسلمون في العهد المملوكي إلى مرحلةٍ من الضعف بحيث لم يعد بعضهم يفكر في بعض، ولم يعد بعضهم يعرف أخبار بعض بسبب التشتت الذي أصابهم والضياع الذي عمّ أمراءهم، والبعد عن الإسلام الذي جزّأ أمصارهم وفصل بعضها عن بعض، والضعف الذي انتاب قادتهم،

والغزو الصليبي الذي روّع الآمنين فهجروا المدن وانتقلوا إلى الريف، والهجوم التتاري الذي أخاف السكان فانزووا في بقاعٍ منعزلةٍ فلم يتمكّنوا من معرفة شيءٍ من الأحوال والأخبار، ولم يتصلوا مع أحد ونتيجة هذا الانعزال وذاك الانزواء فقد ضعفت الزراعة إذ هجرها أهلها بعد أن رُوّعوا وغادروا أرضهم، وضعفت الصناعة بعد أن تركها أصحابها والتجؤوا إلى مناطق لا تصلح فيها الصناعة، وضعفت التجارة وقد أصبح طريق البر غير مأمون بسبب هجوم التتار، وطريق البحر غير مأمون أيضاً بسبب نشوء القرصنة النصرانية في البحر المتوسط، ووصول الصليبيين من البرتغاليين إلى بحر العرب، والخليج، وبحر الهند، ومنافذ البحر الأحمر الجنوبية في أواخر العهد المملوكي هذا بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الضرائب على البضائع التي تمر في ذلك البحر، والتي فرضها السلاطين لزيادة الدخل.

ولقد كان أمر أكثر السلاطين الذين تولوا أمر البلاد ضعيفاً، والقليل منهم كان قوياً، وغالباً ما يحاول السلطان أن يؤسس أسرةً تتولى الحكم بعده، وما أن يموت حتى يثب الجند على ولده فيخلعوه ويتولى كبيرهم السلطنة. ولم يستطع الظاهر بيبرس أن يؤسس أسرةً حاكمةً لأن الجند قد وثبوا على أبنائه من بعده، فانتهى أمر ولديه، ولم يمض على وفاته أكثر من ثلاث سنوات، وقد خلع ابنه الأول، وخلع الثاني ولم تنته هذه المدة القصيرة، وقام السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك، وتمكّن أن يؤسس أسرةً سلطانيةً استطاعت أن تحكم مصر أكثر من مائة سنة (١٠٥ سنوات) غير أنه لم يظهر فيها سوى سلطان قوي واحد هو ابنه الناصر محمد، وقد خلع في أول الأمر، ثم أعيد، واعتزل ثانيةً، ثم عاد، وقد اشتد عوده، وزادت خبرته فقبض على زمام الأمور بشكل محكم، واستمر أكثر من اثنتين وثلاثين سنة في المرة الثالثة من حكمه، ولكن أبناءه الذين جاءوا من بعده كانوا سلاطين بلا سلطان، ومنفذين بلا قوةٍ حيث كان الواحد منهم يخلع أو يقضى عليه، ويؤتى بابنه كأنه للبقاء على أسرة فقط، أو محافظةً على تراث. وأما المماليك الجراكسة فكان كبار الجند يثبون على السلطان الصغير الذي ورث السلطنة عن أبيه فيخلعونه ويتولّى كبيرهم الأمر، فيحاول تأسيس

أسرة إذ يعهد لابنه من بعده فيخلعه أمراء الجند وهكذا، وإن كان أحياناً أخرى يخلع السلطان بعد أن يتسلم مقاليد الأمر، وينهض بالدولة غيره، وتتكرر هذه العملية مرات ومرات، وهذا ما حدث في أواخر العهد المملوكي أو في نهاية أمر المماليك الجراكسة اللهم إذا استثنينا السلطان الأخير أو قبل الأخير وهو السلطان الأشرف قانصوه الغوري الذي تسلّم السلطنة مدة ستة عشر عاماً.

ولما كان هذا وضع أصحاب السلطة من هؤلاء مملوكياً لم يكن لأحدهم هيبة تطغى على الآخرين اللهم إلا إذا استثنينا عدداً منهم للقوة التي امتازوا بها أو للضغط الذي كانوا يمارسونه حتى يخافهم غيرهم. فالجميع يشعرون أنهم مماليك الأصل، وأعتقوا لما امتازوا به من فروسية وقدرة، فهم أكفاء وليس لأحدهم سوى ذلك من سابقةٍ أو فضلٍ أو جاهٍ سابق أو ملكٍ ماضٍ لذا كان الحسد بينهم كبيراً، وما أن يتسلم أحدهم السلطنة حتى يحسده الآخرون، فإذا كان السلطان القائم ضعيفاً أزاحه غيره خلعاً أو قتلاً، وتسلّم مكانه، وإن كان محنكاً مقتدراً كظم ما في نفسه حتى إذا وافته فرصته بوفاة صاحب السلطة وثب على ابن من مات والذي كان أبوه قد عهد إليه من قبل، وخلعه أو قتله واستلم مكانه. هذه الحياة تقتضي أن يحرص كل أمير منهم على شراء عددٍ من المماليك خاصّين به ليتقوّى بهم، ويكونوا مطية لتنفيذ أغراضه أو درعاً يتقي بهم خصومه، أو يحرص كل سلطان على أن يرضي عدداً من أمرائهم إن لم نقل جميعاً أو يجلبهم إلى صفه ليبقى على وضعه الذي يحرص عليه، وهذا ما يقضي في الوقت نفسه على توفير مبالغ كبيرة من المال لدى السلطان ليتمكّن من شراء المماليك، وكسب من يراه ضرورياً له من أمرائهم إلى جانبه، وهذا يستدعي فرض ضرائب جديدة، كثيراً ما أنّ الشعب من وطأتها، وانكسر ظهره من ثقلها فزاده ذلك انعزالاً وتبرّماً من الحياة وانزواءً.

ولم يكن وضع الخلفاء بأفضل من السلاطين، فقد تركوا الأمر على غاربه، ونفضوا من تفكيرهم أي نفوذ أو تدخل في شؤون الدولة وذلك مذ قدموا إلى هذه البلاد، إذ أخذ الحكم من أبائهم في بغداد، وقُتّلوا، أو

أبعدوا على يد هولاكو طاغية التتار، ففرّ منهم من فرّ خوفاً من السيف، واختفى من اختفى، وشرّد من شرّد، وأتى بهم السلاطين المماليك، ورفعوا عنهم ما أصابهم، وأعادوا إليهم بعض ما فقدوا، وأعزوهم بعد ذلّ، وحضنوهم بعد تشريد، وجمعوا أمرهم بعد اختفاء، فكيف يتدخل هؤلاء الخلفاء في شؤون من آواهم، وأوضاع من نصرهم ورفعهم؟ أو كيف ينافسونهم وينازعونهم؟ وأصبح ذلك أمراً متبعاً وطريقةً سائرةً، فبقوا صورةً في الحكم بل اسماً ليس له دلالة على شيء، وزاد أمر ما صاروا عليه عما كان عليه أسلافهم في بغداد في أسوأ أوضاعهم عندما كان يسيطر عليهم العسكريون من عربٍ أو تُركٍ أو فُرسٍ، وهذا ما جعل الخلفاء لا يُعرفون، ويختفون خلف السلاطين من المماليك الذين بيدهم الحل والعقد كله، وإن لم يتعرضوا للقتل وسمل الأعين، ومما زاد اختفاؤهم أو عدم معرفتهم أن ألقابهم كانت متشابهةً فقد عرف اثنان منهم بلقب الحاكم بأمر الله، وآخران بلقب المستكفي بالله، وآخران الواثق بالله، وآخران المعتضد بالله، وثلاثة بلقب المتوكل على الله، وهذا ما يجعل التفريق بينهم صعباً على المرء الذي لا يعرف تاريخهم بشكل جيد، ولربما لو كان لكل واحدٍ منهم لقب خاص به لكان الأمر أسهل.

وعندما لا يتوفر المال لدى السلطان ويصعب فرض ضرائب جديدة لاستحالة ذلك بسبب الفقر الذي تئن منه البلاد كأن يلجأ بعض السلاطين إلى فرض أتاوة على التجارة التي تمر بموانئ البلاد سواء أكان ذلك في البحر الأحمر أم في البحر المتوسط مما خفض أهمية التجارة، ورفع أسعار البضاعة، وقلل من توفّرها في الأسواق الداخلية فزاد ذلك من النقمة على المماليك وخاصةً من التجار الذين كانوا ينقلون البضائع من الشرق إلى الغرب مثل القرنفل والبهارات وما إلى ذلك. كما كان يلجأ بعض السلاطين إلى إيجاد أنواع من الأعمال غير المشروعة ويضرب عليها الرسوم لتدر عليه المال اللازم له ليحقق به أغراضه، وهذه وإن كانت تختلف عما يوجد من أمثالها في هذه الأيام إلا أنها محرّمة ولا يصح قيامها أو وجودها في مجتمع إسلامي، لم يكن ليقصد من وراء تلك الأعمال هاتيك الأيام إفساد

المجتمع وتنفيذ مخطط مرسوم لإبعاد الناس عن الإسلام سواء أكان المخطط داخلياً أم خارجياً فالأمر واحد، وهو ما يحدث في المجتمعات الحالية، وإنما كان الهدف منه في تلك الأيام تأمين المال، ويلجأ بعض المسؤولين إلى مثل هذا النوع من المنكرات، ومع هذا فقد كان نادراً وقليلاً ما يحدث ومستنكراً، ولا يلبث أن يأتي سلطان آخر ويمنعه ويعلن تحريمه وعدم مشروعيته، ويبدو أنه حدث مرةً واحدةً، وهو وجود البغايا. وإذا لم يتم هذا ولا ذاك فقد كان السلطان يقطع كبار الأمراء الإقطاعات الواسعة ليقفوا بجانبه، لذا أصبحت البلاد التي تحت نفوذ المماليك عبارة عن إقطاعات يتصرف بها أصحاب النفوذ، وكثيراً ما كانوا يهملونها، ويكتفون بما تدر عليهم من أرباح ولو كانت قليلةً إلا أنها تكفيهم لاتساع الأراضي المقطوعة إليهم، وكذلك فإن الفلاحين لا يبذلون الجهد اللازم فيها لأنهم يعملون فيها لغيرهم .لذا قلت الموارد، وزادت المعيشة ضنكاً. وإذا كان السلطان يستطيع الحصول على إرضاء أمراء المماليك بما كان تحت يده من مال ومن تصرّف بفرض الضرائب، وإقطاع الأرض إلا أنهم هم أنفسهم كانوا يحرصون على تحصيل مبالغ من المال كبيرة لشراء المماليك لهم، أو ليقوموا بما قام به من سبقهم، ومن هو أعلى منهم رتبةً، وتدور بعد ذلك الدائرة على الشعب، وهذا ما أخّر البلاد وزاد من معاناتها، وتقوقع الناس وانعزلوا في قراهم وأريافهم، لفقرهم وجهلهم وبعدهم عن المشاركة في الحياة العامة والخاصة لما يعانونه.

وكانت الروح الدينية لدى السلاطين والمماليك والشعب عامةً مرتفعةً، ويبدو هذا في كثرة المنشآت الدينية التي ظهرت في تلك المرحلة من مساجد وتكايا ومدارس وأربطة وحلقات العلم، وتقوم على تدريس العلوم الدينية، وتقديم الخدمات لطلبة العلم، هذا بالإضافة إلى الكتب الدينية التي صدرت آنذاك، وربما كان ذلك يعود إلى الحروب الدينية التي خاضها المماليك ضد التتار من جهة، وضد الصليبيين من جهةٍ ثانية، أو إلى الحماسة الدينية التي انتشرت في تلك الآونة إثر الغزو الصليبي ومساندة النصارى المحليين له، وهم الذين عاشوا في حمى المسلمين مدةً طويلةً من

الزمن شعروا فيها بالأمن والطمأنينة والرخاء ولكن عندما لاح لهم وصول أبناء عقيدتهم إلى بلاد المسلمين وأنهم على شيءٍ من القوة إذا بهم يضربون كل ما وجدوه من حماية المسلمين لهم عرض الحائط، ويساندون الصليبيين، وهذا ما أدى إلى إثارة الحماسة الدينية لدى المسلمين الذين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع النصارى سواء الغزاة منهم أم من كان يسكن في البلاد، كما وجد المسلمون أنفسهم أنهم هم وعقيدتهم الهدف من هذا الغزو لا شيء سواه. وربما كان تدوين الكتب الدينية وانصراف الناس نحوها نتيجة العزلة التي عاشوها والتقوقع الذي اعتادوا عليه فانبرى أهل العلم إلى التدوين باستثناء أوقات الجهاد، وربما كانت هذه المرحلة أغنى أوقات التدوين، فظهر من مشاهير العلماء أمثال: النووي(١)، والعز بن عبد السلام(٢)، وابن تيمية(٣)، وابن قيم الجوزية(٤)، والمزي(٥)، وابن حجر

---

(١) النووي: ولد ببلدة (نوى) من قرى حوران ببلاد الشام، وإليها نسبته، هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي، محيي الدين، علامة الفقه والحديث، كانت ولادته عام ٦٣١، وتعلم بدمشق، وأقام بها، وتوفي ببلدته (نوى) عام ٦٧٦.

(٢) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي: عز الدين الملقب بسلطان العلماء، ولد بدمشق عام ٥٧٧، زار بغداد عام ٥٩٩، ورجع إلى دمشق بعد شهر، تولى الخطابة بجامع دمشق، أنكر على الصالح إسماعيل بن العادل تسليم صفد للصليبيين فلم يدع له، فغضب عليه وسجنه، ثم أطلقه، فسار إلى مصر فتولى فيها القضاء، وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠.

(٣) ابن تيمية: ولد عام ٦٦١ وهو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري الحراني الدمشقي، تقي الدين، أبو العباس، قاتل المغول، وطلب إلى مصر لفتوى أفتاها، فسجن في القاهرة، ثم نقل إلى الإسكندرية، وأطلق سراحه عام ٧١٢ فعاد إلى دمشق، واعتقل بها وأطلق عام ٧٢٠، ومات بسجن قلعة دمشق معتقلاً عام ٧٢٨، وخرجت دمشق بجنازته وقيل: إن مؤلفاته بلغت ثلاثمائة مجلد.

(٤) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، ولد في دمشق عام ٦٩١، تتلمذ على ابن تيمية ونشر علمه، وسُجن معه، وأطلق سراحه بعد موت أستاذه، وتوفي بدمشق عام ٧٥١، وألف تصانيف كثيرة.

(٥) المزي: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي: محدث الديار الشامية في عصره، ولد بظاهر حلب، ونشأ بالمزة (من ضواحي دمشق) وتوفي بدمشق عام ٧٤٢، وصنف كتباً كثيرة.

العسقلاني[١]، والذهبي[٢]، وابن جماعة[٣]، وابن كثير[٤]، والمقريزي[٥]، وابن تغري بردي[٦]، والقلقشندي[٧]، وابن قدامة[٨]، والمزي الفلكي

---

(١) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين: أصله من عسقلان بفلسطين بالقرب من غزة، ولد بالقاهرة عام ٧٧٣، ولع بالشعر والأدب، ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز لسماع الشيوخ، وعلت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٢.

(٢) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله: ولد في دمشق عام ٦٧٣، وهو من أصل تركماني، حافظ، مؤرخ، علامة محقق، رحل إلى القاهرة، وطاف كثيراً من البلدان، وصنف كثيراً من الكتب، وكفّ بصره عام ٧٤١ وتوفي بدمشق عام ٧٤٨.

(٣) ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، أبو عبد الله: ولد في حماه عام ٦٣٩، ولي الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء بمصر، كان من خيار القضاة توفي بمصر عام ٧٣٣.

(٤) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد عام ٧٠١ في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل إلى دمشق عام ٧٠٦، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤.

(٥) المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس، الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية أصله من بلدة بعلبك في بلاد الشام، ولد ونشأ بالقاهرة، وكانت ولادته عام ٧٦٦، اتصل بالسلطان الظاهر برقوق، وولي الخطابة والحسبة والإمامة عدة مرات، وعرض عليه قضاء دمشق عندما سافر إليها عام ٨١٠، وتوفي بالقاهرة عام ٨٤٥.

(٦) ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين: مؤرخ بحاثة، ولد بالقاهرة عام ٨١٣، كان أبوه من مماليك السلطان الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، وتعني تغري بردي «عطاء الله» مات أبوه بدمشق عام ٨١٥، فنشأ يوسف في حجر القاضي جلال الدين البلقيني الذي توفي عام ٨٢٤، وتأدب يوسف وقرأ الحديث، وأولع بالتاريخ، وبرع في فنون الفروسية، وصنف الكتب الكثيرة وتوفي بالقاهرة عام ٨٧٤.

(٧) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: ولد في قلقشنده في قرى القيلوبية بقرب القاهرة، وتوفي بالقاهرة عام ٨٢١، صنف الكتب الكثيرة، ومن أشهرها صبح الأعشى في قوانين الإنشا، ويعد دائرة معارف.

(٨) ابن قدامة: محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أو عبد الله، المقدسي، الدمشقي: ولد عام ٧٠٥، وأخذ عن ابن تيمية والذهبي، وصنف أكثر من مائة مجلد، ويعد من كبار الحنابلة، وتوفي بدمشق عام ٧٤٤.

المتوفى عام ٧٥٠. وأعداد كثيرة من كبار العلماء يصعب حصرهم.

وأما من ناحية الغزو والجهاد فقد كان للمماليك دور بارز وأثر واضح فيه، وهو الذي أعطى تلك السمعة، وأظهر لهم الهيبة لدى المسلمين في كل أرض، ولو أنصفناهم في هذا الميدان لرفعنا من سمعتهم، ولكن دعاة العصبية في هذا العصر يصعب عليهم إعطاء الحق لأهله، ويحاولون أن يمسحوا المجد عن غيرهم، وينسبوا لأنفسهم ما لم يأتوا به.

لقد وقف المماليك أمام التتار الذين لم يستطع أن يقف أمامهم أحد وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت المشهورة، وتابعوا فلولهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام مهزومين بعد أن دخلوها ظافرين، واستمر وقوفهم في وجه المغول الذين حاولوا أخذ بلاد الشام وغزو مصر في أوقات متتابعة، وبقوا في صمودهم حتى ذاب هؤلاء الغزاة في المجتمع، واعتنقوا عقيدته، ثم حاول التتار في أيام تيمورلنك مرة أخرى غزو مصر، وإن كانوا قد تمكنوا من أخذ بلاد الشام، ودخول دمشق، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى مصر لصمود المماليك، وصحيح أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أظهر الخضوع لتيمورلنك، وضربوا السكة باسمه بعد أن انتصر على السلطان العثماني بايزيد، غير أن تيمورلنك لم يلبث أن توفي عام ٨٠٨، وضعفت دولته بعد ذلك، وبقي المماليك، بل كان (شاه رخ) ابن تيمورلنك يرجو المماليك أن يسمحوا له بزيارة القدس وكسوة الكعبة و....

وكما وقف المماليك في وجه التتار وقفوا كذلك في وجه الصليبيين، وتمكنوا من إخراج بقاياهم من بلاد الشام عام ٦٩٠، ومن جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وانتقلت أعداد من الصليبيين إلى جزيرة قبرص، وبدؤوا يشنون الغارات منها على مصر إلا أنهم في النهاية قد خضعوا للمماليك، وأصبحت تعترف بسلطانهم عليها، واستقر فرسان الاسبتاريين من الصليبيين في جزيرة رودوس، واتخذوها قاعدةً لهم، وأخذوا يغيرون على مصر أيضاً، فانبرى المماليك لهؤلاء الصليبيين، وتوجهوا إلى غزو رودوس التي كادت تقع بأيديهم لولا الدعم الصليبي الأوربي الكبير.

وأخضع المماليك النوبيين النصارى الذين تمادوا في تعدياتهم على المسلمين فاعترف النوبيون بسلطان المماليك، ودانوا بعد ذلك بالإسلام.

وفي أواخر العهد المملوكي وقف سلاطين هذا العهد أمام التقدم الصليبي البرتغالي الذي جاء من الجنوب، وأحرزوا النصر في بداية الأمر، ثم هُزموا ولكنهم لم ييأسوا، ولم يتوانوا في الإعداد لصدّ هؤلاء الغزاة الجدد، ولولا التقدّم العثماني من الشمال ودخول بلاد المماليك، والقضاء عليهم، وأخذ مكانهم للدفاع عن بلاد المسلمين ضد البرتغاليين لاستمر المماليك في موقفهم في هذا الميدان وعلى هذه الثغرة. هذه الخدمات الواسعة التي قدّمها المماليك للدفاع عن بلاد المسلمين لم يقدرها دعاة العصبية حق قدرها، بل قلّلوا من أثرها، لأنهم يعدونهم غرباء عن الأمة، وكانت غربتهم سبباً في هذا الضعف الذي حلّ بالأمة حسب زعم هؤلاء القوميين، لكن الإسلام لم يعترف بهذا التقويم الصادر عن العصبية.

الفصل الأول

قيام دولة المماليك

كان الترك الذين يؤسرون في الحروب يشكلون أكبر نسبة للرقيق، وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر إذ كانت تلك الجهات مسرحاً دائماً للقتال، وتمتد بلاد الترك إلى ما بعد تلك المناطق كثيراً حيث تتوغل إلى منغوليا وغيرها من بلدان أواسط آسيا، وتصل إلى بلاد الأفغان اليوم ونواحي واسعة من سيبيريا، وتتجه تلك الأقوام باستمرار نحو الغرب، وتصطدم مع المسلمين، وتكون أعداد من الأسرى كبيرة، وإن كانت جموع أخرى تدخل ديار الإسلام، ثم لا تلبث أن تدين بديانة أهل البلاد، وتعمل بعدئذٍ على نشر الإسلام، ومحاربة أبناء جلدتها أيضاً، ومن هؤلاء السلاجقة، والتركمان الغز، ثم العثمانيون و. . . .

ثم غدا الصقالبة مصدراً آخر للرقيق، وكان يؤتى بهم من شرقي أوربا إلى ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والأندلس حيث يباعون، وعمل اليهود في تجارة الرقيق، وحصلوا على أموال وفيرة من وراء هذه التجارة، وغدت بعض الأسواق في أوربا لهذا الرقيق الذاهب إلى البلدان الإسلامية وبيزنطة. «فإذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه، ويسلّمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار. وصار الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك، علّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه

فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلّم كل طائفةٍ معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب، لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة، وينتقل في أطوارها رتبةً بعد رتبةٍ إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذّبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل. وقد كان لهم خدام وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً، أو أخلّ برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبةٍ شديدةٍ بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادةً يدبّرون الممالك، وقادةً يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسةٍ يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدّى»[1].

كان هذا الوضع أيام الأيوبيين، ولم يختلف عند أيام المماليك إذ أخذوا عنهم كثيراً من تقاليدهم ونظمهم ولا غرابة في ذلك فهم ساداتهم.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب الملك الأيوبي السابع قد استكثر من المماليك الذين نسبوا إليه كالعادة ـ فهم المماليك الصالحية، وذلك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمه إسماعيل، وقد أعطى هذا الملك الصالح الحرية لمماليكه هؤلاء حتى ضجّ منهم الناس فاضطر أن يبعدهم عن السكان فبنى لهم قلعةً خاصةً بجزيرة الروضة عام ٦٣٨، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه، وقد عرف هؤلاء المماليك بالبحرية إضافةً إلى الصالحية، والبحرية نسبةً إلى جزيرة الروضة، وإن كانت هذه النسبة ليست خاصةً بهم إذ أطلقت على كثيرين غيرهم إذ جلبوا مما وراء البحار وخاصةً الصقالبة الذين جيء بهم عن طريق البحر.

---

(١) الخطط للمقريزي الجزء الثاني ص٢١٣ ـ ٢١٤.

توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يقاتل الصليبيين عام ٦٤٧، وكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته حتى وصل إلى مصر ابنه توران شاه الذي استدعته حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين، على حين كانت هي تدير أمور المملكة، وشؤون القتال باسم زوجها المتوفى، ولا يعلم أحد خبر وفاته. ووصل الصليبيون إلى المنصورة، وجيوش المسلمين تتراجع، فجمع الأمير بيبرس البندقداري جماعة من المسلمين، وقادهم وتمكن من إبادة الصليبيين الغزاة. كما قاد الأمير فارس الدين أقطاي المملوكي المماليك، وهاجم الصليبيين، وانتصر عليهم حتى أيقنوا بعدم إمكانية البقاء فانسحبوا إلى دمياط.

كان توران شاه قد وصل من بلاد الشام، وقاد الجيوش بنفسه، واضطر لويس التاسع ملك فرنسا إلى طلب المهادنة والصلح بعد أن وقع أسيراً بأيدي المسلمين، وانتهت الحملة الصليبية السابعة حيث انسحب الملك لويس التاسع إلى عكا، ودفع جزيةً كبيرةً وفداءً له.

اختلف توران شاه مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري عام ٦٤٨، كما كان قد اختلف مع زوجة أبيه شجرة الدرّ التي عادت السلطة إليها بعد مقتل ابن زوجها، فعيّنت عز الدين أيبك، ثم تنازلت له بعد أن تزوجت به. وفي هذه الأثناء انسحب الفرنسيون من دمياط.

غضب الأيوبيون من سيطرة عز الدين أيبك، وسار الملك الناصر يوسف[١] صاحب حلب إلى دمشق فدخلها، وزحف نحو مصر غير أن عز الدين أيبك قد تمكن من ردّه، وتحالف مع الملك لويس التاسع خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

أرسل هولاكو وفداً إلى عز الدين أيبك، وفي الوقت نفسه أرسل إلى الملك الناصر يوسف.

عمل عز الدين أيبك الملك المعزّ على إنهاء معارضة الأيوبيين، بأن

---

(١) الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي.

جعل أميراً أيوبياً بجانبه، وقد اختار لهذه الإمارة طفلاً صغيراً لا يزيد على السادسة من عمره، وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن، وهو المعروف باقسيس، أما أبوه فقد عاش في كنف الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكن هذا الطفل لم يلبث أن توفي، غير أن هذه الطريقة لم تنطل على الأيوبيين فاستمرت المعارضة فأعلن أيبك ارتباط مصر بالخلافة العباسية وأنه يحكمها نيابةً عن الخليفة العباسي المستعصم الذي بدأ يخطب له.

استمر الملك الأيوبي الناصر يوسف في معارضته لعز الدين أيبك، وعرض على ملك فرنسا لويس التاسع المقيم في عكا مساعدته مقابل تسليمه بيت المقدس، غير أن الملك المعز قد هدد لويس التاسع بقتل الأسرى الصليبيين في مصر جميعهم إن اتفق مع الناصر يوسف، وفي الوقت نفسه عرض عليه التحالف معه مقابل أن يتنازل له عن نصف الفدية المقررة عليه، فرأى بعدئذٍ الملك لويس التاسع أن يقف على الحياد بين الطرفين مستفيداً من خصومتهما بعضهما لبعض أو عمل على التحريض بينهما.

زحف الملك الأيوبي الناصر يوسف على مصر، والتقى مع المماليك عند بلدة العباسة، وأحرز النصر في بداية الأمر غير أنه قد هزم في الجولة الثانية إذ انضم جزء من مماليكه إلى المماليك، وفر الأيوبيون من الميدان، ورأى الملك المعز عز الدين أيبك ملاحقتهم، وعرض على ملك فرنسا الصليبي لويس التاسع دعمه مقابل تسليمه بيت المقدس إن أخذها، ورأى لويس التاسع الصليبي رجحان جانب المماليك فانضم إليهم حيث لم يرغب أن تفوته هذه الفرصة، واحتل يافا بينما سار المماليك بإمرة فارس الدين أقطاي إلى غزة وكذا سار الملك الناصر يوسف نحو غزة ولكن لم تحدث لقاءات لأن الخليفة المستعصم قد أصلح بين الطرفين بحيث تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين وذلك عام ٦٥١، وبذا لم يسلّم المماليك بيت المقدس للصليبيين، فلما خاب أمل الملك لويس التاسع عاد إلى فرنسا عام ٦٥٢، وقد اضطر إلى ذلك إذ توفيت والدته التي كانت تحكم له فرنسا وباسمه.

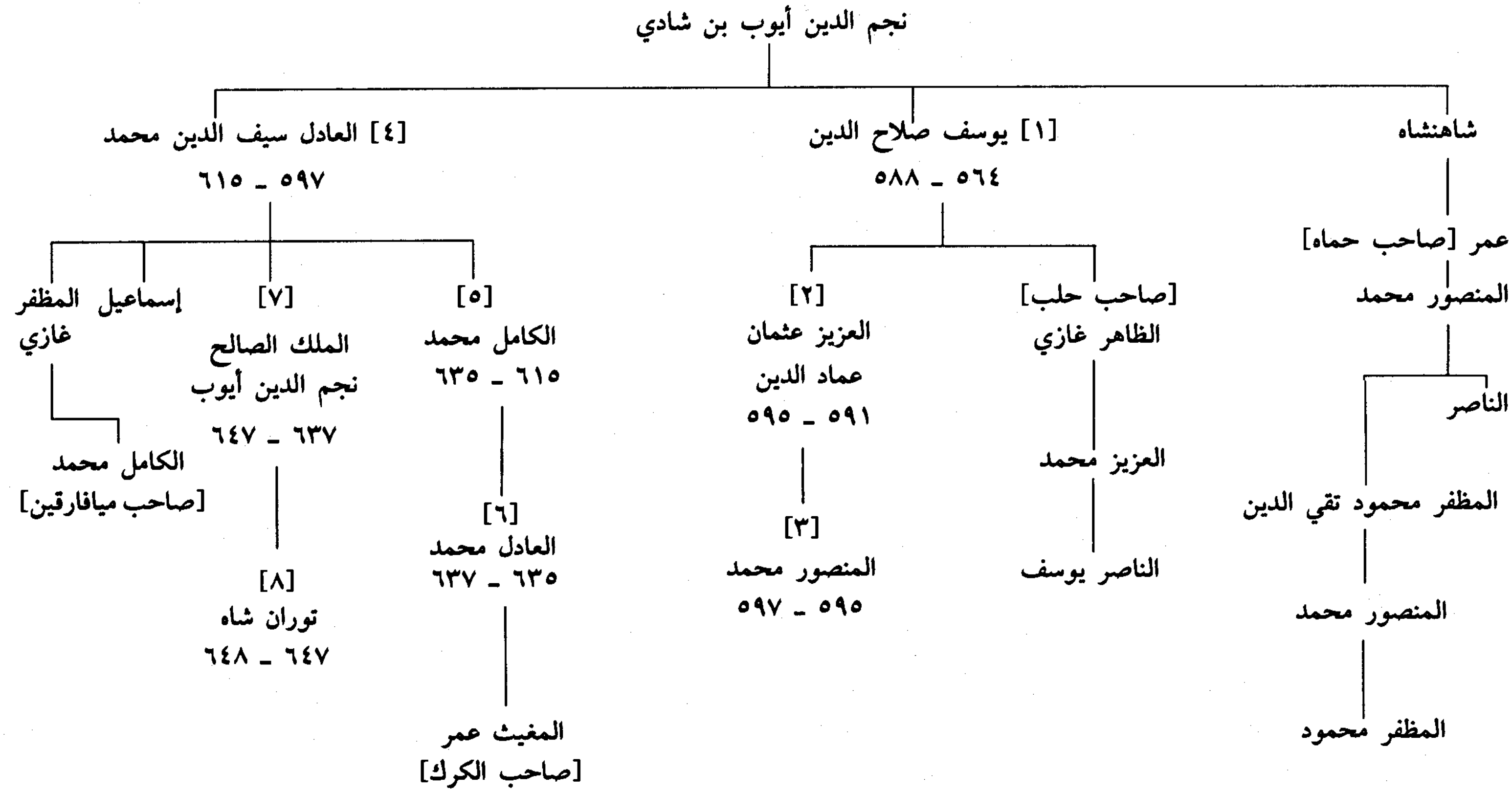

الأسرة الأيوبية

قامت في هذه الأثناء حركة في الصعيد ضد المماليك وقد تزعمها شريف يُدعى حصن الدين إلا أن أيبك قد وجّه لهم قوةً بإمرة فارس الدين أقطاي فاستطاع أن يقمعها.

أصبح الأمير فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء وأكثرهم شهرة، وينافس الملك المعز عز الدين أيبك، ويحمل عليه بعض تصرفاته في تعهده للملك الصليبي بتسليمه بيت المقدس، وتلقب فارس الدين أقطاي باسم الملك الجواد، وتزوج إحدى الأميرات الأيوبيات هي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه، لكن الملك المعز عز الدين أيبك قد استدعى أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه مع مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها إلا أن الباب قد أغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك المعز أيبك بالضرب، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، وقتلوه، وأسرع أنصار أقطاي عندما علموا بالخبر لإنقاذه وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظناً منهم أنه لم يقتل بعد، ولكنهم لم يلبثوا أن أخبروا أن أمره قد انتهى، وهكذا انقسم المماليك إلى معزية وهم مماليك الملك المعز عز الدين أيبك، وصالحية أو بحرية، وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

بدأ بعض أمراء المماليك البحرية يفرّون إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأيوبي الأول لعز الدين أيبك والمتصالح معه حالياً، لذا فإن الناصر يوسف قد طلب من الملك المعز أيبك أن يعطي هؤلاء المماليك جنوبي بلاد الشام فيكون قد أبعدهم خوفاً من شرّهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فلا تتفتت قوة المسلمين تجاه أعدائهم إلا أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخافه، واعتقد دعمه للمماليك البحرية، واتفاقه معهم على أمر، لذا فقد استعد، وأقام بالعباسة استعداداً لأي طارئ، وبقي على حالة استعداده أو استنفاره مدة ثلاث سنوات، وعاد بعدها إلى القاهرة بعد أن تمّ حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم رسولاً هو نجم الدين البادراني فأصلح بينهما

على أن يكون للملك المعز عز الدين أيبك مصر وساحل بلاد الشام. ولجأ المماليك البحرية بعد هذا الصلح الذي دارت بنوده بين الملك المعز عز الدين أيبك المملوكي والملك الناصر يوسف الأيوبي لجؤوا إلى الملك الأيوبي المغيث عمر[١] صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً ببلاد مصر.

أراد الملك المعز عز الدين أيبك أن يحصر المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس شجرة الدر زوجة أيبك وعملت على التخلص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تحرّضه على غزو مصر وتتعهد له بدعمه للتخلص من أيبك ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة، فعملت مع المماليك واستطاعت قتله عام ٦٥٥هـ.

اختلفت المماليك بعضهم مع بعض فالصالحية منهم تناصر شجرة الدر، والمعزية تعارضها، وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدم المماليك الصالحية غير أن المماليك المعزية قد قبضوا عليه وسجنوه وتغلبوا على الأمر، وبدأت المماليك الصالحية تفرّ إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصة إلى المغيث عمر صاحب الكرك وتحرّضه على أخذ مصر، وقد حاول مرتين ٦٥٥ و ٦٥٦ غير أنه فشل في كلتا المحاولتين بجهود سيف الدين قطز. أما المماليك المعزية فقد قدموا عليهم نور الدين علي بن عز الدين أيبك الذي غدا سلطاناً لمصر، أما الذي يقوم بالنيابة عنه فهو الأمير سيف الدين قطز، ولكن لم يلبث قطز أن عزل نور الدين علي، وتسلم السلطنة بنفسه بحجة أن الأول كان ضعيفاً وظروف البلاد تقتضي رجلاً قوياً، فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوين شرسين هما التتار والصليبيون.

استولى التتار بقيادة هولاكو على بغداد عام ٦٥٦، وخاف الملك

---

(١) المغيث عمر: ابن الملك العادل محمد ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

الناصر يوسف فراسل هولاكو يجامله، ويطلب منه الدعم لأخذ مصر غير أنه لم يحدث بين الطرفين ما يدعو إلى التفاهم. وزحف التتار إلى بلاد الشام، ووجد الناصر يوسف نفسه ضعيفاً أمام جحافل التتار فاتصل بالمماليك، وطلب منهم المساعدة.

استولى التتار على حلب في صفر عام ٦٥٨، ثم استولوا على ميافارقين بإمرة يشموط بن هولاكو بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً لم يعرفه المغول من قبل، واستشهد صاحبها الملك الأيوبي الكامل محمد[١]، وخضع الملك الأشرف موسى[٢] صاحب تل باشر فأعطاه هولاكو إمارة حمص مكافأةً له، وكان الملك الناصر يوسف قد انتزعها منه منذ عام ٦٤٦، وزحف هولاكو نحو دمشق، ففرّ منها الناصر يوسف، واتجه إلى غزة فاستقبله سيف الدين قطز ومن معه، وبدأ قطز يتقرّب من جيش الناصر يوسف ويضم أمراءه إليه، حتى لم يبق مع الناصر يوسف إلا قليل فذهب بهم إلى جنوب الأردن حيث استقر قرب الجفر ليعيش منزوياً بمن معه منعزلاً عن الأحداث التي تدور في بلاده، وعلم هولاكو بهذا فأرسل مجموعة من الجند إلى الجفر، وأحضرت الناصر يوسف، فاستقبله هولاكو استقبالاً كريماً ورأى فيه ضالته، ومنّاه بالتربع على عرش دولةٍ أيوبية تشمل مصر والشام تحت حمى التتار، وقدّمه على الأشرف موسى إذ وجد في الأول خيراً له لما عنده من إمكانات وطاقات.

حاصر هولاكو دمشق في ربيع الأول عام ٦٥٨، وشدّد الحصار حتى استسلمت في ربيع الثاني أما القلعة فقد صمدت حتى ٢١ جمادى الآخرة من العام نفسه غير أنها سلمت من التهديم لالتماس أعيانها لديه، واتجه هولاكو نحو انطاكية بعدها.

---

(١) الكامل محمد: ابن الملك المظفر غازي بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

(٢) الأشرف موسى: ابن المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولم يكن ليسيطر إلا على تل باشر قرب الرها.

وصل إلى هولاكو نبأ وفاة أخيه مانغو خان التتار الأعظم، لذا فقد ترك بلاد الشام بعد أن ولّى عليها مكانه القائد كتبغانوين، واتجه إلى قره قورم حاضرة التتار لحضور اجتماع رؤساء التتار لانتخاب الخان الأعظم لهم، وهو يطمع أن يحصل على هذا المنصب لما قدم من خدمات لهم بمد نفوذهم إلى العراق والشام، فلما وصل إلى تبريز بلغه خبر انتهاء الاجتماع وإتمام عملية الانتخاب، واختيار أخيه قوبلاي خاناً أعظم للتتار، فسكت احتراماً لأخيه.

أما المماليك البحرية الذين فرّوا إلى بلاد الشام خوفاً من المماليك المعزية وأميرهم سيف الدين قطز، واتجهوا إلى الملوك الأيوبيين، وخاصةً إلى الناصر يوسف، والمغيث عمر فقد رجع بعضهم إلى مصر خوفاً من المغول، وترك بعضهم الآخر الناصر يوسف الذي تفاهم مع التتار على كرهٍ منه، أو اعتزل بعد فراره من التتار وانضمام جيشه في غزة إلى سيف الدين قطز هؤلاء قد ساروا إلى المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري، وبدؤوا يُغيرون على أملاك الناصر يوسف الجديدة، وهذا ما جعل الناصر يوسف يسير بجيش إلى الكرك، ويحاصرها ووجد المماليك أنفسهم في وضع خطير وخاصةً الذين كانوا بجانب الناصر يوسف وفرّوا من عنده مغاضبين لموقفه حتى ليقال إن الظاهر بيبرس كان قد عرض على الناصر يوسف إعطاءه أربعة آلاف مقاتل للوقوف في وجه التتار عندما أرادوا عبور نهر الفرات لمنعهم من ذلك لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذا الطلب، في هذا الوقت عفا قطز عن المماليك البحرية فبدؤوا يتجهون نحوه من بلاد سلاجقة الروم، ومن الكرك، ومن دمشق، وغدا المماليك مرة أخرى مجموعة واحدة، واستقبل قطز هؤلاء استقبالاً لائقاً وخاصةً بيبرس إذ أنزله بدار الوزارة وذلك عام ٦٥٨.

بعد أن سقطت دمشق بيد التتار أرسل هولاكو وفداً إلى الأمير سيف الدين قطز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض قطز على رجال وفد

هولاكو وأعدمهم، وعرض أجسادهم للناس، وأخذ قطز يحشد الحشود، ويفرض الضرائب فوجد معارضةً من العلماء على هذه الضرائب، وعلى رأسهم العز بن عبد السلام الذي أعلن أن على الأمير إذا أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحلي التي في بيته وبيت أمثاله من الأمراء وأن يضربها نقوداً فإن لم تف بالحاجة يفرض بعدها الضرائب، فامتثل قطز بذلك، وفعل ما وجّه إليه.

وتمّ الاستعداد، وأرسل قطز حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلى جهات غزة فانتصر على حملة تتارية متقدمة، وبقي يناور التتار كي لا يعلموا بتحرك الجيش الرئيسي الذي يقوده سيف الدين قطز.

سار سيف الدين قطز بجيشه مع الساحل الشامي باتجاه عكا، وهدد الصليبيين إن بدرت منهم أية بادرة شرّ، وطلب منهم أن يكونوا على الحياد إن لم ينصروا المسلمين، ولم يكن وضعهم يومئذٍ بالذي يساعدهم على التحرك سواء أكان بجانب المسلمين أم بجانب التتار. ووافى الأمير سيف الدين قطز قائده الظاهر بيبرس عند عين جالوت، وتدفق التتار إلى ذلك الميدان، واحتدمت المعركة وهجمت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين، فتقدم أمير الجيش الإسلامي سيف الدين قطز، وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته «وإسلاماه» واندفع نحو التتار يقاتل والتف حوله جنود المسلمين، وأنقضوا على التتار فأفنوهم، وقُتل قائد التتار «كتبغا» في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

ووصلت أخبار معركة عين جالوت إلى دمشق فابتهج المسلمون، وانطلقوا يهاجمون التتار، ويعملون بهم ذبحاً، وشملت هذه المذبحة النصارى أيضاً الذين وقفوا بجانب التتار وأعانوهم على المسلمين، واستأسدوا على المسلمين أثناء حكم التتار، ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول قطز إليها في ٢٧ رمضان عام ٦٥٨ أي بعد استسلام قلعتها بثلاثة أشهر وستة أيام، وهذه المدة التي حكم التتار فيها دمشق. وبدأ التتار يفرون من بلاد الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكن قطز من فتح بلاد

الشام بعدة أسابيع، وأعاد بعض الملوك الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء ودفع الأتاوات السنوية للسلطان في مصر، وكذلك أقطع أمراء المماليك إقطاعاتٍ واسعةً إذ أعطى علم الدين سنجر الحلبي نيابة دمشق يحكمها باسمه، ومنح حلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان الظاهر بيبرس يرغب بها، وقد طلبها من قطز لملاحقة التتار فلم يقبل منه فأصبح بنفسه شيء عليه.

عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز وربما كان للخلاف السابق بين المماليك البحرية الذين منهم بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم قطز، وقد اضطر المماليك البحرية للعودة إلى مصر بعد أن فرّوا منها عندما لم يجدوا لهم مقاماً في الشام لهجوم التتار فكان لا بدّ من الاتفاق لحماية ديار الإسلام، فلما أصبحت ديار الإسلام في أمان من هجوم التتار عاد الخلاف، وظهر من جديد، وقتل قائد جناح المماليك البحرية أمير المماليك المعزية، وربما كان سبب هذا القتل ما بقي في نفس بيبرس من قطز عندما رفض إعطاءه ولاية حلب، وهو يريد أن يتابع التتار، ويستعيد للمسلمين أرضهم، وعلى كلٍّ فقد قتل الأمير سيف الدين قطز، واتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

إن انتصار المماليك في عين جالوت قد جعل دعايةً واسعةً لهم وخاصةً أن الناس كانوا لا يتصوّرون هزيمةً كهذه الهزيمة تلحق بالتتار بسبب الرعب الذي أصابهم والهلع الذي ملأ قلوبهم.

إن الهجوم الصليبي الشرس من الغرب على ديار الإسلام والغزو التتاري الوحشي من الشرق ودعم النصارى الذين عاشوا في كنف المسلمين منذ فجر الإسلام إلى كلا العدوين الصليبي والتتاري والحقد الواضح الذي بدا منهم، كل هذا جعل المسلمين يعودون قليلاً إلى دينهم، كما كانت دعوة حكامهم بالدرجة الأولى إلى وحدة صفوف المسلمين للوقوف في وجه الأعداء وخاصةً أولئك الذين تعرّضت بلادهم للتخريب الصليبي أو

للتدمير التتاري، لذلك اعترف المماليك بسلطة الخلافة العباسية عليهم، والخلافة هي محطّ أنظار المسلمين في كل مكان، ويمكن أن يلتفّ حولها المسلمون، وتتوحد كلمتهم بها، ولا يوجد في ديار المسلمين سوى خليفةٍ واحدٍ لذا فهو الذي يمكن أن يحمل راية الجهاد ويقاتل المسلمون جميعاً تحت هذه الراية. وهذا الاعتراف بالخلافة العباسية قد أكسبهم الصفة الشرعية التي اعترف العباسيون بحكمهم، وفي الوقت نفسه فقد أكسبهم القوة، وعندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ قام المماليك يحملون عبء الجهاد، وقد وفقوا في ذلك فأنزلوا بالتتار هزيمة عين جالوت عام ٦٥٨.

كان الملك المظفر سيف الدين قطز قد استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي فلما قتل قُطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقّب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قطز بشهر واحد، وطلب من الملك الأشرف موسىٰ الأيوبي، والملك المنصور صاحب حماه الأيوبي أيضاً، والأمير حسام الدين لاجين العزيزي صاحب حلب مساعدته فلم يوافقوه، وسيّر الظاهر بيبرس حملةً إلى دمشق حملت سنجر إلى القاهرة مقيداً بالأغلال، ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر.

وقام رجل شيعي بالقاهرة يدعى الكوراني يدعو لنفسه، ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرةً أخرى أو الشيعة كما يسميها، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليها بسرعة.

ومع استقرار الوضع للظاهر بيبرس وقفت دولة المماليك على أقدامها، كما أن الخلافة قد عادت من جديد.

ولما كان المماليك هم السلاطين، وهم ولاة الأمور إذ لهم الدور الأول في تسيير شؤون الدولة سواء أكان في الداخل أم في الخارج لذا كان لا بد من بحث أمور هؤلاء السلاطين على نطاق أوسع من بحث الخلفاء، فالسلاطين هم الذين نسب إليهم العهد، ولم ينسب إلى العباسيين، وهم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بالنسبة إلى المسلمين في جهات الأرض.

ففي مرحلة قيام دولة المماليك تولّى أمر مصر أربعة من السلاطين هم:

١ ـ شجرة الدر ٦٤٨ ٨٠ يوماً

٢ ـ المعز عز الدين أيبك ٦٤٨ ـ ٦٥٥ ٧ سنوات

٣ ـ نور الدين علي ٦٥٥ ـ ٦٥٧ ٢ سنة

٤ ـ سيف الدين قطز ٦٥٧ ـ ٦٥٨ سنة واحدة

وبعد أن تولى السلطنة الظاهر بيبرس السلطنة بمدة أصبحت الخلافة أو حملت الدولة اسم الخلافة من جديد، واتجهت إليها أنظار المسلمين أكثر من السابق.

وتولى أمر المماليك نوعان من السلاطين يعودون في أصولهم إلى جهتين وهما:

١ ـ المماليك البحرية ٦٤٨ ـ ٧٩٢

٢ ـ المماليك الجراكسة أو البرجية ٧٩٢ ـ ٩٢٣

الفصل الثاني

عصر المماليك البحرية

٦٤٨ ـ ٧٩٢

١ ـ شجرة الدر:	٨٠ يوماً	٦٤٨ ـ ٦٤٨		
٢ ـ عز الدين أيبك:	٧ سنوات	٦٤٨ ـ ٦٥٥		قتل
٣ ـ نور الدين علي:	٢ سنة	٦٥٥ ـ ٦٥٧	ابن أيبك	خلع
٤ ـ سيف الدين قطز:	١ سنة	٦٥٧ ـ ٦٥٨		قتل
٥ ـ الظاهر بيبرس:	١٨ سنة	٦٥٨ ـ ٦٧٦		توفي
٦ ـ السعيد بركة:	٢ سنة	٦٧٦ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٧ ـ العادل بدر الدين:	أقل من سنة	٦٧٨ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٨ ـ المنصور قلاوون:	١١ سنة	٦٧٨ ـ ٦٨٩		توفي
٩ ـ الأشرف خليل:	٤ سنوات	٦٨٩ ـ ٦٩٣	ابن قلاوون	قتل
١٠ ـ الناصر محمد:	١ سنة	٦٩٣ ـ ٦٩٤	ابن قلاوون	خلع
١١ ـ العادل كتبغا:	٢ سنة	٦٩٤ ـ ٦٩٦		
١٢ ـ المنصور لاجين:	٢ سنة	٦٩٦ ـ ٦٩٨		قتل
١٣ ـ الناصر محمد: أعيد	١٠ سنوات	٦٩٨ ـ ٧٠٨	ابن قلاوون	اعتزل
١٤ ـ المظفر بيبرس الجاشنكير:	١ سنة	٧٠٨ ـ ٧٠٩		قتل
١٥ ـ الناصر محمد: عاد	٣٢ سنة	٧٠٩ ـ ٧٤١	ابن قلاوون	توفي
١٦ ـ المنصور أبو بكر:	أقل من سنة	٧٤١ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٧ ـ الأشرف كجك:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٨ ـ الناصر أحمد:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٣	ابن الناصر محمد	خلع
١٩ ـ الصالح إسماعيل:	ثلاث سنوات	٧٤٣ ـ ٧٤٦	ابن الناصر محمد	توفي
٢٠ ـ الكامل شعبان:	أقل من سنة	٧٤٦ ـ ٧٤٧	ابن الناصر محمد	قتل
٢١ ـ المظفر أمير حاج:	أقل من سنة	٧٤٧ ـ ٧٤٨	ابن الناصر محمد	قتل

٢٢ ـ الناصر حسن:	٤ سنوات	٧٤٨ ـ ٧٥٢	ابن الناصر محمد	خلع
٢٣ ـ الصالح صالح:	٣ سنوات	٧٥٢ ـ ٧٥٥	ابن الناصر محمد	خلع
٢٤ ـ الناصر حسن: أعيد	٧ سنوات	٧٥٥ ـ ٧٦٢	ابن الناصر محمد	قتل
٢٥ ـ المنصور محمد:	٢ سنة	٧٦٢ ـ ٧٦٤	ابن المظفر أمير حاج	خلع
٢٦ ـ الأشرف شعبان:	١٤ سنة	٧٦٤ ـ ٧٧٨	ابن حسين	قتل
٢٧ ـ المنصور علي:	٥ سنوات	٧٧٨ ـ ٧٨٣	ابن الأشرف شعبان	توفي
٢٨ ـ الصالح حاجي برقوق:	١ سنة	٧٨٣ ـ ٧٨٤	ابن الأشرف شعبان	خلع
٢٩ ـ الصالح حاجي برقوق:	أقل من سنة	٧٩١ ـ ٧٩٢	ابن الأشرف شعبان	خلع

وهم مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذين كثر عددهم، وزادت تعدياتهم فضجّ منهم السكان فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة عام ٦٣٨ فعرفوا بالمماليك البحرية، وإن كان هذا الاسم ليس خاصاً بهم إذ كثيراً ما أطلق على غيرهم بسبب حملهم عن طريق البحر، وإن لحق بهم هذا الاسم فيما بعد وأصبح دلالةً عليهم، كما عرفوا أيضاً باسم الصالحيين نسبة إلى لقب سيدهم الصالح نجم الدين أيوب، وأقل من هذا الاسم وذاك أطلق عليهم النجميين لاسم السيد نفسه.

حكم هؤلاء المماليك البحرية مصر مدة أربع وأربعين ومائة سنة ٦٤٨ ـ ٧٩٢، وقد تمثّل هذا الحكم في أسرتين فقط، وهما أسرة الظاهر بيبرس البندقداري، وقد دام حكمها مدة عشرين سنة (٦٥٨ ـ ٦٧٨) وقد حكم هو وولداه، ودام حكمه ثماني عشرة سنة، وحكم ابنه الأول السعيد بركة ما يقرب من سنتين، ثم خلع، وحكم ابنه الثاني العادل بدر الدين سلامش عدة أشهر وخلع بعدها. وكان الظاهر بيبرس قد حرص على بقاء أسرته في الحكم من بعده، وهيأ الأسباب لذلك، وكان خوفه من المماليك أنفسهم، وقد برز منهم يومذاك المنصور قلاوون لذا فقد سعى إلى ضمان قلاوون بل فكر بأن يجعله يقف بجانب أولاده من بعده، وزوّج ابنه وخليفته السعيد بركة من ابنة قلاوون غازية، وظنّ بأن هذه المصاهرة سيقف قلاوون بجانب ابنه السعيد بركة، وعندما حاصر المماليك السعيد بركة اتصل بالمنصور قلاوون وطلب دعمه فنصحه بالتنازل عن السلطنة، وقد فعل ذلك، ووافق قلاوون على استلام العادل بدر الدين سلامش أخي السعيد بركة وابن

الظاهر بيبرس السلطنة وذلك لأنه صغير ويمكن أن يتصرف بالأمر، ولم تمض عدة أشهر، حتى دعا المنصور قلاوون أمراء المماليك وبسط لهم الوضع القائم، وأن الأمر يتطلب رجلاً حكيماً يدبر شؤون الدولة، وأن الصغير يعيق الأمر ولا يصلح للأمر فاتفق الجميع على خلع العادل بدر الدين سلامش وسلطنة المنصور قلاوون.

أما الأسرة الثانية فهي أسرة المنصور قلاوون نفسه، وقد استمر أمرها أربع عشرة ومائة سنة (٦٧٨ ـ ٧٩٢) وحكم هو وأولاده وأحفاده، لم يتخللها سوى خمس سنوات خرج أمر مصر من أيديهم، إذ تسلم العادل كتبغا والمنصور لاجين والمظفر بيبرس الجاشنكير وقد قتل ثلاثتهم، حكم الأوليان منهم مدة أربع سنوات ٦٩٤ ـ ٦٩٨، وحكم الثالث ما يقرب من سنة (٧٠٨ ـ ٧٠٩).

أما أفراد الأسرة فقد حكم المنصور محمد أبو ناصر قلاوون إحدى عشرة سنة توفي بعدها (٦٧٨ ـ ٦٨٩)، ورجع الحكم بعده ضعيفاً إذ حكم ابنه الأشرف صلاح الدين خليل مدة أربع سنوات (٦٨٩ ـ ٦٩٣) وقتل بعدها، وجيء بأخيه الناصر محمد، ولم يطل عهده بأكثر من سنة حتى خلع، وتسلطن العادل كتبغا مدة سنتين ثم علا السلطة المنصور لاجين عندما كان العادل في زيارة لدمشق، لكن المنصور لاجين لم يلبث أن قتل، وأعيد إلى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وبقي عشر سنوات ٦٨٩ ـ ٧٠٨ غير أنه اعتزل، فتسلم السلطة المظفر بيبرس الجاشنكير، وشعر الناصر محمد بن قلاوون أنه هضم حقه فاستعاد السلطنة بالاتفاق مع بعض الأمراء، واستمر أمره حتى توفي، وقد أحبه الناس، لذا فقد حكم أبناؤه من بعده رغم ضعفهم وصغر سنهم، إذ تسلم السلطنة ثمانية من أبنائه. كان الأول منهم المنصور سيف الدين أبو بكر، وخلع قبل مرور عام على حكمه، وكان أمر الثاني الأشرف علاء الدين كجك كالأول لم يصل عهده إلى العام، ويشبههما الثالث الناصر أحمد، أما الرابع فهو الصالح إسماعيل، وقد حكم ثلاث سنوات (٧٤٣ ـ ٧٤٦) ومات بعدها، وجاء الخامس

الكامل شعبان وقتل قبل أقل من عام، وكذا السادس المظفر أمير حاج كان مصيره القتل، ولم يصل أمره إلى العام، وحكم السابع الناصر حسن أربعة أعوام (٧٤٨ ـ ٧٥٢) وخلع بعدها، وخلع الثامن الصالح صالح بعد ثلاث سنوات من حكمه (٧٥٢ ـ ٧٥٥) وأعيد الناصر حسن فاستمر سبع سنوات (٧٥٥ ـ ٧٦٢) وقتل بعدها. وتولّى الأمر بعدئذ المنصور محمد بن السلطان المظفر أمير حاج وخلع بعد عامين من حكمه ٧٦٢ ـ ٧٦٤، وجاء بعده ابن عمه الأشرف شعبان فحكم أربعة عشر عاماً ٧٦٤ ـ ٧٧٨ وقتل بعدها، وخلفه ابنه المنصور علي لمدة خمس سنوات توفي بعدها ٧٧٨ ـ ٧٨٣، وخلفه أخوه الصالح حاجي فلم يمض عليه سوى سنة حتى خلع، وتسلطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة غير أنه أعيد الصالح حاجي بعد سبع سنوات (٧٨٤ ـ ٧٩١) وحكم مدة سنة واحدة (٧٩١ ـ ٧٩٢) ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه، وأعيد إلى سلطانه، وانتهى أمر المماليك البحرية بشكل دائم، وجاء عهد المماليك الجراكسة أو البرجية.

ونلاحظ أن أسرة المنصور قلاوون قد حكم منها خمسة عشر سلطاناً توفي منهم أربعة وفاة طبيعية أو تركوا الحكم نتيجة الوفاة الطبيعية بينما خلع سبعة منهم خلعاً، وقتل خمسة منهم، وأن بعضهم وهو الناصر محمد قد خلع مرة، واعتزل مرة، وعاد حتى توفي، وأن الناصر حسن قد خلع، وأعيد ثم قتل. . .

وكان أكثرهم يتولى الأمر وهو صغير لذا يكون ألعوبةً بيد كبار الأمراء فيخلعونه أو يقتلونه، وما بقاء هذه الأسرة في الحكم هذه المدة الطويلة إلا بسبب ما تمتع به المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد من حب، وهما من الذين توفوا وفاة طبيعية من بين الأربعة السلاطين الذين توفوا هذه الوفاة، وقد حكم المنصور قلاوون مدة أحد عشر عاماً، وحكم الثاني وهو الناصر محمد ثلاثة وأربعين عاماً، وبذا يكون قد حكم اثنان من هذه الأسرة خمساً وخمسين سنة أي ما يقرب من نصف مدة الأسرة كلها، أما الآخرون وهم ثلاثة عشر سلطاناً فقد حكموا تسعة وخمسين عاماً أي بمعدل أربع سنوات

ونصف لكل سلطان غير أن خمسةً منهم لم يتجاوز أحدهم السنة بل لم يصل إلى سنة ثلاثة خلعوا خلعاً واثنان قتلا، وحكم واحد منهم مدة سنتين وخلع بعد ذلك. وحكم اثنان ثلاث سنوات خلع واحد منهما، ومات الثاني، وحكم واحد مدة أربع سنوات وقتل بعدها، وآخر خمس سنوات وتوفي بعدها، وقتل واحد بعد أربعة عشر عاماً. وهذا كله يدل على مدى ضعف هؤلاء السلاطين باستثناء اثنين منهم، وتلاعب أمراء المماليك بالسلاطين لصغر سنهم، والحسد الذي كان بينهم.

- المنصور محمد قلاوون ٦٧٨ ـ ٦٨٩ مات
  - الأشرف صلاح الدين خليل ٦٨٩ ـ ٦٩٣ قتل
  - الناصر محمد ٦٩٣ ـ ٦٩٤ خلع، ٦٩٨ ـ ٧٠٨ اعتزل، ٧٠٩ ـ ٧٤١ مات
    - المنصور سيف الدين أبو بكر ٧٤١ ـ ٧٤٢ خلع
    - الأشرف علاء الدين كجك ٧٤٢ ـ ٧٤٢ خلع
    - الناصر أحمد شهاب الدين ٧٤٢ ـ ٧٤٣ خلع
    - الصالح إسماعيل عماد الدين ٧٤٣ ـ ٧٤٦ مات
    - الكامل شعبان سيف الدين ٧٤٦ ـ ٧٤٧ قتل
    - المظفر أمير حاج ٧٤٧ ـ ٧٤٨ قتل
      - المنصور محمد ٧٦٢ ـ ٧٦٤ خلع
    - الناصر حسن ٧٤٨ ـ ٧٥٢ خلع، ٧٥٥ ـ ٧٦٢ قتل
    - الصالح صالح صلاح الدين ٧٥٢ ـ ٧٥٥ خلع
    - حسين
      - الأشرف شعبان ٧٦٤ ـ ٧٧٨ قتل
        - الصالح حاجي ٧٨٣ ـ ٧٨٤ خلع، ٧٩١ ـ ٧٩٢ خلع
        - المنصور علي ٧٧٨ ـ ٧٨٣ مات
  - الصالح علاء الدين علي توفي ٦٨٧

الخلافة العباسية
في مصر

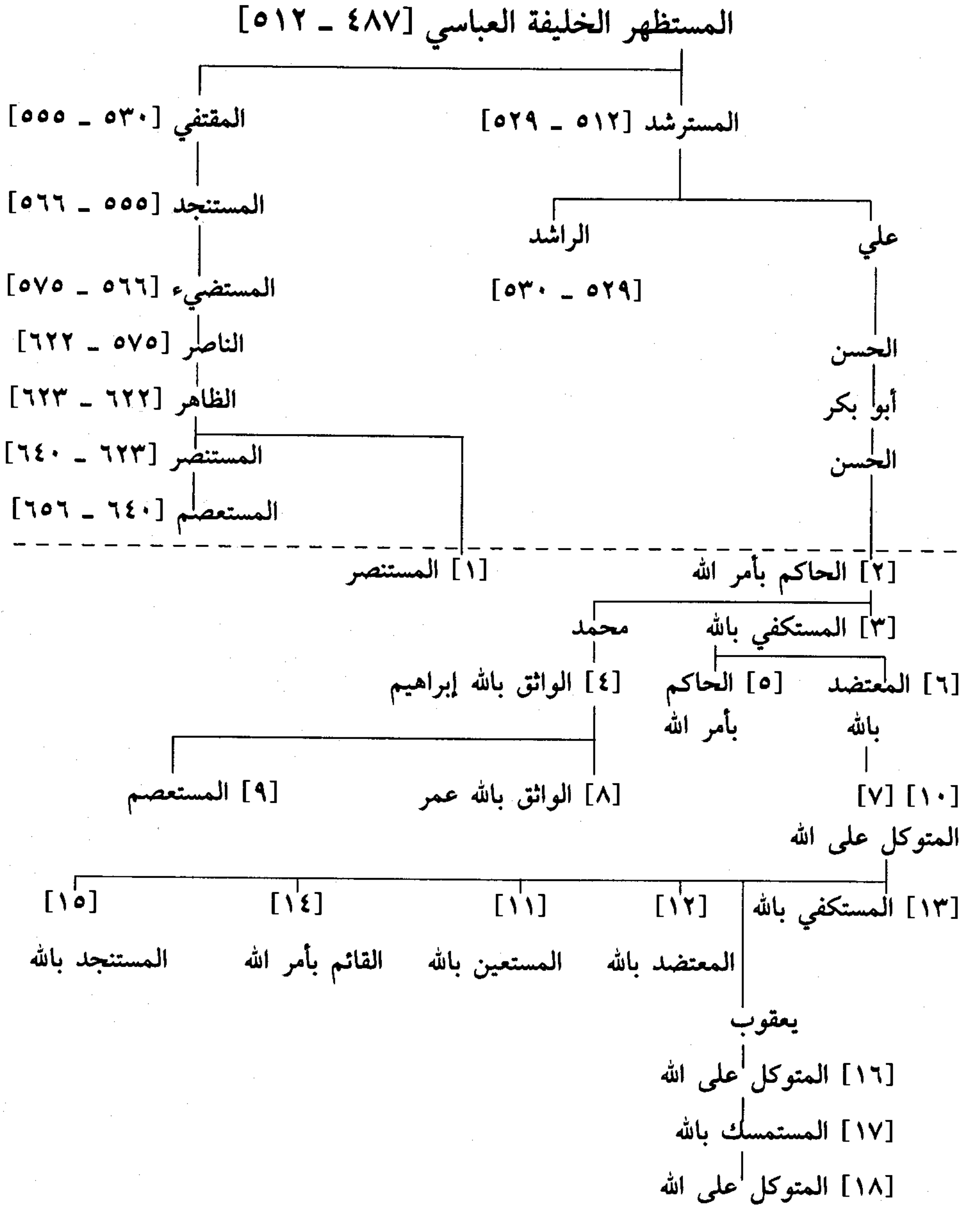

خلفاء بني العباس في القاهرة

الخليفة	السنوات	ملاحظات
١ ـ المستنصر	٦٥٩ ـ ٦٦٠	
٢ ـ الحاكم بأمر الله «الأول»	٦٦١ ـ ٧٠١	
٣ ـ المستكفي بالله «الأول»	٧٠١ ـ ٧٣٦	
٤ ـ الواثق بالله «الأول»	٧٣٦ ـ ٧٤٢	
٥ ـ الحاكم بأمر الله «الثاني»	٧٤٢ ـ ٧٥٣	
٦ ـ المعتضد بالله «الأول»	٧٥٣ ـ ٧٦٣	
٧ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٦٣ ـ ٧٨٥	للمرة الأولى . . . خلع
٨ ـ الواثق بالله «الثاني»	٧٨٥ ـ ٧٨٨	
٩ ـ المستعصم	٧٨٨ ـ ٧٩١	
١٠ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٩١ ـ ٨٠٨	للمرة الثانية
١١ ـ المستعين بالله	٨٠٨ ـ ٨١٥	خلع
١٢ ـ المعتضد بالله «الثاني»	٨١٥ ـ ٨٤٥	
١٣ ـ المستكفي بالله «الثاني»	٨٤٥ ـ ٨٥٤	
١٤ ـ القائم بأمر الله	٨٥٤ ـ ٨٥٩	خلع
١٥ ـ المستنجد بالله	٨٥٩ ـ ٨٨٤	
١٦ ـ المتوكل على الله «الثاني»	٨٨٤ ـ ٨٩٣	
١٧ ـ المستمسك بالله	٨٩٣ ـ ٩١٤	
١٨ ـ المتوكل على الله «الثالث»	٩١٤ ـ ٩٢٣	تنازل للسلطان العثماني سليم وتوفي عام ٩٥٠

ـ ١ ـ

المستنصر بالله

أحمد بن محمد الظاهر

٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ

هو أحمد أبو القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣)، أخو الخليفة العباسي المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠)، عمّ الخليفة المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦)، كان داخل السجن عندما اقتحم التتار بغداد، فلما فتح السجّانون أبواب السجون أطلق أحمد أبو القاسم فهرب، وتمكن من الخروج من بغداد فاتجه إلى عرب العراق فبقي مدةً عندهم، فلما انتصر المماليك في عين جالوت على التتار، ثم طردوهم من الشام، توجه أحمد أبو القاسم إلى القاهرة، وكان الأمر فيها للسلطان بيبرس فوصل إليها في أوائل رجب من عام ٦٥٩، فأثبت نسبه فبايعه بالخلافة السلطان بيبرس، ثم قاضي القضاة تاج الدين، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك في شهر رجب من العام نفسه، وخطب له، ونقش اسمه على السكة، ولُقّب بالمستنصر على لقب أخيه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ودعا للسلطان بيبرس، ثم صلى بالمسلمين.

قرر الخليفة المستنصر التوجه إلى العراق لقتال التتار فخرج، وخرج معه السلطان بيبرس يشيعه حتى دمشق، فجهّزه بجيش، وانضم إليه الملوك في بلاد الشام، وصاحب سنجار، والخليفة الحاكم بأمر الله الذي بويع في حلب الذي تنازل له بسبب أنه أكبر منه سناً، ولصلته بأواخر خلفاء بني العباس في بغداد، وسار معه تحت لوائه، واستطاع الخليفة المستنصر أن

يدخل مدينة الحديثة على نهر الفرات، وسار بعدها إلى هيت فدخلها أيضاً، فالتقى بعدها بجيشٍ من التتار، وحدثت معركة بين الطرفين، قتل فيها الخليفة المستنصر، ونجا منها الخليفة الحاكم بأمر الله مع عدد قليل من أنصاره، وذلك في الثالث من محرم عام ٦٦٠.

وبذا كانت خلافة المستنصر دون ستة أشهر بعشرة أيام.

ـ ٢ ـ

الحاكم بأمر الله

أحمد بن الحسن

٦٦١ ـ ٧٠١

هو الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الضبي ابن الخليفة المسترشد بالله ابن الخليفة المستظهر بالله. كان قد اختفى عندما سقطت بغداد بيد التتار فلما خفّ الطلب، وانخفضت موجة التدمير التتاري هرب مع جماعة من أنصاره، وسار إلى عرب بني خفاجة فأقام عندهم مدةً، ثم سار إلى دمشق، وأقام عند عيسى بن مهنا زمناً فطلبه الملك الناصر صاحب دمشق غير أن هجوم التتار قد كفّ عنه الطلب. فلما جاء الملك المظفّر إلى دمشق أرسل في طلبه الأمير قلج البغدادي فالتقى به وبايعه بالخلافة، ودعاه الظاهر بيبرس للسير إلى القاهرة وقد همّ بذلك غير أن أحمد أبا القاسم ابن الخليفة قد سبقه مما اضطره أن يعدل الرأي في السير إلى القاهرة وأن يتوجه إلى حلب حيث بويع هناك بالخلافة، وقد جهّزه صاحب حلب، وأرسل معه فرقة لقتال التتار، وإنقاذ بغداد منهم، وتلقّب بالحاكم بأمر الله، وسار إلى عانة والحديثة والتقى بالخليفة المستنصر الذي بويع في القاهرة، وتنازل له لأنه أصغر منه سناً، وقاتل تحت رايته والتقيا مع التتار في معركةٍ قتل فيها الخليفة المستنصر أحمد أبو القاسم، ونجا أحمد أبو العباس هذا مع عددٍ قليلٍ فاتجه إلى الرحبة، ومنها إلى عيسى بن مهنا فراسل الظاهر بيبرس فيه فطلبه فسار إلى القاهرة، ومعه ولده، ومجموعة من أتباعه، فأكرمه الظاهر

بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة وخطب بمسجدها عدة مرات. وبعد أن أثبت نسبه بايعه السلطان وقاضي القضاة والعلماء وبقية الناس، وذلك في مطلع عام واحد وستين وستمائة (الثامن من محرم)، فبقي المسلمون سنةً دون خلافة من عام (٦٦٠ ـ ٦٦١)، كما مرت عليهم مدة ثلاث سنوات دون خلافة (٦٥٦ ـ ٦٥٩) أي منذ سقوط بغداد بيد التتار إلى قيام خلافة المستنصر بن الظاهر بالقاهرة.

بقي اللقب الذي اختاره الخليفة لنفسه وهو «المتوكل على الله» كما هو، لم يغيره، واستبقى الملك الظاهر بيبرس الخليفة في القاهرة، ولم يعد يفكر بإرساله إلى بغداد لقتال التتار واسترجاع بغداد كحاضرة للعباسيين، وإنما أراد تقوية مركز الخلافة بالقاهرة بوجود الخليفة فيها، وليس هو إلا رمز تقوى به السلطة، ويدعمه السلطان، ويقوى به أهل السنة أيضاً، وتعود إلى المسلمين خلافتهم ويقوى سلطانهم بالتفافهم حول الخليفة الذي هو رمز السلطة الإسلامية، وتكتسب الدولة المملوكية الصفة الشرعية، ويعظم نفوذها، وتزداد أهميتها لدى الدول الإسلامية الأخرى، وبالفعل فقد أصبح المماليك محط أنظار المسلمين وأقوى دولة لهم في تلك الحقبة من التاريخ.

وإلى جانب الخلافة العباسية في القاهرة أعلنت الدولة الحفصية في تونس وتنتسب هذه الدولة إلى أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة أحد بطون مصمودة التي قامت دولة الموحدين على جهودها، وكان أبو حفص أحد دعاة المهدي بن تومرت، وقد عين والياً على تونس، وخلفه في الولاية ابنه عبد الواحد عام ٦٠٢ الذي تزوج أخت الأمير الموحدي المنصور، وقام من بعده ابنه أبو زكريا، فلما هزم الموحدون أمام نصارى الأندلس في معركة العقاب عام ٦٠٩، وضعف نفوذهم في المغرب والأندلس أعلن أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي استقلاله بتونس عام ٦٢٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله عام ٦٤٧ فأعلن نفسه خليفةً للمسلمين عندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦، وبايعه على ذلك شريف مكة إدريس،

وتلقّب الخليفة الحفصي باللقب نفسه الذي تلقّب به الخليفة العباسي بالقاهرة.

إن مركز الخليفة بالقاهرة قد قوّى دولة المماليك، أو أن الملك الظاهر بيبرس قد دعّم دولته بشكلٍ قويٍ ورسّخ أركانها، وفي عام ٦٦٧ حج الظاهر بيبرس، وأزال أنصار الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرّب من العلماء، وبنى المدارس والمكتبات، وتزعم العالم الإسلامي.

وإذا كان صاحب حمص الملك الأشرف موسى الأيوبي، وصاحب حماه الملك المنصور الأيوبي قد أعلنا ولاءهما للظاهر بيبرس إلا أن المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب الكرك كان يرى نفسه أحق بالسلطنة وبحكم مصر من المماليك، وبقي يعمل لذلك، واستطاع بيبرس دعوته إلى معسكره في بيسان فاستجاب له، وسار إليه فقبض عليه، ودخل الكرك وعيّن عليها والياً من قبله عام ٦٦١، وبذا صفا له الوضع في بلاد الشام.

وإذا كان الصليبيون قد خفّ أثرهم، ولم يعد بإمكانهم إرسال حملات جديدة إلى ديار المسلمين لأنهم يئسوا من إحراز النصر، وانقطع أملهم في تحقيق أي هدف لهم بعد أن وجدوا كلمة المسلمين تميل إلى الوحدة، ولم يكن لدعم النصارى في المشرق، والذين يعيشون في كنف المسلمين منذ مدة ليست قصيرة، كبير فائدة، غير أن الظاهر بيبرس كان يخافهم لوجودهم في بلاد المسلمين، ولم يأمن مكرهم في أي وقتٍ من الأوقات، كما لم يأمن مكر التتار الذين خفّت هجمتهم الشرسة عما كانت عليه أيام جنكيزخان وهولاكو غير أن شرّهم لا يزال قريباً، ومتوقعاً في كل وقت، لذا فقد عمل السلطان الظاهر بيبرس مع الجهات الثانية وإن كانت ذات ضررٍ لكنه أقل من شرّ التتار والصليبيين، لقد تحالف مع امبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن باليولوج، وأرسل له وفداً وهدايا وذلك عام ٦٦٠، كما حالف امبراطور الدولة الرومانية الغربية، وملك صقلية ونابولي منفرد بن

فريدريك الثاني، وهو هنشتافن، وأرسل له وفداً برئاسة جمال الدين بن واصل، وكانت لا تزال في صقلية آنذاك بعض المدن الإسلامية، ويبدو من هذه التحالفات أن القصد منها عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ.

كما تحالف السلطان الظاهر بيبرس مع بركة خان أمير التتار في شمال بلاد القفجاق والسهول الشمالية وهو أول التتار الذين أسلموا من القبيلة الذهبية[١]، وكانت حاضرتها مدينة سراي[٢] على نهر الفولغا مكان ستالينغراد اليوم، وتزوج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان، وشجّعه للعمل ضد ابن عمه هولاكو، وكانت خصومات بينهما، ويبدو أن القصد من هذا التحالف إنما هو ضد هولاكو.

أما من الناحية الداخلية فقد شجّع السلطان الظاهر بيبرس الأعراب للإغارة على التتار، وقد وصلت غاراتهم حتى بغداد، وعمل على إحراق المروج التي يعتمد عليها التتار لعلف حيواناتهم عندما يهاجمون بلاد الشام، وبنى الحصون التي تمتد من نهر العاصي إلى نهر الأردن. وعمل المنائر لمراقبة العدو، وتشعل فيها النار إذا داهم العدو البلاد فيعرف أهل المدن فيستعدون، كما تنتقل أخبار هذه الهجومات بسرعةٍ خاطفةٍ فإذا علمنا أن التتار كانوا يعتمدون على المباغتة والهجوم المفاجئ عرفنا أهمية هذه المنائر. وربط البلاد بشبكة من المواصلات المنظمة وخاصةً فيما يتعلق بالبريد، وقوّى الجيش والأسطول، وأكثر من استخدام المماليك من بلاد القفجاق، ويريد أن يعمل ضد الصليبيين والتتار في وقتٍ واحدٍ وليس لديه الخيار في ذلك فالتعاون بين الطرفين واضح تماماً، وقد كان الصليبيون يرشدون التتار على الطرق، ويسمحون لهم بالنزول في إماراتهم النصرانية، ويبنون الحصون فيها، لذا قرر المماليك طرد الصليبيين من الشام، وانتقل

(١) أسسها أباتو بن جوجي بن جنكيزخان، وتسلّم أمرها بركة خان ٦٥٤ ـ ٦٦٥.

(٢) سراي: تقع شرق ستالينغراد على الضفة اليسرى لنهر الفولغا.

السلطان الظاهر بيبرس إلى الشام لتفقد جيوشه هناك فأسرعت إليه وفود الإمارات الصليبية يظهرون النفاق، ويريدون أن يعرفوا الأهداف التي يرمي إليها السلطان من خلال تقوية جيشه، وتعزيز حصونه، فقابل هذه الوفود بالجفوة.

سار السلطان بيبرس عام ٦٦٤ إلى بلاد الشام واستولى على قيسارية وأرسوف الواقعة إلى الجنوب منها. وهاجم بعد عام (٦٦٥) قلعة صفد واستولى عليها، ثم أخذ يافا عام ٦٦٦، وهاجم في شهر رمضان من العام نفسه انطاكية من جهة البحر عن طريق السويدية وذلك ليحول دون وصول الإمدادات إليها، وقطع طريق ممر بيلان للغرض نفسه كي لا تصل إليها النجدات من أرمينيا الصغرى في كيليكيا، أما القوة الرئيسية المهاجمة للمدينة فكانت بيده يقودها بنفسه، ودخل المدينة في ١٤ رمضان. وفي عام ٦٦٩ هاجم إمارة طرابلس فاستولى على حصن الأكراد (قلعة الحصن)، وحصون عكار (القليعات ـ حلبا ـ عرقه) غير أن حملةً صليبيةً جاءت بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا فأنقذت طرابلس من الوقوع بيد السلطان بيبرس الذي ترك طرابلس وأسرع إلى مصر خوفاً من أن تسير تلك الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثامنة إلى مصر إذ سبق للويس التاسع ملك فرنسا أن سار إلى مصر، واحتل دمياط، واتجه إلى المنصورة، ولا تزال أحلامه تراوده في دخول مصر وخاصةً أنه كان قد أسر، وفدى نفسه بفداءٍ كبير فله ثأر إذن، ويريد الانتقام، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه يعتقد أن احتلال مصر إنما هو السبيل لأخذ بيت المقدس، وبقاء الحماية له، غير أن الحملة الصليبية الثامنة قد اتجهت إلى تونس بناء على طلب أخي لويس التاسع الذي كان ملكاً لصقلية إذ كان يريد أن يغزو تونس، ويقاتل حكامها من الحفصيين، ولم يكن لويس التاسع ببعيد عن هذه الرغبة إلا أن الحملة ما كادت تصل إلى تونس حتى أصيب لويس التاسع بمرض الحمى ومات، وانتهت الحملة.

اطمأن بيبرس، وبعد أن كان يستعد لمواجهة الحملة ترك استعداده،

وانطلق ثانيةً إلى طرابلس عام ٦٧٠ غير أن أميرها بوهمند قد طلب المسالمة والصلح فأجابه السلطان الظاهر بيبرس إلى ذلك لأن حملةً صليبيةً جديدةً قد جاءت بقيادة الأمير إدوارد ونزلت في عكا، وكان الصلح بين الظاهر بيبرس وأمير طرابلس الصليبي بوهمند لمدة عشر سنوات.

وغزا السلطان بيبرس قبرص التي كان ملكها هيو الثالث من ألد أعداء الإسلام، وله أطماع صليبية واتخذ الصليبيون من بلاده قاعدةً ينطلقون منها وإليها للوصول إلى بلاد الشام أثناء الإبحار لكن الأسطول الإسلامي قد تحطّم عند شواطئ الجزيرة عام ٦٦٩ بسبب عاصفةٍ بحريةٍ.

وحارب أرمينيا الصغرى وهي بأرض كيليكيا انتقل إليها الأرمن بعد انسياح السلاجقة في آسيا الصغرى إثر معركة ملاذكرت، وأسسوا فيها دولةً كانت دعامةً للصليبيين طيلة أيامها، ووقفت تعادي الظاهر بيبرس وتدعم الصليبيين، وتمنع تصدير الخشب والحديد إلى مصر، واستطاع الانتصار عليها، وأسر عدداً من قادتها منهم ابن أميرها هيثوم الأول، وغدت هذه الدولة ضعيفةً بعد ذلك.

ويلاحظ أن الدول التي تحالف معها لم تدعم الصليبيين فأفاد هذا التحالف فعلاً، إذ رأينا أن الدولة الرومانية الغربية هي عادةً التي تدعم الصليبيين، وتحرّضهم قد وقفت على الحياد تقريباً على حين قاد الحملتين الصليبيتين الثامنة والتاسعة الفرنسيون والإنكليز إذ كانت الأولى منهما بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على حين كانت الثانية بقيادة الأمير الإنكليزي إدوارد.

وتكررت اعتداءات النوبيين وذلك بعد أن فتحها توران شاه أخو السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ فأرسل إليهم الظاهر بيبرس قوةً عام ٦٧٤ تمكنت من الانتصار على النوبيين، وأسر ملكهم الذي أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس، ووضعت الجزية على أهل النوبة ودنقلة.

أما بالنسبة إلى التتار فقد توفي طاغيتهم هولاكو عام ٦٦٣، وتولى مكانه ابنه أبا قاخان، وبدأ يتصل بالصليبيين إذ كان يعطف على النصارى،

وتزوج ابنة امبراطور القسطنطينية. وقد حاول أباقاخان أن يعقد صلحاً مع المماليك مقابل الخضوع له، غير أن الظاهر بيبرس رفض ذلك فأغار المغول على الرحبة[1]. فأرسل بيبرس حملةً انتصرت على التتار عند نهر الفرات.

واتجه الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى آسيا الصغرى منطقة سلاجقة الروم الذين وقفوا بجانب التتار، فالتقى بجيش تتاري فهزمه، وقتل سبعة آلاف رجل منه، ودخل قيصرية حاضرة سلاجقة الروم، ولكنه لم يستطع تقوية حصون آسيا الصغرى التي احتلها للوقوف في وجه التتار حيث شعر بالتعب، وتوفي عام ٦٧٦، وكان - رحمه الله - طويل القامة، أسمر اللون، أزرق العينين، جهوري الصوت، في عينه أثر بياض، شجاعاً، وكانت وفاته في مطلع العام (٢٧ محرم).

تولى السلطنة بعد الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد محمد بركة خان[2]، وكان عمره ثماني عشرة سنة، وكان أبوه قد عهد له بالسلطنة منذ عام ٦٦٣ أي عندما كان عمره أربع سنوات. ولم يلبث الملك السعيد في السلطنة سوى سنتين حيث انفض المماليك من حوله للهوه، وأرسل ليكون ملكاً على الكرك والشوبك، وعُيّن مكانه أخوه بدر الدين سلامش، وكان صغيراً لا يزيد عمره على السبع سنوات وعيّن الأمير سيف الدين قلاوون أتابكاً له، ولُقّب بدر الدين بالملك العادل، غير أنه لم يلبث أن خُلع، وبايعوا الأمير سيف الدين قلاوون[3] ولقبوه بالملك المنصور، وذلك في

---

(١) الرحبة: موقع على مقربة من الضفة اليمنى لنهر الفرات، جنوب قرقيسا، ولعلها الرطبة اليوم.

(٢) الملك السعيد محمد بركة خان تزوج عام ٦٧٥ ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الإلفي، ويُكنّى أبو المعالي ناصر الدين.

(٣) المنصور قلاوون: مملوك اشتراه علاء الدين آق سنقر أحد مماليك الملك العادل أبي بكر الأيوبي بألف دينار، وهو مبلغ ضخم، لذا عرف بالألفي، كما عُرف بالعلائي نسبةً إلى سيده علاء الدين، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فعُرف بالصالحي والنجمي أبو الناصر محمد.

العام نفسه في ٢١ رجب، ووصل الخبر إلى دمشق فوافق الأمراء، وبايعوه سوى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فلم يوافق ورفض البيعة.

وتوفي الملك السعيد في الكرك يوم الخميس ١١ ذي القعدة عام ٦٧٦، وتولى مكانه أخوه نجم الدين خضر أمر الكرك. ومرض الأمير نائب دمشق فانتقل إلى مصر، وبعدها أخذ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر البيعة لنفسه سلطاناً من الأمراء، وتلقب بالملك الكامل، وأرسل جيشاً إلى غزة لحماية الأطراف.

أخذ الملك المنصور قلاوون الكرك من نجم الدين خضر، ثم بعث جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي إلى غزة فانتصر على جيش الملك العادل، وتابع سيره إلى دمشق فخرج منها الملك الكامل، ودخل علم الدين سنجر المدينة، وتولّى حكمها حسام الدين لاجين ومعه علم الدين سنجر بأمر المنصور قلاوون، وبعد أن انطلق الملك الكامل باتجاه الرحبة عاد نحو الساحل فأخذ بعض الحصون والمدن، فأرسل له الملك المنصور قلاوون جيشاً لقتاله.

عندما علم التتار بتفرّق كلمة المسلمين ساروا نحو بلاد الشام فدخلوا مدينة حلب، وقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، وظنوا أن الملك الكامل سنقر الأشقر سيكون بجانبهم ضد السلطان المنصور قلاوون. وانطلق السلطان بجيشه نحو بلاد الشام، وراسل الملك سنقر ليكونا معاً ضد التتار فأجابه إلى ذلك واستعد، ولما سمع التتار بتوحد كلمة المسلمين رجعوا عن بلاد الشام، كما رجع السلطان قلاوون إلى مصر.

وخرج السلطان من مصر عام ٦٨٠، وطلب حشد الجيوش، والمساعدة من الملك الكامل سنقر فأجابه واتجهت الجموع نحو حمص، وجاء التتار من الشمال إلى عنتاب، واتجهوا نحو حمص، كما جاءت جموع منهم من جهة الرحبة من الشرق ونازلوا الأعراب، والتقى المسلمون بالتتار يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب وكان ميدان المعركة يمتد من شمال حمص قرب مسجد خالد بن الوليد حتى بلدة الرستن في منتصف

الطريق بين حمص وحماه، وهزم المسلمون في بداية الأمر، ووصل بعضهم إلى بحيرة حمص (قطينة)، ثم ثبت السلطان، وثبت معه سنقر الأشقر وكبار الأمراء وحملوا حملةً صادقة على التتار فهزموا بإذن الله، وانقسموا إلى فرقتين فرّت إحداهما باتجاه السلمية والبرية، وفرت الثانية باتجاه حلب والفرات وغرق قسم كبير منها في النهر عند محاولة عبوره. ورجع السلطان إلى مصر بعد هذا النصر، ورجع الملك الكامل سنقر الأشقر إلى صهيون وقد ودع السلطان من حمص.

وتوفي طاغية التتار أباقاخان بن هولاكو عام ٦٨٠، وخلفه أخوه أحمد، وكان قد أسلم بعد أن نشأ على النصرانية، وعندما آل إليه أمر الأسرة التتارية الإيلخانية التي أسسها أبوه هولاكو راسل السلطان المنصور قلاوون ليكون بينهما صلح لحقن دماء المسلمين وقد تمّ ذلك.

وفتح السلطان المنصور قلاوون المرقب وما حولها عام ٦٨٤، وخافه أمير طرابلس الصليبي فهدم الحصون تقرباً بناءً على رغبة السلطان. وبعد عامين استسلم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر إلى نائب دمشق حسام الدين لاجين، وسار إلى المنصور قلاوون فأحسن استقباله. وفي عام ٦٨٨ سار السلطان إلى دمشق، ومنها إلى طرابلس فحاصرها وفتحها، وكانت قد بقيت بأيدي الصليبيين منذ عام ٥٠٣، وقد مهد السلطان لهذا الفتح بدخول المرقب والانتهاء من سنقر الأشقر، وتوحيد كلمة المسلمين، وتهديم حصون الإمارة.

توفي السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٩، وخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وهو ولده الثاني وكان ولي عهده ابنه الأول علاء الدين علي قد توفي عام ٦٨٧. وكان قلاوون قد عزم على فتح عكا، فلما تولى ابنه سار إليها من مصر، ودعا الجند من دمشق، وطرابلس، وحماه فجاء المجاهدون وحاصروا عكا، وتم فتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى من عام ٦٩٠، وفر الصليبيون عن طريق البحر ممن لم يقتل، كما تسلم الأشرف صيدا، وصور، ثم أخذ نائبه على دمشق علم الدين سنجر

الشجاعي بيروت كما سُلّمت له جبيل، وطرطوس، ولم يبق للصليبيين في السواحل وبلاد الشام أي أثر. وهاجم بلاد الروم بعدها، وأرسل قوة إلى كسروان في جبيل لبنان لأن النصارى في هذه المنطقة كانوا دعماً للصليبيين.

وفي عام ٦٩٣ قتل الأشرف صلاح الدين خليل بيد أمراء المماليك، وهو في الصيد، واتفقوا على تعيين بيدرا نائبه وهو أول الذين رموه، ولُقِّب بيدرا بالملك القاهر، غير أنه قُتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا الذي اتفق بعدئذٍ مع علم الدين سنجر الشجاعي على تعيين محمد بن السلطان قلاوون، ولُقِّب بالملك الناصر، وكان عمره إذ ذاك ثماني سنوات، ولم يمض إلا أقل من عام حتى خلع السلطان الناصر، وألزم على البقاء في البيت، وتولّى أمر السلطنة الأمير كتبغا، ولقب بالملك العادل.

توفي طاغية الدولة الإيلخانية المغولية أرغون بن أباقاخان بن هولاكو، وتولّى بعده ابنه قازان، وقد أظهر الإسلام على يد الأمير توزون ـ رحمه الله ـ ووزع الأموال بمناسبة إسلامه وتسمى باسم محمود، وشهد الجمعة، وهدّم الكنائس، وفرض الجزية على النصارى، وردّ كثيراً من المظالم في بغداد، وأسلم معظم التتار.

وذهب السلطان كتبغا إلى دمشق، ومعه نائبه على مصر حسام الدين لاجين، وأثناء العودة اتفق حسام الدين مع الأمراء وبايعوه بالسلطنة، ورجع كتبغا إلى دمشق، وأصبح حسام الدين لاجين السلطان بمصر، وتلقب بالمنصور، وما كان من كتبغا إلا أن أطاعه وذلك عام ٦٩٦.

وقتل أمراء المماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر عام ٦٩٨، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً.

وفي مطلع عام ٦٩٩ وصلت إلى السلطان أخبار بمسير التتار إلى الشام، فاتجه إلى الشام في ٢ محرم، ومرّ على غزة فأقام بها ما يقرب من شهرين، وسار إلى دمشق فوصل إليها في الثامن من شهر ربيع الأول، ولم

يمكث فيها أكثر من أسبوع بسبب تحرّك التتار، وسار مع الجيوش نحو الشمال، ولم يتخلف عنه أحد، ووصل إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى هناك مع التتار، فانهزم المسلمون وولوا الأدبار، ومرّ بعضهم على دمشق في طريقه إلى مصر، وهرب السلطان فسار عن طريق بعلبك والبقاع إلى دمشق، وأهل دمشق في خوف وذعر، ثم إن أعيان البلد قد اتفقوا مع شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية على الخروج للقاء التتار وطلب الأمان لأهل المدينة من قازان، وساروا إليه والتقوا به عند النبك في منتصف الطريق بين دمشق وحمص وكلم شيخ الإسلام ابن تيمية ملك التتار كلاماً قوياً كان فيه نفع للمسلمين، ورجعوا من عنده، وقد أخذوا الأمان للسكان، أما القتال فكان لا بدّ منه لأن قازان كان يريد أخذ الشام، ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار كي لا يقع قتال يلحق السكان بسببه أذى، غير أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قد طلب من نائب القلعة عدم تسليمها فأجابه إلى ذلك، ورفض قول كل من طلب التسليم.

وخطب يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الآخر لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة، ودُعي له على السدة بعد الصلاة، وقرئ عليه مرسوم بنيابة قبجق على الشام[1]. وفي يوم السبت النصف من ربيع الثاني شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها، واحترق جامع التوبة بالعقيبة، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى الذين هم مع التتار قبحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً وحجاً غفيراً[2].

وخرج ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الثاني إلى ملك التتار وعاد بعد يومين، ولم يستطع الاجتماع به إذ منعه عنه سعد الدين، والرشيد مسير الدولة المسلماني ابن يهودي. وانتشر الخوف في دمشق بشكلٍ رهيب.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وفي التاسع عشر من شهر جمادى الأولى يوم الجمعة غادر قازان دمشق بستين ألفاً من المقاتلين، وترك عليها مثلهم، وعاد إلى العراق على أمل أن يرجع في الخريف إليها لينطلق منها إلى مصر. وخلّف بولاي فذهب مع جماعة من التتار إلى جهة الغور فعاثوا الفساد، وعندما عاد سار إليه الشيخ ابن تيمية وكلمه في إطلاق سراح من كان معه من أسرى المسلمين، فأنقذ عدداً كبيراً منهم. ونادى نائب قلعة دمشق بأن الجيوش قادمة من مصر، فغادر التتار دمشق، ولم يتمكنوا من قلعتها، ورفض نائبها المصالحة، وكان مسير التتار عن طريق الغرب من جهة دمر في أوائل شهر رجب.

وفي شوال في العشرين منه سار جمال الدين الأفرم نائب سلطنة دمشق ومعه شيخ الإسلام ابن تيمية بجيش إلى بلاد جبيل وكسروان لما فعلوه من دعم للتتار وإغارة على بلاد المسلمين، ولما هم عليه من ضلالة فخرج أعيان البلاد إلى شيخ الإسلام فأظهروا الطاعة والندامة على ما فعلوا ووعدوا بإعادة ما أخذوا، واستتاب ابن تيمية عدداً منهم.

وفي عام ٧٠٠ شاع الخبر بقدوم التتار إلى الشام، وأنهم قد وصلوا إلى حلب، وأن أميرها قد فرّ إلى حماه، وتأخر قدوم السلطان من مصر، فسار إليه ابن تيمية، وذكره وطلب منه السرعة في الحركة بسبب تقدّم التتار، وإن تأخر فأهل الشام يعينون سلطاناً لهم يذود عنهم، وأن عليهم النصر فيما إذا استنصروا ولو لم تكن الشام تابعة لهم وأهلها من الرعايا له فكيف والأمر كذلك، فأسرع السلطان، ورجع ابن تيمية في ٢٧ جمادى الأولى، ثم جاءت الأخبار بعودة أمير التتار إلى العراق واجتيازه الفرات آيباً إلى الشرق لقلة جيشه. وعندها عاد نائب السلطان من معسكره في المرج إلى دمشق. وجاءت رسل من التتار إلى مصر مارةً بدمشق، ثم عادت بالطريق نفسه عام ٧٠١.

وتوفي الخليفة الحاكم بأمر الله في مطلع جمادى الآخرة عام ٧٠١ وبويع من بعده لابنه سليمان أبي الربيع، ولُقّب بالمستكفي بالله. وكانت مدة خلافة المتوكل على الله أربعين سنة.

ـ ٣ ـ

المستكفي بالله
سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله
٧٠١ ـ ٧٣٦

هو أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولد في الخامس عشر من شهر المحرم عام أربعة وثمانين وستمائة، وبويع بالخلافة بعهد من أبيه في الثامن عشر من جمادى الأولى من عام واحد وسبعمائة، في اليوم الثاني من وفاة أبيه.

وفي عهده فتحت جزيرة أرواد على ساحل بلاد الشام مقابل مدينة انطرطوس (طرطوس اليوم)، وأنقذت من أيدي الصليبيين، وهي آخر مواقعهم في بلاد الشام.

وجاءت الأخبار في شهر رجب بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فاستعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون للخروج من مصر والتوجّه إلى الشام لحرب التتار، وفي النصف الثاني من شهر شعبان من العام نفسه (٧٠٢) بدأت الأمراء تصل من مصر، وبدأت أفواج التتار تتدفق نحو بلاد الشام، وفر الجيش من حلب ومن حماه نحو دمشق، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك، والتقى شيخ الإسلام ابن تيمية مع جند حماه الفارين في القطيفة.

وخرجت العساكر الشامية من دمشق في ٢٤ شعبان، وعسكرت بناحية الكسوة، وذلك ليجنبوا مدينة دمشق الخراب والاعتداء على الأطفال والعجزة من الرجال وسبي النساء، ولأن المرج كان كثير المياه يومذاك لا

يصلح للقتال. وجاءت الجيوش من مصر، والتقت مع أهل الشام بناحية الكسوة، وعلى رأس هذه الجيوش الخليفة المستكفي والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي يوم السبت الثاني من شهر رمضان التقت هذه الجيوش مجتمعة في مرج الصُفَّر، وطُلب من أهل دمشق حماية الأسوار وحفظ الأمن، والتشبُّث بالقلعة.

أما التتار فقد وصلوا إلى قارة ومنها انتقلوا إلى القطيفة، وعندما اقتربوا من دمشق تركوها عن يمينهم، وتحركوا نحو الكسوة حيث الجيش المملوكي بانتظارهم، ولم يتعرضوا للمدينة أبداً، وإنما رغبوا في قتال الجند فقد رأوا أنهم إن أحرزوا النصر فإن المدينة في قبضتهم ويفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون، وإن هزموا فلا حاجة لهم بالمدينة وليس من الضرورة ترك جنودهم يمرحون في المدينة ويفقدون عزيمة القتال، وربما إذا اتجهوا إلى دمشق تبعهم الجند الذين هم في مرج الصُفّر وجعلوهم بين نارين نار أهل البلد من الداخل ونار الجند من الخلف.

واحتدمت المعركة بعد ظهر السبت، وثبت الخليفة، كما ثبت السلطان، وانتهت بهزيمة التتار الذين فروا إلى أعالي التلال، ثم فروا، ورجع الناس من القتال إلى دمشق يوم الاثنين في الرابع من شهر رمضان، وفي اليوم الثاني (الثلاثاء) دخل السلطان دمشق، وعرفت تلك المعركة باسم معركة «شقحب» حيث دار القتال، وهي في الطرف الشمالي من مرج الصُفَّر، ولا يزال الاسم معروفاً إلى الآن، وتقوم مزرعة اليوم هناك تحمل هذا الاسم.

وسارت حملة إلى بلاد النوبة عام ٧٠٤، وانتصرت على النوبيين الذين نقضوا العهد مع المسلمين، وبدؤوا في اعتداءاتهم، وكرروا ما قاموا به عام ٦٧٠ عندما أغار الملك داود ملك النوبة على أسوان، وهذا ما أجبر المسلمين إلى حربهم واحتلال جزءٍ من أرضهم أيام الظاهر بيبرس عام (٦٧٤)، وعُقدت معاهدة جديدة بين الطرفين.

وفي عام ٧٠٨ خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون قاصداً الحج

فمرّ على الكرك، ونصب له جسر على وادٍ فانكسر به، ولكنه نجا، فأقام بالكرك، واعتزل السلطة، وكتب إلى القضاة بمصر يعلمهم اعتزاله وكذا قضاة الشام، فبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة في الثالث والعشرين من شهر شوال، ولقب بالملك المظفّر، غير أن الناصر محمد رجع يطلب العودة إلى الملك في رجب عام ٧٠٩، ووافقه جماعة من الأمراء فدخل دمشق في شهر شعبان، وسار بعدها إلى مصر فدخلها في شهر رمضان، وفرّ المظفر ركن الدين بيبرس من قلعة الجبل في أواخر شهر رمضان فدخلها الناصر في عيد الفطر، وقُبض على المظفر وقتل، وهكذا عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة للمرة الثالثة.

وأرسل السلطان الناصر حملة إلى آسيا الصغرى بإمرة أمير الشام تنكز عام ٧١٥ فاستطاعت دخول مدينة ملاطية على نهر الفرات.

وأرسل حملة في العام نفسه (٧١٥) إلى بلاد النوبة، انتصرت على النوبيين، وسارت حملة أخرى في العام التالي، وتمكنت من إقامة ملك مسلم على النوبة هو (عبد الله برشنبو) ابن أخ الملك داود ملك النوبة. وهذا ما سهل انتشار الإسلام هناك، ثم دخل السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون دنقلة عام ٧١٨، ودخلت بعدها بلاد النوبة في الإسلام.

وفي عام ٧١٧ خرجت النصيرية عن الطاعة في شمال غربي بلاد الشام، وأطلقوا على رجلٍ منهم محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وعاثوا في البلاد الفساد، ونادوا لا إله إلا علي، فأرسل إليهم السلطان حملة أخضعتهم.

وقبض السلطان على الخليفة عام ٧٣٦ ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في آخر العام (ذي الحجة) إلى بلدة قوص في جنوبي مصر، كما نفى معه أهله، وبقي الخليفة في منفاه حتى توفي عام ٧٤٠.

قال ابن حجر العسقلاني عن الخليفة المستكفي «كان فاضلاً، جواداً، حسن الخط جداً، شجاعاً». وتولى الأمر بعده ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولُقّب بالواثق بالله.

ـــ ٤ ـــ

الواثق بالله

إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله

٧٣٦ ـــ ٧٤٢

هو إبراهيم بن محمد المستمسك بأمر الله بن الحاكم بأمر الله.

كان الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن قد عهد بالخلافة لابنه محمد، ولقبه بالمستمسك بأمر الله غير أنه قد مات في حياة أبيه، وعطفاً من الجد على ولد ولده فقد عهد إليه بالخلافة ظناً منه أنه يصلح لها، ولكنه لم يلبث أن وجده منهمكاً في اللعب، منصرفاً إلى صداقة الأراذل لذا فقد عدل عنه، وعهد إلى ابنه أبي الربيع سليمان الذي تكلمت عنه، وتولّى الأمر أبو الربيع سليمان وتلقّب باسم المستكفي، غير أن إبراهيم هذا لسوء في طباعه كان يمشي بالنميمة بين عمه المستكفي وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا ما أدى إلى الوقيعة بين الاثنين بعد أن كانا كالأخوين، وقبض السلطان على الخليفة المستكفي، ونفاه وأهله إلى قوص، وقد بقي فيها حتى توفي عام ٧٤٠، وقد عهد قبل وفاته إلى ابنه أحمد.

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فمذ نفى الخليفة بايع إبراهيم هذا باسم الواثق بالله، ولم ينظر إلى عهد المستكفي، ولما حضرت الوفاة السلطان ندم على ما فعل لأن الواثق بالله لم يكن أهلاً للخلافة فأوصى بعزله، ومبايعة أحمد بن سليمان المستكفي، وتم ذلك في غرة شهر المحرم من عام اثنين وأربعين وسبعمائة، ولقّب أحمد هذا باسم جده الحاكم بأمر الله، كما كنّي بكنيته أبي العباس.

وكان العامة يلقبون الواثق بالله إبراهيم المستعطي بالله، ويصفونه بسوء السيرة، وقد ترجم له ابن فضل الله في المسالك فقال: «عهد إليه جده ظناً أن يكون صالحاً، أو يجيب لداعي الخلافة صائحاً، فما نشأ إلا في تهتّك، ولا دان إلا بعد تنسّك، أغري بالقاذورات، وفعل ما لم تدع إليه الضرورات، وعاشر السفلة والأراذل، وهان عليه من عرضه ما هو باذل، وزين له سوء عمله فرآه حسناً، وعمي عليه فلم ير مسيئاً إلا محسناً، وغواه اللعب بالحمام، وشري الكباش للنطاح، والديوك للنقار، والمنافسة في المعز الزرائبية الطوال الآذان، وأشياء من هذا، ومثله مما يُسقط المروءة ويُثلم الوقار، وانضم هذا إلى سوء معاملة، ومشترى سلع لا يوفي أثمانها، واستئجار دور لا يقوم بأجرها، وتحيلاً على درهم يملأ به كفه، وسحت يجمع به فمه، وحرام يطعم منه ويطعم حرمه، حتى كان عُرضةً للهوان، وأكلةً لأهل الأوان.

فلما توفي المستكفي والسلطان عليه في حدة غضبه، وتياره المتحامل عليه في شدة غلبه، طلب هذا الواثق المغتر، والمائق إلا أنه غير المضطر، وكان ممن يمشي إلى السلطان في عمه بالنميمة، ويعقد مكائده على رأسه عقد التميمة، فحضر إليه وأحضر معه عهد جده، فتمسك السلطان في مبايعته بشبهته، وصرف وجه الخلافة إلى جهته، وكان قد تقدّم نقض ذلك العهد، ونسخ ذلك العقد، وقام قاضي القضاة أبو عمر بن جماعة في صرف رأي السلطان عن إقامة الخطبة باسم الواثق فلم يفعل، واتفق الرأيان على ترك الخطبة للاثنين، واكتفي فيها بمجرد اسم السلطان، فرحل بموت المستكفي اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها، وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومَرْوَتَها، فكأنما كان آخر خلفاء بني العباس وشعارها عليه لباس الحداد، وأغمدوا تلك السيوف الحداد، ثم لم يزل الأمر على هذا حتى حضرت السلطان الوفاة، وقرع الموت صفاه، فكان مما أوصى به ردّ الأمر إلى أهله، وإمضاء عهد المستكفي لابنه، وقال: الآن حصحص الحق، وحنا على مخالفيه ورق، وعزل إبراهيم

وهزل، وكان قد رعى البهم، وستر اللؤم بثياب أهل الكرم، وتسمّن وشحمه ورم، وتسمّى بالواثق وأين هو من صاحب هذا الاسم؟ الذي طالما سرى رعبه في القلوب، وأقضّت هيبته مضاجع الجنوب، وهيهات من النسر التماثيل، ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل، وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد، والهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد، وقد عاد الآن يعضّ يديه، ومن يهن يسهل الهوان عليه».

وتوفي الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة من عام ٧٤١ بعد أن أوصى بخلع الخليفة إبراهيم وبيعة أحمد بن المستكفي.

ـ ٥ ـ

الحاكم بأمر الله

أحمد بن سليمان المستكفي

٧٤٢ ـ ٧٥٣

هو أحمد بن الخليفة المستكفي سليمان، ويُكنّى بأبي العباس، ويُلقّب بالحاكم بأمر الله على كنية ولقب جده. وقد تولّى الخلافة في مطلع شهر المحرم من عام ٧٤٢، إذ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أوصى بذلك، وكان الخليفة المستكفي قد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد هذا إذ لم يعترف بخلعه وبيعة ابن أخيه إبراهيم.

ولما تولى أمر السلطنة المنصور سيف الدين أبو بكر بن السلطان الناصر عقد مجلساً يوم الخميس الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١، وطلب الخليفة إبراهيم وولي عهد المستكفي أحمد والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعاً؟ فقال ابن جماعة: إن الخليفة المستكفي المتوفى بمدينة قوص أوصى من بعده بالخلافة لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص، فخلع السلطان حينئذٍ إبراهيم، وبايع أحمد، وبايعه القضاة. وكان لقبه «المستنصر» ثم لقب «الحاكم»[(١)].

وحدث في عهده حدث أن توالى على أمر السلطنة ثمانية من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعضهم بعد بعض في مدة لا تزيد على عشر سنوات.

---

(١) الدرر: ابن حجر.

خلع السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر لفساده وشربه الخمور، ونفي إلى قوص ثم قتل بها، وتسلّم أمر السلطنة بعده أخوه الأشرف علاء الدين كجك، ثم خلع من عامه، وخلفه أخوه الناصر شهاب الدين أحمد، ولم يلبث أن خلع عام ٧٤٣، وقام بالأمر أخوه الصالح إسماعيل، وبقي حتى مات عام ٧٤٦، فقلّد الخليفة بعده أخاه الكامل شعبان، فقتل بعد أقل من عام، فتسلّم أمر السلطنة أخوه المظفر أمير حاج، وقتل بعد أقل من عام، وخلفه أخوه الناصر حسن وحكم ما يقرب من أربع سنوات، وفي عهد هذا السلطان انتشر الطاعون في البلاد بشكل واسع، وفي عام ٧٥٢ خلع الناصر حسن، وولي مكانه أخوه الملك الصالح صالح، واستمر حتى عام ٧٥٥.

ومات الخليفة الحاكم بأمر الله في منتصف عام ٧٥٣ بمرض الطاعون.

ولم يحدث في أيام هذا الخليفة أحداث خارجية ذات شأن، وإنما كانت الأحداث الداخلية هي شاغل الناس، أو أن هدوء الأوضاع الخارجية جعلت الأمراء ينصرفون إلى قضاياهم فيشتغل بعضهم ببعض ولهذا كثر خلع السلاطين وقتلهم، والانتقام من بعض الأمراء.

ـــ ٦ ـــ

المعتضد بالله

أبو بكر بن سليمان المستكفي

٧٥٣ ـــ ٧٦٣

هو أبو بكر بن الخليفة سليمان المستكفي، يُكنّى بأبي الفتح، ويُلقّب بالمعتضد بالله، بويع بالخلافة بعد موت أخيه الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وبقي في الخلافة مدة عشر سنوات إذ توفي عام ثلاثة وستين وسبعمائة في شهر جمادى الأولى، وكان خيّراً، متواضعاً، محباً لأهل العلم.

وقد خلع السلطان الصالح صلاح الدين صالح عام ٧٥٥، وأعيد الناصر حسن، وبقي في السلطنة مدة سبع سنوات ثم قتل عام ٧٦٢، وأعطي السلطنة ابن أخيه المنصور محمد بن المظفر أمير حاج، ولم تمر عليه سوى سنتين حتى خلع.

وبقيت البلاد في شبه عزلة، وكل الاهتمام منصب على الأوضاع الداخلية.

ـ ٧ ـ

المتوكل على الله

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله

٧٦٣ ـ ٧٨٥

هو محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، يُكنّى بأبي عبد الله، ولي الخلافة بعهد من أبيه بعد موته في جمادى الأولى من عام ٧٦٣، واستمرت أيامه مدة اثنتين وعشرين سنة خلع بعدها، وتولى الخلافة اثنان من أبناء عمومته، وهما الواثق بالله بن الواثق بالله إبراهيم، وأخوه المستعصم بن الواثق بالله إبراهيم، ثم أعيد المتوكل على الله عام ٧٩١، وتولى أمر الخلافة مدة سبعة عشر عاماً أي كانت السنوات التي تولى فيها الخلافة تسعاً وثلاثين سنة.

وقد حدث في عهده خلع المنصور محمد عام ٧٦٤ وتولية السلطنة إلى ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون. وفي عام ٧٦٧ استولى الفرنجة ومعهم ملك قبرص على الإسكندرية، وذلك أن الحروب الصليبية لم تنته بطرد الصليبيين من عكا عام ٦٩٠ والانتهاء منهم من كل بلاد الشام أيام الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور قلاوون، ثم طردهم من جزيرة ارواد عام ٧٠٢ أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وإنما استمرت الحروب الصليبية لأن كثيراً من الصليبيين قد لجؤوا إلى جزيرة قبرص بعد طردهم من بلاد الشام، واتخذوا هذه الجزيرة مستقراً لهم، وأخذوا يقومون بالإغارة على بلاد المسلمين كلما وجدوا الفرصة سانحةً لهم، وكانت أسرة لوزجنان التي حكمت الجزيرة في تلك الآونة

تقوم بهذه المهمة، وقد تولى أمر هذه الأسرة وحكم الجزيرة عام ٧٦٠ بطرس الأول، وقد زار غربي أوروبا، ودعا البابا وملوك أوروبا لمساعدته للقيام بحربٍ ضد المسلمين، فحصل على بعض التأييد، وسار مع من جاءه من الصليبيين واحتلوا الإسكندرية.

وفي عام ٧٧٨ قتل الأشرف شعبان، وسُلّمت السلطنة إلى ابنه المنصور علي فبقي في أمره حتى توفي عام ٧٨٣، وتسلّم الأمر من بعده أخوه الصالح حاجي لمدة سنة فخلع بعدها، وأخذ الأمر السلطان الظاهر برقوق، وهو أول المماليك الجراكسة.

أما الخليفة المتوكل فقد أُمر بالخروج إلى مدينة قوص من قبل أمير العساكر أيبك البدري الذي جاء بزكريا بن الخليفة الواثق، وأعطاه الخلافة دون بيعة ولا إجماع، فسافر الخليفة إلى قوص، ثم رجع إلى بيته، وبعد خمسة عشر يوماً عاد إلى الخلافة، وأزيح زكريا، ولم يستقر في مركز الخلافة سوى خمسة عشر يوماً وذلك في عشرين من شهر ربيع الأول من عام ٧٧٩.

وفي عام ٧٨٥ قبض السلطان برقوق على الخليفة المتوكل على الله وسجنه في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم، ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله، وبقي في الخلافة مدة ثلاث سنوات حيث توفي عام ٧٨٨، وطلب الناس من السلطان برقوق إعادة المتوكل على الله فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق والذي جلس على كرسي الخلافة مدة خمسة عشر يوماً دون بيعة عام ٧٧٩، وولاه الخلافة وأُطلق عليه اسم المستعصم بالله، وبقي بالخلافة حتى عام ٧٩١ حيث ندم السلطان برقوق على ما فعل، فأخرج المتوكل على الله من السجن، وأعاد إليه الخلافة، وخلع المستعصم بالله الذي لزم بيته حتى مات. واستمر المتوكل على الله في الخلافة حتى عام ٨٠٨.

وفي شهر جمادى الآخرة من العام نفسه (٧٩١) قُبض على السلطان برقوق، وسُجن في الكرك، وأعيد السلطان الصالح حاجي إلى السلطنة فغيّر

لقبه من الصالح إلى المنصور، ولكنه لم يمكث في السلطنة سوى ثمانية أشهر حيث أخرج السلطان الظاهر برقوق من السجن، وأعيد إلى السلطنة، وخلع المنصور حاجي في شهر صفر من عام ٧٩٢، وانتهى عهد الأسرة القلاوونية بل انقضى حكم المماليك البحرية، وجاء عهد المماليك الجراكسة.

الفصل الثالث

المماليك الجراكسة «البرجية»

٧٩٢ ـ ٩٢٣

١ ـ الظاهر برقوق:	٩ سنوات	٧٩٢ ـ ٨٠١	للمرة الثانية		توفي
٢ ـ الناصر فرج:	٧ سنوات	٨٠١ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٣ ـ المنصور عبد العزيز:	ثلاثة أشهر	٨٠٨ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٤ ـ الناصر فرج	٧ سنوات	٨٠٨ ـ ٨١٥	للمرة الثانية	ابن برقوق	قتل
الخليفة: أعيد	خمسة أشهر	٨١٥ ـ ٨١٥			
٥ ـ المؤيد:	٩ سنوات	٨١٥ ـ ٨٢٤		شيخ الاصطبل	توفي
٦ ـ المظفر أحمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤		ابن المؤيد	خلع
٧ ـ الظاهر ططر:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤			توفي
٨ ـ الصالح محمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٥		ابن الظاهر ططر	خلع
٩ ـ الأشرف برسباي:	١٦ سنة	٨٢٥ ـ ٨٤١			توفي
١٠ ـ العزيز يوسف:	عدة أشهر	٨٤١ ـ ٨٤٢		ابن برسباي	خلع
١١ ـ الظاهر جقمق:	١٥ سنة	٨٤٢ ـ ٨٥٧			توفي
١٢ ـ المنصور عثمان:	أقل من شهر ونصف	٨٥٧ ـ ٨٥٧		ابن الظاهر جقمق	خلع
١٣ ـ الأشرف إينال:	٧ سنوات	٨٥٧ ـ ٨٦٥			توفي
١٤ ـ المؤيد أحمد:	أقل من سنة	٨٦٥ ـ ٨٦٥		ابن الأشرف إينال	خلع
١٥ ـ الظاهر خشقدم:	٧ سنوات	٨٦٥ ـ ٨٧٢			توفي
١٦ ـ الظاهر بلباي:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٧ ـ الظاهر تمربغا:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٨ ـ خير بك:	ليلة واحدة	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٩ ـ الأشرف قايتباي:	٢٩ سنة	٨٧٢ ـ ٩٠١			توفي

٢٠ ـ الناصر محمد:	سنة واحدة	٩٠١ ـ ٩٠٢		ابن الأشرف قايتباي	خلع
٢١ ـ قانصوه:		٩٠٢ ـ ٩٠٣			قتل
٢٢ ـ الناصر محمد:	أعيد	٩٠٣ ـ ٩٠٤	للمرة الثانية	ابن الأشرف قايتباي	قتل
٢٣ ـ الظاهر قانصوه:		٩٠٤ ـ ٩٠٥			خلع
٢٤ ـ جانبلاط:		٩٠٥ ـ ٩٠٦			قتل
٢٥ ـ العادل طومان باي:	عدة أشهر	٩٠٦ ـ ٩٠٦			قتل
٢٦ ـ الأشرف قانصوه الغوري:	١٧ سنة	٩٠٦ ـ ٩٢٢			قتل
٢٧ ـ طومان باي:	أقل من سنة	٩٢٢ ـ ٩٢٣			قتل

موطن الجراكسة هو الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى هذا اليوم، ويقولون هم عن أرضهم بلاد الأديغة إذ أن الأديغة هو الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم، أو يعرف هكذا بلغتهم الخاصة، وتشكل أرضهم الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس الممتدة بين بحري الأسود والخزر والتي كانت تعرف يومذاك باسم بلاد القفجاق، وغدت تلك الجهات آنذاك مسرحاً للصراع بين مغول فارس أو الدولة الإيلخانية ومغول القفجاق أو الأسرة الذهبية، وهذا الصراع جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة، وتنتقل إلى مصر فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية، وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده، وقد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبة إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي وضعوا فيها، وقد حرص المنصور قلاوون على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقت واحد أو أن التربية الدينية لا بدّ من أن يكون من أهدافها التدريب على القتال وحسن استعمال الأسلحة إذ لا يمكن فصل الدين عن أي جانب من جوانب الحياة، ولم يسمح السلطان لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة مطلقاً. فلما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة إليها ليلاً. وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب

رتبٍ عسكرية ومنهم الأمراء والقادة، واستطاعوا أن يتسلموا السلطنة وأن يحكموا البلاد.

ولما كان هؤلاء كلهم بمستوىً واحدٍ لذا فقد سادهم جو من الحسد، كما ساد من سبقهم من المماليك، فكان القتال بينهم، ومحاولة استلام السلطة فما أن يصل أحدهم إلى السلطنة حتى يحاول أن يؤسس أسرةً حاكمةً غير أن آخر لا يلبث أن يقبض على سابقه وخاصة الصغار منهم فيخلعه، أو يقتله ويقوم مقامه.

لقد حكم المماليك الجراكسة مصر، والشام، والحجاز مدة تزيد على إحدى وثلاثين ومائة سنة (٧٩٢ ـ ٩٢٣)، وتعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً، لم تزد مدة الحكم على خمسة عشر عاماً، إلا لأربعة منهم وهم: الأشرف قايتباي، وقد حكم ٢٩ سنة (٨٧٢ ـ ٩٠١)، والأشرف قانصوه الغوري وقد حكم ١٧ سنة (٩٠٦ ـ ٩٢٢)، والأشرف برسباي وحكم ١٦ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤١)، والظاهر جقمق وحكم ١٥ سنة (٨٤٢ ـ ٨٥٧)، وهناك ست سلاطين حكموا عدة سنوات أو أكثر من سنة وهم: الظاهر برقوق وحكم تسع سنوات (٧٩٢ ـ ٨٠١)، وهي المرة الثانية بعد خلع المنصور حاجي من المماليك البحرية أما حكمه في المرة الأولى فتعد ضمن حكم المرحلة السابقة، وابنه الناصر فرج وقد حكم مرتين في كل مرة سبع سنوات (٨٠١ ـ ٨٠٨) (٨٠٨ ـ ٨١٥)، والمؤيد وحكم تسع سنوات (٨١٥ ـ ٨٢٤)، والأشرف إينال وحكم سبع سنوات (٨٥٧ ـ ٨٦٥)، والظاهر خشقدم وحكم سبع سنوات أيضاً (٨٦٥ ـ ٨٧٢).

أما السلاطين الخمسة عشرة الباقون فكانت مدة حكم الواحد أقل من سنة بل إن بعضهم لم تزد مدة حكمه على الليلة الواحدة إذ أن خير بك قد تسلّم السلطنة مساءً وخلع صباحاً وذلك عام ٨٧٢، وأن الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد تسلّم السلطنة مرتين لم يدم حكمه في الأولى السنة (٩٠١ ـ ٩٠٢) وفي المرة الثانية (٩٠٣ ـ ٩٠٤) كذلك وقتل بعدها. هذا بالإضافة إلى أن الخليفة قد تسلم السلطنة خمسة أشهر عام (٨١٥).

ويلاحظ أن السلطان كان يتسلّم الأمر ويحكم مدةً، ويعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصيّاً أو نائباً عنه أو مُدبّراً لأمور المملكة، وهو من المماليك أيضاً، ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة، وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذا لم تكن هناك أسر تولت أمر السلطنة، ولا يستثنى من هذا سوى الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج مدة سبع سنوات، ثم خلع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبد العزيز مدة ثلاثة أشهر فقط، ثم أعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أخرى، وبذا يكون قد تولى ولدان من أبناء السلطان برقوق الأمر، وهذا لم يتم لغيره من سلاطين المماليك الجراكسة هذا بالإضافة إلى أن هذه المدة قد قاربت الخمس عشرة سنة وهذا أيضاً لم يتم لغيره. وقد تكررت هذه الظاهرة سبع مرات (يحكم السلطان ويرثه ابنه لمدة قصيرة لا تصل غالباً إلى السنة). فبالإضافة إلى الظاهر برقوق حدثت مع المؤيد، والظاهر ططر، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف إينال، والأشرف قايتباي، وإذا كان الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد حكم مرتين إلا أنه في كل مرة لم تطل مدته إلى السنة، إذن كانت تتوالى مدة حكم طويلة لسلطانٍ جديدٍ، وتزيد على خمس سنوات، وتنتهي بالوفاة الطبيعية، ويعقبها مدة قصيرة لولده تقل عادةً عن السنة يعقبها الخلع أو القتل.

ويلاحظ في الخمسة السلاطين الأواخر أن نتيجة القتل هي السائدة فقد خلع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلّمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقتل جانبلاط قبل مرور سنة من تسلمه الأمر رغم أنه جديد أيضاً، وخنق العادل طومان باي بعد عدة أشهر، رغم أنه جديد، ولما عرض أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفاً من القتل رغم أن سنه كانت تزيد على الستين، ولم يتسلم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه ولكنه قتل على أيدي العثمانيين بعد أن حكم سبعة عشر عاماً، وكانت عاقبة خلفه طومان باي مثله إذ قتله العثمانيون بعد معركة الريدانية عام ٩٢٣، ودخلوا

القاهرة، وأزالوا المماليك عن السلطنة، وتنازل لهم العباسيون عن الخلافة، وانتقلت بذلك أنظار العالم الإسلامي إلى استانبول التي غدت مركز الخلافة، وتحوّلت عن القاهرة التي أصبحت مدينة عادية كغيرها من حواضر أمصار العالم الإسلامي، ودرجت مع مراكز الخلافة السابقة مثل بغداد، ودمشق.

وإذا كان السلطان الظاهر برقوق قد تسلّم للمرة الأولى مدة ست سنوات (٧٨٥ ـ ٧٩١)، ثم قبض عليه وسجن بالكرك، وأعيد السلطان المنصور حاجي لمدة سبعة أشهر... ثم رجع الظاهر برقوق إلى السلطنة، فإن مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى لم أعدها ضمن تسلّم المماليك الجراكسة الحكم لأن حكمه قد حدث فيه انقطاع وإنما بدأت تدوين أيامهم بعودة الظاهر برقوق للسلطنة في المرة الثانية حيث استمر حكم الجراكسة دون انقطاع حتى انطوتْ أيامهم.

استمر السلطان الظاهر برقوق للمرة الثانية في الحكم حتى توفي عام ٨٠١ في شهر شوال من ذلك العام، وقام من بعده ابنه السلطان فرج، ولُقّب بالناصر، وبقي حتى عام ٨٠٨ حيث خلع في السادس من شهر ربيع الأول، وأُقيم مكانه أخوه عبد العزيز، ولقب بالمنصور، ثم خلع بعد ثلاثة أشهر تقريباً في الرابع من جمادى الآخرة، وأعيد الناصر فرج.

وتوفي الخليفة المتوكل على الله محمد بن المعتضد في الثامن عشر من شهر رجب عام ثمانية وثمانمائة.

وفي عام ٧٩٥ دخل تيمورلنك بغداد وهدد المنطقة، فتشكّل حلف من سلطان المماليك الظاهر برقوق، وأمير سيواس، ومغول القفجاق، والعثمانيين ضد تيمورلنك زعيم التتار، وخرج الظاهر برقوق على رأس حملة عام ٧٩٧ باتجاه بغداد، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد والذي فرّ منها عند دخول تيمورلنك إليها، والتجأ إلى القاهرة، فسار برقوق لإعادته إلى عاصمة ملكه، إلا أنه لم يحدث قتال لأن تيمورلنك كان قد ترك بغداد وعاد إلى الشرق فما كان من الظاهر إلا أن رجع هو الآخر.

وفي عام ٨٠٣ خرج الناصر فرج بن برقوق على رأس حملةٍ إلى بلاد الشام، لكنه ترك جيشه، وعاد إلى مصر، فدخل تيمورلنك دمشق، وسحق الجيش المملوكي.

واتجه تيمورلنك نحو العثمانيين عام ٨٠٥ وانتصر عليهم، وأسر السلطان بايزيد العثماني، وبعد أن سمع الناصر فرج بأنباء هذه المعارك الطاحنة رضخ لشروط تيمورلنك، وضرب النقود باسم تيمورلنك، وإن كان على ما يبدو قد فرح بنفسه على ما تمّ إذ زال الخوف المتوقع من العثمانيين.

وفي الوقت الذي كانت أنظار المماليك تتجه نحو الشرق بسبب هجوم تيمورلنك أغار ملوك قبرص على الإسكندرية عام ٨٠٦، ثم شنوا غارةً على طرابلس في العام التالي.

ـ ١١ ـ[1]

المستعين بالله

العباس بن محمد المتوكل على الله

٨٠٨ ـ ٨١٥

هو العباس بن محمد المتوكل على الله، أبو الفضل، أمه أم ولد تركية اسمها «باي خاتون» بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وتولّى الأمر بعد توفي أبوه في رجب عام ٨٠٨.

ولما قتل الناصر فرج عام ٨١٥ في أثناء قتاله للمحمودي أضيفت إلى الخليفة السلطنة وذلك في مطلع عام ٨١٥ بعد إصرار الأمراء على ذلك، وفوّض الخليفة إلى شيخ تدبير شؤون المملكة، ولقّبه «نظام الملك» ثم سأل شيخ الخليفة أن يفوّض إليه السلطنة فلم يقبل لأن شيخ رفض شرط الخليفة وهو عدم السكن بالقلعة، فأخذ شيخ السلطنة بالقوة وتلقّب باسم «المؤيد»، وأعلن خلع الخليفة المستعين، وبايع أخاه داود بن المتوكل على الله.

ولما بلغ نائب الشام «نوروز» بخلع الخليفة جمع القضاة والعلماء، وسألهم بما جرى، فأجابوا بأن هذا الخلع لا يصح، وهذا ما جعل النائب يخلع الطاعة، وأجمع على قتال السلطان المؤيد الذي انتزع السلطنة بالقوة،

(١) **ملاحظة**: عددت الواثق بالله عمر بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة الثامن. وعددت المستعصم بالله زكريا بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة التاسع. وكان المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله للمرة الثانية هو الخليفة العاشر.

وخلع الخليفة دون ضرورة شرعية. فجمع المؤيد جيشاً وسار إلى الشام لقتاله نائبها، ونقل المستعين إلى الإسكندرية ليسجن هناك، وبقي في السجن حتى عام ٨٢٤ حيث أخرجه السلطان ططر لكنه فضل بقاء إقامته في الإسكندرية، وتوفي عام ٨٣٣.

ــ ١٢ ــ

المعتضد بالله

داود بن محمد المتوكل على الله

٨١٥ ــ ٨٤٥

هو داود بن محمد المتوكل على الله، أبو الفتح، أمه أم ولد تركية تدعى «كزل»، أعطي الخلافة حين خلع المؤيد أخاه المستعين عام ٨١٥.

وفي عهده انطلق السلطان المؤيد إلى الشام لإخضاع نائبها «نوروز» وذلك عام ٨١٧، وتمكّن من الانتصار عليه، وبعد تحقيق هدف الحملة تابع إلى أطراف بلاد الشام الشمالية لإعادة تبعية الإمارات التركمانية إلى الدولة المملوكية، وهذه الإمارات هي: ذو القادر، وقرمان، ورمضان وكانت قد أعلنت انفصالها أو عدم ارتباطها بالقاهرة وذلك في أثناء حركة «نوروز»، واستطاع المؤيد أن يجبرها على العودة إلى التبعية، ولكنها لم تلبث أن نقضت العهد فسار إليها ثانيةً عام ٨٢١، وكانت وجهته «طرسوس» فأسرع أمراء تلك الدويلات وقدموا الطاعة، وعندما رجع عادوا إلى نقض العهد، فسار إليهم عام ٨٢٢ إبراهيم بن المؤيد، واستطاع أن يستولي على قونية وقيصرية، وولى على تلك الإمارات أمراء من قبله، وضمّ طرسوس، وأضنه إلى دولة المماليك.

وتوفي السلطان المؤيد عام ٨٢٤ في شهر المحرم فقلّد السلطنة ابنه أحمد ولُقّب بالمظفر، وأعطي الأمير «ططر» تدبير شؤون المملكة، وبعد مرور سبعة أشهر أي في شهر شعبان قبض «ططر» على السلطان المظفر وخلعه، وتسلّم هو مقاليد السلطة، فقلّده الخليفة السلطنة، وتلقّب باسم

الظاهر، وكان عمله أن أخرج الخليفة السابق «المستعين بالله» من سجن الإسكندرية، وسمح له بالعودة إلى القاهرة، ولكن المستعين فضل الإقامة في الإسكندرية، وبدأ يعمل في التجارة حتى توفي عام ٨٣٣.

ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى توفي الظاهر ططر في شهر ذي الحجة من العام نفسه (٨٢٤)، فقلّد الخليفة أمر السلطنة لابن ططر محمد، وقد اختار لنفسه لقب «الصالح»، وجعل شؤون المملكة للأمير «برسباي».

وبعد أربعة أشهر أي في شهر ربيع الثاني من عام ٨٢٥ خلع الأمير برسباي من السلطنة الصالح ابن ططر، وتسلّم شؤونها، وقلّده الخليفة أمرها، فاتخذ لقب الأشرف.

أرسل الأشرف برسباي حملةً استطلاعيةً إلى جزيرة قبرص، وقد اتجهت إلى ميناء «ليماسول» وذلك عام ٨٢٧ كردٍ على الحملات التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الردّ، وفي العام التالي ٨٢٨ أرسل حملةً ثانيةً وكانت جهتها في هذه المرة إلى مدينة «فاما غوستا»، وقد أحرزت النصر، ومكثت أربعة أيام، ثم اتجهت إلى مدينة «ليماسول»، وتمكنت من فتحها بعد جهد، ثم رجعت الحملة إلى مصر.

وبعد عام خرجت حملة جديدة سارت نحو «ليماسول» ففتحتها، ثم اتجهت نحو الداخل فالتقت بجيشٍ كبيرٍ يقوده ملك قبرص «جانوس» بنفسه فجرت معركة طاحنة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، وساروا نحو نيقوسيا... ثم رجعوا إلى مصر والملك معهم أسير، وفي القاهرة فدى الملك نفسه ووافق على أن تكون قبرص تابعةً لدولة المماليك، وبقيت بعدها كذلك مدة بقاء الدولة المملوكية وبذا انتهى الأثر الصليبي نهائياً إذ بقي الصليبيون في قبرص بعد طردهم من بلاد الشام.

كان تيمورلنك قد توفي عام ٨٠٨ فتصدّعت امبراطوريته الواسعة التي أسسها، وقام بعده ابنه «شاه رخ»، واستطاع أن يستعيد مدينة سمرقند، ورغب أن يُحسّن علاقته مع دولة المماليك فأرسل إلى برسباي عام ٨٣٢ وفداً يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض الكتب إليه ومنها كتب ابن حجر العسقلاني. ولم يعط الأشرف برسباي جواباً، فأعاد «شاه رخ» الطلب في العام نفسه، ولم يحظ بجواب. وفي عام ٨٣٩ طلب «شاه رخ» السماح له بزيارة القدس، وجدد الطلب في العام التالي (٨٤٠)، ولم يتلق في الطلبين أي ردّ فاتجه عندها «شاه رخ» لتأليف حلف ضد المماليك من العثمانيين وأمراء التركمان.

وبالنسبة إلى إمارات التركمان على أطراف بلاد الشام، فقد أرسل الأشرف برسباي حملةً إلى إمارة «الشاة البيضاء» عام ٨٣٣ استطاعت تهديم مدينة الرها، وبدأ بعدها النفوذ العثماني يقوى في تلك الإمارات.

أما بالنسبة إلى جزيرة رودوس القريبة من السواحل التركية فقد غدت عام ٧١٠ قاعدةً لفرسان الاستبارية، فعندما انسحب الصليبيون من بلاد الشام أو طردوا عام ٦٩٠ انتقل هؤلاء الفرسان إلى جزيرة قبرص، وقد لعبوا دوراً مهماً في الحرب الصليبية، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودوس واتخذوها قاعدةً لهم، وعندما غزا الأشرف برسباي قبرص، وأخضعها لنفوذ المماليك خشي الاسبتاريون من ذلك، فأسرع فلوفيان أمير الاسبتاريين وأرسل الهدايا للسلطان برسباي الذي كان في نيته غزو رودوس لكن عهده لم يطل إذ توفي في شهر ذي الحجة من عام ٨٤١. فقلد الخليفة السلطنة إلى يوسف بن برسباي الذي لُقّب بالعزيز، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير جقمق، وبعد ثلاثة أشهر (ربيع الأول ٨٤٢) خلع جقمق من السلطنة العزيز يوسف بن برسباي، وتسلّم هو أمرها، وتلقّب باسم الظاهر، وقلّده الخليفة. وكان عهد برسباي عهد استقرار، وقوة، وغزو ولكن الحالة الاقتصادية كانت متأخرة.

كان السلطان الظاهر جقمق تقياً ورعاً، منع المعاصي وشرب الخمور.

وجاءت رسل «شاه رخ» ابن تيمورلنك لتهنئة جقمق، فاستقبل الرسل، وأحسن وفادتهم.

وفي عام ٨٤٣ أغارت أربع سفن لقراصنة النصارى على مدينة رشيد على الساحل المصري، فاتجهت الشبهة نحو أمراء الاستباريين في رودوس، فجهز الظاهر جقمق حملةً عام ٨٤٤ وغزا رودوس، وخاصةً أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرّض الظاهر جقمق للقيام بهذا الغزو، وأسرع أمراء الاستباريين إلى أوربا يطلبون النجدات الصليبية منها.

وفي عام ٨٤٥ توفي الخليفة المعتضد بالله داود، وكان من سروات الخلفاء، نبيلاً، ذكياً، فطناً، يجالس العلماء والفضلاء ويستفيد منهم، ويشاركهم فيما هم فيه، جواداً، سمحاً للغاية(١).

---

(١) تاريخ الخلفاء.

ـ ١٣ ـ

المستكفي بالله

سليمان بن محمد المتوكل على الله

٨٤٥ ـ ٨٥٤

هو سليمان بن محمد المتوكل على الله، أبو الربيع، بويع بالخلافة بعهد من شقيقه المعتضد بالله. وكان الظاهر جقمق يعرف حق المستكفي بالله.

وفي عهده سمح الظاهر جقمق لملك التتار «شاه رخ» بكسوة الكعبة عام ٨٤٧، ثم عاد فنزعها لأن المسلمين وخاصة العوام منهم لم يقبلوا ذلك، وكذلك بعض المماليك لما في تاريخ التتار من سوء وقتال للمسلمين وتهديم لديارهم وهتك أعراضهم، ولم ينس بعد ذلك التاريخ.

وغزا الظاهر جقمق جزيرة رودوس مرتين أيضاً في عهد المستكفي مرةً سنة ٨٤٧، ومرةً في العام الذي تلا (٨٤٨)، هذا بالإضافة إلى الغزوة التي تمت في عهد المعتضد عام ٨٤٤، ولكنه لم يوفق في فتحها وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوربا.

وثار على الظاهر جقمق أتابك مصر قرقماس الشعباني، ونائب الشام، وقام العبيد بفتنة في منطقة الجيزة، غير أنه تمكّن من القضاء عليها جميعها.

وتوفي الخليفة يوم الجمعة الثالث من شهر ذي الحجة عام ٨٥٤، وتولّى بعده أخوه القائم بأمر الله.

ــ ١٤ ــ

القائم بأمر الله

حمزة بن محمد المتوكل على الله

٨٥٤ ــ ٨٥٩

هو حمزة بن محمد المتوكل على الله، أبو البقاء، القائم بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الذي لم يعهد بالخلافة إلى أحد من بعده، وهو شقيق المستعين بن المتوكل على الله.

كان شهماً صارماً، أقام أبهة الخلافة مدة حكمه، وعنده جبروت على خلاف بقية إخوته.

توفي الظاهر جقمق في مطلع عام ٨٥٧، فقلد الخليفة ابنه «عثمان» أمر السلطنة، وحمل لقب المنصور، وكان مدبر شؤون الدولة الأمير «إينال»، وبعد شهر ونصف من تسلّم المنصور السلطنة خلعه الأمير «إينال»، وتسلّم مكانه، فما كان من الخليفة إلا أن قلّد «إينال» أمر السلطنة في شهر ربيع الأول من عام ٨٥٧، وأخذ لقب «الأشرف».

اختلف السلطان «إينال» مع الخليفة «القائم بأمر الله» فقبض السلطان على الخليفة في شهر جمادى الأولى وسجنه في الإسكندرية وبقي فيها حتى مات عام ٨٦٣، ودفن هناك. ثم بايع السلطان أخا الخليفة الآخر، وهو المستنجد بالله.

ـ ١٥ ـ

المستنجد بالله
يوسف بن محمد المتوكل على الله
٨٥٩ ـ ٨٨٤

هو يوسف بن محمد المتوكل على الله، أبو المحاسن، المستنجد بالله، وهو الخليفة الخامس من أبناء المتوكل على الله، ولي أمر الخلافة بعد خلع أخيه القائم بأمر الله.

كان السلطان هو الأشرف إينال إلا أن الاضطرابات قد استمرت عليه طيلة حكمه، وقد توفي عام ٨٦٥، فقلّد الخليفة من بعده ابنه أحمد والذي أخذ لقب «المؤيد»، ولم تمض مدة حتى وثب على المؤيد الأمير خشقدم، وخلعه، واستبد بالأمر، فقلّده الخليفة اسم السلطنة في شهر رمضان من العام نفسه، وأخذ لقب الظاهر سيف الدين خشقدم.

استمر السلطان الظاهر خشقدم في السلطنة مدة سبع سنوات، وتوفي في شهر ربيع الأول من عام ٨٧٢، فقلّد الخليفة الأمير «بلباي» الذي أخذ لقب سلفه الظاهر سيف الدين، ولكن لم يلبث سوى شهرين حتى وثب عليه الجند وخلعوه، فقلد الخليفة الأمير «تمربغا» فحمل لقب «الظاهر» أيضاً، وبعد شهرين من تسلّمه السلطنة وثب عليه الجند أيضاً وخلعوه. وأعطيت السلطنة للأمير خير بك مساءً وفي الصباح خلعه الجند. ثم تقلّد السلطنة الأمير «قايتباي»، فأخذ لقب الأشرف فاستقر له الأمر مدة تسعة وعشرين عاماً، وأخذ الأمور بحزم فدانت له، ونتيجة الاستقرار الذي عمّ أيامه فقد انصرف إلى إنشاء الطرق، والجسور، والمدارس، والمساجد، كما

انصرف إلى الشؤون الخارجية فقد أرسل عدة حملات ضد إمارة (ذو القادر) التركمانية التي تقع على أطراف بلاد الشام بين البلاد التي تدين للعثمانيين والبلاد التي تخضع للمماليك، فقد أرسل حملة عام ٨٧٦ ضد (شاه سوار) زعيم هذه الإمارة، وكان السلطان العثماني محمد الفاتح يدعم أمير التركمان هذا ويؤيده، واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على «عينتاب» و «أضنه» و «طرسوس»، وأن تأسر (شاه سوار) نفسه، وحمل إلى القاهرة، وقد شنق على باب زويله عام ٨٧٧. وكان قائد الحملة الأمير «يشبك»، قد عيّن الأمير «بوداق» أميراً على دولة (ذو القادر) وهو من الذين يعتمد عليه المماليك ويؤيدونه.

وفي عام ٨٧٧ قاد الأمير يشبك أيضاً حملة ضد الدولة التركمانية الثانية (الشاة البيضاء) التي كان أميرها آنذاك حسن الطويل، وكان قد أغار على ضواحي حلب، وقد تمكن الأمير يشبك من إحراز النصر في معركة البيرة على نهر الفرات. وتوفي الأمير حسن الطويل عام ٨٨٣، وخلفه ابنه يعقوب أمير الرها.

وفي عام ٨٨٤ توفي الخليفة المستنجد بالله في الرابع عشر من شهر المحرم، بعد أن أصابه الفالج، وبقي مريضاً بسببه مدة شهرين، وخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن يعقوب.

ـ ١٦ ـ

المتوكل على الله «الثاني»

عبد العزيز بن يعقوب

٨٨٤ ـ ٨٩٣

هو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل، أبو العز، المتوكل على الله. ولد سنة تسع عشرة وثمانمائة، وأمه تدعى «حاج ملك» بنت أحد الجنود. كان محبوباً بين الخاصة والعامة لما امتاز به من أدبٍ وأخلاقٍ وتواضعٍ، وبشاشة لكل واحد.

تولى خمسة من أبناء المتوكل على الله محمد الخلافة، ولم يليها ابنه السادس يعقوب والد هذا الخليفة، ولما مرض عمه بالفالج، وطال مرضه عهد إليه بالخلافة من بعده، فلما توفي المستنجد بويع بها في يوم الاثنين السادس عشر من شهر محرم من عام ٨٨٤.

وفي عام ٨٨٥ قاد الأمير «يشبك» حملة إلى جهات التركمان، فالتقى مع أمير دولة (الشاة البيضاء) فهُزم المماليك، وأُسر «يشبك» وقُتل على شاطئ نهر الفرات، ثم عقد السلطان «قايتباي» صلحاً مع إمارة (الشاة البيضاء).

وتوفي الخليفة عام ٨٩٣، وعهد لابنه المستمسك بالله.

ـــ ١٧ ـــ

المستمسك بالله

يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله

٨٩٣ ـــ ٩١٤

هو يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعهد من أبيه عام ٨٩٣، وفي عهده توفي الأشرف قايتباي عام ٩٠١، وكان قد تنازل لابنه محمد قبل موته بيوم واحد، فقلّد ابنه محمد السلطنة، فتلقّب باسم الناصر، غير أنه لم يلبث أن عزل بعد عدة أشهر إذ كان صغيراً لم يزد عمره على الأربع سنوات، فقلّد الخليفة الأمير قانصوه، غير أن الجند قد وثبوا عليه، وقتلوه بعد مرور سنة على تسلمه السلطنة، وأعيد الناصر محمد بن قايتباي ثم لم يلبث أن قتل بعد أشهر من إعطائه السلطنة، وقام الظاهر قانصوه خال السلطان قانصوه الذي قتل قبل إعادة الناصر محمد بن قايتباي، لكنه عزل بعد أشهر أيضاً، وقام بأمور الدولة الأمير «جان بلاط» فقلّده الخليفة، وأخذ لقب الأشرف.

أعلن نائب الشام الأمير «قوصروه» العصيان فأرسل له الأشرف «جان بلاط» حملة بقيادة الأمير «طومان باي» ومعه الأمير «قانصوه الغوري»، ولما وصل «طومان باي» إلى الشام اتفق مع الأمير «قوصروه» على الغدر بالأشرف «جان بلاط» والسير إلى مصر معاً، وقتال «جان بلاط»، وتعيين «طومان باي» سلطاناً، وزحفوا فعلاً على مصر، وقبضوا على «جان بلاط»، وخنقوه بالإسكندرية، وأعلنوا تعيين «طومان باي» سلطاناً باسم الملك العادل، كما عينوا الأمير «قوصروه» أتابكاً للجند. لكن العادل «طومان باي»

لم يلبث أن غدر بصديقه «قوصروه» وقتله. وبدأت مرحلة من الظلم، فنفر الجند من العادل، وبدؤوا يتآمرون عليه فهرب واختفى عن الأنظار.

اتجهت الأنظار إلى الأمير «قانصوه الغوري» لتعيينه سلطاناً، فهو كبير السن إذ يقال: إنه من مواليد ٨٥٠، وكان مملوكاً للأشرف قايتباي، ثم أعتقه بعد أن أظهر شجاعةً فائقةً، وجعله من خاصة أتباعه، وعيّنه عام ٨٨٦ حاكماً للوجه القبلي، ونائباً على طرسوس، وحاجب الحجاب في حلب عام ٨٩٤، فلما عرضت عليه الإمارة رفض ذلك وبكى، إذ لاحظ ما آل إليه أمر المماليك، وقتل بعضهم لبعض، غير أنهم أصروا على تعيينه فاشترط دعمه وعدم التآمر عليه فوافقوا على ذلك. وقلّده الخليفة السلطنة في شوال عام ٩٠٦، وكان قد قارب الستين من العمر، وتلقّب باسم الأشرف، وكانت كنيته أبا النصر.

تابع الأشرف قانصوه الغوري السلطان العادل طومان باي حتى قبض عليه حيلةً، وقتله، وعين في الدولة الأمراء الذين يثق بهم، وحصّن الإسكندرية ورشيد، وأصلح القلعة، وحفر الترع، وأكثر من المماليك واعتنى بهم. ووطد الأمن والاستقرار.

وفي عهده أغار الاسبتاريون من رودوس على مصر عام ٩١٤، فردّهم.

ووصل البرتغاليون الصليبيون إلى سواحل بلاد العرب، ودخلوا إلى البحر الأحمر، فجهز السلطان الأشرف قانصوه الغوري حملةً جعل قيادتها لحسين الكردي، وسلّمه نيابة جده، فأبحرت من السويس عام ٩١١، واستطاعت أن تهزم البرتغاليين على الشواطئ الهندية عام ٩١٤، وأن تغنم غنائم كثيرة.

وفي عام ٩١٤ شعر الخليفة بالتعب فتنازل لابنه محمد، وبقي حتى دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣، وقد نقل ابنه إلى حاضرة العثمانيين. أما هو فلم ينقل لكبر سنه، وبقي حتى توفي عام ٩٢٧.

ـ ١٨ ـ

المتوكل على الله «الثالث»

محمد بن يعقوب المستمسك بالله

٩١٤ ـ ٩٢٣

هو محمد بن يعقوب المستمسك بالله، تنازل له أبوه عن الخلافة عام ٩١٤، وبقي حتى تنازل للسلطان العثماني سليم الأول، وبذا يكون آخر خلفاء بني العباس، وانتقل إلى استانبول مع السلطان العثماني بناءً على رأي الخليفة الجديد سليم الأول، وبعد مدة سمح له بالعودة إلى مصر، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٥٠.

وفي عهد الخليفة المتوكل على الله «الثالث»، كان السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري. وقد حدث أن أغار الصليبيون الاسبتاريون على مصر عام ٩١٥، ولكنهم هزموا، وأعادوا الغارة عام ٩١٦، وقتلوا «محمد بيك»، فكان لذلك الأثر الكبير على نفسية الغوري حتى أنه قبض على رهبان كنيسة القيامة في القدس ووبخهم. وفي عام ٩١٧ أغاروا على سواحل البرلس فداهمهم حامد المغربي، وهزمهم، وأسر مائتين منهم وساقهم إلى القاهرة.

أما بالنسبة إلى البرتغاليين فقد هزم الأسطول المملوكي في معركة «ديو» قرب السواحل الهندية بعد الانتصار الذي أحرزه في العام السابق ٩١٤، وعاد حسين الكردي إلى مصر بعد غياب سبع سنوات فوصل إلى السويس عام ٩١٨، واستطاع البرتغاليون الاستيلاء على شبه جزيرة كوجرات في الهند، ودخلوا إلى البحر الأحمر، وحاصروا ميناء سواكن. فأبحرت

حملة من السويس بقيادة حسين الكردي أيضاً عام ٩٢١، وفيها سلمان العثماني معاوناً لحسين الكردي وفي رجب من عام ٩٢٢ اختلف سلمان العثماني وحسين الكردي فقتل الأول الثاني منهما. وفي هذه الأثناء بدأ العثمانيون يتحركون في الشمال.

أما بالنسبة إلى الدولة الصفوية التي قامت في تبريز في أذربيجان فقد كانت علاقتها سيئة مع المماليك إذ قامت على فكر شيعي معاد للإسلام من أهل السنة على الأقل، وقد استطاع إسماعيل شاه الصفوي عام ٩١٦ أن يدخل بغداد، ويخلصها من ملكها مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل التركماني، ففر مراد خان، والتجأ إلى مصر.

وفي العام نفسه (٩١٦) أرسل إسماعيل الصفوي رسلاً من قبله إلى بعض ملوك الفرنجة يحرّضهم على غزو مصر، وقتال الغوري، وخاصة أن صلةً كانت بين الصفّويين والبرتغاليين. والمماليك يومذاك ألد أعداء البرتغاليين، وهم الذين وقفوا في وجههم ودخلوا معهم في حروب طاحنةٍ. وأراد البرتغاليون يومذاك الإفادة من الخلاف القائم بين الصفويين لتشيّعهم وبقية المسلمين في المنطقة، وقد وجدوا ضالتهم في الصفويين الذين استجابوا لهذه الرغبة وعملوا على التحرك باتجاه الغرب.

وفي العام نفسه (٩١٦) انتصر الصفويون على التتار، وقتلوا ملكهم «أوزبك خان» وابنه، وفي سبيل تهديد المماليك أرسل الشاه إسماعيل الصفوي رأس «أوزبك خان» ورأس ابنه ضمن علبة إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وبدأ الصفويون يتحركون نحو الغرب، ووصلت طلائع جيوشهم عام ٩١٨ إلى «البيرة» على نهر الفرات، شمال بلاد الشام (ضمن الحدود التركية اليوم)، ومع أن القتال أو الحرب الباردة التي كانت دائرةً يومذاك كانت فكريةً بل دينيةً سواء أكانت من ناحية البرتغاليين أم من ناحية الشيعة أصدقاء أو حلفاء البرتغاليين فإن سادة مصر يومذاك لم يحسنوا التصرف وخاصة السلطان الأشرف قانصوه الغوري سيد الموقف في مصر والشام إذ أراد الوقوف على الحياد فكانت النتيجة أن قضي عليه ودالت دولته، وزالت الخلافة العباسية من مصر، وانتقلت أنظار المسلمين من

القاهرة إلى استانبول التي أصبحت مركز الخلافة وحاضرة المسلمين وبذا فقد ورثت القاهرة.

وأما بالنسبة إلى الدولة العثمانية فقد كانت العلاقة حسنة بينها وبين دولة المماليك في مصر والشام، وقد ازينت القاهرة عام ٨٥٧ بأمر من السلطان إينال بمناسبة فتح العثمانيين للقسطنطينية، وكانت القاهرة ترسل وفداً إلى استانبول بعد كل نصر أو عند تولية سلطان. وتعكرت العلاقات بين الدولتين عام ٨٦٥ عندما وصل السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم إلى السلطنة، وفي عام ٨٦٩ مات أميرا دولتي (ذو القادر) و (قرمان) التركمانيتين فعيّن العثمانيون عليهما أميرين من غير أنصار المماليك. ومع هذا الخلاف الذي بدأ يظهر بين العثمانيين والمماليك فقد فرّ إلى القاهرة الأمير «جم» أخو السلطان العثماني بايزيد الثاني، وفي الوقت نفسه فقد آوت استانبول بعض الأمراء الفارين من مصر والشام.

لقد أرسل السلطان قايتباي حملة ضد إمارة (ذو القادر) عام ٨٧٦ استطاعت أن تستولي على هذه الإمارة، وأن تأسر أميرها (شاه سوار)، الذي نقل إلى القاهرة حيث أعدم على باب زويلة، وأن تعيّن الأمير بوداق مكانه وهو من الذين يناصرون المماليك. وفي العام التالي انتصر المماليك على حسن الطويل أمير دولة (الشاة البيضاء) في معركة البيرة على نهر الفرات.

لقد ثار ابن (شاه سوار) على عمه (علي دولات) الذي يؤيده المماليك، ودعم السلطان سليم العثماني ابن (شاه سوار) وهاجم علي دولات وهذا ما وطد الصلة بين المماليك وعلي دولات. وعندما دخل الصفويون بغداد فرّ ملكها من التركمان إلى القاهرة مقر دولة المماليك رغم أن جده حسن الطويل كان قد قاتل المماليك.

لقد أثارت تصرفات الصفويين السلطان سليم الأول العثماني فآثر ترك أوربا والتوجه نحو الصفويين لقتالهم. ويمكن أن أقول: إن أوربا كانت تدعم الإسبان والبرتغاليين منذ مدة حتى استطاعوا طرد المسلمين من الأندلس عام ٤٩٧، وبقيت تدعمهم بعد ذلك، وعندما قام العثمانيون

يقاتلون الأوروبيين، ويتقدمون من جهة الشرق رأت أوربا الوقوف في وجه العثمانيين بقوة وقطع المساعدة عن الإسبان والبرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الأندلس، وعندما وصل البرتغاليون إلى جنوب بلاد العرب ودخلوا الخليج العربي رأوا أن يحركوا الصفويين ضد العثمانيين من الشرق ليخفّ ضغط العثمانيين عن أوربا. فلما اشتد ضغط الصفويين على الشرق العثماني، وتحريض ملوك أوربا ضد المماليك، ومحاولة نشر الشيعة فضّل السلطان العثماني ترك أوربا والتوجه نحو الشرق لتأديب الصفويين. واعتقد أن المماليك سيكونون عوناً له في مهمته هذه لأن العثمانيين يقاتلون الصفويين الشيعة أعداء العثمانيين والمماليك معاً. وأن العثمانيين إنما يقاتلون الأوربيين النصارى الذين يدعمون البرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الغرب، ويريدون دخول البحر الأحمر، وتهديد المدينة المنورة، ونبش قبر رسول الله ﷺ كي يتسلموا القدس. والمماليك يقاتلون البرتغاليين، ويدافعون عن بلاد المسلمين فالمصلحة الإسلامية العثمانية والمملوكية واحدة، غير أن العثمانيين عندما عرضوا مشروعهم لقتال الصفويين على المماليك، وقف المماليك على الحياد حسب رأيهم إلا أن الحياد ذاك معناه تقوية الخصوم وهم الصفويون بل والبرتغاليون الذين وراءهم وحلفاؤهم وعندما رأى العثمانيون هزيمة المماليك أمام البرتغاليين كان عليهم أن يقوموا بواجبهم فيقفوا أمام البرتغاليين، فأضمر السلطان سليم في نفسه رغبته بالقضاء على المماليك إذا استطاع إحراز النصر على الصفويين.

تحرك السلطان سليم العثماني من أوربا، واتجه نحو الشرق لقتال الصفويين غير أن علي دولات أمير دولة (ذو القادر) قد تصدّى لطلائع الجيش العثماني، ولما كان هذا الأمير من أنصار المماليك لذا اقتنع السلطان العثماني بأن هذا العمل إن هو إلا من تحريض المماليك، فما كان من السلطان العثماني إلا أن داهم التركمان، وقتل علي دولات وولي مكانه ابن (شاه سوار)، وتابع نحو الصفويين فانتصر عليهم، ودخل عاصمتهم مدينة تبريز عام ٩٢٠ بعد معركة (جالديران) المشهورة، وبعد هذا النصر بدأ يستعد لقتال المماليك، ولقد ضم السلطان العثماني إليه الجزيرة وإمارة (ذو

القادر) إلى الدولة العثمانية عام ٩٢١، وبدأ يتصل بنواب المماليك في بلاد الشام.

أحسّ السلطان الغوري بمشروع السلطان سليم فجهّز حملةً وقادها بنفسه وانطلق إلى بلاد الشام، وتوجه شمالاً، وانطلق من حلب إلى مرج دابق في الشمال الغربي من حلب حيث التقى مع السلطان سليم، ورتب السلطان الغوري جيشه فكان هو في القلب، وعلى ميمنته نائب دمشق جان بردي الغزالي، وعلى ميسرته نائب حلب خاير بيك، وتقدّم للقتال، وأحرز النصر في الجولة الأولى، وحمل العثمانيون ثانيةً، وانضم إليهم نائب حلب خاير بيك وبعض الأمراء فنالوا النصر، وقتل الغوري في ميدان المعركة، وتقدم العثمانيون فدخلوا حلب وبقية مدن بلاد الشام دون مقاومة بل أحياناً كثيرة كانوا يستقبلون استقبالاً حاراً حيث ينظر إليهم نظرة احترام على أنهم توغلوا في أوربا، وضربوا الدولة الصفوية الشيعية، ويرغبون في منازلة البرتغاليين الذين يهددون المسلمين بل ومقدسات المسلمين أيضاً، وربما كانت هذه من دعايات العثمانيين التي روّجوها، وأطلقها أنصارهم لأننا لا نستطيع أن نعد الشعب كان يومذاك يعرف هذه الحقائق، ويدركها تماماً وإن كانت صحيحة، وتابع السلطان سليم العثماني تقدمه حتى مصر فوقف في وجه نائب السلطان الغوري الأشرف طومان باي، وجرت معركة بين الطرفين على أبواب القاهرة هي معركة الريدانية التي قتل بها الأشرف طومان باي، ودخل إثرها السلطان سليم القاهرة فبايعه أهلها، وتنازل له آخر خليفة عباسي، وهو المتوكل على الله، كما جاء إليه أشراف الحجاز فبايعوه فتسمى باسم خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين، وعاد بعدها إلى حاضرة ملكه استانبول بعد أن أخذ معه الخليفة العباسي المتوكل على الله، والصناع المهرة، والتجار بينما ترك والد الخليفة في القاهرة نتيجة كبر سنه، وفقد بصره. وبذا زالت دولة المماليك، وانتهت الخلافة العباسية من مصر بعد أن دامت ٢٦٤ سنة (٦٥٩ ـ ٩٢٣)، وكانت قد انقضت أيامها من بغداد قبل ذلك بأربع سنوات. وهكذا انطوت صفحة من تاريخ الخلافة في القاهرة لتفتح صفحة جديدة من تاريخ الخلافة في استانبول.

الباب الثاني

جزيرة العرب

ضعف مركز الجزيرة العربية في العصر العباسي، ويلفت النظر فيه قيام حركات في الحجاز ضد العباسيين وخاصةً حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهدأت الأوضاع بعد معركة فخ التي حدثت عام ١٦٩ في وادي فخ أحد أودية مكة، ورجعت الجزيرة إلى الظل حتى قامت حركات القرامطة فاتجهت الأنظار نحوها، وهي مشمئزة من أفعال تلك الحركات وتصرفاتها وفساد عقيدتها، وسواء تلك التي قامت في البحرين وزعيمها أبو سعيد الجنّابي وأولاده من بعده، أم تلك التي قامت في اليمن وزعيمها علي بن الفضل، أم تنقلات قرامطة البحرين في أرجاء الجزيرة باستثناء عسير ووصولها إلى بلاد الشام وحتى أطراف مصر، ثم انتهت تلك الحركات، والدول التي أقامتها أو دعمتها، ولم تكن الدول التي قامت في بلاد اليمن بذي شأن.

أما في مرحلة حكم المماليك فقد ارتفع شأن جنوب غربي الجزيرة في بلاد اليمن إذ قامت هناك دولتان ذواتا شأن هما دولة بني رسول، ودولة بني طاهر التي جاءت بعد الأولى، ودامت أيامها طيلة هذه المرحلة (٦٥٦ - ٩٢٣). أما في أواخر المرحلة فقد اتجهت أنظار المسلمين عامة إلى أطراف الجزيرة الجنوبية الغربية، والجنوبية، والشرقية أو اليمن، وعُمان، والبحرين وذلك لأن هذه المناطق قد تعرّضت لغزو صليبي رفع شعار التجارة والسيطرة على المراكز التجارية، والحصول على الموارد الإنتاجية، وكانت حقيقته ودوافعه الحقد الصليبي، ذلك هو الغزو البرتغالي الذي جاء منذ مطلع القرن العاشر، واستمر إلى نهايته.

هذا الغزو أعاد للجزيرة بعض أهميتها لما فعله، ولما أعلن عنه من مخططات هدفها القضاء على الإسلام، والسيطرة على الأماكن المقدسة لإجبار المسلمين على تسليم القدس للنصارى، وهذا ما جعل المسلمين يعملون للدفاع عن هذا الجزء لما له من أهمية في نظر المسلمين إذ به مقدساتهم، وكان اندفاع المماليك، ثم اندفاع العثمانيين بعدهم، واتجه المسلمون معهم إلى ميدان المعارك بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين، وعاد السكان يؤدون بعض دورهم المنوط بهم، وكانت البحرين، وكانت عمان، وكانت اليمن ساحات معارك عظيمة في أهميتها.

الفصل الأول

الحجاز

ضعف شأن الحجاز منذ العصر العباسي الثاني، وأصبح تابعاً لغيره، ولم تعد تقم فيه تلك الحركات ذات الصدى الواسع. لقد وصل نفوذ الأخيضريين إلى الحجاز عام ٣٣٥، ثم خضع لسيطرة القرامطة عام ٣٥٠، الذين أنهوا حكم الأخيضريين في الحجاز على حين أبقوه في اليمامة. وجاء الفاطميون عام ٣٥٩، واستمروا حتى أنهى نفوذهم السلاجقة عام ٤٦٣، ثم جاء الأيوبيون عام ٥٦٧، وقد ألغى صلاح الدين المكوس عن الحجاج، وعوض عن ذلك لشريف مكة، كما أبطل داود سيف الإسلام طغتكين بن أيوب نداء حي على خير العمل الذي كان معمولاً به منذ عهد الأخيضريين، ثم امتد نفوذ المماليك عام ٦٥٠، واستمر حتى جاء العثمانيون عام ٩٢٣، وإن كان نفوذ بني رسول في اليمن يصل أحياناً إلى مكة، أو يتدخل سلاطين بني رسول في شؤون الأشراف، هذا بالنسبة إلى التبعية العامة أو دعاء الخطباء في الجمع والأعياد والمناسبات، أما بالنسبة إلى السلطة الفعلية فقد كانت بيد أسر، تنتسب أو تدعي الانتساب إلى الحسن أو الحسين أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وتعد نفسها عمالاً لأصحاب السلطة في بغداد أو القاهرة، فقد تسلم بنو موسى السيطرة على الحجاز عام ٣٥٩ مع مجيء النفوذ الفاطمي، وكانوا عمالاً لأصحابه، وجاء بنو هاشم (بنو فليتة) عام ٤٥٣، وفي أواخر أيامهم ساءت سيرتهم إذ أكثروا الفساد، وشاركوا في نهب قوافل الحجاج، واختلفوا فيما بينهم، إذ وقع القتال بين آخرهم وهو مكثر وبين أخيه داود، فتدخل الأيوبيون،

وطلبوا من الخليفة عزله ففعل، غير أن مكثر عاد وفرض نفسه حتى مات عام ٦٠٠. وقدم من ينبع إلى مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى الذي ينتمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما عام ٥٩٨، واستطاع أن ينهي حكم الهواشم، وأن يسيطر على مكة، ويؤسس أسرة استلمت شرافة مكة، وتبعث إلى الأيوبيين، ثم إلى المماليك فالعثمانيين، واستمرت في نفوذها حتى عام ١٣٤٢هـ. وبعد وفاة قتادة وقع الخلاف بين ولديه الحسن وراجح عام ٦١٧، فأرسل الملك المسعود بن الكامل الأيوبي جيشاً هاجم الحسن عام ٦٢٠، ففر الحسن إلى الشام، ومنها إلى العراق، ودخل بغداد، ومات فيها عام ٦٢٢، وأصبح طغتكين الأيوبي نائب الملك العادل على مكة، واستمر ذلك حتى عام ٦٣٠ حيث استطاع الشريف راجح بن قتادة استردادها بمساعدة آل رسول حكام اليمن، وقبل راجح أن يكون تابعاً تحت سيطرة بني رسول إذا ما أخرجوا طغتكين من مكة. وشهد تاريخ مكة والمدينة بعد وفاة الملك العادل عام ٦٣٥ نزاعاً متصلاً بين الأيوبيين وبني رسول حتى توفي راجح بن قتادة عام ٦٤٥. وخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح فدعمه بنو رسول وكذا ابنه الحسن، ثم جاء محمد أبو نمي الأول، وشغل وأولاده من بعده بالرسوليين والمماليك قرناً من الزمن، حيث لم يثبت أحد من الأشراف على الولاء أكثر من عام على الغالب لبعد الشقة بين مكة ومصر من جهة أو بين مكة واليمن من جهة ثانية فما أن يبعث المماليك جيشاً يخضع مكة حتى يسارع الرسوليون إلى إرسال جيشٍ في العام التالي، ولم يكن لكلا الجانبين قوة كبيرة تسمح له بترك حامية معززة في مكة تحول دون تمرد الشرفاء، أو تمنع قدوم قوة الآخرين إلى مكة.

كما كان الخلاف يقع بين الإخوة فيستعين هذا بجانب وذاك بجانب آخر فيتعاقب الإخوة على شرافة مكة وفي الوقت نفسه يتعاقب النفوذ الذي يدعم الشريف على أخيه أو خصمه، ولعل أشد هذه الخلافات ما وقع بين أولاد محمد أبو نمي الأول وهم: حميضة، ورميثة، وعطيفة، وأبو الغوث، وتدخل سلاطين مصر واليمن في هذا النزاع.

وكانت جدة ترتبط بمصر في الآونة الأخيرة، ويعين حاكمها من القاهرة، وقد يصطدم والي جدة مع شريف مكة، ويقع بينهما قتال يؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

أما المدينة فقد كانت بيد أشراف ينتمون إلى الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بينما ينتسب أشراف مكة لآل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وكثيراً ما كانت مكة تشرف على الوضع في المدينة، وتكون المدينة تابعة لمكة، وقد لعب الأشراف دوراً بارزاً في تاريخ الحجاز، لذا كانت لهم الشهرة، وكانت لهم الكلمة إضافة إلى وضع مكة الخاصة بالنسبة إلى المسلمين وموسم الحج.

وقد يمتد نفوذ أشراف مكة إلى الشرق قليلاً أو كثيراً فيشمل أجزاء من نجد واسعة أو صغيرة، وربما يتجاوزها قليلاً إلى الشرق، وتخضع القبائل إلى مكة.

سيطر أبو عزيز قتادة على مكة مدة تسعة عشر عاماً حتى توفي عام ٦١٧، فوقع الخلاف بين ولديه حسن وراجح خاصة، وإن كان قد شمل الخلاف أبناءه الآخرين أيضاً، واستمر هذا الخلاف مدة سنة كاملة، وانتهى بسيطرة الحسن على الوضع لمدة عامين، وضاق الأيوبيون ذرعاً بهذا الخلاف فأرسلوا جيشاً دخل مكة، وفرّ منها الحسن، وأصبح الوضع في مكة تحت إشراف الأيوبيين لمدة عشر سنوات (٦٢٠ ـ ٦٣٠). ثم إن الشريف راجح بن قتادة قد استعاد شرافة مكة بمساعدة الرسوليين، وبقي حتى توفي عام ٦٤٥، فخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح، ثم ابنه الحسن، واستمر دعم الرسوليين لهما. وتولّى شرافة مكة بعدها إدريس بن حسن بن راجح لمدة أربع سنوات، وعمّه غانم لمدة سنتين بعد أن حكم جماز سنة واحدة.

تسلّم شرافة مكة محمد أبو نمي الأول وعمّ أبيه إدريس بن قتادة مدة ثلاثة عشر عاماً (٦٥٤ ـ ٦٦٧) غير أن أبا نمي قد انفرد وحده بالسلطة، وعزل إدريس، واتجه نحو الحفصيين في تونس، فخطب لهم، إلا أن

الظاهر بيبرس سلطان مصر، قد تمكن من إعادة نفوذ الأشراف له، وعودة سيطرة مصر على مكة الحجاز عامة، وإبعاد الحفصيين، ورجع إدريس بن قتادة يشارك مرة أخرى في شرافة مكة أبا نمي وما هو إلا عام حتى انفرد أبو نمي بالشرافة، وقتل إدريس، وبقي سيد مكة حتى توفي عام ٧٠١ أي مدة إحدى وثلاثين سنة، وبذا بقي شريفاً في مكة أوله الكلمة الأولى مع مشاركة إدريس له مدة سبع وأربعين سنة (٦٥٤ ـ ٧٠١)، وخلفه أبناؤه، وزاد الصراع، وتفرّقت الكلمة، ووقع القتال بين الإخوة، وقتل بعضهم بعضاً. إذ تولى أبو الغوث وأخوه عطيفة شرافة مكة لمدة سنتين، ثم نازعهما أخواهما حميضة ورميثة لمدة سنة واحدة، ثم رجع الأوليان لمدة عشر سنوات، وعاد الآخران لمدة سنة واحدة، إذ جاء أبو الغوث بقوةٍ من مصر ودخل بها مكة فهرب منه حميضة ورميثة إلى حلي بن يعقوب في تهامة عسير، واستولى أبو الغيث على مكة، ورجع حميضة عام ٧١٥ وقتل أخاه أبو الغوث، واستولى على مكة، فغضب سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون فجهّز جيشاً بإمرة عطيفة فاستولى على مكة، وغادرها حميضة هارباً نحو الشرق، وذلك بعد أن انفرد رميثة، ثم انفرد حميضة.
ولم يطل أمر عطيفة سوى سنة واحدة حيث اضطر أن يتفق مع رميثة ويخالفان حميضة الذي قتل عام ٧٢٠. وبعد اتفاق دام ثماني عشرة سنة بين عطيفة ورميثة، انفرد رميثة لمدة ست سنوات حيث اعتزل عام ٧٤٤ وسلّم الأمر لولديه عجلان وثقبة، ولم تمض سنتان حتى عاد رميثة إلى الشرافة، وعزل ولديه، ولكنه مات بعد عام ٧٤٦ ورجع عجلان وثقبة، وبعد سنة من اشتراكهما في السلطة وقع الخلاف بينهما لمدة أربع سنوات انتهى بالاتفاق مدة ١٢ عام، إذ انفرد بعد ذلك عجلان لمدة سنة بعد وفاة أخيه ثقبة، حيث لحقه، وقام بأمر الشرافة أحمد بن عجلان، وبعد مرور سبع سنوات بعد الصراع بينه وبين أولاد عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس، واستمر هذا النزاع أربعة أعوام انتهى بموت أحمد بن عجلان فقام من بعده ابنه محمد لمدة مائة يوم فقط مع استمرار الخلاف الذي كانت نتيجته إقصاء محمد بن أحمد بن عجلان، واشتراك عنان بن مغامس وعلي بن عجلان

بالشرافة، ثم انفرد علي لمدة سنتين، وعنان لمدة سنتين، وعاد بعدها علي لمدة ثلاث سنوات توفي إثرها، وخلفه ابن حسن وبقي مدة ٣١ سنة (٧٩٧ ـ ٨٢٩)، وقد عزل وأعيد في خلالها مرتين. وبعده جاء ابنه بركات فحكم ست عشرة سنة، حيث عزل، وتولى مكانه أخوه علي لعدة أشهر حيث عزل، وأعيد بركات لعدة أشهر أيضاً حيث عزل، ونُصّب أخوهما الثالث أبو القاسم خمس سنوات، ثم أعيد بركات للمرة الثالثة فحكم ثمانية أعوام توفي إثرها، وقام بعده ابنه محمد فبقي في منصبه مدة ٤٤سنة (٨٥٩ ـ ٩٠٣)، ويبدو أن وضع الشرافة قد استقر في هذه المرحلة، وخلفه ابنه بركات الثاني، وبعد ٤ سنوات عاد الصراع فخلع بركات الثاني عام ٩٠٧، وأخذ المنصب أخوه هزاع، ولكن لم يبقى سوى سنة واحدة حيث رجع بركات الثاني، واستقر الوضع له (٩٠٨ ـ ٩٣١) وفي أيامه جاء العثمانيون فاستقبلهم، وأرسل ابنه محمد أبو نمي الثاني عام ٩٢٣ إلى مصر حيث بايع السلطان العثماني سليم الأول وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، وفي أيامه انتهت هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها مع مجيء العثمانيين. ويبدو أن الصراع كان شديداً على الشرافة منذ مطلع قرن الثامن مع وفاة محمد أبو نمي الأول وحتى منتصف القرن التاسع أي مدة قرن ونصف، وإن لم تكن الأيام الأخرى لتخلو من النزاع فهو دائم ومستمر ولكن ذكرنا أشده في تلك الحقبة من الزمن.

[١] أبو عزيز (قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى)

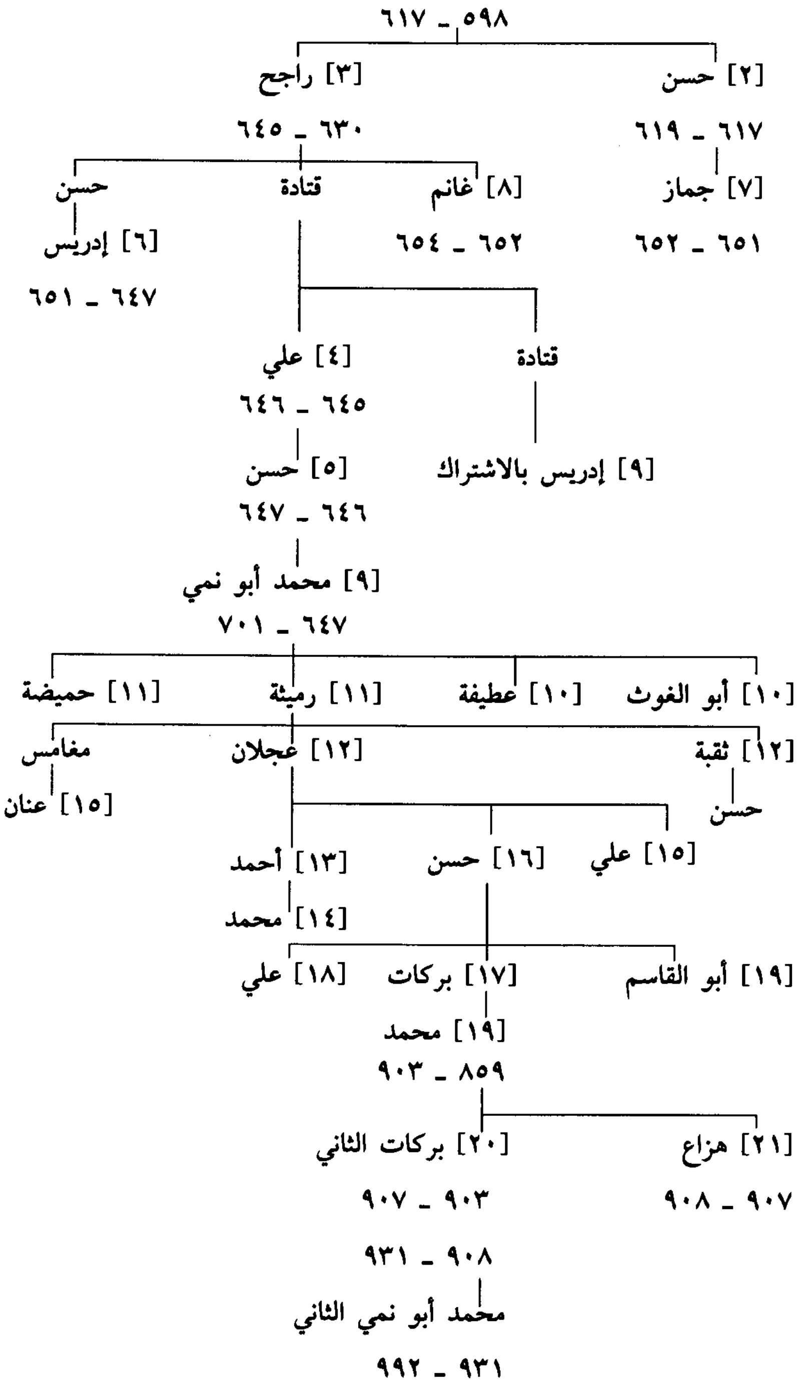

الفصل الثاني

اليَمَن

حكمت اليمن في هذه المرحلة (٦٥٦ ـ ٩٢٣) أسرتان. أسرة بني رسول وحكمت من ٦٢٦ إلى ٨٥٨، وتلاها حكم بني طاهر من ٨٥٨ ـ ٩٣٣، وبلغت قوة اليمن في أثناء ذلك درجة كبيرة بحيث كانت تسيطر أحياناً على الحجاز، ويمتد نفوذها إلى نهاية حضرموت شرقاً هذا بالإضافة إلى الصلات عبر البحار سواء أكان ذلك في إفريقية أم في آسيا.

١" ـ بنو رسول:

ينتمي بنو رسول إلى الغساسنة ـ على حد قول علي بن الحسن الخزرجي ـ إذ فرّ جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام بعد حادثته مع الأعرابي الذي داس على ثوبه، فضربه جبلة فاشتكى الأعرابي إلى عمر، رضي الله عنه، فخاف جبلة من عمر فارتد، والتحق ببلاد الروم، وعاش أبناؤه من بعده، ثم انتقلوا إلى الشرق، وعاشوا مع التركمان، حتى ظنوا أنهم منهم، واتخذ الخليفة العباسي أحدهم وهو محمد بن هارون رسولاً له إلى الشام وإلى مصر فعُرف باسم رسول ونُسي اسمه.

ولما استقر الوضع لبني أيوب في مصر والشام أرسل الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظم توران شاه إلى اليمن، فسار عام ٥٦٩ ومعه بنو رسول، وكانوا خمسة أفراد هم: شمس الدين علي بن

رسول وأبناؤه الأربعة: بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، ونور الدين عمر بن علي بن رسول، وفخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول، وشرف الدين موسى بن علي بن رسول.

رجع الملك المعظم توران شاه إلى مصر بعد أن ترك له نواباً في اليمن وذلك عام ٥٧١، ثم لم يلبث أن توفي عام ٥٧٦ فاختلف نوابه من بعده، فأرسل عندئذ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الآخر الملك العزيز طغتكين سيف الإسلام فدخلها عام ٥٧٩ فأصلح أمرها، وبقي حتى توفي عام ٥٩٣ فخلفه ابنه الملك المعز إسماعيل بن طغتكين فقتل بيد الأكراد عام ٥٩٨، فقام مكانه أخوه الملك الناصر أيوب بن طغتكين الذي توفي عام ٦١١. وكان قد توفي في الشام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩، وتسلّم أمره بعده أخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فلما أحسَّ بقتل ابن أخيه إسماعيل، ووفاة الثاني وهو أيوب وقيل أنه مات مسموماً جهز عندها حملةً إلى اليمن بقيادة حفيده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل، فسار إلى اليمن ودخلها عام ٦١٢، وكان قد سبقه إليها ابن عمه سليمان بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب واستقر بتعز، وكان ضعيفاً فاستولى الإمام المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء. وعندما جاء المسعود أقام بزبيد، وطلب من ابن عمه سليمان الصلح على أن تكون الجبال لسليمان والتهائم للمسعود. وجاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول إلى المسعود، وحثّه بالنهوض إلى تعز، ففعل، وهدّد جند تعز وأمرهم بالقبض على سليمان فامتثلوا، فقبض المسعود على سليمان وأرسله مقيداً إلى مصر. واستولى هو على بقية أطراف اليمن. وأرسل لقتال إمام صنعاء عبد الله بن حمزة أحد القادة وهو جمال الدين فليت، فلم يزل يقاتله حتى توفي الإمام عام ٦١٤، ثم لحقه بعد مدة وجيزة جمال الدين فسار المسعود إلى صنعاء ودخلها.

عاد المسعود إلى تعز وولى على صنعاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وولى نور الدين عمر بن علي بن رسول على مكة.

وعندما رجع المسعود إلى مصر ترك نائباً عنه على اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول، وبقي أخوه الآخر بدر الدين على صنعاء. وجرى قتال بين نور الدين والإمام عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة عام ٦٢٣، وانتصر نور الدين، وعندما بلغ هذا الخبر إلى الملك المسعود رجع إلى اليمن ودخل تعز عام ٦٢٤، وسجن أبناء رسول خوفاً على اليمن بسبب شجاعتهم، ثم أطلق سراح نور الدين وأرسل إخوته بدر الدين، وفخر الدين، وشرف الدين إلى عدن ومنها إلى مصر مقيدين.

رجع المسعود إلى الشام عام ٦٢٦ وذلك لأن عمه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد توفي وهو صاحب دمشق، فطلب منه السير إلى الشام للقيام فيها، وأناب عنه نور الدين عمر بن علي بن رسول غير أن المسعود قد توفي في مكة قبل أن يصل إلى الشام.

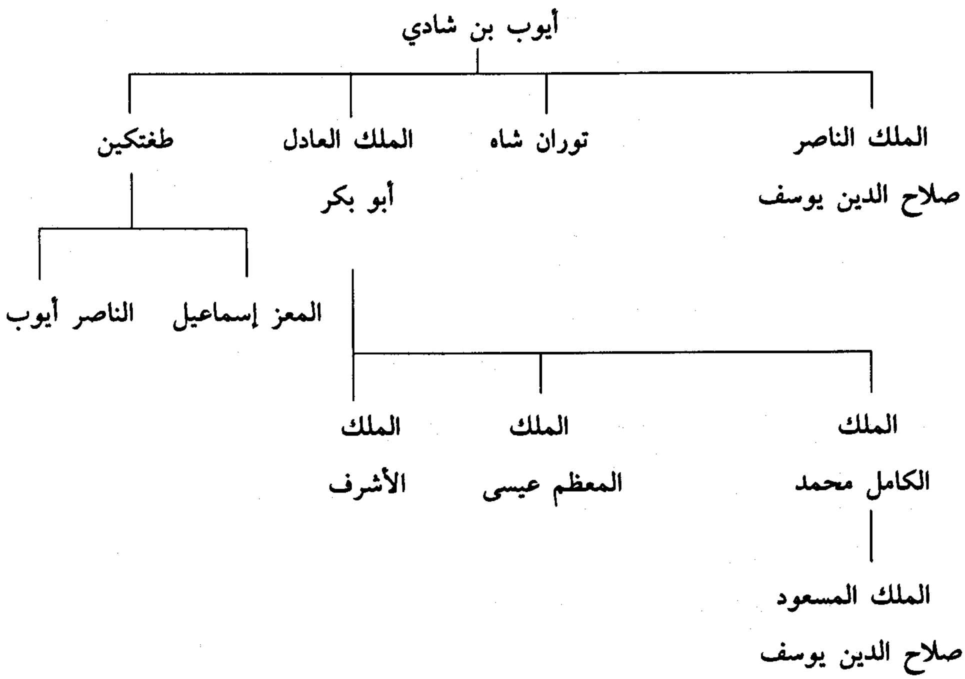

وقام نور الدين عمر بن علي بن رسول يحكم اليمن باسم الملك

المنصور، وانتقل من زبيد إلى تعز، وصالح الأشراف في صنعاء، واختلف مع الأيوبيين على إمارة مكة إذ كان يدعم شريف مكة راجح بن قتادة، وحفيده الشريف علي بن قتادة بن راجح، فكان يحكم مكة أحياناً أو يحكمها الشرفاء باسمه وتعود تارة أخرى للأيوبيين. ولم تخل أيامه من خلافات مع الرسيين في صنعاء حيث كانوا يتحركون ضده أحياناً إذ قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي عام ٦٤٦. ولم يلبث أن قتل المنصور عام ٦٤٧ وهو في جند على يد جماعة من مماليكه.

بايعت مماليك المنصور بعد وفاته ابن أخيه فخر الدين أبو بكر بن الحسن غير أن الملك المظفر بن المنصور قد سار إليه في زبيد، وتغلّب عليه، وقبض عليه، ودخل مقره، ثم أطاعته تهامه. وقدم عماه بدر الدين، وفخر الدين من مصر فقبّض عليهما، وأودعهما السجن.

واختلف مع بني رس في الشمال، إذ اتفق أحمد بن الحسين، وشمس الدين أحمد بن عبد الله، ودخلا صنعاء فقاتلهما أسد الدين بن أبي بكر بن علي بن رسول ومعه علم الدين علي بن وهاس أمير عسير، وتمكن السلطان بعدها من دخول صنعاء. وبعد حربه مع أحمد بن الحسين، حارب أيضاً يحيى بن محمد السراجي الذي قام بإمامة بني رس، ومن تلاه من الأئمة، وفي عام ٦٧٤ ظفر بالإمام إبراهيم بن تاج الدين، وسجنه في تعز وبقي في معتقله حتى مات، واستمر في أيامه حتى وفاته عام ٦٩٤.

وتدخل في شؤون أشراف مكة ففي عام ٦٥٢ أخرج الشريف راجح، وأبو نمي، وإدريس شريف مكة يومذاك وهو الشريف حماد بن حسن، وتسلم شرافة مكة راجح لمدة ثلاثة أشهر ثم أخرجه ولده غانم، فأخرجه أبو نمي وإدريس، وأقاما مدة حيث جاءهم جيش المظفر الذي دخل مكة، وتولى أمرها نيابة عن المظفر مبارز الدين الحسين بن علي، وفي عام ٦٥٣ جمع الأشراف جموعهم، وحاربوا نائب السلطان، وحاصروه في مكة، وانتصروا عليه، فشرى نفسه وخرج من مكة إلى اليمن.

وفي شهر جمادى الأولى تنازل الملك المظفر لابنه الملك الأشرف عمر ممهد الدين فاستلم الأمر، ولم يلبث أن توفي الملك المظفر بعدها بأشهر وذلك في شهر رمضان، وقام الملك الأشرف بالأمر.

اشتغل الأشرف بطلب العلم مدة إمارته حتى برع بعددٍ من العلوم، وصنّف عدداً من الكتب. وثار عليه أخوه الملك المؤيد الذي كان والياً على شحر وحضرموت، وسار نحو اليمن فلما اقترب منها وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره من تصرّفه، وعرض عليه أن يسلمه أحد الحصون المهمة التي في حوزته مقابل أن يرتدع عن غيّه فشكر له ذلك إلا أن أحد القضاة شجعه على المضي في سبيله، فسار مجداً وتمكّن من احتلال عدن غير أن الملك الأشرف قد انتصر عليه، وأودعه وولديه السجن في تعز. وتوفي الملك الأشرف عام ٦٩٦، وكان ولده الناصر في القحمة، والعادل في صنعاء، فبايع الجند والناس أخاه المؤيد المسجون بعد أن أطلقوا سراحه.

تسلّم الملك المؤيد الأمر، وأقر له بذلك أبناء أخيه الأشرف، ولم ينازعوه ملك أبيهم، ولكن خالفه أخوه المسعود غير أنه انتصر عليه، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٢١.

تولّى الحكم بعده ابنه المجاهد علي فقام ضده عمه أبو الشكر الملك المنصور أيوب عام ٧٢٢، وقبض على المجاهد، ووضعه في دار الإمارة تحت الإقامة الجبرية، وبعد ثلاثة أشهر تمكّن أتباع المجاهد من القبض على المنصور وسجنه وإخراج المجاهد، غير أن أتباع المنصور قد اتفقوا على البيعة لابن أخي المنصور وهو الملك الناصر محمد جلال الدين ابن السلطان الأشرف. ولكن السلطان المجاهد أعلن سيطرته على الأوضاع فانفض الناس من حول الناصر، واستقر الأمر للمجاهد، فألقى عمه المنصور وابن عمه الناصر في السجن، ثم أطلق سراحهما بعد مدة، وبقي الملك الظاهر بن المنصور في بعض الحصون يناوىء ابن عمه المجاهد.

محمد بن هارون «رسول»

«شمس الدين» علي

«بدر الدين» الحسن

«فخر الدين» أبو بكر

«شرف الدين» موسى

[١] «نور الدين» عمر «المنصور» ٦٢٦ ـ ٦٤٧

[٢] «الملك المظفر» يوسف ٦٤٧ ـ ٦٩٤

[٤] «الملك المؤيد» داود ٦٩٦ ـ ٧٢١

[٥] «المجاهد» علي ٧٢١ ـ ٧٦٤

[٦] «الأفضل» العباس ٧٦٤ ـ ٧٧٨

[٧] «الأشرف الثاني» إسماعيل ٧٧٨ ـ ٨٠٣

[٨] «الناصر» أحمد ٨٠٣ ـ ٨٢٩

[٩] «المنصور» ٨٢٩ ـ ٨٣٠

[١٠] «الأشرف الثالث إسماعيل» ٨٣٠ ـ ٨٤٢

[١١] «الطاهر» يحيى ٨٤٢ ـ ٨٥٠

[١٢] «المسعود» أبو القاسم ٨٥٠ ـ ٨٥٨

[٣] «الملك الأشرف» عمر ممهد الدين ٦٩٤ ـ ٦٩٦

«الناصر» محمد جلال الدين

«العادل» أبو بكر صلاح الدين

الملك المنصور أيوب

«فخر الدين» أبو بكر

«أسد الدين»

وفي عام ٧٢٥ أخذ ابن الدويدار مدينة عدن بمساعدة آل يافع. وسيطر المماليك على زبيد، ثم خرجوا منها، وأعطوا الطاعة للملك الناصر محمد جلال الدين بن السلطان الأشرف، فسار بهم نحو زبيد، غير أنه عجز عن دخولها. وخالف الملك الصالح والملك العادل أباهما المجاهد، وخرجا من تعز. كما ادعى في العام نفسه محمد بن ميكائيل السلطنة في حرض وما حولها، وبقي سنتين. ثم خرج عليه أيضاً ابنه المظفر واتجه نحو عدن، ولم يتمكن من دخولها، وبعث إليه أبوه قوةً انتصرت عليه، وسار المجاهد إلى عدن، وهناك توفي عام ٧٦٤.

اختار الأمراء وكبار الدولة بعد وفاة المجاهد ابنه الأفضل العباس ولم يكن أكبر إخوته سناً، وبايعته العامة والخاصة. وأنهى أمر محمد بن ميكائيل في حرض عام ٧٦٥، وإن بقي له نفوذ في مناطق أخرى، وتوفي الأفضل عام ٧٧٨، وقام بالأمر بعده ابنه الأشرف الثاني إسماعيل، ويبدو أن دولة بني رسول قد بلغت أوجها في عهد هذا السلطان حتى خُطب له في مدينة قاليقوط الهندية، وتوفي في عام ٨٠٣، وخلفه ابنه الناصر أحمد، ودام حكمه ستاً وعشرين سنة (٨٠٣ ـ ٨٢٩)، على حين لم يدم حكم خليفته المنصور، وهو ولده سوى عام واحدٍ (٨٢٩ ـ ٨٣٠)، وبدأت دولة بني رسول تضعف فحكم الأشرف الثالث بن المنصور (٨٣٠ ـ ٨٤٢)، وولده الظاهر يحيى (٨٤٢ ـ ٨٥٠)، وزاد ضعف الدولة في عهد المسعود أبي القاسم (٨٥٠ ـ ٨٥٨) إذ زاد طغيان المماليك على أهل زبيد والتهائم، وسافر المسعود إلى مصر، فجاء ولاة عدن من بني طاهر وحكموا اليمن، وزال عهد بني رسول.

٢" ـ بنو طاهر:

ينتمي آل طاهر إلى بني أمية الذين ساحوا في الأرض بعد سقوط دولتهم، ولعل بني أمية من الأسرة السفيانية قد اتجهوا نحو جنوب غربي جزيرة العرب بعد أن قاموا بعدة حركات ضد الدولة العباسية، على حين

سار أبناء الأسرة المروانية نحو الأندلس حيث قامت لهم دولة هناك. واستقر السفيانيون في اليمن وعسير، كما انطلق بعضهم فيما بعد إلى الطرف الثاني من البحر الأحمر إلى بلاد السودان. وعمل آل طاهر عمالاً لبني رسول على عدن، وبرز منهم علي بن طاهر بن تاج الدين بن معوضة وأخوه عامر بن طاهر كواليين على عدن في أواخر عهد بني رسول، وكانا محبوبين بين السكان بسبب الطريقة التي سارا عليها، واشتهرا في المنطقة كلها. وضعُف بنو رسول في أواخر أيامهم، وتسلّط مواليهم على التهائم، واشتدت وطأتهم على أهل زبيد وخاصةً بعد سفر المسعود أبي القاسم إلى مصر، وهو آخر سلاطين بني رسول. وشكا وجهاء زبيد أمرهم، وما يصيبهم من ظلم موالي بني رسول إلى عامر بن طاهر، فأثّر ذلك في نفسه، وقرر مساعدة الزبيديين، وإنقاذهم مما هم فيه.

سار عامر بن طاهر الملقب بالمجاهد إلى زبيد ودخلها عام ٨٥٩ بمساعدة الأمير جيّاش أحد موالي أهل زبيد، وبقي المجاهد في المدينة عامين، ثم رجع إلى عدن لمنازلة صاحب «الشِحر» الذي جاء لاحتلال عدن عن طريق البحر. وهزمه، وتمكّن من أسره، وأرسل حملةً بقيادة الأمير جيّاش لاحتلال «الشِحر» وتمكن المجاهد من السيطرة على الأجزاء الجنوبية من بلاد اليمن. ثم اتجه شمالاً حيث كان بنو رسّ بإمرة الإمام الناصر يهاجمون أطراف دولته ويغيرون عليها، وأرسل إليهم جيشاً بإمرة أخيه الظافر فانتصر عليهم، وكاد يدخل صنعاء لولا اضطراره إلى مغادرة المنطقة والتوجّه إلى بلاد الشحر لإخضاع أهلها المتمردين. وعاد الظافر من الشحر منتصراً، وأسرع إلى الشمال على رأس جيش عظيم عام ٨٦٦، وتمكّن من إلقاء القبض على الإمام الناصر، أو أن أنصاره قد ألقوا القبض عليه بعد أن تظاهروا له بالإخلاص فبعد أن أمنهم مسكوه، وسلّموه للظافر، وبقي الإمام في السجن حتى توفي عام ٨٦٨. أما محمد بن الناصر فقد راسل الظافر، وقدّم له صنعاء مقابل خمسين ألف دينار، فدخل الظافر صنعاء، وغدت أكثر جهات اليمن تتبع له. غير أن محمد بن الناصر لم يمض عام على

مصالحته حتى بدأ يتحرك في صنعاء، ثم سيطر عليها، فجاء الظافر لحصارها، وقطع عنها كل وسائل الحياة من المياه والأرزاق، ومع ذلك لم يتمكن من فتحها، فكان يترك الحصار مدة ثم يعود إليه، وأخيراً قتل في بعض المعارك داخل صنعاء عام ٨٧٠، وغدت المدينة تحت حكم محمد بن الناصر الذي نادى بنفسه إماماً على صنعاء. أما المجاهد عامر بن طاهر فبقي ينتقل بين تعز، وزبيد، وعدن أي في الأجزاء اليمنية الجنوبية حتى توفي عام ٨٨٣، وكان قد عهد إلى أخيه عبد الوهاب بن عامر بتولّي أمور الدولة من بعده، فقام بالأمر وتلقّب بالمنصور. وقد قام بحركةٍ ضده ابن أخيه يوسف بن عامر، غير أنه هزم، وفرّ، ثم اعتذر من عمه، وطلب منه الأمان، وبايعه وتوفي المنصور عام ٨٩٤، وخلفه ابنه عامر بن عبد الوهاب، وتلقّب بالظافر الثاني، وثار ضده أبناء عمومته فانتصر عليهم بعد حروب وحركات استمرت ما يقرب من عامين. كما تحركت ضده مرتين قبيلة «الزرانيق» في تهامة فقضى على حركتهم في المرتين، واستمر ذلك من عام (٨٩٦ ـ ٨٩٩). وعندما أنهى أمر الجنوب اتجه نحو الشمال، فأرسل قوةً إلى صنعاء التي كانت تحت حكم الأئمة من بني رس، بقيادة محمد بن علي البعداني وذلك عام ٩٠٨، لكنه هزم، فسار الظافر بنفسه وحاصر صنعاء وضيق على أهلها حتى استسلموا، وخرج الإمام بنفسه معلناً الاستسلام وذلك عام ٩١٠، ودخل الظافر صنعاء، وبذا عادت سيطرة الطاهريين على معظم جهات اليمن.

وفي هذه الأثناء، وصل البرتغاليون إلى أطراف الجزيرة العربية وبدؤوا يغيرون عليها، فقد هاجموا عدن وقصفوها بالمدافع، واحتلوا جزر «قمران» في البحر الأحمر، وقتلوا عاملها من قبل الطاهريين، وهو محمد بن عبد العزيز بن سفيان، وهدفهم مكة والمدينة. وبدأ المماليك في مصر يرسلون الجيوش إلى تلك الجهات للوقوف في وجه البرتغاليين، وكان من أشهر قادتهم حسين الكردي الذي اهتم بأمر البرتغاليين. ومن المؤسف أن الأمراء المسلمين في جنوبي الجزيرة العربية لم يتعاونوا ضد البرتغاليين، أو

لم يعملوا سوية لقتال هؤلاء الأجانب المعتدين، فالطاهريون لم يساعدوا المماليك الذين جاءوا للوقوف في وجه البرتغاليين، والأئمة الزيود شجعوا المماليك ليعملوا ضد الطاهريين.

وصل حسين الكردي إلى جزر قمران، وطرد البرتغاليين منها عام ٩٢١، وشجّعه الأئمة الزيود ضد عامر بن عبد الوهاب، وفي الوقت نفسه فقد منع محمد بن نوح أمير الحديدة من قبل الطاهريين وصول المواد الغذائية إلى حسين الكردي في جزر قمران، كما أن سلطان الطاهريين قد رفض التعاون مع المماليك ضد البرتغاليين بل لم يكن الجواب مهذباً، فأثار ذلك حسين الكردي، ووقعت الحرب بين المماليك والطاهريين، وتوغّل المماليك داخل اليمن، وجرت عدة معارك بين الجانبين كان أهمها على أبواب زبيد (معركة الرحب)، فرّ إثرها قادة الطاهريين، ودخل حسين الكردي زبيد وذلك عام ٩٢٢، وجاء السلطان نفسه على رأس جيش كبير، والتقى مع المماليك في معركة هزم أيضاً فيها، فانتقل إلى تعز، ومنها إلى المقرانة فصنعاء، وأخيراً جرت المعركة الأخيرة على أبواب صنعاء هي معركة الصافية التي قُتل فيها أخو السلطان، وهو عبد الملك بن عبد الوهاب، وفرّ السلطان الذي قبض عليه أحد الرجال، وسلمه إلى قائد المماليك الإسكندر بن محمد فقتله عام ٩٢٣ في ٢٣ ربيع الأول.

دخل المماليك صنعاء بعد معركة الصافية ثم اتجهوا شمالاً لحصار الإمام شرف الدين في (ثلا). وكان هذا النصر الذي أحرزه المماليك بسبب ما يملكونه من بنادق نارية، على حين لم يملك اليمنيون سوى السلاح الأبيض. وفي هذا الوقت هزم المماليك في بلاد الشام ومصر حيث دخل العثمانيون تلك الجهات، وهذا ما جعل المماليك في وضع غير ملائم فانسحبوا من صنعاء نحو تعز، ولم يصل الإسكندر بن محمد قائد المماليك إلى تعز إلا بصعوبة كبيرة بسبب قتال اليمنيين له، وهو منسحب بجيشه، وكان قائد تلك العمليات علي بن داود حيث بقيت قواته متمركزة في جنوب اليمن حتى جاء العثمانيون عام ٩٤٥.

طاهر بن تاج الدين

[١] علي الظافر
٨٥٨ ـ ٨٧٠

[٢] عامر المجاهد
٨٧٠ ـ ٨٨٣

يوسف

[٣] عبد الوهاب المنصور
٨٨٣ ـ ٨٩٤

[٤] عامر «الظافر الثاني»
٨٩٤ ـ ٩٢٣

٣" ـ الأئمة الزيديون:

بقي سلطان الزيود محصوراً في الجهة الشمالية من اليمن، وإن تمكن أئمتهم في بعض الظروف من السيطرة على صنعاء وذمار في أيام المتوكل المطهر بن يحيى (٦٧٦ ـ ٦٩٧) وابنه المهدي محمد (٦٩٧ ـ ٧٢٨) وحتى أيام محمد بن الناصر (٨٦٦ ـ ٩٠٨)، وكانت الخلافات شبه دائمة بينهم وبين سلاطين بني رسول وبني طاهر. ولم ينتشر نفوذ الأئمة في المناطق الغربية والجنوبية أبداً وخاصة في هذه المرحلة من التاريخ.

ولم يكن هناك إمام واحد يلتقي حوله الزيديون جميعاً، وإنما كان يوجد أكثر من إمام في بعض الأحيان، وقد يختلف الأئمة بعضهم مع بعض، حيث لكل واحد منهم منطقة نفوذ وأتباع، كما حدث أيام الواثق المطهر بن محمد، والمؤيد يحيى بن حمزة، والمهدي علي بن صلاح، والداعي أحمد بن علي الفتحي، وكلهم في المدة المحصورة بين (٧٣٠ ـ ٧٥٠)، وقد تمر سنوات دون أن يقوم إمام من علماء الزيدية بالأمر وخاصة بعد هزيمة إمام أو إلقاء القبض عليه، أو قتله من قبل خصومه الرسوليين أو الطاهريين.

الإمام	الزمن	ملاحظات
١ ـ المهدي أحمد بن الحسين	٦٤٦ ـ ٦٥٦	حارب المظفر الرسولي
٢ ـ يحيى بن محمد السراجي	٦٥٦ ـ ٦٦٠	حارب المظفر الرسولي
٣ ـ الحسن بن بدر الدين	٦٦١ ـ ٦٧٠	
٤ ـ إبراهيم بن تاج الدين	٦٧٠ ـ ٦٧٤	وقع أسيراً بيد المظفر الرسولي ومات في السجن
٥ ـ المتوكل المطهر بن يحيى	٦٧٦ ـ ٦٩٧	حارب المظفر الرسولي، وولديه المؤيد والأشرف.
٦ ـ المهدي محمد بن المطهر	٦٩٧ ـ ٧٢٨	حارب المجاهد الرسولي واستولى على صنعاء، ولحج، وعدن
٧ ـ المؤيد يحيى بن حمزة	٧٢٩ ـ ٧٤٩	في أيام المطهر
٨ ـ الواثق المطهر بن محمد	٧٣٠ ـ ٧٥٠	وقام في عهده من الأئمة يحيى بن حمزة، وعلي بن صلاح، وأحمد بن علي الفتحي
٩ ـ المهدي علي بن محمد	٧٥٠ ـ ٧٧٣	
١٠ ـ الناصر صلاح الدين المهدي	٧٧٣ ـ ٧٩٣	
١١ ـ المنصور علي بن صلاح الدين	٧٩٣ ـ ٨٤٠	
١٢ ـ المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٧٩٣ ـ ٧٩٣	بويع بعد وفاة الناصر صلاح الدين غير أن المنصور عارضه وقبض عليه
١٣ ـ الهادي علي بن المؤيد	٧٩٦ ـ ٨٣٠	قام معارضاً للمنصور علي بن صلاح الدين
١٤ ـ المتوكل المطهر بن محمد الحمزي	٨٤٠ ـ ٨٧٩	عارضه المهدي صلاح بن علي (٨٤٠ ـ ٨٤٩)، والمنصور الناصر بن محمد (٨٤٠ ـ ٨٦٦)
١٥ ـ المؤيد محمد بن الناصر	٨٦٦ ـ ٩٠٨	حارب الظافر الطاهري، وعارضه الهادي عز الدين بن الحسن (٨٧٩ ـ ٩٠٠) وابنه الناصر الحسن (٩٠٠ ـ ٩٢٩). ومحمد بن علي الوشلي (٨٨٠ ـ ٩١٠)
١٦ ـ المتوكل يحيى شرف الدين بن المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٩١٢ ـ ٩٦٥	اعتزل بعد ذلك وقام ابنه المطهر

ويلاحظ في الجدول فترات انقطاع، كما يلاحظ قيام عدد من الأئمة في وقتٍ واحد.

الفصل الثالث

اليمامة

ضعف شأن اليمامة في العصر العباسي، وإن كانت الأنظار قد اتجهت إلى ما يدور على أرضها من تنقلات القرامطة، وما يعيثون من فساد في بقاعها، وقيام الدولة الأخيضرية، وأستطيع أن أقول: إنها كانت تحت نفوذ القرامطة إلى حدٍ ما، تفسح لهم المجال بالحركة في مناطق نفوذها شاءت بذلك أم كرهت، وكانت دولةً شيعية، ويدّعي القرامطة زوراً أنهم يمتون إلى التشيع بصلة. وما زال أمر القرامطة بالبحرين على يد العيونيين حتى انقرضت أيضاً دولة الأخيضريين في اليمامة.

ومع زوال دولة الأخيضريين فقد انعدمت السلطة التي تجمع أرجاء اليمامة ضمن نفوذ واحدٍ، وتفرّق شمل القبائل، واختلف بعضها مع بعض، وتنازع مشايخها وأمراؤها، فكانت السيطرة للأقوى، والقبيلة التي يقوى أمرها يمكنها أن تسيطر على رقعة واسعة، وقد تتغلب عليها أخرى، فينتهي نفوذ الأولى، وتعمّ سيطرة الأخرى، واستمر هذا حتى انتهى العصر العباسي عام ٦٥٦.

وجاءت المرحلة التي تلتها، والتي كانت الخلافة في القاهرة سواء أكانت صحيحة الانتماء إلى العباسيين أم لا، إلا أنها كانت اسميةً، وكان النفوذ، وكانت القوة للمماليك. وزاد أمر اليمامة ضعفاً، وعاش سكانها على هامش التاريخ، لا نعرف إلا القليل عن تلك المرحلة، إذ لم تسجل جزئيات عن حياة من يسمون أنفسهم الأمراء، والذين لم يكن نفوذهم ليمتد

إلى أبعد من حدود مدينة أو رقعةٍ صغيرة، كما لم تكن هناك أحداث مهمة تلفت نظر البعيد عن المنطقة، أو تهم المؤرخ ليقوم بتدوينها. ومع هذا الضعف فقد غدا عدد من الأمراء يتبع حكام البحرين في الشرق أو أشراف الحجاز في الغرب، فمن يتسع نفوذه وتقوى شوكته يمد سلطانه على عدد من شيوخ قبائل اليمامة، وقد يلتقي النفوذان في منطقة، ويقع الصدام بين الطرفين، أو تطلب قبيلة في الوسط دعماً من الأشراف أو الحكام لتنافس قبيلة أخرى أو لتتغلب عليها وتخضعها لسيطرتها، أو لتتخلص من سلطانها وطغيانها، فتقوم الثانية بطلب النجدة من الجهة الثانية، ويكون القتال.

واستمر هذا الوضع: اختلاف بين القبائل وأمرائها، وصراع بين البلدان، وتداخل من أشراف الحجاز أو حكام البحرين، واستمداد القوة من هذا الجانب أو ذاك الفريق طيلة هذه المرحلة التي ندرسها (٦٥٦ ـ ٩٢٣) بل استمر إلى ما بعدها حتى قويت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، وآزره أمير الدرعية محمد بن سعود فتغيّر الوضع، وتبدلت الحال، وقامت دولة، هي الدولة السعودية.

الفصل الرابع

البَحرَين

كانت تعني كلمة البحرين المنطقة الشرقية من جزيرة العرب، وتشمل باصطلاحنا اليوم جزءاً من الكويت، والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، والبحرين، وقطر، وقسماً من اتحاد الإمارات العربية، وقد خضعت هذه المنطقة لسيطرة القرامطة منذ نهاية القرن الثالث الهجري، فعاثوا في الأرض الفساد، وأفسدوا العقائد، وأساءوا إلى الحياة الاجتماعية. ولما جاء السلاجقة إلى حكم بغداد، وأنهوا نفوذ البويهيين فيها عام ٤٤٧، طمع عبد الله بن علي العيوني أحد رجالات بني عبد القيس في البحرين بالقضاء على القرامطة فيها، فطلب دعم السلاجقة له، فأرسلوا له أربعة آلاف مقاتل عام ٤٦٧، فاستطاع بذلك الدعم أن يقضي على القرامطة، وأن يؤسس دولته التي عرفت بالعيونية نسبةً إليه، أو نسبةً إلى بلدة العيون التي ينتمي إليها بالإحساء، واستمرت هذه الدولة حتى عام ٦٤٢، حيث خلفتها في الحكم أسرة بني عقيل.

تسلّم آل عصفور أحد بطون بني عقيل أمر منطقة البحرين عام ٦٥١، وبقي الحكم في أيديهم حتى عام ٧٠٥ حيث قام آل جروان، وهم أحد فروع بني مالك بن عامر أحد بطون بني عقيل أيضاً، ودام الوضع لهم في السلطة، حتى عام ٨٢١، إذ جاء بطن آخر، هم آل جبر، وكان أولهم سيف بن زامل الجبري الذي قتل آخر حاكم على البحرين من بني جروان، وهو إبراهيم، وقام مكانه، فسار في البلاد بالعدل، ووطّد الأمن، فخضع له السكان، ولما مات خلفه أخوه أجود بن زامل الذي اتسع سلطانه، وضمّ

إليه بلاد عُمان، ثم خلفه ابنه الأكبر مقرن، وبعد أن حكم مدةً اختلف مع إخوته الأربعة الباقين الأمر الذي ضعف معه شأن الدولة، وتفرّقت كلمتها، وقلّت هيبتها، فتمّ للبرتغاليين السيطرة على المنطقة بعد أن قتلوا الحاكم مقرن بن أجود عام ٩٢١، وسلّموا السلطة من بعده لأخيه علي الذي لم يدم له الأمر سوى شهر واحد، ثم أُقيم بعده ابن أخيه ناصر بن محمد، فحكم ثلاث سنوات، وخلفه ابن عمه قطن بن علي لمدة سنةٍ واحدةٍ، وتبعه ابنه عام ٩٢٥، وتلاه سلطان ابن عم أبيه غصيب بن زامل، فاستمر حتى عام ٩٢٧، ثم جاء مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري، الذي وقع القتال بينه وبين البرتغاليين مرة ثانية، رغم أن آل جبر كانوا يُسيّرون من قبل البرتغاليين، إلا أن البرتغاليين عادوا للقتال، وقصفوا مدينة المنامة، ودمّروا جزءاً منها، وكان الأمير يؤدي فريضة الحج فلما رجع وجد الحرب قائمة، فدخلها، ووقع أسيراً، ورغب أن يفدي نفسه، وعرض أموالاً طائلة غير أن البرتغاليين قد رفضوا ذلك، وقتلوه عام ٩٢٨. وتسلّم إمرة آل جبر مكانه غصيب بن هلال آخر حكام آل جبر.

عندما وقع الخلاف بين آل جبر استنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل لحمايتهم في القطيف، وهو من أسرة من بني عقيل أيضاً، كانت السيطرة لهم على البحرين في مطلع القرن السابع قبل مجيء آل جروان إلى حكم البحرين. فجاء راشد بن مغامس، ودخل القطيف، وولّى عليها أخاه محمداً، غير أنه ظلّ يدفع أتاوةً سنوية للبرتغاليين في هرمز. وفي عام ٩٣٥، استعان راشد بن مغامس بالبرتغاليين ضد أمير الحويزة، فأرسلوا له حملة تدعمه، لكنه عاد فاختلف مع قائد الحملة، فدمّر قائد الحملة بعض قرى البصرة ورجع. وعندما دخل العثمانيون العراق عام ٩٤١، أعلن راشد بن مغامس ولاءه لهم عام ٩٤٥، لكن لم تطل أيام الصفاء بينهما، فأعلن العثمانيون عام ٩٥٣ طرد الشيخ راشد من البصرة، وحكموها مباشرةً، وأعلن أهل القطيف تبعيتهم للعثمانيين ليحموا أنفسهم من البرتغاليين سنة ٩٥٧، واستنجد راشد بن مغامس وحاكم

هرمز بالبرتغاليين ضد العثمانيين، وجاءت قوة برتغالية مؤلفة من تسع عشرة سفينة، ومائتي وألف مقاتل، وتوجهت إلى القطيف، وهُزم العثمانيون، ولكن لم تلبث أن عادت القطيف إلى العثمانيين. وفي عام ٩٦٤ حاول البرتغاليون غزو البصرة، ولكن هبّت عاصفة فرّقت سفنهم، وحالت دون الغزو.

أما البرتغاليون فقد وصلوا إلى منطقة الخليج العربي، واستولوا على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ومنها انطلقوا إلى البحرين فزاروها أول مرة عام ٩٢١، ورأوا تفرّق حكامها من آل جبر، فقرروا غزوها، وسار إليها «بدوردي البوكرك»، وحاصر المنامة بناءً على أوامر عمّه نائب ملك البرتغال بالهند، وأخضعها لملك البرتغال، بعد أن تمكّن من قتل مقرن بن أجود الجبري عام ٩٢١ لأنه وقف في وجهه، وأصبح آل جبر يأخذون برأي البرتغاليين، ويخلع كل حاكم منهم إذا أراد الخروج عن رأيهم، وهكذا كان إخوة مقرن بن أجود. ورجع «بدور دي البوكرك» بعد ذلك إلى هرمز. ثم رجع البرتغاليون ثانيةً إلى البحرين عام ٩٢٨ بقوةٍ مؤلفةٍ من سبع سفن، عليها أربعمائة مقاتل، ومائتي مركب بقيادة «انطونيو دي كوريا» فاستولوا على المنامة بعد أن قصفوها، ودمّروا جزءاً منها، وقتلوا مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر من آل جبر بعد أن أسروه، كما مرّ معنا، وحكم غصيب بن زامل بن هلال البحرين بعد ذلك، وجاء الشيخ راشد بن مغامس فأخذه منه. وهكذا أصبح العثمانيون والبرتغاليون وجهاً لوجه في منطقة الخليج، كما كانوا في مدخل البحر الأحمر، وجنوبي الجزيرة، والمحيط الهندي، وسواحل بلاد الهند، وأصبح الصراع واسعاً.

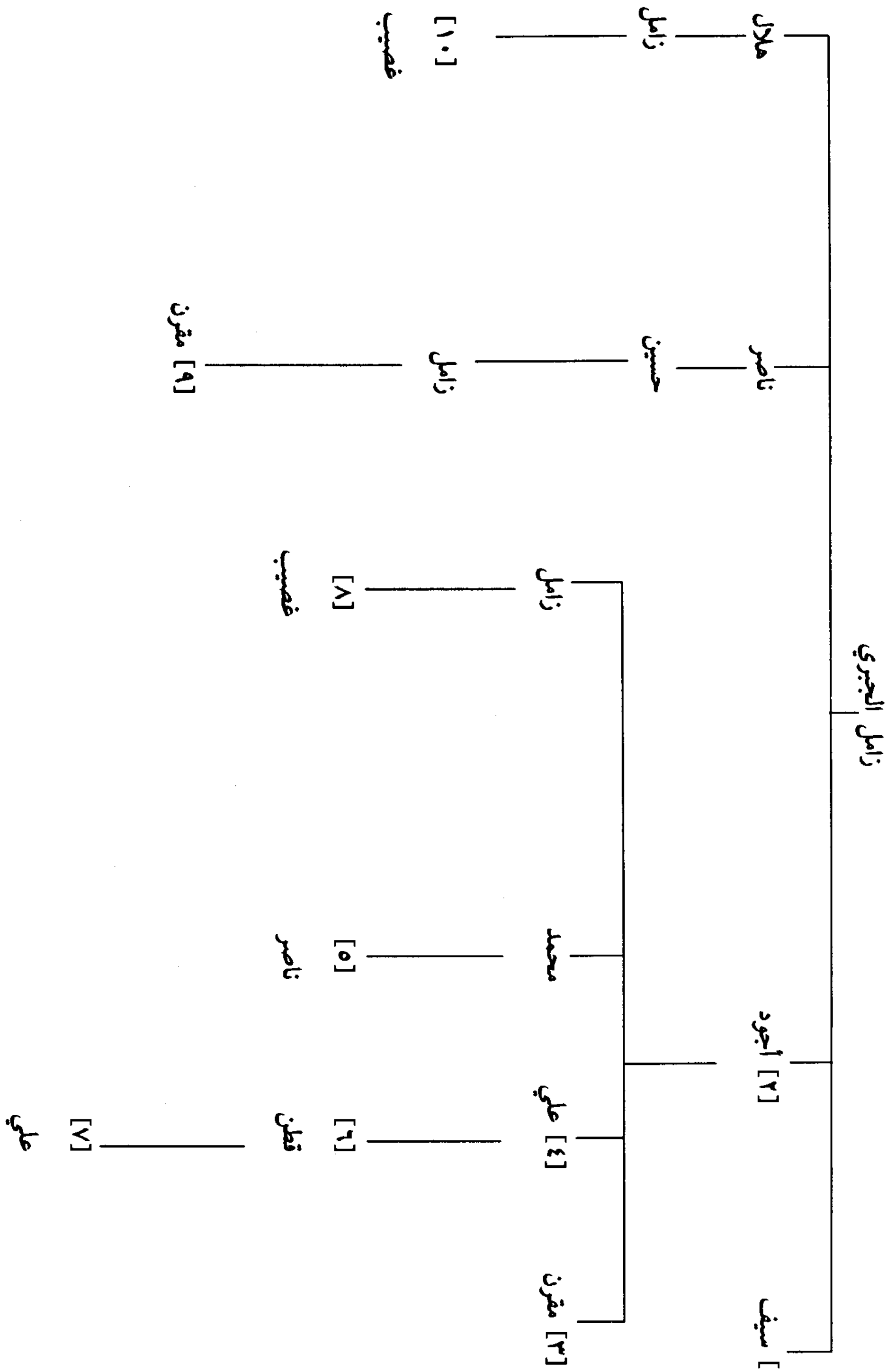

زامل الجبري
[١] سيف
[٢] أجود
ناصر
هلال
[٣] مقرن
[٤] علي
محمد
زامل
[٦] قطن
[٧] علي
[٥] ناصر
[٨] غصيب
حسين
زامل
[٩] مقرن
زامل
[١٠] غصيب

الفصل الخامس

عُـــمَان

قوي أمر الخوارج في عمان في عهد بني أمية، وانتشر بينهم رأي عبد الله بن أباض المتوفى عام ٨٦، وعندما سقطت دولة بني أمية بويع جُلندي بن مسعود إماماً على منطقة عمان عام ١٣٥، غير أن قوات أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس قد تمكنت من قتل جُلندي، وبسط نفوذ العباسيين على تلك الجهات.

وفي أيام الرشيد بايع العمانيون محمد بن عفان إماماً لهم، وبعد عامين عادوا فانتخبوا وارث بن كعب، وبعث الرشيد قوة لإخضاع عُمان، ولكنها هزمت قرب صحار، ووقع قائدها عيسى بن جعفر في الأسر، ولم يتمكن الرشيد من خضد شوكة أهل عمان.

وحاول القرامطة غزو عُمان مرتين أيام أبي سعيد الجنّابي، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك. ولم يعد للعباسيين نفوذ على عمان منذ نهاية القرن الرابع الهجري، وبدأ العمانيون بالانفصال عن الخلافة الإسلامية، وكانوا يختارون الأئمة من بينهم، غير أن الإمام ربما يُخلع، ويُختار غيره. ثم أصبح وراثياً بعد أن كان انتخاباً وذلك منذ منتصف القرن السادس عندما تسلّمت أسرة آل نبهان حكم عمان وذلك بحدود عام ٥٤٣، وبدأ نفوذ آل نبهان يمتد إلى شرقي إفريقية، وقد توطّد في «باتا» عام ٥٩٧، وبرز من آل نبهان قحطان ابن عمر الذي حكم عام ٦٧٠.

وضعف أمر بني نبهان، وخضع ساحل عمان لمملكة هرمز التي قامت

في مطلع القرن الثامن، بعد أن دمّرت غزوات المغول مدينة هرمز القديمة، فانتقل أهلها إلى جزيرة «جرون» المقابلة لمدينتهم المدمّرة، فعُرفت الجزيرة بعدئذٍ باسم «هرمز»، ونشطت التجارة فيها، وقامت فيها مملكة فرضت سيطرتها على الإمارات المجاورة من البحرين إلى عُمان، وزار الرحالة ابن بطوطة ملكها قطب الدين تمهتُن بن طوران شاه بين عامي ٧٣٠ و٧٣٢، ثم دبّ فيها الضعف، وأصبح ملكها يستنجد بأمير البحرين في وقت الشدة ضد أقربائه الطامعين بالسلطان، وقد استنجد السلطان «سرغل بن نورشاه» ملك هرمز بأمير البحرين ضد أخيه الذي نازعه الملك عام ٨٨٠. واستولى أمير البحرين أجود بن زامل على عمان من أميرها سليمان بن سليمان بن نبهان عام ٨٩٣، وقضى على الأسرة النبهانية التي كانت ضعيفة وتخضع لنفوذ ملك هرمز، وإن كان قد قوي أمرها قليلاً مع الضعف الذي اعترى مملكة هرمز، وولى على عمان أميراً من قبله هو عمر بن الخطاب الأباضي، أما داخل عمان الذي مقره (نزوى) فقد كان الأئمة يختارون، ويختلفون فيما بينهم، ويُخلع إمام، ويُقام مكانه آخر.

وعاد سليمان بن سليمان بن نبهان فخرج على الإمام أبي الحسن بن عبد السلام، واستولى على عُمان، غير أنه خُلع عام ٩٠٦، وانتخب مكانه محمد بن إسماعيل الخروصي الذي بقي إماماً حتى عام ٩٤٢، وفي أيامه غزا البرتغاليون عُمان، وخلفه ابنه عبد الله بن محمد الذي توفي عام ٩٦٩، وعادت القوة للأسرة النبهانية فقام سلطان بن المحسن بن سليمان الذي توفي عام ٩٧٣، وقد استطاع أن يملك نزوى في أيام الإمام بركات بن محمد، وتولى بعده ابنه مظفر، وأخوه الفلاح، ثم آل الأمر إلى سليمان بن مظفر الذي استطاع أن يخضع عُمان إليه، وتوفي عام ١٠١٩، فخلفه ابن عمه عرار بن الفلاح الذي كان ساعده الأيمن، واستمر حتى عام ١٠٢٤ حيث توفي، وقام مكانه مظفر بن سليمان واستمر في الحكم شهرين ثم توفي وقام اليعاربة بعدئذٍ.

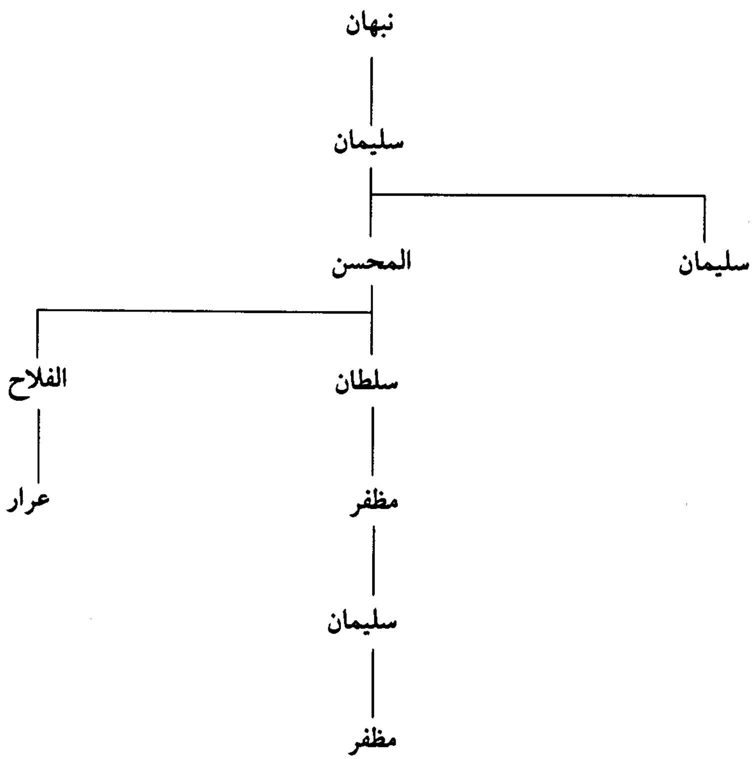

أما البرتغاليون فقد جاء «البوكرك» إلى الشرق عام ٩٠٩، وأقام بالهند، ورأى أن سيادة البرتغال على الطريق التجارية بين رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوبي إفريقية والهند تقضي باحتلال الموانئ التجارية كلها والواقعة على طول هذه الطريق، وقد سافر إلى البرتغال، وعرض خطته على ملكها، فوافق على ذلك وسدّ منافذ التجارة الإسلامية على البحر الأحمر والخليج العربي، كما أمر بتعيين «البوكرك» نائباً له على الهند.

عاد «البوكرك» إلى جنوب الجزيرة العربية عام ٩١٢، وبدأ بالاستيلاء على جزيرة سوقطرى عام ٩١٣، ثم هاجم عدن في العام نفسه، ولكنه فشل في احتلالها، فاتجه نحو الخليج، ومعه سبع سفن، وستون وأربعمائة مقاتل ومرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحد، وصور على ساحل عمان، ودمّر السفن الراسية في هذه الموانئ، وارتكب أبشع أنواع الجرائم ليرهب السكان، ثم سار إلى مدينة «قلهات» وطلب من حاكمها الاستسلام دون قيد أو شرط، فوافق الحاكم، وقدّم المساعدات للبوكرك، وعقد معه صلحاً،

ومع ذلك فلم تسلم المدينة من التدمير، وذلك لأن الروح الصليبية كانت تملأ نفوس البرتغاليين بل الأوربيين عامةً فلم يستطيعوا أن يروا مسلمين آمنين تحت سيطرتهم.

ثم سار «البوكرك» إلى مدينة «قرياط»، وكان عند أهلها استعداد للمقاومة، وربما أخذوا العبرة مما رأوا ما حلّ بأهل «قلهات»، فقصف البرتغاليون «قرياط»، فاستبسل السكان في الدفاع عن مدينتهم، ولكن ظهر تفوّق البرتغاليين، وغُلب الآمنون، فذبح البرتغاليون كل من وقع في أيديهم، ثم أحرقوا المدينة، وأخذوا عدداً من الأسرى بعد ذلك، ومثّلوا بهم ليشفوا منهم صدورهم المليئة بالحقد، فقطعوا الآذان، وجدعوا الأنوف، ثم أحرقوا السفن في الميناء، وتحرّكوا مع الساحل نحو الشمال الغربي.

وصل البوكرك مع حملته البرتغالية إلى مسقط، وسمع أهلها، ما أصاب مدينة «قرياط»، فحصّنوا مدينتهم احتياطاً، ولم يكن لديهم رغبة في قتال البرتغاليين، وأرسلوا وفداً إلى البوكرك للمفاوضة، ورجوه ألا يمسّ المدينة بسوء، ووافق السكان على كل طلبات البوكرك سوى الخضوع لملك البرتغال، وفي هذا الوقت وصلت إليهم مساعدات من هرمز فامتلأ البوكرك غيظاً على رفض طلب من مطالبه، وعلى المساعدات التي جاءتهم فأصلى المدينة بوابل نيرانه، وتمكّن من دخولها، وأعمل المهاجمون الجرائم الوحشية والمذابح في أهل المدينة، ثم دمّروا المساجد وأحرقوا المدينة، وانطلقوا بعدها نحو مدينة «صحار» ووافق حاكمها على طلبات البوكرك بعد تمنّع في الخضوع لملك البرتغال.

واتجه البرتغاليون إلى «خورفكان»، ورفض أهل المدينة الاستسلام، واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم، لكنهم هُزموا، فقبض البرتغاليون على من وقعت أيديهم عليهم، ومثّلوا بهم. ثم ساروا نحو قاعدة المملكة «هرمز» حيث كانت المدن السابقة كلها تتبع لها، وكان ملكها شاباً في الثانية عشرة، يُدعى سيف الدين، ويقوم بالوصاية عليه الشيخ خوجة

العطار، فجمع الملك والوصي ما استطاعا جمعه من المسلمين للدفاع عن الجزيرة، ورفضا الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، غير أن التفوّق البرتغالي أجبرهما على الخضوع بعد استبسالٍ كبيرٍ من السكان، ووافقا على دفع ضريبةٍ سنويةٍ مقدارها خمسة عشر ألف دينار أشرفي ذهباً، والخضوع لملك البرتغال، والسماح للبرتغاليين ببناء قلعة على الجزيرة.

ثار قادة «البوكرك» عليه، لما أصابهم من دفاع السكان واستبسالهم، ولما رأوا من الأعمال الوحشية رغم أنهم هم الذين قاموا بها، وقلوبهم ممتلئة حقداً على المسلمين، لكنهم احتجوا بها ليعللوا تمرّدهم، وقالوا: إن النفس البشرية لا تستطيع أن ترى هذه المشاهد، ومع كذبهم لتبرير عملهم فقد قرروا الرحيل إلى الهند، وهربت بالفعل سفينتان من سفن البرتغاليين.

رحل البوكرك إلى جزيرة سوقطرى قاعدته الرئيسية، فقوّى هناك الحامية فيها، وجاءه دعم من البرتغال، وبعد أن أقنع الجنود الذين معه بضرورة الانتقام من المسلمين، وبعد أن شحن النفوس بالحقد الصليبي عاد عام ٩١٤ إلى هرمز، ومرّ في طريقه على «قلهات» فانتقم من أهلها لأنهم ساعدوا هرمز سراً رغم ما حلّ بهم، ونهب المدينة، وحاول الغدر بحاكمها شريف الدين إذ دعاه إلى سفينة برتغالية للغدر به، غير أن شريف الدين أحسّ بما يُبيّته البوكرك له فاعتذر بلطف بحيث لا يدري البوكرك. غير أن الأوامر قد صدرت للبرتغاليين من قائدهم بهدم المسجد الجامع، وإحراق المدينة، وساروا بعدئذٍ إلى هرمز، ولما وصلوا إليها حاول البوكرك التأكد من استمرار الموافقة على الشروط السابقة، فأعلن ملك هرمز على موافقته على الشروط دون بناء القلعة، فحاصر الجزيرة وأراد الانتقام الشديد غير أن الأوامر قد جاءته من نائب ملك البرتغال بالهند برفع الحصار والتوجه إلى الهند فامتثل الأوامر، وعندما وصل إلى الهند عام ٩١٥ تولّى نيابة ملك البرتغال هناك خلفاً (لدي ألميدا).

رجع البوكرك عام ٩١٩ بالهجوم على البحر الأحمر، وهاجم عدن غير أنه فشل ثانيةً في دخولها، فسار إلى الخليج عام ٩٢١، ووصل إلى

هرمز، وألقى الحصار على الجزيرة، وقتل حاكمها بعد دخولها، وعيّن ابن أخيه (بدوردي البوكرك) قائداً لقلعة هرمز، ورجع إلى الهند، ولكنه هلك قبل أن يصل إليها. وتبدو الروح الصليبية في رسالة وجهها إلى ملك البرتغال يقول فيها: «إنه حيثما أمكنه العثور على عربي كان إفلاته من يده من المحال، وإنه كان يملأ المساجد بالمسلمين ثم يضرم النار فيها».

ورغم سفر البوكرك إلى الهند، ورفعه الحصار عن هرمز، ووفاته إلا أن ساحل عمان والخليج قد بقيا يخضعان للبرتغاليين، غير أن السكان والأمراء لم يكونوا راضين بهذا الخضوع، إلا أنهم مهزومون، لذا كانوا ينتظرون الظروف المناسبة للانقضاض على الأعداء، وربما كان ذلك الحقد الصليبي الذي يظهر على الغزاة البرتغاليين، واحتقار السكان، والازدراء، بالعقيدة الإسلامية. وبدأت الحركات ضد البرتغاليين عام ٩٢٨ حسب تعاليم شيخ هرمز بندر شاه، وقد بدأ هو بحرق المراكب البرتغالية في ميناء هرمز، ثم قتل الحامية البرتغالية القائمة في الجزيرة ليلاً، وقامت الحركة نفسها في بقية المراكز التجارية باستثناء حاكم مسقط الذي أعلن خضوعه للبرتغاليين بسبب التنافس أو الخلاف الذي كان بينه وبين حاكم هرمز، وهذا ما دعا إلى طلب البرتغاليين لمساعدات من الهند، فجاءت النجدة الأولى، وتعاونت مع حاكم مسقط الشيخ راشد، ثم جاءت النجدة الثانية عام ٩٢٩، وتمكن البرتغاليون من استعادة مركزهم عام ٩٣٠. وقامت حركة ثانية عام ٩٣٣ في هرمز، ومسقط، وقلهات وجاءت نجدات من الهند قمعت الحركة، واستعمل البرتغاليون أبشع وسائل القمع. وقامت حركة ثالثة عام ٩٣٦ في البحرين. وأخيراً استعان سكان المنطقة بإخوانهم العثمانيين لمقاومة البرتغاليين، وكان لهذا دوره في القضاء على النفوذ البرتغالي في المنطقة.

أما الصفويون في إيران فقد حاولوا التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين، وقد حاول هذا التفاهم أو إقامة حلف إسماعيل الصفوي عام ٩٢٠ ولكنه فشل لموت البوكرك عام ٩٢١، كما حاول ذلك عباس الصفوي فيما بعد.

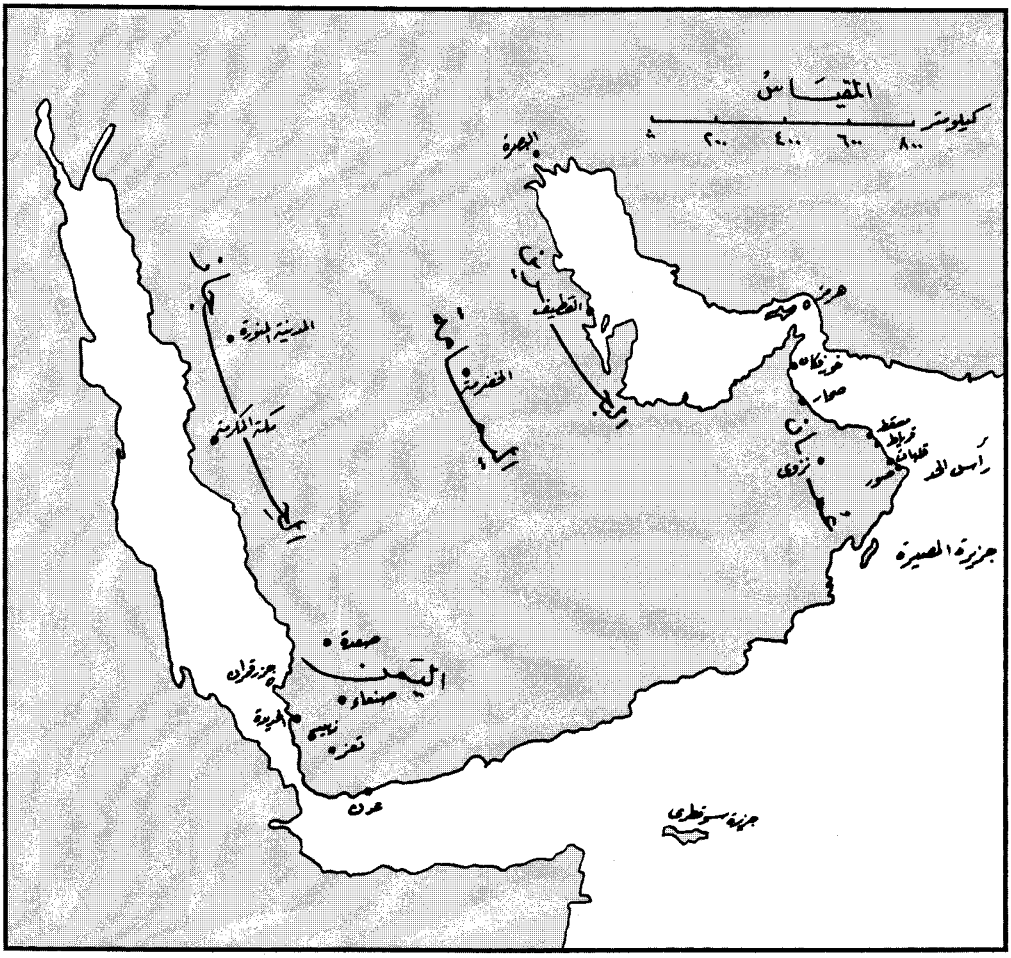
المقيـاس
كيلومتر
٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠
البصرة
القطيف
الخضرمة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
اليمن
صعدة
صنعاء
جزر فرسان
الحديدة
زبيد
تعز
عدن
جزيرة سوقطرى
هرمز
خورفكان
صحار
مسقط
قريات
قلهات
صور
نزوى
رأس الحد
جزيرة المصيرة

الباب الثالث

دولة المغول

ارتبط اسم المغول في أذهاننا بالبربرية والفظاظة، والقسوة والغلظة، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وتخريب المدن والقرى، وإبادة المزروعات، والإتيان على كل شيءٍ حتى يكون كالرميم وذلك نتيجة ما قام به هذا الشعب في أول أمره، وما لحقنا منه من أذى، وما أصاب حضارتنا من دمارٍ على يديه، وما نال مدننا من خراب في أثناء دخول أبنائه عليها حتى رفض ابن الأثير كتابة تلك الأحداث، إذ ظنّ أنها نعي الإسلام وانتهاء أمره على أيدي هؤلاء المخرّبين، غير أن هذا الشعب لم يلبث أن بدأ يدخل في الإسلام ولم ينقض على اجتياحه بلاد الإسلام بأكثر من خمس وثلاثين سنة، كما لم يمض نصف قرن حتى غدا كله مسلماً، وأصبح ينافح عن ديار الإسلام، ويقاتل أعداء المسلمين، فقد وقع القتال بين «بركة» الذي أسلم وبين ابن عمه «هولاكو» الطاغية الذي لا يزال وثنياً، ويعمل على دكّ معالم الحضارة الإسلامية، يخرّب الدور، ويحرق الكتب، ويروّع الآمنين، بل إن «بركة» هذا قد هزم «هولاكو» وتصادق مع ألد خصومه يومذاك، وهو السلطان الظاهر بيبرس زعيم المماليك الذين وقفوا في وجه المغول وهزموهم في «عين جالوت» عام٦٥٨، وقتلوا قائدهم «كتبغا» نائب هولاكو، ولم يصمد قبل المماليك أحد أمام المغول، وكان هذا كله سبباً في توقّف المدّ المغولي وكسر شوكته، وإخماد ذروته وحِدَّتها.

وإذا كان الشعب الغالب عادةً هو الذي يفرض سلطانه وحضارته على المغلوبين إلا أن حضارة المغلوبين هي التي سادت على الغالب هنا، إذ أن الغالبين لم يكونوا على شيءٍ من الحضارة، ويشعر المغلوبون أنهم الأعلون ما داموا من المؤمنين حيث كانت الروح الإيمانية لا تزال على شيءٍ من

العلو، فتأثر الغالب بالمغلوب، وتمثّل حضارته ثم تبناها وأخيراً ذاب في المجتمع الذي يعيش فيه.

واستمر المغول على إسلامهم، وبدؤوا يعملون على نشره، وخاصةً في بلاد الشمال، وبقوا على هذه الحالة حتى يومنا هذا، في الوقت الذي يلاقون فيه الاضطهاد من قبل المسيطرين عليهم من الروس فيعملون مستترين، وفي هذا الوقت الذي تخلّى فيه كثير من أتباع الإسلام عن دينهم، غير أن هذا العمل لم يُلفت إليه ولم تتغير الصورة السابقة عن المغول، تلك الصورة القاتمة التي رسخت في الأذهان قديماً، وبقيت راسخةً لم تتبدل لأنه لم يطرأ عليها شيء، مقترنةً بالوحشية وحشية الوحوش الهائجة المندفعة من الشرق.

لم يطرأ عندنا شيء على صورة المغول السابقة لأنهم ذابوا في المجتمع الذي نعيش فيه أو القريب منا، ذابوا تدريجياً فنُسوا، ولم يحدث منهم ما حدث في بلادٍ أخرى من بطولةٍ ودفاعٍ عن الإسلام ونشرٍ له.

ولم يطرأ عندنا تغيّر على صورة المغول السابقة لأنه قد أصابنا الضعف والوهن بعد اكتساحهم بغداد عام ٦٥٦، فلم نعد نعرف شيئاً خارجاً عن دائرتنا الضيّقة التي نعيش فيها بل بالأحرى لم نعد نعرف ما يحيط بنا، فتقوقعنا وانعزلنا، واقتصرنا على الأشياء الأساسية والضرورية في الحياة من تأمين الطعام والمأوى واللباس، ولا تؤمن هذه الأشياء، أيضاً إلا بكل نفس ذائقة الموت بحيث لا تدع معها وقتاً يفكر فيه المرء بغيرها.

لم يطرأ تغيّر على صورة المغول لأنه لم يكد ينسى الناس ما أصابهم على أيدي المغول، ولم يكد يشعر السكان بأن هؤلاء المغول قد ذابوا في المجتمع ودخلوا في الإسلام حتى فجأهم سيل جارف جديد من أبناء عم المغول أو من أبناء جلدتهم من التتار، سيل جارف لم يختلف عن الأول في شيء، جاء يحرق الأخضر واليابس، ويقتل الحاضر والباد، ويبيد كل ما وجد أمامه، وذلك على يد تيمورلنك، ولم يمض على السيل الأول أكثر من مائة سنة كثيراً، حيث لا تزال أحوال السيل المغولي الأول يذكرها

الناس، وتدور على ألسنة الجميع ينقل بعضهم إلى بعض مرارتها، وأهوالها. ولكن قد يكون هذا السيل في هذه المرة أشد وقعاً وأكثر إيلاماً من الأول، ذلك أنهم في المرة الأولى كانوا على الوثنية، وليس غريباً أن يأتي السوء من هؤلاء الوثنيين المتبربريين، وهم أعداء للإسلام، أما في هذه المرة فقد جاء وقد اعتنقوا الإسلام أو انتموا إليه، أو ادعوه على الأقل حتى لقد قيل: إن تيمورلنك كان يحمل معه مسجداً من الخشب يصلي فيه مع من معه كي لا تفوته صلاة الجماعة في المسجد، وهذا إن صحّ فإنما يدل على جهلٍ تامٍ بالإسلام إذ أن أجر صلاة الجماعة يتم بالجماعة وليس من الضروري أن يكون على صورة من الصور ترمز إلى المسجد. لقد جاء هؤلاء التتار يقاتلون المسلمين ويفعلون أشد ما فعل أسلافهم المغول، لقد كان تيمورلنك يُسرّ عندما تُبنى أهرامات أمامه من جماجم صرعى حروبه، أو كان يشعر بالراحة ـ على حد قولهم ـ عندما كان يُجبر نساء كبار أسراه أن يخدمن ضيوفه وهن عرايا، وبين الحضور أولئك الأسرى من الملوك والأمراء، وهذا ما فعله بالسلطان بايزيد العثماني عندما وقع في أسره حسب بعض الروايات. وما كانت حروب تيمورلنك بأكثرها إلا في بلاد المسلمين وما ذاق من وحشيته آخرون سوى المسلمين لذا فإن الصورة السابقة ترسخت بعد أن كاد يمحى منها شيء.

وربما كان من جملة أسباب الجهل بالمغول وتاريخهم وخاصةً بعد إسلامهم صعوبة أسمائهم ولفظها الغريب والمركب، ومما يزيد الأمر صعوبةً أن بعضها يترجم، وتذكر المصادر هذه الأسماء تارةً بالعربية مترجمةً وأخرى بالمغولية ويظنّ القارئ أن المسمّى لشخصين وهما لرجلٍ واحد. ثم تشابه هذه الأسماء.

ومن الأسباب الأخرى اختلاف الخانات بعضهم مع بعض وقتالهم، وتسلّم الواحد منهم أمر منطقة وهزيمته منها ثم عودته ثانيةً إليها، وهذا ما يجعل القارئ يضيع في خضم الأحداث والأسماء.

وكان من عادة المغول أن ينصّبوا في كل منطقةٍ أميراً ويتبع الخان،

لكن ليس غريباً أن يدّعي عدد منهم أنه الخان، فتكثر الخانات، ويضيع المرء بينهم أيّهم الخان وأيّ منهم الأمير و. . .

استمرت الصورة السابقة تدعمها اللاحقة مع الجهل الذي خيّم علينا والضعف الذي حلّ بنا، وعندما بدأت الصحوة الإسلامية تظهر في مجتمعاتنا صرف الأمر عن هذه الشعوب إلى معرفةٍ تقتصر على أجزاء ضيقة دعوها قوميات تارةً تكبر وأخرى تضمر حسب دعاة هذه العصبيات، وفي كلتا الحالين يبقى المغول خارج أطر هذه القوميات، . في منأى عن المعرفة التي يجب ألا تهمل منطقة دون أخرى من مناطق المسلمين، دون معرفة لسكانها، ومشكلاتها، والدعوة فيها، وما يعاني أهلها، وما يمكن أن يُقدم لهم من مساعدات.

ومما يساعد على عدم معرفة المغول والتتار وأحوالهم الحالية سيطرة الروس على بلادهم وجعلها جزءاً من الإمبراطورية الروسية الواسعة، فكانوا قلةً في خضم كثرة، ورقعة أرض صغيرة ضمن بلادٍ شاسعةٍ فضاعوا، وامحى أثر دولتهم هذه بالإضافة إلى أن الروس قد جزؤوا بلادهم إلى دويلات أطلقوا عليها جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتي فتفرّقت كلمتهم فوق فرقتهم، وضاعت وحدتهم مع اضطهادٍ وحربٍ لكل ما هو مسلم أو يحمل معنى الإسلام.

الفصل الأول

دولة مغول الشمال

بعد أن اجتاح جنكيزخان ما اجتاحه من أرض، وشعر بالتعب، وأيقن بقرب الأجل، قسّم ما حصل عليه من البلاد على أولاده الأربعة من الزوجة الأولى على عادة المغول في أن الميراث ينحصر في أبناء أول امرأةٍ يقترن بها الرجل، وهي التي تعد ربة البيت وحدها دون سائر نسائه مهما بلغ عددهن، أو كانت مكانتهن، أو كثرت أموالهن.

أعطى جنكيزخان ابنه الكبير «جوجي» بلاد القفجاق، والداغستان، وخوارزم، وبلغار، وروسيا وما يمكن ضمه من ناحية الغرب إلى نهاية المعمورة.

وأعطى ابنه الثاني «جغطاي» بلاد الاويغور، وتركستان، وما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظةً على تعاليم أبيه المحصورة فيما عرف باسم «اليساق».

وأعطى ابنه الثالث «تولوي» بلاد خراسان، وفارس، وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين، وما يتبع تلك الجهات.

أما ابنه الرابع «أوغطاي» فقد أعطاه بلاد المغول، والصين، والخطا إلى منتهى المعمورة من ناحية الشرق، وجعله خليفته من بعده أي الخان الأعظم بالنسبة إلى المغول جميعاً وإلى أولاده حيث يرجعون إليه في أمورهم كافةً، ويُقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من مغانم وأسلاب.

غير أن هؤلاء الأبناء لم يبقوا على وفاقٍ رغم ارتباطهم بالخان الأعظم إذ أنهم مختلفو الطباع، متباينو الأطماع، وهذا ما جعل دولةً تقوم في بقعةٍ من هذه الأقسام، وإن تأخرت عن هذا التقسيم قليلاً حتى مضى عهد الإخوة الآباء الذين كانوا على شيءٍ من الارتباط بمقر الحكم «قره قورم» حيث يقيم الخان الأعظم إلا أن هذا قد ضعف عندما آل الأمر في كل منطقة إلى الأبناء الذين اتسعت رقعة الخلاف بينهم فوقع الصدام، وظهرت الدول المغولية المختلفة التي من الفائدة ذكر كلٍ منها على انفراد.

وتوفي جنكيزخان عام ٦٢٤ وذهب كل من أبنائه الأربعة بما حصل عليه.

مغول الشمال هم أسرة أبناء جوجي بن جنكيزخان، ولم تنقد هذه الأسرة لحكم الخان الأعظم منذ بداية الأمر أي منذ وفاة جنكيزخان، إذ توفي جوجي قبل أبيه، وتسلّم أمر المنطقة من بعده ابنه (باتو) أو أن جنكيزخان بنفسه سلّمه الأمر، ولم يكن (باتو) راضياً على تعيين عمه (اوغطاي) خاناً أعظم للمغول، كما كان باتو مميزاً بين أبناء عمومته، إذ يجب على المغول أن يرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم. وكان لباتو مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلاف مع الخان الأعظم وينافسه، وعندما توفي (كيوك) بن أوغطاي أي ابن عمه، وهو الخان الأعظم، نقل الخانية إلى أبناء عمه الآخر تولوي فعيّن بالقوة (مانكو) أخا هولاكو رغم عدم موافقة الكثيرين من المغول وخاصةً أبناء كيوك.

تعد هذه الأسر أول المغول في اعتناق الإسلام، إذ كان باتو يعطف على المسلمين، ويكره (كيوك) الخان الأعظم الذي تنصر، وأسلم (بركة) أخو (باتو) حوالي عام ٦٥٠، وعندما تسلّم خانية مغول الشمال عام ٦٥٢ أظهر تضامنه مع المسلمين، وقاتل ابن عمه هولاكو، وانتصر عليه، وراسل السلطان الظاهر بيبرس حاكم الدولة المملوكية في مصر وتحالف معه ضد هولاكو.

واستمرت الاتصالات بين المماليك ومغول الشمال كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في فارس والعراق وبلاد الجبل، وحتى أيام تيمورلنك، وإن كانت تضعف أحياناً عندما يتقرّب الإيلخانيون من الإسلام، وعلى كلٍّ لم يحدث خلاف أبداً بين المماليك وبين مغول الشمال، ونتيجة هذه الاتصالات فإن معرفتنا عن هذه الأسرة تزيد على معرفتنا على بقية أسر المغول التي قامت في تركستان، وبلاد ما وراء النهر، والصين رغم دخول هذه الأسر بالإسلام أيضاً، وإن كانت في مرحلة متأخرة نسبياً عن دخول مغول الشمال. وليس من أسرةٍ مغوليةٍ أكثر معرفةً عندنا من هذه الأسرة سوى الأسرة الإيلخانية لتوالي حروبها في العراق وبلاد الشام ومحاولة انتزاع بلاد الشام هذا بالإضافة إلى قرب منطقة حكمها من بلادنا.

اشتهر من خانات هذه الأسرة بركة خان الذي حكم (٦٥٢ ـ ٦٦٥) بصفته أول من أسلم، وبسبب مراسلاته مع السلطان الظاهر بيبرس، ومصاهرته له وحروبه للطاغية هولاكو، وانتصاره عليه، أو لانتصاره على ألد أعدائنا، وأكبر خصومنا، وأصعب من نال من حضارتنا. ومحمد أوزبك خان الذي حكم (٧١٢ ـ ٧٤٢)، وهو الذي تحدث عنه الرحالة ابن بطوطة. وتوقتاميش الذي حكم ٧٨٢ ـ ٧٩٨ والذي اشتهر بحروبه ضد تيمورلنك.

كان جوجي أكبر أبناء جنكيزخان، وكانت وظيفته المقررة له من قبل أبيه الصيد، وهي أحسن الوظائف عندهم. وكان نصيبه من ملك أبيه بلاد البلغار، والروس، والشركس، وخوارزم، والقفجاق، وما والاها، وكان بينه وبين أخويه جغطاي وأوغطاي ضغينة وبرودة دائماً. ولما استولى المغول على بلاد خوارزم عام ٦١٧ اتجه جوجي ومن معه نحو صحراء القفجاق، واشتغل بالصيد واللهو والنهب والسلب والإغارة على المناطق المجاورة، وقد تمكّن من دخول بعض البلدان، بعضها صلحاً وبعضها الآخر عنوةً، ثم استدعاه أبوه واهتم به كثيراً، وقد أظهر المحبة الزائدة لإخوته، وقدّم لهم

الهدايا مما حمله معه، ثم أعاده أبوه إلى المملكة التي خصّه بها فسار إليها، وما أن وصل إلى مقره حتى وافته منيته عام ٦٢٤، وذلك قبل وفاة أبيه بستة أشهر تقريباً. كان جوجي على ديانة آبائه وأجداده الوثنية، وكان يعيش على نمط حياة سكان صحراء القفجاق رغم ما بها من بساطة وسذاجة، ويرفق بأهالي تلك الجهات. وخلّف سبعة أولاد هم: أوردا، باتو، شوبان، بركة، جمتاي، بركجار، توقايتمر.

استمرت مملكة جوجي بيد أبنائه وأحفاده أكثر من ستة قرون، وإن تجزّأت، وتفرّق الأحفاد، وكان آخرها مملكة القرم التي زالت عام ١٢٩٨ على يد الروس. كما أن أبناء شوبان قد عُرفوا بالشيبانية، ثم عرفوا بالأوزبكية نسبة إلى أوزبك خان، وتوجد الآن جمهورية أوزبكستان في بلاد ما وراء النهر في تركستان تحمل هذا الاسم، وهي جزء اليوم من الامبراطورية الروسية، حيث تمكن أحفاد جوجي من انتزاع بلاد ما وراء النهر من أيدي أبناء تيمورلنك فيما بعد.

لما توفي جوجي استدعى جنكيزخان ولدي جوجي الكبيرين: أوردا، وباتو، فعزّاهما، ونصّب باتو على خانية صحراء القفجاق لما وجد فيه من ميزات تؤهله لذلك، ووافقه على مشروع أبيه في غزو بلاد الروس، وطلب منهما العودة، وما أن رجعا، وبدأ باتو يستعد للقيام بالغزو حتى جاءه خبر وفاة جدّه جنكيزخان، فاتجه نحو بلاد المغول للتعزية، ولتنصيب عمّه (أوغطاي) أو لبحث شؤون الملك، وكلّف أخاه الأصغر «توقايتمر» بمهمات الملك مكانه.

كان من عادة المغول ألا يجلس الخان على سرير الملك بعد وفاة سلفه مباشرةً وإنما لا بدّ من مرور مدة تتناسب مع شخصية المتوفّى، وقد استمر «أوغطاي» مدة سنتين دون تسلّم السلطة، وبعد انقضاء هذه المدة تجمّع أولاد جنكيزخان وأحفاده وكبار الأسرة لهذا الغرض، وبعد الانتهاء من إجلاس «أوغطاي» على سرير الخانية العظمى والاحتفال بذلك، سارت الأسرة كاملةً لقتال بعض ملوك الصين الذين أعلنوا العصيان بعد موت

جنكيزخان، وقد تمّ لهم النصر، ولما عادوا من حربهم هذا رأى الخان الأعظم «أوغطاي» أن يتمّ ما نواه أخوه جوجي قبل موته من محاربة بلاد الروس والبلغار، فجهز جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً أعطاه لابن أخيه باتو وجعل معه ولدي أخويه الآخرين إضافةً إلى ابنه كيوك وكان ولدا أخويه مانكو بن تولوي وبايدار بن جغطاي، وكانت القيادة العامة لباتو بن جوجي، وسار الجيش إلى مقر ملك باتو حيث وفادة ضيوفه، ثم تجهّز للقتال عام ٦٣٣، واستطاع أن يضم إليه بلاد بلغار بعد أن استسلم أميرها «الهام خان»، ومشى معه لقتال الروس عام ٦٣٥، وكان الروس متفرقين فانتصر المغول، ودخلوا بلاد الروس جميعها تقريباً، ثم عادوا وفي طريق عودتهم دخلوا خاركوف عام ٦٣٧، ثم وجه ابن عمه مانجو بن تولوي إلى كييف فدخلها.

دخل باتو منطقة بسارابيا والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ونكبوها ثم اتجه نحو كرواتيا، وبلاد البوسنة، وألبانيا، ووصل إلى تخوم مملكة النمسا، فذعرت أوربا، وكان إمبراطور ألمانيا فريدريك أشدّ ملوك أوربا خوفاً، وهو الذي صالح الملك الأيوبي الكامل وتسلّم القدس. غير أن هجوم التتار هذا قد جعل السكان ينسون الحقد الصليبي مؤقتاً ليستعدوا للقاء التتار، وحاول الحكام أن يبقى أهل البلدان في مناطقهم فلا يخرجون إلى الصيد الذي اعتادوا أن يذهبوا في كل عام على سواحل إنكلترا، ولا يتجهوا إلى الحروب الصليبية فإن ما هم فيه يُشغلهم عما يهدفون إليه، وأرسل باتو ابن عمه بايدار بن جغطاي لقتال الألمان فالتقى الطرفان في مورافيا، وانتصر الألمان، وهُزم التتار، ومات بايدار غمّاً، وتعبت الجيوش التتارية، ومات أوغطاي خان التتار، وهذا كله جعل باتو يترك الحرب في أوربا.

خلف (أوغطاي) ابنه كيوك عام ٦٤٤، واحتفل بتسلّمه منصب الخانية العظمى للتتار بعد مرور سنةٍ على وفاة أبيه، وحضر الاحتفال ملوك الدنيا حتى جاء المسلمون لحضور هذا الاحتفال فقد حضر من جهة الخليفة العباسي ببغداد قاضي القضاة فخر الدين، وجاء من الشام أمير يمثّل الأيوبيين هو أخو صاحب حلب الملك الناصر، ومن قونية جاء الأمير ركن

الدين مُمثّلاً للسلاجقة كما جاء من تركستان، ومن بلاد ما وراء النهر، ومن بلاد الخطا هذا إضافة من جاء من النصارى، ومن يمثّل البابا. غير أن باتو لم يحضر هذا الاحتفال متعلّلاً بمرض في رجليه، وأرسل نائباً عنه أخاه بركة، ويبدو أنه كان غير راض على هذا التعيين فهو أكبر منه سناً، وكان تحت إمرته في حروبه ضدّ الروس، ويرى بنفسه الأكثر كفئاً، وأبوه جوجي كان أكبر من أبيه أوغطاي أيضاً، هذا بالإضافة إلى ما كان بين الآباء من جفوة. كان كيوك عند ابن عمه باتو مشغولاً بحرب الروس عندما آل الأمر إليه فسيّرت أعمال الملك مكانه أمه «توراكينا» حتى عاد. وكان لغياب باتو عن هذا الاحتفال أثر واضح في نفس كيوك فظهر ما كان مخفياً، وكان كيوك قد اعتنق النصرانية تحت تأثير أحد أعوانه، أو مربيه النصراني «قداق خان»، وانتشرت أعداد من الرهبان والقساوسة في بلاد المغول، وكانوا جميعاً يحرّضون «كيوك» ضد ابن عمه باتو الذي كان لا يكره المسلمين إن لم يكن يحبهم حيث التجأ عدد منهم إليه، وذلك تحت تأثير «رسالة» ابنة خوارزم شاه، وهي أخت جلال الدين، وقد وقعت في أسر التتار وتزوجها جوجي بن جنكيزخان فكان لها تأثير في بيته حيث تربى باتو، وبركة وغيرهما من أبناء جوجي بن جنكيزخان. وتحت تحريض القسيسين والرهبان النصارى لكيوك ضد باتو لعزله والاستيلاء على بلاده الأمر الذي أوقع الخلاف بين ولدي العمّ، وأرسل كيوك فرقةً إلى أطراف بلاد باتو للاعتداء وحمل عمال باتو إليه، ووصلت هذه الفرقة إلى أذربيجان، وطلبت من عمال باتو السير إلى الخان الأعظم، فلم يكن لهم من رأي سوى طاعة الخان الأعظم، ولكنهم أخبروا باتو، وجاء الجواب بالقبض على هذه الفرقة فقام أنصار العمال فقبضوا على رجال الفرقة، وأطلقوا سراح عمّالهم، وحُمل رجال فرقة كيوك إلى باتو، فقُتل رؤساؤهم، وعندما وصل الخبر إلى كيوك تألّم كثيراً وجهّز جيشاً لقتال باتو، ووجّهه إليه، وقبل أن يلتقي الطرفان في أية معركةٍ مات الخان كيوك، وذلك عام ٦٤٧، فاضطرب أمر جنده، وراسلوا باتو وأخبروه بموت كيوك، وأن مسيرهم إنما كان لقتال الروس وليس هدفهم باتو والنيل منه، وأنه أولى الناس الآن بتسلّم الخانية

العظمى فهو أكبر أحفاد جنكيزخان، وأكثرهم خبرةً، وأرجحهم رأياً، إلا أنه رفض ذلك، ورشّح مانكو بن تولوي، ابن عمه، وتأخّر تنصيبه ما يقرب من سنتين، غير أن باتو قد طلب من أخيه بركة الذي أرسله معه إلى بلاد المغول لتنصيبه، إتمام ذلك الأمر، وإعدام من يخالف، وكان أولاد كيوك قد أظهروا شيئاً من المعاندة، فنصّبه بركة، وعاد إلى أخيه باتو، وهكذا انتقلت الخانية العظمى من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي» عام ٦٤٨.

توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠، وخلفه ابنه صرتق، وكان عند الخان الأعظم مانكو، فنصّبه مانكو، وأعاده إلى مملكته، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى توفي، فخلفه عمه بركة بن جوجي لأن بقية أبناء باتو كانوا صغاراً وبالتالي أبناء صرتق.

تولى خانية المغول في صحراء القفقاس عام ٦٥٣ أبو المعالي ناصر الدين بركة خان، ويُعدّ أول من أسلم من أبناء جنكيزخان، وكان إسلامه عند عودته من بلاده بعد أن أرسله أخوه باتو لإجلاس مانكو بن تولوي على كرسي خانية المغول العظمى، وفي أثناء هذه العودة مرّ على مدينة بخارى فالتقى فيها بأحد العلماء فاعتنق الإسلام، ويمكن أن نقول: إن عند بركة خان خلفية عن الإسلام سابقة على ما يبدو وربما كانت من بيته الذي نشأ فيه حيث كانت تعيش فيه رسالة بنت خوارزمشاه كزوجة لأبيه جوجي، فعاد إلى بلاده إذن مسلماً، وعندما تولى أمر المغول في تلك الجهات كان مسلماً. وعندما صار في الملك أسلم معه عدد كبير من قومه، وعدّ نفسه حامي القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والدين، وراسل الخليفة المستعصم في بغداد وبايعه وهاداه. ودعا العلماء من كل جهة ليفقهوا الناس في الدين، وأغدق عليهم من المال الكثير. وأكمل بناء مدينة «سراي» وكان قد بدأ بها أخوه باتو سنة ٦٤٠، وأكملها بركة خان، وقد وصفها المؤرخون وأطنبوا في وصفها وحسنها فقال ابن عرب شاه وكان قد أقام بها عدة سنين، وتزوج فيها وأنجب: «وتخت الدشت سراي وهي مدينة إسلامية البنيان، بديعة الأركان، وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها

واتخذها داراً للملك، واصطفاها، وكانت من أعظم المدن وضعاً وأكثرها للخلق جمعاً، حكي أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق، وسكن في مكان مُنحّى عن الطريق، وفتح له حانوتاً يتسبّب فيه ويُحصّل قوتاً، واستمر ذلك المهين نحواً من عشر سنين لم يُصادفه فيه مولاه، ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك لعظمتها وكثرة أممها، وهي على شط متشعب من نهر اتل الذي أجمع السياحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الأنهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه». وقال أيضاً: «ولما تشرّف بركة خان بخلعه الإسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنيف الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشائخ من الآفاق والأكناف، ليوقّفوا الناس على معالم دينهم، ويبصّروهم على طريق توحيدهم ويقينهم، وبذل على ذلك الرغباب، وأفاض على الوافدين منهم بحر الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند أوزبك خان بعده وجاني بك خان مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا أحمد الخجندي، رحمهم الله تعالى، فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأدباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلةٍ، وخصلةٍ نبيلةٍ جميلةٍ، في مدةٍ قليةٍ، ما لم يجتمع في سواها، ولا في مصر ولا في قراها»[١].

وقال ابن فضل الله العمري: «وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أن مدينة سراي بناها بركة خان على شط نهر اتل[٢]، وهي أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم،

---

(١) عجائب المقدور في أخبار تيمور ـ أحمد بن محمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى عام ٨٥٤.

(٢) نهر اتل: نهر الفولغا.

على عليائه هلال ذهب زنته قنطاران بالمصري، ويُحيط بالقصر سور وأبراج ومساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهم، قال: وهذا النهر قدر النيل ثلاث مرات وأكبر، ويجري فيها السفن الكبار، يسافر بها إلى الروس والصقلب، قال: وهي يعني السراي مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات، ووجوه بر مقصودة بالأجلاب، في وسطها بركة ماؤها من هذا النهر، ويستعمل ماؤها للاستعمال، وأما شربهم فمن النهر، يستقى لهم في جرار فخار، وتصف على العجلات، وتجر إلى المدينة وتباع[1]».

وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة فكتب عنها: «ومدينة السراي من أحسن المدن، متناهية في الكبر، في بسيط من الأرض، تغصّ بأهلها كثرةً، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع، وركبنا يوماً مع بعض كبرائها، وغرضنا التطوّف عليها، ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرفٍ منها، فركبنا منه غدوةً فما وصلنا إلى آخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر، وأكلنا طعاماً فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يوماً عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين. وفيها ثلاثة عشرة مسجداً لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً، وفيها طوائف من الناس منهم المغول وهم أهل البلاد والسلاطين، وبعضهم مسلمون: ومنهم الاص (اللزكي) وهم مسلمون، ومنهم القفجاق والجركس والروس والروم وهم نصارى، وكل طائفة تسكن محلةً على حدة، فيها أسواقها، والتجار والغرباء من العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار، وقصر السلطان بها يسمى (آلتون طاش)[2]».

وما أن تسلم السلطنة بركة خان حتى وقع الخلاف بينه وبين ابن عمه هولاكو بن تولوي، ويعود السبب إلى أن بركة خان كان مسلماً صديقاً

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى عام ٧٤٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة.

للخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد، ويحامي عن المسلمين على حين كان هولاكو وثنياً عدواً للمسلمين. فلما تولّى مانكو أمر المغول بجهود باتو، حسّن هولاكو لأخيه مانكو الاستيلاء على أملاك الخليفة العباسي والسيطرة على بغداد، والقضاء على فرقة الحشاشين الملاحدة من الإسماعيليين بعد أن زادت تعدّياتهم في بلاد قزوين والجبل، وانطلقت وفود من هذه البلاد تطلب من الخان الأعظم قتالهم. واقتنع مانكو خان بفكرة أخيه فجهّز له جيشاً كبيراً وسيّره إلى الغرب لدخول بلاد الخليفة فوصل الخبر إلى بركة خان فصعب عليه ذلك فتوسّل لدى أخيه باتو خان بمنع ذلك الأمر، وقال له: «إننا نحن الذين أقمنا مانكو خان وما جزانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويخفر ذمتنا، ويتعرّض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي، وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفي هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة، وقبّح فعله ذلك على أخيه باتو» فبعث باتو إلى هولاكو بالنهي عن ذلك وأنه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل أن ينفصل بالعساكر، فما عبره، وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين امتثالاً لأمره حتى مات باتو[١]. ولما تولى صرتق خان بعث هولاكو إلى أخيه مانكو خان يستأذنه في السير إلى الغرب وإمضاء ما كان أمره به، فأذن له فسار فأوقع بفرقة الحشّاشين، واستولى على قلاعهم ونكّل بهم، واتجه نحو بغداد.

كان بركة خان قد تسلّم السلطنة وأراد أن يحول دون سير هولاكو نحو بغداد بالقوة، غير أن جنوده يمكن ألا يُطيعوه في قتال هولاكو إذ أن قتالهم له مخالفة لأوامر الخان الأعظم مانكو إذ هو الذي سيّره، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى فإن القتال خلاف لـ (يساق) جنكيزخان الذي لا يزال راسخاً في نفوس الكثيرين منهم، وهم لا يزالون على وثنية المغول ومن

---

(١) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار م.م. الرمزي أورنبورغ ١٣٢٥هـ.

أسلم منهم قليل فلا يمكن لبركة خان أن يطالبهم بالدفاع عن ديار المسلمين والخليفة لذا أحب بركة خان أن يتحرّش بابن عمه هولاكو حتى يكون هو المعتدي فعندئذٍ يمكن لجنود بركة خان أن يقفوا في وجه هولاكو ويقاتلوه.

طالب بركة خان ابن عمه هولاكو بأعمال «تبريز» و «مراغه» إذ أنها ضمن أملاكه، وقد تعدى عليها جنود هولاكو، وعدّه متجنياً على بلاده ومتعدياً على حدوده، ثم طالبه بإرسال جزء من الغنائم التي جرت العادة أن يرسلها المغول إلى باتو خان، إذ كانوا يرسلون جزءاً مما يغنمون إلى الخان الأعظم كما يبعثون بقسم إلى باتوخان بصفته أكبر أفراد أسرة جنكيزخان، وشدّد بركة خان بالمطالبة، وفي هذه الأثناء كان هولاكو قد دخل بغداد وقتل الخليفة، وأحرق عاصمته، وأعمل فيها الخراب والقتل، وزادت نقمة بركة خان على هولاكو عندما قتل رسله، واتجه هولاكو نحو بلاد بركة خان، والتقى الطرفان، وانتصرت جيوش بركة خان، وانهزم جيش هولاكو بعد أن فقد قسماً كبيراً منه ولم يتوقف القتل في أفراده حتى اجتازوا نهر «كورا» بين الطرفين، وكان ذلك عام ٦٦٠، وربما وقعت معارك بين الطرفين قبل سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦، وفي ذي الحجة من عام ٦٦٠ أعاد (تاباي نويان) قائد جيش هولاكو الهجوم على جيش بركة خان بقيادة (نوغاي) فانهزم نوغاي، وأرسل هولاكو نجدة إلى جنده بعد هذا النصر الذي أحرزه، وكان فيه معظم الأمراء ومنهم ابنه أباقا، وهاجموا جند بركة خان في دربنت (باب الأبواب) فأزالوهم عن مواقعهم وذلك في محرم من عام ٦٦١، وفي غرة صفر تابع جيش هولاكو أعداءه فجاءه بركة خان بجيش عظيم بعد أن قطعوا نهر ترك فانهزم جيش هولاكو، وولى الأدبار من بقي منه بإمرة أباقا بن هولاكو.

ولم يكن عمل بركة خان مقتصراً على قتال هولاكو بل أراد عملاً أوسع من هذا بكثير إذ رغب في إنهاء دولة المغول الوثنية التي يقودها مانكو بالتفرقة بين أفراد البيت الحاكم ثم السيطرة عليها ونشر الإسلام فيها. فعندما جهّز هولاكو جيشاً قوامه أربعمائة ألف واتجه نحو بلاد الشام يريد

دخولها وغزو مصر وقد تمكن فعلاً من دخول بلاد الشام، وفي هذه الأثناء، خرج بعض ملوك بلاد الخطا عن طاعة مانكو خان فسار إليه لتأديبه وأخذ معه أخاه قبلاي، واستخلف مكانه أخاه الأصغر أرتق بوكا، وفي أثناء ذلك توفي مانكو خان، واتفق الجند والأمراء على إجلاس أخيه قبلاي مكانه، فاغتنم هذه الفرصة بركة خان وأرسل قيدو بن قاشين بن أوغطاي مع قوةٍ إلى أرتق بوكا، وأفهمه أن حق الخانية له وليس لقبلاي، وقد اختارك مانكوخان لها، واستخلفك مكانه، وحرّضه على المطالبة بحقه، وإمكانية دعمه بقوة إذا طلب ذلك، فبدأ أرتق بوكا يدعو لنفسه، ووافقه من معه من الجند، ووصل الخبر إلى قبلاي فرجع بمن معه والتقى بأرتق بوكا ومن معه وجرى القتال بين الطرفين عام ٦٥٨، واستمر عدة سنوات، وكان هولاكو في بلاد الشام عندما بلغه أخبار ما يحدث في مقر حكم المغول فترك جيشه بإمرة كتبغا الذي هُزم في عين جالوت أمام المماليك وقُتل. وانطلق هولاكو نحو قراقورم حاضرة المغول، ولم يتمكن من عمل شيء غير أنه استطاع أن يعيد أبناء أوغطاي إلى طاعة الخان بالترغيب وإظهار المحبة. وانتهى القتال بين الأخوين، وجلس على كرسي الخانية قبلاي، إلا أن هذا لم يُرض هولاكو إذ كان حاقداً جداً على ابن عمه بركة خان الذي أثار هذا الخلاف، وحرّض أولاد أوغطاي على خلع طاعة الخان، ومما زاد من حقده إخباره بهزيمة جيشه أمام المماليك في عين جالوت، ومقتل قائده كتبغا، لذا قرر العودة ومحاربة بركة خان، والانتقام من المماليك بحرب خاطفة.

عاد هولاكو إلى بلاده، وإذ برسل بركة خان يطالبونه بنصيبهم من الأسلاب وما حصل عليه في حروبه أو بثلث ذلك حسبما فرضه جنكيزخان لهم، وشدّدوا في المطالبة فثارت عنده العصبية، وقتل الرسل، وسار لحرب بركة خان، وجرت الحروب التي ذكرناها بين الطرفين في نهاية عام ٦٦٠ ومطلع العام التالي ٦٦١، وانتهت بهزيمة جيوش هولاكو وفرار ابنه.

وعندما سيّر مانكو أخاه هولاكو إلى الغرب جعل معه أمراء من أبناء

عمومته من أولاد جوجي وجغطاي وأوغطاي، وكانت معه قوات أيضاً من مغول الشمال جنود بركة خان، فلما وقع الخلاف بين بركة خان وهولاكو طلب بركة خان من قواته الالتحاق به ومغادرة جيوش هولاكو، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فطلب منهم ثانيةً التوجه إلى الشام، وكان هولاكو قد دخل بغداد وبلاد الشام، ورجع إلى بلاده من أجل اختيار الخان الأعظم للمغول بعد وفاة أخيه مانكو، فلما عاد، وكانت جيوشه قد هُزمت في بلاد الشام عام ٦٥٨ على يد المماليك، وقُتل قائده كتبغا، ووقع القتال بينه وبين ابن عمه بركة خان، تركت قوات بركة خان التي عند هولاكو جيشه وسارت إلى بلاد الشام، فاستقبلت في دمشق استقبالاً عظيماً في ذي القعدة من عام ٦٦٠، وكذلك في مصر وقد كان السلطان الظاهر بيبرس في استقبالهم، وعددهم حوالي مائتين وهم الذين استطاعوا الفرار من معسكر هولاكو. ولما أكرمهم السلطان إكراماً كثيراً، ووصلت أخبار ذلك الإكرام إلى جند هولاكو صارت جماعات منهم تغادر إلى مصر، ويزيد السلطان في إكرامهم، وقد تكررت عملية الانتقال أو الفرار ثلاث مرات، وقد عرض عليهم السلطان الإسلام فأسلموا وأصبحوا أعداءً للمغول، كل هذا والحروب دائرة بين الملك بركة خان وابن عمه هولاكو.

ولعل مما أوقد نار الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولاكو كتب الظاهر بيبرس ورسله إلى بركة خان وإن اختلف بعض المؤرخين فيمن كان الأسبق منهما بالمراسلة، إذ لما علم الظاهر بيبرس بإسلام بركة خان كتب إليه يستحثه على معاداة ابن عمه هولاكو الذي يقاتل المسلمين، ويُنكّل بهم، وأنه لا أثر للقرابة فإن قريشاً قد قاتلت رسول الله ﷺ وهو من أفضل أبنائها، وأن هولاكو قد تعصّب لزوجته النصرانية، وهي التي حرّضته على قتل المسلمين، فزاد من أمر الخلاف، وعندما اجتاز هولاكو نهر كورا وهو الحد الفاصل بين مملكة بركة خان ومملكة هولاكو تصدّت له جيوش بركة وتمّ ما تمّ وكذلك فإن مراغة وتبريز كانت من أعمال بركة خان، وما دخلها هولاكو إلا عندما تقدّم في مملكة بركة خان، ولذا بقي بركة خان يطالب بها.

وبهزيمة هولاكو أمام بركة خان، وبفرار أعدادٍ من جنده إلى بلاد الشام ومصر إلى عند خصمه الآخر الظاهر بيبرس، وبدخول هؤلاء الفارين بالإسلام أصيب هولاكو بمرض الصرع، وتوفي في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣، ويقول بعض المؤرخين إن عداوته للإسلام قد خفت في أواخر حياته، بل قد عهد لبعض المربين المسلمين بتنشئة ابنه تكودار فكان ذلك سبب إسلامه.

ولما توفي هولاكو قام مقامه ابنه الأكبر أباقا بجهود نصير الدين الطوسي الرافضي، وكان همّ أباقا بقتال بركة خان، فسار إلى بلاده فسيّر له بركة خان قائده (نوغاي) الذي تمكن من هزيمة أباقا شر هزيمة ولكن لم يفت ذلك من عضد أباقا، فسار إليه ثانيةً فأصيب نوغاي بسهمٍ أفقده عينه فعاد مهزوماً، ولما وصل الخبر إلى بركة خان بهزيمة قائدهَ نوغاي بن ططر بن مغول بن جنكيزخان، وكان يحبه ويكرمه لإسلامه معه ولشجاعته سار بنفسه فوجد أباقا قد قطع جسور نهر الكر فلم يتمكن من الانتقال إلى جهة أباقا، فسار نحو تفليس ليجتاز النهر من هناك غير أن منيته قد وافته في عام ٦٦٥.

ولما يكن لبركة خان ولد فخلفه مانكوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي بن جنكيزخان، ووقعت الحرب بينه وبين أباقا بن هولاكو، فانتصر أباقا خان انتصاراً كبيراً.

وحدثت خلافات بين مانكوتيمر وصاحب القسطنطينية فسيّر مانكوتيمر جيشاً إلى القسطنطينية عاث في بلادها فساداً، ثم رجع دون قتلى، إذ أن الرسل بين حكام المنطقة قد كثرت فكان صلح بين صاحب القسطنطينية والسلطان بيبرس، ويريد الأول أن يمتد هذا الصلح ليشمل أباقا بن هولاكو بصفته صهره لكن الظاهر بيبرس رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على قتال أباقا.

وتوفي مانكوتيمر عام ٦٧٩ وخلفه أخوه تدان مانكو بن طغان بن باتو، وفي هذه الأثناء وقع صدام بين قيدوخان بن قاشين بن أوغطاي وبين

براق خان حفيد جغطاي وقد انتصر الثاني منهما فزاد ذلك من ظلمه إضافةً إلى ما عرف عنه من ظلم، ثم حدث قتال بين مانكوتيمر وبين براق خان، وقد أرسل مانكوتيمر عمه بركجار فانتصر على براق خان، ثم التقى هؤلاء الخانات الثلاثة مانكوتيمر، وبراق خان، وقيدوخان فشكا براق خان قلة موارده، فأطمعه ابنا عمه في أملاك أباقا خان فجرت حروب بين الطرفين.

وحدثت مراسلات بين المنصور قلاوون وتدان مانكو، وأعلن الثاني منهما اعتناقه الإسلام والعمل على تطبيق الشريعة، ثم انصرف عن شؤون المملكة واتجه نحو العلماء، واضطر لذلك أن يتنازل عن الحكم لابن أخيه (تلابغا) عام ٦٨٦.

وسار (تلابغا) إلى قتال بعض أمم الشمال، وسار معه الأمير (نوغاي)، وداهمهم فصْل الشتاء الشديد البرد الكثير الثلوج، وسار (تلابغا) في طريق فلم ينج سوى جماعة قليلة معه ومات الباقي من شدة البرد، وسار (نوغاي) في طريق لم يهلك معه فيها أحد، فظن (تلابغا) أن (نوغاي) يريد به شرّاً بهذه الطريق التي سلكها وأراد الانتقام منه، وعلم (نوغاي) بما ينوي (تلابغا) فكان أسبق إذ تخلّص منه، وولى مكانه (طقطاي) أخاه وذلك عام ٦٩٠.

في هذه الأثناء انصرف المماليك في مصر إلى قتال الصليبيين وإنهاء أمرهم في بلاد الشام وقد تمَّ لهم ذلك إذ أخرجوا آخر فلول الصليبيين من عكا ٦٩٠ ثم من جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وبدؤوا بعد ذلك بملاحقتهم في قبرص ورودوس، هذا الانصراف خفّف من حدة القتال بين المماليك والدولة المغولية الإيلخانية التي أسسها هولاكو بل توقّف القتال بين الطرفين وهذا ما فسح المجال للمغول بأن يدخلوا بالإسلام بعد أن زالت الحروب بينهم وبين أبنائه على حين اشتدت وطأة أبناء عمومتهم المغول عليهم وإن كانوا قد دخلوا في الإسلام إلا أنهم ينظرون إليهم على أنهم مغول قبل أن يكونوا مسلمين.

وقعت جفوة بين (طقطاي) و (نوغاي) وحدث القتال بينهما وقتل

(نوغاي) وصفا الجو لـ(طقطاي)، ثم هدد غازان ملك الدولة الإيلخانية بالقتال إن لم يسلّم له مراغة وإذربيجان، ورفض ذلك غازان فسار (طقطاي) إلى جهة العراق، ولكن غازان كان قد هُزم في بلاد الشام، وقتل قائده في معركة شقحب، ولم يلبث غازان أن مات.

وكذلك فإن طقطاي قد قاتل عام ٧٠٩ سلطان ما وراء النهر (اسنبغا) وهزمه.

وتوفي طقطاي عام ٧١٢، وخلفه ابن أخيه غياث الدين محمد أوزبك بن طغرلجا، وكان طغرلجا من الذين قتلهم طقطاي، وهو أخوه. تقدّم (ييسور) من أسرة جغطاي إلى خراسان فدخلها، وكان يحكم قسماً منها، ووصل إلى مازندران وراسل محمد أوزبك ليتقدم من الطرف الآخر في بلاد الدولة الإيلخانية. أرسل (أبو سعيد) خان الدولة الإيلخانية جيشاً إلى بلاد محمد أوزبك فوصل إلى ضفاف نهر «الكر» فانهزم فسار بنفسه على رأس قوةٍ إلى هناك، وبعث جيشاً آخر إلى قتال (ييسور) بإمرة (جوبان) فتمكّن جوبان من إحراز النصر، وتراجعت قوات ييسور، وطلب أبو سعيد من جوبان أن يسير إليه لدعمه فانطلق نحوه إلا أنهما لم يجدا عسكراً لمحمد أوزبك إذ غادرت عساكره ساحة القتال عندما علمت بهزيمة ييسور، وعاد أبو سعيد وجوبان إلى أصفهان وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا ييسور وأوزبك فنكلوا بهم؛ وإن تمكن بعضهم من الفرار إلى أوزبك حيث حرّضوه على قتال أبي سعيد، واستعد أوزبك وراسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، واستنجد به لقتال أبي سعيد غير أن الناصر قلاوون قد اعتذر له حيث كانت تدور مراسلات من أجل الصلح بين قلاوون وأبي سعيد، وتم الصلح فعلاً. ولم يحدث قتال بين أوزبك وأبي سعيد رغم استعداد الاثنين وسيرهما للحرب. كما اتفق أوزبك مع كيك ملك ما وراء النهر لقتال أبي سعيد عام ٧٢١، إلا أن أوزبك قد توفي في هذه الآونة.

مات أوزبك عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمد جاني بك، جلال الدين، أبو المظفر، وقد أخذ أذربيجان من الملك الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان،

ونصّب ابنه محمد بردي بك على ذلك الجزء، وتوفي محمود جاني عام ٧٥٨، وخلفه ابنه محمد بردي بك، وكان ظالماً، قتل كثيراً من أقربائه ليخلو له الحكم والتصرف به، وبالغ في وضع الضرائب على الروس، وزاد من الجزية عليهم، ولم تطل أيامه إذ توفي عام ٧٦٢.

عمت الفوضى، وقامت الانقسامات في الدولة بعد وفاة بردي بك إذ كان ابنه (توقتاميش) الذي خلفه صغيراً، فاستقل الحاج شركس بمنطقة الحاج طرخان (استراخان)، واستقل (ماماي) بمنطقة القرم، وحكم منطقة سراي خضر بك، وأما (ماماي) وهو صهر بردي بك فقد نصّب أحد أولاد أوزبك وهو عبد الله خاناً، وسار نحو مدينة سراي فدخلها، وهرب منها (توقتاميش) بن بردي بك واتجه نحو خوارزم، ومنها إلى سمرقند مقر حكم بني جغطاي بن جنكيزخان، وكان المتغلّب عليها أحد أمراء المغول، واسمه (تيمور)، (تيمورلنك) وجلس (توقتاميش) خاناً هناك، وأصبحت مدينة سراي نهباً بين المختلفين فدخلها الحاج شركس ثم خرج منها بعد عدة أشهر، وكثر المتربعون على حكمها. واستغل الروس هذه الفرصة فانتفضوا على التتار، والتقوا مع (ماماي) الذي عاد إلى القرم وانتصروا عليه.

رجع (توقتاميش) إلى مدينة سراي وحكمها بمساعدة تيمرلنك، ودان له التتار، وتمكن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل موسكو. ثم وقع القتال بين (توقتاميش) وتيمورلنك منذ عام ٧٨٨ واستمر حتى عام ٧٩٧، وهزم في النهاية (توقتاميش) وفرّ من آخر المعارك، واختفى فمن قائل أنه التجأ إلى الغابات، ومن قائل أنه سار إلى بلغار، ومن قائل آخر أنه اتجه إلى بلاد الروس، ومنهم من قال: إنه قُتل في المعركة، أو في أثناء اختفائه على يد أحد أمراء التتار على ٧٩٨، ومنهم من قال: إنه بقي حيّاً وعاد إلى ملكه ثم هُزم على يد (تيمرقتلغ)، ثم هرب إلى ليتوانيا، ومعه بعض أنصاره، وإن الذين يعيشون في تلك الجهات اليوم من التتار إنما هم من نسل أولئك الذين ساروا مع (توقتاميش)، ووقعت الحرب بين التتار والليتوانيين، وانتصر التتار فألزموا

الليتوانيين على طرد (توقتاميش)، فعاش شريداً يقاتل شادي بك وينازعه الحكم، حتى قتل في الصحراء، وصفا الجو لشادي بك وذلك عام ٨٠٨.

استولى تيمورلنك على مدينة سراي وبلاد المغول الشمال، وعيّن عليها (قويرجق) أميراً من قبله، وعاد إلى بلاده، ولكن (قويرجق) بن أرص خان ملك بلاد خوارزم قد توفي عام ٨٠١، وكان الأمير المتحكم في الإمارة (أيدكو) صهر (توقتاميش)، زوج ابنته، وكان قد أيد تيمورلنك، فنصّب (أيدكو) خاناً في مدينة سراي (تيمرقتلغ)، وانصرف أيدكو إلى محاربة الجنوبيين في بلاد القرم حيث كانوا يسيطرون على مدينة (كفا)، ولكن (تيمرقتلغ) توفي عام٨٠٢، فنصّب أيدكو مكانه ابنه شادي بك الذي نازعه (توقتاميش) حسب بعض الروايات، وتوفي شادي بك عام ٨١١، وجلس مكانه ابن أخيه (فولادخان)، وفي هذه الأثناء حارب الأمير (أيدكو) الروس وحاول أن يوقع بين الروس والليتوانيين، وبعد سنتين (عام٨١٣) تمكن (تيمرخان) بن (تيمرقتلغ) أن يأخذ السلطة، وأن يحكم البلاد، ورفض أيدكو تسلّم الأمر فاختلف مع ابنه نور الدين فسار أيدكو إلى بلاد خوارزم.

ظهر جلال الدين بن (توقتاميش) عام ٨١٤، وانتزع الملك من يد (تيمرخان)، وحارب إخوته وهزمهم، وأصيب بسهم فمات، وتسلّم مكانه أخوه (عبد الكريم)، واختلت أمور الدولة، وكثر الخانات فيها، حيث قام في كل جهة خان، ومنهم محمد بن توقتاميش، وبراق بن قويرجق و...

وعندما جلس عبد الكريم خاناً في سراي جاء شقيقه الأكبر منه عبد الجبار فقدّمه عبد الكريم على نفسه ونصّبه مكانه، غير أن عبد الكريم قد أظهر فتنة على عبد الجبار الأمر الذي أدّى إلى اختلافهما وتحاربا وقتل عبد الجبار، وعاد عبد الكريم إلى منصبه، وتحالف معه بطريق موسكو ضد أمير ليتوانيا، وهذا ما حدا بالأخير إلى استقدام أحد أمراء المغول وهو بيتاصول، وتسميته خاناً، وإمداده بالجند لقتال عبد الكريم خان، وتسلّم الخانية مكانه، غير أن عبد الكريم تمكن من الانتصار على خصمه عام ٨١٨.

ظهر على مسرح الأحداث أيدكو مرةً ثانيةً في بلاد تركستان فنصّب (جكره أوغلان) من نسل شوبان بن جوجي خاناً هناك، وهاجم كبره خان، ثم عاد فعزل (جكره أوغلان) عن تركستان وعيّن مكانه (أحمد أوغلان) وهو من أسرة جغطاي بن جنكيزخان لكنه لم يلبث أن توفي فعيّن مكانه درويش أوغلان من أسرة جغطاي نفسها، وامتد نفوذ أيدكو على أكثر خانات المغول.

كان عبد القادر قد فرّ إلى بلاد قبرطاي عند خلاف إخوته بعضهم مع بعض وجمع قوةً هناك، وهاجم أيدكو وقتله، وقوي أمر عبد القادر فسار إلى بلاد سراي، وولى عليها خاناً هو محمد أوغلان بن إيچكلي حسن بن جغاي بن محمد بردي بك، وبدأ يخضع الأمراء الآخرين الذين يدّعي كل منهم أنه الخان، فقتل من قتل وفرّ الآخرون، وكان من الذين فرّوا براق خان بن قويرجق الذي التجأ إلى الأمير (ميرزا ألغ بك) في سمرقند، وهو نائب أبيه شاه رخ بن تيمورلنك الذي اتخذ مدينة هراة مقراً له، فأنجده ميرزا ألغ بك بقوة تمكن بمساعدتها أخذ بلاد خوارزم ومن هناك هاجم محمد أوغلان فجرت الحروب بينهما. ثم عاد براق خان فاختلف مع ميرزا ألغ بك ووقع القتال، وانتصر براق خان، واضطر شاه رخ أن يحضر بنفسه إلى سمرقند بعد أن عاث براق خان فساداً في بلاد ما وراء النهر، فغادر براق خان تركستان ورجع إلى خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ بعد مدة يتوسع من جديد وإن كان هذا التوسع في هذه المرة من ناحية الغرب حيث سيطر على أجزاء واسعة من بلاد سراي وهاجم بلاد روسيا وليتوانيا، وعاد إلى الصدام مع محمد أوغلان وكانت النتيجة لمصلحة محمد أوغلان الذي تمكّن من قتل براق خان.

وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد فخرج الأول منهما إلى قازان وأسس أسرةً خاصةً هناك حكمت المنطقة وذلك عام ٨٣٩، كما خرج بعض أبنائه إلى شبه جزيرة القرم ومنهم غياث الدين ودولة بردي، واستطاع حاجي كراي أن يحكم القرم، وقد توفي عام ٨٧١،

وخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر فانتقل منكلي كراي إلى أكفا حيث التجأ إلى الجنويين الذين كانوا يحكمون ساحل شبه الجزيرة، وفي هذه الأثناء كان السلطان العثماني محمد الفاتح يقاتل الجنويين وتمكن من دخول أكفا، وأسر منكلي كراي وحمل إلى إستانبول حيث أعاده السلطان محمد الفاتح إلى القرم ليكون خاناً عليها.

أما في سراي فقد حكم كجك محمد حتى عام ٨٥٠، وخلفه ابنه كجي أحمد خان واستطاع أن يتوسع وأن يحتل القرم، وأن يعيّن عليها خاناً من قبله هو جاني بك، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، وبعد مدة خرج من قلعته، وانتصر على جاني بك الذي فرّ إلى بلاد روسيا.

اتفق أحمد خان مع ليتوانيا على حين تصادق منكلي كراي مع روسيا وبدأت الحروب، وكانت النتيجة أن انتصر الروس وقتل أحمد خان عام ٨٨٥، وقام مكانه ابنه مرتضى.

نهضت روسيا في هذا التاريخ ولكن لم تجرؤ على قطع الجزية عن التتار إذ بقيت تدفع إلى خانات القرم، وخانات قازان، وبعض أبناء أحمد خان في سراي، وإلى أسرة نوغاي وأبناء شوبان (الشيبانية) في شمال القرم، وإلى بعض أمراء التتار الذين كانوا يعيشون في موسكو أمثال: نور دولت، وحيدر بك، تدفع ذلك كله لتتقي شرّهم، خوفاً من أن يتفقوا بعضهم مع بعض فيما إذا أصبح لهم عدو مشترك.

كان الخلاف بين مرتضى خان بن أحمد خان وخان القرم منكلي كراي لا ينقطع، وإن كان العثمانيون يسدون لهم النصح باستمرار بضرورة التفاهم والوحدة لإمكانية الوقوف في وجه العدو المشترك وهو النصارى. وقد تحالف مرتضى خان مع ليتوانيا ضد روسيا، واتفق منكلي كراي مع روسيا ضد مرتضى خان وليتوانيا، وكان خانات قازان بجانب خانات القرم.

وقع القتال بين مرتضى خان ومنكلي كراي عام ٨٩٠ ووقع الأول

منهما أسيراً بيد الثاني، وسجن في قلعة أكفا، غير أنه أنقذ في العام التالي إذ قام أخوه بهجوم كاسحٍ وقت انشغال أهالي القرم بالحصاد وتمكن من هزيمة القرم واستنقاذ أخيه ومن معه من أسرى. وفي عام ٨٩٢ هاجم منكلي كراي بدعم من الروس مدينة سراي عاصمة مرتضى خان، واستخلصوا عدداً من أسارى القرم. وفي العام نفسه سار الروس نحو قازان وخلعوا إلهام خان، ووضعوا مكانه أخاه محمد أمين خان، إذ كان الأول قد فكر في تفاهم المغول المسلمين بعضهم مع بعض.

كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان وطلب منه أن يأتي إليه ويقيم عنده في سراي، وقد أخبر عظيم روسيا آنذاك إيفان خوفاً منه على ما يبدو إذ من المحتمل أن يُطلع نور دولت الروس على تلك الرسالة.

استنجدت روسيا بمنكلي كراي لمهاجمة ليتوانيا، فقام بالأمر وكاد أن يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان.

وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم حليفها مرتضى خان، ولما تأكد منكلي كراي من أن تأخر ليتوانيا إنما هو من نوع المماطلة اقتحم مدينة سراي وخرّبها، وأصبحت أثراً بعد عين ولم تعمر بعد ذلك، وبهذا يكون عمرانها مدة ٢٦٧ سنة من سنة ٦٤٠ حيث بُدئ ببنائها إلى هذا العام الذي تهدّمت فيه وهو عام ٩٠٧.

وفي الآونة الأخيرة من عهد دولة سراي أو مغول الشمال انقسمت الدولة إلى عددٍ من الإمارات، وقع الاختلاف بينها ودبّ التناحر، وسقطت الواحدة تلو الأخرى في براثن الظلم الروسي، ولا تزال حتى يومنا الحاضر. ومن هذه الإمارات: قازان، والقرم، واستراخان (الحاج طرخان)، والنوغاي، وسيبريا، وخوارزم و....

هذا ومن المعلوم أن غزنة قد أعطيت لأوردا بن جوجي بن جنكيزخان، وقد خلفه ابنه قنجي الذي توفي عام ٧٠٠، ثم اختلف ولداه بيان وكيلك، وأخيراً انتصر قوشتاي بن كيلك على عمه بيان عام ٧٠٩.

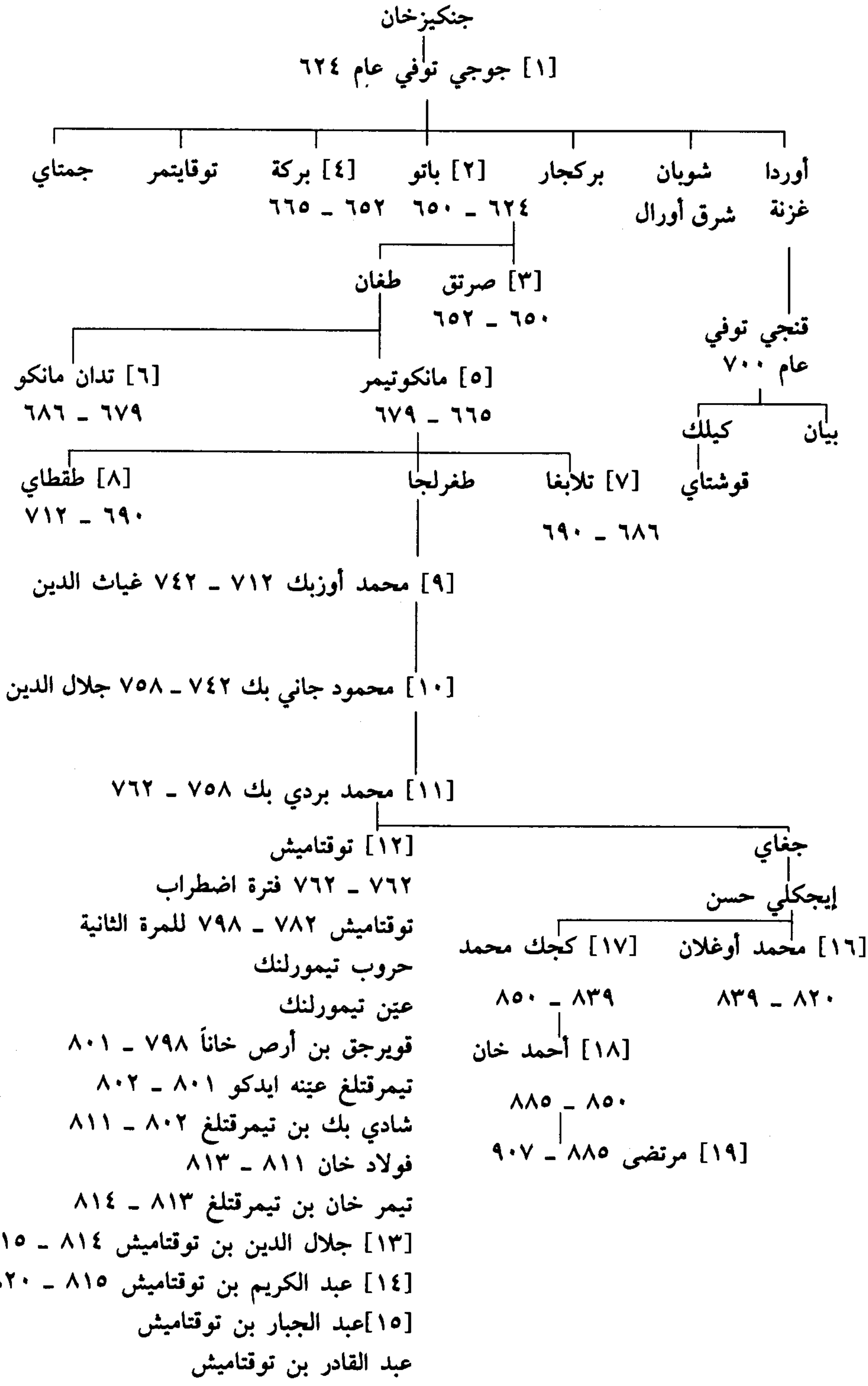
جنكيزخان
[١] جوجي توفي عام ٦٢٤
أوردا
غزنة
شوبان
شرق أورال
بركجار
[٢] باتو
٦٢٤ ـ ٦٥٠
[٤] بركة
٦٥٢ ـ ٦٦٥
توقايتمر
جمتاي
[٣] صرتق
٦٥٠ ـ ٦٥٢
طغان
قنجي توفي
عام ٧٠٠
[٥] مانكوتيمر
٦٦٥ ـ ٦٧٩
[٦] تدان مانكو
٦٧٩ ـ ٦٨٦
بيان
كيلك
قوشتاي
[٧] تلابغا
٦٨٦ ـ ٦٩٠
طغرلجا
[٨] طقطاي
٦٩٠ ـ ٧١٢
[٩] محمد أوزبك ٧١٢ ـ ٧٤٢ غياث الدين
[١٠] محمود جاني بك ٧٤٢ ـ ٧٥٨ جلال الدين
[١١] محمد بردي بك ٧٥٨ ـ ٧٦٢
جغاي
إيجكلي حسن
[١٦] محمد أوغلان
٨٢٠ ـ ٨٣٩
[١٧] كجك محمد
٨٣٩ ـ ٨٥٠
[١٨] أحمد خان
٨٥٠ ـ ٨٨٥
[١٩] مرتضى ٨٨٥ ـ ٩٠٧
[١٢] توقتاميش
٧٦٢ ـ ٧٦٢ فترة اضطراب
توقتاميش ٧٨٢ ـ ٧٩٨ للمرة الثانية
حروب تيمورلنك
عيَن تيمورلنك
قويرجق بن أرص خاناً ٧٩٨ ـ ٨٠١
تيمرقتلغ عينه ايدكو ٨٠١ ـ ٨٠٢
شادي بك بن تيمرقتلغ ٨٠٢ ـ ٨١١
فولاد خان ٨١١ ـ ٨١٣
تيمر خان بن تيمرقتلغ ٨١٣ ـ ٨١٤
[١٣] جلال الدين بن توقتاميش ٨١٤ ـ ٨١٥
[١٤] عبد الكريم بن توقتاميش ٨١٥ ـ ٨٢٠
[١٥]عبد الجبار بن توقتاميش
عبد القادر بن توقتاميش

إمارة قازان

تقع مدينة قازان على نهر الفولغا قبل التقائه برافده نهر كاما على خط عرض مدينة موسكو (٥٦ شمالاً) إلى الشرق منها وعلى بعد ٧٣٠ كيلومتراً منها. وقد كانت ضمن أرض بلغار على أطراف بلاد المسلمين، وهُدّمت من قبل الروس عام ٨٠٢، وقلّت سيطرة سلطة خانات سراي عليها بعد تيمورلنك. فعندما وقع الخلاف بين الخان محمد ألوغ وأخيه محمد كچيم عام ٨٤١، وتغلّب الثاني على الأول، التجأ محمد ألوغ إلى مدينة قازان هرباً من أخيه، وطلب من التتار، والبلغار، والجوفاش المقيمين بالقرب من هذه المدينة السكن فيها، فأطاعوه، وبدأت الحياة تدبّ من جديد في هذه المدينة.

فرّ محمد ألوغ في أول أمره إلى بلاد الروس وظنّ أنهم سيحمونه لما له عليهم من أياد بيضاء يوم كان خاناً في مدينة سراي، ولم يكن يدري أنه صنع المعروف مع غير أهله، ولم يكن نفاقهم له وإظهار الطاعة له إلا لأنه حاكم عليهم، فلما حطّ به القدر تنكروا له، وطلبوا منه مغادرة بلادهم وربما خوفاً من أخيه الذي غدا خاناً في مدينة سراي وهم يتبعونه، ولكن ظهر أن ذلك إنما كان حنقاً عليه وكرهاً له ولإسلامه، وقد حاربهم، وانتصر عليهم، ولكنه خشي أن تدور الدائرة عليه لذا فقد اتجه إلى قازان، واتخذها مقراً له، وقاعدةً ينطلق منها لتوسعة ملكه.

ولما استقر محمد ألوغ في قازان هاجم موسكو لتأديب أهلها على نكرانهم الجميل، واكتفى بجمع الغنائم في هذا الهجوم، ولكنه كرّر الغزو، وفي هجومه الثالث عام ٨٥٠ حاصر موسكو، وتمكّن من أسر بطريقها، وفي أثناء حصارها وصل إليه نبأ مفاداه أن أحد أمراء المغول من أبناء شوبان بن جوجي قد فرض سيطرته على قازان الأمر الذي دعاه إلى فكّ الحصار عن موسكو والرجوع سريعاً إلى قازان لإعادتها إلى حكمه وهكذا رجع الجيش التتاري عن موسكو، واستعاد السلطة لمحمد ألوغ في قازان.

وعندما استقر محمد ألوغ في قازان منّ على بطريق موسكو بإطلاق

سراحه الأمر الذي أدّى إلى وقوع خلافٍ بين محمد ألوغ وابنه محمود، وقتل الخان، وسيطر ابنه محمود على الحكم في أواخر عام ٨٥٠، وفرّ إخوة محمود الآخرون إلى موسكو بعد مقتل أبيهم خوفاً من أخيهم الخان الجديد، ومنهم قاسم، ويعقوب، واستمر الخان محمود يحكم قازان حتى توفي عام ٨٧٢، وخلفه ابنه إبراهيم الذي أمه هي زوجة عمه قاسم.

كان الأمير قاسم يهاجم إمارة قازان من موسكو وبدعم من الروس، وفي هجومه الثالث عام ٨٧٣ توفي فطلب أمير موسكو إيفان الثالث من الجيش العودة، كما حاولت زوجة الأمير قاسم التوسط بالصلح بين ابنها إبراهيم والأمير إيفان الثالث، إلا أن العسكر لم يعيروا هذا الطلب اهتماماً، ووصلوا إلى قازان، وأحرقوا أطرافها، وفي صباح اليوم التالي نشبت معركة حامية بين الطرفين، ورجع عسكر موسكو إلى بلادهم.

وتوفي إبراهيم خان عام ٨٨٣ بعد أن هاجم روسيا، وتولى مكانه ابنه إلهام خان، أما ابنه الآخر محمد أمين وهو الأصغر فقد سار إلى بلاد الروس مغاضباً لأخيه إلهام خان، وعندما قوي أمره سار على رأس جيشٍ كثيف عام ٨٩٣ إلى قازان، وقد تمكن من أسر أخيه إلهام خان الذي حمل أسيراً إلى موسكو، وتربّع محمد أمين على خانية قازان. وبقي إلهام خان في أسره حتى توفي.

كره أهل قازان محمد أمين خان، وقد طلبوا ماموق خان الشيباني من برية القفجاق أن ينصبوه عليهم خاناً، وطلب إيواق خان الشيباني أمير نوغاي من إيفان الثالث أمير موسكو إطلاق سراح إلهام خان فرفض، وزادت الاتصالات بين أهل قازان وماموق خان، وعلم محمد أمين خان بما يدور، وبمجيء ماموق خان إلى مدينة قازان، واستنجد محمد أمين خان بالأمير إيفان الثالث فأمده بجند فهرب ماموق خان من قازان عام ٩٠٢، ولكن بعد مدة رجع ماموق خان ودخل قازان، وهرب منها محمد أمين خان وأهله إلى موسكو.

كره أهل قازان ماموق خان أيضاً، وعندما خرج للإغارة على بعض

البلدان، أغلق أهل المدينة أبواب مدينتهم في وجهه عندما عاد، وكتبوا إلى إيفان الثالث يعلمونه بأنهم لا يرغبون محمد أمين خاناً عليهم ولا ماموق خان أيضاً، وإنما يريدون عبد اللطيف خان أخا محمد أمين، ونصّبوه فعلاً عليهم، وسار ماموق خان إلى بلاد النوغاي.

وفي عام ٩٠٨ تمكّن محمد أمين خان من العودة إلى قازان والانتصار على أخيه عبد اللطيف الذي حمل أسيراً إلى موسكو حيث سُجن هناك، لكن منكلي كراي خان إمارة القرم قد طلب من إيفان الثالث أن يُطلق سراح عبد اللطيف ففعل ولكنه أبقاه في موسكو.

حرّضت زوجة محمد أمين خان زوجها على مقاومة الروس وأثارت فيه الحمية، وهي زوجة أخيه إلهام خان الذي مات في السجن، فأخذته الغيرة وسار في جيشٍ كبيرٍ من قازان والنوغاي وهاجم بلاد الروس، واستمر العداء بعدئذٍ بين قازان وموسكو مدة أيام محمد أمين أي حتى عام ٩٢٥.

في موسكو مات إيفان الثالث عام ٩١١ وخلفه ابنه واسيلي الرابع، وكان القتال دائماً بين قازان وموسكو، وقد أطلق سراح عبد اللطيف خان فرجع إلى قازان مقراً لأخيه محمد أمين بالخانية وذلك عام ٩١٤ وبناءً على طلب منكلي كراي خان القرم الذي كان على صلةٍ طيبةٍ مع موسكو، إلا أن هذه الصلة قد توقفت عام ٩١٧ إذ هاجم أولاد منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

وفي عام ٩٢٢ عيّن محمد أمين أخاه عبد اللطيف ولياً للعهد إذ أحسّ بالتعب وبدأ المرض يعاوده غير أن عبد اللطيف قد توفي قبله في عام ٩٢٤، ولحقه محمد أمين في العام التالي (٩٢٥)، ولم يكن لهما عقب، فعيّن الروس على قازان أحد أمراء التتار وهو شيخ علي خاناً على إمارة قازان، ورفضوا طلب محمد كراي في تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على قازان، وهو أخو محمد أمين خان لأمه، وذلك خوفاً من توحيد كلمة التتار بعد أن تفرّقوا إلى إمارات.

لم ينسجم أهل قازان مع شيخ علي، ولم يحبوه، واتفقوا مع محمد كراي خان القرم على تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على مدينتهم في الوقت الذي يصل إليهم فيه، فسار إليهم فنصّبوه وخلعوا شيخ علي الذي التجأ إلى موسكو. وعاد الانسجام بين قازان والقرم إذ يملكهما أخوان، وبدأت الحروب بين هذين الخانين والروس. وأرسل الروس جيشاً كبيراً عام ٩٣٠ بإمرة شيخ علي إلى قازان، فوصل إليها، وارتكب أبشع الجرائم، وكذلك في العام التالي (٩٣١).

عرض صاحب كراي على السلطان العثماني سليمان القانوني التبعية فوافق الخليفة العثماني، وأرسل إلى أمير موسكو واسيلي الرابع يعلمه بذلك، فرفض أمير موسكو هذه التبعية، وأعلن أن قازان تتبع موسكو، وأنه هو الذي عيّن صاحب كراي على قازان خاناً، وأرسل عام ٩٣١ جيشاً لإخضاع قازان ويصحبه شيخ علي، فخاف صاحب كراي، وأناب عنه ابن أخيه محمود، وهو صفا كراي، وأعلن أنه متجه إلى الخليفة العثماني ليأتي من عنده بالقوة لردع الروس وتأديبهم هم وشيخ علي. ولم يحدث القتال في ذلك العام بين الجيش الروسي القادم من موسكو وبين أهل قازان الذين تولّى أمرهم صفا كراي.

أنهكت الحرب قوى أهل قازان فسار بعض الأمراء منها إلى موسكو وعرضوا عليه الصلح وتعيين خانٍ عليهم من قبله، فنصّب عليهم عام ٩٣٩ جان علي، فساروا به إلى مدينتهم وانتقل صفا كراي إلى القرم. وبقي العداء بين موسكو والقرم، فهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وفي هذه الأثناء توفي أمير موسكو واسيلي الرابع وخلفه ابنه إيفان الرهيب.

قام الأمراء في قازان عام ٩٤٢ بخلع جان علي وقتله، وكتبوا إلى صفا خان يدعونه للعودة إلى خانية قازان فسار إليهم واستلم الأمر، وعاد الوئام بين القرم وقازان، وهاجم صفا كراي بلاد الروس عام ٩٤٣، ثم جرى صلح بين الطرفين.

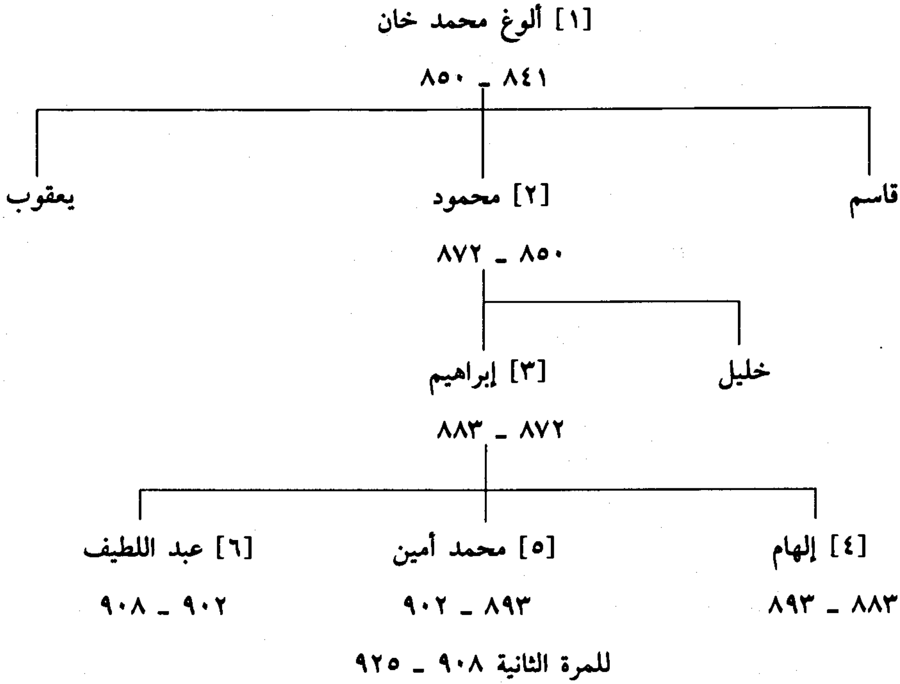

تجدد القتال بين قازان وموسكو عام ٩٤٦، وهاجم الروس قازان عام ٩٥٣ فغادرها صفا كراي، ورجع شيخ علي خاناً عليها، ولكن لم تمض سوى مدةٍ وجيزةٍ حتى ترك شيخ علي قازان، وعاد إليها صفا كراي.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، وطلب أهلها من صاحب كراي خان القرم الذي كان خاناً عليهم أن يُعيّن عليهم ابن صفا كراي، وهو بولك كراي سلطان والمقيم آنذاك بالقرم، وطلبوا في الوقت نفسه الصلح من أمير موسكو إيفان الرهيب، غير أن أمير موسكو قد استغل هذه الفرصة وسار إلى قازان ومعه شيخ علي، ووصل إلى قازان عام ٩٥٧، ولكنه فشل في احتلالها، فما كان من صاحب كراي خان القرم إلا أن هاجم بلاد الروس. وعاد إيفان الرهيب إلى قازان ثانيةً فخرج بولك كراي سلطان من قازان، ونصّب الروس شيخ علي للمرة الثالثة خاناً على قازان.

رفض أمراء قازان خانية شيخ علي، وكانت الحرب بين قازان وموسكو، وخرج شيخ علي من قازان عام ٩٥٨، ورفض إيفان الرهيب عودة بولك كراي سلطان إلى قازان حسب رغبة الأهالي، فعندها طلب أمراء التتار من الخليفة العثماني سليمان القانوني إرسال دولت كراي بن مبارك كراي بن منكلي كراي الذي كان يقيم في استانبول.

انتقل دولت كراي سلطان إلى القرم واختلف هناك مع عمه صاحب كراي فقتله، ولم يدعم أهل قازان. وفي الوقت نفسه كان الروس على وئام مع ليتوانيا والبلدان المجاورة لها من ناحية الغرب، ويناصرها من التتار صاحب الحاج طرخان (يغمروجي خان)، وكانت هناك مصالح تجارية بين خان النوغائية المرزا يوسف، وعندما كتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى المرزا يوسف هذا يدعوه أن يكون الجميع صفاً واحداً تحت راية الإسلام ضد روسيا، وألا يتركوا أهل قازان وحدهم أمام الروس، وأن يعيّنوا من أهل نوغاي خاناً على قازان لم يرضخ المرزا يوسف لهذا الطلب، وبذا لم يكن مع قازان سوى القرم.

تغيّر موقف النوغاي، وأصبحوا بجانب قازان، وسار محمد خان مع خمسمائة فارس من بلاد النوغاي إلى قازان حيث نصّبه أهلها خاناً عليهم. وضعُف أمر الروس لكن شجّعهم إيفان الرهيب وسار بهم نحو قازان ومعه شيخ علي، وكان شيخ علي مسناً، جباناً، بديناً، لكنه خبير بالحرب، وسار الروس أيام الشتاء حسب نصيحة شيخ علي، واستطاعوا بعد حروب مريرة دخول قازان في ٢٤ شوال ٩٥٩ (٢ تشرين أول ١٥٥٢).

وبذا تكون إمارة قازان قد عاشت مستقلة مدة ١١٨ سنة، منذ انفصلت عن سراي عام ٨٤١هـ، حتى سقطت بيد الروس عام ٩٥٩، وقد خضعت لحكم أسرة محمد ألوغ مدة ٨٤ سنة والباقي وهو ٣٤ سنة حكمها خانات من القرم، أو خانات من صنيعة الروس.

خانات قازان بعد أسرة محمد ألوغ:

٩٢٥ ـ ٩٢٧	شيخ علي	للمرة الأولى.
٩٢٧ ـ ٩٣١	صاحب كراي	
٩٣١ ـ ٩٣٩	صفا كراي	للمرة الأولى.
٩٣٩ ـ ٩٤٢	جان علي	
٩٤٢ ـ ٩٥٣	صفا كراي	للمرة الثانية
٩٥٣ ـ ٩٥٤	شيخ علي	للمرة الثانية
٩٥٤ ـ ٩٥٦	صفا كراي	للمرة الثالثة
٩٥٦ ـ ٩٥٧	بولك كراي سلطان	
٩٥٧ ـ ٩٥٨	شيخ علي	للمرة الثالثة
٩٥٩	محمد خان النوغائي	

وبعد سقوط قازان بيد الروس، أعلن بعض الباشغرد الطاعة للروس، وقتل المرزا إسماعيل أخاه المرزا يوسف خان النوغاي، وراسل إيفان الرهيب، وأعلن طاعته له، كما أدخل المرزا إسماعيل الروس إلى الحاج طرخان (استراخان) عام ٩٦١، هذا بالإضافة إلى أن شاه طهماسب الصفوي شاه إيران قد كاتب إيفان الرهيب، وعرض عليه الاتفاق معه عام ٩٧٨ لمحاربة الخليفة العثماني.

إمارة القرم

القرم شبه جزيرة تقع في شمال البحر الأسود، تبلغ مساحتها ٢٦,١٥٠ كيلومتراً مربعاً، كانت تتبع مغول الشمال، وتوجد فيها أملاك لإمارة جنوه الإيطالية على الساحل الجنوبي وعلى ساحل بحر آزوف.

عمت الفوضى حكومة سراي بعد وفاة محمد بردي بك عام ٧٦٢ فاستقل بالقرم صهره (ماماي)، ثم نصّب أحد أولاد محمد أوزبك خاناً، وهو عبد الله وسار به إلى مدينة سراي فدخلها، وهرب منها توقتاميش بن محمد بردي الذي كان صغيراً حيث اتجه إلى سمرقند، وأصبح خاناً هناك.

حارب الروس (ماماي) فاضطر أن ينسحب إلى مقره في القرم، وبقي في السلطة حتى جاء تيمورلنك عام ٧٩٨ فسيطر على المنطقة، ثم انسحب وعين قويرجق خانا على سراي، وتتبعها القرم.

كان أيدكو صهر توقتاميش الرجل القوي في سراي، وكان قد أيّد تيمورلنك، وقد عيّن خاناً على سراي واتجه إلى القرم يحارب الجنويين، وعادت القرم تتبع سراي، وقد غادر إيدكو المنطقة متجهاً نحو خوارزم.

وعندما وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد، واتجه محمد أوغلان نحو قازان عام ٨٣٩ خرج بعض أبنائه في الوقت نفسه إلى شبه جزيرة القرم، ومنهم غياث الدين، ودولة بردي، وتمكن حاجي كراي من حكم القرم واستمر الحاكم فيها حتى توفي عام ٨٧١ فخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر، فانتقل منكلي كراي إلى أكفا إذ التجأ إلى الجنويين الذين يحكمون تلك المدينة، وعندما انتصر السلطان العثماني محمد الفاتح على الجنويين أسر منكلي عندما دخل أكفا وحمله أسيراً إلى استانبول، ثم أعاده خاناً على القرم.

استطاع أحمد خان في سراي أن ينتصر على منكلي كراي، وأن يحتل القرم حوالي عام ٨٥٢، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، ثم خرج بعد مدة، وانتصر على جاني بك الذي عيّنه أحمد خان حاكماً على القرم والذي فرّ إلى بلاد روسيا.

استمر الخلاف بين منكلي كراي في القرم وأحمد خان في سراي فتحالف منكلي كراي مع الروس في حين تحالف أحمد خان مع الليتوانيين، ووقعت الحروب بين الفريقين، واستمرت بين منكلي كراي ومرتضى خان الذي تولّى أمر سراي بعد مقتل أبيه أحمد خان عام ٨٨٥، وفي الحرب التي دارت رحاها عام ٨٩٠ بين الطرفين وقع مرتضى خان في الأسر فسجنه منكلي كراي في سجن أكفا، وهاجم أهل سراي عام ٨٩١ القرم فجأة وتمكنوا من إحراز النصر، وفكّ مرتضى خان من ربقة الأسر،

وقام منكلي كراي في العام التالي (٨٩٢) برد فعل وهاجم مدينة سراي بدعم من الروس، وقد استطاع من تحقيق النصر وفك أسارى القرم الذين هم في مدينة سراي.

كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان، وطلب منه أن يأتي إليه ليقيم ضيفاً في سراي نكاية بأخيه منكلي كراي.

هاجم منكلي كراي ليتوانيا بناءً على طلب الروس وكاد يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان. وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم مرتضى خان، وتمكن منكلي كراي من اقتحام المدينة وتخريبها، وزالت من الخريطة.

استمرت العلاقة الطيبة بين منكلي كراي والروس حتى عام ٩١٧، ثم ساءت العلاقات إذ هاجم ولدا منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

توفي منكلي كراي عام ٩١٩ بعد أن حكم القرم مدة سبع وأربعين سنة (٨٧١ ـ ٩١٩)، وخلفه ابنه محمد كراي، وقد أرسل أخاه صاحب كراي إلى قازان حيث نُصّب خاناً هناك، فتوحّدت قازان والقرم، وكذلك قام محمد كراي بالاستيلاء على استراخان فأصبحت المنطقة كلها واحدةً وهذا ما أخاف الروس فشنّوا هجوماً على قازان فخاف صاحب كراي، وغادر قازان بعد أن أناب عنه ابن أخيه صفا كراي بن محمود بن منكلي كراي.

رجع صفا كراي إلى القرم بعد أن تصالح أهل قازان والروس عام ٩٣٩، وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وبعد عامين خلع أهل قازان جان علي، ورجع صفا كراي من القرم، وتسلّم خانية قازان مرةً أخرى، إلا أنه عاد فغادرها عام ٩٥٣، ثم رجع إليها مرة ثالثة عام ٩٥٤، وبقي حتى توفي عام ٩٥٦.

تولى صاحب كراي خانية القرم بعد ابن أخيه سعادة بن محمد كراي

وقام بالهجوم على بلاد الروس عام ٩٥٧، ولم يمكث طويلاً حتى جاء دولت كراي سلطان من استانبول إلى القرم واختلف مع عمه صاحب كراي وقتله وتسلّم الخانية مكانه عام ٩٥٨.

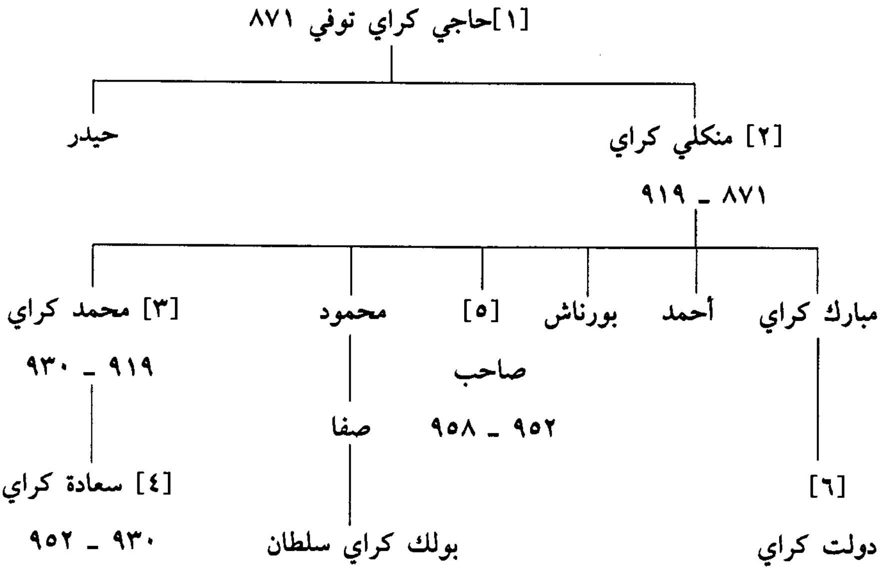

إمارة سيبيريا

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيز خان أخاه شوبان شرق جبال الأورال، فأسس هناك قلعةً ومدينةً على نهر صغير يسمى سيبركا، وذلك حوالي عام ٦٤٠ أي في الوقت الذي قامت فيه مدينة سراي قاعدة حكم أسرة مغول الشمال، وتوالت أسرة شوبان تحكم سيبر، وعرفت بالأسرة الشيبانية، وكانت تتبع سراي، وقد استملك الحاج محمد خان نواحي نهر أوبي وأرتيش، وأسس خانية خاصة انفصلت عن سراي في ذلك الوقت الذي بدأت تنفصل عنها الإمارات مثل قازان، والقرم و... في منتصف القرن الثامن. وتوالى خانات سيبيريا على الحكم فكان محمود خان بن حاج محمد خان، ثم ولده إبراهيم خان المعروف باسم آباق خان، فتولق خواجه خان، فشماي خان، فأورازخان، فبهادور خان ثم ابن عم جده

مرتضى خان بن إبراهيم خان، ثم ابنه كوتشم خان الذي كان حوالي عام ٩٧٧ الذي لم يف للروس بالاتفاق الذي كان قائماً والذي ينص على اعتبار سيبير تابعةً لهم، والذي حاول تقوية دولته، وتقرّب من النوغاي وزوّج ابنه من ابنة أميرهم، والذي بدأ يُغير على مواقع الروس على نهر كاما، كما حدث عام ٩٨١، والذي شجّع القزاق على نهر الدون بالعصيان على الروس، وظهر عندها يرمق بن تيمافي[1] الذي استطاع أن يستولي على قلعة سيبير وأن يبيعها إلى الروس عام ١٠٠٣، وذهب كوتشم خان إلى بلاد باشغرد وعاش ومات فيها.

حاول التتار النهوض ثانيةً فبايعوا علي بن كوتشم خان أميراً عليهم، ولكنه عجز عن إنقاذ بلاده، وكذلك أخوه إيشم خان عام ١٠١٧، وابنه كراي خان الذي فشل في حركته أيضاً عام ١٠٧٨.

إمارة الحاج طرخان

الحاج طرخان (استراخان) مدينة تقع عند مصب نهر الفولغا في بحر الخزر. كانت هذه المدينة وما حولها تتبع سراي مقر حكم مغول الشمال. فلما عمّت الفوضى مدينة سراي بعد موت محمد بردي بك عام ٧٦٢ استقل باستراخان الحاج شركس وقد وسع ملكه، وتمكّن أن يدخل مدينة ساراي، ثم خرج منها بعد عدة أشهر.

وجاء تيمورلنك إلى المنطقة فتسلّم أمر استراخان قويرجق بن أرص خان حتى توفي عام ٨٠١، ثم خضعت إلى تيمر قتلغ حتى عام ٨٠٢، وجاء براق خان بن قويرجق حتى قتل من قبل محمد أوغلان أمير سراي عام ٨٣٨، وخضعت لحكم سراي.

---

(١) ظهر يرمق حوالي عام ٩٨٥ واجتمع لديه عدد من أشقياء القازان الذين يقيمون على نهر الدون فحارب التتار الذين كانوا قد غادروا سراي عند خرابها عام ٩٠٧ وساروا نحو نهر أورال فأسسوا على ضفته مدينة سرايجق فهدمها يرمق هذا، وسار نحو سيبير فدخلها عام ٩٨٩.

تبعت استراخان جاني بك الذي حكم القرم من قبل أحمد خان حتى فرّ إلى بلاد الروس، فاستقل بها حسين خان، وبقي حتى طرده منها محمد كراي عام ٩٣٠.

استولى على استراخان عبد الكريم بن أحمد خان، وخلفه عليها ابن أخيه آقو بك بن قاسم، وبقي فيها حتى جاء عبد الرحمن خان فحكم فيها مدة أربع سنوات ٩٤١ ـ ٩٤٥ حيث هجمت عليه قوة من النوغائي ففرّ منها فعينوا مكانه درويش علي خان.

سيطر على استراخان حيدر خان بن الشيخ أحمد خان غير أنه خلع عام ٩٤٨، ونصّب آق باك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان مدة ثلاث عشرة سنة (٩٤٨ ـ ٩٦١)، وحدث شبه اتفاق بين خان استراخان آق باك خان، وأمير النوغائي المرزا يوسف، وخان القرم دولت كراي بتشجيع من الدولة العثمانية. وفي النهاية سيطر الروس على استراخان عام ٩٦٥.

إمارة خوارزم

مدينة خوارزم (خيوه) تقع على نهر جيحون جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) كانت تتبع مدينة سراي حيث هي من أملاك جوجي بن جنكيز خان، وقد ظهر في خوارزم أرص خان عند قدوم تيمورلنك، وقد خلفه ابنه قويرجق خان الذي نصّبه تيمورلنك خاناً على مدينة سراي...

وعندما اختلف إيدكو مع ابنه نور الدين وانتصر الولد، سار إيدكو إلى خوارزم، واستقر بها، وأصبح له نفوذ على أكثر خانات المغول، غير أنه قتل بالحرب التي جرت بينه وبين عبد القادر بن توقتاميش، وسيطر على خوارزم براق خان بن قويرجق خان بن أرص خان أو عاد إلى ملك آبائه، وامتد نفوذه ثم هُزم أمام شاه رخ بن تيمورلنك فعاد إلى مقره الأساسي في خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ يتوسع الآن من جهة الغرب على حساب أملاك سراي لكنه قتل من قبل محمد أوغلان.

الفصل الثاني

الدولة الإيلخانية

لعل هذه الأسرة الإيلخانية هي التي تمثّل المغول في أذهاننا تمثّلهم لأنهم كانوا على جوارٍ منا، فمعرفتهم واضحة لنا، وأعمالهم جلية أمام ناظرنا إضافةً إلى أن الصراع قد استمر بيننا وبينهم في هذه المنطقة مدةً ليست يسيرة إذ تزيد على القرن والنصف، وقد كان السكان في خلالها في ذعرٍ وخوفٍ كلما ترامت إليهم الأخبار بأن المغول سيزحفون نحو الغرب، فيأخذهم الرعب والهلع بعد أن ذاقوا منهم ما ذاقوا. وهذه الأسرة تمثّل أوج طغيان المغول ووحشيتهم بعد جنكيز خان. فطاغية هذه الأسرة ومؤسسها هولاكو هو الذي فعل ببغداد ما فعل وفي الجزيرة الفراتية وكل مكان دخله، وتابع ابنه أباقا من بعده الوحشية نفسها.

وإذا كانت بعض الأسر المغولية الأخرى قد وقفت ضد هذا الطغيان وضد هذه الوحشية لخلافها معها على الأقل، وإن بعضها قد اعتنقت الإسلام ووقفت بجانب المسلمين ضد أبناء جنسها، وهي أسرة مغول الشمال، وأيّد بعضها الآخر تأييداً، وحارب هولاكو، وهي أسرة أوغطاي حيث دعم قيدو بن قاشين بن أوغطاي خان تلك الأسرة ابن عمه بركة خان مغول الشمال ضد ابن عمه الآخر هولاكو، إلا أن هذا الدعم للمسلمين، وهذه المحاربة لهولاكو قد نسي كله تحت ركام جرائم المغول التي بقيت ممثلة في هولاكو وأسرته.

وأسلم ابن هولاكو الثاني، وتسمّى باسم أحمد، وحاول مصالحة

المسلمين ولكن الأيدي الملطخة بالدماء قد قتلته متمثلة بابن أخيه أرغون الذي تسلّم مكانه، وتابع السير الوحشي، وأسلم ابنه قازان من بعده وتسمى باسم محمود ومع إسلامه النظري أو انتمائه إلى الإسلام فقد بقي يتابع تعدياته، ويهمّ بين المدة والأخرى بدخول الشام فينشر الرعب والخوف بين الآمنين، وقصد الشام ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فلم يلبث أن انسحب قازان مهزوماً يجرّ وراءه ذيول الخيبة والفشل بعد معركة شقحب على الأطراف الجنوبية لدمشق في أوائل القرن الثامن الهجري.

وتابع محمد خرابنده الطريق وزاد في الأمر إذ أعلن اعتناقه الرفض وفرضه على مملكته، وكان أمر الأسرة قد ضعف وخلفه ابنه أبو سعيد فزاد الضعف، وتفككت الدولة من بعده.

وإذا كان المغول قد ذابوا في المجتمع الإسلامي ودانوا بعقيدته لكن ما خلّفوه من جرائم قد بقي في الأذهان، لم تزله الأيام مع طولها، ويرتبط بالأسرة الإيلخانية.

أعطى جنكيز خان من البلاد الواسعة التي دخلها لابنه الثالث تولوي خراسان وفارس وما يمكن أن يضمّ إليه من جهة الغرب، غير أن تولوي قد هلك قبل أن يتولى أمر نصيبه من إمبراطورية أبيه. وكان أبناؤه في عاصمة المغول قرة قورم.

تولّى أمر المغول أوغطاي بعد أبيه جنكيزخان، وتابع ما سار عليه أبوه من اقتحام البلدان وسفك الدماء. فقضى على أسرة كين التي تحكم شمالي الصين، ثم أرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الغرب فانتصر على جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم الذي فرّ إلى جبال الأكراد فقتله أحد الأكراد الفلاحين هناك، فدخل المغول أذربيجان وأرمينيا وبلاد الكرج، وارتكب المغول أفظع الجرائم.

ووجّه أوغطاي عام ٦٣٣ ثلاثة جيوش أحدها إلى كوريا، والثاني إلى جنوبي الصين حيث قضى على أسرة سونغ، والثالث إلى أوروبا بقيادة ابن

أخيه باتو بن جوجي وأرسل مع هذا الجيش الثالث بعض كبار أمراء المغول ومنهم ابنه كيوك، ومانكو ابن أخيه تولوي، وبايدار ابن أخيه جغطاي، فاقتحم المغول روسيا، وبولندة، والمجر.

هلك أوغطاي عام ٦٣٩، وخلفه ابنه كيوك الذي كان لا يزال في أوروبا تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي فسيرت له أمور الدولة أمة توراكينا حتى رجع. فتولى الأمر وألقى زمام الأمر إلى وزيرين من النصارى فأوغرا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم، وكذلك فعل البوذيون، ولم يطل أمره فقد هلك عام ٦٤٦.

ملك أمر المغول بعد هلاك كيوك ابن عمه مانكو بن تولوي تحت ضغط باتو بن جوجي وهكذا انتقلت الخانية العظمى إلى أسرة تولوي، فولى أخاه قوبيلاي على بلاد الصين، وسار هو إلى التبت فخرّبها، ووجه أخاه الثاني هولاكو إلى الغرب، ولكن باتو بن جوجي قد منع هولاكو من التحرّك نحو الغرب تحت تأثير أخيه بركة الذي اعتنق الإسلام وكان صديق الخليفة العباسي المستعصم، ولم يستطع التقدّم حتى توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠ فتقدّم هولاكو نحو الغرب، رغم أنف ابن عمه بركة وهذا ما أوقع الخلاف بين الاثنين، وسقطت بغداد بيد هولاكو في ١٩ محرم من عام ٦٥٦، وقابل الخليفة المستعصم في ٤ صفر من العام نفسه، وانتهى منه، وتقدّم نحو بلاد الشام فدخل حلب في مطلع عام ٦٥٨، واتجه نحو دمشق فحاصرها في ربيع الأول من العام نفسه، ثم اضطر إلى مغادرة البلاد والتوجّه إلى مقر حكم المغول في قره قورم.

كان مانكو قد سار للقضاء على بعض المتمردين، وأخذ معه أخاه قوبيلاي، وكلف أخاه الأصغر أرتق بوكا بتسيير أمر الحكم مكانه، وفي هذه الأثناء هلك مانكو فاختار الجند مكانه أخاه قوبيلاي، واستغل هذه الفرصة بركة بن جوجي خان مغول الشمال للإيقاع بأبناء عمه تولوي، الذين يعادونه لإسلامه فحرّض أرتق بوكا على استمرار بقائه في الخانية العظمى للمغول فإن أخاه مانكو قد عيّنه مكانه، وأرسل له دعماً كما دعمه أيضاً ابن عمه

الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي فوقع القتال بين الأخوين واضطر هولاكو أن يغادر بلاد الشام ليحلّ هذا الخلاف، وانتهى الأمر ونُصّب قوبيلاي خاناً أعظم للمغول.

ترك هولاكو القائد كتبغا أميراً على جنده في الشام وسافر إلى الشرق، فدخل كتبغا دمشق غير أنه هُزم في عين جالوت أمام المماليك، ولقي مصرعه هناك. ورجع هولاكو ووجد ما حلّ بجيشه في الشام، وحنق على ابن عمه بركة خان الذي أسلم، وراسل المماليك إضافة إلى ما فعله من تحريض أرتق بوكا على أخيه قوبيلاي، فأراد أن ينتقم من ابن عمه بركة خان، وينتقم من المماليك.

وجاء السبب للقتال بين أبناء العم فبدأ بركة خان يطالب هولاكو بمغادرة جنده من مراغة وتبريز حيث هما من أملاك مغول الشمال، كما يطالبه بدفع ثلث ما حصل عليه في حروبه حسب أوامر جنكيزخان، وليست هذه المطالبة إلا مبرراً لبركة خان كي يطيعه جنده، ويقاتلوا معه هولاكو، فيكون قتاله هو في سبيل الإسلام حيث نقم على ابن عمه بعد قتله الخليفة وتدميره بغداد، ويكون قتال جنوده في سبيل المحافظة على أجزاء من دولتهم والحصول على أموال هي حق لهم.

اتجه هولاكو بجنوده نحو بلاد بركة خان واجتاز نهر كورا والتقى الطرفان عام ٦٦٠ وهُزم هولاكو وفقد قسماً من جيشه، ولم يوقف القتل بجنده سوى اجتيازهم نهر كورا فارين نحو الجنوب. وأعاد جيش هولاكو الهجوم وجاءته النجدة وفيها أباقا بن هولاكو فانتصروا على جيش بركة خان عند دربنت (باب الأبواب) في مطلع عام ٦٦١، وتابع سيره فجاء بركة خان على رأس قوةٍ كبيرةٍ تمكنت من إحراز النصر على ضفاف نهر ترك وولى جيش هولاكو الأدبار ولم يفلت من القتل سوى أباقا بن هولاكو بجزءٍ صغير من الجيش.

إن هزيمة هولاكو أمام بركة خان جعلته لا يفكر في محاولة الانتقام من المماليك بل إن أعداداً من جنوده بدؤوا بالفرار والتوجه نحو الشام

ومصر ويدينون بالإسلام بتشجيع من الظاهر بيبرس ولما وجدت الفئة الفارّة الأولى من إكرام. وأصيب هولاكو بمرض الصرع وهلك في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣.

كان هولاكو عدواً لدوداً للإسلام وقد خضع لتأثير النصرانية، فقد كانت زوجته نصرانية وتحرّضه على الإسلام باستمرار، كما كان الرهبان النصارى يجوبون البلاد التي تخضع لسيطرة المغول بكل حرية، ويُقال: إن عداوته للإسلام قد خفّت في أواخر حياته، وقد عهد إلى أحد المربين المسلمين بتنشئة ابنه الثاني تكودار الذي أسلم فيما بعد.

لما تولى قوبيلاي أخو هولاكو الخانية العظمى للمغول عام ٦٥٥ نقل مقر حكمه من قره قورم إلى بكين، وأسس هناك الأسرة التي حكمت الصين مدة ١٦ سنة (٦٥٥ ـ ٧٧١)، وفي الوقت نفسه فقد استقل خانات المغول بعضهم عن بعض، ولم يعد هناك بينهم رابط سوى الاسم، ولم يعد للخان الأعظم سوى الصورة. وأسس هولاكو الأسرة الإيلخانية التي حكمت العراق، وفارس، وخراسان، وكانت حدودها مع المماليك هو نهر الفرات من جهة الغرب، وحدودها مع دولة مغول الشمال أذربيجان مع خلافٍ على مراغة وتبريز فكل تدعيهما، وإن كانتا تحت سيطرة جند الإيلخانيين، كذلك كان للإيلخانيين الجزيرة الفراتية وديار بكر، إذ ذهب أمراء أرمينيا، وديار بكر، والجزيرة عام ٦٥٠ إلى منكوخان، وظهر اختلافهم أمامه حيث كل يريد التوسع والنفوذ، ويرى لنفسه الأفضلية بل الأحقية على غيره، وقد أقروا لمنكوخان بالطاعة، وأصبحوا تبعاً للتتار. ثم عندما جاء الهجوم التتاري عام ٦٥٨ دخل المهاجر هذه المناطق، ووضعوا نواباً لهم عليها معظمهم من التتار وإن لم يستطيعوا دخول ماردين إذ دافع عنها حكامها من الأراتقة دفاعاً كبيراً، وقد ترك هولاكو هذه المدينة الحصينة، وسار إلى حلب فاستولى عليها، وكذلك اضطر التتار مرةً ثانيةً إلى الرحيل عن ماردين في شهر رجب من عام ٦٥٩، ولكن دخلت تحت حمايتهم لتتخلّص من شرّهم، أو أن أميرها رغب أن يكون صاحب مكانة

فيحافظ على مركزه وحكمه بالموافقة على حماية التتار إذ قدّر أنهم لا بدّ من أن يقتحموا مدينته وإن طال الوقت بعض الشيء فإن دخلوها عنوةً نكّلوا به وبأهله أولاً ثم برعيته عامةً، وبدأ يشترك معهم في منازلة خصومهم عامةً والمماليك بشكلٍ خاص، فقد اشترك عام ٦٦٠ مع صندغون التتاري في حصار الصالح بدر الدين بن لؤلؤ، وتتابع بعد ذلك هذا الاشتراك وأصبحت ديار بكر وراثية للتتار الذين قام الصراع بينهم وبين المماليك في الشام ومصر، وكانت ديار بكر هي قاعدة انطلاق التتار في كثيرٍ من الأحيان. ولم يكن نواب التتار في ديار بكر والجزيرة ليقيموا في مقرٍ واحدٍ بل يتنقلون بين عدة مراكز فتارةً يتخذون الموصل مقراً لهم، وتارة أخرى آمد وهكذا. وكان محور تقدّم التتار دائماً على نهر الفرات من جهة الشمال الشرقي والتقدم نحو حلب فحماه، أو الرحبة (مكان الرطبة اليوم) من جهة الشرق والاندفاع نحو دمشق.

٢ ـ أباقا:

لما هلك هولاكو عام ٦٦٣ قام مكانه ابنه أباقا، وكان همّه الأول قتال بركة خان، فسار إليه إلا أنه هُزم أمام نوغاي قائد بركة خان، ولكنه انتصر في الجولة الثانية وهزم نوغاي فسار إليه بركة خان ولكن مات قبل أن يلتقي معه. وانتصر أباقا خان عى خليفة بركة خان مانكوتيمر انتصاراً عظيماً. وكان أباقا متزوجاً بابنة امبراطور القسطنطينية، وعندما جرت مراسلات للصلح بين السلطان الظاهر بيبرس وإمبراطور القسطنطينية أحب الثاني أن يتوسّع أمر الصلح ليشمل أباقا خان، غير أن الأول قد رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على حرب أباقا.

وجرت حروب بين أباقا خان وبين براق خان حفيد جغطاي وذلك أن مانكوتيمر خان مغول الشمال، وقيدو بن قاشين بن أوغطاي قد حرّضا براق خان على ذلك وأطمعاه في أملاك أباقا خان.

أما من ناحية قتال المماليك، فقد تمكّن حكام الشام ومصر من

الانتصار على جيوش التتار ٦٧٣، ووصلوا إلى ماردين، وبعد عامين تقدّم التتار ومعهم صاحب ماردين المظفّر الأرتقي إلى البيرة على نهر الفرات وحاصروها، ولم يتمكّنوا من اقتحامها إذ دافع عنها نائب المماليك دفاعاً مجيداً، وانتشرت الأمراض بين جند التتار، ووصلت الأنباء بتقدّم الظاهر بيبرس على رأس قوةٍ لحربهم، ففكّوا الحصار، وانسحبوا من ميدان المعركة ولم ينقض الشهر على تقدّمهم، وذلك في ٨ جمادي الآخرة من عام ٦٧٤.

وجاءت أخبار إلى أباقا خان بأن اختلافاً قائم بين الأمراء في مصر، فوجد الفرصة مناسبةً للهجوم على الشام فجهّز قوة عام ٦٧٩ بإمرة أخيه منكوتمر بن هولاكو وانضم إليه صاحب ماردين الأرتقي، وسارت الحملة، ووصلت أخبارها إلى الشام فاستعدت القوات في مصر والشام للقتال فدبّ الرعب في نفوس التتار فخرّبوا المناطق التي وصلوا إليها، وعادوا مسرعين إلى حيث أتوا.

ولما كانت غارات الشاميين لا تنفكّ تقوم على ديار بكر وبلاد سلاجقة الروم لذا قرر أباقاخان القيام بحملةٍ واسعةٍ، فهيّأ جيشاً يزيد عدده على الثمانين ألفاً وطلب منه التحرّك نحو حلب، وقد سار هذا الجيش وبدأ يسيطر على الجهات الشمالية من بلاد الشام، وفي الوقت نفسه فقد سار أباقا خان نفسه ومعه صاحب ماردين بفرقةٍ أخرى نحو بلدة الرحبة لمراقبة الأحداث وتحرّكات جيوش العدو وتسلّل أباقا خان مع ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة وحاصر القلعة فيها يوم ٢٦ جمادى الآخرة من عام ٦٨٠ وبعد سبعة عشر يوماً (١٤ رجب) التقى جيش المنصور قلاوون بالتتار في الشمال وأحرز النصر عليهم، وأعدّ قوة من دمشق للسير إلى الرحبة إلا أن أباقاخان قد انسحب إلى بغداد عندما علم بهزيمة جيشه في الشمال.

وعلى كل فقد كانت أيام أباقا خان حروباً دائمة على مختلف الجبهات فمن الغرب المماليك، ومن الشمال أبناء عمه من مغول الشمال، ومن الشرق أبناء عمه أحفاد جغطاي، واستمر ذلك حتى هلك عام ٦٨٠، وقام مكانه أخوه تكودار.

٣ ـ تكودار:

تولّى الحكم بعد أخيه أباقا خان، واعتنق الإسلام إذ كان أبوه هولاكو قد عهد بتنشئته إلى مربيين من المسلمين، وتسمّى باسم أحمد، وقد حاول الاتصال بسلطانِ المماليك المنصور قلاوون لإنهاء الخلافات والحروب بين الطرفين بعد صلح بينهما، وأرسل وفداً إلى مصر لهذه الغاية عام ٦٨١ فوصل الوفد في شهر رجب وعاد في شهر شوال من العام نفسه. ورجع الوفد ثانية إلى مصر، ولكن أثناء سيره جدّت أشياء إذ قُتل أمير التتار المسلم أحمد، على يد ابن أخيه أرغون بن أباقا خان الذي تسلّم الأمر مكانه. وقد وجد الوفد صعوبةً في وصوله إلى دمشق إذ لم يعلم بخبر مقتل السلطان أحمد، وقد التقى بالمنصور قلاوون بدمشق فأخبر الوفد بما تمّ وأنه لا داعي للمفاوضات، وبقي الوفد بدمشق، وسافر السلطان قلاوون إلى مصر، وتوفي رئيس وفد التتار عبد الرحمن شيرازي بدمشق، وسجن بعض أعضاء الوفد، وأطلق سراح بعضهم الآخر، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم.

٤ ـ أرغون:

ثار على عمه أحمد تكودار إذ نقم عليه لإسلامه ومحاولة الصلح مع أعداء التتار المماليك فقتله وتسلّم مكانه عام ٦٨٣، واضطهد المسلمين، وصرفهم من المناصب التي كانوا يشغلونها، وتحالف مع الأرمن والصليبيين ضد السلطان المنصور قلاوون، وضد خان مغول الشمال تدان مانكو الذي أسلم، وأعلن عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وراسل السلطان قلاوون، ثم هلك أرغون هذا عام ٦٩١، وخلفه أخوه كيخاتو بن أباقاخان.

٥ ـ كيخاتو:

تولّى إمرة الأسرة الإيلخانية بعد أخيه أرغون، وسار على نهجه، ولكنه لم يلبث طويلاً إذ قتل بعد مدة من حكمه (٦٩٣)، وخلفه ابن عمه بيدو بن طرخاي بن هولاكو.

٦ ـ بيدو:

ولم يلبث أن قتل أيضاً عام ٦٩٥ لسوء خلقه.

٧ ـ غازان:

وهو غازان بن أرغون بن أباقا بن هولاكو.

نشأ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام عام ٦٩٤، وتسمّى باسم محمود، وآل إليه أمر الدولة الإيلخانية عام ٦٩٥. وعندما أسلم غازان أسلمت معه أسرة تولوي كلها، وأسلم معه كذلك سبعون ألفاً من التتار، وغدت الدولة الإيلخانية مسلمةً. إلا أن هذا الإسلام لم يحل دون قتال المسلمين والعمل على حربهم.

في عام ٦٩٨ قرر غازان غزو بلاد الشام بعد أن وصل إليه نائب دمشق الأمير قبجق مع عددٍ من كبار الأمراء، وأرسل قائده سلامش على رأس خمسة وعشرين ألفاً لجمع الجنود من آسيا الصغرى ويتقدّم بعدها إلى الشام، وأن يسير هو بمن معه من ديار بكر ويكون اللقاء بينهما على نهر الفرات، غير أن سلامش قد طلب الأمر لنفسه فأرسل له غازان قواتٍ تحاربه، وعاد هو وقبجق إلى تبريز، وقد التقت قوات قازان مع قوات سلامش في ٢٥ رجب، وهُزم سلامش وفرّ إلى دمشق، غير أن نائب حلب سيف الدين بلبان قد وجهه على رأس قوةٍ عسكريةٍ إلى ماردين في شهر رمضان من العام نفسه فنهبوا ضواحيها، وإن كان أمير ماردين المنصور الأرتقي الذي آلت إليه الإمارة عام ٦٩٣ كان يُراسل المماليك من جهة، ويُظهر الطاعة لغازان الذي كان يعدّه من أكبر مخلصيه. وربما كانت غارة سلامش على ماردين سبباً، في غزو غازان لبلاد الشام عام ٦٩٩ لكن دون أن يحرز نصراً. وقد برّر غازان هذا الهجوم بكتاب وجهه إلى الناصر محمد بن قلاوون، وبرّر انسحابه من الشام بإرضاء أهل الشام، وأعلمه بأن قوات من مصر قد اتجهت لقتاله، وهو لا يريد حرب المسلمين، وأرسل الناصر محمد بن قلاوون وفداً للمفاوضة ولكن لم تجد المفاوضات واستمر الصراع بين الطرفين.

وضعف أمر التتار في ديار بكر حتى إن الأهالي هناك قد بدؤوا يتتبعون التتار ويقتلون منهم ما استطاعوا قتله، وقد انشق جنكلي بن البابا حاكم آمد التتري، واتجه إلى مصر مع عددٍ من كبار أمراء التتار سنة ٧٠٣. غير أن غازان قد أرسل إلى نائب دمشق عز الدين أيبك يدعوه إلى الطاعة لزيادة قوة المسلمين إذ أن قوات المماليك تعيث الفساد بغاراتها على ماردين وديار بكر، ويبرر ذلك بالحملة التي قادها إلى بلاد الشام، ولكنها كانت هزيمةً منكرةً في شقحب، وهي التي اشترك فيها الخليفة بنفسه والسلطان، كما اشترك ابن تيمية، وقد اجتمعت هناك جيوش الشام وجيوش مصر وهزمت التتار الذين ولّوا الأدبار، وفقدوا الكثير منهم، بل لم ينج إلا القليل، وذلك في رمضان من عام ٧٠٢.

أما بالنسبة إلى مغول الشمال، فقد هدد الخان طقطاي غازان أن يسلم له مراغة وتبريز، ولكن غازان رفض ذلك، فسار طقطاي إلى جهة العراق غير أن غازان كان قد هزم في بلاد الشام فلم يتجه للقتال ثم لم يلبث أن توفي عام ٧٠٣، وخلفه أخوه أولجايتو.

٨ ـ أولجايتو:

شبّ على النصرانية ثم اعتنق الإسلام، وتولّى الحكم بعد أخيه غازان، وتسمّى محمد خرابنده، وأظهر الرفض عام ٧٠٩، وحاول أن يفرض هذا على رعيته. وتزوج ابنه صاحب ماردين (دنيا خاتون) عام ٧٠٩، غير أن أباها قد خطب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٠، إذ كان يحاول أن يستفيد من وضعه فيحافظ على توازن القوى، أو يحاول أن يخفّف من غارات نواب المماليك في الجهات الشمالية على بلاده. ولكنه رجع عام ٧١١ يستقبل أمراء المماليك الفارين من مصر والشام، فقد استقبل في هذا العام مع أمراء التتار نائب الشام قره سنقر والأفرم، لكنه في العام التالي ٧١٢ توفي صاحب ماردين الملك المنصور نجم الدين إيلغازي، وخلفه عليها ابنه الملك العادل علاء الدين علي.

شجّع قره سنقر والأفرم السلطان محمد خرابنده على غزو الشام ومصر، ولكنه لم يجرؤ، وسار في العام الثاني ٧١٢ مع صاحب ماردين وحاصروا الرحبة في شهر رمضان طيلة الشهر، وكان سلطان مصر والشام الناصر محمد بن قلاوون قد اتجه نحو عدوه، فانسحب خرابنده.

وفي عام ٧١٣ قام خرابنده بحملة ضد خان مغول الشمال طقطاي ومشى معه صاحب ماردين، والأمير المملوكي قره سنقر، وتمكّن من الانتصار بفضل قوة وشجاعة قره سنقر، فراسل طقطاي سلطان مصر، وشكا له ما حلّ به، وعزا هزيمته إلى شجاعة قره سنقر وقوته، وطلب مده بالأسلحة لإعادة الجولة، وتمّ الاتفاق بين الاثنين للهجوم بوقتٍ واحدٍ على خرابنده إلا أنه لم يتم شيء من هذا إذ توفي طقطاي من عامه ذاك، وخلفه ابن أخيه محمد أوزبك.

وفي عام ٧١٥ أرسل سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون قوةً من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي للإغارة على ماردين، فأغار، ووجد في طريقه قوة من التتار قوامها ألف فارس جاءت إلى ماردين لأخذ الضرائب، فهاجمهم قرطاي، وقتل منهم ستمائة فارس، وأسر مائتين، وأخذ ما معهم. وفي شهر شعبان من العام نفسه أغارت قوة من حلب قوامها خمسة آلاف فارس على آمد، واستولت على بعض المواقع، وقتلت ونهبت وعادت.

وفي عام ٧١٦ سار حميضة بن أبي نمي من مكة إلى محمد خرابنده لينصره على أهل مكة، فساعده الروافض، وجهزوا معه جيشاً في خراسان، ولكن مات محمد خرابنده فرجع حميضة خائباً، وخلف خرابنده ابنه أبو سعيد.

٩ ـ أبو سعيد بهادور خان:

تولّى حكم الدولة الإيلخانية، وهو صغير، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وفي عهده عادت السنة إلى الدولة بعد أن اتخذ أبوه الرفض مذهباً له. كان جوبان وزير أبيه قد استدعى محمد أوزبك خان مغول الشمال

ليتسلّم البلاد فإن الصغير لا يمكنه أن يضبطها إلا أن محمد أوزبك قد رفض القدوم، فاستأثر جوبان بالأمر فأغضب ذلك الأمراء فكاتبوا محمد أوزبك خان مغول الشمال، ويبسورخان قائد جند تركستان وبلاد ما وراء النهر، وهو من أحفاد جغطاي، وكان يبسور يحكم قسماً من خراسان، فتقدّم ودخل القسم الآخر، ووصل إلى مازندران، وطلب من محمد أوزبك أن يتقدّم من الطرف الآخر.

أرسل أبو سعيد جيشاً إلى محمد أوزبك إلا أن هذا الجيش قد هُزم، فسار بنفسه، وأرسل جيشاً آخر إلى يبسور بإمرة جوبان الذي تمكّن من إحراز النصر على يبسور، وإخراجه من خراسان، ثم بعث أبو سعيد إلى جوبان يطلب منه أن يسير بالقوات التي معه إليه ليواجه محمد أوزبك، ولكنه لم يحدث قتال لأن محمد أوزبك قد انسحب من الميدان عندما علم بهزيمة يبسور.

عاد أبو سعيد وجوبان إلى قاعدة الملك في أصفهان، وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا محمد أوزبك ويبسور، ونكّلوا بهم، وقد استطاع بعضهم الفرار والتوجّه إلى محمد أوزبك، وحرّضوه على قتال أبي سعيد، فاتصل أوزبك بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون لدعمه، إلا أن الناصر قد اعتذر لوجود مفاوضات بينه وبين أبي سعيد من أجل الصلح، وقد تمّ بالفعل هذا الصلح.

واتفق محمد أوزبك مع كبك ملك بلاد ما وراء النهر الذي تسلّم الأمر بعد مقتل يبسور عام ٧٢٠، ولكن أوزبك قد توفي عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمود جاني بك فاستطاع أن يأخذ أذربيجان من نائبها الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان، ونصّب ابنه محمد بردي مكانه.

وبدأ الوضع يتأخر في الدولة فأصبح نواب المناطق في شبه استقلال، وظهرت أطماع من الأمراء التتار في عددٍ من الجهات، وعندما توفي أبو سعيد عام ٧٣٦، ولم يكن لأبي سعيد عقب، فاختلف أهل دولته، وانقرضت الدولة الإيلخانية.

نصّب رجال الدولة عليهم موسى خان، وقام بتدبير الحكم علي باشا أحد أمراء البلاد. وكان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا بن هولاكو معتقلاً

في بلاد آسيا الصغرى، فأُطلق سراحه، فوصل إلى بغداد فخلع موسى خان، وولّى مكانه محمد بن عنبرجي أحد أفراد الأسرة الإيلخانية، وتمكّن الشيخ حسن من بغداد وتبريز، ، وأسس الدولة الجلائرية.

سار من آسيا الصغرى حسن بن دمرداش فغلب على تبريز، وقتل محمد بن عنبرجي، فسار الشيخ حسن إلى بغداد واستقر فيها، بينما استقر حسن بن دمرداش في تبريز ونصّب (صاتبيك) أخت أبي سعيد سلطانةً على تبريز وزوّجها من أحد أسباط هولاكو، ويُدعى سليمان، إلا أن أولاد جوبان قد استولوا على أذربيجان وتبريز.

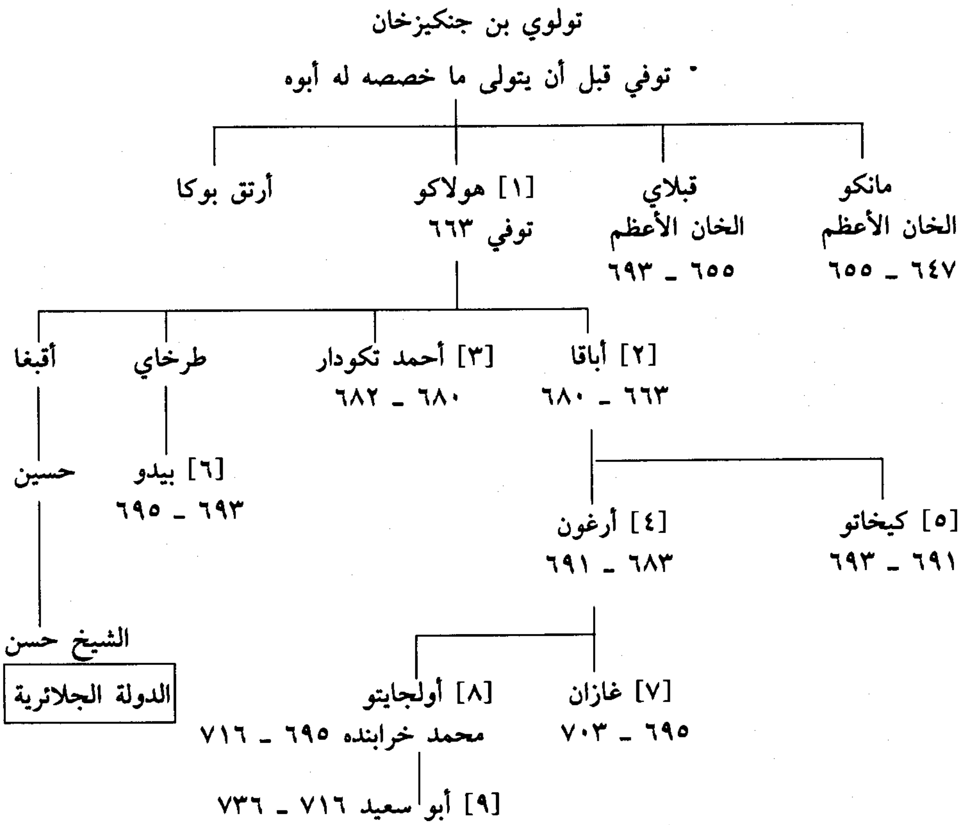

أما ديار بكر فقد استولى عليها إبراهيم شاه بن بارنباي بن سنوتاي. واستولى أرتنا على آسيا الصغرى. وقطع الأراتقة في ماردين ونواب التتار في تلك الجهات الخطبة عن خانات العراق سواء الإيلخانيين أم الجلائريين.

واستولى على بلاد خراسان طغيمتر من بني جنكيزخان. وهكذا تجزأت الدولة الإيلخانية.

بقي الشيخ حسن الجلائري في بغداد حتى توفي عام ٧٥٨ فخلفه ابنه أويس الذي حكم بغداد مدة ثماني عشرة سنة (٧٥٨ ـ ٧٧٦) واختلف أبناؤه من بعده، إذ قام علي بن أويس في بغداد، وحسين بن أويس في تبريز. ولكن جاء شجاع بن المظفر اليزدي، واحتل تبريز فانتقل حسين بن أويس إلى أخيه علي في بغداد، ثم ثار على أخيه في بغداد وخلّصها منه، كما سار إلى تبريز واسترجعها من شجاع بن المظفر الذي اتجه نحو أصفهان وأسس دولة هناك. وتمكن حسين بن أويس من بغداد وتبريز، ولكن لم يلبث علي بن أويس أن عاد فانتزع بغداد من أخيه حسين. واستقر علي في بغداد، وحسين في تبريز وعنده أخوه أحمد.

غادر أحمد بن أويس تبريز مغاضباً أخاه حسيناً وانتقل إلى أردبيل، ثم رجع إلى تبريز وامتلكها من أخيه حسين الذي اختفى إلا أنه قد قبض عليه وقتله، ثم اتجه إلى بغداد وامتلكها من أخيه الآخر علي، وبقي أحمد في بغداد حتى جاء تيمورلنك فدخل بغداد عام ٧٩٦، وفر أحمد بن أويس إلى مصر ملتجئاً إلى الظاهر برقوق.

الفصل الثالث

أســرة جغطاي

كان من نصيب جغطاي الابن الثاني لجنكيزخان من إمبراطورية أبيه بلاد الأويغور، وتركستان، وما وراء النهر. وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظة على تعاليم أبيه المحصورة فيما يعرف باسم «اليساق». وقد تسلّم جغطاي منطقته بعد وفاة أبيه عام ٦٢٤، وبقي خاناً عليها حتى توفي عام ٦٤٠. وتسلّم أمر هذه الأسرة حفيده قره هولاكو بن موتوكن، ويبدو أن والده كان قد توفي في حياة أبيه، وبعد ست سنوات من قيامه بأمر هذه الأسرة اختلف مع يسومنكو الذي نازعه الزعامة وأخذها منه لمدة أربع سنوات غير أن قره هولاكو تمكّن عام ٦٤٩ أن يرجع إلى السلطة، وأن يوحّد أبناء جغطاي تحت نفوذه، وأطلق عليه اسم خان أسرة جغطاي، وقد حكمت بعد مدة هذه الأسرة (أركنه خاتون) حتى عام ٦٥٩، وخلفها آلغوخان الذي استمرت سلطته خمس سنوات حيث جاء إلى الحكم مبارك شاه عام ٦٦٤، وقد نشأ مبارك شاه على الإسلام إذ ربته على ذلك أمه «أرغنه» زوجة قره هولاكو، وقد طالب بالعرش الذي كان مثار نزاع، وتمكّن من الحصول عليه، ولكن لم يلبث ابن عمه براق خان أن خلعه، وتسلّم مكانه، ولم يكن لإسلام مبارك شاه أثر كبير إذ لا نلاحظ في أسماء أبنائه ما يدل على إسلامهم أو اعتناق دين أبيهم.

خلع براق خان ابن عمه مبارك شاه عن الخانية عام ٦٦٤ وتسلّم أمرها، وقد قاتل ابن عمه قيدو ابن قاشين خان أسرة أوغطاي وانتصر عليه، واستبد بما تحت يده، وقد توفي عام ٦٧٠، ويقال: إنه قبل أن يموت

بعدة أيام اعتنق الإسلام، ولكنه عندما توفي دفن حسب طقوس المغول الوثنية، ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي، كما يقال: إنه قد تلقّب باسم السلطان غياث الدين في أيامه الأخيرة التي اعتنق فيها الإسلام.

خلف براق خان الأمير نيكوباي ولكن لم يطل أمره بأكثر من عام (٦٧٠ ـ ٦٧١)، وقام بعده توقاتيمور، وقد استمر عشر سنوات في حكمه (٦٧١ ـ ٦٨١)، وخلفه (دوداخان) الذي زادت مدته على خمس وعشرين سنة ويعدّ الأول في سني حكمه بين خانات أسرة جغطاي، وعند وفاته قام قونجوق خان لمدة سنتين (٧٠٦ ـ ٧٠٨)، ثم تاليقوخان لمدة سنةٍ واحدةٍ حيث خلعه أخوه كبك خان واستلم الأمر منه، وبعد أقل من سنة خُلع أيضاً كبك خان، وتسلطن أسنبوغا عام ٧٠٩.

وقع القتال بين (طقطاي) خان مغول الشمال وبين (أسنبوغا) خان بلاد ما وراء النهر، وقد انتصر طقطاي على مغول ما وراء النهر، وهذا ما كان له أثر في عودة كبك خان للمرة الثانية إلى الحكم عام ٧١٨ بتأثير مغول الشمال. واتفق كبك خان مع محمد أوزبك خان الشمال على قتال أبي سعيد خان الدولة الإيلخانية على أن يتقدّم كل منهما من جهته في أملاك الدولة الإيلخانية، إلا أن ييسور قد هزم أمام قوات أبي سعيد التي كانت بإمرة جوبان، وتراجعت قوات ييسور قائد جيوش ما وراء النهر، ثم إن ييسور قد قُتل عام ٧٢٠، ولم يحدث قتال مع قوات مغول الشمال إذ انسحب محمد أوزبك من منطقة القتال قبل أن يحدث عندما وجد قوات مغول ما وراء النهر تتراجع، غير أن الاتفاق قد تجدد عام ٧٢١ بين أوزبك وكبك لإعادة الكرة إلا أن كبك قد انتهى أمره في ذلك العام، وتبعه محمد أوزبك في العام الذي تلاه.

ضعفت الدولة في بلاد ما وراء النهر بعد الهزيمة التي حلّت بها أمام الإيلخانية، وتسلّم الأمر إيلغي كداي لعدة أشهر من عام ٧٢١، كما تسلّم السلطة بعد دوداتيمور لعدة أشهر أخرى. ولا شك فإن اتساع أرجاء الدولة بعد السيطرة على منطقة أسرة أوغطاي على الأقل القسم الغربي منها وهو

منطقة تركستان منذ أيام دوداخان كان له أثر كبير في الضعف الذي حلّ بالدولة حيث كان الخانات على درجة من الضعف لا تمكنهم من السيطرة على منطقة واسعةٍ.

تسلّم أمر أسرة جغطاي عام ٧٢٢ طرماشيرين، وقد أسلم وأسلم معه أكثر أفراد أو على الأقل معظم أمراء أسرة جغطاي، ولكن هذا الإسلام لم يتعمق في النفوس بشكل جيد، إذ أنه لا يزال حديثاً، والدخول فيه كان تقليداً ومجاراة أو مسايرة للخان. وقد التقى ابن بطوطة مع هذا السلطان، واستمرت مدته ثلاث عشرة سنة (٧٢٢ ـ ٧٣٥). ويبدو أن طرماشيرين لم تكن له السيطرة على كل أرجاء المملكة وخاصة في أواخر حياته إذ نلاحظ في أعداد الخانات لهذه الأسرة سنجر (٧٣٠ ـ ٧٣٤) وجنكشاي (٧٣٤ ـ ٧٣٥) ويبدو أن نفوذهما كان على بعض جهات المملكة، إذ أن الدولة تفككت بين معتنق للإسلام ومعاد، وقد عُرف الحكام الذين احتفظوا بوثنيتهم باسم مغولستان، وعُرف السكان باسم «الجاثيون» أي اللصوص. وتمكّن «بوزون» عام ٧٣٥ من طرد طرماشيرين من الخانية، واضطهد المسلمين. وحدثت خلافات كثيرة بين الأمراء، فقد جاء إلى السلطة أسن تيمور بعد بوزون عام ٧٣٩ وبقي سنتين.

إلا أن المسلمين قد تمكّنوا من تنصيب علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين أيضاً، وخلفه مسلم آخر من أسرة جغطاي اسمه محمد لمدة سنة واحدة (٧٤٣ ـ ٧٤٤) ثم قازان لمدة ثلاث سنوات (٧٤٤ ـ ٧٤٧)، وبعد وفاة قازان انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة، وتمكّن الأمراء الأتراك من إحراز النصر على المغول في بلاد ما وراء النهر. وإذا كان قد نُصّب دانشمندجة على قسم من بلاد ما وراء النهر، وهو من أسرة أوغطاي لمدة سنتين، وبعده رجع الخان بويان قولي من أسرة جغطاي فحكم لمدة إحدى عشرة سنة غير أن أوضاع بلاد ما وراء النهر كانت مجزأة، وأجزاء واسعة منها تحت سيطرة الأمراء الأتراك، وهذا ما حدا بأحد أمراء المغول أن يستقل في القسم الشرقي من تركستان.

٦٢٤ ـ ٦٤٠ جغطاي

موتوكن. توفي في حياة أبيه

٦٤٠ ـ ٦٤٥ قره هولاكو

٦٤٥ ـ ٦٤٩ يسومنكو

٦٤٩ ـ ٦٥٠ قره هولاكو «للمرة الثانية»

٦٥٠ ـ ٦٥٩ أرغنة خاتون زوجة قره هولاكو

٦٥٩ ـ ٦٦٤ آلغو

٦٦٤ ـ ٦٦٤ مبارك شاه

٦٦٤ ـ ٦٧٠ براق خان

٦٧٠ ـ ٦٧١ نيكوباي

٦٧١ ـ ٦٨١ توقاتيمور

٦٨١ ـ ٧٠٦ دوداخان

٧٠٦ ـ ٧٠٨ قونجوق خان

٧٠٨ ـ ٧٠٩ تاليقوخان

٧٠٩ ـ ٧٠٩ كبك خان

٧٠٩ ـ ٧١٨ أسنبوغا

٧١٨ ـ ٧٢١ كبك خان «للمرة الثانية»

٧٢١ ـ ٧٢١ إيلغي كداي

٧٢١ ـ ٧٢٢ دوداتيمور

٧٢٢ ـ ٧٣٥ طرماشيرين سنجر ٧٣٠ ـ ٧٣٤

٧٣٥ ـ ٧٣٩ بوزون خان جنكشاي ٧٣٤ ـ ٧٣٥

٧٣٩ ـ ٧٤١ أسن تيمور

٧٤١ ـ ٧٤٣ علي من أسرة أوغطاي

٧٤٣ ـ ٧٤٤ محمد

٧٤٤ ـ ٧٤٧ قازان

٧٣٠ ـ ٧٣٤ سنجر

٧٣٤ ـ ٧٣٥ جنكشاي

٧٤٧ ـ ٧٤٩ دانشمندجة من أسرة أوغطاي

٧٤٩ ـ ٧٦٠ قبول خان

٧٤٩ ـ ٧٦٤ توغلق تيمور

٧٦٤ ـ ٧٦٨ إلياس خواجه بن توغلق تيمور

٧٦٨ ـ ٧٧١ قمر الدين

تيمورلنك اسمياً:
- ٧٧١ ـ ٧٩١ سيورغتمش بن دانشمندجة من أسرة أوغطاي
- ٧٩١ ـ ٨٠٠ محمود بن سيورغتمش

المغول في تركستان:

استقل توغلق خان من أسرة جغطاي في كاشغر من أعمال تركستان الشرقية عام ٧٤٨، وأعلن أنه حفيد دوداخان، وقد استطاع أن يضمّ إليه بلاد ما وراء النهر، وفي أيامه دخلت أعداد من المغول تزيد على مائة وستين ألفاً في الإسلام، واستمر حكمه مدة ست عشرة سنة (٧٣٨ ـ ٧٦٤) وخلفه ولده إلياس خواجه، وقد أضاع المغول في أيامه بلاد ما وراء النهر، كما اغتصب الحكم منه زعيم يعرف باسم «قمر الدين» حتى عام ٧٩١ حيث رجعت السلطة بعد ذلك إلى خضر خواجه بن توغلق تيمور حتى عام ٨٠١، فابنه شمع جهان، وتوالى الحكام حسب التسلسل الآتي:

٧٤٨ ـ ٧٦٤	توغلق تيمور
٧٦٤ ـ ٧٧٦	إلياس خواجه بن توغلق تيمور
٧٧٦ ـ ٧٩١	قمر الدين
٧٩١ ـ ٨٠١	خضر خواجه بن توغلق تيمور
٨٠١ ـ ٨١٠	شمع جهان بن خضر خواجه
٨١٠ ـ ٨١٨	محمد خان بن خضر خواجه
٨١٨ ـ ٨٢١	نقش جهان بن شمع جهان
٨٢١ ـ ٨٢٤	أويس خان بن شير علي بن خضر خواجه
٨٢٤ ـ ٨٢٨	شبر محمد بن شاه جهان بن خضر خواجه
٨٢٨ ـ ٨٣١	أويس خان للمرة الثانية
٨٣١ ـ ٨٣٨	مرحلة من الاضطراب
٨٣٨ ـ ٨٦٦	أسن بوغا بن أويس خان
٨٦٦ ـ ٨٦٦	يونس خان بن أويس خان
٨٦٦	دوست محمد بن أسن بوغا

حدثت مرحلة من الاضطراب وانقسمت الدولة إلى عدد من الإمارات، قام بعضها في (اقصو)[1] و (طُرفان)[2]. وقد حكم هناك كبك سلطان بن

(١) اقصو: مدينة تقع على أحد روافد نهر تاريم، شمال شرقي كاشغر على بُعد ٤٢٠ كيلومتراً منها.

(٢) طُرفان: واحة واسعة على بعد ٧٨٠ من اقصو إلى الشرق منها مع انعطاف قليل إلى الشمال، وتقع دون مستوى سطح البحر (ـ ١٥٤م).

دوست محمد مدة أربع سنوات (٨٧٣ ـ ٨٧٧)، ثم محمود خان بن يونس، وأحمد خان بن يونس (٨٩٠ ـ ٩٠٨)، ومنصور خان بن أحمد (٩٠٨ ـ ٩٥٠)، وقد حكم أحد الثائرين كاشغر، ويارقند حتى عام ٩٢٠، وتمكّن سيدخان بن أحمد أن يستعيد سلطته على كاشغر (٩٢٠ ـ ٩٣٩) وخلفه ابنه عبد الرشيد خان (٩٣٩ ـ ٩٧٨)، أما طرفان فقد حكمها شاه خان بن منصور بعد وفاة والده (٩٥٠ ـ ٩٧٨) ثم انتهى أمر هذه الأسرة المغولية في هذا العام. وكثيراً ما كانت قراشار[١] تتبع الحكومة في طرفان.

(١) قراشار: مدينة بين اقصو وطرفان، على بحيرة تحمل اسمها، ينتهي فيها المجاري المائية المنحدرة من جبال تيان شان، وهي الجبال التي تفصل حوض زونغارية عن حوض نهر تاريم، وكلاهما من بلاد تركستان الشرقية، ويبلغ ارتفاع هذه البحيرة (١٠٣٠م) عن سطح البحر.

الفصل الرابع

أسـرة أوغطاي

بعد وفاة جنكيزخان عام ٦٢٤ خلفه ابنه أوغطاي كخانٍ أعظم للصين مقره قره قورم، كما كان نصيبه من إمبراطورية والده منغوليا مقر حكمه، وبلاد الخطا التي تشمل الأجزاء الشرقية من تركستان أي زونغاريا وحوض نهر تاريم، والصين وكل ما يمكن ضمّه من ناحية الشرق إلى نهاية المعمورة. وأُعلنت له الطاعة عام ٦٢٦ من قبل المغول جميعاً في مؤتمرهم الذي عقد في ذلك العام بعد عامين على مرور وفاة جنكيزخان حزناً عليه أو حداداً عليه. وقد اتسعت في عهد أوغطاي منطقة نفوذ المغول سواء من ناحية الشرق في الصين أم من ناحية الغرب على حساب دولة خوارزم، وفي أوروبا أيضاً بقيادة ابن أخيه باتو بن جوجي بن جنكيزخان.

ويبدو أن المغول قد هزموا في جهة الشرق في بعض المعارك على الأقل، فدعا «أوغطاي» المغول لعقد اجتماع لتدارس الأمر في مقر الحكم في قره قورم (أولان باتور) قاعدة منغوليا اليوم، إلا أنه في هذه الأثناء قد توفي خان المغول الأعظم «أوغطاي»، وانتخب ابنه «كيوك» مكانه وكان في المجر يُقاتل تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي، فتأثر باتو وإخوته من هذا التعيين فرفضوا حضور ذلك الاجتماع، وريثما حضر «كيوك» من أقصى غرب الإمبراطورية سيّرت أمه «توراكينا» له أمور الدولة، وحصل فراغ في السلطة لعدة سنوات (٦٣٩ ـ ٦٤٤).

وصل «كيوك» إلى مقر حكم المغول عام ٦٤٣، واحتفل بتنصيبه عام

٦٤٤، وتنصّر تحت تأثير مربيه من النصارى، وانتشرت في أيامه أعداد من الرهبان في بلاد المغول، واختلف مع ابن عمه باتو وأرسل جيشاً لقتاله، وقبل أن يلتقي الطرفان توفي «كيوك» عام ٦٤٧.

نُصّب مانكو بن تولوي خاناً أعظم للمغول بتأثير باتو بن جوجي، وهكذا انتقلت الخانية العظمى للمغول من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي»، وحقد أولاد «أوغطاي» على هذا الأمر إلا أنه قد خرج من أيديهم، وكان كبيرهم «قاشين» أخو «كيوك».

نُصّب بعد وفاة مانكو عام ٦٥٥ أخوه «قوبيلاي»، وكان معه في طريقهما إلى قتال بعض ملوك بلاد الخطا الذين خرجوا عن طاعته، وكان قد عيّن أخاه الأصغر أرتق بوكا لإدارة شؤون المملكة مكانه، واستمسك أرتق بوكا بالحكم وكان يدعمه ابن عمه بركة خان مغول الشمال، وابن عمه الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي، والتقى قوبيلاي مع أخيه أرتق بوكا في قتال اضطر معه أخوهم الرابع هولاكو أن يترك القتال في الغرب عام ٦٥٨، وأن يعود إلى مقر حكم المغول في قره قورم، واستطاع أن يعيد قيدو بن أوغطاي إلى الطاعة هو وإخوته، ونصّب أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول، وعاد إلى قاعدته في الغرب.

نقل قوبيلاي حاضرة ملكه من قره قورم في منغوليا إلى بكين عاصمة الصين، وأسس هناك أسرة حكمت المنطقة تلك، أما القاعدة القديمة فقد بقي فيها أبناء أوغطاي، وكانوا على صلة بأبناء عمومتهم أحفاد جغطاي فاختلطت السلطة بعضها مع بعض.

توفي قيدو بن قاشين بن أوغطاي عام ٧٠٤ وخلفه ابنه «شابار»، وكان قيدو قد قاتل براق خان من أسرة جغطاي ولكنه هُزم أمامه، وأصبح براق خان سيد الموقف، كما كان قيدو يوالي المسلمين، ويعضد ابن عمه بركة خان المسلم الذي قاتل ابن عمه هولاكو، وراسل الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكي الذي كان يقف في وجه هولاكو. ومع هزيمة قيدو أمام براق خان فإن خلفاء الجغطائيين، ومنهم (دوداخان) قد وافقوا على

زعامة شابار مكان أبيه قيدو، ثم جرت حروب بين الجغطائيين والأوغطائيين رضخ بعدها الأوغطائيون إلى دوداخان الجغطائيين الذين أصبحوا خانات بلاد ما وراء النهر وتركستان كلها وخضع لها الأوغطائيون، غير أنه قد تولّى أمر هذه المملكة الواسعة علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين من عام (٧٤١ ـ ٧٤٣) إذ كان الإسلام قد عم المنطقة منذ أيام طرماشين (٧٢٢ ـ ٧٣٥)، وبعد أربعة أعوام حكمها في خلالها محمد، وقازان من أسرة جغطاي عاد دانشمندجة إلى حكم المنطقة وهو أخو شابار أي من أسرة أوغطاي.

بعد دانشمندجة الذي توفي عام ٧٤٩ عادت السلطة إلى أسرة جغطاي حيث تولّى الأمر قبول خان بجهود الأمير حسين بن الأمير قزغن، وبقيت السلطة بيد قبول خان حتى عام ٧٦٠ حيث قتله تيمورلنك، وولى مكانه «سيورغتمش» بن دانشمندجة.

وبعد سيورغتمش خلفه ابنه محمود إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد تيمورلنك.

وهكذا يبدو أن أسرة أوغطاي كانت قليلة الحظ في السلطة بعد أن كانت الخانية العظمى بيدها، إذ عهد جنكيزخان من بعده لابنه أوغطاي الذي تنتمي إليه هذه الأسرة.

المغول في الصين:

أما المغول في الصين فقد دخل قوبيلاي عام ٦٧٩ مملكة سونغ في جنوبي الصين، ووحدها مع البلاد التي خضعت له، واتخذ عاصمةً له (خان باليغ).

التي تعني مقر الخان، وهي التي تسمى اليوم بكين. وأما عاصمتهم الأولى قره قورم فقد غدت مركز ولاية.

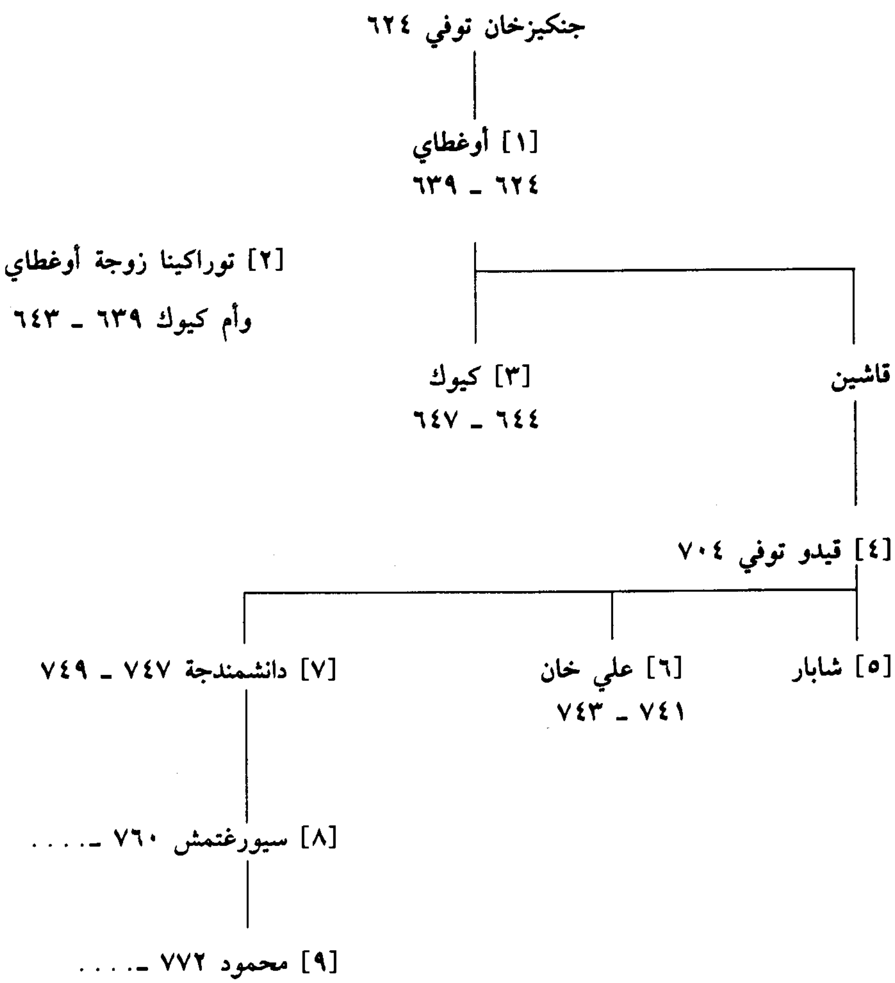

تأسست إمبراطورية مغولية واسعة في الصين، واستمر قوبيلاي في حكمه حتى عام ٦٩٣، وقد عرف حكام هذه الدولة باسم أسرة (يين)، وعندما توفي قوبيلاي خلفه حفيده أولجايتو تيمور، وبقي مدة ثلاث عشرة سنة (٦٩٣ ـ ٧٠٦)، وخلفه ابن أخيه كويوك بن دار مابالا الذي لم يبق في الملك سوى خمس سنوات (٧٠٦ ـ ٧١١) حيث تسلّم بعده أخوه بويانتو لمدة تسع سنوات (٧١١ ـ ٧٢٠)، وقام ابنه غيغن من بعده، وتعاقب عدد من الخانات لمدد قصيرة إذ قام يسون تيمور، وابنه راجي بقا، ثم كوشالا بن كويوك فأخوه جياغاتو، ثم رينغن جال بن كوشالا وهؤلاء الستة

خانات لم تزد مدتهم جميعاً على اثنتي عشرة سنة (٧٢٠ ـ ٧٣٢)، وأخيراً جاء طوغان تيمور فطال أمره إلى عام ٧٧١، وقد عرف حكام هذه الأسرة بالبذخ والترف، وانتشر الإسلام في هذه الإمبراطورية، ويعود بناء أكثر مساجد مدينة بكين إلى هذه المرحلة، كما أن القصور الفخمة الأثرية تعود أيضاً إلى المرحلة نفسها، وقد تمكن أعداء الإمبراطورية من دخول بكين في عهد طوغان تيمور عام ٧٧٠، وفي خلال سنتين أخرج المغول من الصين.

استمرت هذه الممالك في الأجزاء الخارجة عن الصين لذا عرفت باسم الدولة المقصورة أي التي اقتصرت على مساحة بسيطة من الأرض بالنسبة إلى ما كانت عليه، وقد حاولوا التوجه نحو الشمال إلا أن مينغ قد لاحقهم وتمكّن من الانتصار عليهم، وأسر منهم ثمانين ألفاً، وبسط نفوذه عليهم، وإن بقوا يعرفون باسم الخانات إلا أن تعيينهم كخانات كان يأتي من بكين منهم كولاة بالدرجة الأولى. وقد توالى أربعة عشرة خاناً وهم:

١ ـ بيليكتو بن طوغان تيمور	٧٧١ ـ ٧٨٠
٢ ـ أوسوخال بن طوغان تيمور	٧٨٠ ـ ٧٩٠
٣ ـ أتكه سوريكتو بن أوسوخهال	٧٩٠ ـ ٧٩٤
٤ ـ ألبك بن أوسوخال	٧٩٤ ـ ٨٠٢
٥ ـ كون تيمور بن ألبك	٨٠٢ ـ ٨١١
٦ ـ أولغان تيمور بن ألبك	٨١١ ـ ٨١٦
٧ ـ دلبك بن أولغان تيمور	٨١٦ ـ ٨١٧ قتل
٨ ـ آدساي بن خارغو تسوق بن أوسوخال	٨١٧ ـ ٨٣٧
٩ ـ تايسونغ بن آدساي	٨٣٧ ـ ٨٤٣
١٠ ـ أقبارجي بن آدساي	٨٤٣ ـ ٨٥٦
١١ ـ أوككتو بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٥٧
١٢ ـ مولون بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٦٧
١٣ ـ ماندا غول بن آدساي	٨٦٧ ـ ٨٧٥
١٤ ـ دايان خان	٨٧٥ ـ ٩٥٠

وقد تمكن دايان من توحيد قبائل المغول في هذه المدة الطويلة التي حكمها وذلك عام ٨٨٨، وكانت قره قورم حاضرة هؤلاء الخانات. وبعد ذلك تفرقت القبائل فكان لكل قبيلة خان مستقل، وإن كان يجمعهم بعض الروابط، وقد استمر ذلك مدة ٩٧ سنة وتعاقب خمسة خانات، وبعدئذ أصبح المغول يتبعون الصين تماماً ويعدون من رعايا دولة الصين وذلك منذ عام ١٠٤٣.

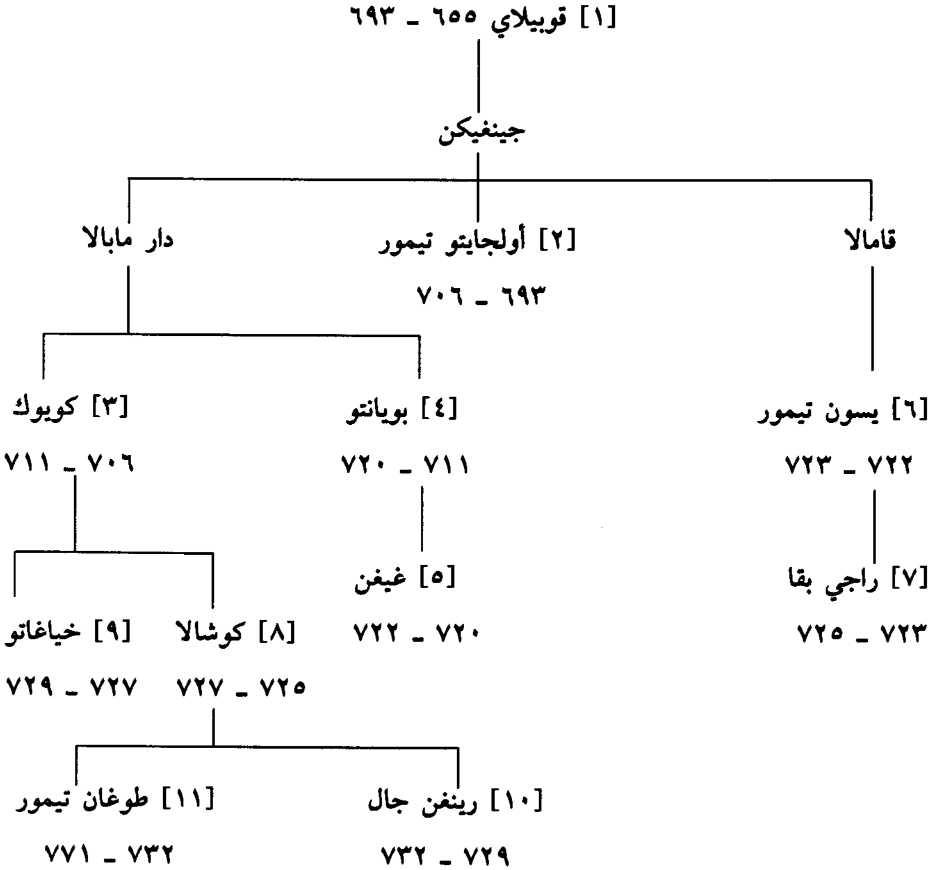

الفصل الخامس

تيمورلنك

تشتت شمل المغول في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري في دولهم كلها، وأصبحت كل دولةٍ أجزاء مبعثرة، فدولة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية تجزأت بين أبنائها، وانقسمت الدولة الإيلخانية إلى عدد من الدويلات إذ استقل كل زعيم بمنطقته وقطع صلته بالإيلخانيين، ومعظم هؤلاء الزعماء ليسوا من المغول وإنما من التركمان، وتوزعت بلاد ما وراء النهر بين أمراء أسرة جغطاي وكذا تركستان، أما أسرة أوغطاي فقد خضعت في تركستان لأسرة جغطاي، وأُخرج من كان منها في الصين حوالي عام ٧٧٣ مع خاناتهم من أحفاد قوبيلاي بن تولوي، وكان الخلاف بين أمراء هذه الأجزاء كثيراً ما يؤدي إلى القتال، في هذه الأثناء ظهر تيمورلنك، وكان الجو مهيئاً له.

استطاع توغلق تيمور خان بلاد التركستان أن يبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر. وأن يضع الولاة على المدن من قبله، وقد تحرّك والي سمرقند نحو مدينة هراة واحتلها، ثم اغتيل أمير سمرقند، واختلف الأهالي على الذي يلي أمرهم، وعمّت الفوضى، وأصبحت المنطقة في شبه ثورة، ووصل الخبر إلى الخان توغلق، فسار بقوة نحو سمرقند، ففرّ من وجهه بعض الأمراء الذين كانوا يظهرون العصيان، وأقبل من كان يبدي الطاعة على الخان وأقسم له يمين الولاء.

جاء الأمير حسين من جهات كابُل يريد إخضاع سمرقند، ولكنه هزم

وفرّ، وهو أخو زوجة تيمورلنك، ومن جهة أخرى فإن عمّ تيمورلنك وزعيم قبيلته «البرلاس» قد أظهر العصيان، واعتصم في بلدته في ضاحية سمرقند، فسار إليه جيش من قبل الخان، فاضطر إلى مغادرتها والفرار منها ولكن قطّاع الطرق قتلوه في أثناء فراره. وخوفاً من تهديم البلدة فقد تقدّم تيمورلنك إلى قائد طليعة جيش المغول وأكرمه، فأمر هذا الضابط جنده ألا يمسّوا هذه البلدة بسوء، كما طلب من تيمورلنك أن يسير معه إلى الخان، ففعل فكافأه الخان بأن جعله والياً على مدينة «كش».

ينتمي تيمورلنك إلى قبيلة «البرلاس» التركية، وقد كان أحد أجداده، وهو «قراجا رنويان» قد دعم جنكيزخان فأحبه، وجعله وصياً على ابنه جغطاي، فبرز بين المغول وعرف. وقد ولد تيمورلنك عام ٧٣٦ في بلدة «كش» التي أصبح والياً عليها فيما بعد، وتزوج من «توركان خاتون» أخت الأمير الفارّ الذي أراد إخضاع سمرقند.

رجع توغلق خان إلى تركستان مقر حكمه بعد أن عيّن ابنه إلياس حاكماً على بلاد ما وراء النهر، كما ألقى بجانبه جيشاً ينفّذ به أحكامه، وأعطى تيمورلنك إمرة مدينة سمرقند. غير أن قائد الجيش المغولي لم يحسن السيرة في معاملة أهل سمرقند فحدث الخلاف في المدينة بين أهلها والجيش المغولي، واشتدّ الوضع على الحاكم فكتب إلى أبيه، فطلب الوالد من أبيه أن يقتل أمير المدينة تيمورلنك، وأحس تيمورلنك بما يدبّر له، ففرّ، والتقى في أثناء هروبه مع أخي زوجته الأمير حسين الهارب أيضاً من المغول، واستطاع تيمورلنك أن يجمع حوله الأنصار، ونازل بهم المغول، وأحرز النصر. وفي هذه الأثناء علم إلياس خان بلاد ما وراء النهر بوفاة والده في تركستان فغادر بلاد ما وراء النهر، واتجه نحو تركستان ليتسلم الخانية العظمى، وبهذه المغادرة أصبحت بلاد ما وراء النهر في قبضة تيمورلنك.

سار الخان إلياس نحو بلاد ما رواء النهر وتمكّن من إحراز النصر

على تيمورلنك، ولكنه لم يستطع دخول سمرقند إذ صمدت في وجهه. ورجع تيمور إلى قاعدة ملكه غير أن الأمير حسيناً أخا زوجة تيمورلنك قد فرض نفسه أميراً على سمرقند، ورضخ تيمورلنك لذلك رغبةً في جمع الكلمة، والوقوف أمام المغول. ولكن هذا الاتفاق لم يدم إذ لم يلبث أن وقع الخلاف، وادعى تيمورلنك أن حسيناً قد أساء معاملته، وحدث القتال، وخرج تيمورلنك منتصراً، وأصبح أمير التتار بعد اجتماع أعيانهم في مدينة بلخ عام ٧٧١. واضطر «قمر الدين» من أسرة جغطاي وهو صاحب الكلمة الاسمية في بلاد ما وراء النهر أن يترك سمرقند، وأن يتجه إلى تركستان، وبذا فقد فقدَ الخان إلياس بلاد ما وراء النهر نهائياً، وأصبح تيمورلنك صاحب الكلمة العليا، فعيّن خاناً اسمياً على البلاد، وهو «سيورغتمش بن دانشمندجة» من أسرة أوغطاي وذلك عام ٧٧١، وبذا أصبحت بلاد ما وراء النهر تحت سلطة أسرة أوغطاي على حين كانت تركستان تحت سلطة أسرة جغطاي وهذا ليضمن عدم اتفاق الطرفين هذا من جهة، ومن جهة ثانية بقي الأمر بيد أحفاد جنكيزخان هم الذين يخضع لهم السكان مغولاً وتتاراً وتركاً.

كان الأمير حسين أخو زوجة تيمورلنك قد بسط نفوذه على خوارزم فسار إليه تيمورلنك وأخذ المدينة من أميرها الذي أدركته المنية في أثناء الحصار. ثم اتجه نحو هراة ودخلها بعد حصار، وحمل معه إلى سمرقند أميرها غياث الدين.

وفي هذه الأثناء هاجم «ماماي» الخان بمنطقة القرم مدينة «سراي» ففرّ منها خانها «توقتاميش»، واتجه نحو سمرقند، والتجأ إلى تيمورلنك فأعانه ورجع إلى بلاده، ودخل مدينة «سراي» منتصراً، وتمكّن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل مدينة موسكو.

وفي المدة ٧٨٢ ـ ٧٨٦ استولى تيمورلنك على خراسان[1]،

---

(١) كان السربداريون في نيسابور، وقد أسس هذه الدولة خواجه عبد الرزاق الذي كان يعمل =

وجرجان، ومازندران[1]، وسجستان[2]، وأفغانستان، وفارس[3]، وأذربيجان[4]، وكردستان.

= جابياً للضرائب في كرمان. وقد قاد عصياناً ضد ظلم المغول وسيطر على المنطقة عام ٧٣٨، وخلفه أخوه وجيه الدين فاستولى على نيسابور، وبقي فيها حتى دخل تيمورلنك المنطقة عام ٧٨٣.

وكان في مدينة هراة دولة بني كرت التي أسسها شمس الدين محمد عام ٦٤٣، وخلفه ولده ركن الدين، وخدموا الدولة الإيلخانية، وقد استولى تيمورلنك على هراة عام ٧٨٤، وأعدم أفراد أسرة بني كرت جميعاً.

(١) سار تيمورلنك إلى مازندران ودخلها عام ٧٨٦، وقضى فصل الشتاء في الري.

(٢) أغار تيمورلنك على سجستان عام ٧٨٥، ثم اتجه إلى الشمال فضم إليه جرجان ومازندران عام ٧٨٦.

(٣) حكم فارس في عهد الإيلخانيين شرف الدين محمود إينجو، واستقل فيها عام ٧٢٥، واعترف له بذلك الأمير شوبان الذي حكم حتى عام ٧٢٧، وخُلع شوبان، وخلفه أرباخان فأعدم شرف الدين محمود إينجو الذي ناوأه السلطة، وخُلع أرباخان عام ٧٣٦ وسُلّم إلى أولاد محمود شاه فقتلوه، وسيطر جلال الدين بن محمود شاه على فارس، وأبو إسحاق على يزد، ولكن آل مظفر سيطروا على المنطقة عام ٧٥٨.

كان غياث الدين حاجي قد هاجر من خراسان واستقر في يزد، وخدم واليها، وقام حفيده مظفر الدين بخدمة الإيلخانيين، فعينوه على مَيْبُد إحدى ضواحي أصفهان، وقد توفي عام ٧١٣، وخلفه ابنه مبارز الدين محمد الذي عينه أبو سعيد بها دور خان على يزد، وقد تمكّن من السيطرة على كرمان عام ٧٤١، ثم ضمّ إليه أصفهان ٧٥٨، وخلعه أولاده عام ٧٦٠، لكنه عاد إلى الحكم عام ٧٦٥ ثم مات في تلك السنة، وحكم بعده ولداه جلال الدين وشجاع ٧٦٩ ـ ٧٨٦ وخلف جلال الدين ولده مجاهد الدين علي زين العابدين وبعد وفاته اختلف آل مظفر، فاستولى تيمورلنك على المنطقة ودخل أصفهان عام ٧٨٨، ففر مجاهد الدين إلى الأمير منصور في شوشتر فقبض عليه وسجنه، ثم فر، وعاد فاستولى على أصفهان، وقد تمكن الأمير منصور من القبض عليه عام ٧٩٢، وكان الشاه يحيى المظفري في يزد، والسلطان أحمد في كرمان، والشاه منصور في أصفهان، وقد عاد تيمور فاستولى على المنطقة عام ٧٩٥.

(٤) بعد وفاة أبي سعيد بها دورخان آخر ملوك الإيلخانيين عام ٧٣٦ سيطر شيخ قبيلة تركية وهو الشيخ حسن بزرك على شمال إيران ثم ضم إليه العراق عام ٧٤١، واتخذ بغداد عاصمة له، وتوفي عام ٧٥٧، وخلفه ابنه الشيخ أويس بهادور خان فسيطر على تبريز عام ٧٥٩، ثم ضم إليه الموصل وديار بكر عام ٧٦٦، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ولده جلال الدين حسين فحارب آل مظفر، وحكام أرمينيا عام ٧٧٩، ثم عاد فاتفق معهم، ومات جلال الدين حسين عام ٧٨٤، وانقسمت الدولة بين ولديه، فكانت أذربيجان =

دبّ الخلاف بين توقتاميش وتيمورلنك عام ٧٨٨، إذ هاجم توقتاميش ضواحي سمرقند. ولم يكن تيمورلنك فيها، فلما عاد تيمورلنك إلى قاعدة حكمه رجع توقتاميش إلى بلاده، ولم تمض مدة حتى كرر توقتاميش الغارة وهذا ما شجع خوارزم على إعلان العصيان على تيمورلنك، وتراجع توقتاميش وفي نيته استدراج تيمورلنك إلى بلاد سيبيريا الواسعة ثم ينقض عليه، فسار تيمورلنك نحو الجرجانية إحدى مدن خوارزم، وفعل بأهلها الأفاعيل ليرهب أعداءه ولتكون درساً لمن تسوّل له نفسه إعلان العصيان على تيمورلنك. ورجع توقتاميش مرةً ثالثة للإغارة على مناطق تيمورلنك، فتحرّك تيمورلنك نحوه، ففرّ أمامه توقتاميش قاصداً استدراجه، ثم التقيا على ضفة نهر أورال. وكانت طليعة جيش تيمورلنك بقيادة ابنه عمر شيخ، والقائد سيف الدين، أما بقية الجيش فكان على ميمنته ابنه الصغير ميران شاه، وانتصر تيمورلنك، وفرّ توقتاميش وكان توقتاميش قد اتفق مع خان كاشغر «قمر الدين» من أسرة جغطاي على محاربة تيمورلنك، كما راسل السلطان الظاهر برقوق في مصر للغاية نفسها. وتابع تيمورلنك سيره فدخل مدينة «سراي» عاصمة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية، فعيّن عليها خاناً من قبله وهو «قويرجق بن أرص خان» من أسرة شوبان، أما هو فقد عاد إلى سمرقند، وكان صاحب الكلمة في مدينة «سراي» أيدكو زوج ابنة توقتاميش، إلا أنه قد أيّد تيمورلنك في حربه ضد عمه. ولما مات «قويرجق» عام ٨٠١ عيّن «أيدكو» مكانه خاناً جديداً هو «تيمرقتلغ» إلا أن هذا الخان الجديد لم يلبث أن توفي عام ٨٠٢، فأقام «أيدكو» مكانه ابنه «شادي بك»، ويبدو أن «توقتاميش» كان قد اختفى هذه المدة، ثم ظهر ونازع «شادي بك» السلطة.

لقد هدّم تيمورلنك مدينة «سراي»، ومدينة «استراخان» قبل مغادرته،

= والعراق بيد السلطان أحمد، وكردستان وشمال العراق بيد السلطان بايزيد، ثم إن بايزيد قد سقط في يد أخيه عام ٧٨٥، ثم جاء تيمورلنك واستولى على المنطقة عام ٧٨٦، وبعد ذلك رجع تيمورلنك إلى سمرقند.

ثم سار نحو الغرب، وخاف الروس عندما اجتاز نهر الدون متجهاً نحو الغرب إلا أنه عاد فعدل سيره، ورجع إلى بلاد القوقاز، وتغلّب على بلاد الكرج، ومات ابنه شيخ عمر في بلاد القوقاز، وتابع تيمورلنك سيره من شمال بلاد فارس إلى سمرقند حيث أخذ قسطاً من الراحة.

وفي عام ٧٩٠ توفي الخان سيورغتمش من أسرة أوغطاي والذي نصّبه تيمورلنك، فعيّن مكانه ابنه محمود فبقي حتى عام ٨٠٠، وجعل تيمورلنك نفسه وزيراً له، كما كان الأمير مع والده سيروغتمش.

بعد أن رجع تيمورلنك إلى سمرقند عاد آل مظفر في فارس إلى حكمها واستولى منصور شاه على أصفهان، وقبض على مجاهد الدين علي زين العابدين فسار تيمورلنك عام ٧٩٥ إلى جهة الغرب ومعه ابنه شاه رخ، وقد انتصر تيمورلنك، وأرسل ابنه شاه رخ يتعقب منصور شاه، وقد تمكّن من قتله. وسار تيمورلنك بعدها إلى بغداد واستطاع أن يدخلها في العام نفسه ٧٩٥، وقد فرّ منها صاحبها السلطان أحمد بن أويس، واتجه إلى مصر، فأقام تيمورلنك في بغداد والياً من قبله.

واتجه تيمورلنك إلى الموصل ومنها إلى أذربيجان[١] فدخلها، وكانت تحت إمرة قره يوسف، وبعد انتصاره هذا رجع إلى سمرقند ليأخذ شيئاً من الراحة، وما أن رجع حتى عاد السلطان أحمد بن أويس إلى بغداد وعاد قره يوسف إلى تبريز، واتفقا على أن يعلن كل منهما استقلاله عن الدولة التيمورية. وكان تيمورلنك قد أرسل رسلاً إلى السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق فقتل السلطان الرسل، وسار إلى بغداد فأخرج منها التتار، وأعاد السلطان أحمد بن أويس.

---

(١) كانت تحكم أذربيجان أسرة قرة قيونلي، وهي أسرة تركمانية الأصل، دخل جدهم بيرام خواجه في خدمة الشيخ أويس الجلائري، فلما مات الشيخ أويس عام ٧٧٦ استولى بيرام خواجه على الموصل، وقد توفي عام ٧٨٢ فخلفه ابنه فدخل في خدمة السلطان أحمد بن أويس، وقد قُتل عام ٧٩٢، وقام مكانه ابنه قره يوسف، فجمع الموصل وتبريز إليه حتى غلبه تيمورلنك عام ٧٩٥، فغادر المنطقة، ولما عاد تيمورلنك إلى سمرقند رجع قره يوسف إلى منطقته وبقي فيها حتى رجع تيمورلنك مرة أخرى.

اتجه تيمورلنك إلى شمالي الهند عام ٨٠٠، وسيطر على دهلي وكشمير عام ٨٠١، وكان طريقه عبر ممر خيبر، وقد تصدّى له السلطان محمود فهزمه، ودخل البلاد، فأقام فيها حكاماً من قبله، وعاد عام ٨٠٢ إلى سمرقند فقضى فيها بعض الراحة.

عاد تيمورلنك فاتجه نحو الغرب عام ٨٠٢، فاستولى على أذربيجان ففرّ منها قره يوسف، كما فرّ من بغداد السلطان أحمد بن أويس، واتجها نحو السلطان العثماني بايزيد، وأخذا في طريقهما مدينة أرزنجان من أميرها الموالي لتيمورلنك. ووصل تيمورلنك إلى القوقاز، وأدّب بلاد الكرج الذين كانوا قد ثاروا على عامله عليهم، واتجه نحو السلطان العثماني عن طريق أرضروم، ودخل سيواس عام ٨٠٣، وفر حاكمها، وقاومه أربعة آلاف أرضي فجمعهم في خندق وردم التراب فوقهم، وسار إلى ملاطية فخربها، كما خرب سيواس من قبل، وهكذا دان له القسم الشرقي من الأناضول.

اتجه تيمورلنك إلى حلب ومنها إلى دمشق فدخلها، ثم رجع إلى حلب، ومنها اتجه إلى بغداد فدخلها ثانيةً عام ٨٠٤، وارتحل بعدها إلى تبريز فجعلها قاعدته الحربية. وفي أثناء احتلاله لبلاد الشام عام ٨٠٤ انقاد له سلطان المماليك فرج ناصر الدين بن الظاهر برقوق، فدفع له أتاوةً، وخطب باسمه.

اتجه تيمورلنك نحو الأناضول، ووصل الخبر إلى السلطان العثماني بايزيد ففكّ الحصار عن مدينة القسطنطينية، ووصل تيمورلنك إلى سيواس ومنها انطلق نحو أنقرة، والتقى الطرفان في معركة طاحنة في صيف عام ٨٠٥، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة العثمانيين وأسر سلطانهم وأحد أبنائه، وقتل ولدٍ آخر له، واستولى تيمورلنك بعدها على مدينة بروسة قاعدة العثمانيين، وسار بعدها إلى مدينة أزمير، وكانت بيد بقايا الصليبيين من جماعة القديس يوحنا، وكانت قد استعصت من قبل على السلطان العثماني بايزيد لمدة ست سنوات، فدخلها تيمورلنك بعد حصار دام أسبوعين

فأخلاها الصليبيون. أما السلطان أحمد بن أويس الجلائري الذي كان قد التجأ إلى السلطان العثماني فقد فرّ إلى مصر إلا أن السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق قبض عليه، وزجّه بالسجن لأنه كان قد انقاد إلى تيمورلنك، وأما قره يوسف فقد فرّ إلى جزيرة العرب، وأعاد تيمورلنك إلى أسر الطوائف أملاكها في الأناضول، وعاد بعدها إلى سمرقند.

قرر تيمورلنك غزو الصين فسار إليها على رأس جيش جرار إلا أن المنية قد وافته، وهو في طريقه إليها في مدينة «أوترار» في مطلع عام ٨٠٨، وعهد قبل موته إلى حفيده بير محمد بن غياث الدين جهانكير، كما أوصى بمتابعة السير لغزو الصين.

سار الجيش التيموري إلى الصين بقيادة حفيد تيمورلنك «أولوغ بك» بن «شاه رخ» أما حفيده الآخر بير محمد بن غياث الدين جهانكير وهو ولي عهده فقد كان في الهند، لذا فقد شذ عن تعاليم تيمورلنك حفيده الثالث خليل سلطان بن جلال الدين ميران شاه فسار إلى سمرقند ودخلها، وساعدته أمه خان زاده في ذلك، وعدّ نفسه خليفة تيمورلنك جده.

جاء بير محمد من الهند بجيشٍ نحو سمرقند فتصدّى له سلطان خليل وهزمه. وتدّخل القائد نور الدين فاستولى على سمرقند، وسجن سلطان خليل فيها، وأراد إعادة السلطة إلى بير محمد حسب وصيته تيمورلنك غير أن شاه رخ بن تيمورلنك قد جاء من هراة ودخل سمرقند وسلّم أمرها إلى ابنه أولوغ بك بعد أن عاد من الصين، أما هو فقد استقر في هراة وتبعه خراسان، ومازندران، وسجستان، وأصفهان، وشيراز وبقي حتى توفي عام ٨٥٠. ومنذ أن سيطر على سمرقند عام ٨١٢ نصّب أولاد تيمورلنك وأحفاده كل في جهة من جهات الإمبراطورية الواسعة، وهذا ما أضعف الدولة فهيأ الجو لقيام دولة الصفويين والشيبانيين.

أما أحمد بن أويس الجلائري فقد رجع إلى بغداد حاكماً عليها من قبل المماليك. كما رجع إلى أذربيجان قره يوسف وانتصر على حفيد تيمورلنك أبي بكر بن جلال الدين ميران شاه عام ٨١٠، إلا أن الخلاف قد

وقع بين هذين الجارين، أو الصديقين سابقاً، وتمكّن السلطان أحمد من احتلال أذربيجان غير أنه وقع أسيراً بيد قره يوسف عام ٨١٣ فقتله مع ولده علاء الدولة، وسيطر قره يوسف بعدها على بغداد بعد أن هزم الشاه محمود الذي حكم بعد أبيه السلطان أحمد لمدة سنة واحدة ٨١٣ ـ ٨١٤، وتوفي عام ٨٢٣ إلا أن السلطات بقيت في يد أسرته من بعده في تبريز وبغداد حتى عام ٨٧٤ حيث خلفهم الأقيونيون[1] الذين بقوا حتى جاء الصفويون عام ٩١٤.

وكذلك فإن العثمانيين قد عادت لهم قوتهم بعد وفاة تيمورلنك.

وبقيت الأسرة التيمورية تحكم بلاد ما وراء النهر، وفرغانة، وخراسان، وكابل.... حتى كانت آخر أيام السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين الذي توفي عام ٩٠٠ فأصبح أولاده يتصارعون على السلطة في بلاد ما وراء النهر فظهر جيش أوزبك الذي يقوده محمد الشيباني أحد أحفاد شوبان بن جوجي بن جنكيزخان، وقد عرف الفرع الأصلي في سيبيريا باسم «تيومن» إلا أن القسم الأكبر قد هاجر إلى بلاد ما وراء النهر، واشترك في النزاع على السلطة، وصار منه خانات في بخارى وخيوه، وقد حكم من قبل بلاد ما وراء النهر كلها.

وكان فرع من الأسرة التيمورية قد حكم الهند، وهم أحفاد ظهير الدين محمد بابر الذي توفي عام ٩٣٧، وأسس أسرة حكمت الهند قضى عليها الاستعمار الإنكليزي.

---

(١) الأقيونيون: عشيرة تركمانية هاجرت من تركستان إلى أذربيجان، واستقرت بعدئذٍ بجهات ديار بكر، وقد وافق أميرها تيمورلنك فأعطاه ولاية ديار بكر عام ٨٠٦، وبعد وفاة تيمورلنك اصطدم مع قره يوسف أمير أذربيجان ومع سلطان سيواس وانتصر عليهما، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «حسن أوزون» الذي عاصر السلطان العثماني محمد الفاتح، وقد تمكّن حسن هذا من الاستيلاء على تبريز عام ٨٧١، ثم على بغداد عام ٨٧٤، وبقيت بأيدي أسرته حتى جاء الصفويون عام ٩١٤ فدخلوا بغداد.

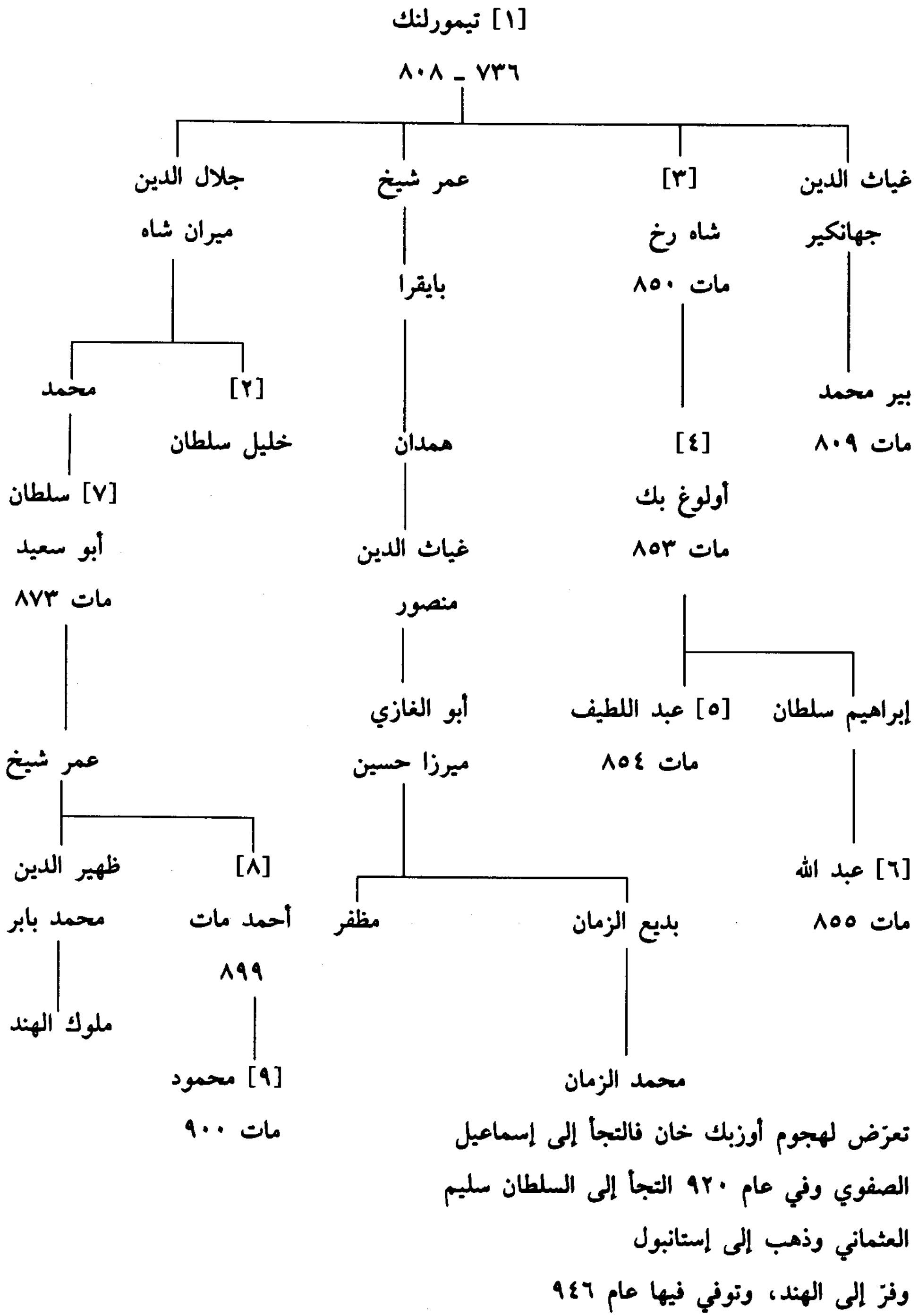

[١] تيمورلنك
٧٣٦ ـ ٨٠٨
غياث الدين
جهانكير
بير محمد
مات ٨٠٩
[٣]
شاه رخ
مات ٨٥٠
[٤]
أولوغ بك
مات ٨٥٣
إبراهيم سلطان
[٦] عبد الله
مات ٨٥٥
[٥] عبد اللطيف
مات ٨٥٤
عمر شيخ
بايقرا
همدان
غياث الدين
منصور
أبو الغازي
ميرزا حسين
بديع الزمان
محمد الزمان
مظفر
جلال الدين
ميران شاه
[٢]
خليل سلطان
محمد
[٧] سلطان
أبو سعيد
مات ٨٧٣
عمر شيخ
[٨]
أحمد مات
٨٩٩
[٩] محمود
مات ٩٠٠
ظهير الدين
محمد بابر
ملوك الهند
تعرّض لهجوم أوزبك خان فالتجأ إلى إسماعيل
الصفوي وفي عام ٩٢٠ التجأ إلى السلطان سليم
العثماني وذهب إلى إستانبول
وفرّ إلى الهند، وتوفي فيها عام ٩٤٦

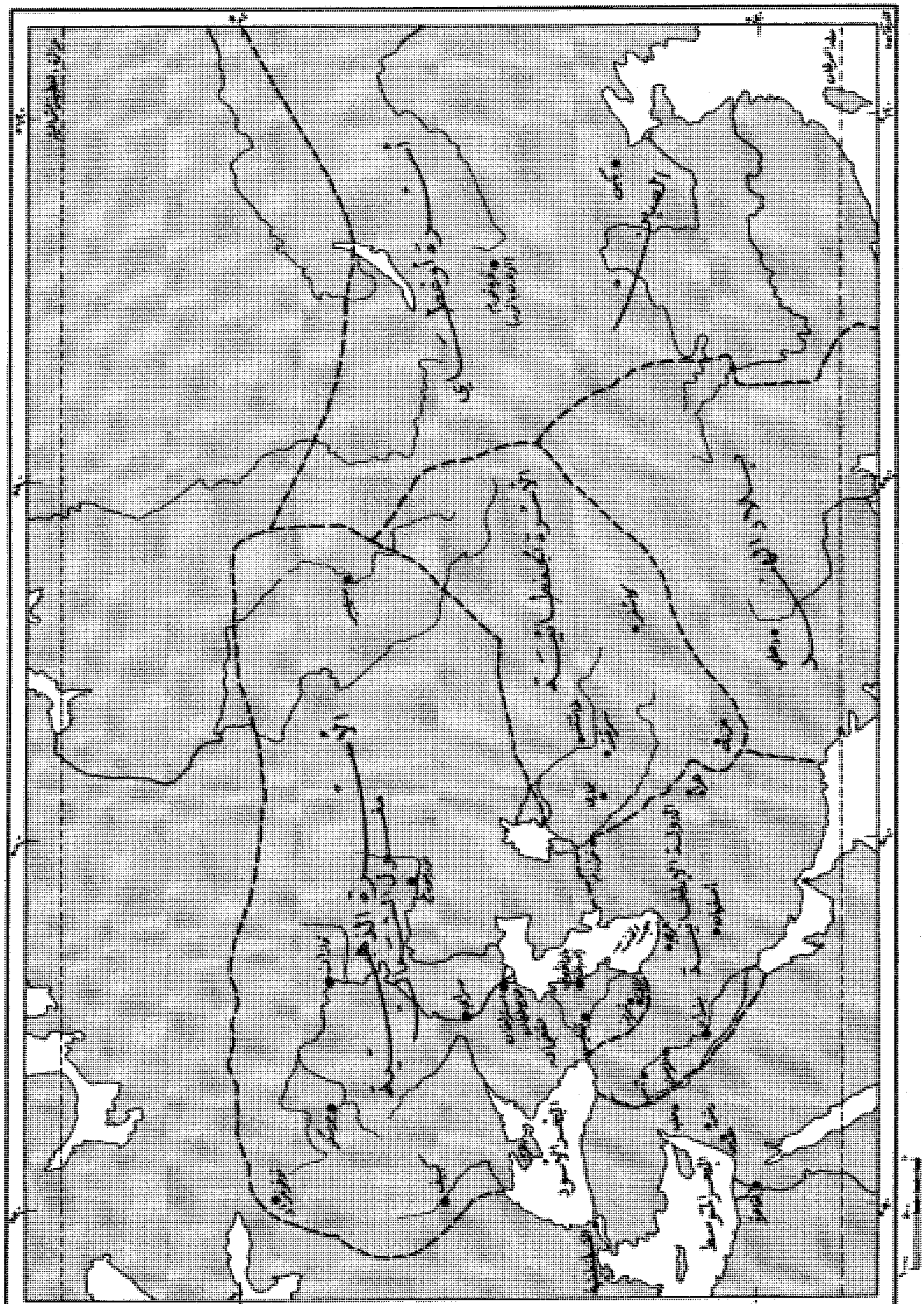

الباب الرابع

المُسْلِمُونَ في الهِنْد

٦٥٦ - ٩٢٣ هـ

الفصل الأول

المسلمون في أطراف الهند

الهند بلاد واسعة الأرجاء، كثيرة الشعوب، متباينة اللغات، مختلفة الأقاليم لذا يصعب قيام حكم مركزي فيها يجمع شعوبها المتعددة، وأجناسها المتنافرة، وأصحاب لغاتها المتشعبة إن لم يكن هذا الحكم قوياً، يغذّي هذا التنافر بالروح الإيمانية فيجمع بعضهم إلى بعض، ويضفي عليهم الإسلام عدله وسماحته فيخلد أبناؤه إلى الأمن والاستقرار، ويشعر بالطمأنينة أفراده كافةً.

وكل حكم يكون في أول أمره قوياً ثم يضعف شيئاً فشيئاً مع الدعة والخلود إلى الأرض ونسيان ما بذل في سبيل الوصول إلى السلطة وفي النهاية يزول، ولطالما شبهت حياة الدول بحياة الإنسان يبدأ المرء فتًى غضّاً ثم لا يلبث أن يشتدّ عوده ويقوى ساعده، ثم يعتريه الهرم ويحلّ به الضعف، ثم تكون الشيخوخة وأخيراً يكون الزوال مصيره.

لقد فتح المسلمون أطراف الهند، ثم دخلوا حاضرتها دهلي، واستقروا فيها، وأسسوا حكومةً قويةً فيها تمكنت من التوسع والانتشار ففتحت «بيهار» و «البنغال» من ناحية الشرق، وحكمت كوجرات من جهة الغرب، وامتد سلطانها فسيطرت على «الدكن»، واتجهت نحو «كيرالا» في أقصى الجنوب. ولم يلبث أن حلّ الضعف فيها فتعاقبت أسر على الحكم في دهلي، ومع هذا الضعف استقل الحكام في المقاطعات بسبب ضعف السلطة المركزية أو لأطماعهم، فنشأت دويلات وممالك كثيرة تنافر بعضها

مع بعض وتناحر فوقعت الصدامات فزاد ضعف المسلمين ضعفاً بسبب التشتت والتجزؤ، وتكاثر البلاء عليهم، وكانت حكومات كثيرة وأسماء ملوك متشابهة بحيث يصعب على المرء تمييزها أحياناً.

وربما كان من جملة البلاء الذي نزل بالمسلمين في بلاد الهند بل من أعظم ما نزل بهم إنما كان بسبب مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى فإن ملوكهم هناك رغم دعوتهم للإسلام، ومحاولة التمسّك به، والمحافظة عليه إلا أنهم لم يرعوا تعاليمه وتطبيقها بشكلٍ تامٍ فتركوا منها جانباً مهماً فحلّت بهم المصائب، ولا تزال تنزل بهم إلى اليوم بسبب ذلك، وهو أن المسلمين عندما يفتحون بلداً ويحكمونه ويصبحون الأقوياء فيه وأصحاب السيادة التامة لا يجبرون أهله على اعتناق عقيدةٍ معيّنةٍ بشرط أن تكون العقيدة التي يدين بها السكان الإسلام أو عقيدة أهل الكتاب وما يلحق بهم من المجوس، ولا يصح أن يكون في بلاد المسلمين ما سوى ذلك من مشركين عامة كالهنادك، والبوذيين، والكونفوشيين، والشنتويين، والوثنيين عامةً، وشرط رعاية ذمة المسلمين وعهودهم، وهي معروفة منها ألا يلجئوا إلى بلادهم عدواً للمسلمين، ولا يخفوه، ولا يسكتوا عنه، ولا يساعدوا خصوم المسلمين، ولا يدلّوا على عوراتهم، وأن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويضمن المسلمون لهم مقابل ذلك الأمن والاستقرار وهو أعزّ شيء على النفس البشرية، وحرية ممتلكاتهم ومقدساتهم القائمة، ولا يؤذونهم، غير أن المسلمين في بلاد الهند لم يفعلوا ذلك.

دخل المسلمون إلى بلاد الهند فوجدوا فيها أعداداً كبيرةً من الهنادك وهم لا يدينون بديانة أهل الكتاب ولا بديانة من يلحق بأهل الكتاب من المجوس، ولم تعتنق هذه الجماعات في الوقت نفسه الإسلام إلا بأعداد قليلة، ووقع المسلمون في حيرةٍ إذ استعظموا أعداد الهنادك الفخمة هل يهجّرونهم؟ أم يجبرونهم على الإسلام؟ أم يقتلون من يعصي؟... أسئلة كثيرة سكتوا عن الجواب عليها، وتركوا الحبل على الغارب وفي نفوسهم أن هذه الأعداد ستقبل على الإسلام مع الزمن، وكان تطبيق الإسلام هو الأولى وفيه الخير والمصلحة للطرفين ولكن...

اكتفى المسلمون بالسيطرة على البلاد والعباد، ونسوا مهمتهم الأولى في الحياة وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ورحمته و. . . خالفوا الأوامر فنزل بهم ما نزل، وأعتقد أنهم لو عرضوا على الهنادك الرحيل عن بلادهم أو الإسلام أو القتل لدخلوا في الإسلام ما دام المسلمون قاهرين لهم، وبيدهم السلطة، وعندهم الإمكانات كافةً لتنفيذ ما يريدون، ولو دخل الهنادك في الإسلام لما ارتدوا عنه ولتعمّق في نفوسهم مع الزمن وخاصة بعد أن يعرفوا تعاليمه ومنهجه، وموافقته لفطرة البشر، وبعد أن يقارنوا ما كانوا عليه من الأساطير والخرافات من عبادة البقر وتقديسه، وحرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن ظلماً وطغياناً، ثم لنشأ أبناؤهم على الإسلام، وتمسّكوا به وكنا في راحة، ولما حدث في بلاد الهند ما يحدث اليوم.

لقد ترك المسلمون أهل البلاد من الهنادك على عقيدتهم وهم الأكثرية، وهذا ما كان يُشجّع الكفّار على التمرّد والحركات، وخاصةً عندما ضعف أمر المسلمين هناك. ولكي يأمن بعض حكام المسلمين شرّ هؤلاء الكفّار كان يسمح لهم بعض الأحيان بممارسة باطلهم وكفرهم وجرائمهم مثل حرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن على عادتهم الجارية، وهو محرم عليهم، ويمنع ذبح البقر إرضاءً لهم وقد أحلّ الله ذلك، كما يسمح بالزواج من المشركات. . . ويصل الحدّ إلى أبعد من ذلك عند بعض الملوك فيسمح للهنادك بالزواج من المسلمات، لهذا كله بقي الهنادك على درجةٍ من القوة يمارسون شعائرهم الزائفة، ويتربّصون بالمسلمين الدوائر، بل ويتقرب منهم الحكام أحياناً ويقدّمونهم.

وإن تاريخ الهند في هذه الحقبة لغامض علينا لكثرة الأسر التي حكمت في مناطق متعددة ومتقاربة، ولتشابه أسماء الملوك وألقابهم من هذه الأسر، ولعدم الصلة بين مناطقنا العربية وبلاد الهند في تلك المرحلة حيث ضعفت الدولة الإسلامية وتشتت أبناؤها، واختلفت أجزاؤها، كما وهت

أواصر العقيدة بضعف الإيمان في نفوس أبناء المسلمين، هذا بالإضافة إلى العصبيات القومية التي بدأت تدخل ميدان الساحات السياسية فيما بعد فتكسبها نتناً فينأى بعضها مع بعض.

الفصل الثاني

ملوك دهلي

مُلخّص عن المُسلمين في الهِنْد قبل عام ٦٥٦هـ

الراشدون والأمويون:

سنة

١٥ ولّى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على البحرين وعُمان عثمان بن أبي العاص فولّى أخاه الحكم على البحرين، وسار إلى عُمان فوجّه جيشاً إلى الهند، ثم وجّه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى الديبل.

٢٤ ولّى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عبد الله بن عامر بن كريز على العراق، فأرسل إلى الهند حكيم بن جبلة العبدي،

٣٩ وجّه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الحارث بن مرة العبدي إلى الهند.

٤٤ غزا المهلب بن أبي صفرة أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وأرسل عبد الله بن عامر بناءً على أوامر معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، عبد الله بن سواد العبدي.

استعمل زياد بن أبيه على ثغر الهند راشد بن عمرو الجديدي الأزدي، فغزا واستشهد، فولّى زياد مكانه سنان بن سلمة، فأقام سنتين.

غزا عباد بن زياد ثغر الهند.

ولّى زياد على الهند المنذر بن الجارود العبدي، فمات هناك، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الهند ابن حري الباهلي.

ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي على الهند سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان، وقتلاه، وغلبا على الثغر، فولّى الحجاج مكانه مجاعة بن سعر التميمي، ثم أرسل مكانه محمد بن هارون بن ذراع النمري، ثم بعث الحجاج إلى الديبل غازياً عبيد الله بن نبهان، فقاتل، واستشهد، فأمر الحجاج أن يسير من عُمان بديل بن طهفة البجلي فغزا، واستشهد.

٩٢ أرسل الحجاج محمد بن القاسم ففتح السند.

٩٦ ولّى سليمان بن عبد الملك على السند يزيد بن أبي كبشة السكسكي، فلم يلبث أن توفي فاستعمل سليمان مكانه حبيب بن المهلب.

٩٩ استعمل عمر بن عبد العزيز على السند عمرو بن مسلم الباهلي.

١٠٣ استعمل يزيد بن عبد الملك على الهند هلال بن أحوز التميمي، وهرب بنو المهلب إلى السند فقتل هلال منهم: مُدرك، والمفضل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بني المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب.

١٠٧ ولّى هشام بن عبد الملك على ثغر السند الجند بن عبد الرحمن المري.

١١١ ولّى هشام بعد ذلك تميم بن زيد العتبي، ثم أرسل الحكم بن عوانة الكلبي، فاستشهد.

١٢٢ ولّى عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي فقام عليه مروان بن يزيد بن المهلب فقتله.

١٢٦ عزل يزيد بن الوليد عن الثغر عمرو بن محمد بن القاسم وولى مكانه يزيد بن عرار.

١٣٠ قام منصور بن جمهور الكلبي فقتل يزيد بن عرار، واستقل بأرض السند.

العباسيون:

١٣٢ أرسل أبو مسلم الخراساني إلى الثغر مغلس العبدي، فقاتل منصوراً غير أنه هزم، فأرسل أبو مسلم إلى السند موسى بن كعب التميمي فانتصر على منصور، وأخذ الولاية عام ١٣٤.

استخلف موسى بن كعب مكانه ابنه عيينه بن موسى فخلع الطاعة.

١٤٢ أرسل أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص بن أبي صفراء العتكي فحارب عيينه وغلب على إقليم السند، وفي أيامه دخل إلى السند عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الثغر.

١٥١ عزل المنصور عن السند عمرو بن حفص، وولّى مكانه هشام بن عمرو التغلبي، فافتتح الملتان وكشمير، وتوفي ١٥٨.

١٥٧ ولّى المنصور على السند معبد بن خليل التميمي، وتوفي ١٥٩.

١٥٩ بعث المهدي إلى السند روح بن حاتم، ثم استبدله بسطام بن عمرو التغلبي، ثم عزله.

١٦١ أعاد المهدي روح بن حاتم ثانيةً ثم عزله.

ولّى المهدي نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، ثم عبد الملك بن شهاب المسمعي، ثم أعاد نصر بن محمد بن الأشعث، وبقي حتى مات ١٦٤.

١٦٤ ولّى المهدي مصبح بن عمرو التغلبي ثم ليث بن طريف الكوفي.

١٧٠ عزل الرشيد الليث، وولّى مكانه سالم اليونسي مولى إسماعيل بن علي، فبقي أربع سنوات.

١٧٤ بعث الرشيد إسحاق بن سليمان الهاشمي فمات فولّى مكانه ابنه يوسف بن إسحاق، ثم عزله، وولّى طيفور بن عبد الله بن المنصور الحميري، ثم جابر بن الأشعث الطائي، ثم سعيد بن مسلم بن قتيبة، ثم عيسى بن جعفر المنصور العباسي فأناب عنه محمد بن عدي، فعزله الرشيد، وولّى عبد الرحمن، ثم أيوب بن جعفر بن سليمان.

١٨٤ ولّى الرشيد على ثغر السند بعد أن فشل الذين تولّوا هذه المهمة داود بن يزيد بن حاتم المهلبي فاستقام الأمر، وبقي حتى توفي عام ٢٠٥.

٢٠٥ ولّى المأمون بعد وفاة داود ابنه بشير بن داود فخلع الطاعة.

٢١١ أرسل المأمون إلى بشير بن داود قائداً يدعى حاجب بن صالح غير أن بشيراً قد هزمه، فعاد المأمون فأرسل غسان بن عباد الكوفي عام ٢١٣، فطلب بشير الأمان.

وخلف على الثغر بعد غسان أحد أفراد البرامكة وهو موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، وكان له أثر حسن، واستخلف بعده ابنه عمران بن موسى، ووافق المعتصم على ذلك. ووقعت الفتنة بين النزارية واليمانية، ومال عمران إلى اليمانية فقتله عمر بن عبد العزيز الهباري.

ولّى المعتصم بعد ذلك عنبسة بن إسحاق الضبي، ثم عُزل في أيام المتوكل الذي أرسل هارون بن خالد المروزي فقتل عام ٢٤٠ بسبب العصبية القبلية.

٢٤٠ وثب على حكم السند عمر بن عبد العزيز الهباري، وأطاعه الناس، فرضي عنه المتوكل وأقرّه، وقام بعده ابنه عبد الله بن عمر، ثم ولده عمر بن عبد الله بن عمر، وقد زاره المسعودي عام ٣٠٣، وأخذ الملتان يومذاك المنبه بن الأسد القرشي.

الغزنويون:

٣٦٦ تولّى سُبُكتُكين أمر غزنة فحارب ملك البنجاب وانتصر عليه.

٣٨٧ تولّى أمر غزنة محمود بن سبكتكين بعد أبيه فاشتغل في بداية الأمر في القتال في خراسان ثم اتجه نحو الهند فدخلها سبع عشرة مرة، فانتصر على ملك البنجاب قرب بيشاور عام ٣٩١، وحارب صاحب ملتان القرمطي عام ٣٩٦ وهو أبو الفتح داود بن نصير بن حميد. ودانت له أجزاء واسعة إذ كان في كل عام يغزو الهند تقريباً. وفتح سومنات على ساحل البحر عام ٤١٦.

٤٢١ توفي محمود بن سبكتكين وخلفه حسب وصيته ابنه محمد، فخرج عليه أخوه مسعود بن محمود وتسلّم الأمر.

٤٣٢ قتل مسعود، وولّي مكانه أخوه محمد، ثم إن مودود بن مسعود قتله وقام مكانه.

٤٣٥ توفي مجدود بن مسعود أمير الهند، فتمرّد ملوك الهند.

٤٤١ توفي مودود، وخلفه عمه عبد الرشيد بن محمود، فولّى على الهند نوشتكين الحاجب الكرخي فأحسن السيرة.

٤٤٤ قتل عبد الرشيد، وآل أمر غزنة إلى فرخ زاد بن مسعود.

٤٥١ تولّى أمر غزنة إبراهيم بن مسعود، وبقي حتى عام ٤٨١ حيث توفي وخلفه ولده.

٤٨١ توفي مسعود بن إبراهيم فولّى على الهند طغاتكين الحاجب، وبقي حتى عام ٥٠٨.

٥٠٨ تولّى أمر الهند أرسلان شاه بن مسعود فأمّر على الهند محمد باهليم الحاجب.

٥١٢ بهرام شاه خرج على أخيه أرسلان شاه الذي فر إلى الهند ثم عاد إلى غزنة وقتل عام ٥١٢.

٥٤٣ ملك سيف الدين الغوري غزنة ففر بهرام شاه إلى الهند، ثم عاد إلى غزنة ودخلها عام ٥٤٤، غير أن علاء الدين الغوري رجع إلى غزنة، وكان قد توفي بهرام شاه وتولى مكانه ابنه خسرو شاه ففر إلى الهند، وبقي فيها حتى توفي بمدينة لاهور عام ٥٥٥ وخلفه ولده خسرو ملك.

٥٧٢ سار شهاب الدين الغوري إلى الهند فأخذ الملتان من القرامطة.

٥٨٢ أخذ شهاب الدين لاهور من الغزنويين الذين انتهت دولتهم.

٥٨٨ انتصر شهاب الدين الغوري على الهنود، واقترب من دهلي، فأقطع ذلك لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة.

٥٨٩ دخل قطب الدين أيبك دهلي، وجعلها مقر حكمه.

٥٩٠ سار شهاب الدين إلى الهند، وانتصر على الهنود عند نهر جمنا.

٥٩٩ أخذ محمد بن بختيار الخلجي بيهار وكان نائب قطب أيبك على ما وراء نهر الغانج، واتخذ مدينة رانغبور قاعدةً له. واستولى على البنغال.

٦٠٢ توفي شهاب الدين الغوري، فأعتق قطب الدين أيبك، فجلس على كرسي المملكة في لاهور.

٦٠٧ مات قطب الدين أيبك، وتولّى مكانه ابنه آرام شاه.

استقل شمس الدين إيلتمش مملوك قطب الدين بملك مدينة دهلي.

٦٢٢ سار إيلتمش إلى البنغال وانتزعها من غياث الدين الخلجي وأمّر عليها ولده ناصر الدين محمود، وثار أهل البنغال عليه، فعاد إليها إيلتمش عام ٦٢٧ وولّى عليها أحد أمرائه وهو علاء الدين.

٦٣٣ مات إيلتمش بدهلي وخلفه ابنه ركن الدين، فقتل أخاه قطب، وثار عليه الناس لظلمه، وقتلوه بعد ٦ أشهر من حكمه.

٦٣٤ بويعت رضية بنت إيلتمش.

٦٣٨ خلعت رضية، وبويع أخوها معز الدين بن إيلتمش، وخرجت عليه أخته رضية وزوجها، فهزمهما بجهود أخيه ناصر الدين محمود.

٦٣٩ ثار الأمراء على معز الدين بن إيلتمش وقتلوه، وولّوا علاء الدين مسعود بن إيلتمش.

٦٤٤ خلع الأمراء علاء الدين مسعود، واختاروا عمه ناصر الدين محمود.

٦٦٤ توفي ناصر الدين محمود بن إيلتمش.

١" ـ أسرة بلبن
٦٦٤ ـ ٦٨٩

انتهى حكم أسرة إيلتمش في دهلي بعد أن دام مدة سبع وخمسين سنة (٦٠٧ ـ ٦٦٤) وكان آخرها ناصر الدين محمود إيلتمش الذي حكم عشرين سنة (٦٤٤ ـ ٦٦٤)، وبعد وفاته خلفه نائبه على دهلي غياث الدين بلبن الذي أسس أسرةً حاكمةً تولّت أمر دهلي مدة ربع قرن (٦٦٤ ـ ٦٨٩)، وتعاقب ملكان من هذه الأسرة على الحكم.

١ ـ غياث الدين بلبن:

تولّى الحكم بعد وفاة ناصر الدين محمود إيلتمش عام ٦٦٤، وقاتل التتار، وانتصر عليهم في كل لقاء معهم. وخلع طاعته نائبه على البنغال «طغرل» فأرسل له سريةً، ثم سار إليه بنفسه، ففر طغرل إلى التتار، فلاحقه غياث الدين، وأدركه قبل وصوله إلى الحدود وقتله.

كان غياث الدين قد عهد من بعده إلى ولده خان شهيد محمد الذي كان والياً لأبيه على بلاد السند، وكان يُقيم في مدينة «الملتان» غير أنه قتل قبل وفاة أبيه في حروبه مع التتار. فعهد غياث الدين إلى حفيده كيخسرو بعد مقتل أبيه الذي كان له الأمر، غير أن غياث الدين لم يلبث أن عدل عن حفيده إلى ولده الآخر ناصر الدين محمود الذي كان والي البنغال لأبيه.

توفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦ بعد أن حكم اثنتين وعشرين سنة، وكان ولي عهده ولده ناصر الدين محمود في بلاد البنغال فبايع الأمراء ابنه معز الدين كيقباد، فأثر ذلك في نفس ناصر الدين محمود فجمع جموعه وسار بها إلى الهند، واتجه للقائه ابنه كيقباد، وعندما التقى الجمعان عطف الأب لولده، وثارت عاطفة الأبوة عند الولد فتصالحا وسارا معاً إلى دهلي، حيث تنازل الأب لولده، وبايع الجميع معز الدين كيقباد، ورجع ناصر الدين محمود إلى البنغال حيث بقي فيها حتى توفي.

٢ ـ معز الدين كيقباد:

أصابه المرض، وعجز الأطباء عن إيجاد الدواء الشافي له، ويبس أحد شقيه، فخرج عليه نائبه جلال الدين فيروز الخلجي، وأعلن خلع الطاعة في ظاهر المدينة، فأرسل كيقباد إليه الأمراء، فكانوا ينضمون إلى خصمه عندما يصلوا إليه، ثم دخل الخلجي دهلي، وقتل كيقباد بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات وبضعة أشهر. وبموته انتهى حكم أسرة بلبن.

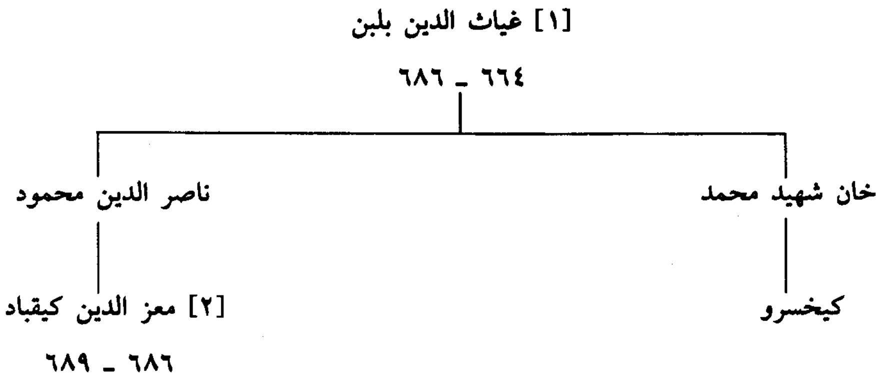

٢" ـ الخلجيون

٦٨٩ ـ ٧٢٠

حكمت هذه الأسرة مدة إحدى وثلاثين سنة (٦٨٩ ـ ٧٢٠)، وتوالى عليها أربعة ملوك.

١ ـ جلال الدين فيروز الخلجي:

كان نائب كيقباد آل بلبن على دهلي، خلع طاعته وانتصر عليه، وتسلّم مكانه عام ٦٨٩، اختلف مع ابن أخيه علاء الدين محمد شاه الذي كان نائبه على مدينة «كره» وزوج ابنته، وذلك أن الناس قد أوغروا صدره عليه فاستدعاه فرفض الحضور، فعدّه كولده وسار إليه يريد إكرامه غير أن ابن أخيه قد تجهّز له وعندما التقى به قتله عام ٦٩٦، وأخذ الحكم مكانه.

٢ ـ علاء الدين محمد شاه الخلجي:

وعندما سار علاء الدين نحو دهلي بعد قتل عمه خرج إليه ابن عمه ركن الدين غير أن عسكر ركن الدين قد انحازت إلى علاء الدين الأمر الذي جعل الهزيمة تحلّ بركن الدين ففرّ إلى بلاد السند، وبدأ علاء الدين صراعه مع التتار، فانتصر عليهم في بداية الأمر فقفلوا راجعين إلى خراسان. ثم جاء «قتلق خواجه» كبير التتار وانتصر على جيش علاء الدين عام ٦٩٧، ووصل التتار إلى ضواحي دهلي فخرج عليهم علاء الدين بنفسه مستميتاً فهزمهم، وتراجعوا إلى بلاد ما وراء النهر.

وفي عام ٦٩٧ أيضاً أرسل قوةً إلى كوجرات فدخلوها. وأرسل قوةً عام ٧٠٣ إلى الدكن فدخلت بلاد الدكن، وأحرزت انتصاراً كبيراً.

عاد التتار إلى الهند عام ٧٠٧ لكنهم هُزموا أمام علاء الدين، وكرروا الهجوم ثانيةً في العام نفسه فبعث إليهم أمير السند تغلق فانتصر عليهم.

واتجه نحو جنوبي الهند ففتح بلاد كيرالا (المعبر) وبنى فيها مسجداً.

كان لعلاء الدين عدد من الأولاد منهم: خضر، وشادي، وشهاب الدين، وأبو بكر، ومبارك خان الذي عرف باسم قطب الدين.

وعندما مرض علاء الدين، أرادت أم ولده خضر أن تملّك ابنها فاتفقت مع أخيها «سنجر» على ذلك، فأخبر علاء الدين نائبه بما تمّ، فغضب علاء الدين غضباً شديداً وقتل سنجر، وحرم ابنه خضر من الملك،

وكان خضر بعيداً عن دهلي، وقد أخذ منه الحزن كل مأخذ لما تمّ، وعندما وصل إلى دهلي قيّده أبوه، ثم أخذته عاطفة الأبوة فحزن عليه فأراد توليته، إلا أن أنصار إخوته لم يحلّوا قيده، ولم يبلغوه، وكلما سأل علاء الدين عن ابنه خضر أجابوه بقرب حضوره، ومات علاء الدين ولم ير ابنه خضراً. وكانت وفاته عام ٧١٥.

٣ ـ شهاب الدين بن علاء الدين الخلجي:

لما توفي علاء الدين أجلس نائبه على دهلي ابنه الصغير شهاب الدين، وحكم دونه، وسيطر عليه، وخوفاً من أبناء علاء الدين الآخرين فقد سجن أبا بكر وشادي وسمل أعينهما، كما أمر بسمل عيني خضر، وسجن مبارك غير أنه لم يسمل عينيه. ولا شك فإن أم الأولاد وهي ابنة معز الدين كيقباد قد جزعت جزعاً شديداً، وأغرت مملوكيها «بشير» و «مبشر» اللذين قدمهما لها علاء الدين، أغرتهما بقتل نائب السلطان فقتلاه وأخرجا مبارك خان المعروف باسم قطب الدين من السجن. فجاء إلى أخيه الصغير فجلس عنده كالنائب مدة، ثم خلعه وتسلّم الأمر دونه.

٤ ـ قطب الدين مبارك شاه الخلجي:

بعد أن خلع أخاه عام ٧١٧ جلس على كرسي الحكم، ثم أرسل أخاه المخلوع ليسجن مع إخوته الآخرين. وبعث قواته إلى غربي الدكن عام ٧١٨ فأحرزوا الانتصار، وأسسوا مسجداً في ديوكير، وسمّوها دولة أباد، ثم سارت عساكره إلى كيرالا، فحصلت على غنائم كثيرة، وسار نحو ورنكل من نواحي بومباي. وصالح أهلها على مال يؤدّونه، وعندما خرج في هذه الغزوة اتفق الأمراء على خلعه، وتولية ابن أخيه خضر، وكان هذا لا يزال غلاماً لا يتجاوز العاشرة من عمره. وعلم قطب الدين بالأمر فقتل الولد، كما أرسل من قتل أباه وأعمامه في السجن.

ناصر الدين خسروخان:

وكان من أكبر أمراء قطب الدين، فلما قتل قطب الدين إخوته وابن أخيه، خاف خسروخان على نفسه، فبدأ بقطب الدين قبل أن يبدأ به، وقتله بحيلة، وذلك عام ٧٢٠، وقام بأمر الدولة. وكان يميل إلى الهنادك لذا فإن المسلمين قد كرهوه وتمنّوا الخلاص منه. وعندما جلس على كرسي الحكم بايعه الأمراء إلا تغلق في السند فإنه أعلن خلافه، وسار إليه وقتله، ولم تزد أيام خسروخان على أربعة أشهر.

[١] جلال الدين فيروز الخلجي ٦٨٩ ـ ٦٩٦

[٢] علاء الدين محمد شاه الخلجي
٦٩٦ ـ ٧١٥

[٤] مبارك قطب الدين ٧١٧ ـ ٧٢٠ — **[٣] شهاب الدين ٧١٥ ـ ٧١٧** — **خضر** — **شادي** — **أبو بكر**

٣" ـ آل تغلق
٧٢٠ ـ ٨١٥

حكمت هذه الأسرة مدة خمس وتسعين سنة (٧٢٠ ـ ٨١٥) وتوالى على الحكم ثمانية ملوك من هذه الأسرة.

١ ـ غياث الدين تغلق شاه:

جاء غياث الدين إلى بلاد السند في أيام علاء الدين الخلجي، وكان أمير السند يومذاك أدلوخان الخلجي أخو الملك علاء الدين. فتقرّب منه غياث الدين وخدمه، فقدّمه الأمير وجعله أمير الخيل، وقد أبدى شجاعةً في قتال التتار إذ اشتبك معهم في تسع وعشرين موقعة فأعطاه الأمير لقب

الغازي، وتسلّم إمرة إحدى المدن فجعل ابنه عنده أمير خيله.

ولما قُتل قطب الدين وتولّى خسروخان أبقاه أمير خيل بلاد السند، غير أن غياث الدين تغلق لم يبال بهذا، وأعلن خلاف خسروخان، واستعان بكشلوخان أمير مدينة الملتان، ولما علم خسروخان بخلع تغلق للطاعة أرسل إليه قوةً بقيادة أخيه غير أنها هزمت أمام قوة تغلق وكشلو اللذين سارا إلى دهلي فدخلاها وخرج منها خسروخان، وتسلّم تغلق الملك ولم يختلف مع كشلو بل كل منهما كان يقدّم الآخر.

حارب غياث الدين تغلق شاه ملك البنغال الذي قتل إخوته وتمكّن آخرون منهم أن ينجوا ففروا إلى دهلي، واستنجدوا بملكها فسار إليه فهزمه، وأخذه أسيراً فحمله إلى دهلي.

وفي عام ٧٢٥ سقط عليه قصره الذي بناه له ابنه محمد من الخشب فقضى نحبه.

٢ ـ محمد شاه بن تغلق شاه:

كان اسمه جونه فتسمّى محمداً، وتكنّى بأبي المجاهد حكم سبعاً وعشرين سنة، كان فتّاكاً، متواضعاً، شجاعاً، براً، يشدّد العقوبة على ترك الصلاة، ويقتل تاركها، فتح كيرالا، وأرسل قوةً إلى بلاد الصين فهلك أفرادها في جبال هيمالايا، وتوفي عام ٧٥٢.

٣ ـ فيروزشاه بن رجب، أبو المظفر:

عندما توفي محمد شاه اتفق الأمراء على تولية ابن عمه فيروزشاه الذي كان في بلاد السند، فقدم إلى دهلي، واستقل بالملك، كان من خيار السلاطين، ومن كبار المصلحين، بنى المساجد، والمدارس، والمستشفيات، وأقام الحصون. من المساجد التي عمرها المسجد الكبير في دهلي، ومن مدارسه المدرسة الفيروزشاهية، كما أسس مدينة فيروزأباد، ومدينة كانبور، واستمر حكمه حتى عام ٧٩٠.

٤ ـ تغلق شاه بن فتح خان بن فيروزشاه:

تولّى الحكم عام ٧٩٠ بعد وفاة جدّه وحسب وصيته وقد وافق الأمراء والأعيان، ولقّب نفسه غياث الدين. اختلف مع عمه محمد شاه فهزمه، وخاف منه ابن أخيه أبو بكر بن ظفر بن فتح خان بن فيروز، فاتفق مع الأمراء على قتل عمه تغلق، وقد نفّذ ما صمّم عليه عام ٧٩١.

٥ ـ أبو بكر شاه:

تولّى الحكم بعد مقتل عمّه تغلق شاه، وكان سيئاً فكرهه الناس فطلبوا محمد شاه، فاتجه نحو دهلي فسار إليه أبو بكر، وهزمه مرتين، وخرج أبو بكر إلى ظاهر دهلي على مسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً لمنازلة محمد شاه، فدخلها الآخر من طريقٍ ثانية، فأسرع أبو بكر إليها فخرج محمد شاه منها هارباً، إلا أن كره الأمراء لأبي بكر لم يتغير فعادوا إلى طلب محمد شاه فجاء واستطاع أن يدخل دهلي، وأن يجلس على كرسي الحكم، وقاتل أبا بكر، وتمكّن من القبض عليه، وسجنه وبقي سجيناً في القلعة حتى توفي عام ٧٩٣.

٦ ـ محمد شاه:

لم تطل مدته إذ توفي عام ٧٩٦، فيكون قد حكم مدة ثلاث سنوات.

٧ ـ علاء الدين إسكندرشاه:

تولّى بعهد من أبيه، وكان اسمه همايون خان فتلّقب علاء الدين إسكندرشاه، وبقي في الحكم شهراً ونصف الشهر فقط.

٨ ـ محمود شاه:

لما توفي علاء الدين إسكندرشاه اتفق الأمراء على تنصيب أخيه

محمود، ولكنه لم يلبث أن خضع للأمراء وأصبح ألعوبة بأيديهم وأيدي الوزراء، فاستدعى الأمراء نصرة خان بن فتخ خان، ووقع القتال بين الطرفين، ينتصر هذا تارةً ثم يُهزم، ويحلّ الآخر مكانه، وبعد مدةٍ يعود الأول للحكم ويفرّ الثاني وهكذا حتى دخل تيمورلنك الهند في ١٢ محرم من عام ٨٠١، فأخذ السند والبنجاب، وسار نحو دهلي فدخلها في ١٦ جمادى الآخرة، وخرج منها محمود شاه إلى كوجرات. وبقي تيمورلنك في دهلي خمسة عشرة يوماً ثم رجع إلى البنجاب ومنها إلى خراسان، فاستقل الأمراء بالهند، ورجع محمود شاه إلى مقر حكمه، ولم يبق له سوى دهلي والبنجاب. وتوفي عام ٨١٥، وبوفاته انتهى حكم آل تغلق.

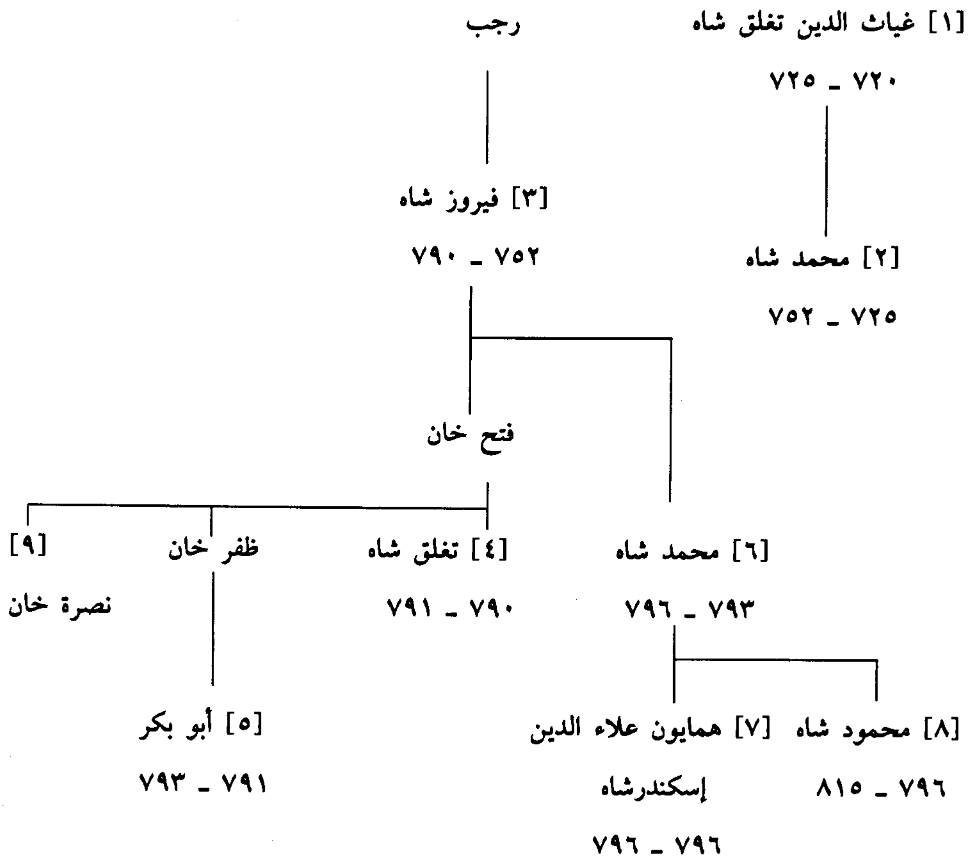

٤" ـ آل خضر

٨١٥ ـ ٨٥٥

حكمت هذه الأسرة دهلي مدة أربعين سنة (٨١٥ ـ ٨٥٥)، وقد تعاقب منها أربعة ملوك.

١" ـ خضر خان:

بن شرف الدين بن سليمان: كان جده سليمان مولى لأحد ولاة ملتان وهو «مردان» فلما مات خلفه ابنه «ملك شيخ» فلما مات عهد إلى سليمان، بحكم تلك المدينة، ومنه انتقل إلى حفيده خضر هذا في أيام فيروزشاه. ولما دخل تيمورلنك الهند عام ٨٠١ تقرّب «خضر» منه، فقويت شوكته، وأراد محمود شاه أن يستأصله فلم يقدر عليه، وخاصة أن أمر محمود شاه كان ضعيفاً بعد تيمورلنك، وينازعه نصرة خان. ولما مات محمود شاه عام ٨١٥ دخل خضر خان دهلي، وجلس على كرسي السلطة. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٨٢٤.

٢" ـ مبارك شاه:

لما توفي خضر خان اتفق الأعيان على تولية ابنه مبارك شاه، كان من خيار الملوك، عادلاً رحيماً، كريماً. قتل عام ٨٣٧، وقد حكم مدة ثلاث عشرة سنة، قتله بعض الكفرة وهو يستعد للصلاة.

٣" ـ محمد شاه:

لما قتل مبارك شاه، اهتبل ابن أخيه محمد شاه بن فريد، واستلم السلطة، وإن كان عمه قد أوصى له بذلك. وقد حكم أربع عشرة سنةً قضاها كلها في الحروب، وتوفي عام ٨٤٧.

٤" ـ علاء الدين شاه:

أوصى محمد شاه من بعده لولده علاء الدين. خرج عليه أحد كبار

الأمراء، حاكم ديبالبور، فلما خرج علاء الدين إلى بدايون دخل حاكم ديبالبور بهلول اللودي دهلي، وقبض على الخزائن، واستولى على القصور، وبايعه الناس، فأقام نائباً عنه بدهلي، وعاد إلى ديبالبور، وراسل علاء الدين، فقنع علاء الدين بما تحت يده في بدايون، وترك السلطة لبهلول، وبقي علاء الدين في موضعه حتى توفي عام ٨٥٥ فجاء بهلول بعد ذلك إلى دهلي.

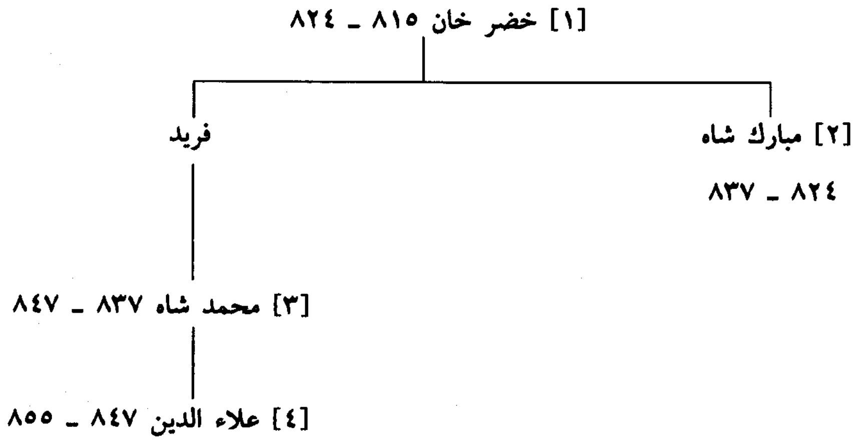

٥" ـ اللوديون
٨٥٥ ـ ٩٣٢

حكمت هذه الأسرة مدة سبع وسبعين سنة (٨٥٥ ـ ٩٣٢)، وتعاقب عليها ثلاثة ملوك، وانتهت بدخول ظهير الدين محمد بابر التيموري إلى الهند، وأسس الأسرة التيمورية التي بدأت تحكم الهند.

١" ـ بهلول بن كالا اللودي:

كان منذ أيام محمد شاه آل خضر من كبار الأمراء، وقد ولّاه ديبالبور، غير أنه خرج عليه، ولكنه هزم أمامه، فرجع إلى مقر إمارته في ديبالبور. ولما آل حكم دهلي إلى علاء الدين بن محمد شاه، ورأى الضعف بدأ ينخر بالدولة خلع الطاعة، ورحّب به الناس، قصد دهلي ونزل

بالقصر الملكي، عام ٨٥٥، وذلك بعد وفاة علاء الدين، وبقي في الحكم ثماني وثلاثين سنة (٨٥٥ ـ ٨٩٤)، وكان عادلاً، كريماً، محباً للخير.

٢" ـ نظام خان بن بهلول:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، ولقّب نفسه إسكندر، كان خيّراً كوالده، أسس المدارس وبنى المساجد، ورفع الضرائب، وأجبر الهنود أن يتعلّموا الفارسية، وأمر بترجمة علوم الهند إلى الفارسية. وتوفي عام ٩٢٣.

٣" ـ إبراهيم بن نظام خان:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، وأجمع الناس عليه، غير أنه بعد أن تسلّم الأمر بدأ يتعدّى على أمراء أبيه، فأظهروا الطاعة له وفي الوقت نفسه اتصلوا ببابر شاه التيموري في كابل، وطلبوا منه القدوم إلى دهلي ليحكمها.

جاء بابر شاه، واستولى على القلاع التي في طريقه، وانتصر على الولاة ثم التقى بإبراهيم خان الذي قابله بمائة ألف على حين لم يكن مع بابر شاه سوى خمسة عشرة ألفاً، ففرّ جنود إبراهيم، وثبت جنود التتار، فقتل إبراهيم في ساحة القتال بعد أن خذله جنده وذلك عام ٩٣٢.

[١] بهلول بن كالا اللودي

٨٥٥ ـ ٨٩٤

[٢] نظام خان

٨٩٤ ـ ٩٢٣

[٣] إبراهيم خان

٩٢٣ ـ ٩٣٢

الفصل الثالث

ملوك المقاطعات

لم تكن بلاد الهند في هذه المرحلة التاريخية ذات وحدةٍ سياسيةٍ تحكم كلها من دهلي، أو لم يكن المسلمون في الهند جميعاً، يرتبطون بسلطانٍ واحدٍ، وإنما كانوا مُتفرقين، يقوم عدد من الحكام في آنٍ واحد، على كل رقعةٍ محددةٍ يسيطر ملك، فإضافةً إلى الملك في دهلي كان ملوك آخرون في كشمير، وكوجرات، والدكن، والسند، والبنغال.

١" ـ ملوك كشمير

جاء رجل إلى كشمير من خراسان عام ٧١٥، يُدعى شاه مرزا، وخدم ملكها الوثني، ثم أصبح وزير ابنه عندما آل إليه الحكم، وأوكلت إليه مهمات كبيرة في الدولة، وأصبح له ولأبنائه إقطاعات واسعة، ووصل الحكم إلى امرأةٍ بعد هلاك زوجها، فتزوّجت شاه مرزا، وأسلمت، ثم رغبت الغدر به، فأحسّ بما تنوي له، فقبض عليها، وسجنها، واستلم أمر البلاد عام ٧٤٤، فبذل جهده في إعمار البلاد، وتحسين وسائل الزراعة، وألغى الضرائب، وأحسن إلى الناس فأحبوه، وعدل بين الرعية، وتقرّب إلى العلماء. وأسس أسرةً حاكمةً بقيت تحكم كشمير أكثر من قرنين وربع (٧٤٤ ـ ٩٧٠). ولما أحسّ بالتعب اعتزل السلطة، وانصرف إلى العبادة، وأوكل أمور السلطة إلى ابنه جمشيد عام ٧٤٧، وعاش بعدها ما يقرب من عام إذ توفي عام ٧٤٨.

ولما توفي شاه مرزا، خرج على جمشيد بن شاه مرزا أخوه علي شير، وتمكّن من بسط نفوذه فخرج جمشيد من البلاد، وحل مكانه في

السلطة أخوه علي شير فتلقّب باسم علاء الدين، وحكم ما يزيد على اثنتي عشرة سنة (٧٤٨ ـ ٧٦٠) ثم توفي.

وخلف علاء الدين أخوه «سراشامك» الذي كان يضبط أمور الدولة لأخيه علاء الدين، وتسمّى باسم شهاب الدين، وقد حارب ملوك التبت وفرض عليهم الجزية، وحكم كشمير مدة عشرين سنة (٧٦٠ ـ ٧٨٠)، وقد فتح في أثناء حكمه كثيراً من الجهات.

وأتى بعد علاء الدين أخوه قطب الدين، وكان عادلاً كريماً، وزادت مدة حكمه على خمس عشرة سنة (٧٨٠ ـ ٧٩٦). وخلفه ابنه اسكندر الذي كان له وزير براهمي فأسلم، وكسر الأصنام، ومنع البراهمة من حرق النساء اللواتي يتوفى رجالهن، ومنع بيع الخمور، وهدّم الكنائس، وشدّد على البراهمة الأمر الذي ساق عدداً كبيراً منهم إلى الإسلام، وحكم مدة اثنتين وعشرين سنة (٧٩٦ ـ ٨١٩).

وأتى بعد إسكندر ابنه علي شاه الذي اختلف مع أخيه شاهي خان الذي سار إلى البنجاب فجمع الجند، وقادهم لقتال أخيه، فانتصر عليه، وتسلّم السلطة مكانه عام ٨٢٦، فكان حكم علي شاه سبع سنوات (٨١٩ ـ ٨٢٦).

استلم شاهي خان السلطة، وتلقّب باسم زين العابدين، كان كريماً رحيماً عطوفاً على الرعية، لكن إسلامه كان ضعيفاً، فقد أعطى الحريات لسائر أهل الديانات، ومنهم البراهمة، وتقرّب إليهم فمنع ذبح البقرة، وأذن لهم بحرق النساء اللواتي يتوفى أزواجهن، وكانت هذه العادة متبعة في الأسر الشريفة، وكان يعفو عن المجرمين. وقد حرص على تشجيع وسائل الزراعة، وتعمير البلاد، وحماية الحدود، ونقلت في عهده بعض العلوم من العربية والفارسية إلى الهندية، وبقي في السلطة اثنتين وخمسين سنة (٨٢٦ ـ ٨٧٧).

عندما توفي السلطان زين العابدين خلفه ابنه (حاجي خان) الذي لقّب نفسه شاه حيدر، وقد سخط عليه الأمراء لتعاطيه الخمرة، فدبّروا مؤامرةً لخلعه، غير أنه توفي قبل أن تتمّ، ولم تزد مدة حكمه على السنة والشهرين (٨٧٧ ـ ٨٧٨). وجاء بعده ولده حسن، فبذل المال للناس، وقاتل عمه بهرام خان، وانتصر عليه، وقتله، وتوفي عام ٨٨٤.

تولّى إمرة بلاد كشمير بعد حسن شاه ابنه محمد شاه، وكان صغيراً لا

يزيد عمره على عشر سنين كثيراً، لذا كان ألعوبة بيد الأمراء، فخرج عليه ابن عم أبيه فتح خان بن آدم خان بن زين العابدين، وهزمه، فخرج محمد شاه من البلاد بعد أن حكم مدة ١٠ سنوات (٨٨٤ ـ ٨٩٤)، وغاب مدة تسع سنوات حكم في أثنائها كشمير فتح خان، ورجع محمد شاه بعد هذه المدة وقد استعد للقاء فتح خان فالتقى معه، وانتصر عليه فخرج فتح خان إلى بلاد البنجاب، وعاد محمد شاه إلى الحكم مرةً ثانيةً، لكنه لم يلبث أن جمع فتح خان قوة في بنجاب وسار إلى كشمير وأخرج محمد شاه منها، وتسلّم أمرها، ولم يمكث فتح شاه في السلطة في المرة الثانية سوى عامٍ وشهر واحدٍ. ورجع محمد شاه مرةً ثالثة إلى الحكم، وخرج فتح خان إلى البنجاب، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٢٢. غير أن أهل كشمير قد اتفقوا على مبايعة إبراهيم شاه بن محمد شاه، وسجن الأب في قلعة هناك، وسار أبدال بن إبراهيم الماكري إلى دهلي، وطلب الدعم من ظهير الدين بابر شاه التيموري فأعانه، ورجع أبدال فقاتل إبراهيم وانتصر عليه، وقُتل إبراهيم في المعركة، وعندها نصّب أبدال مكانه ابنه نازك، وكان هو مطلق اليد في أمور الحكم، ثم تغيّر رأي أبدال فخلع نازك من شؤون السلطة، وأخرج محمد شاه من السجن وسلّمه الحكم للمرة الرابعة، فبقي فيه حتى مات عام ٩٤٦، وعندما مات جاء أبدال بنازك شاه مرةً ثانية، وفي هذه الأثناء توفي أبدال، فاستبد بأمر نازك شاه رجل من الأسرة التيمورية يُعرف باسم مرزا حيدر بن محمد حسين بل أصبح هو الحاكم وذلك مدة عشر سنوات (٩٤٨ ـ ٩٥٨)، فلما قتل مرزا حيدر رجع نازك شاه للحكم مرة ثالثة، ولكن كان ضعيفاً كعادته فكان ألعوبة بيد الأمراء والوزراء، وليس له من الحكم سوى الاسم، فاتفقوا على خلعه، وتولية ابنه إبراهيم شاه، وبعد خمسة أشهر عادوا فخلعوا إبراهيم عام ٩٦٣هـ، وولّوا مكانه أخاه إسماعيل فلبث مدة سنتين (٩٦٣ ـ ٩٦٥) ثم توفي، وخلفه ابنه حبيب شاه الذي حكم خمس سنوات (٩٦٥ ـ ٩٧٠) ثم خرج عليه أحد الأمراء، وتسلّم مكانه وهو غازي شاه الكشميري، وهو من الشيعة، وقد حكم الشيعة مدة خمس وعشرين سنة (٩٧٠ ـ ٩٩٥) وجاء منها ثلاثة حكام، ثم تبعت كشمير إلى التيموريين.

[١] شمس الدين شاه مرزا

٧٤٤ ـ ٧٤٧

[٢] جمشيد

٧٤٧ ـ ٧٤٨

[٣] علي شير

«علاء الدين»

٧٤٨ ـ ٧٦٠

[٤] سراشامك

«شهاب الدين»

٧٦٠ ـ ٧٨٠

[٥] قطب الدين

٧٨٠ ـ ٧٩٦

[٦] إسكندر

٧٩٦ ـ ٨١٩

[٨] شاهي خان «زين العابدين»

٨٢٦ ـ ٨٧٧

[٧] علي شاه

٨١٩ ـ ٨٢٦

[٩] حاجي خان «حيدر»

٨٧٧ ـ ٨٧٨

بهرام خان

آدم خان

[١٠] حسن شاه

٨٧٨ ـ ٨٨٤

[١٢] فتح خان

٨٩٤ ـ ٩٠٣ المرة الأولى

٩٠٤ ـ ٩٠٥ المرة الثانية.

[١١] محمد شاه

٨٨٤ ـ ٨٩٤ المرة الأولى

٩٠٣ ـ ٩٠٤ المرة الثانية.

٩٠٥ ـ ٩١٧ المرة الثالثة.

٩١٩ ـ ٩٤٦ المرة الرابعة.

[١٣] إبراهيم شاه

٩١٧ ـ ٩١٨

[١٤] نازك شاه

٩١٨ ـ ٩١٩ المرة الأولى

٩٤٦ ـ ٩٤٨ المرة الثانية

٩٥٨ ـ ٩٦٣ المرة الثالثة.

[١٥] إبراهيم شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٣

[١٦] إسماعيل شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٥

[١٧] حبيب شاه ٩٦٥ ـ ٩٧٠

٢" ـ ملوك السند

فتح محمد بن القاسم السند عام ٩٣، وبقي الولاة من العرب يعيّنون من مركز الخلافة حتى منتصف القرن الثالث، وبعدها تمكّنت المرازبة من أسرة «سومرة» من حكم المنطقة، واستمر حكمها حوالي مائة سنة أي إلى منتصف القرن الرابع، وقامت بعدها أسرة أخرى تُعرف باسم «سمّه»، فكان حكامها يخضعون لملوك دهلي، وأحياناً أخرى يستقلون بمنطقتهم.

وعندما آل حكم غزنة إلى محمود بن سبُكتُكين وبدأ يجاهد في أرض الهند، واستمر خلفاؤه من بعده فإنما كان دخولهم إلى الهند عن طريق البنجاب الأمر الذي أبقى أسرة «سمّه» في بسط نفوذها على السند، وقد خالف حاكمها عام ٧٦٠ سلطان دهلي فيروز شاه من آل تغلق، فغزاه السلطان عام ٧٦٢ ففرّ أمير أسرة «سمّه» وهو «جام ماني» إلى كوجرات، وأعاد فيروز شاه الغزو في العام التالي (٧٦٣)، وتمكّن من دخول السند، وأسر «جام ماني» وحمله إلى دهلي، وبعد مدة أطلق سراحه، وجعله والياً من قبله على السند، ويبدو أنه قد وعد بالسير في طريق الإسلام، وحكمت هذه الأسرة مدة سبع وأربعين سنة تعاقب عليها ستة ملوك، وهم: جام ماني وحكم ١٥ سنة، وابنه جام تماجي ومدته ١٣ سنة، ثم صلاح الدين ١١ سنة، ثم ولده نظام الدين وقد حكم سنتين، ثم ولده علي شير، وحكم ست سنوات ثم ولده كران، وقد قتل في اليوم الثاني لتوليته، واختار الناس فتح خان بن الإسكندر، وهو من أسرة «ستمكان» التي حكمت السند أكثر من مائة سنة، ثم زالت عام ٩٢٧ على يد شاه بيك القندهاري، وتولّى أبناؤه الحكم، واستمروا من بعده حتى دخلت جنود أكبر شاه بن همايون البلاد عام ٩٩٥.

٣ ـ ملوك ملتان

كانت البنجاب تتبع سلاطين دهلي، فلما ضعف الحكم في دهلي بعد فيروز شاه، وبدأت حملات التتار على البنجاب، ولّى السكان عليهم

الشيخ يوسف سنة ٨٤٧، ولكن رئيس الجند الأفغانيين (رايصهره) قد احتال عليه، وقبض عليه، وسجنه، وتسلّم هو أمر الملك، ولقّب نفسه قطب الدين لنكاه، وبقي في السلطة حتى توفي عام ٨٧٤، وقد حكم ستة عشرة سنة (٨٥٨ ـ ٨٧٤)، وخلفه ابنه حسين شاه وقد طال حكمه، وتقدّمت به السن فعيّن ابنه فيروز شاه مكانه غير أن فيروز كان سيئاً فقتل مسموماً، فعيّن والده مكانه ابنه محمود بن فيروز الذي اختلف مع وزيره الذي خطب لسلطان دهلي إسكندر بن بهلول اللودي (٨٩٤ ـ ٩٢٣). ولما دخل بابرشاه التيموري دهلي عام ٩٣٢ أمر ملك السند شاه حسين القندهاري أن يضمّ إلى بلاده السند منطقة ملتان فسار إليها وفتحها عام ٩٣٢.

٤ ـ ملوك كوجرات

كوجرات شبه جزيرة تقع في غربي الهند، وأكبر مدنها الآن أحمد أباد نسبةً إلى ملكها الذي أول ما استقل بها، والذي نتكلم عنه الآن. كانت تتبع دهلي حتى عهد محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق. وقد تولى أمرها عام ٧٩٣ ظفر خان بن وجيه الدهلوي، وقد استقل عن دهلي عام ٨١٠ أيام محمود شاه آخر ملوك بني تغلق، وقد كان ظفر خان هذا حسن العقيدة، عمل مجاهداً مدة حكمه، وتوفي عام ٨١٣.

عندما توفي ظفر خان خلفه ابنه أحمد الذي أسس مدينة أحمد أباد كبرى مدن كوجرات اليوم، وطالت أيامه حتى عام ٨٤٥، فيكون عهده اثنتين وثلاثين سنة، وتولى بعده ولده غياث الدين محمد شاه، فكان جواداً، شجاعاً، وقد حكم عشر سنوات (٨٤٥ ـ ٨٥٥) مذ كان صبياً في العاشرة من عمره حتى الثامنة والعشرين، ومات ولا يزال في ريعان الشباب. وخلفه ابنه قطب الدين أحمد شاه، واستمر حكمه سبع سنوات ونصف، وقاتل الكفار، وتوفي عام ٨٦٢، وتولى ابنه داود شاه، وكان صغيراً وغير أهل للحكم، فلم يحكم سوى سبعة أيام.

[١] مظفر شاه ٨١٠ ـ ٨١٣

محمد

[٢] أحمد شاه ٨١٣ ـ ٨٤٥

[٣] غياث الدين محمد شاه ٨٤٥ ـ ٨٥٥

[٤] قطب الدين أحمد شاه ٨٥٥ ـ ٨٦٢

[٥] داود شاه ٨٦٢ ـ ٨٦٢

[٦] محمود شاه
٨٦٢ ـ ٩١٧

[٧] مظفر شاه
٩١٧ ـ ٩٣٢

[٨] إسكندر شاه
٩٣٢ ـ ٩٣٢

[٩] نصير محمود شاه
٩٣٢ ـ ٩٣٢

[١٠] بهادور شاه
٩٣٢ ـ ٩٤٣

لطيف خان

[١١] محمود شاه
٩٤٣ ـ ٩٦١

أحمد شاه ٩٦١ ـ ٩٦٩

مظفر شاه ٩٦٩ ـ ٩٨٠

مظفر شاه للمرة الثانية ٩٨١ ـ ٩٩٢

اختار الأمراء بعد عزل داود عمه محمود شاه أبا الفتح، وكان عمره خمس عشرة سنة، فأحسن السياسة، وقاتل الكفار، وفتح الحصون، فاتسعت أملاكه. واستمر حكمه خمسة وخمسين عاماً، وتوفي سنة ٩١٧. وتولّى ابنه مظفر شاه الحليم ويُكنّى أبا النصر، وكان ورعاً، كريماً، وحكم أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفي عام ٩٣٢. وخلفه ابنه إسكندر شاه، ولم يحسن السياسة فخلعه الأمراء بعد ثلاثة أشهر، وعيّنوا مكانه أخاه نصير الذي عُرف باسم محمود شاه، ثم إن عماد الملك قتل إسكندر شاه، وأصبح محمود شاه ألعوبةً بيد عماد الملك، ولم تطل الأيام سوى أربعة أشهر، إذ كان أخو محمود شاه وهو بهادور شاه في دهلي فرجع إلى كوجرات فاجتمع إليه الأمراء ففرّ عماد الملك فتبعه وقتله، وتسلّم الأمر، وأخذ الرعية بسياسةٍ حسنةٍ، وهاجمه همايون بن بابر التيموري فهُزم بهادورشاه، واتجه إلى بلاد السواحل، ثم رجع همايون إلى دهلي فعاد بهادور إلى أحمد أباد، واصطدم مع البرتغاليين وقتل عام ٩٤٣.

تولى الأمر بعد بهادور ابن أخيه محمود شاه بن لطيف خان فحكم ثماني عشرة سنة، وقام ببعض الفتوحات، وقتله أحد غلمانه عام ٩٦١.

حكم بعد محمود شاه أحد أفراد أسرة أحمد شاه واسمه رضي الملك، وحكم ثمان سنوات كان في خلالها ألعوبةً بيد الوزراء، وقد لُقّب أحمد شاه، وقتل عام ٩٦٩. ثم جاء بعده مظفر شاه وكان ضعيفاً، وآلت الدولة عام ٩٨٠ إلى التيموريين، ثم فرّ مظفر شاه من وجههم، وعاد بعد سنة إلى أحمد أباد، وسيطر على بعض المناطق، وهزم التيموريين، ولكن آل أمره إلى الضعف وانتهى بسيطرة التيموريين عام ٩٩٢.

٥ ـ ملوك جونبور

تقع جونبور بين نهر الغانج ورافده نهر غاغارا، جنوب شرقي دهلي وعلى بعد ٦٢٠ كيلومتراً منها، أو شمال غربي بنارس وعلى بعد ٦٠ كيلومتراً منها، كانت تتبع مملكة دهلي إلى زمن الملك محمود شاه آل تغلق، حيث استقل فيها خواجه جهان سرور عام ٧٩٦ أي العام الذي تولّى فيه محمود شاه السلطة.

كان سرور ناظراً عند حرم محمد شاه، ثم رقّاه إلى مرتبة وزير، ولقّبه خواجه جهان، فلما مات محمد شاه، واستلم الملك بعده ولده محمود شاه ولّى خواجه جهان سرور على جونبور، فقام بالأمر بقوة وخضع له ملوك البنغال، وإن كان يدعو لمحمود شاه ملك دهلي إلّا أنه في الواقع مستقل بأمره، وقد حكم جونبور وبيهار مدة ست سنوات وبضعة أشهر حيث توفي عام ٨٠٢هـ.

وخلف خواجه جهان سرور مولاه قرنفل الذي رباه وتعهده وعهد إليه بالسلطة من بعده، فلقّب نفسه مبارك شاه، وقطع الخطبة عن محمود شاه، وخطب لنفسه، ولم تطل أيامه فقد توفي عام ٨٠٤، فكانت مدة حكمه سنة ونصف السنة.

وتولّى أمر جونبور بعد مبارك شاه أخوه إبراهيم شاه، وقد اتجه غرباً وأراد ضمّ قنوج إليه، فصدّه عنها محمود شاه، فتركها وسار نحو دهلي، فدعم صاحب كوجرات مظفر شاه الملك محمود شاه فاضطر إبراهيم شاه أن يعود إلى جونبور. وحاول مرةً ثانيةً السير إلى دهلي أيام مبارك شاه بن خضر، ووقع القتال بينهما، ولم يفلح إبراهيم شاه في مهمته، وحكم مدة أربعين سنة كانت جونبور في عهده مدينة العلم، وهو حسن السيرة صاحب دين وخلق وعقل، وتوفي عام ٨٤٤.

خلف إبراهيم شاه ابنه محمود شاه، وحكم مدة تزيد على عشرين

سنة، وقد اصطدم مع جيرانه، وتوفي عام ٨٦٤، وقام بعده ولده محمد شاه لمدة خمسة أشهر حيث زادت تعدياته على الناس، فخلع، ونُصّب مكانه أخوه حسين شاه فبنى قلعة بنارس عام ٨٦٩، وصالح جيرانه بعد معارك بينه وبينهم، وأخذ المال منهم مقابل الصلح مثل ملك أوريسا. وسار إلى دهلي عام ٨٧٨، وملكها بهلول اللودي فأغراه بأنه يتنازل له، وهو يزيد في طمعه، حتى ألزمه على القتال، فتغلّب بهلول اللودي عليه فاضطر إلى الرجوع إلى جونبور، وحاول ثانيةً دخول دهلي، وثالثةً ورابعة وفي كل مرة يُهزم أمام بهلول، وفي المرة الأخيرة تبعه بهلول إلى جونبور فدخلها، ففرّ حسين إلى جهةٍ نائيةٍ في دولته، فأقام بهلول في جونبور ابنه باربك بن بهلول سلطاناً، وعاد إلى دهلي، وعندما تولّى أمر دهلي إسكندر بن بهلول تعقّب حسين شاه فهرب إلى البنغال، وانقرضت الدولة عام ٨٨١، وقد حكم حسين تسع عشرة سنة، وتوفي في البنغال عام ٨٩٥.

[١] خواجه جهان سرور ٧٩٦ ـ ٨٠٢

[٢] مبارك شاه قرنفل ٨٠٢ ـ ٨٠٤

[٣] إبراهيم شاه
٨٠٤ ـ ٨٤٤

[٤] محمود شاه
٨٤٤ ـ ٨٦٣

[٥] محمد شاه
٨٦٣ ـ ٨٦٣

[٦] حسين شاه
٨٦٣ ـ ٨٨١

٦ ـ ملوك البنغال

فتح البنغال عز الدين محمد بن بختيار الخلجي عام ٥٩٩ بأمر من قطب الدين أيبك، وبعد ثلاث سنوات توفي عز الدين هذا فولّى قطب الدين مكانه محمد شيران الخلجي، غير أن علي مردان أحد الأمراء قد سار إلى دهلي، وتقرّب من قطب الدين أيبك فاستعمله على البنغال فسار علي مردان وقاتل محمد شيران الذي فرّ، وانتهى أمره، وضبط علي مردان المنطقة، ولما مات قطب الدين عام ٦٠٧ استقل علي مردان في بلاد البنغال، وتلقّب باسم علاء الدين، ولكنه لم يلبث أن توفي عام ٦٠٩، واتفق أهل البنغال على عوض بن الحسين الخلجي، ولقّب نفسه غياث الدين، ووقع الصدام بينه وبين ملك دهلي شمس الدين إيلتمش الذي بعث الجيش إثر الجيش إلى البنغال، واتفقا على الصلح عام ٦٢٢ بعد أن سار بنفسه شمس الدين إيلتمش إلى جهة البنغال، وتمكّن من أخذ بيهار، ولم تمض غير مدةٍ قصيرةٍ حتى عاد الاختلاف، فبعث إيلتمش ولده ناصر الدين محمود عام ٦٢٤ فاستطاع أن يهزم غياث الدين، وأن يقتله، وأن يحتل البنغال. وتولّى أمرها لأبيه، وهكذا عادت البنغال تتبع دهلي.

توفي ناصر الدين محمود عام ٦٢٦، فسار شمس الدين إيلتمش إلى البنغال، وأصلح أمورها، وولّى عليها علاء الدين خان الذي عرف باسم عزة الملك، وبقي حتى عام ٦٣٠، ثم جاء سيف الدين الترك حتى عام ٦٣٣، ثم عز الدين طغان خان، وبقي حتى عام ٦٤٦، وكان قد توفي شمس الدين إيلتمش عام ٦٣٣.

جاء التتار إلى البنغال عن طريق التبت عام ٦٤٦، فأرسل ملك دهلي علاء الدين مسعود جيشاً لقتال التتار بإمرة قره تيمور خان فانتصر على التتار، وأخرجهم من البلاد، وتولّى حكم البنغال حتى عام ٦٥٦، وخلفه عليها جلال الدين خان الذي عُزل بعد سنة، وحلّ مكانه أرسلان خان، ثم ابنه تاتار الذي بقي حتى عام ٦٦٤، وتسلّم الولاية بعد ذلك طغرل الذي خلع طاعة ملك دهلي علي غياث الدين بلبن، ولقب نفسه عام ٦٧٨ مغيث الدين وعادت البنغال لتنفصل عن دهلي مرة أخرى.

بعث غياث الدين بلبن جيشاً إلى البنغال بإمرة البتكين غير أنه هُزم، فسار بلبن بنفسه، وتمكّن من دخول البنغال، فولّى عليها ابنه ناصر الدين محمود المعروف باسم بغراخان. وتوفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦، وعهد من بعده لحفيده معز الدين وهو ولد ناصر الدين محمود فتأثر الأب وسار إلى ابنه والتقيا غير أنهما قد تصالحا، وتنازل ناصر الدين محمود لابنه معز الدين، وعاد إلى البنغال، وبقي حاكماً لها حتى عام ٦٩١ حيث توفي، وخلفه ابنه ركن الدين وبقي حتى عام ٧٠٢ فخلفه أخوه شمس الدين واستمر في ولايته حتى عام ٧٢٢، وتولّى مكانه ابنه شهاب الدين، وخرج عليه أخوه غياث الدين، وانتصر عليه، فسار شهاب الدين إلى دهلي، واستنجد بغياث الدين تغلق ملك دهلي فأنجده، وأعاده إلى ولاية البنغال مكان أخيه الذي حُمل أسيراً إلى دهلي. ولما توفي غياث الدين تغلق وقام مكانه ابنه محمد شاه عام ٧٢٥ أطلق سراح غياث الدين فعاد إلى البنغال ونقض عهد محمد شاه فقاتله، وقتل غياث الدين، فولى محمد شاه مكانه على البنغال تاتار الذي قتله الجند، وبدأت ولاية البنغال تتجزأ.

استطاع الحاج إلياس الذي تلقّب باسم شمس الدين أن يسيطر على المنطقة وما انفصل عنها، والتقى مع ملك دهلي فيروز شاه، فانهزم، والتجأ إلى بعض القلاع، فلما عاد فيروز شاه إلى دهلي، رجع شمس الدين إلى مقره وراسل فيروز شاه وبعث له الهدايا، وتوفي شمس الدين عام ٧٥٩ بعد أن حكم ست عشر سنة، وتولّى مكانه ابنه إسكندر شاه فبقي على مودته لفيروز شاه، وبقي في الحكم تسع سنوات، وخلفه ابنه غياث الدين لمدة سبع سنوات، وكان من أفاضل الملوك وتوفي عام ٧٧٥، وخلفه ابنه سيف الدين، ولقب نفسه سلطان السلاطين وتوفي عام ٧٨٥، وخلفه ابنه شمس الدين، وكان ضعيفاً فغلب عليه أحد أمرائه من الوثنيين، ولم يبق سوى سنتين، فاستقل الأمير الوثني بالحكم، وخلفه ابنه الذي أعلن إسلامه وتسمّى باسم جلال الدين وتوفي ٨١٢ بعد أن حكم سبع عشرة سنة، وتولى مكانه ابنه أحمد شاه حتى توفي عام ٨٣٠.

خلف أحمد شاه ناصر الدين شاه وهو من أسرةٍ ثانيةٍ وبقي مدة ٣٢ سنة حيث توفي عام ٨٦٢، وقام مكانه ابنه باربك شاه حتى ٨٧٩، وخلفه ابنه يوسف شاه حتى ٨٨٧، وكان من خيار السلاطين ثم حكم ابنه فتح شاه، وكان صالحاً فقتله الأحباش الذين كانوا متسلطين على الحكم وذلك عام ٨٩٦.

تولّى حكم البنغال بعد فتح شاه قاتله باربك وهو عبد حبشي، ولم يدم له الأمر سوى ثمانية أشهر حيث قتله عبد حبشي آخر اسمه «انديل» ولقّب نفسه فيروز شاه وقد بقي حتى توفي عام ٨٩٩، وخلفه ابنه محمود شاه، وقتله بدر الحبشي وتسلّم السلطة لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة، وتسمّى باسم مظفر شاه، وقتله وزيره حسين بن أشرف الحسيني المكي الذي تسلّم الأمر مكانه وتسمّى باسم علاء الدين، وقد توفي عام ٩٢٧، وخلفه ابنه نصرة الذي توفي عام ٩٤٣. وتولّى مكانه ولده محمود شاه، وخرج عليه شيرشاه السوري فأخرجه من البنغال فسار إلى دهلي واستنصر بهمايون بن بابر التيموري، فسار إليه عام ٩٤٥ وهزمه، فلما عاد همايون، ووصل إلى (أكره) رجع شير شاه السوري، واستعاد سلطته.

فتح البنغال عز الدين الخلجي عام ٥٩٩

عز الدين الخلجي	٥٩٩ ـ ٦٠٢
محمد شيران الخلجي	٦٠٢ ـ ٦٠٥
علي مردان	٦٠٥ ـ ٦٠٩
عوض بن حسين الخلجي	٦٠٩ ـ ٦٢٤
ناصر الدين محمود	٦٢٤ ـ ٦٢٦
علاء الدين خان	٦٢٦ ـ ٦٣٠
سيف الدين الترك	٦٣٠ ـ ٦٣٣
عز الدين طغان خان	٦٣٣ ـ ٦٤٦

جاء التتار عن طريق التبت

قرة تيمور خان	٦٤٦ ـ ٦٥٦
جلال الدين خان	٦٥٦ ـ ٦٥٧
أرسلان خان	٦٥٧ ـ ٦٦٠

تاتار بن أرسلان خان	٦٦٠ ـ ٦٦٤	
طغرل	٦٦٤ ـ ٦٧٩	
ناصر الدين محمود بلبن	٦٧٩ ـ ٦٩١	
ركن الدين بلبن	٦٩١ ـ ٧٠٢	
شمس الدين بلبن	٧٠٢ ـ ٧٢٢	
شهاب الدين بلبن	٧٢٢ ـ ٧٢٣	
غياث الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٣	
شهاب الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٥	
تاتار	٧٢٥ ـ ٧٢٦	
		فوضى
شمس الدين الحاج إلياس	٧٤١ ـ ٧٥٩	
إسكندر شاه	٧٥٩ ـ ٧٦٨	
غياث الدين	٧٦٨ ـ ٧٧٥	
سيف الدين	٧٧٥ ـ ٧٨٥	
شمس الدين	٧٨٥ ـ ٧٨٧	
	٨٧٧ ـ ٨٩٥	أمير وثني
جلال الدين	٧٩٥ ـ ٨١٢	أسلم
أحمد شاه	٨١٢ ـ ٨٣٠	
ناصر الدين شاه	٨٣٠ ـ ٨٦٢	
باربك شاه	٨٦٢ ـ ٨٧٩	
يوسف شاه	٨٧٩ ـ ٨٨٧	
فتح شاه	٨٨٧ ـ ٨٩٦	
باربك الحبشي	٨٩٦ ـ ٨٩٧	
فيروز شاه الحبشي	٨٩٧ ـ ٨٩٩	
محمود شاه الحبشي	٨٩٩ ـ ٩٠٠	
بدر الحبشي	٩٠٠ ـ ٩٠٤	
علاء الدين	٩٠٤ ـ ٩٢٧	
نصرة شاه	٩٢٧ ـ ٩٤٣	
محمود شاه	٩٤٣ ـ ٩٤٥	خرج عليه شير شاه السوري

٧" ـ ملوك الدكن

أقطع محمد شاه تغلق بعض قرى في الدكن إلى علاء الدين البهمني، وفرّ عدد من أمراء كوجرات من وجه محمد شاه تغلق خوفاً منه، وساروا نحو الدكن، وولّوا عليهم إسماعيل الفتح الأفغاني، وذلك بالاتفاق مع أمرائها ومنهم علاء الدين البهمني، فسار إليهم محمد شاه تغلق بجنود كثيرة، فقاتلوه وتحصّن علاء الدين بقلعته، ثم تقدّم، واحتل دولة أحمد أباد، وانتصر على جيوش دهلي، فأصبح ملك المنطقة، واعتزل إسماعيل الفتح الأفغاني أو تنازل له.

استطاع علاء الدين أن يستولي على كل ما فتحه المسلمون في الدكن، وقاتل أهل كيرالا، وأخذ منهم الأموال. وهو أول من استعمل الوثنيين والبراهميين في الأمور المالية، وتوفي عام ٧٥٩. وملك بعده ابنه محمد شاه، الذي قاتل جواره من ملوك البراهمة، وانتصر عليهم، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ابنه مجاهد شاه، قاتل البراهميين، وفي أثناء عودته قتله عمه داود عام ٧٧٩، وجلس مكانه، ولكنه قتل قصاصاً بعد شهر، واختير للملك أخوه محمود شاه، وكان رجلاً صالحاً بقي حتى توفي عام ٧٩٩، فخلفه ابنه غياث الدين، ونقم عليه أحد غلمانه الذي يُدعى «تغلقين» فسجنه، وولّى مكانه أخاه شمس الدين وكان صغيراً، وتصرّف هو بشؤون الدولة، غير أن فيروز شاه بن داود قد خرج، وقتل «تغلقين»، وسجن شمس الدين، وتسلم الأمر، وبقي حتى عام ٨٢٥، وكان عالماً كبيراً ومجاهداً شجاعاً، وفي أواخر حياته خرج عليه أخوه أحمد وتسلّم الأمر دونه، ولكنه توفي بعد استلام أخيه بعشرة أيام. وقاتل أحمد شاه البراهميين وانتصر عليهم، وأسس مدينة أحمد شاه وجعلها مقره، وتوفي عام ٨٣٨، وخلفه ابنه علاء الدين، ففتح الفتوح العظيمة، وبنى مستشفى كبيرة في أحمد أباد وتوفي عام ٨٦٢، وتولّى مكانه ابنه همايون شاه، وتوفي عام ٨٦٥ إذ لم يحكم سوى ثلاث سنوات، وخلفه ولده نظام شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة نهباً بيد الوزراء، وتوفي عام ٨٦٧ وله من العمر عشر

سنوات. وأخذ أخوه الملك من بعده، وكان صغيراً لم يتجاوز العاشرة. فاشتغل بالعلم مدةً، ثم استلم السلطة بيده وأرسل القادة إلى مختلف الجهات فدانت له، وبعد حكم عشرين سنة توفي عام ٨٨٧، ولم يتجاوز الثلاثين.

الأسرة البهمنية

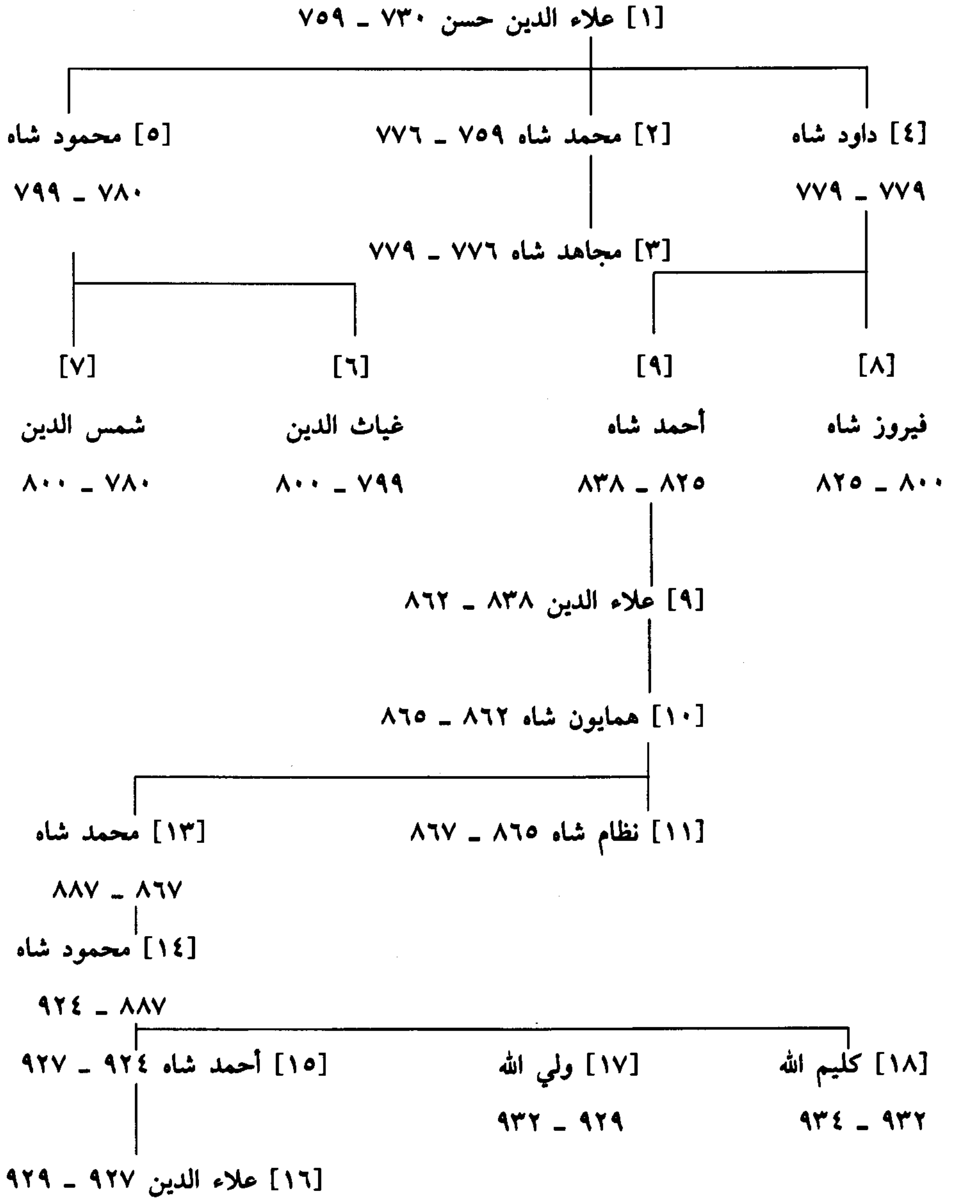

تولى محمود شاه بعد أبيه محمد شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة تُصرّف بأيدي الوزراء، وهذا ما أضعف السلطة فاستقل نظام الملك في أحمد نكر عام ٨٩٥، وعماد الملك في برار عام ٨٩٥، وعادل الملك في بيجابور في العام نفسه، واستقل قطب الملك في بلاد تلنك عام ٩١٠، ولم يبق لمحمود شاه سوى السطلة الاسمية في أحمد أباد، وبقي هكذا حتى توفي عام ٩٢٤، وتولّى مكانه ابنه أحمد شاه، وكانت السطلة الحقيقية بيد الوزراء، وتوفي عام ٩٢٧، وخلفه ولده علاء الدين، وكان حازماً فأراد أن يستعيد سلطته، وهذا ما أدى إلى عزله وسجنه، وذلك عام ٩٢٩، وعُيّن عمُّه ولي الله بن محمود شاه فسجن أيضاً بعد ثلاث سنوات، وعُيّن أخوه الآخر كليم الله بن محمود شاه، فكان ألعوبة بيد الوزراء وهو راض على ذلك، ثم غضب فانتقل إلى بيجابور، ثم إلى أحمد نكر عام ٩٣٤، وانقرض ملكه.

أ ـ ملوك خانديس

تقع خانديس في شمال الدكن إلى الغرب قليلاً، أقطع فيروز شاه ملك دهلي عام ٧٨٤ بعض تلك الجهات إلى الشيخ أحمد بن محمد العمري، فعمل مستقلاً عن دهلي وضبط الأمور بشكل جيد، وتوفي عام ٨٠١، وخلفه ابنه نصير الدين فأسس مدينة سماها برهان بور على اسم الشيخ برهان الدين الغريب، وجعلها مقر ملكه، واستمر في حكمه حتى عام ٨٤١، وقام مكانه ولده عادل خان، إلى عام ٨٤٤، ثم مبارك خان حتى عام ٨٦١، ثم عادل خان الذي قام بفتوحات واسعة، وبقي حتى عام ٩٠٧، وبوفاته اختل نظام الملك.

اتفق الأمراء بعد وفاة عادل خان على ابن أخيه غزنين خان بن داود خان وبعد أشهرٍ عادوا فخلعوا غزنين خان، ونصّبوا والده داود خان ملكاً على البلاد.

دعم بعض الأمراء عالم خان وكانت أمه ابنة سلطان كوجرات فطلبت المساعدة منه لدعم ابنها فجاء بقوة، ودخل برهان بور ونصّب ابن ابنته ملكاً ولقبه أعظم همايون عادل خان الفاروقي فقام بالأمر عام ٩١٤ فضبط الأمر وبقي حتى عام ٩٢٦، ثم خلفه ابنه محمد شاه، وهو ابن أخت بهادور شاه سلطان كوجرات، وتوفي عام ٩٤٤ وهو في طريقه إلى أحمد

أباد مقر سلطان كوجرات، فاختار الأمراء ابنه أحمد شاه، وكان طفلاً صغيراً فكفله عمه مبارك خان فاستأثر بالأمر وتسمّى مبارك شاه، وقام بفتوحات وتوفي عام ٩٧٤، وخلفه ابنه محمد شاه، وبقي عشر سنوات، وكان وزيره زين الدين هو المسيطر على شؤون الدولة، ثم تولى أخوه راجه علي خان، وبقي إحدى وعشرين سنة فقد مات عام ١٠٠٥، وولي بعده ابنه بهادور خان وفي أيامه انقرضت الدولة الفاروقية، وغدت تتبع الدولة التيمورية وذلك منذ عام ١٠٠٩هـ.

الأسرة الفاروقية:

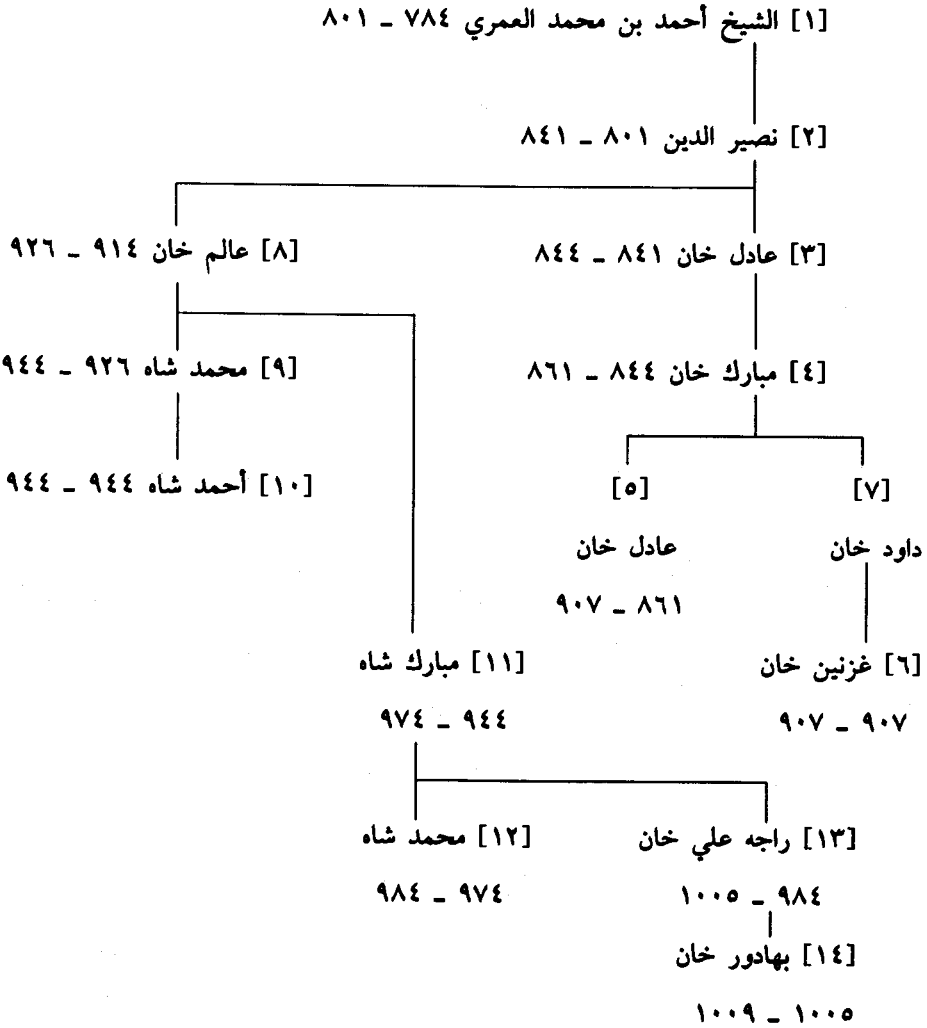

ب ـ ملوك مالوه

مالوه إقليم يقع إلى الشرق من كوجرات، كان مقره مدينة «مندو» التي اندثرت، كان هذا الإقليم يخضع لمملكة دهلي حتى أيام محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق، فأعطى ولاية هذا الإقليم إلى الحسين الغوري ولقّبه دلاور خان فضبط الإقليم، وأحسن السياسة، ولما رأى ضعف مملكة دهلي استقل بما تحت يده عام ٨٠٤، وبقي مستقلاً مدة أربع سنوات، وتوفي عام ٨٠٨.

قام بعد دلاور خان ابنه البخان، وقد لقّب نفسه هو شنغ شاه، بنى قلعة مندو، وانتقل إليها، وجعلها قاعدة حكمه، وأغار عليه مظفر شاه صاحب كوجرات فقبض عليه وسجنه مدة سنة، ثم أطلق سراحه، واستقل بالملك مدة ثلاثين سنة، فتوفي عام ٨٣٨.

وخلف هوشنغ شاه ابنه عزمين خان، وسمّى نفسه محمد شاه الغوري، فجعل الأمر بيد محمود بن المغيث الخلجي، واشتغل باللهو فقتلوه، ولم يدم حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر. وتولّى مكانه محمود شاه الخلجي، وقد ضبط الأمور، وفتح البلاد، وخضع له الجوار، وكان عادلاً، رحيماً، ملك أربعاً وثلاثين سنة وتوفي عام ٨٧٣.

وقام بعد محمود شاه ولده غياث الدين، وقد حكم ثلاثاً وثلاثين سنة، وعندما أحس بالهرم ترك الأمر لولده ناصر الدين، ثم إن الولد تضايق من أبيه ونصائحه وتوجيهاته فعزله، وقام مكانه وتوفي الوالد ٩٠٥، في الأيام الأولى من عزله لذا قيل: إنه مات مسموماً، وبقي ناصر الدين إحدى عشرة سنة، وقد أناب عمه همايون في أجمير فاستقل بها، وتوفي ناصر الدين عام ٩١٦، وخلفه ابنه محمود شاه، فأوكل أمر الوزارة إلى أحد الكفار، فكان يتظاهر بإرضاء محمود شاه، ويعمل على إبعاد المسلمين، وتعيين الكفار حتى تمكّن من الأمر، وشاع الكفر، فاضطر محمود شاه أن يلتجئ إلى مظفر شاه صاحب كوجرات، فساعده وخلّص إقليم «مالوه» من أيدي الكفار الهنادك، وأعاد محمود شاه إلى الحكم، وترك عنده ولده تاج

خان، فلما مات مظفر شاه وتولى أمر كوجرات بعده بهادور شاه استدعى أخاه تاج خان، فأبى محمود شاه فسار إليه بهادور شاه، وقاتله، وانتصر عليه، وملك البلاد، وأصبحت منطقة «مالوه» تتبع كوجرات حتى عام ٩٤١، ثم تبعت دهلي سنة ٩٦٨، ثم انتقلت إلى التيموريين.

[١] حسين الغوري دلاور خان ٨٠٤ ـ ٨٠٨

|

[٢] البخان هوشنغ خان ٨٠٨ ـ ٨٣٨

|

[٣] عزمين خان محمد شاه الغوري ٨٣٨ ـ ٨٤٠

---

[١] محمود شاه الخلجي ٨٤٠ ـ ٨٧٣

|

[٢] غياث الدين الخلجي ٨٧٣ ـ ٩٠٥

|

[٣] ناصر الدين شاه ٩٠٥ ـ ٩١٦

|

[٤] محمود شاه ٩١٦ ـ ٩٢١

جـ ـ ملوك بيجابور

بيجابور منطقة من الدكن تقع إلى الغرب منها. وقد استقلت هذه المنطقة عن الدكن عام ٨٩٥، وكان أول المستقلين عادل الملك، لذا عرفت أسرته باسم عادل شاهين، ويقال أنهم من بني عثمان، فقد أرسلت زوجة السلطان مراد العثماني ولدها مع أحد التجار خوفاً عليه، فسار به إلى الهند، وقدّمه لسلطان الدكن يومذاك وهو نظام شاه، وبقي يترقّى في المناصب حتى ولّي بيجابور فاستقل بها، واسمه الحقيقي يوسف، وبقي مدة عشرين سنة في الحكم، روّج في خلالها مذهبه الشيعي، وتوفي عام ٩١٥،

وخلفه ابنه إسماعيل إلى عام ٩٤١، ثم ابنه ملوخان غير أنه خلع بعد عدة أشهر، ثم أخوه إبراهيم الذي ترك الشيعة وغدا مسلماً، وبقي حتى عام ٩٦٥، واستمرت هذه الأسرة إلى عام ١٠٩٧.

د ـ ملوك أحمد نكر

في أثناء قتال ملوك الدكن للبراهميين أسر رجل بارز من بيجانكر في عهد أحمد شاه (٨٢٥ ـ ٨٣٨)، فأسلم هذا البراهمي على يد أحمد شاه، فأطلق عليه اسم حسن البحري، وترك الاسم الجاهلي القديم فنسي، وشعر السلطان بحسن إسلام حسن هذا فأعطاه منصباً وأخلص فزادت منزلته ولقبه محمد شاه(٨٦٧ ـ ٨٨٧) نظام الملك، ثم استوزره، وجعله أمير الأمراء، ثم صار وكيل السلطنة فأقطع ابنه أحمد القطائع، ثم قتل فاستقل ابنه أحمد بما تحت يده، ولقّب نفسه أحمد نظام شاه البحري، وأسس مدينة نكر وجعلها مركز حكمه عام ٩٠٠ وتوفي عام ٩١٤، وخلفه ابنه برهان وكان صغيراً لا يزيد عمره على السابعة فصار ألعوبة بيد الوزراء، فلما بلغ رشده أخذ الأمور بيده، واعتنق الشيعة عام ٩٤٤، ومات ٩٦١، ثم تولّى ابنه الحسين من بعده، واستمرت هذه الدولة حتى عام ١٠٤٢.

هـ ـ ملوك كلكنده وحيدر أباد

جاء في أيام محمد شاه البهمني سلطان دكن رجل يُدعى قلي الهمداني تركي الأصل، ودخل في خدمته فكان أحد غلمانه، وأحسن الخدمة، وترقّى في المناصب حتى ولّاه محمد شاه منطقة تلنكانه، ولقّبه قطب الملك فأحسن السياسة، وقاتل البراهميين، وفتح القلاع، فلما تولّى أمر الدكن محمود شاه استقل قطب الملك بما تحت يده، وجعل كلكنده مقر حكمه عام ٩١٨، واعتنق الشيعة مذهباً له، وتوفي عام ٩٥٠، وخلفه ابنه جمشيد حتى عام ٩٥٧، ثم أخوه إبراهيم، وسّع ملكه، وأحسن إلى رعاياه كثيراً، واستمر حتى عام ٩٨٩، ثم خلفه ابنه محمد قلي، فأسس مدينة حيدر أباد، وكان قد أسماها بهاكنكر باسم عشيقته، ثم لم يلبث أن غيّر اسمها إلى حيدر أباد وجعلها قاعدة ملكه، وبنى فيها القصور، ومدرسة

كبيرة، ومشفى واسعة، وحدائق غناء، وتوفي عام ١٠٢٠، وخلفه ابن أخيه محمد لمدة خمس عشرة سنة، ثم ولده عبد الله وبقي ثمان وأربعين سنة، ثم صهره تاتا شاه، وقد انقرضت الدولة في أيامه عام ١٠٩٦ نتيجة الحروب بينه وبين عالمكير.

[١] قلي الهمداني «قطب الملك».
٨٩٥ ـ ٩٥٠

[٢] جمشيد ٩٥٠ ـ ٩٥٧

[٣] إبراهيم ٩٥٧ ـ ٩٨٩

محمد

[٤] محمد قلي ٩٨٩ ـ ١٠٢٠

[٥] محمد ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥

[٦] عبد الله ١٠٣٥ ـ ١٠٨٣

[٧] تاتا شاه ١٠٨٣ ـ ١٠٩٦

و ـ ملوك برار

برار منطقة في شمالي الدكن، دخل أحد البراهميين الذين أسلموا في خدمة أمير عسكرها، فلما توفي أمير العسكر، دخل في خدمة محمد شاه البهمني سلطان الدكن، فقدّمه وولّاه على برار لمعرفته بها، ولقبه عماد الملك، فلما مات محمد شاه استقل عماد الملك بما تحت يده في برار عام ٨٩٢، وخلفه ابنه علاء الدين وتلقّب باسم عماد شاه، وقد بقي حتى عام ٩٦٧، وتولّى مكانه ابنه دريا عماد شاه، ثم ابنه برهان عماد شاه، وكان صغيراً فغلب عليه تغال خان وسجنه، واستقل بالملك فسار إليه مرتضى نظام شاه فتسلّم الأمر، وأنهى ملك الأسرة السابقة.

ملاحظة:

إن اسم قاعدة الهند اليوم (نيودلهي) هكذا أسماها المستعمرون الإنكليز بعد سيطرتهم على الهند، لكن اسمها الحقيقي (دهلي)، وقد درجت على استعمال الاسم الحقيقي لارتباطه بالتاريخ الإسلامي، وكذا نُسب إليها العلماء الذين خرجوا منها.

وتغيير المستعمرين الإنكليز للاسم إنما هو من باب قطع الحاضر عن الماضي الإسلامي.

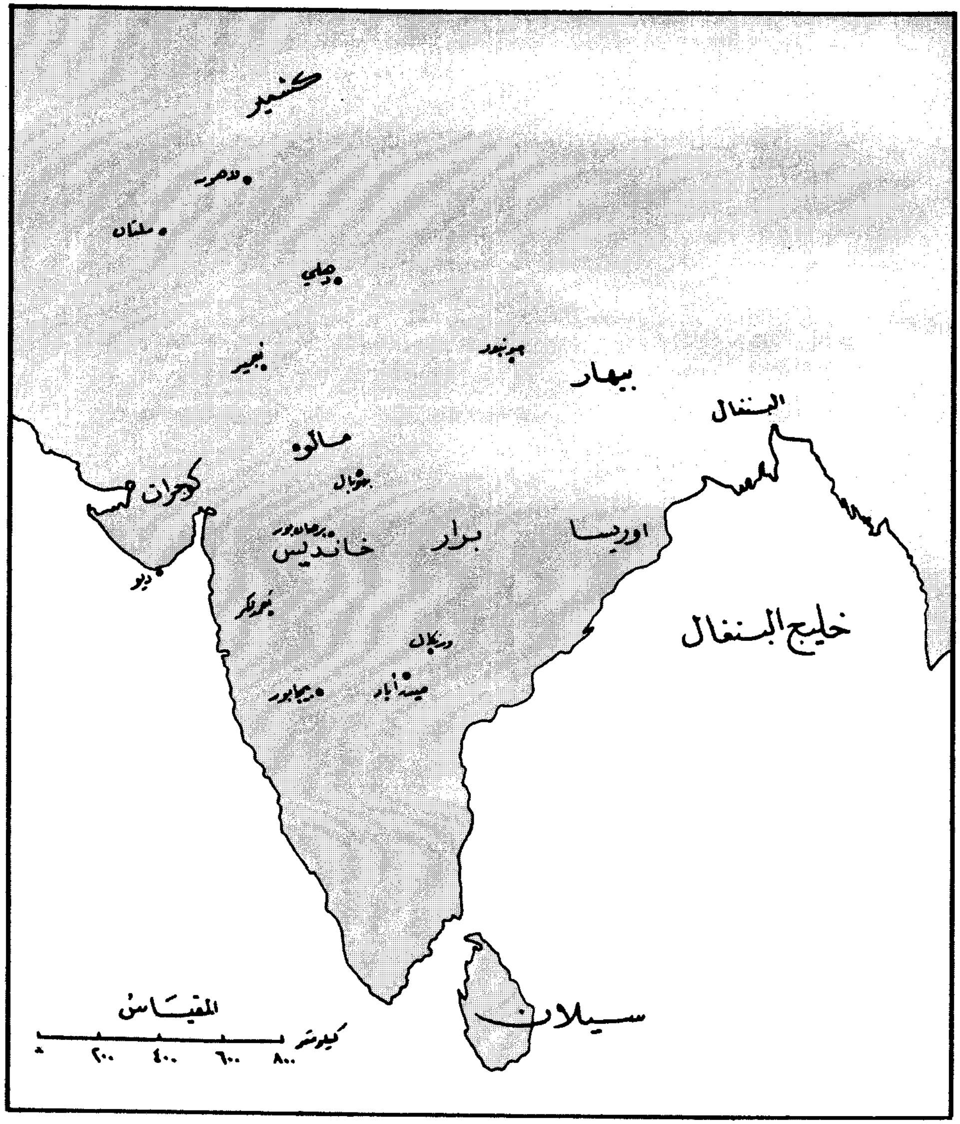
كشمير
لاهور
ملتان
دهلي
جونبور
بهار
اجمير
البنغال
مالوه
كجرات
بهوبال
برهانبور
خانديس
برار
اوريسا
ديو
احمد نكر
خليج البنغال
ورنكال
حيدر آباد
بيجابور
المقياس
كيلومتر
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
٠
سيلان

الفصل الرابع

الإسلام في الجزر وجنوب شرقي آسيا

في هذا الوقت الذي توقّفت فيه الفتوحات، وضعُفت الخلافة، وتجزّأت الدولة الإسلامية اتجه أعداد من الناس إلى التجارة، وعن طريق التجار انتشر الإسلام في المناطق التي وصلوا إليها، وتعاملوا مع أبنائها، نتيجة سلوك هؤلاء التجار الذين أكسبهم الإسلام المعاملة الطيبة فكانوا أنموذجاً جيداً لعقيدتهم التي يحملونها هذا بالإضافة إلى الفارق الكبير بين صفاء الإسلام وعلوه، وضلالات عقائد السكان الجاهليين وضعتها، ونتيجة هذا فقد ساد الإسلام جزر المالديف، وشبه جزيرة الملايو، وأندونيسيا، وجزر الفيلبيين الجنوبية.

المالديف:

وصل الإسلام إلى جزر المالديف حوالي عام ١٨٩ عن طريق التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجزر سواء كانوا يأتون من غربي الهند أم من جنوبي جزيرة العرب أم من شرقي إفريقية. وبدأ الدعاة يفدون أيضاً إلى هذه الجهات ومن أشهرهم الشيخ حافظ بن بركات البربري المغربي الذي تمكّن بفضل الله أن يؤثر على ملك البلاد البوذي وأن يدخله في الإسلام وذلك عام ٥٤٨، ومع إسلام الملك بدأ السكان كافة يعتنقون الديانة الإسلامية، ولم تمض إلا مدة بسيطة حتى غدا السكان جميعاً من المسلمين، ولكن لم يتمثّلوا الإسلام بصورةٍ جيدة، وإنما بقيت عادات جاهلية كثيرة متحكّمة في النفوس، واستمرت مدة طويلة حتى زالت، إذ

كانت تزول تدريجياً مع التعلّم على الأحكام الصحيحة.

وفي عام ٧٤٤ زار الرحالة ابن بطوطة تلك الجزر، واستقبله السكان، وفرحوا به، وقد عمل عندهم قاضياً. واستمر وضع البلاد هادئاً آمناً حتى وصل البرتغاليون إليها في حروبهم الصليبية عام ٩١٣.

الملايو:

كانت العلاقة قويةً بين شبه جزيرة الملايو وبلاد الهند وخاصةً مع سواحل الهند الغربية تلك التي انتشر فيها الإسلام في وقت مبكرٍ نتيجة التجارة مع جزيرة العرب، وكان لتجار سواحل الهند الغربية أثر واضح في انتشار الإسلام في شبه جزيرة الملايو ويبدو في انتشار مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ الذي يسود في كلتا المنطقتين على عكس بقية المناطق الأخرى.

وكذلك كانت العلاقة قوية بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطره الأندونيسية التي تمتد غرب بلاد الملايو، وقد وصل الإسلام إلى شمالي سومطرة في القرن السابع وعندما وصل الرحالة الإيطالي «ماركو بولو» إلى شمالي سومطرة عام ٦٩٢ وجد التجار المسلمين في ميناء «برلاك» في شمالي سومطرة، ومن هناك انتقل الإسلام إلى منطقة «مالاقا» في بلاد الملايو.

وربما وصل الإسلام إلى مالاقا قبل المدة التي ذكرت، فتذكر بعض الروايات أن سفينةً تجاريةً وصلت إلى مالاقا عام ٦٧٦ بقيادة أحد التجار الذي يُسمّى عبد العزيز، والذي استطاع أن يؤثر على ملك مالاقا فأسلم، وسمّى نفسه محمد شاه، وتبعه إسلام عدد كبير من شعبه، وقامت أول مملكةٍ إسلاميةٍ في مالاقا في تلك المدة، وبدأت تعمل على نشر الإسلام الذي انتشر في «باهانغ» وجنوبي بلاد الملايو.

وتذكر رواية أخرى أن الإسلام قد انتقل إلى مالاقا من شمالي

سومطرة، عندما أسلم حاكم مالاقا ليتزوج أميرةً مسلمةً من «باساي» المرفأ السومطري المعروف وذلك عام ٨٠٣، ثم أسلم بعدئذ شعب مالاقا.

وكانت السفن الإسلامية ترسو في ميناء «سري فيجايا» على ساحل شبه جزيرة الملايو الغربي، ويعدّ أكبر المرافئ يومذاك في تلك الجهات، وقد زادت أهميته عندما أُغلق مرفأ «كانتون» الصيني، بسبب الاضطرابات التي قامت في مملكة «تانك» الصينية في القرن الثالث الهجري. وإن حاكم مالاقا قد أسلم ليحصل على تأييد التجار المسلمين، وكسبهم لقدومهم إلى مرفئه.

وبعد إسلام حاكم مالاقا وانتشار الإسلام بدأت مملكة مالاقا تتعرض لتهديدات حكومة تايلند البوذية، غير أن الأمير المسلم الصيني الحاج خان المعروف باسم «تشنغ» قد زار مالاقا عام ٨٠٨، ووفر لها الحماية من تهديدات تايلند بدعم من حكومة الصين، فعاشت المملكة في أمان وطمأنينة، وتمكّنت من أن تقوم بدورها في نشر الإسلام.

وتذكر بعض الروايات أن ملك مملكة «تيماسيك» في سنغافورة قد فرّ من بلاده عندما احتلتها جيوش مملكة «ماجا باهيت» التي مقرها في جاوه، والتجأ إلى مالاقا مع ألف وخمسمائة رجل من أعوانه عام ٨١٧، وهناك اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم «إسكندر شاه»، واستطاع أن يصل إلى الحكم.

وعلى مختلف الروايات فإن الإسلام قد عمّ في مملكة مالاقا مع مطلع القرن التاسع الهجري، ومنها انتشر إلى باقي جهات شبه جزيرة الملايو. وقد تأسست مملكة في مالاقا تعاقب عليها سبعة ملوك، كان أشهرهم الأمير «منصور باشا» الذي كان حكمه (٨٦١ ـ ٨٨١)، والذي اجتاحت جيوشه شبه جزيرة الملايو كلها، ووصلت إلى حدود بورما من جهة الشمال، وإلى أواسط جزيرة سومطرة من جهة الجنوب والغرب.

وقد استعملت الحروف العربية في عهد هذه المملكة، وساد الأمن،

وقامت إمارات أخرى في «قدح» و «بيرق» و «باهانغ» و «جوهور» وغيرها.

وتعرّضت مالاقا للغزو الصليبي في بداية القرن العاشر، إذ وصل البرتغاليون إليها عام ٩١٧، وألقوا الحصار عليها، فعجزوا عن اقتحامها، ثم أعادوا الحصار، وقد ألقى كبيرهم «البوكرك» خطاباً قبل هجومه الثاني جاء فيه «الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة، إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة... وستنهار بعدها مكة»[١].

وتمكّن «البوكرك» من دخول مالاقا فاهتزّت أوربا طرباً، واستدعى ذلك إلى إقامة قداس شكر عام ٩٢١، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو «كاميلو بورتيون» وأمام ليو العاشر: إن هذا سيسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة، واتهم سلطان مالاقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس[٢].

وجاءت النصرانية مع البرتغاليين إلا أن المعاملة السيئة التي لقيها أهل البلاد من أتباع النصرانية، والحقد الصليبي، وارتباط ذلك بالأجانب قد جعل الناس يقومون بردّ فعل ضدهم، ويتجهون نحو الإسلام بشكلٍ أفضل وأوسع.

ومع سقوط مالاقا بأيدي البرتغاليين عاد مقر التجارة والدعوة إلى شمالي سومطرة إذ نشط مركز «آتشيه».

أندونيسيا:

بدأ الإسلام ينتشر في جزر أندونيسيا مع توسع التجارة التي ازدهرت

---

(١) الإسلام في الشرق الأقصى تعريب الدكتور نبيل الطويل.

(٢) المرجع نفسه.

بعد توقّف الفتوحات وربما كان القرن الثالث هو القرن الذي ظهر فيه أثر المسلمين هناك مع كثرة عددهم، وإن كانت تحدد نهاية القرن السابع لحكم المسلمين لبعض جهات شمالي جزيرة سومطرة، مع أن كتب تاريخ الملايو توقّت عام ٦٠٢ لتسلم أول ملك مسلم حكم مملكة «آتشيه» في شمالي جزيرة سومطرة. ويقول الرحالة الإيطالي الذي زار المنطقة عام ٦٩٢ وهو «ماركو بولو»: (إن جميع سكان البلاد عبدة أوثان اللهم إلا في مملكة «برلاك» الصغيرة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر). ولا شك فإن سكان المدن هم الذين يحكمون المنطقة، وليس غريباً أن تكون المملكة مسلمة، ولا يزال في الغابات الكائنة في المرتفعات قبائل وثنية تأكل لحوم البشر.

وعندما وصل ابن بطوطة إلى المنطقة بعد نصف قرن تقريباً من ماركو بولو وجد الملك مسلماً ورعاياه كذلك، وقد وصف الملك ومشيه إلى الصلاة ورعاياه و. . . .

ويبدو أن المسلمين عندما زاد عددهم في النصف الأول من القرن السابع أسسوا بعض الممالك مثل «آتشيه» و «باساي» و «برلاك». ومن سومطرة الشمالية انتقل الإسلام إلى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة، وإلى جاوه عن طريق الدعوة ومن أشهر الدعاة في جزيرة جاوه الشيخ إبراهيم الذي يعرف باسم الملك إبراهيم والذي توفي عام ٨٢٢هـ.

ومن الجزيرتين الكبيرتين «سومطرة» و «جاوه» انتقل الإسلام إلى باقي الجزر الأندونيسية فقد أسس شعب «بنغرماسين» مملكة في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة بورنيو، وعندما وصل الإسبان إلى تلك الجزيرة عام ٩٢٧ وجدوا ملك بروني مسلماً. ونستطيع أن نقول: إن الإسلام انتشر في القرن العاشر في باقي الجزر الأندونيسية، وخاصةً بعد أن سيطر البرتغاليون على مالاقا عام ٩١٧ اضطر المسلمون إلى تغيير الطريق من مالاقا إلى غربي سومطرة حيث يمر من مضيق الصوند بين جاوه وسومطره، وبهذا التغيير بدأ الإسلام ينتشر في بقية الجزر.

ومع اتساع رقعة الجزر الأندونيسية، وكثرة عددها، وانفصال بعضها عن بعض لذا فقد قام عدد من الإمارات فيها، منها:

١ ـ مملكة سومطرة التي زارها ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن الهجري.

٢ ـ مملكة بنتام في غربي جاوه: وقد أسسها السلطان حسن الدين عام ٩٧٦.

٣ ـ مملكة ديماك: وقامت في وسط جاوه، وأسسها رمضان فاطمي ٨٣٢.

ونستطيع أن نقول: إن القرن العاشر لم يكد ينتصف حتى كان الإسلام قد عمّ الجزر الأندونيسية، وإن كان الهنود من بقايا إمبراطورية ماجا فاهيت قد تجمعوا في جزيرة «بالي» الصغيرة.

جنوبي الفيليبين:

وصل الإسلام إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم الفيليبين عن طريق التجارة التي كانت تتم عن طريق الملايو وأندونيسيا، وربما كان وصول أوائل المسلمين إلى تلك الجهات يعود إلى عام ٢٧٠، ولما وجدوا الأرض بكراً وصالحة للدعوة بدأ الدعاة يفدون إليها، ثم انتقلوا إلى الجزر الوسطى من القرن الخامس، وبُني أول مسجد في جزر صولو عام ٦٧٩، وازداد إقبال الناس على الإسلام ورافق ذلك زيادة في قدوم الدعاة، وكان الدعاة والتجار عرباً، وهنوداً، وماليزيين، وأندونيسيين، ولم يأت القرن العاشر حتى كانت الجزر كلها تحت سيطرة إمارات مسلمة أشهرها في الشمال إمارة (رجا سليمان) التي كانت قاعدتها في مانيلا عاصمة البلاد الحالية، وهذا رغم قلة أعداد المسلمين في الشمال، أما في الجنوب فكان الحكام المحليون من المسلمين أيضاً، ويتبعون سلطنة «صولو».

في هذا الوقت وصل ماجلان كطليعة للغزو الصليبي، وقد عرض على السكان الديانة النصرانية فرفضوا منه ذلك فأراد أن يخضعهم بالقوة مستفيداً من أسلحة حديثة يمتلكها فالتقى معهم في معركة كان أول صريع فيها. وهكذا بدأ عهد جديد في البلاد ظاهره استعمار اقتصادي وحقيقته غزو صليبي.

الباب الخامس

المغرب والأندلس وغربي إفريقية

منذ أن فتح المسلمون الأندلس عام ٩٢ وهم وجهاً لوجه مع النصارى الإسبان بل مع نصارى أوروبا الذين يرغبون في استعادة ما فقدوه لا نستثني من ذلك بلاد المغرب وربما نتجاوز ذلك إلى مصر وبلاد الشام والمناطق التي كانت في حوزة الرومان يومذاك وقبله، بل ربما الحقد الصليبي الذي تحمله الكنيسة أو يرفع شعاره البابا كان يؤجج ذلك العداء. وكانت بلاد الأندلس هي أقرب المناطق لذلك الصراع لقربها من أوروبا أو لبعدها عن قلب بلاد الإسلام، ووقوعها على هامش تلك البلاد، وربما للصراع الذي كان يحدث على أرضها بين القبائل حسب أصولها، وبين الجماعات حسب أماكن قدومهم.

وإذا كانت الصليبية قد سكنت في المرحلة الأولى لقوة المسلمين إلا أنها حرصت أن تنهض مجرد أن تلمح ضعفاً منهم، وعندما حاولت أن تضرب ضربتها لما أحسّت أن الضعف بدأ يحلّ والتفرقة قد استشرت غير أنها وجدت دعماً للمسلمين من بلاد المغرب فتراجعت واتجهت نحو نقطةٍ أخرى على سواحل البحر المتوسط في بلاد الشام، ولكنها في الوقت نفسه زادت نقمتها على مسلمي المغرب لدعم إخوانهم الأندلسيين. وفي الوقت الذي احتدم فيه القتال في بلاد الشام ومصر لم يكن أهل المغرب في منأى عنه فقد دعموا إخوانهم في المشرق بالأساطيل، وكانت سفنهم تعترض سبيل الحملات الصليبية، وهذا ما زاد من حقد الصليبيين على مسلمي المغرب.

وفشلت الحملات الصليبية على المشرق أو على بلاد الشام ومصر،

وإن أحرزت نجاحاً جزئياً في أول عهدها، وعادت الكنيسة أو البابا يحرّض ويركّز على الأندلس، وقد زادت تفرقة المسلمين وعمّ اختلافهم، كما ضعف أمرهم في المغرب، ولم تكن حالهم في بقية الجهات أفضل حالاً. وانطلق الحاقدون من بلاد أوروبا المختلفة نحو الأندلس يحملون العداء الديني بل الحقد الصليبي مشحوناً بتبريك الكنيسة وتقديس البابا والرغبة بإزالة جرثومة الكفر - حسب اصطلاحهم - والطمع بالأسلاب والغنائم، والعمل على توحيد الإمارات النصرانية الإسبانية للوقوف صفاً واحداً في وجه المسلمين. وتداعى النصارى الأوروبيون على الأندلس وبلاد المغرب من كل جهةٍ بتركيز على الأندلس والهجمات المتتالية على السواحل المغربية. أما المسلمون فمع ما يرونه من سقوط مدينة بعد أخرى في الأندلس بيد النصارى إلا أنهم لم يعتبروا أبداً ولم يرعووا بل ظلوا في قتال بعضهم بعضاً، ومنهم من يطلب عون الطاغية النصراني ضد أخيه هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا القتال الذي كان يدور بينهم لم يكن في سبيل سيطرة أحدهم للوقوف في وجه العدو بعد أن يقوى أمره، ويشتدّ ساعده، ويوحّد الإمارات المسلمة المتقاتلة، وإنما كان في سبيل حكمه وإرضاء شهوته وأطماع نفسه، وربما لو كان في الأمر شيء من مصلحة الأمة لتعلل بعضهم بهذا على الأقل، ولكن لم يحدث هذا أبداً، وإنما يفكر كل منهم في إحراز النصر على خصمه، وإرغامه على قبول الدنية، والرغبة في الحياة، وكراهية الموت، فقد أصاب المسلمين كراهية الموت، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم للموت»[1]. لذا كانت النتيجة أن سقطت الأندلس بيد النصارى، وزال عنها

---

(١) كنز العمال الجزء ١١ ص١٣٢ رقم الحديث ٣٠٩١٦، أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام رقم ٤٢٧٦.

المسلمون نهائياً، كما سيطر الإسبان والبرتغاليون على بعض الموانئ المغربية، وبدؤوا يدعمون حاكماً ضد آخر، ويضعون الشروط لمساعدة من يطلب منهم العون فيقبلها صاغراً.

ورغبت الدولة العثمانية التي وصلت إلى قوة كبيرة يومذاك أن تخفف ضغط النصارى عن المسلمين في الأندلس والمغرب فتقدّمت في أوروبا غير أن أهل الأندلس والمغرب قد وصلوا إلى درجة من الضعف لا يجدي معها تخفيف ضغط، ورأى العثمانيون الوصول إلى المغرب عن طريق البر والبحر لهذا الغرض لكن بعض الأمراء المسلمين هناك بدلاً من أن يمدوا يدهم لإخوانهم المسلمين من العثمانيين كانوا يطلبون دعم النصارى الإسبان لهم للوقوف في وجه العثمانيين ومحاربتهم.

الفصل الأول

بنو مرين في المغرب

يعود بنو مرين إلى بربر المغرب، من قبيلة زنانة، وكانت إقامتهم في بلاد القبلة، من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك الصحارى، لا يدخلون تحت حكم سلطان، ولا يؤدون ضريبةً لأحد، شغلهم الصيد والإغارة على أطراف البلاد، وعرف من رؤسائهم المخضب بن عسكر بن محمد، وقد قتل عام ٥٤٠ في بعض الحروب التي دارت بين عبد المؤمن بن علي والمرابطين، فانتقلت رئاسة القبيلة إلى ابن عمه أبي بكر بن حمامة، ومنه إلى ابنه أبي خالد محيو الذي قتل في صحراء الزاب عام ٥٩٢، ومنه إلى ولده عبد الحق الذي ولد في الزاب. ويبدو أن سنواتٍ عجافاً جاءت على مواطن هذه القبيلة فاضطر زعيمها أن ينتقل بها إلى المغرب الأقصى حيث المرعى والماء، واتجه إلى بلاد الريف، وأقام له حصناً عُرف باسم «تازوطا»، وكانت الكلمة هناك للموحدين لكن كانت شمسهم تغرب، فقاتلوا بني مرين حيث وجدوا فيهم قوةً يُرهب جانبهم، غير أنهم قد هزموا أمامهم عام ٦١٣ لحالة الضعف التي كانوا يمرون بها. وتقدّم عبد الحق نحو حصن تازة فتمكّن من دخوله، وقتل عامل الموحدين فيه، لكن هذه القوة لم تكتمل بعد إذ لم تلبث أن انقسمت إذ خرج على عبد الحق بعض رجاله من بني عسكر، وتقوّوا بقبائل بني رياح العربية في تلك الجهات، وقاتلوا عبد الحق غير أنه انتصر عليهم في معركة جرت في وادي (سبو) عام ٦١٤، وقُتل هو في النهاية فدفن قرب مكناس.

تولى زعامة بني مرين بعد مقتل زعيمهم عبد الحق ابنه عثمان الذي

كان معه في المعركة، فنظم أمر جماعته، ودعا القبائل إلى طاعته فبايعته هوّارة: وزكاوة، ومكناسة وغيرها، وفرض الضرائب السنوية على بعض المدن مثل فاس، ومكناس، وتازه، لتضمن شر غاراته، وليحمي أمنها، وقد قتل بيد أحد الذين رباهم صغاراً وذلك عام ٦٣٨، وتولّى أخوه محمد بن عبد الحق مكانه، وقد قاتله الموحدون بجيشٍ كبير في جهات مكناس فانتصر عليهم، وتكررت المعارك بينه وبينهم، وقد كبا جواده في آخرها عام ٦٤٢ فقتله أحد الجنود من الخصوم. وقام بالأمر بعده أخوه الثالث أبو بكر المكنّى بأبي يحيى، فأظهر الدعوة للحفصيين أصحاب تونس ليجد لنفسه سنداً ودعماً، واستطاع أن يدخل مكناس باسمهم عام ٦٤٣، ووصل النبأ إلى سلطان الموحدين المعتضد علي بن إدريس فخرج لقتاله عام ٦٤٥، ولما وجد أبو بكر جيشه قليلاً أمام جيش الموحدين انسحب من مكناس، وتوجّه نحو بلاد الريف حيث تحصّن فيها، وأرسل إلى المعتضد سلطان الموحدين يبايعه، وأرسل خمسمائة من جنوده ليكونوا في عداد جيش الموحدين، فقبل المعتضد منه هذا، ورجع عن قتاله، وبقي أبو بكر يترقب، فلما قتل المعتضد قرب تلمسان عام ٦٤٦، أسرع أبو بكر وقصد تلك الجهات، وانقضّ على بقايا الجيش الموحدي، ودخل مكناس، وافتتح حصون الملوية، وأطاعه أهل فاس وبايعه الناس باسم الحفصيين، ووطد الأمن في البلاد التي دانت له، وخرج لقتال بعض بطون زناتة فنقضت فاس العهد، فرجع ودخلها وقتل رؤوس الفتنة منها، واتخذها عاصمةً له. وجاءه سلطان الموحدين الجديد المرتضى المؤمني بجيش يزيد على الثمانين ألفاً، فصمد في وجهه عام ٦٥٣، وانتصر عليه في جبال بهلولة بجهات فاس، واستولى على معسكر الموحدين، وخضعت له بعدها سجلماسة، ودرعه، وبلاد تادلا، وبقي حتى توفي عام ٦٥٦، وخلفه ابنه عمر إلا أن عمه يعقوب قاتله فتنازل عمر لعمّه في العام نفسه.

كان يعقوب بن عبد الحق أمير تازة وملوية في عهد أخيه أبي بكر، فلما توفي أخوه، وخلفه ولده عمر ثار عليه، فتنازل عمر لعمه، فقام

يعقوب بالأمر، وهاجم بني عبد الواد في تلمسان، وظفر بهم، وأنقذ مدينة (سلا) من أيدي الإسبان، ثم نزل إلى الأندلس وجاهد فيها ضد النصارى عام ٦٦٠، ثم قاتل الموحدين وانتصر عليهم، وعندما انقسم الموحدون جاءه أبو دبوس (إدريس بن محمد) طالباً نصرته ضد المرتضى فساعده بخمسة آلاف من الجند، واستطاع أبو دبوس أن يدخل مراكش، إلا أنه ما لبث أن تنكر للأمير يعقوب، فسار يعقوب نحوه ودخل مدينة مراكش عام ٦٦٨، ثم قضى على دولة الموحدين عام ٦٧٤. كانت دعوة بني مرين للحفصيين ظاهراً، لما تولّى يعقوب قطع الخطبة لهم فأرسل له المستنصر الحفصي هدايا ثمينة لإعادة الخطبة فوافق على ذلك، وإن كانت ظاهرية أو شكلية. واستولى الأمير يعقوب على طنجة وسبتة عام ٦٧٢، وانتزع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد عام ٦٧٣، وسار عام ٦٧٤ لنجدة الأندلس ففتح كثيراً من الحصون، ثم رجع إلى مدينة فاس، وبنى المدينة البيضاء ملاصقةً لها، وانتقل إليها عام ٦٧٦، كما غزا في الأندلس ٦٧٩، ٦٨١، ٦٨٣، وتوفي فيها بالجزيرة الخضراء عام ٦٨٥.

خلف يعقوب ابنه يوسف فتنازل لسلطان بني نصر في الأندلس عن الثغور جميعها، وإن كان قد احتفظ برنده، وطريف، والجزيرة، وجاز بحر الزقاق لدعم بني نصر، ومنازلة طاغية الإسبان، وحصل على النصر، إلا أن سلطان غرناطة قد اتفق مع طاغية النصارى، وشجّعه على احتلال طريف، وفي الوقت نفسه فقد شجّع عمر بن يحيى الوطاسي للثورة في حصن (تازوطا)، فسار يوسف الذي تلقّب بالناصر إلى الحصن، واحتله، واعتذر سلطان غرناطة عما بدر منه فقبل منه الناصر، وعاد الاتفاق بينهما وتنازل له عن رنده، والجزيرة، وعشرين حصناً، وفي عام ٧٠٦ قتله أحد مماليكه، وهو يحاصر تلمسان، كما قتل ابنه أبو سالم يومذاك، واسمه عبد الله.

وبعد وفاة يوسف قام بالأمر حفيده عامر بن عبد الله أبو ثابت، وكان مع جده يوم قتل، فدعا لنفسه فبايعه عليه القوم، وعقد صلحاً مع بني زيان، وعارضه بعض أقاربه فقتلهم ومن ساعدهم، كما خرجت عليه جماعة

في سبتة فنهض لحربهم، وبنى مدينة (تطاوين) لتضييق الحصار على سبتة، وأقام بطنجة فمرض، ومات فيها عام ٧٠٨.

وخلفه أخوه سليمان أبو الربيع فأُخذت له البيعة في طنجة، وانتقل إلى فاس، فأشاد العمران، وخرج عليه وزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي يدعو إلى بيعة عبد الحق بن عثمان، وكان بجهة تازة فخرج لحربه فمرض، ومات هناك عام ٧١٠هـ.

بويع بعد وفاة سليمان عم أبيه عثمان أبو سعيد بن يعقوب، وقد أسس داراً لصناعة السفن في (سلا) لإنشاء الأسطول لقتال الفرنج. وسار إلى ناحية تلمسان لقتال بني عبد الواد فسيطر على عدد من قرى تلمسان، واستقر في تازة، وأرسل ابنه عمر إلى فاس عام ٧١٤، وكان ولي عهده فخلع طاعة أبيه وقاتله، ثم ضعف أمر ابنه عمر فجاء إلى فاس، واستعاد ملكه، ثم مرض وتوفي عام ٧٣١.

تولّى أمر بني مرين بعد عثمان ابنه علي أبو الحسن الملقّب بالمنصور بالله، وكان يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه إذ أن أمه حبشية. احتل الإفرنج جبل طارق فاستنجد بنو الأحمر به فأنجدهم وفتح الجبل وحصنه. وأبرم صلحاً مع أصحاب تلمسان من بني عبد الواد، فنكثوا العهد، فسار إليهم عام ٧٣٥، واستولى على وجدة، ووهران، ومليانة، والجزائر، وجدد بناء المنصورة قرب تلمسان، وكان عمه يوسف بن يعقوب قد اختطها ثم خرّبها بنو عبد الواد، ثم فتح تلمسان، ورجع إلى فاس فجهّز جيشاً بقيادة ابنه أبي مالك لجهاد الفرنجة في الأندلس، فاستشهد أبو مالك، فسار بنفسه، ونزل سبته، وجمع بها الأساطيل وهزم أسطول الفرنجة، ثم انتقل إلى الأندلس فحاصر طريف، وكانت بيد العدو، وجاءت جموع من الفرنجة كبيرة فهزم، ونجا ببعض جنوده عام ٧٤١ فرجع إلى الجزيرة الخضراء، فجبل طارق، فسبته واستأسد عليه الفرنجة، وأغرقوا أسطوله في البحر، واحتلوا الجزيرة الخضراء. ووصلت أخبار وفاة أبي بكر المتوكل على الله الحفصي عام ٧٤٧، فسار

إلى تونس ودخلها عام ٧٤٨، وانتهت دولة الحفصيين موقتاً، وعيّن عماله على تلك الجهات، ثم انتفضت عليه القبائل فهُزم، وسار إلى القيروان، ومنها تسلل إلى تونس، ثم صالح القبائل، ووصلت الأخبار إلى زناتة فانتفضت عليه بنو عبد الواد، وكان ابنه والياً على تلمسان من قبله، وهو فارس أبو عنان فدعا بالمنصورة فأخذ البيعة لنفسه، وسار إلى فاس فقاومه أخوه منصور بن علي فتغلّب عليه، وقتله، وملك فاس، أما السلطان فقد وصلت أخبار ولديه إليه فركب البحر في ستمائة مركب فجاءها الموج فغرق أكثرها عام ٧٥٠، ونجا هو فنزل على ساحل الجزائر، واتجه نحو تلمسان فقاتله بنو زيان، ونهبوا ما معه، فسار إلى الصحراء، ووصل إلى سجلماسة فأطاعه أهلها، وانتقل إلى مراكش فرحب به سكانها، وسار إلى فاس فتصدّى له ولده فارس أبو عنان، وهزمه وحمته قبيلة هنتانة، ومرض في أثناء ذلك ومات عام ٧٥٢، فحمل إلى ابنه، فأظهر ندمه على ما كان منه، ولكن حين لا ينفع الندم. وكان من جملة من ثار عليه أخوه عمر أبو علي، وكان قد انتفض على أبيه، وجرحه عام ٧١٤، ثم صالحه وولاه سجلماسة فانتفض عليه ثانيةً، ثم عفا عنه، ولما تولي أخوه أبقاه على سجلماسة فوثب على أخيه، وانتزع درعة منه، فقبض عليه وسجنه، ثم قتل في السجن.

بويع فارس أبو عنان بن علي في فاس عام ٧٤٩، ولما مات أبوه استتب له الوضع، حارب بني زيّان، ودخل تلمسان، وثار عليه أبو الفضل أخوه فتمكّن منه فسجنه، ثم قتل في سجنه عام ٧٥٤. وأخذ قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين عام ٧٥٨، وعاد إلى فاس، ومرض وقتله وزيره عام ٧٥٩.

وقبل مقتل أبي عنان بيومين أخذت البيعة لابنه أبي بكر، فتلقّب السعيد بالله، وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره، فحجبه وزير أبيه وقاتله حسن بن عمر الفودويّ، وتفرّد هو بالأمر. واختل حكم بني مرين، إذ بايعت تلمسان يعيش بن علي، وبايع آخرون منصور بن سليمان، وفر

يعيش بن علي إلى الأندلس، وزحف منصور نحو فاس، وظهر الأمير أبو سالم إبراهيم بن علي في بلاد غمارة، وبدت قوته، فأرسل إليه الوزير حسن بن عمر الفودوي بالطاعة، ودعاه إلى فاس، وأعلن عن استعداده لخلع الطفل أبي بكر، فأقبل أبو سالم، ودخل فاس، وخُلع السعيد بالله أبو بكر، وأرسل إلى الأندلس، وأغرق في الطريق عام ٧٦٠.

كان أبو سالم إبراهيم بالأندلس، بعثه إليها أخوه فارس أبو عنان، فاستقر بها إلى أن مات أبو عنان، وبويع لابنه الطفل، فجاء أبو سالم إلى المغرب، وساعده في الوصول إليها ملك قشتالة النصراني لأن رضوان وزير بني الأحمر الذي استبد بسلطان غرناطة قد رفض دعمه. نزل أبو سالم في مدينة سبتة، ومنها انتقل إلى طنجة، ودعا هناك لنفسه فبايعه أهل طنجة، وعندما قوي أمره اتجه نحو فاس غير أنه هُزم أمام منصور بن سليمان، لكن جماعة منصور لم تلبث أن انفضت من حوله وقتل، وهذا ما سهل لأبي سالم من الوصول إلى فاس حيث كان الوزير حسن بن عمر الفودوي من أول المبايعين له، واستقبله، وخلع الطفل أبا بكر ابن أخي وأبي سالم، وتسمّى أبو سالم بالمستعين بالله.

شعر أبو سالم بسوء النية من الوزير فولاه مراكش إبعاداً له عن فاس، فانتقل الوزير إلى بلاد تادلا، وأظهر العصيان. واتجه السلطان أبو سالم إلى تلمسان، واستولى عليها، وتركها صاحبها أبو حمو واتجه نحو الصحراء، ومنها سار إلى جهات فاس فعاث فيها الفساد، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر تلمسان بعد أن ولّى عليها أبا زيان محمد بن عثمان الذي هرب منها عندما رجع إليها صاحبها الأول أبو حمو. ولم يستطع أبو سالم دخول فاس لأنه في غيابه عنها قد بويع أخوه تاشفين، وتفرّق عن أبي سالم رجاله فاختفى، ولكن قبض عليه بعض رجالات الحكم فحمل إلى فاس حيث لقي مصرعه عام ٧٦٢.

بويع تاشفين بن علي المكنّى بأبي عمرو، وهو مختل العقل، إذ كان قد أسر في معركة طريف في أيام أبيه فأصيب بعقله، وبعد ثلاثة أشهر من بيعته ثار عليه كبار بني مرين وخلعوه.

كان أبو حمو صاحب تلمسان يثير على السلطان أبي سالم أبناء عمه عمر أبي علي، وهم: عبد الحليم، وعبد المؤمن، وابن أخيهما عبد الرحمن بن علي بن عمر، وكانوا في الأندلس، فأُطلقوا من الأسر، فساروا إلى تلمسان، فأكرمهم أبو حمو، وفي هذا الوقت قتل السلطان أبو سالم، فرشح أبو حمو لحكم فاس عبد الحليم بن عمر، فسار إلى المغرب، ولكنه هُزم أمام الوزير عمر بن عبد الله الفودوي.

رشح الوزير عمر بن عبد الله إلى ملك فاس أبا الحسن محمد بن أبي عبد الرحمن، وكان معتقلاً عند الطاغية النصراني فأطلق سراحه بناءً على طلب ابن الأحمر، وجاء إلى المغرب عن طريق سبته فطنجة، وسار الوزير للقائه واستقباله في مطلع عام ٧٦٣، وسار به إلى فاس، وكان عبد الحليم بن عمر يومذاك في تازة فأرسل إليهما أخاه عبد المؤمن بن عمر، وابن أخيه عبد الرحمن بن علي المعروف بأبي يفلوس فتصدى لهما الوزير عمر بن عبد الله فهزمهما فعادا إلى تازة، ومنها ساروا مع عبد الحليم إلى سجلماسة، وكانت في طاعتهم فلحق بهم الوزير، وتمكّن أن يحتل سجلماسة، وأن يجلي عنها عبد الحليم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ورجع عبد الحليم إلى مقرّه في سجلماسة... وبعد مدةٍ ترك الأمر لأخيه عبد المؤمن، وسار إلى الحج عن طريق السودان الغربي، وتوفي وهو آيب في الإسكندرية عام ٧٦٦.

تولّى أبو الفضل بن أبي سالم أمر مراكش ومنطقة المصامدة، وبدأ يتصرف فيها كأنه مستقل، وإن كان الذي يسيّره وزيره عامر الذي استقدم عبد المؤمن بن عمر لبيعته. وأحس الوزير عمر بن عبد الله بالخطر فخرج من فاس، ودعا عبد الرحمن بن علي أبا يفلوس للإيقاع بين أولاد عمر أبي علي، واختل وضع بني مرين، وفّر عبد الرحمن بن علي أبو يفلوس إلى الأندلس، وعاد الوزير عمر بن عبد الله إلى بيعة سلطانه الأول محمد بن أبي عبد الرحمن، وحارب الوزير عامر في مراكش الذي عاد فاعتقل عبد المؤمن.

وفي عام ٧٦٨ استدعى الوزير أحد أبناء بني مرين وهو أبو فارس عبد العزيز بن السلطان علي أبي الحسن وبايعه، وقتل السلطان السابق محمد بن أبي عبد الرحمن، واستطاع الجديد أن يتخلّص من وزيره عمر بن عبد الله المستبد بالسلاطين إذ قتله وأسرته.

أما في مراكش فقد أراد أبو الفضل بن أبي سالم أن ينتهي من وزيره عامر غير أن هذا الوزير قد صحا لنفسه، وتظاهر بالمرض، واستأذن الأمير بالسفر إلى أهله حيث اعتصم بالجبال هناك، وتمكّن أبو الفضل من قتل عبد المؤمن، وهذا ما أرعب عامر فاتصل بالسلطان عبد العزيز وبايعه، وأغراه بأبي الفضل وبملك مراكش، ووعده بالنصر، فسار عبد العزيز من فاس إلى مراكش، وتمكّن من السيطرة عليها، والقبض على أبي الفضل، ولكن عامراً لم يلبث أن أظهر الخلاف، ونصّب أميراً اسمه تاشفين، غير أن عبد العزيز قد تمكّن من قتلهما.

واختلف النصارى بعضهم مع بعض في الأندلس فاستغل سلطان غرناطة ابن الأحمر هذا الاختلاف، وهاجم المناطق التي يسيطر عليها النصارى، وأنجده السلطان عبد العزيز في استرجاع الجزيرة الخضراء. كما سار السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واحتلها عام ٧٧٢، وفرّ منها صاحبها أبو حمو ولحق بالصحراء، ورجع السلطان إلى فاس فعاد أبو حمو إلى تلمسان، فسار إليه السلطان ثانيةً عام ٧٧٤، ودخلها وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين، وأصاب المرض السلطان وتوفي في ذلك العام ٧٧٤، وبويع من بعده لابنه السعيد، وعاد أبو حمو إلى تلمسان، وقضى على إبراهيم بن تاشفين. وقد استبد بالسلطان الجديد السعيد وزيره أبو بكر بن غازي.

اعتقل السلطان عبد العزيز ابن عمه عبد الرحمن أبا يفلوس وأرسله إلى ابن الأحمر، فعندما مات السلطان عبد العزيز بايع ابن الأحمر لحكم فاس أبا العباس أحمد بن أبي سالم الذي كان في طنجة، كما أرسل إلى

المغرب عبد الرحمن أبا يفلوس ووفق بينهما، وسار الاثنان نحو فاس فتصدى لهما الوزير أبو بكر بن غازي لكنه هُزم أمامهما، وتمكنا من دخول فاس وتسلم أبو العباس حكمها، وتولى عبد الرحمن إمرة مراكش واتجه نحوها. وتلقّب أبو العباس بالمستنصر، وقبض على السلطان السعيد، وأرسله إلى ابن الأحمر في الأندلس. ولكن عبد الرحمن في مراكش أظهر الخلاف لأبي العباس مرتين وجرى بينهما صلح غير أن علي بن زكريا أكبر أنصار عبد الرحمن قد ثار عليه وفتك به.

تنكر ابن الأحمر الغني بالله لأبي العباس عام ٧٨٦،فجهّز موسى بن أبي عنان وأرسله إلى سبته فاستولى عليها، وسلّمها إلى ابن الأحمر، ثم سار إلى فاس ودخلها وأعطى الأمان لأبي العباس، ثم اعتقله وأرسله إلى ابن الأحمر حيث بقي هناك حتى عام ٧٨٩، ثم نشب خلاف بين السلطان ووزيره فأرسل الوزير إلى ابن الأحمر يرجوه إرسال أبي العباس ودعمه لإعادته إلى الحكم، ثم عاد فرجاه باستبقاء أبي العباس، وإرسال محمد بن أبي الفضل... وفي هذه الأثناء توفي السلطان موسى بعد أن حكم ثلاث سنوات، وبويع المنتصر بن أبي العباس. وفي تونس كان الحسن بن الناصر بن أبي علي فاتجه إلى المغرب يطلب الملك وذلك بعد حكم موسى فلما اقترب منها كان السلطان موسى قد توفي وأخذت البيعة للمنتصر فرجع الحسن من حيث أتى.

جاء محمد بن أبي الفضل إلى المغرب، ووصل إلى فاس واستلم حكمها، ونُحي المنتصر عنها، وتلقّب محمد بن أبي الفضل بالواثق بالله، واستقر له الوضع، ثم عاد الخلاف فوقع بين ابن الأحمر والوزير المغربي، فأطلق ابن الأحمر سراح أبي العباس وأرسله إلى المغرب فتمكن من دخول فاس، وخلع الواثق بالله، كما اتجه إلى تلمسان ودخلها، وخرج منها صاحبها أبو حمو فاراً إلى الصحراء. وولى أبو العباس ابنه المنتصر على مراكش فاستقل بها، وتوفي أبو العباس عام ٧٩٦.

تولّى بعد أبي العباس ابنه أبو فارس عبد العزيز الملقب بالمنتصر، وبقي في الملك حتى عام ٧٩٩، حيث خلفه أخوه عبد الله أبو عامر الملقب بالمستنصر، ولم تزد أيامه على السنة كثيراً إذ توفي عام ٨٠٠، وخلفه أخوه الثالث عثمان أبو سعيد، وقد ترك أمر الملك لوزرائه، وفي أيامه استولى البرتغاليون على سبته عام ٨١٨، وأخيراً قتله وزيره عبد العزيز اللبابي عام ٨٢٣.

تولى بعد عثمان ابنه عبد الحق، وترك الأمر لوزرائه مثل أبيه، وقد استوزر يحيى بن زيان الوطاسي الذي قتل عام ٨٥٢، وقام مكانه ابن أخيه علي بن يوسف بن زيان الوطاسي الذي توفي عام ٨٦٥، وبموته قامت الفتن في بلاد المغرب حيث خلفه يحيى بن يحيى بن زيان الوطاسي فلما شعر السلطان عبد الحق باستبداد آل وطاس بالأمر دونه قتل وزيره يحيى وجمهور آل وطاس عام ٨٦٦، واستوزر يهوديين فاعتزّ يهود فاس، وضرب أحدهما امرأة فاستغاثت فثار الناس وعملوا قتلاً باليهود، ونادوا بخلع السلطان، وولوا أمرهم الشريف أبا عبد الله الحفيد[1]، وكان السلطان غائباً فلما عاد إلى المدينة قُبض عليه وقُتل وانقرضت دولة بني مرين بمقتله وذلك عام ٨٦٩. وفي عهد عبد الحق هذا استولى البرتغاليون على قصر المجاز.

بعد مقتل عبد الحق بويع الشريف أبو عبد الله إماماً وسلطاناً، وبقي في منصبه حتى هاجمه محمد الشيخ الوطاسي فدافع زمناً، ثم استسلم، وخلع عام ٨٧٥ فأقام قليلاً ثم رحل إلى تونس. وفي أيامه استولى البرتغاليون على مدينة آصيلا.

ثم جاء الوطاسيون الذين يعدّون من المرينيين لذا فإن دولتهم كأنها تتمة لدولة بني مرين.

---

(١) هو محمد بن علي الأدريسي الجوطي العمراني، أصله من قرية الجوطة على نهر السبو. وكان بنو عمران أوضح الأدارسة، نسباً وكان يومئذ نقيب الأشراف.

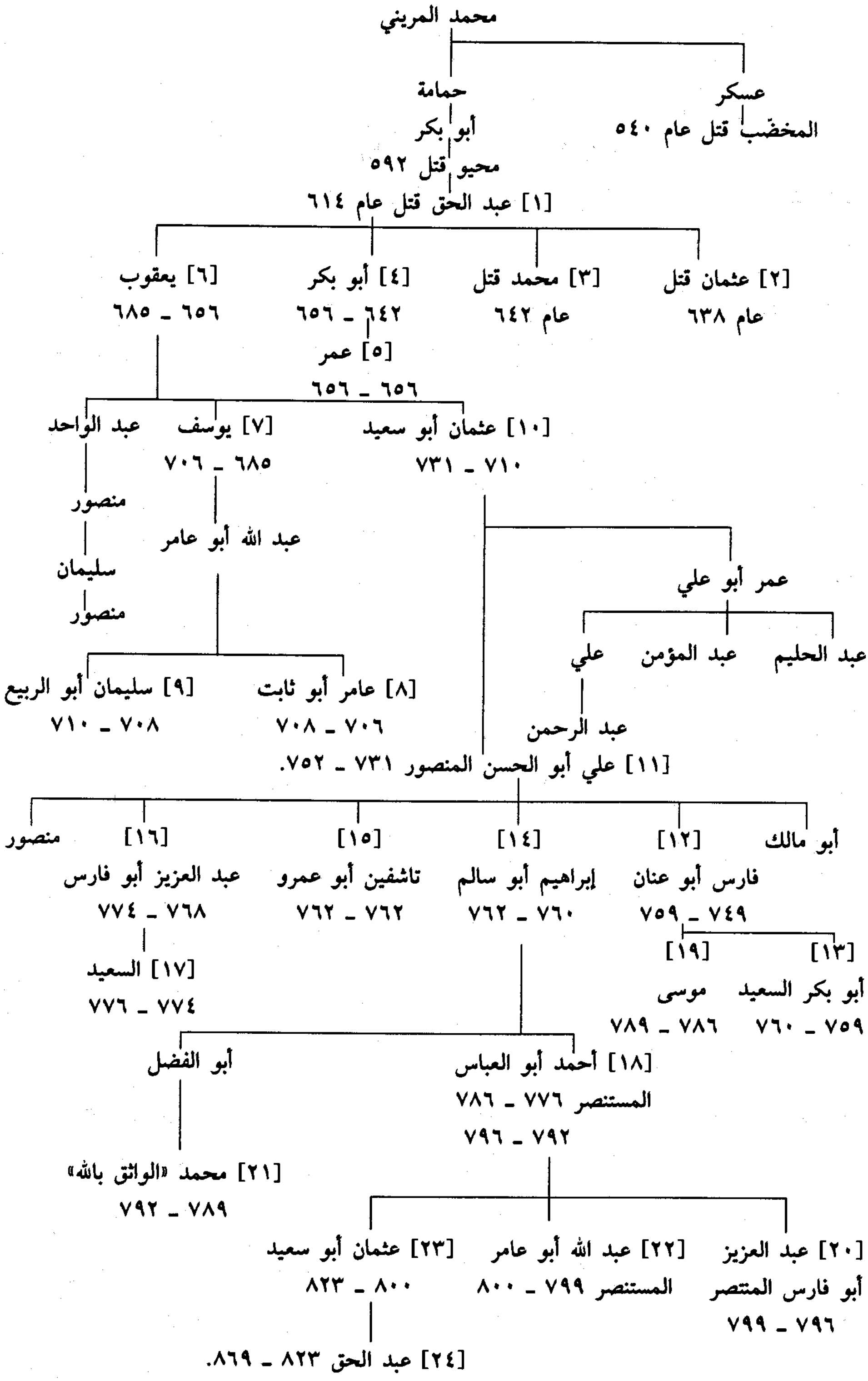
محمد المريني
عسكر
المخضّب قتل عام ٥٤٠
حمامة
أبو بكر
محيو قتل ٥٩٢
[١] عبد الحق قتل عام ٦١٤
[٢] عثمان قتل
عام ٦٣٨
[٣] محمد قتل
عام ٦٤٢
[٤] أبو بكر
٦٤٢ ـ ٦٥٦
[٥] عمر
٦٥٦ ـ ٦٥٦
[٦] يعقوب
٦٥٦ ـ ٦٨٥
[١٠] عثمان أبو سعيد
٧١٠ ـ ٧٣١
[٧] يوسف
٦٨٥ ـ ٧٠٦
عبد الواحد
منصور
سليمان
منصور
عبد الله أبو عامر
عمر أبو علي
عبد الحليم
عبد المؤمن
علي
عبد الرحمن
[٨] عامر أبو ثابت
٧٠٦ ـ ٧٠٨
[٩] سليمان أبو الربيع
٧٠٨ ـ ٧١٠
[١١] علي أبو الحسن المنصور ٧٣١ ـ ٧٥٢.
أبو مالك
[١٢]
فارس أبو عنان
٧٤٩ ـ ٧٥٩
[١٤]
إبراهيم أبو سالم
٧٦٠ ـ ٧٦٢
[١٥]
تاشفين أبو عمرو
٧٦٢ ـ ٧٦٢
[١٦]
عبد العزيز أبو فارس
٧٦٨ ـ ٧٧٤
منصور
[١٣]
أبو بكر السعيد
٧٥٩ ـ ٧٦٠
[١٩]
موسى
٧٨٦ ـ ٧٨٩
[١٧] السعيد
٧٧٤ ـ ٧٧٦
[١٨] أحمد أبو العباس
المستنصر ٧٧٦ ـ ٧٨٦
٧٩٢ ـ ٧٩٦
أبو الفضل
[٢١] محمد «الواثق بالله»
٧٨٩ ـ ٧٩٢
[٢٠] عبد العزيز
أبو فارس المنتصر
٧٩٦ ـ ٧٩٩
[٢٢] عبد الله أبو عامر
المستنصر ٧٩٩ ـ ٨٠٠
[٢٣] عثمان أبو سعيد
٨٠٠ ـ ٨٢٣
[٢٤] عبد الحق ٨٢٣ ـ ٨٦٩.

بنو وطاس

بنو وطاس فرع من بني مرين ولكنهم ليسوا من بني عبد الحق سلاطين فاس، وجميعهم من زناتة وكانت بلاد الريف أيام دولة بني مرين لبني وطاس، وفي أيام عبد الحق بن عثمان أصبح بعض رجالات بني وطاس وزراء لهم، وقد استبدوا بالأمر أو أن السلطان عبد الحق قد ترك لهم الأمر، وعندما خشي منهم على سلطانه قتل وزيره وأكثر بني وطاس بحيث لم ينج منهم إلا القليل، غير أنه قتل عام ٨٦٩، وقام بالأمر نقيب الأشراف.

قام أحد بني وطاس وهو محمد بن يحيى بن زيان الوطاسي المكنى بأبي زكريا والمعروف بالشيخ وهو ممن نجا من مذبحة عام ٨٦٦، وهاجم فاس، وكان بدء حركته من بلدة آصيلا فعندما غادرها استغل البرتغاليون غيابه واحتلوها فعاد إليها فلم يتمكن من دخولها فعقد هدنة مع البرتغال ورجع إلى فاس، واستطاع السيطرة عليها فخلع نقيب الأشراف، واستلم الحكم عام ٨٧٥، وأسس دولة بني وطاس، وطالت أيامه، وسقطت الأندلس في أيامه بيد النصارى الإسبان عام ٨٩٧ وانتقل سلطان غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر إلى المغرب حيث نزل لاجئاً في فاس عند محمد بن يحيى الوطاسي. واستولى البرتغاليون على ساحل البريجة عند أزمور عام ٩٠٧، كما استولوا على ساحل بلاد السوس، وبنوا حصن «فونتي» بقرب المكان الذي قامت فيه بعد ذلك مدينة «أغادير» وبقي محمد بن يحيى الوطاسي في الحكم حتى توفي عام ٩١٠.

وخلفه ابنه محمد بن محمد فحاول استرداد مدينة آصيلا من البرتغاليين، ولكنه عجز عن ذلك، وإن خربها، وزاد توسع البرتغاليين فاستولوا على «أزمور» و «المعمورة» وشرعوا في تجديد بناء مدينة «آنفي» التي سميت الدار البيضاء. وفي أيامه ظهر السعديون في بلاد السوس، ومراكش، وهاجم مراكش لكنه عجز عن فتحها، وبقي حتى توفي عام ٩٣٢، وقد عُرف بالبرتغالي.

وخلفه أخوه علي بن محمد أبو الحسن (أبو حسون) ويُعرف بالبادسي، وقد ثار عليه ابن أخيه أحمد بن محمد المكنى بأبي العباس، واعتقله، وأشهد عليه بخلع نفسه في آخر عام ٩٣٢ أي لم يستمر حكمه سوى عدة أشهر، وقام مكانه، واتفق مع السعديين على أن تكون تادلا الحد الفاصل بين الدولتين وذلك عام ٩٤٠، غير أن الحرب قد جددت بين الطرفين عام ٩٤٢ وانهزم الوطاسيون فيها، وعقد صلحاً مع البرتغاليين ليتفرّغ لقتال السعديين وذلك عام ٩٤٣ غير أنه انهزم أمامهم، وتمكنوا من دخول فاس عام ٦٥٦ وأسروه حيث حمل إلى مراكش، وظل معتقلاً فيها حتى توفي عام ٩٦٠، وقيل: إنه قتل في درعه التي أرسلها إليها.

أما علي بن محمد المعتقل فقد فرّ من وجه السعديين عندما دخلوا فاس عام ٩٥٦، واتجه إلى ثغر الجزائر حيث اتصل هناك بالعثمانيين، وكانوا قد دخلوا المغرب الأوسط فدعموه لاسترجاع فاس، وجاء معه صالح باشا التركماني، واستولوا على فاس عام ٩٦١، وتولى أمرها الوطاسي، وبقيت معه قوة من العثمانيين، ليقدم لهم ما اتفقوا عليه من مال، وحدثت بعض التعديات فاشتكى الأهلون منها فدفع الوساطي المال للقوة العثمانية وغادرت فاس، فانتهز السعديون هذا وهاجموا فاس ودخلوها، وقتل علي بن محمد الوطاسي، وانتهت هذه الدولة أوزال بنو مرين نهائياً.

الفصل الثاني

بنو زيان "عبد الواد" في المغرب الأوسط

كانت قبيلة بني عبد الواد تقيم بالقرب من مدينة تلمسان، وكان شيخها جابر بن يوسف بن محمد بن زجدان من بني عبد الواد، وقد أساء والي تلمسان الحسن بن حيان الكومي إلى هذه القبيلة إذ اعتقل رؤساءهم، فشفع بهم إبراهيم بن إسماعيل الصنهاجي من لمتونة، غير أن الوالي قد ردّ شفاعته، فأخذت الحمية إبراهيم فجمع قومه، وقتل الوالي، وأطلق بني عبد الواد، وخلع طاعة الموحدين، لكنه لم يلبث أن خاف منهم فأراد الغدر بهم، وربما كان للاعتذار عما قام به، فدعا وجهاءهم إلى وليمة، غير أنهم قد أحسوا بذلك فقبضوا عليه، ودخل جابر بن يوسف من بني عبد الواد مدينة تلمسان عام ٦٢٧، وضبط أمورها، وعاد فدعا للموحدين، وبايعته المنطقة إلّا بلدة «ندروما» فسار إليها، وحاصرها، ورماه يوسف الغفاري التلمساني بسهم في أثناء الحصار فقتله عام ٦٢٩، وتولّى مشيخة القبيلة بعده أخوه عثمان، ولم يلبث أن خلع بعد سنتين عام ٦٣١، فانتقلت المشيخة إلى ابن عمه زيّان بن ثابت، واستمرت في أسرته من بعده لذا عرفوا ببني زيان بعد أن كانوا يعرفون ببني عبد الواد. ولم تطل أيام زيان أكثر من سنتين فقام بعده ابنه زيدان، فثار عليه بنو مطهر، واتفقوا مع بني راشد ضده، وكانت معارك بين الطرفين قتل فيها زيدان عام ٦٣٣ خارج مدينة تلمسان، فقامت بالأمر زوجته عدة أشهر، ثم قام أخوه يغمراسن بن زيان في العام نفسه، وعندما ثار يحيى أبو زكريا الحفصي في تونس ضد الموحدين، وقطع الخطبة عنهم، وأراد امتلاك مراكش سار نحو الغرب عام

٦٣٩، ورغب في ضم تلمسان إليه، فخرج يغمراسن بن زيان منها، واتجه نحو الصحراء، ثم تصالحا، وعاد كل منهما إلى موطنه. وفي عام ٦٤٦ اتجه السلطان السعيد الموحدي لقتال يحيى أبي زكريا الحفصي، فابتعد عنه يغمراسن محبةً في السلم، غير أن السعيد اتجه نحوه فقاتله يغمراسن، وانتصر عليه، وقتله، وربح كل ما في المعسكر الموحدي، وكان ذلك بدء استقلاله، وبقي حتى عام ٦٨١، فكانت مدة سلطته أربعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر. وكان ولي عهده ابنه يحيى الذي تولى أمر سجلماسة غير أنه توفي قبله عام ٦٦٠، ويعدّ يغمراسن السلطان الأول من بني زيان.

خلف يغمراسن ابنه الثاني عثمان أبو سعيد، وزادت قوة الدولة في أيامه إذ وصلت حدودها إلى بجاية، وهاجمه السلطان المريني يوسف بن يعقوب عام ٦٨٩، فانتصر عليه أبو سعيد، وكرر يوسف هجماته على أبي سعيد عام ٦٩٥، و ٦٩٦، و ٦٩٧ وفشل المرينيون في هذه الهجمات كلها، وأخيراً تمكنوا من الوصول إلى تلمسان وإلقاء الحصار عليها، فانفضت القبائل عن عثمان أبي سعيد الزياني لشدة الحصار، واشتداد الجوع، وقلة الحاجيات، وتوفي أبو سعيد وعاصمته محاصرة وذلك عام ٧٠٣.

تولى بعد عثمان أبي سعيد ولده محمد أبو زيان الأول، فتسلم الأمر، وهو محاصر من سلطان بني مرين يوسف بن يعقوب... وطال الحصار، وضاقت على الناس الحياة فخرج أبو زيّان على أعدائه المحاصرين له عام ٧٠٦ ومعه بعض أعيان تلمسان، ووثب عبد على سلطان بني مرين فطعنه بخنجر أرداه قتيلا، وبرز أبو زيّان فقتل ابن السلطان المريني، وعقد الصلح مع حفيده عامر أبي ثابت بن عبد الله، وفُكّ الحصار عن تلمسان بعد أن دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر، ونهض أبو زيان وأخوه أبو حمو، فأعادا طاعة القبائل. ولم تطل أيام أبي زيان إذ هلك في العام التالي ٧٠٧.

خلف أبا زيان أخوه موسى أبو حمو الأول فتمكّن من صد بني مرين، وتوسع نحو الشرق فأخذ من الحفصيين بجاية وقسنطينة، وفي عام

٧١٨ قتله ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الأول، وحلّ مكانه، وصالح بني مرين إلا أن الخلاف عاد فوقع، فسار السلطان المريني المنصور بالله علي أبو الحسن إلى تلمسان عام ٧٣٥، وفتحها، وقُتل أبو حمو على أبواب القصر عام ٧٣٧، وأصبحت تلمسان تتبع أبا الحسن المريني، وقد ولّى عليها ابنه فارساً أبا عنان. وبعد أن سار أبو الحسن إلى تونس انتفض بنو زيان عليه في تلمسان، وخرج منها ابنه فارس الذي كان نائباً، خرج داعياً لنفسه واتجه نحو فاس.

وبرز من بني زيان عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن إلّا أنه قد هُزم أمام أبي عنان سلطان فاس المريني الذي دخل تلمسان عام ٧٥٣، وبرز كذلك عثمان بن عبد الرحمن، وابن أخيه موسى أبو حمو الثاني[١] الذي أصبحت له السيادة التامة على بني زيان، وهذا ما أزعج ابن عمه محمداً أبا زيان الثاني فناصر سلطان فاس المريني أبا سالم إبراهيم الذي سار إلى تلمسان عام ٧٦١ ودخلها وولّى عليها من قبله أبا زيان بن عثمان، ولكن ما أن رجع أبو سالم إلى فاس حتى رجع أبو حمو إليى قاعدته وخرج منها أبو زيان الذي قويت شوكته بعد مدة فزحف نحو تلمسان عام ٧٦٦ غير أن رجاله قد تفرّقوا عنه فلجأ إلى وادي ملوية وانقطع خبره، واستتب الوضع لأبي حمو إلا أن بني مرين كانوا يقاتلونه، ويدخلون مقر حكمه فيضطر إلى الفرار نحو الصحراء، فقد سار السلطان عبد العزيز المريني نحو تلمسان عام ٧٧٢ ودخلها وخرج أبو حمو منها متجهاً نحو الصحراء، فلما رجع السلطان عبد العزيز إلى فاس عاد أبو حمو إلى مقره، وسار السلطان عبد العزيز مرةً ثانية إلى تلمسان ودخلها عام ٧٧٤، وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين وقفل راجعاً إلى فاس، وكان أبو حمو قد تغيّب في الصحراء، فما

---

(١) موسى أبو حمو الثاني بن يوسف: ولد في غرناطة عام ٧٢٣ حيث كان أبوه منفياً إليها، ورجع أبوه في عام ولادة ابنه، واتجه إلى تونس، وأعانه بنو حفص لاسترداد الملك، فجمع حوله الجموع وهاجم أطراف قسنطينة، وزحف نحو فاس، واستولى رجاله على أغادير، ودخل تلمسان عام ٧٦٠.

أن رجع جيش بني مرين حتى استردّ أبو حمو تلمسان وقضى على إبراهيم بن تاشفين، وكذلك دخل سلطان فاس محمد أبو الفضل تلمسان في أواخر أيام أبي حمو الذي فرّ إلى الصحراء كعادته ورجع بعد رجوع محمد أبي الفضل، وخرج على أبي حمو ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني فاضطر إلى قتاله، فاتجه أبو تاشفين إلى بني مرين، وجاء بجيش وقتل أباه أبا حمو عام ٧٩١، وتسلّم حكم تلمسان مكانه.

واستمر حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حتى عام ٨٧٣ أي ما يزيد على ثمانين سنة، وكانت مرحلة ضعف واختلاف فيما بينهم، فقد حكم بعد أبي حمو ابنه وقاتله عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني، واستمر حتى عام ٧٩٦، وخلفه ابنه يوسف أبو ثابت، ولم تطل أيامه إذ توفي في السنة نفسها وبويع بعده عمهّ يوسف أبو الحجاج بن أبي حمو وقتل بعد سنة، وبويع بعده أخوه محمد أبو زيان الثالث، وانتزع منه السلطة أخوه عبد الله أبو محمد الأول عام ٨٠١ بعد أن جاء بجيشٍ من بني مرين، فهُزم أبو زيان، وفرّ جريحاً، ثم قُبض عليه، وقتل، وبقي عبد الله في الحكم حتى عام ٨٠٤ فجاءه أخوه الآخر محمد أبو عبد الله الأول بجيش من بني مرين أيضاً إذ كان من أتباع السلطان عثمان المريني كأخيه، وتمكّن من دخول تلمسان عام ٨٠٤، وقبض على أخيه عبد الله، وأرسله إلى فاس مقر حكم بني مرين، وبقي محمد في السلطة حتى عام ٨١٣ حيث خلفه ابنه عبد الرحمن ولم تطل أيامه إلى السنة، وقام مكانه عمه سعيد بن أبي حمو فكان مثله قليلة أيامه، وتولى بعده أخوه عبد الواحد أبو مالك بن أبي حمو فحكم في المرة الأولى ثلاث عشرة سنة (٨١٤ ـ ٨٢٧) ثم خلع، فخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله الثاني بن أبي تاشفين فحكم أربع سنوات ثم خلع، وأعيد عبد الواحد أبو مالك لمدة سنتين وبعده أعيد ثانية ابن أخيه لمدة سنة واحدة (٨٣٣ ـ ٨٣٤)، ثم جاء عمه أحمد أبو العباس بن أبي حمو فدام حكمه اثنتين وثلاثين سنة (٨٣٤ ـ ٨٦٦)، ثم خلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد الثالث لمدة سبع سنوات (٨٦٦ ـ ٨٧٣)، وخلفه ابنه

عبد الرحمن أبو تاشفين الثالث، وكانت أيامه قصيرة لم تتعد الأشهر، وبه انتهى حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حيث انتقلت السلطة إلى أبناء عمومتهم. فتسلم الأمر أبو عبد الله محمد الرابع من أحفاد ثابت بن أبي تاشفين الأول، واستمر مدة (٨٧٣ ـ ٩١٠)، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس (٩١٠ ـ ٩٢٣)، وتلاه ولده موسى أبو حمو الثالث (٩٢٣ ـ ٩٣٤) فأخوه أبو محمد عبد الله الثاني (٩٣٤ ـ ٩٤٧)، وكان قد قوي أمر العثمانيين إذ بسطوا نفوذهم على أجزاء من المغرب الأوسط، وفي الوقت نفسه قوي نفوذ الإسبان وسيطروا على بعض المرافئ الساحلية، وضعف أمر بني زيان كثيراً، وخلف عبد الله أبا محمد الثاني ولده أبو عبد الله محمد السادس، وقد استعان بالإسبان، غير أن الحملة الإسبانية قد هلكت بعد وهران بعدة كيلومترات، وقام بعده أخوه أحمد أبو زيان فحكم ما يقرب من سنة (٩٥٠)، ثم خلع، وأعيد لمدة ست سنوات (٩٥١ ـ ٩٥٧)، وقد خلفه أخوه الحسن الذي انتهى به بنو زيان عام ٩٦٢.

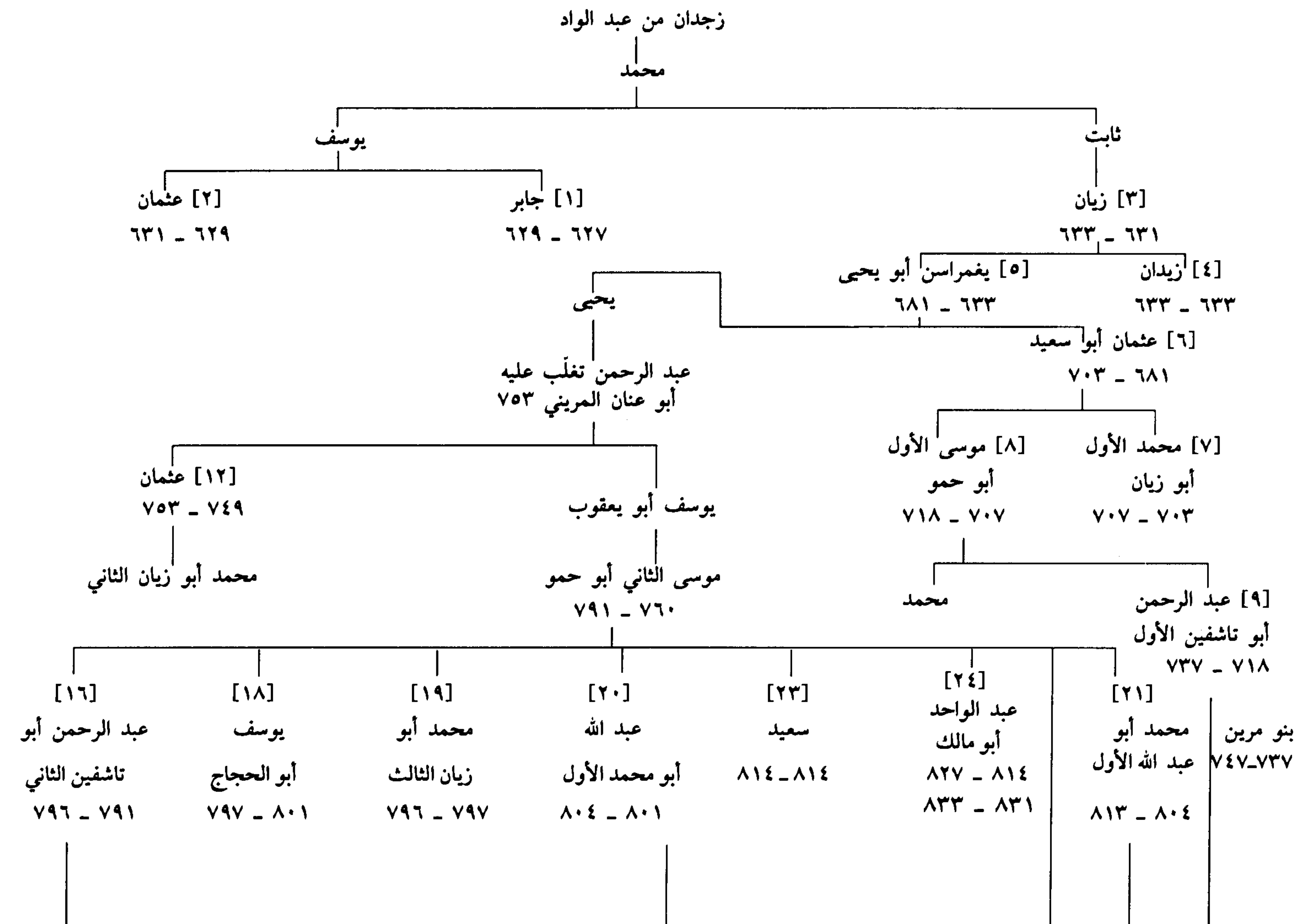
زجدان من عبد الواد
محمد
يوسف
ثابت
[٢] عثمان
٦٣١ - ٦٢٩
[١] جابر
٦٢٩ - ٦٢٧
[٣] زيان
٦٣٣ - ٦٣١
[٥] يغمراسن أبو يحيى
٦٨١ - ٦٣٣
[٤] زيدان
٦٣٣ - ٦٣٣
يحيى
[٦] عثمان أبو سعيد
٧٠٣ - ٦٨١
عبد الرحمن تغلّب عليه
أبو عنان المريني ٧٥٣
[٨] موسى الأول
أبو حمو
٧١٨ - ٧٠٧
[٧] محمد الأول
أبو زيان
٧٠٧ - ٧٠٣
[١٢] عثمان
٧٥٣ - ٧٤٩
يوسف أبو يعقوب
محمد أبو زيان الثاني
موسى الثاني أبو حمو
٧٩١ - ٧٦٠
محمد
[٩] عبد الرحمن
أبو تاشفين الأول
٧٣٧ - ٧١٨
[١٦]
عبد الرحمن أبو
تاشفين الثاني
٧٩٦ - ٧٩١
[١٨]
يوسف
أبو الحجاج
٧٩٧ - ٨٠١
[١٩]
محمد أبو
زيان الثالث
٧٩٦ - ٧٩٧
[٢٠]
عبد الله
أبو محمد الأول
٨٠٤ - ٨٠١
[٢٣]
سعيد
٨١٤-٨١٤
[٢٤]
عبد الواحد
أبو مالك
٨٢٧ - ٨١٤
٨٣٣ - ٨٣١
[٢١]
محمد أبو
عبد الله الأول
٨١٣ - ٨٠٤
بنو مرين
٧٤٧-٧٣٧

[١٠]
عثمان أبو سعيد
٧٤٧ _ ٧٤٩

[١١] ثابت
٧٤٩ _ ٧٦٠

[٢٢]
عبد الرحمن
٨١٣ _ ٨١٤

[٢٦] أحمد
أبو العباس
٨٣٤ _ ٨٦٦

[٢٧] أبو عبد الله
محمد الثالث «المتوكل على الله».
٨٦٦ _ ٨٧٣

[٢٨] عبد الرحمن
أبو تاشفين الثالث
٨٧٣ _ ٨٧٣

[٢٥] محمد
أبو عبد الله الثاني
٨٢٧ _ ٨٣١
٨٣٣ _ ٨٣٤

[١٧]
يوسف أبو ثابت
٧٩٦ _ ٧٩٦

[٢٩] أبو عبد الله محمد الرابع
٨٧٣ _ ٩١٠

[٣٠] أبو عبد الله محمد الخامس
٩١٠ _ ٩٢٣

[٣١] أبو حمو موسى الثالث
٩٢٣ _ ٩٣٤

[٣٢] أبو محمد عبد الله الثاني
٩٣٤ _ ٩٤٧

[٣٣] أبو عبد الله محمد
السادس: استعان بالإسبان
٩٤٧ _ ٩٥٠

[٣٥] حسن
٩٥٧ _ ٩٦٢

[٣٤] أبو زيان أحمد
٩٥٠ _ ٩٥٠
٩٥١ _ ٩٥٧

الفصل الثالث

الحَفصِيّون في تونس

كان أبو حفص عمر بن يحيى من مشايخ هنتانة أشهر بطون قبيلة مصمودة، وقد رافق بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، وكان من المقربين إليه، بل يعد الرجل الثالث في هذه الدعوة بعد صاحبها وعبد المؤمن بن علي، وكان على مقدمة عبد المؤمن حين بعثه عام ٥٣٧ إلى المغرب الأوسط، ولم يدخل الموحدون إلى مراكش بعد، وتولّى أمر المغرب عندما سار عبد المؤمن عام ٥٥٤ لفتح المهدية، وكان لكل معضلة تقع فيها دولة الموحدين، فقد وطد لبيعة محمد بن عبد المؤمن، وبايع ليوسف بن عبد المؤمن، واستنقذ مدينة (بطليوس) من حصار طاغية الإسبان، وتوفي في مدينة (سلا) عام ٥٧١، وهو عائد من الأندلس. ويرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

كان أبناء أبي حفص هذا يتداولون الإمارة في الأندلس، والمغرب، وتونس مع أبناء عبد المؤمن بن علي، فقد كان عيسى بن أبي حفص أميراً في الأندلس، ثم والياً على بجاية، وعلى بونه، ثم على المهدية، وقد توفي عام ٦٤٦ وهو عليها وال، وهو المعروف بأبي علي. كما ولي على تونس أبو سعيد بن أبي حفص. واستوزر الناصر يوسف بن عبد المؤمن أبا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص.

ولما سار الناصر يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية لقتال ابن غانية عام ٦٠١، أرسل إلى مدينة (قابس) أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص لضرب جموع ابن غانية التي احتشدت هناك، فتمكن فعلاً من سحق

تلك الجموع، واستنقذ منهم أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان والي تونس لأبيه. وولّى الناصر بعدها أبا محمد عبد الواحد على إفريقية عام ٦٠٣، وقد حارب ابن غانية في جهات طرابلس وتمكّن من الانتصار عليه عام ٦٠٤. وسار ابن غانية إلى تاهرت وخرّبها عام ٦٠٥ فسار إليه أبو محمد فأخذها منه، وانتصر عليه ثانيةً في جهات طرابلس عام ٦٠٦، وبقي عبد الواحد هذا والياً على تونس (إفريقية) حتى توفي عام ٦١٨.

وخلف عبد الواحد على ولاية تونس ابنه عَبد الله، وبقي حتى عام ٦٢٥ حيث ثار عليه أخوه يحيى أبو زكريا لأنه رفض الاستقلال عن مراكش وقطع الخطبة عن الموحدين، وتسلّم الأمر مكانه، أما هو فقد سار إلى مراكش حيث استقبل فيها، وقُدّم، ثم قُتل بعد مدةٍ لموقف أخيه من الموحدين وقتاله لهم.

منذ أن تسلّم يحيى أبو زكريا الحكم قطع الخطبة عن بني عبد المؤمن من الموحدين، واستقل عام ٦٢٦، وكان يرغب في امتلاك مراكش، وتمكّن من القضاء على ابن غانية عام ٦٣١، وهاجم بعدها تلمسان عام ٦٣٩، ودخلها، وفرّ أميرها يغمراسن بن زيان إلى الصحراء، كما أخذ سجلماسة، وسبته، وطنجة، ومكناس، وهكذا اتسع ملك الحفصيين، وتوفي يحيى أبو زكريا عام ٦٤٧.

تولى أمر تونس بعد يحيى أبي زكريا أخوه عبد الرحمن أبو زيد، لكنه لم يلبث أن عُزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته، إذ قام عليه ابن أخيه محمد بن يحيى أبي زكريا.

حكم محمد أبو عبد الله بن يحيى أبي زكريا باسم المستنصر عام ٦٤٨ بعد أن خلع عمه عبد الرحمن، وقد ذاع صيته، وبايعه أهل مكة عام ٦٥٧ غير أن سلطان مصر الظاهر بيبرس قد أخذ البيعة لنفسه من أهل مكة، وغدت بلاد الحجاز مرتبطة بالدولة المملوكية. وتعرّض المستنصر لغزو ملك فرنسا حيث تمكّن من احتلال تونس وبقي فيها مدة ستة أشهر. وانتفضت الجزائر على السلطان فحارب أهلها عام ٦٦٩، وعام ٦٧١، و٦٧٣، واستطاع أن يدخلها أخيراً عام ٦٧٤، وحانت منيته على ٦٧٥هـ.

خلف المستنصر ابنه يحيى عام ٦٧٥، وتلقّب باسم الواثق بالله، غير أن أمره لم يطل إذ ثار عليه عمه إبراهيم الذي كان قد رحل إلى تلمسان عند موت أخيه المستنصر، وعندما قوي أمره سار إلى بجاية وملكها، ثم اتجه إلى تونس، فخلع ابن أخيه نفسه فقبض عليه عمه وذبحه عام ٦٧٨، وصفا لإبراهيم الجو.

ثار على إبراهيم رجل يُدعى أحمد بن مرزوق ويُعرف بابن أبي عمارة، وقوي أمر الثائر، فتنازل إبراهيم لابنه أبي فارس أمير مدينة بجاية من قبل أبيه، فلقب نفسه بالمعتمد، وسار إلى قتال ابن أبي عمارة غير أنه هُزم وقُتل عام ٦٨٢، أما أبوه إبراهيم فقد فرّ باتجاه تلمسان فأدركه بعض أتباع ابن أبي عمارة حيث حمل إلى بجاية، وقتل فيها عام ٦٨٣.

نجا من هذه المعارك عمر بن يحيى أخو إبراهيم، ويحيى بن إبراهيم وقد كان مع أبيه يوم تلمسان. أما عمر فقد رحل إلى قلعة سنان قرب تونس، واستطاع أن يتغلب على ابن أبي عمارة، وأن يقتله، ويستعيد تونس عام ٦٨٣، واستلم زمام الأمر، وتلقّب باسم المستنصر الثاني، وبقي في الحكم حتى عام ٦٩٤، وفي عام ٦٨٨ استولى صاحب صقلية على جزيرة جربا الواقعة في خليج قابس. أما يحيى أبو زكريا بن إبراهيم فعندما وجد نجاح عمه في تونس، أعلن ملكه لمدينة بجاية وأطاعه أهلها، ثم أخذ الجزائر وبسكرة، وأعلن استقلاله عن تونس، وهكذا انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين: أولهما في تونس ويحكمه المستنصر الثاني عمر بن يحيى، والثاني في بجاية ويحكمه يحيى بن إبراهيم، وبقي هذا الانقسام حتى توفي يحيى بن إبراهيم هذا عام ٧٠٩.

وعندما توفي المستنصر الثاني عمر بن يحيى عام ٦٩٤ بويع محمد بن يحيى الواثق باسم المستنصر الثالث، ويعرف بلقب أبي عصيدة، واستمر حكمه في تونس حتى عام ٧٠٩.

وبعد وفاة المستنصر الثالث بويع أخوه أبو بكر بن يحيى، غير أن ابن عمه أمير بجاية خالد بن يحيى قد وثب عليه، فاستسلم له بعد حكم سبعة عشرة يوماً، فقتله خالد واستلم الأمر، وتلقّب باسم الناصر، ويُكنّى بأبي

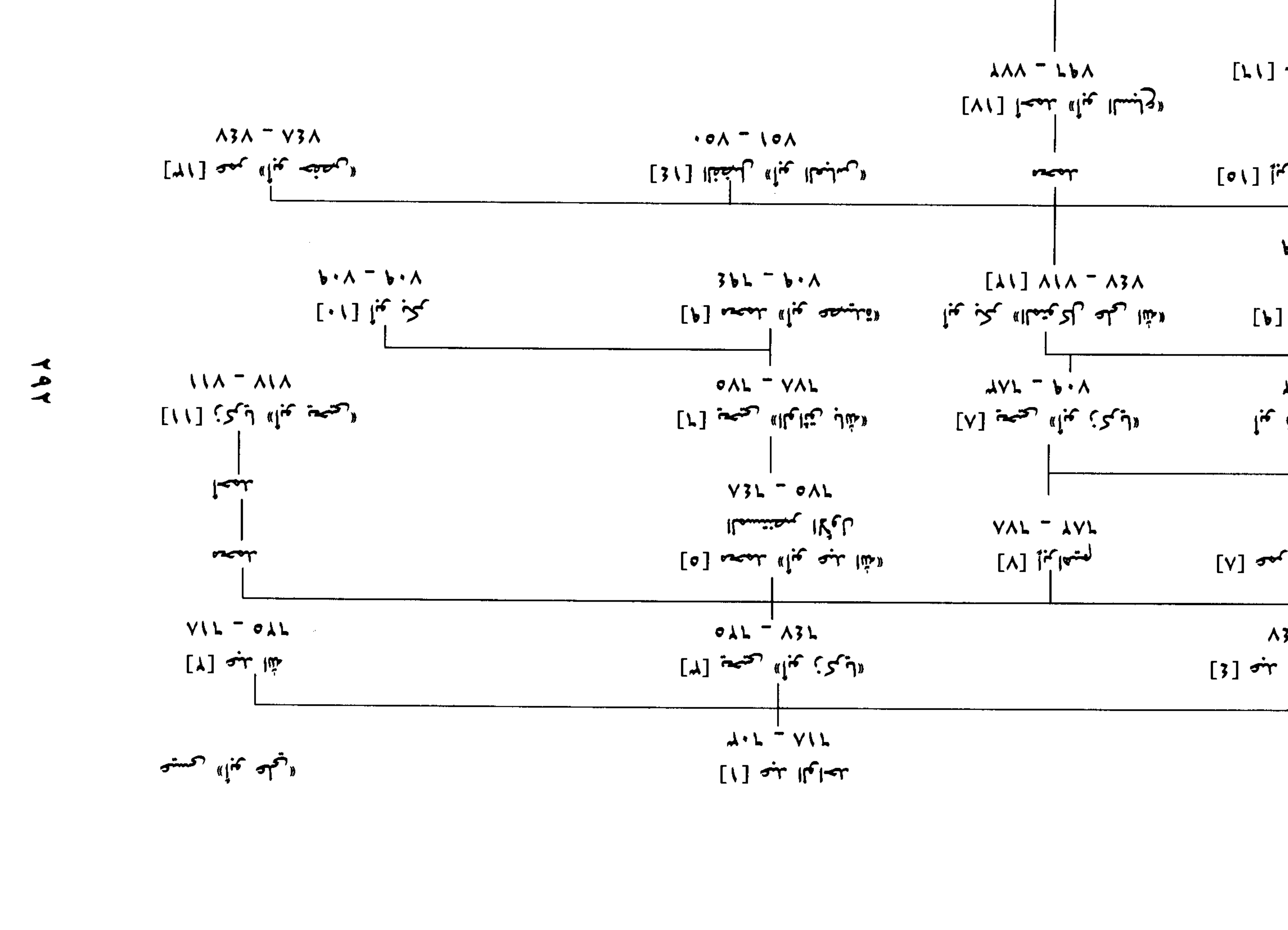
عيسى «أبو علي»
[١] عبد الواحد
٦٠٣ ـ ٦١٨
[٢] عبد الله
٦١٨ ـ ٦٢٥
[٣] يحيى «أبو زكريا»
٦٢٥ ـ ٦٤٧
[٤] عبد الرحمن «أبو زيد»
٦٤٧ ـ ٦٤٨
محمد
[٥] محمد «أبو عبد الله»
المستنصر الأول
٦٤٨ ـ ٦٧٥
[٧] إبراهيم
٦٧٨ ـ ٦٨٢
[٨] عمر «المستنصر الثاني»
٦٨٣ ـ ٦٩٤
أحمد
[١١] زكريا «أبو يحيى»
٧١١ ـ ٧١٧
[٦] يحيى «الواثق بالله»
٦٧٥ ـ ٦٧٨
[٨] يحيى «أبو زكريا»
٦٨٣ ـ ٧٠٩
أبو فارس «المعتمد»
٦٨٢ ـ ٦٨٣
[١٠] أبو بكر
٧٠٩ ـ ٧٠٩
[٩] محمد «أبو عصيدة»
٦٩٤ ـ ٧٠٩
أبو بكر «المتوكل على الله»
[١٢] ٧١٧ ـ ٧٤٧
[٩] خالد «الناصر»
أبو البقاء
٧٠٩ ـ ٧١١
[١٣] عمر «أبو حفص»
٧٤٧ ـ ٧٤٨
[١٤] الفضل «أبو العباس»
٧٥٠ ـ ٧٥١
محمد
[١٥] إبراهيم «أبو إسحاق»
٧٥١ ـ ٧٧٠
[١٧] أحمد «أبو السباع»
٧٧٢ ـ ٧٩٦
[١٦] خالد «أبو البقاء»
٧٧٠ ـ ٧٧٢

- [١٨] عبد العزيز «أبو فارس» عزوز ٧٩٦ ـ ٨٣٧
  - محمد «أبو عبد الله» المنصور
    - [١٩] محمد «المنتصر» ٨٣٧ ـ ٨٣٩
    - [٢٠] عثمان «المتوكل على الله» ٨٣٩ ـ ٨٩٣
      - محمد «المسعود»
        - [٢١] يحيى «أبو زكريا» ٨٩٣ ـ ٨٩٩
        - الحسن
          - [٢٢] محمد «أبو عبد الله» ٨٩٩ ـ ٩٣٢
            - [٢٣] الحسن ٩٣٢ ـ ٩٣٥ وتوفي ٩٥٠
              - أحمد ٩٣٩ ـ ٩٤١ وتوفي ٩٨٠
              - محمد ٩٤٢ ـ ٩٨١ تحت حكم الإسبان وتوفي ٩٩٠ في استانبول

البقاء، ولم يطل حكمه أكثر من سنتين، حيث دخل الميدان شخص ثالث هو الأمير زكريا أبو يحيى بن أحمد بن محمد اللحياني ابن يحيى بن عبد الواحد، فقد بويع عام ٦٨٠ عند حركة ابن أبي عمارة ثم خلع، وقد سافر إلى الحج عام ٧٠٩، وعندما عاد نزل طرابلس والفتنة قائمة بين خالد بن يحيى وابن عمه أبي بكر بن يحيى، فشدّ من عزمه، واتجه إلى تونس فدخلها عام ٧١١، وخرج منها أبو بكر بن يحيى الذي استسلم إلى خالد بن يحيى فقتله ـ كما ذكرنا ـ إلا أن زكريا لم يلبث أن خشي من الفتنة فانسحب من تونس إلى قابس، ومنها إلى طرابلس عام ٧١٧، واكتفى بولايتها، ثم غادرها وسار إلى مصر فاستقبله السلطان محمد بن قلاوون، وبقي زكريا في الإسكندرية حتى توفي عام ٧٢٧.

كان أبو بكر بن يحيى أخو خالد الناصر والياً على قسنطينة لأخيه خالد لكنه ثار عليه، وأعلن موالاته لزكريا بن أحمد اللحياني، وربما كان هذا السبب الذي دعا خالداً لخلع نفسه، غير أن أبا بكر قد تمكّن من الفوز والاستقرار في تونس عام ٧٢٣، ولكن البلاد كانت تمر في محنةٍ كبيرة إذ كانت الحركات في كل مكان، واستطاع أبو بكر من إحراز النصر على معارضيه حتى صفا له الجو عام ٧٣٠ واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٤٧، وبقي الحكم في عقبه، ولقب أبو بكر بالمتوكل على الله.

خلف أبا بكر بن يحيى ابنه عمر أبو حفص، وثار عليه ثلاثة من إخوته وهم أبو العباس، وخالد، وعبد العزيز (عزوز) فقتلهم، ولم يلبث أن لحق بهم إذ قتله أحد الجنود قرب مدينة قابس عام ٧٤٨، ووقعت فتنة في البلاد أو عادت الحركات إلى البلاد، فتغلب في كل ناحية أمير أو ثائر، وفي عام ٧٥٠ انتصر الفضل أبو العباس بن المتوكل على الله، ولم يمض عام حتى قتله بعض المتغلبين. ثم قام أخوه إبراهيم أبو إسحاق عام ٧٥١ وكان صغيراً، فكان حاجب أبيه أبو محمد بن تافراغين يخرج به من تونس ويعود إليها معه حسب القوة التي تؤيده، وبقي كذلك حتى توفي عام ٧٧٠، فنهض بالأمر من بعده ابنه خالد أبو البقاء، وكان صغيراً، وغرق في

الطريق عام ٧٧٢، وثار عليه ابن عمه أحمد أبو السباع بن محمد، وكان والياً على قسنطينة له، فأطمعه صغر السلطان فقام ضده وقوي أمره، وساعده موت السلطان فتولى الأمر بعده عام ٧٧٢، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٧٩٦.

وخلف أحمد أبا السباع ابنه عبد العزيز (عزوز) أبو فارس، وقد زاد حكمه على أربعين سنة، وقد ضمّ إليه تلمسان، وفاس، وقام بغزو جزيرة مالطة، وتوفي عام ٨٣٧. وكان ابنه محمد أبو عبد الله والياً على طرابلس من قبله، ووليّاً للعهد، ويلقب بالمنصور غير أنه توفي عام ٨٣٣ قبل والده بأربع سنوات، فلما مات أبو السباع خلفه حفيده محمد المنتصر، وكان في طرابلس فانتقل إلى تونس، وكان مريضاً، فلم يدم حكمه أكثر من سنة وواحد وسبعين يوماً توفي بعدها عام ٨٣٩، وخلفه أخوه عثمان الملقب بالمتوكل على الله.

اتسعت أرجاء الدولة في عهد المتوكل على الله عثمان فخُطب له بالجزائر وتلمسان، وبايعه أهل فاس ودام عهده أكثر من أربع وخمسين سنة حيث تولى الأمر بعد وفاة أخيه عام ٨٣٩، واستمر حتى توفي عام ٨٩٣، وكان ولي عهده ولده محمد المسعود إلا أنه توفي قبله في عام ٨٧٥، فلما مات هو خلفه حفيده يحيى أبو زكريا بن محمد المسعود، وقد اشتغل بقتال المعارضين له، وتوفي بالطاعون عام ٨٩٩، وخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله بن الحسن.

بعد أن قام محمد أبو عبد الله بالأمر بدأت الدولة بالانهيار، إذ كان الإسبان قد قوي أمرهم، وتمكنوا من إخراج المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وبدؤوا بالإغارة على موانئ بلاد المغرب، واحتلالها إن أمكنهم ذلك، وقد استطاعوا دخول بجاية، ثم ملك بنو عزاب طرابلس وسلّموها للإسبان عام ٩١٤، واستمر اقتطاع الأجزاء من دولته، والحركات في الجهات المتعددة حتى توفي عام ٩٣٢، وخلفه ولده الحسن. وكان العثمانيون قد اشتد ساعدهم في تلك المناطق بعد انضمام خير الدين

باربارُوس إليهم وضم الجزائر إلى دولتهم، وبدؤوا في صراع مع الإسبان على تلك السواحل، أو الحروب الصليبية ظهرت بوضوح.

تمكّن خير الدين باربارُوس من أخذ تونس عام ٩٣٥ وهزيمة سلطان الحفصيين الحسن بن أبي عبد الله محمد الذي فرّ إلى إسبانيا، ورجع بأسطول إسباني يدعمه، واستطاع دخول تونس، غير أن الإسبان قد نقضوا عهدهم معه إذ ثارت في نفوسهم الأحقاد الصليبية فصبّوا جام غضبهم على السكان فقتلوا من أهل تونس أكثر من ستين ألفاً، وبقي الحسن مع هذا كله بجانب الإسبان حرصاً على مصلحته ودون أن يرعى للرعية حرمة، فتأثر أهل البلاد، وقام أهل القيروان بحركةٍ واسعةٍ ضدّه، فسار إليهم وفي أثناء غيابه تقدّم ابنه أمير بونه من قبله، وهو ولده أحمد ودخل تونس، متألماً مما وقع فيه أبوه من خنوع للإسبان وهم أعداء دينه، ورجع الحسن ومعه الإسبان لقتال ابنه غير أنه انتصر عليهم، وقبض على أبيه وسجنه، وقد كفّ بصره، وبقي حتى مات عام ٩٥٠.

وقام أحمد بن الحسن بالأمر، وكنيته أبو العباس، ووجد نفسه بين خصمين: الإسبان في حلق الواد وعلى شاطئ البحر، والعثمانيون في طرابلس والقيروان ثم تمكنوا من دخول تونس، فطلب نجدة الإسبان فاشترطوا عليه مشاركته في الحكم فرفض واعتزل، وترك الأمر للعثمانيين بصفتهم مسلمين، وسار هو إلى صقلية حيث أقام في بلرمو حتى مات عام ٩٨٠.

وكان لأحمد بن الحسن أخ يُدعى محمداً وقد وافق الإسبان على شروطهم بعد اعتزال أخيه وسفره فدعموه بأسطول تمكن من أخذ تونس، وبقي تحت رحمتهم خانعاً خاضعاً حتى عام ٩٨١ حيث جاء أسطول عثماني بقيادة سنان باشا، واستطاع إنقاذ تونس من يد الإسبان، وأخذ محمد بن الحسن أسيراً إلى استانبول حيث بقي فيها حتى مات عام ٩٩٠، وانتهت بذلك دولة بني حفص، وتبعت تونس الدولة العثمانية بعد ذلك، واستمرت حتى رجعت الحروب الصليبية إلى تونس مرة أخرى عام ١٢٩٨.

الفصل الرابع

إفريقية الغربيّة

انتشر الإسلام في الصحراء الإفريقية في صدر الإسلام إذ سار عقبة بن عامر[١] عام ٤١ في أيام عمرو بن العاص في ولايته الثانية لمصر على رأس حملة، وتقدّم حتى وصل إلى غدامس وفتحها كما فتح ودان، ويقول ابن عذارى أنه وصل إلى مدينة غانا القديمة[٢] وبنى فيها المساجد.

ووصل عقبة بن نافع[٣] إلى أطراف الصحراء وفتح الطريق للإسلام كي ينتقل إلى بلاد السودان الغربي حيث كانت القبائل تنتقل بين بلاد المغرب والسودان، وذلك حوالي عام ٦٠هـ.

---

(١) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني: أمير من الصحابة، كان رديف النبي ﷺ. شهد صفين مع سيدنا معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص، وولي مصر عام ٤٤، وعزل منها عام ٤٧، وولي غزو البحر، وتوفي بمصر عام ٥٨، كان شجاعاً، فقيهاً، شاعراً، قارئاً، من الرماة. وهو أحد من جمع القرآن، له ٥٥ حديثاً، ويقال: إنه فتح ودان عام ٤٦ أيام ولايته، ويقال: إن بسر بن أرطأة قد فتح ودان عام ٢٣ ثم نقض أهلها العهد. كما يقال إن عقبة بن نافع هو الذي افتتحها.

(٢) غانا: مدينة قديمة غير قائمة الآن، يقع مكانها في بلاد مالي قرب حدود موريتانيا بين نهري النيجر والسنغال.

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري: ولد في حياة رسول الله ﷺ، ولا صحبة له، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، ووجهه عمرو إلى إفريقية والياً عام ٤٢، ثم ولاه معاوية عام ٥٠ على إفريقية، فبنى القيروان، ثم عزل عن إفريقية عام ٥٥، ثم أعيد أيام يزيد فخرج حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي واستشهد وهو راجع عام ٦٢.

وعندما آلت القيادة إلى موسى بن نصير[1] عام ٧٩ تمكّن أن يصل إلى وادي درعة[2] في أقصى بلاد السوس، وإلى الأماكن التي كان قد بلغها عقبة بن نافع من قبل، وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة وقد عمل موسى على تقريب البربر إليه، وولّاهم الأعمال، وشاركهم مع العرب في إدارة البلاد فأقبلوا على الإسلام رغبة فيه. واتصلت قبائل الملثمين التي تنتشر في المغرب الأقصى به فدعاهم للإسلام فأقبلوا عليه ودانوا به، وبنى المساجد في مدينة (أغمات)[3] وتمتد منازل الملثمين هؤلاء في الصحراء الكبرى وحتى حدود السودان الغربي الشمالي.

وتابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة التي سار عليها موسى وهي الدعوة إلى الإسلام بين البربر، إذ عمل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[4] والي إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، بالدعوة، ولم يبق أيام ولايته أحد لم يسلم. كما أرسل عمر بن عبد العزيز طائفة من التابعين انتشروا في المنطقة يدعون الناس إلى الإسلام، ويبصّرونهم في أمور دينهم.

ويقال: إن بني أمية قد أرسلوا جيشاً إلى داخل إفريقية بقصد فتح السودان الغربي ونشر الإسلام في ربوعه وذلك عام ١٠٢ أي في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية ولي غزو البحر، وغزا قبرص، ثم كان على خراج البصرة أيام الحجاج، واشترك في غزو إفريقية، وتوفي بالمدينة وكان حاجاً بصحبة الخليفة سليمان بن عبد الملك عام ٩٧.

(٢) وادي درعة: في أقصى بلاد السوس، يصب في المحيط الأطلسي، يشكل مجراه الأعلى الحدود بين الجزائر والمغرب اليوم.

(٣) أغمات: مدينة تقع جنوب شرقي مراكش بينهما ثلاثة فراسخ، تشرف على الممرات الجبلية ومن هنا كانت أهميتها العسكرية.

(٤) إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي بالولاء، كان فقيهاً، فاضلاً، ورعاً، استعمله عمر بن عبد العزيز عام ٩٩، وهو من العشرة من كبار التابعين توفي بالقيروان عام ١٣٢.

وقام بعد ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري[١] عندما دانت له المنطقة حوالي عام ١٤٠ بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة (أودغشت)[٢] بصحراء المغرب الأقصى، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء، وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها، كما أصبحت القوافل بسبب هذه الطريق الصحراوية التي أصلحها عبد الرحمن والطريق الساحلية الأخرى القديمة أكثر إمكانية للتحرك نحو غربي إفريقية وتحمل القوافل معها العقيدة الإسلامية والتجارة.

وبعد معركة فخ قرب مكة عام ١٦٩ فرّ بعض الأشراف إلى إفريقية، فوصل إدريس بن عبد الله[٣] إلى المغرب واستطاع أن يؤسس دولة عام ١٧٢، ووجهت هذه الدولة أنظار أهل المغرب إلى الجهاد بقصد العمل عل نشر الإسلام، ووصل نفوذ الأدارسة إلى الصحراء التي تفصل المغرب عن السودان الغربي. وقد انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، وزاد تحول صنهاجة إلى الإسلام، ونتج عن ذلك تحالف قوي بين بطون صنهاجة المختلفة بزعامة لمتونة، وبدأ يتوسع نحو

---

(١) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري: وقد عرف بالصقلبي لطوله، وشقرته، وزرقة عينيه قاوم الخوارج في إفريقية، كما قاوم عبد الرحمن الداخل الأموي، ودعا لبني العباس، وقتله غيلةً عام ١٤٢.

(٢) أودغشت: مدينة قديمة غير موجودة الآن، تقع بين الجبلين، كانت تعد من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في غربي إفريقية، تقع بين خطي عرض ١٨ ـ ١٩ شمالاً أي في بلاد موريتانيا اليوم، كانت محطة تجارية، ثم حاضرة قبيلة لمتونة من صنهاجه.

(٣) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو محمد ذي النفس الزكية الذي خرج على العباسيين في المدينة المنورة، بينما خرج أخوه الثاني إبراهيم في البصرة في العام نفسه (١٤٥). أما إدريس وأخوه الثالث وبعض الأشراف فقد نجوا من معركة فخ، وقد كانوا مع الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في أيام ثورته على موسى الهادي الخليفة العباسي الرابع عام ١٦٩، وفخ وادٍ من أودية مكة المكرمة، وقتل الحسين في هذه المعركة، وفر إدريس إلى مصر ومنها إلى المغرب، أما أخوه يحيى فقد هرب إلى بلاد الديلم، وأسس فيها دولة له.

الجنوب لقوة الأدارسة، وحلفائهم من زناتة، ومصمودة في الشمال، وقد استولى هذا الحلف على مدينة (أودغشت) وجعلها قاعدة له. وتفككت عرا الحلف عام ٣٠٦ فاستعادت غانا مدينة (أودغشت)، وعاد الحلف من جديد فاستولوا ثانية على أودغشت عام ٣٥٠، وهذا الاحتكاك بين الملثمين المسلمين وأهل السودان قد سهّل انتشار الإسلام بين الزنوج.

وفي الوقت الذي وصل فيه إدريس بن عبد الله إلى المغرب وصل أحد الأشراف إلى غانا وهو على ما يبدو ممن نجا من معركة فخ، ولقي الترحيب نفسه الذي لقيه إدريس، ويدعى هذا الشريف بصالح، واستطاع أن يؤسس مدينة كومبي صالح التي غدت حاضرة إمبراطورية غانا.

وقد انتصر موسى بن أبي العافية(١) على جند إمبراطورية غانا وأخذ منها الجزية عام ٣١٩ و٣٢٠، وكان يأخذ هذه الأتاوة من مدينة كومبي صالح، ولكن نفوذه قد زال بعد انقراض دولته، وتغلب الفاطميين عليه.

وأسس الصنهاجيون دولة في (كوكيا) في وسط الصحراء فكان لها أثر في نشر الإسلام. وعندما قام أبو يزيد مخلد بن كيداد(٢) الخارجي بثورته ضد الفاطميين ٣٣٢، وانتصر عليهم في بداية الأمر، وامتد نفوذه إلى وسط الصحراء فساعد هذا الامتداد على انتشار الإسلام.

---

(١) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك المكناسي الزناتي: كانت له مكناس وكان من دعاة المهدي، وعقد له ابن عمه مصاله بن حبوس على سائر جهات المغرب عام ٣٠٥، وأقره عبيد الله المهدي على ذلك، وضم إليه فاس عام ٣١٣ وأجلى الأدارسة عنها، نقض دعوة المهدي، وخطب للأمويين في الأندلس، فقاتله المهدي وانتصر عليه.

(٢) مخلد بن كيداد، أبو يزيد: من زناتة ومن الخوارج الأباضية، خرج على الفاطميين عندما مات عبيد الله المهدي عام ٣٣٢، فخرج بناحية أوراس وقاتل القائم بأمر الله بن المهدي، فقد دخل رقادة ودانت له القيروان عام ٣٣٣، واحتل مدينة سوسة، وحاصر القائم في المهدية... ثم بدأت الهزائم تحل به، وانتفضت عليه المدن التي دخلها، ومات القائم وتولى ابنه المنصور فقاتل أبا يزيد وانتصر عليه، وأخذه أسيراً، ثم مات متأثراً بجراحة عام ٣٣٦.

وقد زاد انتشار الإسلام حتى يقال إن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٢٢٣، وحارب الوثنيين الذين يعيشون في مملكته، والذين يجاورونها من الممالك والإمارات الأخرى. ولكن الأمر الثابت أن ملك التكرور قد دخل في الإسلام عام ٤٣٢، وصار للمسلمين في غانا مدينة خاصة بجانب العاصمة أو أن العاصمة كانت نصفين أحدهما للمسلمين، وبنى الملك في مدينته مسجداً ليؤدي الصلاة فيه من يأتيها من المسلمين. وأن عدداً من الوزراء كانوا أيضاً من المسلمين.

وقام المرابطون واستطاعوا أن يأخذوا مدينة (أودغشت) من إمبراطورية غانا عام ٤٤٦. ولما مات يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فتحوا بها مدينة (أودغشت) خلفه في زعامة المرابطين أبو بكر بن عمر شيخ لمتونة، وقد اختلف مع ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي اتجه إلى الشمال ونصر المسلمين في الأندلس على حين اتجه أبو بكر بن عمر نحو الجنوب يعمل على نشر الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية. وكانت هذه المدة حافلةً باعتناق الإسلام وخاصةً في منطقة السنغال حيث تحولت قبيلة (الفولاني) إلى الإسلام عام ٤٦٩.

وفي الوقت نفسه فقد ضعفت إمبراطورية غانا، وتفككت ممالكها، واستقلت بعض أقاليمها، وتمكّن المرابطون بمساعدة قبائل التكرور من دخول كومبي صالح عاصمة غانا، وفرض الإسلام على السكان حتى أن ملك غانا (تنكامنين) قد قبل الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، ودخل معه رعاياه في هذا الدين الجديد وذلك عام ٤٦٩.

وتوفي شيخ المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، فضعف أمرهم من بعده، فاستقل حكام غانا السابقين، وهم من قبيلة (السوننكي) عن المرابطين، وأعلنوا استقلالهم، وأعلنوا ارتباطهم بالدولة العباسية مباشرة. وتحمّسوا لنشر الإسلام، حتى غدت كلمة (سوننكي) ترادف كلمة داعية، وأجبر الملوك شعوبهم على لبس العمامة، وأخيراً ادعوا الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. وجاءت سنوات عجاف فانتقلت أعداد

من السكان والقبائل نحو الجنوب حيث الأمطار أكثر غزارة، وهذا ما جعل منطقة (أوكار) التي قاعدتها (كومبي صالح) أو مركز مملكة غانا تقل بعدد سكانها، وتضعف تجارتها، وتنقص مواردها، ويعتريها الضعف، وفي الوقت نفسه يقوى أمر قبيلة الصوصو بصفة أن بلادهم تقع إلى الجنوب من بلاد غانا.

هاجرت جماعة من قبائل الفولاني من بلاد التكرور، واتجهت نحو الشرق، واستقرت في منطقة (كانياغا)، وأسسوا أسرة حاكمة فرضت نفوذها وسيطرتها على شعب الصوصو، وقد عرف باسم مملكة الصوصو. فلما ضعف أمر غانا طمع حكام الصوصو بالسيطرة على غانا، وكانوا قد استقلوا عنها منذ أن دخلها المرابطون عام ٤٦٩. وبدأ حكام الصوصو بالهجوم على غانا، وتمكنوا من دخول عاصمتها عام ٦٠٠، وبعد ذلك وجّه حكام الصوصو هجومهم على دولة الماندينغ في منطقة (كانغابا)، وتمكنوا من السيطرة عليها عام ٦٢٨، وقتل ملك الصوصو (سوما نغارو) ملك دولة الماندينغ (ناري فامغان) وأولاده جميعاً باستثناء صغيرهم، فقد أبقاه لصغره ومرضه ويسمى (سندياتا) أو كما عرف فيما بعد باسم (ماري جاطه)، ولم تمض سوى خمس سنوات حتى استطاع هذا الصغير أن يؤسس جيشاً قوياً ويقوده لقتال الصوصو، وربما كانت مذبحة أهله قد ضاعفت الهمة في نفسه، وأحرز النصر على الصوصو عام ٦٣٣ في معركة فاصلة قتل فيها ملك الصوصو، وتمزّقت مملكته من بعده، ودخل (ماري جاطه) عاصمته، ودمر ما بقي منها عام ٦٣٨، وأسس (ماري جاطة) مملكة عرفت باسم مملكة مالي. أما الموحدون حكام المغرب فلم تكن لهم أطماع سياسية في السودان الغربي، كما لم يكن لهم همّ شديد للدعوة إلى الإسلام، ومع هذا فقد انتشر في أيامهم بسبب انتقال جماعات من الشمال إلى الجنوب إذ فرّ أحد الثائرين أيام عبد الواحد الرشيد (٦٣٠ ـ ٦٤٠) إلى بني معقل، وتوغل في السودان الغربي، ومعه عدد من أتباعه. ومن قبل كان نزوح بني معقل، وهم من العرب الذين انتقلوا إلى المغرب مع بني هلال. ومن بني معقل بني حسان الذين استقروا عند نهر السنغال ومنهم إلى اليوم الترارزة.

مملكة مالي:

دولة مالي قديمة، خضعت أخيراً لمملكة غانا، وبدأت تنمو وتتوسع في ظلها، ثم استقلت عنها، وحكمتها عدة أسر منها أسرة (تراوري)، ومنها أسرة (كيتا) التي قضى عليها الصوصو، ثم أعادها سندياتا أو ماري جاطة الذي نجا من القتل الذي لحق بأبيه وإخوته الأحد عشر، وكانت هذه الدولة من أعظم المماليك الإسلامية في السودان الغربي في المدة الواقعة بين (٦٣٩ ـ ٨٩٤)، وقد كانت أراضيها تمتد من بلاد بورنو في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن جبال البربر في الشمال إلى نطاق الغابات في الجنوب، وتشمل أجزاء من الدول الحديثة (موريتانيا ـ السنغال ـ غامبيا ـ غينيا ـ مالي ـ ساحل العاج ـ ليبيريا ـ سيراليون).

كان جد هذه الأسرة التي حكمت المملكة (أسرة كيتا) هو (موسى ديغيو) الذي حكم من ٥٩٧ إلى ٦١٥، واتخذ مدينة (غارب)[١] التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته بالعمل الصالح والتقوى، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم (بومندانه) ويقول بعض المؤرخين: هذا الرجل الحاكم كان أول من دخل في الإسلام من ملوك مالي، ولكن ابن خلدون يقول: إنه أول من حج إلى مكة المكرمة وليس أول من أسلم.

خلف (موسى ديغيو) ابنه (ناري فامغان) واستمر حتى عام ٦٢٨، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه بين قومه ولا سيما بين قبائل (البمبارا)، وقاتل صنهاجة، والصوصو، وفي أواخر أيامه هجم الصوصو على دولته، وقضوا عليه وعلى أبنائه الذين لم ينج منهم سوى (ماري جاطه). وانتهت مملكته.

قام مري جاطة، وعدّ نفسه وارثاً لأبيه (ناري فامغان)، ووقف في

(١) غارب: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى جنوب مدينة (سيغوري)، وتقع اليوم في دولة غينيا.

وجه الصوصو، وانتصر عليهم عام ٦٣٣، وضم إليه أراضي غانا عام ٦٣٨، وخرّب كومبي صالح، ونقل عاصمته من غارب في (كانجابا) إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر (نهر سانكاراني)[١] إلى الشرق من (غارب)، وقد سميت (نياني)، واشتهرت باسم (مالي)، وأصبحت فيما بعد علماً لدولة الماندينغ، وغدت مركزاً تجارياً مهماً، يفد إليها التجار، ويقيمون فيها، وكان أعظم قاطني هذه الدولة من قبائل السيراكوليه، والأمر والنهي فيها لأهل العلم. وبعد عام ٦٣٨ لم يشترك (ماري جاطه) في الأعمال الحربية، إنما كانت جيوشه تصل إلى إمارات الهاوسا في شمال نيجيريا اليوم، وإلى سواحل المحيط الأطلسي. وتدخل إلى قلب الأدغال في الجنوب، وتتوغل في الصحراء شمالاً، وتوفي (ماري جاطه) عام ٦٥٣.

وقام (منسي علي) بعد أبيه (ماري جاطه)، وكان من أعظم حكام بلاده، محباً للسلام. معروفاً بالتقوى والصلاح، وأدى فريضة الحج عام ٦٥٨، وضمّ إليه (بامبوك) و (إنقاراه) وبسط نفوذه على دولة (صنغاي) الناشئة، وأخذ منها عدداً من الرهائن لضمان خضوعها له. وتوفي عام ٦٦٩، وخلفه شقيقه، وسميه (منسي علي)، وفي أيامه خضعت البلاد لمرحلة من الاضطرابات دامت حتى عام ٧٠٧، تولى خلالها عدد من الملوك منهم.

١ ـ شقيقه (منسي علي) (٦٦٩ ـ ٦٧٣).

٢ ـ شقيقه الآخر (خليفة علي) (٦٧٣ ـ ٦٧٤).

٣ ـ أبو بكر سبط من أسباط ماري جاطة (٦٧٤ ـ ٦٨٤).

٤ ـ ساركوه مولى من موالي أبي بكر، اغتصب السلطة حتى عام ٧٠٠، وقد غزا بلاد التكرور التي بقيت موالية للمرابطين أو تعمل باسمهم

---

(١) نهر سانكاراني: من روافد نهر النيجر، ويشكل اليوم جزءاً من الحدود بين غينيا ومالي، ويرفد نهر النيجر عند مدينة كانجابا.

رغم انقضاء دولتهم منذ مدة ليست قصيرة، كما غزا (وانقاره)، وبلاد (مسينا) الوثنية، و (غاو) عاصمة (صنغاي)، كما توسعت التجارة في أيامه، وأدى فريضة الحج عام ٧٠٠، وفي أثناء عودته عن طريق الحبشة والسودان هاجمته جماعة من الدناقل عند ساحل البحر الأحمر وقتلوه.

٥ ـ (منسي قو) وهو ابن (ماري جاطة) (٧٠٠ ـ ٧٠٥).

٦ ـ محمد بن منسي قو (٧٠٥ ـ ٧١٠).

٧ ـ أبو بكر (٧١٠ ـ ٧١٢)، وهو الذي أبحر بالمحيط الأطلسي ليكتشف ما بعده، ولم يرجع وقد وصل إلى أمريكا الجنوبية ـ والله أعلم ـ. ووقعت بعده عدة فتن واضطرابات انتهت بنقل السلطة إلى أولاد أخت (ماري جاطة) وكان أولهم (منسي موسى) بن أبي بكر الملك السابق، ويعد من أعظم ملوك دولة مالي، إذ كان يجيد العربية، صالحاً، ورعاً، أقام علاقات مع مصر والمغرب، وفتح بلاده للفارين من بلاد الأندلس، وبلغت دولته في أيامه ذروة مجدها وقوتها واتساعها. وتوفي عام ٧٣٨، وخلفه ابنه (مغان الأول) أو (منسي مغان)، وحكم حتى عام ٧٤٢، وعادت البلاد إلى الفرقة والاختلاف، فهاجمت قبائل (الموش) المقيمة في إقليم (باتنغا) في بلاد فولتا العليا اليوم، ووصلت إلى (تومبوكتو) فأحرقتها، وأبادت حاميتها من قبائل الماندينغ.

تولى سليمان بن منسي موسى الحكم بعد أخيه (مغان الأول)، وكان معروفاً بالتقوى والصلاح والفقه في الدين، ودام حكمه عشرين سنة (٧٤٢ ـ ٧٦٢)، واستطاع أن يعيد في خلالها معظم البقاع التي خرجت من حكم دولة مالي، وإن كان قد عجز عن استعادة مدينة (غاو) قاعدة (صنغاي)، وبنيت في أيامه المساجد والمنارات، وجاء الفقهاء من خارج البلاد، وأدّى هو فريضة الحج عام ٧٥٢.

تولى حكم مملكة مالي بعد سليمان ابنه (قنبتا)، ولم يمض عليه سوى تسعة أشهر في الحكم حتى توفي، وأخذ الحكم بعده ماري جاطه

الثاني بن مغان الأول (٧٦٢ ـ ٧٧٦)، كان سيء السيرة، مبذراً أتلف ما في خزائن الدولة، غير أن صلته مع سلاطين مصر والمغرب كانت حسنة.

أخذ الحكم بعد ماري جاطه الثاني ابنه موسى الثاني، كان أحسن من أبيه سيرةً، غير أن وزيره قد استبد بالأمر دونه، وحجر عليه، وحارب دولة صنغاي، وتجاوزت جيوشه عاصمتها (غاو) دون أن تدخلها، وكذلك حارب الملثمين في الشمال، وتوفي عام ٧٨٩.

خلف موسى الثاني أخوه (مغان الثاني) غير أنه لم يلبث أن قتل عام ٧٩٠ في فتنةٍ داخلية. وأخذ الحكم (صندكي) زوج أم موسى، واستمر به حتى عام ٧٩٣، وحدثت في أيامه فتن كثيرة، استغلها أحد أبناء أسرة (كيتا) الحاكمة، وتسلم زمام السلطة، وكان اسمه محموداً، وتسمى باسم منسي مغان. وعاشت مملكة مالي بعد ذلك في مرحلة من الضعف بسبب:

١ ـ ضعف الملوك وتناحرهم فيما بينهم.

٢ ـ هجمات الطوارق على الشمال، وقد استولوا على (تومبوكتو) و(ولاته)، وأكثر المناطق في شمال الدولة.

٣ ـ هجمات الفولانيين والتكارنة على إقليم بامبوك الواقع على حدود السنغال اليوم.

٤ ـ انفصال مملكة صنغاي عن مالي واستقلالها في منتصف القرن الثامن الهجري،، إثر هرب الرهائن الصنغانيين الذين كانوا في قبضة مالي، ومنهم: (على كولن) و (سليمان نار).

وقد نجحت صنغاي من الاستيلاء فيما بعد على مالي وبسط نفوذها عليها في أواخر القرن الثامن.

٥ ـ الغارات التي تشنّها قبائل الموش الوثنية من الجنوب.

ولما بسطت صنغاي نفوذها على مالي، بقيت دولة مالي كإمارة صغيرة في منطقة كانجابا محتفظةً بكيانها، وكانت تحاول أحياناً الخروج

على صنغاي، واستعانت بقوى خارجية، فقد استنجدت بالعثمانيين عام ٨٨٦ وطلبت حمايتهم، وطلبت مساعدة البرتغاليين الذين بدأوا يثبتون أقدامهم على سواحل إفريقية الغربية. وأرسلت البرتغال سفارةً لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١ ووصل إلى أمير مالي محمود الثاني، وكان نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم، وفي الوقت نفسه فقد شجّع هذا الأمير محمود الثاني على القيام بثورة ضد سلطان صنغاي عام ٩٤٠ للتخلص من سيطرته إلا أنه قد هُزم، وأبادت صنغاي حركته، وهذا ما شجع الفتن. واستمر ذلك حتى احتلت المغرب مملكة صنغاي وقضت عليها، وانشغل أمراء صنغاي بما حلّ بهم فاستقل سلطان مالي محمد الثاني، كما استقل سلطان (ماسينا) الفولاني حمد آمنة.

مملكة الصنغاي:

الصنغاي مجموعة قبائل زنجية كانت تعيش غرب نهر النيجر في المنطقة الواقعة اليوم شمال بنين وغربي نيجيريا، ثم انتقلت مع نهر النيجر إلى الشمال، وانتقلت معها عاصمتها فكانت في البداية (دندي)، ثم (كوكو) وغدت أخيراً في (غاو). وتقيم اليوم في مالي في المكان نفسه حول غاو، وفي دولة النيجر عند مجرى النهر، وحول مدينة (أغاديس).

خضعت الصنغاي لدولة مالي، وقدمت رهائن لضمان خضوعها، واستمرار سيطرة مالي عليها. وكانت هذه الرهائن ولدي ملك صنغاي (زايا سبي) وهما: (علي كولن) و (سليمان نار) وهما طفلان صغيران، وذلك حوالي عام ٦٦٨ في عهد ملك مالي (منسي علي).

استطاع الرهينتان أن يفرا من مالي، وأن يصلا إلى (غاو)، وأن ينقذا مدينتهما من الحامية المالية، وأن يؤسسا مملكةً جديدةً أخذت تتوسع على حساب مملكة مالي التي بدأ يدب فيها الضعف، وتسلم (علي كولن) أول ملكٍ فيها، ولم يطل عهده إذ كان كبير السن، وخلفه أخوه (سليمان نار)، ثم عادت مملكة صنغاي تتبع اسمياً لمملكة مالي. وبدأ الضعف بعدئذ يدبّ

في مملكة مالي وتضعف قبضتها على المناطق الشرقية، وهذا ما قوّى أمر الصنغانيين. وفي عام ٨٢٣ قام ملك صنغاي (محمد دوغو) بحملة ضد مملكة مالي، وأخضع قبائل (البمبارا)، وثبت دعائم حكمه، ثم تمكّن من التخلّص من سيطرة مالي التي وصلت إلى مرحلة من الضعف كبيرة، واقتصرت سيطرتها الفعلية على منطقة (كانجابا).

خلف (محمد دوغو) ابنه (مسنا علي) عام ٨٦٩، ويعدّ مؤسس مملكة صنغاي إذ استطاع أن يحتل مدينة (تومبوكتو) عام ٨٧٣، وطرد منها الطوارق، وحرق أكثر أحيائها، وقتل الكثير من سكانها، وفي عام ٨٧٥ أخضع منطقة النيجر كلها، فاستولى على مدينة (جني)، وبسط نفوذه على منطقة (باتنغا) مقر قبائل الموش، وإن لم يتمكن من إخضاع هذه القبائل تماماً. وحاولت مملكة مالي الاستعانة بالعثمانيين إذ طلبت أن تكون تحت حمايتهم وذلك عام ٨٨٦ فلم تستفد من ذلك.

توفي (مسنا علي) عام ٨٩٨ وخلفه ابنه أبو بكر فثار عليه قواد أبيه، وتمكن القائد محمد بن أبي بكر من أن يهزمه، وتوفي أبو بكر عام ٨٩٩، وانتهى حكم أسرة (زا)، وانتقل إلى أسرة محمد بن أبي بكر الذي عرف باسم (إسكيا محمد) الذي بلغت مملكة صنغاي في عهده أوج قوتها، فقد نظّم الجيش، واهتمّ بالشؤون الإسلامية، وحجّ عام ٩٠١، وعندما رجع من أداء فريضته، أعلن الجهاد، واتجه إلى قبائل (الموش) الوثنية، وطلب من أمرائهم الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، وتقدّم نحو الغرب حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي إذ ضم بلاد الماندينغ وبلاد الفولاني إليه، ووصل في ناحية الشرق إلى بحيرة تشاد، ومن جهة الشمال وصل إلى الصحراء. وطالت أيامه فضاق منه أولاده أو استعجلوا الحكم فقاموا عليه عام ٩٣٥ وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى، فنفى أباه إلى جزيرة في نهر النيجر، وتسلّم الأمر حتى قتل عام ٩٣٨. وتولّى بعده أخوه (محمد بنكه) حتى عزل عام ٩٤٤، وتولى من بعده أخوه (إسكيا إسماعيل) لمدة عامين، أعاد بعدهما أباه (إسكيا

محمد) وكان قد كف بصره، ثم توفي عام ٩٤٩. واستنجدت إمارة مالي في هذه الأثناء بالبرتغاليين ولكن حركتها قد قمعت بشدة في عهد (محمد نبكه).

تولى حكم صنغاي عام ٩٥٠ (إسكيا إسحاق) فساءت العلاقات بين دولته والمغرب. وخلفه (إسكيا داود) عام ٩٥٦، واستمر حتى عام ٩٩٠، وزادت العلاقات سوءاً مع المغرب. وخلفه ابنه (إسكيا الحاج محمد الثاني)، وفي عام ٩٩٥ خلعه إخوته، وكانت المناوشات مع المغرب قد بدأت. وجاء أخوه إلى الحكم وهو (محمد بن إسكيا داود) لمدة ثلاث سنوات، أتى بعدئذٍ (إسكيا إسحاق الثاني) فتوترت العلاقات مع المغرب وجاءت حملة مغربية احتلت دولة الصنغاي بعد معركة (تندي)، ودخلت العاصمة (غاو).

مملكة التوكلور:

حكم شعب التوكلور منطقة السنغال من عام ٤٦٩ حتى عام ٦٣٨، حيث جاء شعب الفولاني وبسط نفوذه حتى عام ٧٥١ حيث ثار عليه شعب الولوف، وحكم البلاد حتى القرن العاشر إذ رجع التوكلور إلى السيطرة.

وسط إفريقية:

قامت بعض المماليك في وسط إفريقية ومنها:

١" ـ مملكة كانم: ومركزها شمال شرقي تشاد، وقد قامت منذ عام ١٨٣، وكانت تحكمها أسرة سيف، وتدين بالوثنية، وانتشر الإسلام فيها في القرن الخامس، وأول من اعتنق الإسلام من حكامها الملك (أوم) الذي حكم (٤٧٨ ـ ٤٨٩)، ولقب الملوك الذين خلفوه بلقب (ماي)، وشن هؤلاء الملوك حروباً على الشعوب الوثنية المجاورة لهم مثل (التيدا) في الشمال، و (صوص) في الجنوب، وتوسعت هذه المملكة من النيجر غرباً حتى واداي شرقاً.

ثم جرت حروب متكررة بين شعب (البولالا) ومملكة كانم واستمرت ما يقرب من مائة سنة (٧٨٩ ـ ٩٠٠)، وقتل خلال هذه الحروب أربعة ملوك من حكام هذه الدولة، واضطر أولو الأمر فيها أن يتركوا منطقتهم، وأن يفروا إلى غرب بحيرة تشاد حيث أسسوا هناك دولة في بلاد الكانوري الذين يشكلون أكثر سكان تلك المنطقة المعروفة باسم (بورنو)، وفي منتصف القرن التاسع استطاع ملك هذه الدولة الجديدة (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يهاجم قبائل (البولالا)، وأن ينتصر عليها، وأن يعود إلى منطقة كانم ثانيةً، حيث ازدهرت المملكة من جديد في كانم.

وقامت إمارات متعددة في وسط إفريقية ولكن لم يكن الإسلام قد ساد فيها، وإن بدأ ينتشر في هذه المرحلة التي نتحدث عنها.

لم يكن لحكام المغرب من المرينيين الذين ملكوا في هذه المرحلة أطماع في المناطق التي تلي الصحراء بل كانت علاقتهم وثيقة مع حكام مالي، إذ نلاحظ أن أبا علي قد ثار على أخيه أبي الحسن وحاول الاستقلال بسجلماسة، غير أن أخاه أبا الحسن قد قضى عليه عام ٧٣٢ ويبدو أن منسي موسى ملك مالي قد أعانه على أخيه حيث كانت الصلات بين البلاطين قائمة ومتينة. وعندما استطاع سلطان المغرب المريني أبو الحسن فتح تونس أرسل له ملك مالي (منسي سليمان) قوةً. وخفت العلاقات بين المنطقتين قليلاً ثم عادت حسنة حتى نهاية دولة مالي.

نصارى أوروبا:

بعد أن ضعف المسلمون في الأندلس، وقوي أمر النصارى، وبدأت المدن الأندلسية تسقط بأيديهم منذ نهاية القرن السادس الهجري، وبعد أن سقطت قرطبة عام ٦٣٣، وبلنسية ٦٣٦، وإشبيلية عام ٦٤٦ زاد أملهم بإخراج المسلمين من الأندلس تدريجياً، فلما وقفت غرناطة أمامهم وصمدت حتى عام٨٩٧هـ رأوا أن يلتفوا عليها ويطوّقوها، وأن يضربوا قواعد المسلمين التي خلفها كي لا تدعمها أولاً، وليحتلوها بصفتها مراكز

إسلامية، وكان يدفعهم الحقد الصليبي الأسود، فقد ضربوا عدداً من مرافئ البحر المتوسط، واحتلوا بعضها، وفي الوقت نفسه انطلقوا على سواحل المحيط الأطلسي غزاةً أحياناً عندما يرون في أنفسهم القوة، وتجاراً زائرين عندما يبتعدون عن مواطنهم ولا يجدون عندهم القوة الكافية.

وصل بعض البحارة الأوروبيين إلى مصب نهر السنغال عام ٧٤٧، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغين) الصغيرة. واحتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر النصارى في هاتين الجزيرتين حتى أواخر القرن التاسع إذ بدأ الفرنسيون يترددون على شواطئ السنغال، ويقيمون مراكز لهم يستقرون في بعضها، وحتى ذلك الوقت لم يجد الأوروبيون عندهم القدرة الكافية للتوغل في داخل إفريقية خوفاً من قوة المسلمين.

ولما سقطت الأندلس بيد النصارى من إسبان وبرتغال دفعتهم نشوة النصر للانطلاق على السواحل في محاولة لتطويق المسلمين، فكان أن عرفوا سواحل إفريقية الغربية، ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح وخرجوا على المسلمين في شرقي إفريقية وجنوبي آسيا من جهة الجنوب، وبدأ الصراع هناك.

الفصل الخامس

بنو نصر "الأحمر" في الأندلس

لما ضَعُفَ أمر الموحدين في الأندلس، واشتد ضغط النصارى على المسلمين حيث كانت حرباً صليبية شرسة إذ كان المتطوعون النصارى يفدون إلى الإسبان من كثير من جهات أوروبا وخاصةً من إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وزاد تفرّق المسلمين، وأصابهم الوهن بحبهم الدنيا وكراهيتهم للموت، لذا فكر عدد من الزعماء بجمع مدن الأندلس المتنافرة في دولة واحدة، تستطيع أن تقف في وجه النصارى، وإذا كنا لا نستطيع أن نطرح من هذه الفكرة بالذات حب الزعامة والأنانية إلا أن فكرة الوحدة فيها من الفائدة ما فيها، واستطاع المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أن يضم عدة مدنٍ كبرى في دولته ومنها قرطبة، ومرسية، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقةً، والمرية إلا أن ابن هود هذا كان متسرعاً في قراراته لا يُجيد إحكام الخطط رغم شجاعته، وهذا ما جعله يخسر في معاركه، ويُضيّع عدداً من المدن والمواقع لصالح النصارى، فقد سقطت الجزيرة الشرقية ميورقة عام ٦٢٧ أي بعد قيام دولته بأقل من عامين، وبعد عدة سنوات سقطت الجزيرة الثانية يابسة ثم ضاعت قرطبة عام ٦٣٣.

لم يصل أمر ابن هود في غرناطة[١] إذ تغلّب عليه منافسه أبو عبد الله

---

(١) أصبحت غرناطة أول مرةٍ دار ملك عام ٤٠٣ عندما ملكها الحاجب المنصور أبو مثنى زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، عندما استولى الجيش البربري بإمرة سليمان بن=

محمد بن يوسف أحد رجال بني نصر الدين الذين ينتمون إلى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، سيد الأنصار من الخزرج، وكان قد ملك جيان ثم دخل غرناطة عام ٦٣٥، وابن هود يستعد لدعم بلنسية التي يحاصرها النصارى الذين يبارك عملهم ويدعمهم البابا غريغوري التاسع وهذا ما يوضح الصفة الصليبية للقتال الذي كان يدور يومذاك على تلك الأرض. وإذا استطاع محمد أبو عبد الله هذا أن يضمّ إليه قرطبة وإشبيلية ولكنها كانت مدة قصيرة فلم تلبثا أن خرجت من يده، وقد حاول عدم الصدام مع النصارى فكانت المدن تسقط بأيديهم الواحدة تلو الأخرى إذ سقطت بلنسية عام ٦٣٦، ودانية ٦٤١، وجيان ٦٤٣، وشاطبة ٦٤٤، وإشبيلية ٦٤٦، ومرسية ٦٦٤. وتلقّب بالشيخ، والغالب بالله. وتظاهر في أول أمره بطاعة ملوك المغرب من أواخر الموحدين، فلما دالت دولتهم، وغلبهم بنو مرين دعا لهم أيضاً، عام ٦٦٥، كذلك افتتح أمره بالدعاء للخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله مثل سابقه وسميّه ابن هود، وبعد مدة ترك ذلك. وصالح ملك قشتالة فرانده بن الفونس عام ٦٤٣. وخشي سلطان بني مرين لذا فقد تحالف مع النصارى الإسبان، وترك لهم حامية في الجزيرة الخضراء. ولما رأى قوة سلاطين المغرب تحالف معهم، وقدّم لهم مالقة.

كانت أعداد من المسلمين من سكان المدن التي سقطت بأيدي النصارى يرون وضع الأندلس الأليم وما سيؤول إليه فيفضلون البقاء حيث هم تحت رحمة أعدائهم الحاقدين من النصارى، ولا شك فإن بعضهم كان يرتد عن دينه تحت الضغط، وبعضهم الآخر يذوب مع الزمن في المجتمع الذي يعيش فيه في سبيل تأمين حاجاته ومتطلباته الدائمة والضرورية، أو نتيجة الحياة في وسط الإغراءات البهيمية والمصلحية وقد عرف هؤلاء باسم

= الحكم على قرطبة. وبقي زاوي في غرناطة مدة سبع سنوات عاد بعدها إلى إفريقية بعد أن ولي على غرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي توفي عام ٤٢٩، وخلفه عليها ابنه المظفر الحاجب باديس الذي توفي عام ٤٦٥، وتولى أمر غرناطة بعدها حفيده عبد الله بن بلقين الذي خلع عام ٤٨٣ وأصبحت إلى أمراء ملوك لمتونة من المرابطين أيام يوسف بن تاشفين.

المُدَجّنين وكان بعض المسلمين من سكان تلك المدن ينتقلون إلى تلك الجهات التي لا تزال تحت نفوذ إخوانهم المسلمين.

وعندما قوي أمر بني مرين وبدؤوا يدعمون الأندلسيين ضد الإسبان صارت جماعات من المجاهدين ينتقلون إلى العدوة الأندلسية، ويعرفون باسم الغزاة، وتعرف قيادتهم باسم مشيخة الغزاة، وغدا لهم دور في تلك الحروب، وفي رسم السياسة الأندلسية أحياناً.

وتوفي أبو عبد الله محمد الأول عام ٦٧١، وخلفه ولده الذي يحمل اسمه وكنيته أيضاً، ويُعرف باسم المنتصر، وإن كان أحياناً يسمى بالثاني تمييزاً له عن والده أو عن الآخرين الذين جاءوا بعده، وحملوا الاسم والكنية ذاتها. وكانت علاقته مع بني مرين حكام المغرب تتناوب بين الود والوحشة. وكان الإسبان يستغلّون أيام الجفاء فيغيرون على المواقع الإسلامية، وقد هاجم طاغيتهم الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨ وكاد يفتحها ثم تحالف مع ملك قشتالة، وكان المنتصر يخشى سلطان بني مرين لذا فقد قدّم لهم مدينة مالقة عام ٦٩٧. أما الإسبان فقد أخذ صاحب برشلونة جزيرة ميورقة عام ٦٥٨.

وتوفي المنتصر عام ٧٠١ وخلفه ابنه الذي يحمل اسمه وكنيته وهو أبو عبد الله محمد الثالث، فبنى المسجد الأعظم بالحمراء، وهاجم مدينة المنظر، واستولى عليها عنوةً، وأسر صاحبها التي قدّمها إلى ملك المغرب، وتملّك مدينة سبتة عام ٧٠٥، وخُلع بعدئذٍ عام ٧٠٨، وقد عُرف بالمخلوع.

تولّى أمر غرناطة نصر أبو الجيوش بن محمد عام ٧٠٨ بعد خلع أخيه، واصطدم مع ابن عمه صاحب مالقة، وقد هُزم نصر أمام ابن عمه، وقامت حركة في غرناطة يقودها العلماء تدعو إلى خلع السلطان، وتشكّك في إسلام وزيره، وقد تمكّن أبو الجيوش من إخماد هذه الحركة، غير أن عدداً من العلماء قد غادروا غرناطة، وتوجّهوا إلى مالقة الذي شعر صاحبها بقوته فأراد السير إلى غرناطة إلا أن والده فرج لم يوافقه حرصاً على وحدة

كلمة الأسرة، وعدم تفرّق الكلمة كي لا يستغل الإسبان ما يحدث من ضعف ويهاجموا المسلمين غير أن أبا الوليد إسماعيل بن فرج قد قبض على أبيه، وسار إلى غرناطة مطالباً بحقه بالملك، وقد استطاع أن يدخل غرناطة عام ٧١٣.

حكم أبو الوليد إسماعيل غرناطة، وهُزم أمام طاغية الإسبان، ثم تمكّن من العودة إلى النصر، وقام بالغزو عام ٧٢٤، وعام ٧٢٥، وقتله أحد أقربائه وهو راجع من غزوته الأخيرة غير أن خصمه قد قُتل أيضاً، وقُتل معه كل من ناصره، وأُخذت البيعة لمحمد ولد إسماعيل، وقد عرف أبو الوليد بابن الأحمر، وأصبحت علماً لحكام غرناطة.

تولى الحكم أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي الوليد، وقد قاتل الإسبان، وأنقذ حصن قبرة[1]، وجبل الفتح، وجاءه طاغية الإسبان فداراه حتى تمكن من الاستبقاء على جبل الفتح، وحدثت فتنة في أيامه، فاستغل الطاغية هذه الفرصة فاستولى على ثغر (وبرة)، وخرج السلطان من غرناطة مغاضباً، وأخذ سلطان المغرب رندة وغيرها، وأخذ الإسبان جبل الفتح، فعبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلا البحر بنفسه عام ٧٣٢ مستصرخاً ملك المغرب فأنجده، وأرسل معه ابنه على رأس نجدة فأنقذ جبل الفتح عام ٧٣٣، وقُتل السلطان محمد بيد أحد أعدائه عند جبل الفتح في أواخر العام المذكور.

خلف السلطان محمد الرابع أخوه أبو الحجاج يوسف الأول، واستمر عهده حتى عام ٧٥٥، وفي أيامه حدثت معركة بحرية عام ٧٤٠ بين المسلمين والنصارى الإسبان حيث تجمعت القوى الصليبية كلها بدعم من البابا وهُزم فيها المسلمون، فأخذ المسلمون للاستعداد غير أنهم هزموا ثانية في معركة طريف عام ٧١٤، وعندما توفي خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس الذي تلقب بـ «الغني بالله» وبعد خمس سنوات قام عليه أخوه

---

(١) حصن قبرة: في منتصف المسافة بين قرطبة وغرناطة.

إسماعيل الثاني، وكان قد ألزمه قصراً مع أمه وأخواته، إذ أخذت أم إسماعيل مبلغاً كبيراً من المال من خزائن أبيه عند وفاته، وبدأت تعمل لتولية ابنها الحكم، واستعانت بزوج ابنتها، وهو ابن عم زوجها، فتمكن ابن العم من الفوز وإنجاح عملية الدعوة لإسماعيل، فقام بالأمر، وانتقل السلطان محمد إلى وادي «آش» ثم استدعاه سلطان المغرب فانتقل إليه.

استعان إسماعيل بملك قشتالة، إلا أن ابن عمه أبا عبد الله محمداً لم يلبث أن تنكر له، وقام عليه وقتله عام ٧٦١ أي بعد سنة واحدة فقط من اتفاقهما والقيام بالأمر. وتفرّد ابن العم بالسلطة وهو أبو عبد الله محمد السادس. وعاد السلطان محمد إلى الأندلس فأطاعه أهلها عام ٧٦٣، وهرب ابن عمه من غرناطة، والتجأ إلى ملك قشتالة، ودخل غرناطة محمد واستقر له الوضع ثانيةً، ولم يلبث ملك قشتالة أن قتل خصم السلطان محمد الخامس وأرسل إليه رأسه. وثار على السلطان محمد أحد أبناء عمومته وهو علي بن علي بن أحمد بن نصر، ولكنه ظفر به. وطالت أيامه، واتسعت دولته حتى صارت له السيطرة على المغرب بسبب الاختلافات بين بني مرين، حيث كان يضرب أحدهما بالآخر، كما تصالح مع مملكتي آرغون وقشتالة.

وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الثاني وأراد البقاء على الهدنة مع ملوك قشتالة، ولكن لم يتم له ذلك، وحدثت بعض الحروب، ثم عقد صلحاً مع الملك النصراني الشاب هنري الثالث، واستمر حتى توفي عام ٧٩٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد السابع الذي توفي عام ٨١٠، وكان محمد السابع هذا قد سجن أخاه الأكبر منه يوسف الذي كان ولي عهد أبيه، وبقي سجيناً حتى توفي الأصغر فتسلم الأمر باسمه يوسف الثالث، وعقد هدنة مع ملك قشتالة لمدة عامين تجدد بعدها القتال فهُزم عام ٨١٥، واضطر إلى عقد هدنة جديدة، وخسر فيها الكثير كما خسر في معاركه، وكان شاعراً، وتوفي عام ٨٢٠. وكان على خلاف مع سلطان بني مرين في المغرب عثمان بن أحمد، وكان يخشى أن يحتل سلطان المغرب غرناطة.

تولى أمر غرناطة أبو عبد الله محمد الثامن وقد عرف باسم الأيسر، وبقي حتى عام ٨٣١ حيث خلع، وولي ابنه أبو عبد الله محمد التاسع الذي اشتهر بالصغير، غير أنه خلع بعد عامين، وأُعيد أبوه الأيسر للمرة الثانية، ثم خُلع مرة أخرى بعد عامين (٨٣٥) وتولى أبو الحجاج يوسف الرابع الذي أمه ابنة محمد الغني بالله وحكم عدة أشهر وتوفي بعدها، فأُعيد الأيسر مرة ثالثة وبقي حتى عام ٨٤٥، حيث خلع أيضاً وخلفه أبو عبد الله محمد العاشر الذي عرف بالأحنف، كما يطلق عليه أحياناً الأعرج، وخلع عام ٨٤٨ أي بعد ثلاثة أعوام من حكمه، وأعطي الحكم ليوسف الخامس بن إسماعيل وخلع بعد حكمه بعدة أشهر، وأُعيد الأحنف فاستمر حتى ٨٦٣ حيث خُلع، وتقلّد مُلكَ غرناطة بعده سعد بن محمد السابع حتى عام ٨٦٧ حيث خُلع، وأُعيد محمد الخامس حتى عام ٨٦٨، ورجع إلى الملك مرة ثانية سعد بن محمد السابع.

وفي عام ٨٦٩ خلع سعداً ابنه علي أبو الحسن وبقي حتى توفي عام ٨٨٧ فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الحادي عشر، وقد عُرف بالصغير، وقد قاتل النصارى الإسبان فأُسر عام ٨٨٩، فتسلّم عمه محمد الثاني عشر أبو عبد الله وقد عرف بالزغل. ولكن أُطلق سراح أبي عبد الله محمد الصغير عام ٨٩٠ بعد صلح تنازل فيه كثيراً للنصارى، وأُعيد إلى السلطة عام ٨٩٢، فبقي حتى عام ٨٩٧ حيث ضاعت الأندلس نهائياً إذ سقطت بيد النصارى وانتقل أبو عبد الله الصغير إلى العدوة المغربية حيث استُقبل في فاس وبقي حتى وفاته... وضاعت الأندلس من أيدي المسلمين وقامت حروب الإبادة والتنصير والتشريد... حيث كانت غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

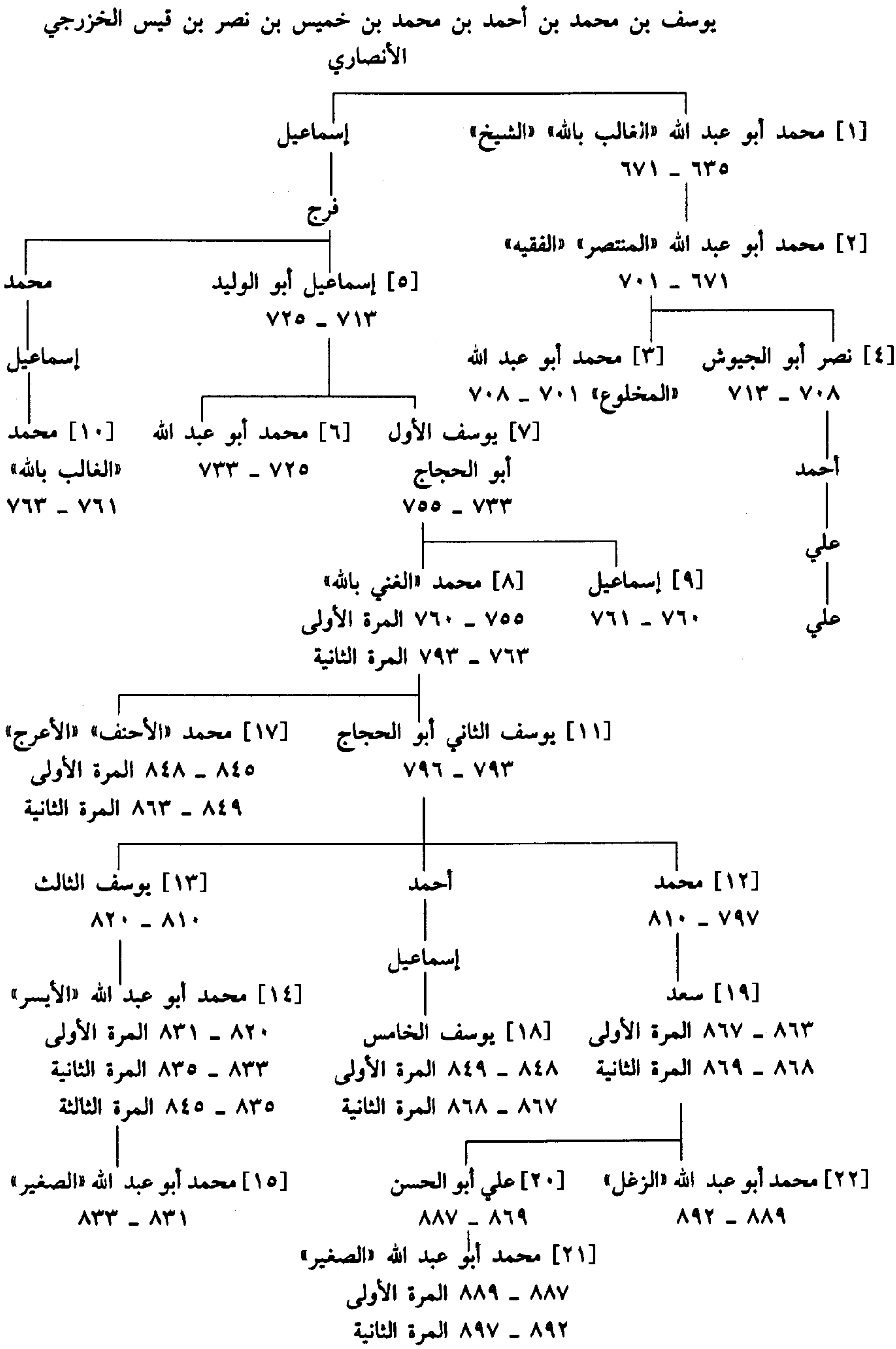

ملاحظة: كان السلطان السادس عشر هو يوسف ابن ابنة محمد الغني بالله وقد حكم عدة أشهر من عام ٨٣٥ ثم توفي وهو يوسف الرابع.

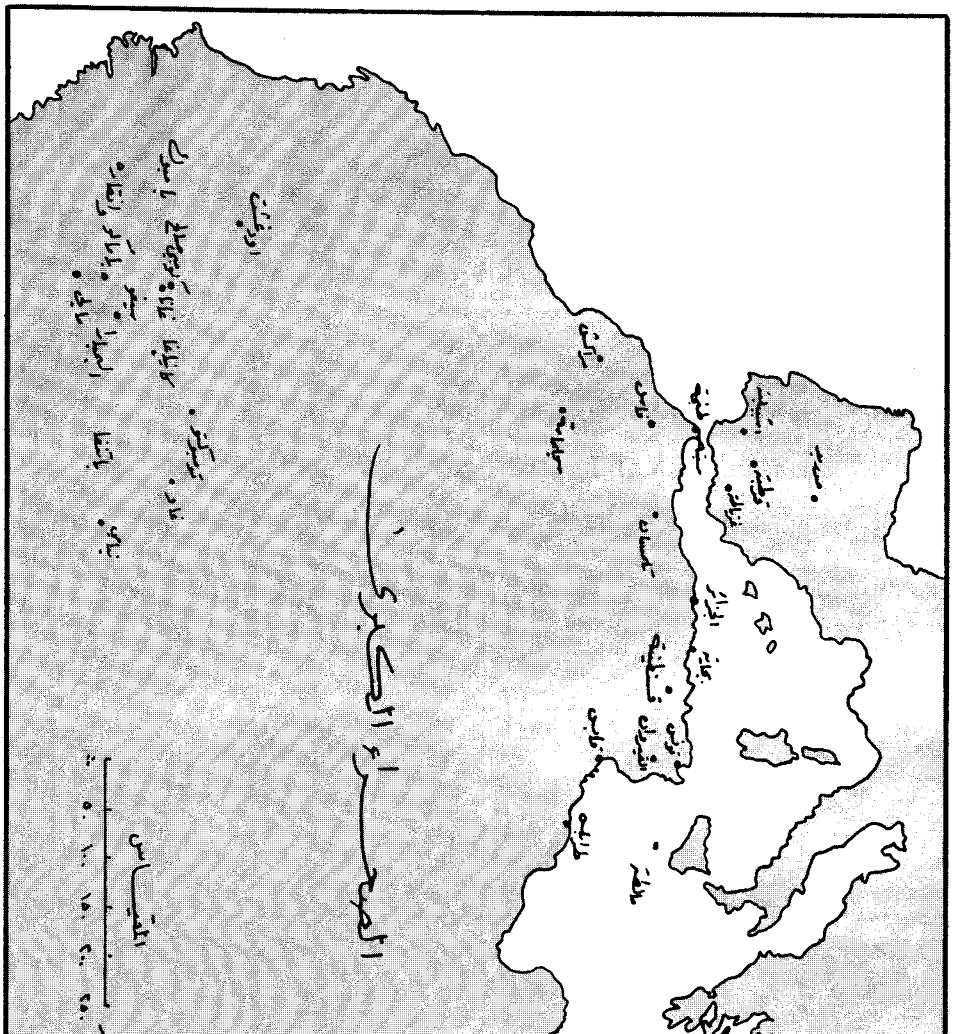
الصحراء الكبرى

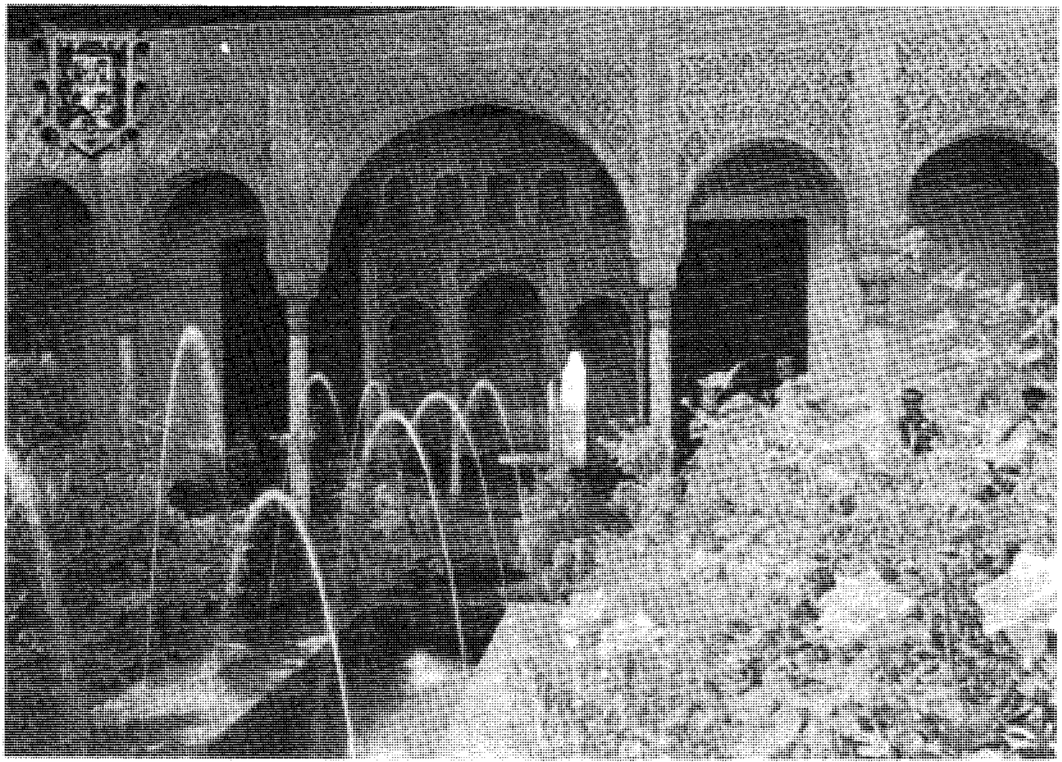

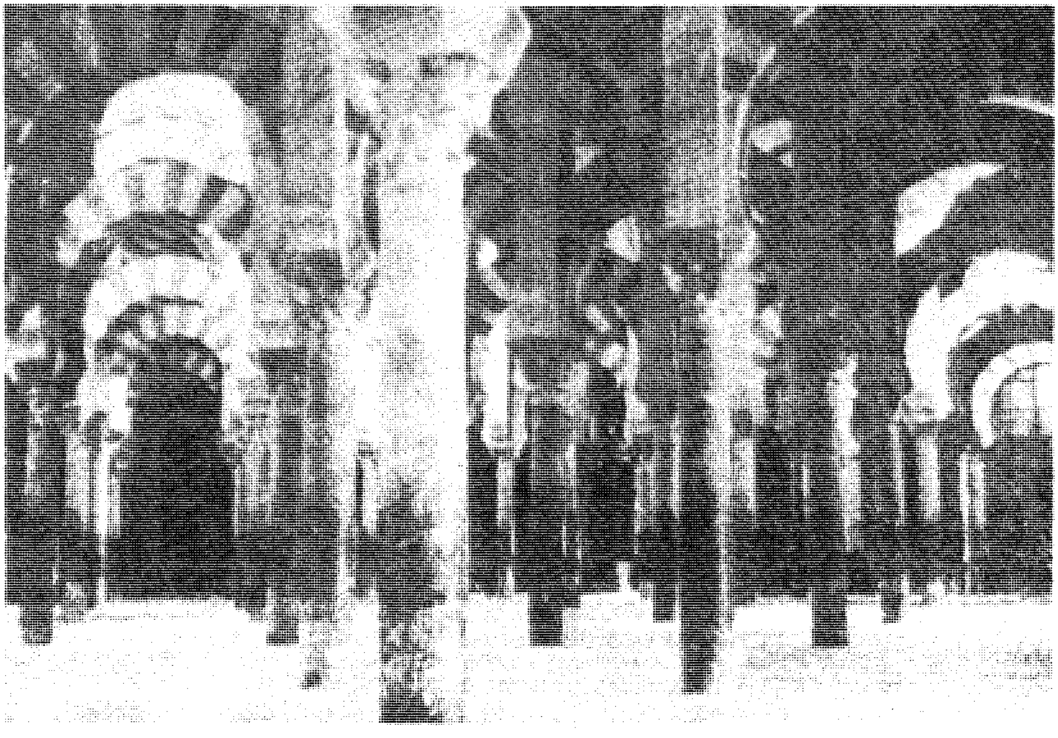

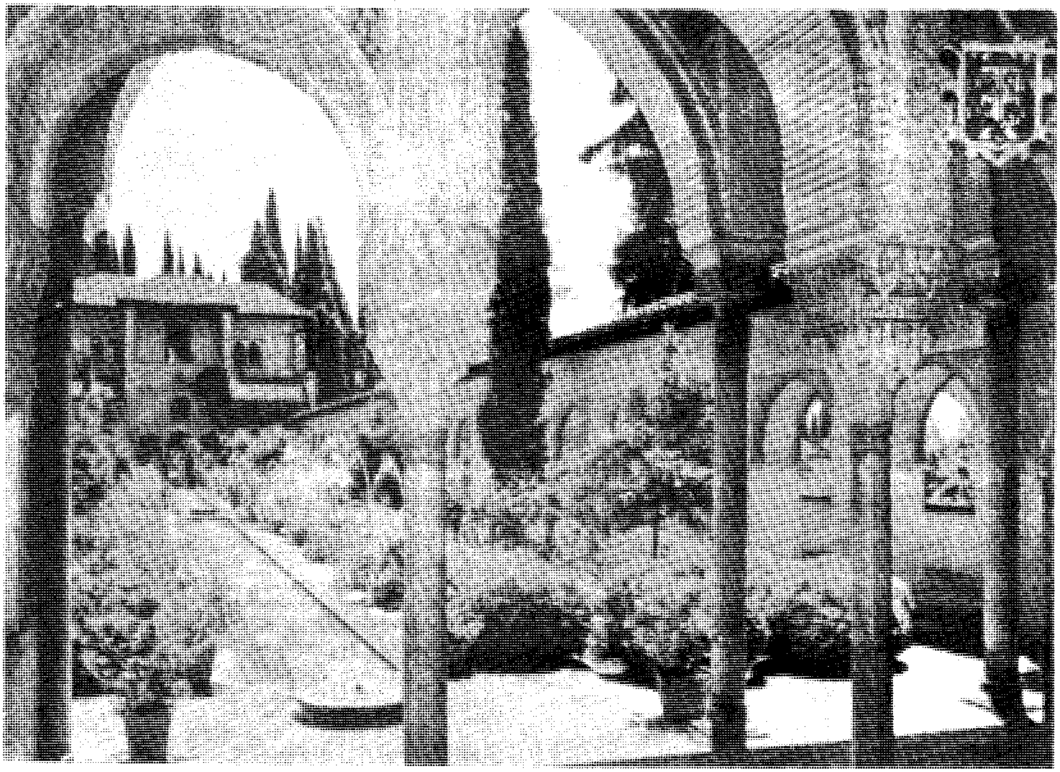

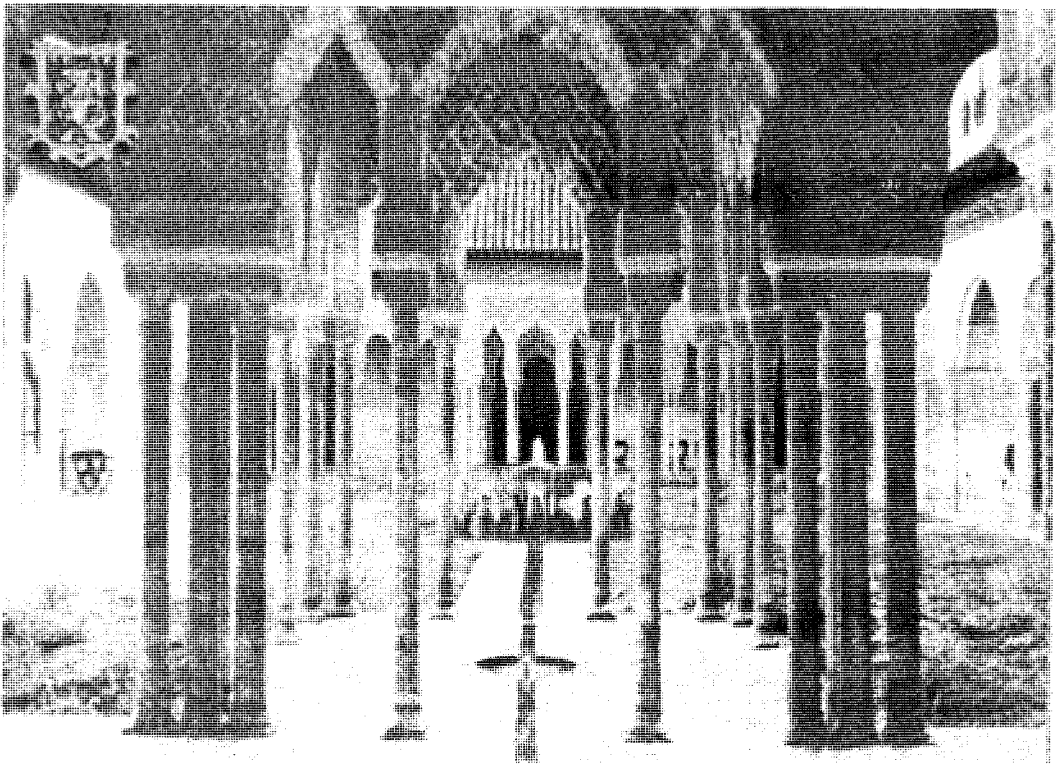

المَراجع

- **الأشرف قانصوه الغوري**: محمد رزق سليم، المؤسسة المصرية العامة، من سلسلة أعلام العرب، ٢٥ ـ.
- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي**: سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٣٩٦هـ.
- **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**: محمد الغربي، دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ ١٤٠٢هـ.
- **البداية والنهاية**: إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى ٧٧٤، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الفلاح، الرياض.
- **تاريخ ابن خلدون كتاب العبر**: عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ.
- **تاريخ الإسلام**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- **تاريخ الخلفاء**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١، المكتبة التجارية ـ القاهرة، ١٣٧١.
- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع**: أبو شامة المتوفى ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان والبلغار وملوك التتار**: م.م الرمزي، المطبعة الكريمية والحسينية، أورنبورغ ١٣٢٥.
- **حياة جنكيزخان**: ب. يا، فلاديمير ستوف، ترجمة سعد بن محمد حذيفة الغامدي.
- **الدعوة إلى الإسلام**: سير توماس. و. أرنولد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١.

- **الدول الإسلامية**: ستانلي لين بول إضافات بارتولد وخليل أدهم، ترجمة محمد صبحي فرزات ـ دمشق ١٣٩٤.
- **الروضتين في أخبار الدولتين الغورية والصلاحية**: أبو شامة المتوفي ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ.
- **سقوط الدولة العباسية**: سعد بن محمد حذيفة بن مسفر الغامدي، ١٤٠٣هـ.
- **العصر المملوكي في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٣٩٦.
- **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**: علي بن الحسن الخزرجي، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٣٢٩هـ.
- **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت ـ ١٣٨٩.
- **الكشوف الجغرافية حقيقتها ـ دوافعها**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **اللمحة البدرية في الدولة النضرية**: لسان الدين بن الخطيب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**: أحمد بن عبد الله القلقشندي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحمدي الرومي البغدادي المتوفى ٦٢٦، دار بيروت للطباعة، دار صادر.
- **المغول**: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.
- **المغول في التاريخ**: فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٩٠هـ.
- **المنهل الصافي**: يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية ـ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ١٣٧٧.
- **مواطن الشعوب الإسلامية سلسلة كتب**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **المواعظ والاعتبار**: أحمد بن علي المقريزي المتوفى ٨٤٥، دار صادر ـ بيروت.
- **الناصر صلاح الدين**: سعيد عبد الفتاح عاشور، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٤١.

- **الناصر محمد بن قلاوون**: محمد عبد العزيز مرزوق، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٢٨.
- **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي**: نوال حمزة يوسف الصيرفي، دار الملك عبد العزيز، ٣١ ـ الرياض.
- **الهند في العهد الإسلامي**: عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، الهند ١٣٩٢.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس
المغرب والأندلس وغربي إفريقية

التاريخ الإسلامي

— ٨ —

العهد العثماني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٨ —

العهد العثماني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد**،

فإن المرحلة التاريخية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧) من التاريخ الإسلامي يُطلق عليها اسم «العهد العثماني»، وإن لم يكن الحكم العثماني قد شمل الأمصار الإسلامية كلّها لكنه ضمّ أكثرها إذ امتد على أوسع رقعةٍ من مساحة تلك الأمصار، وكانت الخلافة العثمانية محطّ أنظار المسلمين ولو كانوا خارج حدودها بصفتها مركز الخلافة، وبصفة حاكمها خليفة المسلمين وليس خليفة العثمانيين، والعثمانيون جزء من المسلمين، كما كانت هذه الدولة أقوى دولةٍ إسلامية يومذاك بل وتعدّ من دول العالم الكبرى إن لم نقل أعظمها، وكانت تحرص على مساعدة المسلمين في كل بقعةٍ، وتعدّ نفسها مسؤولةً عنهم، وحاميتهم، وممثّلةً لهم، لذا فبشكل طبيعي أن تحمل هذه المرحلة اسمها.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد ظهرت منذ عام ٦٩٩ إلا أنها لم تكن خلافة منذ ذلك التاريخ، وإنما كانت الخلافة العباسية قائمةً في مصر بيد المماليك، ولم يُعلن العثمانيون خلافتهم حتى سلّمهم إياها العباسيون، إذ لا يصحّ قيام أكثر من خليفةٍ للأمة الإسلامية في وقت واحدٍ. لذا فإننا نعدّ المرحلة العثمانية منذ تسلّمهم الخلافة عام ٩٢٣هـ.

ولما كانت هذه المرحلة تشمل قيام عددٍ من الدول، لذا فقد قسمّت البحث إلى أبوابٍ بحيث يشمل كل باب دولةً أو منطقةً، وقد كان:

الباب الأول: عن الدولة العثمانية وركّزت على دراستها أكثر من غيرها.

الباب الثاني: عن الجزيرة العربية رغم أنها تبعت الحكم العثماني غير أن ما وقع فيها من أحداث سواء أكان في منطقة الخليج أم في نجد حيث قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذات الأثر الكبير، أم ما حدث في اليمن مما جعل هذا القسم يستحقّ عندي أن أُفرد له باباً خاصاً.

الباب الثالث: فقد خصصته لبلاد التتار في أوروبا وبلاد الترك في آسيا الوسطى حيث امتد الاستعمار الروسي إليهما وهذا ما جعلني أضعهما في بابٍ واحدٍ، وقد أضفت إلى هذه المنطقة إيران وأفغانستان على اعتبارهما تقعان في وسط آسيا.

الباب الرابع: وشمل بلاد الهند، وأفردت فصلاً خاصاً من هذا الباب لجنوب شرقي آسيا ليتكامل البحث عن العالم الإسلامي، وفي هذه البقعة ظهر الاستعمار الصليبي متمثّلاً في الإنكليز، والفرنسيين، والهولنديين، وقام بينهم صراع ومنافسة على استعمار الأرض ونهب الخيرات. ووفاق على الحرب الصليبية.

الباب الخامس: حيث ختمت الدراسة به، وقد شمل بلاد المغرب وغربي إفريقية وشرقيها وإن تبع جزء من بلاد المغرب الخلافة العثمانية.

أسأل اللّه التوفيق وسداد الخطا... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأوّل

الدولة العثمانيّة

مقدمة عن الدولة العثمانية

إن التاريخ الإسلامي قد شوّه في المراحل التي سبقت العثمانيين بأيدٍ مُسلمة أو تدّعي الإسلام في سبيل مصالح لها أو أنّ ذلك نتيجة الخلافات السياسية أو المذهبية التي قد أضلّتها وأعمت بصيرتها فأرادت أن تسيء إلى الخلافة بادعاءاتٍ تدّعيها وحكاياتٍ خيالية تنسجها، لتُظهِر فساد ذلك العهد أو لتبرز عوراته بشكلٍ صارخٍ يخرج عن حدود المعقول، كما أنها تنسب قصصاً للمجتمع غير حقيقيةٍ لتقول: إن فساد المجتمع كان كبيراً بسبب المسؤولين الذين عاثوا في الأرض الفساد وأهملوا كل تبعةٍ عليهم وربما وصلت المبالغة إلى درجةٍ أن أخرجوا عدداً من الصحابة والمسؤولين عن الإسلام. ولا أقول: إن تلك المرحلة، كانت تمثّل الإسلام بشكل صحيح أو أنها كانت تسير بخطٍ مستقيم ليس فيه شيء من الانحراف أو الأخطاء، نعم لقد كانت بعض الأخطاء قائمةً، إذ بدأ الانعطاف بالخط السليم يظهر، ولكن ليس على تلك الصورة التي أعطاها أولئك المغرضون والتي عمّت تقريباً لدى القارئين أو الذين يدرسون التاريخ أو هكذا فهموا منها، وذلك لأن تلك الفئة المغرضة قد أعطت التاريخ همّها كلّه، وبذلت جهدها كلّه لذلك الغرض، ولم يكن لديها من شغلٍ سوى ما تفكر به، واشتُهرت آراؤها، وأخذ المؤرّخون والذين دوّنوا التاريخ الشيء الكثير من الروايات عنها. أما المسلمون الآخرون فكانوا يهتمون كمسؤولين بالحكم وأموره، والجهاد والفتوحات، وحياة المجتمع، وكعلماء في التوجيه والانطلاق مع المجاهدين وتدوين ما هو أهم، وانصرف الشعب في بداية الأمر إلى نشر الإسلام والعمل له، ثم اتجه إلى شؤون دنياه بعد أن خفّت حدة الفتوحات أو قلّ الاتجاه نحو الجهاد لأسبابٍ كثيرة.

لقد بدأت زاوية الانحراف تظهر مع بداية العهد الأموي، ثم أخذت بالانفراج تدريجياً وإن لم تتسع بالشكل الذي يُصوّره أولئك المغرضون، وجاء العصر العباسي، وجاءت معه التأثيرات المادية سواء نتيجة الاحتكاك بالمؤثرات الغريبة عن المجتمع أم نتيجة الثراء من الفتوحات، فشغلت المادة الناس، وأبطرت بعضهم النعمة لكثرة ما دخل البيوت من الجواري والعبيد إثر الفتوحات التي سبقت ذلك العهد فغبوا من شهوات الدنيا ومتاعها ما شاء لهم هواهم أن يغبوا، وغنّى بعضهم ولعب، وشاد وطرب، وابتنى القصور وشرب، وماج وصخب، ولكن هؤلاء كانوا قلةً، غير أن ضجيجهم كان واسعاً الأمر الذي ظنّه الآخرون سائداً، وجاء الماديون بعدئذ فأعطوا تلك الصورة صفة العمومية وعدّوا ذلك العمل حضارةً حتى عمّت هذه الفكرة لدى الناس أو أنصاف العلماء. . . أما الكثرة من المجتمع فكانوا على شيءٍ من المستوى الصحيح لم تُبطرهم النعمة، ولم تفتنهم الدنيا فانصرفوا إلى التجارة أو إلى العلم، فدوّنوا الكتب في الفقه والأدب والنحو والسِّيَر، وساروا بالتجارة فنشروا الإسلام إلى أقاصي المعمورة، وكان الإسلام ينتشر مع طرق التجارة، فحيثما انطلقت سار، والطرق البحرية شاهدة على ذلك في فطاني، وماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين، وسواحل فيتنام في تشامبا، وشواطئ الصين هذا من جهة الشرق، وشواطئ إفريقية الشرقية وجزرها في الغرب وكل هذا ينطق اليوم بذلك.

ومع ما ظهر من انحراف في ذلك العصر إلا أنه لم يصل إلى تلك المرحلة التي يصوّرها المغرضون إذ بقي الإسلام أساساً ثابتاً في النفوس لم يستطع وضعٌ أن يغيّره بصورةٍ سهلةٍ، وثابتاً في المجتمع لا يمكن أن يتجاوزه أو يخرج عليه أحد إذ يلقى عاقبةً وخيمةً لو فعل، وكم من خُرّميين انتهوا أو كم من مفسدين بطش بهم المجتمع قبل المسؤولين!

وما أُبرّئ المسؤولين من ذلك الانحراف الذي كان يقع في القصور، فأمر طبيعي أن يقع ما دام قد أشيد القصر لآداء مهمةٍ معينةٍ، ووُجد في داخل القصر ما وُجد، وانصرف من فيه إلى اللهو أو الشغل بالبناء، وجرّ

المياه إلى الحدائق والمتنزهات والأخذ من نعيم الدنيا جرّهم إليه أو طغا بهم وجود المادة الذي استطاع طغيانه أن يفتن منهم من افتتن.

ومع ذلك فقد بقيت أُسس الإسلام ثابتةً تقريباً حتى في داخل القصور لا يجرؤ خليفة على تجاوزها، وإن تجاوزها ففي السرّ دون الجهر والإخفاء دون العلانية، ولو تجرأ وأظهر خُلع أو انتهى.

فالخلفاء الذين أُلقي نعيم الدنيا أمامهم، وليس لهم من عملٍ سوى استلام المنصب دون أن يكون له تبعة عليهم أبداً، والناس في كفاية أيضاً، وليس من أمرٍ سوى الخلاف الذي ينشأ بينهم نتيجة الأطماع في الطلب لزيادة تحقيق الرغبات، وأصحاب النفوذ سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركاً أم بويهيين. فهم الذين يتصرّفون بالأمور، ويتقاتلون لزيادة النفوذ أو للسيطرة على مناطق أوسع، ألا ينغمس هؤلاء الخلفاء في الترف؟ ومع هذا الانغماس إن صحّ تسميته، أو السكوت عنه فإن الخلفاء كان منهم الصالحون الذين يُكثرون من العبادة والصدقات والتفتيش عن أصحاب الحاجات وإن كنا نجهل هذا عنهم، ونحمل عليهم لضعفهم أو للأمر الذي آلوا إليه وربما ورثوا الأمر وهو على تلك الحال، ألا يُعدّ هؤلاء الخلفاء من العظماء فالجو المحيط بهم كله شهوات وكله مغريات ومع ذلك فقد امتنعوا عن الولوغ فيه والارتماء في وحوله، واعتصموا. . . أما ضعفهم فأمر آخر ورثوه وليس بإمكانهم إزالته كلياً أو التأثير فيه جذرياً. . . وقد استطاع بعضهم أن يغيّر قليلاً أو يسير شوطاً أفضل نحو الإصلاح.

واستمر هذا الضعف في المرحلة التي أتت فيما بعد في أيام المماليك بل أصبحت الخلافة اسميةً وغدا المماليك هم المتصرّفون بالأمور كلها، ويختلف بعضهم مع بعض، وبقي المجتمع متماسكاً نسبياً أيضاً، والإسلام مرهوب الجانب لا يجرؤ امرؤ على مخالفته، ونذكر بكل تقديرٍ وإكبارٍ موقف العزّ بن عبد السلام الذي أعلن للمماليك أنهم عبيد لا يحقّ لهم أن يتصرّفوا بأمور الدولة التي هي من اختصاص الأحرار فلم يستطع أن يقف أحد منهم في وجهه بل هو الذي وقف في وجههم، وهم أصحاب

السلطة، وهم أصحاب النفوذ، نقدّر هذا الموقف الذي يستغرب الإنسان وقوعه في تلك الأيام المتأخرة والتي يتصوّر المرء أن الإسلام قد انحسر عن الحياة، ومع هذا نقول: إن زاوية الانحراف بقي انفراجها بازدياد.

ولم يأتنا تشويه التاريخ الإسلامي في خلال هذه المراحل كلها من خارج نطاق المسلمين وذلك لأن الأعداء وخاصةً النصارى منهم كانوا يعيشون في مرحلة من الضعف العلمي والفكري بحيث لا يمكِنهم من الهجوم فكرياً على المسلمين والكتابة عنهم في ديارهم. ولكن عندما قوي أمرهم، وجاءت النهضة، وصحوا من رقدتهم استفادوا مما شوّهه المغرضون من المسلمين وزادوا هم عليه، واستغلّوا ذلك الهجوم على الإسلام يدفعهم في ذلك الحقد الصليبي، فتشويه التاريخ الإسلامي من قبل الأعداء قد جاء في مرحلةٍ متأخرةٍ.

وكانت أوربا تترنّح لتقف على أقدامها عندما جاء العهد العثماني في الوقت الذي كان فيه المسلمون يقفون مكانهم لا يتقدّمون حيث كان جانب الإهمال لدينهم ـ الذي هو سبب مجدهم ومجال قوتهم ـ قد بدأ يظهر، والسعي للأخذ بالأسباب قد بدأ يفتر، ثم جاء الوقت الذي تعادلت فيه الكفتان، وبعدها أخذت ترجح كفة أوربا النصرانية على كفة المسلمين. . . وإذ بقي شعور لدى المسلمين بأنهم هم الأعلون وأنهم فوق النصارى مهما تقدّمت بهم الأيام ما دام المسلمون مؤمنين فإن هذا الشعور لم يواكبه عمل إيجابي، ولم يحرّكه دافع للتمسّك بالإسلام، والسير حسب منهجه الذي يطالبهم للعمل بالخلافة في الأرض وإعمارها واستخراج كنوزها، والإفادة من خيراتها، والبحث والتجربة لاستنتاجٍ جديدٍ وتطورٍ في جميع المجالات.

ونهضت أوربا وتقدّمت في مختلف الميادين، وثبت المسلمون، بل غدت حالتهم تتأخّر مع الإهمال الذي أصابهم، والكسل الذي حلّ بهم، وإعطاء الميدان لغيرهم، وترك باب الجهاد، وما تركه قوم إلا ذلّوا، واستمروا على هذه الحال حتى أصبحوا مقلّدين لأوربا تقليداً أعمى، متتبعين لآثارها اتباعاً بلا وعي، يأخذ بعض المسلمين منها دون معرفة، وينقل دون

روية، وينهل من نتائجها من غير محاولة للنتاج «والله لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه وراءهم»، وحبذا لو كان الأخذ للمفيد المثمر والاتباع للبحث المنتج، غير أنه كان تقليد ما ساء من سلوكهم، وما خَبُث من تصرّفهم، وترك ما حسُن بحجة الصعوبة وعدم القدرة في الوقت الراهن. فأصيب المسلمون بالصغار، وأصابهم الوهن «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها..» قال قائل: يا رسول الله ومن قلةٍ يومئذ؟ قال: «لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، ولتعرفنّ في قلوبكم الوهن» قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

بدأت أوربا تكتب وتدوّن ويأخذ بعضنا كل شيءٍ منها وهم الذين خضعوا لأوربا فكرياً وثقافياً وعلمياً وفُتنوا بحضارتها، وبُهروا بعلومها فتتلمذوا على أيدي رجالاتها والمبشّرين بدينها، يأخذون منها وينقلون إلينا دون فحص، ومن غير تحقيق أو تدقيق. وماذا تدوّن أوربا عن العثمانيين؟ وهم أعداؤها العقيديين قبل كل شيء، فالعثمانيون كانوا يرفعون شعار الإسلام سواء أكان ذلك عن علمٍ ويقين أم عن جهل وتقليد فالمهم كان عاطفةً ويعدّون أنفسهم المدافعينَ عن الإسلام والذّابّين عن دياره، وكانت أوربا ترفع شعار النصرانية، وتعدّ نفسها حامية حماها والذائدة عن ذمارها. ومن آثار العقيدة تظهر العداوة السياسية فالعثمانيون يُقاتلون أوربا ويتقدّمون على أرضها من جهة الشرق بل لقد وصلوا إلى ما يقرب من منتصف أرضها فلقد حاصروا ڤيينا قاعدة إمبراطورية النمسا أكثر من مرة، ويحارب العثمانيون الأوربيين على عدة جهات أخرى، فهم ينازلون الإسبان في بلاد المغرب وفي البحر المتوسط، ويقفون في وجه البرتغاليين في جنوبي الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، والخليج العربي، بل وسواحل الهند، ويضغطون على الروس من جهة الشمال ليُخففوا من وطأتهم عن بلاد التتار

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأحمد في «المسند» الجزء الخامس برقم ٢٧٨. وانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٨١٨٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥٦).

في شرقي أوربا وسواحل البحر الأسود الشمالية، وعن بلاد الشركس، وعن المسلمين في أواسط آسيا. فماذا يكتب الأوربيون النصارى الذين يدفعهم الحقد الصليبي عن العثمانيين؟ ومن هنا جاء تشويه التاريخ الإسلامي في أيام العثمانيين.

لقد سجّل النصارى الأوربيون عن العثمانيين كل سلبيةٍ، وجالت بها أقلامهم، وحلّقت بها أفكارهم، وأهملوا كل إيجابيةٍ أو تجاهلوها ونسوها فلم ينظروا إلا بعين البغض فلم تُبد لهم إلا المساوئ. ولكي يُثيروا عليهم بقية المسلمين عدّوا الحكم العثماني استعماراً، دخل إلى البلاد بالقوة وفرض سلطته بالقسوة، ودعوا العرب خاصةً إلى مناهضة العثمانيين فالخلافة - حسب دعواهم - يجب أن تكون محصورةً بالعرب لا اجتهاداً منهم وعلماً ولا دراية وفقهاً، وإنما حسداً وكرهاً للمسلمين كي يتحرّك بعضهم على بعض. ويُقاتل بعضهم بعضاً، ويتمرّد المحكوم على الحاكم باستمرار، ويهنأ لهم بعدئذٍ العيش، وينعمون، ويذلّون المسلمين ويحكمون ديارهم، ويتحكّمون بهم.

لقد عدّوا كلّ حركةٍ على الحكم العثماني نصراً للنصارى ونعتوا تلك الحركة بالإخلاص ولو كانت من قطّاع الطرق والأشقياء كحركة ضاهر العمر، ووصفوا كل ثورةٍ على العثمانيين بالوطنية وخاصةً إن كانت من قبل غير المسلمين مثل الفئات الخارجية عن الإسلام كحركة فخر الدين المعني، وبشير الشهابي وغيرهما وأفضل من ذلك إن كانت من الحركات التي ترتبط بالصليبية الأوروبية، كما ارتبطت حركة فخر الدين المعني بإيطاليا، وتلقت من هناك المساعدات والدعم، وكان فخر الدين المعني كلما هُزم آوى إلى إيطاليا فاحتضنته وشجّعته، وتوسّطت له لدى الباب العالي. أما إذا حملت الحركة ضد العثمانيين الدعوة الإسلامية ودعت إلى الإصلاح نعتتها أوربا بالجمود والتأخر، وحكمت سلفاً عليها بالفشل وإن أعطتها صفة الاستقلالية والوطنية وأثنت عليها لترمي المسلمين بعضهم ببعض، وجاء دورنا فنقلنا هذا كله عن الأوربيين، وعلّمناه لأبنائنا دون بحثٍ وتدقيق، وأصبحت شبه

حقيقةٍ، يدرّسه جيل لجيل، وقد آن لنا أن ننتبه، وأن نكتب وندوّن من خلال ما تمليه علينا العقيدة ويفرض علينا العلم من بحث وتحقيق.

أما النصارى الذين يعيشون في أجزاء الدولة العثمانية فلم يُظهروا العداء للحكومة، ولم يُبدوا معارضةً ما دام العثمانيون أصحاب قوة إذ يخشون أن تحلّ بهم ضربة قاصمة أو ينزل بهم عذاب شديد من تهجيرٍ وإقصاء عن مناطق معينةٍ غير أنهم كانوا يحرّضون السكان سرّاً ضد الدولة كلما وجدوا فرصةً سانحةً للتحريض، أو رأوا وقتاً يُناسب الإساءة أو الاتصال بنصارى أوربا.

وعندما ضعُف أمر العثمانيين، وبدأ الأوربيون يتدخلون في شؤونهم كشّر النصارى في الدولة العثمانية عن أنيابهم فكانوا يعدّون أنفسهم رعايا لدول أوربية، كل طائفةٍ منهم حسب ما تنتسب فالأورثوذكس كانوا يُحسبون على أنهم رعايا لروسيا، والكاثوليك رعايا لفرنسا، والبروتستانت رعايا لإنكلترا، ولم تكن الفئات الخارجة عن الإسلام بعيدةً عن هذا الصراع وخاصةً في الأيام الأخيرة بعد عام ١٢٧٦ عندما حدثت الأحداث في لبنان، فقد دخل الدروز في هذا الميدان، وأصبحت إنكلترا تدعمهم ضد الكاثوليك رعايا فرنسا وحلفائها، والمنافسة بين الدولتين أمر قائم ومعروف.

وبدأ النصارى أيضاً يدعون إلى التنظيمات السريّة باسم القومية التي بدأت تدخل إلى المنطقة، مع الأسف، والنصارى ليس لهم دعوة سواها إذ لو دعوا إلى عقيدتهم كرابطة لكانوا وحيدين في الساحة، ولحلّت بهم النكبات، وُعَدوا محاربين يجب قتالهم حسب الشريعة الإسلامية المعمول بها في الدولة ولو اسمياً.

وإذا كان النصارى لم يجدوا لهم مؤيداً بين المسلمين في أول الأمر إلا أنهم قد وجدوا ذلك بعد مدة إذ كثر الأشخاص الذين فُتنوا بأوربا، وساروا يلهثون وراءها.

لقد ظهرت القومية في أوربا بعد صراعاتٍ بين دولها المتعددة،

وكانت كلها قد طرحت ديانتها من الحساب، ولم تعد العقيدة الرابط الذي يجمع بين دول القارة، وإن لم تتخل واحدة منها عن الروح الصليبية التي بقيت تملأ النفوس، وتشحنها الكنيسة ضدّ المسلمين مع أن الكنيسة سقطت في المعركة التي قامت بينها وبين العلم للتباين بينهما على عكس الدين الإسلامي وهذا ما يجهله الأوربيون ويظنّون أن الأديان كلها تتعارض مع العلم، غير أن الكنيسة بقيت رمزاً لنصرانية تلك الدول ورمزاً للصليبية يستفيد من وضعها رجال الدين، ويستفيد منها الحكام لإثارة الناس للحروب ضد المسلمين أو للعمل الاستعماري الذي يسبقه عمل تبشيري بالنصرانية، ويبقى العملان يواكب أحدهما الآخر، وربما كان الاستعمار هو السبب الرئيسي في بقاء الكنيسة قائمةً أو ذات شأن أحياناً إذ لكنائس أوربا كلها أثر في خارج حدود دولها أكبر بكثير من الأثر القائم في داخلها فالدول تستفيد مما تقدّمه الكنيسة دعماً لأعمالها الاستعمارية وتستفيد الكنيسة مما تقدّمه الدولة من دعم ماديٍّ ومعنويٍّ للإرساليات التنصيرية، ويمكن ملاحظة هذا الدعم المتبادل في العمل التنصيري القائم في أكثر دول العالم وإن كان يبدو بشكلٍ واضحٍ في إفريقية، وأندونيسيا، ولا تكاد تخلو منه بقعة في العالم، ومع زوال العقيدة كرابطةٍ بين النصرانية وجدت الدول الأوربية المتصارعة في اللغة عنصراً أساسياً يجمع بين شعبها وخاصةً أن الجنس الواحد غالباً ما يتكلم لغةً واحدةً ولهذا كان العنصر واللغة أساس القومية الذي عملت تلك الدول له ليكون عاطفةً يربط بين رعاياها لمجابهة الدول المجاورة الأخرى ولتحديد الحدود.

وأوربا تختلف عن البلدان الإسلامية اختلافاً كلياً من هذا الجانب فالرابطة الأساسية بين المسلمين جميعاً إنما هي العقيدة، والمسلمون أمة واحدة من دون الناس لا اختلاف بين الأجناس أو الألوان أو اللغات ضمن هذه الأمة إذ إنهم أعضاء فيها لا يقوم بينهم فاصل أو ميزة، غير أن بعض المسلمين الذين فُتنوا بأوربا وبهرتهم حضارتها الحديثة قد بدؤوا يأخذون من أوربا كل ما يخرج عنها سواء أكان مفيداً أم كان مخالفاً لعقيدتهم مسيئاً إليها وإلى بلادهم وحتى إلى

سلوكهم ومجتمعهم، وكان مما أخذه هؤلاء فكرة القومية.

وتمسّكت أوربا بالفكرة القومية مدةً من الزمن لأنها اتخذتها سلاحاً سياسياً مُهمّاً ربما كان أقوى من أي سلاح فتاك آخر؛ إذ تمكنت بهذا السلاح أن تحطّم أعداءها السياسيين، وكانت أقواهم يومذاك الدولة العثمانية التي تتألف من عدة شعوب، فعندما انتشرت فكرة القومية وغذّتها دول أوربا النصرانية ودعمتها، وحملها المستغربون من المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية، أخذت هذه الشعوب ينفصل بعضها عن بعض وهي التي تشكّل أمةً واحدةً، وإذ بهذه الأمة مجموعة متفككة تهوي أمام أوربا النصرانية التي تركت دينها، وإذا بالنصارى وأتباع الفرق الضالة كلها، والملحدين يعيشون في الدولة العثمانية كلهم قوميون ضد الدولة لإعلان إسلامها وقيامها باسم الإسلام. ورغم تعدد دول أوربا ولكن تجمعها فكرة العمل ضد المسلمين، وعمل كنائسها ضد الإسلام، وهذا ما نلاحظه من اتفاق كنائسها ضد الإسلام في كل ميدان: في إفريقية، في آسيا، في أوربا، في أميركا، في كل بقعة من بقاع العالم رغم اختلاف هذه الكنائس فيما بينها بين أرثوذكسية، وكاثوليكية، وبروتستانتية وربما بين فروعها. ونرى التقاء دول أوربا شرقيها وغربيها ومعهما أمريكا، وكل الدول النصرانية، بل والأفراد والمجموعات النصرانية ضدّ كل دولةٍ إسلاميةٍ أو عمل إسلامي، بل وتحرص الدول الكبرى أن تتقاسم مناطق نفوذها في الأمصار الإسلامية رغم الخلافات بين معسكراتها ومصالحها، هذا كله مع ادعاءات الدول النصرانية أنها علمانية لا تُعير الدين أي اهتمام بل إن دول أوربا الشرقية جميعها تُعلن عداءها للدين وحربها له، إلا أنها في الواقع تُعادي الإسلام وحده، إذ تُطالب المسلمين أن يكونوا نصارى أرثوذكس كي تتم الوحدة الوطنية بين أبناء الدولة الواحدة وتسعى جهدها لذلك، وتتخذ الإجراءات كافةً مهما كانت وحشيةً أو غير إنسانية ليترك المسلمون عقيدتهم، ويأخذوا بالنصرانية حتى على المذهب الأرثوذكسي وإن كانت الدول الشيوعية فعلاً لا تقوم بعمل ديني في داخل المناطق التي تسيطر عليها سوى معاداة الإسلام، ولا

تسمح لرجال الدين النصارى بأي نفوذ، غير أنها كما ذكرنا تتفق ضدّ الإسلام مع كل من يحاربه، وتتقاسم ديار المسلمين مع كل شريك لها، فمع معاداة الأديان كلها ـ حسب زعمها ـ يعد الدين الإسلامي العدو اللدود لها، أو العدو الأول بالنسبة لها.

في الوقت الذي أخذت فيه الفكرة القومية تنتشر بين المسلمين، كان المسلمون فيه على درجةٍ من الضعف بحيث لا يُمكنهم أن يردّوا كيداً، أو يقفوا في وجه فكر، بل لا يعرفون الأفكار، وإنما همّهم هو عملهم اليومي، وقد يُدفعون إلى القتال دفعاً دون أن يُدركوا من يُقاتلون؟ ولِمَ يقاتلون؟ وربما يستغلّهم بعضهم فيشجّعهم ضد آخرين باسم الإسلام، ولم يعرفوا إن كان عدوهم الذي يُحاربونه كافراً أم لا! لهذا كان انتشار الفكرة القومية بين فئةٍ قليلةٍ هي التي بيدها الأمر أو تستطيع أن تتحرّك على الساحة، فكان الأمر بيدها سرّاً دون معرفة الدولة، أمثال مدحت باشا من الترك وقد لعب دوراً مهماً وخاصة في البلدان العربية بصفته تولّى عدة مناصب إدارية فيها في مناطق مختلفة فكان يسكت عن حملة الفكرة القومية مع معاداتها إلى جنسه، أو إلى من يمثّله وهي الدولة العثمانية بل يَدعمها ويُشجّعها، ويأخذ بأيدي من يحملها ويُنادي بها ويرفعها شعاراً له، وأمثال الشريف حسين بن علي شريف مكة بصفته شريفاً، ويتسلّم أمور الأماكن المقدسة، وهي أكثر المناطق أهميةً بنظر المسلمين، وبصفته من العرب ثالثاً، وهم الذين يدّعون أن الخلافة يجب أن تكون حصراً فيه، لذا كانت صِلاته واسعةً، وقد تتحرّك هذه الفئة على الساحة إذ تتلقّى دعماً من بعض دول أوربا التي أصبح لها نفوذ في المنطقة مثل فرنسا وانكلترا، وكانت هذه الفئة إما من النصارى الحاقدين، أو المسلمين المغرّرين.

كانت الدولة العثمانية تتألف من عدة شعوب، لكن أهمها شعبانِ هما الترك والعرب، فالترك الذين منهم الخليفة، وتكاد تشيع لغتهم بصفتها لغة الخليفة والأسرة الحاكمة وكبار الدولة، وكان أغلب الجيش النظامي منهم، وبصفة مدينتهم حاضرة الدولة كلها، ويلتقي فيها مجلس المبعوثان.

والعرب الذين يشكلون جزءاً كبيراً من الدولة العثمانية، وتشغل أراضيهم مساحةً واسعةً ولغتهم رئيسية أيضاً بصفتها لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً، وتلاوته لا تكون إلا بالعربية، كما أن حديث رسول الله ﷺ بتلك اللغة، والقرآن الكريم والحديث الشريف هما أساس التشريع الذي عليه تقوم الدولة ولو بصورةٍ اسمية، هذا بالإضافة إلى عددٍ من الشعوب الأخرى لكنها أقل أهمية لقلة عدد أفرادها، وقلة أهمية لغتها.

وأخذ عدد من الترك بالفكرة القومية وبدؤوا يبثّونها سرّاً في أوساط المجتمع ولعلّ هؤلاء الأفراد كان معظمهم ممن لهم مصالح؛ منها ما يعود إلى تحطيم الدولة العثمانية بالذات التي وقفت أمام مصالح اليهود في فلسطين أو أمام تطلّعاتهم القائمة على إقامة دولةٍ لهم في فلسطين، وكان أكثر أفراد هذه المجموعة من الذين يعودون إلى أصلٍ يهودي إذ أن الدولة العثمانية فتحت أبوابها لليهود الذين خرجوا من الأندلس نتيجة الاضطهادات النصرانية التي لحقتهم، تخطيطاً ومكراً، ورغم احتضان الدولة العثمانية لهم فإنهم لم يحفظوا هذا الإحسان وإنما قابلوه بمنتهى الإساءة وأظهر عدد منهم الإسلام، وبقوا في الواقع على دينهم الأصلي وهو اليهودية، وهم الذين عُرفوا باسم يهود الدونمة ويعودون في الأصل إلى أنهم أتباع ساباتاي زفي[1]. ومن هؤلاء الترك الذين تربّوا في الغرب، وتأثّروا بأفكاره، ومنهم

(١) ولد ساباتاي في أزمير عام ١٠٣٥، وادّعى أنه المسيح المنتظر، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وزار مصر عام ١٠٧٣، واستفاد من دعم الصيرفي رافائيل جوزيف (يوسف جلبي)، كما زار فلسطين عام ١٠٧٤، وعاد إلى أزمير عام ١٠٧٦ فجاءته وفود يهودية، وقسم العالم إلى ٣٨ جزءاً، وعيّن لكل جزء ملكاً، وتصوّر أن يكون الجميع يتبعون له وهو يُقيم دولته في القدس.

وادّعى آخر أنه المسيح المنتظر، ويدعى كوهين، ووقع الخلاف، فاشتكى الآخر إلى الدولة مدّعياً أن ساباتاي يعمل لقيام تمرد ضد الدولة، ويدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، فقبضت الدولة على ساباتاي، وتشكّلت له محكمة من كبار العلماء وقضت عليه بالإعدام فخاف من الموت وأعلن إسلامه وصار يدعى محمد البواب لأن السلطان منحه راتب رئيس البوابين، غير أنه في الباطن بقي يهودياً. وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام فأذنت له وبدأ يبث سمومه، ويطلب من أتباعه أن يُظهروا الإسلام ويُبطنوا =

الذين يطمعون بمناصب سياسية عالية أو الذين أهواهم الجنس، ولم يجدوا سبيلاً له إلا بالهجوم على الإسلام ومبادئه، والدعوة إلى ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للحرية الجنسية.

وأخذ عدد من العرب الفكرة القومية لأسبابٍ تكاد تكون نفسها التي من أجلها أخذ بعض أفراد الترك الفكرة فبعض هؤلاء العرب كان يطمع بإقامة خلافةٍ عربيةٍ يكون على رأسها نتيجة شرافته ومركزه، أو يكون عدد من الخلفاء، خلفاء من العرب، وآخرون من الترك، ومن الفرس، ومن الهنود، ومن السودان وغيرهم. ومنهم من كان يطمع بمناصب عالية سواء في الجيش أو الحياة السياسية وكلها حسب الإغراءات التي كانت تقدّمها دول أوروبية ذات صلات في المنطقة، هذا بالإضافة إلى الذين يسيرون وراء شهواتهم، ويرون في الإسلام سدّاً في وجههم، وقد يوجد من يعادي العقيدة أصلاً لسبب من الأسباب. وربما كان بين هؤلاء وأولئك من يسير باندفاع ذاتي فيرى المساوئ التي عمّت دوائر الدولة فيجب إصلاحها وينادي بذلك، وقد يقع بشرك أولئك باسم الإصلاح، وقد لا يقع، وإنما يسير جنباً إلى جنب معهم فيكون بجانبهم يستغلّونه وإن لم يحمل أفكارهم. وقد يكون بين هؤلاء وأولئك من اقتنع بالفكرة نتيجة بعض المرئيات التي حصلت لديه. وقد عُرف بينهم أيضاً من يرى أن الخلافة يجب أن تُحصر

= اليهودية ليهدّموا من الداخل فيصومون أحياناً ويحجّون أحياناً، ويدخلون المساجد وهم من اليهود. والدونمة ثلاثة فرق هي: اليعاقبة، والقراقاشية، والقبانجية واستطاعت الفرقة الأخيرة «القابانجية» من التغلغل في أوساط حزب الاتحاد والترقي، وأصبح لهم دور فيه، وأداروا الجزء الأكبر من الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، ليهود الدونمة لغتان، التركية للتفاهم مع مجتمعهم التركي، والإسبانية للتعامل فيما بينهم ولهم دور كبير في الإعلام، إذ يملكون أهم الصحف «مؤسسة حريت» التي قامت عام ١٣٦٧، وجريدة «كون ابدين» وتعني صباح الخير، وجريدة «مليت» وتتبع هذه الجريدة مجلة «صنعت» وتعني الفن، وجريدة «جمهوريت» وجريدة «ترجمان» وهذه أكبر الصحف التركية.

ويدعو الدونمة للاختلاط والسفور، وإلى الماسونية، وإقامة مسابقات ملكات الجمال، والتعاون مع إسرائيل، ومحاربة العرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الغرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الشرق ليكون لهم في كل مجال ميدان.

بالعرب فهو يسعى لذلك باسم العقيدة أو باسم الإصلاح ولا يريد أن يسير إلى أبعد من ذلك أو يصل إلى الطريق التي وصلت إليها البلاد فيما بعد.

وظهر ذلك أيضاً عند بقية الشعوب التي تتألف منها الخلافة العثمانية، وإن كانت على نطاق أضيق، أو لم تبذل لها تلك الجهود التي بُذلت للشعبين العربي والتركي لأهميتها أو لأن الخلافة قائمة عليهما وبانفصالهما تضيع الخلافة وتتفكّك عراها.

ونتيجة ذلك كله كانت الفكرة القومية السلاح القومي الذي استخدمته أوربا النصرانية ضد أعدائها المسلمين أو ضد الخلافة العثمانية التي كانت تمثّل المسلمين أو كانت الدرع القوي ضد خصومهم أو على الأقل كانت أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك، والمسلمون في كل بقاع الأرض ينظرون إليها على أنها حاميتهم أو تمثّلهم.

ومع انتشار الفكرة القومية تفككت عُرا الخلافة العثمانية وأصبحت أشلاء، أو تجزّأت وأصبحت دولاً، وأضاع المسلمون خلافتهم التي كانت رمزاً لهم، وأصبح كل قسم يعمل منفصلاً، وقد تصطدم مصالحه مع القسم الآخر فينشأ الصراع وتقع الوقيعة، ويكون العداء وربما كان أشد العداء ما وقع بين الشعبين الكبيرين في الخلافة العثمانية الشعب العربي والشعب التركي، وقد يكون هذا إحساسنا لأننا نعيش في منطقةٍ قريبةٍ من التقاء هذين الشعبين أو في منطقة الاحتكاك بينهما، وقد يكون العداء أكبر بين بقية الشعوب غير أننا لا نشعر به لبعدنا عنه.

إن أصحاب الفكرة القومية العربية يحسّون أن الشعب العربي أو هكذا عُلّموا، وكُتب لهم ورُبّوا على ذلك أن الأتراك قد استعمروهم باسم الإسلام مدةً تزيد على أربعة قرون (٩٢٢ ـ ١٣٣٧)، وأنهم كانوا السبب في تخلّفهم إذ حجبوهم عن التيارات الفكرية العالمية، وحاولوا تتريكهم في النهاية، الأمر الذي جعلهم يتحرّكون ضدهم وينتفضون في وجههم حتى يأخذوا استقلالهم أو ينفصلوا عنهم. هكذا وبكل بساطة يبحثون في بعض السلبيات دون ذكر الإيجابيات، وينسون أن الشعب العربي كان حريصاً على قدوم

العثمانيين وأنه قد استقبلهم في حلب ودمشق، وأن أطراف الجزيرة العربية رضيت بقدومهم بل طلبت حمايتهم خوفاً من البرتغاليين الذين كانوا يتهددون السكان وقد سيطروا على عُمان ومناطق الخليج العربي وجزيرة سوقطرى وجزر قمران وهاجموا عدن، ويُهدّدون الأماكن المقدسة، وأن الخلافة ـ أو الحكم ـ يمكن أن يكون لغير العرب، وحديث رسول الله: «أطيعوا ولو تأمّر عليكم عبد حبشي. . .».

ولم يكن الشعب التركي مفضلاً على الشعب العربي في يوم من الأيام لنقول عنه استعمار اللهم إلا إذا استثنينا المرحلة الأخيرة عندما حكم الاتحاديون، وقد حكموا باسم القومية. . فانتهى بذلك دور الإسلام، ونحن في الواقع نسمي الخلافة العثمانية حتى حكم الاتحاديين، فلما سيطر دعاة القومية أصبحنا نسمي تلك الدولة بالدولة التركية، وما غدا الخلاف إلا عندما نادى الاتحاديون بالقومية وحمل العرب فكرة القومية فاصطدمت القوميتان ما دام كل يفتخر بجنسه دون سائر الجنسيات ويتعصّب له.

أما حجبهم عن التيارات الفكرية العالمية فلا شك أن العثمانيين كانوا على جهل، وكان العرب مثلهم والجاهل لا يمكن أن يُقدّم شيئاً، ولم تكن التيارات الفكرية سوى أفكار أجنبية نصرانية، وهل أفادت الأتراك شيئاً عندما حاول السلاطين المتأخرين السير على النهج الأوربي. وهذه الأفكار كلها قد تلقّنها العرب من النصارى وليست نابعةً من ذاتهم.

وإن أصحاب الفكرة القومية التركية يحسّون أن الشعب التركي قد ضحّى كثيراً في سبيل شركائه، وأنه قدّم لهم الكثير، ومنع بلادهم من الوقوع فريسةً في يد الصليبيين، ووحّد جزءاً منها، ووقف في وجه الأوربيين وخاض الحروب الكثيرة وقدَّم الكثير من الضحايا ومع هذا فالشعوب الأخرى وخاصةً العرب قد خانت الترك وخذلتهم في ساعة الشدة وطعنتهم من الخلف. وبعد أن تجزّأت الخلافة، وذهب كل فريقٍ إلى جهة، فكر دعاة القومية العربية في الإفادة من وضعهم فإذا بهم يجدون عدة قوميات في بلادهم، العربية، والسورية، والفرعونية، والبربرية و. . .

وعندما بدأ الصراع لبقاء الأصلح أو الأقوى، وتفرّدت العربية بين بقية القوميات التي زال بعضها لضعفه واختفى، وبعضها الآخر بالقوة، وسيطرت العربية ولما حاول دعاة تلك القومية بالظهور إذا بعصر القوميات قد انتهى، وجاء دور الاشتراكية أو جاءتنا صيغة جديدة طُرحت من قبل النصارى أو من قبل أعداء الإسلام كي لا يبقى الشعب الواحد من المسلمين صفاً واحداً وربما يؤدي دوراً حتى ولو كان بأسلوبٍ علماني لكن يمكن أن يُصلح من أمره، ويعود إلى رشده، ويتحرّك في اتجاهٍ صحيحٍ، لذا كان من خطة الأعداء أن يبقى الانقسام قائماً، والصراع يجب أن يستمر، وانقسم الصف، واختلف المسؤولون، وافترقت الكلمة وأصبح الشعب شيَعاً وأحزاباً تارة يقع التباين بين اليمين واليسار، أو بين طبقةٍ وأخرى، أو مصلحةٍ وثانية، أو مسؤول وآخر، أو بين من يريد الاتجاه شرقاً ومن يبغي التحرّك نحو الغرب وكله على حساب المسلمين، فكلما بدت للمسلمين قوة قُضي عليها بوحشيةٍ، واجتمع المختلفون بالشعارات على ضربها، والتقى المتناحرون عليها.

وفكّر دعاة القومية التركية بالالتفات نحو دفاترهم السابقة، والتوجّه نحو أقرباء آبائهم، فاتجهت أنظارهم نحو أواسط آسيا حيث يُقيم إخوانهم الأتراك الآخرون، ولكن لم يجدوا بُدّاً من محادثتهم بالإسلام، أو مناداتهم به، وعندما سار أنور باشا نحوهم فشل لأن الروس كانوا قد أذلّوهم وأماتوا فيهم كل فكرةٍ للجهاد، وبقي انتسابهم للترك دون معنى وانتماؤهم للإسلام دون فكر اللهم إلا من قلةٍ يمكن أن يكون لهم دور، كما يمكن للعاطفة العقيدية أن تحرّكهم ولكن بعد وقت، وعاد دعاة التركية فانحصروا في بوتقةٍ صغيرة.

وهكذا رجع دعاة القومية سواء أكانت العربية أم التركية يجرّون وراءهم ذيول الخيبة والفشل، وقبع كل منهما ضمن دائرةٍ صغيرةٍ يتحرّك بفلك الشرق أو بفلك الغرب، ولا يجدون لهم دعماً من المناطق المحيطة بهم والتي سبق أن قطعوا الصلة بها، وإن بقي المسلمون في كلا المنطقتين

أصحاب فكرٍ، ويمكن أن يتحرّكوا ضمن العالم الإسلامي، ولكنهم محتفظ بهم لوقت الضرورة، موضوعون على الرفّ ينالهم البأس، والجميع يتّفق عليهم.

لم تكن الخلافة العثمانية تلك الدولة الإسلامية التي تسير على المنهج الإسلامي تماماً، وإنما كانت تحرص عليه عاطفةً وتُطبّق بعض الجوانب، وتهمل جوانب أخرى، وتبدو بعض الصور التي فيها مخالفة صريحة للإسلام، وهناك نواح بين هذه الحالات قد يشتبه فيها الأمر ويحتاج إلى التفسير، والنظر في النيات، ومعرفة المسؤولين بها أو إخفاؤها عنهم، وسبق أن ذكرت أن زاوية الانحراف عن الخط الإسلامي قد بدأت تظهر مع العهد الأموي وإن كانت يومذاك صغيرةً، وبدأ انفراجها يزداد مع الزمن حتى إذا ما وصلنا إلى العصر العثماني كانت قد اتسعت إذ زاد انفراجها وبرزت الانحرافات بصورةٍ واضحةٍ، ولكن حتى الآن لا نستطيع أن نقول: إن الانحراف قد عمّ فالخوف من الله قائم، ومحاولة التطبيق موجودة، ولا يمكن أن نقارن ذلك اليوم الذي نشتّد عليه بما آلت إليه الأمور بالزمن الذي نحن فيه، أو لا نستطيع أن ننزع الصفة الإسلامية عن الخلافة العثمانية أو نُزيل عن الخلفاء إسلامهم وحرصهم الأكيد على النظام الإسلامي.

إن العاطفة الإسلامية لدى العثمانيين كانت كبيرة، وإن كانوا لا يعرفون التصرّف لجهلهم بالإسلام الذي عرفوا منه العبادات، ولم تترسّخ في أذهانهم أنه منهج حياة وليس مجرد عباداتٍ أو أنه عبادات مجردة عن الحياة، لذا كان التقيّد بالأوامر والانضباط التام بالأحكام كاملةً غير قائم تماماً، وقد ذكرت أن بعض الأحكام كانت مطبقةً أو معمولاً بها غير أن هذا لا يكفي فتطبيق جانب من الإسلام وإهمال جانب آخر أمر يسيء إلى الإسلام إذ يعطي صورةً مُشوّهةً عنه، فالإسلام نظام متكامل يطبق كاملاً، وعندها تظهر النتائج في صلاح المجتمع وسعادته ورفاهيته ورخائه وتقدمه.

أما تطبيق جانبٍ وترك آخر فقد يُعطي نتائج إيجابية. فإقامة الحدود أمر أساسي في النظام الإسلامي ولكن ليس هو النظام، ووحدها لا تكفي،

ولا يمكن أن نقول: إننا نُطبّق الإسلام إذا اعتمدنا على إقامة الحدود فقط، فعندما نقيم حدّ الزنا ولكن نترك السفور وعدم الحشمة، والاختلاط، والخلوات، والنزهات المشتركة، والمخيمات الجماعية التي تضمّ الجنسين ثم نحرص على إقامة الحد، وندّعي أننا نعمل على تطبيق الإسلام فالأصل أن نمنع الأسباب التي تؤدي إلى الزنا، ثم نقيم الحدود، ومثل ذلك السرقة، فإذا انتشرت البطالة، وعمّ الفقر، وانقطع حبل الأمن، وسادت حاجة الناس، وأصبحوا في جوعٍ وخوفٍ وجئنا نُقيم حدّ السرقة بحجة تطبيق الإسلام، يجب أن نبدأ بتأمين العمل، وتطبيق الأمن، وسدّ حاجة المجتمع، وبعدها نقيم الحدّ، لأن من يتعدّى بعدها على حقوق الناس فإنما يكون همّه الفساد في الأرض، والإخلال بالنظام، ولا بدّ من ردعه بإقامة الحدّ عليه، أما إن أجبرته الحاجة ودعته الضرورة فقد لا يكون من طبعه الفساد، ولا في نفسه ميل إلى العبث بحقوق الآخرين وأمنهم، فمعالجته بسدّ حاجته، لا بضربه. فالمفسد من يتعدى على الآخرين وفي يديه ما يكفيه، بينما الرجل الصالح قد يحدث منه، ولكن دعته إلى ذلك الضرورة الملحّة والحاجة الماسة فشتان بين هذا التعدي وذاك، ويجب معه أن تختلف طريقة المعالجة لكلا الرجلين.

وإن على الذين يسعون لتطبيق الإسلام أن يعملوا على شمولية التطبيق، من صلات خارجية، وتحقيق الأمن ومنع الظلم والتعدي، وتأمين العمل، وإقامة العدل والمساواة، وتحقيق كفاية الناس في المأوى الجيد، والزواج، وبقية الحاجات، ويمكن بعدها إقامة الحدود، وقطع دابر الفساد ويكون المجتمع الفاضل. . . . أما تطبيق جانبٍ وترك جانبٍ فهو إخلال بالنظام وبتر لأسسه. وهذا ما لم يدركه المسؤولون من العثمانيين، كما لم يدركه بعد ذلك كثير من المسؤولين الآخرين في بلاد شتى، إذ يدّعون أنهم يريدون تطبيق الإسلام وأول ما يقومون به إقامة حدّ السرقة والزنا وإن طبقّوا هذا الحدّ على عددٍ من المفسدين وقلّت الجرائم نسبياً فظنّوا أنفسهم أنهم قد عملوا بالإسلام وأقاموا نظامه ورفعوا شعاره مع بقاء ارتباطهم في فلك

معين، أو سيرهم في اتجاهٍ معروف، ومع بقاء الظلم في المعاملات، والتعدّي على الحقوق، وانتشار الفقر والجوع والمرض... فما هو هذا الإسلام؟ وما هي نظرة الآخرين إلى هذا الإسلام ونتائج تطبيقه ؟ إن هذا ليس من الإسلام في شيء، وإنه لظلم له، وعدم فهم لنظامه.

وإن الذين ينتقدون الخلافة الإسلامية لا ينتقدونها أصلاً من ناحيةٍ إسلاميةٍ إلا بمقدار ما يريدون في الهجوم على الإسلام بصفتها كانت خلافةً وتقول بالحكم على أساس الإسلام. ولو كان النقد من وجهة نظر إسلامية لقبل الموضوع وبحث من هذا الجانب. وإن أكثر المنتقدين إنما هم من الذين يحملون أفكاراً معادية، أو من الذين يجهلون أحكامه، أو من الذين لا يعرفون التاريخ بشكل جيد. همهم الهجوم على الإسلام، أو على جانب إسلامي كان السوء في تطبيقه واضحاً والمخالفة صريحة وترك الجوانب الثانية التي فيها نوع من الصلاح. وينصبّ النقد عادةً على الجانب السياسي، والخلافة العثمانية من هذه الناحية كبقية الدول لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية فيجب أن نعطي كل جانبٍ حقّه ثم نصدر الحكم. ونلاحظ أن العثمانيين قاموا بـ:

١ ـ توسعة رقعة الأرض الإسلامية، ويكفي أن نذكر فتح القسطنطينية والتقدّم في أوربا. لقد فتح العثمانيون القسطنطينية، وعجز المسلمون من قبلهم عن ذلك منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، عام ٥٠ حتى تمّ الفتح على يد العثمانيين عام ٨٥٧ أي أنه مضى أكثر من ثمانية قرون والمسلمون يعجزون عن هذا الفتح ويكفي أن نذكر حديث رسول الله ﷺ: «لتفتحنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١]. وتقدّموا في أوربا، وساروا فيها شوطاً بعيداً، حتى وقفوا على أبواب ڤيينا وحاصروها أكثر من مرة، وهذه البلاد تطأها أقدام

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) والحاكم في مستدركه عن أبي عبيدة بشر الغنوي الخثعمي.

المسلمين لأول مرة، والمسلمون الموجودون في تلك البقاع إنما هم بأكثريتهم من آثار ذلك التقدّم.

٢ ـ الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات، فقد تقدّموا في شرقي أوربا ليخفّفوا ضغط النصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم أوربا عن المسلمين في الأندلس، وإن لم يكن هذا التقدّم واضح الأثر لبعد الشقة، ولضعف المسلمين في الأندلس الذين هم في اختلاف لم يستفيدوا من الدروس التاريخية التي حلّت بهم وبمن سبقهم في الأندلس على الأندلس، ولضعف العثمانيين الذين لم تقو شوكتهم بعد، ولم ينتهوا من هجمات تيمورلنك، والإمارات الأخرى المجاورة لهم، كما أن أساطيلهم كانت لا تزال في أول عهدها ولا يمكنها أن تخوض معارك بعيدة، وإن كانت قد قدّمت الدولة العثمانية في هذا المجال شيئاً في البحر المتوسط إلا أنه كان تقدماً محدوداً لا نستطيع أن نُبرزه أو أن نعطيه أكثر مما يجب. وعندما زادت قوة الدولة العثمانية في أيام محمد الفاتح، ودخل القسطنطينية عام ٨٥٧ كانت دولة بني نصر في غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد مزّقها الخلاف والاستنصار بطاغية النصارى، وأخيراً سقطت عام ٨٩٨ أي بعد أربعين عاماً من فتح القسطنطينية.

وعندما سقطت غرناطة بأيدي النصارى، وطُرد المسلمون من الأندلس، وسار الإسبان نحو الغرب في سبيل الوصول إلى الشرق لحصار المسلمين. وانطلق البرتغاليون نحو الجنوب للغرض نفسه، والتفوا حول إفريقية ووصلوا إلى جنوبي الجزيرة العربية يحملون معهم الروح الصليبية عندها وفي ذلك الوقت تماماً ترك العثمانيون مواقعهم في أوربا واتجهوا نحو الشرق فقاتلوا الصفويين الذين يدعمون البرتغاليين أو طلبوا منهم تشكيل حلفٍ للوقوف في وجه العثمانيين ثم التفتوا إلى الثغرات التي أوجدها البرتغاليون وأسرعوا نحوها، واجتاحوا البلدان العربية إذ وقف حكامها يومذاك من المماليك وحالوا دون وصول العثمانيين للتصدّي للبرتغاليين أو لم يقبلوا الاتفاق معهم لهذا الغرض، وامتدت ساحة القتال

بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر، وعدن، وحضرموت، وعُمان، والخليج العربي بل إن كل جبهةٍ يفتحها البرتغاليون كان العثمانيون يُسرعون للوقوف في وجههم، ويجب ألا ننسى السكان الذين كانوا يطلبون من العثمانيين حمايتهم أو يدعوهم لتسليمهم بلادهم، ووصل العثمانيون في دفاعهم عن ديار الإسلام إلى الهند حيث طلب المسلمون هناك دعمهم ومساعدتهم ضد الصليبيين من البرتغاليين، وربما كان للعثمانيين دور كبير في إنهاء النفوذ البرتغالي من بلاد المسلمين، وقد يكون قد فاق بقية أدوارهم في مقارعة الصليبيين.

كما أن الإسبان قد امتد نفوذهم في البحر المتوسط بعد سقوط غرناطة، وبدأت هجماتهم على المرافئ الإسلامية والنزول فيها مثل طرابلس، وتونس، والجزائر، ووهران غير أن العثمانيين كانوا أيضاً قد امتد نفوذهم إلى بلاد المغرب براً بعد دخول مصر، وبحراً بعد انضمام خير الدين باربروس إليهم وإعلانه أن الجزائر ولايةً عثمانية، هناك أيضاً وقف العثمانيون وجهاً لوجه أمام الصليبيين الإسبان.

ومن جهة الشمال انطلق العثمانيون إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصليبيين من الروس، واستمروا على تلك الجبهة عدة قرون، كما شملت مساحات واسعة امتدت من شرقي أوربا حتى بلاد الداغستان على شواطئ بحر الخزر الغربية وتجاوزتها أحياناً إلى أواسط آسيا حيث الصراع بين المسلمين والروس أيضاً. وبهذا يكون وقوفهم في وجه الصليبيين المستعمرين من الجهات جميعاً أو أن جبهاتٍ فُتحت عليهم وتصدّوا لها من مختلف الجهات.

وربما سائل يقول: إن العثمانيين لم يوفّقوا في مواقفهم هذه أبداً بل حلّت بهم الهزائم في كل ناحية. فالعثمانيون بذلوا جهدهم كله، وعملوا بإمكاناتهم كلها، وعليهم السعي وليس عليهم إدراك النتائج لأن هذا الأمر ليس بأيديهم وإنما هو خارج عن إرادتهم، والمهم أن النيّة كانت صادقةً والبذل كان قائماً. والهزيمة ليسوا مسؤولين عنها وحدهم وإنما هي مسؤولية

المسلمين جميعاً من حيث التعاون، والالتفاف، والنفير، والإعداد الكامل، فنحن نتحمل جزءاً من هذه المسؤولية ويجب ألا نلقي العبء على غيرنا، ونجرّد أقلامنا وألسنتنا للنقد.

وربما نلاحظ أن العثمانيين قد وُفقوا في بداية الأمر فقد جمّعوا الإمارات المتعددة التي كانت منتشرة في الأناضول والتي كان يزيد عددها على العشرين إمارة فأصبحت قوة في وجه البيزنطيين بعد أن كانت موزعة وفتحوا القسطنطينية، وتقدّموا في أوربا، وانتصروا على الروس، وأجلوا الإسبان عن أكثر المرافئ الإسلامية التي نزلوا فيها على سواحل البحر المتوسط، ومنعوا من تسرّب النفوذ البرتغالي إلى الداخل، وكان لهم الباع الطويل في إنهائه، وهذا كلّه عندما كانوا أصحاب قوة، ولكن تبدّلت هذه المواقف عندما ضعفت قوتهم، فبدأت الانتصارات تنقلب إلى هزائم وتراجع، وربما نكون نحن العرب أحد أسباب الضعف الذي حل بالعثمانيين سواء أكان ذلك بالحركات الداخلية أم بالافتتان بأوربا، أم بعدم دعم الدولة بشكلٍ قوي، ولا أبرّئ ساحة العثمانيين في هذا الميدان فقد فُتن بعضهم بأوربا كما أصابنا الافتتان، وهبّت على بلادهم روح القومية كما هبّت علينا فأذلّتهم مثلنا أو أنها أذلّت المسلمين جميعاً.

٣ ـ عمل العثمانيون على نشر الإسلام، وشجّعوا على الدخول فيه، وقدّموا الكثير في سبيل ذلك، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في كسب أكثر قبائل الشركس إلى الإسلام. إذ كانوا يشجّعون جنودهم على الزواج من الفتيات الشركسيات لكسبهن إلى الإسلام ثم جذب آبائهن إلى ذلك، ورغم ما في ذلك من بعض المخالفات المصلحية على الأقل إلا أن نجاحهم كان كبيراً في تلك الجهات حيث استطاع (فرح علي) الذي عُيّن ضابطاً في مركز (أنابا) عام ١١٩٤ بالقرب من منفذ البحر الأسود للوقوف في وجه التوسع الروسي أن يتزوّج ابنة أحد الشراكسة، وأن يقدّم الكثير لأهلها في سبيل كسبهم إلى الإسلام، وقد نجح في مهمته، ثم شجّع جنوده على ذلك ووعدهم بدفع نفقات الزواج كاملةً، وقد أظهر الشراكسة تفهّماً كبيراً،

وأقبلوا على الإسلام، وتعلّم القرآن الكريم. كما نجحوا في كسب قبائل الشاشان، غير أن نجاحهم كان أقل قليلاً مع قبائل القوشحة (الأوستين)، وكذلك كسبوا مجموعاتٍ من تلك الشعوب المنتشرة بين البحر الأسود وبحر الخزر.

وعملوا على نشر الإسلام في أوربا في البلدان التي وصلوا إليها، وإن كان نجاحهم قليلاً إلا أنهم عملوا على إسكان أعدادٍ من المسلمين في تلك البلدان كي يؤثّروا في المجتمعات التي يعيشون بينها، وقاموا بالأمر نفسه في المناطق الإفريقية التي دخلوها، والتي كانت بعض شعوبها لا تزال على الوثنية مثل بعض شعوب تشاد، والسودان، والصومال.

٤ ـ إن دخول العثمانيين إلى بعض الأمصار الإسلامية قد حماها من بلاء الاستعمار الذي ابتليت به غيرها، وعلى حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسةً للاستعمار باستثناء دولة المغرب التي لم تخضع للعثمانيين ومع ذلك لم يدخلها المستعمرون حتى وقتٍ متأخرٍ قبيل الحرب العالمية الأولى، فالهند، وأندونيسيا، وماليزيا دخلها المستعمرون من إنكليز، وفرنسيين، وهولنديين، كما دخل الروس إلى أواسط آسيا. وكلما كانت الأمصار بعيدةً عن قلب الدولة العثمانية أو قاعدتها في الأناضول كلما كان الاستعمار أسرع إلى تناولها، وكلما كانت أكثر قرباً بقيت في حمايةٍ نسبيةٍ من ذلك البلاء، فالجزائر خضعت للاستعمار قبل تونس، وتونس قبل ليبيا والتي تأخرت عن مصر لموقع مصر الخاص بها فقد جرّ عليها كثيراً من المتاعب وسبب لها الكثير من المشكلات مع المستعمرين، وبقيت بلاد الشام والعراق إلى آخر الأمصار الإسلامية بُعداً عن الاستعمار بسبب قربها من الأناضول، حيث لم يدخلها المستعمرون إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، وخروجها من الساحة أو بالأحرى حتى انتهت وزالت عن الخريطة مع زوال الخلافة بل مع سيطرة دعاة القومية التركية رجال الاتحاد والترقي، وخلع السلطان عبد الحميد.

٥ ـ كانت الدولة العثمانية تمثّل الأمصار الإسلامية، فهي مركز

الخلافة، ولا يوجد سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار المسلمين إذ لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ أو أكثر، لذا كان المسلمون في كل مكانٍ ينظرون إلى الخليفة نظرة احترامٍ وتقديرٍ، ويعدّون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها نظرة كلها المحبة والعطف، وكل حادثةٍ كانت تحلّ في ديار الخلافة نجد صداها في الأمصار الإسلامية كلها، بل وبين الجماعات الإسلامية التي تعيش كأقلياتٍ في دولٍ غير إسلامية، وعندما أُلغيت الخلافة ثارت ثائرة المسلمين في كل بقعةٍ حتى أطلق على كثيرٍ من الحركات والمؤسسات اسم الخلافة، أو العثمانية وخاصةً في جنوب شرقي آسيا، ولا تزال الجامعة العثمانية في حيدر أباد الهند تحمل هذا الاسم «الجامعة العثمانية».

وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقةٍ طلبوا الدعم من مركز الخلافة، بل إذا رغب أحد الحكام من غير المسلمين نشر الإسلام في بلاده أو فتوى عن أمرٍ يتعلّق بأحد رعاياه طلب ذلك من الخليفة المرجع الرئيسي والشرعي، ويتداعى إلى الذهن هنا طلب إمبراطور اليابان من السلطان عبد الحميد إرسال عددٍ من علماء المسلمين إلى اليابان لنشر تعاليم الإسلام.

٦ ـ وكانت الخلافة العثمانية تضمّ أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقية وأجزاء من تشاد، كما تضمّ تركيا وأكثر بلاد القفقاس مع ما شملته من بلاد التتار في شمال البحر الأسود، وقبرص، وما أخذته في أوربا وتكون قد زادت مساحة تلك المناطق على ٢٠ مليون كيلومتر مربع، وما خرج عن دائرتها من الأمصار الإسلامية التي كانت يومذاك سوى جنوب شرقي آسيا والمغرب وأواسط آسيا، وإيران، وبلاد الأفغان.

٧ ـ وكانت أوربا تُقاتل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً، وتقف في وجههم بحقدٍ صليبي، وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس

مدةً من الزمن، وترى فيهم مَدًّا إسلامياً جديداً بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً جدّياً، وتنتظر أوربا قليلاً لتدفنهم، وترى أوربا في العثمانيين قوةً تخترق عليهم بلدانهم من الشرق بعد أن عجز المسلمون سابقاً عن هذا، وقد قضوا على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية، وتقدّموا في بقية أوربا النصرانية التي كادت أن تركع أمامهم، وترى فيهم أنهم الذين وقفوا دون انتشار النصرانية لأنهم وقفوا في وجه أتباعها في كل مكان، وحالوا دون امتداد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعوا وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها وعلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وحالوا دون تقدّم الأحباش واتفاقهم مع أوربا صليبياً، كما منعوا القضاء على المسلمين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة حسب التعبير الأوربي، وترى روسيا خاصةً أن العثمانيين هم إخوان التتار الذين كانوا يُسيطرون على بلادها، إخوانهم في العقيدة، وإخوانهم حتى في العصبية، وهم مسؤولون عما فعله التتار سابقاً سواء أكان ذلك قبل أن يدخلوا في الإسلام أم بعد إسلامهم، وترى فيهم الآن دعماً لأولئك التتار ومساعدةً لهم، بل يحولون دون تقدّم الروس في بلاد التتار. وترى في العثمانيين أعداءً ألداء قضوا على الدولة البيزنطية مركز المذهب النصراني الأرثوذكسي وقاعدته وحاميته، وهو المذهب الذي تدين به روسيا. وترى فيهم فاتحين للقسطنطينية ومُحوّليها من مدينةٍ نصرانيةٍ إلى مدينةٍ إسلاميةٍ بل صار اسمها استامبول (بلد الإسلام)، وترى فيهم رأياً سياسياً آخر إذ أنهم يحولون دون تقدّم الروس نحو الجنوب نحو المياه الحرة حيث تتجه الأنظار إلى تلك الجهات، وترى فيها الجنان التي ستدرّ عليهم المال والنصر والسياسة، وترى أنهم يملكون في أيديهم مفاتح الطرق البحرية، وهي مضائق البوسفور والدردنيل، وترى فيهم سدّاً منيعاً يحول دون تقدّم الروس نحو الشرق في بلاد التتار في أواسط آسيا في بلاد الأتراك وكلاهما من المسلمين، ويتلقّون دعماً من العثمانيين على أنهم مسلمون، بالإضافة إلى الصفة العصبية التركية التي تجمع بينهم، فالعثمانيون أعداء عقيديين، وأعداء سياسيين في نظر الروس، وإن كانت السياسة تنبع من العقيدة، ولولا العقيدة لربما حُلّ

الجانب السياسي، وعلى هذا فالعداء بين أوربا عامة والروس خاصة عداء ديني قبل كل شيء، ولا يزال الأمر حتى الآن رغم تغيير النظام الروسي جذرياً، وزوال الدولة العثمانية، غير أن الإسلام باقٍ لذلك فالحقد الصليبي قائم.

وكان يحزّ في نفوس الأوربيين أخذ العثمانيين أبناء النصارى الصغار الذين لا أهل لهم بعد المعارك الطاحنة التي كانت تدور بين الطرفين ووضعهم في مدارس خاصة يتلقّون فيها الديانة الإسلامية والتربية العسكرية وهؤلاء الناشئة هم الذين سيكونون عماد الجيش الذي سيُقاتل الأوربيين، ويُحلّ بهم الهزائم يوم أُحسنت التنشئة، ولقيت التربية العناية الكافية، ويوم كان العثمانيون أقوياء، حتى إذا ضعفوا أصبح هذا الجيش سبب بلائهم. كما أن أبناء السلاطين والخلفاء كانوا يربُون التربية نفسها تربيةً إسلاميةً وعسكريةً، فينشأ السلطان صاحب عاطفةٍ إسلاميةٍ، وفي الوقت نفسه عنده الروح العسكرية، ونتيجة كليهما كان يُلاقي أعداءه، ويقف في وجه أطماعهم، ولا يستطيعون أن يجدوا معه حيلةً يشترونه بها، فلم يكن هناك من خلفاء بني عثمان من يرى مُهادنة أوربا النصرانية إلا إذا كان ضعيفاً مجبراً على ذلك، ومع هذا كان يتحين الفرصة للانقضاض عليهم، أما وجود خليفةٍ قويٍّ، ويفكّر في السير بفلك أوربا والتفاهم معها سياسياً فهذا ما لم يحدث.

هذه الجوانب كلها جعلت أوربا تكره العثمانيين، وتصبّ جام غضبها عليهم حرباً، وسياسةً وكتابةً ومن هذه الكتابات الأوروبية التي دُوّنت بيد أعدائنا تُصنّف ضمن المراجع الرئيسية لنا بالنسبة إلى العثمانيين وقد أخذ منها بعضنا وهو المفتون بأوربا أو المستغرب كراهية العثمانيين ونقله إلى الطلاب جميعاً بل وإلى الأساتذة. أما الجوانب السلبية فقد بالغ فيها النصارى، وبالغ فيها أعداء العثمانيين من أصحاب الفكرة القومية سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم غيرهم، كما بالغ فيها أصحاب النيّات الطيبة لما عرفوه من الكتابات الأوربية، مع ما في هذه الجوانب السلبية من سوءٍ

أيضاً، سوءٍ لا ينكر، ولكن ننظر إليه بعينٍ غير العين التي ينظر بها الأعداء وأحياناً طيّبو القلب من أبنائنا.

٨ ـ كانت للعثمانيين بعض الأعمال الطيبة والتي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على صدق عاطفتهم وإخلاصهم، مثل عدم قبول النصارى في عداد جيشهم، وإعفاء طلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية، وتعيين إمام لكل قطعةٍ منفصلةٍ، ولا يزال أكثر هذه الأعمال قائماً إلى الآن في تركيا رغم العلمانية التي سلكتها الدولة التركية الحديثة منذ أيام مصطفى كمال وإلى الآن. ومن ذلك أيضاً إصدار المجلة الشرعية التي تضمّ فتاوى العلماء في القضايا التي تحدث في نواحي الدولة المختلفة كلها.

٩ ـ وكان للعثمانيين دورهم في أوربا إذ قضوا على نظام الإقطاع، وفتحوا السجون التي كانت تضمّ المسجونين أبداً لغضب سادتهم عليهم أو لسبب تافه ليس بأفضل من ذاك، وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها أوربا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبوديته لسيده مالك الأرض التي يعمل بها.

ولعلّ من أهم سلبيات الخلافة العثمانية، والتي كان لها أثر في إضعاف الحكم:

١ ـ إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما المصدر الرئيسي للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة يُسبّب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها الاهتمام البالغ وكان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يُجيدون التركية وهم من أبنائها، وفي هذا جهل لأن العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين أو الخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية، واهتمّوا بالعلم الشرعي إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب وأقلّ مما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلّموا هم العربية ويشجّعوا عليها. ومع عدم تعلم اللغة قلّ الفهم الصحيح، وساد الجهل وخاصةً في الأمصار التي تتكلم العربية، وأثّر هذا على الضعف والتأخّر العلمي.

٢ ـ عدم الوعي الإسلامي الصحيح إذ كان كثير من المسؤولين لا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، لذا كانوا يحرصون عليها وعلى تأديتها، ويُقيمون الاحتفالات ببعض المناسبات وهذه الاحتفالات ليست واردة ولا بذات أصل، ويحرصون على الأذكار، ثم على الذكر والانصراف أحياناً إلى ذلك انصرافاً تاماً، وهذا ما أدّى إلى انتشار الطرق الصوفية، ومع هذا الانتشار حدث التواكل وعدم السعي في الأرض وإضعاف فكرة الجهاد، وعدم الإنتاج، وعدم مناهضة الكفّار ومن هذه الأمور بدأ الضعف ينخر في الدولة. أما فهم الإسلام على أنه منهج حياة فهذا أمر آخر.

٣ ـ كان العثمانيون يحرصون على تغيير الولاة باستمرار وخاصةً في أواخر عهدهم ويعود ذلك على حسب تقديرهم إلى أن الوالي إذ استمر في ولايته مدةً طويلةً، فإنه يصبح على صلاتٍ وثيقةٍ بالناس، وربما استغلّ منصبه هذا في الحصول على بعض المنافع، كما أن نفسه قد تحدّثه بالاستقلال بالولاية، وقد اكتسبوا هذا من التجربة، ومما حدث لهم في السابق مع بداية الضعف الذي أصاب دولتهم، ويدلّ هذا دون شك على عدم الثقة بالوالي، وربما نتج هذا عن انتشار الفقر ورغبة المسؤولين في الحصول على المال. كما يدلّ على ضعف الحكم الذي أدّى إلى تغيير الولاة، ووجود عددٍ من الطامعين لا يُعطي صفة التعميم وخاصةً إذا كان الوضع طبيعياً والحكم قوياً. وإن هذا التغيير يُؤدّي بدوره إلى الضعف حيث أن الوالي الجديد لا يعرف شيئاً عن الولاية التي أتى إليها وربما لأول مرة فلا يستطيع أن يتعرّف على السكان ومشكلاتهم، وأوضاعهم، وما يعانون، وما فيه صلاحهم ليعمل له، وما يتمّ له ذلك حتى يُنقل إلى ولايةٍ ثانيةٍ، ويأتي آخر ليقوم بالدور نفسه، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى عدم الإصلاح وإلى التأخّر وسوء الأوضاع في الإدارة عامةً.

٤ ـ ومن الأمور التي عُرفت لدى بعض السلاطين العثمانيين قتل إخوتهم وذلك أنه عندما يتولّون الأمر يخشون من إخوتهم أن يُنازعوهم إياه، إذ سبق لإخوة بعض السلاطين أن خالفوهم، وقاتلوهم على الحكم،

فأصبح الحكام الجدد يخافون من ذلك فيتصرّفون بهذا التصرّف الشاذ الذي يرفضه الإسلام لأن فيه القتل عمداً ومن غير ذنب، وحدّه قتل القاتل. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[1] كما في هذا العمل اختلاف في الأمة إذ مجرّد أن يؤول الأمر إلى أحد إخوانه يخافونه قبل أن يقبض عليهم فيفرّون وتكون لهم جماعة، أو ينتفضون على الحكم، وهذا ما يُسبب فتناً وارتباكاً في الدولة ويُضعف من شأنها.

٥ ـ إن الزواج من الأجنبيات الكتابيات جائز ولكن ليس فيه مصلحة وخاصة إن بقيت على دينها، فإن هذا الزواج فيه منافسة للمسلمات اللواتي يبقين دون أزواج، وفيه أثر على تربية الأولاد، التربية الإسلامية الصحيحة، وربما كانت هذه النساء مطمعاً لاتصال أبناء عقيدتها فيها وأخذ ما عندها من أسرار وخاصةً إذا كانت الحرب قائمةً بين الطرفين، لذا كان الزواج من الكتابيات مُقيَّداً وليس مطلقاً، وأصعب الأمور إذا كان هذا الزواج من علية القوم، وقد كان بعض السلاطين والخلفاء يتزوّجون من الكتابيات لجمالهن، وفي هذا إساءة كبيرة للأمة، فإذا كانت هذه النساء لا تستطعن التأثير على أبنائهن في التربية لأنه يتربّى في مدارس إسلامية وعسكرية كما ذكرنا ويخرج بصورة لا يلتفت معها إلى أمّه، وهو يعلم ماضيها، إلا أن هذا لا يمنع من إمكانية التأثير عليه في بعض الجوانب، والحصول على بعض الأسرار، أو التأثير على بعض رجالات الدولة بصفتها والدة السلطان أو الخليفة، وربما حدثت بعض هذه التأثيرات، ووقعت بعض الأخطاء، ولكن بقيت في ضمن الأسرار لأنها في بيت الخلافة. وبعث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، بعدما ولاّه المدائن. بلغني أنك تزوّجت امرأةً من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها: فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ وما أردت بذلك؟ فكتب إليه:

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم. فقال: الآن، فطلقها[١].

٦ ـ وإن الحكم الوراثي الذي مشى عليه العثمانيون غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية، ولكن سبقهم إلى ذلك الأمويون، والعباسيون، وكلهم مخالف. وإن احتج بعضهم بصعوبة اجتماع أهل الحل والعقد، والمستوى الذي آلوا إليه، وصعوبة اختيار الخليفة، والظروف التي تعيشها الأمة بحيث يصعب تعرّضها لهزّات، وأنه في أثناء التطبيق تبدو الصعوبة، فالخوارج الذين بقوا يُقاتلون الأمويين والعباسيين، وينتقدون الحكم الوراثي ساروا عليه في كل دولهم التي أنشؤوها سواء أكان ذلك في المغرب أم في المشرق، وسواء الإباضية منهم أم الصفوية إذ وجدوا في أثناء التطبيق خلافاً لما يُنادون به نظرياً. ومع هذا فتبقى الحجة واهية، ولا يمكن الاستناد عليها.

٧ ـ إعطاء العسكريين أكثر من حقهم سواء أكانوا من الانكشارية أم من السباهية فقد تسلّطوا واستبدّوا وبدؤوا يتدخلون في الحكم ففسد، وأصبحوا أداةً كأداء في وجه الإصلاح الحقيقي لما لهم من نفوذ وما يملكون من قوة، كما أصبحوا هم سبب الفوضى والمفاسد بسبب تصرفاتهم.

٨ ـ كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج، ويتركون السكان على وضعهم القائم من العقيدة واللغة والعادات، إذ يهملون الدعوة والعمل على نشر الإسلام، وإظهار مزايا الإسلام من المساواة، والعدل، والأمن، وانسجامه مع الفطرة البشرية.

٩ ـ ولا شك فإن الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية وخاصةً في أواخر عهدها يُبرز السلبيات، ويُعدّ من أقواها، فقد تكالبت الدنيا على العثمانيين، وكلها تحاربهم بروحٍ صليبيةٍ، فالروس من الشمال، والنمسا من

---

(١) الطبري: ٦/ ١٤٧.

الغرب، والإمارات الإيطالية، ثم فرنسا، وانكلترا في البحار والمحيطات، وتنزلان جنودهما في الموانئ الإسلامية والبلدان التي تخفّ عنها قبضة العثمانيين أو البعيدة عن مركز الدولة، وقد تختلف الدول النصرانية فيما بينها، وعلى اقتطاع أجزاء من الدولة، ولكنها تتفق كلها ضد الدولة، وتتفق في مؤتمراتٍ عامةٍ لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، وسلخ رقعٍ من الأرض من أملاك العثمانيين وإرسال حملات، وهذه الحملات على المسلمين كانت سبباً في بلاء المسلمين أدّى إلى ضعف الدولة كما أدّى في الوقت نفسه إلى هزيمة المسلمين النفسية في تلك الجهات التي جاءت إليها الحملات، وإلى انتشار المفاسد، مع ما تدّعيه هذه الحملات من أنها جاءت لنشر العلم، ومعاداة الجهل، والأخذ بيد السكان نحو الحضارة والمدنية وإبعادها عن التأخّر والرجعية، وما يتمثّل في الخلافة العثمانية، لا تختلف في ذلك حملة عن أخرى ودولة أوربية عن ثانية، وإن أشدها وضوحاً وأكثرها أثراً على نفسية السكان الحملة الفرنسية على مصر، على حين كانت دعوى الفرنسيين خاصةً والأوربيين عامةً على أن هذه الحملة كانت بداية التطور الحضاري في مصر وترك تلك المظاهر المتخلّفة، وهذا ما سجّلته أقلامهم، ودُوّن في كتبهم، ومن هذه المصادر نقلت كتبنا التي نشأت عليها الأجيال وتربّت على معلوماتها الأبناء.

واستغلّت أوربا النصرانية هذا الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية، واختلاف الكلمة التي أصبحت عليه الأمة فأوقدوا بينهم نار الحرب بدعم هذا أو تأييد ذلك فإذا وجدت حركة إسلامية سليمة وجهت الجهود ضدّها، ووقفت أوربا بين الأطراف المتنافرة فيما بينها والمخاصمة لها. ففي مطلع القرن الثالث عشر، وجدت ثلاث قوى تمثّل ثلاث وجهات نظر. كانت الخلافة العثمانية وتمثّل الاتجاه الإسلامي الاتكالي، والذي ظهر على حملته الضعف، وكانت مصر تحت حكم محمد علي الذي يمثّل الانفتاح نحو أوربا، والسير نحو التحرر من قيود العقيدة، وكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب تمثل الاتجاه الإسلامي

السلفي، فعملت الدول الأوربية على أن يشنّ مركز الخلافة ومحمد علي مجتمعين الحرب على الحركة الإسلامية في الجزيرة العربية، حتى قوّضت عام ١٢٣٣، ثم عادت فعملت على تقوية محمد علي فضمّ السودان إليه ثم بلاد الشام، ثم أوقعت بينه وبين مركز الخلافة الذي بدا ضعيفاً، ثم خشيت أن تعود الحيوية إلى المسلمين فعملت مرةً ثالثةً على إضعاف شأن محمد علي وإعادته إلى رقعته الأولى التي انطلق منها وهي مصر فقط.

وبتدخل أوربا هذا صار لدولها أنصار ومؤيدون اتصلت بهم في أثناء هذا التدّخل وأعطتهم صفة الوطنية لأنهم عملاء لها فإذا انكشف أمرهم، وعُرف وضعهم، ونالوا جزاءهم كانوا شهداء في نظر أتباعها ومن ذلك ما عُرف بـ(شهداء ٦ أيار)، وكالت إليهم الثناء والمدح لخيانتهم لعقيدتهم وبلادهم وسيرهم خلفها. وذلك فيما دوّنه أبناؤها، وعن هذا أخذ كُتّابنا ومُؤرّخونا، حتى ضاعت الحقائق وأصبح ما زُيِّف هو الحقيقة.

هذا الضعف الذي حلّ بالخلافة في أواخر عهدها جعل القبائل البدوية تطمع فيما جاورها، وتشنّ الغارات على المناطق الحضارية التي تقع على حدود باديتها، وقوي أمر المتنفّذين وقطّاع الطرق، واستأسد من لم يعرف الرجولة ما دام عدد من الأعوان يلتّف حوله، ولا يفرّقون بين الحلال والحرام. كما أوجد هذا الضعف الفوضى في الإدارة حيث دخلت الرشوة إلى الدوائر، وأصبح للمحسوبيات دور، وللمتنفّذين سلطان، واختلطت المفاهيم حتى ضاع الحق في ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرّق بين النيّة الحسنة والقصد الخبيث، وهذا ما جعل بعض الرجالات الذين يريدون الإصلاح يرغبون في التخلّص من الحكم لما آل إليه، وحلا بنفسهم التغيير إلا أنهم وجدوا موقعهم بين دعاة القومية بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية فتارة يفسّرون العربية بالإسلام، أو لا يفرّقون بينهما، وتارةً أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامي واضحاً، وهم قد عُرفوا بذلك، وشُهد لهم بالصلاح، وقد استغلّ دعاة القومية العلمانيون هذا الجانب العاطفي في أولئك فقدّموهم وأبرزوا منهم ما يريدون، وأخفوا ما

يرغبون فظهروا بالمظهر القومي، وقلّدهم الناس، وانطلق ركب القومية يحرّك طيبي النفوس، ويستغلّهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز في ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامي والقومي، أمثال عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد الزهراوي، و. . . وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحرص على جمع الأمة وتوحيد الكلمة، ويريد الدعوة إلى الإسلام، وطرح فكرة الجامعة الإسلامية، ولكنه لم يشعر إلا والمركب قد تحرّك من تحت أقدامه. وكان الهجوم ينصبّ عليه من كل جهةٍ، هجوم صليبي حاقد تكلّمنا عن بعض جوانبه، وهجوم يهودي شرس يدعم الأول، ويستند عليه، ويُغذّيه وتنطلق شراسته من موقف السلطان عبد الحميد في وجه اليهود الذين يُريدون أن يُؤسسوا لهم مستعمراتٍ في فلسطين، وقد رفض كل المغريات التي عُرضت عليه، ووقف صامداً في وجه المحاولات والجهود التي بُذلت له، بل والتهديدات التي وجهت إليه، فانبرت له أجهزة الإعلام اليهودية، وسُخّرت معها الأجهزة الصليبية بل التقت معها، فأزيح بانقلابٍ عليه، فكان الخليفة المظلوم الثاني الذي سقط نتيجة الإعلام اليهودي والحقد اليهودي، ووقعت الواقعة، وانتصر المستغربون، وتجزّأت الأمة، ودخل الاستعمار إلى البلاد، وفشت بين الزعماء روح الإلحاد.

هذه بعض الجوانب الإيجابية والسلبية في الخلافة العثمانية، وربما نُلاحظ بعض جوانب أخرى في أثناء دراسة هذه الدولة العظيمة، وربما تكون الإيجابية في مرحلة الخلافة الأولى في أيام القوة والتوسّع بل وفي مراحلها الأخيرة، وتكون الجوانب السلبية في مرحلة الخلافة الأخيرة في وقت الضعف والتراجع بل وفي المرحلة الأولى أحياناً.

الفصل الأول

الأناضول قبل العثمانيين

كانت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) قبل الإسلام، وكانت في صراعٍ دائمٍ مع الفرس، والحرب سجال بين الطرفين، فلما جاء الإسلام، وانطلقت الفتوحات الإسلامية في كل جهة، فقضت على دولة الفرس نهائياً وورثتها، وانتزعت من الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام ومصر ثم سائر الشمال الإفريقي، أما بلاد الأناضول فقد تمكّن المسلمون من انتزاع أجزائها الشرقية من أطراف أرمينيا حتى ذرا جبال طوروس، واشتهر حبيب بن مسلمة[1] من قادة فتح تلك الجهات. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ حاصر المسلمون القسطنطينية منذ عام ٥٠هـ في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، غير أنهم قد عجزوا عن فتحها، وتكرر الغزو مرات، ولكنهم لم يُوفّقوا فيه، وبقيت قاعدةً للإمبراطورية البيزنطية، كما بقيت ذرا جبال طوروس حدّاً فاصلاً بين المسلمين والبيزنطيين مدة أيام الدولة الأموية، وقد أقيمت الثغور على تلك الذرا، وتتعاقب الصوائف والشواتي على تلك الثغور وعلى حركات الغزو والجهاد التي ما انقطعت، واشتهر من القادة مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن عبد الملك الذي أصبح خليفةً فيما بعد، ونقل عاصمته إلى حرّان في شرقي الأناضول، وهو آخر خليفةٍ أموي.

---

(١) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي: ولد قبل الهجرة بعامين، وشهد اليرموك، وتولّى أمر إنطاكية، فتح أرمينيا وأذربيجان ٢٣ ـ ٣١، وتوفي بأرمينيا عام ٤٢هـ.

وجاء العباسيون وعملوا على توطين أقسام من جيش خراسان في الأجزاء الأناضولية الخاضعة لهم، وكان الخليفة المهدي[1] يستقدم الأتراك من فرغانة[2] ، وبلْخ[3]، ويُسكنهم الثغور مثل طرسوس، وأضنه، ومرعش، وملاطية، والمصيصة، وعين زربة، وزبطرة، وخرشنة، وآمد، وملازكرت، وخلاط، وقالبقاد، وكلها في المنطقة الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم (انظر المصور رقم ١). وقد زاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم. وكانت حركات الجهاد تتجاوز الثغور أحياناً، وتدخل إلى الجهات الغربية، ونعلم أنه في أيام المعتصم أغار الروم على ثغر زبطرة، وانتهكوا الحرمات ووصل الخبر إلى المعتصم فجرّد حملةً انتقامية وتمكّن من الوصول إلى مدينة عمورية التي تُعدّ من أشهر مدنهم يومذاك، وتقع في قلب الأناضول، في الجنوب الغربي من أنقرة، أي بعيداً عن منطقة الثغور بأكثر من خمسمائة كيلومتر، اخترقها المعتصم كلها، وخرّب المدينة، وأحرقها، ولعل هذه الحملة تعدّ من أهم ما خلّد ذكر المعتصم، إذ أكثر الشعراء من مدحه بعدها، وذكر نتائجها. وفي عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة، وغدت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم، وقد استمرت أعمال غزوهم، وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد، أو للحمدانيين في حلب، أو للطولونيين في الفسطاط، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم، وكانت الحروب سجالاً، أو أن التقدّم كان بين مدٍّ وجزر وإن كان قد أُعطي صورةً أكبر من الواقع بكثير في أيام الحمدانيين لأسبابٍ سياسية، ورسخ في

---

(١) المهدي: محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثالث خلفاء بني العباس، تولّى أمر الخلافة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور عام ١٥٨، وتوفي عام ١٦٩هـ.

(٢) فرغانة: مدينة، وكورة واسعة في بلاد ما وراء النهر، يجري فيها نهر سيحون الأعلى، وتقع اليوم في جمهورية قيرغيزيا الاتحادية التي تخضع لسيطرة الروس.

(٣) بلخ، بفتح الأول وتسكين الثاني، مدينة مشهورة في خراسان، تقع اليوم في بلاد الأفغان، وتعرف باسم وزير أباد، على حين أن الإقليم يُعرف باسمها، أو يُنسب إليها.

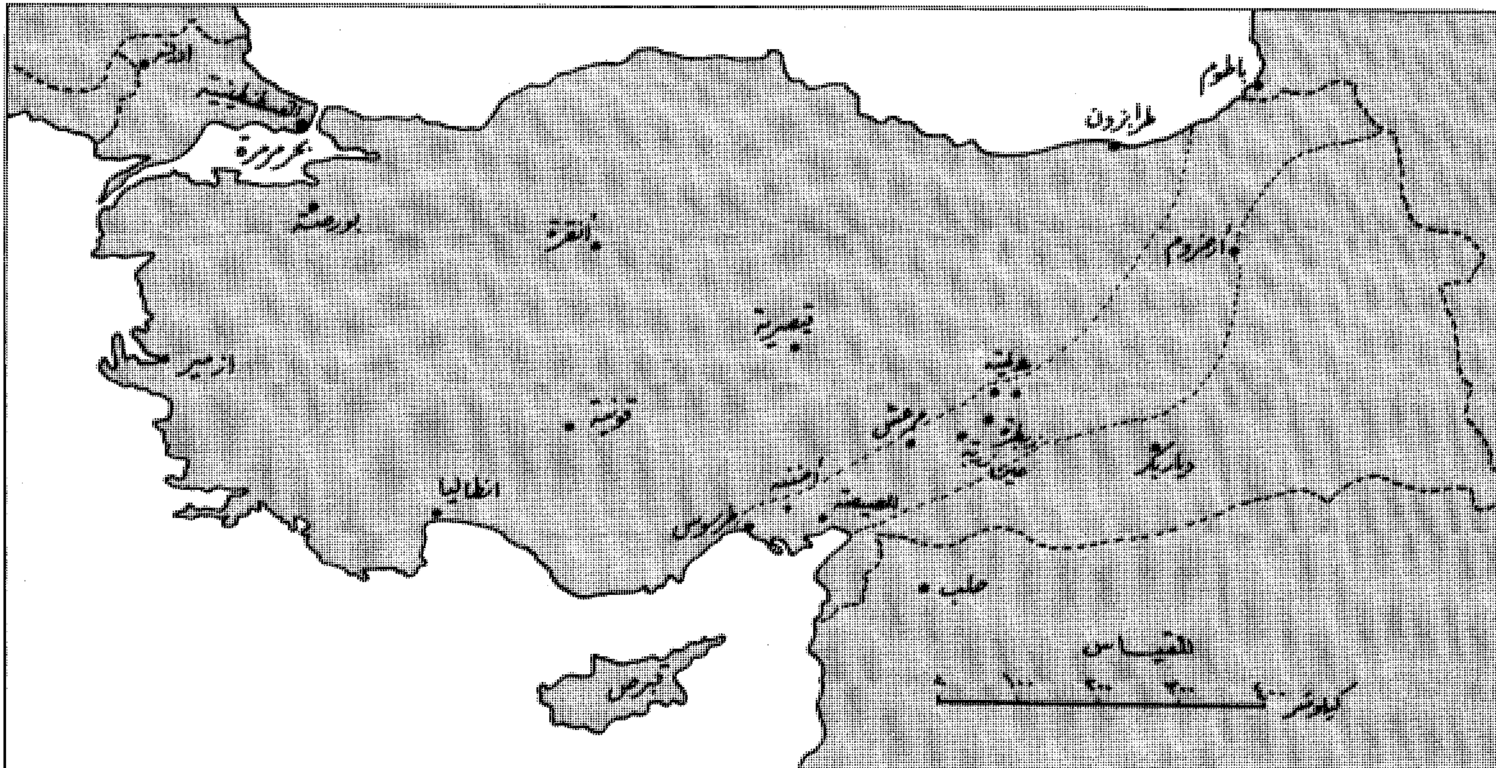
ادرنة
القسطنطينية
بحر مرمرة
بورصة
أنقرة
ازمير
قونية
انطاليا
قيصرية
طرابزون
باطوم
ارضروم
ديار بكر
طرسوس
حلب
قبرص
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [١]

النفس نتيجة تخليد الشعراء لهذه المعارك رغم أن أكثرها لم يكن في صالح الحمدانيين، كما لم تحمل معنى الجهاد وإنما المحافظة على السلطان وأطراف المملكة.

وضعُفت الدولة العباسية نتيجة الانقسام والتجزئة وسيطرة العسكريين على الدولة، وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء على الدولة العباسية، وكان أمله كبيراً في تحقيق حلمه حتى أنه قسم أمصار الدولة الإسلامية بين قادة جنده، وفي هذا الوقت كان السلاجقة قد وصلوا إلى غربي الدولة، ودخل زعيمهم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بغداد، وأصبح السيد المطاع فيها، وبدأ صراعه مع الروم، فاتجه إلى ديار بكر، وقاتل البيزنطيين، وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنةً، واشترط فيها بناء مسجد في القسطنطينية، فأقيم المسجد، وأقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخُطب لطغرل بك فيه. وتوفي طغرل بك عام ٤٥٥، ولم يكن له ولد فخلفه ابن أخيه سليمان بن داود، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه، وتسلّم الأمر، ودخل في الحرب مع الروم، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملازكرت عام ٤٦٣، وكانت جيوشهم تربو على مائتي ألف مقاتل، وتضمّ أخلاطاً من الروم، والروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها، على حين لم يكن جيش ألب أرسلان ليزيد على عشرين ألفاً أي ما يعادل ١/ ١٠ من جيش البيزنطيين ومع ذلك فقد أحرز ذلك الانتصار المؤزّر، وأسر إمبراطور الروم (ديوجينيس رومانوس)، ولكنه أطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه مقابل أن يُطلق الإمبراطور سراح كل مسلمٍ أسير، وأن يرسل إليه عساكر الروم لتُقاتل معه في أي وقتٍ يطلبها. وانساحَ السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتى الجهات الغربية فملؤوها، وأسسوا إمارات فيها، ومن بين هذه الإمارات إمارة أسسها قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، وقد خرج عن طاعة ألب أرسلان فقاتله فقتل، فقام مكانه ابنه سليمان بن قطلُمش. ثم قُتل ألب أرسلان عام ٤٦٥ على يد كمينٍ نُصب له، وهو في طريقه إلى الصين.

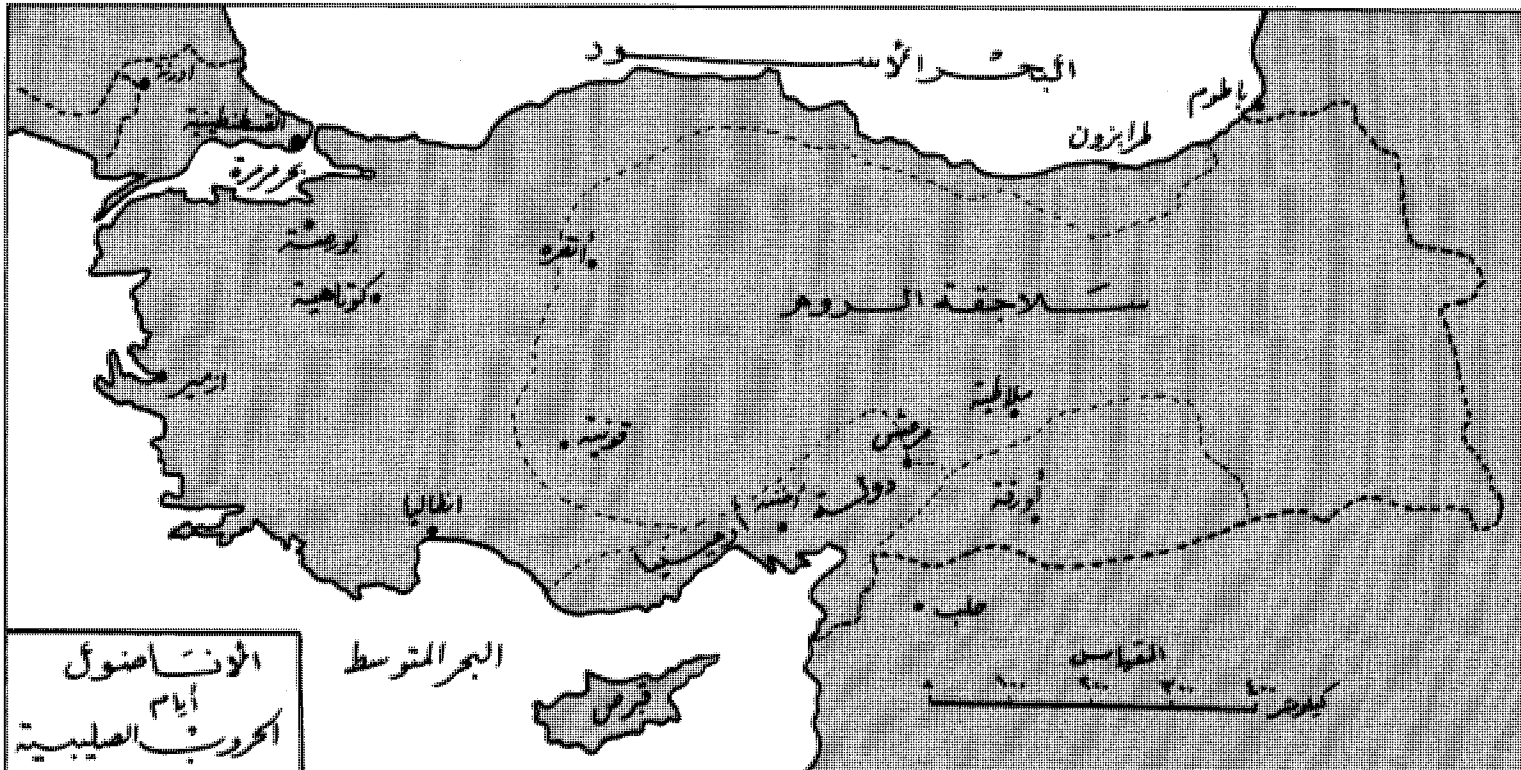

تراجع سلاجقة الروم أيام الحروب الصليبية وقيام دولة أرمينيا في كيليكيا وقيام

امارة اورفة الصليبية

وتمكّن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يُقدّموا خدمات للمسلمين في أول أمرهم إذ استردّوها من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين، ومنها أنطاكية إذ استردّوها عام ٤٧٧، وكان الروم قد أخذوها من المسلمين منذ عام ٣٥٨، كما استردّت الدولة المرداسية منبج عام ٤٦٨. وتأسّست إمارت سلجوقية في الأناضول وأرمينيا، ومن أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان بن قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، والتي كان مقرّها قونية، والتي أطلق عليها اسم سلاجقة الروم، ثم أعقبها قيام إماراتٍ أخرى. وفي الوقت نفسه فقد قامت دويلات أرمنية في أرمينيا، وأسّس الأرمن الذين فرّوا من وجه السلاجقة، واتجهوا إلى الغرب دويلةً في كيليكيا مقرها أضنه، وبقيت قائمةً حتى انهارت على يد المغول. وزاد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

وجاء الصليبيون عام ٤٨٩ بدافعٍ صليبي وحقد، وإن كانوا قد احتجّوا بأن السلاجقة يُسيئون معاملة النصارى وهم في طريقهم إلى القدس، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة، وأن يفصلوا بين المناطق الغربية عن المناطق الداخلية، وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارة صليبيةً في الرها، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا، واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر إمارته من نيقية إلى قونية. ثم اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم، واتجه لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فدخل أزمير وأفسوس لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

وقامت الحروب الصليبية في بلاد الشام، ووقف آل زنكي في وجههم، ولما توفي نور الدين محمود عام ٥٦٩ قام صلاح الدين الأيوبي فاستولى على أغلب البلاد التي كانت في يد آل زنكي، وأقطعها لإخوته وأبناء عمومته، وفتح كثيراً من البلدان التي كانت بيد الصليبيين، ودخل القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ وأنقذها من يد النصارى، وتوفي عام ٥٨٩ وبموته انفرط عقد الدولة الأيوبية، وتفرّقت كلمة أمرائها، واستقل

كل من أولاده - وكانوا سبعة عشر أميراً - في جزء منها، فاستقل العزيز عماد الدين عثمان في مصر، والأفضل في دمشق، والظاهر في حلب، وحاول كل منهم الحصول على ما في يد أخيه. وحارب العزيز بمساعدة عمه العادل صاحب الكرك أخاه الأفضل، وأخرجاه من دمشق، وملكها العادل، وتوفي العزيز عام ٥٩٥، وخلفه ابنه المنصور محمد، وكان صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره، فكاتب الأمراء في مصر عمه الأفضل ليتولّى أمر مصر فأسر إليها، فأراد الانتقام من عمه العادل، واستعان بأخيه الظاهر في حلب، وحاصرا دمشق، ثم اختلفا فتركاها، ولحق العادل بالأفضل إلى مصر، وتمكّن من إخراجه منها، وتسلّم مصر ودمشق عام ٥٩٩، وبقي حتى توفي عام ٦١٥، وخلفه ابنه الكامل في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى في حران، وخلاط في شرقي الأناضول، وبصورةٍ عامة لم تكن هناك دولة أيوبية بل دول متعددة، ويُطلق على حكامها اسم ملوك، والخلافات قائمة بينهم، ولم تجد تدخلات الخليفة العباسي للصلح بينهم، فمنهم من لجأ إلى الصليبيين، ومنهم من راسل خوارزم وغير ذلك.

وفي هذه الأثناء بدأ الهجوم المغولي من الشرق، فخاف بعض الحكام فانضموا إليه، وحدث اجتماع لهؤلاء الذين تحالفوا مع المغول عام ٦٤٣ ضم إضافةً إلى المغول الأمير مسعود بيك من بلاد ما وراء النهر، والأمير أرغون من خراسان، وصحبه أكابر من العراق، واللور، وأذربيجان، وشروان، ومن سلاجقة الروم الأمير ركن الدين، ومن الأيوبيين الملك الصالح إسماعيل بن العادل، ومن بغداد قاضي القضاة فخر الدين، وأمراء من الأرمن، والكرج، وتحالف مع المغول أيضاً إمارة أنطاكية الصليبية، وذهب سفراء صليبيون إلى بلاد المغول لعقد حلف معهم ضد المسلمين.

وتقدم المغول نحو الغرب، ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام ٦٤١ تحت سيطرة المغول، واستسلم أمراؤها لهم، وصاروا معهم حرباً على المسلمين، وفتحوا بلادهم لهم. وهادن أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ هولاكو أيضاً، ودخل في طاعته، ويُعدّ الأراتقة في ماردين عمالاً للمغول،

وساهم ملك الأرمن حيتوم في احتلال بغداد، ومشى مع المغول نحو القدس ليملكها. ولم يتعرّض المغول فعلاً للنصارى بل كانت بيوتهم آمنةً، كما أعطى هولاكو لبطريرك النساطرة في بغداد أحد قصور الخليفة ليتخذه كنيسةً وأغدق عليه العطايا، ووجد النصارى في دمشق عوناً من الوالي المغولي الذي كان يُعظِّم دينهم، ويزور كنائسهم، وارتكب الأرمن يومها أبشع الجرائم، وانتهكوا الأعراض في دمشق.

ثم هُزم المغول في عين جالوت عام ٦٥٨، وخرجوا بعدها من بلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى بلاد سلاجقة الروم لينتقم منهم، والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش، وانتصر عليهم نصراً مبيناً، ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية، وقد أحسن إلى أهلها، وأعطاهم الأمان، وخُطب له في مساجدها.

ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إمارات في الأناضول منها:

١ ـ أبناء آيدين:

في الغرب، وتضمّ أزمير وما حولها، وكان محمد بيك قائداً في دولة السلاجقة، ويحمل رتبة أمير السواحل، وقد خلفه ابنه آيدين في الزعامة، وكان يكره المغول فأعلن استقلاله وقد ضعف أمرهم وذلك عام ٦٩٩، وبقي حتى عام ٧٣٤، وقام بأمر الدولة من بعده ابنه محمد حتى عام ٧٤١، ثم ولده عمر الذي بنى أسطولاً أحرقه الصليبيون عام ٧٤٥، كما أنشأ قلعةً حصينةً في أزمير أزعجت الصليبيين كثيراً، وتوفي عام ٧٤٩، وخلفه أخوه عيسى، واضطر إلى تسليم إمارته إلى السلطان العثماني بايزيد، فترك له السلطان أزمير، وضمّ بقية أجزاء الإمارة إلى أملاك العثمانيين، وتوفي عيسى عام ٧٩٢، وضُمّت أزمير أخيراً للعثمانيين. واحتل تيمورلنك أزمير عام ٨٠٥، وأعطى حكمها إلى موسى بيك بن عيسى، غير أن موسى لم يلبث أن مات في ذلك العام، وخلفه ابنه عمر الثاني الذي توفي عام ٨٠٦، وخلفه ابنه مصطفى الذي كان عاملاً للعثمانيين على أزمير حتى عام

٨٢٥، وانتهت بعدها إمارة أبناء آيدين، وغدت جزءاً من الدولة العثمانية.

٢ ـ أبناء تكة:

وهم قبيلة تركمانية، كانوا من أمراء الأطراف في أيام دولة السلاجقة، وكان تكة باشا مجاهداً ضد الصليبيين، فلما دالت دولة السلاجقة أعلن استقلاله عام ٧٠٠، واستقل في انطاليا في الجنوب، واستولى السلطان بايزيد على إمارة أبناء تكة عام ٧٩٥، ثم عادت إلى الظهور بعد حروب تيمورلنك، وضُمّت إلى الدولة العثمانية عام ٨٣٠.

٣ ـ أبناء أرتنا:

بعد انقراض دولة سلاجقة الروم حكم بها دورخان أبو سعيد آخر حكام الدولة الإيلخانية القسم الأعظم من شرقي الأناضول، وقد أعطى هذا القسم عام ٧١٧ إلى تيمورتاش من أبناء شوبان من المغول، غير أن تيمورتاش سلّم أحد أركانه وهو أرتنا إدارة البلاد، وانتقل هو إلى مصر، فاعترف أبو سعيد بأرتنا حاكماً رسمياً عام ٧٢٨، ولما مات أبو سعيد عام ٧٣٦ استقل أرتنا بما تحت يده، ثم تبع كوشك بن شوبان في تبريز، ثم تبع المماليك في مصر حيث كان السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون، واتخذ قيصرية، ثم سيواس قاعدةً له، وكانت أنقرة، وتوقات، وأرزنجان، وأماسيا، وسينوب، وصامسون، وقونية تتبع له.

٤ ـ أبناء كرميان:

وكانوا قرب ملاطية، ثم انتقلوا إلى قرب أنقرة، واتخذوا مدينة كوتاهية حاضرةً لهم، وقامت دولتهم عام ٧٠٠ بعد زوال دولة سلاجقة الروم، واستمرت حتى عام ٧٩٢، حيث غضب السلطان العثماني بايزيد على أميرها يعقوب الثاني فقبض عليه وسجنه، غير أنه تمكّن من الفرار فالتجأ إلى تيمورلنك فأعاده إلى إمارته بعد عام ٨٠٥، وبعد وفاة تيمورلنك عادت الصلة الحسنة مع العثمانيين، ولم يكن له أولاد فأوصى بإمارته إلى السلطان مراد الثاني عام ٨٣٢.

٥ ـ أبناء حميد:

وأسس هذه الإمارة حميد بيك التركماني، وكان مقره في أكردير إلى الغرب من قونية، واستقل بإمارته هذه بعد انتهاء دولة سلاجقة الروم، وقد أعطى ابنه الذي خلفه وهو دندار الملقّب فلك الدين اسم عاصمته «فلك أباد»، وهاجم تيمورتاش والي المغول دندار الذي فرّ إلى أنطاليا، ولكن قُبض عليه، وقتل عام ٧٢٤، واستولى تيمورتاش على إمارة أبناء حميد. ولكن لم يلبث تيمورتاش أن فرّ إلى مصر، وظهر خضر بن دندار، واستعاد ملكه عام ٧٢٨، وخلفه ولده إسحاق، ثم إلياس بن إسحاق، ثم ولده كمال الدين حسين بن إسحاق الذي التجأ إلى السلطان مراد عام ٧٧٦ ليتخلّص من تهديدات إمارة قرمان له، وبقي كمال الدين حسين حتى توفي عام ٧٩٣، وضُمّت الإمارة بعد ذلك إلى العثمانيين، وانتهت سلطة أبناء حميد.

٦ ـ أبناء أشرف:

كان سيف الدين سليمان بن أشرف من أمراء غياث الدين مسعود الثاني سلطان السلاجقة، وقد توفي سيف الدين سليمان حوالي عام ٧٠١ فاستقل ابنه محمد في المنطقة، وكانت دولة السلاجقة قد انتهت، وتلقّب باسم مبارز الدين محمد، ثم خلفه ابنه سليمان شاه، وقد استولى والي المغول تيمورتاش على إمارة أبناء أشرف عام ٧٢٨، ولما فرّ إلى مصر، احتل أبناء حميد المنطقة في أيام خضر بن حميد.

٧ ـ أبناء قراسي (قره عيسى):

كان قره عيسى من أمراء السلطان مسعود الثاني، فاستقل عند ضياع دولة السلاجقة عام ٧٠٠ في مقاطعة (ميسيا)، واتخذ مدينة (باليكسر) عاصمةً له، ولما كانت المنطقة ساحلية فقد أسست هذه الإمارة أسطولاً لها، وخلف (قره عيسى) ابنه (عجلان بك)، وكان على صلة حسنةٍ

بعثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، وخلف عجلان ولده (دمورخان)، ودخل أورخان بن عثمان إمارة (قره عيسى) عام ٧٣٧، بعد اختلاف ولدي دمورخان على الحكم. وهي أول إمارة ضمها العثمانيون إليهم، وهي إمارة صغيرة تقع جنوب بحر مرمرة وشرق بحر إيجه.

٨ ـ أبناء صاروخان:

وهم من أسرة تركمانية استقرت في مقاطعة (ليديا)، وكانوا أمراء عند السلاجقة، وقد استقل صاروخان بمنطقته عندما ضعفت دولة السلاجقة عام ٧٠٠، وأسس أسطولاً، واصطدم مع الجنويين الذين كانت لهم مراكز على سواحل آسيا الصغرى، وحاول عقد حلفٍ من الأمراء المستقلين ضد العثمانيين، وتعاون مع إمبراطور بيزنطة ثم نقض العهد معه، وتوفي عام ٧٤٦، وخلفه ولده فخر الدين إلياس حتى عام ٧٧٦ حيث توفي، وتولى مكانه ابنه مظفر الدين إسحاق چلبي فدخل في الحلف الذي شكّلته إمارة قرامان ضد العثمانيين فهزموا، وأخذ السلطان بايزيد بعض إمارته تأديباً، وأبقى له قسماً منها، ومات إسحاق چلبي عام ٧٩٠، وخلفه ابنه خضر شاه حتى عام ٧٩٢، حيث ضم السلطان بايزيد إليه الإمارة، وأعاد تيمورلنك خضر شاه إلى مملكته بعد انتصاره على السلطان بايزيد في معركة أنقرة عام ٨٠٥، وخلف خضر شاه ولده محمد چلبي الذي أعدم من قبل العثمانيين عام ٨١٣ لجريمةٍ أخلاقية، وانتهت يومها إمارة أبناء صاروخان.

٩ ـ أبناء منتشا:

ويعودون إلى أصل كردي، وكان حاجي أمير السواحل في عهد السلاجقة، واستقل ابنه منتشا في منطقة (قاريا) القديمة، واستمر حتى عام ٧٣٠، حيث خلفه ابنه أورخان شجاع الدين، ثم إبراهيم الذي زاره ابن بطوطة، ثم تاج الدين أحمد غازي بن إبراهيم، ثم محمد بن إبراهيم، ثم إلياس بن محمد الذي لم يتمكّن من مقاومة السلطان بايزيد ففرّ إلى سينوب عام ٧٩٢، وبعد هزيمة العثمانيين عام ٨٠٥ أمام تيمورلنك عاد

إلياس إلى منطقته حتى عام ٨٢٤ حيث خلفه بعد وفاته ابنه الليث حتى عام ٨٢٩ حيث دخل السلطان مراد الثاني الإمارة وقبض على أولاد منتشا وسجنهم في توقات، وانتهى أمرهم.

١٠ ـ أبناء جاندار (اسفنديار):

يدّعون أنهم مخزوميون من نسل خالد بن الوليد، وقد فتح مدينة قسطموني حسام الدين شوبان بك، وفي عام ٦٩١ نصّب الإيلخانيون عليها شمس الدين تمرجاندار، ثم خلفه ابنه سليمان، وألحقت بالدولة العثمانية عام ٧٩٥ في أيام السلطان بايزيد، وبعد هزيمة السلطان في معركة أنقرة أمام تيمورلنك عاد اسفنديار أحد أفراد أسرة جاندار إلى الحكم، واستمر حتى عام ٨٤٧ حيث توفي، والعثمانيون ينسبون إلى اسفنديار هذا، وقد تزوج السلطان العثماني مراد الثاني ابنة اسفنديار، وفي عام ٨٦٦ دخل السلطان محمد الفاتح قسطموني، وانتهى وضع هذه الإمارة.

١١ ـ أبناء براونه:

استولى عز الدين كيكاوس سلطان السلاجقة في الأناضول على مدينة سينوب الواقعة على البحر الأسود عام ٦١١، ثم عاد إمبراطور طرابزون إليها، غير أن أحد أمراء السلاجقة وهو براونه معين الدين سليمان تمكّن ثانيةً من استعادتها أيام السلطان قليج أرسلان الرابع الذي منحه حكمها، وخاف براونه أن يعاود فينتزعها منه فعمل على قتله. أناب معين الدين سليمان ابنه معين الدين محمد عليها، وفي عام ٦٧٦ أعدم براونه، فاستقل ابنه في سينوب، وبقي حتى مات عام ٦٩٦، وخلفه ابنه مهذب الدين مسعود فسالم المغول مخالفاً سياسية أبيه، وقد اختطفه الفرنجة من تجار جنوه إذ جاءوا إلى سينوب من (كفا) مستعمرتهم في شبه جزيرة القرم، ثم فدى نفسه بمبلغٍ ضخم، وعاد إلى حكم سينوب، وبقي حتى مات عام ٧٠٠، وانتقلت بعد ذلكَ إلى غازي چلبي بن السلطان غياث الدين مسعود الثاني.

١٢ ـ أبناء صاحب أتا:

كان الصاحب فخر الدين علي بن الحسين بن أبي بكر من الوزراء البارزين عند سلاجقة الأناضول، ويُعرف في قونية باسم «صاحب أتا»، وبسبب الأحداث التي وقعت، وتدخل المغول في شؤون السلاجقة انزوى في قرية «نادر»، وحفظ أمواله في «قره حصار»، ثم توفي عام ٦٨٤، وكان أولاده قد قتلوا في معركة عام ٦٧٦، وحكم بعد ذلك أحفاد (صاحب أتا) قره حصار حتى استولى عليها أبناء كرميان.

١٣ ـ أبناء قرمان:

فتح علاء الدين كيقباد الأول مدينة أرمناك، وأسكن حولها بعض القبائل التركمانية، وعيّن عليهم أحد أمرائهم كريم الدين قرمان، وفي عام ٦٥٤ جعل السلطان قليج أرسلان الرابع كريم الدين قرمان أميراً على أرمناك، وعندما توفي عام ٦٦٠ خلفه ابنه محمد الأول وقد اتفق مع جمري الذي ادعى أنه أحد أولاد عز الدين كيكاوس السلطان السلجوقي، واحتل قونية عام ٦٧٥، وجاء غياث الدين كيخسرو الثالث بجيش من السلاجقة والمغول، وهزمهما وقتلهما عام ٦٧٦.

وتولّى الحكم بعد محمد أخوه محمود. وصاهر علاء الدين أمير القرمان عام ٧٨٣ السلطان مراد الأول، وتزوّج ابنته نفيسة، وأعطاه ابنته، ولم يمنعه هذا من محاربة العثمانيين، غير أنه أسر، فتوسطت له ابنته زوجة السلطان فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً. ثم عاد للحرب فقتل على يد أحد القادة العثمانيين في أيام السلطان بايزيد عام ٧٩٣، وسجن ابنه من نفيسة ابنة السلطان مراد في بورصة، وألحقت أكثر إمارته بالدولة العثمانية. فلما هُزم السلطان بايزيد أمام تيمورلنك عام ٨٠٥ بعد معركة أنقرة، خرج محمد بن علاء الدين من السجن وأعيد إلى ملكه، وضرب نقوداً باسم تيمورلنك، ثم توسع فسيطر عام ٨١٤ على إمارة أبناء كرميان، غير أن السلطان محمد چلبي أخرجه منها عام ٨١٧، وفي

حربٍ أخرى ووقع أسيراً بيد العثمانيين غير أن السلطان العثماني قد عفا عنه، فاتجه إلى المماليك في مصر، ثم عاد فحاربهم ووقع أسيراً فسيق إلى مصر عام ٨٢٢، وفرّ من مصر ورجع إلى ملكه عام ٨٢٤، وحارب العثمانيين ثانيةً وحاصر أنطاليا، وأخيراً توفي عام ٨٢٧، فأعلن أخوه علاء الدين علي استقلاله، وكان موالياً للمماليك، وقام إبراهيم بن محمد وأخوه عيسى ينافسانه، واتجها إلى مراد الثاني السلطان العثماني فزوجهما بأختيه، وولّى عيسى لواء الروملِلي، ثم أخذ إمارة قرمان من علي علاء الدين وزوّجه بأخته الثالثة، وولّاه لواء صوفيا، وأعطى إبراهيم إمارة قرمان.

حاول إبراهيم أن يعطي ابنه الكبير إسحاق الحكم فوقع الخلاف بين الإخوة، وتولى بير أحمد الحكم وهو من ابنة السلطان محمد چلبي، فلجأ إسحاق إلى أوزون حسن ملك آق قيونلي (الخروف الأبيض) في أذربيجان، وتمكّن بمساعدته من احتلال قونيه، غير أن السلطان محمد الفاتح أعاد بير أحمد، وفر إسحاق إلى أوزون حسن، وبعد مدة أعلن بير أحمد الحرب على الدولة العثمانية غير أنه هزم ٨٧١، وغدت قونية تتبع الدولة العثمانية، واشترك بير أحمد وشقيقه قاسم في حكم بقية إمارة قرمان حتى عام ٨٧٤، ثم اختلفا ومات بير أحمد عام ٨٨٠.

انهزم قاسم أيضاً أمام العثمانيين عام ٨٨٠، وفرّ إليه الأمير العثماني (جم) من وجه أخيه بايزيد الثاني، وشاركه في الحكم، ثم غادر (جم) قرمان إلى فرسان رودوس النصارى الصليبيين، وعقد قاسم معاهدة مع السلطان بايزيد، وبقي قاسم حتى توفي عام ٨٨٨، واختار الأمراء من بعده محمود بن طورغوث أحد كبار إمارة قرمان، وفي الوقت نفسه ابن ابنة قاسم، وذلك ليكون حاكماً على الإمارة، وذلك لأن أولاد قاسم قد ماتوا معه، وقد وافق السلطان بايزيد واعترف بذلك، إلا أن محمود بن طورغوث لم يلبث أن أعلن العصيان على الدولة العثمانية، وأظهر الطاعة للمماليك في مصر، فأرسل العثمانيون له قوة عام ٨٩٢ أنهت الإمارة. وقد استعملت

هذه الإمارة اللغة التركية، وعمّت بعد ذلك على حين كان السلاجقة يستعملون اللغة الفارسية.

١٤ ـ أبناء رمضان:

وهم عشيرة تركمانية استقرت حول مدينة أضنه، وقد أسس هذه الإمارة شهاب الدين أحمد بن رمضان (مير أحمد) حوالي عام ٧٧٩، وقد حارب المماليك، وانتصر عليهم، ثم تزوّج السلطان المملوكي فرج بن برقوق ابنة الأمير أحمد هذا، فتحسّنت العلاقات بين الطرفين، ووقفا معاً ضد تيمورلنك، وأخذ طرسوس من إمارة أبناء قرمان عام ٨١٨ بعد حصار دام ستة أشهر، وتوفي أحمد هذا عام ٨١٩، فاختلف أبناؤه من بعده، ثم تسلّم الأمر ابنه إبراهيم، وانتهى الخلاف، وعرض إبراهيم على إخوته وأبناء عمه عام ٨٢٠ الطاعة لسلطان مصر، غير أنه عاد فأظهر الخلاف عام ٨٣٠ فقبض عليه، وسجن في مصر، ثم قتل عام ٨٣١، واختار المماليك مكانه ولده عز الدين حمزة، ولم تطل أيامه، وكان عماه محمد وعلي يملكان مدناً أخرى تتبع أضنه، فحدثت خلافات انتهت باستلام أرسلان داود بن إبراهيم الإمارة، واستمر في وضعه حتى قتل في جهات ديار بكر عام ٨٨٥. وخلف داود ولده غرس الدين خليل، وبقي حتى عام ٩١٦، وبقي أبناء رمضان هذه المدة كلها بجانب مصر، غير أن قوة العثمانيين التي برزت قد جعلت خليلاً يتقرّب منهم. وخلف خليل أخاه محمداً فاتجه إلى إستانبول، واتفق مع السلطان، وسار معه لقتال المماليك، وقتل في معركة الريدانية على أبواب القاهرة عام ٩٢٣. وخلفه أخوه بيري بك، وبقي تحت سلطة العثمانيين ٩٢٦ ـ ٩٤٨ ثم استقال من الإمارة، وأصبحت منطقة أضنه ولايةً عثمانيةً، وجُرّد أبناء رمضان منها، وحدثت خلافات في المنطقة فكُلّف بيري بك بالعودة إليها فعاد واستمر في عمله حتى توفي عام ٩٧٦، وعُيّن إخوته في ولاياتٍ ثانيةٍ. وخلف بيري بك ابنه الأصغر درويش، وكان من قبل أميراً على طرسوس، وبعد ستة أشهر قام مكانه أخوه الأكبر إبراهيم الذي كان أميراً على عينتاب، واستمر حتى عام ٩٩٧ حيث خلفه ابنه محمد حتى انقرضت إمارة أبناء رمضان عام ١٠١٧.

١٥ ـ أبناء ذي القادر:

وقد وصل هؤلاء إلى الأناضول مع هروب التركمان من وجه الهجوم الوحشي المغولي في أيام جنكيزخان، ومع أنهم يدعون أنهم من أصل فارسي، ويعودون إلى الساسانيين، إلا أن الأصل التركماني واضح عليهم، وفي أثناء فرارهم كان أمير إحدى الفرق منهم ذو القادر، وتمكّن ابنه زين الدين من تقوية نفسه في منطقة البستان، ثم أعلن استقلاله عام ٧٤٠، وطال به العمر، وتوفي عام ٧٨٠، وخلفه ابنه خليل الذي ملك ملاطية ومرعش ثم قتله أخوه إبراهيم أمير خربوت الذي أعلن الطاعة للمماليك وذلك عام ٧٨٨. وتسلّم الحكم بعد خليل أخوه الثاني (صولي) الذي وقع بين ناري المماليك وأبناء قرمان الأمر الذي جعله يتجه إلى العثمانيين، وعاد ثانيةً إبراهيم إلى قتل أخيه (صولي) عام ٨٠٠، وكان الأمير العثماني محمد شلبي قد تزوج ابنة (صولي). ورغم فعلة إبراهيم في قتل أخويه إلا أنه لم يتمكّن من استلام السلطة إذ أن أخاه الثالث ناصر الدين محمد قد أخذها وقاتل المماليك، وأبناء قرمان، والعثمانيين، كما قاوم تيمورلنك عام ٨٠٣ غير أنه اضطر للخضوع فيما بعد، ولما رجع تيمورلنك عادت الصلة فتوطّدت بين السلطان محمد چلبي وناصر الدين محمد والتقيا في أنقرة عام ٨١٥. لكنه رجع فاستعان بالمماليك ضد أبناء قرمان، فقدّم له المماليك مدينة قيصرية مكافأةً له، ولكن العثمانيين قد احتلوا هذه المدينة، ثم اختلف ثانيةً مع المماليك والتجأ إلى السلطان العثماني مراد الثاني فأعاد إليه مدينة قيصرية. ورجع إلى المماليك، وزار القاهرة، ولما رجع إلى مقر ملكه لم يلبث أن أدركته المنية عام ٨٤٦.

خلف سليمان أمير ملاطية أباه ناصر الدين محمد، وعاد إلى حسن الصلة مع العثمانيين، وزوّج ابنته مكرمة للأمير العثماني محمد (الفاتح)، وتوفي عام ٨٥٨، وتولى مكانه ابنه أرسلان فهاجمه ملك الأسرة القراقيلونية أوزون حسن وأخذ منه (خربوت) فاستنجد بالمماليك، وسار إلى القاهرة فاغتيل في المسجد عام ٨٧٠، وتولّى مكانه أخوه (شاه بودان) مؤيداً من

قبل المماليك على حين نصّب العثمانيون أخاه الآخر (شاه سوار)، واختلف الأخوان، وفرّ (شاه بودان) إلى مصر عام ٨٧١، فعيّن المماليك مكانه عمه رستم بن ناصر الدين محمد والياً على البستان، ولكن شاه سوار قد تغلّب على المماليك، وعلى أبناء رمضان عام ٨٧٢، غير أنه عاد فانهزم أمام المماليك في عينتاب عام ٨٧٦ ووقع أسيراً بأيديهم، فحُمل إلى مصر، وأُعدم هناك عام ٨٧٧، وأعادوا شاه بودان إلى الحكم، ودعم العثمانيون أخاه الآخر بوزقورت علاء الدولة، ففرّ شاه بودان إلى مصر عام ٨٨٤، وخلا الجو لعلاء الدولة، فاتخذ الدهاء وأظهر الميل إلى المماليك، وتمكّن من القبض على أخيه شاه بودان وسلّمه إلى مصر فقُتل عام ٨٩٥، وعندما حقق ما يريد رجع إلى العثمانيين، وزوّج السلطان بايزيد ابنته عائشة وهي والدة السلطان سليم، ولكنه عاد فأعلن مخالفة العثمانيين، فشنوا عليه حرباً بعد أن انتهوا من الصفويين، وقبضوا عليه، وقتل عام ٩٢١، وحُمل رأسه إلى ابن ابنته السلطان سليم الأول.

وعيّن العثمانيون مكانه علي بن شاه سوار، وأصبحت الخطبة للسلطان العثماني، وسار الأمير علي هذا في حملة السلطان سليم التي قضت على حكم المماليك في الشام ومصر، ولكنه أعدم عام ٩٢٨ بأمر السلطان سليمان القانوني، وانتهت الإمارة منذ ذلك اليوم.

ولم تكن هذه الإمارات أو الدويلات التي قامت في الأناضول وحدها بل هناك غيرها كثير دون اتساعها أو أقل منها أهمية مثل أمراء دنزلي الذين انتهت إمارتهم في أيام السلطان العثماني مراد الثاني عام ٨٣٢، وأمراء سيواس، والأقيونيون في ديار بكر الذين انتهت دولتهم في آمد، وماردين حوالي ٩١٢ على يد السلطان سليم الأول و. . . .

وكانت الإمارات المعاصرة بعضها لبعض متنافسة، وتنتقل المدن من يد إمارة إلى أخرى أو المناطق ثم تعود للإمارة الأولى عندما تتقوّى أو تجد لها دعماً، حتى قضت الدولة العثمانية عليها جميعاً في أوقات متفاوتة.

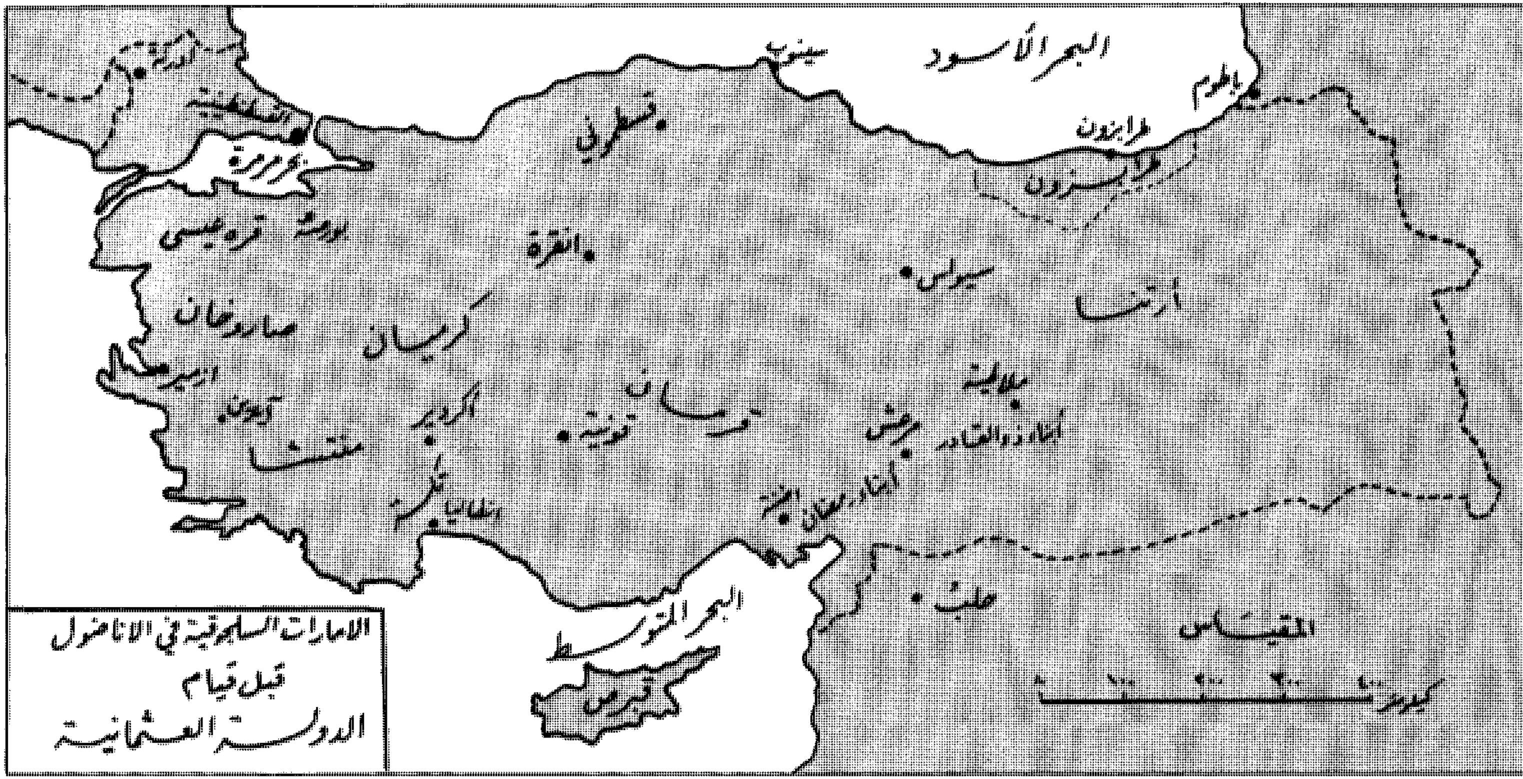
الامارات السلجوقية في الاناضول
قبل قيام
الدولة العثمانية
البحر الأسود
سينوب
باطوم
طرابزون
قسطموني
القسطنطينية
قره عيسى
أنقرة
سيواس
أرتنا
صاروخان
كرميان
قونية
قرمان
ملاطية
مرعش
أبناء ذو القادر
منتشا
تكه
أنطاليا
البحر المتوسط
قبرص
حلب
المقياس

مصور رقم [٣]

الفصل الثاني

تأسيس الدولة وقوتها

في الوقت الذي بدأ فيه الهجوم المغولي نحو الغرب قاصداً دولة خُوارزم بالدرجة الأولى عام ٦١٧ خافت القبائل من ذلك الهجوم الوحشي، والذي يقتل دون حساب، ويحرق الأخضر واليابس، لا يعرف رحمة، ولم تمرّ على مسامعه كلمة شفقة أو إنسانية كأنما قُدّت قلوب عساكره من صخر، وبدأت القبائل تهجر مواطنها، وتتجه نحو الغرب أمام ذلك الزحف الخطير، وكانت من بين هذه القبائل قبيلة قاتي التركمانية والتي يرأسها سليمان شاه بن قيا ألب، وكان موطن قبيلته بالقرب من مرو قاعدة بلاد التركمان فيمّم وجهه شطر الغرب، فمرّ على طوس، ومن شمال نيسابور فجرجان، ثم اتجه إلى شمال الري، ومرّ على قزوين فتبريز ثم وصل إلى خلاط شمال بحيرة وان، واستقر هناك، وهدأت موجة المدّ المغولي، إذ عاد المغول إلى بلادهم، فرغب في الرجوع إلى موطنه الأول، واتخذ طريقاً ثانيةً، إذ تابع إلى ديار بكر، واتجه نحو الرقة، وأراد عبور نهر الفرات فهوى فيه وغرق، عام ٦٢٨، فدفن هناك قرب قلعة جعبر، واختلف من بعده أبناؤه الأربعة في الطريق التي يجب أن يسلكوها، أما ابنه الكبير (سنقورتكن) فقد حقق رغبة أبيه، ورجع مع أخيه (كون طوغري) إلى موطنهم الأول، وكان (سنقورتكن) هو الذي تولّى إمرة القبيلة وزعامتها بعد موت أبيه. وأما أخواه الآخران، وهما (أرطغرل) و(دندان) فقد عادا أدراجهما، واتجها نحو الشمال حيث وجدا طيباً في العيش، وجودةً في المرعى، وكانت معهما أربعمائة أسرةٍ تركمانيةٍ، ومهما قيل: من هو أول

من اعتنق الإسلام في هذه القبائل؟ فإنها كانت مسلمة بالأصل قبل أن ترحل من مكانها الأول، ولا صحة في أن عثمان مؤسس الدولة هو أول من اعتنق الإسلام، إذ معروف أن هذه القبيلة تركمانية، وكلمة تركمان تُطلق على الترك الذين يعتنقون الإسلام، فالقبيلة مسلمة من بداية ظهورها، واسم زعيمها سليمان دليل على ذلك.

تولّى أرطغرل زعامة أفراد القبيلة الذين بقوا في الأناضول، وأخذ يتجوّل في تلك الربوع ولا يريد أن يصطدم مع حكام تلك الجهات فالظروف غير مواتيةٍ له ليدخل في اشتباكات لذا فقد أرسل ابنه (ساوجي) ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقي أمير إمارة قرمان التي مركزها مدينة قونية، والتي بقيت من بعد ما زالت دولة سلاجقة الروم ليطلب أرضاً تعيش فيها القبيلة كي لا تقع نزاعات، غير أن (ساوجي) لم يعد إلى أبيه إذ توفي في الطريق. وفي هذه الأثناء لاحظ أرطغرل جيشين يقتتلان، فأسرع ودعم الجيش السلجوقي بعاطفة إسلاميةٍ ضد الجيش البيزنطي، إضافةً إلى أنه يعيش في أرضه، وأرسل إليه يطلب منزلاً لمن معه، ويعرف رايته، وهتافات الجيش، ويلتقي معه بالأصل التركماني، أما أنه ساعد الجيش الذي بدت عليه علائم الهزيمة، أو الجيش الضعيف ليكون لمساعدته أثر واضح في النصر فهذا غير مقبول، إذ لا يمكنه أن يقف بجانب البيزنطيين النصارى أبداً، فهم أعداؤه ولا يمكن أن يكافئوه، ويعطوه أرضاً في بلادهم ثم يكون عدواً لهم، وإن فعلوا تقع الحرب بينه وبينهم بعد حين. وأحرز الأمير علاء الدين النصر بدعم صديقه الجديد أرطغرل فكافأه، وأقطعه أرضاً على حدود بلاد الروم ليكون درءاً له يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين، وتوفي أرطغرل عام ٦٨٧، وخلفه ابنه عثمان أكبر أولاده، وبناءً على رأي الأمير علاء الدين أيضاً. وإلى عثمان هذا تُنسب الدولة، فهو مؤسسها، وأول حكامها.

١ ـ عثمان:

بدأ يوسّع إمارته فتمكّن أن يضم إليه عام ٦٨٨ قلعة قره حصار (القلعة السوداء) أو أفيون قره حصار، فسُرّ الملك علاء الدين بهذا كثيراً،

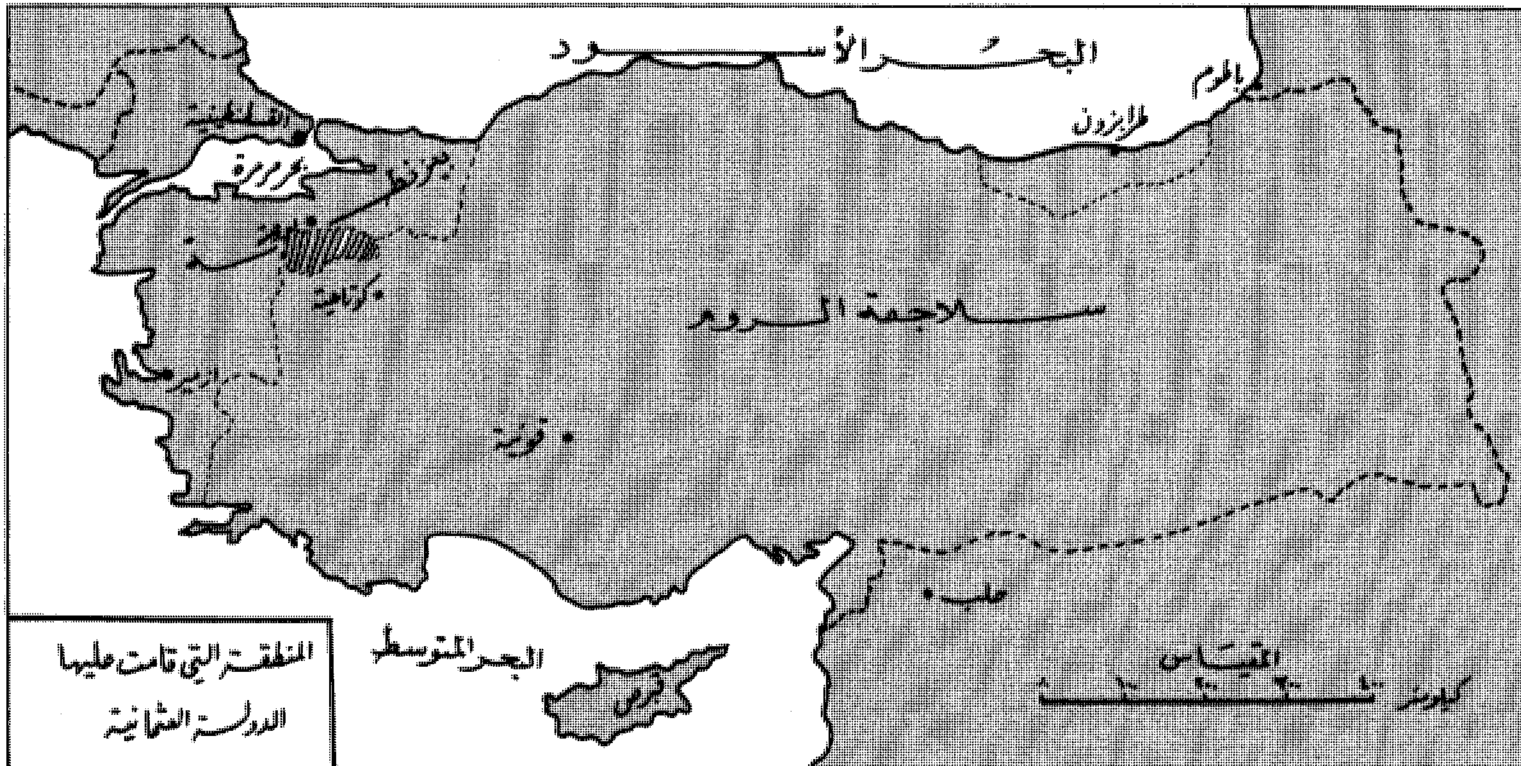
البحر الأسود
باطوم
طرابزون
سلاجقة الروم
القسطنطينية
بحر مرمرة
كوتاهية
أزمير
قونية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر
المنطقة التي قامت عليها
الدولة العثمانية

مصور رقم [٤]

فمنحه لقب (بيك)، والأراضي التي يضمها إليه كافة. وسمح له بضرب العملة، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام ٦٩٩ أغارت المغول على إمارة علاء الدين ففرّ من وجههم، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة، وتوفي هناك في العام نفسه، وإن قيل: إن المغول قد تمكّنوا من قتله، وتولية ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففُسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات، فبدأ يتوسّع، وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت)، وأزنيق (نيقية) رغم محاصرتهما، واتخذ مدينة (يني شهر) أي المدينة الجديدة قاعدةً له، ولقّب نفسه باديشاه آل عثمان. واتخذ رايةً له، وهي علم تركيا اليوم ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان قد جهز جيشاً بإمرة ابنه أورخان الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيّره لقتال المغول فشتّت شملهم، ثم عاد واتجه إلى بورصة (بروسة) فاستطاع أن يدخلها عام ٧١٧ وتعدّ من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى، وأمّن أهلها، وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (أفرينوس)، فمنحه عثمان لقب بيك، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين. وتوفي عثمان عام ٧٢٦، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

٢ - أورخان:

ولد عام ٦٨٧ في السنة التي تولّى أبوه فيها الحكم، وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السن، لكن يبدو أنه كان أكثرهم نباهةً، وأشجعهم فنال بذلك الملك، ولم يخالفه أخوه الأكبر منه علاء الدين، ولكنه رضي بذلك فقدّره أخوه أورخان، وسلّمه الوزارة، فانصرف علاء الدين إلى الأمور الداخلية، وتوجه أورخان إلى الأعمال الخارجية.

نقل أورخان قاعدته إلى بورصة، وضرب العملة الفضية والذهبية،

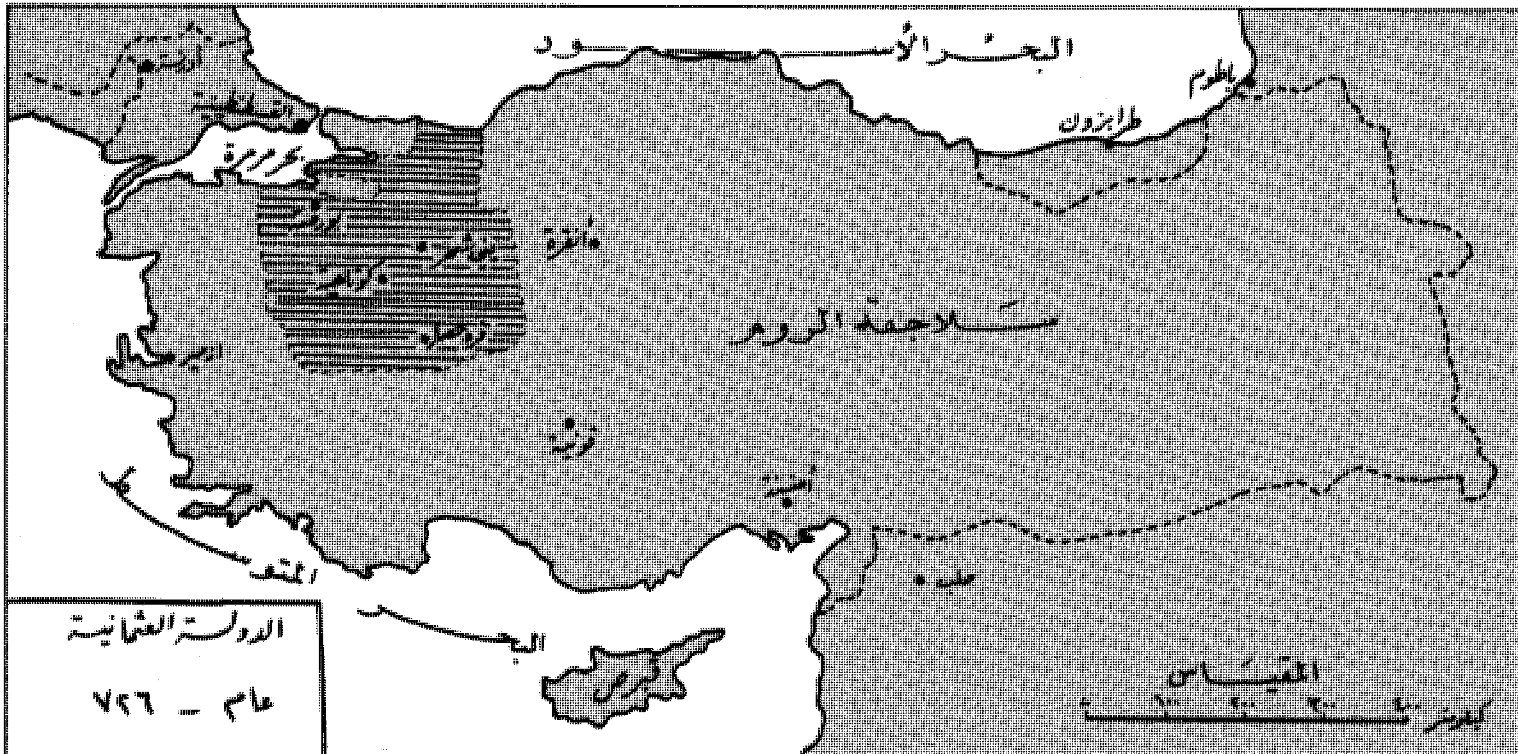
البحر الأسود
باطوم
طرابزون
سلاجقة الروم
أنقرة
قونية
حلب
قبرص
الدولة العثمانية
عام ـ ٧٢٦
القياس
كيلومتر

مصور رقم [٥]

وأسس الجيش (يني تشري) أي الجيش الجديد من أبناء الأسرى، والصغار الذين يقعون في الأسر، فيُربون في ثكنات عسكرية تربيةً إسلاميةً ويُدرّبون تدريباً عسكرياً، ويتخرّجون لا يعرفون إلا القتال والحياة العسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله، ليس روابط قبلية أو عشائرية إذ لا يعرفون إلا السلطان سيداً لهم، لذا كانوا قوةً كبيرةً ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم، وامتداد الفتوحات العثمانية، وكان يمكن أن تبقى كذلك لو بقي السلاطين أقوياء لا يسمحون لهم بالتدخل في غير ما اختصوا به، ولا يسمحون للأمراء والوزراء بالاتصال بهم، وأخذ الدعم منهم، ولا أن يعطوهم أكثر من قدرهم فتتغيّر طباعهم، فما تدخّل العسكريون في شؤون الحكم إلا أفسدوه، ولا تصرّفوا في أمور البلاد إلا أضاعوها إلا من عصم ربك، وهكذا كان شأنهم في النهاية إذ غدوا طريق الهزيمة وسبب المفاسد حتى قضي عليهم عام ١٢٤٢ في أيام السلطان محمود الثاني:

فتح أزميت، ثم حاصر أزنيق وفتحها، وعيّن ابنه الكبير سليمان حاكماً عليها، وأحسن إلى أهلها، فسمح بالهجرة إلى من يريدها، وسمح لمن بقي بإقامة شعائر دينه. وبعد مدة توفي أخوه علاء الدين فعيّن مكانه سليمان بن أورخان.

وفي عام ٧٣٦ توفي حاكم إمارة (قره سي) الواقعة جنوب بحر مرمرة وإلى الشرق من بحر إيجه، واختلف ولداه فيما بينهما على السلطة، فأسرع أورخان وضمها إلى إمارته كي لا تقع فريسةً بيد الروم.

وفي عام ٧٥٦ طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج)[1] من أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب أصطفان دوشان الملقب بالقوي الذي تحالف مع البندقية، والإمارات الصربية للهجوم على القسطنطينية.

---

(١) يوحنا الخامس، توفي والده الإمبراطور أندريونيكوس الثالث عام ٧٤٢، وكان يوحنا صغيراً ابن تسع سنوات، فتسلّم رئيس الوزراء يوحنا كانتاكوزين الوصاية، وكان يحاول أن يزيح الإمبراطور عن العرش، ويتسلم مكانه بحجة صغره، ورغم أنه زوج ابنته. واستمر يوحنا الخامس إمبراطوراً على القسطنطينية حتى عام ٧٩٣ أي حكم إحدى وخمسين عاماً.

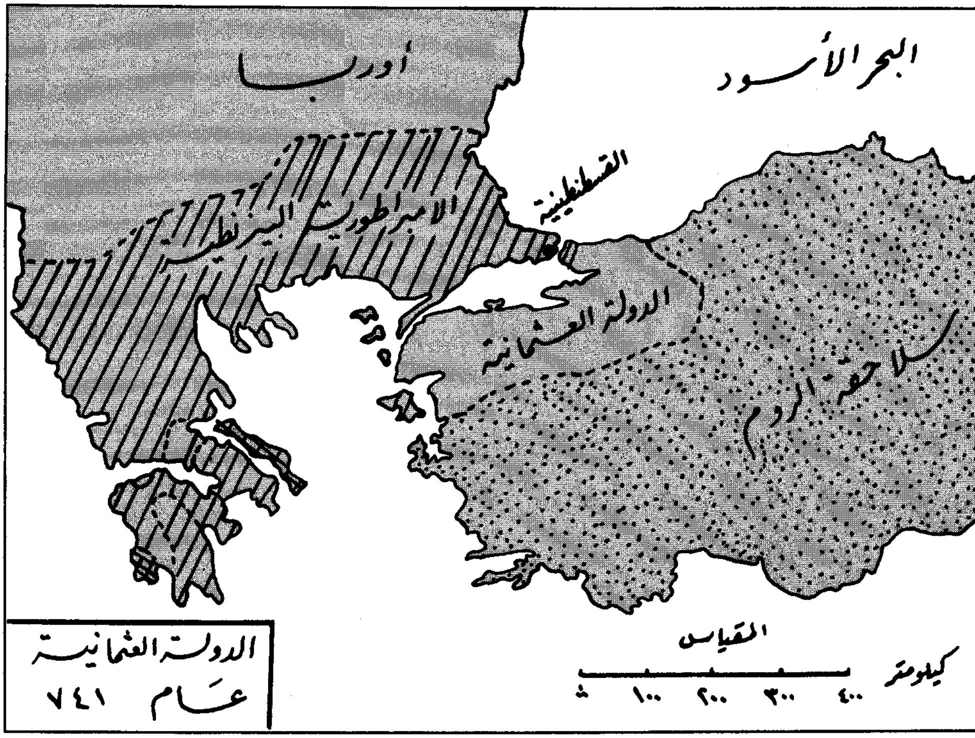

مصور رقم [٦]

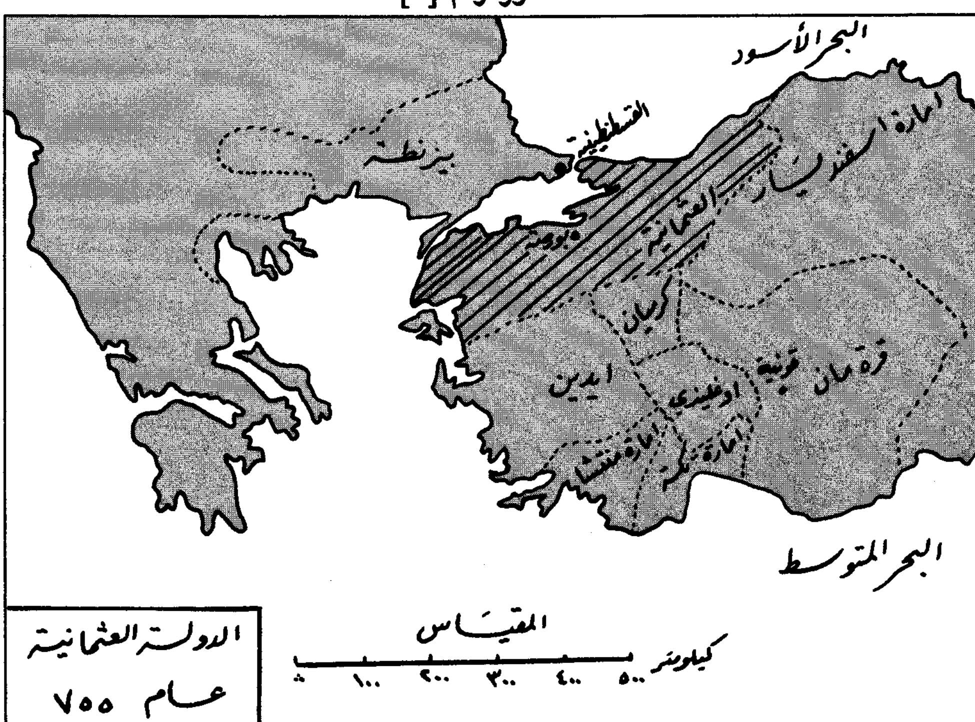

مصور رقم [٧]

ووعد بأن يزوّجه ابنة الوصي على العرش يوحنا كانتاكوزين التي تزوّج هو أختها الأخرى، أي يصبح عديلاً له، وأرسل له أورخان الجند، غير أن أصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتال، وتزوّج أورخان ابنة الوصي.

وشعر أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب الامبراطور منه المساعدة للوقوف في وجه الصرب، ورأى أن ينتقل إلى الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليتقدّم بعدها في أوربا، ويتمكّن من الإحاطة بالقسطنطينية، والهجوم عليها من الغرب فقد عجز المسلمون من قبل عن فتحها بالهجوم عليها من الشرق، وإن لم يكن هو فمن يأتي بعده، فقرر الجهاد، وأرسل ابنه الكبير سليمان، وولي العهد، ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له، وفي عام ٧٥٨ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من أبطاله، ولما وصلوا إلى الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي، حيث احتلوا قلعة (تزنب)، وغاليبولي التي فيها قلعة (جنا قلعة) المشهورة، وابسالا، ورودستو، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال حتى تصبح ردوستو على بحر مرمرة.

وفي عام ٧٦٠ توفي ولي العهد سليمان، أو هذا القائد الفذّ، نتيجة سقوطه عن جواده وأصبح ولي العهد مراد، وفي العام التالي توفي السلطان أورخان فخلفه ابنه مراد.

٣ ـ مراد الأول:

ولد مراد في عام ٧٢٦، وهو العام الذي تولّى فيه والده الحكم، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً ستاً وثلاثين سنةً. وفي هذه الأثناء أثناء انتقال الحكم من سلطان إلى آخر أخذت الحماسة أمير دولة القرمان في أنقرة فاستنهض همم الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين، وعمل

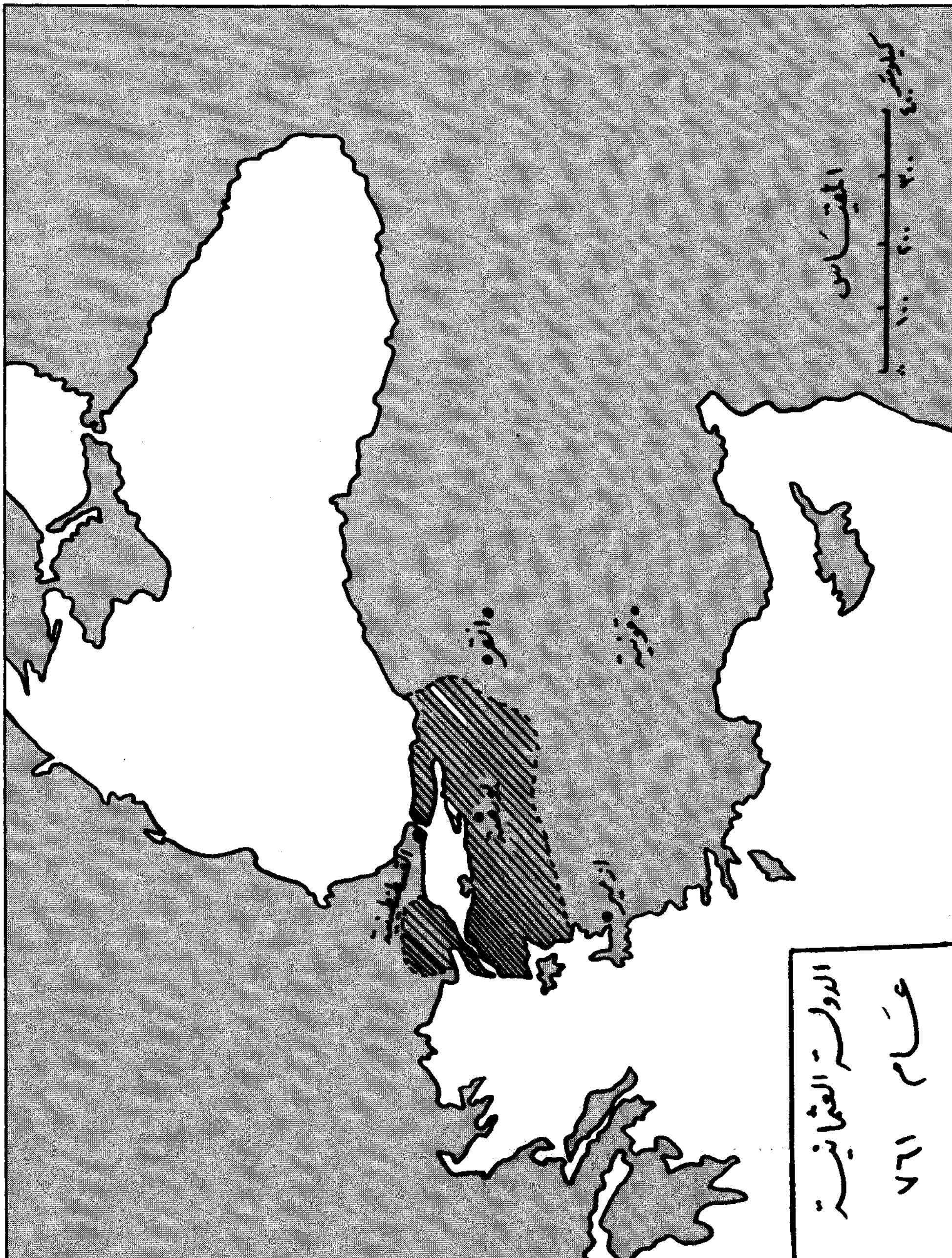

مصور رقم [٨]

على تجميعهم، غير أن هذا الأمير وهو علاء الدين لم ير إلا وجيش مراد الأول يحيط بمدينته أنقرة، ويدخلها فاتحاً، فاضطر إلى عقد الصلح معه الذي يتنازل فيه عن أنقرة، ويعترف السلطان مراد بالأمير علاء الدين أميراً على بقية أملاك دولة القرمان، وتزوّج مراد الأول ابنة علاء الدين.

وفي عام ٧٦٢ فتح العثمانيون مدينة أدرنة، وقد سلّمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل مراد الأول عاصمته إليها ليكون على مقربة من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوة، وبقيت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧. كما فُتحت مدينة (فيلبه) قاعدة الروملل الشرقي (جنوب بلغاريا اليوم)، وأصبحت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين، وتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعية، وقلبه مليء بالأحقاد.

وخاف الأمراء الأوربيون الذين أصبح العثمانيون على حدودهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين، حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا وركع أمامه وقبل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبى البابا النداء وكتب إلى ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدة حفاظاً على النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد، غير أن ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف أصطفان دوشان لم يتوقع هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا، لذا فقد استنهض همة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربة من الخطر على حد زعمهم، فلبى دعوته أمراء البوسنة (غربي يوغوسلافيا) والأفلاق (جنوب رومانيا)، وأعداد من فرسان المجر المرتزقة، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين، مستغلّين انشغال مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم على نهر مارتيزا[١] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا، ويمر من أدرنة، ثم يصب في بحر إيجه.

الأدبار. واضطرت بعد ذلك إمارة نصرانية صغيرة على بحر الأدرياتيك على ساحل يوغوسلافيا اليوم، وهي إمارة (راجوزه) أن ترسل وفداً إلى السلطان، وتعقد معه صلحاً تدفع الإمارة بموجبه للدولة العثمانية ٥٠٠ دوكاً ذهباً كجزية سنوية.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمير البلغار سيسمان الاتفاق على قتال العثمانيين، وقد وجدا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى بعض المعارك الجانبية، فاضطرا إلى دفع جزيةٍ سنوية، وتزوج السلطان ابنة أمير البلغار عام ٧٨٠.

ونُظِّمت فرق الخيالة في عهد السلطان مراد الأول، وهي التي عُرفت بـ(سيباه) أو السباهية ويقصد بها الفرسان، وأصبح لها نظام خاص بحيث يُعطى كل فارسٍ جزءاً من الأرض إقطاعاً له، ويبقى بيد أصحابه سواء أكانوا من المسلمين أم من النصارى يعملون به، ويدفعون خراجاً معيناً لصاحب الإقطاع الذي يسكن وقت السلم في إقطاعه، ويعدون وقت الحرب نفقته، ويجهّز معه جندياً آخر، وهذا النظام وإن قدّم خدمات في بداية الأمر إلا أن هؤلاء السباهية قد أصبحوا في النهاية أصحاب نفوذ يصعب السيطرة عليهم، ويختلفون مع أصحاب الأرض الأصليين وبيدهم القوة فيُنفّذون ما يريدون، ويتضايق أصحاب الأرض فينقمون على السباهية وبالتالي على الحكم، وتكون الفوضى والفجوة بين الحكم والرعية.

ولم ينس السلطان مراد الأول آسيا الصغرى بل بقي دائب التفكير فيها وفي التخلّص من تلك الإمارات الصغيرة التي تشكل رقعاً محدودة المساحة، فهو لا يريد أن يأخذها بالقوة ويُشكّل نقمةً عليه، ولا يريد أن يتركها تتصارع فيما بينها، وتجعل مجالاً للتدخل في شؤونها من قبل الغرباء، وفي الوقت نفسه لا تتفق وتتوحّد لتقوم بغزو القسطنطينية يداً واحدة، وتُجاهد كقوةٍ واحدة، ورأى أن يحلّ مشكلاتها تدريجياً مع الزمن. وقد بدأ بإمارة كرميان أقرب الإمارات إلى أملاكه، فزوّج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان فقدّم الأب لابنته مدينة كوتاهية فضُمّت إلى الدولة العثمانية،

وفي عام ٧٨٢ ألزم أمير دويلة الحميد الواقعة بين إمارات قرمان، وتكه، ومنتشا بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

وتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية ويبدو أنه على اتفاقٍ بينهما في هذا التأخير، فتوجهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم ففتحت بعض الأراضي الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافيا، كما حاصرت عاصمة البلغار صوفيا وفتحتها عام ٧٨٤ بعد حصار استمر ثلاث سنوات. كما فُتحت مدينة سلانيك، المدينة اليونانية المشهورة والواقعة على بحر إيجه.

تمرّد ساوجي بن السلطان على أبيه بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية (اندرونيكوس بن يوحنا باليوج)، وكان يوحنا قد حرم ابنه هذا من ولاية العهد وأعطاها لابنه الآخر (عمانويل)، فأرسل السلطان لابنه جيشاً انتصر عليه وقتله، كما أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي فقتل ابنه أيضاً.

وقام أمير دويلة القرمان علاء الدين، وبعض الأمراء المستقلين بحرب الدولة العثمانية فأرسل السلطان لهم جيشاً انتصر عليهم في سهل قونية، وأخذ الأمير علاء الدين أسيراً غير أن ابنته زوجة السلطان قد توسطت له فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته، ولكنه فرض عليه دفع مبلغ من المال سنوياً وذلك عام ٧٨٧.

واستغل الصرب انشغال الجيوش العثمانية في الأناضول لقتال علاء الدين أمير القرمان ومن معه فهاجموا القوات العثمانية في جنوب الصرب وحصلوا على بعض النجاح عام ٧٨٨، وتأهب أمير البلغار سيسمان للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته، واحتلت بعض أجزاء من بلاده ففر إلى الشمال، واعتصم في مدينة نيكوبلي القريبة من الحدود الرومانية، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسيراً، لكن السلطان أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده، وضم الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا يعاود الهجوم. ولما علم ملك الصرب لازار ما تمّ بأمير البلغار انسحب بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحاربة العثمانيين معهم، غير أن الجيوش العثمانية أدركته قبل وصوله إلى مبتغاه، والتقت معه عام ٧٩١ في معركة وسط سهل (قوص

أوه) أي (إقليم كوسوفو) جنوبي يوغوسلافيا، وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر لازار قد انحاز إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، فانهزم الصربيون، ووقع ملكهم لازار أسيراً بأيدي العثمانيين، وهو جريح فقتلوه لما فعل من أفاعيل خسيسة بأسراه من المسلمين، وإذا كانت الصرب قد فقدت استقلالها غير أن السلطان مراد الأول ذهب في المعركة أيضاً وبينما كان يتفقد نتائج المعركة ويتفحّص الجثث إذ قام إليه جندي صربي من بين الجثث وطعنه بخنجر فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرةً.

٤ ـ بايزيد:

ولد بايزيد عام ٧٦١ أي في العام الذي تولّى فيه أبوه السلطنة، فكان عمره ثلاثين عاماً عندما تسلّم الحكم، وكان دائم الجهاد ينتقل من أوربا إلى الأناضول ثم يعود مسرعاً إلى أوربا يحقق فيها نصراً جديداً أو تنظيماً حديثاً حتى لُقّب باسم (يلدرم) أي الصاعقة نظراً لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ.

عيّن اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب في عام ٧٩٢، وسمح له بالحكم على مقتضى نظمهم وشرائعهم مقابل دفع جزيةٍ سنويةٍ، وتقديم عددٍ من المقاتلين ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب وحينما يطلب السلطان ذلك. كما تزوّج السلطان أخت اصطفان وهي «أوليفير»، وربما فعل ذلك كي لا يبقى مشغولاً في موضوع الصرب وغاراتهم وحركاتهم.

انتقل السلطان بايزيد إلى الأناضول فضمّ عام ٧٩٣ إمارة منتشا، وإمارة (آيدين)، وإمارة (صاروخان) إلى العثمانيين دون قتال، ولكن فرّ أبناء حكامها إلى قسطموني مركز ولاية (أسفنديار)، كما تنازل أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه إلى السلطان كي يبقي له الجزء الباقي، كما فتح مدينة الأشهر بقرب أزمير، وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم في غرب بلاد الأناضول وبذا يكون قد أمّن خلفه، إذ كان حكام هذه الإمارات يمكن أن يتعاونوا مع أية قوةٍ في سبيل المحافظة على إماراتهم.

اتجه إلى الغرب وحاصر القسطنطينية عام ٧٩٤، وضيّق الحصار، ثم تركها محاصرةً وسارَ بجيشٍ إلى الأفلاق[١]، وأجبر حاكمها على توقيع معاهدةٍ يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده، ويدفع جزيةً سنوياً، ثم أبقاه حاكماً على بلاده، يحكم فيها بقوانينهم الخاصة ونظمهم.

اضطر السلطان بايزيد إلى العودة إلى الأناضول مسرعاً، لأن أمير دولة القرمان علاء الدين قد ندم على تنازله عن جزء من أملاكه للعثمانيين، ووجد السلطان مشغولاً بأوربا وحربه لحاكم الأفلاق، فاستغل هذا الظرف، وعبّأ جنده، وأثار خصوم السلطان من بعض الأمراء، وهاجم العثمانيين، وقد تمكّن من إحراز بعض النصر، وأسر أكبر القادة العثمانيين في الأناضول، فأسرع السلطان، وهزمه، ولاحقه حتى أخذه وولديه أسرى، وأنهى دولة القرمان، كما أنهى إمارة سيواس، وتوقات، ثم التفت إلى أسفنديار التي كانت ملجأ لأبناء الأمراء الفارين من وجه العثمانيين فطالب السلطان أمير هذه الدولة بتسليمه أبناء الأمراء الذين يحتمون عنده فلما أبى هاجمه وضمّ بلاده إليه، أما الأمير فقد فرّ والتجأ إلى تيمورلنك.

استمر حصار القسطنطينية، وسار السلطان إلى بلاد البلغار، وقد قُتل أميرها سيسمان، فجعل تلك البلاد ولايةً عثمانيةً، وأسلم ابن الأمير مقتول، فأخذه السلطان وجعل والياً على صامسون.

ولما وصلت أخبار الانتصارات العثمانية هذه إلى ملك المجر استغاث بالبابا وملوك أوربا، وأعلنها البابا حرباً صليبية ودعا إليها الملوك، والأمراء فاستجاب دوق بورغونيا لذلك وإن كانت إمارته صغيرة نسبياً، وتقع في شرقي فرنسا، وليس لأحد سلطان عليها، وأمراء النمسا، وبافاريا التي تقع في جنوبي ألمانيا، ورؤساء فرسان القديس يوحنا الذين خرجوا من عكا في الحروب الصليبية بعد أن أجبروا على ذلك فرحلوا إلى قبرص، ثم إلى رودوس، ثم إلى مالطة، وسار الجميع فاجتازوا نهر الدانوب، وحاصروا مدينة نيكوبلي الواقعة في شمالي بلغاريا ووصل جيش السلطان بايزيد،

---

(١) الأفلاق: الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم.

وكان بقيادة أمير الصرب اصطفان بن لازار ومعه كثير من الشعوب النصرانية الخاضعة للحماية العثمانية، إضافة إلى الجند العثمانيين، وكان عدد ذلك الجيش حوالي مائتي ألف مقاتل، وكان اللقاء في يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨ فانتصر العثمانيون، وأسروا دوق بورغونيا وعدداً من الأمراء، وفدى الدوق نفسه بمبلغٍ ضخمٍ من المال.

وبعدَ هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة فك بموجبه الحصار عن القسطنطينية مقابل دفع ما يعادل عشرة آلاف دينار ذهبي، والسماح للمسلمين ببناء مسجد لهم في القسطنطينية.

وقعة تيمورلنك وضعف السلطنة:

وصل تيمورلنك في انسياحه الوحشي نحو الغرب إلى بغداد ففرّ من وجهه أحمد بن أويس الجلائري الذي التجأ إلى السلطان بايزيد، فأرسل تيمورلنك إلى السلطان يطلب منه أن يسلمه أحمد بن أويس فرفض ذلك، فاتجه تيمورلنك إلى آسيا الصغرى، ودخل مدينة سيواس، وقبض على الأمير أرطغرل ابن السلطان بايزيد وقتله، وتابع سيره نحو الغرب، فأسرع السلطان بايزيد إليه وقد حشد له ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل، على حين ضمّ جيش تيمورلنك ما يربو على ثمانمائة ألف مقاتل، ومعه أمير قسطموني وعدد من أبناء أمراء الدويلات التي ضمّها العثمانيون إليهم، وكانت مستقلةً قامت على أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول، والتقى الجيشان في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤، واستمرت المعركة طيلة ذلك اليوم من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، ورغم ما أبداه السلطان من شجاعة إلا أنه هُزم بعد أن فرّت فرق آيدين، ومنتشا، وكرميان، وصاروخان، وانضمت إلى جيش تيمورلنك حيث أبناء أمرائها فيه، وكانت النتيجة أن وقع السلطان بايزيد نفسه وابنه موسى في الأسر، حيث وقفا في وجه الخصم، وصمدا في وسط ميدان المعركة، واختفى ابنه الآخر مصطفى، وفرّ من المعركة أبناؤه سليمان، وعيسى، ومحمد.

ورغم أن تيمورلنك لم يُسيء إلى السلطان إلا أنه شدّد عليه المراقبة

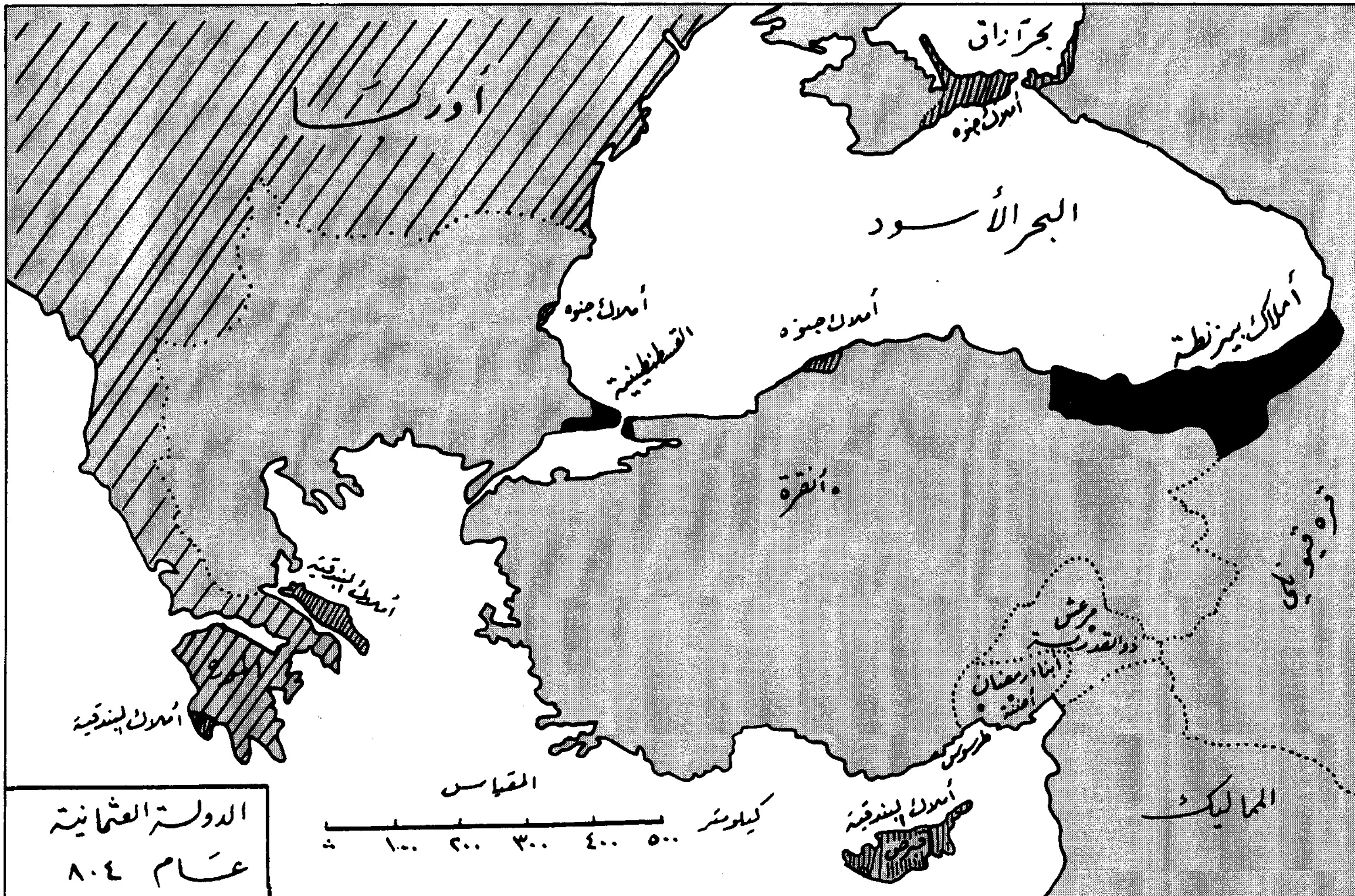
الدولة العثمانية
عام ٨٠٤
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
أملاك بيزنطة
أنقرة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
مرعش
دوالقدر
أبناء رمضان
أضنة
طرسوس
آق قيونلي
المماليك

مصور رقم [٩]

حيث حاول الفرار من الأسر ثلاث مرات، وفشل فيها كلها، والإهانة النفسية تعدّ عظيمة إذ كلّف بحراسة موسى بن بايزيد أمير كرميان أي عدوّه، وقد أصاب السلطان ضيق شديد فتوفي في ١٥ شعبان عام ٨٠٤، وعمره لا يزيد على أربعة وأربعين عاماً، وسمح تيمورلنك بنقل جثة السلطان لتُدفن في بورصة.

تابع تيمورلنك نحو الغرب بعد معركة أنقرة فاستولى على أزنيق، وبورصة، ودكّ حصون أزمير، ولما وصل إلى أقصى الغرب في الأناضول وأراد الرجوع أعاد الإمارات التي كانت قائمةً قبل أن يضمّها العثمانيون إليهم وهي: قسطموني، وصاروخان، ومنتشا، وآيدين، وكرميان، وقرمان فعادت التجزئة إلى الأناضول كما كانت من قبل.

ورأت الإمارات الأوربية التي كانت خاضعةً للعثمانيين ما حلّ بالدولة وسلطانها، فأعلنت استقلالها وهي: البلغار، والصرب، والأفلاق فصغرت رقعة الدولة من جديد.

واختلف أبناء السلطان بايزيد على السلطة بعد عودة تيمورلنك عن الأناضول فزاد الأمر ضعفاً، والدولة تمزّقاً، وشجّعهم تيمورلنك أيضاً على هذا الاختلاف ليبقوا في ضعف، وتبقى له الهيمنة، واستعان بعضهم به ضد بعض، كما طلب بعضهم دعم إمبراطور القسطنطينية ضد بعض، وهذا شأن الدول عندما تكون ضعيفةً والحكام عندما يكونون عجزةً.

استقل سليمان بن بايزيد في أدرنة وجعله جنده سلطاناً عليهم، وعلى المناطق العثمانية في أوربا، وعقد حلفاً مع إمبراطور بيزنطة عمانويل الثاني، وتنازل له عن مدينة (سلانيك)، وعن سواحل البحر الأسود ليساعده على إخوته، وتزوّج من إحدى قريباته.

وأما عيسى فقد كان مختبئاً بجهات بورصة فلما علم بوفاة والده أعلن نفسه سلطاناً، وساعده كبير قادة بني عثمان (ديمور طاش).

وأما محمد فقد كان مخبؤه في أواسط الأناضول فلما وجد الفرصة مناسبةً له، وخفّ ضغط التتار خرج وجمع حوله الجند، وانطلق يقاتل التتار، وتمكّن من أخذ مدينة (توقات) ومدينة (أماسيا) منهم، وقوي أمره، واستطاع أن يخلص أخاه موسى من يد أمير كرميان المكلّف بحراسته من قبل تيمورلنك، وسار لمحاربة إخوته.

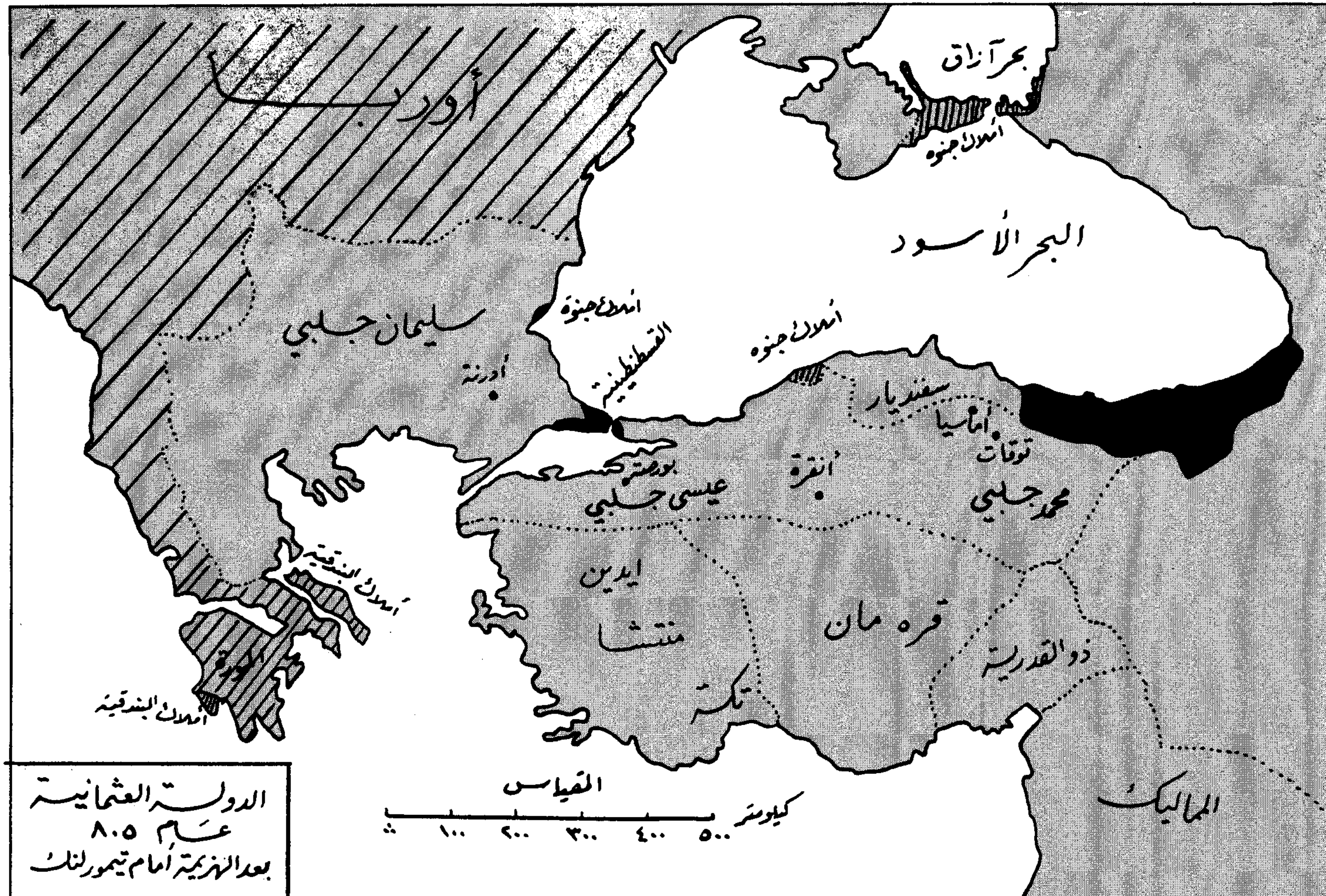

الدولة العثمانية
عام ٨٠٥
بعد الهزيمة أمام تيمورلنك
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
سليمان جلبي
أدرنة
سفنديار
أماسيا
توقات
أنقرة
بورصة
عيسى جلبي
محمد جلبي
ايدين
منتشا
قره مان
ذو القدرية
تكة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
المورة
المماليك
المقياس
كيلومتر ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [١٠]

الفصل الثالث

عودة القوة إلى السلطنة العثمانية

اتجه محمد بن بايزيد لقتال أخيه عيسى، وجرت بينهما عدة معارك خرج محمد إثرها منتصراً، وقُتل عيسى، ورجعت الأناضول تحت إمرته. وأرسل بعدها أخاه موسى على رأس جيش لقتال أخيهما سليمان غير أن موسى قد هُزم، وعاد خائباً من أوربا، فأعاد الكرة بعد أن قاد جيشاً آخر للغرض نفسه، وقد تمكن من قتل سليمان على أبواب أدرنة عام ٨١٣. ثم اتجه لمعاقبة الصرب الذين أعلنوا انفصالهم عن الدولة العثمانية في أثناء الأزمة التي وقعت فيها، فأسرع ملك المجر لقتاله دفاعاً عن الصرب فحاربه وانتصر على الصرب.

عاد الخلاف بين الأخوين الباقيين من أبناء السلطان بايزيد، وهما: محمد وموسى إذ اغترّ موسى بقوته وانتصاراته في أوربا، وأراد الانفصال عن أخيه، وتأسيس دولة له في أوربا، وسار لفتح القسطنطينية، وألقى عليها الحصار فاستنجد امبراطورها بالأمير محمد، فأسرع لنجدته، ووقع القتال بين الأخوين، واضطر موسى لرفع الحصار عن المدينة، وتشكل حلف من الأمير محمد، وإمبراطور القسطنطينية، وملك الصرب ضد الأمير موسى، وبدأ الاتصال سرّاً بقادته حتى تركوه، ووقع بين يدي أخيه فأمر بقتله عام ٨١٦، وبقي الأمير محمد وحده من أبناء السلطان بايزيد بعد أن قتل إخوته الثلاثة عيسى، وسليمان، وموسى، وتفرّد بالأمر من أجل الملك، والملك عقيم. وبتفرّد الأمير محمد بدأت السلطة العثمانية تقوى من جديد، وتتابع خمسة سلاطين في الحكم، وهم:

١ ـ محمد چلبي:

ولد السلطان محمد عام ٧٨١، وانفرد بالسلطة عام ٨١٦ إلا أن الفتن الداخلية قد تتابعت رغم الخوف من السلطان بسبب قتله إخوته، فإذا فعل هذا بإخوته فكيف يكون مع الآخرين؟ ويبدو أنه كان مع الآخرين أرحم بكثير مما كان مع إخوته، لأن الملك عقيم، فقد انتصر على أمير القرمان، وأخذه أسيراً، وعفا عنه، وأقسم له بالطاعة، غير أن الأمير قد حنث بيمينه، وعاد إلى قتال السلطان فانتصر السلطان عليه، وأخذه أسيراً مرّةً أخرى، وعفا عنه أيضاً. وانتصر على أمير أزمير (قره جنيد)، وعفا عنه، وعيَّنه حاكماً على مدينة (نيكوبولي)، وقام بالدعوة إلى الاشتراكية بدر الدين الذي كان قاضي الجيش عند الأمير موسى، وكثر أتباعه فقاتله، وانتصر عليه، وقتله.

وظهر الأمير مصطفى بن بايزيد وأخو السلطان محمد، وهو الذي كان قد اختفى بعد معركة أنقرة، وطالب أخاه بالحكم، وانضم إليه (قره جنيد)، ودخل إلى بلاد اليونان، ولكنه هُزم أمام جند أخيه، ففرّ إلى مدينة (سلانيك)، وكانت تتبع الدولة البيزنطية منذ هزيمة العثمانيين في أنقرة، فطلب السلطان تسليمه، فأبى الإمبراطور ولكن وعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية، ما دام السلطان على قيد الحياة، فوافق السلطان على ذلك وخصَّص لأخيه راتباً شهرياً. ويبدو أن السلطان بعد أن قتل إخوته السابقين قد خفَّف من شدة وطأته وقسوته على أقربائه وعلى الآخرين، أو أحسّ بجريمة القتل، وقدوم الموت بعد أن سبقه إخوته إليه على يديه. وكذلك عفا عن (قره جنيد) عام ٨٢٢.

ومات السلطان عام ٨٢٤ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده، وقد كان يوم وفاة أبيه في أماسيا، وكتم وفاة السلطان حتى وصل مراد إلى أدرنة بعد واحد وأربعين يوماً، ودفن محمد چلبي في بورصة.

٢ ـ مراد الثاني:

ولد عام ٨٠٦، وتولّى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤، فكان

عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، رأى أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن أعادها دويلات تيمورلنك عند سيطرته على المنطقة، ولهذه الغاية فقد عقد هدنةً مع ملك المجر لمدة خمس سنوات، كما صالح أمير القرمان، وأما إمبراطور القسطنطينية فقد طلب من السلطان أن يتعهد له بعدم قتاله، وكي يكون هذا العهد مضموناً فيجب على السلطان أن يسلمه اثنين من إخوته رهينةً، وإذا ما فكر السلطان بالحرب فإن الإمبراطور على استعداد لأن يُطلق سراح عم السلطان وهو مصطفى بن بايزيد المحجوز في سلانيك. رفض السلطان هذا التعهد فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى ودعمه بعشرة مراكب كمساعدة له على حصار مدينة غاليبولي على شاطئ مضيق الدردنيل، ولم يتمكن مصطفى من دخول قلعتها رغم دخوله المدينة فترك في المدينة حاميةً لحصار القلعة كي لا يصل إليها المدد، وسار نحو أدرنة، فالتقى بالقائد العثماني بايزيد باشا فانتصر عليه وقتله، وتابع سيره نحو ابن أخيه مراد، غير أن قواد مصطفى لم يطيعوه وتخلّوا عنه مع جنودهم وقت الشدة ففرّ، وسار نحو مدينة (غاليبولي)، فقبض عليه وأعدم. وسار السلطان مراد نحو القسطنطينية انتقاماً من إمبراطورها وألقى عليه الحصار، وهاجمها في مطلع رمضان من عام ٨٢٥ كي تكون الروح المعنوية أقوى، غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلى رفع الحصار عنها لأن أخاه مصطفى قد شقّ عصا الطاعة عليه وساعده أمراء الدويلات في الأناضول، وقد تمكن من هزيمة أخيه مصطفى وقتله. ووجد أن هدفه الأول وهو إعادة الإمارات إلى الدولة يجب أن يعود إليه، وأن يقدمه على غيره، وإن قتال هذه الإمارات فيه كلام لأن كلا الطرفين مسلم، وتركها لا يمكنه معها الجهاد فهي مطمع للأعداء أولاً، ودخول إلى معركة من غير قوة.

وخاف أمير قسطموني على نفسه إذ كان يدعم الأمير مصطفى وقد انتهى أمره، لذا فقد أسرع وتنازل عن نصف إمارته، وزوّجه ابنته عام ٨٢٦.

وقام (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين، وأعلن انفصاله عن الدولة، غير أنه هُزم وقُتل. ثم دخل السلطان إمارات آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقتل أمير القرامان محمد، وعيّن مكانه ابنه إبراهيم الذي تنازل للعثمانيين عن إقليم الحميد. وتوفي عام ٨٣١ أمير دويلة الكرميان ولم يكن له عقب فأوصى أن تلتحق الإمارة بالدولة العثمانية. وانتهى بذلك من كل مشكلة في الأناضول، وأصبح بإمكانه التوجه إلى أوربا لتصفية حسابه مع الحكام الذين أساؤوا للعثمانيين في أثناء المحنة التي حلّت بهم أيام السلطان بايزيد، وبعدها يصفو له الجو لفتح القسطنطينية ومعاقبة إمبراطورها الذي حرّض عليه. وكان السلطان مراد الثاني يرى أن القتال في أوربا أسهل فهو جهاد والروح المعنوية لدى المسلمين تكون عالية ما داموا يقاتلون ضد النصارى، ويعملون مجاهدين لنشر دينهم على حين كانوا يُساقون لقتال أمراء الدويلات في الأناضول دفعاً.

بدأ بقتال ملك المجر وعقد معه معاهدة تنازل فيها للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب الذي سيكون حدّاً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) عجزه فعقد معاهدة مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ قدرها خمسين ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل عن بعض المواقع للعثمانيين، كما تزوج السلطان ابنة (جورج برنكوفتش) مارا.

واستعاد مدينة سلانيك عام ٨٣٣ من البندقية، وكان إمبراطور القسطنطينية قد تنازل عنها لهم، وقد حاصرها السلطان خمسة عشر يوماً.

واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦.

وخضعت له ألبانيا بعد حروب بسيطة، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلم أولاده الأربعة رهينة للسلطان، وعندما توفي هذا الأمير عام ٨٣٤ ضمّ السلطان أملاكه إليه.

ظنّ السلطان أن وضعه في أوربا قد استقر، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول، ولا في أوربا وبإمكانه الآن التوجه إليه وإلزامه على الاستسلام، ودخول القسطنطينية عسى أن يكون مغفوراً له، كما بشَّر بذلك رسول الله، ﷺ، وما أن بدأ يستعد لمهمّته حتى عاد حكام أوربا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان.

لقد حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا فأدبهما السلطان، ثم سار إلى ملك المجر فخرّب عدداً من المدن، وعاد بعدد عظيم من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فثار، فهاجمه السلطان، وفتح جزءاً من بلاد الصرب، وحاصر العاصمة بلغراد ستة أشهر، وغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر، ثم غادرها، وأرسل جيشه للهجوم على ترانسلفانيا من أملاك المجر، وتقع شمال الأفلاق وإلى الغرب من البغدان، وتشكّل اليوم الجزء الغربي من دولة رومانيا، غير أن جيشه قد هُزم وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من الجند، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب. فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأسر قائده عام ٨٤٥، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦ بالسلطان مراد الثاني نفسه فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلى توقيع معاهدة تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة، فترك الحكم لابنه الثاني محمد [1] الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية آيدين حيث الهدوء.

---

(١) الابن الأكبر اسمه علاء الدين، وقد توفي عام ٨٤٨ قبيل اعتزال أبيه السلطة، وربما كانت هذه الوفاة سبباً في اعتزال الوالد.

كان البابا يراقب الأحداث، وكم سره هزيمة السلطان وخاصة أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين، وفرنسيين، وألمان، وبنادقة، وجنويين إضافةً إلى الأفلاق، والصرب وغيرهم. وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقعها السلطان مع المجريين وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات لذا فقد أرسل مندوباً من قبله وهو (سيزاريني) إلى ملك المجر، وطلب نقض العهد، وليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، فليس مع الكفار نقض لعهد أو حنث بقسم.

تنادى ملوك النصارى لشن حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا جموعهم، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في مكان عزلته في مقاطعة (آيدين) في مدينة (مغنيسيا)، وأن طفله لم يتمرّس بعد على القتال، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه، واتجه إلى أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، فنازلهم، وقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختل ترابط الجند، فهاجم السلطان معسكر الأعداء، واحتله، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتم النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨. وعاد فترك السلطان الأمر إلى ابنه، ورجع إلى مغنيسيا.

ولم تطل إقامته أكثر من ثلاثة أشهر إذ اضطر للعودة إلى أدرنة قاعدة الدولة حيث استصغر قادة الجيش العثمانيين من الانكشارية السلطان الصغير، إذ عصوا أمره، ونهبوا المدينة، ووصل السلطان فأدب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان، ذلك أن إمبراطور القسطنطينية قد قسم أملاكه بين أولاده إذ أعطى ابنه حنا مدينة القسطنطينية وابنه قسطنطين بلاد المورة أي جنوب اليونان، فسار السلطان لحرب اليونان، واستعمل المدافع لأول مرّة، ولم يتمكن من فتحها بسبب تمرّد إسكندر بك.

كان إسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينة عند السلطان عندما سلّم أبوه البلاد للسلطان فأظهر إسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فرّ إلى ألبانيا، وطرد العثمانيين منها. فسار إليه السلطان

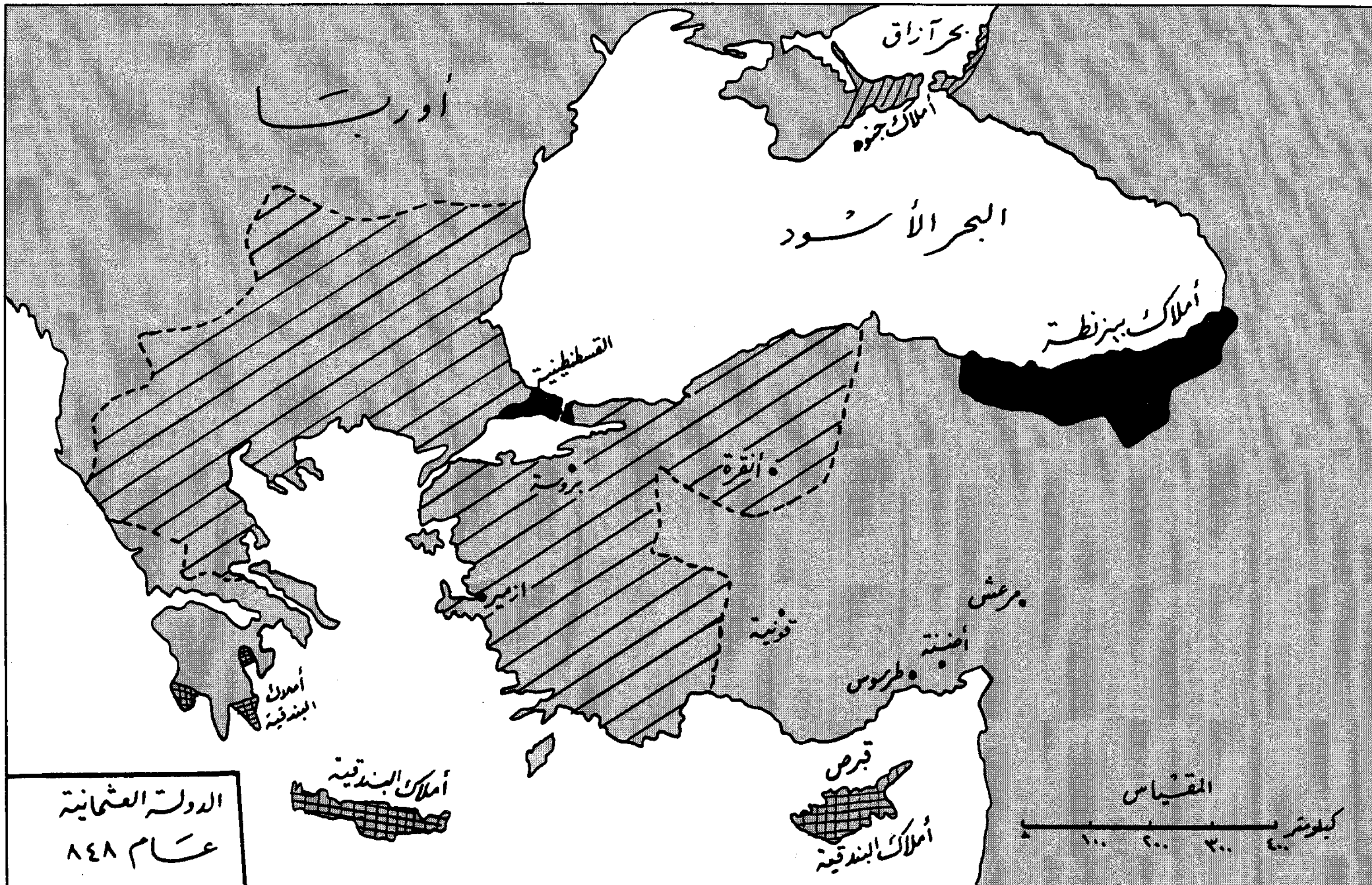
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك بيزنطة
القسطنطينية
بروسة
انقرة
ازمير
قونية
مرعش
أضنة
طرسوس
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
الدولة العثمانية
عام ٨٤٨

مصور رقم [١١]

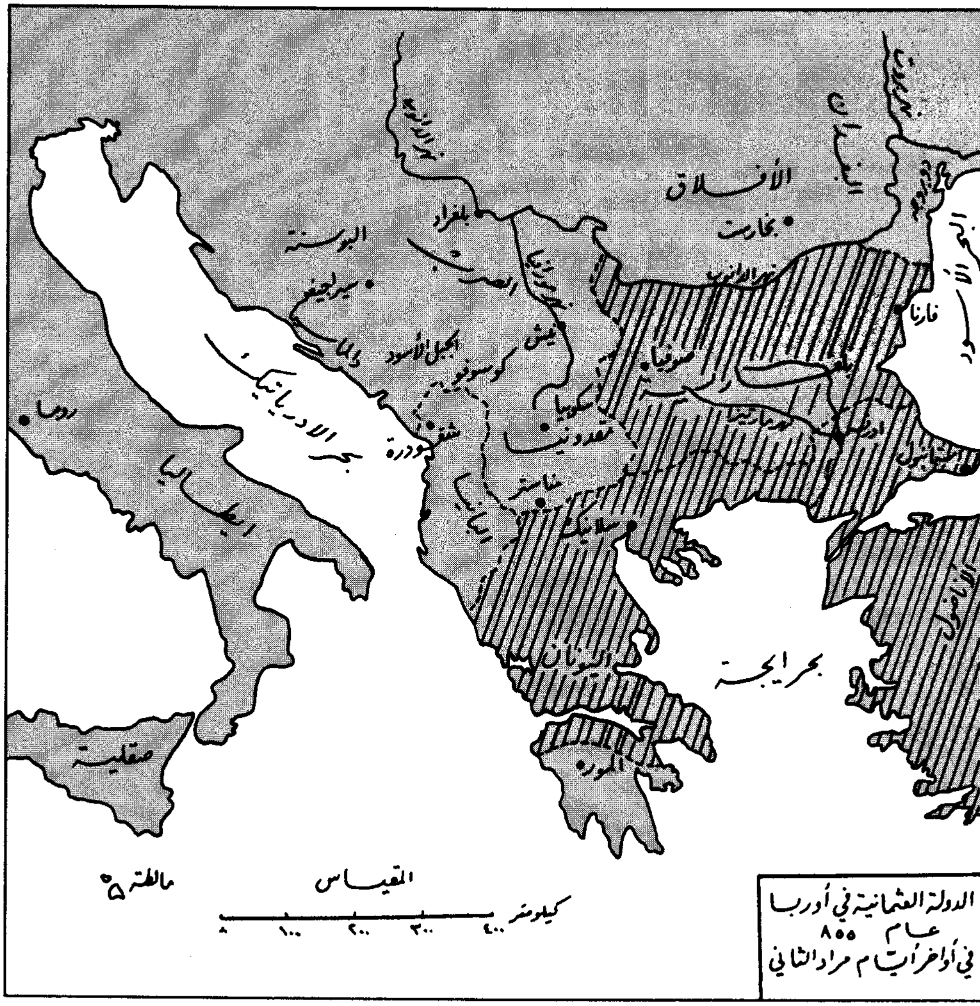
الأفلاق
بخارست
البوسنة
بلغراد
سيراييفو
الجبل الأسود
نيش
كوسوفو
اسكوبيا
مقدونية
مناستر
سلانيك
اليونان
المورة
بحر ايجة
بحر الادرياتيك
ايطاليا
روما
صقلية
مالطة
فارنا
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
الدولة العثمانية في أوربا
عام ٨٥٥
في أواخر أيام مراد الثاني

مصور رقم [١٢]

بقوةٍ كبيرةٍ وهزمه، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١، ثم اضطر إلى تركه للتوجّه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر من معركة (فارنا)، والتقى به في وادي كوسوفو، وانتصر عليه انتصاراً مؤزراً عام ٨٥٢، ثم عاد فاتجه إلى إسكندر بك، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولم يتمكن من فتحها لتعب جيوشه، فأراد أن يتفق مع إسكندر بك بحيث يسلمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ، غير أن إسكندر بك لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلى أدرنة ليستعد بصورة أفضل، وبينما هو كذلك إذ وافته المنية في مطلع عام ٨٥٥ (٥ محرم) عن عمرٍ يناهز التاسعة والأربعين، ونقلت جثته إلى بورصة حيث دفن هناك، وتسلم السلطنة ابنه محمد باسم محمد الثاني، وهو الفاتح.

٣ ـ محمد الثاني (الفاتح):

ولد محمد الثاني عام ٨٣٣، وتولّى السلطنة عام ٨٥٥ فكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنة، وأراد أن يتمم ما بدأ به أبوه. وكان أول عمل قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا) إلى أبيها. وقتل أخاً له رضيعاً اسمه أحمد[١]، ثم بنى قلعة على مضيق البوسفور على الشاطئ الأوروبي مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد على الشاطئ الآسيوي كي يتحكم بالمضيق، ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية من مملكة طرابزون الروحية الواقعة على ساحل البحر الأسود شمال شرقي الأناضول. ورأى قسطنطين أن محمد الثاني عازم على دخول مدينته فعرض دفع الجزية التي يريد فرفض السلطان، ورأى أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال على نصرانيتها فرفضت، واعتكفت في بعض الأديرة. وبدأ الامبراطور يستنجد بالدول النصرانية، فأرسل البابا ثلاثين سفينة حربيةٍ لكنها هربت من القرن الذهبي، وطلب النجدة من الروس

(١) هذا القتل لا يصح أبداً، فالطفل رضيع ولا ذنب له، ولا يتحمّل وزر غيره إن كانت هناك أوزار يريد السلطان أن ينتهي منها. فهذا القتل مخالفة شرعية، وحدّها القتل.

لكنهم لم يكونوا أصحاب قوة آنذاك، وتظاهر الجنويون في موقع غلطة[١] أنهم على الحياد، ثم جاءه دعم من جنوده، وهو عبارة عن قوة بحرية كبيرة بقيادة جوستنيان وقد اصطدمت هذه القوة البحرية بالسفن العثمانية التي حاولت منعها، وانتصر الجنويون، وتمكّنوا من دخول القرن الذهبي، حيث رفعت السلاسل التي تسد المداخل لهم، وأغلقت في وجه العثمانيين.

عرض السلطان على الإمبراطور تسليم المدينة كي لا تُصاب بأذى، ولا يحلّ بالأهالي النكبات، ويتعهد السلطان بحماية العقائد وإقامة الشعائر فرفض الإمبراطور.

حاصر السلطان المدينة من البر (الجهة الغربية) بجنود يزيد عددهم على مائتين وخمسين ألف مقاتل، ومن جهة البحر بمائة وثمانين سفينة بحرية، وأقام المدافع حول المواقع، وكان أشهرها المدفع العظيم[٢] الذي اخترعه المجري أوربان للسلطان، ثم استطاع نقل سبعين سفينة بحرية إلى القرن الذهبي على ألواح خشبية مسافة تقرب من عشرة كيلومترات بعد أن مهد الطريق ثم وضع على الألواح الزيوت والشحوم كي تنزلق المراكب عليها، وبهذا أحكم الحصار على القسطنطينية. وبدأ الهجوم يوم ١٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧ بعد أن شجع السلطان المهاجمين ومنّاهم بالأعطيات. وانطلق المهاجمون مع الفجر، وتسلقوا الأسوار، وقتلوا من عارضهم، ودخلوا كنيسة أيا صوفيا، ودخل السلطان المدينة ظهراً، فمنع أعمال السلب التي كانت قائمة، ووصل إلى كنيسة أيا صوفيا فأمر أن يؤذن للصلاة وقد تحولت بعدها إلى مسجد. وسمح للنصارى بإقامة شعائرهم

---

(١) موقع غلطة: نقطة التقاء مضيق البوسفور مع القرن الذهبي، وقد قُدّم لأهل جنوة مكافأةً من الروم، كما قدم لهم غيره، مثل أزمير في الأناضول، وكافا في شبه جزيرة القرم، حيث كان للجنويين مواقع متفرقة.

(٢) كان المدفع الذي اخترعه أوربان يقذف كرات من الحجر وزن الكرة ١٢ رطلاً لمسافة ١،٦ كليومتر، وجرّه يحتاج إلى ٧٠٠ شخص.

دون معارضة، وأعطاهم نصف كنائسهم، وحق اختيار بطريرك لهم، وحوّل نصف الكنائس الأخرى إلى مساجد. وبعد أن أقام العدل عاد النصارى الخائفين الذين كانوا يريدون الفرار إلى بلاد نصرانية، وأطلق على القسطنطينية اسم استانبول أي مدينة الإسلام.

أراد السلطان الفاتح بعدئذ أن يتوجه إلى بلاد المورة لفتحها، فأرسل ملكها وفداً إليه يعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها ١٢ ألف دوك ذهبي.

وصالح أمير الصرب مقابل جزية قدرها ثمانون ألف دوك عام ٨٥٧، وفي السنة الثانية دخل السلطان إلى بلاد الصرب، وحاصر بلغراد، ودافع عنها المجر، ولم يتمكن العثمانيون من فتحها، ثم سار الصدر الأعظم محمود باشا ففتحها بين ٨٦١ ـ ٨٦٣.

وتمكّن من فتح بلاد المورة عام ٨٦٣، وفرّ ملكها إلى إيطاليا، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل. وعقد صلحاً مع إسكندر بك أمير ألبانيا.

توجه سرّاً إلى الأناضول ففتح ميناء (أماستريس) الذي يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب، واحتل مملكة طرابزون دون مقاومة، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار إلى أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّيه على العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان غير أن هذا الأمير لم يطلب هذا الصلح إلا لتتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضحان الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مُغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، واستاق الأسرى. فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يعيد الأسرى، ويبقى على صلحه، فمثّل بهم شرّ تمثيل، فسار إليه السلطان ففرّ أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فضمّ السلطان الأفلاق إلى العثمانيين، وعيّن أخا أمير الأفلاق والياً عليها من قبله.

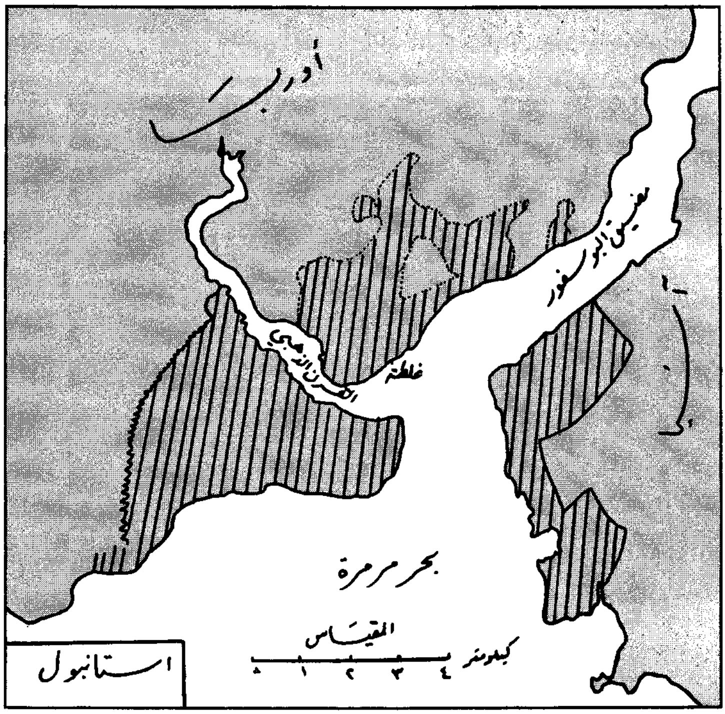

مصور رقم [١٣]

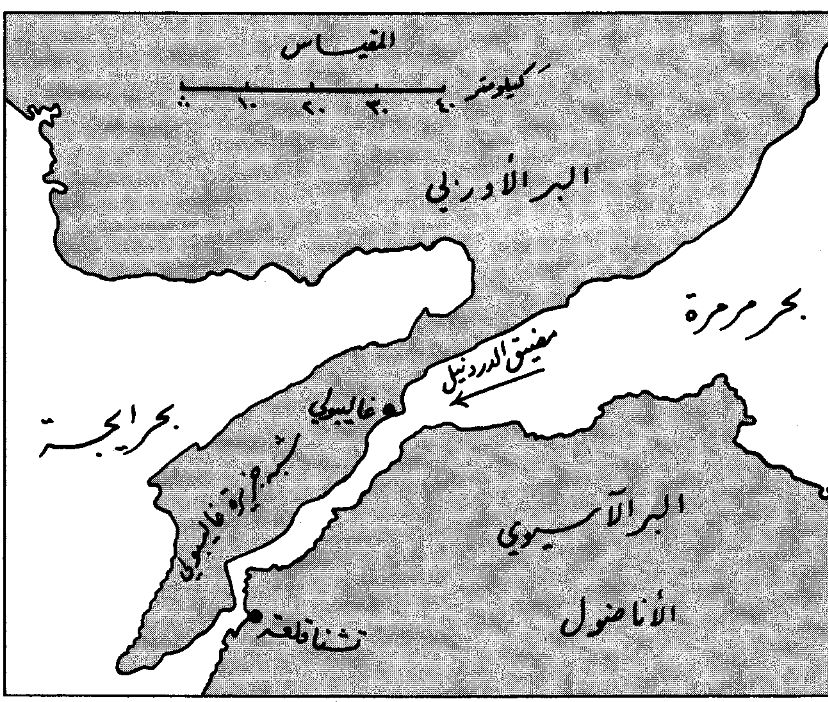

مصور رقم [١٤]

وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان، وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أهل البوسنة (البوشناق) لكنه هُزم. وأسلم الكثير من البوشناق بعد ذلك.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة، وجزراً كثيرة في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها، فسار إليهم السلطان ففروا من مواقعهم ودخلها العثمانيون. وبعد هدنة سنة عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه، وبدؤوا يُغيرون على الدولة فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلى حربٍ صليبيةٍ فشجع إسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن إسكندر بك نقض العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين. وتوفي إسكندر بك عام ٨٧٠.

اتجه السلطان إلى الأناضول فضمّ إليه إمارة القرمان نهائياً إذ اختلف أبناء أميرهم إبراهيم الذي أوصى عند وفاته لابنه إسحاق فنازعه إخوته، فأيّد السلطان إخوة إسحاق عليه وهزمه، وعيّن مكانه أحد إخوته، فلما رجع السلطان إلى أوربا، احتل إسحاق قونية وفرض نفسه، فرجع إليه السلطان وهزمه، وضمّ الإمارة إلى الدولة العثمانية.

وهاجم أوزون حسن أحد خلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، واحتل مدينة توقات، فأرسل إليه السلطان جيشاً هزمه عام ٨٧٤، ثم سار إليه السلطان بنفسه على رأس جيش وأجهز على ما بقي معه من جنود.

عرض السلطان عام ٨٧٨ على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروبٍ عنيفة، ولكن لم يستطع فتح هذا الإقليم، فعزم السلطان على دخول القرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن من احتلال أملاك الجنويين

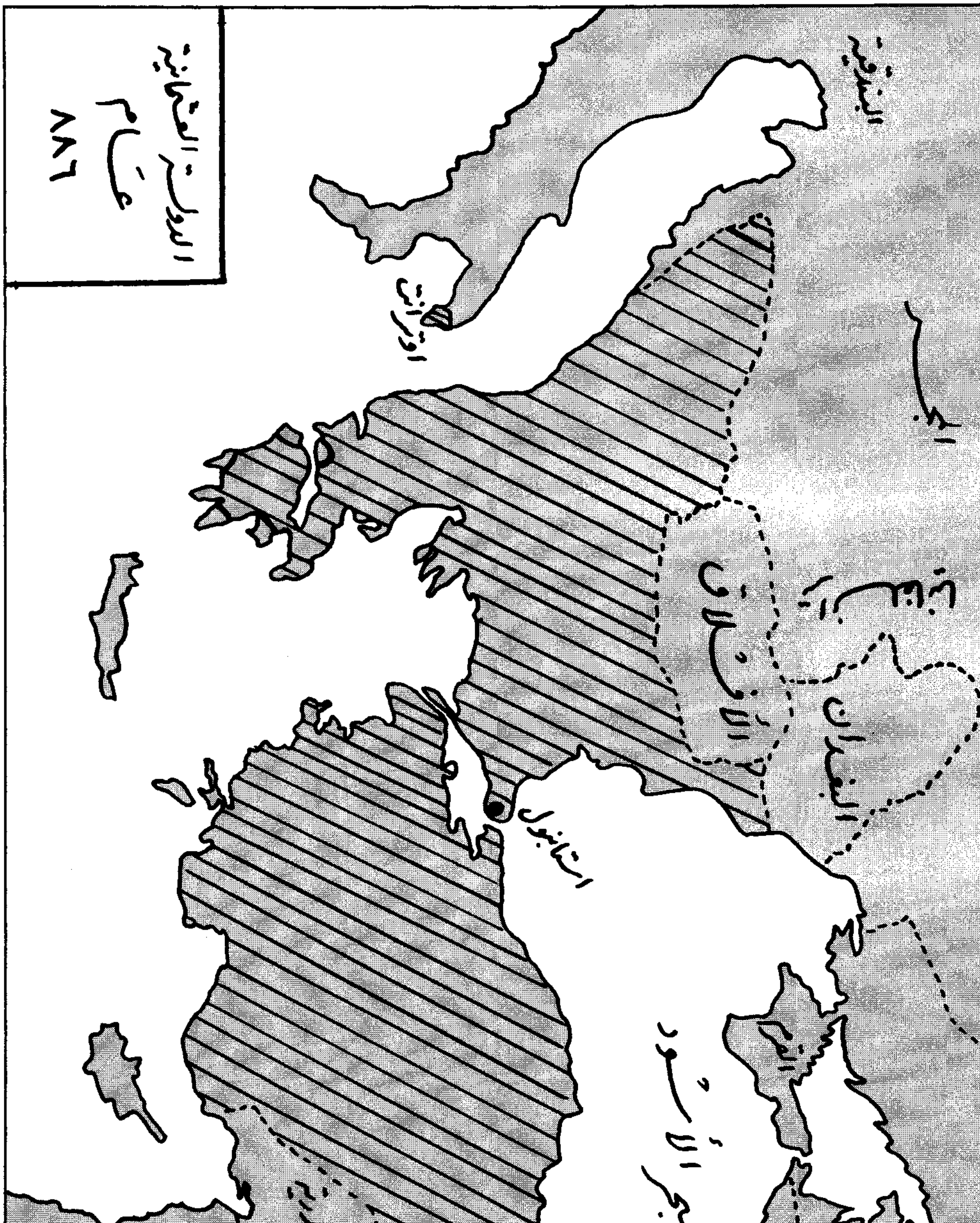

الدولة العثمانية
عام
٨٨٦
البندقية
أوترانت
البحر
ترانسلفانيا
البغدان
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
ذو القدرية
المماليك

مصور رقم [١٥]

الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً. وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلت، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان الرابع فتبعه السلطان في طريق مجهولة فانقض عليه اصطفان الرابع وانهزم السلطان، وارتفع اسم اصطفان الرابع وذلك عام ٨٨١.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح ترانسلفانيا، ولكنه في البحر فتح الجزر التي بين اليونان وإيطاليا، كما فتح مدينة أوترانت في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا عام ٨٨٥، وحاصر في العام نفسه جزيرة رودوس، ولم يتمكن من فتحها.

وفي أثناء حصار القسطنطينية عُرف ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه، فبنى عنده مسجداً، وأصبح تنصيب السلاطين يتمّ في هذا المسجد.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦ عن عمر ينوف على خمس وخمسين سنة بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة.

٤ ـ بايزيد الثاني:

كان بايزيد أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وكان حاكماً في عهد أبيه لمقاطعة (أماسيا)، وكان الولد الثاني للسلطان محمد الفاتح يُدعى (جم)، ويحكم مقاطعة القرمان، والأمير بايزيد هو الذي سيتولّى السلطنة بعد وفاة أبيه، وكلا الولدين كان بعيداً عن استانبول، وكانت رغبة الصدر الأعظم قرماني محمد باشا في تولية الأمير جم، لذا فقد أرسل إليه من يخبره بوفاة والده كي يأتي وربما استطاع تسلم الأمر، غير أن حاكم الأناضول سنان باشا أدرك اللعبة فقتل رسول الصدر الأعظم إلى الأمير جم قبل أن ينقل له الخبر. وكانت رغبة الإنكشارية وعاطفتهم مع الأمير بايزيد فلما أُخبروا بما فعل الصدر الأعظم قاموا عليه وقتلوه، ونهبوا المدينة، وأقاموا (كركود) نائباً عن أبيه حتى يصل إلى عاصمته.

وصل الأمير بايزيد فاستقبله الإنكشاريون، وطلبوا منه العفو على ما فعلوا كما طلبوا منه طلبات نفّذها لهم كلها، وبويع بايزيد سلطاناً، وتسلّم الأمر، ومع أنه كان محباً للسلم والاشتغال بالعلم إلا أن أحوال البلد اقتضت أن يترك ما عُرف عنه ويتسلم الأمر بشدة.

وعندما وصل خبر وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه جم سار إلى بورصة، واحتلها عنوة، ودعا أخاه السلطان بايزيد لتقسيم البلاد بينهما بحيث يستقل جم بآسيا، ويستقل بايزيد بأوربا، فلم يوافقه السلطان وحاربه، ودخل بورصة ففرّ جم، والتجأ إلى المماليك عام ٨٨٦ حيث بقي عاماً كاملاً عند السلطان قايتباي في القاهرة، وبعدها انتقل إلى حلب، وبدأ يراسل الأمير قاسم حفيد أمراء القرمان، ووعده بإعادة إمارة القرمان إن تمكّن الأمير جم أن يحكم الدولة العثمانية، فسارا معاً للهجوم على قونية لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً.

وحاول الأمير جم المصالحة مع أخيه السلطان على أن يعطيه مقاطعة، فرفض ذلك السلطان حيث فهم منه تقسيم الدولة، وانطلق الأمير جم إلى رهبان جزيرة رودوس فاستقبلوه، غير أن السلطان اتصل بهم، وطلب منهم إبقاء الأمير جم عندهم تحت الإقامة الجبرية مقابل دفع مبلغ من المال من السلطان للرهبان، وعدم التعرّض للجزيرة ما دام حياً فوافق الرهبان على ذلك، ورفضوا تسليمه إلى ملك المجر، ثم رفضوا تسليمه إلى إمبراطور ألمانيا ليتخذه سيفاً يقاتل به الدولة العثمانية، ولكنه سُلِّم بعدئذٍ إلى فرنسا، ومنها إلى البابا والمهم أنه مات عام ٩٠٠ وهو بهذه الصورة، وقد استراح منه السلطان سواء أكان تحت الإقامة الجبرية أم عندما فارق الحياة.

وحصلت خلافات مع مصر التي كان لها نفوذ على بعض الإمارات في جنوب الأناضول، ووقع قتال بين الطرفين غير أن باي تونس قد أصلح بينهما، خوفاً من زيادة القتال بين المسلمين على حين أن النصارى يتربّصون الدوائر بالمسلمين، ويُسَرّون للخلافات التي تحدث بينهم.

وفشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطدّت الصلات مع بولونيا عام ٨٩٥، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية على

البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية، وقاتل معهم البولونيين.

وبدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية، وتطلب عقد الحلف معها للإفادة منها في قتال خصومها، وخاصةً الإمارات الإيطالية، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، وكانت حرباً صليبيةً بين الطرفين.

وظهرت دولة روسيا عام ٨٨٦ حيث استطاع دوق موسكو إيڤان الثالث من تخليص موسكو من أيدي التتار، وبدأ بالتوسع، وفي عام ٨٩٧ وصل أول سفير روسي لإستانبول، ويحمل معه الهدايا، وكان وصول السفير الثاني عام ٩٠١، وقد حصل على بعض الامتيازات للتجار الروس.

كان السلطان بايزيد الثاني قد عيّن أولاده الثلاثة الذين بقوا أحياءً على الولايات، فكان كركود والياً على شرقي الأناضول، وأحمد على أماسيا، وسليم على طرابزون كما عيّن حفيده سليمان بن سليم على مدينة (كافا) في شبه جزيرة القرم. وكان سليم محارباً طموحاً فأراد أن يكون والياً على بعض المقاطعات في أوربا ليمارس الجهاد، ويؤيده في ذلك الإنكشارية والعسكريون عامةً، ولكن السلطان قد رفض من ابنه ذلك كما رفض الولد ولاية طرابزون، وانتقل إلى ابنه سليمان في كافا، ثم جمع جيشاً، وسار إلى أوروبا وحاول السلطان تهديد ولده الذي أصرّ على القتال، ونتيجة حبه للسلم تراجع عن قراره وعيّنه على بعض المقاطعات الأوروبية عام ٩١٦، فطمع سليم وسار إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً عليها، فحاربه أبوه وهزمه، وفرّ إلى القرم، ثم تدخلت الإنكشارية فعفا السلطان عنه، وأعاده إلى أوروبا، فسار به الإنكشارية إلى إستانبول، وطلبوا من السلطان التنازل للأمير سليم عن الحكم فوافق واستقال عام ٩١٨، وانتقل السلطان ليعيش بعيداً عن الحكم فتوفي في الطريق. أما الأمير كركود، وهو الولد الكبير للسلطان فقد رأى أخاه سليماً يفرض رأيه لذا اتجه إلى مقاطعة صاروخان، واستلمها دون أمر أبيه، فحاربه أبوه وهزمه قبيل وفاته بقليل.

ملاحظات على السلطنة العثمانية

امتدت سلطنة بني عثمان ما يقرب من مائتين وإحدى وثلاثين سنة، ومرت بمرحلتين تجاوزت كل مرحلة مائة سنة، وبينهما مدة من الخلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول تجاوزت أحد عشر عاماً. وحكم في كل مرحلة أربعة سلاطين، انتهت أولاهما بأيام بايزيد الأول، وانتهت الثانية بعهد بايزيد الثاني، وهاتين المرحلتين هما:

أولاً:

١ ـ عثمان	٦٨٧ ـ ٧٢٦
٢ ـ أورخان	٧٢٦ ـ ٧٦١
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩١
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥

وإن كانت سلطنة عثمان الحقيقية أو التي حملت لقب سلطان قد بدأت عام ٦٩٩ عندما زالت دولة سلاجقة الأناضول، وتفرّد بعدها، وأعلن نفسه سلطاناً، أما قبل ذلك فقد كان أميراً عادياً.

ثانياً:

١ ـ محمد چلبي	٨١٦ ـ ٨٢٤
٢ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥
٣ ـ محمد الثاني «الفاتح»	٨٥٥ ـ ٨٨٦
٤ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨

وبين هاتين المرحلتين كان خلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول الذي قُتل

في معركة أنقرة عام ٨٠٥، والتي دارت بينه وبين تيمورلنك، واستمرت مدة الخلاف أحد عشر عاماً ٨٠٥ ـ ٨١٦ حيث تفرّد السلطان محمد چلبي بالسلطنة.

ويمكن أن نلاحظ في مرحلة السلطنة العثمانية أن همّها الأول كان محصوراً في فتح القسطنطينية، ويبدو تذليل الصعاب في سبيل هذه المهمة هو القضاء على الإمارات التركمانية التي كانت قائمة في الأناضول لتوحيد جهود المسلمين أولاً، وكي لا يبقى سنداً للروم فيما إذا أرادوا الاعتماد على بعض الرجال الذين يفضلون مصالحهم على مصلحة الأمة، واستمرت هذه المهمة مدةً طويلة بل شغلت عهد السلطنة الأول كله، وربما تجاوزت قليلاً حتى قضى السلطان سليم على إمارة أبناء رمضان، وإمارة ذي القادر عام ٩٢٢، وكانت مهمة السلطنة الثانية هي التوسع في أوروبا للغاية نفسها، وإسقاط كل دعمٍ يفكر فيه الروم، واستمر هذا أيضاً في عهد السلطنة الثاني كله.

ونرى أيضاً أن اهتمام السلاطين العثمانيين بالأمة المسلمة كان ضعيفاً رغم فكرة الجهاد التي حملوها ورغم أن أوربا قد وقفت في وجههم باسم الصليبية، وكان البابا المحرك الرئيسي لقتال العثمانيين لحماية النصرانية ـ على حد زعمه ـ فكان يرسل النداءات لملوك أوروبا وأمرائها للوقوف أمام الدولة العثمانية. وإن عدم اهتمام العثمانيين بالأمة المسلمة لأنهم كانوا يشعرون أن سلطنتهم ضعيفة وصغيرة لا تشكِّل ثقلاً عظيماً في الأوساط العالمية، أو بين الدول القائمة آنذاك فيرون أن دولة المماليك أقوى منهم، وهي مركز الخلافة وعليها المسؤولية الأولى في هذا المجال، مع أن العثمانيين كانوا يتصوّرون في أن الضغط على أوربا من جهة الشرق يُخفّف عن مسلمي الأندلس مما يعانونه من حرب صليبية. مع أن مسلمي الأندلس قد وصلوا آنذاك إلى مرحلةٍ من الضعف لا يجدي معها دعم، ولا ينفع معها مدّ، فقد كانوا يعيشون في البذخ والترف، ويصرفون وقتهم في الفن وتزيين القصور، وزراعة الحدائق وفي الوقت نفسه يستنجدون بطغاة نصارى الإسبان بعضهم على بعض. وعندما سقطت الأندلس بيد نصارى الإسبان مع مطلع عام ٨٩٨ كان سلطان العثمانيين بايزيد الثاني محباً إلى الدعة والسلم.

كما نلاحظ أن روسيا لم تدخل ميدان الصراع في أثناء السلطنة العثمانية وذلك لأن الروس كانوا تحت حكم التتار المسلمين، وأول مرة استطاع دوق موسكو إيفان الثالث أن يُخلّص مدينته من حكم التتار هي عام ٨٨٦ أي في العام الذي توفي فيه السلطان محمد الفاتح، أو أن عهد السلطنة كان في آخره، وقد أرسل الروس السفراء إلى إستانبول في تلك المدة.

ونلاحظ أن الصراع لم يحدث بين العثمانيين وبين الدول المسلمة المحيطة بهم من الجنوب والشرق بشكلٍ عنيفٍ وذلك لانصراف العثمانيين إلى مهمتهم التي تكلمنا عنها، أو لانصرافهم إلى شؤونهم الخاصة، وعندما كاد النزاع يقع بينهم وبين المماليك تدخل باي تونس في الأمر، وحال دون وقوع قتال بين المسلمين هذا مع العلم أن العثمانيين كانوا يهتمون بالجانب الإسلامي كثيراً، وكانوا أصحاب عاطفة إسلامية فاهتمامهم كان نحو الجهاد لا إلى قتال المسلمين.

السلاطين العثمانيون:

السلطان	المدة
١ ـ عثمان بن أرطغرل بن سليمان	٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ
٢ ـ أورخان	٧٢٦ ـ ٧٦١
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩١هـ
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥هـ
	مرحلة فوضى وضياع
٥ ـ محمد چلبي	٨١٦ ـ ٨٢٤هـ
٦ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ
٧ ـ محمد الثاني «الفاتح»	٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ
٨ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨هـ
الخلفاء	٩١٨ ـ ١٣٤٢هـ

الفصل الرابع

الخلافة العثمانية - عصر القوة

اختلف عهد الخلافة العثمانية عن عهد السلطنة إذ بدأ الاهتمام بالأمة المسلمة، والعمل على توحيدها، ثم الوقوف أمام الصليبية صفاً واحداً، وقد عمل الخلفاء على هذا حتى ضعف أمرهم فأصبح تفكيرهم ينحصر بالمحافظة على ما تحت أيديهم، حتى إذا زاد الضعف بدأت الدول النصرانية تقتطع من الدولة جزءاً بعد آخر حتى أنهت عليها، واصطنعت لنفسها أعواناً بين المسلمين، حتى قضت على الخلافة الإسلامية نهائياً، وتشتّت أمر المسلمين، وانقسموا فرقاً وشيعاً وعصبيةً، لذا فقد توالى على الخلافة العثمانية ثلاثة عصور كان أولها عصر القوة، وتعاقب عليه خليفتان فقط هما: سليم الأول وابنه سليمان الأول.

١ - سليم الأول:

بعد أن تنازل بايزيد لابنه سليم عن الحكم بدعم الإنكشارية، أرضى السلطان سليم الإنكشارية وتوجه إلى آسيا للتخلّص من إخوته الذين يُنازعونه السلطة أو لا يرضون به سلطاناً، فتعقّب أخاه أحمد إلى أنقرة، وقبض عليه بعد جهد، وقتله، ثم سار إلى ولاية صاروخان وتتبّع أخاه الآخر كركود ففرّ منه، وبعد البحث عليه تمكّن منه، وقتله، وأخذ خمسةً من أولاد إخوته في بورصة، وأمر بقتلهم، واطمأن بعدها حسب قناعته من المنافسة الأُسرية. وكان قد عيّن ابنه سليمان حاكماً على إستانبول ليتفرّغ لأموره التي في رأسه.

انتقل بعد ذلك إلى أدرنة فوجد سفراء البندقية، والمجر، وموسكو، وسلطنة مصر ينتظرونه، فعقد معهم معاهدات حيث يريد أن يتفرّغ إلى ما يُخطِّط له.

إنّ السلطان سليم ذو شخصية قويةٍ، وهو عسكري بفطرته، لذا كانت نظرته إلى القضايا كلها من وجهة نظرٍ عسكريةٍ، فيرى أن الأمور المستعصية لا تحلّها إلا القوة، وهذا ما جعل العسكريين يُحبّونه، ويعملون على تسلّمه السلطة.

رأى السلطان سليم أن دولته قد أصبحت أقوى الدول الإسلامية آنذاك لذا عليه أن يقوم بالمهمّة الملقاة على عاتقه في توحيد أبناء الأمة المسلمة. ورأى أن الأندلس قد سقطت بيد النصارى الإسبان، ولم تعد هناك فائدة للضغط على أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الغرب.

ورأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا بالمسلمين كافةً لذا يجب أن يخضع المسلمون لدولةٍ واحدةٍ، ولا شك أنه يُفكّر في أن هذا الخضوع يجب أن يكون للعثمانيين بصفة أن دولتهم أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك. ورأى أن دولة المماليك قد ضعُف أمرها، ولم تتمكن من تأدية دورها في مواجهة البرتغاليين الذين قدموا على المسلمين من الجنوب، وأن الخلافة العباسية في مصر ليست سوى خلافةٍ صوريةٍ يتصرّف بها المماليك كيف يشاؤون.

ورأى أن البرتغاليين يُهدّدون العالم الإسلامي من جهة الجنوب، ويُهدّدون باحتلال المدينة المنورة، وأخذ رفات النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، وعدم تسليمها للمسلمين حتى يتخلّوا عن القدس للنصارى، وقد عجز المماليك عن مقاومتهم، وفوق هذا فإن هؤلاء البرتغاليين قد وجدوا لهم أعواناً بين المسلمين أنفسهم، إذ طلب الصفويون من البرتغاليين أن يُشكّلوا حلفاً ضدّ العثمانيين بل ضدّ أهل السنة من المسلمين، ورأى أيضاً أن موقف الصفويين في الخليج ضد البرتغاليين كان موقفاً فيه كثير من الميوعة.

ورأى أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرّشون بالعثمانيين من جهة الشرق، ويُحاولون التوسّع، كما يعملون على نشر المذهب الشيعي، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصمته تبريز القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسّعهم. كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني، ثم ضد أخيه السلطان سليم، فلما تمكّن السلطان من أخيه كان لا بدّ من ضرب من كان يعاونه.

أمام هذه المرئيات وحسب طبيعته العسكرية، وجد أن يحسم الأمور بالعمل العسكري، وقرّر أن يسير نحو الصفويين ليُأدبهم ويُبعدهم عن البرتغاليين، ثم يتحالف مع المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين فإن أبى المماليك التفاهم احتل بلادهم، ووقف أمام البرتغاليين يجاهدهم وخاصةً أنها حرب صليبية واضحة يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس. وفي الوقت نفسه يكون قد قطع مرحلةً في توحيد المسلمين بضمّ أجزاء واسعة إلى دولته، وكلها أقسام من بلاد المسلمين، وربما شجّعه على ذلك ضعف دولة المماليك، وخوف السكان من البرتغاليين، وسمعة العثمانيين التي ارتفعت في نفوس الأهالي، وأمل المسلمين في قدوم السلطان العثماني لمنازلة البرتغاليين.

اتجه السلطان سليم من أدرنة على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين، وكان قد أحصى الشيعة الذين يُقيمون في شرقي الدولة لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين، وأمر بقتلهم جميعاً، ثم تقدّم نحو تبريز عاصمة الصفويين الذين أرادوا خديعته بالتراجع المخطّط حتى إذا أنهك الجيش العثماني انقضّوا عليه، وبقي السلطان في تقدّمه حتى التقى بالجيش الصفوي في جالديران جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول وكانت معركةً عنيفةً بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠، انتصر فيها العثمانيون، وفرّ من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد عشرة أيام دخل السلطان تبريز، واستولى على الخزائن، ونقلها إلى إستانبول، وتتبع الشاه، ولكن لم يتمكّن

من القبض عليه، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشتد الأمر على الجنود العثمانيين، وبدا تذمرهم، فترك السلطان المنطقة، وسار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصل الشتاء، رجع السلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع، ودخل إمارة ذي القادر، وترك الجيوش العثمانية تنفّذ المهمة التي أعطاها لها، وعاد إلى إستانبول، فقتل كبار الضباط من الإنكشارية الذين أبدوا تذمُّراً من التقدّم بسبب البرد كي لا تتكرر الحادثة. وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة، والرقة، وماردين، والموصل.

بعد الحرب التي شنّها السلطان سليم على الصفويين بدأ يستعّد لحرب المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين على العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين، والتي قاعدتها مرعش، وشجّعه على هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين، ولم يجدوا في المماليك القدرة على المقاومة، وبروز العثمانيين كقوةٍ ضخمةٍ اكتسحت أجزاء من أوربا. ولما علم سلطان المماليك قانصوه الغوري الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان سليم لغزو بلاد المماليك أرسل إليه رسولاً يعرض عليه وساطته للصلح بين العثمانيين والصفويين، غير أن السلطان سليم بطبيعته العسكرية طرد الرسول وأهانه، لأنه قرر الحسم العسكري.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، واستعدّ السلطان الأشرف قانصوه الغوري، واتجه نحو الأناضول، والتقى الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومنّاهم، أو التقوا به، وتقرّبوا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب من عام ٩٢٢، انفصل ولاة الشام بمن معهم وانضموا إلى العثمانيين فانتصروا، وهُزم المماليك رغم شجاعة السلطان الأشرف[١] والجهد الذي قدّمه، وثباته في المعركة حتى قُتل.

(١) تولّى السلطان أشرف قانصوه الغوري السلطة في مصر عام ٩٠٦، وهو لا يريدها، وكانت سنه فوق الرابعة والستين، وقام بإصلاحات كثيرة، وخاض معركة مرج دابق وعمره ثمانون عاماً.

دخل السلطان سليم حلب، وحماة، وحمص، ودمشق دون مقاومة بل بالترحيب في أغلب الأحيان، وأبقى ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق، واتجه إلى مصر، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم، وأمر بترميم مسجد بني أمية بدمشق، وقد عيّن جانبرد الغزالي على دمشق، وفخر الدين المعني على جبل لبنان، وهو من الدروز، وقد ساعد السلطان سليم، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية، وهو من ألد أعداء العثمانيين وما يحملونه من أفكار إسلامية.

كان المماليك في مصر قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قانصوه الغوري ويُدعى طومان باي، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، غير أن طومان باي رفض ذلك، واستعد للقتال، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك، ودخل العثمانيون غزة، وفي اليوم الأخير من عام ٩٢٢ التقى الطرفان في معركة الريدانية على أبواب القاهرة، وانطلق طومان باي مع كوكبةٍ من فرسانه إلى مقرّ السلطان سليم، وقتلوا من حوله، وأسروا الوزير سنان باشا، وقتله طومان باي بيده ظنًّا منه أنه السلطان سليم، ورغم الشجاعة التي أبداها المماليك، والمقاومة التي أظهرها المقاتلون فإن العثمانيين قد انتصروا عليهم لتفوّقهم بالمدفعية، وفي ٨ محرم ٩٢٣ دخل العثمانيون القاهرة. وانطلق طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل العثمانيين، غير أنه سقط أسيراً بأيديهم، وقُتل في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣.

بقي السلطان سليم في القاهرة ما يقرب من شهر وزّع خلالها الأُعطيات، وحضر الاحتفالات، وقد تنازل له الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفةً للمسلمين، كما جاءه محمد أبو نمي بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة.

وسافر الخليفة العثماني من مصر متجهاً نحو الأناضول عن طريق

الشام، وقد عيّن حاكماً على مصر خير بك، وترك عنده حاميةً من الإنكشارية، واصطحب معه الخليفة العباسي المتنازل أو المخلوع، ومرّ على دمشق، وأقام فيها مدةً، بنى خلالها الجامع على ضريح محيي الدين بن العربي، ومرّ على حلب وأقام بها شهرين، ثم سافر إلى أدرنة. وهناك جاءه سفير إسبانيا من أجل السماح لنصارى الإسبان بزيارة بيت المقدس مقابل مبلغ يُدفع له سنوياً، كما كان الأمر مع المماليك، وبدأ يستعدّ لمحاربة الصفويين غير أنه توفي في ٩ شوال عام ٩٢٦.

٢ ـ سليمان:

ولد سليمان عام ٩٠٠، وتولّى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٩٢٦، وفي عهده بلغت الدولة أوج قوتها واتساعها. وما أن شاع خبر وفاة الخليفة العثماني الأول حتى أعلن جانبرد الغزالي حاكم الشام تمرده، واتصل بخير بك حاكم مصر ليكون نصيره فراوغه ووعده، وفي الوقت نفسه أطلع الخليفة الجديد على مراسلاته له. وسار الغزالي ليأخذ حلب وألقى الحصار عليها، وهو في حصاره لها وصلت إليه الجيوش العثمانية فترك الحصار، وأسرع إلى دمشق ليتحصّن بها، فلحقته الجيوش وحاصرته فيها، فخرج يريد القتال يوم ١٧ صفر ٩٢٧ فانهزم جنده، وفرّ هو متنكراً، ولكن أخذه بعض أعوانه، وسلّمه إلى فرحات باشا قائد الجيوش العثمانية فقتله.

وأرسل الخليفة رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية، فقتل الملك الرسول، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه، وسار على رأسه لقتال المجر، ودخل مدينة بلغراد بعد حصار قصير، وغادرتها الجنود المجرية.

وفتح جزيرة رودوس في ٢ صفر عام ٩٢٩ مستغلاً انشغال أوربا بقضاياها الخاصة، واختلافاتها فيما بينها كي لا تساعد رهبان هذه الجزيرة الذين يُسيطرون عليها، وقد انتقل هؤلاء الرهبان إلى جزيرة مالطة.

وأصبحت شبه جزيرة القرم ولايةً عثمانيةً، وكانت من قبل ولايةً

يحكمها التتار من فرع القبيلة الذهبية، ثم وقع الخلاف بين حكامها فتدخّلت الدولة العثمانية في شؤونها، ولكن بقيت الفوضى قائمةً حتى ضمها إليها عام ٩٣٩.

وفي عام ٩٣١ أرسل جيشاً استولى على عاصمة الأفلاق، وأخذ أميرها إلى إستانبول، وكانت من قبل تعترف بالسيادة العثمانية، وتدفع الجزية. ولكن الأعيان ثاروا على ذلك بمساعدة أمير ترانسلفانيا وعيّنوا أميراً جديداً فوافق السلطان مقابل زيادةٍ في الجزية.

وقد رغب ملك فرنسا في التحالف مع العثمانيين كي يحاربوا المجر التابعة لملك النمسا شارلكان الذي تحيط أملاكه بفرنسا من كل جهة إذ كانت تتبعه إسبانيا، وهولندا، وإمارتا جنوه وفلورنسا، وصقلية، وجزر البالئار، وفي الوقت نفسه يعدّ إمبراطوراً لألمانيا، لذا فقد أرسل ملك فرنسا سفيراً للخليفة العثماني في هذا الشأن، ووعده الخليفة بذلك، وفعلاً فقد سار الخليفة عام ٩٣٢ على رأس مائة ألف مقاتل إضافة إلى ثمانمائة سفينة انطلقت في نهر الدانوب، وقد جعل قاعدته مدينة بلغراد. وأحرز الانتصار، وقتل ملكهم لويس، ودخل بعدها العاصمة «بودا» في ٣ ذي الحجة عام ٩٣٢، وعيّن أمير ترانسلفانيا «جان زابولي» ملكاً على المجر، ورجع بعدها إلى إستانبول غير أنه في العام التالي ٩٣٣ ادعى الأمير فرديناند أخو ملك النمسا شارلكان أحقيته بملك المجر، فسار إليها، ودخل عاصمتها «بودا»، وهزم ملكها «جان زابولي» الذي استنجد بالخليفة، فسار إليه عام ٩٣٥، وحاصر «بودا»، وفرّ منها فرديناند متجهاً نحو «ڤيينا» فتبعه، وألقى الحصار على المدينة، وأمر بالهجوم عليها في ٢٠ صفر ٩٣٧ بعد أن أحدث ثغراتٍ في أسوارها ولكنه لم يقو على اقتحامها إذ نفذت ذخيرة المدفعية، وداهمه فصل الشتاء البارد فقرّر فك الحصار والعودة. وفي العام التالي ٩٣٨ أرسل ملك النمسا جيشاً لدخول «بودا» غير أنه عجز عن ذلك أمام مقاومة الحامية العثمانية. وعاد الخليفة نحو ڤيينا عام ٩٣٩ إلا أنه رجع من الطريق لما علم من استعدادات شارلكان الدفاعية.

وجاءت سفن بحرية تابعة لشارلكان والبابا واحتلت بعض المواقع في شبه جزيرة المورة اليونانية والتابعة للدولة العثمانية. وبعد ذلك وقعت معاهدة بين النمسا والخليفة العثماني.

وفي عام ٩٤١ اتجه العثمانيون نحو تبريز فدخلوها ثانيةً، وجاء إليها الخليفة إثر ذلك، وسار منها نحو بغداد ففتحها في العام نفسه.

العمل العثماني في بلاد المغرب:

كان البحار المشهور خير الدين وأخوه عرّوج نصرانيان من إحدى جزر بحر إيجه، ويعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس، وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً. وقد أرسلا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزل لهما العطاء، فقويت نفسيهما، وعندما جاء السلطان سليم إلى مصر أرسلا له رسولاً يُعلن له خضوعهما للدولة العثمانية.

واستطاع عرّوج أن يستولي على مدينة الجزائر، وأن ينتصر على جيوش شارلكان التي أرسلها لمحاربة عرّوج، كما استولى على مدينة تلمسان غير أنه قُتل في إحدى حروبه مع الإسبان. وأرسل خير الدين بعد ذلك رسولاً إلى الخليفة العثماني سليم الأول وكان لا يزال في مصر يُعلمه أنه قد فتح مدينة الجزائر باسم الخليفة، فأصدر الخليفة أمراً يقضي بتعيين خير الدين والياً على إقليم الجزائر، وأعطاه رتبة (باشا)، وبذا أصبحت الجزائر ولايةً عثمانيةً.

وكان الإسبان قد أخذوا طرابلس الغرب من بني حفص عام ٩١٦، وبنزول الإسبان في طرابلس شعر السكان بالخطر الصليبي يتهددهم، فأرسلوا إلى الخليفة العثماني سليمان الأول وفداً عام ٩٢٦ يستغيثون به، فأنجدهم بقوةٍ صغيرةٍ بإمرة مراد آغا الذي نزل شرق طرابلس، وسار لحصارها، لكنه لم يتمكّن من فتحها، وجاءت قوة من جنوه ونابولي

الإيطاليتين وغزت بعض سواحل بلاد المسلمين، واحتلت بعضها ومنها جزيرة جربا التونسية. عندها أحسّ الخليفة العثماني بالخطر الصليبي على حقيقته هناك، فأرسل الأسطول العثماني بقيادة طورغول الذي هاجم الإسبان في طرابلس، وفتح المدينة، وطرد النصارى الإسبان منها، وتولى الإمارة فيها، كما أخرج الإسبان من بنزرت ووهران، وغزا ميورقة، وكورسيكا.

واستمر خير الدين في عمله البحري فنزل على شواطئ إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وأخذ حصن (بينون) الذي أقامه الإسبان على جزيرة أمام مدينة الجزائر. غير أن السلطان سليمان قد طلب منه أن يكفّ عن مراكب فرنسا بعد المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والعثمانيين، فكفّ عن ذلك، ولكن وجّه اهتمامه ضدّ الإسبان انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس بعد أن سقطت غرناطة بأيديهم عام ٨٩٨.

وفي عام ٩٣٩ دعا الخليفة سليمان إلى إستانبول خير الدين، وكلّفه ببناء السفن والاستعداد لغزو تونس، فقام بالأمر حق قيام، وعندما سافر الخليفة إلى تبريز عام ٩٤٠ سار خير الدين عبر مضيق الدردنيل إلى مالطة كي يُخفي قصده، كما غزا بعض موانئ جنوبي إيطاليا، ثم قصد تونس عام ٩٤١، وتمكّن من احتلالها بسهولةٍ باسم الخليفة العثماني، وقد عزل مولاي حسن آخر الحفصيين، وعيّن مكانه أخاه الرشيد. ونتيجة ذلك الفوز اتفق شارلكان، وأشراف الإسبان في برشلونة، ورهبان مالطة على حرب المسلمين، وقاد الجموع شارلكان بنفسه، وتوجّه نحو تونس وتمكّن من دخولها، وقام جنوده بأحقر وأبشع الأعمال، وأعاد حسن الحفصي إلى الحكم بعد معاهدة معه، سمحت للنصارى بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة شعائرهم بِحرّية، ودفع الحفصي تكاليف الحرب، وتنازل لشارلكان عن بنزرت وعَنّابة. واضطر خير الدين أن ينسحب إلى الجزائر.

والتقى خير الدين عام ٩٤٤ بأسطول شارلكان وانتصر عليه، كما غزا جزيرة كريت، وتوفي عام ٩٥٣هـ.

الحروب في أوربا:

هاج الرأي العام النصراني في أوربا على فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تقاتل النمسا الدولة النصرانية فما كان من ملك فرنسا فرانسوا الأول إلا أن خضع للرأي الصليبي، وهادن ملك النمسا، وأخلف بما وعد به العثمانيين من غزوٍ مشتركٍ لإيطاليا.

وعادت الحرب بين العثمانيين والنمسا عام ٩٤٣، وانهزمت النمسا، وحرّض فرديناند أخو شارلكان أمير البغدان على التمرّد على العثمانيين لكن فتنته قد قُمعت، وعُزل عن الإمارة، وتولّى مكانه أخوه اصطفان عام ٩٤٤، وعزّز العثمانيون حاميتهم هناك.

واتفق جان زابولي ملك المجر، مع الأمير النمساوي فرديناند على اقتسام المجر، وإنهاء التدخل العثماني، وللإيقاع بزابولي فقد أرسل فرديناند نسخةً من الاتفاق إلى الخليفة العثماني ليعرف عدم ولاء زابولي، ويُقصيه عن الملك، وعندها يزداد النفوذ النمساوي في المجر، ويزول من طريقه حليف العثمانيين.

ومات جان زابولي ملك المجر عام ٩٤٦ قبل أن يلقى الجزاء من الخليفة، وهاجمت الجيوش النمساوية المجر بسرعة لإنهاء الحماية العثمانية، وحاصرت مدينة «بودا» وفيها أرملة زابولي وطفلها، واحتلت مدينة «بست» المقابلة لمدينة «بودا»، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧ على رأس جيش ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانيةً، وأما أرملة زابولي وأم الطفل والوصية عليه، فقد قبلت تلك الحماية الموقتة لبلوغ الطفل سن الرشد. وأخيراً عُقدت معاهدة بين الخليفة العثماني والنمسا عام ٩٥٤ لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزيةً سنويةً لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

العمل العثماني في جزيرة العرب:

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني حاكم مصر سليمان باشا أن

يُجهّز أسطولاً، ويتجه به لمحاربة الصليبيين البرتغاليين، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي الصليبيين، فبنى سليمان باشا أسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة، واتجه به على رأس عشرين ألف جندي، وفتح عدن، ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز عام ٩٤٤. وكان قد وصل إلى إستانبول قبل عام سفير من كوجرات بالهند، يستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلى سواحل الهند، وآخر من دهلي يستنجد به ضد همايون بن ظاهر الدين محمد المشهور ببابر، وهو من المغول الذين دخلوا الهند وحكموها.

وانطلق سليمان باشا إلى كوجرات، ودخل بعض القلاع التي أقامها البرتغاليون على سواحل الهند، ولكنه هُزم في معركة (ديو) البحرية أمام البرتغاليين، ورجع إلى بلاده، وكانت اليمن قد أصبحت ولايةً عثمانيةً.

العمل العثماني في أذربيجان:

جاء إلى إستانبول أخو الشاه الصفوي، يشكو إلى الخليفة ظلم أخيه، وهضم حقوقه، وطلب منه مساعدته ضده، فسار الخليفة عام ٩٥٤ ودخل تبريز، وكان هذا الدخول العثماني لهذه المدينة المرة الثالثة، وعاد الخليفة إلى إستانبول عام ٩٥٥.

العودة إلى أوربا:

تنازلت إيزابيلا أرملة زابولي عن ترانسلفانيا إلى فرديناند الأمير النمساوي مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومةٍ، وذلك عام ٩٥٧، كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع عام ٩٥٨.

ومات ملك فرنسا فرانسوا الأول وخلفه ابنه هنري الثاني فجدّد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة عام ٩٧١ مدة أربعة أشهر، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣ نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر، ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أباه فرديناند. وتوفي الخليفة في أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤.

وكان الخليفة قد قتل ابنه مصطفى بدسيسة من زوجته الروسية (روكسلان) ليتولّى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه. وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، كما سعت (روكسلان) لقتل ابن مصطفى الذي لا يزال رضيعاً، وكذلك قتل سليمان القانوني ابنه الآخر بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسةٍ من أحد الوزراء بتعليم من سليم بن سليمان، واضطر بايزيد أن يتمرّد على أبيه خوفاً منه عندما امتنع عن تنفيذ أوامره بالانتقال من حكم ولاية قونية إلى (أماسيا)، غير أنه هُزم، ففرّ مع أبنائه إلى الصفويين، فراسل الشاه طهماسب الخليفة، ثم سلّمهم إلى رسول الخليفة الذي بُعث لاستلامهم فقتلهم مباشرة في مدينة قزوين.

الفصل الخامس

عصر الضعف

لم يطل عصر القوة في الخلافة العثمانية، إذ لم يزد كثيراً عن النصف قرن، ولم يشمل سوى عهد خليفتين هما: سليم الأول (٩٢٣ ـ ٩٢٦) وابنه سليمان الأول «القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤)، وهما الخليفتان الأوليان، وجاء عصر الضعف بعدهما مباشرةً، وبدأ الخط البياني للخلافة العثمانية بالهبوط باستمرار، وإن كان يتوقف عن الهبوط، ويسير مستوياً في بعض المراحل لقوة بعض الخلفاء النسبية أو لهمّة حاشيتهم وخاصة الصدر الأعظم، وكان لهذا الضعف عوامل كثيرة يمكن أن نتلّمس بعضها للعبرة والفائدة التاريخية، ومنها:

١ ـ سيطرة العقلية العسكرية:

هذه العقلية التي تنزع إلى حلّ الأمور بالسيف، وتبتعد عن الدراسة والتخطيط ومناقشة الموضوعات، وكانت سيطرتها عامةً سواء أكان على الخلفاء أم على أبنائهم أم على ضباط الإنكشارية، ثم الولاة، فالسلاطين أو الخلفاء كانوا يربون تربيةً عسكريةً وإسلاميةً، فالتربية العسكرية إن لم يطغ عليها الإيمان ويُشذّبها ويحدّ من طغيانها كانت ـ أعوذ بالله ـ أقرب إلى حياة الجزّار، وفي بداية الأمر كان الإيمان هو الأقوى، وهو المحرّك، لذا كانت الحياة العسكرية تدريباً وفناً ومعرفةً بأصول القتال، فلما مرّت الأيّام وغدا الحرص على السلطان نقطةً جوهريةً، أصبح تطبيق التدريب أساساً على من يقف في وجهه أو يُنازعه، وربما يزيد الأمر إلى أن يتصوّر تصوّراتٍ خياليةٍ

في منازعين له من أهله وأقربائه فيعمل فيهم السيف، فيقتل إخوته، وكل من يتوهّم أنه يخالفه، وتصبح الأسر المنكوبة مُعاديةً، ويفتُر عندها الجهاد، ويضعُف إخلاصها، وتقلّ خدمتها، وأول أسرةٍ أصابها عدم التماسك والتجزئة هي الأسرة الحاكمة، أسرة بني عثمان، بل إن الرابطة بين أفرادها أصبح واهياً، بل بين الأب والأبناء، والأخ وإخوته، والمهمّ عند كل فرد أن يصل إلى السلطة ويعمل على المحافظة عليها.

ولما كان السلطان أو الخليفة يخشى على نفسه أو على سلطانه من إخوته وأقربائه، فإنه يعمل على تولية أبنائه على الولايات ذات الأهمية، وعلى قيادة الجيوش أحياناً، وهنا يشعر كل ولد من أولاد الخليفة أنه ذا مكانةٍ في الدولة، وأن إخوته دونه، وخاصةً أنهم ليسوا أشقاء، وتربّوا تربيةً متباينة، وغالباً ما تكون أعمارهم متقاربة لأنهم من عدة أمهات، فيعمل كل منهم إلى الوصول إلى السلطان. فيدسّ الدسائس لإخوته، وتساعده أمه بل هي التي تحرضه أحياناً، وتتولّى كبر ذلك وخاصةً إن كانت لها مهمة، إذ كانت بعضهنَّ على غير ديانة الإسلام، أو أن كل واحدةٍ تحبّ أن تكون أم الخليفة، وتكون المكرّمة المبجّلة، فإذا ما مات الخليفة، والموت غاية كل حي، بدأ النزاع بين الإخوة ونتيجة النزاع يحدث الضعف للدولة.

والإنكشارية وهم عماد الجيش، ونتيجة التربية الإسلامية والعسكرية التي رُبُّوا عليها، كانوا قوةً ضخمةً، ولديهم روح معنوية عالية، لذا فقد أحرزوا انتصاراتٍ عظيمةٍ، وأسدوا للدولة خدمات جلّى، وبعد هذه الانتصارات أُعطيت لهم امتيازات، وقُدّمت لهم إقطاعات، فأخلدوا إلى الأرض، ومالوا عن القتال، وسُمح لهم بالإقامة خارج الثُّكنات فزاد ارتباطهم بالحياة المدنية، فبدأت علائم الضعف تظهر على الجيش بعد أن كان مهيباً. وكان السلطان أو الخليفة يخرج على رأس الجيش للقتال فيزيد ذلك من قوة المقاتلين، ويرفع من روحهم المعنوية، فلما قوي أمر الإنكشارية أصبحوا لا يخرجون للقتال إلا إذا خرج السلطان معهم، وهذه بداية التذمُّر، وإظهار شيء من عدم الرضا أو عدم الخضوع الصحيح، فلما

كان حكم الخليفة سليمان القانوني أبطل قاعدة خروج السلطان، وسمح لأكبر ضابطٍ في الإنكشارية في قيادة الجيش، وهنا يصبح الضابط ذا شأن، ويرى نفسه في مركزٍ لا يكاد يعادله أحد، فتصبح له متطلبات واجبة التنفيذ، ويغدو في الدولة أكثر من سلطةٍ فتفسد الأمور، إذ تتضارب المصالح، وتضعف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الحياة العسكرية لذا كانت تفضِّل ولداً من أولاد السلطان على ولد وغالباً ما تفضِّل القائد القوي، وتسعى جاهدةً لدى السلطان لتقديم هذا على ذاك، وقد لاحظنا كيف رغب الإنكشاريون في تولية السلطان سليم على إخوته، ودعموه بكل إمكاناتهم وطاقاتهم حتى تمّ له الأمر، وساروا معه، ويكون الحسد بين الإخوة نتيجة ذلك، ويقع الخلاف ويحدث الشقاق، وتضعُف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الانتصارات الحربية التي يخوضونها، ولهم دور كبير في تنصيب السلطان كان لا بدّ من أن يكون لهم مُتطلبات على من عيّنوه، وكان على السلطان الجديد أن يُرضي قادة الإنكشارية على الأقل يوم تنصيبه فيعطيهم مبالغ من المال، أو يُقدّم لهم امتيازات جديدة، فيرضى هذا وقد لا يرضى غيره، وتقع الخلافات وتضعف الدولة.

فسيطرة القوة العسكرية بصورةٍ عامةٍ تضعف الدولة لأن العسكري يحبّ بطبعه التسلُّط، ويُفكر بسيفه وأحياناً بحذائه لا بعقله، وتولية الأبناء على مقاطعات ذات أهميةٍ تجعلهم يشعرون بشأنهم وإمكاناتهم، ويفكر كل بالسلطة، والملك عقيم، فيقع الخلاف وتحصد نتاجه الدولة، وإعطاء العسكريين امتيازات، ومحاولة إرضائهم باستمرار يجعلهم يُفكرون باستخدام قوتهم إن لم تُحقق رغباتهم، وهذا من البلاء الذي تحصد نتاجه الدولة أيضاً. فالعسكريون يجب أن يبقوا في معسكراتهم، تُقدّم لهم حقوقهم، ويقدّمون واجباتهم في الطاعة وتنفيذ المهمات الموكلة إليهم، لا يتدخلون في شؤون البلاد أبداً، إلا إذا دعت الضرورة أو كُلّفوا بتنفيذ مهمّاتٍ محددةٍ.

٢ ـ الاتفاقيات مع الدول الأجنبية:

لم يكن للأجانب عامةً وللنصارى خاصةً أيّ أثرٍ في سكان الدولة الإسلامية سواء أكانوا من النصارى أم من غيرهم، وإنما يشعر الجميع أنهم غرباء لا علاقة لهم بما يدور في داخل الدولة، فلما كان الخليفة سليمان القانوني أراد أن يحطّم اتفاق الدول الصليبية عليه، ويُفكّك وحدتهم، فأعطى من اتفق معه امتيازات خاصة، وقدّم لهم صلاحيات لم تكن موجودة من قبل، ولم يحلموا بها أبداً. وكذلك أراد أن يُعيد للبحر المتوسط ما فقده من دور في الملاحة والتجارة بعد أن التفّ البرتغاليون حول إفريقية، وعرفوا رأس الرجاء الصالح، وبدؤوا يستولون على بلاد المسلمين في شرقي إفريقية وجنوب شرقي آسيا بل أخذوا يُهاجمون أطراف الجزيرة العربية، ويستقرون في مراكزهم، ويُخضعون موانئها لهم، ومن ثم يُتاجرون مع تلك الجهات، وينقلون البضائع إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعيدين عن البحر المتوسط ففقدت بذلك موانئه قيمتها، وفقد التجار الأرباح التي كانوا يجنونها، وارتفعت أسعار الحاجيات، وانعكس هذا على الدولة، على حين بدأت الأرباح تزداد على التجار الأوربيين، وبدأت تصل إليهم بشكل أرخص وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية إذ بدأ يظهر الرفاه نتيجة ذلك التطور إضافةً إلى الاحتكاك الذي يحدث مع الأمم الأخرى ونقل العادات وبعض الصناعات التي يعرفونها في تلك البلاد سواء أكانت مسلمةً أم لها صلة بالبلاد الإسلامية، فأراد لذلك الخليفة أن يعقد اتفاقات مع بعض الدول تكون من مصلحتها عودة الملاحة والتجارة إلى البحر المتوسط مثل فرنسا، والإمارات الإيطالية.... جنوه.... والبندقية.... وغيرها. ولا بدّ من أن يُقدّم بعض التنازلات ليحصل على مثل هذه الاتفاقات. وظنّ السلطان أن هذه الاتفاقات موقتة وما دامت القوة بيده فإنه يستطيع أن يُلغيها في الوقت الذي يريد بل يُحطّم هذه الدول صاحبة الاتفاقات متى شاء، ويُجبرها على أن تسلك ما يرغب.

عقد الخليفة سليمان القانوني اتفاقية مع دولة البندقية عام ٩٢٨ تنصّ

على: يحق لقنصل البندقية في الدولة العثمانية في النظر في تركات النصارى، كما يحق له أن يرسل ترجمان لحضور المرافعات التي تُقام ضد رعايا البندقية. كما سمحت الاتفاقية للبندقية بالبقاء في جزيرة قبرص مقابل دفع عشرة آلاف دوكا في كل سنة.

وعقد اتفاقيةً مع فرنسا عام ٩٤٢ مؤلفة من ستة عشر بنداً ومما جاء فيها: يحق لرعايا فرنسا المتاجرة مع العثمانيين ونقل البضائع من وإلى الدولة العثمانية براً وبحراً، ويحق لقنصل فرنسا في إستانبول أو أثينا أن يحكم ويقطع بمقتضى قانونه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا دون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضٍ شرعي أو أي موظف آخر. ويحق لقنصل فرنسا الاستعانة بالسلطة العثمانية لتنفيذ ما قضى به. (من البند الثالث).

ولا تسمع الدعاوى المدنية التي يُقيمها السكان العثمانيون أو جباة الخراج ضد التجار الفرنسيين أو رعايا ملك فرنسا عامة. (من البند الرابع).

يُدعى المتهمون الفرنسيون إلى مكان الصدر الأعظم الرسمي، ولا يحقّ دعوتهم إلى المحكمة أو أي مكان آخر. (من البند الخامس).

لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم فيما يختصّ بالمسائل الدينية أمام القاضي، وإنما تكون محاكمتهم أمام الباب العالي. ولهم الحق باتباع شعائرهم. (من البند السادس).

إذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يُطالب بها أحد. ولا يُسأل القنصل الفرنسي عن ذلك، وكذلك لا تُطالب المملكة الفرنسية بذلك. (من البند السابع).

لا يجوز استخدام أملاك الفرنسيين على كرهٍ منهم. (من البند الثامن).

ما يتركه الفرنسيون في الدولة العثمانية بعد وفاتهم تُنقل أو تُوزّع بمعرفة القنصل (من البند التاسع).

واشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا، ولملك إنكلترا أخيه وحليفه الأبدي، وملك إيقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة.

وهكذا أصبح لرعايا فرنسا وحلفائها دولة ضمن دولة، محاكمهم خاصة، وعلى أعلى مستوى، وفي مقر الصدر الأعظم، ولا يحقّ للعثمانيين التدخل في شؤونهم، وإنما يكون ارتباطهم بالقنصل، وفي الوقت نفسه أصبح الفرنسيون يتصلون برعاياهم مباشرة، وأصبحوا تبعاً لهم، ويرتبطون بهم لا بغيرهم.

ونسي الخليفة أن هذه الاتفاقيات أصبحت مُلزمة لمن بعده، وإذا كان هو قادراً على تغييرها وإلغائها فإن غيره قد لا يكون قادراً على ذلك، بل لا يمكنه، وهذا ما حدث، فأصبحت طوقاً في أعناق الخلفاء فيما بعد تقودهم إلى الهاوية.

ونسي الخليفة من جهة ثانية، أن هذه الدول التي كانت توافقه ظاهراً على عودة الملاحة إلى البحر المتوسط، وكانت عواطفها مع البرتغاليين والإسبان إخوتها في العقيدة، ونعرف أنها كانت تدعمهم بكل ثقلها وإمكاناتها لطرد المسلمين في الأندلس، حتى تمّ لهم ذلك.

إذن بدأت الدول الأجنبية تتدخّل في شؤون الدولة العثمانية عن طريق رعاياها من النصارى، كما أصبحت معنويات هؤلاء الرعايا كبيرةً بحيث لا يهتمّون بالدولة أبداً، ويتصرّفون كما يريدون، الأمر الذي سبب إزعاجاً للدولة وضعفاً، إذ كانوا يحرّضون على التمرّد، ويؤسسون الجمعيات.

٣ ـ الترف:

حصلت الدولة نتيجة الفتوحات على كثيرٍ من الغنائم فأثرت، وفسح المجال أمام الخلفاء وكبار الدولة أن ينصرفوا إلى اللهو في قصورهم، وأن يبذّروا الأموال على الشهوات، وبناء القصور، والحدائق، وقد كان السلاطين من قبل يقودون الجيوش بأنفسهم فيبقوا بعيدين عن الترف، وعلى

شيء من الحزم والجد، والاستعداد الدائم، فلما غيّر الخليفة سليمان القانوني في هذه القاعدة، وسمح لضباط الإنكشارية بقيادة الجيوش بقي الخليفة في القصر لا يهتمّ بأمر النصر كما كان من قبل إذ يلقي التبعة على غيره.

وكانت رئاسة مجلس قضايا الدولة المهمة للسلطان نفسه أو الخليفة ليكون على اطلاعٍ دائمٍ بما يدور، وإعطاء الرأي بما سيكون، ومتابعة القضايا بدقة، فلمّا غيّرَ القانوني هذه الطريقة، وأوكل رئاسة هذا المجلس إلى الصدر الأعظم أصبح الخليفة في القصر بعيداً عن مهمات الدولة الأساسية، وأصبح الحاكم الفعلي هو الصدر الأعظم، وفي الوقت نفسه لم يعد للخليفة من عملٍ مهمٍ، لذا يجد عنده الفراغ الكافي فينصرف إلى اللهو وتحقيق الشهوات، ومع قَلة المسؤولية للخليفة ضعفت الدولة إذ أصبحت بيد غير أولي الأمر وأصحاب السلطة، ومن الحكم باسمهم، وخاصةً إذا كان الصدر الأعظم من غير المسلمين حقيقةً، وإن كان يدعي الإسلام.

الزواج من الأجنبيات:

يصحّ الزواج من الفتيات النصرانيات واليهوديات، وهذا الجواز مقيّد إذ تقتضي المصلحة السياسية بعدم الزواج منهن إن كان لهن تأثير على أزواجهن وهم من أصحاب السلطة، أو على أبنائهن وهم من أهل الحكم، أو إذا كانت المسلمات يبقين بلا أزواج وغير ذلك.

وكان السلاطين يتزوجون بالفتيات من النصارى أو اليهود إعجاباً بجمالهن، أو لمصلحةٍ سياسيةٍ، كأن يتزوجون بنات الأمراء من الأعداء، ويحبون أن يبقى هؤلاء الأمراء على وئام مع الدولة دون تمرد، أو لتوطيد الصِّلات بين الدولتين، أو لتوثيق المعاهدات والاتفاقات وما إلى ذلك، غير أن هذه النسوة قد يبقين على عقيدتهن السابقة فيكون ارتباطهن بأصحاب عقيدتهن أكثر بكثير من ارتباطهن بدولتهن الجديدة، لذلك يعملن لأبناء دينهن وهم من النصارى غالباً، وهم من أعداء العثمانيين والمحاربين لهم،

أو يكُنّ من اليهود، والأمر واحد في مرارته، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذه النسوة يُربين أولادهن على محبة النصارى أو عدم كرههم على الأقل. كذلك تحرص كل واحدة على تولية ابنها الخلافة أو السلطنة ليكون لها نفوذ كبير، فنفوذها غالباً ما يكون لمصلحة أبناء دينها، وخلاف ابنها مع إخوته يكون لمصلحة أعداء العثمانيين، وقد لاحظنا دسائس روكسلان الروسية زوجة الخليفة سليمان القانوني كي يتولّى ابنها سليم الثاني الحكم. كما لاحظنا أن أم محمد الفاتح قد بقيت على عقيدتها، وكذلك زوجة أبيه الأخرى (مارا) ابنة أمير الصرب، وقد أعادها محمد الفاتح إلى أهلها بعد أن تولّى السلطة.

٥ ـ عدم وجود مهمة أساسية:

منذ أن قامت دولة بني عثمان كانت أمامهم مهمات أساسية يجب إنجازها وإلا قُضي عليهم، ومن هذه المهمات الانتهاء من الإمارات القائمة في بلاد الأناضول، والتي دولتهم إحداها، وكل دولةٍ تريد أن تتوسع على حساب الأخرى، وتحاول القضاء عليها لتحكم أرض الثانية، واستمر العثمانيون في صراعٍ مع هذه الإمارات حتى قُضي على آخرها في عهد السلطان سليم، كما كانت من المهمات الأساسية للعثمانيين فتح القسطنطينية لهدف ديني، ثم لاحتلال هذه المدينة وامتلاك أرضها، وقد سعوا لذلك، وعملوا على تطويقها فدعا ذلك إلى تقدّمهم في أوربا، وفي النهاية تمّ فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام ٨٥٧، ثم كان من مهماتهم بعد ذلك إضعاف الدول الأوربية المجاورة لهم خاصةً كي لا تحاول الهجوم على الأملاك العثمانية، وتحاول استردادها، وإثارة أوربا النصرانية، والقيام بحربٍ صليبية جديدة، وقد تمّ لهم ذلك. وكان من مهماتهم تحطيم القوة الصفوية التي عملت على نشر الشيعة في شرقي الدولة العثمانية، والتي اتفقت مع البرتغاليين النصارى ضد المسلمين، ومع المماليك ضد العثمانيين، وقد تمّ للعثمانيين ذلك، كما ضربوا الإسبان وأجلوهم عن بعض الجهات في شمالي إفريقية، وقضوا على دولة المماليك، ونازلوا البرتغاليين، وانتصروا

عليهم، وأجلوهم عن بعض المواقع التي كانوا قد احتلوها... فلم يعد يشعر الخلفاء أن هناك مهمةً تُهددهم وتُهدد كيانهم، لذا لم يكونوا دائماً على استعداد، ولم يبذلوا الجهد من أجل مهمةٍ جديدةٍ، بل قصّروا في الأمر، فبدأت تظهر أمامهم المشكلات التي أدّت بالتالي إلى ضعف الدولة.

٦ ـ سعة رقعة الدولة:

اتسعت الدولة العثمانية كثيراً نتيجة الفتوحات فامتدت أراضيها من أواسط أوربا حتى سواحل بحر الخزر، ومن جنوب جزيرة العرب حتى سواحل البحر الأسود الشمالية، إضافة إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وأجزاء من إيران اليوم، وشمالي إفريقية كله، وزادت مساحتها على ستة عشر مليون كيلو متر مربع، أي ضعف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الاتساع يحتاج إلى خليفة قوي الشخصية، ولا يمكن أن يتعاقب بالوراثة خلفاء أقوياء، فلا بد من الشورى واختيار الرجل القوي الأمين، ولا بدّ من أن يكون هذا القائد على أهبة الاستعداد، يُتابع الأمور بنفسه، ويُقيم منهج الله، فإن فعل ذلك أمكنه ضبط الأمور، وإذا لم يكن ذلك بدأ الضعف وهذا ما حدث، وخاصة أنه انتهى عهد الأقوياء الذين بذلوا وبنوا، وجاء دور الذين ورثوا المجد ولم يُقدّموا شيئاً، ولم يُضحّوا بشيء، بل تركوا الأمر لغيرهم فصعُب عليهم القبض على زمام الأمور، وتراخت أيديهم عن أملاكهم فضعفت الدولة، وخاصةً يجب أن نعلم صعوبة المواصلات يومذاك والعقبات الطبيعية التي تحول دون الوصول إلى منطقة ما لقمع حركة فيها، أو لدعم والٍ أو.... وهذا ما يُشجّع أصحاب النفوذ، الطامعين في السلطة والمصالح في أن يثيروا الفوضى أو يعبثوا في الأمن وهذا ما يؤدي إلى الضعف.

٧ ـ الصليبية الأوربية:

كانت أوربا عامة وعلى رأسها البابا تُذكي الحماسة الصليبية ضد

العثمانيين كي تقف الدول كافة في وجه التوسع الإسلامي القادم من الجنوب الشرقي، ومع أن هذه الدول الأوربية لها مصالح تتضارب بعضها مع بعض، وينشأ خلافات وحروب إلا أنها تلتقي معاً ضدّ المسلمين، وعندما تحاول بعض هذه الدول أن تستفيد من قوة الدولة العثمانية فتعقد معها اتفاقات أخرى إلا أنها لا تستطيع أن تقوم بالتزاماتها كاملةً تجاه العثمانيين بسبب الروح الصليبية التي تحملها، وبسبب التيار الأوربي الصليبي الذي تخشاه أيضاً بسبب مصالحها ففرنسا عندما اتفقت مع الدولة العثمانية لتعملان معاً ضدّ النمسا، ومع أن مصالح فرنسا أكثر من مصالح الدولة العثمانية في ذلك، إذ أن أملاك النمسا أصبحت تحف بفرنسا من كل جهةٍ غير أن فرانسوا الأول ملك فرنسا أحجم عن القيام بدوره خوفاً من أن يُرمى بالمروق من النصرانية باتحاده مع دولةٍ إسلاميةٍ ضدّ دولةٍ تدين بدينه، وقد هدده البابا بذلك، وربما كانت الامتيازات القنصلية التي قدّمها سليمان القانوني لفرنسا والبندقية إنما كانت الغاية منها تحطيم تجمع الدول الصليبية ضده وفك عقدها، واستغلال خلافها فيما بينها، والواقع أنه قدّم الكثير، والذي كان سبباً رئيسياً في ضعف الخلافة العثمانية والذي أسرع فيها بالسير نحو حتفها إلا أنه لم يستفد كثيراً من هذه الامتيازات التي قدمها لتلك الدول إذ أن النزعة الصليبية هي المحركة لهم، وإن أظهروا مؤقتاً موافقتهم للعثمانيين، أو أن مصالحهم برزت مؤقتاً فوق تعصبهم.

وإذكاء الروح الصليبية لا يُثير الدول الأوربية فقط، وإنما يُثير النصارى الذين يعيشون في رعاية الدولة العثمانية أيضاً، فكانوا يقومون بالحركات ضدّ الخلافة وتدعمهم الدول النصرانية وهذا ما يؤدّي إلى التمرد وإشعال الثورات والحروب، وبالتالي إلى إنهاك الدولة العثمانية وإضعافها.

٨ ـ عدم الانصراف نحو العلم:

انصرف العثمانيون بكل ثقلهم نحو التدريب العسكري والقتال وتعبئة الجيوش وبناء الأساطيل، وربما كانت المهمة الملقاة على عاتقهم اضطرتهم

إلى ذلك، أو أن طبيعتهم الأولى الأقرب إلى البداوة قد حرصوا عليها أو لم تسمح لهم بالتوجه نحو العلم بسبب انصرافهم إلى ميادين القتال والتوجه إلى ما أسند إليهم من مهمات، فبقيت الأساليب العلمية على طريقتها الأولى لم ينلها شيء من التطور وكانت أوربا في البداية أقل منهم حظاً في هذه الناحية، غير أن انطلاقة أوروبا نحو الخارج بعد طرد المسلمين من الأندلس، ومحاولة ملاحقتهم، ومعرفة رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الشرق، وبدء عهد التجارة قد جعل دول أوربا تحصل على شيء من الثراء فبدأت تتطور في حياتها المادية، كما أن احتكاك الأوربيين من قبل في الأندلس، وصقلية، وجنوبي فرنسا، وتلقّي العلم في هذه المراكز على أيدي المسلمين، ومحاولة تلمس طريق العلم، وجاء الثراء ودعم ذلك فبدأ يؤتي ثماره... ففي الوقت الذي بدأت فيه أوربا تتطوّر وتتقدّم في المجال العلمي بقيت الدولة العثمانية محافظة على ما كانت عليه قديماً، ولم تواكب التطور العلمي فنجم عن ذلك التخلّف، ومع الأيّام برز التطوّر الأوربي وأصبح واضحاً وغدا التخلّف العثماني جلياً فظهرت الهزيمة النفسية والفكرية لدى العثمانيين... وكفى هذا ضعفاً بل قتلاً، وبرزت فكرة تقليد أوربا والسير على خطاها إذ كان ينظر إلى أوربا نظرة الأعلى... وهذا هو الضعف، وهو الهزيمة، وهو عقدة الصغار... ولا يمكن أن يتمّ نصر والصورة على هذه الحال.

٩ ـ الحركات والثورات:

لا شك أن ضعف الدولة يجعل أصحاب الأطماع والمصالح يتحرّكون، يريدون تحقيق منافع لهم، أو تأسيس إمارات ودول على أنقاض الدولة الضعيفة، أو اقتطاع أجزاء منها يبنون عليها أمجادهم، وقد ساعدهم في الدولة العثمانية اتساع رقعة الدولة إذ يصعب عليها أن تطالهم لبعد الشقة، أو لوعورة مناطقهم، ولضعف الدولة بصورةٍ أساسية، إلا أن نقطة تبرز هنا هي الامتيازات الأجنبية التي حصلت عليها الدول الأوربية بحيث يمكنها الاتصال مع النصارى الذين يعيشون في الدولة العثمانية، ويحثّونهم

على تحريض الناس للقيام بحركات، وخاصة الأقليات الموجودة والموزعة في أرجاء الدولة العثمانية كالدروز، والأرمن، وغيرهم.

ولم يقم النصارى أنفسهم بحركات وإنما كانوا يكتفون بالتحريض، لا يقومون هم لأنهم يخشون بطش الدولة، ولا تستطيع الدول النصرانية حينذاك حمايتهم، أما التحريض فلا ينالهم بطش الدولة لأنهم ليسوا هم الذين يقفون في الوجه، وإنما يعملون من الخلف، وعندها تحميهم الدول الأوربية التي يرتبطون بها، ولا تستطيع الدولة محاكمتهم أمام القضاء الشرعي.

١٠ ـ الجمعيات السرية والتنظيمات:

عندما زاد ضعف الدولة العثمانية تجرأ النصارى، وبدؤوا يعملون على تأسيس الجمعيات، وإن كانت تحمل الطابع الأدبي، أو تأخذ الصفة العلمية إلا أنها تعمل في الحقيقة ضدّ الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه شجّعوا على تأسيس الجمعيات السرية وتشجعوا أحياناً وانضموا إليها، ولعل أهم هذه الجمعيات ما حمل الدعوة القومية، وليس لهم من دعوة يمكنهم أن يحملوها وتعمل على تهديم الدولة سوى القومية لذا فقد ساهموا فيها ونشطوا، وكانت عاملاً مهمّاً في إضعاف الدولة إذ انقسم أبناؤها إلى قوميات متعددة تعمل كل منها بين أبناء جنسها، وتريد الانفصال بهم عن الدولة، ويكفي في الانفصال والتجزئة ضعفاً للدولة، أو تقطيع أوصالها وقبرها في النهاية وهذا ما حدث.

١١ ـ ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل:

تعدد الجواري والمحظيات لدى أصحاب السلطة، وينشأ عن هذا تفكك الأسرة الحاكمة لتعدد أمهات الأولاد وبالتالي اختلاف الأولاد فيما بينهم، وتدخُّل هذه الجواري والنساء في القصر عامةً في سياسة الدولة والتوسُّل لدى الخليفة لرفع هذا، وتسليم الصدارة العظمى إلى هذا، وبين

هذه النساء يعيش ولي العهد محجوباً لا يعرف شيئاً من أمور الدولة فعندما يؤول إليه الأمر ينظر إلى ما يُعرض عليه نظرة الجاهل فيتلاعب به الوزراء، وكبار المسؤولين أو الصدر الأعظم. وبعدئذٍ أصبح عدد من الخلفاء ألعوبة بيد الإنكشارية فيعزلون، ويقتلون، وينصّبون.

وربما يخون الصدر الأعظم الدولة، إذ وصل إلى هذا المنصب عدد منهم غرباء عن البلاد، أو لم يكونوا مسلمين، فأظهروا الإسلام، وأبدوا الطاعة، وقدّموا الخدمات فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، وعندما حكموا نفّذوا ما خططوا له، وخانوا الدولة، وقد يلاحظ هذا الخليفة فيُنزل فيهم القتل، ولكن يكون قد حدث ما أضر بالأمة وأنهكها.

١٢ ـ الحرص على جمع المال:

إن القتال قائم على مختلف الجبهات، وتجهيز الجيوش يحتاج إلى مال، والمنطلقون إلى الجبهة يتركون أعمالهم من زراعة وصناعة فتقل الواردات، وهذا ما يجعل الدولة توافق على أخذ الجزية، والتعويض من الأعداء بعد انتصارها عليهم لتسد العجز.

١٣ ـ وفوق كل هذا وذاك:

كان من أهم أسباب الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية هو مخالفة منهج الله، فالدولة العثمانية منذ أن قامت كانت العاطفة الإسلامية جيّاشةً، ولكن العاطفة لا تقدّم شيئاً، فلما تبعتها التربية الإسلامية والتدريب السليم للنظام الجديد العسكري الذي أوجد وهو الإنكشارية كانت القوة وكان الفتح، وكان التوسع، فلما ضعُفت التربية الإسلامية، وسرى تعاطي الخمرة، وبدأت أعمال السلب عند الفتح، وفي هذا انحراف واضح لمنهج الله، ثم وجد عدم الطاعة فلما حاول الخليفة العثماني الرابع مراد الثالث منع شرب الخمر فشل لأن الإنكشارية لم تطعه، ولم يتمكن من إجبارها فتراجع عن القرار، واستمر الانحراف... وزادت أعمال السلب

والنهب. . . وتبعتها أحداث الفوضى، والثورات إن لم تنفذ رغبات الجند. . . بل وصل الأمر إلى المخالفة، وقتل الولاة، وإظهار العصيان، هذا من جانب الإنكشارية أما من جانب السلاطين فقد انصرفوا عن الاستعداد المادي والمعنوي لجهاد الأعداء من طواغيت وظالمين فعكفوا في قصورهم، وتركوا قيادة الجيوش لكبار ضباط الإنكشارية بعد سليمان القانوني، كما تركوا بحث الأمور التي تعترض الدولة وأوكلوا ذلك إلى الصدر الأعظم، وجلسوا هم في قصورهم يبحثون في شهواتهم وملذاتهم وأمور دنياهم، ولا شك فإن الولاة وكبار الموظفين صورة عن السلاطين والخلفاء، ويتبع ذلك من هو دونهم، فالصغير يُقلّد الكبير حتى تصل إلى أسفل السُلَّم، وفي هذا انحراف عن منهج الله. ثم هناك إعطاء الامتيازات حتى للمسيء من الإنكشارية بل ربما تكون الإعطاءات أكثر والإقطاعات أكبر، والامتيازات أوسع لمن يُظهر الفوضى وعدم الطاعة خوفاً منه. . . وفي هذا انحراف، فمن لم يستطع أن يقف في وجه الظالمين يتخلّى عن الأمر ليحل محلّه من يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، وليس هناك من ناصح، أو نـاهٍ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾[1]. ويمكن أن نشير أيضاً إلى انحراف عظيم وهو قتل الإخوة الأبرياء ومن غير ذنب سوى الخوف من المنازعة على السلطان.

ولم يستعدّ العثمانيون معنوياً فقد أهملوا الجانب العلمي ليتقوّوا مادياً، فالدراسة، والبحث، ومتابعة التطور والنتائج تؤدي إلى الابتكار والاختراع الجديد الذي تستفيد منه الدولة لإنشاءات تستطيع أن تصد أعداءها بها بل تتفوّق عليهم، وفي الوقت نفسه لم يُذكوا روح الجهاد، ولم يُلقوا الدروس والخطب الإيمانية لترتفع معنويات الجند، وإنما كانوا يكتفون بالقول بأننا

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨، ٧٩.

نُقاتل كفاراً، ويكتفون بالعاطفة إذا كانت قد بقيت هناك عاطفة، وإن وجدت فعند القليل، أما الباقي فلا يعرفون شيئاً لِمَ يُقاتلون؟ ومن يقاتلون؟. كما لم يستطيعوا نشر الإسلام في المناطق التي فتحوها إذ لم تكن عندهم إمكانات فإن فاقد الشيء لا يعطي شيئاً. وإن حاولوا أحياناً نشر الإسلام بالسيف، وهذا لا يُفيد، وإن أفاد ففي الظاهر ولا يلبث أن يتغيّر إن قُدّم له ما هو أفضل في نظره، أما عن نتيجة الفكر والإقناع، والقدوة الصالحة، والتطبيق السليم للإسلام لتظهر النتائج المشجعة فهذا لم يحدث، وهذا كله عاطفة فقط.

وتولّى في هذه المرحلة خمسة عشر خليفة ويُعد أكثرهم مغموراً، إلا من حدثت في أيّامه أحداث جسام فسلّطت الأضواء عليه وعُرف بسببها، وأولهم وهو سليم الثاني، وتعود معرفته لتوليه الحكم بعد أبيه الذي طارت شهرته، وبصفته أول الخلفاء الضعفاء، وقد توقف الخط البياني عن الارتفاع ثم هبط فجأة وبدأت الدولة تتراجع عن أجزاء من أملاكها تدريجياً حتى لم يبق لها إلا القليل ثم انهارت. وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت إذ زادت على ثلاثة قرون ونصف (٩٧٤ـ ١٣٢٧) فذلك يعود لهيبة الدولة السابقة، واتساع رقعتها، والعاطفة الإسلامية الباقية نسبياً، واختلاف الدول الأوربية فيما بينها على التقسيم، وقيام بعض الخلفاء الأقوياء نسبياً.

١ ـ سليم الثاني:

ولد عام ٩٣٠ في أيام خلافة أبيه، وأمه روكسلان الروسية، وتولّى بعد أبيه عام ٩٧٤، وبعد أن قتل أبوه ابنيه الآخرين بدسائس من زوجته روكسلان، وابنها سليم أيضاً ـ كما مر معنا ـ. وأعطى الجنود العطايا بعد أن تمنّع، فأظهروا العصيان فاضطر إلى العطاء، وهو في بلغراد ينتظر وصول جثة أبيه.

كان السلطان سليم الثاني ضعيفاً إلا أن هيبة الدولة في السابق، وقوة وزيره محمد الصقلي قد أوقف سقوط الدولة أو ظهور الضعف المباشر.

عقدت الدولة صلحاً مع النمسا عام ٩٧٦، اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر، وعلى أن تدفع النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقررة، ومقابل اعترافها أيضاً بتبعية أمراء ترانسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

وجددت هذه المعاهدة مع بولونيا مع اعتراف الدولة العثمانية بالتحالف الذي تمّ بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

وجددت المعاهدة مع فرنسا عام ٩٧٧، وكان ملك فرنسا شارل التاسع الذي تولّى الحكم بعد موت أخيه فرانسوا الأول، وهما ولدا هنري الثاني، وأيّد سليم الثاني الامتيازات القنصلية، ونتيجة ذلك بدأت فرنسا ترسل إرساليات نصرانية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية مثل بلاد الشام، وبذلك بدأ العمل من الداخل ضد العثمانيين، وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا، وأيدت الدولة ترشيح أخي ملك فرنسا ملكاً على بولونيا معاداة للنمسا وروسيا، وأصبحت بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية.

استطاعت الدولة قمع ثورةٍ قامت باليمن بإمرة المطهر بن شرف الدين، فأرسلت جيشاً كبيراً بقيادة عثمان باشا، ودعم سنان باشا والي مصر ذلك، فقضت على الثورة عام ٩٧٦.

وفُتحت قبرص عام ٩٧٨، وكانت تتبع البندقية من قبل، وأصبحت تتبع الدولة العثمانية، حتى جاءت إنكلترا عام ١٢٩٦هـ. كما أخذت من البندقية بعض المواقع على بحر الأدرياتيك، وغزت جزيرة كريت، فأسرعت البندقية وعقدت حلفاً مع البابا وإسبانيا للوقوف في وجه العثمانيين، وانضمّ إلى ذلك رهبان جزيرة مالطة، وحدثت معركة بحرية انتصر فيها التحالف النصراني، فابتهج البابا وأعلن الانتصار الصليبي، واستاء المسلمون في إستانبول، وهمّوا بالقضاء على النصارى في مدينتهم لولا منع الوزير محمد الصقلي قيام تلك التعديات. وأسرع الوزير بإنشاء أسطول جديد للثأر مما حدث، واختلف النصارى فيما بينهم، إذ عرضت البندقية الصلح معترفة بدخول العثمانيين لجزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية خوفاً من تجديد القتال، وقد تم الصلح عام ٩٨٠.

وأما إسبانيا فقد احتل دون جوان تونس عام ٩٨٠، وارتحل عنها العثمانيون دون قتال لقلة عددهم، وأعيد مولاي حسن الحفصي إلى الحكم. لكن العثمانيين عادوا فاسترجعوا تونس بعد ثمانية أشهر بقيادة سنان باشا.

وحدث تمرُّد في إمارة البغدان غير أنه قد قضي عليه عام ٩٨١.

وتوفي الخليفة سليم الثاني في ٢٧ شعبان عام ٩٨٢ بعد أن حكم ثمانية أعوام.

٢ ـ مراد الثالث:

ولد عام ٩٥٣، وتولّى الخلافة عام ٩٨٢ بعد وفاة أبيه. وبعد أن تولّى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، غير أن ثورة الإنكشارية أجبرته على ترك هذا القرار. ثم أمر بقتل إخوته الخمسة خوفاً من نزاعه على الملك.

ترك ملك بولونيا هنري منصبه، وعاد إلى فرنسا، فأوصى الخليفة أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وأصبحت بولونيا فعلاً تحت حماية العثمانيين وذلك عام ٩٨٣. واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام ٩٨٤ ومدتها ثماني سنوات، وأغار التتار على حدود بولونيا عام ٩٨٤ فاستنجدت بالخليفة فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية.

وجدّد للدول الأوروبية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية، وزاد عليها أن أصبح السفير الفرنسي يأتي في مقدمة سفراء الدول الأجنبية الذين كثروا في إستانبول، وكانت كل سفن الدول الأوروبية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي باستثناء البندقية، ثم جاءت بعدئذ انكلترا التي حصلت على امتيازات لتجارها أيضاً.

وفي عام ٩٨٥ حدث في مراكش ثورة، واستعان زعيمها بالبرتغاليين النصارى، واستنجد السلطان بالخليفة فأنجده، وأرسلت قوة من طرابلس

اشتبكت مع البرتغاليين في معركة القصر الكبير جنوب طنجة انتصر فيها العثمانيون وحلفاؤهم على البرتغاليين وأنصارهم، وأُعيد السلطان الشرعي إلى حكمه.

وفي الدولة الصفوية توفي طهماسب عام ٩٨٤، وخلفه ابنه حيدر فقُتل بعد ساعات، ودفن مع أبيه، وتولّى أخوه محمد خدابنده، واختلف الناس عليه، فاستغلّ العثمانيون هذه الفرصة، وأرسلوا جيشاً احتل الكرج، ودخل عاصمتها تفليس عام ٩٨٥، وفي العام التالي بعد انقضاء فصل الشتاء، دخل العثمانيون شروان (أذربيجان الشمالية). وفي عام ٩٩١ استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا على بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد بجنده إلى بلاد القرم عبر جبال القوقاز لتأديب خان القرم الذي رفض إرسال مدد للعثمانيين لمحاربة الصفويين، وقد أنهكه التعب لبعد الشقة، ولغارات الروس عليه، وأخيراً تمكن خان القرم من حصاره، فمنّى عثمان باشا أخا الخان بالحكم، فترك أخاه وانضم إلى العثمانيين بعد أن قتل أخاه بالسمّ، فدخل عثمان باشا (كافا) عاصمة الخان، ورجع إلى إستانبول براً، وعُيّن صدراً أعظم، وكان محمد باشا الصقلي قد قُتل، وكثرت التولية والعزل بعده، وكان عماد الدولة وركنها الأساسي.

وسار عثمان باشا ثانية إلى الصفويين فانتصر على قائدهم حمزة ميرزا، ودخل تبريز عاصمتهم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وتنازل الصفويون للعثمانيين عن بلاد الكرج، وشروان، ولورستان الواقعة جنوب أذربيجان عام ٩٩٣، ثم قلت الحروب العثمانية.

ومع عدم الحرب ثارت الإنكشارية الذين اعتادوا النهب والسرقات، وثاروا في إستانبول، والقاهرة، وتبريز، وبودا، وقتلوا الولاة، فأشار سنان باشا الذي أعيد إلى منصب الصدر الأعظم بإشغالهم بالحرب في المجر، وبدأت الحرب ولكن بجنود عثمانية اختل نظامها، واعتادت على الفوضى، فهزمت أمام النمسا التي دعمت المجر، واحتلت عدة قلاع حتى استعادها سنان باشا عام ١٠٠٣هـ.

وأعلن أمراء الأفلاق، والبغدان، وترانسلفانيا التمرّد، وانضموا إلى النمسا في حربها للعثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣، ودخل بخارست عاصمة الأفلاق. إلا أن أمير الأفلاق قام برد فعل واستطاع أن يحرز النصر فانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب، وخسروا عدة مدن.

وتوفي الخليفة مراد الثالث عام ١٠٠٣هـ.

٣ ـ محمد الثالث:

ولد عام ٩٧٤، وهو ابن جارية بندقية الأصل اسمها (بافو)، استرقها قراصنة البحر، وبيعت في السراي، فاصطفاها السلطان مراد الثالث لنفسه، وأسماها (صفية)، وكان مولعاً بها لذا كان تدخلها وأثرها في السياسة كبيراً. وتولّى محمد الثالث الخلافة بعد موت أبيه عام ١٠٠٣، فأمر مباشرة بخنق إخوته التسعة عشر، ودفنهم مع أبيه.

ترك شؤون الدولة بيد الصدر الأعظم، فكثُرَت المفاسد، وهزمت الجيوش أمام أمير الأفلاق ميخائيل الذي تمكن بمساعدة النمسا أن يضمّ إليه إقليم البغدان، والجزء الأكبر من ترانسلفانيا، لعدم وجود القادة الأكفاء.

ورأى محمد الثالث ما حلّ بجيوشه فقادها بنفسه، وهزم جيوش المجر والنمسا في موقعة (كرزت) عام ١٠٠٥، واستمرت المعارك ما بين الطرفين، وكانت سجالاً.

وحدثت في أيامه ثورة في الأناضول، كان عمادها الجنود الذين فرّوا من معركة (كرزت) حيث نُفوا إلى الأناضول، فقام أحدهم، واسمه (قره يازجي)، وادعى رؤية الرسول ﷺ في المنام، وقد وعده بالنصر على آل عثمان، فأعلن التمرُّد بعد أن تبعه عدد كبير من الجنود المنفيين، ودخل مدينة عينتاب، وحاصرته الجيوش العثمانية، فأعلن الاستسلام على أن يُعطى ولاية أماسيا، فوافق العثمانيون على ذلك، فلما ابتعدت عنه الجيوش أظهر العصيان ثانية، وساعده أخوه (دلي حسن) والي بغداد، وجاء الجيش

العثماني بقيادة صقلي حسن باشا فانتصر على قره يازجي الذي توفي متأثراً بجراحه، وجاء أخوه فانتصر على صقليّ حسن باشا وقتله عام ١٠١٠، ولما قوي أمره أخذته الدولة بالسلم والإرضاء، وأعطته ولاية البوسنة فانصرف لقتال الأوروبيين حتى فني وجنوده.

وقامت ثورة الخيالة (السباه) في إستانبول مطالبين بالتعويض عما لحق إقطاعاتهم من أضرار بسبب الثورة هناك، ولم يكن بإمكان الدولة أن تُعطيهم لعجزها، فاستعانت عليهم بالإنكشارية، وقضت على ثورتهم، بعد أن أفسدوا، ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليه.

وتوفي السلطان عام ١٠١٢.

٤ ـ أحمد الأول:

ولد عام ٩٩٨، وتولّى الحكم عام ١٠١٢ بعد وفاة والده، ولم يتجاوز عمره الرابعة عشرة، ولم يقتل أخاه مصطفى كما جرت العادة، وإنما أبقاه محجوزاً مع الجواري والخدم. وقامت في عهده عدة حركات ضد الدولة منها:

حركة جان بولاد الكردي، وحركة والي أنقرة قلندر أوغلي، وحركة فخر الدين المعني الثاني حفيد فخر الدين المعني الأول الذي انضمّ إلى السلطان سليم الأولى عندما دخل بلاد الشام عام ٩٢٢، وآل المعني أسرة درزية، وقد تمكّن فخر الدين المعني الثاني الذي أخذ السلطة في لبنان عام ٩٩٩ أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز وأمثالهم، وأن يتقرب من الخليفة، ويُظهر الطاعة له حتى أعطاه الإشراف على منطقة جبال لبنان، والسواحل، وفلسطين، وأجزاء من سوريا، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال فبنى القلاع والحصون، وكوّن لنفسه جيشاً زاد عدده على الأربعين ألفاً، ثم أعلن العصيان عام ١٠٢٢، غير أنه هُزم وفرّ إلى إيطاليا، وكان قد تلقّى الدعم من إمارة فلورنسا الإيطالية، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالطة فرسان القديس يوحنا.

واستغل الشاه عباس ملك الصفويين، والذي تولّى الأمر عام ٩٩٣ هذه الثورات فاسترجع شمالي العراق، ومدن تبريز، ووان، وضعُفت جيوش الدولة العثمانية عن المقاومة، ومات الصدر الأعظم مراد باشا الملقب بـ(قويوجي) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في القضاء على الفتن والثورات، والحفاظ على الدولة رغم أن سنّه كانت أكثر من الثمانين عندما استلم منصبه هذا. لذا فقد أبرم الصلح بين العثمانيين والصفويين ١٠٢١ فقدت بموجبه الدولة العثمانية كل ما ضمه سليمان القانوني من أراضٍ في تلك الجهات بما في ذلك بغداد، وكان هذا بداية التراجع.

كما عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ١٠١٥ تخلّصت فيه النمسا مما كانت تدفعه من جزيةٍ سنويةٍ للعثمانيين، على أن تدفع مائتي ألف دوكاً دفعةً واحدةً، وكانت الجزية السنوية ثلاثين ألف دوكاً. وذلك بعد الخلاف على بلاد المجر ومحاولة النمسا إبعاد أمير المجر عن العثمانيين، وإغرائه ليكون ملكاً بمساعدة النمسا، وبقيت المجر بعد هذا الصلح تتبع الدولة العثمانية.

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان مالطة، والإمارات الإيطالية، وغالباً ما كان النصر إلى جانب النصارى، لذا سُحبت السفن العثمانية من البحر الأسود، وتوجّهت إلى البحر المتوسط فاستغل أمراء القازاق هذا التصرّف، وأغاروا على ميناء سينوب ونهبوه، فوقع الخلاف بين الخليفة والصدر الأعظم نصوح باشا الذي قُتل إثر ذلك.

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانكلترا، وحصلت هولندا على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق من التعدي على الدولة العثمانية. وانتشر شرب الدخان بواسطة الهولنديين، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون فاضطر العلماء إلى السكوت عنه.

وتوفي السلطان أحمد الأول عام ١٠٢٦، وعمره ثمان وعشرون سنة، أمضى نصفها في الحكم.

٥ ـ مصطفى الأول:

كان عثمان بن أحمد صغيراً، لذا فقد عهد الخليفة أحمد الأول إلى أخيه مصطفى، وكان محجوزاً بين الجواري والخدم لذا لم يعرف شيئاً من أمور الحكم عندما آلت إليه. وهو من مواليد عام ١٠٠١، ولكن لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى عُزل، ونُصّب ابن أخيه عثمان بن الخليفة أحمد الأول رغم صغره.

٦ ـ عثمان الثاني:

ولّي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة. أطلق قنصل فرنسا، وكاتبه، ومترجمه الذين سجنهم عمه مصطفى لتدخلهم في شؤون الدولة ومساعدة أحد أشراف بولونيا على الهرب من السجن، كما اعتذر لملك فرنسا عما حدث. وقتل أخاه محمداً حسب العادة السيئة المتبعة.

أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان، لكن حدث الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩ بناءً على رغبة بولونيا، وطلب الإنكشارية الذين تعبوا في القتال، فغضب الخليفة عليهم. وعندما أراد استبدالهم بمن درّبهم ثاروا عليه، وقبضوا عليه، ثم قُتل بعد أن عزلوه، وأعادوا مكانه عمه مصطفى الأول عام ١٠٣١.

وكان عثمان الثاني قد عفا عن فخر الدين المعني الثاني وسمح له بالعودة إلى جبل لبنان، فبدأ من جديد بالتحرّك للثورة والعصيان على الدولة.

وعندما وصلت الأخبار بقتل الخليفة، تمرّد كل طامع، فأعلن والي طرابلس الاستقلال، وطرد الإنكشارية من ولايته، كما أعلن العصيان والي أرضروم أباظة باشا ودخل سيواس وأنقرة، وزادت الاضطرابات وعمّ نهب الإنكشارية... ثم عيّنوا (كمانكش علي باشا) صدراً أعظم، فأشار عليهم بعزل الخليفة مصطفى الأول لعجزه، وتنصيب مراد الرابع ابن الخليفة أحمد الأول.

٧ ـ مراد الرابع:

ولد عام ١٠١٨، وتولّى أمر الخلافة بعد عزل عمّه مصطفى عام ١٠٣٢، وهو أخو عثمان الثاني، ولصغر سنه الذي لم يزد على الرابعة عشرة فقد سيطر عليه الإنكشارية في بداية الأمر.

قام قائد الشرطة في بغداد بكير آغا وقتل الوالي، وتسلّم الأمر مكانه، فأرسلت له الدولة قوةً بقيادة حافظ باشا، فحاصره في بغداد، فاتصل بالشاه عباس وعرض عليه تسليم المدينة، فسار نحوها، وفي الوقت نفسه اتصل بالقائد العثماني وعرض عليه تسليم المدينة على أن يتسلّم هو ولايتها، فوافق القائد، ودخلت جنوده المدينة قبل وصول الشاه، فلما وصل الشاه إليها، وألقى الحصار عليها مدة ثلاثة أشهر اتصل بابن بكير آغا، وأغراه بتسليم الولاية فوافق، وخان الدولة، ودخل الشاه بغداد، وقتل بكير آغا، وابنه معاً.

وفي عام ١٠٣٣ قُضي على الثائر أباظة باشا بعد معركة قيصرية. وسار الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا لاسترداد بغداد غير أن الإنكشارية لم يستمرّوا معه في القتال، وعُزل الصدر الأعظم نتيجة ذلك. وعاد أباظة باشا للثورة، وأحرز النصر، وسار إليه خسرو باشا الصدر الأعظم الجديد، وأدخله في الطاعة، وعيّنه والياً على البوسنة عام ١٠٣٧.

وفي عام ١٠٣٨ توفي الشاه عباس، وتولّى مكانه ابنه الصغير شاه ميرزا فاستغلّ الصدر الأعظم الفرصة وسار إلى بلاد الصفويين، ودخل مدينة همدان عام ١٠٣٩، وحاصر بغداد، ولم يتمكّن من فتحها بعد مرتين من الحصار.

وثارت الإنكشارية، فتأثّر الخليفة من ثورتهم وفسادهم، وكان قد كبُرت سنّه فوقف في وجههم، وقتل رؤوس الفتنة منهم، فخافوه، وسكنوا.

وثار فخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان، فنهض إليه والي دمشق، وانتصر عليه، وأسره وولديه، وأرسلهم إلى إستانبول غير أن الخليفة قد عاملهم بإكرام رغم أنهم أكثر الناس خيانةً باتصالهم الدائم مع الصليبيين عامةً، والطليان خاصةً، وأكثر الثائرين فساداً في العقيدة، وهذا ما جعل الكفار يثنون عليه، وهذا الإكرام من قبل الخليفة شجّعهم، شجّع

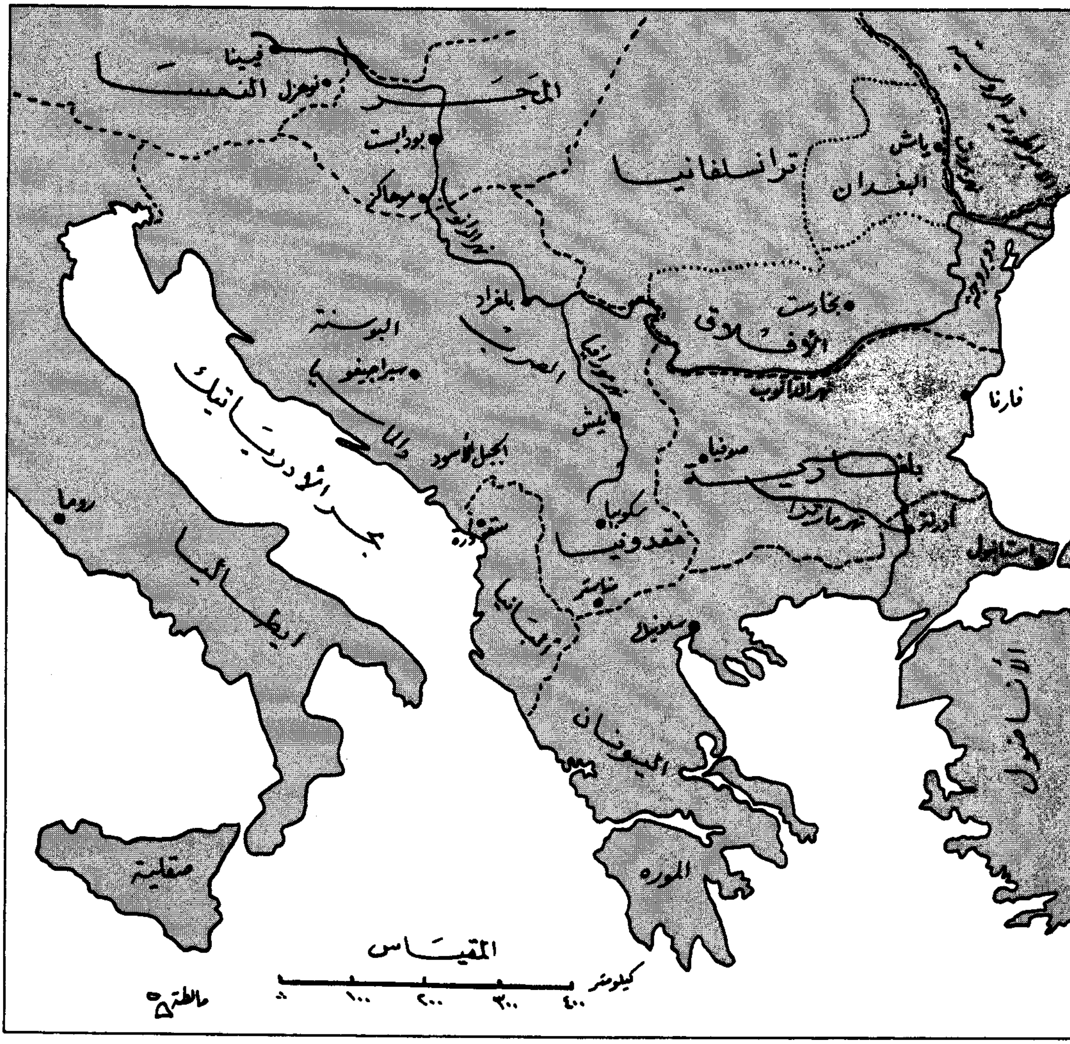
فيينا
المجر
بودابست
ترانسلفانيا
ياش
البغدان
بخارست
الأفلاق
نهر الدانوب
فارنا
بلغاريا
صوفيا
أدرنة
استانبول
بلغراد
الصرب
البوسنة
نيش
الجبل الأسود
بحر الأدرياتيك
روما
إيطاليا
مقدونيا
ألبانيا
اليونان
المورة
صقلية
المقياس
كيلومتر
٤٠٠
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠
مالطة
الأناضول

مصور رقم [١٦]

قرقماز حفيد فخر الدين بالتحرك، لذلك فإن الخليفة أعاد النظر، وقتل فخر الدين وابنه الكبير عام ١٠٤٤، وأرسل إلى قرقماز من أخضعه.

وسار الخليفة بنفسه إلى الصفويين، وفتح بعض القلاع، وأمر بقتل أخويه بايزيد، وسليمان، ثم انطلق إلى مدينة تبريز فدخلها عنوةً عام ١٠٤٥، ورجع السلطان إلى إستانبول، فقويت عزيمة الصفويين، وانتصروا على الجيوش العثمانية، واستردّوا بعض القلاع، ووصلت الأخبار إلى إستانبول فرجع الخليفة على رأس جيش فقويت معنويات العثمانيين وتمكّنوا من دخول بغداد ١٠٤٨، وإن فقدوا الصدر الأعظم طيار محمد باشا في ميدان المعركة، وبقيت بغداد بعدها بيد العثمانيين. وتمّ الصلح بين الدولتين عام ١٠٤٩.

وتوفي مراد الرابع عام ١٠٤٩، وعمره إحدى وثلاثون سنة.

٨ ـ إبراهيم الأول:

هو ابن الخليفة أحمد الأول، ولد عام ١٠٢٤، وتولّى الخلافة بعد وفاة أخيه مراد الرابع عام ١٠٤٩ أي أن عمره كان يوم تسلّمه الحكم خمساً وعشرين سنة.

احتل القازاق مدينة آزاق (آزوف)، فأرسل لهم إبراهيم الأول جيشاً استردّها عام ١٠٥٢، وكذلك فقد فتحت في أيامه جزيرة كريت، وكانت من قبل تتبع البندقية، وكان فتحها عام ١٠٥٥، وأراد البنادقة الثأر فأحرقوا عدداً من مرافىء المسلمين في بلاد الموره، وأراد الخليفة الردّ على ذلك بقتل النصارى غير أن المفتي لم يوافقه على ذلك فلم يحدث.

وأراد أن يفتك برؤوس الإنكشارية لمعارضته، وعلموا بذلك فتآمروا على عزله، وتولية ابنه الصغير محمد الرابع الذي لم يزد عمره على السابعة، وتمّ ذلك عام ١٠٥٨، وبعد عشرة أيام رغب الخيالة (السباه) إعادة إبراهيم فخاف من عمل على عزله، لذا فقد أسرعوا وقتلوه في ذلك العام.

٩ ـ محمد الرابع:

ولد عام ١٠٥١، وتولّى الحكم بعد أبيه عام ١٠٥٨، وكان عمره سبع سنوات، ولصغر سنه فقد عمّت الفوضى.

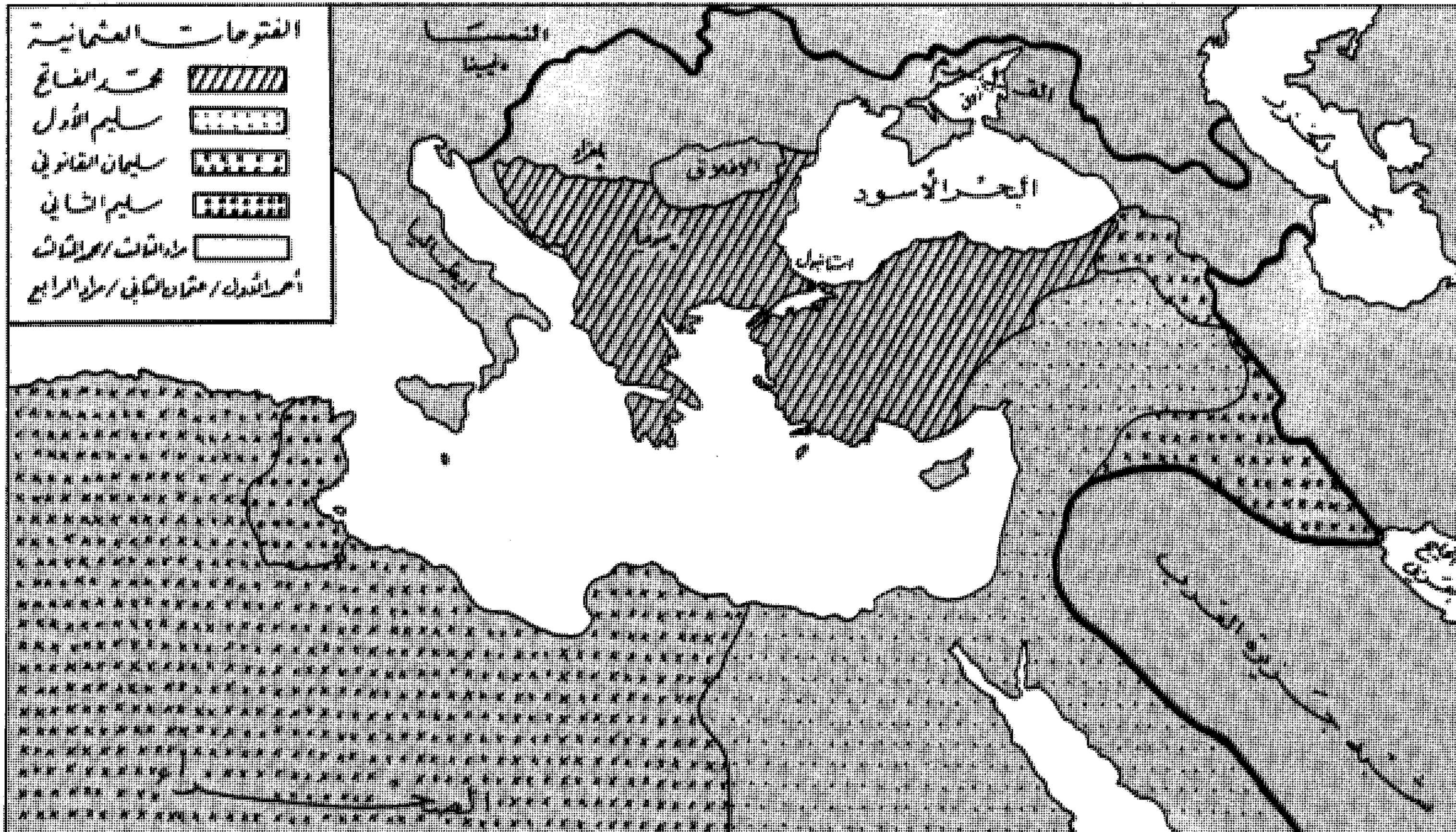
الفتوحات العثمانية
محمد الفاتح
سليم الأول
سليمان القانوني
سليم الثاني
مراد الثالث / محمد الثالث
أحمد الأول / عثمان الثاني / مراد الرابع
النمسا
فيينا
البحر الأسود
استانبول

مصور رقم [١٧]

اضطر حسين باشا الذي كان يُحاصر مدينة (كنديا) في كريت أن يرفع الحصار عنها للفوضى التي أثارتها الإنكشارية.

وقامت ثورة في الأناضول بزعامة رجل يعرف (قاطرجي أوغلي) أي ابن سائق البغال، ودعمه (كورجي يني) وقد انتصر على والي الأناضول أحمد باشا، ثم توجّها نحو إستانبول، ولكن اختلفا فسلمت العاصمة منهما لاختلافهما، وانتصر عليهما الخليفة لذلك الخلاف الذي وقع بينهما، فقتل (كورجي يني)، وطلب (قاطرجي أوغلي) العفو، وتسلّم ولاية القرمان، ورغم انتهاء هذه الثورة فلم تتحسّن الأوضاع الداخلية، بل ولا الخارجية.

انتصرت البندقية على أسطولٍ عثماني، واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان فيه، وتحميانه، وهما جزيرتا (تنيدوس) و(لمنوس)، وبذلك فقد تحكّمت البندقية بهذا المضيق، وحالت دون وصول المواد الغذائية إلى إستانبول من هذا المضيق فارتفعت الأسعار.

وتولّى عام ١٠٦٧ الصدارة العظمى محمد كوبريلي، فقتل كثيراً من الإنكشارية حتى خضعوا، وأعدم بطريرك الروم لأنه من الذين أثاروا الفتنة سراً. وحاول استرداد ما أخذته البندقية من جزرٍ عند مدخل مضيق الدردنيل فلم يتمكّن إلا بعد جهدٍ ووقتٍ، وموت قائد البحر البندقي.

ووقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين أن يُعاونوه ضد بولونيا، وتكون تحت حماية الدولة العثمانية، ولكن الصدر الأعظم رفض ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أمراء الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا. فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء، وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصى أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم. فسار إليه الصدر الأعظم كوبريلي وهزمه ففرّ من البلاد، ولم يلبث أن عصى أمير الأفلاق بعد عودة الجيوش العثمانية إلى إستانبول وأعلن التمرّد. فرجع الصدر الأعظم إلى القتال وأخضع الثائرين.

وضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا لأن الثانية دعمت

البندقية سرّاً في جزيرة كريت، فلما اطلعت الدولة على ذلك سجنت ابن السفير الفرنسي الذي لم يقبل حلّ رموز البرقيات، وتوتّرت الحالة بين الطرفين، ودعمت فرنسا البندقية جهاراً في كريت وأنجدتها بقوة.

وتوفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي عام ١٠٧٢، وكان قد أعاد للدولة هيبتها، وخلفه ابنه أحمد كوبريلي فكان كوالده، إذ رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيشٍ لقتال النمسا، وتمكّن عام ١٠٧٤ أن يفتح أعظم قلعةٍ في النمسا، وهي قلعة (نوهزل) شرقي ڤيينا فأرعب أوربا، ثم دخل مورافيا[١] وسيليزيا[٢]. واضطر ملك النمسا ليوبولد أن يرجو البابا العمل على مساعدة فرنسا له ضد المسلمين، وكان قد رفض ذلك في البداية اعتماداً على النفس وإظهاراً للقوة، فتوسّط البابا في ذلك فدعمته فرنسا في ستة آلاف جندي. ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عنيفة أهمها، معركة (سان غوتار)، ولم يحصل أحد الطرفين على نصر، ثم وُقِّعت معاهدة صلحٍ بين الفريقين المختلفين، وقُسّمت فيها المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقّفت الحرب على هذه الجبهة، إلا أن فرنسا قد تابعت القتال في البحر المتوسط، وحدث صدام بين السفن الفرنسية والمغربية، ودخلت فرنسا الجزائر وتونس، وتمّ هذا دون إعلانٍ رسمي للحرب.

وحاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم قد رفض ذلك، ثم حاولت التهديد حيث أرسل ملك فرنسا لويس الرابع عشر السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً، وقال: إن الامتيازات كانت مِنحةً، وليست معاهدة واجبة التنفيذ، وكان ملك فرنسا يريد إعلان الحرب غير أن وزيره نصحه بعدم ذلك الفعل، وسار الوزير بسياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى

---

(١) مورافيا: المنطقة الواقعة بين إقليمي تشيكوسلوفاكيا اليوم. بوهيمية وسلوفاكيا.

(٢) سيليزيا: تقع اليوم في بولونيا، وقد ضمت إليها من ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي من المناطق الغنية بالفحم.

جُددت له المعاهدات القديمة، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس وذلك عام ١٠٨٤، وعادت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى الصفاء السابق.

رغب القوزاق في التبعية إلى الدولة العثمانية فأعلنوا ذلك، وكانوا يُقيمون في أوكرانيا والمناطق التي تقع إلى الشرق منها، وهذا ما أغضب بولونيا فأغارت على أوكرانيا التي طلبت النجدة من العثمانيين، وسار الخليفة بنفسه على رأس جيشٍ انتصر على البولونيين الذين طلبوا الصلح، فعُقد، ولم يمض على الحربِ أكثر من شهرٍ واحدٍ، وقد اعترفت بولونيا فيه: بأن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم (بودوليا) في غرب أوكرانيا للدولة العثمانية، وفوق هذا الاعتراف تدفع بولونيا جزيةً قدرها ٢٢٠ ألف بندقي ذهباً، وذلك عام ١٠٨٣، وتضايق الشعب البولوني من هذه المعاهدة التي عُرفت باسم (بوزاكس)، فأعلن رفضه لها، وسار القائد البولوني (سوبيسكي) بجيوشٍ جرارةٍ وقاتل العثمانيين، وانتصر عليهم، واستلم الملك بعد وفاة ملك بولونيا ميشيل عام ١٠٨٤، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين، ثم عادت المفاوضات فعُقد صلح بين الطرفين، تنازل فيه ملك بولونيا إلى العثمانيين عما تنازل له سلفه باستثناء بعض المواقع وذلك عام ١٠٨٧.

توفي أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة العظمى صهره قره مصطفى، ولم يكن صاحب إمكانات وإنما صاحب هوى ومصالح فأثار القوزاق، فثاروا ضد العثمانيين، واستنجدوا بروسيا فوقعت الحرب بين الطرفين عام ١٠٨٨، واستمرت حتى عام ١٠٩٢ حيث عُقدت معاهدة أنهت الحرب، وبقيت الأمور كما كانت قبل الحرب، ولكن أصبح القوزاق أميل إلى أعدائهم الروس منهم إلى العثمانيين إخوانهم في السابق، وتمت هذه المعاهدة المعروفة باسم معاهدة (رادزين) نسبةً إلى المدينة التي وقعت فيها، والتي تقع جنوب غربي فارسوفيا، تمت عام ١٠٩٢.

وسار الصدر الأعظم قره مصطفى عام ١٠٩٢ لمحاربة النمسا إذ طلب

نجدته سكان الأقسام المجرية التي تخضع للنمسا إذ أثارهم استبداد النمسا المذهبي، وانتصر الصدر الأعظم في عدة معارك، ثم سار نحو فيينا، وألقى عليها الحصار مدة شهرين عام ١٠٩٤، وكادت تُفتح أمام قوة العثمانيين لولا نداءات البابا إلى الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية، فوصلت قوات ملك بولونيا، وأمراء ساكسونيا، وبافاريا الألمان إلى العاصمة النمساوية في الوقت المناسب، وهُزم المسلمون، وانسحبوا بعد معارك طاحنة، واتجهوا نحو مدينة بودا، ووجد ملك بولونيا فرصةً لثأره فتبعهم يقتل كل من يستطيع قتله من مؤخرة العثمانيين. ووصل خبر الهزيمة إلى الخليفة فغضب على الصدر الأعظم قره مصطفى، وأمر بقتله، وإعطاء هذا المنصب إلى إبراهيم باشا عام ١٠٩٥.

هذا الانتصار الذي أحرزه النصارى زاد من أوار الصليبية وشجّعها على المضي فعقدت الدول الأوروبية تحالفاً يُسمّى التحالف المقدس لاستمداد قوته من النصرانية، وقد ضمّ البابا، والبندقية، ورهبنة مالطة، والنمسا، وبولونيا، وروسيا. وبدأ هذا التحالف بالعمل ضد الدولة العثمانية.

فالنمسا بدأت تُهاجم بلاد المجر، وتمكّنت من دخول مدينة (بست)، وحاصرت مدينة (بودا)، ثم أخذت عدة مواقع، منها قلعة (نوهزل) التي سبق أن تكلّمنا عنها، وبسبب هذه الهزيمة عُزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونُفي إلى جزيرة رودوس، وعُيّن مكانه سليمان باشا الذي أسرع لنجدة (بودا) غير أن النمساويين قد دخلوها عنوةً، وهُزم العثمانيون عام ١٠٩٧، ثم هزموا ثانية عام ١٠٩٨ في (موهاكز).

وكانت جيوش ملك بولونيا (سوبيسكي) تُغير على ولاية البغدان وتُهدّدها.

وسفن البندقية تُغير باستمرار على سواحل اليونان والمورة، وتسندها سفن البابا، ورهبان مالطة، وتمكّنت من دخول (أثينا) و(كورنتا) وعدداً آخر من المدن عام ١٠٩٧.

وأمام هذه الهزائم، والفوضى التي حدثت بسبب ذلك فقد اتفق العلماء والوزير على عزل السلطان فعُزل عام ١٠٩٩، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني. وبقي محمد الرابع حتى توفي عام ١١٠٤.

١٠ ـ سليمان الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وتولّى الحكم بعد أخيه محمد الرابع عام ١٠٩٩، وكان عمره يزيد على أربع وأربعين سنة، وقد أكثر من عطايا الجند، ولم يُعاقبهم على ما فعلوه بأخيه، وهذا ما أطمعهم فيه فتمرّدوا عليه، وقتلوا قادتهم، وقتلوا الصدر الأعظم سياوس باشا، وسبوا نساءه، وعمّت البلاد الفوضى. فعيّن الخليفة صدراً أعظم جديداً هو مصطفى باشا.

انتهز الأعداء هذه الفوضى، وتقدّموا في أملاك الدولة العثمانية، فأخذت النمسا كثيراً من المواقع والمدن ومنها بلغراد عام ١٠٩٩ و١١٠٠، كما أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك) وبعض المواطن في بلاد اليونان. وتوالت الهزائم، ولم يكن الصدر الأعظم كفئاً فعزله الخليفة، وعيّن مكانه، مصطفى باشا بن محمد كوبريلي المعروف، فسار على نهج أبيه وأخيه. فحمى الأهالي من تصرّفات الجند، وأعطى الجند حقوقهم، وسمح للنصارى في إستانبول ببناء ما تهدّم من كنائسهم، وأحسن إليهم، فأحبّه الناس حتى أن نصارى المورة ثاروا ضد البندقية، وطردوا جيشها من بلادهم، وقد أرادت نشر الكاثوليكية بينهم وهم من الأرثوذكس.

واتجه على رأس جيش نحو النمسا فاستعاد بعض المواقع مما أخذت، ومنها بلغراد عام ١١٠١، كما أخضع خان القرن سليم كراي ثوار الصرب، وفي الوقت نفسه أعاد تيكلي المجري إقليم ترانسلفانيا إلى الدولة العثمانية. وبذا استعاد العثمانيون هيبتهم.

توفي الخليفة سليمان الثاني عام ١١٠٢، ولم يُنجب، فتولى مكانه أخوه محمد الثاني.

١١ ـ أحمد الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وهو أصغر من أخيه سليمان الثاني بأقل من شهرين، وقد تولّى الحكم بعده عام ١١٠٢، وفقدت الدولة في أيامه الصدر الأعظم مصطفى كوبريلي الذي كان أملها، حيث استشهد في ميدان القتال ضد النمسا عام ١١٠٢، والصدر الأعظم الذي تولى بعده، وهو عربجي باشا، وكان ضعيفاً، فاحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجه، ولم تطل أيام الخليفة فقد توفي عام ١١٠٦، وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات، وتولّى الحكم بعده ابن أخيه، وهو مصطفى الثاني ابن محمد الرابع.

١٢ ـ مصطفى الثاني:

ولد عام ١٠٧٤، وآل إليه السلطان بعد وفاة عمّه أحمد الثاني عام ١١٠٦. كان شجاعاً، قاد الجيوش بنفسه، فسار إلى بولونيا، وانتصر عليها في عدة معارك بمساعدة القوزاق. ثم انطلق إلى مدينة آزاق (آزوف) التي يُحاصرها بطرس الأكبر القيصر الروسي فأجبره على ترك الحصار عام ١١٠٧. ثم توجّه إلى بلاد المجر فهزم جيوشها أمامه، غير أنه هُزم أمام القائد النمساوي الجديد (أوجين دي سافوا) على نهر تيس، وقُتل يومذاك الصدر الأعظم محمد باشا، وغرقت أعداد من العثمانيين في النهر، ولاحقهم القائد النمساوي حتى دخل بلاد البوسنة.

استغل بطرس الأكبر انشغال العثمانيين في قتال النمساويين، فسار إلى آزوف ودخلها عام ١١٠٨.

تولّى الصدارة العظمى حسين كوبريلي، فسار نحو النمسا فتقهقرت أمامه جيوشها، ودفعهم إلى ما بعد نهر السافا، وفي الوقت نفسه انتصر الأسطول العثماني على البندقية، واستردّ بعض الجزر في بحر إيجه، ثم عقدت معاهدة بين الدولة والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا بجهود فرنسا، وذلك عام ١١١٠، وعرفت تلك المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس)

فقدت في خلالها الدولة مدينة آزوف لروسيا، وبلاد أوكرانيا، وإقليم بودوليا، وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعُقدت هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة، ولم تَبق أية دولة تدفع أي مبلغٍ كجزيةٍ للدولة العثمانية. وبذا كانت الدول النصرانية كلها تقف في وَجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها على الوقوف في وجه التقدم للدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها، وذلك خوفاً من انتشار الإسلام في أوربا.

واستقال حسين كوبريلي من الصدارة العظمى عام ١١١٤، وثار الإنكشارية على خلفه، واستبدلوه بآخر، فثاروا عليه أيضاً، وطلبوا من الخليفة أن يعزله فرفض، فعزلوا الخليفة عام ١١١٥، وولّوا أخاه أحمد الثالث مكانه.

١٣ ـ أحمد الثالث:

ولد عام ١٠٨٣، وتولّى الخلافة عام ١١١٥، فكان عمره يومذاك اثنتين وثلاثين سنة، سار مع الإنكشارية مدةً فأعطاهم الأُعطيات، ووافقهم على قتل المفتي فيض الله حتى إذا تمكّن اقتصّ من قادتهم، وعزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي اختاروه، وكان قد قادهم في حركتهم، وعيّن صهره حسن باشا، ثم لم يلبث أن عزله، وتوالى على الصدارة العظمى الكثير، وشغل الناس بذلك، وأعداء الدولة يُخططون لقوتهم وحربهم لها، وفي مقدمتهم قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي انتصر على السويد، وقويت دولته، ولم يوافق الصدر الأعظم نعمان كوبريلي دعم السويد ضد روسيا. وجاء الصدر الأعظم الجديد بلطجي محمد باشا فأعلن الحرب على الروس، وقاد الجيوش ضدهم، وتمكّن من حصار القيصر وخليلته كاترينا الأولى التي أغرت الصدر الأعظم ففكّ الحصار، ونجا القيصر، وخليلته، وجيشه من الإبادة، ووُقّعت معاهدة بين الطرفين تعهّد فيها القيصر بعدم التدخل بشؤون القوزاق، والتخلي عن ميناء آزوف، ولكن

عُزل الصدر الأعظم بجهود خان القرم، ودعم ملك السويد، ونفي إلى جزيرة لمنوس في بحر إيجه. وتولّى يوسف باشا منصب الصدر الأعظم فعقد مع روسيا معاهدةً جديدةً تنصّ على هدنةٍ بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنة. غير أن الحرب كادت تتجدد لإخلال القيصر بالشروط، وتدخّلت الدول، وعُقدت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥ من جديد تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته على سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلى خانات القرم.

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، وأخذوا منهم ما بقي بأيديهم في كريت، وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا التي ارتاحت من الحروب بينها وبين فرنسا، فطلب إمبراطور النمسا من الدولة العثمانية إرجاع ما أُخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين، وانتصرت النمسا، وقُتل الصدر الأعظم علي باشا، وسقطت بلغراد ١١٢٩، وانتصرت ثانيةً على الصدر الأعظم الجديد خليل باشا الذي جاء مدداً للعثمانيين ثم جرى الصلح عام ١١٣٠، وعُقدت معاهدة (بساروفتس) أخذت فيها النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، ولكن تُبقي سواحل دالماسيا للبندقية، وتُرجع بلاد المورة للعثمانيين.

ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية دون دفع شيء، فوافق العثمانيون على ذلك.

وضعفت الدولة الصفوية، وتنازل الشاه حسين عن السلطة لمير محمد أمير بلاد أفغانستان فأسرع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، واحتل بلاد أرمينيا، وبلاد الكرج، وأسرع قيصر روسيا بطرس الأكبر واحتل بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش العثمانية والروسية وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، فبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

وانتفض الصفويون، وقاتلوا العثمانيين غير أنهم هُزموا، وفقدوا تبريز، وهمدان، وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام ١١٤٠، ثم مات الشاه أشرف، وبقي الشاه طهماسب فطلب من العثمانيين أن يتخلّوا عما أخذوه فلم يقبلوا فغزاهم، ولم تكن عند الخليفة حرارة القتال، فثار الإنكشارية، وقتلوا الصدر الأعظم وأمير البحر، ثم امتد أذاهم وعصيانهم، وعزلوا الخليفة، ونصّبوا مكانه ابن أخيه، وهو محمود الأول ابن مصطفى الثاني وذلك عام ١١٤٣، وبقي أحمد الثالث معتزلاً حتى توفي عام ١١٤٩.

وقد دخلت المطبعة في عهد أحمد الثالث، وتأسست دار للطباعة في إستانبول بعد موافقة المفتي.

١٤ ـ محمود الأول:

ولد عام ١١٠٨، وتولّى الحكم وعمره خمس وثلاثون سنة، وكانت السلطة الحقيقية بيد زعيم الثورة (بطرونا خليل) الذي عزل الخليفة وفعل ما فعل، ثم نقم عليه الإنكشارية وقتلوه، وهدأت الأحوال، واتجهت الدولة إلى قتال الصفويين فتغلّبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام ١١٤٤، وتخلّى للعثمانيين عن تبريز، وهمدان، وإقليم لورستان، غير أن والي الشاه على خراسان، وهو نادر شاه لم يقبل بهذه المعاهدة فسار إلى أصفهان، وعزل الشاه طهماسب، وولّى مكانه ابنه عباساً الذي لا يزال طفلاً، وأخذ الوصاية عليه، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، وطلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩ في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يردّ العثمانيون إلى الفرس كل ما أخذوه.

اختلفت الدول بشأن بولونيا، وأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا عداوةً بالنمسا وحليفتها روسيا، وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة ڤيينا، واتفقتا من جهةٍ ثانيةٍ لقتال الدولة العثمانية، وفتحت روسيا القتال لحجةٍ

بسيطةٍ واحتلت آزوف، فاتفقت الدولة العثمانية سريعاً مع نادر خان واتجهت لمقاومة الروس، وتمكّنت في خلال مدةٍ قصيرةٍ من وقف تقدُّمهم في إقليم البغدان الذي احتلوا عاصمته (ياسي)، وأوقفت كذلك تقُّدم النمسا في البوسنة، والصرب، والأفلاق وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ في معاهدة بلغراد عام ١١٥٢ تنازل النمسا عن مدينة بلغراد، وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب، وإقليم الأفلاق. وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد ضد روسيا بجهودٍ فرنسيةٍ عام ١١٥٣.

وقامت الحروب بين النمسا التي تولت أمرها ماريا تيريزا عام ١١٥٣ وبين فرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

وأعطت الدولة العثمانية أمر إقليمي الأفلاق والبغدان إلى رومٍ من إستانبول فساموا أهل البلاد سوء المعاملة فاتجه السكان نحو روسيا.

وتوفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

١٥ ـ عثمان الثالث:

ولد عام ١١١٠، وكان عمره عندما آل إليه الأمر يزيد على الثامنة والخمسين عاماً، قتل الصدر الأعظم علي باشا لسوء تصرفه، وعيّن محمد راغب باشا مكانه، فكان عوناً له، وأهلاً للإصلاح، وكان الخليفة يسير مُتنكّراً في الليل، ويطّلع على أحوال الرعية، ويعمل على الإصلاح. وقد توفي عام ١١٧١.

الخلَفاء في عصر الضعف

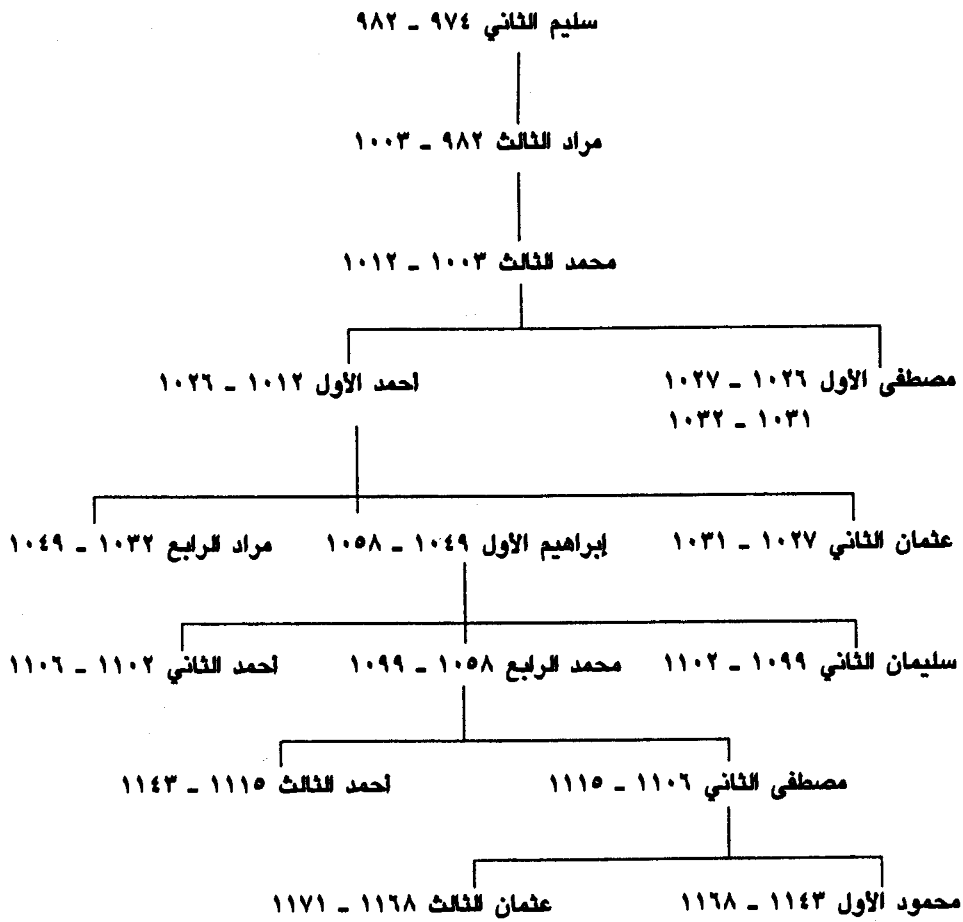

الخلفاء في عصر الضعف

السنوات	الخليفة	الأحداث
٩٧٤ – ٩٨٢	سليم الثاني	الصلح مع النمسا. فتح جزيرة قبرص. واقعة ليبانت البحرية.
٩٨٢ – ١٠٠٣	مراد الثالث	تجديد الامتيازات الأجنبية فتح شروان، والكرج، وبلاد داغستان. تأديب القرم ودخول كافا.
١٠٠٣ – ١٠١٢	محمد الثالث	ثورة في الأناضول، وأخرى في إستانبول.
١٠١٢ – ١٠٢٦	أحمد الأول	ثورة فخر الدين المعني الثاني الأولى. الهزيمة أمام الصفويين وعقد صلح معهم. بدء شرب الدخان.
١٠٢٦ – ١٠٢٧	مصطفى الأول	
١٠٢٧ – ١٠٣١	عثمان الثاني	الاضطرابات.
١٠٣١ – ١٠٣٢	مصطفى الأول	
١٠٣٢ – ١٠٤٩	مراد الرابع	ثورة فخر الدين المعني الثاني الثانية وقتله. الحرب مع الصفويين، ودخول العثمانيين بغداد.
١٠٤٩ – ١٠٥٨	إبراهيم الأول	فتح كريت.
١٠٥٨ – ١٠٩٩	محمد الرابع	دخول مورافيا وسيليزيا. تقسيم المجر بين الدولة العثمانية والنمسا. تبعية القوزاق في أوكرانيا للعثمانيين. ميل القوزاق بعد ذلك للروس. حصار الدولة العثمانية لعاصمة النمسا فيينا. الهزيمة أمام النمسا.
١٠٩٩ – ١١٠٢	سليمان الثاني	
١١٠٢ – ١١٠٦	أحمد الثاني	
١١٠٦ – ١١١٥	مصطفى الثاني	معاهدة كارلوفتس وفقد العثمانيين أوكرانيا، وآزوف، والمجر، وترانسلفانيا.
١١١٥ – ١١٤٣	أحمد الثالث	التخلّي عن التدخل بشؤون القوزاق وميناء آزوف. معاهدة أدرنة. معاهدة بساروفتس وتخلي العثمانيين عن الصرب. احتل العثمانيون أرمينيا وبلاد الكرج من الصفويين ثم تبريز وهمدان.
١١٤٣ – ١١٦٨	محمود الأول	تخلّى العثمانيون عن تبريز وهمدان ولورستان، والصلح مع نادر شاه. معاهدة بلغراد.
١١٦٨ – ١١٧١	عثمان الثالث	

الفصل السادس

عصر الانحطاط والتراجع

لقد بدأ عصر الانحطاط والتراجع بعد الضعف الكبير الذي آلت إليه الدولة العثمانية، وبعد النهضة التي تمت في الدول الأوروبية، وبعد اتفاق الدول النصرانية كلها مع خلافها بعضها مع بعض على الدولة العثمانية والتفاهم على حربها وتقسيمها، تحرّكها في ذلك الروح الصليبية، وقد عُرف هذا الاتفاق ضد المسلمين في الكتب الأوربية باسم المسألة الشرقية أي مشكلة الدولة الواقعة في الشرق من أوربا. وامتاز هذا العصر ببعض السمات الرئيسية لعلّ من أهمها:

١ ـ التحالف النصراني الضمني، وإن كان يظهر أحياناً بحقدٍ صليبيٍ واضحٍ، ويختفي أحياناً نتيجة الخلافات القائمة بين الدول الأوربية بسبب مصالحها الخاصة، والمنافسة فيما بينها على التقسيم، ولو كان التفاهم قائماً تماماً، وليست هناك من مصالح متباينة لانتهت الدولة العثمانية قبل الوقت الذي انتهت فيه ـ والله أعلم ـ.

٢ ـ ظهور عدد من الخلفاء الأقوياء، ولكن لم تُفد قوتهم كثيراً بسبب ضعف دولتهم، واجتماع كلمة أوربا عليهم، وتحريضها في الداخل عليهم، بوساطة رعاياها النصارى، والامتيازات التي حصلت عليها، وأصحاب المصالح والنفوذ والطموحات الذين اتصلت بهم.

٣ ـ اختفاء فكرة قتل الإخوة، وإن كانت قد انتهت منذ عام ١٠٠٣ عندما تولّى الحكم محمد الثالث الذي أمر بقتل إخوته التسعة عشر ودفنهم

مع أبيهم، فكانت أكبر مجزرةٍ وآخرها، وكانت الخاتمة ـ ولله الحمد ـ. ولكن خليفته أحمد الأول الذي تولّى الأمر عام ١٠١٢ قد سار على خطة الحجز، إذ حجز أخاه مصطفى الأول ـ وولي عهده ـ في قصره طيلة أيامه، ثم آلت إليه السلطة عام ١٠٢٦، فكان جاهلاً بأمور الدولة فقد عُزل عن الحكم مرتين، وأصبح عزل الإخوة قائماً بدل القتل.

٤ ـ بقي أثر من سيطرة العقلية العسكرية وهو أن قائد الجيش إذا فشل في المعركة، أو لم يُحرز النصر، ثار عليه من ثار، وطالبوا بقتله وغالباً ما يكون مصيره القتل. بحجة أن يكون عبرةً لمن يأتي بعده، وحتى يعلم القائد الجديد أن مصيره القتل إن تراجع، فالإقدام والثبات حتى الموت أفضل من الهزيمة ويعقبها القتل أيضاً. وفي هذا تعسف وظلم، فإن على القائد أن يسعى، ويبذل الجهد، ويثبت في الميدان، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء. فقد هُزم المسلمون مرات ومرات، ولم يُفكر أحد بما يحدث أيام العثمانيين. كما كان الجنود من الإنكشارية يثورون في وجه الخليفة ويطلبون عزله، ويتمّ لهم، أو يطلبون قتل الصدر الأعظم فيقتل إرضاءً لهم.

٥ ـ تمّ القضاء على الإنكشارية في عهد السلطان محمود الثاني، وبذلك انتهت تعدّياتهم على الأهالي، وقتلهم لرجالات الصدارة العظمى، والقادة، وعزل الخلفاء. وأخذت الجيوش النظامية تحلّ محلّهم.

٦ ـ ظهرت الهزيمة النفسية بوضوح، وأصبح تقليد أوربا والسير على منهجها أمراً محموداً يُسعى إليه، ويُفتخر به، وغدا استقدام الضباط للتدريب، وإرسال البعثات للإفادة أمراً قائماً، وكان مما ظهر الفكرة القومية التي مزّقت الدولة ثم قضت عليها نهائياً.

٧ ـ زاد الأثر اليهودي سواء أكان يهود الدونمة الذين اختفوا وسط المجتمع بأسماء إسلامية أم اليهود الذين على دينهم، وقد بذلوا جهدهم وأموالهم، واستخدموا النصارى للوصول إلى أهدافهم وتحقيق غايتهم، وقد أزاحوا من وقف أمامهم وفي مقدمتهم الخليفة عبد الحميد الثاني، وفي النهاية قضوا على الخلافة.

٨ ـ كانت مدة الخلفاء طويلة نسبياً، وقد توالى من الخلفاء في هذا العصر الممتد من عام (١١٧١ ـ ١٣٢٧) ـ أي أكثر من قرن ونصف ـ تسعة خلفاء هم:

١ ـ مصطفى الثالث:

هو ابن أحمد الثالث، ولد عام ١١٢٩، وتولى بعد ابن عمه عثمان الثالث عام ١١٧١، فكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان الصدر الأعظم محمد راغب باشا عضده إذ كان مثالاً للمصلحين، ولكنه توفي عام ١١٧٦.

أرادت الدولة العثمانية أن تُؤدّب روسيا قبل أن يستفحل أمرها، فقد اعتدى القوزاق الذين يتبعون روسيا على الدولة العثمانية في بعض نقاط الحدود، ورأت الدولة أن تُعلن الحرب على روسيا، وبدأت بإغارة خان القرم كريم كراي على بعض الأراضي الروسية فخرّب عدداً من الضياع، وحمل معه كثيراً من الأسرى الروس، وذلك عام ١١٨٢.

وسار أيضاً الصدر الأعظم لفكّ الحصار عن بعض المواقع التي يُطوّقها الروس، ولكنه فشل، فكان جزاؤه القتل، وانطلق خلَفه من بعده فهُزم أيضاً، وهو يجتاز بجيشه نهر الدينستر إذ جاءت في أثناء ذلك موجة من الفيضان فغرق عدد كبير من الجند والمراكب، ورجع من كان على الضفة اليُمنى، وقُتل من كان على الضفة اليسرى وذلك عام ١١٨٣. واحتل الروس بعدها إقليمي الأفلاق والبغدان.

وبدأ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس الذين يعيشون في الدولة العثمانية فقد أثاروا نصارى شبه جزيرة الموره فقاموا بثورةٍ، ودعموهم بأسطولٍ جاء عن طريق الالتفاف حول أوربا، ولكنه هُزم غير أن بعض المراكب الفارة أغارت على الأسطول العثماني وأحرقته، وفكر القائد الروسي في الهجوم على إستانبول غير أنه لم ينجح، كما أن ثورة الموره قد أُطفئت.

وهاجم الروس مدينة طرابزون ولكنهم لم ينجحوا في دخولها، غير أن روسيا قد نجحت في اقتحام بلاد القرم وفصلها عن الدولة العثمانية، وجعلها تحت حماية روسيا، وتعيين (جاهين كراي) خاناً عليها من قبل الإمبراطورة، وذلك عام ١١٨٥، ثم جرت مفاوضات الصلح بوساطة النمسا غير أن روسيا كانت تطلب استقلال تتار القرم، وحرية الملاحة للأسطول الروسي في البحر الأسود والبحار الأخرى التي تُشرف عليها الدولة العثمانية، وحق حماية روسيا للنصارى الأرثوذكس الذين هم في رعاية الدولة العثمانية ففشلت لذلك المفاوضات وعادت الحرب، وانتصر العثمانيون.

وفي الوقت الذي كان الروس يُثيرون النصارى الروم كانوا يُحرّضون أصحاب المصالح والأطماع من الولاة العثمانيين والمتنفذين، وقد استطاع قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن يتصل بالرسل مع علي بك والي مصر الذي كان يتصرّف فيها تصرّف المستقل وأن يُشجّعه على محاربة العثمانيين لمدّ نفوذه في بلاد الشام، وأن يمدّه بالذخائر، وذلك من أجل إحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وطعنها من الخلف، وإمكانية قهرها في الجبهة الروسية، واستجاب علي بك لهذه الآراء وأصغى إليها، أو حرّكت ما كان يجيش في نفسه فسار بجيشه نحو بلاد الشام واحتل غزة، ونابلس، والقدس، ويافا، ودمشق، وبدأ بالتوجه نحو الشمال ليداهم بلاد الأناضول ويتقدّم عندها الروس من جهة الشمال، غير أن محمداً أبا الذهب نائبه في القاهرة قد ثار ضده فاضطر إلى أن يعود إلى مصر، ويقاتل محمداً أبا الذهب لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى ضاهر العمر الذي كان أحد جباة الأموال وقُطّاع الطرق في الوقت نفسه، وتمكّن أن يجعل حوله قوةً تستفيد من اعتداءاتها، ثم استطاع أن يُسيطر على صفد مكان عمله، وأن ينطلق منها إلى الجهات الثانية فدخل عكا وتسلّم ولايتها، واضطر السلطان أن يعترف بذلك لانشغاله بالحروب مع الروس.

وعندما التجأ علي بك إلى ضاهر العمر اتفقا على محاربة العثمانيين،

وقبلا دعم الروس وخدمتهم، وسارا معاً إلى مدينة صيدا لاحتلالها، والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا على جيوش الدولة، وكان الأسطول الروسي في البحر المتوسط يتحرّك مع سيرهما ويدعمهما، ويضرب القوات العثمانية، والمدن الساحلية فقد ألقى قذائفه على مدينة بيروت وخرّب جزءاً منها.

بعد هذا النجاح الذي حققاه، رجع علي بك إلى مصر ليتخلّص من محمد أبي الذهب، ويحمي ظهره قبل أن ينطلق وحليفه ضاهر العمر باتجاه الأناضول. وسار نحو مصر وتحرّك معه أربعمائة جندي روسي وذلك في مطلع عام ١١٨٧، والتقى الطرفان، وانتصر محمد أبو الذهب، ووقع علي بك ومعه أربعة من كبار ضباط الروس أسرى بيد محمد أبي الذهب، وقُتل كل من كان معهم، وتوفي علي بك متأثراً بجراحه، وأرسل رأسه والضباط الروس إلى الوالي العثماني خليل باشا الذي قام بدوره فأرسلهم إلى إستانبول.

وتوفي الخليفة عام ١١٨٧، وتولى مكانه أخوه عبد الحميد الأول.

٢ ـ عبد الحميد الأول:

ولد عام ١١٣٧، وبقي محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث، وتولى الحكم بعد وفاته عام ١١٨٧، وكانت روسيا تستعدّ للأخذ بالثأر، فأرسلت قوةً كبيرةً باتجاه (فارنا) المدينة البلغارية على البحر الأسود، وقد انتصرت على العثمانيين، وتابعت إلى معسكرهم الذي يقوده الصدر الأعظم في الغرب من (فارنا)، فطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتمّ ذلك في مدينة (قينارجة) في بلغاريا عام ١١٨٧ اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وإقليم بسارابيا[١]، ومنطقة قوبان[٢] على أن

(١) بسارابيا: إقليم في رومانيا اليوم في الجزء الشمالي منها، ويمتد حتى سواحل البحر الأسود شمال مصب نهر الدانوب.

(٢) قوبان: إقليم في شمال غربي القفقاس، نسبة إلى نهر قوبان الذي يجري فيه، وأكثر سكانه من الأديغة (الشركس).

تكون الدولة العثمانية المرجع لسكان تلك المناطق في الشؤون الدينية. وتُعطى للسفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود، والمتوسط، وتدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامةً حربيةً مقدارها خمسة عشر ألف كيس على ثلاثة أقساط في مطلع كل عامٍ نصراني، ويكون لروسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية، وتبني كنيسةً في إستانبول.

وبذا حققت روسيا ما تُريد، ولم يبق أمامها سوى الحرب الدائمة مع العثمانيين، ورغم المعاهدة بقيت روسيا تستعدّ وتحرص لضمّ أجزاء إليها من الدولة العثمانية. فقد أشعلت الفتن في بلاد القرم حتى عزل السكان الخان دولت كراي الذي انتخب بمقتضى اتفاقية (قينارجة) واستبدلوه بجاهين كراي المؤيد من قبل روسيا، وانقسم الناس إلى قسمين، وكادت الفتنة تشتعل فأسرعت روسيا واحتلت بلاد القرم، وهبّ الناس في الدولة العثمانية التي كادت تُعلن الحرب من جديد على روسيا لولا نصائح فرنسا التي أظهرت للعثمانيين استعداد الروس وقوتهم، ففضّلت الدولة العثمانية السكوت والاعتراف بالأمر الواقع، وخاصةً أن فرنسا ذكرت أن روسيا والنمسا قد اتفقتا على حرب الدولة العثمانية، واستيلاء روسيا على الأفلاق والبغدان وبسارابيا وإقامة دولةٍ أرثوذكسية في هذه الأقاليم تكون فاصلاً بين روسيا والعثمانيين، وأن تحتل النمسا الصرب والبوسنة والهرسك وساحل دالماسيا، وتُعوض البندقية بأجزاء في اليونان، والمورة، وكريت، وقبرص. وإذا احتل المتحالفون إستانبول أعادوا دولة بيزنطة القديمة.

وكان همّ روسيا إشعال الحرب من جديد لتحقيق المزيد من الانتصارات لذا كانت تتحرّش بالعثمانيين وتُثيرهم، وقامت بتحصين ميناء سيباستيبول، وأنشأت السفن الكثيرة في البحر الأسود، وأدخلت الكرج في حمايتها، وبدأت جواسيسها تكثر في أقاليم الأفلاق، والبغدان، وبلاد اليونان لتُثير الدولة وتدفعها إلى القيام بالحرب، ثم قامت إمبراطورة روسيا القيصرة كاترينا الثانية بزيارة إلى بلاد القرم فاستُقبلت بالحفاوة، وقد كتُب

لها على أقواس النصر الطريق إلى بيزنطة(١)، فعلمت الدولة العثمانية أن روسيا تريد الحرب لذا أرادت أن تبدأ هي بالحرب قبل أن يستعدّ خصومها، ولإيجاد سبب لذلك فقد طلبت من السفير الروسي إبلاغ حكومته عدة طلبات هي:

١ ـ تسليم حاكم الأفلاق الذي أعلن العصيان على الدولة والتجأ إلى روسيا.

٢ ـ التنازل عن حماية بلاد الكرج لأنها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣ ـ عزل القناصل الذين يُثيرون السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانئ البحر الأسود.

٤ ـ من حق الدولة العثمانية تفتيش المراكب الروسية التجارية خوفاً من نقلها الأسلحة.

وقد رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠، وطلب القائد الروسي من الإمبراطورة الانسحاب من بلاد القرم نتيجة عدم الاستعداد، ولكنها رفضت ذلك، وأمرته بالتقدّم، فامتثل، وتمكّن أن يحتل ميناء (أوزي) عام ١٢٠٣، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة

---

(١) من أهم أحلام روسيا سواء القيصرية أم الشيوعية الاستيلاء على إستانبول وإعادة بيزنطة الدولة الرومانية الشرقية حامية مذهب الأرثوذكس، وإن موسكو وريثة القسطنطينية الموقتة. وتدعو إلى هذا الحلم بفكرة مستترة هي الوصول إلى المياه الحرة. وأهم أعداء الروس هو الإسلام إذ أن أهله قد احتلوا روسيا، وهم التتار، وفتحوا القسطنطينية وهم العثمانيون، والعثمانيون والتتار شعب واحد، وصاحب عقيدة واحدة هي الإسلام. ويحاربون التتار باسم التوسع نحو الشرق، تحت شعار التوسع في المناطق المخلخلة سكانياً، على حين أن مناطقهم مزدحمة بالسكان، وكل تقدّم لهم في الشرق إنما هو على حساب المسلمين. وقامت الشيوعية في بلادهم على حرب الأديان، وإن كانت تقصد الإسلام فليست اليهودية، والنصرانية، أو غيرهما على قدم المساواة في الحرب، ليس هناك من حرب لليهود فهم أصحاب نفوذ، ولا للنصارى الأرثوذكس إذ هم قاعدة الوحدة الوطنية التي تقضي أن يكون جميع السكان نصارى أرثوذكس كي تحقق الوحدة الوطنية، وإنما الحرب للإسلام.

العثمانية تضامناً مع الروس، وحاول جوزيف الثاني ابن الإمبراطورة ماريا تيريزا احتلال بلغراد لكنه فشل، وهُزم أمام العثمانيين الذين لاحقوه.

أما ما حدث في بلاد الشام أيام الخليفة عبد الحميد الأول، فقد أمر الخليفة والي مصر محمد أبا الذهب ملاحقة ضاهر العمر فحاصره في عكا، ففرّ إلى جبال صفد، ثم قتل عام ١١٨٨، وتخلّصت منه الدولة.

وتوفي عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وخلفه ابن أخيه، وهو سليم الثالث بن مصطفى الثالث.

٣ ـ سليم الثالث:

وهو ابن الخليفة مصطفى الثالث أول خلفاء هذا العهد، عهد الانحطاط والتراجع، ولد سليم الثالث عام ١١٧٥، تولّى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وكانت المعارك الحربية دائرة، فأعطى وقته وجهده للقتال، غير أن الجند قد ضعفوا، واتحدت الجيوش الروسية والنمساوية فتمكّنت روسيا من الاستيلاء على الأفلاق، والبغدان، وبسارابيا، واستطاعت النمسا احتلال بلاد الصرب، ودخلت بلغراد.

غير أن اتفاق الروس والنمساويين لم يطل إذ انصرف إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني الذي خلف جوزيف الثاني في هذا الوقت إلى الثورة الفرنسية وما حدث نتيجة ذلك من قتل الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا، وخوف إمبراطور النمسا من امتداد الثورة نحو بلاده، وقد حرص على مصالحة الدولة العثمانية لذلك، ونتيجة الصلح أعيد للدولة بلاد الصرب وبلغراد. وكان هذا لا شك في صالح العثمانيين، وتمّ عام ١٢٠٥.

أما روسيا فقد استمرت بالحرب، واستولت على بعض المدن فارتكبت من الجرائم ما لا يوصف. ثم توسطت إنكلترا، وهولندا، وبروسيا للصلح بين الطرفين خوفاً على مصالحهم فكانت معاهدة (ياسي) عام ١٢٠٦، أخذت روسيا بموجبها بلاد القرم نهائياً، وبسارابيا، وجزءاً من بلاد الشراكسة، والمنطقة الواقعة بين نهري (بوغ) و(دينستر)، وأصبح هذا النهر الأخير فاصلاً بين الدولتين، كما تنازلت الدولة العثمانية عن مدينة (أوزي).

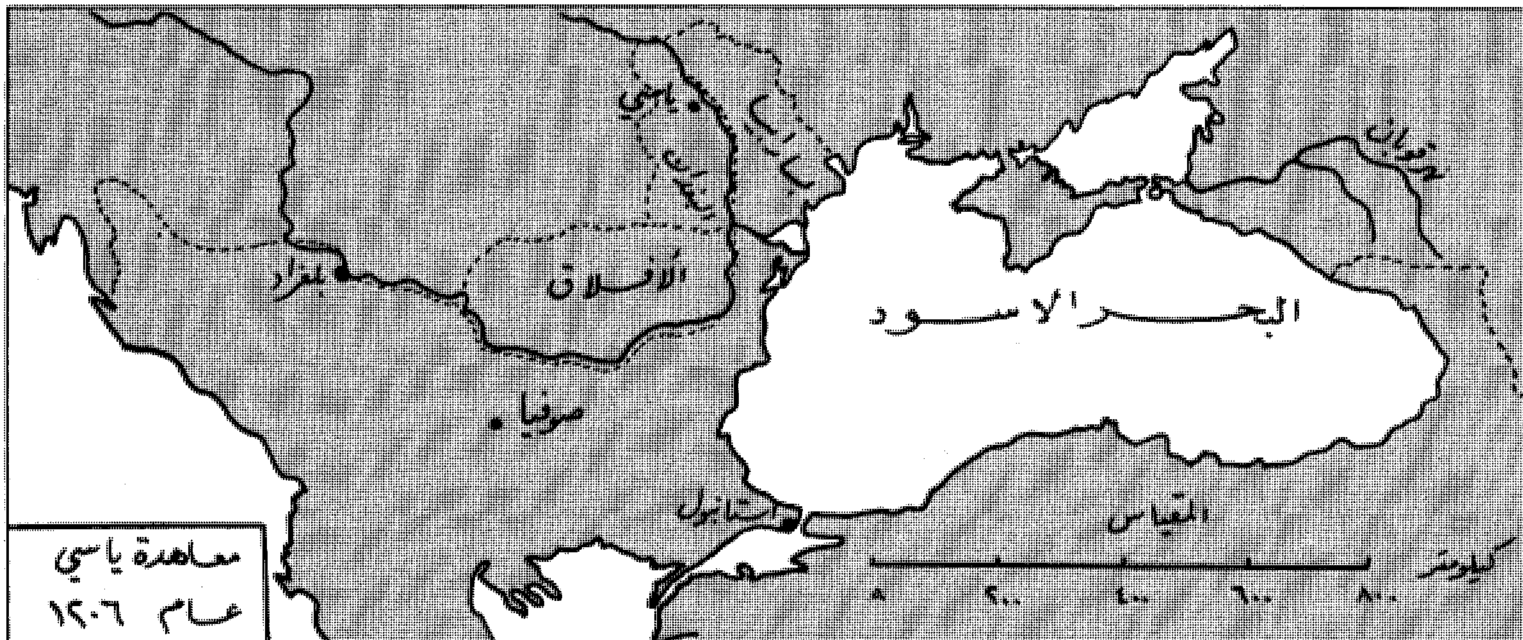
معاهدة ياسي
عام ١٢٠٦
ياسي
الأفلاق
بلغراد
صوفيا
استانبول
البحر الاسود
المقياس
كيلومتر
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠

مصور رقم [١٨]

وبعد هدوء القتال على الجبهات انصرف الخليفة للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجند النظامية للتخلّص من الإنكشارية الذين غدوا سبب كل فتنة، واتجه نحو تقليد أوربا التي تجاوزتهم كثيراً، فأصبح إنشاء السفن على طريقة إنشاء السفن الأوربية وخاصةً فرنسا، وصبّ المدافع على أيدي رجال من السويد، وترجم كتب الرياضيات والفن العسكري.

وفي عام ١٢١٣ دخل نابليون بونابرت مصر، وانتصر على المماليك، فبدأت الدولة العثمانية تستعد لقتال الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وكانت روسيا والنمسا مشغولتين بالثورة الفرنسية وما يمكن أن تجرّه عليهما، وقد عرضت إنكلترا على الدولة العثمانية مساعدتها خوفاً على مصالحها في الهند، فوافقت على المساعدة، وكذلك عرضت روسيا دعمها حربياً فوافقت، وانتقلت السفن الروسية من البحر الأسود إلى البحر المتوسط، وعزم نابليون على ضرب القوات العثمانية قبل أن تستكمل استعداداتها، وقرر أن يحتل بلاد الشام، فسار إليها، وفشل في اقتحام عكا لقوة حصونها، وتشبُث واليها أحمد الجزار، ودعم الأسطول الإنكليزي من جهة البحر، غير أنه انتصر على القوة العثمانية عند جبل طابور قرب الناصرة. ثم تراجع عن عكا، وعاد إلى مصر، وهرب إلى فرنسا، وقُتل خليفته كليبر عام ١٢١٥ على يد سليمان الحلبي، وقامت الثورات في وجه الفرنسيين، وكانت انطلاقاتها من الجامع الأزهر، ونزل العثمانيون ومعهم قوة إنكليزية إلى أرض مصر، ووصلوا إلى القاهرة، واضطر الفرنسيون أخيراً إلى الانسحاب من مصر بعد اتفاق العريش عام ١٢١٦.

وعاد نابليون بونابرت يفاوض الدولة العثمانية لتحسين العلاقات بين الدولتين، وإعادة التفاهم بينهما وتمّ ذلك عام ١٢١٦ على أساس إخلاء فرنسا لمصر، وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الدولة العثمانية، كما اتفقت فرنسا وإنكلترا بمصالحة أميان عام ١٢١٧ خرجت إنكلترا بموجبها من مصر، وأصبح لفرنسا حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بروسيا، وأُقيمت في اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الدولة العثمانية، وذلك بالاتفاق

مع روسيا، وأُعيد لفرنسا ما صودر لها من أملاك في الدولة العثمانية وعادت لها امتيازاتها.

وبدأ في الدولة العثمانية تنظيم الفرق العسكرية النظامية، وعمل الإنكشارية على إلغائها، وفصل الخليفة المدفعية والبحرية عن الإنكشارية.

وذكرنا أن العلاقات قد تحسّنت بين الدولة العثمانية وفرنسا، وأرسل نابليون بونابرت مندوباً له إلى إستانبول لتأكيد ذلك. وعزل الخليفة أميري الأفلاق والبغدان من منصبيهما، وكانا مؤيدين من قبل روسيا فثارت ثائرة روسيا، وأرسلت جيوشها لاحتلال الإقليمين دون إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وتضامنت إنكلترا مع روسيا، وأرسلت قطعات بحريةٍ إلى مضيق الدردنيل، وطلبت من الخليفة أن يقوم حلف بين إنكلترا والدولة العثمانية، وأن تسلّم الدولة الأسطول وقلاع مضيق الدردنيل إلى إنكلترا، وأن تتنازل عن إقليمي الأفلاق والبغدان لروسيا، وأن تُعلن الحرب على فرنسا، رفضت الدولة العثمانية اقتراحات إنكلترا فاجتازت القطعات الحربية مضيق الدردنيل بسهولة وساد الأهالي الخوف، ورأى الخليفة أن يقبل طلبات إنكلترا غير أن مندوب فرنسا الذي أُبلغ بالخروج من إستانبول قابل الخليفة وعرض عليه دعم فرنسا، واستقدام الأسطول الفرنسي، وعدم التنازل لإنكلترا، وخطر ذلك، ووافق الخليفة وبدأ الاستعداد لتحصين العاصمة ومضيق الدردنيل ودعم الفرنسيون ذلك، واضطرت القطعات البحرية الإنكليزية للخروج من الدردنيل خوفاً من الحصار في بحر مرمرة، غير أن هذه الهزيمة قد جعلت القائد الإنكليزي يريد أن يمحو ما فشل فيه فأرسل حملةً بقيادة فريزر إلى الإسكندرية، واحتلها في مطلع عام ١٢٢٢، وأرسل فرقةً إلى ثغر رشيد لكنها هُزمت، وأعاد الكرة بعد أشهر فكان مصيره كالمرة السابقة، وجاء محمد علي للدفاع عنها، واضطر الإنكليز للرحيل عن مصر بعد دخولهم بستة أشهر.

وجاء محمد علي إلى مصر مع الجنود الذين جاؤوا لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بعد مناورات مع المماليك، والولاة، والعثمانيين، والأهالي

أن يتوصل إلى ولاية مصر في ١٠ ربيع الثاني من عام ١٢٢٠. وعندما حاول الإنكليز لدى الدولة العثمانية عزله أو نقله تمسّك به العلماء والقادة، فصدر أمر بتثبيته عام ١٢٢١، ثم ضرب العلماء بعضهم ببعض، وتخلّص من المماليك في حادثة القلعة عام ١٢٢٦، وصفا له الجو، وتفرّد بالحكم.

وثار الجنود غير النظاميين، وأيدتهم الإنكشارية فقتلوا المؤيدين للنظام العسكري الجديد، واضطر الخليفة أن يصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، ولكن لم يقبل الثائرون بهذا، بل قرروا عزل الخليفة، فنودي بعزله في ٢١ ربيع الثاني عام ١٢٢٢، وبقي معزولاً مدة عام وشهر تقريباً، وتوفي بعدها.

٤ ـ مصطفى الرابع:

هو ابن عبد الحميد الأول، ولد عام ١١٩٣، تولّى بعد عزل ابن عمه سليم الثالث، وأصبح يتحرك بأيدي قادة الثورة، إذ عيّن زعيم الحركة (قباقجي أوغلي) حاكماً لقلاع البوسفور. وانتصر أعداء النظام العسكري الجديد حتى أن الإنكشارية قتلوا الصدر الأعظم القائد للجيوش التي تُقاتل روسيا. وكانت روسيا آنذاك في حربٍ مع نابليون وقد هُزمت جيوشها أمامه. إلا أن الصلح قد تمّ بين فرنسا وروسيا، وتوسّطت فرنسا بين الدولة العثمانية وروسيا في إنهاء الحرب بينهما على أن تتخلّى روسيا عن الأفلاق والبغدان دون أن تدخلهما جيوش الدولة العثمانية، فإن رفضت الدولة العثمانية اتفقت فرنسا وروسيا وأرضتا النمسا بسلخ الولايات العثمانية في أوربا وتقسيمها فيما بينها. ووافق الطرفان على مقترحات نابليون ولكن لم تتخل روسيا عن الأفلاق والبغدان، ومع ذلك توقّفت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا مدة سنتين اثنتين.

أما في الداخل فقد اختلف زعماء الحركة التي أطاحت بالخليفة سليم الثالث، وقُتل (قباقجي أوغلي)، وطلب من تسلّم الحركة أن يُعاد الخليفة سليم الثالث، إلا أنه كان قد توفي يومذاك. غير أن الخليفة مصطفى قد

قتل هذا الزعيم وأعلم جنده أن سليم الثالث قد توفي، فنادوا بعزله وحجزه مكان سليم الثالث، وأُقيم بعده أخوه محمود الثاني عام ١٢٢٣.

٥ ـ محمود الثاني:

ولد عام ١١٩٩، وتسلّم الخلافة وعمره أربع وعشرون سنة، فقلّد مصطفى البيرقدار منصب الصدارة العظمى، وطلب منه إصلاح نظام الإنكشارية فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف، وأرادوا إعادة الخليفة مصطفى الرابع المعزول، فقُتل، وأُلقيت جثته إليهم، وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه وهو في داخله. واصطدم أنصاره بالإنكشارية، وكادوا أن يُحرزوا النصر عليهم ويُبيدوهم بموافقة الخليفة لولا أنهم أضرموا النار في المدينة، فاضطر الخليفة إلى إمهالهم، واستجاب لطلباتهم آنياً.

عقد محمود الثاني صلحاً مع إنكلترا عام ١٢٢٤. وحاول أيضاً مع روسيا ولكن لم يتمّ الاتفاق، واشتعلت نار الحرب، وهُزم العثمانيون بقيادة ضياء يوسف باشا الصدر الأعظم، واستولى الروس على بعض المواقع، وعُزل الصدر الأعظم وتولّى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها، ثم عاودوا الكرة فانتصروا. وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعُقدت بين الطرفين معاهدة بخارست التي نصّت على بقاء الأفلاق، والبغدان، وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية، وبسارابيا لروسيا. وهذا ما فسح المجال لروسيا أن تسحب جيوشها من الجبهة العثمانية وتزجّ بها في مقاومة نابليون بونابرت الذي جاءها غازياً، ولما انتصرت عليه عدّ هذا خيانةً من الدولة العثمانية له.

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفرّ زعماء الحركة إلى النمسا لكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين، وبقي يعمل سرّاً ضدهم حتى إذا تشبّع الناس بما يُثيره فيهم من روح الثورة

أعلن العصيان عام ١٢٣٠، وبعد معارك دامت سنتين بينه وبين العثمانيين وكانت سجالاً بين الطرفين وافق على الخضوع لسلطان الدولة العثمانية دون التدخل في شؤون الصرب الداخلية، وعلى أن تبقى وظيفة الوالي للعثمانيين الذين يسيطرون على القلاع والحصون، وذلك عام ١٢٣٢، وتمكّن من قتل قره جورج الذي كان قد فرّ إلى روسيا، وعاد إلى البلاد مختفياً، وأرسل رأسه إلى إستانبول إشارةً إلى الطاعة في حين أنه كان سيّد البلاد، ويتصرف دون مشورة الوالي، وكأنه ملك متوج.

القتال في جزيرة العرب:

مع التخلّف الذي آلت إليه الدولة العثمانية، والنهضة التي بدأت تظهر في أوربا، ومع الهزيمة النفسية التي وجدت في أجزاء الدولة العثمانية كلها بل في الأمصار الإسلامية جميعها كان لا بدّ من أن ينشأ اتجاهان في بلاد المسلمين، أحدهما يرى أن النهوض والقوة لا يتمّان إلا بتقليد أوربا والسير على خطاها شبراً بشبر، وقد استطاع أحد أصحاب هذا الرأي من السيطرة على مصر، واستلام ولايتها، والسير في هذا الاتجاه، أو كما يعتقد، إذ بدأ يرسل البعثات إلى أوربا وخاصةً إلى فرنسا، وإن أوربا عامةً تُؤيّد هذا الاتجاه وتُشجّعه حيث ترى فيه امتداداً لأفكارها خارج نطاق دولها، وبُعداً عن عقيدة المسلمين التي هي سبب قوتهم ودوام عزّهم، فإذا أبعدت أهلها عنها فإنما تكون قد حصلت على أكبر غنم، إذ تُضعف المسلمين دون خسارة شيء، ومع حمل المسلمين لأفكار أوربا فإنهم مع الزمن يذوبون في مجتمعها، وينصهرون في بوتقتها، ويتعلّمون لغتها، ويتركون لغتهم فيزيدون بُعداً عن دينهم إذ أن المصدر الرئيسي لهم وهو القرآن الكريم إنما هو باللغة العربية فإذا جهلوه مع تعلّم لغات أوربا زاد ابتعادهم عن دينهم، لذا كانت أوربا عامةً مسرورةً من محمد علي وتُثني عليه في كتبها، وهذا ما أخذناه عنها أو من جملة ما أخذنا.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فيرون أن التخلّف القائم في بلادنا إنما

يعود إلى جهلنا بأمور ديننا الذي يحثّنا على العلم، ويدعونا إلى التفكير، ويُبعدنا عن الخرافات، ويُحرّرنا من الأوهام، ويأمرنا بالاستعداد للعدو بكل إمكاناتنا وطاقاتنا بمختلف الاستعدادات وأنواع القوة، ويُحرّم علينا الظلم، ويرون أن ما هو قائم في بلادنا، وما اعتاد عليه الناس، ويفعلونه أحياناً باسم الدين، وهو بالأصل محرّم في الإسلام، ومرفوض، وقد بدأ بعض أصحاب هذا الاتجاه من أهل العلم ينتقدون ما آل إليه المسلمون، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي نشأ في وسط بلاد العرب، في نجد، حيث شاعت الخرافات كثيراً، ودخل على الدين ما ليس منه، ولم يأت الشيخ محمد بن عبد الوهاب بجديد، وإنما دعا إلى تطبيق الإسلام الصحيح، واتباع العقيدة بشكلٍ سليم، وظنّ بعض الناس الذين اعتادوا على الخرافات والبدع أن ما يقومون به إنما هو من الدين، لذا ظنّوا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أحدث أمراً جديداً، فأنكروا عليه وقاوموه جهلاً وبغياً.

وليست هذه المقاومة من جهةٍ واحدةٍ أو من طرفٍ معينٍ بل من الجهات كلها ومن الأطراف كلها. أتت المقاومة من قبل المشايخ الذين يريدون أن يتمسّكوا بنفوذهم الذي يُعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانّين أنها من الدين. وأتت من الناس الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بجديد يخالف ما اعتادوا عليه، وهؤلاء وأولئك منتشرون بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل في العالم الإسلامي أجمع، ويُشكّلون الأغلبية العظمى. وأتت المقاومة من أصحاب السلطة في الدولة الذين يريدون أن يُحافظوا على سلطانهم وملكهم، وأفتى لهم علماء السوء بسوء ما يدعو إليه الشيخ وفساد عقيدته، وهم على جهل أيضاً، وجاءت بشكل طبيعي من قِبَل الذين يريدون تقليد أوربا والسير على منهجها ويُمثّل هؤلاء محمد علي باشا والي مصر وصاحب السلطان، وصاحب القوة الكبيرة. ولا شك فإن أوربا التي بدأ نفوذها يقوى في الدولة العثمانية، ولها تأثير على محمد علي باشا والي

مصر، تُعادي هذا الاتجاه وترى فيه خطراً كبيراً عليها، حيث ترى فيه إحياء لفكرة الجهاد التي ترفع الروح المعنوية لدى المسلمين فإذا ما قُدّر لهذا الاتجاه الامتداد والتوسع فإن أوربا تضيع مع عودة الحياة إلى الدولة الإسلامية لذ يجب القضاء عليه، وعملت سرّاً كي تقضي الدولة العثمانية عليه، وتساعدها على ذلك بتوقيف القتال على جبهاتها في هذه المرحلة.

وكان ضعف الدولة الذي آلت إليه، وضعف جيوشها التي كانت تُواصل القتال على مختلف الجبهات يحول دون إمكانات إرسال قوةٍ تقضي على هذا الاتجاه في تلك الديار النائية، وسط القفار والمفازات، وكانت قوة محمد علي باشا واليها على مصر لا تزال فتيةً، ومُدرّبة لم تدخل المعارك بعد، لذا فقد أوكلت إليه مهمة القضاء على هذه الحركة عام ١٢٢٢.

وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد سار إلى الدرعية التي يحكمها محمد بن سعود بعد أن خذله قومه في بلده العيينة والمناطق التي انتقل إليها، واتفقا على العمل معاً عام ١١٥٧، وامتد نفوذهما كثيراً حتى شمل أكثر أجزاء الجزيرة، وقامت الدولة، وتولى عليها بعد محمد بن سعود ولده عبد العزيز، ثم سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد، وهو الذي بلغت الدولة في أيامه الأوج إذ وصلت إلى كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت له الجزيرة كاملةً باستثناء اليمن.

قبل والي مصر محمد علي باشا القيام بمهمة قتال الدولة السعودية، ورأى أن الانتقال إلى الجزيرة براً أمر صعب لسيطرة السعوديين على شمال الجزيرة وتركزهم على الطرق الرئيسية، وعمل على الانتقال بحراً، فبنى المراكب اللازمة له في بولاق، ونقلها إلى السويس على الجمال، وعليها نقل جنده إلى ميناء ينبع في غرب المدينة المنورة، وقبل أن يسافر جنده تخلّص من منافسيه المماليك إذ خشي أن ينقضّوا عليه بعد مسير عساكره، فأبادهم في حفلة دعاهم إليها في القلعة بمناسبة سفر ابنه على رأس الجيش المنطلق إلى الجزيرة يوم الجمعة ٥ صفر عام ١٢٢٦.

استطاع طوسون بن محمد علي باشا أن يدخل المدينة، وكتب إلى والده بذلك، ثم حوصر طوسون في الطائف وجاء محمد علي باشا بنفسه إلى مكة، وخلع الشريف غالب، وأقام مكانه يحيى بن سرور. وأحرز بعض الانتصارات وضعف مركز الدولة السعودية، وتوفي سعود الكبير، وخلفه ابنه عبد الله عام ١٢٢٩.

وسار طوسون باتجاه نجد، واحتلّ بلدة الرسّ في القصيم، وأرسل إليه عبد الله بن مسعود من يفاوضه للصلح والخضوع للدولة العثمانية، فوافق بعد سفر والده الذي لم يستطع أن يأخذ رأيه، وتمّ الصلح، وأرسل إلى والده بضرورة سفر عبد الله بن سعود إلى إستانبول، وإن لم يوافق يتابع طوسون سيره إلى الدرعية قاعدة الدولة السعودية.

ووصل خبر إلى طوسون مفاده أن تمرداً قام في القاهرة ضد والده، فترك جيشه في الجزيرة بإمرة أحد قادته، وسافر إلى القاهرة عام ١٢٣٠.

وهدأ الوضع في القاهرة فأرسل محمد علي باشا حملةً جديدةً إلى الجزيرة بقيادة أكبر أولاده وهو إبراهيم ومعه بعض المستشارين الفرنسيين، ووصل إلى الدرعية، وطلب عبد الله بن سعود الصلح في ٧ ذي القعدة عام ١٢٣٣، فتمّ بعد تسليم الدرعية، ووافق عبد الله على السفر إلى إستانبول عن طريق القاهرة، فوصل إلى القاهرة ١٧ محرم ١٢٣٤، وقابل هناك محمد علي، وسافر بعد يومين إلى إستانبول حيث قُتل بعد وصوله إليها بقليل، ولم يف السلطان بوعده. ورجع إبراهيم من الجزيرة في ٢١ صفر عام ١٢٣٥.

ثورة اليونان:

فُتن أهالي البلاد التي دخلها العثمانيون بالتقدّم الذي تمّ في أوربا، فأراد بعضهم السير على منهجها، ومن هؤلاء لا شك النصارى الذين يأتون في مقدمة المفتونين ناهيك عن المسلمين، وبدؤوا يرسلون أبناءهم إلى أوربا للتعلّم، وكان من أخطاء العثمانيين ترك أهالي البلاد التي يدخلونها على ما

هم عليه من العقائد، واللغة، والعادات ويكتفون بأخذ الخراج منهم، ومعنى ذلك أن تبقى الروابط بينهم وبين دول أوربا قوية، فأسس اليونانيون جمعيات سرية لهم في النمسا وروسيا وبدؤوا يعملون للانفصال عن العثمانيين لاختلاف الرابطة الأساسية بين الطرفين ألا وهي العقيدة. وكانت مراكز جمعية الأخوة أهم هذه الجمعيات في ڤيينا عاصمة النمسا، وفي أوديسا في روسيا على البحر الأسود ثم انتقل مركزها إلى كييف قاعدة أوكرانيا الروسية. وكثر أعضاء هذه الجمعية، واستغلّوا انشغال الدولة بقتال علي باشا، وبدؤوا بالحركة، وما أن قضى خورشيد باشا على علي باشا والي (يانية) حتى أعلنوا العصيان بتحريض من الروس بالدرجة الأولى. فكلّف خورشيد باشا بإخضاعهم فسار إليهم فانتصروا عليه، وشتّتوا جنده، وانتحر هو بالسمّ في نهاية عام ١٢٣٧.

كلّف الخليفة محمود الثاني محمد علي باشا والي مصر بإخضاع اليونان، وكان قد انتهى من فتح السودان. وأصدر أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على شبه جزيرة المورة من بلا اليونان، وجزيرة كريت، وهاتان المنطقتان مركز الثورة اليونانية، وهذا إضافةً إلى ما تحت يد محمد علي باشا من أراضٍ.

سارت جيوش محمد علي باشا بحراً من الإسكندرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا ومساعدة مستشاره سليمان الفرنساوي عام ١٢٣٩، إلى رودوس ومنها إلى جزيرة كريت، فاحتلها، وانطلق إلى شبه جزيرة المورة التي كانت الثورة قد ألهبت نارها شبه الجزيرة كلها، وسيطرت عليها سوى مينائين، فأنزل إبراهيم باشا جنوده بصعوبةٍ كبيرةٍ، حيث كانت أوربا كلها من خلف ثورة اليونان تحركها ضد المسلمين العثمانيين بدافعٍ صليبيٍّ، حيث تأسست جمعيات في أوربا باسم جمعيات محبي اليونان، وتُرسل هذه الجمعيات المال والسلاح لليونان لتُقاتل المسلمين، كما تطوّعت أعداد كبيرة من أعضاء هذه الجمعيات للقتال في بلاد اليونان، ومن هؤلاء واشنطون ابن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، والشاعر الإنكليزي اللورد بيرون وأمثالهم كثير. . . ووُضعت القصائد الحماسية.

استطاع إبراهيم باشا أن يُحرز النصر، وأن يفتح مدينة نافارين عام ١٢٤٠، وأن يدخل العثمانيون أثينا عام ١٢٤١ رغم دفاع القائد الإنكليزي البحري اللورد كوشران. ثم تدخلت الدول الأوربية باسم حماية اليونان ظاهراً وبحقدٍ صليبيٍّ واضحٍ، إذ كانت روسيا تدعم الحركة اليونانية علناً، وتأوي اللاجئين إليها، وقدَ رأت أن الفرصة مناسبة جداً لدخول إستانبول وإعادتها إلى عهدها السابق «القسطنطينية مركز الأرثوذكس». ووقفت إنكلترا بجانب روسيا، وعقد الصلح مع الدولة العثمانية، وهو معاهدة «آق كرمان» في ٢٨ صفر عام ١٢٤٢، وأهم ما جاء فيه: يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود، ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، وتنتخب حكام مقاطعتي الأفلاق والبغدان، ولا يحقّ للدولة العثمانية عزل أحدهما أو كلاهما إلا بموافقة روسيا. وأن تصبح ولاية الصرب مستقلةً، وتحتفظ الدولة العثمانية بثلاث قلاع فيها فقط من بينها بلغراد، ووافقت كل من النمسا، وبروسيا، وفرنسا أيضاً على هذه المعاهدة، ورغم أنها عقدت بسبب الثورة في اليونان إلا أنها لم تذكر شيئاً عنها.

تجدّد القتال:

طلبت إنكلترا من الدولة العثمانية في ٨ رجب عام ١٢٤٢ أن تتوسّط الدول الأوربية النصرانية بين الدولة العثمانية وبين ما يتبعها، فرفضت الدولة العثمانية ذلك لأن هذا تدخّل صريح في شؤونها الداخلية، فكان هذا الرفض حجةً تذرّعت بها لإعلان الحرب مرةً أخرى، بعد أن أضعفت الدولة سياسياً، وخسرت مناطق من أملاكها في معاهدة آق كرمان، والطلب الإنكليزي ما كان إلا مبرراً أو إيجاد مبرر لإعادة القتال، واتفقت روسيا، وفرنسا، وانكلترا في ١١ ذي الحجة على إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، على أن تدفع جزيةً سنويةً يتفق عليها الطرفان، وأُعطي الخليفة مدة شهر لإيقاف الأعمال العدوانية ضد اليونان، وإذا عجز عن ذلك أو رفض فإن الدول النصرانية تتخذ ما تراه مناسباً، ولم يعمل الخليفة أي عمل بهذا الخصوص، وبعد شهر أمرت الدول الثلاث روسيا، وفرنسا،

وإنكلترا أساطيلها بالتوجّه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأنه يتلقّى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقّف عشرين يوماً عن القتال ريثما تصل إليه التعليمات من المسؤولين عنه، واجتمعت أساطيل الدول الأوربية في ميناء نافارين محيطةً القوات الأوربية، فدُمر الأسطول العثماني، وأكثر الأسطول المصري، وقُتل ما يزيد على ثلاثين ألف جندي مصري، واحتجّ الخليفة فلم ينفعه احتجاجه فأعلن أن القتال دينياً لا سياسياً في منشور أصدره للمواطنين ودعاهم فيه للدفاع عن عقيدتهم، وخصّ بذلك روسيا التي تأثّرت من ذلك، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال عام ١٢٤٣.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ذلك أمر ولده بالانسحاب من اليونان بجنده، وترك قوةٍ بسيطةٍ في المدن التي لا تزال بيده حتى يتسلّمها العثمانيون. وكان الفرنسيون يحلّون محل الجنود المصريين المنسحبين. وعقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن، ودُعيت إليه الدولة العثمانية فرفضت الحضور، وقرر المؤتمر إعلان استقلال اليونان، وحكمها من قبل حاكم نصرانيٍّ، تنتخبه هذه الدول، ويكون تحت حمايتها، وتدفع جزيةً سنويةً للدولة العثمانية مقدارها خمسمائة ألف قرش، ولكن الدولة رفضت هذا المؤتمر وقراراته التي تتعلق بالدولة ورعاياها، ولا يحق لأحدٍ أن يُصدر قرارات بشأنها أو تتعلق فيها. وانصرفت الدولة إلى قتال روسيا التي أعلنت الحرب عليها.

الحرب مع روسيا:

بعد أن أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية اجتازت جيوشها نهر (بروت) الفاصل بين الدولتين والذي يرفد نهر الدانوب قرب مصبه، واحتلت عاصمة إقليم البغدان (ياش) الواقعة على النهر، ثم دخلت (بخارست) عاصمة الأفلاق، وجعلت على الإقليمين حكّاماً من قبلها. ثم

اجتازت نهر الدانوب، واتجهت جيوشها لحصار مدينة (فارنا) الواقعة في بلغاريا على ساحل البحر الأسود، وحاصرتها براً وبحراً، وجاءت إليها الإمدادات براً وبحراً، ولكن سُلّمت في النهاية خيانةً بعدما يئس الروس من دخولها، وكان تسليمها في أول ربيع الثاني عام ١٢٤٤ على يد يوسف باشا أحد القادة العثمانيين والذي التجأ أيضاً إلى بلاد الروس. وكذلك احتلت روسيا مدينة (قارص) في شرق الأناضول، ثم تقدّمت من جهة الغرب، واحتلت مدينة (أدرنة)، وخافت فرنسا وإنكلترا من أن تحتلّ روسيا إستانبول فإن ذلك يُهدد مصالحهما الخاصة فسارعتا للوقوف في وجه روسيا، وبجهود مملكة بروسيا عُقدت معاهدة أدرنة عام ١٢٤٥ في منتصف شهر ربيع الأوّل، ومن أهم ما جاء فيها.

١ ـ إعادة الأفلاق، والبغدان، ودوبروجه، والبلغار، والبلقان، وقارص، وأرضروم إلى الدولة العثمانية.

٢ ـ يُعَد نهر (بروت) الحدّ الفاصل بين الدولتين.

٣ ـ تكون الملاحة في نهر الدانوب عند مصبه من حق الدولتين.

٤ ـ حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود.

٥ ـ لا تُفتش السفن الروسية أثناء عبورها للمضائق العثمانية.

٦ ـ تعوّض الدولة العثمانية لروسيا مبالغ كمصاريف حرب.

٧ ـ يطلق سراح الأسرى الذين عند الدولتين.

٨ ـ تستقل بلاد الصرب، وتُعطى ما بقي من أجزائها تحت حكم الدولة العثمانية.

٩ ـ تُعاد الامتيازات القنصلية الروسية، ورعايا روسيا لهم المعاملة نفسها التي لرعايا الدول الأوربية الأخرى، وكذا الامتيازات.

إلغاء نظام الإنكشارية:

تضايق الخليفة محمود الثاني من الأوضاع التي آلت إليها الإنكشارية

والتصرّفات التي تقوم بها، وأعجب بالأنظمة العسكرية الحديثة، وسُرّ بالجنود المصرية في حرب اليونان لذا فقد قرر إلغاء نظام الإنكشارية، فدعا كبار الدولة، وكبار ضباط الإنكشارية إلى بيت المفتي، وتكلم الصدر الأعظم سليم محمد باشا، وشرح المواقف، فأبدى الجميع تأييدهم، إلا أن الإنكشارية قرروا العصيان، واستعدوا لذلك، واجتمعوا في ساحة (آت ميدان) فأحاطت بهم المدفعية وحصدتهم في يوم ٩ ذي القعدة عام ١٢٤٠، وفي اليوم التالي أصدر الخليفة قراراً بمنع هذا النظام، وبدأ بتنظيم جديدٍ للجنود على الطريقة الأوربية مستفيداً من المدربين الأجانب، وسار بالبلاد مجارياً أوربا، فتزيّا بالزي الغربي، وأدخل ذلك على الجيش والحياة المدنية معاً، واستبدال العمامة ووضع الطربوش.

احتلال فرنسا للجزائر:

كانت فرنسا تطمع باحتلال أجزاء من ساحل بلاد المغرب لتكون قواعد لها، وكانت تدّعي دائماً بتعدّي قراصنة بلاد المغرب على سفنها، وقد قررت الاحتلال فكانت تفتش عن ذريعةٍ لاختلافها مع والي الجزائر الباي حسين. ولحادثةٍ بسيطةٍ قررت الحرب، وأمر الملك الفرنسي بضرورة احتلال إقليم الجزائر وذلك في ١٣ شعبان عام ١٢٤٥، فأرسلت الحكومة الفرنسية جيشاً من ٢٨ ألف مقاتل، وأسطولاً يضم مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل ٢٧ ألف جندي بحري، وأُنزلت بالقرب من مدينة الجزائر. وبعد قتالٍ عنيفٍ دخلوا مدينة الجزائر، وقامت المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائري حتى استسلم في ٢٤ رجب ١٢٦٣، وسيطرت فرنسا على الإقليم، وإن بقيت المقاومة عنيفةً، وتظهر بين الآونة والأخرى.

وكانت إنكلترا قد خشيت من هذا العمل الفرنسي خوفاً من منافستها، وطلبت من الدولة العثمانية أن تأمر واليها بالتساهل مع فرنسا وإرضائها كي يفشل مخططها، فأرسل مندوباً لذلك، لكن قبض عليه، وأخذ أسيراً حيث بقي في السجن، حتى أنهت فرنسا مهمتها.

دخول محمد علي باشا بلاد الشام:

كان محمد علي باشا يطمع في توسعة أملاكه، ويرغب في ضمّ بلاد الشام إليه، ولما فرّت أعداد من مصر إلى الشام، والتجؤوا إلى والي عكا عبد الله باشا الجزّار هرباً من الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم محمد علي باشا في مصر، ورفض الجزار إعادتهم. لذا جهز محمد علي جيشاً برياً وآخر بحرياً بإمرة ابنه إبراهيم باشا وسيره إلى بلاد الشام، وسارت الحملة في ٢٦ جمادى الأولى عام ١٢٤٧ عن طريق البحر، أما البرية فقد سبقتها واحتلت غزة، ويافا، والقدس، ونابلس، والتقتا في حيفا، ثم سار إبراهيم وحاصر عكا براً وبحراً.

كلّف الخليفة عامله على حلب عثمان باشا بقتال إبراهيم باشا فسار إليه فترك إبراهيم حصار عكا لقوةٍ صغيرةٍ، وسار لملاقاة عثمان باشا، فالتقيا قرب حمص فهُزم عثمان باشا، ورجع القهقرى، وعاد إبراهيم باشا فشدّد الحصار على عكا ودخلها، وانطلق بعدها متجهاً نحو الشمال.

سيّر الخليفة لقتال إبراهيم باشا القائد حسين باشا الذي انهزمت مقدمته أمام المصريين الذين دخلوا حلب، وتراجع حسين باشا حتى تحصّن في ممر بيلان الذي يُعدّ الطريق الطبيعي من وإلى الأناضول. فانتصر المصريون، وجهز الخليفة جيشاً آخر بقيادة رشيد باشا الذي التقى مع إبراهيم باشا قرب قونية بعد أن اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس واحتل أضنه، وانتصر إبراهيم باشا، وأخذ القائد العثماني أسيراً، وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحةً أمامه. وخشيت الدول الأوربية من سيطرة محمد علي باشا على الدولة العثمانية وإحيائها من جديد، ودبّ روح الحياة فيها، وكانت أكثر الدول خوفاً هي روسيا التي عرضت على الخليفة دعمه، وأرسلت ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول، فخافت إنكلترا وفرنسا من التدخل الروسي، وطلبت من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي باشا.

معاهدة كوتاهية:

اتفقت الدولة العثمانية ومحمد علي باشا واليها على مصر في عام ١٢٤٨ في كوتاهية على النقاط التالية:

١ ـ أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.

٢ ـ يُعطى محمد علي ولاية مصر مدة حياته.

٣ ـ يُعيّن محمد علي والياً من قبله على ولايات الشام الأربع (عكا، وطرابلس، ودمشق، وحلب) وعلى جزيرة كريت.

٤ ـ يُعين إبراهيم بن محمد علي والياً على إقليم أضنه، وهو الإقليم المتاخم للأناضول.

ويبدو أن السلطان وافق مرحلياً على هذه النقاط ليستعدّ للحرب ثانيةً، ويُنقذ موقفه من تعديات واليه على مصر. وكذلك كانت موافقة محمد علي مرحليةً خوفاً من تدخل الدول وإجباره على التراجع وهو يريد الانفصال التام. وفي هذه الأثناء أصدر الخليفة بعض التعليمات الإصلاحية وهو ما عرف باسم (خط شريف كولخانة).

معاهدة خونكار إسكله سي مع روسيا:

وأثناء وجود القوات الروسية في الدولة العثمانية للدفاع عن إستانبول عقدت معاهدة جانبية مع الدولة، تعهدت فيها بالدفاع عن الدولة ضد جيوش محمد علي أو أي معتدٍ، وبذلك أصبح بإمكانها التدخل في شؤون الدولة الخاصة. وكذلك فإن موافقة الخليفة على هذه المعاهدة كانت مرحليةً.

تجدد القتال في بلاد الشام:

حدثت ثورات في بلاد الشام ضد حكم إبراهيم باشا فأخضعها بكل شدة، فهدأت وفي النفس أشياء، وفاتح محمد علي وكلاء الدول الأوربية في مصر بأنه يريد ولاية مصر والشام وجزيرة العرب له ولأولاده من بعده، ونُقلت هذه الرغبات إلى الدولة العثمانية التي أرسلت له مندوباً اتفق معه

على أن تكون مصر وجزيرة العرب ملكاً متوارثاً لأسرة محمد علي، وبلاد الشام لمحمد علي مدة حياته، وتعدّ جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام والأناضول، ولم يوافق الخليفة إلا أن تكون له فجاج جبال طوروس وبذا تكون سفوحها من كلا الجانبين للدولة، وأصرّ محمد علي على عكس ذلك، فوقع الخلاف.

وسار حافظ باشا على رأس جيش من أرمينيا وسيواس، وتقدّم إلى بلاد الشام، وفي ١١ ربيع الثاني من عام ١٢٥٥ التقى مع إبراهيم باشا في بلدة (نزيب)[١]، فانهزم العثمانيون، وتركوا عتادهم في ساحة القتال فأخذ المصريون ١٦٦ مدفعاً، و٢٠ ألف بندقية. وكان في الجيش العثماني القائد الألماني المشهور (فون مولتكه).

وتوفي الخليفة العثماني محمود الثاني قبل أن تصل إليه أنباء المعركة وذلك في ١٩ ربيع الثاني عام ١٢٥٥.

٦ ـ عبد المجيد الأول:

ولد عام ١٢٣٧، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه، وعمره دون الثامنة عشرة. وبعد أن توفي محمود الثاني، سار قائد البحرية العثماني أحمد باشا بقطعاته إلى الإسكندرية وسلّمها إلى محمد علي والي مصر، وقد رأى فيه القوة التي يمكن أن تُدافع ضد أوربا حيث كان على جهلٍ بالأمور، كما كان على خلاف مع خسرو باشا الذي عُيّن صدراً أعظم، وقد كان من قبل والياً على مصر، وطُرد منها، وعُيّن مكانه محمد علي بناءً على رغبة العلماء والأهالي، فخافت الدول الأوربية النصرانية إذ لم تعد للدولة العثمانية قوة بحرية تحميها، ولا قوة برية تدافع عنها فإذا ما سار إليها محمد علي تسلّم إستانبول، أو تقدّمت روسيا للدفاع عنها بناءً على

---

(١) نزيب: بلدة تقع في تركيا اليوم، إلى الغرب من نهر الفرات تبعد عن الحدود السورية مسافة ٢٥كم، وإلى الشمال الغربي من جرابلس البلدة السورية الواقعة على نهر الفرات عند اجتيازه الحدود السورية التركية.

المعاهدة الدفاعية المعقودة بين الطرفين سابقاً لذا فقد قدّمت دول أوربا لائحة مشتركة من روسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا، وإنكلترا تطلب من الخليفة الجديد ألا يقرّ موضوعاً في شأن يتعلق بوالي مصر دون الرجوع إليهم، وفي الوقت نفسه فإنهم مستعدون للتوسط بينهما فقبل الخليفة اللائحة، واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم، وتداولوا الرأي، وظهر تباين في وجهات النظر، روسيا تريد أن تحتفظ بالمعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي تُبقيها تحت حمايتها، وإنكلترا وفرنسا تخشيان من ذلك وترغبان أن تكون لهما قطعات بحرية في المضائق بحيث تشاركان، وتمنعانها من أن تنفرد بالتصرف في شؤون الدولة وحدها. ومن ناحية أخرى فإن فرنسا تود دعم محمد علي وأن يحتفظ بما أخضعه، وإنكلترا لا تريد ذلك منافسةً لفرنسا على مركزها في مصر، وخوفاً من منافستها على طريق الهند، والنمسا وبروسيا تريان في قوة محمد علي خطراً على أوربا خشية من أن يُسيطر على الدولة ويُعيد لها الحياة فهما أقرب إلى إنكلترا، وبعد فشل لقاءات، وتهديدات بالانسحاب، ودعوة إلى مؤتمرات نجحوا في عقد اتفاقية عام ١٢٥٦ بين إنكلترا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا بعد انسحاب فرنسا ومحاولة اتفاقها مباشرة مع الدولة العثمانية ومحمد علي وتشجيعه على رفض مطالب إنكلترا، ودعمه إن عارضته إنكلترا. غير أن الاتفاقية قد نصت على:

١ ـ يجب على محمد علي أن يُعيد إلى الدولة العثمانية ما دخله، ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول عكا في هذا الجزء.

٢ ـ يحق لإنكلترا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ الشام ومساعدة كل من أراد من السكان خلع طاعة محمد علي والعودة إلى الدولة العثمانية، ومعنى ذلك التحريض على العصيان.

٣ ـ أن يكون لمراكب روسيا، وإنكلترا، والنمسا حق الدخول إلى إستانبول لحمايتها فيما إذا تعرّضت لهجوم من قبل المصريين. ولا يحق لأحدٍ أن يدخلها ما دامت غير مهددة بهجوم.

٤ ـ يجب أن تصدق هذه الاتفاقية خلال شهرين في لندن، كما يجب تصديقها من الخليفة.

وبدأت إنكلترا تحرّض سكان الجبال من دروز، وموارنة، ونصيرية. وبدأ تحرك الأساطيل الإنكليزية والفرنسية على سواحل بلاد الشام. ثم بُلّغت الاتفاقية لمحمد علي باشا، وجاءته بعد ذلك قناصل الدول الأربع (إنكلترا ـ النمسا ـ بروسيا ـ روسيا) وعرضوا عليه باسم دولهم، أن تكون له ولاية مصر وراثيةً، وولاية عكا مدى حياته، وأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب، وأفهموه أن فرنسا لا يمكن أن تساعده. وبعد مضي عشرة أيام جاءه القناصل ومعهم مندوب عن الدولة العثمانية بأنه بقي له الحق في ولاية مصر فقط فرفض ذلك وطردهم من بلاده، فأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب فإن رفض فالدول تتخذ ما تراه مناسباً، وبعد انقضاء المدة كتبوا إلى سفراء دولهم في إستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم، واتخذوا قراراً بسلخ ولاية مصر من محمد علي. وضعفت الحكومة الفرنسية، وسحبت قواتها البحرية إلى مياه اليونان ثم إلى فرنسا، وتركت سواحل مصر والشام لسفن إنكلترا، وثار الرأي العام الفرسي ضد حكومته التي شجّعت محمد علي على المقاومة ثم لم تستطع مساعدته في الوقت المناسب.

اقتصرت روسيا بعدم الابتعاد عن إستانبول، ولم يكن لبروسيا مراكب يومذاك، واقتصر العمل على إنكلترا مع دعمٍ قليلٍ من النمسا، ووُزّعت المنشورات في بلاد الشام، وأعلن المصريون فيها الأحكام العرفية، وحُصّنت الموانئ الشامية وخاصةً بيروت وعكا. وجاء إبراهيم باشا من مقره قرب بعلبك إلى بيروت بناءً على طلب سليمان باشا الفرنساوي. وأنزلت إنكلترا قواتها شمال بيروت، وبدأت المعارك، وهُدّمت أكثر المدينة وأُحرقت، وكذا بقية الثغور الشامية. وتمكّنت القوات الإنكليزية ومن معها من أخذ الموانئ وإجلاء المصريين، وطلب محمد علي باشا من ابنه إبراهيم الانسحاب حيث لا يستطيع مقاومة الدول كلها، فانسحب، وتعرّض أثناء انسحابه لكثير من الهجمات عليه من العرب حتى فقد ثلاثة أرباع الذين معه.

وعرض قائد القوات البحرية الإنكليزية على محمد علي باشا التوسط لدى الدولة العثمانية لإبقاء مصر وراثيةً له فيما إذا تنازل عن ولاية الشام، وردّ القطعات البحرية التي جاءته مع أحمد باشا إلى الدولة العثمانية فوافق على ذلك. ووافق السلطان على أن يُحدّد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً، ويمكن أن يزيد وقت الضرورة، ولا تصنع مصر سفناً، ولا يحق للوالي تعيين ضباط أعلى من رتبة ملازم، والرتب الأعلى من ذلك ترجع للسلطان، واتفق على أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً.

إلغاء معاهدة خونكار إسكله سي:

بدأت إنكلترا وفرنسا تعملان لإلغاء المعاهدة الدفاعية بين روسيا والدولة العثمانية (خونكار إسكله سي) التي تقضي بمرور السفن الروسية من المضائق العثمانية في الوقت الذي تشاء ودون تفتيش سفنها، وقد استطاعت الدولتان فرنسا وإنكلترا الاتفاق مع الدول الأخرى بما فيها روسيا على أن تبقى المضائق مقفلةً أمام جميع الدول بلا استثناء، ووقعت المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة المضائق في ٢٣ جمادى الأولى عام ١٢٥٧.

مسألة لبنان والحرب الطائفية:

دعمت فرنسا الموارنة في لبنان، على حين دعمت إنكلترا الدروز. واعتدى الدروز على الموارنة عام ١٢٥٧، ودخلوا دير القمر، وارتكبوا أبشع الأعمال. وكرروا الاعتداء عام ١٢٦١، فعزل الخليفة الأمير بشير الشهابي، ووضع والياً عثمانياً مكانه، وحُرم الجبل مما كان له من امتيازات، ولم تقبل الدول الأوربية ذلك، فاضطر أن يُعيد للجبل امتيازاته، وأن يعين قائمقام درزي وآخر ماروني وذلك عام ١٢٥٨، ولكن الأمر لم يستقم لاختلاط الطوائف في القرى، فرأى الخليفة ضمّ شمال الجبل أي منطقة الموارنة إلى ولاية طرابلس، فاحتج الموارنة، فأرسل من يدرس

الموضوع ويُقدّم الحلول، فلم يُفد ذلك شيئاً، وأصرّ الدروز أن يبقى الموارنة تحت سلطانهم، وفضّل بعدئذ الموارنة أن يتبعوا ولايةً أخرى من أن يكونوا تحت سلطان الدروز، فاستحسن الخليفة الرأي، ولكن لم يُعجب الدروز فقاموا باعتداءاتهم الثانية ـ التي ذكرناها ـ في عام ١٢٦١.

أرسلت الدولة بعد ذلك جيوشها واحتلت المنطقة كلها، وأعلنت فيها الأحكام العرفية. ثم اتفقت الدول الأوربية مع الخليفة على تشكيل مجلسٍ يضمّ أعضاء من المجموعتين ومن غيرهم، ولم تنته القضية إلا بمذابح عام ١٢٧٧.

اتفاق بلطه ليمان:

ثار أهالي الأفلاق والبغدان رغبةً في تكوين دولة واحدة تشمل الإقليمين مع ترانسلفانيا، ففرّ أميرا الإقليمين، وتشكّلت حكومة مؤقتة، فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة عمر باشا لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وسارعت روسيا واحتلت البغدان والأفلاق وطردت الحكومة المؤقتة، فاحتجت الدولة العثمانية على هذا الفعل، وكادت تقع الحرب بين الطرفين، ثم جرى اتفاق بلطه ليمان (قرب إستانبول) عام ١٢٦٥ ينصّ على أن يبقى تعيين أمراء الإقليمين من حق الدولة العثمانية، وأن يبقى فيهما جيش عثماني ـ روسي لمدة سبع سنواتٍ حتى يستقر الوضع.

حرب القرم:

كانت فرنسا بحكم الامتيازات القنصلية تملك الإشراف على الكنائس في بيت المقدس، وقد حصلت روسيا على هذا الإشراف لانشغال فرنسا بحروب نابليون، فلما انتهت فرنسا مما تعاني أرادت العودة إلى ما كانت عليه فحصل خلاف بين رجال الكنائس الكاثوليك والأرثوذكس فشكّلت الدولة العثمانية لجنةً من رجال كنائس مختلفي المذاهب، فأقروا بحق فرنسا في ذلك فاحتّجت روسيا وهددت بالحرب، وأرسلت سفيراً فوق العادة إلى

إستانبول هو الأمير منشيكوف لإيجاد الشقاق، وحاول إعادة معاهدة (خونكار إسكله سي) الدفاعية مع الدولة العثمانية، فلم يقبل الخليفة ذلك.

واتصل إمبراطور روسيا نيقولا بسفير إنكلترا معرّضاً له بالاستيلاء على مصر مقابل الاتفاق على تقسيم الدولة العثمانية والقضاء عليها، فلم يجد عنده آذاناً صاغية، واتصل بسفير فرنسا معرّضاً باحتلال تونس والوقوف في وجه إنكلترا فلم ير عنده ما يرتاح له.

ورفض الخليفة أيضاً من السفير الروسي حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية، بل أعاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى، وكان قد عزله إرضاءً لروسيا، فأرسل السفير بلاغاً نهائياً للخليفة مع مهلة ثمانية أيام فلم يردّ عليه الخليفة، فارتحل عندها السفير من إستانبول مُهدّداً باحتلال الأفلاق والبغدان.

أبلغ الخليفة سفراء الدول ما تمّ، فأعطت إنكلترا الأوامر لقطعاتها البحرية المنتظرة في مالطة بالتحرّك إلى مياه اليونان حيث القطعات الفرنسية والاشتراك معها في الأعمال كافةً. وتلقّت القطعات المشتركة الأوامر بالتحرك نحو مضيق الدردنيل لتكون على مقربة من ميدان المعركة المرتقبة.

تقدّمت الجيوش الروسية، واحتلت إقليمي الأفلاق والبغدان حسب تهديدات سفيرها فوق العادة، وسعت النمسا للصلح بين روسيا والدولة العثمانية وعقد مؤتمر في ڤيينا، وكان ظنّ الروس أن النمسا ستقف بجانبهم حيث عملوا بجانبها ضد الثورة التي اندلعت في بلادها، وأخمدوا التهاب نيرانها للملك النمساوي فرانسوا جوزيف وعُقد المؤتمر عام ١٢٦٩ في الشهر الأخير من هذا العام، وسعت النمسا، وبروسيا، وإنكلترا، وفرنسا للتوفيق بين الطرفين وقُدّمت عُروض وافقت عليها روسيا ورفضها الخليفة، وشجّعت إنكلترا وفرنسا الدولة العثمانية في عدم الخضوع لطلبات الروس وانفضّ المؤتمر دون اتفاق.

أرسلت الدولة العثمانية إلى روسيا بضرورة إخلاء ولايتي الأفلاق

والبغدان في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ البلاغ ١/١/ ١٢٧٠، وأمرت في الوقت نفسه قائدها عمر باشا بالتحرك ودخول هاتين الولايتين إثر الموعد المحدد. ودخل عمر باشا فعلاً في أول صفر وانتصر، وأجبر الروس على الانسحاب، كما انتصر العثمانيون في الوقت نفسه على جبهة القفقاس، واحتلوا بعض القلاع... وتوقّف القتال بسبب برد الشتاء.

واتصل إمبراطور روسيا بإمبراطور النمسا طالباً منه النجدة فيما إذا تدخلت الدول الغربية في القتال الدائر بين العثمانيين والروس، فلم يُوافق إمبراطور النمسا بل اعتذر عن تلك المساعدة.

دمّرت الأساطيل الروسية في البحر الأسود القطعات البحرية العثمانية في ميناء (سينوب) العثماني، وكانت القطعات البحرية الفرنسية، والإنكليزية قد اقتربت من إستانبول، ثم دخلت إثر ذلك الاعتداء إلى البحر الأسود، ولم تجد محاولات الصلح والرسائل، وكان موقف فرنسا وإنكلترا ضد روسيا خوفاً على مصالحهم لا حباً بالمسلمين، وظهر لإمبراطور روسيا أن النمسا بجانب خصومه وليست بجانبه، ويشكّ في أمر بروسيا.

وجرى اتفاق في إستانبول بين الدولة العثمانية، وفرنسا، وإنكلترا على محاربة روسيا وذلك في ١٢ جمادى الآخرة عام ١٢٧٠، واقتضى ذلك الاتفاق أن تُرسل فرنسا خمسين ألف جندي، وتبعث إنكلترا بخمسة وعشرين ألفاً، وأن تجلو هذه الجنود عن الدولة العثمانية بعد خمسة أسابيع من الصلح مع روسيا. وأعلنت فرنسا الحرب على روسيا بالاتفاق مع إنكلترا، ثم اتفقت الدولتان في لندن في ١٢ رجب من العام نفسه ألا تنفرد إحداهما بالاتصال مع روسيا أو الاتفاق معها، وأن تمنعا روسيا من ضمّ أي جزء من الدولة العثمانية إليها، وجمعت جيوشهما في غاليبولي وإستانبول.

بدأت المعارك البحرية قبل أن تصل الجيوش البرية، إذ أرسل أحد القادة الإنكليز في البحرية أحد مراكبه ليحمل الرعايا الإنكليز من ميناء أوديسا، ويرفع العلم الأبيض، فأطلقت القلاع الروسية المدافع عليه، ورفض الحاكم للمدينة الاعتذار فهدّمت القطع البحرية الإنكليزية والفرنسية

قلاع المدينة، ثم انطلقت إلى الأسطول فأعلن الإمبراطور الروسي نيقولا الحرب على الدول المعادية له في ١٣ رجب عام ١٢٧٠.

اجتازت الجيوش الروسية نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (سلستريا) مدة خمسة وثلاثين يوماً، ولم تستطع اقتحامها، وجاء المدد للعثمانيين فترك الروس الحصار، وانسحبوا، وأراد العثمانيون ملاحقتهم واحتلال الأفلاق والبغدان حيث أخلاهما الروس، إلا أن النمساويين قد احتلوا هذين الإقليمين، ووقفوا في وجه العثمانيين.

نقلت الدول المتحالفة المعركة إلى أرض الروس، وحاصرت ميناء سيباستبول، وهزمت الجيوش الروسية. ثم أقنعت النمسا بالانضمام إليها فوافقت، ورفضت بروسيا ذلك من النمسا. وبعد مدةٍ انضمت أيضاً مملكة البيمونت بإيطاليا إلى الدول المتحالفة التي احتلت ميناء كيرتش وبحر آزوف لمنع وصول الإمدادات إلى سيباستبول التي أخلاها الروس بعدئذٍ وأحرقوها، ودخلتها الدول المتحالفة في ٢٦ ذي الحجة ١٢٧١، وكانت بعض القطع البحرية الفرنسية والإنكليزية قد أطلقت القذائف على موانئ بحر البلطيق الروسية وعطلت التجارة فيها، وحاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي، وكذلك احتلت بعض الموانئ على المحيط الهادي. ثم تقدّمت بعد سيباستبول في أراضي أوكرانيا، وفي جبهة القفقاس استطاع الروس أن يستولوا على مدينة قارص. ثم جاء فصل الشتاء وتوقفت العمليات الحربية. وانضمت السويد إلى الدول المتحالفة. ثم وافقت روسيا على طلبات أعدائها بعد أن كانت قد رفضتها من قبل، بل قبلت ما زادت عليه هذه الدول من شروط أقسى، وعقدت معاهدة باريس، وتنص على ما يأتي:

١ ـ تُخلى المناطق التي احتلت أثناء الحرب من كلا الطرفين، ويُطلق سراح الأسرى، ويصدر عفو عام عن جميع الذين تعاونوا مع خصوم دولهم.

٢ ـ تُطلق حرية الملاحة في البحر الأسود للدول جميعاً، ولا تُنشأ فيه قواعد بحرية حربية سواء أكان من قبل الدولة العثمانية أم من قبل روسيا.

٣ ـ تُطلق حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٤ ـ تبقى الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٥ ـ تبقى الصرب مرتبطةً بالدولة العثمانية، ولها استقلال ذاتي يُضمن من قبل الدول.

وأعقب ذلك بحث بعض الشؤون الأوربية، فاتفقوا على تكوين دولةٍ واحدةٍ من الأفلاق والبغدان شبه مستقلة تُسمّى حكومة الإمارات المتحدة، وتكون تحت حماية جميع الدول، أي إخراجها من تبعية الدولة العثمانية، ووقع ذلك في باريس عام ١٢٧٥. وكان الخليفة قد أصدر بعض التعليمات الإدارية في سبيل الإصلاح وهو ما عرف باسم (الخط الهمايوني) وذلك عام ١٢٧٢.

وأوجدت الدول النصرانية كذلك مشكلات في الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، لتفصلها عن الدول العثمانية، فبدأت تقوم الثورات، وتمنع دول أوربا الدولة العثمانية من قمع هذه الثورات بتهديد الدولة، وقطع العلاقات السياسية معها، بل غالباً ما كانت الدول الأوربية هي التي تدعم هذه الثورات وتثيرها، وأصبح سفراء هذه الدول شركاء في السلطة تقريباً. وأثيرت آنذاك مشكلة جزيرة كريت، وحدث اعتداء على النصارى في جدّة، وأصيب قنصل فرنسا، وهدّأ والي مكة الوضع غير أن الإنكليز قد ضربوا جدة بالمدافع.

الفتنة الطائفية في الشام:

تساهل السلطان عبد المجيد مع الدول الأوربية فاستقرت الأوضاع في الأفلاق والبغدان، والصرب، واشتعلت الفتنة في بلاد الشام إذ اعتدى الموارنة على الدروز عام ١٢٧٦ فقام الدروز يأخذون بالثأر، وامتد اللهيب من جبل لبنان إلى طرابلس، وصيدا، وزحلة، ودير القمر، واللاذقية، ودمشق. . . وأسرعت الدولة فأرسلت فؤاد باشا، وقضى على الفتنة،

وعاقب المسؤولين عنها، كلاً بما يستحق، واحتجت الدول الأوربية، وهددت بالتدخل، وكانت متفرقة الرأي، ثم أجمعت أو اتفقت على أن ترسل فرنسا ستة آلاف جندي لمساعدة الدولة فيما إذا عجزت عن إطفاء الفتنة ـ حسب زعمها والحجة التي اتخذتها ـ وأنزلت فرنسا قوتها في بيروت في ٢٢ محرم عام ١٢٧٧ بعد اتفاق الدول الأوربية الذي تمّ قبل أسبوع (١٥ محرم)، وهذا الاتفاق تدخّل في شؤون الدولة التي أحسنت القيام بمهمتها لكن كان القصد تقوية النصارى، وإظهارهم بمظهر القوة، وأن أوربا كلها من خلفهم، لتزداد قوتهم، ويخشى خصومهم بأسهم، وجرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يُعوّض النصارى على ما خسروه، ويُمنح أهل الجبل حكومةً مستقلةً تحت سيادة الدولة، وأن يرأس هذه الحكومة رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات، ولا يحق عزله إلا برأي الدول الأوربية، وتقترحه الدولة، وتوافق عليه أوربا، وقد اختير أول حاكم داود الأرمني. . . وهذا التساهل قد ألزم فرنسا بالانسحاب من الشام، إذ أخلت المناطق التي دخلتها في ٢٧ ذي القعدة عام ١٢٧٧، أي بعد عشرة أشهر وخمسة أيام من دخولها.

وتوفي الخليفة العثماني عبد المجيد في ١٧ ذي الحجة عام ١٢٧٧.

٧ ـ عبد العزيز:

ولد عام ١٢٤٥، وتولى بعد أخيه عبد المجيد في أواخر عام ١٢٧٧.

قامت في عهده ثورة في جزيرة كريت، وأخمدت عام ١٢٨٣. وتم فتح قناة السويس عام ١٢٨٥، وصدرت مجلة الأحكام العدلية في العام نفسه، وقانون التجارة البحرية عام ١٢٧٩، كما حُصرت ولاية مصر في أبناء إسماعيل باشا الذي حصل على لقب خديوي أي نائب السلطان.

زار الخليفة عبد العزيز أوربا، وفكر كثيراً في أمر الدولة، ورأى اتفاق الدول الأوربية عليها بصفتها تحمل اسم دولةٍ إسلاميةٍ، وأن سكانها من المسلمين، ولم يستطع الأوربيون أن ينسوا أبداً الحقد الصليبي المغروس في

نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة. ورأى أن الدول الأوربية الغربية أكثر نفوذاً في إستانبول من روسيا، ففكر بالاستفادة من خلاف دول أوربا فيما بينها، وظنّ أنه لو أظهر الميل نحو روسيا لقدمت دول أوربا الغربية بعض التساهلات للعثمانيين حرصاً على مصالحها وخوفاً من روسيا، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي في إستانبول فخافت الدول الأوربية، وبدأت تُشيع عليه الشائعات في التبذير والإسراف و.... وتولّى رئيس مجلس الشورى أحمد مدحت باشا فكرة عزل الخليفة فعُزل عام ١٢٩٣، ثم عمل على قتله وقُتل، وأشاعوا أنه انتحر، وتولى أمر الخلافة بعده ابن أخيه عبد المجيد، وهو مراد الخامس.

٨ ـ مراد الخامس:

ولد في ٢٥ رجب ١٢٥٦، وتولى بعد عزل عمه عبد العزيز وعمره سبع وثلاثون سنة، وقد عُزل بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، بويع في ٧ جمادى الأولى، وعُزل في ١٠ شعبان من العام نفسه (١٢٩٣)، وبويع بعده أخوه عبد الحميد الثاني، وأُشيع أن العزل كان لاختلال عقل مراد الخامس.

٩ ـ عبد الحميد الثاني:

ولد عام ١٢٥٩ من زوجة عبد المجيد الثانية، وتولى الخلافة بعد عزل أخيه مراد الخامس عام ١٢٩٣ فكان عمره يومذاك أربعاً وثلاثين سنة.

بدأ التعصب القومي أو بالأحرى الدعوة إلى العصبية تظهر بوضوح أيام الخليفة عبد الحميد الثاني، وإن برزت قبل أيامه إلا أن بروزها كان ضعيفاً، ومع الدعوة إلى العصبية بدأ تأسيس الجمعيات ذات الأهداف السياسية، وإن كانت تحمل أحياناً صفات أو أسماء أدبية وعلمية، ولعل أهم مراكز هذه الجمعيات كان بيروت وإستانبول، ففي المركز الأول لعبت النصرانية دورها الكبير، وبرز أثر الإرساليات التبشيرية النصرانية، وظهر رجال نصارى كان لهم أثرهم في الجمعيات بل وفي الحياة العلمية، فقد

نشطوا في هذا الجانب كي يستطيعوا جمع الناس حولهم. وتشكلت جمعية العلوم والفنون تحت رعاية الإرساليات التنصيرية الأمريكية، ومن مؤسسيها بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وكان هدفها نشر العلوم الغربية والدعاية لدول أوربا، ولم ينضمّ إلى هذه الجمعية خلال عامين مرا على تأسيسها سوى خمسين عضواً كلهم من نصارى بلاد الشام، وقام اليسوعيون بتأسيس الجمعية الشرقية عام ١٢٦٦، وكان أعضاؤها من النصارى أيضاً، ومن أشهر مؤسسيها مؤسسو الجمعية الأولى أي بطرس البستاني وناصيف اليازجي على حين تدعم الأولى الإرساليات البروتستانتية في حين تساعد الثانية الإرساليات الكاثوليكية لكن ما دام جميعهم من النصارى، والهدف واحد فلا مانع من العمل على أي طريق والضرب على أي وتر، ولم يكن للنصارى من دعوة يقومون بها سوى العصبية أي رابطة الجنس الواحد، أو ما عُرف باسم القومية، ولما لم تؤت هذه الجمعيات ثمارها لاقتصارها على النصارى وابتعاد المسلمين عنهم لمعرفتهم بنوايا النصارى في تجزئة الأمة، ومعرفة الذين خلفهم من الدول الأوربية التي تحركها الصليبية، ولما لم تنجح الخطة لجأ النصارى بتوجيه من الصليبية إلى تأسيس جميعةٍ بحيث تضمّ أعضاءً غير نصارى، ويُفضّل أن يكون فيها مسلمون ودروز وغيرهم... كي يمكن ضرب الإسلام بيد أبنائه، وتأسست الجمعية العلمية العربية عام ١٢٧٣ وضمّت خمسين ومائة عضو من النصارى أمثال البستاني واليازجي، ومنهم نصارى أظهروا الإسلام أمثال الشدياق، ومنهم الدروز، ومنهم المسلمون أيضاً، وإن كانوا من أبناء البلاد إلا أن المحرّك لهم كان من الخارج، وقد تحسّنت الصلات بين بعض الساسة من أوربا وبعض الشخصيات من مختلف الفئات أيضاً. وأما المركز الثاني وهو إستانبول فقد ضمّت الجمعيات مختلف العناصر فيه، وإن كان معظمها من الأتراك إلا أنهم من الذين فُتنوا بأوربا، ويُريدون تغيير الوضع، ويدعون إلى العصبية التركية، أو من أصحاب المصالح الذين يُريدون الحصول على مكاسب لهم، ومن اليهود، وخاصة يهود الدونمة، أو بصورة عامة من الناقمين على الحكم ويُريدون تغييره، ومن الناقمين على الإسلام ويريدون ضربه، ومن

أشهر هذا النوع من الجمعيات، جمعية تركيا الفتاة التي تأسست في باريس، وكان لها فروع في برلين، وسلانيك، وإستانبول إضافةً إلى المركز الرئيسي في باريس، وكانت رئاستها لأحمد رضا بك الذي فُتن بأوربا وأفكار الثورة الفرنسية، وقد حرر جريدة المشورة، فكانت مقالاته تدعو إلى تقليد الغرب، والإدارة اللامركزية بالدولة العثمانية، كما كانت جريدة الأبناء التي يصدرها وتُهرّب سرّاً إلى إستانبول، ورحّبت المحافل الماسونية بهذه الجمعية، وكان فرع برلين معتدلاً، أما التوجيه فمن مركز باريس، غير أن مركز سلانيك كان أكثر المراكز تطرّفاً، وضمّ عدداً من الضباط الذين كوّنوا جناحاً عسكرياً في هذه الجمعية، وعرف باسم الاتحاد والترقي، وكانت اللقاءات تتم في المحافل الماسونية التي اهتمت اهتماماً كبيراً بحركة الجمعية ونشاطها، وتنظيم الاتحاد والترقي فيها.

ومن الذين فُتنوا بأوربا وأفكارها رجال كان لهم دور خطير في الدولة أمثال أحمد مدحت باشا رئيس مجلس الدولة، وصاحب اليد الأولى في خلع الخليفة عبد العزيز وفي قتله، وفي خلع الخليفة مراد الخامس. وهؤلاء المفتونون كانوا بعيدين عن معرفة الإسلام لذا كانوا يتّهمون الخلفاء بالحكم المطلق، ويُطالبون بوضع دستورٍ للدولة إذ يريدون أن تكون على نمط الدول الأوربية النصرانية، وأن يكون دستورها من وضع البشر بالشكل الذي عليه الدساتير الأوربية، ولا يقبلون أن يكون القرآن الكريم «كتاب الله» دستور الأمة، وهو الذي يحدّ من تصرّفات الخليفة وصلاحياته، وما ذلك إلا عداءً للإسلام، وانبهاراً بالحياة الأوربية، وانهزاماً نفسياً، وتحقيقاً للشهوات والأهواء الذاتية.

وزاد النفوذ اليهودي في الدولة مع أطماع اليهود، ومع استلام يهود الدونمة عدداً من المراكز الرئيسية، وقد نسي الناس أصلهم، وحقيقتهم، وطبيعة اليهود، إذ أظهروا الإسلام، وعاشوا مع أبنائه، واختلطوا بهم، ويُؤدّون الصلاة أمامهم بل يُؤدّون الحج...

وزاد اتفاق الدول الأوربية على الإجهاز على حياة الرجل المريض إذ

كانوا يطلقون ذلك على الدولة العثمانية، وإن ظهرت الاختلافات بين تلك الدول، فظهرت روسيا في جهة، والدول الأخرى في جهة ثانية.

في وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تسلّم عبد الحميد الثاني الخلافة فكان عليه أن يسير بالدولة إلى شاطئ النجاة دون أن يُعرّض دولته للخطر. فأكثر من رجاله الذين يأتونه بالأخبار، ويُراقبون تحركات أعداء الدولة من أبناء البلاد وخاصة أصحاب المراكز المهمة، وإذا استطاع أن يبطش بأحدهم دون أن يُحدث هزّة لم يقصّر في ذلك، حتى أُطلق عليه السلطان الأحمر... وأكثروا من التهم عليه، وإطلاق الإشاعات، ومن يستطع أن يجلبه إلى صفه بأي نوعٍ من أنواع العطاء لم يدّخر في ذلك وسعاً، حتى بالتزويج من الأميرات أو الجواري حتى أُشيع عليه أنه يمتلك الكثير من الشركسيات، وقد اضطر أن يُعلن دستوراً وضعياً للبلاد تحت ضغط هؤلاء، وعندما قوي أمره ودبّر شأنه عاد فألغاه.

وحاول جمع كلمة الأمة، ودعم المسلمين له في كل مكان ليستفيد منهم ضد حكامهم من المستعمرين إن رغب أن يحركهم أو يهدد دول أوربا، فدعا إلى الجامعة الإسلامية، ووُفّق في هذا الشأن إلى حدٍ كبيرٍ، وقرّب العلماء، واستمع إلى نصائحهم، وسار مع الصوفية، ونظّم المحاكم القديمة، وتابع العمل في مجلة الأحكام العدلية وفق الشريعة الإسلامية، وقام ببعض الإصلاحات العظيمة مثل القضاء على معظم الإقطاعات الكبيرة المنتشرة في كثير من أجزاء الدولة، والعمل على القضاء على الرشوة وفساد الإدارة.

وكان كلما شعر بأن إحدى الدول الأوربية تريد الضغط على العثمانيين وتسعى للإنهاء على الدولة يلين لها، ويُظهر التقرب لها بتعيين الصدر الأعظم من الذين يوالونها. إذ كان كامل باشا يرى تأييد السياسة الإنكليزية، وسعيد باشا يرغب في التقرب من فرنسا، وخليل باشا يود مسايرة روسيا، وتوفيق باشا يحب زيادة النفوذ الألماني أو يرى فيه أقل أطماعاً من غيره، فكان عبد الحميد الثاني يُعيّن الصدر الأعظم الذي يراه ملائماً للسياسة التي

يُريد أن يتبعها، وربما كان النفوذ الروسي أقوى من غيره لقوة روسيا، وكثرة أطماعها، وقربها من الدولة العثمانية، يلي ذلك النفوذ النمساوي إذ أن النمسا كانت تطمع في بلاد الصرب والبلقان عامةً، وتتنافس مع روسيا في هذا المجال، يلي ذلك، إنكلترا ففرنسا، وإن زاد النفوذ الألماني على غيره في نهاية أيام السلطان عبد الحميد.

وعامل الأقليات والأجناس غير التركية معاملةً خاصةً كي تضعف فكرة العصبية، وكان يضطر أن يسكت عن بعض إساءاتهم، مثل الرعب الذي نشرته عصابات الأرمن من الطاشناق في منطقة الأناضول لتفسح المجال للتدخل الأوربي في شؤون الدولة، كما عمل الأرمن مع اليهود لاغتياله أثناء خروجه للصلاة، واضطر مع كل هذا للسكوت كي لا يترك أي ثغرةٍ يمكن أن تنفذ منها الدول النصرانية. ولم يفده كل هذا... ولم يخفف من الإشاعات الكثيرة ضده من المجموعات كلها وعلى رأسهم اليهود الذين منع هجرتهم إلى فلسطين، والأرمن الذين خدموا الروس، والنصارى عامةً، وأصحاب الدعوات العصبية، والمفتونون بأوربا من كل جنسٍ وفي مقدمتهم الترك والعرب. بل تضامنت الدول على انتهاب أجزاء من دولته خوفاً من عودة القوة إليها.

أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في ٥ شوال عام ١٢٩٣ إرادته بتنظيم مجلس عموم، ويتكوّن من مجلسين أحدهما منتخب، ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر مجلس الأعيان ويتمّ تعيين أعضائه من قبل الدولة.

كبرت سن محمد رشيد باشا الصدر الأعظم، فقدّم استقالته، فعيّن السلطان عبد الحميد مكانه أحمد مدحت[1] باشا. وبعد أيام أربعة أرسل

---

(١) ولد أحمد مدحت باشا في إستانبول عام ١٢٣٧ انضم إلى الصدارة العظمى، زار العواصم الكبرى في أوربا، وأمضى هناك ستة أشهر وفتن بأوربا وأفكارها، أصبح وزيراً عام ١٢٧٧، وعُيّن في مجلس الدولة، ثم حاكماً لبغداد عام ١٢٨٥، ثم والياً على سلانيك، ثم وزيراً للعدل، ثم رئيساً لمجلس الدولة، ثم تولّى وزارة الحرب يوم خلع =

السلطان إلى الصدر الأعظم مدحت باشا القانون الأساسي للدولة لينشره، ويتألف من مائة وتسع عشرة مادة، وقد أعطى لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون، وأباح التعليم وجعله إجبارياً على جميع العثمانيين، وسمح بحرية المطبوعات، وأبطل التعذيب أثناء التحقيق، ومصادرة الأموال، وأعمال السخرة، وعدم جواز عزل القضاة إلا بشكل شرعي.

وفي ٢١ محرم ١٢٩٤ عُزل أحمد مدحت باشا من الصدارة العظمى حيث ظهر أنه يُؤيّد جمعية تركيا الفتاة، ويعمل لنشر أفكارها، ويسعى لعزل عبد الحميد الثاني وإعادة أخيه مراد الخامس بعدما أُشيع أنه قد عوفي، ويقول بفصل الدين عن الدولة، ويرى أن الخليفة العثماني لا يُمثّل المسلمين الذين يعيشون خارج حدود الدولة في الوقت الذي كان المسلمون في كل مكان يعدّون الخليفة مرجعهم الأعلى، وما فصلهم عنه سوى ضعف المسلمين وقوة أعدائهم وخاصةً الصليبيين، وبذا لم تصل مدته في الصدارة العظمى إلى شهرين، وأوكل هذا المنصب إلى محمد أدهم باشا.

وفي ٤ ربيع الأول عام ١٢٩٤ اجتمع المجلس العثماني.

كانت الثورة قد اشتعلت في بلاد الهرسك بتحريض من سكان الجبل الأسود والصرب، غير أن الثورة قد أخمدت ثم إن السلطان رغب في اللين كي لا يكون مجال لتدخل الدول الأوربية فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة والتوحيد في الضرائب بين المسلمين والنصارى... ولم يُرضِ ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، ولم يُرق ذلك النمسا التي

= السلطان عبد العزيز، وعُيّن صدراً أعظم في أوائل حكم عبد الحميد الثاني، ثم أزيح وطرد من البلاد بعد أقل من شهرين من تسلّمه منصب الصدارة العظمى، ثم استدعي وعُيّن حاكماً لأزمير، ثم صدر قرار باعتقاله عام ١٢٩٩ لاتصاله بالأجانب، وطلب من الدول الأوروبية التدخل في قضيته بعد أن فرّ إليها، ثم قُبض عليه، وحوكم، وحُكم عليه بالإعدام لقتله السلطان عبد العزيز، وخيانته، وتوسطت له بريطانيا فخُفّف عنه الحكم، وصدر حكم بسجنه مدى الحياة، ثم خُفّف عنه فعاش في الطائف، ومات أو اغتيل عام ١٣٠١.

كانت وراء الثورة وترغب في ضمّ البوسنة والهرسك إليها، فعملت مع روسيا وألمانيا على إرسال لائحة إلى السلطان تعرض عليه الإصلاحات التي يجب القيام بها، ورفعت اللائحة إلى فرنسا وإنكلترا ومنهما إلى الدولة العثمانية فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة والهرسك لم يقبلوا بذلك وطالبوا بأمور أخرى.

وحدثت حادثة شغلت الساسة في الدول، وهي أن فتاةً نصرانيةً في سلانيك اعتنقت الإسلام، وذهبت إلى المحكمة لإشهار إسلامها فاختطفها النصارى في الطريق، فثار المسلمون وطالبوا الحكومة بالبحث عن الفتاة، فوعدهم الوالي بذلك، ولم يتمكّن من الحصول عليها، فاجتمع المسلمون ثانيةً في أحد الجوامع وتكلّموا عن الحكومة، وجاء إلى الجامع قنصلا ألمانيا وفرنسا، وسرت شائعة أنها في بيت القنصل الألماني، فاعتدوا على القنصلية، ووصل الخبر إلى الدول فاضطرب رؤساؤها، وحرروا لائحةً في برلين (وزير روسيا، ووزير النمسا، ووزير ألمانيا) ووقعت عليها كل من فرنسا، وإيطاليا وقد طالبوا الدولة العثمانية بإصلاح حال الرعايا النصارى، والاتفاق مع الثائرين، وتعيين مجلس دولي لمراقبة ذلك وإلا تضطر الدول الأوربية إلى استخدام القوة.

ثورة البلغار:

تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتُحرّضهم على الثورة ضد العثمانيين، وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية في بلاد البلغار، بعد فرارهم من بلادهم إثر احتلال الروس لها، أُشيع في البلغار أن الحكومة تريد إقطاع الشركس أراضي بلغارية، فقاموا بثورةٍ، وكانت تمدهم روسيا، والنمسا حيث يوجد فيها مركز لتلك الجمعيات يموّنها بالأسلحة. ولكن الدولة العثمانية استطاعت أن تقضي على

هذه الحركة فقامت الدول الأوربية تشيع الشائعات عن تصرّف الجنود العثمانيين وارتكابهم الأعمال الوحشية على حين أن ما صدر إنما هو من جانب البلغاريين الذين كانوا يهاجمون المسلمين ويبيدونهم، وبهذه الشائعات أُثير الرأي العام ضدّ الدولة العثمانية، وطالب الحكومات الأوربية باتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ ضدّ العثمانيين فقدمت لائحة تُطالب الدولة بالتحقيق لمصلحة البلغار، والتعويض لهم، وتعيين حاكمٍ نصراني لهم.

ثورة الصرب والجبل الأسود:

شجّعت روسيا، والنمسا، وألمانيا الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، إذ كانت روسيا تريد توسعة حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم، فإن انتصرا جاءت الجيوش وقضت على الدولة العثمانية، وإن انتصرت الدولة عليهما وقفت الجيوش الروسية بجانبهما ونصرتهما على الأعداء. وبدأت الجنود الروسية تتدفق سراً على بلاد الصرب والجبل الأسود، فالحقيقة أن الروس هم الذين يحاربون العثمانيين تحت اسم الصرب والجبل الأسود. وبدأ الأميران يجمعان الجيوش ولما سألهما الصدر الأعظم عن سبب حشد الجيوش أجابا لردّ غارات الأرناؤوط، وللأمن الداخلي. وعندما تهيأت جيوش الصرب والجبل الأسود، طلب أمير الصرب من الدولة العثمانية أن تعهد إليه بإخماد الثورة في البوسنة لأن جيوش العثمانيين فيها يهدد بلاده، كما طالب أمير الجبل الأسود الدولة العثمانية بالتنازل له عن جزء من الهرسك وما ذلك إلا لإيجاد ذريعة للحرب فلم يجابا على طلبهما فعندها دخلت جيوش الصرب والجبل الأسود الأراضي العثمانية.

وكانت الدولة العثمانية قد استعدت للقتال وحشدت الجيوش، وجاءتها قطعات من مصر، وتمكّنت من الانتصار على الصرب[1] في عدة

---

(١) كانت المعارك في الجبل الأسود بسيطةً لوعورة تلك البلاد، فبقي الثوار في مرتفعاتهم=

مواقع، وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً غير أن الأوامر قد جاءت إلى القائد العثماني بالتوقف بسبب تدخل الدول الأوربية، واشترطت الدولة شروطاً لم تقبلها الدول النصرانية، فتابع القائد العثماني زحفه، فتدخلت الدول، وطلبت من العثمانيين إصدار أوامر بوقف القتال مباشرة وإلا يُغادر سفراء الدول إستانبول إشارة إلى قطع العلاقات وتوقع الحرب.

واجتمع مندوبو الدول في إستانبول خوفاً من تفرّد روسيا والهجوم على الدولة، واحتلال عاصمتها والمضائق، وقدّموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى الأجانب أو التابعين للدولة، وألا تحتل جنود الدولة العثمانية سوى القلاع وبعض المدن الكبرى، وأن تشكل الشرطة البلغارية من النصارى ويكون نصف ضباطهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارى، وأن تُشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تُعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود في الصلح الذي يعقد معهما. ولكن الدولة رفضت هذه القرارات رغم التهديدات. وكان الدستور قد أعلن، ورفض هذه القرارات، كما رفضها أيضاً اليهود والنصارى من رعايا الدولة. وسافر إثر ذلك مندوبو الدول وسفراؤها إيذاناً بقطع العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية.

عقدت الدولة العثمانية في هذه الآونة صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت بنتيجته جيوشها من بلاد الصرب، على ألا تبني الصرب قلاعاً جديدةً، وأن يُرفع العلم العثماني والصربي معاً دليلاً على السيادة العثمانية، ومددت الهدنة مع الجبل الأسود، ولم يُعقد معه صلح إذ طالب بأراضي جديدة لضمّها إليه.

وأرادت روسيا أن تستغلّ الفرصة، وأن تنفرد، بحل مشكلتها وحدها

= لم يتمكنوا أن يخترقوا الجيوش العثمانية المحيطة بهم ومساعدة الصرب، كما لم يتمكّن العثمانيون من إنزال الثائرين من حصونهم وجبالهم وإخضاعهم.

مع الدولة العثمانية، ولكنها حسبت حساباً للدول الأخرى فأرسلت تستشيرها فيما ستفعل، وأرسلت لائحةً إلى إنكلترا تُعرضها عليها، وتوقع عليها إن وافقت، فوافقت عليها إنكلترا واجتمع سفراء الدول الأوربية في لندن، ووضعوا لائحة وقدّموها إلى الدولة العثمانية، وفيها تأكيد الاتفاق بين الدول الأوربية لتحسين أحوال النصارى في الدولة العثمانية، وإجراء الإصلاح في البوسنة والهرسك، والبلغار، وتعيين الحدود مع الجبل الأسود، وحرية السفر، والصلح معه، ومع الصرب. وأن تُراقب سفراء الدول في إستانبول، وعمالها في الولايات تنفيذ اللائحة. غير أن هذه اللائحة التي وقعت عليها كل من روسيا، وإنكلترا، والنمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا لم تعترف عليها الدولة لأن هذه الدول تُريد أن تتدخل في شؤون العثمانيين الخاصة باسم حماية النصارى، وحتى لا تُستشار الدولة فيها أيضاً، ولم تُشارك في مناقشتها، وأعلنت أن ما حدث من فوضى إنما كان نتيجة التدخلات الخارجية، وفي الوقت نفسه فإن الإصلاحات قائمة وتسير فيها الدولة بخطا حثيثة، وإن المساواة قائمة بين الجميع، وكيف تكون تدخلات الدول في شؤون العثمانيين عن طريق السفراء في إستانبول، والعمال في الولايات الأخرى؟

الحرب مع روسيا:

وقّعت روسيا اتفاقاً سرّياً مع رومانيا (الأفلاق والبغدان)، وضعت رومانيا بموجبه جميع إمكاناتها تحت تصرف روسيا، ثم قطعت روسيا العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية، وأعلنت الحرب عليها بناء على رفض الباب العالي للائحة لندن، وأخبر الباب العالي دول أوربا ثانية عما تصرّفت به روسيا فلم يتلق أي موقف إيجابي وذلك عام ١٢٩٤، رغم المعاهدة السابقة وخاصةً التي وقّعتها إثر حرب القرم.

اخترقت روسيا حدود رومانيا فاحتجت الدولة العثمانية لأن رومانيا لم تزل تحت سيادة العثمانيين، واخترقت نهر الدانوب، وانتصرت على

العثمانيين في عدة مواقع، ثم توقفت بعد المقاومة التي اعترضتها، وانقلب وضع الجيوش العثمانية من مدافعة إلى مهاجمة، وبعد تقدّم بسيطٍ عاد النصر إلى جانب الروس، واضطر القائد العثماني عثمانَ باشا إلى الاستسلام، وهو جريح، وتوقف القتال في الجبهة الأوربية.

أما في شرقي الأناضول فقد حاصر الروس عدة مدن وقلاع ومنها قارص، وباطوم إلا أنهم اضطروا إلى فكّ الحصار عنها والتراجع بجهود أحمد مختار باشا، وإسماعيل حقي باشا، وانتصر العثمانيون على الروس في ستة وقائع، وقد طلب الروس إمدادات فجاءتهم جيوش جرارة، ولم يتمكّن العثمانيون من إرسال الإمدادات إلى الجبهة، وجاء الهجوم الروسي الثاني، فتراجعت الجيوش العثمانية حيث انسحب أحمد مختار باشا إلى أرضروم، وسقطت مدينة قارص بيد الأعداء، ثم حاصروا أحمد مختار باشا في أرضروم. وبسقوط قارص في جبهة الأناضول، وسقوط بلافنا بعدها بشهر على الجبهة الأوربية، استأسد الصرب فأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية بعد لقاء بين إمبراطور روسيا وأمير الصرب، كما تابع سكان الجبل الأسود قتالهم للعثمانيين، فأصدر الباب العالي منشوراً يعلن عزل أمير الصرب عن إمارته، ويوضح للسكان هذه الخيانة، فلم يُجده ذلك نفعاً.

وتقدّم الروس فاحتلوا صوفيا عاصمة بلغاريا اليوم، ومنها ساروا إلى أدرنة فدخلوها، وانطلقوا منها نحو إستانبول، ولم يبق بينهم وبينها سوى خمسين كيلو متراً. وعندما اقتربت الجيوش الروسية من أراضي البلغار انقض النصارى على المسلمين يفتكون بهم ذبحاً وقتلاً، وفرت أعداد من المسلمين متجهةً نحو إستانبول حيث ملؤوا الشوارع، وتشكّلت عدة جمعيات لمساعدتهم. وفي ٧ ذي الحجة من ١٢٩٤ اجتمع المجلس النيابي، فاستمع إلى خطابٍ باسم السلطان، ثم صدر أمر بحلّه.

وأرسل الباب العالي وفداً عسكرياً من نامق باشا، وسرور باشا لوقف القتال فقابل الوفد القائد الروسي، وتوقف القتال في مطلع عام ١٢٩٥، وأعلن الباب العالي عن رفع الحصار عن سواحل روسيا على البحر الأسود.

وفي هذه الأثناء وقعت عدة أحداث بعضها في الداخل وبعضها خارجية، ففي الداخل حاولت مجموعة من الثائرين مستغلة النقمة أيضاً والفوضى التي حدثت. أما من جهة الخارج فعندما علمت إنكلترا أن قوات روسيا أصبحت على مقربة من إستانبول أمرت قطعاتها البحرية بدخول مضيق البوسفور، ولو بالقوة وقد تمّ ذلك، وأرادت روسيا مقابل ذلك أن ترسل قوات إلى إستانبول بحجة حماية النصارى، ثم اتفقت الدولتان، وهدأت الأوضاع..

معاهدة سان استيفانوس:

التقى مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدةٍ قرب إستانبول على بحر مرمرة تسمى سان استيفانوس، وذلك بعد محادثات تقدّم فيها الروس قليلاً عن خط وقف إطلاق النار الذي اتُّفق عليه، ونُقل أيضاً مركز المحادثات من أدرنة إلى هذه القرية.

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرةً وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إستانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة على:

١ ـ تعيين حدود جديدة للجبل الأسود لإنهاء النزاع. وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال، وإذا حدثت خلافات جديدة تحلها روسيا والنمسا.

٢ ـ تستقل إمارة الصرب، وتضاف لها أراض جديدة، وتُحدد الحدود حسب الخريطة المرفقة، وبمساعدة الروس.

٣ ـ تأخذ بلغاريا استقلالاً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدّداً إلى الدولة العثمانية، ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتُعين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس، ويُنتخب الأمير من قبل السكان، ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا، ويحق للعثمانيين نقل جنودهم إلى ولايات أخرى ضمن الأراضي البلغارية.

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

٥ ـ يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن النصارى من الأكراد والشركس.

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

٧ ـ تدفع الدولة العثمانية غرامةً حربيةً قدرها (٢٤٥,٢١٧,٣٩١) ليرة ذهبية. ويمكن لروسيا أن تتسلّم أراضي مقابل هذا المبلغ.

٨ ـ تبقى المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحةً للسفن الروسية في زمن السلم وزمن الحرب.

٩ ـ يُمكن للمسلمين الذين يعيشون في الأراضي التي اقتطعت من الدولة العثمانية أن يبيعوا أملاكهم ويهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية.

أما بقية الدول فقد كانت إنكلترا أكثرها اهتماماً وتخشى من احتلال روسيا لإستانبول ووصولها إلى المياه الحرة ومنافستها لبقية الدول في تلك الجهات، وأما النمسا فترغب في اقتسام التركة مع روسيا وسيطرتها على بلاد البوسنة والهرسك والوصول إلى ميناء سلانيك ودخول المياه المتوسطة من تلك الثغرة، وأما ألمانيا فلا تهتم كثيراً، وربما تميل إلى موقف روسيا، وكذلك كانت إيطاليا قليلة المصلحة في هذا الموضوع، وكانت فرنسا تقف على الحياد وخاصة أنها كانت تئن من هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨.

معاهدة برلين:

دعت النمسا الدول إلى حضور مؤتمر في برلين، واختارت برلين لأن ألمانيا ترى من الضرورة أن تحتل النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك. واشترطت إنكلترا أن يُعاد النظر في معاهدة سان استيفانوس، واختلفت مع روسيا وكادت تقع الحرب بينهما، غير أن روسيا أمام إصرار إنكلترا والدول الأخرى التي معها، وأمام الحركات الانتقامية التي قام بها المسلمون

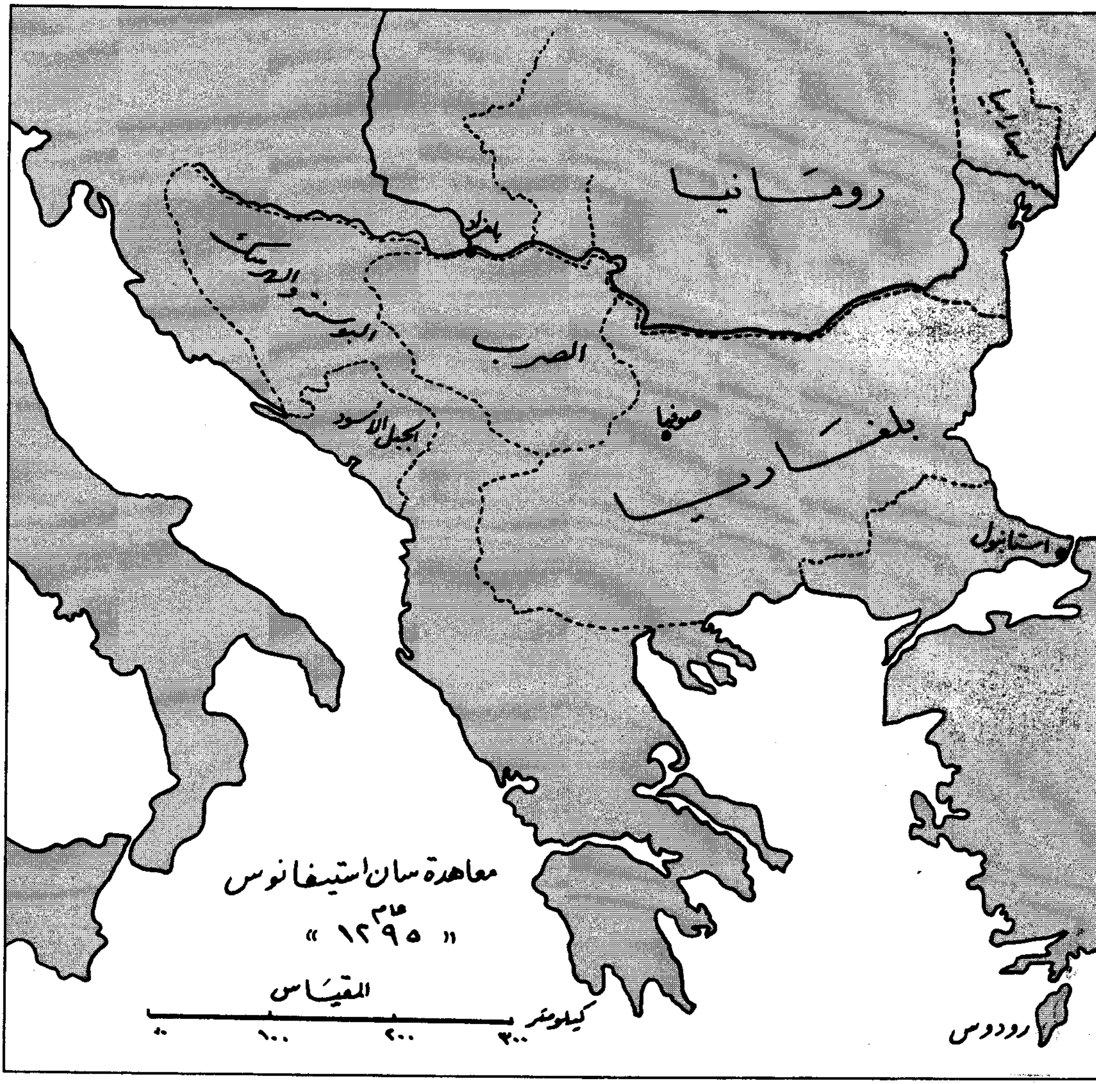
رومانيا
بلغراد
الصرب
البسنة والهرسك
الجبل الأسود
صوفيا
بلغاريا
استانبول
رودوس
معاهدة سان استيفانوس
عام
« ١٢٩٥ »
المقياس
كيلومتر
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠
٠

مصور رقم [١٩]

البلغار، فاعتصموا بالجبال وانطلقوا يهاجمون القوات الروسية، وينتقمون من النصارى الذين فتكوا بهم سابقاً، ثم هدأت الأمور إلا أن إنكلترا بقيت تخشى من قوة روسيا لذا طلبت من الباب العالي عقد معاهدة دفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا خوفاً من تقدم روسيا نحو إستانبول، والسماح لإنكلترا باحتلال جزيرة قبرص، وإصلاح أوضاع النصارى كي لا يتجهوا نحو روسيا، فوافقت الدولة على ذلك خوفاً من الروس الذين يهددونها، وضحّت بجزيرة قبرص. وإن تعهدت إنكلترا بإخلاء الجزيرة فيما إذا انسحبت روسيا من باطوم وقارص. وبقيت المعاهدة الدفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا سرية حتى أشرفت أعمال معاهدة برلين على الانتهاء.

وكان من أهم ما اتفق عليه المؤتمرون في برلين، وفيه تعديل على معاهدة سان استيفانوس.

١ ـ استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها إذ تراجعت من ناحية الغرب إلى الشرق لمصلحة الصرب، كما تراجعت من ناحية الجنوب إلى الشمال لمصلحة الدولة العثمانية، وأصبحت سواحل بحر إيجه الشمالية للعثمانيين. وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروميللي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً. ويحكمها نصراني، يُعيّن لمدة خمس سنوات باتفاق الدول. وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروميللي الشرقي وتحدد بخمسين ألف جندي.

٢ ـ تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم أن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استيفانوس أي جزء منها.

٣ ـ أعطيت البوسنة والهرسك للنمسا.

٤ ـ أعيدت بسارابيا إلى روسيا، وأُخذت من رومانيا. وتُعطى رومانيا مقاطعة دوبروجيه، وبعض الجزر. وشملت معاهدة برلين ٦٤ مادة.. ووقعت في رجب من عام ١٢٩٥.

وهكذا حصلت روسيا والنمسا، وإنكلترا على أجزاء من الدولة العثمانية، ولم يكن لألمانيا وإيطاليا مطامع مباشرة، أما فرنسا التي كان موقفها على الحياد فرغبت أن تحصل على نصيبها من التركة، وقد عادت لها قوتها بعد هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨، فادعت عام ١٢٩٩ أن اعتداءات على أرض الجزائر وقعت من جهات تونس فأرسلت قوةً مؤلفةً من ثلاثين ألفاً بحجة حماية الأمن، ثم دعمتها بقوة أخرى، واتجه الجيش نحو العاصمة وأجبر الباي على توقيع معاهدةٍ اعترف فيها بالاحتلال الفرنسي، واعترفت الدول النصرانية بهذا الاحتلال، وأرسلت الدولة العثمانية قوةً بحريةً، وأخرى بريةً لتعزيز القوات في طرابلس على حدود تونس... وكادت الحرب تقع، ونصحت ألمانيا السلطان بعدم الذهاب بعيداً فأبدى رغبته بحل المسألة عن طريق المفاوضات.

ويبدو أن إنكلترا لم تقنع بما حصلت عليه في قبرص، وكانت عيونها ترنو نحو مصر، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس، فاستغلت ما حدث في مصر من حركات نتيجة الديون التي تراكمت على الحكومة بعد فتح قناة السويس، وتبذير الخديوي إسماعيل، وخلعه وتولية ابنه توفيق، وتدخلت في شؤون مصر، وانتصرت على قوّات أحمد عرابي، واحتلت البلاد عام ١٢٩٩.

وقامت الثورة المهدية في السودان في هذا الوقت، ثم سيطرت على السودان كله، ووجدت إنكلترا التي أصبحت تحكم مصر وبالتالي تخضع لها السودان بحكم أنها كانت تتبع مصر رأت أن تسحب الجيوش المصرية من السودان وشرقي إفريقية التي أيضاً كانت تتبع مصر بعد أن تنازلت عنها الدولة العثمانية لصالح مصر، ثم تعيد إخضاع السودان من جديد بجنود مصرية وقادة إنكليز، وتمكّنت فعلاً من الانتصار على المهديين، والقضاء على ثورتهم، والسيطرة على البلاد من جديد. أما شرقي إفريقية فقد تقاسمته مع فرنسا، وإيطاليا، والحبشة.

وهكذا حصلت كل دولة أوربيةٍ على ما تريد من الدولة العثمانية في

تلك المرحلة، ثم تركتها تلتهب فيها النار من الداخل، وهي تتفرّج وتؤيد، وفي الوقت نفسه تتقاسم مناطق النفوذ في إفريقية وبقية المناطق، وتأخذ نصيبها أيضاً تلك الدول التي لم تأخذ أجزاء من الدولة العثمانية مثل إيطاليا وألمانيا، كما تتنافس هذه الدول أحياناً فيما بينها، وقد يقع بينها الصدام ولكن صدام محلي.

الحركة الداخلية:

شعر المفتونون بأوربا أنهم قد وصلوا إلى أهدافهم بعد تولية مدحت باشا الصدارة العظمى أيام السلطان عبد الحميد الثاني، ومدحت باشا كبير هؤلاء المفتونين، وأمل الدول النصرانية في فرنجة التفكير العثماني أصبح كبيراً بعد أن وعد السلطان عبد الحميد الصدر الأعظم بأن يعيّن نامق كمال بك، وضياء باشا[1] مستشارين في ديوان القصر السلطاني، وكذا كان قد وعده بأن يُعلن دستوراً للبلاد، وقد أعلن السلطان فعلاً، كما جمع المجلس، غير أن السلطان عبد الحميد لم يلبث أن خلع مدحت باشا[2] من الصدارة العظمى، ولم يمض على تسلمه إياها أكثر من شهرين، ولم يف

---

(١) ضياء كوك ألب: من أصل كردي، وُلد في ديار بكر عام ١٢٩٣، اشتغل في التعليم فتأثر بمدير المعهد الذي يعمل به، وكان من اليهود، وكانت له ميول متطرفة، كما تأثر بالإلحاد، سافر إلى إستانبول عام ١٣١٥، والتحق بكلية الطب البيطري، وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي السرية، وأُقصي عن التعليم، وسجن، ثم أُطلق سراحه، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في ديار بكر، أصدر جريدتين بعد خلع السلطان عبد الحميد، ثم أقام في إستانبول، وعُيِّن عام ١٣٣٤ أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة إستانبول، هرب من البلاد عام ١٣٣٦، وعاد بعد انتصار مصطفى كمال، وانتخب نائباً عن ديار بكر عام ١٣٤١، وتوفي بعدها بعامين (١٣٤٣هـ).

(٢) كان خلع مدحت باشا نتيجة اتصاله بالإنكليز، إذ كان على صلةٍ مع دذرائيلي اليهودي رئيس وزراء إنكلترا، وكان مدحت باشا يلمح بضرورة وصاية إنكلترا على الدولة كي لا تستطيع الدول الأخرى اقتطاع أي جزء من أملاكها، وعمل على اختيار ٤٨ نائباً نصرانياً من مجموع ١١٧ نائباً. كما حوكم على خلع السلطان عبد العزيز وتبيّن أنه وراء عملية قتله. فكانت جريمة القتل والخيانة العظمى في حق أمته، ووضعت إنكلترا كل ثقلها في سبيل إنقاذه.

بوعده بتعيين الرجال الذين وعد بتعيينهم، وعلّق الدستور، وأرجأ اجتماع مجلس النواب في صفر عام ١٢٩٥ إلى أجل غير مسمى، حيث لاحظ أن أكثر أنصار الدستور كانوا على صلة بالساسة الأوربيين، ومن الذين يُعادون القانون الإسلامي، لذا بدأ يبطش بكل من يدعو إلى تبني الفكر الغربي، وفي الوقت نفسه كان يهتمّ بتدريب الجيش، ويقوّي مركز الخلافة، ويدعو إلى الجامعة الإسلامية. فخاب ظن هؤلاء المفتونين بأوربا، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الدستوريين»، وانطلقوا في كل مكان يعملون على نشر أفكارهم، ويؤلفون الجمعيات السرية سواء أكانت بين المدنيين أم بين العسكريين، فتأسست جمعية الاتحاد والترقي[١] في باريس عام ١٣١٦، ووجدت جمعية الحرية في سلانيك عام ١٣٢٣، ثم اندمجتا معاً، وأصبحت الجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس، أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك. وكان أقدم هذه الجمعيات الشبيبة[٢] العثمانية التي تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢ ولكنها كانت علنية. أما التنظيمات العسكرية فكان أولها تنظيم نيازي بك في رسنة، وتنظيم أنور بك[٣]، وتنظيم رائف بك،

---

(١) كانت جمعية الاتحاد والترقي هي الجناح العسكري من جمعية تركيا الفتاة، وعمل هذا الجناح على ترك فكرة القومية التركية مرحلياً كي لا ينفر منها غير الأتراك، فنجحت مبدئياً مما جعلها تظهر على حين يختفي اسم تركيا الفتاة.

(٢) الشبيبة العثمانية تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢، وتهدف إلى تغريب الدولة العثمانية، وكانت سرية، لم يزد عدد أعضائها عام ١٢٨٤ على ستة أعضاء، ثم ازداد إلى ٢٤٥ عضواً مباشرة، وعندما ضغط عليها الوزير عالي باشا انتقل مركزها إلى باريس. وصدر العفو عن أولئك الأعضاء بعد وفاة عالي باشا عام ١٢٩٩ فعادوا إلى إستانبول، وضعف شأنها في باريس، حيث انضم أعضاؤها إلى الاتحاد والترقي.

(٣) أنور بك: ولد عام ١٢٩٩ في إستانبول، كان أبوه أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد الثاني. وتزوج ابنة أخي السلطان، دخل الكلية الحربية في إستانبول وتخرّج منها برتبة رئيس، وعُيّن في الفيلق الثالث بسلانيك، وقاد عام ١٣٢١ العمليات العسركية العثمانية ضد العصابات المقدونية، وفي عام ١٣٢٤ عُيّن في أركان الفيلق الثالث بمناستر، وانضم هناك إلى الاتحاد والترقي، وجذب إليها الجنرال محمود شوكت، وفي عام ١٣٢٧ عُيّن ملحقاً عسكرياً في برلين فتعلّم اللغة الألمانية. ترك برلين، وانضم إلى المقاومة العثمانية في ليبيا، وعُيّن عام ١٣٣١ حاكماً على بنغازي. وعاد إلى إستانبول =

وتنظيم حسن بك، وتنظيم صلاح الدين بك، وبدأت التنظيمات العسكرية تنمو وتتسع دائرتها بسرعة، والحكومة منصرفة إلى تقوية الجيش وإلى الخطر اليهودي الذي بدأ يبرز بشكلٍ واضحٍ سواء عن طريق يهود الدونمة، أم عن طريق الماسونية، أم عن طريق اليهود من خارج الدولة، إذ ساعدوا الجمعيات السرية، وكان اليهود قد دعوا إلى اجتماع لبحث قضيتهم، وعقد المؤتمر الذي دعوا إليه في (بازل) بسويسرة عام ١٣١٤، ورأوا في المؤتمر أن يعملوا على تأسيس وطن لهم يجمعوا فيه أبناء عقيدتهم الذين يُضطهدون في العالم نتيجة تصرّفاتهم وآرائهم وعقائدهم الخاصة بهم سواء أكانت ابتزاز الأموال أم تسخير الجنس لحسابهم، أم قتل الأبرياء للحصول على الدماء لعمل فطيرهم في عيدهم، وأصرّ (هرتزل) يومذاك على أن تكون فلسطين هي الوطن لهم، وأعطى الصلاحيات من أجل تحقيق غايتهم، فنشأت الفكرة الصهيونية. وأصبح هرتزل يتصل بالسلطان عبد الحميد، ويحاول أن يعظّمه لتتوطد الصلة بينهما غير أن عبد الحميد لم يأبه به، فحاول هرتزل تحقيق هدفه عن طريق دولة أوربية واختار لذلك إنكلترا التي هي حريصة على مصر بصفتها تملك الممر لطريق الهند، على أن مصر تجاور فلسطين، لذلك فقد اختار إنكلترا، فعرض على الإنكليز إنشاء دولة يهودية في فلسطين يكون لها استقلال ذاتي، وتُساعد إنكلترا على الوصول إلى الهند إن تعذّر طريق مصر، كما يمكن مدّ خطٍّ حديدي من فلسطين إلى الخليج العربي، وذلك منافسة للألمان الذين كانوا على صراع مع الإنكليز، ولهم نفوذ في الدولة العثمانية في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، وقد حصلوا على امتياز خطٍّ حديدي يصل بين إستانبول والبصرة عبر بغداد... وأن

= وقاد انقلاباً ضد خصومه من أعضاء تجمّع الائتلاف الحر، واستعاد أدرنة من البلغار في حرب البلقان الثانية، وحكم البلاد مع طلعت باشا، وجمال باشا حتى هُزمت الدولة في الحرب العالمية الأولى، واحتل باكو بعد الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وفرّ إلى ألمانيا، وذهب إلى موسكو عام ١٣٣٩، ورجع إلى برلين للذهاب إلى الأناضول، وحاول الروس الاحتفاظ به، ففرّ منهم بحيلة، وانضم إلى الثورة المضادة للشيوعية في بخارى، وطلب من الروس إخلاءها، فقُتل في المعركة عام ١٣٤٢.

اليهود يمكنهم أن يقدموا المال اللازم للدولة العثمانية لتصحيح المالية بصفة أن الدولة هي صاحبة السيادة على فلسطين.

وعرض هرتزل مشروعه على روسيا أيضاً فتجاوبت معه على لسان وزير الداخلية يومذاك الذي عرض عليه أن روسيا يمكنها أن تتخلى عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود الذين يعيشون في بلادها لكنها لم تكن لتتخلّى عنهم جميعاً إذ تود أن تحتفظ بأصحاب الإمكانات الفكرية منهم.

ولم يُفلح هرتزل مع السلطان عبد الحميد لذا حرص أن يستعين عليه ببعض الزعماء من العثمانيين الذين استطاع إغراءهم بالمال أو بأشياء أخرى، واستعان كذلك ببعض أصدقائه من الأجانب الذين كانوا على صلة بالسلطان نفسه أو ببعض أصحاب النفوذ، ومن هؤلاء سفراء ألمانيا والنمسا... ورفض السلطان عبد الحميد من كل من عرض عليه سواء أكان من الأجانب أم من هرتزل نفسه أم من بعض العثمانيين، ثم حاول هرتزل أن يخدم السلطان ببعض الخدمات ضد المتمرّدين من الأرمن واليونان.... ولكن ذلك لم يفد شيئاً وعندما زار إمبراطور ألمانيا إستانبول عام ١٣١٥، ومنها انتقل إلى بلاد الشام لحقه هرتزل وقابله في القدس بوساطة رئيس وزراء ألمانيا، وبوساطة السفارة الألمانية في إستانبول تمكّن ومعه الحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من مقابلة السلطان، وقدموا الإغراءات فطردهم السلطان، وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، وعندها قرّر اليهود العمل على خلعه، وبدأوا يعملون ضده، وحاولوا الإفادة من المنظمات الأرمنية.

وأما الماسونية فهي منظمات عالمية تضمّ مختلف الأديان والأجناس والشعوب وتعمل على خدمة بعضها لبعض، ولكن تعمل بوحي يهودي، وأسرار يهودية، وينتمي إليها معظم الرجالات الذين بحاجة إلى دعم وخاصة زعماء البلاد، ومن يريد لنفسه الزعامة، وقد دعمت هذه الحركة الجمعيات السرية التي تعمل ضد السلطان عبد الحميد، وبذلت قصارى جهدها لمساعدة اليهود في مسعاهم سواء أكانت الهجرة إلى فلسطين في البداية،

وتكليف الرؤساء لهذا، والقضاء على السلطان عبد الحميد في النهاية، وفي الوقت نفسه فقد عملت هذه الحركة في صفوف العثمانيين سرّاً، فهي منظمة سرية بالأصل، وتمكنت أن تضم إليها أعداداً من الأشخاص البارزين، وهي بالأصل توجه اهتمامها إلى البارزين كي تستفيد منهم، وتستطيع أن تُكلفهم بخدمات لغيرهم كي تجلبهم إليها، أو تحقق على أيديهم بعض أغراضها، ومن هؤلاء الذين كسبتهم محمد طلعت باشا[1] الذي انتخب رئيساً لمحفل الشرق العثماني. ومن الذين انضموا إلى الماسونية أحمد جمال باشا، وقد أوقعت هذه الحركة الدولة بكثير من الأزمات السياسية، وخرجت الدولة خاسرةً، ومنها حرب طرابلس، التي أعطت إيطاليا من أجلها المبالغ الطائلة للماسونية كي يقنعوا الدولة في سحب قواتها، كما عملت هذه الحركة لإرسال القطعات العسكرية إلى اليمن، وبصورة عامة أصبحت الدولة تحت نفوذ الماسونية بتأثير طلعت باشا وجمال باشا، ولما علم طلعت باشا بالمؤامرات قتلته الماسونية على أيدي الأرمن في برلين.

وأما يهود الدونمة فمن المفيد الحديث عنهم بعض الشيء. حدث اضطهاد لليهود في الأندلس في نهاية القرن العاشر الهجري فهرب كثير منهم من محاكم التفتيش، وتشرد كثير منهم من الأندلس ومن روسيا، وهاموا على وجوههم إذ يكرههم الناس، والمجتمعات، والدول لتصرفاتهم القذرة، ولم يجدوا لهم إلا التوسط لدى الدولة العثمانية لتسمح لهم بالاستقرار في

---

(١) ولد محمد طلعت عام ١٢٩٢ في أدرنة، وكان أبوه موظفاً صغيراً لدى الدولة العثمانية، درس القانون في سلانيك، وانضم إلى شركة الهاتف، ودخل في جمعية تركيا الفتاة ورأس أول خلية للاتحاد والترقي في سلانيك مع سبعة من أصاقائه، ثم اعتقل لنشاطه السياسي، وأُطلق سراحه بعد سنتين، وعُيّن رئيساً لأمناء البريد والهاتف في سلانيك، ثم عُيّن نائباً عن أدرنة عام ١٣٢٦، ثم وزيراً للداخلية، فوزيراً للبريد، وتقلّد الأمانة العامة للاتحاد والترقي عام ١٣٣٠، وانحاز في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان تحت تأثير أنور باشا، وعمل على تهجير الأرمن إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام، استقال عند الهزيمة عام ١٣٣٧، وغادر البلاد إلى ألمانيا، وقتل هناك عام ١٣٤٠.

بلادها، ووجدوا ضالتهم في زوجة السلطان سليمان القانوني اليهودية[1]، فتوسطت لهم لدى السلطان وحصلت على إذن منه بالهجرة لهم إلى بلاده، فأقام قسم منهم في إزمير، ومن هذا القسم أسرة سيفي التي وُلد لها ولد عام ١٠٣٥ أسمته سباتاي، وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، إذ ادعى أنه المسيح، وادعى عام ١٠٥٧ النبوة، وحكم عليه بالإعدام من قبل رجال الدين اليهودي، ولكن لم تُنفذ الدولة فيه الإعدام لانشغالها بالحروب، رحل بعدها إلى إستانبول فأثينا ثم رجع إلى إزمير، وعاد مرةً أخرى إلى إستانبول، ولم يطب له المقام فيها فانتقل إلى إزمير، وتزوج من فتاة يهودية اسمها (سارا)، وبعد مدة اعتقل، وأنكر ما سبق أن ادعاه أمام المحققين، وسُجن في سجن شناق قلعة، وزاره حاخام يهودي بولوني في السجن مدّعياً أيضاً أنه المسيح أيضاً فحدث خلاف بينهما، ونُقل سباتاي إثر ذلك إلى أدرنة، وهناك أظهر الإسلام خوفاً من القتل، وادعى أنه سيعمل على نشر الإسلام بين أتباعه، وفعلاً فقد تظاهروا بالإسلام، وبدؤوا يعملون ضده من داخله، وزاد أثرهم عند دخولهم في الاتحاد والترقي التي كثر عدد أعضائها وزاد خطرهم وخاصة في الجيش.

لم يعد تنظيم الاتحاد والترقي خافياً على الدولة بل ولا على الناس إذ كثرت قوتهم بين الضباط، وألّفوا عصابات تقف في وجه الحكومة إن أرادت شرّاً، حيث تسيطر على الفيلق الأول الذي مقره في إستانبول ولا تستطيع أن تحركه حتى لا تبقى العاصمة دون قوةٍ، هذا من جهة، ومن

---

(١) زوجة سليمان القانوني، هي روكسلان (خُرّم)، وكان سكان القرم قد سبوها في بعض غزواتهم في روسيا فقدموها للسلطان سليمان القانوني بصفتها جميلة جداً، فأنجبت منه ابنه سليمان الثاني، وبنتاً ولما كبرت البنت زوجتها من رستم باشا اللقيط الكرواتي، واستطاعت هذه الزوجة أن تغدر بالصدر الأعظم إبراهيم باشا وتقتله، وتُنصّب مكانه صهرها رستم، كما تمكّنت من قتل ولي العهد الأمير مصطفى بن سليمان القانوني من زوجةٍ أخرى، وأن تُنصّب ابنها مكانه بدعم من صهرها ومؤامرة معه. ولما عُزل رستم باشا تحت تأثير الانكشارية وتولّى مكانه أحمد باشا استطاعت ثانية أن تسعى مع زوجها لقتل أحمد باشا وإعادة صهرها رستم باشا ثانيةً، وتوفيت هذه المرأة عام ٩٧٣.

جهة ثانية فإن عدداً لا بأس به من الضباط فيه ينتمون إلى الاتحاد والترقي. وكان الفيلق الثاني والفيلق الثالث يُعسكران في الجهة الأوربية وهما تحت سيطرة الاتحاد والترقي. أما الفيلق الرابع فيُعسكر في أرضروم، وفيه أنصار للدولة كما فيه أنصار للاتحاد والترقي.

أرسلت الدولة الفريق أول شمسي باشا أرناؤوط قائد الفيلق الثالث للقبض على نيازي بك غير أن شمسي باشا قد قتل قبل أن يقوم بالمهمة، وسيطر قائد الجناح نيازي على مركز البريد في (رسنة)، وحدث اضطراب شعبي في العاصمة بسبب اغتيال شمسي باشا. فأرسلت الدولة ثلاثين فرقةً من الاحتياط في أزمير فانضمت هذه الفرق إلى رجال الاتحاد والترقي فقوي أمرهم.

أرسل نيازي بك برقية إلى السلطان يُعلمه فيها بأنه سيُعلن ما أطلق عليه اسم الدستور والحريات مطالباً إياه بالقبول دون قيدٍ أو شرط. فأرسل السلطان برقيةً إلى المفتش العام حسين حلمي باشا يستوضح فيها عن قوة الاتحاديين وإمكانية مقاومتهم، فجاء الجواب بما يدعو إلى إمكانية المقاومة.. فكلّف السلطان حينئذ المشير خيري باشا الذي كان في سلانيك فرفض الأوامر. وتكفَّل بالأمر إبراهيم باشا قائد إحدى القطعات لكنه لم يستطع عمل شيء.

أرسل رجال الاتحاد والترقي البرقيات من كبريات المدن في الجهة الأوربية (سلانيك، ومناستر، وسكوب، وسيرز) إلى الصدر الأعظم يُهدّدون فيها بالزحف على إستانبول إن لم يُعلن الدستور.

فدعا السلطان مجلس الوزراء إلى الانعقاد، وتأخرت الصحف عن الصدور لتأخر جلسة مجلس الوزراء، إلا أن رجال الاتحاد والترقي قد سبقوا وأعلنوا عن الحرية في سلانيك ومناستر بشعارات الماسونية (العدالة، المساواة، الأخوة). واضطر السلطان أن يُصدر أوامره السامية بمنح الدستور.

وجاءت أعداد من رجال الاتحاد والترقي فاستُقبلوا استقبالاً عظيماً، وحدثت إعدامات عاجلة لكبار ضباط الشرطة السرية الذين يُعادون الاتحاد والترقي، ثم أُعلن عن استقالة وزارة فريد باشا، وتعيين سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة، وأُعلن الدستور والحريات، وصدر العفو العام، وفُتحت أبواب السجون، فانتشر المجرمون من كل نوعٍ، ومن كل جنس في البلاد.

واجتمع المجلس، وفاز فيه الاتحاديون بأغلبيةٍ كبيرةٍ، وتسلّم أحمد رضا رئاسة المجلس، وهو مؤسس جمعية تركيا الفتاة في باريس، ولاحظوا أنهم لم يحصلوا إلا على جزء من أهدافهم، أو أن نجاحهم قد غرّهم وأطمعهم في أكثر مما حصلوا عليه، أو أن السلطان عبد الحميد قد قطع عليهم الطريق عندما وافق على طلباتهم وأعلن الدستور، لذا أرادوا متابعة الأهداف وخلع السلطان عبد الحميد، فبدؤوا يُثيرون القلاقل عن طريق أولئك المجرمين الذين خرجوا من السجن، أو تنكُّر أحدهم وهجومه على الدين أو على العادات مثل لبس القبعة، وتارةً المطالبة بعزل الصدر الأعظم، أو أحد رجالاتهم أو عددٍ منهم كي تظهر المطالبة على أنها من رجال السلطان وأعوانه، أو الدعوة إلى إحياء الشريعة أو التظاهرات التي تتحرك نحو مبنى المجلس النيابي أو نحو القصر، وتحدث أثناء هذه التظاهرات الإثارات وأحداث الشغب والقتل أحياناً، و. . . ومن تلك المطالب التي نسبت إلى رجال القصر، وقاموا بها هم:

١ ـ إحياء الشريعة الإسلامية.

٢ ـ عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية.

٣ ـ طرد أحمد رضا، وحسين جاهد بك، وجاويد بك، ورحمي بك، وطلعت بك، وإسماعيل حقي من المجلس.

٤ ـ عزل محمود مختار باشا.

٥ ـ العفو العام.

ومن ينظر في هذه المطالب لا يشك في أنها من أعداء رجالات

الاتحاد حيث تطالب بإبعادهم غير أنها كانت منهم لإثارة القلاقل والفوضى، ورمي غيرهم بها.

وفي الوقت نفسه فقد بدأت الصحف تكيل الثناء للسلطان عبد الحميد بتوجيه من الاتحاديين كي يتأكّد الناس أنه استعاد شيئاً من قوته، وأن المطالب فعلاً إنما هي من أنصاره، وهي أيضاً تزيد الحماسة لدى الذين يدعون إلى الدستور الوضعي وإلى ما أسموه بالحرية، وتزيد من الدعم الخارجي لرجال الاتحاد خوفاً من عودة السلطان عبد الحميد إلى قوته ودعوته إلى الجامعة الإسلامية.

وأنكر السلطان عبد الحميد ما نُسب إليهِ، وخاطب العسكريين بأن الفيلق الثالث أو ما سمي باسم جيش الحركة إنما هم جنود وضباط من المسلمين مثلكم، فلا تتعرّضوا ولا تنظروا إليهم أية نظرةٍ غير لائقةٍ، ولكن عليهم ألا يصدقوا ما يُشاع، وليبقوا في ثكناتهم ولا يستعملوا السلاح كي يُفوّتوا الفرصة على أعداء البلاد. وأمر بعدم مقاومة جيش الحركة ليقطع عليهم الطريق.

أُبعد الاتحاديون قادة الكتائب من العاصمة، ولم يبق منهم سوى إسماعيل حقي الذي أمر الجنود عندما اجتمعوا في الساحة بالهدوء وتنفيذ الأوامر، فلم يبق للاتحاديين أية ثغرة ينفذون منها.

اجتمع المجلس النيابي، ولم يزد عدد الأعضاء الحاضرين على خمسين عضواً ومع ذلك فقد قرّروا إجابة المطالب التي طُرحت، وأبلغوا السلطان ذلك، فتقرّر عزل الصدر الأعظم السابق، وتعيين توفيق باشا مكانه، كما تقرّر تعيين أدهم ناظراً للحربية، وأصدر عفواً عاماً، فحدثت احتفالات بين الجند، وإطلاق الرصاص لإبقاء حالة الفوضى بإسماع دويّ الرصاص في كل وقت. ثم اجتمع المجلس وقرّر قبول استقالة أحمد رضا من رئاسة المجلس.

وادعى رجال الاتحاد أن الدستور معرض للإلغاء، والحرية مهدّدة

بالاستبداد لذا فقد تقدّم الجيش المرابط في سلانيك بإمرة محمود شوكت[١] لحماية الدستور والمجلس النيابي، وكان في هذا الجيش عناصر مشبوهة ارتدت زي الضباط. ووصل الجيش بقيادة محمود شوكت والذي أطلق عليه جيش الحرية إلى العاصمة دون مقاومة فألقى الحصار عليها، ولم يجد ما يمنعه من شيء فوقف أمام الثكنات على أمل الانتظار إلى الصباح غير أنه لم يلبث أن بدأ يصبّ نيرانه عليها فحدثت الاشتباكات الدامية وأمر إسماعيل حقي جنده برفع الأعلام البيضاء إشارة إلى الاستسلام، فتوقّف القتال، وبرز أنور باشا مع بعض رجاله فقتلوا من وجدوا في طريقهم، ثم ساروا إلى مقر إسماعيل حقي فقتلوه أيضاً، وجرّدوا الضباط من سلاحهم، ثم انتقلوا للإغارة على قصر (يلدز) حيث يُقيم الخليفة فقتلوا مرافقه، ونهبوا القصر، وأحدثوا مذبحةً كبيرةً فيه دون سبب، وأُعلنت الأحكام العرفية، ومُنع التجول من بعد المغرب.

شكّل المجلس النيابي مجلساً أطلقوا عليه اسم المجلس الملكي فاجتمع مع مجلس الحركة، وقرروا خلع السلطان عبد الحميد باستصدار فتوى من شيخ الإسلام. واجتمع مجلس المبعوثان مع مجلس النواب وقررا في جلسةٍ مشتركةٍ خلع السلطان بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام بضغط الاتحاديين. واستدعى المجلس الصدر الأعظم توفيق باشا. لتكليفه بإبلاغ القرار إلى الخليفة فرفض، فكلّف المجلس وفداً من الفريق البحري عارف حكمت، وآرام الأرمني، وعمانوئيل قره صو اليهودي[٢]، وأسعد طوبطاني، وذهب

(١) محمود شوكت: ولد في بغداد عام ١٢٧٦، دخل المدرسة العسكرية في إستانبول، وتخرج منها عام ١٣٠٠ برتبة نقيب، وذهب في البعثة العسكرية إلى ألمانيا عام ١٣٠٤، ورجع برتبة جنرال (عميد)، قاد عناصر حركة ١٣٢٧، ثم عُيّن وزيراً للحربية، ثم رئيساً للوزارة عام ١٣٣١، واغتيل بعد ستة أشهر.

(٢) عمانوئيل قره صو: عُرف بسلانيك، وكان يحمل جنسية عثمانية وأخرى إيطالية، احتضن محمد طلعت منذ بداية أمره، واعتقلا معاً، واستطاع أن يُنقذ نفسه، وأن ينقذ طلعت معه، قاد العمل ضد السلطان، وقبض أربعمائة ألف ليرة ذهبية من البنك الإيطالي وسلّمها للاتحاديين لهذا الغرض وأصبح نائباً عن سلانيك، وعضو الوفد الذي بلّغ السلطان خلعه.

الوفد إلى الخليفة وقرأ الفتوى، فتقبل السلطان ذلك الأمر، ولكنه خاطبهم قائلاً: ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي (وأشار إلى قره صو) إلى مقام الخلافة؟

ومن ينظر إلى رجال الاتحاد والترقي، وهم من الشباب الذين لم يتجاوز أكبرهم الثلاثين كيف كانوا يلعبون بالأمة وأمورها؟ ويتغيّر رأي الواحد فيهم بين ساعةٍ وأخرى حسب المؤثر عليه، فترى أنور باشا تارةً من أكبر المتطرفين، وأخطر الثائرين، وأبعد الناس عن التفكير في تصرفاته مثل موقفه أمام الثكنة وقتل الجنود ثم قتل إسماعيل حقي... وتراه تارةً أخرى من أكبر أنصار الإسلام والمدافعين عنه مثل موقفه في قتال الطليان في ليبيا وقتاله الروس في بخارى وهكذا... ويبدو أن هؤلاء الشباب كانت طموحاتهم واسعةً فهم يفكرون في مستقبلهم المشرق بالزعامة وكان يُخطط لهم اليهود والمخابرات الإنكليزية سرّاً وهم لا يدرون إلى أين يسيرون! منهم المخلص لبلده ونفسه ومنهم ما هو دون ذلك، ولكن لا يدري ماذا يُفعل به!

ونقل السلطان عبد الحميد إلى سلانيك مع أسرته ومرافقيه وبقي تحت حراسة الاتحاديين حتى حرب البلقان إذ نُقل بعدها إلى قصر بكلربكي في إستانبول، وبقي فيه حتى توفي.

استمر حكم السلطان عبد الحميد أكثر من ثلاثٍ وثلاثين قدّم خلالها عدداً من الخدمات إذ حفظ الدولة من الانهيار بعد الحرب مع روسيا، وقمع تمرّد كريت، وانتصر على اليونان، ودرّب الجيش على أساليب القتال الحديثة على أيدي مدربين من ألمانيا. وفتح المدارس، ودور المعلمين، والجامعة بكلياتها كافةً، ودار العلوم السياسية، والفنون النسوية، والمتاحف، والمكتبات، ومدرسة الطب، ومستشفى الأطفال، ودار العجزة، ومركز البريد، ومدّ أنابيب مياه الشرب، ودار النفوس العامة، والغرف الزراعية والصناعية والتجارية، ومعملاً للخزف، ومدّ الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة، وكان طوله ١٣٢٧كم، واستغرق العمل فيه سبع سنوات (١٣٢٠ ـ ١٣٢٧).

واشتهر بدعوته للجامعة الإسلامية.

وتسلّم الحكم بعده أخوه محمد رشاد. وبقي السلطان عبد الحميد في قصره حتى توفي عام ١٣٣٦.

الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع

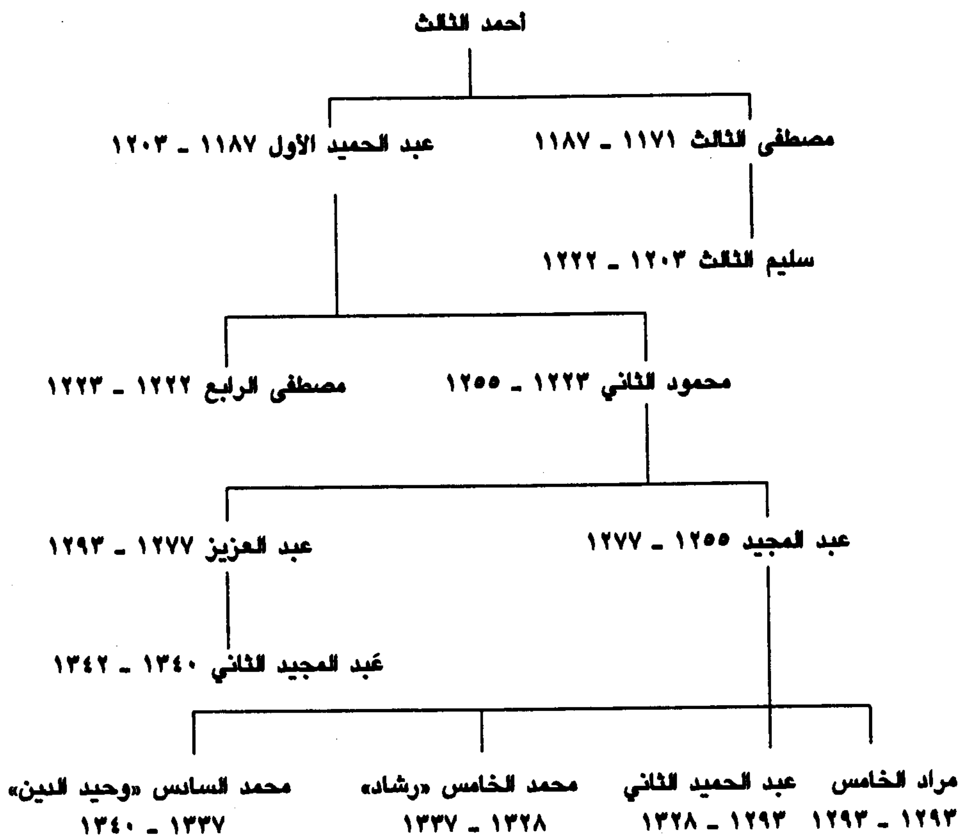

الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع

السنوات	الخليفة	الأحداث
١١٧١ – ١١٨٧	مصطفى الثالث	ثورة علي بك في مصر. ثورة ضاهر العمر.
١١٨٧ – ١٢٠٣	عبد الحميد الأول	معاهدة قينارجة. مقتل ضاهر العمر. استيلاء روسيا على القرم.
١٢٠٣ – ١٢٢٢	سليم الثالث	معاهدة ياسي. احتلت روسيا بلاد القرم وقوبان وبسارابيا. حملة نابليون على مصر. وصول محمد علي إلى حكم مصر.
١٢٢٢ – ١٢٢٣	مصطفى الرابع	
١٢٢٣ – ١٢٥٥	محمود الثاني	قتال الدولة السعودية. ثورة اليونان. إلغاء الإنكشارية. الحرب مع روسيا ومعاهدة ادرنة. احتلال فرنسا للجزائر. دخول محمد علي باشا بلاد الشام.
١٢٥٥ – ١٢٧٧	عبد المجيد	خط شريف كولخانة انسحاب جيوش محمد علي من الشام مسألة لبنان والحرب الطائفية. حرب القرم الفتنة الطائفية في الشام.
١٢٧٧ – ١٢٩٣	عبد العزيز	الخط الهمايوني. ثورة كريت. مجلة الأحكام العدلية. فتح قناة السويس.
١٢٩٣ – ١٢٩٣	مراد الخامس	
١٢٩٣ – ١٣٢٨	عبد الحميد الثاني	الحرب مع روسيا ومعاهدة سان استيفانوس. احتلال إنكلترا لجزيرة قبرص. مؤتمر برلين.
١٣٢٨		سيطرة الاتحاد والترقي.

الفصل السابع

حكم الاتحاديين

بعد خلع السلطان عبد الحميد أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان صورةً، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء، وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهُزمت وتجزّأت، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزين أو الذين كانت بيدهم الأوامر والنواهي، وجاء إلى الحكم من جديد مصطفى كمال الذي كان منصرفاً إلى شهواته وبناء مجده فألغى الخلافة حسب دورٍ مخططٍ له، وزالت الخلافة العثمانية أو الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعُد للمسلمين خلافة فانقسمت بلادهم، وظهرت النعرات القومية، وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين، وهذا ما سنراه في الأجزاء التالية من الكتاب ـ إن شاء الله ـ أما الخلفاء الذين تعاقبوا أيام حكم الاتحاديين فهم:

١ ـ محمد رشاد (محمد الخامس):

ولد عام ١٢٦٠ وتولى الحكم بعد أخيه عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٨، أي كان عمره ثماني وستين سنة.

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٣٠ وحصل الاتحاديون على فوزٍ ساحقٍ فيها، وانتشرت الدعوى القومية، وبدأت الصحف، والمجلات، والكتب تركّز على هذا الموضوع، وبذا فإن شعارات الاتحاد والترقي في

المساواة قد ذهبت هدراً إذ لم يتساو بذلك الترك مع بقية العناصر التي تؤلّف الدولة العثمانية، وظهرت المهاترات في الصحافة بين القوميات بسبب الحرية التي أُعطيت فسببت الإشكالات، وظهر الاختلاف بين الدعوة المركزية واللامركزية، وتبنّى الاتحاديون فكرة المركزية، وعارضهم حزب الائتلاف الحر إذ دعا إلى اللامركزية، وبصورةٍ عامةٍ فقد بدأت الدولة تتخبط في تياراتٍ فكريةٍ دخيلةٍ أشعل أوارها النصارى واليهود سواء أكانوا من الذين يعيشون كرعايا في الدولة العثمانية أم كانوا من الذين يعيشون خارج الحدود، وتتدخل مخابرات الدول الأوربية في الأمر على أية صورة كان الاختلاف.

الحرب الطرابلسية ـ الإيطالية:

كانت إيطاليا تطمح بالسيطرة على طرابلس، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٢٩٩، وبدأت إيطاليا تعقد الاتفاقات السياسية مع الدول الأوربية الأخرى مثل إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، والنمسا، ثم انصرفت إلى تهيئة الوضع داخل ليبيا فعملت على شراء الأراضي، وإنشاء المشروعات الزراعية، وإرسال البعثات النصرانية الكاثوليكية، وفتح المدارس الإيطالية، وتأسيس شركةٍ للبواخر التي تقوم بالنقل بين ليبيا وأوربا... ومسح السواحل عن طريق ضباط يُظهرون العمل بصيد الإسفنج.

وفي ١٢٣٨ قدّمت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية اتهمتها بعرقلة المساعي لتحضير سكان ليبيا، ولا تريد إضاعة الوقت بالمفاوضات، وإنما قرّرت احتلال ذلك الجزء من شمالي إفريقية، واحتج الباب العالي لدى الدول الأوربية وقد كانت على علم مسبق بالموضوع، وأعلنت الدولة العثمانية رفض ذلك الإنذار، غير أن إيطاليا قد حاصرت سواحل طرابلس وبرقة كي لا تصل إليها مساعدات، وكذا حاصرت إنكلترا الحدود البرية من جهة مصر رغم تظاهرها بالحياد. وبدأ الأسطول بقصف السواحل، وإنزال القوات، التي احتلت طرابلس، وبنغاري، والخمس، وعرفت البلاد باسم

ليبيا، وأعلنت روما ضمّ هذا الجزء من شمالي إفريقية إليها. وبدأت المقاومة تشتد حتى ألجأت المستعمرين إلى الساحل، وتقدّم العثمانيون بقيادة عزيز المصري، والمتطوعون بقيادة أنور باشا، وأخوه نوري، وعمه خليل، والسكان، ومنهم السنوسيون، ووصلوا إلى طرابلس، وانتصروا على الطليان في بنغازي.

هدّدت إيطاليا باحتلال إستانبول، إذ أرسلت بارجتين إلى هناك، واحتلت بعض الجزر، وضربت ميناء بيروت، واضطرت الدولة إلى عقد معاهدة مع إيطاليا، وانسحبت من ليبيا وتركت المجاهدين وحدهم في الميدان، واضطر أنور باشا بل أُجبر على الانسحاب فتولى قيادة المجاهدين عزيز المصري...

حدثت معاهدة السلم عام ١٣٢٩، ولم تعترف الدولة العثمانية بالاحتلال الإيطالي وإنما تعهدت بسحب موظفيها وجنودها، وصدر قرار سلطاني بإعطاء ليبيا الاستقلال الذاتي، وتعهدت إيطاليا بإعطاء الحرية الدينية، والعفو العام، وقبول ممثلٍ عثماني، ولم تُنفّذ إيطاليا بنود الاتفاقية.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب الألمان على حين وقف الطليان بجانب الحلفاء الإنكليز، والفرنسيين، والروس، فعادت الدولة وإيطاليا وجهاً إلى وجه، وعادت الدولة تُرسل المؤن والمساعدات إلى المجاهدين حتى انتهت الحرب العالمية وخرجت الدولة مهزومة مفكّكة الأوصال مقسّمة الأجزاء كل قسم يهتم بمصالحه الخاصة.

هذه الهزائم التي مُنيت بها الدولة أو جماعة الاتحاد والترقي في ليبيا جعلت خصومهم يتقوّون عليهم، وجاء التهديد من جانب الجيش فأجبرهم على التخلي عن السلطة عام ١٣٣٠، وتشكل ائتلاف سياسي من خصومهم عُرف باسم الائتلاف الحر أو الاتحاد الحر. وهكذا تخلّى الاتحاديون عن الحكم، وشكّل الوزارة محمد كامل باشا.

حرب البلقان:

رفضت البوسنة والهرسك دعوة مندوبيها لحضور المجلس النيابي في

إستانبول عام ١٣٢٧ مع أنها كانت لا تزال تتبع الدولة العثمانية اسمياً، واتجهت نحو الصرب، وهذا ما أثار النمسا التي ترغب في وضع يدها على البوسنة والهرسك، وتختلف مع الصرب عقيدياً وسياسياً، إذ أنها تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي على حين تعتنق الصرب الأرثوذكسية، فأسرعت النمسا واتفقت مع روسيا سرّاً على أن تضمّ البوسنة والهرسك إليها مقابل أن تكون مضائق البوسفور والدردنيل مفتوحةً دائماً في وجه حركة السفن الروسية، وبالفعل فقد احتلت النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك، ولم تتمكّن روسيا من فعل شيء، إذ لم توافق الدول الأوربية ذلك بل اضطرت روسيا أمام ضغط ألمانيا على الاعتراف بالواقع في ضمّ النمسا للبوسنة والهرسك، وزاد العداء بين النمسا والصرب.

أما إيطاليا فقد تأثّرت من فعل النمسا لأن لها أطماعاً في مقاطعة البوسنة والهرسك كذلك، وأسرعت لعقد اتفاق سري مع روسيا أيضاً، ويتضمن الوقوف في وجه النمسا فيما إذا حاولت أن تتقدّم أية خطوةٍ ثانيةٍ في بلاد البلقان.

وأعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية عام ١٣٣٠ ووقف بجانبه أعضاء التحالف البلقاني وهم: صربيا، وبلغاريا، واليونان، وتمكّنوا من إحراز النصر على العثمانيين، واستعملوا الطائرات لأول مرةٍ في هذه الحرب، وقصفوا مدينة أدرنة، وفقدت الدولة معظم أراضيها في أوربا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا، وقُسّمت الأراضي الباقية التي كانت للعثمانيين بين أعضاء التحالف البلقاني. وعرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الأولى.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان الأولى فقد الاتحاد الحر الحاكم في الدولة شعبيته نتيجة تلك الهزيمة، وقامت مجموعة من الضباط الاتحاديين بقيادة أنور باشا بانقلاب، وأجبرت رئيس الوزارة محمد كامل باشا على الاستقالة وتشكّلت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت، ولم يكن من أعضاء الاتحاد والترقي، ولم تتمكّن مجموعة الاتحاد والترقي من تمكين

قبضتها على الحكم حتى اغتيل محمود شوكت بعد ستة أشهر من تسلّمه السلطة، وبرز من هذه المجموعة طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا وإن اختلفت آراؤهم إلا أنهم كانوا هم المجموعة التي تُسيطر على الحكم وتُسيّره، وقد كانت آراء طلعت باشا تميل إلى الفكرة العثمانية والبعد عن الحكم اللامركزي، ويميل أنور باشا إلى الفكرة الإسلامية، على حين كان جمال باشا من أنصار فكرة القومية الطورانية.

ولم يلبث أعضاء التحالف البلقاني أن اختلفوا على تقسيم التركة التي حصلوا عليها، وتنازعوا حول سيادة بلغاريا على مقدونيا، وقد أصرّت بلغاريا على ذلك، فوقفت في وجهها كل من رومانيا، والصرب، واليونان، ووقعت الحرب في عام ١٣٣٢ فانضم العثمانيون في هذه الحرب ضد البلغار، وحصلوا من البلغار على جزء مما خسروه في حرب البلقان الأولى إذ ضمّوا إليهم تراقيا بما فيها مدينة أدرنة نتيجة معاهدة لندن عام ١٣٣٢، وعُرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الثانية.

الدولة والحرب العالمية الأولى:

لقد استطاع أنور باشا أن يجرّ الدولة إلى الحرب بجانب الألمان رغم معارضة طلعت الذي لم يلبث أن وافق على دخول الحرب، وجاويد الذي ظل متمسكاً برأيه فاستقال، وجمال(١) الذي قال بالحياد ثم انضمّ إلى جانب أنور. أما السلطان محمد رشاد فكان ضدّ الحرب ويؤيّده في ذلك ولي العهد يوسف عز الدين(٢)، وأكثر الوزراء، ولعله مما قوّى جانب أنور باشا

---

(١) جمال باشا: ولد في إستانبول عام ١٢٩٠، انضم إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابط ركن، أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة عام ١٣٢٧، ثم حاكماً لإحدى الولايات، ثم قائد قوى الأمن في إستانبول، ثم وزيراً للأشغال العامة، ثم غدا أحد عناصر الحكم بعد حركة ١٣٣١، قاد الهجوم على قناة السويس في الحرب العالمية الأولى وفشل، وعُيّن بعدها حاكماً على سورية فعمل على سحق الأرمن، غادر البلاد بعد الحرب، وعمل عند الأفغان، واغتاله الأرمن في تفليس.

(٢) يوسف عز الدين بن السلطان عبد العزيز كان ولياً لعهد السلطان محمد رشاد بصفته أكبر=

استيلاء الإنكليز على دارعتين للدولة، ولجوء طرادين ألمانيين إلى مياه الدردنيل ورفضت الحكومة تسليمهما رغم إلحاح الحلفاء، واقتراح فرنسا على جمال باشا عندما زارها مندوباً عن الباب العالي لحضور المناورات الفرنسية، ولعقد معاهدة لتقوية الصلات بين الدولتين، وكان هذا الاقتراح إعطاء استقلالٍ ذاتي لسوريا وإطلاق يد فرنسا فيها. كل هذا ساعد على دخول الدولة إلى جانب الألمان في الحرب مع الاستشعار بالخطر الروسي وسيطرته على أجزاء واسعة من بلاد المسلمين في بلاد التتار والشركس وبقية القوفاز وأواسط آسيا، وسيطرة بقية دول الحلفاء من إنكليز، وفرنسيين، وطليان على مساحات واسعة من بلاد المسلمين سواء أكان في إفريقية أم في آسيا. وفي الوقت نفسه لم تكن أطماع ظاهرة بعد لألمانيا في الدولة خاصة وبلاد المسلمين عامة.

وحاول الحلفاء إبقاء الدولة على الحياد بإغرائها بالقروض المالية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت قائمةً والتي كانت سبباً في كثيرٍ من المشكلات الداخلية، والسماح للبحارة الألمان بالعودة إلى ألمانيا غير أن حكومة الاتحاد والترقي قد رفضت هذا كله، وألغت الامتيازات الأجنبية بنفسها، وقدّمت مذكرة للحلفاء تطلب منهم.

١ ـ إلغاء الامتيازات الأجنبية.

٢ ـ خروج إنكلترا من مصر.

٣ ـ إعادة الجزر في بحر إيجه للدولة العثمانية.

٤ ـ منع روسيا من التدّخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وحاول الحلفاء التأخر في ردّ الجواب، وانقطعت العلاقات.

كانت ألمانيا قد تقدّمت في بلاد فرنسا، ولكنها توقّفت عند نهر

= أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة سناً، غير أنه توفي عام ١٣٣٥ قبل وفاة محمد رشاد، قيل: انتحر، وقيل: قتله الاتحاديون لمخالفتهم، وقيل: قتل بالسم.

المارن أحد روافد نهر السين الذي يمر من العاصمة باريس، فرأى الألمان يومذاك أن يضغطوا على الدولة العثمانية كي تشترك في الحرب إلى جانبهم لتُفتح جبهة جديدة في الشرق على روسيا فيخفّ الضغط على الألمان في تلك الجهة ويمكنهم التحرك نحو الغرب والهجوم من جديد، وكسر القوات الحليفة المتمركزة عند نهر المارن. وعرضوا على الاتحاديين قرضاً مالياً بمبلغ خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية مقابل دخولهم إلى جانبهم.

أمر وزير الحربية أنور باشا الأسطول العثماني بالتحرك إلى البحر الأسود وضرب مرافئ روسيا على البحر الأسود، فلم يوافق وزير البحرية جمال باشا، وكاد الخلاف يقع بينهما إلا أن جمال عاد وامتثل لرأي أنور، وخاصة كان القرض الألماني من أهم المغريات له.

ضربت القطعات البحرية العثمانية مرفأ أوديسا وأغرقت طراداً روسياً، وضربت دارعة ألمانية ميناء سيباستيبول وفي أثناء انسحابها أغرقت باخرة نقل روسية، وجرت معارك بحرية في ذلك البحر بين الطرفين، وبذا دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان وإن كان الخليفة والصدر الأعظم لم يعلم بذلك بعد. ولما علم ووافق تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع أعلن الجهاد المقدس ضد الحلفاء، غير أن المسلمين لم يتجاوبوا معه لأنّ ألمانيا دولة نصرانية مثل بقية دول الحلفاء، ولأن رجال الاتحاد والترقي لم تكن عندهم تلك الحماسة الدينية أو العمل للإسلام بشكل واضح هذا بالإضافة إلى ضعف المسلمين وعدم معرفتهم بما يدور حولهم، ومصالح بعضهم، ورغبة بعض زعمائهم ببقاء الدولة على الحياد فربما كان ذلك في مصلحة المسلمين.

أما دول الحلفاء فلم تكن سوى إنكلترا ترغب بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الحلفاء، لأن فرنسا تريد تحقيق مصلحتها في سوريا، وروسيا تريد الاستيلاء على إستانبول والسيطرة على المضائق فإذا دخلت الدولة إلى جانبهم لم تتحقق مصلحة فرنسا ولا مصلحة روسيا، لذا كانتا تريان بقاءها على الحياد والتحكم فيها بعد تحقيق النصر.

اشتعلت نار الحرب بين الدولة والحلفاء على عدة جهات، وقد جمعت الدولة بعد التعبئة العامة نصف مليون جندي تحت السلاح، وربع مليون آخر كان تحت التدريب. احتفظ منها بمائتي ألف حول العاصمة والدردنيل، وخمسين ألفاً في تراقيا احتمالاً لأي طارئ يأتي من هذه الجهة، ومائة ألف وضعوا على الجبهة الشرقية التي كان مقرها أرضروم، وأربعين ألفاً أرسلوا إلى فلسطين، وكان أكثر من مائة ألف على شكل قطعات موزعة في سوريا والقوقاز.

١ ـ الجبهة الشرقية:

هاجم العثمانيون الروس من ناحية القوقاز لتخفيف الضغط عن حلفائهم الألمان، متحدّين برد الشتاء القاسي، وهذا ما لم يتوقعه أحد، وقاد هذه الجبهة أنور باشا بنفسه بمائة ألف جندي، غير أن الهجوم العثماني قد فشل، وأُبيدت قطعات عثمانية بشكل تام، واضطروا إلى التراجع إلى قاعدتهم في أرضروم.

٢ ـ جبهة قناة السويس:

أراد العثمانيون الهجوم على قناة السويس لقطع طريق الهند عن الإنكليز، وإخراجهم بالتالي من مصر، وتوقّعوا أن يقف الشعب المصري بجانبهم في الوقت الذي يصلون فيه إلى ضفاف القناة، وبناءً على هذا التوقع لم يستعدوا كثيراً لهذه الحملة. وساعدهم على التقدّم في سيناء يومذاك هطول أمطار فتماسكت الرمال، وأمكن الحركة بسهولة، غير أن المدافع الثقيلة صعب نقلها إلى خط الجبهة. وإن بُعد هذه الجبهة لم يُمكّن العثمانيين القيام بالهجوم على هذه الجبهة في بداية الحرب، وإنما تأخر قليلاً، ومما زاد في التأخير أن القوة التي تشكلت في دمشق والتي تؤلّف الجيش الثامن، ومعظمها من سكان بلاد الشام، قد فرّت أعداد منها من الجيش، فاضطر المسؤولون إلى إبدالها بقواتٍ من الأناضول حيث تشكّل

الجيش الرابع وأعطيت قيادته إلى جمال باشا على حين نُقل الجيش الثامن إلى بلاد الأناضول.

وتحرّكت قطعات من الجيش الرابع إلى الجبهة المصرية، وبقيت قطعات أخرى مرابطة في بلاد الشام خوفاً من أن ينزل الحلفاء قوات على سواحل بلاد الشام، إضافة إلى الخوف من السكان وخاصةً النصارى الذين كانوا على صلة مع الحلفاء سواء أكانوا من الكاثوليك الذين يعدون أنفسهم رعايا لفرنسا، أم من الأرثوذكس الذين يعدون أنفسهم رعايا للروس، ويكثر الأوائل منهم في لبنان على حين يزيد الآخرون في بقية بلاد الشام.

تحرّكت ثماني فرق عثمانية من بلاد الشام عبر سيناء إلى قناة السويس، في بداية شتاء عام ١٣٣٣، وقد سلكت محورين في تحرّكها أولهما محور رفح ـ القنطرة، وهو الأقصر ويزيد طوله على ٢٢٥ كيلومتراً، وثانيهما، وهو طريق معان ـ السويس وهو طريق للقوافل يوازي خط العرض ٣٠° شمالاً ويزيد طوله على ٣٢٥ كيلومتراً.

ووصلت القوات العثمانية إلى ضفاف قناة السويس بعد خمسة عشر يوماً من الحركة، وكانت القطعات الهندية مكلفةً بحماية القناة من أي هجوم عثماني، وقام العثمانيون بهجومهم قبل الموعد المحدد سابقاً والمتفق عليه مع زعماء مصر المسلمين الذين وعدوا بالحركة ضد الإنكليز، ونفذت ذخيرة العثمانيين واضطروا إلى العودة بعد أسبوعين إلى مراكزهم في غزة ومعان، غير أن البدو بدؤوا يغيرون على مصر من الغرب من جهات ليبيا ومن الشرق من جهات سيناء، ولكن الغارات لا تدخل في حساب الحرب العالمية وإنما مهمتها إرباك الخصم، وشل حركته، وإبقاء قطعات من جيشه على أهبة الاستعداد لردّ تلك الغارات.

وبعد شهرين جرت محاولة ثانية للهجوم على قناة السويس مع مطلع شهر الربيع، وقاد الألمان العمليات، غير أن الفشل كان حليف الهجوم الثاني، وقام هجوم ثالث بعد ثلاثة أشهر أخرى في منتصف فصل الصيف وكان قادة العمليات من الألمان أيضاً، وفشل هذا الهجوم كذلك.

٣ ـ جبهة عدن:

وكانت هذه الجبهة ثانوية إذ حاول العثمانيون الهجوم على عدن لإخراج الإنكليز منها، وعرقلة طريق الهند عليهم، ووقف أهل اليمن بجانب العثمانيين على الرغم من القتال السابق والذي استمر عدة قرون، فكانت أرض اليمن مقابر للجنود العثمانيين، وكان العداء مستحكماً بين الطرفين، وكان موقف اليمن بجانب العثمانيين بمقتضى العقيدة، وفشل الهجوم العثماني ـ اليمني على عدن.

ووقف الإدريسي في تهامة عسير، والذي كان مقره «صبيا» بجانب الإنكليز، وقدّم لهم مساعدات كثيرة، وكان على خلاف مع الأئمة الزيود في صنعاء، وربما كان دعم الإنكليز له، هو الذي ساعد على دخول اليمن إلى جانب العثمانيين إضافةً إلى ما ذكرنا من أثر العقيدة.

٤ ـ جبهة الدردنيل:

يُعدّ مضيق الدردنيل مهماً جداً إذ يحول دون وصول الأعداء إلى العاصمة إستانبول، لذا فقد اهتمّ العثمانيون بتحصين هذه الجبهة سواء من ناحية البر الآسيوي أم من ناحية البر الأوربي، واشتهرت قلعة (تشانقلعة) من جهة البر الآسيوي وهي عند المدخل الجنوبي، وغاليبولي من جهة البر الأوربي قبل الدخول في بحر مرمرة، وكانت قطعات الحلفاء قريبة من مضيق الدردنيل، وقام العثمانيون بهجومٍ عليها غير أنهم فشلوا في هجومهم هذا.

الهجوم الإنكليزي:

جرت اتصالات بين الإنكليز وشريف مكة من الهاشميين انتهت بالاتفاق على العمل معاً ضد العثمانيين، ووقف آل رشيد في حائل على الحياد، وعُزل جمال باشا من قيادة الجيش الرابع المكلف بالحملة على قناة السويس، وغدت القيادة في تلك الجبهة كلها بيد الألمان. وهجم الإنكليز

على سيناء، وتقدّم فيصل بن الحسين من مكة يقود فيالق العرب، وهوجمت القوات العثمانية في جبل الدروز، وبعلبك، وحدثت المجاعة في صفوف القوات العثمانية، كل هذا جعل العثمانيين يتراجعون، وكان لهم ثلاثة جيوش في جنوبي بلاد الشام، وقائدها العام الضابط الألماني (ساندرس).

١ ـ الجيش الرابع في البلقاء في الأردن.

٢ ـ الجيش السابع في الوسط، ويقوده مصطفى كمال.

٣ ـ الجيش الثامن في الغرب، ويحمي السواحل.

تقدّم الإنكليز في فلسطين بقيادة الجنرال «اللنبي»، ودخلوا القدس، وأعلن «اللنبي» صليبيته فقال: الآن تنتهي الحروب الصليبية. وقاموا بهجوم عام ١٣٣٦ في جنوب نابلس، وتقدّموا نحو مقر القيادة في الناصرة، وكاد يقع الجنرال الألماني «ساندرس» في الأسر، وتراجع العثمانيون بقيادة مصطفى كمال، وكان الفيلق العربي بقيادة فيصل بن الحسين ويساعده لورانس الإنكليزي قد دخل معان واتجه شمالاً، وانتظره الإنكليز حيث طلبوا منه أن يدخل دمشق قبلهم تكريماً له أو سياسةً ليرضوا أطماعه فيبقى بجانبهم، أو ليعرفوا كيف يستغلونه، ثم دخلت بلاد الشام كلها في قبضة فيصل والإنكليز.

وعلى جبهة المضائق أصدر القائد الإنكليزي (هاملتون) الأوامر بالنزول في بر المضيق، وأعطى القطعات الإنكليزية مهمة النزول على البر الأوربي في غرب غاليبولي، ومهمة النزول في البر الآسيوي إلى القطعات الفرنسية، فنزل عشرون ألف جندي، وأعطت القيادة المشتركة من الألمان والعثمانيين الأوامر إلى مصطفى كمال بالتحرك إلى ساحة المعركة، والتقى الطرفان، ولم يحدث نصر واضح لأية جهة، إذ دافعت القوات العثمانية دفاعاً قوياً، وأظهرت القطعات الاسترالية حماسةً للتقدم أيضاً.

قامت القيادة المشتركة بهجوم على قوات الحلفاء لكنها أخفقت في

زحزحتهم عن مواقعهم، ثم قام هجوم إنكليزي كانت نتيجته الفشل أيضاً، وبدت الكفتان متوازنة تقريباً. ثم تراجع الحلفاء أمام مصطفى كمال دون معارك، وبدأ يلمع نجم مصطفى كمال.

ومع انسحاب العثمانيين من بلاد الشام، وتراجعهم في العراق، بدت عليهم علائم الضعف، ولم تكن حال حلفائهم الألمان بأفضل حالاً، وإن كان التماسك لا يزال قائماً إلا أنه تماسك مؤقت. والتقى مسؤولون عثمانيون وإنكليز على ظهر الباخرة الإنكليزية (أغامنون) ووضعت شروط للهدنة، وأعلنت الدولة استسلامها.

فكان الاتحاديون في أثناء حكمهم القصير والذي لا يتجاوز عدة سنوات قد أضاعوا كل أجزاء الدولة في أوربا، إذ استقلت بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك، وأخذت اليونان كريت و. . . كما احتلت إيطاليا ليبيا، وبعض جزر البحر المتوسط. . . ومع هذا فقد سيطرت فكرة القومية التركية أو الأفكار الطورانية رغم الرغبة الملحة بالمحافظة على الرابطة العثمانية. . . وفي الوقت نفسه فقد أزال الاتحاديون بعض الزعماء الذين كان لهم نفوذ في الدولة من العرب خاصةً إن لم نقل كلهم أمثال عزت باشا العابد. فنشأ عند العرب ردّ فعلٍ لهذا إن لم نقل أنهم تأثروا أيضاً بالفكر القومي الذي بدأ يظهر، وتُذكيه أوربا النصرانية لتفكيك أوصال الدولة العثمانية، حتى نستطيع أن نقول: إن الاتحاديين بتصرّفاتهم، وهزائمهم، ودعوتهم القومية قد حملوا العرب على قبول الفكر القومي أو شجعوهم على ذلك، فأسسوا حزب اللامركزية في أثناء الحرب البلقانية، ويدعو إلى الإدارة اللامركزية بحيث تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى مرتبطةً بإستانبول خارجياً، وعسكرياً، ومالياً. واتفق هذا الحزب مع فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى على تدريب الفرنسيين لرجاله، وأخذ عشرين ألف بندقية. وفي الوقت نفسه تشكلت جمعيات سرية تتقارب أهدافها مثل الجمعية القحطانية برئاسة عزيز المصري، وعبد الكريم الخليل، ويدعو إلى إقامة دولة عربية واحدة تتحد مع دولةٍ تركيةٍ في ظل الخلافة

العثمانية، والجمعية العربية الفتاة التي أسسها طلاب يدرسون في باريس، وكانوا أكثر تطرّفاً إذ يدعون إلى انفصال العرب كلياً، إذ كانوا متأثرين بالفكر القومي، وآراء الغرب، وأهداف الماسونية، ومع قوة النفوذ الفرنسي تمكنوا من نقل مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق، وبدأ عدد الأعضاء يزداد بسرعة بعد أن كان مقصوراً على سبعة أعضاء يقومون بنشاطاتهم بمساعدات ودعم فرنسي.

وفي عام ١٣٣١ تألفت جماعة في بيروت سمت نفسها لجنة الإصلاح ودعت هذه الجماعة إلى الإدارة المحلية، وجعل اللغة العربية رسمية ومكافئة للغة التركية في المجلس النيابي العثماني، وتأدية الخدمة الإلزامية للعرب ضمن بلادهم، غير أن الاتحاديين قد قاموا بحل هذه الجمعية وإغلاق مراكزها، فقامت هذه الجمعية بالتعاون مع جميعة النهضة اللبنانية في المهجر بالاتصالات المستمرة مع القنصليات الفرنسية، وقدمتا مذكرة إلى فرنسا تطلبا منها احتلال بلاد الشام. أما أصحاب الفكر القومي في العراق فكان اتصالهم مع إنكلترا، وهذا يدلّ على أن التفاهم كان قد تمّ على مناطق النفوذ.

ولما شعر الاتحاديون بالخطر المحدق بالدولة من جراء أصحاب الفكر القومي، وما يجرونه من اتصالات مع النصارى الأوربيين لجؤوا إلى طريق القمع الأمر الذي أدّى إلى عودة الجمعية العربية الفتاة إلى باريس، والدعوة إلى عقد مؤتمر في باريس، وعقد المؤتمر عام ١٣٣٢ وحضره مندوبون عن بلاد الشام والمقاطعات العربية الأخرى، وعن المهجر، وكان عدد الأعضاء النصارى فيه يعادل الأعضاء المسلمين، وقدّمت فرنسا للمؤتمر الخدمات والمساعدات كلها، وحاول الاتحاديون الضغط على فرنسا لإلغاء المؤتمر، ولكنهم لم يفلحوا لأن فرنسا كانت تتصل مع الاتحاديين وتعقد معهم المعاهدات وفي الوقت نفسه تدعم هؤلاء المعارضين للسلطة، وتعدهم أنصاراً لها ليكون لها النفوذ القوي في البلاد، وقد نجحت فرنسا في تحقيق أهدافها إلى حدٍ كبير إذ تمكنت أن تخفف من قيمة الرابطة

الدينية لدى المسلمين، وتنمي الفكر القومي عندهم حتى أن عبد الحميد الزهراوي من الذين وقعوا في هذه الشباك، ويُعدّ من المغرر بهم رغم علمه قد قال في مؤتمر باريس هذا «إن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية».

أرسل الاتحاديون إلى باريس أمين سر جمعية الاتحاد والترقي وهو مدحت شكري فاتصل مع زعماء العرب وحضر المؤتمر، واتفق معهم على أن تكون:

١ ـ اللغة العربية رسميةً في الولايات العربية، وفي المدارس الابتدائية والثانوية.

٢ ـ الخدمة العسكرية في المناطق المحلية.

٣ ـ ثلاثة وزراء من العرب، وخمسة ولاة، وعشرة متصرفين.

٤ ـ نائبان في مجلس الأعيان عن كل ولاية عربية.

ووقع هذه الاتفاقية عن الحكومة الاتحادية وزير الداخلية محمد طلعت باشا وعن المؤتمرين العرب عبد الكريم الخليل. أما المؤتمرون العرب فكانت مقررات مؤتمرهم:

١ ـ ضرورة القيام بالإصلاح الإداري وبشكل سريع.

٢ ـ اشتراك العرب في الإدارة المركزية.

٣ ـ تأدية الخدمة الإلزامية محلياً.

٤ ـ جعل اللغة العربية رسميةً.

٥ ـ تأييد الأرمن في مطالبهم القومية. ويظهر من هذا البند الأخير الأثر النصراني في المؤتمر.

لم يتمّ شيء مما اتفق عليه لاختلاف الاتحاديين فيما بينهم، وتباين آرائهم، ولاندلاع الحرب العالمية الأولى واشتراك الدولة فيها، إذ أن هذا

الاشتراك لم يكن يريده أبداً هؤلاء المتزعمون، وخاصةً أن الاشتراك كان بجانب الألمان، وهم على صلة بالفرنسيين والإنكليز، وكان الاشتراك معناه الأحكام العرفية والقبض على المتعاونين مع الأعداء، وقد ألقي القبض على عزيز المصري وحُكم عليه بالإعدام غير أنه لم ينفذ فيه لتدخل الإنكليز. وقامت جمعية العهد التي تألفت من الضباط العرب وكان أغلبهم من العراق لكثرتهم في الجيش العثماني، وحلّت محلّ الجمعية العربية الفتاة.

وفي هذه الأثناء حصل اتفاق بين الدولة العثمانية والإمام يحيى حميد الدين في اليمن على أن يكون له حكم مرتفعات اليمن، له ولأبنائه من بعده، وعلى أن تبقى تهامة وسواحل البحر الأحمر تحت سيطرة العثمانيين.

وقوي أمر الملك عبد العزيز آل سعود في وسط الجزيرة، وأظهر العصيان، غير أن آل رشيد في حائل قد وقفوا إلى جانب الدولة. وأرسل الاتحاديون الشريف حسين بن علي من إستانبول إلى مكة ليحولوا به دون أطماع سلطان نجد، فكان عليهم، وكانت المراسلات مع مكماهون في القاهرة، وكانت الحركة العربية، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد نصح باستبقائه في إستانبول لمعرفته بنواياه وطموحاته، إذ أرسل الشريف حسين بن علي ابنه عبد الله إلى القاهرة حيث التقى مع كتشنر، ولم تكن نتيجة اللقاء أمراً أكثر من إرساء دعائم اللقاء. وكان الإنكليز يرغبون أن يكون بيدهم رجلاً ذا مكانةٍ بين العرب، يمكن الإفادة منه وقت الضرورة، إذ يُهمّهم بالدرجة الأولى طريق الهند، والردّ على إعلان الجهاد الذي يمكن أن يعلنه الخليفة. لذا فعندما دخلت دولة الخلافة الحرب إلى جانب الألمان، تغيّرت طبيعة العلاقات بين العرب وإنكلترا، إذ أعلنت إنكلترا إنهاء السيادة العثمانية على مصر التي جعلتها محميةً إنكليزية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعينت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه اسم (سلطان) نكايةً بالخليفة العثماني إذ أصبح كلاهما سلطان، فإذا أعلن الخليفة الجهاد نادى به السلطان، وضاع المسلمون فأي جهاد يلبون. وفي الوقت نفسه كشفت

الصلات مع شريف مكة الحسين بن علي إذا دعا لإعلان الجهاد من البيت الحرام، وبهذه الطريقة حاولت إنكلترا تحقيق هدفها. وفي الوقت الذي يتصل فيه الحلفاء مع العرب وخاصةً إنكلترا وفرنسا كانوا يتفقون فيما بينهم لتقسيم البلدان العربية أو التركة العثمانية ـ كما يسمونها ـ وقد كان اتفاق سايكس ـ بيكو المعروف الذي سنتناوله في الجزء القادم ـ إن شاء الله ـ.

ومع دخول دولة الخلافة الحرب كان لا بدّ من إلقاء القبض على الذين يتصلون مع الأجانب وبخاصة أن هؤلاء الأجانب نصارى ضد عقيدة الدولة وضد عقيدة السكان، ومن ناحية أخرى فهم الآن أعداء لأنهم في حرب معهم لذا يمكن القبض على النصارى والمسلمين الذين يتصلون مع فرنسا وإنكلترا وروسيا بوجه خاص، وقام جمال باشا ودخل القنصليات الأجنبية في بيروت، وإن كان هذا الدخول ليس من حقه دولياً غير أن وقت الأزمات لا يعترف عادة بالحقوق، وإنما الحق للقوة، فوجد الوثائق التي يتوقّعها وهي الصلات بين بعض الزعماء والأجانب فألقى القبض عليهم وحاكمهم وحكم عليهم بالإعدام، بعد أخذ رأي عددٍ من العلماء في ذلك. وقد أثارت هذه الإعدامات شيئاً من النقمة على جمال باشا خاصةً، وسُمّي الذين أُعدموا بالشهداء، وكان حجةً لثورة الشريف حسين ضد الدولة إذ أرسل ابنه فيصلاً ليتوسط لدى هؤلاء فأراد جمال باشا أن يلقي القبض عليه فاختبأ وأرسل لوالده فاندلعت الحركة من مكة، وكان قد تمّ التفاهم مع الإنكليز، وهُزم العثمانيون.

ويمكن القول: إن عدداً من الزعماء المسلمين العرب كانوا يريدون إصلاح الجهاز الإداري، وتأدية الخدمة العسكرية محلياً، والمحافظة على اللغة العربية ولا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية وتجزئتها أبداً غير أنهم وقعوا في شباك أصحاب الفكر القومي، والآراء الغربية، والافتتان بأوربا، وبالتالي بالتأثير النصراني، والتوجيه الخارجي، والاتصالات الأجنبية، والجهل لا يُعفي من المسؤولية، والسذاجة لا يرضى بها الإسلام، أما النصارى من رعايا الدولة العثمانية ودعاة القومية فقد كانوا

على صلةٍ بالأجنبي، ويطالبون بالانفصال، ويدعون إلى ذلك، ويعادون الإسلام بكل وقاحة.

وتوفي الخليفة محمد رشاد قبل استسلام الدولة بعدة شهور، وتولى بعده أخوه محمد وحيد الدين.

٢ ـ محمد السادس (وحيد الدين):

استسلمت في عهده الدولة بل بعد أن استلم الخلافة بعدة شهور فقط، وهو من مواليد ١٢٧٧، وعندما آل إليه الأمر كانت قد هُزمت الدولة، واحتل الأعداء أكثر أجزاء الدولة باستثناء بعض المناطق لأن روسيا كانت قد قامت فيها الثورة الشيوعية فانسحبت من الحرب، ولم تستطع أن تفعل شيئاً من تقدّمٍ في المناطق الشرقية أو احتلال أجزاء من الدولة.

لقد سيطر الحلفاء على إستانبول والمضائق، واحتلت اليونان الأقسام الغربية، وإيطاليا أجزاء من الجنوب، وضاعت البلدان العربية، وأراد السلطان محمد وحيد الدين أن ينقذ الدولة مما هي فيه، فوضع ثقته في مصطفى كمال فخاب ظنّه، وكان مصطفى كمال قد لمع نجمه، وأصبح يعمل لنفسه، فلما وجد محمد وحيد ذلك اعتزل السلطة، وتنازل عن الخلافة عام ١٣٤٠...

ونتيجة الهزيمة كان لا بدّ من استقالة الوزارة التي يرأسها طلعت باشا أحد كبار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وتألفت وزارة جديدة برئاسة أحمد عزة باشا الأرناؤوط، وقد بعثت هذه الوزارة وفداً وزارياً برئاسة وزير البحرية رؤوف بك[1]، أرسلته إلى مدينة مودروس في جزيرة لمنوس في بحر إيجه.

---

(١) رؤوف بك: تولّى وزارة البحرية، ثم أصبح رئيساً للوزراء في أول عهد مصطفى كمال، ثم اختلف معه، وفر من البلاد، وحكم عليه بالموت غيابياً، وانتقل إلى الهند عام ١٣٥٠، وعاش في باريس، ثم رضي عنه مصطفى كمال فرجع إلى بلاده عام ١٣٥٥، ثم عُيّن سفيراً لتركيا في لندن.

أما زعماء البلاد من الاتحاد والترقي فقد غادروا البلاد على ظهر سفينة ألمانية إلى شبه جزيرة القرم، ومنها انتقلوا إلى برلين ومنهم: طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا، ووالي بيروت عزمي بك، واغتيل طلعت باشا في برلين، وفرّ أنور باشا من بين أصدقائه خلسةً من القطار، وسار إلى القفقاس حيث أخوه نوري يقاتل الروس، ثم انتقل إلى موسكو، وأراد الإفادة منهم فخدعوه، ففر منهم وسار إلى بخارى يريد قتال الروس، وقتل هناك أثناء الثورة التي أثارها. وذهب جمال باشا إلى أفغانستان بدعوة من أمان الله خان، وبدأ ينظم جيشها، وسافر إلى باريس ماراً بموسكو فاحتجزه الروس، وأعلن أنه سيسافر إلى تركيا فسمحوا له بذلك وقد اغتاله الأرمن في تفليس. كما اغتيل بقية الزعماء في برلين.

وبقي في الدولة رجالات الاتحاد والترقي من الدرجة الثانية وغيرهم من الضباط أمثال مصطفى كمال فقرّبه السلطان وحيد الدين إذ كان يعرفه عندما كان مرافقاً له أثناء سفره إلى برلين عندما كان وحيد الدين لا يزال ولياً للعهد. فعيّنه مفتشاً للجيوش في الأناضول وزوّده بصلاحيات واسعة وبمبلغ ضخم من المال، وعهد إليه القيام بالثورة هناك كي يتمكن السياسيون من المناورة.

أبلغت لجنة الحلفاء العليا المجتمعة في باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان الحكومة التركية قراراً يقضي بنزول الجيوش اليونانية في أزمير، وحذّر القرار الدولة من المقاومة، وأن المقاومة تعني نقض الهدنة وإعادة الحرب. وقد نزل اليونانيون فعلاً في اليوم الثاني في مطلع صيف ١٣٣٨.

ويبدو أن الحلفاء قد أدركوا ما يقصد من إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، فاحتجوا على ذلك، كما احتج ولاة الأناضول من تصرفاته هناك، حيث كان قد عقد مؤتمراً في أرضروم ضمّ زعماء المنطقة، ونواب الأقاليم الشرقية، وقرروا انتخاب مصطفى كمال[1] رئيساً للمؤتمر، واتفقوا

---

(١) مصطفى كمال: ولد في سلانيك عام ١٢٩٨ من سفاح، تسمّى أمه زبيدة، ونسب إلى =

على الولاء للخليفة، والدفاع عن البلاد، ودعوا إلى عقد مؤتمر في مدينة «سيواس».

عقد المؤتمر في سيواس بعد مدةٍ قصيرةٍ، وضمّ أعداداً أكبر من سابقه، وعُدّ أنه يمثل البلاد جميعها إذ أرسلت البرقيات إلى ممثّلي المناطق كلها لحضوره، وتمّ انتخاب مصطفى كمال رئيساً له بعد أخذٍ وردٍّ، وكان

= علي رضا أحد موظفي الدولة في سلانيك، وسافر إلى إستانبول عام ١٣١٨ للالتحاق بالكلية الحربية، وتخرّج منها عام ١٣٢٢ برتبة رائد، وعُيّن في لواء الفرسان الثلاثين التابع للجيش الخامس في الشام، ولم يكن نظامياً فكان يذهب دون إذن من يافا إلى سلانيك، وتحذره أمه مغبة ذلك، لكن لا يبالي. وفي عام ١٣٢٥ انهى مرحلة التدريب فعُيّن في إدارة الجيش الثالث في بلده سلانيك، وحاول تأسيس جمعية الوطن والحرية لتنافس جمعية الاتحاد والترقي التي كان على خلاف مع زعمائها، ونفي إلى طرابلس عام ١٣٢٦ فعاد هارباً بعد شهرين، وكان مع جيش محمود شوكت الذي سار إلى إستانبول لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، كان مع الجيش بصفته ضابطاً في ذلك الجيش لا لأنه كان مع أعضاء الحركة، وفي عام ١٣٢٨ أصبح نائباً لقائد اللواء ٣٨ المرابط في سلانيك، وسافر يومها إلى فرنسا لمشاهدة المناورات الفرنسية. وسار عام ١٣٢٩ إلى ليبيا للقتال مع المقاومة ضد الطليان حباً في الشهرة، وانتقل من مصر إلى إستانبول عن طريق رومانيا، واشترك في حرب البلقان الأولى، وعُيّن إثرها مديراً لدائرة الحركة العسكرية المكلفة بحماية شبه جزيرة غاليبولي، وكُلّف بالقيام بهجوم في حرب البلقان الثانية فقام به قبيل صدور الأوامر إليه فهُزم وفرّ من الميدان، وعُيّن ملحقاً عسكرياً في صوفيا، ورجع بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحاول ملازمة أنور باشا مع وجود الكراهية بين الاثنين، وكان يطلب منه مهمةً في خط النار، فأوكلت إليه قيادة الفرقة ١٩ المكلفة بحماية (تشنا قلعة) ثم انتقل مع فرقته إلى ديار بكر، ورقي إلى رتبة لواء (باشا) عام ١٣٣٤، وعُيّن نائباً لقيادة الجيش الثاني، ثم اقتُرح أن يكون قائداً لقوة الجوالة التابعة للجيش السابع للدفاع عن المدينة المنورة، غير أن هذه القوة لم تشكل. وبعد إجازة قضاها في الحانات أعيد إلى الجيش السابع أيام السلطان وحيد الدين فانسحب أمام الإنكليز أثناء تقدمهم في الشام، واتصل الإنكليز به يومذاك وحرضوه على القيام بالثورة على الخلافة على أن يدعموه بما يريد فوافق ولكن لم يجد له أعواناً من الضباط يساعدونه في حركته فتركها، وعندما وُقّعت الهدنة طلبت منه وزارة عزة باشا العودة إلى إستانبول فعاد، وحاول الإفادة من حزب الحرية والائتلاف الذي ظهر بعد الحرب وسقوط الاتحاد والترقي. ولكن لم يركنوا إليه.

كان مصطفى كمال منصرفاً إلى الخمرة والنساء، ويأخذ ذلك منه جلّ وقته، وعلى كرهٍ شديد للإسلام، وعلى صلة مع الإنكليز، وهم الذين رفعوه، مستميتاً على الزعامة.

الإنكليز يرحبون بهذه التصرّفات، وقد اتصلوا بمصطفى كمال في الأناضول.

انتقل مصطفى كمال من سيواس إلى أنقرة لمقابلة النواب الذين سيسافرون إلى إستانبول، وانتخب نائباً عن أنقرة غيابياً، وكان يرغب في رئاسة المجلس، ويعمل لذلك، ولكن لم يتمكّن من السفر إلى إستانبول، إذ كان قد استدعي إليها أثناء حركته فلم يُلب، وتكررت الاحتجاجات ضده، وتكرر رفضه، وعدم الاستجابة حتى هدد الحلفاء بالرجوع إلى الحرب، واضطرت وزارة فريد باشا إلى الاستقالة، وكان رئيسها غائباً لحضور مؤتمر الصلح.

قررت الوزارة الجديدة إقالة مصطفى كمال من منصبه، وعرضت القرار على الخليفة لتوقيعه فرفض، وتتالت الاحتجاجات، ولم يقبل الخليفة التوقيع على القرار حتى بلغ السيل الزبى فوقع عندها القرار، ولم يرضخ مصطفى كمال للأمر، وبقي في عناده.

اجتمع المجلس النيابي في إستانبول، ونجح رؤوف بك في رئاسة المجلس، وشكّل علي رضا باشا الوزارة، وعمل مصطفى كمال على إسقاط هذه الوزارة، غير أن النواب قد خذلوه، وأعطوا الثقة للوزارة، فعمل مصطفى كمال على الثورة من جديد، وتحت ضغط الحلفاء استقالت الوزارة، وتشكلت وزارة صالح باشا التي عقدت اتفاقاً مع مصطفى كمال في (أماسيا) انسحب بموجبه الإنكليز والحامية العسكرية من أنقرة.

سيطر الحلفاء على إستانبول، وألقي القبض على رئيس الوزراء السابق سعيد حليم باشا، وعلى عدد من النواب من أنصار مصطفى كمال، وفرضت الرقابة على البريد ووسائل الإعلام كلها. فاستقال صالح باشا، وحلّ المجلس النيابي، وكُلّف فريد باشا بالوزارة من جديد، فأعلنت الحكومة أن مصطفى كمال متمرداً، فلم يُبال وتقدّم إلى الغرب، وحاصر (أسكي شهر)، فانسحب الإنكليز منها دون مقاومة، فدخلها، ودخل مدينة (قونية) كذلك.

أعلن مصطفى كمال عن إجراء انتخابات جديدة بحيث تكون أنقرة مقراً للمجلس الجديد، فنجح أنصار مصطفى كمال، واجتمع المجلس، وبدأ يعمل على تشكيل جيشٍ خاص، فسيّرت الحكومة حملةً من العاصمة إلى الأناضول من ناحية الغرب، وحملةً أخرى من كردستان من ناحية الشرق، فخضعت الولايات بسرعة لحكومة إستانبول وبقيت أنقرة وحدها، وكادت تسقط، فأذاع الحلفاء في هذا الوقت شروط معاهدة سيفر التي وافق عليها الخليفة ورئيس الوزراء الداماد فريد باشا مرغمين، ولما فيها من إجحاف بحق الدولة المهزومة فقد ثار الأهالي، إذ تنص هذه المعاهدة على:

١ ـ إقامة دولة في إستانبول.

٢ ـ سلخ الولايات العربية من الدولة.

٣ ـ إعطاء الاستقلال لأرمينيا.

٤ ـ إعطاء كردستان استقلالاً ذاتياً.

٥ ـ تُعطى تراقيا وجزر بحر إيجه لليونان.

٦ ـ توضع المضائق تحت إشراف دولي.

٧ ـ يوجّه الحلفاء الجيش، ويحدد عدد أفراده.

٨ ـ يحق للحلفاء السيطرة على المالية.

وبدأت ثورة الأهالي على حكومة فريد باشا. وبدأ هجوم مصطفى كمال على حكومة إستانبول حيث يعلن أن حكومة إستانبول عميلة، وإذا كانت عاجزةً عن الدفاع، عن البلاد، فإن الشعب في الأناضول يعرف الدفاع عن بلاده، وإذا كانت العاصمة تحت ربقة الاستعمار فإن الأناضول في حرية ويمكن أن تكون مقر الدفاع. وإضافة إلى هذا فإن مصطفى كمال كان يظهر الجانب الإسلامي ويستغل صلته مع السلطان وإرساله هو إلى الأناضول لإنقاذ البلاد، كما يستغل أحمد السنوسي الذي كان يعيش في الأناضول.

وبدأت كفة أنقرة ترجح، وعندها دعت إنكلترا لعقد مؤتمر في لندن

لإعادة النظر في معاهدة سيفر، ودعت لذلك حكومة إستانبول وحكومة أنقرة، غير أن مصطفى كمال قد اعترض على ذلك، إذ قال: يجب أن يكون صوت واحد في البلاد، واستنكر دعوة رئيس الوزراء الداماد فريد باشا...

عزل السلطان فريد باشا من الوزارة وكلف توفيق باشا بالوزارة الجديدة، وهو من أنصار مصطفى كمال، وبقيت هذه الوزارة في الحكم سنتين خدمت خلالها مصطفى كمال حتى قوي أمره في البلاد. ومن ناحية أخرى فقد اتفق مع الدول الأخرى، إذ اتفق مع اليونان على إعطاء أزمير استقلالاً ذاتياً تحت حكم نصراني. وتنازل لروسيا عن باطوم، وانسحبت فرنسا من كيليكيا، وانسحبت إيطاليا من أنطاليا.

دفعت إنكلترا اليونان فتقدموا من ناحية الغرب، وجرى القتال بين الأتراك واليونانيين، وقد انتصر الأتراك في معرفة سقاريا المشهورة، وبرز مصطفى كمال، واضطرت اليونان أن تنسحب من تركيا عام ١٣٤٠.

دعيت أنقرة وإستانبول إلى مؤتمر لوزان، وجرى انقلاب في إستانبول، وعزلت حكومة السلطان، واعتزل السلطان محمد وحيد الدين لأنه رفض أن يكون ملكاً رمزياً لا علاقة له بالحكم، ولا شأن له بالخلافة، ورُحّل إلى جزيرة مالطة، ونودي بابن عمه عبد المجيد بن عبد العزيز سلطاناً على البلاد.

٣ ـ عبد المجيد الثاني:

هو ابن السلطان عبد العزيز، ولد في إستانبول عام ١٢٨٣، أصبح خليفة بعد إلغاء السلطنة عام ١٣٤٠، وجُرّد الخليفة من السلطات السياسية كافةً، والتفّت حوله الجماعات المناوئة لمصطفى كمال.

وبعد ثلاثة أيام من تولي عبد المجيد الثاني المنصب افتتح مؤتمر لوزان، وحضره وفد أنقرة فقط، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢ ـ طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣ ـ إعلان علمانية الدولة.

٤ ـ مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ويتوقف نجاح المؤتمر على ذلك، وأخفق المؤتمر، ورجع إلى البلاد الوفد التركي برئاسة عصمت إينونو، واختلف مصطفى كمال وعصمت إينونو مع رئيس الوزارة وبجانبه الجمعية الوطنية، فاستقال رئيس الوزارة.... وبدأت الدسائس، إذ حل مصطفى كمال الجمعية الوطنية... وكانت الجمعية الجديدة ضده، ولكنها عجزت عن تشكيل وزارة بسبب الألاعيب... وكثرت الفوضى.

وقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية وكان الجو مكفهراً والصخب هو المميز، وتفادياً للمشكلات دعي مصطفى كمال لتشكيل الوزارة فوافق على ألا يناقش في تصرفاته وشكل الوزارة، وأعلن الجمهورية، وانتخب رئيساً لها، فعمت الفوضى، وغادر أنقرة عدد من الزعماء، واتجهوا إلى إستانبول حيث التفوا حول الخليفة عبد المجيد، وقامت الاحتجاجات، إلا أن الاغتيالات و... تعددت ودعا المجلس الوطني لعقد جلسة وقدم مرسوماً بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر عبد المجيد بالسفر إلى سويسرا، ثم أصدر مرسوماً بإلغاء الوظائف الدينية، وامتلاك الدولة للأوقاف... وأرسل عصمت إينونو وزير خارجيته إلى لوزان، وأعيد المؤتمر، واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا، وانسحبت من المضائق وإستانبول...

وطويت صفحة الخلافة العثمانية عام ١٣٤٢.

الخلفاء العثمانيون:

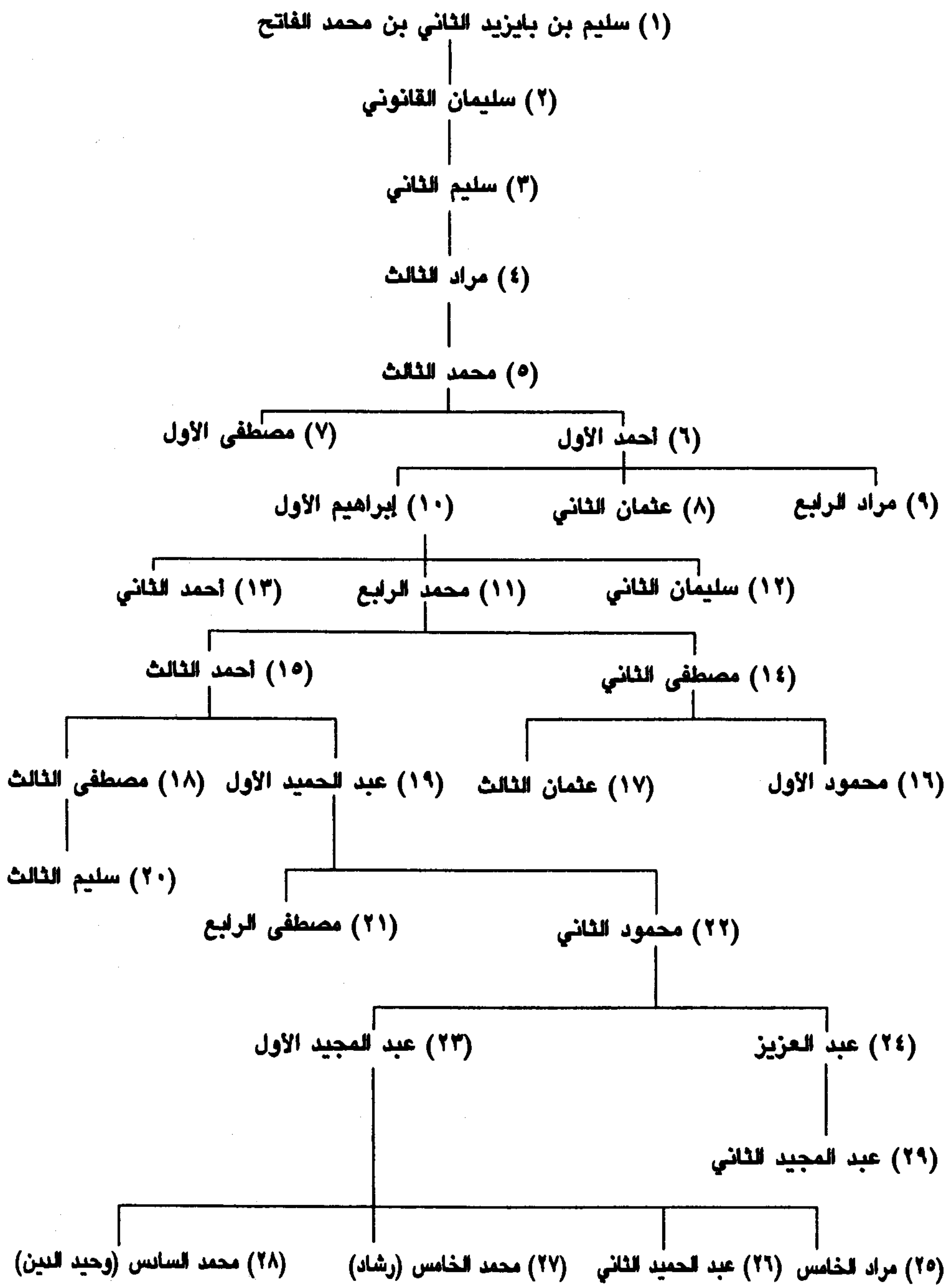

الخلفاء العثمانيون:

١ ـ سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح .... ٩١٨ ـ ٩٢٦هـ
٢ ـ سليمان القانوني .... ٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ
٣ ـ سليم الثاني .... ٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ
٤ ـ مراد الثالث .... ٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ
٥ ـ محمد الثالث .... ١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ
٦ ـ أحمد الأول .... ١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ
٧ ـ مصطفى الأول (١) .... ١٠٢٦ ـ ١٠٢٦هـ
(٢) .... ١٠٣١ ـ ١٠٣٢هـ
٨ ـ عثمان الثاني .... ١٠٢٦ ـ ١٠٣١هـ
٩ ـ مراد الرابع .... ١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ
١٠ ـ إبراهيم الأول .... ١٠٤٩ ـ ١٠٥٨هـ
١١ ـ محمد الرابع .... ١٠٥٨ ـ ١٠٩٩هـ
١٢ ـ سليمان الثاني .... ١٠٩٩ ـ ١١٠٢هـ
١٣ ـ أحمد الثاني .... ١١٠٢ ـ ١١٠٦هـ
١٤ ـ مصطفى الثاني .... ١١٠٦ ـ ١١١٥هـ
١٥ ـ أحمد الثالث .... ١١١٥ ـ ١١٤٣هـ
١٦ ـ محمود الأول .... ١١٤٣ ـ ١١٦٨هـ
١٧ ـ عثمان الثالث .... ١١٦٨ ـ ١١٧١هـ
١٨ ـ مصطفى الثالث .... ١١٧١ ـ ١١٧٦هـ
١٩ ـ عبد الحميد الأول .... ١١٧٦ ـ ١٢٠٣هـ
٢٠ ـ سليم الثالث .... ١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ
٢١ ـ مصطفى الرابع .... ١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ
٢٢ ـ محمود الثاني .... ١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ
٢٣ ـ عبد المجيد الأول .... ١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ
٢٤ ـ عبد العزيز .... ١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ
٢٥ ـ مراد الخامس .... ١٢٩٣ ـ ١٢٩٣هـ.
٢٦ ـ عبد الحميد الثاني .... ١٢٩٣ ـ ١٣٢٨هـ
٢٧ ـ محمد الخامس (رشاد) .... ١٣٢٨ ـ ١٣٣٧هـ
٢٨ ـ محمد السادس (وحيد الدين) .... ١٣٣٧ ـ ١٣٤٠هـ
٢٩ ـ عبد المجيد الثاني .... ١٣٤٠ ـ ١٣٤٢هـ

أُلغيت الخلافة على يد أتاتورك بتاريخ ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ.
الموافق ٣/ ٣/ ١٩٢٤م.

الباب الثاني

جَزيرَة العَرَب

توجّه اهتمام المسلمين نحو جزيرة العرب في بداية هذا العهد بسبب قدوم المستعمرين البرتغاليين، وسيطرتهم على مواقع مهمة سواء أكانت في الخليج العربي أم في جنوبي الجزيرة، ونواياهم الصليبية في المنطقة، واتصالهم مع دولة الحبشة النصرانية: وحرصهم الوصول إلى المدينة المنورة، والضغط على المسلمين كي يسلّموا لهم بيت المقدس. وهذا الاهتمام دفع العثمانيين إلى الوصول إلى الجزيرة ومنازلتهم البرتغاليين من الصليبيين، واستمر هذا الاهتمام حتى زال النفوذ البرتغالي، أو نستطيع أن نقول: إن التفكير كان منصباً بأطراف الجزيرة التي تعرضت للغزو الصليبي أو لتهديداته...

وقلّ الاهتمام بعد ذلك، مع أن إنكلترا سيطرت على بعض المواقع، وكانت تحرص على تأمين وسلامة طريق الهند لها، وقلّة الاهتمام لا تعني زواله وإنما خفته بالنسبة إلى ما كان عليه في أول العهد حيث بقيت ملاحقة البرتغاليين في شرقي إفريقية قائمة، والخوف من النفوذ الفارسي في منطقة الخليج العربي، ومتابعة حركة الحج، ومحاولة تأمين الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة سواء أكانت برية أو بحرية، أما داخل الجزيرة فقد بقي مهملاً، هذا بالإضافة إلى الجمود الذي يخيّم على أجزاء الدولة العثمانية عامة، بل على أمصار العالم الإسلامي كافةً نتيجة الضعف الذي أصاب المسلمين، وقوة أعدائهم من الصليبيين الذين خضعت لهم مواطن كثيرة من أرض المسلمين.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري قامت الدولة

السعودية وسط الجزيرة العربية، وقوي أمرها بسرعة، وامتدّ نفوذها، ووقفت في وجه الدولة العثمانية بغية الإصلاح، ووجهت الدولة إليها الجيوش، واستعانت بمحمد علي الذي جاء واحتل الحجاز، وحارب الدولة السعودية، وتمكّن من الانتصار عليها ودخل ابنه إبراهيم عاصمتها الدرعية وخرّبها، وبقي محمد علي يُلاحق مُؤيدي أفكارها في عسير، فعاد اتجاه الأفكار نحو الجزيرة، وإن كان نابليون بونابرت قبل هذه المرحلة بقليل قد سيطر على مصر بعد حملته المشهورة عليها، وبدأ يُفكّر في التحكم بأطراف الجزيرة وممراتها الرئيسية، واستطاع أن يحتلّ جزيرة بريم في مضيق باب المندب.

وبعد هذه المدة كان القتال على أشدّه في اليمن بين الجيوش أو الحملات العثمانية والأئمة الزيود الذين يسيطرون على مرتفعات اليمن، وإذا كان قد استمر هذا في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة إلّا أن وسط الجزيرة قد خفّ الاتجاه نحوه في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكان الإنكليز قد بسطوا نفوذهم في الجزء الشرقي من الجزيرة، وعقدوا المعاهدات مع أمرائه وشيوخه.

ودخل القرن الرابع عشر، وكثرت الإمارات، في الجزيرة العربية، سواء أكانت على أطرافها أم في داخلها، وكان أكثر هذه الإمارات على خلاف مع الدولة وسواء أكان بتوجيه من الإنكليز أم نتيجة الأطماع فإن الارتباط مع إنكلترا كان واضحاً في كلا الحالتين، وربما كان الإدريسي في تهامة عسير على ارتباط مع إيطاليا، ثم ارتبط مع إنكلترا، ولهذا نستطيع أن نقول: إن رصيد الدولة العثمانية في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع عشر كان قليلاً.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ لم يقف بجانب العثمانيين سوى أئمة اليمن الذين اتفقوا معهم على أن تعترف الدولة بسلطانهم على الهضبة، وتبقى تهامة بيد العثمانيين، ونتيجة العاطفة الدينية، وربما كان لخوف الأئمة من الإدريسي المجاور لهم والذي تدعمه إنكلترا قد أثر في هذا الاتجاه، هذا بالإضافة إلى إمارة آل رشيد الصغيرة الحجم

في حائل وربما كان لوجودها بين إماراتٍ مدعومةٍ من إنكلترا وصراعها معهم أثر في هذا الانحياز أيضاً.

وبدأت بعدئذٍ كل دولةٍ تتطوّر منفصلة عن غيرها، وتعمل وحدها بعد أن قُضي على الخلافة الإسلامية، وأهملت الروابط العقيدية، ودخلت الصليبية مستعمرةً لبعض الأطراف من جزيرة العرب وخاصةً الشرقية والجنوبية منها، إضافة إلى صلتها أو توجيهها أو ارتباطها للجهات البقية، وتمثّلت الصليبية في إنكلترا صاحبة النفوذ الأول في تلك المرحلة من التاريخ.

الفصل الأول

الحجاز

كانت أسرة «قتادة» تحكم الحجاز منذ عام ٥٩٨، وتتسلّم شرافة مكة، وتنتمي هذه الأسرة ـ حسب زعم أبنائها ـ إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعمل زعماؤها لكل من يخضع الحجاز لسلطانه، إذ عملوا للأيوبيين والمماليك، كما لم يبتعدوا عن بني رسول في اليمن إذ يخضعون لهم عندما يقوى أمرهم، ولكن كانوا في أغلب الأحيان يحكمون باسم الدولة التي تُسيطر على مصر. وإذا كانت هذه الأسرة هي التي تُسيطر على الحجاز كله إلا أنه وجدت أسرة من الأشراف من آل الحسين في المدينة المنورة كان لها دور أيضاً، ولكن كانت المدينة في أكثر أيامها تتبع مكة على أنها جزء من الحجاز.

دالت دولة المماليك في مصر على يد العثمانيين عام ٩٢٣، فأرسل شريف مكة «بركات الثاني» الذي كان يتسلّم شرافة مكة للمرة الثانية ابنه محمد أبو نمي الثاني إلى القاهرة ليقدّم للسلطان سليم العثماني الطاعة، ويسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين إشعاراً بالتبعية، واعترافاً بالخضوع له، كي يحتفظ لنفسه بالشرافة على مكة، ويُؤمّن وضعه بالحجاز، وبهذا امتدّ نفوذ العثمانيين إلى الحجاز منذ أن استلموا مصر، ثم اتسع بعدئذٍ حتى شمل الجزيرة كلها. وهكذا استمرت أسرة بني قتادة في حكم الحجاز، وتوالى رؤساؤها على شرافة مكة، واتصف عهدهم بكثرة الخلافات فيما بينهم، فكان أن تولّى بعضهم الأمر عدة مراتٍ إذ يُعزل عندما يضعف أمره، ثم لا يلبث أن يرجع إلى منصبه إذا عادت إليه قوته، ولم يطل عهد بعضهم أكثر

من يوم واحدٍ، على حين زادت أيام شرافة بعضهم على الستين سنةً، وامتاز عهد بعضهم بالقتل وسفك الدماء والإرهاب، واتسم عهد بعضهم الآخر بالصلاح والعدل والخير، وكثيراً ما كان حكام مصر يتدخلون في شؤون الحجاز فيؤيّدون شريفاً ويخلعون آخر، أو يُساعدون واحداً على الثاني.

وكانت مدينة جدة ترتبط بمصر في أكثر أيامها، ويُعيّن واليها من القاهرة، وقد يصطدم حاكم جدة مع شريف مكة ويقع بينهما قتال يُؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

ولما كان أمر العثمانيين قد ضعف بعد خضوع الحجاز لهم بقليل، ولبعد الجزيرة عن مركز الحكم، ولكثرة المشكلات التي كانت تتعرض لها الدولة وخاصةً في أوربا، وللحقد الصليبي الذي كان يتربَّص بالمسلمين الدوائر، لذا فقد تُركت هذه الأسرة وشأنها ما دامت تُظهر الطاعة، وتُبدي الخضوع للدولة العثمانية. فكانت الخلافات تحدث في الجزيرة بين الأمراء المتنفذين بعضهم مع بعض، أو بين الأسر الثانية التي كانت تحكم مناطق أخرى سواء في عسير أم في اليمن أم في نجد أم غيرها، وكانت الدولة تترك حل هذه الخلافات إلى أبناء الجزيرة بالذات دون أن تُعير الموضوع اهتماماً كبيراً، أو تحاول إصلاح الوضع السياسي والإداري فيها.

ويمكن أن نلاحظ أن الأشراف في الحجاز كانت سلطتهم تمتد إلى عسير التي يحكمها أمراء محليون يدّعون الانتساب إلى معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ويسمون باليزيديين نسبة إلى ابنه يزيد، وقد يستعلي هؤلاء الأمراء أحياناً على شرافة مكة، أو يختلف الشرفاء وأئمة اليمن على عسير أو على مناطق تهامة في أوقات أخرى، أو عندما يريد كلٌّ مدّ نفوذه على ما جاوره من أرض، وأحياناً تمتدّ سلطة شرفاء مكة على الجهات الشرقية من الحجاز وتصل إلى نجد. وتدين لهم فيها بعض الإمارات، وتقف في وجههم أخرى، وقد يصلون إلى البحرين عن طريق نجد. وكانت حاصلات نجد تباع في الحجاز ولا سيما في موسم الحج لذا كان لا بد من أن تكون هناك علاقة خاصة بين المنطقتين، ولقوة أشراف

مكة المدعومين من قبل الدولة في مصر أو من قبل العثمانيين مباشرة كان لهم أنصار في نجد يُؤيّدونهم، فإذا أراد أمير أن يشقّ عصا الطاعة ساروا إليه مؤدبين حيث كانت لديهم آنذاك القوة اللازمة، وإمارات نجد كثيرة ومتفرقة. ولكن عندما قامت الدولة السعودية، وأصبح في نجد قوّة يُرهب جانبها، وتريد نشر فكرتها فكان لا بد من أن تصطدم شرافة مكة معها، ويقع القتال بين الطرفين وتنتصر الدولة السعودية بصفتها حاملة مبدأ، وتريد حمايته والدفاع عنه بل ونشره، وتأتي المساعدات إلى شرافة مكة لتساعدها ضد نجد، أو تأتي لتقاتل الدولة السعودية مباشرةً خوفاً على نفسها، ويعود كيان الأشراف بعد أن يسقط، وتسيطر نجد على الحجاز، أما الإمارات المجاورة فقد تلتقي مع الحجاز، وتحارب معها نجداً، أو تختلف وتجتمع مع نجد ضدها. وفي كثير من الأحيان يختلف الأشراف في مكة بعضهم مع بعض على الزعامة والرئاسة، ويقع القتال بينهم، وقد يُغادر بعضهم المنطقة إلى جهة ثانيةٍ، وربما يُخلع، ويسكت على جرحه، فإذا واتته الفرصة عاد فانقضّ على خصمه أو على مركز السلطة، وقد ينجح ويستلم الأمر، وقد يفشل، وربما بالأصل يبقى ساكتاً ويكتفي بما ناله من وقت في السلطة طال فيها أم قصر.

عندما بدأ العهد العثماني عام ٩٢٣ أو عندما بدأ عهد الخلافة العثمانية، أو بالأحرى عندما وصل النفوذ العثماني إلى الحجاز كان شريف مكة يومذاك وصاحب النفوذ فيها بركات الثاني بن محمد، ويحكم للمرة الثانية إذ حكم في المرة الأولى بعد أبيه عام ٩٠٣ ولمدّة أربع سنوات حيث نازعه أخوه هزاع بن محمد فتسلم الشرافة عاماً واحداً، ثم رجع بركات الثاني عام ٩٠٨، واستمر حتى عام ٩٣١، وفي عهده انتصر السلطان سليم العثماني على المماليك في الشام ومصر، وقضى على سلطانهم، وبُويع بالخلافة بعد أن تنازل له الخليفة العباسي المقيم في القاهرة، والذي ليس له من الأمر سوى الاسم وكل شيء بيد السلاطين المماليك، وعندها أرسل بركات الثاني ابنه محمد أبا نمي إلى القاهرة فأعلن للسلطان سليم الطاعة،

وقبل الخضوع له، وسلَّم مفاتيح الحرمين الشريفين دلالةً على ذلك الخضوع، فرضي السلطان سليم ذلك منه، وأقر أباه على شرافة مكة أو على ملك الحجاز. وتوفي بركات الثاني عام ٩٣١، فتسلّم مكانه ابنه محمد أبو نمي، وبقي في أمر الشرافة مدة إحدى وستين سنةً حيث توفي عام ٩٩٢هـ، واستمرت أسرته من بعده في شرافة مكة، ولكن لم ينقطع الخلاف بين أبنائها، واستمر ذلك حتى قامت الدولة السعودية، وبدأ يمتد نفوذها، ويتسع سلطانها. فمنع الأشراف دخول ومجيء أهل نجد إلى الحج.

واستلم أحمد بن سعيد شرافة مكة عام ١١٨٣، وكان يكره العثمانيين بسبب واليهم على مصر محمد أبي الذهب الذي عزله وولّى غيره شريفاً على مكة، إلا أن أحمد هذا قد قام ضد خصمه وقتله، وتمسك لنفسه بالشرافة وبهذا فقد التقى مع السعوديين على كراهية العثمانيين، فسمح لذلك لأهل نجد بالحج في موسم عام ١١٨٣، وبعد ثلاثة أعوام ثار الأشراف في مكة على أحمد بن سعيد، وعزلوه، وولّوا مكانه ابن أخيه سرور بن مساعد الذي بقي في إمرته حتى عام ١٢٠٢ أي مدة ستة عشر عاماً، ولم يخاصم سرور السعوديين الأمر الذي جعل الدعوة السلفية تنتشر بين رجال القبائل، أو يُقبل عليها كثير ممن يطمع في أن يكون له دور في المستقبل، أو يُريد أن يحمي نفسه من بطش دعاتها، أو يكون مقرّباً لهم، فإن إشارات كثيرة تدلّ على نجاح الدعوة أو يكون لها دور بارز مع الأيام، والأفكار عادةً لا تُقاوم بالقوة، ولا بوضع الحدود الواهية أمامها، وإنما بأفكار أكثر قبولاً وواقعية.

وتوفي سرور بن مساعد عام ١٢٠٢، وخلفه أخوه عبد المعين بن مساعد غير أنه لم يلبث سوى يومٍ واحدٍ حتى كره الأمر فاعتزله، وتنازل لأخيه غالب بن مساعد الذي خَاف على سلطانه وأملاكه من الدولة السعودية، حيث رأى أن الدعوة السلفية التي يحملها السعوديون تنتشر في مناطق نفوذه بسرعة لذا فقد أعلن خلافه للدرعية، وحدثت معارك بين الطرفين دامت أيام شرافته كلها من (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨) أي مدة ست وعشرين

سنة، وكانت هذه المعارك من ناحيتين من ناحية نجد حيث الدولة السعودية، ومن ناحية عسير من الجنوب حيث كانت قد عمَّت فيها الدعوة السلفية، وقام أبناؤها يدعون لها، ويحاربون أعداءها. وقد استعان غالب بن مساعد بالعثمانيين ضد السعوديين أو بالأحرى ضد الدعوة السلفية.

وفي هذه الأثناء نزل الفرنسيون عام ١٢١٣ بمصر، وكانوا بقيادة نابليون بونابرت، فتأثر السكان في الحجاز، وأُعلن الجهاد للدفاع عن مصر ضد الفرنسيين، وسار بعض المتطوّعين عن طريق البحر إلى القصير، ثم انتقلوا إلى جرجا، واشتبكوا مع الفرنسيين في بعض المواقع.

وفي عام ١٢١٨ دخل السعوديون مكة المكرمة إثر موسم الحج، وفرّ منها الشريف غالب بن مساعد متجهاً إلى جُدّة، وعيّن السعوديون من قبلهم شريفاً على مكة عبد المعين بن مساعد أخا الشريف غالب، ثم توجّهوا إلى جُدّة، وحاصروها تسعة أيام، وقطعوا عنها الماء، ثم غادروها كما غادروا مكة المكرمة، ورجع الشريف غالب إلى سلطانه.

وفي عام ١٢٢٠ دخلت جيوش الدرعية المدينة المنورة، ولما شعر الشريف غالب بالضعف طلب الصلح من سعود الكبير، وقد تمّ على الشروط التالية[١]:

١ ـ يأذن الشريف غالب للوهابيين في الحج، ثم يتوجهون إلى بلادهم بعد أداء المناسك مباشرةً.

٢ ـ يدخل أهل مكة وكل من هو تحت حكم الشريف في الطاعة.

٣ ـ يكون أمر مكة وأحكامها تحت نظر الشريف. وقد اشترط الشريف غالب أن يُعيدوا إليه (الحسينية) وأثمان ما أخذوه وأتلفوه فيها وحتى ديات القتلى.

وقوي أمر الدولة السعودية، ووصل سلطانها إلى جنوبي العراق، وإلى

---

(١) وستأتي هذه الشروط في الصفحة ٢٥٨ بشكل أوضح.

حوران في بلاد الشام. وخافت الدولة العثمانية من هذا التوسع، ولم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً، فعهدت إلى واليها على مصر محمد علي صاحب الأطماع في أن يتولّى أمر إخضاع الجزيرة، فأرسل محمد علي مندوباً إلى الجزيرة ليدرس الأوضاع الداخلية عن قرب ويتعرف على نوايا الشريف غالب بن مساعد ودوافعه من الصلح مع السعوديين، وقد جاء هذا المندوب باسم العمرة، ورجع إلى مصر، وفي جعبته ما يطمئن محمد علي على نجاح مهمته.

أرسل محمد علي حملةً بقيادة ابنه الثاني أحمد طوسون، وجاءت عن طريق البحر، وتمكّنت من احتلال ينبع، وانحاز الشريف غالب إليها، ووضع إمكاناته تحت تصرفها، واتجهت الحملة نحو المدينة المنورة، فاحتلت بدراً، ولكنها هُزمت عند الصفراء، وجاءها الدعم فعاودت الكرة، وتقدّمت نحو المدينة، واستطاعت أن تحتلها عام ١٢٢٧، ثم توجّهت نحو مكة فدخلتها عام ١٢٢٨، ووقع أمير الطائف عثمان المضايفي[١] أسيراً بيد الحملة، فأُرسل إلى إستانبول حيث لقي حتفه هناك.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة، ومنها توجّه إلى مكة المكرمة، وكلّف الشريف غالب في كل أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها نقل إلى سالونيك حيث بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١. وهكذا خضعت الحجاز إلى الحملة المصرية. وأراد محمد علي أن يتوجه نحو نجد شرقاً، ونحو عسير جنوباً حيث يُسيطر على المنطقتين أنصار الدعوة السلفية، ففي نجد تقوم الدولة السعودية، وفي عسير يحكم طامي بن شعيب من قادة الدعوة السلفية هناك، غير أن الجيوش المصرية قد هُزمت في الحناكية شرقي المدينة المنورة، كما هُزمت مرتين في (تربة) على بعد ١٢٠ كيلومتراً شرق الطائف، كما هُزمت الحملة التي اتجهت إلى عسير عن طريق القنفذة.

(١) عثمان المضايفي: ختن الشريف غالب، ومن أكبر أنصاره، وقعت بينهما جفوة فانحاز إلى السعوديين، وأصبح من أكبر قادتهم ضد الشريف غالب.

رأى محمد أن ينتهي من عسير ثم يلتفت إلى نجد. فطوّق عسير من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت على الجبهتين، وفي الوقت نفسه تقدّمت جيوش نجد حتى غدت على مقربة من الطائف، فسار محمد علي حينئذٍ بنفسه نحو الطائف، والتقى بجيوش نجد التي كانت بقيادة فيصل بن سعود، وتمكّن من هزيمتها، واستغلّ هذا النصر الذي حققه، فطارد خصومه، وشنّ حرباً لا هوادة فيها على القرى الأمر الذي جعلها تستسلم مجرد اقترابه منها، وتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأخذ زعيمها طامي بن شعيب أسيراً، فحمله معه مكبلاً بالحديد، حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقُتل هناك.

وتقدّم طوسون بن محمد علي من المدينة باتجاه الشرق، ووصل إلى بلدة الرس، واستقر في الخبرا، وتمّ بينه وبين السعوديين صلح الرس. وأخلى المصريون نجداً بموجب هذا الصلح، وسافر طوسون إلى مصر تاركاً إمرة الجيش لغيره، وأصبح الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم الدولة العثمانية. إلا أن محمد علي قد رفض الصلح وسيّر نجدةً بإمرة ابنه الكبير إبراهيم إلى المدينة المنورة، وتقدّم بالجيوش منها، واحتل القصيم، ثم وصل إلى الدرعية، واضطر أميرها عبد الله بن سعود إلى التسليم عام ١٢٣٣، فأمر إبراهيم باشا بنقله إلى مصر، ومن هناك إلى إستانبول حيث لقي حتفه، كما نُقل إلى مصر أكثر أفراد آل سعود وآل الشيخ، وهُدّمت مدينة الدرعية عاصمة الدول السعودية، ورجع إبراهيم باشا إلى مصر عام ١٢٣٥.

كان قد تولّى شرافة مكة عام ١٢٢٨ يحيى بن سرور تحت إشراف محمد علي الذي عزل عمه غالب بن مساعد، واستمر يحيى في شرافته مدة خمسة عشر عاماً، ولم يكن له من ذكر إذ كان الأمر كله لمحمد علي. ثم ثار عليه عام ١٢٤٣، فتمكّن محمد علي من إخماد ثورته فعزله، وولى مكانه عبد المطلب بن غالب.

وبعد هذه المرحلة وقعت الحجاز في صدامٍ مستمرٍ مع عسير، وبقي

ذلك تقريباً حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت عسير على اتفاق مع نجد.
وقد ذكرنا أن محمد علي قد تمكن من دخول عسير عام ١٢٣١، وقد ركّز قواته في طبب، وعاد هو إلى الحجاز، ولم يكد يصل إلى هدفه حتى ثار أهل عسير على قواته وعملوا فيها قتلاً، ومن نجا فرّ إلى الحجاز، فأرسل محمد علي قوةً لتأديب عسير فجاءت من كل جهة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، واستطاعت هذه القوة من دخول عسير، وتركز محمد بن عبد المعين في أبها، واتفق أهل عسير مع الشريف حمود أمير أبي عريش، وانقضّوا على القوة الحجازية فأزالوها عن مواقعها، وسيطروا على المنطقة، وأرسل محمد علي حملةً كبيرةً عن طريق تهامة فهُزمت، فأرسل جيشين إثر ذلك أحدهما عن طريق تهامة والآخر عن طريق السراة، وأردفهما بقوات أخرى إذ كانت الدرعية قد سقطت بيد ابنه إبراهيم، وتفرّغت القوات للاتجاه نحو عسير، فجاءت هذه القوات عن طريق السراة، ومن الشرق عن طريق بيشة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، وثالثة عن طريق تهامة، واستطاعت هذه القوات دخول عسير وحمل محمد بن أحمد المتحمي أمير عسير إلى مصر مع ولده، وما أن غادر القائد العثماني خليل باشا طبب حتى انقض العسيريون على الحامية المصرية وطردوها، وجاءت حملة جديدة بإمرة والي الحجاز أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين، غير أنها هُزمت، وأعاد أحمد باشا حملةً ثانيةً بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين تمكّنت من دخول عسير التي بايعته على كره، وجرى الصلح بين الطرفين ترك محمد بن عبد المعين إثره حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع بن عبد المعين، وسار لقتال القبائل في وادي الدواسر، فقام العسيريون على الحامية وقتلوا أميرها هزاع بن عبد المعين ومن معه، وعاد محمد بن عبد المعين إليهم إلا أنه هُزم، وقُتل أخوه راجح في المعركة التي دارت بين الطرفين، وجاءت حملة جديدة احتلت عسيراً، وأقام والي الحجاز أحمد باشا مدة في أبها، ثم غادرها في أول عام ١٢٣٩ متجهاً إلى الحجاز وقد ترك حامية في أبها، وما أن عاد حتى خرج سعيد بن مسلّط من مخبئه وحاصر الحامية الحجازية في أبها فاضطرت إلى الاستسلام

وسمح لها بالعودة إلى الحجاز وجاءت حملة جديدة بعد وصول الخبر إلى الحجاز، واستطاعت احتلال عسير، وجرى الصلح بين الطرفين الذي لم يستمر إلّا لنهاية عام ١٢٣٩، وجاءت حملة من الحجاز لكنها هُزمت، وسادت مرحلة من الهدوء حتى جاءت حملة عام ١٢٤٩ غير أنها فشلت أيضاً، وتجدّدت عام ١٢٥٠، ووصلت إلى أبها، لكنها لم تلبث طويلاً حتى أُخرجت.

عقد محمد علي اتفاقاً مع اليمن وشريف أبي عريش ضد عسير، وتمكن جيش محمد علي من دخول عسير، لكنه أُخرج أيضاً، وفي هذه الأثناء اختلف والي الحجاز من قبل محمد علي، وهو أحمد باشا، ومقره جدة مع شريف مكة محمد بن عبد المعين الذي تسلّم الشرافة عام ١٢٤٣ بعد خلع الشريف عبد المطلب بن غالب الذي عُيّن لمدة خمسة أشهر فقط وعُزل بعدها. ونتيجة هذا الخلاف فقد عُزل محمد بن عبد المعين عن زعامة مكة والتي بقيت دون شريف، وتولّى أحمد باشا كل شيء من أمر البلاد.

وقوي أمر عسير في هذه المرحلة وضمّت إليها بلاد غامد وزهران من الحجاز، وبقي التنازع على هذه المنطقة بين الجارين وذلك عام ١٢٥٣.

سارت قوة من الحجاز إلى نجد، واحتلتها، وهرب منها فيصل بن تركي، ودخلها خالد بن سعود.

وفي عام ١٢٥٥ خرج محمد علي من الحجاز بل من الجزيرة العربية بعد هزيمته في الشام، وقبوله بمصر له ولأولاده من بعده، ومع انسحاب الجيوش المصرية غادر والي الحجاز أحمد باشا، وعاد إلى شرافة مكة وإمرتها محمد بن عبد المعين، فاتفق مع أمير عسير عائض بن مرعي وتبادلا الأسرى فيما بينهما وذلك عام ١٢٥٦ ، وفي عام ١٢٦٥ تمّ تعيين الحدود بين الإمارتين.

بقي محمد بن عبد المعين في إمارة مكة حتى عُزل عام ١٢٦٧،

وعاد لهذا المنصب للمرة الثانية عبد المطلب بن غالب، واستمر مدة خمس سنوات أي حتى عام ١٢٧١ حيث استطاع محمد بن عبد المعين أن يعود للمرة الثالثة، وبقي ثلاثة أعوام حيث توفي عام ١٢٧٤، وخلفه ابنه عبد الله، واستمر عشرين عاماً (١٢٧٤ ـ ١٢٩٤)، وفي عهده عاد الخلاف مع عسير، فقد سارت حملة عام ١٢٨٠ للهجوم على عسير، ولكنها هُزمت في بيشة، وتكررت بعد عام إلا أنها لقيت المصير نفسه، وسار شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين مع العثمانيين في حملةٍ كبيرةٍ استطاعت السيطرة على عسير، ومع هذه السيطرة إلا أن الوضع لم يهدأ تماماً إذ بقيت الغارات على الحاميات العثمانية، وكان العثمانيون يستعينون بأشراف مكة بصفتهم عمّالاً لهم على منطقة الحجاز، واستمرت هذه الحالة، ترسل الحملات من الحجاز لدعم العثمانيين في عسير.

وتوفي عبد الله بن محمد بن عبد المعين عام ١٢٩٤، وخلفه في إمرة مكة أخوه حسن، وهكذا بقيت الإمرة في أسرة محمد بن عبد المعين، غير أنه بعد ثلاث سنوات من حكم حسن المعروف بالشهيد استطاع عبد المطلب بن غالب أن يعود لحكم مكة للمرة الثالثة، واستقر له الوضع عامين، ثم تمكّنت الأسرة من استرجاع الإمرة لها، وحكم عون بن محمد والمعروف بالرفيق مدة ٢٤ سنة (١٢٩٩ ـ ١٣٢٣)، وخلفه أخوه عبد الإله بن محمد لمدة ثلاث سنوات، ثم تسلّم الأمر منه ابن أخيه حسين بن علي الذي كان في إستانبول في مجلس المبعوثان، وقد حكم من عام ١٣٢٦، وسار في بداية أمره على رأس حملة إلى عسير لإنقاذ الحامية العثمانية المحاصرة في أبها من قبل آل عائض والإدريسي، واستطاع أن يصل إلى أبها عام ١٣٢٨.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت الدولة العثمانية بجانب ألمانيا، على حين انحازت إيطاليا إلى جانب الحلفاء، وهذا ما جعل الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا قائمةً، وكانت إيطاليا تتوسّع يومذاك في البحر الأحمر، فدعمت الإدريسي الذي يُسيطر على تهامة

عسير، ومقّره مدينة صبيا، وطلبت منه التوسع ومهاجمة الدولة العثمانية في الحجاز، وقد بدأ ذلك، فأرسل شريف مكة الحسين بن علي ابنه فيصلاً على رأس قوة التقت مع قوات الإدريسي قرب ميناء القنفذة، ورغم دعم إيطاليا لقوات الإدريسي وقصف الأسطول الإيطالي جيش الحجاز إلا أن فيصلاً قد تمكّن من النصر على قوات الإدريسي، وهمّ فيصل بدخول عسير لحمايتها من الإدريسي إلا أن رسالةً قد جاءته من والده تدعوه للعودة للعمل ضد العثمانيين في الحجاز، وبوقوف الحسين بجانب الحلفاء توقّف القتال في جبهة عسير إذ كلا الطرفين أصبح بجانب الحلفاء أي الحسين بن علي وإيطاليا ومعها الإدريسي.

كان شريف مكة على خلافٍ مع حكام الدولة العثمانية من رجال الاتحاد والترقي، وهذا ما جعله محط أنظار الإنكليز للتفاهم معه، هذا بالإضافة إلى أطماعه، ومركزه الإسلامي الكبير بصفته شريف مكة. وجرت الاتصالات بين الحسين به علي والإنكليز عن طريق هنري ماكماهون الحاكم الإنكليزي في مصر، وتمّ الاتفاق على قيام الشريف حسين بحركةٍ في الحجاز ضد العثمانيين، وفي حالة النصر سيكون الحسين ملكاً على العرب. وفي الوقت نفسه كان الإنكليز يتقاسمون المنطقة العربية التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية، وهي بلاد العراق وبلاد الشام، ولكنه بشكلٍ سريٍّ لا يعلمه الشريف حسين ولا غيره من المسلمين، ووقف الحسين بجانب العملاء الذين قبض عليهم جمال باشا في الشام، ثم أعدمهم، وأرسل الحسين ابنه فيصلاً ليتوسط لهم، على أنهم أحرار، وكاد فيصل نفسه يقع في قبضة جمال باشا.

أعلن الشريف حسين الثورة ضد الأتراك في صيف عام ١٣٣٥، وألقى الحصار على المدينة المنورة، في الوقت الذي تقدّم ابنه فيصل نحو الشمال على رأس قوةٍ حجازيةٍ كانت تنضمّ إليها قوات من العرب، والذين يفرّون من الجيوش العثمانية، والأسرى العرب الذين وقعوا في قبضة الإنكليز أثناء الصدام مع العثمانيين على الجبهة المصرية وفي فلسطين،

ووصل فيصل إلى معان، واستمر يتقدّم نحو الشمال بشكلٍ موازٍ للجيش الإنكليزي الذي يتقدم في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي.

وخرج العثمانيون من أرض الحجاز، وانسحبت الحامية التي كانت مُحاصرةً في المدينة، وعطّل العربان في جيش فيصل الخط الحديدي الحجازي، وما يزال حتى الآن مُعطّلاً.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، والتفت الشريف حسين يركّز أوضاعه في الجزيرة، وكان قد انسحب المتصرف العثماني في عسير بناءً على أوامر دولته، وتسلّم آل عائض المنطقة والذخيرة والقلاع من المتصرف، وأصبحت المنطقة مطمعاً لأمراء الجزيرة في اليمن، وتهامة، ونجد، والحجاز ووقف الإدريسي بجانب نجد في بداية الأمر، ووقف الشريف حسين بجانب آل عائض، وتمكّن الملك عبد العزيز آل سعود من دخول عسير فأرسل الشريف حسين قوةً التقت مع القوة السعودية في بلاد بالأسمر في موقع مسفرة فانتصر الحجازيون، وقتل قائد الجيش السعودي سليمان بن سعد بن عفيصان وبعض أمرائه، وتابع قائد الجيش الحجازي الأمير راجح سيره إلى أبها وحاصرها، وبقيت الحامية السعودية عشرين يوماً معتصمةً في قلعة (شدا) حتى جاءت النجدة، وانسحب الجيش الحجازي ليدعم قواته في الطائف التي تواجه القوات السعودية هناك.

هاجم الشريف حسين عام ١٣٣٧ تربة الموقع الذي يتبع السعوديين غير أنه هُزم هزيمةً منكرةً، وانسحب قائده ابنه عبد الله، ثم هُزم هزيمةً أخرى عام ١٣٤٣، فتنازل لابنه علي الذي انتخب ملكاً على الحجاز، ورحل الحسين من مكة إلى العقبة ومنها إلى قبرص تحت مراقبة الإنكليز، وبعدها انتقل مريضاً إلى عمان حيث وافته منيته عام ١٣٥٠.

دخل السعوديون مكة عام ١٣٤٣ بعد هزيمة الحسين، فانتقل ملك الحجاز علي بن الحسين إلى جُدَّة، وتابعوه إلى جُدّة فحاصروه مدة سنةٍ كاملةٍ، وفي الوقت نفسه كانوا يُحاصرون المدينة فاستسلمت بعد عشرة أشهر، كما استسلمت جُدّة بعد اتفاقٍ انسحب بموجبه علي بن الحسين

منها، واتجه إلى أخيه فيصل بالعراق، وبقي بجانب أخيه حتى توفي، وهكذا تبعت الحجاز الدولة السعودية، وانقضى عهد الأشراف.

وإذا خرج الأشراف من الحجاز إلا أن أطماعهم قد بقيت حيث وجد حزب الأحرار الحجازي الذي كان يدعمه أمير الأردن عبد الله بن الحسين، ويتزعّمه حامد بن سالم بن رفادة، من مشايخ قبيلة بلي مع بعض مشايخ قبيلة الحويطات وعندما قام بحركة عام ١٣٥١ قتل ابن رفادة وقضى على الحزب، وعلى آمال الأشراف الذين أحاطوا بالدولة السعودية من الشمال في العراق والأردن لتهديدها فيما إذا...

أشراف مكة في العهد العثماني:

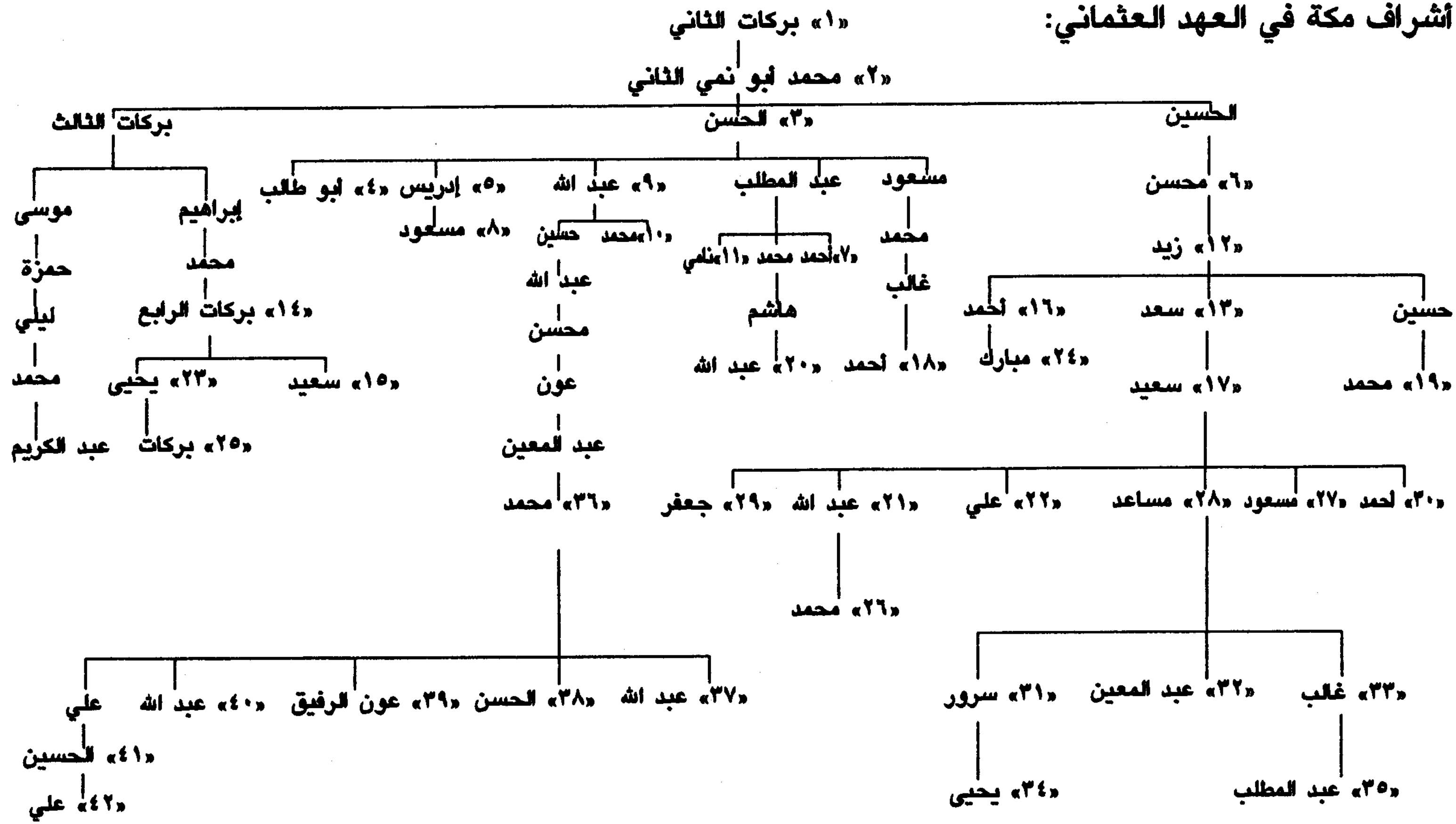

الفصل الثاني

نجـــد

كانت نجد تعيش في حالة من الفوضى والانقسام قبل وصول النفوذ العثماني إليها، وكان حكم البحرين يمتدّ إليها في أوقات ويتراخى في أخرى، وهذا ما أدّى إلى وجود إماراتٍ صغيرةٍ لا تشمل أرض بعضها إلا عدة قرى متجاورة، وقد تستمد قوتها من اتصالها بالدويلات الصغيرة التي نشأت في المنطقة، وقد تقع الحرب بينها بسبب اعتداء بعضها على بعض، كما لا تخلو المنطقة من غارات البدو المستمرة والمتنقلين في تلك الأرجاء، أو قطع الطرق من قبل بعض العصاة أو الخارجين على الحكم أو المضطرين بسبب الحالة السيئة التي كانت تتعرّض لها المنطقة بين المدة والمدة.

ووصل النفوذ العثماني إلى الحجاز عام ٩٢٣ هذا من ناحية الغرب، كما وصل إلى البحرين عام ٩٦٣ بقيادة فاتح باشا الذي قضى على إمارة راشد بن مغامس الذي قام عام ٩٣٢، وقضى على حكم بني عامر بن عقيل، وهذا من جهة الشرق، ومع وصول النفوذ العثماني إلى الحجاز والبحرين فإنه من الطبيعي أن يمتد إلى نجد، ولكن عن طريق ولاته في الغرب أو عماله في الشرق. وقد كان نفوذ شرفاء مكة في نجد في بداية الأمر هو القوي بالنسبة إلى نفوذ البحرين، وعندما كان الشرفاء يشعرون في نفوسهم بالقوة أو يرون محاولة لعصيان إمارات نجد عليهم يُجرّدون الحملات لإقرار نفوذهم أو لإخضاع من يفكر في التمرد وإعلان العصيان، وقد كثرت هذه الغزوات.

غزا الشريف حسن بن محمد أبي نمي بلدة معكال[1] عام ٩٨٦، وبقي فيها مدة. كما عاد بعد ثلاث سنوات فغزا الخرج والعارض، واعترض أثناء عودته جماعة من بني خالد إلا أنه هزمهم.

وغزا أبو طالب بن حسن نجداً عام ١٠١١ باسم أخيه إدريس بن حسن الذي غدا شريف مكة مكانه. وغزا محسن بن حسين بن حسن نجداً عام ١٠٣٥، وقاتل أهل بلدة القصب من نواحي الوشم، ثم عاد مرة أخرى في العام التالي، وتمكّن من الوصول إلى البحرين.

وغزا زيد بن محسن عام ١٠٤٢ نجداً، وتكرّرت غزواته، فوصل عام ١٠٥٦ إلى روضة سدير، وعام ١٠٥٧ إلى العُيينة، وإلى الخرج عام ١٠٥٧ أيضاً، ونزل التويم وجلاجل عام ١٠٦٩.

وضعفت الدولة العثمانية سريعاً في منطقة البحرين، ولم يتعاقب سوى أربعة من ولاتها على المنطقة وهم: فاتح باشا الذي دخل المنطقة، وعلي باشا أبو الوند، ومحمد باشا، وعمر باشا، فطمعت القبائل بالولاة، وظهرت قوة قبيلة بني خالد في المنطقة، واستطاع زعيمهم براك بن غرير من السيطرة على البحرين وإخراج الحامية العثمانية منها عام ١٠٨٠، وامتدّ نفوذ دولته حتى وصل إلى الكويت، كما غزا نجداً عام ١٠٨١، وهكذا وجدت قوتان تحيطان بنجد من الغرب أمراء مكة ومن الشرق أمراء البحرين، وهي منطقة صراع بينهما.

وقد غزا الشريف أحمد بن زيد بن محسن نجداً عام ١٠٩٧، ونزل عنيزة، وسار أخوه سعد بن زيد بن محسن عام ١١٠٧ إلى نجد ووصل إلى منطقة سدير. ويظهر أنّ قوّة بني خالد قد طغت بعدئذٍ على نجد، وزادت على قوة الأشراف.

ونلاحظ أن إمارات نجد كانت صغيرةً ومتفرقةً لا يجمعها رابط، وهي

---

(١) معكال: قرية من ضواحي الرياض، وهي حي من أحيائها اليوم، تقع جنوب دخنة حول شارع الفريان، وكانت قريةً خاصةً منفصلةً عما حولها، وتُعَدّ منفوحة أقرب القرى لها.

في صراعٍ دائمٍ فيما بينها، وتنافسٍ مستمرٍ على السلطة، ومرابطة لا تنقطع، وثأر لا ينتهي، يتحيّن أهل كل قريةٍ الفرصة للانقضاض على القرية الأخرى، بل تطوّر الأمر إلى الصراع داخل القرية الواحدة بل وبين أفراد الأسرة الواحدة، والأمير يأخذ ما يحلو له من ثمار، وقد يأتي شريف مكة فيدخل البلاد، كما قد يسير حاكم الإحساء فيخضع الأمراء لسلطانه، وهم يتبعون له، هذا بالإضافة إلى غارات البدو التي لا تنقطع، وتسلّط القبائل وشيوخها على الحضر، وانتشار اللصوص في كل مكان، ووجود الحرابا في الدروب والطرقات، هذا من ناحية الأمن أما من ناحية الدين فتقديس القبور والمظاهر الخاصة، والتعامل بالربا، وارتكاب الفواحش، والإكراه على تزويج البنات، وانتشار الخرافات والتوسل بغير الله من أضرحة الصالحين والصحابة، والاعتقاد ببعض الأحجار والأشجار بأنها تكون سبب الإنجاب أو إيجاد الزوج، وحفظ الولد، إذ قام عندها الملتجئ ببعض التصرفات، كل هذا كان يُثير النفوس، ويُذكي روح التمرّد على هذه الأوضاع، ويحرّق القلوب التي فُطرت على حب الأمن والطمأنينة والسلام، وما يرى عاقل شيئاً من هذا إلا ويُخيفه ما وصل إليه الأمر، ولا شك فإن أول ما يهتم بهذا ويثير كوامن نفسه هو العالم. وكان لا بدّ من مُنادٍ للإصلاح، وداعيةٍ للخير، وشاء الله أن يكون هذا الداعية هو الشيخ محمد بن عبد الوهّاب التميمي[1]، فخافه بعض الأمراء حرصاً على مصالحهم وشهواتهم، فتواصوا

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ولد في بلدة العيينة إلى الشمال في الرياض بحوالي أربعين كيلومتراً عام ١١١٥، وعاش في بيئةٍ صالحةٍ إذ كان أبوه عالماً، وعمل في القضاء في العُيينة وحريملاء، كما كان جده مفتي نجد، وإماماً في الفقه، وكذا كان عمّه، فنشأ في بيت علمٍ ودينٍ، فكان شغوفاً لتحصيله، واهتمّ بكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقام برحلات في طلب العلم إذ سافر إلى الحجاز، والإحساء، والبصرة فالتقى بالعلماء، ورأى أوضاع المسلمين، فكتب الرسائل، ودوّن الكتب. رحل والده إلى حريملاء عام ١١٥٣ لخلافٍ بينه وبين أمير العُيينة الجديد، فرحل ابنه معه، وأراد أن يعمل بالدعوة فمنعه والده فانصرف إلى التأليف، ولكن لم يلبث والده أن توفي في ذلك العام، فأعلن الشيخ عن رأيه، وبدأ يدعو الناس إلى ترك ما هم عليه من بدع، والتمسّك بالإسلام، ووجد أن جوّ حريملاء لا يُناسب الدعوة فقرّر العودة إلى العُيينة =

به، حيث كتب حاكم الأحساء سليمان بن محمد بن غرير إلى أمير العُيينة عثمان بن معمّر أن يترك نصرة الشيخ، وأن يقتله، وابن معمّر يتبع ابن غرير، ويتقاضى منه راتباً شهرياً، فلم يكن منه إلا أن يطلب من الشيخ أن يُغادر إمارته، فانتقل إلى الدرعية عام ١١٥٧ حيث استقبله أميرها محمد بن سعود[1]، ووعده أن يمنعه، وأصبحت الدرعية مركزاً دينياً، ومقراً للنشاط، فقويت الإمارة، وسارت منها الجيوش في الاتجاهات كافةً تعمل على إزالة المنكرات، وترك الخرافات.

توسّعت إمارة الدرعية إذ ضمت إليها العُيينة، وحريملاء، ووقع الصدام بينها وبين الرياض التي حملت هذا الاسم بعد أن كانت تُعرف باسم (حجر اليمامة)، ومع حاكم نجران، وحاكم الإحساء (عريعر بن دجين)، ثم استطاع محمد بن سعود أن يفرض حكمه على بلاد العارض (عدا الرياض) وأكثر منطقة الخرج وحائر، والوشم، والمحمل، وسدير، وتوفي عام ١١٧٩، وتولّى بعده ابنه عبد العزيز بن محمد الذي تمكّن من دخول الرياض عام ١١٨٧، وتوجّه بعدها إلى القصيم فاستمر في قتاله فيها (١١٨٨ ـ ١٢٠٢)، ثم سار إلى الإحساء فدخلها عام ١٢٠٨، وانتقل بعدها إلى الغرب فدخل الطائف عام ١٢١٧، ومكة المكرمة ١٢١٨ بعد حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد.

وغزا عبد العزيز بن محمد جنوبي العراق، ودخل كربلاء، وهدم قبر حسين بن علي، رضي الله عنهما، وأخذ الكنوز التي في الضريح، وهذا ما أثار نقمة الشيعة عليه، فجاء أحدهم إلى الدرعية مُتَنكّراً، وطعنه وهو يُؤدي

= وساعده عثمان بن معمر أميرها في نشر دعوته، وبدأ في التطبيق إذ قطعت الشجرة التي يتبرك بها الناس، وهدمت القبة التي فوق ضريح زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، ورجمت الزانية. وتوفي الشيخ عام ١٢٠٦.

(١) محمد بن سعود: ورث إمارة بلدة الدرعية عام ١١٣٩، وكانت أسرته قد أعمرتها منذ عام ٥٨٠ في مكان كان يدعى (الليبيد وغصيبة) حيث نزل فيها مانع بن ربيعة المريدي من بني حنيفة قادماً من منطقة القطيف.

صلاة العصر فكان موته عام ١٢١٨، وتولّى مكانه ابنه سعود بن عبد العزيز الذي لقب بالكبير.

غزا سعود الكبير جنوبي العراق في أواخر عام ١٢١٨، وعجز عن دخول البصرة والزبير، وأعاد الغزو ثانية عام ١٢٢٠، وحاصر النجف، والسماوة، والبصرة، والزبير، وكرّر الغزو عام ١٢٢٣، وكذلك أرسل ابنه عبد الله عام ١٢٢٥. أما من جهة الغرب فقد غزا الحجاز عام ١٢١٩، ودخلت جيوشه المدينة المنورة عام ١٢٢٠، وشعر شريف مكة غالب بن مساعد بالضعف فعقد صلحاً مع الدولة السعودية على الشروط التالية:

١ ـ أن يسمح الشريف غالب للوهابيين بالحج، وبعد أداء المناسك مباشرة يعودون إلى بلادهم.

٢ ـ يدخل أهل مكة، وكل من كان تحت حكم الشريف في الطاعة للدولة السعودية.

٣ ـ يكون أمر مكة وحكمها تحت نظر الشريف.

وقد اشترط الشريف غالب أن تُعيد الدولة السعودية إليه (الحسينية)، وأثمان ما أخذوه وما أتلفوه فيها، وحتى ديات القتلى.

واتجهت جيوش سعود الكبير من جهة الشمال إلى بلاد الشام إذ وصلت عام ١٢٢٥ إلى مزيريب وبصرى في حوران في أواسط بلاد الشام جنوبي سوريا اليوم.

ومن ناحية عُمان خاف حاكم مسقط سلطان بن أحمد على نفسه من الدولة السعودية فاتجه إلى البصرة ليتفق مع والي بغداد مُمثّلاً للسلطان العثماني ضد سعود الكبير، وقد تم ذلك عام ١٢٠٦، واعترف سلطان مسقط بسيادة الدولة العثمانية على ممتلكاته في الجزيرة العربية وشرقي إفريقية لقاء حمايته من أعدائه أي من سعود الكبير، وهذا الاتفاق أثار إنكلترا فعملت على قتل سلطان مسقط وهو عائد إلى بلاده، وسار والي بغداد لمحاربة الدولة السعودية، غير أن السعوديين قد سبقوه بالإغارة على

جنوبي العراق، وتولّى أمر عُمان بعد سلطان بن أحمد أخوه بدر بن أحمد فوالى الدرعية، وطلب حمايتها إلا أنه قُتل، فأخذ مكانه ابن أخيه سالم بن سلطان، ثم أخوه سعيد بن سلطان، وحدث قتال بين العُمانيين والسعوديين انتصر فيه السعوديون، فطلبت عُمان إثر ذلك المبايعة على السمع والطاعة، وأصبحت تحت ولاية السعوديين، واستنجد سعيد بن سلطان بالإنكليز فأرسل سعود الكبير حملةً إلى عُمان عام ١٢٢٥ انتصرت على سعيد بن سلطان الذي استنجد ثانية بالإنكليز فلم ينجدوه، فاتجه إلى الفرس، وعاد القتال إلى أرض عُمان بين السلطان والسعوديين انتصر فيه السعوديون الذين أصبح لهم أنصار في البلاد، ووقع الخلاف بين أنصارهم وخصومهم غير أن سعود الكبير لم يستطع إرسال النجدات لهم لأن جيوش والي مصر محمد علي كانت قد نزلت بأرض الحجاز.

أما الإحساء فكانت قد دخلت في طاعة آل سعود عام ١٢٠٨، غير أن أهلها قد قاموا بعدة حركات منها حركة عام ١٢١٠، وأخضعت بسهولة، فاتصل الزعماء الذين فقدوا سلطتهم بالوالي العثماني في العراق وطلبوا دعمه فأمدهم بجيشٍ هُزم عام ١٢١١، فأردفه بثانٍ عام ١٢١٣ غير أنه لم يجر قتال إذ تمّ الصلح، ولكن لم يلبث أن عاد القتال، وغزا السعوديون جنوبي العراق عام ١٢١٦.

ووصلت الدعوة السلفية في جهات عسير إلى تهامة حيث استولى طامي بن شعيب أمير عسير على تهامة، وقاتل سيد أبي عريش الشريف حمود أبو مسمار، ووصل إلى الحديدة.

وهادن إمام صنعاء المنصور وابنه المتوكل إمام الدرعية سعود الكبير، واستجابا إلى شيء من الدعوة السلفية.

وهكذا دان أكثر الجزيرة العربية إلى سعود الكبير، ولم يبق خارج الدعوة السلفية سوى البحرين، وبعض المراكز للنفوذ الإنكليزي في الأطراف.

الحملة المصرية على الجزيرة:

سبق أن قلت في الباب الأول من هذا الكتاب: إنه قد أصبحت ثلاثة اتجاهات في المنطقة التي تتبع الدولة العثمانية أصلاً، أو لها نفوذ فيها، وهذه الاتجاهات هي:

١ ـ الدولة العثمانية التي تُمثّل الضعف والتوقّف في العمل الإسلامي أو جمود المسلمين، وتحكم باسم الإسلام دون أي عملٍ أو منهجٍ صحيح.

٢ ـ ولاية مصر التي يحكمها محمد علي ويرى السير على خطا أوربا ومنهجها، وله أطماعه وتطلعاته.

٣ ـ الدولة السعودية في الجزيرة وتعمل على إحياء فكرة الجهاد والسير على منهج السلف بعقليةٍ خاصةٍ، وتجاوب المسلمون في الجزيرة معها، واقتنعوا بالفكرة، وقاموا يعملون لها ويُجاهدون.

ولقد خشيت الدولة العثمانية من هذا التوسع الذي تمّ أيام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود الكبير، ولم تتمكّن من الوقوف في وجه الدعوة حيث هُزم والي بغداد أمامها، كما هُزم والي الشام. وخشي محمد علي والي مصر على مخططه الذي يعمل له، وعلى أفكاره وأطماعه. وخشيت كذلك الدول النصرانية إذ خافت أن تدبّ الروح في المسلمين ثانية بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، فشجعوا الخليفة للقضاء على هذه الدعوة وشجّعوه بالاستعانة بجيوش محمد علي الفتية، أو رأوا أن التفاهم بين الجمود العثماني والتحرر الباشوي المصري خير من نجاح العمل الجديد للإسلام ووافق الخليفة العثماني بغية ضرب خصميه، الواحد بالآخر، وقبل محمد علي بغية تنفيذ أو تحقيق أطماعه.

أعطى الخليفة ولاية جدة لمحمد علي ليصبح على احتكاكٍ مباشرٍ مع السعوديين، وفي الوقت نفسه أراد الخليفة إشغال الناس بالقتال وأخباره في الجزيرة بعد أن تخلص من الإنكشاريين.

أرسل محمد علي مندوباً له إلى الجزيرة يدرس الأوضاع الداخلية عن

قرب، ويتعرف على نوايا شريف مكة غالب بن مساعد، وقد جاءت النتائج كما يريد محمد علي، فسير الحملة وتخلص من المماليك في الحفل الذي أعدّه لهذا الغرض بمناسبة إرسال ابنه طوسون على رأس الحملة.

سارت الحملة في شهر شعبان من عام ١٢٢٦ وتتألف من ٨٠٠٠ جندي من المشاة انتقلوا بحراً إلى ميناء ينبع، و٢٠٠٠ من الفرسان انتقلوا براً مع القائد العام أحمد طوسون بن محمد علي ولا يزيد عمره على السادسة عشرة والتقوا بينبع وقد سقطت بأيديهم، ومال شريف مكة غالب بن مساعد إلى الحملة التي سارت برأيه نحو المدينة المنورة، واحتلت في طريقها بدر، وعند الصفراء التقت بالجيش السعودي الذي يتألف من خمسة عشر ألف جندي على رأسهم عبد الله بن سعود الكبير، ومعه أمير عسير طامي بن شعيب، وعثمان المضايفي أمير الطائف، وهزمت الحملة المصرية، وأخطأ السعوديون في عدم متابعة المصريين الأمر الذي جعلهم يخلدون إلى الراحة، ويُنظّمون صفوفهم، ويطلبون النجدة.

وجاءت النجدة إلى طوسون فتوسّع وتمكّن من احتلال الصفراء ودخول المدينة المنورة عام ١٢٢٧ بعد حصارها، وسار بعدها إلى مكة بإشراف غالب بن مساعد فدخلها عام ١٢٢٨، وكذلك مدينة جُدّة، وأُسر عثمان المضايفي الذي أُرسل إلى مصر ومنها إلى إستانبول حيث لقي فيها حتفه.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة فمكّة بعد دخولها من قبل جيشه وسخّر الشريف غالب في أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها إلى سالونيك إذ بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١.

أراد طوسون أن يتوسّع نحو نجد من جهة الطائف إلا أنه هُزم مرتين في موقع تربة. وأُرسلت حملة إلى عسير عن طريق القنفذة لكنها هُزمت أيضاً، وتقدّم المصريّون نحو الشرق من جهة المدينة غير أنهم هُزموا في الحناكية أيضاً.

لم يكن الإنكليز ليسرّهم نصر محمد علي الذي كان أقرب إلى السياسة الفرنسية بل كانوا يخشون وجوده في الجزيرة العربية، وكانت صلتهم بالسعوديين ضعيفة غير أنهم راضون لمقاومة توسعات محمد علي.

وتوفي سعود الكبير عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه عبد الله، ولم يكن له إمكانات أبيه، فأطمع هذا محمد علي، وقرّر القضاء على الدعوة، وسار نحو عسير وطوّقها من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت في الجبهتين. وكان عبد الله بن سعود مشغولاً ببعض الحركات الداخلية، فأعطى أخاه فيصلاً قيادة الجيوش فهُزم هزيمةً منكرةً في (بسل) شرق الطائف بعد أن جاءت الإمدادات بقيادة محمد علي بنفسه إلى القوات المصرية، واستغلّ محمد علي هذا النصر الذي أحرزه، وبدأ يشن حرباً لا هوادة فيها على القرى الآمنة حتى أصبحت تستسلم له مجرد اقترابه منها. فتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأسر أميرها طامي بن شعيب، وحمله معه مكبلاً بالحديد، وبقي معه حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقتل هناك.

وانتقل أحمد طوسون بن محمد علي إلى المدينة، وتقدّم منها نحو الشرق حتى وصل إلى بلدة الرسّ، واستقرّ في الخبرا، وجاءت جيوش عبد الله بن سعود ولم يحدث قتال بين الطرفين، حيث عقد صلح عُرف باسم (صلح الرسّ) وينص على:

١ ـ أن يتوقف القتال بين الجانبين.

٢ ـ ينسحب المصريون من نجد، ويستقل آل سعود بحكمها.

٣ ـ يبقى الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم العثمانيين.

٤ ـ لا يعترض سبيل أي حاج من الطرفين.

٥ ـ تأمين النقل بين نجد، والشام، ومصر، والأناضول.

وبموجب هذا الصلح رحل المصريون عن نجد، وسافر طوسون إلى

مصر. ولكن محمد علي رفض هذا الصلح، وسيّر حملةً جديدةً بقيادة ابنه الكبير إبراهيم، والتقى الطرفان في شرق المدينة، وانتصر إبراهيم باشا في المعركة الأولى، ودخل الخبرا، والرسّ، وعنيزة بعد معارك جانبية، وتابع سيره إلى الدرعية، ودافع عنها أهلها دفاع المستميت، واضطر عبد الله بن سعود لتسليم نفسه في ١١ ذي القعدة عام ١٢٣٣ حيث أرسل إلى مصر، ومنها إلى إستانبول حيث أعدم هناك. وأمر إبراهيم باشا أسرتي آل سعود وآل الشيخ بالرحيل إلى مصر إلا من اختفى منهم أو هرب، ثم هدّم الدرعية، وقطع نخيلها، وعاد إلى القاهرة فوصل إليها في صفر عام ١٢٣٥. وهكذا انتهت الدولة السعودية التي عُرفت فيما بعد بالدولة السعودية الأولى.

عادت الإمارات الصغيرة إلى نجد مرة أخرى مثل: الرياض، والخرج، وحريملاء، وبريدة، وعاد إلى الإحساء كيانها، وإلى أشراف مكة استقلالهم. وخاف الإنكليز من قوة محمد علي المخالف لهم فاتجهت أنظارهم نحو منطقة الخليج حيث لم تصل قوة محمد علي بعد، وكذلك نحو الجنوب.

وبعد رحيل إبراهيم باشا عن الدرعية انقضّ عليها قادماً من العُيينة محمد بن مشاري بن معمر، وأخذ البيعة من كثير من البلدان عدا الرياض، وحريملاء، والخرج، وحاربه أمير الإحساء ماجد بن عريعر من بني خالد إلا أن الصلح قد تمّ بينهما، واستمر ابن معمر في الدرعية حتى عام ١٢٣٥ حيث وصل إليها مشاري بن سعود هارباً من قافلة الأسرى المتجهة إلى مصر، وقد اجتمع حوله عدد من أهالي القصيم، والزلفي فتنازل له ابن معمر، وبايعه، وخدعه، ثمّ كاتب العثمانيين، وحاربه، وانتصر عليه، وسلمه إلى العثمانيين فقتلوه، وعاد ابن معمر إلى حكم الدرعية.

كان تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود قد لاذ بالفرار إلى الخرج، واعتصم فيها عندما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا، ثم حكم الرياض أيام تسلّم ابن عمه مشاري حكم الدرعية. فلما عاد ابن معمر إلى الدرعية سار

تركي إليه وقتله عام ١٢٣٦ إلا أن القوات العثمانية قد جاءت إلى الرياض، وأجبرته على مغادرتها عام ١٢٣٧، وتمكّن بعد مدةٍ أن يعود إليها ثانيةً، وأن يهزم القوات العثمانية، وأن يخرجها منها عام ١٢٤٠، وعندها جاءت إليه وفود نجد تُعلن له الطاعة، وجاءه أهل عُمان أيضاً عام ١٢٤٤، وانتصر على بني خالد، فجاء أهل الإحساء، وبايعوه وهكذا عادت الدولة السعودية من جديد، وعرفت باسم الدولة السعودية الثانية، وأصبحت قاعدتها الرياض بدلاً من الدرعية، كما أن الحكم انتقل من أسرة عبد العزيز بن محمد إلى أسرة عبد الله بن محمد. وعندما وصل الخبر إلى أسرى آل سعود في مصر بإعادة الدولة السعودية تشجّع بعضهم على محاولة الفرار من مكان أسرهم، وقد تمكّن أحدهم وهو مشاري بن عبد الرحمن أن يفرّ من السجن عام ١٢٤٢، ولحقه الثاني وهو فيصل بن تركي، بن عبد الله، وقد وصل إلى نجد عام ١٢٤٣، وأصبح ساعد أبيه في توطيد دعائم الدولة، واستطاع أن يقضي على كثيرٍ من الحركات التي قامت في وجه أبيه، وبينما كان يُحاصر القطيف، وصل إليه خبر مقتل أبيه في ٢٩ ذي الحجة عام ١٢٤٩ على يد ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود طمعاً في استلام الحكم.

فيصل بن تركي:

فكّ الحصار عن القطيف، وسار إلى الرياض عندما وصل إليه خبر مقتل أبيه، واستطاع استرجاع السلطة إليه بعد أن قام عبد الله بن رشيد بقتل مشاري بن عبد الرحمن في مطلع عام ١٢٥٠، وكان عبد الله بن رشيد مع فيصل بن تركي في حصار القطيف. وأصبح فيصل إمام نجد.

تغيّرت سياسة محمد علي، إذ أصبح يريد تأسيس دولة واسعة له، إلا أن الحركات قد قامت ضده في الجزيرة، إذ ثار ضده شريف مكة يحيى بن سرور عام ١٢٤٣، فأخمد محمد علي تلك الحركة، وعزل يحيى بن سرور، وولّى مكانه محمد بن عبد المعين بن عون، وتحرّك عائض بن

مرعي في عسير، وهزم قوات محمد علي هناك. وقويت دولة فيصل بن تركي في نجد فأراد محمد علي أن يضربها ببعض آل سعود، أو يقسم الأسرة بعضها على بعض ليستفيد هو، فأرسل خالد بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود مع حملة استطاعت احتلال نجد عام ١٢٥٣، ودخل خالد بن سعود الرياض، وخرج منها فيصل بن تركي متجهاً نحو الخرج ومنها إلى الإحساء.

لم تخضع الخرج والحوطة والحريق إلى خالد بن سعود الذي هُزم أمام قواتها عندما اتجه نحوها، وهذا ما جعل فيصل بن تركي يأتي من الإحساء ويُحاصر الرياض، غير أن نجدةً مصريةً قد جاءت إلى خالد بن سعود كانت في طريقها إلى عسير عن طريق وادي الدواسر، وقد أجبرت فيصلاً على ترك حصار الرياض، والتوجه نحو الخرج، وعندما سارت قوات خالد بن سعود إليه هزمته، فاضطر إلى الصلح، ونتيجة ذلك أُخذ، وسيق إلى مصر.

خالد بن سعود:

كان خالد بن سعود صورةً في الحكم، في الوقت الذي كان فيه القائد المصري خورشيد باشا هو الحاكم الفعلي. لذا كان سكان نجد يكرهون خالداً.

عبد الله بن ثنيان:

ثار عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود على خالد فأيّده أهل نجد، واضطر خالد أن يفرّ إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة حيث بقي هناك حتى مات، وحكم عبد الله بن ثنيان نجداً من الرياض، وكانت الظروف مناسبةً له، لأن محمد علي والي مصر قد هُزم في بلاد الشام، واضطر إلى توقيع معاهدة لندن التي قضت أن ينحصر نفوذه في مصر، وهذا ما أدّى أيضاً إلى سحب جيوشه من جزيرة العرب، ولم

يعد لخالد بن سعود نصير فتمكّن عبد الله بن ثنيان في الحكم، وبقي حتى عام ١٢٥٩.

جاء فيصل بن تركي من سجنه في مصر بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمس سنوات، فاتجه إلى حائل، ونزل عند صديقه الأول عبد الله بن رشيد، ثم سار إلى الرياض فحاصرها ثم دخلها، وقبض على عبد الله بن ثنيان وسجنه، ولكن لم يلبث ابن ثنيان أن مات في السجن في العام نفسه ١٢٥٩، وغدا فيصل بن تركي سيّد نجد ثانيةً.

فيصل بن تركي «للمرة الثانية»:

استطاع فيصل بن تركي أن يُخضع الإحساء والقطيف عام ١٢٦٠، وبذا امتد نفوذه كثيراً، كما أن عبد الله بن رشيد كان يحكم حائل باسمه، هذا بالإضافة إلى أن آل عائض في عسير كانوا على صلةٍ طيبةٍ معه وقد امتدّ نفوذهم كثيراً في جهات اليمن وتهامة وحتى جزر دهلك على سواحل اريتريا.

وفي عام ١٢٦٣ وصل إلى نجد شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، ولما وصل إلى عنيزة صالحه الإمام فيصل بن تركي، وقدّم له هديةً فرجع من حيث أتى.

وكانت عُمان تدفع الزكاة للإمام فيصل رغم النفوذ الإنكليزي فيها، وتتصل بالدولة السعودية، ولم تعترف بتبعيتها للإنكليز.

وحاولت الدولة العثمانية أن تستفيد من فيصل بن تركي للعمل معاً ضد عسير الثائرة على العثمانيين بإمرة آل عائض، ولكن الإمام فيصلاً لم يُقدّم أي مساعداتٍ تُذكر لأنه كان على صلةٍ طيبةٍ مع عسير. وتوفي فيصل عام ١٢٨٢ وترك أربعة أولاد هم: عبد الله، ومحمد، وسعود، وعبد الرحمن.

عبد الله بن فيصل:

تسلّم الولد الأكبر لفيصل وهو عبد الله الحكم بعد أبيه، ولكن ثار

عليه أخوه سعود الذي كان والياً على الخرج غير أنه هُزم، ففرّ إلى عسير، وطلب من محمد بن عائض أمير عسير مساعدته ضد أخيه عبد الله، ولكن لم يحصل إلا على النصح في الصلح مع أخيه، فتركه واتجه إلى نجران ودعمه المكارمة وآل مُرّة، فجمع حشداً واتجه إلى أخيه إلا أنه هُزم وجُرح، فاتجه إلى المنطقة الشرقية، ومنها إلى واحة البريمي فجمع جموعه وسار إلى أخيه، وأحرز النصر، واضطر عبد الله إلى مغادرة الرياض، غير أن سعوداً لم يجرؤ على دخولها لأنه لم يجد في نفسه القوة الكافية بعد لحمايتها، فعاد إليها عبد الله. وحاول سعود أن يستعين بعبد الله بن رشيد أمير حائل، وبوالي بغداد العثماني، ولكنه لم يجد دعماً من هاتين الجهتين، ومع ذلك فقد ظل مُصمّماً على القتال.

سعود بن فيصل:

زحف سعود بن فيصل على قوات أخيه في الرياض عام ١٢٨٨، وتمكّن من دخولها، وخرج منها أخوه عبد الله مُتجهاً إلى قبائل قحطان في الجنوب، وحاول العودة إلى الرياض غير أنه هُزم، وطلب المساعدة من العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا الإحساء، واتجه إليهم.

ثار أهل الرياض على سعود بن فيصل، وعزلوه، وولّوا مكانه عمه عبد الله بن تركي.

عبد الله بن فيصل للمرة الثانية:

جاء عبد الله بن فيصل من المنطقة الشرقية إلى الرياض فتنازل له عمه عبد الله بن تركي بعد أن حكم شهرين، وهرب سعود بن فيصل إلى الخرج وذلك عام ١٢٨٩.

سعود بن فيصل للمرة الثانية:

التفّ حول سعود بن فيصل أنصاره في منطقة الخرج فسار بهم إلى

الرياض، وتمكن من دخولها بعد أن انتصر على أخيه عبد الله الذي فرّ إلى الكويت.

حاول سعود بن فيصل استرجاع الإحساء، وطلب مساعدة الإنكليز فلم يقبلوا التدخل في الأمر، وطلب من العثمانيين الانسحاب من الإحساء، فلم يستجيبوا له بل وقفوا بجانب أخيه عبد الله ضدّه.

اتفق عبد الله وسعود ابنا فيصل، وعملا على مهاجمة العثمانيين في الإحساء غير أنهما فشلا في ذلك. وانسحب العثمانيون من الإحساء أو أن قواتهم قد انسحبت عام ١٢٩٠ بسبب الأمراض التي انتشرت، وغدت منطقة الإحساء تحت حكم أمراء محليين يتبعون الوالي العثماني في البصرة. وثار فيها عبد الرحمن بن فيصل، وهو في طريق عودته من بغداد غير أنه لم ينجح.

عبد الرحمن بن فيصل:

توفي سعود بن فيصل عام ١٢٩١ فاختار أهل الرياض حاكماً عليهم أخاه الصغير عبد الرحمن بن فيصل الذي كان يُؤيّد أخاه سعوداً في أواخر حياته.

اختلف عبد الرحمن بن فيصل مع أبناء أخيه سعود الذين أيّدوه في البداية، ثم اختلفوا معه، وعارضوه، واستطاعوا الاستيلاء على الرياض، بعد أن حكم عمهم الرياض مدة سنتين.

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة:

اتفق أبناء فيصل فيما بينهم، وولّوا عليهم أكبرهم عبد الله، واستطاعوا دخول الرياض، وإخراج أبناء أخيهم سعود، واستمر الأمر حتى عام ١٣٠٢.

محمد بن سعود بن فيصل:

استطاع أبناء سعود العودة إلى الرياض، والقبض على عمهم عبد الله،

وإلقائه في السجن، وتولّى كبيرهم محمد بن سعود حكم الرياض عام ١٣٠٢.

هذا الاختلاف بين أبناء فيصل وأبنائهم أيضاً قد أضعف الأسرة، وأضعف الحكم، وسبّب فوضى، فانعدم الأمن، وتضايق السكان، وأطمع الآخرين في حكم نجد وخاصة آل رشيد في حائل.

حكم آل رشيد:

سار محمد بن عبد الله بن رشيد من حائل إلى الرياض لإعادة الحكم إلى صهره عبد الله بن فيصل القابع في سجن ابن أخيه محمد بن سعود، فاستولى على الرياض، وأخرج صهره من السجن، وأخذه معه إلى حائل مع أخيه عبد الرحمن بن فيصل، وغادر الرياض بعد أن ترك فيها حاميةً برئاسة سالم السبهان، وترك الحكم لمحمد بن سعود على أن يكون تحت إشرافه. وبعد مدة سمح لابني فيصل بالعودة إلى الرياض، فوصلا إليها في ٦ ربيع الثاني عام ١٣٠٧، وبعد يومين من وصولهما توفي عبد الله بن فيصل. واختير عبد الرحمن بن فيصل حاكماً للرياض من قبل سكانها، وسحب محمد بن عبد الله بن رشيد حاميته.

عبد الرحمن بن فيصل للمرة الثانية:

عاد ابن رشيد فأرسل حملةً جديدةً إلى الرياض فلما وصلت إلى القصيم، وانتصرت على أهله اضطر عبد الرحمن بن فيصل أن يُغادر الرياض إلى الإحساء فالقطيف فالكويت، ثم رجع إلى قطر فالبحرين، ثم سمح له أمير الكويت بالإقامة عنده، فارتحل إليه عام ١٣٠٩. ودخلت قوات آل رشيد الرياض التي غدت تتبع لهم.

وهكذا زالت الدولة السعودية الثانية.

آل رشيد في نجد:

استمر حكم آل رشيد لنجد من عام ١٣٠٧ حتى عام ١٣١٩ أي ما

يقرب من اثنتي عشرة سنة، كان خلالها عبد الرحمن بن فيصل في الكويت.

واختلف أمراء الكويت على الحكم حيث ثار على الشيخ مبارك أبناء إخوته، ولما فشلوا في حركتهم لجؤوا إلى العراق يطلبون المساعدة من العثمانيين عن طريق ولاتهم ضدّ عمهم الشيخ مبارك الذي تفاهم مع الإنكليز. فأوكل ولاة العثمانيين أمر دعم أبناء إخوة الشيخ مبارك إلى أمير حائل عبد العزيز بن متعب فاستعد لقتال الشيخ مبارك، كما استعد الشيخ مبارك.

اقترح عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل على الشيخ مبارك أن يسير بقوةٍ إلى الرياض ويأخذها من آل رشيد، فتضعف قوتهم، وينتصر عليهم الشيخ مبارك. فلقي هذا الاقتراح القبول، وسار عبد العزيز على رأس قوةٍ وصلت إلى الرياض، وألقت الحصار عليها عام ١٣١٨، ولكنه اضطر إلى الانسحاب إذ هُزم الشيخ مبارك أمام آل رشيد.

لم يثن الفشل الأول عبد العزيز بن عبد الرحمن فعاد إلى الرياض مرةً ثانيةً عام ١٣١٩، واستطاع دخولها، وقتل عجلان بن محمد أمير الرياض من قبل آل رشيد.

عبد العزيز بن عبد الرحمن:

بعد أن استولى عبد العزيز على الرياض بدأ يتوسع فاستولى على الوشم وسدير عام ١٣٢١، وفي العام التالي ضمّ بريدة وعنيزة، وانتهى من ضم القصيم عام ١٣٢٤، بعد مقتل أمير حائل عبد العزيز المتعب، وتنازل ابنه متعب عن القصيم بعد الصلح الذي جرى بينه وبين أمير الرياض عبد العزيز بن عبد الرحمن.

عاد القتال بين أمير حائل الجديد سلطان بن حمود آل عبيد الذي قتل ابن عمه متعب بن عبد العزيز، واستمر القتال بين الرياض وحائل حتى

انتهى بانتصار عبد العزيز بن عبد الرحمن واستسلام آل رشيد وقد فتكت فيهم الخلافات أكثر مما يفتك بهم الخصم، وضُمت حائل إلى إمارة نجد عام ١٣٤٠.

واستولى عبد العزيز بن عبد الرحمن على الإحساء عام ١٣٣١ عندما ضعفت الدولة العثمانية بسبب حروب البلقان وانشغالها بتلك الحروب.

وضمّ إليه عسير عام ١٣٤١، والحجاز عام ١٣٤٤، وتهامة عسير عام ١٣٤٥، وأطلق اسم المملكة العربية السعودية على هذه الأجزاء مجتمعةً، وبذلك قلّل من الإمارات المبعثرة، والمناطق المتنافرة التي لم تهدأ بينها الخلافات إلا قليلاً، وأوجد دولةً مترامية الأطراف متحدةً بين أجزائها.

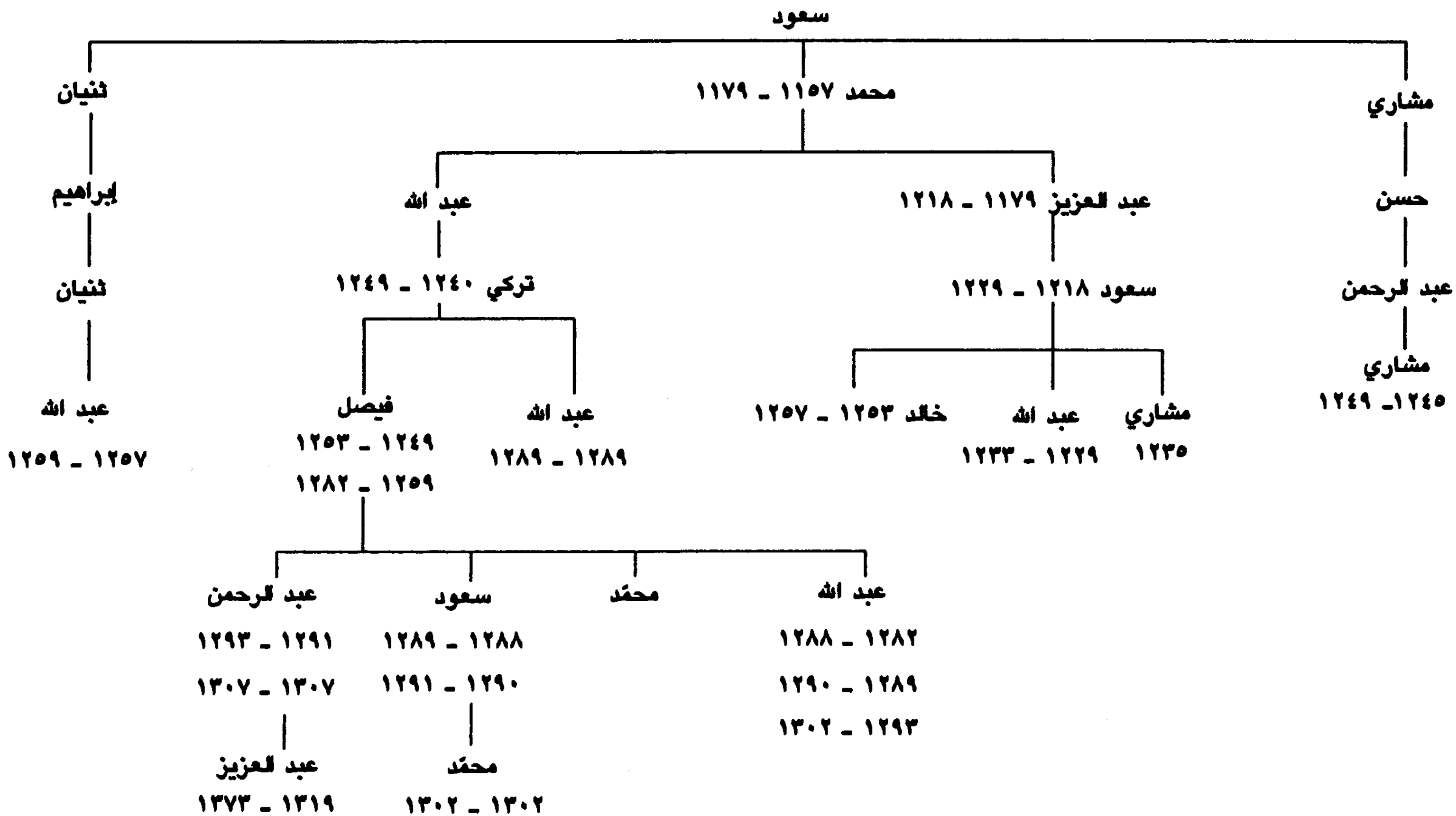

«المملكة العربية السعودية»

الفصل الثالث

إمارة آل الرشيد بحائل

ينتمي آل الرشيد إلى شمّر التي هي من قبيلة طيء المعروفة. وكانت بطون شمّر تختلف على إمرتها وعلى سيادة المنطقة، وقد آلت السيادة إلى (عبدة) أحد هذه البطون. وعندما قامت الدولة السعودية الأولى أي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري كان سيّد شمّر رجل يُعرف باسم (الجربا)، وقد هُزم في إحدى معاركه، فأُجلي وعشيرته إلى العراق، وتسلّم زعامة شمّر آل علي، وهم بطن آخر من القبيلة، ثم لم يلبث أن وقع الخلاف بين أفراد هذا البطن، فترك عبد الله بن علي بن رشيد ابن عمه سيّد المنطقة، واتجه إلى نجد، وهناك رافق الإمام فيصل بن تركي، وسار معه إلى حصار القطيف، وأثناء الحصار وصل إليهما خبر مقتل تركي بن عبد الله والد فيصل، فترك فيصل الحصار وسار إلى الرياض، ومعه عبد الله بن رشيد الذي كان قتل خصم فيصل على يده.

تسلّم فيصل بن تركي حكم نجد فساعد صديقه عبد الله بن رشيد على خصومه من أبناء عمومته، ومكّنه من زعامة حائل في مطلع عام ١٢٥٠، وبذا تكوّنت إمارة آل الرشيد.

بقي عبد الله بن علي بن رشيد في إمارة حائل يعمل باسم فيصل بن تركي، ويُساعده أخوه عبيد بن علي بن رشيد حتى توفي عبد الله عام ١٢٦٥، وخلّف ثلاثة أولاد هم: طلال، ومتعب، ومحمد.

أخذ الإمارة بعد عبد الله ابنه طلال، وبقي حتى انتحر عام ١٢٨٣،

وخلفه أخوه متعب بن عبد الله غير أن أبناء أخيه طلال قد قاموا عليه، وقتلوه عام ١٢٨٥، وتولّى الإمارة منهم بندر بن طلال، إلا أنه لم يلبث أن قُتل بيد عمه محمد عام ١٢٨٨، وقام محمد بن عبد الله هذا بالأمر، وقتل أبناء أخيه طلال كلهم إلا بدراً الذي فرّ إلى البادية فلحق به العبيد وقتلوه. وصفا الجو لمحمد بن عبد الله فاتفق مع آل أبي الخيل من آل مهنا أمراء بريدة، واتجه نحو نجد ودخل بلدانها الواحدة إثر الأخرى حتى وصل إلى الرياض فدخلها، وأخرج عبد الله بن فيصل من سجن ابن أخيه محمد بن سعود وذلك عام ١٣٠٢. ثم اختلف مع أهل القصيم فانتصر عليهم وعلى عبد الرحمن بن فيصل الذي ساعدهم، الأمر الذي جعل عبد الرحمن بن فيصل يأخذ أهله ويتجه إلى المنطقة الشرقية حتى استقر بالكويت. وتوفي محمد بن عبد الله آل رشيد عام ١٣١٥، ولم يعقب.

تولّى بعد محمد بن عبد الله ابن أخيه عبد العزيز بن متعب فطمع بالكويت فاصطدم مع الشيخ مبارك الصباح، وهُزم في قتاله مع الشيخ مبارك في بداية الأمر، ثم انتصر في معركة (الصريف) بالقصيم في شهر ذي القعدة من عام ١٣١٨، وعادت نجد لنفوذه، وكان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يُحاصر الرياض فاضطر لفكّ الحصار والرجوع إلى الكويت. وزحف ابن رشيد نحو الكويت، مما حمل صاحبها على الاستنجاد بالحكومة البريطانية وطلب حمايتها، وعندها تراجع أمير شمّر عن هدفه إذ أدرك أنه لا يستطيع دخول الكويت.

وجاء مرةً ثانيةً عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود إلى الرياض عام ١٣١٩، واستطاع دخولها وإجلاء آل رشيد عنها، وبدأت المعارك بين الطرفين، وانتصر ابن سعود على ابن رشيد، وقُتل الأخير في معركة (روضة مهنا) بالقصيم عام ١٣٢٤هـ. وتولّى بعده ابنه متعب، وكان مُسالماً فصالح عبد العزيز آل سعود، وتخلّى له عن القصيم، واقتصر سلطانه على شمّر وملحقاتها، وقُتل في العام نفسه على يد أبناء عمومته أولاد حمود بن عبيد.

أخذ إمارة حائل سلطان بن حمود بن عبيد، وسار مع قبائل حرب، وشمّر، ومطير للقاء عبد العزيز آل سعود ومعه قبائل عتيبة وقحطان، وجرت بين الطرفين معركة (الطرفية) هُزم فيها ابن رشيد الذي لم يلبث أن قتله أخوه سعود عام ١٣٢٦، وتسلّم الإمرة مكانه إلا أن عبد الله بن طلال قتله غدراً، ثمّ قُتل أيضاً عبد الله بن طلال.

تولّى حكم إمارة آل رشيد عبد الله بن متعب، وكان صغيراً فخاف من ابن عمه محمد بن طلال فترك له الأمر، والتجأ إلى عبد العزيز آل سعود في الرياض.

قام محمد بن طلال بأمور الحكم، واشتغل بالحرب مع السعوديين، وقد هُزم فتحصّن في عاصمته حائل، ولكن الحصار أنهكه فاستسلم بعد أن رأى أنه لا خيار له فيه. ودخل السعوديون حائل وولّوا عليها إبراهيم السبهان الذي ساعدهم في دخول المدينة بعد أن اشتدت وطأتهم عليها عام ١٣٤٠، وبذا زالت إمارة آل رشيد، وقد امتازت هذه الأسرة بالشجاعة والشكيمة إلا أن القتال بين الإخوة والأقرباء قد قضى على عددٍ من وجهائها، كما عُرفت بالعدل والذود عن الحياض. ولم يكن القتال بينهم ليزجّوا به المجتمع وإنما حصروه فيما بينهم.

- عَلي بن رشيد
  - «١» عبد الله
    - «٢» طلال ١٢٦٥ ـ ١٢٨٣
      - «٤» بندر ١٢٨٥ ـ ١٢٨٨
        - «٦» عَبد العزيز ١٣١٥ ـ ١٣٢٤
          - «٧» متعب ١٣٢٤ ـ ١٣٢٤
            - «١٠» عَبد الله
    - «٣» متعب ١٢٨٣ ـ ١٢٨٥
    - «٥» محمّد ١٢٨٨ ـ ١٣١٥
  - عبيد
    - «٨» سلطان ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦
    - «٩» سعود ١٣٢٦ ـ ١٣٢٨

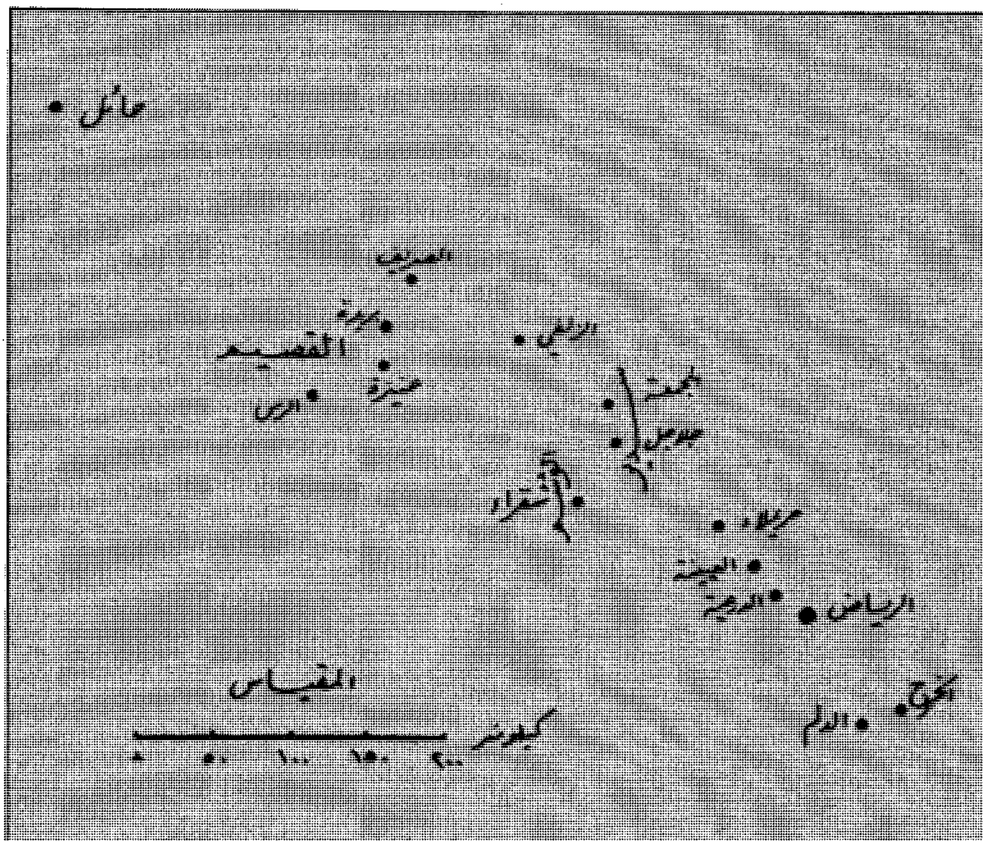
حائل
القصيم
عنيزة
الرس
الزلفي
شقراء
الدرعية
الرياض
الخرج
الدلم
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٠]

الفصل الرابع

إمارة عسير

كانت مرتفعات عسير تحكم باسم أشراف مكة من قبل أسرة تدّعي الانتساب إلى الأسرة السفيانية من الأمويين أو بصورة أدق إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتدعى بالأسرة اليزيدية، وقد نشب الخلاف بين أفراد هذه الأسرة بسبب الزعامة والسيادة على المنطقة فانزوى قسم منهم في الشعف، وبقي الفرع الآخر في منطقة أبها يدير شؤون منطقته باسم أشراف الحجاز، وكان بعض هؤلاء الأمراء ينتفض على الأشراف، ويمد نفوذه، أو يبسط سلطانه على بعض جهات تهامة، وربما وصلت سيطرة أهل اليمن إلى مرتفعاتهم فدانوا لهم، واستمر وضع عسير على هذه الحالة حتى كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد.

وفد إلى الدرعية في بداية عام ١٢١٥ بعض أفراد من عسير ليتلقوا العلم، ومنهم محمد بن عامر، وأخوه عبد الوهاب من آل المتحمي من قبيلة ربيعة رفيدة إحدى قبائل سراة عسير ومعهما لفيف من أبناء المنطقة، وعندما عادا أسند إليهما أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود مهمة نشر الدعوة السلفية في عسير وحمايتها، ولما وصلا إلى عسير أصبحا يتصرفان كأمراء، فوقف في وجههما أمير المنطقة يومذاك محمد بن أحمد بن محمد من آل يزيد، فاستنجدا بالدرعية فأرسلت لهما قوة، استطاعا بها قتال أمير المنطقة والانتصار عليه، بل لقد لقي حتفه في ذلك الصراع فاستلم محمد بن عامر المتحمي إمرة المنطقة عام ١٢١٦، واتخذ قرية طبب مركزاً لحكمه، وقد عُرف باسم (أبو نقطة) إذ كان جده يعرف بذلك لنقطة كانت

على عينه فاشتهر بذلك هو وذريته. وقد عمل على إخضاع قبائل رجال ألمع لنفوذه. ورحل إلى الدرعية عام ١٢١٨، وفي أثناء عودته توفي في الطريق بالجدري الذي أصابه، ودُفن في بلدة بيشة.

عبد الوهاب المتحمي:

خلف عبد الوهاب بن عامر في إمرة عسير أخاه محمداً، ودخل في حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد، واشتبك معه في ثلاث عشرة حرباً انتصر فيها جميعها، كما دخل في قتال مع الأشراف في تهامة حيث كان أمير بلدة أبي عريش علي بن حيدر من آل الخيرات، وعامله على صبيا عمه ناصر بن محمد، ثم تنازل ناصر لابنه منصور، وقد كانت هذه المنطقة تخضع لنفوذ اليمن، واستمر خلاف عبد الوهاب بن عامر مع أمراء تهامة حتى خضعوا، وقبلوا العمل للدعوة، غير أن حمود أبا مسمار قد وجد في نفسه شيئاً من تبعيته لعبد الوهاب فأراد الانفصال عنه أو الاستقلال فعاد الخلاف من جديد، فطلبت الدرعية من عبد الوهاب أن يغزو الشريف في أبي عريش، فسار إليه، وجرت بين الطرفين معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب لكن فقد قائده في المعركة وهو عبد الوهاب بن عامر وذلك عام ١٢٢٤.

طامي بن شعيب:

تولّى إمرة عسير بعد عبد الوهاب بن عامر ابن عمه طامي بن شعيب بناءً على أوامر الدرعية، واستمر في صراعه مع الشريف حمود أبي مسمار أمير أبي عريش الذي أصبح يتلقى الدعم من إمام صنعاء أحمد بن المنصور. وفي ١٢٢٥ جاء أمير الطائف عثمان المضايفي بقوة لمساعدة طامي بن شعيب، والتقيا في ميناء الشقيق، وسارا معاً لقتال الشريف حمود، وانتصرا عليه، واستوليا على جيزان واللحية. وفي موسم الحج تصالح الشريف حمود مع عبد العزيز بن محمد بن سعود، على أن يتنازل

الشريف حمود عن صبيا، وبيش، ودرب بني شعبة لطامي بن شعيب يحكمها باسم الإمام عبد العزيز بن محمد، كما يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، وأن يكفّ السعوديون وأنصارهم عن حربه وذلك في مطلع عام ١٢٢٦. لكن الخلاف عاد لأن الشريف حمود بدأ يكاتب المصريين عندما نزلوا في الحجاز ويُحرّضهم على قتال السعوديين، ويعدهم بالنصر.

سارت القوات المصرية إلى تهامة، واحتلت القنفذة عام ١٢٣٠، ولكن بعد شهرين أغار عليهم أمير عسير طامي بن شعيب، وهزمهم هزيمةً منكرةً، وعادوا إلى جُدة، ومنهم من لاذ بالبحر هارباً بالسفن، وغنم العسيريون المدافع وذخيرة القوات المصرية كلها، وكررت القوات المصرية غزوها وعاد إليها طامي بن شعيب، وانتصر عليها، فغيّر محمد علي الخطة إذ رأى أن طريق عسير هو طريق السراة لا تهامة.

أرسل محمد علي حملةً عن طريق السراة، وانطلقت من الطائف فأسرع طامي بن شعيب لملاقاتها، وتقابل الطرفان في وادي تربة، فانتصر العسيريون ورجعت الحملة إلى الطائف، وجاءت حملة من الدرعية لدعم عسير وكانت بقيادة تركي بن سعود غير أنها هُزمت جنوب الطائف عام ١٢٣١.

الاحتلال المصري:

قاد محمد علي حملةً بنفسه، واحتل تربة، ورانية، واتجه إلى بيشة فدخلها، وسار نحو خميس مشيط واستقر بها، ثم تقدّم نحو عسير عبر بلاد بني مالك، واستطاع أن يحتل (طبب) مركز حكم طامي بن شعيب، ونجا طامي من المعركة، وتحصّن في جبل (تهلل)، وحلّت به الهزيمة ثانيةً، فاتجه نحو تهامة، والتقى وهو في طريقه إلى صبيا بسرية للشريف حمود تفتش عنه فأسرته، وسلمته إلى محمد علي، فحمله محمد علي معه مقيداً حتى عاد إلى مصر، ومن هناك بعثه إلى إستانبول حيث أعدم هناك عام ١٢٣٢.

غادر محمد علي عسير بعد أن ترك فيها حاميةً كبيرةً، وخضعت له المنطقة اسمياً، وسار إلى مكة، ومنها اتجه إلى المدينة، ولم يطل المكوث فيها حيث وصل إليه خبر مفاده اندلاع ثورة ضده في القاهرة، ونبأ فرار نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة (إلبا)، فأراد العودة إلى مصر، ولكنه كان يخشى انقضاض أهل البلاد على جنده إثر عودته، ولكن لا بدّ من السفر، فعمل على تمكين الوضع ودعمه، وعاد إلى مكة المكرمة، ومنها رجع إلى عسير، فبلدة محايل عن طريق عقبة شعار، فالقنفذة ومنها إلى مصر، وفي رحلته هذه كلها كان يرافقه أمير عسير السابق طامي بن شعيب مكبلاً بالحديد.

وعندما احتل محمد علي عسيراً اعتصم بعض زعمائها بالجبال، فلما رجع محمد علي من المنطقة انقض هؤلاء الزعماء ومنهم محمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، ومن معهم على الحامية المصرية في (طبب) فقتلوا من استطاعوا عليه، ومن نجا فرّ إلى الحجاز. كما سار محمد بن أحمد المتحمي على رأس قوة لينتقم من أبي عريش غير أنه هُزم عام ١٢٣١، ولم يكد محمد علي ينتهي من أمر عسير حتى وصلت فلول حاميته التي تركها في (طبب) إلى الحجاز فأثار ذلك غضبه، وأمر بإرسال قوةٍ كبيرةٍ عام ١٢٣٢ لتؤدّب قبائل عسير وزعماءها. سارت هذه القوة من الحجاز من عدة اتجاهات وعلى عدة محاور، تحرّك حسني باشا عن طريق بلاد غامد وزهران، وسار الشريف محمد بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وتوجّه جمعة باشا عن طريق الساحل، ووصلت أخبار هذه الحملات إلى العسيريين فاستعدوا لها، وجرت بين الطرفين معارك حامية تراجعت إثرها القوات العسيرية بعد أن أثخنت في جيش حسني باشا قتلاً في موقعتي «مسفرة» و«الحضن». لقد دخل الشريف محمد بن عون أبها وتمركز فيها بعد أن احتل بلاد شهران وبلاد بني مالك، وزحف جمعة باشا إلى بلاد ربيعة رفيدة، وسار حسني باشا إلى السُّقا.

عادت القوات الغازية إلى الحجاز بعد أن تركت حاميةً في (طبب)،

ولكن ما أن غادرت بلاد عسير حتى انقض زعماء عسير على الحامية وفتكوا بها. وتعاونوا مع أمير أبي عريش الشريف حمود أبي مسمار الذي أرسل قوة إلى السراة بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي. ولما وصل الخبر إلى محمد علي وما حلّ بحاميته أمر بإرسال قوة بإمرة جمعة باشا ومعه الأميران منصور بن ناصر آل الخيرات وابن عمه علي بن حيدر المنافسين لعمهما الشريف حمود. وقد تصدّت لقوات جمعة باشا قبائل تهامة ورجال ألمع بقيادة حسن بن خالد الحازمي فهزمتها هزيمة نكراء ورجعت فلولها إلى الحجاز. فأرسل والي الحجاز جيشين جديدين أحدهما عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. تقدّم جمعة باشا إلى (محايل) ومن هناك أرسل حملةً بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش كي يضطر أميرها إلى الانسحاب من وجه جمعة باشا، ويوقعه في مأزقٍ حرج، وقد أرسل علي بن حيدر عيناً أمامه لاستطلاع الأمور في أبي عريش، ومعرفة الأخبار، وأوضاع القوات، ولم يلبث أن عاد إليه يحمل خبر ارتقاء عمه الشريف حمود السراة، وعدم بقاء سوى قوةٍ قليلةٍ في أبي عريش لذا أسرع واحتل المدينة على حين توجه جمعة باشا إلى السراة. ومن جهةٍ ثانيةٍ واصل سنان آغا زحفه حتى احتل بلدة (طبب) على الرغم من المقاومة الشديدة التي لاقتها قواته إلا أن هذا الاحتلال قد جعل ردّ فعلٍ قوي عند قبائل عسير فتحمّست للقتال والتفت حول زعمائها الشريف حمود، ومحمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، وهجمت على طبب، وأحرزت النصر، وحاول سنان آغا النجاة بنفسه فسار ومعه الشريف منصور بن ناصر وعدد قليل من الجند فلاحقتهم قوة من بالأسمر في وادي (تيّه)، وألقت القبض عليهم جميعاً، وقتلتهم، واضطر جمعة باشا من الانسحاب بعدئذٍ من عسير.

بدأ الخلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، وقد أرسل سعيد بن مسلّط بعض رجاله ففتكوا بالشريف حمود سراً يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول ١٢٣٣ في قرية الملاحة إحدى قرى بني مالك من قبائل عسير، وقد دفن

هناك. وكان علي بن حيدر في أبي عريش رغم انسحاب جمعة باشا من عسير، وتولّى أمر قوة أبي عريش أحمد بن الشريف حمود مكان أبيه، وأراد الانسحاب بقواته من السراة إلى تهامة عندما وجد عداوة حلفائه بالأمس إلا أنه فُوجئ بكمينٍ نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فأُلقي القبض عليه، وتفرّق جنده، وحُمل هو إلى أبي عريش حيث شُهّر به، ثم نُفي إلى مصر حيث كان مثواه الأخير، وأما وزيره حسن بن خالد الحازمي فاضطر أن يُداهن زعماء السراة وأن يبقى معهم.

في هذا الوقت كان إبراهيم بن محمد علي قد انتهى من أمر الدولة السعودية ودخل عاصمتها الدرعية في ٨ ذي القعدة من عام ١٢٣٣، وتفرّغت القوات التي معه لدعم الجيوش العاملة في عسير، فسارت قوات كثيفة إلى تلك الجهات. سار خليل باشا عن طريق السراة وتمكّن من الوصول إلى قلعة شعار، واتجه الشريف محمد بن عبد المعين بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وانطلق سليمان سنجق إلى بلاد رجال ألمع عن طريق القنفذة، وكانت القبائل تضطر للسير مع الجيوش الغازية وتظهر الطاعة. وقد دحر خليل باشا قوة محمد بن أحمد المتحمي الذي وقف في وجهه، وألقى القبض عليه وعلى بعض أفراد أسرته، واحتل (طبب) ومنها انتقل إلى (السُّقا). واعتصم علي بن مجثلّ في أبها، ثم اضطر إلى الاستسلام بعد أن ألقي الحصار عليه من قبل قوات خليل باشا وسليمان سنجق، وأما محمد بن عبد المعين فقد هُزم أمام سعيد بن مسلط وحسن بن خالد الحازمي، ثم ضعُفت معنويات العسيريين بعد وصول الأخبار إليهم بدخول الغزاة أبها، وبعد مقتل حسن بن خالد في كمين نُصب له فاندحروا أمام الشريف. وبذا دخلت عسير في طاعة خليل باشا الذي نفى محمد بن أحمد المتحمي إلى مصر، ورحل هو إلى الحجاز، ووزّع قواته بين اليمن والحجاز، وأبقى حاميةً له في طبب وذلك في مطلع عام ١٢٣٥.

بعد شهرين من رحيل خليل باشا خرج سعيد بن مسلط من مخبئه في الأطوار، وهاجم مع من انضم إليه حامية طبب فاستسلمت له، فأخذ ما

معها من الأسلحة، وأمر أفرادها بالمغادرة، ولم يمض عام حتى أصبح سعيد بن مسلط سيد الموقف في عسير كلها.

سارت قوة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين إلى عسير، ولم تكد تصل إلى عسير حتى قابلها سعيد بن مسلط بجيشٍ من عسير، واضطرت القوة الحجازية إلى العودة إلى بلادها مهزومةً.

وعاد أحمد باشا إلى إرسال جيشٍ كثيفٍ بقيادة الشريف محمد ومعه أخواه هزاع وراجح، وتمكّن الشريف من الانتصار على عسير في المعركة التي جرت في بلاد رجال الحجر، ودخل الشريف (طبب) بعد الانتصار على قائد حاميتها علي بن مجثل. واختبأ سعيد بن مسلط وأخوه لأمه علي بن مجثل بالأطوار، وخضعت عسير للشريف، وجرى الصلح بين الطرفين وعفا الشريف عن رجال عسير.

ترك الشريف حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع، واستنفر قبائل عسير للسير معه إلى وادي الدواسر، وتأخر وصول سعيد بن مسلط بجنده إليه فوبّخه الشريف، وعند الحركة، رجع سعيد بن مسلط بجنده إلى طبب، فأباد الحامية فيها، ووصل الخبر إلى الشريف فرجع إلى عسير فالتقى في وادي عِتْوَد بجنود عسير بإمرة سعيد بن مسلط فجرت بين الطرفين معركة طاحنة، انتصر فيها العسيريون، وهُزم الشريف فسار راجعاً إلى الحجاز، غير أن قوة من عسير تبعت فلول الجيش الحجازي فأدركت الشريف راجح فقتلته قرب وادي (الجنفور)، وفي الوقت الذي رجع الشريف محمد بن عبد المعين إلى الحجاز سار دوسري بن عبد الوهاب المتحمي إلى نجد.

سعيد بن مسلّط:

أصبح سعيد بن مسلّط أمير السراة، فأرسل قوةً بإمرة أخيه علي بن مجثلّ إلى بلاد سنحان ووادعة فأدخلها في طاعته، وأرسل قوة أخرى بإمرة ابن خاله يحيى بن مرعي إلى بيشة فأخضعها، وسار هو بجيش إلى بلاد

غامد وزهران فضمها إلى سلطانه. وأصبحت عسير مستقلةً عن الدرعية التي سقطت بيد إبراهيم باشا، ثم قام الخلاف في نجد.

جاءت حملة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٣٩، واستطاعت احتلال عسير بعد هزيمة سعيد بن مسلط عند قلعة شعار، ودخلت القوة أبها، ورجع بعدها أحمد باشا إلى الحجاز بعد أن ترك حاميةً في أبها، وخرج إثرها سعيد بن مسلّط من مخبئه في الأطوار فدحر القوات الحجازية التي اعتصمت بعدها في أبها فحاصرها، واضطرت في النهاية إلى الاستسلام فخلّى سبيلها وسمح لها بالعودة إلى الحجاز، وأثناء رجوعها التقت بحملةٍ قادمةٍ إلى عسير يقودها الشريف محمد بن عبد المعين فعادت معه فزاد جيشه، وانتصر على سعيد بن مسلّط عند شعار فاختبأ سعيد في الأطوار، ودخل الشريف أبها، ثم تم الصلح بين الطرفين في ٢٦ شعبان ١٢٣٩، ولم ينته العام حتى عاد الشريف بقوة إلى عسير غير أنها هُزمت، وتوقفت المعارك بين الحجاز وعسير بعد ذلك. وتوفي سعيد بن مسلط عام ١٢٤٢ وخلفه أخوه لأمه علي بن مجثل.

علي بن مجثلّ:

سمحت الظروف للأمير الجديد بالحركة إذ ثار شريف مكة يحيى بن سرور على محمد علي فعزل بعد هزيمته، وعين محمد بن عون شريفاً على مكة. ثم شُغل محمد علي بحروبه مع الدولة العثمانية، ثم اختلف الوالي المصري أحمد باشا مع شريف مكة، فعُزل شريف مكة وقام مقامه الوالي، كل هذا ساعد عسير على التصرف بشؤونها ومدّ نفوذها.

غزا علي بن مجثلّ وادي بيش عام ١٢٤٢، وأعاد صبيا إلى سلطانه عام ١٢٤٣، وضم قبائل يام إليه، وأخضع قبائل بني مرة في العام نفسه، وأرجع وادعة إلى الطاعة عام ١٢٤٥، وهاجم أبي عريش عام ١٢٤٨، وأصبح أمير أبي عريش يحكم منطقته بالنيابة عن أمير عسير. وضم

الحديدة، ومخا، وزبيد من أرض تهامة، وخضعت له جزر دهلك في البحر الأحمر.

وأرسل محمد علي حملة عام ١٢٤٩ إلى تهامة إلا أنها هزمت.

وتوفي علي بن مجثل في أواخر أيام عام ١٢٤٩، وخلفه عائض بن مرعي.

عائض بن مرعي:

كان أول ما واجه الأمير عائض انتفاض أمير أبي عريش علي بن حيدر، فسار إليه على رأس جيشٍ قوي، ولكنه فشل في دخول أبي عريش رغم وجود حاميةٍ عسيرية في إحدى القلاع فرجع عائض بن مرعي، وانسحبت الحامية العسيرية أيضاً.

وهاجم شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٥٠ بلاد عسير عن طريق بيشة، والتقى مع عائض بن مرعي في معركةٍ حاميةٍ في وادي عِتْوَدَ من بلاد شهران تمكن الشريف إثرها من دخول بلاد عسير، وعسكر جنوده في أبها وطبب. وعقد محمد علي في العام نفسه اتفاقاً مع شريف أبي عريش وإمام اليمن لقتال عائض بن مرعي بعد أن أخرج جنود الحجاز من عسير. واستطاع الحلف أن يدخل عسيراً غير أن الغارات المتكررة من رجال القبائل قد أجبرهم على إخلاء عسير، كما وقع في الوقت نفسه خلاف بين والي الحجاز أحمد باشا وشريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون... فاستدعاهما محمد علي إلى مصر وعزل الشريف وأعطى صلاحياته للوالي وبعد عام ١٢٥١ خفت الحملات فعاد عائض بن مرعي للتوسع.

غزا بيشة ودرب بني شعبة عام ١٢٥٢. وأدخل بلاد غامد وزهران في طاعته عام ١٢٥٣ ثم استرجعها والي الحجاز، ورجع إليها عائض بن مرعي فهُزم هزيمةً منكرةً.

وانسحبت جيوش محمد علي من الجزيرة عام ١٢٥٥ بعد هزيمته في الشام. فغزا عائض بن مرعي تهامة اليمن بالاتفاق مع حسين بن علي بن حيدر، ثم غزيا مخا، وعاد إلى شرافة مكة محمد بن عبد المعين بن عون فعقد هدنةً بينه وبين أمير عسير.

ضم أمير عسير عام ١٢٦٠ إليه بيشة، وبلاد شمران، وبلاد بلقرن، وبلاد غامد. ثم دخل الطائف عام ١٢٦٢.

واختلف الأئمة في صنعاء فاستغل عائض بن مرعي هذه الفرصة وضمّ إليه أكثر أجزاء اليمن عام ١٢٦٤ عندما استنجد به محمد بن يحيى ضدّ عمه المنصور حيث سارت قوات عسير، ودخلت صنعاء، وأخرجت منها المنصور، وعيّنت محمد بن يحيى ليحكم البلاد باسم أمير عسير غير أنه لم يلبث أن غدر بعسير ولاحق قواتها، واصطدم بالشريف حسين بن علي بن حيدر في تهامة، وانتصر عليه، وأسره قرب زبيد، وجاءت نجدة إلى قوات عسير انتصرت على قوات الإمام، وأخرجته من صنعاء، واستنقذت الشريف حسين بن علي بن حيدر، فاستنجد الإمام بالعثمانيين فجاءوا إلى تهامة وانضمّ إليهم ودخلوا صنعاء بقيادة توفيق باشا، ثم قتلوا محمد بن يحيى، وأخرجوا الإمام المنصور من صنعاء. وبقيت قوات عسير في تهامة اليمن، أو في أجزائها الشمالية.

ضمّ عائض بن مرعي إليه عام ١٢٦٦ وادي الدواسر، ثم أخرجه العثمانيون من الوادي وتابعوا سيرهم نحو عسير إلا أنهم هزموا أمام قبائل يام وقحطان.

وضمّ إليه عام ١٢٦٨ بلاد غامد وزهران. وفي العام نفسه جاءت حملة مصرية أيام والي مصر عباس الأول حفيد محمد علي فهُزمت هزيمةً منكرةً. وعادت الهجمات المصرية عام ١٢٦٩ لكنها هُزمت أيضاً.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٧٢ عن طريق القنفذة، ولكنها هزمت. وتوفي عائض بن مرعي عام ١٢٧٣، وتولى مكانه ابنه محمد.

محمد بن عائض:

وتعرّض لغزوات العثمانيين المتتابعة ولكنها لم تتمكن من دخول عسير.

وزاد الخلاف بين الأسرة من الأشراف التي تحكم أبا عريش، وبدأ أميرها الحسن بن محمد يراوغ محمد بن عائض فسار إليه عام ١٢٨٠، فهرب حاكم أبي عريش وضمّ ابن عائض المخلاف السليماني إليه. وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨١ إلى المخلاف إلا أنها رُدّت، وجاءت حملة من الحجاز بإمرة شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين غير أنها فشلت في ضم بلاد غامد وزهران.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨٨ إلى تهامة اليمن التي كانت بيد ابن عائض فسار للقائها، وما أن ابتعد عن مقره حتى جاءت حملة أخرى من الشمال واحتلت بلاد غامد وزهران وبيشة، ونزلت حملة ثالثة في القنفذة بقيادة محمد رديف باشا، وهكذا أحيط بالجيوش من كل جهة، وبدأ يقاتل من موقع إلى آخر حتى حوصر أخيراً في ريدة، واستسلم حيلةً - خوفاً من رديف باشا - بعقد صلح، وعندما أحيط به قتل وبعض إخوته، ونُفي الآخرون من أسرته ووجهاء المنطقة إلى إستانبول عام ١٢٨٩، وخضعت عسير للعثمانيين.

الحكم العثماني:

أصبحت عسير متصرفيةً خاصةً بعد مقتل ابن عائض إلا أن الوضع لم يستقر بها إذ سادها الاضطراب، وكثرت فيها الانتفاضات، إذ لم يكن أمر المتصرف يمتد لأكثر من المراكز العسكرية، والثكنات، وبعض المدن أحياناً، وما عدا ذلك فكانت السلطة الحقيقية بيد آل عائض ورجال القبائل.

تولّى أحمد مختار باشا أمر عسير، وجعل مدينة أبها مركز المتصرفية، وكلاً من السُّقا وريدة قاعدةً عسكريةً، والقنفذة ميناء للمتصرفية. وتوجه إلى

صنعاء واحتلها. كان ناصر بن عائض مرابطاً في أبها عندما قُتل أخوه محمد في ريدة عام ١٢٨٩، وبقي يقاوم ثمانية أيام ثم انسحب إلى بلاد شهران، غير أنه عاد بعد شهرين فدخل أبها، ثم عاد فانسحب، ودخلها العثمانيون عام ١٢٩٢، واستمر التناوش حتى قُتل ناصر بن عائض عام ١٢٩٥.

وعندما رجع آل عائض ووجهاء المنطقة من إستانبول عام ١٢٩٧ حمل عبد الرحمن بن عائض عبء المقاومة، وتجمّع رجال القبائل حوله، وحاصر أبها عام ١٢٩٩، وكادت تستسلم لولا نجدة جاءتها بقيادة حيدر باشا. وأعقبتها حملة أخرى عام ١٣٠٠، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وأصبح عبد الرحمن بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، وأخوه سعيد قائمقاماً على بلاد غامد وزهران وبيشة، واستمر ذلك حتى توفي عبد الرحمن بن عائض عام ١٣٠٥.

ورفض علي بن محمد بن عائض الصلح الذي جرى بين العثمانيين وعمه عبد الرحمن ونزل إلى حرملة مغاضباً ثم قام بالثورة عام ١٣١٨، وحاصر أبها ولكنه هُزم، وعاد فحاصر أبها عام ١٣٢٢، فجاءت حملة كنجدة إلى حامية أبها العثمانية بقيادة تحسين باشا، فهزم علي بن محمد، وأسر عدد من أفراد أسرته ووجهاء المنطقة فنقلوا إلى صنعاء، حيث بقوا هناك ثمانية أشهر، ثم أعيدوا، وعُيّن عبد الله بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، ومحمد بن عبد الرحمن بن عائض محافظاً لمدينة أبها، أما علي بن محمد فكان قد جرح أثناء الحصار، وتوفي إثرها في الحرملة عام ١٣٢٤.

عاد الخلاف مرة ثانية بين آل عائض ومتصرف عسير سليمان باشا، فقام رجال القبائل العسيرية بإمرة آل عائض، وحاصروا مدينة أبها، ودعمهم في ذلك الإدريسي سيد صبيا، وذلك عام ١٣٢٨ واستمر الحصار من ذي القعدة عام ١٣٢٨ حتى شهر رجب ١٣٢٩، ثم جاءت النجدة للحامية العثمانية وكانت بإمرة شريف مكة الحسين بن علي فاستقبله آل عائض، وانقلبوا على الإدريسي خوفاً منه أو عندما عرفوا أطماعه بالسراة ورغبته في

فرض سيطرته. وعاد الصلح بين المتصرف سليمان شفيق الكمالي وآل عائض بوساطة الشريف الحسين بن علي، وعين الحسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ومتصرف عسير محيي الدين باشا ومعاونه الحسن بن علي آل عائض وكان ما حول عسير ضد العثمانيين، وقبل أن تضع الحرب أوزارها جاءت الأوامر إلى المتصرف بالانسحاب من عسير وتسليم القلاع والذخائر إلى آل عائض وذلك في شهر ربيع الأول عام ١٣٣٧.

نهاية إمارة عسير:

استقلت عسير بعد انسحاب العثمانيين، وبدأ الخلاف بين الإمارات في المنطقة، وحدث القتال بين نجد وعسير، واستطاع جيش نجد دخول أبها، واتفق آل عائض مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في الرياض، ثم عاد الخلاف بينهم وبين أمير آل سعود عام ١٣٣٩، فتحصّن آل عائض في الحرملة، ثم تقدّموا فأخذوا أبها، وتجدد القتال ودخل فيصل بن عبد العزيز أبها، ونقل آل عائض إلى الرياض، وضمت عسير إلى نجد عام ١٣٤١، وأصبحت بعدئذ جزءاً من المملكة العربية السعودية.

الفصل الخامس

إمارة تهامة عسير

خضعت هذه المنطقة لحكم أُسرٍ محليةٍ كانت تُدير شؤون إمارتها باسم الحكومات القوية التي كانت تسيطر على المنطقة سواء التي كانت في مصر أم التي تقوم في بلاد اليمن وأحياناً قليلة كان نفوذ الأشراف في مكة يصل إلى تلك الجهات أو يستنجد أهلها بهم على غيرهم أو بالعكس يستعينون بغيرهم عليهم. ومن هذه الأسر: الحكمي، والسليمانية، والقطبي، والذروات، والخواجيون و. . . ثم انتقل فرع من أشراف مكة إلى المنطقة لما حدث خلاف بينهم على الحكم، واستطاع أحد رجال هذا الفرع الذين عُرفوا بآل الخيرات أن يُؤسس إمارةً له في تهامة عسير التي سميت باسم المخلاف السليماني، ذلك هو محمد بن أحمد الخيراتي، وتولّى أبناؤه الإمارة من بعده غير أنهم وقعوا في خلافٍ كبيرٍ فيما بينهم فكانوا يستعينون بجنودٍ مرتزقةٍ من قبائل يام في نجران، أو يستنجدون بإمام صنعاء حتى عمّت الفوضى في المنطقة، وساد الاضطراب، وأخيراً تسلّم الإمرة حمود بن محمد الذي عُرف بأبي مسمار.

عندما بدأت الدعوة السلفية تنتشر في المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر كان أحد دعاتها أحمد بن حسين الفلقي، وخشي أمير صبيا منصور بن ناصر على نفسه فاستنجد بابن عمه أمير أبي عريش علي بن حيدر الذي سار إليه على رأس قوةٍ إلى منطقة الجعافرة حيث يُقيم أحمد بن حسين الفلقي وانتصر على السلفيين الذين تجمّعوا ووقفوا في وجهه، وهذا ما دعا الدولة السعودية في الدرعية إلى أن ترسل سريةً بقيادة حزام بن عامر

العجماني إلى المنطقة، وعندما وصلت إلى تلك الجهات انضمّ إليها كل من عرار بن شار في بني شعبة، وأحمد بن حسين الفلقي في منطقة الجعافرة، ولكن لم يحدث قتال بين الفريقين وإنما تمّ الصلح على أن يقوم آل الخيرات بالعمل للدعوة السلفية، فعاد حزام بن عامر من حيث أتى، وتنازل علي بن حيدر عن إمارة أبي عريش لعمه حمود بن محمد الذي اشتهر بأبي مسمار، وكان آل الخيرات يرتبطون بإمام صنعاء فوافق على هذا التنازل، ومعنى هذا أن الارتباط قد أصبح بالدرعية، وانقطعت الصلة مع صنعاء.

حدث خلاف بين أحمد بن حسين الفلقي وأتباعه مع أهل المنطقة لجلافة الفلقي وشدته فاستنجد الناس عليه بأمير أبي عريش حمود بن محمد أبي مسمار فأمدهم بسريةٍ رفض أمير صبيا ابن أخيه منصور بن ناصر الاشتراك فيها، وانتصرت السرية على الفلقي غير أن عرار بن شار سار بقوةٍ لدعم الفلقي لكن أمير صبيا منصور بن ناصر توسط بالصلح ولم يقع قتال فعاد عرار بن شار كما عادت سرية الشريف حمود. وجاء عرار إلى صبيا، واتفق مع الأمير منصور بن ناصر الذي كان على خلافٍ مع عمه الشريف حمود للعمل للدعوة السلفية.

زاد غضب الشريف حمود على ابن أخيه منصور بن ناصر، وسار بقوةٍ انتصرت على عرار والفلقي، وسار من طرف آخر حزام بن عامر واتصل بعرار، والفلقي، ومنصور وشكّلوا حلفاً ضد الشريف حمود إلا أنه انتصر عليهم، فاستنجدوا بالدرعية، واتصل الشريف حمود بصنعاء غير أن مساعيه باءت بالفشل.

وجاءت أوامر الدرعية إلى أمير السراة عبد الوهاب بن عامر بالتقدّم إلى أبي عريش على رأس قوة، وأن ينضمّ إليه كل من عرار، والفلقي، وحزام بمن معهم، وسارت الحملة، واستسلم الشريف حمود وتعهد بالعمل للدعوة السلفية، وغدا يغزو اليمن التي رفضت دعمه، وعاد عبد الوهاب، وأصبح له حق الإشراف على المنطقة كاملة.

بدأ الشريف حمود يدعو لانفصاله عن السراة وأميرها عبد الوهاب،

وأرسل إلى الدرعية وفداً يضمّ وزيره حسن بن خالد الحازمي، وابن أخيه أحمد بن حيدر، كما ذهب عن صبيا منصور بن ناصر ابن أخيه الآخر، وفي هذه المرحلة توفي أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود، وتولى مكانه ابنه سعود الكبير فتقرر أن يذهب الوفد لتقديم التعزية، والمبايعة، والتعهد بدفع الخراج، والجهاد في اليمن، والارتباط بالدرعية مباشرةً مع بقاء أمور الجهاد مرتبطة بأمير السراة، وفي الوقت نفسه أخبر الشريف حمود أمير السراة عبد الوهاب بالوفد كي لا تساوره الشكوك، وذهب الوفد، وتمّ للشريف حمود ما يريد. وقد سار لغزو اليمن.

وفي عام ١٢٢٠ صدرت الأوامر من الدرعية إلى منصور بن ناصر أمير صبيا، وعرار بن شار أمير منطقة بني شعبة بالنفير مع عبد الوهاب بن عامر إلى الحجاز لقتال شريف مكة غالب بن مساعد. . . وانطلق المقاتلون، وتأخّر عرار بن شار، فوقع شيء في نفس عبد الوهاب، فوبّخ قائد حملة بني شعبة عيسى بن شار أخا عرار، وعاقب بني شعبة، فدبّ نتيجة ذلك الخلاف بين عبد الوهاب وعرار.

استنجد عرار بالشريف حمود، واستمال بعض رجالات «رجال ألمع»، وتقدّم نحو بلادهم واحتلّها، وطلب وفداً من الدرعية لفصل النزاع. فتقدم عبد الوهاب إلى بني شعبة واحتلّ بلادهم، ورجع إلى عسير.

وجاء وفد من الدرعية، ونظر في الخلاف، ثم طلب مسير عبد الوهاب، والشريف حمود، ومنصور بن ناصر، وعرار بن شار إلى الدرعية فسار الجميع عدا الشريف حمود فقد تململ ثم أرسل نيابةً عنه ابنه، ووزيره حسن بن خالد الحازمي بحجة الانشغال. وفي الدرعية رجحت كفة عبد الوهاب إذ بيّن أن عراراً يُثير الفتنة، وأن حموداً ومنصوراً يؤيدانه. فأبقى أمير الدرعية سعود الكبير عراراً لديه، وعفى عن الباقين، وطلب أن يكون عمال الخراج في منطقة أبي عريش من قبل الدرعية مباشرةً، وأبقى منصوراً أميراً على صبيا، وأمره أن يكون مرتبطاً بالجهاد بعبد الوهاب، وفي الوقت نفسه يهادن عمه الشريف حمود.

انتصر الشريف حمود في حربه مع إمام صنعاء، فاغتر بقوته، وأظهر جفاءً للسعوديين، وجاء وفد من السراة بإمرة طامي بن شعيب فلم يجد عند الشريف حمود ما يثير الشكوك، لكنه لم يلبث أن أبدى لعمال خراج الدرعية في منطقته بعض النوايا، ووصل ذلك إلى سعود الكبير، فطلب من أمير السراة عبد الوهاب بن عامر غزو الشريف حمود مباشرةً، فسار إليه، والتقى به في وادي بيش وجرت معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب غير أنه فقد قائده عبد الوهاب وذلك عام ١٢٢٤، وتحصّن الشريف حمود في قلعة أبي عريش.

تولّى أمر عسير بعد عبد الوهاب ابن عمه طامي بن شعيب بأمرٍ من الدرعية، فعيّن ابن عمه الثاني محمد بن أحمد المتحمي أميراً على صبيا، وعندما وصل إليها جاءه جيش الشريف حمود وحاصره فيها، وفي مطلع عام ١٢٢٥ جاء طامي بن شعيب بقوةٍ تمكنت من فك الحصار عن المتحمي في صبيا، ونظم أمر الحامية وعاد إلى السراة في الوقت الذي عاد الشريف حمود إلى أبي عريش، واعتصم فيها.

جاءت نجدة من الإمام أحمد بن المنصور إلى الشريف حمود إذ كان على صلةٍ طيبةٍ حيث ساعد الشريف حمود الإمام أحمد على أبيه المنصور فتسلّم الأمر دونه، وربما كان ذلك لأن السعوديين كاتبوا الإمام المنصور وحرضوه على قتال الشريف حمود مقابل ألا يهاجموه، وقد قام المنصور بحرب الشريف وانتصر عليه، لذا عمل الشريف حمود على دعم الإمام أحمد على أبيه.

صدر أمر من الدرعية بنزول عثمان المضايفي من الطائف، وطامي بن شعيب من سراة عسير لقتال الشريف حمود أمير أبي عريش، وقد التقى القائدان في ميناء الشقيق، وهما في طريقهما إلى أبي عريش، وذلك عام ١٢٢٥، فانتصرا عليه، واستوليا على مينائي جيزان، واللحية، وعاد كل إلى مقره، ورجع طامي بن شعيب بعد ثلاثة أشهر، ودخل اللحية مرةً ثانيةً.

ولما ضعف مركز الشريف حمود أرسل أربعةً من بني عمه ببعض

الهدايا إلى أمير الدرعية سعود الكبير، وكان يومذاك حاجاً في مكة المكرمة، فأظهروا له الطاعة، فعفا عنهم، وتمّ الصلح بوساطة أمير صعدة محمد بن علي الحسني، ونتيجة الصلح تنازل الشريف حمود عن صبيا، ودرب بني شعبة، وبيش للإمام سعود الكبير، وعلى أن يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، مقابل أن يكفّ السعوديون عن حربه وذلك عام ١٢٢٦، وبذلك هدأت الأحوال في المنطقة وأصبح الوضع السياسي في تهامة كما يأتي:

١ ـ من صبيا وإلى الشمال يتبع الإمام سعود الكبير، وينوب عنه أمير السراة طامي بن شعيب.

٢ ـ من ضمد وإلى الجنوب بما في ذلك جيزان يتبع الشريف حمود.

وقعت الحرب بين إمام نجد سعود بن عبد العزيز وإمام صنعاء أحمد بن المنصور فاستغل الشريف حمود الفرصة واحتل الحديدة وبيت الفقيه وزبيد من أملاك إمام صنعاء، فطلب سعود بن عبد العزيز من الشريف حمود أن يقبل العمال الذين سترسلهم الدرعية لجمع ما يأتي من الموانئ، فبدأت الشكوك تساور نفس حمود بأن سعوداً يريد التدخل في شؤونه، فلما وصلت حملة محمد علي إلى الحجاز بدأ الشريف حمود يكاتبها، ويُحرّضها على حرب الدرعية، ويعدها بالطاعة والنصر، فوصل الخبر إلى الدرعية، فأرسلت إليه تهدده، فضرب الشريف حمود رؤوس الرسل الذين جاءوا إليه، وعزل العلماء السعوديين في بلاده، وصرّح لهم بالعداوة، ولم يزل يحاربهم حتى مات عام ١٢٣٣، ولعل جرأته هذه جاءت من اعتقاده أن الدولة السعودية لن تقوم لها قائمة بعد وصول جيوش محمد علي إلى المنطقة.

وعندما هُزم طامي بن شعيب أمير عسير عام ١٢٣١ أمام جيوش محمد علي، وفرّ طامي بن شعيب نحو تهامة يريد الاتصال بالشريف حمود أسرع وزير الشريف حمود فاحتل صبيا، وطرد الحامية العسيرية منها، وأرسل سرية تفتش عن طامي بن شعيب فالتقت به في طريقه إلى صبيا،

فأسرته، وسلّمه الوزير حسن بن خالد الحازمي إلى محمد علي تقرّباً وزلفى، حُمل إلى مصر مع محمد علي مُقيداً بالحديد، ثم أُرسل إلى إستانبول حيث قُتل هناك عام ١٢٣٢.

سار محمد بن أحمد المتحمي إلى أبي عريش لينتقم لابن عمه طامي بن شعيب فالتقى في درب بني شعبة بقوات الشريف حمود بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي فهزمته في ١٧ رجب عام ١٢٣١ فرجع إلى السراة.

تداول زعماء عسير الرأي في الوسيلة التي يتمكّنون فيها من طرد العثمانيين وإخراجهم من بلادهم فقرروا استنفار القبائل جميعها والاستعانة بالشريف حمود خوفاً من أن ينضم إلى العثمانيين ويكون حرباً على عسير مُستغّلاً الظروف وراكباً طريق المصلحة، خائفاً من أن يصل إليه هجوم العثمانيين بعد أن أصبحوا في السراة، وعلى حدود منطقته، وعندما عُرض الأمر على الشريف حمود وافق، وأرسل وزيره حسن بن خالد الحازمي على رأس قوة.

وجاءت حملة عثمانية على رأسها جمعة باشا ومعه الأميران علي بن حيدر ومنصور بن ناصر ولدا أخويّ الشريف حمود والمنافسين له. غير أن هذه الحملة قد صدّها الوزير حسن بن خالد الحازمي في بلاد رجال ألمع. فجاءت حملة جديدة مؤلفة من جيشين أحدهما جاء عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. غير أن نوايا السراة وتهامة لم تكن طيبة فخاف حسن بن خالد فأرسل إلى الشريف حمود يستحثه بالقدوم على رأس حملة قوية فلبّى وجاء.

تقدم جمعة باشا إلى محايل، ومن هناك أرسل حملة بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش، فاحتلها إذ كان عمه في السراة يقف في وجه سنان آغا إذ انتصر عليه وفرّ سنان آغا ومعه منصور بن ناصر مع بعض الجند فلاحقتهم سرية من بالأسمر وقتلتهم جميعاً. إذ بدا الاختلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، فأرسل سعيد بن مسلط من قتل الشريف حمود في الملاحة عام ١٢٣٣.

تولى إمرة قوات أبي عريش في السراة أحمد بن الشريف حمود الذي انسحب بمن معه نحو تهامة فلما وصل إلى مشارف المنطقة اعترضه كمين نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فألقي القبض عليه، وتفرّق جنده، ورجع أكثرهم إلى عسير، أما هو فقد حُمل إلى أبي عريش، ومنها أرسل إلى مصر حيث توفي هناك. وأما حسن بن خالد فبقي على مضض مع زعماء السراة يُظهر لهم الإخلاص والطاعة حتى قتل عام ١٢٣٤ في معركة ضد العثمانيين. وتفرّد علي بن حيدر بسيادة تهامة، واستطاع عام ١٢٤٣ أن يضم مدينة صبيا إليه، وأن يطرد الحامية العسيرية منها إلا أن علي بن مجثل قد جاء بقوة إليه، واستعاد صبيا، وحاصر مدينة أبي عريش، ثم وقع الصلح بين الطرفين، ثم عاد فتجدد القتال عام ١٢٤٨ إذ قاتل حامية عسير في وادي مور، وقد جاءته مساعدات عثمانية غير أن علي بن مجثل لم يلبث أن حاربه وحاصره، ثم وقع الصلح بين الطرفين، وأصبح بعدها علي بن حيدر يحكم منطقة أبي عريش بالنيابة عن أمير السراة، ورحلت بعد ذلك الحامية العثمانية في أبي عريش إلى الحجاز.

انتفض علي بن حيدر على أمير السراة بعد وفاة علي بن مجثل ومبايعة عائض بن مرعي عام ١٢٤٩، واستطاع أن يصمد أمام حملته إليه، ورحلت الحملة العسيرية من أبي عريش وقد كانت ترابط فيها، ولم تستطع مساعدة عائض بن مرعي في دخول المدينة.

توفي علي بن حيدر وخلفه ابنه حسين فاتفق مع أمير السراة، وغزا معه تهامة اليمن، ووصل إلى المخا. كما غزا معه اليمن، وأُسر على أبواب زبيد، لكن نجدةً جاءت من السراة وخلصته من الأسر عام ١٢٦٤.

توفي الحسين بن علي بن حيدر، وقام بالأمر بعده ابنه الحسن إلا أن الخلافات قد بدأت بين أفراد الأسرة الواحدة أو تجددت، فقام الحسن بن محمد، واستلم الأمر، وفرّ الحسن بن الحسين، ثم اغتيل، ونتيجة هذه الخلافات فقد دخل أمير السراة محمد بن عائض مدينة أبي عريش عام ١٢٨٠، وعزل حسن بن محمد، وضمّ المخلاف السليماني كله إلى أبها.

تبع المخلاف السليماني الدولة العثمانية بعد أن قُتل محمد بن عائض عام ١٢٨٩، وأصبحت عسير متصرفيةً خاصةً ويتبعها المخلاف، واستمر الوضع كذلك حتى جاء الإدريسي عام ١٣٢٢.

الإدريسي:

حل بمدينة صبيا عام ١٢٤٦ رجل من المغرب يدعى أحمد بن إدريس[1]، وعندما توفي خلفه ابنه محمد، وتزوج بامرأةٍ من السودان فولدت له غلاماً سمّاه علياً، وتزوج علي بامرأةٍ هنديةٍ فأنجبت له ولداً أسماه محمداً[2]، وعندما شبّ جوّب في مكة، والقاهرة، وليبيا، والسودان، ولما رجع بدأ يعظ الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فكثر أنصاره، وأظهر رضاه عن السياسة العثمانية فعينته قائمقاماً على مدينتي صبيا وأبي عريش، وأرادت الدولة العثمانية إظهار قوته ليكون لها عوناً في المستقبل فطلبت من متصرف عسير سليمان شفيق الكمالي أن يزوره ففعل فارتفع شأنه، وزاد أتباعه، وضعفت قوة المتصرف أمام قوته، لذا طلب المتصرف قوةً تكون في جيزان ليرهب الإدريسي إن حدثته نفسه بشيء فجاءت القوة ونزلت في القنفذة، فقال الإدريسي: لا حاجة لها فعادت.

اتفق الإدريسي مع المتصرف على أن تُحلّ خلافات القبائل في صبيا،

---

(١) أحمد بن إدريس: ولد عام ١١٧٢ في ميسور إحدى قرى فاس، ويعود في نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وعندما شب جاء إلى مكة المكرمة، وبقي فيها ثلاثين عاماً، ثم انتقل إلى تهامة عسير، ونزل بصبيا، وطاب له المقام فيها. وتوفي فيها عام ١٢٥٣.

(٢) محمد بن علي الإدريسي، ولد عام ١٢٩٣ في صبيا، ومنها انتقل إلى مكة المكرمة ولم يتجاوز العشرين من العمر. ثم سافر إلى القاهرة، ودرس في الأزهر مدة ست سنوات (١٣١٤ - ١٣٢٠)، ثم سافر إلى واحة الكفرة في ليبيا، وهي مركز الدعوة السنوسية، ثم انتقل إلى السودان إلى بلدة «أرجو» إحدى قرى دنقلة، وتزوج من هناك، ورجع بعدها إلى مسقط رأسه في صبيا، وهناك لمع اسمه ولعب دوراً خطيراً فيها.

الإدريسي يريد النفوذ، والمتصرف يريد الأمن. ورأى المتصرف أن تكون الشقيق ميناء أبها لقربها منها بدلاً من القنفذة البعيدة، ورفض ذلك الإدريسي لمصلحته فرُفض اقتراح المتصرف.

بدأ الإدريسي بعد زيادة نفوذه هذه يتصل بإيطاليا التي تسيطر على اريتريا في الطرف الثاني من البحر الأحمر، وكان ذلك الاتصال عن طريق ابن عمه الموجود في القاهرة، كما بدأ بشراء الأسلحة، وتسليح أعوانه.

أعلن خلافه للدولة العثمانية، وأقام له حكومة خاصة في صبيا، وأيدته القبائل لدعوته لتطبيق الشرع، وذلك عام ١٣٢٦، وحاول متصرف عسير إيقافه عند حدّه فأرسل له حملةً ففشلت، بل تعرّضت للإبادة من رجال القبائل. وكتب المتصرف إلى إستانبول يُعلم المسؤولين خطر الإدريسي، وصلته بإيطاليا فدعته إلى إستانبول فرفض الحضور، فطلبت الدولة العثمانية من قائد قواتها في اليمن عزت باشا ومن معاونه عصمت إينونو إرسال حملة بحرية للقبض على الإدريسي، وإرساله إلى إستانبول، ونزلت الحملة في جيزان ولكنها هزمت هزيمة منكرة في أول لقاء، ويزيد عدد أفرادها على أربعة آلاف جندي، وقد دعمت إيطاليا الإدريسي في القتال، وانسحب العثمانيون من جيزان، ودخلها الإدريسي، وبقيت جزر فرسان بيد العثمانيين وقد انتقلت الحملة إلى هذه الجزر فشددت إيطاليا الضغط عليهم، فتركوها متجهين إلى القنفذة، فلاحقتهم إيطاليا وضربت الميناء من جهة البحر على حين كان الإدريسي يحاصر المدينة من البر، ودمرت السفن العثمانية الراسية في الميناء، غير أن الحامية لم تستسلم، وبقيت القنفذة بيد العثمانيين.

اختلف آل عائض في السراة مع المتصرف الجديد سليمان شفيق الكمالي، فاتفقوا مع الإدريسي لقتال المتصرف وإخراج العثمانيين من البلاد، وانطلقت قوات الطرفين نحو مدينة أبها، وألقت الحصار عليها، ولما اشتد الحصار على الحامية العثمانية في أبها، طلبت الدولة من شريف مكة الحسين بن علي السير إلى أبها لإنقاذ الحامية فيها. فسار على رأس

قوة إليها عام ١٣٢٧، وكان آل عائض قد عرفوا أطماع الإدريسي في السراة، لكنهم خشوه، فما أن ظهر الشريف الحسين بن علي حتى انضموا إليه، وانقلبوا ضد الإدريسي، فانسحب الإدريسي من السراة، وعُيّن الحسن بن علي آل عائض نائباً للمتصرف، كما عُيّن محمد بن عبد الرحمن آل عائض محافظاً لأبها، وضعُف مركز الإدريسي وبدأ المتصرف يُغير على مناطق نفوذه.

نزلت إيطاليا في ليبيا، ثم أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، وبدأت تُغير على الموانئ العثمانية ومنها الواقعة على البحر الأحمر، فقويت شوكة الإدريسي ثانيةً لدعمه من قبل إيطاليا، وعاد له نفوذه في ميناء القنفذة وشمالي عسير فاصطدم مع شريف مكة الذي يمتدّ نفوذه إلى هذه الجهات، وأرسل شريف مكة ابنه فيصلاً على رأس حملة إلى تلك الجهات التقت مع قوات الإدريسي قرب القنفذة، وانتصرت عليها، رغم قصف الأسطول الإيطالي لجيش الحجاز، ودعم قوات الإدريسي بالأسلحة والمؤن، وهمّ فيصل بالتقدم غير أن رسالةً جاءته من أبيه تدعوه للعودة إلى مكة للعمل ضد العثمانيين، حيث أعلن شريف مكة الثورة عليهم في الحرب العالمية الأولى، فأصبح شريف مكة والطليان في حلفٍ أو مع الحلفاء ضد العثمانيين الذين وقفوا بجانب الألمان، غير أن الخلاف الشخصي بين الحسين بن علي والإدريسي لم يتغيّر وإن كان كلاهما يعمل ضد العثمانيين.

رأى الإدريسي أن نفوذ إنكلترا أصبح هو القوي فعقد معاهدةً معها عام ١٣٣٤، اعترفت له بموجبها بالسيطرة التامة على تهامة من القنفذة شمالاً حتى اللحية جنوباً، ثم جددت المعاهدة ١٣٣٦.

رأى الإدريسي أن كل ما حوله يخالفه، الشريف حسين، آل عائض، إمام صنعاء لذا فقد راسل سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، غير أن الإدريسي لم يلبث أن توفي عام ١٣٤١، فخلفه ابنه علي. فاستولى الإمام يحيى حميد الدين على القسم الجنوبي من تهامة، وضم إليه الحديدة والقسم الجنوبي من تهامة حتى بلدة (ميدي). ثم ثار أهل تهامة

ضد علي بن الإدريسي، وبايعوا عمه الحسن، والتجأ علي إلى الرياض، وأقام فيها.

أعطى حسن الإدريسي لإنكلترا حق التنقيب عن النفط في جزر فرسان. وفاوض إمام اليمن، وآل سعود، وإيطاليا ونجحت المفاوضات مع آل سعود، فأبرم ابن عمه ميرغني معاهدةً في مكة بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود، وضعت بموجبها تهامة تحت الإدارة السعودية وذلك عام ١٣٤٥، وأصبحت جزءاً من المملكة العربية السعودية فيما بعد.

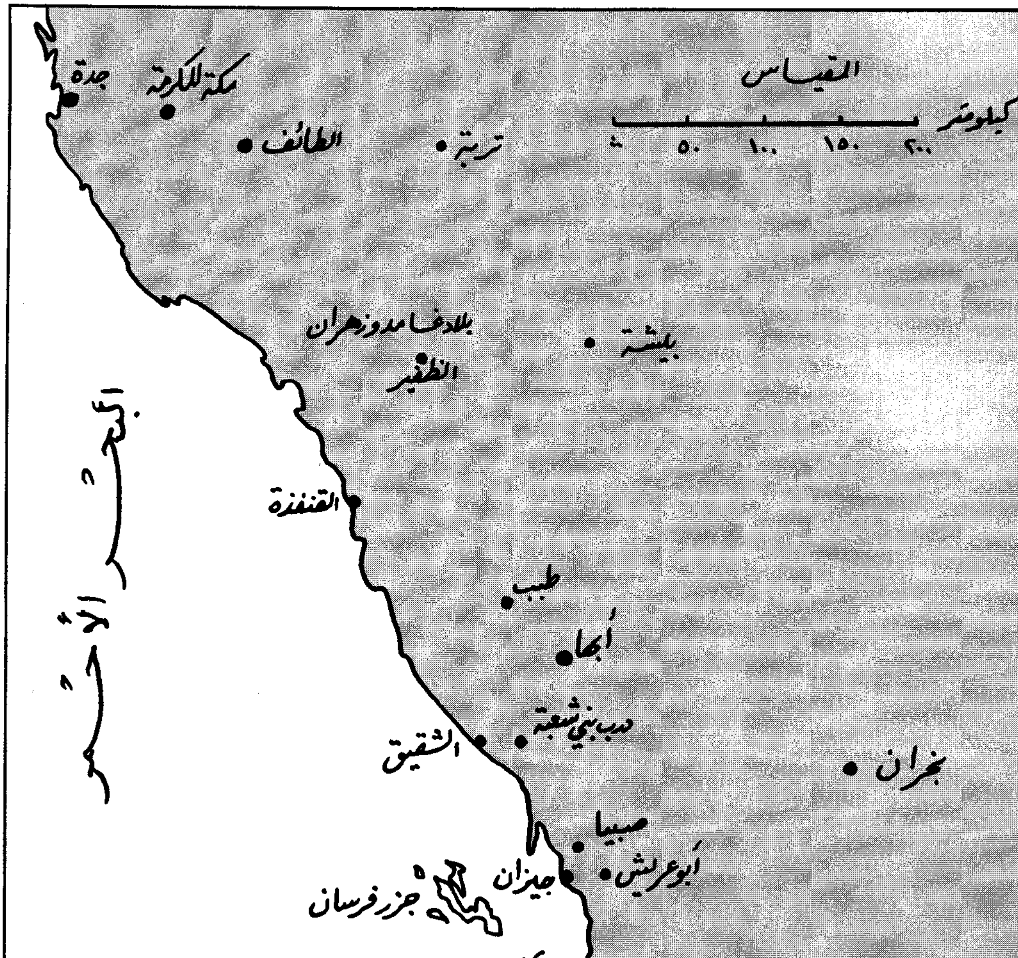
القياس
كيلومتر
٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
جدة
مكة المكرمة
الطائف
تربة
بلاد غامد وزهران
الظفير
بيشة
البحر الأحمر
القنفذة
طبب
أبها
درب بني شعبة
الشقيق
نجران
صبيا
أبو عريش
جيزان
جزر فرسان
ميدي

مصور رقم [٢١]

الفصل السادس

المنطقة الشرقيّة

كان اسم البحرين يُطلق على الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية والمشرفة على الخليج العربي، إذ لا تقع عُمان من ضمنها، أو ما يشمل اليوم قطر، والبحرين، والكويت والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وكان يحكم المنطقة بنو عقيل منذ عام ٦٤٢، وتوالت ثلاث أسر منهم في حكم المنطقة ثم ضعف أمرهم، وتفرّقت كلمتهم، وجاء البرتغاليون فسيطروا عليهم. استولى البرتغاليون على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ثم بسطوا نفوذهم على البحرين عام ٩٢١، وقتلوا حاكم البحرين مقرن بن أجود بن زامل عام ٩٢٧، وتولّى حكم المنطقة تحت إشرافهم علي بن أجود حوالي الشهر، وناصر بن محمد بن أجود ما يقرب من ثلاث سنوات، وقطن بن علي مدة سنة، وابنه عدة أشهر وتنازل بعدها لـ(غصيب بن زامل)، ووقع الخلاف بين آل جبر، فاستنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس فجاء إلى البحرين واحتلها.

تمكّن العثمانيون من فتح بغداد عام ٩٤١، وحكموا العراق، وعندها تقدم حاكم البصرة راشد بن مغامس إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، وأعلن له الولاء، وأصبحت مناطق نفوذه تحت سيطرة العثمانيين، ثم اختلف راشد بن مغامس مع الولاة العثمانيين، فاحتلوا البصرة، ففر راشد إلى نجد عام ٩٥١، ولانشغال الدولة العثمانية بالحروب البعيدة، وللحرب الصليبية التي تشنها أوروبا عليها، ولبعد منطقة البحرين فقد ضعف الحكم العثماني في البحرين، واستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين

ثانية، واستولوا على القطيف والإحساء، وبدؤوا في تشييد القلاع في جزيرة (أوال) و(تاروت) و(سيهات) وغيرها.

غير أن العثمانيين لم يتركوا الأمر، فقد دخلوا مسقط، وحاصروا هرمز قاعدة البرتغاليين، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها، فتركوها واتجهوا إلى البحرين، فانسحب البرتغاليون من جزيرة أوال، ومن القطيف، ودخلها العثمانيون، ووقف السكان مع إخوانهم العثمانيين فكانوا يخلصون البرتغاليين القلاع، ويسلّمونها للعثمانيين وذلك عام ٩٥٧، وأصبحت منطقة البحرين ضمن الدولة العثمانية، وضُمّت إلى ولاية البصرة، واستمر القتال بين العثمانيين والبرتغاليين فانهزمت فيه البرتغال.

بدأ النفوذ الإنكليزي يظهر في المنطقة حيث استمالت إنكلترا إليها الشاه عباس الصفوي شاه إيران ليقف معها ضد العثمانيين والبرتغاليين، وقد منح الشاه إنكلترا امتيازات واسعة في التجارة، وساعدته هي على مدّ نفوذه في الخليج إذ احتل جزيرة (أوال) عام ١٠١١، وجزيرة هرمز عام ١٠٣٥، وزال في ذلك العام الاستعمار البرتغالي نهائياً من منطقة الخليج العربي. ومن هذه المدة انفصلت جزيرة أوال (البحرين) عن باقي المنطقة، إذ غدت جزيرة البحرين تحت حكم الصفويين على حين كانت المنطقة تحت حكم العثمانيين حتى عام ١٠٨١، ثم تحت سيطرة بني خالد بعد ذلك.

لم يطل حكم العثمانيين على البحرين إذ جاؤوا عام ٩٥٧، وانسحبوا منها عام ١٠٨١ إذ لم يزد حكمهم على مائة وأربعة وعشرين سنة، كما لم يتولّ أمر المنطقة أكثر من أربعة ولاة، إذ دخلها فاتح باشا عام ٩٥٧، وأعقبه علي باشا المعروف بأبي الوند، وتلاه محمد باشا، ثم عمر باشا الذي ثار عليه بنو خالد فانسحب من المنطقة عام ١٠٨١.

ثار برّاك بن غرير رئيس آل حميد من بني خالد، وهجم على الحامية العثمانية في الإحساء فاضطرت إلى الاستسلام، وسلّمت حصونها وقلاعها وخرجت من البلاد عام ١٠٨١، إذ كانت الدولة العثمانية قد ضعفت، وهدّت الحروب الصليبية قواها. وأعلن برّاك نفسه ملكاً على المنطقة،

ووقع الحسد لدى آل مغامس من عرب البادية لهذا النجاح الذي أحرزه برّاك، وهذا ما دفعهم لقتاله غير أنهم هُزموا أمامه، ففر قسم منهم إلى العراق.

أقام برّاك في بلدة المبرز وجعلها قاعدةً له، وبدأ يوسع ملكه، وتوفي عام ١١٠٣، وخلفه ابنه سعدون الذي توفي عام ١١٣٥. واختلف بنو خالد إثر وفاة سعدون، فقسم منهم كان بجانب ابنه (دجين) والقسم الآخر مع أخيه سليمان، وانتصر سليمان على ابن أخيه (دجين)، وتوفي سليمان عام ١١٦٦، وبويع بعده عريعر، وفي عهده بدأت غارات السعوديين على المنطقة، وهجمات بني خالد على القصيم وسدير.

في هذا الوقت انقسمت المنطقة لضعف دولة بني خالد، وغدت الإحساء وحدها، وكذا البحرين، وقطر، والكويت، ويمكن دراسة تاريخ كل قسم وحده.

أ ـ الإحساء:

كانت تحت حكم بني خالد ـ كما مر معنا ـ وتوفي عريعر عام ١١٨٨ فخلفه ابنه (بطين)، ولم يلبث أن اختلف مع إخوته (دجين) الذي استلم الحكم بعده، و(سعدون) الذي تولّى بعد (دجين)، وقد هاجم المجمعة عام ١١٩٣، وأنجد عنيزة عام ١١٩٦. وفي عام ١٢٠٠ خرج (دويحس) على أخيه سعدون الذي فرّ إلى الدرعية قاعدة ملك آل سعود، وقد ساعد (دويحس) خاله عبد المحسن بن سرداح.

هاجم السعوديون الإحساء عام ١٢٠٢ فهرب منها (دويحس) وخاله عبد المحسن، وكان في الجيش السعودي زيد بن عريعر الذي غدا أمير المنطقة، وقد استقدم عبد المحسن بالحيلة من العراق، وقتله غدراً، فثار بنو خالد على هذا الغدر فعزلوا زيداً، وولّوا مكانه برّاك بن عبد المحسن، وتألم السعوديون من تصرف بني خالد فدخلوا المنطقة عام ١٢٠٧، فبايع السكان الإمام سعود الكبير، غير أنهم عادوا فنقضوا العهد فسار إليهم سعود

الكبير وحاصر الإحساء حتى استسلمت عام ١٢٠٨، فنفي أولاد عريعر إلى العراق، وانتهت دولة بني خالد.

أرسل والي العراق العثماني سليمان باشا عام ١٢١١ حملة بحرية وأخرى برية لاحتلال القطيف والإحساء غير أنها فشلت في تحقيق هدفها، وجدّدت حملة ثانية بقيادة علي كيخيا، ولكنها فشلت كسابقتها حيث وصلت الإمدادات إلى أهل الإحساء من نجد، ثم عقد صلح بين الطرفين عام ١٢١٣. ولما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا طلب أولاد عريعر من بني خالد وهم: محمد، وماجد، وسعدون من الجيش المصري متابعة السير إلى الإحساء فتابع، وهرب منها واليها السابق من قبل السعوديين وهو فهد بن سليمان بن عفيصان، وأساء أفراد الجيش الغازي إلى السكان فخاف الذين دعوه وهم أولاد عريعر فهربوا إلى العراق، فلمّا انسحب المصريون رجع أولاد عريعر فأقام محمد وماجد في الإحساء، وأقام سعدون في القطيف، وكان كفيفاً.

وعندما استولى محمد بن مشاري بن معمر على بعض مناطق نجد، كتب بعض السكان إلى ماجد بن عريعر ليقاتل ابن معمر قبل أن يستفحل أمره، فسار ابن عريعر إلى نجد، ولكن ابن معمر أظهر له أنه أمير من أمرائه فعاد ابن عريعر من حيث أتى.

وفي عام ١٢٤٥ سار أبناء عريعر لقتال تركي بن عبد الله في الرياض، غير أن ماجداً قد مات في الطريق إثر مرض نزل به، وهُزم بنو خالد، ورجعوا إلى الإحساء، فتبعهم تركي بن عبد الله حتى وصل إلى الإحساء فبايعه أهلها، فقبض على محمد بن عريعر ونفاه إلى العراق، وجعل عمر بن عفيصان أميراً على الإحساء، وعاد هو إلى الرياض.

وهاجم آل خليفة في البحرين منطقة الإحساء، ودخلوا جزيرة (تاروت)، ووقف في وجههم الحاكم السعودي للقطيف عبد الله الغانم، لكنه هُزم، وسار الأمير فيصل بن تركي من الرياض لنجدة الإحساء واشتبك مع أهل البحرين في معركة عام ١٢٤٩ اضطر إلى تركها لمقتل أبيه في

الرياض. ثم عُيّن على القطيف علي بن عبد الله بن غانم غير أنه اختلف مع مساعده مداوي الذي قتل علي بن عبد الله، ثم قتل أيضاً خليفته علي بن صالح، وأوكل أمر القطيف بعدها إلى مهدي بن نصر، واستمر ذلك حتى عام ١٢٥٣ حيث دخل العثمانيون المنطقة.

بعد أن دخل خالد بن سعود الرياض بدعم من العثمانيين والمصريين عام ١٢٥٢، خرج منها فيصل بن تركي إلى الإحساء، ولما هُزم خصمه أمام أهل الحوطة رجع وحاصر الرياض فجاء خورشيد باشا بنجدة وصلت إلى نجد ودخلت العاصمة فرجع فيصل بن تركي وعسكر في الدلم وجاءه عمر بن عفيصان بدعم من الإحساء غير أنهما هزما، واضطر فيصل إلى الصلح، ونفي إلى مصر، ورجع ابن عفيصان إلى الإحساء غير أن أهل بلده قد أعلنوا الطاعة لخورشيد باشا فسار ابن عفيصان إلى الكويت. وولّى خورشيد باشا على الإحساء أحمد بن محمد السديري حتى عام ١٢٥٥، ثم عزله وأقام مكانه حمد بن مبارك عام ١٢٥٦، ثم موسى الحملي عام ١٢٥٧.

هُزم خالد بن سعود أمام عبد الله بن ثنيان، فغادر خالد الرياض، واتجه إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة المكرمة، وضعف أمر العثمانيين في الإحساء بل لم يمكثوا فيها سوى خمس سنوات (١٢٥٣ - ١٢٥٨) فأرسل عبد الله بن ثنيان أميراً من قبله على الإحساء هو عبد الله بن بتال ثم استبدله بعمر بن عفيصان الذي أخذ البيعة من أهل المنطقة.

ورجع فيصل من مصر، وعاد إلى الحكم عام ١٢٥٩، فولّى على الإحساء عبد الله بن بتال ثم استبدله بأحمد بن محمد السديري عام ١٢٦٠، وبقي حتى ولّى عبد الله بن فيصل عام ١٢٨٤ ناصر بن جبر الخالدي الذي وقف في وجه سعود بن فيصل الثائر على أخيه غير أنه انهزم أمامه عام ١٢٨٧، وأصبحت الإحساء تتبع سعود بن فيصل وتجدد القتال بين الإخوة، فانتصر سعود، وأسر أخاه محمداً قائد جيش أخيه عبد الله، وسجنه في القطيف، وسار إلى الرياض ودخلها، فطلب أخوه عبد الله من والي بغداد العثماني مساعدته.

جاءت القوات العثمانية عن طريق البحر من البصرة إلى القطيف، كما جاءت القوات الكويتية، وفرّ والي سعود بن فيصل منها وهو فرحان بن خير الله، وأصبحت الإحساء ضمن أجزاء الدولة العثمانية من عام ١٢٨٨. وجاء عبد الله بن تركي الذي حكم الرياض بعد سعود بحملةٍ إلى الإحساء ولكنه هُزم، كما فشل في أخذ الإحساء عبد الرحمن بن فيصل وقد جاء من بغداد عام ١٢٩١.

وبقيت الإحساء بيد العثمانيين حتى ساءت الأوضاع، وعمّت الفوضى حيث قتل الوالي محمود باشا في سوق الهفوف عام ١٣٢٧، فكتب السكان إلى الأمير عبد الرحمن بن فيصل بالقدوم إليهم، وخرج العثمانيون من الإحساء عام ١٣٣١، وقد شغلتهم حروب البلقان، وأحداث الطليان في ليبيا، وأصبحت الإحساء جزءاً من المملكة العربية السعودية.

ب ـ البحرين:

خضعت جزيرة أوال للبرتغاليين عام ٩٢٢ غير أنهم خرجوا منها عام ٩٣٢ عندما سيطر على المنطقة راشد بن مغامس، وغدت بعدها جزءاً من الدولة العثمانية عام ٩٤٥ عندما أعلن راشد بن مغامس الولاء للعثمانيين غير أنه لم يلبث أن اختلف معهم فهرب إلى نجد وضعف الحكم فاستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين حوالي عام ٩٥٢، ولكن العثمانيين دخلوها ثانية عام ٩٥٧ وأخرجوا البرتغاليين منها.

احتل شاه إيران عباس الصفوي جزيرة أوال عام ١٠١١ بمساعدة الإنكليز، فانفصلت بعدها عن المنطقة، وغدا تاريخها منفصلاً أيضاً. ورجع العثمانيون إلى الجزيرة عام ١٠٩٢، ثم احتلها الصفويون عام ١١٢٣، وحاول إمام عُمان سلطان بن سيف إنزال قواته فيها عام ١١٣٠ ولكنه هُزم أمام مقاومة أبنائها. ثم أخضعها نادر شاه ملك فارس عام ١١٥٠هـ.

كان يسكن جزيرة أوال آنذاك مجموعة من البطون والقبائل تنتمي إلى قبيلة (الهولة) التي تعود إلى المطاريش ذي الأصل العماني، وقد جاء عرب

من المطاريش أيضاً والذين يقيمون في ميناء أبو شهر فاحتلوا جزيرة أوال عام ١١٦٦.

واختلف آل خليفة مع أبناء عمومتهم آل الصباح في الكويت فغادروها عام ١١٧٩ وأرادوا النزول في جزيرة أوال فلم يسمح لهم حكام الجزيرة من بني مذكور من قبيلة الهولة، فتابعوا سيرهم ونزلوا في الزبارة شمال غربي شبه جزيرة قطر، وكانوا بإمرة شيخهم محمد بن خليفة، وكانت الزبارة يومذاك من ديار بني مسلم. وبدأ آل خليفة، بتحصين مدينة الزبارة. ورفضوا دفع الزكاة لآل مسلم بعد سنتين من نزولهم، وحصلوا على شيء من الاستقلال.

كانت دولة بني خالد قد مالت إلى الضعف واستقل عنها كثير من أتباعها مثل آل مسلم في قطر، وآل الصباح في الكويت، وحذا حذوهم آل خليفة في الزبارة والذين توسعوا حتى سيطروا على جزيرة أوال تماماً عام ١١٩٦، وذلك رداً على غزو إيران لهم في الزبارة إذ كانت جزيرة أوال تخضع لإيران، ثم انتقلوا إلى المنامة أو عدد منهم عام ١١٩٨.

بدأ الصدام بين آل خليفة والسعوديين عام ١٢١٠، وعندما اشتد حصار السعوديين على الزبارة ارتحل عنها أهلها جميعاً، وانتقلوا إلى جزيرة أوال حيث أقاموا في قرية (الجو) الواقعة على أحد المرتفعات جنوبي جزيرة أوال والتي بدأت تُعرف باسم البحرين، ونقل زعماء من آل خليفة في الزبارة رهائن عند إبراهيم بن عفيصان حاكم الإحساء من قبل السعوديين، وفي الوقت نفسه سيطرت الدولة السعودية على البحرين، وعُيِّن إبراهيم بن عفيصان عليهم حاكماً من قبله، واستمر ذلك حتى عام ١٢١٤.

رجع سلمان بن خليفة حاكماً على البحرين عام ١٢١٤، ولكنه لم ينج من الهجمات الثانية حيث تعرض عام ١٢١٥ إلى هجوم من قبل سلطان مسقط بحجة أن سفن البحرين ترفض دفع ضريبة عند مرورها من مضيق هرمز. وفشل سلطان عُمان في دخول المنامة، ولكنه نجح في العام التالي، وأخذ عدداً من الرهائن معه إلى مسقط على حين هرب بعضهم إلى الزبارة، واستطاع أهل البحرين استعادة جزيرتهم عام ١٢١٨ إذ استعانوا

بالسعوديين ضد العُمانيين، وتوطدت العلاقة بين السعوديين وأهل البحرين، وخاصة عندما عاد سلمان بن خليفة إلى حكمه بمساعدة الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد عام ١٢٢٤ بعد أن أجبر على تركه بسبب هجوم سلطان عُمان، واستطاع الجيش السعودي طرد العُمانيين، وأخذ بعض آل خليفة إلى نجد حيث احتجزهم سعود الكبير عنده.

عاد آل خليفة فاستنجدوا بعدوهم السابق سلطان مسقط ضد السعوديين الذين خرجوا من الجزيرة، وقاد أهل البحرين يومذاك عبد الله بن أحمد، ولكن ثار عليه بعد مدةٍ أحد أبناء عمومته وهو محمد بن خليفة بن سلمان ولكنه هُزم في معركة الناصفة فالتجأ إلى عبد الله بن ثنيان من آل سعود الذي كان في الإحساء ورغب في الاستيلاء على البحرين مستغلاً خلافات أسرة آل خليفة، ولكن لم يوفق إذ انتهت أيام حكمه.

ذهب محمد بن خليفة إلى قطر يطلب المساعدة فأيدته قبائل آل علي وشيخها عيسى بن طريف، وقبائل آل النعيم، وقبائل بوكوارة، وقبائل الجلاهمة فتمكّن من الانتصار على ابن عمه عبد الله بن أحمد وتسلّم الحكم عام ١٢٥٨، والتجأ عبد الله إلى إيران وطلب دعمها غير أن إنكلترا حالت دون ذلك على الرغم من وجود معاهدة معه منذ عام ١٣٢٦. وفي الوقت نفسه أخذ فيصل بن تركي الدمام وكانت تتبع البحرين، وأراد بسط نفوذه على البحرين أيضاً، وتوفي عبد الله عام ١٢٦٥. فصفا الجو لمحمد بن خليفة الذي استمر في الحكم حتى توفي عام ١٢٨٦، وكان قد جدّد المعاهدة مع إنكلترا عام ١٢٧٩. وتسلّم الحكم بعده أخوه علي بن خليفة، ولكنه لم يلبث سوى عدة أشهر حيث قتله أخوه الآخر، إلا أن ابنه عيسى بن علي قد قبض على زمام الحكم حتى عام ١٣٤١، وعقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٢٩٨، ثم جُدّدت عام ١٣١٠، وبموجب هذه المعاهدة لا يحقّ لأمير البحرين أن يتنازل عن أي جزء من أراضيه إلى أية جهة سوى إنكلترا، ولا يعقد أية علاقة مع أية دولة دون علم إنكلترا، وأن يُقيم مستشاراً بريطانياً في المنامة بجانب الأمير.

وتوفي عيسى بن علي عام ١٣٤١ فخلفه ابنه أحمد.

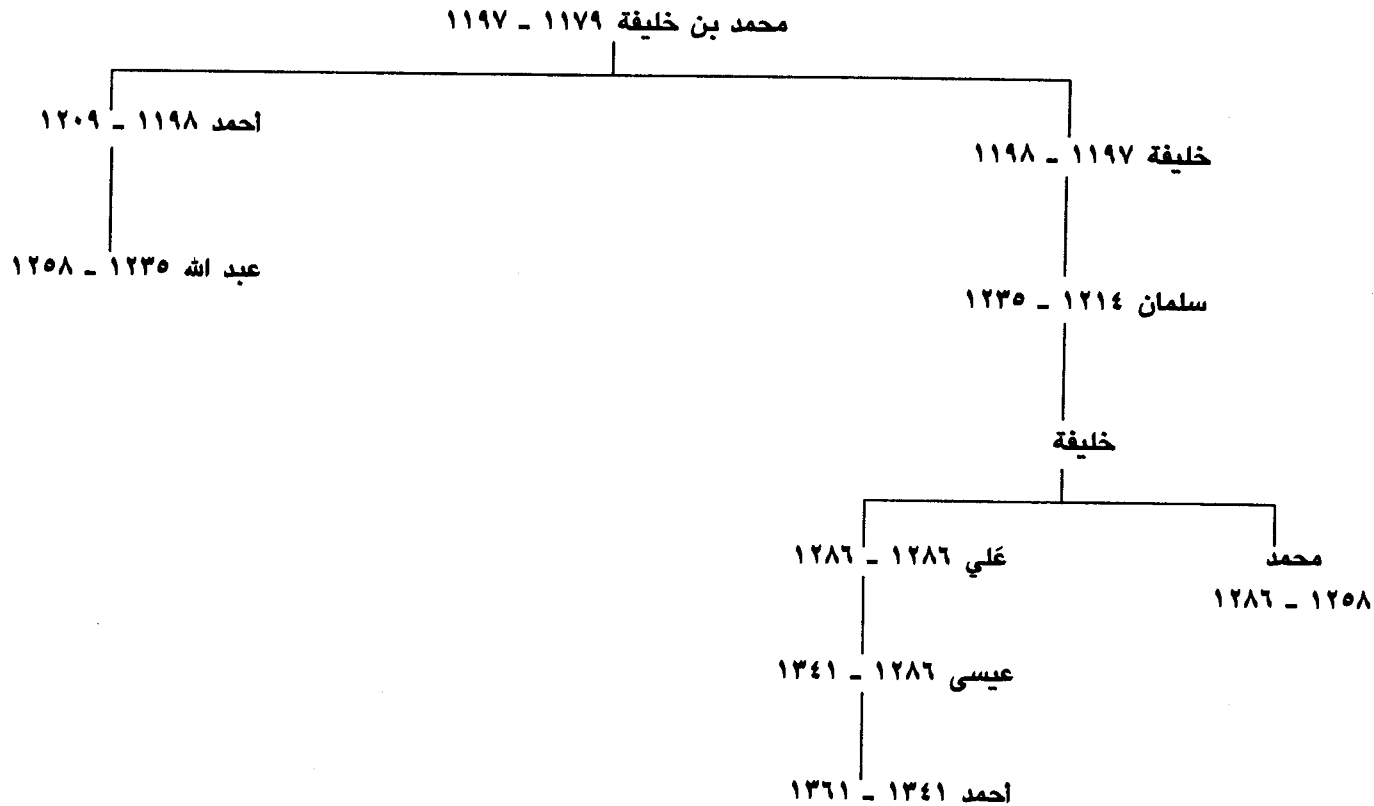
محمد بن خليفة ١١٧٩ ـ ١١٩٧
خليفة ١١٩٧ ـ ١١٩٨
أحمد ١١٩٨ ـ ١٢٠٩
سلمان ١٢١٤ ـ ١٢٣٥
عبد الله ١٢٣٥ ـ ١٢٥٨
خليفة
محمد
١٢٥٨ ـ ١٢٨٦
عَلي ١٢٨٦ ـ ١٢٨٦
عيسى ١٢٨٦ ـ ١٣٤١
أحمد ١٣٤١ ـ ١٣٦١

جـ - قطر:

كانت قطر حتى عام ١١٨٠ جزءاً من المنطقة الشرقية، وتخضع لبني خالد الذين كانت سلطتهم تمتد على شرقي الجزيرة العربية كلها، ويتصل بهم آل مسلم الذين يمتون بصلة النسب إليهم، ويساعدونهم في توطيد حكمهم في قطر، وكان المعاضيد من آل علي يُقيمون في (الفويرط) في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، وهناك بعض السودانيين الذين يُقيمون في الدوحة التي كانت تُعرف باسم (البدع). وفي عام ١١٧٩ نزل آل خليفة وهم من العتوب في الزبارة قادمين من الكويت، وبعد مدة تبعهم أقرباؤهم الجلاهمة، ولم يلبث أن وقع الخلاف بين الطرفين، وانتقل الجلاهمة إلى قرية (الرويس) حيث عملوا في القرصنة، ولكنهم أُبيدوا على يد آل خليفة، ومن بقي منهم انتقل إلى (خورحسان).

احتلت إيران البصرة عام ١١٩٠ فهاجر عدد من تجار البصرة هاربين إلى الزبارة التي توسعت ونمت تجارتها. وحاولت إيران إخضاع الزبارة ولكنها فشلت، وغزت الزبارة البحرين، وكررت إيران غزو الزبارة عام ١١٩٧ غير أنها باءت بالفشل أيضاً، وقام آل خليفة برد فعل عام ١١٩٨ بالهجوم على البحرين التي كانت تخضع لإيران فاضطرت الحامية الإيرانية هناك إلى الاستسلام، وانتقل آل خليفة من الزبارة إلى المنامة وذلك بمساعدة العتوب الذين يقيمون بالكويت، وكان الشيخ أحمد بن خليفة أول شيخ من عرب العتوب يحكم البحرين، واشترك الجلاهمة في غزو البحرين مع إخوانهم العتوب خصومهم بالأمس، وعادوا بعد الغزو إلى خور حسان وقد قوي مركزهم، وتسلّم زعامتهم رحمة بن جابر الذي وطد علاقته مع السعوديين.

توسعت الدولة السعودية في المنطقة الشرقية، وضمت إليها قطر والبحرين وذلك عام ١٢٢٤، ولكنهم خرجوا من قطر عام ١٢٢٦ بمساعدة سلطان مسقط الذي هاجم (الزبارة) و(خورحسان) وأحرقهما ودمرهما، وانقلب جابر بن رحمة ضد السعوديين، ودمرت كذلك شركة الهند الشرقية

مدينة البدع (الدوحة) عام ١٢٣٧، ثم خضعت قطر للبحرين عام ١٢٣٩ أيام عبد الله بن أحمد، ولما دخلت البحرين في معاهدة مع شركة الهند الشرقية عام ١٢٥١ كانت هذه المعاهدة تشمل قطرا أيضاً بصفتها جزءاً من البحرين.

وحدث خلاف في أسرة آل خليفة في البحرين إذ نافس محمد بن خليفة ابن عمه عبد الله بن أحمد لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى السعوديين في الإحساء ثم انتقل إلى قطر يطلب الدعم والمساعدة، فوجد ضالته إذ أيّده عيسى بن طريف من آل علي، وكان قد انتقل من جزيرة قيس إلى الدوحة، كما أيّدته قبائل النعيم، والجلاهمة، والبوكوارة فرجع إلى قطر بعد أن انتصر على ابن عمه، وتسلّم حكم البحرين عام ١٢٥٨.

فرض فيصل بن تركي آل سعود نفوذه على قطر، بينما لم يفرض على البحرين وبذا عادت قطر فانفصلت عن البحرين. ولكن بعد وفاة فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ واختلاف أبنائه من بعده قامت البحرين عام ١٢٨٤ بالاشتراك مع أبي ظبي في غزو قطر، وأزيلت الدوحة والوكرة، ثم قامت قطر برد فعل بهجوم معاكس.

وفي عام ١٢٨٥ اتفقت بريطانية مع الشيخ محمد آل ثاني بالعودة إلى الدوحة، وتعد قبيلته أكثر القبائل رجالاً ونفوذاً، وهي فرع من المعاضيد الذين هم بطن من آل علي، واستمر نفوذه حتى عام ١٢٨٨ حيث خلفه ابنه قاسم الذي تعرّض لهجوم عثماني بقيادة أمير الكويت، واضطر قاسم بن محمد إلى رفع العلم العثماني عام ١٢٨٨، وبعد عام أمر مدحت باشا الوالي العثماني على المنطقة باحتلال الدوحة.

وحدث تمرّد على القوات العثمانية التي هُزمت جنوب الدوحة، واضطر قاسم بن محمد أن يتنازل عن الإمارة إلى شقيقه أحمد بن محمد كمصالحة مع العثمانيين. واغتيل أحمد بن محمد عام ١٣٢٣ بيد أحد خدامه من بني هاجر، وتولى الأمر بعده عبد الله بن قاسم، وفي عهده بدأت المفاوضات بين العثمانيين والإنكليز وذلك عام ١٣٢٩ من أجل حلّ

المشكلات بينهما في الخليج العربي، ومنها قطر، وكان الإنكليز يهدفون إلى طرد العثمانيين من المنطقة، كما لا يُقرّون بسيادة البحرين على قطر. وتمّ توقيع المعاهدة في لندن تخلّت نتيجتها الدولة العثمانية عن حقوقها في قطر، واعترفت بخط يفصل بين نجد وقطر، وتضمّنت الاتفاقية التوقيع عليها في مدة ثلاثة أشهر إلا أن المدة قد جددت عدة مرات حتى نشبت الحرب العالمية الأولى، وانسحبت الدولة العثمانية من قطر نهائياً عام ١٣٣٤.

وقعت معاهدة جديدة بين الشيخ عبد الله بن قاسم وإنكلترا عام ١٣٣٥، وقد كفلت هذه المعاهدة لإنكلترا إدارة الشؤون الخارجية والتشريعات، والشؤون القضائية للأجانب. ثم منح الشيخ عبد الله عام ١٣٥٤ شركة قطر للنفط حق التنقيب في بلاده، وتوفي عام ١٣٦٨، وخلفه ابنه الثاني علي.

د ـ الكويت:

كانت الكويت جزءاً من المنطقة الشرقية، وقد تبعت الدولة العيونية (٤٦٧ ـ ٦٤٢)، ثم خضعت لبني عقيل (٦٤٢ ـ ٩٣٣) الذين حكموا الإحساء.

وصل البرتغاليون إلى الكويت، وكانت تسمى (القرين)، واحتلوا جزيرة (فيلكا)، وأقاموا فيها حصناً وذلك في الوقت الذي دخلوا البحرين، غير أن البرتغاليين خرجوا عام ٩٣٢، ثم استغلوا خلاف راشد بن مغامس مع العثمانيين فرجعوا إليها عام ٩٥٢، وفي النهاية طردوا منها عام ٩٥٧ على يد العثمانيين، وأصبحت الكويت جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، ولكن لم تلبث أن ضعفت الدولة فاستغل بنو خالد هذا الضعف، واستقلوا في الإحساء، ثم سيطروا على المنطقة كلها عام ١٠٨١، وفي أيامهم أخذت الكويت اسمها، وذلك نسبةً إلى حصن صغير كان موجوداً فيها، قيل بناه (برّاك بن غرير) زعيم بني خالد.

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري انتقلت فصيلة من قبيلة عنزة كانت تقيم في منطقة الهدّار بالأفلاج في جنوب نجد إلى قطر نتيجة خلافاتٍ قامت، وسنواتٍ عجاف مرت على المنطقة، أقامت هذه المجموعة في قطر، وقد عُرفت باسم العتوب نسبةً إلى بني عتيبة، ومن هؤلاء العتوب آل الصباح وآل خليفة. وبعد مدةٍ حدث خلاف بين آل مسلم أصحاب النفوذ في قطر وبين العتوب، فارتحل العتوب باتجاه الكويت فلحقهم آل مسلم فنزلوا إلى البر عند رأس تنورة، وجرى هناك قتال بين الطرفين انتصر فيه العتوب، ورجع آل مسلم إلى بلدهم، ومع ذلك فقد تابع العتوب حركتهم نحو الشمال حتى وصلوا إلى أرض شمال الخليج العربي فتنقّلوا هناك ثم استقر بهم المقام في الكويت، وكانت تحت سيطرة بني خالد.

ضعفت سلطة بني خالد، وقوي مركز العتوب فوقفوا في وجه سادتهم، وبايعوا كبيرهم صباح بن جابر أميراً عليهم عام ١١٦٢، ولما توفي عام ١١٧٢ بويع ابنه عبد الله غير أن هذه البيعة قد جعلت آل خليفة ينقمون على آل الصباح نتيجة البيعة التي تمت للأمير الجديد، فغادر آل خليفة الكويت، ورجعوا إلى قطر حوالي عام ١١٧٩، وأقاموا في الزبارة.

وعندما استولى الفرس على البصرة عام ١١٩٠ غادرها عدد من تجارها، واتجهوا إلى الكويت التي بدأت تنمو، وتتحول التجارة إليها، وهذا ما أطمع قبيلة كعب فيها فغزتها فقاتلها الأمير عبد الله وتغلّب عليها.

وحاصر عبد العزيز بن محمد بن سعود الكويت في إحدى غزواته لجنوبي العراق، ولكنه فشل في الحصار. ثم غزاها إبراهيم بن عفيصان أمير الإحساء عام ١٢٠٨، ثم غزاها أبو رجلين عام ١٢١١. وقام أهل الكويت بغزو القبائل التابعة للدولة السعودية كرد فعل على الغزوتين السابقتين، ثم شغل آل سعود بجيوش محمد علي واتجهوا نحو الغرب. وتوفي عبد الله الأول عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه جابر الأول، واستمر حكمه حتى عام ١٢٧٦ حيث خلفه صباح الثاني، وبقي أمر البلاد بيده حتى عام ١٢٨٣ فتسلم الأمر بعده عبد الله الثاني.

وعندما توفي فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ تنازع أبناؤه من بعده، وكانت الإحساء والقطيف بيد عبد الله بن فيصل إلا أن أخاه سعوداً قد احتل المنطقة عنوةً، وهذا ما جعل عبد الله يستنجد بالدولة العثمانية، وقال: إن أخاه سعوداً يستظهر بإنكلترا، فأنجدت الدولة العثمانية عبد الله، ودعمته بـ(عبد الله الثاني آل الصباح)، واستعادت المنطقة عام ١٢٨٨، وبعد عام قبل عبد الله لقب قائمقام بحيث يكون تابعاً لوالي البصرة العثماني.

غزا سعود بن فيصل آل سعود الكويت عام ١٢٩٠، ولكنه عاد دون حرب، كما أن أمير حائل محمد بن عبد الله آل رشيد قد غزاها عام ١٢٩٥.

وفي عام ١٣٠٩ توفي عبد الله الثاني آل الصباح فخلفه ابنه محمد الذي حكم حتى عام ١٣١٣ حيث قام عليه أخوه مبارك، وقتله مع أخيه الثالث الجراح، واستأثر بالحكم، وهذا ما جعل أبناء أخويه يغادرون الكويت إلى البصرة. وفي أيام مبارك بن عبد الله الثاني ضعف حكم جواره السعوديين وسيطر آل رشيد على نجد، على حين كانت الإحساء بيد العثمانيين، ووقعت العداوة بين مبارك آل الصباح وآل رشيد، فكان مبارك يستعين بالدولة العثمانية سواء أكان عن طريق متصرف البصرة أم عن طريق متصرف الإحساء، وذلك كلما حزبه أمر، وعندما اختلف مبارك مع آل ثاني في قطر وقفت الدولة العثمانية بجانبه وهددت آل ثاني فلم يقع الصدام. وكان يوسف آل إبراهيم ينافس الشيخ مبارك، ويستعين عليه بحكام قطر وحكام حائل، وقد سافر إلى حائل والتقى بأميرها محمد بن عبد الله آل رشيد، واتفق معه على حرب الشيخ مبارك ولكن الأمر لم يتم لأن ابن رشيد قد توفي عام ١٣١٥، وهو يستعد للسير إلى الكويت. وكردّ فعل لذلك فقد جهز الشيخ مبارك حملةً للتوجه إلى حائل واستنهض معه قبائل المنتفق العراقية، والظفير، وحصل على بعض الأرباح في هذه الحملة، ثم سار ثانيةً إلى الوجهة نفسها واستنهض معه قبائل مطير، والعجمان، ومُرّة، والعوازم، والمنتفق، وبعض بطون الظفير، وسار معه هذه المرة

عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ومعه ابنه عبد العزيز، وسار الجمع نحو حائل، والتقى الجمعان في (الصريف) قرب القصيم فدارت الدائرة على الشيخ مبارك ومن معه، وانتصر ابن رشيد.

وفي عام ١٣١٧ قبل الشيخ مبارك الحماية البريطانية، وألا يقيم علاقات مع أية دولةٍ دون موافقة بريطانيا، فقام ابن رشيد برد فعل فأغار عام ١٣١٩ على (الصبيحة) ونهب أطراف الكويت. وحاولت الدولة العثمانية مهاجمة الكويت ليكفّ الشيخ مبارك عن غاراته وكرد فعلٍ لانقلابه عليها غير أن إنكلترا وقفت بجانبه فعدّل العثمانيون خطتهم. وفي هذا الوقت استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يدخل الرياض، وأن ينتزع حكمها من ابن رشيد، وهذا ما أضعف إمارة حائل، فخفّ ضغطها عن الكويت.

اتفق الشيخ مبارك مع ابن سعود ضد إمارة حائل فهزماها عام ١٣٢١، ولكنهما هزما أمام الشيخ سعدون شيخ قبائل المنتفق وذلك عام ١٣٢٨، ثم جرى الصلح بين الشيخين مبارك وسعدون، غير أنه في هذه الأثناء قد هجر بعض تجار اللؤلؤ الكويت، واتجهوا إلى البحرين. وعينت إنكلترا مندوباً سياسياً لها في الكويت عام ١٣٢٢.

ورغم موقف الشيخ مبارك من الدولة العثمانية واتجاهه نحو إنكلترا إلا أنه دفع مبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية للعثمانيين دعماً منه لهم في حروبهم مع الطليان الذين نزلوا بليبيا، غير أنه بعد ذلك قد اتجه بكليته نحو إنكلترا، وابتعد عن الدولة العثمانية، ودعم كل من يقف في وجهها، وزار الحاكم الإنكليزي للهند الكويت عام ١٣٣٠. وحدثت نقمة على الشيخ مبارك من قبل رعاياه لعدائه الشديد للعثمانيين وخاصةً بعد أن احتلت إنكلترا البصرة في بداية الحرب العالمية الأولى، وتوفي الشيخ مبارك عام ١٣٣٤.

تولّى حكم الكويت جابر بن مبارك الذي لم يلبث في الحكم سوى عام واحد توفي بعده وخلفه أخوه سالم، وقد زار المنطقة (برسي كوكس) الإنكليزي وجرى التعاون مع ابن سعود والشيخ خزعل في منطقة الأهواز وذلك عام ١٣٣٥.

حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ضمّ قبائل (العوازم) إليه، وجمع الزكاة منهم، فاشتكى الشيخ سالم إلى (هملتن) المعتمد البريطاني في الكويت الذي سافر إلى الرياض، وانتهت المشكلة لمصلحة الكويت.

وزار (بل) الكويت عام ١٣٣٦، وطلب من الشيخ سالم أن يكون لإنكلترا موظفون في الكويت لمراقبة البضائع فرفض، ولكنه عاد فوافق بعد تدخل المعتمد البريطاني (برسي كوكس)، وكان الشيخ سالم قد أظهر مساندة العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى مما دفع البريطانيين لمحاصرة الكويت.

عاد الخلاف بين السعوديين والشيخ سالم، وجرت بين الطرفين معركة (حمض) التي انتصر فيها السعوديون، وبنى الشيخ سالم سوراً على مدينته عام ١٣٢٨، ثم وضعت الحدود بين الكويت والسعودية برأي إنكلترا. والتقى عبد العزيز آل سعود مع (برسي كوكس) في ميناء (العقير)، هاجم السعوديون (الجهراء) إثر ذلك اللقاء، ولكن القائد السعودي فيصل بن الدويش لم يوفق، فعاد مرةً ثانيةً وأغار على الكويت.

توفي الشيخ سالم عام ١٣٣٩ وخلفه ابن أخيه أحمد الجابر الذي أمد ابن رشيد عام ١٣٤٠ بالمال والأرز عندما نفدت مؤنه من جراء حصار ابن سعود له، وهذا ما دعا ابن سعود إلى أن يهاجم أطراف الكويت عام ١٣٤٢، وتوفي أحمد الجابر عام ١٣٧٠، وخلفه ابن عمه عبد الله السالم، وفي عهده استقلت الكويت عام ١٣٨١، وتوفي عام ١٣٨٥ فتولّى الأمر مكانه أخوه صباح السالم حتى توفي عام ١٣٩٨ فقام محلّه ابن عمه جابر الأحمد الجابر.

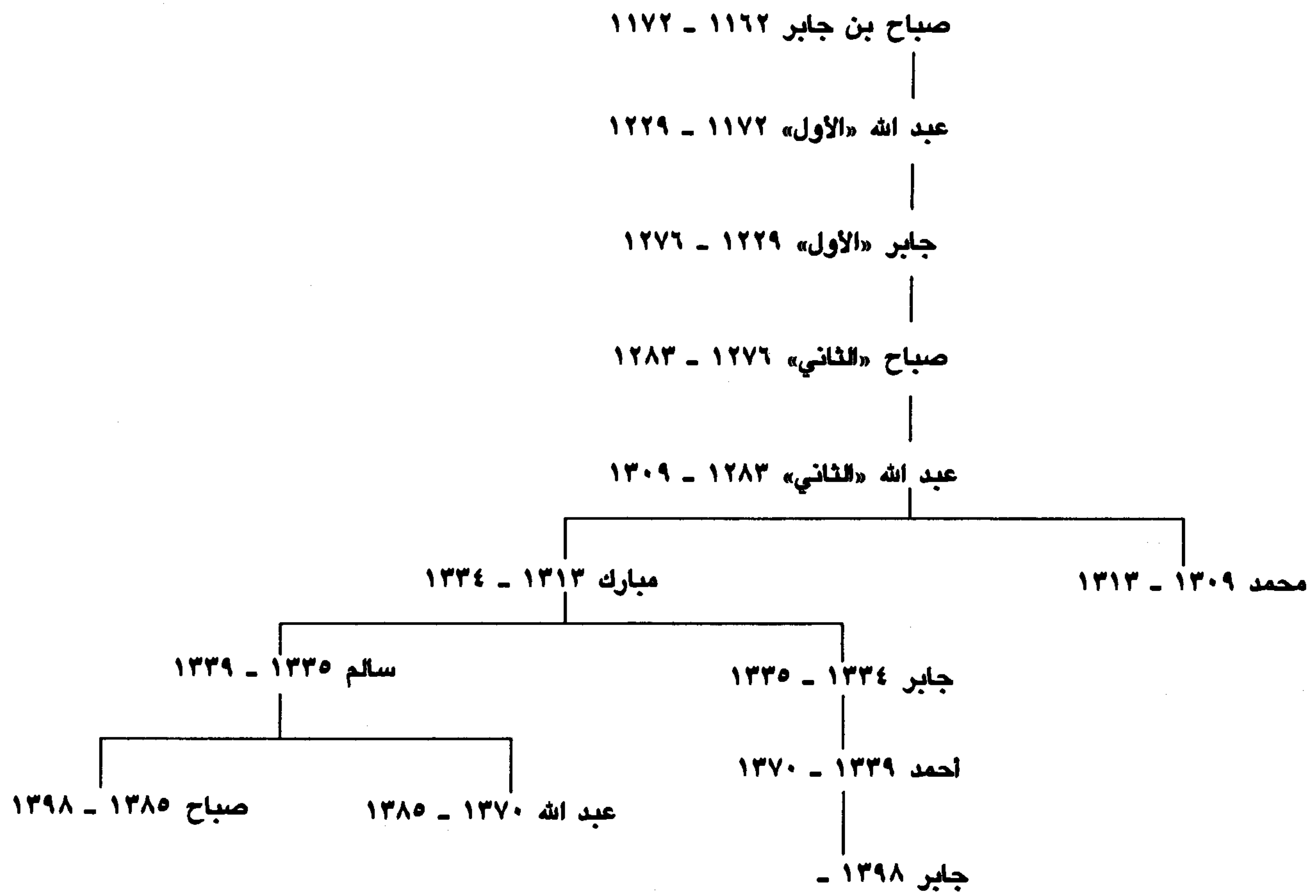
صباح بن جابر ١١٦٢ ـ ١١٧٢
عبد الله «الأول» ١١٧٢ ـ ١٢٢٩
جابر «الأول» ١٢٢٩ ـ ١٢٧٦
صباح «الثاني» ١٢٧٦ ـ ١٢٨٣
عبد الله «الثاني» ١٢٨٣ ـ ١٣٠٩
محمد ١٣٠٩ ـ ١٣١٣
مبارك ١٣١٣ ـ ١٣٣٤
جابر ١٣٣٤ ـ ١٣٣٥
سالم ١٣٣٥ ـ ١٣٣٩
أحمد ١٣٣٩ ـ ١٣٧٠
جابر ١٣٩٨ ـ
عبد الله ١٣٧٠ ـ ١٣٨٥
صباح ١٣٨٥ ـ ١٣٩٨

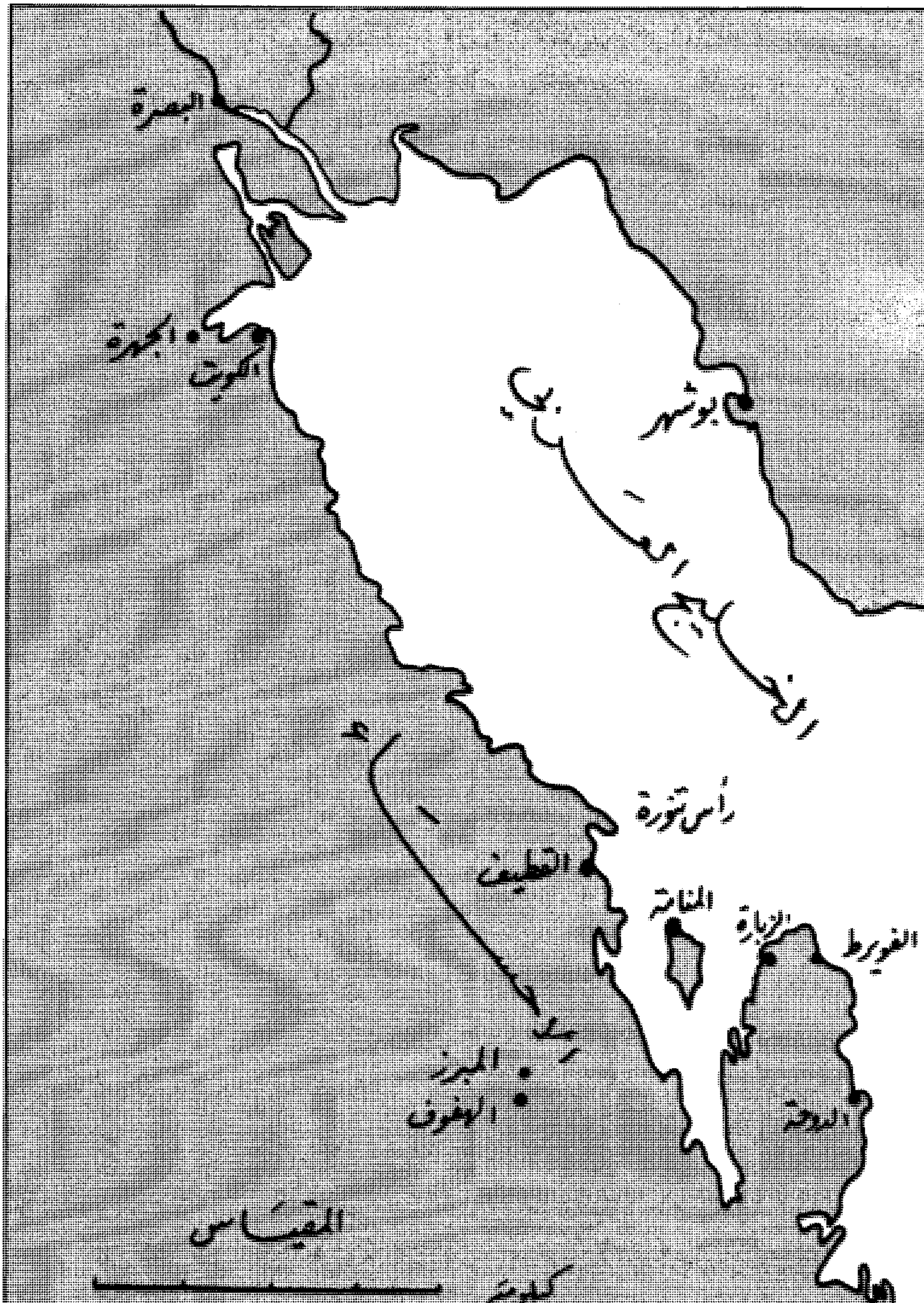
البصرة
الجهرة
الكويت
بوشهر
رأس تنورة
القطيف
المنامة
الزبارة
الفويرط
الدوحة
المبرز
الهفوف
المقياس
كيلومتر
٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠

مصور رقم [٢٢]

الفصل السابع

اليمن

في مطلع القرن العاشر خضعت اليمن كلها للدولة الطاهرية التي كان سلطانها عامر بن عبد الوهاب الذي كان حكمه من ٨٩٤ إلى ٩٢٣. أما شمالي اليمن فكان تحت سلطان الأئمة الزيود منذ السنوات الأخيرة من القرن الثالث حتى هذه المرحلة، وكان يمتد ويتسع أحياناً حتى يشمل أجزاء واسعةً من اليمن، وأحياناً أخرى يضعف وينكمش حتى لا يتجاوز منطقة صعدة وقد يزول نهائياً. وكان في هذه المرحلة الإمام المتوكل يحيى شرف الدين الذي قام ٩١٢، واستمر حتى ٩٦٥.

المماليك الجراكسة:

وجاء البرتغاليون إلى المنطقة، وبدؤوا يعيثون الفساد على سواحل البحر الأحمر، وتطغى عليهم الروح الصليبية، وقد تمكّنوا من احتلال جزر قمران وقتل عاملها، وهذا ما أثار سلطان المماليك في مصر قانصوه الغوري (٩٠٤ ـ ٩٢٢) فأرسل عدة كتائب من الجند الذي أطلق عليهم مؤرخو اليمن اسم «الغز» وذلك لمطاردة البرتغاليين، وكان حسين الكردي أحد قادة تلك الكتائب الذين اهتموا بقتال البرتغاليين.

وسار حسين الكردي على رأس حملةٍ بحرية لدعم المسلمين في الهند ضد البرتغاليين من الصليبيين، ولكنه هزم في معركة ديو المشهورة عام ٩١٥ مع حلفائه بعض حكام الولايات الهندية. وبعد هذا الفشل لم يرغب

حسين الكردي بالعودة إلى مصر، وإنما سار إلى جُدّة، وبدأ يعمل على تحصينها.

وسار القائد البرتغالي (البوكرك) إلى عدن، ولكنه فشل في اقتحامها عام ٩١٩، وهذا ما شجع سلطان المماليك إلى إرسال حملةٍ جديدة إلى جنوب البحر الأحمر، بعد أن أصابه الخوف الشديد بسبب هزيمة ديو البحرية. فجهّز قوة بإمرة الريس سليمان، وانطلقت إلى جُدّة، فانضمّ إليها حسين الكردي، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى الجنوب فاستولت على مدينة زيلع في الصومال، ثم استقرت في جزر قمران بعد أن جلا عنها البرتغاليون عام ٩٢١.

بدأ حسين الكردي يتوغل في داخل اليمن حيث أن الإمام المتوكل يحيى شريف الدين قد طلب الولوج إلى الداخل، واستصرخه لقتال عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي تغلّب على الإمام، وسيطر على اليمن كلها، وقد وعده بالدعم والمساعدة. وكانت قد جاءت سفن محملة بالمؤن إلى الجنود المصريين في جزر قمران فاحتجزها عامل عامر بن عبد الوهاب على الحديدة، وهو محمد بن نوح، ورفض إطلاقها إلى الجند الجياع، فغضب لذلك حسين الكردي، كما كان قد طلب من السلطان عامر مساعدته لقتال البرتغاليين وإخراجهم من أطراف الجزيرة العربية فلم يستمع إلى ذلك وهذا ما أثار الكردي أيضاً فاتجه لمحاربة الطاهريين، وتوغّل في داخل اليمن فالتقى مع الجيش الطاهري خارج مدينة زبيد فجرت بين الطرفين معركة «الرحب» التي فرّ فيها قائدا السلطان وهما: أخوه عبد الملك وابن أخيه عبد الوهاب بن عامر، ودخل إثرها حسين الكردي زبيد عام ٩٢٢. ولكن الكردي لم يستطع دخول مدينة عدن لمقاومة مرجان عامل السلطان عامر عليها وذلك عام ٩٢٢.

وسار السلطان عامر بنفسه على رأس جيش، والتقى مع قوات المماليك، ولكن هُزم أمامهم فانسحب إلى (تعز) فلاحقته القوات المملوكية فانتقل إلى المقرانة حيث حمل ما عنده إلى صنعاء، وبقيت المطاردة تتابعه

من مكان إلى آخر فتصدّى لها قرب صنعاء، فجرت معركة «الصافية» بين الطرفين على أبواب صنعاء قُتل فيها أخوه عبد الملك، ونجا هو بنفسه، فسار يريد الاعتصام ببعض حصونه فوقع أسيراً بيد أحد الأهالي فسلّمه إلى الأعداء فقتل في ٢٣ ربيع الأول عام ٩٢٣، وسيطر المماليك على اليمن كلها لما يتفوّقون به من أسلحة نارية يملكونها ولم يعرفها بعد أهل اليمن. ورجع حسين الكردي والريس سليمان إلى جدة، وتُركت قواتهم في اليمن تحت إمرة (برسباي) و(الإسكندر بن محمد الجركسي) و(رمضان الجركسي). أما الدولة الطاهرية فقد احتفظت لها ببعض المواقع في الجنوب.

وعندما سقطت دولة المماليك في مصر بيد العثمانيين عام ٩٢٣. انسحب القائد الإسكندر بن محمد بقواته إلى زبيد رغم ما لقيه من مشقة وجهد بسبب الحرب التي شنتها عليه رجال القبائل، والقوات الطاهرية التي بقيت متمركزةً في الجنوب حتى مجيء العثمانيين إلى اليمن عام ٩٤٥.

العثمانيون:

عاد الخليفة العثماني بعد حروبه في أوربا ليتمم المهمة الملقاة على عاتقه والتي من أجلها اتجه والده نحو الشرق، وهي المحافظة على ديار الإسلام وقتال البرتغاليين الذين وصلوا إليها من الجنوب، وخاصةً أن المسلمين في الهند قد استنجدوا به فأمر عامله على مصر سليمان باشا الأرناؤوطي أن يُجهّز حملةً وأن يسير لحرب البرتغاليين ونجدة مسلمي الهند.

انطلقت الحملة عام ٩٤٥، ونزلت باليمن عام ٩٤٥، وطلب حاكم عدن السلطان عامر بن داوود آخر ملوك الطاهريين مساعدته ضد الإمام يحيى شرف الدين الذي تغلّب عليه وسيطر على أكثر أجزاء اليمن فردّ عليه بالموافقة ودعاه لزيارته في السفينة العثمانية، فوافق بعد تردّدٍ وسار إليه، إلا أنه قبض عليه، وأعدمه، واحتل عدن، وتابع مسيره إلى الهند حيث دعم المسلمين هناك.

رجع سليمان باشا من الهند عام ٩٥٤ ونزل بأرض اليمن، وزحف بقواته نحو صنعاء، فاصطدم مع قوات الإمام يحيى شرف الدين، فأحرز النصر، وتمكن من دخول صنعاء، ولكن المطهر ولد الإمام يحيى شرف الدين قد أجبر العثمانيين على الجلاء عن أكثر أرض اليمن بعد هزيمتهم عام ٩٧٥، وبعد الانتصارات المتكررة التي أحرزها عليهم، ودانت أكثر أرض اليمن للمطهر باستثناء زبيد، وكان الإمام يحيى شرف الدين قد توفي عام ٩٦٥ بعد أن كفّ بصره.

عاد العثمانيون بحملةٍ جديدةٍ بقيادة سنان باشا الذي تمكّن من دخول صنعاء عام ٩٧٧، ودحر قوات المطهر إلى الجهة الشمالية، وتحصّن المطهر في (ثلا) يستعد لاستئناف القتال، وقبض سنان باشا على بعض علماء الزيدية وزعمائهم ونفاهم إلى إستانبول، وتوفي المطهر عام ٩٨٠، وقوي مركز العثمانيين، وبسطوا نفوذهم على اليمن، وانحصرت زعامة الأئمة في بعض المواقع من الجهة الشمالية. وقام بعد المطهر الإمام الحسن بن علي بن داوود، واستمر يقاتل العثمانيين مدة سبع سنوات، ثم قبض عليه، ونفي إلى إستانبول حيث مات فيها.

قام الإمام المنصور القاسم بن محمد بن علي عام ١٠٠٦، وبدأ يحشد القبائل لمحاربة العثمانيين، وبدأت المعارك بين الطرفين عام ١٠٢٢ حيث انتصرت قوات الإمام، وانسحب العثمانيون إلى صنعاء، واضطر قائدهم جعفر باشا إلى عقد صلح مع الإمام القاسم استمر عاماً واحداً، ثم تجدّد القتال واستطاع القاسم أن يسيطر على شمالي اليمن، وتوفي عام ١٠٢٩، وخلفه ابنه المؤيد الذي استطاع أن يصل إلى أبواب صنعاء عام ١٠٤٥، ثم دخلها بعد حصار، وبعد معركة (الصافية) التي جرت بين الفريقين عندما أمر القائد العثماني بفتح أبواب المدينة، وبدأ العثمانيون بالتراجع والانسحاب، وكان هذا الانسحاب الثاني لهم، ودخل المؤيد زبيد، وجزر قمران، جزر فرسان.

استمرت أسرة القاسم بن محمد بن علي تحكم اليمن، وتسيطر على

أجزائها حتى عام ١٢٦٩، وبدأ نفوذهم ينتشر في جنوبي اليمن وتهامة منذ أوائل القرن الحادي عشر، ووصل إلى حضرموت في النصف الثاني في هذا القرن في أيام المتوكل (١٠٥٤ ـ ١٠٨٧)، ولكن بعد مدة بدأت المنازعات تقوم بين أسرة آل القاسم، وهذا ما أضعف أمرها فقامت الثورات ضدها، وانفصلت عدن عنها عام ١١٤٥ عندما قام السكان بثورة ضد عامل الإمام المنصور الحسين بن القاسم (١١٣٩ ـ ١١٦١). كما أن الإنكليز كانوا قد احتلوا عدن أيام الناصر عبد الله بن الحسن (١٢٥٢ ـ ١٢٥٤).

وفي عام ١٢٦٥ أمر الخليفة العثماني عبد المجيد عامله على جُدّة توفيق باشا بالتوجه إلى اليمن ومعه شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، وسارت الحملة من جدة إلى الحديدة حيث نزلت بها، وانطلقت منها إلى صنعاء فدخلتها دون مقاومة وذلك لأن الإمام المتوكل محمد بن يحيى بن المنصور قد اتفق مع القائد العثماني، وسار معه إلى صنعاء، غير أن السكان لم يلبثوا أن ثاروا على إمامهم المتوكل، وقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وولوا مكانه غيره عام ١٢٦٥، وأجبروا العثمانيين على الانسحاب إلى تهامة، وبدأت الخلافات تظهر بين الأئمة في صنعاء وفي صعدة وكلٌ يدّعى أحقيته بالإمامة، واستمرت الخلافات ما يقرب من ربع قرن (١٢٦٥ ـ ١٢٨٩)، وانتهز العثمانيون الذين كانوا في عسير، والذين تمكنوا من القضاء على آل عائض، وقتل أميرهم محمد بن عائض، والقبض على عددٍ منهم، وحملهم إلى إستانبول، انتهز العثمانيون فرصة الخلافات بين الأئمة فسار والي عسير أحمد مختار باشا عن طريق الساحل، ووصل إلى صنعاء، ولكنه لم يتمكّن من بسط نفوذه على الجهات الشمالية التي بقيت تحت حكم المتوكل الحسن بن أحمد (١٢٧١ ـ ١٢٩٥) حتى توفي عام ١٢٩٥، وخلفه الهادي شرف الدين بن محمد.

وفي عام ١٢٩٠ عيّن العثمانيون مصطفى باشا خلفاً لأحمد مختار باشا فاستعمل العنف والقسوة مع السكان، وقبض على عدد من العلماء، وأودعهم سجن الحديدة، وتوفي الهادي شرف الدين بن محمد عام ١٣٠٧

فبويع الإمام محمد بن يحيى حميد الدين، وكان قد فرّ من سجن الحديدة، وهو من أسرة القاسم بن محمد بن علي، وبذا تكون الزعامة أو الإمامة قد عادت إلى هذه الأسرة بعد أن زالت عنها عام ١٢٦٩ عندما أخذها المنصور محمد بن عبد الله الوزير الذي استمرت إمامته (١٢٦٩ ـ ١٣٠٧) مع منازعة آخرين له.

بدأ الإمام محمد بن يحيى حميد الدين بمحاربة العثمانيين فاصطدم مع الوالي أحمد فيضي باشا عام ١٣٠٩، ثم بالولاة الذين جاؤوا بعده: حسين حلمي باشا، وعبد الله باشا، واضطر العثمانيون إلى إعادة أحمد فيضي باشا ثانيةً إلى اليمن، وجاء بقواتٍ كبيرةٍ معه فاستطاع دخول صنعاء، وغادرها المنصور محمد بن يحيى حميد الدين إلى حاشد، ولم يفلح أحمد فيضي باشا بالسيطرة على شمالي اليمن، وتوفي المنصور عام ١٣٢٢، وبويع بعده ابنه يحيى ولقب بالمتوكل، وتمكّن من دخول صنعاء عام ١٣٢٣، وانسحب القائد العثماني إلى زبيد، فأرسل العثمانيون مرة ثالثةً أحمد فيضي باشا فنزل في الحديدة، واحتلها، وتقدّم منها إلى صنعاء واستطاع احتلالها، وانطلق منها إلى (شهارة) التي اعتصم بها الإمام يحيى، ولكن رجال القبائل قد طوقت القائد العثماني أحمد فيضي باشا فانسحب بجيشه.

أرسلت حكومة الاتحاديين إثر هزيمة أحمد فيضي باشا مندوبها أحمد عزت باشا الألباني لعقد صلح مع الإمام يحيى، والتقيا بـ (دعان)، وانتهى اللقاء باتفاقية تتضمن قيام الإمام بالإشراف على شؤون القضاء والأوقاف، وتعيين المرشدين، وتشكيل هيئة شرعية في البلاد، وأن تكون الجباية على الطريقة الشرعية.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وحافظ الإمام يحيى على اتفاقه مع الدولة العثمانية فوقف بجانبها، وقد أرسلت الكثير من الأسلحة والذخائر والمؤن إلى اليمن، وأبلغت واليها في صنعاء محمود نديم بالسير لاحتلال عدن وأخذها من الإنكليز، غير أن إنكلترا قد سبقت فاحتلت ميناء الحديدة، وضربت الموانئ اليمنية: المخا، واللحية، والصليف، ومولت

الإدريسي، وأشارت عليه باحتلال تلك الموانئ فسار إليها وتسلمها، وقامت حركة في الحديدة ضد الإنكليز فسلموها، للإدريسي أيضاً.

وكان الإنكليز قد احتلوا عدن منذ عام ١٢٥٣ ـ كما ذكرنا ـ واستغلّوا القتال الدائر بين الأئمة والعثمانيين فوسّعوا نفوذهم وخاصة نحو الشرق، وما جاءت الحرب العالمية الأولى إلا وعدن، والمقاطعات الغربية التي تشمل أجزاء جنوبي اليمن، والمقاطعات الشرقية وتشمل حضرموت والمهرة كلها تحت النفوذ الإنكليزي.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وانهزم العثمانيون وحلفاؤهم الألمان، ووقعت المعاهدة، وانسحب الوالي العثماني في صنعاء محمود نديم مع القوات العثمانية المرابطة في اليمن عن طريق عدن. وتسلّم الإمام يحيى الحكم كاملاً منذ ذلك الوقت ١٣٣٧، إلا أن اليمن قد أصبحت قسمين: الأول تحت حكم الإمام يحيى حميد الدين، وهو القسم الذي كان تحت السيادة العثمانية، والثاني وهو الذي بقي تحت سيطرة الإنكليز.

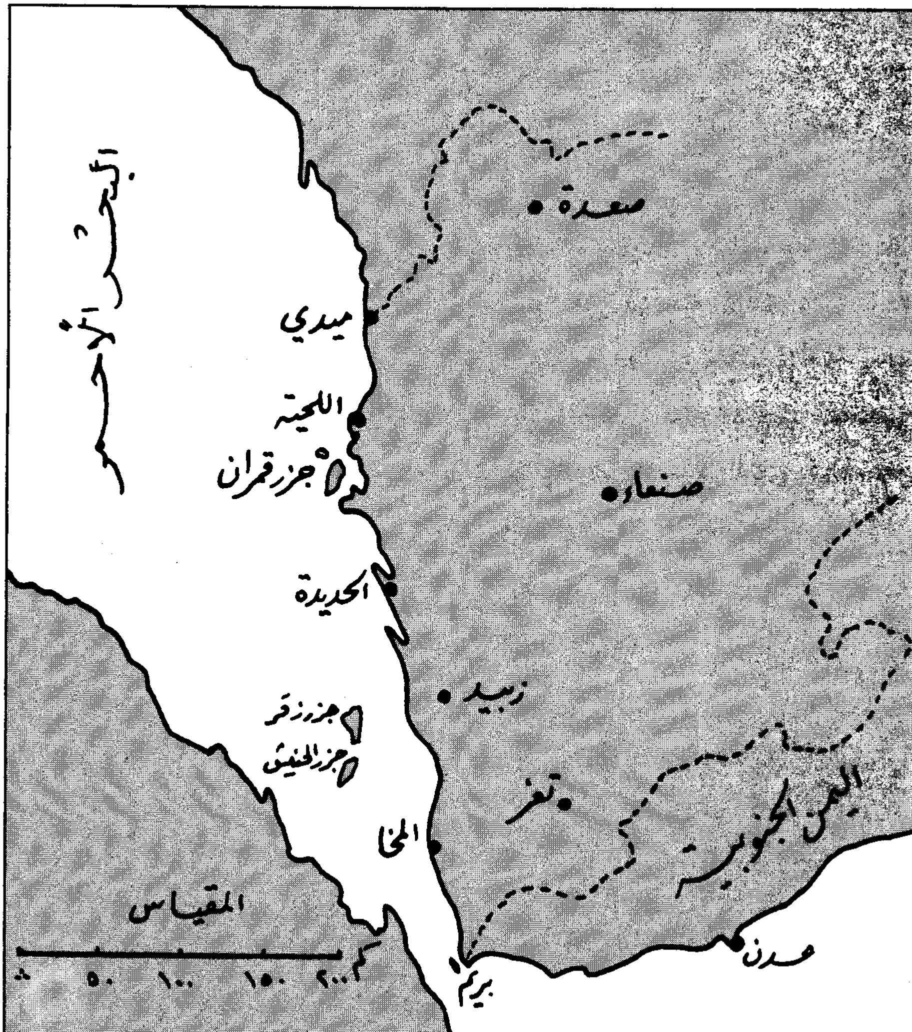
البحر الأحمر
صعدة
ميدي
اللحية
جزر قمران
صنعاء
الحديدة
زبيد
جزر زقر
جزر الحنيش
تعز
المخا
اليمن الجنوبية
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كم
بريم
عدن

مصور رقم [٢٣]

الفصل الثامن

عُمان

تبدأ هذه المرحلة في عُمان بالغزو البرتغالي. وقد كانت البلاد من قبل تُحكم من قِبَل الأسرة النبهانية التي بدأت بالحكم منذ عام ٥٤٩، وتعرّضت لهجمات الفرس وبسط نفوذهم عليها عام ٦٦٤، كما امتد النفوذ اليمني إليها عام ٦٧٧. ثم غزاها حاكم البحرين أجود بن زامل الجبري، وقضى على حكم الأسرة النبهانية عام ٨٢٩، وولّى عليها عمر بن الخطاب الأباضي، واستمر حكم الأباضية حتى جاء البرتغاليون عام ٩١٣، وكان يحكمها يومذاك محمد بن إسماعيل الخروصي الذي دام حكمه من ٩٠٦ - ٩٤٢، وليس الأباضيون بأسرة، وإنما فرقة من الخوارج، ويختارون إمامهم باجتماع سري، لذا فالحكام قد تباينوا على المنطقة.

كانت عمان مدناً على شكل إمارات تشتهر الساحلية منها مثل: قلهات، ومسقط، وصحار، ومطرح... وتدفع كلها أتاوةً لحاكم جزيرة هرمز، ولم يكن لحاكم عُمان عليها سوى الاسم.

وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند عام ٩٠٤، وزار البوكرك الهند أول مرةٍ عام ٩٠٩، ووضع خطة الاستيلاء على منافذ البحر الأحمر والخليج العربي لاستمرار السيطرة البرتغالية وتأمين التجارة، وعندما رجع إلى البرتغال وعاد إلى الهند حمل معه أمراً، هو: تعيينه نائباً للملك في الهند وذلك عام ٩١٢.

هاجم البوكرك سوقطرى، واستولى عليها عام ٩١٣، وانطلق إلى عدن

ولكنه فشل في دخولها، فاتجه إلى ساحل عُمان فمرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحدّ، وصور، وقد أرهب السكان بأعماله الوحشية وأفعاله التي يندى لها الجبين، ووصل إلى قلهات، وطلب من حاكمها التسليم فوافق خوفاً على مدينته من التدمير، وإلحاق الشرّ بالسكان، وعقد معه صلحاً ومع ذلك فلم تسلم المدينة من الخراب، وانتقل إلى قرياط، ووجد عند أهلها فكرة المقاومة، فلم يُرسل لهم وفداً كما فعل في قلهات، وإنما بدأ بالقصف، فقاوم الأهالي، ثم استسلموا فجدع الأنوف، وقطع الآذان، وارتكب أسوأ أنواع الاعتداءات والمنكرات، وسار بعدها إلى مسقط، وكان أهلها قد حصنوها، فأرسل لهم وفداً للمفاوضة، فأبدوا استعدادهم للسلم على ألاّ تصاب مدينتهم بأذى، وجاءت نجدة إلى المدينة من هرمز، فظهر على حاكم مسقط أنه يتكلم من مركز القوة، ومع ذلك فقد قبل كل شيء من البرتغاليين لكنه أبى الخضوع لملك البرتغال، ولذا فقد بدأ الهجوم البرتغالي، واستمر كعادته حتى كانت له الغلبة، وفعل المهاجمون بأهل مسقط ما تشمئزّ منه الإنسانية، ثم انتقل إلى صحار فوافق أهلها على الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، ومع أنها لم تسلم من شرّ المتوحشين إلا أن طريقة معاملتهم كانت أقل سوءاً وبشاعةً واتجه بعدها إلى خورفكان فلم تستسلم، وقاوم أهلها مقاومةً عنيفةً، وانتقلوا إلى القلعة يُدافعون عن أنفسهم بعد أن أخلوا المدينة التي نُهبت ودُمّرت، ثم سار إلى هرمز وكان ملكها سيف الدين صغيراً فرفض الوصي عليه خوجة العطار الاستسلام فصبّ البرتغاليون جام غضبهم على المدينة، وتمكّنوا من إحراز النصر بسبب تفوّق الأسلحة فنال المدينة ما نال غيرها، وثار عليه قواده في هرمز فاضطر إلى العودة إلى جزيرة سوقطرى.

ورجع البوكرك عام ٩١٤ من سوقطرى إلى قلهات للانتقام منها لأنها قدّمت مساعداتٍ إلى هرمز أثناء حصارها، فنهب المدينة، وأراد الغدر بحاكمها شريف الدين الذي دعاه لزيارته في السفينة البرتغالية فاعتذر له بلباقةٍ أنجته مما خطط له المجرم البوكرك، ثم سار إلى هرمز، وألقى

الحصار عليها ولكن جاءته الأوامر بالقدوم من نائب ملك البرتغال المقيم في الهند، فترك الحصار، واتجه إلى الهند حيث تسلّم هناك نائباً للملك عام ٩١٥.

وفي عام ٩١٥ قُضي على قوة المماليك البحرية بعد معركة (ديو) فخلا الجو للبرتغاليين، وعاد البرتغاليون إلى عدن عام ٩١٩، ولكنهم فشلوا في دخولها نتيجة مقاومة عاملها مرجان العامري، فاتجهوا إلى المخا، والحديدة فوجدوا مقاومةً عنيفةً من قبل السكان فتركوهما، واستقروا في جزيرة قمران، ورجعوا إلى عدن ثانيةً فعجزوا عن اقتحامها للمرة الثالثة، فاتجهوا نحو زيلع وبربرة فدخلوهما، وارتكبوا أبشع الجرائم، ورحلوا بعدها إلى الهند.

ورجع البوكرك إلى الخليج عام ٩٢١ فمرّ على رأس الحدّ، وقرياط، ومسقط، وهرمز فحاصر الأخيرة، وقتل حاكمها فاستسلمت فوضع ابن أخيه حاكماً على قلعة هرمز ونائباً عنه في المنطقة ورجع إلى الهند، فمات في الطريق عام ٩٢٢، أما ابن أخيه فقد سار إلى البحرين واحتلّ مدنها.

هذه الأعمال الوحشية التي قام بها البرتغاليون والروح الصليبية الحاقدة التي كانت تدفعهم لارتكاب أعمالهم، والقرصنة التي لجؤوا إليها في الخليج، وبحر العرب، والمحيط الهندي قد أثارت مشاعر السكان، فكانوا يتحيّنون الفرصة للثورة على هؤلاء الغزاة، فقد ثار بنوظبية بزعامة الشيخ حسين بن سعيد على الوكيل التجاري البرتغالي في البحرين عام ٩٢٧، وبعد عام انتفض أهل الخليج جميعاً من قلهات حتى البحرين، وكانت الحركة بقِيادة شيخ هرمز شاه بندر الذي يخضع للبرتغاليين، وذلك نتيجة أعمال القرصنة التي يقوم بها البرتغاليون، وقد أمر شاه بندر بإحراق المراكب البرتغالية، وقتل الحامية، وعمّت هذه الحركة المراكز كلها عدا مسقط التي كان حاكمها الشيخ راشد على خلاف مع حاكم هرمز. وجاءت نجدة إلى البرتغاليين من الهند، فعزّزت القوات البرتغالية بالمنطقة بالتخطيط مع حاكم مسقط، ثم جاءت نجدة ثانية عام ٩٢٩، واضطر حاكم مسقط راشد أن يهرب من مدينته، وأن يترك الأمر للوالي دلامير شاه، وقد تمكّن

القائد البرتغالي من إخضاع مسقط، ثم توجّه إلى صحار فدمّرها، ومنها انتقل إلى هرمز، ولم يستطع البرتغاليون حمل أسراهم ولا إطعامهم فأمر القائد البرتغالي بجدع الأنوف، وقطع الآذان و.... ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد تشويههم و....

وقامت انتفاضة أخرى عام ٩٣٢، وجاءت نجدة من الهند للبرتغاليين فأخضعت قلهات، ثم مسقط ثم هرمز. وقامت أخرى بعد عام، وتبعتها انتفاضة في البحرين أيضاً عام ٩٣٥، لكن البرتغاليين كانوا يردّون بمنتهى القسوة بل الوحشية، وقد دمّروا صحار عام ٩٥٣، وأقاموا قلعةً جديدةً فيها عام ٩٥٥.

وأما موقف الدول المسلمة المجاورة فلم تكن هناك سوى دولتين إحداهما الدولة الصفوية القريبة من مسرح الأحداث، والدولة العثمانية التي امتد نفوذها في هذه الآونة إلى جزيرة العرب، ثم إلى العراق، أما الأولى وهي الدولة الصفوية فقد حرص إسماعيل الصفوي على عقد حلفٍ مع البرتغاليين ضد العثمانيين الذين انتصروا عليه في معركة جالديران عام ٩٢٠ غير أن موت البوكرك قد حال دون إتمام هذا الحلف. وأما الدولة العثمانية فقد قدّمت جهدها، وإن كان قليلاً لبعد الشقة، ولتكالب أوربا الصليبية على العثمانيين، وقد أرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً بقيادة بيري محيي الدين ريس فاستردت عدن عام ٩٥٨، ثم سارت إلى الشحر، وأخيراً رست سفنها في مسقط، وألقت الحصار عليها، وألزمت القائد البرتغالي على الاستسلام، ثم سارت إلى هرمز، ولم تستطع دخولها، فانطلقت إلى جزيرة قشم فاحتلتها، ومنها انطلقت إلى البصرة، ثم رجعت إلى البحرين عندما علمت بمجيء نجدةٍ من الهند إلى البرتغاليين، ثم عادت إلى السويس حيث استدعي قائدها بيري محيي الدين ريس إلى إستانبول وأعدم لفشل حملته إذ ظهر أنه كان سبباً في ذلك الفشل حيث بدأ يعمل في التجارة، أو كان اهتمامه بشؤون الحملة ضعيفاً. وجاءت حملة من السويس لإنقاذ مسقط فاستطاعت دخولها عام ٩٥٩، ثم غادرتها.

رجع البرتغاليون إلى الخليج عام ٩٦٠ فأرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً أيضاً من البصرة بإمرة مراد بك فالتقى بالأسطول البرتغالي عند رأس مسندم فهُزم مراد بك، وقُتل عدد من قادته، واضطر إلى العودة إلى البصرة.

وعاد السلطان العثماني سليمان القانوني فأرسل حملةً من البصرة أيضاً بإمرة سيد علي ريس حسين عام ٩٦٢، فتقابل مع الأسطول البرتغالي عند خليج (ليمة) قرب رأس مسندم فانتصر المسلمون رغم أن الأسطول البرتغالي كان ثلاثة أضعاف الأسطول العثماني في عدد سفنه، وتتبع قائد الحملة المسلمة الأعداء، ودارت هناك معركة ثانية قرب مسقط انتصر فيها المسلمون أيضاً غير أن عاصفة بحريةً قد هبّت على الأسطول العثماني قذفت به إلى ساحل مكران فتزوّد من هناك، وعاد باتجاه الغرب، ولما وصل إلى ساحل ظفار جاءت عاصفة شديدة أخرى قذفت به إلى ساحل كوجرات في الهند، فأطلق قائد الأسطول سراح جنده وعاد براً إلى إستانبول.

وفي عام ٩٨٨ أرسل والي اليمن سنان باشا أيام الخليفة مراد الثالث حملةً بحريةً انطلقت من اليمن بقيادة الريس أمير علي بك، فحاصر مسقط، وجاءت للبرتغاليين فيها نجدة من هرمز، ومع ذلك فقد انتصر القائد العثماني نصراً مؤزراً ودخل مسقط، ثم سار فهاجم المراكز البرتغالية في شرقي إفريقية مثل ممباسا، ومالندي، فأسره البرتغاليون هناك حيث أرسل إلى لشبونة عام ٩٩٨، ومات بالتعذيب.

بدأ النفوذ البرتغالي يضعف في منطقة الشرق ومنها عُمان، إذ احتلت إسبانيا البرتغال عام ٩٨٨، ومنع الإسبان البرتغاليين من التجارة مع هولندا التي انفصلت عن إسبانيا آنذاك، فبدأت هولندا تزاحم إسبانيا التي آلت إليها أملاك البرتغاليين وتقوّي الإنكليز وحلفاءهم الفرس ضد الإسبان أو البرتغاليين. وقد تفاهم الشاه عباس الأول الصفوي مع الإنكليز عام ٩٩٦، وتأسست شركة الهند الشرقية الهولندية في أمستردام عام ١٠٠٣، وأعقبتها

شركة الهند الشرقية الإنكليزية عام ١٠٠٨، وبدأت التجارة مع الشاه الصفوي عباس عام ١٠٢٤، غير أن البرتغاليين قد هاجموا صحار فتحوّلت إلى رماد وذلك عام ١٠٢٥ بمساعدة عمر بن حميد زعيم إحدى القبائل.

وعاد الفرس إلى صحار عام ١٠٣٣، ثم أخرجهم البرتغاليون منها، واستولى الفرس على هرمز من البرتغاليين بمساعدة الإنكليز عام ١٠٤٠، وأخيراً قوي أمر أهل عُمان بعد حكم اليعاربة، وفتحت مسقط عام ١٠٥٨، وبقي فيها ثمانية عشر نصرانياً أعلنوا إسلامهم بعد عام، ومنذ عام ١٠٦١ بدأ العمانيون يُغيرون على زنجبار ومستوطنات البرتغاليين في شرقي إفريقية.

اليعاربة:

في هذه الأثناء برزت أسرة اليعاربة التي تعود إلى أصل قحطاني كالأزد، وإن كان قدوم أصولها إلى عُمان سابق لمجيء الأزد، وكان ظهور هذه الأسرة جديداً على يد ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي الذي استطاع أن يطرد البرتغاليين من كل أنحاء عُمان باستثناء بعض المناطق المحصّنة مثل مسقط، ومطرح، وصحار.

وتوفي ناصر بن مرشد عام ١٠٥٠، وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، وهو الذي استطاع أن يُنقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما أخذ قائده سعيد بن خليفة قلعة الميزاني المشهورة في مسقط. وتوفي سلطان حوالي عام ١٠٩٠، وقام بالأمر من بعده ابنه بلعرب لكن لم يلبث أن اختلف مع أخيه سيف، وبدأت المنازعات بينهما حتى توفي بلعرب عام ١١٠٤ فصفا لسيف الجو، وقد عُرف بقيد الأرض، واستطاع أن يُنقذ ممباسا من يد البرتغاليين عام ١١١٢، كما نقل مقر الحكم من نزوى التي بقيت حتى هذا العام ١١١٢ قاعدة للسلطان إلى مسقط. وتوفي عام ١١٢٣، وخلفه ابنه سلطان الذي عُرف باسم سلطان الثاني، وتمكّن أن يستولي على البحرين من أيدي الفرس، وتوفي عام ١١٣١، وقام مكانه ابنه سيف الثاني أيضاً، غير أن عدي بن سليمان الذهلي قد بايع

مهنا أخا سيف عام ١١٣٤، وبينما كان مهنا في واحة البريمي إذ بابن عمه يعرب بن بلعرب يستولي على السلطة ولكن لا يستمر أكثر من عام إذ يعود الأمر لسيف الثاني عام ١١٣٥، وبعد أن قضى عامين في السلطة يقوم محمد بن ناصر ويستولي على مسقط، ويحكم ثلاثة أعوام ثم يتوفى فيعود سيف للمرة الثالثة عام ١١٤٠، ويبقى يقاوم الفرس بعد أن استدعاهم لدعمه ضد تمردٍ عليه. إذ دخلوا مسقط ولم تسقط قلاعها بأيديهم، وأرسل القائد الفارسي جزءاً من جنده لحصار صحار، ولكنهم اضطروا لترك الحصار والتخلّي عن مسقط وذلك عام ١١٥٢. إلا أن نادر شاه عاد فأرسل حملة أخرى عام ١١٥٤، استطاعت أن تدخل المدن العمانية كلها عدا صحار. وربما هذا كان سبباً في ظهور أحمد بن سعيد وتأسيس الأسرة البوسعيدية التي حكمت بعد انتهاء حكم اليعاربة عام ١١٥٤.

البوسعيديون:

وتنتمي هذه الأسرة إلى أحمد بن سعيد الذي بدأ حياته بالتجارة، واستطاع بحنكته أن يصبح حاكماً لمدينة صحار، وقد دافع عنها عند حصار الفرس لها، وكان معه في الحصار سلطان بن مرشد ابن عم الإمام سيف بن سلطان، وكان سلطان هذا مرشحاً للإمامة غير أنه قُتل في المعركة التي جرت أثناء الحصار الثاني لصحار عام ١١٥٦، واضطر أحمد بن سعيد أن يتصالح مع الفرس على أن يدفع لهم أتاوةً سنويةً، وعندما رحلوا عنه رفض الدفع، وتمكّن من إجلاء الفرس عن البلاد، وأعلن نفسه إماماً.

استقل في ممباسا محمد بن عثمان المزروعي عندما انتقل الحكم من اليعاربة إلى البوسعيديين فأرسل إليه أحمد بن سعيد خمسةً من أنصاره أظهروا خلاف إمام عُمان فأكرمهم المزروعي، ثم غدروا به، واستلم حكم ممباسا أحدهم، وهو سيف بن خليفة، وهرب علي بن عثمان المزروعي أخو الحاكم السابق من السجن الذي أُودع به، والتجأ إلى سفينةٍ بريطانيةٍ كانت في ميناء (مالندي)، وقوّى نفسه، واستطاع أن يعود إلى ممباسا، وأن

يقتل سيف بن خليفة، وبذا استقلت ممباسا عن عُمان عام ١١٦٠.

وحارب أحمد بن سعيد الفرس، وانتصر عليهم عام ١١٦٩ فمنحه الخليفة العثماني مصطفى الثالث إعانة شكرٍ سنوية على هذا الانتصار.

وانتقلت الإمامة إلى ولده الثاني سعيد عام ١١٩١ لأن ولده الأكبر هلالاً كان كفيفاً، أما أحمد بن سعيد فقد توفي عام ١١٩٥. وفي عام ١١٩٣ بدّل سعيد لقب إمام إلى سيد، ولم تطل أيام سعيد حيث توفي عام ١١٩٤، وخلفه ابنه حمد، وقد نازعه أعمامه. إذ اتجه عمه سيف إلى شرقي إفريقية، وحاصر ممباسا عام ١١٩٥ فطلب حاكمها نجدةً من ابن أخي سيف فجاءته، فاضطر سيف إلى ترك الحصار، واتجه إلى مدينة (لامو) حيث توفي هناك تاركاً ولداً اسمه بدر، وحكم حمد بن سعيد زنجبار في عام ١١٩٩.

أما عمه الصغير سلطان فقد ألزمه ابن أخيه حمد على مغادرة بلاد عُمان عام ١١٩٩ فالتجأ إلى مكران فأعطاه ناصر خان الأول ميناء «جواذر» غرب كراتشي الآن، فاستطاع أن يُقوّي نفسه، وأن يغزو ساحل عُمان عام ١٢٠٧، وأن يُسيطر عليه بمساعدة الغافريين، ويُعلن نفسه سلطاناً. أما ابن أخيه حمد فقد بقي إماماً في نزوى، ولم يقبل النفوذ الإنكليزي، على حين دعم الإنكليز سلطان مسقط (سلطان بن أحمد)، وبذا انقسمت البلاد بين إمام في نزوى، وسلطان في مسقط، وفاوض سلطان الإنكليز عن طريق ميرزا مهدي علي خان الفارسي عام ١٢٠٧، وأبعد نتيجة ذلك الفرنسيين والهولنديين من أراضيه.

وعندما وصل نابليون بونابرت إلى مصر واحتلها عام ١٢١٣ كتب إلى سلطان تيبو سلطان ميسور في الهند رسالة يدعوه فيها إلى التفاهم لتخليصه من الاستعمار الإنكليزي إلا أن هذه الرسالة وقعت في يد صموئيل ويلسون بالمخا في اليمن فكتب بذلك إلى الحاكم الإنكليزي في بوشهر، فكتب إلى بدر بن سيف بن أحمد نائب سلطان بن أحمد الذي كان في حرب مع القواسمة، ويُساعده الفرنسيون في ذلك، ومع ذلك فقد قبل مقيماً بريطانياً في مسقط، ورفض وجود مقيم فرنسي.

وتوفي سلطان بن أحمد عام ١٢١٩، وخلفه ابنه سالم غير أن ابن عمه بدر بن سيف بن أحمد الذي كان وصياً على سالم قد تمكّن من عزله، واستلام الأمر دونه، ولم يكن بدر محبوباً، واستمر في السلطة حتى عام ١٢٢٢ حتى استطاع ابن عمه سعيد انتزاع الأمر منه، ونفيه إلى لامو حيث توفي هناك، وقد شارك سالم أخاه سعيداً في السلطة ولكنه توفي بالفالج عام ١٢٣٦، وبقي سعيد وحده في السلطة حتى عام ١٢٧٣.

اشترك سعيد بن سلطان مع الإنكليز ضد القواسمة، ثم انضمّ إليهم سلطان بن صقر شيخ القواسمة الذي عزله السعوديون وولّوا مكانه ابن عمه حسين بن علي، كما أمكن الاستيلاء على رأس الخيمة حيث كان جابر بن رحمة زعيم القراصنة فيها، ثم قام بالهجوم على البحرين عام ١٢٤٤، ويُعدّ سعيد هو أول من أضاف لقب سلطان إلى لقب سيد.

وعندما أراد سعيد أن يزور زنجبار عام ١٢٤٤ ولّى مكانه ابن أخيه سالم، وفي الوقت نفسه دعا ابن عمه (هلال) لزيارته غير أنه غدر به واعتقله، فقامت ابنة عمه هلال بثورة لاعتقال أخيها، وعندما رجع سعيد من زيارته لزنجبار أطلق سراح ابن عمه.

ونازع سعيد ابن عمه الآخر حمود بن عزان بن قيس، وقد هاجم صحار، واستولى عليها، ثم استولى على كثير من ساحل عُمان، وفي عام ١٢٥٢ تنازل حمود لابنه سيف عن صحار، ولكنه ندم على ذلك ـ على ما يبدو ـ فحرّض خادم ابنه لقتل سيّده، ورجع حمود إلى حكم صحار عام ١٢٦٥.

توفي سعيد بن سلطان عام ١٢٧٣، وترك عدداً من الأولاد أما أكبرهم وهو هلال فقد توفي في حياة أبيه، أما الآخرون فكان الكبار منهم ثويني وماجد، وهما شقيقان، وقد اختلفا على التركة، فحلّ الخلاف بينهما نائب الملك في الهند اللورد كاننغ حيث أخذ ثويني عُمان، وأخذ ماجد أملاك عُمان في شرقي إفريقية.

حكم ثويني عُمان، وقد ثار عليه الإمام عزّان بن قيس الذي أراد أن يُعيد السلطنة إلى الإمامة، وهو إضافةً إلى أنه من أسرة بو سعيد فهو ابن عم السلطان وزوج ابنته أيضاً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطوله للاستيلاء على أملاك أخيه ماجد في شرقي إفريقية لضمها إلى سلطانه، وإعادة توحيد الدولة غير أن حاكم بومباي قد أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحدّ.

أما تركي بن سعيد فقد كان والياً على مدينة صحار، وتصالح مع أخيه ثويني وابنه سالم، واتجه ثويني وابنه سالم إلى زيارة صحار، وبينما كان تركي وأخوه ثويني معاً، توجّه عبد العزيز بن ثويني إلى عمه تركي، وأعلمه أن السلطان قد أصدر أمراً باعتقال تركي وإيداعه في السجن مباشرةً، وقيّده عبد العزيز بالحديد، وحمله إلى السجن، أما سالم الابن الأكبر لثويني فقد انطلق إلى غرفة أبيه وكان قد وصل إليه وقتله، وتسلّم السلطنة مكانه عام ١٢٨٣، واعترفت حكومة الهند بسالم سلطاناً على مسقط، ولم تقبل بتركي بن سعيد.

ولم يكن سالم محبوباً، فتمرّدت عليه القبائل في الداخل، وانتخبت عزّان بن قيس الذي استطاع أن يأخذ الحكم، ويدخل مسقط، ويضطر سالم إلى أن يُغادر البلاد إلى بندر عباس عام ١٢٨٥، وتوحّدت السلطنة والإمامة ولكن لمدة قصيرةٍ.

أما تركي فقد هرب من سجن ابن أخيه سالم بمساعدة حارس السجن، واستولى على مطرح، وهاجم أسوار مسقط، ولكن لم ينجح إذ أن التهديد الإنكليزي بعدم الاعتراف به قد أوقفه عند حدّه، إذ أن الإنكليز كانوا قد اعترفوا بسالم سلطاناً على مسقط خلفاً لأبيه ثويني، ثم تمّ الاتفاق على أن يحصل تركي على راتبٍ سنوي، قدره ٧٢٠٠ دولار من سالم سلطان مسقط، يؤخذ من معونة زنجبار لعُمان على أن يتخلّى عن الحكم، وركب البحر ومعه ابنه فيصل إلى جواذر، وقد عزل الوالي الذي عيّنه

عزّان بن قيس سلطان مسقط الجديد أو إمام عُمان. وبقي هناك حتى عام ١٢٨٩ حيث قوّى نفسه بما حصل عليه من أموال من زنجبار، وبمساعدة بعض رجال القبائل، وفي الوقت نفسه فقد دعمته بريطانيا فانتقل إلى عُمان، وهزم عزّان بن قيس، واستولى على الحكم عام ١٢٨٩، وبعد مقتل عزّان بن قيس لم يُنتخب إماماً حتى عام ١٣٣٢ عندما تمرّدت بعض القبائل في الداخل، واختارت سالم بن راشد الخروصي إماماً، وقد أحرز عدة انتصارات إذ استولى على نزوى، وبعض الجهات الثانية.

وفي عام ١٢٩٤ وصل إلى ظفار سيد فضل قادماً من مليبار في الهند، وتوصّل إلى بسط نفوذه بمساعدة قبيلة القراء التي دعاه رجالها عندما التقوا به في موسم الحج إلى بلادهم، فانفصلت ظفار عن عُمان، ولكن سيد فضل لم يلبث أن طُرد من البلاد، حيث استطاع سلمان بن سويلم قائد سلطان مسقط أن يُعيد ظفار لعُمان، واتجه سيد فضل إلى استانبول وكان مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ولكن رجع ابنه محمد بن سيد فضل عام ١٣٠٤ على ظهر سفينةٍ بريطانيةٍ مع مائة رجلٍ من أتباعه إلى عدن، وحدثت اضطرابات في ظفار فطلب سليمان بن سويلم الدعم فأنجده السلطان بحملةٍ بقيادة ابنه فيصل، الذي رجع مع ثلاثين رجلاً من الكثيرين، وعندما أصبح فيصل سلطاناً أطلق سراح رهائنه.

وتوفي تركي عام ١٣٠٥ وخلفه نجله الثاني فيصل وأبعد ابنه الأكبر محمداً، بموافقة أهل العلم الذين أعجبتهم سيرة فيصل عندما كان حاكماً على نزوى، وفي أيامه زاد التدخل الأجنبي في البلاد.

وكان سلطان زنجبار برغش عمّ فيصل يسعى لإعادة الوحدة بين عُمان وزنجبار، وكان يمدّ عبد الله بن صالح بن علي بالمال والسلاح، وقامت محاولة لاغتيال فيصل عام ١٣١٣ على يد عبد الله بن صالح، واستطاع فيصل أن ينتقل إلى القلعة «الجلالي» كما وصل أخوه محمد إلى قلعة «الميزاني» وطلب المساعدة الإنكليزية ولكن لم يُلب طلبه، مما جعل العلاقة تفتر بين الطرفين بعد ذلك، ثم جاء أنصار السلطان، وتغلب على خصومه.

وأما في ظفار فقد ثار الكثيريون وقتلوا مسعداً نائب الوالي وابن أخيه مع أتباعه، فأرسل إليهم فيصل قوةً بحريةً بإمرة أحمد بن ناصر فأخمد نار الفتنة، وعاد سليمان بن سويلم من إجازته، وتوفي عام ١٣٢٥، وخلفه في إمرة ظفار بخيت، ثم عبد الله بن سلمان، ثم سعود بن علي من سلالة الإمام أحمد بن سعيد وذلك عام ١٣٤١هـ.

وتوفي فيصل عام ١٣٣٢ وخلفه ابنه تيمور، وقام الإمام سالم بن راشد الخروصي بشن غاراتٍ ضد تيمور، وكانت قوات الإمام بقيادة حِمْيَر بن ناصر. وجاء الإمام الجديد محمد بن عبد الله الخليلي، ولم يكن محبوباً من قبل السلطان تيمور أيضاً. وتوفي تيمور عام ١٣٥١، وخلفه ابنه سعيد وفي عهده سقطت الإمامة عام ١٣٩٠، ونُفي الإمام غالب بن علي الذي شكّل حكومة في المنفى، ولكن بقيت حتى حين.

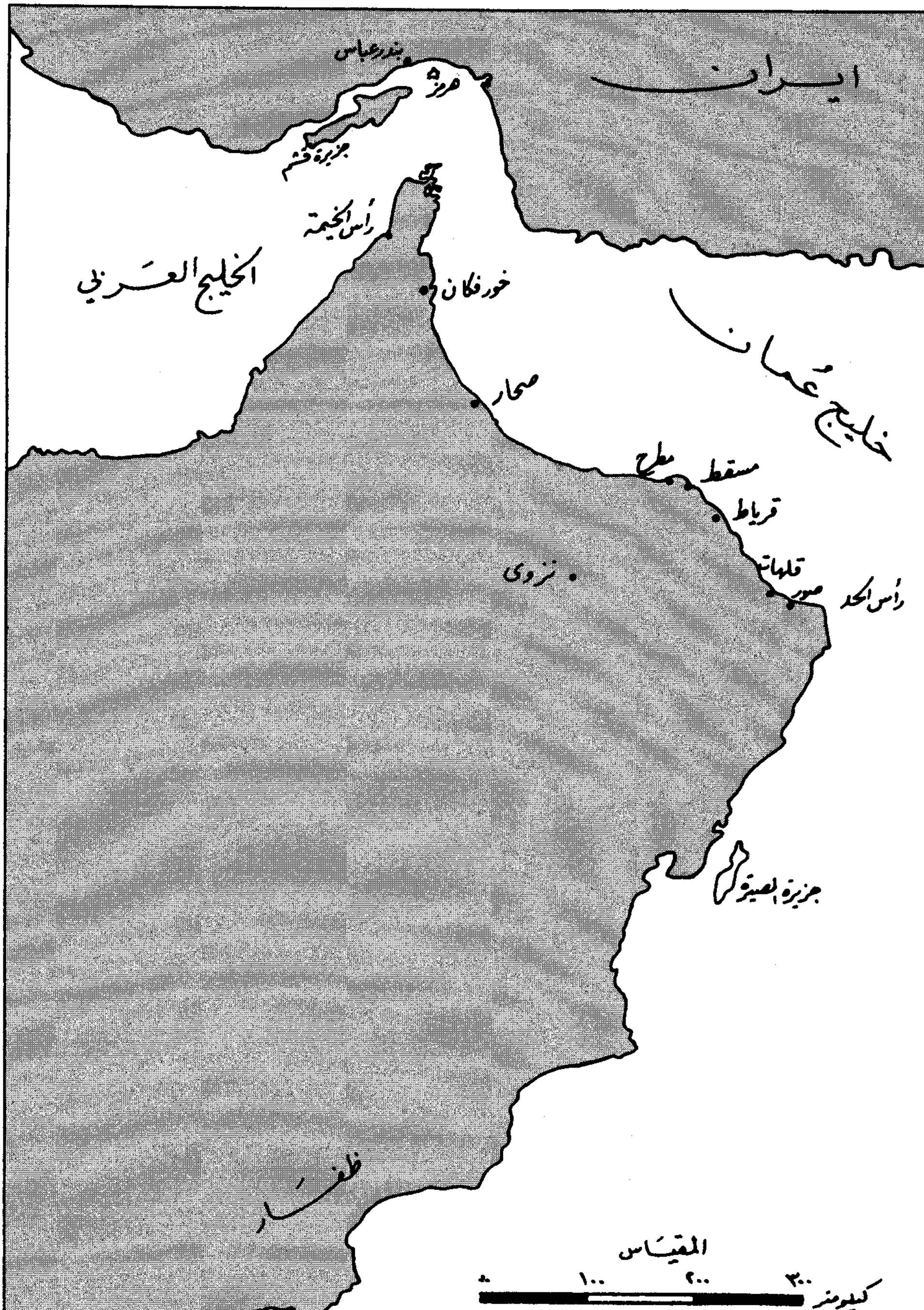
إيران
بندرعباس
هرمز
جزيرة قشم
رأس الخيمة
الخليج العربي
خورفكان
صحار
خليج عمان
مطرح
مسقط
قرياط
قلهات
صور
رأس الحد
نزوى
جزيرة المصيرة
ظفار
المقياس
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٢٤]

اليعَاربة:

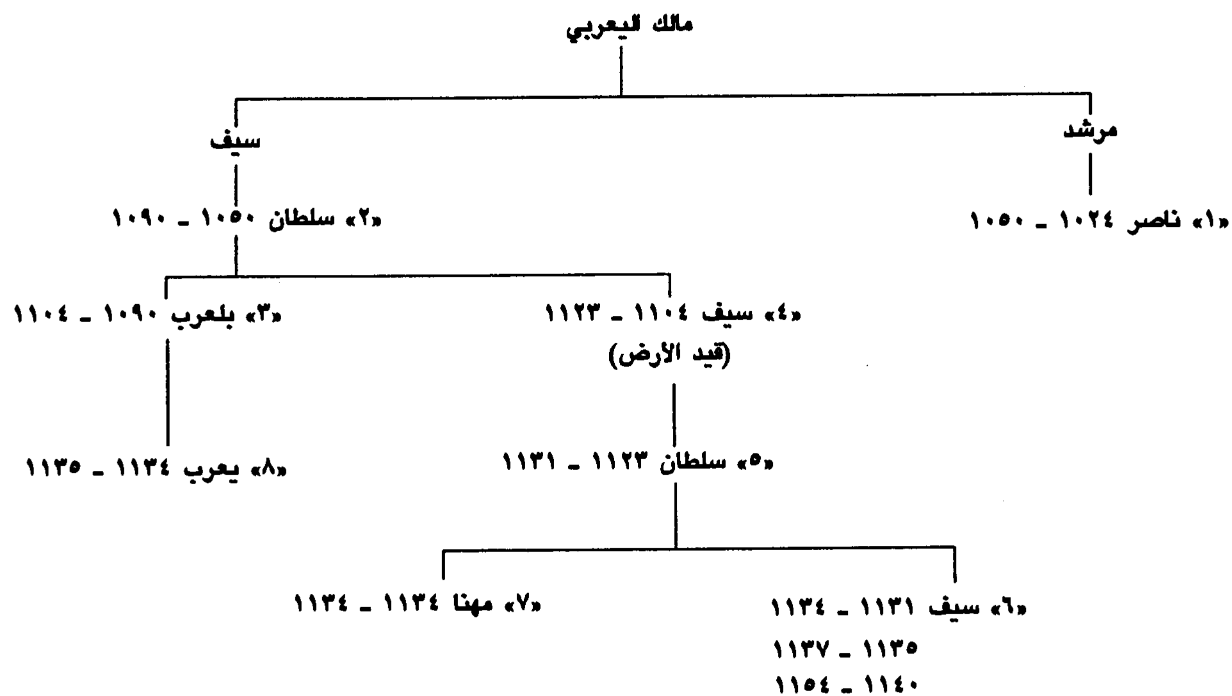

«٩» محمد بن ناصر ١١٣٧ ـ ١١٤٠

البوسعيديون

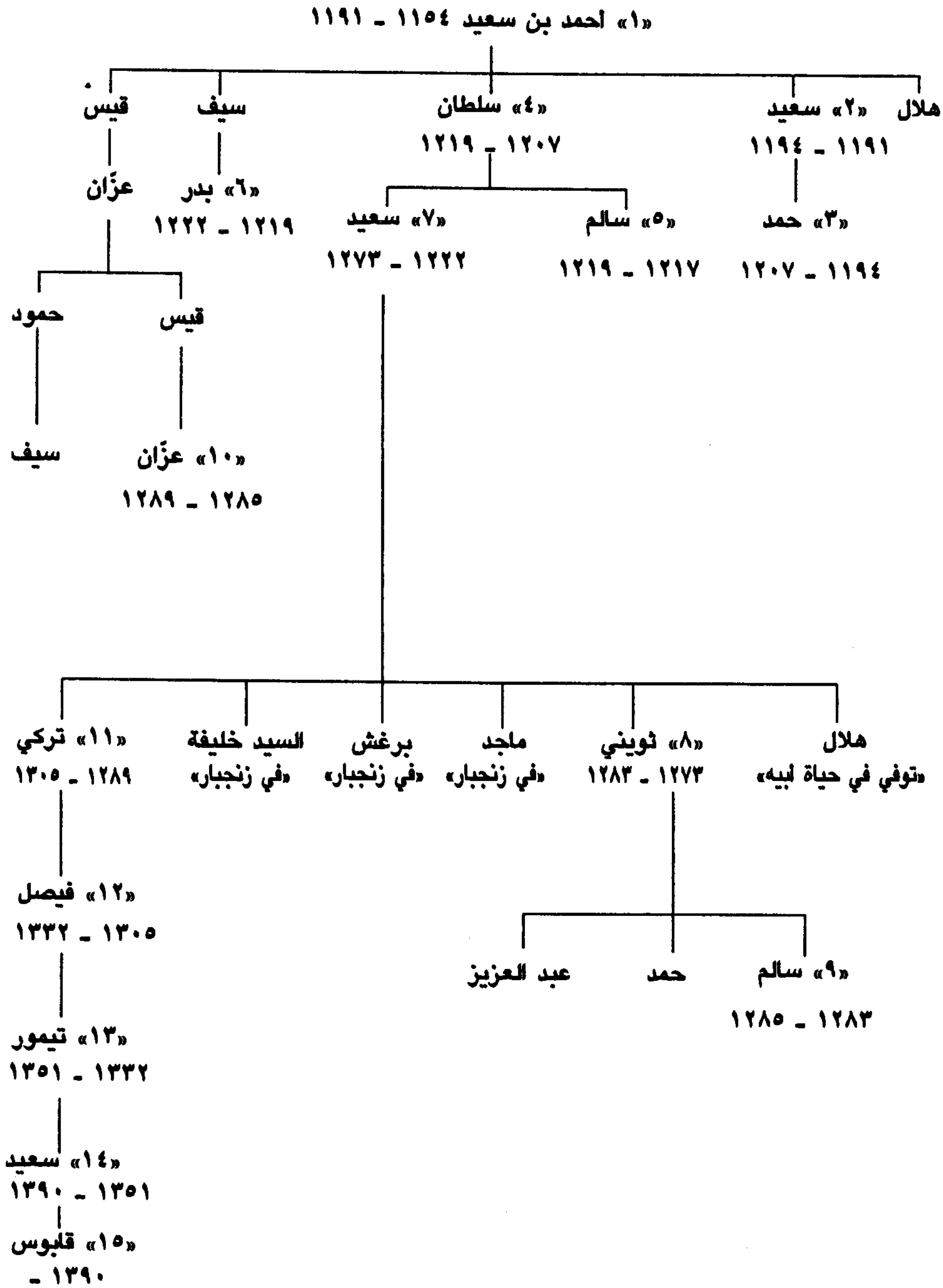

الباب الثالث

أواسط آسيا وأنقاض دولة التتار

تمتد هذه المنطقة على مساحاتٍ واسعةٍ تقترب في اتساعها من قارة أوربا، وتقع في قارتي آسيا وأوربا. وكان تيمورلنك قد بسط سلطانه على معظمها، وإذا كانت هناك بقاع أخرى قد سيطر عليها تقع خارج هذه المناطق إلاّ أن هناك جهاتٍ ضمن هذه الأجزاء لم تخضع له، ولكن اتفق مع حكامها أو اعترفوا بحمايته لهم.

إن الدول التي نشأت في هذه المناطق لم تكن في حدودٍ ثابتةٍ معينةٍ وإنما كانت تتبدل باستمرار، فتتوسع الدولة أحياناً على حساب غيرها ثم تعود فتنكمش أو تضمر حتى تكاد تزول غير أنها لا تلبث أن تعود إلى التوسع، وهذا ما يجعل دراستها معقدةً لتداخلها بعضها مع بعض، وكذلك فإن الدول الحديثة التي قامت على أنقاضها لم تقم في رقعة ثابتة المعالم.

لقد قامت في هذه البقاع دولتان حديثتان هما: إيران وأفغانستان، أما بقية المناطق فقد سيطرت عليها روسيا وضمتها إلى امبراطوريتها الواسعة، وأنشأت فيها جمهورياتٍ اتحاديةٍ، وأخرى ذات استقلال ذاتي، وثالثة سمتها مقاطعات ذات استقلال ذاتي، ورابعةً ابتلعتها وعدّتها أجزاء من جمهورية روسيا الاتحادية بالذات، ومع هذه التقسيمات الغريبة القائمة في الامبراطورية الروسية إلا أننا نستطيع أن نرى ثلاثة أجزاء واضحة المعالم أحدها يقع في أوربا في القسم الشرقي منها، وإن نشأت فيه عدة دول، والآخر يقع بين أوربا وآسيا، وهو بلاد القفقاس، والثالث يشمل أواسط آسيا أو ما كان قديماً يُعرف باسم ما وراء النهر، وقامت فيه عدة دول أيضاً. هذا بالإضافة إلى أجزاء في الشرق ضمت إلى الصين الأمر الذي يزيد الموضوع تعقيداً.

وإذا كانت المناطق التي قامت فيها دول حديثة وهي أفغانستان وإيران يغلب عليها العنصر الفارسي، واللغة الفارسية، ولغة البشتو فإن الجهات التي يُسيطر عليها الروس والتي تقع في آسيا وفي أوربا يغلب عليها العنصر التركي أو التتاري أو التركي في آسيا والتتاري في أوربا وإن كان كلاهما يرجع إلى أصل واحد، أما منطقة القفقاس فتتعدد فيها الأجناس واللغات لدرجةٍ كبيرةٍ حتى لا يتجاوز عدد أفراد الجنس الواحد مئات الألوف أحياناً، ويشغل مساحة صغيرةً من الأرض أيضاً، وقد تكون لغته خاصةً به لا يعرفها أحد غيره من العالمين.

واستغلّ الروس هذه الاختلافات البشرية أو اللغوية فقسّموا المنطقة على أساسها، وفرّقوا بين أبنائها، وحالوا دون ارتباطهم بالعقيدة التي تجمعهم. وعملوا على تجزئتهم بكل إمكاناتهم، وأسكنوا الروس بينهم لمراقبتهم، واستثمار أرضهم، وأخذها لإبقائهم فقراء، ونهب خيرات بلادهم، وإضعاف نسبتهم أيضاً، وإفسادهم، ونقل المعلومات عنهم، وفي الوقت نفسه عملوا على التشكيك في الإسلام، وسلخ السكان من تاريخهم وحضارتهم مع المحافظة على كنيسة الروس الأرثوذكسية والارتباط بالتراث والتاريخ الروسي رغم حداثته. ومع التغيّر الاجتماعي جذرياً، والتطورات التي طرأت على المجتمع الروسي بعد تطبيق الشيوعية فإن السياسة واحدة لم تتغيّر ولم تتبدّل. والعمل ضدّ الإسلام لم يتحوّل وإن كان قديماً باسم الخلاف بين الدول فإنه الآن باسم الشيوعية التي تحارب الأديان ولكن يبدو أنها تحارب الإسلام فقط، ولم تصل الحرب إلى اليهودية والنصرانية بالدرجة التي وصلت إلى الإسلام حيث نجد اليهودية ذات نفوذٍ وجذور، والنصرانية يرغب الحكام أن يتحوّل الشعب كله إليها بل إلى المذهب الأرثوذكسي الذي تُعدّ موسكو مركزه الرئيسي، وذلك لتتمّ الوحدة الوطنية - حسب زعمهم -.

الفصل الأول

شرقي أوربا وسيبيريا الغربية

احتل المغول شرقي أوربا في أيام جنكيزخان، واستقلت أسرة جوجي بن جنكيزخان في حكم هذه المنطقة، وقد عرفت باسم القبيلة الذهبية أو مغول الشمال، ولم يلبث أبناؤها أن اعتنقوا الإسلام، وكانت حاضرتها مدينة سراي على نهر الفولغا، ثم انفصلت عنها القرم، وقازان، واستراخان. وبعد غزو تيمورلنك للمنطقة انفصلت سيبيريا أيضاً.

زالت دولة سراي عام ٩٠٧ على يد خان القرم مكلي كراي، وأصبح يطلق على خانات أطراف الأورال (أوفا، وأورنبرغ) وعلى خانات بلاد ما وراء النهر أيضاً اسم «نوغاي». وأصبح لكل خان من خانات هذه المنطقة إمارة مستقلة، لها تاريخها المستقل، ويعيش كل خان في قصره لمصالحه الخاصة وشهواته التي لا حدود لها، وهذا ـ مع الأسف ـ ما عرفه الأوربيون أو الأجانب عامةً عن حياة المسلمين من حياة سلاطينهم أو خاناتهم هؤلاء فامتلأت نفوسهم كرهاً للإسلام إضافةً إلى حقدهم الصليبي الذي تفوح رائحته في كل تصرّفٍ من تصرفاتهم. ولم يكن من رابطٍ يجمع بين هؤلاء الخانات رغم أنهم من عقيدةٍ واحدةٍ، لأن أهدافهم المصلحية والشهوانية مختلفة، ولا يذكرون رابطة الإسلام إلا عندما تنزل بهم الضائقة، أما عدا ذلك فقد يلتقي بعضهم مع العدو اللدود لهم جميعاً وهم الروس ضد بعضهم الآخر ما دامت المصلحة الذاتية تتطلب ذلك، وكانت إمارة الروس قد بدأت تظهر حوالي عام ٨٨٦، وبدأت تقوى وتضرب بعضهم ببعض، وتسيطر على جزء بعد آخر، وهم يتقرّبون منها ويتنافرون فيما بينهم حتى ابتلعتهم جميعاً، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأقسام معاً.

أ ـ قازان:

كان يحكم قازان في بدء هذه المرحلة عبد اللطيف خان، وكان على وفاقٍ مع الروس، وقد توفي عام ٩٢٤، وخلفه أخوه محمد أمين خان، وطلب حاكم القرم محمد كراي أن يُعيّن أخوه صاحب كراي ولياً لعهد محمد أمين خان بصفته أخوه لأمه، ووافقت روسيا على ذلك بشرط أن يكون حاكم القرم خصماً لبولونيا، وأن تحارب روسيا خانية استراخان، وتمّ تنصيب صاحب كراي ولياً لعهد قازان على حساب مسلمي استراخان الذي ضحّى بهم صاحب القرم لمصلحته. وفي عام ٩٢٥ توفي محمد أمين خان نتيجة مرضٍ أصابه، ولم يعقب، فانقطع حكم أسرة ألوغ محمد خان عن حكم قازان بعد أن استمر أمرها بيدها مدة خمس وثمانين سنة، وبدأت خانية قازان تحتضر إذ لم يعد خاناتها يهتمون بها، واستمرت بعد ذلك أربع وثلاثون سنة ثم قُضي عليها. ولكن نقضت روسيا اتفاقها مع محمد كراي وعيّنت على قازان شيخ علي خان، وأبعد صاحب كراي.

أغارت القرم على بولونيا، وأحرزت النصر، وحصلت على كثيرٍ من الغنائم، وطلبت روسيا من الخليفة العثماني أن يحول دون هجوم محمد كراي أو إغارته عليها، فطلب الخليفة منه الاتجار مع روسيا وعدم التعدي عليها، وبإمكانه أن يُغير على بولونيا وليتوانيا للحصول على الغنائم. فلما توفي السلطان سليم عام ٩٢٦ أغار محمد كراي على روسيا، وجاس خلال أراضيها، ونال من الغنائم الشيء الكثير، فتوسلت روسيا من الخليفة سليمان القانوني الذي خلف أباه عن طريق وفدها الذي سافر إلى إستانبول لتهنئة الخليفة الجديد بالحكم، فطلب الخليفة من محمد كراي أن يمتنع عن الإغارة على روسيا، فردّ محمد كراي بأن روسيا عدوة للإسلام، وأنها تُحوّل المساجد إلى كنائس، وأنها تمدّ العجم بالمال والسلاح فلم يأبه الخليفة لهذا الكلام، وأصرّ على حاكم القرم بأن يُوقف هجماته واعتداءاته على الروس.

وفي عام ٩٢٨ تقدّم صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان بعد اتصالات مع

رجالها، وتسلّم المدينة عنوةً، وقبض على شيخ علي خان، وأودعه السجن، كما قبض على الروس الذين كانوا في قازان، وعلى تُجّارهم، وأخذ أموالهم، ولم يقتل شيخ علي خان، وإنما عفا عنه، وأطلق سراحه، وسمح له بالانتقال إلى المكان الذي يريده بصفته من أسرة توقتاميش، فانتقل شيخ علي خان إلى موسكو وبذا أصبح يحكم القرم وقازان أخوان، وقد سارا لحرب الروس ومعهم جماعات من تتار النوغاي، كما تفاهموا مع بولونيا، وأحرز التتار النصر، ووقع الخوف في نفوس الروس، وفرّوا مذعورين إلى موسكو، فطلبت روسيا الصلح والعودة إلى دفع الجزية فوافق التتار ورجعوا إلى بلادهم.

أرسلت روسيا قوةً لحرب قازان، وجعلت إمرتها لشيخ علي خان، فوصلت إلى أطراف قازان، ولكن لم تتمكن من دخولها وذلك عام ٩٣٠، ولما تأكد صاحب كراي من ضعفه أرسل إلى الخليفة العثماني سليمان القانوني يطلب منه أن تكون خانية قازان تابعةً للدولة العثمانية فوافق الخليفة، ولكن لم يرسل له قوةً تحميه من تعديات الروس، وإنما أخبر روسيا عن طريق سفيره في موسكو بتبعية قازان له بناءً على طلب خانها فأجابت روسيا أن خانية قازان تتبعها منذ مدة ولا يحق لصاحب كراي أن يتصرّف إلا بما تحت يده، وأرسلت قوةً عظيمةً ضمّت ليتوانيين ونمساويين بجانب الروس لتضمّ قازان إليها، وتطرد صاحب كراي منها لتؤكد ما ادعته، ولتسبق العثمانيين إليها، وأحسّ صاحب كراي بذلك فغادر مدينته بحجة الذهاب إلى السلطان العثماني والمجيء بمددٍ من عنده، وولّى مكانه ابن أخيه صفا كراي بن محمود كراي، وهو صغير، فحشد أهل قازان طاقتهم، وجمعوا إمكاناتهم، واستعدّوا للروس الذين وصلوا إلى مقربةٍ من قازان، وأقاموا معسكرهم هناك، فعمل أهل قازان على إحراق المؤن والمواد في أطراف مدينتهم كي لا يستفيد منها الروس، وبعد أشهر رجع الروس إلى بلادهم دون الحصول على نتيجة، ولكن من شدة الخوف الذي أصاب أهل قازان ولم يكن يعلم به الروس فقد أرسلوا وفداً إلى موسكو

لعرض التبعية الاسمية لها وهم لا يعلمون أيضاً ما أصاب الروس من ذعر أثناء إقامتهم قرب قازان، فوافقت موسكو على قبول تبعية قازان لها، وأخذوا رهائن من وفدها.

وفي عام ٩٣٦ أرسلت موسكو وفداً إلى قازان لتجديد عهد الصداقة فتمّ ذلك، ثم أرسلت مندوباً لها ليقيم في قازان بصورةٍ دائمةٍ ليراقب تحركات التتار بها، غير أن هذا المندوب قد أساء التصرف في المهمة التي سار من أجلها لهدفٍ أو قصدٍ يريده إذ أخبر دولته أن خان قازان صفا كراي يكره الروس غير أنه مضطر للسكوت أمام رعاياه الذين يُفضّلون السلامة، ولكنه استطاع في الآونة الأخيرة أن يستميل السكان إلى جهته، وأن يستعّد للقتال، وقد احتقر المندوب عندما وصل إليه، ونال من دولته ، لهذا يرى المندوب نفسه مضطراً للعودة فاستعدت روسيا للقتال بعدما سمعت هذا من مندوبها، ووصل الخبر إلى خانية قازان فاستعدت أيضاً للحرب، وجاءها ثلاثون ألف مقاتل من النوغاي بقيادة مماي خان صهر صفا كراي، وجاء الهجوم الروسي مفاجئاً وتمكّن الغزاة أن يقتلوا ستين ألفاً من القازانيين، واستأسد أهل البلاد للدفاع عن مدينتهم وانتصروا على الروس الذين طلبوا الصلح، ورجعوا إلى بلادهم، ووبّخ الروس قائدهم وعدّوا انسحابه خيانةً، واتهموه بأخذ المال من أهل قازان مقابل انسحابه، وانطلق وفد من قازان إلى موسكو لعقد الصلح الذي تمّ فاتفق مع موسكو على أن يُعاد أسرى الروس وما غنمه أهل قازان منهم، وأن يُعطي أهل قازان العهد، ولكنه اختلف على تسليم موسكو ما أخذه جنودها، وإطلاق سراح ما لديها من أسرى إذ عدّت موسكو أن هذا لم يُبحث في الاتفاق، وإنما الذي تمّ من جانبٍ واحدٍ لذا رفضت الاتفاق وقبضت على أعضاء الوفد القازاني وهم من كبار الأمراء، وعدتهم رهائن لديها، ولما ضغطت عليهم عادت فاتفقت معهم من جديد على إقصاء صفا كراي عن حكم خانية قازان وتسييره إلى المكان الذي يريد، وتسليم جان علي خان أخي شيخ علي خان إمرة خانية قازان، وبناءً على هذا

الاتفاق رجع صفا كراي إلى القرم، وأصبح يُحرّض عمه على حرب روسيا والإغارة عليها.

عاد أهل قازان فخلعوا خانهم جان علي خان وقتلوه، ودعوا صفا كراي ليعود إلى منصبه خاناً عليهم فرجع إليهم وزوّجوه أرملة الخان السابق جان علي خان ابنة الميرزا يوسف أحد زعماء النوغاي وذلك عام ٩٤٢، فأرسل الروس قوة إلى قازان لتؤدّب أهلها على ما فعلوه ـ على زعمهم ـ إلا أن هذه القوة قد هزمت وتعقّبها التتار يقتلون منها ويأسرون، ثم عاد الروس فأرسلوا قوّة أخرى أكبر من سابقتها فتمكّنت من إحراز النصر على التتار، وأسرت الكثير منهم، وحملتهم إلى موسكو حيث قُتلوا هناك.

وسار أهل قازان عام ٩٤٧ من جهتهم وأهل القرم من جهتهم لغزو الروس غير أنهم لقوا مقاومةً عنيفةً فاضطروا إلى العودة. وطلب صفا كراي بعقد الصلح مع الروس فرفضوا ذلك.

وسارت روسيا إلى قازان عام ٩٥٣، ووصلت جيوشها إلى أطراف قازان فأحرقت، ودمّرت بعض الأبنية فيها، وأخذت الأسرى، وعاثت في الأرض فساداً دون أية مقاومة، فرجعت بعدئذ الجيوش الروسية ولم يُصب أحد منهم بكلم، فعدّ صفا كراي هذا خيانةً من أمرائه فقتل بعضهم، ونفى بعضهم الآخر، فمالت النفوس عن الخان، وكاتب الأمراء الروس، وطلبوا منهم الدعم لإخراج صفا كراي وأمرائه من القرم من خانية قازان، فأمرتهم روسيا بالقبض على صفا كراي أو إخراجه أولاً ثم تكون المساعدة، فهمّ الأمراء بالقبض على صفا كراي إلا أنه أحسّ بالمؤامرة فخرج من قازان، وأقام عند النوغاي ليكون على مقربة من مسرح الأحداث. ووقعت أحداث دامية في قازان بين أمراء قازان وأمراء القرم وذهب ضحية ذلك أعداد كبيرة. وطلب بعض أمراء قازان من روسيا تعيين شيخ علي خان أميراً على قازان، فوافقوا وجاء الأمير الجديد غير أنه لم يكن محبوباً من قبل الشعب بل ولا من قبل الأمراء، وإنما طلبوه ليكون صورةً ويكون لهم الأمر من دونه وبالفعل فقد حجروا عليه، وسجنوا أنصاره، وأصبحت الإمارة مهزلةً

فرغب الشعب بإعادة صفا كراي كي يتخلّصوا مما هم فيه، وأحسّ شيخ علي خان بما يُدبّر فهرب إلى موسكو، ورجع صفا كراي إلى قازان خاناً، ولكنه لم يعد يثق بأهل قازان، ووقعت الجفوة بين الحاكم والمحكوم، ومتى تمّ هذا بدأت البلاد تسير نحو الهاوية، إذ لا يمكن إحراز النصر، ولا الإخلاص في العمل، وفرّت أعداد إلى موسكو، وسار الجرامشة إلى روسيا يطلبون صداقتها والعمل معاً على حرب قازان، وسار ايڤان الرهيب أمير موسكو لحرب قازان في أواخر عام ٩٥٣ لكنه رجع خائباً.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، فأقام الأمراء مكانه ابنه الطفل أوده ميش خان، وطلبوا من عمّ أبيه صاحب كراي خان القرم إرسال خان قوي لهم ولعله يكون ابنه بولك كراي، وفي الوقت نفسه طلبوا من ايڤان الرهيب الصلح فلم يستمع إلى طلبهم بل سار إليهم عام ٩٥٧، ولكنه رجع عنهم دون أن يدخل مدينتهم رغم أنه كان بإمكانه ذلك بعدما أحرزه عليهم من انتصارات ولعله شعر بنفسه أنه لا يستطيع البقاء فيها أو أن الحرب في داخلها ستكون عليه وخيمة النتائج.

وكتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى أمراء نوغاي يُشجّعهم على إنقاذ قازان من براثن الروس غير أن عدداً من أمراء التتار كانوا يقيمون في موسكو ويأتمرون بأمر الروس إضافة إلى تنازع أمراء التتار في دويلاتهم المتعددة يجعل عدداً منهم مع الروس. وجاء من النوغاي إلى قازان محمد خان ياذكار فنصبوه خاناً عليهم. وتقدم أهل القرم دعماً لقازان ثم رجعوا.

جرى التفاهم بين أمراء قازان وأمير موسكو ايڤان الرهيب، ويخرج بمقتضى هذا التفاهم الخان الصغير اوده ميش كراي مع أمه ليقيم في موسكو، ويُغادر أمراء القرم قازان، ويرجع شيخ علي خان حاكماً لقازان، وتمّ ذلك ومع مسير أمراء القرم إليها خارجين من قازان تعرّضت لهم القوات الروسية وأخذتهم أسرى إلى موسكو حيث قُتلوا هناك. ورغم هذا الاتفاق الذي نُفّذت بنوده من قبل أمراء قازان فإن ايڤان الرهيب قرر أن ينتهي من مشكلة قازان، وأن يضمّها إلى روسيا نهائياً ويبتلعها، فسار إليها

عام ٩٥٩ ودخلها دون قتال، ولكن عظم ذلك على أهل قازان عندما رأوا تصرّفات الروس فقاموا يُقاتلون الغُزاة وجرت حروب ضارية ولكن لم ينفع ذلك شجاعة، فالخان من أنصار الروس، والروس كلهم من الجند مسلحين ومستعدين وأصبحوا في داخل البلد، على حين أن أكثر سكان المدينة كانوا على غير تفاهم بالنسبة للقتال لأنهم لم يتوقّعوا ذلك، وبعضهم عُزّل، وهم من النساء والأطفال والمسنين، وضمّت بعدها خانية قازان إلى روسيا... وبعدها تصرف الروس التصرف القذر، الذي يرى الإنسان محاكم التفتيش في الأندلس أمام هذا التصرف بسيطة فارتكاب المنكرات، وتحويل المساجد إلى كنائس، والاعتداء على الأملاك، وإهانة المقدسات، والعمل على تنصير السكان... وصبر مع ذلك التتار وتحمّلوا الكثير، وظلّوا على عقيدتهم.

ب ـ استراخان:

وتسمى حاج طرخان، وعرفت قديماً باسم «آتل»، و«بلنجر»، وقد انفصلت عن مملكة تتار الشمال أو القبيلة الذهبية، وكانت في هذه المرحلة على خلاف مع خانات القرم، كما أنها تعدّ من ألد أعداء الروس. وكان مكلي كراي خان القرم يحرّض الروس عام ٩١٣ لإرسال جيوش إلى استراخان وتدميرها. ومع بدء هذه المرحلة كان خان استراخان حسين خان بن أومير شاه جان بك خان، ولا يرغب أبداً التفاهم مع الروس ولكنه لا يستطيع أن يحمي نفسه من محمد كراي بن مكلي كراي خان القرم.

قام محمد كراي عام ٩٢٨ بالتفاهم مع مماي خان نوغاي بالهجوم على استراخان والاستيلاء عليها، وطرد حسين خان منها، غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت إذ قتل محمد كراي عام ٩٢٩ على يد أبنائه، وتسلّم أحدهما مكانه، وبعد ستة أشهر تسلّم سعادت كراي أخو محمد كراي خانية القرم حيث عينه عليها الخليفة العثماني سليمان القانوني، فكتب سعادت كراي إلى الروس يُهدّدهم بأن التتار يحيطون بهم، وهم على وفاق

فاستراخان عليها حسين خان، وهو صديق له، وصاحب كراي يحكم قازان، وهو أخي و...

وقام الشراكسة بالهجوم على استراخان عام ٩٣٨ وقتلوا قاسم خان، ونصّبوا مكانه آقو بك خان، وبقي حتى تسلّم أمر الخانية عبد الرحمن خان عام ٩٤١، وقد وافق على التعاون مع روسيا بناءً على طلبها خوفاً من خانات القرم ونوغاي، ومع هذا فلم يسلم من خصومه إذ هاجم النوغاي استراخان وتمكّنوا من الاستيلاء عليها فهرب منها عبد الرحمٰن خان، فأجلسوا مكانه درويش علي خان، ولكن لم يلبث أن حلّ مكانه حيدر خان ابن الشيخ أحمد خان الذي خلع أيضاً عام ٩٤٨، وعُيّن آق كباك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان الذي لم يلبث سوى عاماً أيضاً حتى قتله يمغورجي خان بن بردي بك بن سلطان بن مرتضى خان.

استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وخرج منها يمغورجي، فتولّى أمرها درويش علي خان للمرة الثانية، وما أن انسحب صاحب كراي من استراخان حتى رجع يمغورجي إليها، وخلع درويش علي خان. واستطاع يمغورجي أن يتفق مع خان القرم الجديد دولت كراي وأمير النوغاي مرزا يوسف، واستغل ايڤان الرهيب هذا الاتفاق للقيام بهجوم كاسحٍ على استراخان وقد شجعه على هذا الهجوم أيضاً زعيم النوغاي الآخرِ مرزا يوسف، فطلب ايڤان أن يخرج من استراخان يمغورجي وأن يعود إليها درويش علي خان الذي خلعه يمغورجي وما هذا الطلب إلا لإيجاد حجة للهجوم على استراخان، ولما رفض هذا الطلب أرسل ايڤان عام ٩٦٢ جنوده نحو استراخان بقيادة مرزا إسماعيل، فاستولى عليها، وفرّ يمغورجي مع عشرين من أتباعه إلى مدينة آزاق (آزوف)، وقُبض على أهله من بعده وحُملوا إلى الخان الجديد درويش علي خان، فأقسموا على طاعة ملك الروس ايڤان.

وقع درويش اتفاقيةً مع الرّوس تنصّ على ألا يقيم الروس خاناً مكانه بعد موته، أي تصبح خانية استراخان تابعةً لروسيا بعد موت درويش خان،

وإذا حدث ونصّبوا خاناً فإنما يكون تابعاً لموسكو، ويحق للروس صيد السمك في نهر الفولغا كالتتار، ولكن لم يبق درويش خان على عهده مع الروس بل اتفق مع دولت كراي خان القرم بأن جعل أحد أبنائه ولياً لعهد استراخان، فأرسلت روسيا جيشاً عام ٩٦٥ استولى على استراخان، وهرب منها درويش خان إلى آزاق، وضمّ الروس استراخان إليها نهائياً، وأسكنوا فيها أعداداً من أبناء جنسهم، وحوّلوا أكثر مساجدها إلى كنائس. وفي منتصف القرن الحادي عشر الهجري طرد الروس من استراخان زعماءها من التتار، فاتجه بعضهم إلى بخارى.

جـ ـ سيبريا:

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيرخان أخاه شيبان شرقي الأورال فتأسست إمارة لشيبان وأبنائه في شرقي الأورال عام ٦٤٠، وكان مقرها قلعة سيبير، وتوالى عليها أبناء شيبان حتى القرن العاشر.

وفي عهد قوتشم خان ٩٧٧ ـ ٩٧٨ استولى على إمارتهم يرمق بن تيما في عام ١٠٠٣، وكان ضعيفاً فباعها إلى روسيا، وأما قوتشم خان فقد انتقل إلى بلاد الباشغرد الذين مقرهم أوفا، وعاش هناك، ومات بين الباشغرد، وقام ابنه علي خان عام ١٠١٧ يعمل على استرجاع بلاده فلم يفلح، وكذلك كان نصيب أخيه ايشم خان من بعده.

وعندما قضى الروس على قازان عام ٩٥٩، وعلى استراخان عام ٩٦٥ بدؤوا يتقدمون نحو الشرق فقضوا على النوغاي المنتشرين في أطراف الأورال وغربي سيبيريا، ومن مراكزهم أورنبرغ وأوفا، كما قضوا على خانات من فرع شيبان في سيبيريا والذين عرفوا باسم قياصرة تيومين. وبذا انتهى الروس من شرقي أوربا وسيبيريا الغربية، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا زحفهم.

د ـ القرم:

منذ أن طرد السلطان محمد الفاتح الجنويين من سواحل القرم عام

٨٨٠ حيث كانت لهم بعض القلاع الحصينة دخل خانات القرم تحت الحماية العثمانية، فكانت القرم تعدّ موقعاً متقدماً للعثمانيين، كما أن خانات القرم كانوا يُقدّمون الجند للمشاركة في الحملات العثمانية.

كان يحكم القرم في مطلع هذا العهد محمد كراي الأول الذي ورث الحكم عام ٩٢١ عن أبيه مكلي كراي، وكان ذا قوةٍ وشكيمةٍ يُغير على روسيا وينقضّ على بولونيا، وفي عام ٩٢٢ دخل بلدة تولا جنوب موسكو وعلى بعد مائةٍ وخمسين كيلومتراً منها، وانتشر التتار في ولاية رزان حول تولا. ونصّب أخوه ولياً لعهد قازان، ولما حالت روسيا بين هذا المنصب وبين أخيه صاحب كراي زادت غاراته على روسيا حتى اضطرت روسيا أن تتوسل إلى الخليفة العثماني بمنع هذه الغارات فمنعه السلطان سليم الأول، فلما توفي السلطان سليم رجع إلى غاراته فعادت روسيا ترجو الخليفة الجديد فحال بينه وبين غاراته على الرغم من تبرير محمد كراي لهذه الغارات بأن روسيا تعمل على حرب الإسلام والمسلمين وتُهدّم المساجد، إضافة إلى مدّها للعجم بالمال والسلاح، وبهذا فقد انقطعت هذه الغارات عن روسيا ولكنها استمرت على بولونيا، ويمكن أن نقول: إن حياة سكان القرم الأولى إنما كانت على الغنائم من هذه الغارات.

وفي ٩٢٨ أرسل أخاه صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان فاحتلها، وبذا أحاط روسيا من الشرق والجنوب، كما أكمل التطويق بضمّ استراخان إليه عام ٩٢٩، كما كان يرغب في ضمّ النوغاي، وسيبيريا بل وخوارزم كي يتمكن من مواجهة الروس بشكل قويٍ غير أنه قُتل في ذلك العام بيد ولديه (غازي) و(بابا)، واستلم غازي أمر الخانية، وكان أخوه بابا وزيراً عنده ومستشاراً له، ولكن السلطان العثماني لم يرض عن هذا الانقلاب الذي حدث، لذا فقد عيّن خاناً من عنده على القرم، وهو سعادت كراي أخو محمد كراي، وقد كان يُقيم في إستانبول، ووصل سعادت كراي إلى القرم، واستلم أمرها، ولما مشت الأمور بشكلٍ طبيعيٍّ، وأمن أولاد محمد كراي عمهم، قبض سعادت كراي على غازي وبابا وقتلهما بعد ستة أشهرٍ من استلامه الأمر.

وفي عام ٩٣٨ أخذ الإمارة عنوةً إسلام بن كراي، وفرّ عمّه من البلاد، وهذا ما أزعج الخليفة العثماني لذا فقد ضمّ القرم إلى الدولة العثمانية مباشرةً، وإن أبقى إسلام كراي فيها كوالٍ عليها. ولكن صاحب كراي بعد مدةٍ قام على ابن أخيه إسلام كراي وقتله، وقام بالأمر مكانه، ويبدو أن هذا كان برأي العثمانيين، وعاد الصراع مع روسيا وخاصةً أن حاكم قازان هو صفا كراي بن محمود كراي بن مكلي كراي أي ابن أخي صاحب كراي بل هو الذي وضعه في ذلك المنصب قبل أن يُغادر هو قازان، كما استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وكل هذه المرحلة كانت الأوضاع مستقرةً في القرم، وحرب روسيا تقع بين المدة والمدة، فقد هاجمت القرم بقيادة صفا كراي وعمه قالغاي إسلام كراي ولاية رزان الروسية عام ٩٤٠، كما قام صاحب كراي على روسيا عام ٩٤٧، ولكنه وجد مقاومةً عنيفة فرجع، وقاد في العام الثاني ١٥٠ ألفاً من التتار والعثمانيين والنوغاي ولكنه هزم، وغنم الروس المدافع العثمانية بعد أن عبر صاحب كراي نهر الدون إلى أعدائه.

وفي ٩٥٨ تولّى أمر القرم دولت كراي فتفاهم مع خان استراخان الذي رجع إليها منذ أن غادرها صاحب كراي ومع أمير النوغاي المرزا يوسف. وكان دولت كراي في إستانبول فأرسله الخليفة العثماني، وطلب منه قتل صاحب كراي الذي شُغل عن قازان باحتلاله استراخان، كما طلب منه العمل لتخليص قازان من روسيا، ولكنه لم يستطع أن يقوم إلا بالمهمة الأولى، وهي قتل صاحب كراي. وبقي دولت كراي بن مبارك كراي في منصبه حتى عام ٩٨٥.

تسلّم خانية القرم عام ٩٨٥ محمد كراي الثاني، وقتله إسلام كراي الثاني عام ٩٩٢ إذ أن عثمان باشا قائد الجيش العثماني قد وعده بحكم الخانية إن ساعده، ففعل، وقتل سلفه، واستلم الأمر، وأصبح خانات القرم بعدئذٍ ولاةً عثمانيين يُولّون من إستانبول ويُعزلون منها. وإن كانوا من أسرةٍ واحدةٍ لا يتعدونها.

وفي عام ١٠٨٢ أعلن القوزاق في أوكرانيا تبعيتهم للدولة العثمانية،

وعندما أغارت عليهم بولونيا أمدّهم السلطان العثماني محمد الرابع، فانتصروا، ووُقّعت معاهدة مع بولونيا اعترفت فيها أن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم بودوليا في غربي أوكرانيا هو للدولة العثمانية وذلك في عام ١٠٨٣. وتوفي الصدر الأعظم أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة صهره قره مصطفى فلم يُحسن التصرّف فأثار القوزاق فثاروا ضد العثمانيين، وبدأت روسيا تمدّهم وتساعدهم، وعندما جرت الحرب بين العثمانيين والروس كان القوزاق أميل للروس منهم إلى العثمانيين وذلك عام ١٠٨٨، وعندما عقدت معاهدة الصلح بين الطرفين مال القوزاق إلى الروس لسوء تصرّف الصدر الأعظم قره مصطفى.

وعندما هُزمت الدولة العثمانية أمام النمسا، وعقدت معاهدة كارلوفتس فقدت فيها الدولة العثمانية آزاق (آزوف) لروسيا، كما تخلت عن أوكرانيا وبودوليا لبولونيا.

وفي عام ١١٢٥ بعد معاهدة أدرنة تخلّت روسيا عما كانت تدفعه من جزيةٍ لخانات القرم، وفي الوقت نفسه تخلّت أيضاً عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود. ولكنها لم تلبث أن عادت واحتلت آزوف، واستطاعت تعيين شاهين كراي خاناً على القرم عام١١٨٦، غير أن دولت كراي الثالث قد تمكّن من العودة إلى الخانية مرةً ثانيةً عام ١١٨٩، وفرّ شاهين كراي إلى روسيا. وأرغم العثمانيون في معاهدة كوجوك قينارجة على استقلال القرم وحيادها. وعاد شاهين كراي إلى حكم الخانية عام ١١٩١، وبقي حتى عام ١١٩٧ حيث أعلنت روسيا ضمّ القرم إليها نهائياً. وعيّنت الدولة العثمانية خانين من العائلة القرمية وهما: شاهبار كراي عام ١٢٠١، وبختكراي عام ١٢٠٣ وقاما بحرب ضد روسيا، ولكن دون فائدة إذ غدت القرم مقاطعةً روسيةً.

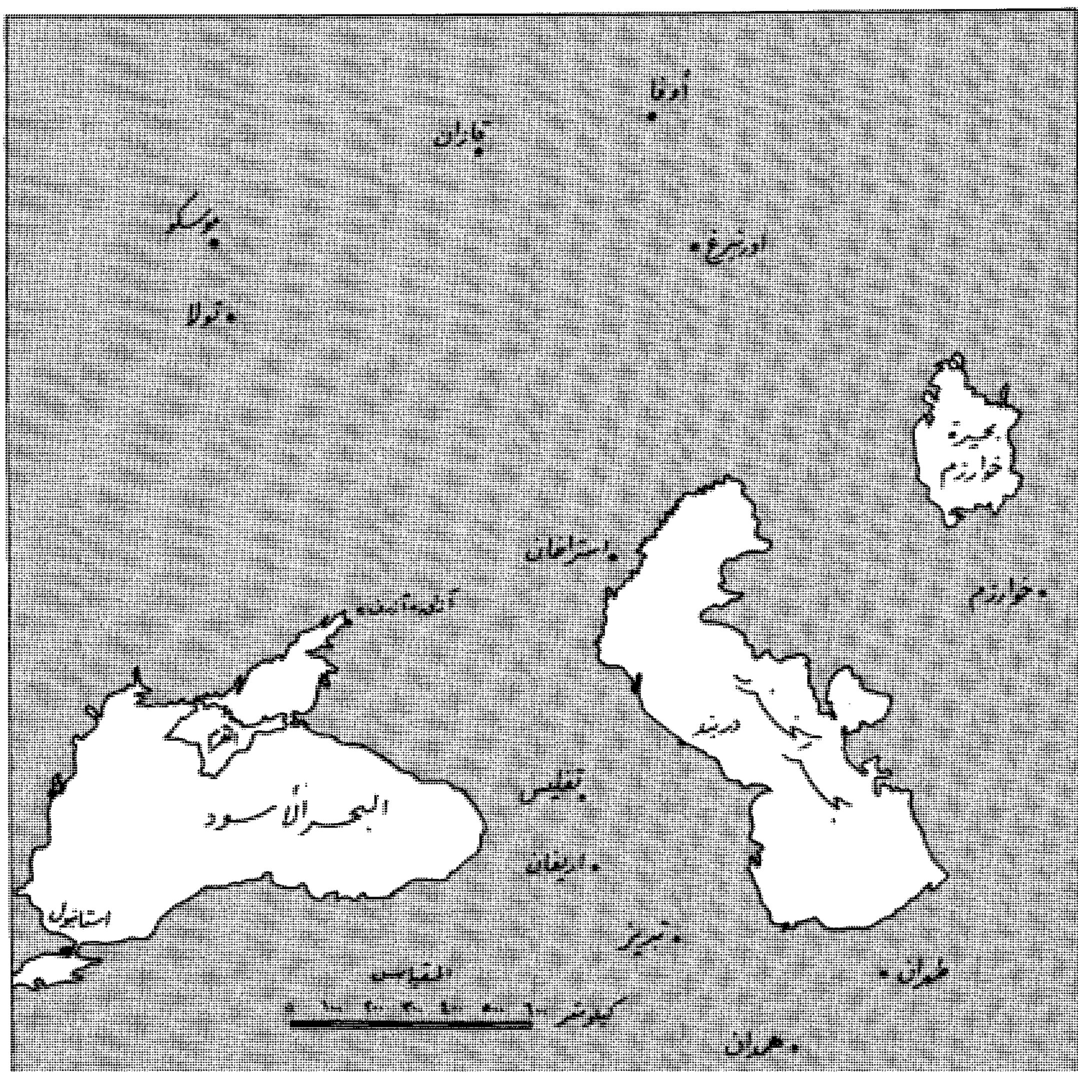
قازان
موسكو
تولا
أورنبرغ
بحيرة خوارزم
استراخان
خوارزم
البحر الأسود
استانبول
تفليس
تبريز
طهران
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٥]

الفصل الثاني

بلاد القفقاس

هي البلاد المحصورة بين بحر الخزر في الشرق والبحر الأسود في الغرب، وتُعدّ جبال القفقاس أو القوقاز عمودها الفقري، وهي تمتد من الشمال الغربي من المضيق الذي يفصل بحر آزوف عن البحر الأسود، بل تُعد مرتفعات القرم امتداداً لها، إلى الجنوب الشرقي حيث تمتد شبه جزيرة «ابشيرون» في بحر الخزر عند باكو، ويصل ارتفاع هذه الجبال إلى ٥٦٢٩م في الوسط في قمة «البروز»، وتُعد جبال القوقاز الحد الفاصل بين قارتي آسيا وأوربا. وتسمى السهوب التي تقع إلى الشمال منها بـ«دشت القفجاق» وتعني صحراء القفجاق، أما الأجزاء الجنوبية فهي تتمة لهضبة أرمينيا ومرتفعات أذربيجان.

أطلق العرب على هذه المنطقة اسم «القبج» و«القبجاق» والقفجاق، ويعيش في هذه المنطقة شعوب كثيرة أو مجموعات صغيرة مختلفة في أصولها متباينة في لغاتها، وهذا ما يشكل عقبةً في وحدتها، ولما كانت المناطق الوسطى منها والجنوبية وعرة لذلك كان سكانها مقاتلون أشداء وتساعدهم مواطنهم على التحصن بها. ففي الجهات الشرقية نلاحظ من الجنوب إلى الشمال الأكراد في أذربيجان، ثم شروان، والداغستان، والقوموق، وفي المناطق الوسطى الأرمن، فالكرج الذين جاءوا فيما بعد، واللان، واللزكي، وفي السفوح الشمالية الشاشان فالأنغوس، وفي الجهات الغربية الآجار والقبائل الشركسية حيث يُقيم الأوستين والقبرطاي في المرتفعات والأبخاز في الغرب والأديغة بقبائلهم المتعددة من أبزاخ،

وشابسيغ، وبزادوغ حتى بحر آزوف. ثم جاءت مجموعات من التتار واستقرت في المنطقة أثناء غزوهم لها، كما أقامت مجموعات أخرى من الأتراك مثل البلكار الذين يُقيمون شمال بلاد القبرطاي.

فتح المسلمون عام ٢٢هـ أذربيجان أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قائد الفتح سراقة بن عمرو، وعلى مقدمته عبد الرحمٰن بن ربيعة الذي دخل باب الأبواب (دربند)، ودخل بالإسلام أهل أذربيجان، وشروان، والداغستان، والقوموق، وفي أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتح المسلمون بلاد الأرمن، وبلاد اللان، ودخلوا تفليس، وكان سراقة بن عمرو يوجّه الفصائل إلى المواقع في تلك الجهات فتدخلها، ثم توسع الفتح على السواحل الغربية لبحر الخزر، ووصل المسلمون إلى بلنجر، وأصيب عبد الرحمٰن بن ربيعة وجاءت إمدادات بقيادة أخيه سليمان الذي أصبح والياً على المنطقة، وارتد الأرمن فبعث إليهم أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بأمر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، حبيب بن مسلمة فوصل إلى تفليس ودخلها.

ومع توقف الفتح انتفض أمراء الأرمن، وطمع أمراء الخزر فهاجموا المنطقة، فدخل جيش المسلمين بلاد الخزر بإمرة ثبيت النهرواني، فانهزم المسلمون، فعزل يزيد بن عبد الملك ثبيت، وولّى مكانه الجراح الحكمي، وأمده بجيش كثيف، وطلب منه أن يغزو بلاد الخزر، ففعل وتمكّن من دخول باب الأبواب، وصالح الترك، واستمر الصراع مع الخزر مدة الحكم الأموي الذي استقر له الأمر في أرمينيا وأذربيجان.

واستمر الوضع أيام قوة العباسيين فلما ضعف أمرهم، تجزأت المنطقة فقامت حكومة في تفليس، وأخرى في منطقة الأبخاز، ثم غزا الخزر المنطقة عام ٤١٧، ودخلوا مدينة تفليس، ولكن السلاجقة عندما سيطروا على الدولة العباسية دانت لهم بلاد القفقاس عام ٤٦٥، ولكن ليست كل المنطقة التي تسمى اليوم بهذا الاسم وإنما الأجزاء الجنوبية منها، والشرقية، فالشرقية كانت مسلمة والجنوبية خليط من النصارى في بلاد الأرمن مع

المسلمين، وكذا شأن المرتفعات، وجاءت موجة أخرى من الخزر أو من الشمال، وكانت نصرانية، واستطاعت أن تسيطر على تفليس وكانت على النصرانية، وعرفت تلك الجهات منذ ذلك اليوم ببلاد الكرج، ويقصد بها بالفارسية بلاد القوة، وكانت حاضرتهم تفليس، وذلك في الوقت الذي ضعف فيه السلاجقة أو بالأحرى في نهاية القرن الخامس الهجري.

وجاء المغول، ودانت المنطقة لهم، ولما مات جنكيزخان كان دشت القفجاق وبلاد داغستان ضمن أملاك حفيده باتو أو مغول الشمال أو ما عرف باسم القبيلة الذهبية، على حين كانت الأجزاء الجنوبية تتبع أملاك ابنه الآخر تولوي الذي أسس ابنه هولاكو الدولة الإيلخانية، أو أن جبال القفقاس كانت الحد الفاصل بين أملاك الأسرتين المغوليتين، وكان الصراع بينهما، وهذا الصراع كثيراً ما كان على المنطقة الجنوبية التي هي أذربيجان، ومع ضعف المغول قامت إمارات في المنطقة وكانت صغيرة تتناسب والجماعات التي تنتمي إليها، وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تغير على أملاك خانية القرم، أو استراخان، أو مملكة سراي من قبل وكان دشت القفجاق هو ميدان الغزو.

وتمكّنت الدولة العثمانية أن تمد نفوذها إلى هذه المناطق ما دامت المناطق التي تقع إلى الشمال منها تحت سيطرة التتار المسلمين وهي القرم، واستراخان، وقازان و.... وهي إما تبعت العثمانيين مثل القرم أو أن الخوف من الروس الذين بدأ أمرهم يقوى بسرعة يهدد هؤلاء المسلمين الأمر الذي جعلهم يتجهون إلى العثمانيين خوفاً من الروس كرؤساء ومحبة للعثمانيين لإسلامهم كشعوب، وكان نفوذ العثمانيين قد شمل المنطقة بدءاً من عام ٩٨٢ أيام الخليفة مراد الثالث حتى عام ١٠٤٩ في أواخر أيام الخليفة مراد الرابع، وشمل بلاد أذربيجان، وداغستان، والقوموق، وأرمينيا، والآجار، والأبخاز، والأديغة، والكرج، والأوستين، والقبرطاي، والبلكار، ثم امتد إلى بلاد الشاشان والأنغوش، ومع وصول العثمانيين إلى تلك الجهات بدأ الإسلام ينتشر في المناطق التي لم يدخلها بعد مثل مناطق

الشراكسة (الأوستين، والقبرطاي، والأديغة، والأبخاز) ثم بلاد الشاشان والأنغوش.

كان خضوع هذه المناطق للعثمانيين اسمياً، وكان انتشار الإسلام عن طريق الدعوة من قبل بعض الرجالات، كما لا ننسى أن السكان وجدوا ضالتهم فيه حيث أنه دين الفطرة. ولما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والفرس فقد دخل الصراع هذه المنطقة ومدّ الفرس نفوذهم أيام قوتهم على الأجزاء الشرقية مثل شروان، وأذربيجان، وداغستان، وبلاد الكرج، وإن كان سكان هذه المناطق أميل إلى العثمانيين بطبيعة أنهم من أهل السنة على حين كان الفرس على مذهب الشيعة الذي لم ينتشر إلا في أذربيجان وبعد خضوعها للفرس. واشتهر من مواقع العثمانيين في هذه الأجزاء ما كان على ساحل البحر الأسود آزاق (آزوف)، وأنابا، وباطوم.

وعظُمت قوة الروس، وبدؤوا يمتدون نحو الشرق، والجنوب الشرقي في بلاد التتار، وبعد أن دخلوا استراخان عام ٩٦٥ امتد نفوذهم حتى وصل إلى أطراف هذه الأجزاء أي ضموا إليهم ما يعرف باسم دشت القفجاق، وصاروا على حدود بلاد القوموق والأنغوش، والبلكار، والأديغة. وعندما جاء إلى حكم الروس بطرس الأكبر وضع نصب عينيه السيطرة على بلاد القفقاس، فلما ضعف الصفويون وتنازل الشاه حسين لمير محمد الأفغاني، أسرع الروس واحتلوا عام ١١٣٥ بلاد داغستان، وسواحل بحر الخزر الغربية، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدم العثمانيون، ودخلوا أيضاً أرمينيا وبلاد الكرج، غير أن حاكم رشت الفارسي قد استنجد ببطرس الأكبر فأسرع لنجدته وتنازل طهماسب الثاني آخر شاهات الصفويين للروس عن الأجزاء القفقاسية داغستان وشروان بل عن أجزاء فارسية في الشمال وهي جيلان، ومازندران. غير أن شروان قد استنجدت بالعثمانيين، فتنازل الفرس للعثمانيين عام ١١٤٤ عن بلاد الأرمن وشروان بل وعن همدان، ولورستان.

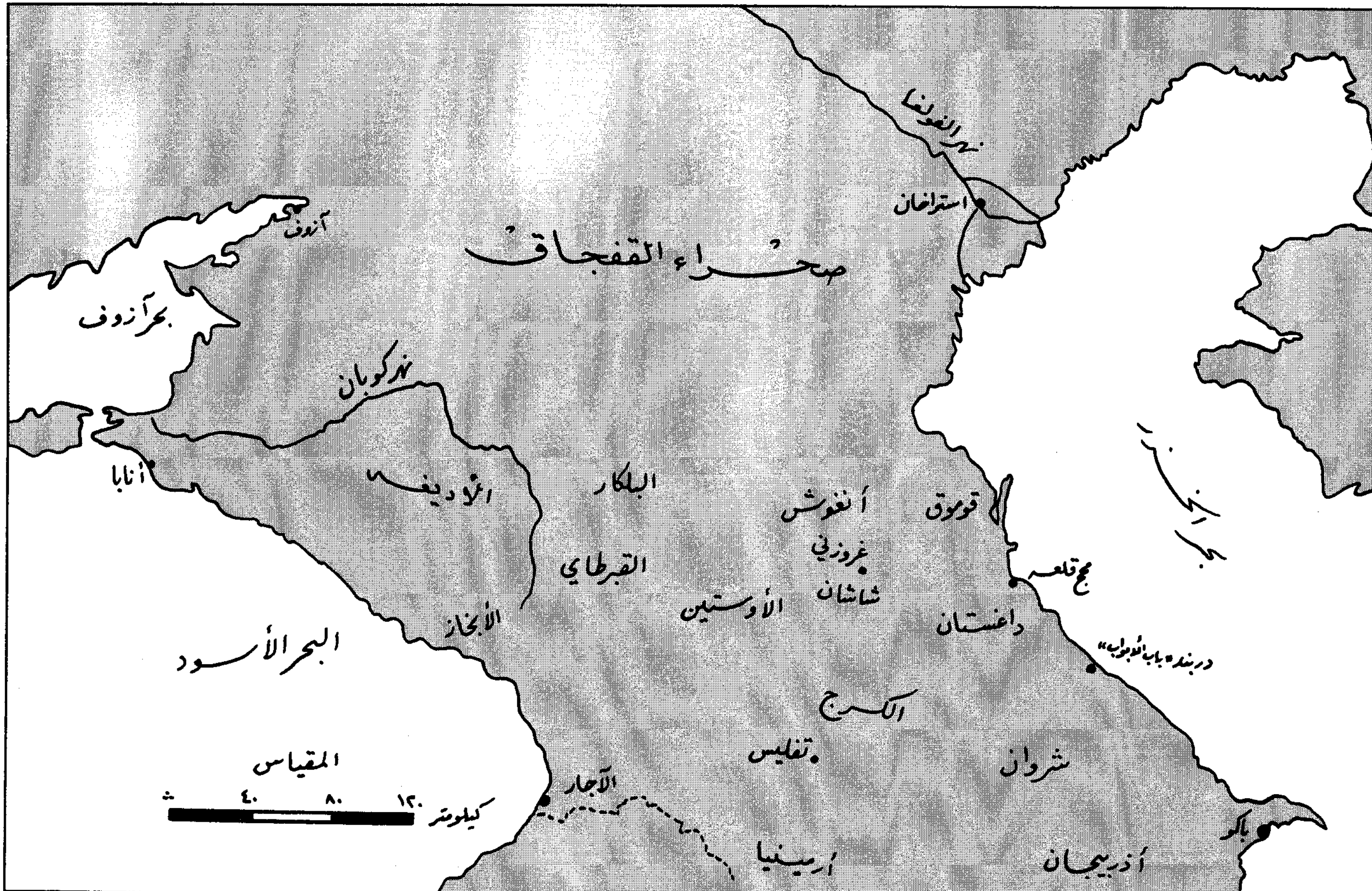

صحراء القفجاق
بحر آزوف
آزوف
نهر كوبان
نهر الفولغا
استراخان
أنابا
الأديغة
البلكار
أنغوش
قوموق
غروزني
القبرطاي
شاشان
الأوستين
مجقلعه
الأبخاز
داغستان
البحر الأسود
دربند «باب الأبواب»
الكرج
بحر الخزر
المقياس
تفليس
شروان
الآجار
كيلومتر
١٢٠
٨٠
٤٠
٠
باكو
أرمينيا
أذربيجان

مصور رقم [٢٦]

ونتيجة معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين عام ١١٥٢ استقلت بلاد القبرطاي عن الدولة العثمانية، فبدأ الضعف يتسرب إلى هذه المنطقة بسبب وجود دولة صغيرة، هذا بالإضافة إلى النصارى في بلاد الكرج وبلاد الأرمن الذين تتجه أنظارهم إلى الروس وخاصة أنهم يدينون بمذهب الأرثوذكس الذي تأخذ به روسيا.

سيطر الروس حتى عام ١١٦٤ على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس، وفي أواخر أيام كاترين الثانية أُخرج الإيرانيون من بلاد الكرج على يد الروس... وفي أيام بول الذي خلف كاترين الثانية خرج الروس من بلاد الكرج إذ رأى هذا القيصر عدم ضرورة مساعدة الكرج لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وهاجم المنطقة وضمها إليه، وهذا ما أجبر القائد الداغستاني عمر خان أن يهاجم الروس في بلاد الكرج عام ١٢١٥ لكنه فشل فابتلع الروس ما احتلوه.

ثم تقدّم الروس في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨ بل كان كل انتصار يحققه الروس على الفرس أو على العثمانيين يضمون إثره جزءاً من بلاد القفقاس، أو عندما تتهيأ لهم الفرصة ويرون الضعف من المسلمين ينقضون على منطقة فيبتلعونها.

ووجد المسلمون أنفسهم في هذه المناطق وحيدين، وأن الروس يتقدمون يوماً بعد يوم، والعثمانيين والفرس يتراجعون شيئاً فشيئاً لذا لابدّ من الاعتماد على النفس، وتقوية الروح المعنوية، فاستلهموا العقيدة فتحركت قوة الإسلام الكامنة ورغبتهم في الجهاد، ودفعتهم للموت في سبيل الله، ومن طلب الموت وهبت له الحياة، واسترخصوا الدنيا، فقوي أمرهم وألفوا حكومة في بلاد الداغستان كان على رأسها العلماء، وذلك عام ١٢٤١، وبرز الشيخ شامل فأرسل الشيخ محمد أمين إلى بلاد الشراكسة، كما أرسل العلماء إلى بقية المناطق لاستنهاض همم المسلمين... وبدأ القتال بين الشيخ شامل والروس، وفي ١٢٥٦ بدأ الشيخ شامل بخطة الهجوم التي استمرت عشرة أعوام ضعفت روسيا خلالها

وخاصةً أنها شغلت في حرب القرم عام ١٢٦٩ فانسحبت من عدد من المناطق، ولكن انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ فحشدت روسيا عندها جيشاً يزيد عدده على ثلاثمائة ألف جندي وبدؤوا بالهجوم على بلاد الشراكسة، وفي النهاية تمكنوا عام ١٢٨١ من أسر الشيخ شامل، وأصبحت أفواج الشراكسة، والشاشان، والداغستان تهجر أراضيها نتيجة الاضطهاد الروسي، وقد نقلت الدولة العثمانية أعداداً منهم إلى أوربا ووضعتهم على الجبهات الروسية والنمساوية... وعاد القتال بين العثمانيين والصليبيين على الجبهة الأوربية، وهُزم العثمانيون، وعقد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، وكان من نتائجه أن أجبر الصليبيون العثمانيين على نقل القفقاسيين من الجبهات القتالية لما أبدوه من شجاعة إلى جهات أخرى فحملوهم إلى بلاد الشام والعراق... فأقاموا في رأس العين في الجزيرة الفراتية، وخناصر في جهات حلب، ومنطقة حمص، والجولان، وجرش في الأردن، وعمروا عمان، وفي الزرقاء، وصويلح، وناعور، والرصيفة، ووادي سير، والأزرق، وبعض جهات شمالي فلسطين. كما توزّعوا في المدن. أما الذين بقوا في موطنهم فكان العذاب يحيق بهم من كل جهة، وكلما حاولوا أن يتذرعوا بالصبر وجدوا أنفسهم إلى الهجرة أحوج، فعندما تسنح الفرصة لفريق منهم يفرّ من وطنه هائماً على وجهه.

وقامت الثورة الشيوعية في مطلع عام ١٣٣٦، وأعلنت إعطاء الحرية الدينية وإنصاف المسلمين الذين تحمّلوا الأذى، فلما قويت جذورها داهمت بلاد القفقاس الذين أعلنوا عن رغبتهم في الاستقلال، وأعملت كل أنواع البطش والدمار، وأظهرت كل أصناف الحقد على المسلمين، وكان النصارى في منأى عن الاضطهاد، وقسمت بلادهم إلى أجزاء صغيرة متذرعة بالأجناس المتعددة واللغات المتباينة، وضمت أكثر هذه الأجزاء الصغيرة إلى موسكو بالذات.

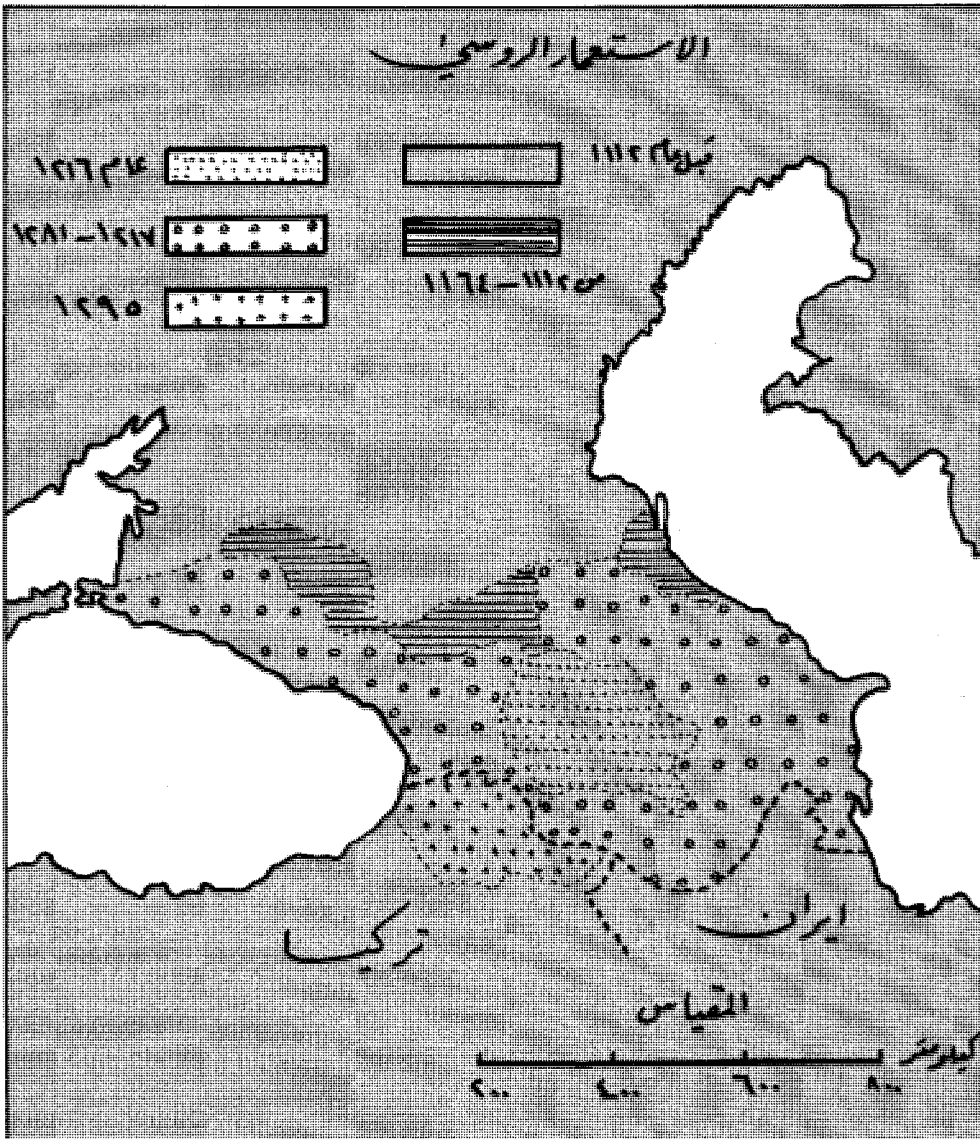

الاستعمار الروسي
قبل عام ١١١٢
من ١١١٢ – ١١٦٤
١٢١٦ م ٤
١٢١٧ – ١٢٨١
١٢٩٥
تركيا
إيران
القياس
كيلومتر
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠

مصور رقم [٢٧]

الفصل الثالث

وسط آسيا

حكم تيمورلنك مناطق واسعةً امتدت من الهند إلى أوربا، فلما مات عام ٨٠٧ تجزأت دولته إذ حكم أبناؤه وأحفاده بعض هذه الأجزاء، وحكم غيرهم بعضها الآخر.

عاد أحمد بن أويس الجلائري إلى بغداد عام ٨٠٧، وعاد قره يوسف القره قيونلي إلى إمارته في أرمينيا وأذربيجان، كما حكم جلال الدين ميران شاه بن تيمور جزءاً من أذربيجان وتوفي عام ٨١٠، وخلفه ابنه أبو بكر غير أن قره يوسف قد انتزع منه إمارته، وأصبحت أذربيجان كلها تحت حكم قره يوسف، كما قتل عام ٨١٣ أحمد بن أويس، واستولى على دولته، وبذا ضمت العراق كلها وأذربيجان، وكانت الحرب بين شاه رخ بن تيمورلنك وقره يوسف قائمةً حتى مات قره يوسف عام ٨٢٣، وامتدت سلطة التيموريين حتى الخليج العربي إذ حكمها مرزا إبراهيم بن شاه رخ حتى عام ٨٣٩. وانتهت الأسرة القره قيونلية عام ٨٧٣ على يد خصومهم أسرة الآق قيونيلية الذين بقوا في الحكم حتى قضى عليهم الصفويون.

أما شاه رخ بن تيمورلنك فقد أضاع خراسان، ومازندران، وسجستان، وضمّ إليه أصفهان، وشيراز من أبناء أخيه عمر عام ٨١٧، واستمر حتى توفي عام ٨٥٠، وبقي فيها أولاده وأحفاده حتى مطلع القرن العاشر.

أما بلاد ما وراء النهر فقد حكمها حفيد تيمورلنك خليل سلطان بن

جلال الدين ميران شاه حتى عام ٨١٤ حيث توفي، وقام أبناء أخيه محمد يحكمون المنطقة ومنطقة فرغانه، وبلاد الأفغان حتى جاء محمد الشيباني في مطلع القرن العاشر، بل وأسس ظهير الدين بابر شاه دولته في الهند.

الشيبانيون:

ينتمي محمد الشيباني إلى شيبان بن جوجي بن جنكيزخان، فهو أخو باتو، وأصغر إخوته، وكان أخوه باتو قد أعطاه أطراف دولته في غربي سيبيريا، وفي مطلع القرن العاشر رأى محمد الشيباني ما آل إليه وضع دول التتار وإمارتهم من الانقسام والقتال فرأى أن يوحّد ما يستطيع توحيده، فاتجه نحو بلاد ما وراء النهر، وسارت جموع من قبيلته معه، وبقي أصل هذه الشعبة في سيبيريا تحت اسم قياصرة تيومين.

وجد محمد الشيباني في بلاد ما وراء النهر أولاد السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين يتصارعون على الحكم، فقضى عليهم، وأسس دولته عام ٩٠٦، وعندما سار إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية التي تحتضر استنجد خانها بظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، فأسرع إليها، وأنقذها من يد الشيباني الذي لم يقطع الأمل في النصر، فأعاد الهجوم على المدينة، وتمكّن من إحراز النصر على جيوش محمد بابر رغم المقاومة العنيفة التي وجدها، ودخل سمرقند، واتخذها عاصمةً لدولته، ثم دخل هراة، واستولى على خراسان، وساعد إسماعيل الصفوي شاه إيران حليفه محمد بابر ـ بصفة كلاهما عدو للأوزبك ـ في استعادة سمرقند، غير أن الأوزبك أخرجوه منها ثانيةً بالقوة، ثم ترك محمد بابر تحالفه مع الصفويين لما رأى من تعصبهم المذهبي.

ووقع محمد الشيباني قتيلاً في أثناء صراعاته عام ٩١٦، وخلفه عمه كوجكنجي الذي حكم عشرين عاماً، وخلفه ابنه أبو سعيد الذي حكم أربع سنوات (٩٣٦ ـ ٩٤٠) فورثه أحد أبناء عمومته، وهو عبيدِ اللّه فكان صراعه قوياً مع الصفويين ثم رجع إلى الحكم عبد الله أخو أبي سعيد بعد

ست سنوات وقد عرف بعبد الله الأول، ولم يزد حكمه على العام الواحد (٩٤٦ ـ ٩٤٧) رغم أنه قاد جيوش الأوزبك أيام سلفه، وأحرز انتصارات كبيرة، ثم حكم أخوه الآخر عبد اللطيف لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٤٧ ـ ٩٥٩)، وخلفه ابن عمه نوروز أحمد، وتتابع أفراد الأسرة في حكم بلاد ما وراء النهر حتى عام ١٠٠٧، أي أن حكم الأوزبك قد استمر قرناً من الزمن (٩٠٦ ـ ١٠٠٧). وكانت خانية بخارى ذات نفوذ بل يُعدّ أحياناً خان بخارى هو الحاكم الفعلي لدولة الأوزبك (الشيبانية)، وهم بالأصل فرع من الأسرة الشيبانية.

وعندما آل الأمر إلى عبد الله الثاني عام ٩٩١ بعد وفاة اسكندر ثار على عبد الله ابنه عبد المؤمن، كما انضم إلى الشاه عباس الصفوي أمراء خوارزم فهزم عبد الله الثاني أمام الصفويين، وخسر الكثير من أرضه، ومات عام ١٠٠٦، فقام ابنه الذي ثار عليه بالأمر إلا أنه لم يلبث أن قتل عام ١٠٠٧ بيد أحد الطامعين بالسلطة، وتولّى پير محمد الثاني الحكم، ولكن هيبة الشيبانيين قد زالت فتولى الجانيون شأن الدولة بعدهم.

الأسرة الشيبانية

محمد الشيباني	٩٠٦ـ ٩١٦	نوروز أحمد	٩٥٩ـ ٩٦٣
كوجنكجي	٩١٦ ـ ٩٣٦	پير محمد الأول	٩٦٣ ـ ٩٦٨
أبو سعيد	٩٣٦ ـ ٩٤٠	اسكندر	٩٦٨ ـ ٩٩١
عبيد الله	٩٤٠ ـ ٩٤٦	عبد الله الثاني	٩٩١ ـ ١٠٠٦
عبد الله الأول	٩٤٦ـ ٩٤٧	عبد المؤمن	١٠٠٦ـ ١٠٠٧
عبد اللطيف	٩٤٧ ـ ٩٥٩	پير محمد الثاني	١٠٠٧

الجانيون:

حلّ محل الشيبانيين في حكم البلاد نفسها أنسباؤهم الذين عُرفوا باسم الجانيين أو أسرة استراخان لأن أصلهم من استراخان حيث فرّ بعض الرؤساء المطرودين من مدينة استراخان إلى مدينة بخارى عندما استولى الروس على استراخان في منتصف القرن العاشر، ثم ورثوا الأوزبك، وقد حكموا سمرقند، وبخارى، وفرغانة، وبادخشان، وبلخ، وتشكلت في خوقند عام ١١١٢ خانية خاصة، ثم طُرد الجانيون من هناك عام ١٢٠٠ كما أن بلخ وكل أملاكهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون قد ضمت إلى بلاد الأفغان عام ١١٦٥، ثم انتهت هذه الأسرة عام ١٢٠٠هـ.

خانية بخارى:

ورث الجانيين أسرة تسمى المنغيت وهي من الترك أيضاً وقد تولّى أحد أفراد هذه الأسرة، واسمه عبد الرحيم الوزارة لولاة بخارى، ثم توصل إلى الولاية، وتزوّج أحد أبناء هذه الأسرة، وهو مير معصوم شاه مراد من الجانيين إذ أخذ ابنة أبي الغازي آخر خانات الجانيين، وتسلّم الحكم مكانه، وحارب الأفغانيين ليسترد ما فقده أنسباؤه من أملاك ولكن لم يقو على ذلك، وقد بدأ حكمه من عام ١٢٠٠، وتوالى أبناؤه وأحفاده على الحكم، وبدأت تضعف الدولة مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري، بل انهارت قبل الهجوم الروسي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩. وبدأ الروس يقطعون الجزء بعد الجزء منذ عام ١٣٢٨، وفي ذلك العام تولى أمر دولتهم سيد مير عليم، وعندما قامت الثورة الشيوعية، وانسحبت روسيا من الحرب، وحدثت الفوضى استرد استقلال خانيته، ولكن لم تلبث أن قويت الثورة الشيوعية، ورجعت تنفذ سياسة القياصرة الاستعمارية من قبل فسقطت خانية بخارى في يدها عام ١٣٣٨ وفر سيد مير عليم إلى أفغانستان.

خانية خوارزم:

أما خانية خيوة أو خوارزم فقد كانت تتبع خانات القبيلة الذهبية أو مغول الشمال في سراي حتى أيام تيمورلنك، وبعد انحلال الدولة التيمورية احتل الأوزبك أو الشيبانيون خيوة، وأقاموا بها خانيةً خاصةً عام ٩٢١ تعرف باسم خانية خوارزم أو خيوة، وقد اصطدم خاناتها مع خانات بخارى أبناء عمومتهم فكانت حروب متعددة تارةً تكون لصالح هذه، وتارة لصالح تلك. وفي عام ١١٥٣ استطاع نادر شاه أن يبسط نفوذه على خوارزم لمدة سنةٍ واحدةٍ، وولّى عليها والياً من قبله هو طاهر شاه.

ينتمي حكام خوارزم إلى شيبان من شعبة عربشاه، وقد استمر تعاقبهم على الخانية حتى عام ١٢١٩ باستثناء السنة الواحدة التي حكمها نادر شاه، ولكن في عام ١٢١٩ تسلّم وزراؤهم من القونغرات الحكم مستفيدين من ضعف خانات الأوزبك، حيث كان أبو الغازي الثالث ضعيفاً وقد انتهى حكمه في هذه السنة، واستمر بالحكم حتى عام ١٢٨٩ حيث ألحقت بروسيا إذ دخل محمد سيد رحيم في طاعة الروس عام ١٢٩٠، ومع ذلك بقي حكامها من هذه الأسرة ويعدون أنفسهم مستقلين، وخاصة عندما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وبدأت الفوضى في البلاد، ولكن ما لبث أن رجع الروس إليها في رمضان من عام ١٣٣٧، وسقط حكم آخر خان، وأقاموا فيها دولة باسم جمهورية خراسان السوفيتية.

خانية خوقند أو فرغانة:

استقلت خوقند عام ١١١٢، وشكلت خانيةً خاصةً بإمرة شاه رخ، وهو من أحفاد محمد بابر ظهير الدين بن شيخ عمر الذي سار إلى الهند، وأسس هناك دولة المغول الكبرى. وقد استطاع عالم خان أن يستولي على طاشقند عام ١٢١٥، وهو أول من تلقب في خوقند باسم خان. ولكن استطاع خان بخارى نصر الله خان أن يهاجم فرغانة عاصمة خانية خوقند عدة مرات بين (١٢٥٥ ـ ١٢٥٦)، واستطاع في المرة الأخيرة أن يستولي

عليها، وأن يقتل محمد علي خان، ولكن لم يلبث خانات خوقند أن يستعيدوا سلطانهم، وأن يبقوا في الحكم حتى عام ١٢٩٣ حيث جاء الروس واحتلوا بلادهم، وكان آخر خاناتهم ناصر الدين حيث حكم عاماً واحداً (١٢٩٢ ـ ١٢٩٣).

كما قامت بعض الإمارات المستقلة في طاشقند.

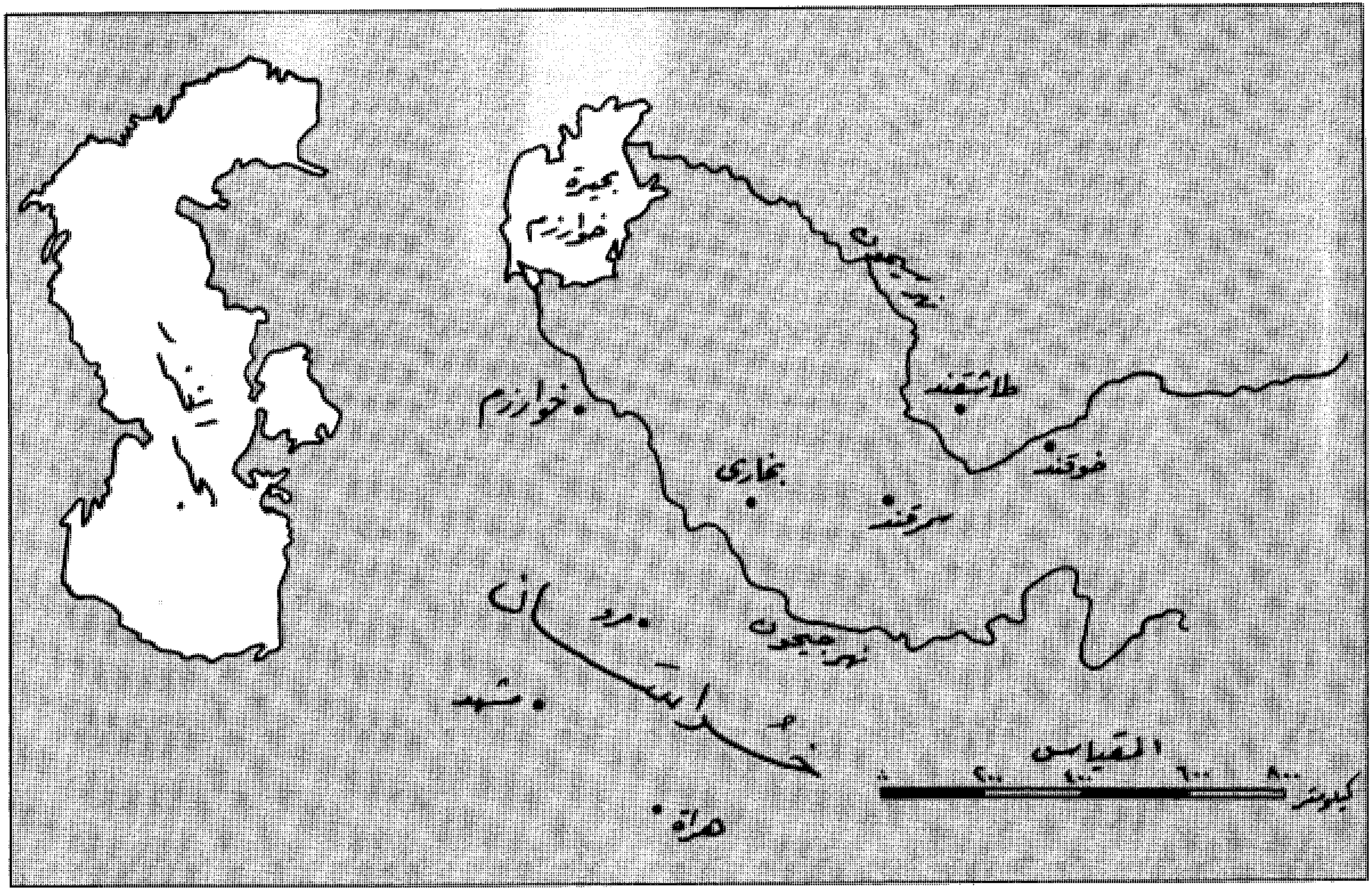
بحيرة خوارزم
خوارزم
بخارى
سمرقند
طاشقند
خوقند
نهر جيحون
مرو
مشهد
هراة
المقياس
كيلومتر
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠

مصور رقم [٢٨]

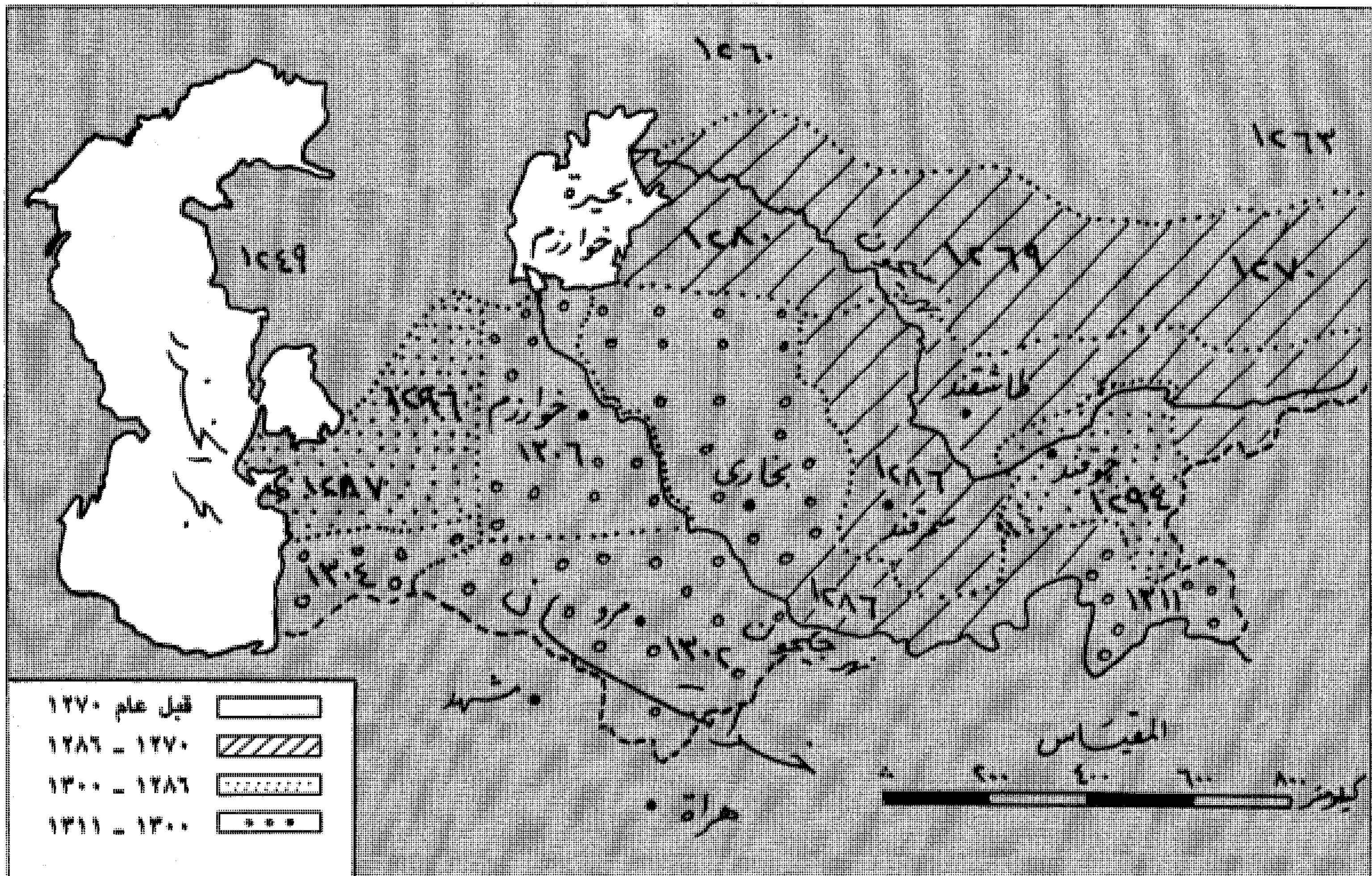
بحيرة خوارزم
بحر الخزر
خوارزم
بخارى
طاشقند
خوقند
سمرقند
مرو
مشهد
هراة
المقياس
كيلومتر
قبل عام ١٢٧٠
١٢٧٠ ـ ١٢٨٦
١٢٨٦ ـ ١٣٠٠
١٣٠٠ ـ ١٣١١

مصور رقم [٢٩]

الفصل الرابع

شرقي تركستان

وصل المسلمون إلى كاشغر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٦، وتمّ فتحها، وتوقّفت الفتوحات بعد ذلك، وأصبحت المنطقة مسلمةً، وحاول الصينيون دخولها عام ١٣٤، إذ ظنّوا أن أمر المسلمين قد ضعف أمرهم بزوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، إلّا أن المسلمين تمكّنوا من دفعهم عنها، وأحسّ أهل الصين بقوة المسلمين حتى أن ملك الصين قد استنجد بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني ضدّ ثورةٍ قامت عليه فأنجده وثبّت حكمه.

وفي أيام المغول بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل التي تُقيم في تلك المنطقة، وقد أسلم الأويغور سكان منطقة كانسو التي تقع شرق تركستان، وأسلم معهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاي المغولية التي كان نفوذها يشمل تلك الجهات، وأصبح المغول يعملون لنشر الإسلام، ودانت لهم الصين التي كانت مقسمةً إلى تسعة أجزاء يحكم كل جزءٍ خان نيابة عن ملك المغول.

وفي عام ٧٤٨ انتصر الأمراء الأتراك على بلاد ما وراء النهر، فنصّب أمراء المغول في القسم الشرقي توقلق تيمور خاناً عليهم، وظل المغول يحكمون تلك الأجزاء حتى القرن الحادي عشر، وهم من المسلمين، وإن كانوا قد انقسموا إلى خانات يحكم كل منهم منطقةً خاصة، وأشهرهم خانات كاشغر، وخانات أقصو، وطرفان، أما حكام الصين من المغول فقد

طردوا منها عام ٧٧١ في عهد الخان المغولي الحادي عشر طوغان تيمور، واقتصرت دولتهم على منطقة قراقورم (أولان باتور) منطقة منغوليا اليوم.

وفي عام ١٠٤٣ حكمت أسرة مانغو الصين، وأصبح المغول من أسرة قبلاي رعايا لها في الوقت الذي بدأ يضعف فيه أيضاً خانات تركستان في كاشغر وأقصو، وهم من أسرة جغطاي، ويدينون بالولاء لأسرة مانغو أيضاً. ولكن لم تلبث أن حكمت الأسرة المانشورية الصين عام ١٠٥٤، واستمر حكمها حتى عام ١٣٢٩، وبدأت باضطهاد المسلمين، وإن الاضطهاد لا بدّ من ثورات تعقبه، فالنفوس يمكن أن تتحمل الأذى، ولكن لمدة، ثم ينفذ الصبر.

كانت ثورات المسلمين في المناطق التي يكثر فيها المسلمون وخاصةً في تركستان الشرقية ومنطقة كانسو، ولم تكن الجهود موحدة ـ مع الأسف ـ وإنما تقوم في منطقة حركة في الوقت الذي تكون الثورة قد هدأت في المنطقة الثانية، كما أن المسلمين الموزعين في بقية أرجاء الصين لم يشاركوا أحياناً في هذه الحركات، وإنما اقتصرت الثورات على الأجزاء الغربية التي يكثر فيها المسلمون.

قامت ثورة جنقغ في تركستان عام ١٢٤١، واستمرت عامين إذ أخمدت أو هدأت عام ١٢٤٣.

وقامت ثورة يعقوب بك في تركستان أيضاً عام ١٢٧١، وتمكّنت من السيطرة على المنطقة وأعلنت استقلال تركستان، وقيام يعقوب بك بأمر الحكم، واستمر الاستقلال ثلاث عشرة سنة، وظنّوا أن الوضع قد استقر، إلا أن العقوبة لا بدّ من أن تنزل بهم إذ لم يساعدوا إخوانهم المسلمين في كانسو، وشنسي، وبالواقع فما أن انتهى الصينيون من إخماد ثورة كانسو عام ١٢٨٩ حتى اتجهوا نحو تركستان عام ١٢٩١، فهُزم يعقوب بك وقُتل، وسيطر الصينيون على المنطقة، ووضعوا والياً عليها من قبلهم، ولم تكن هذه الثورات فقط، وإنما هذه أهمها إذ استمرت الثورات أكثر من مائة عام (١١٦٩ ـ ١٢٩١)، وآخر انتفاضة كانت عام ١٣٤٩، واستمرت خمس

سنوات، وتمكّن الصينيون بدعم الروس القضاء عليها. وانسحب الروس من تركستان عام ١٣٦٢، وعندما تسلم الشيوعيون الحكم في الصين عام ١٣٦٩، واستقلت تركستان ذاتياً، وعُيّن سيف الدين رئيساً للدولة عام ١٣٧٣، وعرفت البلاد منذ تلك المدة باسم «سينكيانغ» أي المقاطعة الجديدة.

أما كانسو وهي المقاطعة التي تقع شرق تركستان فقد قامت فيها عدة ثورات أيضاً أهمها:

١ ـ ثورة سوسيان عام ١١٦٩.

٢ ـ ثورة مانسين عام ١١٧٩.

٣ ـ ثورة عام ١٢٨٠ التي هي جزء من ثورة يعقوب بك التي شملت تركستان، وكانسو، وشنسي.

٤ ـ ثورة عام ١٣١٣.

وقد جُزّئت كانسو إلى عدة مقاطعات، وضُمّت أقسام منها إلى مقاطعات أخرى لتفتيت قوة المسلمين فيها.

ومع استلام الشيوعيين للحكم فقد غُيّرت أسماء كثير من المدن لفصلها عن تاريخها، وربطها بالفكر الشيوعي الحديث، وحتى أن الدول الإسلامية تصبح جاهلة هذه الأسماء، وأرى من الضروري ذكر أسماء بعضها.

أورمجي	أصبح	تيهوا
كاشغر	أصبح	شوفو
يارقند	أصبح	سوجي
خوتان	أصبح	هوتين
أقصو	أصبح	ونسوه
حامي	أصبح	كومول

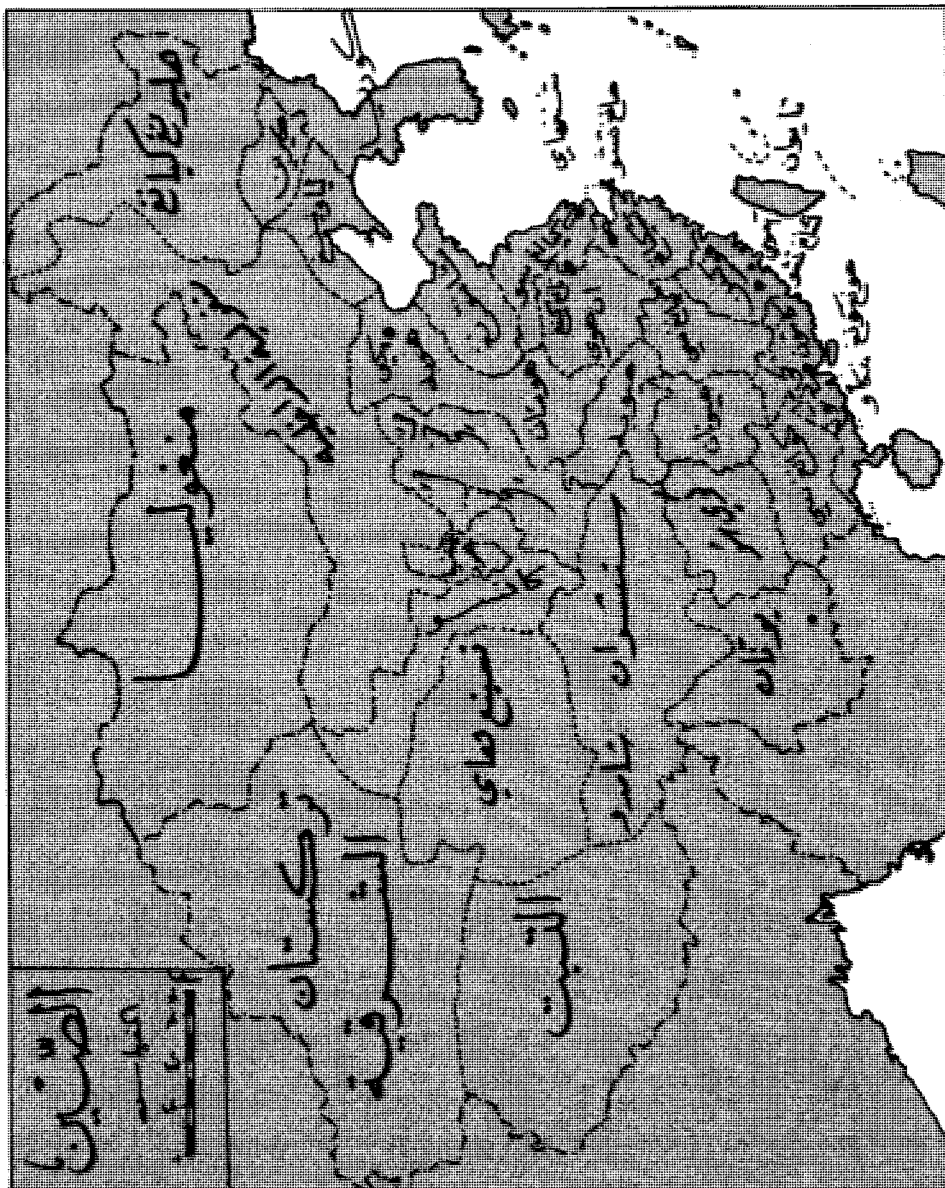

مصور رقم [٣٠]

الفصل الخامس

الصَفويُون وَالدَولة الايرانيَّة

ينتسب الصفويون إلى صفي الدين الأردبيلي المتوفى عام ٧٢٩، وقد طُرد حفيده الجنيد من دياره أيام جهان شاه من أسرة الآق قيونلي فلجأ إلى أوزون حسن (حسن الطويل) من الأسرة نفسها في ديار بكر، فاستفاد منه، وقرّبه إليه، وزوّجه أخته، وقُتل الجنيد في إحدى المعارك ضدّ أمير شروان (شمالي أذربيجان)، وقام حيدر بن الجنيد يسير على خطة أبيه، وبقي مع أوزون حسن، وقد تزوج ابنته، وقوّى بلدته أردبيل حتى أصبحت منيعةً، وجمع حوله أنصاراً من التركمان، ثم قتل عام ٨٩٤ في إحدى المعارك ضد أمير شروان أيضاً، ولكن في هذه المرة كان يعقوب بن أوزون حسن ضده، وقد ساعد أمير شروان، حيث اختلف يعقوب مع حيدر، واستولى يعقوب على بلدة أردبيل، ونقل أولاد حيدر إلى فارس، ولكنهم رجعوا إلى مقرهم في عهد رستم أحد أمراء أسرة الآق قيلوني والذي حكم (٨٩٧ - ٩٠٢)، وكان الابن الثالث لحيدر هو إسماعيل الذي جمع حوله بعض الأعوان، واعتمد على الناحية العشائرية إذ كانت عدة قبائل تركمانية في تلك الجهات، وشن هجوماً على باكو واستطاع أن يدخلها، وأن يستولي على شروان وبذا تكونت عنده الأرض القاعدة التي يمكن أن ينطلق منها، واصطدم بأمراء أسرة الآق قيلوني فانتصر على الأمير ألوند في معركة شرور على نهر أراكس عام ٩٠٧، ثم قضى على بقية أمراء هذه الأسرة في العراق إذ انتصر على مراد بن يعقوب، وفي إمارة البستان على علاء الدولة وبذا انتهت الإمارة الآق قيلونية، وقامت الدولة الصفوية، وانتقل إسماعيل

الصفوي إلى تبريز وجعلها قاعدةً له، وأخضع ولاة التيموريين هناك، واتخذ المذهب الشيعي منطلقاً لفكرته، وأفاد من حماسة الأقلية الشيعية وسط المجتمع السني والدول المجاورة لمنطقته التي انطلق منها، ووصل بسرعة بدولته إلى هراة ونهر جيحون وسواحل الخليج العربي. ولكنه هُزم أمام السلطان سليم في معركة جالديران عام ٩٢٠ فضم العثمانيون إليهم ديار بكر ودخلوا تبريز، وأعلن والي بغداد خضوعه للخليفة العثماني غير أن اتجاه العثمانيين نحو المماليك ودخول بلاد الشام ومصر، والالتفات إلى قتال البرتغاليين الذين يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين قد أعاد للشاه إسماعيل قوته، وعمل على التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين إذ أن حقده كان عظيماً على دولة آل عثمان. وكذلك كان الصراع قوياً على حدود دولة الشاه إسماعيل الصفوي من جهة الشمال الشرقي إذ كان زعيم الأوزبك محمد الشيباني يهدد الشاه إسماعيل ويدعوه إلى العودة إلى الإسلام بصورة صحيحة ويهدده بقتاله داخل معاقله في فارس، وجرت الحروب بين الطرفين، وانتصر إسماعيل الصفوي في بداية الأمر، ثم هزم واستعاد الأوزبك مواقعهم التي فقدوها في المرحلة الأولى. أما بالنسبة إلى الهند فقد كان ظهير الدين محمد بابر على تفاهم مع إسماعيل الصفوي.

وتوفي الشاه إسماعيل الصفوي عام ٩٣٠، وخلفه ابنه طهماسب، وكان صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره، فتولّى زعماء (القزلباش) زعماء الشيعة الاثنى عشرية إدارة الأمور مدة، ثم بدأ طهماسب ينفرد بالسلطة.

سار طهماسب إلى الشرق وانتصر على خان الأوزبك عبيد الله، ولكنه لم يتقدم في بلاد الأوزبك، ثم اتجه غرباً، واستولى على بغداد، وقضى على ذي الفقار الكردي شاه بغداد الذي أعلن خضوعه للعثمانيين، غير أن السلطان سليمان لم يلبث أن طرد جيوش طهماسب من العراق، وأخذ بغداد عام ٩٤١، وفي الوقت الذي اتجه فيه طهماسب نحو الغرب أي عام استيلائه على بغداد عام ٩٣٦ تقدّم الأوزبك من الشرق، وبدؤوا يجوسون خلال ديار طهماسب الشرقية وحتى مدينة مشهد، وبعدئذ عقد طهماسب

صلحاً مع الخليفة العثماني، وساد الهدوء تقريباً على الجبهة بين الدولتين بعد صلح ٩٦١. وتوفي طهماسب عام ٩٨٤ بعد أن حكم ما يزيد على نصف قرن.

تولّى بعده ابنه إسماعيل الذي عرف بإسماعيل الثاني، وقد كان أبوه يكرهه حتى وضعه في السجن ما يزيد على ربع قرن، كان متغطرساً لا يثق بأحد حتى من أقرب المقربين إليه، ووقع الخلاف بين أولاد طهماسب حيدر، وإسماعيل، ومحمد، وعباس. وقد لقي إسماعيل مصرعه بعد عام (٩٨٥)، وحكم محمد باسم محمد خدانبك حتى عام ٩٩٥، ثم تولى عباس باسم الشاه عباس الكبير. وأثناء هذه الصراعات الداخلية احتل العثمانيون تبريز، وتفليس، وبلاد داغستان، ورغم مقاومة القادة الصفويين إلا أنها لم تفدهم، كما أن العثمانيين قد خسروا الكثير ولكنهم احتفظوا بتبريز. ووجد عباس نفسه بين العثمانيين في الغرب والأوزبك وغاراتهم في الشرق، لذا عقد معاهدة مع العثمانيين عام ٩٩٨ تنازل فيها عن تبريز ولورستان، والكرج، وداغستان، وشروان، وعلى أن يبقى حيدر مرزا ابن أخي الشاه رهينةً في إستانبول.

اتجه عباس إلى الشرق وانتصر على الأوزبك انتصاراً أضعف دولتهم، وأجبرها على ترك جزء من أراضيها للشاه الصفوي الذي استعان بحربه ضد الأوزبك بأمراء خوارزم أبناء عمومة الأوزبك، كما ساعده على هذا النصر حركة عبد المؤمن بن عبد الله ضد أبيه خان الأوزبك.

عاد الشاه عباس إلى قتال العثمانيين بعد هدوء على الجبهة دام ما يقرب من خمس عشرة سنة، إذ درب جنده أحد الضباط الإنكليز، واستغلّ فرصة انشغال العثمانيين بالحركات في الأناضول فهاجم عام ١٠١٢ القلاع العثمانية، واسترد تبريز عام ١٠١٢، ثم اريفان عاصمة أرمينيا، وشروان، وقارص.

وحدثت فتنة في بغداد عام ١٠٣١ إذ تمرّد أحد قادة الإنكشارية بكر صوباشي، فأرسل العثمانيون جيشاً لإخضاعه، وشعر بكر بضعفه فأعلن

خضوعه للشاه عباس الذي أسرع وأرسل له جيشاً كبيراً، وشعر مرةً أخرى بكر بما فعل وأنه سيكون ألعوبةً بيد الشاه لذا عاد فتفاهم مع القائد العثماني على أن يكون حاكم بغداد تحت السيطرة العثمانية. ولكن الشاه لم يعترف بذلك وأصر على أن العراق يتبع دولته، وشنّ عدة هجمات على بغداد باءت كلها بالفشل فاتخذ أسلوب الحيلة والخداع فاستمال من استطاع عليه من بعض القادة، وكانت مؤامرة قُتل فيها بكر صوباشي، ودخل جيش الشاه بغداد، واتجه بعدها بأنظاره إلى البصرة غير أنه لم يفلح.

واتفق الشاه عباس مع الإنكليز، وقاتلا معاً البرتغاليين، وأخرجوهم من هرمز عام ١٠٣١، وكانت رغبته التحالف مع أوربا ضد الدولة العثمانية إذ كان حقده شديداً وتعصبه عنيفاً. وكان فظاً قتل ولده الكبير، وسمل عيون اثنين آخرين من أبنائه، وتوفي عام ١٠٣٧ بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة، ونقل العاصمة إلى أصفهان.

خلف عباس حفيده صفي، وقد بدأت منذ أيامه تسير الدولة نحو الضعف، وقد شن الخليفة العثماني مراد الرابع حرباً على الصفويين عام ١٠٤٨ واستردّ منهم العراق، وعقدت معاهدة بين الطرفين حددت الحدود بين العراق ودولة الصفويين عام ١٠٤٩، وانتهى حكمه عام ١٠٥٢.

وخلفه عباس الثاني الذي لم يلتفت إلى مصالح الدولة أبداً، ثم تولّى بعده سليمان أو صفي الثاني عام١٠٧٧ فاستولى الهولنديون على جزيرة قشم، وأغار اليعاربة على بندر عباس، والأوزبك على خراسان ولم يُبد أية حركة، واستمر، في حكمه حتى عام ١١٠٥، ثم تلاه حسين الأول الذي فرّ اثنان من أولاده إلى الدولة العثمانية. وفي عام ١١٣٥ تولى طهماسب الثاني، فعباس الثالث حيث انهارت الدولة الصفوية وقضى عليها الأفغان.

الأفغان:

استطاع محمود بن أويس أن يُعلن التمرد على الصفويين، وأن يستولي على هراة، ومشهد عام ١١٣٥، ثم اتجه إلى أصفهان عاصمة الصفويين،

الصفويون:

- «١» إسماعيل بن حيدر ٩٠٧ ـ ٩٣٠
  - «٢» طهماسب ٩٣٠ ـ ٩٨٤
    - «٣» إسماعيل الثاني ٩٨٤ ـ ٩٨٥
    - «٤» محمد خدابنده ٩٨٥ ـ ٩٩٥
      - «٥» عباس الأول ٩٩٥ ـ ١٠٣٧
        - صفي مرزا
          - «٦» صفي الأول ١٠٣٧ ـ ١٠٥٢
            - «٧» عباس الثاني ١٠٥٢ ـ ١٠٧٧
              - «٨» صفي الثاني (سليمان الأول) ١٠٧٧ ـ ١١٠٥
                - «١٠» طهماسب الثاني ١١٣٥ ـ ١١٤٤
                  - «١١» عباس الثالث ١١٤٤ ـ ١١٤٨
              - «٩» حسين الأول ١١٠٥ ـ ١١٣٥

وألقى الحصار عليها، فاستسلمت له بعد حصار دام سبعة أشهر، وانحصر سلطان الصفويين في الشمال، فاتجه مير محمود إلى تلك الجهات، إلا أن بعض المدن بدأت تثور عليه، ولكنه استطاع أن يجذب الأكراد إليه نتيجة الاتفاق في المذهب، فأخضع ثورات المدن.

كانت رغبة قيصر روسيا بطرس الأكبر التوسع في إيران، لذا لم يعترف بحكم مير محمود، وأبدى تأييده للسلطان حسين، وأرسل إليه وفداً ليتعرف على رأيه واتجاهه. ثم زحف على رأس جيشٍ مؤلفٍ من اثنين وعشرين ألف مقاتل بحجة إنقاذ فارس من طغيان مير محمود، واحتل باب الأبواب (دربند)، واتجه نحو (شماكا) فوجد أن العثمانيين قد احتلوها، وهددوه بأن أي تقدّم على حساب الفرس يعني الحرب مع الدولة العثمانية فتوقّف. ثم إن الأفغانيين كانوا يشددون الضغط على مدينة (رشت) فاستنجد حاكمها بالروس فأنجدوه واحتلوها، وعقد ولي العهد طهماسب الثاني معاهدة مع الروس تنازل لهم بمقتضاها عن (شروان، وجيلان، وداغستان، ومازندران)، فاستنجد أهل شروان بالدولة العثمانية لا بصفتهم من أهل السنة وإنما من طغيان الكفر الروسي، فاتفق الروس والعثمانيون على تقسيم فارس، وكانت المعاهدة بين الطرفين على النحو التالي:

١ ـ تأخذ روسيا سواحل بحر قزوين وجيلان ومازندران إلى شمال المجرى الجنوبي لنهر أراس، أو بالذي تنازل فيه طهماسب للروس.

٢ ـ تأخذ الدولة العثمانية الولايات الغربية.

٣ ـ إذا وافق طهماسب على هذه الاتفاقية اعترف به شاهاً على فارس.

٤ ـ يتحالف العثمانيون والروس ضد أية محاولة يقوم بها طهماسب لاسترداد ما أخذه الطرفان.

احتل الروس ما أعطتهم الاتفاقية، وتقدم العثمانيون أيضاً ووصلوا إلى همدان، واحتلوا تبريز بعد مقاومة. وبدأ مير محمود بالمذابح التي استمرت

أسبوعين أنهى خلالهما على الأسرة الصفوية باستثناء الشاه حسين، ومن لم تطله يده، وشعر الأفغان ما وصل إليه مير محمود لذا استدعوا الأمير أشرف من أفغانستان ونصبوه ولياً للعهد، ثم خلعوا مير محمود وسلّموا الأمر لأشرف عام ١١٣٧.

جاء أشرف ابن عم محمود إلى السلطة، وكانت الأمور حرجة، وولي العهد الفارسي السابق طهماسب الثاني يُقيم في مازندران، ويعدّ نفسه الشاه الشرعي للبلاد، وقاتل أشرف العثمانيين فانتصر على والي بغداد أحمد باشا انتصاراً كبيراً وفرّت فلول الجيش العثماني، ولكنه لم يتعقبه بل ردّ إليه الغنائم فكان هذا مجالاً للتفاهم بين الطرفين إذ اعترف أشرف بأن السلطان العثماني خليفة للمسلمين، وأبقى للعثمانيين الذي كان في أيديهم، واعترف العثمانيون بأشرف شاهاً على فارس. وربما كان سبب هذه الاتفاقية قوة طهماسب الثاني الذي أيّده نادرخان، وكان ذلك كله عام ١١٤٠.

وكان نادر خان طموحاً، ومن قطاع الطرق، ومع الفوضى برز اسمه، وجمع حوله عدداً من الرجال، وعمل باسم طهماسب، وسيطر على هراة ومشهد، واستطاع أن ينتصر على جند أشرف عندما داهموه عام١١٤١، ولاحقهم فاعتصم أشرف بمدينة أصفهان، فألقى نادر خان الحصار عليها، ولم يثبت أشرف أمامه بل فرّ وفلول جيشه نحو شيراز، ولكن قبل أن ينسحب قتل الشاه حسين الذي كان بيده، ودخل طهماسب أصفهان، وتابع نادر خان الأفغانيين حتى أخرجهم، وسقط أشرف قتيلاً عام ١١٤٢، وبهذا خرج الأفغانيون بعد سبع سنوات من دخولهم عام ١١٣٥.

طهماسب الثاني:

انتصر نادر خان على العثمانيين، وهزمهم عند همدان، وسيطر على أذربيجان، وحاصر أريفان عاصمة أرمينيا إلا أنه اضطر أن يترك الحصار وأن يتجه نحو خراسان حيث حدث تمرّد هناك.

أراد طهماسب الثاني أن يُظهر مكانته، وألا يكون في زاويةٍ ميتةٍ أمام

قائده نادر خان فانقضّ على الجيش العثماني عام ١١٤٤ ظناً منه أن هذا الجيش لن يقوى على القتال لهزيمته منذ مدةٍ قصيرةٍ لكن أمله قد خاب، وهُزم أمام العثمانيين هزيمةً منكرةً، واضطر لعقد معاهدة معهم يتنازل فيها، عن جزءٍ من أراضيه، وليجعل العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه فيسكتون عنه، وقد تنازل في هذه المعاهدة عن شروان، وتفليس، وأريفان، وهمدان، ولورستان. ولم تشر هذه المعاهدة إلى الأسرى الفرس.

نادر خان والأفشار:

وجد نادر خان الفرصة ليعلن سيطرته فانتقد هذه المعاهدة، وحذّر الخليفة العثماني، وطلب منه إعادة الولايات إلى أصحابها، وسار إلى أصفهان، وقبض على الشاه طهماسب، ووضع ابنه الطفل عباس الثالث في السلطة، وأعلن نفسه وصياً عليه عام ١١٤٥، ثم حاصر الموصل وبغداد، ولكنه هُزم، ثم ما لبث أن كرر الهجوم فأحرز النصر، وقتل القائد العثماني عثمان باشا، وفشل في التفاهم مع شركة الهند الشرقية البريطانية لدعمه لاحتلال البصرة، وأراد أن يُتابع القتال ضد العثمانيين، ولكن تمرداً قام ضده في فارس جعله يعقد معاهدة مع أحمد باشا والي بغداد العثماني بحيث تعود الولايات التي أخذها العثمانيون عام ١١٤٤ إلى الفرس، أي أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التوسع العثماني، ولكن الخليفة العثماني لم يوافق على هذه المعاهدة، وكان نادر خان قد أنهى وضعه في فارس، فسار إلى الجبهة العثمانية واستدرج الجيش العثماني الذي كان بقيادة عبد الله كوبريللي، فانتصر عليه، ودخل تفليس، وأريفان، واضطر الخليفة العثماني عندها على الموافقة على الاتفاقية التي عقدت بين نادر خان ووالي بغداد أحمد باشا. ثم استردّ نادر خان مازندران، وجيلان بمعاهدة رشت التي عقدها مع الروس ١١٤٥، إذ وافقت الإمبراطورة آن على ذلك، ولم تكن عندها مقدرة سلفها بطرس الأكبر، ثم استرد باكو، ودربند (باب الأبواب) مهدداً بالتحالف مع العثمانيين ضد الروس.

وتوفي الشاه الطفل عباس الثالث عام ١١٤٨، وأصبح نادر خان هو سيد البلاد، واتجه إلى بلاد الأفغان، واحتل قندهار بعد حصارٍ دام عاماً، كما استولى على بلخ، وهزم جيشاً للأوزبك. ثم اتجه إلى الشرق فدخل كابل، وبيشاور، وانتصر على جيش محمد شاه، ودخل دهلي ١١٥١، ولم يعلن نفسه سلطاناً على الهند، وإنما أبقى محمد شاه سلطاناً هناك، وإن أخذ نادر شاه مقاطعات شمالي السند. كما اجتاح عمان عام ١١٥٠.

عاد نادر خان إلى فارس، وسار عام ١١٥٢ فاحتلّ بخارى، وخوارزم، وعندما رجع من الهند وجد أن قبائل اللزكي في جبال القفقاس قد اعتدت على داغستان فأراد أن يُؤدّبها لكنه هُزم هزيمة منكرة أثّرت على نفسيته، وبدأت الحركات تقوم عليه، فقامت حركة في شروان وأخرى في فارس، وثالثة في استراباد، ثم شن حرباً على العثمانيين، وحاصر الموصل، وقارص، ورغم معاناته الكثيرة من الهجمات العثمانية إلا أنه انتصر في النهاية، وعقد معهم معاهدة عام ١١٥٩.

فشل نادر خان في إنشاء أسطول فارسي، وفشل في إعادة المذهب السني إلى فارس، حيث عمل على جعل مذهب الإمام جعفر الصادق مذهباً خامساً بين المسلمين، ولكن العثمانيين لم يقبلوا هذا ووافق الفرس على كره.

ثار عليه عمه في سيستان على حدود أفغانستان اليوم، وأعلن نفسه شاهاً، وثار عليه الأكراد فسار لتأديبهم فقُتل وهو في طريقه إليهم عام ١١٦٠.

الأفشار بعد نادر خان:

سُرّ قادة نادر خان لمصرعه بسبب كثرة ساحات القتال التي كانوا ينتقلون إليها، ولكن اختلف معهم أحدهم، وهو أحمد خان الدوراني الذي كان يقود الأفغان والأوزبك، واصطدم مع بقية القادة، ودار قتال بين الطرفين، هُزم فيه أحمد خان، فانسحب إلى قندهار فأسس فيها مملكةً، ثم استولى على هراة، ومشهد، وغزا الهند فاستولى على كشمير، والسند، وجزءٍ من البنجاب، وسيطر على دهلي مدةً قصيرةً.

أما سلطان الفرس فقد أسند إلى علي قولي ابن أخي نادر خان الذي عُرف باسم (عادل شاه) فقضى على أسرة عمه كلها سوى حفيده شاه رخ مرزا بن رضا قولي بن نادر خان، ولكن ثار على عادل شاه أخوه إبراهيم وخلعه، ولكن إبراهيم لم يلبث أن قُتل، ثم قُتل أخوه عادل شاه أيضاً

وتولّى الحكم شاه رخ مرزا حفيد نادر خان وكانت أمه بنت الشاه حسين، ولكن نافسه مرزا سيد محمد الذي أعلن للناس أن شاه رخ يسير على سياسة جده في القضاء على المذهب الشيعي، وقاتله، وانتصر عليه، وقبض عليه، وأعلن نفسه شاهاً باسم الشاه سليمان، وقام يوسف علي قائد جيش شاه رخ فقبض على الشاه سليمان وقتله وأولاده، وأعاد شاه رخ إلى الحكم، وأصبح هو وصياً عليه بصفته أعمى وصغير.

ظهر قائدان آخران هما: علم خان الذي يقود قواتٍ عربيةٍ، وجعفر خان الذي يقود قواتٍ كرديةٍ، فقبضا على يوسف علي وقتلاه، وأعيد شاه رخ إلى السجن، ثم اختلف القائدان، واصطدموا، وكانت نتيجة الصدام أن انتصر علم خان الذي هُزم أمام أحمد خان الدوراني شاه قندهار فقتل، وخسر هراة ومشهد عام ١١٦٤ ـ كما ذكرنا ـ. وبقيت خراسان عامة ولاية فارسية تخضع لحكم أحمد خان، وتتبع اسمياً لشاه رخ الذي بقي حتى عام ١٢١٠ في السجن. فانتهى إذن حكم الأفشار، وإن كان لشاه رخ إمرة اسمية على جزءٍ صغيرٍ لا يخضع له.

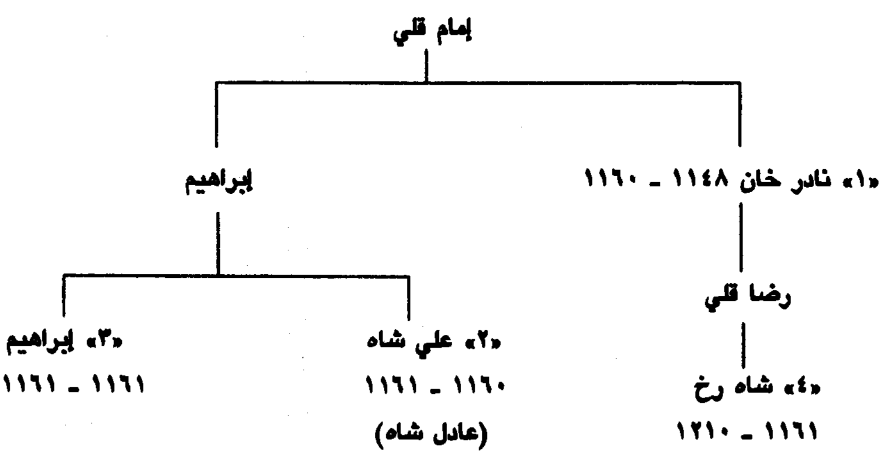

الزنديون وكريم خان:

ظهر كريم خان الزندي الكردي الذي كان في جيش نادر خان، وقد تحالف مع علي مردان زعيم البختيار، ثم اختلف معه وقتله، وأصبح سيّد الجزء الجنوبي.

اختلف كريم خان مع محمد حسين خان، ومع أسد خان الأفغاني، وانتصر كريم خان على القاجار، وهاجم أسد خان الذي اعتصم في قزوين وأخذ يتقوّى حتى انتصر على كريم خان، وألجأه إلى التراجع إلى بوشهر، ولكن عادت إليه قوته فأحرز النصر على خصمه ورجع إلى شيراز، وانتصر على منافسيه وحكم مدة ثلاثين سنة أو أكثر (١١٦٣ ـ ١١٩٣) فنعمت البلاد في عهده بالرخاء والاستقرار، وعادت التجارة الأوربية. وتعاون مع الإنكليز، واستفاد من أسطولهم لإخضاع مير مهنا المتمركز في(بندر رق). واستطاع أن يدخل البصرة، وأن يعطي أمرها لأخيه صادق خان عام ١١٨٩، وبقوا فيها حتى توفي كريم خان.

الزنديون بعد كريم خان:

انقضّ على الحكم بعد وفاة كريم خان أخوه لأمه زكي خان، ولكن المنافسة قامت ضدّه إذ قام في شيراز أبو الفتح بن كريم خان وأعلن نفسه شاهاً، غير أن زكي خان لجأ إلى الحيلة فأعلن أنه جندي من جنود ابن أخيه، فاستطاع بذلك أن يأمن قادة أبي الفتح وأن يُنسّق الخطة، ولمّا تمكّن أعمل السيف في منافسيه، ودعمه في شيراز ابن أخته مراد خان.

وقام في وجه زكي خان أيضاً صادق خان أخو كريم خان الذي عهد إليه أخوه وهو على فراش الموت بالوصاية على أبنائه. ولكنه هدد زكي خان بإبادة أسرة كل من يتعاون مع صادق خان.

وقام القاجار في وجه زكي خان بقيادة آغا محمد. وبعث زكي خان جيشاً إلى أصفهان بقيادة علي مراد خان الذي لم يلبث أن انقلب ضده، واغتيل زكي خان عام ١١٩٥.

أصبح أبو الفتح بن كريم خان صاحب السلطة فسجن أكبر خان بن زكي خان، كما سجن أخاه محمد علي خان المتزوج من ابنة زكي خان، ولكنه ظهر صادق خان، وفرض نفسه على ابن أخيه، وبعد شهرين أقصاه، وتفرّد بالسلطة. وقام علي مراد خان ينافسه حيث رغب في الزواج من ابنة كريم خان، وحال صادق خان دون ذلك، وتمكّن علي مراد خان أن يستولي عام ١١٩٦ على أصفهان، على حين استولى صادق خان على شيراز، ثم استطاع علي مراد خان من دخول شيراز، واستسلم له صادق خان فقضى على أسرته جميعها باستثناء جعفر خان.

زحف علي مراد خان على مازندران حيث يرابط القاجار، فاستغلّ جعفر خان الفرصة وقام بثورة في زنجان، فعاد علي مراد خان مسرعاً، ولكنه توفي في الطريق، وخلا الجو لآغا محمد قاجار الذي انتصر على جعفر خان، ودخل أصفهان، ولكنه هُزم أمام زعيم البختيار فاستغلّ جعفر خان الفرصة، ودخل أصفهان، لكنه ثار عليه ابن عمه إسماعيل خان في همدان، وحاول جعفر خان أن يفرض سلطته على لورستان، وكرمان ولكنه مات مسموماً عام ١٢٠٣، فلما وصل خبر وفاته إلى ابنه لطف الله خان هرب إلى ميناء بوشهر، ولكنه لم يصمد أمام القاجاريين، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر، ثم تراجع إلى كرمان، وحاول التفاهم مع تيمور شاه الأمير الدوراني في قندهار، ولكنه توفي تيمور شاه. وأخيراً استسلم لطف الله خان إلى آغا محمد قاجار فقتله عام ١٢٠٩، وأباد أسرة الزند، وأصبح سيد البلاد آغا محمد.

القاجاريون:

مؤسس الأسرة القاجارية هو آغا محمد قاجار، ولد عام ١١٥٥، ووقع بيد عادل شاه، وأصبح خصياً عام ١١٦٠، وتزوّج كريم خان الزند أخته فأكرمه، وعندما توفي كريم خان عام ١١٩٣، انسحب آغا محمد إلى الشمال، وأعلن نفسه شاهاً، واتخذ من طهران قاعدةً له ومقراً لحكومته،

وكانت البلاد مقسمة فبدأ في الصراع حتى انتهى من أسرة الزند عام ١٢٠٩، ولكنه لم يلبث أن قتل عام ١٢١١.

تولى بعد آغا محمد أو الشاه محمد ابن أخيه فتح علي شاه، ولكن الجيش قد انقسم على نفسه، وبرزت الزعامات من جديد مجرد أن مات الشاه محمد، فقد ثار صادق خان شكاكي وتمكّن فتح علي شاه أن يهزمه، وقام محمد خان بن زكي خان الزندي واحتل أصفهان، فاستطاع فتح علي شاه أن يُخلّصها منه، وأن يقضي عليه، واختلف فتح علي شاه مع أخيه حسين قولي خان فاستغلّ سليمان خان قاجار هذا الخلاف، وأعلن العصيان، واتفق الأخوان، وفرّ سليمان خان، غير أن فتح علي خان قد عفا عنه، وولاّه أذربيجان، وقام نادر مرزا واستولى على مشهد قادماً من أفغانستان التي فرّ إليها من وجه آغا محمد قاجار، وسار إليه الشاه، فاستسلم له، فعفا عنه، واستمر حكم فتح علي شاه حتى توفي عام ١٢٥٠، أي أن حكمه قد استمر تسعاً وثلاثين سنة، وربما كانت هذه المدة من أخطر المراحل التي مرت فيها البلاد، إذ ما استلم الحكم عام ١٢١١ حتى نزل نابليون بونابرت في مصر عام ١٢١٣، وذعرت إنكلترا لذلك أشد الذعر، ودخلت المنطقة كلها في حلبة الصراع الدولي، أو هكذا عملت إنكلترا لتأمين الخطر الفرنسي الذي صوّرته أكثر من واقعه فنشرت الدعايات، وأخافت الحكام حتى لا يستطيع المرء أن يُصدّق ما نُشر يومذاك، وليس له من ثقة بوثائق تلك المرحلة، ولعلّ من جملة تلك الدعايات أن نابليون يريد أن يؤسس إمبراطورية في الشرق، وخاصة في فارس ويجعل أخاه إمبراطوراً عليها.

كانت إنكلترا تريد أن تتفق مع فارس لتكون سدّاً في وجه الفرنسيين من جهة، وفي وجه الروس الذين يتفقون أحياناً مع الفرنسيين، ورداءاً للهند فيما إذا تعرّضت لغزو أفغاني، وطريقاً للتجارة الإنكليزية في الخليج العربي، وفي سبيل هذه الأهداف كانت البعثات الإنكليزية تتوالى على طهران سواء أكانت من إنكلترا مباشرةً أم عن طريق حكومة الهند، وقد

تتضارب الأهداف فتفتر العلاقات مع إنكلترا، ويزيد الضغط الفرنسي، لكن لا تلبث أن تعود إلى سابق عهدها بسبب السياسة الفرنسية التي قد تتفق مع السياسة الروسية أحياناً. ولم تترك إنكلترا منطقة الأفغان خارج دائرة اللعبة الدولية إذ كانت تحرص أن تكون ضمن دائرة نفوذها لتتجنب غزو الهند من جهتها، ولتأمين أي اتفاقٍ بين الروس والفرس أو الفرنسيين والفرس.

وكان شاه فارس يطمع في ضمّ بلاد الأفغان إليه، أو ضمّ كل جزء خضع للنفوذ الصفوي سابقاً. وكان أخان لزمان شاه حاكم منطقة الأفغان عند فتح علي شاه وهما: فيروز ومحمود يناوئان أخاهما، فأرسلهما شاه فارس على رأس قوةٍ إلى أفغانستان ولكن لم ينجحا، فسار بنفسه وقضى على ثورة اندلعت ضده في خراسان، ثم اتجه إلى أفغانستان، فانسحب نظام شاه من لاهور وبيشاور واتجه للدفاع عن أفغانستان من فتح علي شاه، وسقط نظام شاه عام ١٢١٦.

ووقّعت إنكلترا معاهدةً مع فارس عام ١٢١٦ تنصّ على استمرار مقاومة الإنكليز والفرس لأيّ غزو أفغاني للهند، ولا يتمّ الصلح مع الأفغان حتى ينسحب الأفغانيون تماماً من بلاد الهند، وتمدّ إنكلترا فارس بالسلاح فيما إذا تعرّضت لغزوٍ فرنسي أو أفغاني... ولكن المعاهدة لم توقّع لأن إنكلترا كانت تتهرب من دعم فارس ضد روسيا خوفاً من زيادة العلاقة بين روسيا وفرنسا، وخوفاً من قوة فارس المسلمة ضد روسيا النصرانية، فالعداء للإسلام في نفسية كل نصراني، وقبل كل شيء. وأبدت فرنسا رغبة دعم فارس لذا حدث تقارب فارسي فرنسي ووقعت معاهدة بين الطرفين عام ١٢٢٢، ولكن بعد شهرين وقعت معاهدة تليست بين روسيا وفرنسا، ترك الفرنسيون فيها يد الروس بالتوسع على حساب الدولة الفارسية أو العثمانية، وللتسوية السياسية أرسل نابليون بعثةً إلى طهران، استقبلت بحفاوةٍ، وتنازل الشاه عن جزيرة (خرج) للفرنسيين، ولكن هاجمت روسيا أريفان عاصمة أرمينيا التابعة للفرس عام ١٢٢٣ فانكشفت السياسة الصليبية الفرنسية أمام الفرس.

أرسلت إنكلترا وفداً إلى فارس عام ١٢٢٣، وقد نجح الوفد في مهمته لأن الشاه كان قد نفض يده من الفرنسيين نهائياً، وعقد الوفد معاهدةً مع الشاه موجهةً ضد فرنسا. وفي الوقت الذي سبق بقليل أرسلت إنكلترا وفداً إلى أفغانستان للتفاهم مع شجاع شاه لعقد معاهدة ضد غزو فرنسي فارسي، وتعهدت إنكلترا بمدّ شجاع شاه بالأسلحة.

هُزمت فارس أمام روسيا فأسرعت إنكلترا لعقد معاهدة مع الفرس لتحصل على ما حصل عليه الروس إثر انتصارهم، وكانت معاهدة ١٢٣٠. ثم هُزمت فارس ثانيةً أمام الروس في الحرب التي دارت بين الطرفين (١٢٤٢ ـ ١٢٤٤)، وقد تخلّت إنكلترا عن دعم فارس بحجة أنها هي التي أعلنت الحرب، فالنصارى بعضهم أولياء بعض.

العلاقات مع روسيا:

كان حاكم جورجيا هرقل قدانتهز مصرع نادر شاه عام ١١٦٠، وضمّ إليه بعض الأجزاء التي كانت تخضع لفارس، وبدأت قيصرة روسيا كاترين الثانية تُحرّض جورجيا على تهديد فارس مجرد أن وصل إلى الحكم آغا محمد قاجار عام ١١٩٣، ثم عقدت كاترين الثانية معاهدة مع جورجيا عام ١١٩٨ وتعهدت لها بحمايتها غير أن آغا محمد قاجار قد سار على رأس قوةٍ عام ١٢١٠ واحتل تفليس بعد جهد، ثم احتل أريفان، ولكن أخاه مرتضى قد فرّ إلى روسيا مغاضباً له، ومقابل الحماية الروسية لجورجيا فقد سار جيش روسي عام ١٢١١، واستولى على دربند، وباكو ثم عسكر في وادي موغان، ولكن توفيت القيصرة كاترين الثانية، وخلفها القيصر بول، وكان مسالماً فانسحب من الأراضي الفارسية. وغدا آغا محمد فغزا جورجيا عام ١٢١١، ونجح في غزوته تلك، ولكنه صرع عام ١٢١١،

وفي عام ١٢١٥ فتح حاكم جورجيا غورجين أبواب بلاده أمام الروس الذين تقدّموا في أراضي فارس التي اضطرت إلى عقد معاهدة معهم عام ١٢٢٨ هي معاهدة كلستان تنازل فيها فتح علي شاه عن دربند، وباكو،

وشيروان، وقره باغ، وجزءٍ من تاليش، وعن جورجيا، وداغستان، ووافق على ألا يكون لفارس أسطول في بحر الخزر.

شنّ الفرس حرباً على العثمانيين عام ١٢٣٥ استهدفت العراق، واستمرت الحرب عدة سنوات، واستعاد الفرس بعض ما كانوا فقدوه، ولم يكن بإمكانية الدولة العثمانية دعم واليها في بغداد داود باشا لذا فقد استنجدت بواليها على مصر محمد علي باشا الذي تخلّص من هذه المهمة بالحيلة حيث كان موقفه سلبياً، ولكن الكوليرا أصابت الجيش الفارسي، واضطر قائده محمد علي مرزا إلى عقد معاهدة أرضروم ١٢٣٨. وما أن هدأت الحرب مع العثمانيين، حتى شن الروس الحرب على الفرس عام ١٢٤١ واحتلوا تبريز، ووقع الطرفان بينهما معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ غير أن الشاه توانى في توقيع المعاهدة فهدد الروس بالزحف على طهران وحث وزير بريطانيا لدى الفرس الشاه على توقيع المعاهدة فوقعها. ولم تكن جهود المسلمين موحدة، واستغل الصليبيون هذه الناحية فنلاحظ أن روسيا قد انتصرت على الفرس، وعقدت معهم معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ وأذلتهم، ثم التفتت إلى العثمانيين وانتصرت عليهم، وعقدت معهم معاهدة أدرنة عام ١٢٤٤. وفي الوقت نفسه فإن الصليبيين بصفتهم أعداءً يحرصون الحرص كله كي لا يتفق المسلمون، ولا تكون لديهم أية قوة، فإنكلترا مثلاً بعد أن سيطرت على منطقة الخليج العربي لا تريد أن تكون البصرة والأهواز بيد دولةٍ مسلمةٍ واحدة سواء أكانت الدولة العثمانية أم الفارسية لأن ذلك يشكل خطراً عليها إذ يصبح من الصعب مقاومتها، لذا كانت تقف بجانب الفرس للحصول على الأهواز. وقد انتصر الفرس على عشائر بختيار، واستولوا على عربستان، وفرّ إلى العراق تامر شيخ قبائل كلب، ثم تابع الفرس زحفهم، وفرت قبيلة بني لام من سفوح جبال لورستان الغربية.

محمد شاه:

توفي فتح علي شاه عام ١٢٥٠، وخلفه حفيده محمد شاه بن عباس

مرزا، وفي أيامه كانت أفغانستان مسرحاً للمناورات الروسية والإنكليزية، ونازع محمد شاه عمه الذي كان حاكم فارس. كما ثار عليه بعض الأمراء القاجاريين ولكنه انتصر عليهم، وثار في عهده آغا خان زعيم الإسماعيلية، وكانت ثورته في إقليمي كرمان، ولورستان، ولكنه فشل في ثورته ففرّ إلى الهند، واستمرت غارات الإسماعيليين على البلاد من الهند لإنهاكها، وظهر أن الإنكليز كانوا الدعم الرئيسي لهذه الحركة. وظهرت في أيامه أيضاً حركة البابيين، وبدأت تنمو بتأييدٍ ودعمٍ من الروس.

وتوغل دوست محمد أمير الأفغان في منطقة سيستان فتحرّك الشاه إلى هراة.

واحتل الإنكليز جزيرة خرج عام ١٢٥٨، وبدؤوا يهددون ميناء بوشهر والساحل الإيراني.

ناصر الدين شاه:

توفي محمد شاه عام ١٢٦٤، فتولّى مكانه ناصر الدين شاه، وفي أيامه قام البابيون بثورتهم عام ١٢٦٤، ولكنها فشلت وأعدم الباب ميرزا علي محمد رضا الشيرازي، وقرة العين فاطمة بنت صالح القزويني تلك المرأة العاهرة التي كانت داعية البابيين، ونفي حسين بن علي المازندراني «بهاء الله» الذي أسس البهائية، وارتبط مع الإنكليز وأخوه يحيى «صبح الأزل».

ساعدت إنكلترا عام ١٢٧٢ أمير كابل دوست محمد، وفتحت على فارس جبهة في جهة الأفغان، وفي الوقت نفسه فتحت عليها جبهةً أخرى من الغرب على الساحل الإيراني إذ استولت على ميناء بوشهر ثم على المحمرة عام ١٢٧٣، ثم جرى الصلح، وانسحبت القوات الفارسية من هراة، ومن كل الأراضي التي عُرفت باسم أفغانستان.

وبدأت القروض الروسية تتدفق على إيران الأمر الذي جعل لروسيا حق الإشراف على إيران.

نهاية القاجاريين:

صرع ناصر الدين شاه عام ١٣١٣، وقام بالأمر مكانه مظفر الدين شاه، وفي أيامه زادت المطالبة بالدستور، وبالمجلس النيابي، وفي أواخر حياته وجد المجلس التشريعي وتوفي عام ١٣٢٤.

خلفه محمد علي شاه الذي حكم سنتين (١٣٢٤ ـ ١٣٢٦)، وفي أيامه جرى الاتفاق بين روسيا وإنكلترا على تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ لهما عام ١٣٢٥، وزادت الحركات في وجهه ففرّ إلى قزوين عام ١٣٢٦.

وقام أحمد باشا بن محمد علي شاه، وكان منصرفاً عن أمور الدولة إلى حياته الخاصة، فكانت النقمة عليه كبيرة، وزحف رضا بهلوي قائد فرق القوزاق عام ١٣٣٩ على طهران وسيطر عليها، وأجبر الشاه على تشكيل حكومةٍ برئاسة ضياء الدين طباطبائي، وتولّى رضا بهلوي فيها وزارة الحربية، ولكن تجزّأت البلاد إذ تشكّلت حكومة كردية في أذربيجان، ووجد تمرّد أيضاً في منطقة جيلان، ولكن رضا بهلوي استطاع أن يسيطر على المنطقتين، وتخلّى الإنكليز عن دعم الشيخ خزعل في عربستان، وساعدوا رضا بهلوي على مد نفوذه إليها عام ١٣٤٣.

سافر الشاه إلى أوربا، ولم يعد، إذ لم يوافق الشعب على عودته، وأعلن رضا بهلوي نفسه شاهاً.

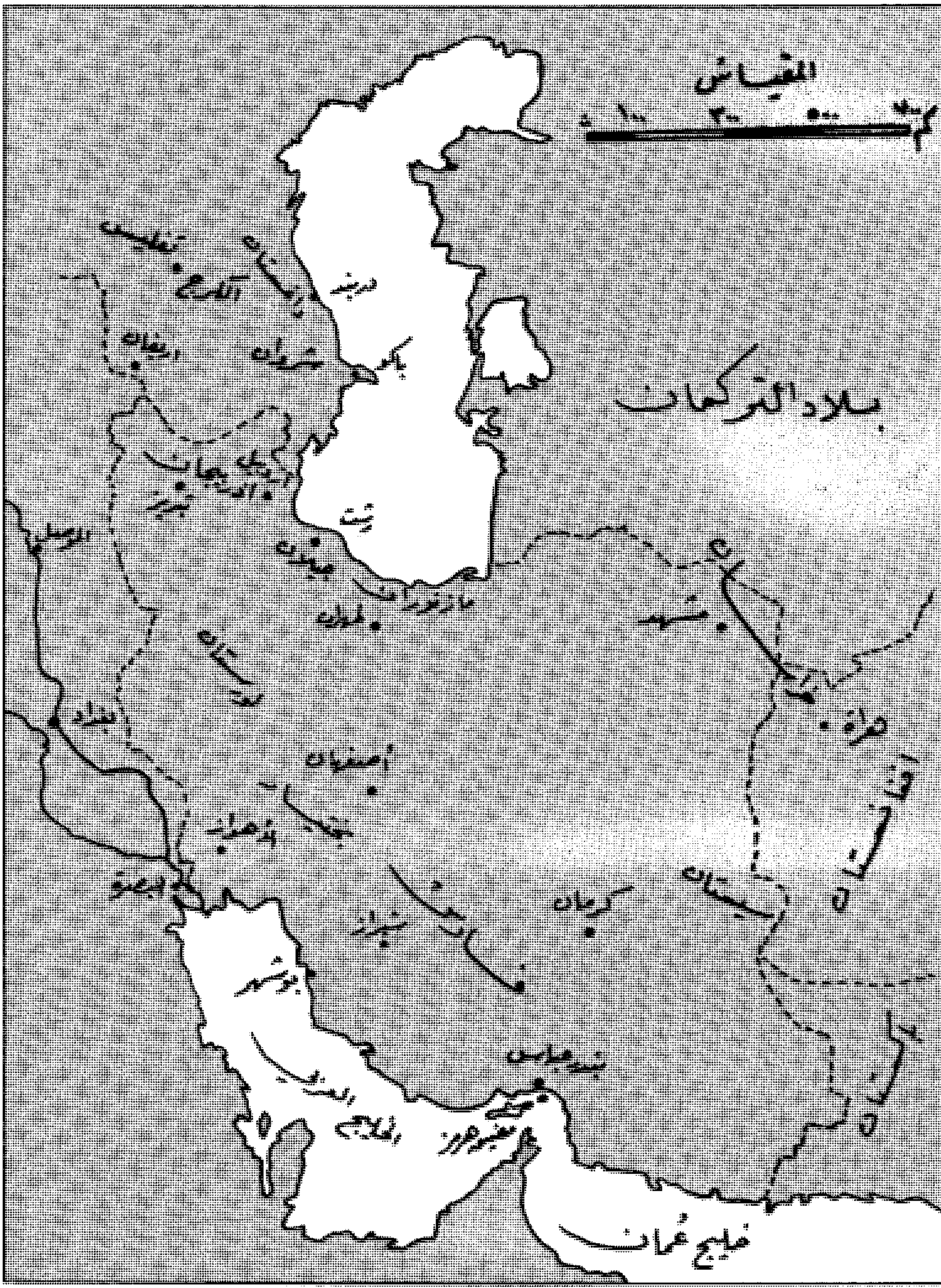

مصور رقم [٣١]

الفصل السادس

بلاد الأفغان

خضعت بلاد الأفغان لحكم التيموريين، ولما ضعفت دولتهم انقسمت إلى إمارات، فكانت هراة تحت حكم خراسان التي يسيطر عليها حسين بيغرا التيموري، بينما تمكّن محمد بابر شاه ظهير الدين أن يُخضع كابل وغزنه بعد تركه بلاد ما وراء النهر لمحمد الشيباني زعيم الأوزبك عام ٩١١، وبقي في كابل ما يقرب من عشرين عاماً، ثم استدعاه أمراء اللوديين إلى الهند لخلافهم مع ملكهم إبراهيم بن إسكندر بن بهلول اللودي فاستطاع أن يدخل الهند عام ٩٣٢ بعد انتصاره على إبراهيم الذي قُتل في معركة (ياني يت) التي دارت بين الطرفين، وقُتل خمسة آلاف من جنوده، وأقام بـ(أغره)، وبقيت كابل وغزنه تتبعه، وتوفي عام ٩٣٧.

خلفه ابنه نصير الدين همايون شاه، فخرج عليه شيرشاه، واستطاع أن يهزمه، وفرّ همايون شاه إلى الصفويين حيث أقام مدةً ضيفاً على طهماسب شاه عام ٩٤٧، ثم عاد فاتحه إلى الهند، ودخل قُندُهار، وكابُل عام ٩٥٢، ثم إن الشاه عباس الأول استولى على قندهار، غير أن الصفويين لم يلبثوا أن ضعفوا من بعده، فسيطر الأوزبك على قندهار، ثم استطاع ملك الهند المغولي شاه جهان أن يطرد الأوزبك من قندهار عام ١٠٢١، وأن يُسلمها إلى الشاه عباس الثاني عام ١٠٣٨، ثم حاول أورنكزيب دخول قندهار لكنه عجز مع أن ملكه قد امتد إلى بخارى وخُوارزم، وبعد أورنكزيب فقد تبعت كابل وقندهار وغزنة إيران، أما هراة فكانت أغلب المدة السابقة تتبع إيران، وهكذا فإن بلاد الأفغان المعروفة باسم أفغانستان اليوم كانت تتعاقب عليها

ملوك الهند، وملوك فارس أو أن هراة تتبع فارس في أغلب الأحيان وكابل، وغزنه، وقندهار تتبع الهند وأحياناً يأخذها ملوك فارس.

بعد أن تبعت قندهار إيران بعد وفاة أورنكزيب عين الفرس عليها حاكماً نصرانياً من جورجيا، فتصرّف تصرّف المستبد، وأساء إلى الأهالي، فتمكّنوا بإمرة مير أويس أن يبعدوه وأن يحلّ مير أويس مكانه عام ١١٢٠، وسكت الفرس عن هذا لأن إمكاناتهم كانت ضعيفة، فلما قوي مير أويس بدأ يهاجم الفرس، فعندما أرسلوا إليه قوة انتصر عليها، كما انتصر على جيش أرسل إليه من جورجيا بقيادة خسرو ابن أخي حاكم قندهار السابق، فسقط خسرو صريعاً في المعركة عام ١١٢٣. ثم عاد الفرس فأرسلوا حملةً قويةً لإعادة قندهار إلى نفوذهم فعجزوا، وفرّ قائد الحملة محمد رستم. وتوفي مير أويس عام ١١٢٧، وقد أوصى لابنه محمود بالحكم من بعده إذ أصبحت قندهار إمارة مستقلة، لكن محموداً كان صغيراً لم يتجاوز الثانية عشرة فاستبد عمه عبد الله بالأمر، وعمل على التفاهم مع الفرس ليتمكن من استلام الحكم، وقد كان التفاهم على إلغاء ما كانت تدفعه قندهار إلى فارس، وعدم محاولة الفرس لإخضاع قندهار بالقوة، وتأسيس أسرة تحكم قندهار بالوراثة هي أسرة عبد الله. غير أن السكان قد غضبوا لفعل عبد الله هذا إذ أضاع انتصاراتهم، وقام محمود بن مير أويس، وقتل عمه عبد الله، وتسلّم حكم الإمارة. وهذا ما شجّع قبائل الدورانية (العبدلية) في هراة بقيادة زعيمهم أسد الله على محاربة الفرس، والاتفاق مع الأوزبك، فقد أحرزوا الانتصار، وأسسوا أيضاً إمارةً في هراة كانت على صلات حسنة مع إمارة قندهار ما دامتا معاً ضد الفرس.

وبدأ القتال بين مير محمود والفرس وتمكن زعيم قندهار من إحراز النصر، وتابع تقدمه نحو أصفهان، وجرت معارك جانبية في جهات مختلفة، وسقطت أصفهان عاصمة الصفويين أخيراً بيد مير محمود عام ١١٣٥، ولم يبق للصفويين إلا رقعة صغيرة في الشمال حيث يقيم طهماسب الثاني في إقليم مازندران، وبدأت قوة مير محمود تتراجع بسرعة

والروس تقدّموا من الشمال، وطلب الفرس منهم الدعم، إلا أن العثمانيين قد هددوا الروس فتوقفوا، ثم اتفق العثمانيون والروس على أخذ كل من الجانبين جزءاً من فارس، وضعف مير محمود عقلياً، فاستدعى الأفغان ابن عمه أشرف بن عبد العزيز، ونصبوه حاكماً بدل ابن عمه، فحارب العثمانيين واحتج عليهم باتفاقهم مع الروس النصارى ضد المسلمين، ثم اتفق مع الدولة العثمانية، ولكن قامت الحركات ضده في كثيرٍ من الجهات.

ظهر نادر خان ووقف بجانب طهماسب، وخاض المعارك، فدخل مشهد وهراة اللتين كانتا بيد الأفغان، وتقدم طهماسب نحو أصفهان فغادرها أشرف بعد مقاومةٍ بسيطة، وبعد أن قتل الشاه حسين الذي أبقاه من بين أفراد الأسرة الصفوية، وبذا أصبح طهماسب هو الشاه بعد أن كان ولياً للعهد، وقتل أشرف عام ١١٤٢، وهو يتجه نحو قندهار، وقد تفكّك جيشه، وتشتت جموعه وهي تسير نحو بلادها.

تابع نادر خان زحفه على قندهار وكانت تحت إمرة حسين أخي مير محمود فدخلها، كما أرسل جيشاً دخل بلخ لأن حاكمها وعد مير حسين حاكم قندهار بالدعم، ثم احتل كابل وغزنه وكانتا تحت حكم ملوك الهند المغول، إذ اختلف معهم، ودخل الهند، وهكذا أصبحت بلاد الأفغان ثانيةً تحت سيطرة الفرس، وعندما قُتل نادر خان عام ١١٦٠ في بلاد شروان أسرعت الفرقة الأفغانية التي كانت معه عائدةً إلى بلادها، واستقرت في قندهار، ونادت بقائدها أحمد خان عام ١١٦٣ أميراً على قندهار باسم أحمد شاه الإبدالي، وهو من الأسرة الدورانية، وعرفت إمارته باسم الدولة الأفغانية، وسمّى عاصمته قندهار أحمد شاهي.

بدأ أحمد شاه يوسع دولته فقد ضمّ ولايات كشمير، ولاهور، والملتان، وقاتل السيخ، والهندوك الذين تعاونوا على القضاء على الدولة الإسلامية، واضطر أخيراً أن يعود إلى بلاده بسبب المرض الذي أصاب جيشه، وبسبب الإرهاق الذي أصابه نتيجة الحروب مع السيخ والهنود، وتوفي عام ١١٨٧، وخلفه ابنه تيمور شاه الذي كان مؤهلاً لذلك إذ تسلّم

في حياة أبيه إمرة لاهور والملتان، ويوم توفي والده كان في هراة فنافسه أخوه سليمان في قندهار، غير أنه قد تمكّن من قتل أخيه، ودخول قندهار، ثم نقل العاصمة إلى كابل. استولى السيخ على الملتان عام ١١٩٦، ثم استردها منهم في العام نفسه، وقام أمراء السند بحركات ضده امتدت من (١١٩٧ ـ ١٢٠١)، وقد استقلوا فيها وإن كانوا يتبعونه اسمياً، واعتدى أمير بخارى معصوم على مرو فحاربه تيمور شاه فخضع له اسمياً، وقامت فتنة في كشمير ولكنها أخمدت، وتوفي تيمور شاه عام ١٢٠٧ بعد حكم دام عشرين سنة، وخلفه ابنه زمان شاه فحكم ثمان سنوات، ثم خلفه أخوه محمود شاه عام ١٢١٥.

كان الخلاف قد وقع بين زمان شاه وأخويه محمود شاه وشجاع الملك، وكان حريصاً أن يدافع عن الإسلام والمسلمين، وخاصة في الهند ضد السيخ والهندوك لذا فقد اصطدم معهم إلا أن اصطدامه ذلك كان في الواقع اصطداماً مع الإنكليز الذين بدأ نفوذهم في الهند وخاصة في الشمال إذ سيطروا على تلك الأجزاء فحرّك الإنكليز بوسيلةٍ أو بأخرى الأطراف المتعددة ضده، فهاجم القاجاريون في فارس بلاد الأفغان فاضطر أن يوقف حملاته ضد السيخ، وهدده أمير بخارى مراد، وتوعده أمراء السند، وخان كلات من البالوخ، وفي النتيجة فقد تغلّب أخوه محمود عليه، واعتقله، وسمل عينيه على عادة الفرس التي انتشرت في تلك المرحلة، وفقد الأفغانيون أيام زمان شاه ما كان لهم من ولايات في بلاد الهند.

نهض محمود شاه بالأمر عام ١٢١٥، غير أن أخاه شجاع الملك قد نازعه، وأعلن نفسه ملكاً في بيشاور، واستطاع عام ١٢١٨ أن يستولي على كابل ويخلع أخاه محموداً، ويسجنه، وأخرج شقيقه زمان شاه من السجن، وهو كفيف، بعد أن سمل أخوه محمود عينيه، وبقيت قندهار بيد قمران بن محمود، ويؤيده عمه فتح خان، ثم تصالح محمود خان مع أخيه شجاع الملك، ولكن لم يلبث أن عاد واختلف معه، وأيّد قيصر بن زمان شاه، ثم أيّد محموداً، وكان شجاع الملك يرسل الحملات إلى كشمير وبلاد السند

ويبذل قوته في هذا الجانب، على حين فتح خان يُدبّر الحيل، وتمكّن أن يهزم شجاع الملك في النهاية، وفرّ شجاع الملك إلى بلاد الهند عام ١٢٢٤، وعاد محمود إلى السلطة ثانيةً.

أصبح محمود يعتمد اعتماداً كلياً على أخيه فتح خان الذي أعاده إلى سدة الحكم، وفتح خان يعتمد على أخيه الآخر دوست محمد الذي قوي نفوذه، وحارب أخاه محموداً وهزمه عام ١٢٣٥، ثم إن محموداً قد قتل أخاه فتح خان، وأصبح دوست محمد يريد أن يثأر إلى شقيقه فتح خان، واستولى دوست محمد على كابل، ولقب نفسه أمير كابل، ولكن استولى السيخ على المقاطعات الهندية، واستولى الفرس على هراة من يد قمران بن محمود عام ١٢٥٨.

استنجد شجاع الملك بالإنكليز الذين وطدوا نفوذهم بالهند فلبى الإنكليز الطلب، وأرسلوا جيشاً دخل كابل، ونصّب شجاع الملك حاكماً عليها على حين فرّ دوست محمد إلى بخارى عام ١٢٥٥، وقد حاول أن يهاجم بلاد الأفغان من جهة الشمال، غير أن هجماته قد فشلت، فجاء إلى الأفغان وسلّم نفسه للإنكليز الذين نقلوه إلى كلكتا في البنغال.

انسحب الجيش البريطاني من كابل عام ١٢٥٧، وهاجمه أثناء الانسحاب أكبر خان بن دوست محمد، وكاد أن يبيده ويقضي عليه، وفي أثناء القتال بين الإنكليز وحليفهم شجاع الملك من جهة وأكبر خان من جهة ثانية قُتل شجاع الملك، ومنيت إنكلترا بخسائر كبيرة اضطرت بنتيجتها أن تُعيد دوست محمد إلى بلاد الأفغان، وأن تعترف بحكمه، وعقدت معه معاهدة صداقة، كما صالح روسيا التي بسطت نفوذها بالقوة على وسط آسيا، ثم ضمّتها إليها، وفي الوقت نفسه كان نفوذها قد قوي في بلاد الفرس، وأعاد إخوته وأبناءه إلى الإمارات غير أن الصراع بينهم لم ينته.

لم تقبل إنكلترا بموقف دوست محمد فهو لم يدعمها ضد الثورة الهندية عام ١٢٧٤، لذا فقد أطلقت الشائعات ضده بأنه يعمل لصالح روسيا، ولما كانت المنافسة قائمةً بينها وبين روسيا لذا فقد زحف الجيش

الإنكليزي إلى أفغانستان ولكنه لم يستطع التقدم بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها الأفغانيون، والصمود الذي أصروا عليه، وما كان من إنكلترا إلّا أن اعترفت بالحكم الأفغاني.

توفي دوست محمد عام ١٢٨٠ بعد أن استعاد هراة من الفرس، وخلفه ابنه شير علي، وحاول الإنكليز ثانية التدخل في شؤون بلاد الأفغان لحماية حدود الهند من غارات القبائل الأفغانية، أو للوقوف في وجه روسيا التي كانت قد ابتلعت الولايات الإسلامية في وسط آسيا، وأخذت جزءاً من خراسان عام ١٢٩٠، ولكثرة محاولة التدخل الإنكليزي في شؤون الأفغان فقد اضطر شيرعلي إلى الاستعانة بروسيا، ورحب بالبعثة الروسية، ورفض قبول الوفد الإنكليزي، فخافت إنكلترا على مصالحها، وأسرعت لاحتلال بلاد الأفغان، وقد تمّ ذلك عام ١٢٩٥، وإن كانت إنكلترا قد تكبّدت خسائر فادحة، وتوفي شير علي عام ١٢٩٦، وخلفه ابنه يعقوب.

رفض الأفغانيون حكم يعقوب بن شير علي لأن ميوله كانت مع إنكلترا، وبدأت الحركات ضد المحتلين حتى اضطروا إلى الانسحاب، وعقدت معاهدة بين الطرفين اعترفت إنكلترا فيها باستقلال بلاد الأفغان الذاتي، وتبعيتها لإنكلترا في الشؤون الخارجية، وتسلّم الحكم عبد الرحمٰن حفيد دوست محمد، فهو ابن أفضل بن دوست محمد أي ابن عم يعقوب.

هاجمت روسيا هراة عام ١٣٠٢، وأسرعت إنكلترا لحماية هراة خوفاً على مصالحها الخاصة، وعُقدت معاهدة بين إنكلترا وروسيا عام ١٣٠٥ في بطرسبرغ، اكتفى الروس فيها بما أخذوه من خراسان وهو قسم بلاد التركمان التي كانت قاعدتها مرو، لكن روسيا عادت مرةً أخرى إلى التحرش ببلاد الأفغان، وغدت منطقة شمال شرقي أفغانستان، وهي باداخشان مثاراً للنزاع، ولكن عقدت معاهدة أخرى عام ١٣١٣ بين روسيا وإنكلترا أقرّت فيها روسيا بأن باداخشان جزء من بلاد الأفغان، ورسمت الحدود بين المناطق التي سيطر عليها الروس في وسط آسيا وبين أفغانستان، ثم عقدت معاهدة بين روسيا وإنكلترا للمرة الثالثة عام ١٣٢٥ اعترفت كلاهما فيها باستقلال الأفغان.

كان عبد الرحمن بن أفضل قد توفي عام ١٣١٩، وخلفه ابنه الكبير حبيب الله خان، وقد ازداد في عهده النفوذ الإنكليزي، وحاول العثمانيون جرّه لصفهم بجانب الألمان في الحرب العالمية الأولى، وإعلان الجهاد ضد الإنكليز، ولكنه رفض ذلك، وتضايق الأفغانيون من النفوذ الإنكليزي في بلادهم فاغتالوا أميرهم حبيب الله عام ١٣٣٨.

تولى بعد حبيب الله خان ابنه الثالث أمان الله خان، وتسمّى باسم ملك، وحاول التخلّص من النفوذ الإنكليزي في بلاده فساءت العلاقات مع إنكلترا، وكانت الحرب بين الطرفين عام ١٣٣٨، وتمكّن الأفغانيون بقيادة محمد نادر شاه الانتصار على الإنكليز في عددٍ من المعارك المتلاحقة، وقد استرد المناطق الأفغانية التي يسيطر عليها الإنكليز، وأجبر إنكلترا على الاعتراف باستقلال بلاد الأفغان التام، ووطد الملك أمان الله خان صلاته مع روسيا، وإيران، وتركيا.

انصرف أمان الله خان بعدها إلى حياة اللهو والاستهتار، والانتقال الدائم إلى أوربا في وقت كانت فيه تئن خزينة البلاد من العجز، وأبعد القائد محمد نادر شاه عن البلاد. وفي آخر مرة قام أمان الله خان بزيارة عدد من دول العالم عام ١٣٤٧ وأنفق الكثير، وعندما رجع قامت الثورة ضده فانتقل إلى قندهار، واضطر أن يتنازل عن الملك لأخيه عناية الله عام ١٣٤٨، لكن استغل ابن السقا هذه الاضطرابات وسيطر على كابل، وأعلن نفسه ملكاً باسم حبيب الله غازي، ولكن لم يستمر سوى تسعة أشهر حيث عاد محمد نادر شاه إلى البلاد، وقضى على ابن السقا، وأعدمه، واستلم السلطة.

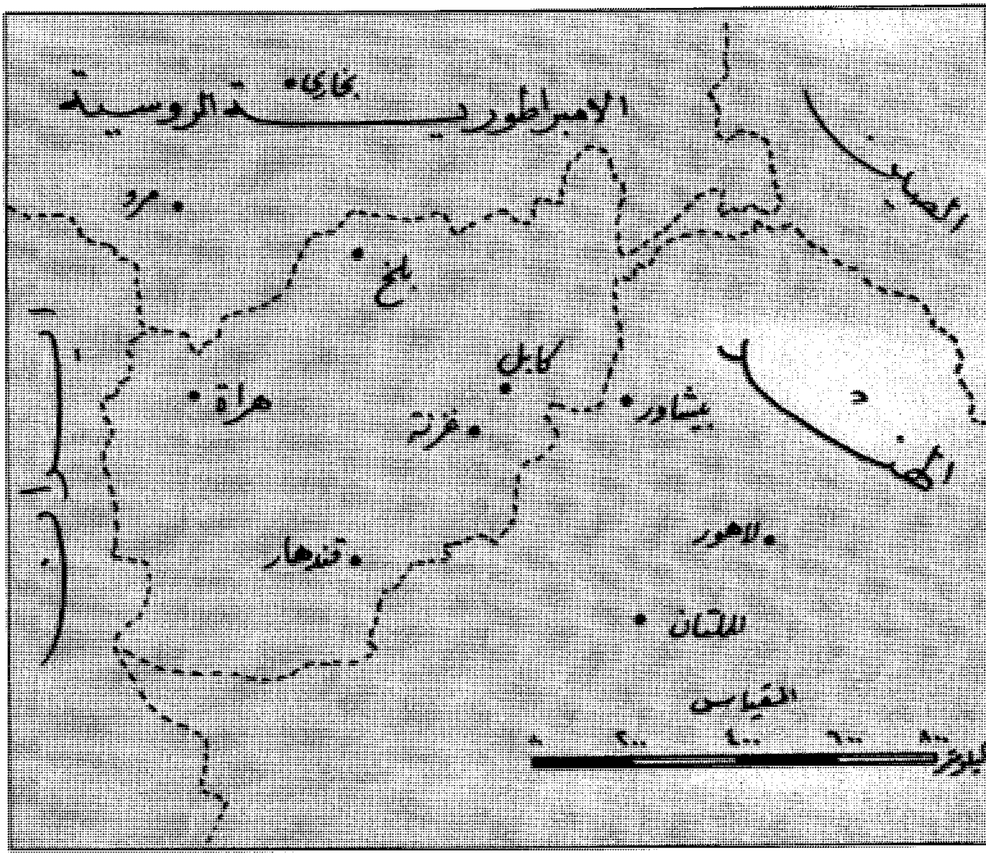
بخارى
الامبراطوريــــة الروسيــة
مرو
بلخ
كابل
هراة
غزنة
بيشاور
لاهور
قندهار
الملتان
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٣٢]

الباب الرابع

الهند وجنوب شرقي آسيا

لا يقصد بالهند دولة الهند القائمة اليوم، وإنما يقصد بها شبه القارة الهندية التي تضمّ عدة دولٍ اليوم منها: الهند، وباكستان، وبنغالديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا، وكانت في هذه المرحلة التي نتكلم عنها تحت حكم المسلمين، وقد انتشر فيها الإسلام بالأجزاء الشمالية منها نتيجة الفتح منذ عهد بني أمية في الشمال الغربي منها، وأيام الغزنويين، ثم أيام الغوريين الذين وصلوا إلى البنغال، ثم ضمّ الخلجيون منطقة الدكن إليهم، فالإسلام قد انتشر في الهند بالفتح وخاصةً في الأجزاء الشمالية منها، وعن طريق التجارة في السواحل، أما المناطق الداخلية فقد انتشر فيها الإسلام بالدعوة وأثناء الحكم الإسلامي.

وتمتاز هذه المرحلة التي ندرسها بأن الهند قد خضعت لحكم المغول من ناحيةٍ وفي الوقت نفسه فقد وصل إليها عن طريق البحر الصليبيون المستعمرون بدءاً بالبرتغاليين ثم بالهولنديين فالإنكليز والفرنسيين من ناحيةٍ ثانيةٍ.

أما جنوب شرقي آسيا وهي ماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق التجارة والدعوة ولم تصل إليها أقدام الفاتحين أبداً، واستمر انتشار الإسلام في تلك الجهات تدريجياً حتى عمّ، وحينذاك بدأت طلائع المستعمرين الصليبيين تظهر وتصل إلى تلك المناطق، وكان المسلمون قد حكموا هاتيك الأرجاء فكان حقد الصليبيين عظيماً الأمر الذي جعلهم يُخضعون السكان، ويرتكبون أبشع المجازر، ويُسيطرون على الأرض، ويأخذون خيراتها.

وفي الهند وجنوب شرقي آسيا على حد سواء نلاحظ بقاء الوثنيات على اختلافها من هندوكية، وبوذية، وكونفوشية وغيرها إلى جانب الإسلام، ولو كان المسلمون هم الأكثرية والذين يحكمون البلاد وذلك لأن الإسلام قد انتشر في الهند في وقت الضعف فسمح ببقاء الوثنيات لكثرتها وانتشارها بين مجموعات كبيرة من البشر بل إن بعض الحكام من المسلمين كانوا يحاولون التقرّب من أصحاب هذه الوثنيات في سبيل الحصول على تأييدها لدوام ملكهم، اللهم باستثناء الأجزاء الشمالية الغربية التي فتحت أيام بني أمية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي أو في الأيام التي كان الإسلام فيها لا يزال ذا قوةٍ ومنعة، وتُطبق شرائعه بشكل جيد نسبياً، أما في جنوب شرقي آسيا فقد نما الإسلام إلى جانب تلك الوثنيات ولم يكن ليستطيع قهرها أو إلزام أتباعها على اعتناق إحدى الديانات السماوية فقط، وما أن تمكّن وتعمّقت جذوره حتى جاء الاستعمار بصليبيته وحقده، بل نستطيع كذلك أن نقول: إن قوة الإسلام في جنوب شرقي آسيا قد تكاملت في وقتٍ ضعُف فيه المسلمون في ديارهم، ولم يعد فيهم ذلك النسغ الذي يروي عروقهم بالشكل الجيد، ولم يُطبقوا الإسلام بالصورة الصحيحة. والأصل بالإسلام ألا يسمح إلا باعتناق إحدى الديانات السماوية وتلحق بها المجوسية التي كانت منتشرة في فارس قبل الإسلام، فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. (روى ذلك البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد)، وفي رواية: أن عمر ذكر المجوس، فقال: ما أدري، كيف أصنع في أمرهم؟ فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب»[1].

---

(١) المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ لمجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني - المجلد الثاني ص٨٣٦، تحقيق محمد حامد الفقي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ففي دار الإسلام أي المناطق التي يُطبّق فيه شرع الله لا يصح أن يعيش فيها إلا أهل الإسلام وأهل الكتاب والمجوس، ولا يصح أبداً أن يقطنها عبدة الأبقار، والأصنام، وعبدة البشر وأصناف أهل الشرك والإلحاد. وإذ اختلف بعض أهل العلم في ذلك، وقالوا هذا ينطبق فقط على العرب، فإن الإسلام لا يعرف العصبية المنتنة، ثم واقع البلاد التي فتحها المسلمون، وطبّقوا فيها شرع الله يشهد لذلك، فهي لا تزال خاليةً من أبناء الوثنيات حتى الآن رغم أنها كانت قبل الفتح تعجّ بهم، وإن سبي أبي بكر، رضي الله عنه، لبني حنيفة عندما ارتدوا وهم من العرب ليشهد أن الإسلام لا يعرف العصبيات.

والهند وجنوب شرقي آسيا على حدٍ سواء لم تخضع للدولة أو للخلافة الإسلامية في عواصمها التي حكمت منها أكثر أجزاء ديار الإسلام أو كانت تُشكّل الخلافة أو أعظم دولةٍ إسلاميةٍ في تلك المرحلة وهي: المدينة المنورة، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وإستانبول، وباستثناء شمال غربي الهند وهو منطقة السند التي دانت لدمشق، ولكن المسلمين في تلك الجهات كانوا يتفاعلون مع مركز الخلافة ويعدّون الخليفة مرجعهم الرئيسي، ويرتبطون به معنوياً لا سياسياً أو تنظيمياً إذ يفرض عليهم حكامهم الارتباط بهم أو الخضوع لهم.

لقد استغلّ المستعمرون هذه المناطق بعد أن سيطروا عليها استغلوها سكاناً فكانت لكثرة سكانها تُشكّل قوام جيوشهم يضربون بها خصومهم فالقوة الهندية في الجيوش الإنكليزية معروفة بل كانوا يرمون بها إلى التهلكة، ويحاولون المحافظة على أبناء جنسهم، ويتبادر إلى الذهن أثناء الحديث في هذا الموضوع على ما فعله الإنكليز بالقوة الهندية أثناء معركة العلمين المشهورة في المنطقة الواقعة بين مصر وليبيا إذ كان عليهم أن يفجّروا حقل ألغام، ولم يكن لديهم الحيوانات التي يسوقونها عادةً لتفجير مثل تلك الحقول، فدفعوا بالقوة الهندية مضحّين بها، وأبادوا من كان من تلك القوة التي كُلّفت بتلك المهمة، واستغلّوا السكان في استثمار المواد

التي يريدون إنتاجها، واستغلّوها في حقدهم الصليبي ضدّ الإسلام، فعملوا ضدّ الإسلام مما أثار المسلمين أيضاً وكان أن انقسمت الهند إلى عددٍ من الدول على أساس العقائد بعضها مسلمة، وبعضها هندوكية وبعضها بوذية، استغلّوا المسلمين فبعد أن أضعفوهم، ونهبوا خيراتهم، ومنعوهم من الوظائف أخذوهم جنوداً، وحاولوا أن يُنصّروهم، ولكنهم فشلوا في ذلك، استغلّوا الهندوس وحرّضوهم على المسلمين، وقوّوهم عليهم، وشجّعوهم بالمناصب. استغلّوا المنبوذين ودعوهم إلى النصرانية فحصلوا منهم على بعض النتائج. أثاروا الفتن، قسّموا الجماعة الواحدة، أوجدوا القاديانية كعقيدةٍ شاذةٍ ليضربوا بها المسلمين، ويفتّوا من عضدهم، وليلبسوا عليهم دينهم، ولا تزال هذه المجموعة بأيديهم، وتجد العون في البلدان التي كان الإنكليز يستعمرونها، وكذلك كان شأن الإنكليز في الملايو، والهولنديين في أندونيسيا، وإسبانيا، والولايات المتحدة مع مسلمي الفيليبين.

أخذ المستعمرون خيرات البلاد الزراعية والمعدنية، وأسسوا مزارع المطاط، والشاي، والنخيل الزيتي وغيرها، واستثمروا المعادن ومن أهمها القصدير، واستخرجوا النفط من مكامنه... وعاش الناس في حالةٍ من الفقر والبؤس أورثتهم الذلّ...

الفصل الأول

الهند

منذ أن بدأت غزوة تيمورلنك للهند بدأ الضعف يظهر على السلطة، وفي عام ٨١٧ استطاع أحد القادة التيموريين أن يدخل العاصمة دهلي، وأن يتولّى نائبهم خضر خان أمرها، وأن يؤسس أسرة حكمت البلاد حتى عام ٨٥٥ هي أسرة السادات أو الخضرخانية، ثم ورثهم اللودهيون الأفغان، فحكم بهلول اللودي (٨٥٥ ـ ٨٩٤) وورثه ابنه إسكندر الثاني (٨٩٤ ـ ٩٢٣) ثم إبراهيم الثاني بن إسكندر (٩٢٣ ـ ٩٣٢) ونكون في عهد إبراهيم هذا قد دخلنا في هذه المرحلة التي ندرسها.

إلى جانب الحكومة في دهلي كانت توجد عدة إمارات في بلاد الهند بعضها مسلمة، وأشهرها إمارة كوجرات ذات الأهمية التجارية، والتي كانت قد استقلت منذ عام ٨٤٠، ثم ضمّت إليها بعض الإمارات الثانية، ثم إمارة (مالوه) التي ضمتها عام ٩٣٧، وخانديس التي استقلت عن الهند، ثم ضُمّت إلى كوجرات. وبعض تلك الإمارات كان هندوكياً مثل: إمارة (فيايانكر) في أقصى جنوب بلاد الهند، وكانت تُقاتل الإمارات الإسلامية، وقد وجد فيها البرتغاليون حليفاً أسياسياً.

١ ـ محمد بابر شاه:

كانت الأسرة اللودية التي تحكم الهند على خلافٍ بعضها مع بعض، وقد تمكّن إبراهيم الثاني آخر حكامها أن ينتصر على بقية منافسيه من

الأمراء فأظهروا له الطاعة، وأضمروا الشر، فاتصلوا بظهير الدين محمد بابر شاه[1] حاكم غزنة وطلبوا منه المسير إلى الهند. فسار إليها، واستولى على مدينة لاهور عام ٩٣٠، وخاض بعدها معركة عنيفة هي معركة (باني بت) ضد إبراهيم الثاني اللودي الذي قتل، وانتهى بقتله حكم الأسرة اللودية، ودخل ظهير الدين محمد بابر شاه الهند، وجعل مقر حكمه مدينة «أَغرة»، وذلك عام ٩٣٢، ووحّد شمالي الهند تحت سلطانه.

وقف في وجه محمد بابر الراجبوت الذين كانوا يُشكلون أكبر قوة في وسط الهند، واستغلّوا أمراء اللوديين الذين كانوا يطمعون بحكم الهند فأثاروهم ضدّ من استنجدوا به، فأعلن أحدهم وهو محمود خان نفسه سلطاناً على البلاد ودعموه، وهو أخو إبراهيم الثاني اللودي، وشكلوا معه حلفاً ضد محمد بابر شاه الذي أثار العاطفة الدينية عند المسلمين، وأعلن الجهاد ضد الراجبوت والكفرة الهندوك ومن يتعاون معهم، وبدأ بنفسه فأعلن التوبة وابتعد عن المعاصي فأطاعه الناس، وقلّده قادته، وخاض أكبر معركة ضد خصومه عام ٩٣٣، وهي معركة (خانوه) التي انتصر فيها انتصاراً حاسماً، ولم يبق أمامه سوى من اعتصم ببعض القلاع سواء أكان من الراجبوت أم من أمراء اللوديين ولكن دون أن تكون أية قوة لأحدهم. وبعد هذا النصر أعلن عن التسامح الديني كي يتمكّن من السيطرة، وتنتهي حزازات النفوس.

---

(١) ولد ظهير الدين محمد بابر شاه عام ٨٨٨، وتوفي أبوه وهو لا يزال صغيراً، وورث عنه حكم فرغانة، ونازعه أعمامه ثم توفّوا، وصفا له الجو، وتمكّن أن يحتل مدينة سمرقند إلا أنه اصطدم مع محمد الشيباني خان الأوزبك، وهُزم أمامه، واضطر أن يترك سمرقند مختفياً في الأرض، ثم جمع حوله القبائل الهاربة من أمام الأوزبك، وشكّل قوةً تمكّن من دخول كابل وغزنه، فثبّت أقدامه فيها وجعلها قاعدة انطلاقٍ له، ثم اتجه إلى الهجوم على الهند إذ عدّها من أملاك أجداده التيموريين، فهو محمد بابر بن عمر شيخ بن أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه بن تيمورلنك. وتمكّن أن يحتل بعض أجزاء في الهند عام ٩٢٥.

٢ ـ همايون:

وتوفي محمد بابر شاه عام ٩٣٧، وخلفه ابنه همايون غير أن أخويه قمران وعسكر قد نازعاه الحكم، كما أن الأمراء اللوديين قد نصّبوا أحد إخوة محمود خان حاكماً على (كالنغر)، مع أن محمود خان كان لا يزال موجوداً إلا أنه ما دام قد هُزم أمام محمد بابر شاه فلا يمكن أن يعود إلى السلطة فقام أخوه ٩٤٠، كما أن محمود خان قد هُزم أيضاً أمام همايون وصالحه بعد أن حاصره في قلعة (كالنغر) لذا فقد ترك الأمر لأخيه.

كما قام فريد شير شاه[1] الأفغاني ضدّه أيضاً، إذ انتصر عليه عام ٩٤٦ ففقد بذلك همايون بيهار والبنغال، وتسلّم السلطة فيهما فريد شير شاه من سادته اللوديين هناك أو النوحانيين كما يسمّون، وهم فرع من اللوديين. ثم فقد البنجاب، وبعدها أفغانستان، وبقي شريداً في إقليم السند، وقد وقع ابنه الطفل جلال الدين محمود أسيراً بيد عمه عسكر، وبذا تمزّقت الدولة المغولية الفتية.

هذا ما كان يجري في الداخل أما ما كان يجري على الساحل فالأمر أشدّ خطورةً إذ كان الصليبيون البرتغاليون قد وصلوا إلى الساحل، وانتصروا على أمراء الهند المسلمين وحلفائهم المماليك الذين أرسلوا لهم أسطولاً من مصر عام ٩١٤، وأقام البرتغاليون بعض المراكز على السواحل، ووجدوا في إمارات الهنادك في جنوبي الهند حلفاء طبيعيين لهم ضد المسلمين. وكان المماليك بعد مدةٍ قد سقطت دولتهم، وقامت الدولة العثمانية مكانهم وبدأت تُنازل البرتغاليين فاستنجد حاكم كوجرات بهادور شاه بالعثمانيين، فأرسل الخليفة العثماني سليمان القانوني عام ٩٣٨ قوةً لدعم المسلمين في

(١) فريد شيرشاه: كان يعمل في خدمة حكام بيهار وهم فرع من اللوديين، إذ خدم دولت خان، ثم بهادور خان الذي لقبه شيرخان لشجاعته (يلقبه الأفغان شيرشاه) وتمكن أن يضم البنغال إليه عام ٩٤٢، ولما توفي بهادور خان عام ٩٤٥ وهو الملقب بالسلطان محمد خلفه ابنه جلال خان بهادور، فوجه قائده فريد شيرشاه ضد همايون فانتصر عليه عام ٩٤٦، وتمكن بعد هذا الانتصار أن يتسلم السلطة في بيهار والبنغال.

الهند، وكانت القوة بقيادة مصطفى الرومي الذي انطلق من المخا في اليمن متجهاً إلى (ديو) في كوجرات، فلما وصل إليها استقبله بهادور شاه وأكرم وفادته، ولقّبه رومي خان، وقد تعرّض مصطفى الرومي لكثيرٍ من غارات البرتغاليين، ولكنه انتصر عليهم، وأنزل بهم الهزائم المتكررة، وفي عام ٩٤١ دخل بهادور شاه سلطان كوجرات في حربٍ مع همايون بن بابر شاه سلطان الدولة المغولية فاستنجد بهادور شاه بالبرتغاليين ضد همايون، وعقد مع نائب ملك البرتغال معاهدةً، وسمح له ببناء قلعةٍ في (ديو)، وقد تمّ بناء هذه القلعة عام (٩٤٢ ـ ٩٤٣)، ثم نقض المعاهدة معهم بعد الصلح مع همايون شاه، ودخل في حربٍ جديدةٍ مع البرتغاليين، فهُزم وقُتل، واستولى البرتغاليون على (ديو) عام ٩٤٣، فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني لما علم بذلك واليه على مصر سليمان باشا لمنازلة البرتغاليين في الهند مع ١٢٠ سفينة، فوصل إلى هناك، وحاصر (ديو)، ثم وقع الخلاف بين ملك كوجرات الجديدة محمود شاه الذي ظنّ بسليمان باشا الطمع بالسيطرة على كوجرات وبين سليمان باشا، فقطع ملك كوجرات المؤن عن العثمانيين فاضطر سليمان باشا إلى مغادرة الهند، وعاد إلى اليمن، ومنها إلى السويس.

٣ ـ أكبر شاه:

ولنعد إلى الدولة المغولية فنجد همايون شاه قد استطاع أن يدخل كابل عام ٩٦٢ بعد طول عناء، وليجعل منها قاعدةً ينطلق منها ثانيةً، ولكنه توفي عام ٩٦٣ بعد أن استردّ دهلي، وخلفه ابنه محمود جلال الدين ولا يزال في الرابعة عشرة، وقد ساعده مربيه بيرم التركماني.

تمكّن بيرم التركماني أن ينتصر على الأسرة التي أسسها فريد شير شاه عام٩٦٣ في معركة (باني بت) الثانية، ولم يزد حكمها على ست عشرة سنة توالى خلالها خمسة ملوك، وضمّ بيرم منطقة البنجاب إلى دولة محمود جلال الدين الذي عُرف باسم أكبر شاه، ولم يلبث أكبر شاه أن عزل بيرم

التركماني خوفاً منه، وقبض بنفسه على ناصية الأمر فحرّك هذا التصرف بيرم فقام بحركةٍ غير أنه ألقى السلاح، وغادر البلاد ليقضي بقية حياته في مكة المكرمة.

ثار على أكبر شاه أخوه ميرزا حكيم، ولكنه هُزم أمام أخيه أكبر، فندم على ما فعل، وعفا عنه أخوه، واستطاع أكبر شاه أن يضمّ إليه بيهار عام ٩٨٢، ومنطقة برار في الدكن عام ٩٨٣، والبنغال عام ٩٨٤، وكوجرات عام ٩٨٠ بما فيها (مالوه) و(خانديس) المقاطعتان اللتان سبق لمملكة كوجرات أن ضمتهما إليها، وإن كان ضمّ أكبر لخانديس كان عام ١٠٠٨، كما ضمّ دولة نظام شاه في أحمد نكر في منطقة الدكن عام ١٠٠٨، كما ضم كشمير عام ٩٩٥، وبذلك أصبحت دولة أكبر شاه واسعةً جداً إذ تشمل أيضاً منطقة الأفغان.

وفي عام ٩٨٦ حاول أكبر شاه أن يوجد ديناً ـ على زعمه ـ يوحّد فيه المسلمين مع البراهميين، والجينيين، والبوذيين، والزرادشتيين و. . . ليسهل حكم الهند فمنع ذبح البقرة، واقتصر على النبات، وسمح بالزواج من البراهميات والعكس. . . ورأى أن يكون الدين كاللغة التي انتشرت أيام المغول وهي لغة الأوردو وهي مزيج من التركية لغة المغول والفارسية لغة الأدب إضافة إلى ما دخلها من كلماتٍ عربيةٍ وأجنبيةٍ، وظنّ النصارى البرتغاليون أنهم بإمكانهم تحويله إلى النصرانية وخاصةً أنه قد وضع معلماً نصرانياً برتغالياً لابنه سليم، وعندما خاب ظنّهم أساؤوا في الكتابة عنه، وجعل عاصمته الجديدة فتح بور مركزاً لهذه العقيدة الجديدة.

وفي عام ١٠٠٩ ثار عليه ابنه سليم وتمكّن من الانتصار على قائد أبيه أبي الفضل بالغدر، ثم هُزم أمام أبيه ولكنه بقي على تمرّده، وأرسل له أبوه المراسل حتى أقنعه بالطاعة ما دام سيكون ولي عهده. . .

هذا في الداخل حيث كانت القوة لا تزال للقوات البرية الأثر الكبير في القوة، أما على الساحل فقد سيطر البرتغاليون على المحيط تماماً، وأصبحت التجارة بيدهم، ولهم مراكز قوية على الساحل. وقد خشيهم أكبر

شاه وخاصةً عام ٩٨٣ عندما أرادت إحدى الأميرات (جلباداان) وهي عمته أداء فريضة الحج، فطلب منهم عدم التعرّض لها، وقدّم لهم مقابل ذلك موقع دامان الساحلي، وعندما رجعت بسلام عاد إلى خلافهم، وانقضّ جنود الدولة على مراكز البرتغاليين: ديو، وسورت، ودامان فاحتجّ نائب ملك البرتغال فادّعى أكبر شاه أن هذا التصرّف من عمال الدولة ولا علم له بذلك. وتوفي أكبر شاه عام ١٠١٤.

٤ ـ نور الدين جهانكير سليم شاه:

تولّى بعد أكبر شاه ابنه سليم شاه ولقب نفسه نور الدين محمد جهانكير، تزوج عام ١٠٢٠ بنور جهان، كان يحبها غير أنها كانت متزوجةً، فخطبها بعد قتل زوجها فأبت، ثم رضيت، وألقى بيدها زمام السلطة، وكانت ذات عقلٍ وجمالٍ، وكان قد استقلّ بالملك عام ١٠٢٢، واستمر في الحكم حتى عام ١٠٣٧.

٥ ـ شهاب الدين محمد شاه جهان:

عملت نور جهان على تعيين شهريار بن جهانكير في الحكم، وعمل الوزير آصف على حكم خرم بن جهانكير، ووقع الخلاف بين الطرفين، وأعمل الوزير الحيلة لإحراز النصر، إذ دعا لحكم دوار بخش بن خسرو بن جهانكير، فوقع الحرب بين الطرفين فاستغلّ خرم الفرصة، ودخل أكبر أباد، واستلم السلطة، وقتل إخوته، وفرض الإقامة على نور جهان، ولقّب نفسه شهاب الدين محمد شاه جهان، من مآثره أنه منع السجود تحيةً للسلطان، وهو ما ابتدعه جده أكبر شاه، واشتهرت أيامه بالعمران.

كان لشاه جهان أربعة أبناء وهم: دارا شكوه وهو الكبير، وولي العهد وقد أقامه أبوه عنده، ومحمد شجاع وكان في البنغال، وأورنكزيب، ومراد بخش في كوجرات.

مرض شاه جهان عام١٠٥٧ فكتم دارا شكوه عن إخوته خبر مرض

أبيهم، فقام كل في مكانه يريد الحكم، فانتصر ثالثهم وهو أورنكزيب عليهم، ودخل العاصمة فأجلس أباه في قصر الإمارة، وقد بقي عشر سنوات حتى توفي عام ١٠٦٨، وقتل أورنكزيب أخاه دارا شكوه، ولما توفي أبوه تمكّن من أخيه مراد بخش عام ١٠٦٨، ومن أخيه محمد شجاع عام ١٠٧٠.

٦ - محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير:

تسلّم السلطة كاملة عام ١٠٦٩، وعمل على تدوين الفقه، وأبطل ما ابتدعه أكبر شاه، ووسع ملكه فقد وصل من جهة الشمال حتى بخارى وخوارزم، وضم بيجابور عام ١٠٩٨، وكانت هذه الإمارة قد ضمّت إليها عام ١٠٩٧ دولة بريد شاه في بيدر. ودام حكمه خمسين سنة إذ توفي على فراشه عام ١١١٨، وله من العمر تسعون عاماً.

٧ - قطب الدين محمد معظم بهادور شاه:

عهد أورنكزيب من بعده إلى ابنه محمد معظم الذي لقّب نفسه شاه عالم بهادور شاه فتمرّد عليه إخوته، ووقعت الحرب بينهم فقُتل أخواه محمد أعظم، وكام بخش في المعركة، وتفرّد هو بالسلطة أو صفا له الجو.

اتخذ الشيعة مذهباً له، وضعف أمره، وعظمت قوة السيخ والمهراتا، واضطر بهادور شاه إلى إعطاء المهراتا ربع الخراج في بلاد الدكن. . . وهذا بدء الانقسام والضعف في دولة المغول في الهند. وتوفي بهادور شاه عام ١١٢٤.

٨ - معز الدين جهاندار شاه:

تولى بعد أبيه بهادور شاه، واختلف مع إخوته، عظيم الشأن، ورفيع القدر، وجهان شاه فانتصر عليهم، وقتلهم، ثم خرج عليه ابن أخيه عظيم

الشأن، وهو فرخ سير الذي أعانه الأمراء فانتصر على عمه، وتولى الملك، ولم ينعم معز الدين جهاندار شاه في السلطة بأكثر من شهر.

٩ ـ فرخ سير بن عظيم الشان:

اختلف مع الأمراء الذين أعانوه وخاصةً عبد الله خان، وحسين علي خان فخلعاه عام ١١٣١، وولّوا مكانه ابن عمه رفيع الدرجات بن رفيع القدر الذي أخرجوه من السجن، وكان مُصاباً بمرض السل، فلم يلبث أن توفي بعد أربعة أشهر.

١٠ ـ رفيع الدرجات بن رفيع القدر:

لم يكن بيده من الأمر شيء بل كان مريضاً، والأمر بيد عبد الله خان، وحسين علي خان، وهو ألعوبة بيديهما.

١١ ـ رفيع الدولة بن رفيع القدر:

لما مات رفيع الدرجات نصّب الأمراء أخاه رفيع الدولة، وقد لقّب نفسه شاه جهان الثاني، وكان مريضاً نتيجة السجن، فلم يلبث أن توفي في العام نفسه (١١٣١)

١٢ ـ محمد شاه:

عندما توفي رفيع الدولة اتفق الأمراء على تنصيب ابن عمه محمد شاه بن جهان شاه، غير أنه اختلف مع الأمراء الذين ولّوه، ووقعت الحرب بينه وبينهم فانتصر عليهم، وقُتل كبيراهم في المعركة، واستقل محمد شاه بالأمر، ودام حكمه ما يزيد على تسعٍ وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر أيامه إلى اللهو، وبسبب هذا الضعفً فقد غزا نادر شاه البلاد عام ١١٥١، وأسرع إليه محمد شاه فالتقى الفريقان في سهل (باني بت)، وترك بعض قادة محمد شاه جيشه وانتقلوا إلى صف نادر شاه فضعف أمر محمد شاه،

ثم جرى الصلح بين الطرفين على أن يدخل نادر شاه دهلي، ويبقى محمد شاه ملك بلاد الهند. غير أن سكان دهلي بدؤوا يتفرّدون بجنود نادر شاه ويقتلونهم فبلغ ذلك أميرهم فأعمل السيف في السكان ثلاثة أيام، ثم ارتحل، وبقي محمد شاه في الملك نائباً عن نادر شاه.

١٣ ـ أحمد شاه:

تولّى الحكم بعد أبيه محمد شاه، وتسلّط عليه الوزراء، وكان يسير برأيهم، وليس له سوى الاسم.

كان أحمد الدوراني يغزو الهند قادماً من بلاد الأفغان، وغلب السيخ على بلاد البنجاب، وأسس مذهبهم رجل يُدعى «كرونانك»، وغلب المهراتا على كوجرات، واستقلّ وزيره نظام الملك في بلاد الدكن، وكانت البنغال قد استقلّ فيها واليها منذ عام ١١١٦، وهو نواب جعفر خان الذي لقبه أورنكزيب مرشد قلي خان، فأنشأ مدينة سمّاها مرشد أباد، وبقي حتى عام ١١٣٨، وخلفه في الولاية ختنه شجاع الدولة حتى عام ١١٥٢، ثم ولده علاء الدولة الذي خلعه وزيره بعد شهرين وتولّى الأمر مكانه، ثم ولي الأمر سبط سراج الدولة عام ١١٦٩، وهو الذي اصطدم مع الإنكليز. كذلك استقلّت «أوده» التي تقع بين بيهار وقنوج وقد استقل فيها منصور علي خان عام ١١٥٠، واستمر حكمه حتى عام ١١٦٧، وخلفه ولده شجاع الدولة الذي حارب الإنكليز وهُزم أمامهم، واستمر حتى عام ١١٨٨، حيث خلفه ابنه الذي انتقل من فيض أباد إلى لكنو، وبذا تجزّأت الدولة فضعفت الحكومة، وخُلع أحمد شاه عام ١١٦٧.

١٤ ـ عزيز الدين عالمكير بن جهاندار شاه:

لما خلع أحمد شاه نُصّب عزيز الدين بن معز الدين جهاندار شاه، فلُقّب باسم عالمكير الثاني، وفي أيامه أصبحت الأمور كلها بيد عماد الملك. وفي أيامه أيضاً غزا الإنكليز والي البنغال وقتلوه، وهو سراج الدولة. وفي ١١٧٢ قتل عماد الملك عزيز الدين.

١٥ ـ محي الدين بن كام بخش:

لما قتل عماد الملك عزيز الدين أخرج محي السنة من السجن، ونصّبه ملكاً ولقبه شاه جهان الثاني، ولم تمض سوى عدة أيام حتى غزا الهند أحمد شاه الدوراني ملك أفغانستان فقاتل المهراتا، وفرّ عماد الملك، فخلع أحمد شاه محيي السنة، وولّى مكانه جوان بخت بن عالي كوهر بن عزيز الدين. وكان أبوه عالي كوهر في مدينة عظيم أباد.

١٦ ـ شاه عالم بن عزيز الدين:

لما سمع عالي كوهر بتولية ابنه جاء إلى دهلي بمساعدة والي (أوده) نواب شجاع الدولة، وعزل ابنه، واستولى على السلطة. وساعد هو ونواب شجاع الدولة حاكم البنغالِ قاسم علي خان في حربه ضد الإنكليز، فانتصر الإنكليز عليهم عام ١١٧٤. وتلقّب عالي كوهر باسم شاه عالم.

بعد الهزيمة أمام الإنكليز بقي نواب شجاع الدولة في أوده، وشاه عالم في الله أباد ثم انتقل إلى دهلي، ثم قبض عليه الإنكليز، وعيّنوا له راتباً، وبقي في قلعة المعلاة بدهلي، وتوفي عام ١٢٢١هـ.

١٧ ـ أكبر شاه بن شاه عالم:

لما مات شاه عالم ولّى الإنكليز ابنه أكبر شاه، وجعلوا له راتباً، وبقي صورةً حتى توفي عام ١٢٥٤.

١٨ ـ بهادور شاه بن أكبر شاه:

خلف أباه، ويُكنى أبا ظفر، وفي عهده حدثت الثورة عام ١٢٧٣، وانطلق الجند نحو دهلي، وبايعوا أبا ظفر قائداً للثورة، وتمكّن الإنكليز من القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على بهادور شاه، ونفوه إلى رانغون عاصمة بورما حيث بقي فيها حتى توفي عام ١١٧٨، وسيطر الإنكليز على البلاد، وألغوا الدولة المغولية، وسيّروا زمام الأمر بأنفسهم.

نتيجة الضعف الذي أصاب الدولة المغولية بعد أورنكزيب، وعدم الاتجاه نحو البحر حتى في أيام قوة الدولة جعل الدول البحرية الأوربية الصليبية يقوى نفوذها على الساحل، ثم يمتدّ إلى الداخل بسبب تجزؤ الدولة أيضاً إلى دويلاتٍ ضعيفةٍ ومتناحرةٍ تهتمّ بشؤونها الخاصة ومنافسة غيرها بل منازعتها لأسبابٍ منها زيادة السيطرة وامتداد النفوذ.

وصل الصليبيون البرتغاليون إلى الهند بإمرة فاسكو دي غاما عام ٩٠٤، ورأوا في البلاد أكثر مما يوصف لهم ويسمعون فعاد فاسكو دي غاما وأخبر دولته، فبعث ملك البرتغال أسطولاً بحرياً لاحتلال الهند، ودافع السكان عن بلادهم، ولكن تغلّب البرتغاليون على السواحل لما يملكون من أسلحةٍ حديثةٍ لا يعرفها الهنود، وسفنٍ كبيرةٍ لا يضاهيها ما عند السكان، ولكن لم يستطع البرتغاليون التقدّم إلى الداخل لقلة عددهم أمام سكان الهند، وضعفهم برياً أمام قوة المسلمين في الداخل، فاقتصروا على السواحل، وأسسوا مراكز لهم عملت بالتجارة، واحتكرت ذلك واستمروا ما يزيد على القرن من (٩٠٦ حتى ١٠٠٩)، غير أنهم لم يستطيعوا المحافظة على ذلك بسبب حقدهم الصليبي على المسلمين، وسلوكهم الشرس وأعمالهم التي في منتهى الوحشية إضافة إلى أن الدول الأوربية الصليبية الأخرى التي كانت تساعدهم ضد المسلمين في الأندلس، ودعمتهم في ملاحقتهم، وغرمت وقت الشدة، ولكنها لم تغنم وقت الرخاء، ولم تجد حتى التسهيلات في المعاملات أو رخص في أسعار البضائع، وهذا ما حملها على منافسة البرتغاليين، ونتيجة المنافسة فقد حمل الغزو المعنى الاقتصادي أو الاستعمار، وأخفى حقيقته الصليبية. واتخذت المنافسة شكل القوة فرضخت البرتغال، وتنازلت عن الاحتكار، وجاء المنافسون وكان أولهم الهولنديون ثم الفرنسيون والإنكليز.

رفع الهولنديون أسعار التوابل وهذا ما حدا بالإنكليز أن يدخلوا باب المنافسة والعمل على التجارة مع المشرق مباشرةً، إذ التقى التجار الإنكليز في لندن بمحافظ المدينة عام ١٠٠٨، وقرروا تأسيس شركةٍ تجاريةٍ تتعامل

مع الهند مباشرةً، ورفعوا قرارهم إلى ملكتهم، فأوفدت إلى سلطان الهند تستأذن لتلك الشركة في المتاجرة ببلاده، فأذن لها، فأصدرت الملكة أمراً بإنشائها عام ١٠٠٩، وكان اسمها يومئذ «شركة تجار لندن وحاكمهم إلى الهند الشرقية»، ثم تألفت شركات أخرى لمثل هذا الغرض، وقامت المنافسة بين هذه الشركات لمدة أكثر من قرن حتى اتحدت عام ١١٢١هـ في شركةٍ واحدةٍ سُمّيت «شركة تجار الإنكليز المتحدة للتجار في الهند الشرقية»، ثم عُرفت «شركة الهند الشرقية» فأخذ الإنكليز يُتاجرون مع جزائر الهند «أندونيسيا»، ولم يدخلوا الهند لأن البرتغاليين والهولنديين كانوا يمنعونهم بقوة السلاح، وجرت الحروب، وتمكّن الإنكليز من النزول في البر، وكان أول بلدٍ نزلوه مدينة مدراس، ثم أخذوا يتقدّمون من بلد إلى آخر باسم التجارة، ويتغلّبون على الهولنديين. وكان السكان المسلمون ينظرون إلى الإنكليز وغيرهم من الصليبيين نظرة الريبة، ويتجرؤون عليهم الأمر الذي جعل الشركة تشتري أراضي، وتبني الحصون فيها لتتقي شرّ السكان، وأخذت الشركات الصليبية الأخرى تُقلّدها، وقام النزاع بين هذه الشركات ودولها، وكل دولةٍ تعمل للاستثمار بتلك البلاد واستعمارها لنفسها وكانت الغلبة للشركة الإنكليزية.

وعندما سيطر الإنكليز على الهند بقي للهنادك مملكتان مستقلتان في الشمال في سفوح جبال هيمالايا، هما: نيبال، وبوتان.

وبقي ثلاثة مراكز للبرتغاليين على الساحل الغربي هي: داman شمال بومباي، وتموا، وجزيرة ديو، ومساحتها كلها ١٨٠٠ ميل مربع.

وبقي للفرنسيين أربعة مراكز هي: بونديشيري، وغندرنكر قرب كلكتا، ونياون، وكاريكال قرب الرأس الجنوبي.

أما بقية أجزاء الهند فقد أصبحت تحت سيطرة الإنكليز، وفيها ممالك مسلمة وأخرى براهمية.

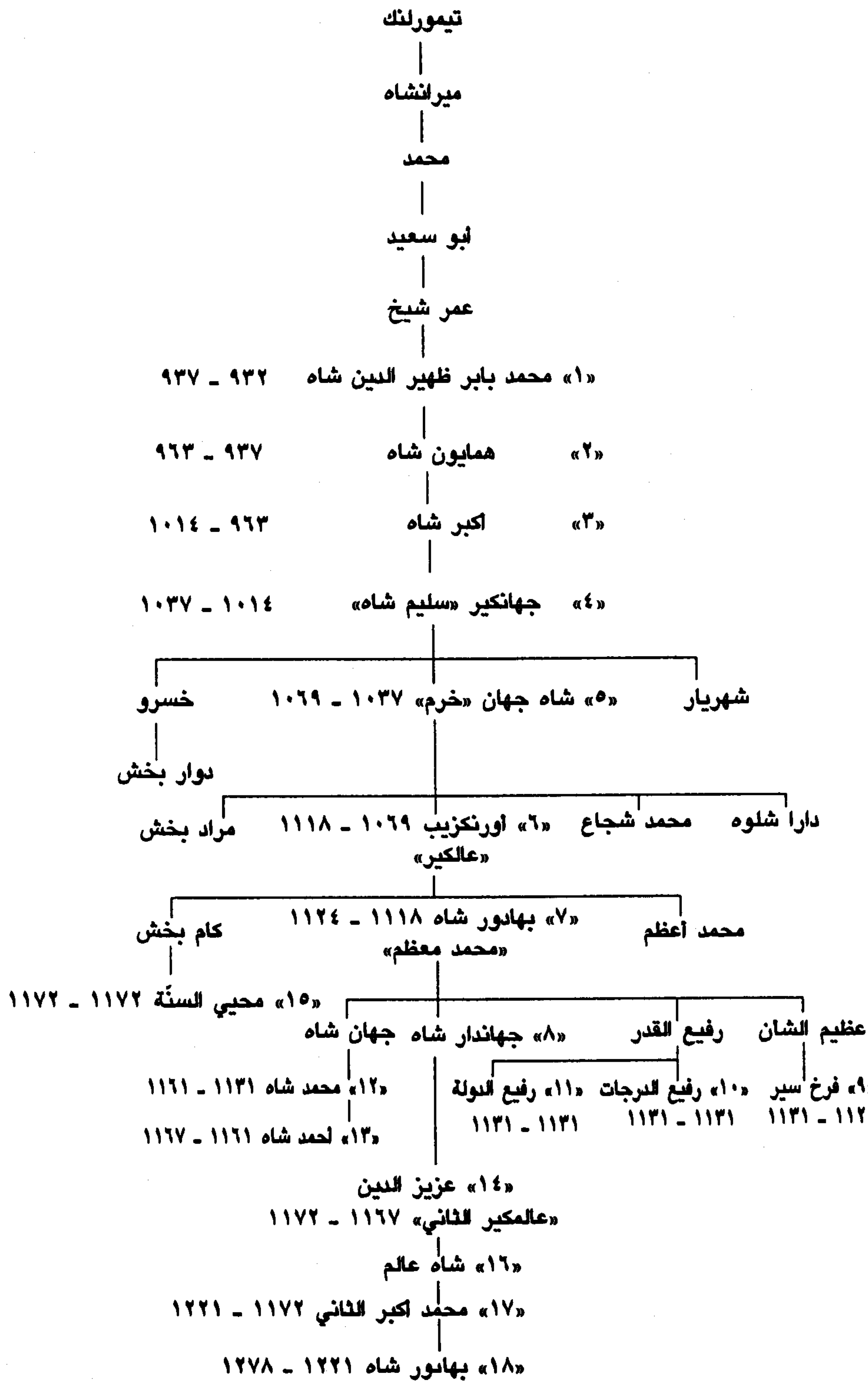
تيمورلنك
ميرانشاه
محمد
ابو سعيد
عمر شيخ
«١» محمد بابر ظهير الدين شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٧
«٢» همايون شاه ٩٣٧ ـ ٩٦٣
«٣» اكبر شاه ٩٦٣ ـ ١٠١٤
«٤» جهانكير «سليم شاه» ١٠١٤ ـ ١٠٣٧
شهريار
«٥» شاه جهان «خرم» ١٠٣٧ ـ ١٠٦٩
خسرو
دوار بخش
دارا شلوه
محمد شجاع
«٦» اورنكزيب ١٠٦٩ ـ ١١١٨
«عالكير»
مراد بخش
محمد أعظم
«٧» بهادور شاه ١١١٨ ـ ١١٢٤
«محمد معظم»
كام بخش
«١٥» محيي السنّة ١١٧٢ ـ ١١٧٢
عظيم الشان
رفيع القدر
«٨» جهاندار شاه
جهان شاه
«٩» فرخ سير
١١٢٤ ـ ١١٣١
«١٠» رفيع الدرجات
١١٣١ ـ ١١٣١
«١١» رفيع الدولة
١١٣١ ـ ١١٣١
«١٢» محمد شاه ١١٣١ ـ ١١٦١
«١٣» احمد شاه ١١٦١ ـ ١١٦٧
«١٤» عزيز الدين
«عالمكير الثاني» ١١٦٧ ـ ١١٧٢
«١٦» شاه عالم
«١٧» محمد اكبر الثاني ١١٧٢ ـ ١٢٢١
«١٨» بهادور شاه ١٢٢١ ـ ١٢٧٨

التسلّط الإنكليزي:

كانت شركة الهند الإنكليزية الشرقية تنقل في بداية أمرها البضائع من الهند إلى أوربا، أما بعد الانقلاب الصناعي فقد أصبحت تنقل المصنوعات من أوربا إلى الهند، وكانت بحاجة إلى نقل الإنتاج الكبير الذي تنتجه المعامل الإنكليزية إلى المناطق المكتظة بالسكان لتصريفه، وتُعدّ الهند من أكبر هذه المناطق، ولذا فإن وكالات الشركة في الهند قد أصبحت بحاجة إلى فتح أسواقٍ جديدةٍ لها في الداخل، ولهذا انتقلت مهمتها من تجارة إلى استعمار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كانت هذه الوكالات على السواحل تحصل على التجارة مقابل أموالٍ معينةٍ تدفعها إلى الحكومات المحلية في الهند، لذا لم تكن دولة المغول تشعر بخطر هذه الوكالات الصغيرة ذات الأفراد المحدودين، والسفن التجارية القليلة التي تمونها، ولكن الآن وقد أصبح وراء كل وكالةٍ شركة بحرية قوية ذات أسطولٍ كبير يُمكنه فرض الحصار على السواحل الهندية في الوقت الذي لا تملك الهند أسطولاً بحرياً، كما أن وراء هذه الوكالات دولاً ذات جيوشٍ مُنظّمةٍ ومدرّبةٍ تملك أسلحةً حديثةً وتعمل بالتخطيط، فقد تغيّرت لذلك الحال، وتغيّرت نظرة حكام الهند المسلمين إلى هذه الوكالات، ولكن متى؟ عندما ضعفت الدولة المغولية وتجزّأت، وغدت غير قادرةٍ على المقاومة الفعالة.

بدأت الوكالات الإنكليزية تتعامل مع الهنود البراهميين الذين أثْروا نتيجة هذه المعاملة فارتبطت مصالحهم مع الإنكليز، إضافةً إلى أنهم كانوا يحقدون على المسلمين دينياً، كما يحقدون عليهم بصفتهم حكاماً، وهذا أيضاً ربط مصالحهم مع الإنكليز وزاد التعامل معهم، وكانوا يدخلون على الحكام المسلمين في مراكز حكمهم باسم التجارة، وجلب البضائع إلى القصور، فيُشيعون الشائعات، ويُثيرون الفتن، ويُلقون البغضْاء بين الحكام المحليين الأمر الذي أضعف السلطة أو زاد في ضعفها، وزاد من الشحناء بين الحكام، وفي الوقت نفسه أصبح للإنكليز عملاء من الهنود البراهميين.

شعر المسلمون بالخطر، وأراد حاكم البنغال سراج الدولة أن يُسيطر

على مراكز الإنكليز على الساحل، وهاجم حصن «فورت وليم» الإنكليزي واستولى عليه، وانتصر على القوات الإنكليزية ـ الهندية المشتركة وذلك في شوال من عام ١١٦٩، وهذا ما أخاف إنكلترا فأعدت العدة للقتال، ودعم الفرنسيون سراج الدولة، وقد كانوا في حربٍ مع الإنكليز حتى امتدت هذه الحرب إلى مراكز الطرفين في الهند، وانتصر الإنكليز، وصغر حجم المراكز الفرنسية، ولجأ الإنكليز إلى الحيلة والخديعة، وتمكّنوا من شراء مير جعفر علي خان أكبر قادة سراج الدولة وأكثر أعوانه إخلاصاً له إضافة إلى أنه ختنه، ووقعت الحرب بين الطرفين في موقعة «بلاسي» عام ١١٧٠، ويبدو أن المعركة كانت تتأرجح بين الجيشين فانفصل مير جعفر علي خان عن أمته، وانضمّ إلى خصمها، وحقق الإنكليز النصر، ووقع سراج الدولة أسيراً في أيديهم فأعدموه، وأخذ مير جعفر حكم البنغال. عاد الإنكليز فخلعوا مير جعفر علي خان بعد مدةٍ يسيرةٍ، وولّوا مكانه قاسم علي خان، ثم رجعوا فعزلوه، وأعادوا مير جعفر علي خان، لأن قاسم علي خان قد عزّ عليه أن يسير طوع الإنكليز ولو أنهم هم الذين أعطوه الولاية، فلما عُزل استنجد بملك الهند المغولي عالم شاه، ووالي منطقة (أوده) شجاع الدولة، وسار جميعهم لحرب الإنكليز الذين جاءتهم النجدات. فهُزم المسلمون هزيمةً منكرةً في «بكسر» وقبضوا على الملك المغولي عالم شاه، وقبل شروطهم للخلاص من الأسر، وخضعت البنغال، وأوريسا، وبيهار للإنكليز الذين تفرّدوا بالسيطرة على هذه المناطق باسم شركة الهند الشرقية الذي أصبح المسؤول عنها الحاكم العسكري في الهند، وبدأ الإنكليز يقبضون على أجزاء الهند جزءاً بعد آخر عنوةً أو صلحاً.

ومن أشهر حروب الإنكليز للمسلمين في الهند حرب مقاطعة ميسور التي كانت المرازبة الهندوك تحت سيطرة المسلمين، فلما ضعفت الدولة المسلمة المركزية استبدّ المرازبة بما تحت أيديهم، وكان حيدر علي خان بن فتح علي خان أحد قادتهم، فخافه وزراؤهم، وأرادوا البطش به، فلما أحسّ بما يُدبّر له تسلّم السلطة بالقوة، ووسّع ملكه إذ استولى على أكثر

بلاد المهراتا وبلاد مدراس فخاف منه الإنكليز، وحاربوه وضمّوا إليهم المهراتا أعداءه الألداء الذين استولى على جزءٍ من أراضيهم، ونظام الملك حيدر أباد الذي يُريد أن يوسّع أملاكه على حساب مقاطعة ميسور، ولكنه صمد أمامهم، وتفوّق عليهم، إلاّ أنه في الوقت نفسه قدّر أن الصمود أمام الإنكليز والانتصار عليهم لا يكون باتباع الطريقة التقليدية في تنظيم الجيوش، واستعمال الأسلحة القديمة، ولا بدّ من استعمال الأساليب الحديثة والأسلحة المتطوّرة، واستخدم الفرنسيين لتحقيق هدفه، وقد كانوا في حرب مع الإنكليز، ولكن الصليبية هي الصليبية فعندما انتهت حرب الاستقلال الأمريكية تخلّت فرنسا عن حيدر فانتصر عليه الإنكليز، ثم توفي عام ١١٩٦، وخلفه ولده فتح علي المعروف باسم «تيبو» الذي تابع القتال، وهُزم أمام الإنكليز وحلفائهم، فأُجبر على توقيع معاهدة (سرنغا باتام) التي خسر فيها الكثير من أملاكه، ودفع غرامةً حربيةً وذلك عام ١٢٠٧.

عاد تيبو إلى إعداد جيوشه، وهو يفكر في وجود الحليف في الإمارات المسلمة في الهند، ولكن أين هي؟ لقد سقط معظمها، وبعضها مشغول في حرب بعض، أو هي ضده من الأساس. وكانت فرنسا تفكر في التعاون مع تيبو، وغيره من أمراء الهند للعمل ضد الإنكليز فأرسلت لهم الرسائل، إلا أن رسالتها إلى تيبو قد وقعت بيد الإنكليز فأثار ذلك حفيظتهم وشدّدوا الضغط عليه والحملات ضده، ولكنه انتصر عليهم، ولم تقدّم فرنسا ونابليون بونابرت شيئاً له. وعند هزيمة الإنكليز أمام تيبو لجؤوا إلى الغدر والحيلة، واستقدموا النجدات، وأطمعوا المهراتا فانتصروا عليه، وحاصروه في قلعته، وأغروا أحد قادته وهو مير صادق الذي لان لهم، لأنه توقّع الهزيمة ففتح أبواب القلعة للإنكليز الذين دخلوا إليها، وتلقّاهم السلطان تيبو بالقتال حتى سقط صريعاً عام ١٢١٤.

وأخذ الإنكليز كرناتك (كروماندل) بالإغراء وذلك عام ١٢٣٤ بالشكل التالي، كانت هذه المنطقة تتبع دهلي، ودخل الإنكليز إلى مدراس تجاراً عام ١٠٤٩، فلما تولّى آصف جاه ولاية بلاد الدكن كان معه أنور الدين بن

أنور بن نعمة الله فولاّه على كرناتك عام ١١٥٧ فاستقلّ بها، وقُتل عام ١١٦٢، فخلفه ولده محمد علي خان الذي اتخذ بعد مدةٍ مدراس قاعدةً لحكمه، واستخدم العساكر الإنكليز كرهاً بالفرنسيين، وقد توفي عام ١٢١٠، وخلفه ولده عمدة الأمراء الذي توفي عام ١٢١٦، فتولّى مكانه تاج الأمراء حسين علي خان وكانت الديون قد كثرت على الإمارة، فطلب الإنكليز من تاج الأمراء أن يُفوّضهم بحكم الإمارة لقاء دفع ما عليه من الديون فرفض، فراجعوا أحد الأمراء وهو عظيم الدولة فوافق وقد أغروه بالمال إذ رتّبوا له ولأقاربه مبلغاً ضخماً كل عام، واستولوا على المنطقة عام ١١٣٤هـ، وأبقوا أميرها صورةً، وتنتقل الإمرة في أسرته.

سيطر الإنكليز على الهند جزءاً بعد آخر بوسيلةٍ من الوسائل، واستولوا على أوقاف المسلمين التي كانت مصدر تمويل الكتاتيب الوحيدة، فتعطّلت الكتاتيب، وزاد الجهل، وفي الوقت نفسه سعوا في تعليم الهندوس ليسدّوا بهم بعض المراكز، وليتقوّوا بهم على المسلمين أو ليضربوا المسلمين بهم، وأخذوا أحسن أراضي المسلمين الذين عاشوا بعد ذلك بذلٍ وفقرٍ وجهلٍ، على حين نشط التعليم بين الهندوس إذ اعتقد الإنكليز أنه من المستحيل تنصير مسلمٍ واحدٍ على حين يمكن تنصير أعدادٍ من الهندوس، ويكون هؤلاء النصارىٰ في المستقبل أنصاراً لهم وأعواناً، أو يحكمون الهند باسمهم أو يكون نفوذهم قوياً بواسطتهم، وانتشرت بذلك الإرساليات التبشيرية النصرانية، والتي سيطرت على التعليم الحكومي، وامتنع المسلمون من التعليم على يد النصارى الصليبيين، وأقبل الهندوس عليه، كل هذا جعل التفاوت كبيراً في ناحية التعليم بين المسلمين والهندوس، ومن ناحية اقتصادية فقد ضعف وضع البلاد بسبب السياسة الإنكليزية التي غمرت أسواق الهند ببضائعها، وكانت التجارة بأيدي المستعمرين، ولم تلقَ الزراعة أي تشجيعٍ، إضافة إلى أوضاع الفوضى التي جعلت الناس يهملون الزراعة..

ونتيجة الفقر الذي وقع في البلاد فقد انخرطت أعداد من السكان في

الجيش، وكان ضباطهم الإنكليز يسخرون منهم، ويستخفّون بهم، ويُحاولون ازدراء دينهم مما أدّى إلى حدوث الكراهية، ومحاولة النقمة كردّ فعلٍ، وحدث أن أدخل الإنكليز البنادق إلى الجيش، وطلب الضباط من الجند أن يمسحوا بنادقهم بالشحم، وسرت شائعة أن هذا الشحم من شحم الخنزير والبقر لإهانة سكان الهند سواء أكانوا مسلمين أو هندوساً فهاج الجند، وغضبوا لذلك أشد الغضب حتى اضطرت حكومة الهند الإنكليزية إلى إصدار منشوراتٍ تُكذّب هذه الشائعات ولكن لم يلتفت أحد إلى هذه المنشورات ولم يُصدقوها، وكتحدٍ من قِبَل الإنكليز فإن سرية الفرسان في بلدة ميرته على بعد ٤٠ ميلاً من دهلي قد وزعت الشحم على الجنود، وطلبت منهم استخدامه فأخذوه مكرهين إلا ٨٥ جندياً فقد رفضوا ذلك، فحُكم عليهم بالسجن عشر سنوات، وقرئ القرار على الجنود الإنكليز والهنود، وكُبّل الرافضون بالقيود، وسيقوا إلى السجن مشاةً مسافة ميلين، فأظهر بعضهم العجز عن المسير بتلك القيود، وتألّم الجند الوطنيون، وصعب عليهم، واتفقوا على إنقاذ إخوانهم هؤلاء رغم أنف الإنكليز الذين حاولوا منعهم، فهجموا على الإنكليز وقتلوا ضابطاً منهم، وعدداً من جنودهم... فصوب الإنكليز المدافع والبنادق على الجنود الهنود الذين فرّوا متجهين إلى دهلي حيث انطلقوا إلى دار الملك المغولي سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه، وكان قد جاوز التسعين من العمر، وعدّوه ملك البلاد بل لا يعرفون غيره... وانتقلت هذه الحركة المحلية إلى ثورةٍ عارمةٍ شملت معظم أجزاء البلاد. وطلب الإنكليز في الهند النجدات فجاءتهم، وكانت إنكلترا قد انتهت من حروبها في القرم ضد الروس، وفي بلاد فارس، والجنود عندها مهيئة للحركة فاتجهت إلى الهند، وسارت إلى دهلي وحاصرتها عدة أشهر، ثم دخلتها، وقبضت على بهادور شاه وأسرته، وحكمت عليه بالنفي، وقتلت أبناءه في موكبهم أمامه، وعملت له وجبات من لحومهم، ونفته إلى عاصمة بورما «رانغون».

وسمعت بقية المدن بدخول دهلي فتأزمت الحالة وقامت الثورات،

وتأتي الجيوش الإنكليزية لتحاصر المدن، وتدخلها بعد مدة، وتنتقم من أهلها.

وبعد انتهاء الثورة عام ١٢٧٤ أعلنت إنكلترا انتهاء حكم شركة الهند الشرقية، وعدّت بلاد الهند من أملاك التاج البريطاني، يتصرف بها كيف يشاء. وعدّ الإنكليز المسلمين سبب الثورة لذا فقد صبّ المستعمرون جام غضبهم على المسلمين فصودرت أملاكم، وهُدّمت مساجدهم أو أصبحت ثكنات للجيوش، وشُرّد الناس، ورحب الهندوس بهذه الأعمال فأعانوا الإنكليز على قتل المسلمين، وادعوا أنه قد آن الأوان لهم للثأر والانتقام، واستلموا الوظائف، وحصلوا على الثروة، واشتروا الأرض حتى لم يبق للمسلمين سوى ٥٪ من الأراضي التي كانوا يملكونها من قبل، وكانت سياسة الإنكليز تقضي بتقريب الهندوس واضطهاد المسلمين، وقد صرح اللورد ألنبرو بهذا إذ قال: «ليس في وسعي أن أغمض عيني بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا، وأن سياستنا الحقة أن نتجه إلى تقريب الهنود».

ومع أن الهند قد أصبحت تحت سلطة الإنكليز إلا أنه قد بقيت بعض الإمارات الصغيرة أو الكبيرة، منها ما هو بيد المسلمين، ومنها ما هو بيد الهندوس، وهذه الإمارات تحت سلطة الإنكليز الخارجية إلا أن الأمير مفوض بإدارة الأمور الداخلية، وقد بقي بعض هذه الإمارات حتى استقلت البلاد وتقسّمت، ومن هذه الإمارات حيدر أباد في الدكن، ومساحتها ٨٣ ألف ميل مربع، وتسمى بالدولة الآصفية نسبة إلى نظام الملك آصف الذي أسسها، والذي توفي عام ١١٦١، وبقيت حتى دخلتها الجيوش الهندية عام ١٣٦٧.

وإمارة بهوبال في الدكن، وقد أسسها ابن دوست محمد الأفغاني، وهو (يار محمد)، إذ ولّاه آصف جاه بهوبال فاستقل بها عام ١١٦٧، وبقيت حتى أُلغيت عام ١٣٦٦، وكانت مساحتها ٦٧٦٤ ميل مربع.

وإمارة جوناكدا في كوجرات، ومساحتها ٣٢٨٣ ميل مربع، تأسست

١١٧١، واستمرت حتى ألغيت عام ١٣٦٦. وغير هذه الإمارات كثير.

قام بعض المسلمين يريدون سدّ الثغرة التي حصلت، وأدّت إلى تأخر المسلمين فدعوا إلى التعليم، وحاول بعضهم تقليد الغرب مثل أحمد خان الذي رغب في التقرب من الإنكليز لينال الحظوة عندهم، فأنشأ كلية عليكرة، وأسس جريدة تهذيب الأخلاق، وبعضهم يرى العمل بمقتضى الإسلام، وقد تأسست ندوة العلماء، ودار العلوم التابعة لها عام ١٣١١ في مدينة لكنو.

وخاف الإنكليز عندما قوي التيار الإسلامي فعملوا على نشر الفكرة القومية ليضيع المسلمون بين الهنود، وتأسس حزب المؤتمر الهندي عام ١٣٠٣، ودخله الهنود، كما دخل فيه المسلمون بل إن بعض الهيئات الإسلامية قد اندمجت فيه مثل جمعية العلماء، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومؤتمر الشيعة، وكان هذا الحزب في البداية يُظهر احترام شعور المسلمين، ولكنه أظهر فيما بعد عكس ذلك فنادى بإخراج الغرباء من الهند، ويَعدّ المسلمين غرباء كالإنكليز، وبدأ التطرف من الهنود أو ظهرت بينهم جماعة من الغلاة الذين نادوا بقتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يحاول مسايرتهم. وكان لا بد أن يظهر تجمع خاص من المسلمين مقابل ذلك فوجدت الرابطة الإسلامية عام ١٣٢٤ بعد اجتماع في دكا في البنغال برئاسة النواب فخار الملك. وبدأ الخلاف واضحاً بين حزب المؤتمر والرابطة. وظهرت دعوة المتطرفين الهنود، ولا شك أن أكثر الهنود في حزب المؤتمر كانوا يؤيدونهم. وهذه الدعوة تتلخص في أربع نقاط:

١ ـ سانكاثان: أي الوحدة.

٢ ـ الراجا: أي الإله الهندي «رام راجا» أي وحدة العقيدة، وإجبار السكان جميعهم عليها.

٣ ـ شوذي: أي إرجاع المسلمين إلى الهندوكية.

٤ ـ فتح أفغانستان ومناطق الحدود، وردّ أهلها عن الإسلام.

ويعدون سلامة الجنس الهندي ومستقبله متوقفة على تحقيق هذه النقاط الأربع.

ومعنى هذا لا يمكن اللقاء بين الطرفين إلا أن بعض المسلمين بقوا يرون أن بقاء وحدة الهند مهم جداً، ويرى بعضهم أن هذا مفيد للدعوة الإسلامية بين الهنود... لذا بقي بعضهم في حزب المؤتمر مدةً، ثم انسحب مثل محمد علي جناح الذي انضم إلى الرابطة عام ١٣٣٣، وعرض عليه الهنود أن يبقى، ويصبح رئيساً لحزب المؤتمر لكنه رفض... ومنهم من بقي أمثال أبو الكلام أزاد الذي أصبح وزيراً للمعارف في الهند بعد استقلالها مباشرةً.

وعندما أُلغيت الخلافة العثمانية بتأثير الإنكليز حدثت ثورة عامة شملت معظم أرجاء الهند، وعرفت باسم حركة الخلافة احتجاجاً على الإنكليز ودورهم في ذلك ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب.

ونتيجة تطرف الهنود وردّ فعل المسلمين والخلاف العقيدي بين الطرفين كان لا بدّ من الانقسام، وهو ما تم في النهاية.

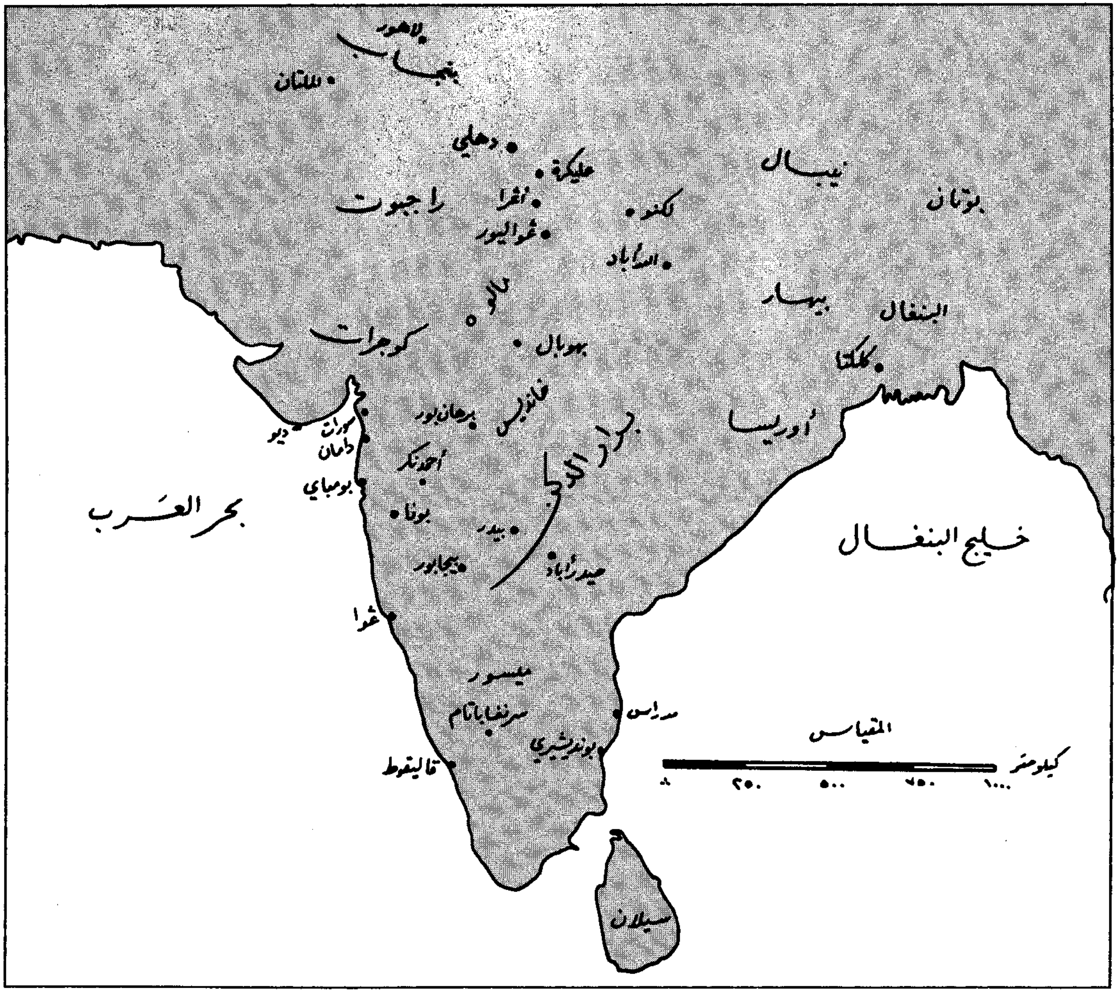
لاهور
بنجاب
الملتان
دهلي
عليكرة
نيبال
بوتان
راجبوت
أغرا
لكنو
غواليور
الله آباد
مالوه
بهار
البنغال
كوجرات
بهوبال
كلكتا
ديو
سورات
دامان
برهان بور
خاندش
أوريسا
أحمدنكر
بومباي
بحر العرب
بونا
بيدر
خليج البنغال
بيجابور
حيدرآباد
غوا
ميسور
مدراس
سرنغاباتام
المقياس
بوندشيري
كيلومتر
قاليقوط
٠
٢٥٠
٥٠٠
٧٥٠
١٠٠٠
سيلان

مصور رقم [٣٣]

الفصل الثاني

المالديف

المالديف مجموعة من الجزر تقع في المحيط الهندي إلى الجنوب الغربي من الهند وسيلان، وعلى مسافة ٤٨٠ كيلومتراً من الطرف الجنوبي لشبه القارة الهندية، وعلى مسافة ٦٧٢ كيلومتراً من جزيرة سيلان. تمتد على شكل مجموعات من الشمال إلى الجنوب مكونةً تسع عشرة مجموعة جزيرية، يزيد عدد جزرها على ألفي جزيرة، إلا أن بعضها يغمره الماء أثناء المد، ويبقى ١٠٨٧ جزيرة ظاهرة بشكل دائم فوق الماء، ولا يوجد غير ٢٢٠ جزيرة مأهولة بالسكان، تبلغ مساحتها ٥١,٧٨٠كم٢ بما في ذلك المستنقعات، أما مساحة اليابس الدائم فهو ٢٩٨ كيلومتراً مربعاً. ولا يزيد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ساكن.

وصل التجار المسلمون إلى جزر المالديف عام ٨٥ في خلافة عبد الملك بن مروان، وبدأ بعض الناس يدينون بالإسلام، ولكن ظهر أثر المسلمين واضحاً عام ٥٤٥ بعد أن وصل الدعاة إلى تلك الجزر، ومنهم أبو البركات البربري فاستطاع ـ بإذن الله ـ أن يأخذ بأيدي السكان نحو الإسلام، وأسلم الناس جميعاً حتى لم يبق في الجزيرة غير مسلم، وأسلم الملك وتسمّى محمد بن عبد الله. وقد زار الرحالة ابن بطوطة الجزر عام ٧٤٤، وأطلق عليها اسم ذيبة المهل، ولم يجد فيها غير مسلمين، وعمل قاضياً فيها مدةً.

وصل البرتغاليون إلى هذه الجزر عام ٩١٣ في محاولتهم لتطويق العالم الإسلامي، وقد تمكّنت القوة البرتغالية من احتلال الجزر، وفرضت سيطرتها على السكان، وحاولت التأثير على عقيدتهم ولكنها فشلت فشلاً

ذريعاً في ذلك مع أنها ارتكبت أبشع الجرائم لإرهاب السكان، وبقي البرتغاليون ما يقرب من القرن في هذه الجزر.

وفي مطلع القرن الحادي عشر كان الهولنديون قد وضعوا أقدامهم في جزيرة سيلان، وكان نجم البرتغاليين يغرب أمام المنافسين لهم من هولنديين، وإنكليز، وفرنسيين، وعقد الهولنديون معاهدة مع سلطان المالديف وضعت الجزر تحت حمايتهم، وحاولوا أيضاً كما حاول أسلافهم من الصليبيين تغيير عقيدة السكان غير أنهم لم يحصلوا على أية نتيجة بل وجدوا مقاومةً صلبةً من السكان، وفيها تحدٍّ واضح. وكانت جزر المالديف آنذاك تدار من قِبَل حكومة سيلان الهولندية.

وجاء الإنكليز إلى جزر المالديف عام ١٢١١ بعد المنافسات الصليبية، والمساومات، والاتفاقات، وتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهم، أي أن الهولنديين بقوا أصحاب النفوذ في جزر المالديف ما يقرب من مائتي سنة. وفي عام ١٣٠٥ حدثت بعض الحركات في البلاد، فعقد الإنكليز مع السلطان معاهدة جديدة أعلن فيها وضع البلاد تحت الحماية الإنكليزية، ولم يبق للسلطان إلا الاسم.

وفي عام ١٣٥٠ تراخت قبضة الإنكليز قليلاً حسب سياستهم الجديدة التي اتبعوها بعد الحرب العالمية الأولى، فأعلن السلطان شمس الدين إسكندر الدستور. ولكن عندما استقلت سيلان عام ١٣٦٧ وضعت جزر المالديف تحت حماية التاج البريطاني مباشرةً، غير أن الاستعمار بشكل عام والإنكليزي بشكل خاص قد بدأ بعد ذلك يغير من أسلوبه، فلم يعد يناسبه الاستعمار العسكري ـ باستثناء الاستعمار الروسي ـ واتخاذ الجند وفرض الهيمنة، وإنما أصبح يُفضّل النفوذ والسيطرة الاقتصادية، أما الحكم فيُسلّمه لأنصاره وأعوانه، ومن هذا المنطلق فقد أعلنت الجمهورية المالديفية عام ١٣٧٣ ، وعُيّن محمد أمين ديدي سلطاناً على البلاد، وهو ابن عم رئيس الجمهورية السابق، وأصبح إبراهيم ناصر رئيساً للوزارة. وعقدت إنكلترا مع المالديف معاهدةً عام ١٣٧٦.

تعهدت إنكلترا عام ١٣٨٠ بدعم جزر المالديف مادياً، وبعد خمسة أعوام (١٣٨٥) اتفقت مع إنكلترا بمعاهدة جديدة تأكيداً لاتفاقية عام ١٣٧٦ ، واحتفظت إنكلترا بموجبها بقاعدةٍ جويةٍ في جزيرة (جان) بمقاطعة (أصول)، ونالت بعدها البلاد الاستقلال، وإن جرى جدل عنيف حول هذه المعاهدة التي وُقعت في مدينة كولومبو عاصمة سيريلانكا، كما قُبلت المالديف عضواً في الأمم المتحدة. وفي عام ١٣٨٨ انتخب إبراهيم ناصر رئيساً للجمهورية.

الفصل الثالث

ماليزيا

تشمل ماليزيا شبه جزيرة الملايو وشمالي جزيرة بورنيو، وتتألف من ثلاث عشرة ولاية، إحدى عشر منها في شبه جزيرة الملايو وهي: كيلانتان، وجوهور، وباهانغ، وسيلانغور، وبيرق، وقدح، ومالاقا، وبينانغ، ونيغري سميلان، وترينغانو، وبيرليز. واثنتين في شمال بورنيو وهي ساراواك، وصباح.

انتشر الإسلام في شبه جزيرة الملايو عن طريق التجارة، وفي عام ٦٧٥ أسلم ملك مالاقا أكبر دول الملايو آنذاك، وتسمّى باسم محمد شاه، وتبعه رعاياه، وخلفه بالحكم ابنه مظفر شاه، ومن مالاقا انتشر الإسلام إلى باقي الجهات.

وصل البرتغاليون إلى المنطقة عام ٩١٧، واستطاعوا بعد جهود كبيرة احتلال مالاقا في ذلك العام، وبعد حصار استمر عدة أشهر، وعندما سقطت بأيديهم قرعت أجراس الكنائس في روما ابتهاجاً بذلك النصر على المسلمين، وعمل البرتغاليون أبشع الأعمال الوحشية في المدينة، ففرت أعداد من المسلمين، وانطلقوا إلى أعالي نهر جوهور حيث أقاموا دولةً أخرى هناك في جنوبي شبه جزيرة الملايو.

وجاء الهولنديون إلى المنطقة عام ١٠١١، واستولوا على مالاقا عام ١٠٤٤، وزالت دولة البرتغاليين، وظنّ بعض سكان مالاقا أن الاضطهاد قد خفّ عنهم بمجيء الهولنديين محل البرتغاليين، لكنهم وجدوا أن الأمر نفسه

فالصليبية واحدة، والحقد على الإسلام واحد، وتابع الهولنديون سياسة البرتغاليين نفسها تجاه المسلمين.

وجاء دور الإنكليز فوصلوا إلى المنطقة، واحتلوا جزيرة بينانغ عام ١٢٠٢ من سلطان قدح بعد أن استأجرتها شركة الهند الشرقية الإنكليزية من سلطان قدح، ثم استولوا على مالاقا عام ١٢٠٧، ومع دخول الاستعمار الإنكليزي إلى المنطقة اتجهت سيول من الصينيين والهنود نحو الملايو للعمل، إذ فتحت لهم إنكلترا الطريق، وسهّلت لهم القدوم على شرط أن يكونوا غير مسلمين وذلك لتخفيف نسبة المسلمين في شبه الجزيرة.

أعاد الإنكليز لهولندا مالاقا عام ١٢٣٣، ثم عقدوا معاهدة مع الهولنديين عام ١٢٣٩، استردوا بتلك المعاهدة مالاقا، واعترف الهولنديون بالنفود الإنكليزي في شبه الجزيرة كلها، وكان الإنكليز قد اتجهوا عام ١٢٣٥ نحو سنغافورة، وسيطرت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على سنغافورة عام ١٢٤٠، وحكمت إنكلترا شبه جزيرة الملايو من الهند، ثم من عدن، ولم تتدخل في بداية الأمر في شؤون السلطنات الداخلية، فبقيت شبه الجزيرة كيانات مستقلة تحت الإدارة البريطانية، ولكل كيان دستور محلي خاص.

رأت إنكلترا أن تلغي تلك الكيانات المنفصلة بعضها عن بعض، ففاوضت عام ١٢٩١ سلطان قدح، وعرضت عليه أن يقيم في بلاده بريطاني يُقدّم له النصائح والتوجيهات من غير أن يتدخل بالأمور التي تتصل بالدين الإسلامي أو بالعادات الملايوية فوافق أو أكره على الموافقة، ووافق بعدها سلطان (سيلانغور) بأن يستقبل عنده مقيماً إنكليزياً، وكذلك وافق كل من سلطان (باهانغ) و(نغري سميلان). وتلا ذلك أن دخلت هذه الولايات الأربع في اتحاد يديره كله مقيم بريطاني عام ١٣٠٣، كما قبل في العام نفسه سلطان (جوهور) حماية بريطانية له دون أن يحصل على بعض المنافع.

واتفقت تايلاند التي غزت شمالي شبه جزيرة الملايو مع بريطانيا أن

تكون ولايات (كيلانتان) و(ترينغانو) و(بيرليز) والتي قبلت كل منها أن تستقبل مقيماً بريطانياً عاماً عندها، ولكنها في الوقت نفسه رفضت أن تنضم إلى الاتحاد، أو إلى الممتلكات البريطانية، اتفقت تايلاند وبريطانيا أن تكون هذه الولايات مع ولاية قدح تحت النفوذ البريطاني وتشكل اتحاد الملايو، وقد ظلت السيادة بأيدي سلاطينها.

أما شمالي بورنيو فقد كان يتبع سلطان بروني. وفي عام ١٣٠٠ تأسست الشركة البريطانية لشمالي بورنيو، ولم يلبث أن امتد النفوذ الإنكليزي إلى مقاطعات صباح، وبروني، وساراواك وغدت محميات إنكليزية.

واستمر الوضع حتى نهاية هذه المرحلة (١٣٤٢)، وإن تطورت اقتصاديات البلاد بسبب زراعة المطاط ووجود معدن القصدير وهذا بالتالي ما أدى إلى اندفاع سيولٍ من الصينيين والهنود للعمل بل والاستيطان في المنطقة، وهذا ما أضعف نسبة المسلمين أولاً وسبب لهم مشكلات في المستقبل ثانياً.

فطاني:

فطاني ولاية ملايوية، خضعت كباقي أجزاء شبه الجزيرة إلى الممالك التي قامت في أندونيسيا، ولما حلّ الضعف بتلك الممالك استقلت عدة إمارات في شبه جزيرة الملايو، ومنها إمارة مالاقا، وقد تبعت فطاني هذه الإمارة عام ٨٦٥. وعندما احتلّ البرتغاليون مالاقا عام ٩١٧ تقدّم التايلانديون من الشمال، واحتلوا المقاطعات الفطانية إضافةً إلى إمارة (قدح)، ولكن هذا الاحتلال كان ضعيفاً الأمر الذي مكّن سلطان فطاني من الاحتفاظ باستقلاله الإداري، ووطد علاقاته التجارية مع الدول البحرية سواء المحلية مثل اليابان التي وطدت علاقتها معها عام ١٠٠٩ أم الصليبية المستعمرة القادمة مثل البرتغاليين، والهولنديين، والإنكليز وقد كان لكل هؤلاء مراكز تجارية في مدينة فطاني.

كانت إمارة فطاني تشمل الأراضي الممتدة من برزخ (كرا) في الشمال حتى حدود ماليزيا الحالية، وتحكم من قبل الفطانيين غير أن تايلاند تمكنت عام ١١١٢ في الأجزاء الشمالية من إمارة فطاني، واستمرت هجماتهم على بقية الأجزاء وأهم هذه الهجمات ما كان عام ١٠٤٢ و١٠٤٣ ولكنها فشلت في المرتين، وأخيراً تمكّنت تايلاند من احتلال فطاني عام ١٢٠١، وقسّمتها مباشرة إلى سبع مقاطعات لإضعاف روح المقاومة وتجزئتها، غير أن الفطانيين لم يلقوا السلاح فقد قاموا بثورةٍ عام ١٢٠٢ بقيادة (تنكولميدين)، وأعلن سلطان فطاني الاستقلال عن تايلاند، ولكن فشلت الثورة إذ استشهد تنكولميدين أثناء القتال، وأسر سلطان فطاني فنُقل إلى بانقوك عاصمة تايلاند.

عيّن ملك سيام حاكماً جديداً لفطاني هو (داتوفنكلان) الذي كان وزيراً للبحرية الفطانية سابقاً لكن هذا الحاكم الجديد ثار عام ١٢٢٣ على تايلاند، وأعلن استقلاله، ولكن الحركة فشلت أيضاً فاتخذ التايلانديون سياسة جديدة في زيادة التجزئة ووضع سياميين في الإدارة الفطانية.

عاد الفطانيون إلى الحركة عام ١٢٤٧ إذ انضموا إلى الأمير (تنكودين) ولي عهد إمارة قدح في ثورته على تايلاند، ولكنهم هُزموا أيضاً، ودخلت جيوش تايلاند الأرض الفطانية وإمارة قدح فنُهبت الأموال وهدّمت الديار، وقتلت الرجال، وهتكت الأعراض، وعاثت جند سيام الفساد، وأخذت معها أربعين ألف أسير إلى بانقوك حيث زجّتهم هناك في السجون، ثم اتخذتهم عبيداً للعمل في أراضي الدولة، وهذا ما أرهب السكان فأجبرهم إلى اتخاذ الهدوء كي يعودوا للاستعداد.

وفي عام ١٣٢٠ اغتصب التايلانديون سلطات الأمراء الفطانيين أو ما تبقى لأولئك الأمراء من سلطنةٍ، وجعلوا مندوباً تايلاندياً يحكم المنطقة ويرتبط مباشرة ببانقوك، وهذا ما حمل الأمير تنكو عبد القادر قمر الدين للقيام بحركة مقاومةٍ مطالباً باستقلال بلاده، ولكنه هُزم وحُمل أسيراً إلى بانقوك، ثم نُفي إلى شبه جزيرة الملايو ليعيش هناك في مقاطعة (كيلانتن)،

وعيّن أميراً على فطاني محيي الدين عبد القادر، وأرسل إلى لندن للدراسة ليعيش بعيداً عن بلاده.

وفي ١٣٢٧ اتفقت تايلاند وإنكلترا على تسوية الحدود بينهما في شبه جزيرة الملايو فأخذت إنكلترا إمارة قدح، وأخذت تايلاند فطاني، وقبل هذا كان الفطانيون يرون في إنكلترا النصرانية أقل سوءاً من تايلاند البوذية، ويطلبون المساعدة منها، ويرغبون في الاتفاق معها، ولكنهم رأوا بعد ذلك في النصارى حقداً صليبياً لا يختلف عن الحقد البوذي بل إن إنكلترا سبب ما يحدث في المنطقة.

وفي عام ١٣٤٢ قام الفطانيون بحركة مقاومةٍ جديدة بدأت برفض دفع الضرائب، ثم عمت للمطالبة بالاستقلال غير أنها أُخمدت، وأُلقي القبض على عددٍ كبيرٍ من قادة الفطانيين ومن الشعب ونقلوا إلى بانقوك، وقتلت أعداد أخرى، ووقع التعذيب على مجموعات كثيرة، وشُرّد آخرون.

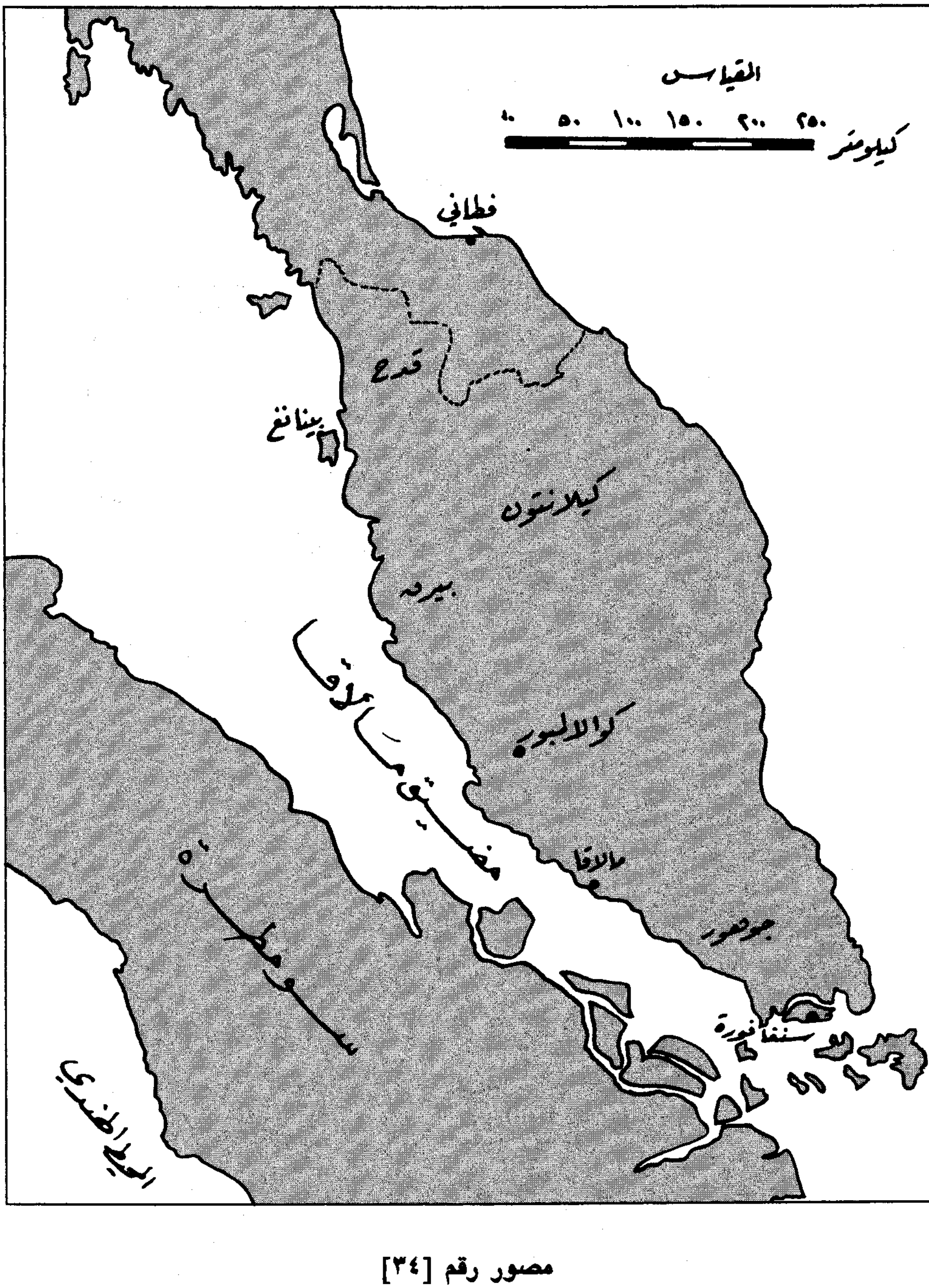
المقياس
كيلومتر ٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
فطاني
قدح
بينانغ
كيلانتون
بيرق
كوالالمبور
مضيق مالاقا
مالاقا
جوهور
سنغافورة
سومطرة
المحيط الهندي

مصور رقم [٣٤]

الفصل الرابع

أندونيسيا

انتشر الإسلام عن طريق التجارة والدعوة في الجزر الأندونيسية بشكلٍ هادئ، وقامت عدة ممالك إسلاميةٍ في جهات متفرقةٍ من تلك الجزر المتباعدة، إذ كلما زاد عدد المسلمين في بقعة من الأرض عملوا على تأسيس دولة لهم، وانفصلوا عن الحكومة المركزية كي لا يخضعوا بأحكامهم لغير المسلمين، فلما كان القرن العاشر الهجري كانت هناك ممالك إسلامية متعددة، ولكنها ضعيفة لتفرقها، ولوجود أعدادٍ من غير المسلمين بين رعاياها حيث كان انتشار الإسلام تدريجياً ولم يكن عن طريق الفتح والقوة وإخضاع الناس لحكم الإسلام مباشرةً.

في هذا الوقت تمكّن البرتغاليون من احتلال ميناء مالاقا في شبه جزيرة الملايو بعد حصار عدة أشهر وذلك عام ٩١٧، ثم اتخذ البرتغاليون مالاقا قاعدة لشنّ الغارات على الممالك الإسلامية في الجزر الأندونيسية، ونشبت معارك عنيفة بين المسلمين والبرتغاليين اتسمت بالحقد الصليبي، وخاصة أن البرتغاليين كان هدفهم الرئيسي في وصولهم إلى تلك الجهات ضرب اقتصاديات المسلمين والسيطرة على تجارتهم لإضعافهم والسيطرة بعد ذلك على بلادهم وإخضاعهم لحكمهم، وإرغامهم على ترك إسلامهم ولو بعد مدة، لذا فإن مقاومة المسلمين كانت عنيفة.

ولم تنج المناطق الأخرى من غارات البرتغاليين ولو كانت لغير المسلمين وذلك في سبيل السيطرة التجارية عليها والقضاء على التجارة

الإسلامية في تلك المناطق حيث كان التجار المسلمون هم أصحاب النفوذ والحركة في معظم تلك الجهات، لذا فقد تعرّضت سيام، والصين، وجزر المولوك أو البهارات لحملات الغزاة الصليبيين بهدف الاستيلاء على البهارات (التوابل) وبقية المواد واحتكارها لصالحهم وحدهم، وضرب تجارة المسلمين، وهذا الجانب الاقتصادي في الاستعمار هو الذي غطّى على الهدف الرئيسي ألا وهو الجانب الصليبي، إذ سارت الإرساليات التبشيرية النصرانية مع الاستعمار أو مع الحملات الصليبية الجديدة التي اتخذت من التجارة أو السيطرة التجارية أو الجانب الاقتصادي قناعاً تتستر به وتخفي حقيقتها، واستطاعت هذه الإرساليات أن تجذب إليها بعض الأفراد الأندونيسيين وتدخلهم في عداد أبناء عقيدتها، واتخذتهم أو اتخذهم أصحاب السلطة من المستعمرين أتباعاً لهم ومؤيدين لسياستهم الاستعمارية الصليبية.

لقد كثر التجار النصارى المستعمرون، وكثرت أسفارهم إلى الجزر الأندونيسية، والتعامل مع أبناء البلاد مباشرة دون وساطة التجار المسلمين ليحققوا بذلك أكبر ربح لهم، وهذا أمر طبيعي، وليضعفوا خصومهم التجار المسلمين، وهذا أمر طبيعي أيضاً، إلا أن تعدياتهم قد كثرت، وحمتهم قوة السلطة الاستعمارية، ووقفت بجانبهم ودعمتهم بل شجعتهم على المضي في استعلائهم وهذا ما ولّد النقمة لدى السكان وورّث الكراهية عندهم. ومع تفرقة الأندونيسيين، وتعدد ممالكهم، وضعفهم أمام المستعمرين الصليبيين فقد قاموا بعدة ثورات ضد البرتغاليين، وقاموا بعدة حركات ضد الصليبية وخاصة بعد أن قتل أحد ملوك دول أندونيسيا غدراً عام ٩٧٨ وهو هارون سلطان «ترنات» الذي كانت تمتد سلطته حتى جزر الفيلبين.

بقيت البرتغال في سياستها التعسفية الوحشية، واحتكارها للتجارة حتى عام ٩٨٨ إذ استولت إسبانيا على البرتغال، وأصبحت هي صاحبة السيادة على أراضي البرتغال وممتلكاتها، ولم يتغير شيء بالنسبة إلى المسلمين الأندونيسيين إذ ذهبت إدارة صليبية وأتت إدارة صليبية أخرى، غير أن إسبانيا ضعف أمرها سريعاً حيث هُزمت أمام إنكلترا وتحطم أسطولها في

معركة الأرمادا البحرية عام ٩٩٨، وهذا ما جعل الدول الأُخرى تغتنم فرصة هذا الضعف الإسباني وهذه الهزيمة الإسبانية، وضياع جزء كبير من القوة البحرية الإسبانية، وتتقدم نحو الجزر الأندونيسية، وكانت هولندا أكثر هذه الدول سبقاً، خاصةً أنها كانت في حرب مع إسبانيا وتخلّصت إثر هذه الحرب من الحكم الإسباني وحصلت على استقلالها، وقامت تنافس سادتها السابقين أو حسب رأي الهولنديين يومذاك قاموا ليحصلوا على نصيبهم أو حقهم من إرث إسبانيا، ولم يخشوا أسطولها إذ سبق أن تحطم، وأصبحت السفن الهولندية تنتقل في بحار تلك الجهات دون خوف من القوة الإسبانية المنهارة.

وصل الهولنديون إلى جزيرة سومطرة عام ١٠٠٥، وكان همهم التجارة في بداية الأمر غير أن السكان عرفوا التبديل من قبل، وشعروا أن الصليبية واحدة لذا فقد قاوموا الهولنديين مقاومةً عنيفة، غير أن الهولنديين تمكّنوا من خديعة بعض السكان، إذ أظهروا وداعة الحمل، وأخفوا أنياب الذئب، وحاولوا إزالة الصورة البشعة التي تركها الصليبيون البرتغاليون، وكانت العلاقات ودية وأبدوا أنهم جاءوا منقذين من البرتغاليين، لذا فقد تمّ عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٠٩ في جزيرة (أمبوينا) الواقعة بين إيريان الغربية وجزيرة سلبيس، وتقضي هذه المعاهدة بمنح حق للهولنديين في إقامة القلاع للدفاع عن الجزيرة مقابل احتكار تجارة التوابل... واتخذت هولندا طريق عقد المعاهدات بين السلاطين والملوك لتمكين نفوذها وبالتالي السيطرة على الجزر كافةً.

وقام عدد من الشركات الهولندية لاستثمار الخيرات في البلاد، وهي كثيرة، والأرض لا تزال بكراً، وإثر كل معاهدة كانت تتشكل شركة جديدة، وبمقتضى الحال فإن هذه الشركات بدأ ينافس بعضها بعضاً، وهذا ما أضرّ بمصلحة هولندا العامة الأمر الذي جعل الحكومة الهولندية توحّد هذه الشركات في شركة واحدة عام ١٠١١، هي شركة الهند الشرقية الهولندية التي اتخذت باتافيا (جاكرتا) مقراً لها. وأصبحت صاحبة النفوذ في البلاد.

بدأت المنافسة بين إنكلترا وهولندا عام ١٠٢٨، ووقف الأهالي على الحياد، وإن كانوا يميلون إلى إنكلترا، إذ لم يعرفوها بعد على حين عرفوا الهولنديين، أو أن حب التغيير وهو الطبيعة في النفس البشرية قد جعلهم يقفون بجانب الإنكليز، وقدموا لهم بعض الدعم والمساعدات والتأييد، وفرّ حاكم شركة الهند الشرقية الهولندية إلى جزر المولوك، ولم يستطع الإنكليز اقتحام حصون باتافيا، ولما شعر الهولنديون أن السكان ليسوا بجانبهم لذا فقد بدؤوا بحرب ضد السلاطين والملوك الواحد بعد الآخر حتى بسطوا نفوذهم على الجزر كافةً، وكانت الحرب قد انتهت بين إنكلترا وهولندا وأُرغمت فيها هولندا عن التخلي عن الاحتكار التجاري في الهند وأندونيسيا، وصحيح أنها تخلت عن الاحتكار، وتوقف القتال، ولكن المنافسة التجارية لم تزل قائمةً بين الدولتين. وكانت إنكلترا أقدر على المنافسة مما جعل أرباحها تزداد على حين تفقد الشركة الهولندية الكثير من أرباحها بل تعرّضت للخسارة وكانت النتيجة تصفية الحكومة الهولندية للشركة عام ١٢١٤، وحلّت محلّها في حكم الجزر الأندونيسية، أو أن الاستعمار الهولندي قد بدأ في هذا العام.

اتخذت هولندا أسلوب الاستعمار غير المباشر إذ كانت تنصّب الزعماء المحليين، وتستعملهم أداة للضغط على السكان واضطهادهم، وهذا ما جعل أبناء البلاد يسخط بعضهم على بعض، ويحقد على هؤلاء الزعماء الذين اصطنعتهم هولندا في الوقت الذي يصطنع هؤلاء الزعماء أعواناً وخواصاً.

استولت فرنسا أيام نابليون بونابرت على هولندا وحاولت أن تسيطر على ممتلكاتها في أندونيسيا عام ١٢٢٦ غير أن إنكلترا سبقتها إلى ذلك فسيطرت على جاوه، وتيمور، وجنوبي سومطرة، وماكاسار في سبيليس، غير أن فرنسا لم تلبث أن هزمت، وعادت هولندا مستقلة فاتفقت مع إنكلترا عام ١٢٢٩ على إعادة المناطق الأندونيسية إليها مقابل تنازلها عن سيلان، والكاب في جنوبي إفريقية، وبعض جزر الهند الشرقية وبعض جزر

الهند الغربية، واستولت إنكلترا على جزيرة سنغافورة، وشبه جزيرة الملايو، فاحتجت هولندا، وعاد الخلاف بين الدولتين، ولكن رجعتا إلى الاتفاق عام ١٢٤٠، وتنازلت إنكلترا لهولندا عن الأراضي التي كانت تبسط نفوذها عليها في غربي جزيرة سومطرة.

بدأت هولندا تفرض الضرائب الكثيرة على سكان أندونيسيا كمشاركة لها ـ حسب زعمها ـ بالخسائر التي تكبدتها في الحروب التي خاضتها في القارة الأوربية فبدأ الشعب بالثورة على المستعمرين، وهذا ما جعل هولندا تحكم أندونيسيا عن طريق وزير المستعمرات.

بدأت الحروب بين هولندا التي تسيطر على أندونيسيا وبين مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وكانت حرباً مقدسة إذ أعلن سكان مملكة آتشيه الجهاد ضد الصليبيين المستعمرين، وما أن انطلقت الحرب العالمية الأولى حتى كانت هولندا قد أخضعت معظم ملوك أندونيسيا لسيطرتها إما عن طريق الحرب، وإما عن طريق الخداع، وإما عن طريق الاقتصاد، وحرصت أن تُبقي أولئك الملوك في مراكزهم وتحكم البلاد عن طريقهم، وتحتفظ لهم بما كانوا عليه من أبهة وسلطان.

وجاءت الحربة العالمية الأولى ومنَّت هولندا الأندونيسيين بالوعود بعد الحرب، وانتهت الحرب، وخابت آمال السكان إذ عادت هولندا إلى سياستها الاستعمارية، ولم تُعر عصبة الأمم ولا مؤتمر الصلح أي اهتمام بشؤون الشعوب الضعيفة، وإنما كانت الدول القوية هي المتحكمة بشؤون الناس المغلوب على أمرهم، وعادت أندونيسيا إلى المقاومة من جديد، ومن المفيد أن نذكر أهم حركات المقاومة ضد هولندا منذ دخولها البلاد حتى نهاية هذه المرحلة التي نتحدث عنها عام (١٣٤٢).

منذ مطلع القرن الحادي عشر قاد السلطان عبد الفتاح سلطان مملكة بنتام حركة المقاومة، وأنشأ قوةً فدائيةً، وبنى أسطولاً، واتصل بالدولة العثمانية، وإنكلترا لمقاومة هولندا، غير أن الدولة العثمانية قد بدأت في الضعف وبعد الشقة بعد الحليفين جعل إمكانية المساعدة قليلة الأثر، أما

إنكلترا فكانت تتفق مع هولندا حسب مصالحها إضافة إلى الروح الصليبية التي تجمع بينهما، فهُزم السلطان عبد الفتاح وانتهت حركته، ودخلت هولندا بلاده.

وقام الأمير سرياتي في جزيرة جاوه بحركة مقاومة استمرت عدة سنوات، وانتهت بقتله ونفي أنصاره وقادته من البلاد.

وفي عام ١٢٤٠ قام الأمير ديبونيجورو أحد علماء جزيرة جاوه بحركة أخذت شكل الحرب بين الجيوش ودامت خمس سنوات، وعجزت هولندا عن إحراز النصر على هذه القوة، فحاولت التفاهم مع قائد الحركة، فخُدع ووافق، فقبضت عليه أثناء المفاوضات، ونفته إلى جزيرة (سيلبيس) حيث بقي في منفاه حتى توفي عام ١٢٧٢.

ومنذ عام ١٢٣٧ قامت جماعة بدري بحرب استمرت خمسة عشر عاماً، ومن أشهر زعمائهم الشيخ مصطفى سحاب، وانتهت هذه الحرب عام ١٢٥٣.

ولما انتهت هولندا من هذه الحروب اتجهت إلى الممالك الأندونيسية تقضي على الواحدة تلو الأخرى، وكان يساعد هولندا في القتال تفوّق سلاحها، وقتالها للأندونيسيين وهم متفرقون فكلما انتهت من مملكة اتجهت إلى أخرى، وكلما قضت على جماعة شنت الحرب على غيرها، واعتمادها على مرتزقة بسبب قلة سكانها بالنسبة إلى أندونيسيا هذا إضافة إلى اتخاذ المكر، والحيلة، والخديعة، وإغراء بعض ضعاف النفوس.

ومن هذه الحروب القتال مع مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وقد دامت من عام ١٢٩٠ ـ ١٣٢٢ أي أكثر من ثلاثين سنة، فأعلن سلطان المملكة إبراهيم منصور شاه الجهاد المقدس، ومن أبرز أبطال تلك الحرب تنكو عمر... وإذا كانت هذه الحرب قد انتهت عام ١٣٢٢ إلا أن المقاومة قد استمرت حتى الحرب العالمية الأولى.

ولجأ الأندونيسيون إلى توحيد صفوفهم عن طريق تأسيس الجمعيات والأحزاب السياسية ومن أشهرها:

١ - الجمعية الخيرية التي تأسست في جاكرتا عام ١٣١٩.

٢ - جمعية مكارم الأخلاق الخيرية في سورابايا في شرقي جزيرة جاوه.

٣ - شركة إسلام وقد أسسها في مدينة صولو عام ١٣٢٣ الحاج سمنهودي، والحاج عمر سعيد شكرو، وانقلبت عام ١٣٢٩ إلى حزب سياسي كبير لعب دوراً أساسياً في الحياة السياسية فيما بعد.

٤ - الجمعية المحمدية التي أسسها الحاج محمد دحلان عام ١٣٣٠، وتعد أكبر جمعية تعليمية في العالم إذ تشرف على ١٥٠٠ مدرسة و٧٠٠ مستشفى و٣٠٠ دار للأيتام.

٥ - جمعية الإرشاد في سورابايا وأسسها أحمد السكرتي عام ١٣٣٠.

٦ - جمعية نهضة العلماء، وأسسها هاشم أشعري عام ١٣٤٤، وانقلبت إلى حزب سياسي كان له دوره في الحياة السياسية.

٧ - الجمعية العائشية، وهي خاصة بالنساء، وتأسست عام ١٣٣٥، ومركزها مدينة (ميدان) وسط جزيرة سومطرة. واستمر تأسيس الجمعيات بعد انتهاء هذه المرحلة التي نتكلم عنها.

وأما أشهر الأحزاب التي وجدت في هذه المرحلة.

١ - **حزب القمصان الخضراء**: وكان يرى التعاون مع السلطات الهولندية للوصول تدريجياً إلى الاستقلال، وكان يدعمه حزب شركة إسلام. واستمعت هولندا إلى مطالبه وهي تأسيس مجلس نيابي يساعد هولندا، ويشاركها في حكم البلاد، وأنشأت بالفعل مجلس الرعية الذي يتألف من ستين عضواً نصفهم من الأندونيسيين وخمسة وعشرون عضواً من الهولنديين وخمسة آخرون يمثلون الأجانب الذين يقيمون في أندونيسيا، وتنتخب السلطات الهولندية رئيس هذا المجلس، وهذا يعني أن أكثرية المجلس إنما تمثل رأي المستعمرين، والمجلس أداة بيد هولندا لذا رفض الشعب هذا التعاون، وانسحب حزب شركة إسلام من تأييد حزب القمصان الخضراء،

كما انسحب أعضاؤه من المجلس النيابي عام ١٣٤٢.

٢ ـ **حزب القمصان الحمراء**: ولا يرى التعاون مع السلطات الهولندية كما لا يرى طريق المفاوضة طريقاً موصلاً إلى الاستقلال، وإنما المقاومة هي الطريق الوحيد للحصول على ما يريده الأندونيسيون. وبدأت الأفكار الشيوعية تتسرب إلى هذا الحزب، لذا ألف مجموعة جديدة من أنصاره وأصحاب الأفكار الشيوعية وعرف هذا الحزب الجديد باسم (شركت رعيت) أي حزب الجماهير.

وفي عام ١٣٣٦ أسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الهولندي بأندونيسيا، وهو فرع من الحزب الاشتراكي بهولندا، وعندما انكشف أمر هذا الحزب عُدّ مستقلاً عام ١٣٣٨، وتحرك باتجاه حزب الجماهير، وتأسس الحزب الشيوعي عام ١٣٣٩، من هذين الحزبين، وارتبط بالمنظمة الشيوعية العالمية، وكان هذا الحزب رغم أفكاره الشيوعية المخالفة لأفكار الهولنديين يلقى كل تأييد من السلطات الاستعمارية ما دام يُضعف الفكر الإسلامي ويبعد المسلمين عن عقيدتهم، وقوي أمر هذا الحزب لهذا السبب: تأييد استعماري وتأييد شيوعي في وقتٍ واحدٍ. واتجه حزب شركة إسلام نحوه أيضاً كي لا ينفرد الشيوعيون بتوجيه أبناء البلاد على زعم أعضاء حزب شركة إسلام يومذاك فزاد الحزب قوةً إلى قوة عام ١٣٤٣.

الفصل الخامس

الفيليبين

بدأ انتشار الإسلام في الفيليبين حوالي عام ٢٧٠ للهجرة عن طريق الدعوة والتجارة، وما أن جاء القرن العاشر إلا وكانت مجموعة من الإمارات الإسلامية في تلك الجزر أكبرها إمارة راجا سليمان التي كان مقرها مكان مدينة مانيلا الحالية، وكان لها نفوذ على أكثر الإمارات والسلطنات الأخرى الموزعة في الجزر. وفي عام ٩٢٧ وصل الصليبي ماجلان قادماً من جهات أميركا، واتفق مع حاكم جزيرة سيبو (هومابون) على أن يدخل حاكم الجزيرة في الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي مقابل أن يكون ملكاً على الجزر كلها تحت التاج الإسباني، ومن جزيرة سيبو انتقل ماجلان ومن معه من الإسبان إلى جزيرة (ماكتان) للتمكين للنصراني الجديد (هومابون)، وكان على جزيرة (ماكتان) حاكم مسلم يدعى (لابو لابو)، ولما علم الإسبان بهذه الحقيقة ثار في نفوسهم الحقد الصليبي الذي حملوه معهم من إسبانيا بل من أوربا كلها، فبدؤوا بارتكاب الأعمال الوحشية إذ طاردوا النساء، وسطوا على طعام السكان فقاومهم الأهالي، فأضرموا النار في أكواخ السكان الآمنين وفرّوا هاربين.

رفض (لابو لابو) الخضوع لماجلان لما رأى فيه من الحقد والتعالي والغطرسة الصليبية، وربما لان له لو رأى فيه شيئاً من الحكمة، وحرّض (لابو لابو) السكان المسلمين في الجزر الأخرى على ماجلان، فاستنفرت النفوس واستعلى الإيمان، إلا أن ماجلان قد غرّته قوته وأسلحته الحديثة، وأراد أن يضرب خصمه ضربةً قويةً يرهب بها بقية الأمراء والسلاطين فذهب

مع فرقة من جنده مزوّدةً بالأسلحة الحديثة لقتال (لابو لابو) وتأديبه ـ على حد زعمه ـ. ولما التقى به طلب منه التسليم قائلاً: «إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد». فأجابه لابو لابو: «إن الدين لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم». ثم هجم على ماجلان وقتله بيده، وشتت شمل فرقته، ورفض تسليم جثته لأتباعه الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا، فوصلوا إلى إسبانيا في شوال عام ٩٢٨.

بعثت إسبانيا أربع حملات متتابعة نزلت على سواحل جزيرة ميندناو الجزيرة الكبرى في الجنوب وحيث يكثر المسلمون فقُتل أفراد هذه الحملات كلهم، وأُطلق على هذه الجزر اسم الفيليبين عام ٩٤٩ باسم أمير النمسا فيليب الذي أصبح فيما بعد ملكاً على إسبانيا. وبعد أن أُبيدت هذه الحملات بدأ الغزو الإسباني الحقيقي للجزر عام ٩٧٣، إذ جاءت حملة كبيرة بقيادة «ميغل لوبيز»، ونزلت في جزيرة سيبو حيث بنت فيها قلعة حصينة، ومن هذه الجزيرة انطلق الإسبان لغزو بقية الجزر، وقد استطاعوا السيطرة على مملكة (راجا سليمان) بعد قتال مرير، وبنوا مدينة مانيلا على أنقاض عاصمة راجا سليمان. كما تمكنوا من إخضاع الجزر الشمالية، وأطلقوا على سكانها المسلمين اسم «المورو»، غير أن الإسبان عجزوا عن إخضاع الجزر الجنوبية، إذ صمد سكانها المسلمون في وجههم صموداً قوياً جعلهم ييأسون من دخول تلك الجزر. وانصرفوا لذلك إلى توطيد سلطانهم في الجزر الشمالية، والتبشير بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي فوافقتهم جماعة وتنصرت، واعتزلت جماعة بعقائدها الوثنية في المناطق النائية، وعاش المسلمون بينهم يخضعون لأربع سلطنات يعمل سكانها في التجارة وصيد البحر.

وحاول الإسبان أن يقوموا بأبشع الجرائم لإرهاب المسلمين، لكن ذلك لم يفت في عضد المسلمين، واستمروا في مقاومتهم، وبقيت

سلطناتهم مستقلةً في الجنوب، وأطلق الإسبان ومن سايرهم على هذه المقاومة اسم قرصنة وقطع الطرق، وفرضت إسبانيا على المناطق التي سيطرت عليها اللغة الإسبانية والديانة النصرانية الكاثوليكية، وهذا ما قوّى الروابط بين المسلمين في الجنوب ودعا إلى الثورة ضد الإسبان في الشمال، وقد اندلعت هذه الثورة عام ١٢٩٠، ثم خبت نيرانها قليلاً إلى أن عادت فتأججت عام ١٣١٤، واضطر الحاكم العام الإسباني إلى أن ينسحب من البلاد إلى هونغ كونغ ريثما يتمكّن من إخماد الثورة، وقد استطاع الإسبان فعلاً إخماد الثورة ولكن بقيت منظمة تعمل في الخفاء وتدير المقاومة وتحركها ضد المستعمرين.

اتصلت الولايات المتحدة مع المنظمة السرية لمساعدتها في طرد الإسبان من البلاد، ولم تكن مساعدة الولايات المتحدة شريفةً وإنما ترغب في أن تحلّ محلّ إسبانيا في استعمارها لتلك الجزر، ولم يدر قادة المنظمة عما يدور في خلد أميركا، وبدأ العمل المشترك عام ١٣١٦، ودُمّر الأسطول الإسباني داخل خليج مانيلا. واتفقت إسبانيا وأميركا سراً على أن تنسحب إسبانيا من الجزر مقابل خمسة ملايين دولار، وانسحبت فعلاً بعد معارك تمثيلية. وعاد الحاكم العام الإسباني من هونغ كونغ وهو الجنرال (غوينالدو) فأعلن استقلال البلاد ورحيل إسبانيا عنها.

كانت أميركا وإسبانيا قد وقعتا معاهدةً في باريس بينهما تخلّت بموجبها إسبانيا عن الفيليبين، وكوبا، وبورتوريكو للولايات المتحدة، وهكذا أصبحت الفيليبين تتبع الولايات المتحدة، وانسحبت إسبانيا من الساحة بعدما تكبّدت خسائر كثيرة.

لم يعترف السكان على معاهدة باريس التي وُقّعت بين إسبانيا والولايات المتحدة، ورفضوا حكم الولايات المتحدة، وقاموا بحركة مقاومةٍ عنيفةٍ ضدها، لكنها تمكنت من القضاء على هذه الحركة عام ١٣١٩، وبسطت نفوذها على الأجزاء الشمالية التي كانت إسبانيا تسيطر عليها، وعدت البلاد إحدى ولاياتها، وإن كانت قد عزلت المناطق الجنوبية عزلاً

تاماً، وأهملتها الأمر الذي أدى إلى زيادة تأخر المسلمين بالنسبة إلى النصارى الذين دعمهم الاستعمار الصليبي سواء أكان في أيام الإسبان أم في عهد الولايات المتحدة. كما أن التعليم كان بإشراف الإرساليات التبشيرية النصرانية، وقد رفضه المسلمون وتبناه النصارى، فتقهقرت الثقافة الإسلامية، وانتشر الجهل بين المسلمين على حين تقدم النصارى.

واستمرت مقاومة المسلمين مدة عشرين سنة (١٣١٩ - ١٣٣٩) استسلموا بعدها وقد أصابهم الوهن، وحل بهم الضعف نتيجة الحالة التي حلّت بهم أو وصلوا إليها بسبب الجهل، والفقر، والمرض الذي ينتابهم، وعدم تطور أسلحتهم وإمكاناتهم، وعدم دعمهم من قِبَل المسلمين الذين كانوا في حالةٍ ليست أفضل بكثير من حالة المسلمين في الفيليبين، ونُسي المسلمون في تلك الجزر البعيدة، وانقطعوا عن إخوانهم وخاصةً أن الخلافة قد أُلغيت عام ١٣٤٣، وتفكك المسلمون في أمصارهم، وانصرفوا في كل جهة يئنون تحت وطأة ما حلّ بهم، ويلهثون وراء قضاياهم الخاصة.

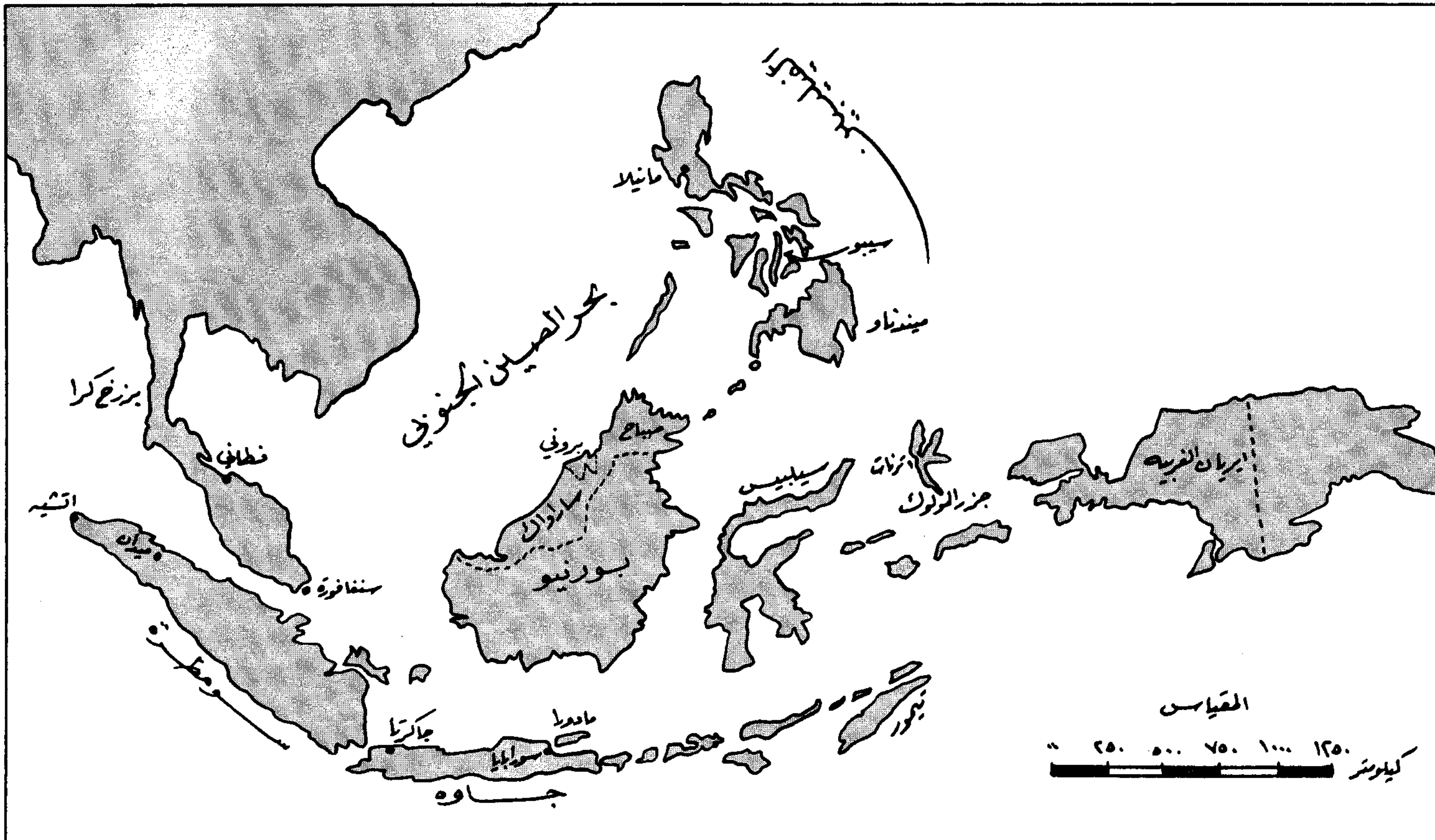
بحر الصين الجنوبي
جزر الفلبين
مانيلا
سيبو
مينداناو
برزخ كرا
فطاني
سنغافورة
اتشيه
ميدان
سومطرة
جاكرتا
سورابايا
مادورا
جاوه
تيمور
بورنيو
صباح
بروني
ساراواك
سيليبيس
ترنات
جزر الملوك
إيريان الغربية
المقياس
٠ ٢٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠ ١٢٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٥]

الباب الخامس

إفريقية

لم تكن جهات إفريقية المسلمة كلها على درجةٍ واحدةٍ من الأهمية في هذه المرحلة التاريخية. ومن الطبيعي أن تكون المناطق القريبة من مركز العالم الإسلامي أكثر اهتماماً وتتبعاً لأحداثها من قِبَل المسلمين من المناطق الواقعة على الأطراف ما دامت لا توجد ثغور فيها، ولا يقوم أبناؤها بالجهاد ومنازلة أعداء الله.

لقد كانت مصر أكثر بلاد إفريقية أهمية فهي إضافةً إلى كونها قريبة من مركز العالم الإسلامي كانت الطريق الطبيعية إلى باقي جهات إفريقية، وتتجه أنظار المسلمين إليها بصفتها المركز الذي تولّى قتال الصليبيين البرتغاليين سواء أكان أواخر أيام المماليك أم بداية عصر العثمانيين، ولم تقل نظرة الصليبيين إليها لكونها حاملة لواء المواجهة وبصفتها تشرف على الطريق الطبيعية إلى بلاد المشرق حيث ترنو أنظار الأوروبيين لذا حطت على أرضها الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ التي كانت بداية الهزيمة النفسية الكبيرة لدى المسلمين، والشعور بالضعف أمام التقدم الأوربي، إضافةً إلى بقية الآثار السيئة التي خلفتها تلك الحملة. ويجب ألا ننسى دور الأزهر في التعليم، وإقبال الإفريقيين بل والآسيويين نحوه، وما قدّم من جهد لرفع راية الجهاد، وما بذل من تضحيات في سبيل بقاء شعلة الإيمان متوهّجةً في تلك المرحلة التاريخية.

أما بلاد المغرب فقد ضعف شأنها عما كانت عليه سابقاً أيام المرابطين والموحدين، وكلاهما نازل الصليبيين في الأندلس، وكانت في وسط العالم الإسلامي يوم كانت الأندلس على أطرافه، فلما ضاعت

الأندلس، غدت بلاد المغرب متطرفة تشرف على المحيط وليس هناك من ثغور، وإذا كان الصليبيون قد بدؤوا ينازلون موانئ بلاد المغرب على سواحل البحر المتوسط التي أضحت ثغوراً وذلك في سبيل ملاحقة المسلمين بعد طردهم من الأندلس إلا أنها كانت قليلة لاتساع مدى الصوت نتيجة الضعف الذي حلّ بالمسلمين، وانقطاع أخبار بعضهم عن بعض لما لحقهم من هزائم أمام الصليبيين، وإذا كان اتجاه جيوش المغرب نحو وسط إفريقية وغربيها إلا أنها كانت خافتة الصوت لأنها في بقاع مجهولة أو في مجاهل إفريقية، وغدت آذان المسلمين ضعيفة السمع قليلة التأثّر بما يقع لإخوانهم.

وإذا كان الإسلام ينتشر في غربي إفريقية في هذه المرحلة إلا أنه بين قبائل كانت مجهولةً من قبل يوم كان الاهتمام أكثر اتساعاً في وسط دائرته فكيف بنا وقد ضاقت تلك الدائرة حتى لم تعد تزد على البقعة التي يعيش فيها الفرد، هذا بالإضافة إلى الناحية الهامشية التي تقع فيها تلك المنطقة بل نستطيع أن نقول: إننا لا نزال نعد تلك المنطقة مجهولة في هذا العصر الذي اتسعت فيه دائرة الإعلام، وتوسّعت فيه المعارف، وزاد نطاق الاهتمام، وظهرت الصحوة الإسلامية نسبياً. ويجب ألا ننسى أن الاستعمار الصليبي كان في هذه المرحلة يتقدّم في غربي إفريقية ويحاول أن يقطع ارتباط غربي إفريقية بإخوانهم المسلمين في بقية الجهات كي لا يتلقّوا أية مساعدات، كما يحرص أن يُبقي سكان المناطق الذين يبسط نفوذه عليهم وعلى بلادهم أن يقبعوا تحت وطأة الفقر، والجهل، والضعف ليركعوا أمامهم... وليستعبدوهم ويستذلّوهم.

وأما شرقي إفريقية فقد تمكّن الصليبيون في بداية هذه المرحلة من قهر المسلمين، والسيطرة على بلادهم، ووضعهم ضمن مناطق نفوذهم، لكن لم يلبث أن عادت للمسلمين بعض القوة، وطردوا الصليبيين البرتغاليين من بعض الجهات، وثبّتوا أقدامهم فيها، فكان لأهل عُمان أجزاء واسعة من شرقي إفريقية بل تقدّموا في داخل القارة، واقتربوا من جهاتها الغربية، غير

أن المسلمين عاد إليهم الضعف، وتجزأت دولة عُمان بين عُمان وشرقي إفريقية واشتد ساعد الصليبيين، واتفقوا فيما بينهم على اقتسام البلدان الإفريقية، وكانت السيطرة الصليبية بصورة عامة.

وفي وسط إفريقية كان التقدم الإسلامي بطيئاً جنوبي الصحراء عن طريق القبائل والإمارات، وما لبث أن اصطدم بالتقدم الصليبي القادم من الجنوب بل ومن الغرب ومن الشرق فحُصر المسلمون، وتوقّف خط مدهم، وسيطر الصليبيون على بلادهم، وعملوا على خنقهم.

وما انتهت هذه المرحلة التاريخية حتى كان المسلمون قد وصلوا إلى حالةٍ من الضعف خطيرةٍ أو استسلموا لأعدائهم الذين تمكّنوا منهم، وبدؤوا يُنفّذون مخططاتهم كما يحلو لهم دون مقاومة، وإذا استطاعت بعض أصوات العلماء أن ترتفع وتُؤيّدها جموع المسلمين إلا أنها لا تلبث أن تُخنق على أيدي الصليبيين أو بأدواتهم التي كانت في كثيرٍ من الأحيان رجالات من المسلمين الذين تبعوا الصليبية فكرياً أو سياسياً أو مصلحة.

الفصل الأول

وادي النيل

كانت منطقة وادي النيل عامةً ومصر خاصةً أهم مناطق العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية لموقعها الجغرافي الذي وُجّهت جهود الصليبيين ضدّه، ولوقوف أبنائها على ثغرة من ثغور الإسلام، ولأطماع بعض الحكام الذين توالوا عليها، ثم ظهور أهمية قناة السويس أو زيادة أثر الموقع بافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٧، الأمر الذي زاد تعلّق الصليبيين بالسيطرة عليها.

١ ـ مصر:

كانت مصر مقر الخلافة العباسية الصورية في العهد السابق ـ العهد المملوكي ـ وكانت من الدول الإسلامية القوية نسبياً آنذاك، إن لم نعدّها أقوى تلك الدول، وقد وقع على عاتقها الوقوف في وجه الصليبيين البرتغاليين الذين جاءوا من الجنوب، وحاولوا اقتحام البحر الأحمر، وبسط النفوذ الصليبي على جنوبي جزيرة العرب وأطرافها مع الخليج العربي، وجاءت طلبات النجدة من المماليك لتلك الجهات، وإلى المسلمين في الهند، وقد أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري حملةً بقيادة حسين الكردي وصلت إلى سواحل الهند، واشتبكت في معارك مع البرتغاليين، وأحرزت النصر في البداية، ثم هُزمت في معركة ديو عام ٩١٥، ورجع حسين الكردي إلى مصر، ثم لم تلبث أطراف الجزيرة العربية أن استغاثت بالمماليك، فسار حسين الكردي ثانيةً إلى المنطقة، وقضى على الدولة

الطاهرية، ودخل اليمن، وترك ولاةً من المماليك عليها ورجع إلى مصر، في هذه الأثناء جاء العثمانيون ودخلوا مصر عام ٩٢٣.

وجدت دولة المماليك نفسها بين عدة دولٍ مسلمةٍ آخذةٍ في النمو والتوسع منها: الدولة العثمانية في الأناضول ودولة الصفويين في فارس ومنطقة الجبال، كما وجد المماليك أنفسهم أمام التحدي الصليبي البرتغالي القادم من الجنوب، لذا رأوا أن عليهم الوقوف في وجه هذا التحدي كواجب إسلامي، وهذا ما يمنعهم في الوقت نفسه من عدم الدخول في نزاعات مع الدول الإسلامية الأخرى، غير أن الظروف قد تفرض عليهم ما لم يرغبوه بل ما لم يتوقعوه.

لقد دخل الصفويون في نزاع مع العثمانيين، ولربما كان للعقيدة أثر في هذا النزاع، وهذا ما ألزم العثمانيين على ترك ساحات القتال في أوروبا في الغرب والتوجه إلى جهات الشرق لمنازلة الصفويين، وقد تمكّنوا من الانتصار عليهم ودخول عاصمتهم تبريز عام ٩٢٠، فاتجه الصفويون يفتشون عن حلفاء لهم ضد العثمانيين، فاتصلوا مع المماليك الذين كانت سياستهم تفرض عليهم عدم الدخول في نزاعات ولذا فلم يُبدوا التأييد لهم وموافقتهم، وفي الوقت نفسه لم يُظهروا الرفض بل الردع وخاصةً أنهم يلتقون مع العثمانيين في أنهم من أهل السنة والجماعة على حين يختلفون مع الصفويين الذين يظهرون التطرّف في التشيّع، وهذا ما أغضب العثمانيين. كما اتجه الصفويون نحو البرتغاليين أعداء الإسلام ليؤلّفوا معهم جبهةً ضد العثمانيين، وهذا ما أقضّ مضاجع العثمانيين، وقرّروا ضرب البرتغاليين قبل أن يشتد ساعدهم ويجدوا الدعم من الصفويين.

أما الدولة العثمانية فقد كانت تحارب في أوربا وتتقدّم في أراضيها وترغب في تخفيف الضغط النصراني عن مسلمي الأندلس ما دامت لا تستطيع مساعدتهم بحراً لعدم إمكاناتها يومذاك أو لضعف إمكاناتها البحرية في تلك المرحلة فلما سقطت الأندلس بيد النصارى الذين أرادوا متابعة المسلمين في المغرب وشمالي إفريقية عامةً بل محاولة تطويقهم من كل

جهة، وهم في سبيل هذا الهدف قد تمكّنوا من الالتفاف حول إفريقية والخروج على المسلمين من جهة الجنوب لذا رأت الدولة العثمانية أن من واجباتها الإسلامية التصدي لهذا الغزو الصليبي وخاصةً أن دولة المماليك لم تتمكن من التصدي لهذا الغزو بل هزمت في معركة ديو عام ٩١٤، فلما طلبت من المماليك السماح لها باجتياز أراضيها للوقوف في وجه البرتغاليين رفض المماليك ذلك، خوفاً من احتلال أراضيهم حيث كان المماليك يرون في الدولة العثمانية رغبةً في التوسع، أو هكذا أوهمهم الصفويون هذا بالإضافة إلى الخلافات التي كانت قائمة بين العثمانيين والمماليك حول إمارة ذي القادر الواقعة بين الدولتين. لذا فما كان من العثمانيين إلا أن دخلوا بلاد المماليك، وانتصروا عليهم في حلب عام ٩٢٢، ثم في مصر عام ٩٢٣، وقضوا على دولتهم في ذلك العام.

قضى العثمانيون على الخلافة العباسية في مصر، وأصبحت عاصمتهم إستانبول مركز الخلافة الجديد، كما أصبح سلطانهم خليفة المسلمين، ولكنهم مع هذا أبقوا ولاية مصر للمماليك، وفي الوقت نفسه أبقوا مصر قاعدة للتصدي ضد الغزو الصليبي البرتغالي، واستمروا في إرسال الحملات من السويس في مصر لقتال البرتغاليين، وقد سار والي مصر سليمان باشا إلى سواحل بلاد الهند، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، ثم اختلف مع حاكم كوجرات فاضطر إلى العودة إلى مصر، وبقيت مصر تقوم بهذا الدور مدة أيام السلطان العثماني سليمان القانوني، واستمرت الدولة العثمانية بعد ذلك تساعد وتساند اليعاربة حكام عُمان الذين حملوا لواء قتال البرتغاليين، وفي أحيان كثيرة تحالف الدول النصرانية المنافسة للبرتغاليين في سبيل القضاء على البرتغاليين أو للتخلّص من المستعمرين الصليبيين الواحد بعد الآخر بمساعدة منافسيه، أو تستفيد من خلافاتهم لتحقق ما تريد، وكان اليعاربة يشتركون أيضاً في هذه الأحلاف ضد البرتغاليين.

ومنذ مطلع القرن الحادي عشر بدأ الإنكليز يصلون إلى الهند للتجارة، وكان وصولهم إلى الهند عن طريق مصر بشكل طبيعي، ولكن لم

يتعد الممر في مصر أمر التجارة أبداً حيث كانت هيبة الدولة العثمانية لا تزال قائمة نسبياً هذا بالإضافة إلى الاتفاقات الجانبية لقتال البرتغاليين وهذا كله كان يُسهّل للإنكليز أمر مرورهم من مصر. وتتمنّى إنكلترا أن تسنح لها الفرصة ببسط نفوذها على مصر، أو تحرص أشد الحرص على ذلك لكن تخشى قوة العثمانيين التي كانت لا تزال قائمة، وإن بدأ خطها البياني بالنزول تدريجياً وهبوطه من مستواه الذي كان عليه أيام قوة الدولة وازدهارها.

أما المماليك الذين كانوا حكام مصر من قبل، ومديرين لمقاطعاتها من قبل ولاة الخلفاء العثمانيين فيما بعد فقد ساسوا البلاد بشكل طبيعي، ولم يطمعوا بأكثر مما أعطوا، وشعب مصر شعب مسالم يخضع لأي حاكم، ويقبل أي سلطان، ويُمجّد كل من يتولّى أمره مهما كانت صفته وعلى أية حالٍ كان وضعه لذا فالأمور هادئة، واستمرت الأحوال على هذه الصورة مدة قوة الدولة العثمانية وفرض هيبتها على البلاد.

حركة علي بك الكبير:

فلما ضعفت الدولة العثمانية زادت سلطة المماليك، وأصبحوا هم الولاة بعد أن كانوا مديرين للمقاطعات، وتولّى ولاية مصر يومذاك علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وقد حدثته نفسه الطماعة بالاستقلال، وقد رأى ضعف الدولة وانشغالها بالحروب ضد الصليبيين الذين يريدون اقتسام أراضيها وإماتة عقيدتها، وقد وجد هذا الوالي التشجيع والدعم من قبل روسيا التي كانت بحربٍ مع الدولة العثمانية فأعلن استقلاله عام ١١٨٢، وتقدّم نحو الشمال ليحارب جنود الدولة فتضطر إلى تخفيف الضغط على الروس، وبسط نفوذه على الحجاز، واتصل بثائرٍ مثله كان والده جابياً للضرائب في ولاية عكا، وعمل هو مع قطاع الطرق، ثم أعلن تمرده ذلك هو ضاهر العمر صاحب عكا، واتفقا معاً على محاربة العثمانيين لإحراجهم في ساعة شدتهم مع الروس، والتقى

جيشا المتمردين وبدؤوا بحرب العثمانيين، غير أن محمد أبي الذهب قائد علي بك الكبير ومملوكه قد شعر بخطر ما يقومون به من ناحية إسلامية فاتصل بسيده ونبّهه على سوء ما يفعلون فجاءته الأوامر بضرورة متابعة القتال، فلما رأى ذلك، وهو مقتنع بإثم ما يفعلون، قرر أن يعود إلى مصر بمن معه من الجند، وأن يقتل سيده، وأن يدير شؤون مصر بنفسه، فقدّر العثمانيون عمله، وأعطوه ولاية مصر عام ١١٨٧، ولم تجد أساطيل روسيا التي وصلت إلى البحر المتوسط بالقضاء على علي بك الكبير ضعف أمر ضاهر العمر، إذ حوصر في عكا، وقضي عليه عام ١١٨٩. وأصبح المماليك ولاة لمصر منذ أيام علي بك الكبير حتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣.

هذه الحركة، حركة علي بك الكبير أظهرت ضعف الدولة العثمانية وأبدت عوراتها الداخلية أكثر مما سبقها من حركات تمرّد، وأطمعت الدول الأجنبية في مصر، وخاصةً إنكلترا وفرنسا المتنافستين على مناطق النفوذ، والمتحاربتين في سبيل السيطرة والاستعمار، وإن كانت تجمع بينهما الروح الصليبية، ولكن ليس هناك من مسلمين يقاومونهما أو يقفون في وجهيهما لذا كان تنافسهما حاداً، ولو وجد من المسلمين من هو عدو لهما لاتفقتا حتى تزيلاه. أما إنكلترا فكانت طريق مصر إلى الهند ميسرة لها، ولا تحتاج أكثر من ذلك، إذ لو فكرت ببسط سيطرتها عليها لوجدت العراقيل وربما سدت هذه الطريق في وجهها نتيجة حدوث بعض المضاعفات لذا فهي راضية بما تجنيه من الهند عن طريق مصر، أما فرنسا فقد رأت أن تقطع طريق الهند عن إنكلترا بالسيطرة على مصر، وإذا تمكّنت من ذلك أجبرت إنكلترا على الرضوخ لمطالب فرنسا، وإعادة بعض ما فقدته فرنسا في حروبها مع إنكلترا، بل وأجزاء أخرى فوقها، هذا إضافةً إلى أن فرنسا قد انتصرت على الدول الأوروبية التي تحالفت ضدها باستثناء إنكلترا وليس هناك من مجال لإجبارها على الصلح إلا بقطع طريق الهند عنها، هذا ويجب ألا ننسى أن حكومة الثورة في فرنسا تريد أن تحصل على بعض

الدعاية لها في داخل البلاد بعد الأحداث الدامية التي مرت بها نتيجة الثورة والفوضى الإدارية التي أعقبتها، وتسلّط الأراذل من الناس باسم الثورة والتحرر، ولا تكون الدعاية إلا ببعض تحقيق النصر الخارجي وتوجيه الناس إلى ذلك النصر، ومتابعة تحركات الجيش، وربما قيل إن حكومة الثورة رغبت في إبعاد نابليون بونابرت عن أحداث البلاد الداخلية بعد أن لمع نجمه بالانتصارات التي حققها على إيطاليا وغيرها، أو قرنت هذه الانتصارات باسمه، فأصبحت تخشاه، كما لم تستطع أن تقف أمام تصرفاته الشاذة وتعدياته أحياناً، فالطريقة المثلى تكليفه بحملة إلى مصر تحقق سياسة البلاد العامة وأهدافها، وسياسة الحكومة في الداخل.

الحملة الفرنسية على مصر:

انطلقت الحملة الفرنسية من طولون عام ١٢١٢ في شهر ذي القعدة، وتتألف من أربعين ألف جندي، وسارت في طريق ملتوية كي لا تصطدم بالأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط والتي لا تستطيع مقاومته، ووصلت بعد شهرين من انطلاقها إلى مدينة الإسكندرية إذ مرت على جزيرة مالطة واحتلتها، ومنها إلى كريت فمصر، فرست سفنها في خليج أبي قير، وتمكّنت من احتلال مدينة الإسكندرية، وتابعت سيرها نحو القاهرة، فاستولت على دمنهور، والرحمانية، ورشيد ثم توجهت إلى القاهرة، وجرت معركة فاصلة بين المماليك بقيادة مراد بك وبين الفرنسيين بالقرب من الأهرام، وعُرفت باسم معركة (أمبابة)، وتقهقر المماليك بعدها نحو الصعيد، ودخل الفرنسيون القاهرة، وغادر الوالي العثماني البلاد، ولم يستطع نابليون إقناعه بالبقاء، ووزع نابليون منشوراً باللغة العربية على السكان، كله تزلف فأظهر أنه جاء بأمر السلطان، لإنقاذ السكان من ظلم المماليك، وأنه مسلم يحترم القرآن الكريم، وكذلك يحترمه الفرنسيون، ولكن ذلك لم يفده شيئاً، وبدأ يلاحق المماليك في الصعيد كلما سمع خبراً باجتماعهم أو استعدادهم للهجوم على القاهرة، أو تحريض السكان على ذلك.

اتخذ نابليون في بداية أمره سياسة التقرب من السكان في محاولة لكسب ودّهم، فشارك في الاحتفالات، وادعى أنه سيعمل لنشر الإسلام بين الفرنسيين، وقرّب إليه العلماء، وكلفهم باختيار أعضاء الديوان الذي سيعمل على مساعدة الحاكم العسكري، والمشاركة في الحكم، وقد تمّ تأليف هذا الديوان بالاتفاق مع العلماء، وشاركوا فيه، لكنهم لم يلبثوا أن اختلفوا معه بشأن الضرائب، وفتح حانات الخمر، والمجاهرة بالمعاصي، وقطع رواتب الأوقاف للفقراء، ومصادرة الدور والمنازل، فالفرنسيون يريدون زيادة الضرائب لإمكانية الاعتماد على موارد مصر إذ أن الأسطول الإنكليزي بقيادة نلسون قد دمّر الأسطول الفرنسي في أبي قير، ثم حاصر السواحل المصرية، فأصبح الفرنسيون محاصرين سياسياً لا يمكنهم الاتصال بفرنسا، ومحاصرين اقتصادياً فيجب الاعتماد على ما تقدّمه مصر من خيرات ومن الضرورة جمع الضرائب لدفع رواتب الجند، فتضايق السكان من شدة وطأة الضرائب، ومما ارتكبه الفرنسيون من مخالفات للإسلام، فكان أن قامت ثورة القاهرة الأولى منطلقةً من الأزهر، ثم عمّت المدينة، وقام السكان على مراكز الفرنسيين، وقتلوا من فيها، ولم يتمكن بونابرت من إخماد الثورة إلا بعد قصفها بالمدفعية، واستعمال أشد أنواع القسوة، وبعد دخول المدينة غيّر نابليون سياسته فاتخذ سياسة العنف، وألغى الديوان الذي أنشأه من العلماء، وألّف ديواناً ضم النصارى، والجاليات النصرانية المقيمة بمصر.

ولم يتمكّن نابليون من إقناع الدولة العثمانية بأن مجيئه إنما كان للتخلّص من المماليك فقط الذين كانوا يتعاونون مع الإنكليز فيسهّلون لهم الطريق إلى الهند، وعندما تحطّم الأسطول الفرنسي، وأيقنت الدولة العثمانية بانقطاع الحملة عن فرنسا تشجّعت للقتال، واتفقت مع إنكلترا، وراسلت المماليك، وأرسلت حملةً بريةً، وأخرى بحرية تنتقل على سفن إنكليزية، ثم انضمّت روسيا إلى هذا الاتفاق ضد فرنسا. وأخذ نابليون يستعدّ لملاقاة الحملة العثمانية.

الحملة الفرنسية على الشام:

رأى نابليون أن يلتقي مع الحملة العثمانية البرية خارج حدود مصر كي لا ينضم الشعب المصري إلى الحملة فيما إذا وصلت إلى مصر، أو يؤيّدها ويقوم بالثورة، كما أنه فيما إذا سار إلى بلاد الشام وضمها إلى نفوذه فإنما يحصل على زيادة في الموارد، وفي الوقت نفسه يمنع السفن الإنكليزية من التزوّد من الموانئ الشامية، ويجب ألا ننسى الحقد الصليبي، وذكريات الحروب الصليبية التي جرت من أجل الحصول على بيت المقدس، وها هي القدس قد أصبحت على مقربة منه فإن احتلها لقي تأييداً ودعماً من القوى الصليبية ومن عامة النصارى لذا فقد انطلق بحملة إلى بلاد الشام، فاحتل العريش، وغزة، ثم تقدّم إلى يافا فحاصرها واضطرت حاميتها إلى الاستسلام فلما أصبحت في قبضته أعدم رجالها الأربعة آلاف بحجة أنه لا يستطيع أن يطعمهم، والواقع أن تلك المجزرة الوحشية لم تكن إلا بدافع صليبي، ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى عكا فحاصرها، وكان واليها أحمد باشا الجزار قد حصّنها، واستمات سكانها في الدفاع عنها، وأمدهم قائد الأسطول الإنكليزي سدني سميث وهو الذي خلف نلسون في قيادة الأسطول. وجاء والي دمشق على رأس حملةٍ مؤلفةٍ من خمسة وعشرين ألف جندي لدعم عكا، وأسرع نابليون للقائه فاصطدم به عند جبل طابور قرب الناصرة فهزمه فعاد والي دمشق القهقهرى، ورجع نابليون يتابع حصار عكا.

كان نابليون بونابرت يتوقع أنه ينضمّ إليه بشير الشهابي حاكم جبل لبنان لأنه يخالف الدولة العثمانية في العقيدة حيث كان درزياً، غير أن الشهابي تلكأ في هذا الانضمام إذ كان يتريث حتى يرى رجحان كفة بونابرت، وعندها ينضم إليه، أما وهو لا يزال يحاصر عكا فلا يمكنه أن يغامر ويقف إلى جانبه، لهذا قرر نابليون الانسحاب من بلاد الشام وفك الحصار عن عكا، وخاصة أن الطاعون قد بدأ يتفشّى في جنده، ولكنه كان يحسب ألف حساب لعودته إلى مصر ذليلاً لم يحقق شيئاً مما كان يرنو إليه ببصره، لذا فقد أصدر تعليماته إلى نائبه في القاهرة لإشاعة الدعايات بأن

بونابرت قد دخل عكا، وهدّم أسوارها، وأن الجزار قد استسلم له لذا فقد تركه والياً من قبله على ما كان عليه. كما طلب منه أن يقيم الاحتفالات وأقواس النصر ابتهاجاً بما حققه الفرنسيون من انتصارات في بلاد الشام، كل ذلك في سبيل إخفاء الهزيمة التي مُنِيَ بها عند أسوار عكا.

وصل نابليون إلى مصر واستقبل بالأفراح والاحتفالات من قبل الفرنسيين الذين بقوا لحماية البلاد، ولكنه في هذه الأثناء قد وصلت إلى الساحل المصري الشمالي الحملة العثمانية البحرية المنقولة على سفن إنكليزية، ونزلت في أبي قير فأسرع نابليون لمباغتتها كعادته، وجرى القتال أسبوعاً كاملاً بين الطرفين انتهى بانتصار الفرنسيين وهزيمة العثمانيين الذين وقع قائدهم مصطفى باشا أسيراً بيد الفرنسيين.

وصلت إلى نابليون أنباء مفادها أن حكومة الثورة الفرنسية في وضعٍ حرجٍ داخلياً ووضعٍ صعبٍ خارجياً إذ تشكل حلف أوربي ضدها، فتحرّكت أطماعه، وأصبح يُفسّر كل شيء من خلال تلك الأطماع، حيث رأى أن الحملة لم تعد لها من جدوى ولم تستطع أن تحقق أي شيء من أهدافها، وأن وجوده في مصر ليس بذي فائدة، وأن فرنسا بحاجةٍ إليه في هذه الظروف الراهنة، والواقع أنه كان يحلم بحكم فرنسا، وقد وجد أن الفرصة مناسبة له لذا قرر مغادرة مصر والتوجّه بسرعةٍ إلى فرنسا، فسلّم قيادة الحملة إلى كليبر، وتحرّك إلى فرنسا، تحت نظر الإنكليز، متجاهلين له، وهو يدري أو لا يدري المهم عنده تحقيق أطماعه التي تطغى على كل شيء.

وجد كليبر أنه لا فائدة من بقاء الحملة، فصاحب الرأي فيها والمتحمس لها قد تركها، وحكومته لا تستطيع إرسال نجدات لها، والعثمانيون على أبواب مصر يستعدّون لدخولها، لذا فقد استأذن حكومته للمفاوضة مع الدولة العثمانية فسمحت له بذلك، وأجرى اتفاقاً في مدينة العريش عام ١٢١٥ يقضي بأن يتجمّع الفرنسيون على الساحل، ثم ينسحبون من مصر إلى فرنسا على سفنٍ إنكليزيةٍ، وبدأ كل طرف يعمل من جانبه لتنفيذ اتفاقية العريش، غير أن قائد الأسطول الإنكليزي أخبر كليبر أن إنكلترا لا توافق على اتفاقية

العريش إلا بشرط أن يُعدّ الفرنسيون في مصر أسرى حرب يسلمون سلاحهم، ويتركون معداتهم في مصر للدولة العثمانية وحلفائها، وبذا فقد نُقضت اتفاقية العريش، وجدّدت أعمال القتال فأسرع كليبر لملاقاة جيش الصدر الأعظم الذي كان قد اقترب من القاهرة فهزمه، وطارده إلى ما وراء الحدود.

انتهز سكان القاهرة خروج كليبر من مدينتهم لقتال العثمانيين، وقاموا بثورتهم الثانية، وكان قد دخل العاصمة المصرية ستة آلاف من العثمانيين والمماليك، وتزعم هذه الثورة نقيب الأشراف عمر مكرم، وعاد كليبر من قتاله فقصف القاهرة بالمدفعية، وأجبر أهلها على طلب المفاوضة، فسار إليه بعض العلماء، واتفقوا معه على وقف القصف مقابل إخراج الذين دخلوا القاهرة من العثمانيين والمماليك، ودفع ضريبة باهظة.... وعاد كليبر إلى التفكير بالبقاء على مصر إذ ليس له من طريق أخرى يسلكها فبدأ يُنظِّم الأمور، وبينما هو كذلك إذ طعنه سليمان الحلبي طعنة أردته قتيلاً، وتسلّم قيادة الحملة عبد الله مينو بصفته أقدم ضباط الحملة، ولكنه كان يختلف عنهم فهو ضابط إدارة أولاً، ويرغب في البقاء في مصر على حين أن غيره لا يكادون يُصدّقون وقت الرحيل لانقطاعهم عن ذويهم ما يزيد على ثلاثة أعوام، وعلمهم بانقطاع الصلة مع فرنسا فكأنهم قد أصبحوا في سجن، وفوق كل هذا فقد أصبح يخالفهم في العقيدة إذ أسلم وتزوج بامرأةٍ مصريةٍ مسلمةٍ وطاب له الجو في مصر وأحبّ الاستقرار والإقامة فيه، هذا الاختلاف بين القائد وباقي أفراد الحملة زاده اتساعاً اقتراب الجيوش العثمانية من مصر لطرد الحملة، ودعم الإنكليز لهم بل أعدت إنكلترا قوة بحرية لمهاجمة مصر عن طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط...

جلاء الفرنسيين عن مصر:

نزلت القوة البحرية الإنكليزية في أبي قير، واتجهت نحو القاهرة، ونزلت قوة عثمانية بحرية في رشيد، وسلكت طريق نهر النيل، والتقت مع القوة الإنكليزية في بلدة الرحمانية، وبذا أصبح عبد الله مينو الذي ذهب إلى

الإسكندرية للدفاع عنها منقطعاً عن قواعده في القاهرة. واقترب الصدر الأعظم القادم على رأس جيش بري عثماني من القاهرة فاضطر نائب مينو على القاهرة في طلب الصلح، واستسلمت القاهرة بشرط أن ينقل الجنود الفرنسيون فيها إلى فرنسا على سفنٍ إنكليزية. ثم وصلت قوة من الهند كدعم للقوة الإنكليزية في مصر فألقت الحصار عندها على مينو في الإسكَندرية وأُجبر على توقيع المعاهدة بالشروط نفسها التي وقعها نائبه في القاهرة وذلك عام ١٢١٦، وجلت الحملة عن مصر، ونقل أفرادها إلى فرنسا.

لقد كان لهذه الحملة الفرنسية أسوأ الأثر على مصر خاصة وعلى البلدان المحيطة بها عامة، ونستطيع أن نعدّ هذه الحملة بدءاً للهزيمة النفسية المسلمة في مصر، وبدءاً لمرحلة معرفة أوربا لضعف الدولة العثمانية وهذا ما شجّع الصليبية على دفع عجلة الهجوم النصراني على العالم الإسلامي. لقد شعر المسلمون في مصر أنهم متخلّفون جداً عن ركب الحضارة المتطور بعد أن لاحظوا التقدم الفرنسي من الناحية العلمية والتنظيمية فهزموا أمامه عسكرياً، وهزموا معه نفسياً.

لقد بدأت المفاسد تستشري في جسم الأمة نتيجة التصرّفات التي قام بها الفرنسيون من مفاسد خلقية واجتماعية ومعاقرة للخمرة جهاراً، وهم أصحاب الحضارة وهذا ما شجّع بعض السابقين في الهزيمة النفسية إلى الدعوة لتقليدهم والسير على خطاهم... وحدث تغيّر في العادات والأفكار.

لقد دخلت الطباعة والآلة إلى مصر، ودرست المنطقة، وقرئت اللغة الهروغليفية على حجر في مدينة رشيد بمقارنتها مع اللغة اليونانية. ونبهت الحملة هذه إنكلترا إلى أهمية مصر بالنسبة لها، ولموقعها بالنسبة إلى العالم كله.

الخلاف على حكم مصر بعد الحملة الفرنسية:

مصر جزء من الدولة العثمانية التي بذلت جهدها في طرد الفرنسيين من أراضيها، وهي صاحبة الحق في تعيين من تراه والياً على هذه الرقعة

من بلادها، وقد عينت رجلاً يُدعى خسرو باشا. غير أن المماليك يرون غير هذا إذ يعتقدون أحقيتهم في تسلّم أمر الولاية، وإن لم ينازعوا الدولة العثمانية على سلطانها، لكن من واجب الدولة تسليمهم منصب الولاة لما بذلوه من جهد في مقاومة الحملة عند قدومها، وعند وجودها على أرض مصر، لذا كانوا غير راضين على تعيين خسرو باشا. ويرى العلماء أن من واجب الدولة أخذ رأيهم في تعيين الوالي، وقد قادوا المظاهرات ضد الفرنسيين، وتزعّموا المقاومة، والتفّ حولهم الشعب، ولذا لم يكونوا راضين أيضاً على تعيين خسرو باشا ما دام قد تمّ دون رأيهم.

أما إنكلترا فكانت تريد البقاء في المنطقة التي دخلتها قرب الإسكندرية لحماية طريقها للهند، وللحفاظ على مصر من تهديدات الدول الأخرى وخاصةً فرنسا المنافسة الأوربية لها، فتهديد مصر ثانيةً إضاعة للهند إلى الأبد، وإذا سلم الطريق في هذه المرة فقد لا يسلم في مرة أخرى، وحاول الإنكليز أن يجدوا لهم سنداً، فتقربوا من المماليك الناقمين على تعيين خسرو باشا، وشجعوهم على المطالبة بحكم الولاية.

تضايق العثمانيون من التقارب الإنكليزي المملوكي إذ أن الإنكليز صليبيون قبل كل شيء وإذا كانوا قد دعموا العثمانيين في طرد الفرنسيين إلا أن ذلك قد كان لمصلحتهم لا لمصلحة العثمانيين، ولا حرصاً على أرض مصر. لذا فقد أعطوا أوامرهم للوالي الجديد خسرو باشا بالضغط على المماليك، ولكنهم لم يدعموه مادياً فتأخر في دفع الرواتب، وثار عليه الجند وخاصةً الفرقة الألبانية التي يقودها طاهر باشا، واضطر خسرو باشا إلى مغادرة مصر عن طريق دمياط. واتفق العلماء على تعيين طاهر باشا والياً مؤقتاً على مصر ريثما تأتي موافقة السلطان العثماني. وفي الوقت نفسه فقد سعى العلماء للمصالحة بين المماليك المتمركزين في الصعيد وبين طاهر باشا حتى تستقر الأوضاع، وتتحسّن الأحوال المعاشية بعودة الناس إلى أعمالها، وبذا أصبح العلماء سادة البلاد فعلاً يرضى بهم الوالي، والمماليك، إضافة إلى الشعب الذي يسير وراءهم.

تضايقت الفرقة الإنكشارية إذ وجدت نفسها ضائعة وسط المجتمع الذي بدا عليه التكاتف، وتأثرت من الألبان الذين ثاروا على الوالي، ولعب الطيش دوره إذ قام بعض الضباط الشباب أصحاب الأطماع، وقتلوا قائد الفرقة الألبانية طاهر باشا الذي يتسلّم الولاية، وعيّنوا مكانه أحمد باشا والي المدينة الذي كان يومذاك عرضاً في القاهرة.

أراد أحمد باشا أن يتقرب من العلماء أصحاب النفوذ في أوساط الشعب غير أن العلماء قد ساءهم تصرّف الإنكشاريين، ورغبوا في تعيين وكيله في الفرقة الألبانية وهو محمد علي باشا الذي دعمه العلماء، واتفق مع المماليك، وطرد الفرقة الإنكشارية، والوالي أحمد باشا من مصر عام ١٢١٨.

محمد علي باشا:

أصبح محمد علي قائد الجند في مصر أو الحامية العثمانية على حين أوكل للمماليك جباية الضرائب وتنظيم أمور البلاد الداخلية، ودعم العلماء هذا التفاهم، غير أن البلاد كانت قد خرجت من ظروف عصيبة جداً، والأوضاع الداخلية والاقتصادية متدهورة وتحتاج إلى أموال، وليس من مكان تأتيه منه الأموال إلا الشعب، ففرض المسؤولون عن الجباية وهم المماليك الضرائب، ولم يكن الشعب يتحمل ذلك للظروف التي مرت به فثار على المماليك، واتجهت المظاهرات إلى الأزهر، ليعمل العلماء على إزالة الضرائب عن كاهله. وهنا انقلب محمد علي على المماليك، وأنزل قواته إلى الشوارع مؤيدةً الشعب ففر المماليك إلى الصعيد، وأصبح محمد علي زعيماً من قبل الشعب إذ أعلن أنه ضد الظلم، وضد الاستبداد الذي يريد أن يفرضه المماليك، وبدأ يخطط لاستلام ولاية مصر.

كان محمد علي ذكياً ذا إمكاناتٍ كبيرة، وقد نجح في كل عمل تسلّمه، عمل في تجارة الدخان فربح، واشتغل بجمع المال من الفلاحين فحمد له عمله، وعُيّن ضابطاً في الحملة العثمانية التي جاءت إلى مصر

لإخراج الفرنسيين منها فأظهر قدرةً حربيةً. وكان ذا أطماع طويلة واسعة يخطط لكل مشروع قبل أن يبدأ به وغالباً ما يحالفه النجاح، يعرف ضرب الفرقاء بعضهم ببعض، والانحياز إلى جانب الفريق الأقوى، واستغلال الأشخاص والرمي بهم بعد تحقيق ما يريد، واتهامهم للتخلص منهم، وقد وجدنا كيف سلّم الجباية للمماليك فأوقعهم في الفخ، واتفق معهم حتى إذا تمّ له ما يريد ورأى نقمة الشعب عليهم انقلب ضدهم و... وهذه طريقته نراها في كل تصرّفاته...

كان محمد علي يرى السير بخطى واسعة لتقليد أوربا والمشي على خطاها ومنهجها في الحياة ضارباً عرض الحائط بالفكر الإسلامي، والأعراف الإسلامية، والمُحرّمات وكل شيء يمت إلى تراثه، لذا كانت أوربا راضيةً عن سلوكه وتصرفاته وصامتةً عن تحركاته وتوسعه بل كانت تشجعه أحياناً لينشر رأيه، وذلك كي يتقبل الناس الحياة الأوربية على ما فيها، ويبتعدون بذلك عن عقيدتهم.

وكان محمد علي من الناحية السياسية يميل إلى السياسة الفرنسية فيعمل بخطٍ موازٍ لها، وتدعمه ما دامت تجد في ذلك مصلحةً لها، فإن رأت مصلحتها تتعرّض لشيء أظهرت الحياد، ووقفت لا تُبدي رأياً، ولا ترى الدول النصرانية عامةً خطراً في سياسة محمد علي ما دام لا يقف عائقاً ضد الصليبية أو يرفع راية المقاومة ضدها، بل تعدّه ممهداً السبيل لها بدعوته السير على النهج الأوربي وعدم التمسك بالفكر الإسلامي فإن ذلك يبعد المسلمين عن عقيدتهم وهذا ما تسعى له الدول النصرانية، ولكن عندما خشيته في أن يدبّ الروح في جسم دولةٍ جديدةٍ تقوم مقام الدولة العثمانية أو تخلفها وقفت ضده، وحدّت من أطماعه، وأعادته إلى حجمه الأول الذي بدأ به.

ولاية محمد علي على مصر:

عيّنت الدولة العثمانية خورشيد باشا حاكم الإسكندرية والياً على مصر، بعد أن رأت شغب الفرقة الألبانية، وتبيّنت أطماع محمد علي،

وعمل خورشيد باشا كامل جهده ليتخلص من محمد علي وجنده، وصدر أمر السلطان بإخراج الفرقة الألبانية من مصر، غير أن الشعب قد احتجّ على ذلك، واضطرت الدولة أن تسكت عن تنفيذ أوامرها إلا أن الشقة قد بعدت بين الوالي ومن معه من الحامية من جهة وبين الشعب ومن يمثّله من العلماء من جهة أخرى، وتكفي حادثة بسيطة لإشعال النار بين الطرفين، ورأى السكان أن مطالبة الوالي لهم بدفع الضرائب المترتبة عليهم أمراً عظيماً فثاروا على تلك المطالبة، وحدثت الفتن، واضطر الوالي خورشيد باشا إلى مغادرة البلاد، ولم يُبدِ محمد علي في هذه الأحداث أي تصرّف خوفاً من السلطان، وكي يصل إلى ما يطمع دون إثارة زوبعة قد تبعده عما يصبو إليه، وبذا بقيت مصر دون والٍ، ورأى العلماء أن الدولة تتجاهلهم في كثير من الأحيان لذا قرروا المبادرة بعد أن رأوا في محمد علي الكفاءة في تسلّم أمر الولاية فساروا إليه وألبسه عمر مكرم نقيب الأشراف وعبد الله الشرقاوي لباس الولاية، وأخذوا عليه عهداً بألا يفعل شيئاً دون الرجوع إليهم. وأصدر السلطان أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر عام ١٢٢٠، وأصبحت ولاية محمد علي قويةً تعتمد على ركائز متينة هي العلماء الذين يلتفّ الشعب حولهم، فكان يستشيرهم حتى تترسخ أقدامه في السلطة.

أما إنكلترا فقد اضطرت إلى الجلاء عن مصر عام ١٢١٧ بعد صلح أميان الذي وقعته مع فرنسا، لكنها كانت تتوقع الخلاف مع محمد علي الذي تسلّم الولاية، لأن لها مصالح في مصر، ومحمد علي صاحب أطماع ولا يمكنه التسليم بهذه المصالح بسهولة لطباعه الخاصة في حب الظهور بقوتة لدى الشعب ولدى الدولة، لذا فالمصالح ستتصادم وسيلجأ محمد علي إلى فرنسا المنافسة الرئيسية لإنكلترا وخاصة في مصر للتحكم في طريق الهند على الأقل، وهنا تكمن المشكلة لذا بدأت تتوسط لدى السلطان لعزل محمد علي عن الولاية إلا أن السلطان ملزم بإبقائه لقوة قواعده، ولتأييد العلماء له. . . . وعندها فكرت إنكلترا بإعادة صلتها مع المماليك، واحتلال مصر بالقوة، وخاصة أن السياسة الفرنسية قد رجحت لدى الدولة العثمانية على السياسة الإنكليزية.

أرسلت إنكلترا حملةً بقيادة فريزر عام ١٢٢٢ مؤلفةً من سبعة آلاف جندي نزلت بالإسكندرية، واحتلتها، واتجهت نحو رشيد فقاومها السكان من منازلهم، واضطرت إلى الانسحاب، وجاء محمد علي ليقف في وجه الحملة الإنكليزية، وقد صالح المماليك بعد أن كان في حرب معهم في الصعيد. ولم تحصل إنكلترا على مساعدة المماليك كما توقعت، إذ لا يمكنهم دعم كافرٍ دخيل. كما أن الظروف الدولية لم تكن مناسبةً لإنكلترا إذ تصالحت فرنسا وروسيا وتحالفتا، ورأت إنكلترا أن تقرّبها من الدولة العثمانية أفضل لها لهذا كله اضطرت أن تسحب حملتها من مصر، وظهر محمد علي بصورة المنقذ للبلاد، وأحبه العلماء والسلطان، ومنحه حكم السواحل المصرية بعد أن كانت على عهدة الدولة العثمانية.

سياسة محمد علي:

بدأ محمد علي يزيل القوى التي يمكن أن تقف في وجهه، وقد بدأ بالعلماء إذ رأى فيهم القوة الكبيرة التي تقف أمامه، إذ لهم فضل عليه بتعيينه، ولهم عليه عهد بالرجوع إليهم، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً دونهم ما دام الشعب كله وراءهم لذا يبدأ من الواحد تلو الآخر بأية وسيلة من الوسائل سواء أكانت طريقة شريفة أم غير ذلك بالإغراء، بالقتل، بالفتن، وأخيراً نقل أو نفى نقيب الأشراف عمر مكرم إلى دمياط عام ١٢٢٤، ثم التفت إلى المماليك فقضى عليهم بمذبحة القلعة بعد أن أظهر الرضا منهم، وذلك عام ١٢٢٦ عندما أراد تسيير ابنه طوسون إلى الجزيرة العربية لقتال السعوديين، واقتنع بعدها أن الجو قد صفا له فبدأ يُطبّق سياسته التي يريدها.

سياسة محمد علي الداخلية:

رغب محمد علي في تقوية ولايته كي يتمكّن من الوقوف أمام أطماع الآخرين بها، ورأى أن الطريق لذلك هو تقليد الغرب بكل معاني التقليد، فعمل على تدريب جنده وخاصةً فرقته الأصلية الألبانية، وإن حال دون

التدريب الكامل ما قام به من حروب، واستفاد من أحد ضباط الحملة الفرنسية الذين بقوا في مصر، وهو الجنرال سيف الذي اعتنق الإسلام، وتسمى باسم سليمان الفرنساوي، فقد أنشأ مدرسةً حربيةً في أسوان عام ١٢٣٥، وعهد إليه بالإشراف عليها، وعلى تدريب المماليك الذين اشتراهم محمد علي لنفسه، واعتمد في بداية الأمر في تشكيل جيشه على السودانيين، ثم بدأ يُجنّد الفلاحين المصريين، وأسس عدداً من المدارس الحربية مثل مدرسة المشاة، ومدرسة الفرسان، والمدفعية، وأركان الحرب، وأرسل البعثات من أجل ذلك إلى أوربا وخاصةً فرنسا، وأدخل في جيشه النصارى إلى جانب المسلمين فظهر على الجيش الضعف بعدة مدةٍ عندما وصل بعض النصارى إلى رتبٍ عاليةٍ حيث كانت ميولهم مع إخوانهم النصارى الأوربيين تفوق صلتهم بالمسلمين الذين يشتركون وإياهم في جيش البلد الواحد لأن العقيدة هي الرابط القوي بين النفوس وخاصةً أن الأقباط يشعرون أن المسلمين قد انتزعوا منهم حكم مصر بالقوة.

وأسس أسطولاً كانت نواته الأولى في بولاق على نهر النيل في القاهرة، كما اشترى عدداً من السفن الحربية من أوروبا، وتحطم هذا الأسطول في معركة نافارين عام ١٢٤٢، فأعاد تأسيسه من جديد، فأنشأ داراً لصناعة السفن في الإسكندرية، ومدرسة بحرية، واستخدم بعض الخبراء الإنكليز، ولكنه ضعف بعد عام ١٢٥٦ عندما انسحب وجيشه من بلاد الشام.

واهتم محمد علي بالتعليم، فأنشأ المدارس الابتدائية، والثانوية، والمتخصصة مثل الطب والهندسة، وأسس المدارس العالية أيضاً، واهتم بتعليم اللغات الأجنبية، وعمل على إنشاء المدارس المهنية والفنية، وصدرت في عهده صحيفة الوقائع الرسمية.

أما من ناحية الزراعية فقد مسح الأراضي، ووزع المساحات الزراعية على الفلاحين، ولكنه عدّ الأرض ملكاً له، وكل من يعمل بها زرّاعاً عنده، وحدّد عليهم الضرائب، وشق الترع وأشهرها الترعة المحمودية التي تصل

الإسكندرية بنهر النيل فرع رشيد، وبنى القناطر الخيرية لرفع مستوى مياه نهر النيل، وأدخل زراعات جديدة، أشهرها القطن الذي توسّعت زراعته، والزيتون، والتوت اللذين لم تتوسّع زراعتهما، كما عمل على زيادة تربية الحيوانات.

وكانت الصناعة اليدوية هي المعروفة فقط في مصر، فاستجلب الآلة التي بدأت تعمل في مصانع الغزل والنسيج، والسكر، والحبال، والطرابيش، كما بدأ بصناعة الأسلحة من مدافع وذخيرة.

كما نظّم المواصلات، وأجهز على قطاع الطرق، فنشطت التجارة، وخاصةً بين أوربا والهند، ولكنه إحتكر التجارة الداخلية إذ كان يشتري حاصلات الفلاح بالأسعار التي يراها، ويقوم ببيعها للتجار الأجانب، وتدخل الأرباح إلى الدولة، وهو الدولة.

ونظّم الإدارة حيث أوجد مجلس الشورى الذي يضم العلماء وكبار الموظفين، وعهد إلى ابنه إبراهيم برئاسة المجلس المخصوص، وكان الديوان العالي الذي ينظر في مشروعات الدولة قبل تنفيذها. وكان لكل إدارة ديوان خاص بها، وقد ربط كل شيء به كشأن كل عسكري أو صاحب أطماع واسعة.

حروب محمد علي:

كان محمد علي في بداية الأمر يريد كسب رضا الخليفة العثماني ليسكت عن توسّعه، وليبقى الوالي على مصر، ولذا فقد قبل تكليفه بمهمة القضاء على الدولة السعودية إذ في ذلك رضا السلطان، وإبقاؤه في منصبه، وامتداد أملاكه، والقضاء على الدولة السعودية التي تأخذ في العمل للإسلام بشكل لا يتفق ونهجه كما لا ينسجم مع خط الدولة العثمانية. كما أن الدول النصرانية ترضى على هذا التصرف كي لا تدب الروح الإسلامية من جديد في جسم الأمة المسلمة حيث يمكن للدعوة السلفية أن تنطلق بسرعة في بقية الأمصار الإسلامية، وتعود فكرة الجهاد من جديد، وعندها يكون

الخطر على الصليبية شديداً. ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الدول النصرانية لن تسمح لمحمد علي أن يمدّ نفوذه أكثر من اللازم أو إلى مناطق واسعة فإن ذلك قد يعيد الحياة من جديد إلى الأمة المسلمة وإن كان بصورةٍ أخرى قد تكون أخفّ من الصورة الأولى بكثير ولكن تصبح ذات قوة وربما نتيجة هذه القوة قد تعود فكرة الجهاد بعد موت محمد علي على يد من يخلفه أو من يتولّى أمر الدعوة إلى الجهاد، ولهذا فقد حالت دون وصوله إلى مياه الخليج العربي، فقد اكتفى بتهديم الدرعية، وفعل ما فعله بأهلها، كما منعت إنكلترا اتفاقه مع سلطان مسقط سعيد بن سلطان على حين كانت إنكلترا تستفيد من هذا إذ تحاول التنسيق معه وإبعاد ميوله عن السياسة الفرنسية التي تعاديها إنكلترا، ولكن الصليبية تجمع بينهما قبل التنافس أو الحرص على المصالح الجزئية أو الجانبية. وعلى كل فقد امتدّ نفوذ محمد علي على الحجاز ووسط الجزيرة وعلى عسير بعض الوقت، كما كسب في الوقت نفسه رضا السلطان، وجرّب صلاحية قوته.

في السودان:

واندفع محمد علي نحو السودان إذ أرسل حملةً بقيادة ابنه إسماعيل دخلت بربر، وشندي، وسنّار على النيل الأزرق وذلك عام ١٢٣٥، وكان ذلك في سبيل مدّ نفوذه والحصول على الثروة من زراعية وغابية إضافة إلى العاج وما أشيع عن وجود الذهب والفضة هناك بكميات كبيرة، ولكن كان الأهم من ذلك كله وهو ما يؤكد عليه في مراسلاته لابنه جلب العبيد لتشكيل جيشٍ قويٍ منهم، وقد احتج باختلافه مع المماليك الذين تجمعوا في منطقة شمالي السودان اليوم فأرسل حملته تلك، وبعد دخول السودان تفشى المرض في الجيش المصري فطلب إسماعيل من أبيه النجدة فأرسل له ابنه الآخر إبراهيم، وكان قد رجع من الجزيرة العربية، ولحق المرض بإسماعيل فعاد إلى مصر، ولما وصل إلى بلدة شندي انتقم منه حاكمها نمر بأن أحرقه وحاشيته غدراً، فأرسل محمد علي جيشاً آخر إلى السودان فأحرق بلدة شندي، ونكّل بأهلها، وبنيت الخرطوم عام ١٢٣٨ لتكون قاعدة

لهذا الجزء الجديد في ولاية محمد علي، وهكذا توسّعت ولاية محمد علي كثيراً، وكان الخليفة العثماني راضياً عن هذا التوسع لأنه باسمه ما دامت مصر ولايةً تتبع الدولة العثمانية، أما الدول النصرانية فقد كانت خائفة من هذا التوسع أو أن يكون آخره القضاء على دولة الحبشة النصرانية والتي تعدها قاعدةً لها إذ أنها جزيرة وسط بحر إسلامي، ولم يُخف السفير الإنكليزي في القاهرة والمقرّب من محمد علي وهو (هنري سولت) قلقه، فأجابه محمد علي: بأنه ينسحب من المنطقة إن رغبت إنكلترا في ذلك فإن صداقة إنكلترا أفضل عنده من ضم تك الأجزاء، ومع أن محمد علي كان يميل إلى السياسة الفرنسية إلا أنه لم يترك صداقة إنكلترا خوفاً من أن تؤدي المنافسة بين الدول النصرانية إلى الإطاحة بمركزه، وبقيت المنافسة بين الدولتين على طرق المواصلات المصرية.

في اليونان:

وما أن انتهى محمد علي من مدّ نفوذه وسلطانه إلى السودان حتى طلب من الخليفة العثماني مساعدته في حربه ضد اليونانيين الذين تمرّدوا على الدولة، وكانوا يلقون تأييداً كبيراً من الشعوب الأوربية النصرانية، بل انطلقت أصوات الشعراء والمفكرين تؤيدهم، وانخرط بعضهم في صفوف الثورة، وكانت روسيا تعطف على الثورة، ولكنها في الوقت نفسه تخشى من انتقال عدواها إلى بلادهم، ومترنيخ رئيس وزراء النمسا ضد هذه الثورة وأية ثورة في أية جهة كانت. وأما إنكلترا فكانت تخشى تأييد روسيا لهذه الثورة ومدّ نفوذها إلى اليونان فيما إذا نجحت الثورة، لذا لا تريد لها النجاح ولا تريد دعم روسيا لها، فنصحت لذلك روسيا، وأقنعتها بترك التأييد خوفاً من اندلاع ثورات تجتاح أوربا، فأحجمت روسيا في بداية الأمر عن تأييدها للتمرد. أما محمد علي فقد كان يتعاطف مع حركة اليونانيين فقد سمح لليونانيين الذين يقيمون في مصر بالسفر إلى اليونان والانضمام إلى الثورة، كما حرر مماليكه الذين من أصلٍ يوناني، وأرسلهم إلى اليونان للغرض نفسه، وكان يحب أن يظهر لدى الأوربيين أنه متعاطف مع

النصارى، لا يبالي بجانب العقيدة، ومن المعلوم أن الأقباط والنصارى في عهده حصلوا على أكبر عطف منه، وقد كان (بوغص بك) أحد كبار مستشاريه بل بمثابة رئيس الوزراء، وهو نصراني أرمني. تغيّر الموقف الأوربي وبالتالي تغيّر موقف محمد علي، لقد عادت روسيا تؤيّد الثورة اليونانية بكل طاقتها فوقفت الدول الأوربية ضد الثورة خوفاً من نجاح وصول روسيا إلى مياه البحر المتوسط، فدعمت الخليفة العثماني، واستجاب الآن محمد علي لطلب الخليفة بمساعدته للقضاء على تلك الثورة، أو أن الدول الأوربية رضيت أن يقضي عليها محمد علي لأنها هي لا تستطيع أن تتدخل خوفاً من شعوبها المؤيدة للثورة بدافع صليبي، وصدر مرسوم من الخليفة بتعيين محمد علي قائداً عاماً للقوات العثمانية في بلاد اليونان.

انطلقت الحملة المصرية من الإسكندرية بقيادة إبراهيم باشا، وتتألف من ٥١ سفينة حربية، و١٤٦ سفينة نقل على ظهرها سبعة عشر ألف جندي، وأربع سرايا مدفعية، وثلاثمائة فارس، ونزلت الحملة في جزيرة كريت واستولت عليها، ثم انطلقت إلى شبه جزيرة الموره في جنوب بلاد اليونان واحتلتها، وجاءتها نجدات فبلغ مجموع جنود الحملة اثنين وأربعين ألفاً، واستطاعت مع القوات العثمانية أن تدخل مدينة نفارين عام ١٢٤١، وكادت أن تقضي على الثورة، ثم عادت فتغيّرت المواقف الأوربية فتغيّرت معها الحرب، وذلك أنه مات في هذه الأثناء قيصر روسيا الإسكندر الأول، وخلفه نيقولا الأول المعروف بنزعته إلى الحرب فخافت الدول الأوربية وخاصةً إنكلترا أن يؤدي تعاطف روسيا مع ثورة اليونان إلى حرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولا تستطيع الدول الأوربية الوقوف أمام روسيا لأن شعوب أوربا كلها تتعاطف مع الثورة اليونانية بدافع صليبي، وعندها تحقق روسيا بعض أطماعها، وتصل إلى مياه المتوسط، وتقتطع من الدولة العثمانية ما فيه مصلحتها دون مصالح بقية الدول الأوربية الأخرى، فأرسلت إنكلترا مندوباً من قبلها إلى عاصمة روسيا بطرسبرغ هو (الدوق ولنغتون) للمفاوضة مع روسيا بشأن الثورة اليونانية وذلك عام ١٢٤٢،

ونتيجة هذا الاتفاق الذي تمّ، فقد طلبت إنكلترا من الخليفة العثماني أن يتفاهم مع القيصر الروسي، غير أن الخليفة لم يصغ لنصح إنكلترا، فالتقت إنكلترا، وفرنسا، وروسيا في اتفاقية في لندن عام ١٢٤٣ تقضي بفرض هدنة بين العثمانيين واليونانيين بالقوة إن دعت الحاجة. وبدأت إنكلترا تفاوض محمد علي للانسحاب من اليونان إذ أن جيشه هو القوة الرئيسية لدى العثمانيين وكانت المفاوضة عن طريق سفيرها في القاهرة (هنري سولت)، وعن طريق الفرنسيين، ولكن محمد علي كان يرى أنه سيحصل على مكافأة من السلطان إذا قضى على الثورة اليونانية على حين أنه إذا انسحب فإنه لا يحصل على شيء حتى إنكلترا لا يمكنها أن تؤيده في استقلاله بمصر عن الدولة العثمانية، ولكن المندوب الإنكليزي أشار إشارة عابرة بإمكانية ذلك، وعندها وافق على حصار جيشه من قبل أساطيل الدول الثلاث كتهديدٍ له ليبرر انسحابه، في الوقت الذي أشار عليه مندوب مترنيخ رئيس وزراء النمسا بضرورة الإجهاز على الثورة اليونانية في سبيل خدمة بلده مصر، ولكن محمد علي اختار الرأي الإنكليزي، متفقاً معهم ضد الدولة العثمانية.

حاصرت أساطيل الحلفاء (إنكلترا - فرنسا - روسيا) الأسطول المصري، واتخذت أو اصطنعت حادثة بسيطة، وشنت هجوماً على الجيش المصري كادت تبيده إذ فقد في تلك الهجمة أكثر من خمسة وعشرين ألف جندي، ولما لم يكن إبراهيم باشا وحاشيته ساعتذاك مع الجيش فقد عُدّ ذلك اتفاقاً ضد المصريين المسلمين حيث ذُبح أكثرهم بدعوى في سبيل انسحابهم، وتحقيق مصلحة محمد علي لاستقلاله في مصر، واعتراف الدول الأوربية بذلك الاستقلال، وتمّ انسحاب ما بقي من الجيش المصري على سفنٍ إنكليزية. غير أن الخليفة العثماني قد رفض مبدأ تدخل الدول الأوربية في اليونان لأنها مسألة داخلية خاصة بدولته، وطالب الدول المشاركة في الحملة ضد العثمانيين بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بالجيش العثماني والأسطول، وللسبب نفسه فقد رفض تنفيذ الاتفاقية التي

وقعها مع روسيا عام ١٢٤٢، والتي تقضي بمنح مولدافيا والأفلاق والصرب الاستقلال الذاتي، وهذا ما أثار غضب روسيا ولكنها كانت في حربٍ مع إيران، فلما انتهت من تلك الحرب اتجهت إلى الدولة العثمانية عام ١٢٤٥، وسارت الجيوش الروسية نحو إستانبول، ودخلت مدينة أدرنة وبعد شهر توقفت الحرب وعقدت معاهدة أدرنة التي حصلت فيها روسيا على الإمارات البلقانية والقسم الشرقي من الأناضول وحق المرور في المضائق العثمانية. غير أن إنكلترا قد رأت أن روسيا قد حصلت على مكاسب أكثر مما تريده، لذا فقد وقفت أمام هذه المكاسب، وأصبحت وكأنها تظهر بجانب الخليفة العثماني، وكذلك كانت النمسا، أما فرنسا وبروسيا فكانتا بجانب روسيا، ويريد هذا الجانب الحصول على أكبر أجزاء من الدولة العثمانية التي توقعت الدوائر الغربية قرب نهايتها.

كانت سياسة محمد علي تميل إلى السياسة الفرنسية غير أن عقله يعمل بتوجيه إنكليزي، وبعد هزيمته باليونان رغبت فرنسا أن تجرّه نحوها نهائياً، وتحقق مصالحها بمنافسة إنكلترا فعرضت عليه أن يقوم بدخول الجزائر وتونس وليبيا طبعاً على حسابها حيث تؤمن له الحماية البحرية، وتقدم له أربع سفن حربية كبيرة، وتدفع له مبلغاً من المال على أن يقيم حكومة في هذه المناطق تشبه حكومته في مصر ويكون لفرنسا فيها النفوذ الاقتصادي، فوافق على المشروع، ولكنه عرضه على إنكلترا فهددته بإغراق أسطوله قبل أن يتحرّك، وبزوال سلطانه من مصر فعدل عن المشروع خوفاً ومسايرةً لإنكلترا، لا بُعداً عن التبعية لفرنسا أو للدول الأوربية إذ كان مطيةً لها تتسابق فرنسا وإنكلترا لوقوفه بجانبها، إذ تُحرّكه إنكلترا، ويرسل البعثات إلى فرنسا، ويطلب منها الخبراء والمستشارين. واقترحت عليه إنكلترا التوجه نحو الشام.

في الشام:

اتجهت جيوش محمد علي إلى بلاد الشام، وهو يرغب بضمّها إليه منذ مدة، فقد طالب بها عندما حارب في الجزيرة العربية بناءً على أوامر الخليفة ليستعين بأهلها في حروبها غير أن الخليفة رفض ذلك، ولما امتثل

لرغبات الخليفة وسار لقتال اليونان طلبها كذلك ولكن لم يوافق الخليفة أيضاً، فلمّا أشارت إليه إنكلترا بذلك وجد ذريعةً بالتجاء بعض المصريين الهاربين من الجندية أو من الضرائب إلى والي عكا عبد الله باشا، كما ساعد ذلك الوالي تهريب البضائع إلى مصر عن طريق سيناء، ولم يرسل الأخشاب من بلاد الشام لمساعدة محمد علي لإعادة بناء أسطوله الذي تحطّم في اليونان، ولم يسدد عبد الله باشا ما عليه من ديون لخزينة مصر، اتخذ ذلك ذريعة لتحقيق أطماعه، وربما اخترع بعض هذه الأسباب أو تعلل بها، مع العلم أنها لم تكن من قبل، بل كان يتقرّب من ذلك الوالي، ومن بشير الشهابي ليكونا بجانبه فيما إذا أقدم على مشروعه الذي تراوده نفسه عليه منذ مدة، ولا يكاد يترك ذهنه.

أرسل محمد علي قواته البرية والبحرية بقيادة ابنه إبراهيم عام ١٢٤٧ فاستولى على غزة، ويافا، وحاصر عكا، وفتح القدس، وطرابلس، وبيروت، ثم استسلمت عكا له بعد أن استمر حصاره لها مدة ستة أشهر، ودخل دمشق دون مقاومة، وهزم جيشاً عثمانياً عند بحيرة قطينة قرب حمص، واستولى على حمص، وحماه، وحلب، وهزم جيشاً عثمانياً آخر عند ممر بيلان عام ١٢٤٨، وكان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر منذ اتجه إلى دمشق لتخفّ هيبته، غير أن بشير الشهابي الدرزي العقيدة قد وقف إلى جانبه لمصلحته الخاصة حيث أصبح الرجل القوي في المنطقة، ولم ينضمّ إليه حتى وصل إلى طرابلس. ولما دخل إبراهيم باشا الأناضول عرض محمد علي على الخليفة إعطاءه ولاية الشام إذ أصبح يتكلّم من مركز القوة لكن السلطان رفض ذلك، فأمر محمد علي ابنه بمتابعة القتال فسار إبراهيم باشا فدخل أضنه، واتجه نحو قونية في قلب الأناضول، وانتصر على جيشٍ عثمانيٍ كبير، فأصبح طريق إستانبول مفتوحاً أمامه.

خشيت الدول الأوربية من تقدم جيوش محمد علي السريع، وظهرت قوة جنده وتنظيماتها، وخافت أن تدبّ الروح من جديد في المنطقة

الإسلامية لذلك أسرعت تنصحه بتوقف القتال عدا فرنسا التي وقفت بجانبه وشجعته فلم يأبه بالنصح الأمر الذي جعل الخليفة يقبل مساعدة الروس بل يطلبها، ويوافق على نزول قوات روسية في إستانبول، وهذا ما أخاف الدول فغيّرت فرنسا موقفها وأجبرت هي وإنكلترا محمد علي على عقد الصلح الذي تمّ بعد مفاوضات في كوتاهية عام ١٢٤٩، وألزم السلطان إعطاء محمد علي ولاية الشام، وتعيين ابنه إبراهيم والياً على أضنه كحاكم للشام، ولكن السلطان وافق على هذا مؤقتاً على ما يبدو، وحتى تعود إليه قوته، وينظم جيوشه من جديد.

أما روسيا فقد عقدت مع الدولة العثمانية بعد اتفاقية كوتاهية معاهدة (خنكياراسكله سي) تعهدت فيها روسيا بحماية الدولة العثمانية من أي اعتداء، وتعهدت الدولة مقابل ذلك بإغلاق المضائق في وجه أية قوةٍ معادية لروسيا، واتفقت الدولتان أن تكون مدة المعاهدة ثمان سنوات، ولقد أرهبت هذه المعاهدة الدول الأوربية الأخرى المنافسة لروسيا فغيّرت موقفها.

في هذا الوقت قدّم محمد علي مذكرة إلى قناصل إنكلترا، وفرنسا، والنمسا يشعرهم برغبته في الانفصال عن الدولة العثمانية، غير أن الدول لم تكن راضيةً عن هذا الرأي، وحتى روسيا لم تقبل به، ووقفت في وجهه، وإن لم يستتشرها، وعرف محمد علي أن يعمل وحده وأن ما حققه سابقاً من انتصارات إنما بسبب موافقة مصلحته لمصالح إنكلترا وفرنسا خاصةً فلما اختلفت المصالح ظهر ضعفه، لذا عاد فلجأ إلى الخليفة وطلب منه أن يعترف له بحكم مصر والشام بصورةٍ وراثيةٍ مقابل تقديم ٦٠٠ ألف كيس لخزينة الدولة العثمانية، غير أن الخليفة قد رفض ذلك، وإذا كانت الدول الأوربية وخاصةً روسيا وإنكلترا ترغبان ببقاء محمد علي بالشام إلا أنهما تريدان بقاءه بشكل موقت لا بشكل دائم إذ أن بقاءه بصورة مؤقتة يستدعي تنفيذ معاهدة (خنكياراسكله سي) بين روسيا والدولة العثمانية أو أن روسيا تبقى حامية الدولة ما دام التهديد لها قائماً من قبل واليها، وتبقى إنكلترا في

الوقت نفسه تهدد به لتحقيق مصالحها، أما بقاؤه بشكل دائم فتخشيان وجود دولة قوية قد ترث الدولة العثمانية، وتحلّ محلّها، وتحيي شيئاً من قوة الماضي.

وبدأ التذمّر في بلاد الشام يظهر ضد محمد علي وجيوشه فقد سام السكان خسفاً، وأنهكهم بأعمال السخرة، وأتعبهم بالرشوة، وكرههم الحياة من الفوضى وعدم الأمن والتنكيل بهم من السلطة، وأصعب من هذا وذاك فقد أظهر عطفه على النصارى خاصةً والطوائف الأخرى عامة، ومنها الدروز الذين يمثلّهم الأمير بشير الشهابي والنصيرية فأدخلهم بالجيش وظنّ بذلك أنه عدل بينهم فساوى بينهم وبين المسلمين، وسُرّوا في أول الأمر، إلاّ أنّهم لم يلبثوا أن كرهوا الجندية لما أصابهم من جرائها ونتائجها فأظهروا تذمّرهم وبدأت الفوضى، وتبعها جمع السلاح والمطالبة بالضرائب بل وزيادتها فبدأت الحركات والثورات، أما بشير الشهابي فلم يكن باستطاعته مفارقته فإن فعل نُكّل به، وإن بقي نقم عليه الدروز، وإن غادر قتله العثمانيون، ففضّل البقاء بجانب الوالي، وإن أعلن عن اعتناقه النصرانية على المذهب الماروني ليكسب رضا النصارى والدروز معاً حسب رأيه وهما الطائفتان المتصارعتان في منطقته. وأما النصيرية فقد حاول إبراهيم باشا أن يُقيم لها المساجد في مناطقهم، وأن يُقرّبهم إلى الإسلام على رأيه، غير أنهم لا يريدون هذا لذا فقد نقموا عليه، وعندما خرج من الشام خرّبوا ما أقام، وهدّموا ما بنى من مساجد بل جعلوها لحيواناتهم حظائر. وأما المسلمون فكانوا أيضاً على درجةٍ من الاستياء من محمد علي إذ نظروا إليه نظرة الغريب حيث أدخل على الإسلام ما ليس فيه إذ بدأ يسوق أبناء الطوائف إلى الجندية معهم، لا رغبةً في الجندية ولا حباً لها من قبلهم، بل كانوا على كره لها، ويتمنون الخلاص منها، وإنما لما أحدثه في الإسلام لذا ظهر التململ في القتال، وبدأ الضعف يظهر في المعارك. وأصبحت الجندية أصعب شيء على السكان حتى الطوائف التي ظنّ محمد علي أنه قد خدمهم بإدخالهم فيها، وساواهم مع المسلمين صارت النقمة

عليهم، وغدت سبب التذمّر منهم ومن المسلمين. ورغم أن السكان كانوا يشكون من الحكم العثماني لكثرة الحروب، والفوضى، وعدم الأمن صاروا يتمنون عودته ويرون في حكم محمد علي ما هو أكثر بكثير من سابقه، ولا شك أن إنكلترا قد عملت أيضاً على زيادة ما حدث ولكن أثرها كان ضئيلاً مهما بولغ فيه لرفع اللوم عن حكم محمد علي وابنه.

وقعت معاهدة تجارية بين الدولة العثمانية وإنكلترا عام ١٢٥٤، وأصبح بموجب هذه المعاهدة لإنكلترا حق التجارة في جميع أنحاء الدولة بما فيها مصر والشام، وحق التملك أيضاً، وحُرّم الاحتكار، وكأن هذه المعاهدة كانت ضد روسيا، التي وجدت نفسها أنها ليست حاميةً للدولة العثمانية كما كانت تتوقع ذلك، وضدّ محمد علي أيضاً الذي كان يحتكر التجارة في ولايته والمناطق التي يسيطر عليها. وتجاهلت إنكلترا محمد علي، وجمّدت الوضع، فأراد محمد علي أن يحرّكه، ويحرّك إنكلترا فتعود لمفاوضته، فأحب أن يرسل قوات إلى الخليج العربي وإلى جنوبي اليمن، فتجاهلته إنكلترا متعمدةً، وطلبت من الخليفة العثماني أن يمنعه ويُحذّره، فوافق وفعل إذ لم تكن الدولة العثمانية تستطيع يومذاك أن تجاهد أو تحالف الدول الأوربية كلها، وإنما تحاول أن تستفيد مما بينها من خلاف، وتساير هذه أو تعاهد تلك، وكانت تقتضي مصلحتها آنذاك تجنب الصدام مع إنكلترا.

لقد كانت دعاية محمد علي واسعةً وكبيرةً لدى الشعوب الأوربية حيث يُعرف أنه يعطف على النصارى في ولايته ومناطق نفوذه ويرعى شؤونهم، ويعمل على عدم تحريك الروح الإسلامية في المناطق التي تخضع له مما حدا بالشعوب النصرانية أن تحبه وهذا ما جعل الحكومات تتجنب إظهار الصدام معه خوفاً من إثارة شعوبها ضدها فلما رأت إنكلترا أن من مصلحتها الخلاف معه إذ انتهى دوره معها، أو استهلكته، لذا بدأت قبل الاختلاف معه تنشر الدعاية ضده في الأوساط الأوربية بأنه يتاجر بالرقيق، وأن جيوشه تقوم بجمع العبيد من وسط إفريقية، وأنه متسلّط يضطهد شعبه ويُذيقه مرّ العذاب و.....

شعر الخليفة العثماني محمود الثاني أن وضع واليه قد أصبح حرجاً، وأن وضع الدولة قد أصبح بصورة أفضل دولياً لذا لا بدّ من استعادة ما فقده فجهّز جيشاً وانطلق نحو الشام إلا أنه هزم في معركة (نزب) هزيمةً منكرةً، كما فقدت الدولة أسطولها وتسلّمه محمد علي من أمير البحر فوزي باشا، وتوفي الخليفة ولم يدر بنتائج المعركة، غير أن محمد علي لم يستفد من هذا النصر الذي حققه إذ طلبت منه فرنسا وإنكلترا الانسحاب مباشرةً من الأناضول.

وتغيّر الموقف الدولي إذ أن روسيا تعاني ضائقةً عسكريةً حيث أنها مشغولة بقتال العلماء في بلاد القفقاس، وتُقاتل الدولة الفارسية، ولا تستطيع دعم الدولة العثمانية فيما إذا طلبت منها ذلك بناءً على معاهدة (خنكياراسكله سي) المعقودة بينهما لذا بدأت روسيا تتقرب من إنكلترا، ورفعت الدول الكبرى الخمس مذكرة إلى الخليفة العثماني تطلب منه عدم المفاوضة مع واليه محمد علي دون علمها وهذه الدول هي: إنكلترا ـ روسيا ـ فرنسا ـ النمسا ـ بروسيا.

انعزل محمد علي سياسياً، وزاد الوضع الداخلي حرجاً إذ زادت الثورات ضده في الشام عامة، وفي لبنان منها خاصة، ولم يجد بداً من أن يعود للدولة العثمانية فيدخل معها في مفاوضات مباشرة فأرسل إلى الخليفة وفداً محملاً بالهدايا ومبلغاً ضخماً من المال، وعرض عليه ما يريده الوالي وهو حكم مصر والشام فقط، وأن يأخذ راتباً، ثم يحدد الخليفة ما يريده من خراج على مصر، ولكن الخليفة لم يقبل، وسوّت الدول الأوربية الأمر فيما بينها إذ وقّعت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا اتفاقية لندن عام ١٢٥٦ ومعهم الدولة العثمانية، وتنصّ على منح محمد علي ولاية مصر بصورةٍ وراثيةٍ، وولاية عكا مدى الحياة فإن قبل كانت له، وإن لم يُعط الجواب خلال عشرة أيام سُلخت منه ولاية عكا، وإن انقضت عشرة أيام أخرى ولم يُبد رأيه أُخذت منه ولاية مصر، أو نُظر في أمره، وانقضى عشرون يوماً ولم يُعط الجواب، ولذا فقد صدرت الأوامر من قبل إنكلترا لأسطولها في البحر المتوسط لضرب الموانئ الشامية، وحصار محمد علي

في بلاد الشام، وأخيراً وافق محمد علي على حكم مصر وراثياً، وانسحب من الشام، ووقّع الاتفاقية على ذلك وزير خارجية محمد علي (بوغص بك) الأرمني النصراني والقائد الإنكليزي (نابير).

حاولت فرنسا الوقوف بجانب محمد علي، وهي التي شجعته على رفض اتفاقية لندن غير أن ملك فرنسا لويس فيليب خشي مغبة ذلك، وعزل فرنسا عن أوربا، وإغضاب الدول الأوربية الأخرى لذا فقد عزل رئيس وزرائه (تيير) المتحمس لدعم محمد علي حتى النهاية واستبدله بـ(غيزو) الذي يرى مسايرة دول أوربا، وهكذا بقي محمد علي وحده. فاضطر إلى الانسحاب، كما ذكرنا.

كان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر عندما لم يُعط الجواب، ولكن إنكلترا لم تكن تريد ذلك، لهذا قدّمت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا مذكرةً إلى الخليفة تطلب منه العدول عن قراره، فصدر مرسوم ثانٍ بإقامة محمد علي حاكماً بصورةٍ وراثيةٍ على مصر، كما وقّعت الدول الأوربية اتفاقيةً فيما بينها تخصّ المضائق، وبذا فقد ذهبت معاهدتا (أدرنة) و(خنكياراسكله سي)، وما حققته روسيا فيهما من نصر. وأصبح محمد علي وخلفاؤه يخضعون للخلفاء العثمانيين، كما أن المعاهدة قد حددت القوات البرية والبحرية لولاية مصر.

قناة السويس:

توفي إبراهيم باشا في حياة والده عام ١٢٦٤، ثم توفي محمد علي عام ١٢٦٥، وخلفه في ولاية مصر حفيده عباس بن طوسون الذي انصرف إلى اللهو، وأهمل الحكم، وكان يتحرك برأي القنصل الإنكليزي، غير أنه لم يلبث أن قُتل في قصره في بنها عام ١٢٧٠، وخلفه عمه محمد سعيد بن محمد علي إذ أن حق حكم ولاية مصر في أكبر أفراد أسرة محمد علي سناً، وما أن تولّى محمد سعيد حتى عرض عليه صديقه المهندس الفرنسي فرديناند دولسبس مشروع قناة السويس فأعطاه امتياز ذلك، ودولسبس ابن قنصل فرنسا في الإسكندرية وصديق محمد سعيد منذ الطفولة، غير أن هذا

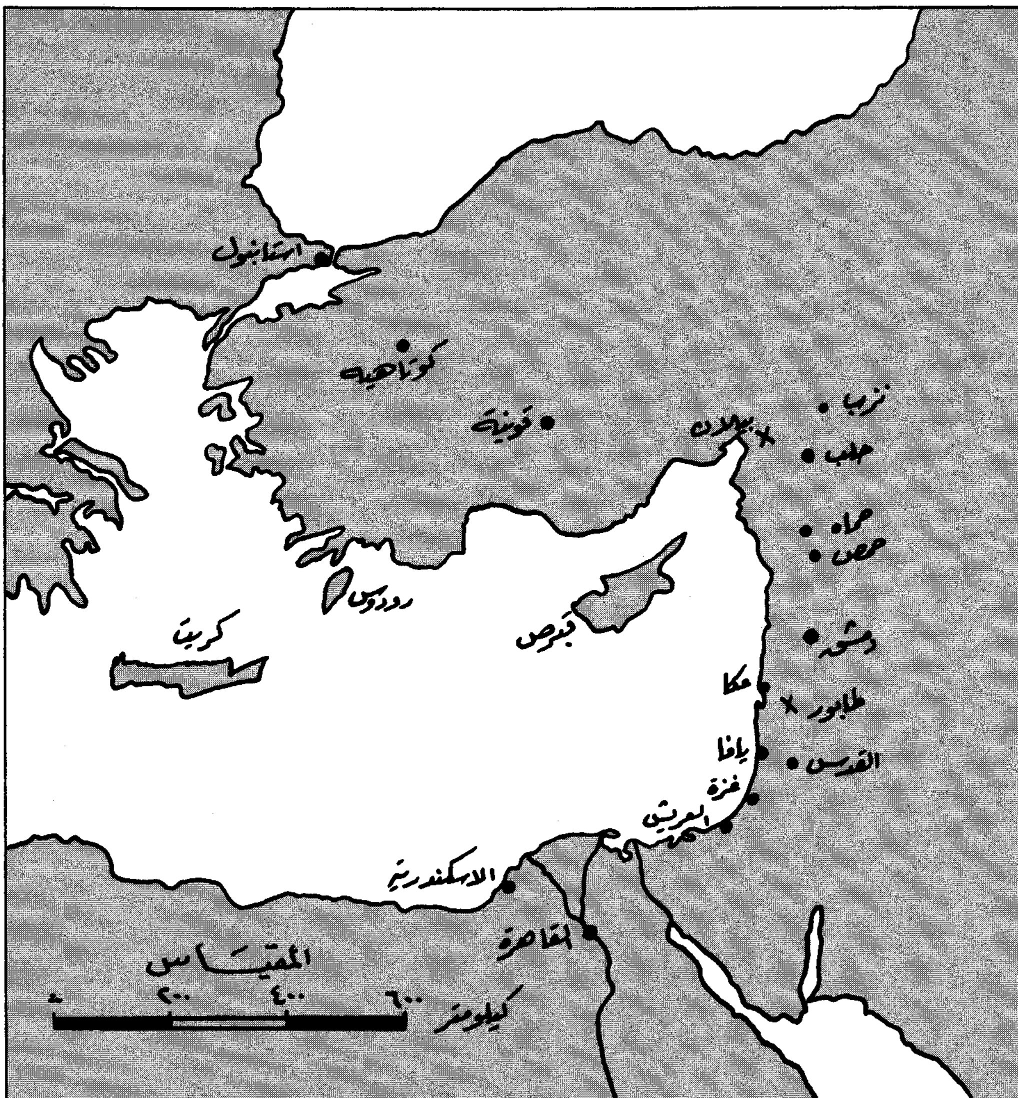
استانبول
كوتاهية
قونية
نزيب
بيلان
حلب
حماه
حمص
دمشق
عكا
طابور
يافا
القدس
غزة
العريش
رودوس
كريت
قبرص
الاسكندرية
القاهرة
المقياس
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٦]

المشروع قد لقي معارضةً واسعةً من قبل الدولة العثمانية على اعتبار أن مصر ولاية منها، وشجع على ذلك الرفض الإنكليز الذين يخشون من النفوذ الفرنسي في مصر، على حين تريد فرنسا بحصولها على هذا الامتياز أن يزداد نفوذها وتصبح المشرفة على طريق الهند، لذا فإن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا قد أيّد هذا المشروع بصورةٍ تامةٍ، ومشى وراءه بكل إمكاناته، وحصل في النهاية على موافقة الخليفة.

وتأسست شركة قناة السويس من أربعمائة ألف سهم، أخذت فرنسا نصفها، ومصر ١٧٧,٦٤٢ سهماً، وتحددت مدة امتيازها بتسع وتسعين سنة تبدأ من افتتاح القناة. وقد بدأ العمل فيها عام ١٢٧٥، وقدّمت مصر أرض القناة مجاناً، والأراضي التي حفرت فيها قناة الماء العذب للشرب من نهر النيل، والعمال، ونفقات الدراسة العلمية والهندسية، وتقديم المساعدات بين المدة والأخرى. وتوفي محمد سعيد عام ١٢٧٩، وخلفه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم حيث زاد التبذير والإنفاق في الدعاية له بالصحف الأوربية، وحصوله على لقب خديوي (نائب السلطان)، وحصر حكم مصر في أكبر أولاد أسرته بدلاً من أكبر فرد في أسرة محمد علي، وإقامته حفل افتتاح القناة الذي تمّ عام ١٢٨٥، ودعوته ملوك وملكات أوربا، وإنشاء الحدائق والقصور لاستقبالهم، ومحاولة إظهار مصر بمظهر المتطور، وإنشاء دار التمثيل (الأوبرا) لبيان عدم الالتزام بما تقتضيه المبادئ الدينية، والعمل على دخول وسط إفريقية في مديرية أعالي النيل (أوغندا)، ولهذا كله بدأ بالديون بفوائد ربويةٍ فاحشةٍ زيادةً في الاستهتار بالأمور الدينية، واضطر إلى بيع أسهم مصر من القناة عام ١٢٨٩ فاشترتها إنكلترا وأصبح لها النفوذ القوي في مصر، ولكن لم تُغن شيئاً لكثرة الديون، وبدأت دول أوربا تطالب مصر بديونها وفوائد تلك الديون، واستغلّت فرنسا وإنكلترا عجز الخديوي عن التسديد ففرضتا على الخزينة المصرية لجنة ثنائية لمراقبتها واستيفاء الديون وذلك عام ١٢٩٣، وغدت هذه اللجنة تراقب مالية مصر، ثم ازداد نفوذها، فأصبحت تتدخل في عزل الوزراء وتعيينهم، وفرض

موظفين أجانب برواتب ضخمة، وفصل ضباط الجيش الكبار الذين لا ترتضيهم إذا ظهرت عليهم مسحة من التدين ورغبة في التخلص من هذا الضغط النصراني بحجة الضغط في النفقات وشكل «نوبار» النصراني الأرمني وزارة مختلطة فيها: وزير إنكليزي للمالية، ووزير فرنسي للأشغال العامة، وعندما أحالت ٢٥٠ ضابطاً على التقاعد قاموا في وجهها فاضطر نوبار إلى الاستقالة، وشكّل توفيق بن الخديوي إسماعيل الوزارة وبقي فيها الوزيران الأجنبيان في حقيبتيهما الوزارية، ثم حدثت النقمة عليها فشكل شريف باشا وزارة جديدة ليس فيها أجانب، غير أن هذه التصرّفات جعلت الشعب جميعه والجيش يعمل على مقاومة هذه اللجنة ونفوذها، وأحسّ إسماعيل بما يجري، فبدأ يعمل على الحدّ من سلطة هذه اللجنة، ويقاومها، ويُضيّق من صلاحياتها، ولما أحسّت إنكلترا وفرنسا بموقفه الإيجابي ضغطتا على السلطان لعزل الخديوي فصدر المرسوم بذلك عام ١٢٩٧، وغادر البلاد على ظهر السفينة (المحروسة)، وعُيّن مكانه ابنه توفيق، وهو أكبر أبناء إسماعيل. واستقالت وزارة شريف باشا لكن الخديوي طلب منه إعادة تشكيلها ثانيةً فرفض، وشكّل رياض باشا الوزارة.

علم توفيق أن بقاءه مرهون برضا الأجانب عنه فاستسلم لهم، فقامت في البلاد عدة مؤسسات مالية اقتصادية أوربية، وهذا ما أثار نقمة الجيش إضافةً إلى ما يُعاني من التأخر في دفع المرتبات، وبقاء أفراده من الضباط المسلمين في رتبٍ معينةٍ. فقدّم أحمد عرابي ولفيف من الضباط مذكرةً إلى الخديوي توفيق طلبوا فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقي باشا، وإصلاح نظام الترفيع في ضباط الجيش، وعمد رئيس الوزراء إلى اعتقالهم ومحاكمتهم غير أن الجيش دخل مقر المحكمة وأخرج ضباطه، وساروا جميعاً بمظاهرة إلى قصر عابدين، فأعادوا الطلب من الخديوي بعزل وزير الحربية، فلم يُمكنه إلا تلبية الطلب، فعُزل عثمان رفقي باشا، واختير مكانه محمود سامي البارودي، لكنه لم يلبث أن اختلف مع رئيس الوزراء رياض باشا، فقدّم استقالته.

نظم ضباط الجيش مظاهرةً أيّدها الشعب، وسارت إلى الخديوي توفيق في قصر عابدين، وطالب أحمد عرابي الخديوي بإقالة وزارة رياض باشا، وانتخاب مجلس للنواب، وتقوية الجيش، وإعادة الحياة الدستورية، فردّ الخديوي بقسوة، فقرر المتظاهرون عدم مغادرة المكان حتى تلبى مطالب الشعب، فأذعن الخديوي، وأصدر أمراً بإقالة رياض باشا، وتكليف شريف باشا بتشكيل حكومة جديدة، وقدّم رئيس الوزراء الجديد دستوراً، وأجرى الانتخابات، واجتمع المجلس النيابي في أواخر عام ١٢٩٨، غير أن المجلس قد اختلف مع رئيس الوزراء بشأن مناقشة الميزانية لأن شريف باشا لا يريد في الوقت الراهن الصدام مع لجنة المراقبة، وأصرّ المجلس على هذه المناقشة فاستقال شريف باشا، وشكل محمود سامي البارودي وزارةً جديدةً تسلّم فيها أحمد عرابي وزارة الحربية، واقترحت هذه الوزارة مناقشة المجلس للميزانية باستثناء القسم المخصص بتسديد الديون للحيلولة دون التدخل الأجنبي، فوافق المجلس، واعتمد الخديوي الدستور عام ١٢٩٩.

عارضت إنكلترا وفرنسا ذلك، وعملتا على إثارة الفتن لإمكانية التدخل، وكان أحمد عرابي قد سرح عدداً من الضباط، وأحال بعضهم إلى المحاكمة، فوجدت إنكلترا فرصةً لزرع بذور الشقاق، وحرّضت الخديوي على رفض تصرّف الوزارة فانصاع، وعاد الخلاف بين الخديوي والوزارة، وبدأت المناورات الأجنبية، وجاء الأسطولان الفرنسي والإنكليزي إلى المياه المصرية قرب الإسكندرية، وأرسلت فرنسا وإنكلترا مذكرةً إلى الخديوي تشجّعانه فيها على ضرب المتمردين، وتلوحان بدعمه، فأمر الخديوي بإبعاد أحمد عرابي، ونفي من معه إلى الريف، وانتقل هو إلى الإسكندرية ليكون على مقربة من الحماية الأجنبية، وهنا تحققت لإنكلترا وفرنسا ما تريدان، ولم يعد الاحتلال بعيداً، ويحتاج فقط إلى من يحرّك أحمد عرابي ليتصرّف بغير حكمة أو يبدأ هو بالإثارة، وحرّكت إنكلترا أعوانها من النصارى فحدثت فتنة دينية في الإسكندرية، فقصفت المدفعية الإنكليزية المدينة، ولم تقبل فرنسا الاشتراك معها بالقصف إذ ظهرت أطماع إنكلترا لاحتلال مصر،

وأعلن أحمد عرابي الثورة على الخديوي، وقاوم الشعب المصري مقاومة مجيدة، وأسرع أحمد عرابي نحو الإسكندرية للدفاع عنها، وتمكّن الإنكليز من احتلالها، فانسحب عرابي بجيشه إلى كفر الدوار حيث أقام التحصينات هناك، وفكر بردم قناة السويس كي لا يستعملها الإنكليز، ويهاجموه من الشرق غير أن الإنكليز قد وعدوا بعدم استعمال القناة حرصاً على حيادها، فصدّق ما وعدوا، وانتقل الأسطول الإنكليزي إلى القناة، وأنزل قواته في الإسماعيلية وتقدّم من الشرق، وأسرع أحمد عرابي لملاقاتهم، والتقى الطرفان عند التل الكبير في رمضان عام ١٢٩٩، وهزم أحمد عرابي، واحتل الإنكليز مصر، وحاكموا أحمد عرابي ورفاقه، وحكموا عليهم بالإعدام، ثم استبدلوا ذلك بالنفي المؤبّد، وحلّوا الجيش، وشكّلوا جيشاً صغيراً من جديد قوامه تسعة آلاف جندي، كما حلّوا المجلس النيابي، وجعلوا بجانب كل وزير مستشاراً إنكليزياً إضافةً إلى مفتش عام يُشرف على أمور الوزارة، وعيّنوا رجالاً من الإنكليز في المناصب والوظائف العليا، وعملوا على نشر المفاسد وانحلال الأخلاق في سبيل تدمير العقيدة، غير أنه قد ظهرت عاطفة إسلامية في أوساط الشعب، وكان في هذه المرحلة جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، وتمكّن الإنكليز استمالة بعض العناصر إليهم، وإن أخذت تظهر بالمظهر الوطني أو الإسلامي أحياناً، لذا لم تخضع في هذه المرحلة للضغط الذي مارسه الإنكليز في مصر كلها، وتوفي الخديوي توفيق عام ١٣١٠، وتولى مكانه ابنه عباس حلمي.

كان عباس حلمي يتعاطف مع الاتجاه الوطني، ويخفي كرهه للإنكليز، وأقال عام ١٣١١ وزارة مصطفى فهمي، وكلّف حسين فخري بالوزارة فاختلف لذلك مع الإنكليز، وتمسّك كل من الطرفين برأيه، ثم خضع الخديوي قليلاً ووعد بالعمل بنصائح إنكلترا. لكنه عاد فاختلف معهم لانتقادهم، حتى هدّد كتشنر قائد الجيش العام بالاستقالة وهو إنكليزي، ثم اضطر الخديوي إلى الاستجابة للشروط التي وضعوها، وأصدر بياناً أثنى فيه

على الجيش، والضباط الإنكليز كأنه اعتراف منه بالأخطاء التي كان يوجّهها لهم.

وفي هذه المرحلة أسس مصطفى كامل الحزب الوطني ١٣٢٥ والذي عُرف بنزعته الوطنية واتجاهه الأقرب إلى الإسلام، وقد ألهب مصطفى كامل الحماسة مستفيداً من حادثة دانشوي التي وقعت عام ١٣٢٤، والتي تدل على مدى استهتار المستعمرين بالشعوب المستعمرة، وملخصها أن خمسة من الضباط الإنكليز خرجوا للصيد، فلم يفلحوا في مسعاهم، فأطلقوا النار على حمام البلدة، فأصابوا امرأة، واشتعلت النيران بأكوام القمح في البيدر فأسرع أهل البلدة، وقاتلوا الضباط، فقتل أحد الأهالي مما جعل الأمر يحتدم، وفرّ الضباط فمات أحدهم بضربة شمس، فامتلأ الإنكليز غيظاً، وشكلوا محكمة حكمت على أربعة من أهل البلدة بالإعدام، ونفذ فيهم مباشرة، وبقيت جثثهم معلقة على المشانق مدة، وسُجن آخرون، وجُلد عدد أمام أقاربهم، وظن الإنكليز في هذا ردعاً للسكان فكانت هذه الحادثة إثارة للنفوس. وعمل مصطفى كامل على تقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، ثم توفي عام ١٣٢٦، وخلفه في زعامة الحزب محمد فريد الذي دعا إلى الاستقلال، فاضطهد، وسجن، واضطر أخيراً إلى مغادرة البلاد، وتوفي مشرداً في أوربا عام ١٣٣٨.

وفي هذه الأثناء سلّمت إنكلترا الوزارة بعض الأشخاص الذين استمالتهم إليها، والذين تريد أن تظهرهم، أو تعدّهم للمستقبل فقد تسلّم وزارة العدل (الحقانية) سعد زغلول عام ١٣٢٦، وبعد مدة أضيفت له وزارة المعارف، وهي وزارة مهمة، كما أوكلت إليه مهمة نيابة رئيس المجلس الذي انتخب عام ١٣٣١، وقد كان سعد يتحرك بإشارتها أو إشارة معتمدها كرومر الذي يُعدّ صديقاً وفياً له.

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت فيها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا أي ضد الحلفاء الذين هم إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا، واليابان و.... ولما كانت مصر لا تزال اسماً تتبع

الدولة العثمانية، وفيها من يدعو إلى توطيد الصلة مع العثمانيين على أنهم يمثّلون الحكام المسلمين، أو أن العاطفة الإسلامية تقتضي ذلك، والحزب الوطني يحثّ على تلك الصلات لذا فقد أعلنت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر، وأعلنت الحماية البريطانية عليها، وفصلها عن الدولة العثمانية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعيّنت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه لقب سلطان نكايةً بالخليفة العثماني ومضاهاةً له، ومنعت الاجتماعات، وراقبت الصحافة، وسخّرت اقتصاد البلاد لمصلحة الجيش الإنكليزي، وفرضت على أبناء الشعب أعمال السخرة في تعبيد الطرق، وحفر الآبار، ومدّ أنابيب المياه. وتوفي حسين كامل قبل انتهاء الحرب عام ١٣٣٦.

انتهت الحرب العالمية الأولى في مطلع عام ١٣٣٧، وتوقعت إنكلترا أن بدء المطالبة باستقلال مصر سيكون قريباً، لذا أحبت أن يتولى هذه المطالبة، ويظفر بها أحد أنصارها ليبقى نفوذها ولو خرجت من البلاد، وقد رأت ضالتها في سعد زغلول، فتحرّك ودعا إلى اجتماع في ٦ صفر عام ١٣٣٧ تمخض عنه المطالبة بالاستقلال، وتشكيل وفد للسفر إلى باريس لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح، وتشكّل هذا الوفد من سعد زغلول، وعلي شعراوي، وعبد العزيز فهمي، وقابل الوفد المعتمد البريطاني للسماح لهم بالسفر، وأخذ الإذن، إلا أن إنكلترا أرادت أن تلمّعهم بشكل أفضل، ليكونوا زعماء فعلاً، لذا فقد رفضت الحكومة الإنكليزية على لسان معتمدها في مصر بالسماح لهم بالسفر، ومنعتهم من ذلك، فأبرق سعد زغلول إلى الرئيس الأمريكي محتجاً على التصرّف الإنكليزي، ومطالباً بإلغاء الحماية، ولكنه لم يتلق جواباً، وبدأت الاجتماعات، وكُتبت العرائض، وأخذت التوقيعات تحت سمع ونظر الحكومة الإنكليزية، ثم رأت بعد هذه الحركة الشعبية التي أبرزت من تريد، أن تعطيهم صفة العداء للإنكليز كي يحظوا بالتأييد الوطني، فاعتقلت أربعة منهم هم: سعد زغلول، وإسماعيل صدقي، ومحمد محمود، وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة مالطة، وهذا ما أغضب الشعب، وأبرز هؤلاء المنفيين، وانطلقت الثورة عام ١٣٣٨،

وبتخطيطٍ اضطرت إنكلترا إلى الإفراج عن المعتقلين، فعادوا زعماء البلاد وسادته بلا منازع، وسمحت للوفد بالسفر إلى باريس، لكن خاب أملهم، إذ اعترف الجميع بالحماية البريطانية على مصر... ورجع الوفد من باريس، ورجعت معه الثورة، فأرسلت إنكلترا لجنة «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية لدراسة مطالب المصريين غير أن السكان قد قاطعوها، وقامت الاحتجاجات تأكيداً على أنهم لا يقبلون إلا الاستقلال، فقدّم «ملنر» مشروعه الذي يتضمّن الاعتراف بالحماية الإنكليزية على مصر مع تنظيم هذه الحماية، وذهب وفد للمفاوضة برئاسة رئيس الوزراء عدلي يكن، ونتيجة المفاوضات مع اللورد «كرزون» والتي منيت بالفشل انقسم رجال الوفد، أو الذين أصبحوا يُمثلون الشعب، أو الذين حملوا اسم «الوطنيون»، واستقالت وزارة عدلي يكن.

رجعت إنكلترا إلى سياسة الإظهار للتركيز على بعض العناصر التي يجب أن يكون من بينها نصارى لتضمن سلامة نفوذها فنفت سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وفتح الله بركات، وعاطف بركات، ومكرم عبيد، وسينوت حنا إلى عدن، ثم نقلتهم إلى جزيرة سيشل، وهُيء هؤلاء لاستلام الحكم والمسؤولية على حين بقي الآخرون كجوادٍ للرهان وقت الحاجة، وبعد مدة نقلت إنكلترا سعد زغلول وحده من جزيرة سيشل إلى جبل طارق، واستدعى ذلك استمرار الاضطرابات فأدى ذلك إلى قيام مفاوضات بين عبد الخالق ثروت واللورد اللنبي، وأعلنت إنكلترا إثرها إلغاء الحماية عن مصر، وإعطاء الاستقلال، وتهيئة البلاد للحكم الدستوري وذلك في منتصف عام ١٣٤٠ وعلقت هذا الاستقلال بأربع نقاط:

١" ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية الإنكليزية في مصر.

٢" ـ الدفاع عن مصر ضد أي هجوم أجنبي.

٣" ـ حماية الأقليات والمصالح الأجنبية.

٤" ـ قضية السودان.

احتج الزعماء على هذه التحفظات، وإن كانت الحكومة قد مضت في التنفيذ، وألّف عبد الخالق ثروت الوزارة، وتشكّلت لجنة برئاسة حسين رشدي لوضع الدستور، ونودي بالسلطان فؤاد ملكاً على مصر، وكان قد خلف السلطان حسين كامل، وأعلن الدستور عام ١٣٤١، وعُدّل بعد عام، وجرت الانتخابات، وفاز حزب سعد زغلول فشكلّ الوزارة، وأصبح زعيم البلاد، وهكذا خرجت إنكلترا من مصر، وبقي نفوذها، إذ سلّمت أنصارها السلطة، فحكموا، ودوّنوا التاريخ بالشكل الذي يرتضونه بحيث كانوا يُمثّلون قمة الوطنية والإخلاص، وقبلت الأجيال التالية هذا، رغم بقاء النفوذ الإنكليزي، وغدا من كان ضدّ الإنكليز على ما يظهر متعاوناً معهم.

٢ ـ السودان:

انتشر الإسلام في السودان بشكل هادئ، وتشكّلت على أرضه ممالك وإمارات، وفي هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها كانت توجد في السودان ثلاث ممالك هي:

١" ـ مملكة الفونج: (٩١٠ ـ ١٢٣٦)، وعاصمتها سنّار.

٢" ـ مملكة دارفور: (٨٥٠ ـ ١٢٩٣)، وعاصمتها الفاشر.

٣" ـ مملكة شمالي السودان: (٩١١ ـ ١٢٣٦)، في بربر.

هذا بالإضافة إلى مملكة تقلي في بلاد النوبة.

١" ـ مملكة الفونج:

بدأ الإسلام ينتشر في مملكة «علوة» التي تسيطر على أرض الجزيرة، والتي كانت عاصمتها مدينة «سوبا» واستطاع الفونج، وهم من أحفاد الأمويين ـ على زعمهم ـ أن يصلوا في أوائل القرن العاشر إلى الحبشة وأطراف السودان، وقد أغار كبيرهم، ويُدعى «عمارة دنقس» مع زميله عبد الله جماع من قبيلة القواسمة العربية على مدينة «سوبا»، وكانت مملكة

«علوة» يومذاك تعاني انشقاقاً داخلياً بين رجالها، واستطاعا من دخول المدينة، والاستيلاء عليها، واتخذ عمارة دنقس مدينة سنار الواقعة على النيل الأزرق عاصمةً لمملكته الجديدة التي شملت كل الأراضي الواقعة ما بين النيلين الأبيض والأزرق وإلى أقدام هضبة الحبشة شرقاً، كما ضمّت منطقة البجاة في شمال شرقي السودان، أما عبد الله جماع فكان وكيلاً لعمارة في حكم السودان الشمالي حتى حدود مصر، وأسس كل من هذين الرجلين أسرة بقيت تحكم المنطقة التي تحت سلطتها حتى جاءت جيوش محمد علي من الشمال عام ١٢٣٦.

وعندما دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣ أي بعد قيام دولة الفونج باثنتي عشرة سنة، ووصلت جيوشهم إلى ميناء سواكن، وسمع الفونج بالتقدم العثماني، فظنوا أنه سينالهم، فاجتمع عمارة دنقس ملك الفونج مع وكيله على السودان الشمالي عبد الله جماع، وأرسلا رسالةً إلى الخليفة العثماني سليم الأول هذا نصها «بسم الله الرحمٰن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي، فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله، وإن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم، وتجمع منهم جزية سنوية»، وقد أرسل مع الرسالة كتاباً جمع فيه أنساب قبائل العرب الذين كانوا في المملكة، ولما وصلت الرسالة والكتاب إلى الخليفة العثماني أعجب بهما، وعدل عن فتح السودان، وقد انتشرت الثقافة في عهد الفونج، وكثر المعلمون، ودخلت الطرق الصوفية، فالشاذلية دخلت من قبل على يد محمد أبو دنانة، والقادرية أدخلها تاج الدين البهاري، والختمية أدخلها محمد عثمان الميرغني، والسمانية أدخلها أحمد الطيب بن البشير العباسي، وكان ملوك الفونج بمثابة أمراء للمؤمنين في السودان إذ يتبعهم عدد من المماليك منهم ملوك أسرة عبد الله في بربر، ومنهم ملوك الجعليين في شندي، ومنهم ملوك تقلي في دنقلة و. . . .

أرسل محمد علي والي مصر عام ١٢٣٦ جيشاً إلى السودان بقيادة ابنه إسماعيل فاستولى على «دنقلة» و«بربر» و«شندي» فعزل ملوكهم، وقضى على ممالكهم، وكان آخر ملوك أسرة عبد الله جماع هو ناصر ود عجيب، ووصل إلى «سنّار» فقضى على مملكة الفونج، وأنهى حكم آخر ملوكها وهو بادي السادس، غير أن إسماعيل أصيب بمرض فرجع إلى مصر، وفي طريق عودته أحرقه ملك شندي من الجعليين، وهو أكمل نمر، فأرسل محمد علي فرقةً انتقمت من أهل شندي حيث أحرقت المدينة، وقتلت بعض سكانها، وهاجر قسم آخر منها فانضم إلى جيش أكمل نمر الذي لاذ بالفرار إلى أرض الحبشة. وأنشأ محمد علي مدينة الخرطوم لتكون عاصمة المنطقة بدلاً من سنّار، ولم تستطع جيوش محمد علي فتح مملكة دارفور في غربي السودان فبقيت بيد ملوكها المحليين.

بقيت هذه المناطق تتبع محمد علي وأسرته من بعده، وإن كان إشراف محمد علي قد ضعف بعد عام ١٢٥٦ إثر انسحابه من بلاد الشام، ووصل إلى حكم مصر عام ١٢٧٩ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، وكان يرغب في الشهرة والدعاية لنفسه أكثر من غيره، وكانت تصبو نفسه إلى السياسة التوسعية فسار في طريقها، وكانت الدولة العثمانية آنذاك على درجةٍ من الضعف تحول دول إمكانية فرض هيبتها على المناطق البعيدة عن مركزها والتابعة لها، فتنازلت له عن سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل خليج عدن، ورأى هو أن يضمّ إليه الأراضي الواقعة إلى الجنوب من حدود دولته حيث المجرى الأعلى لنهر النيل، فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي يُدعى «صموئيل بيكر» لتنفيذ أغراضه، وأعطاه رتبة فريق في الجيش المصري، وعهد إليه بمهمة فتح الجنوب بما في ذلك أوغندا أو ما عرفت آنذاك باسم «مديرية خط الاستواء»، وكلّفه بالعمل على تنشيط التجارة المشروعة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق التي كانت تعمل إنكلترا ضدها لا بدافع الإنسانية بل للدعاية لنفسها، ومن أجل المحافظة على سياستها الاقتصادية وخاصةً الصناعة التي كانت تخشى من منافسة البضائع الأمريكية

لها، حيث كان الرقيق ينقل إلى أمريكا ويعمل هناك فتكون المواد الأولية رخيصة والتكاليف قليلة لرخص اليد الزنجية التي تعمل بالمجان بإنتاج المواد الأولية والصناعة معاً، ونسي أن بيكر لا يمكن أن يكون فيه خير لمصلحة الإسلام، حيث أرسل إسماعيل الدعاة مع الجيش بناءً على طلب ملك بوغندة. ولما انتهت مدة عقد بيكر الذي لم يؤدِّ المهمة التي أنيطت به، وإنما أدى المهمة الملقاة على عاتقه من قبل إنكلترا، فاختار إسماعيل ضابطاً بريطانيا آخر هو «غوردن» الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء ليخدم المصالح الإنكليزية كسابقه، وقد منع غوردن وصول السلطات المصرية إلى مياه بحيرة فيكتوريا خوفاً من وصول المسلمين إلى تلك الجهات واحتكاكها بأبناء البلاد والتأثير عليهم بل تركها ميداناً للتوسع الإنكليزي، وأرسل بعثةً إلى ملك بوغندة «موتيسا» تحول دون دخوله في الإسلام إذ كان قد عزم على ذلك، وتدعوه إلى اعتناق النصرانية، وبعد انتهاء مدة عقده كحاكم لمديرية خط الاستواء، عيّنه الخديوي إسماعيل حاكماً عاماً للسودان ـ مكافأةً له ـ بما في ذلك مديرية خط الاستواء، وأريتريا، والصومال ومنطقة هرر، فعمد غوردن إلى بثّ الفوضى، وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة كي يشعر أهل البلاد بفساد الحكم المصري، ويطلبوا الانضواء تحت ظل السيطرة الإنكليزية، وفرّق بين المصريين والسودانيين من جهةٍ، وبين شمالي السودان وجنوبيه من جهة أخرى، فكان يشيع بأن المسلمين هم الذين يتاجرون بالرقيق، وكل ذلك في سبيل إيجاد التوازن بين فرنسا وإنكلترا ـ على زعمه ـ إذ أن فرنسا قد زاد نفوذها بسبب قناة السويس، كما يريد أن تمدّه إنكلترا بالقروض ليسدد ما عليه من ديون، وإنكلترا تخطط لأخذ أسهم قناة السويس، وقد تمكنت من ذلك، وللسيطرة على مصر، واستطاعت فيما بعد.

هذا بالنسبة إلى السودان الأوسط والشرقي أما المنطقة الشمالية الغربية فقد كانت تتبع المملكة الإسلامية التي قامت منذ أوائل القرن السادس الهجري.

أما المنطقة الغربية فقد بدأ الإسلام ينتشر فيها تدريجياً، وتصل إليها

القبائل العربية الهاربة من الأندلس، وبعض القادمة من المشرق، إضافةً إلى هجرات قبائل أخرى كانت تقيم في منطقة أسوان، وقد اختلطت هذه القبائل كلها بالسكان، وتزوجت منهم، وعن طريقها بدأ ينتشر الإسلام، وأقاموا فيها عدة إمارات، ومن أهم هذه الإمارات تلك التي أسّسها أحفاد العباسيين الذين فروا نحو إفريقية بعد سقوط دولتهم في بغداد عام ٦٥٦ على يد المغول، وتروي كتب التاريخ أنه قد وصل إلى تونس شقيقان من أحفاد العباسيين عام ٨٢٤، ويسمى أكبرهما علياً والآخر أحمد، ثم تجولا في تلك الجهات، واستقر المقام بأصغرهما في جبل مرّة من أعالي دارفور الذي يخضع لحكم ملك وثني يدعى (شاو دورشيت)، وقد التقى بأحمد فأعجب بعقله وأدبه، فأكرمه، وطلب منه المساعدة في تسيير شؤون الحكم، فنجح أحمد بكل ما أوكل إليه من مهمة مما زاد حب الملك له فزوجه ابنته الوحيدة فولدت له ولداً أسماه «سليمان» وعرف باسم «سولونغ» أي العربي، فورث الملك عن جده عام ٨٥٠، فأسس أسرة استمرت في حكم دارفور حتى عام ١٢٩٣ حيث قضى الزبير باشا على آخر ملوكها وهو إبراهيم، وضمّ مملكته إليه، ثم أعلن تبعيتها للدولة العثمانية، وبقيت كذلك حتى سلمها حاكمها سلاطين باشا إلى جيوش المهديين عام ١٣٠٢، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين مملكة دارفور ومملكة الفونج على منطقة كردفان الواقعة بين المملكتين، وبعد هزيمة المهديين عام ١٣١٦ انتقل إلى دارفور الأمير علي دينار من أسرة سولونغ السابقة الذكر، وأعلن نفسه سلطاناً على المنطقة، وظل بها مستقلاً استقلالاً ذاتياً لقاء ضريبةٍ معلومة كان يدفعها للحكومة في الخرطوم حتى الحرب العالمية الأولى حيث اتهمه الإنكليز بالتآمر ضدهم مع جيوش ألمانيا فجهّزت له الحكومة السودانية جيشاً دخل دارفور وقتل علي دينار عام ١٣٣٤، وهو آخر ملوك الفور.

أما في الجنوب فكانت الغارات والصدامات دائمة بين السلاطين المحليين والقبائل الوثنية في الجنوب، وفي عام ١٢٧٤ اشتهر أمر أحد التجار الذي يُدعى الزبير، واصطدم مع قبائل نيام نيام، ودخل الزبير أراضي سلطان قولو في بحر الغزال فظن السلطان أن الزبير قد جاء إليه ليثأر لأخيه

منصور الذي قتله سلطان قولو فدخل في حربٍ معه، خرج الزبير إثرها منتصراً فأعلن نفسه ملكاً على بحر الغزال، واتخذ من بلدة (باية) عاصمة قولو مقراً لمملكته، وقد عرفت هذه البلدة فيما بعد باسم (دويم الزبير)، اصطدم الزبير بالتبشير النصراني الذي بدأ يغزو المنطقة، ويدعمه الإنكليز حكام السودان والذين لهم نفوذ كبير في المنطقة. دخل الزبير بلاد الرزيقات، ثم دارفور، وأعلن عن ضمّ المناطق التي تحت نفوذه كلها إلى الحكم المصري الذي يتبع الدولة العثمانية ولو اسماً، فمنحه الخديوي لقب باشا. وتضايق المستعمرون وأتباعهم من أصحاب الإرساليات التنصيرية من الزبير لإسلامه فأوغروا صدور الحكام المصريين عليه فوقع الخلاف بينه وبين إسماعيل أيوب حاكم السودان، فاستدعي الزبير إلى مصر فسيّره الخديوي إلى جبهة القتال الدائر بين العثمانيين والروس وذلك عام ١٢٩٤، وعاد بعد الحرب إلى مصر، وأقام فيها حتى قامت الثورة المهدية فاتهم عام ١٣٠٣ بالتآمر مع المهدي، فاعتقل ونفي إلى جبل طارق، ثم عاد إلى مصر بعد قضاء عامين ونصف في المنفى، ثم رجع إلى السودان ومات فيها عام ١٣٣٣، ودفن بقرية (الجبلي)، وهي مكان ولادته بمحافظة الخرطوم، على الضفة الشرقية لنهر النيل. أما دارفور فقد حكمها بعد أن غادرها الزبير ابنه سليمان الذي تعرّض أيضاً لمكائد النصارى إذ طلب منه الإنكليز الاستسلام بعد إعطائه الأمان ونُصح أبيه له من مصر بذلك، فاستسلم عام ١٢٩٧ للقائد (جس) الإيطالي الذي غدر به، وقتله رمياً بالرصاص مع سبعمائة رجل من أتباعه. وبقي من قادة الدولة الأمير رابح الذي هرب مع ألف فارس من رجاله نحو تشاد حيث أقام فيها إمارة إسلامية بقيت حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون عام ١٣١٨.

فالسودان الشمالي بلد مسلم كان يتبع مصر ويحكمه غوردن الإنكليزي، وجس الإيطالي، ويحقدان على الإسلام، ويعتمدان على الإرساليات التنصيرية، ويريدان إيجاد قواعد للمستعمرين عامة من الذين يدخلون في النصرانية من أبناء البلاد الذين لا يزال بعضهم على الوثنية وخاصةً في منطقة الجنوب، ويتخذان كل الوسائل التي تنفر من الإسلام

ومن المسلمين عامة، بل ومن المصريين، وأمام هذه الأحداث قامت حركة كرد فعلٍ لذلك هي الحركة المهدية، هذا إضافةً إلى ردّ الفعل على الأوضاع التي كانت قائمة في السودان، وعلى الحالة المتردية التي وصل إليها المسلمون من ضعفٍ، وتأخرٍ، وجهلٍ، وخنوعٍ، وتحكّم الأعداء بهم، وكردّ فعلٍ على الأعمال الصليبية التي استفحل أمرها، وأيّد الشعب لذلك الحركة المهدية رغم ما لها وما عليها، وقد أعلن محمد أحمد بن عبد الله[1] عام ١٢٩٩ في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض أنه المهدي المنتظر لبعث هذه الأمة من جديد، وإحياء مجدها، وتطبيق نظامها الإلهي، وأطلق صيحته الأولى «لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد»، فتجاوب معه الكثيرون، وهاجر هو وصاحبه عبد الله التعايشي إلى غربي السودان لجمع الأنصار وتبيان الهدف، فالتفّ حولهما الرجال، وحاولت قوات مصرية القبض عليه فتمكّن من هزيمتها، وجاءت حملة جديدة إليه ففتك بها، وعظم أمره في كردفان، واستسلمت له عاصمتها الأُبيّض، ووقع في يده ستة آلاف جندي أسرى، واستولى بعدها على دارفور بعد أن استسلم له حاكمها سلاطين باشا النمساوي الذي تولى أمرها بعد مقتل سليمان بن الزبير، ومغادرة الأمير رابح المنطقة، وقد أعلن سلاطين باشا إسلامه، ثم دخل المهدي منطقة بلاد النوبا، وأباد حملة هيكس باشا أعظم قواد الإمبراطورية الإنكليزية وذلك في موقعة (شيكان) المشهورة، وبعدها بشهر ونصف أباد حملة (بيكر) عام ١٣٠٢، وتحرك جيش المهدي نحو الخرطوم.

أشارت إنكلترا على مصر بالانسحاب من السودان إلا أن شريف باشا رئيس الوزارة قد رفض ذلك، واستقال، ورفض رياض باشا تشكيل الوزارة، فشكل الوزارة النصراني الأرمني نوبار لينفذ رغبة الإنكليز وكانت مهمة هذه الحكومة الرئيسية الانسحاب من السودان، وعهد نوبار إلى غوردن بمنصب الحاكم العام للسودان ليشرف على الانسحاب، ولكنه فشل

---

(١) ولد المهدي محمد أحمد بن عبد الله في قرية قرب دنقلة في ٢٧ رجب من عام ١٢٦٠، وكان أبوه يعمل في صناعة القوارب.

في مهمته، وقُتل، ودخل المهدي الخرطوم عام ١٣٠٣، وبموجب هذا الانسحاب أخليت المناطق التي تتبع السودان وهي الصومال، ومنطقة هرر، وأريتريا فأسرعت الدول الأوربية وتقاسمتها، وكان هذا هو الهدف من الانسحاب من السودان. وتوفي المهدي في أواخر عام ١٣٠٣، وخلفه عبد الله التعايشي، وكان أضعف من صاحبه، وقد ساءت الأوضاع الاقتصادية في السودان إذ جاءت سنوات عجاف.

وفي عام ١٣١٤ تشكّل جيش مصري بقيادة إنكليزية لإعادة الدخول إلى السودان، وقد تمكن من دخول أم درمان عاصمة المهديين عام ١٣١٦ بعد معركة «كرري»، وفرّ التعايشي، ولكنه قتل في معركة «أم دبيبكرات» عام ١٣١٧.

كان الفرنسيون يتوسعون من جهة الغرب، ووصلوا إلى «فاشودا» بقيادة الجنرال «مارشان» والتقوا بالقائد الإنكليزي المتجه من الشمال، وكاد الصدام يقع بين المستعمرين لولا انسحاب الفرنسيين. وأخذ السودان حدوده الحالية تقريباً، وطبق عليه الحكم الثنائي (المصري ـ الإنكليزي).

وحاول علي دينار بن زكريا من أسرة سولونغ أن يثور ضد الاحتلال، وكان قد عاد إلى دارفور بعد هزيمة المهديين، ولكنه قتل عام ١٣٣٣.

عملت إنكلترا على فصل جنوبي السودان عن شماليه، وأعطت المنصّرين حرية العمل الكاملة ودعمتهم، بل قسمت مناطق الجنوب إلى مناطق نفوذ للإرساليات التنصيرية المختلفة من كاثوليك وبروتستانت، وحاولت عزل الجنوب عن الشمال، وطردت الشماليين والفلاتة[١] والبندلة[٢]. كما عملت على محو اللغة العربية، وحاولت أن تضم جنوبي السودان إلى أوغندا وشرقي إفريقية. وعملت على إهمال المنطقة كلياً، واستمر ذلك حتى الاستقلال عام ١٣٧٦.

---

(١) الفلاتة: اسم يطلق في السودان على كل القادمين إلى السودان من غربي إفريقية، والأصل مشتق من قبيلة الفولاني.

(٢) البندلة: الجماعات الذين يعودون في أصولهم إلى آباء من الشمال وأمهات من الجنوب.

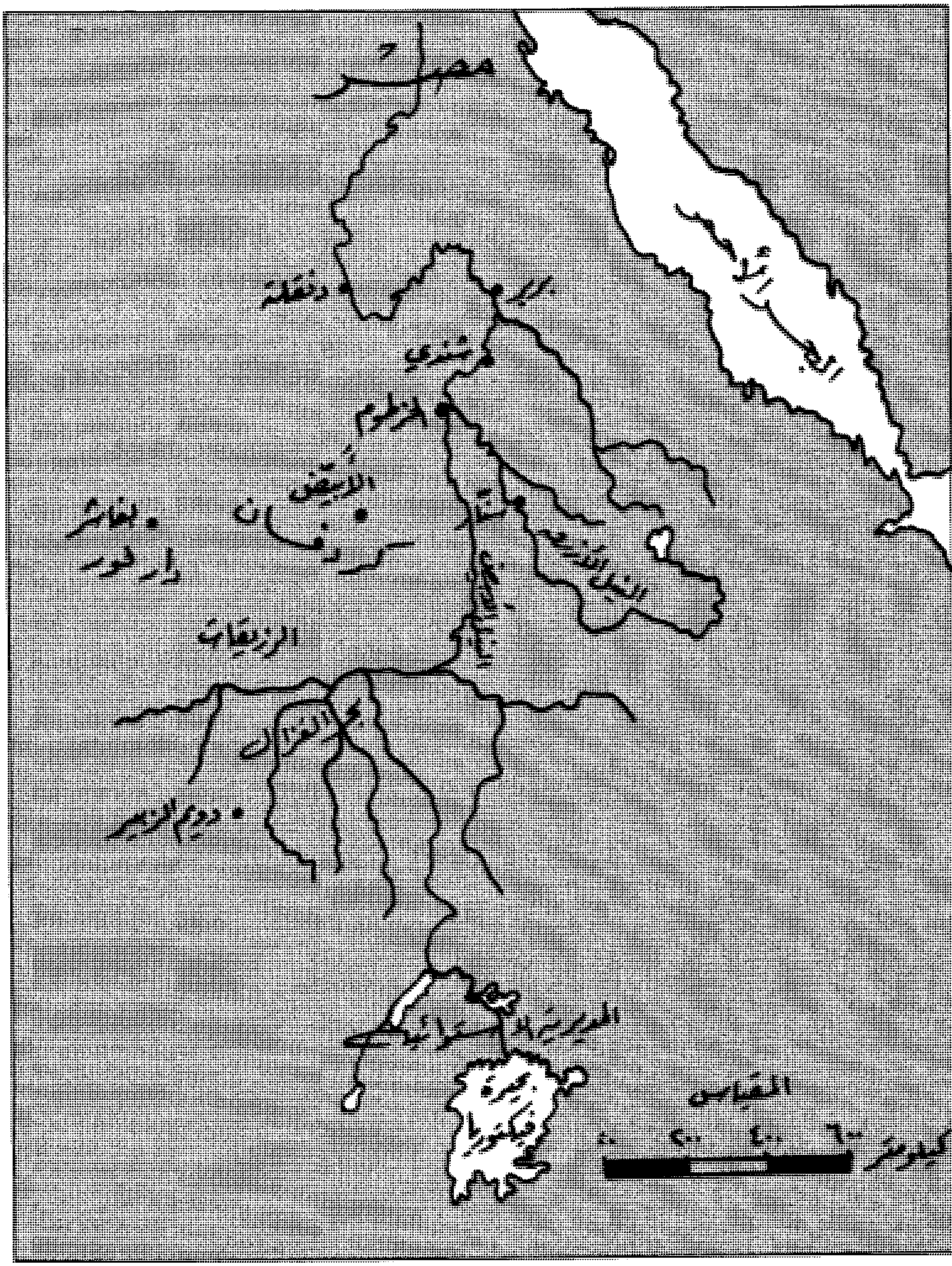
مصر
دنقلة
بربر
شندي
الخرطوم
الأبيض
دارفور
بحر الغزال
النيل الأزرق
المقياس
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٧]

الفصل الثاني

بلاد المغرب

قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة الموحدين عدة دول وهي دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة بني مرين في المغرب وأعقبتها دولة بني وطاس، وأخذت هذه الدول في الضعف التدريجي بسبب الحروب والخلافات فيما بينها وفيما بين أمرائها بعضهم مع بعض، وأهم من هذا وذاك عدم التزامها بأمر عقيدتها الذي كان يجب أن يجمعها بدلاً من أن تتفرّق، ويرفع من معنوياتها بدلاً من أن تتخاذل. وهذا الضعف قد أطمع النصارى في الأندلس فبدؤوا ينزلون على سواحل المغرب سواء أكانت الشمالية أم الغربية فاحتلّوا عدداً من الموانئ، وتمركزوا في بعض المواقع، هذا بالإضافة إلى بقية النصارى الذين اتجهوا إلى سواحل شمالي المغرب مثل فرسان مالطة الذين كانوا قد سيطروا على منطقة ليبيا، ثم جاء العثمانيون فاستطاعوا أن ينقذوا ما أمكنهم إنقاذه حتى إذا ضعف أمرهم أيضاً مع مرور الزمن عاد الصليبيون فاحتلوا بلاد المغرب ثانيةً، وتقاسموا أرضه وخيراته.

١ ـ ليبيا:

بعد الضعف الذي أصاب دول المغرب احتل فرسان مالطة (فرسان القديس يوحنا الأورشليمي) منطقة برقة، كما احتل الإسبان طرابلس عام ٩١٦، وقد بقوا فيها حتى تمكن (طرغول) القائد البحري العثماني من دخولها عام ٩٥٨، وقد حاولت إسبانيا احتلالها دون جدوى.

ومع الزمن وضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية التي فرضت سيطرتها على منطقة ليبيا، وإن كانت تخضع للدولة العثمانية إلا أنها كانت تتصرف تصرّف المستقل منذ عام ١١٢٣. ولما رأت الدولة العثمانية ضياع الجزائر التي احتلتها فرنسا، وتمرّد محمد علي في مصر واحتلاله بلاد الشام خشيت على منطقة ليبيا فأنهت حكم الأسرة القرمانية عام ١٢٥١، وأصبح الولاة العثمانيون أصحاب الكلمة والحكم، وعملت على ربط السكان بالعثمانيين بإثارة العاطفة الإسلامية، وإعلان الرابطة الدينية، وتبيان الأطماع النصرانية في بلاد المسلمين، وما يعانيه الجزائريون وبقية المسلمين الذين وقعوا في الفخ الصليبي، وعملت أيضاً على تحسين الأوضاع الاقتصادية وتخفيف الضرائب عن السكان، ومع ذلك فلم تسلم المنطقة من محاولات تدخل الدول الأوربية بحجة حماية الأقلية النصرانية التي وجدت في البلاد أثناء سيطرة فرسان مالطة على المنطقة.

ولقلة السكان في ليبيا فقد حاولت الدولة العثمانية نقل بعض الجماعات إليها، إذ حاولت نقل بعض العائلات الكردية بناء على اقتراح الوالي أحمد راسم باشا الذي تسلم الولاية من ١٢٩٩ حتى عام ١٣١٤، وقد أُسكنت هذه العائلات في منطقة سرته، وقُدّمت لها المساعدات لتقوم بالزراعة، ولكنها لم تتعود من قبل على هذه الأعمال ففشل المشروع، كما فشلت فكرة إدخال بعض العناصر منهم في القوات العثمانية المرابطة في المنطقة.

وكذلك فكرت الدولة العثمانية بإسكان بعض العناصر المسلمة التي تعرّضت لأبشع الأعمال الوحشية بل والإبادة من قبل النصارى في جزيرة كريت، وكذلك بعد أن انسحبت الدولة العثمانية من جزيرة كريت عام ١٣١٦، واضطر بعضهم إلى اللجوء إلى برقة وإلى الإسكندرية. وربما أقام في برقة ما يقرب من ألف أسرة من جزيرة كريت، وانصهروا مع السكان بصفتهم من المسلمين.

ووجدت محاولة لإسكان اليهود في ليبيا أيضاً، وكانت الدولة العثمانية

قد تساهلت مع اليهود، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد طردهم من الأندلس، فأساءوا كثيراً، وقد زادت أطماعهم، وظهر جشعهم في السيطرة على بعض المناطق، فلم يسمح لهم السلطان عبد الحميد بالتوسع في فلسطين، وتساهل في شأن ليبيا بناءً على اقتراح من واليها رجب باشا الذي تسلم ولايتها من عام ١٣٢٢ حتى ١٣٢٧، كان اليهود قد ظهر نفوذهم في منطقة ليبيا في القديم أيام حكم البطالسة في مصر، ثم خضعوا لضغط الرومان فقل وزنهم... ولما خرج المسلمون من الأندلس خرج اليهود معهم أيضاً، فانتقلوا إلى الشمال الإفريقي وبقية أرجاء الدولة العثمانية، وأقام منهم في ليبيا أكثر من ثمانمائة أسرة، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة التجارة سواء البحرية أم البرية، وتساهل رجب باشا مع اليهود وكان يرغب بإعطاء الأراضي لهم خوفاً من التوسع الإيطالي، ولهذا حرصت إيطاليا على طلب نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني، وقد عيّنه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد والترقي وزيراً للحربية لكنه توفي يوم تعيينه، وفقد اليهود نصيرهم فهو من جماعة الاتحاد والترقي وإن كان يعمل في السر، وكان لليهود دور في هذه الفئة التي أطاحت بالخليفة العثماني ثم بالخلافة، وربما كانوا المحركين الرئيسيين فيها، وكان مشروع رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر، وقد قامت دراسات كافية في هذا الشأن، ورغم الخلاف بين ما كان يخطط له رجب باشا وبين الطليان فإن اليهود قد دعموا الاحتلال الإيطالي لليبيا، وساعدوا على ارتكاب الأعمال الوحشية الإيطالية هناك.

كانت إيطاليا تعد تونس وليبيا مناطق نفوذ لها بعد احتلال فرنسا للجزائر، فقد هاجر عدد من الطليان إلى هذه المناطق، وأنشؤوا هناك شركات تجارية، وأقرضوا الأموال للسكان، وبنوا المدارس النصرانية لجاليتهم، وفتحوا المستشفيات لهم، وحرصوا على كسب الدعاية لهم لدى السكان، إلا أن فرنسا عملت على احتلال تونس وساعدتها الظروف السياسية على ذلك فبقيت منطقة ليبيا فوجهت إيطاليا اهتمامها إليها وخاصةً

بعد أن هُزمت في الحبشة عام ١٣١٣ في معركة (عدوة) عندما أرادت أن تتوسّع في شرقي إفريقية وتعوّض عما خسرته في تونس. وحرصت إيطاليا أيضاً أن تسلك مسلكاً سياسياً فاعترفت لفرنسا بالحماية على تونس، ووقفت بجانبها في بعض المواقف الدولية وخاصةً في مؤتمر الجزيرة عام ١٣٢٤ فوافقت فرنسا لها بإطلاق يدها في ليبيا مقابل أن تطلق يدها هي في المغرب، وكذلك كانت قد اتفقت مع إنكلترا عام ١٣٠٥ على أن تطلق يدها في ليبيا مقابل الاعتراف الإيطالي باحتلال إنكلترا لمصر، وهكذا أصبحت صاحبة اليد الطولى في منطقة ليبيا إذ لا تخشى معارضةً نصرانيةً، وانتظرت لتجد الفرصة المناسبة للعدوان على ليبيا. وفتحت إيطاليا (بنك دي روما) في ليبيا، وبدأت تقدم المساعدات للمزارعين عن طريق هذا البنك، وعندما يتعذر على الفلاحين دفع ديونهم كان البنك يستولي على أراضيهم، وأرسلت البعثات التنصيرية الكاثوليكية و.... وخافت الدولة العثمانية من هذا النفوذ الذي غدا لإيطاليا في ليبيا، وعرفت ما تضمره إيطاليا، فأرسلت المزيد من القوات والأسلحة إلى ليبيا، فاحتجّت إيطاليا، وأرسلت إنذاراً إلى الدولة العثمانية تطلب فيه أن تتخلّى الدولة العثمانية عن ليبيا لإيطاليا خلال أربع وعشرين ساعة، وقد ساعد إيطاليا على إرسال ذلك الإنذار الضعف الذي حلّ بالدولة العثمانية إثر الانقلاب الذي أطاح بالخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، ومجيء جماعة الاتحاد والترقي إلى الحكم، وقد لمست إيطاليا هذا الضعف تماماً، والمخطط الذي يسير فيه رجالات الاتحاد والترقي سواء الذين كانوا يعرفون ما يخطط لهم أم الذين لا يعرفون وإنما يسيرون كالأعمى رغم أن بعض هؤلاء العميان كانوا على درجةٍ من القوة بحيث يصبح الآخرون في شك مما يثار حول جماعة الاتحاد والترقي.

حاولت الدولة العثمانية أن توسط الدول الأوروبية النصرانية لكنها أظهرت أنها تقف على الحياد أو بالأحرى بجانب القوي، ومع انتهاء مدة الإنذار، وهي أربع وعشرون ساعة، أرسلت إيطاليا أسطولها فضرب مدينة

طرابلس، ثم احتلها، واحتل أيضاً مدينة بنغازي في برقة، كما دخلت مدينة طبرق، وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً ليساعد السكان على المقاومة. غير أن إيطاليا قد وسّعت نطاق الحرب كي تجبر الدولة العثمانية على الاعتراف رسمياً باحتلال إيطاليا لليبيا، وتسحب جيوشها منها، فاحتلت الجُزر القريبة من سواحل الأناضول، ورودوس، وأرسلت أسطولاً ضرب بيروت عام ١٣٣٠، وهددت مضائق البوسفور والدردنيل، وحرّضت سكان البلقان على القيام بحركة ضد العثمانيين، وهذا ما أجبر الدولة العثمانية على عقد معاهدة (أوشي) مع إيطاليا قرب لوزان، تنازلت فيها عن ليبيا لإيطاليا غير أن بعض المجاهدين قد بقوا في ليبيا ومنهم بعض القادة، وتولّى السنوسيون المقاومة برئاسة أحمد شريف السنوسي، ومع أن الإيطاليين لم يتمكّنوا من السيطرة إلا على المناطق الساحلية غير أن نفوذهم بدأ يمتد مع الزمن، وسيطروا في النهاية على البلاد.

٢ ـ تونس:

بقيت الدولة الحفصية حتى بداية هذه المرحلة إلا أن الضعف قد بدأ ينتابها من كل ناحيةٍ، وتولّى أمرها آنذاك الحسن الحفصي الذي كان يميل إلى ملك النمسا شارلكان، الأمر الذي جعل السكان ينقمون عليه، ويستنجدون بالعثمانيين الذين كان نجمهم في تألّقٍ وقوتهم في ازدياد. فاستدعى الخليفة العثماني سليمان القانوني أمير البحر خير الدين باشا بربروس إلى إستانبول عام ٩٤٠ ليتفق معه على اتخاذ ما يجب عمله لصدّ هجمات أمير البحر (أندري دوريا) الجنوي، فسافر إليه مع بعض السفن، وما أن وصل إلى إستانبول حتى كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد اتجه إلى محاربة الصفويين، واستقبل الخليفة سليمان أمير بحره خير الدين وكلّفه بإنشاء السفن الكافية والاستعداد لفتح تونس، فامتثل خير الدين وعمل طيلة فصل الشتاء ببناء السفن اللازمة، وفي صيف عام ٩٤١ سافر الخليفة متجهاً إلى الشرق ناحية تبريز، وسافر خير الدين نحو الجنوب عبر مضيق الدردنيل متجهاً نحو مالطة وجنوبي إيطاليا لمنازلة أساطيل الدول النصرانية المتمركزة

هناك، وفي الواقع ليعمّي عن هدفه في تونس، ثم قصد تونس عام ٩٤٢، وأعلن للسكان أنه قادم لعزل السلطان مولاي الحسن الحفصي لصلته بالدول النصرانية وعلاقته بشارلكان، فاستقبله السكان، ورحبوا به، فاستولى بسهولة على تونس، وتسلّم قلعة حلق الواد باسم الخليفة العثماني سليمان القانوني.

استنجد السلطان مولاي الحسن الحفصي بالنصارى، فاتفق شارلكان مع البابا، وأمراء إيطاليا، ورهبنة القديس حنا الأورشليمي في مالطة، وجهّز شارلكان أسطولاً كبيراً، وانطلق بنفسه من برشلونة مع بعض الأمراء الإسبان، واستطاع أن يستولي على تونس، وأن يُعيد السلطان الحفصي إلى حكمه، فسلّمه الحفصي قلعة حلق الواد، وأصبح خاضعاً له، وعندما دخل شارلكان تونس بعد حصار دام أكثر من شهر سمح لجنده أن يتصرّفوا كما شاءوا فنهبوا، وسلبوا، وفتكوا، وارتكبوا أبشع الأعمال الوحشية والمحرمات ثم منعهم بعد ثمانية أيام من ارتكاب هذه الأعمال التي لم تسلم المساجد والكتب منها، وبعد مدة كتب معاهدةً مع الحفصي كلها خزي، إذ تنازل له فيها عن حلق الواد، وبنزرت وعنابة، وضريبة سنوية، وغرامة حربية، والسماح للنصارى بالإقامة في تونس، وهذا ما جعل السكان يكرهون سلطانهم بصورة أشد من كرههم له في السابق بل إلى حقدهم عليه، وما أن غادر شارلكان تونس حتى عادت الفوضى السياسية إلى ذلك الجزء، ولم يكن ما تركه شارلكان من جند في تونس كافيةً لدعم سلطان الحفصيين إذ ترك ألف جندي إسباني وبعض السفن في حلق الواد.

تمكن الوالي العثماني (طرغول) في طرابلس أن يحتل قفصة عام ٩٦٣، ثم القيروان ٩٦٥، وأرسلت إسبانيا عام ٩٦٨ أسطولاً للحدّ من نشاطه لكنه تحطّم، واستولى العثمانيون على مالطة عام ٩٧٣، واستطاع والي الجزائر علوش باشا دخول تونس، ثم خرج منها، وأخيراً دخل سنان باشا تونس عام ٩٨١، وبقي فيها العثمانيون بعد ذلك.

وعندما غادر سنان باشا تونس ترك فيها والياً ممثلاً للخليفة اشتهر بلقب باي (بيلرباي)، ويساعده ديوان استشاري مؤلف من عسكريين يُمثّلون

الفرق العسكرية هناك، ويلقب كل منهم بـ(الداي) إضافةً إلى موظف الشؤون المالية، غير أن الدايات قد سيطروا على الباي منذ عام ٩٩٩، وتفرّدوا بالسلطة حتى عام ١٠٥٠ مع وجود الباي، وكان الدايات ينتخبون من بينهم الداي الذي يسند إليه الحكم.

وتمكّن الباي بالاستعانة مع رؤساء القطاعات العسكرية على فرض السيطرة على الداي عام ١٠٤٧، وتمكّن إبراهيم عام ١٠٥٠ من الحصول على لقب باي من الخليفة العثماني بعد سيطرة من معه من الدايات عليه، وأسس أسرة حكمت البلاد إذ نقل الحكم إلى ابنه وهو لا يزال على قيد الحياة، وبقيت هذه الأسرة حتى عام ١١١٤ حيث انتزع الحكم منها إبراهيم الشريف بانقلاب عسكريٍ، وحصل من الديوان على لقب (داي) على حين منحه الخليفة لقب (باي) وهكذا حصل على السلطتين العسكرية والمدنية، وتوفي عام ١١١٧، وخلفه حسين بن علي التركي الذي حصل على لقب (باي) من الخليفة، وتنازل عن لقب داي، وأسس أسرةً هي التي عُرفت باسم الأسرة الحسينية التي بقيت تحكم البلاد بشكل شبه مستقل حتى عام ١٣٧٧، وبناء على قرار المجلس المحلي عام ١١٢٢ تنتقل السلطة إلى أكبر الأولاد سناً في أسرة حسين بن علي التركي. واستطاعت هذه الأسرة أن تقضي على تسلّط (الدايات) أو زعماء الإنكشاريين إذ أنهت دورهم، وسلّمت الوظائف الإدارية إلى المماليك الذين هيأتهم لهذا، ومع اختلاف أفراد العائلة بعضهم مع بعض إلا أن حكمهم قد استمر، ووقف في وجه دايات الجزائر الذين أرادوا التدخل في شؤونهم الداخلية.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٥ احتجت الدولة العثمانية على ذلك، وأرادت أن تستعيد ولاية الجزائر بالمفاوضات السياسية غير أنها قد عجزت فلجأت إلى الطريقة العسكرية، فتخلصت من الأسرة القرمانية في ليبيا عام ١٢٥١، وأرادت أن تقضي على الأسرة الحسينية في تونس لتكون على مقربة من الجزائر غير أن فرنسا قد هددت بذلك، وكلما اتجه الأسطول العثماني من ليبيا نحو تونس تحرّك الأسطول الفرنسي من الجزائر

نحو الشرق... وكانت فرنسا تعامل بايات تونس كحكام مستقلين، وكان هذا يثير احتجاج الدولة العثمانية، والواقع أن النفوذ الفرنسي كان واسعاً في تونس منذ دخول العثمانيين إليها، إذ كانت فرنسا يومذاك على صلةٍ حسنةٍ مع العثمانيين وخاصةً في مواجهة شارلكان ملك النمسا، لذا فقد حظي القنصل الفرنسي والنصارى عامة بامتيازات واسعة.

حاول الباي في تونس النهوض بالبلاد، ولكنه اعتمد في ذلك على الديون الأجنبية، إذ كانت فرنسا تمده بالقروض، وهي تعلم أنه سيعجز عن سدها، وهذا ما يفسح لها المجال للتدخل في شؤونه، وبالفعل فلم يستطع السداد فأرسلت لجنةً ماليةً لمراقبة المالية التونسية. وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ اعترفت فرنسا لإنكلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس، كما أن بسمارك الوزير الألماني قد شجع فرنسا على العمل بتونس لتتوجه قواتها خارج القارة الأوروبية، ولا تتمكّن من الثأر مما لحقها من هزيمةٍ أمام ألمانيا، وتخليها لها عن الألزاس واللورين.

جرت اعتداءات على الحدود أو ادعت فرنسا أن قبيلة تونسية قد اعتدت على بعض المواقع الفرنسية عام ١٢٩٨ فجهزت حملةً اجتازت الحدود، واتجهت إلى تونس فحاصرتها، ثم استولت عليها، وأجبرت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة باردو عام ١٢٩٨ يعترف فيها لفرنسا باحتلال المواقع المهمة على الحدود والسواحل، وإقامة مستشار فرنسي للباي في تونس، وعدم عقد أية معاهدة دون موافقة فرنسا، غير أن المقاومة قد بدأت، وقامت ثورة في القيروان عام ١٣٠٠ قمعتها فرنسا بالوحشية، وأجبرت الباي على توقيع معاهدة جديدة في باردو أيضاً يعترف فيها بالحماية الفرنسية على تونس، وأبقت فرنسا الباي لتتصرف باسمه كما تشاء فتخفف النقمة ما دام الباي مسلماً، وفي الواقع لم يكن سوى صورة.

تشكل حزب تونس الفتاة عام ١٣٢٦ الذي أخذ يدعو إلى الاستقلال، فقاومته فرنسا فاضطهدت أعضاءه ونفت رئيسه إلى خارج البلاد، ثم أقدمت على حل الحزب نهائياً، ثم تشكل الحزب الحر الدستوري، وذهب وفد

عام ١٣٣٧ إلى باريس برئاسة عبد العزيز الثعالبي للمطالبة بحق تقرير المصير، ولكنه خُذل كغيره، واستمر الحكم الفرنسي يضطهد السكان، والمقاومة تشتعل في النفوس ولم تستطع الظهور وفعل شيء، وإن تجرأت وقامت نكّل بها الفرنسيون أشد تنكيل.

٣ ـ الجزائر:

كانت تعرف بالمغرب الأوسط، وقد حكم هذا الجزء بعد تفكك دولة الموحدين بنو عبد الواد أو بنو زيان، وكان مقرهم في مدينة تلمسان، وقد ضعف أمرهم بعد عام ٧٩٦، فكان يسيطر على منطقتهم بنو حفص في تونس، أو بنو مرين في المغرب الأقصى أو يقوى أمر بني زيان فيحكمون مستقلين لمدة من الزمن، واستمر هذا الأمر حتى عام ٩٤٠، وكان الإسبان في الأندلس قد قوي أمرهم فبدؤوا بالاستيلاء على موانئ البحر المتوسط الإفريقية، وزاد أملهم بحكم شمالي إفريقية وأخذها من يد المسلمين بعد الاستيلاء على غرناطة، وطرد المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وكانوا قد احتلوا موانئ وهران، والجزائر، والمرسى الكبير، وبجاية، وقامت سفن قراصنتهم تلاحق المسلمين الأندلسيين الذين فرّوا إلى شمالي إفريقية، وقد وجد عند مسلمي شمالي إفريقية ومن جاءهم من الأندلس محاولة ردّ الفعل ضد الحقد الصليبي، وبدؤوا يغيرون على سواحل الأندلس فنشأت في ذلك البحر حروب بين المسلمين والنصارى أطلق النصارى على عمليات المسلمين منها اسم القرصنة، وجاء العثمانيون بحراً إلى المنطقة، ورحب المسلمون في شمالي إفريقية بهذا المجيء ترحيباً كبيراً ما دام القتال مستعراً بين المسلمين والنصارى، والعثمانيون مسلمون، وعلى صراع مع نصارى أوروبا عامةً.

وبدأ المغامرون يمتلكون سفناً خاصةً يغيرون بها على خصومهم، ومن هؤلاء الأخوان عروج وخير الدين اللذين كانا من النصارى، ثم اعتنقا الإسلام، وعملا ضد الإسبان خاصةً، وضد النصارى عامةً. وتقرّب عروج

من السلطان الحفصي فدعمه وقدم له موانئه يتخذها قواعد له، وتمكّن عروج أن ينتصر على الإسبان في عددٍ من المعارك البحرية، ودعمه الأهالي، وشجعوه وخاصةً الذين يقيمون في الداخل، واستطاع أن يسترجع ميناء بجاية من الإسبان، وهذا ما رفع من شأنه فنقل مقره من تونس إلى ميناءٍ صغيرٍ يقع إلى الشرق من مدينة الجزائر، وطلب منه حاكم مدينة الجزائر (سالم السالمي) أن يساعده ضد الغزو النصراني الإسباني، فاستجاب لطلبه وصدّ هجوماً نصرانياً على الجزائر عام ٩٢٢، ثم رأى أن تفرّق الأمراء في المغرب الأوسط، وصغر إماراتهم، وخلاف بعضهم مع بعض، الأمر الذي يجعل بعضهم يستنجد بالنصارى ضد بعضهم الآخر لذا قرّر أن يتخلّص من هؤلاء الأمراء المحليين، ويُشكل حكماً واسعاً يمكنه الوقوف أمام النصارى وحقدهم الصليبي الشرس، فبدأ بحاكم مدينة الجزائر فأنهى حكمه وتسلّم مكانه، وأصبحت مدينة الجزائر قاعدته البحرية، ومركز حكمه، وذلك عام ٩٢٣، ثم اتجه نحو الداخل ليستولي على الإمارات القائمة هناك، وكان أكبرها إمارة بني زيان في تلمسان، وأميرها (أبو حمو)، ورعيته يكرهونه لأنه يمدّ يده إلى النصارى الإسبان، وقد أصبحت جماعة من رعيته يجاهرونه العداء فاتصلوا بعروج فسار إليهم ودخل مدينة تلمسان، غير أن (أبو حمو) قد اتصل بالإسبان بعد أن فرَّ إليهم فجاءوا بقوة إلى تلمسان وتمكّنوا من دخولها بعد حصار، وفتكوا بالحامية التي فيها، واستطاع عروج أن يفرّ غير أن الإسبان قد لاحقوه وقتلوه.

وكان عروج وأخوه خير الدين قد قدّموا للخليفة العثماني سليم الأول سفينة من التي غنموها إشارة إلى خضوعهم له فقبلها، وعدّهم ولاةً له على المغرب الأوسط ومدّهم بقوةٍ صغيرةٍ من القوات العثمانية، وبعد قتل عروج كان خير الدين في الجزائر فطلب عام ٩٢٤ دعماً من الخليفة فأمده بألفين من الجند، وأصدر أمراً بالسماح للمسلمين بالتطوّع في قوات خير الدين، وشجعهم على ذلك، فانخرطت أعداد معه لقتال الصليبيين، وعدوا ذلك جهاداً، وإن كانت أعداد أخرى من السودانيين قد تطوّعت معه أملاً

بالغنائم، ووقفت في وجه خير الدين الإمارات، وأصحاب النفوذ، ومنهم بنو زيان الذين عاد نفوذهم، والحفصيون الذين استعانوا بالنصارى، والإمارات الصغيرة، وزعماء البربر، وكان عليه أن يحاربهم جميعاً، وكاد أن يقع أسيراً بأيدي الحفصيين، كما كان عليه أن يحارب الدول الصليبية التي خافته، وقد أرهب أساطيلها، كما عليه أن يسترجع الموانئ التي بقيت بأيدي الإسبان وخاصةً وهران التي ظلّت بأيدي الإسبان حتى القرن الثاني عشر الهجري، وفي عام ٩٣٦ أصبحت منطقة المغرب الأوسط نيابةً عثمانيةً بعد أن استطاع خير الدين أن يفتح حصناً للإسبان مقابل مدينة الجزائر، وأصبح اسم الجزائر منذ تلك المرحلة يطلق على المغرب الأوسط، وأصبح خير الدين يعمل لضم تونس إلى الجزائر غير أن الإسبان قد احتلوا تونس بالتعاون مع الحسن الحفصي، وكان الصليبيون يخشون توحيد بلاد المغرب لذا فقد بذلوا جهودهم مجتمعة للحيلولة دون ذلك، وعيّن الخليفة العثماني خير الدين قائداً عاماً للأسطول العثماني مكافأةً لما قام به من جهود في الوقوف ضد الصليبيين وخدمة الدولة العثمانية.

كانت جهود خير الدين مقتصرة على الأجزاء الشمالية من الجزائر إلا أن الذين خلفوه قد توسعوا نحو الجنوب، ووضعوا حاميات عثمانية في المدن الداخلية حتى مدينة بسكرة التي كانت تقيم بها حامية عثمانية، كان حاكم الجزائر يُعرف باسم (بيلر بك) أي رئيس البكوات فهي ليست بمنزلة الولايات الرئيسية لأن هذه يحكمها والٍ برتبة باشا، ولكن عندما انفصلت تونس عام ٩٩٩، وأصبح يحكمها داي مرتبط مباشرةً باستانبول، استبدلت الدولة العثمانية حكمها في الجزائر، وأصبح يحكمها باشا لمدة ثلاث سنوات، واستمر ذلك حتى عام ١٠٧٠، إذ أصبح الوالي ضعيفاً أمام رؤساء الجند (الدايات) حتى تمكّن مجلس الدايات أن يُعيّن أحد أعضائه حاكماً على الولاية، إلا أن هؤلاء الدايات قد تنازعوا على السلطة فلم يستمروا كثيراً إذ غلب عليهم رؤساء البحرية، وهم من غير الانكشارية، وإن حملوا لقب (دايات) أيضاً، وإن كان هو اللقب الرئيسي لزعماء البحرية، ومع

سيطرة الدايات إلا أن الخليفة العثماني استمر في إرسال الولاة (الباشوات) كل ثلاث سنوات، ولكن طرده الداي عام ١١٢٢، وهكذا لم يبق ولاة عثمانيون، وإنما الداي أصبح هو المتصرف الوحيد بالولاية، واستمر ذلك حتى جاء الفرنسيون عام ١٢٤٦، وإن كان الدايات قد حملوا لقب باشا رفعاً لمنزلتهم.

كانت ولاية الجزائر قويةً وخاصة من الناحية البحرية إذ كان أسطولها يفوق أي أسطول في البحر المتوسط، لذا فقد أجبرت الدول النصرانية على دفع جزية للجزائر، وكانت تتسابق للصداقة معها. ثم ثارت الصليبية لهذا الوضع، وعملت على التحالف ضد الجزائر، فتحالفت إنكلترا وهولندا، وعملتا على مهاجمة الأسطول الجزائري عام ١٢٣٠، ثم هاجم الأسطول الإنكليزي وحده الجزائر عام ١٢٤٠، ثم اتفق الأسطولان الإنكليزي والفرنسي، وغدرا بالأسطول الجزائري عام ١٢٤٢، وغدت الجزائر دون أسطول يحمي سواحلها، وهذا ما أطمع الدول النصرانية وخاصةً فرنسا التي فقدت مستعمراتها أثناء حروب نابليون والمنافسة الاستعمارية، فأرادت أن تعوّض عن بعضها باحتلال الجزائر، وتوجيه الشعب نحو الخارج بسبب إخفاق الحكومة في سياستها الداخلية، هذا التوجه الفرنسي نحو الجزائر وجد تشجيعاً من قبل دول أوروبا النصرانية.

كانت فرنسا أثناء أزمتها أيام الثورة الفرنسية وبعدها قد اشترت القمح من الجزائر بديون مؤجلة، ولكن مرت الأيام، ولم تف فرنسا ديونها، ولم تستمع إلى المطالبة، وفي عام ١٢٤٢ جاء القنصل الفرنسي لقصر الداي للتهنئة بمناسبة عيد الفطر، فسأله الداي عن عدم ردّ ملك فرنسا على رسالة الداي فأجابه بأنه ملك، ويجب مخاطبته عن طريق الخليفة، فغضب الداي، وطلب منه الخروج من القصر، فكتب القنصل إلى فرنسا بأنه أُهين في حضرة الداي، فاتخذت فرنسا هذه الحادثة ذريعةً واتجهت بقواتها نحو الجزائر، وحاصرت السواحل، ولم تجد الوسائل السياسية في حل هذه الأزمة لأن فرنسا مصممة على احتلال الجزائر، وأكملت الإعداد اللازم عام

١٢٤٦، فأرسلت ١٠٢ سفينة بحرية، و٤٠٠ سفينة نقل تحمل ٤٠ ألف جندي، ونزلت هذه القوة على البر، واحتلت (سيدي فرج)، وهُزمت القوات الجزائرية رغم المقاومة العنيفة التي أبدتها، واضطر الداي إلى الاستسلام وترك مدينة الجزائر متجهاً إلى الإسكندرية. وبعدئذٍ اتجه الفرنسيون إلى بقية الولايات، فدخلوا وهران بعد أن انتصروا على واليها العثماني حسن بك عام ١٢٤٩، وقسنطينة عام ١٢٥٣ بعد مقاومة واليها أحمد بك حتى هذه المدة كلها، وانتهى الفرنسيون من احتلال الجزائر كافةً عام ١٢٥٥، أي لم يتمكن الفرنسيون من القضاء على المقاومة حتى بعد مرور تسع سنوات كاملات.

حاولت فرنسا إسكان الكثير من الفرنسيين في الجزائر لدعمهم لها، وليكونوا عيوناً لها، وأعطتهم أفضل الأراضي وأكثرها خصوبةً ليشعروا بأهمية ما قُدّم لهم فيكونوا مخلصين لحكومتهم، ولإفقار الجزائريين فيصيبهم الذلّ فيخضعون، ولنشر المفاسد، وقد حاولوا إفساد المرأة المسلمة وخلعها من مجتمعها الإسلامي.

وقفت القبائل في الجزائر بوجه الاستعمار الصليبي الفرنسي، وقادها الشيخ محيي الدين الحسني أحد رجال الأشراف واستمرت قيادته مدة عامين (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨)، ثم تنازل لابنه عبد القادر الذي أعلن الجهاد، إذ بيّن أن هذه الحرب دينية، فدعمه السكان لذا لم تتمكّن فرنسا من الولوج إلى الداخل، وإنما انحصر استعمارها في الساحل.

لجأت فرنسا إلى سياسة المفاوضات فعقدت معاهدة مع الأمير عبد القادر عام ١٢٥٠ أعلنت فيها عن انسحابها من ولاية وهران باستثناء المدينة نفسها، لكنها عادت فنقضت العهد عام ١٢٥١ لخلاف جرى في معسكر عبد القادر لكنها هُزمت، وجددت المعاهدة عام ١٢٥٣، ثم استأنفت القتال بعد وصول النجدات لها، وإحراق الأرض لإرهاب السكان فاضطر عبد القادر إلى الهرب إلى المغرب، فحارب الفرنسيون سلطان المغرب، وهزموه، وأجبروه على طرد الأمير عبد القادر من البلاد، فاضطر

إلى ذلك عام ١٢٦٠، رجع الأمير عبد القادر إلى الجزائر، وانقض على الفرنسيين عام ١٢٦٢، ولكنه اضطر إلى الاستسلام عام ١٢٦٣، فحُمل إلى فرنسا فبقي فيها حتى عام ١٢٧٠، حيث نفي إلى بلاد الشام، وبقي فيها حتى توفي عام ١٣٠١، وتتضارب الأقوال حول وجوده بالشام، هل كان نفياً أم كانت له مهمة يؤديها للفرنسيين بعد أن أثروا عليه وغيّروا فكره في باريس؟ وقد حمى النصارى في الشام عام ١٢٧٦.

أعلنت فرنسا أن الجزائر جزءاً منها، ولكن رفض هذا الجزائريون وبقوا في مقاومتهم، إذ كانت القبائل هي التي تتولّى القتال، ولكن - مع الأسف - بصورة متفرقة فلم يكن هناك تخطيط، ولا محرك، ثار بنو سناسن عام ١٢٧٦، وأولاد سيدي الشيخ جنوب وهران عام ١٢٨١، ومحمد المقراني عام ١٢٨٨، وأولاد أبي عمامة عام ١٢٩٩، وبنو زيد عام ١٣٣٤ وقادهم الحاج سعيد بن عبد اللطيف، وكانت كل هذه الحركات إسلاميةً، وبعد الحرب العالمية الأولى شكّل خالد بن الهاشمي بن عبد القادر الجزائري وفداً إلى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة بالاستقلال ولكنه خذل كغيره، واضطر لمغادرة البلاد إلى دمشق، وبقي حتى توفي فيها عام ١٣٥٤.

واستمر العمل ضد الفرنسيين إلى نهاية المرحلة ويأخذ أحياناً جانباً سياسياً للمطالبة بتعليم اللغة العربية، والاهتمام بشؤون المسلمين، واستقلال البلاد، وإزالة أعمال العدوان، ومنع الظلم غير أن الاضطهاد كان غالباً ما ينال أولئك الذين ينادون بمثل هذه الأفكار أو يدعون لها.

٤ - المغرب:

بعد تجزؤ دولة الموحدين حكم بنو مرين في المغرب الأقصى، وإن كان نفوذهم يمتدّ أحياناً كثيرةً إلى المشرق، ثم خلفهم عام ٨٢٣ بنو وطاس، واستمرّ أمرهم حتى عام ٩١٦، وفي أيامهم احتلّ البرتغاليون شواطئ المغرب، فتضايق المسلمون من هذا التوسّع الصليبي، وخاصةً أن

النصارى من إسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس، ونكّلوا بهم أشدّ تنكيل، وانطلقت جموع من المسلمين شاردةً هائمةً على وجهها نحو المغرب، فتأثّر المسلمون لما حلّ بإخوانهم، وخافوا على أنفسهم أن يُصيبهم ما أصاب الناس في الأندلس، فسقطت أسهم بني وطاس، وبدأ التفكير الدائم فيمن يقود الناس للوقوف أمام هذا المدّ الصليبي الزاحف، واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله الذي كان يُقيم في وادي درعة جنوب بلاد السوس قريباً من حدود المغرب اليوم مع الصحراء المغربية، وقد كان يُفكر في إنقاذ المغرب، ويحلم بذلك، ويُعلن عن حلمه للملأ، ويدّعي أنه يعود في نسبه إلى محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار على العباسيين في المدينة عام ١٤٥، وهُزم، فتفرّقت أسرته ووصل بعضها إلى المغرب، ومنها الأدارسة الذين أسّسوا دولتهم هناك عام ١٧٢[1]، ومع عرضه لنفسه وتفتيش الناس عن مُنقذٍ، اتجهوا إليه وبايعوه عام ٩١٦، فأعلن الجهاد ودعا الناس إلى القتال فالتفّوا حوله، فأنهى حكم بني وطاس، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المراكز التي بقوا في بعضها اثنتين وسبعين سنة، وساعده ولداه أحمد المعروف بالأعرج، ومحمد المهدي المعروف بالشيخ، وبعد وفاة أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله خلفه ابنه أحمد الأعرج.

كان العثمانيون يدعمون السعديين، ويحثّونهم على قتال الصليبيين، ويُقدّمون لهم المساعدات، ويُشجّعونهم على العمل معاً لاستعادة الأندلس، وبتلك المساعدات تمكّن السعديون من دخول فاس عام ٩٥٥، غير أن النصارى عندما علموا بذلك التفكير لدى المسلمين عملوا على الإيقاع بين الطرفين، فنقلوا معلومات عن طريقٍ يظهر أنه لا علاقة لهم به يتحدثون رجماً عن نية العثمانيين في احتلال المغرب، فوقعت الشكوك عند سلطان

---

(١) هناك من ينسب السعديين إلى قوم حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، ومنهم من يجعل نسبهم يتصل بسعد بن عبادة سيد الأنصار، رضي الله عنه - والله أعلم -.

السعديين أحمد، وكان حسن بن خير الدين بربروس قد احتلّ تلمسان عام ٩٥٢، وبدأ يتوسع نحو الجنوب، فأصبح الشك عند السلطان يقيناً، فقرّر انتزاع تلمسان من العثمانيين، وشجّعه النصارى على ذلك، ودعموه بكل إمكاناتهم، فسار إلى (وجدة) واحتلّها، ثم انطلق نحو تلمسان، وأخذها من أيدي العثمانيين عام ٩٥٥ بعد أربعة أشهر فقط من دخولهم فاس بمساعدة العثمانيين، وهذا ما أوغر صدر العثمانيين، إذ رأوا أن السعديين حلفاؤهم، أصبحوا حلفاء للصليبيين الذين فعلوا بالأندلس ما فعلوه، لذا يجب مراجعة الحساب، فبدأ الخليفة العثماني سليمان القانوني يستعدّ للعمل في المغرب من جديد على نهجٍ آخر.

١ ـ عزل والي الجزائر حسن بن خير الدين باشا، وولى مكانه صالح باشا.

٢ ـ بدأت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والمغرب جزء صغير أمام الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء.

٣ ـ عمل على الاتصال بأمراء بني وطاس الذين زال ملكهم ولا بدّ من أن تكون لهم أطماع في استعادة ذلك الملك.

٤ ـ عزّز القوات العثمانية بالجزائر بقواتٍ بريةٍ وأسطولٍ قوي.

وبعد خمس سنوات من الاستعداد تقدّم العثمانيون من الشرق، وأعلنوا ضمّ المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية، ووصلوا إلى فاس، وخُطب للخليفة العثماني على المنابر مرةً واحدة وذلك عام ٩٦١، وكان قد اغتيل السلطان السعدي أحمد وقام مكانه أخوه محمد باسم المتوكل على الله، فوطّد علاقته مع الإسبان والبرتغاليين، ووقّع معاهدةً مع البرتغال تنصّ على إرسال جيشٍ مغربي ـ برتغالي لإخراج العثمانيين من الجزائر، وتعمل البرتغال على تسليح الجيش المغربي، واتهم الصليبيون العثمانيين بأنهم كانوا وراء اغتيال السلطان السعدي، وأسرع العثمانيون فأرسلوا وفداً للمفاوضة غير أن السلطان السعدي الجديد لم يحسن اللقاء للوفد، بل

وهدّد العثمانيين بإخراجهم من إفريقية كلها، وكان العثمانيون قد خرجوا من المغرب أمام مقاومة السكان الذين شُحنوا بكراهية العثمانيين نتيجة الدعاية الصليبية التي بدأت تصل إلى المغرب بصفة البرتغاليين والإسبان على صلة بالحكم السعدي ونتيجة الأراجيف التي بثّها أولئك النصارى.

بدأ العثمانيون يستعدّون لجولةٍ ثانيةٍ حيث خافوا أن تقع المغرب بأيدي الصليبيين بعد أن كانوا يُفكّرون في استعادة الأندلس، فاتصلوا بأمراء بني وطاس، والفرقة التركية التي تعمل في جيش السعديين، ووزّعوا السلاح، وقد التجأ إليهم ولدا السلطان السعدي السابق إذ عدّا عمهما قد اغتصب الملك منهما، وهما عبد الملك، وأحمد المنصور الذهبي، واستمرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كي تخفّف من أراجيف النصارى وشائعاتهم.

أثار العثمانيون الفرقة التركية فأعلنت التمرّد، ونزلوا في جزيرة باديس على شواطئ المغرب الشمالية، وتوغّلوا في داخل المغرب حتى أصبحوا على مقربةٍ من مشارف مدينة فاس، فاتجه السلطان السعدي إلى النصارى، وسلّم الفرنسيين مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبتة وطنجة عام ٩٦٦، وأعلن عن تقديم جزيرة باديس التي نزل فيها العثمانيون للفرنسيين ليقع الصدام بين الطرفين، وتعرّض السلطان المغربي للاغتيال، وعاد العثمانيون للانسحاب.

وعندما هُزم العثمانيون عام ٩٧٨، وتحطّم أسطولهم تماماً أمام أسطول إسبانيا والبندقية لم يعودوا يُفكّرون في دخول المغرب، وإن عدّوها منطقة مواجهةٍ مع الدول النصرانية، وإن تحسب عليهم مرة واحدة لم يكن لهم دخل بها، وهي عندما فكّر الأتراك في المغرب مع المسلمين الفارين من الأندلس قلب الحكم وتأسيس دولةٍ برئاسة الأمير السعدي داود بن عبد المؤمن غير أن السلطان المنصور السعدي قد سحق ذلك التنظيم في وادي درعه.

وعندما التجأ الأميران السعديان عبد الملك (المعتصم) وأحمد

(المنصور) إلى الخليفة العثماني يطلبان مساعدتهما في استعادة الملك من عمهما المتعاون مع الصليبيين أمدّهما بجيشٍ قوامه خمسة آلاف جندي، وتمكّنت هذه القوة من دخول فاس عام ٩٨٢، وتنصيب عبد الملك (المعتصم) سلطاناً على المغرب، وقد انسحبت هذه القوة منذ استقرّ الأمر للسلطان عبد الملك.

وعندما انقطع التفكير العثماني في ضمّ المغرب، واتجه إلى مساعدتها ضد الصليبيين، وتخليصها من نفوذهم، عاد التفكير النصراني إلى أخذ المغرب وطرد المسلمين منها، وتوطيد أمر النصارى فيها، وقد بدؤوا بالعمل لذلك.

التجأ الملك السعدي المعزول إلى ملك البرتغال لإعادته إلى السلطة، وبدأت الجيوش النصرانية تفد لدعم هذا اللاجئ ظاهراً، ولتحقيق نواياها في المغرب فجاءت جيوش من إسبانيا، وفرنسا، وألمانيا، وجاءت فرسان البابا، وانضمّت كلها إلى جيش البرتغال، وقادها ملك البرتغال، ومعه اللاجئ الملك السعدي السابق محمد المتوكل، وبلغ عدد ذلك الجيش مائةً وخمسةً وعشرين ألف جندي، وبالمقابل فقد أمدّت الدولة العثمانية المغرب بقوةٍ تضمّ ستة آلافٍ من الرماة، وثمانمائة فارس، ومعهم اثنا عشر مدفعاً إضافة إلى ألفٍ من المشاة، والتقت القوتان في وادي المخازن شمال العرائش عام ٩٨٦، وانتهت هذه المعركة بهزيمة الصليبيين، ومقتل ملك البرتغال، ومحمد المتوكل السعدي الذي معه، وكذلك استشهد السلطان السعدي عبد الملك حتى سُمّيت هذه المعركة بمعركة الملوك الثلاثة، وبعد هذه المعركة ارتفع شأن المغرب، واعتمد العثمانيون على إمكانية وقوفها في وجه الصليبيين، فصرفوا النظر عن ضمّها إلى دولتهم، وفي الوقت نفسه ضعف شأن البرتغال، وضمّت إسبانيا أرضها إليها بعد سنتين عام ٩٨٨، واستمرت في ضمّها مدة ستين سنة، وقام أحمد المنصور بأمور الملك بعد استشهاد أخيه عبد الملك في تلك المعركة، ووجد حماسةً كبيرةً في جيشه لملاحقة البرتغاليين، واجتياز المضيق واستعادة الأندلس، وهدّأ جنده

بأسلوبٍ حكيم، ولاحق في الوقت نفسه زعماء الأندلس إذ كان هدفهم إقامة دولةٍ أندلسيةٍ ـ عثمانيةٍ.

تقدّمت إسبانيا بمعاهدةٍ مستفيدةً من نقمة المعارضة على السلطان، ووقوفه في وجههم ثم ثورتهم وسحقها إذ لا زالت تراودهم فكرة الانضمام إلى العثمانيين، وتشمل هذه المعاهدة التحالف ضد العثمانيين، وتنازل المغرب عن ميناء العرائش ليكون قاعدةً للأسطول الإسباني، فداء أسرى وادي المخازن، ربط التجارة المغربية والإسبانية، والوقوف في وجه التجار الإنكليز من الوصول إلى موانئ المغرب، وقد وقعت تلك المعاهدة عام ٩٨٩، ولكن لم ينتج عنها شيء.

عمل المنصور على دعم الأمير البرتغالي المطالب بالعرش، ونقله إلى بلاده من إنكلترا التي كان فيها، وكثرت اتصالاته مع إنكلترا، وحشد جنوده في الشمال، فخافت إسبانيا التي كانت على خلافٍ مع إنكلترا، فتنازلت عن ميناء أصيلا الذي كانت تستعمره في أرض المغرب مقابل الحياد بينها وبين إنكلترا، والكفّ عن دعم الأمير البرتغالي، ولكن إسبانيا لم تلبث أن هُزمت أمام إنكلترا وتحطّم أسطولها في معركة الأرمادا عام ٩٩٧، وهذا ما أعطى الفرصة للمنصور لأن يُتابع سياسته في السودان.

أعلن المنصور أنه خليفة المسلمين عامةً، وأنه الجدير بذلك بل المستحق لأنه من قريش، وينتمي إلى رسول الله ﷺ، وفي هذا حرب للعثمانيين ما مثلها من حرب، وقد بايعته مملكة كانم(١) ـ بورنو(٢) عام ٩٩٠، وقام بإرسال حملةٍ إلى مملكة صنغاي عام ٩٩٢، لنشر الإسلام في بلاد السودان، ولأخذ البيعة من ملوك صنغاي، وتوسعة ملكه، وللحصول على الملح والذهب، ولأخذ العبيد للخدمة في جيشه، ولمنازلة المراكز البرتغالية على شواطئ المحيط الأطلسي، إذ كان دائم الحديث وخاصةً في

---

(١) كانم: شمال شرقي بحيرة تشاد في دولة تشاد اليوم.

(٢) بورنو: جنوب غربي بحيرة تشاد في دولة نيجيريا اليوم.

مراسلاته عن الجهاد، وقتال الصليبيين، وحتى استعادة الأندلس، وقد كان وجود النصارى الإسبان والبرتغال على سواحل المغرب وشطآن المحيط الأطلسي، ووجود الفارين من الأندلس في بلاد المغرب كل ذلك يُخيف المسلمين، ويدفعهم إلى الجهاد والدعوة، والسلطان يتبنّى هذا تحقيقاً لرغبة الشعب، وربما كان ذلك في نيته أيضاً.

كانت وجهة المنصور نحو بلاد السودان، ولم تكن هذه الوجهة حديثةً، فقد اتجه بنو وطاس نحو بلاد السودان، وأرسلوا سفيراً للتحالف مع مملكة مالي ضد البرتغاليين الذين كثرت مراكزهم على سواحل المحيط الأطلسي.

لقد تمكّن المنصور عام ٩٩٠ من ضمّ شمال بلاد النيجر اليوم، وذلك إثر حملةٍ قامت عام ٩٨٩، إلا أن الحملة الثانية عام ٩٩١ قد ابتلعتها رمال الصحراء عام ٩٩٢.

وفي الوقت نفسه كان يحرص على مواجهة البرتغاليين، وطردهم من المراكز الساحلية التي تمكّنوا فيها، فقام بحملةٍ وصلت إلى نهر غامبيا عام ٩٩٠، وبايعه أمراء من الفولاني وغيرهم في بلاد السنغال، غير أن حملته التي أعقبتها عام ٩٩٣ قد فشلت، وحاول مهاجمة جزر كناريا التي كانت مركز المستعمرين للانطلاق نحو السواحل الجنوبية، واستمرت محاولات هجومه هذه طيلة أيام حكمه، وعندما ضعف البرتغاليون وعمل على الهجوم على مستعمرتهم (أرغين) مقابل الرأس الأخضر وجد أن الإسبان قد حلّوا محل البرتغاليين عام ٩٩٧ إذ احتلّوا بلادهم يومذاك، وحموا مستعمراتهم، وحاول الاتفاق مع الإنكليز لمساعدة أسطولهم باحتلال تلك المستعمرة البرتغالية سابقاً والإسبانية حالياً، ولكن لم يُوفّق.

وساعده في التوجه إلى أواسط بلاد السودان مبايعة دولة كانم - بورنو له، واختلاف أبناء ملك صنغاي أسكيا داود الذي توفي عام ٩٩٠، وقد بدأت الصدامات في عهد ابنه الأسكيا الحاج محمد الثاني، ولقد فرّ بعض إخوته إلى السلطان السعدي المنصور، ورغم المخالفة التي لقيها المنصور

في دولته من الهجوم على بلاد المسلمين إلا أنه استطاع إقناع المعارضين أو إسكاتهم، وأرسل حملةً واسعةً في مطلع عام ٩٩٨ بإمرة جؤذر باشا استطاعت دخول عاصمة الصنغاي مدينة (غاو) عام ٩٩٩، والمفاوضة مع ملك الصنغاي إسكيا إسحاق الذي فرّ من الهزيمة حيث اعترف للسلطان السعدي بالسيطرة والنفوذ على منطقة السودان وبايعه، إلا أن الأمير محمد كاغ بن داود رفض ذلك، واستمر في المقاومة، وفي الوقت نفسه لم يعترف المنصور بنتيجة المفاوضات بل أرسل أمراً بعزل جؤذر باشا عن قيادة الجيش، وبعث حملةً ثانيةً بقيادة محمود باشا انتصرت على الصنغاي، وقُتل الأسكيا محمد كاغ، وأصبح ملوك صنغاي تحت إمرة سلطان المغرب، وانتقلت العاصمة الصنغانية من (غاو) إلى تمبوكتو. أما المقاومة فقد تولاّها أسكيا نوح حتى توفي عام ١٠٠٤، أما أسكيا سليمان فكان بإمرة المغرب ويُقاتل تحت قيادة الباشا الوالي من قبل المغرب حتى توفي عام ١٠٠٤ أيضاً، واستمر خلفاؤه من بعده تبعاً لسياسته.

توفي أحمد المنصور عام ١٠١٢، واختلف أبناؤه من بعده، وكان زيدان الكبير هو المرشح للحكم غير أن أخويه أبي الفوارس والمأمون قد اتفقا ضده، فحكم المأمون، وولّى أخاه أبا الفوارس منطقة مراكش ولكن لم يلبث أن تنكّر له، وهذا ما سهّل عملية الانتقام إذ استطاع زيدان أن يجمع حوله أتباعه، وأن يسيطر على منطقة فاس، وضعف أمر المأمون فاتجه إلى خصومه الإسبان فعرض عليهم مساعدته مقابل تسليم ميناء العرائش، وكان الأندلسيون في المغرب يسعون لغزو الأندلس بمساعدة الجزائريين، وفضح المأمون هذا العمل الأمر الذي جعل الإسبان يقضون عام ١٠١٩ على ما بقي من المسلمين في الأندلس، وسقطت هيبة المأمون في نفوس المسلمين، وقتل في تطوان عام ١٠٢٢، وورث هذا الخزي ابنه عبد الله فلم يتمكن من المطالبة بالسلطان، وهذا ما زاد من قوة زيدان غير أنه لم يستطع من بسط نفوذه على كل الأقاليم، وبالتالي ضعف أمر السعديين كثيراً، وأصبح المسلمون يفكرون في قيادةٍ جديدةٍ، وظهر بعض

القادة أمثال محمد العياشي الذي أخذ يُقاتل البرتغاليين في أزمور، والإسبانيين في العرائش والمهدية.

وظهرت قوة الأشراف العلويين الذين أصبح نفوذهم قوياً في سجلماسة ومنطقة تافيللت كلها التي وصلوا إليها في القرن الثامن، ثم امتدّ نفوذهم إلى منطقة السوس ووادي درعة عندما ضعف السعديون، وعندما وجدت قوة شيخ هذه العائلة محمد بن علي بويع للنهوض بالبلاد، وحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام ضد الهجوم الصليبي، فنهض بالأمر عام ١٠٤١، ولكن أخاه الرشيد قد انتزع الحكم منه، وبدأ بمقارعة السعديين حتى تمكّن من دخول فاس عام ١٠٧٧، وقضى على حكم الدولة السعدية، وقُتل عام ١٠٨٣، وترك الحكم من بعده لأخيه إسماعيل الذي استمر حكمه من ١٠٨٣ حتى ١١٤٠ أي أكثر من سبع وخمسين سنة.

اتجهت الأسرة العلوية إلى مقاتلة ولاية الجزائر بدلاً من أن تتخذ سبيلاً لقتال الصليبيين بناءً على البيعة التي أعطاها لهم المسلمون، كما اتجهت إلى التحالف مع فرنسا لتحقيق أغراضها، ولهذا استاء المسلمون من أفراد هذه الأسرة منذ بداية حكمهم، وأصبحت المقارنة بينهم وبين السعديين الذين قاموا على محاربة الصليبيين لذا قامت المحاولات للفتك بإسماعيل، وحدثت الفوضى في كل مكان، في فاس، في الريف، في تازه، وجاء الخضر غيلان من الجزائر إلى تطوان، فالتفّ حوله أهلها، وبايعته أصيلا، والقصر، وكان ينادي بالوحدة الإسلامية للوقوف في وجه النصارى، ولكنه قُتل عندما هاجمه إسماعيل بقواتٍ كثيفة على حين كان معه القليل من الجند، ويضطر إسماعيل بعدها لمقاتلة الصليبيين، وينجح في استرداد مدينة المهدية عام ١٠٩٩، والعرائش عام ١١١١، وأصيلا عام ١١١٣، كما استردّ طنجة من الإنكليز عام ١٠٩٦، وكانوا قد أخذوها من البرتغاليين عام ١٠٧٢ مهراً لملكتهم من ملك البرتغال، وكان قد دخلها البرتغاليون عام ٨١٨.

وتوفي إسماعيل عام ١١٤٠، وحدثت بعده حرب أهلية بين أبنائه

محمد، وعبد الملك، وعبد الله استمرت حتى عام ١١٧٠، استطاع في النهاية عبد الله أن يحصل على الحكم، ولكن لم يستقر الحكم إلا في عهد ابنه محمد الذي استمر عهده مدة عشرين سنة أو إلى عام ١٢٠٧، وتمكّن من استرداد مزاغا ـ من أيدي البرتغاليين، وهاجم سبتة ومليلة المدينتين اللتين في أيدي الإسبان، ولكنه عجز عن اقتحامها، وتحسّنت علاقات محمد مع الدولة العثمانية، على حين كان جده إسماعيل يصرّ على خلافته، ويُقدّم نفسه على العثمانيين بصفته أنه ينتسب إلى رسول الله ﷺ.

أما سليمان الذي خلف محمداً فقد أعلن وقف عمليات الجهاد حتى باع سفنه إلى تونس، بل لم يُطالب بسبتة ومليلة عندما دخل نابليون بونابرت إسبانيا، وكانت الفرصة مناسبةً له تماماً، وحاول ابنه عبد الرحمٰن الذي تولّى عام ١٢٣٧ أن يُعيد بناء الأسطول، ولكن لم يحالفه النجاح كثيراً، واختلف مع فرنسا التي احتلت الجزائر حتى ولاية تلمسان.

توفي عبد الرحمن عام ١١٧٧ وخلفه ابنه محمد الذي عقد معاهدةً مع إسبانيا عام ١٢٧٩، وازداد النفوذ الأجنبي في عهد هذا السلطان كثيراً، وأصبح مجلس صحي لمدينة طنجة من الأجانب تتناوب فرنسا وإسبانيا رئاسته، كما أصبحت محاكم قنصلية للأجانب في المغرب.

وتوفي محمد عام ١٢٩١ فخلفه ابنه الحسن الذي لجأ إلى إنكلترا لتحميه من فرنسا التي احتلت تونس، واشرأبت بعنقها نحو المغرب، كما حاول الاستعانة بألمانيا التي عقدت معه معاهدة عام ١٣٠٨.

وتوفي الحسن عام ١٣١٢ وخلفه ابنه عبد العزيز فاتفقت فرنسا وإسبانيا على اقتسام الأجزاء الجنوبية من المغرب عام ١٣١٨، حيث أخذت فرنسا موريتانيا، وأخذت إسبانيا الصحراء المغربية، كما سبق أن أخذت إسبانيا إفني عام ١٣١٦، واضطر السلطان عام ١٣٢١ على تشكيل مجلس لإدارة مدينة طنجة يتألف من ستةٍ وعشرين عضواً، يُعيّن القناصل الأجانب عشرة منه، وينتخب الأجانب فيها اثني عشر منهم، ويُعيّن حاخام اليهود واحداً، ويُعيّن السلطان واحداً أيضاً، أما الحاكم المحلي فيُعيّن اثنين من

المسلمين، وهذا ما أثار النقمة على السلطان، وقامت ثورة ضده، وأُعطي لقب (عبد الأجانب)، ووجدت فرنسا هذه الثورة فرصةً للتدخل في شؤون المغرب غير أن إنكلترا وألمانيا كانتا تقفان في وجهها، ولكن وقّعت فرنسا وإنكلترا معاهدة الاتفاق الودي بينهما بحيث تركت إنكلترا لفرنسا حرية العمل في المغرب مقابل اعتراف فرنسا بوضعها في مصر، وتركت منطقة الريف لإسبانيا، وجاء الإمبراطور الألماني إلى طنجة ملوحاً بالتهديد، فاعترفت فرنسا بحرية السلطان في أراضيه في مؤتمر الجزيرة، ثم تقدّمت فرنسا واحتلت وجدة والدار البيضاء، واحتلت إسبانيا منطقة الريف، وثار المسلمون على سلطانهم وخلعوه عام ١٣٢٥، ونصّبوا مكانه أخاه عبد الحفيظ الذي استطاع أن يقضي على الثورة التي اندلعت ضدّه، ويقودها (أبو حماده)، ولكن هذا السلطان قد عقد قروضاً لتسديد نفقات حملاته العسكرية، وأرهق الشعب، فنقموا عليه، وحاصروه في مدينة فاس، فجاءت حملة فرنسية لإنجاده عام ١٣٢٩، ودخلت فاس، ومكناس، والرباط، فثارت ثائرة إمبراطور ألمانيا فأرسل قطعةً حربيةً إلى المياه المغربية فأرضته فرنسا بجزءٍ من أراضي الكاميرون، واستمرت نقمة السكان المسلمين على السلطان، وأبادوا الحامية الفرنسية في فاس غير أن فرنسا عادت فدخلت فاس بعد أسبوعين، وندم السلطان على عمله، وتنازل لأخيه يوسف عن الحكم عام ١٣٣١، ولجأ هو إلى طنجة حيث يُقيم أخوه عبد العزيز أيضاً.

وتوسّع الفرنسيون فاحتلوا بقية أجزاء المغرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي الوقت نفسه قامت إسبانيا بضمّ منطقة الريف إليها، وقام أهل الريف أيضاً بثورةٍ ضد المحتلين، وهزموهم عام ١٣٢٧، وظهر أحد الأشراف وهو أحمد بن محمد بن عبد الله الحسني من قبيلة بني عروة، واشتهر بأحمد الرسولي فثار على السلطان، واختطف القنصل الأمريكي وعائلته في طنجة، وجاء الأسطول المغربي، وأخذ غرامةً حربيةً، وتولّى أحمد الرسولي أمر طنجة، لكن السلطان عزله تحت ضغط قناصل الدول الأجنبية، واصطدم الرسولي مع الإسبان في الجبال، ونودي به سلطاناً على

الجبال، ثم عقد معاهدةً مع الإسبان الذين أعادوا للرسولي أملاكه، وخفّفوا الضغط عن القبائل حسب المعاهدة، وثار المسلمون عليه، وقامت حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، واصطدمت مع الرسولي الذي أُسر، وبقي في الأسر حتى توفي عام ١٣٤٣.

وقام الأمير عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف الشرقية بحركةٍ، وقد عرف باسم (زعيم بني ورغال)، ولما توفي عام ١٣٣٨ خلفه ابنه الأكبر القاضي محمد في قيادة الحركة فأعلن الجهاد، وتمكّن عام ١٣٣٩ من القضاء على جيش سلفستر، ولم يبق للإسبان إلا حصن مليلة، وقد اعترفوا بخسارة خمسة عشر ألف جندي، وخمسمائةٍ وسبعين أسيراً إضافة إلى العتاد والذخيرة منها ثلاثين ألف بندقية، وأربعمائة مدفع رشاش ومائة وتسعة وعشرين مدفع ميدان، ولم ينتبه محمد بن عبد الكريم الخطابي على ما أدركه من نصر إذ لو تابع لدخل حصن مليلة، وألقى بالإسبان في البحر، ولكن توقّف فتهيأت الفرصة للإسبان لزجّ ستين ألف جندي في المعركة الجديدة، وقاموا بهجوم معاكس عام ١٣٣٩ فاستعادوا ما فقدوه، وبلغت قوتهم في عام ١٣٤٠ في منطقة الريف أكثر من مائة وخمسين ألف جندي.

حدث انقلاب عسكري في إسبانيا، وتغيّرت الخطة، وانسحب الإسبان من المناطق الداخلية، وتحصّنوا في السواحل، وشكّل الأمير محمد بن عبد الكريم حكومةً في الريف، ثم بدأ الهجوم الإسباني والفرنسي على حكومة الخطابي حتى استسلم الخطابي عام ١٣٤٤، ونفي إلى جزيرة رينونيون.

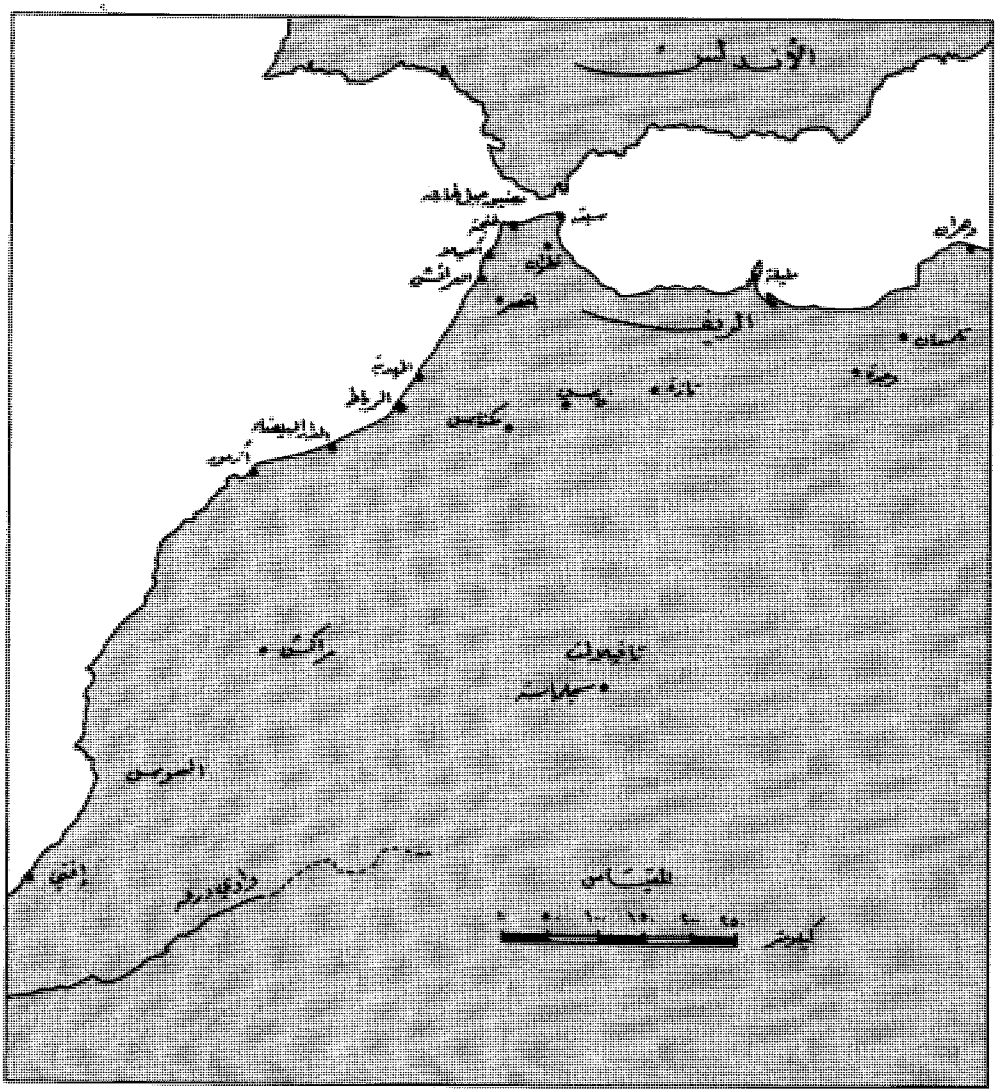

مصور رقم [٣٨]

الأشراف

من الأسرة العلوية في المغرب

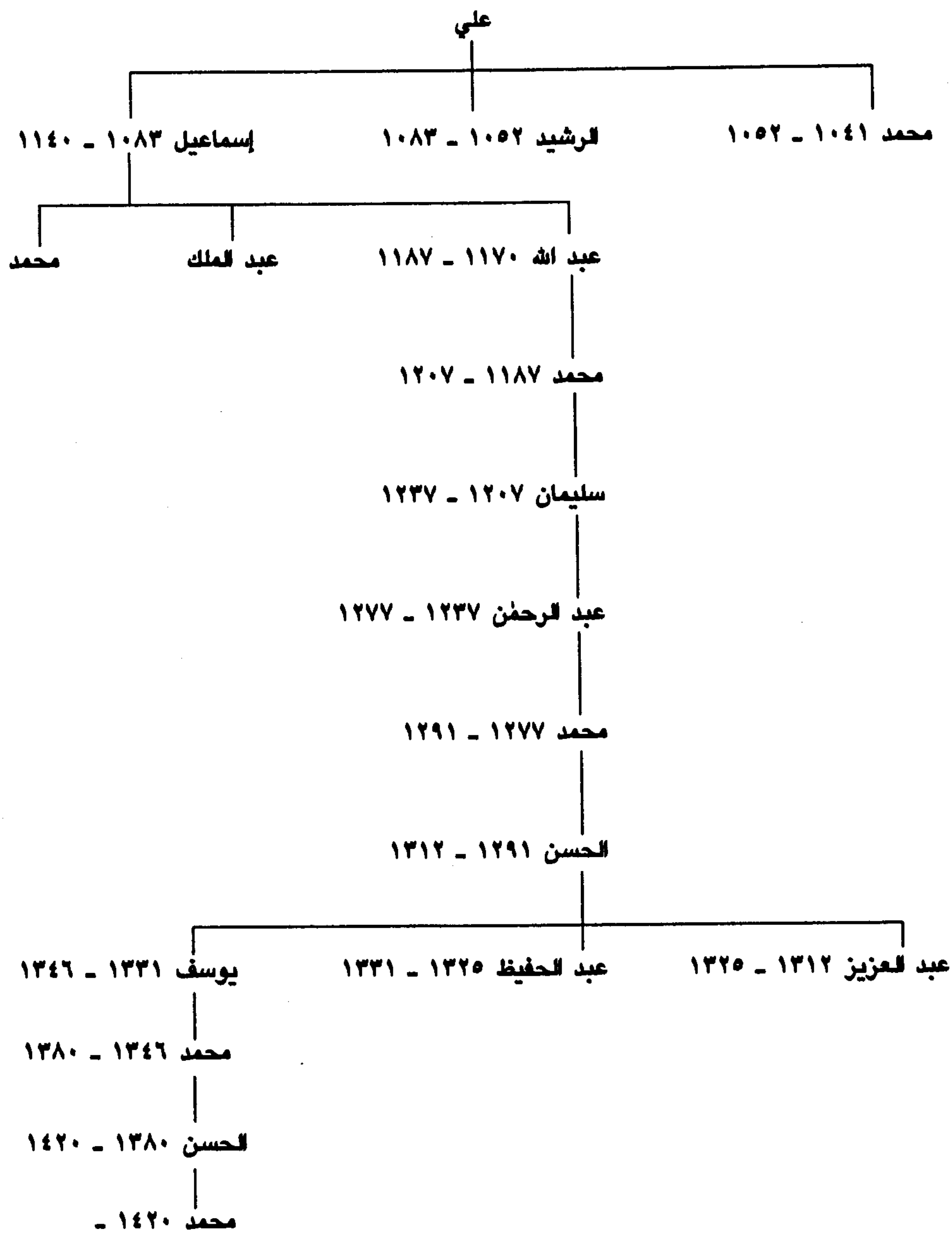

الفصل الثالث

غربي إفريقية

هذا الجزء من العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية يختلف فيه الوضع بين منطقتين: منطقة الساحل حيث بدأ ينزل فيه النصارى المستعمرون، ويتقدّمون منه نحو الداخل عندما يقوى أمرهم سواء على الساحل الغربي حيث يكثر المسلمون أم على الساحل الجنوبي حيث لا يزال السكان على وثنيتهم، ويعمل النصارى المستعمرون في هذه المناطق في نشر النصرانية ليُهيّؤوا لهم قواعد بشرية يستندون عليها في توطيد حكمهم، وتسليمها السلطة في المستقبل، ومنطقة الداخل حيث يحكم المسلمون وقد انفرط عقدهم، وأصبحوا على شكل إماراتٍ متنازعةٍ في أغلب الأحيان، أو على الأقل لا يهتمّ بعضهم بقضايا بعضهم الآخر.

الساحل:

في الوقت الذي كان الصراع قائماً بين المسلمين والنصارى في الأندلس، وتأخر اقتحام النصارى للبلاد رغم أن أوربا كانت من ورائهم تدعمهم، ورغم ضعف المسلمين الذي كان واضحاً لذا فكر النصارى من الإسبان والبرتغال في الإبحار على سواحل القارة الغربية لمعرفة قوة المسلمين في تلك القارة إذ كانت الرديف لمسلمي الأندلس تدعمهم وقت الشدة، كما حدث أيام المرابطين والموحدين وبعدهم، وإذا كان بإمكانهم النزول على السواحل، وتأسيس مراكز لهم يُمكنهم تطويق المسلمين قاموا به، قبل أن يقوى أمر المسلمين في بلاد المغرب ويمدّوا إخوانهم في

الأندلس، وإذا لم يكن ذلك امتهنوا التجارة إن استطاعوا مع السكان حتى يقوى أمرهم ويروا رأيهم.

وصل بعض البحارة النصارى عام ٧٤٧ إلى مصب نهر السنغال، وزاروا الرأس الأخضر، ولم يُقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغن) الصغيرة القريبة، كما احتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر ذلك حتى نهاية القرن التاسع الهجري أي وقت سقوط الأندلس بيد النصارى، وبعد أن حصل الإسبان والبرتغاليون على كثير من المغانم، واستأثروا بها دون الذين دعموهم بالأمس قام النصارى الآخرون ينافسونهم، فقد استطاع الفرنسيون تأسيس مستعمرة عند مصب نهر السنغال عام ١٠٣٦، وأسّسوا حصن (سان لويس) عام ١٠٧٠، غير أن البرتغاليين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في الاستعمار حيث وصلوا عام ٨٥٠ إلى شواطئ غينيا، وإلى سواحل سيراليون عام ٨٦٧، وإلى شواطئ نيجيريا عام ٨٩٢، وإلى سواحل الكاميرون مع نهاية القرن التاسع ٨٩٩، كما حاولوا الولوج إلى الداخل إذ تسلّلوا في السنغال بحثاً عن الذهب، ووصلوا إلى نجد (بامبوك).

وإذا قامت المنافسة الأوربية الأخرى لهم (للبرتغاليين والإسبان) وخاصةً من قبل فرنسا، وإنكلترا، وهولندا والمنافسة فيما بينهم أيضاً من أجل الحصول على الموارد الاقتصادية ومنها العبيد أيضاً حيث وصل الإنكليز إلى سواحل نيجيريا عام ٩٧٠، وبدؤوا بأخذ العبيد من هناك، وأطلقوا على ذلك الجزء من الساحل اسم ساحل العبيد، كما أطلقوا اسم ساحل العاج، وساحل الذهب (ساحل غانا)، ونافست إنكلترا فرنسا أيضاً فاحتلت حصن سان لويس الفرنسي عام ١١٧٢، ثم أعادته بعد معاهدة بين الدولتين عام ١١٩٨.

لم يأبه المسلمون بهذه المراكز النصرانية لضعفها أولاً، ولأنها ظهرت بمظهر العمل التجاري الخالص في أول الأمر، ولكنه في الواقع لضعف المسلمين ولعدم إمكاناتهم عمل شيءٍ ضدها بل إن الدول الإسلامية القوية

القائمة في المغرب كانت أحياناً تستعين بأصحاب هذه المراكز ضد خصومها، وربما كانوا من المسلمين كالعثمانيين مثلاً أو لتوطيد سلطانها، أو لنصرتها على خصومها السياسيين الثائرين عليها، أو ضدّ دول «نصرانية» أخرى، وإذا كان السعديون قد تنبّهوا لهذا الأمر إلاّ أن أيامهم كانت قصيرةً، وكثرت فيها الأحداث وعندما استقرّ الأمر للمنصور السعدي، اتجه نحو الداخل وقضى على دولة صنغاي أي كانت حروبه ضد المسلمين بالدرجة الأولى، وربما كان تفكيره لجمع المسلمين أولاً في دولةٍ ثم منازلة الدول النصرانية، وما أن مات حتى حدثت الفتن بين أبنائه، وعندما جاء الأشراف العلويون اختلفوا مع العثمانيين في الجزائر، وعملوا على التفاهم مع فرنسا التي بدأت ترنو بأنظارها نحو المناطق التي في جنوب بلاد المغرب وهي منطقة السنغال.

الداخل:

كانت مملكة الصنغاي في هذه المرحلة التاريخية تحكم غربي إفريقية، وتضمّ عدداً من الممالك التي تخضع لها، منها مملكة مالي، ومملكة الفولانيين في ماسينا و... وكان يحكم مملكة الصنغاي منذ عام ٨٩٩ أسكيا محمد الذي استطاع أن يحصل على الحكم عام ٨٩٨، وأسس أسرةً حاكمةً، وقد اتجه إلى قبائل الموش الوثنية الزنجية في منطقة فولتا العليا اليوم، وأعلن الجهاد ضدها، وطلب من حكامها الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، ودخل بلادهم، كما توسّع نحو الغرب فضمّ بلاد الماندينغ والفولاني إليه، ووصلت بذلك دولته إلى سواحل المحيط الأطلسي، كما وصل من ناحية الشمال إلى الصحراء، ثم ضم إليه إمارات الهاوسا في شمالي نيجيريا والنيجر أي أن مملكته ضمّت ما يعرف اليوم: النيجر، وشمالي نيجيريا، وفولتا العليا، والسنغال، وغينيا والأجزاء الغربية من سيراليون، والأجزاء الشمالية من ساحل العاج، والتوغو، وبنين، وفي عام ٩٣٥ قام عليه أبناؤه وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى الذي نفاه إلى جزيرةٍ بعيدةٍ في نهر النيجر، غير أن

موسى قد قتل عام ٩٣٨، وتولّى مكانه أخوه (محمد بنكه) الذي حكم حتى عام ٩٤٤، حيث عزله أخوه إسماعيل، وتسلّم السلطة مكانه، وفي عهد محمد بنكه هذا حاولت مملكة مالي الانفصال عن مملكة صنغاي، وطلب (منسي مالي) المساعدة من البرتغاليين الذين بدؤوا يُثبّتون أقدامهم على السواحل الغربية، فأرسل البرتغاليون سفارةً لمالي برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١، وكانت نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم الذي يتبع مالي، وهذا ما شجع محمود الثاني (منسي مالي) أن يقوم بثورةٍ ضد مملكة الصنغاي إلا أن ثورته قد قمعت بشدة، وأعاد إسماعيل أباه المنفي إلى الحكم إلا أنه كان قد كبر، وكفّ بصره، ومات عام ٩٤٩.

حكم مملكة الصنغاي عام ٩٥٠ بعد إسماعيل أخوه أسكيا إسحاق، واستمر حتى عام ٩٥٦، وفي هذه المرحلة ساءت العلاقة بين مملكة الصنغاي والسعديين في المغرب، وخلفه أخوه الآخر أسكيا داود، وعادت في أيامه مملكة مالي إلى الثورة ضدّه، فأرسل إليها حملةً قمعت حركتها، وزادت العلاقة سوءاً مع السعديين، واستمر حتى توفي عام ٩٩٠ حيث خلفه ابنه أسكيا محمد الثاني الذي حكم خمس سنوات، وحدثت في عهده المناوشات مع السعديين، ثم خلعه إخوته عام ٩٩٥، وتولّى أحدهم السلطة لمدة ثلاث سنوات، حيث جاء بعده أسكيا إسحاق الثاني عام ٩٩٨، وجاءت الحملة السعدية المغربية بقيادة جؤذر باشا، فهزم أسكيا إسحاق الذي فرّ ثم فاوض قائد الحملة، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدةٍ أنهت الحرب، وبايع أسكيا إسحاق السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي غير أن السلطان رفض المعاهدة، وأرسل حملةً أخرى بقيادة محمود باشا الذي عزل جؤذر باشا، واستولت هذه الحملة على مدينة (غاو) عاصمة الصنغاي، وأصبحت مملكة الصنغاي تتبع السعديين، وأصبح مركز المنطقة تمبوكتو بدلاً من غاو، وحدثت مقاومات من قبل أسكيا نوح واضطر إلى الفرار عام ١٠٠٢ نتيجة الحملات السعدية، وكذلك قاوم الأمير محمد كاغ بن أسكيا داود، ثم هدأت المقاومة بعد عام ١٠٠٤.

خضعت المنطقة لباشوات تمبوكتو الذين يُعينون من المغرب، والذين يُطلق عليهم (الأرما)، وبدأ الضعف يظهر على هؤلاء الباشوات مع ضعف دولة السعديين، وبالتالي تقوى الإمارات والممالك الصغيرة التي كانت تضمّها دولة الصنغاي، فقد ظهرت إمارة البمبارا وهم فرع من الماندينغ في مدينة (سيغو)، وبدأت تتوسع، وتمكنت عام ١٠٧١، أن تتخلص من سيادة تمبوكتو، ثم فرضت عليها الجزية عام ١٠٨١، وكانت قد انتهت الدولة السعدية في المغرب، وحدثت فتن في هذه الإمارة، وانتقل الحكم إلى أسرة ديارا عام ١١٦٤، واستمرت في الحكم حتى قضى عليها الحاج عمر الفولاني عام ١٢٧٨، كما قامت إمارة أخرى للبمبارا أنفسهم في (كاآرتا) شمال نهر باكوي أحد فروع نهر السنغال، وقامت هذه الإمارة على يد أخي أمير سيغو إذ رفض سلطانه، وأسس إمارةً خاصةً به، ووقع بينهما الخلاف، وانتصر أمير سيغو، ولكن أبقى إمارة أخيه، ويُعرف حكام هذه الإمارة باسم (مساسي)، وتوسعت هذه الإمارة في عهد حاكمها أبي بكر عام ١٢١١، ثم انتقل مركز الحكم فيها إلى نيورو، واستمرت حتى قام الحاج عمر يضمّ المنطقة، ويُوحّد أجزاءها عام ١٢٧٧.

وكذلك قام للماندينغ مملكة أخرى في هذه الأثناء حملت اسم مملكة مالي إحياءً لمملكتهم السابقة، وقد أسسها (مامامغان)، وقد حاول أن يتوسّع عام ١٠٨١ على حساب إمارة سيغو، لكنه هُزم، وصغُرت مملكته، وخلفه (مامبي كيتا) الذي حكم مدة خمس عشرة سنة، ثم تفرّق أبناؤه بعده، واقتسموا السلطة فيما بينهم، واستقر آخرهم في مدينا باماكو عاصمة دولة مالي اليوم، وهكذا بقي شعب الماندينغ منقسماً في عدة إمارات حتى ظهر ساموري توري عام ١٢٧٧، وأسّس دولته.

إلى جانب إمارات الماندينغ وجدت إمارات أخرى للقبائل الثانية، حيث إمارة لقبائل الفولاني في منطقة (ماسينا) على نهر النيجر جنوب تمبوكتو، وقد كانت جماعة الفولاني في هذه البقعة تقرّ بالسيادة لملوك مالي، ثمّ لباشوات تمبوكتو، وأخيراً لملوك البامبارا في سيغو، وكانوا على

الوثنية، وبدؤوا يعتنقون الإسلام في بداية القرن الثالث عشر، وقام الذين أسلموا منهم بحركةٍ من الجهاد ضدّ الذين بقوا على الوثنية من أبناء جنسهم، فاستنجد الوثنيون بملوك البامبارا، غير أن المسلمين قد انتصروا عليهم، وأسّسوا مملكةً مسلمةً عام ١٢٢٥ في ماسينا حكمت المنطقة كلها، وأقام التوكلور من الفولاني إمارة في (فوتاجالون) في جنوب الحوض الأعلى لنهر السنغال، وكانت أسرة منهم تحكم المنطقة في القرن التاسع، وعلا أمر هذه الإمارة في مطلع القرن الثالث عشر، وفي منتصف القرن ظهر الحاج عمر الذي وحّد السودان الغربي تحت سلطانه من فوتاجالون حتى تمبوكتو.

أحسّت الدول النصرانية بالضعف الذي أصاب المسلمين في الداخل، وشعرت بقوتها في مراكزها الساحلية فأحبت جسّ النبض فسارت باسم الاكتشاف أو بالأحرى المعرفة، لأن تلك الجهات لم تكن مجهولةً بل معروفة، وقد كتب عنها المسلمون، وإن كان يحلو لبعضهم أن يُسمّيها اكتشافاً أخذاً من الكتب النصرانية ونقلاً أو جهلاً، لقد قام (منجوبارك) برحلةٍ مع مجرى نهر غامبيا، وتمكّن من الوصول إلى مدينة سيغو على نهر النيجر وذلك عام ١٢١٠، ثم قام برحلةٍ ثانيةٍ عام ١٢٢٠، ثم تتابعت الرحلات وخاصةً الفرنسية منها إلى داخل غربي إفريقية، ولم يكن هؤلاء الرحالة إلا رسل بلادهم لمعرفة البلاد، وطرقها، وقوتها، ودراسة ثرواتها، وإمكانية نهبها، فكانت هذه الرحلات بداية حركة «استعمارية» واسعة النطاق، وإن أعطاها الصليبيون الصفة العلمية والعالمية، وقلّدهم المستغربون في ذلك.

لقد أحسّ بالخطر الصليبي بعض رجالات الفولاني وزعماء الماندينغ فعملوا على توحيد المنطقة، وجمع صفوف المسلمين للوقوف أمام الخطر النصراني الاستعماري المرتقب، غير أن الوقت لم يكن كافياً أمامهم، فداهمهم الخطر أثناء القيام بالحروب لوحدة الصف فصرعهم، وتغلّب على المنطقة، وبسط نفوذه عليها، وطبّق سياسته الاستعمارية النصرانية في أرجائها.

لقد ظهر عام ١٢٥٤ الحاج عمر الفولاني من التوكلور فعمل على غزو بلاد (كاآرتا) عام ١٢٧١، فدانت له، ثم اتجه إلى غزو إمارة سيغو بعد أن اتفق مع ملك ماسينا الفولاني، ولكن الأخير عدل عن فكرته، فاتجه الحاج عمر عندها نحو الغرب باتجاه منطقة السنغال الأوسط غير أن تقدّم الفرنسيين نحو الداخل وبسط نفوذهم على تلك الجهات قد حال دون سيره، فرجع مرةً أخرى نحو الشرق، واحتلّ إمارة سيغو عام ١٢٧٨، وأتبعها بمنطقة ماسينا عام ١٢٧٩، ثم تمبوكتو عام ١٢٨٠ فتوسع بذلك سلطانه، وقام البامبارا في سيغو بالتمرّد عليه، وأعقبهم الفولاني بحركةٍ ضدّه في منطقة ماسينا، فأدّى ذلك إلى مقتله عام ١٢٨١، وتنافس أبناؤه من بعده على السلطة، ودخل بعضهم في حروبٍ ضد بعض مما أدّى إلى زيادة الفوضى، وضعف المسلمين عن مواجهة النصارى المستعمرين فكرههم الناس، وقُتل آخرهم عام ١٣١٦ إثر هزيمة الفرنسيين له أثناء تقدّمهم نحو الشرق.

وأحسّ الفرنسيون بالخطر من حركة الحاج عمر لذا فقد أسرعوا بالتحرك نحو الداخل والتقدم نحو الشرق قبل أن يقوى أمر المسلمين، ويتّحد بعضهم مع بعض، وفعلاً فقد اتجهوا نحو الداخل، وتمكّنوا من القضاء على دولة الحاج عمر.

وشعر بخطر التقدّم الفرنسي (ساموري توري) أحد زعماء الماندينغ، وبدأ يعمل على توحيد صفوف قبائله المتفرقين جنوب دولة الحاج عمر، واستطاع بمدة عشرين سنة أن يوحّد صفوفهم (١٢٨٧ - ١٣٠٧)، وقد اتخذ لقب إمام ١٣٠٠ وتصدّى لمقاومة الفرنسيين إلا أنهم قد انتصروا عليه إذ ضعُف المسلمون بعد أن هُزم الحاج عمر، ومشكلة المسلمين أن حركةً كانت تتبع حركةً في المقاومة والقتال، ولم تتوحّد الجهود وتتجمّع القبائل، واستطاع الفرنسيون أن يحتلّوا عاصمة (ساموري توري) وهي (بيساندوغو) عام ١٣٠٩، ثم احتلوا سيغو وتمبوكتو عام ١٣١٠، وهرب (ساموري توري) إلى أعالي نهر الفولتا، واستمر في مقاومة الفرنسيين حتى قُبض عليه

عام ١٣١٦ في شمالي ساحل العاج، فحمل إلى الغابون وبقي هناك حتى توفي عام ١٣١٨، وهكذا سيطر الفرنسيون على أكثر أجزاء إفريقية الغربية، واتجهوا نحو مراكزهم الساحلية، أو تقدّموا من مراكزهم في الساحل، والتقوا مع جموعهم في الداخل فأصبحت المناطق التالية أو الدول الحالية تحت سيطرتهم: السنغال، مالي، غينيا، فولتا العليا، ساحل العاج، التوغو، وبنين، إضافةً إلى المناطق التي دخلوها في وسط إفريقية وهي، النيجر، وتشاد، وإفريقية الوسطى، والتقت مع الكاميرون، والغابون، والكونغو، مع بلاد المغرب، ولم يبق للمستعمرين النصارى الآخرين إلاً غامبيا التي بقيت للإنكليز على شكل شريطٍ يقع على طرفي نهر غامبيا وسط بلاد السنغال، وغينيا - بيساو التي أصبحت مستعمرةً برتغاليةً عام ١٢٩٧، وكان البرتغاليون من قبل ينقلون إليها القبائل الوثنية والمجموعات النصرانية لتحلّ محلّ القبائل المسلمة التي تتحرّك ضدّهم، ثم هناك سيراليون التي أسس فيها الإنكليز مستعمرةً عام ١٢٠٦، ونُقلت إلى التاج البريطاني عام ١٢٢٢، ونقل الإنكليز إليها الزنوج الذين كانوا مُساقين إلى البيع، وأخيراً توسّع الإنكليز نحو الشرق عام ١٢٩٠، وضمّوا إليهم أراضي جديدة، إلا أنها كانت لا تزال المستعمرة وحدها، ولا تزيد مساحتها على ٦٦٤كم٢، وباقي الأجزاء وتزيد مساحتها على ٧٢ ألف كيلومتر مربع تعدّ محمية، وفي عام ١٣١٣، حددت الحدود بين المستعمرات الفرنسية والإنكليزية.

وتقدّم الإنكليز من ساحل الذهب نحو الداخل، وتكوّنت مستعمرة ساحل الذهب في الساحل، والمحمية في الداخل، وهما عماد دولة غانا، كما تقدّموا من ساحل العبيد بكل جهةٍ إذ ضمّوا جزيرة لاغوس إلى مستعمراتهم عام ١٢٨٠، وبدأت تدخل تجارتهم إلى الداخل، وأسّسوا محميةً ضمّت بلاد اليوروبا في نيجيريا اليوم، وأغرت أمراء الشمال من الفولانيين بقبول الحماية الإنكليزية حماية لهم من فرنسا، ووعدتهم بإبقائهم في مراكزهم، واحترام الدين الإسلامي، والتقاليد المرعية في الشمال، فوافق بعض الأمراء، وأعلنت عن قيام محمية الشمال عام ١٣١٨

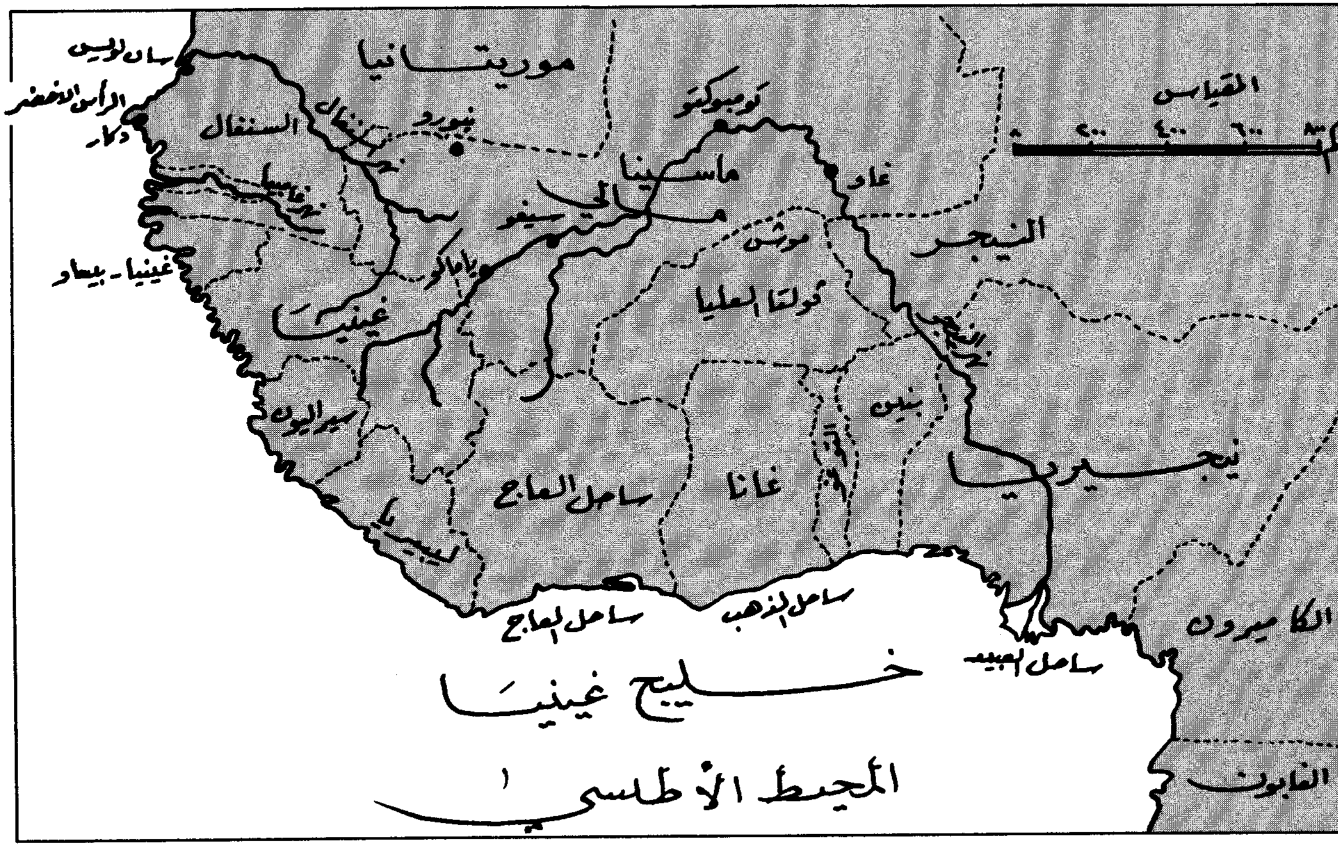
موريتانيا
السنغال
تومبوكتو
غاو
ماسينا
مالي
النيجر
موشي
فولتا العليا
غينيا
غينيا - بيساو
دكار
سان لويس
الرأس الأخضر
سيراليون
ساحل العاج
غانا
بنين
نيجيريا
الكاميرون
الغابون
ساحل الذهب
ساحل العبيد
خليج غينيا
المحيط الأطلسي
المقياس

مصور رقم [٣٩]

(شمالي نيجيريا) وجردت حملات عسكرية لإخضاع من رفض الحماية من الأمراء، فاحتلت كانو عام ١٣٢١، وسوكوتو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد الأمراء الفولانيين ويساعدهم ضباط من الإنكليز، ثم دمجت مستعمرة لاغوس بالمحمية الجنوبية، وأطلقت عليها اسم مستعمرة - ومحمية نيجيريا الجنوبية، وفي عام ١٣٣٣ ضم الإنكليز محمية الشمال والجنوب وجعلوا منها مستعمرة ومحمية نيجيريا، وأثناء الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٣٣٥ أرسلت بريطانيا حملةً إلى الكاميرون التي كانت تحت سيطرة ألمانيا فاحتلت الجزء الغربي وحكمتها باسم عصبة الأمم ثم ضمّتها إلى نيجيريا بعد أن قسّمتها إلى مقاطعتين شمالية وجنوبية، وهكذا نشأت دولة نيجيريا تحت سيطرة الإنكليز.

الفصل الرابع

وَسَط إفريقيَة

يشمل وسط إفريقية اليوم تشاد، والنيجر، وشمالي نيجيريا، وشمالي الكاميرون إضافةً إلى جمهورية إفريقية الوسطى، وقد انتشر فيها الإسلام تدريجياً، وقامت بعض الممالك التي بسطت نفوذها على الإمارات الصغيرة، كما كانت مملكة صنغاي تتوسّع أحياناً نحو الشرق، وتُخضع أمراء تلك الجهات لها، أو تضمّ بلادهم إليها، وأشهر هذه الممالك:

١ ـ مملكة كانم:

التي قامت في منطقة كانم شمال شرقي بحيرة تشاد، وأسستها أسرة سيف القادمة من الشمال عام ١٨٣. ودخل ملوكها في الإسلام عام ٤٨٠، وتوسّعت حتى شملت أراضي تشاد اليوم، وساعدها حكام تونس من الحفصيين، وهاجمها قوم (البلالا) عام ٧٨٩، واستمرت الحرب بين الطرفين أكثر من عشرين سنة، قُتل خلالها أربعة ملوك من كانم، وأخيراً اضطر الحكام إلى الفرار إلى منطقة بورنو في الجهة الثانية من بحيرة تشاد أو شمال شرقي دولة نيجيريا اليوم، وأسّسوا هناك مملكةً جديدةً بعد أن انتزعوا منطقة بورنو من شعب (الصاو)، واستطاع ملك بورنو (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يُهاجم (البلالا)، وأن ينتصر عليهم، وأن يعود إلى كانم، وأصبحت المنطقتان مملكةً واحدةً تحكمها أسرة سيف، وازدهرت هذه المملكة، وبلغت درجة الأوج، في عهد إدريس الثالث المعروف باسم (إدريس ألونه)، وقد حكم (٩٧٩ ـ ١٠١٣)، وهو الذي

عاصر سلطان المغرب المنصور السعدي وبايعه، وفي عهده توسّعت حدود المملكة، ولكن عمّت الفوضى بعدئذٍ، وتدهور الحكم، واستدعي الشيخ محمد الكانمي ليتولّى أمر الدولة، فأنهى حكم أسرة سيف عام ١٢٢٥، غير أن منطقة بورنو كانت قد خسرتها مملكة كانم لمصلحة الفولانيين أيام عثمان بن فودي، ولم يلبث الحكم أن ضعف بعد الشيخ محمد الأمين الكانمي، وتمكّن الأمير رابح أن يضمّ هذه المملكة إليه، كما ضم بورنو عام ١٣١٠، ثم اصطدم مع الفرنسيين الذين كانوا يُوسّعون نفوذهم شمالاً قادمين من بلاد الكونغو، وكان الأمير رابح قد اتخذ من مدينة (ديكوا) عاصمةً له، وتقع في بلاد بورنو، وهي إلى الغرب من (نجامينا) عاصمة تشاد اليوم بحدود ٢٠٠ كم.

وجّه الفرنسيون ثلاث حملات بقيادة الجنرال (لامي) الذي قُتل على أبواب مدينة (قصيري) التي انتقل إليها الأمير رابح، كما جُرح الأمير رابح في تلك المعركة، ثم توفي متأثراً بجراحه عام ١٣١٨، ودخل الفرنسيون المنطقة.

تابع فضل الله ابن الأمير رابح الجهاد، وأحرز بعض النصر على الفرنسيين، وأخيراً هزم أمامهم، وقُتل عام ١٣٢٧، واستمرت المقاومة بعده عامين، ثم قُضي عليها بعد معركة (عين جالا) عام ١٣٢٩ في شمالي تشاد، وأصبحت منطقة تشاد كلها تحت سيطرة الفرنسيين.

٢ ـ مملكة وادّاي:

تقع وادّاي في شرقي تشاد، وقد جاءت أسرة إليها تُدعى التنجور في القرن الخامس الهجري هاربةً من وجه بني هلال، وسيطرت على المنطقة، وحكمتها حتى القرن العاشر، وامتدّ حكمها إلى الشرق من منطقة وادّاي، واختلطت مع شعب الداجو الذي كان يُقيم هناك، ونشأ من هذا الاختلاط شعب جديد يُدعى الفور، الذي قوي أمره، وطرد التنجور من المنطقة الشرقية التي أصبحت تدعى دارفور، فاتجهت جماعات التنجور إلى الغرب،

واختصّت في منطقة وادّاي، وفي القرن العاشر دخلت في الإسلام، وكان أول الملوك الذين دخلوا في الإسلام عبد الكريم الذي تولّى الحكم عام ١٠٣٠، وخلفه ابنه عروة الذي أقام مدينةً جديدةً لتكون قاعدة حكمه، وأُطلق عليها اسم «وارا»، ثم انتقل مقر الحكم إلى مدينة «أبيشة» وقد خضعت لحكم الدارفور، ثم عادت فاستقلت في أواخر القرن الحادي عشر، ولم يلبث أن عاد إليها الضعف، ولكن استطاع الملك «صابون» أن يُعيد للمملكة قوتها أيام حكمه (١٢٢٠ ـ ١٢٣٠)، وخلفه أخوه محمد شريف صالح، ثم ابنه علي، وقويت الدولة، وحدثت الفرقة بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتدخّل الفرنسيون لنصرة أحد الفرقاء، ثم سيطروا على الوضع غير أن الأمير رابح قد ضمّ المنطقة إليه عام ١٢٩٩ أثناء اتجاهه نحو الغرب، وأصبحت وادّاي جزءاً من دولته.

٣ ـ مملكة باغيرمي:

وتقع في جنوبي تشاد اليوم، ووصل إليها الإسلام في القرن العاشر، وأول من أسلم من حكامها السلطان بريمي (إبراهيم)، وقويت الدولة أيام السلطان الحاج محمود الأمين الذي حكم من (١١٦٥ ـ ١٢٠٠)، وفي عهده عمّ الإسلام المنطقة، ثم خضعت إلى مملكة وادّاي عام ١٢٢١، ثم ضمّها ملك كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي إلى مملكته عام ١٢٢٧، ثم عادت فاستقلت، وقويت عام ١٢٦٥، ثم هاجمها ملك وادّاي علي عام ١٢٨٨، ثم ضمّها الأمير رابح عام ١٣١٠، وبقيت تخضع له حتى دخلها الفرنسيون عام ١٣١٨.

وكلما اتجهنا إلى الشمال كانت الممالك أصغر ولعل أشهرها مملكة (مانغا) شمال بحيرة تشاد، بل تصبح الإمارات صغيرةً إذ تسود الصحراء، وتفصل المساحات الواسعة بين الواحات، فلا تطمع الممالك بمدّ نفوذها إليها، لذلك كانت بعض الإمارات الصغيرة هي المسيطرة.

وقد وصل العثمانيون إلى شمالي تشاد، وأقاموا القلاع لهم هناك ليردّوا غارات البدو عنها، ومن هذه القلاع، (فايا) وغيرها.

بعد مقتل الأمير رابح وسيطرة الفرنسيين على أكثر أجزاء تشاد اليوم بدأت مقاومة السكان المسلمين فلجأ الفرنسيون إلى الإرهاب فجمعوا أربعمائة عالم من مختلف أنحاء البلاد، وساقوهم إلى مدينة أبيشة قاعدة واداي، وقتلوهم بالساطور عام ١٣٣٦، وعُرفت تلك المذبحة باسم مذبحة «كبكب»، ومع هذا الإرهاب لم تستطع فرنسا السيطرة على الأجزاء الشمالية إلا في عام ١٣٤٨ حيث كان السنوسيون يُقاومون السيطرة الفرنسية إذ كان لهم أكثر من مائة رباط منتشرةً في شمالي تشاد اليوم.

أما في إفريقية الوسطى فقد بدأ الإسلام ينتشر في ربوعها في القرن العاشر، ووصل إليها الدعاة السنوسيون، ومبعوثو المهدي في السودان، وكانت أجزاؤها الشمالية تخضع للممالك التي قامت في أرض تشاد، ودخل الفرنسيون إلى المنطقة عام ١٣٠٧، وعُرف الإقليم وقتذاك باسم (أو بانغي - شاري) أي باسم النهرين اللذين يرويانه، وفي عام ١٣٢٤ ضُمّ إلى منطقة تشاد، ثم أصبح في عام ١٣٢٨ جزءاً من إفريقية الاستوائية الفرنسية التي شملت أربع مناطق هي: ١ - تشاد. ٢ - أوبانغي - شاري. ٣ - الكونغو. ٤ - الغابون، واستمر ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أما منطقة النيجر فقد قامت فيها عدة إماراتٍ محلية، وكثيراً ما كانت تخضع الشمالية منها للطوارق والجنوبية منها لإمارات الهاوسا، وفي عام ٩٢١ خضعت الإمارات كلها لمملكة صنغاي، ثم عاد إليها إستقلالها مع ضعف مملكة الصنغاي، وفي ٩٩٠ خضع شمالي النيجر إلى دولة السعديين في المغرب، ثم عادت الإمارات المتنافرة إلى وضعها الأول.

وعندما بدأ الفولانيون يفدون إلى المنطقة، ويخضعون إمارات الهاوسا إليهم وخاصةً أيام عثمان دان فودي، دخلت قبيلة غرما إلى الأجزاء الشمالية من النيجر، واتفقت مع القبائل البدوية الأخرى والطوارق للوقوف في وجه الفولانيين، وتمكّنوا بزعامة الطوارق من منع الفولانيين من التقدّم نحو الشمال.

وفي عام ١٣٠٠ وصل إلى المنطقة المُقدّم الإنكليزي (دنهم) والملازم

(كلابرتن) الموفدين من قبل الحكومة البريطانية لمعرفة مجرى نهر النيجر، واتفقت بريطانيا مع فرنسا عام ١٣٠٨ لاقتسام مناطق النفوذ، فكانت منطقة النيجر من نصيب فرنسا التي تمكّنت من السيطرة على الأجزاء الجنوبية، أما الأجزاء الشمالية فقد قاومتها قبائل الطوارق، ولكن التعاون بين الدولتين الاستعماريتين قد قضى على المقاومة، واستطاعت فرنسا من السيطرة على منطقة النيجر تماماً عام ١٣٤١هـ.

وأما شمالي نيجيريا فقد انتشرت فيه إمارات الهاوسا، وهي أشبه بممالك صغيرة، وقد بدأت تظهر منذ القرن السابع، وفي هذا الوقت بالذات بدأ الإسلام ينتشر بين رعايا هذه الإمارات، وإن كان يختلف بين إمارة وأخرى، وربما تأخر في دخول بعضها على حين يكون قد عمّ بعضها الآخر، كما أنه قد بقيت الوثنية تنتشر بين أفراد بعض هذه الإمارات حتى قامت دولة الفولاني بينهم، وفي القرن السابع أيضاً بدأت قبائل الفولاني تتجه نحو الشرق وتدخل بين أفراد الهاوسا في هذه المنطقة، ويبدو أن الهاوسا مزيج من الحاميين والعرب والأحباش الذين حلّوا في هذه المنطقة، ونشأت عن حياتهم المشتركة الطويلة مجموعة الهاوسا هذه.

كانت إمارات الهاوسا سبع إمارات رئيسية، تضمّ قبائل الهاوسا، ويُطلق عليها أسماء أبناء ملكهم الذي أسس تلك الإمارات وكلها تقع على حدود نيجيريا والنيجر اليوم عدا (زاريا) التي تمتد إلى الجنوب، وهذه الإمارات هي:

١ ـ غوبير:

وهي أكثر الممالك الهاوسية اقتراباً من الصحراء أو بعداً إلى الشمال إذا تضمّ أجزاء من جنوبي النيجر، ولما كانت أرضها أكثر المناطق جدباً، لذا كان سكانها أقسى من غيرهم، وكانت مملكتهم أقوى من غيرها لذا فقد فرضت نفوذها على ما جاورها من إمارات، كما أنها خضعت لنفوذ بورنو في الشرق، ومالي وصنغاي في الغرب، وكان المسلمون يحيطون بها من

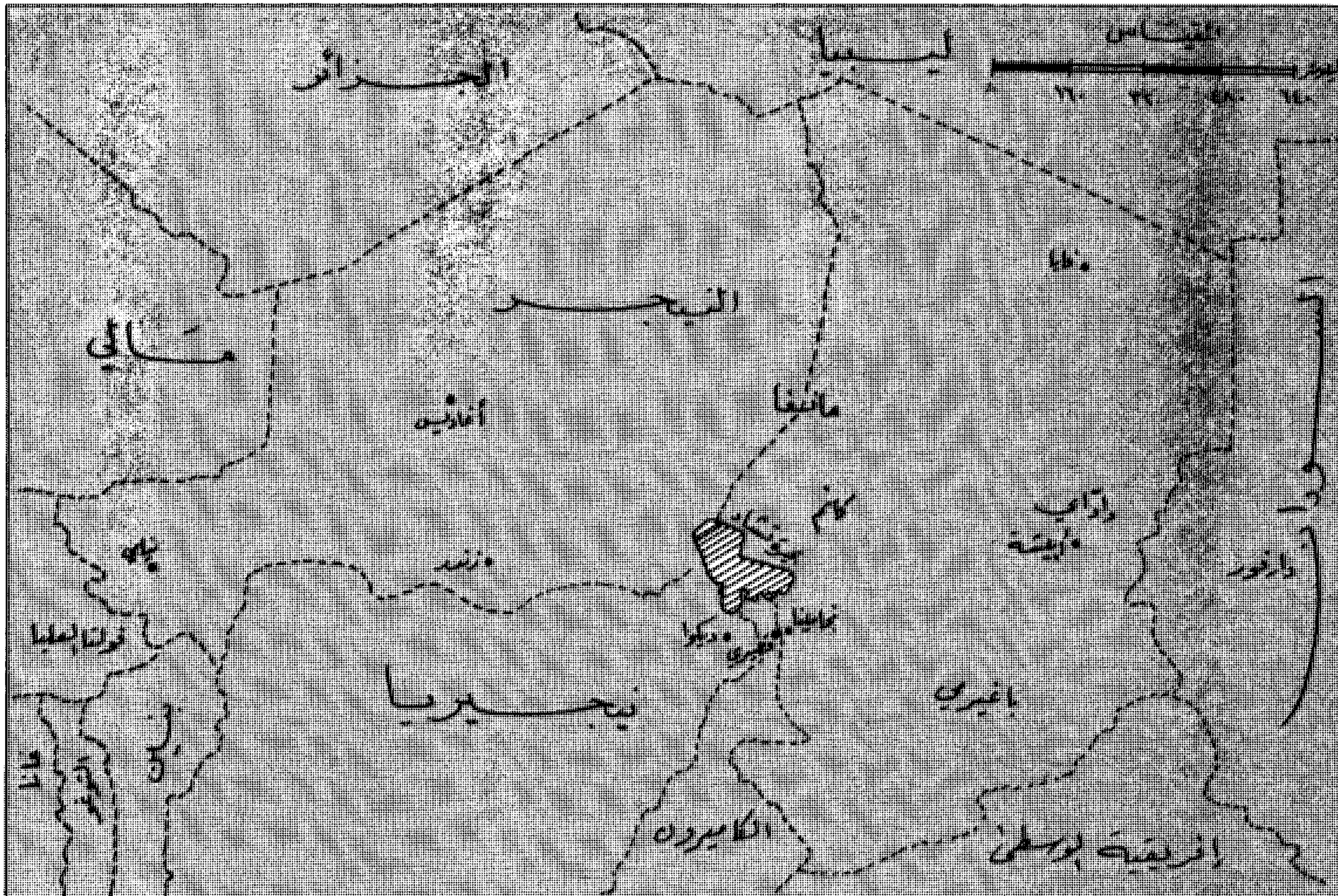

الجزائر
ليبيا
النيجر
مالي
أغاديس
زندر
نيجيريا
الكاميرون
افريقية الوسطى
باغيرمي
دارفور
كانم
فايا
فولتا العليا

مصور رقم [٤٠]

الغرب والشمال والشرق لذا فقد انتشر فيها الإسلام، سواء أكان عن طريق مملكة مالي أم صنغاي بعدها من الغرب، أم عن طريق القبائل البدوية والطوارق من الشمال، أم عن طريق برنو من الشرق، ومع ذلك فقد بقي عدد غير قليل من سكانها على الوثنية حتى قامت دولة الفولاني فعمّ الإسلام.

وفي عهد الملك باباري الذي حكم من (١١٧٦ ـ ١١٨٧) ضمّ إلى مملكته الإمارات التي كانت تتبع مملكة (كب)، كما استولى على مملكة (زامفارا)، وأسس عاصمةً جديدة اسمها (القاضاوا)، وبعد مدةٍ من حكمه أصبحت مملكة (غوبير) أقوى ممالك الهاوسا، ثم اصطدمت في عهد ملكها (باو) وخلفه (ينف) بدولة الفولانيين، وأخيراً انضوت فيها أيام عثمان بن فودي.

٢ ـ دورا:

وتقع بين كاتسينا وكانو، ولم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ إمارات الهاوسا.

٣ ـ رانو:

وهي مملكة من الدرجة الثانية أيضاً، وإن كانت قد اشتهرت بصناعة الحديد، وقد دخلت ضمن مملكة كانو، إذ لم يكتب لها القوة رغم كثرة الملوك الذين تعاقبوا على الحكم فيها.

٤ ـ زاريا:

وهي أكثر ممالك الهاوسا بُعداً نحو الجنوب، وتضمّ مساحاتٍ واسعةً بالنسبة إلى غيرها، وكانت تعرف باسم مملكة «زكزك»، وتضمّ عدداً من الأقاليم تصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، ولم ينتشر الإسلام فيها إلا بعد قيام دولة الفولانيين، وقد أخضع هذه المملكة سلطان صنغاي (أسكيا

محمد) عام ٩٢١، وبعد ضياع دولة صنغاي في القرن الحادي عشر أصبحت تجارة الرقيق أهم عنصر في هذه المملكة، ويساق إلى ساحل المحيط الأطلسي. وفي مطلع القرن الثالث عشر خضعت لدولة الفولانيين، وبدأ الإسلام ينتشر في أرجائها.

٥ ـ كتسينا:

يبدو أن هذا الاسم هو اسم زوجة مؤسس المدينة (جنزما)، ويتألف سكانها من السودان، والفولاني، والطوارق، والماندينغ، وأصبحوا جميعاً يتكلمون لغة الهاوسا، خضعت لمملكة صنغاي في عام ٩٢١، ثم نشطت فيها التجارة، وخضعت لسلطان مملكة غوبير، ووصل الإسلام إليها في وقتٍ مبكرٍ، ويعود إلى القرن الثامن الهجري، وأن ملكها الساركن محمد كوار قد أسلم على يد علماء من مالي، وأصبحت من مراكز العلم.

٦ ـ كانو:

وحكمتها في القرن التاسع الأسرة الرنفاوية، ويُعدّ أول ملوك هذه الأسرة (محمد رنفا) من أشهرهم، وقد أسّس القصور، والقلاع، والمساجد، وخلفه (محمد كزولي)، وفي عهده خضعت لمملكة صنغاي، واشتهرت بالعلم والتجارة، وفي القرن الثالث عشر خضعت لسلطان بورنو، وأخيراً تبعت سلطان الفولاني.

تنافس مملكة كانو مملكة كتسينا في العلم والسبق في الدخول في الإسلام، إذ بدأ الإسلام ينتشر فيها منذ القرن الثامن على يد علماء جاءوا من مملكة مالي.

كانت الأسرة الغوداوية تحكم مملكة كانو، وفي أيامها انتشر الإسلام، ويقال أن الملك الحادي عشر من هذه الأسرة قد اعتنق الإسلام، وهو (عثمان زمنقاوي)، وقد انتصر المسلمون على الوثنيين، وفي أيام الملك عمر انتهى عهد الأسرة الغوداوية، وجاءت الأسرة الرنفاوية، وأولها محمد رنفا ـ كما ذكرنا ـ.

٧ ـ بيرام:

وهي من ممالك الدرجة الثاية عند الهاوسا، وتسمى أيضاً (جاران جاباس)، وهو ما تعرف به الآن.

إلى جانب هذه الممالك السبعة توجد ممالك أخرى لا تضمّ الهاوسا فقط، وإنما تشمل مجموعات قد تكون متباينةً ولا يربطها أي رابط، وهي سبع ممالك أيضاً، وتقع إلى الجنوب والغرب من الأولى، فهي أقرب إلى مجرى نهر النيجر، وهي:

أ ـ كب:

وتقع بين ممالك الهاوسا والصنغاي وتشمل أجزاء من نيجيريا، والنيجر، وشمالي بنين، وفولتا العليا اليوم، وقد بقيت مستقلةً عندما خضعت إمارات الهاوسا لسلطان الصنغاي، كما أن الدولة السعدية لم تستطع دخولها بعد أن قضت على مملكة الصنغاي، ولذا فقد حالت دون وصول السعديين إلى بقية ممالك الهاوسا، وكانت على خلاف مع بقية إمارات الهاوسا، ومع مملكة بورنو أيضاً، ودخلها الإسلام عن طريق الصنغاي.

ب ـ يورب:

وتقع إلى الغرب من مجرى نهر النيجر الأدنى وحتى ساحل المحيط الأطلسي، ولم يكن لليوروبا نشاط بحري، وإنما جاء الصليبيون وسيطروا على الساحل منذ نهاية القرن التاسع الهجري، وأسس اليوروبا المدن في الداخل وأشهرها إيلورين في الشمال، وإبادان في الجنوب، وكانت العاصمة القديمة لهذه الإمارة مدينة «أويولي».

جـ ـ نوبي:

وتقع إلى الشرق من مجرى نهر النيجر الأدنى عند التقائه بنهر

(بينوي)، كما شملت جزءاً من جنوب نهر النيجر وسكانها مجموعات مختلفة، ولا يتكلمون لغة الهاوسا، واعتنق أحد ملوكها الإسلام، ويدعى جبريل، لكن غضب عليه السكان فعزلوه، وبقيت الوثنية هي الأكثر شيوعاً حتى دخلت في دولة الفولاني في مطلع القرن الثالث عشر.

د ـ زامفارا:

قامت عندما ضعفت مملكة (كب) التي تقع إلى الغرب منها، لكنها لم تلبث أن ضعفت، وضمّتها إليها مملكة غوبير، دخل الإسلام زامفارا أيام مملكة الصنغاي، وأخيراً خضعت لسلطان الفولاني، وأصبحت ضمن إقليم سوكوتو.

هـ ـ ياوري:

تقع على نهر النيجر، وهي أحدث نشأةً من غيرها من ممالك الهاوسا، وتختلف عن الهاوسا بعادات شعبها ولغته، لم تخضع لمملكة صنغاي، وبقيت على الوثنية حتى عام ٩٨٦ حيث أسلم ملكها، وعمل على نشر الإسلام، ثم جاء السلطان (سوت) فحارب الوثنية، ونشر الإسلام.

و ـ برغ:

تقع على النيجر، وإلى الغرب منه، وتضمّ أجزاء من نيجيريا وبنين اليوم، وقومها من الوثنيين، ويكثر فيهم السحر، وبقوا على ذلك حتى جاءت دولة الفولاني، وكانت قد خضعت لصنغاي، ولكن لم تنجح مع أسكيا محمد وسيلة لحملهم إلى الإسلام.

ز ـ غرم:

تشبه برغ في شعبها وعقيدته، وبقائها على الوثنية حتى حكم الفولانيون.

دولة الفولاني

تعود إلى مؤسسها عثمان بن فودي، وفودي لقب وتعني الفقيه، واسمه الحقيقي محمد، ودان تعني ابن، لذا يُقال له: عثمان دان فودي، وقد ولد في بلدة (طفل) من أطراف مملكة غوبير عام ١١٦٨، ودرس العربية والعلوم الدينية، وأسّس حركةً عرفت باسم «الجماعة»، وضمّت مجموعاتٍ من عدة ممالك، من غوبير، وكانو، وزامفارا، وكب، وكاتسينا ومن شعوب متعددة منها: الهاوسا، والفولاني، والطوارق، والزنوج، منهم من كان مسلماً بالأصل، ومنهم من دخل بالإسلام حديثاً، وبدأ الدعوة إلى الإسلام عام ١١٨٨ أي عندما كان في العشرين من عمره، ولما ناصبه مجتمعه العداء خرج عام ١٢١٨ مهاجراً إلى مكان يُدعى (قد) في أطراف مملكة غوبير، وسار معه أنصاره، وتضافر ملوك الهاوسا على محاربة (الجماعة)، وهددها ملك غوبير، وشنّ عليها الحملات، فكان لا بدّ من أن تحمي نفسها فبايعت الشيخ عثمان على السمع والطاعة في المكره والمنشط وعُرف منذ ذلك الوقت بأمير المؤمنين وذلك في عام ١٢١٩، وأتاه إلى مهجره ملك (آهير) فبقي ملكه بينما زالت ممالك غيره، وكان أكبرَ أنصاره أخوه عبد الله، وهو خليفته، وابنه محمد، وصديقه عمر الكموي.

بدأ الجهاد منذ بيعة الشيخ عام ١٢١٩، وقد تمكّن أصحاب الدعوة من دخول (القاضاوا) عاصمة غوبير عام ١٢٢٤ وذلك بعد المعركة الشهيرة التي قادها ملك غوبير (ينف) بنفسه عام ١٢١٩، وساعده بقية ممالك الهاوسا، وشنّوا حرباً على الجماعة وأنصارها في ممالكهم، وعُرفت تلك المعركة باسم معركة (كنو)، أما الجماعة فقد قادها أخو الشيخ عبد الله بن

فودي. ثم فُتحت بقية ممالك الهاوسا، كما فتحت بورنو والأداماوا[1]، واتخذ الشيخ عثمان مدينة سوكوتو قاعدةً له عام ١٢٣٠، وتوفي عام ١٢٣٢، وخلفه ابنه محمد بيلو، الذي كان عالماً ومؤلفاً، واستمرت خلافته حتى عام ١٢٥٣، وفي عهده زار المنطقة الرحالة الإنكليزي (كلابرتون) والتقى به، وتحدّث عن الأمن في البلاد، وعدل السلطان.

وضعفت الدولة بعد محمد بيلو، فكان أمير المؤمنين يُقيم في سوكوتو، وفي بقية المناطق أمراء من الفولاني، وبدأ الإنكليز يُقنعون أمراء الفولاني بقبول الحماية الإنكليزية، فوافق بعضهم فحاربت بهم إنكلترا البقية، وانتصرت عليهم، وفي عام ١٣١٨ أعلنت إنكلترا عن قيام محمية الشمال، ودخلت كانو وسوكوتو عام ١٣٢١، واحتلت بورنو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد أمراء الفولاني، ويساعدهم ضباط إنكليز.

---

(١) الأداماوا: إقليم بين بورنو شمالاً، وباغيرمي شرقاً، وإمارات الهاوسا غرباً، والكاميرون جنوباً، وبعد من الكاميرون.

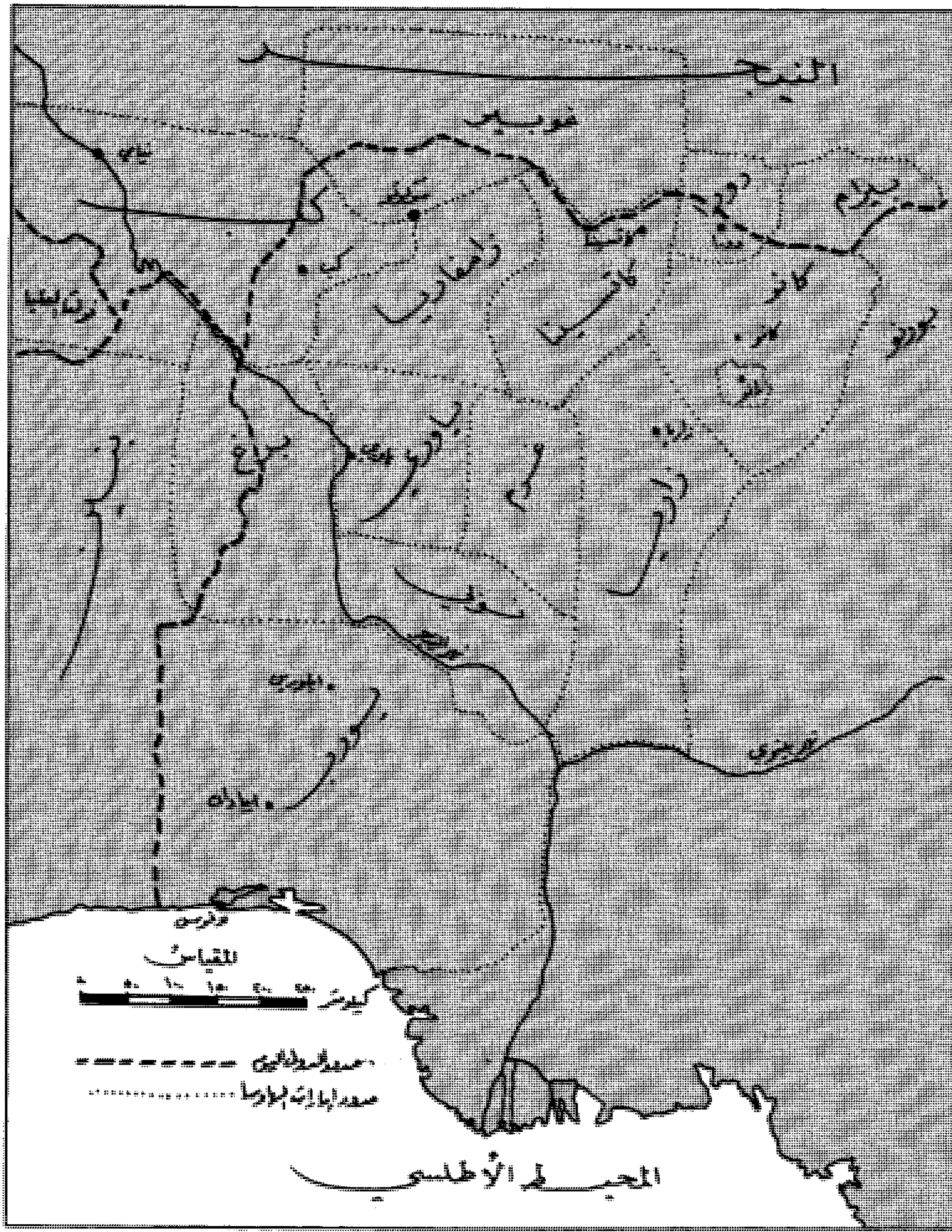
النيجر
المحيط الأطلسي
القياس
كيلومتر
حدود السودان الغربي
حدود الإمارات الحالية

مصور رقم [٤١]

الفصل الخامس

شرقي إفريقية

يمتد هذا الجزء من شمالي أريتريا حتى جنوب تانزانيا، لقد انتشر الإسلام في هذه الأرجاء في مراحل مختلفة، وقد عمّ الساحل والجُزر، ولم يتعمّق في الداخل إلا قليلاً في الصومال، لقلة السكان في الأجزاء الجنوبية، ولرداءة الأحوال المناخية، وكثافة الغابة، وانتشار الحيوانات.

ولما كانت الأجزاء الشمالية على صلة بالدولة الإسلامية، فقد ارتبطت بها، أما الأقسام الجنوبية التي تقع جنوب الصومال فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق الدعوة، ولم تكن على صلة بالدولة الإسلامية لذا فقد قامت فيها إمارات وممالك مستقلة اختلفت في اتساعها حسب الجُزر التي قامت فيها أو أجزاء الساحل التي امتد سلطانها عليها، وقد لا تشمل أحياناً إلا بعض المدن، إذ لم تكن لتتعمق في الداخل ـ كما ذكرنا ـ ولعل معظمها قام على التجارة أو كانت قواعدها مراكز تجارية مهمة، ولعل أشهرها زنجبار، ومملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع الهجري، وكانت حاضرتها مدينة «كلوه» الواقعة في جنوب تانزانيا اليوم، وقد عملت على نشر الإسلام في موزامبيق، ومالاوي، وزامبيا، وزيمبابوي، والإمارة التي قامت في جزر القمر بل نستطيع أن نقول: إن كل مدينةٍ ساحليةٍ كبيرة كانت مقرَّ إمارةٍ خاصةٍ، ولم تكن هذه الإمارات ـ مع الأسف ـ متحدةً فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفةً لا تثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين الصليبيين في تلك الجهات.

خرج البرتغاليون على هذه الإمارات من الجنوب في مطلع القرن العاشر بعد إخراج المسلمين من الأندلس، وقد استولوا على زنجبار عام ٩٠٩، وعلى كلوة عام ٩١١، وأظهر هؤلاء الصليبيون حقدهم فقتلوا السكان، وخرّبوا المدن، ونهبوا كل ما استطاعوا نهبه، وبعد أن رتعوا سنوات وقف في وجههم العثمانيون الذين جاؤوا لنزالهم، والعُمانيون اليعاربة، كما كانت إنكلترا تدعم القتال ضد البرتغاليين منافسة لها لإنكار البرتغاليين حق بقية الدول الأوربية النصرانية التي ساعدت بكل قواها الإسبان والبرتغاليين ضد المسلمين في الأندلس، كما قام الفرس بدور في هذا القتال غير أن إنكلترا والفرس كان دورهم محصوراً في منطقة الخليج، واستطاع العثمانيون أن يدخلوا الأجزاء الشمالية من شرقي إفريقية وهي أريتريا والصومال، كما تمكّنت أسرة اليعاربة التي تحكم عُمان أن تطرد البرتغاليين من بلادها حيث استطاع سلطان بن سيف الحاكم اليعربي (١٠٥٠ـ ١٠٩٠) أن ينقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما استطاع ابنه سيف (١١٠٤ ـ ١١٢٣) أن يُخلّص ممباسا في شرقي إفريقية من أيدي البرتغاليين، وبدأ نفوذ العُمانيين يتوسع في شرقي إفريقية، ويحلّ محل البرتغاليين في الأجزاء الجنوبية من شرقي إفريقية.

وانتهى حكم أسرة اليعاربة عام ١١٥٤، وجاءت الأسرة البوسعيدية إلى الحكم، فاستقل محمد بن عثمان المزروعي في شرقي إفريقية مستفيداً من انتقال الحكم من أسرةٍ إلى أسرةٍ في عُمان، لكن البوسعيديين استطاعوا ثانيةً من إعادة نفوذهم إلى شرقي إفريقية، وبعدها عاد المزروعي إلى ممباسا بعد أن فرّ من السجن، وتمكّن أن يقتل واليها سيف بن خليفة، ويعود إلى الاستقلال عن عُمان عام ١١٦٠، وتوفي أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية عام ١١٩٥، وإن كان ابنه سعيد قد تسلّم الحكم منذ عام ١١٩١، وتوفي قبل والده عام ١١٩٤، وخلفه ابنه أحمد فنازعه أعمامه، حيث سار أحدهم وهو سيف إلى شرقي إفريقية وحاصر مدينة ممباسا فاستنجد حاكمها بأحمد، فأرسل له قوةً، فاضطر سيف إلى ترك الحصار،

والاتجاه إلى مدينة لامو، وهكذا عاد البوسعيديون إلى شرقي إفريقية، إذ أصبحت ممباسا تتبع أحمد، وحكم أخوه حمد زنجبار، أما عمهما سيف فقد سيطر على (لامو)، وتركها لابنه بدر من بعده. ولكن عمهما الصغير سلطان استطاع أن يصبح سلطان مسقط على حين انحصر وضع حمد بن سعيد في نزوى، وتبع شرقي إفريقية إلى سلطان، وتوفي سلطان عام ١٢١٩. وخلفه ابنه سعيد وحدثت خلافات في عُمان لا علاقة لنا بها، والذي يهمنا أنِ سعيد توفي عام ١٢٧٣، وشرقي إفريقية يتبعه، وترك عدداً من الأولاد وقد اختلفوا على حكم ما ترك أبوهم، وحكم بينهم نائب الملك في الهند اللورد كاننغ إذ أعطى ثويني عُمان، وأخذ ماجد شرقي أفريقية، وكان هذان كبيرين أما الآخرون فكانوا صغاراً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطولاً للاستيلاء على أملاك ماجد في شرقي إفريقية وتوحيد المملكة ثانيةً، غير أن حاكم بومباي أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحد لأن الإنكليز لا يريدون توحيد المملكة إذ تصبح قويةً، ويُخشى بأسها، غير أن زنجبار كانت تدفع معونةً سنويةً لعُمان.

نقل ماجد بن سعيد حاضرة ملكه من زنجبار إلى دار السلام على الشاطئ الإفريقي رغبةً منه في التوسّع داخل قارة إفريقية إذ رأى أن المسلمين لم يتمكّنوا من مواجهة البرتغاليين، حيث كانت أملاكهم مقتصرةً على شريط من الساحل، وتُشكّل إمارات وممالك متعددة، وأن البرتغاليين لم يستفيدوا من هذا الغلط الذي وقع به المسلمون، بل ساروا على خطتهم إذ لم يتوغلوا في الداخل وللسبب نفسه لم يستطيعوا من مواجهة خصومهم من عُمانيين وعثمانيين وإنكليز، وبدأ ماجد بالتقدم نحو الداخل فوصل المسلمون إلى شواطئ بحيرة تانغانيكا، ومن هناك توسعوا في زائير، وامتدت مراكزهم هناك على مجرى نهر الكونغو، وكان للمسلمين في تلك الجهات والٍ ينفذ أوامر سلطان دار السلام على شواطئ إفريقية الشرقية.

توفي ماجد بن سعيد عام ١٢٨٧، وخلفه أخوه (برغش)، وأراد إعادة

الوحدة بين عُمان وشرقي إفريقية، وعمل على ذلك ولكنه فشل، وضعف حكمه، وازداد النفوذ الصليبي، وتقاسمت دول أوربا المنطقة فأخذت ألمانيا الأجزاء الجنونبية حتى موزامبيق المستعمرة البرتغالية أو ما عُرف باسم تنجانيقا، وأخذت انكلترا جزيرة زنجبار والأجزاء الشمالية من السواحل، أو سواحل كينيا وعُدّت تلك الشطآن محميةً إنكليزيةً، وإن كانت تلك الجهات تحت حكم السلطان (برغش) الحاكم الاسمي للمنطقة، أو كما كان يُعرف باسم سلطان زنجبار.

توفي (برغش) عام ١٣٠٦ وخلفه أخوه الآخر (سيد عبد الله خليفة بن سعيد)، وزاد ضعف دولة زنجبار في أيامه، فتقاسمت الدول سلطنته بشكل رسمي، ولما هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٦، وضعت مستعمراتها ومنها تنجانيقا تحت إشراف عصبة الأمم، ثم تقاسمها الحلفاء المنتصرون فكانت تنجانيقا تحت سيطرة إنكلترا، وبقي سيد عبد الله خليفة السلطان الصوري حتى توفي عام ١٣٨٠، وخلفه ابنه جلمشيد، وهكذا أصبح شرقي إفريقية الجنوبي تحت سيطرة إنكلترا.

أما الأجزاء الشمالية فقد تبعت الدولة العثمانية، ولكنها لم تلبث أن ضعفت الدولة فبدأت سيطرة الأمراء المحليين، وهذا ما جعل فراغاً سياسياً في المنطقة، ويمكن لكل أمير أو حاكم يقوى نفوذه أن يبسط حكمه على ما يستطيع، حتى تمكّن أمراء عسير أن يخضعوا جزر دهلك وزيلع وبربره إلى إمارتهم (١٢٤٩ ـ ١٢٧٣).

ولما رأت الدولة العثمانية ضعفها وعدم إمكانية سيطرتها على سواحل البحر الأحمر وافق الخليفة العثماني على التنازل عن هذه السواحل من سواكن إلى مضيق باب المندب إلى مصر عام ١٢٧٣، ثم تقدّمت القوات المصرية على السواحل الصومالية حتى وصلت عام ١٢٨٣ إلى رأس غاردافوي، كما توغّلت في الداخل فدخلت هرر، واضطر سلطانها محمد علي بن عبد الشكور إلى التنازل عن إمارته إلى خديوي مصر عام ١٢٩٣، وتابع بعدئذٍ الجيش المصري في تقدّمه على السواحل الصومالية نحو

الجنوب حتى تخطّى نهر جوبا، وأصبح في أملاك سلطان زنجبار الذي احتجّ على هذا التصرّف، واعترفت إنكلترا عام ١٢٩٥ بسيادة مصر على جميع الساحل الإفريقي الشرقي من السويس حتى رأس حافون.

وفي الوقت نفسه كان المصريون يتقدّمون أيضاً في وادي النيل حتى وصلوا إلى أوغندة ١٢٨٧ حيث أطلق عليها يومذاك اسم المديرية الاستوائية.

اشتعلت الحرب بين مصر والحبشة، وهُزمت مصر عام ١٢٩٦ في ثلاث معارك، وتخلّت عن بعض الأجزاء، ولما ظهر ضعف المصريين تقاسمت الدول الكبرى المنطقة فيما بينها، وأعطوا الحبشة جزءاً من تلك القسمة بصفتها دولة نصرانية، وحسب هذا التقسيم أنزلت فرنسا عام ١٢٩٩ قواتها في جيبوتي، وإيطاليا في عصب، وحدث أن احتلت إنكلترا مصر بعد حركة أحمد عرابي، وأصبحت المناطق التي كانت تحت نفوذ مصر بيدها، ودخلت فرنسا تونس وكانت إيطاليا تريد أن تضمها إليها غير أنها سبقت، وهذا ما جعل إيطاليا تتجه نحو شرقي إفريقية لتعوّض ما خسرته في تونس، ونزلت في أريتريا، وحتى تقدمت في الحبشة غير أنها هزمت فاقتصرت على أريتريا، وقامت الحركة المهدية في السودان فأمرت إنكلترا بإخلاء السودان عام ١٣٠٢ حسب مخططٍ مدروسٍ فخلت جهات شرقي إفريقية من القوات المدافعة عنها، وتصرّفت الدول الأوربية حسبما تريد في تلك الجهات، وأخذت كل دولة نصيبها المعطى لها والمتفق عليه فيما بينها، حيث أخذت إنكلترا الصومال الشمالي من رأس حافون حتى حدود جيبوتي، وأخذت فرنسا منطقة جيبوتي، وأخذت إيطاليا أريتريا والصومال الجنوبي من رأس حافون حتى جنوب مصب نهر جوبا، وأُعطيت الحبشة منطقة هرر والأوغادين، وأما ألمانيا فكان نصيبها من الأجزاء الجنوبية التي تحدثنا عنها والتي تقاسمتها مع إنكلترا.

لقد كان لهذا التقسيم أثره السيئ في نفوس مسلمي تلك المنطقة، وقام محمد بن عبد الله حسن المعروف بالملا بالجهاد والتفّ حوله

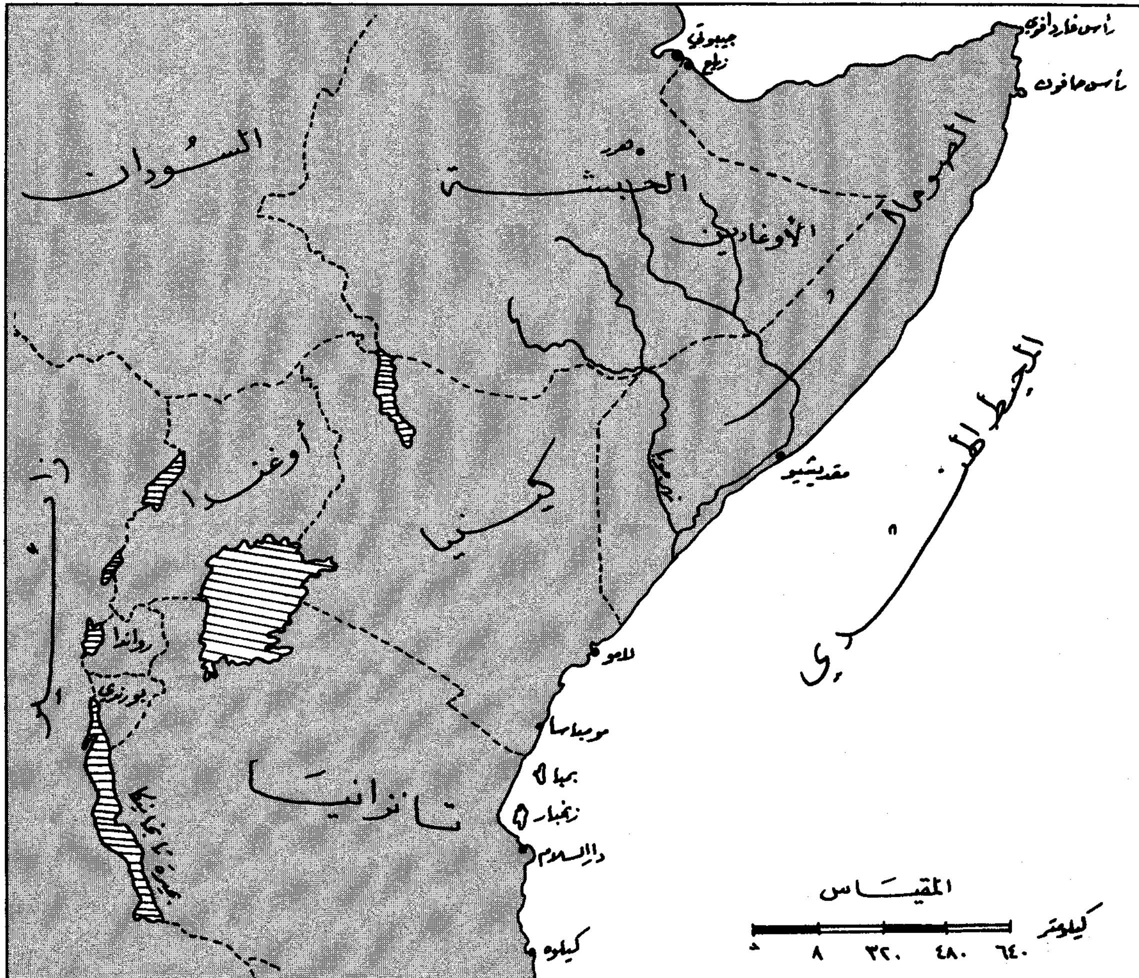
رأس غاردافوي
رأس حافون
جيبوتي
زيلع
هرر
السودان
الحبشة
الأوغادين
الصومال
المحيط الهندي
مقديشيو
كينيا
أوغندا
رواندا
بوروندي
تانزانيا
لامو
مومباسا
بمبا
زنجبار
دار السلام
كيلوه
المقياس
كيلومتر
٠ ٨ ٣٢٠ ٤٨٠ ٦٤٠

مصور رقم [٤٢]

المسلمون لطرد الصليبيين من البلاد، وبدأت هذه العملية عام ١٣١٧ يوم أعلن أنه مهدي الصومال، ونادى بالجهاد المقدس، وأُطلق على جماعته أيضاً اسم الدراويش، وقد نجح في السيطرة على الأجزاء الداخلية، وحكمها لمدة تصل إلى عشرين سنة (١٣١٧ ـ ١٣٣٧)، وحصر الإنكليز في شريطٍ ضيقٍ من الساحل، وقد جهّزوا أربع حملات للقبض عليه، ولكنها باءت بالفشل، ولكن بعدئذ عزّزت إنكلترا قواتها، وتقدّمت نحو الداخل فهُزم محمد عبد الله حسن، وجرح في بعض المعارك، واضطر إلى الفرار إلى منطقة الأوغادين لإعادة تنظيم صفوفه، غير أنه مات متأثراً بجراحه عام ١٣٣٨، واستمرت المقاومة بعده عدة أشهر، ثم سيطر الإنكليز على الجزء المخصص لهم من الصومال.

وأما إيطاليا فقد استطاعت من السيطرة على ميناء مصوع عام ١٣٠٣، وكذلك ميناء عصب في أريتريا، وبدأت بعدها تبسط نفوذها في الصومال بصورة تدريجية، وقد عقدت معاهدة حماية مع سلطاني (أوبيا) و(ميجورتين) عام ١٣٠٧، ومع ذلك فلم تتمكّن من دخول الساحل وفرض سيطرتها حتى عام ١٣٤٥ حيث جهّزت حملةً قوية أخضعته بالقوة، وكذلك فإن منطقة هرر استمرت بالثورات ضد الأحباش طيلة هذه المرحلة.

انتهى الجزء الثامن بحمد الله

ويليه الجزء التاسع بإذن الله

المراجع

- أرض الأنبياء، عبد الله فيلبي، ترجمة عمر الديراوي، المكتبة الأهلية ـ بيروت.
- بداية الحكم المغربي على السودان الغربي، محمد الغربي، وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ١٩٨٢م.
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة سعيد سليمان، دار المعارف بمصر.
- تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك. تحقيق إحسان حقي ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- تاريخ شرقي الجزيرة العربية، أحمد مصطفى حاكمة، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٨٥هـ.
- تاريخ عُمان، وندل فيليبس، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠١هـ.
- تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٩٨هـ.
- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون، محمد الهادي العامري، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.
- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثالث، جلال يحيى، النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، محمد بن عبد الله آل عبد القادر، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٨٢هـ.
- تقويم البلدان الإسلامية، إصدار مؤتمر العالم الإسلامي ـ كراتشي ـ ١٣٨٤هـ.
- تقويم العالم الإسلامي، إصدار جمعية الدراسات الإسلامية ـ القاهرة ١٣٩٠هـ.
- الحكم العثماني في اليمن، فاروق عثمان أباظة، دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

- الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية، حسن عيسى عبد الظاهر، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠١هـ.
- دليل الخليج، ج.ج. لوريمر، قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر.
- الدولة السعودية الثانية، عبد الفتاح أبو علية، مؤسسة الأنوار ـ الرياض ١٣٩٦هـ.
- ذكريات يوسف الحكيم، يوسف الحكيم، دار النهار للنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- الرجل الصنم، ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمٰن، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.
- ساحل الذهب الأسود، محمد سعيد المسلم، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٨٢هـ.
- الشعوب الإسلامية، عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣م.
- صحيح الأخبار عما ورد في بلاد العرب من الآثار، محمد بن عبد الله بن بليهد.
- صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، جورج أوغست فاين، ترجمة سمير سليم شبيلي.
- العثمانيون والقاسم محمد بن علي في اليمن، أميرة علي البداح، جدة عام ١٤٠٤هـ.
- العلاقات الحجازية المصرية، علي بن حسين السليمان، جامعة القاهرة ١٣٩٣هـ.
- علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض ١٤٠٢هـ.
- غزوات الجراكسة والأتراك في جنوبي الجزيرة (البرق اليماني في الفتح العثماني)، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي.
- فتح العثمانيون عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٣٩٩هـ.
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، سليمان بن محمد الغنام، الكتاب العربي السعودي ـ ١٤٠٠هـ.
- قسمات العالم الإسلامي، مصطفى مؤمن، دار الفتح ـ بيروت ١٣٩٤هـ.
- قلب جزيرة العرب، فؤاد حمزة، مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض.

- مذكرات سليمان شفيق الكمالي.
- المسألة التونسية، عبد الرحمٰن تشابجي، ترجمة عبد الجليل التميمي، دار الكتب الشرقية ـ تونس ١٩٧٣م.
- المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، مصطفى عبد الله بعيّو، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ١٣٩٥ هـ.
- من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، محمد أديب غالب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض.
- من تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، م.م الرمزي، المطبعة الكريمية الحسينية ـ أورنبورغ ١٣٢٥هـ.
- مواطن الشعوب الإسلامية (سلسلة كتب) محمود شاكر، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال حمزة يوسف الصيرفي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض ١٤٠٣هـ.
- هذه هي اليمن، عبد الله الثور، دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- الهند في العهد الإسلامي، عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٩٢.
- اليمن عبر التاريخ، أحمد حسين شرف الدين، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

موافقة التقويم الهجري

للتقويم «الميلادي»

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
٩٢٣	١٥١٧/١/٢٤	٩٤٥	١٥٣٨/٥/٣٠	٩٦٧	١٥٥٩/١٠/٣	٩٨٩	١٥٨١/٢/٥
٩٢٤	١٥١٨/١/١٣	٩٤٦	١٥٣٩/٥/١٩	٩٦٨	١٥٦٠/٩/٢٢	٩٩٠	١٥٨٢/١/٢٦
٩٢٥	١٥١٩/١/٣	٩٤٧	١٥٤٠/٥/٨	٩٦٩	١٥٦١/٩/١١	٩٩١	١٥٨٣/١/٢٥
٩٢٦	١٥١٩/١٢/٢٣	٩٤٨	١٥٤١/٤/٢٧	٩٧٠	١٥٦٢/٨/٣١	٩٩٢	١٥٨٤/١/١٤
٩٢٧	١٥٢٠/١٢/١٢	٩٤٩	١٥٤٢/٤/١٧	٩٧١	١٥٦٣/٨/٢١	٩٩٣	١٥٨٥/١/٣
٩٢٨	١٥٢١/١٢/١	٩٥٠	١٥٤٣/٤/٦	٩٧٢	١٥٦٤/٨/٩	٩٩٤	١٥٨٥/١٢/٢٣
٩٢٩	١٥٢٢/١١/٢٠	٩٥١	١٥٤٤/٣/٢٥	٩٧٣	١٥٦٥/٧/٢٩	٩٩٥	١٥٨٦/١٢/١٢
٩٣٠	١٥٢٣/١١/١٠	٩٥٢	١٥٤٥/٣/١٥	٩٧٤	١٥٦٦/٧/١٩	٩٩٦	١٥٨٧/١٢/٢
٩٣١	١٥٢٤/١٠/٢٩	٩٥٣	١٥٤٦/٣/٤	٩٧٥	١٥٦٧/٧/٨	٩٩٧	١٥٨٨/١١/٢٠
٩٣٢	١٥٢٥/١٠/١٨	٩٥٤	١٥٤٧/٢/٢١	٩٧٦	١٥٦٨/٦/٢٦	٩٩٨	١٥٨٩/١١/١٠
٩٣٣	١٥٢٦/١٠/٨	٩٥٥	١٥٤٨/٢/١١	٩٧٧	١٥٦٩/٦/١٦	٩٩٩	١٥٩٠/١٠/٣٠
٩٣٤	١٥٢٧/٩/٢٧	٩٥٦	١٥٤٩/١/٣٠	٩٧٨	١٥٧٠/٦/٥	١٠٠٠	١٥٩١/١٠/١٩
٩٣٥	١٥٢٨/٩/١٥	٩٥٧	١٥٥٠/١/٢٠	٩٧٩	١٥٧١/٥/٢٦	١٠٠١	١٥٩٢/١٠/٨
٩٣٦	١٥٢٩/٩/٥	٩٥٨	١٥٥١/١/٩	٩٨٠	١٥٧٢/٥/١٤	١٠٠٢	١٥٩٣/٩/٢٧
٩٣٧	١٥٣٠/٨/٢٥	٩٥٩	١٥٥١/١٢/٢٩	٩٨١	١٥٧٣/٥/٣	١٠٠٣	١٥٩٤/٩/١٦
٩٣٨	١٥٣١/٨/١٥	٩٦٠	١٥٥٢/١٢/١٨	٩٨٢	١٥٧٤/٤/٢٣	١٠٠٤	١٥٩٥/٩/٦
٩٣٩	١٥٣٢/٨/٣	٩٦١	١٥٥٣/١٢/٧	٩٨٣	١٥٧٥/٤/١٢	١٠٠٥	١٥٩٦/٨/٢٥
٩٤٠	١٥٣٣/٧/٢٣	٩٦٢	١٥٥٤/١١/٢٦	٩٨٤	١٥٧٦/٣/٣١	١٠٠٦	١٥٩٧/٨/١٤
٩٤١	١٥٣٤/٧/١٣	٩٦٣	١٥٥٥/١١/١٦	٩٨٥	١٥٧٧/٣/٢١	١٠٠٧	١٥٩٨/٨/٤
٩٤٢	١٥٣٥/٧/٢	٩٦٤	١٥٥٦/١١/٤	٩٨٦	١٥٧٨/٣/١٠	١٠٠٨	١٥٩٩/٧/٢٤
٩٤٣	١٥٣٦/٦/٢٠	٩٦٥	١٥٥٧/١٠/٢٤	٩٨٧	١٥٧٩/٢/٢٨	١٠٠٩	١٦٠٠/٧/١٣
٩٤٤	١٥٣٧/٦/١٠	٩٦٦	١٥٥٨/١٠/١٤	٩٨٨	١٥٨٠/٢/١٧	١٠١٠	١٦٠١/٧/٢

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٠١١	١٦٠٢/٦/٢١	١٠٤٠	١٦٣٠/٨/١٠	١٠٦٩	١٦٥٨/٩/٢٩	١٠٩٨	١٦٨٦/١١/١٧
١٠١٢	١٦٠٣/٦/١١	١٠٤١	١٦٣١/٧/٣٠	١٠٧٠	١٦٥٩/٩/١٨	١٠٩٩	١٦٨٧/١١/٧
١٠١٣	١٦٠٤/٥/٣٠	١٠٤٢	١٦٣٢/٧/١٩	١٠٧١	١٦٦٠/٩/٦	١١٠٠	١٦٨٨/١٠/٢٦
١٠١٤	١٦٠٥/٥/١٩	١٠٤٣	١٦٣٣/٧/٨	١٠٧٢	١٦٦١/٨/٢٧	١١٠١	١٦٨٩/١٠/١٥
١٠١٥	١٦٠٦/٥/٩	١٠٤٤	١٦٣٤/٧/٢٧	١٠٧٣	١٦٦٢/٨/١٦	١١٠٢	١٦٩٠/١٠/٥
١٠١٦	١٦٠٧/٤/٢٨	١٠٤٥	١٦٣٥/٦/١٧	١٠٧٤	١٦٦٣/٨/٥	١١٠٣	١٦٩١/١٠/٥
١٠١٧	١٦٠٨/٤/١٧	١٠٤٦	١٦٣٦/٦/٥	١٠٧٥	١٦٦٤/٧/٢٥	١١٠٤	١٦٩٢/٩/٢٤
١٠١٨	١٦٠٩/٤/٦	١٠٤٧	١٦٣٧/٥/٢٦	١٠٧٦	١٦٦٥/٧/١٤	١١٠٥	١٦٩٣/٩/٢
١٠١٩	١٦١٠/٣/٢٦	١٠٤٨	١٦٣٨/٥/١٥	١٠٧٧	١٦٦٦/٧/٤	١١٠٦	١٦٩٤/٨/٢٢
١٠٢٠	١٦١١/٣/١٦	١٠٤٩	١٦٣٩/٥/٤	١٠٧٨	١١٦٧/٦/٢٣	١١٠٧	١٦٩٥/٨/١٢
١٠٢١	١٦١٢/٣/٤	١٠٥٠	١٦٤٠/٤/٢٣	١٠٧٩	١٦٦٨/٦/١١	١١٠٨	١٦٩٦/٧/٣١
١٠٢٢	١٦١٣/٢/٢١	١٠٥١	١٦٤١/٤/١٢	١٠٨٠	١٦٦٩/٦/١	١١٠٩	١٦٩٧/٧/٢٠
١٠٢٣	١٦١٤/٢/١١	١٠٥٢	١٦٤٢/٤/١	١٠٨١	١٦٧٠/٥/٢١	١١١٠	١٦٩٨/٧/١٠
١٠٢٤	١٦١٥/١/٣١	١٠٥٣	١٦٤٣/٣/٢٢	١٠٨٢	١٦٧١/٥/١٠	١١١١	١٦٩٩/٦/٢٩
١٠٢٥	١٦١٦/١/٢٠	١٠٥٤	١٦٤٤/٣/١٠	١٠٨٣	١٦٧٢/٤/٢٩	١١١٢	١٧٠٠/٦/١٨
١٠٢٦	١٦١٧/١/٩	١٠٥٥	١٦٤٥/٢/٢٧	١٠٨٤	١٦٧٣/٤/١٨	١١١٣	١٧٠١/٦/٨
١٠٢٧	١٦١٧/١٢/٢٩	١٠٥٦	١٦٤٦/٢/١٧	١٠٨٥	١٦٧٤/٤/٧	١١١٤	١٧٠٢/٥/٢٨
١٠٢٨	١٦١٨/١٢/١٩	١٠٥٧	١٦٤٧/٢/٦	١٠٨٦	١٦٧٥/٣/٢٨	١١١٥	١٧٠٣/٥/١٧
١٠٢٩	١٦١٩/١٢/٨	١٠٥٨	١٦٤٨/١/٢٧	١٠٨٧	١٦٧٦/٣/١٦	١١١٦	١٧٠٤/٥/٦
١٠٣٠	١٦٢٠/١١/٢٦	١٠٥٩	١٦٤٩/١/١٥	١٠٨٨	١٦٧٧/٣/٦	١١١٧	١٧٠٥/٤/٢٥
١٠٣١	١٦٢١/١١/١٦	١٠٦٠	١٦٥٠/١/٤	١٠٨٩	١٦٧٨/٢/٢٣	١١١٨	١٧٠٦/٤/١٥
١٠٣٢	١٦٢٢/١١/٥	١٠٦١	١٦٥٠/١٢/٢٥	١٠٩٠	١٦٧٩/٢/١٢	١١١٩	١٧٠٧/٤/٤
١٠٣٣	١٦٢٣/١٠/٢٥	١٠٦٢	١٦٥١/١٢/١٤	١٠٩١	١٦٨٠/٢/٢	١١٢٠	١٧٠٨/٣/٢٣
١٠٣٤	١٦٢٤/١٠/١٤	١٠٦٣	١٦٥٢/١٢/٢	١٠٩٢	١٦٨١/١/٢١	١١٢١	١٧٠٩/٣/١٣
١٠٣٥	١٦٢٥/١٠/٣	١٠٦٤	١٦٥٣/١١/٢٢	١٠٩٣	١٦٨٢/١/١٠	١١٢٢	١٧١٠/٣/٢
١٠٣٦	١٦٢٦/٩/٢٢	١٠٦٥	١٦٥٤/١١/١١	١٠٩٤	١٦٨٢/١٢/٣١	١١٢٣	١٧١١/٢/١٩
١٠٣٧	١٦٢٧/٩/١٢	١٠٦٦	١٦٥٥/١٠/٣١	١٠٩٥	١٦٨٣/١٢/٢٠	١١٢٤	١٧١٢/٢/٩
١٠٣٨	١٦٢٨/٨/٣١	١٠٦٧	١٦٥٦/١٠/٢٠	١٠٩٦	١٦٨٤/١٢/٨	١١٢٥	١٧١٣/١/٢٨
١٠٣٩	١٦٢٩/٨/٢١	١٠٦٨	١٦٥٧/١٠/٩	١٠٩٧	١٦٨٥/١١/٢٨	١١٢٦	١٧١٤/١/١٧

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١١٢٧	٧/١/١٧١٥	١١٥٦	٢٥/٢/١٧٤٣	١١٨٥	١٦/٤/١٧٧١	١٢١٤	٥/٦/١٧٩٩
١١٢٨	٢٧/١٢/١٧١٥	١١٥٧	١٥/٢/١٧٤٤	١١٨٦	٤/٤/١٧٧٢	١٢١٥	٢٥/٥/١٨٠٠
١١٢٩	١٦/١٢/١٧١٦	١١٥٨	٣/٢/١٧٤٥	١١٨٧	٢٥/٣/١٧٧٣	١٢١٦	١٤/٥/١٨٠١
١١٣٠	٥/١٢/١٧١٧	١١٥٩	٢٤/١/١٧٤٦	١١٨٨	١٤/٣/١٧٧٤	١٢١٧	٤/٥/١٨٠٢
١١٣١	٢٤/١١/١٧١٨	١١٦٠	١٣/١/١٧٤٧	١١٨٩	٤/٣/١٧٧٥	١٢١٨	٢٣/٤/١٨٠٣
١١٣٢	١٤/١١/١٧١٩	١١٦١	٢/١/١٧٤٨	١١٩٠	٢١/٢/١٧٧٦	١٢١٩	١٢/٤/١٨٠٤
١١٣٣	٢/١١/١٧٢٠	١١٦٢	٢٢/١٢/١٧٤٨	١١٩١	٩/٢/١٧٧٧	١٢٢٠	١/٤/١٨٠٥
١١٣٤	٢٢/١٠/١٧٢١	١١٦٣	١١/١٢/١٧٤٩	١١٩٢	٣٠/١/١٧٧٨	١٢٢١	٢١/٣/١٨٠٦
١١٣٥	١٢/١٠/١٧٢٢	١١٦٤	٣٠/١١/١٧٥٠	١١٩٣	١٩/١/١٧٧٩	١٢٢٢	١١/٣/١٨٠٧
١١٣٦	١/١٠/١٧٢٣	١١٦٥	٢٠/١١/١٧٥١	١١٩٤	٨/١/١٧٨٠	١٢٢٣	٢٨/٢/١٨٠٨
١١٣٧	٢٠/٩/١٧٢٤	١١٦٦	٨/١١/١٧٥٢	١١٩٥	٢٨/٢/١٧٨٠	١٢٢٤	١٦/٢/١٨٠٩
١١٣٨	٩/٩/١٧٢٥	١١٦٧	٢٩/١٠/١٧٥٣	١١٩٦	١٧/١٢/١٧٨١	١٢٢٥	٦/٢/١٨١٠
١١٣٩	٢٩/٨/١٧٢٦	١١٦٨	١٨/١٠/١٧٥٤	١١٩٧	٧/١٢/١٧٨٢	١٢٢٦	٢٦/١/١٨١١
١١٤٠	١٩/٨/١٧٢٧	١١٦٩	٧/١٠/١٧٥٥	١١٩٨	٢٦/١١/١٧٨٣	١٢٢٧	١٦/١/١٨١٢
١١٤١	٧/٨/١٧٢٨	١١٧٠	٢٦/٩/١٧٥٦	١١٩٩	١٤/١١/١٧٨٤	١٢٢٨	٤/١/١٨١٣
١١٤٢	٢٧/٧/١٧٢٩	١١٧١	١٥/٩/١٧٥٧	١٢٠٠	٤/١١/١٧٨٥	١٢٢٩	٢٤/١٢/١٨١٣
١١٤٣	١٧/٧/١٧٣٠	١١٧٢	٤/٩/١٧٥٨	١٢٠١	٢٤/١٠/١٧٨٦	١٢٣٠	١٤/١٢/١٨١٤
١١٤٤	٦/٧/١٧٣١	١١٧٣	٢٥/٨/١٧٥٩	١٢٠٢	١٣/١٠/١٧٨٧	١٢٣١	٣/١٢/١٨١٥
١١٤٥	٢٤/٦/١٧٣٢	١١٧٤	١٣/٨/١٧٦٠	١٢٠٣	٢/١٠/١٧٨٨	١٢٣٢	٢١/١١/١٨١٦
١١٤٦	١٤/٦/١٧٣٣	١١٧٥	٢/٨/١٧٦١	١٢٠٤	٢١/٩/١٧٨٩	١٢٣٣	١١/١١/١٨١٧
١١٤٧	٣/٦/١٧٣٤	١١٧٦	٢٣/٧/١٧٦٢	١٢٠٥	١٠/٩/١٧٩٠	١٢٣٤	٣١/١٠/١٨١٨
١١٤٨	٢٤/٥/١٧٣٥	١١٧٧	١٢/٧/١٧٦٣	١٢٠٦	٣١/٨/١٧٩١	١٢٣٥	٢٠/١٠/١٨١٩
١١٤٩	١٢/٥/١٧٣٦	١١٧٨	١/٧/١٧٦٤	١٢٠٧	١٩/٨/١٧٩٢	١٢٣٦	٩/١٠/١٨٢٠
١١٥٠	١/٥/١٧٣٧	١١٧٩	٢٠/٦/١٧٦٥	١٢٠٨	٩/٨/١٧٩٣	١٢٣٧	٢٨/٩/١٨٢١
١١٥١	٢١/٤/١٧٣٨	١١٨٠	٩/٦/١٧٦٦	١٢٠٩	٢٩/٧/١٧٩٤	١٢٣٨	١٨/٩/١٨٢٢
١١٥٢	١٠/٤/١٧٣٩	١١٨١	٣٠/٥/١٧٦٧	١٢١٠	١٨/٧/١٧٩٥	١٢٣٩	٧/٩/١٨٢٣
١١٥٣	٢٩/٣/١٧٤٠	١١٨٢	١٨/٥/١٧٦٨	١٢١١	٧/٧/١٧٩٦	١٢٤٠	٢٦/٨/١٨٢٤
١١٥٤	١٩/٣/١٧٤١	١١٨٣	٧/٥/١٧٦٩	١٢١٢	٢٦/٦/١٧٩٧	١٢٤١	١٦/٨/١٨٢٥
١١٥٥	٨/٣/١٧٤٢	١١٨٤	٢٧/٤/١٧٧٠	١٢١٣	١٥/٦/١٧٩٨	١٢٤٢	٥/٨/١٨٢٦

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٢٤٣	١٨٢٧/٧/٢٥	١٢٦٨	١٨٥١/١٠/٢٧	١٢٩٣	١٨٧٦/١/٢٨	١٣١٨	١٩٠٠/٥/١
١٢٤٤	١٨٢٨/٧/١٤	١٢٦٩	١٨٥٢/١٠/١٥	١٢٩٤	١٨٧٧/١/١٦	١٣١٩	١٩٠١/٤/٢٠
١٢٤٥	١٨٢٩/٧/٣	١٢٧٠	١٨٥٣/١٠/٤	١٢٩٥	١٨٧٨/١/٥	١٣٢٠	١٩٠٢/٤/١٠
١٢٤٦	١٨٣٠/٦/٢٢	١٢٧١	١٨٥٤/٩/٢٤	١٢٩٦	١٨٧٨/١٢/٢٦	١٣٢١	١٩٠٣/٣/٣٠
١٢٤٧	١٨٣١/٦/١٢	١٢٧٢	١٨٥٥/٩/١٣	١٢٩٧	١٨٧٩/١٢/١٥	١٣٢٢	١٩٠٤/٣/١٨
١٢٤٨	١٨٣٢/٥/٣١	١٢٧٣	١٨٥٦/٩/١	١٢٩٨	١٨٨٠/١٢/٤	١٣٢٣	١٩٠٥/٣/٨
١٢٤٩	١٨٣٣/٥/٢١	١٢٧٤	١٨٥٧/٨/٢٢	١٢٩٩	١٨٨١/١١/٢٣	١٣٢٤	١٩٠٦/٢/٢٥
١٢٥٠	١٨٣٤/٥/١٠	١٢٧٥	١٨٥٨/٨/١١	١٣٠٠	١٨٨٢/١١/١٢	١٣٢٥	١٩٠٧/٢/١٤
١٢٥١	١٨٣٥/٤/٢٩	١٢٧٦	١٨٥٩/٧/٣١	١٣٠١	١٨٨٣/١١/٢	١٣٢٦	١٩٠٨/٢/٤
١٢٥٢	١٨٣٦/٤/١٨	١٢٧٧	١٨٦٠/٧/٢٠	١٣٠٢	١٨٨٤/١٠/٢١	١٣٢٧	١٩٠٩/١/٢٣
١٢٥٣	١٨٣٧/٤/٧	١٢٧٨	١٨٦١/٧/٩	١٣٠٣	١٨٨٥/١٠/١٠	١٣٢٨	١٩١٠/١/١٣
١٢٥٤	١٨٣٨/٣/٢٧	١٢٧٩	١٨٦٢/٦/٢٩	١٣٠٤	١٨٨٦/٩/٣٠	١٣٢٩	١٩١١/١/٢
١٢٥٥	١٨٣٩/٣/١٧	١٢٨٠	١٨٦٣/٦/١٨	١٣٠٥	١٨٨٧/٩/١٩	١٣٣٠	١٩١١/١٢/٢٢
١٢٥٦	١٨٤٠/٣/٥	١٢٨١	١٨٦٤/٦/٦	١٣٠٦	١٨٨٨/٩/٧	١٣٣١	١٩١٢/١٢/١١
١٢٥٧	١٨٤١/٢/٢٣	١٢٨٢	١٨٦٥/٥/٢٧	١٣٠٧	١٨٨٩/٨/٢٨	١٣٣٢	١٩١٣/١١/٣٠
١٢٥٨	١٨٤٢/٢/١٢	١٢٨٣	١٨٦٦/٥/١٦	١٣٠٨	١٨٩٠/٨/١٧	١٣٣٣	١٩١٤/١١/١٩
١٢٥٩	١٨٤٣/٢/١	١٢٨٤	١٨٦٧/٥/٥	١٣٠٩	١٨٩١/٨/٧	١٣٣٤	١٩١٥/١١/٩
١٢٦٠	١٨٤٤/١/٢٢	١٢٨٥	١٨٦٨/٤/٢٤	١٣١٠	١٨٩٢/٧/٢٦	١٣٣٥	١٩١٦/١٠/٢٨
١٢٦١	١٨٤٥/١/١٠	١٢٨٦	١٨٦٩/٤/١٣	١٣١١	١٨٩٣/٧/١٥	١٣٣٦	١٩١٧/١٠/١٧
١٢٦٢	١٨٤٥/١٢/٣٠	١٢٨٧	١٨٧٠/٤/٣	١٣١٢	١٨٩٤/٧/٥	١٣٣٧	١٩١٨/١٠/٧
١٢٦٣	١٨٤٦/١٢/٢٠	١٢٨٨	١٨٧١/٣/٢٣	١٣١٣	١٨٩٥/٦/٢٤	١٣٣٨	١٩١٩/٩/٢٦
١٢٦٤	١٨٤٧/١٢/٩	١٢٨٩	١٨٧٢/٣/١١	١٣١٤	١٨٩٦/٦/١٢	١٣٣٩	١٩٢٠/٩/١٥
١٢٦٥	١٨٤٨/١١/٢٧	١٢٩٠	١٨٧٣/٣/١	١٣١٥	١٨٩٧/٦/٢	١٣٤٠	١٩٢١/٩/٤
١٢٦٦	١٨٤٩/١١/١٧	١٢٩١	١٨٧٤/٢/١٨	١٣١٦	١٨٩٨/٥/٢٢	١٣٤١	١٩٢٢/٨/٢٤
١٢٦٧	١٨٥٠/١١/٦	١٢٩٢	١٨٧٥/٢/٧	١٣١٧	١٨٩٩/٥/١٢	١٣٤٢	١٩٢٣/٨/١٤

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد جاء الإسلام إلى البشرية بمفاهيم جديدة تختلف عما أَلِفته المجتمعات الجاهلية السائدة في ذلك الحين. وربما كانت بعض المفاهيم المعروفة يومذاك خيّرة اتفقت مع ما جاء به الإسلام فاستمرت في المجتمع الإسلامي على أنها من الإسلام لا أن الإسلام قد أقرّها وأبقاها، فالإسلام كامل في هديه تام في منهجه، وإذا ما اتفق مع بعض المناهج في جانبٍ من الجوانب فذلك أن النفس البشرية قد هُديت طريق الخير، وفيها نوازع للشرّ، فإذا ما انطلقت ببعض طريق الخير بحكم فطرتها كانت منسجمة مع الإسلام. وإذا ما سارت في طريق ما تنزع إليه فإنما سلكت غير سبيل الإسلام. فالاتفاق في جانبٍ ليس إقراراً من الإسلام، ولا سلوك الجاهلية لجانبٍ إسلامي. والمفاهيم الجديدة إسلامية سواء اتفقت في بعض النقاط مع غيرها أم اختلفت. فتكريم الوالدين، والحفاظ على حرمة الجار وإكرامه، وإكرام الضيف و... لم يُقرّها الإسلام لأنها كانت سائدةً في المجتمع الذي جاء فيه أو لأنها من مكارم الأخلاق، بل جاء بها، وهي من أصل تعاليمه، وقد اتفق في هذه النقاط مع بعض ما نزعت نفوس الجاهليين إلى الخير والفطرة السليمة. يتفق الإسلام مع النظام الرأسمالي في حرية الملكية وليس معنى ذلك أن الإسلام رأسمالي إذ يختلف النظامان بعد

ذلك في بقية الجوانب ويتنافران، وليس معنى ذلك أيضاً أن النظام الرأسمالي قد أخذ مبدأ الاعتراف بالملكية من الإسلام. ويتفق المنهج الإسلامي مع النظام الشيوعي في تحريم الربا وبعض نقاطٍ من حقّ مراقبة الدولة، ولا يعني هذا أن الإسلام شيوعي إذ يتناقض بعدئذ النظامان تماماً، كما أن هذا لا يعني أن الشيوعية قد أخذت تحريم الربا من الإسلام. وكذلك الوضع بالنسبة إلى الإسلام مع المجتمع الجاهلي ووجود بعض نقاط الالتقاء. وهذه نقطة أعدّها مهمةً جداً.

تمثّل المسلمون الأوائل المفاهيم الإسلامية تمثّلاً كاملاً، وطبّقوها في حياتهم، وكان سلوكهم صورةً واضحةً عنها، واستمرّ هذا طيلة أيّام النّبوة والعهد الراشدي، ثم بدأت تنحسر عن السلوك ببطءٍ تدريجيٍ حتى ضعف المسلمون وزال سلطانهم نهائياً، ولكن هذه المفاهيم بقيت معروفةً نظرياً. أمّا في العصر الحديث فقد انتهى تطبيقها في الحكم تماماً، وبقيت قائمةً عند القليل، وإن استمرت معرفتها نظرياً بين نسبةٍ من أبناء الإسلام، ولكن في الوقت نفسه ظهرت مفاهيم جديدة تُخالف الإسلام، وتبنّاها بعض أبناء الإسلام - مع الأسف - وبشكل طبيعي أعداؤهم الذين يعيشون بينهم من أبناء الأقليات وهم من غير المسلمين، وأصبح الصراع واقعاً لا محالة بين أبناء الإسلام وأعدائهم أو بالأحرى بين المفاهيم التي يحملها هؤلاء والتي يتبناها أولئك، ولكن - مع الأسف - لم يتمثّل أبناء الإسلام المفاهيم الإسلامية، ولم يُطبع سلوكهم بها كي تُعطي صورةً صادقةً عنها فيتقبّلها الناس ويُقبلون عليها، ومن ناحيةٍ أخرى، وهي الأدهى والأمرّ، فقد تمكّن الأعداء في الآونة الآخيرة وفي أشد الأوقات حاجةً إلى المنظمات الإسلامية وإلى القيادات الإسلامية الرائدة التي تتمثّل الإسلام وتحمله بصفاء تمكّنوا من احتوائها والسير بها في طريقهم المنحرف، وأعلنوا ذلك كي تسقط القيادات، وتسقط المنظمات وبالتالي تسقط المفاهيم التي يحملونها والتي لا تزال معروفةً نظرياً. لقد احتوي أكثر زعماء أكبر منظمةٍ إسلاميةٍ في المنطقة العربية، بل بقوا في جعجعةٍ دائمةٍ يُظهرون العمل للإسلام زيادةً في التمويه على شباب الإسلام والعاملين له، حتى أن أحدهم قد زعم أن الحكم

الإلحادي في بلدٍ يعمل للإسلام، ويضمّ أبناءه، ويحمي حماه، وذلك بسبب ارتباطه به، وعمل مع عددٍ من الزعماء المنتفعين جبهةً مع ذلك الحكم الملحد، فأُعيد الاعتبار لمن لفظهم الشعب، وأفتى المنتفعون بشرعية العمل مع الملحدين أو ادعوا أن بعض العلماء قد أفتى لهم بذلك زوراً وبهتاناً. وأعلن بعض المغفّلين الذين يبدو عليهم الصلاح عدم صحة مثل هذا العمل، فلما تمّ أصدر نشرةً بصحة ذلك شرعاً مقتبساً بعض النصوص الشرعية، واستشهد فيها بغير مكانها، إيهاماً للشباب ودجلاً، وهذا التصرّف سواء أكان من الأعداء أم من الأدعياء ليستمرّ الخداع، ثم تهوي المنظمات والدعاة معاً، ويصفو الجو للأعداء. وليس الاحتواء غايةً ولكنه وسيلة لأنه ستظهر منظمات جديدة، وقيادات جديدة، وستستمر الفكرة في طريقها ولكن الغاية تهديم الأفكار وفضح حامليها مع استمرارية قيادتهم والمناداة بفكرتهم رغم احتوائهم وانقيادهم لغيرهم.

قلت: إن المفاهيم الإسلامية قد سادت تطبيقاً وسلوكاً في صدر الإسلام، غير أنها قد بدأت تضمر عن ساحة التنفيذ حتى الوقت الحاضر، غير أنها بقيت معروفة نظرياً وربما أضحت كلاماً، إذ نستطيع أن نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ، كانوا يعرفون المفاهيم في التطبيق دون الحديث عنها ومن غير فلسفة في تصوّرها وعرضها، أما المسلمون اليوم فيعرفونها خطابةً وحديثاً وفلسفة أكثر مما عرفها الأوائل ولكنهم لا يُجيدون شيئاً من العمل بها، وهذه المعرفة والخطابة لا تُصرف في سوق التنفيذ، أي كلام بلا عمل. فما يقوله الأوائل نقوله غير أن كلامهم يُحوّل إلى عمل ويبقى كلامنا في الهواء، ونحن وإياهم كورقتي نقد إحداهما أصلية تُمثّل الأوائل من المسلمين والثانية مُزيّفة تمثّل رجال عصرنا، ورغم أن كلتاهما تحمل الرسوم نفسها والأشكال نفسها، يذهب حاملاها إلى سوق العملة فيصرف الأول ما يحمل، ويُقبض على الثاني لحمله ورقةً مُزوّرةً وهذا القبض هو إمكانية الاحتواء فلو كان صادقاً لصعب احتواؤه، ولكن أكثرهم يقول مُتاجراً همّه الربح فيقع في الفخ، أو هو يريد هذا.

إن هذه المفاهيم التي كانت قائمةً لا تزال معروفةً فيمكن تنفيذها

وتطبيقها ولكن نحن بحاجةٍ اليوم إلى الصدق والإخلاص في العمل كما كان هذا قائماً في السابق أو أن هذه المفاهيم يجب أن تُترجم إلى عمل. وقد اخترت عدداً من المفاهيم الإسلامية، وأعطيت فكرةً عنها، وما آلت إليه الآن، وكررت فيها بعض النقاط لا للتأكيد عليها فقط لما لها من أهمية، وإنما لتداخلها بعضها مع بعض. وألمحت إلى بعضها الآخر تلميحاً إشارةً لما فيها من المرونة. وليست هذه المفاهيم هي كل ما يجب طرحه والتأكيد عليه فلربما كانت هناك مفاهيم أخرى أكثر أهميةً، ومن الضروري بمكان توضيحها، ولفت النظر إليها، والبحث فيها، لتتثبت في النفوس أيضاً، ولكن الرغبة في الاختصار، والسرعة في الموضوع جعلني اقتصر على ما عرضت.

إن الهدف من هذا العرض التأكيد على هذه المفاهيم لتصبح بدهيةً عند المسلمين، ويسعون كي تكون يقينيةً، ويدعون إليها بحماسةٍ، ويردّون ما تسرّب إلى المجتمع من مفاهيم مستوردة لإزاحتها من مكانها، وزلزلتها من نفوس حامليها، واستبدالها بهذه المفاهيم الإسلامية.

لقد عرضت بعض هذه المفاهيم في القسم الأول من هذا الكتاب بعد أن وضعت موجزاً عن مراحل التاريخ الإسلامي.

أمّا القسم الثاني فقد عرضت فيه الدستور الذي يمكن أن تعتمد عليه الدولة الإسلامية المرتقبة بناءً على هذه المفاهيم، بناءً على اجتهادٍ مني، إذ من الضروري مناقشة الموضوع وإضافة موادٍ أو حذف بعضها وتعديل أخرى.

ونسأل الله التوفيق وسداد الخطا، والبعد عن الزيغ، وعدم التعصّب للرأي أو لجماعة، والإخلاص في العمل لله وحده، وهو نعم المولى ونعم النصير.

١٢ ربيع الأول ١٤٠٦

محمود شاكر

مُوجز عن التاريخ الإسلامي

أسّس رسول الله ﷺ، الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة، إثر وصوله مُهاجراً من مكّة المكرّمة، وقامت هذه الدولة على أسس العدل والمساواة والحبّ والإخاء، وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، يُكمل المنهج، ويُتمّ النظام الذي يجب أن يسير المسلمون على خُطاه. وعاش الناس في هناءٍ وسعادةٍ، وبدأ المسلمون بتحقيق الاستخلاف في الأرض. واستمرّت هذه المرحلة أكثر من عشر سنواتٍ انتقل بعدها رسول الله ﷺ إلى الحياة الآخرة.

العهد الراشدي ١١ ـ ٤٠:

وقامت دولة الراشدين، وسارت على ما رسمه رسول الله ﷺ، وقضت على المرتدّين، وسلكت سبيل الصلاح، وقامت الفتوحات الواسعة، وانتشر الإسلام، وقضي على الظلم والفساد في البلاد التي فتحوها، وجاءت الغنائم، وعاش الناس في بحبوحةٍ من العيش، فاستمرّت سعادتهم ودام عليهم هناؤهم، فلا شيء يحدث في المجتمع مما يُنغّص في العلاقات الإنسانية، واستمرّ هذا ما يزيد على ربع قرن. ثم لعبت السبئية دورها الماكر لتهديم الإسلام، ولم يعرف المسلمون هذا الخبث، فحدثت فتنة بقيت آثارها عدة سنواتٍ، ثم انتهت وانتهى معها العهد الراشدي.

العهد الأموي ٤١ ـ ١٣٢:

وجاء الأُمويّون، وحكم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ما يقرب من عشرين سنة عادت فيها إلى المسلمين الطمأنينة، الأمر الذي أثار

حقد الأعداء فبدأت الفتنة التي خشيها معاوية، رضي الله عنه، بعده فولّى ابنه يزيداً خلفاً له ليقي المسلمين شرّ الفتنة، فقد وجد أن أبا بكرٍ قد عهد لعمر خوفاً من الخلاف، واقتُرح على عمر ابنه عبد الله ليُولّيه للسبب نفسه فرفض، واقتُرح على عليّ أيضاً ابنه الحسن خوفاً من تفرّق المسلمين، فقال: لا آمُركم به ولا أنهاكم. ومع أن يزيداً كان قوياً شجاعاً شاعراً مرهف الحسّ إلا أنّ الفتنة كانت أكبر منه فكوته بالحديث عنه وبالإشاعة ضدّه حتى غدا ذلك هو المعروف عنه فقط، ومات في شبابه، واختار بنو أمية ابنه معاوية الثاني تهدئةً للفتنة حسب اجتهادهم لهدوئه، ولكنه لم يُفلح فلما رأى أن الفتنة مستمرةً دعا الناس إلى المسجد، وأعاد إليهم البيعة، وترك لهم الأمر شورى. ولم يكن ترك الحكم تخفيفاً للفتنة كما ظنّ بعضهم ولا يزال يظن الكثير إلى الآن، لأنّ للفتنة مُحرّكين لهم أهداف وغايات. وبويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكّة المكرّمة، وبايعه المسلمون في ديار الإسلام باستثناء البلقاء (الأردن) حيث خرج عليه مروان بن الحكم فوَسَّع نفوذه، ثم ابنه عبد الملك الذي استطاع انتزاع الخلافة، وقتل ابن الزبير، رضي الله عنه، مُستغلاً درايته بشؤون السلطان وعدم خبرة ابن الزبير. وأصبح الحكم بعدها وراثياً في بني أُميّة ظنّاً منهم أنّ في ذلك نهايةً للفتنة التي تحدث عند كل بيعة. واستقرّ الوضع وهدأت الأحوال، فقامت الفتوحات الواسعة، وتحسّنت أوضاع الناس، وعادت إليهم السعادة والهناء، واستمرّ هذا ما يقرب من خمسين سنة.

وعزّ على أعداء الإسلام أن يتمّ هذا فأشاعوا الشائعات ضدّ الأمويين، وادعوا أن الأمويين أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ ويُخالفون بذلك الإسلام، ولم يكن شيء من هذا، إذ لم يمض وقت طويل على دخول غير العرب بالإسلام حتى يتفقّهوا بالدين الأمر الذي يُخوّلهم القيادة حيث كانت القيادة لأهل العلم من ذوي الشجاعة لأنه الإمام لجنده والقاضي لهم، لذا بقيت في الغالب حتى ذلك الوقت بيد من تمرّس عليها من العرب، ومع ذلك فقد وجدت قيادات من غير العرب ممن نالوا حظًّا من الثقافة الإسلامية،

ولم يحل أحد دون استلامها، وطارق بن زياد شاهد على ذلك. ولم تكن القيادات الإدارية والعسكرية هي التي تحتلّ المركز الأول في المجتمع كما يتوهّم أصحاب الأطماع، وإنما كانت المنزلة العلمية والدينية هي التي يتمتّع أهلها بالمركز والشأن، وكان الكثير منها بيد غير العرب إن لم نقل أكثرها، غير أن بقية المؤهلات لم تتكامل فيها لتسلم المناصب العسكرية والإمرة. وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة من أصحاب رسول الله ﷺ، من كبار أهل العلم، ولكن لم يُؤهّلوا للقيادات التي تسلّمها أبو عبيد الثقفي، وعثمان بن أبي العاص، وعتبة بن فرقد وغيرهم. ولكن الواجهة أمام الناس هي الإمرة والقيادة.

وأما موضوع أخذ الجزية ممن أسلم فقد وقعت حادثة واحدة، وقع فيها خطأ في الاجتهاد فأقام الأعداء عليها الدنيا وأقعدوها، وعمّموها على كل بني أُميّة، وحدثت أيام عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فردّ عليها بعبارته الخالدة: «إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً»، وإن خلود العبارة قد خلّد الحادثة فغدت حقيقةً عامةً عند العامة وأهل الأهواء.

ولم يكن بنو أُمية أصحاب استهتار كما وصفهم الأعداء وصاغوا حولهم الأباطيل، فإن ما أشاعوه عنهم لم يقبله عقل عن رؤساء العصور المتأخّرة فكيف يقبله مؤمن عن عصر فيه الصحابة وفيه التابعون؟ عن عصرٍ قال فيه رسول الله ﷺ، أنه من خير القرون بعد قرن رسول الله ﷺ.

وأما البطش والقسوة التي ظهرت من بعض الولاة كزياد ابن أبيه وابنه عبيد الله، والحجاج بن يوسف و. . . فإن من اعتاد على الفتنة لا تردعه إلا القوة، وهؤلاء ولاة منطقةٍ واحدةٍ تعوّدت على الفوضى وإثارة الشغب، ولم يظهر البطش في ولاة منطقةٍ ثانيةٍ. وحماية الدولة لا بدّ لها من قوةٍ فلا يُثار الشغب إلا على الضعيف، ولا تضع الفتنة قرنها إلاّ في المكان الذي لا حماية فيه ولا رادع. ولا يُستهتر إلا بالمستكين. كما لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ في ديار الإسلام. وقد أُمر المسلمون بقتل الثاني إن لم يرعوِ، واجتهد أنصار الدولة الأموية أن ابن الزبير، رضي الله عنهما، هو

الخارج على الحكم، الثائر على الخلافة، وهو اجتهاد خاطئ إذ هو الخليفة الشرعي، وقد قاتلوه بناءً على اجتهادهم.

وعلى الرغم من أن أعداء بني أُميّة يطالبون أن يُخصّوا بالخلافة دون غيرهم، في حين أنهم يحملون على بني أمية استئثارهم بالسلطة، ونحن نأخذ هذا على كليهما، ونخصّ بني أمية إعطاءهم ولاية العهد لأكثر من واحدٍ ومن غير استثناء الصغير والضعيف الذي لا يقوى على تحمّل الأعباء وهو مما أضعف دولتهم وفسح المجال لتتحدّث الألسن، وتُسجّل الأقلام ما تشاء، تدفعها الأهواء.

وفي أيام الأُمويين، عُرّبت الدواوين، وشُكل المصحف، ووجد تنقيط الحرف العربي، وأُحييت الأرض الموات، وقامت الفتوحات، وعمّ الرخاء، وعاش الناس بسعادةٍ تامّةٍ وما يُغلّف هذا إلاّ ما أُشيع حول فئةٍ قليلةٍ هي الحاكمة ومع كذب هذه الشائعات فلننظر إلى المجتمع وما يسوده من هناءٍ ورخاءٍ وما أنتجه أبناؤه من فتح، ومن علم عندما كان يتوقّف الفتح وهذه إشارة السعادة ودلالتها، فالحضارة لا تنتج إلا نتيجة الأمن والاستقرار ومع الشعور بالراحة والسعادة.

ولا شك فإن الخطّ البياني للمنهج الإسلامي قد هبط قليلاً عما كان عليه أيام الراشدين، ومع ذلك فإن مخالفة أحكام الإسلام لم تكن واردةً، وإن وجدت فإنما هي على حين غفلةٍ من المسلمين، وبتكتم شديد سواء أكانت من بعض المسؤولين أم من الرعايا. فالإسلام هو الذي كان يحكم أيام الأمويين والسعادة والرخاء كان يتمتّع بهما المجتمع.

العهد العباسي ١٣٢ ـ ٦٥٦:

وقامت الدولة العباسية، واستمر تطبيق المنهج الإسلامي إن لم نقل إن الخط البياني قد ارتفع نسبياً في المرحلة الأولى على الأقل. ولما لم ينل الأعداء ما يبغون بدأ الهجوم على الدولة العباسية بشكلٍ أقوى، بل يبدو عليه التضارب نتيجة الانفعال حيث لم يحقق المخططون أو الخصوم ضالتهم.

لم تقم الدولة العباسية على أيدي الموالي، ولم تكن شعوبية، كما هو عالق في أذهان الناس. كانت الكوفة مهد الدعوة العباسية الأول وهي في المنطقة العربية وليس في المنطقة الفارسية، وكانت (مرو) المركز الثاني لا لأنها حاضرة المشرق فحسب بل للصراع القائم بين القبائل العربية من قيسيةٍ ويمانية فيها فاستُغلّ هذا الصراع، إذ وقفت اليمانية بجانب الدعوة للعباسيين، وتُشكّل أكثرية العرب هناك. وإن معظم الدعاة كانوا من العرب إضافةً إلى أن صاحب الدعوة كان عربياً فكيف قامت الدعوة على أكتاف الفرس؟ وكيف كانت شعوبية؟ والواقع أن أعداء الإسلام لما اتهموا الأمويين بالعصبية كان عليهم أن يسموا خصوم الأمويين، وهم العباسيون بالشعوبية كنقيضٍ للعصبية.

لعلّ الأعداء قد انتبهوا إلى ما في أقوالهم من مجانبةٍ للحقّ والواقع فأرادوا أن يُبرروا أقوالهم بأحداثٍ جديدةٍ دون اعترافهم بالخطإ فادّعوا أن الخلفاء، وهم من العرب عندما وجدوا سيطرة العنصر الفارسي وقفوا في وجهه، وقتلوا رؤوسه، وضربوا أمثلة بقتل أبي مسلم الخراساني، والبرامكة، وهذا اعتراف صريح بأن القوة بيد العرب فالخليفة وحده لا يضرب، ولا يُقدّم، ولا يُؤخّر ولكن الذين بجانبه كانوا هم القوة الرئيسية وهي التي نفّذت القضاء على الفرس فهي ليست منهم وإنّما من العرب، فالفرس لم يكونوا أصحاب القوة، ولم تعتمد الدولة عليهم فقط، ولم تكن شعوبية. ومن ناحيةٍ ثانية ففي الوقت الذي قضى الخلفاء على أبي مسلم الخراساني قد قضوا على عمّهم عبد الله بن علي أحد عظماء قادتهم، ومؤسسي دولتهم، فالحكم لم يعرف قريباً أو بعيداً عربياً أم غريباً بل يعرف المؤيّد والمنافس فيدعم المؤيّد ويضرب المنافس أيًا كانت جنسيته أو انتماؤه.

عاد الأعداء فناقضوا أنفسهم مرة أخرى فقالوا عندما سيطر الترك والأعاجم عامة ضعفت الدولة، وانتهى دور القوة أي أن المرحلة الأولى أو دور القوة كانت السيطرة للعناصر العربية، لا للفرس كما زعم الأعداء،

ومع أننا لا نقرّ العصبيات، ولا نعترف بها إلاّ أننا نقول: إن ما أشاعه الأعداء عن شعوبية الدولة العباسية وعن أثر الفرس غير صحيح، وإنما كان المنهج الإسلامي هو السائد، وهو ما أزعج الأعداء، فأشاعوا الشائعات، وتحدّثوا بما تناقله العامة حتى غدا عندهم يقيناً ووصل إلى أدعياء العلم عن طريق العامة.

لقد عاش المجتمع الإسلامي في سعادة في العصر العباسي الثاني، ومع توقّف الفتوحات انصرف الناس إلى العلم فأنتجوا علماً في مختلف الفنون، وكان المنهج الإسلامي هو السائد، وإن استمر هبوط خط بيانه ولكن كان نزوله ببطءٍ. وأكثر الناس سعادةً من كان بعيداً عن الساحة التي تُسلّط عليها الأضواء من الرجالات فهؤلاء تُسلّط عليهم الأضواء في الخير وفي الشرّ، ولكن في تاريخنا الإسلامي سُلّطت الأضواء على جوانب الشّر لأن الأضواء بيد الأعداء فلم يُدوّنوا إلا ما تهوى أنفسهم، وتطمع إليه أهواؤهم.

وجاء دور الضعف إلى الدولة العباسية وظهر الأعداء هنا بمظهر العصبية والمدافع عن العصبية العربية، فادّعوا أن الضعف قد حلّ في الدولة باختفاء السيادة العربية التي زعموا أنها لم تكن موجودةً في الدور الأول ولا أدري كيف جاءت وبرزت واختفت فجأةً! أو أنها اختفت من غير وجود! وحدث الضعف نتيجة سيطرة عناصر أعجمية من تُرك وبويهيين وسلاجقة ولم يكن للعرب أي دور. الواقع أن الضعف قد حلّ بالدولة ولكن لا لسيطرة عنصر من العناصر وزوال آخر، وإنما لكثرة الزعامات التي وجدت، والتي كانت تتناحر فيما بينها، وكل زعامةٍ تخرج حسب جنسية أبنائها، فالمنطقة العربية يخرج منها زعماء عرب وهو شأن كثيرٍ من البلدان التي استقلت أو انطلقت منها زعامات، والمناطق الشرقية من الدولة خرج منها زعماء من أبنائها سواء أكانوا من الأفغان أم من الفرس أم من الترك، وقد يكون من أصلٍ عربي وقد استقرّ بمنطقةٍ في المشرق عظم شأنه فخرج يريد الإمارة كالحسن بن زيد في طبرستان، ولما كانت العراق في منطقة الحدود بين بلاد العرب وبلاد الأعاجم فمن المحتمل أن يُسيطر عليها هؤلاء أو

أولئك، ولما كانت بغداد مركز الخلافة فهي محطّ الأنظار ومطمع الزعماء، ولما كانت المدنية لم تُغير من طابع أهل المشرق كثيراً، ولم تحط من عزيمتهم لذا فهو أكثر صلاحاً للقتال، وأكثر صبراً في الميدان، وقد استطاعوا من السيطرة على بغداد مجموعة إثر مجموعة فتمكن الترك من حكمها، ثم البويهيون، ثم السلاجقة على حين سيطر العرب الحمدانيون على الموصل، والبريديون على واسط.

كان مع كل صاحب نفوذٍ قوة يُقاتل بها، وهي كالقوة العسكرية إن لم تكن هي، فالحكم أصبح تناحراً بين العسكريين، والخليفة بشكلٍ طبيعي ليس له إلاّ الاسم في أفضل الحالات إذ كان يُلعب به في أغلب الأوقات. وهذا سبب الضعف الحقيقي الذي آلت إليه الدولة.

ومع كثرة أصحاب النفوذ وتناحرهم ومع امتداد سلطة أحدهم على منطقة الآخر زادت الإقطاعيات، وزاد الترف، وزاد التفاخر في الأملاك و.... الأمر الذي زاد معه الفساد، ووقعت مخالفات، فقامت حركات كردّ فعل، وكانت مارقةً من الدين كحركة الزنج والقرامطة، وما أمكن القضاء عليها إلا بالحل الإسلامي. وبقيت المفاسد عند المسلمين خفيّة وقليلة لا يمكن المجاهرة بها لذا بقي الضرر والانحراف مقصوراً على أصحابها، وظلّت بقية عناصر المجتمع بعيدةً تسير على الخطّ الإسلامي، وقد أفاد بعضهم من الناحية المادية فانصرفوا إلى العلم وقلّد ذلك الآخرون حتى ولو كانوا فقراء وقد زخرت هذه المرحلة بشتى أنواع العلوم، ومع بقاء سيطرة المنهج الإسلامي إلا أننا نستطيع أن نقول: إن الخط البياني لسير المنهج الإسلامي قد سقط درجةً أو هوى سقطةً مع بقائه ظاهراً.

إن الضعف الذي أصاب الدولة قد أطمع فيها الأعداء فجاء الصليبيون من الغرب، وأحرزوا بعض النصر، ونزل الخط البياني لسير المنهج الإسلامي درجةً أخرى، ولكن بقيت قوة المسلمين لا تُستهان، وإن كانت كامنةً، وعندما انطلقت من عقالها تحت تأثير الدعوة إلى الجهاد تمكّنت من طرد الصليبيين، لكن الفساد بقي يستشري إذ لم يلبث أن عاد الضعف من جديد.

وجاء المغول من المشرق تحت تأثير النقمة، والسلب، وتشجيع الصليبيين، غير أنهم وجدوا مقاومةً عنيفةً بسبب القوة الكامنة في الإسلام ولولا الخيانة من سكان البلاد من الشيعة لما استطاع هولاكو من دخول بغداد. وسقطت الدولة العباسية غير أن المنهج الإسلامي لا يزال يُطبّق، ولا تزال في الإسلام قوة، وإن بدأ الخط البياني للضعف ينحدر.

واستمرت هذه المرحلة مدة طويلة تقترب من خمسة قرون وربع.

العهد المملوكي ٦٥٨ ـ ٩٢٣:

وحمل المماليك في مصر المسؤولية، فأثاروا حمية الناس، ورفعوا لواء الجهاد، وتمكّنوا من وقف المد المغولي، ثم انتصروا عليهم، ونصّبوا خليفةً في القاهرة من أسرة بني العباس، كان صورةً، وهم يتصرّفون باسمه، ويحملون لقب «سلطان».

وتُعدّ هذه المرحلة من أغنى المراحل بالعلماء، وبناء المساجد، إذ كان هؤلاء المماليك يسمعون من العلماء، ويعطونهم حقّهم، ويكفي أن نعرف أثر العزّ بن عبد السلام، وابن تيمية. وكان التفاخر بينهم في عمران المساجد، وفي هذا بقاء لحفظ الذكر.

استمرّ تطبيق المنهج الإسلامي رغم المخالفات التي كانت تحدث، ولكنها في كتمانٍ شديدٍ خوفاً من أهل العلم وإقامة الحدّ، كما كانت محصورةً في فئةٍ من المماليك عندما يكون كبيرهم ضعيفاً يتحكّمون به، أو بين أُناس في مستوى متدنٍ.

واستمرت هذه المرحلة أكثر من قرنين ونصف.

العهد العثماني ٩٢٣ ـ ١٣٤٢:

وحمل العثمانيون الأمانة، وكان المستوى العلمي عندهم ضعيفاً، فما

عرفوا الخلافة قبلهم إلا وراثيةً فساروا على ذلك، فضمّوا أجزاء من ديار الإسلام تحت رعايتهم، وحموها من الوقوع بأيدي الصليبيين الذين بدؤوا يسيطرون على مناطق واسعة في قارتي إفريقية وآسيا. وهذا ما سبَّبَ حقداً زائداً عليهم من الصليبية العالمية وخاصةً من روسيا لقرابتهم من التتار الذين كانوا يحكمون روسيا، وهم من المسلمين أيضاً، ولفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وحامية المذهب الأرثوذكسي النصراني الذي يدين به الروس، ولتسلمهم المضائق حيث يحولون بين الروس والوصول إلى المياه الدافئة، ولأن وسط آسيا تقطنه قبائل تركية، وهو المجال للتوسع الروسي، كما أن دول غربي أوربا الصليبية اشتدّ حنقها على العثمانيين حيث حالوا بينهم وبين السيطرة على بلاد المسلمين، هذا إضافة إلى الحقد الصليبي على المسلمين عامةً ومنهم العثمانيون.

هذا الحقد الشديد على العثمانيين من قبل الصليبيين قد جعل حرباً مستعرةً دائمةً ضدّ الدولة العثمانية إضافةً إلى الحرب المعنوية التي شنّها الصليبيون سخريةً وهزءاً على العثمانيين وحكمهم، وقد استفادوا من ضعف الدولة العثمانية، والتأخّر العلمي في بلادها، والقوة الأوربية، والنهضة العلمية في أوربا، مع دعم الفئات النصرانية المقيمة في البلاد العثمانية والأقليات الأخرى مع من استغرب من المسلمين وقلّد النصارى، ورغب في السير على منهجهم، وهذا ما أثّر على نفسية السكان، وبدأت الهزيمة النفسية تظهر وتتسع مع الزمن، وتزداد الدولة ضعفاً، والعلم تأخّراً، وتزداد أوربا قوةً والعلم تقدّماً فيها حتى كانت الحرب العالمية الأولى فهزمت أوربا الدولة العثمانية، ودخل الصليبيون أجزاء منها بعد أن تقاسموها حتى وصلت الحالة إلى الحضيض، فساعد هذا في إلغاء الخلافة.

كان المنهج الإسلامي يُطبّق في هذه المرحلة مع جهلٍ في التطبيق، وانحرافاتٍ تزداد مع الزمن وإن كانت مخفيةً إلاّ أن المجتمع يحسّ بوقوعها، وما انتهى الحكم العثماني حتى غدت المجاهرة بها تحدث

أحياناً. ومع انتهاء هذه المرحلة انتشرت المفاهيم غير الإسلامية ودخلت في صراع معها، واستبدّ غير المسلمين بالمسلمين، وأشدّ من هذا الاستبداد استبداد من استغرب من المسلمين، وارتبط مع أعداء المسلمين، وكانت شدته قاسيةً دليلاً على بعده عن الإسلام، وعدم مهادنته لأهله، وتملّقاً لأعداء الإسلام، ومن ناحية ثانيةٍ أوكل الصليبيون غيرهم ليقوم بمهمتهم، ويروي غليلهم، ووقفوا ينتظرون ويُحرّكون الصور على شاشة العرض يُقدّمون من شاءوا، ويُنحّون من رغبوا، ويُوقفون من رأوا في مكان الانتظار كي يأتي دوره، ويدّعون بعدئذ أن الأحداث داخلية تقع بين المسلمين بعضهم مع بعض. ونكون في هذا الوقت قد انتهينا من التاريخ الإسلامي الذي كان يُطبّق فيه المنهج الإسلامي، وتسود المفاهيم الإسلامية، ودخلنا في التاريخ المعاصر حيث أبعد المنهج الإسلامي، وسادت مفاهيم غير إسلامية.

* * *

ومن هذا الموجز السريع نرى أن المنهج الإسلامي قد نُفّذ تماماً في عهد رسول الله ﷺ والعهد الراشدي، ثم بدأ الخط البياني بالهبوط تدريجياً بدءاً من العهد الأموي حتى نهاية العهد العباسي ثم زاد هبوطه أيام المماليك والعثمانيين مع بقاء تطبيقه ووجود مخالفات كانت تتم بالسرّ وفي إطار مجموعةٍ صغيرةٍ وعلى خوفٍ شديد ولا تنجو من العقوبة إن وصلت إلى يد القضاء، وهذا ما يُؤيّد التطبيق، والعمل بالشريعة.

أما أعداء الإسلام فيرون أن الإسلام لم يُطبّق إلا مدة ثلاث وعشرين سنة أيام رسول الله ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. أما ما بقي فكانت الأحكام غير نافذة، وما قصدهم إلا ليقولوا أن أحكام الإسلام غير صالحة. ويوافقهم من استغرب من المسلمين متأثراً بما كتب المستشرقون، وبما أُشيع عن الخلفاء على مدى التاريخ الإسلامي. ويمكن أن أقول: إن مجلة الأحكام الشرعية التي كانت تصدر أيام العثمانيين وحتى نهاية عهدهم، وتدوّن فيها الأحكام الشرعية مستنبطةً من الأصول والقواعد

الإسلامية الأساسية ومعتمدةً على حاشية ابن عابدين الموسوعة الفقهية على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. لدليل على تطبيق المنهج، والرغبة في ذلك، وإن كان بنسبةٍ معينةٍ.

القسم الأول

مفاهيم إسلامية

[١] الأمّة

الأُمَّة جماعة من الناس ترتبط برباط العقيدة الواحدة على مدار التاريخ، وهو الذي يجمع أبناءها بعضهم مع بعض، بغضّ النظر عن الأصل الذي ينتمون له، واللغات التي يتكلمونها، والمستوى الاجتماعي والمعاشي الذي يعيشون فيه، والمهن التي يمارسونها، وبغضّ النظر عن الزمن الذي عاش فيه أفرادها. وما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة.

فالجماعات التي اتبعت الأنبياء الذين بُعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشت بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تُؤلّف أمةً واحدةً على مدى هذا التاريخ الطويل، إذ هم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحدٍ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربّهم الذي يعبدونه واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مُستسلمون لأمر الله، مُسلّمون بما بعث، ولما قضى، اعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أُنزل إليهم من ربهم، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور... هذه الجماعة هي الأُمَّة المسلمة التي تتميّز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها.

وهذا المعنى هو الوارد في القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي يُعدّ المصدر الرئيسي للغة العربية، يقول هذا علماء اللغة جميعاً، ويقرّ بهذا العرب كلهم، سواء أكان الذين يتكلمون العربية ممن يدينون بالإسلام أم ينتمون إليه أم يخضعون لعقائد أخرى. وهذا المعنى هو الذي فهمه العرب قديماً من إسلاميين وجاهليين، وهو الذي قال به أسلافنا وفهموه، وليس هناك من مصدر بمستواه، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، يقول تعالى: ﴿ولقد ءاتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ﴿٤٨﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿٤٩﴾ وهذا ذكر مبارك أنزلنه أفأنتم له منكرون ﴿٥٠﴾ ۞ ولقد ءاتينا إبرهيم رشده من قبل وكنا به علمين ﴿٥١﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عكفون ﴿٥٢﴾ قالوا وجدنا ءاباءنا لها عبدين ﴿٥٣﴾ قال لقد كنتم أنتم وءاباؤكم في ضلل مبين ﴿٥٤﴾ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللعبين ﴿٥٥﴾ قال بل ربكم رب السموت والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشهدين ﴿٥٦﴾ وتالله لأكيدن أصنمكم بعد أن تولوا مدبرين ﴿٥٧﴾ فجعلهم جذذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴿٥٨﴾ قالوا من فعل هذا بـٔالهتنا إنه لمن الظلمين ﴿٥٩﴾ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبرهيم ﴿٦٠﴾ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴿٦١﴾ قالوا ءأنت فعلت هذا بـٔالهتنا يإبرهيم ﴿٦٢﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا فسـٔلوهم إن كانوا ينطقون ﴿٦٣﴾ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظلمون ﴿٦٤﴾ ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴿٦٥﴾ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيـٔا ولا يضركم ﴿٦٦﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴿٦٧﴾ قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فعلين ﴿٦٨﴾ قلنا ينار كوني بردا وسلما على إبرهيم ﴿٦٩﴾ وأرادوا به كيدا فجعلنهم الأخسرين ﴿٧٠﴾ ونجينه ولوطا إلى الأرض التي بركنا فيها للعلمين ﴿٧١﴾ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صلحين ﴿٧٢﴾ وجعلنهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرت وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عبدين ﴿٧٣﴾ ولوطا ءاتينه حكما وعلما ونجينه من القرية التي كانت تعمل الخبئث إنهم كانوا قوم سوء فسقين ﴿٧٤﴾ وأدخلنه في رحمتنا إنه من الصلحين ﴿٧٥﴾ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجينه وأهله من الكرب العظيم ﴿٧٦﴾ ونصرنه من القوم الذين كذبوا بـٔايتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقنهم أجمعين ﴿٧٧﴾ وداود وسليمن إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شهدين ﴿٧٨﴾ ففهمنها سليمن وكلا ءاتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فعلين ﴿٧٩﴾ وعلمنه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شكرون ﴿٨٠﴾ ولسليمن الريح

عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾»[1] هؤلاء الذين عاشوا في أزمنةٍ مُتباعدةٍ في التاريخ، وانتموا إلى أصول متعددةٍ، وتكلَّموا لغاتٍ عديدة يُكوّنون أُمّةً واحدةً لأنهم اعتقدوا عقيدةً واحدةً. وقال تعالى: «بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾»[2] أي وجدنا آباءنا على طريقةٍ وعقيدةٍ وسنسير عليها نحن أيضاً، فاقترنت الأُمّة بالعقيدة أيضاً.

ولكن ما حدث في أوربا في مطلع العصور الحديثة من تجمّع الإمارات بعضها مع بعض، وإنشاء تكتلٍ واحدٍ يضمّ إماراتٍ متعددةً بدأ الرؤساء يعملون لدمج هذه الإمارات بعضها مع بعض، وربط السكان بعضهم مع بعض ليكونوا مواطنين في دولةٍ واحدةٍ بدؤوا يُقربونهم بالأصل الواحد، واللغة الواحدة، والعادات المتشابهة فأصبحت هذه عندهم مع الزمن ولكثرة ترديدها عناصر تكوين الأمة حسب مفهومهم الخاص وطبيعتهم

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٤٨ ـ ٩٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

الخاصة، وسار على نهجهم المستغربون من المسلمين الذين درسوا في الغرب، واستهوتهم علوم الغرب، وأصبحت أيديهم تخطّ مقومات تكوين الأُمّة على النهج الذي عرفوه الأمر الذي جعل الأمّة الواحدة أمماً عدة فكان منها من اعتمد على اللغة فكانت الفارسية والعربية والتركية، ثم ظهر من اعتمد على العادات والطباع فكانت وحدات أصغر منها كالسورية والفرعونية والمغربية والأفغانية والإيرانية، وهكذا باستمرار، ومنها من اعتمد على الأرض، ومنها من اعتمد الأصل، ومنها من اعتمد على التاريخ، ومنها من بحث في الواقع الاقتصادي.

وكانت هذه المُقوّمات مع الأسف كأنّها من الحقائق المُسلّم بها إلاّ أنّه اختُلف حسب الاتجاه فأهمل أهل العصبية الدين، وقدّمه المُتديّنون كردّ فعلٍ وكل ذلك دون الرجوع إلى القرآن الكريم أساس العقيدة، ومصدر اللغة. ومن هذا المنطلق لم يكن للمسلمين شخصيتهم المُتميّزة، وأفكارهم المنطلقة من العقيدة الصحيحة، وإنّما كانت ردود فعلٍ وإضافة عوامل أو تقديم بعضها على بعض إلا أن العناصر قد اعتُمدت بجملتها، وأُلّفت فيها المُؤلّفات، وسار الناس عليها ولقّنوها أبناءهم.

لا ترتبط الأُمّة ببقعةٍ من الأرض معينةٍ، وإنما ساحة عمل الأُمّة المُسلمة الأرض كلّها، فحيثما تمكّنت من إقامة حكم الله فذلك مقرّها الأول ونقطة انبعاثها، وبعد ذلك تتوسّع دائرتها منه بالدعوة، ونشر الفكرة والجهاد حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت الفكرة لا تعمّ الأرض كلّها، ولا تحكم العالم كافةً بما أنزل الله فمُهمّة الأُمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله حتى تتمكّن من تطبيق منهج الله في الأرض قاطبةً.

ولا ترتبط الأُمّة بالأصل، فالخلاف الذي يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين مُتباينتين عنيفاً وشديداً، فلقد حدث الخلاف على أشُدّة بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم من المشركين وأفراد قبيلتهم قريش وحتّى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى

سيفان أحدهما بيد الأب والآخر بيد الابن فرّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر، وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وتنتميان إليه مهما كانت الخلافات واهيةً والأسباب بسيطةً، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلاّ وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة والذين يرتبطون بأصلٍ واحدٍ وقبيلةٍ واحدةٍ وعشيرةٍ واحدةٍ وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأُمّة باللغة إلا بمقدار ما ترتبط اللغة بالعقيدة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحد بينهم فكر خاص، وقد لا يكون ذلك، ولكن اللغة تُؤثّر فيها العقيدة فالمسلمون اليوم من غير العرب يحرصون على تعلّم العربية. ولننظر إلى التاريخ قليلاً فمنذ عصر صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتّفق مع الفرس بالمبدأ لذا حُرص على تعلم لغتهم، واستمر ذلك حتى عُرّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وفي العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في دوائر الدولة في بلاد الشام أيام انتدابها عليها ممن كان يُجيد لغتها، وكانوا ممن يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم معها بالعقيدة فقد تعلموا لغتها، وحرصوا عليها، على حين لم يفعل ذلك ممن لا يتصل بها بفكرةٍ، ولا يلتقي معها بمبدأ وهذا شأن الدول المستعمرة كلّها وفي أيّ مكانٍ حلّوا به. ولننظر اليوم إلى أكثر الخلافات القائمة في العالم فنجد أن أكثرها إنما يقوم بين جماعات تنتمي إلى أصل واحدٍ، وتتكلم لغةً واحدةً، ولكنها تختلف في العقيدة، وما يجري الآن في الفلبيين، وفطاني، وبين الهند وباكستان، وبين ارتيريا والأحباش، وداخل سوريا، وفي بلاد الأفغان، وفي أوربا بين ألمانيا الغربية والشرقية، وما كان بين كوريا الشمالية والجنوبية، وبين فيتنام الشمالية والجنوبية في آسيا إن هو إلا بسبب العقيدة ويكاد ينطبق هذا على كل ما يحدث في العالم من حروبٍ وخلافات.

ولا ترتبط الأُمّة بالتاريخ إلا بمقدار ما يتّفق مع العقيدة إذ ليس هو بأكثر ربطاً للمجتمعات من الأصل واللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأُمّة، والأُمّة مرتبطة بالعقيدة، فرجال العقيدة الذين ضحّوا من أجلها هم المثل الأعلى لخلفهم، ومن الضرورة بمكان الاقتداء بهم لدى الأجيال، ونرى أن التاريخ الإسلامي يدرّس في بلاد المسلمين جميعها وخاصة السيرة والخلفاء الراشدون ثم تاريخ بني أمية ووصول الإسلام إلى المنطقة الخاصة بالسكان الذين يُخطّطون المناهج الدراسية، وبعدها يصبح التاريخ إسلامياً أما المراحل التي تسبق تاريخ الإسلام فتكون دراسته ثانوية ولا يُهتمّ به أبداً بل لا يَأبه به الناس، فما هو الذي يربط العراقي المسلم بالسومريين والبابليين والآشوريين والكلدان؟ وما يربط السوري المسلم بالفينيقيين والآراميين؟ وما يربط المصري المسلم بتوت عنخ آمون والفراعنة؟ وما يربط ساكن الجزيرة العربية بطسم وجديس؟ ولكن الجميع يرتبطون بأبي عبيدة بن الجراح، وتتحرّك قلوبهم مع تحرّك جيوشه، وتنتظر نتيجة المعركة لتفخر بالنصر بل إن الشاب الذي يقرأ وقائع الغزوات ومعارك الصحابة ليمتلئ فخراً أثناء القراءة، ويتحمّس بالقراءة فيرفع صوته، وكأنّه هو يقود الجيش ويُشجّع المجاهدين.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والأفكار فكلّها تنبع من العقيدة، فهي تتشابه لدى أبناء الأمة الواحدة.

وأمّا ما عُرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي أو المصلحة الاقتصادية فإن ذلك لا يجمع بين المجتمعات أو بين العناصر التي تُكوّن الأُمّة، وإنّما هذا أضعف العناصر وأقلّها شأناً إذ يبقى في مستوى المصلحة يتغيّر معها، ويسير تبعاً لها ويتذبذب حسبها، وما أكثر ما تتغيّر وتتبدّل.

أما المسلمون فلا يرون سوى العقيدة جامعةً بين الشعوب، والأُمّة إنّما هي جامعة من الناس تدين بعقيدةٍ واحدةً، وهذا المعنى العربي للأُمّة الذي بيّنه القرآن الكريم، كتاب الله لعباده، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[٢] الخلافة

كان القادة والزعماء الكبار وحُكّام الدول الواسعة الأرجاء يرون من القديم أن العالم لا يتسع لأكثر من حاكمٍ واحدٍ، أو زعيم فردٍ يتسلّط على الأرض كلّها ليملأ غروره، ويُشبع أطمّاعه. فقد كان الإسكندر الكبير المقدوني يحلم بحكم العالم فقد سار شرقاً ليُحقّق ما يجول في خاطره، وانطلق غرباً ليُؤمّن ما تصبو إليه نفسه، ولكنه لم يتمكّن أن يحصل على كل ما يُريد إذ جاءه أجله المحتوم، وإن كان قد ضمّ تحت سلطانه أجزاءً واسعةً من العالم المعروفِ يومذاك، وكذا كانت أحلام قياصرة الروم وأطماع أكاسرة الفرس و. . . .

ويرى المسلمون أيضاً أن تنطلق دعوة الإسلام على كل محورٍ حتى تعمّ الدنيا، وعندها يخضع العالم لخليفةٍ واحد مع وجود حكامٍ في الأقاليم المختلفة، لهم صلاحياتهم في ولاياتهم، ويُمثّلون الخليفة فيها غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين أطماع الجاهليين ومنطلق المسلمين الذين يبنون آراءهم عليه.

إنّ ما يطمع به المتغطرسون في السيطرة على العالم ليس من ورائه إلاّ إرواء غريزة حب السيطرة، وتأمين الشهوة، وتحقيق الشهرة، والاستبداد بالسلطان، واستعباد الناس. أما الخليفة فبعيد كل البعد عن هذا لأنه مُقيّد بكتاب الله وسنة نبيه، الدستور الإلهي، الذي يحول بينه وبين هذه الأطماع، ولا يمكنه أن يدّعي ما ليس فيه أو يعدّ نفسه فوق البشر، حتى رسول الله ﷺ ـ لم يقل هذا، ـ ومعاذ الله أن يقول ـ فقد جاء في كتاب الله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[2]. وعن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيءٍ من حقّ أخيه، فلا يأخذنّه، فإنّما أقطع له قطعةً من النار»[3]. وقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه، يوم وُلي الخلافة: «أما بعد: أيّها الناس فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني...»[4].

والحاكم الجاهلي مُستبدّ لا يُراجع برأي، ولا يُخالف في موضوع، قوله قانون، وإشارته أمر، يتصرّف بما يشاء وكيفما يرغب، كل شيء في سلطانه تحت إرادته، أما الخليفة فمُقيّد بما أنزل الله وبسنة رسول الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[5]. ويقول رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[6]. ويقول أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، يوم مُبايعته: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[7].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير.

(٥) سورة المائدة: الآيتان ٤٩، ٥٠.

(٦) شرح السنة: البغوي ج١٠/ ٤٤.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير.

والحاكم الجاهلي يجعل شعبه يُسيطر على بقية الشعوب التي تتبع له، ويستعبدها، وبذلك يحصل على التأييد من شعبه، ويمكن أن نلاحظ في سيطرة الإغريق على الشعوب التي أخضعوها لهم أيام الإسكندر الكبير المقدوني، واستعباد الرومان للجماعات التي استولوا على أرضها، واستبداد الفرس بالأقوام التي ضمّوها تحت لوائهم. وحتى في العصر الحديث نُلاحظ معاملة المستعمرين للشعوب التي يحكمونها، وكيف يسوق الإنكليز، والفرنسيون، والروس، والهولنديون، والإسبان، والبرتغاليون، والبلجيك، والأمريكيون، والطليان، والألمان وكل المستعمرين سكان الشعوب المغلوب على أمرها إلى ساحات القتال لتنفيذ مُخططاتهم، وضمّ أراضٍ جديدةٍ إليهم، وإخضاع شعوب أُخرى لهم، والحصول على ثروات هم بحاجةٍ إليها على حين يحتفظون بأبنائهم بعيدين عن كل مكروه، وقد يُسلّمونهم قيادة تلك الجموع المغلوب على أمرها، وذلك لحماية شعبهم والسيطرة بأفراده على الآخرين، وقد فجّر الإنكليز حقول الألغام في معركة العلمين بالفرقة الهندية بدلاً من الكلاب التي لم تتوفّر لهم بسرعة. أما الخليفة فالشعوب التي تتبع له كلها متساوية لا فرق بين شعبٍ وآخر أو قوم وثان يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[1]. ويقول رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «إنّ ربكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى». وفي رواية أُخرى ولا لأبيض على أسود. وعندما اشتكى قبطي في مصر من واليها عمرو بن العاص وولده محمد الذي ضرب القبطي، والقبطي نصراني من شعبٍ فُتح بلده، والشكوى من الفاتح الحاكم، وقد رُفعت الشكوى إلى الخليفة، فاستقدم الخليفة واليه عمرو بن العاص وابنه محمداً. فلما جاءا وحضرا إليه، دعا القبطي المشتكي. وقال للقبطي: دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

فأخذ القبطي الدرّة وضرب محمد بن عمرو بن العاص حتى أثخنه والخليفة يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال له: أَجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال القبطي: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وضربت من ضربني.

ثم قال الخليفة: أيا عمرو! متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر، ويقول: إني لم أشعر بهذا. ثم التفت الخليفة إلى القبطي فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ[1]؟

والحاكم الجاهلي يُسخّر رعيته كلها لخدمته وتأمين مصالحه، بل ربما يتسابق الناس جميعاً، والمُقرّبون إليه لخدمته وتحقيق رغباته. أما الخليفة فيُسخّر نفسه لخدمة رعيته ويعدّ نفسه مسؤولاً عن هذه الخدمة. كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بُويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ: الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى لعمري لأحلبنّها لكم؛ وإني لأرجو ألاّ يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه. فكان يحلب لهم، وربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتُحبّين أن أرغى لك، أو أُصرّح؟ فربما قالت: ارغ، وربما قالت: صرّح؛ فأيّ ذلك قالته فعل[2]. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: رأيت عمر على قتبٍ يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ، بالنبوة، لو أن عَنَاقاً (عنزاً) ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة[3].

والحاكم الجاهلي يجلب خيرات الأقاليم التي يُسيطر عليها، وتخضع

---

(١) العقد الفريد ص٥٩، وابن الجوزي ص٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٣.

(٣) ابن الجوزي ص١٤٠.

له من غير إقليم شعبه، إلى مركز سلطته، وموطن نشأته ليعيش إقليم على حساب أقاليم، وشعب على جهود شعوب، ولعلنا نذكر كيف كانت حبوب بلاد الشام تُنقل إلى مركز الدولة الرومانية لينعم بها البيزنطيون في الوقت الذي يعيش فيه أهل الشام جياعاً، وهذه قاعدة عامة في الجاهلية، والمستعمرون في العصر الحديث اعتادوا على نقل خيرات مستعمراتهم إلى بلادهم، وترك أهالي المستعمرات يرزحون تحت وطأة الفقر والجوع والمرض. أما الخليفة فيعمل جهده لتعيش الأقاليم كلها بمستوىً معاشيٍ واحدٍ، ولا تُنقل منتجات إقليم إلى جهات أخرى إلاّ عند الضرورة، وحدوث مجاعاتٍ أو كوارث، ولا تعدّ التجارة بمنتجات بلدٍ إلى آخر من هذا النوع وإنما هي للأرباح وحدوث الرخاء بسبب وجود منتجاتٍ في منطقةٍ وحرمان أُخرى منها، مثل زيتون المنطقة المتوسطية الذي يُنقل إلى بقاعٍ ثانيةٍ، وفواكه الشام، وتوابل أندونيسيا، وأرز باكستان و. . . . وإن قيام خلافة يجعل سكان دار الإسلام جميعاً بل العالم كله عندما يسوده الإسلام في مستوى واحدٍ، حيث ينتقل الناس من مكانٍ إلى آخر للعمل حيث لا توجد تلك الحواجز القائمة الآن بين البلدان ولا الحدود التي تفصل الأقاليم بعضها عن بعض، ويبقى بعضها ثرياً مُتخماً والآخر جائعاً، ويتحكّم الأول بالثاني ويستعبده. وعندما تحدث مجاعة في بلد يتشرّد أهله ويموتون جوعاً على حين يكون الآخرون في جنّاتٍ ونعيم، وكذا عندما تحلّ كارثة أو نائبة. وقد تكثر الخيرات في جهةٍ، أو تزخر أراضيها بالثروات الدفينة والمعادن، فيصيب أهلها الترف، ولا تمدّ يد العون لجهات أخرى، أو لا يتمكن الناس في بلدان أخرى من القدوم إليها، وكانت أحوال الدول الاستعمارية هكذا تجمع لديها ثروات الدول الضعيفة بعد أن تنهبها، وتتركها تحت غائلة الحاجة. ولعلّ من ميزات النظام الإسلامي أن تعيش الشعوب التابعة له كلها في مستوىً ماديٍ واحدٍ وهو إحدى جوانب المساواة التي يمتاز بها هذا النظام.

والحاكم الجاهلي غالباً ما يصل إلى المركز الذي يحتلّه عن طريق

القوة وإراقة الدماء، أو عن طريق التعيين، والرعية في كلا الحالتين غير راضيةٍ أو تعيش بعيدةً عن المسرح، ويُفرض الأمر عليها فرضاً، ونذكر كيف قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز، ثم قتل سبعة عشر أخاً له، وملك ثمانية أشهر، وقام ابنه أردشير فقُتل، وملك شهراز فقُتل، وملكت بعده بوران بنت كسرى، وجاء بعدها من جاء، وكل يقتل سلفه سواء أكان أباً له أم سيداً، وهكذا حتى دالت دولتهم، ولم يكن وضع الروم أفضل حالاً وقد قُتل قيصر فوقاس، وتسلم الأمر قائده هرقل و. . . واستمرت هكذا حالتهم حتى زال سلطانهم، والإغريق من قبل كانوا أكثر بغياً، وأكثر خلافاً فيما بينهم، وفي العصور الحديثة تتوالى الانقلابات العكسرية في البلدان الضعيفة. وقد يتعاقب الزعماء على السلطة بالمناورات السياسية وترتيب التكتلات كما يحدث في البلدان الشيوعية. أو يحصل الزعماء على الحكم بالأساليب التي تعرف بالديموقراطية، وهي لا تقلّ فيها اللعب السياسية والتكتلات الحزبية عن غيرها، وحتى طريقة الانتخابات التي تتبعها ليست بالطريقة الحسنة، إذ تلعب فيها الأموال، والمناورات، والزعامات، والسياسات دوراً كبيراً إضافةً إلى تساوي الأصوات بين أكثر الناس غباءً وبين أنضجهم عقلاً وأوسعهم علماً. أما الخليفة فيُختار من بين مجموعةٍ يُعرفون بأهل الحلّ والعقد، أو أهل الشورى، وهم أكثر الناس علماً ودرايةً، ويقصد بالدراية الحنكة السياسية، والقوة (عدم الأخذ بالعاطفة)، ورأي الناس بهم أو ما يُعرف اليوم بالقوة الشعبية أو الرصيد الشعبي، وهم غالباً أهل العلم، والولاة، والقادة. وقد يستخلف الخليفة كما فعل الصديق وذلك بعد مشاوراتٍ، أو يختار رجالاً بأعينهم، يُسمّيهم ليتفقوا على خليفة كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

فالاستخلاف جائز، وقد استخلف أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، عمر بن الخطاب ولكن بعد أن استشار عدداً من الصحابة، وأخذ رأيهم في ابن الخطاب. ولكن الاستخلاف يجب ألا تلعب العاطفة به فيختار الخليفة ابنه أو قريبه مع جواز ذلك، إن رأى مصلحةً، فعندما أُشير على عمر بن

الخطاب أن يستخلف ابنه عبد الله، قال للمشير عليه وهو المغيرة بن شعبة: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ولا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد، ويُسأل عن أمر أمة محمدٍ ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد،[1]. أما عن الاستخلاف فقد قال: إن الله حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنّ لي، إن لم أستخلف فإنّ رسول الله ﷺ، لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر. وذلك عندما طلب منه ابنه عبد الله. وأمّا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد قال عندما سألوه عن تولية ابنه الحسن بعده: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. وربما لأن الصحابة الذين هم بمنزلة الحسن، رضي الله عنه، قليلون - إن وجدوا - فاختلف الأمر عما كان عليه أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من كثرة الصحابة والمُبشّرين بالجنّة. وأمّا مُعاوية بن أبي سفيان فقد استخلف ابنه يزيداً إذ رأى في ذلك مصلحةً، مع وجود عددٍ من الصحابة، ومن هم أفضل من يزيد بكثير، غير أن الخلافات التي دبّت في المجتمع الإسلامي وخوف مُعاوية، رضي الله عنه، من أن تقع هذه الخلافات بين الصحابة أمثال: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، والحسين بن علي، فيزداد الخلاف بين المسلمين، ويقع هؤلاء الصحابة في أوحال الدنيا، لذا رأى الخليفة أن من المصلحة استخلاف ابنه يزيد. وإذا أصبح الاستخلاف بعد ذلك قاعدة بحكم العاطفة والمحافظة على السلطان فالأمر غير صحيح ولكن بعد أخذ البيعة - إن كانت بالرضا - وموافقة المسلمين تُصبح الخلافة صحيحةً، وعلى هذا اعتمد الأمويون، والعباسيون، والعثمانيون.

ولم يُفكّر المسلمون الأوائل بأنّ الخلافة غُنم، ورأينا ذلك في قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، للمغيرة بن شعبة عندما أشار عليه

---

(١) تاريخ الطبري.

باستخلاف ابنه عبد الله بن عمر. كما لم يُفكّر المسلمون في الصدر الأول بالمغالبة على الخلافة، فعندما قال خالد بن سعيد لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن! أَغُلبتم يا بني عبد مناف عن الإمرة؟ قال له علي: أمُغالبة تراها أم خلافة؟.

وخشي المسلمون الأوائل من طموح بعض القادة، وحبّ جندهم لهم أو باصطلاح اليوم خاف المسلمون من السيطرة العسكرية، وتحكمّها، وفرض بعض آرائها على الخلافة، ولعلّ في عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عن قيادة جند الشام أثراً واضحاً في هذا الجانب. ومن هذا المنطلق إذا قام آخر وادعى الخلافة فإنه يُقتل، ويقول رسول الله ﷺ في حديث طويل: «فإن جاء آخر يُنازعه فاضربوا عنق الآخر»[1]. وفي صدر الإسلام بويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فثار في وجهه مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، حتى انتزع عبد الملك الخلافة من عبد الله بن الزبير وبويع بعدها، فأصبح خليفةً بعد عبد الله بن الزبير، أما قبل ذلك فيُعدّ ابن الزبير هو الخليفة الشرعي، ومروان وابنه عبد الملك مُتمرّدين، ولكن الناس اليوم يفهمون عكس ذلك أن الخلافة لمروان وابنه عبد الملك. وأنّ ابن الزبير مُتمّرد عليهما، وتمكّن عبد الملك من القضاء عليه، ويأتي هذا الغلط بسبب أن الحكم كان في أسرة بني أمية، ويُعدّ ابن الزبير شاذاً بين أفرادها. أما تعدد الخلفاء فيما بعد فلا يعتدّ به لضعف الدولة والتخلّي عن بعض أسس المنهج الإسلامي.

وأما شروط الخلافة فهي الإسلام، والعقل، والبلوغ، وسلامة الحواس، والعلم، ولا شكَ أنّ القوّة تدخل ضمن هذه الشروط وإن لم تُذكر، إذ أن هناك عدداً من الرجال يكونون على درجةٍ من الصلاح والتقوى، ولكن لا يصلُحون لقيادة الأمّة لضعفٍ أو سرعةٍ في التصديق، أو عدم معرفة في حيل الناس، والمناورات السياسية، أو يُمكن خداعهم.

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

وعندما سأل أبو ذر رسول الله ﷺ الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك لضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزيّ وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»(١). أما شرط أن يكون من قريش، وقول رسول الله ﷺ: «الأمراء من قريش»(٢)، فإنّ العرب في صدر الإسلام لا تعرف هذا الأمر إلا في قريش التي تسكن بجوار بيت الله وتحميه، وموطنها مقرّ التقاء العرب حيث تحجّ القبائل كلها إلى مكة المكرمة، وقريش أوسط العرب نسباً ورسول الله ﷺ منها، وأنه صاحب هذا الدين، وعليه أُنزل كتاب الله، وقد بلّغه للناس، وأدّى الأمانة، ونصح للأمّة، فيصعُب للعرب أن تقرّ لغير هذا البيت، وهذا ما استشهد به المهاجرون يوم بيعة الصديق، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة. غير أن العرب عامةً، ومنها قريش، قد خرجت من جزيرة العرب للفتح، واستقرّ كثير من القبائل في المواطن التي اتجهت إليها، وبذلك توزّعت العرب وتشتت أمرها، وقطن عدد من أفراد قريش في جهاتٍ متعددة بل في كل البلدان التي فُتحت، فالأمويون استقروا في الشام، ثم انتقل عدد منهم إلى الأندلس بعد سقوط دولتهم في دمشق، كما سار عدد منهم إلى نواحٍ متفرقةٍ من إفريقية. واستوطنت أعداد من آل البيت في العراق عند قيام دولة بني العباس، وتحرّكت مجموعات منهم إلى طبرستان والمغرب وأواسط إفريقية إثر حركة محمد ذي النفس الزكية في المدينة عام ١٤٥، وبعد معركة فخ أيضاً عام ١٦٩، وهكذا توزّعت قريش بل آل البيت في جهاتٍ نائيةٍ متعددةٍ من العالم المعروف يومذاك. ونعلم أن الذين عاشوا في المدن لم يلبثوا بعد مدةٍ أن نسوا نسبهم نتيجة الحياة المدنية وهذا ما نعرفه ونلاحظه اليوم. بل إن جماعاتٍ كثيرة انتسبت إلى العرب، وإلى قريشٍ خاصةً بل وإلى آل البيت من البلدان المفتوحة من الذين دانوا بالإسلام حبّاً برسول الله ﷺ والعرب، ووضعوا شجرات نسبٍ لهم تبيّن هذا الانتساب، وقد كثرت هذه الشجرات في العالم الإسلامي

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري وأحمد.

حتى لم يعد المرء يستطيع أن يعرف الصحيح من غيره من شجرات النسب هذه. من هذا، ومن مبدأ المساواة الذي دعا إليه الإسلام ومن عدم التمييز بين الشعوب، والجماعات، والقبائل، والألوان إلاّ بالتقوى نستطيع أن نعتمد حديث رسول الله ﷺ: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»[1]. وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله»[2]، وهذا ما استند عليه العثمانيون، وهو سند صحيح، ويمكن أن يقوم بالخلافة أيّ إنسانٍ توفّرت فيه شروط الخلافة مهما كان نسبه أو لونه...

أمّا مدّة الخليفة فغير مُحدّدة، ولا ينقض البيعة له إلا الوفاة، أو الجنون، أو الكفر البواح، أو العجز عن القيام بأعباء الخلافة، أو وجود حائل يحول دون ذلك، وإن كان في تحديد العجز مرونة إلاّ أنّ الخليفة الذي أوكلت إليه الأُمّة هذه المهمّة فهو غير حريص على التمسّك بها فما أن يشعر بالعجز حتى يُعلن ذلك. وهذا هو الأمر السليم غير أن الخلفية التي عندنا عن ضعفاء الخلفاء والمتأخرين منهم يجعلنا نتصور التمسّك بالخلافة، أو بالأحرى التمسّك بالحكم. وأمر تحديد مدة الخلافة غير واردٍ للهزّات الاجتماعية والسياسية التي تصيب الدول التي تجري فيها الانتخابات، وهذا ما نراه في عالمنا الحاضر. وعندما نُحدّد مدة الخليفة فإننا نحرم الأُمّة من الخبرة التي اكتسبها أو نحرمها من أيام قوته ونشاطه أو من أوقات نضجه الفكري وحنكته. هذا بالإضافة إلى صعوبة تغير سياسة الدولة بين خليفةٍ وآخر، وصحيح أن سياسة الدولة أو سياسة الأمّة لا تتغير أبداً على مرّ السنوات، ما دامت قائمةً على خطٍ واضح كل الوضوح فليس هناك من لبسٍ في الإسلام، أو خداعٍ ومكرٍ وتضليلٍ ـ كما يحدث في السياسة اليوم ـ غير أن هناك اختلافاتٍ فردية بين شخصٍ وآخر ولا بدّ أن

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري.

يظهر هذا على السياسة مهما حاولنا التقريب، فالخلفاء الراشدون، وهم من أفضل الأمّة بعد رسولهم الكريم، ومن تربية مدرسة النبوة، وعلى منهج واحدٍ، وعلى درجةٍ تكاد تكون واحدةً في التطبيق ومع ذلك نجد بعض الفروق العامة في السياسة، فأبو بكرٍ يستشير ويُقرّر، وعمر يستشير ويُنفّذ. عمر يطلب من الصحابة عدم مغادرة المدينة، ويعدّ جهادهم مع رسول الله ﷺ كافياً لجهادهم، وعثمان يسمح لهم بالمغادرة، وعلي يصحبهم ويُولّيهم. عمر يُقدّم الصحابة في الولاية، وعثمان يختار القوي الأمين بغضّ النظر عن الصحبة، وعلي يُكلّف الأقوياء ويُحاسبهم. أبو بكر يضع آل البيت في موضعهم على سنة رسول الله ﷺ، وعمر يُقدّم آل البيت ويُرتّب الناس بعدهم حسب الصحبة والغزوات أهل بدر ـ المسلمون قبل فتح مكة ـ بعد الفتح و.... وهكذا وُجدت بعض الاختلافات الفردية البسيطة أيام الراشدين، وهم الراشدون، فكيف غيرهم إذا تعاقب الخلفاء بين مدةٍ وجيزةٍ وأخرى؟. وأخيراً فإن الخلفاء الراشدين وهم قُدوة الأُمّة، وتُؤخذ أعمالهم كقواعد يُسار على نهجها، فلم تُحدّد مُدّة خليفةٍ، وإنّما استمرت حتى الوفاة، واستمر الخلفاء بعد ذلك على هذا المنهج مقتدين بذلك، غير أنه لم يُقس على تصرّفات الخلفاء بعد الراشدين، ولكنهم اتبعوا ولم يبتدعوا لم يشذّ عنهم سوى معاوية بن يزيد الذي تنازل عن الخلافة لعجزٍ وجده في نفسه، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يشاءون وهذا منهج سليم، فإذا وصلنا إلى وقت الضعف حيث غدا الخلفاء يُخلعون، ويُمثّل بهم فهذا وقت ـ كما ذكرنا ـ لا يُعتدّ به لخروجه عن المنهج الإسلامي السليم، وذلك بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

[٣] الإنسان الفرد

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، حُسن في تركيبه، وحُسن في تقويمه، وحُسن في تعديله، وفي هذا فضل من الله كبير على هذه العناية، وهذا يُشير إلى أنّ له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود. وتتجلّى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب[1]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2].

وتُريد المشيئة العليا أن تُسلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتُطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىً وطاقاتٍ، وكنوزٍ وخاماتٍ، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلّها الله إليه[3].

ولقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثيرٍ من خلقه. كرّمه بخلقه على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان. وكرّمه بعقله الذي يستعمله في اكتشاف ما خفي عنه، وإعمار الأرض واستثمار خيراتها، والتمييز بين الخير والشرّ، والحق والباطل، فيسلك الطريق المستقيم، ويبتعد عن كل ما فيه من سوءٍ يتوقعه.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) في ظلال القرآن.

وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها في فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يُغيّر فيها ويُبدّل، ويُنتج فيها ويُنشئ، ويُركّب فيها ويُحلّل، ويبلغ بها الكمال المُقدّر للحياة.

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك. وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويُعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان. وكرّمه بإعلان هذا التكريم كلّه في كتابه المُنزّل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض... القرآن....[1] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[3].

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله. وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

هذا الإنسان المكرّم عند الله، والمعتنى به من الله، والمفضّل في الأرض والتي هي مُسخّرة له، ومُهيّئة له للعمل فيها، يجب تكريمه وحفظ حياته فهو اللبنة الأولى في المجتمع العالمي، وكان قتله جريمةً كبرى تُعدّ قتل البشر جميعاً، والعمل على إحيائه وإنقاذه من الموت إن تعرّض له ويُعدّ ذلك إحياءً للناس جميعاً، يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[١]. وعن سعيد بن العاص عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يُصب دماً حراماً» قال: وقال ابن عمر: «إنّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلّه»[٢].

ومن قتل مؤمناً مُتعمّداً فعقوبته القتل، وفي الآخرة جزاؤه جهنم، وأما الذي يقتل خطأً فجريمته خفيفةً نسبياً، ويمكن أن تُفتدى بالمال لأن الأمر قد وقع خطأً، ورُفع الخطأ عن المسلم لقوله ﷺ: «إنّ الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان»[٣]. والذي يقتل خطأً يعتق رقبةً مؤمنةً، ويدفع ديةً إلى أهل المقتول ويتوب إلى الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[٤].

ولا يحلّ قتل المسلم إلاّ أن يكون قاتلاً، أو مُرتدّاً عن دينه، أو متزوجاً زانياً لقوله ﷺ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٥]، رواه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

(٤) سورة النساء: الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٥) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ولما كان قتل النفس فساداً عظيماً في الأرض، ولذا فلو اشترك عدد في قتل إنسان ظلماً وعدواناً قُتلوا جميعاً، يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم».

ولما كان الناس جميعاً متساوين لا فرق بينهم إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1]. فلا توجد في المجتمع طبقات، ولا يتفاوت الناس في دمائهم، فليس هناك من فروق في الديّات، كما لا توجد فروق في القصاص بين رجل وآخر، فعن سمرة بن جندب، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه»[2]، وفي رواية زيادة [ومن خصى عبده خصيناه]. وإن كانت خلافات طفيفة بين العلماء في قيد السيد بعبده.

ولما كانت النفس البشرية مُكرّمة، وكان الإنسان ملكاً للأمة وليس ملك نفسه، لذا لا يحقّ له أن يتصرّف في نفسه، فيُنهي حياته بالصورة التي يراها، تهرباً من الواجبات أو تخلّصاً مما قد يُبتلى به، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من تردّى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه، فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم، خالداً مُخلّداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدته في يده، يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً»[3].

هذا الإنسان المكرّم عند الله يجب ألا يُظلم، فالله سبحانه وتعالى لا يحبّ الظالمين، ولن ينالوا عهداً منه، وسيجزون على ظلمهم جهنم. ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. و﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. و﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3]. و﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[4]. وعن أبي ذر عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا...»[5] ومن الظلم إذلال الناس والضغط على حرّياتهم، ومحاولة إقلال الموارد والحاجات الضرورية عليهم، وحصرهم في أماكن لا يمكنهم تجاوزها.

هذا الإنسان المكرّم عند الله لا يُحقّر، ولا يُسخر منه، ولا يُخوّف، ولا يروّع، ولا يمسّ في عرضه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[6]. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[7]. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٧.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٩.
(٤) سورة الشورى: الآية ٤٢.
(٥) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده.
(٦) سورة الحجرات: الآيتان ١١، ١٢.
(٧) متفق عليه.

بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[1].

ولا يقف الإسلام أمام رغبات الفرد، فالرجل يستطيع أن يتزوّج أكثر من امرأةٍ إن كان بإمكانه ذلك مادياً، ونفسياً، وغريزياً. وكذلك بإمكانه الطلاق إن وجد أن الحياة لا يُمكنها أن تستمر بينه وبين من اختارها زوجةً له، إذ يمكن أن تختلف الطباع، أو تتباين الأمزجة والمعايير، وعوضاً من أن تكون الحياة جحيماً يمكن أن يجد كل منهما طريقه الخاص به، وعسى أن يُبدل الله كلاًّ منهما خيراً من صاحبه. وذلك على عكس بعض العقائد التي لا تبيح للرجل أن يستبدل زوجاً مكان زوج مهما كان الأمر، ومهما كان الاختلاف بينهما كبيراً، لذا حدثت المفاسد، وانتشرت الخلاعة، حيث يمكن للرجل أن يتخذ أكثر من امرأةٍ ولكن على صفة خليلةٍ، لا على أنها حليلة حيث تحرّم ذلك العقيدة، وجرّ ذلك على المجتمع ما جرّ.

وكذلك فإن للمرأة الحق أن تتزوّج إذا ما توفي عنها زوجها، وقد تتزوج أكثر من مرةٍ، ونذكر في مثل هذا المجال أسماء بنت عُميس، رضي الله عنها، التي كانت زوجاً لجعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلمّا استشهد في مؤتة، تزوّجت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، فلما توفي عنها، تزوجت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأنجبت لثلاثتهم. وكانت تعيش مع كل واحد منهم حياةً ملؤها السعادة والرخاء، ويكتنفها الحب الحقيقي. وقد اختلف أحد أبناء جعفر مع محمد بن أبي بكر (وأمهما أسماء) في أفضلية أبي بكر وجعفر، وعلي يسمع، فقال لهما: اسألا أُمّكما أسماء. فسألاها، فقالت: ما رأيت شاباً أفضل من جعفر، ولا كهلاً أفضل من أبي بكر. فقال علي: وأين أنا منهما يا أسماء؟ فقالت: عرفت ثلاثةً أنت أقلّهم فقال: والله لو قلت غير ذلك لأقليتك.

وأم حكيم بنت الحارث التي كانت زوجاً لعكرمة بن أبي جهل، فلما

---

(١) متفق عليه.

استشهد في أجنادين تزوّجها خالد بن سعيد بن العاص، فلما استشهد في مرج الصُّفَّر، تزوجها عمر بن الخطاب.

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي كانت زوجاً لعبد الله بن أبي بكر، فلما توفي بعد أن أصيب بالطائف تزوجها عمر بن الخطاب، فلما توفي عنها تزوجها الزبير بن العوام، فلما استشهد خطبها علي بن أبي طالب فلم تقبل الزواج منه لا رغبةً عنه ولكن رغبةً فيه خوفاً من أن يُصاب، وقد أُصيب ولم يتزوجها.

والمرأة قد يموت زوجها، وتكون بحاجةٍ إلى زوج لا إلى من يُعيلها فقط ـ كما يتصوّر بعضهم ـ فإذا رغبت في الزواج فلها في ذلك الحقّ، ولا يمكن لأحد أن يقف في طريقها كما يفعل أصحاب بعض العقائد إذ يحولون بينها وبين ما ترغب باسم الحفاظ على ذكرى الذي فقدت و....

هذا الإكرام الذي يُعطيه الإسلام للإنسان، وهذه الحرية التي يمنحه إياها تقف عند حدّ، فليس هناك حرية مطلقة، وإنما تقف حيث تبدأ حرية الآخرين، وحيث تسمح العقيدة بذلك. ليس للمرء أن يتكلّم بالألفاظ النابية، ولا بالألقاب، ولا يشتم، ولا يلعن، ولا يغتب، ولا يخوض في أعراض الآخرين، ولا يسيء إلى عقيدة المجتمع، ولا يرفع صوته في بيته ولا أصوات ما عنده من وسائل الإعلام لأن ذلك يؤذي الجوار، ولا يُسيء إلى ما حوله من أفراد لأن أي شيء من هذه التصرفات ينشر الكراهية، ويُعمّ البغض، ويجعل الكلام غير المستحسن يسود في المحيط الذي يعيش فيه.

وليس للمرء أن يتحدث بما يضرّ مصلحة الأمة، أو بما يخدم أعداءها من أسرار للمسلمين أو اطلاعٍ على عوراتهم، وكل ما ينطبق على الكلام ينطبق على الكتابة.

ولا يحقّ للمرء أن يلبس ما يؤذي المجتمع كأن يلبس الرجل لباس المرأة أو العكس، أو يرتدي غير ما تعارف عليه المجتمع، أو يظهر أكثر

جسمه ويتجول في الطرقات، أو تبدي امرأة مفاتنها، وتميس في الشوارع باسم الحرية، فهذا أمر ممنوع وسط المجتمع الإسلامي. عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «لعن رسول الله ﷺ، الرجل الذي يلبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[1].

ولا يحقّ للإنسان أن يبني في الشارع باسم الحرية فيسدّ على الناس طرقاتهم، أو يتطاول في البنيان فيحجب النور والهواء عن الجوار، أو يحفر الدروب، أو يحول دون وصول المياه إلى مستحقيها أو...

ولا يحقّ للمرء أن يبيع منتجات الأُمّة إلى أعدائها، ولا يُروّج لبضائع الخصم في محيطه الذي يعيش فيه، ولا يضع أمواله لتستثمر في بلاد الكفر وأُمّته بحاجةٍ إليها، ولا يأتي بأموالهم ليُقيم فيها المشروعات بدار الإسلام فتصبح خيراتها لهم و....

ولا يحقّ للفرد إن كان مسؤولاً أن يُذلّ من كان تحت سلطته، فيكبت الحريات، ويمنع الدعوة، ويحول دون التنقل، ويسعى في إفقار الشعب كي يخضع له ويتمكّن من السيطرة عليه، ولا يؤمن العمل للرعية، ويجعل الأفراد يلهثون وراء تأمين حاجاتهم فتراهم أرتالاً على المخابز، ومواقف السيارات، وأمكنة الحصول على المواد الضرورية، والجوازات، والتأشيرات و... وإذا ذلّ الشعب خضع لكل طاغيةٍ، وعجز عن تحرير الناس من الظلم، والأرض من المعتدين، فإن التحرير لا يمكن أن يتم بالعبيد فلا بدّ من الحرية لإمكانية التحرير و... وهناك أشياء كثيرة حدّدها الشرع، وحدّد فيها حرية ذلك الإنسان الفرد الذي كرّمه الله تعالى، وما حُدّدت عليه إلا لمصلحة الآخرين من الأفراد والمجتمع لتعيش الأُمّة بسلام وسعادة.

وعندما ضعُف المسلمون بدأت تتفكّك عرا الإسلام عُرْوة بعد أخرى، وأهمل الناس أمور دينهم، وتغلّب عليهم أعداؤهم، وبدأ الضعيف يُقلّد

---

(١) أخرجه أبو داود.

القوي، فتسلّط على الناس الطغاة، وتحكّم فيهم البغاة فساد في المجتمع ما نراه من ألفاظٍ نابيةٍ، وشتائم، وغيبةٍ، ولعنٍ، وخوضٍ في أعراض الناس: وإيذاء الجوار برفع الأصوات داخل البيوتات ورفع أصوات المذياع والتلفاز دون تقديرٍ لحرمة الآخرين ولا حسابٍ لمشاعرهم، والكلام بسوء عن عقائد المجتمع، والرفع من قيمة الأعداء، والحطّ من شأن المسلمين والكتابة عن أسرارهم، والسير في الشوارع بأزياء غير معروفةٍ بل ومُنكرة، وتقليد الرجال للنساء، والنساء للرجال بصورٍ أقرب ما تكون إلى العري، والنساء كذلك باسم الحرية و.... وغدا التطاول في البنيان والتعدّي على حرمات الشوارع، وبيع ما هو ممنوع ومحرّم، وترويج بضائع الخصم، وتثمير أموال المسلمين في بلاد الكفر، وتمويل مشروعات المسلمين بأموال الكافرين. بل غدت بعض الأمور الشرعية غريبةً ومنكرةً في هذا العصر تأثّراً بأعداء الإسلام وأفكارهم ومفاهيمهم نتيجة حياة الضعف التي يحياها المسلمون، ومنها زواج المرأة بعد وفاة زوجها، ويظنّون أن المرأة تحتاج إلى الإعالة المالية فقط، ولا ترغب بما يرغبه الرجل، فما يمنعها من الزواج إن كانت تودّ بذلك، فالفطرة تقضي بهذا، فلو تزوّجها أخوه من بعده لتقوّلوا الأقاويل، وقد رأينا زواج علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من أسماء بنت عُميس زوج أخيه جعفر، رضي الله عنه. ولو تزوّجها اليوم صديقه لنشروا الشائعات، وقد رأينا زواج الصحابة، رضوان الله عليهم، بزوجات أصدقائهم بعد وفاتهم، وفي هذا الزواج رعاية لمن ترك المتوفّى، وحماية للتي تُوفّي عنها زوجها وتكريم لها، وتحقيق لما تتطلب. ويُفضّل بعضهم أن تبقى دون زواج وفي ذلك إبعاد لها عما ترغب فيه، وعدم تحقيقٍ لما فطر عليه الإنسان، وينتج عن ذلك انتشار للمفاسد التي ينعكس أثرها على المجتمع، وكذا قضية التعدد التي نتحدّث عنها، إن شاء الله، في موضوع المرأة. وكل قضيةٍ إسلاميةٍ يحرص الأعداء الطعن فيها، وترك الأمر من غير أن يُكرّم هذا المخلوق الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى.

إن المفاهيم التي سادت أو كادت تسود في المجتمع الإسلامي نتيجة

الظروف التي طرأت عليه، والتخلّف الذي أصابه، والضعف الذي حلّ به، والتأثّر بمفاهيم الذين تغلبوا عليه، من صليبيين ويهود، وأفكار عرفت على أنها عالمية بسبب سيطرة الحضارة المادية على العالم، كل هذه المفاهيم مرفوضة إن كانت تُخالف العقيدة الإسلامية، ففيها شقاء العالم ودماره إن كانت كذلك. ولا نقبل إلا ما فهمه المسلمون من صحابة رسول الله ﷺ، في الإنسان الذي كرّمه الله، وفي كلّ ما شرع له تكريم له، فعلينا أن ننفذه ليسعد وتعيش البشرية من رخاءٍ وطمأنينةٍ وسلام.

[٤] المجتمع

لما كان الفرد هو اللبنة الأولى التي يتألّف منها المجتمع، فالمجتمع عدد من اللبنات، ولا بدّ من أن يكون هناك تعاون بين الفرد والمجتمع، فإذا زالت لبنة واحدة من البناء ظهرت ثغرة فيه فبان عواره أو تهدّم كيانه، وإذا سُدّ مكانها بشكلٍ غير طبيعي أي بغير لبنةٍ من نوعها بدا المظهر العام مُشوّهاً، لذا لا بدّ من أن يكون هناك توازن بين الفرد والمجتمع أو بين الكيان وأعضائه الذين يتكوّن منهم فلا يطغى الفرد بسلطانه على المجتمع فيُذلّه أو بتصرّفاته فيُمزّقه، ولا يطغى المجتمع على أيٍ من أعضائه فيُذيبه، ويُفقده تكريمه الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى، ويُبعده عن حريته التي منحه إيّاها.

يمنح المجتمع الفرد من أعضائه الحريّة الكاملة ضمن الحدود التي تكلّمنا عنها في موضوع الإنسان الفرد، فإذا منعها عنه أفقده الإبداع في الفكر، وقتل فيه الطموح، وجعله يعيش خنوعاً يقبل ما يُملى عليه، ويخضع لكل طاغٍ أو دخيل.

يُعطي المجتمع الفرد حقّ الملكية التي هي غريزة طبيعية وُجدت مع الإنسان، وفُطر عليها، فالصغير يحتجز ما يُحبّ، ويُخبىء ما يرغب فيه على أنه ملك له، فإذا منعته من ذلك جرحته، وأوجدت في نفسه شيئاً عليك قد يصل إلى الحقد في بعض الأحيان إن لم تكن صلة كبيرة بينك وبينه، وفي البلدان التي تمنع حقّ الملكية لأبنائها فإنما تفعل ذلك ليتكوّن حقد بين رعاياها تستغلّه في إبقاء سيطرتها، وفرض قبضتها على المناطق التي تخضع لها، ويستفيد رجال الدولة من ملكية الدولة لكل شيءٍ فيتصرّفون فيه على

أنه حقّ طبيعي لهم فيعيشون بترفٍ، وينفقون ببذخٍ، بينما يبقى الأفراد بوضعٍ بئيسٍ، وعيشٍ تعيسٍ. هذا إضافةً إلى أنّ الإنسان الذي يُحرم من بعض حقوقه تضعُف ملكة الإبداع عنده، وتتحطّم معنوياته، فلا يُعطي إلاّ القليل، ولا يُقدّم غير الزهيد من إمكاناته وطاقاته، فيقلّ إنتاجه، وبالتالي يضعُف إنتاج الأمّة وتُصبح بحاجةٍ إلى غيرها، وعندها الشيء الكامن ولكن لا تستغلّه، ولديها الاحتياطي غير أنها لا تبذله، وتملك القدرات ولكنها لا تستفيد منها، وكل ذلك على حساب الأفراد الذين لا يعيشون على المستوى المطلوب. وفي الوقت نفسه لا يحقّ للفرد أن تطغى ملكيته باسم الحرية، فيحتكر قوت المجتمع، ويجمع لديه الثروة عن طريق الرّبا وبيع المحرمات، ثم يُسخّر المجتمع كله لخدمته، ويدوس على الآخرين، وتصبح المقاليد كلّها بيده. قال رسول الله ﷺ: «من احتكر فهو خاطئ»[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[3]. وكذلك يُحرّم بيع كلّ ما هو حرام والمتاجرة به مثل: الخمر، والمخدرات، ولحم الخنزير و.... وهذه أكبر وسائل المال الحرام وأكثرها جمعاً له.

وعلى المجتمع مُمثّلاً في السلطة أن يؤمّن العمل للنّاس، ويمنع السؤال، والقعود بلا عمل، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «والّذي

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة: باب تحريم الاحتكار في الأقوات.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٥، ٢٧٦.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١.

نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، فيأتي به، فيبيعَه، فيأكلَ منه، ويتصدّقَ منه خير له من أن يأتيَ رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه»[1]. ولما كان الفرد ليس هو ملكاً لنفسه، وإنما ملك الأمة جميعها، لذا فالسّلطة تُلزمه على العمل، وتمنعه من الجلوس من غير عمل بحجة الثراء والاكتفاء بما لديه، وعدم الحاجة، إذ عليه العمل مهما كان مُستغنياً عنه ما دامت الأمة بحاجةٍ وهو ملك لها. وتأمين العمل واجب على السّلطة، عن أنس بن مالك، أنّ رجلاً من الأنصار أتى النّبي ﷺ، يسأله فقال: «أما في بيتك شيء»؟ قال: بلى حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْب نشرب فيه من الماء، قال: «أئتني بهما»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري هذين»؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: «من يزيد على درهم»؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: «أنا آخذهما بدرهمين» فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُوماً فأتني به» فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ، عوداً بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يوماً» فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقع، أو لذي غُرم مُقطع، أو لذي دم مُوجع»[2]. ولسنا بحاجةٍ هنا إلى توضيح شروط العمل، والغاية منه، فإنّ هذا أمر معروف ولكن نشير إلى أنّ من شروطه أن يكون غير محرّم، وليس فيه ضرر للنّاس، أو شغل عن العبادة، والغاية منه، الاستغناء عن النّاس، والنهي عن البطالة، ونفع عباد الله، والإفادة مما أباح الله لعباده من طيبات الرزق.

وإذا عجز المرء عن العمل كان على الدولة أن تُعطيه ما يغنيه، فكما

---

(١) متفق عليه كما رواه الإمام مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه أبو داود في باب الزكاة.

أنّ المجتمع مُمثّلاً في السلطة مسؤول عن عمل الفرد في شبابه كذلك مسؤول عنه في شيبته، وقد مرّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بسائلٍ شيخٍ كبيرٍ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال:

من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟.

قال: أسأل الجزية والحاجة والسنّ.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثُمّ أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم. فأعُطي من بيت المال من غير أموال الزكاة، لأنّه لا يُعطى غير المسلمين من أموال الزكاة.

والسلطة مسؤولة عن تأمين حاجة الفرد من مواصلات، وتعليم، ونور وكل ما يتعلق بوسائل الحياة. فكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: «والله لو أنّ بغلةً عثرت على شاطئ الفرات لأخشى أن يسأل الله عنها عمر لم لا يُسوّي لها الطريق». ووسائل الحياة ليست واحدةً وإنما تختلف باختلاف الأزمنة فإذا كانت في القديم تمهيد الطريق فاليوم تعبيده، وإذا كانت في المرحلة السابقة السّراج والزيت فهي في هذا الوقت الكهرباء وهكذا مع الزمن ولا ندري ما يستجد في المستقبل، وكلّ هذا من واجبات السلطة.

ولم يتسلّم الحاكم أو أفراد السلطة المسؤولية ليمتازوا على الأفراد، ويتعالوا عليهم، ويُذلّوهم، وإنما كُلّفوا بهذا العمل لخدمة الشعب، وليعيشوا كبقية أفراد المجتمع إن لم نقل دونهم، فأبو بكر، رضي الله عنه، يقول: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوّموني و....»، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يأكل من الشيء حتى تشبع منه رعيته، فيروى أن عتبة بن فرقد لما قدم أذربيجان أتى

بالخبيص، فلمّا أكله وجد شيئاً حلواً طيباً، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا. فجعل له سَفْطين عظيمين ثم حملهما على بعيرٍ مع رجلين، فسرّح بهما إلى عمر، فلما قدما عليه فتحهما قال: أي شيءٍ هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه فإذا شيء حلو فقال للرسول: أكُلُّ المسلمين يشبعون من هذا في رحالهم؟

قال: لا.

فقال: أمّا لا، فارددهما.

ثم كتب: أما بعد فإنّه ليس من كدّك ولا كدّ أُمّك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك. وجاءت إلى عمر بُرود من اليمن، ففرّقها بين النّاس بُرداً بُرداً، ثم صعد المنبر يخطب، وعليه حُلّة منها (أي بُردان) فقال: اسمعوا رحمكم الله. فقام إليه سلمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع.

فقال: ولِمَ يا أبا عبد الله؟

فقال: يا عمر! تفضلّت علينا بالدنيا، فرّقت علينا بُرداً بُرداً، وخرجت تخطب في حُلّةٍ منها؟

فقال: أين عبد الله بن عمر؟

فقال: ها أنذا يا أمير المؤمنين!

قال: لمن أحد هذين البُردين اللذين عليّ؟

قال: لي.

فقال لسلمان: عجلت عليّ يا أبا عبد الله، إنّي كنت غسلت ثوبي الخلق، فاستعرت ثوب عبد الله.

قال: أما الآنَ فقل نسمع ونطيع.

وهكذا فرغم أن المجتمع له سلطة على الفرد، ويحدّ من سلطته،

ولكنه لا يُذيب شخصيته فللفرد كرامته المحترمة، وحريته المحددة، وحقه على المجتمع، ومحاسبته، وله أن يُجاب على تساؤلاته. إذن هناك توازن في الإسلام بين الفرد والمجتمع، فلا تطغى حرية الفرد حتى تسيء إلى المجتمع، ولا تتوسع سلطة المجتمع حتى تُذيب شخصية الفرد، وتسحقه في آلة سلطتها. والمسؤول خادم للفرد والمجتمع على حدٍ سواءٍ، لا مُترفعاً عنهما ولا مُتعالياً.

وما يوجد في العالم الإسلامي من مخالفةٍ لهذا فهو لا يُمثّل الإسلام، وإنما يُخالفه، وقد حدث نتيجة الزمن والبعد عن أوامر الله وتعاليم الإسلام تدريجياً، فبعد انتهاء الخلافة الراشدة والمسؤولون يتحللون من تعاليمه شيئاً إثر شيء حتى حدثت هذه الهوة بين ما ندّعي وبين ما نُطبّق على الواقع. إضافةً إلى هذا البعد هناك بعد آخر وهو تولّي أعداء الله الذين أصبح لهم نفوذ واسع في ديار المسلمين يرفعون من يتولاّهم، ويضعون من يُخالف ذلك، لذا لا نجد في العالم الإسلامي الصورة الحقيقية المُمثّلة للإسلام في توازن الفرد والمجتمع، وهو ما نسعى إليه.

[٥] المــرأة

خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، فخلق من نوع الإنسان الذكر والأنثى، وجعل منهما معاً حفظ النسل وبقاء هذا الأصل. وفطر لكلٍ منهما قدراتٍ وإمكاناتٍ مختلفةً عن قدرات وإمكانات الآخر تتناسب مع ما يُوكل إليه من مهمةٍ في الطبيعة والأداء، والسكن، وتكمل مهمة الآخر حيث تتكامل الحياة بالمُهمّتين، وجعل بينهما مودةً ورحمةً فلا يستغني أحدهما عن الآخر فلو استغنى لتوقّف النسل، وانتهى الأصل، وانقطعت الحياة. ولو امتنع أحدهما عن القيام بمُهمّته أو حاول تأدية عمل الآخر لعمّت الفوضى، وتخبّط الأمر، وأصبح الناس في بؤس وشقاء.

خُلق الرجل بجسم قوي يتحمّل الصعاب لأن في عمله المشقّة، وهو خارج البيت يكدّ في الليل، في النهار، في البرد القارس، في الحرّ اللافح، يدفع العجلات، يُحرّك المُسنّنات، يعمل بالحراثة، بالمناجم، بالغابات... ولتتكامل حياة هذا المخلوق فُطر بعقلٍ يُحبّ الجسم الضعيف ليودع فيه الرحمة والمحبة، وليجد فيه الهناء، وصفو العيش. ولذا فالرجل لا يميل إلى المرأة المسترجلة، ولا يطلب القوية، ولا يرغب في شريكة حياته الشدّة.

وخلقت المرأة بجسم لطيفٍ فيه اللين والنعومة لا يتحمّل المشاق، ولا يصبر على الشدّة، يُناسبه الهدوء ولطف الأعمال، وهو ما يتوفّر في البيت، وينسجم مع بعض المهن والأشغال، وفي الوقت نفسه يحمل طبيعةً تحبّ القوّة في صاحبها والشدّة في شريكها، فتُقدّم له الحنان، وتُخفّف من قسوته بالعطف، ومن تعبه بالركون إليه فيتوازن الأمر جسم قوي يحمل

عقلاً يحب اللين واللطف مع جسم ضعيف له طبيعة تحب القوة. فتستقيم الحياة على هذا المنوال، ويتكامل الإنسان فيها بنوعيه. والمرأة تحتقر المُخنّث، وتتألّم من الذين يتشبّهون بالنساء.

ومن هذه الطبيعة التي فطر الله الناس عليها كانت المرأة تفخر برجلها القوي، وفارسها الشجاع، وتنظر إلى صاحب القوام الكبير، والعقل السليم الذي يتقي به الشدائد، ويُنقذه من المهالك في عمله الخارجي وأسفاره ورحلاته، ولذا فهو ليس بحاجةٍ إلى التنكّر والاحتجاب، وإنما إلى الظهور والاحتكاك، ويبحث دائماً في إعمار الأرض، واستخراج كنوزها، واستثمار خيراتها، وكان عليه الإنفاق في البيت، وكانت له القوامة فيه، وحمايته، فهو صاحب الإمكانات على تلك الحماية وتلك القوامة.

وكانت قوة المرأة في ضعفها، والرغبة فيها في نعومتها، والطلب عليها بأنوثتها، وحبّ الرجل لها في لطفها، والضعف، والنعومة، واللطف هي فتنة المرأة، وهذا سبب الصراع بين الأقوياء عليها، لذا كان عليها عدم إظهار هذا، فلا تلين بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، ولا تخضع للغريب، ولا تتلطّف للبعيد، وتُخفي نعومتها، ولا تُبدي شيئاً من فتنتها، وهذا أصل الحجاب والاحتشام، وهو ما يضمنه لها عمل البيت، فإذا ما خرجت للعمل أو لحاجةٍ فعليها الهدوء والوقار والحشمة والحجاب. والعمل بما يتناسب وطبيعتها كالعلم والتعليم، والطب والتمريض، والبيع و. . . على أن يخلو من الاختلاط، وتمتنع فيه الخلوة، كما يجب ألا يتعارض مع عمل البيت من حيث الوقت والغياب عنه.

وكما يتوازن الأمر في الجسم يتوازن في العمل أيضاً، فعمل الرجل خارج البيت فيه عراك مع الحاجات وفيه الضوضاء، وفيه صراع مع الرجال وفيه الفوضى، فيحب أن يجد في بيته الهدوء والسكينة، واليد الحانية التي تمسح عنه ما كابده في عمله، وتزيل من نفسه ما وجده في شُغله. وعمل المرأة داخل البيت في طبيعته الهدوء فتتحمل ما تُقاسي من عناء، وترتاح نفسها إلى مداعبة الصغار وتهيئة مستلزمات حياة هذا البيت.

ومن هذا المنطق، وهذا التوازن في الطبيعة وفي العمل فإن الإسلام قد أعطى المرأة الحقوق نفسها التي أعطاها للرجل، من حيث الشخصيّة الاعتبارية، والملكية، والرأي في الزواج، والتصرّف بالملك، والشهادة، وفي الوقت نفسه فقد كلّفها بما كلّف به الرجل من عباداتٍ وواجباتٍ، وكل منهما يُسأل عما أدّاه من أعمال، وما قام به من واجبات، وما قدَّم من أعمال خير، ولا يتحمّل أحدهما عن الآخر شيئاً، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن للمرأة شخصيتها الخاصة بها، واسمها الخاص بها، ولا يمكن تغييره ونسبها إلى أسرة زوجها مهما كان علو شأنها، فخديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، لم يتغيّر اسمها بعد زواجها من أفضل البشر، محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، بل بقي كما كان خديجة بنت خويلد، وبقيت محتفظة بهذا، وكذا كل امرأةٍ مُسلمةٍ يبقى نسبها ولقبها، وإن ما نراه في بعض المناطق اليوم ليس هو إلا تأثّراً بالنصارى وأوربا عامةً، وفيه مخالفة للإسلام، كما فيه هضم لحقوق المرأة.

وللمرأة في الإسلام أن تمتلك ما يحقّ للرجل أن يمتلكه تماماً من أرض، ودور، ومحلاتٍ، ومالٍ على أن يكون من مصدرٍ حلالٍ، وكذلك لها الحقّ في أن تتصرّف فيه كما تشاء دون منعٍ من أحدٍ، أو إجبارٍ من زوجٍ أو قريب، مع العلم أن هناك دولاً كثيرةً تَدّعي الحضارة لا تسمح للمرأة أن تتصرّف بشيءٍ من مالها أو أملاكها دون رأي زوجها. وكذلك فلها الحقّ في مهرها والتصرّف فيه، ولها نصيب من الميراث، وإن كان هذا النصيب هو نصف نصيب الرجل فذلك لأن الرجل مُكلّف بالإنفاق، وهي غير مُكلّفة، وله القوامة، وعليه الحماية وليس عليها شيء من هذا، وهذا ما يجعل لها نصف نصيب الرجل في الميراث، وليس في هذا التفاوت الظاهري اختلاف، وإنما فيه توازن تام، فإن مجموع ما يرثه رجل وامرأته يُعادل تماماً ما يرث أخو هذه المرأة وزوجته. والرجل يدفع المهر، وهي لا تدفع شيئاً، والرجل يُنفق عليها وعلى الأولاد وهي لا

تُنفق شيئاً، بل من واجبه أن يرضع أولاده عند مُرضعات إن رفضت إرضاعهم.

وتُؤدّي الشهادة كالرجل، ولكن نتيجة العاطفة التي تتمتع بها جعل ميلها أكثر إلى ناحية الضعيف أو الوسيم، ويُؤدّي إلى النسيان لذا كانت شهادة الاثنتين تعد شهادةً واحدةً أو شهادة الرجل ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ...﴾[1] فهذا إذن ليس طعناً في شهادة المرأة وإنما خوفاً من النسيان الذي يمكن أن يقع نتيجة الفطرة التي فُطرت عليها المرأة.

وتنقص عبادتها عن عبادة الرجل نتيجة طبيعتها التي خلقها الله عليها، إذ تأتيها الدورة الشهرية، ولا يُصيب هذا الرجل، فتترك الصلاة وقتها، وتُعفى منها، فلا تقضيها لأن وقت تكليف الصلاة مستمر منذ البلوغ حتى الوفاة ما لم ينقطع بإضاعته للعقل، ويقضي من يُغمى عليه، أو نسي، أو أجبر على ذلك، ولكن الصوم له وقته المحدّد، وهو شهر رمضان المبارك، فتدع المرأة صومها أيام دورتها ولكن عليها القضاء إذ انتهى شهر الصيام، هذا النقص في العبادة عن الرجل، وشهادة المرأتين بشهادة الرجل، وهذا معنى ناقصات عقل ودين، وهو تقرير واقع لا حطّاً من شأن، روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، في أضحىً أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدّقن فإني أُريتُكُنَّ أكثر أهل النار، فقُلن: وبم يا رسول الله، قال: تُكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قُلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله، قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قُلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تُصم، قُلن: بلى، قال: فذلك من

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

نقصان دينها»[1]. ومع هذا الذي قد يبدو منه شيء يتعذّر فهمه على البعيدين، فإن رسول الله ﷺ، وصّى بالنساء كثيراً، وانتقل عليه الصلاة والسلام وهو يُوصي بهنّ فقال: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ»[2]. وروت عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»[3] أي إذا مات الرجل فاتركوا ذكر مساوئه، وهذا على سبيل المثال، فإن وصايا رسول الله ﷺ كثيرة.

وللمرأة الحقّ في اختيار زوجها، فهو الذي ستعيش معه العمر كله، وتُعطيه قلبها، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها، قال: «أن تسكت»[4]. وإذا زوّج رجل ابنته وهي كارهة فالزواج مردود، وروى الجماعة إلا مسلماً عن خنساء بنت خذام الأنصارية «أن أباها زوّجها ـ وهي ثيب ـ فكرهت ذلك، فأتت رسول الله، فردّ نكاحها» أي أبطله.

وروى أبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس، رضي الله عنهما: «أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوّجها، وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ».

إن الإسلام أعطى المرأة البالغة العاقلة بكراً كانت أم ثيباً كامل الحرية في رفض من لا ترضاه لها زوجاً، ولا حقّ لأبيها أو وليّها أن يُجبرها على من لا تُريده. وحتى لا تقع المرأة في خطإٍ فادحٍ كهذا في اختيارها لنفسها

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، واللفظ للبخاري في باب الحيض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) رواه البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن الأربعة (الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه).

بسبب عاطفتها فقد جمع الإسلام بين جعل الزواج لولي المرأة وحقّها في الموافقة على من ترغب فيه، ورفض من لا تُوافق عليه، فمنع بذلك من استبداد الأولياء ببناتهم وفي الوقت نفسه لهم الحقّ في ردّ من لا يرونه كفئاً لهن.

وما دام للمرأة الحقّ في الموافقة أو الرفض فيمن يتقدّم للزواج منها فلها الحقّ في رؤيته والنظر إليه كما له الحقّ في ذلك، فروى ابن ماجه في باب النكاح أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يخبره أنه خطب فلانة فقال له: هل نظرت إليها؟ فأجاب: لا، فأمره أن يذهب وينظر إليها.

ولما كانت المرأة هي مستقرّ الأجنة فلا يُمكن أن يتناوب عليها عدد يُلقون بالنُّطف في رحمها أو تستقبل عدة رجال فإن ذلك يُؤدي إلى اختلاط الأنساب، وضياع الحقوق، والزواج من المحارم. وكذلك فإن المرأة لا يُمكنها أن تحمل أكثر من مرةٍ في العام، ولذا فلا فائدة من تعدد الأزواج على حين يستطيع الرجل أن يلقّح عدداً من النساء في يومٍ واحدٍ، وبذا تكون الفائدة في تعدد الزوجات فيما إذا رغبنا في زيادة النسل، أو التعويض عما نفقده، أو لظروفٍ تُحيط بالأمّة.

وشُرع تعدد الزوجات لأننا بحاجةٍ ماسةٍ إليه، يتزوّج عادةً الشباب فتياتٍ أصغر سناً منهم، وهذا ما ينشأ عنه بعد مدةٍ فتيات ليس لهن أزواج، فلو فرضنا أن الشباب يتزوّجون في السن الخامسة والعشرين فتيات في سنّ العشرين، وهذا ينتج عنه جيل من الفتيات لا أزواج لهنّ بعد مرور أربعة أجيالٍ، أو حسب هذا التقدير بعد ثمانين سنةً، هذا الجيل من الفتيات العوانس لا حلّ لهن إلاّ التعدد، وإلا عمّ الفساد، وانتشر الفحش، وعاش بعضهن في عُقدٍ نفسيةٍ، وانعكس ذلك على المجتمع، وهذا لم يقل أحد به، ولكن يحدث فعلاً، وهو سبب انتشار الفساد، وزيادة الفتيات العوانس صاحبات العُقد النفسية، وهذا يتناسب طرداً مع البلدان التي لا يوجد فيها تعدد، وإن كان يختفي هذا أحياناً تحت ركام المفاسد، واتخاذ الخليلات، وهو ما لا يقبله مسلم. هذا إضافةً إلى الحروب التي يكون وقودها الرجال

عادةً. كما يتعرّض الرجال إلى الحوادث التي تذهب ضحيتها الأعداد بسبب عمل الرجال في خارج البيوت، وفي الأعمال الشاقة التي تحدث فيها النكبات، والحرائق، والدمار، مثل: العمل في الغابات، وفي المناجم، وعلى ظهر السفن، والسكك الحديدية، وفتح الأنفاق، وبناء السدود، ومقالع الأحجار و... ومع هذا النقص في الرجال يرتفع معه عدد الفتيات اللواتي لا أزواج لهن، وتزيد المشكلة ولا يحلّها سوى التعدد.

ومن منطلق ضرورة التعدد وموافقة المرأة على الزوج تُحلّ المشكلة الجنسية، بل لا وجود لها بالأساس في المجتمع الإسلامي الذي يقوم على المنهج الإسلامي واقعاً لا ادعاء، وحقيقةً لا كلاماً، وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً على ذلك يجب علينا ألا نفتش في عالمنا اليوم وإنما علينا أن نرجع إلى المجتمع الإسلامي الأول.

إن كثيراً من النساء يرغبن أن يكنّ زوجاتٍ لرجال لهم زوجات، ويرين في ذلك خيراً لهنّ من أن يعشن حياتهنّ كلّها بلا أزواج، ولا يعرفن ما فطر الله فيهنّ من غريزة الجنس، ويُفضّلن أن يعشن في بيتٍ فيه أنس من أن يحيين وحيداتٍ في بيوتٍ ليس فيها إلا الوحشة والقفر، وليس هناك من مساعد في الوقت الذي يكن فيه بحاجةٍ إلى المساعدة وإلى العطف وإلى تأدية بعض الأعمال لهن.

إن كثيراً من النساء يرين أنه من الخير لهنّ أن يعشن مع ضرائر من أن يُحرمن من عاطفة الأمومة. وإذا كان هناك بعض من يخدعن أنفسهنّ فيرفضن هذا الكلام تحت تأثير الفكر النصراني الأوربي فإنهن يُخالفن الطبيعة التي فُطرت عليها إذ يعترفن بالغريزة الجنسية وعاطفة الأمومة وأنهما من طبيعة النفس البشرية التي خلقها الله، وأودع فيها هذا.

والمرأة لا تحتاج إلى المال والمساعدة فقط، وإذا كانت هذه الحاجات مادية أساسية لها للبقاء فإنها بحاجةٍ إلى أشياء معنويةٍ أخرى وهي جوانب نفسية ملحّة لا تستقرّ من دونها النفس ولا تجد الراحة والطمأنينة، وهي الرجل، والعاطفة التي قد يكون الإنسان بحاجةٍ إليها وهو في سنٍّ

كبيرةٍ أكثر من حاجته إليها في مرحلة الشباب، فالحنان والعطف والشعور بالتقدير والحبّ أمر مهم جداً بالنسبة إلى الإنسان في مرحلة الشيخوخة. وما يؤدّيه الزوجان بعضهما لبعض لا يمكن تأديته من آخرين، فالمرأة بحاجةٍ إلى الزوج الذي يواسيها ويحنو عليها في كبرها، وإن تجالدت وصبرت على فقده في سن الصبا مُكرهةً.

وفي المجتمع الإسلامي لم يكن المسلمون يتركون امرأةً تُحرم مما تطلبه فما أن تفقد واحدة زوجها، وتنقضي عدتها حتى يطلبوها، فإن وافقت فذلك ما تبغي، وإن رفضت فحسب هواها، وربما لا ترغب شخصاً بعينه فتقول دون حرج، فيتقدّم آخر... والأمر لها. وبذلك فقد حفظ المسلمون مجتمعهم من الفَساد، ومن انتشار العُقد النفسية، وفي الوقت نفسه كان في ذلك مدد لهم من الشباب استطاعوا به أن يفتحوا مناطق واسعةً، وأن ينشروا فيها عقيدتهم، وأن يرفعوا منها الظلم، ويبنوا حضارتهم، ولولا ذلك لما استطاعوا لقلةٍ في عددهم، وما أكلته الحروب منهم. وتمتّعت المرأة في ذلك المجتمع بكل ما تُريد.

ويمكن أن أضرب بعض النماذج من نساء ذلك المجتمع. توفي أبو سَلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ، في بداية السنة الرابعة بعد أن جُرح في غزوة أحد، واندمل جرحه، وعوفي، ثم انتقض عليه، ومات منه. ونظر رسول الله ﷺ، إلى هذه الأسرة التي خلّفها صاحبه وابن عمته، ولم يكن لها من معيلٍ غير الله، وهي زوجة لم تتجاوز الثامنة والعشرين عاماً، وغلامان هما: سَلمة، وعمر، وابنة واحدة هي زينب، وفي روايةٍ أن هناك ابنةً أُخرى تُدْعى رُقيَّة. ورأى أن يتعهّدها من بعده، ويرعاها بعد موته، وليس أفضل من أن يضمّها إلى أُسرته، فليس أكرم من أن تصبح أُسرته، ولا أكثر احتراماً من مساواتها بمن يُعيل ويُكرم. وكان زواج رسول الله ﷺ، بأمّ سَلمة ورفعها إلى منزلة أمّ المؤمنين، ولنستمع إليها، رضي الله عنها، تتحدّث عن هذا قالت: لما انقضت عدّتي، استأذن عليّ رسول الله ﷺ، وأنا أدبغ إهاباً فسللت يدي منه، وأذنت

لرسول الله، ووضعت له وسادةً من أدم، حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ قلت: يا رسول الله إني امرأة فيّ غيرة شديدة، وأخاف أن ترى مني شيئاً تكرهه يُعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ، ذات عيالٍ، قال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السنّ فقد أصابني مثل ما أصابك، وأما عيالك فهم عيالي. قالت: فقلت: قد سلّمت أمري إلى رسول الله، فتزوّجني[١]. ويكفي أن أُعطي مثلاً آخر، والمجتمع الإسلامي كان على تلك الصورة.

كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، ابنة عمّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد تزوّجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وكانت بينهما مودة شديدة، فلما أُصيب بالطائف، اتفق مع زوجه عاتكة ألاّ تتزوّج بعده لما كان بينهما من حبّ، وقدّم لها المال الوفير تستعين به في حياتها، وتعيل أُسرتها، ولم يكن رأيه بسديد، فلما مات، وانقضت عدّتها، خطبها ابن عمّها عمر، رضي الله عنه، لنفسه، فأخبرته بما اتفقت عليه مع زوجها الأول عبد الله، فأعلمها أن هذا اتفاق غير صحيح، فاقتنعت، ووافقت عليه، وتزوّجها. وطُعن عمر ومات بعد ثلاثة أيّام، وانقضت عدة نسائه، ومن لعيال أمير المؤمنين سوى إخوانه وأصحابه. وطلب الزبير بن العوام، رضي الله عنه، عاتكة فوافقت، وتزوّجها، وهي تعلم أن عنده ثلاث زوجات غيرها، وعاشت معه حياة هنيئةً، وبعد مُدةٍ قُتل الزبير بعد أن قضى معها ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، وبعد انقضاء عدّتها طلبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فامتنعت خوفاً عليه، وقالت: لا رغبةً عنه ولكن خوفاً عليه إذ ظنّت أن مصيره سيكون القتل بعد أن قُتل عنها الرجال الثلاثة الذين تزوّجتهم من قبل، وهو ظنّ خاطئ، ولا يصحّ، وقد قُتل، رضي الله عنه، أيضاً، ولم

(١) السمط الثمين.

يتزوّجها. هكذا عاش الرجال في المجتمع الإسلامي الأول يُحقّقون رغباتهم، ويُعيلون أُسر إخوانهم الذين سبقوهم إلى رحمة الله، وعاشت النساء يُحقّقن رغباتهن برضاهن دون تعقيد، ومن غير صعوبةٍ في إعالة أولادهن، وكان المجتمع سليماً ليس فيه شيء من المشكلات التي تعيشها المجتمعات الحالية في كل مكان.

ومع بحث التعدد لا بدّ من أن أُعطي كلمة مختصرةً عن الطلاق. بنى رجل بامرأةٍ ثم تعثّرت استمرارية الحياة بينهما إذ غدت جحيماً لا يُطاق لسوء تصرّفٍ من أحدهما أو كليهما، فما هو الحل؟ لدينا طريقان لا ثالث لهما إما الطلاق وهو ما اختاره الإسلام، وإما المحافظة على الزواج الاسمي بينهما بحيث لا يُشارك أحدهما الآخر عاطفياً أو وجدانياً أو وديّاً بل ولا مُجاملة أبداً، بل يتجه كلاهما نحو هواه بالحرام فيُحقّق رغباته فيعيش الرجل مع خليلته وتغضّ المرأة النظر عما يحدث، وكأنها لا تدري، وتعيش هي في أحضان أصحابها، ويتعامى الرجل حتى كأنه لا يرى شيئاً، ثم يجمعهما البيت في آخر الليل وقد انهك جسميهما سهر الليل مع من أحب، وهو ما اختارته المجتمعات الحديثة، متأثرةً بالنصرانية واليهودية المُزيفتين واللتين لا تُقرّا الطلاق، وما اعتقد امرأةً أو رجلاً يُوافق على الحياة مع مخلوقٍ آخر مكرهاً لا يُحبّه، ولا يستطيع النظر إليه، وكيف يمكن أن يُشاركه وجدانه وغرائزه. ولذا اضطرت بعض الدول النصرانية إلى إباحة الطلاق مخالفةً عقائدها شاهدةً على زيفها وعدم صلاحيتها للحياة.

كانت المرأة في الجاهلية سلعةً تُتخذ وسيلةً لإرواء الغرائز وتحقيق الشهوة البهيمية، وجاء الإسلام فأعطاها حقَّها، حتى إذا ضعف أبناؤه، وتحكّم أعداؤه، رغبوا في إعادة المرأة إلى الحضيض، فاتخذوها مُتعةً، وخدعوها برفع مكانتها وإعطائها حريتها باسم الاختلاط، والسفور، والتبرج، ففقدت حريتها، وحُرمت من حاجاتها الفطرية باسم مصالحها والحرص عليها وعدم التعدد، ومحاربة الطلاق، والدعوة إلى المساواة، فرجعت تئنّ من العمل، والإهمال، واعتبارها من سقط المتاع تُلقى إذا

انتهت الحاجة منها، ونال كل رغبته. وإذا زالت نضارة شبابها بدأت تبحث عن عمل مهما كان وضيعاً لتؤمّن لقمتها.

وأخيراً لابدّ مِنْ أنْ أُعطي لمحةً مختصرةً عن طريقة التوسع في استخدام العاملات في البيوت ومن غير حاجة إذ سأعود إليها، إن شاء الله، في موضوع الترف. إن استعمال الخدم في البيوت قد أفقد الأُسرة والعائلة كيانها، وأضاع نشاط الأمة وحيويتها، وجزّأ المجتمع إلى طبقاتٍ. وقد دخل هذا الأسلوب باسم الرفاهية والترف، أو التباهي والتفاخر بذلك، أو باسم خدمة المرأة وراحتها لكنه في الواقع سبّب لها المتاعب والمشكلات، وأفسد المجتمع، ونغّص الحياة، وهدّم البيوت. إن وجود الخدم في المنزل سواء أكانوا رجالاً أم نساءً يُسبّب خطراً كبيراً على الفتيان والفتيات داخل البيت وأقلّ من ذلك على المرأة والرجل إن كانا على مستوىً معينٍ وإلاّ فالخطر عليهما أكبر، وتكفي الإشارة إلى ذلك، إضافةً إلى ما يحمل هؤلاء الخدم في نفوسهم من لهب الثورة الشهوانية، وخاصةً إن كانوا في سنٍ معينةٍ وهو الغالب، ويتولّد الحقد، وهذا ما يُؤدّي - إن زاد أعداد الخدم - إلى حركاتٍ تعصف ريحها بالأُمة كثورة الزنج التي لم تكن إلاّ من هذا القبيل، وحركة القرامطة التي دعت إلى شيوعية المال والنساء لهذه الأسباب، وتبدأ عادةً بتعدّياتٍ فرديةٍ على أصحاب البيوت وخاصةً على النساء وسرقة الأموال وهي دليل إنذارٍ بالخطر الذي لا يلبث أن تشتعل ناره إن لم يُتدارك أمره.

ومن جانبٍ آخر فإننا نفقد عمل جزءٍ من المجتمع، وهو النساء اللواتي لا عمل لهن، فإذا أوكلت المرأة مهمتها من تربيةٍ وأعمال المنزل للخادمة فماذا تصنع هي؟ وبذا ندع جزءاً من المجتمع عاطلاً عن العمل. ولكن إذا قامت بعملها فإنما تكون قد أدّت نصف الأعمال المنوطة بالإنسان، عمل داخل البيت تقوم به المرأة، وعمل خارجه يقوم به الرجل، لا كما يدّعي أعداء المجتمع أن العمل داخل البيت عطالة، والتربية بطالة.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنا نطمح أن يكون للنساء كلهنّ أزواج، وأن يكنّ

صاحبات بيوت، وذوات عيال، ولهن كرامتهن، ولا توجد طبقات في المجتمع، أما خصوم الإنسانية فيرغبون أن يكون نصف النساء خادمات ممتهنات، وتعيش الباقيات على عملهن، وهم يستمتعون بهذا النصف.

وإذا دخلت الأمة بمرحلة الترف فقد آذنت بالانصرام، وسيطرت غيرها عليها، وآلت حضارتها بالزوال وقيام غيرها مكانها.

[٦] الأخـــوّة

فهم صحابة رسول الله ﷺ الأخوة بمعناها الصحيح وهي أنها أخوة العقيدة، وقد طبّقوها فعاشوا حياةً سعيدة ملئها الحبّ والطمأنينة، ويُظلّلها الأمن والرخاء، ويشعّ منها الوئام والهدوء النفسي.

وليس الأخ بمعنى الشقيق أي أخاً في الدم والنسب، إذ كثيراً ما يختلف الشقيق عن شقيقه في طباعه، وسلوكه، وتقويمه للأمور، ونظرته للحياة فيعيش كل في طريقه الذي يراه أو دربه الذي يرتضيه بعيداً عن شقيقه، وربما قاتل أحدهما الآخر أو كان كل منهما في صف جماعة محاربة للأخرى. أمّا الأخوة الصحيحة فهي الاتفاق شبه التام في السلوك، والطباع، والنظرة إلى الحياة و.... ولهذا قالت العرب قديماً: «ربّ أخٍ لك لم تلده أمّك»، ويقصدون بالأخ هنا الذي يُحبّك محبّةً تامةً ويتفق معكَ في كثيرٍ من جوانب الحياة وطريقتها.

ولما كانت العقيدة تُهذّب طباع المرء، وتحكم سلوكه، وتُوضّح له مهمته في الحياة، وتُبّين له المجال الذي يجب أن يسير فيه، والخط الذي ينهجه لذا كان أبناء العقيدة الواحدة إخوةً بحقٍّ، فهم أكثر تفاهماً بعضهم مع بعض من أشقائهم وأقربائهم، وأكثر صدقاً، وأكثر محبةً، وأكثر رعايةً وحَدباً بعضهم على بعض، ولِم لا وهم بسلوكٍ واحدٍ، ونظرةٍ واحدةٍ، ويرون المُهمّة المُلقاة على عاتقهم واحدةً، فهم أبناء عقيدةٍ واحدةٍ، والعقيدة منهج حياة.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]. وجاء قول رسول الله ﷺ: «لا

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[1]. فالمسلم الصادق لا يريد لنفسه شيئاً إلاّ ويُحبّه لأخيه، ومن ذلك نشأ المجتمع المسلم المتراصّ بعضه إلى بعض، إن خرج أبناؤه إلى الجهاد لم يحدث فيه خلل، وإن حلّت به مجاعة أو أصابته نائبة لم يتأثّر داخله لما فيه من تعاونٍ بين أفراده ولبناته، ولما يتمّ من مساعدةٍ بين أسره وعائلاته، بل وبين المسؤولين والرعية، وذلك على غير ما يحدث في المجتمعات غير الإسلامية اليوم التي تتفشّى فيها الفاحشة بسبب الحاجة إن حلّ جدب، ويكثُر فيها السوء نتيجة المجاعة إن ساد قحط، ويستبدّ الغني بالفقير، ويستعبد القوي الضعيف إن نزلت نازلة، بل يعيش المسؤول في رفاهٍ ونعيم، وتُبطره النعمة على حين تكون الرعية في حالةٍ بئيسةٍ، وحتى تتحلل أواصر الصلات التي تقوم عليها هذه المجتمعات من نسبٍ، أو طبقةٍ، أو مصلحةٍ، أو حزبيةٍ أو أيّة رابطةٍ من هذه الروابط المعروفة اليوم، والتي تُتخذ عنواناً للتفاهم أو الاتحاد، ويعيش كل امرئٍ لنفسه يُصارع ما يعاني.

وتزيد رابطة النسب في الإسلام رابطة أخوة العقيدة متانةً وحبكاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾[2]. ولا شيء سوى رابطة النسب تزيد في أخوة العقيدة. أمّا إذا اتفقت صلة الرحم واختلفت العقيدة فلا وزن للقرابة أبداً، وإنّما يعيش الذين لا يدينون بالإسلام خارج نطاق دائرة العقيدة بعيدين عن أقربائهم المسلمين، إمّا خارج حدود دار الإسلام نهائياً إن كانوا على الشرك أو في داخلها إن كانوا من أهل الكتاب، ولكن في دائرة تمسّ دائرة العقيدة من غير أن تتداخل فيها.

ولننظر إلى بعض أحداث التاريخ حيث يأتي التطبيق العملي للأخوة التي جاء بها الإسلام، وكما فهمها أصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، إلى المدينة آخى بين المسلمين، المسلمين جميعاً ليكونوا كتلةً واحدةً، ولم يُؤاخ بين المهاجرين والأنصار في سبيل المساعدة المادية كما يتصوّر بعضهم، وإنما كانت المساعدة المادية نتيجة المؤاخاة. لقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين ابن عمّه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر، وآخى بين عمه الحمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وآخى بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود الهذلي وكلاهما مهاجر، وآخى بين بلال بن رباح وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وآخى بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وجعفر غائب في الحبشة هذا إضافة إلى رواية المؤاخاة بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت مؤاخاة بين أنصاري وآخر، فلو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجرٍ وبين عددٍ من الأنصار كي يمكنهم مساعدة المهاجر بشكلٍ أفضل، وخاصةً أن الأنصار أكثر عدداً، ويُشكّلون ثلاثة أمثال المهاجرين، أو لآخى بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين حيث يوجد بين الأنصار فقراء، كما يوجد بين المهاجرين أغنياء أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان و. . . . غير أن إيثار الأنصار، رضوان الله عليهم، وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى الجانب الاقتصادي فقط، ويُركّزون عليه، وهذا ما جعل المستشرقين يعتمدون على هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين، وقد نردد نحن هذا دون علم ومن غير دراسة.

وعلى كلٍّ فإنّ المؤاخاة التي شملت المهاجرين والأنصار قد قوّت من أخوة العقيدة وأضعفت ما بقي من رواسب رابطة القرابة والجنس، فالمهاجرون الذين بعضهم أقرباء بعض قد غدا إخوانهم من الأنصار، والأنصار أصبح إخوانهم من المهاجرين، وبذا أضحت أخوة العقيدة هي الوحيدة، ويمكن ملاحظة وصية حمزة بن عبد المطلب التي كتبها قبل غزوة أحد لأخيه في العقيدة زيد بن حارثة. وتسجيل بلال بن رباح لحقه في الغنائم لأخيه في العقيدة عبد الله بن عبد الرحمٰن الخثعمي، إذ لم يكن

لبلال عقب، وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين.

ومن إيثار الأنصار ونتائج الأخوة في العقيدة قال عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه: «آخى رسول الله ﷺ، بيني وبين سعد بن الربيع، فقال لي سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقاسمك مالي شطرين، ولي امرأتين، فانظر أيتهما شئت، حتى أنزل لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها[1]، فقلت: لا حاجة لي في ذلك، دلّوني على السوق، فدلّوني على سوق بني قينقاع، فما رحت حتى استفضلت إقطاً وسمناً»[2].

هذه الأخوة بدأت نظريةً ثم غدت عمليةً طُبّقت فيما ذكرنا على الجانب المادي، ولكن النفس البشرية قد تكون أغلى بكثير من المادة عند بعضهم، فلننظر التطبيق عندما يبدأ القتال، وكيف يجود الإنسان المسلم بنفسه لينقذ أخاه في العقيدة، وكيف يُضحّي بأبيه وأخيه وأقربائه جميعاً ليحمي عقيدته، ويُدافع عنها، وكيف يقف بجانب إخوانه في العقيدة ضدّ أهله وعشيرته ما داموا يُخالفونه في العقيدة.

وكانت معركة بدرٍ الكبرى أولى هذه المعارك التي دارت بين المسلمين من مهاجرين وأنصار وبين قريش التي يضمّ جيشها أقرباء المهاجرين من آباء، وأبناء، وأبناء عمٍّ، وعشيرة، وما إلى ذلك من أواصر الدم، والنسب، والقربى، وعصبية الجنس، والمولد، والمصلحة، والسكن، وكل ما في الدنيا من روابط باستثناء رابطة العقيدة.

دعا عتبة بن ربيعة من المشركين يوم بدر إلى المبارزة فقام إليه من بين المسلمين ابنه أبو حذيفة، رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: اجلس. فلما قُتل عتبة بن ربيعة كان أبو حذيفة بن عتبة قد أعان على أبيه

---

(١) قال سعد هذا لعبد الرحمن، رضي الله عنهما، بعد حديثه مع زوجتيه وموافقتهما على ذلك، وأن نساء الأنصار كانت كرجالهن أهل إيثار، ويحبون من هاجر إليهن، ويؤثرونهن على أنفسهن ولو كان بهن خصاصة.

(٢) أخرجه البخاري.

بضربة. فقالت أخته هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب:

الأحول الأثعل المشؤوم طائره   أبو حذيفة شرّ الناس في الدين
أما شكرت أباً رباك من صغرٍ   حتى شببت شباباً غير محجون؟

وقد قُتل في أول مبارزة عتبة بن ربيعة (والد أبي حذيفة)، وشيبة بن ربيعة (عمّه)، والوليد بن عتبة (أخوه). فلما أُلقي عتبة والد أبي حذيفة في القليب تغيّر وجه أبي حذيفة، فقال له رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء». فقال أبو حذيفة: لا والله، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ، بخير، وقال له خيراً.

ونادى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ابنه عبد الرحمن، وهو يومئذٍ مع المشركين، فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق غير شكّةٍ[1] ويعبوب[2]   وصارم يقتل ضلّال الشّيب

ودعا عبد الرحمٰن أباه إلى المبارزة، فقام إليه أبو بكر ليُبارزه، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما علمت أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري».

وقصد والد أبي عبيدة ابنه أبا عبيدة ليقتله فولّى عنه أبو عبيدة لينكفّ عنه فلم ينكفّ عنه، فرجع عليه وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

---

(١) الشكة: السلاح.

(٢) اليعبوب: الفرس الكثير الجري.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

هذه رابطة الأبوة، والبنوة، والعمومة وهي أعظم روابط الدم والنسب، وقد انهارت وتحطّمت أمام أخوة العقيدة التي لا توازيها وشيجة أخرى في الدنيا مهما كانت صفتها. وذلك لأنها ناتجة عن معتقدٍ في القلب بينما تقوم الوشائج الأخرى على العاطفة أو المصلحة أو الهوى أو العصبية أو. . . .

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لسعيد بن العاص، رضي الله عنه، وقد مرّ به: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظنّ أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه[1] فحدث عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله. فقال له سعيد: «لو قتلته لكان على الباطل وأنت على الحقّ.

وكان بين أسرى قريش يوم بدر أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير، رضي الله عنه، لأمه وأبيه، وكان الذي أسر أبا عزيز رجل من الأنصار يدعى أبا اليسر، وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدرٍ بعد النضر بن الحارث، ومرّ مصعب بن عمير بأخيه الأسير فقال للذي يأسره: شدّ يديك به فإن أمّه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لشقيقه مصعب: يا أخي، هذه وصايتك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر فمنهم من أشار بالفداء كأبي بكر، رضي الله عنه، إذ قال: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. ومنهم من أشار بالقتل مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، فمما قاله عمر، رضي الله عنه: والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكني أرى أن تُمكّني من فلان ـ قريب

---

(١) الروق: القرن.

لعمر ـ فأضرب عنقه، وتُمكّن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتُمكّن الحمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

ونلاحظ في هذه الوقائع إصراراً على ترك العواطف، وتخلّياً واضحاً عن العصبيات، وتحدّياً سافراً لكل مُقوّمات المجتمع الجاهلي التي تقوم على التعصّب للقبيلة، والدفاع عنها بكل الإمكانات، والفخر بالانتساب إليها، ثم الذود عن الأسرة سواء أكان بالحقّ أم بالباطل، والموت في سبيل رفعتها وسمعة العشيرة. ثم نلاحظ التأكيد على الأخوة في العقيدة، والعمل على حماية الإسلام، والجهاد في سبيل الله لنشر الدين وكل هذه أفكار جديدة طرحها الإسلام، وأصبحت مبادئ لأبنائه الذين تركوا المبادئ الجاهلية وتخلّوا عنها، واعتقدوا أن مبادئهم الجديدة ستبقى سبب نجاحهم وانتصاراتهم، فإذا تراخت نفوسهم عن حملها ضعف كيانهم، وانحطّ مجدهم، وبدأت تزول دولتهم وفي الوقت نفسه تعود الأفكار الجاهلية للظهور والانتشار. وبمقدار ما تتوسّع أفكار أحد الجانبين تضمر أفكار الجانب الآخر.

وفي سنة ست كانت غزوة بني المصطلق على ماءٍ لهم يُسمّى: «المريسيع» فبينما رسول الله ﷺ، على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أجير له من بني غفار يُدعى: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، منهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال عبد الله بن أُبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدُّنا وجلابيب[1] قريش إلاّ كما قال الأذلّ: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن

(١) الجلابيب: اسم كان يلقب المنافقون به المهاجرين.

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع زيد بن أرقم ما قاله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول وشعر بأخوة الإسلام، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، وأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال عمر لرسول الله ﷺ، مر به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذّن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يترحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به. وكان ابن أُبيّ في قومه شريفاً عظيماً. فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار لقيه أُسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فحيّاه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟». قال أسيد: وأي صاحب يا رسول الله؟. قال رسول الله ﷺ: «عبد الله بن أُبيّ». قال أُسيد: وما قال؟. قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ؟». فقال أُسيد: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنّه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وبلغ الخبر عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان شاباً مؤمناً، عرف حقيقة الإسلام، وفهم الأخوة الحقّة في هؤلاء القوم الذين يسير معهم، ويخالفهم في ذلك والده عبد الله بن أُبيّ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا

رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده منّي، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

ولما قفل الناس راجعين إلى المدينة أسرع عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ووقف على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاءه أبوه عبد الله بن أُبيّ قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال الابن: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان يسير ساقة (في مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة). فشكا إليه عبد الله بن أُبيّ ابنه. فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ. فقال الابن: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ، فجز الآن. وهكذا فقد استعلى عبد الله بإيمانه على كل آصرةٍ عرفتها البشرية فكانت أقربها إليه تحت قدميه وهي آصرة الأبوة التي تُعدّ أهم رابطة عند كل بني البشر.

وللنساء دور لا يختلف عن دور الرجال في هذا المجال، فقد خرج أبو سفيان من مكّة قاصداً المدينة ليُؤكّد صلح الحديبية أو ليزيد في مدته، خوفاً من أن يقوم المسلمون بردّ فعلٍ بعد أن اعتدت بنو بكر حليفة قريش وبدعم منها وتشجيع على خزاعة حليفة المسلمين، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه؛ فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنّي؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ.

وتمرّ النفس البشرية بمراحل من الضعف فيختلف المسلم مع أخيه، وتصطدم الجماعة المؤمنة مع الثانية، ولكن لا يلبث المؤمن أن يثوب إلى رشده عندما يُذكّر، وترجع الطائفة عن غيّها إذا ما نبّهت، وتقاتل إذا ما تمادت حتى تعود ولا يمكن أن ننزع صفة الإيمان عن هذا أو تلك.

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال عليه الصلاة والسلام: «تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

قال أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه: إني ساببت رجلاً فعيّرته بأمر فقال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم»(٢).

وأراد اليهود أن يحطّموا المؤاخاة التي تمّت بين المسلمين بإثارة العصبية وإيقاع الفتنة فمرّ أحدهم وهو شاس بن قيس على جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أزال الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساء هذا الودّ اليهود، فدعا شاس بن قيس أحد شباب اليهود وطلب منه أن يجلس مع هؤلاء النفر من الأنصار، ويذكر أمامهم يوم «بُعاث» وما قبله من أيام اختلف فيها الأوس والخزرج، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرّة، على حين غفلةٍ من أخوة العقيدة التي غرسها الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً، وقال: «يا معشر الأنصار، الله... الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

(٢) رواه البخاري.

به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم». فما أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى ثابوا إلى رشدهم، وانقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية.

وقد يتطوّر الخلاف ويستحكم، وتثور الفتنة، ويقع القتال، وعندها يقع أمر تحسمه أخوة العقيدة. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾[1]، إذ يُستباح قتال البغاة من المسلمين ليُردّوا إلى صفّ إخوان العقيدة، ولكن لا يُجهز على جريح، ولا يُقتل أسير، ولا يُتعقَّب مدبر ترك المعركة وألقى السلاح، كما لا تُؤخذ أموال البغاة غنيمة، ولا تُسبى الذراري لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما ردّهم إلى الصف، وضمّهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

هذا ما فهمه المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله ﷺ، والتابعين، والسلف الصالح جميعهم من معنى الأخوة في العقيدة فطبّقوها، وتمكّنوا بعد ذلك من تكوين المجتمع المتراص البنيان الذي يستطيع أن يؤدّي مُهمَّته في الحياة، وقد قدّموا ـ رضوان الله عليهم ـ الدور العظيم في إعمار الأرض، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

[٧] أهل الذمّة

يضمّ المجتمع الإسلامي أهل الذمّة ومن يلحق بهم إضافةً إلى المسلمين، ولا يوجد فيه أصحاب ديانات غير ذلك. إذ لا يسمح بإقامة عبدة الأوثان، والمشركين وما سواهم من عبدة البشر كالذين يؤلهون علي بن أبي طالب، أو عدي بن مسافر، أو الحاكم بأمر الله أو آغا خان أو.... بين أظهر المسلمين، وما عليهم إلا اختيار إحدى الطرق الآتية وهي: الرحيل، أو اختيار إحدى ديانات أهل الكتاب وما يتبعهم من المجوس، أو الإسلام، أو السيف. وعلى هذا فالمجتمع الإسلامي خالٍ من تعدد أصحاب العقائد والديانات المتباينة.

ولا يُشكّل أهل الذمّة في المجتمع الإسلامي طبقةً خاصةً ـ كما يحلو لبعضهم أن يكتبوا ـ لأنه لا يوجد في الإسلام طبقات، كما أنهم ليسوا فئةً أو مجموعةً خاصةً، بل هم جزء من المجتمع، وقد وصّى بهم رسول الله ﷺ، قال جويرية بن قدامة التميمي: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قلنا: أوصنا يا أمير المؤمنين، قال: «أوصيكم بذمّة الله فإنه ذمّة نبيكم ورزق عيالكم»[1]. وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنّة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[2]. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من آذى ذميّاً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه الخطيب.

إن أهل الكتاب مُجرّد أن وافقوا على دفع الجزية وأدّوها أصبحوا في حماية المسلمين، وإن عجز المسلمون عن الدفاع عنهم أعادوا إليهم الجزية، كما ردّها أبو عبيدة، رضي الله عنه، لأهل حمص عندما لم يستطع حماية أهلها، وهم من أهل الكتاب، غير أن أهل حمص رأوا في هذا عدلاً لم يروا مثله، ولم يسمعوا به إلا من المسلمين، لذلك أبوا أخذ ما أُعيد لهم، وقالوا لعدلكم أحبّ إلينا من هرقل وجيشه وإن كنّا على دينهم، وإنّا لندفع عن المدينة جند هرقل مع ما تتركوه لنا من قوةٍ وأميرٍ. فالجزية التي تُؤخذ من أهل الكتاب من أجل حمايتهم[1] ـ والله أعلم ـ.

إن أهل الكتاب مُجرَّد أن وافقوا على الجزية أصبح بينهم وبين المسلمين عهد، والعهد هو الذمّة، ويقضي أن يحمي المسلمون أهل الكتاب مقابل الاعتراف بالخضوع لقوة المسلمين وسلطانهم، وعدم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وعدم خيانة المسلمين بالاتصال مع أعدائهم، أو إخفائهم، أو إرشادهم على عورات المسلمين، أو القتال مع أعداء المسلمين. وعدم إيذاء المسلمين ببيع المحرّمات أو نقلها كالخنزير، والخمر و... وعدم شتم النبي أو سبّه، وفي الوقت نفسه لا يبنون كنائس جديدة، ولا يرفعون صلبانهم، ولا يُشاغبون على المسلمين برفع أصواتهم عليهم من الكنائس أو غيرها، وما عدا ذلك فهم جزء من المجتمع من حيث المعاملة لا ينالهم أذى، ولا يقع عليهم ضرر، ولا تصيبهم إهانة، ولا يمنعون من عمل باستثناء الولاية العامة. وليس في هذا الذي ذكرنا عن ضرورة القيام به أيّ هضم لحقٍّ من حقوق أهل الكتاب.

إنهم يدفعون الجزية لقاء حمايتهم، ويُؤدّي المسلمون مقابل ذلك الجهاد، ويُعرّضون أنفسهم للقتل، على حين لا يقوم أهل الكتاب بشيءٍ من هذا بل ليسوا مسؤولين عن الدفاع والحماية ما داموا يعيشون في منعة

---

(١) هناك خلاف بين الفقهاء، هل الجزية ضريبة عادية، أو ضريبة قهرٍ وإذلالٍ، أم للحماية والدفاع عنهم، أم لعدم مشاركتهم في القتال، أو أجرة سكن... وقد نزلت آية الجزية في العام التاسع لذلك لا نستطيع أن نستشهد بالأحداث التي سبقت ذلك العام.

المسلمين، والمسلمون أهل البلاد، وهم المسؤولون عن الذود عن ديارهم، وإذا كان للمسلمين أجر في الشهادة التي يحصلون عليها إن قُتلوا، وثواب عظيم في قتالهم ضد أعدائهم، غير أن أهل الكتاب لا يُؤمنون بهذا، وحتى لو أدّوا ذلك لما حصلوا على الأجر لأن الثواب على الإيمان لا على القتال المجرّد. وكم من رجالٍ قاتلوا حميةً أو شجاعةً، أو دفاعاً، أو سمعةً فما كان لهم شيء من الأجر، بل كانوا من أصحاب النار.

إنهم يدفعون الجزية مقابل عدم قتالهم، وإن أكثر الناس في هذه الأيّام الذي ضعف فيها الإيمان، وبطل الجهاد، وأصبح قتالاً لمصالح الحكّام وتنفيذ آرائهم ليتمنون دفع مبالغ من المال في سبيل أن يُعفوا من الجندية في البلدان التي تُطبّق نظام الجندية الإلزامي، فما دام الأجر مفقوداً فشأن القتال عند المسلمين وأهل الكتاب واحد، فالبدل المالي أولى وأحبّ إلى النفس، وهو يتم أصلاً عند أهل الكتاب، فهو كما يرغبون وكما تتطلبه مصالحهم.

إنهم يدفعون الجزية، ويدفع المسلمون الزكاة، ويدفعون الصدقات، وليس على أهل الكتاب شيء من هذا الدفع، لأن الزكاة والصدقة ترتبط بالإسلام، ولا يعتنق أهل الكتاب الإسلام كي يدفعوا هذا، فلو أسلموا لوجبت عليهم، وليس من المعقول أبداً أن يدفع المسلمون الزكاة، والصدقة، ويقاتلون الأعداء وجزء من المجتمع الذين يعيشون فيه لا يُؤدي شيئاً، ومن هنا فرضت عليهم الجزية أيضاً.

إن أهل الكتاب الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي من الأصل لا يحبّون إن كانوا صادقين في ولائهم للمجتمع الذي يحيون داخله أن يقاتلوا الأعداء مع المسلمين، لأن الأعداء الذين يُقاتلون إنما هم غالباً من النصارى أو اليهود، والنصارى واليهود بعضهم أولياء بعض، واليهود والنصارى وإخوانهم الذين يسكنون في وسطٍ إسلاميٍّ أبناء عقيدة واحدةٍ، فاحتراماً للعقيدة التي تربط بعضهم مع بعض لا يريدون قتالهم بل يصعب عليهم حربهم، وإخلاصاً للمسلمين الذين يحمونهم، ويسكنون معهم فلا يخونونهم، ولا يُقاتلون بجانب خصومهم.

هذا بالنسبة إلى دفع أهل الكتاب للجزية وعدم قتالهم مع المسلمين،

ويبدو لي أنه طبيعي جداً، وليس فيه أية إهانةٍ لهم بل من متطلباتهم ومصلحتهم. ولكن عندما يُحرم المرء شيئاً يبدأ بالمطالبة ولو كان فيه ضرر له، ويتكلّم الأعداء في هذا الموضوع ويُثيرون حوله الشكوك. ولو طلب منهم القتال لطالبوا بإعفائهم واتخذوا الأعذار، وذكروا عدم إمكاناتهم في قتال أبناء عقيدتهم. وإذا فُرض على الإنسان شيء لاحتجّ على ذلك ورأى فيه الإهانة، ولو رُفع عنه، وسُوّي مع الآخرين لطالب ببقائه. ولذا كانت الجزية ضريبةً على قهرهم وإذلالاً لهم ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، حتى لا تكون مطالبات واحتجاجات ولكن هذا لا يمكن أيضاً أن يُبعد الأعداء عن النقد، فلا بدّ لألسنتهم من أن تفتري الكذب، ولا بدّ لأقلامهم من أن تُشوّه الحقائق ـ إن استطاعت ـ، وتُحاول خديعة الناس.

أما عدم وقوفهم في وجه الدعوة الإسلامية فأمر طبيعي ما دام المسلمون هم الحكّام، ونظامهم هو النافذ، وفي الوقت نفسه فهم المسؤولون عن الأمن. والدعوة الإسلامية لا تضرّ بأهل الكتاب، ولا تمسّ عقائدهم لأن المسلمين يُؤمنون أن موسى وعيسى أنبياء من عند الله، أرسلهما الله لقومهما بني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، ومن يؤمن بنبيٍّ فلا يمكن أن يتكلم عنه بسوء، وإن فعل خالف عقيدته، وعليه إثم عظيم، ولا يُمكنه أن يتهجّم على كتابٍ يعتقد أنه من عند الله، وإن فعل ذلك، فعليه إثم، ويُشكّ في عقيدته. مع الاعتراف بأن بني إسرائيل قد حرّفوا ما أُنزل عليهم في التوراة والإنجيل.

وأما عدم خيانة المسلمين فهم والمسلمون سواء، فمن خان الدولة التي يعيش في ظل نظامها، أو اتصل بأعدائها، أو أخفى أحدهم، أو دلّ الخصوم على عورات المسلمين، أو قاتل مع الأعداء، فإنه خائن سواء أكان

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

مسلماً أم نصرانياً أم يهودياً أم مجوسياً ويُحاكم ويُقام عليه الحدّ على درجةٍ واحدةٍ، إذن لا توجد أية ميزةٍ لصاحب عقيدةٍ معينةٍ على ذي دينٍ معينٍ.

وأما عدم إيذاء المسلمين فهو من باب عدم إيذاء الجار، وعدم إدخال عليه ما يكره فكيف إذا كان شيئاً يمسّ العقيدة كالخنزير، والخمر! فإنه أمر صعب، وحتى لا يظلم المسلمون أهل الكتاب فيحرّمون عليهم ما هم بمُحرّميه يُفضّل أن يسكن أهل الكتاب في أحياء خاصة، ويُمكنهم عند ذلك في أحيائهم أن يتعاطوا الخمرة أو لحم الخنزير من دون أن ينقلوه إلى الأحياء الإسلامية وأن يبيعوه فيها، أو يجاهرون بذلك.

وأما عدم شتم رسول الله ﷺ، فمن باب عدم إيذاء الجار، واحترام العقيدة، والمعاملة بالمثل، ولما كان المسلم لا يُمكنه بصورةٍ من الصور أن يسبّ موسى أو عيسى، عليهما السلام، ما دام يعتقد أنهما نبيان من عند الله، والإسلام لا يفرّق بين أحدٍ من رسل الله، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[1]، وكذا فعلى أهل الكتاب ألا يفعلوا شيئاً فيه إهانة أو تحقير لرسول الله ﷺ.

أما الكنائس، والبيع، والصوامع... فتبقى كما هي قبل أن يُصالح أهلها، ويخضعوا لحكم المسلمين، ويقبلوا دفع الجزية. فإن دخل المسلمون البلد عنوةً تصرّفوا بأماكن عبادة أهل الكتاب حسبما يرى الإمام، وإن دخلوا سلماً فتبقى على ما هي عليه، ولا يُضاف لها جديد لأنه بدأ تطبيق النظام الإسلامي، وما دامت السيادة للمسلمين فلا يحقّ لأهل الكتاب بالتعالي عليهم برفع الصلبان مثلاً على الكنائس وهو يدل على النظام القائم، وكذلك رفع أصوات النواقيس فهي إضافة إلى دلالتها على النظام ففيها أيضاً شيء من التحدي والإساءة للمسلمين، وهذا لا يقبله نظام، ويأباه حسن الجوار، وتمنعه السيادة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وما استقام أهل الكتاب على عهدهم عاشوا في أمنٍ وطمأنينة وراحةٍ وهدوءٍ واستقام المسلمون على حمايتهم، وإذا نقض أهلُ الكتاب عهدهم بإخلال أي شرطٍ من شروطه عُدّوا محاربين، ويمكن للمسلمين طردهم أو قتلهم، وربما عفا المسلمون عنهم، ولا شك فإن نقض العهد الفردي يُؤدّي إلى عقوبةٍ فرديةٍ خاصةٍ بالمخالف الذي ينقض العهد، والمخالفة الجماعية تُؤدّي إلى عقوبة الجميع دون استثناء، وهذا أمر طبيعي، وحكم عادل.

والجزية التي تُفرض على أهل الكتاب تُفرض على القادرين على القتال إذ لا تُضرب على الأولاد قبل البلوغ، ولا على النساء، ولا على الرهبان المُتفرّغين للعبادة، ويرى بعض الفقهاء أن يُعفى منها الفلاحون المرتبطون بأرضهم والذين لا يشاركون في القتال.

وليست الجزية متساويةً على الرؤوس، وإنما تختلف بين الفقير والغني والمتوسط الحال. وإذا ما عجز رجل من أهل الكتاب عن الدفع لشيخوخةٍ أو مرضٍ أو. . . . فإنه يُعفى منها بل على الدولة أن تُعينه مادياً. ومعروف أن عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه، رأى سائلاً من يهود، فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ فقال: الجزية، والحاجة، والسن، فأعطاه، ثم ذهب به إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شيبته، ثم خذلناه عند الكبر.

وخوفاً من أن يؤخذ أحد أهل الكتاب مباشرةً ظنًّا من المسؤولين أو الناس أنه مسلم، ويُعاقب لارتكابه بعض الأعمال المخالفة للإسلام لذا من الأفضل أن يكون لباس أهل الكتاب خاص بهم، ويجب ألاّ يتشبهوا بالمسلمين.

ويُثير الأعداء أهل الكتاب لرفض النظام الإسلامي ما دام هو نظام مجموعةٍ أخرى يعيشون معها، تختلف معهم في العقيدة، وتُحاول تطبيق نظامها، وهو ينبع من عقيدتها التي لا يُؤمن بها أهل الكتاب سواء أكانوا نصارى أم يهوداً. وإذا كان أهل الكتاب لا يُؤمنون بالإسلام، ولا يأخذون منهجه عقيدةً، ولكن ماذا يُضيرهم لو اتخذوه نظاماً دون الإيمان به عقيدةً ما

دام يُحقّق لهم كل ما يرغبون، وقد عاشوا في ظلّه دهراً طويلاً شعروا بالراحة والطمأنينة، وأحسّوا بالأمن والإستقرار، وما شعروا هذا الشعور في ظلّ أيّ نظام آخر. إن إخوانهم يُقيمون في بقاعٍ كثيرةٍ من الأرض وفي ظلّ أنظمةٍ وضعيّةٍ ينتقدونها باستمرار ويأخذون عليها في أنها لا تُقدّم لهم ما يطلبون، وتتبدّل على الدوام وإذا حقّق لهم قانون ناحيةً أفقدهم عدداً آخر يرغبون فيه. أمّا النظام الإسلامي فيُؤمّن لهم الذي يُريدون ودون انتقادٍ، وثابت لا يتبدّل، فما يمنعهم من قبوله نظاماً ولو كان المسلمون يعدّونه عقيدةً، ويحرصون على تطبيقه من هذا الجانب؟.

والمشكلة التاريخية هي المهمة في هذا الميدان، أهل الكتاب نعموا في ظلّ الحكم الإسلامي بكل ما يتمنّون وكان المسلمون أقوياء، وعندما ينقض أهل الكتاب العهد يجدون العفو، وعوضاً من أن يُقلعوا عن عادة النقض بعد حسن المعاملة والمقابلة بالعفو كانوا يزدادون إصراراً على النقض، ويعدّون ذلك قوةً واحتراماً لدينهم، وكلما وجدوا في المسلمين ضعفاً ظاهروا عليهم أعداءهم، وأبدوا تمرّداً، فقد كان لهم دور مع الصليبيين في الحروب الصليبية، ومثله مع المغول، واستمرت صلتهم مع الدول النصرانية مع ضعف المسلمين حتى كانت الحروب الصليبية الاقتصادية (الاستعمار) فكانوا أعواناً للأعداء، وعيوناً لهم، ولا يزالون كذلك.

ولما كان هذا كله نقض للعهد، فقد أصبحوا محاربين، ولم يعد بيننا وبينهم عهد ولا ذمّة، ويُمكن للمسلمين إخراجهم أو قتلهم، غير أن ضعف المسلمين جعلهم لا يستطيعون هذا، كما أن المسلمين قد ساروا في طريق غير إسلامية، فاتخذوا العصبية (القومية) مبدأ لهم، أو الاشتراكية، أو الرأسمالية، وغدوا مع الأسف في منأىً عن دينهم. ولو طبّقنا الإسلام، واستمرّ اليهود والنصارى على فعلهم هذا فما عليهم إلا الرحيل أو السيف.

كما كان المجتمع الإسلامي الأول يضمّ الأرقاء والسبايا، ولكن هذا لا يوجد اليوم، لذا لا أرى ما يدعو لبحثه.

[٨] اللغة

لا بدّ لكلّ أُمَّةٍ من لُغةٍ يتفاهم بها أفرادها بعضهم مع بعض، ويُؤدّون شعائر عبادتهم بها، وينقل سلفهم إلى خلفهم ما خطّوه من فكرٍ، وما صاغوه من بيانٍ، وما حقّقوا من نصرٍ. وإذا كانت الأُمّة كبيرةً فقد يتكلّم أبناؤها أكثر من لُغةٍ وذلك حسب الشعوب التي تتألّف منها، فالأُمّة ـ كما مرّ ـ مجموعة من الناس تعتقد عقيدةً واحدةً على مدى التاريخ ـ فقد تعتقد مجموعة من الشعوب عقيدةً معينةً، لانسجامها مع الفطرة كالإسلام، أو نتيجة توسّعٍ بالغزو والقتال، أو بالتجارة كالبراهمية، أو تحت تأثير السيطرة كالنصرانية، وقد تنحصر في شعبٍ واحدٍ.

والأُمّة المسلمة يمتدّ أبناؤها على رقعةٍ واسعةٍ من الأرض. وتنضوي فيها عدة شعوب لكلٍ منها لغته التي يتخاطب أفراده بها. ولما كانت الأُمّة بعقيدةٍ واحدةٍ فإنها تُؤدّي الشعائر بلغةٍ واحدةٍ، وتقرأ كتاب الله بلغةٍ واحدةٍ، وحديث رسول الله باللغة نفسها، وهي العربية، لذا فإنَّ اللغة العربية يجب أن تكون معروفةً لدى الأُمّة كلّها. ولما كان لكلّ شعبٍ لغته الخاصة، لذا فإنَّ كلّ شعبٍ يتكلّم لغته، ويتعلمها وفي الوقت نفسه يدرس اللغة العربية كلغةٍ للعقيدة حيث يُؤدّي عبادته بها، ويدرس حديث رسول الله بها، حيث هو المصدر الثاني للتشريع، ويتعلّم الفقه، حيث دوّنت المذاهب الفقهية بالعربية أيضاً، ولا تُغني الترجمة. وبذا يكون لكلّ شعبٍ لغتان، لغة المخاطبة، والتعليم، والإدارة وهي لغة الشعب، ولغة العبادة أو لغة الدين وهي العربية وتعدّ اللغة الثانية للشعب، ولكن عليه تقويتها حتى تصبح الأولى في سبيل فهم العقيدة بشكل صحيح، أما الشعب العربي فله لغة واحدة، وما دامت العقيدة قويةً فلا يُخشى على لغة الدين أو العربية من

الضياع، بل تتوسّع باستمرار، وقد تصبح اللغة الوحيدة للشعب، إذ تضعف لغة الشعب تدريجياً، وهذا ما حدث للغات بعض الشعوب عندما كانت الدولة الإسلامية في أوج ازدهارها، إذ ضعفت الفارسية، والأفغانية، والتركية وغدت اللغة العربية الرسمية، وهي الأولى، وتعدّ لغات بقية الشعوب هي الثانية.

وهناك شعوب لا لغات لها إذ تتحدث بلغةٍ أجنبيةٍ هي لغة الاستعمار حيث فرضها عندما كانت له الهيمنة والسيطرة، كالشعوب التي تستعمل اللغة الفرنسية في غربي إفريقية ووسطها مثل: السنغال، ومالي، وتشاد، والنيجر، وساحل العاج، وإفريقية الوسطى، والداهومي، وغينيا و. . . والشعوب التي تستعمل اللغة الإنكليزية مثل غامبيا، وسيراليون، ونيجيريا، وتانزانيا، إضافةً إلى الشعوب التي تتكلّم لغاتٍ أخرى مثل غينيا ـ بيساو التي تتحدث بالبرتغالية. إنّ هذه الشعوب لا تلبث أن تصبح لغتها العربية هي الرسمية، لأنّها تضمّ عدة قبائل لكلّ قبيلةٍ لغتها الخاصة، وهي على مستوىً صغيرٍ، فتعمّ فيها العربية مع بقاء عدة لغاتٍ محليةٍ كالهاوسا والفولاني والماندينغ و. . . . ومن الأفضل لها أن تصبح عربيةً لمستوى اللغة العربية وعالميتها ولأنها لغة العبادة ومن الضروري معرفتها أصلاً.

إنّ بعض الشعوب لها لغات ولكن ليس لها حرف تكتب به لغتها، وذلك بسبب ضعف مستوى اللغة، ومن الأفضل اتخاذ الحرف العربي لكتابة لغتها إن رغبت في المحافظة عليها فإن هذا يُسهّل عليها تعلّم اللغتين العربية والمحلية ما دامتا بحرفٍ واحدٍ. وقد دوّنت بعض الشعوب لغاتها بالحرف العربي في أيام ازدهار الدولة الإسلامية سواء أكانت لغات ذات حضارةٍ كالفارسية أم لغات عادية كالتركية والأندونيسية وبعض لغات الشعوب في جنوب شرقي آسيا مثل مناطق جنوب الفيليبين، وفطاني وغيرها. وبقيت هذه اللغات بالحرف العربي إلى هذا اليوم كالفارسية، والأُردو، وفطاني و. . . . وبدّل المستعمر بعضها الآخر إلى الحرف اللاتيني بعد أن أقدم مصطفى كمال، وغيّر اللغة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني،

فتشجّعت هولندا في أندونيسيا وروسيا في وسط آسيا وقامتا بالفعل نفسه.

إن كتاب الله، وحديث رسول الله عندما يُترجم من اللغة العربية إلى لغةٍ أُخرى لا يُعدّان قرآناً وحديثاً وإنما تفسيراً، والتفسير لا يعبد به لذا لا بدّ من قراءة القرآن بالعربية سواء أكان ذلك في الصلاة، أم في التلاوة للعبادة. أما الحديث، وإن كان وحياً، فلا يُتعبّد بقراءته ولكن يُقرأ كما حدّث به رسول الله ﷺ، أمّا الترجمة فهي معنى للحديث لا الحديث نفسه.

فاللغة العربية للمسلمين مرتبطة بالعقيدة، وكل محاولة لإحلال لغة أخرى محلها، أو إنزال اللغة العربية عن مكانها بإدخال غيرها تعليماً أو كلاماً أو حرفاً فإنه هو تهديم وحرب للإسلام، وإن تظاهر المسؤول بغير ذلك.

[٩] المُسْلِم ومحيطُه

نشأ رسول الله ﷺ، في مُحيطٍ جاهلي، وبدأ دعوته وحده فآمنت به مجموعة صغيرة بالنسبة إلى أهل مكّة، فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى للأمة المُسلمة، وكانت حياتها في ذلك الوسط الأُنموذج الذي يجب أن يسلكه كلّ مُسلم يعيش وسط مُجتمع يختلف معه في العقيدة، ويتميّز عنه في السلوك، فدراسة حياة تلك الفئة في تعاملها مع مُجتمعها تُعطينا الصورة التي يجب أن تسير عليها الأقليات المُسلمة مع مُجتمعاتها، والدُّعاة في بيئاتهم، والمُضطهدون في مُحيطهم، والمجموعة التي تُحكم من قِبَل قومها المُخالف لها في المنهج.

لم تكن المجموعة الإسلامية الأُولى تشعر أن مجتمع مكّة هو المجتمع الجاهلي فقط، وإنّما كان مجتمع الجزيرة يلفّه بجاهليةٍ أخرى ومن ثم فالعالم كلّه يعيش في تلك الجاهلية ويُطوّق الجزيرة أيضاً، وإن كانت الجاهلية تختلف بين منطقةٍ وأُخرى إلاّ أن لها سماتٍ واحدةً، وهي طُغيان السلطة، أو المال، أو الشهوة، أو النفوذ والقوّة، أو الجاه والمنصب، أو تحكّم دينٍ ما أنزله الله فاستبدّ الكاهن باسم الآهلة، وطغى وتسلّط، وفعل رجاله ما يفعله غيرهم من الطغاة، وقد تجتمع عدّة أمورٍ معاً، وبشكلٍ عامٍ فقد شرّع الطغاة ما لم يأمر به الله، شرّعوا حسب أهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم، فأذلّوا الضعفاء والفقراء، وهتكوا الأعراض بل استبدّوا بالمجتمع كلّه فكانوا يستعبدون من الرجال من شاءوا، ويصطفون من الفتيات من اختاروا، ويأخذون من الأموال ما أرادوا، ويُسلّطون من رغبوا على من رغبوا، ويعدّون هذا حقًّا لهم من عند الآلهة أو بما امتازوا به، فكان المجتمع لذلك قطيعاً من السوائم تتحكّم فيه مجموعة مُتعاونة من الذئاب.

هذا المنهج الذي كان يسير عليه الناس أو المُتعارف عليه بينهم، أو الأعراف التي يبنون عليها أحكامهم، أو التي يدّعون أن الآلهة منحتهم إيّاها، أو كلّفتهم بتنفيذها هو الجاهلية، أو أن الأحكام التي تُشرّع حسب الأهواء، والشهوات، والمصالح هي الجاهلية، أو أن الأحكام التي ليست من عند الله هي الجاهلية، إذن: إن كلّ القوانين الوضيعة التي تصوغها الأيدي البشرية إنّما هي أسلوب جاهلي، ومن يحتكم إليها فهو جاهلي، فالجاهلية هي التي تحكم بغير ما أنزل الله، وليست هي الجهل الذي يُقابل العلم، فالمجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله جاهلية ولو كانت على درجاتٍ واسعةٍ من العلم والتقدّم العلمي.

لقد رفضت المجتمعات القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح وأنِفت على ما يطلق عليها جاهلية، وظنّت نفسها أعلى من ذلك، إذ لديها معارف، وعندها عُلوم، فكيف يُطلق عليها جاهلية؟ ولم تنظر إلى واقع مجتمعها الذي يعيش في الحضيض، ويئنّ من الظلم يُحطّمه، والقابع فوقه بسبب أعرافٍ ونظمٍ شرّعها المتنفّذون حسب أهوائهم وشهواتهم. وكما رفضت المجتمعاتُ القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح فقد رفضته المجتمعات الحديثة وبشكلٍ أقوى وأعنف إذ كيف تكون جاهليةً وقد حقّقت تقدّماً رائعاً في العلم، وقطعت أشواطاً واسعةً في المعرفة، ووصلت إلى مرحلةٍ لم تصل إليها البشرية من قبل، وخاصةً في الآونة الأخيرة إذ كان تطوّرها سريعاً جداً، وعلى قفزاتٍ واسعةٍ، وتُنجز في القفزة الواحدة التي لا تزيد مدتها على العام إن لم نقل أكثر من ذلك على ما أنجزته البشرية في تاريخها الطويل بمراتٍ ومراتٍ؟ فأخذت المفهوم بالمعنى المقابل للعلم لذا فقد سخرت منه. ولننظر إلى المجتمعات الحديثة، إن عظام الفقراء تُسحق بآلات المُترفين المُتخمين الذين يسمعون صرير السحق فيرقصون على أنين صرعاهم ويطربون لصُراخهم. وإن الطائرات تنقل متتابعةً أفواجاً من الفتيات الشقراوات من أوربا إلى المشرق ليُتاجر الأثرياء بأجسادهن، وتؤوب حاملةً أفواجاً من الفتيات الصفراوات ليخدمن في بيوت الأغنياء، وإن رحى

الحروب تدور على جماجم الملايين لتدور مصانع السلاح، وتمتلئ خزائن تُجّاره، وتزداد دول الصناعة تُخمةً، وللسبب نفسه تنطلق الثورات، وتتصارع الطبقات. وإن الملايين من البشر تعيش سُكارى أو مُخدّرةً لينعم أفراد قلائل بأموال الناس، أو على مائدةٍ فيها فتاة باسم حرية المرأة وحرية التجارة. وإن مئات الآلاف من المسلمين وفي بلاد المسلمين لا يرون النور ولا يعرفون ما حولهم، يقبعون في السجون، وما كان ذنبهم إلاّ أن قالوا ربنا الله، وجاهروا بذلك فاستحقّوا ما هم فيه. إنّ كلّ هذا الذي يحدث ليس إلا جاهليةً، مهما ارتقى العلم، والجاهلية اصطلاح إسلامي يدلّ على تطبيق غير منهج الله فيُؤدّي إلى الظلم، ويجرّ الناس نحو الهاوية التي يتخبّطون فيها بلا وعي، ويعيشون في مياهها الآسنة القذرة التي تزكم الأنوف من روائحها الكريهة، وهذه قوانين من يحكم بغير ما أنزل الله فيشرّع حسب أهوائه وشهواته، وهذه النتائج، وهذه الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[1].

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تشعر أنّها فئة واحدة من دون الناس، وليس معنى هذا أنها من غير طينة الناس، أو أعلى منهم، فليست هي شعب الله المختار كما تعتقد يهود. والأفضلية عند الله، أما في الحياة الدنيا، فالناس سواء، وكلهم لآدم، وآدم من تراب، كما قال ﷺ، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾[2] فالتفضيل بالإيمان، والتقوى عند الله، والمساواة في الدنيا هي الأساس، ونظرة هذه المجموعة إلى أنها فئة واحدة من دون الناس في عقيدتها، وتصوّراتها، وأفكارها، وسلوكها، وعباداتها، ومعاملاتها و.... فهي بذلك مجموعة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وكانت تنظر نظرة الإشفاق على أهله، الإشفاق على أولئك الطغاة المتغطرسين الذين لا يكادون يصحون من سكرهم، لا يعرفون من حياتهم إلاّ الظلم أو الشهوة، لا يعدّون من أيام عمرهم إلا التي يُعربدون فيها أو يظلمون، قلوبهم قاسية كالصخر لا تعرف الرحمة، ونفوسهم لئيمة تُسرّ لهتك الأعراض والأستار، وتنظر المجموعة المسلمة نظرة الإشفاق على أولئك الضعفاء المقهورين الذين استذلّهم الطغاة، واستعبدهم العُتاة، فسخّروهم لخدمتهم وإرواء غرائزهم، وقد تمزّقت أجسادهم بالضرب، وماتت نفوسهم من كثرة ما أصابها من ذلٍّ وهوانٍ، وتحطّمت معنوياتهم لشدّة الاحتقار، ولم يكن لهم من أملٍ يُرتجى. كانت المجموعة المسلمة تنظر نظرة الإشفاق على هذا المجتمع، فتُريد له التغيير، وتدعوه إلى الإسلام فتستجيب بعض النفوس الطيبة، وأصحاب القلوب اللينة فكان يزداد عدد المجموعة المسلمة باستمرار. أما أصحاب القلوب القاسية التي لا تلين فكانت ترفض الدعوة، ولا ترضخ أصحاب النفوس اللئيمة بل تسخر من الدعوة، وتهزأ من أهلها، ومع هذا التعنت والعناد، وذاك اللؤم والسخرية فلم يزد المسلمين إلا إشفاقاً على مجتمعهم ورغبةً في هدايته، ويقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». ويحاول المسلمون إثارة عاطفة الجاهليين ومُخاطبة عقولهم، ولكن لم يزدهم هذا إلا استكباراً في الأرض وعتواً، فكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، ولم تكن تنظر إليه نظرة الازدراء والاحتقار رغم ما يبدو من رؤوسه من سوءٍ ولؤمٍ يصل أحياناً إلى الإساءة إلى رسولها الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أصعب شيءٍ على نفوس المؤمنين، ورغم ما يبدو من رؤوس الكفر من تعذيب إخوانها بأشد أنواع العذاب المعروف يومذاك، حتّى لقي بعضهم مصرعه فاستشهدت سُميّة زوج ياسر، وحتّى اضطر المسلمون إلى مغادرة ديارهم والهجرة إلى الحبشة مرتين فعاشوا هناك حياة

الغربة والتشريد، والغريب معذب أبداً إن حلّ لم يشعر بالراحة وإن ارتحل لم ينعم في رحلته، وحتّى قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب وحصرتهم في شعب أبي طالب، واضطروا أن يأكلوا ورق الأشجار والأعشاب، ومع هذا كله فقد بقي المسلمون يُظهرون الاحترام لأولئك الكفار، فيُنادون عمرو بن هشام «أبا الحكم» ولا يُنادونه بلقبه «أبا جهل». وإذا دُعي أحدهم أجاب، فقد أجاب رسول الله ﷺ، دعوة جاره عُقبة بن أبي معيط أحد رؤوس الكفر إلى طعام، طمعاً في هدايته. إن الاحتقار قد يُؤدّي إلى ردّ فعلٍ من قِبَل أولئك المتنفذين الطغاة، ويكون لهذا أثره على الدعوة، إذ يمكن أن يُقضي عليها ولم يشتدّ عودها، لذلك كان ما يُبديه المسلمون من حسن نيّة، وحسن معاملة، هو الحكمة، وهو الطريقة المثلى. وكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة واحدة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تكظم غيظها، وتصبر على الأذى، ولا تقوم بردّ فعل على تصرّفات الجاهليين. فقد كانت تكفي إشارة من رسول الله ﷺ، إلى أصحابه كي يقضوا على أي رأسٍ من رؤوس الكفر، بل ربما إشارة من كبار الصحابة إلى إخوانهم تفعل الفعل نفسه الذي تفعله إشارة رسول الله ﷺ، ولكن لم يُفكّر أحد بمثل هذا التصرّف لأنه قد تنهي حادثة واحدة الدعوة وأصحابها، وهذا ليس في مصلحة الإسلام، لذا كان الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، وتحمّل الشدائد، ومُغالبة النفس على المكاره إحدى سمات هذه المرحلة من تاريخ الإسلام، ولهذا كانت الجماعة الإسلامية الأولى تشعر أنها فئة واحدة دون سائر الناس.

عاشت الجماعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تتعامل معه بإسلامها، بأخلاقها، بسلوكها لا بأعماله وتصرّفاته، وكان رسول الله ﷺ، القدوة الحسنة لأصحابه، وكان رسول الله ﷺ، هو الصادق عند الجميع فيقول عنه الجاهليون: ما جرّبنا عليه كذباً، وهو الأمين

عند الجميع، فكان بيته مكان الأمانات لأعدائه وأصحابه على حدٍ سواء، إذ لم يعرف أعداؤه أكثر منه أمانةً يضعون عنده أماناتهم، ويقولون عنه: ما عرفنا عليه خيانة، وكان يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحقّ وكان أصحابه، رضوان الله عنهم، يقتدون به، وهذا ما رفعهم في أعين خصومهم رغم كراهيتهم لهم، وهو في الوقت نفسه ما جعل الإقبال على هذا الدين يزداد، إذ لا يرى الكفار في المسلمين إلاّ خيراً، ولا يسمعون منهم إلا خيراً، ولا يجدون في سلوكهم إلا فضلاً، وهذا يُشجعّهم على اعتناق الإسلام، وبذا كانت تشعر الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة واحدة من دون قومها.

إن الشعور من الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة وحدها من دون الناس قد زاد نتيجة تصرّف المشركين من قريش، وكانت مفاصلة شعورية بينها وبين قومها، مفاصلة شعورية لا واقعية إذ لو فكّرت بالمفاصلة التامة، واعتزلت المجتمع لما حقّقت ما أُمرت به، ولخالفت تعاليم رسول الله ﷺ، حيث يقول: «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يُخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(١). ولو اعتزل رسول الله ﷺ، قريشاً يكون قد خان الأمانة، ولم يُؤدّ الرسالة، ولم ينصح للأمة، ويستحيل عندها أن يكون رسول هذه الأمة وخاتم النبيين. وكيف تكون الدعوة مع العزلة؟. أما الهجرة فلا تكون إلا إلى بلدٍ يُطبق فيه شرع الله، إذ أصبحت هجرة المسلمين إلى المدينة واجبةً عندما أُقيمت فيها دولة الإسلام، أما بعد أن دخلت مكة في دين الله فليس السفر منها والانتقال بهجرة، وليس له أجر الهجرة «لا هجرة بعد الفتح». وتكون الهجرة واجبةً عندما يكون القصد منها إقامة دولة الإسلام في مكانٍ، كهجرة رسول الله ﷺ، وأصحابه الأوائل إلى المدينة بقصد تنفيذ أوامر الله، وإقامة دولة الإسلام هناك. وتكون الهجرة فراراً بالدين عندما لا يستطيع المسلم أن يحتمل الأذى ويصبر عليه

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد.

لشدته، كهجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة عندما اشتدّ عليهم أذى قومهم، ولم يكن رسول الله ﷺ، قادراً على حمايتهم. وما عدا ذلك فليس هناك من هجرة وإنّما دعوة، وجهاد، وصبر على المكاره. عن ابن عباسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[1]. إذن لا فرار وعزلة ونُسمّيها هجرة، ولا انتقال من مجتمع إلى آخر مثله إلا إذا اضطررنا، خوفاً من الفتنة في ديننا أو أُلزمنا إلى ذلك. ويجب البقاء ما دام المرء يستطيع أن يُؤدّي شعائره، ويدعو إلى الله. والمجتمع الصغير كالمجتمع الكبير، وما ينطبق على المجتمع القريب ينطبق على البعيد وبغضّ النظر عن اللغة التي يتكلّمها أبناء المجتمع، والجنس الذي ينتسبون إليه.

إن المجتمع الذي يدين أكثر أهله بالإسلام، ويُؤدّي أكثرهم أو بعضهم عبادته، وتُقام فيه الشعائر، ولكن لا يُطبّق منهج الله، ولا يُحكم بما أنزل الله، هل نعدّ هذا المجتمع كافراً؟ إننا لا نستطيع أن نعدّ هذا المجتمع كافراً، ولكننا في الوقت نفسه لا نعدّه مسلماً، لأن المجتمع المسلم هو الذي يُطبّق شرع الله، وهذا لا يُطبّقه، ولكن نُطلق عليه مُجتمعاً جاهلياً، وهذا هو الاصطلاح الإسلامي، ولو رفض أبناء هذا المجتمع هذه التسمية، كما سبق أن ذكرنا بأن الظنّ يتجه إلى الجهل الذي يُقابل العلم، إذن ليست المجتمعات التي نعيش فيها كافرةً، ولا تصحّ الهجرة منها إلا بالاضطرار - كما ذكرنا -. وليس معنى ذلك أن يقبل المسلم بالدنيّة وإنما عليه الصبر، والدعوة، والقوة حتى يأتي نصر الله.

لقد صبرت الفئة المسلمة الأولى على المكاره، وتحمّلت الأذى، وواصلت الدعوة حتى زاد عددها، وكثُر أتباعها، وقوي أمرها، واستعدّت، وأعدّت ما استطاعت من قوةٍ حتى جاء أمر الله، وطلب من رسوله الهجرة إلى المدينة حيث كثُر أنصاره، وهناك أُقيمت دولة الإسلام، واشتدّ

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد.

ساعدها، وجاء نصر الله، فانتصرت على أعدائها، وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً، وتمّت كلمة الله الحسنى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وهذا أسلوب المسلم مع محيطه وطريقته في التعامل معه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

[١٠] المدينة

كان تصوّر المسلمين للمدينة تصوّراً بسيطاً سليماً لا تعقيد فيه، تصوّر ينسجم مع عقيدتهم، ويتفق مع نظرتهم إلى الحياة، وتُؤدّي المدينة دورها المخطط لها، ويجد فيها ساكنها الراحة والطمأنينة.

المدينة كانت صورةً متطوّرةً عن الحياة البدوية التي تُعرف بالخيمة القائمة وسط البادية، ترتفع أطرافها فيدخل إليها الهواء نسيماً عليلاً، فيُخفّف ما بها من حرارةٍ، وينتقل بطلاقةٍ، ويحمل ما يُمكن أن يكون هناك من روائح تحدث فيما إذا كانت أطراف الخيمة مُثبّتةً بالأرض فيُحبس الهواء، وتعلق به الروائح. أما إعداد الطعام فيكون بعيداً عن الخيمة في مكانٍ فسيحٍ لا يترك أثراً لرائحة، ولا يُسبّب إزعاجاً لساكن. وما يحتاجه البدوي من قهوةٍ فيكون على مقربةٍ من الخيمة وأمامها صاحبها حيث يتناول ما بدا له من قهوةٍ، ويُقدّمها لضيوفه وزوّاره. وتكون الخيمة أفضل المنازل سكناً من الناحية الصحية.

تتألّف المدينة غالباً من بيوتٍ ذات دورٍ واحدٍ، ثم أصبحت ذات دورين فقط لتُخفّف من حرارة أشعة الشمس عند الظهيرة بفضل فصل الدور الأول عن تلك الأشعة بالثاني منها، وفي الوقت نفسه يخضع الدور الثاني عند المساء لنسمات الهواء. ويُحاط المنزل بساحةٍ كي ينفصل عن الأبنية المجاورة فيبدو كأنه خيمة وسط البيداء، إضافةً إلى ساحةٍ داخليةٍ تُحيط بها الحجرات فتكون محجوبةً بها عن الجوار، تأخذ المرأة فيها حريتها، وتجد فيها سعادتها، وتنفتح نوافذ الحجرات كلّها نحو الساحة الداخلية كي تخفي ساكنيها، ولا تُظهر ما فيها، على حين تُحرم الحجرات من نوافذ تُطلّ على

الساحة الخارجية للسبب نفسه، وبشكلٍ طبيعي فالجدار الخارجي محروم منها كذلك. والشوارع عامةً واسعة، كما تفصل بين المنازل أزقة أقل اتساعاً من الشوارع. وإن وجود المناطق الكثيرة الخالية من البناء، الشوارع، الأزقّة، ساحات المنازل الداخلية والخارجية، وعدم ارتفاع الأبنية يجعل حركة الهواء طبيعيةً، وهذا قريب من الخيام في البادية، فيُقلّل من الأمراض، على عكس ما يتمّ في المدن الحديثة حيث يكون الهواء محبوساً بسبب ارتفاع البناء، وضيق الشوارع بالنسبة إلى علو المنازل. وفي الساحة الخارجية تكون أدوات الطهي وما يُعدّ لذلك. وقد يبقى الباب الخارجي مفتوحاً دلالةً على الكرم، ويجلس صاحب الدار عند الباب الداخلي على شرفةٍ، وأمامه النقرة، وأدوات القهوة يستقبل ضيوفه، ويُرحّب بزوّاره وجيرانه عند الأصيل غالباً.

وفي وسط المدينة المسجد الجامع حيث يلتقي أهل المدينة كلّهم أسبوعياً فيه، هذا إضافةً إلى المساجد داخل الأحياء تتناسب واتساع الحيّ، أو تتقارب بحيث لا يصعب على الشيخ الكبير الوصول إليها، ولا يشعر المريض بالضيق ليُؤدّي العبادة فيها. وغالباً ما تُعرف الأحياء باسم القبائل التي تَشغلها أو العشائر الكبيرة التي تُقيم فيها. أمّا في الأعياد فيخرج المسلمون إلى المُصلّى، وغالباً ما يكون خارج المدينة.

تُؤثّر إقامة كل قبيلةٍ في حيٍّ خاصٍ تأثيراً كبيراً على الحياة العسكرية والاجتماعية إذ يسهل جمع المجاهدين الذين ينطلقون في مجموعةٍ واحدةٍ، ويُقاتلون معاً، وتظهر شجاعتهم، إذ يخشون أن يُقال أوتينا من قبلكم، هذا في القديم أمّا اليوم فيبدو أثر الحياة الاجتماعية، عندما يكون أهل الحي أقرباء يكون على المرء ثلاثة واجبات: واجب الأخوة في الإسلام، وواجب الجوار، وواجب صلة الرحم والقرابة، وعندما يدخل غريب إلى الحيّ يُعرف مُباشرةً، إذ الجميع يعرف بعضهم بعضاً، فلا يستطيع أن يتعدّى أو يتجاوز حدوده، أو يقوم بعملٍ مشين، وكذلك فإنّ قاطن الحيّ لا يُمكنه أن يتصرّف تصرّفاً غير لائقٍ لأنّ الجميع أقرباؤه، ومعروف من قِبَل السكان

كلّهم، وكذا الفتاة و. . . . وعندما يتخلّف المرء عن مسجد حيّه يُفتقد فإن كان مريضاً عِيد، وإن كانت السُّنّة عيادة كل مريض، إلاّ أنها أكثر وجوباً لصلة الرحم، وإن كان مُتهاوناً نُصح وذُكّر، وإن كان لضرورة نُظر في أمره وقُدّم له ما يحتاج. ولمّا أصبحت هناك هُوّة بين الرعية والحكم، ولم تعد الدولة تستند على قاعدةٍ من رعاياها غدت تخشى تجمّع الأقرباء في حيٍّ أو المعارف في منطقةٍ لأن هذا يُشكّل خطراً عليها فبدأت تحرص على توزّعهم وتفرّقهم، كما أن في هذا التشتيت زيادة في انتشار المفاسد إذ لم يعد أحد يعرف أحداً يهابه، ولا يخشى امرؤ من قريبه، ولا بعيد من كبير أسرته، وهذا ما نلاحظه في المدينة الحديثة حيث لا يعرف الجار جاره، ولا صاحب الدار فيمن يقطن بالقرب منه. كما تخاف مثل هذه الحكومات سكان الأحياء القديمة حيث تضمّ مثل هذا النوع من التجمّعات فتعمل على التخلّص منها باسم التنظيم والتخطيط، وفتح الشوارع، وإقامة المشروعات والمرافق العامة و. . . .

وإلى جانب المسجد الجامع يكون مقرّ الإمارة، والسوق. وربما تكون الشوارع المُؤدّية إلى خارج المدينة محدودةً، ولا تزيد على الأربعة غالباً بحيث يكون منفذ من كل جهةٍ وذلك لأسبابٍ أمنيةٍ. ونلاحظ هذه التقسيمات عندما مصّر المسلمون المدن، إذ يختطّ الأمير المسجد الجامع في الوسط، ويبتني دار الإمارة، ثمّ يُعطي كل قبيلةٍ جانباً معيّناً لتُقيم مساكنها عليه، مثل البصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان و. . .

إن المدينة كانت تتسع أفقياً عندما كانت صغيرة، والأرض قليلة القيمة لاتساعها وقلة السكان، أما اليوم فقد كثُر السكان، وضاقت بهم الأرض، وارتفع ثمنها لضيق رقعتها فلا بدّ من التوسّع شاقولياً وزيادة عدد الأدوار. يبدو هذا الكلام صحيحاً نظرياً غير أن أقل دراسةٍ تُظهر لنا سوء التخطيط وعدم المعرفة في التدبير، إذ نُلاحظ عدداً من المدن تتوسع بسرعةٍ، وترتفع فيها الأبنية بسرعةٍ، وتزداد أسعار الأرض، ويشكو الناس من ضيقها، ونلاحظ أن ذلك كله يقوم على أرضٍ زراعيةٍ وهي التي تئنّ الدولة من

ضيقها، وتشكو من عدم وجودها، ثم نرى بعد ذلك أن الأرض الزراعية التي يُبنى عليها، والتي نحن بأشد الحاجة إليها لا تبعد عن الأرض الصحراوية، أو الجبلية والتي لا فائدة منها سوى عدة كيلومترات، ثم نترك الأرض غير الصالحة ضائعةً في حين يُمكن البناء عليها وإقامة المشروعات فيها، نتركها ونبني فوق الأرض الزراعية الصالحة للاستثمار ونستهلك أجزاءً واسعةً منها بإقامة مشروعات عليها. . . . لننظر إلى هذا واضحاً في دمشق والقاهرة وكثيرٍ من مدن العالم الإسلامي.

تدبّ الحياة في المدينة الإسلامية من الصباح الباكر بعد أن يُؤدّي الناس صلاة الفجر ينطلقون إلى أعمالهم، وتتوقف عجلة الحركة قليلاً بعد صلاة الظهر إذ يخلُد بعضهم إلى الراحة والقيلولة حتى صلاة العصر حيث يُعاود الناس نشاطهم حتى الغروب حيث يتوقّف العمل تقريباً باستثناء المؤسسات التي يتناوب عليها العمال على نوباتٍ متتابعةٍ. وإذا ما أُديت صلاة المغرب يكون وقت تناول طعام العشاء، وبعد صلاة العشاء الأخير يخلد الناس إلى الراحة، ويأوي كل إلى بيته، وتتوقّف الحياة في المدينة تقريباً فلا ترى إلا العسس، ومن كانت له حاجة ماسة كعيادة مريضٍ اقتضت ظروفه تأخيرها وما يُشبه ذلك. وتتوقّف وسائل الإعلام عن البثّ بوقتٍ مبكرٍ كي يتوفّر الهدوء، وتُعطي الفرصة للناس كي ينصرفوا إلى الراحة أو إنجاز واجباتهم وما هم في صدده من أمورٍ عائليةٍ و. . . . وكي يتمكّنوا من استعادة نشاطهم لليوم التالي بنومٍ مريحٍ.

ويُتفقّد المريض والمنقطع عن الصلاة، ويُعاد المريض، ويوصل الرحم، ويُساعد صاحب الحاجة والمعوزين، ويُسأل عن الجار، ويصحّ أن نقول: إن المدينة كتلة واحدة بسكانها، وكل حيٍّ من أحيائها أسرة واحدة، وهكذا المجتمع الإسلامي في مودته بعضه لبعض أو كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى».

ولا توجد في المدينة الإسلامية الملاهي والمقاهي التي تستقبل روّادها

ليلاً ونهاراً، وإنما لها وقت محدد يتفق مع ساعات الراحة وقبلها وبعدها قليلاً. كما تخلو هذه المدينة من كل أنواع المحرّمات، وما يُؤثّر على راحة السكان من ضوضاء أو فوضى أو إثارة مشاعر.

والبناء في المدينة الإسلامية هو الصورة الصحيحة للبناء، والطريقة الصحيحة لاحترام الأسرة ووقارها، والسمة المثالية للتعاون.

[١١] الأرض

أوجد الله الأرض، وجعل فيها شروطاً مُعيّنةً مُناسبةً للمخلوق الذي سيوجده، ثم فطر هذا المخلوق، ومنحه مُؤهلات وقُدرات يستخدمها لاستخراج ما يصلح له من هذه الأرض، ويُبدّل فيها ويُغيّر ضمن قوانين ثابتة لا تتحوّل، وفي الوقت نفسه سخّر له الأرض وذلّلها، فلا تتعثّر ولا يتعثّر فيها نظام، وكل ما فيها مُوافق لحياة هذا المخلوق نعمةً من الله وفضلاً، وإن كان الإنسان ينسى هذه النعم لأنها تغمره باستمرار. ومن هذه النعم أيضاً ما أودعه الله من أرزاقٍ وخيراتٍ في الأرض، وفي جوفها، وفي الفضاء الذي تسبح فيه، ويستطيع الإنسان أن يحصل على هذه الخيرات بما منحه الله من عقلٍ يستعمله، ويستفيد من تجاربه وخبراته التي يكتسبها هو وغيره على مدى الدهر فالقوانين ثابتة، وسنّة الله لا تتغيّر.

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان العقل، والإنسان جنس الإنسان بغضّ النظر عن لونه، أو عرقه، أو عقيدته، فالناس متساوون بهذه الهبة الربانية، غير أن بعضهم قد هداهم عقلهم للإيمان فآمنوا ولهم أجرهم عند ربهم، وجحد بعضهم نعمة الله وأنكرها، وأنكر وجوده فله جزاؤه أيضاً عند ربه يوم القيامة. أما في الحياة الدنيا فالجميع يعملون وكل مسؤول عن عمله أيضاً، والأرض مُذلّلة للمُسلم والكافر على حدٍ سواء، وكل يستعمل عقله، ويتّخذ الأسباب، وكلما جدّ حصّل النتائج وتوصّل إلى مُعطيات أفضل، وكلما توانى وتكاسل لم يظفر بحاجته وعاش عالةً على الآخرين، هذه سنّة الله في الكون، وسنّة الله لا تتبدّل.

والإسلام حثّ على السعي وحضّ على البذل لاستخراج ما في

الأرض من خيراتٍ وكنوزٍ، والأرض مُذلّلة للجميع لا تمتنع عن أحد، ولا توصد أبوابها في وجه أحد. والقوانين مبذولة للجميع، وثابتة للكل لا تتحوّل عن صياغتها. والعقول ممنوحة للناس سواء، وما على المرء إلا أن يُعمل عقله، ويتعرّف على ما أودع الله من خصائص وأسرار في قوانين هذا الكون، ويمكنه الإفادة ممّا توصّل إليه الآخرون، ويُضيف، ويستنبط، ويستخرج الخيرات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا...﴾[1]. فمن اتخذ الأسباب، وسلك السبيل الصحيح تمّ له ما يُريد ـ إن أراد الله له ذلك ـ.

ولقد قام المسلمون الأوائل بما فرضه عليهم دينهم من السعي والبذل فدانت لهم الأرض وألقت بكنوزها لهم حسب القوانين التي كانت معروفة في ذلك الوقت وحسبما أضافوه إليها من تجاربهم وخبراتهم التي حصلوا عليها، وتوصّلوا إلى أشياء كانت آنذاك ابتكارات رائعةً، ثم نام منهم من نام، وتواكل من تواكل وظنّ أن الرزق يأتي دون سعي، وأن بركات الأرض تخرج دون تعب، وما ذلك إلا للجهل الذي انتشر، وعدم المعرفة الذي ساد، حتّى فسّروا كتاب الله تفسيراً ما سبقهم إليه أحد، ولا قاله قبلهم أهل علم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2]. الإيمان وحده لا يكفي فالسماء لا تُمطر ذهباً على المؤمنين، ولا تُخرج لهم فضةً، ولكن لا بدّ من العمل واتخاذ الأسباب. والعمل بلا إيمان لا يكفي أبداً فالإيمان قوة دافعة نحو الحقّ والخير، مانعة من الشطط والانحراف والظلم والتعسف. ويحصل أعداء الله على نعم الله بلاءً ومدًّا لهم، دون إيمانٍ منهم أو اعترافٍ بفضل الله عليهم.

وعندما كان المسلمون اليوم يميلون إلى الضعف، والكسل،

---

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

والتواكل، والجهل، والقعود عن العمل كان غيرهم يتجه إلى النهوض، والجدّ، والعلم، والقيام للعمل فتقدّموا وحصلوا على منجزاتٍ علميةٍ، ونظروا إلى المسلمين نظرة ازدراءٍ، ونظرة تعالٍ، ورجع المسلمون إلى أنفسهم فرأوا التأخر، فاتجهوا إلى أعدائهم يلهثون وراءهم، وأعطوهم فوق ما يستحقّون، ونظروا إلى أنفسهم نظرة صغارٍ وضعةٍ، وغدت عندهم عقدة نقص، وبدا كل شيءٍ من الغرب حسناً، ومن ديار المسلمين قبيحاً وبدأ تقليد الغرب.

إن الله يُعطي الذين يُريدون الآخرة ويسعون لها، ويُعطي من يُريد من الذين يرغبون في الحياة الدنيا، إنه يُعطي الجميع على جدهم ومن هنا يكون التفاوت حسب الجهد والوسائل والأسباب، ويُحاسب الجميع على عملهم وإيمانهم ومن هنا تمتلئ الجنة وتمتلئ النار. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1]. فعطاء الله لا يُحظر على مؤمنٍ، كما لا يُحظر على كافرٍ، وإنما يتفاوت هذا العطاء بين البشر حسبما يبذلون من جهدٍ، وحسب الوسائل العلمية التي يستخدمونها والأسباب التي يتخذونها. ومن هذا المنطلق فإن الدول الغنيّة والمُتطوّرة هي التي تُطبّق العلم على العمل، وتسلك سبيل التنظيم والتخطيط، وتقوم بالمشروعات الإنمائية، وتُوفّر كل ما يحتاج إليه بناء الدولة والتطوّر الاقتصادي من وسائل علمية وعملية. وأما الدول المُتخلّفة فلا تُطبّق العلم لعدم توفّره ولانتشار الجهل، ولا تقوم بالمشروعات لإهمال الدولة واهتمامها بشؤون المُتنفّذين، وهذا ما يُفقد أعمال التنظيم والتخطيط، وفوق كل هذا فاقتصاد الأمة نهب بين رجالاتها الذين إن طالت مدتهم تسلّطوا على الخيرات، واستبدّوا، وإن قصرت أيامهم كلما جاء جديد غرف بكلتا

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٨ ـ ٢٠.

يديه كل ما في وسعه، ونقل ما غرفه إلى خارج البلاد حتى غدت الدول الغنية تعيش، وينمو اقتصادها على ما ينهبه المتسلّطون في بلادهم.

ولو أعطى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فقط ـ كما يتوهّم بعضهم ـ لآمن الناس جميعاً، وكانوا مُكرهين على هذا الإيمان للحصول على الرزق، وكانت عبادتهم للمال لا لله خالقهم، ولم يكن هناك من شكرٍ على ما أنعم الله عليهم، ولا من اعترافٍ بفضل الله و. . . إذن فعطاء الله للجميع هو الحكمة، وهو الحقّ، وهو الخير ليؤمن من آمن على بيّنةٍ ويكفر من يكفر على بيّنةٍ.

ووعد الله للمؤمنين بالعطاء وعد حقّ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والإيمان ليس قضية تعبّدية بحتةً لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، وإنما هو عمل في واقع الحياة، يدفع صاحبه للعمل ليُحقّق مشيئة الله في خلافة الأرض وعمارتها، ويدفع صاحبه ليحصل على بركاتٍ من السماء والأرض، ويدفع صاحبه لأنه مأمور بذلك، وهذا العمل يُؤدّي إلى الإنتاج، ويُؤدّي إلى ترقية الحياة وتطوّرها، ونموها باستمرار.

[١٢] الدعــوة

عندما يستبدّ البشر بعضهم ببعضٍ، وتتحكّم القوّة، وتسود القوانين الوضعيّة على اختلاف أنواع الحكم ومسمّياته من شعبيّ (ديمقراطيّ)، أو عسكريّ، أو نظام حرٍّ أو موجّهٍ، أو جاهليّ قبليّ فوضويّ، فإنّ الأوضاع في هذه الأنظمة كلّها تسير على غير ما أنزل الله، ولا بدّ للمسلمين من أن يدعوا إلى تطبيق منهج الله في الحكم لتحقيق العدل، والكفّ عن الظلم، وعدم استبداد النّاس من أصحاب القوّة بغيرهم من الضعفاء، ولا شكّ فإنّ دعوتهم لن تُسمع بل ستُحارب لأنّها تتعارض مع مصلحة المُستبدّين، وتتناقض مع تسلّط الطغاة، وليت الأمر يُكتفى بعدم سماع الدعوة بل يتجاوز ذلك إلى التخلّص من هؤلاء الدعاة والقضاء على أفكارهم قبل أن تعظُم ويشتدّ خطرها ـ على زعم أصحاب السلطة ـ، وهنا لا بدّ من اتخاذ الحكمة والسّير بالطريق المستقيم التي تُجنّب الدعوة وأصحابها من التعثّر أو التعرّض للإبادة. ولننظر إلى بدء دعوة رسول الله ﷺ في مكّة حيث كان المجتمع الجاهليّ لا يختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة اليوم في أكثر بقاع الأرض، باستثناء الإيمان النظري الذي يُعلن به، ويُقال بالأفواه، وتُخالفه الأعمال كلّها، سواء في البلدان الإسلامية أم التي تُعادي الإسلام وتُحارب أهله، وسواء أكان بشكلٍ صريحٍ واضحٍ أم بطريقةٍ مُبطَنةٍ مُستترةٍ. ولننظر إلى طريقة رسول الله ﷺ التي اتبعها في الدعوة، ولنسر على هديه فهو قُدوتنا وقائدنا.

لقد سار رسول الله ﷺ في طريقٍ ذات ثلاث شعبٍ هي: التربية، وعدم الصدام المباشر مع أصحاب السّلطة، والعمل على إيجاد مكانٍ يحمي الدعوة وتستطيع أن تنمو فيه وتنطلق منه. وكانت هذه الشعب الثلاث يسير

بعضها مع بعضٍ بشكلٍ مُتوازٍ، ويجب ألاّ يحول بعضها دون السير في الأخرى.

لقد كان رسول الله ﷺ يلتقي بالمسلمين لقاءً تنظيمياً سرّياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، ودار سعيد بن زيد بن عمرو وغيرهما يُربّي أتباعه، ويُعلّمهم كتاب الله، ويتلو عليهم ما أنزل الله، ويُوجّههم إلى الطريق الصحيح، وكان عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم بالإقبال على الدعوة التي تنسجم مع الفطرة البشرية السليمة التي فطر الله النّاس عليها، ولأنّ الفرد من أتباعها كان يُمثّل المسلم الصحيح والقدوة الحسنة في المعاملة والصدق والتقيّد بأوامر رسول الله ﷺ، والصبر على الأذى، وتحمّل الشدائد في سبيل الدعوة، وعدم القيام بردّ الفعل ضدّ ما يُصيبه لأنّه يُدرك أن هذا يُؤدّي إلى جرّ الدعوة إلى حربٍ غير متكافئةٍ تقضي على الدعوة وأتباعها، وهذا ما يحدث على مرّ العصور. هذا التصرّف، وهذه الحكمة تدعو الآخرين إلى الدخول في الإسلام وزيادة الأتباع.

لقد حرص رسول الله ﷺ أن يُجنّب دعوته العثرات فحال دون الصّدام مع السّلطة من زعماء مكّة وأثريائها، وطلب من إخوانه ألاّ يقوموا بأيّ ردّ فعلٍ مهما أصابهم، أو إخوانهم، أو أصابه هو نفسه من أذى، وفعلاً لقد تعرّض ﷺ للأذى والإهانة والسّخرية، ونال أصحابه العذاب الشديد دون أن يفعل أحدهم شيئاً، ودون أن يقوم عليه الصلاة والسلام بأيّ شيءٍ، وإنما كان يدعوهم إلى الصبر، وتحمّل الشدائد، ويذكّرهم بما تحمّله أصحاب الدعوات السابقين فعن خبّاب بن الأرّت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّد بردةً له في ظلّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض حفرةً فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك على دينه؛ والله ليُتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف

إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1]. وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يُعذّبونهم برمضاء مكّة، وقد قتلوا أمّه سميّة ولم يملك رسول الله ﷺ إلاّ قوله: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنّة» ولم يملك المسلمون إلاّ عبرةً يذرفونها، وحسرةً تُذيب الأفئدة. ولو أراد رسول الله ﷺ أن يقوم بعملٍ مُعادٍ باسم حماية الدعوة ـ كما يتصوّر بعضهم ـ أو كي لا يتجرّأ عليها أحد، أو حتّى لا يعود طاغٍ لتعذيب المسلمين لكان بإمكانه بكلّ يُسرٍ، فلو أمر أحد أصحابه أن يقتلَ أبا جهلٍ عمرو بن هشام لما يناله المسلمون على يديه، أو أميّة بن خلف لما يفعل بالمستضعفين من المسلمين، أو أيّ واحدٍ من أولئك الطُّغاة المُتغطرسين لما تردّد ذلك الصحابيّ أبداً، بل لأسرع في التنفيذ وعدّ ذلك تقرّباً إلى الله بطاعة رسول الله وتنفيذ أمره، وحنقاً على أولئك القُساة الظالمين وانتقاماً منهم لما يفعلون، لكنّ رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك خوفاً على الدعوة من أن يتكالب عليها الظالمون، وينقضّ على أتباعها البُغاة. وعلى المسلمين في كلّ وقتٍ إذن، تحمّل الأذى مهما اشتدّ، والصبر على المكاره مهما تعاظمت لا استسلاماً ولا جبناً وإنما خوفاً على الدعوة، وليُفوّتوا على خصومهم الفرصة في تنفيذ ما يُخططون له. فكم من مُتهوّرٍ اليوم جرّ على حركته النكبة وهو يظنّ بنفسه الشجاعة؟ وكم من مُغفّلٍ ألحق بجماعته الويل وهو يحسب أنّه يُحسن صنعاً؟ وكم من قائد اكتسب الزعامة على جماجم إخوانه؟ إنّ هذا كلّه لم يفعله رسول الله ﷺ، وعلينا أن نترك ما ترك رسول الله ﷺ. ولم يُؤذن للمسلمين بالقتال حتّى أصبحت لهم دولة في المدينة، وعندها كان الصراع وجهاً لوجه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

---

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾[1]. ويجب ألا ننسى أننا لا نزال نعيش في المرحلة المكّيّة وسط مجتمعٍ جاهليٍّ مؤمنٍ نظرياً، ولكننا مُكلّفون بتطبيق كلّ ما نزل.

وفي الوقت نفسه كان رسول الله ﷺ يُحاول أن يجد مكاناً للدعوة تحمي نفسها فيه لتنطلق منه، وينصرها أهله، لِما رأى ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من ربّه، ثمّ من منعة عمّه أبي طالب له، وأنّه ﷺ لا يقدر أن يمنع أصحابه ممّا هم فيه من العذاب والبلاء، فاتجه نظره ﷺ إلى الحبشة، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، وهاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ولكن لم يطب لهم المُقام فيها حيث كانوا قلّةً لم يزد عددهم على الثمانين كثيراً، والقلّة تشعر بالغُربة، وتحسّ بالعُزلة وخاصةً إن كانت تختلف عن المجتمع الذي تعيش عقيدةً ولغةً، كما هي حال المسلمين في الحبشة، هذا بالإضافة إلى مُقاومة البطارقة لهم، ومع رعاية النجاشي لهم إلاّ أنّه لم يكد يصل إلى أسماعهم خبر إسلام أهل مكّة وانفراج الكُربة عن المسلمين فيها حتى عاد بعضهم مُسرعين إلى بلدهم، غير أنّهم ما أن وصلوا إلى مكّة حتى عرفوا أن الخبر غير صحيح، ولم يستطع أحد منهم أن يدخل بيته إلاّ بعد أن أجاره أحد سادات مكّة، أو دخل مُستخفياً.

وعادت الحياة في المجتمع المكّيّ إلى حالتها الأولى، وارتحل رسول الله ﷺ إلى الطائف علّه يجد النصرة من ثقيف، ولكنّه لم يرَ إلاّ الصّدود والمطاردة فرجع إلى بلده حزيناً كئيباً.

ويعرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل في كلّ موسم عسى أن تُقبل بعض القبائل على نُصرته لكنّ قريشاً كانت له بالمرصاد فتحول بينه

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.

وبين القبائل بافتراء الكذب عليه، واختلاق الشائعات ضدّه وضدّ دعوته، غير أنّه تمكّن في موسمٍ أن يلتقي ببعض حجّاج يثرب بعيداً عن أعين قريشٍ فعرض عليهم دعوته فآمنوا، وتواعدوا على اللقاء معه في الموسم التالي في العقبة، وتمّ اللقاء، وحضر معه عمّه العبّاس، ولم يكن قد أعلن إسلامه بعد، فاستوثق لابن أخيه ﷺ، وبايع اليثربيون رسول الله، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، ومنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إن قدم إليهم. . . فأشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى يثرب، فبدؤوا يُهاجرون إليها جماعاتٍ وأفراداً سِرًّا خوفاً من قريشٍ وفي بعض الأحيان جهاراً عندما يكون المُهاجر صاحب منعةٍ أو ذا شكيمةٍ. ثمّ هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، وفي المدينة آخى، عليه الصّلاة والسّلام، بين المسلمين، وأصبح الجميع كتلةً واحدةً مُتراصةً، وتكوّنت النواة الأولى للدولة الإسلامية، ولم يعد الآن بحاجةٍ إلى تنظيم لأنّ الأكثريّة أصبحت إخوةً مؤمنين، وكذا الحال عندما يُطبّق الإسلام في مصرٍ من الأمصار إذ تصبح الدولة الإسلاميّة هي القائمة والراعية لشؤون المسلمين جميعاً.

أمّا التدريب على القتال فقد كانت الأسلحة عاديةً أيام رسول الله ﷺ ويُجيد الرجال فنّ استعمالها بطبيعة حملهم لها منذ سنٍّ مُبكّرةٍ، أما اليوم فالأسباب ميسّرة أيضاً لكن يجب ألا نُخلّ بالنواحي السالفة الذكر من حيث التربية، والتعمية، وعدم الصدام.

أمّا مدّة التربية فكثيراً ما يحبّ أصحابها السرعة فيها فتتشوّه الأمور، ويتخرّج أبناؤها بطرقٍ معوجّةٍ، ويقع كثير منهم في شرك غيرهم إذ لم يتحصّنوا بالقدر الكافي. لقد بقي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو في مكّة، ويتعهّد أصحابه، ولم يتمكّن من إقامة الدولة رغم التربية القويمة وتهيئة العناصر الرشيدة المُؤهّلة لكل الصعاب والأدوار، ولو لم تكن الهجرة، ونُصرة الأنصار، وسيادة الإسلام في المدينة، لطالت مدّة الدعوة في مكّة لوقتٍ، الله أعلم به، ولم يُحدّد رسول الله ﷺ مدةً معينةً لهذه المرحلة إذ ليس بيده هذا وإنما عليه الدعوة والعمل، والله يتولّى الأمر

وينصر من ينصره، وكان ﷺ يقول لأصحابه عندما يطلبون الدعاء بالنصرة «ولكنكم تستعجلون» ونحن مُكلّفون بالدعوة والعمل لله والإخلاص في ذلك، والنتائج وزمن تكامل التربية بيد الله سبحانه وتعالى، ونحن نُؤجر على قدر عملنا وإخلاصنا، والإسراع يُجهض العمل إذا لم يتكامل بشكلٍ طبيعي، وقد يقتله إذا لم يكن قد وقف على قدميه بعد.

وقد يقول قائل: كان المسلمون أيام رسول الله ﷺ يجتمعون في مدينةٍ واحدةٍ، مرجعهم واحد، ومنبع ثقافتهم واحد، وحتّى عندما توسّعت الدولة بقيت المدينة المركز الرئيسي للإشعاع والتوجيه، وكذلك عندما انتقل مركز الدولة إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول بقيت وحدة جامعة سواء أكان في شخص الخليفة أم في مصدر الثقافة، أمّا اليوم فقد تغيّر الوضع إذ فصلت الحدود بين الأمصار، واختلفت المشارب، وتباينت الأهداف، بل سار العمل في كلّ مصرٍ باتجاه.

هذا الكلام صحيح ولكن يجب أن ننظر نظرةً شاملةً فالعمل الإسلامي قائم في كثير من الأمصار ـ ولله الحمد ـ إضافةً إلى المؤسسات الكبيرة التي تعمل إلى حدٍّ ما للصلة والارتباط بين الحركات الإسلامية، والتعريف بها، وإنشاء المراكز الإسلامية لتوثيق العُرا بين المسلمين، والمفروض أن ننطلق من منطلقٍ إسلاميٍ صحيحٍ، ونبتعد عن العصبية والحزبية كلّ البعد، يجب أن نتصوّر:

١" ـ أنّ كل حركةٍ إسلاميةٍ إنما هي جزء من العمل الإسلامي العام الذي يقوم به المسلمون جميعاً أينما كانوا بغضّ النظر عن جنسياتهم أو لغاتهم، فالعمل واحد في الأمصار كلّها وضمن خطٍ واحدٍ.

٢" ـ أنّ كلّ جماعةٍ إنّما هي جزء من المسلمين، وليست هي جماعة المسلمين، تعمل وحدها بالإسلام، ويشذّ غيرها، لذا تعدّهم خارجين عن نطاقه، وبذا تتعدد الجماعات الإسلامية، والإسلام واحد، ويُفقد التعاون، وتكون العصبيات، والحزبيات، والخلافات، وما أكثر ما وقع العاملون في الحقل الإسلامي بهذا الخطأ، وأصرّ بعضهم عليه، مع العلم أنّ أيّة جماعةٍ لا تُمثّل واحداً بالمائة من المسلمين مهما بلغ شأنها، لذا تبقى جزءاً من

المسلمين، ولا يمكن أن تكون هي مجموعة المسلمين.

٣" ـ أن يكون العمل ضمن إطار الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فيُساعد الجميع بعضهم بعضاً، وأيّ مُسلم بمعنى الإسلام هو أخ للآخر فيجب أن يُعاونه ويدعمه كأخيه الذي يعمل معه في مصره، ومدينته، وحيّه. أمّا أولئك الذين يرفضون أن يُعاونوا إلاّ الذين يلتزمون معهم فإنّما هم مُخطئون يفهمون الأُخوّة الإسلامية بالمعنى الحزبي الضيّق، المعنى الحزبي البغيض، المعنى الحزبي بمفهوم القومي، والاشتراكي، وصاحب المصلحة. إنّ الأُخوّة بالإسلام لا بالحزبية، ولا بالتنظيم، ولا بالعصبية للمدينة، أو للمصر، أو للجنس، أو لأيّ مفهومٍ من العصبيات.

٤" ـ أن يكون العمل بالإسلام وحده دون التعلاّت والتأويلات التي تخدم المصالح الشخصية والمنافع الذاتية أو الحزبية كأولئك الذين يرتمون في أحضان المتسلّطين يتزلّفون لهم، ثم يُبررون مواقفهم المُخزية بأنّها لخدمة الإسلام كي لا يتعرّض أتباعهم لخطر المستبدّين، أو لتستفيد جماعتهم التي تخدم الإسلام ـ على زعمهم ـ أو لتحمي نفسها من الشرّ وما إلى ذلك من مُبرّرات ينفثها الشيطان في آذان أصحاب النفوس المريضة.

٥" ـ أن يكون التجمّع والعمل حول الفكر الإسلامي لا حول أشخاص يدّعون أنهم يُمثّلون الإسلام دون أن يتمثّل بهم. الرجال يذهبون والعمل يبقى، الرجال يُخطئون ويُصيبون والإسلام سليم خالٍ من أيّة شُبهة. ونُقدّر الرجال بمواقفهم الموافقة للإسلام، ونقف أمام الذين يُخالفون. وكلّ عملٍ برجاله ومواقفهم وسلوكهم وأفكارهم.

٦" ـ التعاون مع أهل العلم في كل مكان والتناصح وتبادل المناهج والمعلومات عن مخططات وأهداف الأعداء.

إذا أخذ كل عمل بهذا الخط كان سليماً، ومُخلصاً لله، ونرجو أن يُتقبّل، وعندها يحقّ لنا طلب النّصر، ولا بدّ من أن نُعطاه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٣] الانتخاب

يتراءى لبعض الناس أنّ الانتخاب هو الطريقة المثلى لتمثيل الشعب، ويُبالغ بعضهم فيعدّها أقرب الطرق للنظام الإسلامي «نظام الشُّورى»، ويُفتي آخرون بغير علم فيدّعون أنّها هي نظام الإسلام ذاته، معاذ الله أن يكون في الإسلام طَريقة غير صحيحة، ويقولون: إن الانتخاب يُعطي رأي الأكثرية، والأكثرية هي التي يجب أن تحكم، ويجب على الأقلية أن تخضع لرأي الأكثرية وترضخ، وهو ما يُسمّى حكم الشعب بنفسه، أو ما يُعرف بـ «الديمقراطية»، إذ فُتن كثير من الناس بالغرب نتيجة التطوّر المادي والعلمي الذي قام، وأصابهم شيء من النقص نتيجة التخلّف والضعف الذي حلّ بنا، فساروا في طريق التبعية والتقليد، وفُتنوا بالنظم القائمة هناك فأحبّوا أتباعها، ومن أحبّ شيئاً رفعه، وأعطاه صفاتٍ ليست فيه، وهذا ما جعل عدداً ممن يدّعي العلم يدعو إلى تطبيق نظم الغرب، ويصفها بأنها أقرب طرق الحكم إلى الإسلام، وهو الجهل ذاته، فإذا كان الأمر كذلك من أقليةٍ وأكثريةٍ، فأين دور الأنبياء والرسل؟ وأين مُهمّة القادة والمصلحين؟ أيتركون ما أُرسلوا به وما أخذوه على أنفسهم؟ أم ماذا يصنعون؟ أيسيرون وفق أهواء الكثرة الجاهليين والعامة أم ماذا يفعلون؟

إنّ الإسلام لا يُوجد فيه أقلية وأكثرية، ولكن يُوجد فيه حقّ وباطل، فالحقّ يجب أن يُتبّع ولو أنّ صاحبه فرد واحد، والباطل يجب أن يُترك ولو أنّ الجماعة كلّها تقول به وتحمله، والأنبياء والرسل يبدؤون بالدعوة مُنفردين يحملون الحق ويدعون له، وتُقاومهم أقوامهم كلها تبعاً لمصالحها وأهوائها تحمل الباطل وتتمسك به. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ

﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

بُعث رسول الله ﷺ، وكُلّف أن يُبلّغ الرسالة، فصدع بما أُمر به، غير أن قريشاً وقفت في وجهه خوفاً على زعامتها وشهواتها، فأغرت سفهاءها برسول الله ﷺ، وسخرت من جعل الآلهة إلهاً واحداً، وهزئت من ترك ما عبده الآباء والأجداد، وأعلنت أن هذا مجرد افتراءٍ واختلاق، وما سمع أحد بهذا من قبل ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾[2]. ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]. فماذا يفعل رسول الله ﷺ، أمام موقف قريش؟ أيترك الدعوة ويسير برأي الأكثرية يعبد الأصنام أم يسير بالقلّة التي آمنت معه لا يُبالي بالكثرة التي وقفت في وجهه، وأعلنت الحرب عليه؟ لا بدّ من متابعة الطريق والسير مع الحقّ مهما قلّ أنصاره والإعراض عن الباطل ومُحاربته مهما كثر أتباعه وزاد مؤيّدوه.

بدأت مع الزمن تدخل إلى عقول الناس بدع وخرافات تكثر مع انتشار الجهل، وظنّها بعضهم من الدين، وغدا الظنّ يقيناً عندهم، والوهم حقيقةً، وقام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يُبيّن لهم الحقيقة، ويوضّح لهم الأمر، وبُعد ما هم عليه من الدّين، وأنّ هؤلاء من الصالحين قد ماتوا وانتهى أمرهم، فلا يُجيبون داعياً، ولا يمكن لهم أن يُلبّوا مُغيثاً، وإنما السؤال يجب أن يكون من الله وحده ودون سواه، فهو الذي يُجيب

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

(٢) سورة ص: الآيات ١ ـ ٧.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢٢، ٢٣.

دعوة المضطر إذا دعاه، ويصرف عنه ما به، لذا يجب إزالة هذه القباب من فوق هذه القبور، وتسويتها، فاستغرب الناس، وعدّوا ذلك تجنيًا على الدين وبُعداً عنه، فهؤلاء صالحون... أولياء... لهم كرامات فكيف؟ و... ووقف الناس في وجه الشيخ، واضطر إلى الانتقال من مكان إلى آخر، حتّى هيأ الله له من شدّ من أزره، وأخذ بفكرته فانتشرت... وحاربه أعداؤه خارج منطقته على السماع، بأنّه أدخل على الدين جديداً، وجاء بجديد... والواقع أنه لم يأت بجديد، وإنما وضح الحقيقة، وأبان سبيل الحق. فلو سكت المصلح أمام رأي الأكثرية الجاهلة، وأطاع العامة فيما تعارفوا عليه لدخل إلى الدين ما ليس منه، ولتبدّل صفاؤه إلى أساطير. فالدين لا يعرف أكثريةً ولا أقليةً فالأُمة جميعها تلوي أعناقها أمام نصٍ واحدٍ.

عاشت أوروبا في جهلٍ، ثم بدأت تستنير بعض العقول، ويظهر بعض العلماء الذين يُجرون التجارب، ويتوصّلون إلى نتائج علميةٍ معينةٍ، غير أن رجال الكنيسة الذين تسلّطوا على العقول قد هالهم ما توصّل إليه هؤلاء العلماء فأنكروا عليهم، وعدّوا عملهم مُروقاً من الدين، وأغروا العامة بهم، وتكلّموا للحُكّام عنهم حتى قُتل من قُتل خروجاً عن الدين، ثم بدأ الصراع بين رجال الكنيسة والعلماء حتى شدّ أزر العلماء بعض الأمراء فقوي أمرهم، وحدث الانفصام بين الكنيسة والعلم، وهُزمت الكنيسة في النهاية، وساد العلم، وبدأت التجارب، وانطلق التطبيق، ونهضت أوروبا بعد غفلةٍ، واستيقظت من جهالتها. إنّ الحقائق العلمية لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً إنه العالم كلّه ليخضع للعلم التجريبي والبراهين العلمية حتى يظهر ما ينقضها.

تسلّل اليهود إلى فلسطين، وتمكّنوا فيها بدعم من الصليبيين، وشرّدوا أهلها، واغتصبوا أرضها، وبدؤوا بالاعتداءات على البلدان المجاورة ليُحقّقوا سياستهم التوسعية، وفرضت بعض البلدان المجاورة الجندية الإلزامية على شبابها لردّ العُدوان والوقوف في وجه الطامعين، ورحّب السكان بهذا الإجراء، ولما بدأ التنفيذ ظهر التهرّب من الجندية الإجبارية، وكلّ يسعى

في دفع البدل النقدي حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه، والإلزام بالخدمة، وبعد مدةٍ بدأ النقد من أكثرية السكان لأن كلاً ينظر من خلال مصلحته، ويُفكّر في قضيته، ويُهمل قضية البلاد العامة ومصلحة الأُمّة. فهل نُلغي الخدمة الإلزامية حسب رأي الأكثرية، ونُعرّض الأُمّة للخطر أم نُبقي ما قُرر حسب رأي الأقلية؟. إن مصلحة الأُمّة لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً وإن الأُمّة كلّها لترضخ لما تقتضيه المصلحة.

قد يرى بعض الناس شيئاً في موضوع الجندية، ويرفضون تهرّب الأكثرية، غير أنه يُقنعهم رؤية الحُزن الذي يعمّ الأسرة عندما يذهب أحد أبنائها للجيش، والإقبال على دفع البدل فيما إذا أُعلن، وفرح الشباب وإسراعهم فيما إذا تمّ. وهناك نقطة أخرى يجب أن نعرفها، وهي أن رأي الفرد بينه وبين نفسه يختلف عن الرأي الذي يتحدّث فيه مع أقرانه ويتباين كلّياً مع الرأي الذي يُعلنه على ملإٍ من قومه أو حشدٍ من الجموع، فالرأي الإعلامي أو الجماهيري كلّ النّاس يُؤيّدون الخدمة، ويُحبون التطوّع للقتال، ويُضحّون في سبيل الواجب وما إلى ذلك من الكلمات الإعلامية وإذا كان كذلك فلماذا الرغبة في دفع البدل؟ ولماذا السعي في عدم الذهاب إلى الجبهة والبقاء في المكاتب داخل المدن عند تأدية الخدمة؟ ولماذا السفر إلى الخارج وقضاء خمس سنوات من أجل دفع البدل؟ ولماذا الانزعاج في الأسرة كلها عند التحاق أحد أفراد الأسرة بالجيش؟ و. . . وربما يقول بعضهم: يحدث هذا فعلاً ولكن بسبب ضعف الإيمان، وعدم وجود الجهاد، والأوضاع السائدة، وموضوع الاحتفاظ، وقضية الاحتياط و. . . تعلّات وتعلّات والرأي الشخصي وما يجول في النفس غير هذا كله ينطلق من المصلحة الفردية. إنَّ مصلحة الأُمّة تقضي وجود الخدمة الإلزامية وإنا لنطالب بالإصلاح وتحقيق أمر الجهاد.

فإذا كانت أُمور الدين، والعلم، ومصلحة الأُمة لا تنظر إلى موضوع الأكثرية والأقلية فماذا بقي كي نُعطيها أهميةً، ونبحث فيها، ونتحدّث عنها، ونعدّها أمراً مُهمًّا؟ وقد يسأل بعضهم: لماذا فصلت العلم ومصلحة الأمة

عن الدين وهما منه؟ فأنا لم أفصل ولكن للتوضيح وتسهيل المناقشة.

ونعود إلى موضوع الانتخاب لنرى قيمة الأكثرية لنحكم على الانتخاب ووزنه الحقيقي سواء أكان في الحكم أم في السياسة أم في التنظيم. إنّ الشعب ليس كلّه في مستوىً واحدٍ وإنّ الأكثرية فيه دون المستوى المطلوب، وعندما ندعو إلى الانتخاب نُساوي بين الأصوات، صوت العالم المُفكّر الذي يُقلّب الأمور، ويُوزنها بالعقل وبين صوت الجاهل الذي لا يعرف شيئاً ولا يُقدّر النتائج ولا ضير عنده أن يُعطي صوته لمن يدفع، أو وراء مصلحةٍ ينتظرها. أيّ عقلٍ يقبل هذه المساواة؟ وأيّ منطقٍ يتوقّع الحصول على نتائج سليمةٍ؟

ما دامت الأكثرية دون المستوى المطلوب فيمكن توجيه هذه الأكثرية بالقرابة، بالصداقة، بالعاطفة، بالمال، بالسياسة، بالضغط، بالخوف... ونحن نعلم الأموال الكثيرة التي يبذلها المرشحون لكسب الأصوات، أصوات العامة، فتكون النتائج إذن نجاح ممثلي المال لا ممثل الشعب، ونحن نعلم في الولايات المتحدة كيف تفعل أموال الأثرياء دورها! وينجح ممثلوها حفاظاً على الرأسمالية ونظامها ـ على حدّ زعمهم ـ. ونعلم كيف تفعل أصوات اليهود، وأثرها على نجاح مُؤيّديها لبقاء السياسة الأمريكية موافقةً لإسرائيل ودعمها بالمال، ومدّها بالسلاح، وتنفيذ سياستها، وتحقيق مطالبها، فأين رأي الشعب؟ ومن يحكم الشعب؟ هل الشعب أم المال والسياسة العامة المتفق عليها مسبقاً، والمساومات؟

وفي الإمبراطورية الروسية يحكم الحزب الشيوعي الذي لا تزيد نسبة أعضائه على ٥٪ من سكان الإمبراطورية، ومع ذلك فهو يتسلّط على السكان كلّهم. أفراد الحزب الشيوعي وحدهم الذين يحقّ لهم الترشيح، ومنهم وحدهم يتألّف المجلس، والأعضاء الكبار منهم هم الذين يرسمون السياسة الروسية، ويُبذّرون المال، ويبزّون بذلك أكبر الرأسماليين. هؤلاء وأولئك يدّعون أنهم يُمارسون الحُكم الديمقراطي أو حُكم الشعب بأوسع معانيه، فإن كانوا صادقين فتعساً له من حُكم، وإن كانوا كاذبين فتبًّا لنظامٍ

يقوم على الكذب. والشعب يُسحق في الإمبراطورية الروسية باسم الديمقراطية، ويُمنع من الحصول على أولى الحقوق وأدنى الحريات، فيُمنع من حقّ الملكية، ويُحرم من ممارسة الشعائر الدينية، بل وتُداس مُقدّساته، ويُهان، ويُذلّ حتى ولو أظهر الشيوعية إن لم يكن من النصارى الأرثوذكس الروس. وفي الولايات المتحدة تُصاب فئة الرأسماليين بالتُخمة، وتلعب دورها في السياسة، وتُقاسي فئة الفقراء شظف العيش وحياة الذلّ والشقاء. وفي الإمبراطورية الروسية يُعدّ الروس مواطنين من الدرجة الأولى بشرط أن يكونوا نصارى ومن الأرثوذكس، وما عداهم فهم من الدرجة الثالثة أو الرابعة، ولا يعرف ترتيب درجة المسلمين، وعلى كلٍ تأتي في مؤخرة الترقيم. وفي الولايات المتحدة يُعدّ البيض من النصارى من مواطني الدرجة الأولى وغيرهم من درجات أخرى إضافةً إلى التمييز العنصري بين البيض والسود.

ليس الحزب الشيوعي في الإمبراطورية الروسية هو الذي يتسلّط على الحكم في بلاده بل ويُشاركه كلّ الأحزاب الشيوعية في البلدان التي تُسيطر فيها الشيوعية، إضافةً إلى البلدان التي يحكمها حزب واحد سواء أكان ذلك في البلدان المتطوّرة - حسب تصنيفهم - أم في البلدان المتخلّفة وهو الغالب. فأفراد الحزب هم المُتسلّطون، والدولة نهب بين المتنفّذين فيهم، وبعد ذلك يدّعون الديمقراطية إذ يجمعون أعضاء حزبهم الذين يختارونهم باسم «انتخاب» في مكان يُسمّونه «مجلس نيابي»، ويتلقون التعليمات فيوافقون عليها بالإجماع، أو يأخذون عليها التواقيع باسم «جلسات نيابية». وهذا ما نراه مُطبّقاً، ولا يقبله عقل سليم، وإن كان كلّ يتغنّى باسم نظامه، ويدّعي أنه المثالي.

ويجب ألا ننسى توجيه الدولة، والخوف من الضغط، لذا تقوم أحياناً حكومات حيادية مؤقتة للإشراف على الانتخابات، ومع ذلك لا تنجو من التوجيه، وفي الغالب يكون ما تراه الدولة.

إذا كانت الأقلية والأكثرية لا وزن لها، وأن ما يُدّعى أنّه ديمقراطي

«حكم الشعب» لا قيمة له، وأن نظام الانتخاب المعمول به لا يصلح، ولا يصحّ اتباعه، وأن ما يُطبّق قائم على فساد. فأي نظامٍ يصلح؟ وما هي طريقة تنفيذه؟. إن النظام الإسلامي هو النظام الذي يَصلح للبشر، فالله الذي خلق الإنسان أنزل له ما يصلح له، وهذا المنهج يصلح للبشرية في كل مراحل نموها وارتقائها. ومع فارق التشبيه فإن الذي يصنع آلته، يكون أدرى بها من غيره، وهو الذي يضع طريقة إدارتها ونظام صيانتها وما يمكن أن ينشأ فيما بعد تشغيلها مدةً كذا، وبعد كذا و. . .

إن نظام الحكم في الإسلام يعتمد على مبدأ الشورى. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]. و﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2] ليست الشورى أن يُسأل كل فردٍ، وإنما يُستشار أهل العلم والرأي والحكمة، كما يُسمع من كل من يُبدي رأياً أو يَعرض فكرةً، والمستشارون هم أهل الحلّ والعقد، وهم الذين يستشيرهم الخليفة، ويُقلّب وجهات نظرهم، ثم يُعطي رأيه، ويأمر بتنفيذه. واختيار أهل الحلّ والعقد، هو الأساس في النظام الإسلامي لا الانتخاب، وهم أساس التوجيه واستنباط الأحكام في النظام الإسلامي لا المجلس النيابي القائم في أعراف اليوم.

يُختار أهل الشورى أو الحلّ والعقد من أهل العلم في أرجاء الدولة الإسلامية كلها. اختيار يتعلّق بالإيمان لا بالرغبة، ولا الترشيح، ولا دفع المال، ولا كثرة الأنصار، وأعداد القبيلة وكلّ ما يرتبط بالمادة والمصلحة وحبّ الزعامة. وقد لا يرغب أكثرهم في اختيارهم بمجلس الشورى والانتقال إلى مقرّ الحكم ولكن المصلحة العامة تقتضي ذلك، فيضطرون إلى الموافقة إن لم يُجبروا عليها، ويُعطون آراءهم بما يرونه أو يستنبطونه

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

من القواعد الأساسية للإسلام، لا بما تقتضيه مصالحهم، أو شهواتهم، أو مصالح ناخبيهم، أو أهواء قبيلتهم، أو سياسة دولتهم أو... وقد يقع الخلاف في الاجتهاد والتباين في الاستنباط، وهذا ما يُعرض على أمير المؤمنين أو الخليفة أو الأمير أو ما نراه من أسماء فيرجّح رأياً على آخر، ويحكم به، وهو لا يأخذ برأي أكثريةٍ أو أقليةٍ وإنما ما يتراءى له على أنه أقرب إلى الصواب، أو أنه يُحقّق فائدةً للمجتمع أكبر. ويحكم هذا كله نقطتان رئيسيتان أولاهما النظام المعتمد على كتاب الله وسنة رسوله الكريم إذ لا يصحّ أن يخرج عنهما أيّ حكم مهما كان، إذ يُعدّ خارجاً على الدستور، وأُخراهما الإيمان، فإذا ما اَختلفت الآراء نتيجة الاجتهاد كان الإيمان هو الضابط لها، والموجه الرئيسي لها. ولا يمكن أن تتشعّب الآراء كثيراً ما دامت مُستنبطةً من مصدرٍ والدافع لها واحد، والأمير نفسه من أهل العلم وغالباً ما تتفق الآراء وتكون منسجمة.

ويقضي نظام الشورى على الانتخابات ومساوئها، من بذل الأموال وشراء الأصوات، والضغوط التي تُمارس، وإرباك الدولة، وإقامة حكومةٍ محايدةٍ تُشرف على الانتخابات كي لا تُوجّه، وتأخير بعض الموضوعات لانتظار نتائج الانتخابات، وتغيير السياسة فيما إذا نجحت فئة جديدة إضافةً إلى تغيير الموظفين تبعاً لأهواء المتسلّمين السلطة الجدد. وتأثُّر السوق التجارية بنجاح فئةٍ لها سياسة معينة، والصراعات داخل المجلس، وتحكّم الأهواء، واتخاذ وسائل غير شريفة في سبيل الكسب السياسي والوصول إلى السلطة وما إلى ذلك من الأمور السيئة التي تنتج عن الانتخابات، وقضية الأكثرية والأقلية، وما يُطلقون عليه «حكم الشعب».

[١٤] الحُكم

لكلّ أُمةٍ نظام تسير على هداه يُحدّد صلاحية المسؤول، ويُبيّن واجباته، ويُوضّح طريقة الإدارة، ويُعيّن أسلوب الحكم وقواعد السلطة. كما أنّ لكلّ أُمّةٍ منهجاً اجتماعياً يسود بين أفرادها، وغالباً ما ينبع من عقيدتها، كما لها منهاجاً اقتصادياً تختاره لنفسها سواء أكان من وضع أبنائها أم مستورداً من غيرها أم مجموعاً من هذا المنهج ومن ذاك فهو مزيج. وغالباً ما يختلف المنهج عن النظام وليس هناك من رابطٍ يجمع بينهما سواء أكان من حيث الأصل أم في طريقة الوضع، وغالباً أيضاً ما يكون كلاهما من وضع البشر لذا فالنظام والمنهج على حدٍّ سواء يتغيران باستمرار لأنهما وضعَا وفق مصالح المُشرّعين وحسب أهوائهم فإذا ما تغيّر المشرّعون أو تبدّل الموجّهون كان لزاماً تغيير القوانين والأنظمة والمناهج، ومن هنا فالقوانين الوضعية مُتبدّلة باستمرار.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن قوانين الحكم الوضعية لا توجد فيها أيّة اتصالات بينها وبين عقيدة الشعب، فقد تُحرّم العقيدة الزنا لكن ليس هناك ما يمنع أصحاب السلطة من ممارسة ما حرّمته العقيدة من زنا أو كذب أو غشٍّ أو قتلٍ أو. . . . ويتّخذون الجملة الرائجة الباطلة قاعدةً لهم «دع ما لقيصر لقيصر وماالله لله» ويقصدون بقيصر الحياة الاجتماعية، ويقصدون بـ (الله) العبادة أو الكنيسة، ففي الكنيسة أو المعبد يتعبّد المرء ما يشاء، وخارج الكنيسة يفعل الإنسان ما يُريد. أو يقولون: الدِّين لله والوطن للجميع، وهي جملة باطلة ورائجة أيضاً، ويكاد يكون معناها معنى الجملة السابقة نفسه، تتعبّد الله كما تشاء، أما الوطن فلا علاقة له بعبادتك وتشترك ومن يعيش فيه لخدمته ـ على زعمهم ـ ويمكن للناس فيه أن يعبدوا صنماً أو عجلاً،

أو عبداً، أو يُفسدوا عقائد غيرهم بالإغراء، والمال والشهوة، أو يتكلموا بالكفر أو يكتبوا كفراً، ولا يمكنك أن تفعل شيئاً باسم الحرية، وباسم الدين لله والوطن للجميع.

أمّا الأُمّة المسلمة فتختلف عن غيرها من الأُمم في دستورها أو نظام حكمها ومنهجها الذي تسير عليه فهو أولاً مُنبثق من عقيدتها التي نظّمت حياة الفرد والجماعة تنظيماً دقيقاً، وبحثت كل نقطةٍ فيها منذ أن يُولد الفرد حتى ينتقل في الدنيا، ومن خلوته بنفسه أو مع أهله حتى أكثر القضايا تعقيداً من ا لحياة، ودرست أمور الجماعة من التقاء الفرد مع أخيه حتى أصعب جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وثانياً هو من عند الله، ومعنى ذلك هو:

١" - بعيد عن الأهواء والشهوات ومحاباة فردٍ، أو جماعةٍ، أو فئةٍ، أو تنظيمٍ، أو شعبٍ، أو لونٍ، أو عنصرٍ، أو أبناء قارة أو....

٢" - ثابت لا يتغيّر بتبدّل الزمن أو البيئة.

٣" - واحد لا اختلاف ولا تناقض فيه.

٤" - صالح للبشر لأن الذي خلق الخلق وفطرهم بطبيعتهم التي هم عليها، هو الذي أنزل لهم ما يصلحُ لهم، فهو الخبير بشؤونهم، العليم بفطرتهم، الحكيم بطبعهم الرحيم بهم. بل لا يصلُح للبشر غير ما أنزل الله، لأنه يكون من وضع المخلوقين المختلفين بطباعهم، المتفاوتين بمصالحهم، المتباينين برغباتهم وشهواتهم، فينشأ كلّ نظام يختلف عن الآخر ويُناقضه، ويتفق مع الذي صاغه أو مع الذي وجّهه لصياغته، فقط.

٥" - متكامل يُتمّم كلّ جانبٍ بقية الجوانب، ولو أعرضنا عن حانب لظهر شيء من الخلل كالبناء القائم على أركان فلو رفعنا ركناً لاختلّ البناء بل لو رفعنا لبنةً من جدار لظهر شيء من العور، وبالمقابل لو ظهر السفور في المجتمع المسلم لبدا الفساد وانعكس ذلك على المجتمع، ولأثّر على الاقتصاد، ومع الزمن يصل الأمر إلى العقيدة، وهو أساساً منها.

٦" ـ مترابط لا يمكن الفصل بين جانب وآخر. إذ لا يمكن أن نقول: هذا للدين وهذا للدنيا، فالدنيا تُقابلها الآخرة لا يُقابلها الدين، إذ الدين للدنيا والآخرة. ولا نقول: هذا أمر تعبّدي وذاك أمر اجتماعي أو اقتصادي فكلّ خُطوةٍ يخطوها المؤمن نوع من العبادة إذ في الطعام عبادة ما دام المرء يقصد به التقوّي على طاعة الله ومرضاته، واللقمة يضعها في فم زوجه له فيها صدقة ما دام يقصد بها العفّة. . . وإحياء الأرض عبادة، والسعي على العيال عبادة، والجهاد في سبيل الله عبادة، وصلة الرحم عبادة وكل أمرٍ سواء أكان اجتماعياً أم اقصادياً أم إدارياً عبادة ما دام يقصد فيه الإخلاص والطاعة.

٧" ـ إيماني: ما دام المسلم مُؤمناً بالله، ويعتقد أن القرآن من عند الله وأن ما فيه من آياتٍ وأحكامٍ يجب تطبيقها فهي لم تنزل عبثاً ولا لهواً، ولا للتعبد في تلاوتها فقط، وإنّما للعمل بموجبها والتقيّد بأحكامها، كما يؤمن أن محمداً رسول الله، وأنّ ما يقوله وما يأمر به ليس من عنده ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[1]، فعمله وقوله وأمره واجب التطبيق والتنفيذ. هذا إيمان يقيني عند المسلم، ومن هذا الإيمان أن تركه أو الإعراض عنه كفر، وأن أخذ جزءٍ وترك جزءٍ كفر. وأن العبادة وإقامة الشعائر دون الأخذ بالمنهج كفر تُسأل عنه الجماعة، وعلى الفرد المطالبة بذلك والدعوة إلى ذلك، لأنه غير مسؤولٍ عن التنفيذ ما دام لا يملك سلطة، وصاحب السلطة هو المسؤول الأول، كما لا ينجو من السؤال من لم يعمل ويدعو.

ويُؤمن المسلم أنّ العبادة ركن أساسي من الإسلام، وليست وحدها هي الإسلام. وأن إقامة الحدود جزء من الحكم الإسلامي وليست وحدها هي الحكم الإسلامي. إن الحكم الإسلامي هو تطبيق منهج الإسلام في الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والصلات مع المسلمين خارج ديارهم،

---

(١) سورة النجم: الآيات ٣ ـ ٥.

ومع الأعداء وما يترتب على ذلك من نظم ومواثيق ومعاهداتٍ وجهادٍ، وإقامة الحدود، وتنفيذ أسلوب الحكم. وإن إقامة أيّ جانبٍ مهما كان مُهمًّا لا يعني تطبيق الإسلام. وإنّ إهمال أيّ جانبٍ مهما كان صغيراً يعني الإخلال بالنظام والمسّ به وهذا يعني عدم تطبيق منهج الإسلام. فالتطبيق يجب أن يكون كاملاً.

[١٥] التشريع والاستنباط

إن للأُمّة المسلمة تشريع لا يصحّ اتخاذ غيره لأنه من عند الله، والله الذي فطر البشر هو أدرى بما يصلُح لهم، فأنزل لهم بما يُوافق حياتهم. وهذا التشريع أو النظام ثابت لا يتغيّر مع الزمن، ولا يتبدّل حسب المكان، حيث فيه من الاستنباط ما ينسجم مع كلّ عصرٍ، وفي كلّ بقعةٍ. ولما كان من عند الله فهو لم يوضع تبعاً لمصالح أو أهواء، ولم يُشرّع حسب أمزجة بني البشر وما يعتريها من نزوات، كما لم يختلف حسب البيئات والأماكن، وهذا الفرق الرئيسي بينه وبين القوانين الوضعية التي صاغتها البشرية على اختلاف عصورها ودولها، إذ كانت ترتبط برغبات واضعيها، وأغراضهم لذا لم يلبث أن يظهر فيها العور، ويبدو الفساد فيُسرع الآخرون بنقدها ويعملون على إلغائها، ووضع قوانين غيرها، ويدّعون أن فيها الصلاح، ولكن لم تلبث أن تتغيّر بزوالهم، لأنها كانت تتفق ومصالحهم فقط، فإذا ما انتهوا انتهت صلاحيتها معهم، وهكذا عبر الزمن.

إن كلّ تجاوزٍ للتشريع الإسلامي فيه خروج على الدين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[1]. وكل حُكم بغير ما أنزل الله كفر وبغي وفسق وظُلم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ

(١) سورة الجاثية: الآية ١٨.

ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [١].

لقد بعث الله لكل قومٍ رسولاً له وشرع له شرعة يحكم بها بين قومه، ثم أرسل محمد بن عبدَ الله عليه أفضل الصلاة والسلام للناس كافةً، فكانت رسالته خاتمة الرسالات وشاملةً لها، وفي الوقت نفسه ناسخة لها. وكان رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، ولما كانت خاتمة الرسالات فيجب أن تصلُح للبشر إلى نهايتهم وتُماشي نموّ حياتهم وتطوّرها وارتقاءها، وهذا ما هو كائن ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [٢].

وكان قوم كل رسولٍ مُلزمون عقيدياً بما أنزل إليهم من شرعةٍ وكلّ تجاوزٍ يُعدّ كُفراً ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [٣]. ولما كانت رسالة

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

الإسلام ناسخةً لما قبلها فقد انتهى الحكم بما قبلها، وإن كانت شاملةً له، ويُلزم الناس بالنظام الإسلامي والحكم بما أنزل الله في القرآن وما أوحى الله به إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولما كانت رسالة الإسلام تُماشي نموّ الحياة وتطوّرها وارتقاءها فكان لا بدّ من أن يكون فيها من المرونة ما يُستنبط منها ما يُناسب كل ما يستجدّ في حياة البشر من اقتصادٍ واجتماعٍ وإدارةٍ، وهذا ما يستنبطه ويجتهد فيه أهل العلم، وهو أمر مع تطور الحياة، إذ كثيراً ما تستجدّ أمور لم تكن موجودةً من قبل فمن الضرورة أن يُعطي أهل العلم رأيهم فيه، كالمصارف التي تعمل كشركات مضاربة، والتأمين على وسائل النقل، وطرق انتقال المسلمين من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين وقضية جوازات السفر و. . . ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

وما دام نظام الإسلام من عند الله فهو واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض. إنه نظام متكامل لذا من الضروري تطبيقه كاملاً، ولكن لو أخذنا جزءًا وتركنا آخر لأصبح هناك اختلال، ولظهر فيه بعض العور ما دام يُكمل بعضه بعضاً ولظنّ بعض الجهلة أو الأعداء أن هناك اختلافاً فيه، أو لا يظلح في كل جوانبه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2]. إذن لا بدّ من تطبيق المنهج الإسلامي كاملاً كي تسعد البشرية وتشعر بارتفاع قيمتها، أما الأخذ بجانب العبادة وترك أمور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية أو الفصل فهو مخالف لأمر الله، وفيه كفر صريح. وهذا ما يظنّه كثير من الناس صحيحاً بل وحتى بعض المسؤولين يقولون: إننا نُؤدّي العبادة، ونُؤدّي الشعائر، وندعو لها، ونُقيم الحدود وبذا نطبق النظام الإسلامي. أعود لأقول إن النظام الإسلامي متكامل لا يمكن أخذ الجانب التعبدي وترك شؤون الحياة فالإسلام عبادة

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

ونظام لا يمكن الفصل بينهما، كما لا يمكن إقامة الحدود فقط ـ مع أهميتها ـ والإدعاء بتطبيق الإسلام، لا بدّ من تطبيقه متكاملاً، كيف نُقيم حدّ الزنا والاختلاط موجود، والسفور والتبرج مُنتشر؟ كيف نُقيم حدّ السرقة والفقر والجوع يعمّ البلد؟ كيف نُقيم حدّ السرقة على الفقير لأخذه القليل والمتسلّط يرتع بأموال الناس؟ كيف نُقيم حدّ الخيانة والنظام مرتبط مع الشرق أو الغرب؟ وهذه أمثلة على جوانب اجتماعية واقتصادية وإدارية.

إذن في النظام الإسلامي شرع الله هو المهيمن، ويستنبط أهل العلم أحكام ما يجدّ في حياة البشر، وتتكوّن لجنة من أهل العلم تُتابع الاجتهاد ودراسة القضايا المستجدة.

[١٦] الترف

تبرز الأُمّة عندما تجعل لها هدفاً تنطلق نحوه وتسعى جادّةً لتصل إليه وتسير بعدئذٍ إلى غايتها لتُحقّقها، وقد تكون الأهداف ماديةً دون غايةٍ كالمغول الذين انطلقوا من فيافيهم يسلبون وينهبون، ويحصلون على المغانم الكثيرة، ويقتلون ليصلوا إلى المزيد ممّا يطلبون، يُبيدون الأخضر واليابس، ويُهلكون الزرع والضرع، ويدمّرون المدن، ويُزيلون المعالم كي يقطعوا على خصومهم كل وسيلةٍ للتموين أو المقاومة، وهذا ما يُجبر العدو على الفرار أو الاستسلام، وبرز المغول، وأنشؤوا دولةً غير أنهم لم يتمكّنوا من الاستمرار لتأخرهم الحضاري ووجودهم وسط أمّةٍ ذات حضارةٍ فاعتنقوا عقيدتها، وذابوا فيها، وأصبحوا جزءًا منها.

وقد تكون الأهداف قتاليةً سواء أكانت هجوميةً أم دفاعيةً أم استنقاذية أو ردود فعلٍ لما تتعرّض إليه كما هي الحال في دول أوربا التي كانت كل دولةٍ تُحاول أن تقف في وجه تعدّيات الثانية، وتُحاول الانتصار عليها كي تُذلّها أو تسيطر على أرضها، أو كما هي حال الدول الضعيفة التي تكون أرضها محتلةً من قبل غيرها وتُريد التخلّص من ربقة الاحتلال فتبذل ما في وسعها للحصول على الاستقلال.

أما الأمة المسلمة فقد برزت بعقيدتها، وانطلقت تدعو إلى الله، وتنشر الإسلام، وتفتح البلدان للقضاء على الظلم وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وكانت لها غاية، ولم تقتصر على أهدافٍ ماديةٍ تتوقّف عند تحقيقها.

وتُوفّر الأُمّة عند انطلاقها نحو أهدافها وغايتها كل شيءٍ لتُحقّق ما تُريد وتُقدّم كل شيءٍ لتحصل على ما تبغي، وإذا ضحّت بإخلاصٍ، وتقدّمت بصدقٍ بدأت تُحرز النصر، وتحصل على الفوز، وتكون في مرحلة نموٍ واتساعٍ، وبناء وتشييدٍ، وتستمر في ذلك ما دامت تسير على طريقتها الأولى عندَ انطلاقها، فإذا شعرت أنها قد انتهت من مُهمّتها، ووصلت إلى غايتها، ركنت إلى الأرض، وخلدت إلى الراحة، وبدأت تنسى ما قدّمت، وتغفل عمّا ضحّت، أو يكون الجيل الذي بنى وتعب، وشاد وبذل قد انتهى، ولم يشعر الجيل الذي جاء بما فعل السلف إذ عاش في الهناء والرخاء، ووجد نفسه في الخير يقطف ثمار ما زرعه السابقون. وغاية الأمة المسلمة لا تنتهي إلا بتطبيق منهج الله في الأرض كلها، واقتلاع الظلم وجذوره من الأرض كلها، لذا فعملها دائم مستمر ويجب ألا تعرف إلاّ الجدّ ، ولا تفكر بالترف.

يبدأ الجيل الجديد عهداً جديداً، فسادته حكام، والغنائم تأتيه من كل صوبٍ، والشعوب التي تخضع له في خدمته، والأموال التي تأتيه يستغلّها في جلب الناس لأمور دنياه من زراعةٍ، وصناعةٍ، وتعليم، وبناءٍ، بل وللخدمة في بيته والتصرّف بها كيف يشاء، وتكون الأمة قَد وصلت إلى مرحلة الترف، وهي بداية الانهيار، والانتهاء من مرحلة البناء، وقد بدأت حياتها بالتراجع والتقهقر الذي يُؤذن بالضعف ثم الرحيل، وتغلّب الأعداء عليها. إذ لم يعد أبناؤها قادرين على مقاومة غيرهم إذ اعتادوا على حياة الترف، واسترخت نفوسهم لاعتمادهم على الخدم وعدم قيامهم بأيّ عمل، ولم يعد بإمكانهم الرجوع إلى حياتهم الأولى والتي كان يحياها آباؤهم. ومن هذا المنطلق يُحارب الإسلام الترف، ويُطالب العادة على حياة الخشونة، وإمكانية العيش في كل الظروف، وبمختلف الأسباب.

لقد ورد الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله وكلها في موضع الذمّ، وهذه هي آيات الله:

١" ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

٢" - قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2].

٣" - قال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3].

٤" - قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4].

٥" - قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5].

٦" - قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[6].

٧" - قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[7].

٨" - قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[8].

والمُترفون عادةً أكثر الناس استغراقاً في المتاع، وأقربهم إلى الانحراف بل في طليعة المنحرفين، وعدم التفكير في المصير، لأن كثرة

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.
(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٢٣.
(٨) سورة الواقعة: الآية ٤٥.

المال تدعو إلى السيادة، والخلود إلى المتعة والراحة، وتُيسّر عمل الفسق، فترتع فيه النفس وتستهتر بالقيم فلا تبالي فيها، وتتعاظم بمالها، كما تستهتر بأعراض الآخرين، وتُحاول أن تُعوض لهم عنها بالمال، إذ يصبح المال كل شيءٍ في مفهوم المُترفين. وبذا تفسد الفطرة، وتستجيب النفس لكل مفسدةٍ.

قد يكون الإنسان بالأصل طيباً صاحب خلقٍ ودينٍ إلاّ أن كثرة المال تُعميه عن الكثير مما حوله فلا يرى إلاّ ما يُفكّر فيه إذ يُريد في البداية أن يُقلّد المُترفين من أصحاب النفوذ، من المُجرمين الذين يحصلون على المال عن طريق الربا، والاحتكار، والزعامة، وعن طريق القمار، والزنا، والمُحرّمات كلها و. . . يريد أن يُقلّدهم بما يملك مُباهاةً وتفاخراً فيأتي بالخدم ويملأ بيته بهم نساءً ورجالاً، ويُعميه المال، وتُعميه المباهاة فلا يعرف ماذا يتمّ بين هؤلاء الخدم! ولا يعلم ماذا يتمّ بين شبابهم ونسائه! ولا بين نسائهم وشبابه! فهذه غرائز أودعها الله في النفس البشرية. ومن ثَمّ يُصيب البيت العفن ولا يدري، وينخر فيه السوس ولا يدري، ويسبح فيه الدود ولا يدري، ويصبح بُؤرةً للفساد وهو يظنّ أنه يُحسن صُنعاً، يُقدّم لأهله الراحة ويخدمهم. وإذا أراد أن يترك ما هو فيه ويرجع إلى ما كان عليه عجز لأن أجسام أهله قد ترهّلت فلم تعد تقوى على العمل، ونفوس أبنائه لم تقبل العمل لأنها لم تتعوّد عليه و. . . وتكون الطامّة، فمن أين نأتي بالمجاهدين والعاملين الذين يقومون ببناء الأُمّة وتقدّمها وتطوّرها؟ وقد فقدناهم بما أترفناهم فيه.

يُحارب الإسلام الترف ويُقيم نظامه على أساسٍ لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة. لقد كان الخدم مُتوفّراً في المرحلة التي فيها الإسلام، ويُشكّل الرقيق جزءًا كبيراً، وتُعد الحروب أكبر مصدرٍ للرقيق. غير أن الإسلام قد عمل على الحدّ من استعمال الخدم، وفي الوقت نفسه عمل على إلغاء الرقيق فجعل عتق الرقاب تكفيراً للذنوب، وتقرّباً إلى الله و. . غير أن القتال كان يمدّ المجتمع بأعدادٍ كبيرةٍ منه، ومع العتق الدائم

الكثير إلا أن أعداداً منه تبقى في المجتمع. ولكن الإسلام فرض على أتباعه العمل، والإحسان للخدم، وجعل الإيمان ضابطاً للتصرف.

قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، : إن رسول الله ﷺ، لما زوّجه فاطمة بعث معها بخملةٍ، ووسادة أدمٍ حشوها ليف، ورحائين، وسقاءٍ، وجرّتين. فقال عليّ لفاطمة ذات يومٍ: والله لقد سنوت[1] حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبيٍ فاذهبي فاستخدميه[2]. فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت[3] يداي. فأتت النبي ﷺ، فقال: ما جاء بك يا بُنية؟ فقالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال عليّ: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتياه جميعاً فقال عليّ: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد أتى الله بسبيٍ وسعةٍ فأخدمنا. قال رسول الله ﷺ: والله لا أُعطيكما وأدع أهل الصُّفّة تطوى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكني أبيعهم، وأُنفق عليهم أثمانهم. فرجعا، فأتاهم النبيّ ﷺ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطّيا رؤوسهما تكشّفت أقدامهما وإذا غطّيا أقدامهما تكشّفت رؤوسهما فثارا، فقال: مكانكما، ألا أُخبركما بخيرٍ مما سألتماني؟ فقالا: بلى. فقال: كلمات علّمنيهنّ جبريل، تُسبّحان في دبر كل صلاةٍ عشراً، وتحمدان عشراً، وتُكبّران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين. قال: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ رسول الله. فقال له ابن الكوّاء: ولا ليلة صفّين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفّين[4]. فسيّد البشر لا يرضى أن يُعطي أحبّ الناس إليه، ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وهي سيدة هذه الأمة خادماً.

---

(١) سنوت: استقيت.

(٢) استخدميه: اطلبي منه خادماً.

(٣) مجلت: تقطعت.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الثامن. فاطمة.

يُطالب الإسلام الفرد المسلم أن يعمل بنفسه، ويُشجّعه على ذلك، فعن المقدام، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود، عليه السلام، كان لا يأكل إلا من عمل يده»[1]. وعن عروة بن الزبير قال: «قالت عائشة، رضي الله عنها،: كان أصحاب رسول الله ﷺ، عمّال أنفسهم، وكان لهم أرواح فقيل لهم: لو اغتسلتم»[2]. وإن كان لا بدّ من الخدم لسببٍ من الأسباب فقد طالب الإسلام بمساعدتهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون وليطعموا مما يأكل السيد، وليلبسوا مما يلبس، عن المعرور، رضي الله عنه، قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حُلَّة وعلى غلامه حُلّة فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلاً فعيّرته بأُمّه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذرٍ أعيرته بأُمّه إنّك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[3].

وقد جعل الإسلام الإيمان قيّماً على هذا وشاهداً فأصحاب الثراء من المسلمين يُنفقون أموالهم في سبيل الله، فلا تتكدّس عندهم الثروات، ولا يُخامر الفساد نفوسهم، فقد كان عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما، من كبار الصحابة، ومن الأثرياء ولكنهما كانا دائمي الإنفاق، ويتصدّقون، وكذلك أبو بكر، رضي الله عنه، وكل أصحاب المال من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين على مدار التاريخ.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، معروفاً بالتجارة، وبُعث النبيّ ﷺ، وعنده أربعون ألف درهم فكان يُعتق منها، ويُقوّي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهمٍ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة[4]. وكان

---

(١) أخرجه البخاري في باب البيوع، والأنبياء.
(٢) أخرجه البخاري في باب البيوع.
(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري.
(٤) طبقات ابن سعد.

يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله، واشترى عاماً قطائف أتى بها من البادية ففرّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء[1].

قال عبد الرحمن بن خباب، رضي الله عنه،: «شهدت رسول الله ﷺ، وهو يحثّ على تجهيز جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفّان فقال: يا رسول الله، عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسها[2] وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان، فقال: يا رسول الله، عليّ مائتا بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثُمّ حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: عليّ ثلاثمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ، ينزل عن المنبر، وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[3]. وروى الأحنف بن قيس قال: «خرجنا حُجّاجاً، فقدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فبينا نحن في منازلنا نضع رحالنا إذ أتانا آتٍ، فقال: إنّ الناس قد اجتمعوا في المسجد وفزعوا، فانطلقنا، فإذا الناس مجتمعون على بئرٍ في المسجد، فإذا عليّ، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقّاص؛ فإنّا لكذلك إذ جاء عثمان وعليه مُلاءة صفراء، قد قنّع بها رأسه، فقال: أهاهنا عليّ؟ أهاهنا طلحة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا سعد؟ قالوا: نعم، قال: فإني أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع مربد بني فلان غفر الله له؟ فابتعته بعشرين ألفاً ـ أو بخمسة وعشرين ألفاً ـ فأتيت النبيّ ﷺ، فأخبرته، فقال: اجعله في مسجدنا وأجره لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع بئر أرومة غفر الله له؟ فابتعتها بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: قد ابتعتها بكذا وكذا، قال: اجعلها سقايةً للمسلمين وأجرها لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، نظر في

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأحلاس: الأكسية التي تكون على ظهور الإبل تحت الرجال والأقتاب.

(٣) أخرجه الترمذي في باب مناقب عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

وجوه القوم، فقال: من يُجهّز هؤلاء غفر الله له؟ يعني جيش العُسرة - فجهّزتهم، حتى لم يفقدوا عقالاً، ولا خِطاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»[1].

وعن الزهري قال: «تصدّق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ، بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألف دينارٍ، وحمل على خمسمائة فرسٍ في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلةٍ في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة»[2]. وعن الزهري أيضاً: «أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسّمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأُمّهات المؤمنين و...»[3].

واستمر هذا السخاء يقوم به المؤمنون الصادقون لأنهم يخشون الترف ويعرفون مغبة ذلك، وسواء أوجد رجال بعد ذلك أم لا فإن أُسوتنا في صحابة رسول الله ﷺ، فهم الذين فهموا الإسلام وطبّقوه عملاً وسلوكاً.

تدفّقت الأموال على الدولة الإسلامية أيام الفتوحات الأُولى في عهد عمر وعثمان، رضي الله عنهما، وكان الإيمان قوياً في النفوس، فلم تؤثّر كثرة الأموال في نفوس المسلمين، فبُذلت في طرق الخير، وصُرفت في الوجوه المشروعة، وتوقّفت الفتوحات في أواخر عهد عثمان، رضي الله عنه، وتوقّف معها تدفّق الأموال، ولم يتغيّر شيء في طبيعة المسلمين. وعادت الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك بعد أن استقرّت الأوضاع الداخلية، وعاد معها تدفّق الأموال والسبايا، وبشكلٍ أوسع من المرحلة الأُولى، وأثّرت هذه الأموال تأثيراً طفيفاً يتناسب مع التساهل الخفيف الذي حدث في هذه المرحلة بالنسبة إلى العقيدة، ومع ذلك فلم يبدو هذا الأثر على الحياة العامة.

---

(١) أخرجه النسائي في باب الجهاد.

(٢) أخرجه الطبراني في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، وهو في الإصابة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده.

وجاءت الدولة العباسية، لم يظهر أثر الترف في أول عهد الدولة بسبب الجهد الذي بذله أوائل الخلفاء لاستلام السلطة، وبعدئذٍ توقّفت الفتوحات نهائياً، وانصرف الناس إلى حياتهم الخاصة، وظهرت الدويلات نتيجة تجزؤ الخلافة، وركن السكان إلى الأرض، وأخلدوا إلى الراحة، وبدأت تظهر بوادر الترف، فانتشرت الموسيقى، وكثر الغناء، وغدت الجواري في القصور، وشيدت الأبنية الفخمة، وأُطلق على هذا اسم الحضارة، وأخذت الأُمّة تُؤذِن بالأفول.

وجُلب الزنج من الصومال إلى جنوبي العراق للعمل في المزارع والبساتين، وكثرت أعداد الذين جُلبوا، فكانوا يعيشون حياةً ملئها التعب والشقاء، وسادتهم على الأرائك مع نسائهم والجواري، يكدّ العامل في لظى الشمس المُحرقة، وسيده في الظلال الوارفة، فنشأ نوع من الحقد، العامل يستثمر ولا يأخذ، ويشقى لغيره فيثور في نفسه الحسد، وتثور كذلك الغريزة لما يرى، ولا يملك من الأمر شيئاً فلا أهل له، وهو في فورة الشباب، وثورة الطيش، وطفرة الجنس، واستغلّ هذا الشياطين من أصحاب الأغراض والذين يعملون في الخفاء، فحدثت ثورة الزنج، وفعلت ما فعلت بالمنطقة، وأعقبتها حركة القرامطة، ولا تختلف عنها في استغلالها للجنس والمال، فدعت إلى الشيوعية فيهما فأقبل نحوها الجهلة المحرومون الذين داسوا القيم بسبب ما يُعانون، فالضغط لا يُولّد إلاّ الانفجار و. . . .

وداعب النوم عيون الأمة فتهدّلت أجفانها وكادت تستسلم للنوم فما أيقظها إلا جنود الصليبيين يترنّمون بانتصاراتهم فتحرّكت حركةً خفيفةً تمكّنت من طردهم، وما كادت تعود إلى سُباتها حتى حرّكتها جحافل المغول تجوس ديارها فاهتزّت قليلاً، وذابوا فيها، ثم عادت تغطّ في نومها حتى سيطر عليها الصليبيون تارةً أخرى باسم الاستعمار فاحتلّوا الأرض، وبسطوا نفوذهم على السكان، وبدؤوا يُخطّطون لإزالة ما بقي في الأُمّة من عقيدةٍ خوفاً من أن تُحرّكها فتنتفض.

وضع الصليبيون المستعمرون المخططات، ومنها ما نحن في صدده

الترف، إذ أغرقوا من اصطفوا بالترف بعد أن سلّموهم المقاليد. ووضعوا نصب أعينهم أن يفيدوا مما يأتي:

١" ـ إغراق هؤلاء بالمفاسد كي تعمى أبصارهم عن كل شيءٍ. ولو نظرنا إلى الترف الموجود عندنا لما وجدنا له في العالم مثيلاً، فلا يُوجد في أكثر بلاد الدنيا غنىً وفساداً ما يوجد ما يعمر بيوتنا وقصورنا من جموع الخدم، والعمال، والأتباع، وما يُنفق فيها من الأطعمة، ويُبذل من العطايا والهباب.

٢" ـ إغراق أكبر عددٍ من الشعب بهذه المفاسد عن طريق التقليد إذ يعمل الناس على تقليد كبرائهم وأصحاب النفوذ فيهم.

٣" ـ نعت ذلك كله بالإسلام إذ أن هذه العناصر تنتمي إلى الإسلام، إن لم تُصرّح بالعمل له، والواقع أن هناك براءة من كل طرفٍ للآخر.

٤" ـ ويجب ألا ننسى المظالم التي تُرتكب خلف هذا كله، ووصم الإسلام بذلك أيضاً، ونشر الدعايات في بلاد الأعداء.

٥" ـ تحقيق أهداف الأعداء من يهودٍ وصليبيين من السيطرة، والدعاية ضد الإسلام، وإيجاد الأتباع، وأخذ الخيرات، وإبقاء أصحاب النفوذ في غفلةٍ يعمهون، واستمرار هذا الوضع.

ولما كان المترفون قد استمتعوا بالدنيا غير حاسبين فيها للآخرة حساباً، ولا شاكرين لله نعمته، وغير وجلين من جزاء، ولا مُتورّعين عن ظُلم أو فُحشٍ أو حرام، واشتروا شهوات الدنيا بما أعدّ الله للمُتّقين، فقال الله في أمثال هؤلاء المترفين: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

[١٧] الحضَـارة

الحضارة هي تطوّر الوسائل المختلفة التي تُحقّق خدمة الإنسان ورفاهيته، وتختلف الحضارة باختلاف تطوّر هذه الوسائل وباختلاف مفهوم خدمة الإنسان. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطوّر وحدها، ويعدّون طلب الملذات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه وحب الشهرة تقع كلها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون بها عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أيّ ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمعٍ كاملٍ أو قتل أفراد أُمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدّون الوسائل التربويةَ والمادية هي المجال للتطور ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشريفة للحصول على الرغبات هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أمّا الوسائل غير الشريفة فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدّمٍ وتطوّرٍ للوسائل، وتهدم بالتالي ما بُني من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل لهو من نتائج تصوّر الناس للحياة وبيان مُهمّتهم فيها. وهذا ما تقدّمه العقيدة. فالعقائد المادية تُبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحقّ أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادعٍ، وكل يُسمّي ما يعتقده حضارة، أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حَدًّا يقف عنده، وبحث في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدّي دوره في الحياة كاملاً، فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسمها لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم

فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط فينشأ التطوّر، ويحدث التقدّم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مُهمّة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس الحقّة كانت هناك حضارات مختلفة.

ولما كان الإسلام يعدّ الإنسان مُستخلفاً في الأرض كان عليه أن يقوم بإعمارها حقّ القيام، ويُؤدّي مُهمّته التي أُنيطت به حقّ الأداء. ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لذا فقد كان على الإنسان القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما في الأرض أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية وما يتبعها في كلّ ما يتعلّق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلاتٍ، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم وحماية سيرهم وقوافلهم، ولعلّ هذا آخر ما بقي من آثار الحضارة الإسلامية، وإذ كانت الدولة تبني مسافة كلّ ٤٠ كيلومتراً تقريباً بناءً يأوي إليه المسافر، ويحصل فيه على الطعام، والشراب، والنوم، وكلّ وسائل الراحة بلا مُقابل، بل ويُقدّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاورٍ للبناء الأول، ويخصّص للرواحل... وكانت المسافة هذه تسمى بالمرحلة أي مسافة ما يقطعه المسافر برحلته يوماً واحداً، وعرفت هذه الأبنية فيما بعد باسم «الخانات» نسبة إلى الأمير.. الذي يُطلق عليه اسم (الخان) وذلك في عهد التتار والأتراك... ولا يزال الكثير منها حتى هذا اليوم مثل «خان يونس» و«خان أرنبة» و«خان الشيح» و«خان ذا النون» و«خان ميسلون» و«خان شيخون» و«خان البطيخ» وغيرها كثير... هذا على الطرق الرئيسية التي تصل بين المدن، أمّا في داخل المدن فتوجد مثلها تُؤمّن الراحة للمسافرين والغرباء، وتُبنى من طابقين الأعلى منها للمسافرين، والأسفل

للرواحل، ولكن لا يحقّ أن يبقى المسافر في هذه أو تلك أكثر من ثلاثة أيام... وآثار ما كان منها في المدن لا يزال أيضاً، ويعرف بالاسم الأول نفسه «الخانات» وما من مدينة إلا وفيها عدد منها... مثل «خان الخليلي» في القاهرة، و«خان الباشا» في دمشق وغيرها... بل وصلت العناية بالمسافرين والتُّجار إلى أكثر من ذلك إذ كان في بعض المدن «دور للثياب» تُؤمّن لهؤلاء ثياباً بدل ثيابهم فيما إذا مزّقت أو أصابها أذى، ولا يُقابل ذلك سوى الثياب القديمة...

ولـمّا كان الإسلام يهتمّ بالإنسان بالدرجة الأولى ويُكرّمه ويهتمّ بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتمّ بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يتعلق فيها من شوائب وخرافات، وحرّر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيم، وطيرة، وهامة، ومنع كل ما يحول دون انطلاق فكر المسلم وتحرّره من كل قيد يُمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات والظلم والاستبداد. فالإسلام حرب على الظلم أينما وُجد، وحرب على الظلمات من أيّ مصدرٍ جاءت.

أما من الناحية الصحية فقد حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمومٍ ومُسكراتٍ ومُخدراتٍ، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات وهي نار جهنم. واعتنى بصحة الأفراد، وقد أُقيمت في الدولة الإسلامية المشافي التي تقبل كلّ مريضٍ، وتُقدّم له العلاج اللازم والدواء والعناية به حتى إذا عوفي كانت مسؤولةً عن وصوله إلى سكنه.

ومع صحة الإنسان فقد اهتمّ الإسلام بالحيوان، ورفق به رحمةً به وحرصاً عليه وعلى صحة البشر الذين قد يتضرّرون، ويُؤذون من جراء ذلك، ولقد وجدت أماكن رعويةٍ للحيوانات التي يُصيبها العجز فيضطر أصحابها إلى تركها، فخوفاً على الناس من أن تموت تلك الحيوانات ويتضرّرون من روائح الجيف وما يكون من تفسّخها من أمراضٍ وأذى، لذا فقد أنشأوا لها تلك الأماكن التي فيها أعشاب للحيوانات والتي يمكن أن

ترعى فيها سائمةً، وحظائر لتلك التي تعجز عن الحركة فإذا بلغت دابة أحد الناس تلك المرحلة من العجز أخبر أولئك المُشرفين على ذلك المكان فجاءوا إليه، ونقلوا دابته، فإذا ما ماتت نُقِلت إلى مكانٍ بعيدٍ في البادية لتأكلها وحوش الفلاة وطيور البر، أو وُريت بالتراب... وهذا كله رحمة بالحيوان وحرصاً على صحة الإنسان، ولعلّ آخر ما بقي من تلك الأماكن «مرجة الحشيش» المعروفة بدمشق، والتي أُقيم مكانها معرض دمشق الدولي.

ولقد اهتمّ الإسلام بمساواة الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس الغنى والفقر أو الأصول والبيئات أو المسكن والمكان أو المهنة والعمل حتى لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفتهم أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ: «يا أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[١].

واهتمّ الإسلام بنشر العدالة بين الرعية ففرض تأدية الزكاة للدولة، والدولة بدورها تُؤدّي المال للفقراء حتى لا تكون مِنّة من غني على فقير، كما أمر بالصدقة والتعاطف والتراحم بين الجوار والأرحام ثم بين المسلمين جميعاً، فقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لأفرادها، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغض النظر عن عقيدة الأفراد الذين تُصيبهم هذه الحالات.

---

(١) من خطبة رسول الله ﷺ، في حجة الوداع.

واهتمّ الإسلام بالعدل وعدم النظر إلى منصب الأفراد، فالخليفة فرد من المجتمع يقف أمام القاضي، فيُقضى له أو يُقضى عليه، وما هو بأفضل فردٍ في المجتمع، فيقول أبو بكر رضي الله عنه عندما وُلي الخلافة: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني...».

ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف كما يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعاتٍ للدولة إلا إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلّف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتمّ المسلمون ببناء القصور المنيفة، والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة حتى لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغنيّ نظرة الحقد، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيّام المُتأخّرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه...

وطالب الإسلام أُولي الأمر بالتواضع وعدم الترفّع عن الرعايا وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلا أنه خصّ أُولي الأمر منهم فهم أحقّ بغيرهم في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك.

ولو أردنا أن نتحدّث في كل الجوانب التي اهتمّ فيها الإسلام بالإنسان لطال الموضوع ولاحتاج الأمر إلى مجلدات، وليس هذا بحثنا الآن، وإنّما لإعطاء فكرةٍ عامةٍ، وهي تقودنا إلى:

١" ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً، ولا تعدّها حضاراتٍ وإنما علوم وفنون.

٢" ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة قائمة بذاتها نبعت من العقيدة الإسلامية لذا فهي تختلف تمام الاختلاف عمّا سبقها من بناءٍ وعلومٍ وفنونٍ، ولم تستفد مما حدث قبلها إلا بأمورٍ جزئيةٍ لا وزن لها، على عكس ما يُردّده الأوربيون وتلامذتهم من المستغربين والمستشرقين من أن الحضارة

الإسلامية قد أخذت ممّا كان عند الإغريق والرومان وسكان الشرق الأقدمين من علومٍ، وترجمت كتابتهم، وأضافت إليها بعض البحوث، ثم أوصلت ذلك إلىٰ الأوربيين الذين قد أخذوا تلك الحضارة عن المسلمين، فهم قد ساروا على نهج أسلافهم القدامى، ولم يكن للمسلمين من فضلٍ سوى أنّهم قد أوصلوا للأوربيين حضارة أسلافهم ونقلوها إليهم، وحتى أصبح يرى بعض الأوربيين أنه من الأفضل العودة إلى حضارات الإغريق والرومان القديمة دون النظر إلى ما قدّمة المسلمون وذلك في سبيل دعم رأيه، والبرهان على صحة قوله.

إن الحضارة الإسلامية تنبع من نظرة الإنسان للحياة، ومُهمّته فيها، وما يُحقّق للنفس من سموٍّ، وما يُؤمّن للمجتمع من سعادةٍ ورفاه على حين أن بقية الحضارات مادية بعامة تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يُحقّق فيها لنفسه من ترفٍ وما يتمتّع فيها من ملذاتٍ وما يُحقّق من شهواتٍ وشهوةٍ وبناء عزٍ.

٣" ـ أن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها أيّام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، رضي الله عنهم، أي من عام ١ ـ ٤١هـ حيث عاش الناس في هذه الأيّام في سعادةٍ تامّةٍ ورخاء، وكانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى، على الرغم من عدم وجود الآثار عن تلك المدة، وعدم وجود التآليف والدراسات والبحوث والترجمة التي يُوليها الماديون المكانة الأولى، لأن المسلمين الذين عاشوا في تلك المدة كانوا يهتمّون في جوانب أسمى وأعلى بكثير من هذا كلّه حيث كانوا يُولون التربية كل اهتمامهم إذ هي البناء الأول الذي تقوم عليه الحضارة وأنه لا سعادة للمرء إن لم تكن له حرية، ولم يشعر بالرخاء إن لم يكن على صلةٍ حسنةٍ بأفراد مجتمعه الذين يعيشون معه، وإن الدراسات والبحوث إنما هي ثمرة ذلك الصرح المجيد الذي شاده المسلمون الأوائل، ولو لم يبنوا صرحه من قبل لما حدث ذلك العلم والتطوّر فيما بعد، فالعلوم والفنون إنما هي ثمرة الحضارة وليست هي

الحضارة بالذات، فالبناء له غاية يجب أن يُؤدّيها سواء أكان خيمةً في بادية أم بيتاً في قريةٍ أم قصراً مُنيفاً في مدينةٍ، أما ما يُفرش فيه من أثاثٍ وما يُعرض فيه من زينةٍ فهذا أمر آخر وليس الأثاث والزينة هما البناء أو يُؤدّيان مُهمّته، وكذا العلم والفن وغيره...، ولذا الحضارة لها غاية إنسانية ترتبط بسعادة الإنسان، أما الجوانب الفنية فأمور أخرى، فالقنبلة الذرية كانت نتيجة علم عظيم، ولكن لا تدلّ على حضارة إلاّ إذا استُخدمت لخدمة البشر، أمّا إذا استخدَمت لهلاك الإنسانية فهي عنصر هدّام... ولو قلنا لسكان مدينة (هيروشيما) في اليابان ـ وهي المدينة التي أُلقيت عليها القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية... لو قلنا لهم: إن القنبلة الذرية كانت نتيجة الحضارة لأنكروا ذلك علينا لأنهم ذاقوا منها الويلات.

ويحرص الغربيون والماديون عامّةً أن يقولوا: إن الحضارة الإسلامية كانت في أوجها في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي للتأكيد على الجانب المادي والفني إذ وُجد الغناء والموسيقى، والغزل بالمؤنث والمذكر على حدٍ سواء، وتسلّط الجند على الشعب، وعادت العصبية تذر قرنها من جديدٍ، وفي الوقت نفسه قامت الأبنية، وشيدت القصور، وظهرت الدراسات، وعلوم الحديث والفقه، والتاريخ والجغرافيا، وحدثت الترجمات... وكلّ هذا التأكيد على هذه المدة إنما هو في سبيل إعطاء الحضارة الإسلامية الصفة المادية وترك الجانب الروحي الذي حرض عليه الإسلام وعدم الاهتمام بالنفس البشرية التي أولاها الإسلام الجانب الأول، ومن ناحية أخرى إنما هو إعطاء الحضارة الإسلامية الجوانب التي لا يقرّها الإسلام من غزلٍ وموسيقى وغناءٍ وجورٍ واستبدادٍ، ومحاولة إلصاق هذه الأمور بالإسلام عن مكرٍ وتخطيط.

٤" ـ أن الصروح التي شادها القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصورٍ، وهياكل وأهراماتٍ، ومعابد ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةً لا ينظر إليها المسلمون على أنها حضارات لأنها لم تُشد لخدمةِ البشر وسعادتهم، وإنما قامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس، وتكليفهم ما

لا يطيقون، فكم من فردٍ لقي مصرعه من أجل بناءٍ لسيّدٍ، أو أصابته ضربة وقت عمله وهيكلاً أو تمثالاً فبقي مرمياً في كوخه حتى جاءته المنية دون أن يلتفت إليه أحد، وإنما يعدّون هذا فنًّا من الفنون القائمة، فالحضارة مهما كانت ثمارها لا تُعدّ حضارةً إلا إذا كانت تكرّم الإنسان، وتُنزله المنزلة اللائقة به والتي أرادها الله له، وكانت تخدم الإنسانية، أما إذا استبدّت بالإنسان، واستعبدته وأذلّته فهي من آثار الظلم والطغيان، وإنّ الظلم لهو الكفر، والثمار إن لم تكن لذيذةً لا يأكلها الإنسان مهما حلا شكلها، وكبر حجمها، وبدا جمالها، ولا تعدّ حينئذاك بين الفواكه، ولا تخدم الإنسان.

[١٨] الجهـــاد

الجهاد فريضة من فرائض الإسلام، قائمة إلى يوم الدين، وعلى المسلمين أن يقوموا بها كي يُؤدّوا دورهم الذي أنيط بهم منذ أن استخلف الله الإنسان في الأرض، ولا يتوقّف الجهاد إلا أن يعمّ الإسلام الأرض، ويسود السلام والأمن والطمأنينة، أو تنتهي الحياة، وهو أعلى مراتب الأعمال حيث يقول ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ويقول: «من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار»، ويقول: «عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»، ويقول: «حرس ليلةٍ في سبيل الله أفضل من ألف ليلةٍ يُقام ليلها ويُصام نهارها». وأحاديث أخرى كثيرة تدلّ على مرتبة الجهاد، وغاية الجهاد:

١ ـ أن يُعبد الله في الأرض، ولا يُشرك به شيئاً، ومن هنا كان قتال الكافرين أمراً واجباً ما داموا لم يعبدوا الله وحده، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾[١] وبهذا فالجهاد قائم حتى يزول الشرك من على وجه الأرض. أمّا أهل الكتاب إذا كانوا على عقيدة كتابهم قبل أن يحرّفوها، والمجوس يعبدون الله ولا يشركون به فإنه يمنع قتالهم على شرط أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأن يقوموا بالشروط التي يطلبها منهم المسلمون، منها ألاّ يدلّوا على عورات المسلمين، وألاّ يُساعدوا الأعداء،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥.

وألاّ يدخل أحد من خصوم المسلمين إلى بيوتهم إلا بعلم المسلمين، وألاّ يُجاهروا بتعاطي ما هو محرّم على المسلمين كالخمر وغيرها وشروط حدّدها الفقهاء، فهؤلاء لا يُكرهوا على ترك دينهم، وهم في ذمّة المسلمين وحمايتهم يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، وهنا يكون عدم الإكراه في الدين ما دام الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي يُؤمنون بالله، ولا يُشركون به، أمّا إن وجد مشركون فيكرهوا حتى يختاروا الإسلام أو ديانة أهل الكتاب أو الجلاء.

٢ ـ أن يُمنع الظلم من الأرض بكل صوره وأشكاله، وعلى المسلمين أن يُقاتلوا الظالمين ويُجاهدوهم أينما كانوا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[2].

٣ ـ أن يُمنع الوقوف في وجه الدعوة فالذين يحرصون على عدم انتشار الإسلام، ويحولون بينه وبين وصوله إلى رعاياهم يُقاتلون ويُجاهَدون.. فإذا سمح لها، وعرفها الناس، وقارنوا بينها وبين ما هم عليه، يسمح لهم عندها باختيار العقيدة التي يُريدون ولا إكراه في الدين بشرط أن يكونوا من أهل الكِتاب ومن يلحق بهم كالمجوس ـ كما ذكرنا ـ أو يُسلموا.

٤ ـ أن يُحافظ على المسلمين من أن يعبث بعضهم بالدين فيمتنعون عن تأدية الزكاة مثلاً أو بعض شرائعه، وقد قاتل أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، فعندما قيل له: كيف نُقاتل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٧٥، ٧٦.

الناس....؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني، دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله»، فقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه: «إن الزكاة من حقّها، والله لو منعوني عناقاً[1] كانوا يُؤدّونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها».

٥ ـ أن يُحافظ على المسلمين بمجاهدة أهل الكتاب والمجوس حتى يُسلموا أو يدفعوا الجزية، وعندها لا يمكنهم مساعدة المشركين والإرشاد إلى عورات المسلمين.

وفي كل هذه الحالات يكون الجهاد فرض كفاية، إذا قام به بعضهم واستطاعوا تحقيق النصر والظهور على الأعداء، فقد أدّوا المُهمّة، وقاموا بالمسؤولية، وفي ذلك كفاية، أمّا إذا لم يستطع الانتصار من نفر للجهاد، أو تغلّب الأعداء عليهم، أو اعتُدي على ديار المسلمين أصبح الجهاد عندها فرض عينٍ وعلى كلّ مُستطيع أن ينفر في سبيل الله حتى يتحقّق للمسلمين النصر.

هذه غاية الجهاد التي يجب على المسلمين أن يعملوا لها في كلّ وقتٍ أينما وجدوا، ولن يتوقّف الجهاد أبداً ما دام أحد هذه الجوانب التي ذكرناها قائماً، وحتى يكون في سبيل الله يجب ألا تكون هناك غاية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصاً له، فليس هناك من جهادٍ من أجل ترابٍ أو عصبية أو مُباهاة، وعندما سئل رسول الله ﷺ أيهم في سبيل الله، الرجل يُقاتل شجاعةً أم يقاتل حميةً أم يقاتل رياءً قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وإلى جانب شرط العمل لإعلاء كلمة الله فهناك شرط آخر، وهو أن الجهاد لا يكون إلاّ من المسلمين المؤمنين يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي

---

(١) العناق: الأنثى من ولد الماعز ما لم يتمّ له سنة.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]. فالخطاب للمؤمنين، الذين يُؤمنون بهذا القرآن، ويُؤمنون بالله وحده ولا يُشركون به.

وبهذا فلا يُقبل الجهاد إلاّ من مسلم، فإذا اضطر المسلمون للاستعانة بغيرهم لظرفٍ من الظروف أو سببٍ من الأسباب، فإن قتالهم لا يُعدّ جهاداً ما داموا لا يُؤمنون بذلك، وما قاتلوا في سبيل الله، وإنما كان قتالهم لما بينهم وبين المسلمين من مصالح، كما أن قتلاهم لا نقول عنهم أنهم شهداء، إذ أنّ الشهادة خاصة بالمسلمين المؤمنين، وما داموا بالأصل لا يُؤمنون، ولا يعتقدون بهذا، فهم ليسوا شهداء. وأما ما ورد من أحاديث في هذا الشأن «من مات دون عرضه فهو شيهد» و«من مات دون ماله فهو شهيد» و«من مات دون أرضه فهو شهيد» فالشرط أن يكون مُؤمناً صادقاً، وليس أيّ إنسانٍ قاتل، ومات عُدّ شهيداً، فلو أن وثنياً قاتل معتدين فهل نستطيع أن نعدّه شهيداً وهو لا يؤمن بالله ولا يعتقد بالشهادة ولا بما يمتّ إليها من صلة؟

هذا هو الجهاد في الإسلام: غاياته، وشروطه، ونتائجه ولقد قام المسلمون بالجهاد ففُتحت أمامهم الدنيا، وتذوقت الشعوب طعم الحياة، وتفيّأت في ظلال السلام، وعرفت الرخاء والطمأنينة. ثم أهمل المسلمون الجهاد، وتقاعسوا، فغزتهم الأمم، واحتلّت ديارهم، وأذلّتهم، ونشأت عندهم الروح الانهزامية.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة الصف: الآيات ١٠ ـ ١٣.

لقد هُزم المسلمون في بداية الأمر، واحتلت أراضيهم، ولكن استمروا يشعرون بالاستعلاء على عدوّهم، وأنّهم هم الأعلون ما داموا مسلمين، وتوثّبت هذه الروح وظهرت المقاومة، وارتفعت راية الجهاد، فكُتب لهم النصر بإذن الله، وطردوا الصليبيين من ديارهم، واستعادوا قُدسهم وديارهم.

وهُزم المسلمون ثانيةً أمام المغول إلا أنّ شعورهم ما زال أنهم هم الأعلون ولا بُدّ أنهم منتصرون، فكانت النتيجة أن أسلم المغول، وأصبحوا دعاةً للإسلام، وذابوا في المجتمع الذي يعيشون فيه، ولكنهم في المكان الذي كانوا فيه أكثريةً ملؤوا الأرض التي كانت قليلة السكان، فقد عاشوا هم الدعاة حتى في هذا اليوم الذي سيطرت فيه الشيوعية على أراضيهم، ومن قبلها القيصرية.

أما الهزيمة الثالثة فقد كانت غير ما سبقها، لقد شعر المسلمون بالضعف أمام أعدائهم وأحسّوا أنهم دونهم، وهذه هي الهزيمة. قد يُهزم الجيش في معركةٍ ولكن تبقى عنده إمكانية القِتال، ويخسر في جولة ولكن عنده الإمكانية للاستعداد والدخول في جولةٍ ثانيةٍ، أما إذا انهارت معنوياته، وشعر بالضعف والذلّ فقد حكم على نفسه بالسقوط، وحكم على أمته بالرزوح تحت نير الخصم، هذا ما حدث بالنسبة إلى أمتنا في هذه المعركة الأخيرة، ومن أول الخسران إضاعة الجهاد، ثم قبول النصارى واليهود والمرتدين في عداد قواتهم، ثم ظهور آراءٍ انهزاميةٍ في هذه الموضوعات طبعت المعركة بطابعها، وصبغت النفوس بصبغتها، وتكفي كلمة انهزامية لتعطي صورة واقعنا.

لقد شعر المسلمون في الآونة الأخيرة بالضعف أمام الأجانب، وأنهم دونهم بالقوة، ودونهم في العلم، ودونهم في الحضارة، وأنّهم بحاجةٍ إلى السير على خُطاهم ليلحقوا بهم، وليتقدّموا في مضمار العلم، وليطوّروا بلادهم ـ حسب زعمهم ـ هذه الانهزامية هي التي جرّت علينا الويل والنكبات، نعم قد نكون في العلم دونهم ولكن ليست هذه السبيل للتطوّر، وإنّما الأخذ من مناهل العلم دون أن نقلّدهم في حياتهم الاجتماعية التي

تختلف تمام الاختلاف عن حياتنا الاجتماعية المنبثقة من عقيدتنا، ودون شعورنا بالنقص أمامهم.

لقد بدأت حياتنا بتقليد أعدائنا في الزيّ واللباس، والسير على طريقتهم في السهرات والاختلاط والحفلات، مع تبريرنا بأن هذه من الجزئيات لا تتعارض مع الإسلام، ومع الأسف أن هذه الأحكام تصدر دائماً عن الجهلة وأصحاب المصالح من أهل السوء وأحياناً من جماعات يقولون باسم السياسة أو التقية، المهم إظهاراً للضعف واعترافاً به، والمشكلة أنه أحياناً يكون هذا من خلف أجهزة الإعلام التي لا يطالها غيرهم.

وأشاع الأعداء أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنّه لولا القوة والإكراه لما انتشر الإسلام بهذه الصورة الواسعة. وحاول الانهزاميون الردّ بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأنه لا إكراه في الدين، وما استعملت القوة إلاّ كردّ فعلٍ، وللمحافظة على الاستقلال، والهجوم على أنّه أحسن وسائل الدفاع للبقاء على الهيبة.

ونقول: إن الدعوة الإسلامية لا بدّ لها من قوةٍ تحميها، وتحول دون منع انتشارها وتعرّف الناس عليها، وهذه القوة هي الجهاد في سبيل الله، وإن كلّ حقٍّ لا بدّ له من قوةٍ تحميه وإلا طغى الباطل واستشرى.

وحاول الانهزاميون إرضاء ساداتهم بقبول أبناء عقيدة السادة من النصارى بالجيش والقوات المسلحة، ولم يكن يُقبل منهم الانخراط في صفوف الجيش على أنه يحمل لواء الجهاد، وحاول الانهزاميون تبرير مواقفهم بأن الجزية كانت تُؤخذ من أهل الذمّة لقاء الدفاع عنهم، فإذا وافقوا على الدفاع عن أنفسهم ومساعدتنا في الدفاع عن الأرض، فإن هذا مقبول منهم، وليس عليهم من جزية.

ونقول: إن هذا الأمر غير صحيح، وإن الجزية شيء والبدل العسكري شيء آخر، ولا يصحّ قبول اليهود والنصارى والمرتدّين في

القوات المسلحة للبلدان الإسلامية ونحن نُواجه أبناء عقيدتهم ونُجاهدهم ويُقاتلوننا بكلّ الأساليب.

ونختم القول أو نلخصه بما يلي:

١" ـ إن الجهاد في سبيل الله قائم إلى يوم الدين، وعندما يستعيد المسلمون مركزهم ـ إن شاء الله ـ لا بُدّ لهم من رفع لواء الجهاد للمحافظة على الدعوة، وانتشارها في الخارج، وحمايتها في الداخل أيضاً من المُنحرفين.

٢" ـ إنّ الجهاد في سبيل الله خاص بالمؤمنين. ولا يُستعان بالكفّار ضدّ الكفّار إلاّ بشرطٍ، ومن هنا لا يقبل المسلمون قتال أهل الكتاب والمرتدّين والمنحرفين من المسلمين معهم، ولا بدّ من تطبيق الأحكام عليهم.

٣" ـ إنّ الذين يُقتلون في الحروب الدائرة اليوم لا يُعدّ منهم شهيداً إلا من كان مُؤمناً، وكانت غايته إعلاء كلمة الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1].

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠، ٤١.

[١٩] النصر

لا بُدّ للحق من قوةٍ تدعمه كي ينطلق وإلاّ حاول أهل الباطل كبته حتّى لا يظهر، ولا بُدّ للدعوة من قوةٍ تحميها وتأخذ طريقها إلى الناس، والصراع بين الحقّ والباطل قديم، ويجتمع أهل الباطل ويتعاونون ضدّ الحقّ وأهله، ويبدو الحق بمقدار ما لحامله من قوةٍ، والخلاف بين الدعاة إلى الله وخصومهم قديم أيضاً، ويلتقي أصحاب المصالح، والأهواء، والشهوات، والنفوذ في وجه الدعوة، لأنّ في نجاحها ضياعاً لمصالحهم ولما يسعى وراءه كلّ أهل الفساد.

بُعث رسول الله ﷺ، فدعا قومه، فآمن من لم تكن له مصالح ومطامع، ومن لم تكن له شهوات ورغبات جامحة، ووقفت في وجهه أكثرية قريشٍ من أصحاب النفوذ الذين يملكون الإماء والعبيد، ويخشون على سلطانهم من الزوال، لأنّ الإسلام يحول دون تسلّط العباد على العباد، ووقف في وجه الدعوة أصحاب الثراء الذين يظلمون الناس لأنّ الدعوة إلى الله تحول دون الظلم، وتمنع استغلال بعضهم لبعض، ووقف في وجه الإسلام أصحاب الشهوات الذين يهتكون أعراض الناس بما يملكون من جاهٍ أو ثراء أو قوة، وقد فهموا منذ أن وصلت إليهم دعوة الإسلام أنها لا تسمح أن يتمرّغ الناس في أعراض بعضهم بعضاً. ولم تكتف أكثرية قريشٍ وقادتها بأن وقفت ضدّ الدعوة وإنما عدت على رجالها تُعذّب من استطاعت، وتسخر وتستهزئ، وتُقاطِع، لتفتن المؤمنين عن دينهم، ولم يكن للمسلمين إلاّ التذرّع بالصبر على الأذى الجسمي، والحرب الاقتصادية، والنفسية، والمعنوية، حتى يتكامل الاستعداد الإسلامي ويأتي أمر الله.

لم يكن باستطاعة الدعوة في مكّة القتال أو المقاومة لأنها لو فعلت ذلك لخسرت المعركة إذ لم يكن أبناؤها بعد قد تربوا التربية الكاملة، فكيف يخوضون معركةً ولم يُهيئوا نفسياً ومعنوياً تهيئةً تامّةً تمكّنهم من النصر!

وربما أدّت المقاومة إلى القضاء على الدعوة نهائياً، وعمل رسول الله ﷺ، ليجد مكاناً أميناً للدعوة يحمي رجالها من أذى قريش، ويُقيم منهج الله في الأرض، ويستعدّ لنشر الدعوة بحيث يكون ذلك المكان مركز الإشعاع أو نقطة الانطلاق، ويمكن وقتئذ الاستعداد لمقاومة كُلّ من يقف في طريق الإسلام. انتقل إلى الطائف فرُدّ، وعرض نفسه على القبائل فَصُدّ تحت تأثير قريشٍ. وأخيراً هيّأ الله له المدينة فوجّه أصحابه نحوها ثم اتجّه إليها مُهاجراً، وهناك أسس الدولة الإسلامية الأولى، وبدأ يُثبّت دعائمها، ويُقيم أركانها، ولابُدّ من أن تصطدم مع قريشٍ عندما تُريد أن تنطلق، لذا يجب الاستعداد لتأمين النصر عند اللقاء بين مكّة والمدينة وهو لا بدّ واقع، ثم عند اللقاء بين المسلمين وقواعد الشرك والظلم القائمة في كلّ مكانٍ على وجه الأرض والتي ستقف أيضاً أمام انطلاق الإسلام وانتشاره للحدّ من توسعه، ومحاولة كبته في مهده، وهو لا بدّ واقع أيضاً.

إن النصر يتوقّف على نقاطٍ رئيسيَّةٍ أربع: الاستعداد، والإخلاص، العمل والتقوى، وطلب النصر من الله، وإغفال جانب من هذه الجوانب قد يُفقد النصر، ويذهب بالأجر. وأُولى هذه النقاط الاستعداد التام مادياً، ومعنوياً، مادياً بكل السلاح المعروف بيد البشر يوم المعركة، وبكل أنواع الأساليب المبتكرة يوم المعركة وبكل الإمكانات والطاقات المتوفرة بشرياً من حيث أعداد الجند، وتموينياً من حيث الغذاء، ومعنوياً من حيث معرفة الهدف من القتال ونتائجه وإلقاء الحماسة في نفوس المقاتلين وليس هناك من جندٍ على وجه الأرض أكثر معنويةً من المسلمين الذين يعتقدون أن القتل شهادة في سبيل الله جزاؤها جنّة عرضها السماوات والأرض خالدين فيها، وأن البقاء نصر على الأعداء وتحقيق لمنهج الله في الأرض، وهذه

المعنوية المرتفعة لدى المسلمين يُقابلها ضعف في معنوية الأعداء، ورهبة في نفوسهم مما يُؤدّي إلى هزيمتهم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[١].

إنّ النصر للمسلمين لا يتمّ لأنهم مسلمون، فالإسلام دين لا ينتصر بالمعجزات، وإن وقعت، ولا بالتأييد فقط، وإن كان يحدث، وإنما على أيدي البشر وبالاستعداد كما يستعدّ كلّ بني البشر. يقول تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[٢]، فنصر الله قد تمّ بعد الاستعداد الكامل، وبعد التهيئة التامة، وبعد الاتكال على الله. لقد قاتلت الملائكة يوم بدر مع المسلمين، وأعطتهم المعنويات الكاملة للمعارك القادمة، وقيل: إنها قاتلت في حُنين، وأُحد أيضاً، ولكنها لم تُقاتل بعد ذلك، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون في أكثر معاركهم الأولى لأنهم استعدوا بما أُمروا به، وقاتلوا حسبما أُمروا، وتوكّلوا على الله فجاءهم نصر الله. إن الله قادر على أن يُرسل ملكاً واحداً يُزلزل الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام، ويخسفها بهم إن أُمر، أو يُطبقها عليهم إن طُلب منه، ومع هذا فقد أنزل آلاف الملائكة تُقاتل مع المسلمين. يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[٣]. وزيادة عدد الملائكة للبشرى لا لزيادة القوة فإن القوة حاصلة من ملكٍ واحدٍ بل من أمرٍ من الله أو إشارةٍ. وليعلم المؤمنون أن النصر لم يتمّ بالمعجزة، لأنّه لو

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٢.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

كان ملك واحد لظهرت المعجزة، وقد باشر الملائكة القتال بالفعل. ومع وجود الملائكة فإن النصر لا يكون إلاّ من الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1]. فالنصر من عند الله وما الاستعداد إلاّ من باب اتخاذ الأسباب، وتقديم المسلمين كافة إمكاناتهم وطاقاتهم، وأنّ تأييد الله يكون بعد استعداد المسلمين واتّخاذ الأسباب لا مباشرةً وتأييد الله هو النصر. والتأييد للمؤمنين. يقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾[2]. ونستطيع أن نقول: إنّ نصر المسلمين لم يكن في يوم من الأيام بالعدد وكثرة الرجال، ولا بالعتاد ونوع السلاح، وإنما بالإيمان والإخلاص وتأييد الله، وهذا ما كان يقوله صحابة رسول الله ﷺ، في كثيرٍ من المناسبات، ولنستمع إلى عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، يُشجّع المسلمين قبل غزوة مؤتة بعد أن بلغهم أنّ الروم قد نزلوا بقيادة هرقل منطقة مؤاب، من أرض البلقاء، في مائة ألفٍ من الروم، وانضمّ إليهم من العرب المتنصرة من لخم، وجذام، وبهراء، وبليّ، والقين مائة ألفٍ، فأصبح عدد الأعداء مائتي ألف على حين أن المسلمين لم يزد عددهم على ثلاثة آلاف، وقف عبد الله بن رواحة يُخاطب المسلمين قائلاً: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، ولا نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإما شهادة». فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ـ ١٤.

والنصر من عند الله، وهذه حقيقة اعتقادية، حتّى لا يتعلق قلب المسلم بأيّ سبب من الأسباب، عليه أن يستعدّ، وعليه أن يعمل ولكن لا يمكنه تحقيق النصر لأنه هو أصلاً من عند الله، لا بيد البشر الذين ليس عليهم إلاّ اتخاذ الأسباب.

أما النقطة الثانية فهي الإخلاص لله سبحانه وتعالى: فالقتال يجب أن يكون لجعل كلمة الله هي العليا. لا لسبب آخر من أسباب الدنيا، وذلك كي يحصل على النصر أو يكون له أجر الشهادة، فقد روى أبو موسى، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[١]. فلا يُقاتل المسلم لتثبيت أركان حكم زعيم، أو سلطان، أو حزبٍ، أو طبقة، أو جنسٍ، أو دولةٍ، أو إحلال فردٍ مكان فردٍ، أو زعيم بدل زعيم، أو لسيطرة حزبٍ دون آخر. أو إزالة نظامٍ جاهلي واستبداله بنظام جاهلي آخر، ولكنه يُقاتل لإزالة الظلم من كل مكانٍ من سطح الأرض، وتقويض حكم الطواغيت من كل مكانٍ، وإنهاء كل نظامٍ جاهليٍ أينما وجد، والأرض كلها ميدان عمل المسلم.

لا يُقاتل المسلم ليُسيطر على أرض فيستغلّ أرضها، ويستخرج ثرواتها، وينهب خيراتها، ويُسخِّر أبناءها لخدمته، ويجعلها سوقاً لبضائعه ومكاناً لبيع صناعاته، وإنهما يُقاتل ليُحرّر الإنسان من عبودية العبيد، وعبودية المال، وعبودية الشهوة، وعبودية حب الاستغلال.

لا يُقاتل المسلم لفرض مذهبٍ من المذاهب البشرية الوضعية سواء أكان رأسمالياً أم شيوعياً، اقتصادياً، واجتماعياً، ولكن يُقاتل لتطبيق منهج الله في الأرض ولتقرير ألوهية الله وحده، وإن المسلم الذي تكون هذه نيته، وتكون هذه

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد، ومسلم في الإمارة، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، وأحمد.

فكرته يستحقّ الحصول على النصر من الله والتأييد، وإذا قُتل نال أجر الشهيد.

أما النقطة الثالثة فهي العمل والتقوى حيث لا يكفي المسلم الاستعداد، لأنّ هذا يفعله المؤمن والكافر، وكلّ مقاتل، كما لا تكفي النيّة والفكر لكن لا بدّ من العمل فالإيمان مجرد من العمل لا فائدة فيه، وإن كان يختلف عن الكفر، ولكنّه لا يُعدّ إيماناً راسخاً، فلو كان سليماً لآمنت الجوارح، وصدّق العمل ما آمن به القلب، فأدّى كلّ ما أمر الله به، وهجر كل ما نهى عنه، وخشي الله في السرّ والعلن. عند هذا يكون المسلم مُؤمناً حقّاً، وإذا كان المسلمون كذلك استحقّوا نصر الله، لأنهم نصروا الله بأدائهم ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم. يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾[١]، فإن نصر الله مشروط بنصر المؤمنين الله في نفوسهم، وإذا جاء النصر، واستمر أهله على إيمانهم بعد تحقيق النصر يحميهم الله أيضاً من الزيغ والانحراف والترف، ويُمكّن لهم في الأرض.

إذا استعدّ المسلمون، وأخلصلوا النيّة والعمل لله، وأدّوا ما عليهم يُمكنهم بعدها طلب النصر من الله، ومن سنة الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل أن يأتيهم النصر، ورسول الله ﷺ، عندما خرج إلى بدر، وبعد أن سوّى الصفوف رجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصدّيق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يُناشد ربّه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد»، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله: بعض مُناشدتك ربّك، فإنّ الله منجز لك ما وعدك[٢]. وجاء نصر الله، وكان يوماً فاصلاً بين الحقّ والباطل. وبهذا انتصر المسلمون في كلّ معاركهم التي خاضوها في أيامهم الأولى. فلمّا توانوا عما أُمروا به انقلبت الموازين، وأصبحت الهزائم سمةً ملاصقة لهم، حتى كاد العامة يفقدون ثقتهم بدينهم، والعياذ بالله...

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

(٢) سيرة ابن هشام.

[٢٠] مهمّة المُسْلِم

بيّن الإسلام لأبنائه مُهمّتهم في الحياة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[١]. ولا يفهم من العبادة إقامة الشعائر فقط، فليست مُهمّة المُسلم قضاء أيامه كلّها في أداء الشعائر، وإنما تعني العبادة معنًى أوسع من هذا ويمكن أن نحصره في خمسة جوانب:

١ ـ إقامة الشعائر: عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[٢]. بشرط صدق النية والإخلاص لله تعالى، لا لدنيا، ولا لخوفٍ، ولا لأيّ سببٍ من الأسباب، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣]. وبشرط عدم ارتكاب الكبائر كقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والزنا، والشرك، وشهادة الزور، والقتل بغير حقّ، والسحر، وأكل الربا، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، وأكل مال اليتيم، والتوليّ يوم الزحف و... مما تحدّث عنه رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

٢" ـ الإيمان الكامل بما أنزل الله وبما صحّ عن رسول الله ﷺ، إذ لا يُقبل قول ولا عمل من غير إيمان. والتسليم التّام بما جاء من دون تأويلٍ بغير ضرورةٍ، والاعتقاد بما جاء تماماً فليس هناك شيء مخفي، وليس من ظاهر وباطن فكل أمرٍ على حقيقته، وكل آيةٍ كما نزلت، وكل حديثٍ كما تكلّم به رسول الله ﷺ، وقد استغلّ أعداء الإسلام مثل هذا الكلام فادّعوا التأويل، وأن هناك ظاهر وباطن، وحقيقة وشريعة وهذا كلّه كفر صريح، وقد قامت الفرق الباطنية على هذا تحت تأثير أعداء الإسلام وما بثّوه بين المسلمين من هذا الكلام، كما استغلّ ذلك الدجّالون والمشعوذون لتحقيق أغراضهم، وكان لهذا خطره على الإسلام سواء أكان على عقيدة أبنائه المغفّلين أم في الهجوم على الدين نفسه.

٣" ـ إعمار الأرض لتحقيق الخلافة فيها، ويقضي ذلك القيام بنشاطٍ واسعٍ لاستثمار الخيرات، واستخراج ما تحويه الأرض، والارتقاء بالحياة علماً، ونشاطاً، وابتكاراً، والسعي لتحصيل ذلك، وعندما يتمّ علم، أو يحدث ابتكار خارج حدود ديار الإسلام فمن واجب المسلمين العمل على تحصيله بالقدر الذي يكفيهم، ويسدّ حاجاتهم لنشره، وتحقيقه بينهم، ويُعدّ ذلك فرض عين عليهم، وإن لم يفعلوا يقع الإثم على جميع من يقدر على ذلك أو من بيده الأمر.

وإن التكاسل في الإعمار والسعي لذلك، والزهد فيه أمر خطير لأنه مخالف لأمر الله في إعمار الأرض، واستخلاف البشر له، كما فيه إضعاف لقوة المسلمين وإنتاجهم، وقد شجّع أعداء الإسلام الزهد، وأشاعوا صحة ذلك أسوة بأولئك الذين اعتزلوا الفتن أيّام وقوعها، ومن وراء الزهد انتشرت الصوفية التي اختلط بعضها بأفكار الباطنية فتلاحمت معها، وكانت بين زاهدٍ متكاسلٍ، وجاهلٍ متقاعس لا يدري أحدهما أين يسير؟ ولا يعلم كيف يُوجّه؟ وبين عدو ماكر يخطّط لهدم الإسلام وبين عبدٍ للشهوة يصرعه الجنس فيجري وراءه، أو عبدٍ للمادة يستعبده المال فيسير خلفه، ومن هنا دخلت الإباحية إلى بعض الصوفية، وجمّلت فكرة الخدمة باسم التعاون، ومن هذا انطلقت الصوفية.

وإن أعداء الإسلام قد خطّطوا لتفجير الإسلام من الداخل بالفرق الباطنية، والتي فرزت الصوفية بطريقة من الطرق، أو دخلت فيها ووجهّت إليها، وإن ما في أقوال بعض زعماء الصوفيين ما يُشير إلى الأصل، وفي بعض تصرفاتهم ما يدلّ على الربط بين الفئتين.

٤" ـ تطبيق منهج الله في الأرض بإقامة الحكم على أسسٍ إسلامية، وإقامة الحدود، واستنباط السبل الاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية من المنهج الإسلامي والقواعد الأساسية له.

٥" ـ الجهاد في سبيل الله لمنع الظلم واستعباد الناس، والانغماس في المفاسد والشهوات، ولتطبيق منهج الله.

فمن قام بهذه المُهمّة وأدّاها فقد حقّق غاية وجوده، ومن قصّر بها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وغدت حياته فارغةً من القصد، وخالية من المعنى الذي تستمدّ منه قيمتها الأولى وبالتالي فقدت القيمة، وأصبحت أقرب إلى الحياة البهيمية، غايتها الطعام، والشراب، والتناسل، وتحقيق الرغبات ولو كان فيها الفساد في الأرض.

ومن واجب المسلم إبداء الرأي، والنصيحة، والسمع والطاعة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة: لله، ولكتابه، ولنبيّه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]. وعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت، وهو مريض قال: دعانا النبيّ ﷺ، فبايعنا، فقال ـ فيما أخذ علينا ـ أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا، وكرهنا، وعُسرنا، ويُسرنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا نُنازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كُفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[٢]

(١) أخرجه مسلم في الإيمان.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة.

[٢١] القيَـادة

القيادة مركز التوجيه، وموضع التنظيم، وأساس ترتيب الأُمور بعضها إلى بعض، ومحطّ العدل بين الجميع بحيث لا تطغى جماعة على أُخرى، ولا يتسلّط فرد على جماعة، ولا تصهر الجماعة الفرد في بوتقتها فتُذيب شخصيته، وتسحقه بين مسنناتها فتضيع معالمه وآثاره بين أجزائها. والقيادة هي المنظّم الدقيق الذي لا يفسح المجال لأمرٍ أن يزيد على حدّه في وقته المحدّد له فيضيع العاملون في رحابة المكان، ولا تسمح له أن ينكمش عن حجمه الذي خُطّط له فتفشل الخطّة في تحقيق هدفها المرسومة له.

لما كان للجسم البشري الواحد مركز قيادةٍ واحد هو الدماغ الذي يُصدر الأوامر والتعليمات إلى أجزاء الجسم كافةً بإشاراتٍ عن طريق الأعصاب، أو القلب الذي يُوزّع الدم النقيّ إلى أنحاء الجسد كلّها، ويتلقّى ما فسد منه ليُصفّيه، فإن الجماعة البشرية وهي كالكائن الحي لا بُدّ لها من قائدٍ واحدٍ يضبط مسيرتها، ويُوجّه حركتها، ولو تعدّدت القادة لاختل التوازن، وفسد الأمر حتى يُسيطر أحدهما على الآخر أو يطغى، ولما كانت السيطرة غير مقبولةٍ، والطغيان مرفوض فلا بُدّ من اختيار قائدٍ واحدٍ من البداية كي لا يهتزّ الكيان بالطغيان ولا يتعرّض للسيطرة. قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ثلاثة في سفرٍ فليؤمّروا أحدهم»[١]. هذا إن كان العدد ثلاثة، وهو أدنى عدد الجماعة، وهو أولى إن كانت الجماعة أكثر. والقيادة الجماعية لا تصلح على هذا القياس إلاّ إن كان لها قائد واحد، وعندها لا تكون قيادة جماعية حسب الأعراف القائمة أو ما اصطلحت عليه بعض النظم عندما لا يمكن الاتفاق على قائدٍ واحدٍ.

(١) رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود في باب الجهاد.

ادعت جماعة في مصرٍ من الأمصار تُعلن العمل للإسلام أنها اختارت قيادةً جماعيةً لأنها لم تجد من بينها من يحلّ محلّ أميرها الذي تُوفي ـ رحمه الله ـ وكان الردّ عليها: عندما انتقل رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى لم يكن بين المسلمين من يسدّ مسدّه، ولم يُفكّر المسلمون يومذاك باختيار قيادةٍ جماعيةٍ، بل عندما اقترح بشير بن سعد، رضي الله عنه، يوم سقيفة بني ساعدة منا أمير ومنكم أمير، رُفض هذا الاقتراح ورُدّ، ولم يُنظر فيه لما له من عواقب، وبايع المسلمون أبا بكرٍ الصدّيق، رضي الله عنه، ولما تُوفي أبو بكرٍ، رضي الله عنه، لم يكن بين المسلمين من يحلّ محلّه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ، بل اختار لهم قبل وفاته عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خليفةً لهم. ولما طُعن عمر، رضي الله عنه، لم يكن من يقوم مقامه، فاختار للمسلمين ستةً من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين تُوفي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راضٍ، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم خليفةً للمسلمين في مدة ثلاثة أيام لا يتعدّونها، وقال: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصلّ لكم صهيب ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورةٍ من المسلمين فاضربوا عنقه. وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري[1] قبل أن يموت بساعة فقال: كُن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يُؤمّروا أحدهم وقم على رؤوسهم، فإن

---

(١) أبو طلحة الأنصاري: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو من بني النجار من الخزرج. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وقال ﷺ: صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل. تترّس به رسول الله ﷺ، يوم أُحُد، وكان يرمي بين يدي رسول الله يومذاك. وكان رِدْفَ رسول الله يوم خيبر، وقتل يوم حُنين عشرين رجلاً من الأعداء. توفي عام أربع وثلاثين للهجرة في خلافة عثمان بن عفان في البحر غازياً، وهو ابن سبعين سنة. وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، ربيبه إذ تزوّج أم سليم بنت ملحان بعد وفاة مالك، على مهرٍ اشترطته أم سليم هو إسلام أبي طلحة.

اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد، فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاث رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم. وهذا يدلّ على مدى أهمية القائد الواحد، فإن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو الحريص على كل فردٍ من الرعية يمكنه أن يُضحّي بستةٍ ممن يراهم أفضل الخلق يؤمذاك، وأولى الناس بالقيادة، وكلهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المُبشّرين بالجنّة في سبيل اختيار قائدٍ واحدٍ، ولم يُفكّر في جعل قيادةٍ جماعيةٍ منهم. وتُوفي عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما بين المسلمين من يسدّ مكانه، فبايعوا عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ. وطُعن علي ولم يكن في جنده من يستطيع القيام بالعبء الذي كان يتحمّله فبايعوا مع ذلك ابنه الحسن، رضي الله عنه، ولم يخطر على بالهم في ظرفهم العصيب أن يُولّوا قيادةً جماعية. ثم تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ولم يخطر على بال المسلمين أن تكون قيادة من الحسن ومعاوية، رضي الله عنهما. وتُوفي معاوية، وانتهى عهد الخلفاء من الصحابة ولم يقل المسلمون لمعاوية عندما اقترح عليهم بيعة ابنه يزيد: إنه ليس من الصحابة، وحبذا لو شكّلت قيادة جماعية من يزيد وبعض صحابة رسول الله ﷺ، أو أبناء الصحابة أمثال: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، مثلاً إنما وافقوا، وإن وافق بعضعهم على كرهٍ أو مضض.

ولم يضعُف أمر الخلافة وقيادة الأُمّة إلاّ عندما أصبح الخليفة يرى بجانبه من يخلفه، ورُبّما اثنين، ولا شك أنه يُريد أن يُثبت كفاءته أو يملأ مركزه بتدخّله في شؤون السلطة، ومن ناحيةٍ أخرى يُريد أن تُسرع به الأيّام

لاستلام السلطة، وصاحبها يعمل ليحول بينه وبينها إذ يراها لابنه، ولو لم يكن لها أهلاً، بحكم عاطفة الأبوة، فتختلف الأهواء، وينعكس ذلك على القيادة فيفسُد الأمر. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] ولم نعرف في عهد الخلفاء الراشدين وهم القدوة لنا بعد رسول الله ﷺ، نائباً أو وكيلاً أو وليًّا للخليفة. إذن لا بُدّ من قائدٍ واحدٍ لكل أمرٍ، قوله الحكم، وهو المرجع لكل شأنٍ من الشؤون.

والقيادة عامة بين الناس، والأُمم والشعوب والتجمّعات البشرية كلها صغُرت أم زاد عدد أتباعها لا بُدّ لها من قياداتٍ تُمارس الصلاحيات المُناطة بها، وإذا كانت هناك مفاهيم عن القيادة لدى الأمم والشعوب جميعها، غير أن هذه المفاهيم والصلاحيات المُعطاة للقيادة وما تقوم به من واجباتٍ إداريةٍ تختلف بين الأمم حسب القيم السائدة والعقيدة التي تنبع منها هذه القيم.

إن مفهوم القيادة لدى الناس كافةً في أنها تُنظّم العمل، وتُحدّد الأهداف، وتُبيّن الوسائل، وتُتابع التنفيذ، ويُرجع إليها في المُلمّات، وتتجمّع عندها المعلومات، وتستعين بالكفاءات المتخصّصة، وتُصدر التعليمات اللازمة وبعد ذلك هناك اختلافات بيّنة، إذ نجد لدى الأُمم الجاهلية، وكل الأمم ما عدا الإسلام جاهلية، صفات للقيادة لا نجدها عند القيادة الإسلامية، حيث نجد في قيادتها الترفّع، والصلاحيات الواسعة، والامتيازات الكثيرة التي يتمتّع بها أعضاؤها، ويُقابلها في القيادة الإسلامية التواضع، والخدمات العامة، والشعور بالمسؤولية أمام الله. فلنستمع إلى أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، يقول بعد أن بُويع بالخلافة في خُطبته يومذاك:

أمّا بعد أيّها الناس قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسنّ النبيّ ﷺ، السنن فعلّمنا فعلِمنا، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى وأن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

أحمق الحُمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأن أضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحقّ، أيّها الناس إنما أنا مُتّبع ولست بُمبتدعٍ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوّموني[(١)].

ولنستمع إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد نادى يوماً: الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى على خالاتّ لي من بني مخزوم فكنت أستعذب لهنّ الماء فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين، فقال: ويحك يا ابن عوف: خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أُعرّفها قدرها[(٢)]. ولنستمع إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول على منبر رسول الله ﷺ، بعد أن بُويع بالخلافة: أيّها الناس إن أول مركبٍ صعب، وإن بعد اليوم أيّاماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنّا خطباء وسيُعلّمنا الله[(٣)]. ولننظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يكنس بيت المال، ثم يُصلي فيه[(٤)].

وأما الجاهلية سواء أكانت في الماضي أم في الحاضر فإن القائد يتألّه، ويستعبد شعبه، ويُسخّر طاقات بلاده وسكانها جميعهم لمصالحه وفي سبيل تحقيق رغباته، ولعلّنا نذكر قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٥)]، وتسخيرهم بالقسر والإكراه لبناء الأهرامات حتى تمت على جُثث الآلاف، وأطلقوا بمفهومهم المادي عليها حضارةً وهي لم تتعدّ الفنّ المعماري، وقول لويس الرابع عشر ملك فرنسا: أنا فرنسا، وأنا الشعب، وتسخير طاقات فرنسا لأهوائه، وهذا شأن الجاهليين كلهم، يقتلون من غير خوفٍ

---

(١) الطبقات ٣/ ١٨٣.
(٢) سيرة عمر بن الخطاب ـ ابن الجوزي.
(٣) الطبقات ٣/ ٦٢.
(٤) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي.
(٥) سورة النازعات: الآية ٢٤.

من أحدٍ، ويُعذّبون من شاءوا بلا حساب، ويُنفقون من دون رقيب.

وتواضع القيادة الإسلامية إنما يكون للمؤمنين المتقين أما على الذين يظلمون الناس بغير حق سواء أكانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام أم من الطغاة فإنها قيادة قوية حازمة تأخذ بالشدّة من يستحق ذلك وتُؤدّبه حتى يثوب إلى رُشده إن كان من المسلمين، أو يزول من طريق عباد الله إن كان من الذين ختم الله على قلبه وعلى سمعه وعلى بصره، وسيلقى عذابه الأوفى يوم القيامة ـ إن شاء الله ـ.

إن تصرّفات القيادات الجاهلية وعدم خوفها من أحدٍ، يُقابلها خوف دائم من الله لدى القيادات الإسلامية لأن المسلم على يقينٍ أنه مُحاسب على كل عملٍ سواء أكان صغيراً أم كبيراً، وأن الله مطّلع على السرّ وما تُخفي الصدور، وعلى ما يتمّ جهاراً فلا يمكن للعبد أن يُخفي شيئاً عن الله، ولنستمع إلى قول عمر بن الخطاب كأنموذجٍ على هذا: «فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عَنَاقاً ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة»[1]. قال هذا وقد رآه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يعدو على قَتَب، فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب. فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقال له علي: لقد أتعبت من بعدك.

وإذا كانت القيادات الجاهلية تتألّه على رعيتها فإن القيادات الإسلامية تخدم رعيتها خدمة الخادم لا خدمة السيد ولننظر هذا المشهد. قالت جارية من حيٍّ أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، لما بُويع بالخلافة: الآن لا تُحلب منائح دارنا ـ وقد كان يحلبها لهم قبل خلافته ـ فسمعها أبو بكرٍ فقال: بل لعمري لأحلبنّها لكم وإني لأرجو أن لا يُغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه[2]. فكان يحلب لهم واستمرّ على ذلك ستة أشهر، إذ نزل بعدها من الحيّ (إلخ) إلى المدينة.

---

(١) ابن الجوزي.
(٢) الطبقات ٣/١٨٦.

والقيادة لا تتمثّل في الخلافة فقط أو في رأس السلطة، وإنما تتمثّل في كل مسؤولٍ مهما كان عدد المسؤول عنهم «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ لهم، وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولدها، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]. ومن القيادات: القيادة العسكرية. بل إنّ لفظ القيادة أول ما يُوحي اليوم إلى القيادة العسكرية. ولا أقصد بالعسكرية فقط الذين يلبسون اللباس الخاص بالجندية اليوم وإنما كل تجمّعٍ وُجد للقتال بأيّ لباسٍ كان، وبأيّ سلاحٍ كان يُسمّى عسكرياً ويخضع لقيادةٍ تُدير شؤونه، وتسهر على تنظيمه والتخطيط له، وتُصدر له الأوامر، وتُطالب بالتنفيذ. ولذا فإن التجمّعات البشرية قبليةً كانت أم غير ذلك عندما تتحرّك للقتال تُسمّى عسكريةً. وقد كان لهذه التجمّعات آثار في السيطرة على الدولة العباسية في عهدها الثاني كانت السبب في ضعفها وتأخُّرها لذا ذكرت أن السيطرة العسكرية كانت سبب ضعف الدولة العباسية وانحطاطها لا سيطرة مجموعاتٍ ليست عربيةً حسب العرف العصبي القائم.

إن القيادات العسكرية في الماضي تختلف عنها في العصر الحديث، وهي في الإسلام تختلف عما هي عليه عند الجاهليين. لقد كانت القيادة في الماضي مؤقتةً على الغالب يُكلّف رجل بقيادة جيش لحرب مُعينةٍ، وقد لا يُكلّف في أُخرى. وبذا تبقى السيطرة على المحاربين مؤقتةً، كما أن واجب الطاعة مؤقت، وتزول الهيمنة بزوال الإمرة، وإن كانت القيادة تُعطى إلى الذين عُرفوا بالقدرة على استعمال السلاح، والمناورة في القتال، والفتك بالأعداء، والرغبة في سفك الدماء، وحسن السيطرة على الجند. والذين تتوافر فيهم هذه الصفات قلّة، لذلك استمرت فيهم الإمرة وقيادة

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر.

الجيوش، وأمكنهم استلام السلطة في كثيرٍ من الأحيان، وطرد من كانت بيدهم من ملوكٍ وأمراء وأكاسرةٍ وقياصرةٍ، ومتى استبدّ العسكريون بالسلطة فقد أزف وقت رحيل الأُمّة ودنا أجلها في أغلب الأوقات.

العسكرية الإسلامية:

كانت قوات المجاهدين تنطلق بإمرة أحدهم، ومن كان في غزوةٍ أميراً قد يكون في أخرى جندياً، وأخلاق المسلمين يومذاك، والمفاهيم الخاصة بهم، والتي تنبع من عقيدتهم، لم تدعهم يهتمّوا بمثل هذه الأمور، فلما برزت عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، وغدا مُوفّقاً في أكثر حروبه، وطغى الإيمان على سلوكه وتصرّفاته وتمثلّت به أعماله، وظهرت على جوارحه، أصبح كثير من المجاهدين يرغبون في القتال تحت إمرة خالد، وأحسّ عمر بن الخطاب بهذا، ورغم قناعته بإيمان خالدٍ العميق وعدم الخوف منه إلا أنه حرصاً على المستقبل والأجيال القادمة فقد كلّم عمر في شأنه أبا بكرٍ، وطلب منه أن يعزله عن قيادة جند الشام، ويُعطيها لأبي عبيدة بن الجراح لسابقته في الإسلام غير أن أبا بكرٍ رفض وأحبّ الإفادة من هذه العبقرية والشجاعة في بناء الدولة الناشئة، وتوسعة الفتوح مع اعترافه بفضل أبي عبيدة وشجاعته التي تفوق شجاعة خالد إضافةً إلى ما عنده من آراء مُوفَّقة في القتال وخوض المعارك.

والأصل ألاّ تكون القيادة العسكرية منحصرةً في فردٍ كي لا تكون له هيمنة دائمة على جنده والمقاتلين، وقد يخشون بأسه فيُطيعونه في كل أمرٍ، فربما راودته نفسه أمراً لا يتفق مع مصلحة الأُمّة، لقد أرسل رسول الله ﷺ، ستاً وأربعين سرية أو بعثاً، وكان عدد القادة الذين تولّوا أمر هذه السرايا ثلاثة وثلاثين قائداً، وليس شرطاً أن يكون القادة جميعاً على درجةٍ واحدةٍ من الإيمان والإخلاص، وعندها تكون نكبة على المسلمين إن كان القائد ضعيف الإيمان أو قليل الإخلاص. وخاصة في الآونة الأخيرة عندما ضعف المسلمون، وابتعدوا عن عقيدتهم تحت تأثيراتٍ شتّى فضاع ما بنوه.

العسكرية اليوم:

وفي العصر الحاضر أصبحت الجندية مهنةً، وأصبحت فروعاً ذات اختصاصاتٍ، وكان لا بدّ للضباط من أن يُمارسوا مهنتهم واختصاصهم باستمرار، ويبقى الجند تحت أيديهم على الدوام يُنفّذون أوامرهم، ويتلقّون التعليمات منهم، وهذا ما أوجد قوةً جديدةً يُخشى بأسها لا من قبل الأعداء، وإنما من قبل الأُمة، فالسلطة تخشاها على نفسها، والشعب يخشاها من أن يستهوي كبارها السيطرة فينقضّوا عليها وهذا كثيراً ما يحدث في أرجاء العالم، وإن اختصت به الدول النامية أو كما يسمونها دول العالم الثالث فيبسط العسكريون نفوذهم، ويسفكون دماء الشعب، ويستحلّون محارمه، ويُخضعون كل شيءٍ لسلطانهم وتئنّ الدول منهم، ومن ظلمهم، وكابوسهم الذي يفرضونه.

أما أمصار العالم الإسلامي فقد كان حظّها بتسلّط العسكريين، وتتابع التغيّرات أكثر من غيرها. وفي كل مرّةٍ وأثناء التغيّر تُدفع هذه الأمصار دفعةً جديدةً نحو التحلّل والبُعد عن العقيدة، وتُذلّ السكان، ويُضغط عليهم أكثر من المرّة التي تسبق ليسهل إخضاعهم، ولتنفيذ مرحلةٍ جديدةٍ من مُخطّط الأعداء، وإضافةً إلى أن القيادة قد أصبح يشغلها من ليس منهم من أبناء الأقليات والفرق الضالّة، وذلك منذ أن سُمح لهم بدخول الجيش عندما ابتعدنا عن العقيدة التي تحول دون التحاقهم به، ما دام الجهاد أساس وجوده، ولا يُؤمنون بالإسلام، ولا يعرفون الجهاد، فكيف يكون الأمر عندما يصبح القائد حاقداً على جنده، ودولته، وبلاده حيث لا يدين بدينهم، ولا يُؤمن بفكرتهم؟.

ولنعد إلى القيادة بصورةٍ عامةٍ ولنرى الفرق بين القيادة الإسلامية وغيرها من القيادات الجاهلية، في بعض الجوانب التي تأخذ بها القيادة الإسلامية، ولا تأخذ بها غيرها ما دامت المفاهيم تنبع من العقيدة.

يمكن للأفراد أن يُقدّموا التضحية للقيادة الإسلامية، وهذا من واجباتهم ما داموا مسلمين، حديث رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة لله

ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]، وقول جرير بن عبد الله: (بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[2]. بينما الأفراد في بقية القيادات لا يمكنهم أن ينبثوا ببنت شفة أمام قادتهم وخاصةً القادة العسكريين.

لا يصحّ للأفراد المسلمين أن يُطيعوا قادتهم في أمر فيه معصية الله سبحانه وتعالى أي فيه أية مخالفة للإسلام لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[3]. وقوله: «لا طاعة لمن لم يطع الله»[4]. ونعلم أن أبا بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، قد قال في خطبته يوم بُويع بالخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم». أما القيادات الجاهلية فطاعتها عند أفرادها واجبة في كلّ الأمور. بل يُنفّذ الفرد ما أُمر به، ثم يعترض إن أراد، ولا يصحّ أن يكون الاعتراض في أمورٍ تتعلق بالغيبيات ـ حسب زعمهم ـ.

وفي القيادة الإسلامية لا توجد قيادة جماعية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولا يوجد نائب للقائد، ولكن عندما يضطر للغياب لسببٍ من الأسباب يُعيّن مكانه من يقوم مقامه. وقد رأينا أن رسول الله ﷺ، عندما يخرج إلى غزوةٍ، ويُغادر المدينة يُعيّن أميراً من قبله عليها، وفي كل مرّةٍ يضع أحد أصحابه، وغالباً ما يكون غير الذي وضع في المرة السابقة لقد غاب رسول الله ﷺ، سبعاً وعشرين مرة عن المدينة، وخلفه في هذه المرات ثلاثة عشر نائباً، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدين من بعده حيث يُنيب الخليفة مكانه أحد الذين يختارهم لتصريف شؤون الدولة أثناء غيابه. كما لا يوجد خليفتان في دار الإسلام مهما اتسعت حتى لو شملت العالم كله ـ وهو ميدان عملها ـ ولو قام أحدهم يُنازع الخليفة أو يدّعي خلافته على

---

(١) أخرجه البخاري في باب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري في باب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٦٦.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٢١٣.

جزءٍ من ديار الإسلام والخليفة الشرعي على جزء آخر فإن الدعيّ يُقتل إن لم يتُب إلى رشده بعد النصح والتذكير بأوامر الإسلام، يقول ﷺ: «من أتاكم وأمرُكم جميع على رجلٍ واحدٍ يُريد أن يشقّ عصاكم أو يُفرّق جماعتكم فاقتلوه»(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»(٢). أمّا في القيادات غير الإسلامية فيوجد لكل قائدٍ نائب له، وكثيراً ما يحدث النزاع إن كان النائب على شيء من القوة.

وفي الإسلام لا يُعطي القيادة من يسألها أو يحرص عليها، قال رسول الله ﷺ: «إنا والله لا نُولّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه»(٣) قال ذلك عندما سأله أحد ابني عمّ أبي موسى الأشعري الإمرة، وقد دخلوا عليه، أما عند غير المسلمين فالجميع يطلبون الإمارة، ويسعون إليها، ويحرصون عليها، ويعملون كل وسيلةٍ في سبيل الوصول إليها.

وفي الإسلام يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأول الصفات المناسبة الدين وحسن الخلق، والرجل القويّ الأمين، وأمّا بالنسبة إلى إمرة الجيش فيُختار الكفء صاحب الإمكانات. وقد قال أبو ذرّ مرةً لرسول الله: يا رسول الله ألا تستعملني فقال له: «يا أبا ذرّ إنك ضعيف وإنّها أمانة وإنّها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»(٤). أما عند غير المسلمين ولو كانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام بل هم أول ما أخصهم فإن أول ميزات القيادة البعد عن الدين والخلق، وللشهادة دورها الرئيسي، وللمعرفة شأنها، وللعصبية حزبيةً كانت أم قبليةً مكانتها.

وفي الإسلام لا يوجد صلاحيات مطلقة أو واسعة تُعطى للقائد

---

(١) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٢) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٣) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٤) أخرجه مسلم في باب الإمارة.

يُمارسها فوق حقّه الطبيعي، وفوق ما تُعطيه تلك الدساتير الوضعية التي يصوغونها حسب مصالحهم وأهوائهم، فيتصرّف بعدها تصرّف الفراعنة والمتألّهين. أما القائد المسلم فلا يستطيع أن يسير خارج دائرة الإسلام قيد أُنملة، ويشعر أن الله رقيب عليه في كلّ حركةٍ من حركاته لا تخفى عليه خافية فلا يمكنه التهرّب، فلو كان الخوف من سلطانٍ أو قانونٍ لأمكنه التلاعب أو التستّر، ولما كان عمله واضحاً بيّناً مكشوفاً أمام خالقه الذي سيُحاسبه لذا فإنه يبقى حذراً خائفاً لا يحيد عن الإسلام، ولا يزيغ عما تسمح به الشريعة سواء أُعطي أم لم يُعط، فكّر أم لم يُفكّر.

وإذا كان غير المسلمين سواء أكانوا ينتمون إلى الإسلام أم إلى غيره يعدّون القيادة جاهاً يستظلّون فيه، ومركزاً يمشون فيه بين الناس، وغنماً يُحقّقون منه أرباحاً، وسلطة يُنفّذون من ورائها أهواءهم وشهواتهم أو يشفون صدورهم ويروون غلّهم من خصومهم، و.... فإن المسلمين يرون القيادة مسؤوليةً، تجعل حسابهم أكبر عند الله إن لم يأخذوها بحقّها ويؤدّوا واجبهم فيها، وبذا عليهم أن يُضاعفوا الجهد، ويبذلوا إمكاناتهم وطاقاتهم كافةً.

أما بالنسبة إلى القيادة العسكرية فإن بعضهم ربما يقول: إن النظام العسكري القائم والاختصاص الذي أصبح أساساً لا بُدّ من أن يفرض قيادةً دائمةً، وبهذا يبقى المحظور الذي تتكلّم عنه قائماً، وأحبّ أن أُركّز على هذا الموضوع لذا عُدت إليه بعد أن قطعته ليثبت في الذهن. قلت: إنّ كلّ موضوعٍ يرتكز على أساس العقيدة، ولما كنّا أبناء الإسلام نختلف عن غيرنا في عقيدتنا فإننا نختلف عنهم في كثيرٍ من تصوّراتنا للحياة ومنهجها. إن مُهمّتنا في الحياة تقوم على الجهاد الذي لا ينتهي أبداً حتى ينتهي الطغاة والظلم من العالم وحتى ينتهي الشرك من العالم أيضاً. فساحة عملنا العالم كلّه، لذا يجب أن نستعدّ دائماً أو أننا في مرحلة جهادٍ دائم، وهذا يقتضي ألا يكون الجيش النظامي في مصر من الأمصار هو المقاتل فقط، وإنما كل عناصر الشعب القادرة على حمل السلاح يجب أن تتدرّب في الدوائر،

والمدارس، والمعامل، وفي ساحات القرى، وحدائق المدن، بغضّ النظر عن السنّ، ويصل الأمر أحياناً إلى تدريب النساء الذي نحتاج إليه كما هو معلوم في أمور الفقه حيث يكون الجهاد فرض عين عندما يُداهم العدو دار الإسلام أو يقتحم المدن والقرى. ويكون التدريب على كافة أنواع الأسحلة. ومن هذا المنطلق فإن الجيش النظامي لا يُشكّل إلا جزءاً قليلاً، من المقاتلين، ووظيفته في الحالات العادية دعم قوات الأمن الداخلي عند الضرورة، وحفظ نقاط الحدود، ويكون الطليعة للقتال. وبذا فإن القيادة في الأمور المادية تكون لغير المحترفين من الجيش، وفي حالات القتال يمكن أن تكون القيادات العليا لضباط الجيش، وهي حالات موقتة. والقيادات الأخرى لغيرهم، بل من الممكن أن يتولى غيرهم القيادة ما دام التدريب مُستمرًّا، والإمكانات موجودة. وفي هذه الحالة لا يخشى من المحظور المرتقب من التسلّط العسكري.

هذا إضافةً إلى أن الحكم عندما يكون قائماً على أساس الإسلام، فإن كل شيءٍ يكون مُنبثقاً عنه سواء أكانت التربية أم التعليم أم التدريب العسكري وجوانب الحياة الاجتماعية كلها، وعندها لا توجد نفسيات كالتي عهدنا عند العسكريين الذين يتسلّطون على الأوضاع في بعض الأمصار التي اعتادت أن ترى هذه النماذج أو عند أولئك الذين يُفسّرون الأمور وتصرّفات غيرهم بمقتضى هواهم وحسب نفسياتهم المُعقّدة التي تتناسب مع المجتمع الجاهلي الذي يعيشون فيه.

والخلاصة:

١" ـ لا بدّ من قيام قيادة يتولّى أمرها مسؤول واحد. وليس للخليفة أو الأمير نائب دائم.

٢" ـ لا توجد لدى المسلمين قيادة جماعية. ولم تُعرف هذه القيادة لدى أسلافنا.

٣" ـ لا توجد قيادة دائمة سوى الخلافة.

٤" ـ لا تُعطى القيادة لمن يسألها أو يحرص عليها.

٥" ـ ليس للقيادة صلاحيات مطلقة.

٦" ـ على القيادة أن تتقبل النصح والرأي من أي فرد من الأُمّة.

٧" ـ لا تُطاع القيادة في معصية.

٨" ـ تُسأل القيادة أمام النظام في الدنيا، وهي مسؤولة أمام الله في الآخرة.

٩" ـ وظيفة القيادة خدمة الأمة ورعايتها.

١٠" ـ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب له.

١١" ـ من شروط القيادة: التواضع، والتقوى، والخوف من الله، والحزم، والقوة.

[٢٢] الإدارة

هي إدارة التعاون البشري أو المجتمع، أو استخدام القوى البشرية والتفاعل معها للوصول إلى الأهداف العامة التي ترسمها القيادة، أو تدعو إليها العقيدة ضمن مبادئ مُحدّدة. وتُمثّل بشكلٍ عامٍ العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين، أو طريقة تطبيق القوانين أو السياسة العامّة. ورُبّما عدّ بعضهم الإدارة هي تصرّف القائد باستخدامه المبادئ العامة وتطبيقها إذ لا يكفي وجود المبادئ، ولكن كيفية استخدامها وتطبيقها، وتعامل القائد معها، وتصرّفه في استعمالها، وطريقته في الإفادة من مرونتها.

ولما كان الإسلام عقيدة، والعقيدة لا بدّ من أن يكون لها منهج حياة، فلا بدّ من أن يكون منهج في الإدارة والنظام. ويُلزمنا الإسلام باتخاذ منهجه وإلا نكون خارجين عنه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾[١]. والمنهج هو ما سار عليه رسول الله ﷺ، لأنّه من عند الله سبحانه وتعالى، فهو أدرى بخلقه، وقد أنزل لهم ما يصلُح لهم، ويُصلح لهم شأنهم، ويتّفق مع المهمّة التي خلقهم من أجلها، وهي العبادة، والمهمة التي كلّفهم بها وهي عمارة الأرض. ورسول الله ﷺ، هو القدوة لنا في كل شيء ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[٢]. ومن ثمّ فإن طريقته قد حقّقت نجاحاً باهراً إذ استطاع وحده ـ بإذن الله ـ أن يُغيّر مجتمعاً كاملاً موغلاً في الجاهلية، ويرفعه من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

الحضيض إلى القمّة، وأن يقيم له دولةً في مدةٍ لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً، ولا غرابة في ذلك فهو رسول الله. مُوجّه من الله، مرعي من الله، مُسدّد الخطا، والمنهج منهج الله، والعباد خلق الله، وقد أنزل إليهم هذا المنهج.

وليست الإدارة في الإسلام ضغط، ورقابة، وتوجيه، وتسلّط كما هي في بعض الأنظمة بحيث لا يستطيع المرؤوس أن يرفع رأسه من العمل، أو يأخذ شيئاً من الراحة، كما لا يستطيع أن يُفكّر وإنما يعمل كالآلة مدة الوقت المحددة كلّها، وإذا أمكن يُضاف له جزء آخر بحيث تستغلّ طاقة العمل اليومية كلها فلا يذهب إلاّ وهو منهوك القوى خائر الجسم. وإذا كانت الأنظمة الحديثة قد حدّدت ساعات العمل، وأعطت العامل بعض الحقوق مثل الإجازة المرضية، والعطلة الأسبوعية، وهي يوم يجد العامل فيه راحة، ويستعيد نشاطه والعطلة السنوية وهي ما يقرب من أسبوعين غير أن العامل قد بقي محطّما نفسياً، ويعدّ نفسه دون بقية أفراد المجتمع مستوى. وأصبح العمال طبقةً خاصةً تُكافح ضد طبقةٍ أخرى من المجتمع هي طبقة أصحاب المعامل وغدا الصراع في المجتمع حتى تهدّم في بعض الشعوب والأمم.

أما الإدارة في المجتمع الإسلامي فتمتاز ببعض الميزات الخاصة بها، وقد لا تلتقي إلاّ في جوانب قليلةٍ مع الإدارات في المجتمعات الثانية، وأهم هذه الصفات:

١ ـ لا توجد طبقات في المجتمع الإسلامي، وبالتالي لا يوجد صراع فيه، وإنما كل فرد في المجتمع يُشكّل جُزءاً منه له دوره الذي يُؤديّه، ولا تختلف منزلة فردٍ عن فردٍ بالمهنة أو الوظيفة، أو المال، أو الأملاك، أو النسب، أو العصبية، أو الانتماء، فالناس في المجتمع الإسلامي سواسية كأسنان المشط يتمايزون بالإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ، في خُطبة حجّة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد. وإن

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى»(١).

٢ ـ يكون رأس الإدارة قدوةً طيبةً لمرؤوسيه، فهو أولاً يقتدي برسول الله ﷺ، والجميع يقتدون، ولكن هو أكثرهم. وما وصل إلى رئاسة العمل إلا بأخلاقه، وتقواه واقتدائه برسول الله ﷺ، ولم يصل إليها بشهادته، وإن كان لها دور بالاختصاص، والمعرفة، والعلم، ولم يصل بنسبه، أو معارفه، أو حزبيته، أو عصبيته أو أيّة رابطة من روابط الدنيا سوى رابطة الإسلام. وكلما زاد المسلم منزلةً أو رتبةً ازداد تواضعاً إلى الله، وزادت صلته بإخوانه حسناً، وبجيرانه قربى، وبمرؤوسيه إحساناً، وبالناس جميعاً خُلقاً ومودةً، وبأهله برًّا وارتباطاً. وقد كان رسول الله ﷺ، خير الناس جميعاً في هذا كله، لذا كان القدوة للمسلمين على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، يقول رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»(٢).

٣ ـ يأخذ الإسلام بمبدأ معرفة الإمكانات لكل فرد، وإعطاء كلّ إنسان ما يُحسنه، ولننظر إلى رسول الله ﷺ، وكان يختار قادته العسكريين من أصحاب القوة والشجاعة أمثال: الحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن مسلمة، وبشير بن سعد، وعكاشة بن محصن، وعبد الله بن جحش، وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد... وبغضّ النظر عن السابقة، وهي ذات قيمة في الإسلام، وبغضّ النظر عن التقوى وعليها المعوّل في التفضيل. وإذا كان أكثرهم من السابقة ومن المهاجرين إلاّ أننا نلاحظ أنه قد أرسل عمرو بن العاص إلى جموع بلي وقضاعة في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار منهم صهيب بن سنان، وسعد بن أبي وقّاص، وأسيد بن الحضير، وعبّاد بن

---

(١) حياة الرسول المصطفى، عبد الرزاق محمد أسود، ٧٠٦/٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح، ٥٠، والدارمي في باب النكاح أيضاً ٥٥.

بشر، وسعد بن عبادة و. . . وكلهم أفضل منه لسابقتهم، وهي السرية المعروفة بذات السلاسل، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح بسريةٍ فيها أبو بكرٍ وعمر. وقدّم خالد بن الوليد على الفرسان يوم فتح مكة وبينهم من هو خير منه. كما بعث أسامة بن زيد بن حارثة بجيش إلى تخوم بلاد الشام ولم يتجاوز أسامة الثامنة عشرة، وفي البعث كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. كما أن رسول الله ﷺ، كان يختار الولاة من الأقوياء الأمناء بغضّ النظر عن سابقتهم وفضلهم، فقد ولّى على مكة بعد فتحها وخروجه منها عتّاب بن أُسيد، وكان فتى حدثاً، وولّى أبا سفيان على نجران و. . . وعندما طلب أبو ذر من رسول الله ﷺ، الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[1].

٤ ـ وتكون القدوة الطيبة في القتال أيضاً، فقد كان رسول الله ﷺ، أشجع الناس، كان فزعٌ في المدينة فخرج الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم رسول الله ﷺ، قد سبقهم فاستنبأ الفزع على فرسٍ عُرى لأبي طلحة ما عليه سرج، في عنقه السيف، فقال: لا تراعوا.

عن البراء، رضي الله عنه، أنه سأله رجل من قيس فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ، يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ، لم يفرّ. كانت هوازن قوماً رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ، على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وعن البراء، رضي الله عنه، قال: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، يعني النبي ﷺ، وإن الشجاعة منا الذي يُحاذي به.

وعن علي، رضي الله عنه، لقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي ﷺ،

---

(١) صحيح مسلم باب الإمارة.

وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ.

وعنه أيضاً قال: كنّا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما كان أحد أقرب إلى العدو منه[1]. ولا ننسى موقفه يوم أُحُد، وقد انهزم عنه الناس، ويوم حنين قد فرّت أمامه الجموع.

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ، كان يقود المعركة بنفسه، ويُشرف على سيرها، ويكون في أول المقاتلين، وإذا كان في طريقه إلى العدو كان على رأس المقدمة ليكون أول من يصطدم بالعدو، ويحمي من خلفه، وإذا كان في طريق العودة من الغزو يكون مع الساقة ليحمي مؤخرة الجيش من غارات الأعداء فيما إذا وقعت، إذا كان الأعداء يباغتون خصومهم عند انسحابهم أو في طريق قفولهم.

٥ ـ مبدأ تقسيم العمل: بحيث يُعطى كل فردٍ جزءاً من العمل، ويأخذ المدير جزءاً، إذ لا يترك لنفسه الإشراف، أو يُفضّل الجلوس بصفته المسؤول، وإنما يختار كالبقية جزءاً وقد يكون أشقّها، أو فيه من التعب كغيره أو يزيد، كما ليس فيه راحة أو يدل على منزلة و... (وأمر رسول الله ﷺ، في بعض الأسفار بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك فقال: قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، ثم قام وجمع الحطب)[2].

٦ ـ مبدأ المكافآت والرتب: لقد كان رسول الله ﷺ، يُعطي الألقاب، وهي تعادل الرتب اليوم بل تزيد عليها حيث تدلّ على فضلٍ كبيرٍ وجزاءٍ عظيمٍ فالصديق، والفاروق، وذو النورين، وأسد الله، وسيف الله، وحواري رسول الله، وحبّ رسول الله، وحبّ رسول الله وابن حبّه، وأمين الأُمّة، وارم بأبي أنت وأمي، وشاعر رسول الله، وخطيب رسول الله، وقائد حرس رسول الله، وخادم رسول الله، والمؤاخاة مع علي، وجار رسول الله و...

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ـ ابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد، ٢/ ٤٤٣.

(٢) العامري: بهجة المحافل وبغية الأماثل: ٢/ ٢٨٤.

وقد يُعطي رسول الله ﷺ مكافآت مادية من الغنائم، فقد أعطى المهاجرين الغنائم من بني النضير دون الأنصار سوى سهل بن حُنيف، وأبي دجانة (سمّاك بن خرشة) لفقرهما، وذلك لقاء الهجرة وما تركوا من أموالٍ وبيوتٍ في مكّة، ولم يجد الأنصار خضاضة في ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1]. وأعطى رسول الله ﷺ، من غنائم حنين المُؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألّفهم، ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مائة بعير، وأعطى عُيينة بن حصن بن بدر مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النضري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وأعطى رجالاً آخرين دون ذلك فقد أعطى مخرمة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري، كما أعطى رجالاً آخرين خمسين من الإبل منهم سعيد بن يربوع، وعدي بن قيس وغيرهم. وأعطى عباس بن مرداس حتى رضي. وأعطى الكثيرين ولا أجد حاجةً لذكر أسمائهم جميعاً. غير أن الأنصار لم يأخذوا أبداً ووجدوا في أنفسهم شيئاً، وحدّثوا رسول الله ﷺ، فأجابهم: «وكّلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

وهذا يدلّ على أن هذا العطاء كان مكافأةً لهم لقتالهم الذي قاموا به، ولم يُسلموا بعد إسلاماً أكيداً، كما أن هذا كان تشجيعاً لهم كي يُسلموا ويدخل الإيمان إلى قلوبهم، أما المؤمنون حقّاً من المهاجرين والأنصار فلم يظفروا بشيء وأوكلهم إلى إسلامهم إذ يحصلون على الأجر من الله. والحديث ورد عن الأنصار لأن الذين أخذوا من المؤلّفة قلوبهم من بطون قريش نفسها التي منها المهاجرون، فلم يتكلّموا بشيءٍ إضافةً إلى أن أكثرهم كانوا من النواة التي تألّفت حولها الدعوة، والذين تربّوا في مرحلة الدعوة السرية.

٧ ـ حسن الصلةْ بالأفراد: كان رسول الله ﷺ، يُخالط الناس، ومن صفاته التي ذكرها هند بن أبي هالة عندما سأله الحسن بن علي عنها: قال: كان يَخْزِن لسانه إلاّ فيما يعنيه، ويؤلّفهم ولا يُنفّرهم، ويُكرم كريم كلّ قوم ويُولّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترز منهم، من غير أن يطوي على أحدٍ بشرهُ ولا خُلُقَهُ، ويتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عمّا في الناس، ويُحسّن الحسن ويُقوّيه، ويُقبّح القبيح ويُوهنه، معتدل الأمر غير مختلفٍ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حالٍ عنده عتاد لا يُقصّر عن الحقّ ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مُواساةً ومؤازرةً، وكان لا يقوم ولا يجلس إلاّ على ذكر، وإذا انتهى إلى قومٍ جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كل جلسائه نصيبهُ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجةٍ صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجةً لا يردّه إلاّ بها أو بميسورٍ من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا في الحقّ عنده سواء، مجلسه مجلس علم وحياءٍ وصبرٍ وأمانةٍ، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تُؤْبَن فيه الحُرُم، يتعاطفونَ فيه بالتقوى، متواضعين يُوقّرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويُؤْثرون ذا الحاجة ويحفظون فيه الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بعيّاب ولا مدّاح،

يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُيئس منه ولا يُخيّب مُؤمِّله[1].

٨ ـ الرفق بالمسيء إذا أنكر فعله أو اعتذر ولم يكن من شأنٍ، يستطيع أن يفعل ما من شأنه تهديم المجتمع. لقد أظهر عدد من الناس إسلامهم بعد أن قويت الدولة الإسلامية، وعظُمت شوكتها بعد معركة بدرٍ الكبرى، وأصبح هؤلاء ضمن الصفّ ينفثون سمومهم فيه، هؤلاء هم المنافقون وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي يحاول أن يبثّ الفرقة بين المسلمين كلما سنحت له الفرصة، وفي غزوة بني المصطلق في شهر شعبان من السنة السادسة لاحت له بارقة أملٍ في إثارة فتنةٍ بعد النصر على بني المصطلق والعودة نحو المدينة، وعلى مياه القبيلة ازدحم الناس واختلف أجير لعمر بن الخطاب هو جهجاه بن مسعود مع سنان بن وبر الجهني حليف الخزرج واقتتلا، فنادى سنان يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. ووصل الخبر إلى رأس المنافقين فأبدى غضبه أمام رهطٍ من قومه بينهم فتىً حدث يُدعى زيد بن أرقم. فقال كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدّنا وجلابيب قريشٍ إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع بذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عبّاد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه

(١) الوفا بأحوال المصطفى ٢/٤٦٩ ـ ٤٧٠.

أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً على ابن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعةٍ مُنكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أُبيّ؛ قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله ﷺ، تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. وأنزل الله سورة المنافقين وفيها: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدّ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث عبد الله بن أبيّ الحدث كان قومه هم الذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويُعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ، لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرْعِدت له أُنُف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؛ قال

عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ، أعظم بركةً من أمري[١].

ولما انتهى رسول الله ﷺ، إلى وادي العقيق، تقدّم عبد الله، رضي الله عنه، ابن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وجعل يتصفّح الركاب حتى مرّ أبوه، فأناخ به، ثم وطئ على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لكع، فقال: والله لا تدخل حتى تُقرّ أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز، وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيضاً الأعزّ من الأذلّ، أنت أو رسول الله ﷺ، فصار يقول: لأنا أذلّ من الصبيان، لأنا أذلّ من النساء، حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال له: خلّ عن أبيك، فخلّى عنه[٢].

وصبر رسول الله ﷺ، على أذى المنافقين، وتوفي عبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين في العام التاسع فجاء ابنه عبد الله، رضي الله عنه، إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أُكفِّنه فيه، وصلّ عليه، واستغفر له. فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذنّي أُصلّي عليه، فآذنه، فلما أراد أن يُصلّي عليه جذبه عمر، رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تُصلّي على المنافقين، فقال: أنا بين خِيَرَتَين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣] فصلّى عليه فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٤].

وهكذا نجد رفق رسول الله ﷺ، بمن معه سواء أكانوا من الصادقين أم من المنافقين ما داموا لا يستطيعون تأثيراً على المجتمع الإسلامي، وإن هذا الرفق قد جعل أعوان المنافقين يُعنّفونهم على تصرّفاتهم حتى بطُل تأثيرهم نهائياً، وربما كانت الشدّة مجالاً لعطف بعض الناس عليهم ما داموا يُظهرون الإسلام، ويسيرون مع رسول الله ﷺ، في غزواته. غير أن رسول الله ﷺ، عندما يجد أن التأثير ربما يقع فهناك لا بدَّ من استعمال

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.
(٢) انظر السيرة الحلبية.
(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.
(٤) البخاري باب الجنائز.

الحزم بل اتخاذ الشدّة إن دعت الضرورة إليها. ونلاحظ هذا عندما كان أهل الكتاب من اليهود لا يزالون يعيشون في مجتمع المدينة، وأرادوا إثارة الفتنة فقد أخرج بني قينقاع من المدينة إثر معركة بدرٍ، كما أخرج بني النضير إثر غزوة أُحدٍ بعد حصارهم، وفتك بني قريظة بعد خيانتهم المسلمين وخيانة عهودهم إثر غزوة الأحزاب، هذا بصورةٍ جماعيةٍ، وكذلك فهناك بعض التصرفات الفردية مثل كعب بن الأشرف الذي قال عندما بلغه خبر غزوة بدرٍ ونتائجها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقّن عدوّ الله الخبر خرج حتى قدم مكّة، وجعل يُحرّض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدرٍ. ثم رجع إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فكان لهذا أثره بحيث لا يمكن السكوت عنه لأن النتائج قد تتضاعف فكعب بن الأشرف له حصنه المنيع، وأهل الكتاب لا يزال أكثرهم في ضواحي المدينة، والنفاق قد نجم، لذا فقد قرّر رسول الله ﷺ، التخلّص من هذا المجرم، فقال لبعض أصحابه: من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله؛ قال: فافعل إن قدرت على ذلك. فذهب إليه مع أربعة من الأنصار وقتلوه. ويجب أن ننتبه إلى أن هذا الحادث قد وقع في المرحلة المدنية أي بعد أن قامت دولة المسلمين، إذ لا يصحّ هذا قبل ذلك.

٩ ـ وحدة الاتجاه: إن من الأهمية بمكان أن يُوجّه أصحاب الإدارة المسؤولين عنهم نحو هدفٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ بحيث يعمل الجميع للوصول إليها، ويبذلون جهدهم كله في سبيل ذلك، ولا يضيعون الوقت لتحقيق أهدافٍ خاصة ومصالح ذاتيةٍ، وقد تتضارب بعضها مع بعض تبعاً لمصالح الأفراد وأهواء الأشخاص التي لا بُدّ لها من أن تتباين وتختلف، فيضيع الوقت في المنافسات والصراع، وتذهب الأهداف تحت وطأة المصالح التافهة والأهواء الفانية.

ولا شكّ أن الإسلام يُوجّه أتباعه جميعاً أفراداً وإداراتٍ نحو غايةٍ

ساميةٍ هي إرضاء الله سبحانه وتعالى فيعمل كل إنسانٍ في سبيل ذلك ويتنافس كلّ فردٍ لتحقيق الدرجة العليا والغاية التي يتطلّع إليها. وبذا لا نجد أطماعاً شخصية، ولا تهافت على أمور الدنيا الزائلة، ولا صلات مع أعداء الله مما نجده هذه الأيام. ومما لا شكّ فيه أن هناك شذوذات نراها في المجتمع الإسلامي، وهي لها حلول وعلاج، حيث يُقضى عليها في مدةٍ بسيطةٍ، والتي تبقى في غيّها فإن هناك روادع تصل إلى حدّ البتر في بعض الأحيان.

ولما كانت الإدارات تُقوّم الأمور بالتقوى والكفاءات، فإن مجال النفاق والتزلّف لا وجود له في المجتمع الإسلامي، والأشخاص الذين يعيشون بالنفاق ومحاولة التقرب من أصحاب السلطة من غير إنتاج ولا مردود لا مكان لهم أيضاً، وبذا فالمجتمع الإسلامي نظيف من أهل الأهواء والفساد، بعيد عن النفاق والتزلّف، خالٍ من الخيانة التي تقضّ مضاجع الأمم، متعاون الأعضاء، ويوجد تفاهم تام بين الإدارات والذين يتبعونها.

وهذا يؤدي بدوره إلى تحقيق الاستقرار النفسي الذي يزيد من فاعلية الفرد، وتفاعله مع مجتمعه الذي يعيش فيه.

١٠ ـ تنمية الخبرات: وتعمل الإدارة الإسلامية على تنمية الخبرات بشكلٍ مستمرٍ، وتُشجّع على الابتكار، وهي مسؤولة عن إيجاد ما يكفي المسلمين من أيّة حاجةٍ، ومعرفة كلّ ما يحتاجون إليه لشؤونهم العلمية والعملية، وتُعدّ آثمةً إن لم تعمل على تحقيق ذلك.

١١ ـ الشورى: لا بُدّ للإدارة قبل اتخاذ أيّ قرار من استشارة العناصر من أهل الرأي والخبرة، والذين يمارسون العمل. وقد رأينا رسول الله ﷺ، بعد غزوة بدرٍ يستشير أصحابه في شأن الأسرى. فقد استشار أبا بكر، وعمر، وعلياً، وعبد الله بن جحش، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم، وكان رأي أبي بكر الفداء، ورأي عمر القتل وبأيدي أقرب الناس إليهم، ورأي عليّ وابن جحش القتل ورأي ابن رواحة الحرق.

وبعد أن استمع رسول الله ﷺ، إلى رأي أصحابه وجد أن يأخذ

الفداء لعلّ الله يهدي هؤلاء الأسرى فيكونون من أنصار الإسلام، ويقفون مواقف حميدة، وذلك رحمةً بهم وطمعاً في هدايتهم.

١٢ ـ اتخاذ القرار: ويكون بعد مُشاورة أهل الرأي، وأصحاب الخبرة والذين يُؤدّون العمل بأنفسهم. ومن المعلوم أنه لا توجد أكثرية أصوات وأقلية، وإنما اتخاذ القرار بعد تداول الرأي مع أصحاب الحلّ والعقد، إن الآراء كلها ليست سوى اجتهاداتٍ مبينةٍ على أُسسٍ إسلاميةٍ، وأهل الشورى أهل علمٍ ومعرفةٍ، واتخاذ القرار ليس سوى ترجيح اجتهادٍ على اجتهادٍ حسبما يُوَفّقه الله إلى ذلك.

الخلاصة: لا تقوم الإدارة في الإسلام على الإكراه، والضغط، والإرهاب، بقطع جزءٍ من الأجر، واستنفاد الطاقة، واستغلال الوقت كلّه دون راحةٍ. وإنما تقوم على:

١ ـ عدم التمييز.

٢ ـ القدوة الطيبة.

٣ ـ معرفة إمكانات كلّ فردٍ.

٤ ـ تقسيم العمل.

٥ ـ المكافآت.

٦ ـ حسن الصلة بالأفراد.

٧ ـ الرفق بالمسيء.

٨ ـ وحدة الاتجاه.

٩ ـ الاستقرار النفسي.

١٠ ـ تنمية الخبرات.

١١ ـ الشورى.

١٢ ـ اتخاذ القرار.

[٢٣] التخطيط

إن المستقبل مجهول لا يدري المرء ما سيحدث فيه، الأمر الذي يجعله يخشاه فيُخطّط ليدرأ ما قد يأتي من أحداث أو ليُقلّل من خطرها فيما إذا تمّ، أو يُحاول أن يتدخّل في مجريات الأحداث. فقد تتوقّع الجماعة مداهمة عدوٍّ خارجي فلا تعرف القوة التي يداهمها فيها، ولا الطريق التي يسلكها فتُخطّط الجماعة لردّ ذلك العدوّ والانتصار عليه بتهيئة قوةٍ تفوق قوة الخصم، وشدّه كي يسلك طريقاً تكون في مصلحتها، وجرّه إلى ميدانٍ تُحقّق فيه السيطرة عليه، وتأمين النصر.

والمدن تنمو وتتطوّر ولا بُدّ من السيطرة على اتجاه نموها كي نُحافظ على الأرض الزراعية مثلاً، ونُوجّه اتساعها في الجهات غير الصالحة، إلاّ للبناء، ولإمكانية تأمين صرف مياه السيول المرتقبة أو مجاري المياه المستعملة، وحتى تستطيع السلطة المشرفة أن توصل المياه إلى السكان في المناطق المرتفعة. وتضبط الأبنية لفتح الشوارع وجعلها بعرضٍ معيّن تتفق مع المهمّة التي تُؤدّيها، ومع ارتفاع العمران كي يبقى الهواء في جريانه، ولا يُحبس فيسبب الخمول والكسل، وينشأ المرض والوباء. ولا بُدّ للمصانع من أن تكون في جهةٍ مُعيّنةٍ تنسجم واتجاه الريح بحيث لا يحمل دخانها والغازات المنطلقة منها إلى المدينة كي لا يضرّ بالسكان، وبحيث تكون مع ميل الأرض حتى يسهل تصريف مُخلّفاتها. كل هذا يجعل التفكير بالمستقبل والتخطيط له.

والتنمية الاقتصادية تحتاج إلى نظرةٍ مستقبليةٍ لإقامة السدود وضبط مياه الأنهار والسيول خوفاً من فيضاناتها المُدمّرة، وإفادةً من مياهها في الريّ،

وعملاً للملاحة فيها. وبناء المصانع الضرورية في أماكن توافر المادة الخام، وتكاثر اليد العاملة، وسهولة المواصلات، والقرب من الأسواق، وإمكانية النقل إلى الموانئ لتصدير الفائض، واستيراد ما نحتاج إليه. وعقد المعاهدات التجارية لتبادل السلع خوفاً من الكساد، وسدّ النقص من المواد وهذا كله يحتاج إلى التخطيط.

والتنمية الاجتماعية، وتطوير اليد العاملة، وإكسابها الخبرة الفنية، وتأمين حاجاتها الأساسية، ومعرفة عدد السكان، وتطوّرهم لتهيئة المدارس، وتأمين المشافي، وتسيير وسائل النقل و. . . .

ووضع السياسات العامة، وتحديد الأهداف، واتباع الوسائل المُحقّقة للأهداف، والعمل على تطوير الدولة، والسعي وراء الغاية المنشودة، والمحاولة للوصول إلى الخطة المرسومة وهذا ما يُجبر المسؤولين من النظر إلى المستقبل لتحقيق غدٍ أفضل ينعم فيه الناس بالرخاء والطمأنينة والاستقرار وهذا هو التخطيط.

فالتخطيط عملية واعية لتحديد خطر سير العمل في المستقبل، واختيار أفضل طريقٍ أو مسارٍ للتصرّف لحلّ المشكلات المُقبلة، وتحقيق الهدف المُحدّد الذي يُعيّنه العاملون بوضوحٍ. ويُحدّد التخطيط مراحل العمل، والخُطوات التي تُتّبع، والطريق التي يسلكها المُنفّذون، والتناسق بين الأهداف كي لا يتعارض بعضها مع بعض بل لتتكامل وتنسجم في سبيل الوصول إلى الغاية النهائية التي تنشدها الجماعة. وبذا يُحقّق التخطيط الأمن النفسي.

والإسلام يدعو إلى النظر في المستقبل والتفكير والتهيئة والإعداد والاستعداد، ولم تقم دولة الإسلام إلاّ بالتخطيط والإعداد اللازم لذلك، وإذا كان علماء التخطيط اليوم يقسمون مراحل العمل إلى:

١ ـ مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ ـ مرحلة تحديد الأهداف.

٣ - مرحلة إقرار الخطة.

٤ - مرحلة التنفيذ.

٥ - مرحلة متابعة التنفيذ.

٦ - مرحلة تعديل الخطة إن دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد قام رسول الله ﷺ، بالدعوة، ورسم خطةً، وبدأ بالتنفيذ ومتابعتها فالأهداف مُحدّدة، وإقرار الخطة قائم، ولا تحتاج إلى تعديل.

لقد بدأ رسول الله ﷺ، في مرحلة الإعداد التحضيري فبقي ثلاث سنوات يلتقي بأصحابه الأوائل سرًّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بالصفا، يُعلّمهم الإسلام، ويُرسّخ الإيمان في قلوبهم والعقيدة في نفوسهم حتى غدت كالجبال الرواسخ، وأصبحوا قاعدةً صلبةً يمكن الاعتماد عليها ومواجهة قريشٍ بها، فانطلق بعدها إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التنفيذ.

خرج رسول الله ﷺ، من مرحلة الدعوة السرية فدعا قومه قريشاً، وعرض عليهم فكرته، وحذّرهم وأنذرهم بصورةٍ جماعيةٍ، فسمعوا أمراً لم يألفوه، فأنكروه، ووقفوا ضدّه إذ خافوا على مركزهم، وصعُب عليهم ترك ما هم عليه من الغواية، وما هم فيه من الضلالة. فصار يلتقي بهم أفراداً وجماعاتٍ يُبيّن الشرك الذي عليه قريش والناس أجمعين إلا من رحم الله، ويشرح الطريق المستقيم وما فيه من الهداية والخير لمن يسلكه، والعاقبة التي تنتظر المتقين وينتظرها المشركون.

لقد زاد عدد أصحابه لدرجةٍ قلّت بعدها الزيادة إذ وجد قلوباً غُلفاً صُمًّا كالحجارة أو أشدّ قسوةً، وقاومت قريش بكل وسائلها خوفاً على مصالحها فعدت على من أسلم منها، وأذاقتهم مُرّ العذاب الجسدي والنفسي، فلما اشتدّ أذى قريش وزاد طغيانها كان لا بُدّ لرسول الله ﷺ، من أن يجد حمايةً لأصحابه، مع متابعة العمل في تنفيذ خطته، فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لإيجاد مكان أمينٍ يأوي إليه من لم يتحمّل ضغط قريش، ومن لم يجرؤ على الإسلام خوفاً من العذاب فيكون سبيلاً

لإسلامه والفرار بدينه، ولعلّ الحبشة تكون ملجأً للمسلمين جميعاً فيما إذا عتا الطغيان على حدّه، أو مهداً جديداً للدعوة، فليست الدعوة مقصورةً على العرب، وليس من الضروري انطلاقها من أرض العرب فحيثما توافر المكان الملائم، والمُناخ المناسب انطلقت الدعوة وتفتّحت.

هاجر عدد من المسلمين من مكّة إلى الحبشة، ولا يزيد عددهم على العشرة، ثم تبعهم آخرون حتى وصل عددهم إلى ثلاثةٍ وثمانين مسلماً منهم مَن معه أهله، ومنهم من سافر وحده بلا أهل. فكانت حياتهم صعبة شاقة هناك لقلّة عددهم، ولوجودهم داخل مجتمع لم يألفوه، وفي وسط لا يعرفون لغته، ولتميُّزهم بعقيدتهم، ولحقد البطارقة والقُسس عليهم، ولتحريض النصارى على هؤلاء الغرباء بدافع الكره والصليبية هذا رغم ترحيب النجاشي بهم، ودعمه واحتضانه لهم ولولا ذلك لعاد المهاجرون من الأيّام الأولى، وقد سبّب ذلك للنجاشي متاعب من خصومه، وحركاتٍ، وقد نصره الله عليهم، فمكّن للمسلمين مُوقّتاً هناك رغم أن الغربة قد تغلّبت فعاد أربعة وثلاثون، منهم أصحاب الهجرة الأولى العشرة جميعهم.

كان قد بقي عدد من المسلمين في مكّة ليُتابعوا الطريق مع رسول الله ﷺ، إذ لم يُهاجر كل المسلمين إلى الحبشة، فكان رسول الله ﷺ، يعمل على تربية أصحابه وتوجيههم وفي الوقت نفسه يسعى لتنفيذ الخطة في سبيل الوصول إلى هدفه لإقامة الدولة الإسلامية.

لقد كان يعرض ﷺ، نفسه على القبائل في كل موسم عسى أن يُؤمن بعضها، ويقبل الدعوة فتكون وديارها قاعدةً للدولة الإسلامية التي يسعى لها، أو تقبله، وتتعهّد بحمايته فتكون قاعدة انطلاقةٍ جديدةٍ وإسلام أفرادٍ جددٍ يرفدون المجتمع الإسلامي الذي لا يزال صغيراً ضعيفاً مُشتّتاً عسى أن يكبر وتقوى شوكته ويتجمّع أعضاؤه، وقد أبقى ﷺ، الحبشة مقرًّا احتياطياً فيها بعض أصحابه. غير أن قريشاً قد حالت بينه وبين القبائل إذ كانت تُحذّرها منه وتُلازمه كالظلّ في الموسم لتُكذّبه في كل ما يقوله وتتّهمه بالجنون والسحر لتُنفّر منه القبائل.

وهاجر إلى مدينة الطائف سرًّا بعيداً عن أعين قريش ليأمن مكرهاً عسى أن يجد في قبيلة ثقيف ما يرمي إليه، غير أنه قد عاد خائباً كئيباً إذ أغرت ثقيف سفهاءها وصبيانها به فقذفوه بالحجارة فأُدميت قدماه الشريفتان وحتى رقّت له قلوب غُلف، وتأثرت لما حلّ به نفوس ما اعتادت أن تتأثر وترحم.

ورجع رسول الله ﷺ، وهو أكثر تصميماً لمتابعة طريقه وتحقيق هدفه، وشاء الله أن يلتقي سرًّا في الموسم مع بعض حجاج يثرب فعرض عليهم دعوته فقبلوها، وتعاهدوا على اللقاء معه في الموسم القادم في المكان نفسه والزمان نفسه، وقد عرضوا دعوته على قومهم في مدينتهم، واستدار العام، وتمّ اللقاء، وحصلت البيعة، وقام العهد بين الطرفين، وبدأت الهجرة، وانتقل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام، وتحقّق الهدف الأول، وتمّت المرحلة الثانية، ولكنه بقي ﷺ، ينظر إلى المستقبل ويخشى أن تعصف الريح بدولته الناشئة لذا فقد عمل على إبقاء أصحابه في الحبشة لتبقى هناك المقرّ الاحتياطي، ويبقى أصحابه القاعدة الاحتياطية فيها.

وتبرز المرحلة الثالثة وهي تقوية هذه الدولة الناشئة فعمل على المؤاخاة بين المسلمين بعضهم مع بعض ليكونوا كتلةً واحدةً في مُواجهة أيّ عُدوان سواء أكان داخلياً أم خارجياً، ثم وادع يهود لتكون المدينة صفاً واحداً لصدّ أيّ غزوٍ خارجي، ثم انطلق يدرس الأرض التي يتوقّع أن تكون ساحة القتال بين المسلمين وبين المشركين من قريش، وكانت هذه الدراسة بالغزوات والسرايا التي انطلقت قبل معركة بدر، ويُلاحظ أنها كلها كانت إلى جهةٍ واحدةٍ هي المنطقة الساحلية حيث طريق قوافل قريش من مكّة إلى الشام وبالعكس، كما كان لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة أُخرى وهي التعرّف على القبائل التي تنزل في تلك الجهات ومُحاولة شدّها إلى صفّ المسلمين، أو على الأقل وقوفها على الحياد فيما إذا تمّ اللقاء بين المسلمين وقريشٍ، ولم تكن لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة قتالية كما يتصوّر

بعضهم إلا إذا جعلنا فكرة الاستعداد ورفع الروح المعنوية والتشجيع في المواجهة المرتقبة في باب القتال، وقد تمّت الدراسة، وتمّ التعرّف على بعض القبائل، وغدا التهيؤ جاهزاً.

وجرت معركة بدر، وترسّخت أقدام المسلمين، وثبتت دعائم الدولة، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ، لا يزال يشعر بالخطر يُحدق بدولته، لذا فقد أبقى أصحابه في الحبشة. وجرت معركة أحد، وهبت ريح على المسلمين ثبتوا أمام هبوبها بعزم فتجاوزتهم بعد مرورها على الرجيع وبئر معونة، ثم عادت للمسلمين قوتهم بعد إجلاء يهود بني النضير، وغزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وصلح الحديبية، وزال الخطر تقريباً عن الدولة الإسلامية، وعندها استدعى رسول الله ﷺ، أصحابه من الحبشة، إذ أرسل عمرو بن أُميّة الضمري إلى النجاشي ليحمل إليه أصحابه فقدم بهم في سفينتين. ولم يعد الأمر بحاجة إلى قواعد احتياطية أو مقرّ ثانٍ. وبدأت الدولة بعدئذٍ تتوسّع وتنتشر نحو تحقيق غايتها السامية.

وهكذا قامت الدولة نتيجة التخطيط الذي تمّ على مراحل، وأرى أننا مطالبون بالسير على المراحل التي سار عليها رسول الله ﷺ، وهي:

١ - مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ - مرحلة الدعوة وطرح الأفكار.

٣ - مرحلة التنسيق وتقوية الصفوف.

٤ - مرحلة إقامة الدولة والعمل على تثبيت قواعدها.

[٢٤] الوسائل والغايات

لما كانت العقائد مختلفةً على هذه الأرض، ولكل عقيدةٍ منهج حياةٍ خاص بها، ونظرة خاصة إلى هذه المعمورة وما فيها من مخلوقاتٍ، ومُهمّة الإنسان في هذه الدنيا، لذا فإن غاياتها التي تسعى إليها تتباين كما أن الوسائل التي تتخذها للوصول إلى تلك الغايات مختلفة باختلاف عقائد أصحابها.

وإذا كانت الجاهليات كلّها تتفق بالوسائل التي تستعملها كي تصل إلى غاياتها باختلافاتٍ يسيرةٍ، ولكن مُعظمها وسائل لا تتفق مع الإسلام أو كما تسمّى اليوم «وسائل غير شريفة»، وبالتالي فالغايات لا تختلف كثيراً عن الوسائل التي اتبعت للوصول إليها مع فارقٍ طفيفٍ بين الجاهليات. فاليهود مثلاً غايتهم السيطرة على العالم، ويسعون إلى ذلك بالوسائل كلها، ويعملون بالطرق كي يُحقّقوا هدفاً من أهدافهم، ومن وسائلهم المرأة، والمال، والقتل، والعمالة، وتسخير الرجال، وشراء الأشخاص، وركوب التيارات العالمية، والأمواج الحزبية و.... وليس هناك من وسيلةٍ مهما كانت دنيئةً من حرجٍ في اتباعها.

أما بقية الجاهليات فتتنوّع عندهم الغايات فهناك غايات عسكرية وأخرى سياسية، أو اقتصادية، أو فكرية، وإذا كان أصحاب هذه الجاهليات من النصارى فكل غايةٍ عندهم مطبوعة بالطابع الصليبي سواء أكان ظاهراً أم مخفياً، وربما كان مُقنّعاً أو مُغطّىً لا يظهر للناس الذين لا يُفكّرون بالعقائد ولا يهتمّون بها، أو يظنّون أن العالم يسير على هذه الصورة التي يمشون عليها، أو استطاع الأعداء أن يُوهموهم بذلك حتى غطت الغشاوة على أعينهم كاملةً. وتُتخذ لهذه الغايات كلها وسائل غير شريفةٍ مهما كان نوعها، والمهمّ الوصول إليها.

وإذا كانت الغايات متنوعةً إلاّ أنها تلتقي في خطٍّ واحدٍ هو حبّ السيطرة لإذلال الأمم والشعوب الأخرى بدافعٍ صليبيٍ ولتعيش شعوبها على جثث الآخرين ودمائهم وثرواتهم وتُحقّق رغَباتها وشَهواتها البهيمية. إذن فغايات دول الأمم الجاهلية هي السيطرة، وغايات أفرادها اللذة البهيمية من طعامٍ، وشرابٍ، وجنسٍ، ومتاعٍ، وأثاثٍ لا غير، أو ليس لهم غايات إلا بما يَحصلون عليه، ووسائلهم كلّ ما يمكنهم فعله.

أمّا الأُمّة المسلمة فغايتها رضاء الله سبحانه وتعالى، وما تقوم به في سبيل هذه الغاية فيه رضاء لله سواء أوصلت إلى هدفٍ من أهدافها أم لم تصل فهي تسعى إلى ذلك وتحصل على الأجر مقابل هذا السعي. والسعي لا ينتهي ما دامت توجد أهداف أمام الأُمّة من واجبها تحقيقها، وهذه الأهداف لا تنتهي لأن ساحة العمل الإسلامي هي الدنيا كلّها، وإزالة الظلم والطغيان من سطح المعمورة، وإحياء الأرض كلها وتحقيق الاستخلاف فيها، وهذه أهداف لا تنتهي على ما يبدو حتى تنتهي حياة الإنسان في هذه الدنيا. فعمل الأُمّة دائب وباستمرار.

وأفراد الأُمّة المسلمة غايتهم رضاء الله أيضاً، وكل ما يعملون من عمل مهما كان نوعه، ومهما كان حجمه يُعدّ عبادةً ولهم فيه أجر إذا كانت نيتهم فيه طاعة أو التقوية لطاعة الله، أو العفّة، أو الصبر على البلاء، أو الشكر لله على السرّاء. عن صهيب بن سنان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحدٍ إلاّ للمُؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(١). وليس على المسلم تحقيق الهدف وإنما السعي لذلك، ويحصل على الأجر أثناء سعيه، فالسعي وسيلة وغاية وهدف في الوقت نفسه، ولا يكون هذا إلا للمسلم.

وما دام الإنسان يسعى على الدوام فالمسلم يُحقّق أهدافه باستمرار

---

(١) أخرجه مسلم في باب الزهد، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٣.

وهذا ما يدفعه إلى الحركة والعمل بجهدٍ وتضحيةٍ والانطلاق بإخلاصٍ واندفاعٍ بصورةٍ دائبةٍ وبذل لا ينقطع، وبذا كان المسلم أقدر على إحياء الأرض من غيره، وإنتاجه أكثر من غيره، ومردوده أكبر من غيره، وروحه المعنوية مُرتفعة إلى درجةٍ لا تُحدّ، وهذا تفسير انتصاراته الواسعة في المعارك التي خاضها في بداية الأمر عندما كان مستمسكاً بإسلامه وفي كل مرحلةٍ من مراحل التاريخ التي عاد فيها إلى دينه مستلهماً منه القوة وإلى ربه طالباً منه النصر مُخلصاً له النية والعمل. وإن الجهاد هو أقرب الطرق وأقصرها لتحقيق غاية المسلم المثلى وأفضلها للوصول إلى الدرجات العليا في الجنّة ولنرى بعض الأمثلة السريعة لهذا.

في غزوة مؤتة، وصل المسلمون إلى معان من أرض الشام، ونزلوا فيها، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مُؤاب من أرض البلقاء، في مائة ألفِ من الروم، وانضمّ إليهم من لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وبلي مائة ألف منهم، عليهم رجل من بلي ثم أحد أراشة، يقال له: مالك بن زافلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يُفكّرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنُخبره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يُمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. [إذ كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف، أي يُعادلون جُزءًا من سبعين من الروم ومن معهم من العرب المتنصرة أو أن كلّ مسلمٍ يُقابل سبعين من الأعداء، فلا يوجد مقياس من مقاييس الأرض كلها يجعل هذا العدد مُتكافئاً فما بالك بالنصر، ولكنه مقياس الإيمان الذي لا تفهمه الجاهليات]. فشجّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقابلهم إلا بهذا الذين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة[1].

(١) انظر سيرة ابن هشام.

في اليرموك، كان عدد الروم مائتين وأربعين ألفاً، وعدد المسلمين أربعين ألفاً، أيّ أنّ كلّ مُسلم يُقابل ستين من الروم، ومع ذلك فقد كان انتصار المسلمين حاسماً، وتُعدُّ معركة اليرموك معركةً فاصلةً. وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا. فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانيةً ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذٍ جرحين في كتفه[1].

ولم يفهم أعداء الإسلام الروح المعنوية العالية التي حملها المسلمون الأوائل تحت جوانحهم، ولم يُدركوا أن الغايات التي يسعون وراءها هي سبب تلك الروح، لذلك فقد علّلوها بأسبابٍ ماديةٍ طعناً في الإسلام، وإساءَةً لأبنائه، وإبعاداً للأجيال عن عقيدتهم، ثم كان ذلك التعليل حسب مفهومهم المادي.

لقد تكلّموا عن الانتصارات الواسعة التي حقّقها المسلمون في بداية عهدهم، والفتوحات الشاسعة التي قامت بها جيوشهم، والقوة التي امتاز بها أبطالهم بل جنودهم عامةً فقالوا: إن سبب ذلك إنما يعود إلى حاجتهم المادية، وفقرهم المدقع، فانطلقوا وراء السلب والنهب والقتل للحصول على الغنائم، فكذبهم الواقع الذي يقول: إن المسلمين قد تجلّت الإنسانية الكاملة عليهم أثناء فتوحاتهم بل وفي كل وقتٍ فقد كانوا أرحم من عرف التاريخ، أيديهم نظيفة لا تمتدّ إلى شيءٍ لا يملكون رغم فقرهم، نفوسهم عفيفة لا تتطلع إلى ما حرّم الله، بطونهم مليئة رغم خوائها. لا يعرفون الحقد، ولا يسعون لذلّ الأعداء، لكنهم يعملون لإخراج خصومهم من الظلمات إلى النور، وتخليصهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الحياة، ومن نظرة التشاؤم إلى الأمل برحمة الله، والتمتّع بزينة الحياة والطيبات من الرزق وما أحلّ الله. إن أجسامهم الهزيلة تحمل النفوس الأبيّة، وإن فقرهم الظاهر يملؤه الغنى النفسي ويحلّ محلّه. وإن الأرض لتنفتح أمام ناظريهم فيُمعنون فيها بدقةٍ، ويخُططون فيها لأنهم يعلمون أن الله قد استخلفهم فيها جميعها.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد انطلقوا من صحرائهم الفقيرة إلى السهول الغنية ليأخذوا منها ما يسدّ نهمهم الذي أخرجهم، فتردّ عليهم الأرض: إن المسلمين قد انطلقوا إلى السهول الخضراء، والبوادي القفراء، والجبال الجرداء لا تهمّهم الأرض وما فيها، ولكن يهمّهم ساكنوها ومن فيها. يريدون إنقاذهم ومساواتهم بهم لا ما تحتويه بلادهم، فكم من أرضٍ تركوها بيد أهلها بعد أن أسلم أصحابها؟ وكم من سهولٍ خلّفوها لزُرّاعها مُكتفين بخراجها، وكم من بلادٍ اكتفوا من سكانها بالجزية عندما قبل أهلها دفع ذلك، والجزية شيء زهيد؟ وكم من مدنٍ أعاد المسلمون إليها الجزية عندما لم يستطيعوا حمايتها؟ لقد كان هدفهم السكان لا الأرض التي يُقيم عليها السكان، ورفع الناس لا إذلالهم، وإنقاذهم من ما هم فيه لا الضغط عليهم وكبتهم، وإسعادهم لا إفقارهم.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد حرصوا للوصول إلى مناطق منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتكون حدًّا فاصلاً بينهم وبين خصومهم، فإذا بالواقع يصدمُهم إذ أن البحار التي وصلوا إلى سواحلها ما كانت أمامهم إلا برًّا يابساً وهم الذين لم يعتادوا ركوب البحر، ولا كانت لهم سفن تمخر عبابه فتجاوزوا بسرعةٍ هاتين النقطتين فملكوا السفن وصنعوها وكانوا أمراء البحر. ووصلوا إلى أعلى جبال العالم في آسيا فما كانت أمامهم عقبة إذ تسلّقوها وكأنّهم ما اجتازوا إلا سهولاً.

إن الإيمان وحده هو الذي كان يدفعهم، والنظر إلى الجنّة من خلال القتال، وهي غايتهم، وهذا الذي دفعهم إلى ركوب هذا المركب. إنّ الحواجز المنيعة والحدود الطبيعية لم تحلْ دون تقدُّمهم، ولم تقف أمام

هدفهم ومقصدهم ما داموا لا ينظرون إلى الأرض، ولا يُفكّرون إلا في الجنّة، ولا ينتظرون النصر إلاّ من الله، فلو كانت غايتهم السلب والنهب أو الفتح والقتل أو الاحتلال والاستعمار لثقُلت بهم الخيل، وحطّت بهم الهمّة وفترت فيهم العزيمة. ولو كانت غايتهم الوصول إلى أماكن منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتدفع عنهم خطر الأعداء لكانت تلك الجبال التي وصلوا إليها وسواحل البحر التي وقفوا عندها أفضل ما يوجد من حدودٍ على سطح هذه الأرض، ولكانت الفتوحات قد توقّفت عند أقدام الجبال وعلى شواطئ البحار، لقد اجتاز المسلمون هذه الموانع في المشرق كما اجتازوها في المغرب بل وفي كل مكان وجدت فيه ووصلوا إليه، إنه الإيمان الذي دفعهم إلى أن يتجشّموا المخاطر، ويركبوا المخاوف غير مُبالين. ولو كانت غايتهم المال والمغانم لما وصلوا بالأصل إلى تلك الأمصار النائية والأقاليم البعيدة، ولاقتصر زحفهم على المناطق الخصبة والأرجاء الغنية ولابتعدوا عن الصحاري المجدبة والأجزاء الماحلة والقفار الواسعة والتي كانت في الواقع تشهد أكثر معاركهم، وتقدّم جيوشهم وتحرّكاتها، وهي لا تُنتج إلا الشوك ولا تُنبت إلاّ القتاد. ولو كانت غايتهم السيطرة لاكتفوا باحتلال المراكز المهمّة والمواقع ذات الأهمية الخاصة فإن جندهم قليل وعددهم ضئيل. لقد كانت غايتهم إعلاء كلمة الله ونشر العقيدة الإسلامية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان كلما آمن فوج انخرط أبناؤه في صفوف إخوانه المجاهدين يحملون راية القرآن حتى انتشر الإسلام.

لم يلو المسلمون أثناء تقدّمهم على شيءٍ، ولم يُفكّروا فيما وراءهم. لم يُفكّروا بأرضهم ولم يرتبطوا بترابهم، ولم يخافوا على أهليهم من بعدهم حيث وليُّهم الله، فلو فكّروا لأضاعوا النصر وخسروا المعركة، وعادوا إلى الموطن الذي ارتبطوا به ينتظرون الغزاة لتستذلّهم، وتطأ ديارهم، وتجوس خيول أعدائهم أرضهم. لقد طلب المسلمون الشهادة فوُهبت لهم الحياة، وسادوا الدنيا عندما طلبوا النصر من الله، وعندما ارتبطوا بأرضهم وأخلدوا إليها أضاعوا أرضهم وفقدوا النصر من ربهم.

الخلاصة:

إن الشعوب غير المسلمة ليس لها من غايةٍ أو مُهمّةٍ في الحياة سوى تأمين حاجاتها البهيمية من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ على أوسع نطاقٍ وأحسن مستوىً وتتّخذ كلّ الوسائل الممكّنة لتحقيق ذلك سواء أكانت الوسائل شريفةً أم غير شريفةٍ، وغالباً ما تكون الثانية لأن الغاية غير النبيلة لا يوصل إليها إلاّ بمثلها.

وإن دول هذه الشعوب غير المسلمة غايتها السيطرة والاستعلاء لتحقيق الحاجات البهيمية لها ولشعوبها، وقد تضغط على شعوبها للاستئثار بالحاجات لنفسها على حساب الرعية ومن الرعية، وتتخذ من الرعية وسيلةً لتأمين طموحاتها وسيطرتها كالدول الشيوعية.

وإن الشعوب المسلمة ليس لها من غايةٍ سوى إرضاء الله بعبادتها وتحقيق استخلافها في الأرض وإظهار عبوديتها الكاملة لله سبحانه وتعالى، لذلك لا تسلك إلاّ السُّبُل التي تُرضي الله سبحانه وتعالى، فالغاية الكريمة ليس لها سوى الوسيلة الكريمة.

وإن الدولة الإسلامية لمن واجبها أن تقود شعوبها لتحقيق غايتها بفتح المجال أمامها لرفع الظلم، وإزالة الطغيان، وتحقيق العدل، وإعلان الجهاد للوصول إلى الشهادة، أو لتأمين النصر والتمكين في الأرض.

فالدول إذن تسعى لتحقيق غايات شعوبها، وحسب ما تكون الغايات تحرص الدول على تنفيذها.

[٢٥] الشّورى

لقد أثّرت المفاهيم الجاهلية الحديثة في نفوسنا تأثيراً بليغاً، وتغلغلت في أفكارنا لدرجةٍ يصعُب التخلّص منها، وعندما نريد أن نبحث في بعض المفاهيم الإسلامية ونستخلصها من أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين تمثُل أمامنا المفاهيم الجاهلية، ويتعذّر علينا إبعادها، ونُسقط الماضي على الحاضر، والعكس هو الأصل، فنقع في ارتباكاتٍ لا نجد فيها لنا مخرجاً، ونتعثّر حتى يصعُب علينا القيام لنُقدّم أفكاراً صحيحةً وآراءً سديدةً، وغدونا نُفسّر الأحداث التاريخية من صدر الإسلام حسب الصورة التي تراءت لنا أثناء تعثُّرنا، ولا نستطيع أن نزيل ما عَلِق في أذهاننا من آثار الجاهلية فحين نتحدّث عن الشورى مثلاً لا نرى في سيرة رسول الله ﷺ، وخلفائه الراشدين من بعده إلا استشارةً لتطييب قلوب الصحابة، رضي الله عنهم، على حدّ رأي بعضهم، ومعرفة الرأي وتقليب وجهات النظر قليلاً، ثم يُعطي رسول الله ﷺ، أو الخليفة رأيه، وبذا لم يفهموا من هذه الحوادث التي سنتكلم عنها بعد قليل، إن شاء الله، إلا أنها استطلاع عام أو أن الشورى بمفهومنا الحديث ليست إلاّ مُعلمة. وصعُب على آخرين أن يروا مجلس الشورى يلتقي، وتتفق الآراء في جهةٍ ويُخالفها الأمير، ويُصدر أمره حسب رأيه الفردي، فلم يروا في هذه إلا طغياناً واستبداداً أو ديكتاتوريةً حسب المفهوم السائد اليوم، وذلك لأنهم تصوّروا الشورى مجلس يُعقد ويُتداول فيه الرأي، ويصوّت على هذا الاقتراح أو ذاك، لذا يُصرّون على أن تكون الشورى أكثريةً كي نتحاشى الاستبداد مُتأثّرين بشدّة الطغيان الذي يطحنهم، وقسوة الظلم الذي يُمزّقهم، وهم يُفسّرون الأحداث التاريخية نفسها أنها مُلزمة، والتي فسّرها أولئك أنها مُجرّد استطلاع رأي، ولم يسر

رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده إلا حسب رأي مجلس شوراه، وإذا كان رسول الله ﷺ، لم يتقيّد ببعض الشورى فذلك لأنّه يتلقّى الوحي من السماء، لذا فلم تكن هناك مُعارضة.

ليس الأمر هذا ولا ذاك، وليس موضوع أقليةٍ وأكثريةٍ، وليس موضوع حاكم ومعارضةٍ له، إن الأمر هو موضوع الشورى وهو موضوع الإسلام، ليس تسلّط (ديكتاتورية) ولا تسيّب (ديمقراطية). إن هناك أناساً بعصرنا قد فُتنوا بتوجيه النظام والضغط على السلطة التنفيذية لما رأوا من تميُّعٍ في الإدارة، وإهمالٍ في جهاز الحكم، وفوضى في المؤسسات، وتجاوزاتٍ في الدوائر، وفُتن آخرون بترك الحبل على الغارب (النظام الحرّ)، وقد غرّهم الانتخاب، والمجالس النيابية، والمعارضة، وحريات الأفراد التي ليس لها حدّ، وكرهوا ظلم المُستبدّين، وحكم الفرد، وتسلّط الطغاة فوجدوا نظاماً يُعطي الحرية ـ على حدّ زعم أصحابه ـ فأغراهم وفتنتهم بعض نظمه فساروا وراءها ولما كانوا يملكون شيئاً من عاطفةٍ إسلاميةٍ ظنّوا أن هذا النظام هو أقرب النظم إلى الإسلام فردّدوا ذلك، وانطلقوا يُبشّرون به، وهم لا يدرون أنهم يُخالفون الإسلام، ويُهدّمون بعض أُسّسه، ويظنّون أنهم يُحسنون صنيعاً.

لا يصحّ أن يستبدّ الهوى بالنفس، ولا الحاكم بالشعب، فالخليفة تَحُدُّ الشريعة من عمله ولا تسمح له أن يشطط، وأعطته الرعية البيعة على أن يحكُم بما أنزل الله وحسب سنة رسول الله، وأن يسير على نهج الخلفاء الراشدين فإن فعل فالبيعة قائمة، وإن خالف سقطت البيعة لأنه نكص بما عاهد عليه، ومن هنا لا يخشى المسلمون أن يستبدّ خليفة أو أن يطغى. وأما النظام الحرّ فلا يتماشى مع الإسلام أيضاً لأن للحرية حدود لا بدّ من أن تقف عندها حيث تبدأ حرية الآخرين وحيث تُحترم مشاعرهم. ولا فائدة من الأكثرية لأن معظمها من الرعاع والإمعات الذين يُحسنون إن أحسن الناس ويُسيئون إن أساؤا، وغالباً ما يخضع هؤلاء الرعاع لضغوطٍ في الانتخابات فتكون المجالس النيابية ذات أكثريةٍ وصلوا إليها بطرقٍ غير

صحيحةٍ فكان أعضاؤها: منهم صاحب الدور البارز، ومنهم قوى سكوت وهو الغالبية فلا فائدة من رأيهم، بل ليس لهم رأي يُقدمونه، ويجب ألا ننسى ما تقع فيه البلاد من أزماتٍ وفوضى أثناء عمليات الانتخاب، ولا شكّ فإن بعض بلدان العالم قد راق لها هذا النظام، ووجدت فيه شيئاً من الراحة والطمأنينة، أما نحن المسلمين فإن لدينا البديل، وما هو الأفضل، وما فيه الخير كل الخير لأنه من لدن حكيمٍ خبيرٍ، خالق الإنسان، والعالم وما يصلح لهما.

فالشورى تداول في الرأي في محاولة الوصول إلى الرأي الصحيح إن لم يكن هناك نصّ صريح، أو هي تقليب وجهات النظر للخروج باجتهادٍ سليمٍ، فهي تعاون بين المسؤول والرعية لتحقيق الخير، وتطبيق ما ينفع الناس، والمسؤول ملزم بتحقيق مبدأ الشورى إذ عليه أن يستشير الذين عُرفوا بالعلم، واشتهروا بالاستقامة وقول الحقّ، وهو ينصح للأُمّة بالاستشارة واختيار الرجال الذين يستشيرهم، والأمة تنصح للمسؤول بإبداء الرأي فلا تضنّ به أبداً، كما تنصحه بالسمع والطاعة عندما يصدر الرأي النهائي. ومن هذا يتبيّن أنه لا يوجد مجلس للشورى مُحدّد بأفرادٍ مُعينين، وإنما يستشير المسؤول عدداً من أهل الحلّ والعقد، ويختلف عددهم بين مرّةٍ وأخرى، وقد يختلف أشخاصهم أيضاً، وهذا ما كان يتّم أيام رسول الله ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، ولما كان لا يوجد مجلس مُحدّد وبالتالي لا توجد أكثرية وأقلية، وفي الوقت نفسه لسنا مضطرين لأن نقول: الأكثرية مُلزمة أم مُعلمة، وإنما ساد النقاش حول هذا الموضوع لأننا نتصوّر مجلساً مُحدّداً، وعملية تصويت، كما يحدث اليوم فنريد أن نسقط الماضي الناصع على الحاضر الأسود، إذ نضع الأكثرية مكان الشورى، والشورى ملزمة ولا مجال لأكثرية أو أقلية.

ويتبيّن أيضاً أنه لا يوجد حاكم ومعارضة له كما هو شائع في النظام الديمقراطي، لأن الرجل من أهل الشورى يُبدي رأيه وليس له أن يتعلّق أو يتمسك فيه أو يُشهره للناس فمتى أصدر المسؤول اجتهاده سمع الجميع

وأطاعوا، وهذا واجب عليهم، ومن كان له رأي مُخالف يُحافظ عليه إذ لسنا مُلزمين بإجباره على اتباع غير ما يراه، ولكن لا يُعلن رأيه، وعليه السمع والطاعة.

ويشعر الجميع: الخليفة ومن يستشيرهم أنهم مسؤولون أمام الله في تطبيق الشورى، وإبداء الرأي، والنصح والسمع والطاعة، وأن ما يُؤدّونه نوع من العبادة فنحن أمام رجال مسلمين عُرفوا بالعلم، وصدق الإيمان، والنية الصادقة، والتزام الحدود، وممارسة المسؤولية ولسنا أمام رجال يُسيّرهم الهوى، وتحرّكهم المصلحة، لا يُقيمون للحدود وزناً ولا يخشون الله، ومن معرفتنا بالرجال اليوم يصبح عندنا غبش في مفهوم الشورى فنريد أن نضغط المفهوم ونحصره حتى يتفلّت وينقلب إلى ما يُقرّبه من النظام الديمقراطي.

فالشورى قاعدة اجتهادية فيها بحث عن الحقّ، وتنسيق للجهد، وعبادة، وسمع وطاعة، كما فيها إعداد وتدريب، ومعرفة لمواهب الرجال، وسدّ لباب الإساءة، وهي واجبة على المسؤول، وعلى أهل الرأي بل وعلى جميع الرعية وكلٌ يتحرّى الحقّ، ويلتزم النصح ويشعر بالمسؤولية أمام الله.

ولنُعطي أمثلةً من حوادث السيرة وعهد الخلفاء الراشدين ولنحرص أن تكون هي الأمثلة التي ذكرها أهل الإلزام والإعلام واستقرأ كل طرف منها ما يُؤيّد وجهة نظره، ولنصل إلى النتيجة نفسها التي عرضناها في بداية الموضوع.

١" ـ في بدر:

أ ـ في القتال:

لما سمع رسول الله ﷺ، أن القافلة مُقبلة من الشام، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها. فانتدب الناس، فخفّ بعضهم، وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ، يلقى حرباً. ووصل الخبر إلى أبي سفيان فأرسل

من يستنفر قريشاً، فتجهّزت قريش وخرجت باتجاه المدينة، وخرج رسول الله ﷺ، غير أن العير قد نجت، وأتى الخبر رسول الله ﷺ، عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مُقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يُريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإن وصلت إلينا، فأنت في ذمّتنا، نمنعك مما نمنع منه أباءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ، يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تُريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعلّ الله يُريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ، بقول سعد؛ ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) برك الغماد: موضع باليمن.

ويبدو أن هذه لم تكن استشارة بالصورة التي تحدّث عنها الكتّاب حتى وصفها بعضهم أنها استشارة مصيرية. رسول الله ﷺ، يعلم أن المعركة لقائمة، فقد خرجت قريش تُريد القتال ومصمّمة على ذلك رغم نجاة العير، والمسلمون لا يُمكنهم الانسحاب فرجوعهم إلى المدينة يُسبّب هياجاً عليهم، وإضعافاً كبيراً لمعنوياتهم فالمنافقون كثر في المدينة يتربّصون الدوائر بالمسلمين، واليهود لا تزال لهم قوّتهم، إضافةً إلى أعدادٍ ليست قليلةً من الذين لم يُعلنوا إسلامهم بعد، وكلهم يُعادون المسلمين، ويجب ألا ننسى الأعراب من حول المدينة، وهم ينتظرون ما يُمكن أن تؤول إليه أوضاع المسلمين، وهذا لا شكّ يُؤدّي إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المؤمنين، ثم ما هو الضمان لعدم ملاحقة قريش المسلمين إلى المدينة فيما إذا انسحبوا، وعندها تنشب الحرب أيضاً، وتكون ذات نتائج وخيمةٍ لأن أعوان المشركين يكونون قد كثروا، وعلى كلٍ فالحرب قائمة والأفضل أن تكون في البداية. وفوق كل هذا فقد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن القتال سيقع وسيكون النصر بجانب المسلمين، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[1]. وقال لهم رسول الله ﷺ، مُخبراً المسلمين بذلك ومُشجّعاً ومُحرّضاً: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»، وكذلك فإن المسلمين مؤمنون إيماناً لا تُزعزعه الجبال بأن رسول الله ﷺ، لا يسير إلا بأمر الله وأن الله معه، وأنه ناصرهم (امضى لما أراك الله). لذا فإن رسول الله ﷺ، يُريد أن يتكلّم المسلمون وخاصةً الأنصار لتتولّد القناعة بالقتال، وإذا تمّت القناعة كانت الحماسة، وكان النصر بإذن الله. وإلاّ فالحرب قائمة لا محالة، ومفروضة على المسلمين، ولا مجال للانسحاب، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقع القتال ليُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون. والاستشارة ليست في

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨.

موضع الإعلام ولا للإلزام، وإنما لإقامة القناعة وزيادة الحماسة.

ب ـ النزول على الماء:

ونزل رسول الله ﷺ، أدنى ماءٍ من بدر. فجاء الحُباب بن المنذر بن الجموح، فقال له: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نُقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فنهض رسول الله ﷺ، ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم ونزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوّرت، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

لم تكن هذه الحادثة بالشورى، وإنما نزل رسول الله ﷺ، منزلاً لم ير الحُباب بن المنذر أنه منزل مُناسب للنزول، وما دام الأمر ليس من عند الله، فعليه واجب تقديم النصح، ففعل، وتمّت قناعة رسول الله ﷺ، بهذا الرأي، ولم يعترض أحد من المسلمين أيضاً، إذ اقتنعوا برأي الحُباب فنهض رسول الله ﷺ، إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب، ونهض معه المسلمون إذ سمعوا وأطاعوا.

ج ـ أسرى بدر:

وهنا نقطة مُهمّة يجب أن ننتبه إليها وهي أن النبي ﷺ، قال لأصحابه يومئذٍ (قبل بدء القتال): إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرْهاً فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مُستكرهاً. فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا. ونترك العباس! والله لئن لقيته لأُلحِمَنّه السيف، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن

الخطاب: «يا أبا حفص أيُضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف»؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول: ما آمن من تلك الكلمة التي قُلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تُكفرها عني الشهادة. فاستُشهد يوم اليمامة.

لقد سمع المسلمون في بدرٍ جميعاً نداء رسول الله ﷺ: «من لقي العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله».

وانتهت المعركة، وانتصر المسلمون نصراً مُبيناً، وقتلوا سبعين من قريش، وساقوا أمامهم مثلهم سبعين من الأسرى، كان بينهم العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر، فأعطى من أعطى رأيه فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تُمكّنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخيه العبّاس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن جحش. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. فسكت رسول الله ﷺ، فلم يردّ شيئاً. ثم قام فدخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج رسول الله ﷺ، فقال: إن الله ليُليّن قلوب رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليُشدّد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ

عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]، أنتم عالة، فلا يُفكّن أحد منهم إلاّ بفداء، أو ضربة عُنق. قال ابن مسعود قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قالَ رسول الله ﷺ، إلا سهيل بن بيضاء.

لقد طلب رسول الله ﷺ، من أصحابه الرأي في الأسرى مع أنهم يعرفون ما قاله: «من لقي العبّاس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله» والعبّاس بين الأسرى أفيقتله وقد نهى عن قتله، وفي هذا تدريب ليُعبّر المرء عن رأيه بكل صراحةٍ، ويقول ما يعتقد بكل وضوحٍ، ثم يتنازل عندما يصدر رأي الأمير ويسمع ويُطيع ولو كان مُخالفاً لرأيه، مُبايناً لما يظنّ أنه الصحيح.

أبدى عدد من الصحابة آراءهم، وكانت متقاربةً أو متشابهةً تقريباً وهي القتل وإن كان بطرقٍ مختلفةٍ سوى أبي بكر، رضي الله عنه، الذي أعلن عن رأيه بالعفو، مُدلّلاً على رأيه بقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. عسى أن يكون من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله». فيقول رضي الله عنه: وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. فكانت حجة أبي بكر، رضي الله عنه، قويةً على حين تتسم أقوال الصحابة الآخرين، رضي الله عنهم، بالعاطفة والحماسة، وإلقاء كل أواصر القرابة والمعرفة تحت الأقدام والاعتراف بوشيجةٍ واحدةٍ هي رابطة العقيدة، أخوة الإسلام ولا شيء سواها، ولهذا أيضاً أثره الكبير.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

وثمة نقطة أخرى يجب أن ننتبه إليها وهي أن رسول الله ﷺ، لا يمكنه أن يقتل العباس لأنه كان مسلماً وعيناً له على قريش، فإن أظهر رسول الله ﷺ، ذلك، انتهت مهمة العباس، رضي الله عنه، وعليه أن يُهاجر إلى المدينة، ونلاحظ أن أبا بكر وحده هو الذي كان يعرف مهمة العباس، ويعرف معنى قول رسول الله ﷺ: من لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله. ومن هذا المنطلق كان رأي أبي بكر في موضوع الأسرى لأنه يعلم والجميع يعلمون أن رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يمايز بين الأسرى، ويرغب أن يبقى العباس في مهمته لأنه يُؤدّي دوراً مهماً لمصلحة المسلمين، وبقيت مهمته حتى سار رسول الله ﷺ، إلى مكة فاتحاً، فأشهر العباس، رضي الله عنه، إسلامه ولقي رسول الله ﷺ، في الطريق، فرجع معه على حين تابعت أسرته المسلمة أيضاً طريقها في الهجرة إلى المدينة. ونلاحظ أن بعض كتاب السيرة، ومنهم ابن هشام لا يذكر العباس بين أسرى بدر لأنه كان يعدّه مسلماً.

وعلى كل لم يكن رسول الله ﷺ، مُخالفاً لرأي أصحابه ممن أبدى رأيه في الأسرى لأسباب:

أ ـ إن الذين أبدوا رأيهم في موضوع الأسرى لا يزيد عددهم على الستة، خمسة منهم في رأي واحدٍ وهم: عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، سعد بن معاذ، عبد الله بن جحش، عبد الله بن رواحة، ولأبي بكر رأي آخر. فلا يمثّل هذا العدد سوى نسبةٍ صغيرةٍ بين المسلمين، ولا يعدّ هؤلاء الصحابة مُمثّلين لآراء بقية المسلمين الذين سكتوا ما دام فيه رأي مخالف. فسكوت بقية الصحابة سكوت استماع لا سكوت تأييد بسبب وجود آراء مُتباينة.

ب ـ هناك مصلحة عليا للأمة لا يمكن لرسول الله ﷺ، أن يتكلّم عنها، وهي مهمة العباس، رضي الله عنه، في مكة بين قريش، وهذا ما يمكن أن يتصرّف به الخليفة.

جـ ـ ما كان لرسول الله ﷺ، أن ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

يُوحَىٰ ﴿٤﴾، فالمسلمون يسمعون ويطيعون وقد لا يعرفون الحكمة.

إذن لا يمكن أن يستنتج من حادثة أسرى بدر أن الشورى مُعلمة.

وثمة أمر آخر يجب أن ننتبه إليه وهو أن العتاب قد جاء على عدم الإثخان في القتل أثناء المعركة لا في الأسرى إذ اهتم كثير من المسلمين أثناء القتال بأسر الرجال لأخذ الفداء منهم أكثر من اهتمامهم بالقتل فقد أسروا سبعين رجلاً وهو عدد كبير وفي الوقت نفسه لم يقتلوا سوى سبعين قتيلاً وهو عدد قليل إذ قارناه مع الأسرى. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشدّ على الأعداء، ويُثخن فيهم القتل، ولم يُبال بالأسر، وهنا جاءت الموافقة القرآنية لتصرّفه وإثخانه، كما أن سعد بن معاذ قال: «الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال» وذلك عندما رأى الأسر وهو مع رسول الله ﷺ، في العريش. ويقول ابن عطية، رحمه الله، في تفسيره لهذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[1]. والذي أقول في هذا: إن العتب لأصحاب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله عظيم إنما هو على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبةً في أخذ المال منهم، وجميع العتب إذا نظر فإنما هو للناس، وهناك كان عمر، رضي الله عنه، يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاء، وحينئذٍ قال سعد بن معاذ: الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال، ولذلك جعلهما رسول الله ﷺ، ناجيين من عذاب لو نزل، ومما يدلّ على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ، بقتل عقبة بن أبي مُعيط: «أسيري يا رسول الله» وقول مصعب بن عُمير للذي يأسر أخاه: «شدّ يدك عليه فإن له أمًّا موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم. فلما تحصّل الأسرى وسيقوا إلى المدينة، وأنفذ رسول الله ﷺ، القتل في النضر وعُقبة، والمنّ في أبي عزّة وغيره، وجعل يرتئي في سائرهم نزل التخيير من الله تعالى، فاستشار

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

رسول الله ﷺ، حينئذٍ، فمرّ عمر، رضي الله عنه، على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر، رضي الله عنه، المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ، إلى رأي أبي بكر، رضي الله عنه، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأمة، ولا أقول ذلك، لأن حكم الله في تحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدّم قبل بدر، وذلك في السرية التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاء الرجال لأجل المال، والذي منّ الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدّم تحليلها(١).

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يُبعث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامةً.

والإمام مُخيّر عند جمهور العلماء إن شاء قتل كما فعل رسول الله ﷺ، في قتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط لشدّة إيذائهما، وإن شاء فادى، كما فعل في بقية الأسارى، وإن شاء استرقّ. وغالباً ما يُستبقى الأسرى إن لم تكن لهم جرائم كبيرة تقتضي معها مصلحة الأمة والإنسانية عدم الاستبقاء عليهم، لأنه ربما يهديهم الله ويتوبون إليه وهذا ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ.

٢" ـ في أحد:

وخرجت قريش لقتال المسلمين والثأر مما وقع في بدر، ونزلت

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي «تفسير ابن عطية» ج٦، ص٣٨٠ ـ ٣٨١ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ الدوحة ـ قطر.

بالقرب من جبل أحد مقابل المدينة، ولما سمع بهم رسول الله ﷺ، والمسلمون، قال رسول الله ﷺ، للمسلمين إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درعٍ حصينةٍ فأوّلتها المدينة. ويروى أنه قد أوّل البقر التي تذبح بقتل أناسٍ من أصحابه كما أوّل الثلم برجل من أهل بيته. فقال للمسلمين بعد ذلك: إن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان ﷺ، يكره الخروج، واتفق رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول كبير المنافقين مع رأي رسول الله ﷺ، إذ قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. غير أن رجالاً، ومنهم من فاتته معركة بدر قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا، ولم يزالوا به حتى دخل إلى بيته ولبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد استعدّ للقتال ندم الناس الذين ألحّوا عليه بالخروج وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، فقالوا له: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل».

ليس هناك ما يدلّ على رأي كبار الصحابة في هذا الموضوع، وإنما كانوا ينتظرون أوامر رسول الله ﷺ، ولم يكن من رأي يصرّ على البقاء في المدينة سوى رأي عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ولا يعتدّ به لأنه كان كبير المنافقين، ولم يستمع، ولم يطع، وبقي مُعارضاً، ثم انخزل بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا، ورجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والشكّ. وقد جاء في إمتاع الأسماع للمقريزي ما

يُعطي آراء بعض صحابة رسول الله ﷺ، إذ جاء: وقال أشيروا عليّ. ورأى رسول الله ﷺ، ألا يخرج من المدينة فوافقه عبد الله بن أبي، والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم، وقال عليه السلام: امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دُخل علينا قاتلناهم في الأزقّة فنحن أعلم بها منهم، ورُموا من فوق الصياصي والآطام، وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحيةٍ فهي كالحصن. فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا الشهادة وأحبّوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدوّنا. وقال حمزة، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة في طائفةٍ من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأةً منهم علينا، وقد كنت يوم بدرٍ في ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنا نتمنّى هذا اليوم، وندعو الله به، فساقه إلينا في ساحتنا، ورسول الله ﷺ، لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح. وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفي خارج المدينة. وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً. وتكلّم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وإياس بن أوس بن عتيك في معنى الخروج للقتال، فلما أبوا إلا ذلك، صلّى رسول الله ﷺ، الجمعة بالناس، وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم، وكره المخرج كثير. ثم صلّى العصر بالناس وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ورفعوا الناس في الآطام. ودخل رسول الله ﷺ، بيته ومعه أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فعمّماه ولبّساه، وقد صُفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره. فجاء سعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير فقالا للناس: قلتم لرسول الله ﷺ، ما قلتم واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل من السماء، فردّوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له هوى أو رأي فأطيعوه، فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ، قد لبس لأمته، ولبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف، واعتمّ، وتقلّد السيف. فقال الذين يُلحّون: يا

رسول الله، ما كان لنا أن نُخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه. امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[١].

مع أن في النفس شيء من هذه الرواية إذ تتنافى مع ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، من نبيّهم الكريم، إذ لا يمكن للحمزة، رضي الله عنه، أن يُحاول فرض رأيه حتى على رسول الله ﷺ، ومع هذا أقول: لم تكن هناك شورى، وإنما أبدى بعض المسلمين رأيهم، ودفعتهم الحماسة للخروج من المدينة لملاقاة أعدائهم خوفاً من اتهامهم بالجبن، وخوفاً من رفع معنويات الأعداء. ورأى رسول الله ﷺ، هذه الرغبة، ورأى هذه الحماسة فوافقهم، ولبس لأمته، حتى إذا رأوا أنهم استكرهوا رسول الله ﷺ، على الخروج فندموا على ذلك، وأرادوا أن يرجعوا عما فعلوه، وأحبّوا أن يرجع رسول الله ﷺ، فيبقى في المدينة، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون، لأن رسول الله ﷺ، قد عزم على الخروج، وتوكّل على الله، وليس هو بالمُتردّد لذا فقد قال لهم: «لا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. . . .».

عزم رسول الله ﷺ، على الخروج لملاقاة الأعداء، وانطلق، وسمع المسلمون وأطاعوا وخرجوا، ولكن المنافقين بقوا على رأيهم في عدم الخروج فلم يسمعوا ولم يُطيعوا بل انخذل كبيرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس.

لم تكن هناك شورى لأن الذين تكلّموا في موضوع الخروج أو عدمه ليسوا جميعهم من أهل الشورى وإنما أهل الشورى بينهم قلّة، وسواد الناس لا يُؤخذ تصرّفهم لأن العاطفة تُحرّكهم، وهذا ما كان فقد تكلّم من تكلّم في الخروج حماسةً، ومن تكلّم في عدم الخروج تحدّث خوفاً من أن يكون

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي الجزء الأول ص١١٦ ـ ١١٨، طبعة الشؤون الدينية بدولة قطر.

رسول الله ﷺ، قد خرج مُستكرهاً، ولا قيمة لرأي عبد الله بن سلول لنفاقه، وأيّد ذلك عدم سماعه، وانخذاله بمن معه من قومه من المنافقين.

وما دامت لا توجد شورى في هذه الحادثة فلا يمكن أن نستنتج منها أن الشورى مُلزمة أو مُعلمة، وفوق هذا كله لم يكن هناك إحصاء لأصحاب هذا الرأي أو ذاك، وليست القضية قضية قلّة أو كثرة وإنما يتعلّق بأهل الشورى وآرائهم ولا يرتبط أبداً بالحديث حماسةً وعاطفةً.

٣" ـ في الخندق:

أ ـ حفر الخندق:

أشار سلمان، رضي الله عنه، على رسول الله ﷺ، حفر الخندق، فاقتنع رسول الله ﷺ، بهذا العمل، ولم يجد آراء مُباينةً له إذا سكت الجميع فأنفذ الأمر، وتمّت عملية حفر الخندق.

ب ـ مصالحة قادة غطفان:

لما اشتدّ على الناس البلاء يوم الخندق بعث رسول الله ﷺ، إلى عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، وإنما المفاوضة، ويريد رسول الله ﷺ، أن يُضعف الأحزاب، وأن يُفرّق كلمتهم، فتضعُف معنوياتهم، ويخشى بعضهم أن تدور عليه الدائرة فينسحب بمن معه. ولما أراد أن يُوثّق ما أقدم عليه بعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وهما سيدا الأنصار فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، ولا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء

القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلاّ قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نُعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

لقد وافق رسول الله ﷺ، سيدي الأنصار على رأيهما ما داما واحداً، وما دامت عزيمة القتال والصبر قائمة، فلو كان رأي سيدي الأنصار مختلفاً لكانت هناك مناقشة وتقليب وجهات النصر والاضطرار إلى مشاركة آخرين في الرأي، غير أنه كان واحداً، ولو كانت العزيمة على القتال ضعيفة أو هناك تردّد لكان من الضروري البحث عن بدائل ثانية، لكن العزيمة كانت قويةً، والصبر على الشدائد فيه صدق وجدية.

٤" ـ في الحديبية:

اتجه رسول الله ﷺ، والمسلمون إلى مكة على نية زيارة البيت وتعظيمه، وهذا أمر معروف بين العرب منذ أيام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ولا يحقّ لسكان البيت أن يحولوا دون زيارة أحدٍ له مهما كان على خلافٍ معه، وأصبحت قريش هي المسؤولة عن حماية البيت والحجّاج إليه، والمسؤولة عن تقديم ما يجب للحاج. غير أن قريشاً تعدّت حدودها، وطغت ووقفت في وجه رسول الله ﷺ، والمسلمين، وعملت على منعهم من زيارة البيت، فاتجه رسول الله ﷺ، إلى أصحابه قائلاً: أشيروا عليّ أيها الناس. فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تُريد قتال أحدٍ ولا حرباً، فتوجّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه، ولم يعترض أحد من الصحابة على قول أبي بكر، فعُدّوا مُوافقين. فأقرّ ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «فامضوا على اسم الله».

وجاء الأمر من السماء على غير ذلك، إذ خلأت القصواء، وقال

الناس ما قالوا. فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». أي لم يأذن الله بالسير، وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطةً يُعظّمون حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

وتمّ الصلح، ولم يُعد الأمر بحاجةٍ إلى شورى ما دام الأمر من الله، ولم يستطع كثير من الصحابة أن يُدركوا كنه هذا الصلح وما فيه من فتحٍ عظيمٍ، فاعترض بعضهم، ومنهم عمر بن الخطاب فقال له رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، ولست اعصيه، وهو ناصري». وانتهى الصلح فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا» فما قام رجل منهم، فكرّرها مراتٍ ثلاث فما نهض أحد منهم، فانطلق ﷺ، إلى خيمته مغتّماً، فلما رأته زوجه أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أُمية المخزومية قالت له: ما بك يا رسول الله؟ قال: «هلك الناس»، وأخبرها بما جرى فأشارت عليه بأن يبدأ بنفسه فينحر هديه ويحلق فوافق رأيها ففعل فأسرع الصحابة يتسابقون إلى تقليد رسول الله ﷺ. قد بدأ بنفسه فالأمر لم يبق بحاجةٍ إلى تعليلٍ أو تأويل، وهذا يكفي، يقوم رسول الله ﷺ، بعمل فيُبادر كل مؤمنٍ إلى القيام بما قام به الرسول الكريم، وإن كانت من قبل لديه ملاحظات أو اعتراضات وأدها في مكانها، واتجه في مسرىً جديدٍ.

٥" ـ في خيبر:

بدأ الهجوم الإسلامي على خيبر من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود إلى إخوانهم في «تيماء» و«وادي القرى» و«فدك» وإلى بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة «النطاة»، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات الحصون، وانطلقوا نحو المسلمين يقاتلونهم دلالةً على مقاومتهم وارتفاع معنوياتهم يومذاك، وعلى غير العادة، حتى إذا رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أُصيب عدد من المسلمين يومذاك نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم.

أشار الحُباب بن المنذر على رسول الله ﷺ، أن المكان الذي ينزل فيه المسلمون غير مناسب، فإن كان وحياً فلا مناص لتغييره، وإن كان رغبة رسول الله ﷺ، فالسكوت عنه واجب، أما إن كان مكيدةً وخطةً حربيةً فيمكننا التحوّل عنه إذ أنه مكشوف، والحصون مرتفعة تُطلّ على معسكر المسلمين، وتضعهم على مرمى النبال، إضافةً إلى أن المنطقة موبوءة بسبب النخيل، وقد مرض عدد من المسلمين: فأجاب رسول الله ﷺ: بل إنها المكيدة، فأشار الحُباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان آخر، فتمّ التغيير في الليل بعد أن أتمّ المسلمون نهارهم الأول في القتال.

لقد كان رسول الله ﷺ، يستشير في أكثر أموره، ويروي الترمذي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ، لأصحابه.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ، قد استشار عدداً من الصحابة في عائشة، رضي الله عنها، بعد حادثة الإفك على الرغم من أن الموضوع خاص جداً، ويرتبط في حرمة أهله فقد استشار علياً، وأُسامة، واستشار زوجه زينب بنت جحش، كما سأل بريرة جارية عائشة. حتى نزل الوحي ببراءة أم المؤمنين، رضي الله عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

الشورى أيام الصديق:

كان رسول الله ﷺ، قد أمر أُسامة بن زيد أن يسير بالناس، ويُغير على الروم، فامتثل أُسامة وعسكر بالجرف شمال المدينة حتى يتعبأ الناس، غير أن المنية قد عاجلت رسول الله ﷺ، ولا يزال الناس بالجرف مُعسكرين.

١" ـ بعث أُسامة:

وبُويع أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالخلافة، وارتدّت العرب

عندما وصل إليها نبأ وفاة رسول الله ﷺ. وأمر الصديق، رضي الله عنه، أُسامة أن يمضي إلى الوجهة التي وجّهه إليها رسول الله ﷺ، فأخذ الناس بالخروج إلى الجرف حيث كانوا يُعسكرون غير أن بعض الصحابة قد شقّ عليهم خروج الجيش من المدينة، حتى كادت تفرُغ من رجالها على حين أنها مُهدّدة من الأعراب المرتدّين، فدخل عمر، وعثمان، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم، على الخليفة، وقالوا له: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد انتفضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدّةً لأهل الردّة ترمي بهم في نحورهم، وأُخرى: لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها، وفيها الذراري والنساء، ولو تأخّرت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجِرَانِه، ويعود أهل الردّة إلى ما خرجوا منه، أو يُفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة، حينئذٍ فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا.

وعى أبو بكر، رضي الله عنه، كلام الذين دخلوا عليه فقال لهم: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا. قد سمعت مقالتنا. فقال لهم: (والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدّ أن يؤوب منه. كيف ورسول الله ﷺ، ينزل عليه الوحي من السماء يقول: «أنفذوا بعث أسامة». ولكن خصلةً أُكلّم بها أسامة. أكلّمه في عمر يُقيم عندنا، فإنه لا غنى بنا عنه. والله ما أدري يفعل أسامة أم لا، والله إن أبى لأُكرهه)[1].

اقتنع صحابة رسول الله ﷺ، بما قال الصديق، اقتنعوا عندما تذكّروا قول رسول الله ﷺ، وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة» ولا ينطق رسول الله ﷺ، عن الهوى، ورأوا عزيمة الصديق. وبقناعتهم لم تعد هناك مُشكلة خلافٍ أو مُعارضة في رأي، وإنما أصبح الجميع أصحاب رأيٍ واحدٍ. فهذا غير ما يتوهّم بعضهم أن الصديق استبدّ برأيه وأطاعوه، فليس

---

(١) حياة الصحابة الجزء الأول ـ باب الجهاد.

في الإسلام استبداد برأيٍ بل شورى، ومناقشة للموضوع للوصول إلى الحلّ السليم والطريق الصحيحة.

وفي رواية أن أسامة قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ، فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وثَقَل رسول الله وَثَقَل المسلمين أن يتخطّفهم المشركون. وقالت الأنصار فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يُولّي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره، بما قال أسامة، فقال: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد ارتدّت على أعقابها كُفّاراً كما قد علمت، وأنت تُريد أن تُنفذ جيش أسامة؟ وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس فلو حبسته عندك لتقوّيت به على من ارتدّ من هؤلاء العرب.

فقال أبو بكر: والله لو علمت أن السباع تجرّ برجلي إن لم أردّه ما رددته، ولا حلت لواءً عقده رسول الله ﷺ، فقال عمر: إن الأنصار أمروني أن أُبلّغك، وهم يطلبون أن تُولّي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة. فوثب أبو بكر، وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر، فقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟[١].

اقتنع عمر، رضي الله عنه، من كلام أبي بكر، رضي الله عنه، إذ رآه يسير على نهج رسول الله ﷺ، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلمون جميعاً، وانطلق إلى جيش أسامة قانعاً بل سار يحمل رأي أبي بكر. فلما وصل إلى الجيش قال له الناس: ماذا صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

رأى أبو بكر أن يخرج إلى الجيش بنفسه يُشيّع الجيش، ويُوضّح رأيه للناس، ويطلب من أسامة إبقاء عمر بن الخطاب في المدينة. فنادى مُنادي

---

(١) تاريخ الطبري.

أبي بكر بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ، ليتمّ بعث أسامة ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف. وقام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إني وُلّيتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لوددت لو أن بعضكم كفانيه، وإنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستُكلّفوني ما كان رسول الله ﷺ، يطيق. إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا مُتّبع، ولست بمبتدع، ولست بخيرٍ من أحدكم، فراعوني، فإن رأيتموني استقمت فتابعوني، وإن رأيتموني زغت فقوّموني، وإن رسول الله ﷺ، قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم.

اقتنع المسلمون جميعاً بعد ما سمعوا أن الخليفة لم يأت بجديد، وإنما يسير على هدي رسول الله ﷺ، فالرسول قال وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة». وأن رسول الله ﷺ، هو الذي أمّر أسامة، والمسلمون قانعون بحكم الله ورسوله بل إن هذا من الإيمان، وتُرفع صفة الإيمان عمن لا يقبل بحكم الله ورسوله. إذن لم تكن هناك شورى معلمة، واستبدّ الخليفة برأيه، بل إن المسلمين جميعاً أصبحوا برأيٍ واحدٍ، ويسمعون ويطيعون، ولم تكن هناك أبداً آراء مُخالفة سواء أكانت فرديةً أم جماعيةً مُعلنةً أم مخفيةً في سبيل وحدة الجماعة، ومن أجل السمع والطاعة. وأيّدت الأحداث صحة رأي الخليفة الذي استند على هدي الرسول الكريم، وصدق النبوة من قبل في إمرة أسامة الذي أبدى عبقريةً في القيادة، وضروباً في فنّ الإمرة، وبطولةً فذّةً، وشجاعةً نادرةً. ثم كان في إنفاذ جيش أسامة قوة إذ هابت الأعراب المدينة، وقالوا: لو لم يكن فيها قوة كافية لما أُنفذ الجيش، ولقتال الروم بالذات، وللروم سيطرة معنوية في نفوس الأعراب والجاهليين عامةً.

٢" ـ قتال المرتدين:

وما قفل أسامة حتى كفرت الأرض وتصرّمت، وارتدّ من كل قبيلة

عامةً أو خاصةً إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مُسيلمة، وطُليحة، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدّت غطفان، وارتدّت خواص من بني سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان[1].

قال قتادة[2]، رحمه الله تعالى، لما تُوفي رسول الله ﷺ، ارتدّت العرب كلها إلا ثلاثة مساجد: مكة، والمدينة، والبحرين، فقالوا: أما الصلاة فإننا سنُصلّي، وأما الزكاة فوالله لا تُغصب أموالنا منا[3].

وقالت عائشة، رضي الله عنها: لما تُوفّي رسول الله ﷺ، اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدّت العرب قاطبةً، وانحازت الأنصار وصار المسلمون كالغنم السائبة في الليلة الماطرة، حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها[4].

كان المرتدون فريقين: فريق بذلوا الصلاة ومنعوا الزكاة، وفريق كفروا بالدين كله، وآمنوا برسالة الشيطان إلى مُسيلمة، وطليحة، والأسود، فأما الأولون فقالوا: نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله، ولكن لا نُعطيكم أموالنا، وبعثوا إلى المدينة وفداً فنزلوا على وجوه الناس. فأنزلوهم ما خلا عباساً فتحمّلوا بهم على أبي بكر على أن يُقيموا الصلاة وعلى أن لا يُؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق فقال: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه، وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصدقة، وردّ الوفد فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بقلّة أهل المدينة وأطمعوهم فيها[5].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي أخو أبي سعيد الخدري لأمه كان من فضلاء الصحابة، شهد العقبة، وبدراً، وأحداً، والمشاهد كلها، وأُصيبت عينه في إحدى الغزوات فردّها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه، توفي سنة ٢٣، وهو ابن ٦٥ سنة، رضي الله عنه.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

(٤) هاضها: كسرها.

(٥) تاريخ الطبري.

فقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تُقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقّه، وحسابه على الله». فقال أبو بكر: والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعها[2].

وجادله في ذلك كثير من الصحابة منهم عمر، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، ورأى الصحابة أن اللين أولى، وأن الأرض قد زُلزلت بالردّة فما يُطاق تثبيتها، وأبو بكر ماضٍ في الذي شرح الله له صدره من الحق، لا يضعُف ولا يني، ولقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وأرفق بهم، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام، إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أو ينقُص وأنا حيّ؟ أليس قد قال: (أي النبيّ ﷺ، الذي احتجّ به عمر). إلا بحقّها، ومن حقّها الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو خذلني الناس كلهم لجالدتهم بنفسي. قال عمر، رضي الله عنه: فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحقّ.

واقتنع الصحابة بقول أبي بكر فأيّدوا رأيه، ودعموه في موقفه، وثبتوا أمام الذين أرادوا الإغارة على المدينة، وانتصروا على المرتدّين، بإذن الله، وجاءت الصدقات إلى المدينة فقويت معنويات المسلمين، ورجع بعث أسامة، وقد أحرز نصراً، فخاف المرتدّون، وهابوا المسلمين، وضعُفت شوكتهم، ثم كانت حروب الردّة التي قضت على أصحابها.

٣" ـ في غزو الروم:

أخرج ابن عساكر عن الزهري عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي،

---

(١) العناق: السخلة (الأنثى من ولد الماعز).

(٢) الصحيحان.

رضي الله عنه، أنه قال: لما أراد أبو بكر، رضي الله عنه، غزو الروم دعا علياً، وعمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه ـ قال عبد الله بن أبي أوفى: وأنا فيهم ـ. فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل لا تُحصى نعماؤه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد، قد جمع الله كلمتكهم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تُشركوا به، ولا تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب، وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليُؤيّد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مُدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيته، فليُشر امرؤ عليّ برأيه.

فقام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي يخصّ بالخير من شاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه؛ وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. قد ـ والله ـ أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت فما قُضي أن يكون حتى ذكرته، فقد أصبت ـ أصاب الله بك سبيل الرشاد ـ سرِّب إليهم الخيل إثر الخيل، وابعث الرجال إثر الرجال والجنود تتبعها الجنود؛ فإن الله ناصر دينه ومعزّ الإسلام وأهله.

ثم إن عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، قام فقال: يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر! حدّ حديد وركن شديد، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم، ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضرّوا بهم، وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوّهم؛ ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك. ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم، ثم سكت وسكت الناس.

ثم قال لهم أبو بكر: ما ترون؟ فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظَنين. فقال طلحة، والزبير، وسعد، وأبو عبيدة، وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم: صدق عثمان، ما رأيت من رأيٍ فأمضه فإنا لا نُخالفك ولا نتهمك، وذكروا هذا وأشباهه؛ وعليّ، رضي الله عنه، في القوم لم يتكلّم.

فقال أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال: أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله. فقال: بشّرك الله بخير! ومن أين علمت ذلك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون». فقال: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرّك الله.

ثم إن أبا بكر، رضي الله عنه، قام في الناس فذكر الله بما هو أهله، وصلّى على نبيّه ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضّلكم بهذا الدين على كل دين، فتجّهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مُؤمّر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تُخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فقام خالد بن سعيد، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، الذي بعث محمداً ﷺ، بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون فالحمد لله منجز وعده، ومظهر وعده، ومهلك عدوّه، ونحن غير مُخالفين ولا مُختلفين، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونُطيعك إذا أمرتنا.

٤" ـ استخلاف عمر:

قال الحسن البصري: لما ثقُل أبو بكر، رضي الله عنه، واستبان له

من نفسه، جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنّني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي. فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، فرجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك. قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده[1].

ثم إنه دعا بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال له: ما تسأله عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان. فقال له مثل ذلك: فقال: علمي أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله فقال له أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم شاور سعيد بن زيد، وأُسيد بن الحُضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أُسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يُسرّ خير من الذي يُعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وسمع بعض الصحابة بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به، فدخلوا على أبي بكر، فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظّ وأغلظ.

قال أبو بكر، رضي الله عنه، أجلسوني. فلما جلس. قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل: أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب: ابن الجوزي.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب. بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يُؤمن الكافر، ويُوقن الفاجر، ويُصدّق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي.

وأخذته غشية فذُهب به قبل أن يُسمّي أحداً. فكتب عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب.

ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب:

فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنّي به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئٍ ما اكتسب، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

ثم أمره فختم الكتاب، وأشرب أبو بكر على الناس من كوته فقال: يا أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر[2].

فأقرّوا بذلك جميعاً. ورضوا به ثم بايعوا، فرفع أبو بكر، رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم. وخفت عليهم الفتنة فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فولّيت عليهم خيرهم، وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أُرشدهم. وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم،

---

(١) الطبقات لابن سعد، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتهذيب ابن عساكر.

(٢) مختصر الموافقة للزمخشري.

واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعية. ثم دعاه فأوصاه(١).

وهكذا فالشورى ليست للرعية كلها وإنما لأولي الرأي، ولا يمنع هذا أن يُبدي كل امرئ رأيه سواء أكان من أهل الرأي أم من غيرهم، وإذا اعترض أحدهم على رأيٍ عرض الخليفة هذا الاعتراض على أهل الحلّ والعقد لدراسته والنظر فيه، ونوقش الموضوع حتى تتمّ القناعة، ويُعطى المعترض الرأي الذي تمّ الوصول إليه. فعندما اعترض أحدهم على استخلاف عمر وقال ما قال عن غلظته، فاستدعى أبو بكر، رضي الله عنه، عثمان وعلياً، رضي الله عنهما، وسألهما عن قولة المعترض، فقال عثمان: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته وسابقته. وقال علي: بئس ما قال، عمر عند ظنّك به، ورأيك فيه، إن وليته، مع أنه كان والياً معك، نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظنّ لم تُرد إلا الخير.

الشورى أيام الفاروق:

تولّى عمر بن الخطاب أمر الأُمّة، وقد امتدّ الإسلام على رقعةٍ أرحب، ودخلت فيه شعوب جديدة، وشمل بيئاتٍ مختفلةً، فاستجدّ نتيجة ذلك أمور، وهذا ما يستدعي زيادة الشورى ومناقشة أهل الرأي والاستماع إلى الناس، وإلى من يعايش القضايا المستجدة.

١" ـ بساط كسرى:

جاء بساط كسرى إلى عمر بين الغنائم، وهو قطعة فنية لا يُماثلها في عصرها قطعة أخرى، طولها ستين ذراعاً، وعرضها مثل ذلك، الناظر إليها

---

(١) تاريخ الخلفاء.

كالناظر إلى جنّة حقيقيةٍ، قيمته تُعادل نصيب أعدادٍ من المقاتلين، فماذا يفعل الخليفة؟.

جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره. فأشار كلهم عليه بأخذه، إلا علياً، رضي الله عنه، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية. إنك إن تقبله ـ على هذا ـ اليوم لم تعدم فيه غدٍ من يستحق به ما ليس له. قال: صدقتني ونصحتني، فقسّمه بينهم.

اقتنع أمير المؤمنين، ولم يكن هناك معترض، إذ لم يضع حقّ أحد. ولم يقل أحد حرام تمزيق هذه القطعة الفنية، فالحقّ والعدل أولى من إبقاء شيء جميل، وفي نفوس بعض الناس غصّة.

٢" ـ سواد العراق:

أفاء الله على المسلمين سواد العراق، ورأى عامة الصحابة، وعلى رأسهم عبد الرحمٰن بن عوف، وبلال بن رباح أن تُقسم الأرض، ومزارعوها بين المقاتلين، ورأى عمر غير ذلك إذ قال: والله لا تفتح بعدي بلد يكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلًّا على المسلمين. فإذا قسّمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسدّ الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟. فأكثروا على عمر، وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يشهدوا ولم يحضروا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأي. قالوا: فاستشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا. فأما عبد الرحمٰن بن عوف فكان رأيه أن تُقسّم لهم حقوقهم. ورأي عثمان، وعلي، وطلحة، وابن عمر رأي عمر. فعرفهم، وأرسل إلى عشرة من الأنصار، خمسةٍ من الأوس وخمسةٍ من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم. فلما اجتمعوا عرض رأيه وحجته. وقال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم،

وأنتم اليوم تُقرّون بالحقّ، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أُريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحقّ، فوالله لئن كنت نطقت بأمرٍ أُريده ما أُريد به إلا الحقّ. قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً لهو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت. لكن رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسّمت ما غنموا من أموالٍ بين أهله، وأخرجت الخمس فوجّهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفوق رقابهم الجزية، يُؤدّونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور؟ لا بدّ من رجالٍ يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بدّ من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسّمت الأرض والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك، فنعم ما قلت ورأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به رحل أهل الكفر إلى مدنهم، فقال: قد بان لي الأمر. فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف، وقالوا: تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربةً. فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد.

٣" ـ الديوان:

لما كثرت الأموال بعد أن فتح الله على المسلمين أمصاراً، جمع عمر أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: ما ترون؟ فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنةٍ، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة فقال علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تُمسك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشية أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا

ديواناً وجنّدوا جنوداً، فدوّن ديواناً وجنّد جنوداً فأخذ بقوله: فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مُطعم، وكانوا نسّاب قريش وكُتّابه. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم. فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر، رضي الله عنه، قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

٤" ـ خليج أمير المؤمنين:

دعا عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر. ثم قال لهم: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم، حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوةً لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نُريد من حمل الطعام إلى مكة والمدينة. فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نُريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم. وتمّ الرأي، وفُتح الخليج.

وهنا نوع جديد من الشورى، استشارة أهل الاختصاص والمعرفة في البلد لأن الموضوع يتعلّق بالخبرة ومعرفة الأرض، ولا علاقة له بالصحابة، وليس أمراً فقهياً يعرفه أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر من غيرهم.

٥" ـ التقويم:

كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ فلا ندري على أيها نعمل.

وقال ميمون بن مهران: رُفع إلى أمير المؤمنين صك محلّه شعبان فقال: أي الشعبانين هو؟ الذي مضى أم الذي نحن فيه أم الآتي؟

وقال قرة بن خالد: كان عند عمر عامل جاء من اليمن فقال لعمر:

أما تُؤرّخون؟ إني رأيت باليمن شيئاً يُسمّونه التاريخ، يكتبون من عام كذا شهر كذا. فقال عمر: إن هذا لحسن: فأرّخوا.

جمع عمر وجوه الصحابة فقال: إن الأموال قد كثرت، وما قسمنا منها غير موقت، فكيف التوصّل إلى ما يُضبط به ذلك؟

فقال قائل: اكتبوا على تاريخ الروم.

فقيل: إنه يطول، وإنهم يكتبون من عند ذي القرنين.

فقالوا: يجب أن يُعرف ذلك من رسوم الفرس. فعندما استحضر عمر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا حساباً نُسميّه: ماه روز (معناه حساب الشهور والأيام) وبيّنه لهم. فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ثم قالوا: من عند وفاته.

ثم قالوا: من مولده، وقال علي: منذ خرج النبي ﷺ، من أرض الشرك يعني يوم هاجر فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة. وكانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة في ربيع الأول فقال: بأي شهر نبدأ فنُصيّره أول السنة؟

فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يُعظّمونه.

وقال آخرون: شهر رمضان.

وقال آخرون: ذو الحجة فيه الحجّ.

وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة.

وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرّخوا من المحرّم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور في العدّة، وهو منصرف الناس عن الحج.

فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقرى ثمانيةً وستين يوماً وجعلوا التاريخ من أول محرّم هذه السنة[1].

٦" - اختيار القادة:

أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يكون على رأس المجاهدين الذين يتجهون إلى العراق، فاستخلف علياً على المدينة، وخرج حتى أتى صراراً[2] في طريق العراق، وقد جعل طلحة بن عبيد الله على مقدمته، وعبد الرحمن بن عوف على الميمنة، والزبير بن العوام على الميسرة، وقد استشار الناس في (صرار) فاجتمع عليه الصحابة، ومنعوه من الخروج، وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين اجعل عجزها بي، وأقم، وابعث جنداً، وإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنُف الأمر (أوله) خشيت أن لا يُكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، فنزل عند رأي الصحابة، وقال لهم: إني إنما كنت كرجلٍ منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أُقيم وأبعثَ رجلاً.

واستشار الناس في اختيار القائد. فقال عبد الرحمن بن عوف: وجدته. قال: ومن هو؟ قال: الأسد عادياً سعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص). فوافق الجميع. وانطلق سعد بالجيش.

واجتمع أهل فارس من السند، وخراسان، وحلوان إلى يزدجرد فأمّر عليهم (ذا الحاجب)، وأخرجوا رايتهم (درفش كابيان)، وهي العلم الأكبر لا يُخرجونه إلا في الأمور العظام، وقالوا: إن عمر قد أخرب بيت مملكتنا، واقتحم بلادنا وقاتلنا في عقر دارنا، وما نراه مُنتهياً، وهو آتينا إن لم نأته، وتعاقدوا على الحرب، وهم مائة وخمسون ألفاً، وأراد عمر

---

(١) أخبار عمر. الطنطاويان.

(٢) صرار: ماء على طريق العراق على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

الخروج بنفسه، واستشار أصحابه فمنعوه، فقال: أشيروا عليّ برجلٍ أُوَلِّه ذلك الثغر غداً. قالوا: أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرةً. قال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقياً. قالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وهم جندك، وقد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأُولّين أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأسنّة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.

٧" ـ الطاعون:

ولما خرج عمر إلى الشام في إحدى قدماته لقيه في سرع (قرب تبوك) أمراء الأجناد أبو عبيدة وأَصحابه فأخبروه أن الطاعون وقع في الشام، فقال لابن عباس: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم واستشارهم فأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام فاختلفوا. فقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

وقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه. فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفّر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان مُتغيّباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا

تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». فحمد الله عمر ثم انصرف.

وما أكثر الشورى في أيام عمر بل في أيام الراشدين عامة وإنما نستعرض بعضها، ولا نعرض كلها، ويكفي أن نأخذ منها الخطوط العريضة لهذا المبدأ العظيم كي نتعلّم طريقه لنسير على نهجه.

الشورى أيام ذي النورين:

بقيت الشورى على حالها أيام الخليفة الراشدي الثالث وأعطت نتائجها الإيجابية الطيبة، ولكن في آخر أيامه حدثت الفتنة ومع أن الشورى بقيت ربما زادت غير أن آثارها لم تظهر، وربما نقول لم يستفد منها لأن الفتنة عمّت المجتمع فلا مُجيب لمنادٍ، ولا مُستمع لناصح. ولعلّنا ننظر في بعض قضايا الشورى التي تمّت أيام ذي النورين، رضي الله عنه.

١" - **قتل قتلة الخليفة السابق**: إن الحادثة التي قُتل فيها الخليفة السابق عمر بن الخطاب جريمة سياسية، واعتداء على النفس، واشتركت في هذه الجريمة أطراف مُتعددة من مجوسٍ، ويهودٍ، ونصارى، بعضهم كان يُظهر الإسلام، وبعضهم من بلادٍ ثانيةٍ كان لهم دور في التخطيط، والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحدّ من جرائم القتل، وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍّ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بدعوى تنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب هواه ورأيه باسم إقامة الحدود. . .

لا يوجد خليفة، الخليفة السابق مقتول، ولم يُبايع بعد خليفة جديد ينظر في الأمر، غير أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قام بقتل القتلة (الهرمزان، جفينة، ابنة أبي لؤلؤة) وليس له من حقّ في ذلك، فالخليفة الجديد هو الذي سينظر في هذه القضية وريثما يُبايع الخليفة الجديد، وُضع عبيد الله في السجن. فلما تولّى عثمان، رضي الله عنه، كانت هذه أول مشكلةٍ واجهته.

استشار عثمان أولي الرأي فكان رأي علي بن أبي طالب وبعض الصحابة أنه لا بدّ من إقامة الحدّ، وقتل عبيد الله. ولا يصحّ التساهل أبداً في إقامة حدود الله، مهما كان وضع القاتل، ومهما كانت المبرّرات.

ورأى عدد آخر من الصحابة أنه يصعُب على المسلمين قتل خليفتهم بالأمس بأيدٍ قذرةٍ، ويقتل اليوم ابنه، وقد شكّوا في إسلام الهرمزان، ومن هنا فلا يقتل عبيد الله، إذ لا يقتل مسلم بكافر. وقد عرضوا على الخليفة أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الديّة من بيت المال، وتعود إليه ثانيةً، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم.

واقترح بعضهم أن يقوم الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص. غير أن الخليفة لم يقبل بهذا التحايل على حدٍّ من حدود الله. ورأى أنه لا بدّ من إقامة الحدّ على عبيد الله بن عمر، إذ عدّ الهرمزان مسلماً.

دفع الخليفة عثمان بن عفان القاتل عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه، فخرج به، يقول القماذبان: خرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلاّ أنهم يطلبون إليّ فيه. فقلت لهم: إلي قتله؟ قالوا: نعم - وسبّوا عبيد الله - فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه. فتركته لله، ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلاّ على رؤوس الرجال وأكفّهم.

عفا صاحب الحقّ. وعندها قام الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليّهم، وقد دفع الديّة لهم أيضاً، ثم رُدّت إلى بيت المال.

٢" - **أصحاب الفتنة**: جمع الخليفة أمراء الأمصار، واستشارهم في أمر المنحرفين، وما يتكلّمون به، فأُشير عليه بنقلهم إلى الثغور كي يُشغَلوا بأنفسهم، كما اقتُرح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا، ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذاك وإنما رأى أن يأخذهم بالحلم، وقال لأهل الكوفة: أما بعد، فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم

بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم عليّ حجة.

واجتمع إلى وفد مصر وناقشهم، واستمع إلى آرائهم، كما استمع إليهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة غير أن صاحب الفتنة لا يسمع إلا ما في نفسه، ولا تصلح مع اللئيم إلا الشدّة، وعاملهم الخليفة باللين فأشعلوا الفتنة.

قامت الفتنة وتداخلت أمواج الآراء فلم يعد موضوع للشورى. وعصفت الفتنة بالخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقتل.

الشورى أيام علي بن أبي طالب:

كان عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخليفة الراشدي الرابع يستشير أهل الشورى من صحابة رسول الله ﷺ. ثم دعته الظروف إلى الانتقال إلى الكوفة، ومغادرة المدينة موطن الصحابة، ومقرّ رجال الشورى. ومع أن عدداً كان معه منهم إلاّ أن الشورى لم تعُد لها نتائجها الإيجابية إذ كان أكثر رجال عليّ، رضي الله عنه، من الجيل الجديد الذين أتوا بعد صحابة رسول الله ﷺ، فكانوا دونهم، إضافةً إلى وجود عددٍ بينهم من أهل الأهواء ومُثيري الفتنة، منهم الأعراب، ومنهم الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، إذ كان ينصحهم فلا يقبلون، ويُشير عليهم فلا يهتمّون، ويدعوهم فلا يستجيبون، ويأمرهم فلا يُطيعون حتى ملّهم وتمنّى الخلاص منهم. إذا دعاهم إلى القتال في الصيف طلبوا منه التريث حتى ينجلي عنهم الحرّ، وإن طلب منهم التهيّؤ للنزال في الشتاء رغبوا إليه إمهالهم حتى ينقضي البرد.

طلب منهم متابعة القتال في صفّين بعد أن رفع إخوانهم أهل الشام المصاحف يبغون التحكيم فأصرّوا إلاّ على وقف القتال والإجابة لما دُعوا

له، فأعلمهم أنها خدعة فلم يرعوا لندائه واضطر إلى الوقوف بل أجبر الأشتر النخعي إلى عدم متابعة الإثخان في الخصم.

رشَّح مُمثّله للتحكيم عبد الله بن عباس فرفضوا، ورشح الأشتر النخعي فأبوا، حتى سار إلى الحكومة أبو موسى الأشعري. ولم يكن التحكيم في صالحهم فلم يعترفوا به، وعدّوا قبوله كُفراً، وهم الذين طلبوه، وطلبوا من خليفتهم أن يتوب مما وقع فيه من الكفر، فجادلهم لم يُظعنوا للحقّ بل خرجوا عليه، وكانت فرقة الخوارج التي اشتدّ بأسها على المسلمين حتى اضطر أن يُقاتلهم في «النهروان».

لم يتعظ من بقي مع الخليفة ولم يثُب إلى رشده بل استمرّ في عناده ورفضه حتى استُشهد الخليفة، رضي الله عنه، على يد أحد أشقياء الخوارج عبد الرحمن بن مُلجم ـ قبّحه الله ـ وهكذا كانت أيام هذا الخليفة الراشدي، رضي الله عنه وأرضاه.

واستمرّت الشورى بعد الراشدين غير أن صفاءها بدأ يقلّ تدريجياً وإيجابياتها تضعُف مع الزمن وربما كان ذلك لأن بعض من يستشيرهم الخليفة بدؤوا يُزينون له رأيه، يبغون التزلّف، ولا ينصحون له، حتى أصبحت بطانة أولي الأمر في النهاية تحجبهم عن الرعية فلا يسمعون إلا من البطانة التي لها مصالح وله أطماع، وقلّ الخوف من الله، وكلٌّ ينظر إلى الساعة التي هو فيها، ويحرص على تثبيت وضعه، والإغداق على رجاله كي يأمن جانبهم، وهم أعداد كبيرة من مختلف الاختصاصات وبيدهم القوة يحمونه ويُقدّم لهم ما يطلبون مُقابل تلك الحماية، ولم يعُد للشورى مفهومها الذي وجدت له، ولم يعُد لرجالها تلك المكانة التي خوّلتهم أن يكونوا فيها.

ومن كل ما سبق نستنتج ما يأتي:

١ ـ الشورى واجبة على الخليفة وفيها نُصح للأُمّة، وعلى الرعيّة وأصحاب الرأيّ، وأهل الحلّ والعقد أن يُبدوا رأيهم بوضوح ولو كان يُخالف رأي الخليفة.

٢ ـ لا يُجبر الخليفة أو الأمير إنساناً على رأيٍ ما.

٣ ـ لا يصحّ أن يستمرّ الإنسان يُدافع عن رأيه ويُعارض بقية الآراء بعد صدور أوامر الخليفة حيث لا توجد معارضة في الإسلام، وإنما عليه أن يسمع ويُطيع وأن يحتفظ برأيه لنفسه.

٤ ـ لا يستشير الخليفة مع وجود نصٍ من القرآن الكريم أو السنة الشريفة، فالشورى قاعدة اجتهادية، ولا اجتهاد مع وجود نص.

٥ ـ إذا اتجهت أكثر آراء أهل الشورى نحو رأيٍ معيّنٍ وتمّت القناعة لديهم بذلك الرأي فإن الخليفة أو الأمير مُلزم به، وإن لم يلتزم فإنما يكون قد عطّل الشورى، وترك النُصحِ للأُمة، وكلا الأمرين واجب عليه.

٦ ـ إذا تمّت قناعة الخليفة بأمرٍ بعد سماع آراء ولو كانت قليلة، ولم يسمع آراءً مخالفةً التزم به، وأنفذه.

٧ ـ يمكن للخليفة أن يُنفذ أمراً ولو خالف آراء أكثرية أهل الشورى إن كانت هناك مصلحة للأُمة، ولا يستطيع أن يبوح فيها أمام الجميع، كإخفاء رسول الله ﷺ، مُهمّة عمّه العبّاس، إذ لم يكن يعلمها سوى الصدّيق.

٨ ـ ليست هناك أقلية وأكثرية وإنما يتكلّم من له رأي، ويعرض رأيه بصراحةٍ ووضوحٍ، وتُناقش الآراء المطروحة، وتُقلّب وجهات النظر حتى تتمّ القناعة بوجهةِ نظرٍ معينةٍ، فيعمل الأمير على إنفاذها.

٩ ـ إذا لم تتمّ قناعة الجميع بوجهة نظر، وبقي اختلاف في وجهات النظر فإنه يمكن للأمير أن يعمل بإنفاذ وجهة النظر التي يراها دون البحث في موضوع أقليةٍ أو أكثريةٍ، وعلى الناس أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم.

١٠ ـ الشورى ليست للرعية كلها وإنما لأصحابها من أولي الرأي، ولكن هذا لا يمنع من أن يُبدي أيّ فردٍ رأيه، وله حق الاعتراض حتى يصل إليه الجواب، فإن وصل إليه رأي المسؤول المستند على أصحاب الحلّ والعقد سمع وأطاع وترك ما كان يراه.

١١ ـ يُناقش المسؤول وأهل الرأي أي اعتراضٍ مهما كان، ومن أيٍّ كان، ويرسلوا لصاحبه الجواب الصحيح.

١٢ ـ يمكن للأمير أن يوسّع دائرة الشورى إذا لم تتم القناعة بالشورى من دائرةٍ مُعينةٍ.

وفي النهاية لا بد من أن نقول: إن الشورى تحتاج إلى رجال مُؤمنين، ومجتمعٍ سليمٍ يعرف معنى النُصح، ولا يُفسّره بالمصلحة ولا يُعلّله ولا يُؤوله، فإنَ سوءَ الظنّ من مرض النفس وشغلها بهواها. ولذا علينا الاهتمام الكبير بالتربية، والعناية الكبيرة بالأخلاق، والرعاية الشاملة لتهذيب النفوس وإعطاء القيمة الحقيقية للمعاني والأثر الكبير للنتائج حتى نستطيع أن نوجد ذلك المجتمع ثم نقيم دعائم الشورى والحكم الإسلامي.

القسم الثاني

الدستور

هذه المفاهيم كانت سائدةً على مدى التاريخ الإسلامي وإن كانت تنحسر عن التطبيق تدريجياً بعد العهد الراشدي غير أنها بقيت معروفةً ولا منازع لها، ومع مرحلة زوال الخلافة بدأت ترافقها مفاهيم جديدة جاءت إلينا من الغرب مع الهزيمة النفسية التي حلّت فينا، وقد أخذت هذه المفاهيم الجديدة الفئة المستغربة من مجتمعنا، والتي أطلقت على نفسها المستنيرة أو التقدّمية إذ عدت التوجّه نحو الغرب والتقدّم إليه، وتقليده، ونزع كامل الشخصية الإسلامية تنوّراً. وبدأت المفاهيم الجديدة تدخل صراعاً مع المفاهيم الإسلامية. وتميّزاً للشخصية لا بدّ من تبنيّ تلك المفاهيم التي تنبع من شخصيتنا، وصياغة دستورٍ يقوم على أساسها تعتمد عليه الدولة الإسلامية التي ندعو لها، والتي نعتقد أنّ في قيامها سعادة للمسلمين جميعاً، ثم للبشر كافةً.

ربما انطلقت دولة على المنهج الإسلامي، أو وافق مسؤول على تبني الإسلام أو توصّل الدعاة نتيجة التربية والدعوة إلى العودة إلى الإسلام، أو الاستعداد إلى الحكم فإنه من الضرورة اتّخاذ الدستور القائم على المفاهيم الإسلامية، وربما كان في طرحه زيادة في التجاوب والانخراط في صفوف أصحاب الفكرة الإسلامية. وانطلاقاً من هذا فإني سأطرح هذا المشروع القابل للمناقشة والحذف والإضافة.

تعدّ الدولة التي انطلقت منها الفكرة بدءاً القاعدة الأساسية، ثم تنضمّ إليها بقية الأقاليم تبعاً لقبول الفكرة، فتنشأ الدولة الإسلامية على النظام اللامركزي مع شيءٍ من التحوير. ولا بدّ من أن يكون في الدستور شيئاً من المرونة يسهل معه الاستنباط، لذا عندما لم أجد نصاً مُلزماً استعمل عبارة [يُفضّل].

الفصل الأول

الأمّة والدولة

المادة الأولى: تشمل الأمة كل فردٍ يعتنق الإسلام، ويُؤمن بتطبيق منهجه بغضّ النظر عن موطنه، وجنسيته، ولونه.

المادة الثانية: تضمّ الدولة الأقاليم التي تُطبّق المنهج الإسلامي.

المادة الثالثة: يضمّ كلّ إقليم شعباً من الشعوب التي تتألّف منها الدولة الإسلامية.

المادة الرابعة: يُمكن أن يشمل الشعب الكبير كالشعب العربي والشعب التركي وغيرهما أكثر من إقليم.

المادة الخامسة: الشعب هو الجماعة التي تتكلّم لغةً واحدةً، وتُقيم متجاورةً.

المادة السادسة: يؤلّف الشعب الصغير جزءاً من إقليم، ويعود تقويم ذلك إلى المجلس التوجيهي الذي يُناط به تحديد ذلك.

المادة السابعة: تُعدّ اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة عند الشعب العربي، واللغة الثانية عند بقية الشعوب. وتُدرّس بها العلوم الدينية، كما تُقام مدارس عربية لإعداد الأساتذة لهذه المادة، ولتعريب الشعب.

المادة الثامنة: تُعدّ لغة كلّ شعبٍ هي اللغة الرسمية في الإقليم الذي يسكنه أفراده موقتاً ريثما تسود العربية فيه.

المادة التاسعة: يعود تحديد الأقاليم إلى المجلس التوجيهي.

المادة العاشرة: يُمكن نزع جُزءٍ من إقليم، وضمّه إلى آخر بناءً على المصلحة، أو طلبٍ من أهل الجزء المنزوع.

المادة الحادية عشرة: لا يتمّ النزع إلاّ بموافقة المجلس التوجيهي.

المادة الثانية عشرة: تُعدّ راية الدولة «علم البلاد» واحدةً في الأقاليم كلّها.

المادة الثالثة عشرة: راية الدولة ذات لونٍ أخضر، ويكون طولها ضعف عرضها.

المادة الرابعة عشرة: يحقّ لكُلّ مُسلمٍ أن يدخل أرض الدولة الإسلامية بعد التأكد من نُبل هدفه.

المادة الخامسة عشرة: يحقّ لأهل الكتاب ومن يلحق بهم الدخول إلى أرض الدولة الإسلامية. تُجّاراً وزُوّاراً وسائحين أفراداً وجماعات لا يزيد أفرادها على السبعة أشخاص.

المادة السادسة عشرة: لا يحقّ لغير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التجارة بالمحرمات أو حمل شيء منها.

المادة السابعة عشرة: على غير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التقيّد بالأنظمة المرعية فيها مثل لباس الحشمة، وعدم ارتكاب المنكرات، وحمل المعلومات، والتجسس، ونشر الشائعات و...

المادة الثامنة عشرة: على السلطة الإسلامية مراقبة الغرباء بأناةٍ وأمانةٍ.

المادة التاسعة عشرة: في كُلّ إقليم رئيس تُختار تسميته في الإقليم. ويُعدّ والياً على منطقته.

المادة العشرون: يُشترط في الوالي شروط عضو المجلس التوجيهي نفسها.

المادة الحادية والعشرون: يُختار الوالي من قبل أهل العلم وباستشارة الخليفة.

المادة الثانية والعشرون: لا يحقّ للوالي مخالفة الخليفة، بل يُعدّ تابعاً، ويتلقّى التعليمات منه.

المادة الثالثة والعشرون: يرأس الوالي الوزارة المحلية.

الفصل الثاني

المجلس التوجيهي[1]

المادة الرابعة والعشرون: مهمة المجلس التوجيهي:

أ ـ اختيار الخليفة.

ب ـ نصيحة الخليفة.

ج ـ توجيه الدولة.

د ـ استنباط القوانين من الشريعة الإسلامية.

المادة الخامسة والعشرون: يتألف المجلس التوجيهي من مائة عضو.

المادة السادسة والعشرون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي من العلماء من الأقاليم كافةً.

المادة السابعة والعشرون: لا تتساوى الأقاليم في عدد مُمثليها. ولا يُراعى عدد السكان، ولا اللغة.

المادة الثامنة والعشرون: يُفضّل تمثيل الأقاليم كلها في المجلس التوجيهي، ولا يُشترط، فحيثما وجد أهل لذلك اختيروا.

المادة التاسعة والعشرون: يشترط في عضو المجلس التوجيهي:

أ ـ أن يكون مسلماً.

---

(١) يدعو صاحب السلطة العلماء أول مرة لاختيار المجلس التوجيهي.

ب ـ من أهل العلم.

ج ـ ممن يشهد له بالصلاح.

د ـ كامل العدالة الاجتماعية.

هـ ـ لم يُسبق له أن أُقيم عليه حدّ، أو أُدين.

و ـ قد جاوزت سنّه الأربعين سنةً هجريةً.

ز ـ ترشيح أهل العلم له.

ح ـ لا يطلب ترشيح نفسه ولا يسعى وراء ذلك.

المادة الثلاثون: مدة عضوية المجلس التوجيهي خمس سنوات.

المادة الحادية والثلاثون: يمكن إعادة اختيار العضو حتى تصل سنّه إلى السبعين عاماً هجرية.

المادة الثانية والثلاثون: تنتهي عضوية المجلس التوجيهي في الحالات الآتية:

أ ـ الوفاة.

ب ـ ارتكاب أمرٍ يُدان فيه.

ج ـ الطعن فيه من جماعة.

د ـ مخالفة شرط من شروط العضوية.

الفصل الثالث

السلطة التنفيذية

المادة الثالثة والثلاثون: الخليفة هو رأس السلطة التنفيذية.

المادة الرابعة والثلاثون: يتألّف في كُلّ إقليم سلطة تنفيذية محلية باستثناء الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة الخامسة والثلاثون: يختصّ الإقليم المركزي بمكان إقامة الخليفة، والمجلس التوجيهي، والسلطة التنفيذية المركزية التي تشمل الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة السادسة والثلاثون: يمكن لكلّ إقليم أن يكون هو المركزي، بناءً على رأي الخليفة وموافقة المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والثلاثون: يُفضّل أن يكون مقرّ الخليفة بعيداً عن مكّة المكرّمة، والمدينة المُنوّرة كي لا تتعرّضان للخطر الذي تتعرّض له العواصم عادةً أثناء الحروب.

المادة الثامنة والثلاثون: يمكن أن يُقيم الخليفة في عاصمة الإقليم المركزي، ويُقيم أعضاء المجلس التوجيهي في مكّة المُكرّمة أو المدينة المُنوّرة، والاتّصالات الحديثة تُؤمّن سهولة الاتّصال.

المادة التاسعة والثلاثون: تشمل السلطة التنفيذية عدداً من الوزارات لكلٍ منها اختصاصها.

الفصل الرابع

الخليفة

المادة الأربعون: الخليفة هو المرجع الأعلى للدولة.

المادة الحادية والأربعون: الخليفة بيده إعلان الجهاد، ووقف القتال، وتوقيع المعاهدات، وهو إمام المسلمين، وباسمه تُقام الحدود بعد موافقته عليها.

المادة الثانية والأربعون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي بعد الاستشارة.

المادة الثالثة والأربعون: يختار الوزراء، بعد استشارة أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الرابعة والثلاثون: يستشير أعضاء المجلس التوجيهي في قضايا الدولة، والأمور الفقهية، ويعطي الحكم بعد الاستنارة برأي من استشار. والاستشارة ليست ملزمة له إلاّ أن يكون إجماعاً على رأي من قبل أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الخامسة والأربعون: يتقيّد الخليفة بمصادر التشريع الإسلامي، ولا يصحّ أن يُخالف أيّة نقطة.

المادة السادسة والأربعون: يُشترط في الخليفة شروط أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والأربعون: يُختار من قبل أعضاء المجلس التوجيهي من بين الأعضاء أو من غيرهم.

المادة الثامنة والأربعون: يُفضّل أن يكون قد تجاوز السنة الخمسين من عمره.

المادة التاسعة والأربعون: ليس هناك مدة محددة للخليفة، ولا ينهي خلافته سوى:

أ ـ الوفاة.

ب ـ الكفر البواح.

ج ـ اختلال العقل.

المادة الخمسون: يُفضّل أن يتنازل مع بلوغ السنة السبعين من عمره.

المادة الحادية والخمسون: إذا غاب الخليفة لسفرٍ أو مرضٍ ناب عنه آخر يُعيّنه هو مدة غيابه فقط.

المادة الثانية والخمسون: إذا حلّت الوفاة بالخليفة حلّ مكانه أحد أعضاء المجلس التوجيهي ريثما يختارون خليفة مكانه.

المادة الثالثة والخمسون: يُفضّل ألاّ يكون الخليفة الجديد ابناً للأول أو من قرابته مع جواز ذلك، خشية الاستئثار بالسلطة أو نقل الخلافة إلى وراثة.

المادة الرابعة والخمسون: يُشترط فيمن ينوب عن الخليفة ما يُشترط في الخليفة.

المادة الخامسة والخمسون: تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

المادة السادسة والخمسون: لا يصحّ وجود أكثر من خليفة في دار الإسلام فإن قام أحد يُنازعه وقف العلماء ورجال الأمن، والناس بجانب الخليفة، وحاولوا ثني المُخالف عن غيّه فإذا استجاب انتهى الأمر، وإلاّ قاتلوه حتى يثوب إلى رُشده أو يُقتَل.

المادة السابعة والخمسون: لا يصحّ موافقة الخليفة على انفصال إقليم من بلاد المسلمين عنها بل عليه إعادته ولو بالقوة. ويقف أهل العلم في ذلك الإقليم إلى جانبه.

المادة الثامنة والخمسون: يصحّ أن يكون الخليفة من أيّة جنسية، ومن أيّ إقليم.

الفصل الخامس

الوزارات

المادة التاسعة والخمسون: يُحدّد عدد الوزارات حسب المصلحة.

المادة الستون: وزارات الجهاد، والخارجية، والداخلية، والمالية، والتعليم، والعدل، والتعليم العالي، وأهل الذمة، والدعوة وزارات أساسية.

المادة الحادية والستون: يُشترط الإسلام فيمن يتسلّم الوزارات الأساسية.

المادة الثانية والستون: لا يشترك أهل الذمة في الجهاد.

المادة الثالثة والستون: لا يُعفى أهل الذمة من الجزية إذا اضطروا للقتال.

المادة الرابعة والستون: يستفيد مقاتلو أهل الذمّة من الغنائم.

المادة الخامسة والستون: ينطلق الجهاد مما حدّدته الشريعة الإسلامية.

المادة السادسة والستون: السفراء والقناصل والممثلون في الخارج يُشترط فيهم الإسلام.

المادة السابعة والستون: تنطلق العلاقات الدولية مما حددته الشريعة الإسلامية.

المادة الثامنة والستون: يشترط الإسلام في قوات الأمن الداخلي.

المادة التاسعة والستون: يرتبط الأمن الداخلي بوزارة الداخلية، ويُعدّ العسس جزءاً منه.

المادة السبعون: تتبع دائرة الزكاة وزارة المالية، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الحادية والسبعون: ينطلق التعليم من الروح الإيمانية. وتُوجّه المواد كلها توجيهاً إسلامياً.

المادة الثانية والسبعون: تتبع دائرة الترجمة وزارة التعليم العالي، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الثالثة والسبعون: تُوجّه وسائل الإعلام كلها للدعوة.

المادة الرابعة والسبعون: تحظر وسائل الإعلام الأجنبية في البلاد.

المادة الخامسة والسبعون: يمكن لأهل الذمة تسلم مناصب وزارية في الوزارات الأخرى، ويكون عندها الوكيل أو الأمين العام مسلماً.

الفصل السادس

السلطة القضائية

المادة السادسة والسبعون: السلطة القضائية منفصلة.

المادة السابعة والسبعون: لا حكم للسلطة التنفيذية على القضاء.

المادة الثامنة والسبعون: لا يتدّخل وزير العدل في عزل القضاة وتنقلاتهم.

المادة التاسعة والسبعون: وزير العدل له صفة إدارية ورسمية.

المادة الثمانون: قاضي القضاة هو الذي يتدخل في أمر القضاة من نقل، وعزل، وترفيع.

المادة الحادية والثمانون: لا يتسلّم أهل الذمة القضاء.

المادة الثانية والثمانون: يتحاكم أهل الذمة إلى محاكم خاصة بهم، يتولّون أمرها بأنفسهم وذلك فيما يتعلّق بشؤونهم الدينية، وعلاقاتهم فيما بينهم.

المادة الثالثة والثمانون: يُصادق وزير العدل على قرارات محاكم أهل الذمة.

المادة الرابعة والثمانون: يمكن أن يتقاضى أهل الذمة إلى محاكم إسلامية، ولا يحق لهم بعدها نقض الحكم وإعادته إلى محاكمهم الخاصة.

الفصل السابع

مباحث مستقلّة

المادة الخامسة والثمانون: الدولة مسؤولة عن تأمين العمل للمواطن.

المادة السادسة والثمانون: لا تسمح الدولة للفرد أن يبقى عاطلاً.

المادة السابعة والثمانون: تدفع الدولة راتباً معيناً للفرد في حال العجز والشيخوخة.

المادة الثامنة والثمانون: الناس جميعاً متساوون أمام القانون في الإطار الذي حددته الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة والثمانون: تحدّد أعمال خاصة تمارسها المرأة كالتعليم والطب، والتمريض، والصيدلة.

المادة التسعون: تعمل الدوائر على تكليف المرأة بنصف العمل الذي يُكلّف به الرجل لأن عملها للضرورة، ولاستيعاب عددٍ أكبر من النساء ولبقاء المرأة بعيدةً عن منزلها أقل وقت ممكن. ويدفع نصف الراتب كاملاً.

المادة الحادية والتسعون: تمنع التجارة بالمحرمات، وتُخلى الأسواق منها.

المادة الثانية والتسعون: ما يُحرّم على المسلمين، ويحلّه أهل الذمّة يبقى في أحيائهم، ولا يصحّ نقله إلى أحياء المسلمين، ولا المجاهرة به.

المادة الثالثة والتسعون: تحول الدولة دون الاختلاط في الدوائر كلها، وتُراعي تطبيق الشريعة الإسلامية.

المادة الرابعة والتسعون: تعمل الدولة على تدريب الشعب كله بمعدل ساعتين أسبوعياً على الأسلحة، وتُطبّق في المدارس كنصاب، وفي المعامل، وتفتح المدارس لذلك، وتُعدّ ذلك إلزامياً.

المادة الخامسة والتسعون: تصدر كل وزارة ودائرة لائحة تفصيلية لها تُقرّها الوزارة المسؤولة ويُصادق عليها المجلس التوجيهي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

- ١١ -

التاريخ المعاصر

بلاد العراق

١٣٤٢ - ١٤١١هـ

١٩٢٤ - ١٩٩١م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

التاريخ الإسلامي

-١١-

التاريخ المعاصر

بلاد العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد :**

فإن العراق أحد الأمصار الإسلامية ذات الأهمية الخاصة إذ أن أرضه مقرونة بالفتوحات الإسلامية الأولى ، وما دار عليها من معارك حاسمةٍ في تاريخنا ، والتي هي من مفاخرنا ، ونتاج العقيدة ، وعلى تلك الأرض جال أعداد من الصحابة الكرام ، وقد رُويت بدماء بعضهم ، فطوتهم شهداء ، ومنهم من أقام واستقرّ ، ومنهم من عاد منها ورحل عنها بعد أن خلّد اسمه في ميادينها . وعلى تلك الأرض قامت الدولة العباسية إحدى الدول الإسلامية العظمى التي كانت حاضرتها بغداد محطّ أنظار العالم يومذاك ، ومهوى قلوبهم لما قدّم أبناؤها من حضارةٍ ، وما شادوا من مجدٍ ، وكل ذلك لا يزال مطبوعاً في نفوس المسلمين على مرّ الدهور وتعاقب السنين .

والعراق أحد الأقطار العربية ذات المركز المهمّ ، فهو يُؤلّف قسماً أساسياً من الجناح الشرقي ، وتحجزه الجبال عن بقية البلدان الآسيوية ، فهو يسند ظهره على تلك الجبال ويتّجه بنظره نحو الغرب والجنوب الغربي حيث يعيش الشعب العربي في أقاليمه المتعددة . فإذا ألّمت بالعرب نازلة اتجهوا نحو العراق ، وإذا حلّت بالمسلمين مصيبة نظروا إلى العراق فشمخ بتاريخه وأعلنه أنه لها ، وخاصةً أن أهله أصحاب شكيمةٍ وبأسٍ ومروءةٍ ونفوسٍ أبيّةٍ .

تبلغ مساحة العراق اليوم ٤٤٨,٧٤٢ كليومتراً مربعاً ، وتضمّ أرضه معظم ما كان يُعرف باسم « سواد العراق » ، وهو السهـل الفسيح المنفتـح جنوب بغداد ، وقد بقي قسم من هذا السواد في دولة إيران ، عندما قسّم المستعمر الأمة المسلمة إلى أجزاء حين سيطر عليها بعد أن ضعُف أمـرها لتخلّيها عن عقيدتها وتركها تعاليم دينها ، وقد ترك بقاعاً بين هـذه الأجزاء لتكون مواضع نزاعٍ بين الجوار ، يُثيرها كلما أراد يُهيج الناس بعضهم على بعضٍ فيُنفّذ مُخطّطاته ، ويُحقّق أغراضه . وقد بقيت منطقة الأهواز أو ما يُعرف اليوم باسم عربستان من السواد داخل إيران .

ويشمل العراق أيضاً بادية السماوة وجزءاً من بادية الشام، ويقع الجزءان غرب السواد ، وتنتقل فيهما قبائل عربية ليست سوى بطونٍ للقبائل التي تعيش وتنتقل في أرض العرب والشام .

ويضمّ العراق أيضاً قسماً واسعاً من الجزيرة الفراتية ، وهو الجزء الذي يقع شمال بغداد بين دجلة والفرات ، ويُؤلّف القسم الأكبر من ديار ربيعة التي تمتدّ إلى غرب الفرات أيضاً ، أما ديار بكر فلا يشمل العراق إلا جزءاً صغيراً منها ، وهو ما يحدّ ديار ربيعة من جهة الشمال .

ويمتدّ العراق نحو الشمال الشرقي ليأخذ قسماً مما كان يعرف باسم إقليم الجبال حيث تعيش قبائل شديدة المراس ، كثيرة العناد .

ولما كان الإسلام عقيدة سكان هذه الأجزاء كلها ، ولما كان الإسلام منهج جميع جوانب الحياة ، ومصدر كل عادات المجتمع وتطلعاتـه لذا فـإن السكان قد صُبغوا بصبغةٍ واحدةٍ حتى ليصعُب تفريق بعضهم عن بعضٍ ، ولكن عندما يعتريهم شيء من الغفلة يتسلّل إليهم الأعداء ، ويُثيرون بينهم الشحناء والبغضاء ، وهذا ما نراه في التاريخ وخاصةً المعاصر منه والذي نحن الآن بصدد دراسته حيث نجد أن المستعمر قد نثر بذور العصبية العرقية عندما كانت له السيطرة ، وما أن رحل حتى نمت نباتات القومية ، واستوت عـلى

سوقها ، فاشتدّت العصبية إليها ، واستغلّ ذلك الأعداء ، وأخذوا يضربون بها يميناً وشمالاً كلما احتاجوا إلى الضرب ، وإلى فرقتنا ، حتى يثب بعضنا على بعضٍ ، ونُثخن بالجراح ، فنُعطى مرحلةً لتضميد تلك الجراح ، وعمران ما تهدّم ، وإشادة ما زال ، فيُعيد لنا الكرة حتى تبقى الحزازات لا تزول أبداً ، وحتى تُهدر أموالنا ، وتقلّ أعدادنا . وسيبقى هذا وضعنا حتى نثوب إلى رشدنا فنترك العصبية البغيضة، ونلتفت إلى أعدائنا بكل قوانا فنريهم الحقّ والعدل الذي كنا عليه يوم تمسّكنا بعقيدتنا .

نرجو من الله أن نُوفّق بتحليل أحداث هذه المرحلة المعاصرة بما عرفناه من معايشتنا لها ، وبما علمنا من أهداف الأعداء ورغبات أعوانهم الذين يعيشون بين أظهرنا ، وما لهم من كلمةٍ مسموعةٍ ، ووزنٍ سياسيٍ لما يملكون من نفوذٍ أو سلطةٍ . كما نرجو من الله أن يُسدّد خطانا ، وأن يُلهمنا الرشاد والصبر ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

غرة ذي القعدة من عام ١٤١٠ من الهجرة .

لمحة عن تاريخ العراق قبل إلغاء الخلافة

الدولة الإيلخانية (٦٥٦ ـ ٧٣٧هـ) : سقطت بغداد بيد هولاكو قائد المغول عام ٦٥٦هـ ، وزالت الدولة العباسية ، وأسّس الطاغية هولاكو الدولة الإيلخانية التي حكمت خراسان ، وفارس ، والعراق ، وتوالى عليها من أحفاد الطاغية :

أبا قاخان (٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ) : ابن هولاكو .

تكودار (٦٨٠ ـ ٦٨٣هـ) : الابن الثاني لهولاكو ، وقد اعتنق الإسلام ، وأعطى نفسه اسم (أحمد) ، وقتله ابن أخيه ، وتسلّم السلطة مكانه .

أرغون (٦٨٣ ـ ٦٩٣هـ) : ابن أبا قاخان ، ثار على عمه لإسلامه ، وقتله .

كيغاتو (٦٩٣ ـ ٦٩٣هـ) : الابن الثاني لأبا قاخان .

بيدو (٦٩٣ ـ ٦٩٥هـ) : ابن طرخاي بن هولاكو .

غازان (٦٩٥ ـ ٧٠٣هـ) : ابن أرغون ، اعتنق الإسلام ، وتسمّى (محمود) .

أولجايتو (٧٠٣ ـ ٧١٦هـ) : الابن الثاني لأرغون ، اعتنق الإسلام ،

وتسمّى (محمد) ، ويُعرف بلقب (خدابنده) ، أو كما يسمّونه (خرابنده) ، واعتنق مبدأ الرفق عام ٧٠٩هـ ، وحاول أن يفرضه على الرعية .

بهادور خان (٧١٦ ـ ٧٣٦هـ) : ابن محمد خرابنده ، ويُكنّى أبا سعيد ، وبه اشتهر .

وهكذا توالى على الدولة الإيلخانية تسعة خانات ، ثم تجزأت ، وانقرضت ، ولم يكن لآخر هؤلاء الخانات (بهادور) عقب ، فخلفه (أرباخان) فلم يستقم له الأمر أكثر من ستة أشهر ، إذ قُتل في غرة شوال ٧٣٧هـ ،وصار الأمراء والوزراء يتناوبون الحكم بشكلٍ فوضويٍ تحكمه القوة .

الدولة الجلائرية (٧٣٧ ـ ٧٩٨هـ): نصّب رجال الدولة الإيلخانية عليهم (موسى خان) غير أن الشيخ حسن التركماني والي آسيا الصغرى من قبل (بهادور خان) قد جاء إلى بغداد ، وخلع (موسى خان) وولّى مكانه (محمد بن عنبرجي) أحد أفراد الأسرة الإيلخانية ، وعاد إلى مقرّ ولايته ، لكنه لم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واستقرّ فيها ، وتسلّم السلطة بعد خلافاتٍ وقعت ، وأسّس الأسرة الجلائرية التي تعاقب أفرادها على الحكم .

حسن الجلائري (٧٣٧ ـ ٧٥٧هـ) : من قبيلةٍ تركمانيةٍ .

أُويس بن الشيخ حسن (٧٥٧ ـ ٧٧٦هـ) : وقد اختلف أبناؤه الحسين ،الحسن ، علي ،إسماعيل ، أحمد . ثم اتفق القادة على تولية الحسين.

الحسين بن أُويس (٧٧٦ ـ ٧٨٤هـ) : أخذ يوسّع ملكه ، واتّجه إلى تبريز على رأس جيشٍ ، فأعلن أخوه (علي) الاستقلال في بغداد ، فأرسل الحسين أخاه (أحمد) على رأس قوةٍ ، يؤدّب به أخاهما (علي) ، فاستطاع (أحمد) أن يدخل بغداد ، فكافأه أخوه (الحسين) حيث عيّنه نائباً عنه على بغداد ، لكنه شمخ بأنفه ، وأعلن استقلاله عن أخيه ، وسار إليه بجيشٍ ، وقتله .

أحمد بن أُويس (٧٨٤ ـ ٧٩٥هـ) : وفي عهده دخل تيمورلنك بغداد في ٢٠ شوال عام ٧٩٥هـ ، ففرّ منها أحمد خائفاً يترقب ، والتجأ إلى الناصر برقوق حاكم مصر من المماليك ، فأرسل تيمورلنك رسلاً إلى الظاهر برقوق يطلب منه إعادة أحمد بن أُويس إليه مباشرةً .

تيمورلنك (٧٩٥ ـ ٨٠٧هـ) : سار تيمورلنك بعد دخوله بغداد إلى آمد (ديار بكر) ، ولكن رجع منها ، ودخل بغداد ثانيةً عام ٨٠٣هـ ، ذلك أن رسله إلى الظاهر برقوق لاسترجاع أحمد بن أُويس قد قُتلت ، وجهّز حاكم مصر جيشاً ، وسلّمه لأحمد بن أُويس ، فسار به إلى بغداد ، ودخلها ، وتسلّم حكمها ، ولما عاد إليها تيمورلنك يوم عيد الأضحى عام ٨٠٣هـ فرّ منها أحمد إبن أُويس ثانيةً ، واتّجه إلى آسيا الصغرى ، ومعه قره يوسف ، وهناك بلغه خروج تيمورلنك إلى آسيا الصغرى ، فاستغلّ أحمد بن أُويس ذلك ، واتجه إلى بغداد واسترجع ملكه ، فاضطر تيمورلنك إلى العودة إليها فدخلها في ٨ رجب عام ٨٠٤هـ . ففرّ أحمد إلى حلب فاعتقل هناك ، وأُدخل السجن ، فهرب من سجنه ورجع إلى بغداد ، وملكها ، ولكنه اختلف مع صديقه قره يوسف الذي تمكّن فيها ، فخرج أحمد منها في ٥ محرم عام ٨٠٦هـ واتّجه إلى مصر ، واستقرّ قره يوسف في بغداد ، فرجع إليها تيمورلنك ، فخرج منها قره يوسف ، ولحق بأحمد بن أُويس في مصر ، فقبض عليهما السلطان المملوكي ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق الذي كان قد تفاهم مع الطاغية تيمورلنك ، وكتب بهما إلى تيمورلنك ليرى رأيه فيهما ، فأمر أن يُقيّد أحمد بن أُويس ، وأن يبعث به إليه ، وأن يقتل قره يوسف ويبعث برأسه إليه . غير أن تيمورلنك قد هلك في ١٧ شعبان ٨٠٧هـ قبل أن يصل كتابه إلى السلطان المملوكي ، فعفا عنهما السلطان ، ورجعا إلى العراق . وكان تيمورلنك رافضياً أيضاً ، نشأ على هذا هو وأبوه ، وكانت جرائمه التي ارتكبها في العراق والشام خاصة ضدّ المسلمين عامةً حسب دعواه ثأراً لحادثة كربلاء .

إذا كان المغول قد نشروا الرعب والفزع في نفوس أبناء المناطق التي

دخلوها بل التي اقتربوا منها لما كانوا يرتكبونه من جرائم، وما يُقيمونه من مجازر فإن اعتناقهم مذهب الرفض كـان أشدّ جـرماً وخـطراً حيث أصبح الـذين يحكمون على أساس هذا المذهب ويتعصّبون لـه يقفون وأعـداء الإسلام في خندقٍ واحدٍ ، وهذا ما نُلاحظه في استمرارية حروبهم للمسلمين قبل رُفضهم أولاً ثم بعد أخذهم بمبدأ الرفض ، وهذا ما قام به تيمورلنك الذي نشأ على هذا المذهب، وكذلك ما فعله الصفويون الذين تعصّبوا لمذهبهم حيث وقفوا إلى جانب الصليبيين البرتغاليين المستعمرين ضدّ بني عثمان الذين قاموا يردّون كيد الصليبيين ، ويذودون عن أمصار العالم الإسلامي ، واستمرّ هذا عـلى مدى التاريخ ، فما اختلف عهد رفضهم عن أيام وثنيتهم . أما المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، ولم يأخذوا بمبدأ الرفض كالقبيلة الذهبية (مغول الشمال) فقد خدموا الإسلام ، وعملوا على نشره ، ولم يقفوا إلا بجانب أهله .

عودة الدولة الجلائرية (٨٠٧ ـ ٨١٣هـ) : عـاد أحمد بن أُويس إلى بغداد بعد هلاك تيمورلنك عام ٨٠٧هـ ، وبعد أن أفرج عنه وعن صديقه قره يوسف السلطان المملوكي ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق ، وحكم العراق باسم المماليك ، ثم سار إلى تبريز فملكها على أنها عاصمة آبائه ، وتضـايق يوسف من سير أحمد إلى تبريز التي يعدّها ملكه ، فأخذ يوسف يعكر صفـو الأمن ، ويقطع الطريق ، وشكّل حوله مجموعةً يستخدمهـا في الإغارة عـلى المدن والأملاك ، ونمت هذه المجموعة ، وقوي أمرها ، فقـاتل بهـا أحمد بن أُويس ، وانتصر عليه ، ثم مسكه فأخذه أسيراً ، فعرضه على السيف وأجبره على كتابة صكٍ بولاية بغداد إلى ولده (شاه محمد) ابن قره يوسف ، وصكٍ آخر بولاية أذربيجان إلى ولده الثاني (بيربوداق) ، وما أن وقّع أحمد بن أُويس الصكّين حتى قتله ، وابنه علاء الدين .

دولة قره قوينلو (الخاروف الأسود) (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ) : بعد قتـل أحمد بن أُويس وابنه علاء الدين سار شاه محمد بن قره يوسف إلى بغداد ، وملكها عام ٨١٣هـ ، ويعود لأسرةٍ تركمانيةٍ حكمت أذربيجان ، وبرز منها

والده قره يوسف الذي غادر مقرّ حكمه فاراً من وجه تيمورلنك مع صديقه أحمد بن أويس ، ودخلا مدينة سيواس ، وخلّصاها من حاكمها الذي يتبع تيمورلنك ، فلما سار تيمورلنك إلى آسيا الصغرى تركاها وعادا إلى بغداد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ .

وصل شاه محمد إلى بغداد في شهر محرم من عام ٨١٤هـ ، وملكها ، ولما توفي أبو قره يوسف عام ٨٢٣هـ، ضمّ إليه الأجزاء التي كان يحكمها والده ، فاتسعت رقعة ملكه ، وكانت دولته تُعرف بـ (قره قوينلو) أي الخاروف الأسود ، لأن شاه محمد كان ينقش على علمه صورة خاروف أسود .

وفي ٨٣٦هـ ثار على شاه محمد أخوه (إسبان) الذي دخل بغداد على حين خرج منها أخوه (شاه محمد) إلى الموصل حيث قُتل عام ٨٣٧هـ .

وتوفي (إسبان) عام ٨٤٨هـ ، فتولّى أمر بغداد بعده أخوه الثاني (جهان شاه) واصطدم مع حسن الطويل (أوزون حسن) عام ٨٧٢هـ ، وقُتل (جهان شاه) ، وأخذ حسن الطويل جزءاً من أملاكه ، أما بغداد فقد تولّى أمرها حسن علي بن جهان شاه ، فسار إليه حسن الطويل ، وحاصره في مقرّ حكمه في شهر رجب عام ٨٧٢هـ ، واستطاع حسن علي أن يفرّ من بغداد ، وأن يلتجىء إلى جبل (ألوند) ، وقُتل هناك أو انتحر عام ٨٧٣هـ .

دولة آق قوينلو (الخاروف الأبيض) (٨٧٣ ـ ٩١٤هـ) : وهي أسرة تركمانية أيضاً ، استقرت بجهات ديار بكر ، خضع أميرها لتيمورلنك ، فأقطعه إمارة ديار بكر عام ٨٠٦هـ ، وبعد موت تيمورلنك اصطدم أمير هذه الأسرة مع قره يوسف أمير أذربيجان ، ومع أمير سيواس ، وانتصر عليهما . وبرز من هذه الأسرة حسن الطويل (أوزون حسن) الذي استطاع دخول بغداد عام ٨٧٣هـ ، واستلم السلطة فيها .

عُرفت هذه الدولة باسم (آق قوينلو) أي الخاروف الأبيض لأنّ حسن الطويل كان ينقش على علمه صورة خاروف أبيض .

تُوفّي حسن الطويل عام ٨٨٢هـ ، فخلفه ابنه حسين أكبر أنجاله ، ونازعه إخوته والأمراء حتى عام ٩٠٥هـ حيث استقرّ الأمر بعدها لمراد بن يعقوب بن حسن الطويل ، وكان آخر حكام هذه الأسرة ، حيث جاء الصفويون عام ٩١٤هـ ، واستولوا على العراق .

الأسرة الصفوية (٩١٤ - ٩٤١هـ) : تنتسب هذه الأسرة إلى صفي الدين الأردبيلي المتوفّى عام ٧٢٩هـ ،وقد طردت أسرة (الأق قيوينلو) حفيده الجنيد من أردبيل ، فالتجأ إلى أحد أمرائهم في ديار بكر وهو أوزون حسن الذي قرّبه وزوّجه أخته ، وقتل الجنيد في بعض معاركه ، وخلفه ابنه حيدر الذي تزوّج ابنة أوزون حسن ، وأخذ يجمع حوله التركمان ، ثم لم يلبث أن اختلف مع يعقوب بن أوزون حسن ، وقتل حيدر في المعركة عام ٨٩٤هـ ، وقام يعقوب بنقل أولاد حيدر من أردبيل إلى فارس ، ولكنهم رجعوا إلى موطنهم الأول في عهد الأمير رستم أحد أمراء أسرة (الأق قونيلي) والذي حكم من (٨٩٧ - ٩٠٢هـ) .

استطاع إسماعيل الابن الثالث لحيدر أن يجمع حوله الأعوان ، والتف حوله سبع قبائل تركمانية هي : اوستاغلو ، وشاملو ، ونكالو ، وبهارلو ، ذو القدر ، والقاجار ، والأفشار ، وعندما شعر بنفسه القوة أخذ ينازل أمراء (الأق قونيلي) ، فدخل مدينة باكو ، واستولى على إقليم شروان ، وانتصر على الأمير (ألوند) في معركة (شرور) على نهر (أراكس) عام ٩٠٧هـ ، ثم دخل العراق ، وتغلّب على الأمير مراد بن يعقوب ، ودخل بغداد في ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩١٤هـ ، ولما استسلم إليه مراد أعدمه ، وقضى على أسرته .

أخذ إسماعيل بمذهب الرفض ، وعمل على نشره ، وقد نجح نسبياً في جنوبي العراق لاستقرار سكان السواد ، ورغبتهم بالبقاء في مناطقهم ، ومُلائية السلطة كطبيعةٍ في سكان السهول على حين فشل في المناطق الجبلية ، وبين

القبائل ، هذا إضافةً إلى وجود بعض الأماكن التي اتخذها الرافضة في الجنوب مزاراتٍ لهم ، وأثاروا العاطفة والحماسة الدينية لدى العامة البسطاء .

توسّع إسماعيل غير أنه هُـزم أمام السلطان العثـماني سليم الأول عام ٩٢٠هـ في معركة (جالديران) ، ودخل العثمانيون عاصمته تبريز ، وأعلن ذو الفقار الكردي حاكم بغداد خضوعه للسلطان العثماني ، وانفصاله عن الدولة الصفوية ، وأرسل البعثات إلى استـانبول ، وخـطب للسلطان العثماني عـلى المنابر ، وضرب السكة باسمه .

توفي الشاه إسماعيل عام ٩٣٠هـ ، وخلفه ابنه (طهماسب) الصغـير الذي لا يتجاوز العاشرة من العمر ، فتولّى الوصاية عليه زعماء (القزلباش) رؤساء السادة الرافضة ، وما بلغ السادسة عشرة حتى أخذ ينفرد بالسلطة ، ويستعدّ لاستعادة العراق ، فجهّز جيشاً عام ٩٣٦هـ ، واتجه نحو بغـداد ، وسبقه إليها إخوة حاكمها ذي الفقار الكردي محمد ، وأحمد اللذين تآمرا على أخيهما طلباً للمنصب في ظلّ الحكم الصفوي ، فقتلاه ، ووصل (طهماسب) فاجتاح أرض العراق سريعاً ، وكافأ المتآمرين ، ووزّع حكم بغداد وبقية المدن على شخصياتٍ رافضيةٍ ، وعاد إلى مقرّ حكمه في أصفهان عام ٩٣٧م .

الدولة العثمانية (٩٤١ ـ ١٣٣٥هـ) : أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني جيشاً بقيادة إبراهيم باشا ، ففرّ من بغداد حاكمها من قبل الصفويين (محمد التكدلي) ، واتجه إلى البصرة حيث انضمّ إلى الجيش الصفوي هناك والـذي أخذ ينسحب من جنـوبي العراق ، وأعلن حـاكم البصرة راشد بن مغامس خضوعه للعثمانيين . وتمّ الاتفاق بـين المتنازعـين على وقف القتـال لينصرف كل فريقٍ إلى مشكلاته الثانية التي تنتظره أو إلى الجبهة الأخرى التي يُقاتل فيها أعداء آخرين .

أرسلت الدولة **العثمانية** حملةً بقيـادة إياس بـاشا عـام ٩٥٣هـ باتجـاه البصرة ، بعد أن شكّت بنوايا راشد بن مغامس ، واستطاعت هـذه الحملة

الانتصار عليه ، وأصبحت البصرة قاعدةً عثمانيةً ، وجرى الصلح بين العثمانيين في مدينة (أماسيا) عام ٩٦١هـ ، وساد الهدوء على الجبهة بين الدولتين .

وعندما فر (بايزيد) بن السلطان العثماني سليمان القانوني إلى الشاه (طهماسب) عام ٩٦٧هـ ، أعاده إليه بعد مفاوضاتٍ جرت بين الطرفين ، فدقّت عُنق بايزيد ، وأخذ طهماسب كميةً من الذهب مقابل ذلك .

ومات شاه الصفويين (طهماسب) عام ٩٨٤هـ ، وتولّى ابنه إسماعيل السلطة من بعده ، وقد عُرف باسم (إسماعيل الثاني) ، وحدثت فتنة بين أولاد (طهماسب) الأربعة إسماعيل مرزا ، وحيدر مرزا ، ومحمد مرزا ، وعباس ، وقتل إسماعيل الثاني ٩٨٦هـ ، واستفاد العثمانيون من هذا الضعف الذي أصاب الصفويين ، فأخذوا بلاد داغستان ، وتفليس ، وتبريز. وخلف إسماعيل الثاني أخوه باسم (محمد خدابنده) حتى عام ٩٩٥هـ ، ثم قام أخوه عباس باسم (عباس الكبير) ، وتنازل للعثمانيين عن تبريز ، وشروان ، وجورجيا ، ولورستان ، وأن يبقى (حيدر مرزا) رهينةً في استانبول ، حتى لا ينقض الشاه عهوده . ثم استردّ عباس الثاني تبريز في ٦ جمادى الأولى ١٠١٢هـ ، واتبعها باسترداد (اريفان) قاعدة أرمينيا ، وشروان ، وقارص .

ضعفت الدولة العثمانية ، وضعف معها حكمها في العراق فنشأت زعامات حاولت التفرّد بالسلطة في إقليمٍ أو مدينةٍ في إطار التبعية الإسمية للدولة العثمانية . فقد اشترى (آفراسياب) أحد كتاب الجند عام ١٠٠٥هـ حكم البصرة من واليها العثماني ، وأسّس فيها أسرة حكمتها حتى عام ١٠٧٤هـ ، كما انفرد أحد رؤساء الكتائب بحكم بغداد سنةً كاملةً عام ١٠١٣هـ ، وكذلك فقد تفرّد بالسلطة في بغداد بعد ذلك (بكرصوباشي) أحد ضباط الانكشارية عام ١٠٣١هـ ، فأرسلت إليه الدولة العثمانية جيشاً كبيراً لإخضاعه ، فلما رأى (بكرصوباشي) أنه لا قبل له بالجيش المتجه

نحوه ، وأن مصيره الهلاك ، بعث إلى الشاه عباس معلناً الخضوع له ، فوجد الشاه الفرصة مناسبةً له لضمّ العراق إليه فأرسل جيشاً كبيراً وأمره بالتوجّه إلى بغداد .

أدرك (بكرصوباشي) أن الخطر سيأتيه من الصفويين كما يأتيه من العثمانيين إن لم يكن بصورةٍ أكبر وأبشع ، ولا يمكن أن يتركوه حاكماً على بغداد ، لذا يجب أن يتفاهم مع العثمانيين ، واقتنع بذلك ، فراسل القائد العثماني القادم لتأديبه ، فأبدى القائد موافقته على بقاء (بكرصوباشي) حاكماً لبغداد مقابل أن يعترف بالخضوع التام والتبعية للسلطان العثماني ، واتفق الطرفان على الشروط ، ولم يحدث قتال . ولكن الشاه لم يعترف على هذا كله ، وإنما عدّ بغداد تابعةً له منذ أن أعلن (بكرصوباشي) هذا سابقاً ، وسواء عدل حاكم بغداد عن رأيه أم لم يعدل ، ووافق العثمانيون أم لم يوافقوا فبغداد تابعة للصفويين ، وشنّ الشاه عدة حملاتٍ على بغداد ردّت كلها ، وفشلت في مهمتها فدبّر مؤامرةً قضت على (بكرصوباشي) ، وفتحت المدينة أبوابها للصفويين ، وذلك بعد أن أغرى بعض القادة واستمالهم إليه .

بعد أن دخل الشاه عباس الكبير بغداد اتجهت أنظاره إلى البصرة التي كان يحكمها (أفراسياب) فأرسل إليه هدايا ذات قيمةٍ ، ومنحه ألقاباً عظيمةً ، ووعده بإبقائه حاكماً على البصرة ، وأن يبقى حكمها وراثياً في أولاده وأحفاده من بعده ، وأن يعفيه من الضرائب ، وأن يتصرّف بأمور المدينة كما يشاء ، وهذا مقابل الإعتراف بالتبعية الإسمية للصفويين ، وأن يصك العملة باسمه ، وأن يعقد أهل البصرة عمائمهم على طريقة الرافضة . غير أن (أفراسياب) قد طرد مبعوث الشاه قبل أن يلقاه ، ورفض مقابلته ، وصده صدوداً عظيماً . إذ كان (أفراسياب) يعرف أن مصيره العزل ، ونهايته القتل فإن عند الشاه تعقّب بغيض لمبدأ الرفض ، لذا فقد أخذ حاكم البصرة الاحتياط بعد ردّه ، فاتصل بالبرتغاليين أعداء الشاه ، فلبّوا النداء ، وأرسلوا

أسطولهم لدعم حاكم البصرة من خصومه الصفويين[1] . ولم يحدث قتال بين الطرفين ، إذا انسحب الصفويون وغادروا مواقعهم راجعين إلى بغداد ، حتى تخلّوا عن الكثير من أمتعتهم .

وتوفي الشاه عباس الكبير عام ١٠٣٨هـ ، وخلفه حفيده صفي الأول ، وأخذت دولة الصفويين تسير نحو الضعف ، فشنّ الخليفة العثماني حرباً على الصفويين عام ١٠٤٧هـ ، واستعاد بغداد عام ١٠٤٨هـ ، ثم جرى الصلح بين الطرفين عام ١٤٠٩هـ ، وحُدّدت الحدود بين الدولتين تبعاً للاتفاقية التي وُقّعت ، والتي كانت أساساً لحدود العراق مع إيران فيما بعد .

واستمرّ الوضع في العراق على هذه الحالة حتى عام ١١٤٤هـ حيث رجع العثمانيون إلى قتال الصفويين ، وتغلّبوا على الشاه طهماسب الثاني (١١٣٥ - ١١٤٤هـ) والذي طلب الصلح ، وتخلّى للعثمانيين عن همدان ، وتبريز ، وإقليم لورستان ، غير أن نادرخان ، والي الشاه على خراسان لم يقبل بهذه المعاهدة ، وحذّر الخليفة العثماني ، وطلب منه ردّ ما أخذه من الولايات ، وسار إلى أصفهان ، وقبض على الشاه طهماسب الثاني ، ووضع ابنه الطفل عباس الثالث شاهاً عام ١١٤٥هـ ، ونصّب نفسه وصياً عليه ، واتّجه لحصار الموصل وبغداد ، فلم يُفلح في دخولها ، وهُزم ، فانسحب ، ثم كرّر الهجوم ، فانتصر ، وقتل القائد العثماني عثمان باشا .

وأراد التفاهم مع شركه الهند الشرقية البريطانية لدعمه في احتلال البصرة ، ولكنه فشل ، وأراد متابعة القتال ضدّ العثمانيين ، ولكن تمرّداً قام ضدّه في فارس ، فاضطر إلى الانسحاب بعد أن اتفق مع والي بغداد العثماني

---

(١) كان الصفويون في بداية الأمر على صلة بالبرتغاليين الذين وصلوا إلى المنطقة كطلائع للصليبيين المستعمرين ، وما دام هؤلاء الصليبيون ضد المسلمين فالصفويون في خندقٍ واحد معهم ، فلما وصل الإنكليز إلى المنطقة يقومون بالدور نفسه الذي يقوم به البرتغاليون إلاّ أنهم يُنافسونهم للاستعمار والسيطرة على مراكز النفوذ ، عندها ترك الصفويون البرتغاليين ، وأعلنوا لهم العداوة ، واتجهوا إلى الإنكليز ما داموا هم الأقوى .

على أن تعود الولايات التي أخذها العثمانيون عام ١١٤٤هـ إلى الصفويين ، أي أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التوسع العثماني عام ١١٤٤هـ ، ولكن الخليفة رفض الاتفاقية التي تمّت بين الصفويين ووالي بغداد العثماني أحمد باشا . فأنهى نادر خان وضعه في فارس ، ورجع إلى الجبهة مع العثمانيين ، فقاتلهم وانتصر علي الجيش الذي يقوده عبد الله كوبريللي ، ودخل تفليس حاضرة بلاد الكرج ، واريفان حاضرة بلاد الأرمن . وعندها وافق الخليفة العثماني على الاتفاقية التي تمّت بين نادر خان وبين الوالي العثماني أحمد باشا . وانتصر نادر خان على الروس ، وهدّدهم بالاتفاق مع العثمانيين ، وشنّ حرباً على الدولة العثمانية ، وحاصر الموصل ، وقارص ، وانتصر على العثمانيين ، وعقد معهم معاهدةً في عام ١١٥٩هـ . وبعد نادر خان الذي قتل عام ١١٦٠هـ استطاع كريم خان أن يدخل البصرة عام ١١٨٩هـ بمساعدة الأسطول الإنكليزي ، وأن يخضع (مير مهنا) ، وقد تولّى أمر البصرة أخو كريم خان ، صادق خان ، ولكن الفرس لم يلبثوا أن انسحبوا منها بعد وفاة كريم خان .

وشنّ الفرس حرباً على العثمانيين ، وكانت العراق هدفهم وذلك عام ١٢٣٥هـ ، وأحرز الفرس بعض النجاح ، ولم تستطع الدولة العثمانية دعم واليها على بغداد داود باشا ، فاستنجدت بوالي مصر محمد علي باشا الذي تخلّص من هذه المهمة بحيلةٍ ، وانتشر مرض الكوليرا بين أفراد الجيش الفارسي ، واضطر قائده محمد علي مرزا أن يعقد معاهدةً مع العثمانيين عام ١٢٣٨هـ في مدينة أرضروم .

كان أمر انكلترا قد قوي في الشرق ، فسيطرت على منطقة الخليج العربي ، وأرادت أن تبسط نفوذها على منطقة البصرة والأهواز إذ لا تريد أن تكون هذه المنطقة بيد دولةٍ مسلمةٍ وخاصةً إن كانت على خلافٍ معها كالدولة العثمانية لأن ذلك يهدّد مصالحها حسب رأيها ، ويعيق تنفيذ مخططاتها الصليبية .

ساد الهدوء النسبي الجبهة العثمانية ـ الفارسية بعد معاهدة (أرخروم) عام ١٢٣٨هـ وذلك لضعف الدولتين العثمانية في الغرب والصفوية ومن جاء بعدها في الشرق إضافةً إلى أن الدولة العثمانية كانت قد اضطرت أن تولي ظهرها للجبهة الشرقية بعد أن فُتحت الجبهة الغربية على نطاقٍ واسعٍ حيث شنّت الدول الأوربية عليها حرباً صليبيةً مسعورةً ، فهي لم تُقاتلها كدولةٍ دخلت أوربا من جهة الجنوب الشرقي ، وفتحت بعض الأجزاء ، ولفّتها ضمن أراضيها ، ولم تُقاتلها كدولةٍ مسلمةٍ قويةٍ ، ودول أوربا دول نصرانية ، والحقد الصليبي يملأ نفوس الأوربيين ، ويشحنها باستمرارٍ رجال الكنيسة ، ليس ذلك فحسب ، وإنما تعلن الصليبية حربها ، ويستحث المستعمرون رجال الكنيسة دائماً على إثارة الحقد الدفين وشحن النفوس به لقتال الدولة العثمانية على أنها مركز الخلافة حيث تجمع المسلمين أو تعمل على ذلك ، وتتجه أنظار المسلمين نحوها ، وإن تهديمها سيفرط عقد المسلمين ، ويُشتِّت شملهم ، وعندها يمكن السيطرة على أمصارهم ، والتحكّم في شؤونها ، وتنفيذ المخططات الاستعمارية الصليبية .

كان من مصلحة الدول النصرانية أن نقف إلى جانب كل من يُعادي العثمانيين ودعمه ، لإضعافهم ، والإسراع في كسر شوكتهم لتهديم الخلافة ، وكانت الدولة الصفوية هي التي تُمثّل العداء في شرق دولة الخلافة لذا يجب دعمها ومدّ يد عون لها ، إضافةً إلى أنها تحمل اسم الإسلام فمساعدتها ومحالفتها ليس كدولةٍ معاديةٍ للعثمانيين فحسب وإنما في ذلك تفرقة للأمة المسلمة وتشتيت لشملها أيضاً ، لهذا كله وقفت الدول النصرانية بجانب الفرس ، وإن كان القتال يقع بين بعضهم وبين الفرس كجوار ، كالروس الذين يريدون التوسّع باستمرار ، وضمّ أجزاء إليهم ، وسيكون هذا على حساب الصفويين ومن جاء بعدهم إضافةً إلى أنه كانت من أهداف الحروب الروسية ضدّ الشيعة إبعادهم عن التفاهم مع العثمانيين ، وقد رأينا كيف أن الصفويين أو من حكم فارس بعدهم عندما يُفكّرون في أمر النزاع بروحٍ دينية

كانـوا يُهدّدون الروس بالتفاهم مـع العثمانيـين فيضطر الـروس إلى الخنوع مُباشرةً ، وتحقيق كل ما يُريده حكام الشيعة خوفاً من التحام المسلمين بعضهم مـع بعضٍ . ونتيجة لهذا فقد انتصر الفـرس بدعم الإنكليـز على عشـائر بختيار ، واستولوا على عربستان ، وفرّ تامر شيخ قبائل كلب من المنـطقة ، وتابع الفرس زحفهم نحو الغرب ، حتى فرّت قبيلة بني لام من سفوح جبال لورستان الغربية .

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الصفويون ومن قام بعدهم يحمل مبدأ الرفض كانوا بحاجةٍ إلى دعمٍ ضدّ العثمانيين وخاصةً إن كان من ناحية الغرب لإيقاعهم بين نارين ، ولم يكن خلافهم مع دولة الخلافة صراعاً سياسياً فحسب كما يحدث بين الدول أو الأمصار المتجاورة ، وإنما كان يحمل أيضاً الصراع العقيدي ، وهذا ما جعله عنيفاً ، وقد سبق أن قلنا أنه منذ أن فُرض مبدأ الرفض في أيام الدولة الإيلخانية أصبح أتباعه يقفون دائماً في الخندق المواجه للإسلام والذي يحتلّه أعداء المسلمين ، ولطالما أثاروا العامّة بشعارات (يالثارات الحسين) ، وإذا كان الإسـم يحمل الإسلام إلاّ أنه مجرد بعض المناسك والشعـائر أمـا العقيدة فأمر آخر ، ولهذا وجدت الدول التي حملت مبدأ الرفض في الأوربيين خير نصير لهم رغم عداوتهم لها ما دامت تحمل اسم الإسلام مهما كانت سمة هذا الاسم وحقيقته . إن الدول الأوربية النصرانية تقع إلى الغرب من الدولة العثمانية ، وهذا ما يُناسب الرافضة ، ثم وصل الأوربيون إلى الشرق ، عن طريق رأس الرجاء الصالح بالالتفـاف حول إفـريقية ، وتمـركزوا في شرقي إفريقية وفي جنوبي الجزيرة العربية ، في عدن ، ثم دخلوا مياه الخليج العربي فصاروا على مقربةٍ من ساحة الأحداث ، وعلى مقربةٍ من الدولة الشيعية لذا وجدت هذه الدولة أن التعاون والدعم قد جاءا إليها ، ولم يبق إلاّ مدّ اليد .

لقد تعاون الصفويون في بداية الأمر مع البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين الصليبيين أو لم يكن غيرهم من الأوربيين في الساحة ، وهم في

صراعٍ مريرٍ وعداوةٍ بيّنةٍ للعثمانيين ، فلما وُجد غيرهم ، وأقوى منهم ، وهم الإنكليز تركوا أصدقاء الأمس ، بل وأعلنوا عداوتهم لهم ، وحربهم لهم ، ووضعوا أيديهم بأيدي الإنكليز ما دامت المصلحة تتحقّق بصورةٍ أفضل ، فالإنكليز أكبر قوةً وأكثر عدداً من البرتغاليين ، واستمرّ التعاون .

ومع ضعف الدولة العثمانية أخذ ولاتها في العراق يستقلّون عن استانبول ، وكان سليمان باشا الكبير أول من استقل في ولاية بغداد ١١٦٣هـ ، واستمرّ استقلال الولاة إلى أيام داود بك الذي سيّرت إليه الدولة العثمانية (علي باشا اللاز) مع جيشٍ كبيرٍ دخل بغداد ، وقبض على داود بك ، وأرسله إلى استانبول عام ١٢٤٧هـ ، وجمع المماليك في القلعة وقتلهم جميعاً . وحكم علي باشا بغداد باسم الدولة العثمانية حتى عام ١٢٥٨هـ ، وتتابع الولاة من استانبول على بغداد ، وكان منهم مدحت باشا الذي جاء إلى بغداد عام ١٢٨٥هـ وبقي فيها ثلاث سنواتٍ .

أطماع انكلترا بجنوبي العراق

كانت انكلترا تطمع ليس بجنوبي العراق فحسب بل في أي نقطةٍ من نقاط العالم ، ولم يكن طمعها بجنوبي العراق من أجل تأمين طرق الهند كما يدّعي بعضهم ، ويُعدّد هذه الطرق ، وإنما رغبةً في تنفيذ سياستها الاستعمارية الصليبية ، وما انطلاقها إلى الهند وسيطرتها عليها إلا من باب تحقيق هذه السياسة التي ترتكز على حبّ السيطرة ، واستغلال الشعوب ، واستثمار الأرض ، وإذلال المسلمين والتحكّم بهم تشفّياً وحقداً ، وهذه السياسة باختصار يُطلق عليها استعمارية صليبية مشت عليها الدول الأوربية النصرانية .

عقدت انكلترا عام ١٠٣٢هـ اتفاقاً مع الشاه عباس الصفوي تعهّدت فيه بحماية التجارة في الخليج العربي ، ثم أسّست مركزاً تجارياً في البصرة عام ١٠٥٣هـ ، وجعلت وكيل هذا المركز قنصلاً لها عام ١١٧٧هـ ، وبذا أصبحت له صفة سياسية، كما تمّ تعيين ممثلٍ آخر لها في بغداد، وغدا هذان

الممثّلان يحرضان الولاة على الاستقلال ، ويُقدّمان لهم السلاح في سبيل هذه الغاية . فإذا ما استقل هؤلاء الولاة كانوا ضعافاً ويضطرون إلى طلب المساعدة ، فتسرع انكلترا ، وتمدّهم ، وتستطيع عندها أن تتصرّف بالبلاد كما تشاء، بل يُمكنها أن تعزل من تُريد ، وتعيّن من ترغب ، وربما تضرب الواحد منهم بالآخر كي تبقى سيدة الموقف ، وتُنفّذ سياستها ومخططاتها كما يحلو لها . وفي الوقت نفسه يكون استقلال هؤلاء سبباً في ضعف دولة الخلافة التي تسعى لإزالتها ، وتشنّ الحرب عليها باستمرارٍ لتحقيق هذه الغاية ، وربما عمدت انكلترا إلى تحريض هؤلاء الولاة للثورة ضدّ دولة الخلافة في سبيل إضعافها أيضاً ، وإضعافهم ، ويمكنها القيام بهذا التحريض ما دامت تُقدّم للولاة بعض ما يرغبون به ، كما يمكنها ابتلاعهم .

لقد غدت المراكز التجارية الإنكليزية في جنوبي العراق ، والقنصليات ذات سلطانٍ وقوةٍ حتى أصبح لهم حرس خاص من أبناء البلاد ومن الهنود .

ولم يكن الاهتمام بالتجارة و بالاستعمار والسياسية هدف المخططات الإنكليزية فحسب بل كان ما هو أكبر من ذلك ، لقد اشتغلت البعثات الإنكليزية التي أُرسلت إلى العراق بالتنقيب في (بابل) و (أور) لاكتشاف الآثار ، والحديث عن حضاراتٍ قديمةٍ ، وربط السكان بهذه الحضارات والتفاخر بها ، فتتعمّق جذور الانفصال في العالم الإسلامي بربط سكان كل إقليمٍ بحضارته السابقة ، فتترسّخ الإقليمية ، وتنشأ الوطنية ، والقومية ، وتزول الروابط الإسلامية ، وتتمزّق دولة الخلافة بل الأمة الإسلامية .

وجاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى مركز الخلافة في استانبول ، واتّبع سياسة (الجامعة الإسلامية) ، ورأى أن دور انكلترا قد أصبح خطيراً في كثيرٍ من المواقع ، ومنها جنوبي العراق ، ودولة الخلافة عاجزة إذ تكالبت دول الأرض عليها ، وعضّت عليها أوربا بأنيابها ، فأراد الاستفادة من المنافسات الاستعمارية القائمة بين الدول الصليبية ، غير أن كبريات هذه الدول قد تفاهم بعضها مع بعض حيث اتفقت انكلترا وفرنسا ، وحلّت مشكلاتها فيما بينها ،

وأثمر التفاهم عن اتفـاقيةٍ بينهـما عام ١٣٢٢هـ . وكـذلك تفـاهمت انكلترا وروسيا ، وعقدتا بينهما اتفاقيةً في ٢٣ رجب ١٣٢٥هـ (٣١ آب ١٩٠٧م) سوّيتا فيها خلافاتهما الاستعمارية في إيران ، وبلاد الأفغان والتبت .

وإذا كـانت أوربا قـد رمت الدولـة العثمانيـة عن قـوسٍ واحـدةٍ من الناحية الصليبية إلا أن هناك بعض المنافسات التي تُشكّـل بعض الخلل في اتفاق أوربا ، وخاصةً ألمانيا التي نهضت حديثاً والدول الأوروبية كـانت قد تقاسمت المناطق الاستعمارية فيما بينها ، وسارت ألمانيا في أول أمرها في سياسة عدم المنافسة الاستعمارية ، والاهتمام بالقضايا الأوربية فقط غير أن هذا لم يدم طويلاً ، إذ عدلت عن سياستها الأولى ، ووقفت تُطالب بمكانها اللائق بهـا تحت الشمس حسب اصطلاح قادتها ،فأراد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أن يستفيد من هذا فتقرّب من برلين ومنحها حقّ مدّ سكة حديد البصرة ، والتي تبدأ من قونية في آسيا الصغرى ، وكان توجّه ألمانيا نحو الشرق واسعاً إذ قوى أسطولهـا ، وزادت بضائعهـا التجاريـة التي أصبحت تُنافس البضـائع الإنكليـزيـة ، وهـذا مـا أغـاظ انكلترا فحقـدت عـلى السلطان ، فنشرت الشائعات ضدّه ، وحملت على ألمانيا فأخذت تقف في وجهها .

آثار النفوذ الإنكليزي في جنوبي العراق :

استطاعت انكلترا عن طريق مراكزها التجارية ، وقنصلياتها أن تتصل ببعض الرجال ، وتُثير فهم حبّ الزعامة ، ونخوة العصبية الجاهلية ، فنشأت دعوة الانفصال عن دولة الخلافـة ، وأغرت هؤلاء الـرجال بشهـوة المنصب فأبرزتهم ، وبشهوة الغريزة فأفسدتهم ، فانطلقوا يدعون إلى العصبية الجاهلية لتتجزّأ الأمة المسلمة ، وهذا ما تسعى إليه ليس انكلترا فحسب وإنما الصليبية عامةً ، ويعملون على تقليد أوربا لتُصاب الأمة بالهزيمة النفسية ، ويحلّ فيها الفساد ، فلا يرى المنادون إلا رغباتهم ، وينظرون بأعينهم فقط وقد عميت قلوبهم ، وأمّدت هؤلاء بالدعم المادي ليزدادوا عمىً على عمىً ، وهذا ما يعمل

له أعداء الإسلام .

إن ضعف الدولة العثمانية ، وتأخّرها في الناحية العلمية ، وتراجعها في الحروب ، وقيام الحركات الداخلية التي تُثيرها الدول الأوربية ، والفوضى والظلم الذي يسود الولايات نتيجة طمع الولاة وجشعهم ، وعدم إمكانية الأخذ على يدهم ، وإن قوة الدول الأوربية ، وتقدّمها العلمي ، وتطوّرها الصناعي ، وانتصارها في المعارك ، وانتشار الدعايات المعادية ضدّ الدولة العثمانية ، وإن الجهل ، وعدم النظر في الأمور من كل الجوانب ، كل هذا قد جعل غشاوةً على عيون أكثر الناس ، فانطلقوا يعملون على تهديم دولة الخلافة ، وتقطيع أوصالها ، وهذا لن يفيد إلا أعداء الإسلام الذين لا يعملون إلا له ، ولكن عمى القلوب التي في الصدور قد جعل التيار يسير في هذا الاتجاه ، ولم يكن هناك من يستطيع الوقوف في وجهه لطغيانه مع سيادة الجهل وعدم المعرفة ، وكان يجب العمل للإصلاح فهو خير من الهدم .

الأحزاب السرية :

التقت جماعات بعضها مع بعضٍ تتحدّث عن العصبية الجاهلية وخاصةً بعد أن سيطرت جمعية الاتحاد والترقي على مُقدّرات الدولة العثمانية عام ١٣٢٦هـ ، وكانت على صلة باليهود ، كما تضمّ أعداداً من رجالات يهود الدونمة ، ولا شكّ أن اليهود يُريدون تهديم الخلافة ، وتجزئتها ، وتقطيع أوصالها ، وخاصةً عندما رفض السلطان عبد الحميد التنازل لهم عن أي شيءٍ في فلسطين حتى ولو على شبرٍ رغم الإغراءات الكثيرة التي قدّموها له ولدولته في الوقت الذي كانت فيه الدولة بأشد الحاجة إلى الدعم . وليس أفضل من الدعوة إلى العصبيات الجاهلية ، فهذا ينادي ، بالعروبة ، وذاك بالطورانية (التركية)، وثالث بالفارسية، ورابع بالبربرية، وهكذا تصبح الأمة الإسلامية أمماً، وتتصارع بعضها مع بعض فليس كالعصبية القومية مجزئاً للأمة، وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد تأسّست في باريس عام ١٣١٦هـ، وأخذت تدعو إلى القومية الطورانية تحت تأثير الجهل واليهود معاً ، وكان ردّ الفعل

بالدعوة إلى القوميات الأخرى ، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون ، يجعلون من عصبيتهم صنماً يعبدونه من دون الله، ويخرقون له مفاخر وأمجاداً يظلّون عاكفين عليها ومُردّدين لها ، ويُجردّون بقية العصبيات من كل فخرٍ ، بل ينسبون لها كل خزيٍ ، وهكذا يقع الصدام . ولم يكن ردّ الفعل إلا عن جهلٍ أو تحت تأثيرٍ خارجيٍ من أعداء الإسلام حتى لنلاحظ أن أكثر الجمعيات التي تأسّست إنما نشأت في خارج ديار الإسلام ، ومعظمها قام في أوروبا وخاصةً في باريس ، الأمر الذي يضع اليد على المصدر .

وكان لمدحت باشا دور بارز في العراق ، إذ تولّى أمرها (١٢٨٥ ـ ١٢٨٨هـ) ، فبذر أفكاراً غريبةً تحت عنوان المطالبة بالدستور ، ومقاومة الاستبداد ، وذلك في ظل نشر الشائعات ضدّ الخلفاء ، وساعده على هذا ما كان يقع من ظلم ، وما كان ينتشر من فوضى ، ومن هزيمةٍ نفسيةٍ وُجدت من تراجع الدولة باستمرار ، وتقدّم أعدائها ، وتفشي الجهل بين أفراد الأمة المسلمة وتطوّر العلم عند الخصوم . وكان مدحت باشا على صلةٍ بالإنكليز واليهود إذ كانت علاقته المستمرة مع دزرائيلي رئيس وزراء انكلترا اليهودي ، وكان مدحت باشا كثيراً ما يُلمّح إلى ضرورة وصاية انكلترا على الدولة العثمانية ، ويدّعي بأنه لو حدث هذا فلن تستطيع دولة على اقتطاع أي جزءٍ من الخلافة العثمانية .

ونمت البذور التي ألقاها مدحت باشا ، وكان ورقها الشائعات التي بثّها النصارى واليهود ، ومن ورائهم دول أوربا عامةً ، وتشكّلت جمعيات وأحزاب كان قوامها النصارى وخاصةً في الشام ، والمُغفّلون ، وطلاب الزعامة والمناصب ، وكلها تتحرّك من خارج البلاد ، وبعض رجالها لا يدرون ، وهناك عصابة في باريس تمسك بخيوط الحركة ، وتُنظّم المؤتمرات ، وتُوزّع الأدوار ، ويتحرّك على الساحة المُغفّلون ، ومن أعماهم التطلّع إلى المركز والصدارة ، وبعض الذين يُنفّذون المخططات ، وهم على علم فيها وفيما يصنعون ، وهم النصارى .

حملت هذه الجمعيات تارةً صفة الأدب لتتستر بها ، وأحياناً الدعوة إلى المؤاخاة بين العرب والترك ، وثالثة إلى إحياء اللغة العربية . وكان أبرز هذه الجمعيات في المناطق العربية كلها جمعية العلوم والفنون وقد ظهرت في بيروت ١٢٦٤هـ ، وأسّسها بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي من نصارى الشام . والجمعية الشرقية التي أسّسها النصارى اليسوعيون عام ١٢٦٧هـ ، والجمعية العلمية السورية التي ضمّت بعض المسلمين السذج ، وبعض النصارى الذين ادّعو الإسلام ليُغرّروا بالمسلمين ، وكان من هؤلاء النصارى الذين أظهروا الإسلام أحمد فارس الشدياق ، كما ضمّت نصارى الجمعيتين السابقتين اللتين تدّعيان المنافسة فيما بينهما ، والجمعية السرية التي تأسّست في بيروت عام ١٢٩٨هـ ، ورابطة الوطن العربي التي أسّسها في باريس عام ١٣٢٢هـ النصراني نجيب عزوري ، وجمعية الإخاء العربي ـ العثماني ، والمنتدى الأدبي ، والجمعية القحطانية ، والجمعية العربية الفتاة ، وحزب اللامركزية، وجمعية العهد التي كانت تضمّ الضباط فقط . وجمعية العلم الأخضر وجميع الذين أسّسوها من العراق ، وحزب الحرية والائتلاف في البصرة ، ونادي الحرية والائتلاف في بغداد ، والجمعية الاصلاحية في البصرة . والاتحاد العثماني الذي أسسه اليهود ، والنادي البغدادي الذي أنشأه الشباب اليهودي ، والمحفل الكاثوليكي ، واتحاد الشبيبة الذي أسسه النصارى الأرثوذكس .

وكان رجال هذه المجموعات يضربون على وتر الاستبداد الذي لا بدّ من اتخاذه عند انتشار الفوضى ، وحالة الحرب التي لم تكن لتنقطع في أواخر عهد الدولة العثمانية إذ ما تكاد تنتهي من حربٍ مع دولةٍ أوربيةٍ حتى تشعلها دول أوربية أخرى بغية استنزاف قوة وطاقة بني عثمان ، ومن المعلوم أن الأحكام العرفية تُعلن في هذه الأيام في حالة نشوب حربٍ ، فكيف تكون الحالة عندما تتكالب دول كثيرة على دولةٍ ، وكلها تُكشّر عن أنيابها تريد التمزيق . وإضافةً إلى هذه الحروب فإن هناك حركات أخرى داخلية تقوم بها الأقليات تُثيرها وتحرّكها دول من الخارج، ألا يحق للحاكم في مثل هذه الظروف أن يُعلن

الأحكام العرفية ، وأن يُراقب كل تحرّك ، ويضغط على المشبوهين ، ومع هذا كله نرى هؤلاء المشبوهين كانوا يُهاجمون السلطة ، ويتحدّثون عن الاستبداد بكل حريةٍ مع أن أصابع الإتهام كثيراً ما تُشير إليهم ؟ وأرى أن الحرية كانت معطاةً أكثر من اللازم ، ولولا الشائعات التي تبثّها القوى النصرانية واليهودية لاتُّهم الحكم بإعطائه الحرية في وقتٍ لا تصحّ فيه الحرية أي لانقلب الأمر تماماً .

هذه المجموعات أو هؤلاء الرجال كانوا موزّعين ، ولم تكن صعوبة المواصلات لتقرّب بينهم ، ولا الأهداف البسيطة لتجمع بينهم ، وإنما زادهم حبّ الزعامة فرقةً ، وهذا أمر طبيعي ، ففي كل وقتٍ تنتشر فيه الفوضى يزداد فيه التفكير بالظهور ، ويزدحم على القمة من لم يكن ليفكر فيها أبداً في الأحوال العادية . وبصورةٍ عامةٍ هم بحاجةٍ إلى من يُوحّد صفوفهم ، ويقودهم ، ولن يستطيع ذلك إلاّ من كان ذا مكانةٍ مرموقةٍ أو منصب يسمو على تفكيرهم ، وسيكونون عامل إضعافٍ للدولة العثمانية إذا عصب الأمر أو عامل تمزيقٍ فعلاً ، وهذا ما حدث بعد أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، واشتركت فيها الدولة العثمانية ، إذ انضمّوا جميعاً إلى ثورة شريف مكة حسين بن علي التي كان لها دور كبير في تقدّم الإنكليز ، وتراجع العثمانيين . وكان الشريف يظن أنه سيُحقّق لشعبه العربي انتصارات بعد أن ضاق ذرعاً بالإصلاح أيام العثمانيين حتى كانت بينه وبينهم ضغائن دفينة . ولكن الإنكليز كانوا على مكرٍ شديدٍ ، فأخذوا ما يريدون ، وحالوا دون حصول العرب على أي شيءٍ سوى النكبات تتوالى عليهم ، ولم يدرك الشريف حسين هذا المكر إلاّ بعد أن انطلت عليه الحيلة ، ورأى الخداع والمكر ، وربما لم يكن يظنّ أن هناك بين البشر خداعاً بهذه الصورة لطيب نفسه وكرم أرومته .

ولمكانة الشريف الدينية ، وقوته الشخصية ، وكرم أصله انصاعوا له وأطاعوا ونفّذوا دورهم ، وهم لا يعرفون أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم لمصلحة أعدائهم ، ويُحطّمون أمتهم لترتفع أمم النصرانية عليها .

الحرب العالمية الأولى :

تفاقمت المنافسة بين الدول الأوربية حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى في ٦ رمضان ١٣٣٢هـ (٢٨ تموز ١٩١٤م) ، وانقسمت الدول الأوربية إلى قسمين : انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وإيطاليا ، ورومانيا؛ ، واليونان و . . . في جهةٍ ، وألمانيا ومعها النمسا وبلغاريا في جهةٍ ثانيةٍ ، وأي فريقٍ انتصر فإن موقفه لن يختلف عن الفريق الثاني بالنسبة إلى الدولة العثمانية أو بالأحرى دولة الخلافة . ومن هذا المنطلق فإن الخليفة محمد رشاد كان يرى الوقوف على الحياد حيث يُدرك ما تضمره الدول النصرانية تجاه دولته ، ويجب ألا يُعطيها المبرر للتدخّل في شؤونه ، أو تجزئة دولته من قبل المنتصر فيها إذا كانت دولته بجانب الطرف المنهزم . ولكن الخليفة لم يكن وقتها سوى صورةٍ ، أما المتسلّط فهم الاتحاديون ، وكانوا يرون غير ما يرى الخليفة إذ يعملون للوقوف بجانب المانيا لحسن الصلة بين الطرفين حيث كانت الدولة العثمانية قد اتجهت في أواخر أيامها إلى ألمانيا . هذا إضافةً إلى أن انكلترا، وفرنسا، وإيطاليا ، وروسيا يستعمرون أجزاء واسعةً من بلاد المسلمين؛ ، والكراهية تملأ نفوس الأمة ضدّ هؤلاء المستعمرين لما ارتكبوه من جرائم ، وما أظهروه من حقدٍ صليبيٍ ، فإن الوقوف بجانبهم سيثير المسلمين على الدولة العثمانية ، وستنهار مباشرةً ، على حين أن الوقوف إلى جانب الألمان سيجعل المسلمين يشدّون أزر دولتهم ، ويندفعون مخلصين في القتال ، ولم تكن ألمانيا قد برزت على حقيقها بعد ، ولم تصطدم مع المسلمين ، ولم تستعمر أرضاً لهم سوى ما حصلت عليه في تانزانيا والكاميرون من باب الترضية ، غير أن المسلمين يومذاك لم يسمعوا بهذا للبعد والجهل .

وهنا يجب ألا ننسى الأثر اليهودي في الاتحاديين ، وإن بعض كبارهم هم من يهود الدونمة واليهود وقفوا إلى جانب انكلترا ، واتفقوا مبدئياً على أن تُعطيهم فلسطين إن أحرزت النصر ، وكانوا يأملون بالنصر ، فإذا انضمّت الدولة العثمانية إلى انكلترا وحلفائها ، وحقّقوا النصر فلن يكون الحصول على

الحلم بالأمر السهل ، لذا فإنه من الأفضل لهم أن تقف الدولة العثمانية ضدّ انكلترا وحلفائها وستُهزم ، وتُجزّأ ، وسيحصل اليهود على حلمهم بسهولةٍ ، لذا فقد أوحوا إلى أعوانهم الاتحاديين بالضغط على الخليفة للوقوف ، إلى جانب ألمانيا ، ونتيجة هذا ، ونتيجة الصلة مع الألمان ، ونتيجة استعمار الحلفاء لكثيرٍ من الأمصار الإسلامية فقد قرّر الاتحاديون الوقوف إلى جانب الألمان ، وحملوا الخليفة على ذلك ، ومع هذا فقد تأخّر هذا الوقوف ، وهذا ما ضايق اليهود ، وحتى الصليبيون تضايقوا إذ يريدون الانقضاض على أمصارها المتباعدة ، وهذا يناقض ما كان يُظهره الحلفاء من الرغبة في انضمام العثمانيين لهم ، فهي رغبة غير صادقةٍ ، وإن صدّقها الكثير وانطلقوا من خلالها ، ولكن الأحداث تكذبها ، وتبرز الأمور على حقيقتها وإن كان عليها غطاء شفاف من الخداع .

لما تأخّر دخول الدولة العثمانية الحرب ادّعت روسيا في ٨ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م) أن القوات العثمانية قد ضربت بارجتها (برسيلاو) في البحر الأسود ، ولكن السلطات التركية لم تُبال بذلك الاتّهام ، ثم كرّرت الاتهام يوم عيد الأضحى أي بعد يومين ١٠ ذي الحج ١٣٣٢هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩١٤م) بضرب القوات العثمانية لبارجتها (غوين) في البحر الأسود أيضاً ، ولما لم ينتج عن ذلك شيء أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢ تشرين الثاني ١٩١٤م) ، وبعد ثلاثة أيامٍ أعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على الدولة العثمانية إذ كانت الاستعدادات قد تمّت لدخول الأراضي العثمانية .

الاحتلال الإنكليزي :

وصلت الحملة الإنكليزية من الهند بقيادة الجنرال (ديلامين) إلى مياه شطّ العرب يوم ١٥ ذي الحجة أي بعد إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية بيومٍ واحدٍ ، وفي اليوم الثاني من إعلان انكلترا الحرب على دولة الخلافة تمكّنت هذه الحملة من احتلال مدينة (الفاو) ثم احتلت البصرة في

٥ محرم ١٣٣٣هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤م). واستمرّت النجدات تصل إلى الحملة الإنكليزية . ثم احتلّت العمارة في ٢١ رجب ١٣٣٣هـ (٣ حزيران ١٩١٥م) والناصرية في ١٤ رمضان ١٣٣٣هـ (٢٥ تموز ١٩١٥م) ، كما سيطرت على القرنة والشعيبة . وبقيت حكومة الهند بل والحكومة الإنكليزية لا ترغب في التقدم نحو بغداد بل الاكتفاء بولاية البصرة . غير أن فشل جمال باشا بالهجوم على قناة السويس ، ونجاح المراسلات بين هنري مكماهون وشريف مكة الحسين بن علي قد شجّع الإنكليز على التقدّم فاحتلّوا الكوت في ٢٢ ذي القعدة ١٣٣٣هـ (٣٠ أيلول ١٩١٥م) غير أنهم توقّفوا جنوب بغداد بثلاثين كيلومتراً ، ثم تراجعوا إلى الكوت أمام العثمانيين الذين حاصروهم مدة ستة أشهرٍ كاملةٍ اضطروا بعدها إلى الاستسلام ، وتسلّم العثمانيون (١٣٣٠٩) أسيراً بين ضابطٍ وجنديٍ .

لم يُتابع العثمانيون تقدّمهم ومقاتلة الإنكليز الذين أخذوا بالاستعداد ، وعادوا إلى الهجوم في ١٦ ربيع أول ١٣٣٥هـ (٩ كانون الثاني ١٩١٧م) فوصلوا إلى بغداد ودخلوها في ١٨ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ (١١ آذار ١٩١٧م) فاستقبلتهم اليهود والنصارى في بغداد استقبالاً رائعاً مرحبين ، ويضعون أنفسهم تحت تصرّفهم ، وتابعوا تقدّمهم نحو الشمال غير أن العثمانيين قد تصدّوا لهم ، واستمرّت الحرب بين الطرفين بين مدٍّ وجزرٍ حتى أُعلنت هدنة مودروس في ٢٦ محرم عام ١٣٣٧هـ (٣١تشرين أول ١٩١٨م) حيث توقّف القتال .

أعلنت الهدنة والعثمانيون لا يزالون في الموصل فطلب القائد الإنكليزي من القائد العثماني علي إحسان الانسحاب من الموصل بناءً على بنود اتفاقية وقف القتال لكنه رفض ، بل وازداد تمسكاً حتى حاءته التعليمات من حكومته ، فاضطر إلى الانسحاب من الموصل التي دخلتها القوات الإنكليزية .

وكان الإنكليز قد خدعوا شريف مكة بالمراسلة التي تمّت بينه وبين هنري مكماهون في القاهرة ، وأعلن شريف مكة الثورة على العثمانيين في ٩ شعبان

١٣٣٤هـ (١٠ حزيران ١٩١٦م) ، وتقدّمت قواته نحو الشمال ، ودخلت مع القوات الإنكليزية بلاد الشام في الوقت الذي نزلت قوات فرنسية على الساحل ، وكان لهذه الثورة أثرها الكبير إذ أنها قدّمت مساعداتٍ فعالةً للحلفاء في التقدّم وإحراز النصر ، وأثارت رجالات العرب على العثمانيين فأوهنوا شأنهم ، وحالت دون نجاح دعوة الخليفة إلى المسلمين بالثورة على حُكّامهم من المستعمرين ، حيث كان الإنكليز والفرنسيون يُسيطرون على كثيرٍ من أمصار المسلمين وأقاليمهم ، إذ أن شريف مكة نشر دعوة للمسلمين بالثورة على الترك ومساندة الحلفاء ، ولمكانة شريف مكة ، وأهمية البلد التي يحكمها فقد لقيت دعوته استجابةً لدى المسلمين ، وأبطلت أثر دعوة الخليفة .

وما أن أحسّ الحلفاء بإمكانية النصر ، وشعرت فرنسا بنجاح محادثات الحسين ـ مكماهون حتى اضطربت؛ ، فتداعى الإنكليز والفرنسيون إلى عقد اتفاقية سايكس ـ بيكو حيث تقاسموا فيما بينهم بلاد الشام والعراق وذلك في ١٣ ـ ١٥ رجب ١٣٣٤هـ (١٥ ـ ١٧ أيار ١٩١٦م) ، وكانت ولايتا بغداد والبصرة ضمن النفوذ الإنكليزي ، أما ولاية الموصل فقد وضعت تحت النفوذ الفرنسي وهذا فيما يخصّ العراق . ولكن بعد مناوراتٍ سياسيةٍ ، وإغراءاتٍ لفرنسا من قبل انكلترا أخذت ولاية الموصل من فرنسا ، وأُعطيت لانكلترا .

وما أن أحسّ اليهود باقتراب نصر الحلفاء النهائي حتى سارعوا إلى انكلترا يُطالبونها بتنفيذ ما وعدت ، فأبدى وزير خارجية انكلترا الموافقة ، ووعدهم في ١٧ محرم ١٣٣٦هـ (٢ تشرين الثاني ١٩١٧م) بإقامة دولة لهم في فلسطين .

الانتداب :

انتهت الحرب العالمية الأولى في ٧ صفر ١٣٣٧هـ (١١ تشرين الثاني ١٩١٨م) بطلب ألمانيا الهدنة وكانت العراق قد وُضعت ضمن مناطق النفوذ الإنكليزي ضمن الاتفاقات التي تمّت بين انكلترا وفرنسا ، في اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وبتنازل فرنسا لانكلترا عن ولاية الموصل . وتداعت الدول المنتصرة إلى باريس لوضع شروط الصلح ، وتوزيع الغنائم فيما بينها .

كان رئيس الولايات المتحدة (ولسون) قد تقدّم بشروطه الأربعة عشر والتي منها تأسيس عصبة الأمم ، وحقّ تقرير المصير ، وتألّفت عصبة الأمم في ٣٠ رمضان ١٣٣٧هـ (٢٨ حزيران ١٩١٩م) ، وحدثت الخلافات وخاصة عندما علم الرئيس الأمريكي باتفاقية سايكس ـ بيكو . ووجد نوع جديد عُرف باسم (الانتداب) وهو يخصّ الأمصار التي سُلخت من الخلافة العثمانية .

وتشكّلت لجنة الاستفتاء وزارت سوريا والعراق ، وقدمت تقريرها في ٢ ذي الحجة ١٣٣٧هـ ٢٨ آب ١٩١٩م) ومما جاء فيها أنها (اقترحت أن يُطبّق نظام الانتداب من نوع (أ) على سوريا وفلسطين والعراق ، على أن يكون لمدةٍ محدودةٍ ، وأن يُعامل العراق كوحدة ، وأن تُحافظ سوريا على وحدتها أي سوريا ولبنان وفلسطين ، فيكون شكل الحكومة في كلا القطرين ملكياً دستورياً ، ويكون الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا ، أما العراق فيختار مليكه بالاستفتاء ، وأن يُسار بالقطرين المذكورين نحو الاستقلال بالسرعة التي تسمح بها الأحوال ، وأن يُعدّل المنهاج الصهيوني المتطرّف الموضوع لفلسطين فلا (يعني جعل فلسطين دولةً يهوديةً لأن تسعة أعشار سكان فلسطين يرفضون المنهاج الصهيوني رفضاً باتاً) .

بقي تقرير اللجنة سرياً حتى عام ١٣٤١ ، ولم يشأ رئيس الولايات المتحدة نشره من باب مُجاملة انكلترا وفرنسا . ولكن رأى أنه يسير في طريق مختلفة عن طريق انكلترا ولذا فقد انسحب من مجلس الحلفاء . وربما كان هذا فرصةً لهم فاجتمعوا مباشرة في سان ريمو في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) وقرّروا تجزئة الشام وانتداب فرنسا على ما أسموه (سوريا ولبنان) ، وانتداب انكلترا على ما أسموه (فلسطين والأردن) ، وكانت العراق أيضاً قد وضعت تحت الانتداب الانكليزي في هذا المؤتمر . وعندما اجتمع المسلمون في بغداد ودوّنوا مطالب ترفع إلى الحلفاء يُطالبون فيها بإنشاء دولة لهم من شمال الموصل إلى الخليج العربي يحكمها عربي مسلم رفض اليهود

والنصارى التوقيع ، وطلبوا أن يكونوا رعايا بريطانيين .

الثورات :

كان الناس في معظم المناطق يشكون من قبل من الحكم العثماني ، ويتألمون من انتشار الفوضى ، ووجود الرشوة ، ووقع الظلم أحياناً ، وسيطرة العشائرية ، ولكنهم أصبحوا الآن أكثر شكايةً ، وأشدّ تألّماً . كان المرء ينتقد ولا يستطيع أحد أن يُواجهه فيقول : هذا حرام ، وهذا حلال ، هذا يصحّ فعله وهذا لا يجوز عمله ، ويتكلّم الخطباء في الجوامع فيجد الإنسان شيئاً من التعزية لنفسه ، أو ما يُخفّف عنه بعض ما يُعاني ، أما الآن فقد أصبح الوضع يختلف اختلافاً بيّناً لاختلاف العقيدة التي تُعدّ مصدر كل جوانب الحياة . لم تكن من قبل مجاهرة في بيع الخمور أو تعاطيها ، فلما جاء الإنكليز أخذوا يعبّون منها عبّاً ، فاستغرب الناس هذا الأمر وأنكروه ، وكذلك أعمال الزنا ، والسير دون حشمةٍ ، والاختلاط ، والميوعة في الطرقات فأثر ذلك كله في المجتمع ، وتقزّزوا ، وربما كان هذا موجوداً من قبل الإنكليز ولكن بالخفاء ولا يمكن المجاهرة به أبداً ، وكذلك كل المعاصي ، فالبيئة كانت لا تزال سليمةً بالفطرة وإن شذّ بعض أبنائها .

ومع هذا كله كان عند الإنكليز نظرة استعلاءٍ ، فهم الذين اقتحموا الديار بالقوة ، ودخلوا البلاد بالسيف ، وجاء منتدبين لرفع مستوى السكان ، والأخذ بأيديهم نحو الاستقلال ـ حسب زعمهم أو حسب ما ذكره المستعمرون ولجان الاستفتاء ـ بينما كان العراقيون ينظرون نظرة ازدراء لهم ولا يأبهون لهم ، وقد رأوا منهم ، ومن تصرفاتهم ، ومن أخلاقهم ما رأوا ، لذا فنظرة الإنكليز الاستعمارية قد أثارت ضمائر العراقيين ، وحرّكت عندهم روح المقاومة والثورة ، فهم الأعلون بعقيدتهم ، وبأخلاقهم .

وهناك نقطة أخرى يجب أن لا نغفلها ، وهي أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا يعيشون بين المسلمين منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويشعرون بالأمن والطمأنينة ، وحسن المعاملة ، وكرم الخلق ، وكان المسلمون ينظرون إلى أهل

الكتـاب هؤلاء أنهم في ذمتهم ، لذا يجب مـداراتهم والإحسان إليهم ، ولم يُقصرّوا في هذا الجانب ، فلما جاء المستعمرون ابتهج أهل الكتاب ممن يعيش في البلاد ، واستقبلوا الغزاة بالترحاب ، وأعلنوا خضـوعهم لهم ، وأنهم في خـدمتهم ، وحسب أوامرهم ، وبـالمقابـل فإن الإنكليـز أكـرمـوا إخـوانهم النصارى ، وأعوانهم اليهود ، وقدّموهم في كل محفلٍ ، ومنحوهم المناصب ، وأعطوهم الإدارات ، فكانوا لهم مقابل ذلك أجراء وعيوناً على أبناء البلاد من المسلمين . وصحا المسلمون من غفلتهم ، وانتبهوا إلى أن الحرب صليبية ، وأنهم كانوا على جهالةٍ فندم أكثرهم على ما بـدر منهم ، وتولّـد في نفوسهم كراهية الإنكليز ، والرغبة في الانتقام ، والثورة ضدّ الغزاة المعتدين .

قرّرت جماعة في النجف قتل (مارشال) قـائد القـوات الإنكليزيـة ، فانطلقـوا نحو مقرّه يلبسون لبـاس الشرطة ، وبيـد أحدهم رسـالة بـاسم (مارشال) ، وطلبوا مقابلته بسرعةٍ، فرفض الحرس، فقتلوهم ، ودخلوا ، ثم توزّعوا داخل المقرّ ، واتجه ثلاثة منهم إلى غرفة القائد الذي أحسّ بالخطر ، فتناول مسدسه من تحت وسادته ، فعاجله أحدهم وهو سعيد العامري بطلقةٍ ناريةٍ أبقته في مكانه ، كما قتلوا طبيبه الذي كان بجانبه ، ودارت معركة جُرح فيها جميع من دخل ، ولكنهم خرجوا بجراحهم ، ونجوا . فجاء حاكم جديد للمدينة وهو (بلفور) فقام بحصار المدينة ، وأعلن أن شرط فكّ الحصار هو تسليم الثائرين دون قيدٍ أو شرطٍ ، وتسليم جميع الأسلحة الموجودة في النجف إلى الحكومة الإنكليزية ، ودفـع غرامـةٍ عربيـةٍ . واضطر الأهـالي أخيراً إلى الاستسلام فأُعدم اثنا عشر منهم ، ونُفي إلى الهند مائة وسبعة أشخـاص . وكانت تلك الحركة يوم ٧ جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ (٢١ آذار ١٩١٨م) .

وفي إقليم زاخـو في الشـمال قتـل النقيب (بعسن) الـذي أراد رفـع النصارى فوق المسلمين ، وذلك في ٤ رجب ١٣٣٧هـ (٤ نيسان ١٩١٩م) .

وقُتل الحاكم الإنكليزي أيضاً في (العمادية) في ٣٠ رمضان ١٣٣٧هـ

(٢٨ حزيران ١٩١٩م) . وتكرّرت أمثال هذه الحوادث وخاصةً بين العشائر سواء في الشمال في منطقة الأكراد أم في الجنوب في لواء المنتفق . ولم تكن بقية المناطق أقلّ هياجاً وإنما كان الأهالي يقومون باحتفالاتٍ دينيةٍ بمناسبةٍ من المناسبات ، ويلقون الخطب الحماسية ، والأشعار التي تزيد من هياج الشعب واستعلائه على المستعمرين ، وحقده على الباغين . وعمل المستعمرون على منع هذه الاحتفالات .

وفي إحدى المناسبات ألقى عيسى حمدي قصيدةً حماسيةً ألهبت مشاعر السكان ، فألقت السلطة الإنكليزية القبض عليه ونفته إلى البصرة ، فتداعى الناس ، وشكّلوا مجموعةً تتألّف من خمسة عشر رجلاً لمفاوضة السلطة . وطلبوا مُقابلة الحاكم فوعدهم يوم ١٤ رمضان ١٣٣٨هـ (٢ حزيران ١٩٢٠م) وتمّ اللقاء فطالب المندوبون بعقد مؤتمرٍ وطنيٍ يُمثّل الأمة ، يقوم السكان بانتخابه ، ويكون هذا المجلس المخطط الأساسي للدولة ، وهو الذي يُحدّد العلاقة بين العراق وبريطانيا ، كما طالب الوفد بمنح الحريات العامة ومنها الصحافة والمطبوعات ، وحرية البريد .

وأصدرت السلطات البريطانية منشوراً يحمل رقم (٧٠) تاريخ الأول من شوال ١٣٣٨هـ (١٧ حزيران ١٩٢٠م) وقد جاء في بعض فقراته .

بما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد تقرّرت وكالتها في شأن العراق فنتوقّع أن تعمل على :

١ ـ جعل العراق حكومةً مستقلةً ، تضمن استقلالها عصبة الأمم .
٢ ـ تكليف الحكومة البريطانية بالمسؤولية عن حفظ الأمن الداخلي ، والأمن الخارجي .
٣ ـ وضع قانون أساسي ، ويُستشار السكان في أسلوب وضعه . مع ملاحظة حقوق الأجناس المختلفة الموجودة في العراق .

إن وكالة الحكومة البريطانية تقضي بأن تسير بالعراق نحو التقدّم حتى

تستطيع السير بنفسها ، وعندها تنتهي مدة الوكالة المناطة بحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى .

ويُكلّف (برسي كوكس) الذي سيتقلّد منصب الممثل العام لحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بعد انتهاء مدة الإدارة العسكرية في الخريف القادم ، وسيكون من مهمة (برسي كوكس) :

١ - تشكيل مجلسٍ للشورى برئاسة عربي .
٢ - انتخاب مؤتمرٍ عراقي يُمثّل جميع أهالي العراق، وتكون مُهمّته وضع القانون الأساسي .

كانت تحدث لقاءات واجتماعات في بغداد ، وقد يكون بعضها مع رجال السلطات البريطانية وكانت روح المقاومة تغلي في نفوس رجال القبائل حتى اندلعت الثورة في ١٤ شوال ١٣٣٨هـ (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) عندما استدعى نائب حاكم الرميثة البريطاني (هيات) شيخ قبائل بني حجيم الشيخ شعلان المعروف بأبي الجون ليسأله عن بعض الأحداث وأسبابها . . . فلما جاء الشيخ أسمع (هيات) ما لم يكن يتوقّعه إذا اشتدّ عليه وعنّفه فأمر نائب الحاكم باعتقال الشيخ ، ونقله إلى الديوانية مُكبّلاً بحجّة أن عليه بعض الضرائب الواجب دفعها ، غير أن قبيلة بني حجيم هاجمت مقرّ الحاكم ، وخلّصت شيخها بالقوة ، وفتكت بحرسه ، وكانت هذه الحادثة الشرارة الأولى التي اندلعت منها الثورة العراقية ، إذ أرسل حاكم الديوانية (ديلي) كوكبةً لدعم حامية الرميثة ، فلم تصل إلى الرميثة ، ولم ترجع إلى الديوانية إلا بعد عشرين يوماً ، وقد فقدت الكثير من رجالها .

وتجمّعت حاميات المناطق القريبة من الكوفة في حاضرتهم الكوفة ليقوّي بعضهم بعضاً ، فهاجمهم رجال القبائل ، وألقوا الحصار عليهم مدة ثلاثة أشهرٍ .

استولى رجال القبائل على قرية الكفل ، وجاءت قوات من الحلّة

لتخليص (الكفل) ، فقتل الثوار من القوات الاستعمارية مائةً وثمانين ، وأسروا مائةً وستين ، وجرحوا ستين ، واستولوا على بعض المعدات العسكرية والذخائر كان منها مدفعان ، أغرقوا بهما الباخرة (فلاي) في شط الكوفة . كما سيطر رجال القبائل على المسيب ، وكربلاء ، والنجف ، وسدّة الهندية بعد أن أخلاها الجيش الإنكليزي ، وأقام رجال القبائل حكوماتٍ في هذه المدن .

كانت الثورة قد عمّت منطقة الفرات الأوسط ، حيث احتلّ رجال القبائل الكثير من مدنه ، وأقاموا فيها سلطاتٍ محليةً لحفظ الأمن ، وقد نجحت في مهمتها ، ومن الفرات الأوسط انتقلت الثورة إلى بعقوبة ، وديالي ، وأربيل ، وكركوك ، وخانقين ، وأسّسوا فيها حكوماتٍ محليةً ، كما قتل رجال قبيلة الزوبع) الضابط الإنكليزي المقدم (لجمن) بين بغداد والفلوجة ، فاندلعت الثورة هناك ووصلت إلى بلدة (عانة) .

وأخذت النجدات الإنكليزية تصل إلى العراق حتى وصل عدد القوات الغازية إلى (١٣٣) ألفاً ، وبدأت هذه القوات تستعيد المدن التي سيطر عليها الثوار وأقاموا فيها حكوماتٍ محليةً ، حتى انتهت الثورة . وبعد ثلاثة أشهرٍ من انتهائها أُعلن العفو عن الذين اشتركوا فيها جميعاً .

الإدارة :

بعد أن احتلّ الإنكليز بغداد في ١٨ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ (١١ آذار ١٩١٧م) صدرت تعليمات إدارية جديدة ، ومما جاء في هذه التعليمات :

١ ـ تُدار المناطق المحتلّة من قبل الحكومة البريطانية ، وليس من قبل حكومة الهند .
٢ ـ تبقى البصرة ، والناصرية ، وشطّ الحي ، وبدرة بحدودها الغربية والشمالية تحت الإدارة البريطانية بصورةٍ دائمةٍ .
٣ ـ تُدار بغداد من قبل مملكةٍ عربيةٍ يُديرها حاكم أو حكومة من أهلها تحت حمايةٍ بريطانيةٍ في كل شيءٍ إلا الاسم (فإنه يبقى عربياً) ، وبطبيعة الحال

سوف لا تكون لها علاقة مع الدول الأجنبية التي يجب على قناصلها أن يُقدّموا أوراق أعتمادهم إلى الحكومة البريطانية .

٤ ـ تُدار بغداد خلف ستار عربي ، كإقليمٍ عربي قدر الاستطاعة ، بوساطة وكالةٍ وطنيةٍ وفقاً للقوانين والشرائع الموجودة نخص بالذكر منها :

أ ـ لا يُطبّق القانون العراقي (الموضوع للبصرة) بل تبقى القوانين المحلية مرعيةً بموادها وموظفيها ، على أن تحلّ فيها كلمة العربي محلّ كلمة العثماني .

ب ـ يُطبّق التحوير نفسه فيما يتعلّق بالإدارة التنفيذية والإدارية ، وأن تبعث الإدارة القبلية والمجالس الإدارية والبلدية وغيرها من جديد .

حـ ـ لا يمسّ نظام جباية الأرض في الوقت الحاضر .

د ـ لا يُستخدم الهنود في فروع الإدارة جميعها بصورةٍ مُطلقةٍ لأن ذلك يُخالف المبادىء المقررة أعلاه ولا يستخدم أي آسيوي خارجي إلا من كان عربياً أو فارسياً في الأصل ، أو كان مقيماً في بغداد ، ويُطبّق هذا الأمر على ولاية البصرة ما أمكن .

٥ ـ في حالة ما إذا كانت البصرة لم تلحق ببغداد ، فإن رئيس الإدارة العراقية العام يكون المندوب السامي المقيم في بغداد ، وتكون البصرة تحت إدارة حاكمٍ يرتبط به . أما إذا أُلحقت بها فإن رئيس الإدارة العراقية يُسمّى آنئذٍ (حاكم البصرة ومندوب العراق السامي) على أن يكون له مقرّ اسمي في البصرة ، أما إقامته الدائمة فتكون بغداد ، ويكون له وكيل حاكم في البصرة ، ووكيل مندوب في بغداد ينوبان منابه في غيابه .

٦ ـ ينتخب الموظفون من خليطٍ من موظفي الخدمة الإنكليزية والسودانية وسوريا ولبنان ، على أن يكون ذلك وفق الأصول المرعية في تبادل الموظفين . أما إذا احتيج إلى خدمات ضباطٍ بريطانيين من الخدمة الهندية المدنية فيُعارون مؤقتاً وفق أنظمة الخدمة الخارجية . أما الذين في الخدمة فيسمح لهم بالتطوع للخدمة على أن ينقلوا إليها نهائياً .

٧ ـ تكون أماكن الشيعة المقدسة إدارةً مستقلةً غير خاضعة للهيمنة البريطانية المباشرة على أن يُنتبه إلى عدم إدخال أراضي سقي أو قابلة للسقي فيها .

٨ ـ تكون مراقبة أعمال الري والملاحة وصيانة الأنهار للولايتين (بغداد والبصرة) تحت إدارةٍ بريطانيةٍ واحدةٍ .

٩ ـ تُدار الكويت والبلاد العربية الساحلية بما فيها عُمان من قبل البصرة .

١٠ ـ تنقل إدارة عدن وحضرموت إلى وزارة الخارجية البريطانية .

١١ ـ يكون جنوبي إيران (عربستان وفارس) منطقة نفوذ للحكومة الهندية .

١٢ ـ ومن الأهمية بمكان أن تكون الإدارة في بغداد منطبقةً منذ البدء على المبادىء المذكورة أعلاه. وقبل قرار مجلس الحلفاء الأعلى في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) بفرض الانتداب الإنكليزي على العراق بيومٍ واحدٍ ، تمّ الاتفاق بين انكلترا وفرنسا على جعل ولاية الموصل تحت النفوذ الإنكليزي بعد أن كانت تحت النفوذ الفرنسي حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وعندئذ أخذ يُفكّر وزير الخارجية البريطانية (كرزون) في كيفية إدارة العراق ، وعندما جاءت التعليمات التي صدرت بالمنشور رقم (٧٠) تاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٠م (الأول من شوال ١٣٣٨هـ) الذي سبق أن ذكرناه .

مع فيصل بن الحسين :

بعد الاتفاق الذي تمّ بين الحسين بن علي شريف مكة وهنري مكماهون مُمثّل الحكومة البريطانية على انفصال البلدان العربية في آسيا عن الدولة العثمانية ، واستقلالها ، وتعهّد الحكومة البريطانية بذلك ، واستلام الحسين ملك تلك الدولة . عادت انكلترا فنكثت بكل الوعود التي قطعتها على نفسها للشريف حسين ولغيره فاتفقت مع فرنسا وبعلم من روسيا على تقسيم البلدان العربية ، وإخضاعها للدولتين العظميين الاستعماريتين انكلترا ، وفرنسا (اتفاقية سايكس ـ بيكو) ، ثم عادتا فأكّدتا هذه الاتفاقية مع شيءٍ من التعديل في مؤتمرٍ لمجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو .

ظهرت انكلترا على حقيقتها بنكثها لوعودها ، وخيانتها لأصدقائها ، والنظر إلى مصالحها فقط ، والسير بسياسةٍ صليبية دون الاهتمام بأي نقد ، والضرب بكل القيم في سبيل تحقيق منافعها ، وبذا سقطت أسهمها لدى كثيرٍ من أصدقائها من رجالات العرب الذين كانوا على صلةٍ معها منذ وقتٍ ليس بالقصير ، وكانت موضع نقدٍ من كثيرٍ من ساستها ورجالاتها أيضاً .

رغبت انكلترا أن تبدو مُخلصةً لأصدقائها ، عارفةً جهودهم ، مُقدّرةً مصالحهم وذلك بإعطائهم بعض المراكز التي يطمحون لها ، والواقع أن هذا لم يكن أبداً ، وإن وجد فهو لمصلحتها لا لمصالحهم وسعياً وراء منافعها لا خدمةً لهم حيث رأت أنها لن تجد أكثر من أبناء الحسين بن علي نفوذاً ، بل لا يتقدم أحد عليهم وذلك لمكانتهم الدينية سواء أكان ذلك من حيث الأرومة فهم شرفاء أم من حيث المركز فهم على ولاية مكّة ، وفي الوقت نفسه فهم مع ذلك كله لا يدعون إلى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيدهم في خلافةٍ ، وهو ما تخشاه انكلترا وسائر الدول النصرانية ، وإنما يعملون إلى وحدة بعض الأقاليم العربية في دولةٍ يتسلّمون حكمها ، وهو أمر لا يُخشى منه كثيراً ، ولا يُشكّل خطراً على النصرانية حسب دعوى سدنتها . هذا إضافةً إلى أن الأقاليم التي كانوا يُفكّرون بوحدتها قد انتهى أمرها ، وأصبحت أجزاء ، ولم يعد بالإمكان جمعها في تلك المرحلة لأن ذلك مرتبط بالدول الكبرى صاحبة القوة ، وكان أهل تلك الأقاليم على مرحلةٍ كبيرةٍ من الضعف والجهل والتشتّت حيث لا يمكنهم عمل شيءٍ. كما أن الحسين بن علي وأبناؤه قد خذلوا من قبل أصدقائهم الذين لم يصحّ بالأصل موالاتهم ، إذ نُهينا عن ذلك ، وأصبح الحسين بن علي وأولاده ، يرضون بالقليل ، ويرون فيه شيئاً من النصر ، وربما كانوا يعدّون ذلك رضىً مرحلياً حتى يتقوّوا فينتقلون بعدها إلى مرحلةٍ ثانيةٍ .

كان فيصل بن الحسين ثالث الأبناء قد نُصّب ملكاً على سوريا ، الجزء الأكبر من بلاد الشام ، لكنه لم يلبث أن طُرد منها في ١٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ

(٢٥ تموز ١٩٢٠م) ، ودخل الفرنسيون دمشق .

ظنّ الإنكليز أن فيصلاً سيكون أنسب أبناء الحسين لحكم العراق ، فهو طريد يأوونه ، وضعيف يسوّدنه ، لذا فإنه سيكون أكثر طواعيةً من غيره لهم ، وأكثر مُسايرةً من إخوته ، كما أن له درايةً وخبرةً إذ حكم سوريا أكثر من أربعة أشهر ، وعرف أن المخالفة تُؤدّي به إلى الإلقاء ، ولا يريد أن تتكرّر معه المأساة حيث يكفيه ما ذاقه .

كتب وزير الخارجية الإنكليزية (كرزون) إلى نائب الحاكم الملكي في العراق يسأله إبداء الرأي في الموقف . فردّ النائب مبيّناً رأي الحسن في فيصل ، ولم يبخس عبد الله حقّه إذ كان مرشحاً لهذا المنصب ، وأن الرجل الكفء في العراق غير موجود . ومع ذلك فقد أبدى اقتراحاً بإسناد ملك العراق إلى أحد هؤلاء : ١ ـ هادي العمري . ٢ ـ نقيب أشراف بغداد . ٣ ـ أحد أبناء الحسين بن علي . ٤ ـ أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر . ويرى أن هادي العمري يُناسب الأمر ، هذا مع العلم أن نائب الحاكم كان من قبل يُعارض فكرة إقامة حكومة عربيةٍ في العراق أصلاً . أما وزير الخارجية فقد كان يرغب في عبد الله بن الحسين أخي فيصل . ولكن الظروف التي جدّت لفيصل جعلت الرأي يختلف ، وأصبح فيصل أكثر مناسبةً لهم ، إذ طُرد من ملكه ، والإنكليز بحاجةٍ إلى أن يُبقوا بينهم وبين الأشراف صلةً فربما احتاجوا إليهم كجواد رهان .

دعت الحكومة البريطانية فيصلاً لزيارة لندن ، فسافر إليها في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٩هـ (٢ كانون الأول ١٩٢٠م) ، وقابل الملك جورج الخامس ليشكره على الهدايا التي كان قد بعث بها إلى والده ، إشعاراً باستمرار الصداقة بين الحكومة البريطانية والشريف حسين ، فإن نكث انكلتر لعهودها ، وخيانتها لوعودها لم تُؤثّر على تلك الصداقة ، ولم يُنس الشريف حسين أبداً ، فإنه يُذكر دائماً ، وتُذكر خدماته لحكومة صاحب الجلالة .

كلّفت الحكومة البريطانية (كرنواليس) الملحق بوزارة الخارجية زيارة فيصل ، وعرض ملك العراق عليه . على حين يجب أن يُفاتحه مسؤول أكبر منصباً ولا يصحّ أن يكون أقلّ من رئيس الوزراء ، وفي أقلّ الحالات وزير الخارجية ، ومع ذلك يبدو أن فيصلاً قد ارتاح لهذا ، وانفتحت أساريره ، ولكن أبدى اعتراضاً صحيحاً ، تقتضيه الأخوة ، وتتطلبه الشهامة ، وهو أن الشاميين قد رشّحوا أخاه عبد الله لملك العراق في الوقت الذي رشّحوا شخصه لملك سوريا فكيف يُنافس أخاه عبد الله على هذا المنصب ؟ وخاصةً أن أخاه عبد الله يجمع الجموع ويعدّ العدة لمهاجمة سوريا ثأراً لأخيه ، أفي هذا الوقت الذي يعمل لمصلحتي أقبل منافسته إن لم أقل أطعنه ؟ .

أرسلت الحكومة البريطانية (لورنس) إلى جنوبي بلاد الشام ليستطلع رأي عبد الله ، ويُعرض عليه ملك سوريا مقابل التنازل لأخيه فيصل عن ملك العراق . والتقى (لورنس) بعبد الله ، وعرض عليه المهمة التي جاء من أجلها ، فوافق مباشرةً دون أية شروط ، وعاد (لورنس) سعيداً ، وأعطى نتيجة مهمته للمسؤولين .

بعثت الحكومة البريطانية (كرنواليس) إلى فيصل ثانيةً ليبلغه موافقة أخيه ، فارتاحت نفس فيصل ، وأراد أن يطمئن قلبه فأبرق إلى أخيه يتوثّق من الخبر ، فأجابه بصحة ما نُقل إليه .

وعلمت الحكومة الفرنسية بما يجري على الساحة في لندن ، فاحتجّت على هذا التصرّف الذي يُعدّ غير ودّي ، وذكرت وسائل الإعلام الفرنسية أن انكلترا وعدت فرنسا بمساعدتها ضدّ فيصل ، وأخذت الموصل التي كانت من نصيب فرنسا مقابل هذه المساعدة . ولعل الفرنسيين كانوا يريدون زعزعة الثقة بين فيصل وانكلترا ، ومحاولةً لإبعاد التفكير البريطاني عن إعطاء فيصل ملك العراق ، لأنه سيعمل ضدّ فرنسا نتيجة العدواة التي وقعت بينهما ، وستكون أرض العراق ملجأ للخارجين على سلطة الفرنسيين في سوريا . ولكن لم يتم ما أرادته فرنسا ، ولم تهتم انكلترا بالاحتجاج الفرنسي كثيراً .

الوضع في العراق قبل وصول فيصل :

كـان قد وصـل إلى البصرة في ١٨ محرم ١٣٣٩هـ (١ تشرين الأول ١٩٢٠م) (برسي كوكس) مُمثّلاً للحكومة البريطانية ، ومن البصرة انتقل إلى بغداد بالقطار ، فوصل إليها بعد عشرة أيامٍ ، فاستُقبل بالحفاوة ، وكـانت الثورة قد هدأت ، وإن كان رجال القبائل لا يزالـون يُغيرون عـلى القوات البريطانية أحياناً ، وينازلونها أحياناً أخرى ، ويحتلّ الثوار المدن أو يُحاصرونها في منطقة الفرات الأوسط ، وتقع الخسائر ، وتحدث الإصابات .

أعلن (برسي كوكس) للعراقيين أن الحكومة الـبريطانيـة انتدبتـه إلى العراق لتشكيل حكومةٍ وطنيةٍ بإشراف حكومة بريطانيا، وأنه ليصعُب عليه ذلك ، ما دامت بعض العشائر والجماعات تُعادي الحكومة وتشنّ الحرب على قواتها، وما ذلك إلا للوهم الـذي يُوجـد في نفوس بعض الجـماعات بنـوايا البريطانيين أو بعض الشكوك التي تُخامر تلك النفوس ، وإن ذلك لمن السهل إزالته ، ولا يدري بعد ذلك ما هو غرض العشائر من إشغال أنفسهم بهذه الحرب ؟ .

ورأى (برسي كوكس) أن تشكيل حكومةٍ وطنيةٍ في العـراق سيشغل الرأي العام مدةً من الزمن ، وفي الوقت نفسه ربما تحدث منافسات أو حزازات فيبدأ بعضهم بالتقرّب من السلطات البريطانية التي يمكنها وقتذاك اصطفاء ما تُريد من أعوان ، وتفرّق الشعب ، وتضع نفسها في موقف الحكم .

قرّر تشكيل حكومةٍ من الرجال الذين يُمكنهم التعاون مـع السلطات الاستعمارية ، وفـوق هذا رأى أن يضـعٍ في كل وزارةٍ مستشـاراً يكون هـو المتصرّف بالشؤون ، ويبقى الوزير صورة .

جمـع يـوم ٨ صفـر ١٣٣٩هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٢٠م) مجلسه الاستشاري المؤلّف من ناظر العدلية ، وناظـر الماليـة ، ومساعـده ، وناظـر الأشغال ، وفيلبي (ناظر الداخلية) ، وأمينة سره (غيرترود بل) ، وأبدى

للمجلس رأيه في تشكيل حكومةٍ تكون صلة الوصل بينه وبين الشعب في العراق ، وتتولّى مُهمّة إصدار العفو العام ، وإعادة الضباط العراقيين الذين يعيشون في سوريا ، وتأليف نواة الجيش العراقي . وأبدى لهم أنه قرّر تكليف عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد . بتشكيل هذه الحكومة لما له من منزلةٍ اجتماعيةٍ لدى الناس ، ومركزٍ ديني . ويبدو أن (برسي كوكس) كان يرغب في أن يعهد برئاسة الحكومة إلى طالب النقيب لكن اعترضته صعوبات جمة ، وبرسي كوكس يُجيد اللغة العربية ويُحسنها .

وافق عبد الرحمن الكيلاني على تشكيل الحكومة[1] وألّفها بمعرفة (برسي كوكس) التامة يوم ١٢ صفر ١٣٣٩هـ (٢٥ تشرين أول ١٩٢٠م) ، كما شكّل (برسي كوكس) له مجلس شورى[2] ضمّ اثني عشر رجلاً فكانوا بمثابة

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمن الكيلاني : نقيب بغداد، رئيساً للوزارة .
٢ ـ طالب النقيب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسن الباجه جي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني
٦ ـ عزّت الكركوكي : وزيراً للمعارف والصحة .
٧ ـ عبد اللطيف المنديل : وزيراً للتجارة .
٨ ـ محمد علي فاضل : وزيراً للنافعة .
٩ ـ مصطفى الألوسي : وزيراً للأوقاف .

ولكن اعتذر عن المنصب حسن الباجه جي فعهد إلى مصطفى الألوسي بوزارة العدلية ، وتسلّم محمد علي فاضل وزارة الأوقاف ، وتسلّم عزت الكركوكي وزارة النافعة وأصبح اسمها وزارة الأشغال والمواصلات ، وعُهد إلى محمد مهدي آل بحر العلوم الكربلائي بوزارة المعارف .

(٢) ضم المجلس الاستشاري كلاًّ من :

١ ـ حمدي بابان : من بغداد .
٢ ـ عبد الجبار الخياط : من بغداد .
٣ ـ عبد الغني كبه : من بغداد .
٤ ـ عبد المجيد الشاوي : من بغداد .
٥ ـ فخر الدين جميل : من بغداد .
٦ ـ عبد الرحمن الحيدري : من بغداد .
٧ ـ محمد الصهيود : من الكوت .
٨ ـ عجيل السمرمد : من الكوت .
٩ ـ سالم الخيون : من المنتفق .
١٠ ـ أحمد الصانع : من البصرة .
١١ ـ هادي القزويني : من الحلة .
١٢ ـ داود اليوسفاني : من الموصل .

=

مجلسٍ استشاريٍ لمجلس الوزراء ، ويتناولون راتب الوزراء نفسه .

كلّف المعتمد السامي (برسي كوكس) مستشار وزراة الداخلية (فلبي) بوضع مذكرةٍ تُبيّن علاقة المستشارين الإنكليز مع الوزراء ، فكانت هذه المذكرة أول دستورٍ للعراق .

عملت الحكومة على إعادة المبعدين للبلاد ، وصدر عفو عام . وعملت على ضمّ لواء السليمانية إلى العراق بعد أن حاول محمود الحفيد التلاعب بالمنطقة حيث اتصل بالدولة العثمانية وأبدى عواطفه نحوها فعيّنته حاكماً على لواء السليمانية ، ولكنه لم يلبث أن اتصل بالسلطات الإنكليزية ، وأعلن تسليمها المنطقة فأبقته حاكماً من قبلها ، ثم أعلن نفسه حاكماً مُستقلاً على منطقته ، فقبضت عليه السلطات الإنكليزية ونفته إلى الهند ، وأعلنت ضمّ السليمانية إلى العراق في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٧ آذار ١٩٢١م) .

الملك فيصل :

بعد أن وافق فيصل بن الحسين على قبول ملك العراق تأخّرت الإجراءات في ذلك لأسبابٍ كثيرة ، وفي ٦ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (١٤ شباط ١٩٢١م) أصبح (ونستون تشرشل) وزيراً للمستعمرات أو نقل إليها من وزارة الحربية فأخذ يعدّ العدّة لإنهاء موضوع العراق ، حيث جاء إلى وزارة المستعمرات رغبةً في تقليل النفقات الناجمة عن الالتزامات الخارجية إلى أدنى حدٍّ ممكنٍ ، لأن الخزينة الإنكليزية تئنّ من ثقل النفقات التي استلزمتها الحرب العالمية الأولى رغم المبالغ الكبيرة التي سطت عليها من البلدان التي دخلتها ، فعندما دخلت العراق أخذت كل ما في خزائن الولايات بل تعدّت على أموال الأوقاف . ولكثرة النفقات ، وفراغ الخزينة فكّر بعض الساسة بالجلاء عن العراق ، غير أن هذا التفكير لا يعدو أن يكون كلاماً فارغاً ، أو أن

= وقد اعتذر حمدي بابان فعين مكانه ضاري السعدون من الناصرية ، واعتذر هادي القزويني فعين مكانه نجم البدراوي من العمارة .

أصحابه لا يُدركون مرامي السياسة الإنكليزية الصليبية التي ترى في الاستعمار أفضل طريقةٍ لتحقيق السياسة الصليبية بتطبيق المخطّطات الفكرية والاجتماعية. وأوجد (تشرتشل) في وزارة المستعمرات دائرةً خاصةً تتوحّد فيها المصالح والمسؤوليات البريطانية في الشرق الأدنى ـ حسب مصطلحهم ـ وكانت تُدار هذه من قبل وزارة الهند ، ووزارة الخارجية ، ووزارة الحربية حتى لتكثر النفقات نتيجة التعدّد .

عندما جاء (ونستون تشرشل) إلى وزارة المستعمرات ، وأُنيطت به شؤون العراق ، نبش موضوع ملك العراق ، لأنه كان يرى أن إعطاء الحكم لرجلٍ يُؤازره الشعب ، وتُحقّق انكلترا مصالحها من ورائه بربطه معاهدةٍ ليُخفّف على انكلترا الكثير من النفقات . والتقى بفيصل ، وساومه على الموضوع ، وأبدى له مشروع الانتداب البريطاني على العراق ، ومسؤولية انكلترا تجاه عصبة الأمم ، وعرّفه بالمصالح البريطانية بالعراق والأهداف التي ترمي إليها ، فوافق فيصل ووعده بالعمل على معاهدةٍ بين العراق وانكلترا تقوم مقام الانتداب وتُؤدّي غرضه .

كان يطمح في ملك العراق الشيخ خزعل أمير المحمرة ، وطالب النقيب، نقيب البصرة، كما كانت الأنظار تتجه إلى عبد الرحمن الكيلاني نقيب الأشراف في بغداد ، وطُرحت أسماء من بينها (آغا خان) زعيم الطائفة الإسماعيلية في الهند ، وغلام رضا خان أمير (بشت كوه) في إيران و . . . اقترح النظام الجمهوري ، غير أن الإنكليز يرون أن الحكم الجمهوري لا يستطيع الثبات في بلدٍ كالعراق ، كما يرون التغيير في الرئاسة يدعوهم إلى بذل الكثير مع كل مرتقٍ إلى هذا المنصب .

مؤتمر القاهرة :

دعا (تشرشل) الممثلين العسكريين والسياسيين البريطانيين في منطقة الشرق الأوسط والأدنى ـ حسب اصطلاحهم ـ إلى الاجتماع في مؤتمر يُعقد في

القاهرة في ٣ رجب ١٣٣٩هـ (١٢ آذار ١٩٢١م) ، وكانت مُهمّة المؤتمر تتلخّص في إنقاص النفقات البريطانية في المناطق المذكورة ، وإعادة النظر في السياسة المتبعة فيها وذلك بتقرير يتضمن :

١ ـ علاقات الدولة المقبلة ببريطانيا العظمى من حيث النفقات .

٢ ـ شخصية من سيتولّى العراق .

٣ ـ نوع وشكل قوات الدفاع في الدولة التي ستتمتع بمسؤولية أوسع في الدفاع عن نفسها .

٤ ـ علاقة المناطق الكردية بالعراق .

تشكل الوفد العراقي إلى مؤتمر القاهرة من :

١ ـ برسي كوكس : المعتمد السامي البريطاني .

٢ ـ جعفر العسكري : وزير الدفاع الوطني .

٣ ـ ساسون حسقيل : وزير المالية .

٤ ـ إيلمر هولدن : الجنرال قائد القوات البريطانية بالعراق .

٥ ـ سليترو أتكنسن : مستشار وزارة المالية والأشغال .

٦ ـ إيدي : الرائد مستشار وزارة الدفاع بالوكالة .

٧ ـ السيدة غيرترود بل : أمينة سر المعتمد السامي .

وطُرح موضوع الحكم في العراق ، وأيّد المؤتمرون النظام الملكي ، وطُرحت أسماء الذين يمكنهم تسلم ملك العراق ، فكان التأييد لفيصل بن الحسين عندما طُرح اسمه ، وقد كان فيصل في القاهرة ، حيث انتقل إليها ليُراقب موضوع المؤتمر من بعيد .

كانت الفكرة أن تقوم دعاية واسعة لترشيح الفيصل لملك العراق ، حتى لا يُشاع أنه فرض فرضاً ، ويُقصد من الشائعات رغبة انكلترا فيه لأنه خير من يُوافق على سياستها ، ويسعى لتنفيذ مُخطّطاتها . ووضعت الخطّة بأن يُسافر المعتمد السامي إلى بغداد ، ويُشيع الخبر ، ثم يُسافر وزير المستعمرات ، ويُصرّح بموافقة حكومة صاحب الجلالة البريطانية على ترشيح فيصل لملك

العراق . كما يُبرق فيصل لكلٍ من رئيس الوزراء عبد الرحمن الكيلاني نقيب الأشراف ، وطالب النقيب نقيب الأشراف في البصرة ، ونوري السعيد ويخبرهم بترشيح نفسه لملك العراق ، ويطلب منهم السعي وبذلك الجهد للعمل له . ثم يُسافر فيصل إلى العراق . وقد هيء كل هذا ، وحسب ما رُسم له .

انتقل وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) إلى فلسطين ، ومنها سافر إلى انكلترا حيث قدّم للحكومة تقريراً عما تمّ في مؤتمر القاهرة ، وأخذ مُوافقتها على ترشيح فيصل ملكاً على العراق . وكان فيصل قد رجع إلى الحجاز .

أبرقت الحكومة البريطانية إلى الحجاز تطلب من فيصل السفر إلى العراق ، بعد أن انتهت من التمهيدات لقدومه . استقلّ فيصل في ٦ شوال ١٣٣٩هـ (١٢ حزيران ١٩٢١م) الباخرة الإنكليزية (نورث بروك) واتّجه نحو البصرة . وأبرق الشريف حسين من مكة إلى نقيب بغداد عبد الرحمن الكيلاني يُخبره بسفر ولده . وسافر مع فيصل (كرنواليس)[1] الذي عُيّن مستشاراً خاصاً للملك فيصل بعد تتويجه ملكاً على العراق ، وكذلك كان مع فيصل أمين سرّه الخاص رستم حيدر ، وثلاثة من مرافقيه ، وبعض الزعماء العراقيين الهاربين .

أبرق فيصل عندما اقترب من البصرة في ١٦ شوال ١٣٣٩هـ (٢٢ حزيران ١٩٢١م) إلى رئيس الوزارة العراقية عبد الرحمن النقيب بقرب وصوله . فتألفت لجنة الاستقبال من : وزير الدفاع الوطني جعفر العسكري ،

---

(١) يُروى أن وزير المالية العراقي (ساسون حسقيل) سأل وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) أثناء انعقاد القاهرة : إنه قد جرت العادة أن يُعيّن رجل من الشمال على الأقسام التي فُصلت عن الدولة العثمانية ، فما السر في تعيين رجل على العراق من الجنوب ؟ فأجاب : صحيح ، ولكن (كرنواليس) مسافر مع فيصل ، وهو من الشمال .

ومن كلٍ من : عبد الغني كبه ، وفخر الدين جميل ، وعبد الجبار خياط ، وعبد المجيد الشاوي ، وعبد الرحمٰن الحيدري من أعضاء المجلس الاستشاري .

وصول فيصل :

رست الباخرة البريطانية (نورث بروك) في ميناء البصرة في ١٧ شوال ١٣٣٩هـ (٢٣ حزيران ١٩٢١م) ، فاستقبل استقبالاً حاراً ، وأعدّ له متصرف لواء البصرة أحمد الصانع ، وهو أحد أعضاء المجلس الاستشاري مأدبةً فخمةً دعا إليها الأشراف والأعيان ورجال الحكومة ، وبعدها تابع فيصل سفره إلى بغداد ، وكانت تُقام له الاحتفالات في كل المدن التي يمرّ عليها ، وقد مرّ على الحلّة ، والنجف ، وكربلاء ، ووصل إلى بغداد في ٢٣ شوال ١٣٣٩هـ (٢٩ حزيران ١٩٢١م) ، وقد بايعه مجلس الوزراء في ٥ ذي القعدة ١٣٣٩هـ (٥ تموز ١٩٢١م) ، وأعدت وزارة الداخلية صورة لمضبطة يعلن فيها الأهالي تأييدهم . وتوّج يوم ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ (٢٣ آب ١٩٢١م) .

البَابُ الأوّل

المَلَكِيَّة

مرّت العراق بعد استقلالها بمرحلتين : كان نظام الملكية هو الذي يقوم عليه الحكم في المرحلة الأولى ، ونظام الجمهورية هو الذي يقوم عليه الحكم في المرحلة الثانية .

استمرّت الملكية في العراق ما يزيد على ثمانٍ وثلاثين سنة (١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ) ، وقد حكم فيها ثلاثة ملوك .

١) فيصل الأول : ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ .
٢) غازي بن فيصل : ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ١٤ صفر ١٣٥٨هـ .
٣) فيصل الثاني بن غازي : ١٤ صفر ١٣٥٨ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ .

وقد بقي فيصل الثاني عشرين سنة تحت الوصاية ١٣٥٢ ـ ١٣٧٢هـ . وتسلّم السلطة مدة ست سنوات ١٣٧٢ ـ ١٣٧٧هـ . وترك الملك ما يقرب من شهرين ١٤ ربيع الأول ١٣٦٠ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ . أثناء قيام حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني .

الفصل الأول

الملك فيصل الأول

١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ
(٢٣ آب ١٩٢١ ـ ٨ أيلول ١٩٣٣م)

قبل أن يُتوّج الملك فيصل بن الحسين بأسبوعٍ أخبر رئيس الوزارة عبد الرحمن الكيلاني[١] بالاستعداد لتشكيل الوزارة من جديدٍ ، فلما تُوّج قدّم رئيس الوزارة استقالة حكومته له، فعهد إليه بتأليف الوزارة من جديد[٢]،

---

(١) عبد الرحمن الكيلاني ولد في بغداد عام ١٢٦١هـ ، ويرجع في نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ، تسلّم نقيب الأشراف في بغداد عام ١٣٠٦هـ ، فأصبح الشخصية الثانية بعد الوالي ، وكذا كان أيام الاحتلال ، وكان من بين الذين رُشّحوا لاستلام ملك العراق غير أن كبر سنه ، وإصابته بمرض المفاصل كان له الأثر في استبعاده إذ كانت سنه آنذاك تزيد على الثامنة والسبعين ، استقال من رئاسة الوزارة عام ١٣٤٠هـ ، واعتزل في بيته حتى وافته المنية عام ١٣٤٦هـ .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمن الكيلاني : نقيب الأشراف ، رئيس الوزراء .
٢ ـ الحاج رمزي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني .
٦ ـ حنا الخياط : وزيراً للصحة .
٧ ـ عزت الكركوكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ عبد الكريم الجزائري : وزيراً للمعارف .
٩ ـ محمد علي فاضل : وزيراً للأوقاف .
١٠ ـ عبد اللطيف المنديل : وزيراً للتجارة .

=

فشكّلها في ٩ محرم ١٣٤٠هـ (١٢ أيلول ١٩٢١م) .

وقـرّرت الحكومـة في ٢٧ ربيـع الثـاني ١٣٤٠هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٢١م) اتخاذ اللغة العربية في كتـابة الـدواوين ، وذلك أن الإنكليـز قد حاولوا فرض لغتهم على الدولة منذ أن أنهوا احتلال العراق ، إذ جعلوا اللغة الإنكليزية لغة الكتابة في الدواوين وكأنها اللغة الرسمية .

قاوم العراقيون فكرة الانتـداب ، وقد استمـرّت المقاومـة بعد هـدوء الثورة ، وازداد الأمر عنفاً عندما قامت حكومة وطنية ، إذ شعروا أنهم قـد استقلّوا ، وأصبحت العراق دولةً ، فما معنى الانتداب ؟ ورأى الإنكليز أن أفضل طريقةٍ لمواجهة هذه المقاومة استمرارية الحكم العسكـري ، غير أنهم عادوا فعدلوا عن هذه الفكرة ، ورأوا أن تقوم معاهدة بـين الطرفـين تُبقي الانتداب تحت مظلّة هذه المعاهدة ، إذ يمكنهم فرض شروطها وبنودها ما داموا يملكون القوة ، وكانوا يتحدّثون دائـماً من أعلى ، إذ بيـدهم السلطة حسب تصوّرهم ، وكان المعتمد السامي (برسي كوكس) يُكلّم الملك فيصل من أعلى حيث يشعر أنه يُمثّل لانكلترا صاحبة الفضل على العراق ، فهي قد خلّصته من الحكم العثماني ، وأنقذته من الفوضى التي كان يُعاني منها ، وهي التي احتلّت أرضه بالقوة ، فأهله أصبحوا لها تبعاً ، كما أنها صاحبة المنّة على ملكه ، إذ رفعته إلى سدّة الملك بعد أن كان طريداً ، ومن هذه النظرة ظهرت جفوة خفية بين الملك والمعتمد .

أما العراقيون فيرون أن المعاهدة تحديد للعلاقات المتبادلة بين الطرفين ،

= كانت الرغبة أن تسند وزارة الداخلية إلى ناجي السويدي ، غير أن المندوب السامي رفض هذا ، وطلب إسناد هذه الوزارة إلى توفيق الخالدي ، فأبى ذلك الملك بحجة أنه صاحب نزعة إلى النظام الجمهوري ، وفي الوقت نفسه عنده ميل إلى العثمانيين ، وهذا ما جعله خارج نطاق الوزارة .

واعتذر عبد الكريم الجزائري عن استلام وزارة المعارف أو الاشتراك في الحكم أساساً ، فاختير محمد علي هبة الدين الشهرستاني وزيراً للمعارف .

فالعراق دولة مستقلة ويمكنها الوقوف وحدها دون حاجةٍ إلى مساعدة دولةٍ أخرى أو انتداب من قبل أحدٍ مهما كانت صفته . أرادت انكلترا أن تُظهر للعراقيين ضعفهم عملياً ، وحاجتهم إلى مساعدتها بشكلٍ ملموس ، كي يتنازلوا عن كثيرٍ مما هم عليه ، ويُوافقوا على التوقيع على المعاهدة التي تراها من غير قيدٍ أو شرطٍ .

لم تكن حدود العراق قد رُسمت بشكلٍ مضبوط مع الدول المجاورة ، وكان لانكلترا نفوذ على بعض الجوار حيث يمكنها أن تستخدمهم في تنفيذ أغراضها وتحقيق أطماعها .

كانت الحدود بين العراق وسلطنة نجد غير واضحة المعالم إذ هي في أرضٍ صحراويةٍ قليلة المعالم الطبيعية ، وفي الوقت نفسه تُقيم فيها قبائل تنتقل بين الجزأين من هذه الأراضي العربية ، وأمر طبيعي أن يحدث نزاع بين القبائل كما جرت العادة . فقد هاجم الإخوان في نجد عشيرة (الظفير) في العراق في شهر ربيع الثاني ١٣٣٩هـ (كانون أول ١٩٢٠م) بحجة أنها حمت بعض عشائر (شمّر) التي هربت من نجد . ثم هاجموا قبيلة (الأعاجيب) العراقية ، وغزوا قبيلة (الزياد) بداعي الانتقام من هاتين القبيلتين اللتين تتعاونان مع قبيلة (شمر) .

طلب الزعماء العراقيون من المعتمد السامي (برسي كوكس) العمل على إيقاف ما يحدث على الحدود مع سلطنة نجد ، وكان ذلك قبل تتويج الملك فيصل بعشرين يوماً . وبعد أن أصبح فيصل ملكاً على العراق هاجم الإخوان بعض الأفراد من (شمّر) ممن يُقيم في العراق بين (النجف) و (السماوة) .

زاد ضغط الإخوان على القبائل العراقية فقد هاجم (فيصل الدويش) شيخ قبيلة (مطير) ، وأحد وجوه الإخوان القبائل العراقية ليلة ١٢ رجب ١٣٤٠هـ (١١ آذار ١٩٢٢م) ، ونجم عن هذه الغارة قتل (٦٩٤) رجلاً من قبائل العراق ، وسلب (٤٣٠١٠) رؤوس من الغنم ، و (٢٥٣٠) جملاً

و (٣٨١١) حماراً ، و (١٣٠) جواداً ، وتهديم (٧٨١) بيتاً .

وعادت القبيلة نفسها بمهاجمة أطرف (المنتفق) ، فهاج العـراقيون ، وأمرت السلطات البريطانية بإرسال طائرات استطلاع للمنطقة ، غير أن رجال قبيلة (مطير) أطلقوا النار على هذه الطائرات ، فأصلتهم بنارٍ كثيفةٍ اضطروا بعدها إلى الإنسحاب والفرار .

وفرّ حمود السويط أحد مشايخ قبيلة الظفير العراقية إلى نجدٍ بعد أن نهب مبلغاً من المال من أحد التجار ، وكانت هذه العملية من دواعي الصدام ، وخاصةً عندما عُيّن يوسف السعدون قائداً للقوات الهجّانة العراقية على الحدود الجنوبية ، وكان بينه وبين حمود السويط عداء قديم .

وبالمقابل فإن بطوناً من قبيلة (شمّر) قد فرّت إلى العراق بعد أن دخل سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمٰن مدينة حائل عام ١٣٤٠هـ ، فكانت نفوسها تتوق دائماً للإغارة على نجدٍ وإلحاق الأذى بأهله .

واجتمع مجلس الوزراء وبحث هذا الموضوع ، وتساءل بعض الوزراء هل هناك خـلاف بين الحكم في العـراق وبين سلطان نجـد ؟ وهل انكلترا مسؤولة عن الدفاع عن حدود العراق أم لا ؟ وعندما رفع محضر جلسة مجلس الوزراء إلى الملك فيصل ، لم ترتح نفسه إلى بعض كلمات عددٍ من الوزراء ، لذا فقد استدعاهم وطلب منهم تقديم استقالاتهم[١] ، إذ فقد ثقته بهم .

وطلب من رئيس الوزراء اختيار أشخـاص آخرين ليشغلوا المنـاصب الوزارية التي شغرت بعد قبول استقالـة من تقدّمـوا باستقـالاتهم ، فاختـار الأشخاص ورفعهم إلى الملك[٢] .

---

(١) الوزراء الذين طلب منهم تقديم استقالاتهم هم : الحاج رمزي ، وناجي السويدي ، عبد اللطيف المنديل ، وعزت الكركوكي ، وحنا خياط .

(٢) صدرت الأوامر الملكية بتعيين :

توفيق الخالدي : وزيراً للداخلية . =

أبرق إلى سلطان نجد للموافقة على حضور مؤتمر تُخطّط فيه الحدود بين الدولتين ، فوافق على ذلك ، ووعد بأنه سيرسل من ينوب عنه .

مؤتمر المحمرة : عُقد المؤتمر في المحمرة ، وحضره مندوب عن سلطان نجد[1] ، ومندوب عن ملك العراق[2] ، ومندوب عن الحكومة البريطانية[3] . ووقعت معاهدة إثر المؤتمر في يوم الجمعة في ٧ رمضان ١٣٤٠هـ (٥ أيار ١٩٢٢م) ، وتشكّلت لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء حيث يُمثّل العراق مندوبان ، ويُمثّل نجد مندوبان ، وينتخب المندوب السامي أحد رجالات الحكومة البريطانية ليرأس اللجنة التي ستجتمع في بغداد وتضع الحدود الدائمة ، ويقبل الطرفان بها دون اعتراضٍ .

مؤتمر كربلاء : كان زعماء القبائل والأهالي يتداعون لبحث موضوع الخلاف على الحدود ، وعُقد مؤتمر في كربلاء ، حضره من قبل الحكومة العراقية وزير الداخلية توفيق الخالدي ، وانتهى المؤتمر في ١٥ شعبان ١٣٤٠هـ (١٢ نيسان ١٩٢٢م) أي قبل مؤتمر المحمرة بأربعةٍ وعشرين يوماً ، وكانت القرارات : الدفاع عن البلاد ، الثقة بسياسة الملك فيصل ، وطلب تعويضات عن الخسائر التي لحقت بالأهالي ، ودفع ديات القتلى .

مؤتمر العقير : رفض سلطان نجد التوقيع على مقررات مؤتمر المحمرة إذ قال : إنه لم يفوض مندوبه أحمد الثنيان آل سعود بالتوقيع على تلك المقرّرات ،

= صبيح نشأت : وزيراً للأشغال والمواصلات .
محمد جعفر جلبي أبو التمن : وزيراً للتجارة .
عبد المحسن الفهد السعدون : وزيراً للعدلية .
أما وزارة الصحة فقد أُلغيت ، وأصبحت مديريةً ملحقةً بوزارة الداخلية . كما رفضت استقالة ساسون حسقيل رغم إصراره عليها .

(١) مندوب سلطان نجد : أحمد الثنيان آل سعود .

(٢) مندوب ملك العراق : صبيح نشأت وزير المواصلات والأشغال .

(٣) مندوب الحكومة البريطانية : الميجر بورديللون .

واستمرّ الخلاف على الحدود ، وبقيت الغارات من الطرفين . وبعد جهودٍ عُقد مؤتمر في العقير ، وحضره سلطان نجد ، وذلك في ٥ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

وعُدّ اتفاق الحدود تتمةً لمؤتمر المحمرة وقد نصّ على ما يأتي :

المادة الأولى :

أ ـ تبدأ الحدود من الشرق من نقطة التصاق وادي العوجاء مع وادي الباطن ، ومن هذه النقطة تبدأ حدود المملكة النجدية على خطٍ مستقيمٍ إلى البئر المسماة (الوقبة) مع ترك الدليمية والوقبة شمال هذا الخط ، ومن (الوقبة) تمتدّ الحدود إلى الشمال الغربي إلى بئر (النصاب) .

ب ـ ابتداءً من النقطة الآنف ذكرها أي التصاق وادي العوجاء مع وادي الباطن تمتدّ حدود العراق على خطٍ مستقيمٍ باتجاه الشمال الغربي إلى الأحفر تاركاً هذا الموقع جنوب هذا الخط ، ومن هناك يمتدّ الخط باتجاه الجنوب الغربي على خطٍ مستقيمٍ إلى أن يتصل بحدود نجد في بئر (النصاب) .

جـ ـ المنطقة ذات الشكل المعين المرسوم بين النقاط المحدود آنفاً ، والذي يحتوي على النقاط جميعاً يبقى على الحياد ، وتشترك بين الحكومتين العراقية والنجدية اللتين تحصلان على جميع الحقوق المتساوية والمقاصد داخل هذه المنطقة المحايدة .

د ـ من بئر النصاب تمتدّ الحدود بين الحكومتين باتجاه الشمال الغربي إلى بركة (الحميمة) ومن هناك تتجه شمالاً إلى بئر العقبة ، ثم إلى قصر (العثمين)، ومن هناك تمتدّ إلى الغرب على خطٍ مستقيمٍ يمرّ من وسط (جال البطن) إلى بئر (ليفية) ، ثم بئر (المناعية) ومنها إلى (جديدة عرعر) ، ومنها إلى (مكار الناعم) إلى جبل (عنيزة) الواقع قريباً من التقاء خط الطول ٣٩° شرقاً مع خط العرض ٣٢° شمالاً .

المادة الثانية :

بما أن كثيراً من الآبار بقيت داخل الحدود العراقية ، وبقيت الجهة النجدية محرومةً منها ، تتعهّد الحكومة العراقية بأن لا تتعرّض لقبائل المملكة النجدية القاطنة على أطراف الحدود إذا اقتضت الظروف أن يردوا الآبار المجاورة لهم في الأراضي العراقية إذا كانت هذه الآبار هي أقرب الآبار الموجودة داخل الحدود النجدية .

المادة الثالثة :

تتعهّد الحكومتان كل من قبلها أن لا تستخدم المياه والآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرضٍ حربيٍ كوضع قلاعٍ عليها ، وأن لا تُبقي جنوداً على أطرافها .

المادة الرابعة :

لقد اتفق مندوبو حكومتي الطرفين على ما تقرّر في مواد هذا الاتفاق ، ووقّعوه في ميناء العقير في ١٢ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢ كانون أول ١٩٢٢م) .

مثّل العراق : وزير الأشغال والمواصلات ، صبيح نشأت .
ومثّل انكلترا : المعتمد السامي البريطاني في العراق ، والميجر مود قنصل انكلترا في الكويت .

وحضر من نجد : سلطان نجد بنفسه عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود ومستشاروه وأعوانه وحاشيته .

عبد الرحمٰن الكيلاني والوزارة الثالثة

نشأ خلاف بين الملك فيصل وبين المعتمد السامي برسي كوكس نتيجة الوزارة التي غدا كثير من أعضائها يُمالىء المعتمد ، وشعر بهذا الخلاف رئيس الحكومة فقدّم استقالة حكومته في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب

١٩٢٢م) إلى الملك فطلب منه الاستمرار بالمهمة المناطة بالحكومة حتى تقوم الحكومة الجديدة .

طلب المعتمد السامي من الملك تكليف رئيس الحكومة المستقيلة بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ على أن يكون أكثر أعضائها من الوزارة المستقيلة ، وما كان للملك إلّا أن يفعل .

ومرض الملك بعد ذلك بأربعة أيامٍ فتأخّر تشكيل الوزارة الجديدة ، حتى عادت الصحة للملك، وفي ٧ صفر ١٣٤١هـ (٣٠ أيلول ١٩٢٢م) ، رفع عبد الرحمن الكيلاني قائمة للملك بأسماء الوزراء الذين وقع الاختيار عليهم ، والحقائب التي ستُسند إليهم ، وصدر إثرها تشكيل الوزارة[١] .

تصرّف المعتمد السامي :

في ذكرى تتويج الملك فيصل ملكاً على العراق (٢٣ آب ١٩٢٢م) الأول من محرم ١٣٤١هـ ، أُصيب الملك بالتهاب في الزائدة الدودية ، واقتضى ذلك إجراء عمليةٍ جراحيةٍ له ، وكان ذلك بعد استقالة الوزارة بأربعة أيام ، فتولّى المعتمد السامي أمر إدارة البلاد ، والتصرّف كما يشاء ، وذلك بعد

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمن الكيلاني : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عبد المحسن السعدون : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ توفيق الخالدي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني .
٦ ـ صبيح نشأت : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٧ ـ محمد علي فاضل : وزيراً للأوقاف .

وبقي منصب وزير المعارف شاغراً ، إذ أن رئيس الوزراء كان قد وقع اختياره على عبد المجيد شلاش الذي كان غائباً عن البلاد ، فلما حضر ، وصدر الأمر بتعيينه اعتذر ، وبقيت حقيبة المعارف شاغرة حتى استقالة الوزارة .

أن قام ومعه مستشار وزارة الداخلية (كرنواليس) بزيارة الملك بالمستشفى ، وطلب منه التوقيع على أمرٍ بإبعاد بعض الزعماء الوطنيين ، واتخاذ بعض التدابير الزجرية ، فلما رفض الملك ذلك قام هو بنفسه بهذه الأعمال الزجرية .

أصدر المعتمد السامي (برسي كوكس) أمراً بحظر الحزبين : الحزب الوطني العراقي برئاسة جعفر أبو التمن ـ بغداد ، وحزب النهضة العراقية برئاسة أمين الجرحفجي ـ الكاظمية ، وكانا قد قاما بمظاهراتٍ في اليوم الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) ، وأمر بإبعاد رؤسائهما إلى جزيرة (هنجام) في الخليج العربي ، وتعطيل جريدتي (المفيد) و (الرافدان) ، ونفي صاحبيهما أيضاً . وأمر محمد الصدر ، ومحمد الخالصي بمغادرة العراق إلى إيران .

وأمر سرباً من الطائرات بقصف القبائل بالفرات الأوسط ، ومن هذه االقبائل (آل فتلة) و (الأكرع) و(خفاجة) و (العزّة) .

وقام بفصل بعض كبار الموظفين عن مناصبهم مثل : علي جودت متصرف لواء الحلّة ، وخيري الهنداوي قائمقام الشامية، وشاكر الملا الحمادي قائمقام متصرف أبو صخير .

وهذه التصرفات أدّت إلى زيادة المعارضة وتأخير المعاهدة .

معاهدة ١٩٢٢م :

كان وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل قد اتفق مع الملك فيصل قبل تسلّمه ملك العراق أن تكون معاهدة بين الطرفين تحلّ مكان الانتداب ، غير أن الإنكليز قد فهموا من هذا العبارة أن الاستقلال صورة والواقع انتداب ، فالملك ليس أكثر من اسمٍ ، أما المتصرّف الحقيقي فهو المعتمد السامي ، والوزراء لا يملكون سوى التوقيع ، أما صاحب الكلمة فهو المستشار البريطاني . وأما الملك فيصل والعراقيون جميعاً فقد فهموا أن المعاهدة ستُلغي الانتداب وتبينّ العلاقات المتبادلة بين الحكومة العراقية ، والحكومة

البريطانية ، ونتيجة هذا التباين الواسع في فهم أو تفسير المضمون فقد تأخّر التوقيع على المعاهدة ، وأخيراً قُدّمت للدراسة والتوقيع عليها حسب النص المثبت أدناه :

المادة الأولى : بناءً على طلب جلالة ملك العراق يتعهّد جلالـة ملك بريطانيا بأن يُقـدّم في أثناء مدة المعاهدة مع التزام نصوصها ، ما يقضي لدولة العراق من المشورة والمساعدة دون أن يمسّ ذلك بسيادتها الوطنية . يُمثّل جلالة ملك بريطانيا بالعـراق بمعتمدٍ سـامٍ ، وقنصلٍ جنـرالٍ ، تُعاونـه الحاشيـة الكافية .

المادة الثانية : يتعهّد جـلالة ملك العـراق بأن لا يُعـيّن ، مدة هـذه المعاهدة ، مُوظّفاً ما في العراق من تابعيةٍ غير عراقيةٍ ، في الوظائف التي تقتضي إرادةً ملكيةً دون موافقة جلالة ملك بريطانيا ، وستعقد اتفاقية منفردة لضبط عدد الموظفين البريطانيين وشروط استخدامهم على هذا الوجـه في الحكومـة العراقية .

المادة الثالثة : يُوافق جلالة ملك العراق على أن يُنظّم قانوناً أسـاسياً ليُعرض على المجلس التأسيسي العراقي ، ويكفل تنفيذ هذا القانـون الذي يجب أن لا يحتوي على ما يُخالف نصوص هذه المعاهدة ، وأن يـأخذ بعـين الاعتبار حقوق ورغبات ومصالح جميع السكان القاطنين في العراق ، ويكفل للجميع حرية الوجدان التامة ، وحرية ممارسة جميع أشكال العبادة ، بشرط ألا تكون مخالفةً بالآداب والنظام العموميين ، وكذلك يكفل ألا يكون أدنى تمييزٍ بين سكان العراق بسبب قوميةٍ ، أو دينٍ ، أو لغةٍ ، ويُؤمّن لجميع الطوائف عدم نكران أو مساس حقها بـالاحتفاظ بمـدارسها لتعليم أعضـائها بلغـاتها الخاصة ، على أن يكون ذلك مُوافقاً لمقتضيات التعليم العامة ، التي تفرضهـا حكومة العراق ، ويجب أن يُعيّن هذا القانون الأصول الدستورية : تشريعيةً كانت أم تنفيذيةً ، التي ستتبع في اتخاذ القرارات في جميع الشؤون المهمة بما فيها الشؤون المرتبطة بالخطط المالية ، والنقدية ، والعسكرية .

المادة الرابعة : يُوافق جلالة ملك العراق ، وذلك من غير مساسٍ بنصوص المادتين (١٧) و (١٨) من هذه المعاهدة ، على أن يستدل ، بما يُقدّمه جلالة ملك بريطانيا من المشورة - بوساطة المعتمد السامي - جميع الشؤون المهمة ، التي تمسّ بتعهدات ومصالح جلالة ملك بريطانيا الدولية ، والمالية ، وذلك مدة هذه المعاهدة .

ويستشير جلالة ملك العراق المعتمد السامي الاستشارة التامة في ما يؤدي إلى سياسةٍ ماليةٍ ونقديةٍ سليمةٍ ، ويؤمّن ثبات وحسن نظام مالية حكومة العراق ما دامت تلك الحكومة مدانةً لحكومة جلالة ملك بريطانيا .

المادة الخامسة : لجلالة ملك العراق حقّ التمثيل السياسي في لندن ، وغيرها من العواصم والأماكن الأخرى، مما يتم عليها الاتفاق بين الفريقين الساميين المتعاقدين ، وفي الأماكن التي لا يُمثّل فيها لجلالة ملك العراق ، ويوافق جلالته أن يعهد إلى جلالة ملك بريطانيا بحماية الرعايا العراقيين فيها . وجلالة ملك العراق هو الذي يُصدّر التصديق على أوراق اعتماد ممثلي الدول الأجنبية في العراق بعد موافقة جلالة ملك بريطانيا على تعيينهم .

المادة السادسة : يتعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن يسعى بإدخال العراق في عضوية عصبة الأمم في أقرب وقتٍ ممكنٍ .

المادة السابعة : يتعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن يُقدّم من الإمداد والمساعدة لقوات جلالة ملك العراق المسلّحة ما يتفق عليه من وقتٍ لآخر الفريقان المتعاقدان الساميان ، وتُعقد بينهما اتفاقية منفردة لتعيين مقدار هذا الإمداد ، وهذه المساعدة ، وشروطها ، وتبلغ هذه الاتفاقية إلى مجلس عصبة الأمم .

المادة الثامنة : لا يتنازل عن أراضٍ ما في العراق ، ولا تؤجر إلى أية دولةٍ أجنبيةٍ ، ولا توضع تحت سلطتها بأية طريقةٍ كانت ، إلا أن هذا لا يمنع جلالة ملك العراق من أن يتخذ ما يلزم من التدابير لإقامة الممثلين السياسيين

الأجانب ، ولأجل القيام بمقتضيات المادة السابقة .

المادة التاسعة : يتعهّد جلالة ملك العراق بقبول الخطة الملائمة التي يُشير بها جلالة ملك بريطانيا ، ويكفل تنفيذها في أمور العدلية لتأمين مصالح الأجانب بسبب عدم تطبيق الامتيازات والصيانات التي كان يتمتع بها هؤلاء بموجب الامتيازات الأجنبية أو العرف ، ويجب أن توضع نصوص هذه الخطة في اتفاقيةٍ منفردةٍ ، وتبلّغ إلى مجلس عصبة الأمم .

المادة العاشرة : يُوافق الفريقان الساميان المتعاقدان على عقد اتفاقياتٍ مُنفردةٍ لتأمين تنفيذ المعاهدات أو الاتفاقيات أو التعهّدات التي قد تعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن تكون نافذةً في ما يتعلّق بالعراق وجلالة ملك العراق متعّهد بأن يُهيء المواد التشريعية اللازمة لتنفيذها ، وتبلّغ هذه الاتفاقيات إلى مجلس عصبة الأمم .

المادة الحادية عشرة : يجب ألا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين أو لغيرهم من رعايا الدول الأجنبية الأخرى على رعايا أية دولةٍ هي عضو في عصبة الأمم ، أو رعايا أية دولةٍ مما قد يُوافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة ، على أن يضمن لها عين الحقوق التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن أعضاء العصبة المذكورة (وتشمل كلمة رعايا الدولة الشركات المؤلفة بموجب قوانين تلك الدولة) في الأمور المتعلّقة بالضرائب ، أو التجارة ، أو الملاحة ، أو ممارسة الصنائع والمهن ، أو معاملة السفن التجارية ، أو السفن الهوائية الملكية . وكذلك يجب أن لا تكون ميزة ما في العراق لدولةٍ ما من الدول المذكورة على الأخرى فيما يتعلق بمعاملة البضائع الصادرة منها أو المصدّرة إليها ، ويجب أن تُطلق حرية مرور البضائع وسط أراضي العراق بموجب شروطٍ عادلةٍ .

المادة الثانية عشرة : لاتتخذ وسيلة ما في العراق لمنع أعمال التنصير ، أو

للمداخلة فيها[1] ، أو لتمييز منصرٍ ما على غيره ، بسبب اعتقاده الديني ، أو جنسيته ، على أن لا تُخلّ تلك الأعمال بالنظام العام وحسن إدارة الحكومة .

المادة الثالثة عشرة : يتعهّد جلالة ملك العراق بأن يُساعد بقدر ما تسمح له الأحوال الاجتماعية والدينية وغيرها على تنفيذ كل خطةٍ عامةٍ تتخذها عصبة الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها ، ويدخل في ذلك أمراض الحيوان والنبات .

المادة الرابعة عشرة : يتعهّد جلالة ملك العراق بأن يتخذ الوسائل اللازمة لسنّ نظام للآثار القديمة[2] ، في خلال اثني عشر شهراً من تاريخ العمل بهذه المعاهدة ، ويكفل تنفيذه ، ويكون هذا النظام مؤسساً على القواعد الملحقة بالمادة ٤٢١ من معاهدة الصلح ، الموقع عليها في سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠م ، فيقوم مقام النظام العثماني السابق للآثار القديمة ، ويضمن المساواة في مسائل تحري الآثار القديمة بين رعايا جميع الدول من أعضاء عصبة الأمم ورعايا أية دولة مما قد وافق جلالة ملك بريطانيا ، بموجب معاهدة ، على أن يضمن لها الحقوق نفسها التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن أعضاء العصبة المذكورة .

المادة الخامسة عشرة : تُعقد اتفاقية منفردة لتسوية العلاقات المالية بين الفريقين المتعاقدين الساميين ، ينصّ فيها من جهةٍ على تسليم حكومة جلالة ملك بريطانيا إلى العراق ما يتفق عليه من المرافق العامة وعلى تقديم حكومة جلالة ملك بريطانيا مساعدةً ماليةً حسبما تقتضيه الحاجة في العراق ، من وقتٍ إلى آخر ، وينصّ فيها من جهةٍ أخرى على تصفية حكومة العراق تدريجياً جميع الديون المتكبدة في هذه السبيل، وتبلغ هذه الاتفاقية إلى مجلس عصبة الأمم .

---

(١) تُلاحظ الروح الصليبية .

(٢) يقصد بالآثار القديمة إبراز حضارة ، وإظهار التباين بين الأقاليم لترسيخ فكرة الانفصال والتجزئة لأمصار الأمة بعضها عن بعض .

المادة السادسة عشرة : يتعهد جلالة ملك بريطانيا على قدر ما تسمح له تعهداته الدولية بأن لا يضع عقبةً ما في سبيل ارتباط دولـة العراق لمقـاصد جمركية أو غيرها مع من يرغب في ذلك من الدول العربية المجاورة .

المادة السابعة عشرة : في حالة وقوع خلافٍ ما بين الفريقين الساميين المتعاقدين فيما يتعلق بتفسير نصوص هذه المعاهدة ، يعرض الأمر على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليهـا في المادة (١٤) من قـانون عصبـة الأمم ، وإذا وُجد في حالة كهذه أن هنـاك تناقضـاً في المعاهـدة بين النصّ الإنكليزي والنص العربي، يعدّ النصّ الإنكليزي هو المعوّل عليه .

المادة الثامنة عشرة : تصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول حالما تُصدّق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التـأسيسي ، ويظلّ معمولاً بها لمدة عشرين سنة ، وعند انتهاءِ هذه المدة تُفحص الحالة فإذا ارتأى الفريقان الساميان المتعاقدان أنه لم يبق من حاجةٍ إليها تعدّ منتهيةً ، ويكون تثبيت الانتهاء من قبل مجـلس عصبة الأمم ما لم تدخل المادة السادسة في حيز التنفيذ قبل ذلك التاريخ ، وفي الحالة الأخيرة يجب أن يبلغ إشعار الإنهاء إلى مجلس عصبة الأمم . ولا مانع للفريقين الساميين المتعاقدين من إعادة النظر من وقتٍ إلى آخر في شروط هذه المعاهدة ، وشروط الاتفاقيات المنفردة الناشئة عن المـواد (٧) و (١٠) و (١٥) بقصد إدخـال ما يـتراءى مناسبتـه من التعديلات حسبما تقتضيه الظروف الراهنة آنئذٍ ، وكـل تعديـلٍ يتفق عليه الفريقان المتعاقدان الساميان يجب أن يبلّغ إلى مجلس عصبة الأمم .

عـرضت مواد المعـاهدة عـلى مجلس الوزراء بتـاريـخ الأول من ذي القعـدة ١٣٤٠هـ (٢٥ حزيران ١٩٢٢م) فقرّر مجلس الوزراء قبول مواد المعـاهدة المذكورة المعدلة ، على أن تصبح نافذة المفعول حالما تصدّق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التأسيسي ، وأن يكون قبولها من مجلس الوزراء مقترناً بالشروع في الانتخابات لعقد المجلس التأسيسي .

غير أن وزير التجارة جعفر جلبي أبو التمن خالف بعض المواد واقترح :

١ ـ يجب النص على إلغاء الانتداب في مقدمة المعاهدة .

٢ ـ خالف المادة الثانية من المعاهدة لاعتقـاده أنها تتنافى مع إلغاء الانتداب .

٣ اقترح حذف الجملة الآتية من المادة الثالثة (الذي يجب أن يكون وفقـاً لنصوص هذه المعاهدة) .

٤ ـ اعترض على المادة الرابعة لاعتقاده أنها تتنافى مع إلغاء الانتداب .

٥ ـ اعترض على المادة الخامسة حيث رأى أن تقييد التمثيل الخارجي الوارد في هذه المادة ليس هو إلا مظهر من مظاهر الانتداب .

٦ ـ اعترض على المادة التاسعـة ، وقال : إنها مـظهر من مـظاهر الانتـداب أيضاً .

٧ ـ لم يوافق على قبول التعهدات الواردة في المادة العاشرة .

وفي اليوم التالي قدّم محمد جعفـر جلبي استقالتـه من الوزارة فقُبلت مبـاشرةً ، ثم قـرّر مجلس الوزراء إلغـاء وزارة التجـارة في ٢٧ ذي الحجـة ١٣٤٠هـ (٢٠ آب ١٩٢٢م) . وأخـذ الـوزراء يستقيلون حتى استقـالت الوزارة كلها ، ولم يُصدّق على المعاهدة إلا في عهد وزارة عبد الرحٰمن الكيلاني الثالثة وبعد أن بطش المعتمد السامي بالحركـة الوطنيـة يوم الثـاني من محرم ١٣٤١هـ .

الأحـــزاب :

تتشكّل الأحزاب عادةً للوصول إلى هدفٍ معين في سبيل تحقيق غايةٍ ، أو لتطبيق منهج محدد ، وينخـرط في الحزب الأشخـاص الذين يـرون رأياً واحداً ، ويسعون وراء غايةٍ ، ولما كانت المناهج ليست كثيرة التعدّد . لـذا فالأحزاب عادةً محددة وغالباً ما يكون في البلد الواحد حزبان فقط أو ثلاثة ، ويطرح كل منها منهجه ، ويعمل على تطبيقه ، وهو يعتقد أن هذا هو ما يخدم به الأمة ، وأن غيره لا يصلح للتطبيق أو قليل الفائدة ، والممارسة والتطبيق هو

المحك الصحيح لاختيار الأفضل ، ولذا فإن الأحزاب تتنافس لاستلام السلطة لتطبيق منهجها أو سياستها ، وإظهار صلاحيتها بما يعود على الشعب من أمنٍ وطمأنينةٍ ، ورفاهٍ اقتصادي ، وحريةٍ ، وتأمين حقوق الرعية كافةً .

أما في البلاد المتخلّفة فإن الأحزاب تتشكل لإظهار القوة ، وإبراز الشعبية الموهومة ، ذلك لأن كل شخصٍ معروفٍ في منطقته ، لأسرته ، أو ثروته ، أو وظيفته ، أو كرمه ، أو خدمته للناس ويظنّ لهذا أنه معروف على درجةٍ واسعةٍ في البلاد كلها ، ويتصوّر أن تزعّمه لحزبٍ سيحقق نجاحاً ، ويمكنه الوصول إلى السلطة بسهولةٍ ، لذا يعمل على تشكيل الحزب مُجرّد أن يُسمح له بذلك ، ومن هنا تأتي كثرة الأحزاب ، إذ تتعدّد حسب المدن ، والمناطق ، والمهن ، والطوائف ، وأحياناً الأسر ، وكلها تهدف إلى الزعامة والوصول إلى السلطة ، وغالباً ما تجعل لنفسها مطالب مؤقتةً تُسمّيها أهدافاً ، وليس لها أي منهجٍ ثابتٍ معينٍ ، فهي والحالة هذه ليست سوى تجمّعات سياسيةٍ غايتها تحقيق بعض المصالح لأتباعها عندما تحصل على بعض النجاح . ومن هذه المطالب استقلال البلاد ، إن لم تكن مستقلةً ، أو تجميع أبناء جنسٍ واحدٍ ، وهو ما يُعرف بالعصبية القومية ، أو إظهار الإخلاص للبلاد ، وهو ما يُعرف بالوطنية ، وكأن هذا اتهام للآخرين جميعاً أنهم غير وطنيين أو غير مخلصين ، وغالباً ما تفقد الوطنية معناها إن لم يكن هذا التجمع الذي يحمل هذا الاسم غير وطني أو له ارتباطات خارجية . لذا فإن أكثر أحزاب البلاد المتخلّفة تبدأ بحمل مثل هذه الأسماء إذ ليس لها منهج معين في الحكم . وإذا ما حصلت البلاد على الاستقلال ، أو حقّقت المطالب التي كانت تسعى لها فإن هذه الأحزاب كانت تضيف إلى أسمائها ألقاباً لا تدلّ على أي منهجٍ ، وإن كانت تظنّ أنها منهج أو تدّعي ذلك لإيهام المواطنين ، كأن تُضيف الاشتراكي ، والديمقراطي ، والحرّ ، وهكذا، وهذا ما نلاحظه في معظم الأحزاب التي نشأت ، أو غيّرت أسماءها بعد الحصول على (الاستقلال التام) في البلدان المتخلّفة وبشكلٍ عامٍ بعد الحرب العالمية الثانية .

تأسّس في العراق أحزاب وجمعيات سرّية أو علنية عملت تحت عنوانٍ أدبي أو علمي أو ثقافي قبل الحرب العالمية الأولى ، أو انضمّ أفراد إلى جمعيات أو أحزابٍ من هذا النوع أيضاً تأسّست خارج حدود العراق الحالية ، وأكثرها كان يهدف إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وتجزئة دولة الخلافة وذلك بدافعٍ ذاتي نتيجة الضعف والجمود اللذين سادا الدولة آنذاك ، أو الضغط وعدم الحرية بسبب تغلغل النفوذ الأجنبي يومذاك ، أو الانبهار بالتقدّم الأوربي المادي الذي بد في تلك الآونة ، أو بدافع توجيهٍ خارجي من قبل أعداء الدولة لحقدٍ صليبيٍ ولإضعاف خصمهم الأول الذي كان يتمثّل بدولة الخلافة ، ويأتي هذا التوجيه إما مباشرةً وإما عن طريق أعوان الصليبيين من أهل الكتاب الذين يقيمون في البلدان العربية ، ويعيشون من زمنٍ بعيدٍ بين المسلمين بكل أمن وطمأنينةٍ ، وإن أصبحت لهم امتيازات خاصة مع قوة الدولة الأوربية النصرانية .

وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق أخذت تظهر تجمّعات بمناسبة احتفالات بالمولد النبوي على الطريقة التي كانت معروفة يومذاك كتقليدٍ للنصارى الذين يحتفلون بميلاد المسيح عليه السلام ـ حسب زعمهم ـ وبهذه الاحتفالات يحدث التجمّع والأحاديث السياسية التي تتعلّق بالبلاد ، غير أن وزارة الداخلية قد منعت أي تجمعٍ ما لم يحصل على إذنٍ من الحكومة وذلك في ٧ ذي القعدة من عام ١٣٤٠هـ (٢ تموز ١٩٢٢م) وكانت الحكومة قد أقرّت ذلك في جلستها المنعقدة بتاريخ ٤ ذي القعدة من العام نفسه .

وأخيراً سمح بتأسيس الأحزاب فنشأ .

١ ـ **الحزب الوطني العراقي** : سُمح بتأسيسه بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (٢ آب ١٩٢٢م) ، وكان مؤسسوه ، محمد جعفر جلبي أبو التمن ، وبهجت زينل ، ومهدي البصير ، وعبد الغفور البدري ، وحمدي الباجه جي ، ومولود مخلص ، وأحمد الداود .

وقام بمظاهراتٍ في الأول من محرم ١٣٤١هـ ، فأعلن المعتمد السامي

(برسي كوكس) حظره .

٢ ـ حزب النهضة العراقي : أخذ الموافقة بالتأسيس بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب ١٩٢٢م) ، وكان مؤسسوه : أمين الجرحفجي ، أحمد الظاهر ، ومهدي البير ، وآصف وفائي ، وعبد الرسول كبه ، وعبد الرزاق الأزري ، ومحمد حسن كبه .

وقام بمظاهراتٍ في الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) فأعلن المندوب السامي (برسي كوكس) حظره ، أي كانت مدة نشاطه خمسة أيام فقط .

٣ ـ الحزب الحرّ العراقي : وتأسّس في ١١ المحرم ١٣٤١هـ (٣ أيلول ١٩٢٢م) ، وكان برئاسة محمود الكيلاني أكبر أولاد رئيس الوزراء ، ومن مؤسسيه : داود النقيب ، وفخري جميل ، وحسن غصيبه ، وعبد المجيد الشاوي ، وجميل صدقي الزهاوي .

ويعدّ الحزبان الأوليان من المعارضين ،وقد انضمّ إلى صفوفهم الكثير ، على حين كان الحزب الثالث من المؤيّدين للحكومة فكان أتباعه قلّة ، فالناس بطبيعتهم يميلون إلى النقد والمعارضة .

وقد انتهى دور الحزب الحر العراقي بعد التصديق على المعاهدة في ٢١ صفر ١٣٤١هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٢٢م) .

المرحلة الأولى من الانتخابات : بعد إذاعة المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية انصرفت الحكومة إلى انتخابات المجلس التأسيسي لوضع الدستور ، والتصديق على قانون انتخابات مجلس النواب ، والتصديق على المعاهدة . غير أن العلماء قد أعلنوا مقاطعة الانتخابات ، وأبدوا ضرورة عدم الاشتراك فيها ما لم يتمّ :

١ ـ إلغاء سياسة الضغط التي يُمارسها المعتمد السامي ، وقد أسموها يومذاك الإدارة العرفية .

٢ ـ إطلاق حرية الاجتماعات والمطبوعات .
٣ ـ سحب المستشارين من الألوية إلى بغداد .
٤ ـ السماح بتأليف الجمعيات .
٥ ـ السماح بإعادة المنفيين السياسيين إلى وطنهم .

وتقرر البدء في الانتخابات في غرة ربيع الأول ١٣٤١هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٢٢م) .

مؤتمر لوزان :

سافر إلى لوزان كل من وزير الدفاع جعفر العسكري ، وتوفيق السويدي لحضور مؤتمر الصلح مع تركيا في لوزان بسويسرا ، وكان سفرهما في ١٢ ربيع أول ١٣٤١هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

استقالة الوزارة : كان عبد المحسن السعدون وزير الداخلية ذا حماسةٍ لإجراء الانتخابات ، وكان يتخذ سياسة الشدّة ، فلم يُوافقه زملاؤه الوزراء على هذا ، فقدّم استقالته من الوزارة في ١٦ ربيع الأول ١٣٤١هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٢٢م) ، وصدرت إرادة ملكية بإسناد وزارة الداخلية بالوكالة إلى مستشار وزارة الداخلية (كرنواليس) وذلك في ٢٤ ربيع الأول . غير أن رئيس الوزارة قد قدّم استقالة حكومته في ٢٦ ربيع الأول .

وعهد الملك إلى عبد المحسن السعدون بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ في ٢٨ ربيع الأول فشكّلها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تم تشكيل الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
=

إلغاء المعاهدة :

في ١٤ رمضان ١٣٤١هـ (٣٠ نيسان ١٩٢٣م) جرى اتفاق بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية على أن ينتهي مفعول المعاهدة حين دخول العراق عصبة الأمم المتحدة ويجب ألا يتجاوز ذلك أربع سنوات .

وقد أُلحق هذا الاتفاق بالمعاهدة ، كما أُلحقت بها الاتفاقيات المنفردة وذلك لتقديمها إلى المجلس التأسيسي معاً ، وتخصّ الاتفاقيات المنفردة ، الموظفين الإنكليز ، والشؤون العسكرية ، والعدلية ، والمالية .

هنري دوبس : في ١٢ رمضان ١٣٤١هـ (٢٨ نيسان ١٩٢٣م) انتهت أعمال المعتمد البريطاني (برسي كوكس) وحلّ محله (هنري دوبس) الذي وصل إلى البلاد .

بداية القضية الكردية :

في جلسة مجلس الوزراء التي انعقدت يوم ٢٨ ذي القعدة ١٣٤١هـ (١١ تموز ١٩٢٣م) وبعد زيارة رئيس مجلس الوزراء إلى منطقة السليمانية تقرّر ما يلي :

١ ـ إن الحكومة لا تنوي تعيين أي موظفٍ عربيٍ في الأقضية الكردية عدا الموظفين الفنيين .

= ٦ ـ عبد اللطيف المنديل : وزيراً للأوقاف .

٧ ـ نوري السعيد : وكيلاً لوزارة الدفاع .

ثم جرت تعديلات على مدار العام الذي استمرت فيه الوزارة حيث :

١ ـ تسلّم رئيس الوزراء وزارة العدلية بالوكالة .

٢ ـ تسلّم ياسين الهاشمي وزارة الأوقاف بالوكالة .

٣ ـ تسلّم ناجي السويدي وزارة العدلية وترك وزارة الداخلية .

٤ ـ تسلّم رئيس الوزراء وزارة الداخلية .

٥ ـ عُيِّن نوري السعيد وزيراً للدفاع .

٢ ـ إن الحكومة لا تُجبر سكان المناطق الكردية على استعمال اللغة العربية في مراجعاتهم .

وهذا القرار خطأ فإن المناطق الكردية جزء من أرض العراق ، يُعيّن فيها الموظف الكفء سواء أكان كردياً أم عربياً بغضّ النظر عن أصله ، وكذلك يُعيّن الكردي في أي منطقةٍ كانت سواء في منطقته أم خارجها حسبما تقتضي المصلحة .

والعراق أكثر سكانها من العرب ، ولغتهم هي اللغة الرسمية ، ويجب أن تسود البلاد كلها رضي أهل منطقة أم لم يرضوا ، وخاصةً أن الأكراد مسلمون واللغة العربية أساسية للعبادة وقراءة القرآن ، فيجب أن يحفظوها ويتعلّموها ، وهذا ما يُخفّف من الفكرة العصبية .

إن اتخاذ هذه القرارات وأمثالها قد أوجد الفكرة الانفصالية ورسّخها مع الزمن ، وأبعد الأكراد عن عقيدتهم ، وجعل العصبية القومية تحلّ محلّها تدريجياً ، فعانت البلاد بعدئذ الويلات منها وخاصةً عندما نشأت العصبية القومية عند العرب ، فغدا تناحر بين العصبيات يصعب إزالته إلا بالعودة إلى العقيدة التي تجمع بين الطرفين ، وكان هذا يجب أن يوجد منذ المرحلة الأولى ، غير أن الجهل ، واتخاذ القرارات دون النظر إلى ما ستؤدّي إليه قد أوصل العراق إلى ما هو عليه الآن .

وزارة جعفر العسكري : عانت العراق أزمةً ماليةً أيام وزارة عبد المحسن السعدون ، ولم تتمكّن من حلّها ، فاقتضت الأمور الإسراع في الانتخابات لتشكيل المجلس التأسيسي ، وبالتالي مجلس النواب كي يُعالج هذه الأزمة . وقدّم رئيس الحكومة عبد المحسن السعدون استقالة حكومته في ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣م) ، فعهد الملك إلى جعفر العسكري بتأليف حكومةٍ جديدةٍ بعد أن استدعاه من الموصل الذي كان قد

كلّف بإدارة لوائها قبل أسبوعين فقط . وقد ألّف الحكومة في اليوم نفسه[1] .

المرحلة الثانية من الانتخابات : كانت الانتخابات على مرحلتين ، وقد تمّت المرحلة الأولى في عهد وزارة عبد المحسن السعدون ، وانتخب السكان المرشحين الثانويين . وجرت المرحلة الثانية يوم ٢٠ رجب ١٣٤٢هـ (٢٥ شباط ١٩٢٤م) وقد أعلنت عن ذلك وزارة الداخلية قبل عشرة أيام .

جرت عملية الانتخاب ، وتشكّل المجلس التأسيسي ، وتمّت جلسة الافتتاح في ٢١ شعبان ١٣٤٢هـ (٢٧ آذار ١٩٢٤م) ، وانتخب عبد المحسن السعدون رئيساً للمجلس .

وفي ٢٨ شعبان قدّم رئيس الوزراء جعفر العسكري إلى رئيس المجلس التأسيسي عبد المحسن السعدون المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية والاتفاقيات الملحقة بها .

المعاهدة العراقية ـ البريطانية : أُحيلت المعاهدة إلى لجنةٍ مؤلفةٍ من خمسة عشر عضواً للتدقيق فيها ، ووُزّعت نسخ منها على أعضاء المجلس التأسيسي الذين كان عددهم مائة ، وقد جرت مناقشات كثيرة حول المعاهدة ، فالمعارضة تريد التعديل ، والمؤيّدون للحكومة يرون أنفسهم مضطرين للتصديق على المعاهدة خوفاً من التهديدات البريطانية التي لم تنقطع ، تارةً يحملها المعتمد السامي ، وأخرى ترسلها الحكومة البريطانية .

واجتمع المجلس يوم ٢٩ شوال ١٣٤٢هـ (٢ حزيران ١٩٢٤م) فلم يحضر الجلسة سوى ثلاثة وستين عضواً ، وتكلّم المعارضون ، وقسوا على

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جعفر العسكري : رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد المجيد شلاش : وزيراً للمالية .
٤ ـ أحمد الفخري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٦ ـ صبيح نشأت : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

ثم عُيّن صالح باش أعيان وزيراً للأوقاف ، ومحمد حسن أبو المحاسن وزيراً للمعارف .

المؤيّدين ، واستمرت المناقشة أربع جلسات طويلة ، وفي يوم ٨ ذي القعدة ١٣٤٢هـ (١٠ حزيران) طالت الجلسة ، فاقترح بعضهم تأجيل المصادقة على المعاهدة حتى ينتهي أمر الموصل ، واقترح بعضهم الآخر التأجيل إلى الغد ، حتى إن رئيس الوزراء قد طلب من رئيس المجلس التأسيسي التأجيل إلى الغد ، فتأجّلت الجلسة ، وتضايق المعتمد السامي ، وأعدّ مذكرة يطلب فيها إصدار تشريع بحلّ المجلس التأسيسي، وإصدار أمرٍ باحتلال بناء المجلس وما يحيط به . ونتيجة الضغط فقد دعي المجلس إلى جلسةٍ فوق العادة قبل منتصف الليل ، وأكره الأعضاء على الحضور ، فاجتمع تسعة وستون عضواً من أصل مائة عضو ، قبل منتصف الليل ، وأحاطت القوات المسلحة بالبناء ، ومنعت اقتراب أحدٍ ، وفُتحت الجلسة ، وبدأ التصويت ، فأيّد سبعة وثلاثون ، وعارض أربعة وعشرون ، واستنكف ثمانية أعضاء ، وبذا تمّ التصديق على المعاهدة .

ولكن الشعب كان ساخطاً على هذه المعاهدة وعلى الذين أيّدوها .

وفي ٨ صفر ١٣٤٣هـ (٢٧ أيلول ١٩٢٤م) رفعت الحكومة البريطانية المعاهدة والاتفاقيات الملحقة بها إلى عصبة الأمم فوافقت عليها ، وصادق عليها الملك جورج الخامس ملك بريطانيا في العاشر من تشرين الثاني ١٩٢٤م (١٣ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ) ، وصادق عليها الملك فيصل في ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ (١٢ كانون الأول ١٩٢٤م) .

انتهاء مدة المجلس التأسيسي : كانت مدة المجلس التأسيسي أربعة أشهر تنتهي في ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (٢٦ تموز ١٩٢٤م) ، وقد انقضت المدة ، ولم يُنجز سوى التصديق على المعاهدة ، وقد رأينا كيف انتهى ذلك التصديق على تلك العجالة ، والجلسة فوق العادية ، والتهديدات التي رافقت ذلك كله ، وصادق أيضاً على الدستور العراقي قبل انتهاء المدة . أما المهمة الثالثة التي وجد من أجلها وهي المصادقة على قانون الانتخابات فلم تُنجز ،

وهذا ما استدعى إلى إطالة مدته حتى ١٠ المحرم من عام ١٣٤٣هـ (١٠ آب ١٩٢٤م) ، وقد صادق على هذا القانون في ٢ محرم ١٣٤٢هـ (٢ آب ١٩٢٤م) ، ثم صدرت الإرادة الملكية بانتهاء مهمته وحُلّ .

وزارة ياسين الهاشمي : كان جعفر العسكري قد قدّم استقالة حكومته من ٢٧ رمضان ١٣٤٢هـ (الأول من أيار ١٩٢٤م) أي قبل أن يُنهي المجلس التأسيسي أية مُهمّةٍ من مُهمّاته الثلاث ، وذلك بسبب الهجوم العنيف عليه ، وبسبب الأزمة المالية ، ثم سحب استقالته بعد أن أخذ عهداً من المعارضة بدعمه ، فلما أنهى المجلس التأسيسي مُهمّته قدّم جعفر العسكري استقالة حكومته فعهد الملك إلى ياسين الهاشمي بتشكيل وزارة جديدة[1] في الأول من عام ١٣٤٣هـ . على حين كان وزير الدفاع نوري السعيد قد قدّم استقالته ٢٧ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (٢٩ تموز ١٩٢٤م) وقُبلت الاستقالة ، وأُسندت وزارة الدفاع إلى رئيس الوزراء جعفر العسكري .

كان ياسين الهاشمي من الذين يُعارضون المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وكان رئيساً للجنة التي أبدت عُوار المعاهدة ، وقد اختير لرئاسة الوزارة لإمكانية إدخال تعديلاتٍ عليها .

رفعت الوزارة الرقابة عن المراسلات البريدية والبرقيات . وشكّلت لجنةً وزاريةً برئاسة رئيس الوزراء وعضوية وزراء الداخلية ، والأشغال ، ومستشاري الداخلية والمالية للنظر في المسائل الآتية :

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ ياسين الهاشمي : رئيساً للوزراء ، ووزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ عبد المحسن السعدون: وزيراً للداخلية . ٥ ـ مزاحم أمين الباجه جي : وزيراً للأشغال .

٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية . ٦ ـ إبراهيم الحيدري : وزيراً للأوقاف .

٤ ـ رشيد عالي الكيلاني: وزيراً للعدلية . ٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .

وتسلّم نوري السعيد وكيل القائد العام بناءً على رأي الملك بصفته القائد الأعلى للجيش ، وكان يرغب تسليمه وزارة الدفاع ، ولكن حالت دون ذلك موانع .

١ ـ تقرير العدد اللازم من الموظفين البريطانيين الذين يجري استخدامهم بموجب مُقاولات أو بغيرها في دوائر الدولة جميعها .
٢ ـ بيان مدة الاستخدام .
٣ ـ انتقاء الموظفين .

واستطاعت أن تُخفّف الكثير عن كاهل الخزينة بعد خلافٍ مع المعتمد السامي .

الانتخابات : نُشر قانون الجنسية العراقية في ١٠ ربيع الأول ١٣٤٣هـ (٩ تشرين الأول ١٩٢٤م)، ونُشر قانون الانتخابات في ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ، وقد تأخّر الإعلان عن هذا القانون بتلاعبٍ من الإنكليز الذين رغبوا أن يتولّى مجلس الوزراء منح شركة النفط التركية امتياز التنقيب عن النفط ، واستخراجه في العراق ، فإن ذلك أولى من أن يتولّى هذا الأمر المجلس النيابي الذي لا تعرف تركيبه . وكان القانون يقضي بمباشرة الانتخاب للدورة الأولى من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية . كما كان يقضي بأن يُعطى النصارى مقعدين في الموصل ، ومقعداً واحداً في كل من لوائي بغداد والبصرة ، أما اليهود فيعطون مقعدين في لواء بغداد ، ومقعداً واحداً في كل من لوائي البصرة والموصل بغضّ النظر عن عددهم ، أي أن أهل الكتاب يشغلون ثمانية مقاعد ، لكل طائفةٍ منهم أربعة مقاعد .

وانتهت عملية انتخاب المرشحين ، وكان يتفق على تعيينهم الملك ووزير الداخلية ، ومن ورائه المستشار البريطاني ورئيس الوزراء .

وصدرت الإرادة الملكية باختيار أعضاء مجلس الأعيان في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (٧ تموز ١٩٢٥م) وتعيين يوم ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (١٦ تموز ١٩٢٥م) موعداً لافتتاح مجلس الأمة .

وقبل أن يجتمع مجلس الأمة كان ياسين الهاشمي قد قدّم استقالة حكومته إذ انتهت مهمتها بإجراء الانتخابات ، وعهد الملك بتأليف الوزارة إلى

عبد المحسن السعدون ، وزير الداخلية في الحكومة المستقيلة .

إلغاء الخلافة : كان كثير من العراقيين يتصوّر أن دولة الخلافة ستعود إلى العراق، ولا يمكن أن تترك الإنكليز الصليبيين يتحكّمون في شؤون المسلمين ، وقد مرّت العراق بصراعاتٍ طويلةٍ بين الدولة العثمانية وجيرانهم في الشرق ، فلما أعلن العثمانيون تسلّمهم الخلافة بعد دخولهم مصر ، وتنازل المماليك لهم عنها بذلوا جهدهم لإنقاذ العراق من خطر الرافضة وقد تمكّنوا ، وإن هُزموا مراتٍ غير أنهم انتصروا في النهاية ، وثبّتوا أقدامهم ، واليوم لا يُمكنهم التنازل عنها للإنكليز ، وإن هُزموا مؤقّتاً فإنهم سيعودون إليها . ومن هذا المنطلق فقد بقي زعماء كبار يرفضون الوضع القائم في العراق سرّاً ، وأحياناً تصل الأمور إلى مرحلة العلنية ، وقد كان يُعرف من بعضهم هذا رغم تسلّمهم مناصب عليا وحسّاسة في الدولة .

ومن هذا المنطلق أيضاً كانت الأقليات في العراق ساكنةً تنتظر عودة العثمانيين إليها ، وهي في وضعها الحالي لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، إذ أنها ضمن بحرٍ واسعٍ من المسلمين فهي فئة صغيرة لا يُمكنها فعل شيءٍ إن أرادت ، فإن كانت هذه الأقليات من شعوب مُسلمةٍ كالأكراد والأتراك فإن شأنهم شأن بقية الشعوب المسلمة كالعرب والفرس وغيرهم ما دام الحكم إسلامياً ، وهو يحضن الجميع ، ويجمع الكل . وإن كانت غير إسلاميةٍ كالآشوريين ، واليزيديين ، وربما الرافضة أحياناً وسواء أكانوا من العرب أم من غيرهم فهم فئة قليلة لا وزن لها لتتحرّك وسط البحر الزاخر بالمسلمين .

فلما ألغى مصطفى كمال الخلافة بتوجيهٍ من الإنكليز وغيرهم من الصليبيين في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وأعلن قيام الدولة التركية ، وحدّدها بالبقاع التي ينتشر فيها الشعب التركي ، وأقامها على أساس العصبية القومية فإن الفكرة الانفصالية بدأت تترسّخ في النفوس ، وتبرز فكرة ما عُرف باسم (الوطنية) ، وإذا كانت فكرة العصبية العربية (القومية) لم تبرز بعد بشكل واضح إلا أن المؤشّرات كلها تُشير إلى أنها ستظهر عاجلاً أو

آجلاً ، إنه منذ أن سيطرت جميعة الاتحاد والترقي على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية ، وتبنّت فكرة القومية الطورانية (التركية) نشأ ردّ فعلٍ في المناطق العربية دون تحديد هدفٍ حتى اختلط على الكثير الأمر ، ولم يستطع بعضهم التفريق بين الإسلام والدعوة إلى العصبية الجاهلية ما دامت تحمل اسم العرب . والآن وقد قامت دولة على أساس العصبية القومية بشكلٍ رسميٍ ، ألا يحدث ردّ فعلٍ من الجوار ؟ وخاصةً أنّه تكوّنت بذور هذا الخلاف في السنوات العشرين الماضية ، وأن تاريخاً مشتركاً امتدّ عدّة قرونٍ كان يجمع الأمة . إن العصبيات القومية المتجاورة لا يمكن أن تتعايش ما دامت كل منها ترفع قومها فوق غيره ، وتنسب له مفاخر ، وتحرم الآخرين منها بل كثيراً ما تلصق بغيرها صفات القبح وما لا ترضاها لنفسها .

عندما حدث إلغاء الخلافة شعرت الأقليات أنه قد أصبح لها وزن في هذا الكيان الجديد ، والصغير بالنسبة إلى الدولة العثمانية ، وما دام قد أصبح لهذه الأقليات وزن ، إذن يمكنها أن تتحرّك ، ويجب أن تُبدي رأيها ، ومن هنا نشأت الحركات ، وبرزت فكرة الأقلّيات .

فالترك مسلمون ، الأمر واحد عندهم من ناحية العقيدة سواء انضمّوا إلى تركيا أم إلى العراق ، ولكن ما دام الأمر عصبيات فهم يفضّلون الانضمام إلى تركيا ، وإن نسبتهم قليلة في العراق لذا فلن يكون لهم وزن ، ومن الخير لهم إلحاقهم بتركيا .

والأكراد مسلمون ، والأمر واحد عندهم من ناحية العقيدة سواء انضمّوا إلى تركيا أم إلى العراق ، ولكن ما دام الأمر عصبيات ، وكل عصبيةٍ شكّلت لنفسها دولةً ، فلماذا وُزّع الأكراد بين عدة دول ؟ في العراق ، وتركيا ، وإيران ، وأذربيجان (التي تحت سيطرة الروس) لهم وزن في كل هذه الدول ، ولهم أيضاً أقلّية في سوريا ، فلماذا لا يجتمع هؤلاء كلهم في دولةٍ واحدةٍ ، ما دام الأمر عصبيةً ؟ لماذا التخطيط كله ضدّ الأكراد ؟ لذا يجب أن نعمل لتوحيد الأكراد في دولةٍ واحدةٍ ، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب ،

ومن هنا كانت الفكرة العصبية عنيفةً حتى طغت على الفكرة الإسلامية ، ومع ذلك بقي الأكراد يقولون : إذا أراد الجميع اللقاء على أساس الإسلام فنحن على استعدادٍ ، وشأننا شأن بقية الشعوب الإسلامية (ولكن هذا أخذ يضعف مع الزمن) ، ولكن إذا أبى الآخرون إلاّ العصبية القومية فشأننا شأنهم أيضاً ، وإننا نناضل من أجل قيام دولتنا .

والفرس مسلمون ، ولكن نسبتهم ضعيفة جداً ، وهم يفضّلون الانضواء تحت سلطان إيران ما دامت القضية عصبيةً ، وليست عقيدةً .

هذا بالنسبة إلى المسلمين من غير العرب . أما بالنسبة إلى الأقليات الدينية ، فإن ضعف نسبة اليهود والنصارى تجعلهم لا يستطيعون الحركة غير أنهم من أتباع الإنكليز ، والصليبيين عامةً ، بل هم أعوان لكل عدوٍّ للإسلام ، وقد تحرّك الآشوريون في الشمال ، وأراد اليزيديون إثارة القلاقل رغم ضعف نسبتهم أيضاً . وكانت روابط تربط الرافضة إلى إيران ، وتشدّهم إليها ، ولعلّ أهم ما تعرّضت له العراق في تلك الحقبة من حركات الأقليات .

١ ـ حركة محمود المعروف : أحد الزعماء الأكراد الذين برزوا في منطقة السليمانية ، وكانت لهم شعبية واسعة ، فعندما انسحب العثمانيون من بغداد ، ودخلها الإنكليز في الحرب العالمية الأولى ، ثم استولوا على مدينة كركوك ، أراد القائد العثماني علي إحسان باشا أن يستفيد من نفوذ محمود المعروف ، فأمدّه بالمال ، وطلب منه أن يحكم المنطقة باسم الدولة العثمانية ، وأصدر أوامره للفوج العثماني المرابط في المنطقة أن يكون تحت تصرّف محمود المعروف ، وبذا أصبح هذا الزعيم الكردي سيد المنطقة ، فالإنكليز لم يدخلوا إلى منطقته ، والعثمانيون خرجوا منها ، وابتعدوا عنها .

لاحظ محمود المعروف أن القوة قد أصبحت للإنكليز ، وأن منطقته فقيرة لا يمكنها الاكتفاء الذاتي ، وإذا بقي محصوراً مع أتباعه فيها فإنما يقضي على نفسه بالخنق ، لذا فقد استشار أتباعه ، واتفقوا على الصلة بالإنكليز ، فكتب

محمود المعروف إلى (ولسن) القائد الإنكليزي في كركوك يطلب منه أن يتخذ الإنكليز قراراً بتشكيل حكومةٍ في السليمانية برئاسة محمود المعروف ، وهو على استعداد أن يُدير المنطقة بتوجيه الإنكليز ، وفي ظل انتدابهم ، فوافقوا على ذلك ، وتمّ الأمر ، وتسلّم الإنكليز الفوج العثماني .

عيّن الإنكليز محمود المعروف حاكماً على لواء السليمانية براتبٍ قدره خمسة عشر ألف روبية ، ووضعوا بجانبه مستشاراً إدارياً هو النقيب (نوئيل) ومستشاراً عسكرياً هو النقيب (دانليس) . وشعرت حكومة بريطانيا أن الحكومة الكردية هذه ليست سوى إدارةٍ تابعةٍ لها ، فأخذت تتصرّف كما تشاء فيها ، وتُخطّط للمستقبل ، وتنظر إلى مصلحتها التي تقضي بأن تُقلّل من نفوذ محمود المعروف فبدأت تسير بهذه الخطة ، وأحسّ الزعيم الكردي بذلك ، فأعلن سيطرته على السليمانية ، واحتلّها ، وأخذ الضباط الإنكليز الذين فيها أسرى وذلك في ٢١ شعبان ١٣٣٧هـ (٢١ أيار ١٩١٩م) ، وجعل لنفسه علماً خاصاً يُمثّل هلالاً أحمر وسط أرضيةٍ خضراء ، وشرع في إصدار طوابع بريديةٍ خاصةٍ بدولته ، وقام بهجومٍ كاسحٍ على الجيش المرابط في مضيق (طاسلوجة) وتمكّن من السيطرة على المنطقة ، وأخذ كل القوات التي فيها أسرى ، وكذلك سيطر على مضيق (دربند) .

سيّر الإنكليز إلى محمود المعروف الفرقة الثامنة عشرة بقيادة الجنرال (فريزر) ، فحاصرته في مضيق (دربند) بمعاونة بعض زعماء الأكراد الذين يُؤيّدون السلطات الإنكليزية في العراق ، واستطاعت إلقاء القبض عليه بعد أن أثخنته الجراح وذلك في ٢١ رمضان ١٣٣٧هـ (١٩ حزيران ١٩١٩م) . وقُدّم للمحكمة التي قضت عليه بحكم الإعدام ، ثم خُفّف الحكم بالسجن المُؤبّد ، ونفي إلى الهند ، حيث بقي هناك ثلاث سنوات ، وأُعيد بعدها إلى السليمانية ، حيث رجع الانكليز ، وسلّموه حكم المنطقة مرةً أخرى ، فعاود إعلان استقلاله فيها ، فجرّد الجيش العراقي حملةً عليه احتلّت مدينة السليمانية في ١٧ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (١٩ تموز ١٩٢٤م) ولكن محمود المعروف لم

يلبث أن طرد الجيش العراقي منها . وإثر ذلك جاءت حكومة ياسين الهاشمي إلى السلطة في الأول من المحرم ١٣٤٣هـ ، فأرسلت إلى الأكراد قوةً مُعزّزةً بالطائرات الإنكليزية فشتتت شملهم .

إن الأمور العقيدية والفكرية لا تحلّ بالسيف على هذه الصورة . قد يصلح السيف كحلٍ بصورةٍ موقتةٍ عندما تتفاقم الأوضاع على أن يعقب ذلك حلّ فكري ، وتوضيح عقيدي يقضي على المشكلة من جذورها . لكن هذه المشكلة ساهمت فيها قوى بعضها خارجي ، وبعضها داخلي حتى بقيت على الصورة التي نعرفها على مدى ما يقرب من القرن ، ولا ندري بعد ما سيكون من أمر هذا الشعب الذي يُتخذ وسيلةً لتنفيذ المخططات ، وعنده استعداد ليكون أداة لذلك لشعوره بالظلم الذي يُحاك ضدّه من كل جهةٍ .

وهذه القوى الثلاث هي : الأكراد أنفسهم ، والدول الكبرى ، والحكم العراقي .

أما **الأكراد** فقد كانوا يعيشون ضمن الدولة الإسلامية كشعبٍ من الشعوب التي تتألّف منهم الأمة الإسلامية التي تُمثّلها دولة الخلافة ، وكان آخرها الدولة العثمانية ، ورغم كل ما تمّ من مخالفات أيام هذه الدولة إلا أن الأكراد كانوا راضين يعيشون في مناطقهم شأنهم شأن بقية الشعوب مع وجود حركاتٍ محليةٍ أو مخالفاتٍ كما يحدث في بقية الشعوب أحياناً ، بل كثيراً ما استخدم الأكراد بصفتهم أقوياء الشكيمة محاربون من الدرجة الأولى أداةً لخضد شوكة الأرمن الذين يتحرّكون ضدّ دولة الخلافة بتحريضٍ من الدول الأوربية النصرانية ، وبصفتهم يحملون عقيدةً تُخالف عقيدة الدولة بل تُعاديها ، وتحمل حقداً صليبياً دفيناً ضدّها ، وتتعصّب لذلك أشدّ التعصّب بل تعصّب عقيدي إضافةً إلى تعصّبٍ عرقيٍ . والأكراد قوم يُجاورون الأرمن ، ويُخالفونهم عقيدةً وجنساً ، فعندما يتمادى الأرمن في أذاهم وحركاتهم تحرّض الدولة عليهم الأكراد ، فيُقاتلونهم ويُلزمونهم على الطاعة . وتفعل الدولة ذلك كي لا تظهر أمام الدول النصرانية أنها تُحارب الأرمن فيتخذون من ذلك ذريعةً

للتدخّل في شؤونها وقتالها ، ولكن تدّعي أن فئتين من شعوبها اختلفتا ودخلتا في صراعٍ ، وربما لجأت الدولة إلى إنزال بعض العقوبات بالأكراد تأكيداً لما تدّعيه ، وإظهاراً لعدم التمييز بين الشعوب التي تُكوّن الدولة العثمانية . فالشعب الكردي شعب مسلم راضٍ بحكم أي شعبٍ آخر باسم الإسلام .

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، وتجزأت الدولة العثمانية ، وقام كل شعبٍ يدعو إلى عصبيةٍ معينةٍ بل أحياناً كل إقليم وذلك تحت تأثير الأعداء ليتمكنوا من تفتيت الدولة حقاً ، ولا تُفكّر الشعوب الإسلامية بعدها بالتجمّع باسم الإسلام ما دام كل شعبٍ يحمل عصبيةً معينةً يدعو لها ، ويتعصّب لها ، ويجعلها فوق العصبيات الأخرى ، وينسب لها كل صفات الخير ، ويُلصق بغيرها ما لا يريده للعصبية التي يحملها ، وبذا تصبح المنافرة والمخالفة ، ويصبح الصراع ، ويقع الخلاف ، وربما أدّى ذلك إلى حرب .

ووجد الشعب الكردي نفسه مضطراً ليسلك السلوك نفسه حيث لم يبق سواه مُوزّعاً بين بقية الشعوب ، وفي كل مكانٍ هو المحكوم من قبلها ، بل يتصوّر نفسه أنه المضطهد من ناحيتها . فلما وضعت الحرب أوزارها ، وقامت الشعوب تدعو إلى العصبية القومية تحت تأثير وتوجيه الأعداء في سبيل تنفيذ مخططاتهم بتقطيع أوصال دولة الخلافة ، وكما قامت الشعوب قام الشعب الكردي ، واتصل بقادة الحلفاء وشكّل وفداً برئاسة شريف باشا ، وبعثةً إلى مؤتمر الصلح المنعقد في باريس ، وقدّم شريف باشا مذكرةً لمجلس الحلفاء الأعلى في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٢٢ آذار ١٩١٩م) ، طالب فيها بجمع الأكراد في دولةٍ واحدةٍ واستقلالها .

فالأكراد وقعوا إذن في شراك العصبية كغيرهم من الشعوب بل تمسّكوا فيها بشكلٍ أقوى نتيجة ظلم الشعوب الأخرى لهم ، وقد حلّت عندهم محلّ الرابطة الإسلامية ظناً منهم أن ظلم هذه الشعوب لهم كانت باسم الإسلام ، ما دامت تنتمي إليه ، وحتى أصحاب الفكرة الإسلامية قد وقعوا في هذا الشراك على حين أن أصحاب الاتجاه الإسلامي عند بقية الشعوب قد سلموا

من هذه العصبية ، وبقوا ينظرون إليها على أنها جاهلية .

أما الدول الكبرى فإنها كانت ترغب إضافةً إلى تقسيم الأمة الإسلامية إلى دولٍ وأمصار أن تبقى هذه الدول في صراعاتٍ فيما بينها باستمرارٍ كي لا تُفكّر بالتجمّع والوحدة بعضها مع بعضٍ ، بل فيما لو فكّرت جماعة بهذا نتيجة اتجاهها الإسلامي لاتُّهمت بعدم الإخلاص بسبب الخلافات القائمة بين الأمصار ، ولعدّت أنها لا تنظر إلى مصلحة البلاد .

وجدت الدول الكبرى في الأكراد خير ما يُحقّق لها أهدافها ، فهم أولاً أصحاب قوةٍ بسبب طبيعة بلادهم الجبلية ، ومن الصعب التفاهم معهم بسهولةٍ للسبب نفسه ، وثانياً فإن مناطقهم عند التقاء ثلاثة شعوبٍ وهي الشعب العربي ، والتركي ، والفارسي فبتقسيم بلاد الأكراد بين هذه الشعوب الثلاثة يبقى الصراع دائماً ، والخلاف قائماً . ويجب ألا ننسى أن للشعب العربي هنا دولتين قد أقيمتا وهما سوريا والعراق ، وفي كليهما مجموعة من الأكراد ، وكذلك يجب أن نُضيف وجود الأرمن بالقرب من منطقة الأكراد ، وبينهم ثارات قديمة بل أحقاد، وينتمي الشعبان إلى عقيدتين مُتباينتين ومُتصارعتين وبينهما إحن ، ويحمل النصارى في قلوبهم أحقاد على الإسلام ربما يزول كل شيء من نفوس البشر إلا هذا الحقد لأنه يُغذّى باستمرارٍ من رجال الكنائس ، وبعثات التنصير الذين لا يرون أمامهم إلا الإسلام ، ولا يخشون إلا الدعاة إليه ، لما يملكون من قدرةٍ ، لأن دينهم دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

ومن هذا المنطلق فإن الدول الكبرى قد وافقت في معاهدة (سيڤر) التي عُقدت مع تركيا في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (١٠ آب ١٩٢٠م) على أن يُوضع مشروع للاستقلال المركزي للمناطق الكردية الواقعة في شرق الفرات ، وجنوب غربي أرمينيا ، وشمال الحدود التركية المتاخمة لسوريا والعراق ، في خلال ستة أشهر من تاريخ دخول هذه المعاهدة في حيز التنفيذ ، وفي مدة سنة من تاريخ تنفيذها فيما إذا فاتح أكراد هذه المنطقة مجلس عصبة الأمم برغبتهم في الاستقلال عن تركيا . أي أن الحديث كان مقصوراً على الأكراد في تركيا ،

ولم يذكر إخوانهم في بقية المناطق حيث توجد أعداد منهم في إيران ، والعراق ، وأذربيجان ، وسوريا . وإن كانت المعاهدة قد أشارت إشارةً خاطفةً إلى الأكراد في العراق إذ ذكرت أن الحلفاء لا يُعارضون بقية الأكراد القاطنين في كردستان العراقية إذا اختاروا الانضمام إلى دولةٍ كرديةٍ مستقلةٍ .

وهذا ما شجّع الأكراد في العراق إلى الدعوة إلى تشكيل دولةٍ مستقلةٍ لهم تضمّ خمسة ألويةٍ وهي : الموصل ، وأربيل ، والسليمانية ، وكركوك ، وديالي كمرحلةٍ أولى ، ثم تعمل إلى ضمّ أو الانضمام إلى الدولة الكردية الأخرى في شرقي تركيا ، ثم تحاول ضمّ بقية الأكراد في المناطق الأخرى .

رفضت تركيا الاعتراف بتكوين دولةٍ كرديةٍ في أراضيها الشرقية . كما أن انكلترا التي فرضت انتدابها على العراق في مؤتمر سان ريمو بإيطاليا في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) ، قد رفضت ذلك ، وخاصةً أنها كانت قبل يومٍ واحدٍ قد استطاعت ضمّ منطقة الموصل إليها إذ كانت قبل ذلك ضمن مناطق النفوذ الفرنسي حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو .

وعندما تشكّلت أول حكومةٍ للعراق في ١٢ صفر ١٣٣٩هـ (٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠م) بقيت مسيطرةً على منطقة كردستان ، وعندما عمل محمود المعروف على الاستقلال أخضعته بالقوة . ثم جاءت معاهدة (لوزان) ونسخت معاهدة (سيڤر) وانتهى الأمر . وعلى كل فإن أهالي لوائي الموصل وإربيل قد رضوا بالأمر الواقع ، واشتركوا في انتخاب الملك فيصل ، ورفض ذلك أهالي لواء السليمانية ، وبقوا تحت سيطرة المندوب السامي مباشرةً ، وعُيِّن في كركوك متصرف من أهلها .

وبقيت الدول الكبرى تدسّ أنفها في قضايا الأكراد كلما أرادت إثارة مشكلةٍ أو تنفيذ مُخطّطٍ أو تهديد حاكمٍ . ويتجاوب الأكراد بسرعةٍ نتيجة شعورهم بالقهر . تارةً يتحرّك أكراد تركيا ، ويلقون عطفاً من إخوانهم في بقية المناطق ، وأخرى ، يتحركون في العراق ، وثالثةً في إيران ، وفي كل مرةٍ وفي كل منطقةٍ يُضربون بعنفٍ ليتكوّن حقد ، وتتراكم الأحقاد حتى لتصعب

إزالتهـا ، ولكن تستفيد الـدول الكبرى في لعبتهـا ، إذ تستغلّ هـذا الحقد بـالشكل الـذي تريـد . فالـدول الكـبرى حـرّضت الأكـراد بـالتلميـح إلى استقلالهم ، ثم وقفت دونه ، لتبقى الآمال معلقةً بالاستقلال ، والمطالبة به ، وتبقى الحركات والصراع والعدوان بين المسلمين بعضهم ضد بعض .

وأما الحكم العراقي فقد لعب دوراً خطيراً منذ البداية إذ أبقى مُتصرّفي المناطق الكردية من أهلها، وأبقى اللغة الكرديـة هي السائـدة والمستعملة، وهـذا ما جعـل الأكراد يشعـرون باستمـرارٍ أنهم يختلفون عن بـاقي سكان العراق ، ولهم وضعهم الخاص ، هذا الشعور سيُثير العاطفة وسيحرّك النفوس في كل وقتٍ ، ويمكن استغلاله في كل زمنٍ ، ويُؤدّي بكثيرٍ من السكان للسير وراء كل من يُطالب بالانفصال أو الاستقلال ، وإذا ما قامت حركة أُخضعت بالعنف الذي يُولّد الحقد . وكان من المفروض أن تُدرّس اللغة العربية باسم الضرورة لفهم الإسلام وأداء العبادة ، ويُوظّف في المنطقة من أبناء المنطقة ومن غيرهم ، كما يُعينّ أبناؤها في غير مناطقهم باسم وحدة البلاد ، والمصلحة ، وأن يُنادى بالرابطة الإسلامية التي تجمع الجميع في ظلّ عقيدةٍ واحدةٍ ، فلو تمّ ذلك لم تكن هناك مشكلة للأكراد . غير أنه عندما يُنادى بعصبيةٍ قوميةٍ لا بدّ من حدوث ردّ فعلٍ من الجماعات الأخرى ، وردّ الفعل هذا يُؤدّي إلى قيام حركاتٍ .

ولما جاءت اللجنة الدولية إلى العراق في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ (١٥ كـانون الثـاني ١٩٢٥م) للتحقيق في الخلاف العـراقي ـ التركي عـلى المـوصل ، وجـابت مدن الشـمال ، أوصت مجلس عصبة الأمم بـأن تُراعي الرغبات التي أعرب عنها الأكراد، وهي تعيين موظفين من الجنسية الكردية لإدارة بـلادهم ، ونشر التعليم في المدارس ، وجعـل اللغة الكـردية اللغـة الرسمية في جميع المصالح ، وهذه هي رغبة الدول الكبرى ـ كما رأينا ـ ، إذ هي حريصة على بقاء الخلاف لتستغلّه لمصالحها ، والحكومة العراقية في الوقت نفسه تنظر إلى سيطرتها على المناطق الكردية في الزمن الحاضر دون النظر إلى

المستقبل ولا إلى الجانب الإسلامي ، وقد جعلت المرافعة في المحاكم باللغة الكردية ، وترفق بها ترجمتها إلى العربية إذا كانت تقتضي الإحالة إلى محكمة التمييز ، وهكذا تمّ الوئام بين الحكومة والأكراد مؤقتاً غير أن المستقبل لا يمكن أن نتكهن ما سيخبئه غير أن الأمر الطبيعي يُنبىء عن حدوث خلافاتٍ شديدةٍ .

في ٢٨ شعبان ١٣٤٧هـ (٨ شباط ١٩٢٩م) قدّم ستة نواب من الأكراد مذكرةً إلى المجلس النيابي يُطالبون فيها بزيادة النفقات على المناطق الكردية ، وأن يكون الحاكم كردياً على ثلاثة ألوية هي : السليمانية ، وأربيل ، وكركوك ، وبعض أقضية الموصل .

وأخذ الأكراد يُقدّمون شكاوى إلى عصبة الأمم بعد نشر النص الأخير لمعاهدة (١٩٣٠م) ١٣٤٩هـ ، وأخذت تحدث بعض الاضطرابات في السليمانية .

القضية الآشورية : تسكن في شمالي العراق أقلية تدّعي أنها تعود إلى الآشوريين القدماء سكان شمالي بلاد الرافدين في تلك المرحلة التي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، كما تدّعي هذه الجماعة على أنها نصرانية تنتمي إلى بعض مذاهب النصرانية القديمة شأنها في ذلك كالنساطرة ، أوهكذا أشاعت انكلترا منذ احتلالها العراق لتتقرّب من هذه الجماعة أو لتُقرّبها إليها .

نقلت انكلترا عشرة آلاف من الآشوريين ، والذين يعرفون في العراق باسم (التيارين) ، من شمالي العراق إلى المناطق الوسطى منه ، وأقامت لهم مساكن قرب (بعقوبة) ، ومنحت كل امرأةٍ أو طفلٍ منهم إعانةً شهريةً قدرها مائة وعشرون روبيةً . واستمرّت على هذه الطريقة مدة ثلاث سنواتٍ .

وأخذت انكلترا تقبل من هؤلاء متطوعين في الجيش الإنكليزي ، ولما وجدت فيهم طاعةً كاملةً ، وخدمةً عسكريةً ممتازةً شكّلت منهم جيش (الليفي) الذي استفادت منه كثيراً في قتال الأكراد ، ومحاربة الأتراك .

واشتدّ تقرّب انكلترا من الآشوريين ، فأعفتهم من الضرائب ،

وأعطتهم أراضي واسعةً دون مُقابلٍ ، وإذا كان هذا التصرف قد أرضى الآشوريين ، وجعلهم يشعرون بالتفوّق على باقي السكان من حيث القيمة والقوة إلا أن هذا قد أغضب الآخرين من العراقيين .

وفي ٣ محرم ١٣٤٢هـ (١٥ آب ١٩٢٣م) حدث اعتداء منهم على الأهلين في سوق العتمة في الموصل ، وكاد الأمر أن يُهدّد سلامة الأمن في البلاد كافةً ، واضطرت السلطة أن تمنع رجوع جيش (الليفي) الموجود في (راوندوز) إلى الموصل ، وفي الوقت نفسه بأن تنقل قوات هذا الجيش من الموصل إلى كركوك . ولكن لم يلق أحد من هؤلاء الآشوريين عقوبةً .

وفي ٣٠ رمضان ١٣٤٢هـ (٤ أيار ١٩٢٤م) اصطدمت مجموعة من الآشوريين في سوق كركوك مع الأهالي فجرح أحد الآشوريين فهربوا إلى ثكناتهم واستنجدوا برفاقهم ، وهبّوا جميعاً يحملون الأسلحة ، ويُطلقون النار على كل من يرونه في طريقهم من السكان ، ووقف في وجههم اثنان من الشرطة العراقية فقتلوهما ، فأمر قائد الشرطة العراقي بقاء الشرطة في ثكناتهم خوفاً من تفاقم الأحداث ، وبناءً على تعليمات قائد الشرطة الإنكليزي ، واضطر الأهالي للدفاع عن أنفسهم ، والتجأ الآشوريون إلى دور النصارى ، واستمرّت المناوشات طيلة اليوم ، وزاد عدد الإصابات على المائتين .

وفي اليوم التالي استعدّت القبائل المحيطة بكركوك إلى النزول إلى المدينة والأخذ بالثأر غير أن المندوب السامي قد وصل إلى المدينة قبل نزول رجال القبائل ، وأمر بإخراج جنود جيش (الليفي) إلى معسكر (چمال) بين كركوك والسليمانية ، وأصدر أمراً إلى الأهالي بالتزام الهدوء ، ووعد بمحاكمة المعتدين ، ودفع الديات . غير أن السلطات البريطانية وإن كانت قد أعلنت عن محاكمة المعتدين إلا أنها كانت محكمةً صوريةً إذ كان رئيس المحكمة إنكليزياً ، كما ضمّت ضابطاً إنكليزياً آخر من قيادة الطيران ، وبطريرك الطائفة الآشورية (المار شمعون) ، وفيها اثنان من العراقيين فهما أقلية ، إضافةً إلى أنهما موظفان ويتبعان السلطات الإنكليزية ويخضعان لها .

وكان الآشوريون لا يُبالون بالحكومة العـراقية ، وإنما تُقدّم طلبـاتهم كلها ، وشكاويهم جميعها إلى المعتمد السامي البريطاني أو إلى ضباط قـوات الليفي من الإنكليز .

وفي ٢٧ شوال ١٣٤٢هـ (٣١ أيار ١٩٢٤م) أصدر المعتمد السامي البريطاني في العراق بياناً باسم الحكومة البريطانية ، أعلن فيه اهتمام انكلترا بقضية الآشوريين ، ووضع نصب عينيها الخدمات التي قدّمها هذا الشعب للحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا فإن انكلترا تريد أن تمدّ حدود العراق نحو الشمال لتشمل كل الأراضي التي يعيش عليها الآشوريون مهما قلّ عددهم فيها . ثم دعت انكلترا الحكومة العراقية إلى تقديم الضمانات الكافية للشعب الآشوري ومنها : تمليكهم الأراضي الشاغرة في شمالي البلاد ، والتي رحـل عنها أصحـابها ، دون ثمنٍ . وإعـطاؤهم الحـريـة في إدارة شؤونهم المحلية . وقد قامت العراق بإعطائهم هذين الضمانين .

قرر مجلس عصبة الأمم في جلسته المنعقدة في ٣ ربيع الأول ١٣٤٣هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٢٤م) أن يتولّى بنفسه تعيين الحدود بين تركيـا والعراق ، وإنهاء الخلاف بين الحكومتين على ولاية الموصل ، وأرسل مجلس عصبة الأمم لجنةً مؤلفةً من ثلاثة أعضاء ، وصلت إلى بغداد في ٢٠ جمادى الآخـرة ١٣٤٣هـ (١٥ كانـون الثاني ١٩٢٥م) . وكـانت انكلترا ترى أن المنطقة المتنازع عليها تضمّ مجموعاتٍ نصرانيةً ، وأخرى يهـوديةً ، وكـذلك مجموعةً يزيديةً ، وأن هذه المجموعات ستكون في ظلّ دولةٍ مسلمةٍ ولذا يجب أن تُتخذ التدابير الكافية لحمايتهم ، وكذلك كان رأي عصبة الأمم ، وكأن هذه المجموعات لم تكن تعيش من قبل في ظلّ دولـةٍ إسلاميـةٍ ، وتتمتع بـالأمن والطمأنينة، ولكن هذا نوع من المغالطات لتبرير بعض التصرّفات التي تنمّ عن روحٍ صليبيةٍ حاقدةٍ . ومع هذا كله فإنه تظهر حقيقة الوضع الذي كانت عليه هذه الأقليات في السابق من كلام البريطانيين أنفسهم حيث يقولون (ولكنا نشعر أن من واجبنا أن يُضمن للآشوريين استعادة الامتيازات القديمـة التي

كانوا يتمتعون بها بصورةٍ فعليةٍ وإن لم تكن رسميةٍ قبل الحرب)[1] . ولكن الإنكليز يُطالبون بشيءٍ أكثر من هذا بقصد إثارة السكان المسلمين ، وإمكانية إثارة القلاقل في الوقت الذي يريده النصارى ، فيتابع مجلس عصبة الأمم الذي يتكلم باسم الأمم النصرانية ويقول : وعلى الدولة السائدة أياً كانت أن تمنح هؤلاء الآشوريون شيئاً من الاستقلال الذاتي في شؤونهم المحلية ، وأن تُعيد لهم حقهم في اختيار موظفيهم من أنفسهم على أن لا تتقاضى منهم غير جزيةٍ تُدفع عن يد بطريكهم .

وإن انكلترا كانت تحرص حرصاً شديداً على إسكان الآشوريين في منطقة الحدود بين العراق وتركيا ويبدو أن ذلك الحرص ينبع من إمكانية تحريك هؤلاء العملاء في الوقت الذي تريد غير أن نظرة الأتراك لهم كانت تحول دون ذلك ، كما تحول دون أن تبقى هناك أية علاقاتٍ صافيةٍ حتى في المستقبل بين تركيا وانكلترا ، وحتى رأت انكلترا أن تنقل هؤلاء الآشوريين إلى منطقةٍ أخرى من مناطق نفوذها أو مستعمرةٍ من مستعمراتها وذلك في سبيل المحافظة عليهم أو الحرص على أداء المهمة الصليبية التي تحملها . أما نظرة كراهية الأتراك لهذه المجموعة فإنها قد جاءت من أنهم عاشوا ردحاً طويلاً من الزمن في منطقتهم هذه في ظلّ الإسلام ووجدوا كل رعايةٍ وعنايةٍ من المسلمين لهم ، وجاءت الدولة العثمانية وحكمت المنطقة وكانوا من بين رعاياها فحفظت حقوق الذمة فيهم ، فلما كانت الحرب العالمية الأولى كانوا أكثر الناس خيانةً لمن حفظ حقوقهم ، وأكثر البشر لؤماً لمن رعاهم ، إذ نشروا الرعب في مناطقهم وأعملوا بالمسلمين غدراً وقتلاً ، واعتدوا على الحرمات هدراً وهتكاً ، وأقبلوا على الممتلكات نهباً وسلباً بحجة أنهم من النصارى وتربطهم بالحلفاء أقوى وشائج الروابط ، وأن العثمانيين من المسلمين ، وهم أعداء الحلفاء ، وأن الآشوريين

---

(١) الواقع أنها رسمية إذ معروف في الشريعة الإسلامية حقوق أهل الذمة ، ولكن بريطانيا لا تعرف ذلك .

أعداء كل من عادى الحلفاء ، وأن من عادى الحلفاء ، فلا حرمة له عندهم فماله ، وعرضه ، وملكه ، ودمه مباح لهم . وهذا ما جعل العثمانيين ، والأتراك من بعدهم لا يستطيعون رؤية هؤلاء الآشوريين لما ارتكبوه من جرائم على غايةٍ من البشاعة ، ثم جاء الحلفاء عامةً والإنكليز خاصةً يحمونهم .

ومن هذا المنطلق فقد رفض الأتراك أن يكون الآشوريون على حدودهم ، ولم يقبلوا بحلّ قضية الموصل إلا ضمن هذا الشرط ، وأُبعد الآشوريون عن الحدود ، وقامت انكلترا بجمع مبالغ كبيرة لمساعدتهم على السكن ، وذلك في شتاء عام ١٣٤٤هـ ، تحت عنوان مساعدة النصارى الذين اضطهدهم الأتراك ، وسافرت لجنة كان من بينها عمة البطريرك (سرمة خاتون) إلى الولايات المتحدة لجمع التبرعات لهذا الشأن بعد أن كتب المعتمد البريطاني السامي إلى حكومة الولايات المتحدة يلتمس المساعدة في هذه التبرعات ، ولكن لم يصل إلى نتيجةٍ مرضيةٍ ، عندها وجّه المعتمد السامي نداء إلى الحكومة العراقية يطلب فيه أن تتخذ بعض التدابير التي تُسهّل للآشوريين السكن مثل : منح الأراضي ، والإعفاء من الضرائب وغير ذلك ، وإن كان هذا الطلب على شكل نداءٍ إلاّ أنه في الواقع يحمل صفة الأمر ، فاتخذ مجلس الوزراء العراقي في جلسته المنعقدة في ٥ رمضان ١٣٤٥هـ (٨ آذار ١٩٢٧م) ما يأتي :

١ - تسعى وزارة الداخلية دون أي تمييزٍ عنصري إلى إسكان اللاجئين الموجودين في المنطقة الشمالية الآن في الأراضي والقرى التي تراها مناسبةً لذلك .

٢ - يجب أن يعلم هؤلاء اللاجئون أن الحكومة العراقية ترغب في أن تعفو عن قسم من الضرائب لكل من يستثمر الأرض ويحرثها ويعمل بمشورة الحكومة وأوامرها ضمن القانون .

٣ - يمنع إسكان هؤلاء اللاجئين في المناطق التي قد تعارض أمر إسكانهم فيها الحكومات المجاورة أو السكان الأصليون بسبب حق التملك بالإشغال

المتقادم أو أي سببٍ آخر شرعي .

وعُيّن بعدها ضابط إنكليزي لمتابعة أمور الإسكان، واعترفت الحكومة بالبطر يرك (مار شمعون) بطريركاً على الآشوريين وخصّصت له راتباً شهرياً ضخماً ، وهكذا حصل الآشوريون على استقلالهم الذاتي بأمور دينهم . ونتيجة توزّعهم لم يعد بالإمكان حصولهم على استقلالهم الذاتي السياسي الذي دعت إليه عصبة الأمم بصفتهم نصارى .

أما الأكراد فقد كانوا يتعاقدون مع الآشوريين للعمل ويحسنون إليهم ، فلما قامت الحرب وأخذ الآشوريون يعملون لحساب الحلفاء ، ويعدّون أنفسهم عملاء لهم ، وبدؤوا يظهرون التعالي على الأكراد ، ولا يقصرون في أذاهم وانتهاك حرماتهم ما دام الأكراد من المسلمين ، فلما احتلّ الإنكليز العراق شعر الآشوريون بالحماية فزاد أذاهم للأكراد ما دامت السلطة الحاكمة أو المُنفّذة نصرانيةً . وهذا ما جعل الأكراد ينفورون من الآشوريين الذين عاشوا بالأمس على إحسان المسلمين من أكرادٍ ، وأتراكٍ ، وعربٍ .

ومن هذا المنطلق فإن الآشوريين شعروا بالمرارة والأسى عندما حصلت العراق على استقلالها حيث أحسّوا أن السلطة النصرانية المتمثّلة في انكلترا سترحل عن بلادهم ، وستقلّ الرعاية لهم والعناية بهم .

وبعد مرور عدة سنوات على المساعدات العراقية في منح الأراضي والإعفاء من الضرائب ، رأت الحكومة العراقية أن الوقت قد حان لوقف منح الأراضي ، والإعفاء من الضرائب ، ولكن الحكومة الإنكليزية أصّرت على ذلك ، كما سُمح للآشوريين الذين كانوا يعيشون في إيران وفي المناطق الإسلامية التي يسيطر عليها الروس في أذربيجان أن يدخلوا الأراضي العراقية دون جوازات سفرٍ .

ولما أصبحت العراق عضواً في عصبة الأمم ، ونالت استقلالها ، تضايق الآشوريون ، وأخذ بطريركهم المار شمعون يطالب بالاستقلال الذاتي ، ثم

قاموا بحركتهم المعروفة ، والتي سنتعرض لها في حينها ـ إن شاء الله ـ .

اليزيديون: بقايا من عبدة النار المجوس ، وكانت مدينة(يزد) مركز تلك الديانة ، فلما دخل الإسلام المناطق التي كانوا يقيمون فيها تركهم وشأنهم على أنهم مجوس ، وقد أُلحقوا بأهل الكتاب ، فلما أرادوا أن يقيموا طقوسهم ويعبدوا النار منعوا من ذلك ، إذ لا يصح أن يوجد في ديار الإسلام سوى من يعبد الله وهم : المسلمون ، وأهل الكتاب من يهود ونصارى ، وأُلحق بهم المجوس ، أما عبادة غير الله من نار ، ورجالٍ وأصنام وأوثانٍ و . . . فلا يصحّ أبداً وجودهم فيها فادّعى هؤلاء أنهم من أتباع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وهم مسلمون ، فسمح لهم المسلمون، وصدّقوا منهم ذلك، وعرفوا باسم اليزيديين ، على حين أنهم (يزديون) من أتباع جماعة يزد مقرّ عبادة النار . وبقي الناس يُطلقون عليهم اسم اليزيديين حسب ما ادعوه ، وظلوا يعدّونهم مسلمين ، وما هم كذلك ، . . .

إن أكبر تجمعٍ لليزيدين هو في بلاد العراق حيث يكثرون في قضاء (شيخان) وفي جبل سنجار وتقيم في جبل سنجار جماعتان منهم مختلفتان ، وتتنافسان باستمرارٍ من أجل الرئاسة والزعامة ، وهما : جماعة (حمو شيرو) وجماعة (داود آغا الداود) ، وقد حاولت الحكومة الصلح بينهما ، وإنهاء الخلاف ، ولكن جماعة (داود الداود) رفضت ذلك ، وأبى زعيمها الحضور إلى مقر اللواء بناء على دعوة الحكومة ، وأعلن التمرّد والعصيان ، فاستعانت الحكومة بالطيران البريطاني الذي قصف قرية زعيم المتمرّدين في ٢٥ رمضان ١٣٤٣هـ (١٨ نيسان ١٩٢٥م) ، وقابل العصاة الطائرات بإطلاق النار عليها ، وأُصيب قائد إحدى هذه الطائرات فسقطت ، ثم عادت الطائرات إلى القصف بعد يومين فاضطر المتمرّدون إلى الاستسلام بعد أن لحق القرية الكثير من الأذى . ولكن ذلك لم ينه الموضوع إلا مؤقتاً .

مؤتمر الكويت : لم ينته الخلاف بين نجدٍ والعراق بعد مؤتمر المحمرة

الذي عقد في (الفيلية) ، ولا الاتفاق الذي تمّ في (العقير) الملحق بذلك المؤتمر . حيث بقيت سلطنة نجد تُطالب بإعادة (شمّر) وغيرها من القبائل التي فرّت إلى العراق ، وإرجاع كلّ ما نهبته تلك القبائل أثناء فرارها .

في ٨ صفر ١٣٤٢هـ (١٩ أيلول ١٩٢٣م) أبرق الكولونيل (نوكس) الوكيل البريطاني في (بوشهر) بالخليج العربي إلى السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود يستشيره فيما إذا كان يُوافق على عقد مؤتمر بالبحرين أو الكويت للبحث في الحدود بين الأردن ونجد ، وإذا كان هناك مجال للبحث في الموضوع المُعلّق بين نجد والعراق ، ومن جملتها قبائل شمّر الفارة إلى العراق . وإذا كان يحبّ بحث المشكلات القائمة بين نجد والحجاز . ، فالرأي له .

أبدى السلطان عبد العزيز استعداده وحبّه في أن تكون اتفاقات مودةٍ ومحبةٍ بين الحكومات التي يُجاور بعضها بعضاً . وتمّ الاتفاق على عقد المؤتمر في الكويت .

عقد المؤتمر في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ (١٧ كانون الأول ١٩٢٣م) برئاسة الكولونيل (نوكس) ، رئيس المعتمدين البريطانيين السياسيين في الخليج العربي . ومثّل العراق صبيح نشأت وزير الأشغال ورافقه عجيل الياور رئيس قبائل شمر في العراق ، وعبد الله المضايفي . ومثّل نجد عبد الله الدملوجي ، والملا حافظ ، وسعيد هاشم ، وعبد العزيز القصيبي ، وسعيد حبا . وأرسل أمير الأردن الأمير عبد الله مندوباً عنه ، وأما الملك حسين فلم يرسل مندوباً عنه إلى مؤتمر الكويت ، وفي الوقت نفسه لم يعتذر . واشترط سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود أن تكون المفاوضات بين وفد نجد ووفد كل حكومة وحده ، وذلك أن باقي الحكومات إنما تُمثّل حسين بن علي ملك الحجاز وولديه : عبد الله أمير الأردن ، وفيصل ملك العراق .

قدّم الوفد العراقي مطالبه ومرئياته ، وكذلك قدّم وفد نجد ، ودارت المناقشات ، ووضعت الأسس العامة للاتفاق ، غير أن الوفد العراقي اقترح أن

تضاف مادة جديدة خلاصتها أن لا يُعدّ الاتفاق نافذ المفعول ما لم يتمّ الاتفاق مع الحجاز ، فاعترض على ذلك وفد نجد ، ثم اقترح الوفدان أن يُؤجّل المؤتمر حتى ٩ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٢٤م) كي يعود كل وفد إلى حكومته ويتلقّى التعليمات .

عاد المندوبون إلى الاجتماع ، وأبدت العراق رأيها في أنها لا تستطيع تسليم قبيلة شمر في الوقت الحالي إلى نجد، غير أنها تتعهد بأن لا تقوم شمر بأية غارةٍ على نجد ، وفي الوقت الذي لا تستطيع الحكومة العراقية منع شمر من ذلك ، فإنها ستخرجها من العراق ولكن ليس إلى نجد . وأما ما نهبته شمر من نجد قبل خروجها ثم فرارها به فإن الحكومة العراقية ترى أن تاريخ تحمّلها المسؤولية يُعدّ منذ تسلّم الملك فيصل المسؤولية في العراق وهو ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ (٢٣ آب ١٩٢١م) إذ لا تستطيع العراق قبول مبدأ الإخراج لشمّر لأن ذلك يسبب لها مشكلات مع سوريا ، ومع تركيا وحتى مع إيران .

طلب الوفدان تأجيل المؤتمر ، وتمّ ذلك . . . ونتيجة البرقيات والمراسلات تم الاتفاق على أن يكون موعد استئناف اللقاء في ١٩ شعبان ١٣٤٢هـ (٢٥ آذار ١٩٢٤م) ،واقترب موعد اللقاء ، واتجه الوفد العراقي إلى الكويت ، ولما وصل إلى البصرة جاءت الأخبار أن الأمر قد تغيّر ، فإن خلافاً شديداً قد نشب بين الهاشميين الذين يحكمون الحجاز ، والأردن ، والعراق ، وبين السعوديين في نجد ، وذلك لأن الهاشميين في الحجاز يمنعون النجديين من أداء فريضة الحج فثارت ثائرة العلماء في نجد ، واتجهت حملة من نجد نحو الحجاز ، واستولوا عليها ، واضطر الحسين للتنازل لابنه علي عن الملك ، ثم اتفق الملك علي وخصومه على الرحيل عن الحجاز وتسليمها لسلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

وسارت حملة أخرى إلى الأردن غير أنها فشلت ، واستعدت العراق لتلقّي هجوم حملة نقلت عنها الأخبار . . . . ولكن لم يحدث سوى شن بعض الغارات .

مؤتمر بحرة : كان وزير المستعمرات البريطاني (إمري) في العراق أثناء وقوع بعض الاشتباكات القبلية بين العراق ونجد ، فرأى أن يُعقد مؤتمر جديد ، يضمّ ممثلاً عن انكلترا وآخر عن نجد لتسوية هذه العلاقات ، وفي حالة عدم رضوخ سلطان نجد لهذا فإن انكلترا عندها ستتولّى موضوع الأمن في العراق . وقام (إمري) بالاتصالات اللازمة ، وتمّ الاتفاق على أن يكون اللقاء في (بحرة) يوم ١٤ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٢٥م) ، وقد مثّل نجد سلطانها ، ومثّل انكلترا (جلبرت كلابتن) وهو في الوقت نفسه مُخوّلاً عن حكومة العراق ، وكان يُرافقه توفيق السويدي . وتمّ الاتفاق على شروطٍ معينةٍ من بينها تشكيل محكمةٍ من عددٍ متساوٍ من ممثلي الحكومتين في العراق ونجد لبحث التعديات التي تقع وراء الحدود ، وتحديد الأضرار ، وتعيين المسؤولين ، وتلتقي المحكمة بين الحين والآخر . وألا تتفاوض حكومة منهما مع عشائر الحكومة الأخرى ، ولا تتعقب المجرمين ضمن حدود الدولة الثانية .

بنت الحكومة العراقية بعض الحصون على الحدود لتجنُّب الغارات ، فكانت كمخافر ، فاحتجت نجد بأن هذا العمل مخالف للمادة الثالثة من اتفاق (العقير) التي تنصّ على أن « تتعهد الحكومتان كل من قبلها ألا تستخدم الماء والآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرضٍ حربيٍ ، كوضع قلاعٍ عليها ، وألا تُعبىء جنوداً في أطرافها » .

دعت الأحداث إلى لقاءاتٍ جديدةٍ لبحث أوضاع الغارات على الحدود بين الدولتين ، وتمّ الاتفاق على اللقاء في جدة .

مؤتمر جدة : بدأ اللقاء في جدة في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٦هـ (٨ أيار ١٩٢٨م) ، ولكن لم يلبث أن تأجّل بسبب اقتراب موسم الحج . وبعد انتهاء الموسم عادت اللقاءات لتُستأنف من جديدٍ ، غير أن الخلاف قد ظهر من البداية حول وجود المخافر على الحدود ، وتمسّك كل برأيه ، وانفضّ اللقاء دون نتيجةٍ .

وعادت قضايا الأمن تظهر من جديدٍ ، ولكن بدا على الساحة أمر جديد ، وهو تمرّد فيصل الدويش شيخ قبيلة (مطير) في باديته المتاخمة لحدود العراق . فكان هذا مجالاً للقاءٍ رفيع المستوى بين العراق والسعودية . وهيّأ المعتمد البريطاني السامي هذا اللقاء على أن يكون قريباً من حدود البلدين وأن يحضره عاهلا الدولتين ، غير أنه تأجّل ، لانتقال مقرّ ملك المملكة العربية السعودية إلى قرب الحدود الكويتية . وأخيراً تمّ اللقاء بعد أن سلّمت انكلترا (فيصل الدويش) إلى حكومته .

مؤتمر الدارعة لوبن : والدارعة لوبن إنكليزية ترسو في الخليج العربي ، وحضر اللقاء الملك فيصل ملك العراق ووفد يُرافقه ، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ووفد يُرافقه . وتمّ الاتفاق على عقد معاهدة حسن جوارٍ بين الدولتين ، وعلى المخافر على الحدود ، وعلى التفاهم حول ما نهبته القبائل من نجد ، وفرّت به إلى العراق . وانتهى الاجتماع في ٢٥ رمضان ١٣٤٨هـ (٢٤ شباط ١٩٣٠م) .

ووُقّعت معاهدة حسن جوارٍ في مكة المكرمة بين الطرفين في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٩هـ (٧ نيسان ١٩٣١م) ، ومثّل العراق رئيس الوزراء نوري السعيد ومثّل السعودية فيصل بن عبد العزيز آل سعود النائب العام لوالده ، وزير الخارجية .

وفي اليوم الثاني لتوقيع معاهدة حسن الجوار وُقّعت معاهدة تسليم المجرمين بين الدولتين ، وقد وقّع المعاهدة الممثلان نفسهما .

العلاقات مع تركيا : احتلّت انكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى البصرة ، ومنها تقدّمت إلى بغداد ، واتجهت بعدها إلى الشمال ، فلما كانت جيوشها على أبواب ولاية الموصل طلبت الدولة العثمانية وقف إطلاق النار ، وأعلنت هدنة (موندروس) في ٢٦ محرم ١٣٣٧هـ (٣١ تشرين الأول ١٩١٨م) . وكان القائد العثماني علي إحسان قد انسحب من الموصل إلى (زاخو)

و (نصيبين) لبناء التحصينات اللازمة في الجبال . ولكن وصل إليه خبر هدنة (موندروس) ، فطلب من موظفيه العودة إلى الموصل ، ولكن القائد الإنكليزي (لجمن) طلب منه الإنسحاب بناءً على شروط المعاهدة ، وفي الوقت نفسه جاء الأمر إلى القائد الإنكليزي (كوب) بالزحف على الموصل ، فنفّذ الأمر . وهكذا احتلّت انكلترا البصرة وبغداد عسكرياً ، على حين دخلت الموصل دون قتالٍ ، وحلّت محلّ العثمانيين اتفاقاً. وتنازلت الدولة العثمانية عن أجزاء منها مكرهةً في معاهدة (سيفر) في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (١٠ آب ١٩٢٠م) .

أخذت تركيا الدولة القومية الحديثة التي أُعدت لتقضي على الخلافة تقوى بدعم الحلفاء عامةً ، وانكلترا خاصةً ، ومن أجل كسب التأييد الشعبي صارت تُطالب بالموصل ، ولم تر انكلترا التخلّي عنها ما دامت قد شغلتها بعد انسحاب العثمانيين منها . فتشكّلت مجموعات تركية غير نظاميةٍ (أي ليست من قبل الحكومة التركية) وأخذت تعكر صفو الأمن .

عُقد مؤتمر لوزان الأول في ٣ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢م) ، فلم يقبل الأتراك بمسودة المعاهدة التي أُعدّت للمناقشة ، ولكن عندما عُقد مؤتمر لوزان الثاني في ٨ رمضان ١٣٤١هـ (٢٣ نيسان ١٩٢٣م) جاءت التعليمات أو الأوامر للأتراك بالموافقة ، فأعلنوا رضاهم ، وصرّحوا بأنهم يريدون الانصراف إلى إعمار بلادهم ، فهو أفضل لهم من الاشتغال بخلافاتٍ مع الدول المجاورة . وتعهّدت عصبة الأمم بحلّ النزاع القائم على الحدود بين العراق وتركيا فيما إذا عجزت الدولتان عن حلّه .

سافر وفد من العراق برئاسة المعتمد السامي البريطاني (برسي كوكس) ، وعضوية كل من الفريق طه الهاشمي ، و (غاردين) أحد ضباط الجيش الإنكليزي في العراق ، إلى استانبول لبحث موضوع الحدود بين العراق وتركيا ، واستمرّت المناقشات عدة أشهرٍ ، ولم يصل المفاوضون إلى نتيجةٍ ، فأُحيل الموضوع إلى عصبة الأمم .

قرّر مجلس عصبة الأمم في جنيف في ٢ ربيع الأول١٣٤٣هـ (٣٠ أيلول ١٩٢٤م) إرسال لجنةٍ ثلاثيةٍ لجمع المعلومات ، وضمّت اللجنة أعضاء من المجر ، والنرويج ، وبلجيكا ، مع الموظفين اللازمين للجنة ، قامت اللجنة بزيارة لندن ، ومنها انتقلت إلى استانبول ، ومنها إلى بغداد ، ثم انطلقت إلى الموصل فوصلت إليها في ٣ رجب ١٣٤٣هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥م) ، ووسّعت اللجنة نطاق عملها حيث شمل مناطق أربيل ، وكركوك ، والسليمانية ، وغادرت أخيراً الموصل في ٢٤ شعبان ١٣٤٣هـ (١٨ آذار ١٩٢٥م) ، وقدّمت اللجنة اقتراحاتها إلى مجلس عصبة الأمم والتي تتلخّص في :

١ ـ أن تبقى المنطقة تحت انتداب عصبة الأمم لمدة خمسةٍ وعشرين عاماً .
٢ ـ يجب مراعاة رغبات الأكراد في تعيين إداريين منهم ، وأن تكون اللغة الكردية هي اللغة الرسمية في مناطقهم . وأضافت أن الأكراد إذا لم يعطوا تعهداً رسمياً في الإدارةالمحلية لبلادهم فإنهم يفضّلون حكم الأتراك على حكم العرب .

ويلاحظ أن هذه الاقتراحات لم تتعدّ الرأي الصليبي الذي تسير عليه عصبة الأمم ، وخاصةً انكلترا ، ولم يكن همّ اللجنة سوى إعطاء هذا الرأي الصفة الرسمية .

واقترحت اللجنة أنه من الأفضل ضمّ هذه المناطق لتركيا ذات الوضع المستقر ، وإن كان من الضروري أن يحتفظ العراق بمنطقة ديالي . وتقدّمت اللجنة أيضاً ببعض التوصيات التي من أهمها ضرورة حماية الأقليات غير المسلمة ، وأكّدت على هذا ، وصوّرت أن هذه الأقليات مضطهدة ، وستؤول في النهاية إلى الوضع تحت حكم دولةٍ مسلمةٍ ، فيجب أخذ التعهدات اللازمة لضمان حرية عقيدتها . وكأن هذه الأقليات لم تكن من قبل في ظلّ الدولة الإسلامية ؟

ورفع الموضوع إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي ، ولما أُعيد بأن القرار هو حكم ، قرّر مجلس عصبة الأمم أن تكون الحدود بين العراق وتركيا كما جاء في قرار ١ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٤م) . ودعا المجلس انكلترا إلى عقد معاهدةٍ جديدةٍ مع العراق تضمن استمرار الانتداب مدة خمس وعشرين سنة . كما دعا المجلس انكلترا إلى أخذ التعهّدات لإقامة إدارة محليةٍ للأكراد ، وحماية الأقليات حسب ما أوصت به اللجنة .

لم تقبل تركيا بالقرار فتقدّمت انكلترا بعروضٍ أخرى وهي :

١ ـ تعقد انكلترا اتفاقاً مع تركيا تتعهد فيه بالمحافظة على سلامة أملاكها مقابل بقاء الموصل للعراق .
٢ ـ أن تجرد الموصل من وسائل الدفاع ، وتعدّ منطقة حيادٍ .
٣ ـ أن تقدم قرضاً لتركيا بمبلغ عشرة ملايين جنيه .
٤ ـ أن تتنازل عن جزءٍ من السليمانية .

ورفضت تركيا هذه العروض ، وأصرّت على موقفها كنوعٍ من المناورة أو اللعبة إذ أن الأمر في المنطقتين إنما هو لانكلترا ، أو أنها هي صاحبة الكلمة الأولى في الحكومتين ، وهي إن كانت رسمياً في العراق باسم الانتداب ، فهي في تركيا باسم التعاون والصداقة . وتعرف تركيا أن سرّ تمسّك انكلترا بالموصل إنما هو حقول النفط الموجودة في المنطقة .

وافقت الحكومة التركية على عقد معاهدةٍ ثلاثيةٍ عراقيةٍ ـ تركيةٍ ـ إنكليزيةٍ في ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٤٤هـ (٥ حزيران ١٩٢٦م) . وقد مثّل العراق نوري السعيد وكيل وزارة الدفاع ، ومثّل تركيا توفيق رشدي وزير الخارجية ، ومثّل انكلترا سفيرها في أنقرة .

شملت معاهدة رسم الحدود ، وجنسية سكان المناطق التي كانت موضع خلافٍ ، وموضوع استثمار النفط ، إذ تعهّدت انكلترا أن تدفع لتركيا ١٠٪ من

عائدات النفط[1] من : شركة النفط التركية ، والشركات والأشخاص الذين يستغلّون النفط ، والشركات الفرعية التي تُؤسّس ، وذلك لمدة خمسٍ وعشرين سنةً . وتلا ذلك عقد معاهدةٍ تجاريةٍ ، واتفاقية إقامة ، وتحسّنت الأوضاع بين البلدين .

منح امتياز النفط : كانت الدولة العثمانية قد منحت شركة النفط التركية للتنقيب عن النفط في ولايتي الموصل وبغداد يوم ٥ شعبان ١٣٣٢هـ (٢٨ حزيران ١٩١٤م) ، وقد أخبر الصدر الأعظم سعيد حلمي سفير إنكلترا في استانبول ذلك . غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى قد أوقف العمل ، فلما انتهت طالبت الشركة المذكورة الحكومة العراقية تجديد منح الامتياز ، وعدم منح الشركات الأخرى أي امتيازٍ ، وتدخّل المعتمد السامي البريطاني في الموضوع إذ أن أكثر أعضاء شركة النفط التركية من الإنكليز وحلفائهم ، وبعد مناقشاتٍ واجتماعاتٍ تقرّر : أن حقّ التنقيب عن النفط ، إنما هو في ولايتي الموصل وبغداد فقط ، ولا يتعدّى ذلك إلى سواهما . وأن التنقيب في ولاية بغداد يجب أن يُحصر في مناطق مُحدّدةٍ حتى لا تتداخل مع المناطق التي حصلت على التنقيب فيها شركة النفط الإنكليزية ـ الإيرانية . وأن التنقيب عن النفط فقط ولا يتعدّى ذلك إلى الإسفلت . ويجب ألا يُعطى حق امتياز التنقيب إلى أكثر من ستين سنةً ، بدءاً من توقيع الاتفاقية ، كما يجب ألا يمدّد أجل الاتفاقية ، وتصبح جميع أملاك الشركة ومشروعاتها بعد انقضاء المدة ملكاً للحكومة العراقية ، ويجب أن يكون للحكومة حصة في رأس المال بمقدار عشرين بالمائة بدلاً من الحصة السنوية التي تدفع لها من النفط المستثمر .

وتبيّن أن عصبة الأمم لا تُوافق على إعطاء منطقة الموصل إلى العراق إلا إذا منحت الحكومة العراقية حقّ التنقيب عن النفط إلى شركة النفط التركية ،

---

(١) عرض نوري السعيد على توفيق رشدي أن تدفع العراق لتركيا مبلغ نصف مليون ليرة استرلينية مقابل التنازل عن نصيبها ١٠٪ لمدة خمس وعشرين سنة ، ولكن الحكومة التركية لم تقبل ذلك ، ورأت أن يبقى نصيبها كما جاء في المعاهدة .

وأخيراً تمّ منح الشركة حقّ الامتياز وتمّ الاتفاق على اختيـار الشركة خمساً وعشرين قطعةً من الأراضي التي يشملها الامتياز وذلك خلال خمس سنواتٍ من تاريخ العقد لتستغلّها في استثمار النفط ، وكانت تُطالب بين المدة والأخرى بتجديد هذا الوقت ، كلما تعثّرت في الاختيار أو تعسّرت في الحفر حتى تقدّمت بتعديل الامتياز أو استبداله بغيره ، وقد تحقّق لها عندما تسلّم نوري السعيد رئاسة الوزارة لأول مرة في ٢٣ شوال ١٣٤٨هـ (٢٣ آذار ١٩٣٠م) .

وزارة عبد المحسن السعدون الثانية : بعد توقيع الوزارة على إعطاء حقّ امتياز التنقيب عن النفط لشركة النفط التركية استقال وزير المعارف محمد رضا الشبيبي ، ثم استقال وزير العدلية رشيد عالي الكيلاني رغم أنه كان في اللجنة الوزارية التي عهد إليها بتدقيق شروط الامتياز ، ورغم أنه كـان هو الذي يُقدّم التقارير الوافيـة إلى رئاسة مجلس الوزراء . وحاول رئيس الوزراء استمرار مهمة الوزيرين لكنهما رفضا عندما وقّـع الامتياز ، فصـدرت إرادة ملكية بإعطاء حقيبة وزارة المعارف إلى عبد الحسين الجلبي ، وحقيبة الوزارة العدلية إلى مزاحم أمين الباجه جي بالوكالة .

ثم تقدّم ياسين الهاشمي رئيس الوزراء باستقالة حكومته في ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٣ هـ (٢١ حزيران ١٩٢٥ م) .

كلف الملك فيصـل الأول وزير الـداخلية في الحكـومة المستقيلة عبـد المحسن السعدون بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ وقد تمّ تأليفها[1] في ٥ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ (٢٦ حزيران ١٩٢٥ م) .

---

(١) تم تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للمالية .
٤ ـ حكمت سليمان : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للأوقاف .
٧ ـ صبيح نشأت : وزيراً للدفاع .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للأشغال والمواصلات .

استصدرت الوزارة إرادةً ملكيةً بافتتاح المجلس النيابي في ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ (١٦ تموز عام ١٩٢٥ م) ، وقد تمّ اجتماع المجلس ، وترأس الجلسة أكبر الأعضاء سناً ، وهو سليمان غزالة . ثم جرى انتخاب الرئيس ففاز رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية ، وهذا ما ألزمه على تقديم استقالته من الحكومة ، وقد قبلت الاستقالة ، واقتضى الأمر إلى إجراء تعديلٍ في الوزارة [١] .

وفي اليوم التالي تمّ تعيين أعضاء مجلس الأعيان[٢] من قبل الملك .

الأحزاب : في هذه الأثناء تشكل حزبان رئيسيان هما :

١ ـ حزب التقدّم : برئاسة عبد المحسن السعدون ، وقد حصل على الترخيص في ٣ صفر عام ١٣٤٤هـ (٢٢ آب ١٩٢٥م) ، ويعدّ هذا الحزب ، الحزب الحاكم .

٢ ـ حزب الشعب : برئاسة ياسين الهاشمي رئيس الحكومة المستقيلة[٣] ، وقد

---

(١) أصبحت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للأوقاف .
٧ ـ صبيح نشأت : وزيراً للدفاع ، ووزيراً للأشغال والمواصلات بالوكالة .

(٢) ينتخب المجلس النيابي على درجتين لمدة ٤ سنوات ، ويكمله مجلس الأعيان ، وقد اختار الملك سبعة عشر عضواً من مجلس الأعيان ، وبعد أسبوع اختار ثلاثة آخرين ، فكان مجلس الأعيان كما يأتي :

١ ـ إبراهيم الحيدري . ٦ ـ عبد الله النقيب . ١١ ـ جميل الزهاوي . ١٦ ـ مولود مخلص .
٢ ـ آصف قاسم آغا . ٧ ـ محمد علي فاضل . ١٢ ـ فؤاد الدفتري . ١٧ ـ حسين العطية .
٣ ـ أحمد الفخري . ٨ ـ صالح باش أعيان . ١٣ ـ يوسف عمانوئيل . ١٨ ـ يوسف السويدي .
٤ ـ حسن الشبوط . ٩ ـ عبد الله صافي . ١٤ ـ محمد الصدر . ١٩ ـ عبد الحسين الكليتدار
٥ ـ عبد الغني كبه . ١٠ ـ عداي الجريان . ١٥ ـ قادر سعيد زاده . ٢٠ ـ مناحيم دانيال .

(٣) وكان من أعضاء هذا الحزب البارزين : أحمد الداود نائباً للرئيس ، ومحمد رضا الشبيبي =

حصل على الترخيص في ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ (٣ كانون الأول ١٩٢٥م) ، ويُعدّ حزباً معارضاً .

وكان قد تشكل في بغداد حزب سياسي وعُرف باسم حزب الأمة ، وذلك في ١٩ المحرم ١٣٤٣ هـ (١٩ آب ١٩٢٤ م) ، وكان أكثر أعضائه من المعارضة لذا فقد بذلت جهود لتوحيده مع حزب الشعب ، إلا أن المحاولات لم تنجح .

معاهدة ١٩٢٦م : لا شكّ أن عصبة الأمم كانت تعمل بخطٍ موازٍ تماماً للسياسة الإنكليزية ، وقد دعا مجلس عصبة الأمم الحكومة البريطانية أن تعرض معاهدةً جديدةً على العراق تضمن فيها استمرار نظام الانتداب مدة خمس وعشرين سنةً إلا إذا قُبل العراق عضواً في عصبة الأمم قبل انتهاء هذه المدة ، وإذا أُبلغ المجلس عن المعاهدة الجديدة خلال ستة أشهرٍ فإنه سيضع الحدود بين العراق وتركيا كما تمّ الاتفاق عليها بشكلٍ قطعيٍ .

وافق مجلس الوزراء العراقي على ذلك ما دامت هناك إمكانية إعادة في المعاهدة كل أربع سنواتٍ ، وما دامت ستضمن ضمّ لواء الموصل إليها ، وما دام العمل ينتهي بها عند قبول العراق عضواً في عصبة الأمم ، وهذا ما تعهّدت انكلترا بالسعي إليه ،ووافق مجلس الوزراء على المعاهدة في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ (١٣ كانون الثاني ١٩٢٦م) .

وزارة جعفر العسكري الثانية : افتتح المجلس النيابي في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) ، ورشّحت الوزارة حكمت سليمان رئيساً للمجلس النيابي ، ولكن النواب رشّحوا رشيد عالي الكيلاني ، ونجح مرشح النواب، فعدّ رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون هذا خذلاناً

= معتمداً ، وفخري جميل ، ورشيد الخوجة ، ونصرت الفارسي ، وسعيد الحاج ثابت الموصلي .

لوزارته وقدّم استقالة الحكومة غير أن الملك قد طلب منه استمرار العمل ريثما تتألّف حكومة جديدة ، وعهد إليه بتأليفها ثانية فلم يُوافق إلا إذا وافق الملك على حلّ المجلس النيابي ، ولم ير الملك ذلك لأن البلاد لا تزال في أول عهدها بالحياة النيابية .

استدعى الملك ممثله في لندن جعفر العسكري وكلّفه بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وفي ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) صدرت الإرادة الملكية بتشكيل الحكومة[1] .

وتمكّنت هذه الوزارة من إنهاء حركة محمود المعروف في منطقة السليمانية بالمفاوضة . ولكن فشلت المفاوضات في بغداد لتعديل الاتفاقيتين العسكرية، والمالية مع انكلترا ، وسافر رئيس الوزراء إلى لندن لاستئناف هذه المفاوضات ، وأناب عنه وزير المالية ياسين الهاشمي . وقد استطاع عقد معاهدةٍ جديدةٍ في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ (١٤ كانون الأول ١٩٢٧م)، وعاد إلى بغداد ، فوجد أن وزيري المالية والداخلية قد استقالا من منصبيهما . فقدّم استقالة وزارته .

أُحدثت في عهد هذه الحكومة وزارة الزراعة والري ، وأُسندت إلى عبد الحسين الجلبي، واستقال السيد عبد المهدي من الوزارة ، فتسلّم وزارة المعارف مكانه وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي ، على حين أُسندت وزارة الأشغال والمواصلات إلى علوان الياسري .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جعفر العسكري : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٦ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٧ ـ محمد أمين باش أعيان : وزيراً للأوقاف .
٨ ـ السيد عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

وتدفّق النفط في عهد هذه الوزارة في كركوك يوم ١٨ ربيع الثاني ١٣٤٦هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٢٧م) بينما كان المهندسون والعمال يمارسون أعمالهم وأدّى إلى مقتل عددٍ منهم .

وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة : فاتح الملك عبد المحسن السعدون بتأليف وزارةٍ جديدةٍ تخلف وزارة جعفر العسكري المستقيلة فاشترط حلّ المجلس النيابي الذي سبق له أن خذله ، وصارح الملك بأن هذا المجلس لن يُوافق على المعاهدة التي عقدها جعفر العسكري في لندن[1] .

وقدّم عبد المحسن السعدون الوزراء الذين وقع الاختيار عليهم إلى الملك فصدرت الإرادة الملكية في ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٢٨م) بتعيين الوزراء[2] .

صدر أمر بحلّ المجلس النيابي في ٢٧ رجب ١٣٤٦هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٢٨م) والبدء بالعمل لإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ .

وجاء إلى العراق (الفريد موند) وهو يهودي بريطاني ، فخرج الطلاب بمظاهراتٍ ضدّه في ٢٧ شعبان ١٣٤٦هـ (١٨ شباط ١٩٢٨م) فاتخذت إجراءات صارمة ضدّهم ، اعترض عليها وزير العدلية حكمت سليمان إذ كانت دون رأيه ، وتقدّم باستقالته ، وطُلب منه تأجيل الاستقالة إلى ما بعد

---

(١) وعدت إنكلترا العمل على إدخال العراق عضواً في عصبة الأمم عام (١٩٣٢م) ضمن شروط .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٤ ـ حكمت سليمان : وزيراً للعدلية .
٥ ـ عبد المحسن شلاش : وزيراً للأشغال .
٦ ـ سلمان البراك : وزيراً للري والزراعة .
٧ ـ توفيق السويدي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ أحمد الداود : وزيراً للأوقاف .
٩ ـ رئيس الوزراء : وكيلاً لوزارة الدفاع .

إجراء الانتخابات النيابية فوافق .

ورجع الخلاف عند الحدود مع نجد ، وكانت الغارات القبلية .

جرت الانتخابات النيابية ، واجتمع المجلس في ٣٠ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (١٩ أيار ١٩٢٨م) ، وانتخب وزير الداخلية عبد العزيز القصاب رئيساً للمجلس .

تمرّد غضبان الخيون ، أحد زعماء قبائل بني أسد ، وقامت الطائرات البريطانية بقصف مواقعه ولكنه لم يستسلم ، وأخيراً اضطر إلى الهرب من العراق .

جرى تعديل وزاري بعد استقالة وزير العدلية[١] .

كانت المعاهدة مع انكلترا قد نصّت بالعمل على عقد اتفاقيتين تحلّان محلّ الاتفاقيتين المالية والعسكرية السابقتين ، فلما شرعت الحكومة بالمفاوضات وجدت الطرق أمامها مسدودةً ، وهذا ما حدا بها إلى تقديم استقالتها في ٩ شعبان ١٣٤٧هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩م) . وبقيت البلاد دون وزارةٍ ما يزيد على ثلاثة أشهرٍ .

وانتهت مدة خدمة المعتمد السامي البريطاني (هنري دوبس) قبل أوانها نتيجة الخلاف الذي جرى بينه وبين الملك فيصل ، وجاء معتمد سامٍ جديد هو (كلبرت كلايتن) ، وعندها عهد الملك فيصل إلى توفيق السويدي ، فشكّل الوزارة[٢] في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (٢٨ نيسان ١٩٢٩م) .

---

(١) عُيِّنَ ناجي شوكت وزيراً للداخلية ، ونوري السعيد وزيراً للدفاع ، وداود الحيدري وزيراً للعدلية .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .

٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .

٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .

٤ ـ داود الحيدري : وزيراً للعدلية .

٥ ـ سلمان البراك : وزيراً للري والزراعة .

٦ ـ عبد المحسن شلاش : وزيراً للأشغال والمواصلات .

=

لما كان رئيس المجلس النيابي عبد العزيز القصاب قد عيّن وزيراً للداخلية ، لذا فقد أصبحت الرئاسة شاغرةً ، وجرى انتخاب فنجح عبد المحسن السعدون في هذه الرئاسة .

وجرت مظاهرات عنيفة ضد الحركة الصهيونية ، وهذا ما أثار قلق اليهود في العراق ، وأخذ التفكير يتجه نحو الارتحال إلى فلسطين .

وكانت مهمة الوزارة موقتةً ، لذا فلا بدّ من تقديم استقالتها ، وخاصةً بعد أن ألغت انكلترا الشرط الذي قيّدت به العراق للدخول في عصبة الأمم ، إذن لا بدّ من الدخول في مفاوضاتٍ مع انكلترا لتنظيم العلاقات الواجب اتخاذها قبل الدخول في عصبة الأمم .

تقدّم رئيس الوزراء باستقالة حكومته في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٨هـ (٢٥ آب ١٩٢٩م)، وقُبلت،ولكن بقيت الوزارة تُمارس مهامها حتى تشكّلت حكومة عبد المحسن السعدون الرابعة[1] في ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ (١٩ أيلول ١٩٢٩م) ، بعد أن أبلغت انكلترا العراق في العاشر من ربيع الثاني أنها مستعدة إلى دعم ترشيح العراق للدخول في عصبة الأمم عام (١٩٣٢م) ، وأنها سوف تبلغ مجلس عصبة الأمم ذلك ، كما ستبلغه أنها قد قرّرت عدم العمل في معاهدة (١٩٢٧م) .

= ٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للدفاع .
٨ ـ خالد سليمان : وزيراً للمعارف .
وقد أُلغيت وزارة الأوقاف ، وبقيت مديريةً .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ ناجي شوكت : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عبد العزيز القصّاب : وزيراً للري والزراعة .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

كانت هذه الوزارة ترغب في سرعة التصديق على المعاهدة كي تكون هناك سرعة في دخول عصبة الأمم ، وإنهاء مسؤولية انكلترا في الدفاع عن البلاد ، وتطبيق الجندية الإلزامية ، ووضع موظفين عراقيين مكان الموظفين الأجانب ، وإنهاء عقود الأجانب التي دون خمس سنوات ، والاستغناء عن نصف المفتشين الإداريين . ومحاولة ربط أعمال الوزارة بالوزير نفسه ، أو بالأحرى عدم تجاوز صلاحية المستشار الإنكليزي حيث ترى الحكومة أنها لم تعد بحاجة إلى هؤلاء المستشارين الذين أصبحوا يُمارسون عمل الوزير ، والإدارة كافة .

وفي ٧ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ (١١ أيلول ١٩٢٩م) مات المعتمد السامي البريطاني (كلبرت كلايتن) في بغداد بالسكتة القلبية ، فعيّنت انكلترا مكانه (فرنسيس همفريز) .

وفي ٣٠ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ (٢ تشرين الثاني ١٩٢٩م) افتتح مجلس الأمة ، وانتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، وتوفيق السويدي رئيساً لمجلس النواب .

تألّفت لجنة وزارية لمفاوضة انكلترا، وقد ضمّت وزير الداخلية ناجي السويدي ، ووزير المالية ياسين الهاشمي ، ووزير الدفاع نوري السعيد .

وفي ١١ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م) شنّت المعارضة هجوماً على الحكومة فلم يتمالك رئيس الوزراء نفسه فأطلق الرصاص في صدره ، فقضى نحبه .

كلّف الملك فيصل وزير الداخلية ناجي السويدي برئاسة وزارة بالوكالة ، فامتثل وتسلّم منصب الحكومة بالوكالة ، وقد بقي أعضاء الحكومة هم أنفسهم ، وجرى بعض التعديل في توزيع الحقائب[1] ، كما انضمّ وزير

---

(١) كان التوزيع الجديد للحقائب الوزارية على النحو الآتي : =

جديد هو خالد سليمان .

أعلن رئيس الوزراء الجديد ناجي السويدي أن وزارته تسير على نهج سابقتها ، وبالفعل فقد أخذت تُقلّل من أعداد الموظفين الإنكليز ، وهذا ما أزعج المعتمد السامي البريطاني (فرنسيس همفريز) وحاول أن يقف في وجه الحكومة فلم يُسمع إليه ، فاضطر أن يطلب من الملك أن يُؤخّر موافقته على القرارات الوزارية . فما كان من رئيس الحكومة إلّا أن قدّم استقالته في ٩ شوال ١٣٤٨هـ (٩ آذار ١٩٣٠م) .

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن اللجنة التي شُكّلت لمفاوضة الجهة البريطانية التي كان يمثّلها المعتمد السامي البريطاني ، قد وجدت ثلاث نقاط يجب بحثها وهي :

١ ـ تعديل الاتفاقية المالية والعسكرية ، حيث هناك اعتراض على قوة الطيران البريطانية الموجودة في العراق .

٢ ـ التجنيد الإلزامي .

٣ ـ امتلاك ميناء البصرة والسكك الحديدية .

أما الإنكليز فيرون أن قوة الطيران البريطانية لا يقصد منها سوى تأمين الاتصال مع الهند ، ولا مصلحة لهم فيها في العراق سوى ذلك .

وأما التجنيد الإلزامي فيرون أنه ليس من مصلحة حكومة العراق الأخذ به ، لأن الشعب لا يريده ، ولا يرغب في إرسال أبنائه إلى المعسكرات ، فإذا ما أخذ به فإن الشعب سيقوم بردّة فعلٍ ضدّ الحكومة ، وتُولّد نقمة عليها .

وأما السكك الحديدية ، وميناء البصرة فترى انكلترا تشكيل هيئةٍ لها على

= ١ ـ ناجي السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٦ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٧ ـ خالد سليمان : وزيراً للري والزراعة .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

أن يكون أكثر أعضائها من الإنكليز .

وفي عهد هذه الوزارة تم عقد اتفاقيةٍ مع الولايات المتحدة تستطيع بموجبها إقامة مؤسسات صحية وثقافية ، وبعث إرساليات تنصيرية إلى العراق .

كما تمّ في عهدها اللقاء بين الملك فيصل وسلطان نجد على ظهر الدارعة البريطانية (لوبن) في ٢٤ رمضان عام ١٣٤٨هـ (٢٢ شباط ١٩٣٠م) .

وزارة نوري السعيد الأولى : بعد أن قدّم ناجي السويدي استقالة حكومته في ٩ شوال ١٣٤٨ هـ عهد الملك إلى نوري السعيد بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ [1] فتمّ تشكيلها وصدرت الإرادة الملكية بتعيين أعضائها في ٢٣ شوال ١٣٤٨ هـ (٢٣ آذار ١٩٣٠ م) .

صدرت إرادة ملكية بحل المجلس النيابي في ٥ صفر عام ١٣٤٩ هـ (الأول من تموز ١٩٣٨ م) ، والبدء بانتخاب مجلس جديد .

وصدرت تعليمات ، ومن ثم قانون باعتبار اللغة الكردية لغةً رسميةً في المناطق الكردية ، وهذا ما سيكون له أكبر الخطر في الدعوة إلى الانفصال والتجزئة ، كما سبق أن ذكرنا .

وكانت الأزمة الاقتصادية في العالم قد بلغت أوجها ، وتأثّرت بها معظم الدول ، وإن كانت بنسبٍ متفاوتةٍ ، فقامت الحكومة في العراق ببعض الإجراءات لتخفيف حدة هذه الأزمة في البلاد ، ومن هذه الإجراءات ، إعطاء المزارعين بعض المبالغ من المال كسلفة . وإعفاء المواطنين من ديون

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ جميل المدفعي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ علي جودت : وزيراً للمالية .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جميل الراوي : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٦ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع .
٧ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً بالوكالة للزراعة والري .

الدولة ، والطلب من انكلترا تحمّل نفقات دار اعتمادها في بغداد .

والأمر البارز في عمل هذه الحكومة التوقيع على المعاهدة العراقية ـ البريطانية الجديدة ، وقد بدأت المفاوضات في ٤ ذي القعدة ١٣٤٨ هـ (٢ نيسان ١٩٣٠ م) ، ودارت حول نقطتين أساسيتين :

١ ـ الاعتراف بحفظ وحماية المواصلات الجوية الإنكليزية في العراق بصورةٍ دائمةٍ ، وفي جميع الأحوال .

٢ ـ دخول العراق في عصبة الأمم عام (١٩٣٢ م) .

وكان الملك فيصل يُشرف على هذه المفاوضات بنفسه ، واضطر إلى السفر إلى لندن في ٢٧ محرم عام ١٣٤٩هـ (٢٣ حزيران ١٩٣٠م) ، وأناب عنه أخاه الأكبر علياً . وتمّ التوقيع على المعاهدة في ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ، وفي اليوم التالي صدر الأمر بحلّ المجلس النيابي ، وسافر نوري السعيد إلى لندن للمفاوضة في أمر القضايا المالية المعلّقة بين العراق وانكلترا ، وأناب عنه صهره وزير الدفاع جعفر العسكري . وهكذا أصبح الملك ورئيس وزرائه في لندن .

نُشرت بنود المعاهدة[1] في ٢٢ صفر فلقيت مُعارضةً واسعةً

---

(١) كانت مواد المعاهدة كما يلي :

المادة الأولى : يسود سلم وصداقة دائمين بين صاحب الجلالة ملك العراق ، وبين صاحب الجلالة البريطانية ، ويؤسّس بين الفريقين الساميين المتعاقدين تحالف وثيق توطيداً لصداقتهما وتفاهمهما الودي وصلاتهما الحسنة . وتجري بينهما مشاورات تامة وصريحة في جميع شؤون السياسة الخارجية مما قد يكون له مساس بمصالحهما المشتركة .

ويتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن لا يقف في البلاد الأجنبية موقفاً لا يتفق وهذا التحالف أو قد يجعل مصاعب للفريق الآخر .

المادة الثانية : يُمثّل كلًا من الفريقين الساميين المتعاقدين لدى بلاط الفريق السامي المتعاقد الآخر ممثل سياسي يعتمد وفقاً للأصول المرعية .

المادة الثالثة : إذا أدّى أي نزاع بين العراق وبين دولةٍ ثالثةٍ إلى حالة يترتب عليها خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يُوحّد حينئذٍ الفريقان الساميان المتعاقدان مساعيهما لتسوية ذلك =

= النزاع بالوسائل السلمية وفقاً لأحكام عصبة الأمم ، ووفقاً لأي تعهداتٍ دوليةٍ أخرى يمكن تطبيقها على تلك الحالة .

المادة الرابعة : إذا اشتبك أحد الفريقين الساميين المتعاقدين بحرب رغم أحكام المادة الثالثة أعلاه يبادر حينئذٍ الفريق السامي المتعاقد الآخر فوراً إلى معونته بصفة كونه حليفاً ، وذلك دائماً وفق أحكام المادة التاسعة أدناه .

وفي حالة خطر حرب محدق يبادر الفريقان الساميان المتعاقدان فوراً إلى توحيد المساعي في اتخاذ تدابير الدفاع المقتضية .

إن معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب ، أو خطر حربٍ محدقٍ تنحصر في أن يُقدّم إلى صاحب الجلالة البريطانية في الأراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يُقدّمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام السكك الحديدية ، والأنهار ، والموانىء ، والمطارات ، ووسائل المواصلات .

المادة الخامسة : من المفهوم بين الفريقين الساميين المتعاقدين أن مسؤولية حفظ الأمن الداخلي في العراق ـ بشرط مراعاة أحكام المادة الرابعة أعلاه ومسؤولية الدفاع عن العراق تجاه الاعتداء الخارجي تنحصران في صاحب الجلالة ملك العراق .

ومع ذلك يعترف جلالة ملك العراق بأن حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الأساسية بصورةٍ دائمةٍ في جميع الأحوال هما من صالح الفريقين الساميين المتعاقدين المشترك .

من أجل ذلك وتسهيلاً للقيام بتعهدات صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للمادة الرابعة أعلاه يتعهد جلالة ملك العراق بأن يمنح صاحب الجلالة البريطانية طيلة مدة التحالف موقعين لقاعدتين جويتين ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية في البصرة أو في جوارها ، وموقعاً واحداً لقاعدةٍ جويةٍ ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية في غرب نهر الفرات .

وكذلك يأذن ملك العراق لصاحب الجلالة البريطانية في أن يُقيم قواتٍ في الأراضي العراقية في الأماكن الآنفة الذكر ، وفقاً لأحكام ملحق هذه المعاهدة ، على أن يكون مفهوماً أن وجود هذه القوات لن يعتبر بوجهٍ من الوجوه احتلالاً ، ولن يمسّ على الإطلاق حقوق سيادة العراق .

المادة السادسة : يُعدّ ملحق هذه المعاهدة جزءاً منها لا يتجزأ عنها .

المادة السابعة : تحلّ هذه المعاهدة محلّ معاهدتي التحالف الموقّع عليهما في بغداد في العاشر من شهر تشرين الأول لسنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بعد الألف النصرانية ، والموافق للتاسع عشر من شهر صفر لسنة إحدى وأربعين وثلاثمائة بعد الألف الهجرية . وفي اليوم الثالث عشر من =

= شهر كانون الثاني لسنة ست وعشرين وتسعمائة بعد الألف النصرانية الموافق لليوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة لسنة أربع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف الهجرية مع الاتفاقات الفرعية الملحقة بها التي تصبح ملغاةً عند دخول هذه المعاهدة حيز التنفيذ .

وتوضع هذه المعاهدة في نسختين في كل من اللغتين العربية والإنكليزية ، ويُعدّ النص الأخير النص المعول عليه .

المادة الثامنة : يعترف الفريقان الساميان المتعاقدان بأنه عند الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة تنتهي من تلقاء نفسها ، وبصورةٍ نهائيةٍ جميع المسؤوليات المترتبة على صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق وفقاً للمعاهدات والاتفاقات المشار إليها في المادة السابعة من هذه المعاهدة وذلك فيما يختص بصاحب الجلالة البريطانية ، وإذا بقي شيء من هذه المسؤوليات فتترتب على صاحب الجلالة ملك العراق وحده .

ومن المعترف به أن كل ما يبقى من المسؤوليات المترتبة على صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق وفقاً لأية وثيقةٍ دوليةٍ أخرى ينبغي أن يترتب كذلك على جلالة ملك العراق وعلى الفريقين الساميين المتعاقدين أن يبادرا فوراً إلى اتخاذ الوسائل المقتضية لتأمين نقل هذه المسؤوليات إلى صاحب الجلالة ملك العراق .

المادة التاسعة : ليس في هذه المعاهدة ما يرمي بوجهٍ من الوجوه إلى الإخلال بالحقوق والتعهدات المترتبة أو التي قد تترتب لأحد الفريقين الساميين المتعاقدين أو عليه وفقاً لميثاق عصبة الأمم أو معاهدة تحريم الحرب الموقع عليها في باريس في (٢٧ آب ١٩٢٨م) .

المادة العاشرة : إذا نشأ خلاف ما يتعلق بتطبيق هذه المعاهدة أو تفسيرها فلم يُوفّق الفريقان الساميان المتعاقدان إلى الفصل فيه بالمفاوضة رأساً بينهما فإن الخلاف يُعالج حينئذٍ وفقاً لأحكام ميثاق عصبة الأمم .

المادة الحادية عشرة : تبرم هذه المعاهدة ، ويتمّ تبادل الإبرام بأسرع ما يمكن ، ثم يجري تنفيذها عند قبول العراق عضواً في عصبة الأمم . وتظل هذه المعاهدة نافذة المفعول مدة خمس وعشرين سنة بدءاً من تاريخ تنفيذها . وفي أي وقتٍ ما بعد عشرين سنة من تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، على الفريقين الساميين المتعاقدين أن يقوما بناءً على طلب أحدهما بعقد معاهدةً جديدةً ينصّ فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الأساسية في جميع الأحوال ، وعند الخلاف في هذا الشأن يُعرض ذلك الخلاف على مجلس عصبة الأمم .

الملحق العسكري

١ ـ يُعيّن صاحب الجلالة البريطانية من حينٍ لآخر مقدار القوات التي يقيمها جلالته في =

. . . .

= العراق وفقاً لأحكام المادة الخامسة من هذه المعاهدة ، وذلك بعد مشاورة صاحب الجلالة ملك العراق في الأمر .

ويقيم صاحب الجلالة البريطانية قوات في الهنيدي لمدة خمس سنوات بعد الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، وذلك لكي يمكن صاحب الجلالة ملك العراق من تنظيم القوات المقتضية لتحلّ محل تلك القوات ، وعند انقضاء تلك المدة تكون قوات صاحب الجلالة البريطانية قد انسحبت من الهنيدي ، ولصاحب الجلالة البريطانية أيضاً أن يُقيم قوات في الموصل لمدة أقصاها خمس سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، وبعد ذلك لصاحب الجلالة البريطانية أن يضع قواته في الأماكن المذكورة في المادة الخامسة من هذه المعاهدة ، ويُؤجّر صاحب الجلالة ملك العراق مدة هذا التحالف صاحب الجلالة البريطانية المواقع الضرورية لإسكان قوات صاحب الجلالة البريطانية في تلك الأماكن .

٢ ـ بشرط مراعاة أي تعديلات قد يتفق عليها الفريقان الساميان المتعاقدان على إحداثها في المستقبل تظلّ الحصانات والامتيازات في شؤون القضاء والعائدات الحكومية (وفي ذلك الإعفاء من الضرائب) التي تتمتع بها القوات البريطانية في العراق وتشمل القوات المشار إليها في الفقرة الأولى أعلاه ، وتشمل أيضاً قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع الأصناف ، وهي القوات التي يحتمل وجودها في العراق عملاً بأحكام هذه المعاهدة وملحقها ، أو وفقاً لاتفاقٍ يتمّ عقده بين الفريقين الساميين المتعاقدين ، وأيضاً يواصل العمل بأي تشريعٍ محليٍ له مساس بقوات صاحب الجلالة البريطانية المسلحة ، وتتخذ الحكومة العراقية التدابير اللازمة للتثبت من أن الشروط المتبدلة لا تجعل موقف القوات البريطانية فيما يتعلّق بالحصانة والامتيازات أقلّ ملاءمةً بوجهٍ من الوجوه من الموقف الذي تتمتع به هذه القوات عند تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة .

٣ ـ يوافق جلالة ملك العراق على القيام بجميع التسهيلات الممكنة لنقل القوات المذكورة في الفقرة الأولى من هذا الملحق وتدريبها وإعالتها ، وعلى منحها عين تسهيلات استعمال اللاسلكي التي تتمتع بها عند الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة .

٤ ـ يتعهد صاحب الجلالة ملك العراق بأن يقدم بناء على طلب صاحب الجلالة البريطانية وعلى نفقة صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للشروط التي يتفق عليها الفريقان الساميان المتعاقدان حرساً خاصاً من قوات صاحب الجلالة ملك العراق لحماية القواعد الجوية مما قد تشغله قوات جلالة ملك بريطانيا وفقاً لأحكام هذه المعاهدة ، وأن يؤمّن سنّ القوانين التشريعية التي قد تقتضيها تنفيذ الشروط الآنفة الذكر .

٥ ـ يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يقوم عند كل طلبٍ يطلبه صاحب الجلالة =

= ملك العراق بجميع التسهيلات الممكنة في الأمور التالية ، وذلك على نفقة جلالة ملك العراق وهي :

أ ـ تعليم الضباط العراقيين الفنون البحرية والعسكرية والجوية في المملكة المتحدة .

ب ـ تقديم الأسلحة ، والتجهيزات ، والعتاد ، والسفن ، والطائرات من أحدث طرازٍ متيسرٍ إلى قوات جلالة ملك العراق .

جـ ـ تقديم ضباط بريطانيين بحريين ، وعسكريين ، وجويين للخدمة بصفةٍ استشارية في قوات جلالة ملك العراق .

٦ ـ لما كان من المرغوب فيه توحيد التدريب والأساليب في الجيشين العراقي والبريطاني ، يتعهد جلالة ملك العراق بأنه إذا رأى ضرورة الالتجاء إلى مدربين عسكريين أجانب فإنهم يختارون من الرعايا البريطانيين . ويتعهد أيضاً بأن الأفراد الذين يرسلهم من قواته إلى الخارج للتدريب العسكري فإنما يرسلهم إلى مدارس وكليات ودور تدريب عسكرية في بلاد صاحب الجلالة البريطانية بشرط أن لا يمنع ذلك صاحب جلالة ملك العراق من إرسال الأفراد الذين لا يمكن قبولهم في المعاهد ودور التدريب المذكورة إلى أي بلاد أخرى . ويتعهد أيضاً بأن لا تختلف التجهيزات الأساسية لقوات جلالته وأسلحتها في نوعها عن أسلحة قوات صاحب الجلالة البريطانية وتجهيزاتها .

٧ ـ يوافق جلالة ملك العراق على أن يقوم عند طلب صاحب الجلالة البريطانية ذلك بجميع التسهيلات الممكنة لمرور قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع الأصناف العسكرية عبر العراق ، ولنقل ، وخزن جميع المؤن والتجهيزات التي قد تحتاج إليها هذه القوات أثناء مرورها في العراق ، وتتناول هذه التسهيلات استخدام طرق العراق ، والسكك الحديدية فيه ، وطرقه المائية ، وموانئه ومطاراته ، ويؤذن لسفن صاحب الجلالة البريطانية إذناً عاماً في زيارة شط العرب بشرط إعلام جلالة ملك العراق قبل القيام بتلك الزيارات للموانىء العراقية .

الملحق المالي

١ ـ تنقل حكومة المملكة المتحدة البريطانية العظمى وايرلندة الشمالية إلى الحكومة العراقية في خلال المدة المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف الموقّعة في (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) المطارات والمعسكرات التي في الهنيدي ، والموصل ، والتي تشغلها الآن قوات صاحب الجلالة البريطانية ، وتتقبل الحكومة العراقية انتقال هذه المطارات والمعسكرات إليها ، (عدا سقيفتين فولاذيتين من نوع (أ) ومعدات الثلج الموجودة في =

. . . .

= الهنيدي والموصل التي ستنقلها حكومة المملكة المتحدة) ، بثلث الثمن الذي تشهد وزارة الطيران لحكومة المملكة المتحدة بصحته ، ويشمل ذلك المباني ، والمعامل ، والمؤسسات ، والإنشاءات الدائمة الموجودة هناك ، ولا يدخل في هذا الحساب المباني الطينية التي تنتقل إلى الحكومة العراقية دون ثمن ، ولا تتأخر الحكومة العراقية في دفع هذا المبلغ إلى حكومة المملكة المتحدة عن التاريخ الذي يتم فيه الانتقال المذكور .

وفي خلال المدة القصوى المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف تظل قوات صاحب الجلالة البريطانية آمنة في إشغال مواقعها الحالية في الهنيدي والموصل والشعيبة ، وفي استعمال أماكنها الحالية المخصصة لنزول الطائرات الإضطراري ، ولا تطالب حكومة المملكة المتحدة بدفع بدل إيجار لهذه الأماكن يزيد على البدل الذي تدفعه الآن .

٢ ـ عند انسحاب قوات صاحب الجلالة البريطانية من الهنيدي والموصل وفق أحكام الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف إذا قررت حكومة المملكة المتحدة تأسيس قاعدة جوية بريطانية في جوار الحبانية فإن الحكومة العراقية تتخذ حينئذٍ جميع التدابير الممكنة دون أن يترتب في ذلك نفقات على أي من الحكومتين لإنشاء سكة حديدية تصل تلك القاعدة الجوية بالسكك الحديدية العراقية .

٣ ـ لا يستوفى بدل إيجار عن مواقع القواعد الجوية التي تؤجر من حكومة صاحب الجلالة البريطانية وفق أحكام المادة الخامسة من معاهدة التحالف متى كانت تلك المواقع في أراضٍ حكومية خالية . أما إذا كانت تلك البقاع في أراضٍ غير حكومية فتجري جميع التسهيلات الممكنة لوجوب عقد تلك الايجارات بشروط معقولةٍ على أن تقوم حكومة العراق بعقد هذه الإيجارات بناءً على طلب حكومة المملكة المتحدة وعلى نفقة المملكة المتحدة ، وتعفى الأراضي المأجورة من جميع الضرائب والرسوم وتظلّ الإيجارات نافذة المفعول ما دامت قوات صاحب الجلالة البريطانية شاغلةً هذه القواعد وفق أحكام معاهدة التحالف السابقة الذكر ، أو وفق أحكام أي تمديدٍ آخر لها . وعند انقضاء أجل إيجار المواقع المذكورة أو أجل إيجار أي منها بصورةٍ نهائية إما أن تتسلم الحكومة العراقية نفسها المباني ، والمؤسسات ، والإنشاءات الدائمة المبنية في تلك المواقع بتقدير ثمنٍ معقول مع اعتبار استعمالها وإما أن تجري التسهيلات المعقولة التي تقضي بتمكين حكومة المملكة المتحدة من تصريفها على أفضل صورةٍ ممكنةٍ .

وبعد انقضاء المدة القصوى المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف ، وما دامت معاهدة التحالف نافذة المفعول لا تطالب حكومة المملكة المتحدة بدفع أجور استعمال أي كان من الأماكن الحالية المخصصة لنزول الطائرات الاضطراري في العراق .

=

٤ ـ تُنفَّذ التدابير الآتية المتخذة للتصرف بالسكك الحديدية العراقية وإدارتها بأسرع ما يمكن ، وفي خلال مدةٍ لا يتعدّى حدّها الأقصى على كل حالٍ سنة واحدة ابتداءً من دخول معاهدة التحالف واقع التنفيذ .

أ ـ تنقل حكومة المملكة المتحدة ملكية السكك الحديدية الشرعية إلى الحكومة العراقية ، وتسجل باسم الحكومة العراقية ، وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه هذا الانتقال تخول هيئة خاصة أو نقابة ذات شخصية قانونية حق الانتفاع التام في سبيل الإيجار أو غيره وببدل إيجار اسمي وبشروط ترضاها حكومة المملكة المتحدة ، على أن تؤلف هذه الهيئة أو مجلس الإدارة بقانونٍ خاص تسنّه الهيئة التشريعية العراقية وتوافق على نصوصه كلتا الحكومتين .

ب ـ تكون النقابة جميعها مسؤولة عن إدارة السكك الحديدية العراقية وتدبير شؤونها ، ولها وحدها ، دون غيرها سلطة جمع رأسمالٍ جديدٍ باكتتابٍ عامٍ أو بعقد قرضٍ خاصٍ مع سلطة التصرف بدخل هذه السكك الحديدية على أن تراعي في ذلك القيود المفروضة في القانون المار ذكره .

ج ـ يتألف رأسمال النقابة المذكورة مما يأتي :

أولاً : يخصص لحكومة المملكة المتحدة ما قيمته ٢٧٥ لك روبية من الأسهم الممتازة بفائدة ٦٪ ، ولا تتراكم هذه الفائدة لمدة عشرين سنة ابتداءً من تاريخ انتقال ملكية السكك الحديدية ، ولكنها تتراكم بعد انقضاء هذه المدة . ويحسب ٢٥ لك روبية من هذا المبلغ قيمة رأس المال المدينة به السكك الحديدية لحكومة المملكة المتحدة على حساب التصفية .

ثانياً : يخصص ٤٥ لك و ٨٥ ألف روبية من الأسهم الممتازة بالشروط نفسها ، وهذا المبلغ يساوي المبالغ التي اقترضتها الحكومة العراقية للسكك الحديدية ، والتي أُعفيت من الفائدة .

ثالثاً : يخصص أيضاً للحكومة العراقية ٢٥٠ لك روبية من الأسهم المتأخرة ، وللحكومة العراقية الخيار في أن تشتري متى شاءت الأسهم المخصصة لحكومة المملكة المتحدة بقيمتها الأصلية .

د ـ يتألف مجلس إدارة النقابة من خمسة مديرين ، تُعيِّن الحكومة العراقية اثنين منهم ، والمملكة المتحدة تعين اثنين أيضاً . أما الخامس الذي يكون رأس مجلس الإدارة فيتم تعيينه باتفاق الحكومتين ، ويكون أول رئيس لمجلس الإدارة مدير السكك الحديدية العراقية الحالي .

تكون النقابة مسؤولة عن اقتراض رأس المال المطلوب لإصلاح السكك الحديدية العراقية وتوسعتها ، ولا تتعهد أي الحكومتين بضمان هذا القرض سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالفائدة أم برأس المال .

. . . .

هـ ـ كل رأس مال تقترضه النقابة لإصلاح السكك الحديدية العراقية أو لتوسعتها يقدم على الأسهم المخصصة للحكومتين وفقاً للفقرة (ج) السابقة .

و ـ تتقبل الحكومة العراقية بصفتها صاحبة الرقابة للسكك الحديدية التبعة النهائية عما يظهر فيما بعد من ديون على هذه السكك غير مترتبة على النقابة ، ومقابل هذه التبعة تحول حكومة المملكة المتحدة إلى الحكومة العراقية من الأسهم الممتازة ما تساوي قيمته الاسمية المبالغ التي لا يمكن استردادها مما قد تضطر الحكومة العراقية إلى دفعه تسديداً لتلك الديون ، وذلك متى ثبتت صحة تلك الديون ثبوتاً تقتنع به حكومة المملكة المتحدة .

ز ـ توقعاً لانتقال السكك الحديدية ، وتأليف النقابة تبادر الحكومة العراقية إلى منح عقود مدتها ثلاث سنوات وفق شروط (المعاهدة) لموظفي السكك الحديدية البريطانيين الذين قد يوصي بهم مدير السكك الحديدية العراقية لذلك ، ولا تبطل هذه العقود بعد منحها إلاّ بموافقة حكومة المملكة المتحدة . أما مسألة منح هؤلاء الموظفين عقوداً لمدة أطول من هذه المدة فتترك لقرار مجلس الإدارة بعد تأليفه .

٥ ـ إن امتلاك المملكة المتحدة لميناء البصرة ينتقل إلى الحكومة العراقية ، وتقوم بإدارة الميناء هيئة تدعى مجلس أمناء الميناء ، ولهذه الغاية يسنّ العراق تشريعاً بنصوص يتفق عليها مع حكومة المملكة المتحدة لتأليف مجلس أمناء الميناء ، له شخصية قانونية ، على ألاّ يعدل هذا التشريع إلاّ بموافقة حكومة المملكة المتحدة ما دام لحكومة المملكة المتحدة أي جزء كان من الدين المتعلق بالميناء .

وعند سنّ التشريع المذكور ، وتأليف مجلس أمناء الميناء ينتقل ملك الميناء إلى الحكومة العراقية ، ويسجل باسمها ، وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه هذا الانتقال يمنح مجلس أمناء الميناء حق الانتفاع التام على سبيل الإيجار ، أو الامتياز أو بواسطة أخرى مناسبة على أن توافق حكومة المملكة المتحدة على الشروط ، وذلك للمدة التي يكون فيها الميناء مديناً لحكومة المملكة المتحدة بأي جزءٍ كان من الدين .

المذكرة الإيضاحية

عند مناقشة بنود المعاهدة ، وقعت بعض الأسئلة حول المواد والتعبيرات التي رغب رئيس وزراء العراق في استيضاحها ، وقد تلقى نوري السعيد الأجوبة الآتية :

١ ـ تنص المادة الأولى من المعاهدة على أن يجري بينهما مشاورة تامة وصريحة .

إن هذه العبارة تنحصر في الشؤون الواقعة ضمن السياسة الخارجية ، وفي المصالح المشتركة الخارجية للفريقين المتعاقدين . أما الشؤون التجارية والاقتصادية البحتة فإنها خارجة عن نطاق هذه المادة .

. . . .

=

٢ ـ عطفاً على المادة الثالثة من المعاهدة فإنه في حالة وقوع نزاع بين بريطانيا العظمى وإحدى الدول المجاورة للعراق فإن الحكومة البريطانية تعمل بمشورة الحكومة العراقية وباتفاق الرأي معها وذلك بالصورة نفسها التي يعمل العراق بموجبها فيما لو كان النزاع بين العراق ودولة أخرى .

٣ ـ إن التسهيلات والمساعدات التي يقدمها العراق وفق أحكام المادة الرابعة من المعاهدة تكون على نفقة الحكومة البريطانية ، ولن يُكلِّف العراق شيئاً من ذلك .

٤ ـ إن المواصلات الأساسية لصاحب الجلالة البريطانية المنصوص عنها في الفقرة الثانية من المادة الخامسة هي المواصلات الجوية فوق العراق ، والمواصلات البحرية والجوية في رأس الخليج العربي .

٥ ـ إن ذكر القاعدتين الجويتين في البصرة أو بجوارها جاءت في النص الإنكليزي للمعاهدة بصيغة الجمع وذلك لعدم وجود التثنية في الإنكليزية ، فالعدد هو كما جاء في النص العربي ، وأيضاً في البيان الرسمي الصادر باتفاق المفاوضين في (١ تموز ١٩٣٠م) .

٦ ـ إن القوات البريطانية المسموح بإقامتها بموجب الفقرة الرابعة من المادة الخامسة هي قوات جوية صرفة مع الخدمات المساعدة .

٧ ـ ليس هناك أي معاهدة أو وثيقة سرية للحكومة البريطانية تتعلق بالعراق وتقع تحت مدلول الوثائق الدولية الملمح بها في الفقرة الثانية من المادة الثامنة من المعاهدة .

٨ ـ إن مجموع الحرس العراقي الوارد ذكره في الفقرة الرابعة من الملحق لا يتجاوز (١٢٥٠) رجلاً .

٩ ـ إيضاحاً لعبارة (مرور القوات عبر العراق) المشار إليها في الفقرة السابعة من الملحق فإن اتجاه هذا المرور قد حدد من غرب الفرات إلى الخليج العربي أو بالعكس .

١٠ ـ طلبت حكومة العراق إلى الحكومة البريطانية أن تزوّدها بقائمة للوثائق الدولية الملمح إليها في الفقرة الثانية من المادة الثامنة فتلقّت القائمة الآتية :

أولاً : التعهدات المقطوعة لشيخي الكويت والمحمرة عام (١٩١٤م) بشأن بساتين النخيل العائدة لهما في العراق .

ثانياً : اتفاقية النفط المؤرخة في سان ريمو في ٢٤ تموز (١٩٢٠م) .

ثالثاً : اتفاقية الحدود الإنكليزية ـ الفرنسية المؤرخة في ٢٤ كانون الأول (١٩٢٠م) .

رابعاً : معاهدة لوزان المؤرخة في ٢٤ تموز (١٩٢٤م) .

خامساً : معاهدة أنقره المؤرخة في ٥ حزيران (١٩٢٦م) .

وقد علّق رئيس الوزراء نوري السعيد على الوثيقة الأولى بقوله : (إن حكومة العراق لم =

= تعترف بأن التعهدات المقطوعة لشيخي الكويت والمحمرة أنها من جملة الوثائق الدولية التي تقع تحت مدلول المادة الآنفة الذكر .

الكتاب المختص بحرس المطارات

بعث نوري السعيد بهذا الكتاب إلى المعتمد السامي البريطاني (همفريز) يوم توقيع المعاهدة .

سيدي :

إشارة إلى المادة الرابعة من ملحق المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بإخباركم أنه عندما يأتي الوقت الذي تنفذ فيه أحكام تلك المادة ستكون الحكومة العراقية مستعدة للموافقة على الترتيبات التالية لأجل الحرس الخاص المشار إليه في هذا الملحق .

لا أتوقع أن تحصل ضرورة لاتخاذ أي تشريع لتأمين جريان هذا الترتيب بسهولة ، ولكن إذا كانت هناك نقطة ووجد من الجهة العملية أن القانون الحاضر لا يكفي بشأنها لهذا الغرض فإن التشريع اللازم سيمر دون تأخير .

أ ـ تتألف القوة من رجال لا يتجاوز عددهم (١٢٥٠) عدا الموظفين البريطانيين .

ب ـ تكون الخدمة في القوة اختيارية ، وتعفي هذه الخدمة أي عضو من القوة المذكورة من أحكام أي قانون لأجل الخدمة الإجبارية .

جـ ـ تكون القوة تحت قيادة قائد بريطاني ، ويكون العدد اللازم من الضباط البريطانيين والعراقيين الذين هم دونه درجة ، كلهم تابعين إلى جلالة ملك العراق ، ويدخل ضمن ذلك صغار الضباط ، وضباط الصف البريطانيون بحسب الحاجة ، وتكون لهم السلطات التي تختص برتبهم عادة ، وللقائد الصلاحية بوضع قواعد فيما يختص بالتجنيد ، والإدارة ، ونوع الأسلحة ، واللباس ، والتجهيزات ، وكيفية التدريب ، ومقدار الراتب وشروط الخدمة .

د ـ أما بخصوص النظام فستكون القوة باستثناء الموظفين البريطانيين خاضعة إلى النظام العسكري العراقي .

يمنح القائد والضباط البريطانيون التابعون ، السلطات الجزائية اللازمة ، ويكون للقائد الحرية التامة من جهة دعوة ديوان حرب وتأليفه ، تصدق الأحكام الصادرة من ديوان الحرب الذي لا يكون القائد عضواً فيه من قبله في الأحوال التي يكون فيها القائد نفسه عضواً في الديوان ، أو يكون الحكم الصادر منه يتجاوز الحبس سنة واحدة . ويجري تصديق الحكم من قبل وزير الدفاع .

هـ ـ تكون وظيفة القوة الأساسية حماية قواعد الطيران في العراق التي قد تكون بموافقة الحكومة العراقية مشغولة من قبل قوات صاحب الجلالة البريطانية ، وتتناول هذه الوظيفة

واحتجاجاتٍ كثيرةٍ ، وكان الأكراد ، والآشوريون من بين الفئات التي احتجّت حتى اضطر رئيس الوزراء بالنيابة جعفر العسكري إلى أن يُسافر مع وكيل المعتمد البريطاني إلى الألوية الشمالية ، لبث الطمأنينة في نفوس السكان .

وقّع رئيس الوزراء نوري السعيد على الاتفاقية المالية الجديدة في ٢٥ ربيع الأول ١٣٤٩ هـ (١٩ آب ١٩٣٠م) ، وعاد بعدها إلى بغداد في ٨ ربيع الثاني ١٣٤٩هـ (الأول من أيلول ١٩٣٠م) ، كما كان قد وقّع على الملحق العسكري بالمعاهدة ، الذي عدّته انكلترا جزءاً لا يتجزّأ من المعاهدة ، كما بعث كتاباً شخصياً إلى المعتمد السامي البريطاني يوم توقيع المعاهدة وتناول فيه قضية حرس المطارات وكان هذا الكتاب سرياً لم يطلع عليه الملك ، ولا الوزارة ، ولا المجلس النيابي ، وقد تمسّكت به انكلترا ، وعدّته صكّاً واجب التنفيذ .

أجرت الحكومة تبدلات واسعة بين كبار موظفي الدولة من متصرفين وقائمي مقام ، ومدراء عامين لتأمين نتائج الانتخابات لصالحها .

= مهمة المحافظة على مواد ومخازن قوات صاحب الجلالة البريطانية في العراق حيثما كانت . ولأجل القيام بهذه الوظائف التي تكون المسؤولية الإجرائية عائدة إلى القائد توضع القوة تحت تصرف قائد الطيران المطلق .

و ـ من المتفق عليه أنه قد تدعو الضرورة من وقت لآخر لأجل القيام بالوظائف المذكورة أعلاه بصورة منظمة أن يتلقى أعضاء القوة الأوامر من ضباط قوات صاحب الجلالة البريطانية . وتبلغ هذه الأوامر إلى القوة عادة بواسطة ضباطها غير أن الحكومة العراقية لا تعارض عند الحاجة في إصدار هذه الأوامر بصورة مباشرة ، وتتخذ التدابير في هذه الحال لتأمين إجبار جميع أعضاء هذه القوة على امتثال هذه الأوامر ، وتمتعهم بالصيانات نفسها كما لو كانت الأوامر قد أعطيت من قبل ضباط قوات صاحب الجلالة ملك العراق . ومن المتفق عليه أن سلطة القيادة على القوات العراقية التي قد تمنح إلى ضابط قوات صاحب الجلالة البريطانية لا يمكن ممارستها إلّا فيما يتعلق بالقوة الخاصة .

ز ـ تسدد نفقات القوة كلها من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية العظمى .

جرت الانتخابات النيابية ، وحدثت تدخُّلات حكومية لصالح مرشحيها ، ومقاطعة للانتخابات في لواء السليمانية ، وصدامات بين الأهالي والشرطة هناك ، ووقوع عدد من القتلى والجرحى ، وأُجّلت الانتخابات هناك مدة أسبوعٍ ثم جرت ، وفاز مرشحو الحكومة .

افتتح المجلس النيابي في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ (١ تشرين الثاني ١٩٣٠م) ، وانتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، وجعفر العسكري ، وزير الدفاع رئيساً لمجلس النواب ، فأسندت وزارة الدفاع إلى نوري السعيد رئيس الوزراء . واستطاعت الحكومة تمرير المعاهدة على المجلس النيابي ، وأخذ الموافقة عليها بشكلٍ سريع ، وادعاءاتٍ عاجلةٍ في جلسة يوم ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ (١٦تشرين الثاني ١٩٣٠م) .

أسّس نوري السعيد حزباً أسماه حزب « العهد العراقي » ونتيجة الانتخابات وتدخّل الحكومة فيها فقد حصل على الأكثرية الأمر الذي مكّنه من إبرام المعاهدة . ثم المصادقة عليها . وفي الوقت نفسه أسّست المعارضة حزب الإخاء الوطني ، الذي اتفق مع الحزب الوطني العراقي ، وتأليف الجبهة المتحدة لتقود المعارضة ، وقد تبنّت فكرة أن المعاهدة ظالمة جائرة يجب تعديلها ، وأن المجلس النيابي يجب أن يُحلّ لأنه لا يُمثّل الشعب نتيجة تدخّلات الحكومة في الانتخابات .

لم تستطع المعارضة التأثير على الحكومة ، وتغيير اتجاهها في المعاهدة ، فاضطر رؤساء المعارضة ياسين الهاشمي ، ورشيد عالي الكيلاني ، وعلي جودت الأيوبي على تقديم استقالاتهم من عضوية مجلس النواب ، واتهموا أعضاءه بموالاة الإنكليز، وقد وافق المجلس على هذه الاستقالة في ٢٧ شوال عام ١٣٤٩هـ (١٦ آذار ١٩٣١م) .

ورأى رئيس الوزراء نوري السعيد أن يُوجّه أنظار الشعب إلى الخارج ، ويُشغلهم عما في الداخل ، وعما يُوجّه إلى حكومته من انتقاداتٍ ، فسافر على

رأس وفدٍ، في ٧ ذي القعدة ١٣٤٩هـ إلى عمان ، وعقد معاهدة صداقةٍ مع حكومة شرقي الأردن ، ومن عمان انتقل إلى مصر يوم ١٠ ذي القعدة ، ومن مصر سافر إلى مكة المكرمة فعقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع المملكة العربية السعودية في ٢٠ ذي الحجة . وكان طه الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي وأحد أعضاء الوفد قد سافر من مصر مباشرةً إلى صنعاء حيث عقد معاهدةً مع الإمام يحيى حميد الدين في ٢٢ ذي الحجة ١٣٤٩هـ .

استطاع الجيش العراقي في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٩هـ (١٣ أيار ١٩٣١م) أن يُرغم الزعيم الكردي محمود المعروف على الاستسلام ، وقد نقض العهد الذي أعطاه قبل أربع سنواتٍ ، وكان نقضه عندما حدثت الانتخابات في لواء السليمانية وأدّت إلى صدامات ، فقد طلب عندها محمود المعروف من المعتمد السامي البريطاني وجوب إنشاء دولةٍ كرديةٍ تمتدّ من (زاخو) إلى (خانقين) ، فلما أنذرته الحكومة العراقية بضرورة الابتعاد عن مثل هذه التصرفات لجأ إلى العنف ، وحرّض الأكراد على العصيان ، ونتيجة الضغط اضطر إلى الاستسلام ، وحُمل إلى (السماوة) ، ثم نقل إلى (الناصرية) ، وأخيراً سمح له بالإقامة في بغداد . وبقي فيها حتى حدث القتال بين الجيش العراقي والإنكليزي أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني فانتقل عندها إلى السليمانية بحجة جمع المجاهدين لقتال الإنكليز، وبقي بعدها هناك .

قبضت السلطات العراقية على متصرّف لواء السليمانية توفيق وهبي وعلى بعض العناصر الأخرى من زعماء الأكراد ، وبعض رؤساء الآشوريين بتهمة التآمر على سلامة الدولة وذلك في ١٤ ذي الحجة ١٣٤٩هـ ، حيث كان (مايكوب) البريطاني الجنسية قد أخذ منذ منتصف هذا العام بالتجوال في شمالي العراقي ، وتحريض الأكراد والآشوريين على الثورة وإظهار التمرّد والعصيان .

وحدثت مظاهرات واستياءات ، وقرر أهالي بغداد الإضراب العام يوم ١٩ صفر ١٣٥٠هـ (٥ تموز ١٩٣١م) نتيجة بعض الضرائب التي فرضت ،

ثم انتقل الإضراب إلى المدن الأخرى . ووقعت أحداث في (الناصرية) و (البصرة) ، واستخدمت انكلترا إحدى بوارجها لحماية رعاياها والأجانب على حد زعمها . وكان رئيس الوزراء ، ووكيله وزير المالية في لندن ، ويتسلّم مزاحم الباجه جي رئاسة الوزارة بالوكالة . فلما اشتدّت الأحداث اتخذ مزاحم الباجه جي الإجراءات الصارمة فوُجّهت إليه انتقادات شديدة ، وعاد رئيس الوزراء من رحلته ، وانتهى الإضراب ، وأخذت المطالبة بفصل وزير الداخلية مزاحم الباجه جي من الوزارة ، واضطر جميل المدفعي رئيس مجلس النواب إلى الانسحاب من حزب العهد العراقي .

لما كان الهجوم عنيفاً على الوزارة وخاصةً على تصرفات وزير الداخلية الذي كان يوم الإضراب والأحداث الذي هو رئيس الوزراء بالوكالة أراد نوري السعيد أن يتخلّص منه ، رغم أنه كان قد كسبه إلى صفّه منذ مدةٍ وجيزةٍ ، وضمّه إلى الوزارة ، وكان قبلها من المعارضة ومن أشدّها نقداً للمعاهدة ، وللانتخابات التي حدثت . ولكن القانون العراقي لا يسمح بإخراج وزيرٍ من أعضاء الوزارة دون استقالتها ، ولذا فقد رفع نوري السعيد استقالة حكومته في ٦ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ (١٩ تشرين الأول ١٩٣١م) ، ولكن الملك الذي قد قبل استقالة الحكومة قد عهد إلى رئيسها بتشكيل الوزارة من جديدٍ ، ففعل ، وتشكلت ، الوزارة في اليوم نفسه[1] .

رجع أعيان البصرة الذي نُفوا إلى (عانه) إثر حوادث الإضراب ،

---

(١) تشكّلت الوزارة الثانية لنوري السعيد على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد: رئيساً للوزراء . ٥ ـ جعفر العسكري: وزيراً للدفاع والخارجية .
٢ ـ ناجي شوكت: وزيراً للداخلية . ٦ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٣ ـ رستم حيدر : وزيراً للمالية . ٧ ـ عبد الحسين الجلبي: وزيراً للمعارف .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .

عندما تشكلت الوزارة كان وزير الداخلية ناجي شوكت ، ووزير الدفاع والخارجية جعفر العسكري خارج البلاد فأسندت وزارتا الداخلية والخارجية بالوكالة إلى رئيس الوزراء ، =

واستأنفت بعض الصحف صدورها ، وخفّت الرقابة على رجال المعارضة .

عقـدت في ٢٩ رجب ١٣٥٠هـ (٩ كانون الأول ١٩٣١م) في أنقرة معاهدة تجارية ، ومعاهدة تسليم المجرمين ، واتفاقية إقامة وذلك بين العراق وتركيا .

وزار الملك فيصل ورئيس وزرائه نوري السعيد إيران . كما زار العراق وزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود . وأمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين شقيق الملك فيصل . وشيخ الكويت أحمد الجابر ، كل منهم في وقتٍ متقاربٍ لزيارة الآخر .

وقد أُسندت رئاسة الديوان الملكي إلى أحد رؤساء المعارضة وهو رشيد عالي الكيلاني .

وقام أحمد بارزان أحد زعماء الأكراد بتمرّدٍ في شمالي العراق ، فأرسلت الحكومة له قوةً أجبرته على الاستسلام ، فنفي إلى لواء المنتفق .

وضربت الحكومة النقد العراقي وحلّ الدينـار العراقي محـلّ الروبيـة الهندية بدءاً من يوم ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٠هـ (الأول من نيسان ١٩٣٢م) .

وافقت عصبـة الأمم في ٣ جمادى الآخـرة ١٣٥١هـ (٣ تشرين الأول ١٩٣٢م) على قبول العراق عضواً فيها ، وبذلك انتهت مهمة وزارة نوري السعيد ، واقتضى الأمر استقالة وزارته ، أو أن العراق قـد نالت استقـلالها فكان على الوزارة الاستقالة .

= ووزارة الدفاع إلى وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي .

ولما عادا تسلم كل منهما حقيبته الوزارية ، غير أن جعفر العسكري قد انتخب رئيساً للمجلس النيابي يوم افتتاح المجلس النيابي في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٣١م) . فأسندت وزارة الخارجية بالوكالة إلى رئيس الوزراء ، ووزارة الدفاع بالوكالة إلى وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي .

استقال جعفر العسكري من رئاسة المجلس النيابي بعد شهرٍ من انتخابه ، وانتخب مكانه جميل المدفعي ، وعاد جعفر العسكري إلى الوزارة وأسندت إليه وزارتا الخارجية والدفاع .

قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٣٢م) .

وزارة ناجي شوكت : بعد أن قدّم نوري السعيد استقالة حكومته عهد الملك فيصل الأول إلى ناجي شوكت بتأليف وزارةٍ جديدةٍ فتشكّلت في ٤ رجب ١٣٥١هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٣٢م)[١] .

كانت هذه الوزارة موقتة مهمتها حلّ المجلس النيابي ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ لتشكيل مجلسٍ نيابيٍ جديدٍ .

صدرت إرادة ملكية في ٩ رجب ١٣٥١هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٣٢م) بحلّ المجلس النيابي رغم أن مدّته لم تنته بعد ، إذ بقي له أربعة أشهرٍ .

وجرت الانتخابات النيابية ، وصدر أمر ملكي باجتماع المجلس في ١٢ ذي القعدة ١٣٥١هـ (٨ آذار ١٩٣٣م) .

ولما انتهت مهمة هذه الوزارة تقدّمت باستقالتها في ٢٢ ذي القعدة ١٣٥١هـ (١٨ آذار ١٩٣٣م) وكان الملك يريد تشكيل وزارةٍ أئتلافيةٍ تشترك فيها المعارضة إضافةً إلى أعضاء من حزب العهد العراقي الذي يرأسه نوري السعيد رغم أن وزارة ناجي شوكت كانت حيادية .

كلّف الملك فيصل الأول رشيد عالي الكيلاني بتشكيل وزارةٍ ائتلافيةٍ[٢] جديدةٍ ، وكان يرغب في أن تضم ياسين الهاشمي ، وحكمت سليمان ، ونوري السعيد ، إضافةً إلى رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني ، وذلك أنه

---

(١) تشكّلت وزارة ناجي شوكت على النحو الآتي :

١ ـ ناجي شوكت : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للمالية .
٣ ـ جميل الراوي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ رشيد الخوجه : وزيراً للدفاع .
٥ ـ جلال بابان : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٦ ـ عبد القادر رشيد : وزيراً للخارجية .
٧ ـ عباس مهدي : وزيراً للمعارف .

كان يرغب في وزارة المعارضة غير أنه لا يريد أن يبتعد خطوةً واسعةً دفعةً واحدةً ولكنه حبذا الابتعاد التدريجي .

كانت المعارضة من حزب الإخاء الوطني والحزب الوطني تُهاجم المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية وتعدّها فاسدةً وجائرةً ، ولا بدّ من تعديلها، فلما تسلّم أحد زعمائهم رئاسة الوزارة ، وهو رشيد عالي الكيلاني ، وتسلّم زعيم آخر منهم وزارة المالية وهو ياسين الهاشمي ، كما تسلّم حكمت سليمان أحد أقطابهم وزارة الداخلية . فكان لا بدّ لهم من أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ، وأوفياء مع الشعب ، لذا فقد كان في منهاج الوزارة تعديل المعاهدة تعديلاً يتفق مع الأماني الوطنية للبلاد .

وصدرت الصحف التي كانت لا تزال ممنوعةً عن الصدور .

الحركة الآشورية : وفي ١٤ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ (٥ آب ١٩٣٣م) قامت حركة التمرّد الآشورية . لقد كان الآشوريون وهم من النصارى النساطرة يُقيمون في ولاية (وان) في شرقي الأناضول ، ويعيشون في ظلّ الدولة الإسلامية بأمنٍ وطمأنينةٍ آمنين على أرواحهم ، وأعراضهم ، وأملاكهم ، ولا يخدمون في الجيش ما داموا من غير المسلمين ، وفي ذمة الأمة ، ولا يلقون أي اعتداء .

فلما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، استولى الروس على ولاية (وان) ، وأقاموا مؤسسات للأرمن بصفتهم نصارى ، وأغروا الآشوريين بالتمرّد على العثمانيين إذ قدّموا لهم السلاح ، وأعطوهم المال ، ووعدوهم

=(٢) شكّل رشيد عالي الكيلاني الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للداخلية .
٦ ـ جلال بابان : وزيراً للدفاع .
٧ ـ رستم حيدر : وزيراً للاقتصاد والمواصلات
٨ ـ عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

بالحماية ، وأثاروا فيهم الحقد الصليبي ، وادّعوا لهم أن قتل المسلمين مما يرضى عنه الرب ويأمر به ، فأقدم هؤلاء على جرائم وأعمالٍ وحشيةٍ تقشعّر لها الأبدان ، إذ جهدوا أن لا يبقى بينهم مسلم ، وأن لا تطال أيديهم واحداً إلا فتكوا به ، وبأهله ، ومثّلوا بهم بعد قيامهم بهتك الأعراض ، ونهب الأموال ، بصورٍ لا يمكن ذكرها لبشاعتها .

ولما انسحبت روسيا من منطقة (وان) بعد قيام الحركة الشيوعية وجدت الدولة العثمانية نفسها مضطرةً للفتك بهؤلاء المجرمين بعد تقديمهم إلى المحاكمة كي لا ينال الأبرياء أذىً من أعمال المجرمين ، غير أنه لم يوجد ـ مع الأسف ـ بين الآشوريين بريء . ولما وجد الآشوريون العقوبة ماثلة أمام أعينهم لجرائمهم التي ارتكبوها ، والتي لا يستطيعون إنكارها فرّ من لم تصل إليه بعد يد الدولة ، وانتقلوا إلى إيران ، حيث اتصلوا بالنساطرة الذين يعيشون هناك ، وعملوا على جمع بعضهم بعضاً .

وتشكّلت اللجنة الشرقية البريطانية التي كانت مهمتها إثارة العناصر النصرانية وتشجيع العناصر المعادية للعثمانيين نتيجة المصالح ، وكانت بلاد القفقاس ميدان عمل هذه اللجنة في سبيل عرقلة العمليات العثمانية في تلك الجهات ، وأرسلت الحكومة الإنكليزية بعثةً عسكرية إلى (أرومية) برئاسة الجنرال (ويسترفيل) لتحضّ النساطرة على العمل ضدّ العثمانيين ، وبعثت السلاح والعتاد لأولئك النساطرة ، غير أن العثمانيين قد داهموا (أرومية) قبل وصول ذلك السلاح ، وفتكوا بالنساطرة الذين خانوا دولتهم التي طالما رعتهم ، وحمتهم واتصلوا بالإنكليز ، ووافقوهم على طعن دولتهم .

عمل الإنكليز على نقل من بقي منهم إلى العراق ، وأقاموا لهم مخيمات على الضفة اليمنى لنهر (ديالي) قرب (بعقوبة) التي تبعد ستين كيلومترا إلى الشرق من بغداد ، وكانت الحكومة البريطانية تنفق عليهم ، وتشغّل من يستطيع العمل في تعبيد الطرقات ، وكل ذلك في سبيل استمالتهم إليها ،

واستخدامهم في تحقيق أغراضها ، وتنفيذ مخططاتها .

ضمّت هذه المخيمات ما يزيد على خمسين ألفاً منهم ١٣,٥٠٠ أرمني من جهات (وان) و (تفليس) و (أذربيجان) ، كما كان بينهم من نزح من المناطق الكردية في العراق، ويزيد عدد هؤلاء على خمسة عشر ألفاً . وبعد انتهاء الحرب عاد عشرة آلاف منهم إلى إيران ، وكانوا قد نزحوا منها تضامناً مع إخوانهم . بقيت انكلترا تعدّ نفسها مسؤولة عن الآشوريين ما داموا من النصارى ، وما داموا قد وافقوا الإنكليز على طعن العثمانيين من الخلف والفتك بالمسلمين ، وارتكاب الجرائم القذرة حسب توجيهات الإنكليز . ولهذا كان الإنكليز يرون أنفسهم مُلزمين بهم ،فجنّدوا ألفين منهم واتخذوهم أداة لإخماد الحركات الوطنية التي قامت ضدّ الإنكليز ، وفي قتال القوات التركية غير النظامية في شمالي العراق ، واتّخذوا بعضهم عيوناً لهم ، وقد عرفت القوة الآشورية التي شكّلتها انكلترا باسم (الليفي) .

ضاق الآشوريون ذرعاً في سكنى المخيمات في جوار نهر (ديالي) ، ورأى رؤساؤهم وجوب الانتقال إلى الجبال حيث اعتادوا على الحياة فيها ، وتعهّد لهم أحد زعمائهم ويُدعى (بطرس) إنشاء دولةٍ لهم على الحدود بين العراق وتركيا، وشجّعهم الإنكليز على ذلك ، ووعدوهم بالدعم ، إذ وجدوا في ذلك فائدةً لهم حيث يستطيعون عن طريقهم إثارة المشكلات بين العراق وتركيا في أي وقتٍ شاءوا ، ووجود الأعوان لهم هناك يُقلّل من أهمية الأكراد ، ويُهدّد الأتراك ، ويُثير غيظهم . فوافق الإنكليز على المشروع ، وبدأ العمل له .

أسّس الإنكليز لهم معسكراً عند (جسر مندان) وقد عُرف المعكسر بهذا الاسم ، بين الموصل و (عقره) في أطراف جبل (مقلوب) ، ونقلوا إليه عشرة آلاف من النساطرة الذين كانوا بجوار (بعقوبة) ، وغدوا ينتقلون إلى الجبال ، ويُردّدون أفكارهم ، ويُعلنون عن أحلامهم ، فأثاروا عليهم الجوار ، فهاجموهم ، وفتكوا بأكثرهم ، فتحطّمت أفكارهم التي كانوا يحلمون بها ،

وانتقل (بطرس) إلى باريس ، وعاش فيها حتى هلك .

وسبق أن ذكرنا أن الآشوريين هؤلاء قد أحدثوا فتناً في العراق ومنها فتنة (سوق العتمة) في ٣ محرم ١٣٤٢هـ (١٥ آب ١٩٢٣م) ، وقد أراد السكان القضاء عليهم ، فنقلهم الإنكليز إلى كركوك ، فأحدثوا هناك فتنةً في ٣٠ رمضان ١٣٤٢هـ (٤ أيار ١٩٢٤م) ، وهمّت القبائل بالفتك بهم لولا تدخّل الإنكليز أصحاب السلطة يومذاك وحمايتهم، وألزموا الحكومة أن تتعهد للآشوريين بمنحهم الأراضي الشاغرة في شمالي البلاد شمال (داهوك) و (العمادية) . وقد عطفت عصبة الأمم عليهم بدافعٍ صليبيٍ ، وطلبت منهم الحكم الذاتي ، ورعايتهم ، ما داموا يُقيمون بين المسلمين ، وهم غرباء عنهم ، فأعطتهم الحكومة العراقية أكثر مما يستحقّون ، ومنحت بطريركهم (مار شمعون) راتباً ضخماً ، وعيّنت الضابط الإنكليزي النقيب (فايكر) ضابطاً لإسكانهم ، وله مطلق الحرية ، يُسكّن ، ويُرحّل كما يريد دون أن يُعارضه أحد ، بل لا يجرؤ أحد أن يُخالفه .

جاء إلى العراق نقيب إنكليزي يدعى (هرمز رسام) وادّعى أنّه نسطوري يرجع في أصله إلى الموصل ، واستدعى أحد الضباط البحرية الإنكليز ، وهو (مايثوكوب) الذي أخذ يتجوّل بين النساطرة ، ويُحرّضهم على طلب الانفصال عن العراق . ورجع (هرمز رسام) إلى لندن ، وأسّس جميعةً ، عُرفت باسم (لجنة إنقاذ الأقليات العراقية غير المسلمة) وتدّعي الكذب ، وتُثير حماسة الناس ضدّ المسلمين ، والعطف على النصارى العراقيين، وتكتب الرسائل إلى عصبة الأمم، وتذكر افتراءات عن المسلمين .

أبدى الآشوريون تخوّفهم من انضمام العراق إلى عصبة الأمم واستقلاله ، وأخذ زعماؤهم يكتبون الاحتجاجات على ذلك ، ويُصوّرون مصيرهم المظلم إذا تخلّت انكلترا عنهم وانسحبت من العراق . وأخذ (مار شمعون) يُطالب بسلطةً واسعةٍ على قومه من الناحية الإدارية ، والتمثيل لهم ، وأخذ يُثير الناس ويدعوهم إلى التمرّد ، وخاصةً أن الملاريا كانت قد

انتشرت في قراهم وأرادت الحكومة العراقية نقلهم منها ، وإسكانهم في أماكن غير موبوءةٍ . وتعبّأ الآشوريون حقداً على الحكومة نتيجة تصرّف (مار شمعون) ، وخاصةً بعد قبول العراق عضواً في عصبة الأمم .

استدعت الحكومة العراقية (مار شمعون) إلى بغداد ، ونصحته بالإقلاع عن أعماله المريبة ، وأوضحت له النتائج الوخيمة ، فلم يستمع فمنعته من العودة إلى الموصل إلا بتعهّدٍ بالكفّ عن التحريض ، والإخلاد إلى الهدوء . فأثار هذا المنع الأوساط النصرانية في الحكومات والشعوب في أوربا والولايات المتحدة ، وكان الملك فيصل الأول في لندن ، فلفت رجال الوزارة البريطانية نظره إلى هذا المنع فأبرق إلى الحكومة العراقية يطلب منها السماح لمار شمعون بالعودة إلى الموصل دون قيدٍ أو شرطٍ . فأجابت الحكومة : إن عودته ستؤدّي إلى اضطراباتٍ ، وأعاد الملك الطلب ، وأصرّت الحكومة على موقفها .

دعت الحكومة العراقية وجوه الآشوريين إلى عقد اجتماع في الموصل ، وطرحت عليهم الفكرة فاقتنع بعضهم ، وأصرّ الآخرون على موقفهم .

وطلب أحد ضباط البعثة العسكرية البريطانية في الجيش العراقي من وزير الدفاع العراقي جلال بابان نقل الفريق بكر صدقي من مقره في حامية الموصل بناءً على وعد قطعه الملك فيصل للسفير الإنكليزي ، فأنكر وزير الدفاع وجود مثل هذا الوعد .

أعلن الآشوريون أنهم يريدون الانتقال إلى سوريا حيث يوجد الانتداب الفرنسي فلم تُمانع الحكومة العراقية ، فانتقل فعلاً (١٣٥٠) رجلاً تاركين عائلاتهم في العراق . فأخبرت الحكومة العراقية السلطات الفرنسية بأنها لا تسمح بعودة أي نسطوريٍ إلى العراق كان قد خرج منها ، واستعدّت لمنعهم فيما إذا حاولوا .

وفي ١١ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ (٢ آب ١٩٣٣م) أعلم الفرنسيون

العراقيين أنهم قرّروا إعادة النساطرة إلى العراق ، وأعادوا لهم السلاح الذي كانوا قد استلموه منهم .

وبعد يومين تدفّق النساطرة الأشوريون إلى العراق عبر مخاضةٍ في نهر دجلة ، وتلقتهم الحامية العراقية ، وبدأ العائدون بإطلاق النار ، وحدث الاشتباك ، وقُتل من الآشوريون ما يزيد على ألف رجلٍ ، وقام النساطرة في الداخل باعتداءاتٍ على السكان الآمنين .

واضطر الملك فيصل إلى العودة إلى العراق من أوربا نتيجة هذه الاضطرابات التي أثارت الدول النصرانية ، فكثرت الاحتجاجات ، والاتهامات ، وتشكيل الوفود ، وترحيب حكومات باستقبال المظلومين ، وتألفت لجان ، وقامت عصبة الأمم تريد التدخّل ، واهتزّت عصبية رجالها ، وتحرّك أعضاؤها ، فهل كان يحدث جزء من هذا لو كان الأمر مع مسلمين وقُتل منهم الملايين ؟ . ليت قومي يعلمون !!!!

نهاية الملك فيصل[1] : لما انتهت حركة الآشوريين النساطرة ، واطمأن الملك فيصل على الوضع ، رجع إلى أوربا للاستجمام والراحة ، فقضى نحبه في مدينة (برن) في سويسرا في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ (٨ أيلول ١٩٣٣م) ، ونقل جسده إلى بغداد في ٢٦ جمادى الأولى ، حيث ووري هناك في التراب .

(١) ولد عام ١٣٠٠هـ في مدينة الطائف ، وسافر مع أبيه حين أبعد إلى استانبول عام ١٣٠٨هـ ، ورجع معه عام ١٣٢٧هـ ، واختير نائباً عن جدة في مجلس النواب العثماني عام ١٣٣١هـ ، وزار دمشق بمهمةٍ من أبيه عام ١٣٣٤هـ وقاد الجيش العربي ، ودخل الشام في مطلع عام ١٣٣٧هـ ، وحضر مؤتمر الصلح في باريس نيابة عن أبيه ، وعاد إلى دمشق فبويع ملكاً على البلاد في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ (٨ آذار ١٩٢٠م) ، واحتل الفرنسيون سوريا فرحل فيصل عنها إلى إيطاليا ، ثم سافر إلى انكلترا ، وبويع ملكاً على العراق ١٣٣٩هـ ، وتوفي عام ١٣٥٢هـ .

الوزارات في عهد الملك فيصل الأول

١ ـ وزارة عبد الرحمٰن الكيلاني الثانية : ٩ محرم ١٣٤٠ ـ ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ .
(١٢ أيلول ١٩٢١ ـ ١٩ آب ١٩٢٢م) .

٢ ـ وزارة عبد الرحمٰن الكيلاني الثالثة : ٨ صفر ١٣٤١ ـ ٢٦ ربيع الأول ١٣٤١هـ .
(١ تشرين الأول ١٩٢٢ ـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

٣ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الأولى : ٢٨ ربيع الأول ١٣٤١ ـ ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢هـ .
(١٨ تشرين الثاني ١٩٢٢ ـ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣م) .

٤ ـ وزارة جعفر العسكري الأولى : ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢ ـ ١ المحرم ١٣٤٣هـ .
(٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ ـ ٢ آب ١٩٢٤م) .

٥ ـ وزارة ياسين الهاشمي الأولى : ١ المحرم ١٣٤٣ ـ ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٣هـ .
(٢ آب ١٩٢٤ ـ ٢١ حزيران ١٩٢٥م) .

٦ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الثانية : ٥ ذي الحجة ١٣٤٣ ـ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ .
(٢٦ حزيران ١٩٢٥ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) .

٧ ـ وزارة جعفر العسكري الثانية : ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥ ـ ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ .
(٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦ ـ ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨م) .

٨ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة : ٢٠ رجب ١٣٤٦ ـ ٩ شعبان ١٣٤٧هـ .
(١٤ كانون الثاني ١٩٢٨ ـ ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩م) .

٩ ـ وزارة توفيق السويدي : ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧ ـ ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ .
(٢٨ نيسان ١٩٢٩ ـ ١٩ أيلول ١٩٢٩م) .

١٠ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الرابعة : ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨ ـ ١١ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ .
(١٩ أيلول ١٩٢٩ ـ ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م) .

١١ ـ وزارة ناجي السويدي :	١٦ جمادى الآخرة ١٣٤٨ ـ ٢٣ شوال ١٣٤٨هـ . (١٨ تشرين الثاني ١٩٢٩ ـ ٢٣ آذار ١٩٣٠م) .
١٢ ـ وزارة نوري السعيد الأولى :	٢٣ شوال ١٣٤٨ ـ ٧ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ . (٢٣ آذار ١٩٣٠ ـ ١٩ تشرين الأول ١٩٣١م) .
١٣ ـ وزارة نوري السعيد الثانية :	٧ جمادى الآخرة ١٣٥٠ ـ ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ . (١٩ تشرين الأول ١٩٣١ ـ ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٢م) .
١٤ ـ وزارة ناجي شوكت :	٤ رجب ١٣٥١ ـ ٢٤ ذي القعدة ١٣٥١هـ . (٣ تشرين الثاني ١٩٣٢ ـ ٢٠ آذار ١٩٣٣م) .
١٥ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الأولى :	٢٤ ذي القعدة ١٣٥١ ـ ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ . (٢٠ آذار ١٩٣٣ ـ ٩ أيلول ١٩٣٣م) .

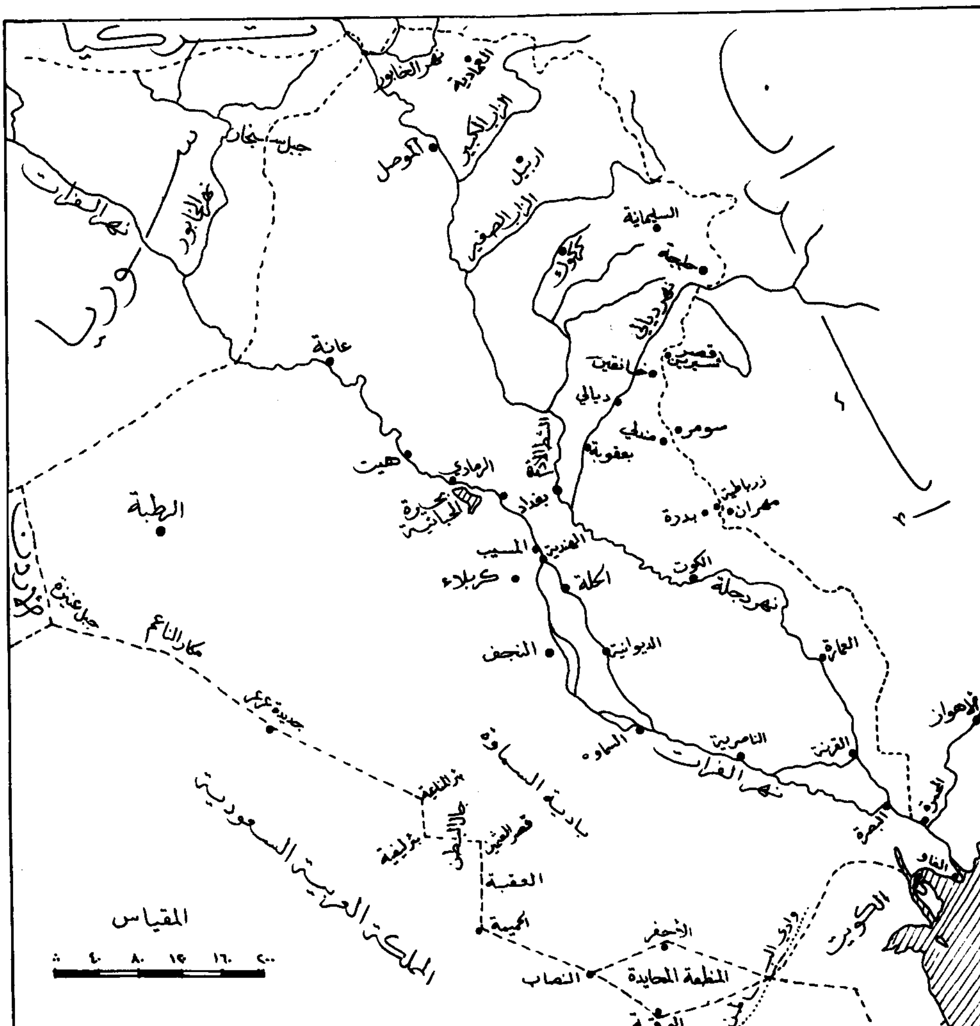
تركيا
العمادية
نهر الخابور
الزاب الكبير
الموصل
اربيل
جبل سنجار
نهر الفرات
نهر الخابور
سوريا
الزاب الصغير
السليمانية
حلبجة
نهر ديالى
خانقين
قصر شيرين
ديالى
مندلي
بعقوبة
زرباطية
مهران
بدرة
عانة
هيت
الرمادي
بحيرة الحبانية
الرطبة
بغداد
الهندية
المسيب
كربلاء
الحلة
الكوت
نهر دجلة
العمارة
الديوانية
النجف
جبل عنزة
مكار النعام
جديدة عرعر
السماوة
الناصرية
القرنة
الأهواز
البصرة
الفاو
نهر الفرات
بادية السماوة
المملكة العربية السعودية
العقبة
المقياس
٠ ٤٠ ٨٠ ١٢٠ ١٦٠ ٢٠٠
النصاب
المنطقة المحايدة
الوقبة
الكويت

الفصل الثاني

الملك غازي

١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ١٤ صفر ١٣٥٨هـ
(٨ أيلول ١٩٣٣ ـ ٤ نيسان ١٩٣٩) .

كانت مُهمّة الملك فيصل الأول عند الإنكليز تهدئة الثورة ، وإشعار الناس بالطمأنينة والاستقرار ، وقد تمّ هذا ، كما كانت انكلترا ترغب في أن يشعر السكان أنها ليست عدوةً لهم ، وإنما صديقة جاءت لتُنقذهم مما يُعانون من الفوضى ، وتأخذ بأيديهم نحو الاستقلال ، وحكم بلادهم بأنفسهم ، وإن كان قد تمّ شيء من هذا ، وحصلت البلاد على الاستقلال ، غير أن شعور المواطنين بصداقة انكلترا لم يحدث إلا لدى فئةٍ قليلةٍ من المنتفعين وأصحاب المصالح . وحرصت انكلترا في هذه المدة التي أعقبت الاحتلال حتى نالت البلاد الاستقلال أن تصطفي لنفسها رجالاً يقومون بتنفيذ مخططاتها نيابةً عنها ، تتعهدهم ، وتحميهم ، وتدعمهم ، وهم يُؤدّون مُهمّاتهم بالشكل الذي تُريد ، وبذا تتحقّق أغراضها ، وهي في منأى عن المواجهة ، أو بعيدة إذا انسحبت من أرض العراق في المستقبل . وتركت لنفسها مجالاً للحركة أو التدخّل في شؤون العراق فيما إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، أو اقتضت الظروف ، وكان ذلك المجال هو الأقلّيات ، ومن اصطفت من الأعوان .

أما الملك فيصل نفسه فقد كان يرى أن من مُهمّته توطيد الأمن ، وتخطيط الحدود التي لم تكن قائمةً ، ويقتضي ذلك علاقةً حسنةً مع الدول المجاورة ، وتمّ ذلك بعد أن عمل له مدة حكمه ، وشعر بعدها أنه قد أصبح عليه النهوض بالشعب ، والبدء بالتقدّم ، وتطوّر المعارف والعلوم ، وإصلاح

الأرض ، وزيادة الإنتاج ولكن أخذت تحدث تغييرات نفسية بينه وبين انكلترا التي لا تزال لها الكلمة الأولى ، والنفوذ القوّي ، بل والسيطرة حيث لا تزال قواتها تُرابط في العراق .

كانت انكلترا تعدّ فيصل بن الحسين أكثر الرجال مُناسبةً لها لحكم العراق ، فنسبه الشريف ، ومكانته بين المسلمين يُشجّع العراقيين على قبوله والاطمئنان له . وإن الصلة التي كانت بينها وبين والده الشريف حسين ، ثم بينها وبين فيصل نفسه ستجعل إمكانية التفاهم معه على حكم العراق . وإن إعطاءه السلطة بعد أن كان طريداً ، وإيواءه بعد أن كان شريداً ، سيجعله أكثر استجابةً لمطالب انكلترا ، وتفهّماً لرغباتها ، وتقبّلاً لمشورتها ، وخاصةً أنه جرّب الحكم ، وعرف مصير من لم يُنفّذ رغبات الدولة النصرانية ذات النفوذ ، فقد جرّد له الفرنسيون حملةً ألزمته على ترك سلطانه ، ومغادرة البلد بشكلٍ سريعٍ ، ومن هذا المنطلق كان المعتمد السامي البريطاني في العراق يُعامل فيصلاً ، ويُريد أن يفرض هيمنته عليه ، أو يتصرّف بالشؤون الداخلية من ذاته .

أما الملك فيصل فيشعر بنفسه أنه الملك الحقيقي ، ولذا فهو المرجع الأساسي ، ولا يحقّ لغيره أن يُنازعه هذا الأمر ، ولا يرغب أن يرجع إلى الأيام الماضية ، ويذكر ما أورثته تلك السنة العجفاء . ومن هذا الاختلاف بالمنطلق بين النظرة الإنكليزية ونظرة الملك فيصل وقع سوء التفاهم بين الملك وبين المعتمد السامي البريطاني ، وكادت تقع أزمات في بعض الأحيان ، غير أن الملك كان يتلافى الأمر في أغلب الحالات ، ويتنازل ، ويسكت على مضضٍ ، ويُسرّ ذلك في نفسه ، ولا يُبدي شيئاً ، وإن كان في بعض المرات يُبرق إلى الحكومة البريطانية ، أو يراسلها متسائلاً ، فتدرك الموضوع وتعمل على رأب الصدع .

ولكن تغيّر الأمر بعد قبول العراق عضواً في عصبة الأمم ، فقد بدا

الملك فيصل أكثر تماسكاً ، وأظهر شخصيةً أقوى . وإن كنا لا ندري ما السبب الرئيسي في التغيير إلا أنه يمكننا أن نتساءل .

ـ هل حقد فيصل على الإنكليز بعد أن خانوا اتفاقهم مع أبيه وفعلوا به ما فعلوا ؟ لقد كان والده شريف مكة الحسين بن علي قد اتّفق مع الإنكليز إبّان الحرب العالمية الأولى نتيجة المراسلات مع المعتمد الإنكليزي السامي في القاهرة (هنري مكماهون) على أن يُعلن الثورة على العثمانيين باسم العرب ، وأن يُوجّه نداءً إلى المسلمين يدعوهم فيه إلى مُساندة الحلفاء ، ومُحاربة العثمانيين بعد أن خانوا الأمانة عند استلام الخلافة ، إذ اضطهدوا العرب ، وجعلوها قوميةً تركيةً ، ونتيجة مكانة الشريف وموقعه فقد أبطل نداؤه الدعوة التي وجّهها الخليفة إلى المسلمين ، وتعهّد الإنكليز للشريف أن يضمّ إليه البلدان العربية التي ينسحب منها العثمانيون ، وهي : الشام ، والعراق إضافةً إلى الجزيرة ، ويكون ملكاً عليها . وأعلن الشريف ثورته ضدّ دولة الخلافة الإسلامية ، وانحيازه إلى الحلفاء من دول أوربا النصرانية . وتحرّكت قواته نحو الشمال بقيادة ولده الثالث فيصل ، وكان لهذه القوات أثرها في تخفيف ضغط العثمانيين عن الإنكليز الأمر الذي جعل الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال (اللنبي) يتقدّم في فلسطين ، ويتراجع أمامه الجيش العثماني ، وفرض فيصل سيطرته على المناطق الداخلية ، وعاون الإنكليز في احتلال الأجزاء الشمالية من الشام . ومع هذه المساعدة الفعّالة من وجهة النظر الأوربية فإن الإنكليز كانوا يتآمرون على الشريف حسين ، ومن مشى بجانبهم من العرب ، وربما كان هذا كله جزاء ذلك الانحياز . لقد كان الإنكليز والفرنسيون يتّفقون فيما بينهم على تقسيم بلاد الشام (اتفاقية سايكس ـ بيكو) ، ثم أعطى الإنكليز اليهود وعداً بأن يُؤسّسوا لهم دولةً في فلسطين (وعد بلفور) بعد انتصار الحلفاء في الحرب ، هذا كله ولا تزال العمليات الحربية تجري ، وبعد أن انتهت الحرب اتّفق مجلس الحلفاء في (سان ريمو) تحت تأثير انكلترا وفرنسا على إعطاء انكلترا العراق ، وأجزاء من بلاد الشام وهي ما عُرف فيما بعد باسم

سوريا الجنوبية (فلسطين والأردن) ، وإعطاء فرنسا أجزاء أخرى من بلاد الشام وهي ما عُرف باسم سوريا الشمالية (سوريا ولبنان) . وتلا ذلك هزيمة الشريف حسين أمام سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، واضطراره التنازل عن حكم الحجاز إلى ولده الأول علي ، ثم لم يلبث علي نفسه أن اضطر إلى تسليم الحجاز إلى سلطان نجد ، والانسحاب مع أسرته إلى الشام . وأقام الشريف حسين عند ولده عبد الله في عمان عدة أشهرٍ ، ثم طلبت منه انكلترا ضرورة مُغادرة الأردن بحجة الخوف من مُهاجمة سلطان نجد للأردن ، ونقلت الشريف إلى قبرص حيث عاش هناك ست سنواتٍ تحت المراقبة والإقامة الجبرية ، حتى إذا شعرت أن الأيام قد طحنت جسمه ، وأن أجله قد اقترب بعلم الله أخبرت ولديه عبد الله وفيصلاً بحاله ، فهمّا بالسفر إليه، وعملت على نقله إلى عمان، ولكن لم يصل إليها وإنما أدركته المنية بالغور عند الجسر المعروف باسمه اليوم في ١٨ المحرم ١٣٥٠هـ (٤ حزيران ١٩٣١م) ، فنقل إلى القدس ، ودُفن فيها ، وكان جسمه على حالةٍ من الضمور ما يُنبىء عن مُعاناته النفسية والجسمية ، وكانت وسيلة نقله على حالةٍ من السوء تتعب معها الأصحاء الأقوياء ، فكان لهذا أثره الكبير على نفسية فيصل ـ والله أعلم ـ .

وإن إعطاء عبد الله حكم منطقة الأردن من الشام ، وفيصل حكم العراق ليس وفاءً من جانب انكلترا حيث لم تعرف الوفاء ، وإنما لخدمة مصالحها ، إذ أن مكانتهما لدى العرب يومذاك يجعلهما يُوطّدان الأمن لها ، وهذا ما تعمل له وترجوه ، إضافةً إلى رضا الشعب عن حكم الشريفين للأردن والعراق .

وربما أحسّ فيصل بمرارةٍ وأسىً ، وشعر أن وضعه مع انكلترا لن يكون أفضل من وضع أبيه فأخذ يزوّر عنها ، ويسير في طريقٍ غير التي كان يسير فيها من قبل مع شيءٍ من الكياسة والليونة .

ـ هل أن فيصلاً كان يُداري انكلترا ، ويُظهر لينه وتبعيته لها ، ما دام

تحت انتدابها ، وفي ظلّ هيمنتها ، فلما قُبلت العراق عضواً في عُصبـة الأمم ، وعُدّ مُستقلاً ، غيّر طريقته ، وأصبح يتكلّم من باب أنه ملك ، وعلى درجةٍ واحدةٍ مع ملك انكلترا رغم أن قُوّاتها لا تزال تُرابط في العراق ؟ .

إن انكلترا كدولةٍ عظمى ، وخرجت منتصرةً في الحرب ، ولها دورها الاستعماري الكبير ، ومنـاطق نفوذهـا الواسعـة التي لا تغيب عنها الشمس لا تقبل أن تُعاملها العراق معاملة الند وهي دولـة ناشئـة ، لم تشبّ بعد ، فعمرها لم يتجاوز السنة في عصبة الأمم ، وهي القابلة التي أخرجتها ، ولا تزال قواتها مُرابطةً في أرض العراق لحمايتها حسب زعمها . إن انكلترا لتنظر إلى غيرها من الدول الكبرى يومذاك نظرة التعالي ، فسياستها الدولية هي التي كانت ناجحةً ، وتجارتها في لعبة الأمم هي التي كانت رائجةً ، فهل يمكن أن تنظر إلى العراق في ذلك الوقت نظرة الندّ التي يراها أو يُريدها الملك فيصل ملك العراق ؟ .

- هل أحسّت انكلترا بموقف الملك فيصـل المتغيّر الجـديد ، فـأرادت التخلّص منه قبل أن يبتعد نهائياً وتسير البلاد وراءه ، وتضطر إلى العمل في العراق من جديد ؟

- هل استطاعت انكلترا بمدة حكمها هذه للعراق أن تصطفي عناصر يُمكنها عن طريقهم حكم العراق بالصورة التي تراها وترغبها ، وتُريـد ملكاً صورةً يملك ولا يحكم ، سواء أكان صغيراً لا يعقل أم كبيراً ضعيفاً أم مُدركاً لا يتدخّل ؟

- هـل انكلترا هي التي قضت على حيـاة الملك فيصل - بـإذن الله - بحقنةٍ من الزرنيخ أوبغيرها ، أم مات ميتةً طبيعيةً ؟

يبدو أن صحته كانت عندما دخل المستشفى في (بـرن) في سويسرا حسنةً . ولقد كان في أوربا قبل مدةٍ ، فلما سمع بحركة الآشوريين في العراق هبّ سريعاً إلى بلاده ، وكان يُتابع الأحداث بنفسه بشكلٍ جيدٍ ، ويُعطي

التوجيهات ، وتُنقل إليه الأخبار مُباشرةً ، وجسمه قوي ، وصحّته جيدة ، ولما انتهت تلك الحركة رجع إلى أوربا مرتاح البال ، باسم الاستجمام ، وحالته الجسمية طيبة ، ودخل المستشفى بإشارة من أطباء أوربيين ، الأمر الذي يُعطي إشارةً إلى أنّ موتته لم تكن طبيعيةً ـ والله أعلم ـ .

تُوفّي الملك فيصل على أيّة حال في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ (٨ أيلول ١٩٣٣م) ، ونُقل جسمانه إلى بغداد ، فوصل إليها في ٢٦ جمادى الأولى ، ودُفن هناك . وكان قد بلغ من العرم اثنتين وخمسين سنةً هجريةً (١٣٠٠ ـ ١٣٥٢هـ) .

وبُويع ابنه غازي[1] ملكاً على العراق يوم وصول خبر وفاة أبيه (١٩ جمادى الأولى) ، وكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنةً .

الملك غازي : كانت انكلترا تتوقّع أن يكون الملك غازي بن فيصل أداة طيعةً أكثر بكثيرٍ من أبيه ، وتقوم تلك التوقّعات :

١ ـ على الملاحظات والدراسات التي قامت حوله عندما كان يدرس في انكلترا حيث قضى هناك عامين كان فيهما أقرب إلى اللهو والحبّ والإعجاب بالمجتمع الإنكليزي حتى رغب أبوه في سحبه ونقله إلى بغداد حيث أدخله في المدرسة العسكرية لتتغيّر عليه الحياة كلياً ، وإن كان ذلك لا يمكن الحكم عليه للسن التي كان عليها إذ لم تكن سنّه لتزيد على السابعة عشرة .

٢ ـ على العمر الذي كان عليه عندما تسلّم الملك ، وهو اثنتان وعشرون سنةً ، وهو عمر صغير بالنسبة إلى الحكم ، وليس لديه خبرة ولا دراية .

---

(١) غازي بن فيصل : ولد في مكة عام ١٣٣٠هـ ، وانتقل إلى العراق يوم تسلّم أبوه ملكها ، وسُمّي ولياً للعهد عام ١٣٤٢هـ ، وأرسله أبوه عام ١٣٤٥هـ إلى انكلترا ليدرس في كلية (هارو) حيث بقي هناك سنتين ، وعاد بعدها إلى بغداد حيث درس في المدرسة العسكرية وتخرّج منها . وعندما سافر أبوه إلى أوربا عام ١٣٥٢هـ أنابه عنه في حكم العراق ، فوقعت حركة الآشوريين ، فكان صلداً قوياً حازماً منها ، وتولّى المُلك بعد أبيه ، وتوفي عام ١٣٥٨هـ .

٣ ـ على الساسة الذين كانوا يسيرون حسبما تقتضيه السياسة الإنكليزية ، فالخبرة التي كانت لديهم ، وإمكاناتهم ، وعمرهم كل ذلك يُمكّنهم من أن يُسيّروا الملك غازي ، ويُوجّهوه إلى الوجهة التي يُريدون .

٤ ـ على حالة البلاد الحديثة الاستقلال والتي لم تستقرّ بعد حيث لا يزال الوضع يميد ، فالأقليّات ، والبلدان المجاورة التي بينها وبين العراق إحن وماض مليء بالأحداث بين الأسرتين المالكتين .

٥ ـ على الخوف من انكلترا والحذر نتيجة ما فعلت بأبيه وجده ، ولها من القوّة الجوّية الكبيرة على أرض العراق ، ومن الضرورة مُسايرة الإنكليز حتى يستقيم الوضع .

٦ ـ على الحياة اللاهية التي كان يعيشها غازي إذ كان مُغرماً بالصيد مهتماً بالرحلة . غير أن توقّعات انكلترا لم يُحالفها شيء من التحقيق ، وربما يعود ذلك :

إلى التنبيه أو الضغط الخفيف الذي مارسه الملك فيصل على ولده عندما استدعاه من انكلترا حيث كانت له بعض الملاحظات عليه .

وإلى وفاة جده ، وما عاناه في أواخر حياته ، وما لقيه من حلفائه ، وما أثّر ذلك على نفسية والده التي لاحظها أفراد الأسرة جميعاً ، بل وبعض الأصدقاء . وهذا بالفعل ما غيّر شيئاً من طبيعة غازي ، واطمأنت نفس أبيه نسبياً ، حتى أنابه عندما سافر إلى أوربا ، ولما قامت حركة الآشوريين اتّخذ غازي الحكمة مع الصرامة في مُقابلة هذه الحركة ومُقاومتها ، فلما رجع أبوه أحسّ بالراحة للتصرّف الذي مارسه ولده . وعاد الأب إلى أوربا ، وترك غازياً مكانه ، وهو قرير العين ، وفي الوقت نفسه فقد أحسّ غازي بالثقة بالنفس ، وضرورة الإقلاع عن كل ما مضى ، والاهتمام بالحكم ما دام الأمر سيؤول إليه . ولم تمض إلا أسابيع حتى مُني الولد بأبيه ، وشعر بالأيدي التي خلف القضية . ولكنه قابل المصيبة بالتجلّد ، وأخفى كل ما يُخالج نفسه ، حتى ظنّ

الإنكليز أنه لم يُدرك الأمر ، وأن المنصب أغراه ، وسدّة الملك قد غطّت عليه كل النوافذ التي تصل بينه وبين الواقع . وقد سرّت لذلك أبلغ السرور ، وظنّت أنها حصلت على بعض مبتغاها .

وزارة رشيد عالي الكيلاني : وفي اليوم الثاني من تسلّم الملك غازي الحكم ، قدّم رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني استقالة حكومته فعهد الملك إليه ثانيةً برئاسة حكومةٍ جديدةٍ ، وفي اليوم نفسه صدرت الإرادة الملكية بتشكيل الوزارة[١] .

إن تكليف رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الوزارة له دلالته ، والتي تعني أن الملك غازي سيسير على السياسة التي سار عليها أبوه في المرحلة الأخيرة التي تلت الاستقلال ، والتي تُشير إلى عدم مُوافقة السياسة البريطانية تماماً أو عدم السير على خُطاها . لقد كان رشيد عالي الكيلاني من مُعارضي المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية ، وهذا يعني مُعارضة انكلترا ووضعها في العراق .

لما كانت الحكومة ترى أن المجلس النيابي لا يُمثّل الشعب في العراق تمثيلاً صادقاً ، لذا فقد اقترحت حلّه . غير أن رئيس الديوان الملكي علي جودت الأيوبي أشار على الملك غازي عدم الإقدام على حلّ المجلس النيابي ، لأن البلاد في حالةٍ لا تُساعدها على إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ، ويبدو أن الملك قد مال إلى هذا الرأي ، فما كان من رشيد عالي الكيلاني إلاّ أن وضع الملك تحت خيارين إما الاحتفاظ بالحكومة القائمة وتحقيق رغبتها بحلّ المجلس النيابي أو قبول استقالة الحكومة .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد: وزيراً للخارجية .
٦ ـ رستم حيدر: وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٧ ـ جلال بابان : وزيراً للدفاع .
٨ ـ عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

وهذه هي الوزارة السابقة لم يُعدّل فيها شيء .

قبل الملك استقالة الحكومة في ٩ رجب ١٣٥٢هـ (٢٨تشرين الأول ١٩٣٣م) ، ولكن طلب منها الاستمرار على القيام بشؤون الدولة حتى تتألّف حكومة جديدة ، وفي الوقت نفسه كلّف جميل المدفعي بتشكيل الوزارة .

وزارة جميل المدفعي الأولى : شكّل رئيس مجلس النواب جميل المدفعي الوزارة بعد أحد عشر يوماً من تكليفه[1] ، فاختار المجلس النيابي رشيد الخوجة رئيساً له ، مكان جميل المدفعي الذي غدا رئيساً للوزراء .

أجرت الحكومة تعديلاتٍ واسعةً في مُديري دوائر الدولة ، ومُتصرّفيها ، لتكون لها قاعدةً تستند عليها ، ما دامت حياديةً لا تعتمد على حزبٍ معينٍ . وكانت أسعار الكهرباء مرتفعةً في بغداد ، فقاطع أهل المدينة شركة التنوير صاحبة العلاقة ، وطالت هذه المقاطعة ، وظنّت الحكومة أن المعارضة من وراء هذا لذا فقد لجأت إلى الضغط على الأهالي ورجال المعارضة ، فعطّلت الصحف ، وألقت القبض على بعض الشباب ، واشتدت في المعاملة .

وجرى خلاف بين أعضاء الحكومة بدأ بانتقاد الحكومة في الشدّة التي اتخذتها الشرطة مع المواطنين ، ثم زاد الخلاف بشأن مشروع شطّ (الغراف) حيث أصرّ رئيس الوزراء على تنفيذه وأيّده كل من صالح جبر ، ورستم حيدر على حين عارضه نوري السعيد ، ونصرت الفارسي ، وناجي شوكت ونتيجة هذا الخلاف فقد اضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة حكومته في ٢٩ شوال ١٣٥٢هـ (١٣ شباط ١٩٣٤م) .

وزارة جميل المدفعي الثانية : ربما كان الملك غازي يرغب في تسليم

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ نصرت الفارسي: وزيراً للمالية .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٥ ـ رستم حيدر : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٦ ـ صالح جبر : وزيراً للمعارف .
٧ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية ووزيراً للدفاع بالوكالة .

الحكم إلى حزب الإخاء الوطني على أنه مُعارض للسياسة الإنكليزية أو المعاهدة العراقية ـ البريطانية غير أن رجاله كانوا يُصرّون على حلّ المجلس النيابي الذي أيّد تلك المعاهدة ، والذي يعدّونه غير مُمثّلٍ للشعب ، ويحتجّون بأن النهضة بالبلاد يصعب تحقيقها إن لم يكن هناك انسجام بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ومع تأييد الملك لهذا الرأي إلا أن رئيس ديوانه علي جودت الأيوبي يرى غير هذا الرأي ، ويُشير عليه أنه ليس من الحكمة الانسلاخ فوراً من كل شيءٍ كان في عهد والده فتتحكّم به العاطفة على ما يبدو . وهذا ما ألزمه مرّةً ثانيةً على أن يعهد إلى جميل المدفعي بتشكيل حكومةٍ ثانيةٍ ، فألّفها[1] في ٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ (٢١ شباط ١٩٣٤م) .

حدث خلاف بين العراق وإيران على الحدود أدّى إلى نزاعٍ ، وحدثت معارك غير نظاميةٍ بين الطرفين ، وقطعت إيران مياه الشرب عن مدينة (ماندلي) العراقية التي تقع على الحدود إلى الشرق من (بعقوبة) شمال شرقي بغداد ، وقد رفع الخلاف بين الدولتين إلى عُصبة الأمم .

وأقامت الحكومة مشروعات إنمائية منها : سدّ الحبانية لتخزين مياه الفيضان في البحيرة ، وهو الذي يعرف باسم (سدّ الرمادي) ، كما أُقيم سدّ عند كوت العمارة لإحياء مشروع شطّ الغراف . كما أُقيم جسران في بغداد .

تعرّضت الحكومة لنقدٍ شديدٍ من المعارضة لكثرة الموظفين الجدد ، والترفيع الاستثنائي ، وكل ذلك كان يحصل لأسبابٍ سياسيةٍ ومذهبيةٍ . ونتيجةً لهذا النقد ، وبسبب الشكوى من سوء الإدارة في الحكم اضطر رئيس

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٤ ـ رشيد الخوجة : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عباس مهدي : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٦ ـ عبد الله الدملوجي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ جلال بابان : وزيراً للمعارف .

الـوزراء إلى تقـديم استقـالتـه في ١٤ جمـادى الأولى ١٣٥٣هـ (٢٥ آب ١٩٣٤م) ، فعهد الملك غازي إلى رئيس ديوانه علي جودت الأيوبي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ .

وزارة علي جودت الأيوبي : ألّف وزارته[1] ، وصدرت أوامر التعيين في ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ . ولم يمض أسبوع على الحكومة حتى استصدر رئيسها أمراً ملكياً بحلّ المجلس النيابي ، وكان من قبل يُعارض الحلّ . وجرت الانتخابات العامة ، ووُجّهت الانتقادات الكثيرة لتدخّل الحكومة فيها ، وعدم النزاهة في إجراءاتها . وما أن ظهرت نتائج الانتخابات حتى هـاجت معظم قبائل الفرات الأوسط . وأيّد المحامون رجال القبائل في مُعارضة الحكومة ، ومُطالبة الملك بإقالتها ، واضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة وزارته في ٢٠ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٢٣ شباط ١٩٣٥م) .

وكانت الحكومة قد ألّفت حزب (الوحدة الوطنية) لتدعم حكمها ، واستمالت بعض كبار الموظفين ، ولكن لم يلبث أن زال بعد أن دالت .

وفي عهد هذه الحكومة تمّ التوقيع على اتفاقية سدّ (كوت العمارة) ، وافتُتح خط أنابيب النفط من كركوك إلى طرابلس على ساحل البحر المتوسط .

وكان بدء الفوضى ، إذ أخدت تنتشر الشيوعية ، وتتـوزّع المنشورات سرّاً ضدّ الدولة ، وتسري الشائعات ضدّ الملك ، ورئيس الوزراء .

وزارة جميل المدفعي الثالثة : كلّف الملك غازي رئيس حزب الإخاء

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ علي جودت الأيوبي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٣ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٥ ـ جميل المدفعي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ أرشد العمري : وزيراً للأشغال .
٧ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

الوطني ياسين الهاشمي غير أنه اعتذر لأن الجهات العليا ترغب في إدخال جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي بالوزارة ، ويرى الحزب غير ذلك ، وترى الجهات العليا إبعاد رشيد عالي الكيلاني عن الوزارة على حين يرى الحزب ضرورة مشاركته .

وبعد اعتذار ياسين الهاشمي عن رئاسة الوزارة ، وجد الملك أنه لا مناص من تكليف جميل المدفعي بتأليف الوزارة ، فقبل ، وتمّ تشكيلها[1] في ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٤ آذار ١٩٣٥م) .

تحرّكت القبائل في الفرات الأوسط ، وتحرّك إثر ذلك الجيش إلى (الديوانية) ، وإلى (أبي صخير) ، وإلى (السماوة) ، واختلف أعضاء الحكومة في اتخاذ إجراءاتٍ زجريةٍ ، وسافر وزير الداخلية إلى تلك الجهات في مُحاولة للإصلاح فلم يُفلح ، ثم سافر وزير المعارف للغاية نفسها ففشل . وكان رجال القبائل يُطالبون بتنحية الحكومة ، واستعدادهم للتعاون مع كل وزارةٍ تجعل هدفها خدمة البلاد . واستعدت للحكومة لتأديب الثائرين ، ولكن الملك غازي رفض اتخاذ أيّة إجراءاتٍ قمعيةٍ ، وهذا يعني أن الحكومة غدت غير مرضيٍ عنها ، واضطر رئيسها إلى تقديم الاستقالة في ١٠ ذي الحجة (ليلة عيد الأضحى)، ولم يكن قد مضى على تشكيل حكومته أكثر من أحد عشر يوماً .

وزارة ياسين الهاشمي الثانية : اضطرّ الملك إلى أن يعهد برئاسة الوزارة إلى زعيم المعارضة ياسين الهاشمي ، فقبل التكليف ولم يمكنه الاعتذار ، إذ لم توضع شروط أو قيود في وجهه ، كما حدث في المرة السابقة التي اعتذر فيها عن

---

(١) تألّفت وزارة جميل المدفعي الثالثة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٤ ـ توفيق السويدي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٦ ـ رشيد الخوجة : وزيراً للدفاع .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

الحكم . وشكّل الوزارة[1] في ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ (١٧ آذار ١٩٣٥م) .

رفض بعض أعضاء حزب الإخاء الوطني الاشتراك بالوزارة ، إذ اختلفوا على اقتسام الحقائب فاعتزل بعضهم ، ومنهم حكمت سليمان ، الذي رفض التعاون مع رئيس الحكومة ، فكان هذا أول عقبةٍ في طريق الوزارة .

ألقت الوزارة منشوراتٍ إلى القبائل بالطائرات تُطمئنهم ، وتعدهم بتطبيق القانون ، ونشر العدل ، والإصلاح غير أن القبائل لم تعد تقنع بالكلام النظري لذا فقد رفض بعضها الانصياع إلى الأوامر ، وإلقاء السلاح ، والعودة إلى الأعمال خلال الأيام الثلاثة التي أعطتهم الحكومة إياها مهلةً حتى يعود النظام . فكان ذلك العقبة الثانية في وجه الحكومة الجديدة .

إن القبائل التي تُؤيّد وزارة علي جودت الأيوبي ، ووزارة جميل المدفعي قد صعُب عليها وجود معارضيهم في الحكم ، واستلام السلطة دون المؤيّدة لهم . فكان ذلك العقبة الثالثة .

دخلت القبائل التي تُؤيّد الحكومة الجديدة إلى بغداد على شكل استعراضٍ ، بل قد جاءت بأسلحتها ، ودخلت بها العاصمة بأمرٍ من وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني ، وخاصةً قبائل الألوية الشمالية فسبّب هذا نقداً شديداً للحكومة ، فكانت العقبة الرابعة .

يبدو أن بعض أعضاء الوزارة لم يكونوا صادقين مع حكومتهم ، ومنهم نوري السعيد ، حيث كانوا يعملون في الخفاء ضدّها ، ويُؤلّبون عليها ، ولم

---

(١) تشكّلت وزارة ياسين الهاشمي على النحو الآتي :

١ ـ ياسين الهاشمي : رئيساً للوزراء . ٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية . ٦ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع .
٣ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للمالية . ٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .
٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية . ٨ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .

ينتبه رئيس الحكومة إلى هذا التصرّف المشين لشغله بما هو أهم من ذلك ، وأخطر ، وكان هذا عقبةً خامسةً أيضاً .

بدأت الأزمات تعترض الوزارة ، وكانت على شكل حركاتٍ أو ثوراتٍ على نطاقٍ ضيقٍ ومنها :

١ء ـ **حركة الكاظمية** : أخذت مديرية البريد والبرق تُشيد بناءً لها في مقبرةٍ قديمةٍ ، فاحتجّ الناس على هذا التصرّف غير الشرعي ، إذ لا تزال آثار قبور أجدادهم باقيةً ، واصطدم الناس مع الشرطة ، فقُتل ثلاثة عشر رجلاً ، وجرح ما يزيد على المائة ، وقدّمت الحكومة رؤساء الحركة إلى المحاكم ، وقضت بالحكم على عددٍ منهم بالسجن . ولكن لم تمض سوى ستة أشهرٍ حتى خرج الجميع من السجن بأمرٍ ملكي بعد تدخّل العلماء .

٢ء ـ **حركة الرميثة** : ألقت الحكومة القبض على الشيخ أحمد أسد الله بحجة تحريض السكان على السلطة ، فكانت أن ثارت قبيلة (بني زريج) بزعامة شيخها (خوام العبد العباس) ، وهاجمت دوائر الحكومة في بلدة (الرميثة) ، وعطّلت السكك الحديدية ، فأنذرت الحكومة هذه القبيلة فلم ترعو ، فأرسلت إليها قوةً عسكريةً ، تدعمها الطائرات ، وقبضت على (خوام العبد العباس) ، وألزمت القبيلة على الهدوء والإذعان .

٣ء ـ **حركة سوق الشيوخ** : ثار السكان في هذه المنطقة تأييداً لحركة (الرميثة) ، واحتلّوا مخافر الشرطة في القرى ، وأحرقوا سجلات الحكومة ، وحاصروا مدينة (سوق الشيوخ) ، واصطدموا مع الشرطة التي اضطرّت إلى الاستسلام لقلّة عددها ، وأعطت سلاحها لخصومها ، فاضطرّت الحكومة إلى إرسال قوةٍ إلى المنطقة ، ويدعمها الطيران أيضاً ، فقضت على الحركة ، وأعدمت تسعة أشخاصٍ من رؤساء مُثيري الفتنة بعد أن كانت قد قضت بالحكم على ثلاثة وستين منهم بالإعدام ، وسجنت الكثيرين ، وصادرت أملاك بعضهم ، وبعد عدة أشهرٍ صدر عفو ملكي شمل الجميع .

٤ ـ **حركة أحمد بارزان** : تحرّك أحمد زعماء الأكراد في منطقة السليمانية ، وقطع الطريق ، وأثار الفوضى في منطقته عندما شعر بضعف هيبة الحكومة التي أرسلت له قوةً أجبرته على الاستسلام .

٥ ـ **حركة اليزيدية** : قام عبدة الشيطان بثورةٍ ضدّ تطبيق قانون الخدمة العسكرية الإلزامية بحجة أنه يتعارض مع طقوسهم الدينية ، فأرسلت لهم الحكومة قوةً ، وأعلنت الأحكام العرفية في المنطقة ، واصطدمت مع اليزيديين الذين قُتل منهم أكثر من مائة قتيلٍ نتيجة الصدامات مع قوات الحكومة ، كما أُعدم منهم بضعة رجالٍ ، وأُلقي الكثيرون في السجون ، وفرضت الإقامة الجبرية على بعضهم .

٦ ـ **حركة الرميثة ثانيةً** : تجدّدت الحركة في الرميثة مرةً ثانيةً ، بعد مرور ما يقرب من سنةٍ عن الحركة الأولى ، غير أنه في هذه المرة احتجاجاً على قانون الخدمة العسكرية الإلزامية ، فأرسلت الحكومة قوةً إلى المنطقة ، وأعلنت الأحكام العرفية في الرميثة ، وقصفت الطائرات مواقع تجمّع الثائرين . واضطرّ أصحاب الحركة إلى الاستسلام .

٧ ـ **حركة شعلان العطية** : ثار رئيس قبيلة الأكرع (شعلان العطية) الذي يُؤيّد حزب الإخاء الوطني ، غير أنه يُناصر حكمت سليمان الذي رفض التعاون مع ياسين الهاشمي في الحكومة ، وأخذ يُحرّض عليه . وممن حرّضهم شعلان العطية هذا ، ولكن الحكومة قضت عليها بسرعةٍ بعد القضاء على حركة الرميثة الثانية .

وفي عهد هذه الحكومة أُلغيت الأحكام الصادرة بحقّ بعض الصحف ، وسمح لها بالصدور . واتّفقت مع الحكومة البريطانية لنقل ملكية السكك الحديدية إلى الحكومة العراقية بشروط ثقيلة . وصدرت إرادة ملكية بحلّ المجلس النيابي ، وجرت انتخابات ، وتشكّل مجلس جديد . وأنشأت داراً للإذاعة ، وبدأت بالبثّ من اليوم الثاني عشر من ربيع الثاني ١٣٥٥هـ (الأول

من تموز ١٩٣٦م) . وأجرت تنقلاتٍ بين موظفي الدولة .

وكثرت انتقادات المعارضة بسبب كثرة الأحكام العرفية ، وتنقّلات قطعات الجيش لإخماد الحركات التي كانت تقوم في مناطق مختلفةٍ وخاصةً في منطقة الفرات الأوسط .

ثورة بكر صدقي : كان بكر صدقي من كبار ضباط الجيش العراقي ، ويتولّى إمرة القطعات العسكرية في لواء الموصل ، وقادها في إخماد حركة الآشوريين ، مما لفت النظر إليه ، وزاد من ثقته بنفسه ، كما قاد الجيش في قمع الحركات التي حدثت في الأعوام التي تلت تلك الحركة مما رفع من مكانته ، فكان يطمع في أن يتسلّم رئاسة الأركان مكان طه الهاشمي شقيق رئيس الحكومة ياسين الهاشمي لذا كان حريصاً على إزاحة الحكومة القائمة لإمكانية الإطاحة بالفريق طه الهاشمي رئيس الأركان، ويعود بكر صدقي في أصوله إلى الأرومة الكردية ، الأمر الذي جعل بعضهم يتّهمه بالعمل لإقامة دولةٍ كرديةٍ ، وسواء صحّ هذا الكلام أم لم يصحّ ، إلاّ أنه لم يكن صاحب دينٍ ليُفكّر بالعمل للإسلام ، أو بالوحدة بين شعوب الأُمّة المسلمة ، والبدء بالوحدة بين أجزاء الدول العربية التي تضمّ شعباً واحداً ، ولم يكن يرى أن العراق جزء من البلدان العربية، ومن كثرة الشكوك حول حركته، زادت اتهاماته، وإن كان يبدو أن حركته لم تكن إلا لدوافع شخصيةٍ ، وتحقيق منافع ، ومن ذلك استلام رئاسة الأركان مكان الفريق طه الهاشمي كمرحلةٍ أولى ، ولم نستطع أن نتكهّن بماذا كان يحدّث نفسه بعد تلك المرحلة، أو ما يُخالج نفسه عندما يُحقّق ما يُريد . وقد شجّعه على الحركة حكمت سليمان الذي كانت له طموحات وأهداف أيضاً .

لقد كان حكمت سليمان من حزب الإخاء الوطني ، ولما عُهد إلى رئيسه ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة رفض التعاون معه ، واعتزله ، وأخذ يعمل ضدّه ، ثم انضمّ إلى جماعة الأهالي ذات الصبغة الاشتراكية تحت تأثير عبد الفتاح إبراهيم . وغدا حكمت سليمان من قادة هذه الجماعة ، واستطاع

أن يضمّ إليه بكر صدقي ، إذ كانت بينهما صلة ، فهو الذي شجّعه على القيام بحملةٍ ضد الآشوريين . ونتيجة ظهوره بعد تلك الحملة استطاع التأثير على الضباط الصغار . وكان تعاون حكمت وبكر يُحقّق هدف الطرفين فكلاهما يريد استلام منصب أخٍ من الشقيقين حكمت مكان ياسين ، وبكر مكان طه .

تقدّم الفريق بكر صدقي قائد الفرقة الثانية في ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ (٢٩ تشرين الأول١٩٣٦م) من لواء ديالي على رأس القطعات العسكرية إلى بغداد ، ومعه الفريق عبد اللطيف النوري قائد الفرقة الأولى الذي يقود المؤخّرة . وفي الطريق التقى الجيش بوزير الدفاع جعفر العسكري ، ومعه رسالة من الملك غازي يستنكر فيها هذه الحركة فقُتل وزير الدفاع ، ودخل الجيش بغداد بعد أن ألقى عليها ثلاث قنابل فقط . وقدّم الفريقان بكر صدقي ، وعبد اللطيف النوري طلباً إلى الملك غازي يرجوان فيه إقالة حكومة ياسين الهاشمي وإلا اضطرّ الجيش إلى استعمال القوّة لتحقيق ذلك ، ثم تكليف حكمت سليمان برئاسة الحكومة الجديدة .

فما كان من ياسين الهاشمي إلا أن قدّم استقالة حكومته في اليوم نفسه .

وزارة حكمت سليمان : كلّف الملك غازي ، وبناء على طلب الإنقلابيين حكمت سليمان في تشكيل حكومة جديدة[1] ، وكانت معدة من قبل وأعلن عنها في اليوم نفسه ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م) .

كان أول عملٍ قامت به الوزارة استصدار أمر بإحالة الفريق طه

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ حكمت سليمان : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ جعفر أبو التمن : وزيراً للمالية .

٣ ـ صالح جبر : وزيراً للعدلية .

٤ ـ كامل الجادرجي : وزيراً للأشغال .

٥ ـ عبد اللطيف النوري : وزيراً للدفاع .

٦ ـ ناجي الأصيل : وزيراً للخارجية .

٧ ـ يوسف إبراهيم : وزيراً للمعارف .

الهاشمي على التقاعد ، وإسناد رئاسة الأركان إلى الفريق بكر صدقي الذي كان قد أبرق إلى الفريق طه الهاشمي والذي كان في زيارةٍ إلى تركيا يرجوه في برقيته أن يتأخّر بعض الوقت في زيارته .

لقد كان في نية بكر صدقي أن يتخلّص بالقتل من كل من : ياسين الهاشمي ، ورشيد عالي الكيلاني ، ونوري السعيد ، غير أنه جرت تدخّلات من انكلترا ومن رئيس الوزراء حكمت سليمان الذي اقترح باسم الوزارة أن يُغادروا العراق ، واسترحم من الملك غازي أن يُشير عليهم بذلك ، ففعل ، وأرسل إليهم مُرافقه الخاص ليطلب منهم مُغادرة البلاد . فانتقل ياسين الهاشمي[1] ورشيد عالي الكيلاني إلى الشام ، أما نوري السعيد فقد استأذن له السفير الإنكليزي من رئيس الوزراء حكمت سليمان أن يُسافر إلى مصر على متن طائرةٍ من السلاح الجوي البريطاني ، فأذن له ، وسافر ، وعملت انكلترا هناك على حمايته ، فكانت تعرض عليه أسماء العراقيين الذين يُريدون دخول مصر ، فإن وافق ، سُمح لهم ، وإن رفض مُنعوا .

أرادت الحكومة أن تثبت قواعدها فأجرت تنقلاتٍ واسعةً بين كبار الموظفين لمصلحة مُؤيديها ، وحلّت المجلس النيابي ، وأجرت انتخاباتٍ جديدةٍ بإشرافها ، وسمحت للصحف المعطّلة بالصدور ، وللكتب الممنوعة بالفسح ، وعملت على استصدار أمرٍ ملكيٍ بالعفو عن المحكومين .

كان رئيس أركان الجيش العراقي بكر صدقي يُريد أن يتخلّص بالقتل من عددٍ من مُعارضيه ، سواء أكانوا من العسكريين أم من المدنيين ، وقد انتشرت هذه الشائعة بين الأوساط السياسية جميعها ، وقد اغتيل ضياء يونس أمين سر مجلس الوزراء في عهد الوزارة السابقة ، وادّعت الحكومة أن علي رضا العسكري شقيق جعفر العسكري قد انتحر . . .

---

(١) مات ياسين الهاشمي في بيروت في ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٣٧م) .

بدأت النقمة تظهر من تصرّف بكر صدقي أولاً ثم من سـوء الإدارة عامةً . حتى فقدت الحكومة شعبيتها .

أعلن بكر صدقي عن خطوبته من إحدى الغانيات الألمانيات فكان هذا مجـالٍ نقدٍ شديدٍ ، بشكلٍ سري أحياناً وعلني أحياناً .

وكان تعامله مع الوزراء بشكلٍ يُسيء إليهم حتى انقسمت الحكومة إلى فـريقـين أحـدهمـا يُؤيّـده والآخـر يُعـارضـه ، وأخيـراً قـدّم أربعــة وزراء استقالاتهم[1] . فأصبحت الوزارة حسب القانون مستقيلةً[2] ، ولكن صدر أمر ملكي بتعيين أربعة وزراءٍ مكانهم[3] . ثم صـدر أمر ملكي آخـر قضى بتعيين مصطفى العمري وزيراً للداخلية . وأدّت المعارضـة لتصرفات بكـر صدقي إلى قتله ـ كما سنرى ـ .

أما سوء الإدارة العامة فقد أدّى إلى وقوع فوضى في لواء الديوانيـة ، وسافر رئيس الوزراء حكمت سليمان إلى تلك المنطقة بصفته وزيراً للداخلية في مُحاولةٍ للقضاء على الفوضى ، والتفاهم مع الزعماء في اللواء غير أنه لم يُفلح ، وتطوّرت الفوضى إلى حركةٍ قامت بمُهاجمة الدوائر الرسمية ، فاضطرّت الدولة إلى استعمال القوّة ، واستغلّت السلطات العسكرية هذه العملية ، واتّخـذت أسلوب القسوة لتزداد النقمة على الحكومة ، فإن العسكريين قد كرهوا بكر صدقي ، وشعروا أنه كابوس مُصلّت عليهم . ورفعت الحكومة الحصانة عن

---

(١) قدم الاستقالة وزير المالية محمد جعفر أبو التمن ، ووزير الأشغال كامل الجادرجي ، ووزير العدلية صالح جبر ، ووزير المعارف يوسف عز الدين إبراهيم .

(٢) يقضي القانون بأن لا يزيد عدد الوزراء على تسعةٍ ، ولا ينقص عن الستة ، وباستقالة هؤلاء الوزراء فإن العدد نقص عن الستة وبذا أصبحت بحكم المنحلّة .

(٣) عين الوزراء الآتية أسماؤهم مع وزاراتهم :

١ ـ محمد علي محمود : وزيراً للمالية .
٢ ـ عباس مهدي : وزيراً للأشغال .
٣ ـ علي محمود الشيخ : وزيراً للعدلية .
٤ ـ جعفر حمندي : وزيراً للمعارف .

اثنين من مجلس الأعيان[1] ، وعن نائبٍ واحدٍ[2] ، وذلك بعد مُوافقة مجلس الأعيان والنواب ، وهم من وجهاء لواء الديوانية، فكان ذلك إيذاناً باندلاع نار الثورة ، فقامت الطائرات بقصف المدن والقرى ، وتحرّكت المظاهرات في النجف ، وزاد عدد القتلى على الثلاثمائة في المدة الواقعة من ٢ ـ ١٥ربيع الأول ١٣٥٦هـ (١٢ ـ ٢٥ أيار ١٩٣٧م) وكان عدد الجرحى أضعافاً مُضاعفةً لعدد القتلى .

ولما عُيِّن مصطفى العمري وزيراً للداخلية في ١٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ سافر إلى لواء الديوانية ، ورجا شيوخ القبائل أن يعملوا على إنهاء الخلاف القائم بين الشعب والحكومة ، وقد وعدهم بإعادة الذين نُفوا إلى الألوية الشمالية ، وإخراج المساجين ، وإعفائهم من الخدمة الإلزامية بالجيش ، فتوقّفت العلميات غير أن النفوس لا تزال مُتألّمةً من تصرّفات رئيس الأركان ، ولن تهدأ إلا بالخلاص منه .

مقتل بكر صدقي : دعت الحكومة التركية الحكومة العراقية إرسال بعثةٍ عسكريةٍ إليها لمشاهدة مناورات الجيش التركي التي سيقوم بها في منطقة تراقيا (القسم الأوربي من تركيا) فوافقت الحكومة العراقية على هذه الدعوة ، وكلّفت بعثةً عسكريةً برئاسة رئيس الأركان بكر صدقي .

أرادت البعثة السفر من الموصل ، وكان موعد المناورات ١١ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١٨ آب ١٩٣٧م) . ورأت البعثة أن تنطلق قبل مدةٍ ، وفي ٤ جمادى الآخرة بينما كان بكر صدقي في حديقة مطار الموصل مع زميله محمد علي جواد قائد سلاح الجو العراقي في الطريق إلى تركيا ، جاء جندي عراقي[3] ليقدّم لهما بعض المشروبات ، وكان يُخفي مسدساً تحت الصينية ،

---

(١) علوان الياسري ، ومحسن أبو طبيخ .

(٢) عبد الواحد الحاج سكر .

(٣) يُدعى الجندي القاتل : محمد عبد الله التلعفري .

فلما وصل إليهما ، أطلق رصاصتين على بكر صدقي فقتله، فهمّ محمد علي جواد بالقبض على الجندي ، فأدار عليه المسدس ، وقتله ، فأسرع بقية الضباط ، وقبضوا على الجاني .

صدرت الأوامر من الجهات المختصة بإلقاء القبض على بعض الضباط[1] الذين يحتمل أن تكون لهم علاقة بالحادث . فألقى أمير اللواء محمد أمين العمري آمر منطقة الموصل القبض عليهم، وأمر بنقلهم إلى بغداد ، فطلبُوا مُقابلته ، ورجوا حمايته بتأجيل إرسالهم ، إذ يخشون من الاغتيال في الطريق . فلما وافق على التريث قليلاً بإرسالهم إلى بغداد ، طلبوا منه إخلاء سبيلهم ، فأبى عليهم ، فهددوه باتهامه بالمشاركة في الحادث ، والتخطيط لتنفيذه ، فخشي مغبة الأمر ، واستشار ضباط الحامية ، فوجدهم قد تورّطوا جميعاً ، وأجمعوا على اتهامه إن لم يُسرع بإطلاق سراح المتهمين ، ففعل وأذاع بياناً أعلن فيه : أنه ألقى القبض على الجُناة ، وأبلغ الحكومة بذلك لكنها طلبت القبض على كثيرين من الضباط الذين لا علاقة لهم بالحادث، من باب إلقاء الذعر في نفوس الآمنين ، وتضخيم الحادث ، ولما همّ بالتنفيذ وجد الجيش قد آزر ضباطه ، وتضامن معهم ، الأمر الذي جعله يقطع الصلة مع الحكومة مع المحافظة على الإخلاص لمليك البلاد .

أرادت الحكومة أن تستعين بالجيش لتأديب حامية الموصل ، لكن الجيش رفض الأوامر ، وأعلن تأييده للموصل ، وأصدرت حامية (الوشاش) التي كلّفت بالحركة والتوجه إلى الموصل الميثاق الآتي :

١ ـ الإخلاص للعرش وصاحب الجلالة .
٢ ـ الجيش وحدة لا تتجزّأ ، وتُؤيّد مطالب قوات الموصل .
٣ ـ إبعاد بعض الضباط عن مناصبهم الحالية ، ووضعهم في مواقع أخرى ثانوية لتدخّلهم في السياسة .

---

(١) كان من بين هؤلاء الضباط العقيد فهمي سعيد ، والنقيب محمود الهندي .

٤ ـ عدم تدخّل الجيش في السياسة .

أبرق رئيس الوزراء حكمت سليمان لوزير الدفاع عبد اللطيف النوري الذي كان خارج العراق يطلب منه الموافقة على استلام رئاسة الأركان مكان بكر صدقي، حتى تُسلّم وزارة الدفاع إلى جميل المدفعي الذي يقضي إجازته الصيفية في سوريا ، فوافق ، واتجه جميل المدفعي إلى العراق ، إلّا أن الأحداث تطوّرت كثيراً ، واضطر حكمت سليمان إلى تقديم استقالته في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١٧ آب ١٩٣٧م) .

وزارة جميل المدفعي الرابعة : كاد الوضع أن يتدهور تماماً ، وكان الشعب يُفكّر بمن ينقذ البلاد ، ويُخرجها من المأزق التي وقعت فيه ، غير أن الشعب لا يُمثّل إلا طرفاً ، ويُعدّ الطرف الضعيف ، إذ أصبح الجيش يُشكّل طرفاً ، ويُعدّ هو القويّ ، إضافةً إلى الملك الذي أصبح أمره مُرتبكاً ، ويجب ألا ننسى أبداً السياسة الإنكليزية التي تلعب دورها في الخفاء، وتحرّك بعض الرجالات من وراء ستار .

برز على الساحة أربعة عقداء هم : فهمي سعيد ، وكامل شبيب ، وصلاح الدين الصباغ ، ومحمود سلمان ، وقد قابلوا الملك ، وطلبوا منه تكليف جميل المدفعي بالوزارة حيث كان يبدو أنه يتبع سياسةً معتدلة ، ورحب الملك بذلك ، واستدعى جميل المدفعي ، وعهد إليه بتأليف الوزارة . فاشترط عدم تدخّل الجيش ، فأُعطي ما أراد .

شكّل جميل المدفعي الوزارة في اليوم نفسه[1] ، وأُعلنت الأسماء ، ولم

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عباس مهدي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ جلال بابان : وزيراً للاقتصاد .
٥ ـ محمد رضا شبيبي : وزيراً للمعارف .
٦ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ إبراهيم كمال : وزيراً للمالية .

تتكـامل ، ولكن أُضيف إليهـا في اليوم الثـاني مُباشـرةً توفيق السـويـدي ، وأُسندت إليه وزارة الخارجية ، وإبراهيم كمال ، وأُعطي وزارة المالية وكانا في خارج البلاد .

ويرى بعض الساسة أنه كان من المفروض على جميل المدفعي ضمّ طه الهاشمي ونوري السعيد إلى وزارته ليكون إلى جانبه جميع خصوم بكر صدقي والوزارة السابقة ، وخاصـةً أن ياسين الهاشمي كان قد مات خارج البـلاد فكسب عطف الشعب بعد موته لأن الناس طُبعوا على العطف على من تحطّ به الأيام بعد علو وخاصةً إن حلّت به نكبة ، أو نزلت به نازلة ، وقد أصاب آل الهاشمي مُصيبة فياسين مات غريباً مُشرّداً ، وطه أُحيل على التقاعد . وأما نوري السعيد فقد قُتل صهره جعفر العسكري ، وشرّد هو إلى مصر . ولا شك أن دخوله الوزارة سيكون لها دعماً من انكلترا لثقتها بنوري السعيد الذي يُعدّ من أوائل من تثق بهم ، هذا إضافةً إلى صلته الوثيقة ببعض العسكريين . غير أن جميل المدفعي لم يكن عنده من الفراغ ليستمع إلى آراء بعض الساسة ، وإلى نصائحهم ، وإنما قدم مُباشرةً إلى الملك غازي ، وخرج من عنده يحمل كتاب التكليف ، وصدر أمر بتشكيل الوزارة في اليوم نفسه .

حاولت حكومة جميل المدفعي كسب الشعبية والتأييد لها من الشعب ، ومن الجيش على حدٍ سواء ، ولكن لم تفلح في ذلك ، فقد عملت على ترك الماضي ونسيانه ، والنظر إلى المستقبل ، ومع هذا فقد حاولت محاكمة المتهمين بقتل جعفر العسكري وزير الدفاع السابق ، غير أنها لم تنجح ، إذ أن القضاء رفض ذلك بحُجّة أن هذا يُخالف قانون العفو الذي صدر في عهد الوزارة السابقة .

استصدرت أمراً بحلّ المجلس النيابي في ١٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (٢٦ آب ١٩٣٧م) أي بعد تسعة أيام فقط من تسلّمها السلطة ، وأخذت تستعدّ لإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ،كـي يأتي مجلس أكثر تأييـداً لها من سـابقه حسب تصوّرها .

واستصدرت أمراً بالعفو عن الذين ساهموا في حركة لواء الديوانية .

ومنحت امتياز نفط البصرة إلى إحدى الشركات الأجنبية في ٢ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ (٢٩ تموز ١٩٣٨م) ، وقد صدق المجلس النيابي على هذا المنح .

أما بالنسبة إلى الجيش فقد أعلن آمر منطقة الموصل أمير اللواء محمد أمين العمري أن الأسباب التي أدّت إلى قطع الصلة مع الحكومة قد زالت ، لذا فقد عاد الأمر إلى طبيعته ، ورجعت حامية الموصل إلى ارتباطها بأركان الجيش ، وبالتالي بالحكومة .

واستصدرت الحكومة أمراً بإحالة رئيس الأركان عبد اللطيف النوري على التقاعد ، وتعيين حسين فوزي رئيساً للأركان .

وأحالت عدداً كبيراً من الضباط من مُختلف الرتب على التقاعد في سبيل إبعاد الجيش عن التدخّل بالسياسة ، والانصراف إلى العمل العسكري من تدريبٍ ، وحماية البلاد فقط .

غير أن الضباط الذين كانت لهم يد في قتل رئيس الأركان السابق بكر صدقي ، خافوا أن تتخذ ضدّهم إجراءات ، ويُؤخذ منهم الواحد بعد الآخر لذا فقد وحّدوا أمرهم ، وتعاهدوا فيما بينهم على أن يكونوا كتلةً واحدةً ، ولذا فقد استمروا في بحث الموضوعات السياسية ، والالتقاء مع بعض السياسيين أمثال : سامي شوكت ، وتحسين العسكري ، وإسماعيل نامق ، وفي الوقت نفسه فقد كان يُخشى جانبهم ، وقد انضمّ إليهم محمد أمين العمري ، آمر منطقة الموصل ، ورئيس الأركان الجديد حسين فوزي ، فأصبح عددهم سبعة ، وهم : محمد أمين العمري ـ حسين فوزي ـ صلاح الدين الصباغ ـ فهمي سعيد ـ كامل شبيب ـ محمود سلمان ـ عزيز ياملكي .

استصدرت الوزارة مرسوماً عُرف باسم « منع الدعاية المضرّة » ، ولكن لم يُستخدم مدةً ، غير أنه فُرض على خريجي مدرسة الحقوق الذين قرّروا القيام

بمظاهراتٍ عندما فُرض عليهم الالتحاق بدورة الضباط الاحتياط ، وحُكم عليهم بالإبعاد إلى بعض الأقضية النائية[1]. ثم طُبّق ثانيةً على رشيد عالي الكيلاني وبعض الشخصيات الأخرى معه[2] . وكان لهذا دوره الكبير في النقمة على حكومة جميل المدفعي .

كان نوري السعيد يلتقي بالضباط السبعة ، ويطلب منهم أن يكونوا يداً واحدةً ، واقترح عليهم أن يكون طه الهاشمي وكيلاً عنهم ، ثم أخذ يُحرّضهم على إسقاط وزارة جميل المدفعي ، وربما كان ذلك ليتسنّى له استلام الحكم مكانه ، وربما ليتدخّل الجيش ، وتقع مصادمات ، وتجد انكلترا مُبرّراً للتدخّل في شؤون العراق ، وفرض ما تراه مُناسباً لمصلحتها ، مُوافقاً لسياستها .

وكان رئيس الوزراء يظنّ أنه يستطيع كبح جماح هؤلاء الضباط وغيرهم بصفته وزيراً للدفاع ، وقد أعطاهم مسؤولياتٍ تُسكتهم ـ حسب رأيه ـ أو تُقنعهم ، ويرضون بها . حيث كان قد عيّن محمد أمين العمري قائداً للواء المشاة الأول ، وصلاح الدين الصباغ مديراً للعمليات العسكرية ، ومحمود سلمان قائداً للقوات الآلية ، وكامل شبيب رئيس عمليات المشاة ، وعزيز ياملكي قائداً للنقل الآلي . ورغم أن الوضع كان يسير بخُطاً تتعثّر إلاّ أنه يتحرك ، ولكن تدهور مباشرةً في ٨ رمضان ١٣٥٧هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٣٨م) ، وذلك أنه اشتدّت الدعاية ضدّ وزير الداخلية مصطفى العمري ، فأحبّ رئيس الوزراء ، إجراء بعض التعديلات والمناقلات داخل وزارته فاستصدر أمراً ملكياً تضمّن :

١ ـ تعيين مصطفى العمري وزيراً للعدلية وترك وزارة الداخلية .

---

(١) كان من هؤلاء المبعدين : داود السعدي ، جميل عبد الوهاب ، علي محمود الشيخ ، شاكر الوادي ، إسماعيل الآغا ، علي غالب . واعتقل أيضاً يومذاك : يونس السبعاوي ، عبد الرحمن خضير ، صادق الحبة ، يوسف المولى .

(٢) وكان من هؤلاء الذين أبعدوا مع رشيد عالي الكيلاني ، فائق السامرائي ، عبد الوهاب محمود ، طالب مشتاق ، عبد القادر السباب .

٢ ـ تعيين عباس مهدي وزيراً للأشغال والمواصلات وترك وزارة العدلية .

٣ ـ تعيين صبيح نجيب وزيراً للدفاع وكان يشغل منصب مدير الخارجية العام .

٤ ـ تعيين جميل المدفعي رئيس الوزراء وزيراً للداخلية بالوكالة ، وترك وزارة الدفاع بالوكالة .

وكان لتعيين صبيح نجيب أثر كبير في توتّر الوضع واشتداد الأزمة ، إذ أنه كان قاسياً على الضباط ، ويسخر منهم ، فكرهوه ، واشتدّ حنقهم على الوزارة .

كان الضباط ينتقدون الحكومة في عدم محاكمة المتمرّدين الذين قاموا بانقلاب ١٤ شعبان ١٣٥٥ على حكومة ياسين الهاشمي من مدنيين وعسكريين ، وعدم مُلاحقتهم ، وينتقدون سوء الإدارة ، ويجاهرون بإبراز الأخطاء غير الظاهرة ، ويبحثون في تغيير الوزارة ، ويرون أن يُعهد بها إلى أحد رجلين : إما كبيرهم طه الهاشمي ، وإما مُوجّههم الذين يكثرون الاتصال به نوري السعيد .

وأحسّت الوزارة باللقاءات التي كانت تتمّ ، والأحاديث التي كانت تدور فرأت أن تُبعد هؤلاء الضباط إلى الأقضية النائية ، كما أبعدت المدنيين ، فتكون قد تخلّصت منهم ، وشتّت شملهم ، وشعر أيضاً الضباط بما تُخبىء لهم الحكومة فقرّروا إسقاطها مُباشرةً. فأرسلوا فرقة حمايةٍ إلى دار طه الهاشمي ، وأخرى إلى دار نوري السعيد ،واستنفروا قطعات معسكر الرشيد ، وانطلق عزيز ياملكي إلى رئيس الوزراء يُخبره بضرورة التخلّي عن الحكم ، فوجده في منزل أحد أعضاء مجلس الأعيان مع وزير الدفاع صبيح نجيب ،لذا فقد سُلّم الإنذار إلى وزير الدفاع الذي كتمه عن رئيس الوزراء رغم سؤاله عنه. وفي ذلك الوقت كانت قطعات الجيش تتحرّك وتأخذ مواقعها ، لتتخذ التدابير

اللازمة فيما إذا فكّرت الحكومة بإجراءٍ ما ، أو وضعت خطّةً لإحباط الخطّة العسكرية .

رفع القادة العسكـريون طلبـاً إلى الملك غازي يتضمّن ضرورة تخـلّي الوزارة عن الحكم ، فبعث الملك رئيس ديوانـه رشيد الخـوجة إلى معسكـر الرشيد ، واتّصل بالقادة ، وسمع منهم ، وكان مفاد آرائهم أنه لا بدّ من ترك الوزارة للحكم، وتشكيل وزارة برئاسة طه الهاشمي أو نوري السعيد ، وأنه إذا لم يتمّ ذلك فوراً فإن الجيش سيحتلّ العاصمة ، وسيرغم الحكومـة على النزول على رأي العسكريين . وبعد مُشاورات تمت بين الملك ورئيس مجلس الأعيان ، ورئيس مجلس النواب ، وبين رئيس الوزراء وأعضاء حكومته قدّم جميل المدفعي استقالة وزارته في ٣ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٣٨م) .

عهد الملك غازي إلى نوري السعيد بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ ، فألّفها في اليوم نفسه[(١)] . وقد سمحت للصحف المعطّلة بالصدور ، واستصدرت أمراً بحلّ المجلس النيابي ، وأجرت انتخاباتٍ جديدةٍ ، وذلك بعد أن أحسّت بقوة المعارضة التي طالبت بمحاكمة أعضاء الوزارة السابقـة الذين اتّخـذوا تدابـير إداريةً ضدّ خصومهـم السياسيين ، فاعتقلوا بعضهم ، ونفوا بعضهم الآخر .

كـان رئيس الـوزراء يُجامـل الضباط كثيـراً في بدايـة الأمر ، ويحـترم آراءهم ، ويُنفّذ مُقترحاتهم ، حتى بدا أنهم أصحاب السلطة من وراء ستار .

---

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نـوري السعيـد : رئيسـاً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .

٢ ـ طه الهاشمي : وزيراً للدفاع ، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٣ ـ رستم حيدر : وزيراً للمالية .

٤ ـ عمـر نـظمي : وزيـراً لـلأشغـال والمواصلات .

٥ ـ صالح جبر : وزيراً للمعارف .

وبعد يومين وصل إلى بغداد من تركيا ناجي شـوكت كوزيـر مفوض هنـاك ، وتسلّم وزارة الداخلية .

أرادت الحكومة أن تُوطّد نُفوذها ، واعتقدت أن هذا لن يكون إلا في تصفية المعارضة ، ثم إبعاد ضباط الجيش عن السياسة ، ولكنها لم تصل إلى السلطة إلّا عن طريق هؤلاء الضباط ، وأن بقاءها في الحكم مرهون بدعمهم لها ، لذا لا بدّ من اتخاذ سياسةٍ جديدةٍ لتنفيذ فكرتها .

أعلن رئيس الوزراء في ١٥ المحرم ١٣٥٨هـ (٦ آذار ١٩٣٩م) عن اكتشاف مؤامرةٍ هدفها الإطاحة بنظام الحكم القائم[١] ، وقتل الملك غازي ، وتنصيب الأمير عبد الإله ، وألقت القبض على المتهمين[٢] ، وشكّلت محكمةً عرفيةً[٣] ، فأصدرت أحكاماً قاسيةً[٤] .

وقد تدخّلت انكلترا في إنقاذ حياة حكمت سليمان ، إذ أبرق من لندن (لويد) مدير جمعية التمور العراقية إلى رئيس الوزراء نوري السعيد : (إن أصدقاءك في لندن لا يرتاحون لإعدام حكمت) ، وذلك بناءً على إشارة من الحكومة البريطانية . كما أن تركيا وإيران بذلتا جهداً لإنقاذ حياة حكمت سليمان نتيجة توسّط أخيه خالد سليمان . كما تدخّل في هذا الشأن جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، ومحمد رضا شبيبي .

---

(١) أعلنت الحكومة أن المؤامرة تريد قتل ٤٠ ـ ٥٠ رجلاً من كبار موظفي الدولة ، من بينهم أعضاء الوزارة الحالية ، وضباط الجيش عن طريق إقامة وليمةٍ في قصر الأمير عبد الإله ، ودعوة مائتين وخمسين شخصاً لها .

(٢) إتُّهم بالمؤامرة كلٌّ من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وحلمي عبد الكريم ، وجواد حسين ، وعلي غالب ، وعبد الهادي كامل ، والعقيد صالح صائب .

(٣) أُعلنت الأحكام العرفية في معسكر الرشيد ، وتشكّلت محكمة عرفية برئاسة العقيد عزيز ياملكي ، وعضوية كل من المقدمين سعيد يحيى ، ومحمود حلمي ، والقاضيين : معروف جياووك ، وعبد العزيز الخياط .

(٤) قضت المحكمة بالإعدام على كل من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وجواد حسين ، وحلمي عبد الكريم . وبالسجن ثمان سنوات على علي غالب . وبالسجن سبع سنوات على عبد الهادي كامل . وبرّأت ساحة العقيد صالح صائب . ثم صدر أمر ملكي بتخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة على كلٍّ =

وعُيِّن رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان الملكي ، وكان الملك غازي يُحبّه ، أما نوري السعيد الذي سعى في هذا التعيين ، فينوي التخلّص منه بوضعه تحت إشرافه ، وتسييره حسب هواه ، ولكن لم يُفلح إذ لم يكن رشيد عالي الكيلاني ذاك الفتى اليافع الذي يُغريه المنصب ، فيتبع من سعى له فيه ، ويأتمر بأمره ، وقد لام الإنكليز نوري السعيد على العمل لهذا التعيين .

مقتل الملك غازي : وفي ١٤ صفر ١٣٥٨هـ (٤ نيسان ١٩٣٩م) ، قُتل الملك غازي بحادث سيارةٍ كان يقودها بنفسه ، فاصطدمت بعمود الهاتف الممغنط الذي جذبها نحوه ، وما أن بلغ النبأ الناس حتى خرجت المظاهرات تُندّد بالإنكليز ، إذ سرت شائعات أن انكلترا كانت وراء الحادث ، وقد حاول المتظاهرون في بغداد قتل السفير الإنكليزي انتقاماً لملكهم ، فلم ينجحوا لوجود حراسةٍ مُشدّدةٍ على السفير ، على حين تمكّن المتظاهرون في الموصل من قتل القنصل الإنكليزي (مونك ماسون) ، واعتذر رئيس الوزراء لانكلترا عن هذا الحادث المؤلم ، وتعهّد بإجراء التحقيقات اللازمة والسريعة مع الرجال الذين كانوا في الشرفة مع القنصل،والذين يُظنّ بهم أو يُشتبه بهم . كما وعد بدفع تعويضٍ لأهل القنصل .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن مقتل الملك غازي لم يكن طبيعياً ، وإنما كان حادثاً مُفتعلاً ومُؤامرةً اشتركت فيها عدة عناصر منها : انكلترا ، ورئيس الوزارة العراقية ، ومرافق الملك غازي . فمغنطة العمود لجذب السيارة إليه ، أمر طبيعي أن تكون أصابع وراءها وذات نفوذٍ ، وجروح الملك كانت في الخلف من رأسه ، وقد سكت الطبيب الإنكليزي (سندرسون) عن هذا بل جعل الضماد يشمل رأسه كاملاً كي لا يخطر في بال أحدٍ السؤال عن سبب

= من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وجواد حسين ، وبعد أيامٍ صدر أمر ملكي آخر بتخفيف عقوبة الإعدام أيضاً عن حلمي عبد الكريم .

وبقيت الأحكام العرفية نافذة المفعول في معسكر الرشيد مدة سنةٍ كاملةٍ .

وجود الجروح في الخلف ، حيث كان يجلس المرافق ، والمرافق قد مات مُتأثّراً بجراحه أو قتل لإخفاء الجريمة . ورئيس الوزراء نوري السعيد لم يتساءل عن الحادث ، وكيف تم ؟ فقد يكون اندفاع السيارة نحو العمود جاء بطيئاً إذ كانت سرعتها قليلةً ،فلم يُصب الملك بأذىً ، وعندها أقدم المرافق على ارتكاب جريمته التي أُخفيت بقتله . وعلى كلٍ فإن انكلترا لم تكن على وفاقٍ مع الملك غازي ، وتتمنّى نهايته ، وهو يُبادلها الشعور نفسه ، وكان يحذر نوري السعيد وربما صرّح أكثر من مرةٍ بذلك .

وإذا صحّت الافتراضات تكون قد انتهت حياة الملك الثاني في العراق على يد الإنكليز ، كما انتهت حياة الملك فيصل الأول ، وذلك لأنه لم يسر وفقاً لسياستهم تماماً ، وهذا ما تُريد التنبيه إليه انكلترا بطرفٍ خفيٍ ليكون الخلف على بيّنةٍ من أمره ، فيبقى دائماً رهن إشارتها ، ويعرف أنه في ساعة مُخالفتها ستكون نهايته . ولكن الأمر كله بيد الله ، وآجال العباد كلها مُقدّرة ، لا يزيد عمر فردٍ لحظةً ، ولا ينقص شيئاً ، ولو اجتمع لذلك أهل الأرض ، واتخذوا كل ما عُرف من أسبابٍ .

الوزارات في عهد الملك غازي

١ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الثانية :	٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ٢٠ رجب ١٣٥٢هـ . (٩ أيلول ١٩٣٣ ـ ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣م) .
٢ ـ وزارة جميل المدفعي الأولى :	٢٠ رجب ١٣٥٢ ـ ٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ ـ ٢١ شباط ١٩٣٤م) .
٣ ـ وزارة جميل المدفعي الثانية :	٧ ذي القعدة ١٣٥٢ ـ ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ . (٢١ شباط ١٩٣٤ ـ ٢٧ آب ١٩٣٤م) .
٤ ـ وزارة علي جودت الأيوبي :	١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣ ـ ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ ، (٢٧ آب ١٩٣٤ ـ ٤ آذار ١٩٣٥م) .
٥ ـ وزارة جميل المدفعي الثالثة :	٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣ ـ ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ . (٤ آذار ١٩٣٥ ـ ١٧ آذار ١٩٣٥م) .
٦ ـ وزارة ياسين الهاشمي الثانية :	١٢ ذي الحجة ١٣٥٣ ـ ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ . (١٧ آذار ١٩٣٥ ـ ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م) .
٧ ـ وزارة حكمت سليمان :	١٤ شعبان ١٣٥٥ ـ ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ . (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ ـ ١٧ آب ١٩٣٧م) .
٨ ـ وزارة جميل المدفعي الرابعة :	١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٥٧هـ . (١٧ آب ١٩٣٧ ـ ٢٥ كانون الأول ١٩٣٨م) .
٩ ـ وزارة نوري السعيد الثالثة :	٣ ذي القعدة ١٣٥٧ ـ ١٦ صفر ١٣٥٨هـ . (٢٥ كانون الأول ١٩٣٨ ـ ٦ نيسان ١٩٣٩م) .

الفصل الثالث

الملك فيصل الثّاني - ١ -

١٤ صفر ١٣٥٨ - ٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ .
(٤ نيسان ١٩٣٩ - ٢ نيسان ١٩٤١م) .

لقد كان همّ فيصل الأول تثبيت أوضاع الملك لـذا انصرف إلى عقد المعاهدات مع انكلترا الواحدة تلو الأخرى ليحصل في كل مُعاهدةٍ على مزيدٍ من المنفعة عن سابقتها ، حتى قُبلت العراق عضواً في عُصبة الأمم ، وعُدّت أنها قد حصلت على استقلالها ، وكانت غالبية الشعب تعمل معاً ، وفي جبهةٍ واحدةٍ لمُقاومة الإنكليز ، وانتزاع ما يُمكن انتزاعه من وعـودٍ للحصول عـلى الاستقلال سواء أكان بالقوّة أم بالمجاملة وإظهار المُسايرة . كما بـذل فيصل جهداً لتثبيت الحدود مع الدول المجـاورة ، إذ لم تكن هناك حـدود واضحة المعالم ، ولا قائمـةً من قبل حيث كانت كلها أجزاء من الدولة العثمانية ، فلما جُزّئت بتخطيطٍ من الدول النصرانية على كرهٍ من أهلها ، كان لا بدّ من وضع معالم لهذه الحدود تحاشياً من حدوث خلافاتٍ في المستقبل ، وكان هذا يقتضي إقامة علاقاتٍ حسنةٍ مع الدول المجاورة ، وعقد اتفاقيات حسن جوارٍ ، وقد تمّ مُعظم هذا - بإذن الله - . وأما انكلترا فكان همّها في هذه المرحلة أن يكون الشعب راضياً من الملك كي يستقرّ الوضع ، وأن يكون الملك ألعوبةً بيدها لتتصرّف كما تشاء ، ولتستطيع أن تصطفي لها الأعوان ، وقد ساير الملك في بداية الأمر حتى حصل على الإستقلال ، ثم بدا غير ما كان فكانت النهاية . واختارت انكلترا عناصر لها ، وأخذت تُمايز بينهم ، وتُفاضل لتضع رحلها عند من تشاء .

وآلت مُهمّة النهوض بـالبلاد عـلى عاتق غـازي غير أن نفسـه كانت

مشحونةً بالهموم مما حدث بين أبيه وجده وبين انكلترا صاحبة الكلمة في العراق رغم الاستقلال ، إذ لا تزال لها قوات تُرابط في البلاد ، ولها نُفوذها ، فكظم غيظه ، وكتم همومه فظهر وكأنه غير مُدرك لما جرى كي يستطيع العمل ، وإذا كان قد أوكل رشيد عالي الكيلاني برئاسة الوزارة ، لكنها لم تخل من وزراء ترضى عنهم انكلترا إذ تجاهل حتى ظُنّ أنه قد عهد بالوزارة إلى رجل سبق له أن كان رئيساً لآخر حكومةٍ أيام والده ، فهو يُتابع خُطا والده . وتوقّعت انكلترا أن يكون غازي أفضل لها من أبيه ، ولكن لم يلبث أن خاب فألها ، وأصبح عدم الثقة قائماً بين الطرفين ، فانكلترا تُريد القضاء على غازي ، وقد أحسّ بذلك ، وكان حذراً حتى من بعض رؤساء وزارته ، ومع ذلك فقد أحسّ بذلك ، وكان حذراً حتى من بعض رؤساء وزارته ، ومع ذلك فقد استمر في تجاهله ، ويُعيّن رؤساء للحكومات ، وهو يعلم أنهم خصوم له ، يُريدون القضاء عليه ، ويُوافق على اختيار وزراء ، ويعرف أنهم لا يرغبون به ملكاً عليهم ، فقد اشترك نوري السعيد في سبع وزاراتٍ من الوزارات التسع التي كانت في عهد الملك غازي ، ورأس واحدةً منها ، وشكّل جميل المدفعي أربع وزاراتٍ ، واشترك في خامسةٍ ، ورأس حكمت سليمان وزارةً ، واشترك في أخرى ، وشكّل علي جودت الأيوبي وزارةً ، هذا إضافةً إلى غيرهم ، وإلى رئيس الديوان الملكي أحياناً ، وممن تُشير إليهم أصابع الإتهام بشكلٍ أقل من هؤلاء .

وعرفت انكلترا الخطة التي يتبعها الملك غازي ، وقرّرت التخلّص منه ، وخاصةً بعد أن لا حظت حرصه الشديد في استلام المعارضة السلطة ، فلما تسلّمتها أثارت انكلترا عليها أعوانها ، وعلى من شاركهم ، من باب العصبية أحياناً ، ومن باب الجهل أخرى ، وانشقّ حزب الإخاء ، وكان جناح حكمت سليمان مُعارضاً بشدّةٍ ، وناقماً بعنفٍ ، وكان من وراء قيام حركة بكر صدقي .

لما قام بكر صدقي بحركته كانت انكلترا تتوقّع أن يفتك بالكثيرين ، وعلى رأسهم الملك غازي ، لما كان عليه من طموحاتٍ ورغبةٍ في الارتقاء ،

ولكن تلك التوقّعات كانت في غير مكـانها ، وظهر أن الجنس كـان المحرك الرئيسي له ، وغاص فيه إلى رأسه حتى أصبح موضع نقد معظم أصدقائه ، وأوقع هذا التصرّف بينهم ، فلو كـان الخلاف منصبـاً أو مالاً لاشـتركوا في قسمته ، ولكنه الجنس ، وكل يُريد الاستئثار بمن يراها في عينه جميلةً غير أن كبيرهم يحول بينهم وبين ما يشتهون إذ يحوز على كل ما يُفكّرون به ، ويُريد أن يقضي وطره قبلهم ، ويترك لهم فضلاته . . .

ولما رأت انكلترا انغماسه في الجنس إلى هذه الصورة ، وأن حقده لم يكن على الكبار إلا في سبيل ما يُخفي من ضغط الغريزة فيكبح جماحها بالحقد ، ولا يستطيع صرفها ، فلما سُهل عليه الطريق غطّى على كل شيءٍ ، وطلبت من حكمت سليمان أن ينصحه ، كما نصحته هي ألا يُقدم على الفتك بخصومه ، خوفاً على أعوانها أمثال نوري السعيد ، وجميل المدفعي وغيرهما ، وخوفاً من أن تسيـل الدمـاء فلا تستـطيع ضبط الأمـر ، ويذهب الـذين اعتمدتهم فيمن يذهب ، وتنكشـف صلتهم بها ، فتنقلب النقمـة عليها ، لـذا نقلت نوري السعيد إلى مصر ، وأشارت بسفر ياسين الهاشمي ، ورشيد علي الكيلاني إلى الشام ـ كما رأينا ـ .

ولم ينتبه الكثير إلى أن انكلترا كانت وراء بكر صدقي ، وذلك بسبب إعلانه الدائم أنه ضدّ انكلترا ، وتصريحاته المستمرّة أنه يعمل ضدّ السياسة البريطانية ، وكأنهم نسوا أن المجرم لا يُعلن عن جريمته ، والخائن لا يعترف بخيانته ، والمرتبط لا يُصرّح بعلاقته والجهة التي يرتبط ، وإنما يُعلن ضدّ ذلك ليُبعـد عن نفسه الشبهـة ، ويُؤكّد العكـس ليُثبت النفي ، وهذا مـا تُريـده انكلترا ، بـل مُستعدّة لسـماع الشتيمة ، وقُبـول الطعن لتُـظهر نـظافـة من تتبنّـاهم ، فلو عُرف ارتبـاطهم لما استفـادت شيئـاً ، ولفشلت سيـاستهـا ، وضُربت مُخطّطاتها ، وتعطّلت مصالحها ، وفقدت كل ما تسعى إليه وتحرص عليه .

والمشكلة في ضعف سياستنا ، وعدم معرفتنا للواقع أننا لا نقوّم الأمر

بالعقيدة والسلوك وإنما نقبل الكلام بالعواطف الباردة ، والادّعاءات الفارغة ، فما ادعاء الإخلاص ، وحبّ الوطن، والعصبية للقوم ، والعروبة و . . . . مع عدم وجود رادعٍ ديني أو وازعٍ خلقيٍ إلا كالديوث الذي يتعهّد بشرفه ، واللصّ الذي يفتخر بأمانته . فالذي لا يعرف الخوف من الله من يضمنه ألا يخون أمّته ، ومن لا يُدرك الحلال والحرام من يكفُله ألّا يسرق ما ائتمن عليه . إن أولئك الذين يقضون أيامهم يُعاقرون الخمرة ، ويمضون وقتهم في مُعاشرة النساء ، ويسهرون الليالي على موائد القمار ، من هم أصدقاؤهم ؟ أتحول العروبة ، والوطنية ، والقومية ، وكلمات الإخلاص أن يرتكب المرء هذه الموبقات ؟ إنه لا يحول دون ذلك سوى الدين . أتحول هذه الكلمات الجوفاء بين التقاء مُدّعي الإخلاص والخائن ؟ لا ، وألف لا إن الملاهي لتجمع بين المدّعي وغيره ، ولتضمّهما الليالي الحمراء ، ويلتقيان على موائد الخمرة ، وعلى القمار ، وكم سُرقت معلومات عن طريق النساء !!! وأُخذت الأسرار من أفواه الذين أضاعت الخمور عقولهم !!! إننا مع الأسف لا نُقوّم الرجال على أساس العقيدة والأخلاق، وخاصةً في تلك المراحل. إن بكر صدقي كثيراً ما ادعى محاربة بريطانيا وسياستها، ولكن النساء كانت تسوقه إلى كل هاويةٍ، وتجمعه مع أمثاله . . .

ولما قطعت انكلترا الأمل من بكر صدقي تخلّت عنه ، وقُتل ، غير أنه لا يُمكنها أن تُضحّي بأعوانها ، إذ تخشى عليهم فيما إذا وقعت فوضى أو قامت ثورة عارمة في البلاد، لذا لا بدّ أن يتسلّم السلطة أحدهم ، ويقوم بدوره بإخفاء جريمة من سبقه ، وتُغطّى بصورةٍ تلقائيةٍ الصلة مع انكلترا . لجأت انكلترا إلى طريقين : أحدهما مُباشرة عن طريق حكمت سليمان رئيس الوزراء حيث دعا جميل المدفعي لاستلام منصب وزارة الدفاع . وكان الملك غازي نفسه قد لمس رغبة انكلترا ممن يتوقّع أنهم أعوان لها فاستدعى جميل المدفعي ليعهد إليه برئاسة الحكومة بعد أن أصبح استمرار الوزارة القائمة أمراً شبه مستحيلٍ .

ولكن الضباط اختلفوا مع الحكومة الجديدة ، لأنهم لم يعرفوا أبعاد

القضية، إما لجهلٍ ، وإما أنهم يُوجّهون، بعضهم يدري والآخر لا يدري، وعلى كل فقد كانت الحماقة العسكرية ، وإثبات الشخصية هـو الذي يحـدو هؤلاء الضباط ، وإن ادعوا الوطنية والعمل لها ، وسقطت الحكومة ، وابتهج الضباط بنصرهم ، وظنّوا أنهم قطعوا شوطاً إلى الأمام ، والواقع أنهم تحركوا خُطوات نحو الوراء ، أو ساروا باتجاه الهاوية .

واضطرّ الملك غازي أن يُظهر مُسايرة انكلترا ، وأن يُوافق على تعيين نـوري السعيد رئيسـاً للحكومـة ، وهو مـا ترغبـة انكلترا ، وما طـالب به الضباط ، وظنّ أن ذلك تنازل منه للسياسة الإنكليـزية ، وربمـا ترضى عن ذلك ، إلا أنه في الواقع قد تقدّم بنفسه خُطوةً نحو النهاية ، وكما طلبت انكلترا منه المسايرة أرادت منه أن يُقدّم تنازلاتٍ أخرى ، وبتعبير آخر أن يسير ضمن السياسة التي ترسمها له ، ولكن ليس لديه الاستعداد للتنازل أكثر من ذلك على ما يبدو .

إن انكلترا تريد ملكاً في هذه المرحلة على الأقلّ يخضع لها كلياً ، فكل المؤشّرات في أوربا تدلّ على نشوب حرب عظمى ، وربما تتسع ساحاتها حتى تشمل العالم كله ، وألمانيا أخذت تُوجّه الضربات إلى جيرانها ، فقد احتلّت النمســا في ١١ المحرم ١٣٥٧هـ (١٢ آذار ١٩٣٨م) ،وضمت إليها منطقة « الســوديت » من تشيكـوسلوفـاكيـا في ٦ شعبــان ١٣٥٧هـ (٣٠ أيلول ١٩٣٨م) ، وحذت حذوها اليابـان في آسيا ، وإيـطاليا في أوربـا و . . . . ويمكن أن نعدّ إسبانيا ضمن هذه القائمة ، حيث استبدّ (فرانكو) ، وقامت الفاشية في بلاده . ولذا لا يمكن لانكلترا أن تقبل ملكاً لا يدور في فلكها كلياً في مناطق نفوذها حيث تخشى أن ينقلب عليها في الساعات الحرجة ، لذا يجب أن تطمئن على وضعها قبل اندلاع الحرب ، أو قبل أن يأتي الوقت الذي لا يُجدي معه التغيير .

اتخذت انكلترا آخر وسيلةٍ لديها وهي إشعاره بأن القتل يدور حوله إن لم يستسلم لها ، ويُعلن الخضوع لسياستها والدوران في فلكهـا ، فـأعلن رئيس

الوزراء العراقي نوري السعيد في ١٥ المحرم ١٣٥٨هـ (٦ آذار ١٩٣٩م) عن اكتشاف مؤامرةٍ هدفها الإطاحة بنظام الحكم لقائم ، وقتـل الملك غازي ، وتنصيب عبد الإله ، وألقت القبض على المتهمين ، وشكّلت محكمةً عرفيةً ، وأصدرت حكم الإعدام على رؤوس المؤامرة .

تنبّه الملك غازي إلى الموضوع ، ولكنه بقي ثابتاً في مكانه لا يتزحزح عنه ، وإن زاد حذره ، وتوقّع مصدر الخطر فخافه ،ولكـن أمر الله نافذ ، ولا رادّ لحكمه، لم يكتمل الشهر حتى قُتل في الرابع عشر من شهر صفر .

وتـدخّلت انكلترا لإنقاذ رجـال المؤامرة الـذي سبق أن قضت عليهم المحكمـة بالإعـدام ، لأن القضيـة إحـدى دسـائسهـا ، وهي التي نسجت خيوطها ، وأخرجتها على الصورة التي تمّت عليها .

وهكـذا قوي أعـوان انكلترا في العراق ، وأصبـح لهم خطر ، ولـذا سيصبح عهد فيصل الثاني أو الوصيّ عهد صراعٍ بين هؤلاء الأعوان وبـين خصومهم ممن يُسمّى بالعناصر الوطنية ، وإن كانت الأمور كثيراً ما تتداخل بعضها مع بعضٍ إذ يلتقي رجال من هؤلاء ومن أولئك في مواضع السـوء وأماكن الشبهات على ما لا يُرضي الله ما دامت لا توجد هناك موانع دينية تحول دون ذلك ، وفي تلك اللقاءات تحدث الإغراءات والمُشجّعات فتنتقل عناصر من مواقع إلى أخرى ، وغالباً ما يكون الانتقال إلى الأدنى حيث لا تُعطي تلك الأماكن إلّا الفساد ، ولا تقود روّادها إلا إلى السوء ، وطرق الارتباط لتتمّ صفقات بيع وشراء الضمائر .

الوصايـة : اجتمع مجلس الـوزراء بعد مقتـل الملك غازي ، وأعلن تنصيب ولي العهد الأمير فيصل ملكاً على العراق باسم « فيصل الثاني »[١] ،

(١) فيصل بن غازي : ولد في بغداد في ٢٩ محرم ١٣٥٤هـ (٢ أيار ١٩٣٥م) ، وعندما آل إليه المُلك كان عمره أربع سنواتٍ ، فتولّى الوصاية عليه خاله عبد الإله ، فأدخله مدرسةً عربيةً ، ثم إنكليزيةً ، ومنها انتقل إلى كلية « هارو » ، ونُودي به ملكاً عام ١٣٧٢هـ ، كان يُعاني أزمةً صدريةً مُزمنةً ، فعاش مُنعزلاً في قصره ، واستبدّ خاله بالقصر ، فضجّ الناس ، وقُتل في ثورة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) .

وسمّى عبد الإله بن علي[1] وصيّاً على الملك الذي لم يبلغ سن الرشد القانونية . حسب وصية الملك غازي التي أفادت بها كل من عالية بنت علي زوجة الملك غازي ، وشقيقته راجحة ، كما دعا مجلس الوزراء مجلس النواب المنحلّ للانعقاد تمهيداً لاجتماع مجلس الأمة الذي سيبتّ في أمر الوصاية نهائياً ، وفي الوقت نفسه فقد أعلن مجلس الوزراء الحداد العام في العراق .

ثم عُقد اجتماع خاص في البلاط الملكي للبحث في أمر الوصاية حضره كل من : رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر ، ورئيس مجلس النواب مولود مخلص ، ورئيس مجلس الوزراء نوري السعيد ، ورئيس الديوان الملكي رشيد عالي الكيلاني ، ورستم حيدر وزير المالية ، وجميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، واستعرض الحضور أسماء الأمراء الهاشميين الذين تصلح وصايتهم على الملك فيصل الثاني فكانوا ثلاثة : عبد الله بن الحسين ، وزيد بن الحسين ، وهما : عمّا أبيه غازي بن فيصل بن الحسين ، والثالث وهو : ابن عم أبيه عبد الإله بن علي بن الحسين ، وفي الوقت نفسه خاله .

عرض رئيس الوزراء وجهة نظره ، فذكر أن عبد الله بن الحسين مشغول بشؤون إمارته في شرق الأردن ، وأن زيد بن الحسين لا يصلح لأن زوجته أجنبية ، وهي سيدة تركية ولم يبق سوى الأمير عبد الإله ، وهو أهل لذلك ، فأيّد الحضور هذا الرأي ، وتمّ تنصيب عبد الإله وصياً بصورةٍ رسميةٍ في ١٦ صفر ١٣٥٨هـ (٦ نيسان ١٩٣٩م) .

قدّم رئيس الوزراء نوري السعيد استقالة حكومته إلى الوصي في اليوم نفسه ، وهكذا تقتضي التقاليد الدستورية بأن تتخلّى الوزارات القائمة عن

---

(١) عبد الإله بن علي : ولد في الطائف عام ١٣٣١هـ ، وتعلّم فيها مبادىء العلم ، ثم انتقل إلى القدس ، والتحق فيها بالكلية الإسلامية ، ثم انتقل إلى كلية « فيكتوريا » بالاسكندرية ، وأتمّ دراسته في إنكلترا ، تسلّم الوصاية على ابن أخته « فيصل الثاني » ، واستبدّ بالسلطة حتى بعد بلوغ الملك سن الرشد القانونية ، وقُتل في ثورة ٢٧ ذي الحجة عام ١٣٧٧هـ .

الحكم عند حدوث تجدُّد في ملك البلاد ، أو إمارتـه ، وفي اليوم ذاته عهد الوصي إلى نوري السعيد ثانيةً بتأليف وزارةٍ جـديدةٍ ، فقـدّم أسماء وزارتـه السابقـة ، وتمّت الموافقة عليها مُباشرةً[1] .

كانت انكلترا قد أشاعت أن النية قائمة لقتـل الملك غازي وتنصيب عبد الإله مكانه ، بل لقد أعلنت الحكومة ذلك رسمياً ، عندمـا أذاعت نبأ اكتشاف المؤامرة ، والأهداف التي ترمي إليها ، وكان من جملتها قتل غازي ، وإقامة عبد الإله محلّه ، غير أنها عادت وعدلت عن فكرتها الأولى ، وجعلتها إبقاء المُلك وراثياً في أُسرة فيصل ، وإقامة عبد الإله وصياً على ابن أخته فيصل الثاني الذي لا يزيد عمره على الأربع سنوات ، حيث وجدت أن هذه السياسة أفضل لها لـ :

١ ـ ربما لو نُصّب عبد الإله ملكاً لنافسه آخرون ، وقالوا نحن أحقّ بالملك منه ، فهو صغير بعد نسبياً لم يتجاوز السابعة والعشرين من العمر ، وليس لديه خبرة في السياسة ، ولا حنكة في تصريف الشؤون ، أما حصر الملك في بيتٍ واحدٍ ، فليس هناك من مُنافس .

٢ ـ ربما لو نُصّب عبد الإله أو غيره لشعر بعد مدةٍ بكيانه ، ولأراد المحافظة على مكانته ، والاحتفاظ بشخصيته ، وقد يصعُب عليه فكرة قبول التوجيه من غيره . كما حدث مع فيصل الأول . أما الوصي فإنه يعمل باسم آخر ، ولو كان من أهله الأقربين ، وليس من يعمل لنفسه وباسمه كمن يعمـل لغيره وبغير اسمه .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نـوري السعيـد : رئيسـاً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ رستم حيدر : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمود صبحي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عمر نظمي : وزيراً للأشغال .
٧ ـ صالح جبر : وزيراً للمعارف .

٣ ـ إن الملك لا يزال صغيراً ، ويحتاج إلى مدةٍ طويلةٍ نسبياً حتى يتسلّم الملك ، ويحتاج بعدها إلى مرحلةٍ ليست قصيرةً كي يتدرّب على مُمارسة المسؤولية ، وفي هذا الوقت يُمكن أن يُوجّه ، ويتلقّى التعليمات اللازمة في سبيل السير في فلك السياسة البريطانية إذا أراد المحافظة على ملكه ، وخاصةً أن أعوان انكلترا هم الذين أصبحوا أصحاب القوة والنفوذ في العراق ، وهم الذين سيتولّون نُصح الملك ، وتوجيهه إضافةً إلى ما يتلقّاه في المدارس الإنكليزية ، والمعاهد التي تُوليه رعايةً خاصةً .

لهذا كله اختارت انكلترا الوصاية لعبد الإله ، لا الملك كما كانت تُفكّر من قبل في أواخر أيام الملك غازي .

ويجب أن نُلاحظ أيضاً أن أعوان انكلترا هم الآن أصحاب السلطة في العراق ، وأصحاب النفوذ ، وقد تمكّنوا ، أما المعارضة فسيضعُف شأنها ، ولا تستطيع المُجاهرة بآرائها ، وإنما تكظم غيظها ، وتضطر إلى السكوت ، وإن كانت النفوس مشحونةً ضدّ رجال السلطة .

وقد أجرى تعديلاً في وزارته بعد أقلّ من عشرين يوماً من تأليفها ، إذ اعتذر لناجي شوكت الذي كان في زيارةٍ إلى تركيا ، وتسلّم وزارة الداخلية بالوكالة مكانه ، على حين أسند وزارة الخارجية إلى علي جودت الأيوبي وذلك في ٦ ربيع الأول ١٣٥٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٣٩م) .

وأجرت الحكومة الانتخابات في ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ(٥ حزيران ١٩٣٩م) ، ودعت المجلس إلى الاجتماع في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ وقد انتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، ومولود مخلص رئيساً لمجلس النواب ، في وقتٍ كانت الأحكام العرفية مُعلنةً في بغداد والموصل ، وإضافةً إلى ذلك فقد تدخّلت الحكومة في الانتخابات لصالح مُرشحيها ، ولهذين السببين فقد كان أكثر أعضاء المجلس النيابي من أنصار نوري السعيد، الذي وضحت سياسته تماماً في مُوافقة السياسة البريطانية ، وكان أنصاره إما من

الذين يُوافقونه على سياسته ، وإما من أصحاب المصالح الذين لا تُهمّهم إلاّ منافعهم ، وبعدها لا يعرفون شيئاً ، ولا يُفكّرون بشيء ، سواء عندهم أسارت البلاد في فلك انكلترا أو في فلك غيرها ، أم تميّزت بشخصيتها ، وكانت سياستها تنبع من كيانها الذاتي ومصالحها الخاصة .

وفي الوقت الذي استصدرت فيه أمراً ملكياً بتأجيل جلسات المجلس النيابي لمدة شهرين بدءاً من ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ (١٠ آب ١٩٣٩م) فإنها قد ألغت الأحكام العرفية المعلنة في الموصل منذ مقتل القنصل البريطاني يوم ١٤ صفر ١٣٥٨هـ ، كما أنها أعادت إلى محمود المعروف الكردي الذي صودرت أملاكه حين قام بحركته قبل ثمان سنوات كل ما صودر له .

الحرب العالمية الثانية : اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (الأول من أيلول ١٩٣٩م) وبعد يومين أعلنت انكلترا الحرب على ألمانيا ، وأسرع السفير الإنكليزي في بغداد (بازل نيوتن) وزار وزير الخارجية العراقية علي جودت الأيوبي ، وسأله عن رأي العراق تجاه انكلترا في هذه الحرب ، ونسبة استعداد العراق لتنفيذ الاتفاقية العراقية ـ الإنكليزية ، فوعده باستشارة رئيس الوزراء ، ولكن يبدو أن الوصي ، ورئيس الوزراء قد اتخذوا موقفهم مُباشرةً ، ووافقهم وزير الخارجية نفسه ، وأعلنوا تأييد العراق لانكلترا . وبعد يومين فقط من إعلان انكلترا الحرب على ألمانيا أعلنت العراق قطع علاقاتها السياسية مع المانيا ، بل قبضت الحكومة العراقية على الرعايا الألمان في العراق ، وسلّمتهم إلى السلطات الإنكليزية ، التي اعتقلتهم في مُعسكر الحبّانية ، ثم سلّمتهم إلى حكومة الهند حيث نُقلوا إلى بلاد الهند .

كان لتصرّف الحكومة هذا الأثر السيء في نفوس الناس الواعين والعاديين ، فهو موقف لا يتّفق مع الكرامة ، فهؤلاء الرعايا الألمان آمنون ، لا علاقة لهم بالحرب ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ ، فإن من واجب الحكومة العراقية حمايتهم ، ولكنها فعلت العكس إذ قبضت عليهم وسلّمتهم إلى خصومهم ،

وإضافةً إلى هذا فهم لم يُعلنوا العدوان للشعب في العراق بل يعيشون معه ، فما ذنبهم ليُسلّموا إلى أعداء حكومتهم ؟

لقد كان إلقاء القبض على الرعايا الألمان بتوجيهٍ من انكلترا التي ذكرت لوزير الخارجية أن هؤلاء الألمان يُمكنهم مُراقبة تحرّك القوات الإنكليزية في العراق ، ونقل هذه المعلومات إلى حكومتهم ، لذا يجب الحظر على تنقّلهم ، وعلى حركاتهم بل حبسهم ، فامتثلت الحكومة العراقية ، وأقدمت على ما أشارت إليه السياسية الإنكليزية .

ويبدو أن رئيس الوزراء نوري السعيد هو الذي فرض على الوزارة الموافقة على قطع العلاقات مع ألمانيا وإعلان الوقوف إلى جانب انكلترا ، وكانت العراق بموقفها هذا أسرع من موقف دول رابطة الشعوب البريطانية أمثال كندا ، واتحاد جنوبي إفريقية ، واستراليا و . . . . وغيرها .

واجتمع مجلس الدفاع الأعلى العراقي برئاسة رئيس الحكومة نوري السعيد ، وتداول الرأي في موضوع الحرب ، وأبدى رئيس الوزراء رأيه في ضرورة إعلان العراق الحرب على ألمانيا ، وإرسال فرقةٍ أو فرقتين من العراق لدعم القوات البريطانية في ليبيا أو في منطقةٍ أخرى . ولكن مجلس الدفاع قد رفض هذا الرأي . وكانت آراء أعضاء المجلس تنحصر تقريباً في وجهتي نظر ، هما :

أولاً : الوقوف إلى جانب انكلترا ، وتقوم وجهة النظر هذه على أن ألمانيا لا بدّ لها من مُهاجمة الاتحاد السوفيتي ، وإن الميثاق الموقّع بين الطرفين في عدم الاعتداء لا يحول دون هذا الهجوم المبني على الأسلوب الذي يُعالج به هتلر الأمور . وإذا ما وقع الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي لا تلبث القوة الألمانية من أن تنهار ، فيكون النصر للحلفاء ، فإذا ما انتصر الحلفاء ، وكان العراق قد ساهم في تأييدهم ، فإنه سيحصل على بعض المنافع ، أما إذا تردّد العراق ، وامتنع من الوقوف إلى جانب الحلفاء ، وحال دون تنفيذ المعاهدة

العراقية ـ البريطانية في وضع الأراضي العراقية تحت تصرّف انكلترا في حالة وقوع حربٍ فإن العراق عندها سيحصد شوكاً بانتصار الحلفاء[1] .

ثانياً : مساومة الحلفاء ما دام دخول الحرب إلى جانب الحلفاء يقصد منه الحصول على بعض المنافع ، وأن دخول العراق إلى جانب الحلفاء يقدّم لهم بعض الفوائد ، فلنساوم الحلفاء ، فلنُطالب فرنسا مثلاً بمنح الاستقلال لشمالي بلاد الشام (سوريا ولبنان) ، ولنُطالب انكلترا في الاعتراف بحقّ الفلسطينيين بتأسيس دولةٍ لهم ، والتنصّل من وعد بلفـور ، وتسليح الجيش العـراقي ، وهذه المطالب ثمناً لدخول العراق إلى جانب الحلفاء ، والمشاركة الفعلية في القتال ، وهذا أفضل من أن ندخل متطوعين دون مُقابل ، فإن شاء الحلفاء عند النصر أعطونا شيئاً زهيداً ، وإن شاءوا امتنعـوا فليس هناك من وعـودٍ مسبقةٍ[1] .

ويبدو أن أصحاب الرأي الظاهـري لم تكن هذه فكـرتهم ، ولم يكن هذا واقعهم الذي ينطلقون منه ، وإنما عرضوا هذا في سبيل التـأجيل ليس أكـثر ، ما دام الأمـر مفروضـاً عليهم ، وهم ضمن أعضـاء المجلس ، ولا يستطيعون إبداء أكثر من هذا الرأي ، ولو فعلوا لكانت نهايتهم إذ أن النفوذ لأصحاب الاتجاه الإنكليزي الواضح .

أما خارج مجلس الـدفاع فـإن الشعب تختلف آراؤه ، منهم أصحاب المصالح الذين يُؤيّدون الحكومة لا الأفكار التي تتبنّاها بعد أن اقتنعوا بها ، ولكن لأنها صاحبة السلطة ، ومصالحهم مرتبطة بها ، فهم يُؤيّدونها لتحقيق منافعهم لا للأفكار والآراء ، ومنهم الذين يرون المساومـة ، ويُمثّلهم ناجي

---

(١) كان يمثل هذا الرأي : رئيس مجلس الدفاع نوري السعيد ، وعمر نظمي وزيـر الأشغال ، ومحمد أمين زكي (وزير سابق) .

(٢) وكان يمثل هذا الرأي رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، ورئيس وزراء سابق ، وطه الهاشمي وزير الدفاع ، وناجي السويدي وزير سابق .

شوكت ، وهو رئيس وزراء سابق ، غير أن هذا الفريق فئات تتراوح عندهم المساومة من تسليح العراق ، حتى تصل عند بعضهم إلى مختلف الأمصار العربية ، وحلّ مشكلاتها . أما أصحاب الاتجاه الإسلامي وإن كانوا قلّةً إلا أن العاديين من الشعب ، وهم غالبيته ، يتأثّرون بهم ، فيرون الوقوف على الحياد والبعد عن صراعات الدول الأوربية بعضها مع بعضٍ ، فكلّها صليبية ، وكلها تُعادي المسلمين ، وتُريد لهم الدمار ، فليس الألمان والطليان بأفضل من الإنكليز والفرنسيين ، وليس هؤلاء أقل سوءاً من أولئك ، فهم بالنسبة لنا سواء ، وقد تحقّق ذلك عندما استسلم للألمان الفيلق القرمي وغالبيته من المسلمين ، فبعد أن عرف الألمان واقع هذا الفيلق نزعوا من أفراده السلاح ، وساقوهم إلى السجن ، وتركوهم مدةً دون طعامٍ ، أو شراب ثم أبادوهم .

غير أن هذا كله لم يفد شيئاً ، فالسلطة بيد أعوان الإنكليز ، وهم الذين يفرضون رأيهم ، وتُنفّذ السياسة البريطانية على الوجه الذي تُريده ، وإن وُجد داخل الحكومة بعض من يُعارض هذا الاتجاه . فوزير المالية رستم حيدر كان يدعو للاتصال سراً بالألمان .

وفي يوم ٢٨ رجب ١٣٥٨هـ (١٢ أيلول ١٩٣٩م) أُعلنت حالة الطوارىء في العراق كلها ، ومُنح وزير الداخلية صلاحياتٍ استثنائية . كما عملت الحكومة على تنظيم الحياة الاقتصادية ، وفي اليوم الثاني ٢٩ رجب مُنح وزير الدفاع صلاحياتٍ في استخدام جميع المصانع ، وطرق النقل البرية والبحرية، والجوية،والجسور ، والموانىء ، والسكك الحديدية .

وفي ٧ شعبان ١٣٥٨هـ جرى تعديل وزاري[1] . وأرادت الحكومة

---

(١) شمل التعديل الوزاري :

أُسندت وزارة الداخلية إلى عمر نظمي وزير المواصلات .

وأُسندت وزارة المواصلات إلى جلال بابان .

وأُسندت وزارة الشؤون الاجتماعية إلى سامي شوكت .

وأُسندت وزارة الاقتصاد إلى صادق البصام .

إظهار النشاط في وزارة المعارف ، فاستقدمت مائة مدرسٍ من الشام .

وجاء مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني إلى بغداد في ٣ رمضان ١٣٥٨هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٣٩م) فاستقبل رسمياً ، ثم لعب دوراً في الأحداث السياسية .

وما عادت جلسات المجلس النيابي إلى الانعقاد بعد تأجيل دام شهرين ، حتى استصدرت الحكومة مرةً ثانية أمراً بتأجيل جلساته بدءاً من ٣ شوال ١٣٥٨هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٣٩م) .

انقسام الوزارة : قُتل وزير المالية رستم حيدر في مكتبه الرسمي في ٨ ذي الحجة ١٣٥٨هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٤٠م) على يد أحد ضباط الشرطة السابقين الذي يدعى حسين فوزي توفيق ، وقُبض عليه ، وادّعى أن القتل بدافعٍ شخصيٍ ، ثم عاد فادّعى أن وراءه مُحرِّضين ، فاختلف أعضاء الوزارة في نوع المحكمة التي ستُرفع إليها القضية . كما أُلقي القبض على وزراء سابقين منهم : صبيح نجيب ، وإبراهيم كمال ، ومنهم رجال سياسةٍ كعارف قفطان ، ونجيب الراوي ، ورجال شرطة مثل : حسن فهمي ، مدير شرطة سابق ، إضافةً إلى شفيق السعيدي . ونتيجة اختلاف الوزراء فيما بينهم لا بدّ من استقالة الحكومة .

وكما انقسمت الوزارة ، انقسم كبار ضباط الجيش الذين يتحرّكون على الساحة السياسية . إذ رأى رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى مشاة محمد أمين العمري ، وقائد إدارة النقل الآلي عزيز ياملكي أن مُهمّتهم السياسية قد انتهت ، وأن الأمر قد أصبح متروكاً للوصي ، وهذا ما أبدوه في لقاءٍ تمّ في دار طه الهاشمي وزير الدفاع . أما بقية الضباط السبعة ، وهم : كامل شبيب ، وصلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ، ومحمود سلمان . فقد أزعجهم ما أبداه زملاؤهم إذ يرغبون في السيطرة والتحكّم في أمور الحكومة ، ولذا انفضّ ذلك اللقاء دون ثمرةٍ ، ولكن خرج الضباط الأربعة وفي قرارة

نفوسهم التخلّص من زملائهم بالأمس ، فإنهم يخدعونهم ، ويُـريدون بهم الوقيعة ، وغدوا يُفسّرون كل تصرّف ضدّ زملائهم ، ورأوا في تـردُّد رئيس الأركان حسين فوزي على الوصي تزلُّفاً ، وستكون نهايتم قريبةً إن لم يتداركوا الأمر . لذا فقد جمعوا قواتهم في معسكر الرشيد ووضعوها في حـالة تـأهُّبٍ واستنفارٍ ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ ، فقد وجد الضباط الآخرون في الطرف الثـاني وهم : رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى مشاة محمـد أمين العمري ، وقائد إدارة النقل الآلي عزيز ياملكي الضباط الذين هم دونهم رتبةً يُسيئون الظنّ بهم ، وربما عملوا على إزاحتهم ، والسيطرة على الجيش ، ولما رأوا تجمّع قوات الآخرين في معسكر الرشيد ، عملوا هم أيضاً على حشـد قطعاتهم في معسكر الوشاش ، ووضعوها في حالة استنفار أيضاً ، ولكن ظهر أن معسكر الرشيد أكثر قوةً من معسكر الوشاش .

أخذ نوري السعيد يتقرّب من ضباط معسكر الرشيد ، ويلتقي معهم ، ويُريد من ذلك دعمه في العودة إلى الحكم ثانيـةً بعد أن أصبحت استقـالة الوزارة أمراً لا مندوحة عنه ، وهم يبغون أمـراً أيضاً ، وهـو إحالـة ضباط معسكـر الوشـاش على التقـاعد ، ليحلّوا محلّهم في السيـطرة على الجيش ، وبالتالي التدخُّل في شؤون الحكم ، وقد وعدهم نوري السعيد بالعمل على ذلك فيما إذا تمّ له استلام الحكم مرةً أخرى . وعلم ضباط معسكر الوشاش صلة ضباط معسكر الرشيد بنوري السعيد ، وما يتمّ بينهما .

قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ٩ محرم ١٣٥٩هـ (١٨ شباط ١٩٤٠م) ، ولما وصل الخبر إلى رئيس الأركان حسين فوزي باستقالة الحكومة أسرع إلى رئيس الديوان الملكي رشيد عالي الكيلاني وأخبره بـأن الجيش لا يُوافق أبداً على عودة نوري السعيد إلى الحكم ، ولا على دخول طه الهاشمي الوزارة ، وإذا تساهل باستلام طه الهاشمي وزراةً غير أنه لا يمكنه قبول نوري بأي حالٍ من الأحوال ، ثم ذهب إلى الوصي عبد الإله وأخبره برأي الجيش بصفته رئيساً لأركانه .

وصلت أخبار ما قام به رئيس الأركـان إلى ضباط معسكـر الرشيـد ، فأسرعوا إلى اللقاء في منزل نوري السعيد ليتدارسوا الأمر ، وجاءت أخبـار دعوة رئيس الأركان حسين فوزي لبعض القادة العسكريين إلى داره ، وأن قائد مدفعية معسكر الوشاش قد طلب ذخيرة من قيادة التسليح ، وأن قطعات ذلك المعسكر قد وضعت في حالة الاستنفار ، فتمّ إبلاغ الوصي مُباشرةً بما حدث .

استدعى الوصي رئيس الأركان حسين فوزي مساءً ليطّلع منه على ما يدور في الجيش فأعلمه أن الجيش يرفض عودة نوري السعيد إلى الحكم ، وهو ما سبق أن أخبره به قبل يومين . فاتصل الوصي بوكيل الفرقة الأولى كامل شبيب فنفى الخبر ، واتصل بقائد الفرقة الثالثة إسماعيل نامق فكذّب النبأ ، واتّصل بآمر القوة الجوية محمود سلمان فاستغرب القول ، واتصل بآمر القوة الآلية فهمي سعيد فأنكر معرفته بشيء ، واتصل بمدير الحركة والنقل صلاح الدين الصباغ فلم يكن عنده علم ، وكل من هؤلاء يطلب من الوصي أن يتصل بقادة القطعات خارج العاصمة ، فظهر للوصي كذب ما ادّعاه رئيس الأركان حسين فوزي .

ومن باب اتّخاذ التدابير الوقائية ، انطلق إلى معسكر الرشيـد كل من نوري السعيد ، وطه الهاشمي وكبار معاونيهم[1] ، وباتوا مع قادة قـطعات المعسكر ، وفي الصباح ذهب نوري السعيد وطه الهاشمي إلى الوصي ، وتكلّما معه في الموضوع ، وأبرزا له خطورة الأمر الذي أقدم عليه رئيس الأركان في وقتٍ تسود فيه الأحكام العرفية ، والعالم يصطلي بنار الحرب ، واقترحا عليه إحالة رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى أمير اللواء محمد أمين العمري ، والعقيد عزيز ياملكي على التقاعد ، فوافق ، وصدر بيان بذلك .

عهد الوصي إلى نوري السعيد بتشكيل الحكومة من جديدٍ ، بعد أن

---

(١) كان من بين من ذهب معهم : سامي شوكت ، وأحمد المناصفي ، وصباح نوري السعيد نجل رئيس الحكومة .

اعتذر رشيد عالي الكيلاني عن قبول هذه المهمة . قبل نوري السعيد التكليف .

وزارة نوري السعيد الخامسة : في اليوم نفسه تمّ تشكيل الوزارة[1] ١٣ محرم ١٣٥٩هـ (٢٢ شباط ١٩٤٠م) .

وجرت محاكمة قاتل رستم حيدر حيث أُعدم في ١٨ صفر ١٣٥٩هـ بعد إصدار الحكم عليه بأسبوع ، وقضت المحكمة بالسجن على وزير الدفاع السابق صبيح نجيب ، أما المتهمون الآخرون فقد قضت ببراءتهم .

وجرت تنقّلات في قيادة الجيش ، إذ أصبح أمين زكي قائد الفرقة الثانية وكيلاً لرئاسة الأركان العامة للجيش بترشيحٍ من طه الهاشمي ، وأُسندت قيادة الفرقة الثالثة إلى صلاح الدين الصباغ بترشيحٍ من طه الهاشمي أيضاً ، وعُيّن كامل شبيب قائداً للفرقة الأولى، كما عُيّن إسماعيل نامق مديراً لشؤون الدفاع . وبذا أصبح وضع طه الهاشمي قوياً في الجيش ، يُطيعه عدد من القادة إضافةً إلى منصبه كوزيرٍ للدفاع .

كما دخل عنصر جديد في السياسة العراقية ، وهو مفتي فلسطين ، وقد خرج من القدس تحت ضغط الإنكليز الذين وافقوا على ذهابه إلى العراق ظنّاً منهم أنه سيعيش بعيداً عن بلده فيبقى مُنعزلاً ، ليس له أي تأثير ، وقد نسوا أن بلاد المسلمين واحدة ، وأن الرجل المُدرك لفكرته ، المخلص لدينه ، العالم بأمور عقيدته هو موضع احترامٍ وتقديرٍ في أي بلدٍ حلّ ، وتوقّع الإنكليز

---

(٢) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ - نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٢ - عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للعدلية بالوكالة .
٣ - عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للمالية .
٤ - طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .
٥ - صادق البصام : وزيراً للاقتصاد .
٦ - محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال .
٧ - سامي شوكت : وزيراً للمعارف .
٨ - صالح جبر : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

كذلك أن محمد أمين الحسيني إن سافر إلى العراق ، وكان تحت نظر أعـوان انكلترا ، الذين لهم الدور الكبير هناك بل السلطة والنفوذ بأيديهم أفضل من أن ينتقل إلى مكانٍ آخر لا يخضع لرقابةٍ ، ولا تضبطه سلطة ، غير أنه قد ثبت لهم غير ما توقّعوه إذ التفّ الناس حول مفتي فلسـطين ، بل إن عـدداً من الضباط قد اجتمعوا إليه ، وكانوا يستنيرون برأيه ، ويسترشدونه بحكمته . إن جميع الذين يُعادون الإنكليز في العراق قد أحبّوا محمد أمين الحسيني لعداوته للإنكليز ، وجعلوه يشعر أنه بين أهله ، فإذا كانت بريطانيا قد أخرجته من بلده فقد انتقل إلى بلدٍ آخر له .

رأى الوصي ، ورأى نوري السعيد ، وكذلك طه الهاشمي أن يُؤلّف الوزارة رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، وعمل نوري السعيد على اقناع الضباط القادة الأربع على الطلب من رشيد المـوافقة عـلى رئاسـة الحكومة ، ففعلوا ، ومن جانبٍ آخر فقد لعب محمد أمين الحسيني دوراً أيضاً في إقناعه غير أن رشيد عالي الكيلاني قد حاول الاعتذار للضباط ، وأبدى لهم ثقته بهم ، وبإخلاصهم ، لكنه لا يستطيع أن يرى إنساناً يتدخّل في شؤون الحكم من جـانب العسكريـين ، وإذا ما حـدث ذلـك فـإنـه سيضـطر إلى الاستقالة ، وإلى وقوع الواقعة بينه وبينهم ، ولا يحب هذا أبداً ، وإنه ليشعر بهـدر كرامتـه الخاصـة ، كما أن الجيش ستضيـع هيبته وسمعتـه في نفـوس الشعـب . فلما أصرّ الضباط عليه طلب منهم أن يقطعوا على أنفسهم عهداً ألا يتـدخلوا في شؤون الحكـومـة ، وأن يكـونـوا بجـانب الحق ، وإذا جـانب الصواب ، عليهم نصحه ، وأنه مستعد للنـزول على رأيهم ، وسـماع كلمة الحقّ من أيٍّ كان مصدرها . فوافقه الضباط ، ومدّ يده لهم دليل الموافقة ، وقال لهم : إن سماحة مفتي فلسطين هو كفيلي ، وأعلمهم أنه قد اتفق مـع الوصي ، ونوري السعيد ، وطه الهاشمي على ذلك .

كان نوري السعيد يبغي توريط رشيد عالي الكيـلاني بالسـير في فلك

السياسة البريطانية برئاسته للحكومة ، وتأييده له ، ودعمه ، والوقت وقت حربٍ ، والأحكام العرفية هي المعمول بها ، ويضطر رئيس الوزارة للصلة باستمرار بالسفير الإنكليزي ، وسماع أخبار الحرب ، والالتزام بالمساعدة الأدبية على الأقلّ حسب الاتفاقيّة العراقية ـ البريطانية ، وخاصةً أنه لا توجد سفارة ألمانية في العراق ولا رعايا ألمان بعد أن تمّ الذي تمّ .

استدعى الوصي عبد الإله إلى مكتبه رشيد عالي الكيلاني ، وطلب منه تشكيل الوزارة فاعتذر ، وبعد إلحاحٍ من الوصي ، ومن نوري السعيد ، وطه الهاشمي اللذين كانا موجودين ، وافق ، واشترط ، وسأله الوصي عن شروطه ، فقال : أن يتعهّد السياسيون جميعاً ورؤساء الوزارات السابقين كتابة تعهّدٍ بالتأييد السياسي في الداخل والخارج ، وأن تُطلق يدي في رسم السياسة التي أراها مُناسبةً لصالح العراق . وهذا يدلّ على مقدار حرص الجهات المسؤولة على تولّي رشيد عالي الكيلاني الحكم لما يرون فيه من صلاحيةٍ لذلك ، وللضيق الذي أصابهم نتيجة تدخل الجيش في السياسة ، والإطاحة بالحكومات ، والتهديدات التي يُطلقها القادة العسكريون ضدّ هذه الوزارة ، وطلب تكليف ذاك برئاسة حكومةٍ جديدةٍ ، ويبدو أن الجميع كانوا يعرفون عدم قبول رشيد عالي الكيلاني التدخّل في شؤونه ، وهم يرغبون ذلك لوضع حدٍّ للقادة العسكريين .

وأبلغ الوصي بعض السياسيين ورؤساء الوزارات السابقة لضرورة اللقاء برشيد عالي الكيلاني والتفاهم معه على الحكومة القادمة . وجاءوا إلى مكتبه وكتبوا التعهّد الآتي :

نظراً لرغبتنا الأكيدة في جمع الكلمة ، وتصافي القلوب ، وإزالة الضغائن في هذه الظروف العالمية الخطيرة ، وما تتطلبه مصلحة البلاد من التفرّغ لمعالجة الأمور ، وتمشّيها بصورةٍ اعتياديةٍ ودستوريةٍ ، فقد اتّفقت آراؤنا على ما يلي :

١ ـ تُؤلّف وزارة قومية مُؤتلفة يختار رئيسها صاحب السمو حسب التقاليد الدستورية والاستشارات المُعتادة .
٢ ـ رؤساء الوزارات السابقون ورجال الدولة الموقّعون يتعاونون مع الوزارة المُؤتلفة في داخلها أو خارجها ، ومن يتعذّر عليه الاشتراك فيها بسببٍ مقبولٍ لدى سموه ، فإنه يُؤيّدها لتحقيق الغايات المذكورة أعلاه ، ويتجنّب مناوأتها .
٣ ـ تُوقّع هذه الاتفاقية ، وتُرفع إلى صاحب السمو .
علي جودت الأيوبي ـ توفيق السويدي ـ ناجي شوكت ـ جميل المدفعي ـ نوري السعيد ـ رشيد عالي الكيلاني ـ ناجي السويدي .

وعهد صاحب السمو الوصي إلى رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الوزارة ، فألفها[١] في ٢١ صفر ١٣٥٩هـ (٣١ آذار ١٩٤٠م) .

أُلغيت الأحكام العرفية التي دامت أكثر من سنةٍ ، وصدر أمر بالعفو عن الذين حُكموا في المجلس العرفي العسكري . وعملت الحكومة جهدها في مُحاربة الرذيلة ، وطردت الأجنبيات اللواتي قدمن للفحش في عهد الانتداب الإنكليزي الذي حرص على نشر الفساد ليكون همّ الناس ، ولإبعادهم عن عقيدتهم عن طريق الإغراء والغواية .

وفي ٥ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (١٠ حزيران ١٩٤٠ م) قرّرت إيطاليا الوقوف بجانب ألمانيا ، وأعلنت الحرب على انكلترا وفرنسا ، فرغبت السفارة

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزارة ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ ناجي شوكت : وزيراً للعدلية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عمر نظمي : وزيراً للأشغال .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٩ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

البريطانية في العراق أن تُبادر حكومة رشيد عالي الكيلاني ، وتقطع علاقاتها السياسية مع إيطاليا كما فعلت حكومة نوري السعيد عندما قطعت علاقتها مع ألمانيا ، غير أن الحكومة العراقية لم تر من المصلحة ذلك ، وخاصةً أن السفارة البريطانية لم تتجاوب مع الحكومة العراقيـة عندما طلبت منها التـوسّط لدى حكومتها والحكومة الفرنسية لتحقيق أماني الشعب العربي في الشام (سوريا وفلسطين) ، والنظر إلى القضايا العربية نظرات عطفٍ وخاصةً فيما إذا انتهت الحرب ، وحقّق الحلفاء النصر ، ولكن الحكومتين لم تهتّما بهذا الطلب نهائياً ، ولم تُجب إحداهما عليه ، وأهملته إهمالاً كُلياً ، ولهذا دلالته .

حرصت الحكومة البريطانية على إحراج حكومة العراق أمام الشعب بل زعزعة كيانها من الأساس فادّعت أن لا يُوجد لديها سلاح فائض نتيجة تطوّر الحرب ، وامتداد رقعتها بعد اشتراك إيطاليا ، وفتح جبهةٍ جديدةٍ في ليبيا ، لذا لا تستطيع تسليح الجيش العراقي في الوقت الراهن ، وللسبب نفسه لا يُوجد لديها مال لمساعدتها في تأمين بعض الحاجيات من الأسواق الأمريكية .

كان وزير الخارجية نوري السعيد ، ووزير الاقتصاد محمد أمين زكي يريان ضرورة قطع العلاقة السياسية مع ايطاليا في سبيـل تحسين العـلاقات العراقية البريطانية ، وللحصول على بعض المنافع سواء أكان السلاح أم المال ، ولم يتجاوب بقية الوزراء مع هذين الوزيرين ، وهذا ما أدّى إلى استقالة محمد أمين زكي من الوزارة في ٢٩ جمـادى الأولى ١٣٥٩هـ ، ثم استقال نـوري السعيد في ٢١ ذي الحجة من عام ١٣٥٩هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٤١م) . وبالمقابل كان وزير العدلية ناجي شـوكت أكثر الـوزراء حماسـةً لعدم قـطع العلاقات مع إيطاليا إثباتاً للشخصية العراقية ، وتحقيقاً للاستقلال ، فتوتّرت العلاقات بينه وبين نوري السعيد ، وقدّم ناجي شوكت استقالته في ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٩هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٤١م) ، وبـذا تصدّعت الـوزارة ، ولكن صدر أمر ملكي عمل على ترميم الوزارة ومحاولة لمّ الشعث ، غير أن المعاول التي أخذت في التهديم ، والعمل على تقويض الوزارة أكبر منها ، وكان

الضبـاط يرون ضرورة بقـاء الوزارة في الحكم ، غـير أنه كلما طـالت مـدة بقائها كلما توتّرت العلاقة بين العراق وبريطانيا ، وقد أحسّ الوزراء بذلك لذا أخذوا يُقدّمون استقالاتهم[1] ، وأخيـراً قدّم رشيـد عالي الكيـلاني استقالـة حكومته في ٣ المحرم ١٣٦٠هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٤١م) .

ونتيجـة المتغيرات الكثـيرة التي حدثت في العـراق في هـذه الآونـة ، وتضايق انكلترا الشديد من حكومة رشيد عالي الكيلاني التي رفضت قطع علاقاتها مع إيطاليا ، وبقيت على الحياد ، لا بدّ من التلميح إلى بعض هذه الأحداث التي نتجت عنها .

سافر وزير الخارجية نوري السعيد ، ووزير العدلية ناجي شوكت إلى أنقرة بتاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٢١ حزيران ١٩٤٠م) ، وقد التقى ناجي شوكت ببعض السياسيين هناك دون معرفة وزير الخارجية ، كما أمّن له وزير المجر المفوض في أنقرة لقاءً مع وزير ألمانيا المفوض (فون بابن) ، وسأل ناجي شوكت الوزير المفوض الألماني عن نظرة الألمان إلى العرب ، فأجـاب الجواب الطبيعي الذي لا يمكن لسياسيٍ أن يجيب بغيره . أنهم لا يضمرون لهم إلا الخير ، ويتمنّون لهم استقلال بلادهم ، وسأله عما يحدث لو انهارت فرنسا ؟ وكان الألمان قد دخلوا باريس يومِ ١١ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (١٦ حزيران ١٩٤٠)، والشكل الطبيعي أن يُجيب أن ألمانيا ستعمل على استقلال البلدان العربية . ومـا دامت الحرب مُشتعلةً بـين فريقـين ، فإن كـل فريقٍ سيعمل على كسب أنصـار إلى جانبـه ، ويبذل جهـده ليصرف الأعـوان عن خصمه ، فإن قول (فون بابن) بأن ألمانيا ترغب في استقلال البلدان العربية

---

(١) صدر أمر ملكي في ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٩هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٤١م) يقضي بـ :

١ ـ إسناد منصب وزارة الخارجية بالوكالة إلى ناجي السويدي وزير المالية .

٢ ـ إسناد منصب وزارة العدلية بالوكالة إلى عمر نظمي وزير الأشغال .

وبعد يومين صدر أمر ملكي آخر يقضي بـ :

١ ـ إسناد منصب وزارة العدلية إلى علي محمود الشيخ علي .

٢ ـ إسناد منصب وزارة الاقتصاد إلى يونس السبعاوي .

سيكسب دولته أصدقاءً ، ودعايةً لها ، ويلحق بخصمه الكراهية منها ونفور المُؤيّدين لها .

ووصلت أخبار هذا اللقاء إلى انكلترا فتضايقت أشدّ الضيق ، وخاصةً أنها كانت تعدّ العراق من مناطق نفوذها ، وهي مسرح أعوانها ، ومع ذلك تبدأ الاتصالات السرية مع خصومها ، وكان ناجي شوكت قد التقى مع (فون بابن) دون علم نوري السعيد ، كما أن وزير الخارجية نوري السعيد قد رجع إلى بغداد يوم ٢٨ جمادى الأولى ، على حين سافر ناجي شوكت إلى استانبول .

وفي ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٢١ حزيران ١٩٤٠م) طلب السفير الإنكليزي من وزير الخارجية العراقية السماح بنزول قواتٍ بريطانيةٍ في البصرة ، ومرور هذه القوات عبر الأراضي العراقية إلى فسطين ، وبناء استراحاتٍ لها في كلٍّ من البصرة ، وبغداد ، والموصل . وقرّر مجلس الوزراء العراقي في اليوم نفسه ، وقبل سفر وزير الخارجية إلى أنقرة بالسماح للقوات البريطانية بالمرور عبر أراضيه .

وفي شهر رجب ١٣٥٩هـ (آب ١٩٤٠م) اجتمع مجلس الدفاع العراقي ، ويضمّ رئيس الوزراء ، ووزيري الخارجية والدفاع ، وبعض الوزراء وكبار ضباط الجيش ، كما دُعي لحضوره كل من صلاح الدين الصباغ ، وكامل شبيب رغم أنهما ليسوا من أعضائه . واقترح نوري السعيد قطع العلاقات مع إيطاليا ، والسماح لانكلترا بحشد جيوشها جنوبي العراق ، وقدّم العقيد صلاح الدين الصباغ مُذكّرةً باسم أركان الجيش ، وقُرئت في الاجتماع ، وقد جاء فيها أن طلب حشد بريطانيا لقواتٍ لها في جنوبي العراق تُخالف لنصوص المعاهدة العراقية الإنكليزية ، وهذا ما أثار الخلاف ، واضطرّ وزير الدفاع إلى إنهاء الجلسة . وكان العقيد صلاح الدين الصباغ قد أيّد رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني بالوقوف على الحياد ، أي عدم قطع العلاقات مع إيطاليا ، وهذا كله خلاف لما عرضه نوري السعيد الذي كان يظنّ أن الضباط سيكونون في صفّه ، وحسب رأيه ، بل لم يتوقّع أن يُخالفوه

أبداً . فلما رأى هذا الموقف انسحب من اللقاء ، وكانت القطيعة بينه وبين الضباط الذين كان يعدّهم من أعوانه .

ومما ساعد رشيد عالي الكيلاني على وقوفه على الحياد .

الدعاية لدول المحور حيث كانت السفارة الإيطالية مقرّ هذه الدعاية ، إذ بقي السفير الإيطالي في بغداد ما دامت العلاقات لم تقطع ، وكان معه عدد من الرجال المسلحين لحمايته والسفارة .

ووجود مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني الذي التفّ حوله مئات الأشخاص ، وكان على خلافٍ مع انكلترا ، لذا كان يعمل ضدّها ، ويعمل على نشر الأخبار الحقيقية عن الحرب .

ووجود عددٍ من الزعماء الشاميين من سوريا الذين كانوا على خلافٍ مع السياسة الفرنسية[1] ، وقد خرجوا من بلادهم فارين من الضغط الفرنسي ، وسرّهم انهيار فرنسا ، فأخذوا يعملون ضدّها ، ويتمنّون انتصار خصومها .

وانهيار فرنسا حيث دخل الألمان باريس في ١١ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ ، وتشكّلت فيها حكومة الجنرال (بيتان) الموالية للألمان ، وهذا الانهيار يُشير إلى قرب سقوط الحلفاء ، الأمر الذي يُشجّع العمل ضدّهم ، والبقاء على الحياد .

الأخبار التي تنشرها وسائل الإعلام العراقية ـ كما تحدث ـ دون أن يحدث فيها تزوير أو تغيير لمصلحة أي فريقٍ من الفريقين ، ومُعظم هذه الأخبار كان في مصلحة دول المحور ، وضدّ الحلفاء . ومن إصرار حكومة رشيد عالي الكيلاني على الحياد رفضها لمنع الدعاية لدول المحور ، ومنعها قيام إذاعةٍ متنقلة للدعاية للحلفاء ، ورفضها أيضاً توزيع إعلاناتٍ لصالح الحلفاء .

وفي شهر رمضان ١٣٥٩هـ سرت شائعات أن الحكومة العراقية تنوي

---

(١) من الزعماء الشاميين الذين كانوا في العراق : شكري القوتلي ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، وجميل مردم .

إعادة علاقاتها السياسية مع ألمانيا ، وهذا ما أقلق الحكومة البريطانية ، ولكن الحكومة نفت هذه الشائعات ، ومع ذلك فقد أبلغ السفير الإنكليزي في بغداد في ١٦ شوال ١٣٥٩هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠م) الـوصي عبد الإلـه ، ووزير الخارجية نوري السعيد أن الحكومة البريطانية لا تثق بحكومة رشيد عالي الكيلاني . وبعد عشرة أيامٍ عاد السفير الإنكليزي (بازل نيوتن) وقدّم تحذيراً شديداً لوزارة الخارجية العراقيـة فيما إذا استـأنفت العلاقـات السياسيـة مع ألمانيا ، وكلّفت الحكومة وزير الخارجية بالردّ على السفير وإبلاغه بأن الحكومة العراقية ليس لديها الرغبة في استئناف العلاقات مع ألمانيا ، ولكن السفير ردّ على الفور ، فقال : إن الحكومة البريطانية لا تثق برئيس وزراء العراق ، وعلى العراق أن يختار إما صداقة بريطانية وإما صداقة رئيس وزرائه . وطلبت انكلترا من الولايات المتحدة الضغط على الحكومة العراقية ، وتوقيف شحن السلاح الذي اشترته وزارة رشيد عالي الكيلاني أو على الأقل تأجيل ذلك ريثما تأتي حكومة ثانية للعراق .

وربما طلبت انكلترا من الوصي ونوري السعيد العمل على إسقاط حكومة رشيد عالي الكيلاني ، ولو باستقالة نوري السعيد منها ، وقام نوري السعيد بتقديم مذكرةٍ إلى الوزارة العراقية في ١٦ ذي القعدة ١٣٥٩هـ (١٥ كانون الأول ١٩٤٠م) وعرض فيها : عدم وجود تضامن بين الوزراء في الحكومة ، وأن انكلترا لن تخضع ، ولن تنهار ، كما انهارت فرنسا ، لذا يجب الحذر وعدم مُخالفة انكلترا ، ومُحاولة إرضاء الولايـات المتحدة التي قـد ينال العـراق من سخطها إن لم تتعاون حكومته مع انكلترا . ويرى أنه من الضرورة بمكان فتح قنصليةٍ عراقيةٍ في واشنطون، وقطع العلاقات مع إيطاليا ، ومُحاولة الإفادة من الحلفاء لتحقيق بعض المصالح العربية ، مثل حقـوق الشعب في فلسطين ، واستقلال سوريا و . . . . وحبذا لو سافر وفد برئاسة رجلٍ قديرٍ إلى الولايات المتحدة لكسبها إلى جانب الشعب العربي في فلسطين ، ويقصد مفتي فلسطين حيث يُريد أن يتخلّص منه في العراق .

وقـدّم نوري السعيـد صورةً من مـذكرتـه إلى رئيس الديـوان الملكي عبد القادر الكيلاني لتقديمها إلى الوصي . وبعد تقديم المـذكرة انقـطع وزير الخارجية عن جلسات الوزارة إلى النهاية . ويقصد من هذه المذكرة . نسف الوزارة بحجة أنه لا يُوجد تضامن بين أعضائهـا ، ونسف سياسـة الحياد ، والانحياز التام إلى الحلفاء ، وتأسيس قنصلية للعراق في واشنطون ، وقطع العـلاقات مـع إيطاليـا ، والتخلّص من محمد أمـين الحسيني مفتي فلسطين بإرساله على رأس وفـدٍ إلى الولايـات المتحدة . ولكن رفضت الـوزارة هذه الآراء ، كما لم تجد عند رئيس الوزارة اهتماماً .

وفـي ١٨ ذي القعدة ١٣٥٩هـ (١٧ كانـون الأول ١٩٤٠م) طلب الوصي اجتماعاً عاجلاً للوزراء برئاسته في البلاط الملكي ، ولما اجتمع شمل الوزراء عنده ذكر لهم عدم وجود تضامنٍ بينهم ، فنفوا له ذلك ، ثم غادروا البلاط إلى ديوان رئاسة الوزراء لمتابعة الاجتماع ، وإذا بالوصي يُرسل رئيس الديوان الملكي عبد القادر الكيلاني إلى رئيس الحكومة رشيد عـالي الكيلاني يطلب منه تقديم الاستقالـة . فطلب رئيس الـوزراء ، ووزير الـدفاع طـه الهاشمي ، ووزير المالية ناجي السويدي مُقابلة الوصي، وبيّنوا له أنه ليس من حقّ الملك إقالة الوزارة ، وأن طلبه بتقديم الاستقالة مطلب غير دستوريٍ .

وطلب وزير الدفاع طه الهـاشمي مُقابلة الـوصي ، وتباحث معـه في موضوع الـوزارة بالاستقـالة ، وتكليف نـاجي السويـدي ، بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ أو بقاء الوزارة ، واستقالة بعض أعضـائها ، وتعيـين وزراء آخرين مكان الذين يستقيلون فيمكن استقالة ناجي شوكت وناجي السويدي ونوري السعيد وتعيين توفيق السويدي وزيراً للخارجية .

والتقى مجلس الوزراء وقرّروا استقالة الحكومة ولكن رئيسها لم يُوافق على ذلك ، والتقى مع الوصي وتباحث معه ، وأصـدر الوصي أمـراً بتعيين بعض الوزراء وترميم الوزارة ـ كما سبق أن ذكـرنا ـ تحت ضغط ضباط الجيش

صلاح الدين الصباغ ، وكامل شبيب ، ومحمود سلمان ، وفهمي سعيد في سبيل إبقاء الوزارة القائمة بالحكم . وقد نصح رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر الوصي بترك الوزارة بالحكم ريثما تهدأ الأوضاع ، والاستقالة أمر لا مهرب منه .

ولكن في الأول من محرم استقال ناجي السويدي وزير المالية احتجاجاً على تعيين يونس السبعاوي وزيراً للاقتصاد ، فصدر أمر ملكي بتعيين محمد علي محمود وزيراً للمالية ، وموسى الشابندر وزيراً للخارجية .

وفي ٢ محرم اجتمع المجلس النيابي ، وطالب علي جودت الأيوبي باستقالة الوزارة بعد هذه الاستقالات الجماعية التي تحدث سرّاً ، فطلب رئيس الحكومة من الوصي إصدار أمرٍ بحلّ المجلس النيابي ، فطلب الوصي الإمهال ، وغادر سرّاً بغداد إلى الديوانية حيث توجد هناك الفرقة الرابعة من الجيش تحت قيادة اللواء إبراهيم الراوي في محاولةٍ للوقوف في وجه الضباط في بغداد .

قدّم رشيد عالي الكيلاني استقالته برقياً إلى الوصي في الديوانية بعد أن نصحه بذلك محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان ، وطه الهاشمي ، كما وافق على ذلك الضباط . وقبل الوصي الاستقالة ولكن لم يجرؤ على العودة إلى بغداد مُباشرةً ، إذ قامت مظاهرات تُطالب بحلّ المجلس ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ تأييداً لرأي رشيد عالي الكيلاني ، وبعد مرور خمسة أيامٍ هدأت الأوضاع ، وعاد الوصي إلى بغداد .

وزارة طه الهاشمي : استدعى الوصي إلى مقرّ إقامته في الديوانية محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان على أن يصطحب معه وزير الدفاع طه الهاشمي ، وبعض السياسيين الآخرين ، كما سافر إلى الديوانية بدعوى من الوصي أيضاً كل من جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، وناجي السويدي ، وصادق البصام .

وقبل سفر محمد الصدر اجتمع الضباط الأربعة ، وطلبوا منه أن ينصح

الوصي بتكليف طه الهاشمي بالوزارة الجديدة . ولما اجتمع السياسيون بالوصي ، دار الحديث عن الحكومة ورئاستها والضباط الأربعة ، ومصلحة البلاد ، والحليفة انكلترا . . . . ولما التقى رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر مُنفرداً بالوصي نقل إليه رأي الضباط في بغداد ، واقترح عليه اختيار حلٍّ من اثنين ولا ثالث لهما ، إما المُوافقة على حكومةٍ برئاسة طه الهاشمي ، وتكليفه منذ الآن ، وإما البقاء في الديوانية ، واختيار من يشاء رئيساً للوزارة الجديدة ، وتحدّي ضباط بغداد، ومُعارضتهم ولو أدّى ذلك إلى قيام حربٍ أهليةٍ . واقتنع الوصي بأن إبراهيم الراوي قائد الفرقة الرابعة لا يمكن الاعتماد عليه ، لذا لا بدّ من الموافقة على حكومةٍ برئاسة طه الهاشمي . وكان محمد الصدر قد اعتذر عن قبول رئاسة الحكومة .

عهد الوصي إلى طه الهاشمي برئاسة الحكومة الجديدة فألّفها[1] في الرابع من شهر محرم ١٣٦٠هـ (الأول من شباط ١٩٤١م) . ولقد اختار الوصي الحلّ الوسط فطه الهاشمي أقرب ما يكون إلى رشيد عالي الكيلاني ، وإلى الضباط ، ولم يُفكّر بالانتقال بالحكم من المعارضة القوية إلى أعوان التحالف مع انكلترا ، والسير في فلك سياستها ، فالهوة واسعة بين الطرفين .

ارتاح الشعب كما ارتاح الجيش لحكومة طه الهاشمي ، وعدّوا الوصي مُعتدلاً في سياسته ، ولكن انكلترا كانت ترى في طه الهاشمي ، رجلاً لا يُوثق به . وتعمل على إبقاء نوري السعيد في الظلّ الآن كي لا يحترق في لهب الشمس ، إذ فقد نفوذه السياسي ، وأضاع صلته بالضباط ، وترى من

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ طه الهاشمي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع والخارجية بالوكالة .
٢ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للعدلية بالوكالة .
٣ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للأشغال بالوكالة .
٤ ـ عبد المهدي : وزيراً للاقتصاد .
٥ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

وبعد ثلاثة أيام أُسندت وزارة الخارجية إلى توفيق السويدي .

الضرورة قيام وزارةٍ برئاسة جميل المدفعي ، ويدعمه علي جودت الأيوبي وإبراهيم كمال .

ويبدو أن الوصي أراد أن يُرضي ضباط بغداد بحكومة طه الهاشمي حتى إذا ما استقرّ عمل على نقلهم وتفرقة صفّهم بإبعاد بعضهم عن بعض . وسرت شائعة في بغداد أن الوصي سيبقى في الديوانية حتى يُنفّذ أمر نقل هؤلاء الضباط . كما وصلت أخبار إلى الوصي أن هؤلاء الضباط يُعدّون مُؤامرةً ضدّه ، وقد قبل هذه الأخبار ، بل توهّم ذلك ، فسار إليه رئيس الحكومة وأزال من نفسه ما علق في ذهنه ، فجاء في اليوم الثالث من تشكيل الوزارة إلى بغداد . وعندما وصل إليها همّ الضباط بالمثول أمامه وإظهار الطاعة له ، وأنه لا همّ لهم سوى خدمة البلاد ، ولكن السفير الإنكليزي نصحه برفض مُقابلتهم وبذا بقيت الأمور بينهما على شيءٍ من التوتّر .

وصدر أمر من وزارة الدفاع بنقل العقيد كامل شبيب من بغداد إلى الديوانية ، فاقتنع بقية الضباط من زملائه أن دورهم قادم ، وأن الإشاعة عن تشتيتهم قد صدقت على الرغم من صدوره عن وزارة الدفاع ، وليس عن البلاط الملكي ، وحاولوا الاستعداد لكل طارىءٍ ، وطلب بعضهم من رئيس الحكومة طه الهاشمي أن يستقيل من الحكم ، ليفسح المجال أمام عودة رشيد عالي الكيلاني إلى السلطة لأنه الوحيد حسب رأيهم الذي يستطيع أن يقف أمام السياسة البريطانية ، وهذا ما تعرّضت له حكومة طه الهاشمي من ناحية الجيش ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنها تعرّضت لضغط انكلترا ، حيث زار السفير البريطاني (بازل نيوتن) رئيس الوزراء في مبنى وزارة الخارجية بعد أربعة أيامٍ فقط من استلامه الحكم ، وعرض عليه برقيةً وردت إليه من الحكومة البريطانية تذكر أنه قد آن الأوان لتعود العلاقة العراقية البريطانية لسابق عهدها من الصفاء والودّ ، وخاصةً بعد ترك رشيد عالي الكيلاني الحكم . وتناول السفير إضافةً إلى البرقية الحديث عن قطع العلاقة السياسية مع إيطاليا ، وعدم التفكير في استئناف العلاقة مع ألمانيا فإنه إن تمّت هاتان النقطتان فليس هناك

من عائق لعودة ثقة الحكومة البريطانية بالحكومة العراقية . وأن المعاهدة العراقية ـ البريطانية تقضي بقطع العلاقة مع إيطاليا ، وقد أقدمت العراق على مثل هذا التصرّف مع ألمانيا ، ولذا فليس بغريبٍ ، كما أن مصر قامت بالدور نفسه ، فلماذا الخوف ؟ ، وإن انكلترا لتعدّ عدم قطع العلاقة مع إيطاليا مسألةً خطيرةً . غير أن رئيس الوزراء طه الهاشمي قد أجاب بأن المعاهدة العراقية ـ البريطانية لا تقضي بأن تقطع العراق علاقتها مع كل دولةٍ بينها وبين انكلترا حرب ، وهناك فرق بين مصر والعراق ، فإيطاليا في ليبيا التي تُجاور مصر ، وربما تعرّضت مصر لهجومٍ من قبل الطليان ، وتمّ هذا فعلاً ، إذن فالظروف مُختلفة بين العراق ومصر ، وإضافةً إلى ذلك فإنا لسنا مُلزمين بتقليد مصر ، والسير على منوالها ، بل لماذا لا تكون مصر هي التي تسير كالعراق في رسم سياستها ؟ ، ومع هذا فإن العراق ستضع المفوضية الإيطالية تحت المراقبة الشديدة . وأما استئناف العلاقة مع ألمانيا فإن العراق لا تُفكّر بهذا . وأما عن اليابان فإن العلاقة تجارية ، وقد صدرنا إليها التمر والقطن ، وإن انكلترا هي التي فرضت علينا ذلك إذ تركت محصول التمر في البصرة مُكدّساً دون أن تقوم بشرائه كالعادة . وأخيراً كرّر السفير أن قضية العلاقات مع إيطاليا مُهمّة جداً في نظر بريطانيا ، وقد لا يصفو الجو تماماً بين العراق وبريطانيا إذا لم تقطع بغداد علاقتها السياسية مع إيطاليا .

وفي ٨ صفر ١٣٦٠هـ (٦ آذار ١٩٤١م) قدم إلى القاهرة وزير الخارجية البريطانية (أنطوني إيدن) ويُرافقه (جون ديل) رئيس أركان الجيوش البريطانية قادمين من أثينا ، وكان في نيته زيارة بغداد بعد القاهرة ، ولكنه نُصح ألّا يفعل لتوتّر الأوضاع في بغداد ، وكثرة الدعاية لدول المحور ، فاستدعى رئيس وزراء العراق لزيارته فاعتذر طه الهاشمي لكثرة الأمور المتعلّقة به ، وقرّرت الحكومة سفر وزير الخارجية توفيق السويدي ، امتثل الوزير وأخذ معه مُستشار السفارة الإنكليزية (هولمان) ، واتّجه إلى القاهرة ، والتقى مع وزير الخارجية البريطانية (أنطوني إيدن) الذي سأله عن أسباب تفاقم

الخلاف في وجهات النظر بين العراق وبريطانيا ، فأجاب توفيق السويدي : دعاية دول المحور ، وسيطرة العسكريين على الأوضاع السياسية ، وتدارس معه في الحلول العملية لعلاج ذلك ،فاقترح وزير الخارجية العراقية،أن تعمل انكلترا على تسليح الجيش العراقي ، وقبول ضباط عراقيين في الكليات العسكرية الإنكليزية ، وإسعاف العراق ببعض القروض ، واتباع سياسة ترضيةٍ تُقنع الشعب في العراق أن انكلترا دولة حليفة . ولكن وزير الخارجية البريطانية ردّ على ذلك بأن روح السيطرة قد غدت مُسيطرةً على كثيرٍ من ضباط الجيش ، وطلب التسليح الملحّ لا معنى له ما دام العراق غير مُعرّض لخطرٍ أو لهجومٍ مباغتٍ من أية جهةٍ على حين أن انكلترا بحاجةٍ إلى هذه الأسلحة لاشتراكها في الحروب ، وعلى جبهاتٍ كثيرةٍ ، وكذلك فإن انكلترا لا تقدم السلاح إلاّ لمن يتعاون معها ، ولم نجد أي تعاونٍ من طرف العراق . وإن انكلترا تقبل الضباط العراقيين في كلياتها ، وتُطبق المعاهدة العراقية ـ البريطانية بشكلٍ دقيقٍ ، وإن المعاملة البريطانية للعراق جيدة ، وإن لم تجد أي تجاوبٍ ، ولم تلمس روح الصداقة المطلوبة ، ومع ذلك فإن انكلترا على استعدادٍ لتقديم المساعدة المادية والمعنوية للعراق فيما إذا وقف في وجه الدعاية لدول المحور .

بعد أن عاد توفيق السويدي من القاهرة ، وحدّث رئيس الوزراء بما جرى ، شعر طه الهاشمي بضغط انكلترا ، كما كان يلمس ضغط الوصي ، فاستدعى رؤساء الفرق العسكرية كلها إضافةً إلى إسماعيل نامق ، وأمين زكي ، وذكر أن على العراق أن يُلبّي طلبات انكلترا ، وهذا ما يُريده (أنطوني إيدن) وزير الخارجية البريطانية . وبعد ذلك تكلم قاسم مقصود ، فقال : إن الحرب لم تُعطنا فكرةً واضحةً عن الاتجاه الذي يجب أن نسير عليه ، فإنّ ألمانيا على ما يبدو هي القوية بعد انهيار فرنسا فكيف نربط مصيرنا بمصير دولةٍ ستنهزم على ما يبدو ؟ ونُناصب ألمانيا العداء ، وهي التي لم يسبق لها أن عادتنا أو وقفت في وجهنا ، على حين أن فرنسا وانكلترا لم تقفا موقفاً قط كان في صالح العرب بل كانتا دائماً في الخندق المعادي لهم ، وخاصةً انكلترا التي

أذاقت العرب الويلات في التاريخ الحديث كله وعلى مدى عدّة قرونٍ .

كان الضباط الأربعة قد اتخذوا الاستعدادات اللازمة لكل طارىءٍ ولإحباط كل عمليةٍ يمكن أن يقوم بها الوصي أو انكلترا معه . وقد شكّلوا أيضاً لجنةً سريةً عُرفت باسم (اللجنة العربية) ، وضمّت سبعة عناصر وهم : مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني رئيساً ، وثلاثةً من العسكريين ، ومثلهم من المدنيين[1]، وقد أقسم أعضاء اللجنة العربية على كتاب الله على أن يعملوا قصارى جهدهم لإنقاذ البلدان العربية من الاستعمار ، والعمل على استقلالها ، واتخذوا عدة قراراتٍ في مُواجهة الإنكليز ، منها : عدم إعطاء تنازلاتٍ جديدةٍ لانكلترا ، وعدم قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا ، وحلّ المجلس النيابي ، وانتخاب مجلسٍ يُمثّل الأُمّة تمثيلاً صحيحاً ، وإبعاد أعوان انكلترا عن العراق ، وتعيينهم في السفارات خارج العراق ، وأخيراً العمل على إسقاط حكومة طه الهاشمي ، إن لم يُوافق على هذه القرارات . وأخذ أعضاء اللجنة العربية يُوالون اجتماعاتهم ، وأحسّ بهذ النشاط رئيس الحكومة ، وأبقى ذلك في نفسه ريثما يتمكّن من وضع حدٍّ للعسكريين ، وتوتّرت الحالة بين الوصي والعسكريين ، وكان هناك من يلقي الرعب في نفس الوصي ويخوفه من الضباط الأربعة ، وفي الوقت نفسه يُحذّر الضباط من الوصي .

وفي ٢٨ صفر ١٣٦٠هـ (٢٦ آذار ١٩٤١م) صدر أمر من وزير الدفاع - كما ذكرنا - بنقل العقيد كامل شبيب إلى قيادة الفرقة الرابعة بالديوانية ، فأحسّ الضباط بالخطر ، وشعروا أن الوصي قد بدأ يُنفّذ ما يدور في خلده بإبعاد الضباط عن بغداد ، وتفرقة صفوفهم ، وحاول رئيس الحكومة على إبقاء الصلة مع الضباط الأربعة بالتساهل بتنفيذ أمر النقل ، لكن الوصي أصرّ على التنفيذ . وبدأت عملية حثّ الضباط للإطاحة بوزارة طه الهاشمي

---

(١) كان المدنيون : رشيد عالي الكيلاني ، وناجي شوكت ، ويونس السبعاوي ، أما العسكريون فهم : صلاح الدين الصباغ ، ومحمود سلمان ، وفهمي سعيد .

الذي كان من وراء نقل كامل شبيب .

وقبل أن تنتهي دورة مجلس النواب في ٤ ربيع الأول١٣٦٠هـ (٣١ آذار ١٩٤١م) أصرّ الوصي أن يُناقش مع الوزارة الوضع في البلاد ، فدافع رئيس الوزراء عن الضباط ، وذكر أنهم قد أقسموا له أن لا تبدر منهم أية بادرةٍ تضرّ بالمصلحة العامة .

عقد اجتماع في معسكر الرشيد يوم ٥ ربيع الأول ١٣٦٠هـ حضره كل من : رشيد عالي الكيلاني ، واللواء أمين زكي وكيل رئيس أركان حرب الجيش ، والعقيد صلاح لدين الصباغ ، والعقيد محمود سلمان ، والعقيد فهمي سعيد ، وأعلنوا الاستنفار بالمعسكر ، وقرّروا القيام بانقلابٍ إذا رفضت حكومة طه الهاشمي الاستقالة .

أرسل المجتمعون اللواء أمين زكي والعقيد فهمي سعيد إلى منزل العميد طه الهاشمي ، فسارا إليه، والتقيا معه ، ، وأخبراه بحركة الجيش وأنه لم يعُد يثق بالوصي ، الذي يضمر للجيش العداء ، في الوقت الذي يخضع فيه للإنكليز ، وطلبا منه التفاهم مع رشيد عالي الكيلاني لتشكيل وزارةٍ جديدةٍ فأبى ، فطلبا منه الاستقالة ، وهدداه ، فكتب الاستقالة ليرفعها إلى الوصي ، وأعطاهما إياها ، تأكيداً لعزمه. وأخذا الرسالة إلى عبد القادر الكيلاني رئيس الديوان الملكي ليرفعها إلى الوصي فرفض استلامها .

أبلغ رئيس الوزراء طه الهاشمي الوصي هاتفياً بما تمّ ، وأنه قد وقّع الاستقالة تحت التهديد ، فهرب الوصي مُتسلّلاً ، وفي الوقت نفسه اتصل طه الهاشمي هاتفياً بأعضاء وزارته ، ودعاهم للاجتماع في منزله مُباشرةً ، وكان الوقت منتصف الليل فجاءوا إليه .

وكان الجيش قد دخل المدينة ، واحتلّ دوائر البريد والبرق والهاتف ، وسيطر على مداخل الشوارع الرئيسية ، وحاصر قصر الرحاب الذي كان فيه الوصي ، وفرّ منه ، وقصر الزهور .

وفي صباح ٦ ربيع الأول ذهب رشيد عالي الكيلاني ، وأمين زكي ، وصلاح الدين الصباغ إلى دار طه الهاشمي لإقناعه بالإنضمام إلى حركتهم فوجدوا الوزارة لا تزال مجتمعةً ، وجرى نقاش حاد بين رشيد عالي الكيلاني وتوفيق السويدي ، ثم اتّفق المجتمعون على إبقاء الوزارة في الحكم ، وعقد اجتماع يضمّ الحكومة وكبار رجالات البلاد ، وقرروا أن لا يتدخل الجيش في السياسة ، ويتعهّد المدنيون والعسكريون على السواء بأن يقبلوا بما يتمّ الاتفاق عليه ، ويتشكّل وفد يعرض الأمر على الوصي ، ويطلب منه العودة إلى العاصمة .

وذهب توفيق السويدي لمقابلة السفير الإنكليزي ، فحرّضه السفير على التمسّك بالدستور ، وأن انكلترا مستعدة لمساعدة من ينهض من العراقيين للدفاع عن الدستور .

واتفق توفيق السويدي وزير الخارجية مع وزير المالية علي ممتاز الدفتري ، ووزير الاقتصاد عبد المهدي ، ووزير المعارف صادق البصام على السفر إلى البصرة للالتحاق بالوصي بوسيلةٍ تؤمنها السفارة الإنكليزية لهم غير أنهم لم يتمكّنوا من ذلك .

وفي صباح ذلك اليوم ٦ ربيع الأول كان الوصي قد تنكّر بزي امرأةٍ ، وخرج على عربةٍ تجرّها الخيول إلى المفوضية الأمريكية التي تولّت نقله إلى الحبانية ، حيث التقى مع السفير البريطاني الجديد (كينهان كورنواليس) الذي زوّده بالمال ، وأرسل معه مستشار السفارة (هولمان) ، وانتقل الوصي بطائرةٍ بريطانيةٍ إلى البصرة ومعه علي جودت الأيوبي ، وعبيد بن عبد الله المضايفي ، ومستشار السفارة البريطانية ، فوصل الجمع إلى البصرة يوم ٧ ربيع الأول . وكان الوصي ينوي تشكيل حكومةٍ جديدةٍ برئاسة علي جودت الأيوبي ، أو جميل المدفعي ويدعو مجلس الأمة من أعيانٍ ونوابٍ إلى البصرة ، فيُؤيّدونه ويؤيّدون موقف حكومته ، ويُعلن فصل الضباط الأربعة من الجيش، ثم يأمر

الجيش بالطاعة له ، واستلام زمام الأمر له .

وفي مساء ذلك اليوم ٦ ربيع الأول عاد الضباط ورشيد عالي الكيلاني فسحبوا ثقتهم من حكومة طه الهاشمي ، وحاولوا التفاهم معه دون جدوى ، وساءهم ما تمّ من تصرّف الوصي ، وارتمائه إلى السفارة الإنكليزية والمفوضية الأمريكية ، وأخيراً احتمى بالدارعة البريطانية (كوك شبير) .

ولما وصل الخبر إلى بغداد بقرار الوصي بتشكيل حكومةٍ في البصرة ، خشي العسكريون أن تعمّ الفوضى البلاد ، فحكومة طه الهاشمي مستقيلة ، وبعض أعضائها يُفكّرون بالهرب إلى البصرة ، وبعض الذين لا يشعرون بالمسؤولية يتهامسون بالاعتداء على المؤسسات الأجنبية لذا قرّر الجيش أن يتحمّل مسؤولية هذه المرحلة .

الوزارات في عهد الملك فيصل الثاني

المرحلة الأولى

١ ـ وزارة نوري السعيد الرابعة :	١٦ صفر ١٣٥٨ ـ ١٣ محرم ١٣٥٩هـ . (٦ نيسان ١٩٣٩ ـ ٢٢ شباط ١٩٤٠م) .
٢ ـ وزارة نوري السعيد الخامسة :	١٣ محرم ١٣٥٩ ـ ٢١ صفر ١٣٥٩هـ . (٢٢ شباط ١٩٤٠ ـ ٣١ آذار ١٩٤٠م) .
٣ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الثالثة :	٢١ صفر ١٣٥٩ ـ ٣ محرم ١٣٦٠هـ . (٣١ آذار ١٩٤٠ ـ ٣١ كانون الثاني ١٩٤١م) .
٤ ـ وزارة طه الهاشمي :	٤ محرم ١٣٦٠ ـ ٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (الأول من شباط ١٩٤١ ـ ٢ نيسان ١٩٤١م) .

الفصل الرابع

حركة رشيد عالي الكيلاني

٧ ربيع الأول ١٣٦٠ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ
(٢ نيسان ١٩٤١ ـ ١ حزيران ١٩٤١م) .

لقد نجحت السياسة الإنكليزية بقتل الملك غازي ، وتنصيب عبد الإله وصياً على ولي العهد الذي لا يزال صغيراً ، واستمرّ نوري السعيد رئيساً للحكومة غير أن الوضع قد اختلف معه تماماً إذ كان في العهد الماضي يشعر أن قوّةً فوقه تكبح جماحه ، وتمنعه من التصرّف حسب هواه ، بل لا يستطيع فعل شيءٍ دون أخذ أذنٍ ، أو تلقّي أوامر من الملك ، صاحب السلطة والأمر والنهي ، أما الآن فقد أصبح الوصي عامل دعمٍ وتأييدٍ لنوري السعيد بل ومُشجّعاً للسير في فلك السياسة البريطانية ، وتبعاً لما تراه ، ومُنفّذاً لما ترسمه ، وجاء أصحاب المصالح يُهرعون يُريدون تحقيق أهوائهم ، والغبّ مما يستطيعون أخذه ، حتى بدا للناس أن أنصار السياسة البريطانية كثيرون ، وأنهم قد تمكّنوا من السيطرة ، ورسخت أقدامهم في الحكم ، وأن المخلصين قد ضعفوا إذ قلّ النصير ، وانعدم الصديق ، وضاع الوفاء . ونسي الناس أن المنتفعين كغثاء السيل لا يلبثون أن يضمروا ، ويزول أثرهم عند ارتفاع أول كلمة حقٍّ .

وانكمش المخلصون غير أن نفوسهم قد شُحنت حقداً على الإنكليز ، ومُلئت غيظاً من تصرّف أعوان السياسة البريطانية ، ولكن كتموا ذلك داخل أفئدتهم حتى الوقت المناسب ، وقد بدأ ذلك يظهر تدريجياً رغماً عنهم . فما أن أعلنت انكلترا الحرب على ألمانيا حتى أسرعت العراق ، وأعلنت تضامنها مع انكلترا ، وقطعت علاقتها السياسية مع ألمانيا ، بل قبضت على الرعايا الألمان

الذين لا علاقة لهم بالموضوع ، وسلّمتهم إلى انكلترا التي عدّتهم أسرى حربٍ ، فاستغرب الناس هذا التصرّف من الحكومة ، وعدّوها إنكليزيةً أكثر من الإنكليز ولكن صعُب عليهم أن يكون هذا التصرّف غير الشريف باسم العراق ، فاضطروا إلى الكلام ، وأُجبر المخلصون على الخوض فيه ، وزاد الأمر بشاعةً أن رئيس الوزراء ، رئيس مجلس الدفاع الأعلى اقترح ، وكان يصرّ على إرسال جزءٍ من الجيش العراقي ليُقاتل بجانب الجنود الإنكليز ، وانتشر الخبر بين الناس ، فظهر السخط ، لمصلحة من نرسل أبناءنا للقتال في أوربا ؟ ألمصلحة أعدائنا الإنكليز وخصومنا الصليبيين ؟ هل للإسلام فائدة ؟ هل يذهب القتلى من أبنائنا شهداء أم جيفاً ؟ هذه التساؤلات شحنت الشعب في العراق ضدّ الحكومة ، وضدّ الإنكليز معاً ، وكان المخلصون يضطرون للمشاركة في هذه التساؤلات ، وفي نقد الحكومة ومُعارضتها في سياستها غير الحكيمة .

وربما كان لانكلترا الدور الكبير في حمل الشعب في العراق للوقوف في وجه السياسة البريطانية ، وكراهيتها ، وعدّها خصماً له ، لا تربطه بها معاهدة ، ولا تجمعه بها اتفاقية ، فإضافةإلى الحقد الصليبي الذي تحمله منذ عدة عصورٍ من الحروب الصليبية وما قبلها إلى هذا اليوم وما بعده ، وكل المسلمين يذكرون ريتشارد قلب الأسد وما جاء إليه أيام الحروب الصليبية ، وما فعله ، وما أهدافه التي كان يرمي إليها ، وعلى نهجه سار خلفه الإنكليز ، وما تفعل انكلترا الآن في العراق ، إذ ترفض تسليح الجيش العراقي ، وتأبى تقديم أية مساعداتٍ ، وما يفعله أعوانها ، والذين تُسلّطهم على الشعب ، وليست سياستها هذه مقتصرةً على العراق فحسب بل تشمل أمصار العالم الإسلامي جميعها، ولكن الموقف الصارخ لها الآن ما تتبعه في فلسطين من بلاد الشام ، إذ وعدت اليهود بإعطائهم فلسطين ، وجاءت بهم ، ودعمتهم ، ووقفت في وجه المسلمين ، وحاربتهم ، وكل خُطاها تُشير إلى أنها تُريد أن تُسلّم فلسطين لليهود ، حيث تعمل للتمكين لهم حتى إذا اطمأنت على ذلك

خرجت وقدّمت لهم البلاد ، وتتناقل الركبان هذه الأخبار ، وتنقلها إلى العراق ، وتصل إلى أسماع الناس فيشعرون بالحسرة ، ويتضايقون من الإنكليز ، ويشمئزّون من أعوانهم ، ويتمنّون لو يضربون هؤلاء بهؤلاء ، ويُلقون بهم في البحر ، أو يدسّونهم تحت الثرى ، ويدوسون عليهم بأقدامهم ، ولكن أنّى لهم ، وللفريقين القوة والنفوذ !!!

وجاء مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني إلى العراق يحمل أكواماً من الهموم ، وينوء بحملها ، وكلها تتعلّق بالسياسة البريطانية في فلسطين ، وعداوتها الواضحة للمسلمين ، وصداقتها المميّزة لليهود ، وإخلاصها لهم ، والتفّ حوله الناس يستمعون منه ، ويسألونه عن فلسطين ، ومُجريات ما فيها فتتقد شعلة الإيمان في النفوس ، وتحمل المعارضة العراقية الأخبار ، وتتحدّث بها . ويتعجّب الناس من تعلّق الحكومة العراقية بأذيال انكلترا رغم هذا الذي تقوم به في فلسطين ، وغيرها من بلاد المسلمين ، وهذا ما يزيد الشعب نفوراً من حكومته .

ويصل إلى العراق بعض المشرّدين من الشام ، وتظهر عليهم أكداس من الأعباء الثقيلة ، والهموم المضنية من حماقة الفرنسيين وسياستهم ، وأتى الناس إلى الشاميين ، واستمعوا منهم ، وكم كان استغرابهم عندما يستمعون إلى هذا ، ويرون من حكومتهم الرغبة بالقتال إلى جانب هؤلاء الفرنسيين ، ويزداد تألّمهم من حكومتهم ونفورهم منها . وهكذا مُلئت النفوس كرهاً للإنكليز ، وسياستهم ، وأعوانهم .

شعرت انكلترا ما يُساور نفوس الشعب في العراق وما يختلجها ، فأحبّت أن تُخفّف من وطأة هذه الكراهية عليها وعلى أعوانها ، ورأت أن تُسلّم الحكم للمعارضة ، وقد برز بينها رشيد عالي الكيلاني ، وأن تعمل ما في وسعها ليدور في فلكها ، وربما يحدث هذا فيما إذا قرّبه أعوانها ، وأظهرت رضاها عن ذلك ، وإن لم تستطع تنفيذ مُخطّطها بجلبه إلى دائرة سياستها ، أبرزت كيفية استلامه الحكم ، وأنه قد تمّ عن ترشيح اصدقائها . وتبعاً لهذا

فقد رشّحه نوري السعيد ، والوصي معاً لاستلام السلطة ، غير أن رشيد عالي الكيلاني لم يعتمد على هذا الترشيح ، وإنما كان يرتكز على قاعدةٍ قويةٍ فالشعب يدعمه ، والجيش يُؤيّده ، وإضافةً إلى هذا فقد أخذ تعهداً من رجال السياسة سواء الذين يُناوئونه أمثال : نوري السعيد ، وتوفيق السويدي ، وعلي جودت الأيوبي ، وجميل المدفعي ، أم الذين يُؤيّدونه أمثال ناجي شوكت ، وناجي السويدي ، ورُفع هذا التعهّد إلى الوصي ، فأيّده ، وبذا كانت الأرض التي يقف عليها رشيد عالي الكيلاني صلبةً .

وخاب فأل انكلترا من كل النواحي فمن ناحيةٍ ابتهج الشعب ، وضمن سلامة الخط ، فأبدى مُعارضته للسياسة البريطانية ، وأخذ يُصرّح بذلك . ومن ناحيةٍ ثانيةٍ لم تستطع انكلترا من جرّ رشيد عالي الكيلاني إلى سياستها ، بل أبدى قوةً في الشخصية ، وأظهر استقلاليته حيث رفض قطع العلاقة مع إيطاليا التي أعلنت الحرب ضدّ انكلترا وفرنسا ، وهذا ما أغضب انكلترا أشدّ الغضب إذ أحسّت أن العراق ليست تحت نفوذها ، ولا تسير برأيها ، غير أنه من الجانب الآخر قد ألهب هذا التصرّف الشعب في العراق حماسةً لموقف حكومته ، وهذا ما زاده مُعارضةً للسياسة الإنكليزية . وانهارت فرنسا أمام الألمان فطار الشعب فرحاً ليس حبّاً بالألمان ولكن كرهاً لفرنسا ولسياستها الإستعمارية ، وفي الواقع فقد زادت الدعاية لدول المحور في العراق رغبةً في هزيمة الحلفاء ، ولم تُقصرّ المفوضية الإيطالية بذلك وحتى توقّعت انكلترا أن تستأنف العراق علاقتها مع ألمانيا ، وهذا ما خشيته أشدّ الخشية ، واستشاطت انكلترا غضباً وأخذت تعمل للتخلص من حكومة رشيد عالي الكيلاني ، وكان لها ما أرادت ، لأن ما يُسمُّونه بالأعراف (الديمقراطية) تقضي بذلك، إذ أوعزت انكلترا لأعوانها بالانسحاب من الوزارة ، فكان عليها أن تستقيل ، وتفسح المجال لحكومةٍ جديدةٍ .

وأرادت انكلترا أن تخرج من المأزق الذي وقعت فيه بتسليم رشيد عالي الكيلاني الحكم ، ورغبت أن يكون انسحابها بشكلٍ هادىءٍ ، فلا تُعطي

السلطة لأحد أعوانها إذ أن التغيير المفاجىء في السياسة يُؤدّي إلى مُضاعفاتٍ كثيرةٍ ، ويُحدث ارتباكاتٍ في الإدارة ، كما أن الناس لا يتقبلون فربما خرجت مظاهرات ، وإذا ما تفاقم الأمر ربما تندلع ثورة، لذا فالأفضل تسليم الوزارة إلى رجلٍ أكثر اعتدالاً من رشيد عالي الكيلاني، ولكن الثورة في النفوس لا تُهدّئها الحلول الوسط ، وامتصاص النقمة العارمة لا يكون بالمساومة ، وهذا ما تمّ فما أن طلب الوصي من رشيد عالي الكيلاني تقديم استقالة حكومته حتى اهتزّ الوضع فتحرّك الجيش ، وقامت المظاهرات تُطالب بتحقيق رأي الكيلاني بحلّ المجلس النيابي ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ، وهرب الوصي إلى الديوانية تاركاً بغداد ، والنار تكاد تلتهمها ، ولولا التعقّل لانفجر الوضع .

تشكّلت وزارة طه الهاشمي ، وقد رضي الضباط عنها ، بل كانت برأيهم، ما دام استمرار رشيد عالي الكيلاني بالحكم يتعذّر، وطه الهاشمي قريب منه ، والشعب قد رضي للسبب نفسه ، والوصي قبل النصح ، أو أبدى هذا كي لا تنكشف السياسة الإنكليزية ، وإن كان يُخفي في نفسه أموراً ، إذ يُخطّط أن تكون هذه الوزارة لمرحلةٍ ريثما يسير الوضع في صالحه ، ويُشتّت الضباط الذين يتحكّمون بالوزارات ـ حسب رأيه ـ . وما أن قطعت الحكومة شوطاً حتى بدأ الضغط الإنكليزي من جهةٍ ، وضغط الوصي من جهةٍ أُخرى ، ويبدو أن طه الهاشمي لم يكن ذلك الرجل الصلب ليقف الموقف القوي في وجه خصومه ، بل لان تحت الضغط ، ولما شعر الضباط في بغداد بذلك تأهّبوا للمواجهة ، وسحبوا ثقتهم من رئيس الحكومة ، وقرّروا المواجهة ، والقيام بانقلاب إذا رفضت الحكومة الاستقالة .

وعاد الوضع فانفجر من جديدٍ ، وخاب ظنّ بريطانيا بالعودة إلى السيطرة على العراق تدريجياً ، بتشكيل حكوماتٍ أقلّ تطرّفاً يخلُف بعضها بعضاً ، حتى تصل المرحلة إلى قبول حكومةٍ من أعوانها . ووجد الضباط أنه لا بدّ لهم من تحمّل المسؤولية بعد أن خلا منصب الوصاية ، فالوصي هارب ، محتمٍ بالدارعة البريطانية (كوك شبير) في شطّ العرب ، والحكومة مُستقيلة ، والوزراء يرفضون مُمارسة العمل في مناصبهم الحكومية حتى يستبين الأمر ،

والنفوس غير الطيبة تشرئب للفساد في الأرض .

حكومة الدفاع الوطني : استدعى الضباط رشيد عالي الكيلاني إلى معسكر الرشيد ، وبسطوا الأمر له ، وتدارسوا الوضع فيما بينهم ، وتوصّلوا إلى أنه إن قامت مُظاهرات ، وليس هناك من مسؤولٍ انفلت حبل الأمن ، ولا مجال إلا بتدخّل انكلترا التي ستجدها فرصةً مناسبةً لها ما كانت تحلم بها ، لذا يجب أن نستدرك الأمر ، ونتحمّل المسؤولية ، ونُشرف على الوضع ، وليس لهذا إلا رشيد عالي الكيلاني الذي هو موضع ثقةٍ من قبل الشعب ، وما نعتقد أن يتخلّى عن مسؤوليته أمام الأمة ، فإما أن يتحمّل المسؤولية وإما الرضوخ أمام الإنكليز ، والعيش تحت سيطرتهم ، وفي ظلّ سلطانهم ، فأُجبر على الموافقة أدبياً ، غير أنه اشترط عليهم ألا يتدخّلوا في شؤونه ، وأن يتركوه يُسيّر الأمور حسبما يراه وفق المصلحة العامة ، وأن يُساعدوه عندما يطلب منهم ، حيث عليهم أن يكونوا في حالة استنفارٍ ، وتأهّبٍ في كل لحظةٍ لتنفيذ ما يُطلب منهم . فأجابوه إلى ما طلب ، وأبدوا أن هذه هي رغبتهم كي لا يقال أن الجيش يتدخّل في الشؤون السياسية . وتوكّلوا على الله ، وتسلّم رشيد عالي الكيلاني المسؤولية مدعومةً من الجيش المرابط في المعسكر دون أن ينزل إلى الساحة ، فكانت هذه الحكومة تُسمّى بحكومة الدفاع الوطني ، ولا تضمّ سوى شخص رئيسها الذي يقوم بالاتصال بقادة الجيش ، وكبار السياسيين يستشيرهم .

استدعى رشيد عالي الكيلاني المستشار الإنكليزي بوزارة الداخلية ، وأعلمه أن حكومة طه الهاشمي قد استقالت ، ورفض أعضاؤها الاستمرار في مُمارسة أعمالهم حتى يتمّ تشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، والوصي غائب ، وفي هذه الحالة فإن الجيش هو مصدر السلطة ، وقد أوكل إلي الأمر ريثما يتمّ تشكيل حكومةٍ بالوسائل الدستورية ، وأعلن تمسّكه بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية وإخلاصه للتحالف مع انكلترا ، وما دفعه إلى قبول هذه المُهمّة إلّا المصلحة العامة .

أُذيع على الشعب بيان باسم رئاسة أركان الجيش العراقي ، وقّعه اللواء أمين زكي وكيل رئيس الأركان ، ثم أُذيع بيان ثانٍ باسم رئيس الحكومة رشيد عالي الكيلاني[1] ، وتولّى إذاعته بنفسه ، وأعلن فيه خطته بالوقوف على الحياد ، وعدم إقحام البلاد في أخطار الحرب . والمحافظة على التعهّدات الدولية ، وفي مقدمتها المعاهدة العراقية ـ البريطانية . وتقوية العلاقات مع البلدان العربية وخاصةً المجاورة للعراق . وطالب الشعب بالعمل الجاد ، والحذر من الوقوع في مكائد الأعداء .

ووصلت أخبار احتماء الوصي في الدارعة البريطانية (كوك شبير) إلى بغداد ، فعقد مجلس الدفاع اجتماعاً برئاسة رشيد عالي الكيلاني في مبنى وزارة الدفاع ، وقرّر ما يأتي :

١ ـ تقديم مذكرة احتجاج لانكلترا على تشجيعها للوصي ، والأشخاص الذين فرّوا إلى معسكر الإنكليز في الحبّانية ، ووضع وسائل النقل الإنكليزية تحت تصرّفهم ، كما طالبت المذكرة انكلترا بضرورة احترامها لنصوص المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وعدم التدخّل في شؤون العراق ، واحترام القوانين الدولية .

٢ ـ إرسال قوةٍ عسكريةٍ لتعزيز حامية البصرة .

٣ ـ توقيف متصرّف البصرة صالح جبر ، ونقله مخفوراً إلى بغداد .

وكان الشعب قد استقبل إعلان قيام حكومة الدفاع الوطني بكل حفاوةٍ ، وقامت مُظاهرات التأييد في كل مكانٍ تملأ الشوارع .

وحاول الوصي من جهته استقدام وزراء الحكومة السابقة فلم يستطيعوا الوصول إليه ، وعمل على كسب القطعات العسكرية في الجنوب إلى جانبه فلم يُفلح ، وسعى في تحريض القبائل ضدّ حكومة الدفاع الوطني في بغداد فلم ينجح ، ووزّع المنشورات ضدّ حكومة بغداد ، وكانت هناك إذاعة سرية

---

(١) اشترك في إعداد البيانين يونس السبعاوي ، وصديق شنشل .

إنكليزية تُذيع باسم الوصي من مطار (الشعيبة) إضافة إلى الإذاعة التي أعدّتها له الحكومة البريطانية على ظهر الباخرة الإنكليزية (كـوك شبير) ، وعيّنـت للإذاعة رجلاً من قبلها هو (أنور مخلص) . وأخيراً انتقل الـوصي ، ومعه جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي إلى فلسطين .

وزارة رشيد عالي الكيلاني الرابعة : قرّرت حكومة الدفاع الوطني دعوة المجلس النيابي للاجتماع في ١٤ ربيع الأول (١٠ نيسان)[1]، وانتخب علوان الياسري لرئاسة الجلسة ، أما رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر فقد اعتذر لصداقته مع الوصي عبد الإله ، وأما رئيس مجلس النواب مولود مخلص فكان قد سافر إلى كريت ، فتولّى رئاسة مجلس النواب نائبه محمـد حسن حيدر . وعـيّن المجلس الشريف شرف وصياً ، بنـاءً عـلى اقـتراح من رشيـد عـالي الكيلاني ، وهذا صحيح من الناحية القانونية ما دام الوصي السابق قد ترك أرض العراق فارّاً والتجأ إلى دولةٍ أجنبيةٍ ، إذ كان يُقيم في دارعةٍ إنكليزيةٍ .

سرت فكرة تغيير نظام الحكم ، وإعلان الجمهورية ، وقد حمل هـذه الفكرة ناجي شوكت ، على حين رأى آخرون ، ومنهم ناجي السويدي تعيين وصيٍ جديدٍ ما دام الوصي السابق قد ترك واجبات الوصاية وغادر البلاد ، ولا شكّ أن الفكرة الثانية هي التي سادت ـ كما رأينا ـ .

ومن المـلاحظ أن المجلس النيـابي الـذي قـرّر عـزل عبـد الإلـه عن الوصاية ، وتعيين الشريف شرف هو المجلس الذي انتخب أيام حكومة نوري السعيد ، فلا يستطيع أحد أن يدّعي أن رشيد عالي الكيلاني قد انتخب أو اختار مجلساً برأيه يُؤيّده في تنفيذ سياسته .

وأصدر الوصي الجديد أمراً ملكياً بقبول استقالة حكومة طه الهاشمي على أساس أن الهاشمي كان قد رفع استقالة حكومته إلى الوصي السابق ، غير

(١) لبّى الدعوة ٩٤ نائباً من أصل ١٠٨ نواب .

أنه لم يصدر أمر ملكي بقبولها ، ثم أصدر الوصي الجديد أمراً آخر يعهد فيه إلى رشيد عالي الكيلاني بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] .

وكان رشيد عالي الكيلاني يُؤكّد دائماً أنه حريص على الالتزام بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية وحريص على صداقة انكلترا .

وأما الجيش فلم يكن راغباً بأي تنازلٍ لانكلترا ، ولا إظهار أي ضعف أمامها ، لا إبداء ذلك الحرص على صداقتها الذي يُبديه رئيس الحكومة ، كما كان مُقتنعاً بأن النصر في الحرب سيكون إلى جانب دول المحور ، وربما كانت آراء قادته تنطلق من هذه القناعة ، وكان محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين على هذه الشاكلة حيث كانت صلته بكبار الضباط حسنة .

وأما الشعب فقد سرّ بحركة رشيد عالي الكيلاني أي سرورٍ ، وعدّها نصراً عظيماً ، قهر فيه انكلترا ، ومن هذا المنطلق كانت الرغبة في انتصار دول المحور ، لأنه انتصار على أعداء المسلمين الأُوَل ، حتى أصبح الشعب نفسه يُصدر الدعاية لمصلحة دول المحور وبالأحرى لألمانيا بالدرجة الأولى ، حتى أشاع بعضهم عن هتلر أنه مسلم ، وسمّاه أبا علي ما دام يُقاتل أعداء الإسلام ، وأكثر الدعايات لدول المحور كانت من الشعب نفسه تشفياً من الإنكليز والفرنسيين ، ولم يكن لدول المحور دور كبير في تلك الدعاية ، وإن كانت هذه الدول قد استغلّت ذلك ، وأصبحت تدّعي أنها على صلةٍ بما يدور

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ ناجي شوكت : وزيراً للدفاع .
٤ ـ علي محمود الشيخ علي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ محمد علي محمود : وزيراً للأشغال .
٦ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ يونس السبعاوي : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للمعارف .
٩ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .

في العراق ، وساعدها على ذلك لقاء ناجي شوكت في تركيا مع (فون بابن) الذي سبق أن ذكرناه .

وأما انكلترا فقد عدّت الحركة ضدّ مصالحها بالدرجة الأولى ، وأنها قد قامت بصورةٍ غير دستوريةٍ ، ولم تكن رغبة رشيد عالي الكيلاني إلا السيطرة على الحكم ، وقد أعانه الجيش على السيطرة ، فالحركة عسكرية بحتة ، وهي لا تقبل التحكّم عن طريق القوة واغتصاب السلطة ، فالعمل غير مشروع ، ولا تثق لذلك بالحكومة القائمة مُطلقاً، ولا برئيسها، ولا يُمكنها أن تعترف بها، وربما لعب دوراً رئيسياً في اتخاذ هذه السياسة السفير الإنكليزي الجديد في بغداد (كورنواليس) الذي قضى مُستشاراً في وزارة الداخلية مدة خمس عشرة سنة حتى أنهى خدمته رشيد عالي الكيلاني عندما تسلّم وزارة الداخلية في حكومة ياسين الهاشمي الثانية في ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ (١٧ آذار ١٩٣٥م) ، فكان بينه وبين الكيلاني علاقة غير ودّية وحيث كانت تقارير السفير لحكومته كلها هجوم على الوزارة العراقية وعلى رئيسها ، ومُغالاة في واقع الحال ، ومُبالغة في تصوير الأحداث . ودعم السياسة الإنكليزية في العراق مفوضية الولايات المتحدة ، والمفوضية التركية ، والمصرية ، حيث كانت كل من تركيا ومصر تسيران في فلك السياسة الإنكليزية .

قرّرت انكلترا سحق حركة رشيد عالي الكيلاني عسكرياً ، غير أن قواتها في العراق غير كافيةٍ لهذا الغرض ، وقد ألزمها على ذلك أو أخافها على العراق ذات الأهمية بالنسبة لها ، سيطرة الفرنسيين الموالين لألمانيا على سوريا ، أي اقتراب الأعداء من الحدود ، والهجوم الألماني الواسع في شمالي إفريقية والاقتراب من مصر ، دخول ألمانيا البلقان (يوغوسلافيا واليونان) ، واحتلال كريت بالمظليّين ، والحرب الدائرة ضدّ انكلترا وخاصة حرب الغواصات إذن أصبح الخوف على العراق قائماً وخاصةً أن الحكومة صاحبة العلاقة من أنصار الألمان حسب ادّعاء انكلترا ، وتوسّع الدعاية لدول المحور ، وتُوجد في بغداد مفوضية للطليان ، كما تُوجد علاقة تجارية مع اليابان ، وفوق كل هذا فإن

أنصار انكلترا في العراق ، إما خارج البلاد ، أو داخل المعسكرات الإنكليزية أو على الأقلّ ليس لهم شيء من النفوذ .

كانت انكلترا تُفكّر منذ أن برزت المعارضة في العراق إنزال قواتٍ لها في البصرة ، وحشدها هناك ، ولكن في الوقت نفسه تحرص ألا تُثير تلك المعارضة ، وتتجنّب الصدام معها خوفاً من تضامن الشعب في العراق مع المعارضة والوقوف في وجه انكلترا ، بل ربما أدّى ذلك إلى المطالبة بسحب القوات من القاعدتين الجويتين في (الحبانية) و (الشعيبة) ، والوقت ليس مُناسباً لإعادة الاحتلال من جديد ، والإلقاء بقواتٍ جديدةٍ هي بأشدّ الحاجة إليها على جبهات القتال ، لذا كانت انكلترا حريصةً على مُداراة الوضع ومُحاولة الحفاظ على القاعدتين الجويتين لها ، واستمرار ضخّ النفط إلى طرابلس وحيفا عبر الأنابيب القادمة إليهما من كركوك ، هذا إضافةً إلى بقاء إمكانية نقل الجنود عبر أرض العراق إلى فلسطين ، ومصر ، وتمّ هذا الانتقال عدّة مراتٍ ، ويهمّ انكلترا حشدّ القوات البريطانية في جنوبي العراق لنقلها إلى تركيا إن دعت الحاجة بعد سيطرة الألمان على البلقان ، وسيطرتهم الجوية على سماء بحر إيجه . وبالمقابل فإن المعارضة في العراق ورشيد عالي الكيلاني يرون تأجيل الصراع مع انكلترا ، ومحاولة التفاهم معها قدر الإمكان . ولكن تغيّرت الظروف في الوقت الراهن ، وأصبحت انكلترا ترى التدخّل المسلّح في العراق ، وإسقاط حكومة رشيد عالي الكيلاني .

طلبت الحكومة البريطانية من حكومة الهند إرسال فرقةٍ من القوات الهندية إلى البصرة نتيجة الظروف الراهنة في العراق ، ولأن الأمريكيين حريصون على بناء قاعدةٍ جويةٍ هناك . فوافقت حكومة الهند وأصحاب الاختصاص على تنفيذ هذا الطلب . وأخبرت الحكومة البريطانية سفارتها في بغداد بهذا القرار وأنها ستبحر من كراتشي من ١٧ ـ ٢٤ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (١٣ ـ ٢٠ نيسان ١٩٤١م) ، ويجب أن يكون هذا الخبر في غاية الكتمان ، وعلى السلاح الجوّي في (الحبانية) و (الشعيبة) توفير الحماية الجوية لوصول

هذه الفرقة ، كما أعلمتها بإرسال تعزيزاتٍ بريطانيةٍ للقاعدة الجوية في (الشعيبة) .

بوادر التفاهم : إن السفير الإنكليزي في بغداد قد غيّر رأيه في إرسال هذه القوات بعد تصريحات رشيد عالي الكيلاني أمام المجلس النيابي بعزمه على احترام المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وأصبح السفير الإنكليزي (كورنواليس) يرى أن الفرصة التي كان يجب على انكلترا التدخّل بها قد انتهت بعد تصريحات رئيس الحكومة العراقية ، ويجب أن تختبر نوايا رشيد عالي الكيلاني بشكلٍ جيدٍ ، وإن إرسال القوات الهندية إلى البصرة لا يمكن إخفاؤه ، ويستفيد من ذلك الكيلاني إذ يُؤلّب الرأي العام ضدّنا . بل إن تأخير الاعتراف بحكومته من قبل انكلترا سيكون ورقةً رابحةً بيد دول المحور ، مع العلم أننا لا نستطيع الآن أن نخدم الوصي وبقية أصدقائنا في العراق حيث أن الوصي قد فقد ثقة الشعب به . وفرصة الأصدقاء قد ضاعت ، لذا فإن توصيات السفير كانت تأخير إرسال هذه القوات . أما إذا بدا الكيلاني كاذباً في نواياه فإنه في ذلك الوقت تكون لنا المبررات للتدخّل المسلّح ، هذا مع العلم أن السفير الإنكليزي (كورنواليس) كان قبل عدّة أيامٍ من أكبر أعداء رشيد عالي الكيلاني، ومن أكبر أنصار التدخّل المسلّح . ومالت الحكومة البريطانية إلى الأخذ بنصائح سفيرها وتأجيل إرسال القوات غير أن نائب الملك في الهند (لنلتغاو) ، وقائد القوات البريطانية في الهند (أوكنلك) قد أصرّا على ضرورة اتخاذ موقفٍ حاسمٍ في العراق لتقوية مركز انكلترا في الشرق الأوسط ، وإلا فإن هذا المركز سيهتزّ، وأخيراً قرّرت الحكومة البريطانية الأخذ بآراء نائب الملك في الهند وقائد قواتها هناك ، ورمي نصائح سفيرها في بغداد ، والإقدام على ما عزمت عليه .

صرّحت الحكومة البريطانية في لندن بأنها لن تعترف بالنظام الحالي في العراق لأنه غير دستوريٍ ، وأبلغت سفيرها في بغداد أن القوات في طريقها إلى البصرة ، وإن رفض رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني نزول هذه

القوات في البصرة فيجب إخباره بأن حكومة صاحب الجلالة مُصمّمة على نزول هذه القوات .

قابل السفير البريطاني (كورنواليس) رشيد عالي الكيلاني يوم ٢٠ ربيع الأول، وكانت مُقابلةً وديةً أبدى فيها الكيلاني احترامه للمعاهدة العراقية - البريطانية ، واستعداده لتنفيذ كل ما جاء فيها ، وسُرّ السفير لهذا . ثم عاد وقابله مرةً أخرى في ٢٢ ربيع الأول، وأخبره بخبر وصول القوات الإنكليزية من الهند إلى البصرة لمرورها ضمن أرض العراق ، فتلقّى الكيلاني النبأ بسرورٍ ، وعلّق عليه أن هذا من حقّ انكلترا حسب المعاهدة التي بيننا ، وكان السفير ينقل إلى حكومته كل ما يدور بينه وبين رشيد عالي الكيلاني وقد طلب من حكومته ألا تصل القوات دفعةً واحدةً وإنما سفينة إثر أخرى .

أخبر رئيس الحكومة العراقية وزراءه ، وضباط الجيش عن خبر نزول قواتٍ انكليزيةٍ في البصرة ، وأنها ستتخذ أرض العراق طريقاً لها حسب الاتفاقية . كما أبلغ رئيس أركان الجيش العراقي قائد القوات الإنكليزية في العراق بأن حامية البصرة قد أُعطيت التعليمات اللازمة لعدم مقاومة نزول القوات البريطانية ، وأخذت القوات الإنكليزية المحمولة جواً تصل إلى البصرة بدءاً من يوم ٢١ ربيع الأول وفي اليوم التالي أخذت القوات المحمولة بحراً تصل أيضاً .

أخبرت الحكومة البريطانية سفيرها في واشنطون لينقل لحكومة الولايات المتحدة عما جرى ، وأن انكلترا على استعدادٍ للاعتراف بحكومة رشيد عالي الكيلاني . وأوضح (كورنواليس) للحكومة العراقية شروط حكومته للاعتراف بالحكم القائم في العراق بأن تسمح حكومة العراق ببناء عدة مطاراتٍ عسكريةٍ إنكليزيةٍ على الخطّ الواصل بين البصرة والموصل ، وأن تُقيم إلى جوانب هذه المطارات مُستودعاتٍ للأسلحة والذخائر . وأن تطرد الشاميين الموجودين في العراق ، وعلى رأسهم مفتي فلسطين ، وجميل مردم ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، ومصطفى الوكيل لأنهم سبب بلبلة الرأي العام ، منع

الدعايات ضدّ الحلفاء في مختلف وسائل الإعلام ، ومقابل ذلك فإن انكلترا أيضاً ستنقل الوصي السابق عبد الإله ونوري السعيد إلى لندن ، وتُحدّد إقامتهما ، وتعمل على تسليح الجيش العراقي ، وتُقدّم مساعداتٍ اقتصاديةٍ للعراق هذا إلى جانب الاعتراف المباشر بحكومة رشيد عالي الكيلاني ، ولكن رئيس الحكومة العراقية قد رفض هذه المطالب جملةً وتفصيلاً ، وبإصرار كاملٍ ، وتعالٍ واضحٍ .

عودة الخلاف : أرادت انكلترا استغلال فرصة مُوافقة حكومة رشيد عالي الكيلاني على مرور قواتٍ إنكليزيةٍ في أرض العراق ، فهي أول وجود مُبرّرٍ للاعتراف بحكومته ، إن رضخ ، والإثارة عليه بين أفراد الشعب وضباط الجيش في العراق ، ومُحاولة إيقاع خلافٍ ، وإيجاد مبررٍ إن لم يرضخ ، ورفض هذه التصريحات، للتدخّل المسلّح بالعراق . وإن كانت الفكرة لديها أنه بعد تلك الموافقة لا بدّ من أن يسكت حتى لا تسجّل عليه أخطاء ، ويبدأ نقده ، وتظهر المعارضة ضدّ تصرّفاته .

أعلنت الحكومة البريطانية في لندن أن قوات كبيرةً من قوات الإمبراطورية وصلت إلى البصرة للمرور عبر العراق ، وأن حكومة الكيلاني قد قدّمت كافة التسهيلات لها . ولكن رشيد عالي الكيلاني قد شعر على ما يبدو بنوايا الإنكليز ، فقدّمت وزارة الخارجية العراقية مُذكرةً إلى السفارة البريطانية في بغداد لترفعها إلى حكومتها ، وتتضمّن المذكرة شروط مرور القوات الإنكليزية عبر أرض العراق ، وذكرت أربعة شروط وهي :

١ ـ إتخاذ جميع التدابير لنقل هذه القوات بأسرع ما يمكن من البصرة إلى الرطبة .
٢ ـ إبلاغ الحكومة العراقية عند مجيء قواتٍ جديدةٍ بالخبر قبل مدةٍ مُناسبةٍ .
٣ ـ يجب ألا تزيد مجموع أيّة قوّةٍ تريد الانتقال في حالة حركتها في أيّة مرةٍ على لواءٍ واحدٍ .
٤ ـ لا يصحّ إنزال قوةٍ جديدةٍ قبل أن تجتاز القوة السابقة لها حدود العراق .

بقيت القوات الإنكليزية في البصرة ، ولم تنتقل لذا فإن الحكومة العراقية قد أخذت تُطالب الحكومة الإنكليزية بترحيل هذه القوات ، كما كانت تُطالبها أيضاً بالإعتراف بالوضع القائم .

ووصلت ثلاث سفنٍ جديدةٍ محمّلةٍ بالجند ، فأبلغ رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني السفير الإنكليزي (كورنواليس) الذي كان قد جاء لمُقابلته أن مجلس الوزراء العراقي قد درس مسألة وصول السفن الثلاث الحاملة للجنود ، وقرّر التمسّك بقراره السابق ، وهو عدم السماح بإنزال قواتٍ جديدةٍ قبل أن تبدأ القوات التي وصلت من قبل في اجتياز الحدود العراقية ، وأن بقاء القوات البريطانية في البصرة يعدّ انتهاكاً لنصوص المعاهدة ، وأصرّ على عدم الدخول في مُناقشات مع الحكومة البريطانية بشأن المعاهدة أو أية مسائل أخرى إلّا إذا قدّم أوراق اعتماده بصفةٍ رسميةٍ . ولما لم يستطع السفير زحزحة رئيس الحكومة عن موقفه أجاب بوقاحةٍ ستنزل القوات إن شئت أو أبيت ، وإن مُقاومة النزول ستُؤدّي إلى نتائج خطيرةٍ .

وفي ٣ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٢٩ نيسان ١٩٤١م) رفضت وزارة الخارجية العراقية الموافقة على إنزال قواتٍ بريطانيةٍ جديدةٍ بالبصرة ، وأبانت أن بقاء القوات السابقة هناك مخالف لنصوص معاهدة التحالف وروحها .

ونزلت القوات الإنكليزية في البصرة دون موافقة الحكومة العراقية التي لم يكن منها سوى الاحتجاج ، وإصدار أوامر للجيش العراقي بالتحرّك إلى القاعدة الجوية البريطانية بالحبّانية ، وبالفعل فقد تحرّكت قوات معسكر الرشيد ، واتخذت مواقعها على التلال المواجهة للقاعدة الجوية ، ويبدو أن هذا الإجراء كان من تصرّف العقيد فهمي سعيد ، على حين أن الأوامر كانت من رئيس الحكومة الاستعداد لمواجهة الهجوم المرتقب من الجنوب أو من الغرب بوضع بعض القطعات العسكرية في (الرمادي) و (الفلوجة) في حالة الاستعداد . ولكن مفتي فلسطين ، ويونس السبعاوي كانا يتوقّعان وصول الطائرات الألمانية إلى العراق ، وأن بريطانيا لا تستطيع المقاومة لانشغالها في

شمالي إفريقية واليونان ، لذا لا يمكنها أن تتورّط بالحرب مع العراق أبداً .

طلبت السفارة البريطانية في بغداد من رعاياها نقل النساء من بغداد إلى الحبّانية ، ومن الرجال الالتجاء إلى سفارتهم أو إلى المفوضية الأمريكية حسب قرب المكان ، ووصلت عدة طائراتٍ إلى القاعدة الجوّية ، وفي الوقت نفسه بدأ نقل الجنود من البصرة إلى الحبّانية جوّاً .

وفي ٤ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٣٠ نيسان ١٩٤١م) طلبت الحكومة العراقية من قيادة قاعدة الحبانية عدم تحليق الطائرات في الجو ، وإبقاءها في قواعدها ، وأماكن صيانتها ، وأنذرتها بإسقاط كل طائرةٍ تُخالف هذه الأوامر ، غير أن قائد القاعدة رفض هذا الطلب والإنذار ، وأعلن استمرار التدريب ، وبقاءه على حاله ، وزاد على ذلك بأن طلب من الحكومة العراقية فكّ الحصار عن القاعدة ، وضرورة الإنسحاب من المناطق المحيطة بها .

وفي ٥ ربيع الثاني وزّعت السفارة منشوراً تتهم فيه رشيد عالي الكيلاني وقادة الجيش أنهم قد باعوا أنفسهم للألمان والطليان . كما أن الحكومة البريطانية قد خوّلت سفيرها اتخاذ ما يراه مناسباً .

عدّ الإنكليز حصار قاعدة الحبانية بدءاً بالعدوان ، ومن الضروري الإسراع بالهجوم لانتزاع زمام المبادرة من أيدي القوات العراقية . وفي صباح ٦ ربيع الثاني بدأ الهجوم الجوي الإنكليزي بضرب مواقع القوات العراقية التي ردّت على النار بالمثل . وحاولت بريطانيا إثارة الشعب العراقي ضدّ حكامه . وفي اليوم الثاني من القتال (٧ ربيع الثاني) قصفت الطائرات البريطانية معسكر الرشيد ، والطرق الرئيسية ، والمدفعية العراقية التي كانت تقوم بقصف القاعدة ، واستمرّ القصف لمدة يومين آخرين ، وفي ١٠ ربيع الثاني طالب انطوني إيدن بسحب الجنود العراقيين من جوار قاعدة الحبانية ، ووقف الأعمال العدوانية ضدّ القوات البريطانية ، وأعلن أن انكلترا مُصمّمة مهما كانت الظروف على الاحتفاظ بما منحتها إياه المعاهدة العراقية ـ البريطانية .

أخلت القوات العراقية يوم ١٠ ربيع الثاني بعض مواقعها من التلال المشرفة على القاعدة الجوية البريطانية ، وقد خلّفت وراءها أثناء إخلائها تلك المواقع الكثير من الأسلحة والذخائر ، وقصفت الطائرات الإنكليزية مواقع القوات العراقية في الديوانية ، والقوات المتقدّمة نحو القاعدة من الفلوجة ، وأرغمتها على التراجع ، وحاولت الطائرات العراقية القيام بهجومٍ على قاعدة الحبانية ففشلت . وفي ١١ ربيع الثاني (٧ أيار) قامت القوات العسكرية البريطانية في القاعدة بالهجوم على القوات العراقية المحيطة بالقاعدة فألزمتها على الانسحاب ، وانتهى بذلك الحصار ، وفي الوقت نفسه هاجمت الطائرات الإنكليزية ، المطارات العراقية ، وتمكّنت من تدمير الطيران العراقي .

منذ أن بدأ الهجوم الإنكليزي بالطيران وقصف مواقع القوات العراقية في ٦ ربيع الثاني (٢ أيار) عدّ رشيد عالي الكيلاني المعاهدة العراقية - البريطانية مُلغاةً ، وفي اليوم الثاني لبدء القتال أبرق رئيس الحكومة العراقية إلى برلين لاستئناف العلاقات السياسية ، ودعوة السفير الألماني السابق الذي كانت حكومة نوري السعيد قد طردته .

وفي ١٣ ربيع الثاني أعلن مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني الجهاد ، ودعا المسلمين لدعم شعب العراق ضدّ ما يتعرّض له من عُدوان ، غير أن الشعوب الإسلامية مغلوب على أمرها ، ولا تستطيع الحركة ، ومع ذلك فقد وصل إلى الرطبة بعض المجاهدين من بلاد الشام ، وكانوا بقيادة فوزي القاوقجي ، كما تطوّع الناس ، ورجال القبائل في العراق للعمل ضدّ الإنكليز .

بدأت القوات الإنكليزية بقصف الرطبة من الجوّ ، وبالمدفعية منذ ١٣ ربيع الثاني ، وبعد يومين تمكّنت من احتلالها ، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب منها .

أخذت القوات البريطانية تتعرّض لهجوم سلاح الجو الألماني بدءاً من ١٦

ربيع الثاني ، وكانت الطائرات الألمانية تنطلق من بلاد الشام الشمالية التي تخضع للاستعمار الفرنسي وحكومته الموالية للألمان ، كما أن هذه الطائرات كانت تهبط بالموصل ، وتنطلق منها .

وفي ١٧ ربيع الثاني تقدّمت القوات البريطانية من جنوبي العراق مُتجهةً نحو قاعدة الحبّانية متحاشيةً منطقة الرمادي . وأخذ التقدّم نحو الفلوجة ، فدمّر العراقيون السدود النهرية لإغراق المناطق بالماء ليحول ذلك دون تقدّم الإنكليز .

وفي ٢٠ ربيع الثاني حاول عبد العزيز علي المصري ، وعبد المنعم عبد الرؤوف ، وحسين ذو الفقار صبري الهرب بطائرتين من مصر والالتحاق بالعراق ، غير أن الطائرتين قد سقطتا قرب الحدود الليبية .

تقدّم الجيش الأردني بقيادة (غلوب) نحو الشرق باتجاه العراق حسب أوامر الحكومة البريطانية ، رغم أن قوة الحدود الأردنية قد رفضت التحرّك ، وتمرّد جنودها عند محطة ضخّ النفط (هـ ٣) على خط أنابيب كركوك - حيفا ، ورفضوا الاشتراك بالحملة ، وهدّدوا بإطلاق النار على ضباطهم من الإنكليز إن لم يسمحوا لهم بالعودة . وقد وصل (غلوب) بقواته إلى الحبّانية في ٢٢ ربيع الثاني .

وفي ٢٣ ربيع الثاني سقطت (الفلوجة) بيد الآشوريين الذين يعملون مع القوات الإنكليزية ، وقاموا بنهبها ، وارتكبوا جرائم كثيرةً انتقاماً من العراقيين حسب زعمهم . وبعد سقوط (الفلوجة) أصبح الطريق مفتوحاً إلى بغداد أمام الإنكليز ، وبدأ الزعماء يفرّون من البلاد .

رفض تشرشل رئيس وزراء بريطانيا المفاوضة مع رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني وعدّ طلب المفاوضة ليس إلا كسباً للوقت كي تصل الطائرات الألمانية إلى العراق .

وقصفت الطائرات الألمانية قاعدة الحبّانية يومين متتالين (٢٥)

و (٢٦) من ربيع الثاني ولكن كان قصفاً ليس جاداً بالنسبة إلى ما عُرف عن الغزو الجوي الألماني .

طلب بعض الضباط من رئيس الحكومة العراقية الدفاع عن العاصمة ، وانسحاب الجيش إلى الموصل ، وكركوك واتخاذ الموصل عاصمةً فيما إذا سقطت بغداد بيد الأعداء ، وكان من هؤلاء الضباط محمود الدرة ، وحسيب الربيعي ، وقد استحسن رشيد عالي الكيلاني هذه الفكرة .

وفي ٢٥ ربيع الثاني انتقل إلى طهران علي ممتاز الدفتري مدير البنك العراقي الذي أنشأه رشيد عالي الكيلاني ، كما سافر في اليوم نفسه وإلى الجهة نفسها كل من وزير الخارجية موسى الشابندر ، ووزير الأشغال والمواصلات محمد علي محمود ، وسافر إلى أنقرة في اليوم نفسه أيضاً وزير الدفاع ناجي شوكت . إذ بدت الهزائم تظهر على العراقيين رغم التجاوب الكبير الذي أبداه الشعب والسياسيون مع الحركة .

وفي ٣ جمادى الأولى شكّل رشيد عالي الكيلاني لجنةً مؤلفةً من أربعة أشخاص برئاسة أمين العاصمة أرشد العمري للمحافظة على الأمن خوفاً من الفوضى ، وحمايةً لحياة الشعب . وقد بدأت هذه اللجنة التي عُرفت باسم « لجنة الأمن الداخلي » بالاتصال بالسياسيين لوقف القتال ، كما كان وكيل رئاسة الأركان العقيد نور الدين محمود يتصل بكبار الضباط لإنهاء الحرب .

وفي ٦ جمادى الأولى رحل إلى طهران رشيد عالي الكيلاني ، ومفتي فلسطين أمين الحسيني، والشريف شرف ، والفريق أمين زكي ، وبقي يونس السبعاوي الذي أعلن نفسه حاكماً عسكرياً ، غير أنه لحق بهم بعد عدة ساعاتٍ .

ذهبت لجنة الأمن الداخلي إلى السفير الإنكليزي (كورنواليس) وطلبت منه وقف إطلاق النار ، فشاور العسكريين الإنكليز في شروط الهدنة وأبرق إلى لندن حيث وافقت عليها هيئة أركان الحرب ، فأعلن السفير للـ

موافقته ، وسلم أمين العاصمة أرشد العمري ، ووكيل رئاسة الأركان العقيد نور الدين محمود نسخةً منها لمناقشتها ودراستها ، مع لجنة الأمن الداخلي وكبار الضباط العراقيين .

وفي ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (٣١ أيار ١٩٤١م) ذهب إلى السفارة الإنكليزية كل من أرشد العمري ، واللواء إسماعيل نامق ، والعميد حميد نصرت ، والعقيد نور الدين محمود لمناقشة شروط الهدنة . وبعد مُناقشاتٍ وجد أرشد العمري أنه لا فائدة من الجدال والحوار ، وأن انكلترا مصممة على هذه الشروط ، ولا إمكانية للمقاومة فوافق ، واضطرّ الضباط على الرضا والتسليم ، ولكن بامتعاضٍ كبيرٍ ، أما الشروط فكانت :

١ ـ تتوقّف جميع الأعمال العدائية بالحال .

٢ ـ يُسمح للجيش العراقي بالاحتفاظ بجميع أسلحته وتجهيزاته وذخائره ، ولكن يتحتم على وحداته جميعها العودة إلى المواقع التي كانت تُرابط فيها وقت السلم .

٣ ـ يُطلق فوراً جميع أسرى الحرب من جنود وطيارين ومدنيين .

٤ ـ يُعتقل جميع الموظفين المعادين من ألمان وإيطاليين على أن تحتفظ العراق بمهماتهم إلى حين صدور تعليماتٍ أخرى .

٥ ـ يُخلي الجيش العراقي مدينة الرمادي وما جاورها ، على أن يتمّ الإخلاء في الساعة الثانية عشرة من ظهر الأول من شهر حزيران .

٦ ـ تُمنح فوراً جميع التسهيلات للسلطات العسكرية البريطانية ليتيسر لها استخدام المواصلات بالسكة الحديدية ، والطرق البرية ، والنهرية .

٧ ـ يُمكن تسليم جميع أسرى الحرب العراقيين الذين أسرتهم القوات البريطانية إلى الضباط الذين ينتخبهم الوصي على العرش بمجرّد تنفيذ الشروط السالفة الذكر .

عودة أعوان السياسة الإنكليزية : كان الوصي السابق عبد الإله قد غادر البصرة عند تشكيل حكومة الدفاع الوطني في بغداد في ٧ربيع الأول

١٣٦٠هـ (٣ نيسان ١٩٤١م) ، واتجه إلى عمان على متن طائرةٍ حربيةً بريطانيةٍ ، ومن عمان كان يتصل هاتفياً بأصدقائه في بغداد ، ويُحرّضهم على رشيد عالي الكيلاني وحكومته ، وعلى الضباط العسكريين الذين يُساندون الحكومة العراقية . وانتقل بعدها إلى القدس ، ووضعت الحكومة البريطانية تحت تصرّفه مائة ألف جنيه ، وقد أصدر بياناً في ٨ ربيع الثاني (٤ أيار) إلى الشعب العراقي ، وتولّت الطائرات البريطانية إلقاءه على السكان ، أي في اليوم الثاني من أيام القتال .

وفي ٢٦ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٢٢ أيار ١٩٤١م) ، عاد الوصي ومن معه إلى العراق على متن طائرةٍ بريطانيةٍ هبطت به في القاعدة الجوية البريطانية في الحبّانية وبعد يومين من وصوله أصدر بياناً إلى الشعب العراقي ، وتولّت الطائرات البريطانية إلقاءه ونشره على السكان . ثم انتقل إلى بغداد في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١ حزيران ١٩٤١م) ، بعد يومين من مُغادرة رشيد عالي الكيلاني لها ، وكذلك وصل إليها جميل المدفعي قادماً من البصرة، حيث كان في مُهمّةٍ هناك للقيادة العسكرية البريطانية ، حيث أوفده الوصي عبد الإله ليُمثّله ، وكذلك دخل مع الوصي إلى بغداد كل من نوري السعيد ، وعلي جودت الأيوبي ، وداود الحيدري ، والمرافقين العسكريين .

ورغم أن العراقيين قد استقبلوا الوصي من عدّة كيلومتراتٍ خارج بغداد فقد عمّت الفوضى العاصمة يومي ٧ و ٨ جمادى الأولى ، وجرت اعتداءات على اليهود الذين أبدوا شماتةً باندحار الحركة ، وهرب رشيد عالي الكيلاني(١)

---

(١) هرب رشيد عالي الكيلاني إلى إيران فلما دخلتها الجيوش البريطانية والروسية فرّ إلى تركيا عبر الحدود دون موافقة الأتراك ، والتقى هناك بعددٍ من الزعماء العرب ، وطالبوه بالعمل السريع من أجل العرب ، وحرّر المجتمعون وثيقةً تتضمن : اعتراف الحكومة الألمانية بأنه رئيس لوزراء العراق لتكون لمحادثاته صفة الرسمية . وأن يحصل على تصريحٍ رسميٍ من الحكومتين الإيطالية والألمانية باحترام استقلال الدول العربية المستقلّة ، وتأييد استقلال البلدان الواقعة تحت سيطرة الاستعمار ، ومنها فلسطين ، ونسف وعد بلفور ، كما عليه العمل =

وأنصاره ، حتى كان المسلمون يعدّون تصرّفات اليهود سبباً من أسباب فشل الحركة .

= على الحصول على تصريح رسمي من دول المحور لاحترام اتحاد البلدان العربية الذي سيعملون على تنفيذه بعد الحرب . وقابل الكيلاني وزير الخارجية الألمانية ، كما قابل هتلر ، وسافر الكيلاني ومفتي فلسطين إلى إيطاليا ، وقابلا وزير الخارجية (تشيانو) وموسوليني والملك .

عند هزيمة ألمانيا ، اتجه رشيد عالي الكيلاني إلى سويسرا ، غير أنها قد رفضت دخوله ، فاتجه إلى بلجيكا ، ثم فرنسا ، ومن مرسيليا هرب إلى بيروت ، ومنها إلى دمشق ، ومن دمشق سار إلى الرياض حيث حصل على حقّ اللجوء السياسي ، ورفض الملك عبد العزيز تسليمه إلى العراق رغم ضغط إنكلترا الشديد ، وحشد العراق لقواتها على الحدود مع السعودية .

انتقل رشيد عالي الكيلاني عام ١٣٧٤هـ إلى مصر ، ومُنح حقّ اللجوء السياسي ، وبقي فيها حتى قُضي على العهد السابق في العراق في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) ، وأُعلن النظام الجمهوري فانتقل إلى العراق فاستُقبل من الشعب استقبالاً رائعاً ، وهذا ما أزعج السفير الإنكليزي الذي طلب من عبد الكريم قاسم قتله بأي ثمن ، وأُشيع أن الكيلاني يُدبّر انقلاباً للإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم ، فأُلقي القبض عليه ، وقُدّم للمحكمة التي قضت بإعدامه شنقاً يوم ٦ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (١٧ كانون الأول ١٩٥٨م) بتهمة العمل على تغيير نظام الحكم لصالح الجمهورية العربية المتحدة ، ولم يُنفّذ فيه حكم الإعدام ، ولكن بقي في السجن ، ويُهدّد كل يوم بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

أُفرج عنه يوم ١ صفر ١٣٨١هـ (١٤ تموز ١٩٦١م) فسافر إلى بيروت ، ومنها إلى القاهرة ، وبعد زوال حكم عبد الكريم قاسم في ١٥ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٣م) رجع إلى بغداد ، ومنها انتقل إلى بيروت ، وهناك تُوفّي في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٢٨ آب ١٩٦٥م) . ونقل جثمانه إلى بغداد حيث وري التراب هناك .

الفصل الخامس

الملك فيصل الثاني ـ ٢ ـ

٧ جمادى الأولى ١٣٦٠ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ
(١ حزيران ١٩٤١ ـ ١٤ تموز ١٩٥٨م)

منذ أن عاد الوصي إلى بغداد في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١ حزيران ١٩٤١م) عهد إلى جميل المدفعي بتشكيل الوزارة[1] ، وقد تمّ إعلانها في ٩ جمادى الأولى ، ووصلت في اليوم نفسه طائرة نقلٍ بريطانية تحمل إلى بغداد فصيلةً من الجنود المزوّدين بالأسلحة لحراسة السفارة الإنكليزية حسب دعواها . وأعلنت الحكومة الجديدة الأحكام العرفية في بغداد وما جاورها ، وأصدرت بيانات بمنع التجوّل ، ومنع حمل السلاح ، وعدّت حكومة الدفاع الوطني ، وحكومة رشيد عالي الكيلاني غير شرعيتين .

وفي ١١ جمادى الأولى أُبلغ وزير الخارجية العراقية علي جودت الأيوبي بتكليفٍ من الحكومة العراقية ، قرارات مجلس الوزراء التالية :

١ ـ تُوافق الحكومة العراقية على أنه زمن الحرب ، وللأغراض الحربية وحدها للحكومة البريطانية الحق في أن تُعسكر قواتها البرية والجوية في الأمكنة التي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزارة .
٢ ـ علي جودت الأيوبي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ جلال بابان : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٥ ـ إبراهيم كمال : وزيراً للمالية والعدلية .
٦ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ نظيف الشاوي : وزيراً للدفاع .
٩ ـ جعفر حمندي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

يتطلّبها الدفاع عن العراق ، بشرط أن تُحاط الحكومة العراقية علماً بذلك .

٢ ـ تُوافق الحكومة العراقية على إنشاء إدارة للرقابة على البريد والبرق ، وأن تحمي مصالح الحكومة البريطانية في هذه المسائل بأن تستخدم في الإدارة المذكورة موظفاً بريطانياً من بين الموظفين الذين يعملون في خدمة الحكومة العراقية .

٣ ـ تسمح الحكومة العراقية للسلطات العسكرية البريطانية بأن تتخذ الوسائل الضرورية بالتعاون مع السلطات العراقية للإشراف على منطقة القاعدة البريطانية بالبصرة ، كما أنها سوف تُصدر الأوامر لسلطات ميناء البصرة لكي تتعاون تماماً فيما يخص جميع الوسائل اللازمة لتسهيل وضمان سلامة وصول القوات البريطانية إلى البصرة .

وفي ١٤ جمادى الأولى قطعت الحكومة العراقية علاقاتها السياسية مع إيطاليا ، وغادر وزير إيطاليا المفوض ، وأعضاء المفوضية العراق عن طريق سوريا فتركيا ، وكذلك أُجبر الملحق العسكري الياباني على مُغادرة البلاد .

استبدلت الحكومة أعضاء السلك السياسي العراقي في عددٍ من عواصم الدول ممن يُشتبه بهم أنهم يُعارضون السياسة الإنكليزية أو يميلون إلى دول المحور . ووضعت في كل محافظةٍ ضابط ارتباطٍ إنكليزيٍ يُمثّل القوات البريطانية ، وأصبحوا يتدخّلون في كل أمرٍ من شؤون المحافظة .

وفي ٢٣ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١٧ حزيران ١٩٤١م) استصدرت مرسوماً بمحاكمة الرجال الذين اشتركوا في حركة رشيد عالي الكيلاني ، وشكّلت مجلساً عرفياً لهذا الغرض ، وعملت كل ما في وسعها لتصفية أعداء بريطانيا تحت اسم معارضة الحكومة والهجوم عليها . وسخّرت إمكانات العراق جميعها لصالح انكلترا وهذا ما هيّأ المجال لدخول القوات الإنكليزية مع قوات فرنسا الحرة إلى سوريا وطرد القوات الموالية للألمان فيها ، كما استطاعت السلطات العسكرية البريطانية من دخول إيران مع القوات الروسية .

وأخذت السفارة البريطانية تُطالب الحكومة العراقية بدفع تعويضات عما لحق رعاياها من أضرار إبان حركة رشيد عالي الكيلاني . وبصورةٍ عامةٍ كانت حكومة جميل المدفعي تُنفّذ كل ما تريده انكلترا ، حتى انتشرت الدعاية للحلفاء على نطاقٍ واسعٍ ، وضدّ دول المحور على المستوى نفسه .

ومع أن نادي (إخوان الحرية) الذي أنشأه الإنكليز بإدارة أمينة سرّ السفارة البريطانية (فريا ستارك) ، قد قام بنشاطٍ كبيرٍ ، وكانت لجنته العليا تضمّ كلاً من : وزير الداخلية ، وزير المعارف ، وزير العدلية ، أمين العاصمة ، رئيس أركان الجيش ، مدير الشرطة العام ، إلا أن الحكومة بقيت متزنةً في بعض تصرّفاتها ، حيث رفض رئيس الحكومة جميل المدفعي اتخاذ أي تصرّفٍ ضدّ الذين تعاطفوا مع حركة رشيد عالي الكيلاني ، كما رفض استلام العناصر العراقية الذين قبضت عليهم السلطات البريطانية في إيران عندما دخلتها جيوشها خوفاً من أن يتصرّف الوصي ضدّهم ويعمل على الانتقام منهم فيهدر دمهم ، وهذا ما أجبر بريطانيا على نقلهم إلى روديسيا كأسرى حرب . وطردت الحكومة المدرسين الشاميين من العراق . ولكنها مع هذا كله كانت تخشى الرأي العام ، لذا حرصت أن تبدو معتدلةً ، فلم تُلق القبض إلّا على الرؤوس البارزين في حركة الكيلاني .

ووقع خلاف بين رئيس الوزارة جميل المدفعي وبين وزير المالية والعدلية إبراهيم كمال ووصل الخلاف إلى درجةٍ لا يمكن معها الوفاق ، وهذا ما أجبر جميل المدفعي على تقديم استقالة حكومته ، وكان إبراهيم كمال يحلم في رئاسة الوزارة لكنه عجز عن ذلك ، فلم تكن له شعبية ، ولم يحصل على تأييدٍ من السياسيين . كما أن نوري السعيد الذي كان يشغل منصب وزير العراق المفوّض في مصر ، قد استدعي من القاهرة ليشارك في الوزارة التي ستخلف حكومة جميل المدفعي ، ولكنه رفض الاشتراك في وزارة يُؤلّفها إبراهيم كمال ، وأظهر رغبةً في رئاسة الحكومة ، ووجد الوصي نفسه مُلزماً بتكليفه بعد أن قبل استقالة حكومة جميل المدفعي ، ولم يجد من يخلفه .

وزارة نوري السعيد السادسة : كان جميل المدفعي قد قدّم استقالة وزارته في ١ رمضان ١٣٦٠هـ (٢١ أيلول ١٩٤١م) ، ولكن لم تُقبل استقالتها حتى ١٧ رمضان ١٣٦٠هـ (٧ تشرين الأول ١٩٤١م) حيث عهد إلى نوري السعيد فشكّلها[1] في ١٩ رمضان .

عمل رئيس الحكومة بصفته وزيراً للدفاع على إبعاد الجيش عن السياسة نهائياً ، ووجد سهولةً في الأمر لأن العناصر النشيطة قد غادرت البلاد ، ولأن الأحكام العرفية هي السائدة ، ولأن البلاد في حالة تغييرٍ ، وحُدّد للجيش دور واحد هو الدفاع عن البلاد ضدّ أي غزوٍ ألماني مرتقبٍ . وقد وعد نوري السعيد السفير البريطاني (كورنواليس) أن يتعاون مع الإنكليز تعاوناً مطلقاً ، حتى عُدّ بالفعل أنه إنكليزي أكثر منهم ، فقد عرض على الحكومة البريطانية إرسال فرقتين من الجيش العراقي لقتال جيوش المحور في شمالي إفريقية إلى جانب القوات البريطانية ، ولكن رُفض هذا الطلب ، ولعلّ هذا الرفض كان لعدم الثقة بالجيش العراقي .

وما أن استلم نوري السعيد السلطة حتى أخذ يُلاحق الذين تعاونوا مع رشيد عالي الكيلاني بل الذين أبدوا تجاوباً معه أو تعاطفاً نحوه، وعدّ الجميع خونة . واعتقل مجموعة إثر مجموعةٍ حتى زاد عدد المعتقلين على ستمائة رجلٍ ، وملأ معتقل (الفاو) بهم، ومعتقل (العمارة)، وما أن يرد اسم شخصٍ في التحقيق حتى يُلقى عليه القبض ، ويُودع في السجن ، وهذا ما أوجد الرعب لدى الناس كلهم ، وخيّم السكوت التام على العراق .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزارة ، وزيراً للدفاع .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٣ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٤ ـ صادق البصام : وزيراً للعدلية .
٥ ـ عبد المهدي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ جمال بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ تحسين زكي : وزيراً للأشغال .

وفي ١٠ ذي القعدة ١٣٦٠هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١م) بدأت محاكمة رؤوس حركة رشيد عالي الكيلاني من أعضاء وزارته ، وكبار ضباط الجيش ، وفي ١٩ ذي الحجة ١٣٦٠هـ (٦ كانون الثاني ١٩٤٢م) صدرت الأحكام غيابياً على الذين كانوا خارج العراق[١] .

وعندما دخلت انكلترا إيران ألقت القبض على بعض زعماء العراق[٢] ، فحملتهم إلى بغداد غير أن الحكومة السابقة برئاسة جميل المدفعي قد رفضت استلامهم خوفاً عليهم من انتقام الوصي عبد الإله ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لذا اضطرت انكلترا لنقلهم إلى روديسيا وعدّتهم أسرى حرب . وهناك أبلغتهم الحكومة البريطانية بالأحكام التي صدرت ضدّهم . فلما سقطت حكومة جميل المدفعي ، وجاءت حكومة نوري السعيد وافقت على استلامهم ، وحاكمتهم مجدداً أمام المجلس العرفي ، وفي ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٢هـ (٤ أيار ١٩٤٢م) صدرت أحكام المجلس[٣] .

ثم أصدر المجلس أحكاماً في ٢٧ شعبان ١٣٦٣هـ (١٦ آب ١٩٤٤م)

---

(١) صدر الحكم بالإعدام غيابياً على : رشيد عالي الكيلاني ، وعلي محمود الشيخ ، ويونس السبعاوي ، والفريق أمين زكي ، والعقيد صلاح الدين الصباغ ، والعقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان . ثم أُبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة على الفريق أمين زكي .
وحكم على ناجي شوكت بالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة .
وعلى صديق شنشل بالسجن لمدة خمس سنواتٍ .
وعلى محمد حسن سلمان بالسجن لمدة سنةٍ واحدةٍ .

(٢) كان منهم علي محمود الشيخ علي ، ويونس السبعاوي ، والفريق أمين زكي ، والعقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان ، ومحمد صديق شنشل .

(٣) صدر الحكم بالإعدام شنقاً على العقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان ، ويونس السبعاوي .
وحكم على علي محمود الشيخ علي بالسجن الشديد لمدة سبع سنوات ، وصدر الحكم بحق الفريق أمين زكي بالسجن الشديد لمدة خمس سنوات . أما محمد صديق شنشل فقد بُرِّئت ساحته .

بحق مجموعةٍ جديدةٍ[1] .

وفي ٢٨ شوال ١٣٦٠هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٤١م) قطعت حكومة نوري السعيد علاقتها مع حكومة فيشي الفرنسية ، ومع الحكومة اليابانية لأنه قد سبق لهما أن اعترفتا بحكومة رشيد عالي الكيلاني .

ومع ظروف الحرب أخذت الأسعار ترتفع ، والمواد الأساسية تقلّ من الأسواق وخاصةً عندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اليابان في ٢٠ ذي القعدة ١٣٦٠هـ (٨ كانون الأول ١٩٤١م) . وزاد الأمر سوءاً أن التجار وخاصةً اليهود الذين يُشكّلون نسبةً كبيرةً من هؤلاء التجار قد امتنعوا من بيع البضائع التي عندهم أملاً في ارتفاع الأسعار بنسبةٍ أكبر مع أنها قد وصلت إلى عشرة أمثالها عما كانت عليه قبل مدةٍ وجيزةٍ .

ومع هذه الضائقة التي تعرّضت لها البلاد فإن قائمة الاعتقال تتلو القائمة لمن أيّدوا حركة رشيد عالي الكيلاني ، وهذا ما يزيد من الضائقة ، كما أن رئس الحكومة يُبدي صراحةً خضوعه للسلطات البريطانية فيزيد ألم المواطنين ، حتى الوزراء الذين كانوا بجانب رئيسهم في بداية الأمر إلا أنهم في النهاية أخذوا يتخلّون عنه ، ويتقدّمون باستقالاتهم ، وتجري التعديلات الوزارية ، ويبدأ الخلاف من جديد ، وأخيراً اضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة حكومته في ٢٣ رمضان ١٣٦١هـ (٤ تشرين الأول ١٩٤٢م)، فعهد

---

(١) أصدر المجلس العرفي الحكم بالإعدام على العقيد كامل شبيب ونُفّذ به مباشرة ، وبالسجن الشديد على محمد علي محمود ، وموسى الشابندر لمدة سنتين . وبالسجن مدة ثلاث سنوات على الشريف شرف ، ولمدة سنتين على عبد الرؤوف البحراني ، ولمدة ثلاثة أشهر على عبد القادر الكيلاني .

أما العقيد صلاح الدين الصباغ فكان قد فرّ إلى إيران ، ثم هرب إلى تركيا حيث عُدّ لاجئاً سياسياً فيها ، وقد رفضت تركيا تسليمه إلى الحكومة العراقية ، ومكث هناك ثلاث سنوات سجّل فيها مذكراته ، وعندما انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وقوي نفوذ إنكلترا ، فزاد ضغطها على تركيا ، فسلّمت صلاح الدين الصباغ إلى السلطات البريطانية في سوريا ، غير أنه استطاع أن يهرب بعد أيام ، ولكن أُلقي القبض عليه ، وأرسل إلى بغداد حيث نُفّذ فيه حكم الإعدام شنقاً بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٣٦٤هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٤٥م) .

إليه الوصي بتشكيل الحكومة من جديد .

شكّل نوري السعيد وزارته السابعة[1] في ٢٧ رمضان ١٣٦١هـ (٨ تشرين الأول ١٩٤٢م).

إعلان الحرب على دول المحور : طلب نوري السعيد من بعض النواب أن يتقدّموا بطلب إلى رئيس المجلس لانضمام العراق إلى مبادىء ميثاق الأطلسي ، ففعلوا . وأُحيل الموضوع إلى الحكومة ، فقدّمت مذكرةً في ٥ محرم ١٣٦٢هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٣م) قررت الحكومة اعتبار العراق في حالة حرب مع دول المحور الثلاث . وصدر مرسوم ملكي بعد خمسة أيام بهذا .

ونشطت السفارة الإنكليزية في بغداد ، وشكّلت جمعيات لإظهار نوايا الحلفاء ، ومحاربة أعدائهم من المواطنين ومن هذه الجمعيات : مكاتب الإرشاد ، وإخوان الحرية ، وأخوات الحرية . وكان هناك ضباط بريطانيون أُطلق عليهم اسم « ضباط ارتباط » لهم مهمات خاصة .

واستمرت اعتقالات المواطنين ، وكانت السفارة البريطانية تتدخّل في كل أمر ، وتُقدّم قوائم بأسماء الذين يجب اعتقالهم ، وتقوم الحكومة بالتنفيذ .

وفي ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ (٢٣ حزيران ١٩٤٣م) جرى تعديل في الوزارة فأصبحت على النحو الآتي :

١ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للمعارف

٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية

٣ ـ تحسين العسكري : وزيراً للأشغال

---

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للخارجية .

٣ ـ تحسين العسكري : وزيراً للداخلية .

٤ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية .

٥ ـ داود الحيدري : وزيراً للعدلية .

٦ ـ عبد المهدي : وزيراً للمواصلات والأشغال.

٧ ـ تحسين علي : وزيراً للمعارف .

٨ ـ عبد المحسن شلاش: وزيراً للاقتصاد .

٩ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

٤ ـ جلال بابان : وزيراً للمالية
٥ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية
٦ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للخارجية
٧ ـ تحسين علي : عُيِّن رئيساً للديوان الملكي .
٨ ـ داود الحيدري : نقل إلى السلك الخارجي .

وفي هذه الآونة بدأ العمل لتأسيس جامعة الدول العربية ، مع أن أكثر هذه الدول كان لا يزال تحت الانتداب أو مرتبطاً بمعاهدات مع الدول الاستعمارية .

أخذ الوزراء بتقديم استقالاتهم نتيجة تصرّف رئيس الوزراء ، فاستقال وزير الخارجية نصرت الفارسي لعدم استشارته في القضايا التي تتعلق بشؤون وزارته ، وقام بها رئيس الوزراء نفسه . واستقال وزير الداخلية صالح جبر لتوسطه لأحد اليهود فأشاع متصرف لواء الحلة عبد الهادي الظاهر القضية ، واستقال وزير المالية جلال بابان للقضايا التموينية ، وسُوّيت الوزارة ببعض التعديلات حيث عين مُتصرّف لواء الديوانية عبد الله القصاب وزيراً للداخلية ، وأسندت وزارة الخارجية إلى تحسين العسكري وزير المواصلات والأشغال . ووزارة المالية بالوكالة إلى عبد الله الحافظ وزير المعارف . وأخيراً اضطر نوري السعيد إلى تقديم استقالة حكومته في ٢١ ذي الحجة ١٣٦٢هـ (١٩ كانون الأول ١٩٤٣م) ، ولكن الوصي عهد إليه أيضاً بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ توفيق السويدي : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ محمود صبحي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٦ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٧ ـ صادق البصام: وزيراً للأشغال والمواصلات.
٨ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للمعارف .
٩ ـ سليمان البراك : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ محمد حسن كبه: وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١١ ـ ماجد مصطفى : وزيراً دون وزارة .
=

حركة مصطفى البارزاني : وهو أخو أحمد البارزاني الذي قام بحركةٍ سابقةٍ قبيل الاستقلال ، واستسلم في شهر محرم ١٣٥١هـ (منتصف حزيران ١٩٣٢م) ، واستغلّ الملا مصطفى البارزاني الظروف وقام بحركةٍ ثم استسلم في ١٢ محرم ١٣٦٣هـ (٧ كانون الثاني ١٩٤٤م) .

إضعاف الجيش : كان الوصي يعتقد أن الجيش العراقي لم يكن موالياً إليه تماماً ، إذ لا تزال فيه بعض العناصر غير المؤيدة ، وكذلك كان نوري السعيد يظنّ ، فيقول إن الجيش لم يُنظّف بعد، ولذا فقد عمل على تسريح أعدادٍ من الضباط بل وصل الأمر إلى الجنود ، وأوقف التجنيد الإلزامي من بعض الجهات ، ويبدو أن انكلترا كانت من وراء هذا كله حتى أخذت بعض المعامل التي كانت قد وجدت للذخيرة بحجة دعم المجهود الحربي ، وربما كانت تخشى من قوة الجيش بعد الانتهاء من الحرب وإلغاء الأحكام العرفية السائدة .

وأخيراً اشتدّت المعارضة على الحكومة ، ويبدو أن الوصي كان من ورائها ، وقدّم رئيس الوزراء استقالة حكومته في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٦٣هـ (١٩ نيسان ١٩٤٤م) ، ولكن لم يهتم الوصي بالكتاب من باب الاستهانة ، واضطر نوري السعيد أن يعيد كتاب استقالته مرة أخرى في الأول من جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ (٢٣ أيار ١٩٤٤م) ، فوجد الكتاب ما وجد سابقه من الإهمال ، ولكن عاد الوصي وأجاب على الكتاب الأول ، وقبل الاستقالة ، وعهد إلى حمدي الباجه جي بتأليف حكومةٍ جديدةٍ[1] فألّفها في اليوم نفسه في

= ولكن لم يلبث أن استقال توفيق السويدي من منصبه كنائب لرئيس الوزراء لأن ذلك كان على غير رغبة الوصي الذي كان في نفسه شيء منه إذ لم يلحق به إلى البصرة عندما فرّ الوصي إليها وذلك لتشكيل حكومة هناك ، وكان توفيق السويدي قد حاول ذلك ولكنه فشل .

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ حمدي الباجه جي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ أرشد العمري : وزيراً للخارجية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية . =

١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ (٣ حزيران ١٩٤٤م) .

ولكن هذه الوزارة لم يطل عمرها في الحكم ، وذلك لأن الحكومة البريطانية كانت تريد إنقاص الجيش العراقي الذي كان يتألّف من أربع فرق ، وتريد إبقاءه فرقتين : فرقة جاهزة والأخرى تحت التدريب ، وقد أرسلت الجنرال (رنتن) لهذه الغاية ، ويترتب على ذلك عدم إمكانية تطبيق قانون الخدمة الإلزامية ، وعدم خضوع العشائر لهذا القانون . وقد قابل الجنرال (رنتن) وزير الدفاع تحسين علي ، وقدّم له مذكرةً بذلك ، فأحال الوزير المذكرة إلى مجلس الدفاع الأعلى لدراستها ، وبعد الدراسة وجد مجلس الدفاع أن من المصلحة عدم إنقاص عدد القوات المسلحة ، وتبنّى الوزير هذا الرأي ، غير أن بعض الوزراء قد اعترضوا على ذلك . وعدّ الجنرال البريطاني ذلك تحدياً له ولدولته ورفع الأمر إلى الجهات العليا . وعُقد لقاء بحضور الوصي ، ووزير الدفاع ، والفريق (إسماعيل نامق) وكيل رئيس الأركان ، والعميد إسماعيل صفوت مدير الحركة ، والمقدم رفيق عارف والجنرال البريطاني (رنتن) وبعد عدة اجتماعات تقرر أن يكون الجيش ثلاث فرق ، فرقتين جاهزتين وفرقة تحت التدريب . وعند التنفيذ أصبح أربعمائة ضابط من مختلف الرتب خارج الملاك ، ويجب إحالتهم على التقاعد ، ولكن الوزير احتفظ بهم ، وتساءل بعض الوزراء عن سبب هذا الاحتفاظ فوقع الخلاف ، وقدّم وزير الدفاع استقالته . ولكن صدر أمر ملكي بتعيينه وزيراً للأشغال والمواصلات ، فرفض ذلك . . . .

وطلب منه تقديم استقالته من وزارة الأشغال والمواصلات فرفض إلا أن تكون من وزارة الدفاع ، أو يستقيل الوزراء الثلاثة[1] الذين ادعوا أنه لا يتفق

= ٥ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٦ ـ تحسين علي : وزيراً للدفاع .
٧ ـ عبد الأمير الأزري : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٨ ـ إبراهيم عاكف : وزيراً للمعارف .
٩ ـ توفيق وهبي : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

(١) الوزراء هم : أرشد العمري ، مصطفى العمري ، صالح جبر .

معهم . وعندها اضطر حمدي الباجه جي إلى تقديم استقالته لإمكانية إبعاد تحسين علي عن الوزارة .

وعهد الوصي إلى حمدي الباجه جي مرةً ثانيةً بتشكيل الحكومة في ٩ رمضان ١٣٦٣هـ (٢٩ آب ١٩٤٤م) فشكّلها في اليوم نفسه[١] ، وهكذا يبدو تدخّل الحكومة البريطانية علناً في شؤون العراق بل في أهم قضايا البلاد والتي يجب أن تكون خاصةً جداً ، ولا تمتد إليها يد غير عراقية ، وهي الجيش ، وقد جاء الجنرال (رنتن) ليفتش قطعات الجيش العراقي كلها . ويمكن أن تعطي هذه الحادثة مدى الهيمنة التي كانت لانكلترا على العراق ، ورجالاتها ، وجيشها .

ولم تكن هناك من قضيةٍ تُشغل السلطة ، فإن كانت أحداث الحرب العالمية الثانية تشغل حيزاً إلا أن ما بقي من وقت فراغ جعل الحكومة تشغل نفسها بها ، وكانت رئاسة المجلس النيابي قد استحوذت وقتاً ليس بالقصير . لقد فاز محمد رضا الشبيبي برئاسة المجلس في الانتخابات التي جرت في ٤ ذي الحجة ١٣٦٢هـ(الأول من كانون الأول ١٩٤٣م) غير أنه اتهم بالانحياز للمعارضة بصفته واحداً منها، فلما كانت انتخابات ١٧ ذي الحجة ١٣٦٣هـ (٢ كانون الأول ١٩٤٤م)، رشّحت الحكومة سليمان البراك لرئاسة المجلس ، ورشّحت المعارضة محمد رضا الشبيبي ، ففاز مرشح المعارضة رغم أن لعبةً قد جرت في الانتخابات ، واكتشفت عن طريق الأوراق . وحدثت لذلك ضجة

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي ، ولم يخرج من أعضاء الوزارة السابقة سوى تحسين علي .

١ ـ حمدي الباجه جي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ أرشد العمري : وزيراً للخارجية ، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٣ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٤ ـ عبد الأمير الأزري : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٥ ـ توفيق وهبي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٨ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٩ ـ إبراهيم عاكف : وزيراً للمعارف .

انتهت بتخلّي محمد رضا الشبيبي عن رئاسة المجلس . وجرى انتخاب جديد فاز به وزير الشؤون الاجتماعية محمد حسن كبه، وهذا ما اقتضى تعيين خلفاً له، فصدر أمر ملكي ٥ محرم ١٣٦٤هـ (٢٠ كانون الأول ١٩٤٤م) بتعيين عبد المجيد علاوي وزيراً للشؤون الاجتماعية ، كما عُيّن إسماعيل نامق وزيراً للدفاع . كما سبق أن عُيّن في ٣ ذي الحجة ١٣٦٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٤٤م) يوسف غنيمة وزيراً للتموين .

ودعيت العراق لحضور « مؤتمر الأمم المتحدة » في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية في ١٤ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٢٦ نيسان ١٩٤٥م)[١] .

الحركة الكردية البارزانية : بعد إجبار أحمد البارزاني على وضع السلاح عام ١٣٥١هـ فرّ مع أخويه ، ومائة من أتباعه إلى تركيا . وبعد مدة قامت مباحثات بين تركيا والعراق انتهت بتسليم الفارين إلى العراق بعد صدور العفو العام عنهم ، فألزمتهم العراق على الإقامة في الموصل ثم نقلتهم إلى الناصرية ، فالديوانية ، فالحلة ، فكركوك ، وأخيراً استقرّوا في السليمانية ، وكانت تعطيهم بعض المخصصات ، غير أن ارتفاع أسعار الحاجيات أثناء الحرب العالمية الثانية جعل الحاجة قائمة لديهم إذ لم تعد تكفيهم المخصصات السابقة ، فرفع مصطفى البارزاني عدة شكاوى ، وقدّم عدة مطالب فلم يُنتبه إليه ففرّ إلى بارزان مع ثلاثة من أتباعه في رجب ١٣٦٢هـ (تموز ١٩٤٣م) وكتب إلى الحكومة العراقية أنه مطيع ، وليس بعاصٍ ، ولكن ضيق ذات اليد ، وعدم سماع شكواه هما اللذان دفعاه إلى الخروج إلى بلده .

ولكن الحكومة لم تعمد إلى دراسة رسالته وإنما طلبت من قوات الأمن

---

(٢) تشكل الوفد العراقي من : أرشد العمري وزير الخارجية رئيساً وعضوية كل من : نوري السعيد من مجلس الأعيان ، وتوفيق السويدي ، ونصرت الفارسي من مجلس النواب ، وعلي جودت الأيوبي وزير العراق المفوض في واشنطن ، ومحمد فاضل الجمالي مدير الخارجية العام .

ملاحقته ، ولما وجد ذلك انضمّ إلى العصابات التي تقوم بقطع الطرق هناك، ولم تلبث أن قويت شوكته بسيطرته على بعض المخافر وأخذ الأسلحة من أفرادها . ولما كانت الحرب العالمية مشتعلة وليس من الحكمة الانشغال في حركاتٍ جانبية لذا فإن السفير الإنكليزي قد بعث إليه رسالة يطلب منه الهدوء ، والعمل على التفاهم مع الحكومة ، وإن هذه الحركة لتعدّ ضدّ انكلترا أكثر من أن تكون ضدّ العراق.وكان نوري السعيد قد شكّل حكومته الثامنة وضمت ثلاثة وزراء من الأكراد ، وهم : عمر نظمي ، وأحمد مختار بابان ، وماجد مصطفى . وعهد إلى الأخير بالاتصال بمصطفى البارزاني الذي أوقف القتال بناءً على رسالة السفير الإنكليزي ، وكتب بشروطه لإلقاء السلاح وهي :

١ ـ عزل أو نقل الموظفين الذين عرفوا بأخذ الرشوة .
٢ ـ تشكيل ولاية كردية ممتازة من ألوية : السليمانية ، واربيل ، وكركوك، ومن أقضية لواء الموصل الكردية وهي : داهوك ، وزاخو ، والعمادية ، وعقرة ، وشيخان ، وسنجار .
٣ ـ اعتبار اللغة الكردية لغةً رسميةً .
٤ ـ تعيين معاون وزير كردي في كل وزارة من وزارات الدولة .
٥ ـ تعيين وزير كردي يكون مسؤولاً عن ولاية كردستان .

وسافر ماجد مصطفى إلى المنطقة الكردية ، واتصل بمصطفى البارزاني ، ورجع ، وقدّم تقريراً إلى رئيس الحكومة عرض فيه بعض المقترحات ومنها :

١ ـ إطلاق سراح المبعدين من رؤساء بارزان .
٢ ـ إعادة تأسيس الإدارة في المناطق التي شملها العصيان ، وإرسال موظفين أصحاب إمكانات معينة .
٣ ـ الإنفاق بسخاء لمدّ شبكة هاتفية جيدة في المنطقة .
٤ ـ الايعاز لمصطفى البارزاني للقدوم إلى بغداد .

وشكّل رئيس الحكومة لجنة لدراسة مقترحات الوزير ماجد مصطفى . فوافقت اللجنة على هذه المقترحات وأضافت إليها ضرورة إعادة مصطفى البارزاني للأسلحة التي استولى عليها من جنود الحكومة في المخافر وغيرها .

وجاء مصطفى البارزاني مع مجموعةٍ من أعوانه إلى بغداد في ٨ صفر ١٣٦٣هـ (٢٢ شباط ١٩٤٤م) ، وقابل الوصي ، وصدر بيان حكومي بذلك عدّ مصطفى البارزاني نادماً على ما فعل ، وجاء مسترحماً معلناً الطاعة .

وطلب مصطفى البارزاني السماح له بالعودة إلى (بارزان) لجمع الأسلحة حسب قرارات اللجنة الوزارية التي قضت بذلك ، كما قضت أن يُقيم في (بيران) ، وأن يُبعد عن (بارزان) فوافقت الحكومة على طلبه ، وانطلق يتجول في المنطقة ، ويتصل بزعمائها . فارتابت الحكومة من فعله ، واتصلت بشقيقه أحمد البارزاني في بارزان، وطلبت منه تسليم الأسلحة، فأبى إذ داخله الشك من الإلحاح في الطلب ، وتوقّع الهجوم عليه ، فكيف يُسلّم سلاحه ؟ بل لماذا لا يبدأ بالهجوم ، والهجوم أحسن وسائل الدفاع .

أخذت المنظمات الكردية تتحرّك ، وبدأ حزب الأمل (هيوا) يتصل بالضباط الأكراد في الجيش ، ويدعونهم للانضمام إلى العمل من أجل الأكراد بإعلان العصيان والثورة ، وقد أثمرت الجهود ، واقتنع عدد من الضباط بمطالب الأكراد التي قدّمها مصطفى البارزاني .

أرسل السفير الإنكليزي مبعوثاً عنه إلى بارزان ، وحمّله رسالةً إلى مصطفى البارزاني ، وفيها :

١ ـ إن الجيش العراقي والجيش البريطاني سيقومان بتدريبات عسكرية جبلية قرب بارزان .
٢ ـ ليس في هذه الحركة أية صبغة سياسية ، لذا يجب ألا يكون هناك قلق أو شك عند البارزانيين .
٣ ـ ينصح السفير الإنكليزي بوجوب الطاعة والامتثال لأوامر الحكومة .

٤ ـ ويرى السفير أن يعود الضباط إلى أفواجهم .

فأجاب مصطفى البارزاني بما يأتي :

١ ـ نحن لا نتجاوز على جيش المسلمين ما لم يبدأ بضربنا .

٢ ـ يعود أمر رجوع الضباط إلى التسهيلات التي تتخذها وزارة الدفاع .

٣ ـ إن القلق وسوء الظن موجود عند الأكراد منذ حركة الفوج الرابع للاستطلاع بحجة التدريب .

إنِ مصطفى البارزاني ينتمي من حيث الأم إلى قبيلة شروان التي تُقيم في منطقةٍ قريبةٍ من منطقة بارزان التي يتزعمها أحمد ومصطفى ، وكان شيخ هذه القبيلة (أولوبك) خال مصطفى البارزاني في بلاد الأكراد فذهب إلى السوق للحصول على المواد التموينية ، فأراد رئيس مركز الشرطة تجريد البارزانيين من أسلحتهم فحدث خلاف دعا إلى صدام فقتل (أولوبك) ورئيس مركز الشرطة ، وبعض الأفراد ، واستولى البارزانيون على المركز ، ووصل الخبر إلى مصطفى البارزاني فأخذ يرسل البرقية إثر الأخرى إلى الحكومة يستنجد بها لتخفيف الضائقة عليه ، ووقف قصف الطيران للمنطقة و . . . .

قررت الحكومة في ٢٩ شعبان ١٣٦٤هـ (٨ آب ١٩٤٥م) احتلال المنطقة ، بعد أن فشل متصرف لواء اربيل سعيد القزاز بإقناع مصطفى البارزاني بالعدول عن رأيه .

أعلنت الحكومة الأحكام العرفية في المنطقة (قضاء الزيبار) ، ثم أخذت تتوسّع ساحة الأحكام العرفية ، وعينت مجلساً عرفياً[١] . واستطاعت الحكومة خلال شهرين السيطرة على المنطقة ، وفرّ أحمد البارزاني وشقيقه مصطفى إلى إيران . وقضت المحكمة العرفية المنعقدة في اربيل بالحكم

---

(١) تشكل المجلس العرفي من : العقيد عبد العزيز ياسين رئيساً ، والمقدم عبد الله رفعت حسن النعساني ، والرائد رحمة الله عبد الله الطالباني ، والقاضي خليل أمين المفتي ، والقاضي عبد الحميد مدحت أعضاء .

بالإعدام على خمسة وثلاثين رجلاً منهم أحمد البارزاني ، وشقيقه مصطفى ، وسبعة ضباط ، ومدرس ، ونائب عريف ، واثنين من الشرطة .

بعد الحرب العالمية الثانية : لقد عاش الناس إبان الحرب في ظلّ الأحكام العرفية ، وقد منعوا من أي نوعٍ من أنواع الحرية ، فالصحف ممنوع أكثرها ، وما يصدر منها فهو مُوجّه لا يستطيع نشر أي موضوع لا ترضى عنه السلطة وبالتالي الحكومة البريطانية ، واللقاءات والاجتماعات محظورة ، وكل لقاءٍ يتمّ لا بد من مُوافقة الدولة عليه ، ولو كان وليمةً ، وبالتالي فالأحزاب لا وجود لها ، وإن كانت الأفكار قائمة غير أنه لا يمكن البوح بها ، وربما كان شبه إجماع على تأييد الحلفاء من أصحاب الآراء المتباينة لأن الدول الكبرى كلها ضمن الحلفاء وهي التي لها أتباع ، فالشيوعية منها والرأسمالية تؤيدان السياسة البريطانية ما دامت روسيا وانكلترا والولايات المتحدة في صفٍ واحدٍ .

فلما انتهت الحرب تنفّس الناس الصعداء ، ووجد عندهم الأمل بإطلاق الحريات ، وخاصةً أن الحلفاء كان يصرّحون بهذا ، ووجدت انكلترا أن بقاء السجون تعجّ بنزلائها ، واستمرار إقامة معتقلات جديدة تتسع لمن يُلقى عليهم القبض يومياً لأقل تهمة بل لأدنى كلمة لا يقصد قائلها منها إلا المعنى القريب ، وأن تطبيق القوانين الاستثنائية ، ومراقبة البريد ، والهاتف ، والإشراف على الصحافة أمر صعب وقد ينشأ عن ذلك ردود فعلٍ ، لذلك لا بدّ من التغيير ، وأوعزت انكلترا إلى رجالهابذلك ، وقد أعدّت بياناً بذلك ، وقام الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله بإلقائه في ٢٣ محرم ١٣٦٥هـ (٢٧ كانون أول ١٩٤٥م) ، ويشير إلى ما سيتمّ من أمور سياسية داخل العراق ، وكان يرى تبديل الوزارة ، وأشار إلى بعضهم أن ينصح حمدي الباجه جي بتقديم استقالة حكومته ، ففعلوا وقدّم رئيس الوزراء استقالة وزارته في ٢٥ صفر ١٣٦٥هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٦م) . إلا أن الوصي قد سافر إلى عمان ، وبذا تأجّل موضوع قبول الاستقالة ، وعندما عاد ، كلّف نوري السعيد بتشكيل وزارة جديدة غير أنه لم يُوفق ، فكلّف أرشد العمري

فأخفق ، فعهد إلى نصرت الفارسي فتردّد ، ثم كلّف توفيق السويدي فشكّل الوزارة في ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥هـ (٢٣ شباط ١٩٤٦م)[١] .

وفي الأول من جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٢ نيسان ١٩٤٦م) ، أعطت وزارة الداخلية ترخيصاً لخمسة أحزاب وهي : حزب الاستقلال ، وحزب الشعب ، وحزب الأحرار ، وحزب الاتحاد الوطني ، والحزب الوطني الديمقراطي . وفي الوقت نفسه رفضت طلباً تقدّم به الشيوعيون للحصول على ترخيصٍ لهم بتأسيس حزب سياسي باسم (حزب التحرر الوطني) .

وبعد مرور ست سنواتٍ من أيام الحرب ، والأحكام العرفية هي السائدة ، كانت المعارضة بحدود ، والخلافات الشخصية تكبح جماحها الظروف الراهنة ، فلما أُعطيت الحريات ، وتشكّلت الأحزاب ، انطلقت المعارضة ، بل أراد رجال الأحزاب أن يثبتوا مكانتهم ، ويبرهنوا على إمكاناتهم ، ليكون لهم دور في إدارة عجلة السلطة .

وبدأت المعارضة في مجلس الأعيان ، وفي مجلس النواب ، وظهرت الخلافات الشخصية ، وتعرّضت الوزارة لكثيرٍ من الهجوم بل إلى الاتهامات ، رغم أنها لا تزال في شهورها الأولى ، واضطّر توفيق السويدي إلى تقديم استقالة حكومته ، وحسب رأيه قد أدّى المهمة المناطة به وهي نقل البلاد من ظروف الأحكام العرفية إلى ظروف الحرية ، فقد سمح للصحف التي كانت ممنوعة بالصدور ، وإلى الأحزاب بالظهور ، وإلى الأفراد باللقاءات والنشاط .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ سعد صالح : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الوهاب محمود : وزيراً للمالية .
٤ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٦ ـ عبد الهادي الظاهر : وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ إسماعيل نامق : وزيراً للدفاع .
١٠ ـ عبد الجبار الجلبي : وزيراً للتموين .

قدّم رئيس الحكومة توفيق السويدي استقالة وزارته في ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (٣٠ أيار ١٩٤٦م) . فعهد الوصي إلى أرشد العمري بتأليف وزارةٍ جديدةٍ فشكّلها في اليوم التالي : ٢ رجب ١٣٦٥هـ (١ حزيران ١٩٤٦م)[١] . وقد ضبط الأمور بشكلٍ قوي ، وكان شديد المركزية إذ ربط به الأجهزة المختلفة للدولة ، وعاد إلى كبت الحريات ، وضغط على الأحزاب حتى كثرت الشكاوى .

وقامت مظاهرة يوم ٢٩ رجب ١٣٦٥هـ تأييداً لفلسطين فقمعتها الحكومة بالقوة ، ووقع بعض القتلى والجرحى ، واحتجّ حزب الاستقلال ، ثم التقى زعماء الأحزاب الخمسة، وقابلوا الأمير زيد وكيل الوصي ، واحتجّوا على ما حدث .

وتجمّع عمال النفط في كركوك في ١٤ شعبان ففرّقتهم الشرطة بالقوة ، بعد أن أضربوا يوم ٥ شعبان من أجل زيادة رواتبهم ، ووقع عدد من القتلى ، واحتجّت الأحزاب ثانية على هذه الطريقة في استعمال العنف مع المواطنين ، وأخذت صحف الأحزاب تهاجم الحكومة . وحتى في انكلترا هاجمت الصحف البريطانية هذا التصرّف ، وأوضحت أن مقاومة الشيوعية لا تكون بالشدّة ، وإنما بتحسين أوضاعهم كي يتركوا الأفكار الفوضوية التي يحملونها .

واستقال وزير الداخلية عبد الله القصاب فجرى تعديل وزاري[٢] في

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أرشد العمري : رئيساً للوزراء .
٢ ـ عبد الله القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .
٤ ـ سعيد حقي : وزيراً للدفاع .
٥ ـ نوري القاضي : وزيراً للمعارف .
٦ ـ فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٨ ـ عبد الهادي الجلبي : وزيراً للأشغال والمواصلات
٩ ـ بابا علي الشيخ محمود: وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ عبد الهادي الباجه جي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

(٢) كلّف رئيس الوزراء أرشد العمري بوزارة الداخلية . وعين عبد الإله حافظ وزيراً للتموين .

٢٩ رمضـان ١٣٦٥هـ (٢٦ آب ١٩٤٦م) ، ولكن ذلـك لم يُغن شيئـاً ، واشتدّت المعارضة ، فطلب رئيس الحكومة من الوصي إصدار قانون الطوارىء غير أن الوصي لم يقبـل ذلك لأن الـظروف لم تكن مواتيـةً ، فاضـطرّ أرشد العمري إلى تقديم استقالة حكومته في ١٥ ذي القعدة ١٣٦٥هـ (١٠ تشرين أول ١٩٤٦م) ، ولكن مرّ أكثر من شهرٍ ، ولم يتخذ الوصي أي إجراءٍ ، وهذا ما أجبر أرشد العمري على إعادة تقديم الاستقالة في ١٩ ذي الحجة ١٣٦٥هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٤٦م) فقبل الوصي الاستقالة ، ولكن طلب استمرار الحكومة في عملها ريثما تتألف حكومـة جديـدة ، وعهد الـوصي إلى حمدي الباجه جي بتشكيل الوزارة ، فأخفق ، واضطر إلى الاعتذار ، كما فشل أرشد العمري في تشكيل وزارةٍ ثانيةٍ ، وأصرّت بعدها السفارة البريطانية في بغداد على تكليف نوري السعيد بالوزارة الجديـدة فشكّلها[1] في ٢٧ ذي الحجـة ١٣٦٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦م) . وقد أراد نوري السعيد أن تكون وزارته ائتلافيةً يشترك فيها الأحزاب ، فاشترك الحزب الوطني الديمقراطي ، وتسلّم حقيبة وزارة التموين التي أسندت إلى محمد حديد ، على حين مثل علي ممتاز حزب الأحرار ، وأسندت إليه وزارة الأشغال والمواصلات ، وقد اشترك الحزبان بشرط إطلاق الحريات .

كانت الوزارة انتقـاليةً مهمتهـا إجراء الانتخـابات ، وقـد صدر أمـر ملكي ، وأخذت الاستعدادت تجري لإجراء عمليـة الانتخابـات ، وتُفاجـأ الأحزاب بعدم السماح لها بافتتاح فروع لها ، وبتدخّل الحكومة بالانتخابات .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية .
٣ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري: وزيراً للأشغال والمواصلات.
٦ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ بابا علي الشيخ محمود : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للشؤون الاجتماعية :
٩ ـ محمد حديد : وزيراً للتموين .
١٠ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .

فانسحب ممثلا حزبي الوطني الديمقراطي ، والأحرار من الوزارة[1] ، واتهما بعض الوزراء ببقائهما بالوزارة لاستغلال منصبيهما فاضطرا إلى تقديم استقالتهما وهما : صالح جبر وزير المالية ، وصادق البصام وزير المعارف[2] . وقاطع حزب الأحرار الانتخابات ، ولم يفز أحد عن الأحزاب إلا ما حصل عليه الحزب الوطني الديمقراطي من فوزه بأربعة مقاعد، ولكنه قرّر الانسحاب من المجلس النيابي ، غير أن نائباً قد وافق على الانسحاب من المجلس[3] ، على حين أن الثلاثة الباقين من النواب قد تركوا الحزب ، وأعلنوا الانسحاب منه مفضلين نيابتهم عليه[4] .

قدمت الأحزاب طعوناً في الانتخابات ، ولكن لم يُؤدِّ ذلك إلى نتيجة ، واجتمع مجلس الأمة في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (١٧ آذار ١٩٤٧م) .

عدّ رئيس الحكومة مهمة وزارته قد انتهت فقدّم استقالتها في ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ . وعهد الوصي إلى صالح جبر في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (٢٩ آذار ١٩٤٧م) بتشكيل الوزارة الجديدة[5] . وأبرز ما قامت به هذه

---

(١) عيّن عبد الإله حافظ وزيراً للتموين ، وعبد الهادي الجلبي وزيراً للمواصلات والأشغال مكان الوزيرين المستقيلين .

(٢) أسندت وزارة المالية إلى وزير التموين عبد الإله الحافظ ، وأسندت وزارة المعارف إلى وزير الشؤون الاجتماعية جميل عبد الوهاب .

(٣) هو النائب حسين جميل .

(٤) النواب هم : عبد الهادي البجاري ، جعفر البدر ، عبد الجبار الملاك .

(٥) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ صالح جبر : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .

٣ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .

٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية ، وزيراً للاقتصاد بالوكالة .

٥ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للتموين .

٦ ـ ضياء جعفر : وزيراً للمواصلات والأشغال.

٧ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

٨ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .

٩ ـ توفيق وهبي : وزيراً للمعارف .

الحكومة تأسيس المجمع العلمي العراقي ، وتعديل المعاهدة العراقية - البريطانية .

الحركة الكردية : دخلت جيوش الحلفاء إيران أيام الحرب العالمية الثانية ، وكان دخول جيوش روسيا من الشمال بطبيعة الحال ، فكانت المنطقة الكردية من بين المناطق التي سيطر عليها الروس ، فتوطدت العلاقة بين الطرفين بسياسة من الروس ، حيث أن المناطق التي يسيطر عليها الروس فيما وراء القوقاز تضمّ أعداداً من الأكراد ، فأوحى الروس إليهم بضرورة التحرك لإقامة دولةٍ كرديةٍ .

فلما انتهت الحرب العالمية الثانية أقام الأكراد حكومةً كرديةً برئاسة محمد القاضي ، وكانت قاعدتها مدينة (مهاباد) وذلك بمساعدة الروس . وانضمّ إليها البارزانيون الذين كانوا قد فرّوا إلى إيران بعد أن سحق الجيش العراقي حركتهم التي قامت قبل سنوات ، وإن كان عددهم لا يصل إلى الألفين .

ولما انسحب الحلفاء من إيران ، ومنهم الروس، تحرّك الجيش الإيراني إلى قاعدة الحكومة الكردية (مهاباد) ، ودخلها في ٢١ محرم ١٣٦٦هـ (١٥ كانون الأول ١٩٤٦م) ، وألقي القبض على قادتها ، حيث أُعدموا[١] في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (٢١ آذار ١٩٤٧م) .

أما الأكراد العراقيون (البارزانيون) فقد أُحضر قادتهم إلى طهران ، وأُعطوا الخيار بين العودة إلى العراق وبين أخذ الجنسية الإيرانية بشرط الانصراف إلى الأعمال الزراعية في الأرض التي ستُقدّمها الدولة لهم . ففضّلوا العودة إلى العراق ، ورجع الملا أحمد البارزاني شقيق مصطفى إلى العراق في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (١٧ نيسان ١٩٤٧م) ، فقبضت الحكومة

---

(١) أعدم رئيس الجمهورية الكردية محمد القاضي ، وأخوه صدر ، وابن عمه سيف ، وعدد من رؤساء الأكراد .

العراقية على الضباط منهم ، وهم الذين كانوا قد تركوا الجيش العـراقي ، والتحقوا بالثورة الكردية ، وقد حُكم عليهم بالإعدام غيـابياً ، فلما جـاءوا الآن مستسلمين أُلقي القبض عليهم ، وقُدّمـوا إلى المحاكمة فأيّد القضـاة الحكم السابق ، ونُفّذ فيهم الإعدام . وأما الملا مصطفى وبعض جماعته فقـد رأوا الدفاع عن أنفسهم ، فاشترطوا على الحكومة العراقية الدخول بأسلحتهم ، فـرفضت ذلك ، فتسلّلوا إلى منـاطقهم ، فأعلنت الحكـومة العـراقية حـالة الـطوارىء في المناطق الشـمالية ، وأرسلت القـوات لمطاردتهم ، فهـربوا إلى تركيا ، ومنها فرّوا إلى الأراضي التي يُسيطر عليها الروس فيما وراء القوقاز وقد قـطعوا نهر (أراكس) سبـاحةً ، ومنـح الروس المـلا مصطفى رتبـة فـريق (مـاريشال) ، وشكّلوا من جمـاعته قـوةً عسكريـةً غير نـظامية ، وزوّدوهم بالأسلحة اللازمة .

المكاتب الإنكليزية : كان الإنكليز قد شكّلوا في العراق بعد دخولها إثر حركة رشيد عالي الكيلاني مكاتب أطلقوا عليها اسم (مكاتب الإرشاد) ، وتضمّ ضباط إنكليز مهمتهم الاتصال بالـدوائر العـراقية ، وأطلقـوا عليهم ضباط الارتباط إضافةً إلى مُنصّرين ، وفتيـات لنشر الفساد وكـان الضبـاط يتحكّمون بشؤون العراق . وكانت ظروف الحرب ، والأحكام العرفية تُحتّم السكوت أو التغاضي عن ذلك فلما انتهت الحرب بدأ الهجوم على هذه المكاتب والمهمات التي تقوم بها ، ومنها السيطرة والتجسّس ، غير أن الحكومة العراقية قد أسكتت المعترضين ، وعرضتمـبرراتٍ واهية إن لم نقل كاذبة . وسحب ترخيص حزب الشعب ، وترخيص حزب الاتحاد الوطني في ١٤ ذي القعدة ١٣٦٦هـ (٢٩ أيلول ١٩٤٧م) .

المعاهدة العراقية ـ الأردنية : عقدت معـاهدة أردنيـة عراقيـة في ٢٠ رمضان ١٣٦٦هـ (٧ آب ١٩٤٧م) ، كان القصد منها الدفاع المشـترك ، وكان القصد الإنكليزي منها إثارة الحكم السعودي والضغط عليه للحصول على بعض المنافع ، أو تمرير بعض المخططات .

ورأى العراقيون في المعاهدة مصلحة للأردن والعراق كدعمٍ لقضية فلسطين التي كانت تشغل المسلمين عامةً ، والأمصار المجاورة خاصةً . وقد وقف الشيوعيون في العراق موقفاً مؤيداً لليهود بكل صراحةٍ وأعلنوا ذلك في صحفهم ومنشوراتهم .

تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية : لم تنته مدة المعاهدة السابقة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ولكن بدأ التلميح إليها من قبل المعارضة ، وضرورة تعديلها ما دامت الظروف قد تغيّرت ، وانتهت الحرب العالمية الثانية ، وعندما شكّل صالح جبر الوزارة ، جعل من منهجها إعادة النظر في المعاهدة العراقية ـ البريطانية . وفعلاً عُرضت فكرة تعديل المعاهدة على الساسة الإنكليز ، وجرت محادثات في ١٥ و١٦ جمادى الآخرة ١٣٦٦هـ (٧ و ٨ أيار ١٩٤٧م) ثم توقّفت .

وسافر الوصي عبد الإله إلى لندن في ٢٦ شعبان ١٣٦٦هـ (١٥ تموز ١٩٤٧م) ، والتقى بوزير الخارجية البريطانية وفاتحه في موضوع تعديل المعاهدة ، وكان رأي وزير الخارجية البريطانية (بيفن) أن التعديل يجب :

١ ـ ألا يتطرّق إلى إلغاء القواعد العسكرية البريطانية في العراق أبداً .

٢ ـ أن يقرّ بقاء مطاري الحبانية والشعيبة بيد القوات الإنكليزية .

٣ ـ لا مانع من إشغال المطارين من قبل الإنكليز والعراقيين معاً .

وعندما رجع الوصي إلى العراق ، وتباحث مع رئيس الوزراء في موضوع الاتفاقية ، أراد صالح جبر أن يُهدّد بالاستقالة لعل الساسة البريطانيين ينزلون عن بعض تشدّدهم .

أما رأي الساسة العراقيين الخاصة من وجهة النظر الوطنية ، وهذا الرأي لا يصرّون عليه أمام الإنكليز ـ مع الأسف :

١ ـ عدم إبقاء قوات بريطانية وقت السلم في العراق .

٢ ـ تسلّم القوات العراقية للقاعدتين الجويتين (الحبانية ـ الشعيبة) .

٣ ـ تسليح الجيش العراقي .
٤ ـ إلغاء حصر استخدام الإخصائيين في الحكومة العراقية بالبريطانيين .
٥ ـ رفع قيود التمثيل السياسي .

اجتمع بعض العراقيين من أنصار الوصي والسلطة ، وتباحثوا في الاتفاقية ، وانتشر الخبر ، فقامت الأحزاب تُهاجم المعاهدة العراقية ـ البريطانية .

تشكّل الوفد العراقي للمفاوضات[1] ، وسافر إلى لندن في ٢٣ صفر ١٣٦٧هـ (٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) . وبدأت المفاوضات في اليوم التالي لوصول الوفد ، وانتهت في ٢٨ صفر ١٣٦٧هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٤٨م) ، ولم يتغير شيء من رأي الإنكليز ، ولم يتزحزحوا عن موقفهم ، ومشى معهم المفاوضون العراقيون . ووقعت المعاهدة في مدينة (بورتسموث) لذا فقد عُرفت باسمها ، وذلك بتاريخ ٤ ربيع الأول ١٣٦٧هـ(١٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) .

ووصلت أخبار المعاهدة إلى العراق ، ونشرت مسودتها ، فقامت الأحزاب السياسية تنتقدها ، وعدّتها أشدّ وطأةً على العراق من المعاهدة السابقة . وقام الطلاب بمظاهرات يوم ٨ ربيع الأول ، وفي اليوم التالي ٩ ربيع الأول ، ووقع أربعة قتلى ، وطلب رجال الأمن من نائب رئيس الوزراء جمال بابان وزير العدلية إعلان حالة الطوارىء في البلاد ، أو استدعاء الجيش للتدخل ، أو السماح باستعمال السلاح في الهواء ، أو فسح المجال للطلاب ، ولكنه رفض كل هذه الخيارات . وفي اليوم التالي عندما انطلق أهل القتلى لاستلام الجثث من المستشفى كانت سيارات الشرطة تلاحق الطلاب الذين ذهبوا مع أهل زملائهم .

---

(١) ضمّ الوفد : رئيس الحكومة صالح جبر ، ونوري السعيد ، وتوفيق السويدي من مجلس الأعيان ، ومحمد فاضل الجمالي وزير الخارجية ، وشاكر الوادي وزير الدفاع .

وألقى رئيس الوزراء صالح جبر باللائمة على نائبه وزير العدلية جمال بابان الذي قدّم استقالته يوم ١٥ ربيع الأول . وفي اليوم نفسه أصدر رئيس الوزراء بياناً إلى الشعب فيه تحذير ووعيد فعمّت المظاهرات في اليوم التالي المدن العراقية . واستقال عدد من النواب ، ثم استقال رئيس المجلس النيابي عبد العزيز القصاب . واستقال من الحكومة وزير المالية يوسف غنيمة ، ووزير الشؤون الاجتماعية .

وأخيراً قدم رئيس الحكومة صالح جبر استقالة وزارته إلى الوصي في ١٦ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨م) . وعهد الوصي إلى محمد الصدر ، وخرجت مظاهرات تأييد له غير أنه اعتذر إذ رأى أن الظروف غير مناسبة لتسلّم هذه المهمة ، فعهد إلى أرشد العمري فأخفق في مهمته إذ خذله السياسيون ، ورؤساء الأحزاب الذين تداعوا إلى لقاءٍ وأصدروا البيان التالي :

(إن الأحزاب العراقية ترى من الضروري في هذا الظرف العصيب أن تُستجاب رغبات الشعب ، وذلك بتحقيق المطالب التالية :

١ ـ إبطال معاهدة (بورتسموث) الجائرة وإعلان ذلك دون إبطاء .
٢ ـ إجراء التحقيق الدقيق عن إطلاق النار ضدّ أبناء الشعب ، وتعيين المسؤولين عنه .
٣ ـ حلّ المجلس النيابي القائم ، وإجراء انتخابات حرة .
٤ ـ احترام الحريات الدستورية .
٥ ـ إفساح المجال للنشاط الحزبي .
٦ ـ حلّ مُشكلة الغذاء بشكلٍ يُوفّر للشعب قوته .

بغداد ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٨م .

كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي .
محمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال .
سعد صالح رئيس حزب الأحرار .

وذهب رؤوساء الأحزاب العراقية ، ومعهم جعفر حمندي عضو الجبهة الدستورية البرلمانية إلى دار محمد الصدر لإقناعه بإعادة النظر في قراره . فوضع شروطه بانتقاء الرجال الذين يرضى عن سلوكهم ، وكان عبد العزيز القصاب يقوم بدور الوسيط بين الوصي ومحمد الصدر، وأخيراً ، عهد الوصي إلى محمد الصدر بتشكيل الوزارة في ١٨ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨م) ، فشكّلها في اليوم نفسه(١) .

بدأت الوزارة بتشكيل لجنة تحقيق بالمظاهرات التي تمت في شهر ربيع الأول أيام وزارة صالح جبر ، والمسؤول عن إطلاق النار ، ومسؤولية الحكومة في ذلك ، والواجب المترتب عليها .

وتدارست الحكومة في أول جلسة عقدتها معاهدة (بورتسموث) وملاحقها ، والكتب السرية المرفقة بها ، ووجدت أن هذه المعاهدة لا تحقق الغاية المرجوة منها ، وأنها غير صالحة لتوطيد العلاقة بين المملكتين لذا فالحكومة لا توافق عليها ، وكلفت وزير الخارجية إبلاغ هذا القرار إلى الحكومة البريطانية ، ولكن وزير العدلية عمر نظمي لم يوافق على قرار الحكومة بحجة أنها معاهدة دولية ، جرت مفاوضات رسمية بشأنها بين دولتين ، ووُقّعت رسمياً ، ثم تلغى بجرة قلم دون اكتراث لذا فقد قدم استقالته من الوزارة .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ محمد الصدر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ جميل المدفعي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ حمدي الباجه جي: وزيراً للخارجية .
٤ ـ أرشد العمري : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ مصطفى العمري: وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ محمد رضا الشبيبي: وزيراً للمعارف .
٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ صادق البصام : وزيراً للمالية .
١٠ ـ محمد مهدي كبه: وزيراً للتموين .
١١ ـ جلال بابان : وزيراً للمواصلات والأشغال .
١٢ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للدولة .
١٣ ـ داود الحيدري : وزيراً للدولة .
١٤ ـ محمد الحبيب : وزيراً للدولة .

وأقدمت الحكومة على الخطوة الثالثة من مطالب الأحزاب ، فاستصدرت أمراً ملكياً بحل مجلس النواب في ١٢ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ (٢٢ شباط ١٩٤٨م) .

وأعادت النظر في كل القرارات التي اتخذتها الحكومة السابقة في تعطيل الصحف ، وإحالة أصحابها إلى المحاكم ، واعتقال عدد من الطالبات والطلاب . وقررت إعادة الصحف إلى الصدور ، ورفع الرقابة عن البريد ، وإطلاق سراح المعتقلين ، واستئناف الدراسة .

وعملت على استيراد ثلاثين ألف طن من القمح من مجلس الطعام الدولي .

وجرى تعديل وزاري نتيجة بعض الاستقالات والوفيات(١) .

قضية فلسطين : قبل أن تتحرك القوات العراقية إلى فلسطين قبيل ٧ رجب ١٣٦٧هـ (١٥ أيار ١٩٤٨م) أعلنت الأحكام العرفية في العراق ، وتحرّكت القوات بقيادة اللواء صالح صائب ، وكانت عبارة عن أربعة أفواج ويتراوح عدد أفرادها بين ١٠ ـ ١٢ ألف جندي ، ولم تكن مستعدةً ، ومجهزة تجهيزاً ضعيفاً . وتجمّعت في المفرق في الأردن ، ويقول الفريق نور الدين محمود قائد القوات العراقية في فلسطين أنه فتش القطعات فوجد الفوج الآلي غير مدربٍ أبداً بل إن معظم أفراده لم يرموا بأسلحتهم الخاصة بهم . وبالإضافة إلى ذلك علمت أن الفوج المذكور استلم مدافع الهاون في يوم حركته من بغداد ، ولا يعلم أحد في الفوج ولا بالقوة الآلية كلها كيفية استخدام هذه المدافع، وقد تركت في السيارات بانتظار قدوم الأفراد اللازمة لإدارتها من بغداد ، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ وجدت أفراد أسلحة المدرعات لم يُدرّبوا

---

(١) قدّم جميل المدفعي ، وعمر نظمي استقالتيهما . فأصبح نصرت الفارسي وزيراً للداخلية ، ونجيب الراوي وزيراً للعدلية ، وداود الحيدري وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وتوفي حمدي الباجه جي ، فتسلّم نصرت الفارسي وزارة الخارجية ، ومصطفى العمري وزارة الداخلية .

على أسلحتهم مطلقاً فاضطررت إلى الإبراق إلى وزارة الدفاع للموافقة على رمي بضعة طلقات بصورةٍ مستعجلةٍ ليعرفوا خواص أسلحتهم على الأقل .

ودخلت الجيوش العربية فلسطين يوم ٧ رجب ، وكان الجيش العراقي فيما عرف بالمثلث العربي (جنين ـ نابلس ـ طولكرم) ، وأبلى بلاء حسناً ، ولكن لم تكن هناك أوامر صريحة له بالتقدّم . وقرر مجلس الأمن إعلان هدنة بين الجيوش العربية واليهود ، فوافقت الحكومات ، وترددت العراق حتى هدّدت بقطع تموين جيشها . . . وتمت الهدنة وحدث ما هو معروف .

وانتقدت الأحزاب السياسية العراقية اعتراف الولايات المتحدة المباشر بدولة اليهود المغتصبة .

الانتخابات : وعند الشروع ، بالانتخابات وقعت أحداث دامية ، واستقال وزير التموين محمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال لتدخل الحكومة في الانتخابات ، وكانت استقالته في غرة رجب ، وأسندت حقيبة وزارة التموين إلى صادق البصام وزير المالية . ومن قبل استقال وزير الشؤون الاجتماعية داود الحيدري .

وانتهت الانتخابات في ٧ شعبان ١٣٦٧هـ (١٥ حزيران ١٩٤٨م) ، وفي اليوم التالي قدّم محمد الصدر استقالة حكومته، وكلف الوصي نصرت الفارسي ففشل ، وتوفيق السويدي فأخفق، وجميل المدفعي فلم ينجح ، وعهد إلى مزاحم الباجه جي فشكّل الحكومة[1] في ١٨ شعبان ١٣٦٧هـ (٢٦

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مزاحم الباجه جي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٢ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جلال بابان : وزيراً للمواصلات ، وزيراً للشؤون الاجتماعية بالوكالة .
٦ ـ صادق البصام : وزيراً للدفاع .
٧ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .

حزيران ١٩٤٨م) .

كان اليهود في العراق حتى هذه المرحلة يُعاملون معاملة المواطنين ، ولهم الحقوق كاملةً ، وكان عدد منهم موظفين في وزارة المواصلات ، وظهر للحكومة العراقية أن بعض الأخبار أخذت تتسرّب إلى الأعداء ، فقررت الحكومة فصل الموظفين اليهود .

وجرى تعديل وزاري نتيجة استقالة وزير الدفاع صادق البصام ، فأُسندت حقيبة وزارة الدفاع بالوكالة إلى وزير المالية علي ممتاز الدفتري .

وجرى تبديل آخر[1] في ١٧ ذي الحجة ١٣٦٧هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٤٨م) تحت ضغط البلاط . وحدث هجوم على الوزارة ، وانتقاد واسع لتعيين شاكر الوادي وزيراً للدفاع ، وهو من أقطاب معاهدة (بورتسموث) .

قضية فلسطين : بعد أن دخلت الجيوش العربية فلسطين في ٧ رجب ١٣٦٧هـ (١٥ أيار ١٩٤٨م) ، وعُيّن الأمير عبد الله بن الحسين قائداً أعلى للجيوش العربية ، والفريق نور الدين محمود من العراق قائداً عاماً ، ولكن رُفضت الخطة التي وضعت للقتال بعد أن نقلها (غلوب باشا) إلى انكلترا .

وفرضت الهدنة الأولى على الجيوش العربية في ٤ شعبان ١٣٦٧هـ (١١ حزيران ١٩٤٨م) .

واستؤنف القتال ثانية في ٣ رمضان ١٣٦٧هـ (٩ تموز ١٩٤٨م) ،

---

(١) صدر الأمر الملكي بتعيين :

١ ـ علي جودت الأيوبي : وزيراً للخارجية .

٢ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية .

٣ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .

٤ ـ محمد الحبيب الأمير : وزيراً للدولة .

٥ ـ مصطفى العمري : وزيراً للدولة .

ولكن عندما رجع مصطفى العمري من رحلته رفض منصبه الجديد ، وقدّم استقالته من الوزارة .

ولكن لم تمض عشرة أيام حتى فرض مجلس الأمن الهدنة ثانية على الدول العربية في ١٢ رمضان ١٣٦٧هـ (١٨ تموز ١٩٤٨م) ، وقد حاولت بعض الدول العربية رفض هذه الهدنة ومن بينها العراق ، واقترح رئيس الحكومة العراقية يومئذٍ مزاحم الباجه جي على الدول العربية الانسحاب من هيئة الأمم المتحدة احتجاجاً على هذاالفرض[1] . وجرت احتجاجات في العراق وانتقادات وقرر كل من الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الأحرار تجميد نشاطه .

وعندما حوصرت القوات المصرية في (الفالوجة) تقرر أن تقوم الجيوش العربية بعملٍ ما لاستعادة (الفالوجة) وانتقل رؤساء أركان الجيوش العربية من القاهرة إلى الزرقاء في الأردن حيث وضعوا الخطة هناك ، وقضت بإرسال لواء عراقي من منطقة نابلس إلى الخليل ، وإرسال فوجين من سوريا مجهزين تجهيزاً كاملاً ، إلى منطقة الخليل أيضاً لدعم اللواء العراقي عند القيام بالهجوم على (الفالوجة) عن طريق (بيت جبريل) لإنقاذ حامية (الفالوجة) ، ولكن (غلوب باشا) عندما اطلع على الخطة رغم موافقة الجميع عليها ، اعترض عليها ، ورفضها وهدّد ، وقال إن قواته في منطقة القدس ستحول دون مرور الجيش العراقي ، وهكذا فشلت الخطة ، وتحمّل الجيش المصري ما تحمّله .

وانطلقت المظاهرات في المدن العراقية تطالب بدعم القوات المصرية ، وكان أشّدها ما وقع في بغداد في غرة ربيع الأول ١٣٦٨هـ (١ كانون الأول ١٩٤٨م) حيث وقعت صدامات بين الشرطة والمتظاهرين ، وجرح أكثر من مائتي رجل . واضطر مزاحم الباجه جي إلى تقديم استقالة حكومته في ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ (٦ كانون الثاني ١٩٤٩م) . فعهد الوصي إلى نوري السعيد بتشكيل الوزراة فشكّلها في اليوم نفسه[2] . وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٦٨هـ

---

(١) وافقت الدول العربية على قبول الهدنة عدا العراق وسوريا ، ولكن فرضت عليهما .

(٢) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

(١٧ آذار ١٩٤٩م) صدر أمر ملكي بتعيين :
١ ـ عمر نظمي : وزير دولة ، نائباً لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ توفيق النائب : وزيراً للداخلية .

ومع عودة نوري السعيد إلى السلطة عادت العناصر الموالية لانكلترا ، وانتهت آثار الحركة التي أطاحت بحكومة صالح جبر قبل ما يقرب من السنة .

قضية فلسطين : كانت المهمة الأولى لتشكيل حكومة نوري السعيد صرف الجهد والإمكانية لقضية فلسطين . وقد بُحث مشروع لتشكيل لواء آلي لا تقلّ قوته عن فوجين من المشاة ، وكتيبتين من المدفعية مع القوات المعاونة لها لإرساله إلى الجبهة الجنوبية لمساعدة الجيش المصري ، وقد كلف جميل المدفعي بالقيام بجولةٍ في البلدان العربية لبحث دعم القضية الفلسطينية . ولكن يبدو أن الموضوع كان مناورةً .

وفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٤٩م) انسحب الجيش العراقي من المثلث العربي (جنين ـ نابلس ـ طولكرم) بعد أن سُلّم المثلث للجيش الأردني ، ولكن لم يلبث أن سُلّم لليهود في ٢٢ رجب ١٣٦٨هـ (١٩ أيار ١٩٤٩م) . وعندما دخل الجيش العراقي حدود بلاده كانت النقمة عليه والوجوم في استقباله ، حيث خرج للجهاد ، وعاد منسحباً دون أن يُحقّق أية مهمةٍ خرج من أجلها .

= ١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ جلال بابان : وزيراً للأشغال والمواصلات.
٣ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للخارجية .
٤ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .
٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٧ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ بهاء الدين نوري : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ خليل إسماعيل : وزيراً للمالية .

العلاقة مع سوريا : كان النفوذ الإنكليزي قوياً في سوريا ، وإن كانت عناصره دون العناصر في العراق موالاة وارتباطاً ، وقد حدث انقلاب في سوريا في غرة جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٣٠ آذار ١٩٤٩م) بقيادة حسني الزعيم ، وبتدبير أمريكي لإحلال نفوذ الولايات المتحدة محل النفوذ الإنكليزي ، وأخذ اللعب يظهر بين النفوذين ، فالأمريكان يريدون الاحتفاظ بما حصلوا عليه بل يحاولون مدّ نفوذهم نحو العراق ركيزة الإنكليز ، والبريطانيون يعملون على استعادة مكانتهم وعودة نفوذهم إلى سوريا .

وفي ١١ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٩ نيسان ١٩٤٩م) أرسل وزير العراق المفوض بدمشق برقيةً إلى بغداد يُعلم حكومته أن حاكم سوريا الجديد حسني الزعيم قد طلب منه إبلاغ حكومته بضرورة عقد اتفاقية عسكرية دفاعية وبصورة مستعجلة بين سوريا والعراق ، وعند موافقة الحكومة العراقية فإنه سيرسل وفداً إلى بغداد لوضع أُسس الاتفاقية .

رحبت العراق بهذا العرض ، وأرسلت وفداً عسكرياً برئاسة العقيد الركن عبد المطلب الأمين في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ ، ولما وصل الوفد إلى دمشق قابل حسني الزعيم ، ثم التقى بالمسؤولين الذين اختارهم الحاكم السوري ، وقد شعر السوريون أن العراقيين صادقون في نواياهم ، جادون في عقد اتفاقيةٍ عسكريةٍ بين الدولتين ، وعندها بعث حسني الزعيم وفداً إلى العراق[1] في اليوم التالي مباشرةً (١٥ جمادى الآخرة) ، وقدّم الوفد السوري صورةً عن الاتفاقية العسكرية المقترحة ، وكان نصها كما يأتي :

القصد الأول قضية فلسطين ، والثاني صيانة الأمن الخارجي للبلدين تجاه أي اعتداءٍ كان ، وأينما كان مصدره .

١ ـ أن تشترك قوات البلدين فوراً بالأعمال الحربية التي قد تنشأ من عدوان اليهود .

---

(١) ضمّ الوفد : فريد زين الدين ، أسعد طلس ، العقيد توفيق بشور .

٢ ـ أن يتضامن البلدان ، وأن يتحالفا لصيانة أمنهما الخارجي تجاه أي اعتداءٍ كان .
٣ ـ أن تُوحّد القيادة لدى القتال ، وتكون بيد الطرف الذي يتعرّض للعدوان أولاً .
٤ ـ أن توجد هيئة أركان مُوحّدة بالسلم والحرب لتنسيق الخطط والبرامج وإعدادها للتنفيذ ، وأن تُهيّء ما يلزم لزيادة الانسجام في التعليم والتدريب والتسلح والتجهيز وغيره .
٥ ـ أن تزيد كل دولةٍ قوة جيشها زيادةً مطردةً سنةً فسنةً لا تقلّ عن حدٍّ أدنى يُعيّنه في كلا الطرفين .
٦ ـ أن تُقدّم إحدى البلدين للأخرى بناءً على طلبها كل مساعدةٍ عسكريةٍ ممكنةٍ ، ناظرةٍ في آنٍ واحدٍ لإمكاناتها وحاجة الطرف الآخر ، وأن تتبادلا الضباط والبعثات العسكرية .
٧ ـ التعاون لدفع أي عدوانٍ يهودي عن أي من قوات البلدان العربية ، أو عرب فلسطين .
٨ ـ يهمنا الحصول على السلاح والعتاد بأكبر قدرٍ ممكن ، مهما اختلفت أنواعه .
٩ ـ أن تعتبر هذه الاتفاقية متلائمة مع التزامات أي من الطرفين ، ومع إمكانية عقد ما يُشبهها مع البلدان العربية الأخرى .
١٠ ـ مدة الاتفاقية تُعينّ وتُحدّد .

ملاحظة عامة أساسية : موضوعات البحث هذه ينظر في تحويرها عند المذاكرة في أُسس المعاهدة .

واجتمع الوفد السوري برئيس الحكومة العراقية نوري السعيد في داره ١٧ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ وفي نهاية اللقاء أخبر نوري السعيد الوفد السوري بعدم إمكانية الدخول في الاتفاقات التي يراد عقدها الآن ما لم ترجع الحياة الدستورية إلى سوريا ، ولا بدّ من انتظار استقرار الأحوال في سوريا كي تتضح

سياستها الخارجية قبل أن نستطيع إبرام اتفاقية عسكرية بين العراق وسوريا ، وحتى دون أي طلبٍ يقع من سوريا لأننا نعتبر الخطر الصهيوني مُوجّهاً إلينا جميعاً .

ورجع الوفد إلى سوريا ، ولم يحقق شيئاً مما كان يريده .

وعُقد اجتماع في بغداد تحت إشراف الوصي الأمير عبد الإله ضمّ كلاً من : رئيس الحكومة نوري السعيد ، ونائب رئيس الحكومة عمر نظمي ، ووزير الخارجية محمد فاضل الجمالي ، ووزير الدفاع شاكر الوادي ، ورئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان ، ورئيس أركان الجيش اللواء الركن صالح صائب الجبوري ، وتقرر في هذا الاجتماع أن يُسافر رئيس الوزراء على رأس وفدٍ مؤلفٍ من وزير الدفاع ، ورئيس الأركان ، وبعض الضباط إلى دمشق لمقابلة حاكم سوريا وإعلامه عن عدم وجود ضرورة لعقد اتفاقٍ عسكري بين العراق وسوريا . وبعدها أصبحت العلاقة بين العراق وسوريا تحمل الكثير من الشكوك والريبة .

وفي ٢٠ شوال ١٣٦٨هـ (١٤ آب ١٩٤٩م) وقع انقلاب في سوريا بقيادة سامي الحناوي وقتل حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي مُباشرةً ، وكان للعراق ضلع في هذه الحركة ، وانتقل العميد سامي الحناوي قائد الانقلاب إلى العراق ، وسافر معه الملحق العسكري العراقي في دمشق العقيد الركن عبد المطلب الأمين ، وعاد الحناوي في اليوم نفسه إلى دمشق ، وأرسلت العراق رئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان إلى دمشق لدراسة إمكانية اتحاد بين العراق وسوريا .

وفي ٢٨ صفر ١٣٦٩هـ (١٩ كانون الأول ١٩٤٩م) حدث انقلاب ثالث بقيادة فوزي سلو ، وأديب الشيشكلي ، حيث استطاعت السياسة الأمريكية أن تُعيد نفوذها إلى سوريا مرةً ثالثةً ، وكانت الدول الكبرى تعمل على بثّ الخلاف بين البلدان العربية ، حيث وُجد محوران أحدهما : يضمّ العراق والأردن ، على أن يشمل الآخر مصر والسعودية ، وتتجه سوريا تارةً

إلى هذا وأخرى إلى ذاك ، وهذا التقسيم لا يتعلق بمناطق النفوذ ، وإنما لإبقاء الخلاف بين البلدان العربية ، وعدم اتفاقها فيما بينها ، ورغم أن العراق ومصر كانتا ضمن مناطق النفوذ الإنكليزي إلا أنهما ضمن محورين مختلفين ، والدول الاستعمارية الكبرى متفقة بعضها مع بعض على إبقاء البلدان العربية مختلفة ، مع أن هذه الدول الاستعمارية على صراعٍ فيما بينها على مناطق النفوذ .

حزب الإصلاح : حصل على رخصةٍ من وزارة الداخلية بناءً على طلب تقدّم به كل من : سامي شوكت ، وعبد الحميد عبد المجيد ، ومكي الشربتجي ، وعبد الرزاق حسين ، وإبراهيم زهدي ، وفريق المزهر ، ومحمد الجرجفجي ، وديوالي الدوسكي .

حزب الاتحاد الدستوري وحصل كذلك على رخصة بناءً على طلب تقدّم به كل من : نوري السعيد ، ومحمد علي محمود ، وموسى الشابندر ، وخليل كنه ، وعبد الوهاب مرجان ، وسعد عمر ، وجميل الأورفلي ، ومجيد عباس ، وأحمد العامر .

وزارة علي جودت الأيوبي الثانية : قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ١٣ محرم ١٣٦٩هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٤٩م) غير أن الوصي لم يردّ على كتاب الاستقالة مع أنه فاتح علي جودت الأيوبي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وأعاد نوري السعيد تقديم كتاب استقالة جديد في ١٧ صفر ١٣٦٩هـ (٩ كانون أول ١٩٤٩م) ، فقبلت الاستقالة ، وشكّل علي جودت الأيوبي وزارته في اليوم التالي[1] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ - علي جودت الأيوبي : رئيساً للوزراء .

٢ - مزاحم الباجه جي : نائباً للرئيس ، وزيراً للخارجية .

٣ - عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٤ - علي حيدر : وزيراً للمواصلات والأشغال .

إن حسين جميل وزير العدلية كان عضواً في الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان مجمداً لنشاطه ، وكذا كان عبد الرزاق الظاهر عضواً في حزب الأحرار المجمد أيضاً . أما سعد عمر فهو عضو مؤسس في حزب الاتحاد الدستوري .

ألغت الوزارة الأحكام العرفية التي كانت سائدة منذ تحرّك الجيش العراقي نحو فلسطين .

وعملت الحكومة على التقارب مع مصر ، وسافر وفد من العراق برئاسة نائب رئيس الحكومة مزاحم الباجه جي ، ووزير المعارف نجيب الراوي ، وتمّ عقد اتفاقية بين الطرفين قضت بعدم التدخل في شؤون سوريا ، وأنه من المصلحة تركها وشأنها حتى تستقر الأوضاع ، وأعطت الاتفاقية صفة التدخل في شؤون سوريا طرح فكرة الهلال الخصيب ، ولكن الوصي لم يرض عن هذه الاتفاقية ، كما واجهت انتقادات واسعة في الوزارة ، فكان أن قدّم علي جودت الأيوبي استقالة حكومته في ١٣ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ (١ شباط ١٩٥٠م) ، وعهد الوصي إلى توفيق السويدي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ فشكّلها[1] في ١٧ ربيع الثاني .

= ٥ ـ سعد عمر : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٦ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٧ ـ حسين جميل : وزيراً للعدلية .
٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٩ ـ عبد الرزاق الظاهر : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسن سامي تاتار : وزيراً للعدلية .
٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عبد المهدي : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٧ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ توفيق وهبي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ سعد عمر : وزيراً للمعارف . =

وزارة توفيق السويدي الثالثة : لم تزد أيام هذه الوزارة كثيراً على سبعة أشهر ونصف ، ولم تحدث أيامها كثير من المشكلات .

تمرّد : حدث أن تمرّد أحد ضباط الشرطة الذي يُدعى (علي خالد الحجازي) ، وقد كان مدير شرطة لواء بغداد ، فلما شكّل توفيق السويدي وزارته الثالثة ، وتسلّم صالح جبر وزارة الداخلية ، لم يجد مدير شرطة اللواء ارتياحاً مع وزير الداخلية ، وقرر الوزير نقل مدير الشرطة إلى لواء السليمانية بعد أن رأى في بداية الأمر فصله من العمل ، فأعلن مدير الشرطة تمرّده ، وقرر إجبار الحكومة على الاستقالة، واتصل برئيس الحكومة وهدده بانقلاب إن لم يُقال وزير الداخلية . وأعلن العصيان ، وأمر ضباط الشرطة بالتحرّك معه ففعلوا ، ولكن تمكنت الحكومة من إلقاء القبض على مدير الشرطة المنقول ، وقدّمته للمحكمة التي قضت بالحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة ، ثم أُعيدت محاكمته فحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ثم عفي عنه أيام الوزارة التي تلت هذه الحكومة .

اليهود : شكّل اليهود في بغداد (الجمعية الصهيونية لبلاد ما وراء النهرين) في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٢٢ شباط ١٩٢١م) ، وحصلوا على رخصةٍ من حكومة الانتداب في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٥ آذار ١٩٢١م) كما كانت لهم مؤسسات في كثيرٍ من المدن مثل : بغداد ، وكركوك ، وخانقين ، واربيل ، والحلة ، والبصرة . وكانت لها أغراض أدبية ورياضية ، ولكنها كانت في الواقع تقوم بنشاطٍ سياسيٍ ، وتعمل على جمع التبرعات لليهود في فلسطين ، وكان المسؤولون يتستّرون على هذه المؤسسات نتيجة

= ١٠ ـ حازم شمدين آغا : وزيراً للدولة . ١٢ ـ خليل كنه : وزيراً للدولة .
١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للدولة .

وبذا فقد ضمّت هذه الوزارة عدداً من رجالات الأحزاب وخاصةً حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد .

الإغراءات الجنسية التي يُقدّمها اليهود لهم ، أو يسعون هم وراءها حيث تعرض الفتيات اليهوديات أنفسهن ثم يتمنعن ليحصلن على ما يردن .

وصار اليهود يهربون إلى إيران ومنها إلى فلسطين ، ويرغبون في ترك بلادهم التي عاشوا فيها بأمان في ظل الرعاية الإسلامية ، فقررت الحكومة إسقاط الجنسية عن كل من ترك البلاد بصورةٍ غير مشروعةٍ أو رغب في تركها ، ثم قررت إبعاد كل من أُسقطت عنه الجنسية . وهذا ما كان يرغبه اليهود بالسماح لهم بالخروج من العراق إلى فلسطين ، فكان ذلك خدمةً عظيمةً لليهود سواء أكانت مقصودةً أم من غير قصدٍ نتيجة الجهل والبعد عن الإسلام . وكان المفروض أن يُعامل هؤلاء أنهم مُحاربون ويعملون على الالتحاق بالأعداء ، وهذا الجرم يُعاقب عليه صاحبه بالقتل ، وهو ما يُقرّه الإسلام ، وتعمل به القوانين الدولية .

معاهدة صداقة مع باكستان : وقعت معاهدة صداقة مع باكستان في ٩ جمادى الأولى ١٣٦٩هـ (٢٦ شباط ١٩٥٠م) . وسعت الحكومة لتعديل امتيازات النفط غير أنها لم تُوفّق .

ونتيجة عدم الانسجام بين أعضاء الحكومة ، وخاصةً ما كان يجده الوزراء من عجرفة وزير الداخلية صالح جبر ، وتدخّله في شؤون الوزراء كافةً . اضطر رئيس الحكومة إلى تقديم استقالته في ٢٩ ذي القعدة ١٣٦٩هـ (١٢ أيلول ١٩٥٠م) ، وقبلها الأمير زيد نائب الوصي بعد ثلاثة أيام . وعهد إلى نوري السعيد بتأليف حكومةٍ جديدة فشكّلها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٣ ـ حسن سامي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٦ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .

اليهود : أخذ اليهود في العراق يقومون بجرائم في مناطق متعددة بإلقاء القنابل والمتفجرات لتخويف أبناء عقيدتهم من ملاحقة العراقيين لهم ، فيعملون على الهجرة من العراق . وهذه نتيجة عدم تطبيق الإسلام في معاملة المحاربين من أهل الكتاب ، وإن عدم الأخذ بالمبادىء ، وترك الأمور مائعةً يُسبّب الفوضى واختلال الأمن .

الجبهة الشعبية المتحدة : عمل زعماء المعارضة والأحزاب السياسية المناوئة على تشكيل جبهةٍ واحدةٍ باسم « الجبهة الشعبية المتحدة » ، وتقدّموا بطلب إلى وزارة الداخلية للحصول على رخصةٍ بذلك ، وذلك في تاريخ ٨ رجب ١٣٧٠هـ (١٤ نيسان ١٩٥١م) . وكانت الغاية من هذه الجبهة الدعوة إلى الوقوف على الحياد بين الغرب والشرق ، حيث كان قد صدر بيان بهذا الهدف ووقعه عدد من كبار الساسة[١] . ولكن وزارة الداخلية رفضت الطلب بحجة أن الحزب يتألف من مجموعة أفراد لا من مجموعة هيئات ، لذا فقد أعيدت صياغة الطلب ، على أنه يتألف من أفراد ، وتكونت الجبهة الشعبية المتحدة ، وتعمل على تحرير العراق من كل نفوذٍ أجنبي ، والوقوف على الحياد بين المعسكرين ، ودعم البلدان العربية ، والعمل على صيانة فلسطين . وبرز من هذه الجبهة طه الهاشمي ، ومزاحم الباجه جي .

ثم جرى تعاون بين الجبهة الشعبية المتحدة ، والحزب الوطني الديمقراطي الذي كان قد جمّد نشاطه منذ مدّةٍ .

= ٧ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال ، وزيراً للمالية بالوكالة .

(١) وقّع البيان كل من : كامل الجادرجي ، جعفر حمندي ، عبد الهادي الظاهر ، برهان الدين باش أعيان ، عارف قفطان ، صالح شكاره ، عبد الرزاق الظاهر ، خدوري خدوري ، حسن عبد الرحمن ، جميل صادق ، جعفر البدر ، خطاب الخضيري ، محمود الدرة ، نجيب الصايغ ، عبد الجبار جومرد ، عبد الرزاق الشيخلي ، عبد الرحمن الجليلي ، عبد الرزاق حمود .

حزب الأمة الاشتراكي : تعمل الدول الكبرى الاستعمارية عادةً على اللعب على أكثر من جواد خوفاً من كبوة جوادها إن كان وحيداً ، فإذا ما تعثر جوادها الأول امتطت الآخر المسرج والمعد للركب أساساً ، وعلى هذا فقد شجّعت السلطات الإنكليزية صالح جبر على تأسيس حزب ليكون الرهان بينه وبين نوري السعيد رئيس حزب الاتحاد الدستوري ، وعلى هذا فقد نشط صالح جبر ، وتقدّم مع بعض أصحابه لأخذ رخصة لتأسيس « حزب الأمة الاشتراكي » ، وكانت موضة الاشتراكية قد أخذت تظهر سواء أكانت حقيقةً ومبدأ أم شعاراً تتستر خلفه لتخفي حقيقتها ، وتقدّموا بالطلب في ١٦ رمضان ١٣٧٠هـ (٢٠ حزيران ١٩٥١م) وبعد أربعة أيام حصلوا على الرخصة اللازمة[1] .

ولم يلبث أن اندمج حزب الإصلاح مع حزب الأمة الاشتراكي ، بعد أن عدّ نفسه منحلاً .

توسعة الوزارة : كان قد دخل الوزارة بعد إعلان تشكيلها توفيق السويدي الذي عُيّن نائباً لرئيس الحكومة وبعدها عُيّن كل من : محمد حسن كبة، ومصطفى العمري، وعمر نظمي وزراء للدولة. وعبد المجيد محمود وزيراً للاقتصاد ، وضياء جعفر وزيراً للأشغال والمواصلات بعد أن كان يشغل منصب وزير الاقتصاد وعبد الوهاب مرجان وزيراً للمالية ، وكان يشغل منصب وزير الأشغال والمواصلات .

العمل على الاتحاد مع الأردن : كان الملك عبد الله ملك الأردن قد وضع أسسس الاتحاد بين المملكتين الهاشميتين وبعث بهذه الأسس إلى الوصي على اعتباره ابن أخيه والملك فيصل الثاني ابن ابن أخيه ، وله عليهما صفة

(١) كان الذين وقعوا على طلب التأسيس : صالح جبر ، عبد المهدي ، عبد الكاظم الشمخاني ، جواد جعفر ، عبد الرزاق الأزري ، عز الدين النقيب ، محمد النقيب ، أحمد الجليلي ، حبيب الطالباني ، حنا خياط ، نظيف الشاوي .

الإشراف والرعاية ، وأرسل بهذه الأسس مع وزير البلاط سمير الرفاعي في ١٦ شعبان ١٣٦٩هـ (٢ حزيران ١٩٥٠م) ليرى الوصي فيها رأيه ، وهي كما يأتي :

أولاً : تعتبر المملكتان العراقية والأردنية مملكتين متحدتين وفق الشروط المتفق عليها .

ثانياً : يقوم مجلس اتحاد عالٍ ، أعضاؤه يُنصّبون من حكومتهم على عددٍ واحد ، ومدةٍ معينةٍ ، وأن يجري اختيارهم من أعيان البلدين ، ومن رئيس الوزراء في البلدين أو نائبه ، ووزير الخارجية في كلا البلدين ووزيري المالية والدفاع .

ثالثاً : يجتمع مجلس الاتحاد بالمناوبة في كل عام بإحدى العاصمتين ، ويرأس مجلس الاتحاد رئيس وزراء تلك البلاد ، وفي حالة الحاجة للتذاكر في أمور فوق العادة يرأس المجلس صاحب الجلالة الملك في تلك البلاد، وتحتفظ كل مملكة بحقوقها الحاضرة ودستورها التام .

رابعاً : يفتتح أول جلسة كل عام حضرة صاحب الجلالة الملك الذي يجتمع المجلس في مملكته .

خامساً : تكون راية الاتحاد الراية الهاشمية الأولى الحجازية ، على أن تبقى الراية الحاضرة لكل بلدٍ منصوبةً عليها في داخلها .

سادساً : تعاون إحدى المملكتين أختها معاونةً عسكريةً في حالة عداءٍ يُوجّه إلى إحديهما من أية دولةٍ أخرى ، أو أكثر من دولةٍ .

سابعاً : تُنسّق القوى العسكرية في البلدين على نظامٍ واحدٍ .

ثامناً : تُزال الموانع الجمركية ، وتذاكر المرور بين البلدين .

تاسعاً : تُنسّق أمور المعارف على وتيرةٍ واحدةٍ ، ويُتّفق على قبول الطلبة في كلا المملكتين ، بطريقة تُسهّل الغرض من ذلك .

عاشراً : للمملكتين المتحدتين سياسة خارجية واحدة ، وتُمثّل كل بلد أختها في الخارج في حالةعدم وجود ممثل لإحديهما في تلك البلاد الأجنبية .

حادي عشر : ترفع راية الاتحاد في البلاد الأجنبية على دور السفارات والمفوضيات والقنصليات العامة .

ثاني عشر : العائلة المالكة في المملكتين تعتبر لها عين الحقوق في البلدين فإذا توفي الملك دون وريث ، فيكون وريث العرش الشخص اللائق من ذرية المنقذ الحسين بن علي .

درست الحكومة العراقية هذه الأسس المقترحة ، واقترحت مشروعاً آخر ، وقد جاء فيه :

لما كان اتحاد المملكتين الشقيقتين اتحاداً فعلياً يُؤدّي حتماً إلى ازدهارهما وإلى تحقيق الأهداف الغالية التي توخّتها الثورة العربية الكبرى فإن الإجراءات التالية تتخذ حالاً بعد إبرام الاتفاق بالطرق الدستورية لكلا المتعاقدين .

أولاً : يُوحّد التاجان الأردني والعراقي بالطرق الآتية :

يعلن صاحب الجلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية الملك عبد الله بن الحسين قراره السامي في جعل حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العراقية الملك فيصل الثاني ولياً لعهد المملكة الأردنية الهاشمية منذ الآن ، وذلك تمهيداً لجعله ملك العراق والأردن في المستقبل ، وتتخذ الإجراءات الدستورية لتأمين ذلك .

ثانياً : إذا توفي ملك العراق والأردن دون وارث يعمل بحكم المادة ٢٠ من القانون الأساسي العراقي .

ثالثاً : يعتبر الاتحاد بين المملكتين في الوقت الحاضر اتحاداً في التاج ، وتبقى المملكتان محتفظتين بكيانهما الداخلي ، والتشريعي لمدة لا تزيد على الخمس سنوات ، تجري خلالها مفاوضات لتحقيق المطلوب ، أو أي شكلٍ

آخر يُتفق عليه .

رابعاً : تتوحّد فوراً السياسة الخارجية ، والتمثيل الخارجي ، والعملة في المملكتين .

خامساً : تزال الموانع الجمركية ، وتلغى تذاكر المرور بين البلدين .

سادساً : تحتفظ كل مملكةٍ برايتها الحاضرة ، وتحدث راية مشتركة تُعيَّن فيما بعد .

سابعاً : يجري تعاون عسكري وثيق ما بين المملكتين ، يُسارع كل منهما لإنجاد الآخر في حالة وقوع أي اعتداءٍ عليه .

ولكن مقتل الملك عبد الله المفاجىء في ١٦ شوال ١٣٧٠هـ (٢٠ تموز ١٩٥١م) حال دون تحقيق المشروع .

محاولة تمرّد اليزيديين : حاول اليزيديون القيام بحركة تمرّد ، وأخذوا يستعدون لذلك ، وأحسّت الحكومة بنواياهم ، فعملت على إرسال قوةٍ إلى سنجار ، ولما شعر العصاة باستعداد الحكومة والتهيؤ لكل طارىء استسلموا في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٧٠هـ (٥ آذار ١٩٥١م) .

العمل على تأميم النفط العراقي : عندما تسلّم محمد مصدق رئاسة الوزارة الإيرانية ، اتجه نحو تأميم النفط في بلاده ، وفسخ الامتياز القائم بين دولته وبين شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية ، فقوبل ذلك بحماسةٍ شديدة في العراق ، وقامت الدعوة لتأميم النفط ، وبدأت الأحزاب السياسية والصحف المعارضة تدعو إلى التأميم ، وتقدّم عشرون نائباً في المجلس النيابي العراقي إلى رئاسة المجلس بطلب سنّ لائحة قانونية لتأميم نفط العراق . وقد انتزع نفط العراق ، وأُخذ امتياز استثماره كرهاً وقت الانتداب البريطاني . وإن ما يأتي من دخلٍ وطني للعراق من النفط يُعدّ قليلاً جداً ، وإن المناطق التي عُثر فيها على النفط حديثاً ، أي بعد العراق بكثير ، حصلت على فوائد أكبر بكثير مما يحصل عليه العراق .

وأمام هذه الوقائع ، والمعارضة الشديدة ، والنقد العنيف لم تستطع الحكومة أن تصمد في وجه المعارضة فأخذت تطالب بتعديل شروط الاتفاقية وبتأميم الثروات النفطية في بلادها . ونتيجة الإلحاح الشعبي وإصراره على أخذ الحقوق فقد سهّل المفاوضات مع بعض الشركات والوصول إلى نتائج سريعة ، رغم أن مبدأ المناصفة في الأرباح قد أقرته الشركات مقدماً . كما أبدت بعض الشركات الأخرى الكثير من التعنت .

وكانت في العراق عدة شركات منها :

١ ـ شركة نفط خانقين : وهي فرع من شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية .

٢ ـ شركة نفط الرافدين : وهي أيضاً فرع من شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية .

٣ ـ شركة نفط الموصل .

٤ ـ شركة نفط البصرة .

٥ ـ شركة النفط العراقية : وتتألف من عدة شركات إنكليزية ، وأمريكية ، وفرنسية ، وهولندية .

اتفقت الحكومة العراقية مع شركتي نفط الرافدين ، ونفط خانقين على امتلاك مؤسساتها ، وتكليف شركة نفط خانقين بإدارتها نيابةً عن الحكومة . وقد صدر بيان بذلك في ٢٧ ربيع الأول ١٣٧١هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٥١م) .

أما الشركات الأخرى ، وهي شركة نفط الموصل ، ونفط البصرة ، وشركة النفط العراقية ، فقد بذلت الحكومة كل جهودها لزيادة واردات الحكومة عن الطن الواحد . وزيادة كميات النفط المستخرجة والمصدرة .

لقد أصبحت حصة الحكومة ٥٠٪ من صافي الأرباح التي تحصل عليها الشركات من عملياتها في العراق ، وذلك قبل تنزيل أية ضريبة عن هذه

الأرباح ، ويحقّ للحكومة أن تستوفي ـ كحد أدنى ٢٥٪ من قيمة إنتاج كل من شركتي النفط العراقية ، ونفط الموصل ، و٣٣,٣٪ من إنتاج شركة نفط البصرة، وذلك حسب الأسعار العالمية السائدة في ميناء التصدير البحري ، كما يحق للحكومة أن تأخذ ١٢,٥٪ من النفط الخام عيناً ، وذلك من مجموع إنتاج الشركات الثلاث ، على أن تسلّمه في ميناء التصدير البحري ، وتتصرّف بهذه الكمية حسب رغبتها .

ولقد تعهدت كل من شركتي النفط العراقية ، ونفط الموصل بتصدير ما لا يقلّ عن ٢٢ مليون طن من النفط الخام سنوياً كحدٍّ أدنى ، كما تعهدت شركة نفط البصرة بتصدير ثمانية ملايين طن من النفط الخام سنوياً كحدٍّ أدنى كذلك . وقد تعهدت الشركة بموجب التعديل الجديد بأن لا تقلّ واردات الحكومة عن عشرين مليون دينار خلال السنتين القادمتين و ٢٥ مليون دينار خلال السنوات القادمة .

ولما عرضت الاتفاقات على المجلس النيابي للتصديق عليها رفضتها الأكثرية ، وقدّم نواب حزب الاستقلال استقالتهم من المجلس ، ولما طُرحت للتصويت حصلت على النصاب القانوني .

موقف الأحزاب : عدّ حزب الاستقلال الاتفاقيات أنها قد فرضت فرضاً . وعدّ الحزب الوطني الديمقراطي ، والجبهة الشعبية المتحدة أنها غامضة . وأما حزب الأمة الاشتراكي فقد انتقد الاتفاقيات بعنف . ودعت الأحزاب الشعب إلى الإضراب العام يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (١٩ شباط عام ١٩٥٢م) ، فلبى الدعوة عدد من أصحاب المحلات ، وكانت التلبية للدعوة خارج العاصمة أكثر من بغداد نفسها ، ووقعت صدامات بين الشرطة والمتظاهرين ، ووقع الكثير من الجرحى .

وقدّمت الحكومة استقالتها في ١٨ شوال ١٣٧١هـ (١٠ تموز ١٩٥٢م) . وعهد الوصي إلى مصطفى العمري بتشكيل وزارة جديدة .

شكّل مصطفى العمري[1] الوزارة في ٢٠ شوال ١٣٧١هـ (١٢ تموز ١٩٥٢م) ، ورغم أنه لم يزد عمرها على الأربعة أشهر كثيراً ، إلا أن أكثر أيامها كانت فوضى وإضطرابات .

إضراب عمال ميناء البصرة : قررت الحكومة منح نصف راتب شهر للموظفين بمناسبة عيد الأضحى عام ١٣٧١هـ ، فظنّ عمال ميناء البصرة أن المنحة لا تشملهم فقاموا بإضراب عطّل الأعمال في الميناء ، وانقطعت المياه عن المدينة ، وكذا التيار الكهربائي . ولما علموا أن المنحة تنالهم تقدّموا بمطالب جديدة بعد أن رأوا أثر إضرابهم ، واهتمام الحكومة به ، وخاصةً أن الأيام قادمة على عيد ، فوقع صدام مسلح ذهب ضحيته عدد من القتلى والجرحى ، وقامت المعارضة تهاجم الأسلوب الذي اتخذته الحكومة في معالجة الموقف .

حلّ المجلس النيابي والانتخابات : صدر أمر ملكي بحلّ المجلس النيابي في ٨ صفر ١٣٧٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٥٢م) . ولكن الأحزاب السياسية قد أعلنت مقاطعتها للانتخابات التي ستجري عدا حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد الذي طمع أن يحصل على الأكثرية . وأعلنت الأحزاب أن الطريقة التي تتم فيها الانتخابات غير صحيحة ، ويجب أن يكون الانتخاب مباشرةً (على درجةٍ واحدةٍ) ، وقد تضايق الوصي من هذه المقاطعات وخاصةً أن المنطقة تتعرّض لأزماتٍ متواليةٍ حسب رأي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مصطفى العمري : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٣ ـ عبد الجبار الجلبي : وزيراً للزراعة .
٤ ـ عبد الله الدملوجي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ عبد المجيد علاوي : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للصحة .
٧ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٨ ـ إبراهيم الشابندر : وزيراً للمالية .
٩ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للدفاع .
١٠ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
١١ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .

الوصي ، حكم محمد مصدق في إيران ، الانقلاب في مصر ، ومثله في لبنان ، والانقلابات تتوالى في سوريا ، وكل هذا ينذر بقية الحكومات التي لا تزال تستبد بشعبها . وعمل الوصي بناءً على رأي رئيس الحكومة مصطفى العمري ، ورئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان على دعوة الساسة إلى مؤتمر ، فلبوا الدعوة ، وعُقد المؤتمر في ٢ صفر ١٣٧٢هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٥٢م) ، فوقع في المؤتمر خلاف واتهامات ،وخاصةً ما كان بين الوصي وطه الهاشمي رئيس اللجنة العليا للجبهة الشعبية المتحدة . واضطر طه الهاشمي إلى الخروج من المؤتمر .

وقدّم وزير المالية إبراهيم الشابندر استقالته . وخرج الطلاب يوم الخميس في الثاني من شهر ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٢م) بمظاهراتٍ ، ووقع عدد من الشرطة قتلى وجرحى ، وتوقّفت الدراسة في المعاهد العليا ، وأضرب طلاب كلية الصيدلة والكيمياء ، وطالبوا بوجوب الأخذ بالانتخاب المباشر ، وطلبت الحكومة الاستعانة بالشرطة ، ثم بالجيش ، وتردّد رئيس أركان الجيش نور الدين محمود في تنفيذ الأوامر ، واستمرّت المظاهرات ، واضطرت الحكومة إلى تقديم استقالتها في ٣ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٥٢م) . وعهد الوصي إلى الفريق رئيس أركان الجيش نور الدين محمود بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ ، فشكّلها[1] في ٥ ربيع

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نور الدين محمود : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع ، ووزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ علي محمود الشيخ علي : وزيراً للمالية .

٣ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وزيراً للاقتصاد بالوكالة .

٤ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .

٥ ـ قاسم خليل : وزيراً للمعارف .

٦ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية ، وزيراً للمواصلات والأشغال بالوكالة .

٧ ـ رابح العطية : وزيراً للزراعة .

٨ ـ عبد المجيد القصاب : وزيراً للصحة .

الأول ١٣٧٢هـ (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢م) .

وزارة الفريق نور الدين محمود : اتخذت هذه الوزارة إجراءات قاسية للسيطرة على الوضع ، فقد أعلنت الأحكام العرفية في لواء بغداد ، وأغلقت الأحزاب السياسية ، وعطّلت الصحف الحزبية ، واعتقلت عدداً كبيراً من السياسيين في معتقل « أبي غريب » ، ومع ذلك فلم تنقطع المظاهرات إذ أحسّ المواطنون عطفاً من قوات الجيش ، إذ كانت النار تُطلق في الهواء لإرهاب الناس فقط .

وجرت الانتخابات العامة في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٥٣م) . واجتمع المجلس النيابي في ٩ جمادى الأولى ، فانتهت بذلك مهمة الوزارة ، وقدّمت استقالتها ، إذ لم يكن رئيسها على درجةٍ من الراحة ، إذ لم يُرشّح للوزارة التي يرأسها سوى قاسم خليل وزير المعارف ، وعبد المجيد القصاب وزير الصحة . أما الآخرون فقد كانوا بترشيح من الوصي أو نوري السعيد ، وهكذا كانت كل وزارة ، يعهد الوصي إلى أحد الموالين له والمؤيدين للسياسة البريطانية بتشكيل الحكومة ، ويُرشّح له بعض عناصرها ، ويتدخّل نوري السعيد في تشكيلها ويُسمّي بعض أعضائها ، ويطلب من فلان عدم الموافقة على الاشتراك بالوزارة ، ويدفع فلاناً لها ، ويفرضها على رئيسها ، كما كان هناك دور لكلٍ من صالح جبر ، وجميل المدفعي ، وأرشد العمري ، وعلي جودت الأيوبي ، وإن كانوا بشكلٍ أقلّ من نوري السعيد ، ولتوفيق السويدي دور ، ولحكمت سليمان مثله . وفوق كل هذا فالسفارة البريطانية في بغداد تلعب دوراً بالتوجيه ، واختيار العناصر ، ومن تُوافق عليه ، ومن لا تُوافق عليه .

بعد استقالة نور الدين محمود عهد الوصي إلى نصرت الفارسي لتأليف الحكومة على شرط أن يكون حرّاً في اختياره ، ولكن لم يجد من يتعاون معه ما دامت أكثرية المجلس النيابي ليست بجانبه ، فيمكن أن تسقط كل حين ، وربما

بعد أيام ، إضافةً إلى الصراع مع المجلس ، ومع المعارضة . ولذا فقد اعتذر نصرت الفارسي عن المهمة التي كُلّف بها ، فعهد الوصي إلى جميل المدفعي بتشكيل الحكومة .

وزارة جميل المدفعي السادسة : شكّل الوزارة[1] في ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣م) . وفي اليوم التالي استؤنفت الدراسة .

وفي ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ (١٥ آذار ١٩٥٣م) رفعت تأشيرات الدخول بين العراق وبعض البلدان العربية كمعاملة بالمثل .

وخرجت المظاهرات الطلابية من دار المعلمين الابتدائية احتجاجاً على الأحكام العرفية السائدة والتي لا داعي لها ، هذا إضافةً إلى تعطيل الصحف عن الصدور ، وتوقيف نشاط الأحزاب السياسية وبالتالي تعطيل الحياة الدستورية .

تتويج الملك فيصل الثاني : بلغ الملك فيصل الثاني سن الرشد في ١٨ شعبان ١٣٧٢هـ (٢ أيار ١٩٥٣م) ، وبذا فقد وجب أن يتسلم المسؤولية وأن تنتهي فترة الوصاية عليه ، وجرت احتفالات في البلاد بهذه المناسبة ، وتُوّج الملك فيصل رسمياً .

استقالة الوزارة : تقضي التقاليد الدستورية أن يُقدّم رئيس الحكومة استقالة وزارته فيما إذا تغيّر رأس الدولة ، كي يتيح له فرصة اختيار من يراه

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت الأيوبي : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٦ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٧ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٨ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١١ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١٣ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال .

مناسباً لرئاسة الحكومة ، ولتطبيق السياسة التي يريد أن ينتهجها في دولته . ومن هذ المنطلق فإن جميل المدفعي قد قدّم استقالة حكومته ٢١ شعبان أي بعد الانتهاء من مراسم تسلّم الملك سلطاته الدستورية .

وعاد الملك فيصل الثاني فوجّه كتاباً إلى رئيس الحكومة المستقيلة يعهد إليه فيه بإعادة تشكيل الحكومة من جديد ، وكان ذلك بتوجيه من خاله الأمير عبد الإله (الوصي سابقاً) .

وزارة جميل المدفعي السابعة : أعاد رئيس الحكومة المستقيلة تشكيل وزارةٍ جديدةٍ[1] من أعضاء الوزارة السابقة أنفسهم مع إسناد الحقائب نفسها لأصحابها بعد إدخال وزيري دولة .

لم يلبث أن استقال من الوزارة عبد الوهاب مرجان وزير الأشغال والمواصلات لاختلافه مع مدير عام ميناء البصرة سعيد القزاز ففصله عن عمله ، فانتقد الوزارة الكثير ، واعترض من اعترض ، وتوسّط عدد من الوزراء في الموضوع ، وذلك لأن سعيد القزاز كان أول مدير عام للميناء من العراق وكان من قبله يتولّى هذه المهمة بعض الإنكليز . وكان الوزير يظنّ أن الناس يعملون لإعادة مدير الميناء إلى عمله ، لذلك قدّم استقالته .

كانت وزارة نور الدين محمود قد اعتقلت عدداً من الشيوعيين ، وأخذ

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت الأيوبي : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٥ ـ محمد علي محمود : وزيراً للعدلية .
٦ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٧ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٨ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للأشغال والمواصلات .
١٠ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١١ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للداخلية .
١٢ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للزراعة .
١٣ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١٤ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للدولة .

عدد منهم بالهرب من السجن في بغداد فعاملت الحكومة السجناء معاملةً قاسيةً ، فاحتجّ على تلك المعاملة عدد من الساسة العراقيين . ثم انتقل هربُ السجناء إلى سجن (الكوت) وكان بينهم عدد من اليهود الشيوعيين فقست عليهم الدولة ، فاحتجّ حزبا الاستقلال ، والوطني الديمقراطي رغم تجميد نشاطهما بسبب إعلان الأحكام العرفية .

لم تكن الاحتجاجات لأن السجناء من الشيوعيين ، لا ، وإنما لأن هذه المعاملة لا يصحّ أن تكون من حكومة لرعاياها بغضّ النظر عن الأفكار التي يحملونها . مع العلم أن الشيوعية تستحق خصومها السياسيين سحقاً ، ولا تدخلهم السجون ، وإنما تقضي عليهم قبل ذلك . ولكن لا يصحّ أن تكون سياستنا ومعاملتنا ردود فعل لما يفعله الآخرون .

ونتيجة كثرة الانتقادات للحكومة فقد قدّم جميل المدفعي استقالة حكومته في ٥ المحرم ١٣٧٣هـ (١٥ أيلول ١٩٥٣م)، وربما كان السبب الرئيسي أن أكثرية المجلس النيابي تُؤيّد نوري السعيد الذي يُعدّ الخصم السياسي لجميل المدفعي ، إذ كان الوصي يشعل النار بينهما سراً ليستفيد من خصومتهما ، وتصل إليه الأخبار كاملةً ويعرف ماذا يجري عن طريقهما .

وزارة محمد فاضل الجمالي الأولى : بعد اتصالات واسعة أجراها الملك بين السياسيين لترشيح رئيس للوزارة التي ستخلف حكومة جميل المدفعي ، وقع الاختيار على محمد فاضل الجمالي فكلفه بالمهمة ، فأتمها في السابع من المحرم ١٣٧٣هـ (١٧ أيلول ١٩٥٣م)[١] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ محمد فاضل الجمالي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ محمد علي محمود : نائباً لرئيس الوزراء.

٣ ـ علي حيدر سليمان : وزيراً للإعمار .

٤ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .

٥ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للعدلية .

ألغت الحكومة الأحكام العرفية التي فرضتها حكومة نور الدين محمود ، وسمحت للأحزاب بالعودة إلى النشاط بعد أن كانت أغلقتها حكومة نور الدين محمود أيضاً . كما عادت النوادي والجمعيات إلى مزاولة نشاطها مع إلغاء الأحكام العرفية .

ولكن عادت هذه الحكومة فأعلنت الأحكام العرفية في منطقة البصرة بناءً على إصرارٍ من وزير الداخلية ، وذلك أن عمال شركة نفط البصرة قد اختلفوا مع إدارة شركتهم ، وذهب إليهم وزير الشؤون الاجتماعية ، وحلّ الموضوع ، غير أنه عاد فأثير ، وتفاقم ، وتطوّر ، حتى أُعلنت الأحكام العرفية محلياً ، وعُطّلت تسع صحفٍ . فانسحب من الحكومة عبد الرحمن الجليلي ، وحسن عبد الرحمن بناءً على قرار من الهيئة العليا للجبهة الشعبية المتحدة اللذين هما من أعضائها . كما جرى احتجاج في المجلس النيابي على إعلان الأحكام العرفية في منطقة البصرة .

العمل على الإطاحة بالحكم في سوريا : كان العقيد أديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية ، وقد وصل إلى السلطةعن طريق انقلابٍ عسكريٍ قام به مع فوزي سلو ضدّ العميد سامي الحناوي ، ثم أعقبه بانقلابٍ آخر ضدّ الحكم المدني ، وتفرّد فيه بالسلطة . وكان يسير في خطٍ يُغاير الخط الذي تسير فيه العراق ، حيث قوي النفوذ الأمريكي في سوريا أيام أديب

= ٦ ـ عبد المجيد القصاب : وزيراً للمعارف .
٧ ـ عبد الله بكر : وزيراً للخارجية .
٨ ـ حسين مكي خماس : وزيراً للدفاع .
٩ ـ عبد المجيد عباس : وزيراً للمواصلات .
١٠ ـ عبد الرحمن الجليلي : وزيراً للاقتصاد .
١١ ـ حسن عبد الرحمن : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
١٣ ـ عبد الغني الدلي : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ أركان عبادي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ صادق كمونة : وزيراً للدولة .
١٦ ـ محمد شفيق العاني : وزيراً للدولة .
١٧ ـ رفائيل بطي : وزيراً للدولة .

الشيشكلي على حين كان النفوذ الإنكليزي هو المسيطر في العراق .

وكان أديب الشيشكلي يشنّ الهجوم على العراق باستمرار ، ويصفها بأنها قاعدة إنكليزية ، ومقرّ للاستعمار الغربي فعمل الساسة العراقيون على الاتصال بالمعارضة السورية، واستطاع محمد فاضل الجمالي الاتصال مع هاشم الأتاسي ، وبحث معه موضوع تغيير الحكم السوري ، وتم لقاء المعارضة السورية في مدينة حمص وعملت العراق على مدّ هذه المعارضة بالمال ، والسلاح ، والعتاد . ويبدو أن هاشم الأتاسي قد طلب مائة ألف دينار لإمكانية التحرّك . ورصدت العراق مبلغ ثلاثمائة ألف دينار نصفها للحرس الوطني الأردني والنصف الآخر لرجال سوريا للإطاحة بالحكم العسكري السوري ثم الانضمام إلى العراق .

كان العقيد أديب الشيشكلي يرصد تحرّكات المعارضة فاضطر إلى الهرب من سوريا إلى لبنان كل من : صبري العسلي ، وعدنان الأتاسي ، وحسني البرازي ، وميخائيل اليان . وقد سافر صالح جبر إلى لبنان يحمل مائة ألف دينار ، ويبدو أنه قد سلّم سبعين ألفاً منها . كما أن معروف الدواليبي رئيس الحكومة التي قام انقلاب أديب الشيشكلي عليها ، أو يوم تشكيلها قد وصل إلى بغداد سراً ، ونزل في دار عضو مجلس الأعيان عبد الهادي الجلبي ، وبقي هناك أربعين يوماً .

كان الاتفاق على دعم المعارضة السورية منذ أيام حكومة جميل المدفعي الذي كان يتردد ، كما أن نوري السعيد كان يرى فكرة ضمّ سوريا للعراق إنما هي نظرية ولا تتم . فلما كانت حكومة محمد فاضل الجمالي جازف في الموضوع . وأخيراً أُطيح بنظام أديب الشيشكلي ، وأُبعدت فكرة ضمّ سوريا للعراق .

وأخيراً اضطرّ محمد فاضل الجمالي إلى تقديم استقالة حكومته إذ تقضي الفقرة الثانية من المادة (٦٤) من القانون الأساسي العراقي ألا يبقى الوزير في

منصبه أكثر من ستة أشهر إن لم يكن عضواً في أحد المجلسين النيابي أو الأعيان . فقدم الاستقالة في ٢ رجب ١٣٧٣هـ (٨ آذار ١٩٥٤م) ، وكلّف ثانية بتشكيل الحكومة الجديدة بعد أن اعتذر رئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان ، كما حاول هو الاعتذار لعدم وجود أكثرية نيابية بجانبه ، وألمح إلى حلّ المجلس والبدء بانتخابات جديدة فطلب منه التجربة فشكّل وزارته الثانية[1] .

وزارة محمد فاضل الجمالي الثانية : إن المعاهدة العراقية ـ البريطانية التي تم عقدها في ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) كانت مدتها خمس وعشرون سنة بدءاً من تنفيذها الذي يعتبر بقبول العراق عضواً في مجلس عصبة الأمم ، وكان القصد منها إبقاء الاحتلال البريطاني للعراق ، فلما قاربت المعاهدة على الانتهاء ، عملت انكلترا على استبدالها بمعاهدة شبيهة لها إن لم تكن أشدّ وطأة على العراق ، وكانت معاهدة (بورتسموث) التي أطاح بها الشعب العراقي . ورأت انكلترا أن يكون بديل المعاهدة حلف يربطها مع الدول التي تسير بفلك انكلترا مثل تركيا وباكستان . وعرضت الموضوع على العراق تحت عنوان الوقوف في وجه الشيوعية ، وكانت الفكرة مقبولة لدى العراقيين ، ولم تر حكومة محمد فاضل الجمالي في هذا الحلف شيئاً ، وإن رأى تأخير ذلك ريثما تنتهي المحادثات المصرية ـ البريطانية من أجل الجلاء كي لا يكون الحلف عامل تعنت بالنسبة لانكلترا ، أو هكذا وعد محمد فاضل الجمالي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ محمد فاضل الجمالي: رئيساً للوزراء .
٢ ـ أحمد مختار بابان : نائباً للرئيس .
٣ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .
٤ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٥ ـ علي حيدر سليمان: وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للإعمار .
٧ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ عبد المجيد القصاب: وزيراً للصحة .
٩ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ حسين مكي خماس: وزيراً للدفاع .
١١ ـ عبد المجيد عباس: وزيراً للمواصلات .
١٢ ـ أركان عبادي: وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ عبد الغني دلّي : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ محمد علي محمود: وزيراً للعدلية .
١٥ ـ رفائيل بطي : وزيراً للدولة .

يومذاك رئيس الوزارة المصرية جمال عبد الناصر .

كانت الولايات المتحدة تريد أن تمدّ نفوذها إلى منطقة الشرق الأوسط ، وخاصةً العراق وذلك عندما رأت أن نفوذها في سوريا لا يلبث أن يثبت حتى يُزاح بتأثيراتٍ من العراق ، وقد مرّ معنا دور العراق بالإطاحة في حكم العقيد أديب الشيشكلي ، ومن أجل هذا عرضت الولايات المتحدة مساعداتٍ على دول المنطقة ، وطلب العراق من هذه المساعدات فجاءت الموافقة ، ولم تكن هذه المساعدات خالصةً دون الحصول على فائدةٍ ، ولكن من أجل أن تتمّ اللعبة ، وتنطلي على من يُفكّر من الشعب ، وهم قليل ، ثارت ثائرة اليهود ، وأعلنوا احتجاجهم ، واستنكارهم ، وأظهروا أن الولايات المتحدة تمالىء العراقيين لتحقيق بعض أغراضها. فجعلت الولايات المتحدة عندها شروطاً لهذه المساعدات في أن تستخدم للأمن الداخلي [لحماية النظام من الشعب] ، وألا تستعمل ضدّ دولةٍ أخرى فوافقت العراق ، واستطاعت الولايات المتحدة أن تضع الخطوة الثانية في العراق ، وأن تمدّ يدها إلى جانب النفوذ الإنكليزي .

لم يُوافق نوري السعيد أن تستمر الاتصالات مع السوريين لقيام مشروع الهلال الخصيب أو الاتحاد بين الإقليمين ، ولم يقبل بصرف الأموال التي أنفقتها الحكومة ، فاضطر رئيسها إلى تقديم استقالة حكومته في ١٦ شعبان ١٣٧٣هـ (١٩ نيسان ١٩٥٤م) .

وكانت آراء أكثر الساسة ترى حلّ المجلس النيابي ، وألح ولي العهد عبد الإله لنوري السعيد بالاستعداد لتأليف الوزارة ، فأخذ يتهيأ ، ولكن اعتذر محمد فاضل الجمالي بالاشتراك معه كوزير للخارجية بعد أن رأى موقفه منه فتعلّل بالمرض ، واعتذر علي ممتاز الدفتري ، وظنّ نوري السعيد أنها مؤامرة ضدّه فغادر العراق مُغاضباً ، وعُهد إلى أرشد العمري ليُشكّل وزارةً مُحايدةً تُشرف على الانتخابات النيابية .

وزارة أرشد العمري الثانية : شكّل أرشد الوزارة في ٢٦ شعبان

١٣٧٣هـ (٢٩ نيسان ١٩٥٤م)[1]. واستنكرت الأحزاب السياسية تشكيل هذه الوزارة لتاريخ رئيسها في الضغط على الحريات والتعنت في معالجة الأمور، والاستبداد في التصرّف . وطلب كل من حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي من الملك إعفاء هذه الوزارة .

وعمل حزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال على تشكيل جبهة وطنية بالاتفاق مع الشيوعيين تحت ستار المنظمات المهنية . وقد صدر بيان عن الجبهة الوطنية دعا إلى إطلاق الحريات، وإلغاء معاهدة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ، وطالب برفض المساعدات الأمريكية ، وعدم ربط العراق بالأحلاف الاستعمارية .

وحمل البيان إمضاء : حزب الاستقلال :

حزب الوطني الديمقراطي :

ممثل الطلاب : مهدي عبد الكريم

ممثل الشباب : صفاء الحافظ

ممثل الأطباء : أحمد الجلبي

ممثل المحامين : عبد الستار ناجي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أرشد العمري : رئيساً للوزراء، وزيراً للإعمار بالوكالة .
٢ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية ، وزيراً للمعارف بالوكالة .
٣ ـ عبد المجيد محمود : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسين مكي خماس : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عبد الهادي الباجه جي : وزيراً للصحة .
٦ ـ عبد الغني الدلي : وزيراً للزراعة .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ فخري الطبقجلي : وزيراً للعدلية .
٩ ـ علي الصافي : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ فخري الفخري : وزيراً للأشغال والمواصلات .
١١ ـ سامي فتاح : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

ممثل الفلاحين	:	نايف الحسن
ممثل العمال	:	كليبان صالح

وعطّلت الحكومة بعض الصحف .

وجرت الانتخابات النيابية في ٨ شوال ١٣٧٣هـ (٩ حزيران ١٩٥٤م) ، ولكن المجلس عُطّل قبل أن يجتمع ، رغم أن حزب الاتحاد الدستوري (حزب نوري السعيد) قد حصل على ٥١ مقعداً .

وحصل حزب الأمة الاشتراكي (حزب صالح جبر) على	٢١ مقعداً
وحصلت الجبهة الوطنية على [1] .	١٤ مقعداً
٦ الحزب الوطني الديمقراطي	
٢ حزب الاستقلال	
٦ باسم المنظمات	
وحصلت الجبهة الشعبية المتحدة على	١ مقعد
وحصل المستقلون على باقي المقاعد وهو	٤٨ مقعداً
	١٣٥ مقعداً

ومع هذه النتيجة فقد خافت الأسرة المالكة وأنصارها ، وعُطّل المجلس . وترك أرشد العمري استقالة حكومته على مكتبه وغادر العراق إلى استانبول . وأما السفير الإنكليزي فقد اتصل بالأمير عبد الإله ولي العهد ، وطلب زيارته وأثناء الزيارة أعلمه أن الأمر عقيم ، ويحتاج إلى نوري السعيد ، وطلب منه أن يلحق به إلى لندن ، ويرضيه ، ويطلب منه العودة إلى البلاد لاستلام الحكومة ، وسيعود ، وسيحلّ الأحزاب جميعها .

---

(١) منهم : كامل الجادرجي ، محمد حديد ، محمد مهدي كبه ، حسين جميل ، محمد صديق شنشل ، عبد الجبار جومرد ، خدوري خدوري ، ذا النون أيوب ، مسعود محمد ، جعفر البدر .

سافر الأمير عبد الإله إلى لندن بحجة الاستشفاء للالتقاء بنوري السعيد . وحاول هناك الأمير زيد سفير العراق في لندن أن يلتقيا ولكن دون جدوى ، ثم اتفقا على أن يكون اللقاء في باريس ، وتمّ اللقاء ، وجرى العتاب بحضور رئيس الديوان الملكي الذي طلب نوري السعيد استدعاءه ، وتم الاتفاق على استلام نوري للوزارة بشروط وقعها كل من : الأمير عبد الإله ، ونوري السعيد . ولكن الأمير عبد الإله قد شعر أن نوري السعيد هو رجل انكلترا ، وتريد إبرازه ، وإعطاء الأمير صورة صحيحة عن واقعه وواقع نوري السعيد ولذا كان خطاب السفير لعبد الإله : تأخذ غداً أول طائرة مسافرة إلى أوربا ، وتقابل نوري السعيد ، وتسترضيه ، وتعود معه إلى بغداد . . . إن نوري باشا سيعود ، ويحل الأحزاب جميعها بما فيها حزب الاتحاد الدستوري . ولقد أحسّ عبد الإله بالمرارة ، وشعر أنه دون نوري السعيد عند الإنكليز ، فإن القرارات متفق عليها دون علم الملك فيصل الثاني ، ومن غير معرفة عبد الإله .

رجع نوري السعيد إلى العراق ، وعُهد إليه بتشكيل الوزارة ، فشكّلها[1] في ٣ ذي الحجة ١٣٧٣هـ (٣ آب ١٩٥٤م) .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع .
٢ ـ محمد علي محمود : وزيراً للعدلية .
٣ ـ شاكر الوادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٤ ـ ضياء جعفر : وزيراً للمالية .
٥ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للزراعة .
٦ ـ عبد المجيد محمود : وزيراً للإعمار .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .
١٠ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١١ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١٢ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات والأشغال.
١٣ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٤ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للدولة .
١٥ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للدولة .
١٦ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للدولة .

وزارة نوري السعيد الثانية عشرة : كان أول عمل بدأت به الحكومة حلّ المجلس النيابي ، وكان هذا شرط من الشروط التي طلبها نوري السعيد قبل تأليف الوزارة ، وحصل على موافقة الجهات العليا . ثم قام بحل حزبه (حزب الاتحاد الدستوري) ولما رأت الهيئة العليا لحزب الجبهة الشعبية المتحدة ذلك عطّلت أعمالها ، وجمّدت نشاطها .

أما حزب الأمة الاشتراكي الذي يرأسه صالح جبر الذي كان خارج البلاد فقد رأى نائبه عبد المهدي مقاطعة الانتخابات ، أما نائب الرئيس فقد رأى حلّ الحزب . ولما رجع صالح جبر اجتمعت الهيئة العليا للحزب . وفصلت نائب الرئيس توفيق وهبي ، كما فصلت كمال السنوي ، وفاضل معلّة ، وأعلنت مقاطعة الانتخابات .

وأما الحزب الوطني الديمقراطي فقد أعلن مقاطعة الانتخابات أيضاً ، فلم يبق من الأحزاب سوى حزب الاستقلال الذي قرّر خوض المعركة الانتخابية .

وحدّت الحكومة من نشاط النقابات ، وألغت أكثر الجمعيات والنوادي ، وعطّلت الصحف والمجلاّت ، وحرّمت الاجتماعات والمظاهرات ، فاحتجّت الأحزاب على هذه السياسة التعسفية ، فكان أن سحبت الحكومة إجازة الحزب الوطني الديمقراطي ، ثم أقدمت على حلّ الأحزاب جميعها .

جرت الانتخابات النيابية في ١٧ محرم ١٣٧٤هـ (١٤ أيلول ١٩٥٤م) ودُعي المجلس للاجتماع في ١٩ المحرم ، ثم عطّل مدة شهرين ونصف .

قطع العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي : رأى رئيس الحكومة نوري السعيد أن المفوضية السوفيتية في بغداد قد أصبحت وكراً للشيوعيين، لذا طلب من الحكومة السوفيتية إغلاق مفوضيتها في بغداد ، وفي الوقت نفسه سحب كافة العناصر العراقية التي تعمل في السلك السياسي في موسكو .

معمل تكرير النفط في الدورة : عملت الحكومة على إنشاء مصنع

لتكرير نفط الاستهلاك المحلي في (الدورة) جنوب بغداد حيث تستهلك هذه المنطقة ثلثي نفط الاستهلاك .

مؤتمر باندونغ: عقد المؤتمر الآسيوي الإفريقي الذي دعت إليه الدول الآتية : أندونيسيا ـ باكستان ـ بورما ـ الهند ـ سيرلانكا في أندونيسيا في مدينة باندونغ ، وقد اقترح الوفد العراقي بحث قضية فلسطين ، ولكن رفض ذلك رئيس وزراء بورما (أونو) الذي كان صديقاً لدولة اليهود ، كما رفض ذلك نهرو رئيس وزراء الهند بحجة عدم إثارة المشكلات ، فهدّد الوفد العراقي بالانسحاب من المؤتمر إن لم تدرج قضية فلسطين فاضطرت لجنة التنسيق إلى إدراج القضية ضمن أعمال المؤتمر الذي عقد في ٢٦ شعبان إلى ٢ رمضان ١٣٧٤هـ (١٨ ـ ٢٤ نيسان ١٩٥٥م) .

تعديل اتفاقيات النفط : عملت الحكومة على تعديل اتفاقيات النفط التي عُقدت في ٨ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (٣ شباط ١٩٥٢م) ، وقد زاد دخل البلاد من النفط بهذا التعديل حوالي عشرة ملايين ونصف من الدنانير .

الدفاع المشترك : جرت محاولات بعد الحرب العالمية الثانية لجرّ البلدان العربية إلى أحلافٍ ترمي عزل الاتحاد السوفيتي ، وقد تغلغلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى بعض البلدان العربية والمناطق المجاورة لها عن طريق قروض بنك الإنشاء والتعمير ، ومشروعات النقطة الرابعة حيث كانت تقدّم بعض المساعدات في سبيل تنفيذ مخططاتها .

اقترحت كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وانكلترا ، وفرنسا إقامة مشروع يهدف الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط حسب تسميتها ، وتشترك فيه كل الدول العربية و (إسرائيل) ، وجنوبي إفريقية ، ونيوزيلندا ، وقد رفض الشعب العربي في بلدانه المختلفة هذا المشروع لأنه يهدف إلى جعل هذه البلدان محطات للقوات الاستعمارية ، إضافةً إلى القواعد التي يملكها المستعمرون أو يسيطرون عليها ، هذا بالإضافة إلى ما يهدف هذا المشروع من

اعترافٍ بـ (إسرائيل) إذ تصبح القوات مشتركة في القواعد وغيرها . كما أن الروس سيحتجّون على هذا المشروع وعلى انضمام البلدان العربية إليه .

حلف بغـداد : كـان من شروط نـوري السعيـد قبـل أن يُؤلّف الوزارةالاستغناء عن معاهدة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيـران ١٩٣٠م) ، ولكن تسـاءل أمام حكـومته ، وكبـار الساسـة ألا يجب أن نُؤمّن البديـل ؟ والمعاهدة حكماً قد انتهت ، ولم يبق من آثارها سوى القاعدتين الجويتين في (الحبانية) و (الشعيبة) ، ويمكن السعي لدى بريطانيا للتنازل عنهما ، ولكن إن تنازلت عنهما ستبقى مرتبطةً بالواقع بالدفاع عن العراق ، وسنبقى بحاجةٍ إلى دعمها ، وهنا قد تشترط بريطانيا من أجل هذا الهدف ، أو تطلب إبقاء بعض الذخائر في مستودعاتها ، والسماح لطائراتها بالهبوط في هاتين القاعدتين ، وهذا أمر طبيعي لها . وقد احتجّ بما تمّ باتفاقيـة الجلاء التي تمّت مـع مصر وانكلترا حيث خرجت انكلترا من قناة السويس ، واشترطت أن تعود إليها في حالة الاعتداء على البلدان العربية أو على تركيا ، وهذا ما جرى الحديث به ، عند تبادل زيارة الوفود بين مصر والعراق .

سافر نوري السعيد إلى لندن بحجة الاستشفاء ، واتصل بـالمسؤولين البريطانيين ، وحصل على التعليمات اللازمة ، لإقامة حلف مع تركيا .

وسافر نوري السعيد بعدها إلى تركيا في ١٩ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٥٥م) ، وجرت هناك مباحثات مع رئيس الحكومة الـتركية عدنان مندريس . ثم زار بغداد وفد تركي برئاسة عدنان مندريس وبـدأت المفاوضات بين الطرفين ، وقامت مظاهرات في كثيرٍ من الأماكن ضـدّ هذه المفاوضات ، وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تشعل النيران ، وتنتقد المفاوضات ، والأحلاف حتى اضطر نوري السعيد أن يرجو عدنان منـدريس في تأجيل التوقيع على الميثاق . وكان هناك حلف بين تركيا وباكستان .

اقترحت مصر طرد العراق من جامعة الدول العربية ، غير أن الأمين

العام قد أعلن أن (ميثاق التعاون المتبادل بين العراق وتركيا) إنما هو حلف دفاعي فقط ، على حين أن المعاهدة التركية ـ الباكستانية حلف دفاعي هجومي .

وقد تمّ التوقيع على الاتفاق في ٣ رجب ١٣٧٤هـ (٢٤ شباط ١٩٥٥م) ، وصادق عليه المجلس النيابي ، ووقفت سوريا ومصر والمملكة العربية السعودية موقف المعارض من هذا الاتفاق .

زار بغداد وفد بريطاني برئاسة انطوني إيدن رئيس الحكومة البريطانية في ١٠ رجب ١٣٧٤هـ (٣ آذار ١٩٥٥م) ، وانضمت بريطانيا إلى ميثاق التعاون (حلف بغداد) في١٢ شعبان ١٣٧٤هـ (٤ نيسان ١٩٥٥م) ، وفي ١١ رمضان ١٣٧٤هـ (٢ أيار ١٩٥٥م) تم تسليم القاعدتين الجويتين (الحبانية) و (الشعيبة) إلى العراق .

وانضمت باكستان إلى الحلف في ٦ صفر ١٣٧٥هـ (٢٣ أيلول ١٩٥٥م) ، وأخيراً انضمّت إيران في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٥٥م) ، ولم تدخل الولايات المتحدة في الحلف علنياً لإظهار موقف الحياد بين الدول العربية التي لها فيها نفوذ ولكنها تختلف فيما بينها بشأن حلف بغداد .

وجرى الاجتماع الأول لأعضاء الحلف في بغداد في ٧ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٥٥م) واستمر يومين .

واشتدّ الهجوم الإعلامي على الحكومة من الخارج والنقد والمعارضة من الداخل ، فقدّم رئيسها نوري السعيد استقالتها في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (١٧ كانون الأول ١٩٥٥م) ، فعهد إليه ثانيةً بتشكيل حكومة جديدة ، فألّفها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي : =

وزارة نوري السعيد الثالثة عشرة: رفعت المعارضة كتاباً إلى الملك تشكو فيه تصرّف حكومة نوري السعيد التي عزلت العراق عن بقية البلدان العربية ، وقتلت الحركة الوطنية ، وجرّت الدولة إلى الأحلاف العسكرية ، إضافةً إلى الأغلال التي تقيد بها الشعب ، وهذا ما جعل وضع العراق ينحدر ، وسيستمر الانحدار حتى تتخلّى الوزارة الحالية عن الحكم . وقد وقّع الكتاب كامل الجادرجي ، ومحمد مهدي كبة ، ومحمد حديد ، وفائق السامرائي ، ومحمد صديق شنشل وحسين جميل ، وهم أعضاء في الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الاستقلال .

ومنعت الحكومة إعطاء تأشيرات للمحامين للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر المحامين العرب الذي كان مقرراً أن يعقد في ٢١ رجب ١٣٧٥هـ (٣ آذار ١٩٥٦م) ، وكان هذا المؤتمر يعقد سنوياً في إحدى العواصم العربية .

اتفق حزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال على الاندماج وتشكيل حزب واحد باسم حزب المؤتمر الوطني ، وتقدّما بطلب لممارسة النشاط الذي منعا منه ، غير أن الطلب قد رفض ، واستأنف حزب المؤتمر الوطني الدعوى فلم يُوفّق غير أن هيئة الحزب قد أخذت تمارس نشاطها .

وأنجدت الحكومة الأردن ، وأرسلت له قوات لترابط على أرضه لردع الاعتداءات اليهودية التي تكررت على الأرض الأردنية .

= ١ ـ نوري السعيد : رئيس الوزراء، وزير الدفاع بالوكالة .
٢ ـ أحمد مختار بابان: نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ ضياء جعفر : وزيراً للإعمار .
٤ ـ خليل كنه : وزيراً للمالية .
٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الرسول الخالصي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
٩ ـ برهان الدين باش أعيان: وزيراً للخارجية .
١٠ ـ صالح صائب الجبوري: وزيراً للمواصلات .
١١ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ عبد الجبار التكرلي: وزيراً للعدلية .
١٣ ـ منير القاضي: وزيراً للمعارف .
١٤ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

محاولة مدّ النفوذ الأمريكي: فقدت انكلترا الكثير من نفوذها في المنطقة العربية بعد العدوان الثلاثي على مصر ، والذي اشتركت فيه مع كل من فرنسا، ودولة اليهود. وقد تدخّلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لوقف هذا العدوان ، فأخذ النفوذ الأمريكي في التوسع ، وربما كان العدوان الثلاثي بالأصل لعبةً أمريكية لتحقيق هذا الهدف الذي وصلت إليه ، وهو تراجع النفوذ الإنكليزي ليحلّ محلّه النفوذ الأمريكي ، أو ليأخذ بالتسرّب والتغلغل في البلدان العربية .

ادّعى الرئيس الأمريكي (إيزنهاور) أنه قد حدث فراغ في (الشرق الأوسط) بعد انحسار النفوذ الإنكليزي ، ويجب على الولايات المتحدة أن تملأ هذا الفراغ قبل أن يملأه الاتحاد السوفيتي ، ولهذا قدّم مشروعاً إلى الكونغرس في ٤ جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ (٥ كانون الثاني ١٩٥٧م) لأخذ الموافقة عليه ، ويتضمّن هذا المشروع أربع نقاط :

١ ـ ترى الولايات المتحدة أن استتباب السلام في الشرق الأوسط ، كما هو في أوربا الغربية وفورموزا أمر حيوي بالنسبة لها .

٢ ـ مطالبة الكونغرس باتخاذ قرار بشأن استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الشرق الأوسط عند الضرورة .

٣ ـ إن مثل هذا القرار سيمنع الاتحاد السوفيتي من القيام بأي عملٍ عدواني في هذه المنطقة .

٤ ـ ستتوفر للشرق الأوسط درجة معقولة من الاستقرار ، حيث حلّ المشكلات السياسية للمنطقة .

أرسلت العراق بعثةً[1] إلى الولايات المتحدة لمعرفة أهداف هذا المشروع

---

(١) كانت البعثة برئاسة ولي العهد الأمير عبد الإله ، وعضوية كل من رؤساء الوزراء السابقين : جميل المدفعي ، علي جودت الأيوبي ، صالح جبر ، ومن نائب رئيس الوزراء أحمد مختار بابان ، واللواء غازي الداغستاني ، ومرض جميل المدفعي فاختير مكانه توفيق السويدي .

وتفاصيله . ودعا الوفد العربي أمريكا للاعتراف بحقوق العرب في فلسطين ، وجلاء إسرائيل عن سيناء ، ودعوة الولايات المتحدة للانضمام إلى حلف بغداد ، وتسليح الجيش العراقي ، ومرّ الوفد أثناء سفره بلندن ، فكان هذا موضع نقد شديد . وكان قد حذّر من هذا الوزير المفوض العراقي في لندن طارق العسكري .

أرسل الرئيس الأمريكي (ايزنهاور) مبعوثه الخاص (ريتشاردز) على رأس وفد خبير لتوضيح المشروع ، فدعت الحكومة العراقية هذا المبعوث مع الوفد المرافق له لزيارتها . وصدر بيان مشترك عن تلك الزيارة .

الاتصال مع المعارضة السورية : بعد أن عملت العراق على الإطاحة بحكم العقيد أديب الشيشكلي . أخذ الأمير عبد الإله يتصل به ، ويعمل معه للإطاحة بالحكم القائم ، وبعث له رئيس الأركان اللواء غازي الداغستاني مع ثلاثين ألف دينار إلى لبنان الذي أصبح يتردّد إليها أديب الشيشكلي ، غير أن غازي الداغستاني لم يكن يثق بأديب الشيشكلي كما يثق به عبد الإله ، ولأنه كان يسير قبل مدة في فلك غير الفلك الذي يجري فيه الساسة العراقيون يومذاك ، ولم تدفعه نحو العراق سوى المصلحة الآنية ، لذا فقد سلّم غازي الداغستاني لأديب الشيشكلي عشرة آلاف دينار ، وأودع الباقي وهو عشرون ألف دينار في خزانة السفارة العراقية في بيروت . وأصبح غازي الداغتساني يتردد بين بيروت وبغداد ينقل آراء وأخبار الساسة السوريين الهاربين إلى لبنان إلى القادة العراقيين ، وكانت ترسل الأسلحة والأموال إلى داخل سوريا ، غير أن السلطات السورية قد وضعت يدها عليها ، وقدّمت إلى المحكمة بعض الرجال ، وقضت بالإعدام حضورياً على بعضهم[1] . وبعدها أخذت

---

(١) كانت الخطة تقضي بجمع الأسلحة في محطة هـ٣ ، وتشكيل سرايا الحدود ، وتطويع البدو المسرّحين من الجيش الأردني ، وتسليح العشائر السورية ، ومدّ الذين يعيشون خارج سوريا بالمال والسلاح. وعمل إنكلترا لدى إسرائيل للقيام باعتداءاتٍ على سوريا، ويحشد الجيش =

البرقيات تتوالى لعدة دول لتتوسط دون تنفيذ هذه الأحكام .

العدوان الثلاثي على مصر : قامت انكلترا ، وفرنسا ، وإسرائيل بالعدوان على مصر في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م) وطالبت الأمم المتحدة الحكومات المتقاتلة وقف إطلاق النار فوراً ، ولكن انكلترا وفرنسا لم تستجيبا لهذا الطلب ، واقترح الاتحاد السوفيتي على الولايات المتحدة إجراء عملٍ مشتركٍ لوقف القتال ، فرفضت الولايات المتحدة هذا الطلب وعمل الاتحاد السوفيتي منفرداً ، وتقدّم بإنذاره إلى الرئيس الأمريكي إيزنهاور في ٢٣ جمادى الآخرة (٥ تشرين الثاني) وأمام هذا التحدي قطعت الولايات المتحدة مساعداتها عن إسرائيل ، وعطّلت المصالح البريطانية والفرنسية في بلادها ، وضغطت على الإنكليز والفرنسيين لوقف القتال فوراً ، فاضطروا إلى الانصياع .

احتجت الحكومة العراقية على اعتداء الحكومتين الفرنسية والبريطانية على عدوانهما ، واستعدت وزارة الدفاع لمساعدة الأردن فيما إذا جرى اعتداء إسرائيلي عليها ، وأعلنت الحكومة العراقية الأحكام العرفية .

كانت الولايات المتحدة تهدف من وراء العدوان الثلاثي إلى إضعاف النفوذ الإنكليزي والفرنسي كي تحلّ محلهما ، ومن هذا الهدف كان التخطيط ، وكانت اللعبة فخسرت الدولتان بالعدوان ، وربحت الولايات المتحدة بالعمل على وقف العدوان .

قام الطلاب في العراق بمظاهرات احتجاجاً على العدوان ، واستنكاراً

= العراقي في الأردن ليقف في وجه التحرّشات اليهودية على الأردن ، ثم يدخل سوريا بحجة مساعدتها ضد اليهود ، كما تتدخل تركيا في الموضوع . وقد حكمت المحكمة بالإعدام وجاهياً على : هايل سرور ، سامي كبارة ، عدنان الأتاسي ، صبحي العمري ، حسن الحكيم . وغيابياً على : محمد معروف ، محمد صقر ، صلاح الشيشكلي ، سعيد تقي الدين ، ميخائيل اليان ، حسن الأطرش ، وشكيب وهاب .

لهذه الاعتداءات الوحشية . ولم تجد تحذيرات الحكومة التي قررت بعد ذلك تأجيل الدراسة في المدارس الثانوية ، والمتوسطة ، والصناعية والتجارية والفنية ودور المعلمين والمعلمات ، كما طُرد بعض الطلاب . وأعقب ذلك قيام مظاهرات في مدينة (النجف) استنكاراً للعدوان الثلاثي . وتكررت المظاهرات في اليوم التالي ، واستمرت أسبوعاً كاملاً ، وتصدّت لها الشرطة ، ووقعت أحداث مؤسفة ، ثم انتقلت المظاهرات من مدينة (النجف) في الجنوب إلى الألوية الشمالية (الموصل ، وكركوك ، واربيل ، والسليمانية) . وكانت الاحتجاجات ، وجرت الاعتقالات ، وإعدامات ، وأحكام أخرى جائرة[1] .

اتهمت الحكومة العراقية بأن النفط العراقي كان يتدفّق ضمن الأنابيب ، المعلن عنها أنها مقطوعة ، إلى مصفاة حيفا ، وأن الطائرات البريطانية كانت تتزود من القواعد في العراق ، وأن الجرحى الانكليز كانوا ينقلون إلى المستشفيات العراقية .

ورفعت عرائض إلى الملك مباشرة من السياسيين ، ومن الأساتذة ، ومن نقابة المحامين احتجاجاً على سياسة الحكومة العراقية برئاسة نوري السعيد . كما رفع عريضة رؤساء الوزارات السابقة ، والأعيان ، والنواب وأصحاب التجارة والأموال .

وأخيراً ألغيت الأحكام العرفية في ٢٨ شوال ١٣٧٦هـ (٢٨ أيار

---

(١) أُعدم عطا مهدي الدباس ، وعلي الشيخ حمود شنقاً .
وحكم المجلس العرفي على كامل الجادرجي بالسجن الشديد ثلاث سنوات . وعلى فائق السامرائي ، ومحمد صديق شنشل بالمراقبة لمدة سنة ، وعلى حسين جميل وسامي باش عالم بكفالة مقدارها خمسة آلاف دينار لمدة سنة ، وقد سجن كامل الجادرجي مباشرةً ، وأبعد (فائق السامرائي) إلى (حلبجة) و (محمد صديق شنشل) إلى (قلعة وزه) . كما أُبعد عميد كلية الحقوق (عبد الرحمن البزاز) إلى (بنجوين) ومعه كل من : جابر عمر ، ومحمد علي البصام ، وفيصل الوائلي ، وحسن الدجيلي ، ثم نقلوا إلى تكريت .

١٩٥٧م) . ثم قُبلت استقالة الحكومة في ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ (٢٠ حزيران ١٩٥٧م) .

عهد الملك إلى علي جودت الأيوبي بتأليف وزارةٍ جديدةٍ(١) أملاً في أن يخفّ ضغط الهجوم على العراق . فقد كانت إذاعات دمشق والقاهرة وعمان وغيرها تقيم النكير على الحكومة العراقية لسيرها في ركاب الاستعمار البريطاني . وقد عملت هذه الحكومة منذ تسلّمها السلطة على تحسين العلاقات مع بعض الدول العربية . فقد زار الملك حسين ملك الأردن بغداد وصدر بيان مشترك . وقدّمت العراق هديةً للجيش الأردني قوامها ست طائرات عراقية كانت تستعمل للتدريب والقتال .

قدّم الساسة العراقيون عريضة للحكومة الجديدة يطلبون فيها الإفراج عن المحكومين ومنهم كامل الجادرجي ، وإعادة الأساتذة والطلاب المفصولين ، وحرية التنظيم الحزبي والنقابي ، وحرية الصحافة والسماح للصحف العربية بالدخول إلى العراق .

وكانت أمريكا تُردّد دائماً أن النفوذ الشيوعي قد ازداد في سوريا وأن على العراق تدارك الوضع ، وكذا تركيا ، وكانت أمريكا ترغب في التدخّل العراقي

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ علي جودت الأيوبي : رئيساً لمجلس الوزراء .
٢ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٣ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للدفاع ، وزيراً للمعارف بالوكالة .
٤ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد ، وزيراً للاعمار بالوكالة .
٦ ـ سامي فتاح : وزيراً للداخلية .
٧ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية .
٨ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
٩ ـ جمال عمر نظمي : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ أركان عبادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١١ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

في سوريا ، وتُشجّعه ، وتجد المبررات له ، ويُؤيّد ذلك ولي العهد عبد الإله ، كما تُشجّع تركيا لتحشد جيوشها على الحدود السورية ليتسنى للعراق دخول سوريا عسكرياً بسهولة . وكان هندرسون مبعوث الرئيس الأمريكي ايزنهاور يتنقل في المنطقة ، ويُحرّض على العمل ضد سوريـا التي توسّـع فيها النفـوذ الشيوعي .

اقترح رئيس الحكومة علي جودت الأيوبي حـل المجلس النيابي ، فلم يُسمع إليه ، وكرر الطلب فلم يلتفت إلى هذا الطلب فقرر لذلك الانسحاب من المسؤولية ، وقدّم استقـالة حكـومته في ٢٠ ربيـع الثاني ١٣٧٧هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٥٧م) ولكن طلب منه الاستمرار في تسيير شؤون الدولة ريثما يتم تأليف حكومة جديدةٍ .

عهد الملك إلى عبد الوهاب مرجان في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ (١٤ كانون الأول ١٩٥٧م) بتشكيل حكومة تخلف حكومـة علي جـودت الأيوبي المستقيلة .

شكّل عبد الوهاب مرجان الوزارة في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ (١٥ كانون الأول ١٩٥٧م)[١] . ولم تلبث أن قامت الوحدة بين سوريا ومصر في ١١ رجب ١٣٧٧هـ (١ شباط ١٩٥٨م) وكان لهذا الحدث وقعه السيء في العراق والأردن واقترح وزير الخارجية البريطانية (سلوين لويد) إقامة اتحاد

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبـد الوهـاب مرجـان : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للمالية .
٣ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للخارجية .
٥ ـ محمد مشحن الحردان : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف .
٨ ـ أركان عبادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ سامي فتاح : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ صالح صائب : وزيراً للإعمار .
١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ محمود بابان : وزيراً للصحة .
١٣ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٤ ـ جواد الخطيب : وزيراً للدولة .
١٥ ـ عز الدين الملا : وزيراً للدولة .

بين العراق والأردن . فأوفد الملك حسين ملك الأردن وزير البلاط سليمان طوقان إلى بغداد يحمل رسالةً إلى الملك فيصل ملك العراق يدعوه فيها أن يتوجّه هو وولي عهده وبعض وزرائه إلى عمان للنظر في موضوع الاتحاد ، فلبّوا الدعوة[١] وجاءوا إلى عمان في ٢١ رجب وبدأت المفاوضات مع الوفد الأردني[٢] .

اشترط الوفد الأردني لتحقيق الاتحاد انسحاب العراق من حلف بغداد حيث لا يمكن الاتحاد بين دولتين إحداهما ضمن حلف والأخرى بعيدة عنه ، ولكن الأمير عبد الإله الذي لم تكن عنده تلك الحماسة لهذا الاتحاد ، أجاب : إن الخروج من حلف بغداد غير ممكن ، لأنه يُشكّل الضمان الرئيسي لكيان العراق . وأخيراً اتفق الطرفان على أن تبقى العراق في حلف بغداد والأردن خارج ذلك الحلف ، وتستمر الحكومة الأردنية الهاشمية أيضاً على التزاماتها باتفاقية الهدنة مع (إسرائيل) ، ولا علاقة للعراق بها . وتمّ الاتفاق على ما يأتي :

١ ـ ينشأ اتحاد عربي بين المملكة العراقية والمملكة الأردنية الهاشمية باسم (الاتحاد العربي) اعتباراً من يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٣٧٧هـ الموافق ١٤ شباط ١٩٥٨م ، ويكون هذا الاتحاد مفتوحاً للدول العربية الأخرى التي ترغب بالانضمام إليه .

---

(١) كان الوفد المرافق للملك فيصل وولي عهده مؤلفاً من : وزير الخارجية برهان الدين باش أعيان ، ووزير المالية نديم الباَجه جي ، ووزير العدلية عبد الرسول الخالصي ، ورئيس أركان الجيش رفيق عارف ، ورئيس الديوان الملكي عبد الله بكر ، ثم انضمّ إليهم توفيق السويدي عضو مجلس الأعيان ، وانضمّ إلى الوفد في عمان سفير العراق بهاء الدين نوري .

(٢) ضمّ الوفد الأردني رئيس الوزراء إبراهيم هاشم ، ونائب رئيس الوزراء وزير الخارجية سمير الرفاعي ، ووزير البلاط سليمان طوقان ، ووزير الاقتصاد الوطني خلوصي الخيري ، ووزير التربية والتعليم والعدلية أحمد الطراونة ، ورئيس الديوان الملكي الهاشمي بهجت التلهوني ، ووزير الدفاع عاكف الفايز ، والسفير الأردني في العراق فرحان شبيلات ، ورئيس أركان الجيش العربي الأردني حابس المجالي ، ومعاون رئيس الأركان صادق الشرع .

٢ ـ تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتها الدولية المستقلة ، وبسيادتها على أراضيها ، وبنظام الحكم القائم فيها .
٣ ـ تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التي سبق أن ارتبطت بها كل من الدولتين قبل قيام الاتحاد بينهما مرعيةً بالنسبة إلى الدولة التي عقدتها وغير ملزمة للدولة الأخرى . أما المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التي ستعقد بعد قيام الاتحاد والتي تدخل ضمن موضوعات الاتحاد ، فمن اختصاص وسلطة حكومة الاتحاد .
٤ ـ اعتباراً من تاريخ الإعلان الرسمي لقيام الاتحاد تُنفّذ إجراءات الوحدة الكاملة بين دولتي الاتحاد في الأمور الآتية :
أ ـ وحدة السياسة الخارجية والتمثيل السياسي .
ب ـ وحدة الجيش الأردني والعراقي (الجيش العربي) .
جـ ـ إزالة الحواجز الجمركية بين الدولتين وتوحيد القوانين الجمركية .
د ـ توحيد مناهج التعليم .
٥ ـ يتفق الطرفان بأسرع وقت على اتخاذ الإجراءات اللازمة لتوحيد النقد ، وتنسيق السياسة المالية والاقتصادية بين الدولتين .
٦ ـ عندما تقضي الضرورة ومصلحة الاتحاد توحيد أي أمرٍ من الأمور الأخرى غير الواردة في المادة الرابعة تتخذ الإجراءات اللازمة بموجب دستور الاتحاد لإدخال ذلك الأمر ضمن اختصاص وسلطات حكومة الاتحاد .
٧ ـ يكون علم الثورة العربية علم الاتحاد ، وعلماً لكل من الدولتين .
٨ ـ أ ـ تتولّى شؤون الاتحاد حكومة اتحادية مؤلفة من مجلسٍ تشريعيٍ ، وسلطةٍ تنفيذيةٍ .
ب ـ ينتخب كل من مجلس الأمة العراقي والأردني أعضاء المجلس التشريعي من بين أعضائهما بعددٍ متساوٍ لكلٍ من الدولتين .
د ـ يعيّن أعضاء السلطة التنفيذية وفق أحكام دستور الاتحاد لتولّي الأمور التي تدخل ضمن اختصاص حكومة الاتحاد .
٩ ـ يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد ، وفي حالة غيابه لسبب من

الأسباب يكون ملك الأردن رئيس حكومة الاتحاد ، ويحتفظ كل من الملكين بسلطاته الدستورية في مملكته ، وعند انضمام دولةٍ أخرى إلى الاتحاد ، يعاد النظر في وضع رئاسة الاتحاد حسب مقتضيات الأمور .

١٠ ـ يكون مقر حكومة الاتحاد بصورةٍ دوريةٍ في بغداد لمدة ستة أشهر من السنة وفي عمان ستة أشهر أخرى .

١١ ـ أ ـ تضع حكومة الاتحاد دستوراً للاتحاد وفق الأسس المبنية في هذا الاتفاق ، ويعدل دستور كل من الدولتين إلى المدى والحدود التي تقتضيها أحكام دستور الاتحاد .

ب ـ تتخذ التدابير والإجراءات اللازمة لإقامة حكومة الاتحاد ووضع دستور الاتحاد خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع هذا الاتفاق .

١٢ ـ يبرم هذا الاتفاق وفق الأصول الدستورية لكل من الدولتين .

وصادق المجلسان على مشروع الاتحاد العربي بالإجماع .

ولم تكن دول حلف بغداد راضية عن هذا الاتحاد .

وكان رئيس الحكومة العراقية عبد الوهاب مرجان يخالف ولي العهد والملك في تدخل الجيش العراقي في شؤون سوريا ، وهذا ما دعا إلى إقالته بعد الانتهاء من مشروع الاتحاد ، فقدم استقالته في ١٠ شعبان ١٣٧٧هـ (٢ آذار ١٩٥٨م) .

وزارة نوري السعيد الرابعة عشرة : عهد الملك إلى نوري السعيد بتشكيل وزراةٍ جديدةٍ إذ أن الظروف تقضي أن يكون على رأس السلطة لأنه يملك أكثريةً في المجلس النيابي ، كما أن المرحلة مهمة إذ سيتم فيها وضع دستور الاتحاد . وشكّل نوري السعيد[1] الوزارة في ١١ شعبان ١٣٧٧هـ (٣

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

آذار ١٩٥٨م) ، وكانت مهمة هذه الوزارة حلّ المجلس النيابي وإجراء الانتخابات ، ووضع دستور الاتحاد . وقد تمت هذه المهمات ، وكان التدخّل في الانتخابات مكشوفاً حتى نجح ١١٨ نائباً بالتزكية من أصل ١٤٨ نائباً ، واجتمع المجلس، وأقرّ لائحة تعديل الدستور العراقي ، ومشروع دستور الاتحاد . وقد رفعت عريضة من كبار ساسة العراق إلى رئيس الحكومة تبين له خطأ مساره في تفرقة الصف العربي .

جبهة الاتحاد الوطني : كان النقد شديداً للحكومة العراقية نتيجة موقفها من العدوان الثلاثي على مصر ، وهذا ما قرّب من زعماء الأحزاب بعضهم من بعض ، وتشكلت الجبهة الوطنية المتحدة التي تمثّل أربعة أحزاب هي : حزب الاستقلال ، والوطني الديمقراطي ، والبعث ، والشيوعي(١) . وكانت الجبهة تهدف إلى :

١ ـ حلّ المجلس النيابي . وتنحية نوري السعيد .

٢ ـ الخروج من حلف بغداد ، وتوحيد سياسة العراق مع سياسة البلدان العربية المتحررة .

٣ ـ مقاومة التدخل الاستعماري بشتى أشكاله ومصادره ، وانتهاج سياسة عربيةٍ

= ١ ـ نوري السعيد: رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ توفيق السويدي : نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ محمد فاضل الجمالي: وزيراً للخارجية .
٤ ـ جميل عبد الوهاب: وزيراً للعدلية .
٥ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الكريم الأزري: وزيراً للمالية .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ سامي فتاح : وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ محمد مشحن الحردان: وزيراً للزراعة .
١٠ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف .
١١ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
١٢ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات .
١٣ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للإعمار .
١٤ ـ برهان الدين باش أعيان: وزيراً للدولة .
١٥ ـ محمود بابان : وزيراً للدولة .
١٦ ـ رابح عطية : وزيراً للدولة .

(١) مثّل الحزب الوطني الديمقراطي محمد حديد ، والاستقلال محمد مهدي كبه ، والبعث فؤاد الركابي فلما اعتقل مثل الحزب شمس الدين كاظم ، والشيوعي عزيز الشيخ ، فلما اعتُقل مثّل الحزب كمال عمر نظمي .

مستقلة أساسها الحياد الإيجابي .
٤ ـ إطلاق الحريات العامة .
٥ ـ إلغاء الإدارة العرفية ، وإطلاق سراح السجناء السياسيين ، وإعادة المدرسين والموظفين والطلاب المفصولين .

تتابعت لقاءات ممثلي الأحزاب ، وقرروا استخدام مطبعة الحزب الشيوعي السرية المهيأة تماماً من موسكو ، وتألّفت اللجنة العليا لجبهة الاتحاد الوطني ، وأصدرت بيانها الأول في ١٧ شعبان ١٣٧٧هـ (٩ آذار ١٩٥٨م) ، وأصبح لهذه الجبهة لجان رئيسية في معظم الألوية ، ولجان أصغر منها في الأطراف . وأخذت الجبهة تتصل بالعسكريين . وكان واسطة الاتصال العقيد رجب عبد المجيد الذي يتصل بحزب الاستقلال .ورشيد مصلح الذي يتصل بالوطنيين الديمقراطيين .

مشروع دستور الاتحاد : في ٢٥ شعبان ١٣٧٧هـ جاء وفد أردني[1] لإجراء المباحثات الخاصة بوضع دستور الاتحاد بين العراق والأردن ، والتقى بوفد الحكومة العراقية[2] ، وبعد سلسلة من الاجتماعات وضعت الصيغة النهائية لمشروع الدستور الذي سيعرض على مجلس الأمة في كل من الدولتين .

اقترح السفير البريطاني في العراق على نوري السعيد أن تتحمل العراق المعونة المالية السنوية التي تقدمها بريطانيا للأردن .

وكان رئيس الحكومة العراقية نوري السعيد يرى أن تنضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي بعد حصولها على الاستقلال ، كي تدعمه بإمكاناتها المالية ، وقد

---

(١) كان الوفد الأردني برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية سمير الرفاعي وعضوية كل من : وزير الاقتصاد خلوصي الخيري ، ووزير المعارف والعدلية أحمد الطراونة ، ووزير الدفاع والزراعة عاكف الفايز ، ورئيس أركان الجيش حابس المجالي وعددٍ من الإخصائيين .

(٢) كان الوفد العراقي برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء توفيق السويدي ، وعضوية كل من : وزير الخارجية محمد فاضل الجمالي ، ووزير المالية عبد الكريم الأزري ، ووزير العدلية جميل عبد الوهاب ، ووزير الدولة برهان الدين باش أعيان ، وعدد من الإخصائيين .

عرض الأمر على وزير الخارجية البريطانية الذي رفع الرأي بدوره إلى مجلس الوزراء البريطاني فلم يعارض ذلك ، وأخبر السفير البريطاني وزير خارجية الاتحاد أن الأمر سيبحث في لندن بعد حصول الكويت على الاستقلال ، وذلك في (٢٤ تموز ١٩٥٨م) ، ولكن الثورة وإعلان الجمهورية قد تمّ قبل هذا التاريخ بعشرة أيام .

انتهت مهمة حكومة نوري السعيد بإجراء الانتخابات ، واجتماع المجلس ، وتعديل الدستور العراقي ، ووضع دستور الاتحاد العربي فقدّم رئيسها استقالتها في ٢٥ شوال ١٣٧٧هـ (١٤ أيار ١٩٥٨م) .

عهد الملك إلى أحمد مختار بابان بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ تخلف الحكومة المستقيلة فشكلها[1] في الأول من ذي القعدة من عام ١٣٧٧هـ (١٩ أيار ١٩٥٨م) .

كانت الأحداث في لبنان قد تأزّمت واشتدت المعارضة بل الثورة على رئيس جمهورية لبنان كميل شمعون ، وكانت الجمهورية العربية المتحدة تشدّ من أزر المعارضة ، أما الحكومة العراقية فقد وقفت مؤيدة لنظام الحكم القائم في لبنان ، وكانت الإذاعات تهاجم بعضها بعضاً ، ويشعر العراقيون بارتياح لما تردّده إذاعات الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة ودمشق ، ويرون فيما تبثّه إذاعة بغداد جفافاً وكلاماً مكروراً فيه مغالطات واتهامات لا فائدة منها سوى

---

(١) تمّ تشكيل الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد مختار بابان : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سعيد القزاز : وزيراً للداخلية .
٣ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للمالية .
٤ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للعدلية .
٥ ـ ضياء جعفر : وزيراً للإعمار .
٦ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف .
٧ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
٨ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات والأشغال .
١٠ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للأنباء والتوجيه .
١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ صادق كمونة : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ محمود بابان : وزيراً للدولة .
١٤ ـ عبد الجبار التكرلي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

التشويش وتفرقة الصف . وقد عملت حكومة أحمد مختار بابان على وقف الهجوم على الجمهورية العربية المتحدة ، والتعليق على الأنباء . ولكن نتيجة أوضاع لبنان كانت قد أدت إلى نزول القوات الأمريكية في لبنان والقوات الإنكليزية في الأردن .

وفي اليوم نفسه الذي تشكّلت فيه الحكومة العراقية برئاسة أحمد مختار بابان تشكلت حكومة الاتحاد العربي برئاسة نوري السعيد ، وكانت كالآتي :

١ نوري السعيد : رئيساً لوزارة الاتحاد .
٢ ـ إبراهيم هاشم : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ خلوصي الخيري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٥ ـ سليمان طوقان : وزيراً للدفاع .
٦ ـ سامي فتاح : وزير دولة لشؤون الدفاع .
٧ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .

عُيِّن الفريق الركن محمد رفيق عارف رئيس أركان الجيش العراقي قائداً عاماً لقوات دولة الاتحاد العربي ، وعُيِّن الفريق حابس المجالي قائداً لقوات الاتحاد في الشطر الأردني .

تألف مجلس الاتحاد من أربعين عضواً ، من كل دولة عشرون عضواً . ورفع علم الاتحاد على وزارتي الدفاع والخارجية ، ورفعت الجوازات بين الدولتين ، كما ألغيت سفارات البلدين فيهما ، وأصبح موظفو السلك الخارجي ، وموظفو وزارة الدفاع في كلا الدولتين مرتبطين بحكومة الاتحاد العربي بدءاً من ١٤ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (الأول من تموز ١٩٥٨م) .

وأصبحت مدينة عمان مقراً لدولة الاتحاد للأشهر الستة الأولى . واعترفت الحكومة البريطانية بدولة الاتحاد العربي ثم تلاها الاعترافات الأخرى .

الوزارات في عهد الملك فيصل الثاني(٢)

١ ـ وزارة جميل المدفعي الخامسة :	٩ جمادى الأولى ١٣٦٠ ـ ١٩ رمضان ١٣٦٠هـ . (٣ حزيران ١٩٤١ ـ ٩ تشرين الأول ١٩٤١م) .
٢ ـ وزارة نوري السعيد السادسة :	١٩ رمضان ١٣٦٠ ـ ٢٧ رمضان ١٣٦١هـ . (٩ تشرين الأول ١٩٤١ ـ ٨ تشرين الأول ١٩٤٢م) .
٣ ـ وزارة نوري السعيد السابعة :	٢٧ رمضان ١٣٦١ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٢هـ . (٨ تشرين الأول ١٩٤١ ـ ٢٥ كانون الأول ١٩٤٣م) .
٤ ـ وزارة نوري السعيد الثامنة :	٢٧ ذي الحجة ١٣٦٢ ـ ١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ . (٢٥ كانون الأول ١٩٤٣ ـ ٣ حزيران ١٩٤٤م) .
٥ ـ وزارة حمدي الباجه جي الأولى :	١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣ ـ ٩ رمضان ١٣٦٣هـ . (٣ حزيران ١٩٤٤ ـ ٢٨ آب ١٩٤٤م) .
٦ ـ وزارة حمدي الباجه جي الثانية :	١٠ رمضان ١٣٦٣ ـ ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥هـ. (٢٩ آب ١٩٤٤ ـ ٢٣ شباط ١٩٤٦م) .
٧ ـ وزارة توفيق السويدي الثانية :	٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥ ـ ٢ رجب ١٣٦٥هـ . (٢٣ شباط ١٩٤٦ ـ ١ حزيران ١٩٤٦م) .
٨ ـ وزارة أرشد العمري الأولى :	٢ رجب ١٣٦٥ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥هـ . (١ حزيران ١٩٤٦ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦م) .
٩ ـ وزارة نوري السعيد التاسعة :	٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ . (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦ ـ ٢٩ آذار ١٩٤٧م) .
١٠ ـ وزارة صالح جبر الأولى :	٧ جمادى الأولى ١٣٦٦ ـ ١٨ ربيع الأول ١٣٦٧هـ . (٢٩ آذار ١٩٤٧ ـ ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨م) .

١١ ـ وزارة محمد الصدر :	١٨ ربيع الأول ١٣٦٧ ـ ١٥ شعبان ١٣٦٧هـ . (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ ـ ٢٣ حزيران ١٩٤٨م) .
١٢ ـ وزارة مزاحم الباجه جي :	١٨ شعبان ١٣٦٧ ـ ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ . (٢٦ حزيران ١٩٤٨ ـ ٦ كانون الثاني ١٩٤٩م) .
١٣ ـ وزارة نوري السعيد العاشرة :	٦ ربيع الأول ١٣٦٨ ـ ١٧ صفر ١٣٦٩هـ . (٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ـ ٩ كانون الأول ١٩٤٩م) .
١٤ ـ وزارة علي جودت الأيوبي الثانية :	١٨ صفر ١٣٦٩ ـ ١٧ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ . (١٠ كانون الأول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠م) .
١٥ ـ وزارة توفيق السويدي الثالثة :	١٧ ربيع الثاني ١٣٦٩ ـ ٣ ذي الحجة ١٣٦٩هـ . (٥ شباط ١٩٥٠ ـ ١٥ أيلول ١٩٥٠م) .
١٦ ـ وزارة نوري السعيد الحادية عشرة :	٣ ذي الحجة ١٣٦٩ ـ ٢٠ شوال ١٣٧١هـ . (١٥ أيلول ١٩٥٠ ـ ١٢ تموز ١٩٥٢م) .
١٧ ـ وزارة مصطفى العمري :	٢٠ شوال ١٣٧١ ـ ٥ ربيع الأول ١٣٧٢هـ . (١٢ تموز ١٩٥٢ ـ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢م) .
١٨ ـ وزارة نور الدين محمود	٥ ربيع الأول ١٣٧٢ ـ ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ . (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ ـ ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣م) .
١٩ ـ وزارة جميل المدفعي السادسة :	١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢ ـ ٢٣ شعبان ١٣٧٢هـ . (٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣ ـ ٥ أيار ١٩٥٣م) .
٢٠ ـ وزارة جميل المدفعي السابعة :	٢٣ شعبان ١٣٧٢ ـ ٧ محرم ١٣٧٣هـ . (٥ أيار ١٩٥٣ ـ ١٧ أيلول ١٩٥٣م) .
٢١ ـ وزارة محمد فاضل الجمالي الأولى :	٧ محرم ١٣٧٣ ـ ٢ رجب ١١٣٧٣هـ . (١٧ أيلول ١٩٥٣ ـ ٨ آذار ١٩٥٤م) .
٢٢ ـ وزارة محمد فاضل الجمالي الثانية :	٢ رجب ١٣٧٣ ـ ٢٦ شعبان ١٣٧٣هـ (٨ آذار ١٩٥٤ ـ ٢٩ نيسان ١٩٥٤م) .

٢٣ ـ وزارة أرشد العمري الثانية :	٢٦ شعبان ١٣٧٣ ـ ٢ ذي الحجة ١٣٧٣هـ (٢٩ نيسان ١٩٥٤ ـ ٣ آب ١٩٥٤م) .
٢٤ ـ وزارة نوري السعيد الثانية عشرة:	٣ ذي الحجة ١٣٧٣ ـ ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ . (٣ آب ١٩٥٤ ـ ١٧ كانون الأول ١٩٥٥م) .
٢٥ ـ حكومة نوري السعيد الثالثة عشرة:	٢ جمادى الأولى ١٣٧٥ ـ ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ . (١٧ كانون الأول ١٩٥٥ ـ ٢٠ حزيران ١٩٥٧م) .
٢٦ ـ حكومة علي جودت الأيوبي الثالثة :	٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦ ـ ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ . (٢٠ حزيران ١٩٥٧ ـ ١٤ كانون الأول ١٩٥٧م) .
٢٧ ـ حكومة عبد الوهاب مرجان الأولى :	٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٧ ـ ١٠ شعبان ١٣٧٧هـ . (١٥ كانون الأول ١٩٥٧ ـ ٢ آذار ١٩٥٨م) .
٢٨ ـ وزارة نوري السعيد الرابعة عشرة:	١١ شعبان ١٣٧٧ ـ ١ ذي القعدة ١٣٧٧هـ . (٣ آذار ١٩٥٨ ـ ١٩ أيار ١٩٥٨م) .
٢٩ ـ وزارة أحمد مختار بابان :	١ ذي القعدة ١٣٧٧ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٩ أيار ١٩٥٨ ـ ١٤ تموز ١٩٥٨م) .

البَابُ الثّـَاني

الجمهُوريَّة

انتهت الحرب العالمية الثانية ، وانتصر الحلفاء على دول المحور ، وبرزت الولايات المتحدة كأكبر قوةٍ في الاقتصاد والحرب ، ولم يلبث أن انقسم العالم إلى مُعسكرين : المعسكر الغربي أو الرأسمالي ، ويضمّ دول أوربا الغربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد عمل على توحيد قُواه ضمن حلفٍ ، عُرف باسم « حلف شمالي الأطلسي » ، والمعسكر الشرقي أو الشيوعي ويشمل دول أوربا الشرقية . والإمبراطورية الروسية (الاتحاد السوفيتي) ، وقد عمل على توحيد قُواه ضمن حلفٍ ، عُرف باسم « حلف وارسو » نسبةً إلى عاصمة دولة بولندا مقرّ الحلف .

وكلّ مُراقبٍ سياسيٍ يُمكن أن يُلاحظ أن حلف شمالي الأطلسي أكبر قوةً ، وأكثر إمكاناتٍ من حلف وارسو ، غير أن حلف وارسو أكثر تماسكاً وانضباطاً ، وأكبر تجمّعاً وارتباطاً ، وذلك أن رأساً واحداً مُدبّراً يُحرّكه ويُوجّهه ، وهو الاتحاد السوفيتي ، بينما بقية أعضاء الحلف تذوب شخصيتهم تماماً ضمن السياسة العامة التي يرتئيها حُكّام الكرملين ، وإنّ الخطّ الذي يرسمه هؤلاء الحُكّام يُنفّذه الأعضاء الآخرون ، ولا يحقّ لهم سوى الامتثال ، وإذا ما خطر ببال أحد الأعضاء اتباع سياسةٍ مُستقلةٍ أُلزم على الخضوع بالقوّة ، وأُجبر على ترك سياسته بالغصب ، كما حدث في المجر ، ومن بعدها في تشيكوسلوفاكيا .

نظرت الولايات المتحدة الأمريكية في هذه السياسة ، ورأت أنها ليست في صالح حلف شمالي الأطلسي ، مع مرور الزمن ، وخاصةً بعد أن رأت انضمام دولٍ بعيدةٍ إلى جانب سياسة حلف وارسو كالصين ، ومنغوليا الخارجية ، وكوريا الشمالية ، وألبانيا ، وكوبا ، وربما انتشرت الشيوعية العالمية على نطاقٍ أوسع نتيجة التخلّف السائد في كثيرٍ من المناطق ، وأطماع كثيرٍ من الناس في مُمارسة التحكّم والتسلّط على المتخلّفين ، ويسمع الفقراء والمستعبدون الشعارات المطروحة ويرونها برّاقةً فيمشون تحتها حتى يقعوا في حبائل الشيوعية ، وأباطيلها المُضلّلة ، ورأت الولايات المتحدة في الوقت نفسه أن للصراعات بين الدول الغربية دوراً في نجاح خصومها ، إذ تبرز السياسة الاستعمارية في أوضح صورها في تحطيم الشعوب ، ونهب ثرواتها ، ويفضح بعضها بعضاً ، لذا يجب وقف هذا الصراع ، كما يجب دمج اتجاهات الدول الغربية ضمن سياسةٍ واحدةٍ ، وتخطيطٍ واحدٍ .

رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن أفضل وسيلةٍ لتنفيذ ما يجول في خاطرها من وقف الصراعات بين الدول الغربية ، ولفّها في فلكٍ واحدٍ هو أن تحلّ محلّ أصدقائها من الدول الغربية في مناطق نُفوذها ومواضع سيطرتها ، وإذا تمّ لها ما تُخطّط له ، فإن حلف شمالي الأطلسي لم يخسر شيئاً إذ أن الثروات تكون قد انتقلت فيه من عضوٍ إلى عضوٍ آخر ، وكلا العضوين أعضاء في الحلف ، بل تكون قد حصلت فائدة إذ أنّ هذه الثروات تجمّعت في مكانٍ واحدٍ فيمكن استثمارها بشكلٍ أفضل ، وهذا ما يُؤدّي إلى تطوّرٍ علميٍ بصورةٍ أكمل . فتجمّع الثروة في مكانٍ واحدٍ أفضل من تبعثرها من عدّة أماكن ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى التفكير الرأسمالي الذي يقوم من أساسه على تجمّع الثروة . وتصبح الدولة التي تتركّز بيدها الثروات قادرةً على قيادة المعسكر والحلف بشكلٍ أمتن حيث تصبح بقية الدول الغربية تدور في فلكها ، ويتركّز التوجيه في نقطةٍ واحدةٍ ، ويفقد بذلك حلف وارسو الميزة التي يمتاز بها على حلف شمالي الأطلسي ، ويُصبح المعسكر الرأسمالي يملك

القوة ، كما يملك القدرة على التخطيط والتنفيذ دون أن يجد أيّ عائقٍ يحول دون ذلك . وفي الوقت نفسه تكون الصراعات قد زالت بين الدول الاستعمارية الغربية بفقدها مناطق نفوذها ومواضع سيطرتها ، وانتقالها كلها إلى مكانٍ واحدٍ هو الولايات المتحدة الأمريكية .

لم تجد الولايات المتحدة صعوبةً في دخول البلدان التي كانت لا تزال تخضع لسيطرة بعض دول أوربا الغربية إذ أعلنت الوقوف بجانبها، ودعمتها في سبيل الحصول على الاستقلال الاسمي ، وقدّمت لها بعض المساعدات أو المعونات من أجل الاستثمارات ، فخضعت للنفوذ الاقتصادي الأمريكي ، وانتهى الأمر ، غير أن الولايات المتحدة قد وجدت صعوبةً كبيرةً في دخول البلدان التي كانت قد نالت استقلالها السياسي الذاتي على حين بقي النفوذ الأجنبي فيها ، وصبغها بصبغته كاملةً إضافةً إلى الركائز القوية التي يعتمد عليها في مناطق نفوذه ، وقد انسحب منها حسب مخططٍ يستفيد منه وحده دون أن تكون أيّة فائدةٍ للشعب الذي كان يُعاني ويلات الاستعمار ، حيث انقسم الشعب على نفسه وتسابق في خدمة من كان يُسيطر عليه لتكون له الغلبة على خصمه ، والسيطرة على بلده . ويُمكن أن نُعطي أمثلةً على النوع الأول دول المغرب العربي التي أمضت مدةً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولم تحصل على استقلالها السياسي لذا فقد دخلها النفوذ الأمريكي بسهولةٍ ، أما الدول التي نالت استقلالها قبل الحرب كالعراق ، أو بعد الحرب مُباشرةً كسوريا فقد كان دخول النفوذ الأمريكي إليها يجد صعوبةً كبيرةً ، ويحتاج الأمر إلى عددٍ من الانقلابات أو التغييرات الاجتماعية ، ورُبّما كانت تشذّ مصر عن هذا الموضوع إذ لم يحتج الأمر من الولايات المتحدة إلّا إلى انقلابٍ واحدٍ ، فإن ذلك يعود إلى طبيعة الشعب في مصر الذي يخنع أمام أي حاكمٍ يصل إلى السلطة بأيّة صورةٍ من الصور .

لم تنجح الولايات المتحدة الأمريكية في كل ما كانت ترمي إليه إذ لم تقض على الصراعات بين دول غربي أوربا وإنما دخلت هي في صراعاتٍ

جديدةٍ ، وخاصةً مع انكلترا التي بقيت أقوى تلك الدول من حيث امتداد نفوذها واتساع رقعة سيطرتها . ومع ذلك يُمكننا أن نقول : إنها صراعات مخفية لا تكاد تظهر للمراقب العام حيث تحجبها الصراعات بين المعسكرين الكبيرين ، ويظنّ المرء أن انكلترا تدور في فلك الولايات المتحدة ، وأنه لم تبق هناك صراعات بين دول حلف شمالي الأطلسي ، والواقع أنّ الولايات المتحدة لها هيمنة على حلفائها ، ولكنها ليست تامةً ، ولهذا تبدو الصراعات بين المعسكرات ، وتختفي ما بين دول المجموعة الغربية ، إذن فالنجاح كان جزئياً .

لقد كان مركز انكلترا قوياً في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وخاصةً في الشام ، والعراق ، وتركيا ، ومصر فعندما أرادت أمريكا أن تقتحم هذه المراكز وجدت صعوبةً كبيرةً في الشام مع أنها ليست أقوى حصون انكلترا ، فما أن تقوم بانقلابٍ لصالحها ، حتى يقع انقلاب ثانٍ في غير صالحها ، واستمرّ ذلك أكثر من عشرين سنة من ١٣٦٩ ـ ١٣٩٠هـ ، وكانت العراق دائماً هي المركز الذي يدعم الحركة المضادّة لنفوذ الولايات المتحدة ، وغالباً ما يلقى النجاح . لذا فقد خطّطت لتقويض ذلك المركز ودخوله كي يتسنّى لها التمكّن النهائي في الشام ، وقد رسمت أن تكون انكلترا نفسها أحد أطراف اللعبة .

كانت انكلترا قد تورّطت في العدوان الثلاثي على مصر في ٢٥ربيع الأول ١٣٧٦هـ(٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م)وهذا ما أثار عليها سكان البلدان العربية ، فحملوا عليها ، وضعُف مركزها واهتزّ ، وفي الوقت نفسه ظهر نجم جمال عبد الناصر الرئيس المصري ، وأصبح الناس يتأثّرون بكلامه ، ويتعاطفون مع سياسته الظاهرة التي يبدو عليها الصدق والإخلاص ، وإن كانت في الواقع التبعية والارتماء في أحضان السياسة الأمريكية الجديدة في مصر ، غير أن الناس معظمهم من العامة ، ولا يعرفون من الأمر إلّا ما يُذاع ، ولكن كل ما يُعلنه الساسة ، وكل ما تُبرزه وسائل الإعلام لا يتكلم عن الواقع بل في الحقيقة هو ما يُغاير الواقع ، إذ لا يمكن لزعيمٍ يسير في فلك

الاستعمار أو يرتبط مع دولةٍ كبرى أن يُعلن ذلك ، ويُصرّح به بل على العكس يتشدّق باستمرار بالوطنية ، ويرفع صوته بالإخلاص ، ويتهم الآخرين ليُخفي حقيقة أمره ، ولبساطة العامة وصفائهم يأخذون ظاهر القول ، ويُصدّقونه . وخاصةً أن بروز الرئيس المصري جمال عبد الناصر كان حديثاً ، ولم يكن أمره قد عظُم فلم يُبال أعداؤه في السياسة بالموضوع كثيراً .

ومع ضعف مركز انكلترا ارتفع مركز الولايات المتحدة لارتفاع شأن صنيعتها جمال عبد الناصر ، ولموقفها من العُدوان الثلاثي ، إذ عملت على وقفه بعد الإنذار الروسي . وأصبحت مكانتها تخولها توريط انكلترا في اللّعبة الدولية ، وإعطاءها دوراً تقوم به ، أو دفعها في جهةٍ مُعينةٍ لتُؤدّي مُهمّةً خاصةً . ما دامت قد تسلّمت زمام الأمر منها ، وأصبحت المبادرة بيدها .

اقترحت الولايات المتحدة على انكلترا تشكيل أحلافٍ عسكريةٍ من الدول التي تُحيط بالأمبراطورية الروسية على أن تكون الولايات المتحدة وانكلترا أعضاء فيها لتوجيهها وتقويتها ، وليكون لها مجال التدخّل فيها إذا جرى اعتداء روسي على إحدى دول هذا الحلف ، فوافقت انكلترا على هذا الاقتراح ، ووجدت فيه مجالاً للعمل تحت مظلّة الحلف لمحاربة الشيوعية العالمية ، والوقوف في وجه امتدادها ، ورأت أن في هذا الاقتراح مجالاً لبروزها فمعظم هذه الدول تخضع للنفوذ الإنكليزي ، أو له المكانة الأولى فيها ، وهذا ما يُعزّز مكانتها بين دول حلف شمالي الأطلسي ، وفي دول الحلف المُزمع قيامه ، بل واقترحت أن تكون بغداد مقرّاً لهذا الحلف بصفتها مركز ثقلٍ بالنسبة لها ـ حسب رأيها ـ وهذا كل ما كانت تُخطّط له الولايات المتحدة ، وتعمل له . وباختصارٍ فإن انكلترا قد وقعت في الفخّ الذي نصبته الولايات المتحدة لها .

بدأت ولادة الحلف ، ودُعيت له عدّة دولٍ غير أن بعضها قد رفض ، وحارب الحلف ، وأخذ يُظهر عُواره ، والأهداف التي يرمي لها ، وأغلب هذه الدول التي عارضت الانضمام إليه ، وحاربت قيامه هي من الدول التي يحتلّ فيها النفوذ الأمريكي المكانة الأولى ، وهذا من التخطيط الأمريكي الذي

يهدف إلى اطمئنان انكلترا أنه ليست هناك لعبة أمريكية من وراء الحلف ، ومن ثَمّ لتبقى الدول العربية ضمن محورين يتصارعان كي لا يكون هناك اتفاق وعمل مُوحّد ، وليبقى فيها الشعب مُشعّب الأهواء ، مُفرّق الكلمة والصفّ ، وترمي صاحبة اللعبة محوراً بمحورٍ ، ويكون الهجوم الإعلامي ، وبثّ الشائعات التي تُريدها ، والتوجيه من خلال ذلك ، وأيّدت أمريكا الحلف ، واعتذرت بالانضمام إليه بحجة بقائها على الحياد بين المحورين العربيين المتصارعين .

أخذ السياسيون ، ورجال التخطيط ، والمخابرات يتردّدون على بغداد من أجل الحلف والترتيبات اللازمة ،وأخذوا يتصلون بمن يقع عليهم الاختيار ، وصحيح أن الاتصال يمكن أن يتمّ في بغداد وخارج العراق ، غير أن الصلة في ساحة العمل أكثر فائدةً ، إذ تُعطي لصاحب اللعبة الحجم الحقيقي لمن يتصل به . ولم يكن للولايات المتحدة ركائز في السابق تستحقّ الذكر ، وهذا ما دعاها إلى أن تعمل لإثارة الشبهات حول النظام ، وتجميع الرجال ضدّه ، ولكن ليس تحت إشرافها لتكون بعيدةً عن الشبهة ،نائيةً عن التهمة ، وأخذت تلتقي مختلف العناصر المعادية للنظام العراقي والمعارضة للسياسة الإنكليزية ، وكان من بين هذه العناصر : شيوعيون ، ووطنيون ، وإسلاميون ، إضافةً إلى عناصر شابةٍ من حزب البعث لأن القديمة إنما تربّت في ظلّ العهد القائم ، وتلقّت من مشاربه واتجاهاته التي لا تختلف فيها عن العناصر الشابة في الشام التي أسّست الحزب . وكان لهذه العناصر الشابة من حزب البعث دورها لأنه عن طريقها تتمّ الصلة .

نجحت العناصر المتباينة الاتجاه في توحيد الصف ، وقامت بالحركة وفازت ، وأنزلت بالحكم ضربةً قاصمةً كي لا يبقى له أثر،وقتلت الملك فيصل الثاني ، وولي العهد عبد الإله (الوصي سابقاً) ، ونوري السعيد منذ الساعات الأولى للنجاح ، وسيطرت على الوضع تماماً ، وهذا ما تلجأ إليه عادةً الحركة المضادّة ، ويمكن أن نُلاحظ ما قام به العميد سامي الحناوي زعيم

الانقلاب الثاني في سوريا ، والـذي قام في ٢٠ شـوال ١٣٦٨هـ (١٤ آب ١٩٤٩م) بدعمٍ من انكلترا ضدّ الانقـلاب الأول الذي قـام في ١ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٣٠ آذار ١٩٤٩م) والذي كان باكورة عمليات الانقلاب التي قامت بها الولايات المتحدة في المنطقة لتنفيذ خطتها التي نتحدّث عنها ، إذ قبض زعماء الانقلاب الثاني على المشير حسني الزعيم ، ورئيس وزرائه محسن البرازي وقتلوهما فوراً .

ردّ الفعـل : رحبّت بالحركة الانقلابية الدول العربية التي تسير في دائرة النفوذ الأمريكي تحت شعار نجاح الفكـر الوحـدوي ، وسقوط الـرجعية ، وتحطيم معقلٍ من معاقل الاستعمار ، كما رحّب بذلك خصوم النظام الملكي ، وأعـداء السياسـة الإنكليزيـة و . . . . . انتظرت انكلترا حتى انتهت بهجـة النجاح ، ومضت نشوة النصر ، فلما هدأت الأوضاع أخذت تعمل على تفتيت التجمّع الذي كان بالأمس، فحرّكت ضـدّ الإسـلاميين ، وأثـارت الفئات كلها عليهم ، وأبانت للشيوعيين أن اللعبـة أمريكيـة ، وأظهرت للوطنيـين ارتباط الحركة، وأوهمت الرؤوس أن الـذين رحّبوا بـالحركـة سيعملون على الإطاحة بها ، فأخذ الحذر مأخذه ، وتغيّر الاتجاه ، وخافت كل مجموعةٍ من الأخرى ، ولم تلبث أن أصحبت انكلترا تحرّك المجموعات ، وتُمسك بيدهـا مختلف الخيوط ، وكان عبد الكريم قاسم الذي تدعمه الفئات الشيوعية يتلقّى التوجيهات من انكلترا ، وقد أوحت بالقبض على رشيد عالي الكيلاني الذي عاد إلى البلاد بعد قيام النظام الجمهوري ، فأُلقي القبض عليه ، وأُحيل إلى المحكمة التي قضت عليه بالإعدام بتهمـة العمل عـلى نظام الحكم لصـالح الجمهورية العربية المتحدة ، كما أوحت إلى النظام بالقضـاء على المجمـوعة الإسلامية فأبادها ، وتخلّص من قبل من عبد السلام عارف المؤيّد من قبـل الإسلاميين الذين يرون فيه صلاحاً ، فلا يخشى بأسه ، كما يُؤيّد من البعثيين الذين يعتقدون إمكـانية استغـلاله، وتسخـيره لمصالحهم ومُخطّطاتهم، ومن الذين يتأثّرون بالدعاية للرئيس المصري جمال عبد الناصر التي كانت في أوجها

يومذاك ، وكـان عبد السـلام عارف يـرى الاتحاد مـع الجمهوريـة العربيـة المتحدة . وبذا تخلّصت انكلترا من الإسلاميين الذين يُمكنهم الوقوف في وجه سياستها بل وسياسة أي دولةٍ أجنبيةٍ .

ولما قطع عبد الكريم قاسم خطواتٍ في التوجّه نحو المعسكر الشرقي عملت انكلترا والولايات المتحدة معاً على التخلّص منه ، وقضي على نظامه في ١٤ رمضـان ١٣٨٢هـ (٨ شبـاط ١٩٦٣م) ، وكـانت الفئـات التي أنهت حكمه ، وتخلّصت منه بـالقتل ، مجمـوعة من العنـاصر التي تُؤيّد السيـاسة الإنكليزية أو الأمريكية ، ومعهـا بعض العناصر الـطيّبة الـوطنية ، وأخيـراً تمايزت بعضها عن بعضٍ ، وأخذ الصراع بين النفوذين يبدو على السيـاسة العامة ، يتغلّب هذا أحياناً ، ثم لا يلبث أن يُسيطر الثاني ، وتتبدّل الواجهات السياسية ، وإن كان هذا لا يظهر للعامة جلياً نتيجة المغـالطات ، والمنـاداة بشعاراتٍ تُخالف السير الحقيقي ، وادعاءاتٍ تحمل غير ما يُريده أصحابها .

الفصل الأول

عبد الكريم قاسم

٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧ ـ ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ .
(١٤ تموز ١٩٥٨ ـ ٨ شباط ١٩٦٣م)

أصبح الساسة العراقيون فئةً خاصةً همّها المحافظة على مصالحها الشخصية المادية ، ومكاسبها السياسية ، ومُعظمهم من أسرٍ ثريةٍ استطاعت بغناها أن تُعلّم أولادها ، الذين ورثوا الجاه ، وكسبوا العلم ، ومارسوا السياسة . فلما حصلت البلاد على الاستقلال ، وانتشر التعليم ظهر جيل جديد من عامة الأفراد، ووجد هذا الجيل نفسه بعيداً عن سابقه بل لا تعاون بينهما ، نتيجة النظرة الفوقية من السابقين ، وبسبب ما في نفوس الشباب على ساستهم الذين مزّقوا البلاد، وعزلوها عن غيرها من البلدان العربية .

تأثّر الجيل الجديد بالعصبية القومية إذ كانت الدعوة إليها واسعةً في هذه المرحلة لأن الناس كانوا في جهلٍ ، ليس لديهم فكر ، وإنما تأخذهم العاطفة ، ويتأثّرون بها ، ويبغون الحمية ، حمية الجاهلية التي كانت تلعب العصبية للقبيلة بين العشائر العربية ، وللقوم مع جيرانهم من الفرس، والروم، والأحباش دوراً كبيراً. أما اليوم فتقوم التجمّعات، واللقاءات، والدعوات، والاتحادات على أساس الأفكار ، وعلى أساس الأنظمة ، وعلى المبادىء والأفكار ، والدعوة القومية ليست نظاماً ، ولا مبدأً ، ولا فكراً ، وما هي إلا عاطفة كمن يتعصّب لأسرته أو لقريته أو على نطاق أوسع قليلاً ، ولكن لا يختلف من حيث الأسس . أما النظام ، والمنهج ، والمبدأ ، والفكر السائد في البلدان العربية ، وأمصار العالم الإسلامي كلها فإنما هو الإسلام ، فلما عمل

المستعمرون على حربه ، وخططوا لإزاحته عن الحياة لم يجدوا بُدّاً من طرح بديلٍ ، ورأوا أن البديل يجب أن يكون فارغاً من كل مضمونٍ ، لا يلتقي مع الإسلام، يوجد من يتبنّاه ، وإذا أمكن أخذه من المجتمع العربي فهذا مُهمّ جداً ، وقد وجدوا في القومية ما يشمل هذه الموضوعات كلها ، إذ لا مضمون فيها ، فليست سوى عاطفة حبٍّ لقوم ، ورغبةٍ في وحدته ، وعملٍ لذلك ، لكن حسب أيّ نظامٍ ، أو أيّ منهجٍ ، أو أيّ دستورٍ ، وعلى أي مبدأ ، فهذا لا علاقة له بالقومية . والقومية لا تلتقي مع الإسلام الذي يشمل منهجه جميع جوانب الحياة ، ويعدّ العصبية الأسرية ، والقبلية ، والقومية نتنةً تُؤدّي إلى تفريق الأُمّة المسلمة ، وتشتيت شملها ، وترك العمل بالإسلام ، والدعوة إليه ، والعمل على نشره . والقومية يوجد من يحملها ، ويعمل لها مُباشرةً ، ويتبناها وهم أهل الكتاب الذين يعيشون في البلدان العربية، ويرجعون في أصولهم إلى العرب ، وقد لُقّنوا فعلاً هذه الدعوة ، وحملوها ، ثم سار معهم بعض المسلمين تدريجياً ، جهلاً ، ومصلحةً ، وشهوةً ، حتى كثُر عددهم ، ووصل الأمر إلى ما نراه اليوم ، والقومية مأخوذة من المجتمع العربي الجاهلي ، يوم كانوا يتقاتلون عصبيةً لقبائلهم ، ويذوب الفرد نهائياً في القبيلة ، وربما كان قول بعضهم ما يصوّر هذا حقّ التصوير .

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزيّة أرشد

وكان العرب في الجاهلية يتفاخرون في قبائلهم حتى لا يرى الواحد منهم مفخرةً إلا هي في قبيلته ، ولا سوءاً إلّا في غيرها . بل لا يرى في فعلٍ من أفعال عشيرته ما يشين ، فما أن يقوم سيّدها بعمل حتى يصبح هذا العمل شرفاً تُباهي به القبيلة ، وهذه هي القومية التي تجعل لأتباعها كلّ فضيلةٍ ، وتنسب إليهم كلّ مفخرةٍ ، وتسلب من غيرهم كلّ مكرمةٍ ، وتجرّدهم من كلّ مجدٍ . ولهذا تختلف مع جيرانها ، وتنشأ الحروب ، وتحدث الصراعات ، ويعيش الناس على الحدود بين الجوار في خوفٍ دائمٍ وحذرٍ مستمرٍ .

انتشرت القومية العربية في المشرق العربي بمعناها العلماني ، على حين

أنّها أخذت في المغرب المعنى الإسلامي لأنّه لا يوجد هناك نصارى عرب ، أو لا يوجد نصارى سوى المستعمرين . وتوسّع انتشار القومية نتيجة الجهل والغفلة ، ولعدم وجود ما يملأ الفراغ الفكري في المجتمع ، وبسبب الدعاية الواسعة لها ، وإضفاء صفة التقدّمية على أتباعها ، والرجعية على غيرهم ، والناس يتأثّرون وخاصةً الشباب منهم ، حيث تكون عواطفهم مُرهفةً ، وتعاونت وسائل الإعلام كلّها في سبيل انتشار القومية ، ولكن الأمر الخطير الذي جهله العامة ، وانطلى على الخاصة أن الدوائر الاستعمارية أظهرت عداوتها لأتباع القومية ، وأعلنت الحرب عليهم ، كي تُعطيهم صفة الوطنية ، ولو لم يكونوا كذلك ، ولتجعل الناس يُقبلون على التنظيمات القومية ، ما دامت من غرسها ، فيجب عليها أن ترعاها وتتعهّدها ، وبهذه الطريقةا أصبحت التجمّعات القومية هي المحركة للشارع والمدلّلة لدى الحكام إن خالفوها اتهموا بالرجعية ، وإن سايروها وصفوا بالتقدّمية ، حتى عمّ هذا المفهوم ، وقُسّم الناس والحكام على أساسه، وعلى هذا الأساس صُنّف حكام العراق على أنهم من الرجعيين ، وبذا كانوا خصوماً سياسيين للجيل الناشىء الذي أقبل على فكرة القومية .

جعل القوميون شعارهم الدعوة إلى وحدة البلدان العربية ، غير أن هذا مطلب إسلامي ولكن على أساس تطبيق المنهج الإسلامي ، وليس شعاراً من غير مبدأ ، وعلى أنه وسيلة وليس غاية ، والغاية هي النظام الإسلامي ، وأن هذه الوحدة جزء من توحيد الأمة الإسلامية كلّها ، ما دامت البلدان العربية جميعها أمصار إسلامية . وبذا فإنّ الدعوة إلى وحدة البلدان العربية وجدت صدىً طيباً لدى العامّة الذين هم غالباً من المسلمين ، ولدى بعض المتنوّرين الذين يعملون في الميدان الإسلامي ، والذين لا يُميّزون بين الوسيلة والغاية ، ولا يُفرّقون بين الدعوة لتطبيق منهجٍ ، والدعوة العاطفية ، وبهذا لقيت حماسةً أوسع ، وميداناً أرحب إذ مشى بعض المسلمين إلى جانب القوميين تحت شعار الدعوة إلى الوحدة العربية ، جهلاً منهم بالشعار العلماني الذي تحمله القومية .

لكن العراق ليس وحدةً مُتجانسةً ، وإنما مجموعات ، ولكل مجموعةٍ رأيها الذي تُمليه عليها مصالحها ، فالأكراد يُطالبون بالاستقلال الذاتي ، وإقامة دولةٍ كرديةٍ لهم في مناطقهم التي يرسمونها هم في مخيلتهم ، ويرفضون الاندماج مع دولةٍ عربيةٍ في العراق إذ يرون أنهم يضيعون فيها ما داموا أقليةً ، ومن هذا المنطلق فهم بالأولى أن يرفضوا الوحدة العربية إذ تذوب فيها شخصيتهم تماماً ، ويزول كيانهم ، ولم يبحثوا في موضوع الوحدة العربية على أساس الإسلام إذ يتساوون فيها حينذاك مع بقية المجموعات ، غير أن طغيان القومية في ذلك الوقت قد حال بينهم وبين هذا التفكير إلاّ من قبل مجموعةٍ صغيرةٍ تتناسب مع مثيلتها عند العرب .

أما الشيعة فيرفضون الوحدة العربية كفكرةٍ دينيةٍ إذ يرون ضياعهم بين العرب الذين تقلّ فيهم نسبة الشيعة بل لا توجد في الأمصار التي هي في القارة الإفريقية أيّة نسبة من الشيعة ، غير أنّ بعضهم يُؤيّدون الوحدة العربية على أساسٍ علمانيٍ ، وهذا ما يدعم الفكرة القومية .

أما المسلمون (السنة) فيعملون للوحدة العربية للطغيان على الشيعة ، غير أن بعضهم يخشى من انفصال الأكراد ، ومناطقهم هي الغنية بالنفط ، حيث لم تكن حقول الجنوب قد استثمرت بعد بشكلٍ جيدٍ ، وكانت مناطق الاستثمار مقصورةً تقريباً على الشمال أيّ في المناطق التي يعدّها الأكراد ضمن منطقة « كردستان » .

لم يستطع الساسة العراقيون أن يصهروا هذه المجموعات في بوتقةٍ واحدةٍ ، ولم يطرحوا الفكر الإسلامي الذي يجمع هذا الشتات ، لأن أهواءهم كانت تُسيطر عليهم ، وتُبعدهم عن الإسلام الذي يقف في وجه تلك الأهواء ، حتى أعمتهم الشهوات ، وأضلّتهم المكانة فبقوا في غيّهم سادرين ، حتى أتاهم أمر الله ، وهذا ما أبقى الشعب في حالة نقدٍ وحذرٍ .

وكما عجز المسؤولون العراقيون عن لمّ شتات المجموعات العراقية ، فقد

عجزوا عن الإصلاح الاجتماعي فبقي الشعب في وضعٍ مُتردٍّ ، وظلّت الأوضاع في حالة فوضى ، والبلد في صورة مُتأخّرة ، لم تقم مشروعات إنمائية واسعة تستحق الذكر ، ولم تطل يد التحسين القرى ، وهذا ما جعل الشعب كثير الضيق النفسي ، كثير النقد .

وحرص الجيل الناشيء على الوصول إلى مناصب في السلطة ، وكثرت الطموحات ، ولكن لعبة الانتخابات أبقت المجلس النيابي حكراً على السياسيين القدماء ، وأعوانهم الناشئين ، وهذا ما أورث الحقد لدى الشباب على ساستهم المحترفين الذين استغلّوا أسلوب الانتخابات بطريقةٍ بشعةٍ .

وجاءت قضية فلسطين ومُشاركة العراق بالقتال ، ولم تكن هناك أوامر بالتقدّم في ساحات القتال إذ كانت القيادة العامة للعرب برئاسة (غلوب) ، حتى شاعت على الألسن باللهجة العراقية العامية (ماكو أوامر) ، ورجع الجيش العراقي من فلسطين بعد أن أعلنت الهدنة عام ١٣٦٨هـ ، وكان لهذه العودة أثرها السيء في نفوس الشعب .

وجاء العُدوان الثلاثي على مصر عام ١٣٧٦هـ ، ورغم الشجب العراقي للعُدوان إلاّ أن الواقع كان فيه شيء من الشماتة ، فأثّر ذلك في نفوس الشباب ، وأخذ الحقد يغلي كالمرجل .

ووقع الخلاف بين سوريا ومصر من جهةٍ والعراق من جهةٍ ثانيةٍ حول حلف بغداد ، وأصبحت إذاعات دمشق والقاهرة تُهاجم بغداد ، فكان الشباب يُردّدون ما تُذيعه دمشق والقاهرة من أفكار .

وتوجّهت أعداد من الشباب إلى الأحزاب السياسية المعارضة لتُفرغ نشاطها فيها ، ولتجد متنفّساً لها تُعبّر فيه عن آرائها دون خوفٍ ما دامت العاقبة مضمونة ، وكان بعض هذه الأحزاب معروف مثل الحزب الوطني الديمقراطي الذي يرأسه كامل الجادرجي ، وحزب الاستقلال الذي يتزعّمه محمد مهدي كبه ، كما كانت بعض الأحزاب الأخرى تعمل بالخفاء مثل حزب البعث ،

والحزب الشيوعي ، أو من شيوعيين آخرين يعملون تحت اسم مُنظماتٍ ثانيةٍ مثل « أنصار السلام » و « الشبيبة الديمقراطية » .

إذن كان الشباب المُعارض يتألّف من الشيوعيين ، والاشتراكيين، ودعاة الوحدة من قوميين وإسلاميين إضافةً إلى المستقلّين المعارضين الذين لا ينضوون تحت عنوان أو تجمّع مُعينّ ، وإنما يُعارضون سياسة الحكم الخارجية والداخلية على حدٍّ سواء . ومعظم هؤلاء كانوا من أبناء العائلات المتوسطة الغنى ، أو الفقيرة ، كما أن غالبيتهم كانوا من أسرٍ لم يُمارس رجالها السياسة ، ولم يكن لهم دور في الحكم أو في المجلس النيابي .

ولما وجد هؤلاء الشباب عجزهم في الوصول إلى المجلس النيابي ، أو الدخول في معترك السياسة ، أمام تدخّل السلطة في الانتخابات ، واحتكار فئةٍ مُعيّنةٍ للسياسة حرصاً على مصالحها ، ونفاق الكثيرين للمسؤولين ، وتملّقهم الشديد لهم ، فكّروا في الاستعانة بالجيش ، ولم يكن في معزلٍ عن المدنيين ، وهل هو إلا أبناء هذا الشعب ؟ إذ كانت هناك صلات بين المدنيين والعسكريين ، صلات فردية ، وصلات اجتماعية .

الجيش : كان الضباط أصحاب الرتب المتوسطة والصغيرة أكثرهم من الأسر الفقيرة والمتوسطة الغنى ويحسّون كما يحسّ بقية أفراد الشعب بوطأة الحكم عليهم ، وبالسياسة غير الصحيحة ، والتي كانت لا تُمثّل آراء الشعب أبداً ، ولكن يُسيّرها ويستبدّ بها قليل من محتكري السياسة . وأن الالتفات إلى الجيش في سبيل إعداده وتقويته لم تكن لتأخذ أدنى اهتمام من كبار المسؤولين . وكانت صلة العسكريين مع المدنيين تجرّهم أحياناً إلى النقد أو محاولة إيجاد طريق للخروج من هذا الوضع ،ولا شكّ أن هذا لا يكون إلّا عند وجود الثقة التامة ، لأنّ الرقابة كانت قويةً على الضباط ، وعلى المدنيين أيضاً . ثم إن الضباط يتعرّف بعضهم على آراء بعضٍ ، بالحديث والمناقشة أحياناً ، ويلتقي أصحاب الأفكار الواحدة ، أو الذين يلتقون على المطالبة بالإصلاح ،

وينتقدون السلطة ، وأخذت تظهر تجمّعات صغيرة في منـاطق مُتعدّدةٍ .

بدأ العمل العسكري داخل الجيش منذ عودته من فلسطين ، وقد وجد الضباط الشباب عدم جديّة القتال ، وإعطاء القيادة العـامة لـ (غلوب) ، وقلّة عـدد القـطعـات المُـرسلة إلى فلسـطين ، وضعف تسليحهـا ، وعـدم تدريبها ، وكلّ هذا مجال للانتقاد ، ووضع إشـارات الاستفهام عـلى رجال الحكم العراقي . ورُبّما كان تنظيم أوّل مجموعةٍ عسكريةٍ نعرفها هي المجموعة التي نظمّها الرائد رفعت الحاج سري ، ومع أنه كان ذا رُتبةٍ متوسطةٍ إلاّ أنه يتمتّع باحترامٍ كبيرٍ ، وتقديرٍ واضحٍ من قبل الضباط جميعاً لأخلاقه العالية ، وسلوكه المستقيم ، وكان صاحب دينٍ . بدأ لقاء هذه المجمـوعة مـع اليوم الأول من عام ١٣٧٢هـ (٢٠ أيلول ١٩٥٢م) . وكانت هذه المجموعة تضمّ إضافةً إلى رفعت الحاج سري كلاً من : عبـد الوهـاب الأمين ، وإسـاعيل عـارف ، وصالـح عبد المجيـد ، وشكيب الفضلي ، وكـانوا يلتقـون في دار إسماعيل عارف في ضاحيةٍ من ضواحي بغداد . وكان رئيس الأركان الفريق رفيق عارف يُراقب تحركات الضباط ، وعرف ما يدور من أحاديث بين بعض الضباط ، وانتبه إلى هذا اللقاء ، وكان يُفكّر بالبطش برجاله غير أنه اكتفى بعدئذٍ ببعض العقوبات، كي لا يفقد ثقة الضباط الناشئين الذين يمكن أن يكون لهم دور في المستقبل . لقد أصدر أمراً بنقل المُقدّم رفعت الحـاج سري إلى (قلعة صالح) على نهر دجلة للإشراف على التجنيد ، وقد بقي هناك حتى تقاعد من الخدمة برتبة عقيـد ، وعاد بعـدها إلى بغـداد . أما أعضـاء هذه المجموعة فصدرت أوامر بتعيينهم في سفارات العراق في الخـارج ، كملحق عسكري[1] . ولم تكن هذه المجموعة ذات فكر واحدٍ ، وإنما كانت أفكارهم

---

(١) صدر الأمر بتعيين : إسماعيل عارف ملحقاً عسكرياً في واشنطن .
صالح عبد المجيد ملحقاً عسكرياً في الأردن .
شكيب الفضلي ملحقاً عسكرياً في باكستان .
وبقي عبد الوهاب الأمين ضابطاً في قسم المعدّات .

مُتباينة ، فقد كان رفعت الحاج سري ذا دينٍ ، على حين كان إسماعيل عارف ذا فكرٍ شيوعي ، ولكن تجمعهم مُعارضة الحكم .

انتقلت القيادة من رفعت الحاج سري إلى آخرين ، ومن مجموعته إلى مجموعاتٍ أُخرى تشكّلت تلقائياً . وكذلك لم تكن هذه المجموعات لتضمّ ضباطاً من فكرٍ واحدٍ ، إنما تضمّ أيضاً أصحاب أفكارٍ مُتباينةٍ ، ومن هذه المجموعات : مجموعة بغداد بقيادة محيي الدين عبد الحميد ، ويُديرها رجب عبد المجيد ، وربما كانت على صلةٍ بالحزب الوطني الديمقراطي .

وبمجموعة المنصور إحدى ضواحي بغداد بقيادة عبد الكريم قاسم .

ومجموعة الناصرية بقيادة شاكر محمود شكري .

ومجموعة الموصل بقيادة محمود عزيز .

ومجموعة الديوانية بقيادة إسماعيل علي .

ثم اندمجت مجموعة بغداد ، ومجموعة المنصور، وأصبحت مجموعةً واحدةً بقيادة عبد الكريم قاسم . وبعد مُضي مرحلةٍ أصبح الفريق رفيق عارف يغضّ النظر عن لقاء هذه المجموعات لتبقى ثقة أعضائها فيه ، وإن لم يعرف تفصيل كل ما يجري .

كان بعض ضباط هذه المجموعات على صلةٍ ببعض الأحزاب مثل مجموعتي بغداد ، والمنصور اللتين كانتا تحت سيطرة الحزب الوطني الديمقراطي ، وكان المسؤول عن هاتين المجموعتين عبد الكريم قاسم ، ويتصل بالحزب المذكور .

وكان عبد السلام عارف ، ورفعت الحاج سري صاحبي دينٍ ، ويدعوان إلى الوحدة العربية ، والعمل مُباشرةً إلى الانضمام إلى الدول العربية الأخرى ، ولم تكن لهما صلات حزبية أو دولية .

وكان إسماعيل علي ، ووصفي طاهر من أصحاب الفكر الشيوعي ، ويتصلان بالحزب الشيوعي ، وخلاياه ، وقياداته .

وكان صالح مهدي عماش على صلةٍ وثيقةٍ بحزب البعث .

وربّما حاول بعضهم الاتصال بالزعماء السياسيين المدنيين المعارضين للاستفادة من التوجيه ، والاستشارة ، ولا شكّ أنّ كلّ ضابطٍ يتصل بأحد السياسيين لا بدّ من أن يكون أقربهم إليه صلةً ، أو فكراً ، أو إعجاباً بمواقفه .

اتصل رفعت الحاج سري بـ(محمد صديق شنشل) وبـ (فائق السامرائي) وكلاهما من أعضاء حزب الاستقلال الذي يرأسه محمد مهدي كبه . كما اتصل رجب عبد المجيد بفائق السامرائي أيضاً .

واتصل عبد الكريم قاسم بالحزب الوطني الديمقراطي عن طريق رشيد مطلق ، ثم اتصل مباشرةً برئيس الحزب كامل الجادرجي ، فاقترح عليه رئيس الحزب أن يكون مستشارهم محمد حديد أحد أعضاء الحزب البارزين .

كان بعض كبار هؤلاء الضباط على صلةٍ وثيقةٍ بالقيادة لحماية نفسه ، أو بأحد قادة البلاد للغرض نفسه ، وربما رأى أحدهم أن في هذا التصرّف حريةً له للحركة . فقد كان العقيد عبد السلام عارف يتصل برئيس الأركان الفريق رفيق عارف ، ويتقرّب منه ، حتى صار من أعوانه ، يُدافع عنه ، ويحميه ، ويردّ على من يتكلّم عنه ، وليس بينهما أية صلة قرابةٍ ، وإنما اتفاق عفوي في اسم الأسرة .

وكان عبد الكريم قاسم يتصل بنوري السعيد ، ويتودّد إليه ، حتى غدا من المقرّبين إليه ، يثق به ، ولا يهتمّ بما يُقال عنه . ويُعدّ عبد الكريم قاسم أكبر الضباط المعارضين رتبةً حيث كان يحمل رتبة عميد . ولكن صار اللواء محمد نجيب الربيعي يُؤيّد انتقادات المُعارضين ، أو يسكت عن ما يسمع .

صار أكثر هؤلاء الضباط يعرف بعضهم بعضاً ، فأطلقوا على أنفسهم اسم « الضباط الأحرار » على التسمية التي أطلقها على أنفسهم ضباط الثورة في مصر ، وهذا يدلّ على مدى تأثّرهم برجال تلك الثورة ، والدعاية لها . وشكّلوا لجنةً منهم لتنظيم الأمر ، أُطلق عليها « المنظمة المركزية » دلالةً على

التأثّر بالحركة الشيوعية ، التي تُطلق على قيادتها غالباً هذا الإسم . ووصل عدد أعضاء هذه المنظمة قبل الثورة بسنةٍ إلى أربعة عشر ضابطاً ، ولم يزد العدد بعدها على ذلك[1] ، وهم :

١ ـ العميد عبد الكريم قاسم .
٢ ـ العميد محيي الدين حامد .
٣ ـ العقيد ناجي طالب .
٤ ـ العقيد عبد السلام عارف .
٥ ـ العقيد عبد الرحمن عارف .
٦ ـ العقيد عبد الوهاب الأمين .
٧ ـ العقيد عبد الوهاب الشواف .
٨ ـ العقيد طاهر يحيى .
٩ ـ المقدم رجب عبد المجيد .
١٠ ـ المقدم وصفي طاهر .
١١ ـ المقدم عبد الكريم فرحان .
١٢ ـ المقدم محسن حسين الحبيب .
١٣ ـ الرائد صالح علي غالب .
١٤ ـ الرائد الطيار محمد السبع[2] .

---

(١) انتخب رفعت الحاج سري عضواً في المنظمة المركزية ولكن لم يحضر أي لقاءٍ من اجتماعاتها .
(٢) كانت أكثر اللقاءات تتم في بيت الرائد الطيار محمد السبع .

كانوا جميعاً من العرب ، ولم يكن بينهم ضابط كردي ، غير أنّ بعض الضباط الأكراد كانوا يُؤيّدونهم ، عسى أن يحصلوا على بعض المنافع للدولة الكردية التي يحلمون بها .

كانت غالبيتهم من المسلمين (السنة) ، ولم يكن بينهم من الشيعة سوى ناجي طالب ، ومحسن حسين الحبيب ، ولكن عبد الكريم قاسم كانت أمه من الشيعة . وكان تأييد الشيعة على أساس قيام دولةٍ علمانيةٍ لا دينيةٍ .

وكان معظمهم من بغداد ، ولم يكن من خارجها سوى ناجي طالب ، وطاهر يحيى ، وعبد الكريم فرحان ، أما عبد السلام عارف وأخوه عبد الرحمن فأصل الأسرة من مدينة عانة على =

ولما لم يكن جميع أعضاء المنظمة المركزية أصحاب فكرٍ واحدٍ لذا لا يمكن أن يتّفقوا على صيغةٍ مُحدّدةٍ للعمل بعد نجاح حركتهم ، وإنما اكتفوا بوضع خطوطٍ عريضةٍ ، أطلق عليها بعضهم اسم « الميثاق الوطني » ولم تكن مكتوبةً ، وإنما تفاهموا عليها مُشافهةً ، إذ كانوا حريصين ألّا يتركوا أثراً مادياً يُدينهم فيما إذا كُشف أمرهم ، وأهم هذه النقاط :

١ ـ إعلان الجمهورية ، وإلغاء الملكية .

٢ ـ إقامة حكمٍ نيابيٍ صحيحٍ .

٣ ـ إقامة حكومةٍ مدنيةٍ ممن يثق بهم الضباط الأحرار ، بين مرحلة إلغاء الملكية وإقامة الحكم النيابي ، ويكون رئيسها مدني من زعماء المعارضة ،

= نهر الفرات قريباً من الحدود السورية ، ولكن انتقلت إلى بغداد ، وقد ولدا فيها .

كانوا جميعاً من الفقراء باستثناء ناجي طالب الذي كان أبوه ثرياً ، وعضواً في المجلس النيابي .

ولم يكن والد أحدٍ منهم قد عمل في سلك الجندية سوى والدي محيي الدين حامد ، ووصفي طاهر .

درسوا جميعاً في المدارس الرسمية ، والتحقوا بعد تخرّجهم من المرحلة الثانوية في الكليات الحربية في بغداد ، وتخرجوا برتبة ملازمٍ ثانٍ ، ثم التحق عشرة منهم بكلية الأركان وهم : عبد الكريم قاسم ، عبد السلام عارف ، عبد الرحمن عارف ، محيي الدين حامد ، ناجي طالب ، عبد الوهاب الشواف ، عبد الكريم فرحان ، صالح علي غالب ، محسن حسين الحبيب .

وابتعث كل من ناجي طالب ، ورجب عبد المجيد إلى انكلترا ، ومحسن حسين الحبيب إلى الولايات المتحدة .

ودرس كل من ناجي طالب، ومحيي الدين حامد في كلية الحقوق في بغداد ، ولكن لم يتابع ناجي طالب الدراسة .

وقُبل عبد الرحمن عارف عضواً في اللجنة المركزية في ٣٠ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٧م)، وقُبل أخوه عبد السلام عارف في ٤ ذي القعدة ١٣٧٦هـ (١ حزيران ١٩٥٧م) والذي رشّحه ، وزكّاه عبد الكريم قاسم حيث كان عبد السلام عارف على رأس كتيبةٍ في فلسطين تتبع عبد الكريم قاسم ، وكان بعضهم لا يرغب في مُشاركة عبد السلام عارف لهم .

ويختار الوزراء بعد استشارة الضباط .

٤ ـ إقامة مجلس سيادةٍ يضم ثلاثة أعضاءٍ ، يقومون مقام رئيس الدولة .

٥ ـ تحويل المنظمة المركزية إلى مجلسٍ لقيادة الثورة بعد نجاح الحركة .

ويبدو أن في ذلك التفاهم كان هناك نوع من التعاطف مع الأكراد .

لم يبحثوا في موضوع حلف بغداد ، ولكن أرجأوا ذلك إلى ما بعد نجاح الحركة ، وإلى الحكومة التي ستقوم يومذاك ، وذلك حتى لا يكون هناك تباين في وجهات النظر . ولم يبحثوا من أمر الأقليات سوى الأكراد ، وبشكلٍ غير مفصلٍ ، وإنما تطرّقوا إلى خطوطٍ عريضةٍ فيها اتفاق مسبق ، ومن البعيد أن يحدث فيها خلاف ، وهي التقيد بمبادىء الأمم المتحدة ، وميثاق جامعة الدول العربية .

وبسبب أن ضباط المنظمة المركزية ليسوا من فكرٍ واحدٍ ، وبعضهم يحرص على الزعامة لا بدّ من الوقوع بالخلافات السريعة لأن كلاً منهم يرغب في تحقيق ماتصبو إليه نفسه .

ولكن اتّفقوا فيما بينهم ومُشافهةً أنه إذا اقتضت الظروف ، وقامت مجموعة بالحركة أن تهبّ المجموعات الأخرى وتدعمها مُباشرةً .

وقبل الحركة نظروا في أمر أساطين المتلاعبين بالسياسة العراقية ، وأجمعوا على ضرورة قتل ولي العهد الأمير عبد الإله ، ونوري السعيد ، واختلفوا في وضع الملك ، ورأوا تركه حياً في السجن أو تحت الإقامة الجبرية رحمةً لصغره ، ومرضه . غير أنه قبل التنفيذ رأى عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف قتل الملك وإلحاقه بصاحبيه خوفاً من تدخل الدول الأخرى لصالحه .

محاولات التنفيذ السابقة : فكّر عبد الكريم قاسم بتنفيذ الحركة وهو عائد إلى العراق من فلسطين[1] ، ومُجرّد أن يدخل الحدود عند محطّة الضخّ

---

(١) آخر ما بقي من الجيش العراقي في الأردن .

(هـ ٣) ، وذلك لأن الملك ، وولي العهد ، ونوري السعيد كانوا سيحضرون احتفالات الاستقبال ، وأخبر المنظمة المركزية بذلك ، وأعلمهم أنّ هذا سيكون في شعبان ١٣٧٦هـ (تشرين الثاني ١٩٥٦م) ، ولكن أُلغيت الخطة ، لأنه جرى تعديل في الاحتفال ، ولن يحضر الثلاثة الكبار .

ووضع رفعت الحاج سري مُخطّطاً لتنفيذ الحركة بعد أن أُحيل على التقاعد في عام ١٣٧٧هـ غير أنه لم يُنفّذ .

وفي ٢٢ شوال ١٣٧٧هـ (١١ أيار ١٩٥٨م) جرت مُناورات للجيش في منطقة الرطبة ، وتقرّر حضور الثلاثة الكبار ، فقرّرت المنظمة المركزية التنفيذ ، غير أن نوري السعيد لم يحضر تلك المناورات ، لذا تقرّر إلغاء التنفيذ . لكن أُلقيت قنبلة على منصّة الملك من جهةٍ غير معروفةٍ ، ولم يُصب أحد بأذىً ، ولم يلحق ضرر بالضباط الأحرار ، كما لم يُتّهم أحد منهم .

وفي ٢٣ شوال ١٣٧٧هـ عندما انتهت المناورات ، وأخذ الجنود يعودون إلى قطعاتهم ، توقّف لواء البصرة في منطقة (أبو غريب) بقيادة العميد أحمد محمد يحيى ، وفكّر بإعلان الثورة ، وأخبر بذلك الضباط الأحرار الذين كانوا في بغداد بإمرة العقيد عبد الوهاب الشواف ، فلم يهبّوا لنجدته ، وربما كانت الزعامة وراء هذا التواني .

وفي ١١ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (٢٩ أيار ١٩٥٨م) فكّر المقدّم عبد الغني الراوي بتنفيذ الحركة في البصرة ، إذ كان مقرّراً حضور الثلاثة الكبار الاحتفال الذي سيُقام بمناسبة مرور خمسٍ وعشرين سنة على تأسيس كلية الأركان ، ووضع المقدّم الراوي تفصيلاً دقيقاً للخطّة ، ولكن لم يُوافق زعماء الضباط الأحرار على ذلك .

حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ : بعد عطلة عيد الأضحى مُباشرةً ١٣ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١ تموز ١٩٥٨م) صدر الأمر العسكري إلى اللواء العشرين من الفرقة الثالثة التي يقودها الفريق غازي الداغستاني ، والمعسكر في

منطقة جلولاء شمالي شرقي بغداد بالتحرّك يوم ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) إلى الأردن لتعزيز موقفها في وجه الهجمات التي يقوم بها اليهود ضدّها . وكان قائد هذا اللواء العميد أحمد حقي ، وهـو ليس من الضباط الأحرار .أما الكتائب الثلاث التي يتألّف منها اللواء فهي : الكتيبة الثالثة بقيادة العقيد عبد السلام عارف ، وهو نائب قائد اللواء ، والكتيبة الأولى يقودهـا عبد اللطيف الدراجي ، وهو من الضباط الأحرار، وأما الكتيبة الثانية فيقودها ياسين محمد عبد الرؤوف .

أما اللواء التاسع عشر من الفرقة الثالثـة فيقوده العميـد عبد الكـريم قاسم ، ويتمركز في ضاحية المنصور في معسكر المقدادية . فما أن صدر الأمر حتى أحسّ عبد الكريم قاسم أن الوقت قد حان لإعلان الحركة وأنّ الفرصة مُناسبة جداً لذلك ، وشاركه الرأي عبد السلام عارف الذي خشي أن يبتعد عن دوره في الحركة فيما إذا ترك لواؤه أرض العراق إلى الأردن . واتّفق الاثنان على أن يحتلّ اللواء العشرون بغداد ، وهو في طريقه إلى الأردن رسمياً ، وأن ينطلق اللواء التاسع عشر خلفه لحماية ظهره من حركـةٍ مُضادّةٍ . ورأيـا من الضرورة وجود الملك ، وولي العهد ، ونوري السعيد في بغداد .

وكان لا بدّ من الحصـول على مُـوافقة المنـظمة المـركزيـة ، لذا نـزل عبد الكريم قاسم إلى بغداد يوم ١٧ ذي الحجة (٤ تموز) ، والتقى بداره مع ستةٍ منهم[1] ، في مُحاولةٍ للسرعة ، ولحصر الخبر في أقلّ عددٍ ممكنٍ ، وقرّروا تنفيـذ الخطّة ، وأطلقـوا عليها عمليـة (صقـر) . وأخـذ بعـدهـا كـل من عبد الكريم قاسم ، وعبد السلام عارف يُعمّيان عن الخطّة ، ويشيعـان أن تأجيل التنفيذ قد تأخّر . . . . .

وفي ٢٦ ذي الحجة (١٣ تموز) أي قبل قيام الحركة بيومٍ واحدٍ قام

---

(١) كان هؤلاء المجتمعون : عبد الكريم قاسم ، ومحيي الدين حامد ، وعبد الوهاب الأمين ، وعبد الوهاب الشواف ، وناجي طالب ، وطاهر يحيى ، ومحمد السبع .

عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بزيارة بغداد ، وزارا بعض الذين تقع على عاتقهم بعض المهمّات في التنفيذ .

وفي الصباح الباكر من يوم ٢٧ ذي الحجة ، تحرّك اللواء العشرون بقيادة عبد السلام عارف ، وكان القائد العميد أحمد حقي قد اجتاز بغداد ، وسار باتجاه الفالوجة سابقاً لواءه . فأصدر العقيد عبد السلام عارف أمره باعتقال العقيد ياسين محمد عبد الرؤوف قائد الكتيبة الثانية ، وعيّن مكانه المقدّم عادل جلال . وسار على رأس اللواء إلى معسكر (كاسل بوست) ، فأصدر هناك الأوامر الآتية :

١ ـ يتسلّم العقيد عبد اللطيف الدراجي قيادة اللواء ، إضافةً إلى قيادة الكتيبة الأولى التي تكلّف باحتلال الإذاعة ، ومركز الشرطة في الباب الشرقي جنوب بغداد ، وتتصل بالضباط الأحرار في معسكر الرشيد .
٢ ـ يُعيّن المقدّم فاضل محمد علي قائداً للكتيبة الثالثة ، مكان العقيد عبد اللطيف الدراجي ، وعلى هذه الكتيبة احتلال الكرخ بالتعاون مع معسكر (الوشاش) الذي هو بقيادة عبد الرحمن عارف .
٣ ـ وتتحمّل الكتيبة الثانية بقيادة المقدم عادل جلال احتلال وزارة الدفاع ، وحصار الديوان الملكي ، وشلّ حركة الحرس الملكي .

ثم وزّع الذخيرة على القطعات ، وكان مُعسكر (كاسل بوست) على بعد ثلاثين كيلومتراً من بغداد ، وكانت الساعة الرابعة صباحاً ، فتحرّك فوصل إلى بغداد في الساعة الرابعة والنصف ، واجتاز نهر دجلة في الساعة الخامسة ، واتّجه نحو الإذاعة ، فاحتلّها ، وأقام فيها مقرّ قيادته . وأعلن من الإذاعة نبأ إعلان الجمهورية ، ودعا الشعب إلى تأييد الحركة .

وأصدر عبد السلام عارف أمره إلى الرائد عبد الجواد حامد بأن يتوجّه على رأس سرية لحصار قصر الرحاب حيث يُقيم الملك ، وولي العهد . وعهد إلى الرائد بهجت سعيد بمهمة إلقاء القبض على نوري السعيد ، وكلّف المقدّم

وصفي طاهر بمعاونته لأنه يعرف بيت نوري السعيد جيداً حيث عمل مُرافقاً له مدةً من الزمن . ولكنّ نوري السعيد استطاع الفرار(١) مدة يومين .

وجد الرائد عبد الجواد حامد مُقاومةً للوصول إلى قصر الرحاب ، فجاءته نجدة من معسكر (الوشاش) بقيادة الرائد عبد الستار عبد اللطيف على رأس قوةٍ مدرّعةٍ ، قضت على الملك وولي العهد .

ولما احتلّ عبد السلام عارف بغداد ، تسلّم العقيد عبد اللطيف الدراجي إمرة اللواء ، وأسند قيادة الكتيبة الأولى مكانه إلى المقدّم عبد الله الخالدي .

وكان عبد الكريم قاسم ينتظر سير الأمور في معسكر المقدادية ، وهو قائد اللواء التاسع عشر ، فلما بلغه احتلال عبد السلام عارف بغداد، لحق به ، وسمع من مذياع سيارته صوت عبد السلام عارف يُنادي من الإذاعة نبأ إعلان الجمهورية . فتوجّه إلى الإذاعة وهنّأ عبد السلام بنجاحه ، ثم توجّه إلى وزارة الدفاع حيث اتّخذها مقرّاً لقيادته . ورُبّما كانت هذه نقطة الخلاف الأولى بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ، وإن كانت لا شعوريةً . إذ كان عبد السلام عارف يشعر أنه هو الذي قام بالعملية ، ونجح فيها ، ولم يقم عبد الكريم قاسم بأيّ جهدٍ ، أمّا عبد الكريم قاسم فيحسّ بنفسه أنه كان قائد التنظيم للضباط الأحرار .

أعلنت البيانات نبأ تعيين عبد الكريم قاسم رئيساً أعلى للقوات المسلحة ، ومُنح صلاحيات واسعةً ، كما عُيِّن رئيساً للوزراء لحكومةٍ مدنيةٍ ، ووزيراً للدفاع بالوكالة ، كما عُيّن عبد السلام عارف مُساعداً له في رئاسة

---

(١) أخذ ينتقل من مكان إلى مكان متخفياً ، ثم عُرف وهو يسير بزي امرأةٍ مع زوج أحد أصدقائه ، فظهر طرف البيجاما أسفل العباءة ، فلما انكشف أمره انتحر بإطلاق الرصاص على نفسه ، ونقلت جثته إلى وزارة الدفاع ، ثم دُفنت ، ولكن العامة نبشوا القبر ، وأخرجوا الجثة ، ومثّلوا بها .

القوات المسلحة ، ونائباً له في رئاسة الحكومة ، ووزيراً للداخلية بالوكالة ، وكانت تصدر البيانات باسم مجلس السيادة .

وخرجت مُظاهرات التأييد تملأ شوارع العاصمة ، والمدن الأخرى . كما قامت مثيلاتها في كلٍ من دمشق والقاهرة . وجاءت قوات أمريكية إلى لبنان لحماية الوضع ، وجاءت قوات إنكليزية إلى الأردن ، وأُتبعت بقواتٍ أمريكيةٍ أيضاً للسبب نفسه . وأيّدت الجمهورية العربية المتحدة الوضع بكل ثقلها ، وأعلنت استعدادها لدعم الوضع الجديد في العراق ، وجاء وفد رسمي من بغداد برئاسة عبد السلام عارف إلى دمشق للتفاوض مع جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة الذي كان بدمشق ، وجرت مُفاوضات بين الطرفين ، ووُقّعت اتفاقية من الجانبين في اليوم نفسه ٢ المحرم ١٣٧٨هـ (١٩ تموز ١٩٥٨م) . ويظهر أنّ عبد السلام عارف قد ذكر لجمال عبد الناصر إمكانية انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة .

الحكم العسكري : تشكّل مجلس السيادة من ثلاثة عناصر برئاسة الفريق محمد نجيب الربيعي[١] . وتشكّلت الوزارة برئاسة عبد الكريم قاسم[٢] ، وقرّرت في اليوم الأول من عام ١٣٧٨هـ (١٧ تموز ١٩٥٨م) إعادة

---

(١) تشكّل مجلس السيادة من محمد نجيب الرُبيعي رئيساً وعضوية كل من : محمد مهدي كبه ، والعقيد خالد النقشبندي .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الكريم قاسم : رئيساً للوزارة، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ عبد السلام عارف : نائباً لرئيس الوزارة، وزيراً للداخلية بالوكالة.
٣ ـ محمد حديد : وزيراً للمالية .
٤ ـ مصطفى علي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ فؤاد الركابي : وزيراً للإعمار .
٦ ـ عبد الجبار جومرد : وزيراً للخارجية .
٧ ـ جابر عمر : وزيراً للمعارف .
٨ ـ محمد صديق شنشل : وزيراً للإرشاد .
٩ ـ هديب الحاج حمود : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ محمد صالح محمود : وزيراً للصحة .
١١ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للاقتصاد .
١٢ ـ بابا الشيخ علي محمود : وزيراً للمواصلات والأشغال .
١٣ ـ ناجي طالب : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

العلاقات السياسية مـع الجمهوريـة العربيـة المتحدة ، والاتحـاد السوفيتي ، والصين الشعبية . كما ألغت الاتحاد مع الأردن وتشكّلت لجنة وزارية لوضع دستور موقتٍ فأنجزته خلال أُسبوعين .

تضايق الضباط الأحرار الذين لا يُريدون إقحام أنفسهم بالسياسة من تصرّف عبد الكريم قـاسم باستـلامه السلطة . وخـاصةً أنّـه أصبح يُصـدر القرارات دون استشارة الوزراء ، ثم أعلن الأحكام العـرفية في جميـع أنحاء البلاد ، وعيّن العميد أحمد صالح العبـدي حاكـماً عسكريـاً عامـاً ، وجعله مسؤولاً أمامه . وصُودرت أملاك الأسرة الحاكمة . وأُنشئت محكمة عسكرية . وتأسّست المقاومة الشعبية ، وتألّفت من مُتطوعين ومُتطوعات ، وأصبحت مدةً تنشر الرعب في نفوس السكان نتيجة التصرّف غير المقبول .

الخلاف بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف :

بدأ الشعور بالخلاف من اليوم الأول ، إذ يعدّ كلّ واحدٍ منهما نفسه أنّه هو الذي أنشأ الحركة وقادها . فعبد الكريم قاسم رأس المنظّمة ، ومنه تصدر الأوامر ، وهو الذي يُخطّط ، أو يُوافق على مُخـطّطٍ ، ولا يتمّ عمل دونـه ، وباسمه تكون الحركة . ويرى نفسه أنّه هو المُخطّط لهذه الثورة ، كما أشرف على التنفيذ ، ولا يُنكر ضمناً دور عبد السلام عارف وما بذله ، وإن كان بينه وبين نفسه يحسّ بشيءٍ من الحسد مقرونٍ بشيءٍ من التقدير للدور الذي قام به عبد السلام عارف ، ولكن لا تلبث أن تعاف نفســه هذا التفكـير وتعود إلى إعطاء صاحبها أكبر من حقّه فتتذكر أنّه هو الذي رشّح عبد السلام عارف إلى المنظمة المركزية وهو الذي زكّاه وقدّمه ، ولولاه لبقي عبد السلام مغموراً ، فهو إذن صاحب الأيدي البيضاء عليه .

ويرى عبد السلام عارف أنه هو الذي قاد الحركة ، وخاطر ، وتسلّم الإذاعة ، وهو أوّل من أذاع نبأ الحركة إلى الرعيّة ، وأعطى التعليمات اللازمة للسيطرة على الموقف ، وكتب الله للحركة النجاح برعايةٍ وفضلٍ منه ، ثم بما

أحدثه العهد السابق من بدعٍ وسوءٍ ، وما جرى على أيدي أتباعه من جرائم وظلمٍ وطغيانٍ ، ثم بفضل التعليمات التي أعطاها هو (عبد السلام عارف) .

ومن هذين المنطلقين المتباينين أخذ يتصرّف كل منهما دون النظر إلى الطرف الآخر بل دون النظر إلى المنظمة المركزية التي يجب أن يُؤخذ رأيها في كل موضوع ، ودون النظر إلى رأي الحكومة بل دون أخذ الاعتبار إلى مجلس السيادة الذي هو رأس السلطة ، وعنوان البلد .

كان عبد السلام عارف يدعو إلى الوحدة العربية الشاملة ، ويرى الانضمام مُباشرةً إلى الجمهورية العربية المتحدة التي يراها رمز هذه الوحدة ، ومنها تنطلق ، إضافةً إلى أنه كان مُعجباً برئيسها جمال عبد الناصر ، إذ كانت الدعاية مُركّزةً عليه من الداخل والخارج بل وحتى من دولة اليهود إذ يدّعون الخوف منه والعداوة له ليكبُر في عيون شعبه . ولم يكن عبد الكريم قاسم يرى ما يراه عبد السلام عارف .

في ٣ المحرم ١٣٧٨هـ(١٩ تموز ١٩٥٨م) أي بعد الحركة بخمسة أيامٍ قام عبد السلام عارف على رأس وفدٍ يضم ثلاثة وزراء بزيارة دمشق حيث كان جمال عبد الناصر فيها ، وجرت مفاوضات ، ووُقّعت اتفاقية ، وتكلّم عبد السلام عارف في موضوع انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وسأله جمال عبد الناصر عن موقف عبد الكريم قاسم ، فأجاب : مصيره مصير محمد نجيب ، ويُعرف من هذا تخطيط عبد السلام عارف ، وتفكيره ، ونظرته المستقبلية . ولكن قبل أن يرجع الوفد إلى العراق كان تفصيل ما جرى من أحاديث عند عبد الكريم قاسم ، وقد فاتحه بهذا عبد السلام فابتعد عبد السلام بالتحليل ، والتعليل ، والتحايل ، وتصديق بعض ما نُقل ، وإنكار بعضه الآخر ، فسكت عبد الكريم ، وأسرّها في نفسه .

وكان عبد السلام عارف يقوم بجولاتٍ في أنحاء العراق ، ويُلقي خُطباً حماسيةً ، وفي نهاية الخُطبة ، ينقل للجموع تحيات الرئيس جمال عبد الناصر

كأنّه رئيس البلاد ، ولا يُذكر عبد الكريم قاسم زعيم العراق ، ناسياً ذلك أو مُتناسياً ، وتُنقل الأخبار إلى عبد الكريم قاسم ، فيسكت عنها مُكرهاً ، على غير طبيعته الانفعالية، وكأنّه حريص فعلاً على صداقة عبد السلام، ومُقدراً له ، ومُحترماً للصلة التي كانت بينهما ، وقد كثُرت هذه التصرّفات ، وكثُر معها الواشون .

وكان عدد من الضباط والوزراء أمثال فؤاد الركابي ، وناجي طالب يُشجّعون عبد السلام عارف على العمل للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، ويدفعونه إليها دفعاً ، وفي الوقت نفسه يوجد عدد آخر يُحذّرون عبد الكريم قاسم من عبد السلام عارف وأعوانه ، ويُخوّفونه من التوجّه نحو الجمهورية العربية المتحدة أكثر من اللازم ، لأن النتيجة لن تكون إلاّ ضياع شخصيته ، وفقدان العراق لكيانه ، وصبر عبد الكريم قاسم ، ثم أخذ ينزل العقوبة تدريجياً .

بدأ بإلغاء منصب عبد السلام عارف من منصب نائب قائد القوات المسلّحة بحجة أن عدداً من الضباط أصحاب الرتب العالية ، والتي هي أعلى من رتبة « عقيد » رتبة عبد السلام عارف ، كانوا يحتجّون بمُخالفة نظام السلم العسكري ، إذ كيف يُصدر ضابط أوامره لمن هم أعلى منه رتبةً . وهذا ما ألزم عبد الكريم قاسم على هذا التصرّف ـ حسب زعمه ـ .

ثم ألغى منصب عبد السلام عارف السياسي كنائب لرئيس الوزراء ، ووزيرٍ للداخلية بالوكالة[1] ، بحُجّة اقتضاء المصلحة العامةً، العبارة السياسية المعروفة التي تُتّخذ في مثل هذا الموقف .

ورأى عبد الكريم قاسم أنّ إبعاد عبد السلام عارف إلى خارج البلاد قد يُنهي الصراع الذي حدث داخل البلاد بين زعيميها ، وفي اليوم نفسه الذى

---

(١) عُيّن مكانه وزيراً للداخلية العقيد أحمد محمد يحيى .

أزاحه فيه عن منصبه السياسي قرّر تعيينه سفيراً للعراق في ألمانيا الغربية، وأصدر أمراً بذلك في الوقت ذاته .

رفض عبد السلام عارف مُباشرةً منصبه الجديد كسفيرٍ في ألمانيا الغربية ، وقدّم استقالته في اليوم التالي ، وأصرّ على ذلك ، وقال : إنّه يفضّل الجلوس دون عملٍ في بلده على أيّ عملٍ مهما كانت قيمته خارج وطنه ، ولزم بيته . وأخذ الأصدقاء والأعوان يزورونه .

وحاول العقيد أحمد حسن البكر أحد أعضاء حزب البعث أن يُثير حماسة الضباط ضدّ عبد الكريم قاسم ، وانتصاراً لعبد السلام عارف ، ويقوم بحركةٍ ، ولكنها قُمعت فوراً .

وقام أعوان عبد السلام عارف بمظاهرةٍ أمام منزله في ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٣ تشرين الأول ١٩٥٨م) وهتفوا له وعبّروا عن مشاعرهم تماماً .

حاول بعض أعوان عبد السلام عارف أن يُقنعوا عبد الكريم قاسم بالعُدول عن رأيه ، وإعادة اعتبار عبد السلام عارف ، فوافق على أن يُنفّذ عبد السلام الأمر ، ويلتحق بعمله ، ثم يُسوّي الأمر ، وحاول بعض الأعوان الآخرين إقناع عبد السلام بالامتثال والموافقة على السفر دلالةً على ولائه لرئيسه عبد الكريم قاسم ، غير أنّه أبى إلّا الإصرار على عدم السفر .

وفي غرة شهر ربيع الثاني دعا عبد الكريم قاسم عبد السلام عارف إلى مكتبه بحضور رئيس الأركان أحمد صالح العبدي ، وفؤاد عارف وضباط آخرين ، وحاول الجميع إقناعه بقبول منصب سفير ، فأبى ، واحتجّ بأمورٍ عائليةٍ ، وأصرّ عبد الكريم قاسم إلّا التنفيذ لأنّ بقاءه قد أحدث انشقاقاً في داخل البلاد . وأخيراً قرّر السفر على أن يستدعيه عبد الكريم قاسم للعودة إلى الوطن بعد ثلاثة أسابيع .

سافر عبد السلام عارف ومعه سفير العراق في بون علي حيدر سليمان عن طريق ڤيينا ، ومن هناك قرّر العودة ، ولكنهما سافرا إلى بروكسل . ثم

رجعا إلى ڤيينا، ورفض عبد السلام عارف الوصول إلى بون ، وعاد من فيينا إلى بغداد ، فأخبر علي حيدر سليمان السلطات مُباشرةً . ووصل عبد السلام عارف إلى بغداد ، وانتقل من المطار إلى منزله . دون علم أحدٍ ، فأخبرت إدارة الجوازات السلطة ، فأصدر عبد الكريم قاسم أمراً إلى رئيس الشرطة طاهر يحيى بإحضاره إلى مكتبه ، فحضر عبد السلام عارف إلى مكتب عبد الكريم قاسم الذي حاول إقناعه بضرورة العودة ولكن دون جدوى ، ثم طلب منه اختيار السفارة التي يُريدها ، فأبى إلاّ البقاء في العراق ، وخرج من المكتب عائداً إلى منزله .

وفي ٢٥ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ (٦ كانون الأول ١٩٥٨م) ، ألقت الشرطة القبض على عبد السلام عارف ، وأودعته السجن ، وقُدّم للمحاكمة يوم ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٥٨م) بتهمة محاولة قتل عبد الكريم قاسم في مكتبه ،يوم كان عنده يوم ٢٨ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (١١ تشرين الأول ١٩٥٨م) ، وتحريض الناس على العصيان في ٢٣ و ٢٤ جمادى الأولى ، واستمرّت المحاكمة حتى ٢٧ رجب ١٣٧٨هـ حيث أصدرت المحكمة حكمها عليه بالإعدام ، ولكن عبد الكريم قاسم لم يُصدّق الحكم ، وإنما احتفظ به عنده ، وبقي عبد السلام في السجن حتى حدث الانفصال في الجمهورية العربية المتحدة إذ انفصلت سوريا عن مصر ، حيث زاره عبد الكريم قاسم بالسجن وطلب منه العودة إلى بيته في ربيع الثاني ١٣٨١هـ ، كما سمح له في ذلك العام بأداء فريضة الحج .

أُحيل بعض أعوان عبد السلام عارف على التقاعد ، ونُقل بعضهم إلى مراكز غير حسّاسة . أما الشيوعيون فقد التفّوا حول عبد الكريم قاسم .

حركة رشيد عالي الكيلاني : إثر نجاح حركة الجيش في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ وصل رشيد عالي الكيلاني إلى دمشق قادماً من القاهرة ، وطلب السماح له بدخول العراق ، فسُمح له ، فرجع إلى القاهرة حيث التقى بالرئيس جمال عبد لناصر ، ثم عاد إلى دمشق ، ومنها إلى بغداد فوصل إليها في

١٩ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٢ تشرين الأول ١٩٥٨م) أي في الأيام التي كان عبد السلام عارف قد لزم بيته ، فاستُقبل استقبالاً رائعاً جداً ، وزاره في بيته عبد الكريم قاسم نفسه ، وعدد كبير من الضباط .

وعندما وُضع عبد السلام عارف في السجن في ٢٥ جمادى الأول ١٣٧٨هـ أخذ عبد اللطيف الدراجي ورفعت الحاج سري ، وأحمد حسن البكر ، وطاهر يحيى يزورون رشيد عالي الكيلاني في بيته ، وتدور الأحاديث السياسية في المنزل ، ويتكلّم الكيلاني بصراحةٍ ، وقد نُصح أكثر من مرةٍ بعدم الحديث إلّا مع من يثق بهم تماماً .

ترامى إلى عبد الكريم قاسم أنّ رشيد عالي الكيلاني يعدّ انقلاباً ، وسيقوم به يوم ٢٨ جمادى الأولى وأنّ شيوخ قبائل الفرات الأوسط هم الذين سيشعلون نار الثورة . فاستعدّت الاستخبارات العسكرية وكلّفت ثلاثة ضباط واثنين من المدنيين للاتصال بأكبر أعوان رشيد عالي الكيلاني ، وهما : المحامي عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني ابن أخي رشيد ، وادّعى العسكريون والمدنيون من رجال الاستخبارات أنّهم قد عملوا على تأسيس جمعيةٍ للعمل السياسي ، فتورّط في الموضوع كل من عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني ، وأخذوا يعملون معاً، ووعدهم مبدر الكيلاني بأنه سيعمل على تأمين السلاح والمال عن طريق عمّه رشيد من الجمهورية العربية المتحدة .

وفي اليوم المُحدّد للحركة ، وهو ٢٨ جمادى الأولى أُلقي القبض على رشيد عالي الكيلاني ، وابن أخيه مبدر الكيلاني ، وعبد الرحيم الراوي ، وقُدّموا للمحكمة ، وادّعى رشيد أنّ عبد الرحيم ومبدراً قد تصرّفا من نفسيهما ، ودون علمه ، فقضت المحكمة بالإعدام على عبد الرحيم ومبدر ، وبرّأت ساحة رشيد . ولكن اللذين حُكم عليهما بالإعدام ، استأنفا الحكم بعد أن رأيا ثناء رشيد على عدالة المحكمة ، وأعادا إفادتيهما . . . . فقُدّم رشيد للمُحاكمة ثانيةً في ٤ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (١٥ كانون الأول ١٩٥٨م)، وتحدّث عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني عن المحادثات التي جرت بين

رشيد عالي الكيلاني وبين الضباط طاهر يحيى، وطه الدوري، وعبد اللطيف الدراجي ، وأحمد حسن البكر . . . . فأعادت المحكمة النظر في حكمها السابق، وقضت على رشيد بالإعدام غير أنّ الحكم لم يُصدق ، وبقي في السجن حتى أُفرج عنه في ١ صفر ١٣٨١هـ (١٤ تموز ١٩٦١م) ، وانتقل من العراق إلى بيروت ، ثم عاد إلى العراق بعد أن وقع انقلاب ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ . ولكن رجع ثانيةً إلى بيروت ، وتُوفّي فيها .

وفي ٢٩ رجب ١٣٧٨هـ (٧ شباط ١٩٥٩م) أي بعد يومين اثنين من صدور الحكم بالإعدام على عبد السلام عارف ، تقدّم ستة وزراءٍ باستقالاتهم بصورةٍ جماعيةٍ[1] ، فقُبلت مُباشرةً ، وتشكّلت وزارة جديدة[2] ضمّت عدداً من العسكريين أكبر مما ضمّتهم الوزارة الأولى .

---

(١) الوزراء الستة الذين تقدّموا باستقالاتهم من الحكومة :

١ ـ فؤاد الركابي: وزير الأعمار .
٢ ـ عبد الجبار جومرد: وزير الخارجية .
٣ ـ جابر عمر: وزير المعارف .
٤ ـ محمد صديق شنشل: وزير الإرشاد .
٥ ـ بابا الشيخ علي محمود: وزير المواصلات والأشغال.
٦ ـ ناجي طالب: وزير الشؤون الاجتماعية .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الكريم قاسم:
٢ ـ أحمد محمد يحيى : وزيراً للداخلية .
٣ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للإقتصاد .
٤ ـ محمد الشواف : وزيراً للصحة .
٥ ـ طلعت الشيباني : وزيراً للتنمية .
٦ ـ
٧ ـ
٨ ـ محمد حديد :
٩ ـ حسين جميل* : وزيراً للإرشاد .
١٠ ـ حسن الطالباني :
١١ ـ محيي الدين حامد :
١٢ ـ عبد الوهاب الأمين:
١٣ ـ فؤاد عارف** : وزير دولة .

* أُرغم على الاستقالة بعد ثلاثة أيام لأنه اتّخذ إجراءً ضدّ صحيفةٍ شيوعيةٍ . وعُيّن سفيراً في الهند ، وحلّ محلّه وزير الدولة فؤاد عارف .

** فؤاد عارف : ضابط كردي ، وليست هناك أية صلة قرابة بينه وبين عبد السلام عارف ، وإنما تشابه في اللقب فقط .

حركة عبد الوهاب الشوّاف في ٢٨ شعبان ١٣٧٨هـ :

أخذ عبد الكريم قاسم يُشجّع العناصر الشيوعية ، والتي تقف موقفاً مُعادياً من الوحدة وذلك للوقوف في وجه العناصر التي تـدعم عبد السـلام عارف ، غير أن هذا التصرّف قد أثار كلّ العناصر التي تُعادي الشيوعية على اختلاف مشاربها، بالإضافة إلى أنّه أهمل الضباط الأحرار الذين كانوا دعامة الحركة ، فشعروا أنهم قد أصبحوا على الهامش ، لا يُؤبه بهم ، ومـع مرور الوقت أصبحوا في عداد المُخالفين للنظام .

كانت وحدة الضباط الأحرار التي نشأت في الموصل بقيادة محمد عزيز ، وكانت تخضع للمنظمة المركزية في بغداد ، وقد أُرسل عبد الوهاب الشواف بعد حركة ٢٧ ذي الحجة ليتولّى قيادة القوات المسلّحة في الموصل . وكـان صاحب أطماع ، وظنّ في بداية الأمر أن نقله إلى الموصـل مؤقّت ، ولما مـرّ الزمن دون إعادته، شعر أن إرساله كان إبعاداً له . وتأكّد لديه هذا عندما عيّن أحمد محمد يحيى وزيراً للداخلية مكان عبد السلام عارف وهـو في رتبة دون رتبته ، وهذا ما جعله يقف موقفاً مُعاديـاً لعبد الكـريم قاسم أو في الصفّ المقابل لـه ، وأصبح في المـوصل مجمـوعتان إحـداهما تُؤيّـد النظام وزعيمـه عبد الكريم قاسم بقيادة محمد عزيز ، والثانية تدعو إلى الوحدة ، وتُعارض مُمثّل النظام عبد الكريم قاسم ، وهي بقيادة عبد الوهاب الشوّاف . وجاءت الفرصة للصدام .

أعلنت مؤتمر مُنظّمة أنصار السـلام الشيوعيـة[1] أنها ستعقد مُؤتمـرها السنوي في مطلع عام (١٩٥٩م) في الموصل ، واحتجّ عبد الوهاب الشوّاف على عقد هذا المؤتمر في الموصل، وطلب من عبد الكريم قاسم منع عقد هذا المؤتمـر في الموصـل ، ولكن لم يستمع ، وكـانت شكوى عـامـة من النشـاط

---

(١) تأسّست في بغداد عام ١٣٦٥هـ ، ولكنها أُلغيت بعد سنتين ، ولكن حركة ٢٧ ذي الحجة عادت للنشاط بقيادة عزيز شريف زعيم الحزب اليساري سابقاً .

الشيوعي ، والتسلّل إلى كثيرٍ من المناطق ، اشتكى من ذلك قائد الفرقة الثانية في كركوك ناظم الطبقجلي ، أحد الضباط الأحرار ، كما اشتكى قائد الفرقة الرابعة في الديوانية عبد العزيز العقيلي الذي هو من الموصل ، كما اشتكى الضباط غير الشيوعيين ، وكان منهم رفعت الحاج سري الذي يعمل مديراً للاستخبارات ، ومكتبه في وزارة الدفاع قريباً من مكتب عبد الكريم قاسم .

اتّفق رفعت الحاج سري مع ناظم الطبقجلي على قيام حركةٍ تقوّض النظام القائم، وكان الاتفاق أن يقوم ناظم الطبقجلي بثورةٍ في منطقته إذ أصبح محبوباً فيها ، وقد التفّ حوله التركمان ، وأحبّوه لحمايته لهم من شيوعيي الأكراد وإلغائه القنصليات الأجنبية في كركوك . أما رفعت الحاج سري فيقوم مع الضباط الوحدويين بتطويق مكتب عبد الكريم قاسم ، وإجباره على الاستقالة ومُغادرة البلاد ، أو قتله إن أبى . ثم انضمّ إلى الحركة في النصف الثاني من شعبان (٢٠ شعبان ١٣٧٨هـ) عبد الوهاب الشوّاف ، وتعهّد هو بالقيام بالثورة لوجود أعدادٍ مُعادين للوحدة في اللواء الثاني الذي يتبع ناظم الطبقجلي ، ويُعسكر في كركوك . كما تعهّد الزعماء المدنيون المُؤيّدون للوحدة بقيام مُظاهرات تأييد للحركة فور إعلانها .

عُقد مؤتمر أنصار السلام في ٢٦ شعبان ، ولم يحدث احتكاك بين الشيوعيين وسواهم من الضباط ، غير أنّ عبد الوهاب الشواف استنفر قواته عصر ٢٧ شعبان ، وقرّر مع نفسه أن تكون الحركة يوم ٢٨ شعبان ، ولم يُخبر بذلك رفعت الحاج سري ، ولا ناظم الطبقجلي . وقام محمود الدرّة ليُنسّق بين الرؤساء للحركة لكنه فُوجىء بقرار الشوّاف الذي رغب أن تكون الحركة باسمه ، على حين رغب آخرون أن تكون باسم ناظم الطبقجلي ، وإن تصلّب عبد الوهاب الشوّاف برأيه ، ورغبته في قيادة الحركة قد جعل الطبقجلي لا يُسرع في دعمه . ولما تباطأ الطبقجلي توانى رفعت الحاج سري . فكان مصير الحركة الفشل .

أعلن عبد الوهاب الشوّاف الثورة في الساعة السابعة من صباح يوم ٢٨

شعبان ١٣٧٨هـ (٨ آذار ١٩٥٩م) ، وأخذت العناصر المُؤيّدة ، والمُعارضة للشيوعية تنتقم من الشيوعيين، وسيطر الوحدويون على الموصل وأسرعت إلى المدينة بطون قبيلة شمر النازلة في الجزيرة السورية ، ووصلت إلى مدينة الموصل ، ودعمت الشواف . واتصل عبد الكريم قاسم بناظم الطبقجلي وسأله عن موقفه ، فأجابه أنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع . غير أن أجهزة البثّ التي يجب أن تصل من سوريا لم تصل ، وعُزلت قوات الشوّاف ، وأمر عبد الكريم قاسم بقصف المدينة ، فانهارت المقاومة ، كما هجمت على الموصل القبائل الكردية الموالية للنظام ، وأُصيب الشوّاف بجروح ، ونُقل إلى المستشفى ، وقضى عليه أحد الأكراد ، وهو بالمستشفى . وفي عصر اليوم التالي ، تغلّبت قوات الحكومة ، ومن يدعمها من الشيوعيين ، وانتهت سيطرة من ناصر الحركة . وأخذ الشيوعيون بارتكاب الجرائم ، إذ شكّلوا المحاكم في الشوارع ، وأخذوا في الإعدامات ، ونُهبت البيوت ، وانتُهكت الحُرمات . وعرف السكان الشيوعيين على حقيقتهم بما ارتكبوه من فظائع تجلّ عن الوصف .

بدأت المحاكمات ، واستمرّت مع التعذيب الشديد ما يزيد على خمسة أشهر ، ثم نُفذّت أحكام الإعدام في ١٨ ربيع أول ١٣٧٩هـ (٢٠ أيلول ١٩٥٩م) ، حيث أُعدم ناظم الطبقجلي ، ورفعت الحاج سري ، ومعهما أحد عشر من إخوانهم[١] .

كما أعدم في اليوم نفسه من غير الضباط الذين اتهموا بمؤازرة حركة

---

(١) تمّ في هذا اليوم إعدام كل من :

١ ـ العميد ناظم الطبقجلي .
٢ ـ العقيد رفعت الحاج سري .
٣ ـ العقيد طفيل سلمان .
٤ ـ المقدم عزيز أحمد شهاب .
٥ ـ المقدم علي توفيق .
٦ ـ المقدم إسماعيل هرفي .
٧ ـ الرائد محمد الجلبي .
٨ ـ الرائد توفيق يحيى آغا .
٩ ـ النقيب هاشم دبوني .
١٠ ـ النقيب داود سعد خليل .
١١ ـ النقيب زكريا طه .
١٢ ـ النقيب يحيى حسين الحماوي
١٣ ـ الملازم الأول حازم خطاب .

الشوّاف كل من : سعيد قزاز ، وبهجت العطية ، وعبد الجبار فهمي ، وعبد الجبار أيوب ، وكانوا في السجن ، قبل ثورة الموصل ، وذلك أن سعيد قزاز كان وزير داخليةٍ في وزارة محمد فاضل الجمالي ، وكان عبد الجبار فهمي متصرف لواء بغداد ، أما بهجت العطية فكان مدير الأمن العام ، وكان عبد الجبار أيوب مدير سجن بغداد وذلك لوقوفهم في وجه الشيوعيين في العهد الملكي .

كان رئيس المحكمة العسكرية العقيد فاضل عباس المهداوي ، وهو ابن خالة عبد الكريم قاسم ، وكان رئيس الادعاء العام العسكري العقيد ماجد محمد أمين .

ويوم الإعدام قامت مُظاهرات في الكرخ ، والأعظمية من أحياء بغداد ، ولكن لم يُبد عبد الكريم قاسم اهتماماً ، بل أمر باعتقال عددٍ من الزعماء المُعارضين .

وفي ٨ محرم ١٣٧٩هـ شكّل عبد الكريم قاسم حكومةً جديدةً[١] .

محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم : رأى حزب البعث العراقي أنه لا بدّ له من التخلّص من زعيم العراق ، ورأى أن يقوم بالاغتيال كوسيلةٍ سريعةٍ ، وعهد إلى اثنين من أعضائه للقيام بهذه المهمة[٢] ، فاختار عشرةً[٣] من

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ عبد الكريم قاسم :
٢ ـ أحمد محمد يحيى : وزيراً للداخلية .
٣ ـ محمد حديد : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد اللطيف الشواف : وزيراً للتجارة .
٥ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للإصلاح الزراعي .

(٢) هما : إياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمي .

(٣) العشرة المغامرون هم : عبد الوهاب الغريري ، وصدام حسين التكريتي ، وحاتم العزاوي ، وعبد الكريم الشيخلي ، وأحمد طه العزوز ، وسليم زيبق ، وسمير نجم ، وياسين السامرائي إضافةً إلى إياد ثابت وخالد الدليمي .

المغامرين ليكونوا فدائيين في تنفيذ العملية ، وأخذوا يُدرّبونهم بشكلٍ مُستمرٍ ، وكانوا جاهزين للعمل مع مطلع عام ١٣٧٩هـ .

أخذ حزب البعث يعد العدّة لاستلام السلطة بعد تنفيذ العملية ونجاحها ، فاتصل الزعماء البعثيون برئيس مجلس السيادة الفريق محمد نجيب الربيعي ، ويبدو أنه قد وافقهم على استلام رئاسة الدولة ، وتشكيل مجلس ثورةٍ جديدةٍ بعد نجاح الخطّة ، كما أعطوا تعليماتٍ لضباطهم ليكونوا على أُهبة الاستعداد خوفاً من قفز الشيوعيين إلى السلطة . لكن تأجّل التنفيذ لتراجعٍ ظهر على عبد الكريم قاسم ، إذ حدّ من النشاط الشيوعي ، وأخرج بعض زعماء البعث من السجن . ولكن عندما أقدم على إعدام ناظم الطبقجلي وجماعته في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٩هـ ، تقرّر تنفيذ الخطّة خلال أسابيع ، وفي ٥ ربيع ثاني ١٣٧٩هـ (٧ تشرين الأول ١٩٥٩م) ، قام المغامرون بالتنفيذ ، وقُتل سائق عبد الكريم قاسم ومرافقه ، وجُرح عبد الكريم قاسم ، كما قُتل من المغامرين عبد الوهاب الغريري برصاص رفاقه ، وجرح صدام حسين ، وسمير نجم .

ضبط شؤون البلاد رئيس الأركان ، حاكم بغداد العسكري أحمد صالح العبدي ، وتمّ إلقاء القبض على المغامرين في ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٩هـ ، ولكن كان بعضهم قد هرب إلى خارج البلاد ، ومن هؤلاء الذين خرجوا صدام حسين التكريتي الذي أصبح رئيس الجمهورية العراقية فيما بعد . وقُدّم المتّهمون إلى المحكمة ، واعترفوا بما فعلوا ، بل قالوا : إنهم ليسوا بنادمين على ما فعلوا ، وصدر حكم الإعدام بحقّهم ، ولكن لم يُصدّق عليه ، فبقوا في السجن حتى زال حكم عبد الكريم قاسم .

عودة الحياة الحزبية : في ٣ رجب ١٣٧٩هـ (١ كانون الثاني ١٩٦٠م) صدر قانون تنظيم الجمعيات . وبعد ثمانية أيّامٍ تقدّم بطلب ترخيص :

الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة محمد حديد ، ومعه حسين جميل ، وهديب الحاج حمود ، ثم انضمّ إليهم كامل الجادرجي .

الحزب الكردي الديمقراطي برئاسة مصطفى البرزاني ، وإبراهيم أحمد، وقد رُفض الطلب ، كما رُفض طلب الحزب الشيوعي العراقي ، وهما صورة واحدة تقريباً .

الحزب الشيوعي العراقي برئاسة داود الصايغ .

الحزب الشيوعي العراقي برئاسة زكي خيري سعيد . وقد رُفض طلبه .

وفي ٥ شعبان تقدّم :

الحزب الإسلامي : فرع من الإخوان المسلمين ، وكان النشاط برئاسة عبد الله النعمة في الموصل . ومحمد محمود الصواف ، وعبد الرحمٰن سيد ، إبراهيم عبد الله شهاب . وأيّد هذا الحزب محسن الحكيم مجتهد الشيعة .

حزب التحرير : برئاسة نعمان عبد الرزاق السامرائي .

وفي ١٥ شعبان تقدم :

الحزبي الجمهوري ، وهو حزب شيوعي ، ومن مؤسسيه عبد الفتاح إبراهيم ، وعزيز شريف زعيم منظمة أنصار السلام . ومحمد مهدي الجواهري (الشاعر) ، وعبد الرزاق مطر رئيس نقابة المهندسين ، وجميعهم يُؤيّدون النظام القائم ، وقد رُفض طلبهم .

وفي ٦ محرم ١٣٨٠هـ تقدم محمد حديد بترخيصٍ لحزب باسم الحزب الوطني التقدمي بعد أن اختلف مع كامل الجادرجي .

ولكن لم تلبث أن عادت الحكومة فحدّت من النشاط الحزبي الذي لم يستمرّ أكثر من عامٍ .

المطالبة بالكويت : حصلت إمارة الكويت على استقلالها في ٦ محرم ١٣٨١هـ (١٩ حزيران ١٩٦١م) ، فأخذت العراق تُطالب بها ، وتعدّها جزءاً منها ، دخلها المستعمرون رغم أهلها ، واقتطعوها من البلاد . ولكن نزلت قوات بريطانية في الكويت في ١٨ محرم . وأصبحت العراق تُطالب بضرورة انسحاب القوات الأجنبية من أرض الوطن ، وتقدّمت الكويت إلى

جامعة الدول العربية لتكون عضواً فيها . فاشترطت العراق انسحاب الإنكليز منها ، واشترطت الجامعة من العراق عدم المطالبة بها ، وإحلال قوّةٍ عربيةٍ مكان القوات الإنكليزية ، وتمّ الاتفاق ، وأصبحت الكويت عضواً في الجامعة .

انسحبت القوات البريطانية من الكويت في الأول من جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م) وحلّ مكانها ثلاثة آلاف جندي من الدول العربية معظمهم من سوريا ، والأردن ، ومصر ، والسعودية ، وبقوا فيها ما يقرّب من سنةٍ ، ثم رجعوا بعدها إلى بلدانهم . وإذا كانت المطالبة قد فشلت لكن عادت مرةً ثانيةً . بعد عودة القوات العربية ، فكان ذلك من أسباب إنهاء حكم عبد الكريم قاسم في العراق .

القضية الكردية : بعد أن قامت حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) عاد عدد من المبعدين الأكراد عن العراق إليها ، كما أُفرج عمن كان في السجن منهم . ورجع الملا مصطفى البارزاني من الاتحاد السوفيتي حيث كان يُقيم هناك منذ عدة سنواتٍ بعد فشل الحركة التي قام بها ، ووصل إلى العراق في ٢٢ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٥ تشرين الأول ١٩٥٨م) .

دُعي الملا مصطفى البارزاني إلى زيارة الاتحاد السوفيتي لحضور الاحتفالات بمناسبة ذكرى الثورة الشيوعية التي تُصادف (١٧ تشرين الأول ١٩١٧م) فلبّى الدعوة ، وسافر ، وبقي هناك عدة أشهرٍ ، ثم رجع ، وفي غيابه استُدعي إلى بغداد الملا أحمد البارزاني شقيق الملا مصطفى مع بعض زعماء الأكراد ، وطُلب منهم إعلان تأييد عبد الكريم قاسم ، كما حُثّوا ليكونوا زعماء الإكراد في العراق فإن زعامة الملا مصطفى البارزاني ستُؤثّر على مستقبل القضية الكردية ، غير أن الملا مصطفى أراد أن يُبرهن للحكم في العراق أنه لا يُوجد زعيم كردي في العراق سواه ، فأخذ يقوم بنشاطٍ ، ويتحرّك على الساحة الكردية ، غير أن زعماء الحزب الكردي الديمقراطي في بغداد لم يتعاطفوا معه .

قام عبد الكريم قاسم بردّ فعلٍ ضدّ تحركات الملا مصطفى في الشمال ، فعطّل الصحف الكردية ، واعتقل زعماء الأكراد . وعمـل على سحق المـلا مصطفى البارزاني ، ولكن لم يتمكّن فيما بقي له من عمرٍ .

الفصل الثاني

عبد السلام عارف

١٤ رمضان ١٣٨٢ ـ ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٥هـ .
(٨ شباط ١٩٦٣ ـ ١٣ نيسان ١٩٦٦م) .

لم يُثمر العمل العام في تقويض حكم عبد الكريم قاسم ، لأن الأمر كان ينكشف للنظام ، ولما في ذلك من اتكاليةٍ ، لذا أخذت كل مجموعةٍ تعمل وحدها ، وبذلك تكون السرية أدقّ ، والإحكام أفضل ، ومن هذه المجموعات حزب البعث الذي شاء الله أن يكون على يديه إنهاء النظام القائم .

كان فؤاد الركابي زعيم حزب البعث الأول في العراق قد توارى عن الساحة ، ووُجّهت إليه انتقادات كثيرة بعد فشله في اغتيال عبد الكريم قاسم ، لذا عُهد إلى علي صالح السعدي برئاسة الحزب في منتصف عام ١٣٨٠هـ(أوائل عام ١٩٦١م) ، فبدأ بالحركة والتخطيط ، ولكن مضت سنة ، ولم يفلح في عمل شيءٍ .

في الأول من شعبان ١٣٨٢هـ(٢٧ كانون الأول ١٩٦٢م) قامت مُظاهرات طلابية ، تُعدّ ضدّ السلطة رغم بساطة سببها ، وهو أن خلافاً وقع بين ابن رئيس المحكمة العسكرية فاضل عباس المهداوي وبين أحد الطلاب ، ولما أرادت إدارة المدرسة تطبيق النظام تدخّل المهداوي لمصلحة ابنه ، وألزم المدرسة على الأخذ برأيه ، فخرج الطلاب بمُظاهرات ، فاندسّ فيها البعثيون .

في ٩ رمضان ١٣٨٢هـ (٣ شباط ١٩٦٣م) اعتقل أحد ضباط البعثيين وهو صالح مهدي عماش ، فاجتمع زعماء الحزب من المدنيين في اليوم نفسه لتقرير ما سيكون، وعلم عبد الكريم قاسم باجتماعهم، فأصدر أمراً باعتقالهم ، ومن بينهم طبعاً زعيم الحزب علي صالح السعدي . فرأى العقيد أحمد حسن البكر رئيس المجموعة البعثية في الجيش السرعة في إعلان الثورة قبل أن تعمّ الاعتقالات ، وقرّر أن تكون في ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٢م) ، وخطّط لذلك .

بدأ التمرّد في حامية « أبو غريب » غرب بغداد ، وكان يعتمد على المدرعات ، وكانت توجد أربع كتائب ، وتقرّر أن تنطلق كتيبة إلى وزارة الدفاع حيث يُقيم عبد الكريم قاسم ، والثانية إلى معسكر الرشيد الذي يُعدّ مركز قوةٍ لعبد الكريم قاسم ، والثالثة إلى معسكر الوشاش ، والرابعة إلى مركز الإذاعة في « أبو غريب » . بدأت الحركة في الساعة الثامنة صباحاً ، إذ يعدّ الوقت مُناسباً بالنسبة إلى شهر رمضان ، فالدوام في الساعة العاشرة ، والناس نيام بعد السحور وصلاة الفجر .

اغتيل قائد سلاح الجو جلال الأوقاتي في بداية العمل . واحتلّ العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت محطة الإذاعة في « أبو غريب » . واقتضى الأمر اتخاذ سلاح الجو وسيلةً للإسراع في العملية إذ وجدت الكتائب التي انطلقت إلى معسكر الرشيد مقاومةً عنيفةً ، كما تعطّلت المدرّعات التي اتجهت إلى وزارة الدفاع . بدأ القصف الجوي ، ولم يكن عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع ، ولكن جاء بعد مُدّةٍ ، ودخلها ، استولت الحركة على مُستودعات الذخيرة في « أبو غريب » ، واتخذت الإذاعة مقرّاً لها ، وأعلنت أن حكم عبد الكريم قاسم قد انهار ، رغم أن المقاومة كانت لا تزال عنيفةً ، كما أذاعت نبأ تشكيل مجلسٍ عسكريٍ ، ولكن لم تُحدّد أفراده ، وأصرّ وألحّ علي صالح السعدي أن يُطرح اسم عبد السلام عارف كرئيس مُؤقّتٍ لرئاسة الجمهورية لما له من سمعةٍ طيبةٍ . على حين أن زعيم حزب البعث علي صالح السعدي لم يكن له

من سلوكه ما يرفعه لأن يكون زعيم البلاد ، وكذا بقية زعماء حزبه البارزين . وقد أفاد الحزب والحركة من تقديم عبد السلام عارف . واستمرّ القصف الجوي طيلة النهار ، ولم تُجد طلبات التفاوض . وفي صباح اليوم الثاني أي منتصف شهر رمضان عاد القصف ، واضطرّ عبد الكريم قاسم إلى الاستسلام ظهراً .

تشكّلت محكمة فورية وقضت بإعدام عبد الكريم قاسم ، وطه الشيخ أحمد ، وفاضل عباس المهداوي مُباشرةً ، ونُفّذ الحكم في الغرفة الثانية المجاورة لمكتب عبد الكريم قاسم .

أُذيع نبأ استلام عبد السلام محمد عارف رئاسة الجمهورية ، وتشكيل مجلس ثورة يضمّ عشرين عضواً من بعثيين وغيرهم[1] ، وبقي أسماء أعضائه سرّاً ، ويتولّى عبد السلام عارف رئاسة الجلسات . ويشغل أمانة السر أنور عبد القادر الحديثي ، وهو صلة الوصل بين المجلس والحكومة .

وتشكّلت الوزارة من بعثيين وغيرهم أيضاً برئاسة أحمد حسن البكر[2] ،

---

(١) ضمّ المجلس : عبد السلام عارف ، أحمد حسن البكر ، علي صالح السعدي ، صالح مهدي عماش ، طالب شبيب ، حازم جواد ، أنور عبد القادر الحديثي ، عبد الكريم مصطفى نصرت ، هاني الفكيكي ، طاهر يحيى ، عبد الحميد الخلخال ، حردان التكريتي ، دياب العلقاوي ، منذر الونداوي ، خالد مكي الهاشمي ، عبد الستار عبد اللطيف ، محسن الشيخ راضي ، سعدون حمادي ، حمدي عبد المجيد .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ علي صالح السعدي : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٣ ـ صالح مهدي عماش : وزيراً للدفاع .
٤ ـ طالب حسن شبيب : وزيراً للخارجية .
٥ ـ عبد الستار عبد اللطيف : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٧ ـ مهدي الدوالعي : وزيراً للعدل .
٨ ـ محمود شيت خطاب : وزيراً للبلديات .
٩ ـ بابا علي : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ ناجي طالب : وزيراً للصناعة .

كما تشكّل الحرس القومي من المدنيين لحماية الثورة والتصدّي لأعدائها ، وعهد برئاسته إلى العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت . وقد أخذ الحرس القومي يتجاوز صلاحياته ، ويتعدّى على الآخرين ، ويرتكب المُخالفات والجرائم . كما أعطى البعثيون أنفسهم صلاحياتٍ واسعةً ، ما داموا هم الذين قادوا الثورة ، وحصلوا على الحكم بالقوة بعد أن قدّموا التضحيات غير أنه بعد مُدّةٍ قوي شركاؤهم في الحكم ممن لا ينتمي إلى حزب البعث ، وأبدوا آراءهم بقوةٍ في كل قضيةٍ .

أحالت الحكومة الجديدة الضباط الذين تعاونوا مع عبد الكريم قاسم على التقاعد ، وعُيّن مكانهم الضباط الذين اشتركوا بالثورة ، كما أعادت إلى الخدمة الضباط الذين أحالهم عبد الكريم قاسم على التقاعد أو طردهم من الخدمة[1] .

وفي ٢٠ ذي الحجة ١٣٨٢هـ (١٣ أيار ١٩٦٣م) تشكّلت وزارة جديدة ، حيث أُجريت بعض التعديلات[2] على الوزارة السابقة والتي تضمّ

---

١١ ـ عبد العزيز الوتاري : وزيراً للنفط .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية والتعليم .
١٣ ـ صالح كبه : وزيراً للمالية .
١٤ ـ علي الحسين : وزيراً للإسكان .
١٥ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للتجارة .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيرا للإصلاح الزراعي .
١٧ ـ عبد الحميد الخلخال : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٨ ـ مسارع الراوي : وزيراً للإرشاد .
١٩ ـ عبد الكريم العلي :وزيراً للتخطيط .
٢٠ ـ فؤاد عارف : وزيراً للدولة .
٢١ ـ حازم جواد : وزيراً للدولة .

(١) أُحيل أحمد صالح العبدي رئيس الأركان العامة على التقاعد .
عُيّن العميد طاهر يحيى رئيساً للأركان العامة .
والعقيد رشيد مصلح حاكماً عسكرياً عاماً .
والعقيد مدحت عبد الله مديراً للعمليات العسكرية .
والعقيد عارف عبد الرزاق قائداً لسلاح الجو .
وأُعيد العميد عبد الرحمن محمد عارف شقيق عبد السلام إلى الخدمة ، وعُيّن قائداً لإحدى الفرق . كما تسلّم أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، ومحمود شيت خطاب ، وعبد الستار عبد اللطيف مناصب وزارية .

مختلف الأقلّيات[1] .

وجاء ميشيل عفلق من دمشق إلى بغداد، بعد أن استلم حزب البعث الحكم في سوريا في ١٣ شوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣)،وأخذ يتحدّث في الاشتراكية ، ويُفلسف الأمور ، وكرهه البعثيون الذين لم يروه من قبل ، وإنما كانوا يسمعون به ، ويسمعون الثناء عليه من أصحاب الأغراض ، ورأى ميشيل عفلق أن تطبيق الاشتراكية في العراق أمر صعب وسيُثير الشعب عليهم ، وسيسقط حزب البعث ، لذا رأى أن الاشتراكية ستكون في آخر مرحلةٍ من مراحل منهج حزب البعث ، أي أن البعثيين سيُناضلون من أجل الوحدة ، ثم يُعطون الحرية للشعب ، وبعدها تُطبق الاشتراكية ، وأصبح شعار حزب البعث [وحدة ـ حرية ـ اشتراكية] ، ولكن الفلاحين ، والعمال ، والفقراء يُريدون الحصول على الغنائم سريعاً ، وقد ناضلوا ، وتسلّموا السلطة ، الفلاحون يُريدون الأرض ، والعمال يُريدون المعامل ، والفقراء يرغبون في الأموال ، أخذ أموال الآخرين باسم الاشتراكية أو النهب تحت أيّ اسمٍ ، أو شعارٍ أو . . . . ومن هنا بدأت النفوس تتزعزع من حول الحزب .

إن الحركة التي قامت في سوريا في ١٣ شوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣م) والتي تعاون فيها البعثيون والناصريون قد جعلت الرئيس المصري جمال عبد الناصر يعدّها حركة ثأرٍ للوحدة ، وأيّدها ، وعرض الحكام الجدد التفاهم مع الرئيس المصري ، وذهبت الوفود من دمشق وبغداد إلى القاهرة ،

= (٢) أصبح علي صالح السعدي : وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية ، ووزيراً للإرشاد .
وحازم جواد : وزيراً للداخلية .
ومحمود جواد العيسى : وزيراً للمالية . مكان صالح كبه .
مسارع الراوي : وزيراً للدولة .

(١) ضمت الوزارة خمسة وزراء من الشيعة هم : طالب شبيب ، وصالح كبه ، وناجي طالب ، وحازم جواد ، وحامد الخلخال وثلاثة من الأكراد وهم : بابا علي ، وشكري صالح زكي ، وفؤاد عارف .

وجرت مُحادثات للوحدة تمخّضت عن اتفاقيةٍ وُقّعت في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٢هـ (١٧ نيسان ١٩٦٣م) ، ولكن لم يلبث الخلاف أن وقع في دمشق بين الناصريين والبعثيين ، وبطش البعثيون بخصومهم في ٢٦ صفر ١٣٨٣هـ (١٨ تموز ١٩٦٣م) بعد أن حاول الناصريون القيام بحركةٍ . وألقى الرئيس المصري كلمةً بعد أسبوعٍ بمناسبة الثورة التي قامت في مصر والتي يتزعّمها الآن ، وهاجم فيها رجالَ البعث في سوريا ، وعُدّت هذه الكلمة ، إلغاءً لاتفاقية الوحدة في ٢٤ ذي القعدة (١٧ نيسان) . وبناءً على هذا الخلاف فقد أخذ أنصار الوحدة في العراق ينكمشون عن البعثيين ، وأخذت تتوضّح الاتجاهات ويتمايز الضباط والسياسيون .

إنّ تسلّم حزب البعث الحكم في العراق ، والزعماء قلّة ، والضباط أكثرهم من الشباب قد جعل الكثيرين من المسؤولين في سنٍّ صغيرةٍ ليس عندهم دراية في الحكم ، ولا خبرة في السياسة والأصول في التعامل مع السلطة والرعية ، لذا أخذت تصدر أحكام ارتجالية مُستعجلة ، وتُنفّذ مُباشرةً دون أخذ رأى مجلس الثورة ، أو رجال الحزب ، وعندما كان يُسأل هؤلاء الذين يتصرّفون هذه التصرّفات ، يُجيبون تقتضي المصلحة السرعة ، وليس هناك من وقتٍ لانتظار اجتماع مجلس الثورة ، أو قادة الحزب ، لذا اكتفينا بسؤال بعض الرفاق ، واجتمع الرأي ، وهكذا أصبح كل فردٍ حزبيٍ كأنه رأس السلطة في تصرّفاته ، وفي صلاحياته ،ولذا أخذ غير الحزبيين الذين كانوا يُؤيّدون الحزب الحزب في رفع شعار الوحدة بدأوا يتفرّقون عنه .

عندما نجحت الحركة التي قادها حزب البعث ضدّ حكم عبد الكريم قاسم كثر المنتفعون حول البعثيين، منهم من يرغب بالوحدة ، ومنهم من يبغي مصلحةً أو مركزاً ، ولما كان البعثيون قلّةً بين الشعب ، وغير محبوبين لسلوكهم المصلحي ، وغير الإسلامي ، وغير الأخلاقي ، ويُريدون أن يملؤوا الشواغر التي حدثت نتيجة إبعاد العناصر التي كانت تُؤيّد الحكم السابق لذا كان عليهم يأخذوا من عناصرهم الشابة التي لا خبرة لها بعد،ومن المُؤيّدين الجدد لهم .

وهكذا أصبحت الدوائر تعجّ بالفوضى ، أما البعثيون فكانوا يقضـون عليها بـالسيف ، وأما غـيرهم فيتوقّفـون عن ذلك لأنهم لا يملكـون الذي يملكـه البعثيون ، فبدأت الانتقادات ، وبدأ التمايز عن البعثيين وغيرهم ، وأصبحوا في طريقين غير متوازيين .

والتقى زعماء البعث لدراسة بعض التجاوزات التي تحدث ، وضرورة اتّباع الأنظمة الحزبية في اتّخاذ القرارات ، والتفاهم مع العناصر الثانية التي تُؤيّدهم ، أو التي كانت تُؤيّدهم ، فاختلفت الآراء فيما بينهم ، وانقسموا إلى ثلاث مجموعاتٍ :

أ ـ مجموعة ترى ضرورة التعاون مع العناصر المُؤيّدة للبعث ، والتي ارتبطت معهم ، ومن هذه المجموعة طالب شبيب وزير الخارجية ، وحـازم جواد وزير الداخلية ، وعبد الستار عبد اللطيف وزير المواصلات ، وطـاهر يحيى رئيس الأركان ، وحردان التكريتي قائد القوى الجوية .

وترى هذه المجمـوعة أيضـاً مُسايـرة العناصر العسكـرية القـريبة من البعثيين ، والتي يُمكن كسبها مع الزمن ، ومن هذا المنطلق فإنه من المفروض تأخير تطبيق الاشتراكية ، والأفكار المثالية . . . وهذا ما يُعزّز موقف الحزب . ويمكن أن نُطلق على هذه المجموعة بالمعتدلة .

ب ـ مجموعة ترى من الضرورة السرعة في تطبيق الاشتراكية لأن هذا يكسب الحزب تأييد العناصر المُناضلة والتي تتطلع إلى الأفكار المثالية ، ثم إن الاشتراكية هي شعار الحزب ، وقد تسلّم السلطة فيجب تطبيق ما نادى به ، ويمكن أن نُسمّي هذه المجموعة بالمتشدّدة ، ومن رجالها علي صالح السعدي وزيـر الإرشـاد ، ومحسن الشيـخ راضي ، وحمـدي عبـد المجيـد ، وهـاني الفكيكي . وقد حذّروا من الاعتمادعلى الضباط غير البعثيين .

وحدث صراعٌ بين علي صالح السعدي ، وبين الرجال المُخالفين له ، واشتدّ حتى رغب كلٌ من طالب شبيب ، وحازم جواد بالاستقالة من الحكومة

بل ومن الحزب .

د ـ مجموعة وسط بين الطرفين السابقين ، ومن رجالها رئيس الوزارة أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش وزير الدفاع ، وقد عملت هذه المجموعة على التوفيق بين الفريقين المتصارعين .

وفي ٢٤ ربيع الثاني ١٣٨٣هـ (١٣ أيلول ١٩٦٣م) عُقد المؤتمر القطري ، وحضره ميشيل عفلق الذي جاء من دمشق لهذه الغاية ، وللتوفيق بين الطرفين . وقد فازت الفئة المتشدّدة على حين وقف ميشيل عفلق بجانب المعتدلين . وهكذ نجح علي صالح السعدي داخل الحزب غير أنه فقد مركزه داخل الحكومة لأنها ليست بعثيةً كلها .

أخفق المتشدّدون في تطبيق السياسة التي ركّزوا عليها في صراعاتهم مع رفاقهم ، واضطر أن يستقيل عبد الحميد خلخال وزير الشؤون الاجتماعية ، وأن يحلّ محلّه حمدي عبد المجيد .

وعُقد المؤتمر القومي السادس في ١٧ جمادى الأولى ١٣٨٣هـ (٥ تشرين الأول ١٩٦٣م)، واستمرّ ثمانية عشر يوماً . وبحث موضوع قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق . وتمّ توقيع اتفاقٍ اقتصاديٍ وآخر عسكريٍ ، واقتضى أن يكون وزير الدفاع العراقي قائداً للجيش الموحّد على أن تكون دمشق مقرّ القيادة . وأرسلت سوريا لواءً من الجيش للاشتراك في العمليات ضد الأكراد . ووجد عدد من الضباط المسلّحين في المؤتمر ، وقد تكلّم أحدهم وهو محمد حسين المهداوي ، فقال : إن ميشيل عفلق قال : إن بعض المتطرّفين من السوريين والعراقيين قد أثّروا على قرارات المؤتمر . وقد طالب القيادة القطرية : أن تعدّ زملاءه الضباط المسلّحين أعضاء فيها ، وأن تنتخب قيادةً قطريةً جديدةً ، وتحت الضغط فازت قيادة أكثر أعضائها من المعتدلين ، وطُرد المتشدّدون منها ، وحُمل خمسة منهم من مكان الاجتماع إلى المطار ، حيث نقلتهم طائرة عسكرية إلى مدريد ، وسُحبت منهم جوازات السفر حتى لا

يرجعوا إلى العراق ، وهم : علي صالح السعدي[1] ، حمدي عبد المجيد ، محسن الشيخ راضي ، هاني الفكيكي ، خالد مكي الهاشمي .

خرجت مُظاهرات في شوارع بغداد من البعثيين تـأييداً لعـلي صالـح السعدي ، وهدّدت بعض القطعات في سلاح الجو بمُهاجمة الحكومة ، وسافر إلى بغداد كل من أمين الحافظ وميشيل عفلق والتقى ميشيل عفلق بـاللجنة القومية ، وترأس اجتماعها ، ثم التقى برئيس الحكومة أحمـد حسن البكر ، ووزير الدفاع صالح مهدي عماش ، وتقرّر طـرد زعيمي الجناح المعتـدل ، وهما : حازم جواد ، وطالب شبيب ، بعد إعفائهما من منصبيهما في الوزارة ، وفي اليوم التالي سافرا إلى بيروت . وتشكّلت قيادة قطرية مُوقّتة . وبذا تداعى حزب البعث ، وضعف شأنه ، وقد أُخرج من البلاد أبرز زعمائه .

سقوط حزب البعث في بغداد : كان رئيس الجمهـورية عبـد السلام عارف يتفرّج على الأحداث ، ولا يستطيع أن يتـدخّل مـا دام غير بعثيٍ ، ويُطرد وزراء ، ويُنفوا خارج البلاد ، وهم يتبعونه ، ولا يستطيع فعل شيءٍ ، فتألم أشدّ الألم فاتفق مع رئيس الأركان طاهر يحيى للانتهاء من هذه المهزلة ، وفي يوم ٢ رجب ١٣٨٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣م) ، أُلقي القبض على أعضاء القيادتين القومية والقطرية ، وأُودعوا السجن ، كما احتُجز كـلّ من أمين الحافظ وميشيل عفلق ، وكانا لا يزالان في بغداد ، ولم يُسمح لهما بالسفر إلّا بعد يومين .

أعلن طـالب شبيب وحازم جـواد من بيروت تـأييدهمـا لعبد السـلام

---

(١) عاد علي صالح السعدي من مدريد إلى دمشق ، وعمل ضدّ عفلق والبيطار ، وادّعى أنهما سبب سقوط البعث في بغداد ، ودعا السعدي القيادة القطرية في لبنان للاجتماع ، واستـطاع أن يحملها على إصدار قرارٍ تدين فيه ميشيل عفلق ، فسعى عفلق وطرد علي صالح السعدي من القيادة القومية ، ورجع السعدي إلى بغداد في شهر شوال ١٣٨٣هـ (آذار ١٩٦٤م) وعمل على تأسيس حزب باسم « الحزب الاشتراكي الثوري العربي » .

عارف ، وقد اجتمعت اللجنة القومية في دمشق ، وقرّرت طردهما من الحزب بتهمة التآمر مع أعداء الحزب عليه .

تفرّد عبد السلام عارف بالسلطة : أيّد رئيس الأركان طاهر يحيى الرئيس عبد السلام عارف طمعاً في أن يحلّ محلّ أحمد حسن البكر في رئاسة الحكومة .

أذاع عبد السلام عارف نبأ تغيير الحكومة وقيام نظام جديدٍ بقيادته محلّ النظام القديم ، وأعلن البيان الآتي :

« أدّت الهجمات على حريات الشعب التي قام بها الشعوبيون المُتعطّشون للدّفاع من أفراد الحرس القومي ، وانتهاكاتهم للمُقدّسات ، وامتهانهم القانون ، والأضرار التي ألحقوها بالدولة والشعب وأخيراً تمرّدهم المسلّح في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م إلى وضعٍ لا يمكن السكوت عليه بعد أن بات يُهدّد مستقبل هذا الشعب الذي يُشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الأمّة العربية . وقد تحمّلنا بالصبر تفادياً لسفك الدماء ، وما كان ذلك ليُخفّف من حدّة الإرهاب بل على العكس أمعن أفراد الحرس اللاقومي في إرهابهم مما حفز الجيش على الاستجابة لنداء الشعب في التخلّص من هذا الإرهاب . وتجاوباً مع نداء الشعب ومطالب الجيش والقوات المسلحة فقد قرّر المجلس الوطني للثورة ما يلي :

١ ـ انتخاب المشير عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية رئيساً للمجلس الوطني للثورة .
٢ ـ يُعيّن الرئيس عارف قائداً عاماً للقوات المسلّحة ، ويُمارس جميع السلطات المخوّلة له .
٣ ـ يُعيّن الزعيم الطيار حردان عبد الغفار التكريتي نائباً للقائد العام بالإضافة إلى منصبه الحالي .
٤ ـ يُخوّل المشير الركن عبد السلام عارف صلاحياتٍ خاصةً لمدة سنةٍ واحدةٍ تُجدّد تلقائياً عند الحاجة .

٥ ـ يُحلّ الحرس القومي ، وتلغى جميع القوانين والأنظمة والتعليمات والأوامر المتعلّقة به .
٦ ـ يُؤلّف المجلس الوطني للثورة على الشكل التالي :
أ ـ رئيس الجمهورية رئيساً له .
ب ـ الأعضاء : القائد العام للقوات المسلحة ، نائب القائد العام للقوات المسلحة ، رئيس الأركان العامة ، ومساعدوه قادة الوحدات ، قائد القوة الجوية ، الحاكم العسكري العام ، والضباط الذين يرتأي المجلس تعيينهم .
جـ ـ ينتخب المجلس أميناً للسرّ من بين أعضائه أو من الخارج ، ويجوز للرئيس تخويله صلاحيات توقيع البيانات ، والأوامر التي يُصدرها المجلس .
د ـ يُشكّل المجلس الوطني للثورة مجلساً استشارياً من المدنيين المُؤهّلين الذين يتمتعون بسمعةٍ طيبةٍ وخبرةٍ واسعةٍ .
٧ ـ يتخذ المجلس إجراءاتٍ قانونيةً فوريةً ضدّ المتمرّدين الذين اشتركوا أو تسبّبوا في تمرّد ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م .

حكومة طاهر يحيى : كلّف الرئيس عبد السلام عارف رئيس الأركان طاهر يحيى بتشكيل الحكومة فألّفها في ٤ رجب ١٣٨٣هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٣م)[١] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ الفريق طاهر يحيى : رئيساً للوزراء .
٢ ـ العميد حردان التكريتي : وزيراً للدفاع .
٣ ـ العقيد عبد الكريم فرحان : وزيراً للإرشاد .
٤ ـ العميد رشيد مصلح : وزيراً للداخلية .
٥ ـ اللواء محمود شيت خطاب : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
٦ ـ المقدم صبحي عبد الحميد : وزيراً للخارجية .
٧ ـ المقدم عبد الستار عبد اللطيف : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ عبد الكريم علي : وزيراً للتخطيط .
٩ ـ عبد العزيز الوتاري : وزيراً للنفط .

أعلنت الحكومة أنها ستقف إلى جانب الوحدة ، وأعلن رئيسها أنه سيعمل ما في وسعه لتنفيذ اتفاقية الوحدة التي تمّت بين مصر ، وسوريا ، والعراق في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٢هـ (١٧ نيسان ١٩٦٣م) ، وبأن هذه الوحدة ستكون نواةً للوحدة الشاملة . وأيّد الرئيس المصري هذه الحركة تأييداً مُطلقاً .

وأعلنت الحكومة كذلك أنها ستعمل على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي من أجل زيادة الإنتاج وتحقيق العدالة .

ولم تعد هناك أحزاب ، وأصبحت السلطة بيد العسكريين ، ولوحق زعماء حزب البعث ، وتشتّتوا خارج البلاد وداخلها .

وأعلن الأكراد ومصطفى ملا البارزاني التأييد التام للحركة ، وأذاعوا أنهم سيقبلون بالاستقلال الذاتي ضمن الدولة العراقية ، ولكن إذا أرادت حكومة العراق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، فإنهم لن يقبلوا عندها إلّا باستقلالٍ ذاتيٍ على أساسٍ اتحاديٍ . كما أعلن الملا مصطفى البارزاني استعداده للوصولٍ إلى اتفاقٍ مع الرئيس عبد السلام عارف .

لم يكن العراقيون على استعدادٍ لترك منطقة كردستان تنفصل عن العراق مُقابل الوحدة مع مصر ، إذ أن منطقة كردستان هي الغنية بالنفط ، وحياة

= ١٠ ـ عبد الكريم هاني : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٢ ـ محمد عبد الجواد العبسي :وزيراً للمالية .
١٣ ـ كامل الخطيب : وزيراً للعدل .
١٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
١٥ ـ العقيد عارف عبد الرزاق :وزيراً للزراعة .
١٦ ـ عبد الفتاح الألوسي : وزيراً للإسكان والأشغال العامة .
١٧ ـ عبد الصاحب علوان : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٨ ـ كامل السامرائي : وزير دولة لشؤون الوحدة.
١٩ ـ عبد الكريم كمونة : وزيراً للصناعة .
٢٠ ـمصلح النقشبندي :وزير دولة .

العراق مدينة بجزءٍ كبيرٍ منها إلى النفط ، كما أن منطقة كردستان مصدر معظم مياه نهر دجلة ، لذا فقدْ خفّت فكرة الاندفاع وراء الوحدة كما فترت همّة الرئيس عبد السلام عارف ، وإن بقي طوعاً للرئيس جمال عبد الناصر الذي يعدّ أكبر مُؤيّديه تلامذةً عنده إن لم نقل أجراء ، وكان عبد السلام عارف يعمل في مُؤتمرات القمة في القاهرة والإسكندرية ، والدار البيضاء على كسب التأييد للرئيس جمال عبد الناصر ، وهذا ما كان يزيد من غطرسة الرئيس المصري ، ونظرته الفوقية للآخرين ، وإن كانوا مثله رؤساء جمهورياتٍ .

جرت مُحادثات بين الرئيس العراقي عبد السلام عارف والرئيس المصري جمال عبد الناصر في القاهرة في شعبان ١٣٨٣هـ (كانون الثاني ١٩٦٤م) للعمل من أجل الوحدة التي كانت ستقوم على الاشتراكية العربية ، وقيادةٍ عسكريةٍ مُوحّدةٍ ، وإنشاء اتحادٍ اشتراكيٍ وطنيٍ في كل بلدٍ عربيٍ ، يحلّ محلّ الأحزاب السياسية .

وقبل أن تبدأ الخُطوات العملية للوحدة كان من الضروري إعادة تنظيم الأجهزة الدستورية ، في كل من العراق ومصر . فشكّل عبد السلام عارف لجنةً برئاسة وزير العدل لوضع دستورٍ مُوقّتٍ للعراق .

وفي ١٧ رمضان ١٣٨٣هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٦٤م) جرى تعديل وزاري[١] . وفي ١٧ شوال ١٣٨٣هـ (الأول من آذار) أُعفي حردان التكريتي من منصبه ، وأُسند منصبه إلى رئيس الوزراء وكالةً .

وفي ١٤ ذي القعدة ١٣٨٣هـ(٢٧ آذار ١٩٦٣م) جرى تعديل وزاري ثانٍ[٢] .

---

(١) ١ ـ عُيّن رشيد مصلح وزيراً للصحة مكان عزت مصطفى .
٢ ـ عُيّن عبد الرزاق محيي الدين وزير دولة لشؤون الوحدة .

(٢) ١ ـ عُيّن عبد الغني الراوي وزيراً للزراعة مكان عارف عبد الرزاق الذي أصبح قائداً للقوة الجوية .

وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٢٩ نيسان) انتهى وضع الدستور المُوقّت ، وصادق عليه الرئيس عبد السلام عارف ، ثم أُعلن في ٢١ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٣ أيار ١٩٦٤م) . وأعلن هذا الدستور :

أن العراق دولة ذات سيادةٍ تامةٍ ، دينها الرسمي الإسلام ، وهي دولة ديمقراطية اشتراكية تستمدّ ديمقراطيتها واشتراكيتها من التراث العربي وروح الإسلام . (لا معنى لهذاالكلام فكرياً) .

وأن الشعب العراقي جزء من الأُمّة العربية هدفه وحدة عربية شاملة ، ويتعهّد العراق بالعمل على تحقيق هذه الوحدة في أقرب وقتٍ مُمكنٍ مُبتدئاً بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة .

واشترط الدستور في رئيس الجمهورية أن يكون عراقياً مولوداً لأبوين عراقيين يُقيمان في العراق منذ سنة (١٩٠٠م) ، ويحملان الجنسية العثمانية ، وأن يكون مُسلماً يُمارس شعائره الدينية ، وألّا يكون متزوجاً من أجنبيةٍ .

وعند الاحتفال من المرحلة الأولى من بناء السدّ العالي في مصر في غرّة عام ١٣٨٤هـ (١٣ أيار ١٩٦٤م) جرى احتفال ، حضره عبد السلام عارف ، وجرت مُحادثات بين العراق ومصر لوضع نصّ الاتفاق على الوحدة بين البلدين ، وقد أُعدّت الخطوط العريضة لذلك[1] .

وفي ٨ صفر ١٣٨٤هـ(١٨ حزيران ١٩٦٤م) شكّل الفريق طاهر يحيى

---

(١) ضمّ الوفد العراقي كلّاً من : عبد السلام عارف ، وصبحي عبد الحميد وزير الخارجية ، وعبد الرزاق محيي الدين وزير الدولة لشؤون الوحدة ، وشكري صالح زكي سفير العراق في القاهرة .
أما الوفد المصري فضمّ كلّاً من : جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر النائب الأول لرئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة ، وعلي صبري رئيس الوزراء ، ومحمود فوزي مساعد رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية ، ومحمود رياض وزير الخارجية .

وزارةً جديدةً ، أو بالأحرى أجرى تغييراً على الوزارة السابقة[1] .

ونصّ الاتفاق بين العراق ومصر على أن الوحدة السياسية التي ستُنسّق المصالح المشتركة للبلدين سيرعاها مجلس رئاسةٍ مُشتركٍ يتألّف من رئيس الجمهوريتين ، ومن ثلاثة وزراء من كلٍّ من البلدين ، وثلاثة من أعضاء وزارة الوحدة من كلّ بلدٍ ، أمّا مُهمّات المجلس فهي :

١ ـ دراسة وتنفيذ الخطوات الضرورية لإقامة وحدة بين البلدين .

٢ ـ وضع سياسة للبلدين في المجلات السياسية، والعسكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والإعلامية ، وتنسيقها وفقاً للخطط المرسومة .

٣ ـ تحقيق الوحدة العقيدية بين شعبي الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية عبر مُنظّماتٍ شعبيةٍ ، وعملٍ شعبيٍ يُوحّد هذه المُنظّمات في المستقبل .

وتقرّر أن يجتمع مجلس الرئاسة مرةً واحدةً كل ثلاثة أشهر ، أو متى دعت الحاجة إلى ذلك بمُوافقة الرئيسين ، كما تقرّر أن تكون القاهرة مقرّاً للمجلس إلاّ إذا تقرّر الاجتماع في مكانٍ آخر . وتعتبر قرارات المجلس مُلزمةً ، ويجب تنفيذها بعد إبرامها شريطة أن تكون القوانين اللازمة لتنفيذها قد سُنّت وفقاً للنظام الدستوري في كل بلدٍ من البلدين . وسيقوم المجلس بأعمالٍ عبر لجانٍ شتى تُؤلّف لوضع خُطط التنسيق والإشراف . وستكون هذه اللجان سياسيةً ، وعسكريةً ، واقتصاديةً ، وثقافيةً ، وإعلاميةً وعقيديةً ،

---

(١) جرى التغيير على الوزارة كالتالي :

١ ـ عبد المجيد سعيد : وزيراً للتربية محلّ أحمد عبد الستار الجواري .

٢ ـ محمد جواد العبسي : وزيراً للتخطيط إضافةً إلى وزارة المالية .

٣ ـ محمد حسن زلزلة : وزيراً للصناعة مكان عبد الكريم كمونة .

٤ ـ محسن حسين الحبيب : وزيراً للمواصلات مكان عبد الستار عبد اللطيف .

٥ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية مكان محمود شيت خطاب .

٦ ـ مسعود محمد : وزيراً للدولة .

وتنظيميةً . وتُساعد المجلس واللجان أمانة عامة في القاهرة يرأسها أمين عام يتمتع بصلاحية دعوة المجلس إلى الاجتماع ، ويعد جدول الأعمال ، ويحتفظ بمحاضر هذه الاجتماعات ، ويُصدر القرارات بعد أن يُبرمها البلدان .

وتُعتبر الأمانة العامة هيئةً مؤقّتةً إلى أن يتمّ تحقيق الوحدة بين البلدين ، وعندها تحلّ محلّها السلطة العليا للوحدة العربية التي يُصبح كل من البلدين تابعاً لها ، وهكذا ينتهي العمل تلقائياً باتفاق الوحدة .

واجتمع مجلس الوزراء العراقي والمجلس الوطني للثورة بصفتهما الهيئة التشريعية العليا ، وأبرما في اليوم التالي الاتفاق بالإجماع .

ودُعي الشعب للعمل ضمن الاتحاد الاشتراكي الذي سيُنشأ . وفي ١٠ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٦٤م) أُنشئت قيادة سياسية مُوحّدة بين العراق ومصر . ولكن تلقّى الشعب هذه القرارات بفتورٍ ، فالمسلمون يُعارضون القوانين الوضعية ومنها الاشتراكية ، وأفكارها ، والشيوعيون يُخالفون النظام سياسياً ، ويتلقّون التعليمات بذلك من موسكو ، والبعثيون على خلافٍ مع الحكم إضافةً إلى خلافهم مع نظام الحكم في مصر ، ورجال الأحزاب السابقة لهم آراؤهم الخاصة ،ولا يرون شيئاً من الحرية أو ما يُسمّونه بالديمقراطية و . . . .

وفي الاحتفال بذكرى (ثورة ١٤ تموز) ١٩٦٤م أصدرت الحكومة خمسة قرارتٍ تقضي بتأميم المصارف ، والصناعات ، وتنظيم مجالس إدارة الصناعات ، وإنشاء مُؤسسةٍ اقتصاديةٍ لتطبيق الاقتصاد الاشتراكي والإشراف عليه . وإنشاء الاتحاد الاشتراكي . وحضر الاحتفالات وفد من مصر برئاسة حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ، ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي .

وكانت ردود فعلٍ ضدّ التأميم حتى اضطرّت الحكومة إلى أن تُعلن أنها لا تُفكّر في إصدار قرارت تأميمٍ أُخرى ، كما أدّى التأميم إلى تهريب الكثير من رؤوس الأموال إلى الخارج ، وكذلك انخفض الإنتاج ، واضطر رئيس

الحكومة طاهر يحيى إلى تقديم استقالته في ٦ رجب ١٣٨٤هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٦٤م) ، غير أن الرئيس عبد السلام عارف قد كلّفه بإعادة تشكيل الحكومة[١] ، فوضع بالاتفاق مع رئيس الجمهورية ما يجب أن تُعلنه الحكومة في منهجها ، وكان من أهم ما قُدّم من نقاط هي :

١ ـ إعادة الحياة الدستورية والنيابية خلال مدة لا تتجاوز سنةً واحدةً .

٢ ـ إعمار شمالي العراق وحلّ جميع المشكلات المُعلّقة بشكلٍ يضمن الوحدة الوطنية .

٣ ـ إنشاء مجلس شورى خلال شهرٍ واحدٍ لُمساعدة الحكومة بالنهوض بمسؤولياتها .

٤ ـ العناية بالقوات المُسلّحة وعدم إقحامها بالأمور السياسية .

٥ ـ تحقيق نصوص اتفاق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة الموقع في ٨ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٦٤م) .

وعملت الحكومة على إرضاء الرأي العام ، فأعلنت إلغاء الأحكام العرفية ، والمحاكم العسكرية ، وأفرجت عن المعتقلين السياسيين بمناسبة عيد الفطر ٣٠ رمضان ١٣٨٤هـ (١ شباط ١٩٦٥م) .

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ الفريق طاهر يحيى : رئيساً للوزراء .

٢ ـ المقدم صبحي عبد الحميد : وزيراً للداخلية .

٣ ـ عبد الكريم فرحان : وزيراً للإرشاد .

٤ ـ أديب الجادر : وزيراً للصناعة .

٥ ـ عزيز حافظ : وزيراً للاقتصاد .

٦ ـ عبد الستار علي حسين : وزيراً للعدل .

٧ ـ فؤاد الركابي : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .

٨ ـ

٩ ـ

١٠ ـ

أخذ الخلاف يظهر بين من عُرف باسم (الناصريين) الذين يُريدون الوحدة مع مصر مباشرةً دون دراسةٍ ، والخضوع للرئيس جمال عبد الناصر ، وبين عبد السلام عارف ومن يُؤيّده ، وأخذ الناصريون يشيعون أن عبد السلام عارف قد أخذ ينحو منحى عبد الكريم قاسم ، ولما زاد الخلاف قدّم ستة من الوزراء استقالتهم بصورةٍ جماعيةٍ . فقبلت استقالاتهم ، وعُيِّن مكانهم مُباشرةٍ[1] .

أخذت أسهم عبد السلام عارف ترتفع عند الضباط الذين يُؤيّدون الوحدة لكنهم غير ناصريين في الوقت الذي أخذوا فيه يتخلّون عن طاهر يحيى وهذا ما جعله يتجه نحو الضباط البعثيين لكنهم لم يقبلوا به ، وبدت شبه جفوةٍ بين الرئيس عبد السلام عارف ورئيس وزرائه طاهر يحيى ، أُشير على رئيس الحكومة بتقديم استقالته لكنه أبى وتمنّع ، حتى هُدّد .

وفي الوقت نفسه كان عبد السلام عارف يطرح فكرة رئاسة الوزارة على عارف عبد الرزاق قائد القوة الجوية فاشترط أن يبقى قائداً للقوة الجوية ، وأن يتسلّم وزارة الدفاع بالوكالة إلى جانب رئاسة الوزارة ، فوافق عبد السلام عارف .

اضطر طاهر يحيى إلى تقديم استقالته في ٨ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٣ أيلول ١٩٦٥م) ، وكلّف عبد السلام عارف بعد ثلاثة أيامٍ عارف عبد الرزاق بتأليف حكومةٍ جديدةٍ[2] . ويُلاحظ في هذه الحكومة أن عدد العسكريين قد تناقص من تسعةٍ في الوزارة السابقة إلى ثلاثةٍ ، كما تناقص عدد

---

(١) عُيِّن عبد اللطيف الدراجي وزيراً للداخلية مكان صبحي عبد الحميد .
عبد الرحمن خالد القيسي وزيراً للإرشاد مكان عبد الكريم فرحان .
جميل الملائكة وزيراً للصناعة مكان أديب الجادر .
قاسم عبد الحميد وزيراً للإقتصاد مكان عزيز حافظ .
أحمد عبد الهادي الحبوبي وزيراً للشؤون البلدية والقروية مكان فؤاد الركابي .
خضر عبد الغفور وزيراً للتربية .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي : =

الشيعة من تسعة وزراء في الحكومة الماضية إلى أربعة في هذه الوزارة .

محاولة انقلاب : كان عارف عبد الرزاق يطمح بمنصب رئاسة الجمهورية وقد قبل بمنصب رئاسة الحكومة كمرحلةٍ ، وما أن تسلّم الوزارة حتى بدأ يتصل بالضباط وخاصةً أولئك الناصريين الذين تغيّرت نظرتهم إلى الرئيس العراقي بعد استقالة زملائهم من الحكومة السابقة .

سافر الرئيس العراقي إلى الدار البيضاء ومعه وزير الخارجية عبد الرحمن البزاز لحضور مؤتمر القمة الذي سيعقد في الدار البيضاء في ١٧ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (١٢ أيلول ١٩٦٥م) ، وما أن سافر الرئيس حتى بدأ نشاط رئيس الحكومة ، وأخذ الضباط الناصريون (مدير الاستخابارت العسكرية العقيد هادي خماس ، ومدير الأمن العام العقيد رشيد محسن ، وآمر الكلية الحربية العقيد عرفان وجدي ، وقائد لواء المدرعات الرائد عبد الأمير الربيعي)

= ١ ـ عارف عبد الرزاق : رئيساً للوزارة ، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ عبد الرحمن البزاز : نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للخارجية ، ووزيراً للنفط .

٣ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للمالية .

٤ ـ عبد اللطيف الدراجي : وزيراً للداخلية .

٥ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية .

٦ ـ جمال عمر نظمي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

٧ ـ عبد اللطيف البدري :وزيراً للصحة .

٨ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .

٩ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للمواصلات ، وزيراً للشؤون البلدية والقروية بالوكالة .

١٠ ـ عبد الرحمن محمد القيسي : وزيراً للإصلاح الزراعي ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .

١١ ـ جعفر العلوي : وزيراً للأشغال والإسكان .

١٢ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للاقتصاد .

١٣ ـ مصطفى عبد الله : وزيراً للصناعة ، وزيراً للتخطيط بالوكالة .

١٤ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .

١٥ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .

١٦ ـ حسين محمد السعيد : وزيراً للعدل .

١٧ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

يتصلون مع الضباط الذين يحتلّون مراكز حسّاسة ، ويُشجّعونهم على العمل ضدّ عبد السلام عارف إلى جانب عارف عبد الرزاق رئيس الحكومة . ووضعت خطّة للقيام بانقلابٍ عسكريٍ ، يتسلّم إثره عارف عبد الرزاق رئاسة الجمهورية ، ويُطلب من الرئيس المصري جمال عبد الناصر تحقيق الوحدة فوراً . وكان نجاح الانقلاب عند قادته مضموناً حيث يعتقدون أنه ليست هناك قوة تحول بينهم وبين ما يُريدون لذلك لم يهتموا كثيراً بالسرّية ، حتى كثُرت الأحاديث عن الانقلاب بين الناس .

بدأ التمهيد للانقلاب بقيام مُظاهراتٍ من الطلاب والعمال في ١٧ جمادى الأولى بتوجيهٍ من الضباط الناصريين وفي الوقت الذي كان الانقلابيون فيه يستعدّون للعمل كان أعوان عبد السلام عارف يعملون لإحباط الانقلاب ، وكان على رأس هؤلاء الأعوان (رئيس الأركان العامة بالوكالة عبد الرحمن عارف شقيق عبد السلام عارف ، والعقيد بشير طالب رئيس الحرس الجمهوري ، والعقيد سعيد الصليبي آمر موقع بغداد ، والمقدّم عبد الحميد عبد القادر آمر الشرطة) .

وفي ٢١ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (١٦ أيلول ١٩٦٥م) أخذ الانقلابيون يُحرّكون المدرّعات فوقفت في وجههم قوة بقيادة العقيد سعيد الصليبي آمر موقع بغداد ، والمقدّم عبد الحميد عبد القادر آمر الشرطة ، وأخبروهم أن القوات بيد رئيس الأركان ، وعلى استعدادٍ لتدميرهم فوراً ، فتوقّفت الحركة ، وفشل الانقلاب ، ووافق رئيس الأركان اللواء عبد الرحمن عارف على مُغادرة رئيس الحكومة البلاد ، ولكنه هرب بطائرةٍ عسكريةٍ إلى القاهرة في اليوم نفسه ٢١ جمادى الأولى .

وانتهى مؤتمر القمّة في الدار البيضاء ، وعرّج عبد السلام عارف على القاهرة ، والتقى بجمال عبد الناصر الذي طلب منه العفو عن عارف عبد الرزاق فرفض فتوتّرت العلاقات بين الرئيسين ، وإن عبد السلام عارف بقي على ولائه لجمال عبد الناصر ، ولم يتعدّ الأمر عنده أنه لم يقبل ما طلب منه الرئيس المصري بسبب الغدر الذي أراده له عارف عبد الرزاق ، أما جمال

عبد الناصر فكتمها في نفسه إذ كيف يردّ له طلباً أحد أتباعه .

وزارة عبد الرحمٰن البزاز : ما أن عاد عبد السلام عارف إلى بغداد حتى عهد إلى عبد الرحمٰن البزاز بتشكيل حكومةٍ جديـدةٍ[1] في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٢٤ أيلول ١٩٦٥م) .

مقتل عبد السلام عارف : سافر عبد السلام عارف إلى القاهرة والتقى بجمال عبد الناصر ، ورجاه أن يُخفّف حكم الإعدام الذي صدر بحقّ سيد قطب ، فأحسّ جمال عبد الناصر أنّ عبد السلام عارف لم يكن بجانبه في يومٍ من الأيّام ، وإنّما كان يُخادعه ، فهو يُؤيّد الإخوان المسلمين ، وها هو قد قلب ظهر المجن لأتباع جمال عبد الناصر في العراق كمرحلةٍ أولى ، وليس غريباً أن يُعلن حكماً إسلامياً في المرحلة الثانية مع بقاء دعواه أنّه وحدوي ، ومُؤيّد لجمال عبد الناصر .

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمٰن البزاز : رئيساً للحكومة ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للمالية ، وزيراً للنفط بالوكالة .
٣ ـ عبد اللطيف الدراجي : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عبد العزيز العقيلي : وزيراً للدفاع .
٥ ـ قاسم الروّاف : وزيراً للعدل .
٦ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .
٧ ـ فارس ناصر الحسن : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية ووزيراً للإصلاح الزراعي بالوكالة
٨ ـ عبد اللطيف البدري : وزيراً للصحة .
٩ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .
١٠ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية ، وزيراً للإسكان والأشغال بالوكالة .
١١ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ عبد الحميد الهلالي : وزيراً للاقتصاد .
١٣ ـ مصطفى عبد الله طه : وزيراً للصناعة .
١٤ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .
١٦ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

وتوقّع كل من عرف أنّ عبد السلام عارف قد كلّم جمال عبد الناصر بشأن سيد قطب أن عبد السلام عارف قد انتهت أيّامه ـ والله أعلم ـ لأن جمال عبد الناصر رجل حاقد ، يعرف كيف يُخطّط ليُزيل من أمامه الذين يُريد أن يزيلهم .

رجع عبد السلام عارف إلى بغداد ، أخذ يتجوّل في المناطق المختلفة يُلقي الخطب ، ويلتقي مع الرعية . وبدأ في الجنوب ، وفي ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٥هـ (١٣ نيسان ١٩٦٦م) سافر من البصرة إلى بلدة (القرنة) بالسيارة ، وألقى هناك كلمةً استمرّت إلى ما بعد المغرب ، ثم تأخّر أيضاً لتحية الناس الذين احتشدوا في طريقه ، لذلك قرّر العودة إلى البصرة عن طريق الجوّ على حين كان المقرّر أن يعود بالسيارة ، غير أن احتفالاً هناك ينتظره ، فأعدّت ثلاث طائراتٍ مروحيةٍ ، ركب هو والوفد الوزاري الذي معه إحداها[1] ، وكان الوفد الصحفي في ثانيةٍ ، أمّا الثالثة فقد ضمّت أجهزة وسائل الإعلام ، وفي الطريق فُقدت طائرته ، ولم يُهتد إليها إلاّ في اليوم الثاني . ولا يزال الأمر غامضاً ، إذ أذاعت العراق وجود عواصف ، وأنكرت الكويت ذلك ، عادت الطائرتان إلى القرنة بعد ربع ساعة من إقلاعها ، وادّعى ملاحوها أنهم فقدوا الاتصال مع طائرة الرئيس . . . وتبينّ في اليوم التالي أنها كانت قد سقطت ، والواقع أنها انفجرت .

تولّى عبد الرحمن البزاز السلطة حسب الدستور ، وفرض نظام منع التجوّل ، وإغلاق الحدود ، وأعلن الحداد لمدة شهرٍ ، ودُفن عبد السلام عارف في بغداد .

---

(١) كان معه من الوزراء عبد اللطيف الدراجي وزير الداخلية ، ومصطفى عبد الله طه وزير الصناعة .

الفصل الثالث

عبد الرحمن عارف

٢٧ ذي الحجة ١٣٨٥ ـ ٢١ ربيع الأول ١٣٨٨هـ .
(١٧ نيسان ١٩٦٦ ـ ١٧ تموز ١٩٦٨م) .

يقضي الدستور أن يتولّى رئيس الحكومة السلطة في حالة وفاة رئيس الجمهورية ، وعليه أن يضع الترتيبات كافةً خلال أسبوعٍ واحدٍ لاختيار رئيس الجمهورية الجديد . كما يقضي الدستور أيضاً أن يعقد المجلس الوطني لقيادة الثورة ، ومجلس الوزراء ، ومجلس الدفاع الوطني جلسةً مُشتركةً برئاسة رئيس الوزراء لاختيار رئيسٍ جديدٍ بأكثرية ثلثي الأصوات .

كان المجلس الوطني لقيادة الثورة قد أُلغي . وبقي مجلس الوزراء الذي يضمّ ستة عشر وزيراً ، قُتل اثنان منهم مع عبد السلام عارف ، فبقي العدد أربعة عشر عضواً . وأما مجلس الدفاع الوطني فيضمّ عشرين عضواً ، منهم ثمانية وزراء ، واثنا عشر ضابطاً . وبذا فإن العدد الكلي كان هو خمسةً وعشرين عضواً ، منهم اثنا عشر مدنياً ، وثلاثة عشر عسكرياً .

كان عبد الرحمن عارف في زيارة لموسكو ، ورجع إلى بغداد ليحضر الأحداث التي تجري فيها ، وفي ٢٦ ذي الحجة ١٣٨٥هـ عُقد الاجتماع الأول لبدء المباحثات حول اختيار رئيس جمهوريةٍ جديدٍ . وجرى النقاش حول اختيار مدني أم عسكري ، أو تشكيل مجلس رئاسة .

وفي اليوم التالي رُشّح عبد الرحمن عارف ، وعبد العزيز العقيلي عن العسكريين ، وعبد الرحمن البزاز عن المدنيين ، ونتيجة التصويت لم يحصل أحدهم على ثلثي الأصوات المطلوبة . وفي الاقتراع الثاني نجح عبد الرحمن

عارف إذ وقف بجانبه المدنيون ، ولا شكّ أن العواطف كانت بجانبه لمحبّة أخيه ، وللطريقة التي قُتل فيها . ويبدو أن القاهرة كانت تُؤيّد عبد الرحمٰن عارف لأن عبد العزيز العقيلي يُركّز على الوحدة الوطنية العراقية أكثر من اهتمامه بالوحدة العربية ، كما كان يشتدّ في حل القضية الكردية ، ويرى أن حلّها لن يكون إلّا باستسلام الملا مصطفى البارزاني ، لا بعقد صلح معه ، وأنّ الإصلاحات الداخلية لا يُمكن القيام بها قبل حلّ القضية الكردية .

حكومة عبد الرحمٰن البزاز الثانية : وفي ٢٨ ذي الحجة رفع عبد الرحمٰن البزاز استقالة حكومته للرئيس الجديد ، فكلّفه بإعادة تشكيل الحكومة من جديد(١) .

القضية الكردية : كان قد جرى اتفاق بين حكومة أحمد حسن البكر ، والملا مصطفى البارزاني ، إذ توجّه من بغداد إلى منطقة السليمانية الوزيران فؤاد عارف ، وعلي بابا وهما من الأكراد ، ويُرافقهما رئيس الأركان طاهر

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمٰن البزاز : رئيساً للوزارة ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ عدنان الباجه جي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .
٤ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للمالية ، وزيراً للنفط بالوكالة .
٥ ـ محمد الأبطة : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٦ ـ صديق جلال : وزيراً للصناعة .
٧ ـ قاسم الرواف : وزيراً للعدل .
٨ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .
٩ ـ عبد اللطيف البدري : وزيراً للصحة .
١٠ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .
١١ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية ، وزيراً للإشغال والإسكان بالوكالة .
١٣ ـ عبد الحميد الهلالي : وزيراً للاقتصاد .
١٤ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .
١٦ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

يحيى ، والوزير الكردي علي حيدر سليمان وذلك في ٨ شوال ١٣٨٢هـ (٣ آذار ١٩٦٣م) ، وأصرّ يومها الملا مصطفى البارزاني على الحكم الذاتي كخطوةٍ أُولى على أن تُترك التفصيلات لمفاوضات لاحقةٍ ، وكانت المطالب الكردية هي :

١ ـ المساواة في الحقوق بين العرب والأكراد في دولةٍ مُوحّدةٍ يكون فيها نائب رئيس الجمهورية ، ومُساعد رئيس الأركان من الأكراد .

٢ ـ تتألّف كردستان من مُحافظات (السليمانية ، وإربيل ، وكركوك) ومن الأقضية الكردية في مُحافظات الموصل وديالي . على أن يكون لها مجلساها التشريعي والتنفيذي ، وأن تشمل سلطات الإدارة الكردية العدل ، والشؤون الداخلية ، والتعليم ، والصحة ، والزراعة ، وتحتفظ الحكومة المركزية بالإشراف على جميع القضايا ذات الأهمية المشتركة بما فيها الدفاع والشؤون الخارجية . كما تشمل سلطات الإدارة الكردية كذلك تعيين الأكراد في جميع المناصب الرسمية في كردستان . وتكون اللغة الكردية اللغة الرسمية الثانية بعد العربية .

٣ ـ يكون عدد الأكراد في المجلس الوطني لقيادة الثورة وفقاً لنسبتهم المئوية من السكان .

٤ ـ يقسم دخل النفط والعائدات الجمركية وفقاً للنسبة المئوية من السكان .

٥ ـ لا يجوز أن تجري أي تحرّكات للجيش العراقي في كردستان إلّا بمُوافقة الإدارة الكردية

ثم عاد البعثيون فأرسلوا وفداً شعبياً لمفاوضة الملا مصطفى البارزاني ، ولم يكن هذا الوفد يُمثّل الحكومة ، ويتألّف من : محمد رضا الشبيبي الزعيم السابق لحزب الجبهة الشعبية ، وفائق السامرائي نائب رئيس حزب الاستقلال ، وحسين جميل الأمين لحزب البعث ، وعبد العزيز الدوري رئيس جامعة بغداد ، وزيد أحمد عثمان وهو محامٍ من الأكراد ، وكان عضواً في المجلس النيابي للاتحاد العراقي ـ الأردني . وقد تمّ الاتفاق في ١٣ شوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣م) على استبدال عبارة الحكم الذاتي

ب ـ (اللامركزية) ، وأن يرفع الوفد إلى الحكومة تقريراً يتضمن المقترحات التالية :

١ ـ الاعتراف بحقوق الأكراد ضمن خطة (اللامركزية) التي ستضع تفصيلاتها لجنة مشتركة ، وينصّ عليها في الدستورين المُوقّت والدائم على السواء .

٢ ـ إصدار عفو عامٍ عن جميع الأشخاص المحكوم عليهم أو الملاحقين لاشتراكهم بالثورة الكردية .

٣ ـ تغيير مُوظفين مُعينين كانت لهم مواقف عدائية تجاه الشعب الكردي .

٤ ـ إلغاء جميع الأوامر بمصادرة ممتلكات الأكراد الذين اشتركوا بالثورة الكردية .

٥ ـ رفع الحصار الاقتصادي عن كردستان .

٦ ـ سحب الجيش إلى مواقعه العادية السابقة .

ولما وصل الوفد آيباً إلى بغداد رفع تقريره إلى الحكومة ، وصدر أمر رسمي رفع بموجبه الحصار الاقتصادي عن كردستان ، وصدر عفو عام عن جميع المحكومين والمعتقلين . كما أفرج الأكراد عن بعض الأسرى العرب . غير أن الشكوك بقيت تُساور النفوس من كلا الطرفين ، مع أنّ الحكومة قد أعلنت في ١٥ شوال ١٣٨٢هـ (١٠ آذار ١٩٦٣م) على الموافقة على المطالب الكردية .

وفي ٢٥ شوال ١٣٨٢هـ (٢٠ آذار ١٩٦٣م) وصل وفد برئاسة جلال الطالباني وعضوية ستة آخرين مع سبعة مُستشارين يُمثّلون الأكراد إلى بغداد لُمفاوضة حكومتها ، والتي كانت مشغولةً بمفاوضة سوريا ومصر لإقامة وحدةٍ معهما . ودُعي جلال الطالباني لحضور تلك المفاوضات ، فلبّى الدعوة ، وسافر إلى القاهرة . وقدّم جلال الطالباني مطالبه في الأول من ذي الحجة ١٣٨٢هـ (٢٤ نيسان ١٩٦٣م) ، واتجه مُباشرةً إلى كردستان حيث لم يمرّ على بغداد ،وتلخص هذه المطالب بما يأتي :

١ ـ إذا بقي العراق على وضعه السياسي الحالي دون تغيير دستوريٍ فإن الأكراد يقبلون باللامركزية،كما أوردها البيان الحكومي الصادر في ١٤ شوال

١٣٨٢هـ (٩ نيسان ١٩٦٣م) .
٢ ـ إذا قرّر العراق الانضمام إلى بلدانٍ عربيةٍ أُخرى في اتحادٍ ، فإنّ الأكراد يُطالبون بـ (الحكم الذاتي) بكل ما في العبارة من معنىً .
٣ ـ إذا قرّر العراق الانضمام إلى بلدانٍ عربيةٍ أُخرى في دولةٍ مُوحّـدةٍ ، فإنّ الأكراد يُطالبون بوجوب اعتبارهم أنهم يُشكّلون إقليماً مُنفصلاً ضمن تلك الدولة .

وأخذت الشكوك تُساور النفوس ، وسرت شائعات ، وحدثت قطيعة ، وعاد الخلاف ، وفي ١٨ المحرم ١٣٨٣هـ (١٠ حزيران ١٩٦٣م) اعتقلت الحكومة المُمثّلين الأكراد ، وطالبت باستسلام الملا مصطفى البارزاني خلال ٢٤ ساعة ، وشنّت هجوماً على الأكراد ، واستمرّ القتال ما يقرب من ثمانية أشهر وشارك لواء سوري في هذا القتال .

انتهى عهد حزب البعث ، وجاءت حكومة طاهر يحيى ، وهو الذي فاوض الأكراد من قبل ، عاد أيضـاً للمفاوضـة ، ولكن دون الوصـول إلى نتائج ، ومع ذلك صـدر عن رئيس الجمهوريـة عبد السـلام عارف ، وعن مصطفى البارزاني بلاغان في وقتٍ واحدٍ يوم ٢٧ رمضان ١٣٨٢هـ (١٠ شباط ١٩٦٤م) وجاء فيهما قرار وقف إطلاق النار بين الطرفين ، وتعهّدت الدولة بـ :
١ ـ تأكيد الحقوق القومية للأكراد ضمن دولةٍ عراقيةٍ مُوحّدةٍ على أن يُنصّ ذلك في الدستور .
٢ ـ الإفراج عن المعتقلين السياسيين ، ورفع الحصار الاقتصادي عن المنطقة الكردية .
٣ ـ إعـادة الإدارة المحلية ، واستئناف المسؤولين واجبـاتهم في المحافـظة على القانون والنظام .
٤ ـ إعادة تعمير المناطق المُدمّرة في الشمال ، ودفع تعويضاتٍ عادلةٍ للأفراد في بعض المناطق .

وعادت المفاوضات دون نتيجةٍ ، وأخذت حكومة عبد الرحمن البزاز على عاتقها المفاوضات غير أن الأمر لم يكن بتلك السهولة ، وكان وزير الـدفاع

عبد العزيز العقيلي يرى أنه لا بدّ من استسلام الملا مصطفى البارزاني .

قُتل عبد السلام عارف ، وترك عبد العزيز العقيلي وزارة الدفاع ، وعادت المفاوضات ، وأصدر عبد الرحمٰن البزاز رئيس الحكومة بياناً مُؤلّفاً من اثني عشرة نقطة في ١١ربيع الأول ١٣٨٦هـ (٢٩ حزيران ١٩٦٦م) . وبقيت الحكومات التي خلفت حكومة عبد الرحمٰن البزاز تُشيد بالنقاط الاثنتي عشرة ، وتدّعي العمل لها دون نتيجةٍ .

محاولة قيام عارف عبد الرزاق بانقلابٍ ثانٍ : كان الضباط الذين يُؤيّدون الرئيس المصري جمال عبد الناصر لا يرتاحون لرئيس الحكومة عبد الرحمٰن البزاز ، ويعدّونه مُسايراً لسياسة الغرب ، وأخذ الاستعداد لتهيئة انقلابٍ ، وفي شهر صفر ١٣٨٦هـ (أوائل حزيران ١٩٦٦م) غادر عارف عبد الرزاق مصر وتسلّل إلى العراق مع بعض الأشخاص ، ولم يعلم أحد بهم . ووصل إلى بغداد ، وفي يوم ١١ ربيع الأول تسلّل إلى الموصل مع عددٍ من الضباط ليستولي على المطار ، وقد تمكّن بجهود قائد الفرقة الرابعة يونس طه عطار باشي من السيطرة على الفرقة والمطار العسكري . وقامت الطائرات من الموصل لمُهاجمة الحرس الجمهوري والإذاعة في بغداد ، وهاجمت أربع طائراتٍ معسكر الرشيد ، ولكنها أُسرت وأخفق الهجوم ، وهاجمت طائرة معسكر الوشاش ، ولكنها أُلزمت على الهبوط والاستسلام ، وهكذا فشل الهجوم الجوي .

استولى العقيد هادي خماس على محطتي الإذاعة في أبي غريب ، وبغداد ، وأذاع بياناتٍ باسم عارف عبد الرزاق رئيس المجلس الوطني الجديد للثورة ، وقامت قوّة بالسيطرة على معسكر التاجي ، وتحرّكت المدرّعات إلى العاصمة للاستيلاء عليها ، وأذاع هادي خماس نجاح الانقلاب ، ودعا عبد الرحمٰن عارف وعبد الرحمٰن البزاز إلى التوجّه إلى منزليهما ، وترك مقرّيهما . وأذاعت محطة إذاعة حكومية فشل الإنقلاب ، واستسلام المتمردين .

قام رئيس الحرس الجمهوري العقيد بشير طالب بهجوم معاكس ضدّ القوات المتمرّدة ، وأمر عبد الرحمٰن عارف الضباط الموالين له بالموصل باعتقال عارف عبد الرزاق فاعتُقل ، وسحق بشير طالب القوات التي سيطرت على معسكر أبي غريب ومعسكر التاجي ، ووصلت النجدات إلى بغداد ، واعتقل رؤوس المتمرّدين ، وانتهى أمر الانقلاب ، وفي ١٣ ربيع الأول عادت الحياة طبيعية في بغداد ، أي لم تستمر الفوضى سوى يومين فقط . وكان عدد المعتقلين العسكريين والمدنيين ثمانية عشر رجلاً ، أُفرج عنهم بعد سقوط حكومة عبد الرحمٰن البزاز ، أما عارف عبد الرزاق فقد بقي سنةً في السجن ، ثم أُفرج عنه .

قدّم عبد الرحمٰن البزاز استقالة حكومته في ١٩ ربيع الثاني ١٣٨٦هـ (٦ آب ١٩٦٦م) بعد خلافٍ وقع بينه وبين رئيس الجمهورية . إذ كان عبد الرحمٰن عارف يُريد أن يثبت مكانته بين العسكريين ، وخاصةً بعد أن رأى محاولة الانقلاب التي قام بها عارف عبد الرزاق ، ومُؤازرة بعض الضباط له . على حين أن رئيس الحكومة عبد الرحمٰن البزاز أراد أن يثبت مكانته بين المدنيين فوعد بإجراء الانتخابات ، وتشكيل المجلس النيابي .

غير أن العسكريين الذين يُريد عبد الرحمٰن عارف أن يُوحّد جهودهم ليدعموا نظامه كانوا عدة فئاتٍ ، فئة منهم تدعو إلى وحدة البلدان العربية ، وفئة أخرى ترى الوحدة الوطنية العراقية ، ويمكن أن نُسمّيها « إقليمية » إذ أنها تهتّم بشؤون إقليم العراق، وتوحيد الأقلّيات فيه . والفئة الوحدوية عدة مجموعات :

١ ـ مجموعة لا ترى الوحدة إلّا مع مصر ، وبزعامة جمال عبد الناصر ، الذي لا تكون وحدة دونه ، ولا تصلح وحدة بغيره ، وهؤلاء هم الذين يُعرفون بالناصريين .

٢ ـ مجموعة البعثيين التي لا ترى زعامة جمال عبد الناصر ، وأن الوحدة يجب أن تتمّ بعيداً عنه ، لأنه لا يُهمّه سوى شخصه ، وهو يُنادي بالوحدة

ليركب موجتها العارمة فيكسب الزعامة ، ولو كان هناك شعار آخر يُؤمّن له الزعامة لاتخذه بديلاً ، ويُمثّل هؤلاء أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، وحردان التكريتي .

٣ ـ مجموعة ترى تحقيق اتفاقية الوحدة الموقعة في ١٥ محرم ١٣٨٤هـ (٢٦ أيار ١٩٦٤م) على مراحل ، ويُمثّل هذه المجموعة ناجي طالب على حين أنه ينتمي إلى الشيعة الذين لا يرون الوحدة العربية .

٤ ـ مجموعة عبد الرحمن عارف التي تُؤيّد النظام القائم ،ويُمثّل هذه المجموعة سعيد الصليبي ، وعبد الحميد عبد القادر ، وهم الذين ساندوا النظام عندما تعرّض للانقلاب .

وأما الفئة الإقليمية فهي عدة مجموعاتٍ ومنها :

١ ـ مجموعة يقودها عبد العزيز العقيلي ، ويدعو إلى الاهتمام بقضايا العراق ، وإنهاء مُشكلة الأكراد قبل كل شيءٍ ، ويُؤيّده رشيد مصلح ، وإسماعيل مصطفى .

٢ ـ مجموعة يقودها عبد الوهاب الأمين ، وعبد الغني الراوي ، ويرون مصلحة العراق قبل كل شيءٍ ، لذا فالانصراف إلى القضايا الإقليمية أهم مما سواه .

٣ ـ مجموعة يقودها طاهر يحيى ، ويُحاول التوفيق بين المجموعات . وكل هذه المجموعات علمانية ، تقريباً أو لا تهتمّ بالقضايا الدينية على حين أن بعضها يُحاربها صراحةً كالمجموعة البعثية ، أما عبد الرحمن عارف فيعدّ مُتديّناً ، ويُريد أن يُحافظ على هذا الجانب ، لذا فإنّ من يؤيّده إن لم يكن متديناً فلمصلحة له .

بعد أن قدّم عبد الرحمن البزاز استقالة حكومته في ١٩ ربيع الثاني ١٣٨٦هـ ، عهد عبد الرحمن عارف إلى ناجي طالب بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وفي ٢٢ ربيع الثاني أعلن عن تشكيلها[١] . وأعلنت الحكومة في

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

بيـانها عن العمل لتحقيق الـوحدة العـربية ، ولكن لم يحـدث شيء في هذا المجال .

أزمـة النفط مع سوريا : كانت شركـة نفط العراق قـد اتفقت عـام (١٩٥٥م) مع سوريا على المبلغ الذي تدفعه الشركة لسوريا ، غير أنه في مطلع عام (١٩٦٦م) ١٠ رمضان ١٣٨٥هـ طالبت الحكومة السورية الشركة بزيادة المبلغ الذي يُدفع مُقابل مرور النفط في الأراضي السورية ، وصبّه في ميناء بانياس على ساحل البحر المتوسط ، ما دامت كميات الضخّ قد زادت ، وأسعار النفط قد ارتفعت ، فتمنّعت الشركة بادىء الأمر ، ثم وافقت غير أنّ الحكومة السورية قد طلبت أن تكون هذه الزيادة ذات مفعولٍ رجعيٍ حيث تبدأ قبل عشر سنوات ، فرفضت الشركة، ولما احتدم الخلاف توقّفت الشركة عن الضخّ ، فاستولت الحكومة على ممتلكات الشركة في سوريا ، وتضرّرت العراق نتيجة وقف الضخّ وأخذ هجوم خصوم ناجي طالب على حكومته .

= ١ ـ ناجي طالب : رئيساً للوزارة ، وزيراً للنفط .
٢ ـ رجب عبد المجيد : نائباً لرئيس الوزارة ، وزيراً للداخلية .
٣ ـ عدنان الباجه جي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ عبد الله النقشبندي : وزيراً للمالية .
٥ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .
٦ ـ مصلح النقشبندي : وزيراً للعدل .
٧ ـ عبد الرحمن القيسي : وزيراً للتعليم .
٨ ـ دريد الدملوجي : وزيراً للثقافة والإرشاد .
٩ ـ فريد فتيان : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للمواصلات .
١١ ـ فؤاد حسن غالي : وزيراً للصحة .
١٢ ـ أحمد مهدي الدجيلي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٣ ـ محمد يعقوب السعيدي : وزيراً للتخطيط .
١٤ ـ قاسم عبد الحميد : وزيراً للاقتصاد .
١٥ ـ خالد الشاوي : وزيراً للصناعة .
١٦ ـ داود سرسم : وزيراً للبلديات والأشغال العامة .
١٧ ـ عربي الحاج أحمد : وزيراً لشؤون الوحدة .
١٨ ـ أحمد كمال عبد القادر : وزير دولة لإعمار شمالي العراق .

وخاصةً أن رئيس الوزارة كان يرى رأي الحكومة السورية ومُطالبة الشركة ، وأخيراً سُوّي الخلاف نهائياً بين الشركة وسوريا في ٢١ ذي القعدة ١٣٨٦هـ (٢ آذار ١٩٦٧م) . إذ وافقت الشركة على دفع الزيادة بدءاً من مطلع عام (١٩٦٦م) ويبحث أمر دفع الزيادة عن المدة السابقة فيما بعد ، ونتيجة ذلك تضاعف نصيب سوريا من المبلغ الذي كانت تتقاضاه من الشركة .

رئاسة عبد الرحمٰن عارف والدستور : انتخب عبد الرحمٰن عارف رئيساً لمدة سنةٍ فقط ، ويمكن تجديد المدة بعد انتهائها ، وها قد أوشكت على الانتهاء (١٧ نيسان) .

ونصّ الدستور الموقّت الذي أعلن في ١٧ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٢٩ نيسان ١٩٦٤م) أنّ على المجلس الوطني أن يضع دستوراً دائماً خلال ثلاث سنواتٍ .

اعترضت المعارضة على الدستور المُوقّت الذي لم يعترف إلّا بالاتحاد الاشتراكي كتنظيمٍ سياسيٍ في البلاد ، وكان الأكراد أشدّ المعترضين ، لذا أصبح من الضروري تعديل الدستور الموقّت ، قبل نهاية نظام الحكم المُوقّت .

وفي ٢٤ المحرم ١٣٨٧هـ (٣ أيار ١٩٦٧م) تمّ عقد اجتماعٍ مُشتركٍ من مجلس الوزراء ، ومجلس الدفاع الوطني ، وخوّل الوزارة إصدار القوانين حتّى يتمّ انتخاب مجلس الأُمّة ، وتمديد رئاسة عبد الرحمٰن عارف سنة أخرى .

لم يتّفق العسكريون على رئاسة الحكومة ، وهم طامعون بها ، لاختلاف مشاربهم وأهوائهم ، ولم يقبل أحد من المدنيين أن يكون ألعوبةً بيد العسكريين ، والحكومة القائمة أصبحت لا تقوى على شيءٍ ورئيس الجمهورية غير راضٍ عن رئيس الحكومة ، لذا لم يكن بدّ من أن يُشكّل عبد الرحمٰن عارف رئيس الجمهورية الحكومة بنفسه ، فقبل استقالة حكومة ناجي طالب في الأول من صفر ، وفي اليوم نفسه أعلن حكومته[1] ، التي تُعدّ حكومة ائتلافٍ

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي : =

وطنيٍ ، إذ ضمّت مختلف النـزعات ، والأقلّيـات ، إذ كان طـاهـر يحيى ، وعبدً الغني الراوي من المسلمين العرب ، وفؤاد عارف من المسلمين الأكراد ، وإسماعيل مصطفى من الشيعة .

ولم يلبث أن حدث الاعتداء اليهودي على البلدان العـربية ، مصر ، والأردن ، وسوريا ، وساهم العراق بإرسال قوةٍ رمزيةٍ لدعم أشقاء العراق . وجاءت الظروف قاسيةً بعد الحرب الكردية ، ووجد عبد الرحمن عارف نفسه متعباً بمنصبي رئاسة الجمهورية والحكومة فأوكل أمر الحكومة إلى طاهر يحيى .

وسافر طاهر يحيى مع كلٍ من فؤاد عارف نائب رئيس الحكومة ، وشاكر محمود شكري وزير الدفاع ، وعدنان الباجه جي ، وزيـر الخـارجيـة ، وعبد الرزاق محيي الدين وزير الوحدة إلى القـاهرة لبحث موضوع الحرب القائمة .

وأراد طـاهر يحيى أن يُشغـل الناس عن الأحـداث الداخليـة فـاتجه

= ١ ـ عـبـد الـرحمن عـارف : رئيس الجمهورية ، رئيس الوزراء .
٢ ـ طاهر يحيى : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ عبد الغني الراوي : نـائبـاً لـرئيس الوزراء .
٤ ـ إسماعيل مصـطفى : نائباً لـرئيس الوزراء .
٥ ـ فؤاد عارف : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً لإعمار الشمال .
٦ ـ عدنان الباجه جي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .
٨ ـ عبد الرحمن الحبيب : وزيراً للمالية .
٩ ـ عبـد الستار عبـد اللطيف : وزيـراً للداخلية .
١٠ ـ مصلح النقشبندي : وزيراً للعدل .
١١ ـ عبد الكريم هاني : وزيراً للعمـل والشؤون الاجتماعية وزيراً للصحة بالوكالة .
١٢ ـ أحمد مـطلوب : وزيـراً للثقـافـة والإرشاد .
١٣ ـ فـاضـل محسن الحكيم : وزيـراً للمواصلات .
١٤ ـ عبد المجيد الجميد : وزيراً للزراعة .
١٥ ـ محمـد يعقوب السعيـدي : وزيـراً للتخطيط .
١٦ ـ قاسم عبد الحميد : وزيراً للنفط .
١٧ ـ إحسان شيرزاد : وزيـراً للبلديات والأشغال العامة .
١٨ ـ عبـد الرزاق محيي الـدين : وزيراً للوحدة .
١٩ ـ عربي الحاج أحمد : وزيراً للدولة .
٢٠ ـ إسماعيل خير الله : وزيراً للدولة .
٢١ ـ قاسم خليل : وزير دولة للشبـاب واتحاد العمل .
٢٢ ـ عبـد الكـريم فـرحـان : وزيــراً للإصلاح الزراعي .

بأنظارهم إلى الخارج ، إذ أخذ يُعلن عن ضرورة قطع العلاقات مع الدول التي دعمت إسرائيل ، وهي الولايات المتحدة ، وضرورة قطع النفط عنها ، وأمر القوات العراقية المعسكرة في الأردن بالبقاء هناك ضدّ تعدّيات اليهود . وقامت الزيارات بين العراق والاتحاد السوفيتي وفرنسا ، وتحسّنت العلاقات التجارية مع فرنسا ، وأصبح الأمل كبيراً في استيراد الأسلحة الفرنسية . ومُنحت الشركة الفرنسية (ايراب) حقّ التنقيب عن النفط ، وأُممت صناعة النفط ، وأخذت شركة النفط الوطنية العراقية في استثمار حقول شمال الرميلة في الجنوب ، ومُدّ خط الأنابيب إلى الفاو .

أعلنت الحكومة عن إنشاء مجلسٍ تشريعيٍ مُوقّتٍ إلى حين انتخاب مجلس وطني . ولكن مشروع هذا القانون الذي ينصّ على تشكيل مجلسٍ يتألّف من مائةٍ وعشرين عضواً يُمثّلون العمال ، والفلاحين ، وأرباب المهن الأخرى ، قد تعرّض للنقد الشديد ، كما تعرّض للنقد من أجل الاتحاد الاشتراكي الذي يُعدّ التنظيم السياسي الوحيد في البلاد على حين أن المعارضة يعملون من أجل تعدّد الأحزاب ، إضافةً إلى أن أعضاء المجلس سيُعيّنون تعييناً ، ولا يُؤخذون بالانتخاب .

كانت المطالب الوطنية بتعيين مجلسٍ وطني يضمّ ثلاثين عضواً ، ويُخوّل بصلاحية إصدار القوانين إلى أن يتمّ انتخاب مجلس الأُمّة . وأن تُبدّل الوزارة ، وتحلّ مُشكلة الأكراد ، وتجري الانتخابات العامة في مدةٍ لا تتجاوز السنتين .

ورجع الشيوعيون إلى الساحة ، وأخذوا يقومون بالنشاط وخاصةً في الجنوب ، واضطرت الحكومة إلى إرسال قوةٍ من الشرطة إليهم لإعادة النظام واستتباب الأمن. وضعفت حكومة طاهر يحيى ، وتقدّم بعض أعضائها باستقالتهم ، وسرت شائعات بالاتفاق بين رئيس الحكومة والملا مصطفى البارزاني . وقبل أن يحدث تعديل في الوزارة حدث انقلاب أطاح بعبد الرحمن عارف ونظام حكمه في ٢١ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ (١٧ تموز ١٩٦٨م) .

الفصل الرابع

أحمد حسن البكر

٢١ ربيع الأول ١٣٨٨ - ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ
(١٧ تموز ١٩٦٨ - ١٧ تموز ١٩٧٩م) .

كان لهزيمة الدول العربية أمام اليهود في ٢٧ صفر من عام ١٣٨٧هـ(٥ حزيران ١٩٦٧م) أثر في اشتداد المعارضة لحكم عبد الرحمن عارف ، كما أن للشائعات ضدّ حكومة طاهر يحيى ، واتهامها بالمساعدة على نشر الفساد ، وبثّ الفوضى ، وأخذ الرشوة دوراً بارزاً في قوة المعارضة ، واتهام طاهر يحيى نفسه باستلام أربعة عشر مليون دولار من شركة الزيت الفرنسية (ايراب) .

وكان لمحاولات الانقلاب التي تُدبرها مصر ضدّ حكومة عبد الرحمن عارف ولصالح أنصار جمال عبد الناصر أثر في إضعاف الحكم ، واشتداد المعارضة الشعبية ، وفي الوقت نفسه إضعاف جماعة الاتحاد الاشتراكي غير المنظّم ، أو ما يُسمّون بالناصريين ، وذلك بالتسريح من الخدمة العسكرية أو الإلقاء في السجون .

وهذا كله شجّع على قيام تنظيمٍ سريٍ بين صفوف الضباط ، أطلقوا على أنفسهم اسم « الثوريون العرب » ، وقد حرّك هذه المجموعة مدير الاستخبارات العسكرية ، عبد الرزاق النايف ، وتمكّن من ربط الصلة مع رئيس الحرس الجمهوري إبراهيم عبد الرحمن الداود ، وهذا ما شدّ من أزر الثوريين العرب ، ومع ذلك وجدوا أنفسهم ضعافاً ، فرأوا أن يتعاونوا مع الجناح المعتدل من حزب البعث الذي يُمثّله أحمد حسن البكر ، وحردان

عبد الغفار التكريتي ، وصالح مهدي عماش ، وجماعتهم ، وقد رأوا فيهم جماعةً كباراً سبق لهم أن استلموا أو شاركوا بالحكم ، على حين أنهم هم لا يزالون صغاراً لم يسبق لهم تسيير شؤون الدولة . ولما شعروا بالاستعداد قاموا بالحركة .

في صباح يوم الأربعاء ٢١ ربيع الأول ١٣٨٨هـ (١٧ تموز ١٩٦٨م) تحرّكت الدبابات باتجاه القصر الجمهوري ، ولم يُبد رئيس الحرس أيّ مساعدةٍ للحكم ، وبعد عدة طلقاتٍ استسلم الفريق عبد الرحمن عارف ، وأُلقي القبض عليه ، وأذيع نبأ الإنقلاب ، وأُعلن عن تشكيل مجلس لقيادة الثورة من أحد عشر عضواً ، واختير أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ، وشكّل عبد الرزاق النايف الوزارة[1] ، وأُقيلت حكومة الفريق طاهر يحيى ، واتُّهم

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرزاق النايف : رئيساً للوزارة
٢ ـ صالح مهدي عماش : وزيراً للداخلية .
٣ ـ إبراهيم عبد الرحمن داود : وزيراً للدفاع
٤ ـ ناصر الحاني : وزيراً للخارجية
٥ ـ قاسم العزاوي : وزيراً للوحدة العربية
٦ ـ صالح كبه : وزيراً للمالية .
٧ ـ مصلح نقشبندي : وزيراً للعدلية .
٨ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
٩ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
١١ ـ طه الحاج الياس : وزيراً للثقافة والتوجيه القومي .
١٢ ـ محمود شيت خطاب : وزيراً للمواصلات .
١٣ ـ محسن القزويني : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ عبد المجيد الجميلي : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٥ ـ إحسان شيرزاده : وزيراً للإسكان .
١٦ ـ محمد يعقوب السويدي : وزيراً للتخطيط .
١٧ ـ عبد الله نقشبندي : وزيراً للاقتصاد .
١٨ ـ خالد مكي الهاشمي : وزيراً للصناعة .
١٩ ـ مهدي حنتوش : وزيراً للنفط ومصادر الطاقة .
٢٠ ـ غائب مولود مخلص : وزيراً للحكم المحلي .
٢١ ـ دياب العكاوي : وزيراً للشباب . =

الحكم السابق بأنه شارك في نكبة عام ١٣٨٧هـ ، وأُعلن أن الهدف من الحركة هو الوحدة الوطنية ، وأُحيل الرئيس عبد الرحمن عارف على التقاعد ، ونفي خارج البلاد ، فغادرها إلى لندن عن طريق استانبول على متن طائرةٍ عراقيةٍ ، وسُجن الفريق طاهر يحيى مع بعض المسؤولين تمهيداً لتقديمه إلى المحكمة بتهمة الرشوة ، وصُودرت ممتلكاته ، وأُحيل اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاري رئيس الأركان العام للقوات المسلحة على التقاعد ، وعُيِّن العميد الركن حردان عبد الغفار التكريتي رئيساً للأركان ، ومُنح رتبة فريق طيار .

إن العهد الجديد قد ضمّ مجموعتين مُتباينتين ، ولا بُدّ من أن يقع الخلاف فيما بينهما بل لن يطول ذلك ، فالبعثيون لا يمكنهم العمل مع مجموعةٍ أخرى ، إلا إذا انضوت تحت جناحهم ، وإذا لم يتمّ هذا استمروا في الهجوم عليهم ، والحديث عنهم ، ولم تطل أيام التفاهم .

وفي ٤ ربيع الثاني من عام ١٣٨٨هـ (٣٠ تموز ١٩٦٨م) أي بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من وقوع الانقلاب تفرّد البعثيون بالسلطة ، وأُبعد رئيس الحكومة عبد الرزاق النايف عن البلاد حيث غادرها إلى لندن ، كما أُبعد أعوانه عن السلطة ، وشكّل الحكومة الجديدة الرئيس أحمد حسن البكر[1] ،

= ٢٢ ـ محسن ديزاني : وزيراً لإعمار شمالي العراق .
٢٣ ـ عبد الكريم زيدان : وزير دولة للشؤون الدينية .
٢٤ ـ راشد الرافعي : وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء .
٢٥ ـ ماجد عيسى الخلاف : وزير دولة .
٢٦ ـ كاظم المولى : وزير دولة .
٢٧ ـ جاسم كاظم العزاوي : وزيراً لشؤون الوحدة العربية .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حردان عبد الغفاري التكريتي : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للدفاع .
٣ ـ صالح مهدي عماش : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للداخلية .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزيراً للخارجية .
٥ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٦ ـ مهدي الدولاي : وزيراً للعدلية .
٧ ـ عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .

وأصبح الحكم بعدئذٍ رئاسياً ، حيث استمرّ رئيس الجمهورية يتـولّى رئاسـة الحكومة إضافةً إلى منصب الرئاسة ، وقيادة مجلس قيادة الثورة .

والـذي يلفت النظر أن مجموعة الحكم الـرئيسية كـانت من مـدينـة تكريت ، أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، وحردان عبـد الغفار التكـريتي ، وصدام حسـين التكريتي ، وسعـدون غيـدان ، وحمـاد شهـاب التكريتي .

وأعلن دستـور مـوقّت في ٢٩ جمـادى الآخـرة ١٣٨٨هـ (٢٢ أيلول ١٩٦٨م) ، ثم نشر الـدستـور في ١٣ جمـادى الأولى ١٣٩٠هـ (١٦ تمـوز ١٩٧٠م) ،[1] وعُيِّن نائبان لرئيس الدولة هما: حردان عبد الغفار التكريتي ،

---

(١) تشكلت الـوزارة على النحـو الآتي في تموز ١٩٧٠م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .

٢ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية . =

٨ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

٩ - عزت مصطفى : وزيراً للصحة .

١٠ ـ عبـد الله سلوم : وزيـراً للثقـافـة والتوجيه القومي .

١١ ـ محمـود شيـب خـطاب : وزيـراً للمواصلات .

١٢ ـ عبد الحسين عطية : وزيراً للزراعة .

١٣ ـ جـاسم كـاظم العـزاوي : وزيـراً للإصلاح الزراعي .

١٤ ـ إحسـان شيرزاد : وزيـراً للأشغـال العامة والإسكان .

١٥ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .

١٦ ـ فخـري يـاسـين قـدوري : وزيـراً للاقتصاد .

١٧ ـ خـالـد مكي الهـاشمي : وزيـراً للصناعة .

١٨ ـ راشد الرافعي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .

١٩ ـ غائب مولود مخلص : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .

٢٠ ـ شفيق الكمالي : وزيراً للشباب .

٢١ ـ محسن ديـزايي : وزيـراً لـلشـؤون الكردية .

٢٢ ـ عبـد الله الخضيري : وزيـراً للوحدة العربية .

وصالح مهدي عماش ، وكان من المقرر أن يُعينّ نائب ثالث من الأكراد غير أنه لم يُسمّ . أما مجلس قيادة الثورة فقد ضمّ خمسة عشر عضواً ، منهم : الرئيس ، ونائبا الرئيس واثنا عشر عضواً آخرون .

أما الوزارة فلم يتغيّر سوى بعض الوزراء ، فهي أشبه ما تكون بالتعديل الوزاري ، لذا سنكتفي بإيراد الوزارة سنوياً ، ومنذ أن تفرّد البعثيون بالسلطة أعادوا إلى الخدمة العسكرية كل ضباطهم الذين كانوا قد سُرّحوا على مدار السنوات السابقة .

= ٣ ـ حمّاد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل .
٧ ـ عزيز شريف : وزيراً للعدل .
٨ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للتجارة .
٩ ـ أحمد الجبوري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للمواصلات .
١١ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٢ ـ محمد محمود عبد الرحمن: وزيراً للتنمية في الشمال.
١٣ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٤ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١٥ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للشؤون النفطية .
١٧ ـ صعب عبد الباقي : وزيراً للتربية .
١٨ ـ فؤاد خليل إسماعيل : وزيراً للتعليم العالي .
١٩ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
٢٠ ـ فخري قدوري : وزيراً للاقتصاد .
٢١ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٢٣ ـ خالد مكي الهاشمي : وزير دولة لشؤون الدفاع.
٢٤ ـ أحمد عبد الستار الجواري: وزير دولة لشؤون الرئاسة .
٢٥ ـ عبد الله سلوم الصمعري: وزير دولة .
٢٦ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٧ ـ راشد الرافعي : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الثقافة والإعلام شاغرة .

بدأ يبرز على الساحة صدام حسين التكريتي ، وأخذ يختفي عن الساحة الأشخاص الذين يراهم يقفون أمامه ، لقد وجد ناصر الحاني مقتولاً ، وهو وزير خارجية سابق في حكومة عبد الرزاق النايف .

استؤنف القتال مع الأكراد في رجب ١٣٩٠هـ (تشرين الأول ١٩٦٨م) بعد توقّف دام أكثر من عامين أي منذ شهر حزيران ١٩٦٦م ، وازداد القتال ضراوةً مع دخول فصل الشتاء حيث البرد الشديد في تلك البقاع الجبلية ، واشتدّت حدّته في العام التالي ، واتّهمت الحكومة الأكراد بالتمرّد ،

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي في تموز عام ١٩٧١م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ حماد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي: وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة والحركة الاقتصادية .
٦ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٧ ـ شفيق كمالي : وزيراً للإعلام .
٨ ـ عزيز شريف : وزيراً للعدل .
٩ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للتجارة .
١٠ ـ حامد الجبوري : وزيراً للشباب .
١١ ـ عدنان أيوب صبري: وزيراً للمواصلات .
١٢ ـ إحسان شيرزاد: وزيراً للبلديات .
١٣ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً للتنمية في الشمال .
١٤ ـ نوري الشاوي : وزيراً للإسكان .
١٥ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١٦ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٧ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٨ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٩ ـ فؤاد خليل إسماعيل: وزيراً للتعليم العالي .
٢٠ ـ راشد الرافعي : وزيراً للتخطيط .
٢١ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٢٣ ـ خالد مكي الهاشمي : وزير دولة لشؤون الدفاع .
٢٤ ـ عبد الستار جواري : وزير دولة لشؤون الرئاسة .
٢٥ ـ راشد الرافعي : وزير دولة .

وأنهم يحصلون على مساعداتٍ من إيران ، وإسرائيل . وقد طالب الأكراد بالاستقلال ، وطلبوا من الأمم المتحدة التدخّل لإنهاء القتال ، وما يجري فيه من عمليات قتلٍ جماعيٍ ، وفي ٤ محرم ١٣٩٠هـ (١١ آذار ١٩٧٠م) جرى اتفاق بين الحكومة والأكراد الذين منحوا حكماً ذاتياً بدءاً من ١٧ صفر عام ١٣٩٤هـ (١١ آذار ١٩٧٤م) أي بعد أربع سنوات من توقيع الاتفاق الذي تألف من خمسة عشر بنداً ، وتقرّر أن تكون مدينة إربيل عاصمة إقليم

(*) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٢م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ مرتضى سيد عبد الباقي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ حماد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٥ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٦ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٧ ـ خالد مكي الهاشمي : وزيراً للتجارة .
٨ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
٩ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام .
١٠ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١١ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٣ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي .
١٤ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٧ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات .
١٨ ـ حسين الصافي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٠ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للبلديات .
٢١ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢٢ ـ محمد محمود عبد الرحمن: وزيراً لتنمية الشمال .
٢٣ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة .
٢٤ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٥ ـ عزيز الشريف : وزير دولة .
٢٦ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٧ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الزراعة شاغرة .

كردستان ، ولكن الاستقرار التام لم يتمّ ، إذ أن العرب يشعرون أن مناطق غنيةً وخاصةً بالنفط ستخسرها العراق ، كما أن الأكراد شعروا أن المدة طويلة حتى يتمّ الحكم الذاتي ، وتطبيق الاتفاق المعقود بينهم وبين الحكومة العراقية ، لذا فقد جرت محاولة انقلابٍ في بغداد في جمادى الأولى ١٣٩١هـ (تموز ١٩٧١م) ، اشترك فيها الجيش والقوات الجوية ، كما جرت محاولة اغتيال الملا مصطفى البارزاني في رجب ١٣٩١هـ (أيلول ١٩٧١م) . وكان من بنود الاتفاق مشاركة الأكراد في حكومة بغداد مشاركةً كاملةً ، وتعيين الموظفين الرسميين من الأكراد في المناطق التي تسكنها أغلبية كردية، وأن تكون اللغة الكردية رسميةً مع اللغة العربية في المناطق الكردية ، ويجب إعادة صياغة الدستور الموقّت ليشمل حقوق الأكراد المكتسبة ، كما تقرّر إجراء إحصاء سكاني للأكراد . كل هذه البنود قُبلت في المجتمع الكردي ، وتوقّف إطلاق النار ، وذلك لأن الحرب كانت مُنهكةً للطرفين ، إذ كلّفت الحكومة الشيء الكثير ، ومن ناحيةٍ أخرى لحق الدمار المناطق الكردية ، وخسروا الكثير ، وتوقّفت المشروعات الإنمائية في جهاتهم . وفي شهر شعبان ١٣٩٠هـ (تشرين الأول ١٩٧٠م) أُلغيت حالة الطوارىء المعلنة من ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) بشكلٍ مستمرٍ . وأطلق سراح عددٍ من السياسيين بما فيهم بعض الوزراء السابقين ، كما أُلغيت الرقابة على البريد ، وعلى الاتصالات الخارجية .

وفي ذي الحجة ١٣٩٠هـ (شباط ١٩٧١م) ظهر الاتحاد الكردي بقرار من الحزب الثوري الكردي بالإندماج مع الحزب الديمقراطي الكردستاني تحت زعامة الملا مصطفى البارزاني .

وفي جمادى الأولى ١٣٩١هـ (تموز ١٩٧١م) أُعلن دستور مُوقّت جديد تضمّن كثيراً من النقاط المستمدة من قوانين العام الماضي ، والتي ظهرت نتيجة التفاهم مع الأكراد . وأصبحت المناطق الكردية تُدار من قبل القيادة العليا لشؤون الأكراد . ولكن حصلت محاولة جديدة في العام التالي لاغتيال

الملا مصطفى البارزاني ، وعادت الاصطدامات بين جنود الحكومة وبين الأكراد .

قطع حزب البعث العلاقة مع الأكراد ، وهدّد الحزب الديمقراطي الكردستاني بتجديد الحرب الأهلية .

اجتمع الطرفان لمناقشة نقاط الاختلاف ، وركّز الطرف الكردي على

---

(١) وكانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٣م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ نهاد فخري الخفاف : وزيراً للتجارة .
٧ ـ عزت الدوري : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٨ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام والثقافة .
٩ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١٢ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٤ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي والتقنية.
١٥ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٦ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٧ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية.
١٨ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات والدفاع.
١٩ ـ حسين الصافي : وزيراً للعدل .
٢٠ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢١ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
٢٢ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢٣ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً لتنمية الشمال.
٢٤ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة .
٢٥ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٦ ـ عزيز شريف : وزير دولة .
٢٧ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٨ ـ عبد الله سلوم الصمعري: وزير دولة .

اتفاق عام ١٩٧٠م . وأعاد حزب البعث المشروعات الإنمائية في المناطق الكردية .

وفي ذي القعدة ١٣٩٢هـ (كانون الأول ١٩٧٢م) ظهر انكسار في صفوف الأكراد عندما وردت أخبار أن الجناح الانفصالي بينهم قد وقف في وجه الحزب الديمقراطي الكردستاني .

(*) وكانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٤م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ شاذل طاقة : وزيراً للخارجية .
٣ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ نهاد فخري الخفاف : وزيراً للتجارة .
٧ ـ عزت الدوري : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٨ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام والثقافة .
٩ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١١ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٣ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي والتقنية .
١٤ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٧ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات .
١٨ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
١٩ ـ هاشم حسان عقروي : وزيراً للبلديات .
٢٠ ـ عبد الستار طاهر شريف : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢١ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً لتنمية الشمال .
٢٢ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة والعدل .
٢٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٤ ـ عزيز شريف : وزير دولة .
٢٥ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٦ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٧ ـ عزيز راشد عقروي : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله مصطفى برازاني : وزير دولة .

وفي مطلع عام ١٣٩١هـ (آذار ١٩٧١م) قُتل حردان التكريتي في حادث طائرةٍ ، وبعد ستة أشهر أُعفي صالح مهدي عماش، وعبد الكريم الشيخلي ، وخلا الجو لصدام حسين التكريتي الذي أصبح نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة أحمد حسن البكر ، إضافةً إلى منصبه كنائبٍ لأمين حزب البعث القطري العراقي .

وقبل أن ينتهي عام ١٣٩٢هـ ، ظهر الرفض الكردي لمّا جاء ١٧ صفر ١٣٩٤هـ (١١ آذار ١٩٧٤م) وهو موعد تطبيق الحكم الذاتي ، ورجع التمرّد من جديد ، وقد أمكن القضاء عليه عام ١٣٩٥هـ .

وفي ٢٥ شعبان ١٣٩١هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٧١م) طرح حزب البعث فكرة ميثاق العمل الوطني لإقامة جبهة بين القوى الوطنية والقومية حسب المفهوم البعثي . وأصبحت الجبهة الوطنية التقدّمية هو التجمّع السياسي الوحيد المسموح به ، ويضمّ حزب البعث العربي الاشتراكي ، وعدة أحزابٍ كرديةٍ .

وفي عام ١٩٧٢ وُقّعت معاهدة صداقة بين العراق والامبراطورية الروسية ، وانضمّ بعد ذلك الحزب الشيوعي العراقي إلى الجبهة الوطنية التقدّمية ، ثم تبع ذلك انضمام الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وتمّ إدخال وزيرين شيوعيين في الحكم ، ووزيرين آخرين ممن يُطلق بالقوميين عام ١٩٧٤م ، ولكن الحزب الشيوعي ترك الجبهة في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) .

تأسّست شركة النفط الوطنية في العراق عام ١٩٦٤م ، وفي ١٩ ربيع الثاني ١٣٩٢هـ (الأول من حزيران عام ١٩٧٢م) أصدر الرئيس أحمد حسن البكر قراراً بتأميم النفط ، وأصبح للعراق ٦٥٪ من النفط الوطني ، واضطرت الشركات الأجنبية للرضوخ إلى قرار التأميم في ٢٧ محرم ١٣٩٣هـ (الأول من آذار ١٩٧٣م) ، وتبع ذلك قرار تأميم حصة الولايات المتحدة الأمريكية من

شركة نفط البصرة في رمضان عام ١٣٩٢هـ (تشرين الأول من عام ١٩٧٣م) أي بعد الحرب التي جرت بين البلدان العربية واليهود ، والتي أسهمت فيها العراق بإرسال قوات من جيشها إلى الجبهة السورية ، وتلا ذلك تأميم حصة هولندا ، وحصة ورثة الأرمني (كولبنكيان) ، ووصلت حصة العراق من نفطها إلى ٨٥٪ من مجموع أسهم الشركات العاملة .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٥م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة والمعادن والتخطيط .
٥ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٧ ـ نعيم حداد : وزيراً للشباب .
٨ ـ غانم عبد الجليل : وزيراً للتعليم العالي والتقنية .
٩ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١٠ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١١ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٢ ـ هشام الشاوي : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٣ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٤ ـ راشد الرافعي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٥ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ سعدي إبراهيم : وزيراً للمالية .
١٧ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ حسان فهمي جمعة : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للشؤون البلدية .
٢١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزير دولة .
٢٣ ـ حامد الجبوري : وزير دولة .
٢٤ ـ عبد الله الخضيري : وزير دولة .
٢٥ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٦ ـ عزيز الشريف : وزير دولة .
٢٧ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

وجرى تعديل في القيادة حيث أصبح صدام حسين التكريتي نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة أحمد حسن البكر ، وضمّ المجلس إضافةً إلى الرئيس ونائبه سعدون غيدان ، وعزت مصطفى ، وعزت الدوري ، ومرتضى عبد الباقي الحديثي ، وطه ياسين رمضان الجزراوي ، وشفيق حمودي الدراج . أما نائب رئيس الدولة أحمد حسن البكر فقد عيّن طه محيي الدين معروف ، واستمرّ في هذا المنصب مدةً طويلةً دون أي ذكرٍ أو دورٍ يقوم به ، وإنما صورة فقط ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيار ١٩٧٦م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ فولايه حسن الجاسم : وزيراً للصناعة والمعادن .
٥ ـ عدنان حمداني : وزيراً للتخطيط .
٦ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ طاهر عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٨ ـ نعيم حداد : وزيراً للشباب .
٩ ـ غانم عبد الجليل : وزيراً للتعليم العالي .
١٠ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١١ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١٢ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للتجارة الخارجية .
١٤ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة الداخلية .
١٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٦ ـ عزت مصطفى : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٧ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٨ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للنقل .
١٩ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
٢٠ ـ حسان فهمي جمعة : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢١ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٢ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للشؤون البلدية .
٢٣ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٤ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٥ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٦ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٧ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

واسم من غير مُسمّى .

وقد دعمت العراق نظرياً الحركة الفلسطينية ، وهدّدت الحكومة الأردنية لتدخّلها في شؤون منظمة التحرير الفلسطينية غير أنها لم تشارك في القتال الذي دار بين الحكومة الأردنية والمنظمة مع أن قوات للعراق كانت تتمركز في الأردن وذلك في رجب عام ١٣٩٠هـ (أيلول عام ١٩٧٠م) وفي شهر شوال ١٣٩١هـ (كانون أول ١٩٧١م) انسحبت معظم القوات العراقية التي كانت ترابط في سوريا والأردن ، ويزيد عددها على مائتي ألف جندي .

عاد الخلاف من جديد مع إيران بسبب شط العرب وذلك بعد تسلم البعثيين الحكم بسنةٍ واحدةٍ . وانتقدت العراق الاتحاد المزمع قيامه بين كل من : سوريا ومصر وليبيا ،كما وقفت موقفاً حاداً من العلاقات التي تمت بين مصر واليهود . كما قطعت العراق علاقتها مع إيران وبريطانيا بعد أن احتلت إيران جزيرتي (أبو موسى) و (وطنب الكبرى) في الخليج العربي في رمضان ١٣٩١هـ (تشرين الثاني ١٩٧١م) ، وكانت العلاقات فاترةً مع الغرب وخاصةً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وألقي القبض على عددٍ من السياسيين بتهمة التجسس للولايات المتحدة ، وأودع بعضهم السجن ، وأخرج بعضهم الآخر من البلاد ، ولكن العلاقات بقيت مع الروس الذين استمرّوا يزودون العراق بالعتاد الحربي ، وهكذا كان العراق في عزلةٍ .

وشمل مجلس قيادة الثورةالرئيس أحمد حسن البكر رئيساً ، وصدام حسين التكريتي نائباً للرئيس ، وكلاً من : سعدون غيدان ، وعزت مصطفى ، وعزت إبراهيم ، وطه ياسين رمضان الجزراوي أعضاءً .

وتمّ اجتماع الدول المصدرة للنفط (الأوبك) في الجزائر ، وحضر اللقاء نائب الرئيس العراقي صدام حسين التكريتي، وبمبادرةٍ من الرئيس الجزائري هواري بومدين ، تمّ اللقاء بين العراق وإيران ، ووقعت اتفاقية لوضع حدٍّ للخلاف بين الدولتين على شطّ العرب وذلك في ٢٣ صفر ١٣٩٥هـ (٦ آذار ١٩٧٥م) ، وسنتعرض لهذه الاتفاقية فيما بعد ـ إن شاء الله ـ ونتيجة لهذه

الاتفاقية انهار التمرّد الكردي الذي كان يتلقّى الدعم من إيران ، وانتقل الملا

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٧٧م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ محمد خليل : وزيراً للصناعة والمعادن .
٥ ـ عدنان الحمداني : وزيراً للتخطيط .
٦ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٨ ـ كريم محمد حسين : وزيراً للشباب .
٩ ـ محمد صادق ماشاط : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٠ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١١ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١٢ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة .
١٤ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٥ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٧ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للنقل .
١٨ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ لطيف ناصيف قاسم : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٢ ـ حامد الجبوري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٣ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٤ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٥ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٦ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .
٢٧ ـ فولاية حسن قاسم : وزير دولة (للشؤون الكردية) .
٢٨ ـ نعيم حداد : وزير دولة .
٢٩ ـ محي الدين عبد الحسين : وزير دولة .
٣٠ ـ طاهر توفيق : وزير دولة .
٣١ ـ عبد الفتاح محمود أمين: وزير دولة .
٣٢ ـ سعدون شاكر : وزير دولة .
٣٣ ـ جعفر قاسم حمودي : وزير دولة .
٣٤ ـ عبد الله الفضل : وزير دولة .
٣٥ ـ عدنان خير الله : وزير دولة .
٣٦ ـ حكمت عزاوي : وزير دولة .
٣٧ ـ محمد العايش : وزير دولة .
٣٨ ـ برهان الدين عبد الرحمن : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الشؤون البلدية شاغرة .

مصطفى البارزاني إلى طهران، وبعد توقيع الاتفاقية بأسبوع واحدٍ توقّف إطلاق النار ، وصدرت سلسلة من قرارات العفو عن الذين فرّوا إلى إيران من الأكراد فرجع أكثرهم إلى مواطنهم . ولكن لم يمض العام حتى عادت الاصطدامات بين الحكومة العراقية والأكراد ، وأخذ الملا مصطفى البارزاني يُعيد تنظيم حزبه الديمقراطي الكردستاني لاستئناف القتال .

أنشئت في دمشق منظمة « الاتحاد الوطني لكردستان » ، وهي تناوىء الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي تراه المنظمة أنه قد فقد أهليته لتمثيل الأكراد ، وعلى كل فالنشاط الكردي بقي ضعيفاً ، وتعهدت الحكومة العراقية عام ١٣٩٧هـ بإعادة بناء المدارس في المناطق الكردية ، كما سمحت لأربعين ألفاً من الأكراد الذين أجبروا على الاستيطان في جنوبي العراق بالعودة إلى مناطقهم في الشمال ، كما تقرر أن تكون اللغة الكردية هي الرسمية في كردستان العراقية .

وعندما اندلعت الحرب بين الدول العربية واليهود في العاشر من

---

(١) تشكّل مجلس قيادة الثورة من :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً .
٢ ـ صدام حسين التكريتي : نائباً للرئيس .
٣ ـ سعدون غيدان : عضواً .
٤ ـ عزت الدوري : عضواً .
٥ ـ طه ياسين رمضان : عضواً .
٦ ـ نعيم حداد : عضواً .
٧ ـ طاهر عبد الكريم : عضواً .
٨ ـ محمد محجوب : عضواً .
٩ ـ عدنان الحمداني : عضواً .
١٠ ـ غانم عبد الجليل : عضواً .
١١ ـ طاهر توفيق : عضواً .
١٢ ـ عبد الفتاح محمد أمين : عضواً .
١٣ ـ حسن العامري : عضواً .
١٤ ـ سعدون شاكر : عضواً .
١٥ ـ جعفر قاسم حمودي : عضواً .
١٦ ـ عبد الله الفضل : عضواً .
١٧ ـ طارق حنا عزيز : عضواً .
١٨ ـ عدنان خير الله : عضواً .
١٩ ـ حكمت مقدام إبراهيم : عضواً .
٢٠ ـ محمد العايش : عضواً .
٢١ ـ برهان الدين عبد الرحمن : عضواً .
٢٢ ـ محيي الدين عبد الحسين : عضواً .

رمضان ١٣٩٣هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧٣م) أرسلت العراق قوةً إلى الجبهة السورية ، ولكنها عدت عدم استشارتها من قبل الرئيس المصري في بدء القتال إهانةً لها لذلك ما أن توقّف إطلاق النار حتى سحبت العراق قواتها من الجبهة السورية ، كما قاطعت مؤتمر القمة الذي عقد في الجزائر في شوال ١٣٩٣هـ

---

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٧٨م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عدنان خير الله : وزيراً للدفاع .
٣ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٤ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٥ ـ محمد العايش : وزيراً للصناعة والمعادن .
٦ ـ عدنان الحمداني : وزيراً للتخطيط .
٧ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٩ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٠ ـ إمام عبد العلي : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١١ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١٢ ـ سعد قاسم حمادي : وزيراً للإعلام .
١٣ ـ كريم محمود شنطاف : وزيراً للثقافة والفنون .
١٤ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٥ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة .
١٦ ـ طه ياسين رمضان : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٧ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل .
١٨ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٩ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للنقل .
٢٠ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
٢١ ـ لطيف ناصيف قاسم : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٣ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٤ ـ حامد الجبوري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٥ ـ خالد عبيد عثمان : وزير دولة للشؤون الكردية .
٢٦ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٧ ـ هاشم حسن : وزير دولة .
٢٨ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٩ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٣٠ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

(تشرين الثاني ١٩٧٣م) .

عادت الصدامات على الحدود العراقية الإيرانية ، ووضع مراقبون للأمم المتحدة ، وجرت محادثات مرتين بين الطرفين في استانبول غير أن ذلك كله لم يمنع من استمرار الاشتباكات على الحدود حتى وُقعت اتفاقية الجزائر كما سبق أن ذكرنا .

ولم يكن الخلاف بين العراق وسوريا بأقل مما هو بين العراق وإيران وإن لم تحدث هناك اشتباكات على الحدود السورية. وكان جناحا حزب البعث في العراق وسوريا يتنافسان . والعراق تنتقد اتفاقية فصل القوات بين سوريا واليهود في شهر رمضان عام ١٣٩٥هـ (أيلول ١٩٧٥م) . وحدث الخلاف حول توزيع مياه نهر الفرات بين الإقليمين ، أما سوريا فكانت تنتقد العراق في تصدير أكثر نفطها عن طريق البصرة والفاو ، وهذا ما يحرم سوريا الكثير من عائدات النفط فيما لو صدرت عن طريق موانئها على البحر المتوسط .

انسحب العراق من المؤتمر الذي دعت إليه الدول التي وقفت في وجه زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس في ذي الحجة عام ١٣٩٧هـ (تشرين الثاني ١٩٧٧م) ، ثم قاطع مؤتمر دول الصمود والتصدّي الذي عُقد في الجزائر في ربيع الأول ١٣٩٨هـ (شباط ١٩٧٨م) ، وبدا العراق في شبه عزلةٍ بين البلدان العربية .

وعارضت العراق اتفاقية كامب دافيد (مخيم داود) التي عقدت بين مصر واليهود في شوال عام ١٣٩٨هـ (أيلول ١٩٧٨م) ، وبقيت تُقاطع المؤتمرات العربية ، إذ لم تحضر مؤتمر القمة الذي عُقد في دمشق بعد اتفاقية كامب دافيد مباشرةً .

وفي ذي القعدة عام ١٣٩٨هـ (تشرين الأول ١٩٧٨م) زار الرئيس السوري حافظ الأسد بغداد، ووقع البلدان جدولاً يُحدّد خططاً لاتحادٍ سياسي واقتصادي بين البلدين ، ويزيل الخلافات والكراهية القديمة ، ويعمل على

تشكيل قوةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ يكون لها وزنها في الشرق الأوسط . واستضاف العراق مؤتمر قمةٍ عربيةٍ لمقاطعة مصر إن وقّعت معاهدة سلامٍ مع دولة اليهود . غير أن المعاهدة قد وُقّعت في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) ، ولم يهتم الرئيس المصري بذلك التهديد .

وعُقد اجتماع وزراء الاقتصاد العرب في بغداد ، وتم تنفيذ التهديدات التي اتخذت ضد مصر إن وقعت معاهدة السلام مع اليهود ، وأخذ العراق يخرج من عزلته . واستمر تنفيذ مخطط الاتحاد السياسي والاقتصادي بين سوريا والعراق وإن كان بشكلٍ بطيء حتى ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ (١٦ تموز ١٩٧٩م) حيث استلم صدام حسين التكريتي السلطة ، وأزاح الرئيس أحمد حسن البكر .

الفصل الخامس

صَدّام حُسَين التكريتي

٢١ شعبان ١٣٩٩هـ ....
(١٦ تموز ١٩٧٩م ....)

منذ أن رجع حزب البعث إلى الحكم واستلم السلطة في ٥ جمادى الأولى ١٣٨٨هـ (٣٠ تموز ١٩٦٨م) ، ووصل صدام حسين التكريتي إلى مركزٍ عالٍ أخذ يُزيح من أمامه الرجال الذين يرى فيهم عقبةً تقف في وجه طموحاته ، ويُقرّب الأشخاص الذين يرى فيهم إمكانيةً لتنفيذ ما يُخطط له ، ويعتقد أنهم يُطيعونه طاعةً تامةً ، ويُمكنهم أن يسيروا معه في طريقه إلى نهاية

---

(١) تشكّل مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي :
١ ـ صدام حسين التكريتي : رئيساً .
٢ ـ عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .
٣ ـ طارق حمد عبد الله : أمين السر العام .
الأعضاء :
١ ـ سعدون غيدان .
٢ ـ طه ياسين رمضان .
٣ ـ نعيم حداد .
٤ ـ تايه عبد الكريم .
٥ ـ طاهر توفيق .
٦ ـ عبد الفتاح محمد أمين .
٧ ـ حسن علي أمير .
٨ ـ سعدون شاكر .
٩ ـ جعفر قاسم حمودي .
١٠ ـ عبد الله الفضل .
١١ ـ طارق حنا عزيز .
١٢ ـ عدنان خير الله طلفة .
١٣ ـ حكمت مقدام إبراهيم .
١٤ ـ برهان الدين عبد الرحمن .

المطاف ، وساعده على ذلك تسلّمه منصب نائب الأمين العام القطري لحزب

---

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ نعيم حداد : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء وزير النقل والمواصلات .
٥ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٦ ـ عبد الجبار عبد الماجد : وزيراً للتربية .
٧ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٨ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
٩ ـ محمد الفضل : وزيراً للإسكان والإنشاء .
١٠ ـ طه إبراهيم العبد الله : وزيراً للتخطيط .
١١ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
١٢ ـ طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٣ ـ جاسم محمد خلف : للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٤ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
١٥ ـ حسان علي : وزيراً للتجارة .
١٦ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٧ ـ أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٨ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٣ ـ خالد عبد عثمان : وزير دولة للتنسيق مع الإدارة النووية .
٢٤ ـ هاشم حسان : وزير دولة .
٢٥ ـ عبيد الله مصطفى : وزير دولة .
٢٦ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٧ ـ عزيز رشيد : وزير دولة .

ملاحظة : بقي منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ، رئيس ديوان الرئاسة شاغراً .

البعث العربي الاشتراكي في العراق ، وقد رأينا أنه قد استطاع إزاحة حردان

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٨٠م :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ سعدون غيدان : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير النقل والمواصلات .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ سعدون شاكر : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد الجبار عبد الماجد : وزيراً للتربية .
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١٠ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
١١ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٢ ـ طه إبراهيم العبد الله : وزيراً للتخطيط .
١٣ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
١٤ ـ طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٥ ـ جاسم محمد خلف : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٦ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
١٧ ـ حسان علي : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٩ ـ أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢١ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٢ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٣ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٤ ـ نوري فيصل شاهر : وزيراً للأوقاف .
٢٥ ـ عبد الفتاح محمد أمين ياسين : وزيراً للحكم المحلي .
٢٦ ـ خالد عبد عثمان : وزير دولة للتنسيق مع الإدارة النووية .
٢٧ ـ هاشم حسن : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله مصطفى : وزير دولة .
٢٩ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٣٠ عزيز رشيد : وزير دولة .

عبد الغفار التكريتي ، ثم صالح مهدي عماش ، وكانا أكثر منه ظهوراً ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٨١م :

١ - صدام حسين التكريتي : الرئيس ، رئيس مجلس الوزراء .
٢ - طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٣ - طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٤ - سعدون غيدان : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٥ - عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٦ - أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٧ - سعدون غيدان : وزيراً للنقل والمواصلات .
٨ - لطيف ناصيف جاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٩ - عدنان خير الله : وزيراً للدفاع .
١٠ - عبد الجبار عبد الماجد سلمان : وزيراً للتربية .
١١ - ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
١٢ - سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ - رياض إبراهيم : وزيراً للصحة .
١٤ - جاسم محمد خلف : وزيراً للتعليم العالي، والبحث العلمي .
١٥ - محمد فضل حسين : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٦ - طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والثروة المعدنية .
١٧ - سعدون شاكر : وزيراً للداخلية .
١٨ - عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
١٩ - منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٢٠ - محمود بكر رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢١ - عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للحكم المحلي .
٢٢ - تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٢٣ - طه إبراهيم : وزيراً للتخطيط .
٢٤ - نوري فيصل شاهر : وزيراً للأوقاف .
٢٥ - حسان علي : وزيراً للتجارة .
٢٦ - كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
٢٧ - عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٨ - هاشم حسن : وزير دولة .
٢٩ - راشد محمد أحمد الزباري : وزير دولة .
٣٠ - خالد عبد عثمان : وزير دولة .
٣١ - حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .

وصاحبي إمكانات ، وأخيراً تخلّص من عدنان الحمداني ، إضافةً إلى إزاحة آخرين من القيادة القطرية ، ومن مجلس قيادة الثورة ، ومن الوزارة ، ولم يبق أمامه إلّا الرئيس أحمد حسن البكر ، بل كان صورةً ، أو هكذا بقي ، وصدام هو المتصرّف بشؤون البلاد ، والتخطيط ، ورفع الذين يراهم أعواناً له صالحين ، ووضع من يراهم يُخالفونه في تهوّره واندفاعه . ويبدو أنه اعتمد على : عزت الدوري ، وطه ياسين رمضان الجزراوي ، وسعدون شاكر ، وسعدون حمادي ، وطارق حنا عزيز عيسى ، وعدنان خير الله ، ونعيم حداد وآخرين . . . ممن هم على استعدادٍ للمسير مع أي رئيسٍ لهم في سبيل المحافظة على مركزهم ، وهذا ما يزخر به حزب البعث .

وفي ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ (١٦ تموز ١٩٧٩م) ضرب آخر عقبة يراها في وجهه وهو الرئيس أحمد حسن البكر ، باسم التنحية والإحالة على التقاعد ، وشكّل مجلس قيادة الثورة من جديد ، فتسلّم رئاسته وأزاح منه خمسة أعضاء هم : محمد العايش ، وعبد الله الفضل ، وغانم عبد الجليل ، ومحمد محجوب ، وعدنان الحمداني . ونصّب نفسه رئيساً للجمهورية ، وتسلّم رئاسة الحكومة ، وجعل أربعة نوابٍ له في رئاستها ، وهم من الذين دعموه . كما عهد إلى نفسه برئاسة مجلس قيادة الثورة .

ومن الطريف أنه قد ألغى من اسمه نسب « التكريتي » واكتفى بصدام حسين ، كما أن طه ياسين رمضان الجزراوي ، قد ألغى نسب « الجزراوي » وأصبح اسمه طه ياسين رمضان ، على حين كان يُسمّى من قبل « طه الجزراوي » ، كما أن عزت الدوري أصبح يُعرف باسم عزت إبراهيم ، ولكن إذا تغيّرت الأسماء ، فإن السلوك والتصرّفات لا تزال ملتصقةً بالأجسام وملازمةً للنفوس .

في صيف عام ١٣٩٨هـ أُعلن عن وجود تنظيمٍ سريٍ في الجيش ، ويشمل واحداً وعشرين من الضباط فأعدموا جميعاً ، وكان لهذا أثره إذ انفصمت عرا التحالف بين حزب البعث والحزب الشيوعي ، وخرج

الشيوعيون من الجبهة الوطنية التقدمية في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) ـ كما ذكرنا .

وفي ٧ شعبان ١٤٠٠هـ (٢٠ حزيران ١٩٨٠م) جرى انتخاب المجلس الوطني لمدة أربع سنواتٍ ، وقد ضمّ مائتين وخمسين عضواً . أما مجلس قيادة الثورة فقلّ عدد أعضائه إلى سبعة أعضاء إضافةً إلى الرئيس ونائبه[1] .

---

(١) كان مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي :

١ ـ صدام حسين : رئيساً .
٢ ـ عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .
٣ ـ طه ياسين رمضان : عضواً .
٤ ـ عدنان خير الله : عضواً .
٥ ـ سعدون شاكر محمود : عضواً .
٦ ـ طارق حنا عزيز عيسى : عضواً .
٧ ـ حسن علي نصار العامري : عضواً .
٨ ـ نعيم حميد حداد : عضواً .
٩ ـ طه محيي الدين معروف : عضواً .

وكانت الوزارة في حزيران ١٩٨٢م على النحو الآتي :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ووزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الجبار عبد الرحمن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ سعدون شاكر محمود : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين : وزيراً للتربية .
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١٠ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية والتخطيط .
١١ ـ محمد الفضل : وزيراً للتعمير والإسكان .
١٢ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٣ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٤ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٥ ـ عبد الرزاق قاسم الهاشمي : وزيراً للتعليم العالي ، والبحث العلمي .
١٦ ـ أحمد حسين الصمعري : وزيراً للشباب .

كانت العلاقات حسنة مع سوريا ، ولكن عادت إلى الانتكاس إذ بعد أن تفرّد الرئيس صدام حسين بالسلطة بعدة أيام فقط ، أُذيع عن قيام محاولة انقلابٍ لتغيير الوضع ، وظنّ الرئيس العراقي أن حزب البعث السوري كان من وراء ذلك ، ورغم إنكار سوريا لذلك إلّا أن الخلاف قد ظهر بين البلدين واضحاً .

وفي ربيع الأول عام ١٤٠٠هـ (شباط ١٩٨٠م) أعلن الرئيس العراقي ما أسماه بالبرنامج الوطني ، وأكّد مبدأ رفض أي تحالفٍ لـوجود جيـوشٍ ، وقواتٍ عسكريةٍ ، وقواعد أجنبيةٍ في أرض الوطن العربي .

الحرب الإيرانية ـ العراقية : على الرغم من توقيع الاتفاقية في الجزائر

= ١٧ ـ صديق عبد اللطيف يونس : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .

١٨ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .

١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .

٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .

٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

٢٢ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .

٢٣ ـ سعدي عياش : وزيراً للحكم المحلي .

٢٤ ـ قاسم أحمد التقي : وزيراً للنفط .

٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .

٢٦ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .

مستشارو الرئيس برتبة وزير :

١ ـ محمد حمزة الزبيدي .

٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .

٣ ـ سمير محمود عبد الوهاب .

٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .

٥ ـ سعدي مهدي صالح .

٦ ـ مزبان قادر هادي .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن .

٢ ـ عبيد الله مصطفى .

٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد .

٤ ـ أرشد أحمد الزباري .

في ٢٣ صفر ١٣٩٥هـ (٦ آذار ١٩٧٥م) بين العراق وإيران بشأن الحدود بين

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٨٣م :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٤ ـ عبد الجبار عبد الرحمن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون شاكر : وزيراً للداخلية
٧ ـ عبد القادر عز الدين : وزيراً للتربية .
٨ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٩ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية والتخطيط .
١٠ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان
١١ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٢ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٣ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٤ ـ عبد الرزاق قاسم الهاشمي : وزيراً للتعليم العالي ، والبحث العلمي .
١٥ ـ قاسم أحمد التقي : وزيراً للنفط .
١٦ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .
١٧ ـ أحمد حسين الصمعري : وزيراً للشباب .
١٨ ـ صديق عبد اللطيف يونس : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٩ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢١ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٢ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٤ ـ كامل ياسين راشد : وزيراً للحكم المحلي .
٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .
٢٦ ـ سعدون حمادي : وزير دولة مكتب الرئاسة .

المستشارون للرئاسة :
١ ـ محمد حمزة الزبيدي .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .

=

الدولتين وخاصةً شط العرب ، ولكن العراق لم تكن مقتنعةً بما تمّ إذ تنازلت عن السيطرة التامة عن شط العرب ، لذا أرادت استرجاع هذا الممر المائي العظيم ، فبدأت بالحديث عن هذا وعن ضرورة انسحاب إيران من جزيرتي (أبو موسى) و (طنب الكبرى) اللتين احتلتها عام ١٣٩١هـ ، كما أخذت تُطالب بمنطقة عربستان (الأهواز) أو (خوزستان) ، وهي المنطقة الغنية بالنفط والتي تتبع إيران ، وأخذت العراق تتخوّف من الثورة الإسلامية في إيران إذ كانت تخشى من تحرّك الشيعة في العراق .

بدأت الحرب في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) باندفاع القوات العراقية داخل إيران بحجة أن اتفاقية الجزائر تطالب الطرفين بالانسحاب من المناطق المحتلة من أرض الطرف الآخر ، غير أن إيران لم تنسحب من منطقة (زين القوس) وتتجاهل مطالبة العراق لها بالانسحاب ، وعلى هذا تكون إيران مخالفةً لاتفاقية الجزائر ، بل قامت بنقضها .

قامت إيران بهجوم معاكسٍ في جمادى الأولى ١٤٠٢هـ (آذار ١٩٨٢م) ، وتمكّنت من استعادة مدينة المحمرة (خرمشهر) بعد ما يقرب من شهرين من بدء الهجوم ، وبعد شهر آخر اضطرت إيران لسحب قواتها من الأراضي العراقية التي سبق لها أن دخلتها ، وبدا أن غزو إيران كان فاشلاً .

ومع هذا التراجع اشتدت المعارضة الداخلية ، فالإسلاميون الذين اشتدت وطأة السلطة عليهم ، والأكراد في مناطقهم ، والشيعة الذين تزعمهم محمد باكير حكيم والذي يعيش خارج العراق ، وأعضاء من حزب البعث الذين تدعمهم سوريا . هذا بالإضافة إلى الاهتزاز الاقتصادي الذي لحق العراق نتيجة انخفاض عائدات النفط بسبب تحطيم عددٍ من ناقلات النفط

= وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن .

٢ ـ عبيد الله مصطفى .

٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد .

٤ ـ أرشد أحمد الزباري .

العراقية ، وانقطاع النفط من التدفّق عبر الخطوط المارة في الأراضي السورية ، ويُضاف إلى ذلك انخفاض أسعار النفط عالمياً ، وهـذا ما شـدّ من ساعـد المعارضة ، وأظهر النقد اللاذع لسياسة الحكومة ، غير أن الـرئيس العراقي حزم الأمر ، وقسا على المنتقدين فاضطر الناس للانصياع والسكوت .

وبـدأ الهجوم العـراقي على نـاقلات النفط في شهـر شـوال من عـام ١٤٠٢هـ (آب ١٩٨٢م) كتدبير ضدّ إيران لترضخ ، وتطلب المفاوضـات للصلح ، وتستطيع العراق الحصول على السيطرة على شط العرب كـاملةً ، وتكون الملاحة في شط العرب وشـمال الخليج تحت رحمتهـا ، وخاصـةً نقل النفط ، كما تجبر إيران على وقف مساعدة الأكراد الذين هم في حالة تمرّدٍ ضدّ الحكومة العراقية شبه دائمٍ .

وفي شهر محرم من عام ١٤٠٤هـ (تشرين أول ١٩٨٣م) سرت شائعة عن محاولة انقلاب بعد خلع رئيس المخابرات العامة (برزان التكريتي) أخي الـرئيس العراقي صـدام حسين التكـريتي من أبيه ، فـأعدم مـع عـددٍ من الضباط .

وقامت إيران بشنّ هجومٍ من الجبهة الشمالية ، واستطاعت احتلال ما يقرب من سبعمائة كيلومترٍ مربعٍ من الأرض .

وزادت العراق من الهجمات الصاروخية والغارات الجويـة ضدّ المـدن

---

(١) كان مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي في تموز ١٩٨٦م :

صدام حسين التكريتي : رئيساً .

عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .

خالد عبد المحسن راشد : أميناً عاماً .

الأعضاء :

١ ـ طه ياسين رمضان .

٢ ـ عدنان خير الله .

٣ ـ سعدون شاكر محمود .

٤ ـ طارق حنا عزيز عيسى .

٥ ـ حسن علي ناصر العامري .

٦ ـ سعدون حمادي .

٧ ـ طه محيي الدين معروف .

والمنشآت النفطية في جزيرة (خرج) حتى أصبح من العسير تصدير النفط

---

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ صدام حسين : رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طه ياسين رمضان : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٥ ـ عبد الجبار عبد الرحمٰن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٦ ـ أحمد حسين الصمعري : رئيس ديوان مجلس الرئاسة .
٧ ـ سعدون شاكر محمود : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية .
٩ ـ سمير محمود عبد الوهاب : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٠ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١١ ـ هشام حسن توفيق : وزيراً للمالية .
١٢ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٣ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٤ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٥ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٦ ـ قاسم أحمد تقي : وزيراً للنفط .
١٧ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب .
١٩ ـ عزيز صالح حسان النومان : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢١ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٢ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٣ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .
٢٤ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي .
٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .
٢٦ ـ عبد الجبار شنشل : وزير دولة للشؤون العسكرية .
٢٧ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئيس .

الإيراني ، وهدّدت إيران بإغلاق مضيق (هرمز) حتى يتم حجز الخليج عن الاتصال ببقية البحار ، وحاولت الأمم المتحدة كما حاولت مصر ، وسوريا ، والسعودية التوسط ليتم التفاوض بين العراق وإيران ، إلاّ أن إيران رفضت

المستشارون للرئاسة :

١ ـ محمد حمزة الزبيدي .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن ٢ ـ عبد الله إسماعيل أحمد . ٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في آب ١٩٨٧م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ورئيس الوزراء
٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس الوزراء
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس الوزراء ، ووزيراً للخارجية .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس الوزراء ، ووزيراً للدفاع .
٥ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات
٦ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة
٧ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل
١٠ ـ هشام حسن توفيق : وزيراً للمالية
١١ ـ محمد فضل حسين : وزيراً للإنشاء والإسكان
١٢ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط
١٣ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة
١٤ ـ قاسم أحمد تقي : وزيراً للصناعة الثقيلة
١٥ ـ عصام عبد الرحمن شلبي : وزيراً للنفط
١٦ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة
١٧ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب
١٨ ـ عزيز صالح حسان النومان : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري
٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية . =

ذلك إلّا بعد تنحية صدام حسين عن الحكم ، وانسحاب القوات العراقية من المناطق التي دخلتها ، والموافقة على دفع العراق تعويضات خسائر الحرب .

ولما كانت العراق لا تستطيع القتال على جبهتين ، الجبهة الإيرانيـة ، وجبهة الأكراد لذا فقد لجأت إلى المباحثات مع (جلال الطالباني) رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردي ، ووقف القتال ، وتمّ التفاهم معه في شهر ربيع الأول ١٤٠٤هـ (كانون الأول ١٩٨٣م) على إطلاق تسعة وأربعين سجيناً سياسياً ، وعودة ثمانية آلاف عائلة كردية إلى مناطقها في كردستان ، وكانت قد أجبرت على الإقامة في جنوبي العراق ، وشمول منطقة الحكم الـذاتي للأكـراد على منطقة (كركوك) الغنية بالنفط ، وإعطاء نصيبٍ ثابتٍ للأكراد من عائدات النفط تتراوح من ٢٠ ـ ٣٠٪ ، وإن كان هذا من غير المحتمل فعله .

حرصت كل دولة من الدولتين المتصارعتين على الحصول على الأسلحة من أي مصدر يمكنه تـأمين السـلاح ، فقد زوّدت مصر العـراق بالمعـدات العسكرية وقطع الغيار بما قيمته ملياري دولار منذ بـداية الحـرب ، وباعت

= ٢٢ ـ عبـد الله فصـل عبـاس : وزيـراً للأوقاف والشؤون الدينية

٢٣ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي

٢٤ ـ حاتم عبد الرشيد : وزيراً للصناعة .

٢٥ ـ عبد الجبار شنشل : وزيراً للشؤون العسكرية

٢٦ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئيس .

المستشارون للرئاسة :

١ ـ صبحي ياسين خضير .

٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .

٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي .

٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .

٥ ـ سعدي مهدي صالح .

٦ ـ مزبان قادر هادي .

٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن . ٢ ـ عبد الله إسماعيل أحمد . ٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

ملاحظة : بقيت حقيبتا وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، ووزارة دولة للشؤون الخارجية شاغرتين .

الصين للعراق من الأسلحة بما قيمته ثلاثة مليارات دولار . وزوّدت الولايات المتحدة الأمريكية العراق بطائراتٍ عاموديةٍ ومُعدّات عسكريةٍ ثقيلةٍ ، مع أنها تُصرّح دائماً أنها على الحياد ، كما زوّدت روسيا العراق بالأسلحة والصواريخ ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيلول ١٩٨٨م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ورئيس مجلس الوزراء

٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس الوزارة

٣ ـ طارق حنا عزيز : نائباً لرئيس الوزارة ووزيراً للشؤون الخارجية .

٤ ـ عدنان خير الله : نائباً لرئيس الوزارة ، ووزيراً للدفاع .

٥ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات

٦ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة .

٧ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية

٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية

٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي

١٠ ـ أكرم عبد القادر علي : وزيراً للعدل

١١ ـ حكمت عمر مخايلف : وزيراً للمالية

١٢ ـ طاهر محمد حسون المرزوق : وزيراً للإنشاء والإسكان

١٣ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط

١٤ ـ عصام عبد الرحمن الشلبي : وزيراً للنفط

١٥ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة

١٦ ـ كريم حسن رضا : وزيراً للزراعة والري

١٧ ـ لطيف ناصيف جاسم : وزيراً للثقافة والإعلام

١٨ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية

١٩ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .

٢٠ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي .

٢١ ـ حسين كامل : وزيراً للصناعة والانتاج العسكري

٢٢ ـ سعدون حمادي : وزير دولة للشؤون الخارجية .

٢٣ ـ عبد الجبار خليل شنشل : وزير دول للشؤون العسكرية .

٢٤ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئاسة .

=

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الصحة شاغرةً .

وتُعلن أنها على الحياد . وباعت الكويت والمملكة العربية السعودية ربع مليون برميل من النفط يومياً من المنطقة المحايدة لصالح العراق ، وخمسين ألف برميل أخرى من السعودية .

أما إيران فقد اشترت من الصين أسلحة قيمتها ٥٧٥ مليون دولار ، واشترت كذلك من البرازيل ، والتشيلي ، كما زوّدتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا بكمياتٍ كبيرةٍ من الأسلحة ، وهاتان الدولتان تعلنان أنهما على الحياد ، غير أنهما تزوّدان الطرفين ، وتشعلان بينهما الحرب لبيع أسلحتهما ، وإهدار قدرتيهما العسكرية لصالح دولة اليهود ، وحقداً صليبياً على المسلمين .

قامت إيران بهجومٍ على العراق من قرب جزيرة (مجنون) في شط العرب ، وحشدت نصف مليون مقاتل ، وعملت العراق على إنشاء السدود والحواجز أمام الهجوم الإيراني المرتقب .

وتغيّر موقف الرئيس العراقي صدام حسين تجاه الاتحاد الوطني الكردي ، والحزب الشيوعي الكردي بعد الدعم الدولي للعراق في العام المنصرم ، ثم عاد فاستأنف الحوار ولكنه كان بشكلٍ جدلي .

أمرت إيران ناقلات نفطها بعدم الاقتراب من موانئها ، والبقاء بعيداً

= المستشارون :

١ ـ صبحي ياسين خضير .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن .
٢ ـ عبد الله اسماعيل أحمد .
٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

عنها خوفاً من الهجمات العراقية ، وفي الوقت نفسه قامت بضرب الناقلات الكويتية والسعودية ، وموانىء الدولتين النفطية .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيلول ١٩٨٩م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ، رئيس مجلس الوزراء
٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء
٣ ـ سعدون حمادي : نائب رئيس مجلس الوزراء
٤ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الخارجية
٥ ـ عبد الجبار خليل شنشل : وزيراً للدفاع
٦ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات
٧ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة
٨ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية .
٩ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية .
١٠ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١١ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب
١٢ ـ أكرم عبد القادر علي : وزيراً للعدل .
١٣ ـ حكمت عمر مخايلف : وزيراً للمالية
١٤ ـ طاهر محمد حسون المرزوق : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٥ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط
١٦ ـ عبد السلام محمد سيد : وزيراً للصحة .
١٧ ـ عصام عبد الرحمٰن الشلبي : وزيراً للنفط
١٨ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة .
١٩ ـ عبد الله بدر دانوك : وزيراً للزراعة والري
٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢١ ـ مدحت مبارك : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية
٢٢ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .
٢٣ ـ علي حسان الهاجد : وزيراً للحكم المحلي .
٢٤ ـ حسين كامل : وزيراً للصناعة والإنشاءات العسكرية
٢٥ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئاسة .

المستشارون :
١ ـ صبحي ياسين خضير .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور . =

وحاولت العراق التفاهم مع تركيا للقضاء على المقاومة الكردية ، وعندها رفض حزب الاتحاد الوطني الكردي العرض العراقي بالعفو عن السجناء السياسيين .

وفي ٣ ربيع الأول ١٤٠٥هـ (٢٦ تشرين ثاني ١٩٨٤م) عادت العلاقات السياسية بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية بعد انقطاع دام ما يقرب من سبعة عشر عاماً أي منذ حرب (١٣٨٧هـ) بين البلدان العربية ودولة اليهود .

ونتيجة دعم العراق أصبح لديها خمسمائة وثمانون طائرة عسكرية مقاتلة ، ومائة وثلاثون طائرةً عاموديةً مُسلّحةً ، واستأنفت الهجوم على ناقلات النفط ، والموانىء وخاصةً جزيرة (خرج) ، فارتفع سعر التأمين على الناقلات بشكلٍ هائلٍ ، وانخفضت صادرات إيران من النفط .

وانهارت المفاوضات مع الأكراد مرةً أخرى حول الحكم الذاتي ، وعاد القتال ثانيةً بعد أن توقّف أربعة عشر شهراً ، وكان الاتحاد الوطني الكردي ينتقد الحكومة لاستمرارها في اضطهاد الأكراد ، وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٥هـ (مطلع عام ١٩٨٥م) .

وبقيت ناقلات النفط تنقل الزيت الايراني ولكن من جزيرة (سوري) على بعد ثمانمائة كيلومتر جنوب شرقي جزيرة (خرج) ، حيث تتولّى إيران نقل نفطها إلى تلك الجزيرة .

= ٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

هاشم حسن .
أرشد أحمد محمد الزباري .

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ (آذار ١٩٨٥م) حشـدت إيران نصف مليون مقاتل على الجبهة الجنوبية ، شرق نهر دجلة ، وتمكنت هذه القوات من عبور النهر ، ثم توقّفت ، واتهمت العراق باستعمال الأسلحة الكيمياويـة . وقامت العراق بالهجوم الصاروخي على طهران ، ووقع الهجوم على ثـلاثين مدينة إيرانية ، وقامت إيران بهجوم صاروخي أيضاً على المدن العراقية .

وأظهرت الأردن ومصر تضامنهما الكامل مع العراق ، وقام الملك الأردني والرئيس المصري بزيارة بغداد مع العلم أن العلاقـات السياسيـة بين مصر والعراق مقطوعة منذ أن وقعت مصر معاهدة السـلام مع دولـة اليهود عـام ١٣٩٩هـ . وزار الأمين العام للأمم المتحدة (خافير بيريز دي كويلار) كلاً من طهران ، وبغداد في محاولة لإجراء المفاوضـات بين الـطرفين ، وخففت طهران من مطلبها في تنحية الرئيس العراقي صدام حسين عن الحكم ، ولكنها طالبت العراق بدفع مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف مليون دولار خسائر حرب . وأمر الرئيس العـراقي بوقف الغـارات الجويـة عن المدن الايـرانية ، ولكن إيران استمرت بقصف المدن ، ولم تبال بفعل العراق .

وجرت مناقشات في مجلس الأمن لوقف القتال والهجوم على المدن في رمضان ١٤٠٥هـ (حزيران ١٩٨٥م) ، وكان الرئيس العراقي يعمـل على إلزام إيران لقبولها المفاوضات ، واضطر لسحب ممثلي العراق من طرابلس ، كما طلب من ليبيا سحب ممثليها في بغداد ، إثر التفاهم الإيراني ـ الليبي ، مع العلم أن العلاقات السياسية مقطوعة بين العراق وليبيا منذ بدء الحرب بين العراق وإيران في ١٣ ذي القعدة عام ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول سنة ١٩٨٠م) إذ كانت العراق تتهم ليبيا بمساعدة إيران .

كانت إيران تطلب من العراق الاعـتراف ببدء القتـال وعندهـا يمكن لإيران قبول قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) القاضي بوقف إطلاق النار ، أما العراق فيمكنها الاعتراف ببدء الحرب ولكنها ترفض شروط القرار .

وفي ٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (٩ شباط ١٩٨٦م) عبر أربعمائة ألف جندي إيراني شط العرب ، وبعد يومين من ذلك احتلت إيران ميناء نفطي غير مستعمل في شبه جزيرة (الفاو) .

وفي شهر شوال ١٤٠٦هـ (حزيران ١٩٨٦م) احتلت العراق جزيرة (خرك) الايرانية ، وأصبح تصدير نفط إيران يتمّ عن طريق جزيرة (لارك) .

دعمت إيران جيشها في عدة مواقع على طول الحدود مع العراق .

وفي مطلع عام ١٤٠٧هـ (أيلول ١٩٨٦م) دمرت العراق ناقلات النفط في جزيرة (لافان) ، وأخذت منذ شهر ربيع الأول ١٤٠٧هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦م) تهاجم جزيرة (لارك) .

وفي ٢٢ ربيع الثاني ١٤٠٧هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٨٦م) تقدمت فرقة كربلاء ـ ٤ ـ الإيرانية في منطقة البصرة .

أخذ يقلّ التهديد العسكري الإيراني فركزت العراق اهتمامها على الشمال إذ كان الأكراد قد سيطروا على عشرة آلاف كيلومتر مربع من الأرض ، واتخذت الحكومة سياسة الأرض المحروقة التي اتخذتها أيضاً عام ١٣٩٥هـ ، وسارت في طريق العنف فدكّت أكثر من ثمانمائة قريةٍ كرديةٍ على طول الحدود لإنشاء حزامٍ أمنيٍ مع إيران ـ حسب اصطلاح الحكومة ـ ثم أجبرت أعداداً من الأكراد على مغادرة مناطقهم والانتقال إلى الجنوب العراقي للاستقرار هناك ، واستمرّ ذلك حتى منتصف عام ١٤٠٨هـ .

وفي ٨ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ (٨ كانون الثاني ١٩٨٧م) قامت فرقة إيرانية تحمل اسم (كربلاء ـ ٥ ـ) بهجومٍ نحو البصرة ولكنها تكبدت خسائر جسيمة ، وتلا ذلك هجوم أيضاً من (كربلاء ـ ٦ ـ) ، وأعقب ذلك عدد من الهجمات الايرانية على طول الحدود مع العراق الذي طلب إنهاء الحرب وإجراء مفاوضات للسلام غير أن إيران رفضت ذلك .

وفي ١٦ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ تقدّمت (كربلاء ـ ٦ ـ) حوالي عشرة كيلومترات باتجاه البصرة دون أن تُحقّق أي هدف . وأعلن العراق أنه سيتوقّف عن قصف القرى والمدن الايرانية لمدة أسبوعين عسى أن يلين موقف إيران . ولكن ذلك لم يثن إيران عن عزمها ، وتقدّمت (كربلاء ـ ٥ ـ) ولكنها انتهت . وعاد العراق وأعلن أنه غير مُلزم بتنفيذ الاتفاقية غير الرسمية بعد قصف القرى والمدن بعد انقضاء الأسبوعين .

وفي شهر رجب ١٤٠٧هـ (آذار ١٩٨٧م) توغّلت (كربلاء ـ ٧ ـ) عشرين كيلومتراً في الشمال باتجاه (راوندوز) ، وتقدّمت (كربلاء ـ ٨ ـ) في شرق البصرة بعد مدة ، وقامت (كربلاء ـ ٩ ـ) بهجومٍ في القطاع الأوسط قرب (قصر شيرين) ، وبعدها عاد العراق فاستأنف القصف بشكلٍ جديٍ .

وفي ٢٧ محرم ١٤٠٨هـ (٢٠ أيلول ١٩٨٧م) عقد مؤتمر عربي في تونس ، وعملت الدول العربية على قطع العلاقات مع إيران غير أن سوريا رفضت ذلك بحجة أن العلاقات وثيقة بينها وبين إيران .

وفي ١٢ ربيع الأول ١٤٠٨هـ أعلن وزير خارجية إيران أن دولته سوف تراعي وقف إطلاق النار فيما إذا نصّ مجلس الأمن في قراره أن العراق هو المعتدي وأنه قد بدأ الحرب ، غير أن انكلترا والولايات المتحدة فسّرتا هذا الإعلان ينطوي على مماطلةٍ عسى أن تُغيّر روسيا موقفها من حظر الأسلحة على إيران وتبيعها . وعقد مؤتمر عربي آخر في عمان في (١٧ ـ ٢٠) ربيع الأول ١٤٠٨هـ أدان إيران لإطالتها حرب الخليج ، واحتلالها شط العرب ، وحثّ إيران على تنفيذ قرار مجلس الأمن (٥٩٨) دون قيدٍ أو شرط ، كما أجّل هذا المؤتمر إقامة علاقات مع مصر .

وفي ١٠ ربيع الثاني ١٤٠٨هـ (مطلع كانون الأول ١٩٨٧م) اشترط وزير خارجية إيران أن تقوم العراق بدفع تعويضات خسائر الحرب لإيران

للموافقة على قرار مجلس الأمن . كما أعلن أن وجود السفن التابعة لـلأمم المتحدة في الخليج من أكبر عوائق حصول السلام .

وزادت خسائر القطع البحرية في هذه الحرب إذ بلغت ١٧٨ زورقاً في عام (١٩٨٧م) منها ٣٤ زورقاً في الشهر الأخير من العام ، على حين أنها كانت ٨٠ زورقاً في العام السابق (١٩٨٦م) ، أما المجموع منذ بداية الحرب فقد زاد على ٥٤٦ زورقاً . وقُدّر مجموع المساعدات الروسية بعشرة مليارات دولار منذ حظر بيع الأسلحة عام ١٩٨٢م وحتى نهاية عام ١٩٨٧م .

منذ مطلع عام ١٤٠٨هـ بدأت إيران تتراجع لصالح العراق ، وما أن انتصف العام حتى كان العراق قد استعاد كثيراً من أراضيه التي كانت إيران قد احتلتها من قبل في السنوات السابقة . واقترحت سوريا باب الحوار بين دول الخليج العربية وبين إيران لإنهاء القتال ولكن العراق وإيران معاً قد رفضتا هذه المبادرة .

وفي بداية النصف الثاني من عام ١٤٠٨هـ (مطلع شباط ١٩٨٨م) استأنفت العراق قصف المدن بعد انقطاع ما يزيد على العام ، وكان قد سبق ذلك استئناف قصف الناقلات . ولكن الأكراد نجحوا في شنّ الغارات على الأراضي التي تسيطر عليها الحكومة ؛ فقامت العراق بهجمةٍ انتقاميةٍ ضد بلدة (حلبجة) بالأسلحة الكيمياوية ، وقتلت أربعة آلاف كردي ، واعترفت العراق بعد أربعة أشهرٍ باستخدام الأسلحة الكيمياوية .

وفي رجب من عام ١٤٠٨هـ بدأ جيش التحرير الوطني ، وهو الجناح العسكري لتجمع المقاومة الإيرانية من مجاهدي خلق ، المدعوم من العراق ببدء أعماله الهجومية بعد ما يقرب من سنةٍ على إنشائه فهاجم القوات الايرانية في إقلم (عربستان) خوزستان .

وفي ٢٨ شعبان ١٤٠٨هـ (١٥ نيسان ١٩٨٨م) استعادت العراق (الفاو) التي كانت إيران قد احتلتها منذ أكثر من سنة ونصف ، واتهمت إيران

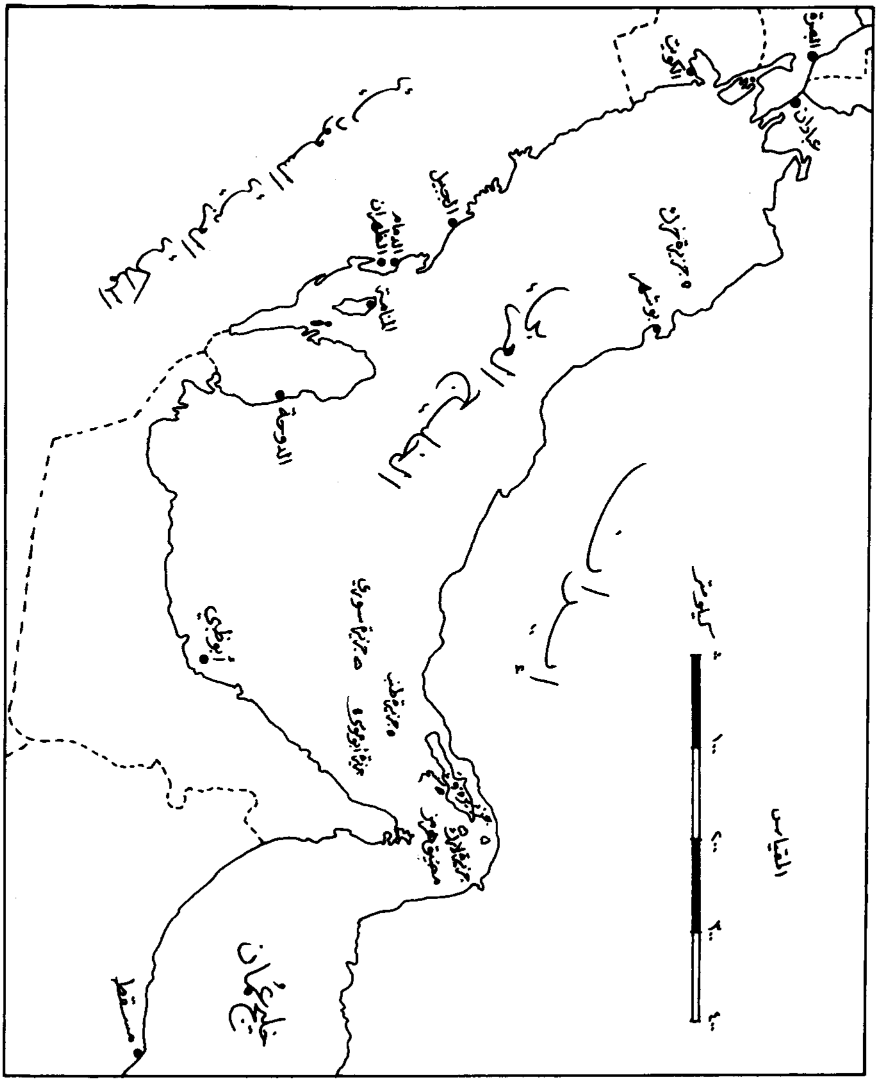
البصرة
الكويت
عبادان
الجبيل
الدمام
الظهران
المنامة
الدوحة
أبوظبي
مسقط
خليج عمان
الخليج العربي
إيران
بوشهر
المقياس
كيلومتر

الكويت بأنها قد سمحت للعراق باستخدام أراضي جزيرة (بوبيان) أثناء الهجوم على الفاو .

وفي بداية شوال ١٤٠٨هـ (أيار ١٩٨٨م) استعادت العراق (شلمشة) جنوب شرقي البصرة ، ودفعت القوات الإيرانية إلى ما بعد شط العرب . ومن ناحية ثانية تمّ دمج التنظيمات الكردية بعضها مع بعض وهي :

١ ـ الحزب الديمقراطي الكردستاني .
٢ ـ الاتحاد الوطني الكردي .
٣ ـ الحزب الاشتراكي الكردي .
٤ ـ حزب الاتحاد الاشتراكي الكردي
٥ ـ حزب الشعب الوطني الكردي .
٦ ـ الحزب الشيوعي الكردي .

وذلك في سبيل الوقوف المشترك في وجه الحكومة العراقية .

وفي الأول من ذي القعدة ١٤٠٨هـ (١٥ حزيران ١٩٨٨م) استعادت العراق جزيرة (مجنون وطوّقت منطقة (الحويزة) ، وفي منتصف الشهر ، تمكنت من طرد الايرانيين من المناطق الكردية .

وفي ٢٩ ذي القعدة ١٤٠٨هـ (١٣ تموز ١٩٨٨م) عبرت العراق الأراضي الإيرانية في القطاع الأوسط . وفي الرابع من ذي الحجة وافقت إيران على قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) دون قيدٍ أو شرطٍ بعد مماطلةٍ دامت أكثر من عام .

وفي العاشر من ذي الحجة عام ١٤٠٨هـ تقدمت السرايا العراقية داخل إيران قبل عملية انسحاب إيران إلى خلف الحدود ، وفي اليوم التالي دخلت العراق مسافة مائةٍ وخمسين كيلومتراً داخل إيران ، وادّعت أن جيش التحرير الوطني الإيراني هو الذي يقوم بمشاغلة الجيش الإيراني حتى لا يستطيع إعادة تنظيم نفسه أثناء عملية وقف إطلاق النار .

وفي أواخر شهر ذي الحجة ١٤٠٨هـ (آب ١٩٨٨م) دخلت العراق وإيران في مفاوضات لإنهاء الحرب وهذا ما سمح للعراق بنقل أكثر قواتها إلى منطقة الأكراد ، وخُصّص ما يقرب من سبعين ألف جندي لإنهاء المسألة

الكردية ، واستعملت الأسلحة الكيمياوية كسلاحٍ فعّال للإسراع في حلّ المشكلة ، وقد أجبر هذا السلاح الناس للفرار من وجه الجيش العراقي ، وقد هرب أكثر من مائة ألف كردي إلى إيران وتركيا . وتبنّى مجلس الأمن في ١٤ المحرم ١٤٠٩هـ (٢٦ آب ١٩٨٨م) القرار رقم (٦٢٠) الذي استنكر فيه استخدام الأسلحة الكيمياوية .

أُجّلت الانتخابات العراقية لمدة ستة أشهرٍ نتيجة الأحداث . وطلب العراق تأخير تنفيذ وقف إطلاق النار حتى تتم المفاوضات المباشرة مع إيران تحت إشراف الأمم المتحدة . وإن نجاح العراق في هذه الحرب قد قوّى مركز الرئيس العراقي صدام حسين .

وفي ٨ المحرم ١٤٠٩هـ (٢٠ آب ١٩٨٨م) توقّف إطلاق النار ، ووضع ثلاثمائة وخمسون ضابطاً من الأمم المتحدة للإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار .

وفي ٢٨ المحرم ١٤٠٩هـ (٩ أيلول ١٩٨٨م) أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي فرض عقوبةٍ اقتصادية على العراق ، وامتنعت الولايات المتحدة عن استيراد النفط العراقي ، وقامت مظاهرات في العراق ضدّ الولايات المتحدة .

وفي ٥ صفر ١٤٠٩هـ (١٦ أيلول ١٩٨٨م) صدر عفو عام ، ودعت الحكومة العراقية الأكراد للعودة إلى الوطن خلال ثلاثين يوماً ، ووعدت بإطلاق سراح المعتقلين جميعاً ، ورجع إلى البلاد فعلاً ما يقرب من ستين ألف كردي ، وفي اليوم التالي أجليت أعداد من الأكراد عن مناطقهم ، ووُزّعوا في بقية المناطق العراقية ، وأخذ الأكراد يناشدون للعمل على وقف عملية الإجلاء عن مناطقهم .

وجرت الانتخابات النيابية الثالثة التي كانت قد أُجّلت في شعبان ١٤٠٩هـ (نيسان ١٩٨٩م) ، وقد نجح فيها نصف الأعضاء من حزب البعث العربي الاشتراكي ، وأخذ العمل لصياغة دستورٍ جديدٍ .

المفاوضات : توقّف إطلاق النار كما ذكرنا في ٨ محرم ١٤٠٩هـ وبدأت مفاوضات من أجل السلام ولتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) بعد خمسة أيام أي في ١٣ محرم ١٤٠٩هـ (٢٥ آب ١٩٨٨م) ، ويقضي القرار بالتراجع إلى ما بعد الحدود المعترف عليها دولياً .

كانت إيران ترى أن المفاوضات يجب أن تكون على أساس اتفاقية الجزائر أي أن الحدود في شطّ العرب يجب أن تكون في منتصف الشط في خط أعمق النقاط ، وتُمارس الدولتان المشاركة في السيادة على هذا الممر المائي ، ولكن العراق ترى أن هذه الاتفاقية قد أُلغيت ببدء الحرب في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) ، وادّعى الذي وقّعها وهو الرئيس العراقي اليوم أنه قد وقّعها بالإكراه ، ويُطالب بالسيادة العراقية الكاملة على شطّ العرب حسب الاتفاقات كلها والتي سبقت اتفاقية الجزائر ، ولإيران حقّ الإبحار ، ولا يمكن إغلاق هذا الممر المائي الحيوي .

كانت إيران قد أعلنت يوم وقف إطلاق النار في ٨ محرم ١٤٠٩هـ أنها ستقوم بتفتيش السفن العراقية المارة من مضيق هرمز ، ولكن العراق قد هدّد باستئناف القتال إذا تعرّضت السفن العراقية للتفتيش في مضيق (هرمز) .

أصرّت العراق على أن حفر شط العرب وإصلاحه ، وتنظيفه من السفن الغارقة فيه يجب أن يتمّ قبل الانسحاب إلى ما بعد الحدود المعترف بها دولياً ، وقبل الشروع في تبادل الأسرى .

ادّعت إيران أنها لا تزال في حالة حربٍ مع العراق ، وأنها اكتسبت بذلك حسب القانون الدولي حق تفتيش السفن التي تقوم بنقل المؤن والمعدات الحربية ، مع أن العراق يحتلّ ما مساحته ألف وخمسمائة كيلومتر مربع من أرض إيران . وإن القرار (٥٩٨) لم يُفصّل هذه القضايا وإنما أخّرها إلى ما بعد وقف إطلاق النار .

يدّعي العراق أن الحرب بين الدولتين قد بدأت في ٢٤ شوال ١٤٠٠هـ

(٤ أيلول ١٩٨٠م) عندما قصفت إيران النقاط العسكرية الواقعة على الحدود بالقنابل ، وليس في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) كما تدّعي إيــران ، وبقي الخـلاف مستحكــماً حتى ١٤ صفر عــام ١٤١٠هـ (أيلول ١٩٨٩م) .

وفي ربيـع الثاني ١٤١٠هـ (تشرين الثـاني ١٩٨٩م) وافقت كل من العراق وإيران على تبادل الأسرى ، وجرى أول تبادلٍ في الشهر نفسه ، ثم توقّف للاعتراف بأن العراق هو الذي بدأ الحرب .

وكان الأسرى حسبما هو مسجل في سجل الصليب الأحمر .

٥٠١٨٢ أسير عراقي .

١٩٢٨٤ أسير إيراني[1] :

---

(١) وقف المؤلف حفظه الله هنا ، لأنه يقوم على استكمال البحث تبعاً للمعطيات المتجددة .

الخلاف مع إيران : يرجع الخلاف بين العراق وإيران إلى ماضٍ ليس بالقريب إلى الأيام التي كانت العراق فيها جزءاً من الدولة العثمانية ، وكانت تحدث النزاعات على الحدود ، وعلى المياه ، وبين القبائل ، وقد جرت عدّة معاهداتٍ بين الطرفين ، وكان منها معاهدة « أرضروم الثانية » التي عُقدت عام ١٢٦٣ هـ . غير أن هذه المعاهدة قد فشلت أيضاً ، إذ استمرت الاشتباكات على الحدود ، وفشلت لجنة تخطيط الحدود التي نصّت عليها المادة الثالثة من المعاهدة المذكورة ، كما نشأت خلافات في تفسيرات نُصوص المعاهدة ، ويُضاف إلى ذلك أن انكلترا وروسيا كانتا ترغبان في إنهاء نزاعات الحدود بين الدولة العثمانية وبين إيران التي أصبحت ساحة نفوذٍ لكلتا الدولتين ، كل هذا دعا إلى إجراء مُفاوضاتٍ مُباشرةٍ بين الطرفين بتوسّط كل من انكلترا وروسيا ، وانتهت باتفاق طهران في اليوم الأول من عام ١٣٣٠ هـ (٢١ كانون الأول ١٩١١م)[١] .

اتفاق طهران : وتضمّن هذا الاتفاق خمس نقاط ، وهي :

١ ـ تعيين لجنةٍ مشتركةٍ لتثبيت خطّ الحدود ، وتتألّف من عددٍ مُتساوٍ من الأعضاء ، على أن تجتمع بأقرب فرصةٍ مُمكنةٍ لتنظيم سير العمل .

٢ ـ تزويد أعضاءاللجنة بجميع الوثائق والبيانات المؤيّدة لادّعاءات الفريقين لدراستها وتحليلها بأمانةٍ وموضوعيةٍ ، لاتخاذ القرارات النهائية في تثبيت خطّ الحدود تثبيتاً نهائياً .

٣ ـ في حالة فشل أعضاءاللجنة في الوصول إلى تفسير وتطبيق بعض نصوص معاهدة « أرضروم الثانية » تفسيراً مُرضياً تُحال عندئذٍ القضايا المختلف عليها إلى « محكمة التحكيم » في « لاهاي » لإصدار القرار النهائي .

٤ ـ تكون مُعاهدة « أرضروم الثانية » الأساس الذي تستند إليه قرارات اللجنة .

---

(١) مثل الدولة العثمانية في هذه المفاوضات (حسيب بك) سفيرها لدى البلاط الإيراني ، ومثل إيران وزير خارجيتها (وثوق الدولة) .

٥ ـ لايتّخذ أيّ من الطرفين من احتلال الأراضي المتنازع عليها حجةً قانونيةً للاحتفاظ بها والسيطرة عليها .

استمرّت المفاوضات أكثر من خمسة أشهرٍ دون الوصول إلى اتفاقٍ ، وتدخّل سفيرا الدولتين الوسيطتين (انكلترا وروسيا) ، وطالبا الدولة العثمانية بضرورة تطبيق نصوص معاهدة « أرضروم الثانية » مُباشرةً دون تأخيرٍ ، وكانت جمعية الاتحاد والترقي هي التي تتحكّم في شؤون الدولة العثمانية ، ولها علاقاتها وارتباطاتها مع انكلترا التي تعدّ صاحبة النفوذ الأقوى في الدولة .

توقّفت المفاوضات في طهران ، إلاّ أنّه تقرّراستمرار المباحثات بين ممثلي الدولتين في استانبول .

اتفاقية الخليج : جرت مُباحثات في لندن بين وزير الخارجية البريطانية « ادوارد غراي » وبين مبعوث الباب العالي إبراهيم حقي أثناء زيارةٍ رسميةٍ له إلى لندن حول عددٍ من القضايا المشتركة بين الدولتين ، ومن بينها تثبيت خطّ الحدود بين الدولة العثمانية وإيـران . وقد أعلن المبعـوث مُوافقتـه على خطٍ مُقترحٍ في الجنوب يُعدّ أكثر قبولاً لدى إيران من أي خطٍّ مضى .

ومن بين الاتفاقيات التي جرت في لندن « اتفاقية الخليج » التي تنازلت فيها الدولـة العثمانيـة عن قطر والبحـرين ، وتعهدت بسحب جميـع قواتهـا وموظفيها ، شريطة احتفاظ الدولة العثمانية بسيادتها على الكويت، والكفّ مُقابل ذلـك عن التدخّـل في شؤونها الداخليـة والخارجيـة بأيّ شكـلٍ من الأشكـال ، وأن تتوقّف عن إرسـال قُواتٍ مُسلحـةٍ إليها ، وأجـازت لشيخ الكويت برفع العلم العثماني ، ووضـع اسم الكويت في زاويـةٍ من زواياه . واعترفت الدولة العثمانية بموجب هذه الاتفاقية بالاتفاقات التي عقدها شيـخ الكويت مع الحكومة البريطانية ، ومنها تأسيس خدماتٍ بريديةٍ غير الخدمات العثمانية القائمة . ويُلاحظ أن هذه الاتفاقية جرّدت الدولة العثمانية عملياً من سيادتها على الكويت ، وبالّتالي باعدت بينها وبين المناطق المجاورة سياسياً .

ومن الاتفاقات الأخرى التي أُبرمت ، اتفاقية خاصة بالملاحة في شطّ العرب ، تناولت حقّ الرسو على امتداد الساحل الواقع شمال وجنوب مصبّ نهر قارون ، وبيان آخر حول الملاحة في نهري دجلة والفرات ، وقد تضمّن الاتفاق الخاص بشطّ العرب عدّة أمورٍ منها :

١ ـ يبقى شطّ العرب مفتوحاً لسير السفن التابعة لجميع الدول .

٢ ـ تؤلّف الحكومة العثمانية لجنةً لتنظيم سير الملاحة في شطّ العرب من مدينة القرنة حتى مصبّه في الخليج ، على أن تتألّف من عضوين : عضو عثماني الجنسية ، وعضو بريطاني الجنسية تختاره الحكومة العثمانية من قائمة المرشّحين لهذا المنصب ، ويتقاضى كل واحدٍ منهما مرتباً سنوياً ، يُدفع من صندوق اللجنة .

٣ ـ يكون تعيين المهندسين والمفتشين والمستخدمين من اختصاصات اللجنة .

وفيما يتعلّق بالملاحة في نهري دجلة والفرات اتفق وزير خارجية بريطانية ، وإبراهيم حقي على إصدار بيانٍ خاصٍ لتنظيم حركة نقل البضائع والأشخاص في ٢٥ شعبان ١٣٣١ هـ (٢٩ تموز ١٩١٣ م) . وقد نصّت المادة الأولى من هذا البيان على ما يلي : تمنح الحكومة العثمانية امتيازاً لشخصٍ بريطاني تُرشحّه الحكومة البريطانية لتأسيس شركةٍ تتولّى تسيير حركة السفن في مياه نهر دجلة من القرنة حتى الموصل على الأقل ، وفي نهر الفرات من القرنة حتى مسكنة .

ونتيجة المفاوضات في استانبول بين العثمانيين والإيرانيين ، وبين العثمانيين والبريطانيين في لندن تمّ التوقيع على اتفاقٍ في استانبول بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٣٣١هـ (٤ تشرين الثاني ١٩١٣م) ، وعلى تصريح في لندن .

اتفاق استانبول : وقّع هذا الاتفاق الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم باشا ، وعن إيران السفير المفوض والمندوب فوق العادة لشاه إيران لدى الباب العالي ميرزا محمود خان قاجار احتشام السلطنة ، وعن انكلترا وروسيا (لويس

شط
العرب

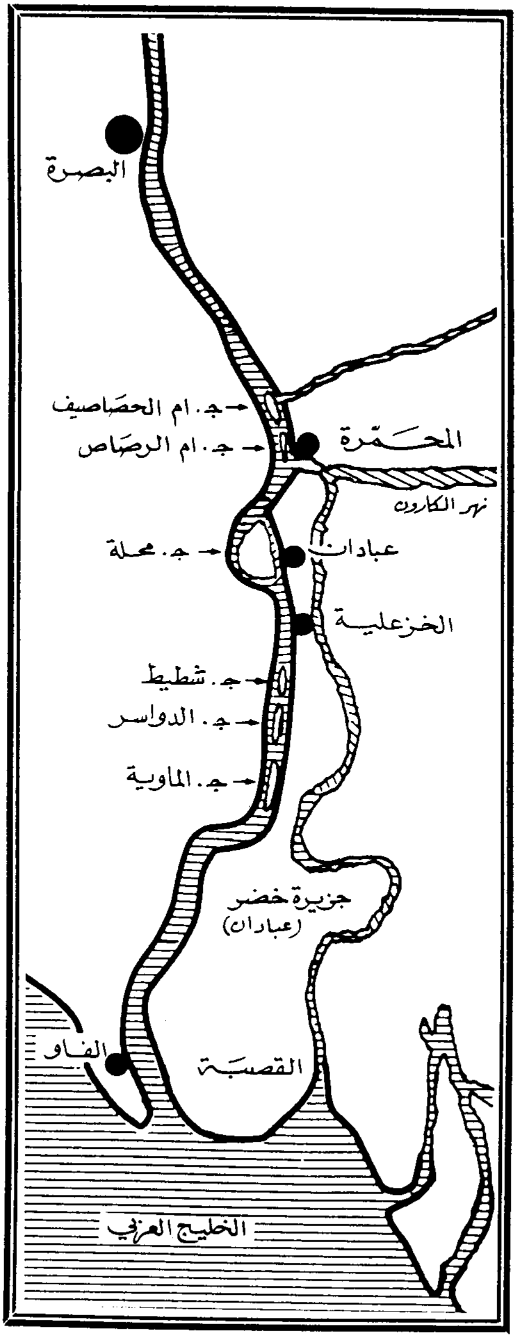
البصرة
ج. ام الحصاصيف
المحمرة
ج. ام الرصاص
نهر الكارون
ج. محلة
عبادان
الخزعلية
ج. شطيط
ج. الدواسر
ج. الماوية
جزيرة خضر
(عبادان)
الفاو
القصبة
الخليج العربي

موليت) السفير والمندوب فوق العادة لدى الباب العالي، و(ميشيل دي جيير) السفير والمندوب فوق العادة لدى الباب العالي . وكانت الحكومة الروسية قد اقترحت رسماً لخطّ الحدود ، وجرت مناقشات ، وتبادل المذكـرات ، وأخيراً وُقّع الاتفاق على تعريف لخطّ الحدود ، وذكر أنه يبدأ من علامة الحدود رقم (٣٧) على الحدود العثمانية ـ الروسية الواقعة بالقرب من(سرادار بـولاق) على الذروة الواقعة بين جبل (أرارات) الصغير ، وجبل (أرارات) الكبير ، ثم يتجه جنوباً إلى مناطق العراق الشمالية ، والوسطى ، والجنوبية .

تصريح لندن : لم يتطرّق تصريح لندن إلى بحث خط الحدود العثمانية ـ الايرانية شـمال موقـع (مندلي-) ، وإنمـا ترك ذلـك إلى لجنة تثبيت الحـدود المشتركة .

أما خطّ الحدود الواقع بين منطقة (الحويزة) ومصبّ شطّ العرب فقد تمّ بحثه على أنه يبدأ من نقطةٍ تُسمّى (أم شير) إلى نقطةٍ تقع شرق اتصال خور (المحيسن) بخور (العظيم) على بعد تسعة أميالٍ إلى الشمال الغربي من البساتين الواقعة على الدرجة (٣١) والدقيقـة (٤٣) والثانيـة (٢٩) من خط العرض الشمالي ، ومن نقطة (أم شير) ينحرف الخط باتجاه الجنوب الغربي لغاية الدرجة (٣٥) من خط الطول الغربي تقريباً في الطرف الجنوبي من بحيرةٍ صغيرةٍ تُعرف باسم (العظيم) أيضاً ، وتقع في خور (العظيم) على مسافةٍ قصيرةٍ من الجهة الشمالية الغربية لمدينة (السويب) . ومن هذه النقطة يُواصل الخطّ سيره نحو الجنوب بمحاذاة الخور لغاية خط العرض (٣١) شمالاً ، ويسير معه شرقاً تماماً حتى النقطة الواقعة إلى الشمال الشرقي من (كشك بصرة) ، حيث يبقى هذا المحلّ ضمن الأراضي العثـمانية . ثم يتجـه الخط من هذه النقطة إلى ناحية الجنوب حتى مصبّ قناة (الخيين) بشطّ العرب ، ثم يُتابع خطّ الحدود سيره بمحاذاة شطّ العرب حتى مصبّه في الخليج ، تاركاً النهر وما فيه من جزر تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية :

أولاً : أ ـ تعود لإيران :

١ ـ جزيرة محله ، والجزيرتان الواقعتان بينها وبين الضفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الإيراني) .

٢ ـ الجزر الأربع الواقعة بين شطيط وماوية ، والجزيرتان الواقعتان مقابل (منوحي) والتابعتان لجزيرة عبادان .

٣ ـ جميع الجزر الصغيرة الموجودة الآن ، أو التي تتكوّن بعدئذٍ ، مما له صلة بانحسار المدّ عن جزيرة عبادان أو بالأراضي الإيرانية إلى أسفل نهر (نازالله) .

ب ـ يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديثان من أعلى إلى أسفل ملتقى نهر قارون بشطّ العرب تحت سيادة إيران ، طبقاً لمعاهدة أرضروم الثانية ، ولكن دون المساس بحقّ الدولة العثمانية في استعمال هذا القسم من النهر ، ودون أن تمتدّ سلطة إيران إلى أقسام النهر الواقعة خارج حدود المرسى .

جـ ـ لا تغيير في الحقوق والأعراف والعادات الجارية بالنسبة لصيد الأسماك في الضفة الإيرانية من شطّ العرب . وتشمل كلمة ضفّة أيضاً الأراضي التي تتصل بالساحل وقت انحسار المد .

د ـ لا تمتدّ السيادة العثمانية إلى أقسام الساحل الإيراني التي تغمرها مياه المد بصورةٍ وقتيةٍ عند ارتفاع منسوب مياه شطّ العرب أو من جراء عوامل عرضيةٍ أخرى . ولا سلطة لإيران على الأرض الواقعة على الضفّة الشرقية لشطّ العرب التي تظهر بصورةٍ وقتيةٍ أو عرضية (حالة الجزر) لدى انخفاض منسوب الماء دون الحد الاعتيادي .

هـ ـ يبقى شيخ المحمرة مُتمتّعاً ، عملاً بأحكام القوانين العثمانية ، بحقوق ملكيته في الأراضي العثمانية .

ثانياً : يتمّ تثبيت خطّ الحدود على الأرض من قبل لجنة تثبيتٍ مؤلفةٍ من مُمثّلي أربع حكوماتٍ ، ويُمثّل كلّ حكومةٍ مُمثّل واحد ، ونائب واحد ، ويحلّ النائب محلّ الممثّل الأصيل الغائب عند الضرورة .

ثالثاً : لدى قيام لجنة تثبيت الحدود بوظائفها الملقاة على عاتقها ينبغي :

١ ـ التمسّك بأحكام هذا الاتفاق .
٢ ـ تطبيق النظام الداخلي للجنة المرفق بهذا الاتفاق .

رابعاً : إذا تضاربت آراء اللجنة حول خطّ الحدود في أيّ قسمٍ من أقسامه فعلى الممثّل العثماني والإيراني أن يُقدّما خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً بياناً خطياً إلى الممثّلين الروسي والبريطاني يُعزّز وجهة نظر كلّ منهما في الأمر ، وعلى الممثلين الوسيطين أن يعقدا اجتماعاً خاصاً لهذا الغرض لإصدار قرارهما ، وينبغي إدراج القرار في محضر الاجتماع العام ، والاعتراف بالقرار الصادر بكونه مُلزماً للأطراف الأربعة كافةً .

خامساً : حالما تتمّ عملية تثبيت قسمٍ من خطّ الحدود يُصبح ذلك القسم قد ثُبّت تثبيتاً نهائياً ، ولا يكون عرضةً لأيّ تدقيقٍ أو تعديلٍ بعدئذٍ .

سادساً : يحقّ للحكومتين العثمانية والإيرانية أن تُؤسّسا مخافر على الحدود أثناء سير أعمال لجنة تثبيت الحدود .

سابعاً : ليكن مفهوماً ، أن الامتياز الممنوح من لدن شاه إيران إلى (وليم نوكس دارسي) عملاً بالاتفاقية المؤرخة في (٢٨ أيار ١٩٠١)[١] ، التي انتقلت حقوقها إلى شركة النفط الإنكليزية ـ الإيرانية بموجب المادة التاسعة من الاتفاقية المذكورة (ويُشار إليها بكلمة اتفاقية في الملحق (ب) من هذا الاتفاق) تبقى نافذة المفعول بصورةٍ تامةٍ مطلقةٍ في جميع الأراضي التي حوّلتها إيران إلى الدولة العثمانية تنفيذاً لأحكام هذا الاتفاق ، والملحق (ب) .

ثامناً : تُقدّم الحكومتان العثمانية والإيرانية إلى الموظفين العاملين في مناطق الحدود عدداً كافياً من نسخ تثبيت الحدود التي رسمتها اللجنة الرباعية ، مشفوعةً بنسخٍ كافيةٍ من ترجمة البيان المنصوص عليه في المادة الخامسة عشرة من نظام اللجنة الداخلي ، على أن يكون مفهوماً بأن النصّ المدوّن باللغة الفرنسية سيبقى وحده النص المعوّل عليه رسمياً .

---

(١) العاشر من شهر صفر ١٣١٩هـ .

ووضع نظام داخلي للجنة تثبيت الحدود ، والتي بدأت أعمالها في (شهر كانون الأول من عام ١٩١٣م)[١] ووضعت أول دعامةٍ من دعامات تثبيت خطّ الحدود في الضفّة الشرقية من شطّ العرب في (الأسبوع الأخير من شهر كانون الأول ١٩١٣م)[٢]، وانتهت أعمال اللجنة في ٨ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م)، وكانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت نيرانها في ١٣ رمضان ١٣٣٢هـ (٤ آب ١٩١٤م) غير أن أعضاء اللجنة قد أصرّوا على إنهاء عملهم ، لذا فقد استمرّوا به ، حتى النهاية ، ولكن بقيت مُشكلة منطقة (قتور) مُعلّقةً[٣] .

كان خطّ الحدود مُطابقاً تقريباً للخطّ الذي رسمته « معاهدة أرضروم الثانية » عام ١٢٦٣هـ .

وشغلت أحداث الحرب العالمية الأولى الدول والناس عن الحدود ، وما يحدث عليها من نزاعاتٍ ، وبعد الحرب طالبت تركيا بمنطقة الموصل ، ولم تعترف باتفاق استانبول ١٣٣٢هـ ، ولا بمحاضر جلسات اللجنة الدولية المشتركة لتخطيط الحدود بين الدولة العثمانية وإيران على أساس أنهما لم يُعرضا على مجلس النواب العثماني ، ولم يُصادق عليهما السلطان طبقاً للأعراف الدستورية . وهذا ما جعل إيران تُعلن رفضها أيضاً لخطّ الحدود المرسوم ، وتُطالب بتعديله وخاصةً في منطقة « خانقين » حيث يوجد النفط في منطقتي « نفطخانه » و « نفطشاه » واللتان كانتا ضمن المنطقة التي منحت حقّ امتياز التنقيب عن النفط فيها لـ (دارسي) ، وعندما رُسمت الحدود كانت ضمن أراضي الدولة العثمانية .

وقعت اشتباكات على الحدود بين رعايا الدولتين العراقية والإيرانية في منطقة خانقين ، وقصر شيرين ، ولم تكن هناك علاقات بين الدولتين ، وإنما

---

(١) مطلع عام ١٣٣٢هـ .

(٢) الأسبوع الأخير من شهر محرم ١٣٣٢هـ .

(٣) العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون ـ سعد الأنصاري .

كانت تتمّ الصلات بين الطرفين عن طريق دار الاعتماد البريطانية في بغداد .

اعترفت إيران بالحكومة العراقية في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٩م) في الحفلة التي أقامها رئيس وزراء إيران تكريماً للوفد العراقي برئاسة رستم حيدر رئيس الديوان الملكي في العراق ، وجرى تمثيل سياسي بين الدولتين ، وقام الملك فيصل الأول بزيارة إيران في ٢٢ ذي الحجة ١٣٥٠هـ (٢٨ نيسان ١٩٣٢م) ، غير أنّ ذلك لم يُنه المشكلة ، وخاصةً في شطّ العرب حيث كانت قبائل (المحيسن) تعيش على ضفّتي شطّ العرب ، وتنتقل بطونها من ضفّةٍ إلى أخرى ، فهي عراقية على الضفّة اليمنى ، إيرانية على الضفّة اليُسرى ، وتكرّرت الخلافات حول شطّ العرب ، وعلى الحدود ، وعلى المياه المشتركة .

أعلنت إيران إلغاء اتفاق ١٣٣٢هـ ، وطالبت بتعديل الحدود ، وقدّم العراق شكوى إلى عصبة الأمم على هذا الإلغاء في ٢١ رجب ١٣٥٠هـ (الأول من كانون الأول ١٩٣١م) .

تشكّلت لجنة ثلاثية من العراق وإيران وانكلترا لتحسين الملاحة في شطّ العرب في ٢٥ شوال ١٣٥٠هـ (٣ آذار ١٩٣٢م) .

وفي ٢٢ شعبان ١٣٥٣هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٤م) بعثت الحكومة العراقية إلى أمين عام مجلس عصبة الأمم مُذكرةً تطلب فيها عرض النزاع القائم بين العراق وإيران على مجلس العصبة . وأخبرت العراق إيران بذلك عن طريق المفوضية العراقية في طهران . وردّت إيران على مُذكرة العراق .

وفي ٩ شوال ١٣٥٣هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٣٥م) عقد مجلس عصبة الأمم جلسةً للنظر في شكوى العراق على إيران ، ولم يصل المجلس إلى حلٍّ نهائيٍّ ، ولكن تمّ الاتفاق على إجراء اتصالاتٍ شخصيةٍ بين وزيري خارجية الدولتين ، وأجّل المجلس بحث الموضوع إلى جمادى الآخرة ١٣٥٤هـ (أيلول من عام ١٩٣٥م) .

وفي هذه الأثناء قطعت إيران المياه عن مدينة (مندلي) العراقية ، وتجاوز مائة جنديٍ إيرانيٍ الحدود العراقية ، واحتلّوا ضواحي المدينة ، وساقوا راعياً مع ماشيته . ثم جرت مفاوضات في طهران ، وتحوّلت إلى معاهدة صداقةٍ ، وانضمّت تركيا إلى تلك المعاهدة .

ثم إنّ الشاه طلب السماح بتوسعة ميناء (عبادان) وترك مُشْكلة شطّ العرب للعراق فشعرت الحكومة العراقية بالارتياح ، وجرت مباحثات لتحسين الملاحة في شطّ العرب في بغداد ، ولكن طلبت إيران توسعة ميناء عبادان أربعة أميالٍ لا أربعة كيلومتراتٍ ، وإدارة الملاحة في شطّ العرب إدارةً مشتركةً ، ولم تُوافق العراق على ذلك لأن الميناء (عبادان) يصل إلى منتصف شطّ العرب أي تصبح طريق الملاحة كلها بيد إدارة الميناء أي بيد إيران . ثم دخلت إنكلترا في المباحثات كوسيط . . . وتقدّمت إيران بمذكرةٍ تُبينّ رأيها ، وقد جاء في هذه المذكرة :

١ ـ ينبغي أن يكون شطّ العرب مفتوحاً دائماً أمام جميع السفن التجارية التابعة لجميع الأقطار على حدٍّ سواء لتمخر أو ترسو فيه دون تمييزٍ ، وأن تُجبى الأجور المستوفاة من السفن ، وتُدفع الرسوم الأخرى مُقابل الخدمات التي تُسدى ، ومُقابل الحمولات ، بغضّ النظر عن جنسياتها ، ونوع حمولتها ، ومقدارها ، وألاّ يتجاوز مجموع الرسوم المستوفاة وفقاً لهذه الطريقة الحدّ الأقصى للنفقات السنوية الخاصة بصيانة شطّ العرب .

٢ ـ ينبغي تنظيم سير السفن ، وتقرير تنظيف قاع النهر ، وصيانته بحيث يصبح شطّ العرب صالحاً للملاحة دائماً ، وتعيين طريقة جباية الرسوم وتطبيقاتها بموجب اتفاقيةٍ متبادلةٍ ، والسماح لكل طرفٍ من الأطراف بالعمليات الفنية التي تجعل شطّ العرب صالحاً للملاحة ، بحيث لا يُسبّب ذلك أيّ اضطراباتٍ في الترتيبات الخاصة بسير الملاحة ، بدعوى أنّ ذلك القسم من الشطّ يعود إليه وحده دون غيره .

٣ ـ يكون للبواخر البحرية وغير البحرية التي تعود لحكومتي إيران والعراق حقّ السير في شطّ العرب ، أو الرسو في أي وقتٍ من الأوقات ودون دفع أيّة رسومٍ .

٤ ـ تترتب حقوق مُتساوية للقطرين الجارين في صيد الأسماك ، واستخدام مياه شطّ العرب للأغراض الزراعية والصناعية .

٥ ـ يتعاون الطرفان على وضع التعليمات الصحيّة المتعلّقة بشطّ العرب ، وبوضع الإجراءات لمكافحة حركة التهريب ، وحماية شواطئهما بموجب اتفاقيةٍ مُتبادلة تعقد لهذا الغرض ، بحيث لا تقف ملكية كل طرفٍ لضفة النهر حائلاً دون تطبيق تعليمات وسلامة الطرف الآخر . وغني عن البيان أن الترتيبات السالفة الذكر ستنفّذ في ذلك القسم من شطّ العرب الذي يفصل القطرين[1] .

بعد الانقلاب الذي قاده بكر صدقي ، وأطاح بحكومة ياسين الهاشمي ، أسرعت حكومة حكمت سليمان التي تسلّمت السلطة بالمفاوضات ، وقدّمت مُقترحاتٍ جديدة في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٢٦ حزيران ١٩٣٧م) قدّمها المفوض العراقي في طهران خالد سليمان شقيق رئيس الوزراء . وسافر وزير الخارجية العراقية ناجي الأصيل إلى العراق ، وقد خُوّل بالتوقيع على معاهدة الحدود ، ومعاهدة عدم التعدّي ، واتفاقية حسن الجوار ، وبعد جهودٍ بالمفاوضات انتهت بالتوقيع على :

أولاً : معاهدة الحدود في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) ، وتنصّ على :

١ ـ الاعتراف باتفاق استانبول المبرم في ٥ ذي الحجة ١٣٣١هـ (٤ تشرين الثاني ١٩١٣م) ، وبمحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود المشتركة في ٨ ذي

(١) العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون ـ سعد الأنصاري .

الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م) على أنها وثائق مشروعة ومُلزمة ، وأن خطّ الحدود ، عدا ما هو وارد في المادة الثانية ، أصبح « عين الخطّ الذي تمّ تعيينه وتخطيطه من قبل اللجنة المذكورة أعلاه » ، وعلى الصورة التالية :

٢ ـ إن خطّ الحدود عند مُلتقاه بمنتهى النقطة الكائنة في جزيرة « شطيط » في الدرجة (٣٠) والدقيقة (١٧) والثانية (٢٥) من العرض الشمالي ، والدرجة (٤٨) والدقيقة (١٩) والثانية (٣٨) من الطول الشرقي على وجه التقريب ، يعود فيتصل على خطٍ مُمتدٍ عامودياً من خطّ انخفاض المياه بشطّ العرب ، ويتبعه حتى نقطةٍ كائنةٍ أمام « الأسكلة » الحالية رقم (١) في عبادان (في الدرجة (٣٠) والدقيقة (٢٠) والثانية (٨,٤) من العرض الشمالي ، والدرجة ٤٨ والدقيقة (١٦) والثانية (١٣) من الطول الشرقي على وجه التقريب) . وفي هذه النقطة يعود خطّ الحدود فيسير مع مستوى المياه المنخفضة مُتابعاً تخطيط الحدود الموصوف في محاضر جلسات ١٩١٤م المادة الثانية ، وفي هذه المنطقة من المياه العراقية حدث ، كما لا يخفى ، تعديل في خط الحدود لصالح إيران ، حيث مُنحت رقعةً من المياه لتوسعة مرسى عبادان .

٣ ـ يقوم الفريقان المتعاقدان مُباشرةً بعد التوقيع على هذه المعاهدة بتأليف لجنةٍ لنصب دعائم الحدود التي سبق وأن عيّنت أماكنها لجنة الحدود الدولية المشتركة ، ووضع دعائم جديدةٍ إذا ما وجدت ذلك أمراً ضرورياً .

٤ ـ تُطبّق الأحكام التالية على شطّ العرب ، ابتداءً من النقطة التي تنزل فيها الحدود البحرية بين الدولتين إلى النهر المذكور حتى عرض البحر :

أ ـ يبقى شطّ العرب مفتوحاً بالمساواة للسفن التجارية العائدة لجميع البلدان ، وتكون جميع العائدات المجباة من قبيل أجورٍ للخدمات المؤدّاة ، وتُخصّص فقط لتسديد ـ بصورةٍ عادلةٍ ـ كلفة صيانة أو

تحسين طريق الملاحة ومدخل شطّ العرب من جهة البحر ، ولتدارك النفقات المتكبّدة لصالح حركة الملاحة ، وتُقدّر العائدات المذكورة على أساس الحمولة الرسمية للسفن أو مقدار انغطاسها ، أو على كليهما معاً .

ب ـ يكون شطّ العرب مفتوحاً لمرور السفن الحربية والسفن الأخرى المستخدمة في مصالح حكوميةٍ غير تجاريةٍ ، والعائدة للفريقين المتعاقدين .

جـ ـ إن هذه الحالة ، أي اتّباع خطّ الحدود في شطّ العرب ، مرّةً المياه المنخفضة ، وتارةً وسط المياه لا تتعارض مع حقّ استفادة أيٍّ من الطرفين وبأيّ وجهٍ من الوجوه ، في الشطّ كلّه (المادة الرابعة) .

٥ ـ لما كان للفريقين المتعاقدين « مصلحة مشتركة » في الملاحة ، كما هو معترف به في المادة الرابعة ، فإنهما يتعهدان بعقد اتفاقيةٍ بشأن صيانة وتحسين طريق الملاحة ، وبشأن أعمال الحفر ، ودلالة السفن ، واستيفاء الأجور ، والعائدات ، والتدابير الصحيّة ، والتدابير الأخرى اللازمة لمكافحة التهريب ، وكذلك بشأن جميع الأمور المتعلّقة بالملاحة في شطّ العرب .

أما الاتفاق المؤلف من خمس فقرات فقد اعتبر ملحقاً بمعاهدة الحدود ، وجزءاً لا يتجزأ منها ، ويدخل في حيز التنفيذ مع المعاهدة في وقت واحد .

وبهذا تنازل العراق عن أجزاء من شط العرب لصالح مينائي « عبادان » و « المحمرة » ، واعترفت إيران مقابل ذلك بخط الحدود الذي لم يسبق لها أن اعترفت به . كما أن انكلترا قد استبعدت من المشاركة في اللجنة المقترحة لصيانة وتحسين الملاحة في شط العرب[١] .

ثانياً : وُقّع ميثاق سعد أباد في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٨ تموز

---

(١) المرجع السابق نفسه .

١٩٣٧م) ، وانضمّت إليه أيضاً تركيا وأفغانستان إلى جانب العراق وإيران، واتفق الفرقاء المتعاقدون بالامتناع التام عن أي تدخّلٍ في شؤونهم الداخلية ، والتشاور في جميع الخلافات ذات الصفة الدولية ، وذات المساس بمصالحهم المشتركة ، وبالامتناع التام ، وفي أي حالةٍ من الحالات ، منفرداً أو بالاشتراك مع دولةٍ أخرى من ارتكاب اعتداءٍ ضدّ فريقٍ آخر ، ويُعتبر من أعمال التعدّي : إعلان حالة الحرب وهجوم دولةٍ بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على أراضي دولةٍ أخرى ، أو بواخرها أو طائراتها ، ولو دون إعلان حالة حربٍ ، وإعانة وإسعاف المعتدي بصورةٍ مُباشرةٍ أو غير مُباشرةٍ . ويتعهّد كلّ فريقٍ كذلك ، كل داخل حدوده ، بعدم إعطاء المجال لتشكيل العصابات المسلحة والجمعيات ، أو كل عملٍ يستهدف قلب المؤسسات القائمة ، أو ارتكاب أعمال مُخلّة بالنظام العام والأمن في أيّ قسمٍ من بلاد الفريق الآخر ، سواء أكان في الحدود أم في غيرها ، أو الإخلال بنظام الحكم السائد في بلاد الفريق الآخر .

ثالثاً : معاهدة صداقة بين العراق وإيران، ووُقّعت في طهران في ١٠ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (١٨ تموز ١٩٣٧م) لإقامة سلمٍ دائمٍ وصداقةٍ لا تتغير ، ويتعهّد الطرفان بأن يعقد بأسرع وقتٍ ممكنٍ :

أ ـ اتفاقية حسن جوارٍ ذات علاقةٍ بأمن منطقة الحدود وتسوية المنازعات .

ب ـ معاهدة لاسترداد المجرمين .

جـ ـ معاهدة إقامةٍ وجنسيةٍ .

د ـ معاهدة تجاريةً .

هـ ـ اتفاقية تعاونٍ قضائيٍ .

و ـ اتفاقية بريدٍ وبرقٍ .

ز ـ اتفاقية قنصلية .

رابعاً : معاهدة لحلّ الخلافات بالطرق السلمية ، ووُقّعت في طهران في ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (٢٤ تموز ١٩٣٧م) ، وتبقى نافذة المفعول لمدة

خمس سنواتٍ ، تتجدّد تلقائياً ، إلاّ إذا تخلّى عنها أحد الطرفين ، وبموجبها تعهّدت الدولتان :

١ ـ اتباع الطرق السلمية في حلّ كلّ خلافٍ يمكن أن ينشأ بينهما مما يتعذّر حلّه بالمفاوضات السياسية الاعتيادية .

٢ ـ عرض جميع الخلافات التي قد تنشب بينهما حول أيّ حقٍ من الحقوق على محكمة العدل الدولية الدائمة بموجب اتفاقٍ خاصٍ ، للبتّ فيها ، ما لم يُقرّر الفريقان مراجعة محكمة تحكيمٍ ما عدا الخلافات التي حدثت قبل دخول هذه المعاهدة حيّز التنفيذ ، أو بأمورٍ هي من اختصاص أحد الفريقين المتعاقدين فقط حسب القوانين الدولية ، والخلافات المتعلّقة بحدود أحد الفريقين المتعاقدين وأراضيهما .

٣ ـ إن كلّ خلافٍ لا يمكن حلّه بقرارٍ قضائيٍ أو تحكيميٍ بموجب نصوص المعاهدة يُصار في حلّه إلى طريقة المصالحة ، بعد تأليف لجنة مصالحةٍ لهذا الغرض ، يتّفق عليها الطرفان .

٤ ـ ليس في المعاهدة ما يمكن تفسيره بأنه يخلّ بحقوق الفريقين المتعاقدين في طلب مساعدة مجلس عصبة الأمم ، وذلك ضمن أحكام ميثاق عصبة الأمم وهذه المعاهدة .

خامساً : اتفاق خاص لتنظيم أعمال لجنة تحديد الحدود : وُقّع في بغداد في ١٦ شوال ١٣٥٧هـ (٨ كانون الأول ١٩٣٨م) تنفيذاً لأحكام المادة الثالثة من معاهدة الحدود المعقودة في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) وأحكام المادة الأولى من الاتفاق الملحق بالمعاهدة المذكورة ، اتّفقت الدولتان على ما يلي :

١ ـ تُؤلّف لجنة لوضع دعائم الحدود ، قوامها مُمثّل أول ومُمثّل ثانٍ تُعيّنهما كل من الحكومتين ، ويحلّ الثاني محلّ الأول عند تغيّبه ، وتُناط به وظائفه ، ويتمتع بجميع امتيازاته وصلاحياته ، ولدى حصول أي خلافٍ يتعذّر حلّه ، يُحيل الممثّلان موضوع الخلاف إلى حكومتيهما لحلّه بالطرق السياسية ،

ويترأس الممثّلان جلسات اللجنة بالتناوب ، ويدوّنا محاضر الجلسات باللغات العربية والفارسية والفرنسية ، ويكون النصّ الفرنسي هو النصّ المعتمد عند حصول أيّ خلافٍ .

٢ ـ تُناط باللجنة الأعمال التالية : تعيين الحدود العراقية الإيرانية عملاً بمعاهدة الحدود لسنة (١٩٣٧م) ١٣٥٦هـ والاتّفاق الملحق بها ، وتتخذ أساساً لأعمالها :

أ ـ محاضر جلسات لجنة تحديد الحدود لسنة (١٩١٤م) ١٣٣٢هـ ، بما في ذلك جدول وصف الحدود ، مواقع دعائم الحدود ، والخرائط الأصلية المتطابقة ، والخرائط الإضافية المستعملة والموقّعة من قبل اللجنة المذكورة .

ب ـ المادة الثانية من معاهدة الحدود لسنة (١٩٣٧م) ١٣٥٦هـ المتعلّقة بتعيين خطّ الحدود لمرسى عبادان .

وعلى اللجنة كذلك أن تنظّم محاضر جلسات اللجنة ، وكراسة نقاط الإرشاد المنصوص عليها في المادة العاشرة من هذا الاتفاق ، وكذلك الخرائط ، وغيرها من الوثائق الأخرى التي تعدّها اللجنة بنسختين ، يُوقّع عليها الممثّلان ، مع احتفاظ كل من الحكومتين بنسخةٍ منهما .

ولكن لم يُصادق على المعاهدة المذكورة إلاّ بعد ما يقرب من مرور سنةٍ على توقيعها ، فالحكومة التي وقّعت عليها قد زالت مع اغتيال قائد الانقلاب بكر صدقي في ٤ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١١ آب ١٩٣٧م) ، ولم يقبل الشعب العراقي ما تمّ فيها من تنازلاتٍ وخاصةً في شطّ العرب[1] .

وبعد المصادقة عليها وُجدت صعوبات في تنفيذها لعدم مشاركة انكلترا صاحبة النفوذ في اللجنة ، وقيام الحرب العالمية الثانية ، واحتلال العراق

---

(١) المرجع السابق نفسه .

وإيران من قبل الحلفاء ، بعد حركة الكيلاني في العراق ، وبعد الخوف من اقتراب الألمان من أذربيجان ، وظهور أهمية الخليج الحربية والنفطية ، وأطماع إيران في توسعة رقعة مياه ميناء عبادان ، وهرب عددٍ من قادة حركة الكيلاني إلى إيران الأمر الذي جعل توتراً بين الحكومتين .

وبعد الحرب عادت إيران لبحث الموضوع من جديد ، وقام الأمير عبد الإله الوصي وولي عهد العراق على رأس وفدٍ إلى إيران في ٨ شعبان ١٣٦٨هـ (٤ حزيران ١٩٤٩م) .

وقامت إيران بعددٍ من الاعتداءات على الحدود ، ولكن الوضع الداخلي فيها قد تردّى بعد انقلاب محمد مصدق والانقلاب المضاد ،وتدهور الاقتصاد الإيراني ، وهرب الشاه إلى بغداد مع زوجته ومرافقه بطائرته الخاصة في ٦ ذي الحجة ١٣٧٢هـ(١٦ آب ١٩٥٣م) ، كل ذلك قد أوقف موضوع مشكلة الحدود ، ثم إن عمليات مقاومة الشيوعية في البلدين ، والانصراف إلى معالجة القضايا المالية ، والنفطية قد أجّل موضوع بحث مشكلة الحدود . ثم جاء التقارب بعد عقد حلف بغداد حيث كانت الدولتان من بين أعضائه ، وإن كانت بين المدة والأخرى تُطالب إيران بتثبيت الحدود ووضع الدعائم .

أخذت إيران تُطالب العراق بعد زوال العهد الملكي فيه وقيام النظام الجمهوري بعد حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) بتعديل خطّ الحدود في شطّ العرب ، ليكون خطّ منتصف النهر (خطّ أعمق النقاط) ، ولما لم تجد استجابةً أعلنت عام ١٣٨٥هـ(١٩٦٥م) إلغاء معاهدة ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) ، ثم عادت وأعلنت ذلك الإلغاء مرةً أخرى عام ١٣٨٩هـ ، فتأزّمت العلاقات بين الدولتين .

أقامت العراق ميناءً حديثاً في « أم قصر » ، وأصبحت تُصدّر ثروتها النفطية عن طريق « خور العميا»، وميناء البكر. وتوقّفت المحادثات، ثم استؤنفت ، وكانت معاهدة الجزائر عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) . ثم عادت

فتوقّفت بسبب الثورة الإيرانية وما تلاها من حربٍ بين الدولتين .

وكان الخلاف على مياه الأنهار والأودية التي تجري من إيران نحو العراق حيث كانت إيران تبني سدوداً عليها ، أو تهدر المياه حتى تنقطع عن المدن والقرى العراقية ، وتحدث الشكوى ، وتجري الاتصالات بين الدولتين وغالباً ما كانت تحتجّ إيران بشحّ المياه ، ومن هذه المدن ، « مندلي » و « زرباطية » و « خانقين » وغيرها .

كما كان الخلاف يقع على الثروة النفطية في منطقة« خانقين »في المناطق الداخلية ، وكذلك في المياه الإقليمية ، إذ عرضت إيران استثمار ثرواتها النفطية في مياهها الإقليمية عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) فلاحظت العراق أن العمل يشمل جزءاً من مياهها الإقليمية ، فحدث الخلاف ، وأخيراً جرت اتفاقية في ١٤ ربيع الأول ١٣٨٣هـ (٤ آب ١٩٦٣م) .

اتفاقية الجزائر : أثناء انعقاد مؤتمر القمة للدول الأعضاء في منظمة (الأوبك) في عاصمة الجزائر ، وبمبادرة الرئيس هواري بومدين تقابل مرتين صاحب الجلالة شاهإيران والسيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، وأجريا محادثاتٍ مطولةً حول العلاقات بين العراق وإيران . وقد اتسمت هذه المحادثات التي جرت بحضور الرئيس هواري بومدين ببديع الصراحة الكاملة وبإرادةٍ مخلصةٍ من الطرفين للوصول إلى حلٍّ نهائيٍ دائمٍ لجميع المشكلات القائمة بين بلديها ، وتطبيقاً لمبادىء سلامة التراب ، وحرمة الحدود ، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية . قرّر الطرفان الساميان المتعاقدان .

أولاً : إجراء تخطيطٍ نهائيٍ لحدودهما البرية بناءً على اتفاق القسطنطينية لسنة (١٩١٣م) ومحاضر لجنة تحديد الحدود لسنة (١٩١٤م) .

ثانياً : تحديد حدودهما النهرية حسب خط (تالوك) « أي أعمق النقاط في وسط النهر» .

ثالثاً : بناءً على هذا سيُعيد الطرفان الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة ، ويلتزمان من ثم على إجراء رقابةٍ مُشدّدةٍ على حدودهما المشتركة ، وذلك من أجل وضع حدٍّ نهائيٍ لكل التسلّلات ذات الطابع التخريبي من حيث أتت .

رابعاً : كما اتفق الطرفان على اعتبار هذه الترتيبات المشار إليها أعلاه كعناصر لا تتجزأ لحلٍّ شاملٍ وبالتالي فإن أي مساسٍ بإحدى مقوماتها يتنافى بطبيعة الحال مع روح اتفاق الجزائر . وسيبقى الطرفان على اتصالٍ دائمٍ مع الرئيس هواري بومدين الذي سيقدّم عند الحاجة معونة الجزائر الأخوية من أجل تطبيق هذه القرارات .

وقد قرّر الطرفان إعادة الروابط التقليدية لحسن الجوار والصداقة وذلك على الخصوص بإزالة جميع العوامل السلبية لعلاقاتهما ، وبواسطة تبادل وجهات النظر بشكلٍ مُستمرٍ حول المسائل ذات المصلحة المشتركة ، وتنمية التعاون المتبادل .

ويُعلن الطرفان رسمياً أن المنطقة يجب أن تكون في مأمنٍ من أيّ تدخّلٍ خارجيٍ .

وسيجتمع وزراء الخارجية من العراق وإيران بحضور وزير خارجية الجزائر بتاريخ (١٥ آذار ١٩٧٥م) في طهران وذلك لوضع ترتيبات عمل اللجنة المختلطة العراقية الإيرانية التي أسّست من أجل تطبيق القرارات المتخذة في اتفاقٍ مشتركٍ والمنصوص عليها أعلاه وطبقاً لرغبة الطرفين ستدعى الجزائر إلى اجتماعات اللجنة المختلطة الإيرانية ـ العراقية ، وستُحدّد اللجنة المختلطة جدول أعمالها ، وطريقة عملها ، والاجتماع إذ اقتضى الحال بالتناوب في بغداد وطهران .

وقد قبل صاحب الجلالة شاه إيران بكل سرورٍ الدعوة التي وجّهها إليه سيادة الرئيس أحمد حسن البكر للقيام بزيارةٍ رسميةٍ إلى العراق ، علماً أنه

سيُحدّد تاريخ هذه الزيارة في اتفاقٍ مشتركٍ .

ومن جهةٍ أخرى قبل السيد صدام حسين القيام بزيارةٍ رسميةٍ إلى إيران في تاريخ يُحدّده الطرفان .

وقد أبى صاحب الجلالة الشاهنشاه والسيد صدام حسين إلا أن يُعبّرا بصفةٍ خاصةٍ عن امتنانهما الحار للرئيس هواري بومدين الذي عمل بدافعٍ من العواطف الأخوية وروح النزاهة على إقامة اتصالٍ مباشرٍ بين قادة الدولتين الساميتين ، وساهم بالتالي في بعث عهدٍ جديدٍ للعلاقة بين العراق وإيران ، وذلك تحقيقاً للمصلحة العليا في المنطقة المعنية(١) .

المعاهدة العراقية ـ الإيرانية :

إن رئيس الجمهورية العراقية وصاحب الجلالة الامبراطورية شاهنشاه إيران بالنظر إلى الإرادة المخلصة للطرفين المعبّر عنها في اتفاق الجزائر المؤرخ في ٦ أذار ١٩٧٥م في الوصول إلى حلٍّ نهائيٍ ودائمٍ لجميع المسائل المعلّقة بين البلدين ، وبالنظر إلى أن الطرفين قد أجريا إعادة التخطيط النهائي لحدودهما البرية على أساس اتفاق القسطنطينية ١٩١٣م ، ومحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود لسنة ١٩١٤م ، حدّدا حدودهما النهرية حسب خط أعمق النقاط ، وبالنظر إلى إرادتهما في إعادة الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة ، وبالنظر إلى روابط الجوار ، والروابط التاريخية ، والدينية ، والثقافية ، والحضارية ، ولرغبتهما في توطيد روابط الصداقة وحسن الجوار ، وتعميق علاقاتهما في الميادين الاقتصادية والثقافية وتنمية العلاقات بين أبناء الشعبين ورفعهما إلى مستوى أفضل على أساس مبادىء سلامة الإقليم ، وحرمة الحدود ، وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية ، لعزمهما على العمل

(١) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . السنة الأولى ـ العدد الثالث ـ ١٩٧٥م .
الثورة ـ بغداد ١٩٧٥/٣/٧م ـ الإخاء ـ طهران ١٩٧٥/٣/١٥م .

لإقامة عهدٍ جديدٍ من العلاقات الودّية بين العراق وإيران على أساس الاحترام الكامل للاستقلال الوطني ومساواة العدل في السيادة ، ولإيمانهما بالمشاركة بهذه الصفة في تطبيق المبادىء وتحقيق الأهداف والأغراض المنصوص عليها في ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، فقد قرّرا عقد هذه المعاهدة، وعيّنا مندوبيهما المفوّضين .

رئيس الجمهورية العراقية .
سيادة سعدون حمادي وزير خارجية العراق .
صاحب الجلالة الإمبراطورية شاهنشاه إيران .
سيادة عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

اللذين بعد أن تبادلا وثائق تقويضهما التام ، ووجداها صحيحةً ومُطابقةً للأصول اتفقا على الأحكام التالية :

المادة الأولى : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن الحدود الدولية البرية بين العراق وإيران تلك التي أُجري إعادة تخطيطها على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها الاتفاق الملحق بإعادة تخطيط الحدود البرية وملاحق الاتفاق المذكور آنفاً بهذه المعاهدة .

المادة الثانية : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن الحدود الدولية في شطّ العرب هي تلك التي أُجري تحديدها على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها اتفاق تحديد الحدود النهرية وملاحق الاتفاق المذكور آنفاً المرفقة بهذه المعاهدة .

المادة الثالثة : يتعهّد الطرفان الساميان المتعاقدان بأن يُمارسا على الحدود بوجهٍ دائمٍ رقابةً صارمةً وفعّالةً لغرض وقف جميع التسلّلات ذات الطابع التخريبي من حيث أتت وذلك على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها اتفاق الأمن على الحدود الملحق بهذه المعاهدة .

المادة الرابعة : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن أحكام الاتفاقات الثلاثة وملاحقها المذكور في المواد (١) و (٢) و(٣) من هذه المعاهدة والملحقة

بها ، والتي تُكوّن جزءاً لا يتجزّأ منها هي أحكام نهائية ودائمة وغير قابلة للخرق لأي سببٍ كان ، وتكون عناصر لا تقبل التجزئة لتسويةٍ شاملةٍ ، وبالتالي فإن أي مساسٍ بأي مقوماتٍ من هذه التسوية الشاملة يتنافى بداهةً مع روح اتفاق الجزائر .

المادة الخامسة : في نطاق عدم المساس بالحدود والاحترام الدقيق لسلامة الإقليم الوطني للدولتين يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن خط حدودهما البري والنهري لا يجوز المساس به ، وأنه دائم ونهائي .

المادة السادسة :

١ ـ في حالة حصول خلافٍ يتعلّق بتفسير أو تطبيق هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة وملاحقها فإن هذا الخلاف سيُحلّ في إطار الاحترام الدقيق لخطّ الحدود العراقية الإيرانية المبين في المواد الأولى والثانية المنوّه عنه أعلاه ، وفي إطار مراعاة المحافظة على أمن الحدود العراقية ـ الإيرانية طبقاً للمادة الثالثة أعلاه .

٢ ـ سيحلّ هذا الخلاف من جانب الأطراف السامية المتعاقدة في المرحلة الأولى عن طريق المفاوضات الثنائية المباشرة خلال فترة شهرين اعتباراً من تاريخ طلب أحد الطرفين .

٣ ـ وفي حالة عدم الاتفاق فإن الأطراف السامية المتعاقدة تلجأ خلال مدة ثلاثة أشهرٍ إلى طلب المساعي الحميدة لدولةٍ ثالثةٍ صديقةٍ .

٤ ـ في حالة رفض أحد الطرفين اللجوء إلى المساعي الحميدة أو فشل إجراءاتها فإن الخلاف سيُصار إلى حلّه عن طريق التحكيم خلال مدةٍ لا تزيد على الشهر اعتباراً من تاريخ الرفض أو الفشل .

٥ ـ في حالة عدم اتفاق الطرفين الساميين المتعاقدين حول إجراءات التحكيم فيحق لأحد الطرفين الساميين المتعاقدين اللجوء خلال خمسة عشر

يوماً التي تلي عدم الاتفاق إلى محكمة تحكيم . ولغرض تشكيل محكمة التحكيم لحلّ كل خلافٍ فإن على كلٍ من الطرفين الساميين المتعاقدين تعيين أحد رعاياه محكّماً ، وسيختار هذان المحكّمان محكماً أعلى . . . . وفي حالة عدم تعيين الطرفين الساميين المتعاقدين محكّميهما خلال فترة شهرٍ ابتداءً من تاريخ استلام أحد الطرفين إشعاراً من الطرف الآخر بطلب التحكيم أو في حالة عدم توصّل المحكمين إلى اتفاق حول اختيار المحكّم الأعلى قبل نفاذ المدة المذكورة نفسها فإن للطرف السامي المتعاقد الذي كان قد طلب التحكيم الحق في دعوة رئيس محكمة العدل الدولية إلى تعيين المحكّمين أو المحكّم الأعلى طبقاً لإجراءات محكمة التحكيم الدائمة .

٦ - إن لقرار محكمة التحكيم الدائمة صفة الإلزام والتنفيذ بالنسبة للطرفين المتعاقدين الساميين .

٧ - يتحمّل كل من الطرفين الساميين المتعاقدين نفقات التحكيم مُناصفةً .

المادة السابعة : ستسجّل هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة بها طبقاً للمادة (١٠٢) من ميثاق الأمم المتحدة . يُصادق كل من الطرفين الساميين المتعاقدين على هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة بها طبقاً لقانونه الداخلي . تدخل هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة حيّز التنفيذ اعتباراً من تاريخ تبادل وثائق التصديق الذي سيتمّ في مدينة طهران .

فبناءً عليه فإن الطرفين المفوضين من قبل الطرفين الساميين قد وقّعا هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران

سعدون حمادي وزير خارجية العراق

الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة :

أولاً : الاتفاق المتعلق بالأمن على الحدود بين العراق وإيران .

طبقاً للقرارات التي تضمنّها اتفاق الجزائر المؤرّخ في ٦ آذار ١٩٧٥م ، وحرصاً على تعزيز الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة، ولعزمهما على مُمارسة رقابةٍ صارمةٍ وفعّالةٍ على هذه الحدود لقطع جميع التسلّلات ذات الطابع التخريبي ، وإقامة تعاونٍ وثيقٍ بينهما . . . لهذا الغرض ولمنع أي تسلّلٍ أو مرورٍ غير شرعيٍ عبر حدودهما المشتركة بقصد التخريب ، والعصيان ، والتمرّد .

وبالإشارة إلى اتفاق طهران المؤرّخ في ١٥ آذار ١٩٧٥م ، ومحضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في بغداد في تاريخ ٢٠ نيسان ١٩٧٥م ، ومحضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في الجزائر في تاريخ ٢٠ أيار ١٩٧٥م . فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

١ - يتبادل الطرفان المتعاقدان المعلومات التي تخصّ كل تحرّكٍ للعناصر المخرّبة التي قد تُحاول التسلّل إلى أحد البلدين بقصد ارتكاب أعمال التخريب أو العصيان أو التمرّد في ذلك البلد .
٢ - يتخذ الطرفان المتعاقدان الإجراءات المناسبة المتعلّقة بتحركات العناصر المشار إليها في المادة الأولى ، ويُخبر كل منهما الآخر عن هوية هؤلاء الأشخاص ، ومن المتّفق عليه أنهما يستخدمان كافة الإجراءات لمنعهم من ارتكاب أعمال الهدم ، وتتخذ الإجراءات نفسها تجاه الأشخاص الذين يتجمعون في إقليم أحد الطرفين المتعاقدين بقصد ارتكاب أعمال الهدم أو التخريب في إقليم الطرف الآخر .

المادة الثانية :

يسري التعاون المتعدد الأشكال الذي أُقيم بين السلطات المختصة للطرفين المتعاقدين والتي تتعلّق بغلق الحدود لغرض منع تسلّل العناصر المخرّبة على صعيد السلطات الحدودية للبلدين ويُواصل ذلك حتى أرفع المستويات لوزارات الدفاع والخارجية والداخلية لكلٍ من الطرفين .

المادة الثالثة :

جرى تعيين المنافذ المحتملة التي تسلكها العناصر المخرّبة على الوجه التالي :

١ - منطقة الحدود الشمالية .

من نقطة التقاء الحدود العراقية - التركية - الإيرانية إلى خانقين - قصر شيرين (داخل) - ٢١ نقطة - .

٢ - من منطقة الحدود الجنوبية من خانقين - قصر شيرين (خارج) وحتى انتهاء الحدود العراقية - الإيرانية ١٧ نقطة .

٣ - إن نقاط التسلّل المذكورة في أعلاه معيّنة على وجه التفصيل في الملحق .

٤ - وتدخل في صنف النقاط المعينة في أعلاه أي نقطة تسلّلٍ أخرى يجري اكتشافها في المستقبل وتقتضي غلقها ومراقبتها .

٥ - تكون كافة نقاط المرور الحدودية باستثناء تلك التي تخضع حالياً لرقابة السلطات الجمركية ممنوعةً من كل اجتياز .

٦ - بالنظر إلى أهمية تنمية العلاقات المتعددة الأشكال بين البلدين الجارين ، فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن يجري في المستقبل وفقاً لاتفاق الطرفين إنشاء نقاط أخرى للعبور تكون تحت رقابة السلطات الجمركية .

المادة الرابعة :

١ - يتعهد الطرفان المتعاقدان بتخصيص الوسائل البشرية والمادية اللازمة لغرض غلق الحدود ورقابته بصورةٍ فعّالةٍ بوجهٍ يمنع كل تسلّلٍ للعناصر المخربة من نقاط المرور المذكورة في المادة الثالثة في أعلاه .

٢ - وفي الحالة التي يعتبر الخبراء فيها . . . . نتيجة الخبرة المكتسبة في الموضوع ، أنه يجب أن تتخذ إجراءات أكثر فعّاليةً يجري تحديد طرق ذلك من خلال الاجتماعات الشهرية للسلطات الحدودية للبلدين أو خلال اللقاءات التي تتم عند الحاجة بين تلك السلطات .

وتُبلّغ نتائج اللقاءات المذكورة آنفاً ، وكذلك محاضرها إلى السلطات العليا لكلٍ من الطرفين . وفي حالة حصول خلافٍ بين السلطات الحدودية يجتمع رؤساء الدوائر المعنيون سواء في بغداد أو في طهران للتقريب بين وجهات النظر ، وتُدرج نتائج اجتماعاتهم في محضر .

المادة الخامسة :

١ ـ يُعهد بالأشخاص المخربين المقبوض عليهم إلى السلطات المختصة للطرف الذي جرى القبض عليهم في إقليمه ، ويُطبّق عليهم التشريع النافذ .

٢ ـ يُعلم الطرفان المتعاقدان بعضهما بعضاً بالإجراءات التي اتخذت بشأن الأشخاص المشار إليهم في الفقرة ـ ١ ـ في أعلاه .

٣ ـ في حالة عبور الحدود من قبل الأشخاص المخربين الهاربين يجري الإخبار عن ذلك إلى سلطات البلد الآخر التي تتخذ جميع الإجراءات اللازمة للمساعدة في إلقاء القبض على الأشخاص المذكورين آنفاً .

المادة السادسة :

يجوز عند الحاجة وباتفاق الطرفين المتعاقدين أن تُقرّر مناطق مُحرّمة لغرض منع الأشخاص المخربين من تحقيق أغراضهم .

المادة السابعة :

لغرض إقامة وتطوير تعاونٍ مُفيدٍ مُتبادلٍ بين الطرفين تُشكّل لجنة مختلطة دائمة مكونة من رؤساء الإدارات الحدودية . . . ومن مُمثّلي وزارة الخارجية لكلا البلدين ، وتعقد اللجنة اجتماعين سنوياً (في بداية كل نصف سنةٍ من التقويم الغريغوري) على أنه يجوز بناءً على طلب أحد الطرفين عقد اجتماعاتٍ استثنائيةٍ للنظر في أفضل استخدامٍ للوسائل المعنوية والمادية بقصد غلق الحدود ومُراقبتها ، وكذلك فعّاليةً وحسن تطبيق الأحكام الأساسية للتعاون المنصوص عليه في هذا الاتفاق .

المادة الثامنة :

إن أحكام هذا الاتفاق المتعلّقة بغلق الحدود ومُراقبتها لا تمسّ الاتفاقات الخاصة بين العراق وإيران المتعلّقة بحقوق الرعي ورجال الحدود .

المادة التاسعة :

بقصد ضمان أمن الحدود النهرية المشتركة في شطّ العرب ، ومنع تسلّل العناصر المخرّبة من كلا الطرفين يتخذ الطرفان المتعاقدان إجراءاتٍ وافيةً ولاسيما بإقامة مخافر للمراقبة تتبعها قوارب الدورية .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م .

سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

لقد تمّ التوقيع على هذا الاتفاق بحضور

سيادة عبد العزيز بوتفليقة عضو مجلس قيادة الثورة ـ وزير خارجية الجزائر .

ثانياً : اتفاق إعادة تخطيط الحدود البرية بين العراق وإيران .

طبقاً لما تقرّر في بلاغ الجزائر المؤرخ في ٦ آذار ١٩٧٥م اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

أ ـ يُؤكّد الطرفان المتعاقدان ويعترفان بأن إعادة تخطيط للحدود الدولية بين العراق وإيران قد أُجريت على الأرض من جانب اللجنة المختلطة العراقية ـ الإيرانية ـ الجزائرية على أساس ما يلي :

١ ـ اتفاق القسطنطينية لسنة ١٩١٣م ، ومحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود التركية ـ الفارسية لسنة ١٩١٤م .

٢ ـ اتفاق طهران المؤرخ في ١٧ آذار ١٩٧٥م .

٣ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع عليه في بغداد في ٢٠ نيسان ١٩٧٥م ، والذي وافق عليه . . . ضمن أمورٍ أخرٍ على محضر اللجنة

المكلفة بإعادة تخطيط الحدود البرية الموقع عليه في طهران في ٣٠ آذار ١٩٧٥م .

٤ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقع عليه في الجزائر ٢٠ أيار ١٩٧٥م .

٥ ـ محضر وصفي لأعمال تخطيط الحدود البرية بين العراق وإيران الذي حرّرته اللجنة المكلفة بتخطيط الحدود البرية المؤرّخ في ١٣ حزيران ١٩٧٥ ، ويُؤلّف هذا المحضر الملحق رقم (١) الذي يكون جزءاً من هذا الإتفاق .

٦ ـ خرائط من مقياس ١ / ٥٠,٠٠٠ التي رُسم عليها خط الحدود البرية ، وكذلك مواقع الدعامات القديمة والجديدة ، وتُؤلّف هذه الخرائط الملحق رقم (٢) الذي يكون جزءاً لا يتجزأ من هذا الاتفاق .

٧ ـ بطاقات الوصف للدعامات القديمة والجديدة .

٨ ـ وثيقة متعلّقة بإحداثيات الدعامات الحدودية .

٩ ـ صور جوية لتخوم الحدود العراقية ـ الإيرانية حيث يثبت عليها مواقع الدعامات القديمة والجديدة .

ب ـ يتعهد الطرفان بإكمال وضع علامات الحدود بين الدعامات ١٤ و ١٥ خلال فترة شهرين .

جـ ـ يتعاون الطرفان المتعاقدان على وضع صورٍ جويةٍ تخصّ الحدود البرية العراقية ـ الإيرانية لغرض استعمالها لرسم خطّ الحدود المذكورة آنفاً على خرائط من مقياس ١ / ٢٥,٠٠٠ مع تأشير مواقع الدعامات ، وكل ذلك في مدةٍ لا تتجاوز سنةً اعتباراً من ٢٠ أيار ١٩٧٥م لذلك تقرّر على وضع المعاهدة التي يكون هذا الاتفاق جزءاً لا يتجزأ منها ، وضع التنفيذ .

وسيجري نتيجة لذلك تعديل المحضر الوصفي للحدود البرية المذكورة في الفقرة (٥) في أعلاه .

وستحلّ الخرائط الموضوعة طبقاً لأحكام الفقرة (جـ) الحالية محلّ جميع الخرائط الموجودة .

المادة الثانية :

تتبع الحدود الدولية بين العراق وإيران الخط المبيّن في المحضر الوصفي والمرسوم على الخرائط المذكورة في الفقرتين (٥) و(٦) من المادة الأولى في أعلاه مع أخذ أحكام الفقرة (جـ) من المادة المذكورة بنظر الاعتبار .

المادة الثالثة :

إن خطّ الحدود المُعرّف في المادتين الأولى والثانية من هذا الاتفاق يُحدّد كذلك باتجاهٍ عمودي المجال الجوي وباطن الأرض .

المادة الرابعة :

يُنشيء الطرفان المتعاقدان لجنةً مختلطةً عراقيةً ـ إيرانيةً لتسوية وضع الأموال العقارية والمنشأت الفنية أو غيرها التي تتغيّر تبعيتها نتيجةً لإعادة تخطيط الحدود العراقية ـ الإيرانية بروح من حسن الجوار والتعاون ، إما بطريق الاسترجاع بالشراء ، وإما بطريق التعويض ، وإما بأية صيغةٍ أخرى وافيةٍ بالمرام ، وذلك لتجنّب أي مصدرٍ للنزاع . . . ستقوم اللجنة المذكورة لتسوية وضع الممتلكات العامة خلال مدة شهرين، أما بخصوص المطالبات المتعلّقة فتقدّم اللجنة خلال فترة لا تتجاوز شهرين . علماً بأن تسوية وضعية هذه الممتلكات الخاصة ستتم خلال مدة ثلاثة أشهرٍ التالية لذلك .

المادة الخامسة :

١ ـ أنشئت لجنة مختلطة من السلطات المختصة للدولتين لغرض الكشف على دعائم الحدود والتثبُّت من حالتها .

ويجري هذا الكشف سنوياً في شهر أيلول من قبل اللجنة المذكورة آنفاً طبقاً لجدولٍ زمنيَ تضعه اللجنة قبل ذلك الوقت بفترةٍ مناسبةٍ .

٢ ـ يجوز لأيٍ من الطرفين المتعاقدين أن يطلب تحريرياً من الطرف الآخر قيام اللجنة في أي وقتٍ بكشفٍ إضافيٍ على الدعامات وفي هذه الحالة يُشرع

بالكشف خلال مدةٍ لا تتجاوز ثلاثين يوماً من تاريخ إبلاغ الطلب .

٣ ـ تقوم اللجنة المشتركة في حالات الكشف بتحرير المحاضر المتعلّقة به وترفعها مُوقّعةً من قبلها إلى السلطات المختصّة في كلا الدولتين ، وللجنة أن تقرّر تشييد دعاماتٍ جديدةٍ عند الحاجة بالمواصفات نفسها للدعامات الحالية شريطة أن لا يُؤدّي ذلك إلى تغيير سير خط الحدود . وفي هذه الحالة على السلطات المختصة للدولتين أن تتحقق من الدعامات وإحداثياتها على الخرائط والوثائق ذات العلاقة التي ورد ذكرها في المادة الأولى من هذا الاتفاق ، وتقوم تلك السلطات بوضع الدعامات المذكورة آنفاً في محلها بإشراف اللجنة المختلطة التي تقوم بتحرير محضر عن الأعمال التي أنجزت وترفعه إلى السلطات المختصة في كلا الدولتين لكي يُلحق بالوثائق المذكورة في المادة الأولى من هذا الاتفاق .

٤ ـ يتحمّل الطرفان المتعاقدان بصورةٍ مشتركةٍ كلفة صيانة الدعامات .

٥ ـ على اللجنة المختلطة أن تُعيد وضع الدعامات المنقولة في محلّها ، وأن تُعيد تشييد الدعامات المدمّرة أو المفقودة وذلك على أساس الخرائط والوثائق المذكورة في المادة الأولى من هذا الاتفاق مع الحرص على عدم تغيير موقع الدعامات في جميع الأحوال، وتحرّر اللجنة المختلطة في هذه الحالات محضراً عن الأعمال التي أنجزت ، وترفعه إلى السلطات المختصة في كلا الدولتين .

٦ ـ تتبادل السلطات المختصة في كلا الدولتين المعلومات المتعلّقة بحالة الدعامات ، وذلك لتأمين أفضل السبل والوسائل لحمايتها وصيانتها .

٧ ـ يتعهد الطرفان المتعاقدان باتخاذ جميع التدابير اللازمة لتأمين حماية الدعامات ومقاضاة الأفراد الذين ارتكبوا جريمة تحويل الدعامات المذكورة آنفاً عن موقعها أو إتلافها أو تدميرها .

المادة السادسة :

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أحكام هذا الاتفاق الذي جرى توقيعه

دون أي تحفظٍ يُنظّم من الآن فصاعداً أية مسألةٍ حدوديةٍ بين العراق وإيران ، ويتعهدان رسمياً أن يحترما على هذا الأساس حدودهما المشتركة والنهائية .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

د. سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

ثالثاً : اتفاق تحديد الحدود النهرية بين العراق وإيران .

طبقاً لما تقرّر في بلاغ الجزائر المؤرخ في ٦ آذار ١٩٧٥م اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

يؤكد الطرفان المتعاقدان ويعترفان بأن تحديد الحدود النهرية الدولية بين العراق وإيران قد أُجري حسب خط أعمق النقاط من قبل اللجنة المختلطة العراقية ـ الإيرانية ـ الجزائرية على أساس ما يلي :

١ ـ اتفاق طهران المؤرخ في ١٧ آذار ١٩٧٥م .

٢ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في بغداد في ٢٠ نيسان ١٩٧٥م الذي وافق ضمن أمور أخرى على محضر اللجنة المكلّفة بتحديد الحدود النهرية الموقّع على ظهر الباخرة العراقية (الثورة) في شطّ العرب في ١٦ نيسان ١٩٧٥م .

٣ ـ الخرائط المائية المشتركة التي بعد التحقّق منها على الأرض وتصحيحها ونقل الإحداثيات الجغرافية لنقاط خطّ الحدود في سنة ١٩٧٥م على تلك الخرائط وقّع عليها الفنيون المختصون بعلم المياه من اللجنة الفنية المختلطة ، كما صدّقها رؤساء وفود العراق وإيران والجزائر في اللجنة ، إن الخرائط المذكورة آنفاً والمحددة في أدناه قد أُلحقت بهذا الاتفاق ، وتكون جزءاً لا يتجزأ منه .

خريطة رقم (١) مدخل شطّ العرب رقم ٣٨٤٢ المنشورة من قبل الاميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٢) السدّ الداخلي في نقطة (كيدا) رقم ٣٨٤٣ المنشورة من قبل الاميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٣) نقطة (كيدا) إلى (عبادان) رقم ٣٨٤٤ المنشورة من قبيل الأميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٤) (عبادان) إلى جزيرة (أم طويلة) رقم ٣٨٤٥ المنشورة من قبل الأميرالية البريطانية .

المادة الثانية :

١ - يتبع خط الحدود في شطّ العرب (التالوك) أي خط وسط المجرى الرئيسي الصالح للملاحة عند أخفض منسوب لقابلية الملاحة ابتداءً من النقطة التي تنزل فيها الحدود البرية بين البلدين في شط العرب حتى البحر .

٢ - إن خطّ الحدود المعرّف على الوجه المذكور في الفقرة الأولى في أعلاه يتغيّر مع التغيّرات التي يرجع أصلها إلى أسبابٍ طبيعيةٍ في المجرى الرئيسي الصالح للملاحة ولا يتغيّر خطّ الحدود بالتغيرات الأخرى ما لم يعقد الطرفان المتعاقدان اتفاقاً خاصاً لهذا الغرض .

٣ - يجري التحقّق من التغيّرات المذكورة في الفقرة (٢) في أعلاه بصورةٍ مشتركةٍ من قبل الأجهزة الفنية المختصة للطرفين المتعاقدين .

٤ - في حالة حدوث تحوّلٍ في مجرى النهر أو في مصبّ شطّ العرب بسبب ظواهر طبيعية وأدّى ذلك التحوّل إلى تغيّرٍ في العائدة الوطنية لإقليم الدولتين أو الأموال غير المنقولة أو المباني والمنشآت الفنية أو غيرها فإنّ خطّ الحدود يستمرّ في كونه (التالوك) طبقاً لما نصّت عليه الفقرة (١) في أعلاه .

٥ - ما لم يُقرّر الطرفان باتفاقٍ مشتركٍ بأن خطّ الحدود يجب أن يتبع من الآن فصاعداً المجرى الجديد يجب إعادة المياه على نفقة الطرفين إلى المجرى كما

كان عليه في سنة ١٩٧٥م بالاستناد إلى ما هو مُشار إليه في الخرائط الأربع المشتركة والمنصوص عليها في الفقرة (٣) من المادة الأولى أعلاه إذا ما طلب أحد الطرفين خلال السنتين اللتين تعقبان اللحظة التي تحقّق فيهـا لدى أحد الطرفين حدوث التحول وفي غضون ذلك يحتفظ الطرفان بحقّهما في الملاحة وفي استخدام المياه في المجرى الجديد .

المادة الثالثة :

١ ـ إن الحدود النهرية في شطّ العرب بين إيران والعراق ، كما جاء تعريفها في المادة الثانية في أعلاه قد رُسمت بالخطّ المبيّن في الخرائط المشتركة المذكورة في الفقرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه .

٢ ـ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على اعتبار أن نقطة انتهاء الحدود النهرية تقع على خطٍ مستقيمٍ يُوصل بين نهايتي الضفتين عند شطّ العرب في أخفض مستوى للجزر ـ أخفض مستوى للماء بالحساب الفلكي . وقد رسم هذا الخط المستقيم على الخرائط المائية المشتركة المذكورة في الفقـرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه .

المادة الرابعة :

إن خطّ الحدود المعرّف في المؤاد (١) و (٢) و (٣) من هذا الاتفاق يُحدّد كذلك باتجاهٍ عموديٍ المجال الجوي وباطن الأرض .

المادة الخامسة :

يُؤلّف الطرفان المتعاقدان لجنةً مختلطةً عراقيـةً ـ إيرانيـةً تُنظّم في مـدة شهرين وضعِ الأموال العقارية والمباني والمنشآت الفنية أو غيرها ، التي قد تتغير تبعيتها نتيجةً لتحديد الحدود النهرية العراقية ـ الإيرانية إما بطريق الشراء ، وإما بطريق التعويض ، وإما بأية صيغةٍ أخرى مُناسبةٍ وذلك لتجنّب أي مصدرٍ للنزاع .

المادة السادسة :

بالنظر إلى إنجاز أعمال المسح في شطّ العرب ووضع الخريطة المائية المشتركة المذكورة في الفقرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على القيام بمسحٍ مشتركٍ لشطّ العرب مرةً كل عشر سنوات اعتباراً من تاريخ توقيع هذا الاتفاق ، ويحقّ لأيٍ من الطرفين أن يطلب القيام بصورةٍ مُشتركةٍ بمسوحاتٍ جديدةٍ قبل انتهاء مدة العشر سنوات .
ويتحمّل كل من الطرفين المتعاقدين نصف نفقات المسح .

المادة السابعة :

١ ـ تتمتع السفن التجارية والحكومية والعسكرية للطرفين المتعاقدين بحرية الملاحة في شطّ العرب وأيّاً كان الخط الذي يُحدّد البحار الإقليمية للبلدين في جميع أجزاء القنوات القابلة للملاحة التي تقع في البحر الإقليمي والتي تُؤدّي إلى مصبّ شطّ العرب .
٢ ـ تتمتع السفن التابعة لدولةٍ ثالثةٍ والمستخدمة لأغراض التجارة بحرية الملاحة في شطّ العرب على قدم المساواة وبلا تمييزٍ وأيّاً كان الخطّ الذي يُحدّد البحار الإقليمية للبلدين في جميع أجزاء القنوات الصالحة للملاحة والكائنة في البحر الإقليمي المؤدّي إلى مصبّ شطّ العرب .
٣ ـ يجوز لأيٍ من الطرفين المتعاقدين أن يأذن بدخول شط العرب للسفن العسكرية الأجنبية لزيارة موانئه والتي لاتعود هذه السفن لبلدٍ في حالة عداءٍ ، أو نزاعٍ مسلحٍ ، أو حربٍ مع أحد الطرفين المتعاقدين ، وعلى أن يجري إبلاغ الطرف الآخر مُسبقاً بمدة لا تقلّ عن ٧٢ ساعة .
٤ ـ يمتنع الطرفان المتعاقدان في جميع الأحوال من الإذن بدخول شطّ العرب للسفن التجارية التي تعود لبلد في عداءٍ ، أو نزاعٍ مسلحٍ ، أو حربٍ مع أحد الطرفين .

المادة الثامنة :

١ ـ يجري وضع القواعد المتعلّقة بالملاحة في شطّ العرب من قبل لجنةٍ مختلطةٍ

عراقيةٍ ـ إيرانيـةً حسب مبدأ الحقوق المتساوية في الملاحة للدولتين .

٢ ـ يُؤلّف الـطرفان المتعـاقدان لجنـةً لوضـع القواعـد المتعلّقة بمنـع التلوّث والسيطرة عليه .

٣ ـ يتعهّد الطرفان المتعاقدان بعقد اتفاقاتٍ لاحقةٍ في شأن المسائل المذكورة في الفقرتين الأولى والثانية من هذه المادة .

المادة التاسعة :

يعترف الطرفان المتعاقدان بأن شطّ العرب هو بصـورةٍ رئيسيةٍ طـريق للملاحة الدولية ، ولذلك فإنهما يلتزمان بالامتناع عن كل استغلالٍ من شأنه أن يُعيق الملاحة في شطّ العرب والبحر الإقليمي لكلٍ من البلدين في جميع أجزاء القنوات القابلة للملاحة الكائنة في البحر الإقليمي والمؤدّية إلى مصبّ شطّ العرب .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م .

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

لقد تمّ التوقيع على هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة وملاحقها بحضور سيادة عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر[١] .

غير أن هذه الاتفاقية كما سبق ـ أن ذكرنا ـ قد أُلغيت بقيام الحرب بين العراق وإيران في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) ، وادعى العراق أنه قد وقّع هذه الاتفاقية مكرهاً ، ومعنى هذا أنها لم تُطبّق سوى خمس سنوات ونصف السنة .

٤ ـ **احتلال الكويت** : تعود فكرة ضمّ الكويت إلى العراق إلى قيـام الاتحاد العربي الذي شمل العراق والأردن ، إذ لاحظ المخططون أن ميزانية

---

(١) مجلة دارسات الخليج والجزيرة العربية . السنة الأولى ـ العدد الرابع . رمضان ١٣٩٥هـ .

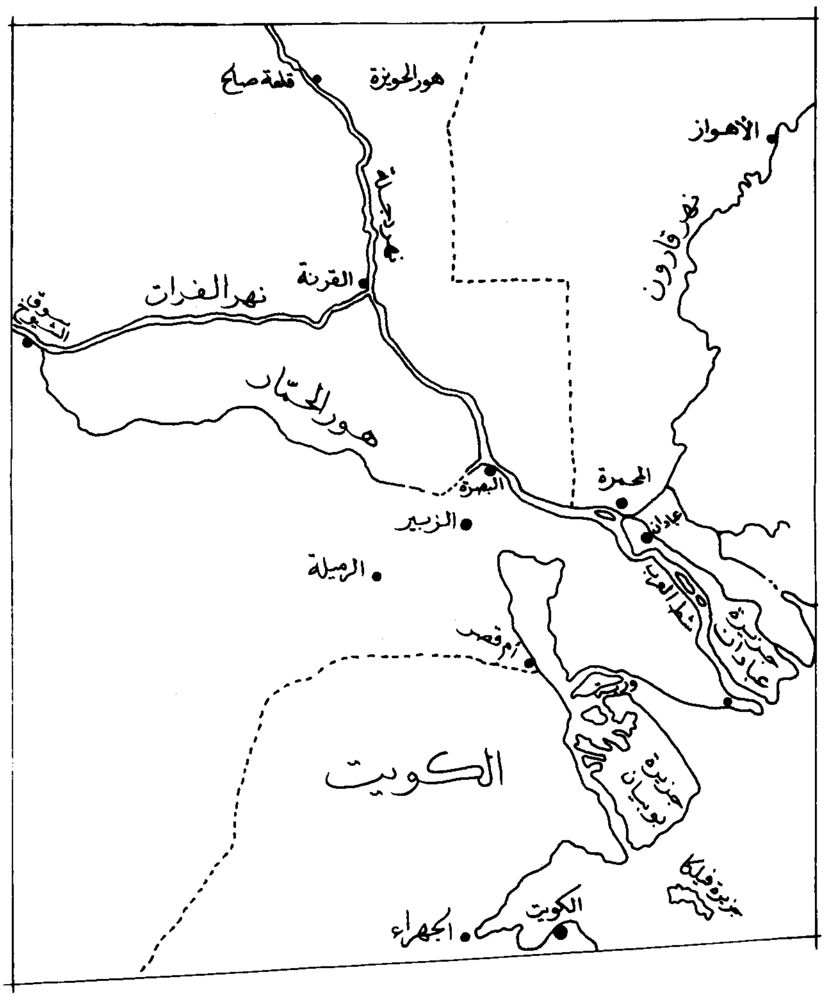

قلعة صالح
هور الحويزة
الأهواز
نهر قارون
نهر دجلة
القرنة
نهر الفرات
سوق الشيوخ
هور الحمار
البصرة
الزبير
الرميلة
المحمرة
عبادان
شط العرب
جزيرة عبادان
أم قصر
وربة
جزيرة بوبيان
الكويت
الكويت
الجهراء
جزيرة فيلكا

الاتحاد ضعيفة، وأن الطريقة المثلى هي ضمّ الكويت ذات الإمكانات الضخمة إلى الاتحاد لتحسين الميزانية ، ولرفع مستوى الشعب في البلدان التي يتألّف منها الاتحاد . وقد قويت هذه الفكرة عندما طلب وزير الخارجية البريطاني (سلوين لويد) من الحكومة العراقية أن تتحمّل مسؤوليتها ، وتأخذ على عاتقها دفع المساعدة التي تُقدّمها الحكومة البريطانية إلى الأردن بدلاً منها .

وصل (سلوين لويد) وزير الخارجية البريطانية إلى بغداد في ٢٧ رجب ١٣٧٥هـ (٩ آذار ١٩٥٦م) لحضور الاجتماع الاستشاري للمجلس الدائم لميثاق بغداد ، ففاتحه نوري السعيد بضرورة إعلان استقلال الكويت تمهيداً لضمّها إلى حلفٍ يقوم بين العراق والأردن . فلما رجع (سلوين لويد) إلى لندن عرض الأمر على مجلس الوزراء البريطاني ، فخوّله المجلس مُفاوضة الحكومة العراقية لتحديد حدود الكويت ، ثم تمنح انكلترا الكويت استقلالها المنشود ، ويترك لها بعدئذٍ حرية الانضمام إلى الحلف المزمع قيامه .

وسافر توفيق السويدي نائب رئيس الوزارة العراقية إلى (شتورة) في لبنان في رمضان ١٣٧٦هـ(نيسان ١٩٥٧ م) حيث يصطاف أمير الكويت عبد الله السالم الصباح ، ودخل معه في مفاوضاتٍ سريةٍ طويلةٍ وهامةٍ حول ضرورة دخول الكويت في الاتحاد المرتقب بين العراق والأردن ، على ألا يمسّ هذا الدخول الوضعين المشيخي والداخلي لإمارة الكويت ، فأجاب الأمير : إنّه لا يملك حرية التصرّف في أمرٍ خطيرٍ كهذا بجرّة قلمٍ ، إذ لا بدّ من استشارة الأسرة .

وعمل نوري السعيد على إقناع أمير الكويت للقيام بزيارة العراق زيارةٍ رسميةٍ للوقوف على المشروعات العمرانية الحديثة ، والنهضة ، وقد وافق أمير الكويت على هذا الزيارة ، وتوجّه إلى العراق في ٢١ شوال ١٣٧٧هـ (١٠ أيار ١٩٥٨م) ، فاستُقبل استقبال الملوك ولما فاتحه نوري السعيد بموضوع الانضمام إلى الاتحاد ، أجابه لا بدّ من الاتصال بالإنكليز ، واستطلاع رأيهم قبل كل شيءٍ ، وهذا ما تقتضيه المعاهدة المبرمة بين الطرفين . وكان أمير

الكويت في مخططه زيارة دمشق والقاهرة ، وحاول نوري السعيد أن يثنيه عن عزمه ، فلم يُفلح ، وانتقل الأمير من بغداد إلى دمشق فالقاهرة .

وفي ٢٣ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (١٠ حزيران ١٩٥٨م) سافر وزير الأنباء والتوجيه العراقي برهان الدين باش أعيان ومعه رئيس الديوان الملكي عبد الله بكر إلى الرياض ، وفاوضا ولي العهد ، وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود في ضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي فلم يُمانع فيما إذا كانت الكويت ترغب ذلك ، واشترط حفظ كرامة شيوخ الكويت لما لهم من فضلٍ على آل سعود .

وزار السفير البريطاني في بغداد توفيق السويدي وزير خارجية الاتحاد في داره في ٢٤ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١١ تموز ١٩٥٨م) ، وأخبره أن الحكومة البريطانية تُوافق على دخول الكويت في الاتحاد العربي بعد حصولها على الاستقلال ، وأن جميع التفصيلات ستُبحث في لندن يوم ٨ المحرم عام ١٣٧٨هـ (٢٤ تموز ١٩٥٨م) ، ولكن الثورة قامت في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٨هـ فقضت على الاتحاد ، وبالتالي قضت على الأفكار التي كانت تُراود رجال ذلك الاتحاد .

إذن كانت فكرة ضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي من وجهة نظرٍ ماديةٍ بحتةٍ دون النظر إلى فكرة الوحدة العربية أو الجانب الوطني ، وفي الحقيقة كانت الرغبة في الحصول على الأموال الكويتية الضخمة ، وكانت انكلترا تُؤيّد ذلك ، وتدفع إليه .

وحصلت الكويت على الاستقلال عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) .

أيام عبد الكريم قاسم : بعد أن تفرّد عبد الكريم قاسم بالسلطة ، وسار بالعراق بسياسةٍ تختلف عن سياسة بقية البلدان العربية ، لذا فقد عُزلت بلاده عن شقيقاتها ، وأخذ الهجوم الإعلامي يلعب دوره بين الطرفين ، وتأثّرت العراق بهذه العزلة اقتصادياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وعنّ على بال حاكم العراق أن يضمّ إليه الكويت ليسدّ العجز الذي يُعاني منه العراق.

ولكن خشي أن يتقدّم نحو الجنوب ، فيتحرّك الجيش السوري نحو العراق من ناحية الشمال . لذا رغب أن يأخذ الضوء الأخضر من الحكم السوري . وبعد تحرّكٍ سياسيٍ التقى ناظم القدسي رئيس الجمهورية السورية مع عبد الكريم قاسم في الرطبة بالعراق على مقربةٍ من الحدود بين الدولتين ، ولم يُعارض الرئيس السوري في ضمّ الكويت للعراق . وأحسّ أمير الكويت بما يُهيّأ له ، فتحرّك ، وتمّ عقد مؤتمرٍ في جنيف . ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى أُطيح بعبد الكريم قاسم في ١٥ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٣م) وبعد شهرٍ زال حكم ناظم القدسي في دمشق أو ما كان يُعرف بحكم الانفصال ، وجيء بحزب البعث إلى السلطة في كلا البلدين مع التقاء بين البعثيين والناصريين في سوريا .

إذن كان الدافع لعبد الكريم قاسم في ضمّ الكويت إلى العراق دافعاً مادياً صرفاً ، ولم يكن هناك تفكير بالوحدة ، أو نازع وطني ، أو حرص على أموال الأمة التي تُبدّد في المحرمات أو تودع في المصارف الأجنبية لمصلحة حفنةٍ قليلةٍ ، فالوحدة تتمّ بالتفاهم ، والإيمان بضرورتها لا بالاحتلال والعمل العسكري ، وكانت انكلترا وراء ذلك أيضاً ، وتدفع هذا التيار ، وكان نفوذها هو القوي في البلدين العراق وسوريا إضافةً إلى الكويت .

أيام صدام حسين : مرّت مدة على بعض البلدان الإسلامية ، وهي تُقوّي جيوشها ، وتستعدّ للقتال الذي قد يقع مع دولة اليهود في فلسطين ، ولم تتعرّض بعض هذه الدول لأزماتٍ أو لم تتعرّض لحروبٍ مباشرةٍ كما حدث لمصر التي خضعت لاعتداءاتٍ ثلاثةٍ في مدةٍ تقلّ عن عقدين من الزمن ، العدوان الثلاثي في ٢٥ربيع الأول١٣٥٦هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م)،وحرب ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م) وحرب ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) لذا فقد تأثّرت قواتها، وتراكمت عليها الديون، وبصورةٍ أقلّ من ذلك قليلاً سوريا التي تعرّضت للاعتداءين الأخيرين اللذين خضعت لهما مصر ، وهاتان الدولتان مصر وسوريا هما الرئيسيتان في الصراع مع اليهود بحكم الجوار . أما الدول المجاورة الأخرى وهما لبنان والأردن

فتعدّان أقلّ شأناً نسبياً نتيجة عدد السكان ، وإن كـان الجيش الأردني على درجةٍ من التدريب والروح المعنوية العالية . وإذا كان العراق قد شارك بالقتال فعلياً وأرسل قواتٍ ساهمت مساهمةً فعّالةً في الحرب ، وكان لها أثرها البارز إلا أن جيشه لم يتعرّض لضربةٍ قاسيةٍ ، وكذا شاركت المغرب ، والدول العربية الأخرى ، والتي لم تُشارك بالقتال عسكرياً فقد شاركت مادياً وقدّمت المزيد . وإذا كانت بعض الدول ذات إمكاناتٍ بشريةٍ كالمغرب ، والجزائر ، والسودان غير أن استقلالها جاء مُتأخّراً ، كما أن استعدادها كان على درجةٍ أقلّ نتيجة بُعد الأرض ، وعدم التماس المباشر ، والخلاصة فإنّ الجيش العراقي كان يستعدّ ، ويُشارك ، وتُسعفه إمكاناته النفطية ، وعدد سكانه ، ولم يتعـرّض لأذىً لذا بقي قوياً ، وربما يُخشى بأسه ، أو هكذا كانت دعاوي المدّعين .

وكانت إيران ذات جيشٍ قويٍ ساعدت انكلترا في بنائه، وأمريكا في تسليحه ، وأنفق عليه الشاه الكثير ، وساعد على ذلك ضخـامة السكـان ، والثروة النفطية التي تزوّد الحكومة بما تحتاج إليه من الأموال . وقامت الثورة في إيران التي عُرفت بالثورة الإسلامية ، وإذا كان قد أُبعد من القوات العسكرية بعض الضباط أصحاب الكفاءات فخسر الجيش بذلك بعض طاقاته إلاّ أن الثورة عملت من ناحيةٍ ثانيةٍ على تقـوية جيشهـا لحمايـة نفسها ضـدّ أعداء الداخل ، وأعداء الخارج ، والذين توقّعت أن يكونوا كثيرين جداً .

كانت الخطة الاستعمارية يومذاك تعمـل عى محورين ، المحـور الأول ضرب أية قوةٍ للمسلمين ، إذ يجب ألا يقوى جيش وحده أو أيّة جيوشٍ مُجتمعةٍ خوفاً من أن تُهدّد أمن دولة اليهود في فلسطين ، أو تستطيع الخروج عن إرادة الدول الاستعمارية الصليبية ، وقد رأى المستعمرون من هذا المنطلق أن يضرب الجيشان العراقي والإيراني بعضهما بعضاً حتى تزول قوتهما معاً ، وعلى هذا أخذت الدول الاستعماريـة ومن يسير في فلكهـا ، ولو كـان من الدول العربية أو الإسلامية تُساعد أحد الطرفين أو كلاهما معاً ، وتمدّه بالسلاح والمال وغيره للوصول إلى الهدف التي تُريده الدول الكبرى ، سواء أكـانت الدول

الصغرى تعرف ذلك أو لا تعرف فهي بحكم تبعيتها تسير ضمن اللعبة المرسومة ، وتُؤدّي دورها حتى بلغ عدد الدول الداعمة لأحد الطرفين أو لهما معاً اثنتين وخمسين دولةً . وليس غريباً أن تكون دولة من هذه الدول من أكبر أعداء أحد الطرفين وتُجاهر بعدائه ، ثم تمدّه سرّاً . واستمرّت الحرب بين الفريقين زهاء ثمان سنواتٍ حتى كلّ الطرفان ، وفقدا الكثير من قوة جيشيهما ، ومن إمكاناتهما ، وتعطّلت المشروعات الحيوية ، وملّ الناس في كلا الدولتين .

أما المحور الثاني فهو بثّ التفرقة بين المسلمين ، وقد أخذ الآن صفة الخلاف بين السنة والرافضة ، ويبدو أن المخطط الموضوع كان يهدف إلى مدّ جسرٍ رافضيٍ يشمل إيران ، وجنوبي العراق ، وشمال بلاد الشام (سوريا وجنوبي لبنان) إضافةً إلى إقامة دويلاتٍ صغيرةٍ للنصارى ، والنصيرية ، والدروز ، إلى جانب دولة اليهود القائمة في فلسطين ، وتكون هذه الدويلات إثارةً للخلافات وقت الضرورة ، ومجالاً للتدخّل الدولي ، ومركزاً للفتنة والفساد . وبذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب ، وبينهما الجسر الرافضي ، ويضطر الشمالي دائماً لطلب الدعم الاستعماري الغربي خوفاً من المعسكر الشرقي ، ويكون الجنوبي فقيراً باستثناء المناطق النفطية ، ويحتاج إلى المساعدة .

ولما كان الرافضة قلّة في العالم الإسلامي ، ولا تزيد نسبتهم على ٦,٤٪ من مجموع المسلمين لذا كان من الضرورة إعلان إسلامية الرافضة لتحصل على بعض التأييد من عامة المسلمين الذين يتوقون إلى الإسلام ، وقد حُرموا منه طويلاً ، وهذا ما حدث ، غير أن تنبُّه العامة إلى بطلان عقيدة الرفض ، وإعلان الخميني فكرة التشيّع صراحةً ، والعمل لها ، وهذا ما أبان أيضاً شيئاً من حقائقها التي كانت مخفيةً عن بعضهم ، لذا عاد الضمور لذلك الامتداد الذي حصلت عليه الثورة في إيران في بداية أمرها ، ولولا النشاط التعليمي والثقافي الذي نشطت به خارج حدودها ، وفي أمصار العالم الإسلامي أجمع ، على حين ضنّ به الذين يقفون منها في الصفّ المقابل ، وكذلك لولا التمسّك

بالشعائر الذي سار عليه أعوانها ، في الوقت الـذي سلك خصومهـا طريق التفلّت ، لولا هاتان النقطتان لم يتوسّع أبداً الفكر الرافضي بـل لانتهى من البداية ، وربما خرج منه بعض أتباعه . ومع هذا فقد توقّف المدّ الذي ظهر في بداية الثورة الإيرانية ، ومع هذا التوقّف كان لا بدّ من إجـراء تطويـر على المخطط الاستعماري أو على اللعبة الدولية .

تطوير في المخطط : لم تتغيّر الخطة الاستعمارية في ضرب أيّة قوةٍ إسلاميةٍ تظهر خوفاً على دولة اليهود قاعدتهم الأساسية في تأديب المسلمين وإفسادهم ، وخـوفاً عـلى مصالـح الـدول النصرانيـة الاستعـمارية ، كـما لم تتغـيّر الخـطة الاستعمارية في بثّ التفرقة بين المسلمين والعمل على إبقاء الصراع فيما بينهم تحت أسماء مختلفةٍ وصورٍ مُتباينةٍ ، وإن كانت تظهر بين المدة والأخرى بأشكالٍ جديدةٍ .

ولكن الأحداث التي طرأت على المنطقة هي التي جعلت تطويرا يحدث على المخطط . ومن هذه الأحداث :

١ء ـ الثروة التي أصبحت تتدفّق على الدول النفطية ، وخاصةً بعد عام ١٣٩٣هـ ، عندما قفزت أسعار النفط قفـزةً واسعةً إذ ارتفـع سعر الـبرميل الواحد من أربعة دولاراتٍ إلى خمسةٍ وثلاثين دولاراً . وإذا كان كثير من هذه الأموال يُبدّد في أمورٍ فرديةٍ وأسريةٍ وعلى شهواتٍ وأهواءٍ بصورٍ لا تكاد تُصدّق عند بعضهم إلّا أنه يبقى الكثير ، فيُنفق في التنمية والإنعاش والمساعدات حتى ارتفع دخل الفرد كثيراً ، وعاش الناس في رخاءٍ ، وتطوّرت البلاد ، وهذا ما لا يرضى عنه المستعمرون ، وربما كانوا يسكتون عن مثل هذا لو اقتصر الأمر عليه ، ولكن زاد الأمر إذ أصبحت المساعدات الحكومية والشعبية تصل إلى الأقلّيات المسلمة في كل مكانٍ فتتنشط بل وينطلق إليها دعاة ، وهذا لا يقبله المستعمرون ، ولا يُمكنهم السكوت عنه ، وأرادوا وضع حدٍّ له قبل أن يتفاقم هذا الخطر حسب زعمهم ، فوضعوا الخطط للوقوف في وجهه ، ولكن أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لبدء التنفيذ ، ويُعدّون أدوات التنفيذ ، والواجهات

اللازمة لذلك ، وطريقة التمثيل والإخراج .

٢ء ـ الشباب المسلم من نتائج الثروة التي تدفّقت على المنطقة افتتاح المدارس ، والمعاهد والجامعات والإقبال الشديد على العلم ، بل واستقدام طلبة من خارج المنطقة ، وجزيرة العرب مهد الإسلام ، ومركز انتشاره ، والتدين فطرة، والرغبة في الإسلام ملحّة والإقبال عليه شديد ، لذا وجد كثير من المعاهد والجامعات الإسلامية ، وكلها تُخرّج أفواجاً من طلبة العلم ، ولا شكّ أن بعضهم سيكونون من الواعين لواقعهم ، وإن كان عدد النابهين قليلاً إلا أن أثرهم سيكون مع الزمن واسعاً ، وهذا ما لا يقبله المستعمرون أبداً ، بل يخشونه أشدّ الخشية لأسباب كثيرةٍ منها صليبيتهم ، وعداؤهم للإسلام ، وحقدهم عليه ، ومنها خوفهم من التغيير الذي ربما يحدث على يد هذه الفئة ، والاندفاع نحو الإسلام الذي يُهدّد حسب مزاعم الصليبيين أوربا والحضارة الحديثة . إذن لا بدّ للمستعمرين من الوقوف في وجه هذا المدّ الإسلامي ، ولكنهم ينتظرون الوقت الملائم لوضع حدٍّ لهذا التوسّع .

إذن يكمن الخطر وراء النفط .

٣ء ـ النفط : الوقود أساس الصناعة الحديثة ، ووسيلة حركة المعامل ، والمادة الرئيسية لوسائل المواصلات ، ويأتي النفط في رأس قائمة الوقود ولا يكاد يُنافسه عنصر آخر ، لذا فهو غذاء الحضارة المادية القائمة اليوم . ومكامن النفط الرئيسية في العالم هي منطقة الخليج ، ودول هذه البقعة هي المسيطرة على هذه المكامن ، وإن كانت تتقاسم الأرباح مع الشركات الاستعمارية .

وفي القتال الذي وقع بين بعض الدول العربية وبين إسرائيل في ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) قطعت دول الخليج النفط ، فتأثرت الدول الصناعية أيّما تأثّر ، وأحسّ المستعمرون أن صناعتهم ، وحركتهم مرتبطة كل الارتباط بمكامن النفط وبالتالي بالدول التي توجد فيها هذه المكامن، إذن لا بدّ من السيطرة عليها عسكرياً لاستمرارية ضخّ النفط ، ووصوله بشكلٍ دائمٍ إلى الدول الصناعية ذات الشأن . ووقف المستعمرون

ينتـظرون الزمن الـلازم لتنفيذ هـذه الخطة الضرورية لهم - حسب رأيهم - ووسـائل إعـلامهم تُردّد دائـماً لا يصحّ بقـاء النفط بأيدي قلة من الشيـوخ (. . . . . .) يتحكمون في العالم وحضارته .

واندلعت الحرب بين العراق وإيران ، وأخذ الضخّ يزداد للحصول على المال ، وبدأ يتراجع السعر ، حتى عملت الدول المُصدّرة للنفط على تحـديد الكميات المستثمرة لكل دولةٍ من دولها مُحافـظةً على أسعـار النفط ، وتوقّف الضغط عـلى تنفيذ السيـطرة على منـطقة الخليـج ، وإن لم يخرج من دائـرة التنفيذ ، غير أن النية مُبيّتة ، وظهر هذا من كتابات وتصريحات المسؤولين في الدول الاستعمارية إذ يُؤكّد « نيكسون » على ضرورة وجود قوةٍ لبلاده في منابع النفط . كما بيّن وزير خارجيته لوزير خارجية الكويت صباح الأحمد الصبـاح أن الخـطر قائم عـلى الكويت ، ويكمن من ثـلاث جهاتٍ ، وهي الاتحـاد السوفياتي ، ودولة محلية ، وحـركة موضعية . أما الخـطر الأول فهو الاتحـاد السوفيتي ، وهو أبعد الاحتمالات للتفاهم القائم بيننا في هذا الجانب ، وأما الدولة المحلية فيشير بذلك إلى إيران أو العراق ، وإن كان يركّز على العراق على أساس وجود محاولاتٍ سـابقةٍ ، ويُبـيّن قوة العـراق ، وضعف الكويت النسبي ، وأما الخطر الثالث فيتوقّعه من حركةٍ إسلاميةٍ في المنطقة نتيجة المدّ الإسلامي ، ويُريد بذلك الضغط على الاتجاه الإسلامي ، لذا يطلب من وزير خارجية الكويت أن تُعطى حكومته تسهيلاتٍ خاصةٍ على أرض الكويت ، غير أن الوزير يُجيب أننا لا نطلب من أحدٍ الدفاع عنا ، وكل السفن تأتي إلينـا تطلب التسهيلات في معاملتنا لها ، وأما العراق فلن تُهاجمنا لأنهم إخوة لنا ، وإنما الخوف يكمن منكم أنتم ، والدفاع المطلوب من هجومكم أنتم والاتحاد السوفيتي إذ تتفقون معاً على تقسيم المصالح ، فهذه منطقة نفطية لكم وهذه لهم .

ومع أن التقارير السرية الغربية أشارت إلى إحراج حكومات المنطقة فيما إذا تمّ إنزال قوات للمستعمرين ، حيث يُؤكّد ذلك اتهامات الشاميـين لهذه

الحكومات ، إلا أنه لم تُؤخذ هذه التقارير بعين الاعتبار وأخذ الاستعداد للقيام بهذه المهمة ، واختيار الجنود المناسبين للمنطقة ، والتدريب في صحراء « نيفادا » ، وتمّ إنزال في جزيرة « غرينلندا » وآخر في « بناما » كتجارب للإنزال المطلوب ، فالنيّة مُبيّتة ، والتهيئة قائمة ، والاستعداد يتمّ ، والانتظار فقط للفرصة المناسبة .

وجاءت الفرصة المطلوبة :

١ ـ انتهت الحرب العراقية ـ الإيرانية ، وظهر أن العراق هو الدولة المنتصرة، وشعر رئيسها بشيءٍ من العظمة ، ورغب أن يُحقّق أطماعه ، وقد تعوّد أثناء القتال أن لا يُقال له : لا ، وإنما يأمر فيُطاع ، ويُشير فتُنفّذ إشارته ، كما اعتاد من قبل نتيجة الاستبداد والقسوة اللتين مارسهما ألا يُعصى في موضوعٍ ، ولا يُردّ له طلب ، ويُحبّ أن يستمرّ على هذا .

إن مثل هذه الشخصية يمكن أن يُلعب بها، وأن تُدفع في كل جهةٍ ، وتكون ورقةً رابحةً بيد من يلعب ، ويُراهن عليها .

وإن الشعب العربي في العراق الذي قاسى الكثير أثناء الحرب وعانى الكثير نتيجة الحرب يُريد أن يشعر بشيءٍ من الراحة بعدالحرب، يرغب بأن يتكلّم غير أنه ممنوعٍ من ذلك ، ويبغي أن يتحدّث حتى عن النصر ، ولكن لا يُسمح له ، ويتمنّى أن يحصل على شيءٍ من الرفاه الاقتصادي إلا أنه غير متوفّر ، الناس في ضائقةٍ ، منهم من فقد أهله ، ومنهم من شُرّد عن دياره .

إن مثل هذا الشعب إن لم يُوجّه إلى عمل خارجيٍ يشغله ، أو نصرٍ مصطنعٍ يُلهيه يمكن أن ينفجر ، وعلى راعيه أن يُحرّكه لمثل هذا الاتجاه وإلا أضرّ به ، وأزعجه ، وربما خاف المسؤول على مركزه ، ويعرف المستعمر هذا ، ويعمل على استغلاله .

وإن الجيش العراقي الذي قاتل مدة ثمان سنواتٍ ، وكان وقته كله مشغولاً بالحرب ، وظروفها ، وانتهى الصراع ، وتوقّف القتال ، وهدأ الأمر

فلا بُدّ من شيءٍ يُشغله ، وإلا تذكّر ما حدث ، وما فقد ، وما حلّ ، ومن أجل أيّ شيءٍ وقع القتال ؟ وفي سبيل من ؟ ومن استفاد ؟

إن مثل هذا الجيش لا بدّ من أن يعمل على جبهةٍ ، وإلّا سبّب إزعاجاً ، فالضباط يبغون نتائج ما حصدوا ، والجند يُريدون أجر ما قدّموا ، والأهالي يرغبون تعويضاً عما فقدوا . . . . والحالة الاقتصادية سيئة، فالبلاد خارجة من حربٍ استمرّت مدةً ليست بقصيرةٍ ، وبحاجةٍ إلى إعادة عمرانٍ بعد أن تخرّب فيها الكثير .

وأن مثل هذا الوضع الذي تعيشه العراق لا يمكن من توجيه قائدهم في أي دربٍ .

٢ ـ انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، لقد أعلن قادة المعسكر الشرقي الفشل الفكري والسياسي فألقوا سلاحهم ، وتوجّهوا نحو الفكر الحرّ ، وطلبوا تقديم المساعدة من المعسكر الغربي ، ونتج عن هذا نتائج على غايةٍ من الأهمية .

أ ـ توقّف الصراع بين الشرق والغرب ، فبرز الصراع بين رؤوس المعسكر الغربي ، بين الولايات المتحدة من جهةٍ وأوربا التي تُريد أن تتوحّد من جهةٍ ثانيةٍ ، رغبةً من أوربا في عدم الخضوع للنفوذ السياسي والاقتصاد الأمريكي . وبين ألمانيا من جهةٍ وفرنسا من جهةٍ أخرى حول الوحدة الألمانية خوفاً من قوة ألمانيا المستقبلية ، وتضع فرنسا نصب عينيها ما عانته من التفوّق الألماني ، وهزيمة فرنسا خلال حروبٍ ثلاثٍ في الحربين العالميتين الأولى والثانية ومن قبلها في حرب (١٨٧٠م) ١٢٨٨هـ، وبين انكلترا من جهةٍ وفرنسا من جهةٍ أخرى حول مناطق النفوذ ، وماضي الحروب الاستعمارية بين الدولتين معروف .

ب ـ إن المعسكر الشرقي لم يعد له ذلك الدور الذي كان له سابقاً ليُهدّد التصرّف الاستعماري الغربي ، وليُبدي وقوفه بجانب الدول الضعيفة من

باب المنافسة ، والكسب السياسي ، والمدّ الفكري الشيوعي ، والمتاجرة والمزاودة ، وليس من باب الإنسانية ، ومساعدة الضعيف ، وعدم وجود مصالح .

جـ - إن السيطرة على مناطق نفط الخليج سيجعل أوربا تخضع لمن بيدها مصادر النفط نتيجة الحاجة الماسة إلى تلك المادة التي تقوم عليها الصناعة ، وتتحرّك بها وسائل المواصلات .

د - إن القوات التي كانت في أوربا الغربية ، وتُعسكر هناك للوقوف في وجه قوات المعسكر الشرقي ، وتحمي أوربا من خطر المدّ الشيوعي ، ولم يعد لها الآن ضرورة ، ويجب سحبها من أوربا ، ولكن إلى أي منطقةٍ تُنقل ؟ إن تسريحها سيرفع نسبة البطالة في الولايات المتحدة من ٣٪ إلى ٣,٧٪ ، وهذا ما يُسبّب مشكلةً ، إذن يجب نقلها إلى منطقةٍ أخرى ، والمحافظة عليها ، وإذا كانت لا تُناسب البيئة التي ستنتقل إليها لاختلاف المُناخ ، فيمكن استبدالها بقواتٍ ثانيةٍ أكثر مُناسبةً للبيئة الجديدة ، وهذا ما قد حدث . ولكن يجب ألا يُرهق ذلك الميزانية إذ يجب أن تكون مُخصّصاتها على حساب الدولة التي تستضيف هذه القوات .

هـ - إن المساعدات التي وعدت بها دول المعسكر الغربي للشرق يجب أن تُؤمّن من جهةٍ ثانيةٍ ، ويبدو أن منطقة الخليج هي التي اتجهت الأنظار إليها لتُؤخذ منها أكبر نسبةٍ من هذه المساعدات بسبب غناها أولاً ، ولتحقيق المخطط الذي يهدف إفقارها ، كما يمكن توزيع نسبةٍ من هذه المساعدات على بعض دول العالم الأخرى تدفعها بشكلٍ غير مباشرٍ عن طريق زيادة أسعار النفط . وإن وجود مشكلةٍ في منطقة الخليج يكون مُبرّراً لارتفاع أسعار النفط ، وبذا تدفع كل دولةٍ حسب نسبة مشترياتها من النفط ، ولا ينال دول شركات استثمار النفط إلا نسبةً محدودةً جداً مع أنها هي أكثر دول العالم استهلاكاً للنفط نتيجة الصناعة المتقدّمة في بلدانها، ووسائل النقل المتطوّرة لديها ، غير أن ما تحصل عليه من أرباح بسبب ارتفاع

الأسعار يُعوّض عنها ما تدفعه .

و- إن مخازن الأسلحة لدى الدول الاستعمارية مليئة بما كانت تجمعه وقت الحرب الباردة بين الشرق والغرب لحين الحاجة ، والآن لا بدّ من صرفه لتحصل على ثمنه مُضاعفاً ، وإن وجوده بالمخازن يفسده ، كما أن الأسلحة تتطوّر باستمرارٍ ، فبقاؤه يُفقده قيمته ، وفعاليته ، ويُصبح لا فائدة منه ، وتصريفه لا يكون إلّا بإشعال حربٍ أو تهيئةٍ واستعدادٍ لذلك بإيجاد أزمةٍ ، والمنطقة الغنية هي التي يمكن أن تلتهمه بسرعةٍ وبدفعٍ مباشرٍ .

وإن معامل الأسلحة لا تزال تعمل ويجب تأمين سوقٍ لها بمواصفات كالأولى إن أمكن .

والخلاصة : وجدت الفرصة الملائمة ، وتأمّنت الوسيلة والأداة اللازمة ، وتحقّقت المصالح ، وضُمنت الأهداف .

وجدت الفرصة الملائمة بانتهاء الحرب العراقية - الإيرانية ، وانتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، واختفاء الصراع والمنافسة ، وانسحاب الروس من ميدان التهديد وتبادل المصالح .

وتأمّنت الوسيلة والأداة اللازمة للتنفيذ بإصابة الرئيس العراقي بجنون العظمة ، والاندفاع وراء تحقيق المزيد من الزعامة . هذا بالإضافة إلى بعض حُكّام المنطقة بتحمّل المسؤولية ، وطلب المساعدة ، وضمان الآخرين بعدم النقد ، والبعد عن الهجوم الإعلامي بل بالدعم وإظهار المساعدة ، ومشروعية التصرّف ، وباختصار فإن الأدوات جاهزة للعمل ، وبانتظار الأدوار التي تُعطى لها .

وتحقّقت المصالح بإيجاد مكانٍ للجنود المسحوبين من أوربا ، وسوقٍ للأسلحة الفائضة ، وتغطيةٍ للمساعدات المترتبة على الغرب للشرق ،

والسيطرة على المناطق النفطية ، وجعل أوربا ضمن دائرة الارتباط بالولايات المتحدة .

وضُمنت الأهداف بالسيطرة الصليبية ، وبوقف النشاط الإسلامي بإفقار المنطقة حيث يتوقّف الدعم ، وبتغيير بنية المجتمع الإسلامي بإفساده باستقدام أعدادٍ كبيرةٍ من الفتيات لهذا الغرض ، وإدخال المحرّمات ، والقبض على الرقبة ، وبثّ التفرقة بين المسلمين .

ولم يبق لإخراج المسرحية إلا تنفيذ اللعبة .

اللعبة : بدأت اللعبة بدفع الرئيس العراقي لاحتلال الكويت . لقد أخذت الكويت تضخّ النفط من جزيرتي « وربة » و « بوبيان » أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية ، وهذا الضخّ يصل إلى حقول النفط العراقية بـ « الرميلة » ، ولم تكن العراق لتلتفت إلى هذا لانشغالها بالحرب ، وللأموال التي تُقدّمها الكويت ، ودول الخليج الأخرى لها ، ولحاجتها في هذه الظروف العصيبة إلى أعوانٍ يقفون بجانبها لا إلى خصومٍ يزيدون من هُمومها ومُشكلاتها .

فلما انتهت الحرب طالبت العراق الكويت بتعويضاتٍ عما خسره من نفط « الرميلة » فكان جواب الكويت أننا قد قدّمنا الكثير من أجلكم ، ودفعنا الكثير لمساعدتكم ، فاحتجّت العراق بأن ما دُفع لنا لم يكن بأكثر من قيمة ما ضُخّ ، ولكننا نُطالب بثمن ما سيُضخّ في المستقبل ، وإلا فإن جزيرتي « وربة » و « بوبيان » من نصيبنا . ويبدو أنه كانت هناك مُوافقة لإعطاء العراق هاتين الجزيرتين حلاً للمشكلة ، أو أملاً في عدم وقوع أزمةٍ .

أبدت الولايات المتحدة أمام انكلترا تساهلاً وعدم اهتمامٍ في احتلال العراق للكويت ، فاندفعت انكلترا ، وحرّضت صدام حسين على المضي في تفكيره ، على أنه أقرب إلى دائرة نفوذها من غيرها ، وعلى أنها ستحصل على مزيدٍ من نسبة الأرباح ، لأن حصتها في نفط العراق أكبر من غيرها . وفي

الوقت نفسه حُرّضت الكويت على الإصرار على عدم الدفع ، وأنه لا يستطيع أحد أن يمسّ ترابها مهما عتت قوته . وانكلترا هي وراء الاتحاد العربي الهاشمي ، وعبد الكريم قاسم سابقاً ومطالبتهما ودفعهما لضم الكويت ولا تزال .

اطمأنت الكويت إلى حمايتها من الولايات المتحدة ، فأصرّت على عدم الدفع ، وبكل ثقةٍ واعتزازٍ ، وشعرت العراق أنها أُعطيت الضوء الأخضر لاحتلال الكويت . فتقدّمت الجيوش العراقية في الحادي عشر من المحرم ١٤١١هـ (٢ آب ١٩٩٠م) واحتلّت الكويت .

ولم يكن هذا الاحتلال إلا كالمحاولات السابقة التي لم تكن إلا من أجل مصالح ماديةٍ حيث كانت الثورة النفطية ، وما تدرّه من منافع في بلدٍ صغير تُغري العراق البلد الكبير الذي يحتاج إلى المادة لمشروعاته الإنمائية الضخمة أو للحروب التي يخوضها ضدّ جيرانه كنوعٍ من أنواع المغامرة .

الأحـــداث :

أولاً : أخذت أجهزة الإعلام العالمية ووسائلها المختلفة تُبالغ وتُضخّم من قوة العراق حتى وضعتها في رأس الدول الكبرى بما تملكه من أسلحةٍ كيماويةٍ ، ومُعداتٍ حربيةٍ ، وقوىً بشريةٍ مُدرّبةٍ تزيد على المليون ، وتُردّد أن العراقيين لم يكتفوا بالكويت ، وإنما يريدون التوسّع في المنطقة ويحشدون قواتهم على الحدود[1] ، وذلك لـ :

أ ـ تتأكّد الدول المجاورة أنها لا طاقة لها بمقاومة القوات العراقية ، ولا بدّ لها من دعوة الدول الكبرى ذات العلاقة بشؤون النفط لحمايتها .

ب ـ تخاف الدول النصرانية من نشوء قوةٍ إسلاميةٍ ضخمةٍ قد تتعاظم أكثر فيما لو امتدت وتوسّعت لتشمل مناطق ثانيةٍ ، وربما انطلقت موجة إسلامية من جديدٍ ترفع راية الجهاد كالسابق لتُحطّم الحضارة المادية القائمة

---

(١) لم ينو العراقيون التوسّع خارج حدود الكويت ، ولم يحشدوا قواتهم على الحدود الخليجية المجاورة ، وإنما بقوا على بعد مائة كيلومتر منها .

اليوم . ولتشعر الدول النصرانية بضرورة تقوية دولة اليهود في فلسطين ودعمها لتقف في وجه المد الإسلامي . هذا مع العلم أن رئيس العراق صدام لم يُفكّر في حياته بالموضوع الإسلامي ، فهو رجل علماني ، مُعادٍ للإسلام .

ثانياً : جاءت قوات أجنبية ، أو طُلبت ، ونزلت في منطقة الخليج ، ومعها فتيات يعملن في الخدمة العسكرية ، أو يُرافقن الجيش للترفيه ؛ ومع القوات كل متطلباتها من أغذيةٍ ومشروباتٍ عرفها الخليج بصورةٍ علنيةٍ لأول مرةٍ في التاريخ ، وأخذت القوات تتجمّع في سبيل الردع العراقي[1] ، وشاركت أعداد من الجنسيات إذ كان شبه إجماعٍ عالمي على إدانة العراق في احتلالها للكويت . وكان على دول الخليج أنْ تتحمّل نفقات هذه القوات كلها . وكانت التصريحات أن الإقامة ستبقى حتى تستقرّ الأوضاع ، والاستقرار كلمة مرنة يُفسّرها صاحب القوة حسبما يريد ، بل كانت بعض هذه التصريحات تُشير إلى البقاء إذ جاء في بعضها : أننا لسنا على استعدادٍ لأن نُدعى كل عشر سنواتٍ . وهذا يهدف إلى :

أ ـ إفقار دول الخليج بدفع كامل نفقات القوات الضخمة التي شملت دولاً كثيرةً ، بل شارك بعضها للحصول على بعض المغانم عن طريق قواته .

ب ـ تغيير بنية المجتمع بإدخال الفساد عن طريق الفتيات ، والمحرّمات التي تُعدّ من متطلبات القوات الأجنبية التي هي القوة الرئيسية .

جـ ـ التحكّم الدائم بالثروة النفطية وتوزيعها حسب مصلحة القوي .

ثالثاً : **الكويت** : لم تستطع الكويت مُقاومة العراق للفارق في العدد ، والاستعداد ، وعنصر المفاجأة . وخرجت أعداد من البلاد مُشردّةً ، تاركةً أملاكها وأموالها ، واتجهت إلى دول الخليج الأخرى ، ووقعت بعض الحوادث

---

(١) كانت العراق تقف تنتظر تجمّع القوات حتى تتكامل لتتلقّى الضربة القاتلة منها .

المؤلمة والمؤسفة من جانب الغزاة ، وقد بالغت فيها وسائل الإعلام ، وضخّمتها لدرجةٍ لا تكاد تُصدّق ، وأخرجت العراقيين من كل معاني الإنسانية ، والخلق ، وما هم في الحقيقة سوى جزءٍ من الشعب العربي ، وإن كان حزب البعث قد ساهم في التفلّت والتنكّر للقيم(١) ، وزاد الرئيس العراقي في هذه المساهمة وربما بالتعليمات التي أعطاها للقوات الغازية . وكان من أثر هذا التشريد ومبالغة وسائل الإعلام فيه .

أ ـ خوف سكان الخليج لدرجةٍ كبيرةٍ توقّعوا معها أن الحرب ستندلع بعد ساعاتٍ قليلةٍ ، وستدمّر كل شيءٍ ، وأنهم سيفقدون أملاكهم وأموالهم ، وسيُشرّدون كما حدث لأهالي الكويت ، وكأن كل فرد هو الهدف نفسه ، ولم تغب عن أحدهم أبداً صورة الأملاك والأموال لذا أصابهم الهلع ولم يعد من مانعٍ عندهم من طلب حماية أي جهةٍ مهما بلغ عداوتها السابقة لهم أو للإسلام .

ب ـ إسهام بعض الفتيات الكويتيات بنصيبٍ من الفساد ، إذ أن الكويت قد قطعت شوطاً في هذا المجال إذا ما قارناها مع السعودية وقطر اللتين تعدّان أكثر الدول مُحافظةً على القيم .

رابعاً: العراق: يبدو أن قسماً من الجيش العراقي لم يُوافق قائده على تصرّفه ، ولكن الخوف والضغط يُجبرانه على السكوت ، وكل من يُبدي أي تذمّرٍ زال وانتهى ، وأما الشعب فلم يقبل هذا أبداً ، وإذا كانت فكرة الوحدة

---

(١) قبل مدةٍ كانت وسائل الإعلام المحلية تُحاول أن تُغطّي جرائم الرئيس العراقي في قتل الأكراد جماعياً في قرىً كاملةٍ بالغازات السامة ، ومن هذه القرى « حلبجة » ، وتتهم وسائل الإعلام هذه ما ينشر في الخارج أنها دعايات مغرضة ضدّ الرئيس العراقي فلما قام بفعلته هذه وغزا الكويت ، انقلبت الآية ، ولكن كما بالغوا في الدفاع عنه بالغوا في الهجوم عليه حتى وصل الأمر عند بعضهم أن أخذوا يُردّدون بعد أن عُرض فيلم مُشوه، وكان يُظنّ فيهم العقل من قبل ، أن الجنود العراقيين قد جمعوا أطفال قريةٍ مع أمهاتهم وأخذوا يكسرون رؤوسهم على الدبابات ، ويستخرجون أدمغتهم أمام الأمهات ، وهذه دعايات ضدّنا عامةً ـ إذ لم نُسبق عليها ـ إذ كلنا نحمل اسماً واحداً عند الصليبيين هو « مسلمون » .

العربية تبرز عند بعضهم لكن على أن تتمّ بالتفاهم لا بالأعمال العسكرية والاحتلال بالقوة ، وقد اختفت زعامات عن الساحة تباعاً .

والغريب أن الرئيس العراقي أخذ يتكلّم بالإسلام ، ويدعو إليه ، وهو المعروف مدى حياته بعداوته للدين ، وتنكّره له ، لذا كانت دعوته باهتةً ، ومحكوم عليها أنها دعوة مصلحةٍ اقتضتها الضرورة ، فجاءت باردةً لم يقبلها منه أحد ، ولم يقتنع بها فرد .

وأما الحجة التي لا يملّ من ترديدها هي تبديد حُكّام الكويت لثروة بلادهم على شهواتهم بشكلٍ لا يقرّه عقل إذ تُعطى عشرات الملايين من الدولارات في قضاء ساعات شهوة ، وهذه الثروة من حقّ (الأمة العربية) حسب اصطلاحه ، ومن هذا المنطلق أعلن توزيع النفط مجاناً للدول التي من العالم الثالث ، ولم يشترط أن تكون عربيةً ، وهذا حقّ (الأمة العربية) على زعمه ، فكيف يُبدّده هو أيضاً ؟ ، ويُهاجم حُكّام دول الخليج كلهم ويتّهمهم الاتهامات نفسها .

خامساً : دول الخليج : أخاف الإعلام سكان دول الخليج ، وهم الذين اعتادوا على الرفاهية والاستقرار ، وظنّوا أنه مصيبهم ما أصاب الكويت ، فوضعوا نصب أعينهم المال والأملاك فتمسّكوا بها ، وطلبوا النجاة من أي مصدرٍ ، وأيّدوا استقدام أيّة قوةٍ ، لم يختلف في ذلك الملتزمون من خريجي الجامعات وأساتذتها عن غيرهم ، وهذا يدلّ على ضعف الإيمان . وظهر أن الحكومات لم تكن لتستعد لمثل هذا اليوم .

أيّد عدد كبير من العلماء استدعاء القوات الأجنبية ، وإن كانت استدلالاتهم بقضايا فرديةٍ لا يُستشهد فيها ، فاستئجار إنسانٍ ، والاستعار من فردٍ لا تُقارن مع طلب حماية دولةٍ تُعدّ أكبر قوةٍ في العالم[1] ، وارتاح السكان

---

(١) لم يدرس هؤلاء العلماء الوضع العسكري ، ولم يروا الحشود على الحدود ، ولم يعرفوا ملابسات الوضع ، وإنما أعطوا الفتوى حسبما وصف لهم الوضع ، وتأييداً للمسؤولين .

لقول العلماء ولتصرّف الحكام . والنيّة في أذهان المسؤولين أن هذه القـوات ستعود إلى بلدانها بمجرد هدوء الأوضاع ، وعدم بقاء الحاجة إليها . ولم يكن طلبهم أكثر من انسحاب العراق من الكويت وعودة الحكومة الشرعية ، ولا يبدون أي تخوّف من القوات التي جاءت للدفاع ضدّ أطماع العراق وتهـوّر رئيسه .

سادساً : الدول العربية : اجتمع مجلس جامعة الدول العربية اجتماعاً طـارئاً لمنـاقشة الـوضـع ، فـاختلفت الـوفـود ، وحصلت بعض المشـادات الكلامية ، وخاصةً بين العراق والكويت ، بعضها من انتقد الاحتلال العراقي العسكري للكويت ، وبعضها من انتقد طلب القوات الأجنبية[1] .

وساهمت بعض الدول بإرسال قواتٍ إلى منطقة الخليج وهي : سوريا ومصر . وتطوّر هذا الخـلاف إلى انتقال الجـامعة من تـونس إلى مصر ، أو بقائها . وإلى استمرارية عمل الجامعة والفائدة من ذلك ما دامت لا تستطيع أن تحلّ خلافاً يحدث بين أعضائها ، ولا تتمكّن من ردع دولةٍ معتـديةٍ عـلى جارتها وشقيقتها .

سابعاً : المسلمـون : لم يقتصر الخلاف بين الحكومـات بل امتـدّ إلى الشعوب بل وإلى الأفراد ، حتى غدا الأمر شبه فتنةٍ لما وقع . وبعض الأحيان كانت الشعوب على طرفي نقيضٍ مع حكوماتها . فالعلماء البارزون في مصر قد أيّدوا حكومتهم وموقفها ، وأيّدوا الاستعانة بالقوات الأجنبية ، ومن أمثـال هؤلاء : مفتي مصر محمد سيد طنطاوي ، وأحمد عمر هاشم نائب مدير جامعة

---

(٢) أيّد طلب القوات الأجنبية كل من : سوريا ، ولبنان ، ومصر ، والسعودية ، والكويت ، والبحـرين ، وقطر ، والإمـارات ، وعُمان ، وجيبـوتي ، والصومـال ، والمغـرب ، وأدانـوا العراق ، وطالبوه بالانسحاب ، وقد حصلوا نتيجة التصويت على الأكثرية (١٢) عضواً .
وأيّد العراق أو تحفّظ ، وأدان طلب القوات الأجنبية كل من : العراق ، فلسطين ، الأردن ، اليمن ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، موريتانيا (٨ أعضاء) .

الأزهر ، ومحمد متولي شعراوي ، وأفتى من لم يُفت من قبل ، وصار الحديث والتصريح وسيلةً للظهور ما دامت هناك وسائل الإعلام تتلقّف الأخبار ، وتُعلن استعدادها للنشر مهما كان المستوى العلمي أو الموضوعي .

واجتمع مجلس العلماء في مكة المكرمة ، وأعطى تأييده المباشر للسعودية ومجموعتها . وربما أيّدت بعض الحركات هذا الجانب وبعضها ذاك ، وقد تبدّل موقف بعضها ، وتغيّر حسبما اقتضت المصلحة السياسية الخاصة بأفرادها . وربما وجد من انتقد الطرفين .

والخلاصة كانت فتنة بين المسلمين خطط لها المستعمرون ونجحوا في بثّ الفرقة وإثارة الخلاف الشديد ، سقط فيه الناس ، وتاهوا ، وتعصّب بعضهم لرأي بعض بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ .

ويكفي أن يكون منهم أداةً لتنفيذ المخططات .

وتجمّعت القوات المتعددة الجنسيات في منطقة الخليج ، وفُرض حصار على العراق بحراً ، وبراً ، وجوّاً ، وإن كان بعضهم يُشكّك في جدية هذا الحصار .

بحث مجلس الأمن الموضوع ، وقرّر إلزام العراق على الانسحاب من الكويت ، وإن لم تجد الطرق السياسية والوسائل السلمية فلا بدّ من اتخاذ القوة وأُعطي مهلةً للانسحاب ١٥ كانون الثاني ١٩٩١م (٢٩ جمادى الآخرة ١٤١١هـ) ، ولا شك أن مجلس الأمن تُسيّره وتحرّكه الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن العراق لم يُبال بهذا القرار رقم (٦٦٠) بل عدّ الكويت جزءاً من العراق ، وأطلق عليها اسم (كاظمة) ، وأخذ يُردّد دائماً أن الكويت ليست سوى جزءٍ من العراق انتزعها المستعمرون منه ، والآن عادت إلى الأرض الأم ، وربما كان موقف العراق هذا ينبع من :

١ ـ الاعتماد على الأسلحة التي كدّسها في أراضيه ، فما ترك فرصةً لشراء الأسلحة إلا واهتبلها من أي مصدر كانت ، سرّاً وعلناً . واستفاد من

ثرواته النفطية ومن الأموال التي أخذها من دول الخليج مساعدةً أثناء الحرب مع إيران ، وقد حصل على دعم عسكري ومالي كبير أثناء الحرب مع إيران من مختلف الجهات دول الخليج ، وأمريكا ، وروسيا .

٢ ـ الاعتماد على التحصينات التي أقامها ، ومخابىء الطائرات ، والملاجىء ، وكلها من النوع القوي جداً ، وقد جهز الكويت بهذه التحصينات إذ بدأ بالعمل بها بعد احتلالها مباشرةً .

٣ ـ انتصاره على إيران .

٤ ـ الاعتماد على القوى الشعبية في البلدان العربية والإسلامية فيما إذا دخلت دولة اليهود في فلسطين الحرب ضدّ العراق ، إذ كان يُخطّط في ذهنه أنه باستطاعته إثارتها فيما إذا هاجمها بالصواريخ ، بل كان يعتقد أن كثيراً من الدول العربية والإسلامية ستُغيّر موقفها فيما إذا دخلت دولة اليهود الحرب إلى جانب الدول المتحالفة ضدّه .

٥ ـ الاعتماد على بعض الدول الأجنبية التي يبدو أنها كانت تدفعه ، ومنها : الامبراطورية الروسية ، وفرنسا ، وربما تصوّر أن الوضع سيكون لصالحه إذ أن أوربا ستدعمه حتى لا تكون تابعةً للولايات المتحدة وخاصةً بعد سقوط رئيسة وزراء انكلترا « مارغريت تاتشر » التي كانت تتبع بشكلٍ عامٍ سياسةً قريبةً من سياسة الولايات المتحدة ومجيء (جون ميجر) إلى السلطة ، وفي نيته السير بسياسة استقلالية عن أمريكا .

٦ ـ ويجب ألا ننسى السياسة الاستبدادية التي يسير عليها الرئيس العراقي حيث لا يستطيع أحد أن يُبدي آراءً تخالف آراءه ، فحسبها طاعةً ، وصواباً لآرائه .

واقترب الموعد المحدد ، واقترح (جورج بوش) لقاء وزير خارجية الولايات المتحدة مع وزير خارجية العراق ، وكذلك لقاء بين رئيس الدولتين الولايات المتحدة والعراق . ولكن ردّ العراق على هذا الاقتراح كان بطيئاً ، وفيه عدم اهتمام ، وهذا ما أزعج الرئيس الأمريكي (جورج بوش) ، وأخيراً

التقى وزير خارجية العراق (طارق حنا عزيز عيسى) مع وزير خارجية الولايات المتحدة (بيكر) في جنيف ، ولم ينتج عن هذا اللقاء أي شيء ، وإنما كرّر وزير خارجية العراق ما اعتادوا تكراره .

١ ـ رفض الأسلوب الذي تُعامل به الولايات المتحدة بقية دول العالم ، ونظرةالاستعلاء التي تنظرها الولايات المتحدة لغيرها .

٢ ـ ضرورة معاملة الولايات المتحدة للدول الأخرى معاملة الند ، لا معاملة السيد للعبد .

٣ ـ لماذا تسكت الولايات المتحدة وغيرها عن قرارات مجلس الأمن التي صدرت بالنسبة إلى القضية الفلسطينية ، وتتشدّد في هذا القرار الذي اتخذ بحق العراق .

٤ ـ استعداد العراق للانصياع لقرار مجلس الأمن رقم (٦٦٠) فيما إذا نفذت دولة اليهود في فلسطين ما اتخذ بحقها من قرارات .

وكان لهذه اللهجة من وزير خارجية العراق الصدى الحسن لدى الشباب في الشعب العربي والأمة الإسلامية ، لما فيه من وقوف في وجه أمريكا ـ حسب زعمهم ـ .

وجاء الأمين العام للأمم المتحدة (خافير بيريز دي كويلار) إلى بغداد ، وحاول أخذ كلمة الانسحاب من الرئيس العراقي ، ولو في المستقبل ، لكنه لم ينجح ، وفشل الأمين العام فشلاً واضحاً ، كما قامت فرنسا بمبادرة للحلّ السلمي لكن دون جدوى ، كما رفضت الولايات المتحدة المبادرة الفرنسية . وجاء الموعد المحدّد ، ولم يحدث جديد على الساحة .

وبعد يومين من انتهاء الموعد المحدد كآخر مهلةٍ للعراق للانسحاب من الكويت ، بدأت القوات المتحالفة بالهجوم على العراق والكويت بالطائرات في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢ رجب ١٤١١هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٩١م) ، وأذاعت مُباشرة أن القوات المتحالفة قد قضت على القوة الجوية العراقية ، وأبادت الحرس الجمهوري ، وربما كان هذا البيان قد أُعد سابقاً

قبل القتال . ويقصد من هذا البيان الحرب النفسية وإضعاف الروح المعنوية لدى القوات العراقية ، لكن هذا أعطى عكس ما أريد منه إذ ارتفعت الروح المعنوية لدى الجيش العراقي عندما علم عدم صدق إعلام الخصم .

ولكن لم تلبث أن خرجت القوة الجوية العراقية من المعركة إذ لم تستطع عمل شيءٍ ، إنما بقيت في مخابئها ، وأخذت العراق تُهرّب طائراتها العسكرية والمدنية إلى خارج العراق ، فإيران وصل إليها ما يقرب من مائتي طائرةٍ عسكريةٍ . وأعلنت إيران أن كل طائرة من أي طرفٍ تهبط على أرضها ستحجز ، ولن تسلّم إلا بعد نهاية الحرب .

واستمرّ القصف الجوي على العراق والكويت خمسة أسابيع (٢ رجب حتى ١٠ شعبان) اتخذت فيه أضخم الطائرات ، وأكثر المدافع ثقلاً ، بل وأُلقيت قذائف (النابالم) المحرقة ، وقيل أن ما ألقي من متفجرات يفوق بأربع مرات ما أُلقي على مدينة (هيروشيما) اليابانية في الحرب العالمية الثانية . وأثناء هذه المدة اجتمع مجلس الأمن عدة مراتٍ ، وقُدّمت عدة مبادراتٍ سلميةٍ ، كان آخرها من إيران ، ومن روسيا ، وكانت المبادرة الروسية قريبةً غير أن الولايات المتحدة لم تكن على استعدادٍ لقبول أية مبادرةٍ لأن أهدافها لم تتحقّق بالمبادرات . ورغم أن العراق قد وافقت على الانسحاب من الكويت حسب المبادرة الروسية بمهلة ثلاثة أسابيع غير أن الولايات المتحدة أصرّت على أسبوعٍ واحدٍ .

أما العراق فكانت تقذف بصواريخ أرض أرض (سكاد) على دولة اليهود لعلّها تدخل الحرب إلى جانب الدول المتحالفة فيتفكك التحالف إذ تخرج منه الدول الإسلامية مثل سوريا ، ومصر ، والمغرب ، وباكستان وغيرها ما دامت دولة اليهود عدوّة الإسلام تُقاتل ، ولكن الولايات المتحدة ، وانكلترا قد ضغطتا عليها لتضبط نفسها ، ولا تقوم بردّ فعلٍ ، وانتهت الحرب ، ولم تستطع العراق إدخال دولة اليهود الحرب ، غير أن هذه الدويلة كانت تُصرّح بأنها ستقوم بردّ الفعل في الوقت الذي تراه مناسباً ، وستحتفظ لنفسها بهذا

الحقّ . وكانت إيران تُهدّد بدخول الحرب إلى جانب العراق فيما لو حدث اعتداء يهودي أو مُشاركة في الحرب . كما كانت العراق تُوجّه صواريخها إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وإلى مدينة الجبيل ، والظهران ، وحفر الباطن ، وأحياناً إلى البحرين ، غير أنه كثيراً ما كانت الصواريخ المضادة من نوع (باتريوت) تعترض سبيل الصواريخ العراقية ، وتفجّرها في الجو قبل أن تقع ، ولكن الشظايا المتساقطة والحطام كثيراً ما يُسبب بعض الأضرار إضافةً إلى الصواريخ التي تتفلّت من المضادة مع العلم أن بعضها كان يسقط في البحر أو يقع في مناطق خالية لاتساع الصحراء .

وعُقد مؤتمر في مكة ضمّ عدداً من المشايخ تأييداً لموقف المملكة العربية السعودية ، وعقد مؤتمر آخر في بغداد أيّد العراق وموقفها . كما أن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قد أقامت مهرجاناً للجهاد وتحدّث فيه عدد من الشيوخ تأييداً للسعودية .

وأسرعت الإمبراطورية الروسية بمبادرةٍ جديدةٍ ، وزار موسكو وزير خارجية العراق طارق حنا عزيز عيسى ، وأبدى ملاحظات العراق ، ورجع إلى بغداد لتلقي التعليمات والتوجيهات من الرئيس العراقي ، وأبدى استعداده للانسحاب بشروط ، ورفضت الولايات المتحدة إلا الانسحاب دون قيدٍ أو شرط . وعملت موسكو كثيراً على تأخير الهجوم البري دون جدوى .

واستطاعت دول التحالف إنزال الكثير من الخسائر في العراق سواء في ضرب القواعد الصاروخية ، والمطارات ، والطائرات الجاثمة في مخابئها ، ووسائل الاتصالات ، والجسور ، والملاجىء والتحصينات ، والمنشآت ، والعسكريين ، والمدنيين ، ولم تستطع العراق أن تقوم بأي مقاومةٍ سوى ما تطلقه من صواريخ قليلة الجدوى ، ومع كل هذا كانت التهديدات العراقية ، وإعلان الإيمان بالنصر ، وانتظار القتال البري الذي تتمنّاه .

بدأت المعركة البرية في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الأحد العاشر من شعبان ١٤١١هـ (٢٤ شباط ١٩٩١م) بعد ثلاثة أيامٍ من الرمي التمهيدي

المكثّف إضافةً إلى قذائف (النابالم) المحرقة ، والمحرّمة دولياً ، وكان العراق قد أحرق ما يقرب من مائة وخمسين بئـراً من النفط فتشكّلت طبقة سـوداء من الدخان لتُعيق الطائرات المهاجمة من رؤية أهدافها ، والرصد ، ولتحول دون تحديد الأهداف بدقةٍ من الأقمار الصناعية . كما فجّرت كثيراً من آبار النفط ، ودفعت بالنفط إلى مياه الخليج فتشكّلت طبقة واسعة من الزيت . وكان الهدف منها تعطيل محطّات تحلية المياه التي تعدّ أكبر محطّات في العالم ، والتي تمدّ المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وعاصمتها الرياض . كما كانت تهدف من وراء ذلك إلى إشعال الزيت لإحراق القطع البحرية الموجودة في الخليج والتي تُوجّه نيرانها إلى العراق . وتحطّم الزوارق العراقية ، والناقلات ، وتُفجّر الألغام التي وضعت في مياه الخليج . غير أنه بُذلت جهود ضخمة لحصر بقعة الزيت .

كما أن العراق كان قد حصّن مواقعه في الكويت تحصيناً منيعاً في الأشهر الخمسة والنصف التي احتلّ بها الكويت إذ جعل على الحدود مع السعودية ، تـلالاً من الأتربـة ، وخنادق مليئـة بالنفط ، وأخـرى بـالأتـربـة كحـواجـز للدبابات .

كانت الطائرات التابعة للدول المتحالفة ترمي بقذائفها من علوٍ شاهقٍ ، خوفاً من المدافع المضادة ، ومصادر النيران الأرضية ، وكذلك فإن الجو لم يكن مساعداً للرؤية بشكل جيدٍ إضافةً إلى دخان الحرائق التي تنشب ، والقذائف التي تتفجّر ، لذا لم تكن الإصابات دقيقةً وربما هذا ما شجّـع العراق عـلى خوض الحرب البرية إذ توقّع أن تكـون الهجمات الجـوية قليلة الأثـر ، وأن التحصينات قوية عند قواته تحول دون تقدّم القوات المتحالفة ، وخاصةً أن هذه القوات تصرّح وتدعي أن هدفها فقط هو إخراج العراق من الكويت ، وليس لها من هدفٍ آخر ، لا باحتلال أرض العراق ، ولا بتجـزئتها ، ولا بإسقاط نظام الحكم القائم ، وهذا ما أغرى العراق ، حيث لم يتوقّع أن يكون الهجوم إلاّ من حدود الكويت ، فإن استطاع الصمود فهو نصر له ، وإن لم

يستطع انسحب من الكويت وانتهى الأمر ، وأن وقوفه أمام دول العالم يعدّ نصراً له ، ولم يتوقّع أن يـأتي الهجوم من نـاحية الغـرب حيث تمتدّ الحـدود العراقية ـ السعودية على مسافاتٍ طويلةٍ وسط الصحراء .

بدأت الحرب البرية ، وأذاعت القوات المتحالفة أنها تقدّمت على طول الحدود مع الكـويت ، واستطاعت اختراق التحصينات العـراقية عـلى عدة محاور ، كما أنها احتلّت جزيرة (فيلكا) ، وقامت بإنزالٍ بحريٍ على الساحل الكـويتي ، وإنزالٍ جـويٍ في شمالي العـراق . وادّعت العراق أنها احتـوت الهجـوم الأول ، وصدّت القوات المتحالفة ، وفي اليوم الثاني أذاعت القوات المتحالفة أنها تقدّمت مسافة خمسين كيلومتراً ، وادعت العراق أنها قد أسرت عدداً كبيراً من الخصوم ، كما استسلمت مجموعة من القوات المصرية .

ومع ذلك فقد وافق العراق على وقف إطلاق النـار بناءً عـلى المبادرة الروسية ، ولكن الولايات المتحدة رفضت ذلك ، وطالبت العراق بالانسحاب من الكويت ، وترك أسلحته كاملةً فيها ، وأعلنت أن الحرب لا تزال مستمرةً حتى تخضع العراق لقرارات مجلس الأمن كاملةً ، واستمرّ القصف الجوي ، والتقدّم العسكري ، وأعلنت العراق موافقتها على الانسحاب من الكويت بناءً على قرار مجلس الأمن رقم (٦٦٠) ، غـير أن الرئيس الأمـريكي (جورج بوش) أعلن أن على العراق التعهد بدفع كامل تعويضات خسائر الحرب .

وفي الليلة الخامسة من الهجوم البري شهـدت بغداد أعنف الغـارات الجوية ، وجرى إنزال جوي خلف الوحدات العراقية من القوات الأمريكية والفرنسية ، وزعمت العراق أنها قد أبادت عناصر الإنزال الجوي ، كما جرت معركة ضارية بالدبابات ، وأذاع كل طرفٍ أنه أحرز النصر .

وفي منتصف الليل وافق العراق على قرار مجلس الأمن كاملاً ، وعلى كل ما شرط عليها ، وفي الساعة الخامسة ألقى الرئيس الأمريكي جـورج بوش خطاباً بعد اتصاله برئيس الوزراء البريطاني (جون ميجر) ، والرئيس الفرنسي

(فرانسوا ميتران) ، وأعلن في خطابه الموافقة على وقف إطلاق النار بدءاً من الساعة الثامنة صباحاً حسب توقيت بغداد ، ضمن الشروط الآتية :

١ ـ يجب على العراق إطلاق جميع الأسرى من دول التحالف .
٢ ـ إعادة الكويتيين الموجودين في العراق إلى الكويت .
٣ ـ إرشاد دول التحالف إلى الألغام المزروعة في البر والبحر .
٤ ـ التقيّد بوقف إطلاق النار ، وإن إطلاق أي صاروخٍ معناه استمرارية القتال .
٥ ـ الموافقة على شروط قرار مجلس الأمن كاملاً .

وجاء الوقت المحدّد ، وتوقّف إطلاق النار . وبقيت قوات الدول المتحالفة متمركزةً في العراق ريثما تتخذ الإجراءات اللازمة بعد المباحثات العسكرية ، ومناقشات مجلس الأمن في وضع العراق الجديد .

النتائج : حقّقت الولايات المتحدة الأمريكية كل ما خطّطت له ، وكانت هي المستفيدة الأولى من هذه الحرب ، وكذلك فإن دولة اليهود قد ضمنت فوائد كبرى بزوال أكبر قوةٍ معاديةٍ لها ، وبأموالٍ حصلت عليها كمساعدات باسم ما لحقها من أذى ، ولم تكن تحلم بالحصول على ما حصلت عليه من الولايات المتحدة ، ومن ألمانيا وغيرها . وكانت الخسارة العظيمة على المسلمين ليسوا كدولٍ فحسب وإنما كأمّة أصابتها التفرقة والاختلافات ، وربما حصلت بعض الدول العربية والإسلامية على بعض المنافع المادية مثل مصر ، وسوريا ، وتركيا ولكنها كأجزاء من أمةٍ أصابتها نكبة داخلية ، ضربتها في الصميم ، وربما كان هذا كله نتيجة ما أقدم عليه صدام حسين رئيس العراق . وإننا نجمل النتائج بما يأتي :

أولاً : تحطيم القوات العراقية التي أُنفق عليها الكثير من أموال الأمة الإسلامية ، والتي يجب أن تكون قوةً لهذه الأمة وتحقيق أمانيها وأهدافها ، ومنها استعادة فلسطين وطرد اليهود . غير أن الولايات المتحدة الأمريكية خاصةً وبقية الدول النصرانية لا يمكنها أن تسمح لقوةٍ مسلمةٍ أن تتجاوز حداً

مُعيّناً لضمان سلامة دولة اليهود أولاً ، وخوفاً من تجمّع الأمة المسلمة ، ودحر الصليبية ، ولا شك أن تحطيم القوات العراقية من أول مطالب دولة اليهود . وكان الحاكم العراقي السبب فيما أصاب بلاده .

ثانياً : العمل على إفقار دول المنطقة كي تُخفّف من مساعداتها الإسلامية، ونشاطاتها الدينية، فالصليبيه لا تريد إرسال مساعدات للمنظمات والمراكز الإسلامية التي تُعدّ في نظر الصليبيين غزواً لهم في عقر دارهم . كما لا تريد استقدام طلاب العلم إلى قلب الجزيرة العربية يحملون الدعوة السلفية ، والفكر السليم ، وفتح الجامعات الإسلامية . ولعلّ من أول ما ظهر أثره إغلاق مئات المستوصفات في باكستان التي كانت تتلقّى الجرحى الأفغانيين ، وكانت تقوم على أموال المحسنين من الكويت ، إذ ذهبت أموالهم ، فانقطعت مساعداتهم ، ودفعت دول الخليج وخاصة السعودية والكويت الكثير من نفقات الحرب ، ومن المساعدات .

ثالثاً : السيطرة على مكامن النفط حيث التفكير بهذه السيطرة قد بدأ من حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) بين الدول العربية ودولة اليهود . إذ استعمل هذا النفط كسلاحٍ في الحرب وعملت المملكة العربية السعودية على قطعهُ عن الدول النصرانية التي دعمت دولة اليهود فتعطّلت عجلة الحياة ، فأخذت الصيحات تتعالى في أوربا خاصةً ، وفي الولايات المتحدة لا يصحّ أن تبقى حضارة العالم رهن تصرّف بعض أولئك الحفنة من شيوخ الخليج ، وأخذت الولايات المتحدة تعدّ العدّة منذ ذلك اليوم للسيطرة على مكامن النفط ، وجعلها تحت إشرافها ، وتنتظر الفرصة المناسبة لتنفيذ العملية ، حتى جاء دور صدام حسين فهيّأ الفرصة لتقوم الولايات المتحدة بهذه الخطة .

رابعاً : الهيمنة الأمريكية على أوربا ، بعد زوال مركز الكتلة الشيوعية ، لم يبق أمام الولايات المتحدة سوى أوربا التي ترغب بل وتسير في طريق الوحدة الأوربية . وكانت فرنسا من الدول التي لا تدور تماماً في فلك

السياسة الأمريكية ، وكذا ألمانيا . . . . وأما انكلترا فكانت أيام تسلّم (مارغريت تاتشر) السلطة تمشي وفق ما تقتضيه المصلحة الأمريكية ، فلما سقطت وجاء (جون ميجر) كان ينتظر منه أن يسير مع أوربا . . . وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في سيطرتها على منابع النفط في منطقة الخليج أن تجعل أوربا تسير في فلكها دون مناقشة ، وخاصةً أن أوربا قليلة الإنتاج للنفط ، ومعظم حاجياتها منه تقوم على الاستيراد . وشعرت بعض الدول الأوربية بهذا ، وعملت سراً على دعم موقف العراق ، ولكنها خشيت مواجهة الولايات المتحدة . وأعطي مثالين اثنين : اقترحت ألمانيا إنشاء قوة أمنٍ أوروبيةٍ، فأجابت هولندا: إن إنشاء مثل هذه القوة يعني المواجهة مع الولايات المتحدة ، إذ أن حفظ أمن أوربا منوط بحلف شمالي الأطلسي ، وليس بقوة الأمن الأوربية التي لا يمكن أن نعرف قوتها . وما دامت هناك قوة الحلف الأطلسي فإن إنشاء أية قوةٍ أخرى إنما هي موجهة ضدّ حلف شمالي الأطلسي ، لذا نلاحظ أن موقف ألمانيا قد تغيّر بعد هذا من حرب الخليج ، وأخذت تُبدي تأييد الموقف الأمريكي ، وقدّمت المساعدات الضخمة لدولة اليهود وهذا ما ترضى عنه الولايات المتحدة ، كما قدّمت مبالغ كبيرة كمعونة في نفقات حرب الخليج ، وأبدت استعدادها لإرسال قواتٍ مُدرّعةٍ لها عن طريق تركيا ، هذا بعد أن كانت متوانيةً تجاه الموقف الأمريكي . وكانت فرنسا تترنّح في موقفها ، ويريد الرئيس الفرنسي (فرنسوا ميتران) عرض مُبادرةٍ فرنسيةٍ لكن الرئيس الأمريكي(جورج بوش)وقف بعنفٍ تجاه هذه المبادرة فما كان من فرنسا إلاّ أن انصاعت للواقع ، وأخذت تزاود في حرب الخليج وتدفع بقواتها ، وتعلن عن عمليات قواتها . وأما روسيا فقد أصبحت ضعيفةً وتتلقّى المساعدات من الغرب بل حصلت على مساعدة من المملكة العربية السعودية تقدر بأربعة مليارات دولار ، لذا لا يمكن لروسيا إلاّ أن تخضع لما تريده الولايات المتحدة ، وخافت اليابان أن تبقى منعزلةً وتُغضب أمريكا لذا أسرعت تدفع الكثير لتغطية نفقات الحرب ، وأعلنت تضامنها التام مع دول التحالف .

وهكذا بدت الولايات المتحدة سيدة الموقف ، واضطرت أن تدور الدول الأوربية في فلكها خوفاً على مصالحها التي قد تتعرّض للضرر في منطقة الخليج ، وخشية من اتخاذ موقفٍ يجعلها في مواجهة مع الولايات المتحدة مع علمها التام أن هذه الحرب ليست في مصلحتها ، ولكن فُرضت عليها فرضاً أو اضطرت إلى أن تسير في هذه الطريق .

ولم يكن التخطيط لسيطرة الولايات المتحدة على العالم فحسب ، وإنما يحلم رئيسها (جورج بوش) أن يكون هو زعيم الأرض بلا منازع ، وهذا ما تمّ له ، واستطاع تحقيقه ، ويمكن التأكد من ذلك من موقف الروس ، بعد أن كانوا يُهدّدون العالم ، ويصرّون على رأيهم ، نراهم في حرب الخليج لا يستطيعون أن يتكلموا بحرفٍ واحدٍ تجاه موقف جورج بوش ، الذي خلا له الجو فأخذ يتحكّم ، ويفرض هيمنته ، وهو رئيس المخابرات سابقاً ، ويحلو له السيطرة ، ويشعر بالغبطة عندما ينجح في تنفيذ رأيه على كرهٍ ممن يقف في وجهه ولو كان على حساب دماء أهل الأرض جميعاً .

خامساً : إن من المخططات المرسومة العمل على تغيير بنية المجتمع المسلم الذي لا يزال متماسكاً إلى حدّ ما وخاصةً في جزيرة العرب ، وأعني المملكة العربية السعودية وقطر ، وإن هذا التغيير سيكون نتيجة القرب الأمريكي من المنطقة والإشراف على العمل ، وقد استهل بمخططٍ قيادة المرأة للسيارة بعد نزول القوات الأمريكية بقليلٍ ، ولكن الحكومة وقفت في وجه هذا المخطط . ونأمل أن يفشل الأعداء فيما يسعون إليه .

سادساً : ويأمل الأعداء في الوقوف في وجه هذا التيار الديني الذي يزداد وعياً يوماً بعد يوم ، حيث تتخرج أعداد من الجامعات ، وخاصةً أن هناك ثلاثة جامعاتٍ إسلاميةٍ ، ويكون هذا الوقوف نتيجة القرب بالإفساد ، ونتيجة الإشراف بالإبعاد ، ونرجو أن يُخيّب الله مسعى المفسدين .

سابعاً : الفرقة بين المسلمين تشعّبت الآراء ، والأفكار ، والأهواء إذ

سار الناس في تيارين متباينين ، وكل فريقٍ يصوّر الفريق الآخر بالسير في طريق الضلال ، والتيه ، ويعتمد فيما يذهب إليه بأقوال بعض المشايخ ، وحدثت فتنة عمياء سيكون لها في المستقبل خطر بيّن . وسأترك للقارىء الحكم بنفسه بين الطرفين ، بتبيان ما ذهب إليه كل فريقٍ .

الفريق الأول المعادي للعراق :

١ ـ إن حزب البعث حزب علماني ، وهو الذي يسيطر على العراق . ومحاربته حرب للعلمانية .
٢ ـ إن أكثر جيش العراق من أتباع حزب البعث .
٣ ـ إن الرئيس العراقي مستبد ظالم ، عدو للإسلام ، وعدو للإنسانية ، وحربنا له حرب للظلم والاستبداد والطغيان . وإن توسّعه في الكويت وغيرها إنما امتداد للظلم والعلمانية ، ولذا يجب علينا الوقوف في وجهه للحدّ من هذا الامتداد .
٤ ـ إن ما فعله الرئيس العراقي بالأكراد ، واستعمال الأسلحة الكيماوية ضدّهم ، وهذا محرّم دولياً ، وإن الإبادة الجماعية التي ألحقها بهم لأمر يستنهض الهمم لردعه وقتاله .
٥ ـ إن أهل الكتاب أقرب إلينا شرعاً من العلمانيين الكفّار .
٦ ـ إن سيطرة أهل الكتاب علينا في أسوأ احتمال أقل خطراً من سيطرة العلمانيين الكفّار المستبدّين .
٧ ـ إننا نستطيع الدعوة ، ولنا الحرية التامة في ظلّ الأنظمة الحرّة ، ولكن لا نستطيع أن نتنفّس في ظلّ الاستبداد وخاصةً في ظلّ حكم كالحكم العراقي الحالي الذي فاق كل ظلمٍ واستبدادٍ .
٨ ـ إننا قد أخذنا رأي الشيوخ في طلب المساعدات من الدول العربية والإسلامية والصديقة وأعطونا الفتوى بذلك .
٩ ـ إن ما يدّعيه الرئيس العراقي من إسلام ليس سوى متاجرةٍ محضةٍ ، وواقعه يُكذّبه .

١٠ - إن ما فعله العراقيون بأهل الكويت من قتلٍ وسلبٍ وانتهاك للحرمات ليشجّعنا لاتخاذ أية وسيلةٍ لاتقاء شرّهم ، وخاصةً أنّ الكويت قد قدّمت الكثير للعراق أثناء حربه مع إيران لكن نكران الجميل كان صفة العراقيين بل ردوا عمل المعروف بالاحتلال وارتكاب الجرائم .

من أجل هذا كله طلبنا المساعدة ممن طلبنا ، ونحن على حقٍ في ذلك .

الفريق الثاني المؤيّد للعراق :

١ - إن كل ما قيل عن علمانية حزب البعث ، واستبداد رئيسه ، وما فعله بالأكراد صحيح . ولكن الذين يُهاجمونه اليوم كانوا يُدافعون عنه بالأمس ، ويدّعون أن ما فعله بالأكراد إنما هو محض دعايةٍ وافتراءٍ .

٢ - إن الذين يُقاتلونه اليوم كانوا بالأمس يُساعدونه ، ويُقدّمون له الأموال ، وهذه الأسلحة التي يُقاتلهم بها اليوم إنما اشتريت بأموالهم . وإن مساعدة الأمس وقتال اليوم لم يكن إلاّ لمصالح فئةٍ من دون الأمة ، وخطة من قبل الأعداء .

٣ - إن تبديد أموال الكويت وتبذيرها بالصورة التي عليها لا يقبله عاقل . وإنها لصورة أصبحت على ألسنة الخلق . وإن إنفاقها على الاستعداد وشراء السلاح خير من تبديدها على الفسق والفجور ، إذ تأخذ امرأة بنصف ساعةٍ ما يسدّ ميزانية إقليمٍ ، وربما هذا ما دفع العراق للقيام بما قامت به .

٤ - إن الذين جاءوا للمساعدة هم أعداء الأمة الحقيقيين ، كانوا وما زالوا ، هم الذين سلبوا من المسلمين فلسطين ، وهم الذين يتبنّون اليهود ودولتهم ، ويُساعدونها ، ويُدافعون عنها ، وما جاءوا للمساعدة صداقةً وحميةً ، ولكن جاءوا جرياً وراء مصالحهم ، وتنفيذاً لمصالح دولة اليهود ، وتحقيقاً لمخططٍ موضوعٍ .

٥ ـ وإننا نرفض احتلال الكويت بالقوة ، ونأبى اتخاذ هذه الأساليب ، والوحدة تتم بالتفاهم ، والإقبال عليها يتمّ بضرورتها الشرعية ، والفائدة العملية ، ولا يُجبر الناس عليها بالقسر ، ويُجرّون إليها جرّاً .

٦ ـ إننا لا نُؤيّد حزب البعث وعلمانيته ، والرئيس العراقي واستبداده وظلمه ، ولكننا نُؤيّد شعب العراق المسلم ، فرئيسه يزول ، والشعب يبقى . ونريد المحافظة على قوة العراق فإنه درع في المستقبل للأمة ، ورافد من روافد قوتها ، ولا نفرق بين حزب البعث في العراق وبينه في جهةٍ أخرى فهو علماني في كل مكان .

٧ ـ إننا نرغب بالوقوف في وجه العلمانية بالقوة بالحجة والبرهان ، وبأنفسنا لا بأعدائنا الذين لا يقلّون عداوة لنا عن العلمانيين ، فكلا الطرفين كـافر عدوّ .

٨ ـ إننا نؤيد الوقوف في وجه الطغيان والفكر العلماني وتوسّعه لكن بأيدينـا ونستعد لذلك ، وليس بأيدي خصومنا الذين يكيـدون لنا ، ويعملون لمصالحهم . ونعتمد على نصر الله إن كنا عـلى حقٍ ونعمل بشرع الله . فنحن نعتمد على هذا ، ولا نعتمد على قوة أمريكا ومن معهـا ، ونترك الاعتماد على الله .

٩ ـ إن ما أعطاه المشايخ من فتوى صحة وجواز الاستعانة باليهود والنصارى فيها نظر لـ :

أ ـ سبق للشيخ عبد العزيز بن باز ، وهو المعوّل عليه بالفتوى ، أنه أفتى بعدم جواز الاستعانة بالنصارى واليهود[1] . في كتابه « نقد القومية العربية » ، وهذا يعني أن للفتوى الأخيرة دلالتها .

ب ـ أن السؤال والفتوى كان بعد مجيء القوات ونزولها في أرضنا ، وهذا

---

(١) انظر كتاب « نقد القومية العربيـة » ص ٣٩ ـ ٥٠ المكتب الإسلامي ـ في بـيروت ـ الطبعـة السادسة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

يدلّ على أنه لا قيمة للفتوى ، فما يُفيد المسلمين لو كانت الفتـوى بعدم الجواز ، والأصل أن يكون السؤال والفتوى قبل الطلب ، فإن قال : « لا يصحّ » امتنع المسؤولون عن الطلب ، وعن الإقدام عما قاموا به .

جـ ـ إن الاستدلالات التي جاء بها المشايخ ليس فيها ما يدلّ على الجواز ، وقد تحدّث كثير من الناس في هذه الأمور من غير علمٍ ، وأهمها :

١ء ـ إن رسول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، استأجـر عبد الله بن أريقط المشرك دليلاً له في طريقه إلى المدينة المنورة يوم هجرته ، صلى الله عليه وسلم . فهل استئجار أجيرٍ ، ضعيفٍ ، فردٍ ، تابعٍ كاستقدام دولةٍ قويةٍ متبوعةٍ ، بل أقوى دول العالم ، ولها مصالحها ؟ فحادثة الاستئجار هذه يستدلّ بها بجـواز استقدام أجراء ، والبلاد تعجّ بهم ، وليس هناك من ناقدٍ ، لأن شرعية ذلك ظاهرة .

٢ء ـ إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد استعار من صفوان بن أمية دروعاً ، وصفوان لا يزال على شركه إثـر فتح مكـة ، في سيره ، صلى الله عليه وسلم ، إلى حنين . وهل الإعارة والشراء من فردٍ ، ضعيفٍ ، لا حول له ولا قوة كاستقدام أقوى دولة بسلاحها وعتادها إلى بـلادنا ؟ . إن هـذه الإعارة يستـدلّ بها بصحة شراء واستعارة أسلحة من بلاد الكفر . وأسلحة الأمصار الإسلامية كلها منها ـ مع الأسف ـ وليس من ناقدٍ لصحة ذلك .

٣ء ـ إعانة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقبيلة خزاعة عندما اعتدت عليها بنو بكر . إن قبيلة خزاعة هي التي استعانت ، وهي الضعيفة ، والمسلمون هم الأقوياء ، وبيـدهم الموقف ، فالأمر متباين !!! ونحن قد سلمنا قيادتنا وفوضنا من استقدمنا

بكـل شيء ، بل أصبحت إذاعتنـا في أكثر الأوقـات تتحـدث بلغتهم .

د ـ إن عدداً من العلماء قد ردّ هذه الفتوى ، ومستواهم العلمي لا يقلّ عن أولئك .

هـ ـ إن عدداً من المشايخ مَن قبِل واقتنع بتصريحات الأعداء بالخروج من البلاد بعد طرد المعتدين العراقيين من الكويت . والغريب هـذا ، وهؤلاء المشايخ هم أدرى الناس بأن النصارى واليهود والكفار عامةً لا عهد لهم ، ولا أيمان لهم ، فكيف قبلوها ؟ ، والأغرب من هذا أن التأكيدات لم تكن لهؤلاء المشايخ وإنما لآخرين ، وقد نقلوها بدورهم إلى المشايخ فقبلوها منهم ، وهم أدرى الناس بمعرفة رواية الحديث ، ومن يُؤخذ منه الحديث ، ومن يُردّ حديثه ؟ وهم يعلمون علم اليقين أنّ من نقلها إليهم ، إنما هم من الذين لا يقبل حديثهم أبداً .

وهذا رأي العقلاء من كلا الفريقين ، أما العامة فقد زادت فرقتهم ، وظهر اختلافهم حتى بدا أنه يصعب لقاؤهم والتفاهم بينهم ، ونتج عن هذه الفرقة .

١ ـ عدم قبول رأي المشايخ إذ في كلا الجانبين بعض المشايخ . وهذا الحـدث هو ما تخطط له العلمانية . وله معناه ودلالته الخطيرة بالبعد عن الدين ، ورفض رأي الشرع وحكمه .

٢ ـ ترك عوامل اللقاء التي كانت تجمع الدول العربيـة بعضها إلى بعض ، والعوامل التي تلتقي عليها الأمة الإسلامية . إذ أن كلا الجانبين يدعو إلى الإسلام ، وينادي بالجهاد ، وإن كانت دعوة العراق حديثة العهد مما يدلّ عـلى أنها للمتاجـرة ، أو ظهـرت وقت المحنـة ، ولا تلبث أن تتـلاشى

بعدها ، هكذا تبدو الأمور ـ والله أعلم ـ .

وأخذت تُطرح عوامل جديدة للقاء بين الشعوب والأمم ومنها العامل الحضاري ، وهو طرح خطير ، فادعاء الحضارة واللقاء مع النصارى واليهود على أساسٍ حضاريٍ ، وكل يدّعي الحضارة ، ومن لا يقبل هذا اللقاء فهو متخلّف رجعي . وهكذا تُعزل دول عربية وإسلامية ، ولا يكون بينها وبين بقية البلدان العربية والأمصار الإسلامية أي لقاءٍ ، على حين يكون هناك أحلاف ولقاءات بين بعض هذه البلدان والأمصار وبين دولة اليهود والدول النصرانية ، وهذا ما يُباعد المسلمين بعضهم عن بعض ، ويتشتت شملهم ، وتختلف كلمتهم ، ويُجافي العرب بعضهم بعضاً ، ونرجو من الله ألا يحدث هذا .

وأما في العراق فقد انتفض الجنوب ضدّ الحكم القائم ، وقد استطاع الرئيس صدام حسين إخماد تلك الحركة بالحرس الجمهوري الذي احتفظ بقوته .

وانتفض الأكراد في الشمال وتمكّن الحكم من تأديبهم . ودخلت القوات المتحالفة إلى المنطقة الكردية عن طريق تركيا . وتوطدت العلاقة بين الولايات المتحدة والأكراد ، حتى طالب الأكراد ببقاء القوات الأمريكية في منطقتهم وخرجت المظاهرات تطالب بذلك . وقد حصلوا على الاستقلال الذاتي ضمن دولة العراق . وشملت منطقتهم ألوية السليمانية ، وأربيل ، وكركوك ، وأقضية الموصل ذات الأكثرية الكردية .

والنتيجة :

بقي الرئيس العراقي صدام حسين على رأس السلطة رئيساً للجمهورية ، رئيساً لمجلس قيادة الثورة ، القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة . بعد اهتزازٍ في حكمه مدة بسيطة . ولكنه انتقل من دائرة النفوذ البريطاني إلى دائرة النفوذ الأمريكي وهذا ما جعله يبقى على رأس السلطة .

أصبحت منطقة الأكراد قاعدة أمريكية مهمة وستتخذها منطلقاً للسيطرة على منطقة النفط حول بحر قزوين وهي المنطقة الثانية في العالم بعد منطقة الخليج العربي ، وذلك بعد انهيار النظام الشيوعي ، وتفكك الامبراطورية الروسية ، والتي ستبدأ جمهورياتها بالانفصال ، فتحل أمريكا محلّ موسكو في أذربيجان وتتصرف بنفط باكو ، وكذلك في منطقة داغستان وبلاد الشاشان ، وبلاد التركمان ، وكل بلاد القفقاس وآسيا الوسطى . وهي الجمهوريات الإسلامية ذات الثروات المعدنية الضخمة من نحاس ، ومنغنيز ، وكروم ، وذات الثروات الزراعية ، وخاصة القطن والقمح إضافة إلى الثروة الحيوانية . وهذا على ما يبدو ما تخطط له الولايات المتحدة ـ والله أعلم ـ .

وتخلى صدام حسين عن النظام الرئاسي فعهد إلى سعدون حمادي برئاسة الوزراء ، على حين عُيّن طه ياسين رمضان نائباً لرئيس الجمهورية ، وغاب عن الساحة نائب الرئيس السابق طه محيي الدين معروف الذي يتولّى منصب نيابة الرئيس صورةً منذ عام ١٣٩٤هـ وهو من الأقلية الكردية .

البَابُ الثّالِث

الصِّراعات

تبلغ مساحة العراق ٤٤٨,٧٤٢ كيلومتراً مربعاً أي ما يقرب من مرة ونصف من مساحة بلاد الشام . ويزيد عدد سكانها على ستة عشر مليوناً ، وبذا تقرب الكثافة من أربعين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد ، وإن كانت هذه الكثافة تختلف من منطقةٍ إلى أخرى ، إذ تزيد في السواد وعلى ضفاف الأنهار ، وتقلّ في البادية .

الأجناس : تعيش عدة أجناس في العراق ، ولكن يُعدّ العرب هم الأكثرية الساحقة ، ويشكلون ٧٩٪ من مجموع السكان ، ويسكنون في الجنوب والوسط سواء أكان ذلك في البادية أم في السهول المروية ، كما يعيشون في الشمال ، وكانت أرض الجزيرة التي هي شمال سامراء تسمى بديار ربيعة ، وتقع جنوب ديار بكر التي تمتد إلى داخل تركيا اليوم .

ومن جهة الشمال الشرقي كان نهر دجلة يعدّ الفاصل بين القبائل العربية والقبائل الكردية ، ولا تزال بعض مظاهر الحياة القبلية قائمةً في البادية وبعض جهات السواد .

ويعدّ الأكراد المجموعة الثانية ، ويُشكلون ١٦٪ من مجموع السكان ، ويسكنون المناطق الشمالية ، والشمالية الشرقية ، منهم الحضر الذين يسكنون المدن والقرى ، ومنهم القبائل الذين يرعون في الجبال ، ويتنقلون بين الأودية

والهضاب ، وهم رجال أشداء ، تعوّدوا على الخشونة والقتال نتيجة طبيعة بلادهم الجبلية ، وهم على صلة مع بني قومهم الذين يعيشون في البلدان المجاورة ، في إيران ، وأذربيجان ، وتركيا ، وسوريا .

وتعيش في العراق مجموعة من الإيرانيين تشكل ٢,٥٠٪ من مجموع السكان ، ويقطنون قرب الحدود إلى الشرق من بغداد ، وفي بغداد نفسها ، وفي الأماكن المقدسة لدى الشيعة مثل : النجف ، وكربلاء ، وإن أعداداً من إيران تأتي إلى هذه الأماكن ثم تفضّل البقاء فيها .

وهناك مجموعة من الأتراك تُشكّل ٢,٢٥٪ ، وتُقيم في منطقةٍ تمتدّ بين المناطق الكردية في الشمال ، والشمال الشرقي ، وبين المناطق العربية في الجنوب ، على شكل شريط يمتد من (تل عفر) غرب مدينة الموصل بستين كيلومتراً إلى (مندلي) في الشمال الشرقي من بغداد ، قرب الحدود الإيرانية .

وتوجد أعداد من الآشوريين ، ويقيمون في الشمال في جبل سنجار ، وفي مناطق أخرى من الشمال ، ونسبتهم ضئيلة لا تستحق الذكر .

وهذا بالإضافة إلى أعداد من الشركس ، والشاشان ، والداغستان ، والأرمن يتوزّعون في أنحاء البلاد ، وقد جاءوا إلى البلاد بعد سيطرة الروس على بلادهم في منطقة القفقاس ، أما الأرمن فقد طردوا من ديارهم نتيجة مواقفهم العدوانية من الدولة العثمانية التي كانوا يعيشون في كنفها .

المجموعة	النسبة	العدد
العرب	٧٩,٠٠	١٢,٦٤٠,٠٠٠
الأكراد	١٦,٠٠	٢,٥٦٠,٠٠٠
الإيرانيون	٢,٥٠	٤٠٠,٠٠٠
الأتراك	٢,٢٥	٣٦٠,٠٠٠
مجموعات أخرى	٠,٢٥	٤٠,٠٠٠
	١٠٠,٠٠	١٦,٠٠٠,٠٠٠

العقائد : ويعدّ أصحاب العقائد غير المسلمة قلّةً في العراق إذ لا تزيد نسبتهم على ٥٪ من مجموع السكان .

يُمثّل المسلمون ٩٦٪ من سكان العراق ، إذ أن الأقليات من أجناس الأكراد ، والأتراك ، والإيرانيين ، والداغستان ، والشاشان ، والشركس كلهم من المسلمين ، وكلها تدين بالإسلام (السنة) باستثناء بعض المجموعة الإيرانية التي هي من الشيعة . ويكثر الشيعة في الجنوب وخاصةً في النجف ، وكربلاء ، وبغداد ، وقد انتشرت تحت تأثير البويهيين ، وبجهود المغول ، والصفويين ، ومن جاء بعدهم إذ كانوا يسيطرون على أجزاء من العراق .

ويُمثّل النصارى ٣٪ فقط من مجموع السكان، ويُمثّلون مختلف الطوائف النصرانية، فهناك النساطرة من الآشوريين، واليعاقبة، والغريغوريون، وقد جاء معظمهم من تركيا من جنوب بحيرة (وان)، ويقطنون الآن (زاخو) و(راوندوز) و(العمادية)، ويطلق على هؤلاء اسم (النصارى الأحرار)، وهناك النصارى الاتحاديين من أرمن كاثوليك وكلدان، وهناك الأرمن الأرثوذكس، والبروتستانت، والكلدان الحديثون.

ويُمثّل اليهود ٠,٥٪ من مجموع السكان، ويقيم ثلثاهم في مدينة بغداد وما جاورها، ووجدوا في البلاد من القديم منذ الأسر البابلي أيام (بختنصر)، ولهم مجالس في كل من بغداد، والموصل، والبصرة، ويعملون في التجارة، وصياغة الذهب، وبيع الخمور، وقد ترك من كان يعمل بالزراعة منهم مهنته، وانتقل إلى هذه المهن، وفرّ عدد منهم إلى فلسطين، أو حصل على السماح بمغادرة البلاد بعد أن وافقت الحكومة على ذهاب من يريد منهم المغادرة.

وهناك أعداد من اليزيديين (عبدة الشيطان)، ويُقيمون في قضاء شيخان، وفي جبل سنجار، وكلا الموضعين في لواء الموصل، ويعملون في الزراعة وتربية الحيوان، ويبدو أنهم يعودون في أصولهم إلى الكردية، ويتكلّمون العربية والكردية.

وأما الصابئة (وهم غير عبدة النجوم الذين يتخذون من مدينة حران في تركيا قاعدة لهم) وإنما هم في الأصل جماعة من اليهود اتبعوا حسب أقوالهم (يوحنا المعمـدان)، وتنكّروا لليهـودية، ويُقيمـون في (العمارة) و(النـاصرية) و(سوق الشيوخ) و(بغداد) و(قلعة صالح) جنوب العمارة، ويعملون في صناعة السفن، والزوارق الصغيرة، والأدوات القاطعة، والأواني الفضية، ولا يزيد عددهم على ستة عشر ألفاً.

الفصل الأول

صراع الأقليات

سبق أن قلنا أن الأقليات ضعيفة النسبة لذلك لا مجال لها للدخول في صراعات مع الأكثرية ، وخاصةً إذا علمنا أنها والأكثرية ضمن عقيدةٍ واحدةٍ هي الإسلام ، والإسلام لا يفرق بين الأجناس ، والألوان ، واللغات ، كما أنه يحترم أهل الكتاب ، ويُعدّهم في ذمته ورعايته ، ما داموا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم . غير أن مخالفة الإسلام ، وعدم اتباع تعاليمه تجعل بعض الصراعات تحدث نتيجة تلك المخالفات .

الصراعات بين الأجناس : قلنا إن الأجناس التي تعدّ ذات شأن إلى جانب العرب هم **الأكراد** الذين يُشكّلون ١٦٪ من مجموع السكان ، وعندهم الإمكانات للدخول في صراعات لا لنسبتهم فقط ، وإنما لطبيعة بلادهم الجبلية التي تصلح أن تكون معاقل ، كما أنها أثّرت على أبنائها فجعلت منهم رجالاً أشداء ، يمكنهم تحمّل الصعاب ، والصبر على المكاره .

عاش الأكراد في مناطقهم الجبلية ، وجاءهم المسلمون فاتحين ، فدخلوا بلادهم ، وأخذ الأكراد يدخلون في دين الله ، حتّى عمّ الإسلام بينهم ، وأخذت اللغة العربية تنتشر بينهم إلى جانب لغتهم التي بقوا محافظين عليها ، وربما كان من أسباب هذه المحافظة على اللغة حياتهم في مناطق جبلية غالباً ما تكون منعزلةً عن غيرها ، إذ نلاحظ أن الذين تركوا جبالهم ، وانتقلوا منها أيام الأيوبيين للدفاع عن ديار الإسلام في بلاد الشام ضدّ الصليبيين قد تركوا

لغتهم ، وتحدّثوا العربية فقط ، ولا نعرف أصولهم الكردية إلا من خلال أسماء الأسر ، وهذا ما نُلاحظه في مختلف المدن التي أقاموا فيها ينازلون الصليبيين منها كدمشق ، وحماه ، ودرعا ، والكرك و . . . .

رضي الأكراد بكل حكمٍ باسم الإسلام منذ دخولهم بهذا الدين حتى أواخر العهد العثماني ، وكانوا مثال الشعب المسالم رغم طبيعتهم الجبلية ، وكأنهم من سكان السهول الذين لا يرغبون في الحركات ، ولا يحاولون الثورات لارتباطهم بأرضهم ، ولانتظارهم لمحصولهم ، وخوفاً على الإنتاج ، فلم ينازع الأكراد الأمر أهله ، فلم يُطالبوا بخلافة، ولم يدعوا إلى إمرة ، ولم يقوموا بحركةٍ . وإذا كانت قد حدثت حركات على مستوى أفراد فهذا أمر ربما يحدث في كل وقتٍ ، ولدى كل شعبٍ ، أما الحركة على مستوى الشعب كله فلم تحدث أبداً .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وبدأت الحركات القومية تقليداً لما حدث في أوربا ، وتشجيعاً من دولها أيضاً لإبعاد الشعوب الإسلامية عن رابطة العقيدة، وإحلال الفكرة القومية محلّها. ومن هذا المنطلق عملت دول الحلفاء على تقسيم الدولة العثمانية إلى أجزاء حسب هذا المفهوم ، وقام على أشلائها ما عُرف باسم دول قومية باستثناء الأكراد الذين قُسّمت مواطنهم إلى عددٍ من الأقسام ، ووضعت ضمن دولٍ حيث بقوا أقليةً في كل دولةٍ حتى شعروا أن القصد من هذا كله لا يخصّ سواهم ، إذ كل شعبٍ أسّس دولةً إلا هم فقد جُزئت بلادهم ، وصحيح أن الشعب العربي قُسّم إلى عددٍ كبيرٍ من البلدان ، لكن الرقعة التي يعيش عليها تُعدّ شاسعةً جداً فيمكن تقسيمها ، ولكن كان من المفروض ألا يزيد عدد البلدان العربية على خمس دول ، كأن تكون : بلاد الشام ، والعراق ، وجزيرة العرب ، ووادي النيل ، وبلاد المغرب أقاليم للشعب العربي ، وكل إقليم يُؤسّس دولةً . وبلاد الأكراد منطقة ليست متسعةً فيمكن أن تقوم فيها دولةً . فلما رأى الأكراد ما حلّ بهم ظنّوا أن الأمر يعنيهم فقط ، وهذا ما أثار عندهم العصبية ، وأوجد فكرة النزعة القومية ، وبدأوا

يُطالبون بوحدة بلادهم من باب العصبية .

الواقع أن الحلفاء الذين كانت بيدهم هذه التجزئة ، وهم أصحاب هذه اللعبة قد خططوا ذلك ليكون الأكراد العصا التي يضربون بها الحكومة التي تريد أن تخرج عن دائرة سياستهم ، والأفعى التي يُثيرون بها الفتنة كلما أرادوها ، وفي أية بقعةٍ رغبوها .

وأما الحكومات التي عاشوا في ظلّها ، والتي يُهمّنا منها الآن حكومة العراق ، فقد أرادت أن تسترضيهم ـ حسب رأيها ـ فمنحتهم حقّ تعلّم اللغة الكردية ودراستها ، وجعلها اللغة الرسمية في مناطقهم ، والمرافعة والمقاضاة بها ، وهذا ما نمّى عندهم روح الاختلاف عن الشعوب التي تُجاورهم ، ووسّع الشقة عندهم ، وأوجد فكرة العصبية ما داموا يختلفون عن الآخرين باللغة ، ويتفاهمون فيما بينهم بينما لا يتفاهمون مع غيرهم ، إذ لكلٍ لغته ، ومفاهيمه ، واصطلاحاته .

ثم جاءت هذه الحكومات ودعت إلى العصبية القومية ، فوجد الأكراد أنفسهم أيضاً يعيشون خارج نطاق هذه الدائرة التي تدعو لها الدولة التي يُقيمون في ظلّها ، وهم بعيدون عن هذه الدعوة ، فكيف يُزجّون زجّاً ، وعلى كرهٍ منهم داخل بوتقةٍ لا يرتبطون بها برابطٍ ، ولا تجمعهم بها صلة ، فجفلوا عنها ، وأنفوا منها ، ووجدوا في الأرومة التي ينتمون إليها دعوةً يتفيّئون في ظلّها ، وكردّ فعلٍ للمحاولة التي أُريد لهم أن يُقحموا فيها .

وهكذا وجد الأكراد أنفسهم في دولةٍ يختلفون عن أكثرية سكانها في اللغة فلا تفاهم بينهم ، وفي القومية فلا صلة بينهم ، وفي الدعوة والمنطلق فلا جامع معهم ، فكيف يعيشون معهم وهم يفخرون عليهم ؟ وكيف يكونون إخوةً لهم وهم يحطّون من شأنهم ، ويسخرون منهم ، ويتعالون عليهم ، وكيف يكونون أنداداً لهم ، وهم يحرمونهم مما يفخرون به من الأصل ؟ إن هذا لن يكون أبداً بين مجموعتين تعيشان ضمن إطارٍ واحدٍ ، وهذا ما حرّك العصبية الكردية لدى أبنائها جميعاً حتى عند الذين يُحاربون فكرة العصبية والدعوة لها من المسلمين

نتيجة الظروف التي وجدوا فيها ، وإن كنا لا نرى مُـبرّراً لأصحاب الفكـر الإسلامي من الأكراد أن يسيروا في هذا التيار ، ولا أن يخضعوا للظروف التي تُحيط بهم فتُلزمهم بالتحرّك ضمن إطار يُخالف فكرهم ، ولا نجد لهم مبرراً أيضاً ليعيشوا تحت وطأة المجتمع الذي يعيشون في ظلّه فيلفّهم بفكره . . . إلا أن الإنسان يضعف أحياناً ويحاول أن يجد لنفسه عللاً في مسلكه ، كأن يقول : إن هذا الوسط الذي أعيش فيه هو المجال الذي يجب أن أدعو فيـه ، فإذا خالفته حدث انفصام بل انكسار وتعذّرت دعوتي ، وتوقّف نشاطي ، وحُرمت من أجري ، وإن سايرته قليلاً أمكنني العمل في داخله وربما استطعت حمله إلى فكـري وما أريـد . ولكن هذه العلل مـرفوضـة أيضـاً في نـظر الإسـلام ، فرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دعا ضدّ ما تعارف عليـه قومـه ، وما اعتقدوا به ، ولم يتساهل في دعوته شيئاً ، ولو فعل لما بلّغ الأمانة ، ولا أدّى الرسالة ، ولما كان الرسول الخاتم للأنبياء والرسل ، ولا كانت دعوته للبشر كافةً ، ولا حمل الصفة التي تُؤهّله لما اختاره الله إليه ، بل لم يكن الله ليختاره لمثل هذه المهمة . ونشهد أنه خالف قومه ، وأدّى الأمانة ، وبلغ الرسالة .

ولا شك أن انكلترا كانت من وراء هذا كله ، فإن الحكومة العراقية عندما قرّرت أن تكون اللغة الكردية هي اللغة الرسمية في المناطق التي يقيم فيها أهلها كانت الحكومة العراقية يومذاك تخضع لنفوذ السياسة البريطانية ، وتعيش تحت تأثير فكرها المباشر ، وتوجيهها الرسمي ، ولم تفعل انكلترا ذلك حبّاً بالأكراد ، ولا كرهاً بالعرب ، وإنما لتُحقّق بذلك مُخطّطها فيكون الأكراد على خلافٍ مع العرب فتثيرهم في الوقت الذي تريد ، ولو لم تفعل ذلك لأمكن التفاهم بين العرب والأكراد ، ولفشل مخطط انكلترا ، ولم تنجح سياستها . وكذلك فالفكرة القومية التي شجّعت انكلترا على نموها للغرض نفسه في ترسيخ جذور الخلاف بين أصحاب الأصل المختلف فتحرّك الفتنة في الوقت الذي تشاء ، ولو كانت انكلترا تدرك أن القومية ضدّها ـ كما يدّعي دُعاتها ـ لخنقتها في المهد ولعملت على دفنها في كل بلدٍ سيطرت عليه أو كان لها نفوذ فيه ،

وكذلك كانت عملت فرنسا وكل دولةٍ استعمارية في مستعمراتها ومناطق هيمنتها . ولكن نجد على العكس أن هذه الدول الاستعمارية قد شجّعت الحركات القومية ، وسمحت بتأسيس أحزابٍ تقوم على هذه الفكرة وتحملها ، وتبّنت هذه الأحزاب ورفعتها ، ودعمتها ، وربطتها بسياستها . وعلى كلٍ فالفكرة القومية قد نبعت في المجتمع الأوربي النصراني وهو مُغاير تمام المغايرة للمجتمع المسلم سواء أكان عربياً أم كردياً أم غيرهما من المجتمعات الإسلامية ، ومن الوسط الأوربي انتقلت إلى البيئة الإسلامية المُخالفة لها كلياً بل المُعادية لها ، لذا فقد تبنّاها في بداية الأمر النصارى الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ، والذين ليس لهم من دعوةٍ سواها يتقرّبون بها من أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه حسب ظنّهم ، أو حسبما خُطّط لهم ، ويعملون من ورائها لتهديم الرابطة الإسلامية التي تصهر أفراد المجتمع كلهم في وحدةٍ واحدةٍ . ثم تبنّاها بعد ذلك الأفراد الذين ابتعدوا عن العقيدة وراء شهواتهم ، أو خلف مصالحهم ، أو تبعاً للنصارى من الأوربيين الذين لهم النفوذ والذين يستطيعون التمكين وتسليمهم السلطة، وقد أسّسوا الأحزاب لتحقيق هذا .

ولم تخرج انكلترا من العراق حتى قامت بمناوراتٍ بالأسلحة الحقيقية ، والدراسات الميدانية فحرّكت الأقليات حسب الأفكار القومية ، ووجدت آثارها بنفسها ، وقامت بدراسة النتائج وفعّاليتها في المستقبل ، ومدى تأثيرها على الدولة .

ولو كانت الحكومات التي جاءت بعد الاستعمار حرّةً في تفكيرها ، صادقةً في إخلاصها للأمة لتخلّصت من كل ما جاء به المستعمرون من أفكارٍ كالعصبية القوميةٍ ، وكل ما ضغطوا في سبيل تحقيقه كإحياء لغات الأقليات . ولعملت الحكومات الوطنية على دراسة التاريخ ، وبحثت في الأسباب التي جعلت الأكراد يقبلون حكم غيرهم دون أن ينازعوهم ، ومن غير أن يتحرّكوا ، أو يقوموا بثوراتٍ ، ولكانت قد توصّلت إلى أن الإسلام هو العامل الأساسي في قبول الأكراد حكم غيرهم إذ يعدّونه الرابط بين شعوب الأمة

الإسلامية ، ولما كانوا هم دون غيرهم في معرفة أحكامه لعزلتهم في مواقعهم الجبلية لذا لم ينازعوا غيرهم على الحكم . ولو كانت الحكومات التي خلفت الاستعمار صادقة في وطنيتها لعملت على التقرّب من الأكراد لإسكاتهم ولخيرهم وخير الأمة كلها في الدنيا والآخرة بالدعوة إلى الإسلام ، ونبذ التفرقة العصبية ، والاهتمام باللغة العربية على أنها لغة المسلمين جميعاً لأنها لغة العبادات، والأحكام، والقرآن ، والحديث ، والفقه .

ولكن هذه الحكومات لم تكن صادقةً في أي شيءٍ ادّعته لذا أبقت ما حثّ عليه الاستعمار وما شجّعه من فكر قومي وإحياء لغة الأقليات ، وهذا ما أدّى إلى قيام الحركات الكردية ، وبقاء أصحابها يشعرون أنهم مظلومون ، وأنهم عنصر لا يربطه رابط مع أكثرية سكان الدولة التي يعيش في ظلّها ، ومن هنا كان الأكراد يعتقدون أن حركتهم مشروعة ، وأن ثورتهم لا بدّ منها حتى ينالوا حقوقهم التي يُطالبون بها ، من توحيد مناطقهم المُجزّأة في دولةٍ واحدةٍ على أساسٍ كرديٍ ، ومن هنا كانت حركاتهم التي قضّت مضاجع الحكومات العراقية المتوالية - كما رأينا في السابق - ولما نُلمح إليه في المستقبل - إن شاء الله .

ولما كان الأكراد مُوزّعين في عدد من الدول المجاورة لذا لم تستطع دولة منها دعم حركةٍ كرديةٍ في دولة ثانية بشكلٍ جديٍ لأن هذا يُهيّج الأكراد الذين يعيشون ضمن حدودها ، وهذا ما تخشاه أساساً وإنما تعمل عادةً على فتح حدودها لهرب الذين يضطرون للفرار من مناطقهم ، وتأويهم ، وربما قدّمت إليهم بعض المساعدات المادية والأسلحة . ولكن هذه الدول تُخوّف إحداها الأخرى بإثارة الأكراد عليها غير أنها بالفعل عاجزة عن ذلك لأن ليست على وئام مع الأكراد في أرضها ، وإثارة الجوار يُثير مواطنيها لذا فهي تُحرّك الفتنة على حذرٍ ، غير أن الذي يُمكنه إثارة النعرات إنما هو الذي يعيش خارج المنطقة وله فيها قنوات وأصابع تمتدّ إلى داخلها ، وجسور يصل عن طريقها إليها ، وهذا ما يأتي غالباً من الدول الكبرى التي خطّطت لهذا ، وأخرجته لنفسها

بشكلٍ يُناسب سياستها ، ويُلائم نظراتها المستقبلية .

وأما **الإيرانيون** الذين يُشكّلون ٢,٥٪ فقط من مجموع السكان فإن نسبتهم الضئيلة هذه لا تجعلهم يستطيعون الحركة ، وخاصةً أنهم في مناطق محددةٍ ، ويمتدّون على شريطٍ طويلٍ من الحدود ، لا يجمع بينهم سوى اللغة ، ولم تكن اللغة في يومٍ من الأيّام رابطاً أساسياً ، ولكن رابطاً ثانوياً يتبع الأصل أو يرتبط بالعقيدة ، وعندما يلحق بالأصل يكون عاطفياً وعند المجموعات المادية . ويتصل بالعقيدة عندما يكون للفكر الدور الأساسي وهذا ما يحدث عند المسلمين الذين تعدّ اللغة العربية لغة العقيدة عندهم لأنها لغة العبادة التي لا تصح إلا بها ، ولغة القرآن الكريم وتلاوته بها عبادة وبغيرها تعدّ أو تكون قراءةً أو دراسةً لأنها تكون ترجمة . . . . . وكذا هي لغة الحديث وبها دوّن الفقه . والإيرانيون في العراق من أصولٍ متعددةٍ نتيجة الامتداد الشريطي الطويل ، ولا يلتقون مع سكان إيران جميعاً بالعقيدة لأن بعضهم من المسلمين (السنة) كاللّور ، على حين غالبية سكان إيران من الشيعة لذا كان أثرهم محدوداً ، ولا يمكنهم أن يقوموا بحركات بل ليس لهم أهداف واحدة .

وأما **الأتراك** الذين يُشكّلون ٢,٢٥٪ من مجموع السكان فإن نسبتهم الضعيفة هذه لا تجعلهم يستطيعون الحركة ، كما أن بعدهم عن الأتراك في تركيا يضعف من شأنهم أيضاً ، ولا يجمعهم سوى القومية التي هي دعوة عاطفية ، وغالباً ما تكون عند البدائيين ، وربما وجدت عند أقوام ماديين لأنها لا تحمل في ثناياها فكراً ، ولا تنتمي إلى عقيدةٍ التي غالباً ما تكون عالميةً ، كما أن اللغة تزول مع الزمن إن لم ترتبط بعقيدة ، ولغة العقيدة هنا كما سبق أن ذكرنا هي العربية التي يعرفها الأتراك هنا ، يتعلّمونها ، حتى غدت مع الزمن لغةً لهم ، وليست لهم أهداف لأنهم جميعاً من المسلمين عقيدة غالبية السكان ، الذين لم يختلفوا عنهم بشيء سوى الأصل الذي ليس له أي أثر ، ما دامت العقيدة والفكر يجمعان بينهم .

وهناك **الشراكسة** ، **والشاشان** ، **والداغستان** فهم من المسلمين جميعاً

حيث لم يخرج من بلادهم بالأصل إلا المسلم نتيجة الضغط، والظلم ، والتشريد النصراني لهم ، وهؤلاء لا يُشكّلون نسبةً وجاءوا إلى هذه البلاد ليعيشوا في ظلّ الإسلام ، ويتخلّصوا من الاضطهاد النصراني الروسي الذي دخل واحتلّ البلاد بالقوة ظالماً حاقداً مستعمراً ، يبغي إذلال المسلمين .

صراعات العقائد : عاش اليهود والنصارى في العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الحرب العالمية الأولى في ظلّ الإسلام آمنين على أموالهم ، وأملاكهم ، وأرواحهم ، وبيعهم ، وكنائسهم ، لم يُتعرّض لها بسوء ، وإذا حدث شيء فإنما وقت الفوضى عندما يتعرّض له الناس جميعاً ، أما من قبل المسلمين فلم يحدث هذا .

لما دخل الإنكليز العراق محتلّين اشرأبت أعناق اليهود والنصارى ، فاستقبلوا المستعمرين ، وأخذوا يتعالون على المسلمين ، وكأن الأمر قد استقرّ للإنكليز ، وارتفع شأنهم عنده فخانوا الذمة ، ونقضوا العهد ، وبالغوا في الإيذاء .

رفع البريطانيون من شأن اليهود والنصارى ، وأرادوا أن يضعوهم فوق رقاب المسلمين . لقد جعلت انكلترا من الآشوريين النصارى النساطرة جيشاً، وأعطته صلاحيات واسعةً حتى أصبح يعتدي على الأهالي دون أن يقف في وجهه أحد ما دام المحتلّون يدعمونه وكانت هذه الفرقة من النصارى اليد التي تضرب بها القوة المستعمرة ، وتبطش بها السكان الآمنين ، ولم تكتف هذه الفرقة بأن تعدّ نفسها من أعوان انكلترا وعملائها بل عدّت نفسها منهم ما دام الطرفان من النصارى، وقد مرّ معنا الفتن التي أثارتها ، والجرائم التي ارتكبتها ، والثورة التي قامت بها ، ثم كانت القوة التي احتلّت (الفلوجة) للإنكليز أيام حركة رشيد عالي الكيلاني . وعندما استقلت البلاد ، وخرج الإنكليز انتهى دور هذه الفرقة لأنه زال سندها . هذا مع العلم أن أكثر أفراد هذه الفرقة إنما جاءوا من خارج حدود العراق ، وخاصةً من جنوب بحيرة (وان) في شرقي تركيا عندما ظهرت خيانتهم ، وبانت جرائمهم حتى خرجت

روائحها لقذارتها .

وعندما خرج الإنكليز لم يجد أفراد هذه الفرقة حمايةً لأنفسهم إلا أن يدخلوا في بعض الأحزاب القومية التي أخذت تُدافع عنهم باسم القومية في سبيل كسب تأييدهم ، وأخذ عناصرهم إلى أحزابها .

لننظر إلى هذه الفرقة من الناحية السياسية بغض النظر عن العقيدة . فرقة استقبلت المستعمرين فهي خائنة ، وانضمّت إلى صفوفهم ، وأصبحت قطعةً من قواتهم ، فكانت اليد التي يبطشون بها ، فخيانتها مضاعفة ، وجزاء الخيانة القتل في جميع القوانين ، والأعراف ، والسياسة ، والمنطق . وهذه الفرقة قد ارتكبت جرائم القتل المتعمد ، وحكمه القتل ، فكل من شارك من أفراد هذه الفرقة بالخيانة أو القتل يُقتل .

وإذا نظرنا إلى هذه الفرقة من وجهة نظر الإسلام لم يتعد الحكم على أفرادها ما نظرنا إليه من وجهة النظر السياسية . غير أن الحكومات التي جاءت بعد الاستعمار لم تنظر إلى القضية من وجهة نظر سياسيةٍ ولا من منطلقٍ إسلاميٍ ، وإنما نظرت من وجهة النظر الاستعمارية حيث بقي النفوذ الإنكليزي بعد الاستقلال ، وبقي تأثيره على الحكومات وضغطه . كما اتخذوا القومية مظلّةً استظلّوا بها ، لذا بقيت الخيانة ، وبقيت آثار الجريمة ، وظلّت هذه الفرقة على صلتها بولية نعمتها انكلترا ، تتعاون معها ، وتنقل لها الأخبار فبقيت شوكة في جسم العراق تحتمي بظلّ العصبية القومية مع العلم أنها ليست من العرب ، ولا من أبناء المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى . وهذا من أولى نتائج القومية .

أما اليهود فقد استقبلوا أيضاً المستعمرين الإنكليز بكل ترحابٍ ، وجعلوا من أنفسهم عيوناً لهم ، وبذا فقد خانوا الذمة ، ونقضوا العهد ، فوقفوا ضدّ من رعاهم قروناً طويلةً ، وحماهم عصوراً ، وأمّنهم عمراً مديداً ، وقد جعل الإنكليز أحد أبناء اليهود وهو (ساسون حسقيل) وزيراً لأخطر الوزارات ، وهي المالية .

ولما قامت حركة رشيد عالي الكيلاني شعر اليهود بأشد الحرج ، وأحسّوا بالضيق ، فلما فشلت أبدوا شماتتهم مما جعل الأذى يلحق بهم في أيام الفوضى يومي الثاني والثالث من ربيع الثاني ١٣٦٠هـ ، لما أظهروا من شماتةٍ ، ولما نقلوا من أخبار للإنكليز أيام الحركة .

ولما سيطر اليهود في فلسطين على أكثر أرضها ، وأعلنوا قيام دولةٍ لهم فيها . أخذ اليهود في العراق يُطالبون بالسماح لهم بالانتقال إلى فلسطين بكل جرأةٍ بل بكل وقاحةٍ ، وأقول بصراحة أن الحكومة أخيراً قد وافقت لهم على ذلك مُخالفةً كل القوانين الدولية والسياسية . بل والشرع لذا فليس غريباً أن يحلّ بنا ما حلّ .

مجموعة تُطالب بالانتقال إلى دولةٍ عدوّةٍ لنا ، في حالة حربٍ معنا أي أنها تُجاهر بالخيانة وجريمة الخيانة القتل ، وتتحدّى السلطة بهذه المطالبة ، وأنها ستُجبرها على ذلك إن لم توافق بالرضا والاختيار . . . . ثم تأتي وتسمح بذلك لتُقاتلها ، ولتنضمّ إلى أعدائها بالقتال ، ولتُساعدهم بالحرب ، والاستعداد ، والإعداد ، والإنتاج . فمن الناحية السياسية تُقتل هذه الجماعة ، ومن الناحية الشرعية لم يتعدّ الحكم ذلك . فمن انتقل حارب العراق ، والعرب ، والمسلمين جميعاً ، ومن بقي ظلّ عيناً لليهود والمستعمرين ، وشوكةً في جسم العراق تُوخزه كل حين . لو طبّقت الحكومة الشرع يومذاك بل السياسة الدولية لارتاحت وأراحت الأجيال في المستقبل ، ولكن خالفت أمر الله . . . فأصابنا ما نتجرّعه اليوم .

وعبدة الشيطان (اليزيديون) أقلّ شأناً ، لكن لقوا من الإنكليز ما لقيت الفرق الدينية الأخرى من دعم لإضعاف المسلمين وإذلالهم .

وإذا كانت مجموعات اليهود ، والنصارى ، وعبدة الشيطان قد قلّ شأنهم بعد خروج الإنكليز ، إلا أنهم بقوا في العراق ضدّ أهله يُعادون كل صديقٍ ، ويُصادقون كل عدوٍّ ، ويعملون في جسم العراقيين وخزاً وتجريحاً ،

وذلك لتصرّفاتنا البعيدة عن الإسلام .

والمشكلة المضحكة والخطيرة أن المسؤولين في العراق ، ودعاة العصبية يحتضنون هذه الأقلّيات باسم القومية والوطنية ، وخوفاً من أن يتهموا بالتعصّب ضدّ هذه الأقليات ، على حين أن أبناء هذه الفئات يدوسون على القومية والوطنية بأقدامهم ولا يُبالون ، كما لا يخشون أن يُقال عنهم عملاء للأجانب أو أعوان للصليبية أو اليهودية ، بل يقولونها بملء أشداقهم أنهم أعوان لأبناء عقيدتهم من نصارى أو يهود ، ولا يهتمون بعدها بما يقال عنهم .

وأما **الشيعة** فرغم ارتفاع نسبتهم إلا أنه لا يوجد بينهم وبين المسلمين صراع ، وذلك لأن السكان لم يبحثوا في تلك المرحلة في الفروق بين الجماعتين ، لأن الأمر لم يقم على أساسٍ عقيديٍ ، وإن كان الشيعة يحرصون دائماً على استلام وزارة المعارف لوضع المناهج بشكل يدفع الناس ليكونوا إلى جانب ما يرونه هم ، وبشكلٍ عام فقد كانوا يُخطّطون لنشر آرائهم غير الصحيحة ، ولم يكن المسلمون لينتبهوا إلى هذا ، ولكن أخذوا ينتبهون إليه فيما بعد عندما قامت الدولة في إيران على أساس المذهب الشيعي وتعصّبت إليه أشدّ التعصّب .

وإذا كانت عواطف الشيعة وميولهم إلى إيران إلاّ أنهم مُتمسّكون بأرضهم لأنهم ليسوا أقليةً فيها ، ولأن العتبات المقدسة عندهم موجودة في أرضهم في النجف ، وكربلاء ، وحتى في بغداد ، ومع ذلك فهم يتمنّون لإيران السيطرة على العراق ، ويعملون لهذا بشكلٍ خفيٍّ وضعيفٍ ، ولذا أخذ المسلمون يحذرونهم ولكن مع الأسف ليس على أساس العقيدة ، وتبيان الواقع ، ولو تمسّكوا بعقيدتهم لظهر عُوار ما يعتقده الشيعة ، ولكن على أساس من التعصّب القومي ، ودون أي ارتباطٍ بالإسلام ، والتزامٍ بتعاليمه حتى ليخيل للعامة أن الشيعة مرتبطين بالإسلام إذ لا تعرف العامة بطلان عقيدة الشيعة وفسادها .

الفصل الثاني

صراعات الأحزاب

حتى الحرب العالميّة الثّانية

عندما دخل الإنكليز العراق مستعمرين إثر صراعٍ وحروبٍ مع الدولة العثمانية ظنّ بعض العراقيين أن الوضع سيكون أفضل ولو نسبياً ، وذلك نتيجة الدعاية التي كانت تُشيعها دول أوربا النصرانية وتروّجها في الداخل الأقليات من نصارى ويهود ضدّ العثمانيين ، والواقع أن القصد لم يكن العثمانيين وإنما المسلمين ، وذلك كي يتقبّلها أولئك الذين ينتمون إلى الإسلام سجّلاً ، ويسيرون على خُطا أوربا نهجاً ، وبالواقع فقد حمل هؤلاء الرجال الأفكار إلى جانب اليهود والنصارى ضدّ العثمانيين ، ويعنون المسلمين ، وقاموا بالدعاية لدول أوربا النصرانية عامةً ، وانكلترا وفرنسا خاصةً .

ولما تمكّنت انكلترا من السيطرة على العراق وجد السكان أن الأمر أصبح متبايناً ، إذ رأوا العثمانيين أفضل بكثيرٍ من الإنكليز ، فإذا كانت الفوضى شائعةً من قبل ، والرشوة معروفةً ، إلاّ أن الوضع الآن أشدّ وطئاً بكثير عما كان من قبل ، إذ اختلفت العادات ، وتغيّرت المفاهيم ، وتبدّلت القيم ، فهذه كلها تنبع من العقيدة ، إذ ما كان حراماً ، وما اعتاد عليه السكان أنه حرام غدا مُباحاً، فمعاقرة الخمرة قد شاعت، والسفور قد انتشر، والاختلاط تفشّى ، ومُعانقة النساء في الطرقات أصبح مألوفاً ، فاهتزّ المجتمع المسلم ، وشعر أنه قد ارتكب جريمةً ، وأحسّ أن الدعاية كانت مُغرضةً ، وأن المسلمين كانوا مغفلين . ورأى المسلمون أمراً آخر لم يكن أقلّ أهميةً من الأول ، وهو

ارتفاع شأن اليهود والنصارى ، وقد أصبحوا يتحكّمون بشؤون الناس بل بشؤون الدولة ، فصعُب الأمر على المسلمين إذ وجدوا العقوق بأسمى معانيه عند أهل الكتاب هؤلاء الذين طالما أحسنوا إليهم ، وعدوّهم أمانةً عندهم في ذمتهم وفي عهدهم فما أن دخل الإنكليز الذين يرتبطون معهم بالعقيدة حتى تطاولت أعناقهم ، وأظهروا حقداً دفيناً ، وسوءاً في السريرة ، وتمنّى المسلمون لو كانوا يُدركون هذا من قبل .

ولكن وجد أهل الشهوات ضالتهم في الوضع الجديد ، ووجد أصحاب المصالح فرصتهم للتقرّب من المستعمرين ما دام المسلمون قد نفروا منهم ، فتقرّب هؤلاء وأولئك من الإنكليز وكانوا بطانةً لهم من بداية الطريق ، ولم يكن هذا الأمر غريباً ، وإنما مُتوقّعاً .

أراد بعض رجالات البلاد أن يُنظّموا أنفسهم ليُمكنهم العمل المشترك في مواجهة الدخيل وأخذوا يلتقون بعضهم مع بعضٍ لدراسة الموضوع ، ويجتمعون مع الأعيان ومشايخ القبائل .

وصل خبر اللقاءات ، ونبأ الاجتماعات إلى الملك ، وكان رأيه البعد عن الأحزاب فإن فيه تفرقة لجهود الأمة ، ومنافسة بعضها لبعض ، في وقتٍ هي في أشدّ الغنى عنه ، وله تجربته في الشام ، لذا فقد أرسل إليهم وطلب منهم الكفّ عن التهيئة لتأسيس الأحزاب ، فامتثل من امتثل ، وأظهر بعضهم الطاعة ، وفي نفسه ضرورة العمل لذلك، وإن رأى أن ينتظر حتى حين .

الوطني العراقي والنهضة العراقية : وفي ٩ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (٢ آب ١٩٢٢م) تأسّس الحزب الوطني العراقي برئاسة محمد جعفر أبو التمن . كما أسّس محمد أمين الجرحفجي جمعية النهضة العراقية في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب ١٩٢٢م) وبُذلت جهود للتوفيق بينهما ، ويبدو أن قادة الحزبين اتفقوا على الاندماج في حزبٍ واحدٍ في ذكرى تنصيب الملك فيصل ملكاً على العراق في الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) . كان

زعماء الحزبين يطالبون بوقف تدخل المندوب السامي الانكليزي في شؤون البلاد ، ودسّ أنفه في كل موضوع ، وتعيين الأكفاء في مناصب الدولة ، وعدم الدخول في مفاوضات أو عقد أية معاهدةٍ قبل انتخاب المجلس النيابي بصورة شرعيةٍ ، وهذا ما أزعج المندوب السامي فما أن خلا له الجو بمرض الملك فيصل حتى ألغى الحزبين ، واعتقل زعماءهما ، وأخرج من البلاد من أخرج ، بل وأمر بقصف أنصارهما بالطيران ، وكان لهذا أثره السيء في نفوس الشعب ، وقام بتعطيل جريدتي (المفيد) و (الرافدان) اللتين يصدرهما الحزبان .

كانت آراء معظم أفراد الشعب مُنصبّة ضدّ الإنكليز وتصرّفاتهم حتى نستطيع أن نقول : إن وحدة كلمة السكان جميعاً هي مُحاربة الانتداب والعمل على الاستقلال ، ولقد أزعج هذا التضامن الإنكليز الذين يريدون التفرقة كي يستطيعوا العمل بحريةٍ في ترسيخ أفكارهم، وتعميق جذور سياستهم ، وبث عاداتهم وأعرافهم ومحاولة تهديم القيم الاسلامية فإذا كانت كلمة الشعب موحدة صعب عليهم ، ولكن إن افترقت سُهل عليهم ذلك . كما أن اجتماع السكان على رأيٍ واحدٍ يحول دون اختيار عناصر لهم يُنفّذون عن طريقهم سياستهم وينشرون آراؤهم ، ومن هنا رأى الإنكليز وجود منافسةٍ حزبيةً بين السكان ربما يخدم مصالحهم ، إذ كل حزبٍ يريد أن يصل إلى السلطة ، ولا مانع عند بعضهم من أن يتنازل عن شيءٍ من منهجه في سبيل الفوز على خصمه ، وهذا التنازل إنما هو للمستعمرين أو المتسلطين من الإنكليز ، لذا فقد رأوا العودة إلى سياسة وجود الأحزاب .

الحزب الحرّ العراقي : أسّس محمود الكيلاني نجل رئيس الوزراء عبد الرحمن الكيلاني الحزب الحرّ العراقي في ١٢ محرم ١٣٤١هـ (٣ أيلول ١٩٢٢م) لتأييد سياسة والده ، ودعمه أمام المعارضين له ، إذن كان الحزب لمرحلةٍ محددةٍ ، وبالفعل انتهى الحزب عندما أُجبرت وزارة والده على الاستقالة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٤١هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٢٢م)، وذلك لأن الحزب

لم يقم على مبادىء معينةٍ ، ويسعى لتحقيقها ، ويدعو الناس للعمل لها بعد الاقتناع بها .

حزب الأمة : وتأسّس في بغداد في ٢٠ محرم ١٣٤٣هـ (٢٠ آب ١٩٢٤م) برئاسة داود السعدي في بداية الأمر ثم تولّى رئاسته أحمد الداود ، وانضمّ عدد من المحامين إليه . وكان تأسيسه إثر إجبار النواب على التصديق على المعاهدة العراقية ـ البريطانية الأولى .

حزب الاستقلال الوطني : تأسّس في الموصل في ٤ صفر ١٣٤٣هـ (٣ أيلول ١٩٢٤م) برئاسة آصف آل الآغا .

جمعية الدفاع الوطني : وتأسّست في الموصل أيضاً في ٢ رجب ١٣٤٣هـ(٢٦ كانون الثاني ١٩٢٥م) برئاسة أحمد الفخري .

حزب الوطني العراقي : وتأسّس في الموصل في ١٤ ذي القعدة ١٣٤٣هـ (٥ حزيران ١٩٢٥م) برئاسة عبد الله آل سليمان ، وهو الاسم نفسه الذي يحمله الحزب الذي أسّسه محمد جعفر أبو التمن في بغداد . وكانت أهم مشكلةٍ ركّزت عليها هذه الأحزاب التي تشكّلت في الموصل مشكلة الحدود مع تركيا ، وقضية الموصل .

وهناك موضوع لا بدّ من طرحه الآن ، وهو أن ما يُسمّى في أوربا بالنظام (الديمقراطي) قد يصلح لدول تلك القارة ومن يسير على نهجها من دولٍ أخرى ، نتيجة سيادة مفاهيم معينة ، والمرحلة التي قطعتها في تطبيق هذا النظام . ولكن هذا النظام لا يصلح لبقاعِ العالم كلها ، وخاصةً إن كانت في مرحلةٍ معينةٍ من حياتها السياسية ، ومثلاً لا يصلح للعراق في هذه المدّة التي نتحدّث عنها على الأقل ، وانكلترا تعرف هذا تمام المعرفة ، ولكن تريد ترسيخ الأفكار التي تحملها ، ومنها هذا النظام الذي تحمله وتُطبّقه . وليس هذا فقط فكل جوانب الحياة الوضعية التي تُناسب إقليماً من الأقاليم قد لا تناسب غيره وخاصةً إن كانت تختلف عنه في العقيدة ، والمفاهيم والأعراف والعادات ،

وإن كانت هذه كلها في الواقع تنبع من العقيدة غير أن الدول الاستعمارية وكذلك الأشخاص والفئات التي فُتنت بها تحاول تطبيق نظام تلك الدول كما هو على المجتمع الإسلامي ، وهذا لا يمكن أبداً .

نَلاحظ الأحزاب التي قامت في العراق بتلك المرحلة أنها ترتبط بشخصيةٍ أو باثنتين فإذا زالت هذه الشخصية زال الحزب، أو تعمل لنقطةٍ واحدةٍ فإذا حُلّت حُلّ الحزب كقضية الموصل التي حُلّت فحلّت الأحزاب التي قامت من أجل هذه القضية . أو لمرحلةٍ من التاريخ كالمطالبة بالاستقلال أو الدعوة لموضوعٍ معينٍ فإذا ما تمّ الاستقلال أو حقّق الموضوع انتهى الحزب .

ولما وافق حزب الإخاء على تشكيل الوزارة ، فسخ الحزب الوطني العراقي وثيقة التآخي التي بينهما .

حزب الوحدة الوطنية : وأسّسه علي جودت الأيوبي ليسند حكومته ، وذلك بعد تركه حزب الإخاء عندما انفصل عن الحزب الوطني العراقي ، أو كنوع من التمايز الذي ذكرناه ، وعمل الأيوبي على أن يضمّ حزبه عناصر من الأحزاب الأخرى كافة ، ولكنه لم يستطع أن يحتوي إلا النواب ، وكان ذلك في أوائل رمضان ١٣٥٣هـ (كانون الأول ١٩٣٤م) ، وانتهى الحزب عندما استقالت الوزارة الأيوبية في ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٣ آذار ١٩٣٥م) .

حزب الأهالي أو جماعة الأهالي : وقد تأسّست عام ١٣٥٠هـ ومن قادتها كامل الجادرجي ، وحكمت سليمان ، ومعهم مجموعة من الشباب (حسين جميل ، وعبد القادر إسماعيل ، وعبد الفتاح إبراهيم، وخليل كنه ، ومحمد حديد) ، وأصدرت جريدة الأهالي في أوائل رمضان ١٣٥٠هـ (كانون الثاني ١٩٣٢م) ، وادّعى هؤلاء الشباب أن حزبهم يتبنّى مبادىء الثورة الفرنسية ، والديمقراطية ، أي أنهم أعلنوا علمانيتهم من البداية ، وأظهروا تأثّرهم بالمادية الغربية ، والماسونية التي كانت وراء الثورة الفرنسية ، ثم أعلنت أنها اشتراكية تحت تأثير عبد الفتاح إبراهيم ، ومحمد حديد وغيرهم من الذين كانوا يحملون هذه الأفكار .

أيّدت هذه الجماعة حركة بكر صدقي للتقارب في كثير من الآراء ، والتفكير في طريقة التخلّص من الخصم بالقتل . ثم اختلفت الجماعة للتباين الكبير في آراء قادتها .

جمعية الإصلاح الشعبي : وتأسّست في ٢ رمضان ١٣٥٥هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٣٦م) ، وكان الهدف منها تأييد وزارة حكمت سليمان الذي تولّت السلطة أثناء سيطرة بكر صدقي .

الحزب الشيوعي : نشأ بشكلٍ سريٍ عام ١٣٥٣هـ ، غير أن وزارة ياسين الهاشمي قد اعتقلت أكثر أعضائه، وصادرت مطبعة الحزب . وأيّد الحزب حركة بكر صدقي لأنها قامت ضدّ وزارة ياسين الهاشمي عدوّة الحزب ، ثم لأن التفكير كان واحداً في التخلّص من الخصم عن طريق القتل، ونشر الفوضى لسيطرة الغوغائيين الذين يجدون في الشيوعية مرتعاً خصباً لهم .

وهكذا فإن الأحزاب التي قامت في العراق منذ دخلها الانتداب الإنكليزي في الحرب العالمية الأولى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن أحزاب مبادىء ولكنها كانت في الغالب لمصلحة الوزارة القائمة ، وتزول بزوالها ، وإن وجدت أحزاب لمعارضة السياسة البريطانية فقد وجدت أحزاب أخرى لتأييد تلك السياسة والسير في فلكها .

ومع أن هذه الأحزاب لم توجد بينها منافسة قوية إلا نادراً فقد استطاعت انكلترا أن تغري بعض رجالات العراق ، وبعض زعماء الأحزاب في استلام السلطة وتقديم الدعم لهم ، أما الأحزاب التي تقوم على مبادىء ، وتدعو إلى تطبيق نظامٍ معين وتسعى إلى تحقيقه فهي لم توجد في تلك الأيام ، إذ أن البلاد لا تزال تحت السيطرة الأجنبية ، وهي في مرحلة من الضعف والهزيمة النفسية حتى إن عدداً ليدعو إلى تطبيق ما يُطبّقه العدوّ ويرى في ذلك تقدّماً للأمة وتطوّراً لمصالحها ، وهذه هي الهزيمة النفسية ذاتها .

حتى الانتخابات العامة لم تكن لتجري بشكلٍ طبيعي فالشعب فقير

يمكن أن يُؤيّد من يُقدّم له منافع ماديـةً أكثر ، وهـو جاهـل لا يقدّر نتـائج انتخـابه ، لـذا كـانت المجالس النيـابيـة مُمثّلةً للحكـومـة التي أشرفت عـلى الانتخابات ، لذا كلما جاءت حكومة جديدة عملت على حلّ المجلس النيابي ، ودعت إلى انتخاباتٍ جديدةٍ لتأتي بمجلسٍ يُؤيّدها في تصرّفاتها ، وتستطيع عن طريقه تمرير كثيرٍ من القضايا التي تُهمّها أو تعمل لها .

حزب التقدّم : وقد أسّسه عبـد المحسن السعدون في ٤ ربيـع الثاني ١٣٤٤هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٢٥م) ليـدعـم وزارته الثـانية ، فلما انتحـر مؤسّسه مات الحزب معه .

حزب الشعب : وأسّسه ياسين الهاشمي في ٥ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٥م) ، وقد جرت محاولات لدمج الحزبين في حزبٍ واحدٍ ، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل .

وكان الملك فيصل قد تغيّر رأيه في الأحزاب حيث رأى أن المعـارضة تخيف الحكم فيحاول أن يبتعد عن السقطات ، وإن ذلك ليحدّ من تدخل الإنكليز .

وفي ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٦م)رشّح حزب التقدّم حكمت سليمان لرئاسة المجلس ، على حين رشّح حزب الشعب رشيد عالي الكيلاني لرئاسة المجلس وقد فاز فعلاً بالرئاسة ، فعدّ رئيس الحكومـة عبد المحسن السعدون أن المجلس قد خذله فقدّم استقالة حكومته . وألف جعفر العسكري الوزارة الجديدة وساندها حزب التقدّم على حين وقف حزب الشعب موقف المعارضة .

حزب العهد العراقي : قد أسّسه نوري السعيد في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٣٠م) ليدعم الحكومة التي ألفها ، فلما انتهت الوزارة انتهى معها الحزب .

حزب الإخاء الوطني : وقد أسّسـه ياسـين الهاشمي ، ورشيـد عالي

الكيلاني ، وعلي جودت الأيوبي ، وحكمت سليمان ، وكامل الجادرجي ، في ٥ رجب ١٣٤٩هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠م) ، واتفقوا على إعادة نشاط الحزب الوطني العراقي ، وسجّلوا وثيقة التآخي . وقامت منافسة شديدة بين حزبي العهد العراقي والإخاء الوطني . وبشكلٍ أخذ الصراع يبرز بين الذين يُؤيّدون المعاهدة العراقية ـ البريطانية وبين الذين يُعارضونها ، وأخذت الأمور تتوضّح تدريجياً لتكون بين الذين يتبعون السياسة البريطانية وبين الذين يُخالفونها ، حتى مال الذين كانوا على الأعراف بين الفريقين إلى أحد الطرفين ، وخرج من كل حزبٍ من كان قد انضمّ إليه من باب الصداقة والمجاملة ليسير في الدرب الذي اقتنع به وخطّه لنفسه .

مع أن بعض الزعماء العراقيين قد وقفوا في وجه السياسة البريطانية بكل صلابةٍ ، ووقع صراع بين هاتين المجموعتين بعد أن تمايز بعضها عن بعضٍ مع بداية الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى بعد وفاة الملك غازي الذي كان يُخفّف من بعد الشقة بين المجموعتين ، ويضغط بصورةٍ مقبولةٍ على أعوان السياسة الإنكليزية فلما توفّي توسّعت الفجوة ، وكانت الحرب مجالاً لمحاولة سيطرة الأعوان ، وهذا ما دفع المعارضة للحركة فكانت حركة رشيد عالي الكيلاني ، غير أنه لم يلبث أن قُضي عليها ،وفرّ من البلاد من فرّ من أنصارها ، وأُلقي القبض على بعضهم ، وأُبعد آخرون ، وسيطر أعوان السياسة الإنكليزية .

وكانت الأحكام العرفيه أثناء الحرب ، ولم تكن أحزاب ، وقد تقدّم بعض المحامين[1] بطلبٍ إلى وزارة الداخلية في الأول من عام ١٣٦٣هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٣ك) لتأسيس حزب باسم (حزب الشعب) فرفض الطلب.

---

(١) المحامون هم : يحيى قاسم ، عبد الرحمن شريف ، محمود صالح السعيد ، توفيق منير ، إبراهيم الخضيري ، إبراهيم الدركزلي ، يوسف جواد المعمار ، عبد الأمير أبو تراب .

الفصل الثالث

صراعات الأحزاب

بعد الحرب العالمية الثانية

أُعطيت الحرية بعد الحرب العالمية الثانية ، وسمح بتأسيس الأحزاب السياسية ، وفي الأول من شهر جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٢ نيسان ١٩٤٦م) ، أعطت وزارة الداخلية العراقية رخصةً لخمسة أحزاب سياسية ، ورفضت طلباً باسم (حزب التحرر الوطني) الشيوعي . والأحزاب التي سمح لها بالنشاط هي :

١ ـ **حزب الاستقلال** : تأسّس نادي المثنّى عام ١٣٥٤هـ ، وكان مقرّه لقاء الرجال السياسيين الذين يعملون على وحدة الشعب ، ومُحاربة الأفكار الدخيلة ، وقد تبعثر هؤلاء الرجال بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني ، فلما مُنحت الحرية تقدّم بعض هؤلاء الرجال[1] لتشكيل حزبٍ سياسيٍ يحمل اسم (حزب الاستقلال) . وكان يعمل لإلغاء المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية . ويُدافع عن فلسطين ، ويرفض وعد بلفور ، ويعمل على إقامة صلةٍ وثيقةٍ مع البلدان العربية ، ومع الشعوب الإسلامية ، ومع الجاليات العربية في المهجر .

٢ ـ **حزب الأحرار** : وكان مجرّد تجمعٍ سياسيٍ يهدف إلى الإفادة من

---

(١) الرجال الذين تقدّموا بطلب التأسيس هم : محمد مهدي كبه ، داود السعدي ، خليل كنه ، إسماعيل غانم ، فاضل معلة ، علي القزويني ، عبد المحسن الدوري ، رزوق شماس ، عبد الرزاق الظاهر ، وكان من بينهم أيضاً محمد صديق شنشل ، محمد فائق السامرائي ، لكن وزير الداخلية استبعدهما ، ولكنهما انضمّا إلى الحزب بعد تأسيسه .

هذا التجمّع لتحقيق بعض المصالح لأفراده[1] ، وترأسه توفيق السويدي .

٣ ـ الحزب الوطني الديمقراطي : وهو من الأحزاب اليسارية حسب التصنيف السياسي المتعارف عليه بين أصحاب الأفكار الدخيلة ، ويمكن اعتباره امتداداً لجماعة الأهالي التي نشأت في أوائل مرحلة الاستقلال ، وربما كان يلقى التأييد من أغنياء المدن رغم ما ذكرناه ، ويُؤيّد السياسة الروسية رغم ظهوره بخصومته للشيوعية ، وعداوته لأفكارها .

والواقع أن هذا الحزب كانت قوته في شخصية رئيسه (كامل الجادرجي) ، وهو الذي يُوجّهه ، ولاقيمة للمبادىء المسجّلة والمعلنة للناس ، وهذه مع الأسف السمة الرئيسية للأحزاب السياسية التي تقوم عليها أكثر الأحزاب في البلدان العربية . كما أن معظمها تجمّعات سياسيةٍ ، وشخصية الرئيس هي الفعّالة في النشاط ، والتأييد الشعبي ، والقوة المعنوية للحزب[2] .

٤ ـ حزب الشعب : وهو من الأحزاب المصنفة يسارياً ، وكان أعضاء هذا الحزب يعملون بشكلٍ سريٍ ، ويُوزّعون المنشورات المكتوبة باليد ، وقد رُخّص لهم عندما مُنحت الحرية بعد الحرب العالمية الثانية[3] .

٥ ـ الاتحاد الوطني : وهو أيضاً من أحزاب اليسار ومعظم أعضائه من الشيوعيين ، وتقدّم بعضهم[4] لأخذ حق المشروعية للحزب . ويمكن أن

---

(١) تقدّم بطلب تأسيسه كل من : داخل الشعلان ، محمد فخري الجميل ، عبد العزيز السنوي ، نوري الأورفلي ، عبد القادر باش أعيان ، حسن النقيب ، كامل الخضيري ، عباس السيد سلمان .

(٢) كان الذين تقدّموا بطلب أخذ الرخصة للحزب : كامل الجادرجي ، محمد حديد ، عبد الكريم الأزري ، يوسف الحاج الياس ، حسين جميل ، عبد الوهاب مرجان ، صادق كمونة ، عبود الشالجي .

(٣) الأعضاء المؤسسون للحزب هم : عزيز شريف ، عبد الرحمن شريف ، توفيق منير ، إبراهيم الدركزلي ، عبد الأمير أبو تراب ، والنصراني جرجيس فتح الله ، واليهودي نعيم شهرباني .

(٤) عبد الفتاح إبراهيم ، جميل كبة ، محمد مهدي الجواهري ، موسى الشيخ راضي ، عطا البكري ، موسى صبار ، ادوارد قليان .

نُضيف تجمعاً آخر ، لا يلتقي على أساسٍ حزبيٍ ، وإنما أفراد يأتمرون بأمر الوصي ، ومنهم أرشد العمري ، ومصطفى العمري ، وصادق البصام ، وحمدي الباجه جي ، ويوسف غنيمة ، وأحمد الداود ، وعبد المهدي .

ولم تكن هناك مبادىء تجمع الحزبيين بعضهم مع بعضٍ ، ولا أفكار مشتركة يعملون لها ، وإنما مصالح يُحقّقونها من تجمّعهم ، لذا كانت الحكومة إذا أرادت أن تخرج فرداً من جماعةٍ ، أو رغبت في استقطاب فئةٍ عرضت المناصب ، وقدّمت الأماني فيترك الحزب بعض رجاله أو تنسلخ مجموعة منه .

كانت هذه الأحزاب متفقة تعمل في صفٍّ واحدٍ كمعارضة لحكومة أرشد العمري التي عملت على كبت الحريات ، واضطرت الحكومة إلى الاستقالة نتيجة هجوم المعارضة .

وشارك الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار في الوزارة الجديدة التي شكّلها نوري السعيد على شرط منح الحريات . ولكن الحكومة تدخّلت في الانتخابات، ولم تسمح بنشاطٍ جديدٍ ، فانسحب ممثلا الحزبين من الوزارة ، وقاطع حزب الأحرار الانتخابات ، وفاز أربعة نواب من الحزب الديمقراطي ، غير أن ثلاثةً منهم قد انسحبوا من المجلس النيابي نتيجة تصرّف الحكومة .

وبعد توقيع معاهدة (بورتسموث) في ٤ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) وقفت الأحزاب في وجه الحكومة والمعاهدة ، وأخيراً رُفضت المعاهدة المذكورة ، واشترك حزب الاستقلال في وزارة محمد الصدر بشخصية رئيسه محمد مهدي كبه .

كانت الأحزاب على شبه وفاق في المعارضة ، غير أن عددها قد زاد إذ تشكّل في مطلع عام ١٣٦٩هـ كل من حزب الإصلاح برئاسة سامي شوكت ، وحزب الاتحاد الدستوري برئاسة نوري السعيد ، ولكن كان قد جُمّد أيضاً كل من الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الأحرار ، ومع ذلك فقد شارك هذان

الحـزبان في حكـومة عـلي جـودت الأيـوبي بـأسـماء من أعضـائهم بصفتهم الشخصية .

وعملت المعارضة على تشكيل جبهة باسم « الجبهة الشعبية المتحدة » ووقّع البيان عدد من كبار الساسة للوقوف على الحياد ، وتعاونت مع الحزب الوطني الديمقراطي الذي شارك أيضاً في التوقيع على البيان .

ثم تشكل حزب الأمة الاشتراكي برئاسة صالـح جبر ، وانضم إليـه حزب الإصلاح بعد أن عدّ نفسه منحلاً ، وبدا أول الأمر مسايراً للمعارضة التي انتقدت اتفاقيات النفط . إذ عدّها حزب الاستقلال قد فرضت فرضاً ، وعدها الحزب الوطني الديمقراطي والجبهة الشعبية غامضة، وانتقدها حزب الأمة الاشتراكي بعنفٍ . ودعت الأحـزاب الشعب إلى الإضراب ، فقامت المظاهرات ، ووقع قتلى .

وقاطعت المعارضة الانتخابات ، وجاءت حكـومة الفـريق نور الـدين محمود ، فألغت الأحزاب ، وأعلنت الأحكام العـرفية ، وبـدأ الضغط على الشيوعيين .

عادت الأحزاب إلى النشاط في مطلع عام ١٣٧٣هـ في عهد وزارة محمد فـاضل الجـمالي ، ولكن عادت فـأعلنت الأحكام العـرفية محلياً في منطقـة البصرة ، فانسحب أعضاء الجبهة الشعبية من الحكومة ، وهم اثنان ، واحتجّ المجلس النيابي على ذلك .

ووقفت الأحزاب ضدّ وزارة أرشد العمري الثانية لما عُرف عن رئيسها في كبته للحريات والضغط على الشعب .

واتفق كـل من الحزب الـوطني الديمقـراطي ، وحـزب الاستقـلال ، والشيـوعيين الـذين تستروا بالمنظمات المهنيـة لتشكيل جبهـة عُرفت بـالجبهة الوطنية ، وقـد دخلت معركـة الانتخابـات العامـة التي جرت في ٨ شـوال ١٣٧٣هـ (٩ حزيران ١٩٥٤م) وحصلت على أربعة عشر مقعداً . على حين

حصل حزب الأمة الاشتراكي الذي يرأسه صالح جبر على واحدٍ وعشرين مقعداً ، على حين حصل حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد على واحد وخمسين مقعداً . أما الجبهة الشعبية فلم تحصل إلا على مقعدٍ واحدٍ ، أما باقي المقاعد وهو ثمان وأربعون مقعداً فقد شغلها المستقلون .

وخشيت الحكومة من هذه النتيجة ، وترك أرشد العمري كتاب استقالة حكومته وسافر إلى استانبول ، وكان نوري السعيد قد رحل إلى لندن ، وخافت انكلترا من هذه الانتخابات ، ومع أن المجلس قد عُطّل ، إلاّ أن الخوف بقي قائماً، فطلب من الوصي أن يسافر إلى لندن ، ويسترضي نوري السعيد للعودة إلى البلاد ، واستلام الحكومة ففعل . وجاء نوري السعيد إلى السلطة فحلّ المجلس النيابي ، وحلّ حزبه أيضاً وهو حزب الاتحاد الدستوري . . . فاكفهر الجو ولذا جمدت الجبهة الشعبية نشاطها . وحدّت الحكومة كذلك من نشاطات النقابات ، وعطّلت الصحف .

قاطع كل من حزب الأمة الاشتراكي ، والحزب الوطني الديمقراطي الانتخابات ، ودخلها فقط حزب الاستقلال .

ولما احتجّت الأحزاب على سياسة الحكومة التعسفية سحبت ترخيص الحزب الوطني الديمقراطي ، ثم ألغت الأحزاب جميعها ، وبذا انتهت الحياة الحزبية في العراق في هذه المرحلة . وغدت المفوضية السوفيتية مكاناً لالتقاء العناصر الشيوعية ، فطلبت الحكومة إغلاقها ، وسحبت رجال السلك السياسي العراقي جميعهم من موسكو ، ثم قطعت العلاقات السياسية بين الدولتين رسمياً .

اجتمع المجلس النيابي في ١٩ محرم ١٣٧٤هـ ، ولكن عُطّل مدة شهرين ونصف بعد اجتماعه الأول . واشتدّ الهجوم الإعلامي من الخارج على العراق ، واشتدّ النقد الداخلي من المعارضة ، واضطر نوري السعيد إلى تقديم استقالة حكومته في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ ، ولكنه كُلّف بتشكيل

حكومةٍ جديدة ، غير أن المعارضة استمرّت في هجومها ، ورفعت كتاباً إلى الملك تنتقد الحكومة التي عزلت العراق عن بقية البلدان العربية ، وقتلت الحركة الوطنية ، وجرّت البلاد إلى أحلافٍ استعماريةٍ ووقّع الكتاب رؤساء حزبي الوطني الديمقراطي والاستقلال اللذين اتفقا على دمج حزبيهما في حزبٍ واحدٍ باسم حزب المؤتمر الوطني ، وقدّم رؤساؤه طلباً لمزاولة النشاط فرفض الطلب غير أنه أخذ يمارس النشاط دون رخصةٍ رسميةٍ .

كان للنشاط الحزبي الدور الكبير في السياسة العراقية العامة وظهر ولو من خلف حجاب بالمظاهرات والحركات التي كانت تحدث في العراق بين آن وآخر ، كالمظاهرات التي قامت احتجاجاً على العدوان الثلاثي على مصر ، والمظاهرات التي أعقبت ذلك في مدينة النجف ، وفي ألوية الشمال ، والاحتجاجات التي توالت على الحكومة نتيجة الاعتقالات ، والاعدامات ، والأحكام الجائرة التي كان صدورها يتوالى ، والعرائض التي رفعت إلى الملك من السياسيين ، والمحامين ، والتجار ، والأعيان ، والنواب ، ورؤساء الوزارات السابقين ، حتى ألغيت الأحكام العرفية في ٢٨ شوال ١٣٧٦هـ (٢٨ أيار ١٩٥٧م) ، وأخيراً استقالت حكومة نوري السعيد في ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ .

وتقاربت الأحزاب المعارضة بعضها من بعض بسبب الدعوة إلى الوحدة العربية التي كانت تنادي بها كل من مصر وسوريا ، على حين كانت العراق في معزلٍ عن التيارات العربية بل وعن البلدان العربية وتشكلت جبهة من أحزاب المعارضة باسم الجبهة الوطنية المتحدة ، وضمّت كلاً من حزب الاستقلال ، والوطني الديمقراطي ، والبعث ، والشيوعي ، وكانت الدعوة إلى حلّ المجلس النيابي ، وطرد نوري السعيد من الحكم ، والخروج من حلف بغداد ، وإلغاء الأحكام العرفية ، وإطلاق الحريات ، وأخيراً انتهى العمل بالقضاء على الحكم الملكي وإعلان الجمهورية .

الفصل الرابع

الصّراعات الحزبيّة في العهد الجمهوري

كان رجال حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) عدداً من التجمّعات السياسية والتي يحمل كل منها أفكاراً متباينة عن أفكار الآخرين ، وكان المحرّك الرئيسي في وسائل الإعلام المختلفة الجمهورية العربية المتحدة ، ومن وراء ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي تُنافس انكلترا على نفوذها في العراق . لذا كانت هذه التجمّعات العراقية المعارضة تبدي العمل للوحدة العربية ، وتُؤيّد سياسة الحياد ، والخروج من حلف بغداد ، وإطلاق الحريات . فلما تمّ الأمر ، وتسلّمت السلطة أبدت كل مجموعة ما تريد ولكن حسب قوتها وإمكاناتها ، لذا بدا هذا عند الزعماء الذين لعبوا دوراً في الحركة ، ولم يظهر على الأحزاب والتجمعات لأن بعضها كان قليل الأهمية كالبعثيين ، وبعضها ليس له قوة تذكر في الجيش كالإسلاميين .

كان عبد الكريم قاسم رأس الحركة يرى التفاهم مع الجمهورية العربية المتحدة ليس أكثر ، وكان الشيوعيون لا يرون الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة أبداً بل يُقاتلون ضدها ، ولهذا فقد التفّوا حول عبد الكريم قاسم ، وكانوا يبدون له خطر سيطرة جمال عبد الناصر واستبداده وغطرسته و . . .

وكان عبد السلام عارف الرجل الفعّال في الحركة يرى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة وفي الوقت نفسه كان معجباً بجمال عبد الناصر ،

ويعدّ نفسه من أعوانه وأتباعه ، وقد التفّ حوله الإسلاميون الذين يرون في دينه ما يحول دون انحرافه أو سوء التصرف ، والوطنيون الذين يرون الوحدة مع سوريا ومصر ، والبعثيون الذين يريدون استغلال الوضع ، كما يرون في عبد السلام عارف رجلاً يمكن استغلاله لطيبته وبساطته . وهكذا انقسم رجال الحركة إلى مجموعتين عرفت أولاهما اسم الوحدويين وعرفت الثانية باسم جماعة عبد الكريم قاسم أو الشيوعيين . وقد أيّد الشيعة ، وغير المتدينين من الأكراد المجموعة الثانية خوفاً على ضياعهم فيما إذا تمّت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة حيث أن مصر ليس فيها شيعة ولا أكراد ، وهي ذات العدد الكبير بالسكان، وأما سوريا فالأكراد فيها قلة، ولا تزيد نسبة الشيعة على النصف في المائة، وأقصد بالشيعة الاثني عشرية، أو الإمامية، أما الطوائف الأخرى التي يُظنّ أنها من أصلٍ شيعي ، ويعدّها بعضهم من الشيعة جهلاً ، فلا علاقة لهم بالأمر لأنهم ليسوا من الشيعة ، فلا هم ينسبون أنفسهم للشيعة ، ولا الشيعة تعترف عليهم بل تعدّهم خارجين عن الإسلام ، وليسوا من أهله أبداً ، وبذا تتفق الشيعة في هذا الجانب مع المسلمين (السنة) .

وجاء دور انكلترا التي تريد أن تثأر من الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت وراء الحركة ، والتي قضت على رجالها من العراقيين وبالتالي على نفوذها ، عملت انكلترا على توسعة الشقّة بين الطرفين ، فأشاعت أن الولايات المتحدة كانت وراء الحركة ، وهي في الوقت نفسه تُوجّه الجمهورية العربية المتحدة ، وجمال عبد الناصر من أكبر صنائعها ، فانكمش الشيوعيون ، وتشدّدوا في موقفهم ، وتغيّر موقفهم من رفاقهم بالأمس ، وأصبحوا يعدّونهم من أعوان الرأسمالية ، وغدت انكلترا تخوّف عبد الكريم قاسم من عبد السلام عارف عن طريق الشائعات ، ونقل الأخبار ، ومن رشيد عالي الكيلاني الذي جاء إلى العراق ، وأنهما من أعوان جمال عبد الناصر ، وسيعملان لإزاحة عبد الكريم قاسم ، وتسليم العراق إلى جمال عبد الناصر . . . فخاف رئيس العراق ، ولم يجد حوله من أعوان سوى

الشيوعيين الذين التفّوا حوله يريدون استغلاله والإفادة من مركزه للتسلّط على البلاد والعباد ، والسيطرة على الحكم وتنفيذ سياستهم في الالتحاق بروسيا .

الصراع أيام عبد الكريم قاسم : أخذ عبد السلام عارف يتجوّل في البلاد ، ويُلقي الخطب ، وينقل للحضور تحيات الرئيس جمال عبد الناصر ، وينسى رئيس البلاد عبد الكريم قاسم الذي نقم عليه لهذا التصرّف ، ولما كان يبلغه عنه من أحاديث مع جمال عبد الناصر منذ أيام الحركة الأولى بأن العراق ستنضم إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وسيكون مصير عبد الكريم قاسم هو مصير محمد نجيب نفسه ، وأخيراً كان الخلاف الذي لا لقاء بعده ، ووضع عبد السلام عارف في السجن ، وبدأ أعوانه والذين كانوا يدفعونه يعملون ضدّ عبد الكريم قاسم ، ومن معه من الشيوعيين .

ثم وضع رشيد عالي الكيلاني بعد أن وصلت الأخبار إلى عبد الكريم قاسم بأنه يعدّ للقيام بحركةٍ ، وأن جمال عبد الناصر يدفعه ، وكان مصير رشيد عالي الكيلاني مصير عبد السلام عارف ، وهذا ما زاد من الشقاق بين الوحدويين والشيوعيين .

وقام الوحدويون بحركة عبد الوهاب الشواف في الموصل ، وفشلت ، فاستأسد الشيوعيون، وفسح عبد الكريم قاسم لهم المجال، فأقاموا المجازر، وقتلوا الناس ، واعتدوا على الأهالي ، وظهروا على حقيقتهم الدموية ، والرغبة في التسلّط ، والتشفي من السكان ، حتى كرههم الشعب كله ، إذ وجد فيهم ما لم يتوقّعه من وحشيةٍ وحقارةٍ وظلم وأعمال لم يعهدها في تاريخ أشرس الطغاة .

نظم الوحدويون صفوفهم ، وأخذ عبد الكريم قاسم يتجه نحو المعسكر الشرقي فعملت انكلترا والولايات المتحدة على التخلّص منه ، وقام الوحدويون بالحركة ونجحوا فيها ، ونصبوا عبد السلام عارف رئيساً على البلاد ، فهو وحدوي ، وترى كل مجموعةٍ أنها تستطيع استغلاله .

الصراع أيام عبد السلام عارف : كان الوحدويون الذين قاموا بالحركة ضدّ عبد الكريم قاسم عدة فئات : منهم البعثيون الذين غدوا أكبر مجموعةٍ ، خاصةً أنهم كانوا في طليعة المناضلين ضدّ عبد الكريم قاسم، وحاولوا اغتياله، ولكنهم فشلوا حتى توارى زعيمهم فؤاد الركابي عن الساحة ، وبرز مكانه علي صالح السعدي . ويرى البعثيون الوحدة غير أنهم لا يرون وحدة إلا تحت مظلة حزب البعث لهذا فهم لا يقبلون بزعامة جمال عبد الناصر الذي يرتبط به بعض الوحدويين في العراق ولا يرون زعـامة دونـه ، وخاصـةً بعد خـلاف البعثيين السوريين مع جمال عبد الناصر ، وانفصال إقليمي الوحدة بعضهما عن بعض ، والهجوم الإعلامي بين الطرفين .

ومنهم مريدو جمال عبد الناصر الذين يعدّونه سيّد الساحة ، ولا زعيم سواه ، حتى عُرف هؤلاء بالناصريين ، وكان منهم فؤاد الركابي زعيم حزب البعث سابقاً ، وعدد من القادة العسكريين .

ومنهم أعوان عبد السلام عارف الـذين يريـدون الوحـدة ، ولكن لا يعرفون كيف يتصرفون ، وقد انفصمت عرا الوحدة بين مصر وسوريا ، وهم يرون الوحدة مع مصر لأنهم ينظرون إلى جمال عبد الناصر ممثلاً للوحدة وعنواناً لها ، وبينهم وبين مصر دول فكيف السبيل ؟ .

ومنهم المسلمـون الذين يـرون أن عبد السـلام عارف صـاحب خلق ودين ، ويمكن عندما يستقر الوضع أن يسير بالبلاد بشكـلٍ أفضل ، ولكن ليس لهم قوة بالجيش تذكر .

هؤلاء الذين عملوا على الخلاص من حكم عبد الكريم قاسم ، وبدا الخلاف فيما بينهم في موضوع الوحدة . أما الشيوعيون فقد تواروا عن الساحة وإن كان بعضهم قد لبس ثوب البعثية ، وتزيّ بعضهم بزيّ الناصرية ، وعاد بعضهم فرفع شعار الوحدة تستراً بأفكاره ، وانتهازية لمصالحه .

تسلّم البعثيون رئاسة الحكومة على أنهم أكثر الفئات تنظيماً ، واستغلالاً

للظروف ، وتشكّل الحرس القومي من المدنيين لحماية الثورة ، وبدأت التصرّفات السيئة ، والأعمال المشينة باسم السلطة حتى ضجّ الناس ، وتضايق السكان ، وكرهوا الحكم للتجاوزات التي يقوم بها أفراد الحرس القومي ، والتعدّيات والمخالفات التي لا يمكن تحمّلها أو السكوت عنها ، تارةً باسم الحزب ، وأخرى باسم رؤسائهم ، وثالثة باسم المسؤولية التي يحملون شعارها . وزاد الأمر سوءاً ما وقع بين قادة حزب البعث من خلاف ، حتى أخرج بعضهم بعضاً من البلاد ، وطرد قسم قسماً آخر من الحزب ، فوقعت البلبلة في أوساط السلطة ، واحتار المنتفعون الذين انضمّوا إلى حزب البعث بعد أن آل إليه الأمر فلم يعرفوا مع من يقفوا لأنهم لا يدرون من المنتصر ليكونوا في صفّه . فانتهز الفرصة عبد السلام عارف ، فأزالهم عن السلطة ، وسلّم أعوانه مكانهم ، فشعر الناس بالراحة ، وأحسّوا بالطمأنينة بعد أن زال عنهم كابوس الحرب ، وتسلّط الحرس القومي ، وزالت إحدى الفئات الحاكمة التي تحمل شعار الوحدة دون أن تعمل لها، إلا إذاكانت تحت سيطرتها وسيادة قادتها .

أما الفئات التي بقيت وهي الناصرية ، وأعوان عبد السلام عارف ، ثم المسلمون الذين هم ضعاف عسكرياً ، مختلفون تنظيمياً ، قليلون عدداً .

كان جمال عبد الناصر الرئيس المصري يرى انضمام العراق إلى مصر للإحاطة بسوريا ، واضطرارها للعودة إلى الوحدة لاستعادة مجده الذي فقده ، وزعامته التي تزلزلت بعد انفصام عرا الوحدة بين مصر وسوريا لتسلّط الفئة المسيطرة على السلطة ، ولكن عبد السلام عارف محتار في أمره كيف يعمل على وحدة مع إقليم تفصله عن العراق دول مخالفة لهما ومُباينة لنظاميهما فكان يتردّد في الأمر ، كما أن المسلمين يرون عدم قيام الوحدة إلا بعد قيام الدراسة الكاملة ، وقد أخذوا عبرةً مما وقع بين مصر وسوريا . ولكن جمال عبد الناصر لا يرى التأييد له فقط ولكن الخنوع التام أمامه والارتماء تحت أقدامه، ولا يرغب في المناداة بالوحدة من طرفٍ آخر إلاّ إذا جاءه وأعلن الخضوع له ،

وتسليمه مقاليد أمور بلاده مُباشرةً . لذا لم يقبل سلوك عبد السـلام عارف وعدّه مسوّفاً له ومماطلاً ، وأراد التخلّص منه ، واستبداله بشخصٍ آخر أكثر طواعيةً ، وأكثر سرعةً للانضمام إليه ، وجاء الوقت الذي عدّ فيه عبد السلام عارف مُخادعاً له ، يريد الإفادة من زعامته بحماية العناصر الإسلامية ، ومن ثم النهوض بها والارتفاع على أكتافها ، وتسلّم الزعامة مكان جمال عبد الناصر ، وذلك حين حاول الوساطة لـلإبقاء عـلى حياة سيـد قطب بتخفيف عقـوبة الإعدام عنه ، إلاّ أن عبد السلام عارف قد رفض طلب جمال عبد النـاصر بالعفو عن عارف عبد الرزاق ، وكان هـذا الرفض كـالصاعقـة على جمـال عبد الناصر .

عدّ جمال عبد الناصر وساطة عبد السلام عارف ورفضه العفو خيانـةً له ، واعتراضاً على أحكامه ، وابتعاداً عن سياسته ، والأصل أن يُوافق موافقةً كليةً ، ويطيع إطاعةً عمياء ، ما دام من أعوانه ، ويعدّ آراء سيده أوامر لا تُخالف ، ولذا لم تمض أيام على تلك الوساطة حتى كان عبد السلام عارف في سجل التاريخ إذ انتهى أمره مع بعض أعوانه في حادثةٍ مخطط لها .

الصراع في أيام عبد الرحمٰن عارف : تسلّم عبد الرحمٰن عارف الحكم بعد أخيه ، وسار على سياسته ، وهذا ما لا يرغبه جمال عبد الناصر ، لذا بدأ يُحيك المؤامرات ضـدّه ، ولكن الناصريـين قد ضعف شـأنهم بعد محـاولـة الانقلاب التي قاموا بها ، وقادها عارف عبد الرزاق ضدّ عبد السلام عارف إذ أُبعد عدد منهم عن الجيش ، وتوارى آخرون ، كما اعتزل بعضهم السياسة ، وتقوقع على نفسه ، ولكن جمال عبد الناصر لا يُهمّه سوى تنفيذ ما يريـد ، بغضّ النـظر عما يـذهب من ضحايـا في تحقيق ما يـرسم ، فـألقى بعـارف عبد الرزاق مرةً أخرى ، ودفع به إلى العراق ، وقام بمحاولته الثانية غير أنه فشل مرةً أخرى ، وتبعثرت رجالات الناصريين ، وضعف شأنهم ، كما ضعف أمر أعوان عبـد الرحمٰن عـارف فكان هـذا أن قوي وضـع البعثيين فـأخذوا بالحركة ، ونشط الشيوعيون ، وأصبحت الدعوة إلى الوحدة مع مصر باهتةً

لسياسة جمال عبد الناصر ، وتضحيته بأتباعه ، وضرب أعوانه إن لم يُوافقوه على الحقّ والباطل ، ولوجود فاصل بين الأقليمين ، ولاستلام البعثيين للسلطة في سوريا الأمر الذي جعلهم يمدّون رفاقهم ، ويدعمونهم للعودة إلى الحكم ، وهذا ما تمّ .

وأخذت تنمو مجموعة جديدة في الجيش أطلقت على نفسها اسم حركة « الثوريون العرب » ، وضمّت عدداً من الضباط ، غير أن أكثرهم من أصحاب الرتب الصغيرة التي لا تستطيع أن تلعب دوراً مهماً في السياسة العامة ، وقد اكتشف أمرها قائد الاستخبارات عبد الرزاق النايف فأظهر عطفه عليها ، واستغلّها ، وأراد العمل لنفسه وتحقيق أطماعه من خلفها ، ولما رأى الوقت مناسباً للإشاعات التي تنطلق ضد رئيس الحكومة طاهر يحيى ، واتهامه بالفساد والرشوة ، وضعف الحكم عامةً أراد الحركة لكنه وجد في نفسه وفي مجموعته ضعفاً لصغر سنّ أكثرهم ، وعدم إمكانية تسيير الحكم ، لذا رأى الاستعانة بالجناح المعتدل من البعثيين الذين منهم أحمد حسن البكر وجماعته ، وكان البكر قد تسلّم رئاسة الحكومة في وقتٍ سابقٍ . وهو قائد التجمّع البعثي في الجيش ، وكان التعاون ، بل وجد البعثيون ذلك فرصةً مؤاتيةً ، وتمّ الإنقلاب ، وتسلّمت المجموعتان السلطة ، حيث اختير أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ، وشكّل عبد الرزاق النايف الحكومة .

الصراع أيام البعث : لم يطل الوقت حتى وقع الخلاف بين المجموعتين ، بل لم يزد الوفاق على ثلاثة عشر يوماً ، إذ اقتيد عبد الرزاق النايف مكرهاً وتحت السلاح إلى خارج البلاد ، وانفرد البعثيون بالسلطة . غير أن تسلّط مجموعة صغيرة مكروهة من الشعب على الدولة سيثير نقمة عارمة ، ولا بدّ من أن تنفجر ، وقد لا يطول الأمر ، وربما أدّى الانفجار إلى إبادة أكثر البعثيين لذا لجأوا إلى المكر والخديعة ومحاولة مشاركة آخرين لهم في السلطة . وفي ٢٧ رمضان ١٣٩١هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٧١م) أعلن حزب البعث العربي الاشتراكي ميثاق العمل الوطني الداعي لإقامة جبهةٍ بين القوى الوطنية

والقومية التقدمية . وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (١٧ تموز ١٩٧٣م) وقع بيان مشترك بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي ، وذلك بعد توقيع معاهدة مع الامبراطورية الروسية ، ثم انضم إليها الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وبعض القوميين والمستقلين وأصحاب المنافع غير أن الهيمنة الكلية كانت لحزب البعث ، والبقية يدورون في فلكه لتأمين مصالحهم الحزبية والخاصة . ثم وجد تنظيم سري للحزب الشيوعي في الجيش فقبضت السلطة على أفراده وقضت عليهم ، وهذا ما جعل الحزب الشيوعي يترك الجبهة ، كما أن الصراع مع الأكراد قد جعل الحزب الديمقراطي الكردستاني يخرج ، وبقي حزب البعث فيها مع ما يُسمى بالقوميين إضافةً إلى بعض المستقلين الذين لا يهتمون بالمبادىء ، وإنما يتحرّكون وراء مصالحهم وما تقتضيه ظروفهم .

أخذ الصراع الفردي داخل حزب البعث يلعب دوراً كبيراً ، وقبض صدام حسين على مركز القوى كنائب للأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي القطري ، وكنائب لرئيس مجلس قيادة الثورة بعد أن قضى على عددٍ من زعماء الحزب تارةً عن طريق الاغتيال ، وتارة عن طريق الإقصاء ، وأخرى عن طريق المناورة والحيل ، وثالث عن طريق الاتهام بالتآمر على الحزب أو على الثورة و . . . . فقد انتهى حردان عبد الغفار التكريتي بحادث طائرة ، وأقصى صالح مهدي عماش ، وذهب حماد شهاب التكريتي قتلاً في مقاومة محاولة انقلابٍ ، وأخيراً أبعد الرئيس أحمد حسن البكر ، ووصل صدام حسين إلى الرئاسة الأولى . . . . واستمرّت التصفيات بمختلف الطرق ، ولم يعد أحد يجرؤ بمخالفة رأي الرئيس بل لم يستطع أحد أن يُبدي اقتراحاً ، أو يُعبّر عما في نفسه ، وربما لم يعجبه سلوك عضوٍ من الحزب أو من مجلس قيادة الثورة ، أو من الوزارة فيصرفه بأية طريقةٍ ، وهذا ما حدث مثلاً عام ١٤٠٦هـ إذ فصل من الحزب ، ومن الوزارة جعفر قاسم حمودي لأنه شوهد يصلي ، فأخرجه من الحزب ، ومن مناصبه كلها مُتهكماً عليه أن درويش لا يزال يقوم ويقعد كما يفعل البلهاء مقتنعاً بما يفعله السفهاء .

المراجـــع

الكتاب	المؤلف	الناشر
١ ـ التاريخ الحديث ـ الشعوب الإسلامية	عبد العزيز سليمان نوار	دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣م
٢ ـ تاريخ العراق السياسي الحديث ١/٣	عبد الرزاق الحسني	مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) .
٣ ـ تاريخ الوزارات العراقية ١/١٠	عبد الرزاق الحسني	دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م) .
٤ ـ تطور العراق تحت حكم الاتحاديين	فيصل محمد الأرحيم	مطابع الجمهور ـ الموصل ١٩٧٥م .
٥ ـ حركة رشيد عالي الكيلاني	إسماعيل أحمد ياغي	دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٤م .
٦ ـ العراق الجمهوري	مجيد خدوري	الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ١٩٧٤م .
٧ ـ العراق في دوري الاحتلال والانتداب ١/٢	عبد الرزاق الحسني	مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٥٧هـ ـ (١٩٣٨م) .
٨ ـ العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون	سعد الأنصاري	دار الهدى ـ بيروت
٩ ـ المشرق العربي	صلاح العقاد	معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ١٩٦٧م .

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

- ١٣ -

التاريخ المعاصر

وادي النيل

مصر والسودان

١٣٤٢ - ١٤٠٩ هـ

١٩٢٤ - ١٩٨٩ م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

- ١٣ -

التاريخ المعاصر

وادي النيل

مصر والسودان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه، ومَن سار على نهجه إلى يوم الدين **وَبَعْد**،

فإن التاريخ المعاصر لوادي النيل ذو أهمية خاصة، إذ للموقع الذي يحتلّه مكانة بين دول العالم وعند المسلمين. إن وقوعه في منطقة التقاء القارات، ومنطقة صلة الغرب بالشرق عن طريق قناة السويس قد جعل العالم يتّجه بأنظاره إلى هذا الموقع، وتُفكّر القوى الكبرى في السيطرة عليه، أو جعله على الأقلّ تحت نفوذها، وفي الوقت الذي يُفكّر حُكّامه بالتمكين لأنفسهم والتميّز تعمل الدول الكبرى على الاعتداء على المنطقة لإبقائها تحت هيمنتها كما حدث عام ١٣٧٦هـ، وإن كان الذي تمّ يومذاك يرمي إلى هدفٍ آخر وهو إبراز ذلك الحاكم ليتناسب مع الدولة التي يحكمها وموقعها، ولينسجم الموقف مع القوة المحرّكة في المنطقة، والتي أرادت تثبيت أقدامها في مصر بشكلٍ قويٍّ، هذا بالإضافة إلى إمكانات المنطقة الاستهلاكية بالنسبة إلى الدول الصناعية، والمواد الخام المتوفّرة في أراضيها، والتي يُمكن أن تمدّ بها معامل تلك الدول والتي هي بأشدّ الحاجة إليها.

ويجب ألا ننسى أبداً الموقع المهمّ الذي تُجاور فيه المنطقة دولة اليهود التي أقامتها الدول الصليبية من غربيةٍ وشرقيةٍ لتكون امتداداً لها ولحضارتها المادية، ولتنقل فكرها والمبادئ التي تقوم عليها إلى المسلمين في سبيل تهديم عقيدتهم وإبعادهم عن مبادئهم، مع العمل الدائب لنشر الفساد بين أبنائهم كي يتخلّوا عن دينهم وفكرهم. ولتكون هذه الدولة المغروسة بين المسلمين شوكةً

في حُلوقهم تُؤرّقهم في كل وقتٍ، وتعمل على ضرب كلّ من تُسوّل له نفسه بالخروج عن قبضة القوى التي أنشأتها، أو لتُبقيهم على حالةٍ من الضعف والتجزئة كي لا تقوم لهم قائمةٌ، ولتتفق مع كلّ حاكمٍ مُستغربٍ، وكلّ مسؤولٍ مُرتبطٍ، وكلّ زعيمٍ مُتحررٍ من مبادئه وتعاليم دينه تدعمه، وتتفق معه سرّاً حتى لا يفتضح أمره، ويَضعُف مركزه بين شعبه، ويبتعد عنه أنصاره، وينتهي وضعه بل رُبّما تُظهر له العداء كي يبرز في رعيته، ويُظنّ به الخير والإخلاص، حتى أصبح الذين تتكلّم عنهم بالسوء وتُردّد تخوّفها منهم إن هم إلاّ أنصاراً لها، وتسكت دائماً عن أعدائها وقد تُثني على بعض مواقفهم ليرتاب الناس في أمرهم، ويشكّوا في إخلاصهم، وتُوجّه إليهم التّهم. وقد يأتي قريباً اليوم الذي تُكشّر فيه عن أنيابها، وتُظهر تحالفها صراحةً مع من تُؤيّد، وتُعلن عداوتها بوضوحٍ لمن تكره وتُحارب، وربّما كان هذا بعد أن يتمكّن أنصارها، ويُذلّ المسلمون، ويقبلون الخنوع، ويرضخون للطغاة الذين يقبلون بالدولة المزروعة بينهم، ويعترفون بها وبنظامها، ويعملون على التعاون معها، وذلك بعد أن يُقدّمون هذا لشعوبهم جرعةً بعد جرعةٍ إذ يرفض المسلمون قبول هذا، ويخشى الطغاة على أنفسهم من هذا الرفض الذي قد يُطيح بعروشهم، ولكن قد يتجرّعون دفعةً بعد أخرى بشيء من الصعوبة والإكراه، ولكن ما العمل وقد ذلّوا من كثرة النكبات الداخلية والخارجية وشدّة الضربات حتى طأطؤوا رؤوسهم وخنعوا.

وتعمل دولة اليهود على التوسّع حسب خطّتها المرسومة والتي تحلم بها وتعمل على تحقيقها وهي امتداد سيطرتها من النيل إلى الفرات، ولن يكون هذا التوسّع إلا على حساب المسلمين، وهذا ما ترمي إليه دولة اليهود حيث تعدّ هذا ثأراً لما أصاب أسلافها في المدينة، ووادي القرى، وخيبر، وفَدَك نتيجة جرائمهم وما اقترفته أيديهم، كما تعدّ ذلك مرحلةً من مراحل تحقيق سيطرتها على العالم، وهذا من أهداف الصليبيين خاصّةً، وأعداء الله عامّةً من كل نوعٍ وأصحاب كل عقيدةٍ غير عقيدة الإسلام فهذا إذلال للمسلمين، وإضعافٌ لشوكتهم، وإخماد لنارهم، وتحقيق لمآرب أصحاب الهوى والأطماع.

يُدرك المسلمون هذا، ويعرفون لسكان وادي النيل مكانتهم لموقع بلادهم، وفضل علمائهم، ومراكزهم العلمية، وإمكاناتهم القتالية بما يملكون من أعدادٍ كبيرةٍ من الجند، وقدراتهم الدفاعية، وجهادهم أعداء الله خلال مراحل التاريخ.

ويُدرك الأعداء هذا أيضاً، لذا فهم يُوجّهون اهتمامهم إلى هذه المنطقة لتسليط البُغاة عليها، ومُحاولة نشر الفساد بين أهلها، ونشر الأفكار الخبيثة والمُغرضة، ومنها أن مصر من الناحية الحضارية مرتبطة بأوروبا أو أنها جزء منها، وأنها تُدير ظهرها للشرق تماماً، ويعمل الأعداء على إبراز الذين يحملون هذه الأفكار، ويُظهرونهم على كل صعيدٍ، ويُطلقون عليهم الألقاب العلمية، ويرفعونهم إلى أعلى المراتب، ولا شكّ أن هذا لا يأتي من فراغٍ، فإن لديهم إمكاناتٍ، ويملكون مواهب أمثال طه حسين وأضرابه. كما يدعمون أولئك الذين يعملون على الحطّ من شأن الإسلام وإلقاء الشُّبه على تعاليمه أو النيل من اللغة العربية لأنها لغة القرآن، ومصدر الثقافة الإسلامية من أمثال علي عبد الرازق، وسلامة موسى وغيرهم، وفي الوقت نفسه يعملون على الحطّ من شأن الذين ينهجون النهج السليم ويرسمون للأُمّة معالم الطريق القويم وإذا أدّى الأمر إلى قتلهم كان ذلك أفضل أمثال حسن البنا، وسيّد قطب، وإن مُقاومة الحركات الإسلامية وضربها باستمرار غدا من الأمور المعروفة، وإن العمل على احتواء الشخصيات والحركات أصبح شائعاً، وإن اتّهام الذين يصمدون أمام الأعداء، ويعتزّون بإسلامهم، ويدعون لدينهم، ويتميّزون عن غيرهم بخطّهم ومواقفهم ليُحاربون في كل مكان، ويجتمع الشرق والغرب، وأتباع هذا وأزلام ذاك على مُطاردتهم أينما حلّوا وفي أي مكانٍ نزلوا، وربما لم يبق لبعضهم موضع قدمٍ على هذه الأرض على رحبها، ومع ذلك لم يهنوا، ولم يجزعوا، ويشعرون دائماً أنهم الأعلون بإيمانهم، وعندهم ثقة كبيرة بنصر الله ما داموا معه يسيرون على الطريق الحق.

وربما نجد أنّ التركيز في هذا على مصر أكثر من غيرها من الأمصار، وإن كانت البقية لا تخلو من هذا أبداً، وخاصةً بلاد الشام التي يُركزّ عليها الأعداء منذ أيّام الحروب الصليبية بل منذ رحيل الرّوم عنها. وما التركيز على

مصر إلا بسبب الذي ذكرنا، وسنرى هذا بوضوح أثناء دراستنا لتاريخها المعاصر في هذا الجزء من هذه الموسوعة ـ إن شاء الله.

نسأل الله التوفيق، وسداد الخُطا، وقول الحقّ، وإنّا لا نستعين إلاّ به، ولا نعمل إلاّ في سبيله، ولا نرجو الأجر إلاّ منه، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة صفر عام ١٤٠٩هـ

محمود شاكر

❁ ❁ ❁

الباب الأوّل

مصر

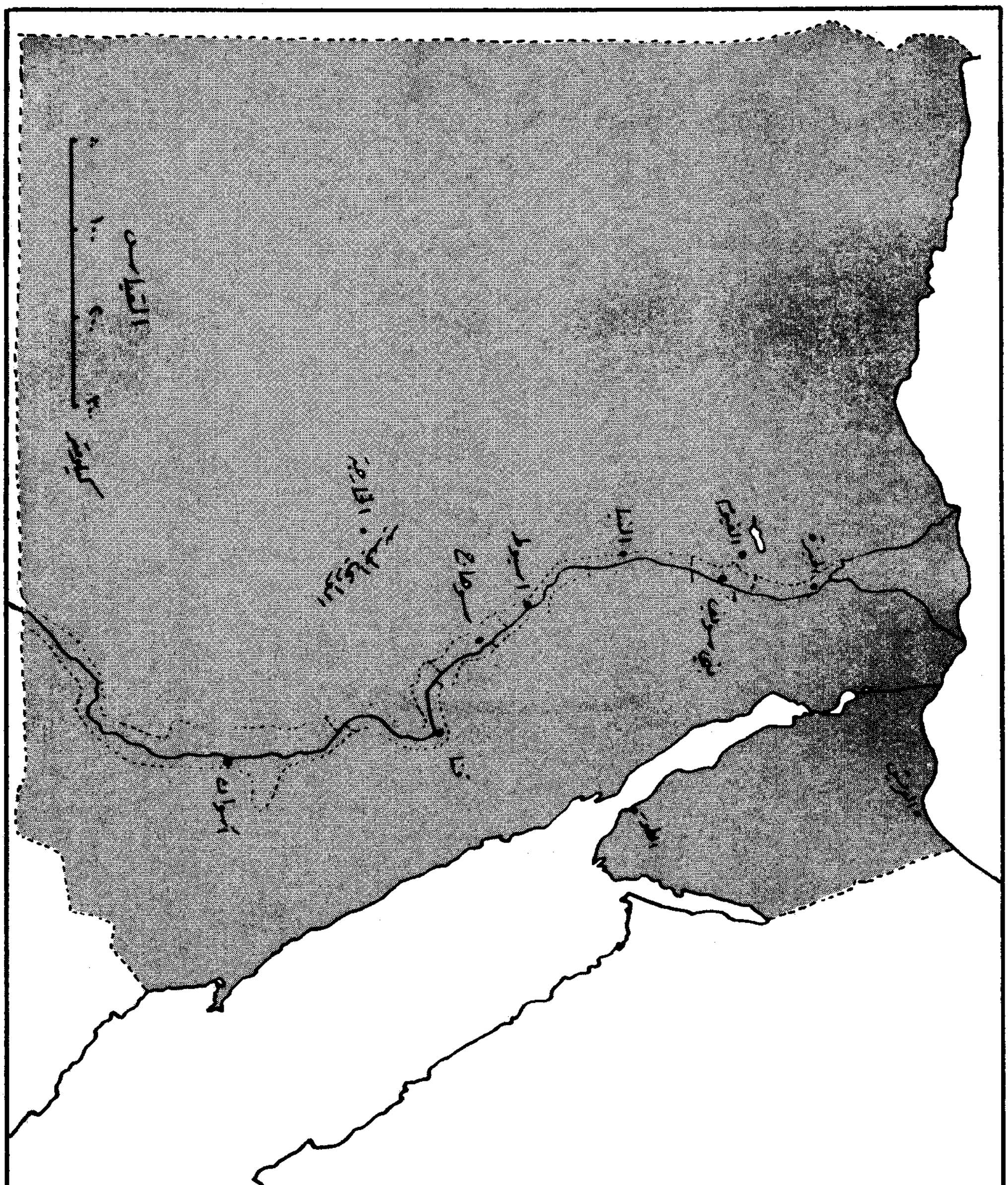

لمحة تاريخية
من احتلال إنكلترا لمصر حتى إلغاء الخلافة

بعد فتح قناة السويس، ومدّ مصر بالقُروض المالية الفرنسية والإنكليزية، وبعد مُناوراتٍ سياسية فإنّ إنكلترا قد احتلّت وادي النيل حيث دخلت مصر إثر الثورة العرابية عام ١٢٩٩هـ، كما دخلت السودان أو جدّدت احتلالها بعد الثورة المهدية، ورغم هذا الاحتلال إلاّ أنّ مصر قد بقيت مرتبطةً بالدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى. وقد عقدت إنكلترا مع مصر عام ١٣١٧هـ مُعاهدةً ثنائيةً لحكم السودان حيث قضت هذه المعاهدة أن يكون الحكم مشتركاً بين الدولتين حتى أُطلق على البلاد اسم السودان المصري ـ الإنكليزي.

حرصت إنكلترا منذ احتلالها لمصر أن تبحث عن عناصر قوية تستطيع عن طريقها التمكين لنفسها في مصر أو تثبيت دعائمها لإبقاء سيطرتها على البلاد وتنفيذ مُخطّطاتها الاستعمارية فيها. وهي تعلم أن الذين يرتمون أمام أصحاب السلطة كثيرون، وأن الذين يتزلّفون لكل حاكم جديد أكثر، غير أن هؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم إلاّ من أجل الغوغاء ونشر الشائعات والتجسّس، أما استمرارية ذلك وتنفيذ المُخطّطات الاستعمارية فإن الأمر يحتاج إلى من هم أصلب منهم عوداً، وأرسخ قواعد بين الشعب، وأثبت على المؤازرة أثناء الشدائد، فإن المتزلّفين وأصحاب المصالح لا يثبتون على وضعٍ إذ ينصرون دائماً الوضع القائم ويقفون مع القوي فإذا بدا عليه شيء من الضعف تخلّوا عنه وتفرّقوا من حوله إذ يميلون مع الريح حسب مصالحهم للين عُودهم وشدّة خوفهم.

كان أكثر رجالات مصر ينضوون تحت لواء الحركة الوطنية أو ما عُرف بالحزب الوطني، ويُعادون الاحتلال، ويرون أنه مؤقت، وخاصةً أن البلاد تتبع

اسمياً الدولة العثمانية فهي صاحبة الحقّ الشرعيّ، وليست إنكلترا سوى دولةٍ مُحتلّةٍ باغيةٍ مُستعمرةٍ، وإن أغلب هؤلاء الرجال قد تأثّروا بفكر جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده، الفكر الذي يظهر من مُعاداة المُحتلّين ومُحاربة أعداء الإسلام إذ لم يكونوا على درجةٍ من الوعي ليُدركوا خفايا النفوس، وخُبث النوايا، وسريّة الأهداف، حيث لم تُعرف بعد أبعاد المُخطّطات، ومكر الأعداء، وشرّ المؤسسات الماسونية ومحافلها، وخرج جمال الدين الأفغاني من مصر، وأيّد الشيخ محمد عبده الحركة العرابية، ودفع الناس، وحرّضهم ضدّ التدخّل الأجنبي في شؤون البلاد، فأُبعد إلى بلاد الشام، وانتقل بعدها إلى فرنسا حيث عمل مع أستاذه الأفغاني في تحرير «العروة الوثقى» واستمرّت الحركة الوطنية تُؤدّي دورها.

أما الخديوي توفيق بن إسماعيل فقد انحنى أمام المحتلّين الإنكليز ورضخ لأوامرهم بعد أن كان ضدّهم قبل أن يؤول إليه الأمر، وبذا فقد أصبح الوضع في قبضة الأعداء تماماً، وانطلقوا يبحثون عن ضالّتهم، وبذروا بعض الحبّ ونثروا شيئاً من الإغراءات، فرجع الشيخ محمد عبده عام ١٣٠٦هـ، وتولّى منصب القضاء، ثم كان مُستشاراً في محكمة الاستئناف، ثم مُفتياً للديار المصرية عام ١٣١٧هـ. وبرز الذين رغب فيهم المحتلّون ولم يرغبوا إلا في الذين عندهم استعداد للتخلّي عن مبادئهم والتحرّر من كل ما تفرضه عليهم العقيدة الإسلامية، وظهر سعد بن إبراهيم زغلول الذي كان قد لازم جمال الدين الأفغاني مُدّةً، واشتغل مع الشيخ محمد عبده بتحرير مجلة «الوقائع»، واشترك في الثورة العرابية، وسُجن بعدها، وخرج فاشتغل بالمحاماة، ثم عُيّن قاضياً، واختير مُستشاراً، ونجح في الاختبار إذ أوكلت إليه وزارة المعارف، ثم وزارة العدل «الحقّانية»، ووكالة الجمعية التشريعية وذلك قبيل الحرب العالمية الأولى، وبعد نجاحه بدأت عملية إظهاره إثر تلك الحرب، فكان رجل مصر، وخطيبها، وأول من خلعت زوجه الحجاب. كانت عليه تبعة تنفيذ المخطّطات الاستعمارية، وإليه تُوجّه الأنظار، وفي الوقت نفسه تُعلن له العداوة الظاهرة لتبدو وطنيته، وليزداد تألّقاً ولمعاناً.

ومات الخديوي توفيق عام ١٣١٠هـ، وقام مكانه ابنه عباس حلمي

«الثاني»، وكان يُساير الحركة الوطنية، ويكره الاحتلال الإنكليزي ولكن يُخفي ذلك ولا يُبديه، غير أنه إذا اشتدّ الضغط عليه أعلن خضوعه وإمكانية تلقّيه الأوامر منهم، وبذا كانت هناك فئات ثلاث أو قوى ثلاث هي: جماعة قصر عابدين التي تُؤيّد الخديوي، وجماعة الاحتلال التي تتلقّى الدعم من الإنكليز، وتعيش على مُساعدتهم وتحقيق رغباتهم، والحركة الوطنية التي تلتقي مع الخديوي أحياناً في مُحاربة الاحتلال، وربما كان بعض رجال الحركة الوطنية يرون أن التعاون مع الدولة العثمانية أمر واجب من جانبٍ إسلامي، وما دامت هي صاحبة السلطة الاسمية في مصر إضافةً إلى ما في ذلك من غيظٍ للمحتلّين، وقد بدأ الصراع بين هذه القوى الثلاث، وظهر على صفحات الصحف والمجلات إذ كان لكلِ جماعةٍ وسائل إعلامٍ خاصّة بها، كما تكوّنت عام ١٣٢٥هـ الأحزاب السياسية التي نشأت على هذه التقسيمات فكان الحزب الوطني الذي يتزعمّه مصطفى كامل، والذي أعلن تأسيسه في ١٦ رمضان ١٣٢٥هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٠٧م) رغم قيامه قبل هذا التاريخ، ويرى العمل على الاستقلال ضمن دولة الخلافة، ومن الضروري بمكانٍ وجود حزبٍ واحدٍ تنضوي تحت لوائه كلّ العناصر الوطنية لمقاومة المحتلّين. ورغم أن معظم رجال الأحزاب كانوا في هذه المرحلة من الطبقة العليا (إن صحّت هذه التسمية) وهم غالباً من الأعيان والمُلاّك ثم من المثقفين، والمُلاّك غالباً هم الذين يتسلّمون الوظائف، وإن الذين يشتغلون بالأعمال الحزبية والسياسية يعملون بها بمقدار ما يحصلون على سلطةٍ ونفوذٍ، ومع هذا فإن الحزب الوطني كان يضمّ عناصر من فئاتٍ أُخرى، وقد انضمّوا إليه بسبب سوء وضعهم فثاروا على المحتلّين وانخرطوا في صفوف هذا الحزب الذي يرفع هذا الشعار ويعمل له. ولهذا فقد اتّهمه أعداؤه أنه حزب الطبقة الواطئة، وكان يردّ عليهم بأن هذه الطبقة تُشكّل تسعة أعشار الأمّة.

وظهر حزب الأمة في ١١ شعبان عام ١٣٢٥هـ بعد أن تحوّلت شركة الجريدة إلى حزبٍ، ويُعدّ حزب المُلاّك، ورئيسه محمود سليمان ووكيلاه حسن عبد الرازق، وعلي الشعراوي، وأمين سرّه أحمد لطفي السيد، ويرى الاستقلال الكامل، وضرورة الاشتراك بالحكم، ولم يُطالب بالدستور. وكان

تأثير الشيخ محمد عبده واضحاً على هذا الحزب، وقد كانت سياسته تقوم على اللين، والاعتدال مع الاحتلال، وعلى مُعاداة الخديوي.

وبرز حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، وقد عرض الخديوي عبّاس الثاني على شركة الجريدة قبول علي يوسف صاحب جريدة «المُؤيّد» فيها، غير أن محمود سليمان رئيس الشركة قد رفض ذلك، فخاف الخديوي من الجريدة، وأسّس حزب الإصلاح، وكان الشيخ علي يوسف رئيساً له، وأحمد حشمت وكيلاً، ويُعدّ هذا الحزب حزب الخديوي عبّاس حلمي، أو حزب القصر، ومن مهمته السرية تفتيت حزب الأمة. وكان عبد العزيز فهمي محامي هذا الحزب، وفي الوقت نفسه محامي جريدة الحزب «المُؤيّد».

هذه الأحزاب الرئيسية الثلاثية في مصر قبيل الحرب العالمية الأولى، ورُبّما كان الحزب الوطني أهمها وأكبرها، وعندما أعلن مصطفى كامل تأسيسه أزعج الحزبين الآخرين لأن الطّلاب قد اتّجهوا نحوه، وكان زعماؤه يعدّون حزب الأمة قد فتت الحركة الوطنية التي يجب أن تبقى ضمن تجمُّعٍ واحدٍ، والحزب الوطني له جذوره القديمة التي تعود إلى ما قبل الحركة العرابية، وإن كان إعلان تأسيسه قد ظهر بعد قيام حزب الأُمّة. ويُصِرّ هذا الحزب على عداء الاحتلال، والتعاون مع الخديوي، والولاء للخلافة الإسلامية.

وإضافةً إلى هذه الأحزاب الثلاثة الكبيرة وجدت أحزاب أخرى صغيرة، وتسير في فلك إحدى القوى البارزة الخديوي أو الاحتلال، أولها صفة التّجمُّع الطّائفي أو العرقي ومن أبرز هذه الأحزاب. حزب الأحرار الوطني الحر، ورئيسه محمد وحيد، ووكيله نشأت بك، ويرى تأييد الاحتلال الذي يُعدّ - في نظره - أسعد عصور مصر لما فيه من خيرٍ لأبناء مصر.

والحزب الدستوري الذي يرى تأييد الخديوي والاحتلال. والحزب المصري الذي كان أكثر أعضائه من الأقباط، ويرأسه «أخنوخ فانوس»، ويميل إلى إنكلترا، وقد انسحب أكثر الأقباط من الحزب الوطني عندما تأسّس الحزب المصري. وحزب النبلاء وأكثر أعضائه من السكان ذي الأصول التركية. والحزب الجمهوري الذي يرأسه محمد غانم، وشعاره «حرية - إخاء - مساواة»

وهو شعار الثورة الفرنسية أو شعار «الماسون» وأكثر أعضائه من ذوي التأثر بالثقافة الفرنسية، والحزب الاشتراكي.

وقد تمثَّل الصراع بين الأحزاب على صفحات الجرائد إذ كان لكل حزب صحيفته الخاصّة به، إن لم يكن له أكثر من صحيفة فكانت جريدة «اللواء» صحيفة الحزب الوطني الرئيسية، ويرأس تحريرها عبد العزيز جاويش، هذا إضافةً إلى جريدته «الدستور» التي يُحرّرها محمد فريد وجدي، و «مصر الفتاة» التي يُحرِّرها «سيد علي»، و «ضياء الشرق» في القاهرة ويُحرِّرها محمود حسيب، و «وادي النيل» في الإسكندرية ويُحرّرها أحمد الكلزة، و «البلاغ المصري» ويُحرِّرها إسماعيل شيمي، و «القطر المصري» ويُحررّها أحمد حلمي، وجريدة «العلم» هذا إضافةً إلى جريدتين إحداهما تصدر بالفرنسية، والأخرى بالإنكليزية.

وكانت صحيفة «المُؤيَد» تنطق بلسان حزب «الإصلاح»، وقد صدرت منذ عام ١٣٠٧هـ بتأييد من رئيس الوزراء رياض باشا، ونطقت باسم الاحتلال في بداية الأمر، وكانت تنفرد بنشر شعر أحمد شوقي، كما كتب فيها الكثير من الشخصيات مثل: مصطفى كامل، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ومحمد عبده، وأحمد تيمور، وقاسم أمين، وسعد زغلول و. . .

وكانت صحيفة «الجريدة» تنطق بلسان حزب الأمة، ورئيس تحريرها أحمد لطفي السيد، وهناك الصحف الثانية التي عمل فيها الشاميون أو عملوا على تأسيسها إذ أنَّ الاحتلال الإنكليزي لمصر قد شجَّع كثيراً من نصارى الشام للقدوم إلى مصر لدعمه، وقد عمل يعقوب صرّوف جريدة «المقتطف»، وجرجي زيدان مجلة «الهلال»، وكان شبلي شميل يكتب في «الأخبار»، وفرح أنطون في «الجامعة»، وأسّس فيليب تقلا جريدة «الأهرام». . .

وأعطى المحتلّون نصارى الشام، والأرمن كثيراً من الوظائف الكبرى حتى كان بأيديهم ٣٠٪ من تلك المناصب على حين لم يكن بيد المصريين سوى ٢٨٪ منها.

كان المعتمد البريطاني في هذه المدة من الاحتلال وحتى عام ١٣٢٦هـ

يتصرّف تصرّف المستعمر، وخاصةً «كرومر» الذي وجد صداقات مع بعض الرجالات أمثال الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وسعد زغلول وأمثالهما، ووقعت حادثة «دانشواي» عام ١٣٢٤هـ، فثار الناس على ظلم الإنكليز بعد أن ألهب مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني حماسة الشعب، واضطرت إنكلترا لسحب المعتمد البريطاني «كرومر».

وفي هذه الأثناء وقعت حادثتان غيّرت من السياسة العامة قليلاً حتى كان عام ١٣٢٦هـ عام وفاقٍ تقريباً، أما الحادثتان فأولاهما: وفاة زعيم الحزب الوطني مصطفى كامل وهو في ريعان الشباب، وعمره لا يزيد على خمسةٍ وثلاثين عاماً، وكانت وفاته في العاشر من شهر محرم عام ١٣٢٦هـ (١٠ شباط ١٩٠٨م)، وانتُخب مكانه في رئاسة الحزب محمد فريد وكان موقفه مع الخديوي أصلب من مصطفى كامل، وذلك أن مصطفى كامل كان في حالة اجتماعيةٍ متوسطةٍ فكان يقبل دعم الخديوي ومُساعدته للحزب فهو على لينٍ ومُرونةٍ معه على حين كان محمد فريد من كبار المُلاّك ولا يقبل أيّة مُساعدةٍ، ومن هنا جاءت صلابته. غير أنه قد وُجد في صفوف الحزب من يُؤيّد الإبقاء على التعاون مع الخديوي، وينطق بلسان هؤلاء صحيفة «الدستور» وصحيفة «مصر الفتاة» التي وُجدت لتحمل هذا الرأي. وأما الحادثة الثانية: فهي وجود تقارب بين الخديوي عباس حلمي وبين المعتمد البريطاني «غورست» الأمر الذي قرّب نسبياً بين الأحزاب الثلاثة الكبرى على الأقلّ.

لم تلبث أن عادت سياسة القهر بعد مُضي عام ١٣٢٦هـ، وذلك أنه حدث الشقاق في صفوف حزب الأمّة وانفصل عنه أحمد عفيفي، وفتحي زغلول، وتمّ تقارب بين الحزب الوطني وحزب الأمة، وثم حدث الانقلاب في الدولة العثمانية ضدّ السلطان عبد الحميد في جمادى الآخرة من عام ١٣٢٦هـ الأمر الذي قلّل من الدعوة إلى الولاء لدولة الخلافة، وخفّف من هيبة الخديوي ما دام يُمّثل رسمياً الدولة العثمانية. وبدأ الحزب الوطني ينتقد وزارة بطرس غالي انتقاداً قوياً، وهي أوّل وزارة تألّفت بناءً على رأي الخديوي وليس حسب رغبات المحتلين وذلك في شوال من عام ١٣٢٦هـ (تشرين الثاني ١٩٠٨م). وبدأ الخديوي يسعى لدبّ الخلاف بين الحزب الوطني وحزب

الأمّة، والعمل لتفتيت الحزب الوطني وقد نجح في العمل على إصدار جريدة «مصر الفتاة» من قبل جماعة من الحزب الوطني، وتُنادي بضرورة بقاء التعاون بين الحزب الوطني والخديوي على خلافٍ مع بقية أعضاء الحزب الذي يرون البُعد عن الخديوي. واغتيل رئيس الوزراء بطرس غالي[1] في صفر عام ١٣٢٨هـ (شباط ١٩١٠م)، وتمّ تقارب بين حزب الأمة وبين الخديوي عباس حلمي وحزبه «الإصلاح»، وبدأ العمل بتطبيق قانون المطبوعات للضغط على الحريات، واضطر الحزب الوطني إلى العمل السري.

ولم يمض عام ١٣٢٨هـ حتى عاد الخلاف بين الخديوي والمعتمد البريطاني الجديد «كتشنر» الذي تسلّم المنصب الجديد بعد وفاة المعتمد السابق «غورست»، فاستمرّ في سياسة القهر، وعمل الخديوي[2] على التقرّب من ممثلي الحركة الوطنية، ولكنه فشل مع الحزب الوطني على حين نجح مع حزب الأمّة، واقتنع عدد من رجالات هذا الحزب باستقلال مصر عن دولة الخلافة بعد أن تسلّط الاتحاديون على حكم الدولة العثمانية، وإن لم تكن الخلافة قد أُلغيت بعد.

اندلعت الحرب العالمية الأولى، ووقفت فيها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا ضدّ الحلفاء الذين هم دول: إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا، واليابان و. . . ولما كانت مصر لا تزال تتبع الدولة العثمانية رسمياً، وفيها من يدعو إلى توطيد الصّلة مع العثمانيين على أنهم يُمثّلون الخلافة الإسلامية وأنّ العاطفة الإسلامية تدعو إلى ذلك، وكان الحزب الوطني أكبر التّجمعات

---

(١) اغتيل رئيس الوزراء بطرس غالي على يد إبراهيم ناصف الورداني من جمعية «التضامن الأخوي»، واتهم أعضاء آخرون من الجمعية، وقد ذكر القاتل أن أسباب الجريمة:

١ ـ مد امتياز شركة قناة السويس إلى عام ١٩٩٩م بعد أن كانت إلى عام ١٩٦٥م.

٢ ـ التوقيع على اتفاقية السودان ١٨٩٩م.

٣ ـ إصدار القوانين الجائرة.

وأعدم القاتل شنقاً في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٢٨هـ (٢٨ حزيران ١٩١٠م).

(٢) جرت محاولة لقتل الخديوي عباس حلمي أثناء زيارته لاستانبول على يد الطالب محمود مظهر، فأخطأه، وقتل أحد الحراس محمود مظهر بالسيف، وأسدل الستار على الحادث.

المصرية وأهمها يتبنّى هذا الاتجاه، لذا وبسبب ظروف الحرب فقد أعلنت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر، وفرضت الحماية عليها، وأعلنت فصلها عن الدولة العثمانية رسمياً، وخلعت الخديوي عبّاس حلمي الذي يحمل عاطفةً طيبةً تجاه دولة الخلافة، وعيَّنت مكانه عمَّه حسين كامل، وأطلقت عليه لقب سلطان نكايةً بالسلطان العثماني ومُضاهاةً له، ومنعت الاجتماعات، وراقبت الصحافة، وألغت الأحزاب، وسخّرت اقتصاد البلاد لمصلحة الجيش الإنكليزي، وفرضت على الشعب أعمال السخرة في تعبيد الطرق، وحفر الآبار، ومدّ أنابيب المياه، وتُوفيّ حسين كامل[1] قبل نهاية الحرب فعيّنت مكانه أخاه أحمد فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي باشا.

انتهت الحرب العالمية الأولى وخرجت إنكلترا وحلفاؤها منها منتصرين، وتوقَّعت بدء المطالبة بالاستقلال مع انتهاء الحرب، ومع الأماني التي كانت تُقدّمها للشعوب المغلوب على أمرها بمنحها الاستقلال بعد الحصول على النصر، وحسب السياسة البريطانية المُتَّبعة بتسليم البلاد لبعض أبنائها الذين يمكنهم أن يُنفِّذوا سياستها، ويُطبِّقوا مخططاتها، ويحلّوا محلّها إذ ترى ذلك أفضل من السيطرة العسكرية لأنها تُكلّف الكثير، وتحتاج إلى الجنود، وتُؤدّي في النهاية إلى المفاصلة التامة بينها وبين البلاد التي تستعمرها فتخسرها كسوقٍ تُصرَّف فيها مُنتجاتها، وكمركزٍ للحصول على المواد الخام منها، هذا إضافةً إلى ما يفقده الطرفان من أبنائهما في حركات المقاومة والثورات والعمل على إخمادها، وربما كانت هذه السياسة الإنكليزية الاستعمارية تختلف عن سياسة باقي دول أوروبا الاستعمارية التي تتبع فرض السياسة العسكرية وهيمنتها التامة على مقدرات البلاد كلها على حين كانت إنكلترا تُكلّف غيرها للقيام بهذه

---

(١) جرت عدة محاولات لقتل السلطان حسين كامل:

١ ـ كانت أول محاولة على يد الطالب محمد خليل من بلدة المنصورة وذلك في مطلع شهر جمادى الآخرة ١٣٣٣هـ (نيسان ١٩١٥م). وقد أعدم محمد خليل بعد عدة أيام.

٢ ـ وكانت المحاولة الثانية على يد محمد نجيب الهلباوي في ٢٧ شعبان ١٣٣٣هـ (٩ تموز ١٩١٥م)، ولقد ألقى الهلباوي قنبلةً على السلطان لكنها لم تنفجر، وقضى ثمانية أعوام في السجن مع زملائه المشتركين معه في محاولة القتل.

المُهمَّة، وهي سياسة أكثر ليونةً، وأكثر حنكةً، وأكثر مكراً ودهاءً، وأطول عهداً، وأقلّ كُلفةً، وأقلّ ضجةً في العالم.

ووقع اختيارها للقيام بهذه المُهمَّة على سعد زغلول وأعوانه فقد نجح في الاختبار الذي أجرته عليه أثناء تسلّمه الوزارة قبل الحرب العالمية الأولى، وعند تولّيه مُهمَّة وكيل رئيس الهيئة التشريعية قبل الحرب كذلك، وأظهر الاستعداد اللازم، كما وجدت فيه الإمكانات التي تُخوّله مثل ذلك المنصب الخطير.

أظهرت إنكلترا اللين، وأبدت الاستعداد لفكرة الاستقلال، وأعطت الضوء الأخضر للعمل، وأوحت إلى سعدٍ بالتحرّك، فدعا إلى اجتماعٍ في ٦ صفر عام ١٣٣٧هـ تمخّض عن المطالبة بالاستقلال، وتشكيل وفدٍ للسَفر إلى باريس لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح، وتشكّل هذا الوفد من سعد زغلول، وعلي شعراوي(١)، وعبد العزيز فهمي(٢). غير أن الأمر لا يصحُّ بهذه الصورة من الهدوء إذ لا بدّ من إحداث ضجّةٍ وتسليط الأضواء على هؤلاء الرجال أعضاء الوفد.

قابل الوفد المندوب السامي البريطاني «ريجينالد وينغت» وطلبوا منه السماح لهم بالسفر إلى إنكلترا ليُطالبوا باستقلال البلاد، ورفض المندوب السامي ذلك. واتّجه سعد وأصدقاؤه إلى جهةٍ ثانيةٍ وهي استعدادهم للسفر إلى باريس ليُدافعوا عن قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح، فعدّت إنكلترا هذا تمرّداً منهم، فألقت القبض على سعد زغلول(٣)، وإسماعيل

---

(١) علي شعراوي: من حزب الأمة سابقاً والذي يرى المرونة مع الاحتلال.

(٢) عبد العزيز فهمي: محامي حزب الإصلاح، حزب الخديوي، وقد زال الخديوي وأصبح مكانه سلطان مُعيّن من قبل المُحتلين.

(٣) سعد زغلول: ولد في «إبيانة» من قرى الغربية عام ١٢٧٣، وتوفي أبوه وهو في الخامسة، فتعلم في كتّاب القرية، ودخل الأزهر عام ١٢٩٠، ولازم جمال الدين الأفغاني مدة، واشتغل بالتحرير في جريدة «الوقائع المصرية» مع الشيخ محمد عبده، واشترك بالثورة العرابية، وقبض عليه عام ١٢٩٩هـ، ودخل السجن عدة شهور، وأفرج عنه، واشتغل بالمحاماة عام ١٣٠١، واختير قاضياً، ثم مستشاراً، وتولى وزارة المعارف، فالعدل فوكالة رياسة الجمعية التشريعية، وقاد مصر بعد الحرب العالمية الأولى، وتسلّم رئاسة الوزراء، ورئاسة مجلس النواب، وتوفي بالقاهرة عام ١٣٤٦هـ.

صدقي[١]، ومحمد محمود[٢]، وحمد الباسل[٣]. وكان سعد زغلول قد أبرق إلى الرئيس الأمريكي مُحتجاً على التصرف الإنكليزي، ومُطالباً بإلغاء الحماية، ولكنه لم يتلقّ جواباً، فأخذ بعقد الاجتماعات، وكتابة العرائض، وأخذ التوقيعات تحت سمع وبصر السلطات الإنكليزية، ورأت السياسة الاستعمارية أن تُعطيهم صفة الوطنية فنفتهم إلى مالطة، فقامت في البلاد ثورة عارمة شملت كل أرجائها، وقُطعت الاتصالات مع القاهرة، وقامت مجموعات من السكان بحصار الحاميات الإنكليزية حيثما وجدت في الصعيد، وحصلت اعتداءات على جنود الاحتلال، واستُعملت الطائرات لنقل الجنود، وبقيت البلاد دون وزارةٍ بعد استقالة وزارة حسين رشدي[٤] إذ كان رئيسها مُتعاطفاً مع الحركة الوطنية. وقامت مظاهرة نسائية برئاسة

---

(١) إسماعيل صدقي: ابن أحمد شكري بن محمد سيد أحمد، ولد بالإسكندرية عام ١٢٩٢، وتعلّم بمدرسة «الفرير» النصرانية، ودرس الحقوق، وولي نظارة الزراعة، وعمل مع الوفد في بدء تأسيسه، ثم اختلف معه اعتقل مع سعد زغلول شهراً في مالطة، وعيّن وزيراً للمالية عام ١٣٣٩، واشترك مع عبد الخالق ثروت في مفاوضاته مع الجنرال «اللنبي» التي انتهت بتصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢، وتولى رئاسة الوزارة من ١٣٤٩ - ١٣٥٢، وغيّر الدستور المصري، وأسّس حزب الشعب، ورأس الوزارة ١٣٦٥ - ١٣٦٦هـ، وفاوض وزير الخارجية البريطانية «بيفن» ورفض ذلك منه المصريون، فاستقال من الوزارة، وسافر إلى فرنسا، فمات في باريس عام ١٣٦٩هـ، ونقل إلى القاهرة.

(٢) محمد محمود سليمان بن عبد العال بن عثمان بن نصر بن حسب النبي، من بني سليم: ولد في بلدة ساحل سليم بأسيوط عام ١٢٩٤هـ، تعلّم بأسيوط والقاهرة وجامعة «أكسفورد» بإنكلترا، تسلّم مديراً للفيوم، ثم محافظاً للقناة، ثم مديراً للبحيرة. انشق عن الوفد بعد عودتهم إلى مصر، واختير وكيلاً ثم رئيساً لحزب «الأحرار الدستوريين». رأس الوزارة عام ١٣٤٦، وحلّ المجلس النيابي، وفاوض «هندرسون»، واستقال عام ١٣٤٧، وشارك في مفاوضات ١٣٥٥هـ ثم عاد لرئاسة الوزارة، وتوفي بالقاهرة عام ١٣٦٠هـ.

(٣) حمد الباسل: ابن محمود بن محمد الباسل: مغربي الأصل، مصري المولد والوفاة، كان عمدة لقبيلة «الرماح» بالفيوم، توفي بالقاهرة عام ١٣٥٩هـ، ودفن بالفيوم.

(٤) حسين رشدي: ولد في القاهرة عام ١٢٨٠، وتعلم فيها، وفي باريس، تولى وزارة العدل، واستلم رئاسة الوزارة أربع مراتٍ، وفي أولاها خلع عباس حلمي من الخديوية، وكان مع عدلي يكن في المفاوضات، وبعدها عين في مجلس الشيوخ، ثم رئيساً لذاك المجلس، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي في القاهرة عام ١٣٦٤هـ.

هدى شعراوي[1]، زوجة علي شعراوي، وصفيَّة بنت مصطفى فهمي[2] زوجة سعد زغلول، والغريب في هذه المظاهرة أن النساء خرجن يندّدن بالإنكليز فلست أدري لماذا انقلب غضبهن من مُعاداةِ للمحتلّ الدخيل إلى الحجاب حيث نزعت كل من هدى شعراوي، وصفية زغلول حجابها وأحرقته، وكذلك فعلت بعض النساء من أمثالهن؟ لا شكّ أنه كان وراء هذا التصرّف أيدٍ قذرةٍ تحرّك التظاهرات ضدَّ الإسلام عن طريق بعض النسوة بينهن، فلو كان الإنكليز هم الذين فرضوا الحجاب على النساء لكان التصرّف سليماً وطبيعياً ولكنه أمر ديني لا علاقة للإنكليز به، بل هذا التصرّف من الأمور الأساسية التي يعمل لها الإنكليز، وهذا يُؤيّدهم، ويسرّهم، ويُظهر الرضا عنهم، وعن سياستهم وأسلوبهم فهذا تقليد لهم.

بدأت الثورة بتظاهر كلية الحقوق يوم ٧ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٩ آذار ١٩١٩م) ثم انضم إليهم طلبة الهندسة والزراعة، والطب، والتجارة، وتصدّى الإنكليز للمظاهرات بالرصاص فوقع عدد من القتلى والجرحى.

وفي يوم ٩ جمادى الآخرة أي بعد يومين أضرب المحامون احتجاجاً على المقاومة العنيفة التي قامت بها السلطات ضد الطلاب.

وبعد ٤ أيام أخرى (١٣ جمادى الآخرة) أضرب عمال العنابر، وتتابع إضراب الفئات الأخرى، وإذا كانت المظاهرات قد بدأت سليمةً إلاّ أنها

---

(١) هدى شعراوي: ولدت في المنيا، مصر الوسطى، عام ١٢٩٦هـ، وكان أبوها محمد سلطان رئيس أول مجلس نيابي في مصر، ونشأت في القاهرة إذ انتقل أبوها إليها، وتزوّجت علي شعراوي أحد أعضاء الهيئة التشريعية، وقد خرجت في المظاهرة النسائية سافرةً، فهي أول امرأةٍ مسلمةٍ ترفع الحجاب في مصر. ومات زوجها عام ١٣٤٠هـ وترك لها ثروةً ضخمة كانت من أسباب بطرها، وألفت جميعة «الاتحاد النسائي» بمصر، وحضرت عدة مؤتمرات نسائيةٍ، وتوفيت بالقاهرة ١٣٦٧هـ.

(٢) سلّم الإنكليز مصطفى فهمي الوزارة ثلاث مرات ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١٢، واستمرت الأخيرة حتى عام ١٣٢٧هـ، وأقاله الخديوي عباس حلمي فغضب كرومر، وخالف الخديوي، وقد عرفت صفية بعد زواجها من سعد زغلول باسم «صفية زغلول» على العادة الأجنبية حيث تنسب المرأة لزوجها، وكذلك كان أمر سابقتها هدى شعراوي.

تحوّلت مع الأيّام، ومع تصرّف السلطان إلى قطع أسلاك الهاتف، وتعطيل المواصلات، والقيام ببعض أعمال التخريب.

وكانت مظاهرة النساء التي ألمحنا عنها يوم ١٤ جمادى الآخرة.

وأخيراً أضرب الموظفون جميعاً في ٢ رجب ١٣٣٧هـ (٢ نيسان ١٩١٩م)، وتركوا العمل، ووُزّعت المنشورات، واستمرّ إضراب الموظفين ثلاثةً وعشرين يوماً حيث أصدرت اللجنة العليا للموظفين منشوراً أعلنت فيه إنهاء الإضراب يوم ٢٥ رجب ١٣٣٧هـ (٢٥ نيسان ١٩١٩م)، ورافق ذلك كله موجة من الاغتيالات السياسية.

وأذيع يوم ٢٢ رجب اعتراف الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية البريطانية على مصر حتى استأنف الشعب المظاهرات.

وتتابعت الوزاوات بعضها يعقب بعضه فقد كُلّف محمد سعيد[1] بتشكيل الوزارة بعد استقالة حسين رشدي في ٢١ شعبان ١٣٣٧هـ (٢١ أيار ١٩١٩م)، غير أن محمد سعيد قد قدّم استقالة حكومته في ١٢ صفر ١٣٣٨هـ (٥ تشرين الثاني ١٩١٩م)، وخلفه يوسف وهبة[2] الذي استقال أيضاً يوم ٢ رمضان ١٣٣٨هـ (١٩ أيار ١٩٢٠م) وبعد ثلاثة أيامٍ شكّل الوزارة محمد توفيق نسيم[3].

كانت إنكلترا قد استدعت مندوبها السامي «ريجنالد وينغت» لتعرف

---

(١) محمد سعيد: ولد في الإسكندرية عام ١٢٧٩هـ، وأسس «العروة الوثقى» فيها، درس الحقوق بالقاهرة، وتسلّم وزارة الداخلية، وأسندت إليه رئاسة مجلس الوزراء عام ١٣٢٩هـ، فقاوم الحزب الوطني، وجارى السياسة الإنكليزية، واستقال ١٣٣٢هـ، ثم عاد إلى رئاسة مجلس الوزراء عام ١٣٣٧هـ فناصر الحركة الوطنية، واستقال، وأخيراً شغل منصب وزير المعارف في وزارة سعد زغلول، وتوفي بالقاهرة عام ١٣٤٧هـ.

(٢) يوسف وهبة: ولد عام ١٢٦٩هـ، قبطي الأصل، كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة، وتسلّم وزارة الخارجية عام ١٣٣١هـ، وأسندت إليه رئاسة مجلس الوزراء، وتوفي عام ١٣٥٣هـ.

(٣) محمد توفيق نسيم: محمد توفيق بن محمد نسيم بن حسن بن تحسين، تركي الأصل، مصري المولد والنشأة والوفاة، تخرج من مدرسة الحقوق، تولّى وزارات الأوقاف، والمالية، وتسلّم رئاسة مجلس الوزراء مرتين، وتوفي عام ١٣٥٧هـ.

أحوال مصر منه بشكلٍ دقيقٍ غير أن الواقع قد استدعته لتُنهي عمله، فغادر مصر في ١٩ ربيع الثاني عام ١٣٣٧هـ (٢١ كانون الثاني ١٩١٩م)، واندلعت الثورة وهو غائب عن البلاد، ولم يأتِ خلفه بعد، وجاء الجنرال «اللنبي» مندوباً سامياً، وقد جاء في البيان الرسمي الذي أُذيع من لندن يوم ١٩ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٢١ آذار ١٩١٩م) أنه (وُكِّل إليه أن يقوم بالسلطة العليا في جميع المسائل العسكرية والملكية، وأن يتخذ جميع الوسائل التي يرى ضرورتها ومُناسبتها حتى يُعيد القانون والنظام في هذه البلاد، وحتى يُدير جميع الشؤون إذا لزم الأمر ناظراً إلى ضرورة تأييد حماية جلالة الملك على القطر المصري على قاعدةٍ ثابتةٍ عادلةٍ).

وصل الجنرال «اللنبي» إلى القاهرة يوم ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٢٥ آذار ١٩١٩م) فجمع الأعيان وكبار مسؤولي الدولة وبيّن مهمّته وحدّد الأساس الذي يجب عمله:

١ ـ وضع حدٍّ للاضطرابات الحالية.

٢ ـ عمل تحرّياتٍ دقيقةٍ في جميع الأسباب التي حملت أهل البلاد على الشكوى.

٣ ـ إزالة كل الشكاوي التي تستوجب العدالة إزالتها.

أراد الجنرال «اللنبي» جعل المصريين يقبلون الحماية البريطانية لهم، لذا فقد أبدى شيئاً من اللين وأظهر التعاطف مع الشعب، وأبدى رغبته في التعرّف على مطالب المجتمع بكل صراحةٍ ووضوحٍ.

أرسل إلى إنكلترا يوم ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٣١ آذار ١٩١٩م) ينصح بإطلاق سراح المنفيين في مالطة، والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا لعرض مطالبهم، وإبداء آرائهم، فما كان من إنكلترا إلاّ أن وافقت على ذلك، وكانت قد انتهت من الاتفاقات مع الدول الثانية مثل فرنسا والولايات المتحدة وحلّت المشكلات الخاصة فيما بينها، وادّعت أنها قد منحت مندوبها كل الصلاحيات في التصرّف فهي تُوافقه على الخطة التي يُريد أن يسير عليها وتُسهّل له الطريق.

وفي ٧ رجب (٧ نيسان) أذاع «اللنبي» بلاغاً أعلن فيه أنه بالاتفاق مع صاحب العظمة السلطان فؤاد «لم يبق حجز على السفر، وأن جميع المصريين الذين يُريدون مُغادرة البلد لهم مُطلق الحرية، وأن المنفيين في مالطة قد أطلق سراحهم من الاعتقال، ولهم حقّ السفر كذلك» وما أن أُذيع هذا البلاغ حتى سارع بعض الشخصيات إلى تنظيم أنفسهم، وتشكيل وفدٍ للسفر إلى أوروبا مؤلفٍ من: علي شعراوي، سينوت حنا، جورج خياط، مصطفى النحاس، حافظ عفيفي، على أن ينضمّ إليهم في مالطة الذين كانوا منفيين فيها، سعد زغلول، إسماعيل صدقي، حمد الباسل، محمد محمود. وبدأ جمع التبرعات لهذا الغرض، فأبدى المواطنون أريحيةٍ طيّبة جداً، وتسابقوا في الدفع.

وفي ١١ رجب ١٣٣٧هـ (١١ نيسان ١٩١٩م) غادر الوفد البلاد، ووصل إلى باريس بعد ثمانية أيامٍ، وبدأ الاتصال بالمسؤولين في مؤتمر الصلح غير أن كل شيءٍ كان مُهيَّأً ضدّهم، وهو ما فعلته إنكلترا في المدة السابقة. وأرسل سعد زغلول إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية ـ صاحب مبدأ حقّ تقرير المصير ـ يطلب منه الإذن في مُقابلةٍ خاصةٍ للوفد المصري، فجاء الجواب بعدم الإمكانية، وأن الولايات المتحدة قد اعترفت بالحماية البريطانية على مصر يوم ١٩ رجب (١٩ نيسان) أي يوم وصول الوفد المصري إلى باريس.

وفي ٢٢ رجب أذاعت دار الحماية في القاهرة نص الكتاب الذي تلقّته من «هامبسون غاري» مُعتمد الولايات المتحدة بمصر ويقول فيه: «أتشرّف بإخباركم أن حكومتي قد كلّفتني أن أبلغكم أن الرئيس يعترف بالحماية البريطانية التي أعلنتها حكومة جلالة الملك على مصر في ١٨ كانون أول ١٩١٤م (١ صفر ١٣٣٣هـ)، مع مُوافقة الرئيس على هذا الاعتراف فإنه بالضرورة يحفظ لنفسه حق المناقشة في المستقبل في تفاصيل ذلك، وفي التعديلات التي قد تنتج عن هذا القرار فيما يمسّ حقوق الولايات المتحدة، وبهذه المناسبة فقد كُلّفت أن أقول: إن الرئيس والشعب الأمريكي يعطفان كل العطف على أماني الشعب المصري المشروعة لتوسعة نطاق الحكم الذاتي، على أنهما ينظران بعين الأسف إلى أيّ مجهود يُبذل لتحقيق ذلك باللجوء إلى القوّة والشدّة».

أعلنت شروط الصلح التي قرّرها الحلفاء، وسلّمت إلى الوفد الألماني في مؤتمر «فرساي» يوم ٧ شعبان ١٣٣٧هـ (٧ أيار ١٩١٩م)، وفيها ثمان مواد تتعلق بمصر، وأرقامها من ١٤٧ ـ ١٥٤، وتُلزم ألمانيا على الاعتراف بالحماية البريطانية، والتنازل عن الامتيازات في مصر، ونقل السلطات المخوّلة إلى تركيا «الدولة العثمانية» بموجب اتفاقية عام ١٨٨٨م عن حرية المرور في قناة السويس إلى بريطانيا.

وقرّرت إنكلترا ارسال لجنة «ملنر» للتحقيق في شأن الاضطرابات، واقتراح القانون الضروري للحكم الذاتي، وضمان المصالح الأجنبية في ظلّ الحماية البريطانية.

كان حسين رشدي قد عاد إلى رئاسة الوزارة في ٩ رجب ١٣٣٧هـ أي قبل سفر الوفد بيومين، ولكن هذه الوزارة لم تطل مدتها إذ قدّم رئيسها حسين رشدي استقالة حكومته في ١٩ شعبان ١٣٣٧هـ (١٩ أيار ١٩١٩م) أي لم تحكم سوى شهرٍ وعشرة أيام، وذلك لأن حسين رشدي قد شعر بالحرج أمام مطالب الضباط الذين أصرّوا أن تكون الحراسة من اختصاصهم في الميادين العامة، وكذلك شعر بالحرج أمام مطالب الموظفين الذي شكّلوا لجنةً مؤلّفةً من اثنين وثلاثين موظفاً تكون صلةً بين الحكومة والموظفين في موضوع الأمور السياسية التي تتعرّض لها البلاد.

وشكل الوزارة من جديد محمد سعيد في ٢١ شعبان، وكانت مُهمّتها إعادة الهدوء وعدم التدخّل بالأمور السياسية التي تتعلّق بمركز مصر، ووضعها الدولي. وقد نجحت هذه الحكومة نسبياً، إذ استطاعت تحويل قضايا المواطنين من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية إذ تمكّن رئيسها من إقناع السلطات البريطانية للموافقة على ذلك، وأفرج عن بعض المعتقلين السياسيين، وألغى الرقابة عن الصحف. واعترض محمد سعيد على مجيء لجنة «ملنر» قبل توقيع الصلح مع تركيا، كما نصح الجنرال «اللنبي» بعدم مجيء اللجنة قبل عدة شهور (قبل شهر أيلول) حتى تستطيع الحكومة أن تثبت أقدامها في الحكم.

وفي ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٧هـ (٢٢ أيلول ١٩١٩م) أعلن في إنكلترا

تشكيل لجنة من جميع الأحزاب البريطانية للسفر إلى مصر، والتحقيق في الاضطرابات التي حدثت، وكانت اللجنة برئاسة وزير المستعمرات (ألفريد ملنر).

وفي ١٥ صفر ١٣٣٨هـ (٨ تشرين الثاني ١٩١٩م) أعلنت دار الحماية البريطانية في مصر بلاغاً رسمياً ينبئ عن قرب وصول لجنة «ملنر» إلى البلاد، ويحدد مهمتها باقتراح النظام السياسي الذي يلائم مصر تحت الحماية. فرد الحزب الوطني بشعاره المعروف لا مفاوضة إلا بعد الجلاء، وأعلن الوفد تمسكه بالاستقلال التام.

وبعد إعلان هذا البلاغ زادت المظاهرات، وتأجّجت نار الثورة فقدم محمد سعيد استقالة حكومته في ٢٧ صفر ١٣٣٨هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩١٩م)، وشكّل الوزارة يوسف وهبة في ٢٨ صفر.

وصلت لجنة «ملنر» إلى مصر ١٦ ربيع الأول ١٣٣٨هـ (٨ كانون الأول ١٩١٩م)، وما أن حطّت رحالها في البلد حتى وجدت مُعارضةً شديدةً لها، وفي اليوم التالي لوصولها أصدرت لجنة الوفد المركزية بياناً إلى الشعب جاء فيه: لقد تمّ الإجماع على مقاطعة لجنة «اللورد ملنر» وتعود أسباب تلك المقاطعة إلى:

١ ـ إن المسألة المصرية مسألة دولية، وقبول المفاوضة مع لجنة «ملنر» يُفقدها هذه الصبغة، ويجعلها مسألةً داخليةً بين مصر وإنكلترا.

٢ ـ إن اللجنة تُريد المفاوضة على أساس الحماية، مع أن الشعب لم يقبل الحماية، بل رفضها رفضاً باتاً، وأعلن أنه لا يرضى إلاّ بالاستقلال التام.

٣ ـ إن كل استفتاءٍ سياسيٍ لا يجوز أن يكون في ظلّ الأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية. وإن إصرار إنكلترا على إرسال هذه اللجنة على الرغم من الإجماع الذي تجلّى في كثيرٍ من المظاهر، لا يُفيد إلاّ أن السياسة الحاضرة تُريد أن تستخدم كل ما لديها من الوسائل للتأثير في الإجماع الوطني.

واتّفقت كلمة الشعب على أن وفد مصر في باريس، هو صاحب الرأي

في المفاوضة، واتصل «ملنر» بكل من حسين رشدي، وعدلي يكن، وعبد الخالق ثروت فرفضوا المفاوضة، وطلبوا أن يتوجّه إلى الوفد للمحادثة، وإنما كتبوا إلى الوفد في باريس يقترحون عليه العودة إلى القاهرة للمفاوضة مع لجنة «ملنر»، ولكن الوفد رفض العودة إلا إذا كان الغرض منها الوصول إلى مُعاهدة تضمن استقلال مصر التّام. ولم يكن سعد يرفض المُفاوضة إذا حدثت في أوروبا. وقد أرسل الوفد محمد محمود مندوباً إلى الولايات المتحدة للعمل هناك للقضية المصرية.

سافرت لجنة «ملنر» من مصر في ٢٨ جمادى الآخرة عام ١٣٣٨هـ (١٨ آذار ١٩٢٠م) وعندما وصلت إلى لندن، أرسلت أحد أعضائها إلى باريس ليدعو الوفد للسفر إلى لندن للمفاوضة مع اللجنة.

سافر الوفد المصري إلى لندن في ١٩ رمضان ١٣٣٨هـ (٥ حزيران ١٩٢٠م)، وبعد يومين بدأت المفاوضة، وقدّم «ملنر» مشروعاً رفضه الوفد المصري، وقدّم سعد مشروعاً رفضته لجنة «ملنر»، وتوقّفت المفاوضات، وتوسط عدلي يكن في الأمر فأرجأ الوفد عودته، وتسلّم المذكرة الثانية من لجنة «ملنر» في ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (٥ آب ١٩٢٠م)، وبدأت المفاوضة من جديد، واستمر ذلك حتى ١ ذي الحجّة، واختلفت آراء الوفد، واقترح بعضهم عرض المشروع على الشعب، فأرسل الوفد أربعة أعضاء منه، وهم: محمد محمود، وعلي ماهر، وأحمد لطفي السيد، وعبد اللطيف المكباتي، وينضمّ إليهم في القاهرة حافظ عفيفي، ومصطفى النحاس، وويصا آصف لعرض المشروع على الشعب والعودة إلى لندن لاستئناف المفاوضة مع لجنة «ملنر». وقام أعضاء الوفد في القاهرة بالمُهمّة، وكان اتجاه أكثرية الشعب إلى قبول المشروع مع بعض التحفّظات التي تحدّ من تدخّل بريطانيا في شؤون مصر بعد عقد المعاهدة.

رجع سعد من لندن إلى باريس في ٢٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ، وتبعه في اليوم التالي بقية الأعضاء، وبعد يومين وصل عدلي يكن.

ورجع أعضاء الوفد من القاهرة إلى باريس، ودعا «ملنر» الوفد المصري إلى لندن فسافر عدلي يكن وتبعه سعد زغلول في ٨ صفر ١٣٣٩هـ (٢١ تشرين

الأول ١٩٢٠م)، وتبيّن من بداية المفاوضات أن «ملنر» يرفض رفضاً قاطعاً التحفُّظات التي وضعها الوفد المصري على المشروع، ويقول: إما أن يُؤخذ المشروع كما هو أو يُرفض، وهكذا تعثرت المفاوضات فترك الوفد المصري لندن ورجع إلى باريس في ٢٨ صفر عام ١٣٣٩هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م)، وفي باريس وقع الخلاف بين أعضاء الوفد المصري، إذ رأى أعضاء الوفد أن يتركوا عدلي يكن يُفاوض «ملنر»، ويُراقب الوفد المفاوضات غير أن سعداً قد رفض ذلك إذ عدّ نفسه أنه هو المُوكَّل من الأُمّة وحده وليس الوفد، وهو مسؤول أمام الأُمّة لا أمام غيرها ولا يحترم إلاّ إرادتها، ولن يخضع للأغلبية. وعاد أعضاء الوفد إلى مصر إلاّ سعداً.

رفع «ملنر» تقريراً إلى حكومته وأوصاها بالعدول عن سياسة الحماية، والعمل على مُعاهدةٍ يرضاها الطرفان، فيها تحقيق لأماني المصريين، ومصالح البريطانيين والأجانب كأن تحصل إنكلترا على إبقاء قوةٍ عسكريةٍ في مصر لحماية مواصلاتها، وتكون لها الرقابة على التشريع والإدارة الخاصة بالأجانب، وإبعاد السودان عن هذه التسوية وبعدئذٍ ترك شؤون مصر الداخلية بيد أبنائها، وهو ما يُعرف بالاستقلال المُقيّد.

وافقت الحكومة البريطانية على ترك نظام الحماية واستبداله بعبارة العلاقة بين مصر وإنكلترا، ورأت أن أعضاء الوفد يتفاوتون في خطة التسوية والمفاوضات، وقد أبلغت السلطان فؤاد في ١٧ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٢١م) رغبتها في تبادل الآراء حول اقتراحات «ملنر» مع وفدٍ يُعيّنه السلطان للوصول إن أمكن استبدال الحماية بمعاهدةٍ تضمن مصالح إنكلترا والأجانب وتُحقق أماني المصريين.

وفي ٦ رجب ١٣٣٩هـ (١٥ آذار ١٩٢١م) عُرضت الوزارة على عدلي يكن[١] فقبلها على أن يكون هدفه المباشر استئناف المفاوضات. شكّل عدلي

---

(١) عدلي يكن: عدلي بن إبراهيم يكن: ولد في القاهرة عام ١٢٨٠هـ، وتعلم في المدارس الأجنبية فيها، تسلّم وزارة الخارجية، والمعارف في عدة حكومات، ثم أسندت إليه رئاسة الوزارة ثلاث مرات، وذهب لمفاوضة إنكلترا وفشل، وهو من مؤسسي حزب الأحرار الدستوريين، توفي في باريس ١٣٥٢هـ، ونقل إلى القاهرة.

الوزارة وعرفت بوزارة الثقة، وذلك لأن سعداً كان يرى وهو في أوروبا تأليف وزارة ثقة تضع الدستور وتتولّى أمر المفاوضات. وقد جاء في بيان وزارة عدلي أن الحكومة ستعمل على وضع دستور للبلاد، وسيكون لممثلي الشعب كلمة الفصل في الاتفاق الذي سينتج عن المفاوضات التي تقوم بها الحكومة مع إنكلترا.

دعا عدلي يكن سعداً للاشتراك في المفاوضات، وكان سعد لا يزال في أوروبا، فأجاب بأنه سيحضر إلى مصر، وفعلاً فقد وصل إلى الإسكندرية في ٢٦ رجب ١٣٣٩هـ (٤ نيسان ١٩٢١م) وفي اليوم التالي وصل إلى القاهرة.

لم يلبث أن وقع الخلاف بين عدلي يكن وسعد زغلول، وذلك لأن سعداً يرى نفسه مُمثّلاً للأُمّة وقائماً بأمر الشعب، لذا يجب أن يكون هو رئيس الوفد المفاوض، ويجب أن يكون الوفد من أنصاره ومُؤيديه وكان من صفاته أنه عندما لا تكون المُهمّة مُلقاةً على عاتقه يظهر من أشدّ الوطنيين ومن أكثر المُخلصين بل من المُتطرّفين، ولكن عندما يكون على رأس مهمّةٍ يلين ويتنازل، ومن خالفه على كل حالٍ فهو خائن أثيم، ولو كانت المخالفة على أبسط الأمور، أما عدلي فكان يرى أن يكون الوفد رسمياً تتحمّل الحكومة أمره. غير أن الخلاف بين الرجلين قد ظهر من قبل وذلك أن سعداً تقدّم بشروطه عندما تسلّم بيان وزارة عدلي يكن، ولا يزال في أوروبا، وقد تضمّنت هذه الشروط.

١ ـ الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاءً تاماً صريحاً أي إلغاء الحماية التي فُرضت على مصر عندما قامت الحرب العالمية الأولى غرة صفر عام ١٣٣٣هـ (١٨ كانون الأول ١٩١٤م).

٢ ـ الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً تاماً ودولياً عاماً سواء في الداخل أم في الخارج مع إرادة الأمة التي أبدتها في التحفّظات التي قدّمها الوفد للجنة «ملنر».

٣ ـ إلغاء الأحكام العُرفية والرقابة على الصحافة قبل الدخول في المُفاوضات.

٤ ـ يجب أن تكون غالبية المفاوضين للوفد، ورئاسة المفاوضات من الوفد.

وليس أكثر من هذا تطرّف ومع ذلك فإن الخلاف إنما وقع حول الشرط الرابع إذ أن عدلي قد تمسّك بأن تكون له الرئاسة ما دام هو رئيس الحكومة، مستنداً إلى التقاليد السياسية التي لا تسمح بدخول رئيس حكومةٍ في هيئةٍ سياسيةٍ لا يكون فيها رئيساً، وهذا أمر طبيعي ومنطقي بل لا يصحّ أن يكون غيره. وكان عدلي أيضاً مُخطئاً إذ يظنّ أن الوفد بجانبه لأنهم هم الذين اقترحوا أن يكون عدلي هو المفاوض، وما دام عدلي قد خالف سعداً فإن الغضب قد وقع عليه ويجب أن يحمل أوزار كل ما وقع وما سيقع، وهو خائن عميل. وفعلاً فقد ألقى سعد خطاباً في «شبرا» يوم ١٧ شعبان عام ١٣٣٩هـ (٢٥ نيسان ١٩٢١م) أعلن فيه الخلاف، ووصف عدلي وإخوانه بأنهم برادع للإنكليز، وأنهم إذا ما تفاوضوا مع الإنكليز فإن ذلك لا يعني سوى أن جورج الخامس يُفاوض جورج الخامس.

واستمرّ الخلاف ما يقرب من شهرين ألقى خلالها سعد حمماً وقذائف من التُّهم والخيانات، وفي هذا الجو الحار من الخلاف سافر عدلي مع وفدٍ إلى لندن، واستغلّ الإنكليز هذا الوضع وتشدّدوا في مطالبهم وشروطهم، وفي ١٠ ربيع الأول ١٣٤٠هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٢١م) سلّم «كيرزون» الوفد المصري مشروع الحكومة البريطانية. فرأى الوفد أن هذا المشروع لا يُحقّق الغاية التي سافر من أجلها، لذا لا يصحّ أن يُتابع موضوع المفاوضة، وفشلت المباحثات وسبب ذلك يعود إلى إصرار إنكلترا على إبقاء حاميةٍ إنكليزيةٍ في مصر، وعدم الاتّفاق على تحديد الإشراف على شؤون مصر الخارجية. ومع ذلك فقد حدّد هذا المشروع علاقات إنكلترا مع مصر، واستمرّ ذلك مدة أربعة عشر عاماً. وقد أظهر «كيرزون» من قبل رفض المفاوضات مع سعدٍ، ولكنه يمكنه التفاوض مع حسين رشدي وعدلي يكن، غير أن حسين رشدي قد رفض ذلك كي لا يحدث الانقسام دخل الحركة الوطنية.

رجع عدلي إلى مصر في ١٩ ربيع الأول ١٣٤٠هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٢١م)، ومع هذا الفشل في المفاوضات مع المعتدلين في مصر كان على بريطانيا إما أن تستجيب لمصر ولكن تقف أمامها عقبة سعد الذي لا يرضى شيئاً إلاّ إذا كان صادراً عنه، ويستمع الشعب منه وينقاد له. أي أنها لا ترضى عن المفاوضات، فعندما تريدها تتفاوض مع سعد أو تطلب منه الموافقة، ولكن لا تريدها هي فلا يمكن أن يقبل سعد، وإما أن تجبر مصر على الخضوع والخنوع غير أن هذا له نتائجه إذ تخشى استمرار الحركات وتأجّج نار الثورة، إضافةً إلى أن مندوبها السامي في مصر وهو الجنرال «اللنبي» كان ضدّ هذه السياسة.

رأت إنكلترا أنه لا يوجد زعيم يدين له بقية رجالات مصر، وأن سعداً رغم ما هُيِّءَ له من فرص فلا تزال أمامه مُعارضة، فالأولى أن تفسح له مجالات أخرى كي يبذّ الآخرين، وأفضل هذه المجالات النفي الذي يجعل الشعب يرتبط به، ويُطالب به، وفي الوقت نفسه يكون قد ضعُف خصومه، وبدا أنهم يتساهلون مع المحتلّ، كما يمكن مرحلياً أن تتمّ المُفاوضة معهم، وعلى هذا جرت السياسة الإنكليزية في هذه المرحلة.

جرى اتفاق بين المعتمد البريطاني في القاهرة وبين عبد الخالق ثروت، وعدلي يكن، وإسماعيل صدقي وذلك في ١٤ جمادى الأولى ١٣٤٠هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٢٢م)، وقد نص الاتفاق على تأليف وزارةٍ برئاسة عبد الخالق ثروت شريطة موافقة الحكومة البريطانية على النقاط الآتية: إلغاء الحماية، والاعتراف بمصر دولةً مستقلةً ذات سيادةٍ، وإعادة وزارة الخارجية، وإنشاء مجلس نيابيٍ، وتأليف حكومةٍ دستوريةٍ، وإلغاء الأحكام العسكرية، وأن أربع نقاط فقط للتسوية وهي: تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية، الدفاع عن مصر ضد كلّ اعتداءٍ أو تدخُّلٍ أجنبي بصفةٍ مباشرةٍ، وحماية المصالح الأجنبية والأقلّيات، السودان.

طلب الجنرال «اللنبي» من حكومته اعتماد هذا الاتفاق، وبعد عدة اتصالات وافقت الحكومة البريطانية على هذا المشروع ولكن أدخلت عليه

بعض التعديلات منها جعل الهيئة التشريعية بيد مجلسين: مجلس للنواب ينتخبه الشعب، ومجلس للشيوخ يعينه الملك، وبهذا أصبح الملك ذا نفوذٍ وقوةٍ يستطيع أن يضغط بها.

وقد ضمّ المشروع المعدّل وثيقتين مُهمتين: أولاهما تصريح ٢ رجب ١٣٤٠هـ (٢٨ شباط ١٩٢٢م) وينصّ على إنهاء الحماية عن مصر مع أربعة تحفّظاتٍ، وثانيهما كتاب مفصل عن السلطان.

وقد جاء في التصريح: بما أن حكومة جلالة الملك عملاً بنواياها التي جاهرت بها ترغب في الحال بالاعتراف بمصر دولةً مستقلةً ذات سيادةٍ، وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر أهمية جوهرية للإمبراطورية البريطانية فبموجب هذا تُعلن المبادئ الآتية:

١ ـ انتهاء الحماية البريطانية عن مصر، وتُصبح مصر دولةً مستقلةً ذات سيادةٍ.

٢ ـ حالما تُصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (إقرار الإجراءات العسكرية التي اتّخذت باسم السلطات العسكرية) نافذ المفعول على جميع ساكني مصر، تُلغى الأحكام العرفية التي أعلنت في ٢ تشرين الثاني ١٩١٤م (١٤ ذي الحجة ١٣٣٢هـ).

٣ ـ إلى أن يحين الوقت الذي يتسنّى فيه إبرام اتفاقاتٍ بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلّق بالأمور الآتي بيانها وذلك بمفاوضاتٍ ودّيةٍ غير مقيّدةٍ بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورةٍ مُطلقةٍ بتولّي هذه الأمور وهي:

أ ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.

ب ـ الدفاع عن مصر من كل اعتداءٍ أو تدخُّلٍ أجنبيٍ بالذات أو بالواسطة.

ج ـ حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.

د ـ السودان.

أما السلطان أحمد فؤاد[1] فقد أصبح ملكاً على مصر.

❁ ❁ ❁

(١) ولد أحمد فؤاد ١٢٨٦هـ، وكان مع أبيه عندما نفي إلى إيطاليا عام ١٢٨٨هـ، ولم يزد عمره على السنتين يومذاك، وتعلّم هناك الإيطالية، كما تعلّم الفرنسية، ودخل الجيش الإيطالي ثلاث سنوات، ورجع إلى مصر، وعيّنه ابن أخيه عبّاس حلمي كبيراً لحاشيته، وأعطاه رتبة لواء بالجيش، وعندما مات السلطان حسين كامل أثناء الحرب الأولى بتاريخ ٢٣ ذي الحجة عام ١٣٣٥هـ (٩ تشرين الأول ١٩١٧م) ورفض ابنه كمال الدين حسين العرش، رُشح أحمد فؤاد، وكان قد اختاره لذلك أخوه الأكبر حسين كامل عندما رفض ابنه، وأعلنت إنكلترا أنها هي التي رشحته فكان بيانه الأول اعترافه بجميلها إذ أعلن أن على مصر أن تدفع ثلاثة ملايين ونصف جنيه إلى إنكلترا للأغراض العسكرية.

الفَصْل الأوّل
المَلكيّة أو الاستِقلال المقيَّد

بعد تصريح ٢ رجب ١٣٤٠هـ (٢٨ شباط ١٩٢٢م) أصبحت مصر دولةً مستقلةً ذات سيادةٍ، ولكنها مُقيَّدة بشروطٍ. وشكّل الوزارة عبد الخالق ثروت[١] بناءً على الاتفاق الذي سبق مع الجنرال «اللنبي». وفي الوقت نفسه نُفي سعد زغلول إلى عدن، فجزيرة سيشل تمهيداً لظهوره بشكلٍ أفضل، وكانت حُجَّة نفيه أنه قام بجولةٍ في الوجه القبلي يُؤلِّب فيها الشعب على حكومة عدلي، وحاولت السلطة منعه فحدثت اشتباكات بين الشعب والشرطة، فأصدرت أمراً بكفّه عن النشاط وعدم مواصلة رحلته فأبى فحدَّدت إقامته ثم قامت بنفيه، وصدر كذلك الأمر إلى كل من فتح الله بركات، وعاطف بركات، ومصطفى

---

(١) عبد الخالق بن إسماعيل ثروت: ولد بالقاهرة عام ١٢٩٠هـ، وتعلم الحقوق فيها. وعهد إليه بوزارة العدل في عدة وزارات، وأصبح رئيساً للوزراء بعد الاستقلال. وكذلك شكّل وزارة ثانية بعد وزارته الأولى بأربع سنوات. وتوفي في باريس عام ١٣٤٧هـ، ونقل إلى القاهرة.

وكانت وزارة عبد الخالق ثروت على النحو الآتي في ٣ رجب ١٣٤٠هـ (١ آذار ١٩٢٢م).

١ ـ عبد الخالق ثروت: رئيساً للوزراء.
٢ ـ إسماعيل صدقي: وزيراً للمالية.
٣ ـ إبراهيم فتحي: وزيراً للحربية والبحرية.
٤ ـ جعفر ولي: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ مصطفى ماهر: وزيراً للمعارف العمومية.
٦ ـ محمد شكري: وزيراً للزراعة.
٧ ـ مصطفى فتحي: وزيراً للحقانية.
٨ ـ حسين واصف: وزيراً للأشغال العمومية.
٩ ـ واصف سميكة: وزيراً للمواصلات.

النحاس، وجعفر فخري، وأمين عز العرب، وصادق حنين، ومكرم عبيد، وسينوت حنا، ولكنهم رفضوا الأوامر أيضاً، فقرّرت الحكومة نفي سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وسينوت حنا إلى سيشل يوم ٢ رجب ١٣٤٠هـ (٢٨ شباط ١٩٢٢م) بعد أن كانت السلطة قد نفتهم إلى عدن، ومعهم فتح الله بركات، وعاطف بركات في ربيع الثاني ١٣٤٠هـ (كانون الأول ١٩٢١م).

وزارة عبد الخالق ثروت:

وفي ١٧ رجب ١٣٤٠هـ، أعلن الملك فؤاد استقلال البلاد، واتّخذ لقب ملك مصر، وعهد إلى رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت اتّخاذ الإجراءات لوضع دستور البلاد.

وفي ٩ شعبان ١٣٤٠هـ ألّفت الوزارة لجنةً لوضع الدستور، وقد ضمّت ثلاثين عضواً، وقد رفض كل من الحزب الوطني، وحزب الوفد الاشتراك فيها بحُجَّة أنها معيّنة، ويجب أن تكون مُنتخبةً، وقد بدأ سعد كعادته بالهجوم عليها فأطلق عليها «لجنة الأشقياء» وكانت هذه اللجنة نواةً لحزب الأحرار الدستوريين.

وفي ١٣ محرم ١٣٤١هـ (٤ أيلول ١٩٢٢م) نقل سعد زغلول ومن معه إلى جبل طارق، وبقي في منفاه حتى ٣ شعبان ١٣٤١هـ (٢٠ آذار ١٩٢٣م) أي سبعة أشهر ونصف.

وزارة محمد توفيق نسيم[1]:

كان عبد الخالق ثروت قد قدّم استقالة حكومته، ١٠ ربيع الثاني ١٣٤١هـ

---

(١) كانت وزارة محمد توفيق نسيم قد شكلت على النحو الآتي:
١ ـ محمد توفيق نسيم: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ إسماعيل سري: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ أحمد ذو الفقار: وزيراً للحقانية.
٤ ـ يحيى إبراهيم: وزيراً للمعارف العمومية. =

(٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٢م) وعُهد إلى محمد توفيق نسيم بتشكيل وزارة جديدة فألّفها، ولم يطُل عهدها إذ استقالت بعد شهرين، وبعد أن حذفت النصوص الخاصة بالسودان من مشروع الدستور.

وزارة يحيى إبراهيم:

عُهد إلى يحيى إبراهيم[1] بتشكيل الوزارة وبقيت مصر أكثر من شهر دون وزارة وفي عهده صدر الدستور في ٤ رمضان ١٣٤١هـ (١٩ نيسان ١٩٢٣م)، ووصل سعد زغلول إلى البلاد بعد الإفراج عنه، وأصبح زعيماً لا منافس له، واطمأن الإنكليز إلى نهاية الصراع مع المصريين، ومرّ سعد على فرنسا مع

= ٥ ـ محمد توفيق رفعت: وزيراً للمواصلات.
٦ ـ محمود فخري: وزيراً للخارجية.
٧ ـ يوسف سليمان: وزيراً للمالية.
٨ ـ أحمد علي: وزيراً للزراعة.
٩ ـ محمد إبراهيم: وزيراً للأوقاف.
١٠ ـ محمود عزمي: وزيراً للحربية والبحرية.

(١) يحيى إبراهيم: ولد عام ١٢٨٧هـ في بلدة «بهبشين» من قرى بني سويف، وتعلم بمدرسة الأقباط الكبرى في القاهرة، ودرس الحقوق، ودرّسها، وعمل رئيساً لمحكمة الاستئناف، وعمل وزيراً للمعارف ثم استلم رئاسة الوزراء، كما تسلّم منصب وزير المالية في وزارة أحمد زيور، وأسّس حزب الاتحاد، وأخيراً كان من أعضاء مجلس الشيوخ حتى توفي عام ١٣٥٥هـ.
ألف يحيى إبراهيم وزارته بعد أكثر من شهر من استقالة وزارة توفيق نسيم وكانت وزارته على النحو الآتي:
١ ـ يحيى إبراهيم: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ أحمد حشمت: وزيراً للخارجية.
٣ ـ محمد محب: وزيراً للمالية.
٤ ـ أحمد زيور: وزيراً للمواصلات.
٥ ـ أحمد ذو الفقار: وزيراً للحقانية.
٦ ـ محمد توفيق رفعت: وزيراً للمعارف العمومية.
٧ ـ أحمد علي: وزيراً للزراعة.
٨ ـ محمود عزمي: وزيراً للحربية والبحرية.
٩ ـ حسن حافظ: وزيراً للأوقاف.
١٠ ـ فوزي جرجي المطيعي: وزيراً للأشغال العمومية.

زملائه بعد الإفراج عنهم، ومنها عادوا إلى مصر. وقد منح الدستور صلاحياتٍ واسعةٍ للملك ومنها:

١ ـ حقّ حلّ المجلس النيابي.

٢ ـ حقّ تأجيل انعقاد المجلس النيابي.

٣ ـ إصدار مراسيم تشريعية في حالة غياب المجلس.

٤ ـ تعيين الوزراء وإقالتهم.

٥ ـ تعيين خُمس أعضاء مجلس الشيوخ. أما الباقون فيُنتخبون من قبل الأشخاص الذين لا يقلّ دخلهم عن ١٥٠٠ جنيه من المشتغلين بالأعمال المالية أو التجارية أو الصناعية والمُلّاك الذين يؤدون ضريبةً لا تقلّ عن ١٥٠٠ جنيه في العام.

وزارة سعد زغلول:

وجرت الانتخابات النيابية، واجتمع أوّل مجلسٍ نيابي بتاريخ ١٥ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ (٢٢ كانون الثاني ١٩٢٢م)، وأحرز حزب الوفد نجاحاً كبيراً، وقدّم يحيى إبراهيم استقالة حكومته، وكُلّف سعد زغلول بتأليف حكومة جديدة[1]، وقد تمّ تشكيل الحكومة في ٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ (٢٨ كانون الثاني ١٩٢٤م) وهي أوّل وزارةٍ انتخابيةٍ. وقد استخدمت أحط الوسائل

---

(١) كانت وزارة سعد زغلول على النحو الآتي:
١ ـ سعد زغلول: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ محمد سعيد: وزيراً للمعارف العمومية.
٣ ـ محمد توفيق نسيم: وزيراً للمالية.
٤ ـ أحمد مظلوم: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ حسن حسيب: وزيراً للحربية والبحرية.
٦ ـ محمد فتح الله بركات: وزيراً للزراعة.
٧ ـ مرقص حنا: وزيراً للأشغال العامة.
٨ ـ مصطفى النحاس: وزيراً للمواصلات.
٩ ـ واصف بطرس غالي: وزيراً للخارجية.
١٠ ـ محمد نجيب غرابلي: وزيراً للحقانية (العدل).

للحصول على الأكثرية في مجلس النواب، وكانت هذه الطريقة ـ مع الأسف ـ سلوك الأحزاب كلها.

وفي ١٠ ذي الحجة عام ١٣٤٢هـ (١٢ تموز ١٩٢٤م) سافر سعد زغلول إلى لندن للمفاوضة مع رئيس وزراء إنكلترا «رامزي مكدونالد» رئيس حزب العمال، وكان قد زار مصر قبل ثلاث سنوات وقال لسعد يومذاك: سنحلّ معاً القضية المصرية قبل أن ننتهي من شرب فنجان القهوة، وفي التجربة عندما أصبح جدياً تعثّرت المفاوضات، ورجع سعد إلى مصر بعد غياب ما يزيد على ثلاثة أشهر.

وفي ٢٢ ذي الحجة عدّل سعد وزارته وهو غائب في لندن فعيّن أحمد زيور وزيراً دون وزارة.

ولما رجع سعد من لندن إثر فشل المفاوضات عيّن الملك أحمد فؤاد وكيلاً للديوان الملكي فؤاد حسن نشأت دون إقرار الوزارة لذلك التعيين، وثار سعد لتصرّف الملك وقدّم استقالته وأصرّ عليها، وعلى أن لا يعود للوزارة إلا إذا سلّم الملك ورضي أن يكون فقط حاكماً دستورياً للبلاد، وانتهت الأزمة، ورضخ الملك فتراجع سعد عن استقالته، وكسب الجولة.

محاولة اغتيال سعد زغلول:

وعندما أراد سعد زغلول أن يركب القطار بمحطة القاهرة للسفر إلى لندن لإجراء المفاوضات أطلق عليه شاب من الحزب الوطني، ويُدعى عبد اللطيف عبد الخالق الدلبشاني النار من مسدسٍ فأُصيب في يده وتجلّد وتابع السفر بعد أن ضمدت جراحه، وحاول رجال حزب الوفد اتهام الحزب الوطني بتدبير المؤامرة، وتوجّهت الأنظار نحو عبد العزيز جاويش، ولم يثبت شيء، وحكم على الشاب بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

مقتل حاكم عام السودان:

واتّجهت أنظار بعض الفدائيين لقتل أمين سر «سكرتير» عام حكومة السودان الذي كان يقيم بميدان توفيق غير أنه في ذلك الوقت قد وصل إلى

مصر حاكم عام السودان والذي كان في الوقت نفسه سردار الجيش المصري وهو «سيرلي ستاك» فتحولت الأنظار إليه، وبدأت مراقبته، وكان يزور وزارة الحربية يومياً، وتقرّر إطلاق النار عليه عند تقاطع شارع القصر العيني مع أحد الشوارع حيث يضطر سائق سيارته لتهدئة السرعة، وتمت الخطة وقتل حاكم عام السودان، وثارت ثائرة إنكلترا، وأعلنت عن مطالبها بدفع مصر غرامةً قدرها نصف مليون جنيه، وسحب الجيش المصري من السودان، والقبض على المجرمين ومعاقبتهم أشدّ عقوبة، واعتذار حكومة مصر عن الجريمة. وكان ذلك يوم ٢١ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٢٤م)، وبعد أربعة أيام انطلق المندوب السامي الإنكليزي الجنرال «اللنبي» مع عدد كبير من العسكريين بما يُشبه المظاهرة إلى رئاسة مجلس الوزراء، ووجّه إنذاره إلى سعد زغلول رئيس الوزراء وعاد. ورغم أن سعداً قد وافق على دفع الغرامة، والاعتذار، والقبض على المجرمين إلا أن السلطات البريطانية لم تقنع بذلك، واحتلت جمارك الإسكندرية، واضطرت حكومة سعد إلى الاستقالة بتاريخ ٢٧ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ.

وزارة أحمد زيور[١]:

بعد تقديم سعد زغلول استقالة حكومته عهد إلى أحمد زيور بتأليف حكومةٍ جديدةٍ فألفها في اليوم نفسه[٢]. ونفّذت هذه الحكومة كل ما تريده

---

(١) أحمد زيور: ولد في الإسكندرية عام ١٢٨٢هـ من أبٍ قوقازي، وتعلم في مدرسة فرنسية بالإسكندرية، ثم في كلية «الجيزويت» في لبنان ـ بيروت حيث حصل على إجازة في الحقوق. وتقلّب في وظائف النيابة العامة والقضاء ورئاسة المحاكم، ثم اختير محامياً عاماً، ثم مستشاراً لمحكمة الاستئناف، ثم محافظاً للإسكندرية، وعُين وزيراً للأوقاف في وزارة حسين رشدي، وللمعارف في وزارة محمد سعيد، وللمواصلات في وزارات محمد سعيد، ويوسف وهبة، ومحمد توفيق نسيم، وعدلي يكن، ثم عين وزيراً مفوضاً في روما، ثم اختير وزيراً للمواصلات في وزارة يحيى إبراهيم، ثم رئيساً لمجلس الشيوخ، فوزيراً دون وزارة في حكومة سعد، وتسلم رئاسة الوزارة وعمره ستون سنة، وكان يجيد الإنكليزية والفرنسية، والإيطالية والتركية إلى جانب العربية.

(٢) كانت وزارة أحمد زيور على الشكل الآتي:
١ ـ أحمد زيور: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والخارجية. =

إنكلترا فقد دفعت التعويض المالي، وسحبت الجيش المصري من السودان، واعتذرت من إنكلترا عما ارتكبه الجناة، وعبأت جهودها وكل أجهزتها السرية للبحث عن قتلة حاكم السودان، وجعلت عشرة آلاف جنيه لكل من يدل عليهم.

أعطي المجلس النيابي إجازةً لمدة شهر، ثم صدر قرار بحله بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٢٤م) وحُدِّد موعد ١١ شعبان ١٣٤٣هـ لإجراء الانتخابات، وتمت عملية الانتخابات وفاز حزب الوفد على الأحزاب الأخرى المنافسة له، وكانت الحكومة قد عدّلت قانون الانتخابات، وجعلته على درجتين بعد أن كان على درجةٍ واحدةٍ وفي ١٨ شعبان قدّم أحمد زيور استقالة حكومته، ولكنه كُلّف في اليوم نفسه بتشكيل حكومةٍ من الاتحاديين، والأحرار الدستوريين والمستقلين[١].

= ٢ ـ أحمد خشبة: وزيراً للمعارف، ووزيراً للحقانية بالوكالة. (استقال بعد أسبوع لأنه وفدي).
٣ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية. (استقال بعد أسبوع لأنه وفدي).
٤ ـ محمد سيد أبو علي: وزيراً للزراعة.
٥ ـ محمد صدقي: وزيراً للأوقاف.
٦ ـ يوسف قطاوي: وزيراً للمالية، وهو يهودي.
٧ ـ نخلة جورجي المطيعي: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ محمد صادق يحيى: وزيراً للحربية والبحرية.
٩ ـ أحمد موسى: وزيراً للعدل (الحقانية).
١٠ ـ إسماعيل صدقي: عُين بعد أسبوعين وزيراً للداخلية.
١١ ـ محمد توفيق رفعت: دخل الوزارة بعد استقالة العضوين الوفديين.
١٢ ـ محمود صدقي: دخل الوزارة بعد استقالة العضوين الوفديين.

(١) شكل أحمد زيور وزارته المعدلة على النحو الآتي:
أولاً: المستقلون.
١ ـ أحمد زيور: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ ـ إسماعيل صدقي: وزيراً للداخلية. يتعاطف مع الأحرار الدستوريين.
٣ ـ إسماعيل سري: وزيراً للأشغال العمومية.
٤ ـ يوسف قطاوي: وزيراً للمواصلات. وهو يهودي.
ثانياً: الأحرار الدستوريين:
٥ ـ عبد العزيز فهمي: وزيراً للعدل. رئيس الحزب.
٦ ـ محمد علي علوبة: وزيراً للأوقاف. =

اجتمع المجلس النيابي في ٢٨ شعبان، وجرى اقتراح على رئاسة المجلس ففاز سعد زغلول بأغلبية ١٢٣ صوتاً ضد ٨٥ صوتاً نالها عبد الخالق ثروت الذي رشحته الأحزاب الأخرى. وحُدّد موعد لحلّ المجلس بعد شهرين أي في أول شهر ذي القعدة من العام نفسه على أن تجري الانتخابات بعد يومين من ذلك التاريخ إلا أنها لم تجر إلاّ بعد سنةٍ كاملةٍ.

وجرت الانتخابات النيابية في ١١ ذي القعدة ١٣٤٤هـ (٢٢ أيار ١٩٢٦م)، ولم يحصل فيها حزب الاتحاد إلا على أربعة مقاعد من أصل ٢٣٥ مقعداً، على حين حصل حزب الوفد على ١٥٩ مقعداً، وحصلت بقية الأحزاب والمستقلون على ٧٢ مقعداً.

وزارة عدلي يكن الثانية:

وقدّم أحمد زيور استقالة حكومته الثانية في ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ. وعهد الملك إلى رئيس حزب الأحرار الدستوريين عدلي يكن[1] بتأليف حكومةٍ، فشكّل وزارة ائتلافية[2] من حزبه وحزب الوفد على حين تسلم سعد زغلول رئاسة المجلس النيابي.

= ٧ ـ توفيق دوس: وزيراً للزراعة. كان وفدياً.

ثالثاً: الاتحاديون:

٨ ـ يحيى إبراهيم: وزيراً للمالية. رئيس الحزب.

٩ ـ علي ماهر: وزيراً للمعارف العمومية.

١٠ ـ اللواء فؤاد موسى: وزيراً للحربية والبحرية. نائب رئيس الحزب. استقال يوسف قطاوي بعد مدةٍ وحلّ مكانه حلمي عيسى من حزب الاتحاد.

(١) عدلي بن خليل بن إبراهيم يكن: ولد بالقاهرة عام ١٢٨٠هـ، درس مبادئ العلوم في استانبول، ثم رجع إلى القاهرة فتعلّم في مدارس الإرساليات التنصيرية، ثم التحق بوظائف الدولة وترقى فيها، وتسلّم منصب وزارة الخارجية، فالمعارف، فالداخلية، وشكّل ثلاث حكومات، وهو من مؤسسي حزب الأحرار الدستوريين، توفي في باريس عام ١٣٥٢هـ، ونقل جثمانه إلى القاهرة.

(٢) كانت هذه هي الوزارة الثانية لعدلي يكن إذ شكل وزارة قبل هذا العهد، وتألفت على النحو الآتي:

١ ـ عدلي يكن: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.

٢ ـ عبد الخالق ثروت: وزيراً للخارجية.

٣ ـ محمد فتح الله بركات: وزيراً للزراعة. =

وزارة عبد الخالق ثروت:

شكّل عبد الخالق ثروت وزارته[1] في ٢٤ شوال ١٣٤٥هـ (٢٦ نيسان ١٩٢٧م)، في اليوم نفسه الذي استقالت فيه حكومة سلفه عدلي يكن. وجرت المفاوضات بينه وبين «تشمبرلن»، وقد تعثرت المفاوضات، وفشلت، ورفض الشعب مشروع المعاهدة الذي قدّم.

وتوفي سعد زغلول في هذه الآونة بتاريخ ٢٥ صفر ١٣٤٦هـ (٢٣ آب ١٩٢٧م)، وأصبح مصطفى النحاس بعد ذلك زعيم حزب الوفد.

واستقالت الحكومة في ١٣ رمضان ١٣٤٦هـ (٤ آذار ١٩٢٨م).

وزارة مصطفى النحاس[2] الأولى:

كان لموت سعد زغلول أثر في مصر، الأمر الذي رفع أسهم خليفته فلما

= ٤ ـ محمد نجيب الغرابلي: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للبحرية والحربية.
٦ ـ محمد محمود: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ أحمد أبو السعود: وزيراً للحقانية.
٨ ـ مرقص حنا: وزيراً للمالية.
٩ ـ علي الشمسي: وزيراً للمعارف العمومية.
١٠ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ عبد الخالق ثروت: رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للداخلية.
٢ ـ جعفر ولي: وزيراً للحربية والبحرية.
٣ ـ أحمد زكي أبو السعود: وزيراً للحقانية.
٤ ـ محمد فتح الله بركات: وزيراً للزراعة.
٥ ـ مرقص حنا: وزيراً للخارجية.
٦ ـ محمد نجيب الغرابلي: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ علي الشمسي: وزيراً للمعارف العمومية.
٨ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للمواصلات.
٩ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
١٠ ـ محمد محمود: وزيراً للمالية.

(٢) مصطفى النحاس: ولد في «سمنود» عام ١٢٩٦هـ وتعلم بالقاهرة، وأجيز بالحقوق عام ١٣١٨هـ، وعمل محامياً بالمنصورة، وعين قاضياً بالمحاكم الأهلية، وفصل من عمله، واعتقل مع سعد زغلول، وتولى وزارة المواصلات، ثم رئاسة الوزارة خمس مرات ورئاسة المجلس النيابي، وتوفي بالقاهرة عام ١٣٨٥هـ. =

استقال عبد الخالق ثروت كلّف مصطفى النحاس بتشكيل وزارةٍ ائتلافيةٍ، ولكن لم يلبث أن تصدّع الائتلاف، فأُقيلت حكومة مصطفى النحاس بتاريخ ٧ محرم ١٣٤٧هـ (٢٥ حزيران ١٩٢٨م).

وزارة محمد محمود[١]:

كلّف محمد محمود بتشكيل الوزارة الذي أصبح رئيس حزب الأحرار الدستوريين بعد استقالة رئيسه الثاني عبد العزيز فهمي، وتمّ تأليف الوزارة في ٧ محرم ١٣٤٧هـ، وقد روّجت هذه الحكومة للمفاوضات مع إنكلترا كثيراً، وتمت المفاوضات مع «هندرسون» ولكن الشعب قد رفض أيضاً التصديق على

= تشكلت وزارة مصطفى النحاس الأولى في ٢٦ رمضان ١٣٤٦هـ (١٧ آذار ١٩٢٨م)، وكانت ائتلافية من حزبي الوفد والأحرار الدستوريين، وتشكّلت على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزارة، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ جعفر ولي: وزيراً للحربية والبحرية.
٣ ـ واصف بطرس غالي: وزيراً للخارجية.
٤ ـ محمد نجيب الغرابلي: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ علي الشمسي: وزيراً للمعارف العمومية.
٦ ـ أحمد خشبة: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ محمد محمود: وزيراً للمالية.
٨ ـ محمد صفوت: وزيراً للزراعة.
٩ ـ إبراهيم فهمي كريم: وزيراً للأشغال العمومية.
١٠ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمواصلات.

(١) شكل محمد محمود وزارته على النحو الآتي:
١ ـ محمد محمود: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ جعفر ولي: وزيراً للحربية والبحرية، ووزيراً للأوقاف بالوكالة.
٣ ـ عبد الحميد سليمان: وزيراً للمواصلات.
٤ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للحقانية.
٥ ـ نخلة المطيعي: وزيراً للزراعة.
٦ ـ علي ماهر: وزيراً للمالية.
٧ ـ إبراهيم فهمي كريم: وزيراً للأشغال العمومية.
٨ ـ حافظ عفيفي: وزيراً للخارجية.
٩ ـ أحمد لطفي السيد: وزيراً للمعارف العمومية.

مشروع المعاهدة، وأخيراً قدّم استقالته بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ (٢ تشرين الأول ١٩٢٩م)، وقد حلّت هذه الوزارة المجلس النيابي، وعطلّت الدستور، وبقي معطلاً ثلاث سنوات.

وزارة عدلي يكن الثالثة:

بعد أن قدّم محمد محمود استقالة حكومته كُلّف عدلي يكن[1] بتأليف حكومة مهمتها الإشراف على الانتخابات، وقد أصبح عدلي يكن مُستقلاً بعد تركه رئاسة حزب الأحرار الدستوريين الذي أسسه وكان أول رئيسٍ له.

أجريت الانتخابات، وأسفرت عن فوزٍ كبيرٍ لحزب الوفد، وعادت الحياة النيابية إلى البلاد، بعد أن تعطلّت مدةً ليست بالقصيرة، وقدّم عدلي يكن استقالته بعد أن أدّت مُهمّتها بتاريخ ٣٠ رجب ١٣٤٨هـ (٣١ كانون الأول ١٩٢٩م).

وزارة مصطفى النحاس[2] الثانية:

عُهد إلى زعيم الحزب الذي فاز بالانتخابات بالأكثرية بتشكيل الوزارة،

---

(١) ألف عدلي يكن وزارته على النحو الآتي:
١ ـ عدلي يكن: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ أحمد مدحت سليم: وزيراً للخارجية.
٣ ـ عبد الرحيم صبري: وزيراً للمواصلات.
٤ ـ حسين درويش: وزيراً للحقانية.
٥ ـ مصطفى ماهر: وزيراً للمالية.
٦ ـ حسين واصف: وزيراً للأشغال العمومية.
٧ ـ واصف سميكة: وزيراً للزراعة.
٨ ـ أحمد علي: وزيراً للأوقاف.
٩ ـ حافظ حسن: وزيراً للمعارف العمومية.
١٠ ـ محمد أفلاطون: وزيراً للحربية والبحرية.

(٢) ألف مصطفى النحاس وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزارة، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ واصف بطرس غالي: وزيراً للخارجية.
٣ ـ محمد نجيب الغرابلي: وزيراً للحقانية.
٤ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية. =

فشكّل الوزارة، ومنحه المجلس النيابي تفويضاً لإجراء المفاوضات مع بريطانيا، وأجريت المفاوضات، ولكنها تعثرت بسبب المادة المتعلقة بالسودان، فقطعت من الطرفين، وعاد مصطفى النحاس إلى البلاد، وقامت العراقيل في وجه حكومته مما اضطره إلى الاستقالة في ٢١ محرم ١٣٤٩هـ (١٧ حزيران ١٩٣٠م).

وزارة إسماعيل صدقي[(١)]:

عيّن الملك إسماعيل صبري رئيساً للوزارة فبدأ بالقيام بالأمور التي تجعله سيداً مستبداً من غير أن يُحاسبه أحد، فأجل انعقاد المجلس النيابي شهراً، فضّ الدورة النيابية، ثم صدر الأمر الملكي بإلغاء دستور عام (١٩٢٣م) وذلك بتاريخ ٣٠ جمادى الأولى عام ١٣٤٩هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٣٠م)، وحلّ مجلس النواب ومجلس الشيوخ، ثم أصدر دستوراً، ودستوراً جديداً للانتخابات، وأخيراً أنشأ حزب الشعب الذي كان رئيسه، وأصدر صحيفة تحمل اسم الحزب «الشعب». فعمّت المظاهرات البلاد، وأضرب العمال، وقاطعوا الانتخابات، وقوبلت المظاهرات بالعنف فوقع عدد من القتلى، وجرح عدد آخر.

= ٥ ـ محمد صفوت: وزيراً للزراعة.
٦ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٧ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ بهي الدين بركات: وزيراً للمعارف.
٩ ـ محمود بسيوني: وزيراً للأوقاف.
١٠ ـ حسن حسيب: وزيراً للحربية والبحرية.

(١) ألف إسماعيل صدقي وزارته على النحو الآتي:
١ ـ إسماعيل صدقي رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والمالية.
٢ ـ محمد توفيق رفعت: وزيراً للحربية والبحرية.
٣ ـ عبد الفتاح يحيى: وزيراً للحقانية.
٤ ـ حافظ حسن: وزيراً للأشغال العامة، والزراعة.
٥ ـ علي ماهر: وزيراً للمعارف.
٦ ـ توفيق دوس: وزيراً للمواصلات. =

ووافق المجلس النيابي الذي انتخب على يديه على التنازل عن واحة «جغبوب» لإيطاليا التي كانت تحتل ليبيا على حين لم توافق على ذلك المجالس النيابية السابقة بعد أن تنازل عن ذلك أحمد زيور. واضطر إسماعيل صدقي إلى تقديم استقالته في ٨ رمضان ١٣٥١هـ (٤ كانون الثاني ١٩٣٣م)، وذلك بعد أن استقال وزير المعارف علي ماهر، ووزير الحقانية عبد الفتاح يحيى، ووقع خلاف في الوزارة بعد حادثة قتل مأمور البداري.

عهد الملك إلى إسماعيل صدقي بإعادة تشكيل الوزارة فشكلها في اليوم نفسه[١]، واستمّرت حتى ٨ جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ (٢٧ أيلول ١٩٣٣م).

وزارة عبد الفتاح يحيى:

عُهد إلى عبد الفتاح يحيى بتشكيل وزارة جديدة[٢]. كان عبد الفتاح يحيى

= ٧ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للأوقاف.
٨ ـ حافظ عفيفي: وزيراً للخارجية.
ثم تمّ تعيين:
٩ ـ إبراهيم فهمي كريم: وزيراً للأشغال.
١٠ ـ مراد سيد أحمد: وزيراً للمعارف.

(١) كانت وزارة إسماعيل صدقي الثانية على النحو الآتي:
١ ـ إسماعيل صدقي: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والمالية.
٢ ـ محمد شفيق: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ أحمد علي: وزيراً للحقانية.
٤ ـ حافظ حسن: وزيراً للزراعة.
٥ ـ نخلة المطيعي: وزيراً للخارجية.
٦ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ إبراهيم فهمي كريم: وزيراً للمعارف العمومية.
٨ ـ علي جمال الدين: وزيراً للحربية والبحرية.
٩ ـ محمد مصطفى: وزيراً للأوقاف.
واستقال حافظ حسن، ومحمد مصطفى، ودخل الوزارة نتيجة التعديل الذي تمّ بعد استقالة الوزيرين:
١ ـ محمد علام: وزيراً للزراعة.
٢ ـ علي المنزلاوي: وزيراً للأوقاف.
٣ ـ محمود فهمي القيسي: وزيراً للداخلية.

(٢) شكل عبد الفتاح يحيى وزارته على النحو الآتي: =

وكيلاً لرئيس حزب الشعب إسماعيل صدقي غير أنه استقال من الوزارة تضامناً مع علي ماهر، وترك وكالة الحزب، فلما كلّف برئاسة الوزارة عاد يحتفظ بوكالة الحزب، فوافق إسماعيل صدقي على ذلك، ولكنه «إسماعيل صدقي» لم يلبث أن استقال من الحزب ومن عضوية المجلس النيابي. وقدم عبد الفتاح يحيى استقالة حكومته في ٧ شعبان ١٣٥٣هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٣٤م). واقترح حزب الوفد على المندوب السامي التدخل لتشكيل وزارة جديدة برئاسة محمد توفيق نسيم، إذ بدا الضعف واضحاً على الحكومة القائمة.

وزارة محمد توفيق نسيم:

شكّل وزارةً جديدةً[1] وألغى دستور ١٩٣٠م، وحل المجلس النيابي، وفي عهد هذه الحكومة، صرح وزير الدولة لشؤون الخارجية البريطاني «صموئيل هوم» أن دولته تعارض عودة دستور عام (١٩٢٣م) وذلك بتاريخ ١٣

= ١ ـ عبد الفتاح يحيى: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ ـ أحمد علي: وزيراً للحقانية.
٣ ـ محمد نجيب الغرابلي: وزيراً للأوقاف.
٤ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للمعارف العمومية.
٥ ـ إبراهيم فهمي كريم: وزيراً للمواصلات.
٦ ـ محمود فهمي القيسي: وزيراً للداخلية.
٧ ـ علي المنزلاوي: وزيراً للزراعة.
٨ ـ صليب سامي: وزيراً للحربية والبحرية.
٩ ـ عبد العظيم راشد: وزيراً للأشغال العمومية.
١٠ ـ حسن صبري: وزيراً للمالية.

(١) شكل محمد توفيق نسيم وزارته على النحو الآتي:
١ ـ محمد توفيق نسيم: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ أحمد عبد الوهاب: وزيراً للمالية.
٣ ـ أمين أنيس: وزيراً للحقانية.
٤ ـ كامل إبراهيم: وزيراً للخارجية، والزراعة.
٥ ـ عبد العزيز محمد: وزيراً للأوقاف.
٦ ـ أحمد نجيب الهلالي: وزيراً للمعارف العمومية.
٧ ـ عبد المجيد عمر: وزيراً للأشغال العمومية، والمواصلات.
٨ ـ محمد توفيق عبد الله: وزيراً للحربية والبحرية.

شعبان ١٣٥٤هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٣٥م) فقام الطلبة بمظاهرات صاخبة احتجاجاً على تصريح «صموئيل هوم»، وعلى ضعف رئيس الوزراء، وقوبلت المظاهرات فسقط عدد من القتلى، وكانت الهتافات كلها تطالب بالجلاء، وساعد الجنود الإنكليز المسلحين قوات الشرطة في مقاومة المظاهرات. وتحت الضغط ونتيجة الظروف الدولية لانت قناة إنكلترا، وسكتت عن الممانعة في عودة دستور عام (١٩٢٣م) وأعلن الملك عن عودة الدستور، وناشد الشعب والأحزاب في الاتفاق فيما بينها، وفعلاً تكوّنت في ١٨ رمضان ١٣٥٤هـ (١٣ كانون الأول ١٩٣٥م) جبهة وطنية ضمّت أقطاب الأحزاب، وعادت الحياة النيابية، وسقطت وزارة محمد توفيق نسيم في ٧ ذي القعدة ١٣٥٤هـ (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦م).

وزارة علي ماهر[١]:

بعد سقوط وزارة محمد توفيق نسيم، عهد إلى علي ماهر بتشكيل وزارة ائتلافية، ولم يطل عهدها إلى أكثر من أربعة أشهر.

أصدر الملك فؤاد مرسوماً ملكياً بتشكيل وفد المفاوضة برئاسة مصطفى النحاس[٢] بتاريخ ٢١ ذي القعدة ١٣٥٤هـ (١٣ شباط ١٩٣٦م)، إذ كانت مهمتها إجراء الانتخابات، وقد تمت.

---

(١) شكل علي ماهر وزارته على النحو الآتي:
١ ـ علي ماهر: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والخارجية بالوكالة.
٢ ـ أحمد علي: وزيراً للحقانية، والأوقاف.
٣ ـ حافظ حسن: وزيراً للأشغال العمومية.
٤ ـ محمد علي علوبة: وزيراً للمعارف العمومية.
٥ ـ حسن صبري: وزيراً للمواصلات، والتجارة، والصناعة.
٦ ـ أحمد عبد الوهاب: وزيراً للمالية.
٧ ـ صادق وهبة: وزيراً للزراعة.
٨ ـ علي صدقي: وزيراً للحربية والبحرية.

(٢) تشكل الوفد من: مصطفى النحاس رئيساً، وعضوية كل من: محمد محمود، إسماعيل صدقي، عبد الفتاح يحيى، واصف بطرس غالي، أحمد ماهر، علي الشمسي، عثمان محرم، حلمي عيسى، مكرم عبيد، حافظ عفيفي، محمود فهمي النقراشي، أحمد حمدي سيف النصر. =

وفي ٧ صفر ١٣٥٥هـ (٢٨ نيسان ١٩٣٦م) مات الملك فؤاد، وكان ولي العهد فاروق في إنكلترا لمتابعة علومه، فعاد في ١٥ صفر ١٣٥٥هـ، وتشكّل مجلس وصاية برئاسة الأمير محمد علي وعضوية عبد العزيز عزت، ومحمد شريف صبري، واستمر المجلس يمارس وصايته إلى أن بلغ فاروق سن الرشد في (شهر تموز من عام ١٩٣٨م).

وجرت الانتخابات النيابية في ١٢ صفر ١٣٥٥هـ، وأسفرت عن نجاح حزب الوفد، وحصوله على أكثرية المقاعد، فدعا الملك زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس لتشكيل الوزارة.

وزارة مصطفى النحاس(١) الثالثة:

شكل مصطفى النحاس وزارته بتاريخ ١٩ صفر ١٣٥٥هـ (٩ أيار ١٩٣٦م) وفي ٩ جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ (٢٦ آب ١٩٣٦م) وقّع مصطفى النحاس المعاهدة مع إنكلترا والتي عرفت بمعاهدة عام (١٩٣٦) وتنص هذه المعاهدة على:

١ - إنهاء الاحتلال العسكري والوصاية البريطانية مع استثناء بعض القواعد العسكرية للدفاع عن وادي النيل وقناة السويس ضد أيّ عُدوانٍ خارجيٍ.

= ويمثل الوفد مختلف الأحزاب باستثناء الحزب الوطني الذي رفض الاشتراك على أساس رفعه لشعار (لا مفاوضات قبل الجلاء).

(١) كانت وزارة مصطفى النحاس الثالثة على النحو الآتي:
١ - مصطفى النحاس: رئيساً للوزارة، ووزيراً للداخلية، ووزيراً للصحة.
٢ - واصف بطرس غالي: وزيراً للخارجية.
٣ - عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٤ - محمد صفوت: وزيراً للأوقاف.
٥ - مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٦ - محمود فهمي النقراشي: وزيراً للمواصلات.
٧ - أحمد حمدي سيف النصر: وزيراً للزراعة.
٨ - محمود غالب: وزيراً للحقانية.
٩ - علي فهمي: وزيراً للحربية والبحرية.
١٠ - عبد السلام فهمي جمعة: وزيراً للتجارة والصناعة.
١١ - على زكي العرابي: وزيراً للمعارف العمومية.
والوزارة كلها من أعضاء حزب الوفد.

٢ ـ وضع الأراضي المصرية، وطرق مواصلاتها، ومطاراتها، وموانئها تحت تصرّف الجيش البريطاني في حالة قيام حرب.

٣ ـ تخلي إنكلترا عن المصالح الأجنبية.

٤ ـ تعهُّد إنكلترا بقُبول مصر في عُضوية عصبة الأمم.

٥ ـ إبقاء السودان شركةً بين مصر وإنكلترا.

٦ ـ تعهد الطرفين بعدم عقد معاهدة سياسية تتعارض مع مضمون هذه المعاهدة.

٧ ـ مدة المعاهدة عشرون سنة، ويُعاد النظر بعدها فيها.

وعاد مصطفى النحاس من لندن إلى مصر، وبدأ يُروّج لهذه المعاهدة ويدعو إلى تأييدها، وأطلق عليها اسم معاهدة «الشرف والاستقلال».

انشقّ أحمد ماهر، ومحمود فهمي النقراشي عن حزب الوفد، وشكّلوا الهيئة السعدية، وبدأ الصراع بين الطرفين، وظهر هذا فيما بعد.

وأُلقيت قنبلة على دار للصور المتحركة «سينما» يرتادها الضباط الإنكليز، وكانت بجانب جمعية الشبان النصرانية، وذهب نتيجة ذلك عدد من القتلى والجرحى.

وجرت محاولة من عز الدين فهمي من أعضاء الحزب الوطني لقتل مصطفى النحاس، ولكن أخطأ، وحكم على عز الدين فهمي بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وزارة مصطفى النحاس الجديدة:

وعندما تولى الملك فاروق سلطاته الدستورية في ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (٢٩ تموز ١٩٣٧م) عهد إلى مصطفى النحاس بتشكيل وزارته الرابعة[1]. وقد أخرج من وزارته السابقة أربعة وزراء ووضع غيرهم، وبقيت

(١) كانت وزارة مصطفى النحاس الرابعة على النحو الآتي: =

هذه الوزارة في الحكم حتى ٢٧ شوال ١٣٥٦هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٣٧م).

وزارات محمد محمود:

شكّل محمد محمود الوزارة بعد إقالة حكومة مصطفى النحاس[1] التي

= ١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ واصف بطرس غالي: وزيراً للخارجية.
٣ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٤ ـ محمود بسيوني: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٦ ـ أحمد حمدي سيف الدين النصر: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ محمد صبري أبو علم: وزيراً للحقانية.
٨ ـ محمد محمود خليل: وزيراً للزراعة.
٩ ـ عبد السلام فهمي جمعة: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٠ ـ علي زكي العرابي: وزيراً للمعارف.
١١ ـ عبد الفتاح الطويل: وزيراً للصحة.
أي أنه قد أخرج من وزارته السابقة أربعة وزراء هم: محمود فهمي النقراشي ـ محمد صفوت ـ محمود غالب ـ علي فهمي وعين مكانهم محمود بسيوني ـ محمد محمود خليل ـ عبد الفتاح الطويل ـ محمد صبري أبو علم.

(١) تألفت وزارة محمد محمود الثانية على النحو الآتي:
١ ـ محمد محمود: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ إسماعيل صدقي: وزيراً للدولة، ويتولى وزارة المالية.
٣ ـ عبد الفتاح يحيى: وزيراً للدولة، ويتولى وزارة الخارجية.
٤ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للحقانية.
٥ ـ عبد العزيز فهمي: وزيراً للدولة.
٦ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ أحمد لطفي السيد: وزيراً للدولة.
٨ ـ محمد بهي الدين بركات: وزيراً للمعارف العمومية.
٩ ـ حسن صبري: وزيراً للمواصلات.
١٠ ـ حسين رفقي: وزيراً للحربية والبحرية.
١١ ـ حسين سري: وزيراً للأشغال العامة.
١٢ ـ مراد وهبة: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ أحمد كامل: وزيراً للتجارة.
١٤ ـ محمد حافظ رمضان: وزيراً للدولة.
١٥ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للدولة.
١٦ ـ محمد كامل البنداري: وزيراً للصحة.

كان في عهدها قد تسلّم الملك فاروق مهامه إذ كان قد بلغ سنّ الرشد، فعيّن علي ماهر رئيساً للديوان الملكي.

حلّت الحكومة المجلس النيابي خوفاً من فشلها في الحصول على الثقة، وأجرت الانتخابات ففاز أنصارها، وقدمت استقالتها، فعهد إليه الملك بتأليف وزارةٍ جديدةٍ[1] بعد مدةٍ في ٢٧ صفر ١٣٥٧هـ (٢٧ نيسان ١٩٣٨م). واستقال علي ماهر من رئاسة الديوان الملكي في ٩ ربيع الأول ١٣٥٧هـ (٨ أيار ١٩٣٨م)، وكان يطمح في رئاسة الوزارة، وتقدّم محمد محمود باستقالة حكومته في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ (٢٤ حزيران ١٩٣٨م)، فعهد إليه الملك بتأليف وزارةٍ قومية جديدة تشترك فيها الهيئة السعدية، وفي اليوم نفسه تألفت الوزارة الجديدة[2].

---

(١) كانت وزارة محمد محمود الثالثة على الشكل الآتي:
١ ـ محمد محمود: رئيساً للوزارة، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ إسماعيل صدقي: وزيراً للمالية.
٣ ـ عبد الفتاح يحيى: وزيراً للخارجية.
٤ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للحقانية.
٥ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للمواصلات.
٦ ـ أحمد لطفي السيد: وزيراً للدولة.
٧ ـ حسن صبري: وزيراً للحربية والبحرية.
٨ ـ حسين سري: وزيراً للأشغال.
٩ ـ مراد وهبة: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٠ ـ أحمد كامل: وزيراً للصحة.
١١ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف.
١٢ ـ رشوان محفوظ: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.

(٢) كانت وزارة محمد محمود الرابعة على الشكل الآتي:
١ ـ محمد محمود: رئيساً للوزراء.
٢ ـ عبد الفتاح يحيى: وزيراً للخارجية.
٣ ـ أحمد ماهر: وزيراً للمالية.
٤ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للحقانية.
٥ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للداخلية.
٦ ـ حسن صبري: وزيراً للحربية والبحرية. =

وزارة علي ماهر:

قدّم محمد محمود استقالته لأسباب صحية، فقبلها الملك في ٣ رجب ١٣٥٨هـ (١٨ آب ١٩٣٩م) وعين مكانه علي ماهر[1] رئيس الديوان الملكي سابقاً فشكل الوزارة، وفي عهده اندلعت الحرب العالمية الثانية في ١٦ رجب ١٣٥٨هـ، واستفادت إنكلترا من بنود معاهدة (١٩٣٦) فدفعت الوزارة المصرية إلى إعلان الأحكام العرفية، ومراقبة المطبوعات، وقطع علاقاتها مع ألمانيا، وإلقاء القبض على رعاياها، ومصادرة أملاكها، وفي الوقت نفسه استولت

= ٧ ـ محمود غالب: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ حسين سري: وزيراً للأشغال العمومية.
٩ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف العمومية.
١٠ ـ رشوان محفوظ: وزيراً للزراعة.
١١ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
١٢ ـ حامد محمود: وزيراً للصحة.
١٣ ـ سابا حبشي: وزيراً للتجارة والصناعة.
وخرج من هذه الوزارة ممثلا الأحزاب الصغيرة محمد حلمي عيسى «حزب الاتحاد» وأحمد كامل «حزب الشعب».

(١) وتألفت وزارة علي ماهر على النحو الآتي:
١ ـ علي ماهر: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والخارجية.
٢ ـ محمد علي علوبة: وزير دولة للشؤون النيابية.
٣ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للمعارف.
٤ ـ محمود غالب: وزيراً للمواصلات.
٥ ـ حسين سري: وزيراً للمالية.
٦ ـ حامد محمود: وزيراً للصحة.
٧ ـ سابا حبشي: وزيراً للتجارة والصناعة.
٨ ـ عبد الرحمن عزام: وزيراً للأوقاف.
٩ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزير دولة للشؤون النيابية.
١٠ ـ مصطفى محمود الشوربجي: وزيراً للعدل.
١١ ـ عبد السلام الشاذلي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٢ ـ عبد القوي أحمد: وزيراً للأشغال.
١٣ ـ محمد صالح حرب: وزيراً للدفاع الوطني.
١٤ ـ محمود توفيق الحفناوي: وزيراً للزراعة.
لقد ضمت الوزارة تسعة من المستقلين وخمسة من الهيئة السعدية.

إنكلترا على أكثر المدن والموانئ المصرية، وصادرت الحاصلات الزراعية. وطلبت عزل رئيس أركان الجيش المصري عبد العزيز علي المصري مُتهمةً إياه بالانحياز إلى الألمان، كما طلبت تسريح القوة المصرية، وتسليم أسلحتها للقوة البريطانية خوفاً من أن تطعنها من الخلف. واحتل الإنكليز أيضاً ساحل مصر على البحر المتوسط من جهة الغرب، وأوكلت إلى الجيش المصري مُهمّة الدفاع عن الجزء الداخلي المقابل لحدود ليبيا حيث الطليان والألمان، ويتحرّكون نحو جهة الشرق باتجاه مصر. وكانت إنكلترا قد تضايقت من وزارة علي ماهر إذ ترى فيها عدواناً عليها إذ ضمّت بعض العناصر ذوي الاتجاهات الإسلامية الذين ترى أنهم لا يُؤيدون سياستها ومنهم: محمد صالح حرب، وعبد الوهاب عزام، ومصطفى الشوربجي، وزاد الأمر تأكيداً تعيين عبد العزيز علي المصري رئيساً لأركان الجيش المصري لذا فقد كانت تحاربها وتعمل على إنهاء حكمها، وقدّم علي ماهر استقالة حكومته في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٢٧ حزيران ١٩٤٠م).

وزارة حسن صبري[(١)]:

كُلف حسن صبري بتشكيل وزارة[(٢)] في هذه الأوقات الحرجة، وزادت

---

(١) درس الحقوق، واشتغل بالمحاماة وعين في القضاء، وتدرج بالمناصب القضائية، ثم عين وزيراً مفوضاً في لندن عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م). تسلم رئاسة الوزارة ١٣٥٩هـ.

(٢) شكل حسن صبري وزارته على النحو الآتي:

١ ـ حسن صبري: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ ـ عبد الحميد سليمان: وزيراً للمالية.
٣ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للعدل.
٤ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للداخلية.
٥ ـ محمود فهمي القيسي: وزيراً للدفاع الوطني.
٦ ـ صليب سامي: وزيراً للتموين.
٧ ـ محمود غالب: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ حسين سري: وزيراً للأشغال العمومية.
٩ ـ محمد حافظ رمضان: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٠ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف العمومية.
١١ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف. =

على إنكلترا حرجاً إذ قامت حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وهدّدت الجيوش الألمانية ـ الإيطالية في ليبيا القوات الإنكليزية في مصر، واشتدّت وطأة الهجوم الألماني على جزيرة مالطة، وقطعت الإمدادات الحربية عن مصر من جهة البحر المتوسط، وفكرت القيادة البريطانية بالانسحاب من حوض البحر المتوسط الشرقي وتركيز جهودها للدفاع عن جبل طارق.

وأحيل الفريق عبد العزيز علي المصري رئيس أركان حرب الجيش على التقاعد لكثرة حصوله على الإجازات، وتم تعيين اللواء إبراهيم عطا الله مرافق الملك الخاص مكانه.

وفي ١٤ شوال ١٣٥٩هـ توفي رئيس الوزراء، وهو يلقي خطاب العرش أمام المجلس النيابي نيابة عن الملك فاروق الذي كان حاضراً الجلسة.

وزارة حسين سري[1] الأولى:

بعد وفاة حسن صبري في ١٤ شوال ١٣٥٩هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٤٠م) عهد إلى حسين سري بتشكيل الوزارة، فألفها[2]، وقد رشحه لذلك الملك والسفير الإنكليزي في القاهرة.

= ١٢ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٣ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.
١٤ ـ علي أيوب: وزيراً للدولة.
١٥ ـ علي إبراهيم: وزيراً للصحة العمومية.
١٦ ـ عبد المجيد إبراهيم صالح: وزيراً للدولة.

(١) ولد حسين سري عام ١٣١٠هـ، وتخرج من المدرسة السعيدية عام ١٣٢٨هـ، وحصل على شهادة الهندسة من لندن عام ١٣٣٥هـ، وعيّن في وزارة الأشغال مساعداً لمدير الري بالوزارة، وترقّى في المناصب حتى أصبح وكيلاً للوزارة.
عين وزيراً للأشغال في وزارة محمد محمود عام ١٣٥٦هـ، ثم تسلّم وزارة الدفاع، والمالية، والمواصلات، ثم عهد إليه بمنصب رئيس الوزراء.
وعين رئيساً للديوان الملكي عام ١٣٧٠هـ، وقبل قيام الثورة بثلاثة أسابيع اختير رئيساً للوزراء فبقي في منصبه ثلاثة أسابيع، واستقال قبل قيام الثورة بيومٍ واحدٍ.

(٢) شكل حسين سري وزارته الأولى على النحو الآتي:
١ ـ حسين سري: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، ووزيراً للخارجية. =

أعلنت مصر أنها على الحياد في الحرب، غير أن الطائرات الإيطالية بدأت تقصف المدن المصرية، وخاصةً الإسكندرية التي بدأ أهلها يرحلون عنها، وأعطت دولته راتب شهر لكل موظف يريد ترحيل أسرته من الإسكندرية. وبدأت التبرعات تجمع للمنكوبين. وأقيل الإيطاليون الذين يعملون في مصر من مناصبهم، وتقرر وقف الهجرة الداخلية إلى مديرية البحيرة حيث اكتظت بالسكان.

في صباح يوم الجمعة ٢٠ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (١٦ أيار ١٩٤١م) قام اثنان من ضباط سلاح الطيران المصري ومعهما ثالث بالاستيلاء على إحدى طائرات السلاح، وأثناء محاولتهم الهرب اصطدمت الطائرة بسلك كهربائي في المنطقة ما بين «قها» و«قليوب» فسقطت الطائرة، وحاول ركابها الثلاثة الفرار وتمكنوا من الهرب والوصول إلى القاهرة، وتبيّن بالتحقيق أن هؤلاء هم: الفريق المتقاعد عبد العزيز علي المصري، والطيار أول حسين ذو الفقار صبري، والطيار أول عبد المنعم عبد الرؤوف، وأعلنت الحكومة مكافأة ألف جنيه لمن يعاون أو يرشد أو يدلي ببيانات تساعد في القبض عليهم.

وزارة حسين سري الثانية:

قدمّ حسين سري استقالة حكومته في ٨ رجب ١٣٦٠هـ (٣١ تموز ١٩٤١م) فعهد إليه بتشكيل حكومةٍ جديدة[1]، وقد ضمت هذه الوزارة خمسة

= ٢ ـ محمد حلمي عيسى: وزيراً للعدل.
٣ ـ صليب سامي: وزيراً للتجارة والصناعة.
٤ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف العمومية.
٥ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
٦ ـ عبد القوي أحمد: وزيراً للأشغال العمومية.
٧ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.
٨ ـ عبد المجيد إبراهيم صالح: وزيراً للمواصلات، والتموين.
٩ ـ علي إبراهيم: وزيراً للصحة العمومية.
١٠ ـ حسن صادق: وزيراً للمالية.
١١ ـ محمد عبد الجليل سمرة: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٢ ـ يونس صالح: وزيراً للدفاع الوطني.

(١) شكل حسين سري وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ ـ حسين سري: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والخارجية.

وزراء من الهيئة السعدية، وخمسة من حزب الأحرار الدستوريين، وخمسة من المستقلين، وقد رفض حزب الوفد الاشتراك في الحكومة، واشترط حلّ المجلس النيابي.

وقد شهدت البلاد نقصاً في السلع التموينية، وغلاء في الأسعار، وأعلنت البلاد قطع علاقاتها السياسية مع اليابان، وسمحت لمن يريد من رعايا اليابان بالسفر، ومن رأت ضرورة باعتقالهم حفاظاً على الأمن أودعتهم السجن، كما وضعت الأموال والممتلكات اليابانية في مصر تحت الحراسة.

وصدر ميثاق الأطلسي بعد اللقاء الذي تمّ بين الرئيس الأميركي «روزفلت» ورئيس وزراء إنكلترا «ونستون تشرشل» وينصّ على احترامهما لحق جميع الشعوب في اختيار شكل حكوماتها، وأن تسترد الأمم المغلوبة حقّها المسلوب، وأن لا يقع أي تبدّل إقليمي يتعارض مع رغبة الشعوب صاحبة الحق في ذلك. ولم يكن هذا الميثاق سوى محاولة لكسب ودّ الشعوب.

ثم تمّ اجتماع في القاهرة بين الرئيس الأمريكي «روزفلت»، ورئيس وزراء بريطانيا «تشرشل»، ورئيس حكومة الصين «شان كاي شيك»، واستغل زعماء

= ٢ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للمواصلات.
٣ ـ عبد الحميد بدوي: وزيراً للمالية.
٤ ـ صليب سامي: وزيراً للخارجية.
٥ ـ محمود غالب: وزيراً للعدل.
٦ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف العمومية.
٧ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
٨ ـ حامد محمود: وزيراً للصحة العمومية.
٩ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للأشغال العمومية.
١٠ ـ عبد القوي أحمد: وزيراً للوقاية المدنية.
١١ ـ حسن صادق: وزيراً للدفاع الوطني.
١٢ ـ إبراهيم دسوقي إباظة: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٣ ـ محمد راغب عطية: وزيراً للزراعة.
١٤ ـ عبد الرحمن عمر: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٥ ـ محمد حامد جودة: وزيراً للتموين.

المعارضة في مصر هذا الاجتماع فقدّموا مذكرة إلى هؤلاء الرؤساء يُطالبون فيها برفع القيود التي فرضتها معاهدة عام (١٩٣٦م) على مصر، وبانسحاب القوات الأجنبية بعد انتهاء الحرب العالمية، وبالاعتراف باستقلال مصر. غير أن حزب الوفد قد رفض نشر هذه المذكرة في الصحف بل الإشارة إليها.

وفي منتصف محرم ١٣٦١هـ (١ شباط ١٩٤٢م) قامت المظاهرات تُطالب بإسقاط الحكومة حيث ظهر أنها توالي المعتدين الإنكليز، وصادف ذلك هوى في نفس الملك فاروق، فأقال تلك الحكومة بحجة أنها قطعت العلاقة السياسية مع حكومة «فيشي» الفرنسية التي كانت برئاسة الجنرال «بيتان» دون الرجوع إلى الملك، وبناءً على تعليمات السفير الإنكليزي في القاهرة، وأقيلت حكومة حسين سري أو قدم استقالته في ١٦ محرم ١٣٦١هـ (٢ شباط ١٩٤٢م).

أحداث ١٨ محرم ١٣٦١هـ:

كلف علي ماهر بتشكيل الوزارة غير أنه لم يباشر البحث في تكوينها إذ استمرت المظاهرات، وأبدت عداءها الصريح لإنكلترا حتى كانت تهتف «إلى الأمام يا رومل»، وكان الألمان قد استعادوا مدينة بنغازي وتملّك الخوف الإنكليز حتى صاروا يغادرون البلاد.

وفي ١٧ محرم ١٣٦١هـ (٣ شباط ١٩٤٢م) اتصل السفير الإنكليزي «مايلز لامبسون» بالملك فاروق، وأخبره أن حكومته تصرّ على تغيير الوزارة القائمة، وتشكيل حكومةٍ وفديةٍ برئاسة مصطفى النحاس.

وردّ الملك فاروق على السفير في اليوم نفسه بأنه سيتصل في هذا اليوم بالشخصيات السياسية للتشاور في الأمر، ومن بين هذه الشخصيات علي ماهر ومصطفى النحاس، وذلك قبل أن يقطع بالأمر وحده، واجتمع الملك بالشخصيات السياسية فعلاً في اليوم نفسه، وتشاوروا في إصرار إنكلترا على تشكيل حكومةٍ وفدية برئاسة مصطفى النحاس.

وفي صبيحة يوم ١٨ محرم ١٣٦١هـ سلّم السفير الإنكليزي لمكتب أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي إنذاراً إنكليزياً خطيراً وينصّ: «إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءً هذا اليوم أن مصطفى النحاس قد دعي لتشكيل الوزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمّل ما يترتّب على ذلك من نتائج».

إن الملك كان يريد أن يُثبت وجوده أمام زعماء بلاده السياسيين وأمام إنكلترا، وإن المحتلّ يريد أن يذلّ الملك ويذل الشعب ويُعرفه أن ما تريده إنكلترا هو الذي يجب أن يكون ولا يصحّ أن تكون مخالفة أبداً من أية جهةٍ كانت مهما تعاظمت هذه الجهة، بل على الجميع الطاعة والإذعان، والواقع أن الظروف كانت مساعدةً لإنكلترا فالحرب عالمية، وأحداثها خطيرة لا يمكن معها المناقشة والجدل.

واجتمع الملك ثانية بزعماء مصر السياسيين، وقرأ عليهم رئيس الديوان الملكي الإنذار الإنكليزي، فأبدى الجميع تأثرهم الشديد، وشعروا بالإهانة التي لحقتهم، ولحقت بالشعب كله، فقرروا إرسال احتجاجٍ للسفير ووقّعوه جميعاً، ومصطفى النحاس من بينهم، وأجمعوا على تشكيل وزارةٍ وطنيةٍ برئاسة مصطفى النحاس للتخلص من المأزق الذي وقعوا فيه. غير أن مصطفى النحاس قد أصر على أن تكون الوزارة وفديةً خالصةً، فظهر الخلاف، ولكن هذا ما تريده إنكلترا، فهي لا تثق إلا بمصطفى النحاس كما كانت تثق بسعد زغلول من قبله، وإن كانت تظهر عكس ذلك، وتبدي مخالفتها له لتُظهر وطنيته أمام الشعب، وتُبين أنها تخاف منه ليكبر في أعين الناس فتستفيد من إخلاصه لها والتمكين لقواتها، ويستفيد من بناء زعامته وتسلمه السلطة، وتظهر حربها له ولحزبه وقت الرخاء، وتستعين به وقت الشدّة، وتفرضه وقت المحنة، وليس هناك من وقتٍ أفضل من هذا الوقت لتستفيد من زعامته أو لتأخذ مما سبق لها أن بنته له من مجدٍ فالحرب في الأوج، وتخشى من اقتحام الألمان مصر، وقد أصبحوا على مقربةٍ منها بل دخلوا جزءاً من أرضها، والمصريون ضدها يهتفون للقائد الألماني رومل، الذي غدا في «العلمين»، وليس لها من سندٍ كمصطفى النحاس وحزبه، وليس من زعيم يمكن أن يضبط وضع البلاد في مثل هذه الظروف غيره، لما له من شعبيةٍ، وقد لعبت دوراً كبيراً في بنائها له ولسلفه سعد زغلول من قبل، وآن لها أن تقطف ثمر بعض صنائعها، وآن له أن يُقدّم الشكر لما قدمته لها.

ورفض السفير الإنكليزي احتجاج الزعماء المصريين، وأخطر رئيس الديوان الملكي أنه سيزور الملك بنفسه في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ليُبين له الأمر، وتأزم الموقف.

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم ١٨ صفر ١٣٦١هـ (٤ شباط ١٩٤٢م) وقبل موعد زيارة السفير للملك بنصف ساعة تحرّكت الدبابات البريطانية نحو قصر عابدين وطوّقته، ومنعت الجنود الدخول إليه والخروج منه، وجرّدت الحرس فيه من أسلحتهم، ولا يزال الملك مجتمعاً بالزعماء السياسيين.

وفي الساعة التاسعة انطلق موكب السفير إلى القصر، وكأنه ملك العالم، واتّجه مباشرةً إلى مكان لقاء الملك بالزعماء، ودخل عليهم متغطرساً كأنه يريد أن يركل كل واحدٍ منهم، فوثبوا وقوفاً احتراماً له، وأسرعوا يُسلّمون عليه، فجلس وخيّر الملك وهو غاضب بين أمرين لا ثالث لهما: إما التوقيع على وثيقة تنازله عن العرش، وإما التوقيع على تكليف مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة فوراً، وشعر مصطفى النحاس بنشوة الظفر، ثم تكلّم السفير فقال: إن الموقف لا يقبل التباطؤ أبداً، فالجيوش الألمانية داخل مصر على مشارف العلمين، ولا بدّ لبريطانيا العظمى من تأمين مركزها.

واختار الملك الأمر الثاني، ووقّع على تكليف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة[1] فشكّلها من أعضاء حزب الوفد، وبدا أن الأزمة قد انفرجت.

---

(١) شكل مصطفى النحاس وزارته الخامسة بتاريخ ١٨ محرم ١٣٦١هـ (٤ شباط ١٩٤٢م) على النحو الآتي:

١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، وزيراً للخارجية.
٢ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٤ ـ أحمد نجيب الهلالي: وزيراً للمعارف العمومية.
٥ ـ أحمد حمدي سيف النصر: وزيراً للدفاع الوطني.
٦ ـ عبد السلام فهمي محمد جمعة: وزيراً للزراعة.
٧ ـ علي زكي العرابي: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ محمد صبري أبو علم: وزيراً للعدل.
٩ ـ عبد الفتاح الطويل: وزيراً للصحة العمومية.
١٠ ـ علي حسين: وزيراً للأوقاف.
١١ ـ كامل صدقي: وزيراً للتجارة والصناعة.

وزارة مصطفى النحاس:

بدأ رئيس الوزراء الجديد مهمته بإرسال خطاب شكر للسفير الإنكليزي على ما قام به لتسلمه رئاسة الوزارة، وكان نص الخطاب:

«يا صاحب السعادة:

لقد كُلّفت بمُهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذي صدر من جلالة الملك بما له من الحقوق الدستورية. وليكن مفهوماً أن الأساس الذي قبلت عليه هذه المهمة هو أن لا المعاهدة البريطانية ـ المصرية ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة إنكلترا بالتدخل في شؤون مصر الداخلية وبخاصة في تأليف الوزارة أو تغييرها[١].

ولي الأمل يا صاحب السيادة أن تتفضلوا بتأييد ما في خطابي هذا من المعاني وبذلك تتوطّد صلات المودة والاحترام المتبادلين وفقاً لنصوص المعاهدة.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام».

٥/ ٢/ ١٩٤٢م

وأجاب السفير:

«يا صاحب المقام الرفيع

لي الشرف أن أؤيّد وجهة النظر التي عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم، وإني أُؤكّد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون بإخلاص مع حكومة مصر كدولةٍ مُستقلةٍ وحليفة في تنفيذ المعاهدة البريطانية ـ المصرية من غير أي تدخلٍ في شؤون مصر الداخلية ولا في تأليف الحكومة أو تغييرها[٢].

---

(١) يريد مصطفى النحاس أن يقول للشعب: إنه لم يكن راضياً عما تمّ بالأمس، ولا يريد أن تتدخل إنكلترا بشؤون مصر الداخلية، وأن ما حدث أمس لم يكن تدخلاً ويجب أن يقف عند هذا الحد وكفى.

(٢) أكد السفير ما يريده مصطفى النحاس، وأن من سياسة إنكلترا عدم التدخل في شؤون مصر، فهي دولة مستقلة ذات سيادة وهكذا طمس على ما وقع مساء أمس.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأقدّم لرفعتكم فائق احترامي».

وبعد تأليف الوزارة في اليوم نفسه ذهب السفير وهنأ مصطفى النحاس بين هتافات أفراد حزب الوفد بحياة بريطانيا.

واستمّرت الحرب تتطوّر لمصلحة ألمانيا وحلفائها من طليان ويابانيين، وعادت المظاهرات في مصر ترحب بالألمان حقداً على الإنكليز، وبدأت القيادة البريطانية تستعدّ للرحيل عن مصر، وأخذت تحرق الوثائق، وتخلي مقرّها. لكن لم تلبث أن تغيّرت مجريات الحرب، ورجحت الكفّة لصالح الحلفاء إنكلترا ـ الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفياتي. و... انفرجت الغمّة عن إنكلترا.

وزارة مصطفى النحاس السادسة:

كان قد عدل مصطفى النحاس وزارته بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٣٦١هـ (٢٦ أيار ١٩٤٢م) أي بعد أقلّ من أربعة أشهرٍ من تكليفه بالوزارة على أسنة الحراب الإنكليزية، أو فرضه من قبل إنكلترا على مصر، وكان السبب الرئيسي في هذا التعديل الوزاري إخراج مكرم عبيد وزير المالية من الوزارة[١].

---

(١) شكل مصطفى النحاس وزارته السادسة على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، والخارجية.
٢ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ أحمد نجيب الهلالي: وزيراً للمعارف العمومية.
٤ ـ أحمد حمدي سيف النصر: وزيراً للدفاع الوطني.
٥ ـ محمد صبري أبو علم: وزيراً للعدل.
٦ ـ عبد الفتاح الطويل: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ كمال صدقي: وزيراً للمالية.
٨ ـ محمد فؤاد سراج الدين: وزيراً للزراعة.
٩ ـ محمد عبد الهادي الجندي: وزيراً للأوقاف.
١٠ ـ عبد الحميد عبد الحق: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١١ ـ أحمد حمزة: وزيراً للتموين.
١٢ ـ مصطفى نصرت: وزيراً للوقاية المدنية.
١٣ ـ عبد الواحد الوكيل: وزيراً للصحة العمومية.
١٤ ـ محمود سليمان غنام: وزيراً للتجارة والصناعة.

بقي مصطفى النحاس على رأس الحكم حتى اتضح تماماً أن الوضع الإنكليزي أصبح ثابتاً في مصر، إذ زال الخطر الألماني في الغرب، وهُزم رومل في «العلمين» وتراجع، كما تصدّع موقف القوات الألمانية في روسيا، وبدأت تتراجع، وعندها تراخت قبضة إنكلترا عن مصر، ولم تعد إنكلترا تهتمّ بالوزارة المصرية، وشعر الملك بذلك فأقال مصطفى النحاس، وتعاونت هذه الحكومة كثيراً مع إنكلترا إذ سلمتها كل ما طلبت من أراضي ومباني، وتدفقت جيوش الحلفاء إلى مصر، وأهدى الملك قصر التين ليكون مستشفى للضباط الإنكليز، وفي عهد هذه الوزارة تأسست جامعة الدول العربية. وعيّن مكانه أحمد ماهر، رئيس الهيئة السعدية.

وزارة أحمد ماهر[1] الأولى:

عهد الملك بتشكيل الوزارة إلى أحمد ماهر[2] بعد إقالة مصطفى النحاس

---

(١) أحمد بن محمد ماهر: ولد بالقاهرة عام ١٣٠٥هـ، وتعلم بها، ودرس الحقوق بالقاهرة وبجامعة مونبليه بفرنسا، وعين أستاذاً للاقتصاد والقانون، وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة سعد زغلول، وهو من مؤسسي الهيئة السعدية التي انفصلت عن حزب الوفد، وتسلم رئاسة الوزارة، واغتيل عام ١٣٦٤هـ، وهو رئيس للوزارة.

(٢) شكل أحمد ماهر وزارته على النحو الآتي:

١ ـ أحمد ماهر: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للخارجية.
٣ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للصحة.
٤ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٥ ـ محمود غالب: وزيراً للأشغال العمومية.
٦ ـ حافظ رمضان: وزيراً للعدل.
٧ ـ محمد حسين هيكل: وزيراً للمعارف العمومية، والشؤون الاجتماعية.
٨ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
٩ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للصحة العمومية.
١٠ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.
١١ ـ إبراهيم دسوقي أباظة: وزيراً للمواصلات.
١٢ ـ طه محمد عبد الوهاب السباعي: وزيراً للتموين.
١٣ ـ راغب حنا: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٤ ـ السيد سليم: وزيراً للدفاع الوطني.

وذلك بتاريخ ٢١ شوال ١٣٦٣هـ (٨ تشرين الأول ١٩٤٤م). وقد أعاد أحمد ماهر الموظفين الذين عزلهم مصطفى النحاس، وألغى كافة الترفيعات التي تمت في عهد الحكومة السابقة، وأحال على التقاعد كل من تعاطف مع الوفد من كبار الموظفين، وأطلق سراح المعتقلين السياسيين الذين اعتقلوا في أيام الوزارة السابقة في ظل الأحكام العرفية.

وتشلكت لجنة برئاسة وزير المالية مكرم عبيد للتحقيق في التصرفات التي تمت في زمن حكومة مصطفى النحاس.

وحلّت الحكومة الجديدة المجلس النيابي ٣٠ ذي القعدة ١٣٦٣هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٤٤م)، وأجرت الانتخابات النيابية في ٢٤ محرم ١٣٦٤هـ، ولم يشترك حزب الوفد في هذه الانتخابات، وإنما قاطعها لذا فقد حصلت الهيئة السعدية على ١٢٥ مقعداً، وحصل حزب الأحرار الدستوريين على ٧٤ مقعداً، وحصلت الكتلة الوفدية التي شكلها مكرم عبيد على ٢٩ مقعداً، وحصل المستقلون على ٢٩ مقعداً، وحصل الحزب الوطني على سبعة مقاعد، وهي مجموع مقاعد المجلس البالغة ٢٦٤ مقعداً.

واجتمع المجلس النيابي في ٤ صفر ١٣٦٤هـ، وصدر مرسوم بإعادة الشيوخ الذين أخرجتهم وزارة مصطفى النحاس من مجلس الشيوخ.

واستمر تقدّم الحلفاء في الحرب على دول المحور، وأحسّت إنكلترا باقتراب النصر، ولكن أخذت تستعجل به، ورأت أن تعلن كل الدول ذات السيادة الاسمية الحرب على دول المحور. فزار وزير الخارجية البريطانية «إيدن» مصر، وقابل أحمد ماهر رئيس الوزراء، وأطلعه على الموقف في جبهات القتال، وطلب منه إعلان الحرب على دول المحور، وربما كان هذا الإعلان سبباً لقبول مصر في عضوية هيئة الأمم المتحدة. فرأى أحمد ماهر أن يُسرع في هذا الإعلان عسى أن تُصيب مصر منه خيراً في الحصول على الاستقلال التام.

وزارة أحمد ماهر الثانية:

قدم أحمد ماهر استقالة حكومته الأولى ليتسنّى له تأليف وزارة جديدة[1] على ضوء الانتخابات التي حصل عليها حزبه فقبلت الاستقالة، وكلّف بتشكيل وزارة جديدة في ١ صفر ١٣٦٤هـ وفي ١٢ ربيع الأول ١٣٦٤هـ (٢٤ شباط ١٩٤٥م) ألقى أحمد ماهر بياناً في جلسةٍ سريةٍ لمجلس النواب دعا فيه بحرارة إلى إعلان الحرب ضدّ دول المحور، ووجد تأييداً في مجلس النواب، وخرج ليُلقي البيان نفسه في مجلس الشيوخ، وهو في طريقه مبتهجاً بما حصل عليه من تأييد في مجلس النواب إذ يرميه أحد شباب الحزب الوطني، وهو محمود العيسوي الذي يعمل محامياً في مكتب عبد الرحمن الرافعي بأربع طلقات أصابته في صدره فوقع قتيلاً، ولم يفرّ محمود العيسوي بل وقف مكانه، واعترف بالقتل، ورغم العذاب الشديد الذي ناله في السجن للاعتراف بشركاء له في الجريمة لم يعترف بشيء، وإنما ذكر أنه أقدم على هذه العملية بسبب ما يريد رئيس الوزراء من القيام بإعلان الحرب على دول المحور وهذا موضوع لا يهمّ مصر كثيراً أو قليلاً، وأُعدم محمود العيسوي شنقاً بتاريخ ١٨ شعبان

---

(١) شكل أحمد ماهر وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ ـ أحمد ماهر: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ مكرم عبيد: وزيراً للمالية.
٣ ـ محمود فهمي النقراشي: وزيراً للخارجية.
٤ ـ محمود غالب: وزيراً للأشغال العمومية.
٥ ـ حافظ رمضان: وزيراً للعدل.
٦ ـ مصطفى عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للصحة العمومية.
٨ ـ السيد سليم: وزيراً للدفاع الوطني.
٩ ـ حنفي محمود: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٠ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.
١١ ـ إبراهيم الدسوقي أباظة: وزيراً للمواصلات.
١٢ ـ طه محمد عبد الوهاب السباعي: وزيراً للتموين.
١٣ ـ راغب حنا: وزير دولة.
١٤ ـ عبد الرزاق السنهوري: وزيراً للمعارف العمومية.
١٥ ـ عبد المجيد بدر: وزيراً للشؤون الاجتماعية.

١٣٦٤هـ (٢٨ تموز ١٩٤٥م) أي بعد انتهاء الحرب، وقبل صعوده إلى حبل المشنقة توضأ وصلى ركعتين.

وزارة محمود فهمي النقراشي[١]:

وخلف أحمد ماهر في رئاسة الوزارة نائبه في رئاسة الهيئة السعدية، ورغب على ما يبدو في تهدئة الأوضاع، وحاول أن يكسب رضا الشعب. ورفع مذكرةً إلى السفير الإنكليزي بتاريخ ١٦ محرم ١٣٦٥هـ (٢٠ كانون الأول ١٩٤٥م) يُطالب فيها بتحقيق أهداف الشعب المصري في الجلاء عن مصر، ووحدة وادي النيل غير أن السفير قد رفض المذكرة وادعى أن الوقت لم يحن بعد لبحث هذه الموضوعات، على الرغم من أن الحرب قد انتهت منذ أكثر من أربعة أشهر.

ووقف حزب الوفد موقف المعارض من هذه المذكرة لأنها لم تكن عن طريقه، فالصراعات كانت من أجل السلطة لا من أجل قضايا الشعب المهمة.

وجرت محاولة لاغتيال مصطفى النحاس في ٢ محرم عام ١٣٦٥هـ، ولكن انفجرت القنبلة التي ألقيت عليه خلف السيارة، وذلك في الاحتفال بذكرى رأس السنة الهجرية.

وبرز في هذه الآونة أمين عثمان[٢] الذي كان أمين سر عام هيئة

---

(١) محمود فهمي بن علي النقراشي: ولد عام ١٣٠٥هـ بالإسكندرية، وتعلم بها، ثم بجامعة «نوتنغهام» بإنكلترا، واشتغل بالتدريس، وتسلم إدارة تعليم أسيوط، وانضم إلى حزب الوفد فأصبح وكيلاً لمحافظة القاهرة، فوكيلاً لوزارة الداخلية، وتسلم وزارة المواصلات، وانشق عن حزب الوفد، وأسس مع أحمد ماهر الهيئة السعدية، وعين رئيساً للوزارة بعد أن اغتيل أحمد ماهر، وتسلم رئاسة الوزارة الثانية، واغتيل وهو رئيس للوزارة بعد أن حل الإخوان المسلمين وذلك عام ١٣٦٨هـ.

(٢) أمين عثمان: ولد في الإسكندرية عام ١٣١٧هـ، ودرس في كلية «فيكتوريا» بالإسكندرية، وحصل على الثانوية العامة منها عام ١٣٣٥هـ، وسافر إلى إنكلترا ودرس الحقوق في جامعة «أكسفورد»، ونال درجة الأستاذية عام ١٣٤٠هـ، وتزوج من السيدة كاتلين غريغوري الإنكليزية، وعاد إلى مصر عام ١٣٤٣هـ، وسار في فلك إنكلترا وعلى نهجها، وتدرج في الوظائف الحكومية، وعين وزيراً للمالية في وزارة مصطفى النحاس أثناء الحرب العالمية الثانية.

المفاوضات التي جرت بين مصر وإنكلترا في لندن والتي وُقعت في ٩ جمادى الآخرة عام ١٣٥٥هـ (٢٦ آب ١٩٣٦م)، وكان له يد في نجاحها، ثم كان صلة الوصل بين إنكلترا وحزب الوفد. وقد أسس عام ١٣٦٣هـ جماعةً لتوثيق الروابط بين إنكلترا ومصر سمّاها «رابطة النهضة»، واتّخذ مقراً لها في ٢٤ شارع عدلي بالقاهرة، وأخذ يقوم بنشاطات واضحة في مقر الرابطة فيلقي المحاضرات، ويُعطي التصريحات، وكان مما صرّح به، وانتقده الكثيرون عليه «إن إنكلترا ومصر متزوجتان زواجاً كاثوليكياً لا انفصام بينهما» ففي الوقت الذي يقدّم فيه الشعب الضحايا، ويقوم بالمظاهرات، ويُطالب بالجلاء ينادي أمين عثمان بزيادة الارتباط مع إنكلترا، بل فعل أكثر من هذا إذ سافر بعد الحرب العالمية الثانية إلى إنكلترا وقدّم للحكومة البريطانية مبلغ مائة ألف جنيه على أنه تبرّع جمعه من الشعب المصري للمساهمة في إعادة بناء إحدى القرى التي دمّرتها الغارات الألمانية أثناء الحرب. قام بهذا الفعل والشعب المصري يتضوى جوعاً من الفقر، والقرى المصرية شبه خربة. وترددت شائعات أن إنكلترا ترشّحه لتشكيل الوزارة وسيكون من عداد أعضائها عدد ممن ترضى عنهم إنكلترا. وفي ٢ صفر ١٣٦٥هـ (٥ كانون الثاني ١٩٤٦م) أطلق عليه ثلاثة من الشباب الرصاص فأصيب ونقل إلى المستشفى غير أن المنية أدركته، واتهم في قتله حسين توفيق، وألقي القبض عليه وسجن، ثم هرب من السجن، كما اتّهم عزيز علي المصري، وأنور السادات، وسرت شائعات في هرب حسين توفيق كثيرة، والواقع أنه هرب إلى مدينة (قنا) ومنها إلى القصير، وأبحر بزورق إلى السعودية، وقد ساعده الأمير فيصل بن عبد العزيز تقديراً لوطنيته.

طالب رئيس الوزراء الحكومة البريطانية فتح باب المفاوضات للنظر في تعديل معاهدة (١٩٣٦م)، وخاصة أن الحرب قد انتهت، وأن مصر قد قدّمت خدمات وتضحيات لمصلحة الحلفاء، وقامت المظاهرات الطلابية في البلاد فاضطر إلى الاستقالة بعد استقالة عددٍ من الوزراء.

وفي شهر ربيع الأول ١٣٦٥هـ قدم محمود فهمي النقراشي استقالة حكومته، وعُين إسماعيل صدقي رئيساً للوزارة الجديدة.

وزارة إسماعيل صدقي الثالثة[1]:

وقد وجهت هذه الحكومة اهتماماً واضحاً في تطوير صناعة مصر، وفي شتى الجوانب الاقتصادية. وقررت في ١٦ ربيع الثاني ١٣٦٥هـ (١٩ آذار ١٩٤٦م) تأليف هيئة للمفاوضات، وعرضت على حزب الوفد الاشتراك فيها، على أن يمثِّل كل حزب بعضوٍ واحدٍ، ويُمثّل حزب الوفد بعضوين، لكن حزب الوفد قد رفض ذلك، وطالب بأن تكون له الأكثرية والرئاسة. فتكونت هيئة المفاوضات دون اشتراك حزب الوفد فيها، وكانت على النحو التالي:

١ ـ إسماعيل صدقي: رئيساً.

٢ ـ حسين سري: عضواً.

٣ ـ علي ماهر: عضواً.

٤ ـ محمود فهي النقراشي: عضواً.

٥ ـ إبراهيم عبد الهادي: عضواً.

---

(١) شكل إسماعيل صدقي وزارته من المستقلين إذ لم يقبل الاشتراك معه في الوزارة من الأحزاب سوى حزب الأحرار الدستوريين الذين شغلوا أربعة مناصب وزارية، وقد حدثت تعديلات وزارية كثيرة في أيام الحكومة الأولى لأنها خرجت على الأعراف الدستورية حيث لم تعتمد على قاعدة نيابية، وقد تشكلت على النحو الآتي:
١ ـ إسماعيل صدقي: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، والمالية.
٢ ـ أحمد لطفي السيد: وزير دولة، وزير خارجية.
٣ ـ سابا حبشي: وزيراً للتجارة، والصناعة، والتموين.
٤ ـ عبد القوي أحمد: وزيراً للأشغال العمومية.
٥ ـ محمد عبد الجليل سمرة: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٦ ـ إبراهيم دسوقي أباظة: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ حنفي محمود: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ اللواء أحمد عطية: وزيراً للدفاع الوطني.
٩ ـ محمد كامل مرسي: وزيراً للعدل.
١٠ ـ محمد حسن العشماوي: وزيراً للمعارف العمومية.
١١ ـ حسين عنان: وزيراً للزراعة.
١٢ ـ سليمان عزمي: وزيراً للصحة العمومية.

٦ ـ مكرم عبيد: عضواً.

٧ ـ أحمد لطفي السيد: عضواً.

٨ ـ حافظ عفيفي: عضواً.

٩ ـ عبد الفتاح يحيى: عضواً.

١٠ ـ شريف صبري: عضواً.

١١ ـ علي شمسي: عضواً.

١٢ ـ محمد حسين هيكل: عضواً.

ورأس الوفد البريطاني «أرنست بيفن» وزير الخارجية.

وثارت صحف الوفد على سياسة إسماعيل صدقي في تشكيل هيئة للمفاوضات من غير أن يكون الوفد فيها كل شيء، وتكون له الرئاسة فيها والكبرياء في الأرض، وهذا ما اضطر إسماعيل صدقي إلى مصادرتها أولاً، ثم إلغاء رخصة بعضها، وإلقاء القبض على محرريها، وزجهم في السجن.

كان رأي الوفد البريطاني في المفاوضات أن يكون الجلاء عن مصر بعد خمس سنوات، وأن يسمح لإنكلترا باستخدام الأراضي المصرية كاملةً أثناء الحرب. أما الوفد المصري فكان يرى أن يتمّ الجلاء خلال سنتين، ومن الضروري وحدة وادي النيل، ولا علاقة للتهديدات أثناء وقوع الحرب، وأرادت الحكومة المصرية التساهل غير أن أكثرية هيئة المفاوضات قد رفضت ذلك.

ولما أخفقت المفاوضات رجع إسماعيل صدقي مع من معه، ورأى الملك فاروق أن يتعهد شخصياً بتنفيذ أية معاهدة يتمّ الاتفاق عليها، وبعث برسالةٍ خاصةٍ إلى عبد الفتاح عمرو السفير المصري في إنكلترا. ورأى الملك كذلك أن يُشكل وزارةٍ برئاسة خاله شريف صبري، وكلفه بذلك بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٣٦٥هـ (٧ تشرين الأول ١٩٤٦م) بالإسكندرية، وبدأت المشاورات لتشكيل هذه الوزارة مع محمود فهمي النقراشي، ومحمد حسين هيكل، وحسين سري في منزل حسين سري ولكنها باءت بالفشل، واعتذر شريف

صبري عن تشكيل الوزارة مما اضطر الملك إلى رفض استقالة إسماعيل صدقي.

استمرت حكومة إسماعيل صدقي في الحكم، وعرض رئيسها السفر إلى لندن للمفاوضة غير أن الهيئة قد رفضت ذلك، وعرض علي ماهر، وعلي شمسي أن لا تقوم مفاوضات مع إنكلترا أبداً.

سافر إسماعيل صدقي رئيس الوزراء مع إبراهيم عبد الهادي وزير خارجيته إلى لندن، ووضع مشروع معاهدة، ولكن إنكلترا أخذت تماطل بالوقيع عليه رسمياً بعد أن وقّعت عليه بالأحرف الأولى، وذلك لأن الحكومة البريطانية كانت قد طلبت اشتراك حزب الوفد في المفاوضة لكنه لم يشترك، وهي لا تريد الاتفاق على معاهدة لا يكون حزب الوفد طرفاً فيها، هكذا سياستها التي عرفت بها، وأخيراً وقعت، ورجع إسماعيل صدقي، وإبراهيم عبد الهادي يحملان مشروع المعاهدة. وأذيع في مصر أن المشروع يشمل وحدة وادي النيل فكذّبت إنكلترا الخبر ببيانٍ أذاعه رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وقد جاء فيه أن إنكلترا لن تجلو عن السودان.

أما مشروع المعاهدة التي عرفت باسم «صدقي - بيفن» فينصّ على:

أولاً: إنهاء العمل بالمعاهدة ١٩٣٦م.

ثانياً: جلاء القوات البريطانية التام عن الأراضي المصرية في موعد أقصاه أيلول ١٩٤٩م.

ثالثاً: في حالة الاعتداء المسلح على مصر يتخذ الطرفان بالاتفاق أيّ إجراء يرونه ضرورياً.

رابعاً: تكوين لجنة دفاع مشترك من السلطات الحربية لدى الحكومتين لدرس وسائل الدفاع عنهما برّاً، وبحراً، وجوّاً.

خامساً: الاحتفاظ بمعاهدة ١٨٩٩م المتعلقة بالسودان.

عرض المشروع على هيئة المفاوضات فرفضته، فحلّ إسماعيل صدقي الهيئة. وتقدّم بالمشروع على الوزارة فاستقال أحمد لطفي السيد منها، وعرضه على مجلس النواب فانسحب من المجلس خمسة وخمسون عضواً، ويمثلون

الحزب الوطني، وحزب الوفد، والكتلة الوفدية، والمستقلين[1].

وخطر في نية إسماعيل صدقي إرسال وزير خارجيته إبراهيم عبد الهادي إلى لندن للتوقيع على مشروع المعاهدة، فقامت المظاهرات، وأعمال الشغب، وإلقاء المتفجرات، واضطر إسماعيل صدقي إلى تقديم استقالته بتاريخ ١٣ محرم ١٣٦٦هـ (٧ كانون الأول ١٩٤٦م) وعهد الملك إلى محمود فهمي النقراشي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ.

وزارة محمود فهمي النقراشي الثانية:

شكّل محمود فهمي النقراشي حكومته[2] في منتصف محرم أي بعد يومين من تكليفه، وحاول إقناع إنكلترا بإعادة النظر في معاهدة (١٩٣٦م) وبأنها مناقضة للاتفاقات الدولية، وطالب بجلاء القوات البريطانية عن مصر ولوّح بأن الاحتلال لو استمرّ فلن يكون في إمكانية أحد إخماد ثورة الشعب العارمة. كما طالب بإنهاء النظام الإداري القائم بالسودان. غير أن إنكلترا قد أصرت على موقفها من الرفض، وتمسكت بتنفيذ شروط المعاهدة القائمة بينها

---

(١) انتقد الإخوان المسلمون هذه المفاوضات، فجرت اعتقالات في صفوفهم، وكان من بين المعتقلين أحمد السكري. وقامت مظاهرات ضد هذه المفاوضات فتصدت لها الشرطة، وأصيب حسن البنا بجرح في يده.

(٢) شكل محمود فهمي النقراشي وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ ـ محمود فهمي النقراشي: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، والخارجية.

٢ ـ أحمد محمد خشبة: وزيراً للعدل.

٣ ـ محمد علي علوبة: وزيراً للأوقاف.

٤ ـ إبراهيم عبد الهادي: وزيراً للمالية.

٥ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.

٦ ـ عبد المجيد إبراهيم صالح: وزيراً للأشغال العمومية.

٧ ـ إبراهيم دسوقي أباظة: وزيراً للمواصلات.

٨ ـ عبد الرزاق أحمد السنهوري: وزيراً للمعارف العمومية.

٩ ـ عبد المجيد بدر: وزيراً للتجارة والصناعة.

١٠ ـ أحمد عطية: وزيراً للدفاع الوطني.

١١ ـ محمود حسن: وزيراً للشؤون الاجتماعية.

١٢ ـ نجيب إسكندر: وزيراً للصحة العمومية.

وبين مصر، ولما فشل محمود فهمي النقراشي لجأ إلى مجلس الأمن في رمضان ١٣٦٦هـ (آب ١٩٤٧م)، وعرض عليه القضية المصرية مطالباً بإصدار قرار فيها، ولكن مجلس الأمن يرعى شؤون الدول الكبرى ولا ينظر في قضايا الدول المغلوب على أمرها إلا بمقدار ما تريده الدول العظمى، فلم يصدر أي قرارٍ، ولم يبال بما قاله محمود فهمي النقراشي أمامه بأن الشعب معبّأ للثورة. وربما كان سبب إهمال مجلس الأمن للقضية المصرية المذكرة التي أرسلها حزب الوفد في أن لجنة المفاوضات لا تمثل مصر، بل تمثل نفسها، وإنما يمثل مصر حزب الوفد الذي يملك الأغلبية، وهكذا تصرّف السادة إن لم يكونوا في المقدمة، وعلى الواجهة مع الأعداء ضد إخوانهم. وما أن عاد النقراشي إلى البلاد حتى قامت المظاهرات في كل البلاد تطالب بالجلاء العاجل والاستقلال، ونتيجة للخطر الذي ربما ينجم عن هذه المظاهرات فقد بدأت القوات البريطانية ترحل عن داخل مصر إلى منطقة قناة السويس، وتتركّز فيها حيث أقامت هناك قاعدةً عسكريةً، ومطاراتٍ واسعةً، ومستودعات للذخيرة، ووصل عدد قواتهم هناك إلى ثمانين ألف جندي. ولكن المصريين لم يقبلوا بهذا الجلاء الجزئي فبقيت النفوس مُعبأة.

عيّن الملك فاروق رئيساً جديداً للديوان الملكي هو إبراهيم عبد الهادي الذي كان وزيراً للخارجية في الحكومة السابقة. وأعلنت الأحكام العرفية في البلاد في ٥ رجب ١٣٦٧هـ بسبب أحداث فلسطين، وعين محمود فهمي النقراشي حاكماً عسكرياً.

جرت محاولة جديدة لاغتيال مصطفى النحاس إذ ألقيت قنبلة على غرفة نومه، ولم يصب بأذى.

وفي ٢٤ صفر ١٣٦٨هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٤٨م) أصدر محمود فهمي النقراشي قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وبعد ثلاثة أيام أطلق عليه النار من المسدس الطالب عبد المجيد حسن الطالب في كلية الطب البيطري، فأرداه قتيلاً، وهو يهمّ بدخول وزارة الداخلية صباحاً، وكان الطالب يرتدي زيًّا عسكرياً، ولم يخطر بباله الهرب بل وقف مكانه حتى قبض عليه، وحُقّق معه،

واعترف ولكن التحقيق رغم التعذيب الشديد لم يستطع أن يأخذ منه شيئاً، وأعدم شنقاً.

وعهد إلى رئيس الديوان الملكي إبراهيم عبد الهادي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ فهو نائب محمود فهمي النقراشي في رئاسة الهيئة السعدية.

وزارة إبراهيم عبد الهادي[1]:

أعلنت هذه الحكومة الأحكام العرفية، وزجّت في السجون مئات الإخوان المسلمين، وأوعزت إلى سلطات السجون بتعذيبهم أشدّ العذاب، ولكن لم يفدها ذلك شيئاً إذ كانوا كالكتلة من الصخر. وفي ١٤ ربيع الثاني ١٣٦٨هـ اغتيل حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر.

جرت محادثات عسكرية مع الجنرال سليم قائد القوات البريطانية في قناة السويس، ولكنها لم تؤدّ إلى نتيجةٍ، حيث كانت إنكلترا تُبدي باستمرار أنها لا تريد التفاوض مع أحزاب الأقلّية، أي تبغي المفاوضة مع حزب الوفد فقط.

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ إبراهيم عبد الهادي: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، والمالية.
٢ ـ أحمد عبد الغفار: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ إبراهيم دسوقي أباظة: وزيراً للخارجية.
٤ ـ عبد المجيد عبد الحق: وزيراً للتموين.
٥ ـ طه محمد عبد الوهاب السباعي: وزيراً للدولة.
٦ ـ عبد الرزاق أحمد السنهوري: وزيراً للمعارف العمومية.
٧ ـ محمود حسن: وزيراً للدولة.
٨ ـ نجيب إسكندر: وزيراً للصحة العمومية.
٩ ـ ممدوح رياض: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٠ ـ علي عبد الرازق: وزيراً للأوقاف.
١١ ـ الفريق محمد حيدر: وزيراً للحربية والبحرية.
١٢ ـ جلال فهيم: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٣ ـ أحمد مرسي بدر: وزيراً للعدل.
١٤ ـ رياض عبد العزيز سيف النصر: وزيراً للمواصلات.
١٥ ـ عباس أبو حسين: وزيراً للزراعة.
١٦ ـ مصطفى مرعي: وزيراً للدولة.

عمل إبراهيم عبد الهادي لإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ، وكان هجوم المعارضة عليه عنيفاً فقد كان مصطفى النحاس يصف حكمه بالوضع الإرهابي نتيجة الأحكام العرفية القائمة.

وطلب الملك من إبراهيم عبد الهادي التفاهم مع حزب الوفد فلم يستطع فقدّم استقالته في ٤ شوال ١٣٦٨هـ (٢٩ تموز ١٩٤٩م)، وبعد أن اختلفت الأحزاب المشاركة للوزارة على تقسيم الدوائر الانتخابية.

وزارة حسين سري الثالثة:

عهد الملك إلى حسين سري بتشكيل وزارة جديدةٍ تكون ائتلافيةً من الأحزاب جميعها، وبدأ الخلاف من البداية، إذ كان إبراهيم عبد الهادي زعيم الهيئة السعدية، ومحمد حسين هيكل زعيم الأحرار الدستوريين يعترضان على تسلّم فؤاد سراج الدين وزارة الداخلية. وأخيراً شُكلت الوزارة[1].

---

(١) ضمت الوزارة ٤ أعضاء من حزب الوفد، و٤ من الهيئة السعدية، و٤ من الأحرار الدستوريين، و٤ من المستقلين، و٢ من الحزب الوطني.
وكانت على النحو الآتي:
١ - حسين سري: رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية، ووزيراً للخارجية.
٢ - أحمد محمد خشبة: وزيراً للعدل.
٣ - عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٤ - محمود غالب: وزيراً للدولة.
٥ - أحمد عبد الغفار: وزيراً للزراعة.
٦ - نجيب إسكندر: وزيراً للصحة العمومية.
٧ - الفريق محمد حيدر: وزيراً للبحرية والحربية.
٨ - محمد زكي علي: وزيراً للدولة.
٩ - محمد محمد الوكيل: وزيراً للدولة.
١٠ - أحمد علي علوبة: وزيراً للدولة.
١١ - علي أيوب: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٢ - إبراهيم دسوقي أباظة: وزيراً للأوقاف.
١٣ - محمد فؤاد سراج الدين: وزيراً للمواصلات.
١٤ - مصطفى نصرت: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٥ - أحمد مرسي بدر: وزيراً للمعارف العمومية. =

ثم ظهر الخلاف في الوزارة حول الإفراج عن الإخوان، وإعادة نشاطهم فرئيس الوزارة حسين سري، وحزب الوفد يوافقان على الإفراج عن الإخوان، ويرفض ذلك السعديون والأحرار الدستوريون، وأخيراً، أفرج عن الإخوان.

وبدأ الخلاف في توزيع الدوائر الانتخابية، فاختلف فؤاد سراج الدين وأحمد عبد الغفار على ذلك فتصدع الائتلاف، وقدّم حسين سري استقالة حكومته في ١٢ محرم ١٣٦٩هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٤٩م).

وزارة حسين سري الرابعة:

شكّل حسين سري وزارة محايدة[1] للإشراف على الانتخابات، وقد تمت الانتخابات وحصل حزب الوفد على الأكثرية حيث حصل على ٢٢٨ مقعداً، على حين حصل السعديون على ثمانية وعشرين مقعداً، والأحرار على ٢٦

= ١٦ ـ مصطفى مرعي: وزيراً للدولة.
١٧ ـ حسين فهمي: وزيراً للمالية.
١٨ ـ عبد الرحمن الرافعي: وزيراً للتموين.
١٩ ـ محمد هاشم: وزيراً للدولة.

(١) تشكلت وزارة حسين سري الرابعة، وهي المحايدة على النحو الآتي:
١ ـ حسين سري: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ صليب سامي: وزيراً للتجارة والصناعة.
٣ ـ محمد حسن العشماوي: وزيراً للمعارف العمومية.
٤ ـ حسين عنان: وزيراً للزراعة.
٥ ـ الفريق محمد حيدر: وزيراً للحربية والبحرية.
٦ ـ محمد هاشم: وزيراً للدولة.
٧ ـ محمد المفتي الجزائرلي: وزيراً للأوقاف.
٨ ـ محمد عبد الخالق حسونة: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ عبد الشافي عبد المتعال: وزيراً للمالية.
١٠ ـ إبراهيم شوقي: وزيراً للصحة العمومية.
١١ ـ محمد علي راتب: وزيراً للتموين.
١٢ ـ مصطفى فهمي: وزيراً للأشغال العمومية.
١٣ ـ سيد مصطفى: وزيراً للعدل.
١٤ ـ محمد علي نمازي: وزيراً للمواصلات.

مقعداً، والحزب الوطني على ستة مقاعد، والحزب الاشتراكي على مقعدٍ واحدٍ، على حين حصل المستقلون على ٣٠ مقعداً.

وبذا أصبحت رئاسة الوزارة من حقّ حزب الوفد، وكان الملك لا يريد أن يتسلّم مصطفى النحاس رئاسة الحكومة، فعرض ذلك على أمين سر الحزب فؤاد سراج الدين فرفض تجاوز زعيمه، وكُلّف مصطفى النحاس بتشكيل الحكومة بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٦٩هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٥٠م)، وبعد يومين قدّم حسين سري استقالة حكومته.

واجتمع مجلس الوزراء في أول جلسةٍ له في ٢٥ ربيع الأول، واجتمع مجلس النواب في ٢٧ من الشهر نفسه.

وزارة مصطفى النحاس[١]**:**

جاء وزير خارجية بريطانيا «بيفن» إلى زيارة مصر بتاريخ ٩ ربيع الثاني

---

(١) تشكلت وزارة مصطفى النحاس السابعة على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى النحاس: رئيساً للوزراء.
٢ ـ عثمان محرم: وزيراً للأشغال العمومية.
٣ ـ علي زكي العرابي: وزيراً للمواصلات.
٤ ـ عبد الفتاح الطويل: وزيراً للعدل.
٥ ـ محمد فؤاد سراج الدين: وزيراً للداخلية.
٦ ـ أحمد حمزة: وزيراً للزراعة.
٧ ـ مصطفى نصرت: وزيراً للحربية والبحرية.
٨ ـ محمود سليمان غنام: وزيراً للصناعة والتجارة.
٩ ـ محمد محمد الوكيل: وزيراً للاقتصاد الوطني.
١٠ ـ أحمد حسين: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١١ ـ مرسي فرحات: وزيراً للتموين.
١٢ ـ ياسين أحمد: وزيراً للأوقاف.
١٣ ـ عبد اللطيف محمود: وزيراً للصحة العمومية.
١٤ ـ إبراهيم فرج: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٥ ـ حامد زكي: وزيراً للدولة.
١٦ ـ محمد صلاح الدين: وزيراً للخارجية.
١٧ ـ طه حسين: وزيراً للمعارف العمومية. =

١٣٦٩هـ (٢٨ كانون الثاني ١٩٥٠م) حيث قابل وزير الخارجية المصرية محمد صلاح الدين.

كانت الحكومة تنوي إجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية من أجل الجلاء وإلغاء معاهدة (١٩٣٦م)، والمباحثات تعني عدم كتابة محاضر للجلسات لتكون وثائق كما هي حال المفاوضات، وقد رأت أن يتولّى شؤون المباحثات وزير الخارجية محمد صلاح الدين، ووزير الشؤون البلدية والقروية إبراهيم فرج، أما المفاوضات فيتولى أمرها رئيس الوزراء مصطفى النحاس.

بدأت المباحثات بين مصطفى النحاس والجنرال سليم بتاريخ ١٩ شعبان ١٣٦٩هـ (٥ حزيران ١٩٥٠م)، وكانت إنكلترا ترغب إنشاء حلف للدفاع المشترك عن الشرق الأوسط، ويكون مؤلفاً من إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية، وتركيا، والدول العربية، أما مصطفى النحاس فكان يرفض هذا الرأي كلياً، ويبدو أن فؤاد سراج الدين يرغب في إقامة دفاع بين الدول العربية فقط. وقد طالت المباحثات والتأجيل، وفي ٨ محرم عام ١٣٧١هـ (٨ تشرين الأول ١٩٥١م) ألغى مصطفى النحاس المعاهدة بخطاب أمام مجلس النواب.

وقابل سفراء الولايات المتحدة، وإنكلترا، وفرنسا، وتركيا وزير الخارجية محمد صلاح الدين، واحتجوا على إلغاء المعاهدة بتقديم كل واحدٍ منهم مذكرة احتجاج باسم دولته.

وكانت العقبة الرئيسية هي السودان، فإن الجلاء عن مصر أمر مفروغ منه، ولكن موضوع السودان هو المشكلة، وهو الذي بحاجة إلى مناقشاتٍ ومباحثاتٍ. وطالبت مذكرات السفراء الرجوع إلى السودانيين وإجراء استفتاء حول قضية المصير، أما المصريون فإنهم يرون أن الموضوع منتهٍ فالسودان جزء لا يتجزأ من مصر، فالخرطوم والإسكندرية سواء. وعندما عرضت مذكرات السفراء على مجلس الوزراء رفضت.

وشجّعت الحكومة أعمال الفدائيين في قناة السويس بعد إلغاء المعاهدة،

= ١٨ ـ محمد زكي عبد المتعال: وزيراً للمالية.

١٩ ـ محمد حيدر: وزيراً، القائد العام للقوات المسلحة.

وكانت تمدّهم بالسلاح عن طريق ضباط الشرطة، بل انضمّ إليهم عدد من ضباط الجيش، وكان أكثر الفدائيين من شباب الإخوان المسلمين وخاصة طلاب الجامعة منهم.

واحتجت الولايات المتحدة على مقتل راهبةٍ ممرضةٍ أمريكيةٍ قُتلت برصاص الإنكليز غير أن الحكومة قد رفضت هذا الاحتجاج.

وبعد إلغاء المعاهدة قدّم السفير البريطاني «رالف ستيفنسون» مذكرة إلى رئيس الحكومة في ١٣ محرم ١٣٧١هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٥١م) تنطوي على مشروع للدفاع عن الشرق الأوسط تكون مقرّ قيادته القاهرة وتشترك فيه: الولايات المتحدة، وإنكلترا، وفرنسا، وتركيا، وقد رفضت الحكومة هذه المذكرة أيضاً.

وبقيت وزارة النحاس حتى حريق القاهرة يوم ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢م) حيث نزل الجيش إلى المدينة بأمر وزير الداخلية بعد استئذان الملك. وفي المساء أُقيلت الحكومة، وكُلّف علي ماهر بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ.

وزارة علي ماهر الثالثة[1]:

لم يطل عمر هذه الوزارة إلا مدةً قصيرةً تزيد على الشهر إلا قليلاً كانت

---

(١) شكل علي ماهر وزارته على النحو الآتي:
١ ـ علي ماهر: رئيساً للوزراء، وزيراً للخارجية، والحربية والبحرية.
٢ ـ صليب سامي: وزيراً للزراعة.
٣ ـ محمد عبد الخالق حسونة: وزيراً للمعارف العمومية.
٤ ـ إبراهيم شوقي: وزيراً للصحة العمومية، والشؤون البلدية والقروية.
٥ ـ محمد علي نمازي: وزيراً للعدل.
٦ ـ محمد زكي عبد المتعال: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٧ ـ أحمد مرتضى المراغي: وزيراً للداخلية.
٨ ـ إبراهيم عبد الوهاب: وزيراً للتجارة والصناعة والتموين.
٩ ـ سعد اللبان: وزيراً للأوقاف.
١٠ ـ محمود حسن: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١١ ـ حامد سليمان: وزيراً للأشغال العمومية، والمواصلات.

كلها خلافاً مع القصر لأمورٍ بسيطةٍ، وتعييناتٍ. وطلب منه الملك حلّ المجلس النيابي ذي الأكثرية الوفدية والقيام بحركة تطهير، ولكنه رأى أن تبدأ الحكومة بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ووضع حلّ للمشكلات الخارجية، ثم تلتفت بعدها إلى المشكلات الداخلية، وقد أعلنت الدولة الأحكام العرفية.

وقدم علي ماهر استقالة حكومته في ٦ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ (٢ آذار ١٩٥٢م)، وكلف أحمد نجيب الهلالي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ، وكان قد اعتذر من قبل عن تشكيل الحكومة، ورشّح لها علي ماهر.

وزارة أحمد نجيب الهلالي[1]:

كان نجيب الهلالي من حزب الوفد، ثم تركه عندما أصبح فؤاد سراج الدين أميناً لسرّ الحزب، ورشح نجيب الهلالي اللواء محمد نجيب ليكون وزيراً للحربية، غير أن الملك قد رفض ذلك. كما رفض نجيب الهلالي اقتراحاً

---

(١) أحمد نجيب الهلالي: ولد بأسيوط عام ١٣٠٨هـ، ودرس بمدرسة الحقوق الخديوية، ودرّس بها، وعمل بالمحاماة، وتدرّج بمناصب القضاء، ثم تسلّم وزارة المعارف، فوزارة التجارة، وله مصنفات بالقانون، وتوفي بالقاهرة عام ١٣٧٨هـ.
وقد شكل وزارته على النحو الآتي:
١ ـ أحمد نجيب الهلالي: رئيساً للوزراء.
٢ ـ صليب سامي: وزيراً للتجارة، والصناعة والتموين.
٣ ـ طه محمد عبد الوهاب السباعي: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
٤ ـ محمد كامل مرسي: وزيراً للعدل.
٥ ـ محمد المفتي الجزائرلي: وزيراً للأوقاف.
٦ ـ محمد عبد الخالق حسونة: وزيراً للخارجية.
٧ ـ محمد زكي عبد المتعال: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٨ ـ أحمد مرتضى المراغي: وزيراً للداخلية، والحربية والبحرية.
٩ ـ محمد رفعت: وزيراً للمعارف العمومية.
١٠ ـ محمد فريد زعلوك: وزير دولة للدعاية.
١١ ـ طراف علي: وزيراً للمواصلات.
١٢ ـ نجيب إبراهيم: وزيراً للأشغال العمومية.
١٣ ـ محمود عثمان غزالي: وزيراً للزراعة.
١٤ ـ راضي أبو سيف راضي: وزيراً للشؤون الاجتماعية، والصحة العمومية.

للملك بتعيين أحمد النقيب وزيراً للصحة. وحدّدت الحكومة إقامة فؤاد سراج الدين بحجة أنه لا يزال يحرّض الفدائيين في منطقة قناة السويس. وفشل نجيب الهلالي في جرّ الإخوان المسلمين إلى الاشتراك في الانتخابات. وأجلت الحكومة المجلس النيابي مدة شهر ثم حلته، وأعلنت عن موعد للانتخابات ولكن تأجل الموعد...

قدم الهلالي استقالة حكومته في ١٠ شوال ١٣٧١هـ (٢ تموز ١٩٥٢م).

وزارة حسين سري:

شكل حسين سري الوزارة[١] في ١٠ شوال ولم تدم أكثر من عشرين يوماً، حيث استقال في ١ ذي القعدة ١٣٧١هـ.

وكان قد نجح اللواء محمد نجيب في إدارة مجلس نادي الضباط على غير رغبة القصر الذي عمل على حل مجلس إدارة النادي فاستقال اللواء محمد نجيب، وعمل رئيس الوزراء على إنقاذ الموقف بأن يُعيّن محمد نجيب وزيراً للحربية فلم يفلح فقدم استقالة حكومته. وكان قد اقترح من قبل تعيين عزيز

---

(١) كانت وزارة حسين سري على الشكل الآتي:

١ ـ حسين سري: رئيساً لمجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية، والحربية والبحرية.
٢ ـ محمد هاشم: وزيراً للداخلية.
٣ ـ محمد علي راتب: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
٤ ـ نجيب إبراهيم: وزيراً للأشغال، والمالية، والاقتصاد بالوكالة.
٥ ـ سامي مازن: وزيراً للمعارف العمومية.
٦ ـ كريم ثابت: وزير دولة.
٧ ـ سيد عبد الواحد: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ أحمد زكي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ محمد علي الكيلاني: وزيراً للزراعة.
١٠ ـ حسين كامل الغمراوي: وزيراً للتموين.
١١ ـ عبد المعطي خيال: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٢ ـ محمود محمد صلاح الدين: وزيراً للصحة العمومية.
١٣ ـ علي بدوي: وزيراً للعدل.
١٤ ـ محمد أحمد فرج السنهوري: وزيراً للأوقاف.

علي المصري وزيراً للحربية، فرفض طلبه أيضاً بحجة أن صحته لا تسمح بذلك.

وحاول القصر وخاصة الملك ثني حسين سري عن تقديم استقالته، ولكن رئيس الوزراء لم يرضخ وأصرّ فقبلت بشيء من الجفاء.

وزارة أحمد نجيب الهلالي:

وهي آخر وزارة قبل الثورة، ولم تستمر أكثر من يومين إذ شكلت يوم ٢٩ شوال وفي ٢ ذي القعدة قامت الثورة[١].

وقالوا فيما بعد: إن حافظ عفيفي الذي له علاقة بسفارة الولايات المتحدة قد ألحّ كثيراً ليتسلّم إسماعيل شيرين وزارة الحربية وقد تمّ ذلك، وهذا لتزداد نقمة الجيش والشعب على القصر، وليمهّد بذلك لحركة الجيش أن تقوم إذ كان إسماعيل شيرين معروفاً بتعلقه بالقصر، ومكروهاً، وهو زوج الأميرة فوزية أخت الملك. وقد أحسّ إسماعيل شيرين بما يجري، ولم يحلف

---

(١) كانت وزارة أحمد نجيب الهلالي على الشكل الآتي:
١ ـ أحمد نجيب الهلالي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ طه محمد عبد الوهاب السباعي: وزيراً للتموين.
٣ ـ محمد كامل مرسي: وزيراً للعدل.
٤ ـ محمد المفتي الجزائرلي: وزيراً للأوقاف.
٥ ـ محمد عبد الخالق حسونة: وزيراً للخارجية.
٦ ـ محمد زكي عبد المتعال: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٧ ـ أحمد مرتضى المراغي: وزيراً للداخلية.
٨ ـ محمد رفعت: وزيراً للمعارف.
٩ ـ محمد فريد زعلوك: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٠ ـ طراف علي: وزيراً للمواصلات.
١١ ـ راضي أبو سيف راضي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٢ ـ إسماعيل شيرين: وزيراً للحربية والبحرية.
١٣ ـ حسن كامل الشيشيني: وزيراً للزراعة.
١٤ ـ يوسف سعد: وزيراً للأشغال العمومية.
١٥ ـ مريت غالي: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٦ ـ سيد شكري: وزيراً للصحة العمومية.

اليمين الدستورية، وكان يرى أن يُكلف مصطفى النحاس برئاسة الوزارة وهو الطريق الوحيد للحيلولة دون حدوث انقلابٍ عسكري فإن البلاد مُقبلة عليه... وتردّد الملك، وفكّر بإرسال إسماعيل شيرين لاستقدام النحاس غير أن رئيس الديوان الملكي حافظ عفيفي سوّل غير ذلك... وكان الإعداد للحركة قد انتهى وبعد ثلاثة أيامٍ حدثت الثورة...

وقد اشترط أحمد نجيب الهلالي شروطاً لرئاسة الوزارة، وهي:

أ ـ إخراج كريم ثابت من الإذاعة.

ب ـ أن يكون حافظ عفيفي المعتمد الوحيد بين القصر والوزارة.

ج ـ أن يختار وزراءه حسب ما يريد دون تدخّل القصر.

د ـ إبعاد العناصر الفاسدة من رجال الشرطة.

هـ ـ إلغاء الأحكام العرفية، وأن تقرر الوزارة الجديدة موعد الانتخابات دون تدخل القصر.

وأمام الظروف القائمة لم يكن أمام الملك سوى قبول هذه الشروط التي تألّفت بمتضاها الوزارة.

وهذا ملخص عن الحكومات المتتالية في العهد الملكي:

١ ـ عبد الخالق ثروت «الأولى»: ٣ رجب ١٣٤٠ ـ ١٠ ربيع الثاني ١٣٤١هـ. (١آذار ١٩٢٢ ـ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٢م).

٢ ـ محمد توفيق نسيم «الثانية»: ١٠ ربيع الثاني ١٣٤١ ـ ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٤١هـ. (٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٢ ـ ٩ شباط ١٩٢٣م).

٣ ـ يحيى إبراهيم: ٢٨ رجب ١٣٤١ ـ ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ. (١٥ آذار ١٩٢٣ ـ ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤م).

٤ ـ سعد زغلول: ٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٢ ـ ٢٧ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ. (٢٨ كانون الثاني ١٩٢٤ ـ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٤م).

٥ ـ أحمد زيور «الأولى»: ٢٧ ربيع الثاني ١٣٤٣ ـ ١٨ شعبان ١٣٤٣هـ. (٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٤ ـ ١٣ آذار ١٩٢٥م).

٦ - أحمد زيور «الثانية»: ١٨ شعبان ١٣٤٣ - ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ. (١٣ آذار ١٩٢٥ - ٧ حزيران ١٩٢٦م).

٧ - عدلي يكن «الثانية»: ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٤ - ١٩ شوال ١٣٤٥هـ. (٧ حزيران ١٩٢٦ - ٢١ نيسان ١٩٢٧م).

٨ - عبد الخالق ثروت «الثانية»: ٢٤ شوال ١٣٤٥ - ١٣ رمضان ١٣٤٦هـ. (٢٦ نيسان ١٩٢٧ - ٤ آذار ١٩٢٨م).

٩ - مصطفى النحاس «الأولى»: ٢٥ رمضان ١٣٤٦ - ٧ محرم ١٣٤٧هـ. (١٦ آذار ١٩٢٨ - ٢٥ حزيران ١٩٢٨م).

١٠ - محمد محمود «الأولى»: ٧ محرم ١٣٤٧ - ٢٨ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ. (٢٥ حزيران ١٩٢٨ - ٢ تشرين الأول ١٩٢٩م).

١١ - عدلي يكن «الثالثة»: ٢٩ ربيع الثاني ١٣٤٨ - ٣٠ رجب ١٣٤٨هـ. (٣ تشرين الأول ١٩٢٩ - ٣١ كانون الأول ١٩٢٩م).

١٢ - مصطفى النحاس «الثانية»: ١ شعبان ١٣٤٨ - ٢١ محرم ١٣٤٩هـ. (١ كانون الثاني ١٩٣٠ - ١٩ حزيران ١٩٣٠م).

١٣ - إسماعيل صدقي «الأولى»: ٢٣ محرم ١٣٤٩ - ٨ رمضان ١٣٥١هـ. (١٩ حزيران ١٩٣٠ - ٤ كانون الثاني ١٩٣٣م).

١٤ - إسماعيل صدقي «الثانية»: ٨ رمضان ١٣٥١ - ٨ جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ. (٤ كانون الثاني ١٩٣٣ - ٢٧ أيلول ١٩٣٣م).

١٥ - وزارة عبد الفتاح يحيى: ٨ جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ - ٧ شعبان ١٣٥٣هـ. (٢٧ أيلول ١٩٣٣ - ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٤م).

١٦ - محمد توفيق نسيم «الثالثة»: ٧ شعبان ١٣٥٣ - ٧ ذي القعدة ١٣٥٤هـ. (١٤ تشرين الثاني ١٩٣٤ - ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦م).

١٧ - علي ماهر «الأولى» ٧ ذي القعدة ١٣٥٤ - ١٩ صفر ١٣٥٥هـ. (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦ - ٩ أيار ١٩٣٦م).

١٨ ـ مصطفى النحاس «الثالثة»: ١٩ صفر ١٣٥٥ ـ ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ. (٩ أيار ١٩٣٦ ـ ٢٩ تموز ١٩٣٧م).

١٩ ـ مصطفى النحاس «الرابعة»: ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٦ ـ ٢٧ شوال ١٣٥٦هـ. (٢٩ تموز ١٩٣٧ ـ ٣٠ كانون الأول ١٩٣٧م).

٢٠ ـ محمد محمود «الثانية»: ٢٨ شوال ١٣٥٦ ـ ٢٧ صفر ١٣٥٧هـ. (٣١ كانون الأول ١٩٣٧ ـ ٢٧ نيسان ١٩٣٨م).

٢١ ـ محمد محمود «الثالثة»: ٢٧ صفر ١٣٥٧ ـ ٢٦ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ. (٢٧ نيسان ١٩٣٨ ـ ٢٤ حزيران ١٩٣٨م).

٢٢ ـ محمد محمود «الرابعة»: ٢٦ ربيع الثاني ١٣٥٧ ـ ٣ رجب ١٣٥٨هـ. (٢٤ حزيران ١٩٣٨ ـ ١٨ آب ١٩٣٩م).

٢٣ ـ علي ماهر «الثانية»: ٣ رجب ١٣٥٨ ـ ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ. (١٨ آب ١٩٣٩ ـ ٢٧ حزيران ١٩٤٠م).

٢٤ ـ حسن صبري: ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٩ ـ ١٤ شوال ١٣٥٩هـ. (٢٧ حزيران ١٩٤٠ ـ ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٠م).

٢٥ ـ حسين سري «الأولى»: ١٥ شوال ١٣٥٩هـ ـ ٨ رجب ١٣٦٠هـ. (١٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ ـ ٣١ تموز ١٩٤١م).

٢٦ ـ حسين سري «الثانية»: ٨ رجب ١٣٦٠ ـ ١٨ محرم ١٣٦١هـ. (٣١ تموز ١٩٤١ ـ ٤ شباط ١٩٤٢م).

٢٧ ـ مصطفى النحاس «الخامسة»: ١٨ محرم ١٣٦١ ـ ١١ جمادى الأولى ١٣٦١هـ. (٤ شباط ١٩٤٢ ـ ٢٦ أيار ١٩٤٢م).

٢٨ ـ مصطفى النحاس «السادسة»: ١١ جمادى الأولى ١٣٦١ ـ ٢١ شوال ١٣٦٣هـ. (٢٦ أيار ١٩٤٢ ـ ٨ تشرين الأول ١٩٤٤م).

٢٩ ـ أحمد ماهر «الأولى»: ٢١ شوال ١٣٦٣ ـ ١ صفر ١٣٦٤هـ. (٨ تشرين الأول ١٩٤٤ ـ ١٥ كانون الثاني ١٩٤٥م).

٣٠ ـ أحمد ماهر «الثانية»: ١ صفر ١٣٦٤ ـ ١٢ ربيع الأول ١٣٦٤هـ. (١٥ كانون الثاني ١٩٤٥ ـ ٢٤ شباط ١٩٤٥م).

٣١ ـ محمود فهمي النقراشي «الأولى»: ١٤ ربيع الأول ١٣٦٤ ـ ١٤ ربيع الأول ١٣٦٥هـ. (٢٤ شباط ١٩٤٥ ـ ١٥ شباط ١٩٤٦م).

٣٢ ـ إسماعيل صدقي «الثالثة»: ١٥ ربيع الأول ١٣٦٥ ـ ١٥ محرم ١٣٦٦هـ. (١٦ شباط ١٩٤٦ ـ ٩ كانون الأول ١٩٤٦م).

٣٣ ـ محمود فهمي النقراشي «الثانية»: ١٥ محرم ١٣٦٦ ـ ٢٧ صفر ١٣٦٨هـ. (٩ كانون الأول ١٩٤٦ ـ ٢٨ كانون الأول ١٩٤٨م).

٣٤ ـ إبراهيم عبد الهادي: ٢٧ صفر ١٣٦٨ ـ ٤ شوال ١٣٦٨هـ. (٢٨ كانون الأول ١٩٤٨ ـ ٢٩ تموز ١٩٤٩م).

٣٥ ـ حسين سري «الثالثة»: ٤ شوال ١٣٦٨ ـ ١٢ محرم ١٣٦٩هـ. (٢٩ تموز ١٩٤٩ ـ ٣ تشرين الثاني ١٩٤٩م).

٣٦ ـ حسين سري «الرابعة»: ١٢ محرم ١٣٦٩ ـ ٢٣ ربيع الأول ١٣٦٩هـ. (٣ تشرين الثاني ١٩٤٩ ـ ١٢ كانون الثاني ١٩٥٠م).

٣٧ ـ مصطفى النحاس «السابعة»: ٢٣ ربيع الأول ١٣٦٩ ـ ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧١هـ. (١٢ كانون الثاني ١٩٥٠ ـ ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٢م).

٣٨ ـ علي ماهر «الثالثة»: ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧١ ـ ٦ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ. (٢٧ كانون الثاني ١٩٥٢ ـ ٢ آذار ١٩٥٢م).

٣٩ ـ أحمد نجيب الهلالي «الأولى»: ٦ جمادى الآخرة ١٣٧١ ـ ١٠ شوال ١٣٧١هـ. (٢ آذار ١٩٥٢ ـ ٢ تموز ١٩٥٢م).

٤٠ ـ حسين سري «الخامسة»: ١٠ شوال ١٣٧١ ـ ١ ذي القعدة ١٣٧١هـ. (٢ تموز ١٩٥٢ ـ ٢٢ تموز ١٩٥٢م).

٤١ ـ أحمد نجيب الهلالي «الثانية»: ١ ذي القعدة ١٣٧١ ـ ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ. (٢٢ تموز ١٩٥٢ ـ ٢٣ تموز ١٩٥٢م).

وهكذا تعاقبت إحدى وأربعون وزارةً في عهد الملكية في مدة لا تزيد كثيراً على الثلاثين سنة ونصف السنة من: ٣ رجب ١٣٤٠ إلى ٣ ذي القعدة ١٣٧١هـ. (١ آذار ١٩٢٢ إلى ٢٣ تموز ١٩٥٢م).

وإذا كان بعض هذه الوزارات قد زادت مدة حكمها على السنتين كوزارة محمود فهمي النقراشي الثانية ووزارة مصطفى النحاس السابعة فإن بعضها لم تصل مدتها إلى ٢٤ ساعة كوزارة أحمد نجيب الهلالي الثانية آخر وزارة في العهد الملكي.

وقد رأس حزب الوفد ثمان وزارات:	٨	مصطفى النحاس رأس سبع وزارات. وسعد زغلول رأس وزارة واحدة.
ورأس حزب الأحرار الدستوريين ثمان وزارات أيضاً	٨	عبد الخالق ثروت رأس وزارتين. وعدلي يكن رأس وزارتين. ومحمد محمود رأس أربع وزارات.
ورأس حزب الهيئة السعدية خمس وزارات	٥	أحمد ماهر رأس وزارتين. ومحمود فهمي النقراشي رأس وزارتين. وإبراهيم عبد الهادي رأس وزارة واحدة.
ورأس حزب الشعب أربع وزارات	٤	إسماعيل صدقي رأس ثلاث وزارات. وعبد الفتاح يحيى رأس وزارة واحدة.
ورأس حزب الاتحاد ثلاث وزارات	٣	يحيى إبراهيم رأس وزارة واحدة. محمد توفيق نسيم رأس وزارتين.

أما باقي الوزارات فقد تسلمها مستقلون:

وتسلّم أحمد زيور وزارتين	٢
وتسلّم علي ماهر ثلاث وزارات	٣
وتسلّم حسين سري خمس وزارات	٥

وتسلم أحمد نجيب الهلالي وزارتين ٢

وتسلّم حسين صبري وزارة واحدة ١

---

٤١ وزارة

❀ ❀ ❀

الفصل الثّاني
الجمهوريّة أو الاستقلال

انتهت الحرب العالمية الثانية، وظهر في العالم دولتين عُظميين: الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، ولها هيمنة على دول القارة الأمريكية، وعلى دول غربي أوروبا بقوّتها العسكرية وضخامة اقتصادها، والاتحاد السوفيتي في الشرق وله سيطرته على أراضي الإمبراطورية الروسية ودول شرقي أوروبا. وكان في العالم معسكران أو حلفان: حلف شمالي الأطلسي أو المعسكر الغربي ويشمل دول غربي أوروبا والولايات المتحدة وكندا، وحلف «وارسو» أو المعسكر الشرقي ويشمل دول شرقي أوروبا وما يُسيطر عليه الروس في القارة الآسيوية. ودول العالم الأخرى تبع لهذا أو ذاك، تسير في فلك دولةٍ كبرى، أو تخضع لها، أوتتلقّى دعماً مادياً أو مُساعدات عسكرية، أو تعيش في ظلّ حمايتها والمحافظة على الحكم فيها.

ورأت الولايات المتحدة الأمريكية أن المعسكر الشرقي أكثر تكتُّلاً وأكثر ترابطاً وانسجاماً إذ فيه رأس واحد هو «الإمبراطورية الروسية» هو يُصدر الأوامر، ويستجيب الآخرون، ويضع الخطط وينفّذ الآخرون، هو الأصل وبقية دول المعسكر تسير في فلكه من غير رأي ولا مُعارضةٍ. أما المعسكر الغربي ففيه أكثر من رأس كلّ يُريد لنفسه الهيمنة، ويسعى إلى السيطرة، ويرغب في القوة ليتفوّق على الآخرين، وهناك إلى جانب الولايات المتحدة كل من إنكلترا، وفرنسا، كما أن ألمانيا الغربية تمدّ برأسها لتُطاول أشقائها، بل وتتنافس فرنسا وإنكلترا في مستعمراتهما ومناطق نفوذهما، حتى ليبدو أن في هذا المعسكر خللاً إذا ما قُورن مع خصمه المعسكر الآخر.

ورأت الولايات المتحدة أن الخلاص من هذا هو العمل على زيادة قوّتها

والسعي لزيادة اقتصادها كي يقوى نفوذها أكثر بين حلفائها، وتتمةً للخطة لا بدّ من إضعاف دول معسكرها أمامها وليس أمام خصمها لتكون مكانتها كمكانة الاتحاد السوفيتي بين دول معسكره. وإن أقرب طريق لهذا هو أن تحلّ الولايات المتحدة محلّ إنكلترا وفرنسا في مناطق نفوذهما فتزداد قوّتها، ويتعاظم اقتصادها وفي الوقت نفسه تقلّ منافسة هاتين الدولتين لها لما يُصيبها من ضعفٍ، وإن هذا لن يفقد المعسكر شيئاً فإن ما كان يأتيه من إمكاناتٍ لا يزال يأتيه بل يزيد نتيجة ضخامة رأس المال وتوحيد الجهود، وكل ما هنالك أنه كان يدخل عليه من جهةٍ فأصبح يدخل من جهةٍ ثانيةٍ. وإن من مناطق النفوذ هذه مصر التي كانت ضمن مناطق نفوذ إنكلترا.

اتّجهت الولايات المتحدة نحو مصر بعد أن كانت قد حلّت محلّ إنكلترا وفرنسا في عددٍ من الدول التي كانت تخضع لتلك الدولتين، وكانت تجد مُقاومةً وعُنفاً في البلدان التي يكون نفوذ إحدى الدولتين ذا جُذور متينةٍ حتى تضطر للتهيئة لعدّة انقلابات أو بذل رؤوس أموال أكثر ضخامةً، ولربما نجد في بلدٍ واحدٍ انقلاباً يتلو انقلاباً، تهيئ واحداً فيُعقبة من صديقتها المنافسة لها انقلاب ثانٍ وهكذا مرّاتٍ ومرّاتٍ، وقد لا يحتاج الأمر أكثر من صراع واحدٍ، وحتى يكون هذا، وكي لا يُكلّفها كثيراً بدأت تُركّز بشكلٍ أفضل من السابق فالتجربة سيّدة العلم، وقاعدة الدراسات.

وجدت الولايات المتحدة الأمريكية في مصر: ملك غارق في لهوه، همّه بسط نفوذه وسيطرته كي لا تكون لأحدٍ سواه كلمة. وأحزاب تتصارع على الحكم، لا تُبالي بالشعب إلاّ وقت الانتخابات، ومجلس نيابي يُحلّ بأمرٍ، ويُرجع بآخر لا يختلف عن أحزابه المتعددة، والشعب فقير بائس مسحوق بالحكم ومطحون من قبل ملاّك الأرض. وقد بدأت أعداد كبيرة من الشعب والتي تسمح لها ظروفها بالتعلُّم والتحرُّك تتجه نحو دعوة الإخوان المسلمين بحكم عاطفتها الدينية، ولعلّها تتخلّص مما تُعاني أو على الأقل ترتاح نفسياً من مُشكلاتها، وخاصّةً بعد أن برزت جماعة الإخوان المسلمين بالدعاية التي حصلت عليها في القتال في فلسطين، وفي حرب القناة، وبعد أن لاحظ الشعب سلوك أفراد هذه الجماعة الطيّب، خُلقاً، وعبادةً، ومُعاملةً، واستقامةً،

وتزداد هذه الجماعة قوةً بنظامها الخاص، وضباطها في الجيش، وقد غدت أكبر قوّة مُنظَّمةٍ حزبياً في مصر.

وضعت الولايات المتحدة خطَّةً لنفسها وهي التهيئة لانقلاب عسكري بالاتصال بضباط الجيش الناقمين على الحكم لوضعه، اللهو، والفساد، وإهمال الجيش وقد ظهر ذلك في القتال في فلسطين، ويُؤيّد هذا الانقلاب شعبياً بالإخوان المسلمين نتيجة القنوات التي تصل بين الضباط الناقمين وضباط الإخوان، حتى إذا تمّ الأمر وحدث الانقلاب كان الضباط الناقمون على معرفةٍ تامةٍ بنظيم الإخوان، وضباطهم، ومراكز قوتهم، ونقاط ضعفهم، بل ومن المفيد جداً أن تُهيَّأ مستمسكات على الإخوان أثناء العمل المشترك كمخازن للأسلحة أو غيرها، كما يجب العمل على ضمّ ما أمكن ضمّه من ضباط الإخوان إلى الضباط الناقمين على الحكم للإفادة منهم في الحركة، وفي ضرب الإخوان عندما يُباشر بذلك.

بدأ الاتصال بضباط الجيش الناقمين على الحكم، وقد كان لهم تنظيم سرّيّ في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وكانت لأكثرهم صلة مع الإخوان، ثمَّ انفرط عقد هذا التنظيم، وانقطعت الصلة مع الإخوان نتيجة الأحكام العرفية التي أُعلنت لظروف الحرب، ثم نتيجة حلّ تنظيم جماعة الإخوان بعد مقتل النقراشي، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٦٩هـ حيث رجع العمل إلى التنظيم كما عاد الاتصال مع ضباط الإخوان والتعرّف عليهم، ولم يكن هؤلاء الضباط الذين بدؤوا بالتنظيم من الضباط الذين يطلبون الدعم والمساعدة من الإخوان، وإنما أظهروا انخراطهم في صفوف الجماعة، ولم يُبال قادة الإخوان بذلك كثيراً بل على العكس شعروا بالارتياح حيث ظنّوا أن هذا الانضمام إيمان حقيقي بالدعوة وإيمان سليم في النفوس، وكذلك أحسّ قادة جماعة الإخوان أن حركتهم تنمو فالشعب ذو فطرةٍ سليمةٍ وعاطفةٍ دينيةٍ صحيحة، ولم يُدركوا أن هذا تخطيط ماكر، وقد سبق أن خطب الحكام ودّ الإخوان غير أن الإخوان قد عزفوا عن كل شيءٍ لأنهم لم يكونوا طُلّاب سلطةٍ ولا أصحاب مصلحةٍ وجاهٍ، واستمرّت المفاصلة مع الحكّام.

وزاد عدد الضباط الناقمين على الحكم، وعُرف تنظيمهم باسم «الضباط الأحرار» وزادت صلتهم مع الإخوان، وتمَّ التنسيق، وكثرت اللقاءات، وجاءت الظروف المناسبة، وفي صباح يوم الأربعاء ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م) تمّ الانقلاب، وسيطر القائمون بالحركة على الوضع تماماً، وكان التعاون بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين، وقد أوعز الإخوان إلى ضباطهم في الجيش والشرطة بتنفيذ أوامر رجال الحركة، وقد تمّ ذلك إذ أدّى ضباط الإخوان كل ما طلبت الحركة منهم القيام به، كما أن أفراد جوّالة الإخوان وبعض أعضائهم قد سيطروا على طريق القاهرة ـ السويس حساباً لأية عمليةٍ قد تقوم بها القوات الإنكليزية الموجودة في منطقة القناة.

وكان المقدّم أنور السادات قد دخل بمجموعته دار الإذاعة، وسار إلى غرفة الأخبار ليُذيع بيان الثورة، ولكن المذيع رفض السماح له بذلك إلا بعد مُوافقة الرقيب العام أنور حبيب، فاتصل أنور السادات[1] هاتفياً بأنور حبيب فوافق على إذاعة البيان على مسؤوليته الخاصة، وأعلن المقدّم أنور السادات من الإذاعة: انتهى عهد وبدأ عهد.

قدّم اللواء محمد نجيب إلى رئيس الوزراء أحمد نجيب الهلالي طلبات الجيش وهي:

١ ـ تكليف علي ماهر بتشكيل الوزارة.

---

(١) كان حسين توفيق قد شكل جمعية سرية هو وأنور السادات. وقد اعتقل أنور السادات في شهر ذي الحجة من عام ١٣٦١هـ (كانون الأول ١٩٤٢م) بتهمة صلته مع الألمان وقضى ما يقرب من عامين في السجن، وعندما أفرج عنه في شوال ١٣٦٣هـ اختفى.

وألقى حسين توفيق قنبلةً في أوائل شوال ١٣٦٤هـ على سيارة مصطفى النحاس. وبعد ذلك بقليل قتل أمين عثمان بتهمة صلته مع الإنكليز، فقبض على أنور السادات في ٩ صفر عام ١٣٦٥ (١٢ كانون الثاني ١٩٤٦م).

وفي الوقت نفسه كان أنور السادات على صلة مع القصر حتى ٥ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٦ تموز ١٩٥٢م) أي حتى اليوم الثالث من قيام الثورة، وكانت تلك الصلة عن طريق طبيب القصر يوسف رشاد، وعبد الرؤوف نور الدين الضابط في الستار الحديدي الذي يقوم لضرب من يقف في وجه القصر.

٢ ـ تعيين اللواء محمد نجيب قائداً عاماً للقوات المسلحة.
٣ ـ طرد ستةٍ من حاشية الملك.

رفع رئيس الوزراء طلبات الجيش إلى الملك فوافق عليها، وقدّم أحمد نجيب الهلالي استقالة حكومته، وكلّف الملك علي ماهر بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ. وكان الإخوان المسلمون هم الذين رشّحوا علي ماهر إلى رجال الثورة لرئاسة الوزارة فوافق الضباط الأحرار عليه.

وافق علي ماهر يوم الخميس٣ ذي القعدة على قبول التكليف، وتحدّد موعد مقابلته مع الملك لأداء الوزارة لليمين الدستورية، وقد تمّ ذلك في اليوم نفسه حيث كان علي ماهر قد دبّر أموره مع الضباط والوزراء الذين وقع الاختيار عليهم وأُذيع يومها تأليف الوزارة[1].

---

(١) تم تشكيل وزارة علي ماهر على الشكل الآتي:
١ ـ علي ماهر: رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية، والخارجية، والحربية والبحرية.
٢ ـ إبراهيم شوقي: وزيراً للصحة العمومية.
٣ ـ إبراهيم عبد الوهاب: وزيراً للتجارة والصناعة والتموين.
٤ ـ سعد اللبان: وزيراً للمعارف العمومية.
٥ ـ محمد علي رشدي: وزيراً للعدل.
٦ ـ عبد الجليل إبراهيم العمري: وزيراً للمالية، والاقتصاد.
٧ ـ ألفونس جريس: وزيراً للزراعة.
٨ ـ محمد زهير جرانة: وزيراً للمواصلات، والشؤون الاجتماعية.
٩ ـ محمد كامل نبيه: وزيراً للأشغال.
١٠ ـ فؤاد شيرين: وزيراً للأوقاف.
١١ ـ عبد العزيز عبد الله سالم: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٧١هـ صدر مرسوم بقبول استقالة كل من:
١ ـ محمد كامل نبيه: وزيراً للأشغال.
٢ ـ عبد العزيز عبد الله سالم: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
وتعيين كل من:
١ ـ مريت غالي: وزيراً للشؤون القروية.
٢ ـ محمود محمد محمود: وزيراً للمواصلات.
٣ ـ مراد فهمي: وزيراً للأشغال.
٤ ـ إبراهيم بيومي مدكور: وزيراً للإنشاء والتعمير.
٥ ـ نور الدين طراف: وزيراً للشؤون البلدية.

وذهب اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة يوم الجمعة ٤ ذي القعدة إلى رئاسة مجلس الوزراء ومعه قائد الجناح جمال سالم والنقيب إسماعيل فريد، فاستقبلهم علي ماهر، وطلب اللواء محمد نجيب إبعاد الستة من حاشية الملك وهم: إلياس أندراوس، وأنطوان بوللي، والطيار حسن عاكف، والدكتور يوسف رشاد، ومحمد حلمي حسين، ومحمد حسن. كما أن كريم ثابت كان قد قدّم استقالته، ولما أخبر الملك وافق، وقدّم الجميع استقالاتهم. وأمر الملك بإعطاء محمد نجيب رتبة فريق. كما انتقل الملك من قصر المنتزه إلى قصر رأس التين ومعه زوجته «ناريمان»، وابنه ولي العهد أحمد فؤاد، وبناته، وقاد الملك السيارة بنفسه.

واقترب بعض الجنود من قصر رأس التين، فأطلق عليهم جنود القصر النار، فردّوا عليهم النار بالمثل، ثم توقّف الرمي، واستدعى الملك علي ماهر لمعرفة ما يُقصد من إطلاق النار، كما وصل المستشار بالسفارة الأمريكية مبعوثاً من السفير «جيفرسون كافري» لمعرفة الخبر. وعرف الجميع أن إطلاق النار لم يكن سوى خطأ وقع من جنود القصر إذ ظنّوا أن جنود الجيش يريدون الاعتداء على القصر فأطلقوا عليهم النار فردّوا عليهم بالمثل. كما وصل إلى القصر الفريق محمد نجيب وقدّم له إنذاراً من الجيش للملك بالتنازل عن العرش قبل الظهر، ومغادرة البلاد قبل آخر النهار، وكان ذلك كله يوم السبت ٥ ذي القعدة. وذهب علي ماهر إلى قصر رأس التين، وقابل الملك، وأبلغه الإنذار، ونصحه بالقبول فوافق.

مطالب الملك فاروق:

طلب الملك أن يُسافر إلى إيطاليا بحراً على ظهر الباخرة «المحروسة»[١] وأن تصحبه زوجته ناريمان، وولي عهده، وبناته، وأن يقوم الأسطول المصري بحماية الباخرة حتى إيطاليا.

وأن يُودّع بصورة تتناسب بملكٍ تنازل عن عرشه باختياره.

---

(١) أصبح اسم الباخرة «المحروسة» فيما بعد «الحرية» وعلى ظهرها سافر جده إسماعيل باشا إلى إيطاليا متنازلاً عن الحكم.

وأن تشترك الحكومة في وداعه مُمثلةً برئيسها.

وأن يشترك الجيش في الوداع مُمثّلاً بالفريق محمد نجيب.

وأن يُقابل السفير الأمريكي «جيفرسون كافري» قبل السفر.

ووافق محمد نجيب على هذه المطالب كلها عدا حراسة الباخرة، فإن حراسة الأسطول المصري لها سيكون حتى نهاية المياه الإقليمية لمصر، وليس إلى إيطاليا.

وصدر الأمر الملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢م.

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان.

لما كنّا نطلب الخير دائماً لأمتنا ونبغي سعادتها ورقيّها.

ولما كنّا نرغب رغبةً أكيدةً في تجنب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة.

ونزولاً على إرادة الشعب.

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه.

صدر بقصر رأس التين في ٤ ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ (٢٦ تموز ١٩٥٢م).

وغادر الملك القصر، وأُنزل العلم الملكي، وسلّمه قائد الحرس الملكي إلى علي ماهر الذي قدّمه بدوره إلى الملك، واستقلّ الملك الزورق، وأطلقت المدفعية واحدةً وعشرين طلقةً، وأدّى حرس الشرف التحية العسكرية. وتحدّث الملك مع علي ماهر والسفير الأمريكي، وصافح مُودّعيه، وجاء اللواء محمد نجيب ومعه العقيد أحمد شوقي، والمقدم حسين الشافعي، وقائد الجناح جمال سالم، والنقيب إسماعيل فريد، وأدّى محمد نجيب التحية العسكرية. وأوصى فاروق اللواء محمد نجيب بالجيش، وكان مع جمال سالم عصا، فأمره الملك

بإلقائها، وحاول جمال الامتناع فأمره محمد نجيب بإلقائها فألقاها، وودّع فاروق الحضور وأبحرت الباخرة، وفي مساء ذلك اليوم نُودي بالملك أحمد فؤاد الثاني ملكاً على البلاد، وأُعلن عن مجلس الوصاية، واستمرّ ذلك حتى أعلنت الجمهورية في ٦ شوال ١٣٧٢هـ (١٨ حزيران ١٩٥٣).

وفي الساعة السادسة والنصف مساءً أذاع اللواء محمد نجيب بصوته البيان التالي:

بني وطني: إتماماً للعمل الذي قام به جيشكم الباسل في سبيل قضيتكم قمت في الساعة التاسعة من صباح اليوم ٢٦ تموز ١٩٥٢م الموافق الرابع من ذي القعدة عام ١٣٧١هـ بمقابلة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء، وسلّمته عريضةً مُوجّهةً إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول تحمل مطلبين على لسان الشعب.

الأول: أن يتنازل جلالته عن العرش لسمو ولي عهده قبل ظهر اليوم.

الثاني: أن يُغادر جلالته البلاد قبل الساعة السادسة مساءً.

وقد تفضّل جلالته فوافق على المطلبين، وتمّ التنفيذ في المواعيد المحددة دون حدوث ما يُعكّر الصفو. وإن نجاحنا الآن في قضية البلاد يعود إلى تضافركم معنا بقلوبكم، وتنفيذكم لتعليماتنا، وإخلادكم إلى الهدوء والسكينة.

وإني أُعلن أن الفرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبأ غير أنني أتوسل إليكم أن تستمرّوا في التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم في أمانٍ.

ولي كبير الأمل في أنكم ستُلبّون ندائي في سبيل الوطن، وفّقنا الله جميعاً لما فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام.

وفي الساعة الثامنة أيضاً بثّت الإذاعة البيان الثاني لقائد الحركة اللواء محمد نجيب بصوته أيضاً وقد جاء فيه.

بني وطني: إن ما يُنسب إليّ من عملٍ مجيدٍ إن هو في الحقيقة إلاّ

جهود وتضحيات لرجال الجيش البواسل من جنودٍ وضباط ولم يكن لي إلاّ شرف قيادتهم.

وقد أمر جلالة الملك فاروق عندما طلب الجيش إسناد منصب القيادة العامة إليّ بأن يُنعم عليّ برتبة فريقٍ بدرجة الوزير فلم أعلن رفضها حتى لا يعرقل ذلك غرضاً أسمى، وهو تنازل الملك عن العرش.

والآن وقد انتهت الأمور فإني أعلن تنازلي عن هذه الرتبة قانعاً برتبة اللواء مراعاة لحالة الدولة المادية.

وفي اليوم التالي غادر الفريق محمد نجيب الإسكندرية راجعاً إلى القاهرة. وشكّل الضباط الأحرار مجلس قيادة الثورة برئاسة الفريق محمد نجيب[1]، وصار الرائد عبد الحكيم عامر مديراً لمكتبه.

وفي ١٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢ آب ١٩٥٢م) صدر أمر بإلغاء الألقاب التي كان معمول بها رسمياً، وهي ألقاب تركية مثل «باشا» و «بك» و «أفندي»، وإن كانت قد أُلغيت رسمياً إلا أنها بقيت سائدةً على ألسنة الشعب المصري، ولم يستطع التخلّص منها، وكل رجل يُخاطب أعلى منه لا بدّ له من إضفاء أحد هذه الألقاب، ويعظم اللقب كلما كان يُريد المتكلّم إظهار التعظيم أو التزلّف.

---

(١) تشكل مجلس قيادة الثورة من:
١ ـ الفريق محمد نجيب رئيساً.
٢ ـ المقدم جمال عبد الناصر عضواً.
٣ ـ المقدم زكريا محيي الدين عضواً.
٤ ـ المقدم عبد اللطيف البغدادي عضواً.
٥ ـ المقدم جمال سالم عضواً.
٦ ـ المقدم حسين الشافعي عضواً.
٧ ـ المقدم عبد المنعم أمين عضواً.
٨ ـ الرائد خالد محيي الدين عضواً.
٩ ـ الرائد عبد الحكيم عامر عضواً.
١٠ ـ الرائد حسن إبراهيم عضواً.
١١ ـ الرائد صلاح سالم عضواً.
١٢ ـ الرائد كمال الدين حسين عضواً.

وفي ١٨ ذي الحجة من العام نفسه، طلب من علي ماهر تقديم استقالة حكومته، وشكّل محمد نجيب بنفسه الوزارة[١].

---

(١) شكل محمد نجيب الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ اللواء أركان حرب محمد نجيب: رئيس مجلس الوزراء، وزير الحربية والبحرية مع احتفاظه بالقيادة العامة للقوات المسلحة.
٢ ـ سليمان حافظ: نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الداخلية.
٣ ـ عبد الجليل إبراهيم العمري: وزير المالية، والاقتصاد.
٤ ـ عبد العزيز عبد الله سالم: وزير الزراعة.
٥ ـ مراد فهمي: وزير الأشغال.
٦ ـ نور الدين طراف: وزير الصحة العمومية.
٧ ـ أحمد حسني: وزير العدل.
٨ ـ إسماعيل محمود القباني: وزير المعارف.
٩ ـ حسين أبو زيد: وزير المواصلات.
١٠ ـ أحمد محمد فراج طايع: وزير الخارجية.
١١ ـ عبد العزيز علي: وزير الشؤون البلدية والقروية.
١٢ ـ أحمد حسن الباقوري: وزير الأوقاف.
١٣ ـ محمد فؤاد جلال: وزير الشؤون الاجتماعية.
١٤ ـ محمد صبري منصور: وزير التجارة والصناعة.
١٥ ـ فريد أنطون: وزير التموين.
١٦ ـ فتحي رضوان: وزير الدولة.
وفي ٢٩ صفر ١٣٧٢هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٥٢) صدر مرسوم بتعيين فتحي رضوان وزير الدولة وزيراً للإرشاد القومي.
وفي ٢٢ ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٩ كانون الأول ١٩٥٢م) صدر مرسوم بقبول استقالة كل من:
١ ـ عبد العزيز عبد الله سالم: وزير الزراعة.
٢ ـ أحمد محمد فراج طايع: وزير الخارجية.
٣ ـ عبد العزيز علي: وزير الشؤون البلدية والقروية.
٤ ـ فريد أنطون: وزير التموين.
وتعيين كل من:
١ ـ محمد فؤاد جلال: وزير الشؤون الاجتماعية، ووزيراً للإرشاد القومي.
٢ ـ محمد صبري منصور: وزير التجارة والصناعة، ووزيراً للتموين.
٣ ـ فتحي رضوان: وزير الإرشاد القومي، ووزيراً للدولة.
٤ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٥ ـ عباس مصطفى عمار: وزيراً للشؤون الاجتماعية. =

ومن المفارقات في وزارة علي ماهر، أن الوزارة الأولى التي شكلها تولّت سلطات الملك الدستورية بعد وفاة الملك فؤاد، وتولي الملك فاروق عرش مصر، وها هو يُشكّل الوزارة الرابعة لتتولى سلطات الملك الدستورية بعد تنازل الملك فاروق عن العرش لولي عهده الأمير أحمد فؤاد.

وفي ٢٠ ذي الحجة ١٣٧١هـ (٩ أيلول ١٩٥٢م) صدر قانون الإصلاح الزراعي حيث حدّد الملكية، وجعلها لا تزيد على ثلاثمائة فدان لمن له أولاد، ومائتين لمن ليس له أولاد.

وفي ٢٣ ربيع الأول ١٣٧٢هـ (١٠ كانون الأول ١٩٥٢م) صدر أمر بإلغاء الدستور بحجة أن الملك كان يتّخذ من الدستور مطيةً لتحقيق أغراضه وتنفيذ أهوائه.

وجرت الاتصالات مع زعماء السودان من أجل المفاوضة مع بريطانية من أجل الجلاء عن مصر، وحلّ مشكلة السودان، ولا بدّ من فصل المشكلتين بعضهما عن بعض لإمكانية نجاح المفاوضات، وقد وافق الزعماء السودانيون على هذا الإجراء وهو فصل المشكلتين بعضهما عن بعض. وعمل زعماء مصر الجدد على دمج الأحزاب السودانية الاتحادية (التي تُنادي بالاتحاد مع مصر) مع بعضها بعضاً، ونشأ منها الحزب الوطني الاتحادي[١]. وكان على الشعب السوداني أن يبحث في حق تقرير مصيره بالاتحاد مع مصر أو بالاستقلال.

بدأت المفاوضات المصرية ـ البريطانية، وتوصّل المتفاوضون إلى الاتفاق بسرعة، ووقعت بينهما المعاهدة في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (١٢ شباط ١٩٥٣م)، وكانت هذه المعاهدة تتألف من خمس عشرة مادة، ولعلّ أهمّ ما جاء فيها:

= ٦ ـ حلمي بهجت بدوي: وزيراً للتجارة والصناعة.
٧ ـ عبد الرزاق صدقي: وزيراً للزراعة.
٨ ـ وليم سليم حنا: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.

(١) كان إسماعيل الأزهري رئيساً للحزب الجديد، ومحمد نور الدين نائباً للرئيس.

١ ـ الاحتفاظ بوحدة السودان شماليه وجنوبيه.
٢ ـ تحديد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات لإنهاء الإدارة الثنائية.
٣ ـ انتخاب مجلس نيابيٍ سودانيٍ بإشراف لجنةٍ.
٤ ـ تأليف لجنةٍ للسودنة.
٥ ـ وضع قانون لانتخاب جمعية تأسيسية.

وكان الرائد صلاح سالم هو المُكلَّف بشؤون السودان، فقام بتصرفاتٍ أفسدت العلاقات بين السودانيين ومصر، إذ اختلف مع إسماعيل الأزهري، فاتصل مع نائبه محمد نور الدين بعد أن أوقع بينهما، كما اتّخذ من الرشوة وسيلةٍ لكسب الزعماء إلى صفّ الاتحاد مع مصر، وقام بالتقرّب من الشيوعيين، وهذا ما كرّه السودانيين بالاتحاد، وحتى ابتعد عن الاتحاد كثير من الذين كانوا يُؤيّدونه سابقاً. وسقطت وزارة إسماعيل الأزهري التي تشكّلت على أساس العمل للاتحاد مع مصر، وتألّفت وزارة عبد الله خليل التي كانت ترى الاستقلال، وأخيراً تمّ اتفاق زعماء السودان على استقلال بلادهم على أنها دولة مستقلة خاصة بالسودان من حدود مصرٍ حتى حدود أوغندا.

وفي ٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٥٣م) صدر قرار بحلّ الأحزاب السياسية، واستُثني من هذا القرار الإخوان المسلمون على أنهم جمعية دينية اجتماعية.

وفي ٦ شوال من عام ١٣٧٢هـ (١٨ حزيران ١٩٥٣م) أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بإلغاء النظام الملكي، وإعلان النظام الجمهوري بمصر. وقد كانت مصر تحكم منذ ٥ ذي القعدة ١٣٧١هـ أي بعد قيام الثورة بثلاثة أيام، ومنذ تنازل الملك فاروق عن العرش لابنه باسم ذلك الطفل الصغير أحمد فؤاد بن فاروق. وبعد أن عدّد القرار سلبيات الأسرة التي كانت تحكم البلاد والتي ذكر منها الخيانة، والعبودية، وعدم احترام الدستور أعلن البيان التالي مُوقّعاً من مجلس قيادة الثورة:

١ ـ نُعلن اليوم باسم الشعب إلغاء النظام الملكي، وحكم أسرة محمد علي، مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة.

٢ ـ إعلان الجمهورية وتولّي اللواء محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية في ظلّ الدستور الموقّت الصادر في ١٠ شباط ١٩٥٣م (٢٦ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ).

٣ ـ يستمرّ هذا النظام طوال فترة الانتقال، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة في تحديد نوع الجمهورية، واختيار شخص الرئيس عند إقرار الدستور الجديد.

وكان قد صدر قرار في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ بتشكيل لجنة لوضع الدستور، وقد تألفت من خمسين عضواً، وقد ضمّت عدداً من رجال الأحزاب (إذ سبق هذا قرار حلّ الأحزاب بأربعة أيام) حيث شملت أربعةً من حزب الوفد، واثنين من حزب الأحرار الدستوريين، واثنين من الهيئة السعدية، وثلاثةً من الإخوان المسلمين، وثلاثةً من الحزب الوطني، وثلاثةً من رجال القضاء، وثلاثةً من العسكريين، وعدداً من أساتذة الجامعة.

وبعد ثلاثة أيام صدر إعلان دستوري ينصّ على أن يتولّى مجلس قيادة الثورة أعمال السيادة العليا، وأن يتولّى قائد الثورة اتخاذ التدابير التي يراها ضروريةً لحماية الثورة، ويكون من حقّه تعيين الوزراء. وينظر مجلس قيادة الثورة مع مجلس الوزراء في سياسة البلاد العامة، وتكون السلطة بيد المجلسين، وذلك ريثما يصدر الدستور الموقت. والذي لم يصدر إلاّ بعد ثلاثة أعوام.

وقد شملت هذه المرحلة إلى الآن أربعة رؤساء جمهوريات وهم:

١ ـ محمد نجيب.

٢ ـ جمال عبد الناصر.

٣ ـ أنور السادات.

٤ ـ حسني مبارك.

❋ ❋ ❋

١ ـ عهد محمد نجيب

مع انتهاء النظام الملكي وإعلان النظام الجمهوري، استقالت وزارة محمد نجيب[١] الأولى، فشكّل وزارةً جديدةً ضمّت عدداً من العسكريين وفي الوقت نفسه قلّ فيها عدد المدنيين. وأصبح محمد نجيب رئيساً للجمهورية، ورئيساً لمجلس قيادة الثورة، ورئيساً لمجلس الوزراء.

وكان أول قرار وقّعه الرئيس محمد نجيب مرسوم ترقية الرائد عبد الحكيم عامر إلى رتبة لواء، وتعيينه قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة.

أما نائب رئيس الوزراء السابق سليمان الحافظ فقد عين مستشاراً قانونياً لرئيس الجمهورية.

وفي ٨ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٥٤م) صدر قراراً بحلّ جماعة الإخوان المسلمين. واتخذ بعض رجال الثورة وخاصةً جمال عبد الناصر، وجمال سالم، وصلاح سالم مضايقات لرئيس الجمهورية محمد نجيب، فكانت تُختصر كلماته في وسائل الإعلام، وتُهمل أحياناً، ويُطلب منه إبعاد بعض أعوانه دون سببٍ، ويُشتم أمام أنصاره، ويطلب منهم إبلاغه، وأمام هذه المضايقات قدّم محمد نجيب استقالته إلى مجلس قيادة الثورة بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢٢ شباط ١٩٥٤م)، وبعد ثلاثة أيّامٍ صدر قرار

---

(١) ولد محمد نجيب بالخرطوم في ٢ ذي القعدة ١٣١٨هـ، والتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة عام ١٣٣٥هـ، وعندما تخرج عُيّن بالخرطوم، ونقل عام ١٣٤٠ إلى القاهرة إلى الحرس الملكي.

حصل على الإجازة بالحقوق عام ١٣٤٦هـ، وحصل على رتبة عميد «أميرلاي» عام ١٣٦٧هـ، واشترك في حملة فلسطين، ونال عام ١٣٧٠هـ رتبة لواء، وعين مديراً لسلاح الحدود، ثم لسلاح المشاة.

مجلس قيادة الثورة بقبول استقالة اللواء محمد نجيب على أن يقوم جمال عبد الناصر بكافة سلطاته حتى تحقّق الثورة أهدافها بجلاء المستعمر.

وزارة جمال عبد الناصر[(١)]:

قامت المظاهرات المؤيّدة لرئيس الجمهورية محمد نجيب وقد قادها الإخوان المسلمون، واشترك فيها كل العناصر المناوئة للاستبداد، والمعارضة للتسلّط العسكري، وكان من بينها بعض الضباط الذين لا يرون الحكم العسكري، وانطلقت هذه المظاهرات من الجامعات، وقد شارك أكثر أعضاء هيئة التدريس الجامعي فيها. وساهمت الهيئة القضائية، ونقابة المعلمين، ونقابة الصحافة في هذه المظاهرات، وأعلنوا جميعاً ضرورة الإفراج عن المعتقلين، وعودة الحكم المدني، وانسحاب الجيش إلى الثكنات.

---

(١) شكل جمال عبد الناصر وزارته على النحو الآتي:
١ ـ المقدم أركان حرب جمال عبد الناصر حسين: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ قائد الجناح جمال سالم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، وزيراً للمواصلات.
٣ ـ عبد الجليل إبراهيم العمري: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، وزيراً للشؤون الاقتصادية.
٤ ـ نور الدين طراف: وزيراً للصحة.
٥ ـ أحمد حسني: وزيراً للعدل، ولشؤون رئاسة الجمهورية.
٦ ـ أحمد حسن الباقوري: وزيراً للأوقاف.
٧ ـ فتحي رضوان: وزيراً للدولة.
٨ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٩ ـ حلمي بهجت بدوي: وزير دولة للشؤون العامة.
١٠ ـ سليم حنا: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١١ ـ عباس مصطفى عمار: وزيراً للمعارف.
١٢ ـ عبد الرزاق صدقي: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ قائد الجناح عبد اللطيف محمود البغدادي: وزيراً للحربية.
١٤ ـ الرائد أركان حرب صلاح الدين سالم: وزيراً للإرشاد القومي، ووزير دولة لشؤون السودان.
١٥ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال العامة.
١٦ ـ المقدم أركان حرب زكريا محيي الدين: وزيراً للداخلية.
١٧ ـ الرائد أركان حرب كمال الدين حسين: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٨ ـ حسن أحمد بغدادي: وزيراً للصناعة والتجارة والتموين.
١٩ ـ علي الجرتيلي: وزيراً للمالية والاقتصاد.

رأى بعض رجال مجلس الثورة وعلى رأسهم جمال عبد الناصر تصفية الإخوان المسلمين والشيوعيين وزعماء الأحزاب التي مُنعت من النشاط، ولكن المجلس لم يُؤيّد هذا الرأي، وخاصةً أن المظاهرات كانت عنيفةً إذ يخشى مغبة الأمر فيما إذا حدثت تصفيات، كما أن سلاح الفرسان قد تحرّك وطالب بعودة محمد نجيب رئيساً للجمهورية، ورجوع الجيش إلى الثكنات، ودخل ضباطه في نقاشٍ حادٍ مع جمال عبد الناصر.

وزارة محمد نجيب الثانية:

اجتمع مجلس قيادة الثورة في مبنى القيادة، واتخذ قراراً بعودة محمد نجيب رئيساً للجمهورية، وأن يُشكّل خالد محيي الدين وزارةً انتقاليةً لمدة ستة أشهرٍ مهمتها القيام بإجراء انتخابات جمعيةٍ تأسيسيةٍ تقوم بوضع دستورٍ للبلاد، ويعود أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى وحداتهم.

واجتمعت مجموعة أخرى من الضباط[1] بعد هذا في مبنى القيادة نفسه، واتخذت قرارات معاكسة لقرارات مجلس قيادة الثورة، ولمقاومة خطة خالد محيي الدين التي كانت ترمي إلى أخذ محمد نجيب من منزله إلى قصر عابدين بمظاهرةٍ عسكريةٍ من سلاح الفرسان، وقد اتخذت هذه المجموعة القرارات التالية:

١ ـ أن يقوم سلاح الجو بالتحليق فوق سلاح الفرسان في أول بزوغ الفجر يحول دون حركة سلاح الفرسان.

٢ ـ أن تقوم الشرطة العسكرية باعتقال الضباط الذين يتزعمون الحركة في سلاح الفرسان.

٣ ـ أن يُعتقل محمد نجيب ويُحتفظ به في سلاح المدفعية بـ (ألماظة)، ويُمنع الاتصال به.

---

(١) ضمت هذه المجموعة النقيب كمال رفعت، والرائد صلاح نصر، والرائد مجدي حسنين، والرائد محمد وحيد أباظة، والنقيب سعد زايد، والنقيب حسن تهامي، والنقيب أحمد أنور، والنقيب داود عويس وغيرهم.

وقد قام النقيبان كمال رفعت، وداود عويس باعتقال محمد نجيب، وأبلغاه إلغاء ما اتفق عليه مجلس قيادة الثورة من إعادته رئيساً للجمهورية، ومن تشكيل خالد محيي الدين للحكومة الانتقالية، كما أخبراه بأن سلاح الفرسان محاصر، وقد صدّق كل ما قيل له حيث كان سلاح الطيران يُحلّق في الجو.

واجتمع مجلس قيادة الثورة يوم ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢٧ شباط ١٩٥٤م)، وأصدر قرارات جديدة بعد تراجعه عما سبق أن أصدره قبل أقلّ من ٢٤ ساعة، وقد قرر دعوة اللواء محمد نجيب للعودة إلى رئاسة الجمهورية على أساس التحولات الآتية:

١ ـ تحويل جمهورية مصر إلى جمهوريةٍ نيابيةٍ باسم «الجمهورية النيابية المصرية».

٢ ـ تشكيل جمعيةٍ تأسيسيةٍ، تُمثّل كافة هيئات الشعب المختلفة، تُؤدّي مُهمّة المجلس النيابي مُوقتاً، وتُراجع نصوص الدستور بعد أن يتمّ وضعها.

٣ ـ إجراء انتخابات بعد ذلك لإجراء الحياة النيابية في مدةٍ أقصاها المرحلة الانتقالية.

وقد قبل محمد نجيب أن يعود إلى رئاسة الجمهورية على هذا الأساس. واستمرّت المظاهرات، وأخذت الآن تُعلن فرحتها وابتهاجها بعودة الرئيس محمد نجيب.

اجتمع مجلس قيادة الثورة في مطلع شهر رجب ١٣٧٣هـ (٥ آذار ١٩٥٤م)، وقرّر أن تتشكّل اللجنة التأسيسية عن طريق الانتخاب، وأن تُلغى الأحكام العرفية، وأن تُلغى الرقابة عن الصحافة.

وفي ٣ رجب ١٣٧٣هـ (٨ آذار ١٩٥٤م) صدر أمر مجلس قيادة الثورة بتعيين: اللواء محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة رئيساً لمجلس الوزراء، والمقدم أركان حرب جمال عبد الناصر حسين نائباً لرئيس مجلس الوزراء، كما

صدر في اليوم نفسه أمر آخر بتأليف الوزارة برئاسة اللواء محمد نجيب[1].

أشاع الذين يُريدون التسلّط من الضباط أن نهاية الثورة معناه سوق عددٍ منهم إلى السجن فخشي عدد كبير منهم، وتمسّكوا بمواقفهم، ورغبوا في استمرارية الحكم العسكري، وكانوا أثناء هذه الأحداث قد تعرّفوا على مؤيدي محمد نجيب فعملوا على التخلّص منهم وإخراجهم من الجيش بأية وسيلةٍ من الوسائل، وعملوا على إلقاء المتفجرات في عدد من أحياء القاهرة وروّجوا أن سياسة اللين لن تُؤدّي إلا إلى خراب البلد لذلك يجب الضغط على الشعب، وإظهار قوة السلطة، وتهديد المغرضين. وصدر قرار بإعادة جماعة الإخوان المسلمين فتراجع عدد منهم عن المعارضة.

---

(١) تشكلت وزارة اللواء محمد نجيب على النحو الآتي:
١ ـ اللواء محمد نجيب: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ المقدم أركان حرب جمال عبد الناصر حسين: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٣ ـ قائد الجناح جمال سالم: وزيراً للمواصلات.
٤ ـ عبد الجليل إبراهيم العمري: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٥ ـ نور الدين طراف: وزيراً للصحة.
٦ ـ أحمد حسني: وزيراً للعدل، ولشؤون رئاسة الجمهورية.
٧ ـ أحمد حسن الباقوري: وزيراً للأوقاف.
٨ ـ فتحي رضوان: وزيراً للدولة.
٩ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
١٠ ـ حلمي بهجت بدوي: وزير دولة للشؤون العامة.
١١ ـ وليم سليم حنا: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٢ ـ عباس مصطفى عمار: وزيراً للمعارف.
١٣ ـ عبد الرزاق صدقي: وزيراً للزراعة.
١٤ ـ قائد الجناح عبد اللطيف محمود البغدادي: وزيراً للحربية.
١٥ ـ الرائد أركان حرب صلاح الدين مصطفى سالم: وزيراً للإرشاد القومي، ووزير دولة لشؤون السودان.
١٦ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.
١٧ ـ المقدم أركان حرب زكريا محيي الدين: وزيراً للداخلية.
١٨ ـ الرائد أركان حرب كمال الدين حسين: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٩ ـ حسن أحمد بغدادي: وزيراً للتجارة والصناعة والتموين.
٢٠ ـ علي الجرتيلي: وزيراً للمالية والاقتصاد.

واجتمع مجلس قيادة الثورة بتاريخ ٢١ رجب ١٣٧٣هـ (٢٥ آذار ١٩٥٤م)، وتقدّم جمال عبد الناصر بعددٍ من المقترحات التي تناصر الحرية والحياة النيابية ومنها.

١ ـ يسمح بتشكيل الأحزاب ونشاطها.

٢ ـ لا يؤلف مجلس الثورة حزباً.

٣ ـ لا يحرم أحد من الحقوق السياسية.

٤ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً حرّاً مُباشراً، وتكون لها سلطة السيادة وسلطة المجلس النيابي.

٥ ـ حلّ مجلس قيادة الثورة في ٢٤ تموز أي بعد مرور عامين عليها، وبذلك تكون قد انتهت.

٦ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية مجرّد انعقادها رئيس الجمهورية.

حدث إضراب عام للمواصلات بتدبير الرائد إبراهيم الطحاوي. فوافق المجلس على ذلك. وبعدها نزل عمال مديرية التحرير إلى القاهرة، وهم يهتفون للثورة ويُنادون بسقوط محمد نجيب بتدبير من الرائد مجدي حسنين.

هاجم عمال مديرية التحرير وجنود الشرطة العسكرية بملابسهم المدنية وبإمرة الرائد حسين عرفة مجلس الدولة لأنه أيّد الحياة النيابية، وأجبروا عبد الرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة وباقي الأعضاء على توقيع بيانٍ بتأييد مجلس الثورة.

ونتيجة هذه الأحداث توقف نشاط المعادين لرجال الثورة.

واجتمع مجلس قيادة الثورة، وأوقف تنفيذ قرارات ٢١ رجب (٢٥ آذار).

وجرت عدّة اعتداءات على محمد نجيب وصل بعضها إلى الضرب من المقدّم أحمد أنور، فتأثر، وأصبح صورةً في الرئاسة.

وزارة جمال عبد الناصر:

قدَّم محمد نجيب استقالته، فاستلم مكانه جمال عبد الناصر، وشكّل وزارته الثانية، في ١١ شعبان ١٣٧٣هـ (١٧ نيسان ١٩٥٤م)[1]، وبدا التسلّط واضحاً والاستبداد ظاهراً، ويتركّز على الحكم في يد فردٍ، وتدور أجهزة الدولة في اتجاه شخصٍ واحدٍ هو جمال عبد الناصر، وإن كانت له حتى هذا الوقت

---

(١) شكل جمال عبد الناصر وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ ـ المقدم أركان حرب جمال عبد الناصر حسين: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ قائد الجناح جمال سالم: وزيراً للمواصلات.
٣ ـ نور الدين طراف: وزيراً للصحة.
٤ ـ أحمد حسني: وزيراً للعدل.
٥ ـ أحمد حسن الباقوري: وزيراً للأوقاف.
٦ ـ فتحي رضوان: وزيراً للدولة.
٧ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٨ ـ عبد الرزاق صدقي: وزيراً للزراعة.
٩ ـ قائد الجناح عبد اللطيف محمود البغدادي: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٠ ـ الرائد أركان حرب صلاح الدين سالم: وزيراً للإرشاد القومي، وزير دولة لشؤون السودان.
١١ ـ المقدم أركان حرب زكريا محيي الدين: وزيراً للداخلية.
١٢ ـ الرائد أركان حرب كمال الدين حسين: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٣ ـ المقدم أركان حرب حسين الشافعي: وزيراً للحربية، وللدولة.
١٤ ـ قائد الجناح حسن إبراهيم: وزيراً للدولة لشؤون رئاسة الجمهورية.
١٥ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.
١٦ ـ محمد عوض محمد: وزيراً للمعارف.
١٧ ـ حسن مرعي: وزيراً للتجارة والصناعة.
١٨ ـ جندي عبد الملك: وزيراً للتموين.
١٩ ـ عبد الحميد الشريف: وزيراً للمالية، والاقتصاد.
٢٠ ـ النقيب أركان حرب عبد الفتاح حسن: نائباً لوزير الدولة لشؤون السودان.
٢١ ـ عبد المنعم القيسوني: نائباً لوزير المالية والاقتصاد.
٢٢ ـ محمد أبو نصير: نائباً لوزير التجارة والصناعة.
وفي ٢٤ شعبان ١٣٧٢هـ (٣٠ نيسان ١٩٥٤م) صدر أمر مجلس قيادة الثورة بقبول استقالة كل من:
١ ـ محمد عوض محمد: وزير المعارف.

مظاهر في بعض الضباط الآخرين يُوجّههم ويُقوّيهم ليخدموه، وأخذت بعض الإجراءات الاستبدادية تظهر بشكل قوانين جائرة تفوح منها روائح الحقد والتشفّي، ومن هذه الإجراءات:

١ ـ أصدر مجلس قيادة الثورة في ١٤ شعبان عام ١٣٧٣هـ قراراً بحرمان كل من تولّى الوزارة من عام (١٩٣٦م) حتى قيام الثورة من الوظائف العامة لمدة خمس سنوات.

٢ ـ فصل بعض الطلاب من الجامعات أو حرمان بعضهم من الامتحانات، ويقصد بذلك الطلاب الذين قادوا المظاهرات التي خرجت تطالب بعودة محمد نجيب إلى الرئاسة.

٣ ـ فصل بعض أعضاء هيئة تدريس الجامعة أو إحالتهم على التقاعد لدعمهم المظاهرات، أو مشاركتهم فيها، أو تشجيع الطلبة عليها.

٤ ـ طرد أفراد الأسرة التي كانت تحكم مصر من البلاد نهائياً.

٥ ـ وضع قوانين جائرة للصحافة، ومصادرة بعض الصحف والمجلات.

٦ ـ حرمان بعض السياسيين القدامى من الحقوق السياسية، ومحاكمة بعضهم دون سبب.

٧ ـ التخلص من بعض المحامين من أعضاء النقابة.

وكان نتيجة ذلك أن استقال معظم الوزراء من غير العسكريين، ولم تعد هناك قدرة لمحمد نجيب على الوقوف في وجه تيار الاستبداد، وأُبعد خالد محيي الدين عن مجلس قيادة الثورة وعيّن سفيراً للبلاد دون سفارةٍ وذلك لموقفه بجانب محمد نجيب أثناء الأزمة. وتخوّف السودانيون من هذا الظلم ففضلوا الاستقلال والابتعاد عن مصر حتى أولئك الذين كانوا يُنادون في الوحدة بين الجزأين. وأُتلفت الأشرطة التي كانت مسجلةً خطب محمد نجيب كلها وكذلك الأشرطة التي فيها ثناء عليه.

وكانت حركة التحرير التي أُنشئت بعد ستة أشهر من قيام الثورة مجال حركة العسكريين والنطق باسمها، والدعوة، والظلم، وتحقيق الأهداف باسمها،

ولمصلحتها، وفي سبيل المحافظة عليها، واستمرّت هذه الحركة كحزبٍ للدولة مدة أربع سنواتٍ.

اتفاقية الجلاء:

لقد كان موضوع السودان هو نقطة الخلاف دائماً بين المفاوضين المصريين والإنكليز، فالمصريون يعدّون السودان جزءاً من مصر لا يمكن التنازل عنه، والإنكليز يُريدون الفصل بين الجزأين، ولهذا كانت تتعثّر المفاوضات بين الطرفين مدة ثلاثين سنةً كاملةً، فلما وافق رجال الثورة المصرية على الفصل سارت المفاوضات بشكلٍ سريعٍ نحو التوصل إلى الاتفاق بين وجهات النظر.

بدأت الاجتماعات لاتفاقية الجلاء عن مصر في ١٣ شعبان ١٣٧٢هـ (٢٧ نيسان ١٩٥٣م) غير أنها لم تلبث أن توقّفت بعد عشرة أيامٍ (٢٤ شعبان ١٣٧٢هـ). واستمرّت متوقّفةً أكثر من سنةٍ حيث عادت اللقاءاتَ في شهر ذي القعدة وفي ٢٧ منه (٢٧ تموز ١٩٥٤م) وتمّ التوقيع على بنود الاتفاقية بالأحرف الأولى. ثم تَمّ التوقيع النهائي عليها في ١٤ صفر ١٣٧٤هـ (١١ تشرين الأول ١٩٥٤م)، ومما سهّل أيضاً على التفاهم إعطاء إسرائيل الضوء الأخضر في الأمن، وأن مصر لن تعتدي على إسرائيل، ولن تحول دون استخدامها خليج العقبة للملاحة إذ كانت إسرائيل من قبل تعدّ وجود القوات الإنكليزية في قناة السويس حاجزاً بين مصر وإسرائيل فإن تمّ الجلاء زال المانع في انتقال قواتٍ مصريةٍ ضخمةٍ من أرض مصر إلى سيناء وإلى ضفاف خليج العقبة الغربية، لذا كانت تُمانع في الجلاء، وتطالب إنكلترا باستمرارها، فلما زار عبد الرحمن صادق المستشار الصحفي لجمال عبد الناصر إسرائيل سرّاً طمأن اليهود من ناحية مصر، وأن الخطر لا يمكن أن يأتي إلى إسرائيل من جهة الثورة المصرية، وصدر البلاغ المشترك بين إنكلترا ومصر بعد التوقيع النهائي على الاتفاقية وقد جاء فيه:

وقع اليوم في القاهرة رئيس وزراء جمهورية مصر وزملاؤه أعضاء الجانب المصري، والسيد «تاننغ» وزير الدولة بوزارة الخارجية البريطانية، والسفير

البريطاني، وميجور جنرال «ينسون» اتفاقاً بشأن منطقة قاعدة السويس، الغرض منه إقامة العلاقات المصرية ـ الإنكليزية على أساسٍ جديدٍ من التعاون، ولقد بذل الجانبان جهداً كبيراً للوصول إلى اتفاق واضحٍ شاملٍ يكون أداةً بناءةً لقضية السلام.

١ ـ انتهاء معاهدة (١٩٣٦م).

٢ ـ جلاء القوات البريطانية جلاءً تاماً عن الأراضي المصرية في مدةٍ أقصاها عشرون شهراً من تاريخ توقيع الاتفاقية.

٣ ـ يحقّ للقوات البريطانية العودة إلى هذه القاعدة في حالة تعرّض مصر أو إحدى الدول العربية المنضمّة إلى معاهدة الضمان الجماعي أو تركيا إلى هجومٍ مسلحٍ من الخارج، ومن أجل هذا تبقى القاعدة في حالةٍ صالحةٍ للاستعمال، ومعدّةٍ للاستخدام فوراً، ويقوم بالإشراف عليها خبراء مدنيون بريطانيون لا يتجاوز عددهم ألف خبيرٍ.

٤ ـ إذا حدث ما يستدعي العودة للقاعدة فإن الجيوش البريطانية تجلو عنها مجرد وقف القتال الذي استدعى العودة إليها.

٥ ـ في حالة التهديد بحربٍ في المنطقة السابقة تجري اتصالات بين مصر وبريطانيا لتقرير ما يلزم.

٦ ـ مدة الاتفاقية سبع سنواتٍ، ويتشاور الطرفان في السنة الأخيرة منها لتقرير ما يلزم من تدابير. وكان رئيس الجانب المصري بالمفاوضات جمال عبد الناصر.

وبناءً على هذه الاتفاقية أخذت القوات البريطانية بالجلاء عن القناة في ٥ ذي القعدة ١٣٧٥هـ (١٣ حزيران ١٩٥٦م)، وانتهى بعد أكثر من شهر قليلاً في ١٠ ذي الحجة ١٣٧٥هـ (١٨ تموز ١٩٥٦م).

انتقد كثيرون اتفاقية الجلاء هذه إذ أبقت مصر مرتبطةً بإنكلترا، ولإنكترا قاعدة في مصر تعود إليها، واحتمال الاعتداء على تركيا أمر قائم بل كان مُتوقّعاً يومذاك في كل لحظةٍ، وكان الإخوان المسلمون أكثر من انتقد هذه

الاتفاقية، ولكن الرئيس جمال عبد الناصر لم يتعوّد أن يُنتقد في عملٍ يقوم به لذا فقد خطّط للإيقاع بالإخوان المسلمين.

حادثة المنشية:

أُقيم حفل تكريم لجمال عبد الناصر ورفاقه الذين وقعوا اتفاقية الجلاء، وكان مكان الحفل في حديقة المنشية بمدينة الإسكندرية في ٢٩ صفر ١٣٧٤هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٥٤م). وقد اتخذت الاحتياطات الأمنية اللازمة، وخُصّصت الأماكن كلها القريبة من جمال عبد الناصر لهيئة التحرير، ومديرية التحرير، والحرس الوطني. وأثناء الحفل أُطلقت ثمانية عياراتٍ ناريةٍ من مسدسٍ باتجاه جمال عبد الناصر، ولكنه لم يصب أحد وادُّعي أنَّ محمود عبد اللطيف الذي ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين هو الذي قام بإطلاق النار يُريد اغتيال جمال عبد الناصر بتخطيطٍ من الإخوان المسلمين، ورغم أن المسرحية واضحة إلا أنها أُخذت حقيقةً، فالإخوان المسلمون لا يمكن أن يرسلوا فرداً واحداً لمثل هذه المهمة، وعندهم الإمكانات الكافية. ولم يحدث ذعر في الحفل في المقاعد الأولى إذ كان من المفروض أن يحدث، وأن يُغادر المكان بعضهم وأن تأتي قوّة جدية من قوات الأمن، ولم يحدث هذا أبداً مما يدل على أن الأمر كان معروفاً. ولم يوجد أي أثرٍ للرصاص على الجدار الذي خلف جمال عبد الناصر فكأن الطلقات كانت محشوةً بارودًا فقط، بل إن أسرة جمال عبد الناصر لم تصب في منزلها بأي ذعرٍ وكأنها تعرف ماذا سيتمّ من تمثيلٍ. وبدأت بعدها الأخيلة تسبح في الأوهام، وكلها تُعطي دلالةً على أن الحادثة لم تخرج عن كونها مسرحيةً، ومثلاً خرجت جريدة «الأهرام» بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٣٧٤هـ لتقول: اعترف محمود عبد اللطيف بأن الجهاز السري لجماعة الإخوان المسلمين سلّمه المسدس الذي استخدمه في ارتكاب الجريمة، وأعطاه جنيهين للإنفاق على أسرته أثناء غيابه لارتكاب الحادث بالإسكندرية، وأن الأستاذ هنداوي دوير المحامي في «أمبابة» هو الذي حرّضه وأعطاه المسدس. (وكأن جنيهين فيهما إعالة أسرة).

كما ذكرت الصحف المصرية عقب الحادثة أن نوبياً اسمه آدم خديوي عثر على المسدس الذي استعمل في الجريمة، وذهب سيراً على الأقدام من

الإسكندرية إلى القاهرة. يا سبحان الله، ألم يُؤخذ المسدس من الجاني؟ ألم يُسأل عنه؟ لماذا السير على الأقدام؟ ألا يخشى أن يسأله أحد؟ أمور مضحكة، ورغم ذلك جعلوها حقيقةً، وأكثروا من الحديث فيها. وشُكّلت محكمة الشعب برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات، وحسين الشافعي، وكانت على مستوى تلك المسرحية وصدر حكم الإعدام بحقّ ستةٍ من كبار الإخوان المسلمين: حسن الهضيبي المرشد العام، ومحمد الفرغلي، وعبد القادر عودة، ويوسف طلعت، وإبراهيم الطيب، وهنداوي دوير، ثم محمود عبد اللطيف، ثم خُفّفت الحكم عن المرشد العام لكبر سنه، ومرضه ونُفّذ بالآخرين. ثم زجّ بالآلاف في السجون، ومارس المسؤولون أبشع أنواع العذاب وأقساه وأحقره، ولم تنج النساء من ذلك.

ودارت الشائعات حول محمد نجيب، وتقرّر تقديمه إلى المحكمة، ثم اقتصر جمال عبد الناصر على عزله من منصبه، وتحديد إقامته، وحرمانه من الحقوق السياسية، وبقي تحت الإقامة الجبرية حتى توفّي.

أما جمال عبد الناصر فسخّر بعدئذٍ وسائل الإعلام كلها لتمجيده، والثناء عليه، ورفعه فوق مستوى الشعب، حتى فُرض على المدارس أن تفتتح نهارها بأناشيد المدح له، وتُنهي يومها بمثل ذلك، ولم يعد في الساحة ناقد بعد القضاء على الإخوان المسلمين. وبعد أن أمِّن الوضع الداخلي اتّجه نحو خارج مصر ليبني مجده أمام شعبه، وليُحقّق أماني النفس بالعظمة التي يبغيها، وكذلك كانت الدول التي وضعته في ذلك الموضع تُريد ذلك ليرتفع شأنه وتُنفّذ من ورائه مخططاتها.

مؤتمر باندونغ:

عُقد في مدينة «باندونغ» في أندونيسيا مؤتمر حضرته تسع وعشرون دولة مما جعل له تلك الأهمية، وكانت الجلسات من ٢٦ شعبان ـ ٢ رمضان ١٣٧٤هـ (١٨ ـ ٢٣ نيسان ١٩٥٥م)، وقد زار جمال عبد الناصر باكستان في طريقه إلى المؤتمر، واستقبل كرئيسٍ لدولةٍ إسلاميةٍ استقبالاً ضخماً، وزار الهند وبالغت الهند في الترحيب به لتكسبه إلى جانبها ضدّ باكستان حيث الخلاف

بينهما كبيراً، ولما وصلت أخبار استقباله في باكستان والهند أعدّت أندونيسيا له استقبالاً مماثلاً، وفي كل هذه الجولة ووسائل الإعلام المرافقة تشيد وتُمجِّد، وتبعث بالمعلومات المبالغ فيها إلى وكالات الأنباء العالمية، ووسائل الإعلام المصرية فتقوم بدورٍ كبير وتُتمم أعمال الوسائل المرافقة، حتى عظم الرجل في أعين الجيل الناشئ من غير حقٍّ.

وفي أندونيسيا في مؤتمر باندونغ أعلن أنه سيتوجه إلى طلب السلاح من الشرق، ويكسر احتكار الغرب للسلاح، وفعلاً طلب السلاح من روسيا، وأرسلت له صفقة تشيكية أول الأمر وتلتها أخرى روسية.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تُريد الحصول على بعض الأسرار والمعلومات الروسية، وتبغي مفتاحاً لها لتنفيذ هذا الغرض فاتَّخذت من جمال عبد الناصر هذا المفتاح، ورسمت له الطريق فسار فيه، وكانت تُوجّه له النقد للتعمية، ويقوم هو بالهجوم عليها للغرض نفسه. وتُظهر الابتعاد عنه ومحاولة إرباكه، ويُبدي النأي عنها والتعالي عليها ليرتبط به الشعب، وتستطيع تنفيذ ما تُريد.

السدّ العالي:

سحبت الولايات المتحدة الأمريكية تمويلها للسدّ العالي، وحالت دون إمداد البنك الدولي له بالقروض، فاتّجه الرئيس المصري نحو روسيا فأعطته الخبراء وتعهّدت ببناء السدّ العالي، وكان مجالاً آخر للدعاية والفخر، واستمر يتحرّك نحو اليمين ويُهاجمه ويُنادي بالتوجّه نحو الشمال ويُثني عليه.

المؤتمر الإسلامي:

عُقد في القدس المؤتمر الإسلامي، وكان يضمّ عدداً من زعماء الإخوان المسلمين، ويتسلّم سعيد رمضان أمانة سرّه فأغاظ ذلك جمال عبد الناصر، فعمل على إنشاء المؤتمر الإسلامي الدولي الذي شمل عدداً من الدول الإسلامية، وأوكل أمانته العامة إلى أنور السادات، وكان هذا العمل مجالاً آخر للدعاية رغم أنه لم يُقدّم شيئاً مع الإمكانات الضخمة التي وُضعت تحت تصرّفه من بعض الدول الغنيّة. ثمّ حلّ المؤتمر الإسلامي الدولي بعد أقلّ من عشر سنواتٍ، وحل محلّه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

الرئاسة:

انتهت المرحلة الانتقالية التي حدّدها مجلس قيادة الثورة، فقرَّر جمال عبد الناصر التفرّد بالسلطة، والانتهاء من رجال الثورة إذ يُريد أن يضعهم تحت يديه يتصرّف بهم، ويتنقّل بهم حيث يشاء كأحجار الشطرنج، وأعلن أنه يريد أن يسير بالبلاد نحو الحياة الدستورية، فيكون هناك رئيس للجمهورية، ومجلس تشريعي.

كان الدستور المؤقّت قد صدر في ٣ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٥٦م)، فأعلن عن الترشيح لرئاسة الجمهورية، ورشحّ نفسه وبشكلٍ طبيعي لم يترشّح آخر، حيث لا يجرؤ ثانٍ على ترشيح نفسه إلا إن كان يريد الانتحار، وبالنهاية يبقى جمال عبد النّاصر وحده في الميدان، وجرى الاستفتاء على هذا الترشيح، والاستفتاء لعبة من ألاعيب الخداع لكسب الصفة الشرعية، وحصل على الأصوات كلها إلا ما استثني لإظهار الحرية وكانت نسبة ما حصل عليه ٩٩,٩٩٩٪، وبذا أصبح رئيساً للجمهورية، وانتهت مُهمَّة مجلس قيادة الثورة، وانتهى دوره، وحلّ تلقائياً منذ تمّ الاستفتاء في ١٧ ذي القعدة ١٣٧٥هـ (٢٥ حزيران ١٩٥٦م).

وبعد مرور ثلاث سنواتٍ ميلاديةٍ تماماً على قيام الثورة عدَّت المرحلة الانتقالية قد انتهت وجرى الاستفتاء على الدستور الموقّت، في ١٥ ذي الحجة ١٣٧٥هـ (٢٣ تموز ١٩٥٦م)، وتمّت الموافقة عليه وبذا أصبح لمصر رئيس جمهوريةٍ، ولها دستور قد وافق عليه الشعب.

تعاقبت في هذه المرحلة ست وزارات وهي:

١ ـ وزارة علي ماهر: ٣ ذي القعدة ١٣٧١ ـ ١٨ ذي الحجة ١٣٧١هـ. (٢٤ تموز ١٩٥٢ ـ ٧ أيلول ١٩٥٢م).

٢ ـ وزارة محمد نجيب الأولى: ١٨ ذي الحجة ١٣٧١ ـ ٦ شوال ١٣٧٢هـ. (٧ أيلول ١٩٥٢ ـ ١٨ حزيران ١٩٥٣م).

٣ ـ وزارة محمد نجيب الثانية: ٦ شوال ١٣٧٢ ـ ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ. (١٨ حزيران ١٩٥٣ ـ ٢٢ شباط ١٩٥٤م).

٤ ـ وزارة جمال عبد الناصر الأولى: ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣ ـ ٤ رجب ١٣٧٣هـ. (٢٢ شباط ١٩٥٤ ـ ٨ آذار ١٩٥٤م).

٥ ـ وزارة محمد نجيب الثالثة: ٤ رجب ١٣٧٣ ـ ١٤ شعبان ١٣٧٣هـ. (٨ آذار ١٩٥٤ ـ ١٧ نيسان ١٩٥٤م)،

٦ ـ وزارة جمال عبد الناصر الثانية: ١٤ شعبان ١٣٧٣ ـ ١٧ ذي القعدة ١٣٧٥هـ. (١٧ نيسان ١٩٥٤ ـ ٢٥ حزيران ١٩٥٦م).

٢ ـ عهد جمال عبد الناصر

تسلّم جمال عبد الناصر مهمة رئاسة الجمهورية بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ على قيام الثورة، أو بعد انتهاء المرحلة الانتقالية، ومارس صلاحياته من ذلك اليوم، وإن كان يُمارسها حقيقةً ومن غير منازعٍ منذ استقالة محمد نجيب وقبول ذلك، ثم العودة عن القبول ورجوعه إلى الرئاسة في ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢٧ شباط ١٩٥٤م).

تأميم قناة السويس:

كان أول عمل قام به جمال عبد الناصر بعد تسلّمه منصب رئاسة الجمهورية رسمياً إضافة إلى رئاسة الوزراء[1] تأميم قناة السويس في ١٨ ذي

---

(١) أصدر جمال عبد الناصر أمراً بتشكيل الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ عبد اللطيف البغدادي: وزيراً للشؤون البلدة والقروية، ووزير دولة للتخطيط.

٢ ـ زكريا عبد المجيد محيي الدين: وزيراً للداخلية.

٣ ـ حسين محمود الشافعي: وزيراً للشؤون الاجتماعية، والعمل.

٤ ـ عبد الحكيم عامر: وزيراً للحربية مع احتفاظه بالقيادة العامة.

٥ ـ كمال الدين حسين: وزيراً للتربية والتعليم.

٦ ـ نور الدين طراف: وزيراً للصحة.

٧ ـ أحمد حسني: وزيراً للعدل.

٨ ـ أحمد حسن الباقوري: وزيراً للأوقاف.

٩ ـ فتحي رضوان: وزيراً للإرشاد القومي.

١٠ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.

١١ ـ عبد الرزاق صدقي: وزيراً للزراعة.

١٢ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.

١٣ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للمالية والاقتصاد.

١٤ ـ محمد أبو نصير: وزيراً للتجارة. =

الحجة ١٣٧٥هـ (٢٦ تموز ١٩٥٦م). أعلن ذلك من الإسكندرية دون دراسةٍ، ومن غير نظرٍ إلى ما سيُؤدّي إليه هذا التصرّف، ومن غير استشارة أحدٍ من مستشاريه، أو من المقربين إليه بل من المسؤولين عن الجيش والقوات المسلحة لبحث إمكانية التصدّي للاحتمالات المُرتقبة، أعلن ذلك ردّ فعلٍ لتصريحٍ أدلى به وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية «جون فوستر دلاس» وقال فيه: إن الاقتصاد المصري منهار.

ترك المرشدون الأجانب عملهم في القناة، وعددهم ١٦٥ مرشداً، وبقي منهم سبعة فقط من اليونان إضافةً إلى أربعين آخرين من مصر، ولكن لم يلبث أن حلّ محلّهم خبراء من الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، ويوغسلافيا، والهند وسار الأمر بشكل طبيعي ومُنظّم.

وضعت مصر يدها على أموال الشركة في البنك العثماني، وقيمتها خمسة ملايين جنيه.

كان ردّ فعل إنكلترا أن جمّدت الحساب الجاري لمصر بالعملة الإسترلينية، وقيمته مائة واثنا عشر مليوناً من الجنيهات، وفرضت الحماية على أموال الشركة في لندن.

وجمّدت فرنسا أرصدة مصر في البنوك الفرنسية.

وجمّدت الولايات المتحدة كذلك أرصدة مصر في البنوك الأمريكية وتُقدّر بستين مليون جنيه.

رفضت فرنسا وإنكلترا دفع رسوم على سفنها التي تمر في القناة، وكانت من قبل تدفع الرسوم للشركة القديمة في لندن وباريس.

= ١٥ ـ كمال رمزي استينو: وزيراً للتموين.
١٦ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة.
١٧ ـ مصطفى خليل كامل مصطفى: وزيراً للمواصلات.
١٨ ـ سيد مرعي: وزير دولة للإصلاح الزراعي.
١٩ ـ عبد الفتاح حسن: نائباً لوزير الخارجية.

قررت الولايات المتحدة، وإنكلترا، وفرنسا عقد مؤتمرٍ للدول البحرية وعددها ثمان وهي المُوقّعة على معاهدة إستانبول، إضافةً إلى ست عشرة دولةً منتفعةً بالقناة، وعُقد المؤتمر في لندن بتاريخ ١٠ محرم ١٣٧٦هـ (١٦ آب ١٩٥٦م)، وقرّر المؤتمر إنشاء هيئةٍ دوليةٍ لإدارة القناة مع مصر تعرف باسم «هيئة المنتفعين» مع الاعتراف بحقّ السيادة المصرية على القناة، وضمان دخلٍ عادلٍ لمصر منها، وأرسل لجنةً إلى مصر برئاسة «روبرت منزيس» رئيس وزراء أستراليا لإبلاغها القرار غير أن مصر قد رفضت هذا القرار.

بدّلت الولايات المتحدة الأميركية موقفها المُتعنّت أو الذي كان يظهر عليه التعنّت، وأبدت التساهل مع مصر، وأعلن وزير خارجيتها (جون فوستر دالاس) أن قناة السويس لا تمثّل مركزاً رئيسياً من اهتمام الولايات المتحدة.

عرضت إنكلترا وفرنسا الأمر على مجلس الأمن في ١ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٥ تشرين الأول ١٩٥٦م) وبعد المناقشة أصدر مجلس الأمن القرار الآتي:

١ ـ تكون الملاحة حرةً في قناة السويس ومفتوحةً للجميع دون تمييزٍ.

٢ ـ أن تحترم سيادة مصر عليها.

٣ ـ أن تكون إدارة القناة منفصلةً عن سياسات كل الدول.

٤ ـ أن تحدّد رسوم القناة بالاتّفاق بين مصر والمنتفعين بالقناة.

٥ ـ أن تُخصّص نسبة عادلة للتحسينات والتطوير.

٦ ـ يسوّى الأمر في حالة النزاع بالتحكيم.

(يلاحظ في البند الأول أن عدم التمييز إنما يقصد به إسرائيل).

وقد وافقت مصر على هذا القرار الذي عُرف بالمبادئ الستة، ولكن إنكلترا وفرنسا قد أصرّتا على قرار هيئة المنتفعين، وأخذتا بالاستعداد لعمل شيءٍ حاسمٍ في الموضوع، وكانت الأمور تُشير إلى ذلك، فوصلت معلومات من الملحقِ العسكري المصري ثروت عكاشة في فرنسا تُنبئ بذلك، ونقلَ الأمريكيون معلوماتٍ عن ذلك إلى السفير المصري في واشنطن، غير أن جمال

عبد الناصر لم يقنع بهذا كله، واستبعد ذلك، أو هو يعلم ذلك، ولكنه لا يريد أن يظهر هذه المعرفة، أو يحسب للأمر حساباً لذا بدا أنه غير مصدّق، وأن الخبر عارٍ عن الصحة. لذا لم يتخذ أية احتياطات، وأفهمت إنكلترا وفرنسا دولة إسرائيل في أن التأميم إنما يُقصد منه حصارها ومنع السفن القادمة إلى إسرائيل أو المنطلقة منها من المرور في القناة لذا عليها القيام بعملٍ ضدّ هذا الإجراء وإلاّ يعقبه آخر. ووصلت الأخبار بالحشود الإنكليزية والفرنسية في قبرص إلى زكريا العادل الملحق العسكري المصري في تركيا عن طريق الأتراك، وأبلغ بذلك الحكم المصري، ولكن جمال عبد الناصر لم يُبد أي اهتمامٍ.

وتقوم إسرائيل بالهجوم على سيناء يوم الاثنين مساءً تاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م)، وأنزلت المظليين عند ممر (متلا)، فصدرت الأوامر إلى رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية صدقي محمود لضرب القوات الإسرائيلية فأجاب بعدم الاستعداد لعدم توفر الوقود اللازم للطائرات لديه.

أرسلت إنكلترا وفرنسا إنذاراً إلى كلٍّ من مصر وإسرائيل بسحب قواتهما بعيداً عن قناة السويس مسافةً لا تقلّ عن عشرة أميالٍ. وأن قوات إنكلترا وفرنسا ستحتلّ النقاط الرئيسية في كلٍ من بور سعيد، والإسماعيلية، والسويس لضمان الملاحة بالقناة لجميع سفن العالم، وكان هذا الإنذار يوم الثلاثاء ٢٦ ربيع الأول، وذكرتا أن الإنذار إن لم يُنفّذ خلال ١٢ ساعة فإنهما ستضطران للتدخّل العسكري.

صدرت الأوامر إلى القوات المصرية في سيناء بالانسحاب وذلك مساء يوم الأربعاء، وبدأت الغارات على القاهرة، واستمرّ ذلك يوم الخميس والجمعة، ودُمّرت الطائرات المصرية بضربةٍ واحدةٍ. وبدأ التعب على الجنود في القتال، وعلى المسؤولين في أماكنهم ويزداد ذلك ساعةً بعد ساعةٍ يوم السبت والأحد. وسافر جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي يوم الأحد إلى بور سعيد، وزادت الغارات عليها، فتقرّر الانسحاب من بورسعيد يوم الاثنين.

وتدخّل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية «إيزنهاور» يوم الاثنين فأمر بوقف إطلاق النار فوراً، وأعلن يوم الثلاثاء أمين سر عام الأمم المتحدة «داغ همرشولد» موافقة إنكلترا وفرنسا على وقف إطلاق النار في منتصف الليل حسب توقيت لندن. وبعد توقّف إطلاق النار بعث «خروتشوف» و «بلغانين» الإنذار الروسي بوقف إطلاق النار.

انسحبت إنكلترا وفرنسا يوم ٢١ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٥٦م)، وبعد ثلاثة أشهرٍ انسحبت إسرائيل، ولكن بقيت قوة دولية في «شرم الشيخ» كي تتمكّن إسرائيل من الملاحة في خليج العقبة، والانطلاق منه إلى البحر الأحمر فشرقي إفريقية، وجنوبي آسيا وشرقيها.

ورغم كل ما أصاب مصر فقد سمّى جمال عبد الناصر يوم انسحاب إنكلترا، وفرنسا ٢١ جمادى الأولى عيد نصرٍ، وبدأت الأناشيد والأغاني تُشيد بهذا النصر حتى كاد الناس يُكذّبون أنفسهم، ولكن الأطفال الناشئين قد رُبّوا على هذا، واقتنعوا أنه كان نصراً على إنكلترا وفرنسا.

الاتحاد القومي:

أسّس جمال عبد الناصر الاتحاد القومي كتجمعٍ سياسيٍ يحكم عن طريقه البلد، وقد بعث علي صبري إلى البرتغال لدراسة الاتحاد القومي هناك الذي نظّمه «سالازار» طاغية البرتغال. وقد نصّ دستور عام ١٩٥٦م على هذا التنظيم، وذكر على أن هذا التجمّع سياسي يعمل على تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها ثورة عام ١٩٥٢م.

ولم يكن هذا التنظيم حزباً سياسياً، كما جرت العادة وإنما كان تنظيماً حكومياً، حيث تتحمّل خزينة الدولة كامل نفقاته. وقد أعلن عن قيام هذا التنظيم في ٢٩ شوال ١٣٧٦هـ (٢٨ أيار ١٩٥٧م)، وتولّى أنور السادات منصب الأمين العام له، ثم رأى جمال عبد الناصر غير ذلك، فأصدر مرسوماً بتعيين كمال الدين حسين مُشرفاً عاماً عليه، يُمارس أعمال الأمين العام، وكان شعار هذا التجمع السياسي الحكومي «اشتراكيتنا اشتراكية تمليكٍ وليست اشتراكية مُصادرةٍ»، وهذا يعني أن التنظيم كان اشتراكياً، من نوعٍ جديد، أو عنوان اشتراكي يُمارس

تحت ظله مختلف أنواع الاستبداد. ولم يطل عمر الاتحاد القومي إذ حُلّ مع قيام الوحدة بين مصر وسوريا، أي انتهى قبل أن يستدير العام على قيامه.

الانتخابات:

كان من المقرر أن تجري الانتخابات في البلاد بعد صدور الدستور الذي تحدّث عنها: غير أنها تأجّلت بسبب أحداث القناة، وما أن انتهت الأحداث، وجلت القوات المعتدية الإنكليزية والفرنسية حتى بدأ الاستعداد للانتخابات وذلك منذ يوم ٢١ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٥٦م). وكان هناك اعتراض على حقّ الترشيح فيما إذا أراد أحد الرجال غير المرغوب فيهم أن يُرشّح نفسه، وكان الاتحاد القومي هو الذي يقوم بالترشيح لأعضاء مجلس الأمة، وقد أُغلقت بعض الدوائر الانتخابيّة وحصرت ببعض الضباط الأحرار كي يُؤمّن نجاحهم.

انعقد مجلس الأمة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٧٦هـ (٢٢ تموز ١٩٥٧م)، ولم يطل عمره أيضاً إذ حلّ مع قيام الوحدة كذلك، وقد كلّم جمال عبد الناصر أنور السادات ليتسلّم رئاسة هذا المجلس وذلك قبل انعقاده بثلاثة أيام، ثم عاد فعدل رأيه قبل الانعقاد بيومٍ واحدٍ فكلّف عبد اللطيف البغدادي برئاسة المجلس.

الوحدة بين مصر وسوريا:

قام وفد نيابي من سوريا بزيارة مصر، ودعا إلى الوحدة بين الدولتين العربيتين، وردّ وفد مصري الزيارة ورُحّب به، وكذلك قام وفد عسكري، وكان جمال عبد الناصر يُريد أن يقوم اتحاد بين الدولتين، ولا يرى الدمج، غير أن الوضع في سوريا كان قلقاً جداً، وكان الشعب يرى الوحدة رغبةً فيها، وحباً في التخلّص مما هم فيه من التسلّط العسكري، وتحكّم الغوغائيين من البعثيين والشيوعيين حتى صار الناس يخشون تصرّفاتهم فيضطرون للسكوت عنهم بل ومُسايرتهم. وكذلك فإن رئيس الأركان السوري عفيف البزري ذا الميول الشيوعية كان يُدرك رغبة جمال عبد الناصر في الاتحاد وليس في الوحدة فأراد أن يُحرجه فيرفض الوحدة، ويبقى بعيداً عن سوريا التي تبقى في قبضة عفيف

البزري والبعثيين، ثم تقع في النهاية في أنياب الشيوعية العالمية. لذا فقد عرض عفيف البزري الوحدة فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قبلها وقد أدرك أيضاً نوايا رئيس الأركان السوري.

تمّ الاتفاق على الوحدة في ١٢ رجب ١٣٧٧هـ (أول شباط ١٩٥٨م) وجرى الاستفتاء عليها، وعلى الرئيس جمال عبد الناصر في ٣ شعبان ١٣٧٧هـ (٢٢ شباط ١٩٥٨م).

عيّن جمال عبد الناصر أربعة نواب لرئيس الجمهورية اثنين من مصر وآخرين من سوريا[١]. أما الوزارة فكانت هناك وزارة مركزية[٢] في القاهرة التي

---

(١) عُين عبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف البغدادي نائبين لرئيس الجمهورية وهما من مصر. أما من سوريا فقد عُين أكرم الحوراني الذي كان رئيس مجلس النواب، وصبري العسلي الذي كان رئيس الوزارة، أما شكري القوتلي الذي كان رئيساً للجمهورية السورية فقد أطلق عليه اسم «المواطن العربي الأول» ولم يقم بأي عملٍ سواء أكان رسمياً أم غير رسمي.

(٢) وكانت الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ عبد اللطيف محمود البغدادي: نائب رئيس الجمهورية.
٢ ـ محمد عبد الحكيم علي عامر: نائب رئيس الجمهورية، ووزيراً للحربية.
٣ ـ أكرم الحوراني: نائب رئيس الجمهورية.
٤ ـ صبري العسلي: نائب رئيس الجمهورية.
٥ ـ زكريا محيي الدين: وزيراً للداخلية.
٦ ـ حسين الشافعي: وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل، ووزير التخطيط بالإقليم المصري.
٧ ـ حسن جبارة: وزير التخطيط بالإقليم السوري.
٨ ـ كمال الدين حسين: وزير التربية والتعليم.
٩ ـ نور الدين طراف: وزير الصحة بالإقليم المصري.
١٠ ـ أحمد حسني: وزير العدل بالإقليم المصري.
١١ ـ عبد الوهاب حومد: وزير العدل بالإقليم السوري.
١٢ ـ أحمد حسن الباقوري: وزير الأوقاف.
١٣ ـ فتحي رضوان: وزير الإرشاد القومي.
١٤ ـ محمود فوزي: وزيرالخارجية.
١٥ ـ صلاح الدين البيطار: وزير دولة.
١٦ ـ نور الدين كحالة: وزير الأشغال بالإقليم السوري.

=

أصبحت عاصمة الجمهورية العربية المتحدة، وهو الاسم الذي اختير لدولة الوحدة، ومجلس تنفيذي في القاهرة لإدارة شؤون مصر، وآخر في دمشق لإدارة شؤون سوريا. وقد أُطلق على شطري الوحدة اسم الإقليم المصري أو الإقليم الجنوبي، والإقليم السوري أو الإقليم الشمالي.

ولم يلبث جمال عبد الناصر أن عدّل الوزارة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٧ تشرين الأول ١٩٥٨م)، وقد ضمّت الوزارة المركزية[1] الجديدة تسعة عشر

= ١٧ ـ عبد المنعم القيسوني: وزير الاقتصاد والتجارة بالإقليم المصري.
١٨ ـ خليل الكلاس: وزير الاقتصاد والتجارة بالإقليم السوري.
١٩ ـ فاخر كيالي: وزير الخزانة بالإقليم السوري.
٢٠ ـ كمال رمزي أستينو: وزير التموين بالإقليم المصري.
٢١ ـ عزيز صدقي: وزير الصناعة.
٢٢ ـ مصطفى خليل كامل مصطفى: وزير المواصلات بالإقليم المصري.
٢٣ ـ سيد مرعي: وزير الزراعة، ووزير دولة للإصلاح الزراعي بالإقليم المصري.
٢٤ ـ علي صبري: وزير شؤون رئاسة الجمهورية.
٢٥ ـ حسن عباس زكي: وزير خزانة بالإقليم المصري.
٢٦ ـ عبد الحميد السراج: وزير داخلية بالإقليم السوري.
٢٧ ـ مصطفى حمدون: وزير الشؤون الاجتماعية والعمل بالإقليم السوري.
٢٨ ـ أحمد عبد الكريم: وزير الشؤون البلدية والقروية بالإقليم السوري.
٢٩ ـ أحمد الحاج يونس: وزير الزراعة بالإقليم السوري.
٣٠ ـ أمين النفوري: وزير المواصلات بالإقليم السوري.
٣١ ـ شوكت القنواتي: وزير الصحة بالإقليم السوري.
٣٢ ـ فتحي رزق أحمد: نائب وزير الحربية.
٣٣ ـ كمال الدين محمود رفعت: نائب وزير شؤون رئاسة الجمهورية.

(١) تؤلف الوزارة المركزية للجمهورية العربية المتحدة من السادة:
١ ـ عبد اللطيف محمود البغدادي: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للتخطيط.
٢ ـ عبد الحكيم علي عامر: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للحربية مع احتفاظ بالقيادة العامة للقوات المسلحة.
٣ ـ أكرم الحوراني: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للعدل.
٤ ـ زكريا عبد المجيد محيي الدين: وزيراً للداخلية.
٥ ـ حسين محمود الشافعي: وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل.
٦ ـ حسن جبارة: وزيراً للخزانة.
٧ ـ أحمد حسن الباقوري: وزيراً للأوقاف. =

وزيراً بينهم تسعة ضباط. أما المجلس التنفيذي في القاهرة فقد شمل خمسة عشر وزيراً بينهم خمسة ضباط[1]، وكان المجلس التنفيذي في دمشق يضم أربعة عشر وزيراً بينهم أربعة ضباطٍ[2]، وبذا فإن الحكومة كانت أقرب إلى العسكرية.

= ٨ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٩ ـ صلاح الدين البيطار: وزيراً للثقافة والإرشاد القومي.
١٠ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.
١١ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للاقتصاد.
١٢ ـ فاخر كيالي: وزيراً للدولة.
١٣ ـ كمال رمزي أستينو: وزيراً للتموين.
١٤ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة.
١٥ ـ علي صبري: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
١٦ ـ أحمد عبد الكريم: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٧ ـ أمين نفوري: وزيراً للمواصلات.
١٨ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للدولة.
١٩ ـ بشير العظمة: وزيراً للصحة.
ثم صدر مرسوم بتعيين نائبين لوزير الخارجية وهما:
١ ـ حسين ذو الفقار صبري.
٢ ـ فريد زين الدين.

(١) أما المجلس التنفيذي للإقليم المصري فقد صدر مرسوم بتعيينه على النحو الآتي:
١ ـ نور الدين طراف: رئيساً.
٢ ـ أحمد حسني: وزيراً للعدل.
٣ ـ محمد أبو نصير: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
٤ ـ مصطفى خليل كامل مصطفى: وزيراً للمواصلات.
٥ ـ حسن عباس زكي: وزيراً للاقتصاد.
٦ ـ فتحي رزق أحمد: وزيراً للصناعة.
٧ ـ ثروت عكاشة: وزيراً للثقافة.
٨ ـ عباس رضوان: وزيراً للداخلية.
٩ ـ محمد محمود نصار: وزيراً للصحة.
١٠ ـ موسى عرفة: وزيراً للأشغال.
١١ ـ أحمد نجيب هاشم: وزيراً للتربية والتعليم.
١٢ ـ أحمد محمد المحروقي: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ حسن أحمد بغدادي: وزيراً للإصلاح الزراعي.
١٤ ـ حسن صلاح الدين: وزيراً للخزانة.
١٥ ـ محمد توفيق عبد الفتاح: وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل.

(٢) كما تم تعيين المجلس التنفيذي في الإقليم السوري على النحو الآتي: =

كما صدر مرسوم: يعتبر كل من رئيس المجلس التنفيذي للإقليم المصري، ورئيس المجلس التنفيذي في الإقليم السوري وزيراً للدولة في

= ١ ـ نور الدين كحالة: رئيساً، ووزيراً للأشغال والتخطيط.
٢ ـ عبد الوهاب حومد: وزيراً للخزانة.
٣ ـ خليل كلاس: وزيراً للاقتصاد.
٤ ـ عبد الحميد السراج: وزيراً للداخلية.
٥ ـ مصطفى حمدون: وزيراً للإصلاح الزراعي.
٦ ـ أحمد الحاج يونس: وزيراً للزراعة.
٧ ـ شوكت القنواتي: وزيراً للصحة.
٨ ـ نهاد القاسم: وزيراً للعدل.
٩ ـ عبد الغني قنوت: وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل.
١٠ ـ وجيه السمان: وزيراً للصناعة.
١١ ـ محمد العالم: وزيراً للمواصلات.
١٢ ـ أمجد الطرابلسي: وزيراً للتربية والتعليم.
١٣ ـ طعمة العودة الله: وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٤ ـ رياض المالكي: وزيراً للثقافة.

وتقدّم الوزراء البعثيون باستقالاتهم فقبلت وجرى تعديل وزاري محلي فعيّن في ٢١ رمضان ١٣٧٩هـ (١٨ آذار ١٩٦٠م).

١ ـ حسني الصواف: وزيراً للاقتصاد. مكان خليل الكلاس المستقيل.
٢ ـ أكرم الديري: وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل. مكان عبد الغني قنوت الذي نقل إلى الوزارة المركزية.
٣ ـ أحمد الحنيدي: وزيراً للإصلاح الزراعي. مكان مصطفى حمدون المستقيل.
٤ ـ ثابت العريس: وزيراً للثقافة والإرشاد القومي. مكان رياض المالكي المستقيل.

ثم عُيّن:

١ ـ جادو عز الدين: وزير دولة لشؤون رئاسة الجمهورية منصب جديد.
٢ ـ يوسف مزاحم: وزيراً للأوقاف. منصب جديد.
٣ ـ جمال الصوفي: وزيراً للتموين. منصب جديد.
٤ ـ عبد الحميد السراج: رئيساً للمجلس التنفيذي، ووزيراً للداخلية (في ٢٩ ربيع أول ١٣٨٠ والموافق ٢٠ أيلول ١٩٦٠م).

وفي ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠م) أصبح كمال الدين حسين رئيساً للمكتب التنفيذي في مصر حتى الانفصال.

الوزارة المركزية للجمهورية العربية المتحدة وعُيّن عبد الحكيم عامر حاكماً لسوريا في ربيع الثاني ١٣٧٩هـ (تشرين الأول ١٩٥٩م)، وفي العام التالي استقال وزراء حزب البعث ونائب رئيس الجمهورية البعثي أكرم الحوراني، وذلك لأنهم أقدموا على الوحدة وهم يظنّون أنهم سيحكمون مصر وسوريا ما داموا مُنظّمين، بل وسيُؤثّرون على جمال عبد الناصر، غير أنهم وجدوا غير ما توقّعوا، فقد أصبحت سوريا تعجّ بالمخابرات رغم كثرتها في السابق لكنها كانت لمصلحتهم في الماضي فأصبحت عليهم الآن، لذا لم يستطيعوا الصبر، وقد اعتادوا أن يُسايرهم الحكم اتقاء شرّهم، ويتودّد إليهم الناس خشية تسليط وسائل الإعلام ضدهم. أما بقية الأحزاب فقد كان لهم دور أيضاً. فالإخوان المسلمون بينهم وبين جمال عبد الناصر عداوة، وقد حلّوا تنظيمهم في سبيل مصلحة الأمة بالوحدة، ومُسايرةً لبقية الأحزاب ولرغبة الشعب، أما وقد رأوا الاستبداد فمن واجبهم مُقاومته، لذا عادوا إلى تنظيم أنفسهم سرّاً برئاسة عصام العطار. وكان الشيوعيون من البداية ضدّ الوحدة وقد غادر رئيسهم خالد بكداش البلاد عندما تقرّر إقامة الوحدة. وأما بقية الأحزاب، وهي حزب الشعب، والحزب الوطني فهما تجمّعاتٍ مصلحيةٍ، فكان لكل فردٍ رأيه وهواه حسب ما يُحقّق من مصالح في ظل الوحدة فكان بعضهم معها وبعضهم ضدها. وأما العامة فهم يُؤيّدون الوحدة عاطفةً.

حدث استياء عام في أوساط الطبقة المتعلمة في سوريا وفي الجيش. ففي مجال التعليم قدم إلى سوريا أعداد من المدرسين المصريين، وكلّ منهم يتولّى شؤون «المدرس الأول» في المدرسة التي يعمل بها، وعدد منهم له عمل خاص سرّيّ في المخابرات، وفي الجيش تسلّم عدد من الضباط المصريين قطعاتٍ في الجيش السوري، وكان كل صاحب رتبةٍ من مصر هو أقدم من أي ضابطٍ سوري يحمل الرتبة نفسها إضافةً إلى أن أكثرهم كان ينتظم أيضاً في سلك المخابرات، ولهذا كله حدث تذمّر في صفوف ضباط الجيش وفي نقابة المعلمين، ولكن لم يستطع أحد أن يُعبّر عن رأيه أو يُلمّح إلى ذلك خوفاً من البطش به. ولهذا كله تجمّع رجالات الأحزاب

بعضها مع بعض، وبدأ بعض ضباط الجيش يعملون على تقريب العناصر التي يثقون بها من العاصمة أو يُوزّعونهم على القطاعات بشكلٍ يستفيدون منهم إن دعت الحاجة إلى ذلك، ومن بين هؤلاء العقيد عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر، ومدير شؤون الضباط، من غير فتح الموضوع إلى أي ضابطٍ، ودون علم أحدٍ بما كان ينويه، فكان يستعين بالكتمان على تدبير شؤونه، واستطاع أن يجمع حوله عدداً من الضباط من مختلف الاختصاصات وكلهم من ذوي الرتب الصغيرة التي دون رتبته، وينتظر الوقت المناسب.

أعاد الرئيس جمال عبد الناصر تشكيل الوزارة في ٥ ربيع الأول ١٣٨١هـ (١٦ آب ١٩٦١م) وعيّن سبعة نوابٍ لرئيس الجمهورية[(١)].

---

(١) عُيّن:
١ ـ عبد اللطيف محمود البغدادي: نائباً لرئيس الجمهورية لشؤون التخطيط.
٢ ـ محمد عبد الحكيم علي عامر: نائباً لرئيس الجمهورية، وزيراً للحربية.
٣ ـ نور الدين كحالة: نائباً لرئيس الجمهورية للإنتاج.
٤ ـ زكريا محيي الدين: نائباً لرئيس الجمهورية للمؤسسات العامة.
٥ ـ حسين محمود الشافعي: نائباً لرئيس الجمهورية للإدارة المحلية.
٦ ـ كمال الدين حسين: نائباً لرئيس الجمهورية للشؤون الداخلية.
٧ ـ عبد الحميد السراج: نائباً لرئيس الجمهورية للشؤون الداخلية.
أما الوزارة فتشكلت كما يلي:
١ ـ نور الدين طراف: وزيراً للصحة.
٢ ـ أحمد حسني: وزيراً للدولة.
٣ ـ عبد الوهاب حومد: وزير دولة للتخطيط. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول سنة ١٩٦١م)].
٤ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٥ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.
٦ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للاقتصاد، والخزانة.
٧ ـ فاخر كيالي دولة. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٨ ـ كمال رمزي أستينو: وزيراً للتموين.
٩ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة.
١٠ ـ مصطفى خليل: وزيراً للمواصلات.
١١ ـ سيد مرعي: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي. =

....

= ١٢ ـ علي صبري: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
١٣ ـ أحمد الحاج يونس: وزير دولة للزراعة والإصلاح الزراعي. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
١٤ ـ عباس زكي: وزيراً للاقتصاد والخزانة.
١٥ ـ شوكت القنواتي: وزيراً للصحة. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م).
١٦ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للعمل، ووزير دولة.
١٧ ـ نهاد القاسم: وزيراً للعدل. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
١٨ ـ طعمة العودة الله: وزيراً للإسكان المرافق. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
١٩ ـ أمجد الطرابلسي: وزيراً للتعليم العالي. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٢٠ ـ ثروت عكاشة: وزيراً للثقافة والإرشاد القومي.
٢١ ـ عباس رضوان: وزيراً للداخلية.
٢٢ ـ موسى عرفة: وزيراً للسدّ العالي.
٢٣ ـ أحمد محمد المحروقي: وزير دولة للإصلاح الزراعي.
٢٤ ـ أحمد عبد الله طعيمة: وزيراً للأوقاف.
٢٥ ـ أحمد حنيدي: وزيراً للإصلاح الزراعي. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٢٦ ـ أكرم ديري: وزيراً للاقتصاد والخزانة.. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٢٧ ـ جادو عز الدين: وزيراً للإدارة المحلية. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٢٨ ـ جمال الصوفي: وزيراً للتموين. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٢٩ ـ ثابت العريس: وزيراً للشؤون الاجتماعية. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٣٠ ـ يوسف مزاحم: وزيراً للأوقاف. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)].
٣١ ـ محمد عبد القادر حاتم: وزيراً للدولة.
٣٢ ـ عبد المحسن أبو النور: وزيراً للإدارة المحلية.
٣٣ ـ فريد زين الدين: وزيراً للدولة. [استقال في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م)]. =

=
٣٤ ـ أحمد علي فرج: وزير دولة للتخطيط.
٣٥ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
٣٦ ـ صلاح الدين هدايت: وزيراً للبحث العلمي.
وفي التاريخ نفسه صدر أمر بتعيين:
١ ـ حسين ذو الفقار صبري: نائباً لوزير الخارجية.
٢ ـ محمد علي حافظ: نائباً لوزير التربية والتعليم.
٣ ـ عبد الوهاب البشري: نائباً لوزير الحربية.
وعندما استقال الوزراء السوريون في ١ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م) بعد الانفصال صدر أمر بندب:
١ ـ زكريا محيي الدين: لوزارة العدل.
٢ ـ كمال رفعت: لوزارة الشؤون الاجتماعية.
٣ ـ عبد المحسن أبو النور: لوزارة الإسكان.
٤ ـ محمد يوسف: لوزارة التعليم العالي.
ثم جرى التعديل التالي، وصدر مرسوم من رئيس الجمهورية في ٩ جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٨ تشرين الأول سنة ١٩٦١م) بتعيين:
١ ـ عبد اللطيف محمود البغدادي: نائباً لرئيس الجمهورية للإنتاج، ووزيراً للخزانة والتخطيط.
٢ ـ محمد عبد الحكيم علي عامر: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للحربية.
٣ ـ زكريا عبد المجيد محيي الدين: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للداخلية.
٤ ـ حسين محمود الشافعي: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للأوقاف، والشؤون الاجتماعية.
٥ ـ كمال الدين حسين: نائباً لرئيس الجمهورية، ووزيراً للخدمات، ووزيراً للإدارة المحلية وللإسكان والمرافق.
٦ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٧ ـ أحمد عبده الشرباصي: وزيراً للأشغال.
٨ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للاقتصاد.
٩ ـ كمال رمزي أستينو: وزيراً للتموين.
١٠ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة.
١١ ـ مصطفى خليل: وزيراً للمواصلات.
١٢ ـ علي صبري: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
١٣ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للعمل.
١٤ ـ ثروت محمود فهمي عكاشة: وزيراً للثقافة والإرشاد القومي.
١٥ ـ عباس رضوان: وزيراً للدولة.
=

مجلس الأمة الثاني:

جرت انتخابات للاتحاد القومي في الإقليمين على مستوى القرى، حيث يكون لكل تجمع سكاني عدد من أعضاء الاتحاد القومي مهما قلّ العدد، ويتناسب عدد الأعضاء مع عدد السكان، ثم صدر قرار بتعيين ستمائة عضوٍ في مجلس الأمة وقد اختيروا من بين أعضاء الاتحاد القومي، وكان أربعمائةٍ من الإقليم الجنوبي ومائتان من الإقليم الشمالي، واختير أنور السادات رئيساً لمجلس الأمة هذا.

انعقد مجلس الأمة الثاني في أوائل عام ١٣٨٠هـ (تموز ١٩٦٠م)، وحلّ هذا المجلس مع قيام الانفصال.

الانفصال:

وقع الانفصال في ١٨ ربيع الثاني ١٣٨١هـ (٢٨ أيلول ١٩٦١م)، بتدبيرٍ عسكريٍ قام به عدد من ضباط الجيش السوري بتخطيط من العقيد عبد الكريم النحلاوي[1]، ولم يعلم بهذا التخطيط أحد قبل التنفيذ إلا ما عرفه العقيد

= ١٦ ـ موسى عرفة: وزيراً للسد العالي.
١٧ ـ محمد عبد القادر حاتم: وزير دولة.
١٨ ـ محمد عبد المحسن أبو النور: وزيراً للإصلاح الزراعي وإصلاح الأراضي.
١٩ ـ أحمد علي فرج: وزير دولة للتخطيط.
٢٠ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
٢١ ـ صلاح الدين هدايت: وزيراً للبحث العلمي.
٢٢ ـ عبد العزيز السيد: وزيراً للتعليم العالي.
٢٣ ـ فتحي الشرقاوي: وزيراً للعدل.
٢٤ ـ محمد نجيب حشاد: وزيراً للزراعة.
٢٥ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
كما صدر في الأمر نفسه تعيين:
١ ـ حسين ذو الفقار صبري: نائباً لوزير الخارجية.
٢ ـ محمد علي حافظ: نائباً لوزير التربية والتعليم.
٣ ـ عبد الوهاب البشري: نائباً لوزير الحربية.

(١) كان أبرز ضباط الانفصال:
١ ـ اللواء عبد الكريم زهر الدين: وضع واجهةً يوم التنفيذ.

مهيب الهندي شقيق زوج عبد الكريم النحلاوي، أما بقية المشاركين في التنفيذ فقد علموا به قبل يومين فقط، وبعد الانفصال كُلّف علي صبري برئاسة[1] المجلس التنفيذي.

= ٢ ـ العميد عبد الغني دهمان: قائد معسكرات قطنا.
٣ ـ العميد موفق عصاصة: قائد سلاح الجو.
٤ ـ العقيد عبد الكريم النحلاوي: مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر، ومعاون مدير شؤون الضباط.
٥ ـ العقيد مهيب الهندي: رئيس أركان اللواء ٧١ في قطنا.
٦ ـ المقدم حيدر الكزبري: قائد قوات العشائر.
٧ ـ الرائد هشام عبد ربه.
٨ ـ الرائد فايز الرفاعي.

(١) شكّل جمال عبد الناصر مجلساً للرئاسة في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ (٢٧ أيلول ١٩٦٢م) من السادة:
١ ـ جمال عبد الناصر: رئيس الجمهورية رئيساً.
٢ ـ عبد اللطيف البغدادي: نائب رئيس الجمهورية عضواً.
٣ ـ عبد الحكيم عامر: نائب رئيس الجمهورية عضواً.
٤ ـ زكريا محيي الدين: نائب رئيس الجمهورية عضواً.
٥ ـ حسين الشافعي: نائب رئيس الجمهورية عضواً.
٦ ـ أنور السادات: نائب رئيس الجمهورية عضواً.
٧ ـ حسين إبراهيم عضواً.
٨ ـ علي صبري: رئيس المجلس التنفيذي عضواً.
٩ ـ نور الدين طراف: عضواً.
١٠ ـ كمال الدين رفعت: عضواً.
وفي الأول من جمادى الأولى ١٣٨٢هـ (٢٩ أيلول ١٩٦٢م) تشكّل المجلس التنفيذي برئاسة علي صبري على النحو الآتي:
١ ـ علي صبري: رئيساً للمجلس التنفيذي.
٢ ـ محمود فوزي: وزيراً للخارجية.
٣ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للخزانة والتخطيط.
٤ ـ كمال رمزي أستينو: وزيراً للتموين.
٥ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة.
٦ ـ مصطفى خليل: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ عباس رضوان: وزيراً للإدارة المحلية.
٨ ـ محمد عبد القادر حاتم: : وزيراً للثقافة والإرشاد القومي.
٩ ـ عبد المحسن أبو النور: وزيراً للإصلاح الزراعي، وإصلاح الأراضي. =

السد العالي:

تعهد الروس ببناء السد العالي، ووضع الرئيس جمال عبد الناصر الحجر الأساسي له في ١١ رجب ١٣٧٩هـ (٩ كانون الثاني ١٩٦٠م)، وانتهت المرحلة الأولى منه عام ١٣٨٤هـ، وكانت مجمل النفقات على بناء السدّ ٣٢٠ مليون جنيه.

القوانين الاشتراكية:

في ٦ صفر ١٣٨١هـ ولمدة أربعة أيام سُنّت عدة قوانين اشتراكية، وربما كان لهذه القوانين أثر في زيادة التذمّر في الإقليم السوري والإسراع في قيام الانفصال.

= ١٠ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
١١ ـ صلاح الدين هدايت: وزيراً للبحث العلمي.
١٢ ـ عبد العزيز السيد: وزيراً للتعليم العالي.
١٣ ـ فتحي الشرقاوي: وزيراً للعدل.
١٤ ـ محمد نجيب حشاد: وزيراً للزراعة.
١٥ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
١٦ ـ حسن زكي: وزيراً للأشغال.
١٧ ـ عبد الوهاب البشري: وزيراً للحربية.
١٨ ـ أحمد زند: وزيراً للاقتصاد.
١٩ ـ أحمد محرم: وزيراً للإسكان والمرافق.
٢٠ ـ طلعت خيري: وزير الدولة للشباب.
٢١ ـ محمد صدقي سليمان: وزيراً للسد العالي.
٢٢ ـ عبد العظيم فهمي: وزيراً للداخلية.
٢٣ ـ محمد البهي: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
٢٤ ـ حكمت أبو زيد: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
٢٥ ـ محمد عبد اللطيف سلامة: وزيراً للعمل.
كما صدر في الأمر نفسه تعيين كل من:
١ ـ حسين ذو الفقار صبري: نائباً لوزير الخارجية.
٢ ـ محمد علي حافظ: نائباً لوزير التربية والتعليم.
٣ ـ محمد لبيب شقير: نائباً لوزير التخطيط.
٤ ـ إبراهيم نجيب إبراهيم: نائباً لوزير الإسكان والمرافق.

الاتحاد الاشتراكي:

بعد قيام الانفصال، وحلّ مجلس الأمة الثاني، حلّ بشكل طبيعي الاتحاد القومي، فأقام الرئيس جمال عبد الناصر تنظيماً جديداً أطلق عليه اسم الاتحاد، الاشتراكي، وأعلن رئيس الجمهورية عن قيامه في ٢ صفر ١٣٨٢هـ (٤ تموز ١٩٦٢م) فحلّ محلّ الاتحاد القومي وانبثق عنه مجلس الأمة الثالث الذي انعقد في ١٣ ذي القعدة ١٣٨٣هـ (٢٦ آذار ١٩٦٤م) وعهد إلى علي صبري برئاسة الوزارة الجديدة[1].

---

(١) شكل علي صبري وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ ـ علي صبري: رئيساً للوزراء، ووزيراً للتخطيط.

٢ ـ نور الدين طراف: نائباً لرئيس الوزراء، ويشرف على وزارات: العدل، والعمل، والشباب.

٣ ـ أحمد عبده الشرباصي: نائباً لرئيس الوزراء للأوقاف وشؤون الأزهر، ووزيراً للأوقاف.

٤ ـ كمال الدين محمود رفعت: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون العلمية ويشرف على وزارات: التعليم العالي، والبحث العلمي.

٥ ـ محمود فوزي: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الخارجية ويشرف على وزارات الخارجية، ووزارة العلاقات الثقافية الخارجية.

٦ ـ عبد المنعم القيسوني: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية والمالية، ووزيراً للاقتصاد وللتجارة الخارجية، ويشرف على وزارة الخزانة.

٧ ـ كمال رمزي أستينو: نائباً لرئيس الوزراء للتموين والتجارة الداخلية، ووزيراً للتموين والتجارة الداخلية.

٨ ـ عزيز صدقي: نائباً لرئيس الوزراء للصناعة المعدنية، ووزيراً للتعدين والبترول، ووزيراً للصناعة الخفيفة، ويشرف على وزارات: الصناعات الثقيلة، والقوى الكهربائية.

٩ ـ مصطفى خليل: نائباً لرئيس الوزراء للمواصلات والنقل، ويشرف على وزارة المواصلات ووزارة النقل، .

١٠ ـ عباس رضوان: نائباً لرئيس الوزراء للإدارة المحلية والخدمات، ووزيراً للإدارة المحلية، ويشرف على وزارات: التربية والتعليم، والصحة، والشؤون الاجتماعية، والإسكان والمرافق.

١١ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائباً لرئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي ويشرف على وزارات: الإعلام، والسياحة والآثار.

١٢ ـ عبد المحسن أبو النور: نائباً لرئيس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للإصلاح الزراعي واستصلاح الأراضي، ويشرف على وزارات: الري، والزراعة. =

حرب اليمن:

عندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا، أعلن الإمام أحمد إمام اليمن انضمام دولة اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة، ونشأ ما سُمّي باسم اتحاد الدول العربية، وبذلك ضمن الإمام أحمد عدم شنّ الحرب الإعلامية عليه وعلى دولته، والعيش بمنأى عن شتائم صوت العرب من القاهرة. فلما قام الانفصال في ١٨ ربيع الثاني ١٣١٨هـ حُلّ اتحاد الدول العربية تلقائياً. لذا نالت اليمن قسطاً من الحرب الإعلامية ضدّها.

= ١٣ ـ محمد أبو نصير: وزيراً للإسكان والمرافق.
١٤ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
١٥ ـ عبد العزيز السيد: وزيراً للتعليم العالي.
١٦ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
١٧ ـ حسن زكي: وزيراً للري.
١٨ ـ عبد الوهاب البشري: وزيراً للحربية.
١٩ ـ محمد صدقي سليمان: وزيراً للسد العالي.
٢٠ ـ عبد العظيم فهمي: وزيراً للداخلية.
٢١ ـ حكمت أبو زيد: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
٢٢ ـ محمد عبد اللطيف سلامة: وزيراً للعمل.
٢٣ ـ حسين خلاف: وزيراً للعلاقات الثقافية الخارجية.
٢٤ ـ بدوي إبراهيم حمودة: وزيراً للعدل.
٢٥ ـ محمد لبيب شقير: وزيراً للدولة للتخطيط.
٢٦ ـ محمد عزت سلامة: وزيراً للقوى الكهربائية.
٢٧ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
٢٨ ـ أحمد رياض تركي: وزيراً للبحث العلمي.
٢٩ ـ سمير حلمي إبراهيم: وزيراً للصناعة الثقيلة.
٣٠ ـ محمود محمد رياض: وزيراً للمواصلات.
٣١ ـ محمود عبد السلام: وزيراً للنقل.
٣٢ ـ نزيه أحمد ضيف: وزيراً للخزانة.
٣٣ ـ شفيق علي الخشن: وزيراً للزراعة.
وفي المرسوم نفسه صدر الأمر بتعيين كل من:
١ ـ محمد علي الحافظ: نائباً لوزير التربية والتعليم.
٢ ـ نجيب إبراهيم نجيب: نائباً لوزير الإسكان والمرافق.
٣ ـ عبد الملك سعد: نائباً لوزير المواصلات.

توفي الإمام أحمد ٢٠ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ (١٩ أيلول ١٩٦٢م)، وخلفه في الإمامة ابنه البدر، ولم تلبث أن قامت الثورة عليه بإمرة العقيد عبد الله السلال وذلك في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ (٢٦ أيلول ١٩٦٢م)، وهرب البدر من البلاد، وأخذ يستعدّ للعودة. أيّدت مصر الثورة في اليوم الثاني من قيامها في ٢٨ ربيع الثاني، ووصلت طلائع القوات المصرية إلى اليمن في ٧ جمادى الأولى ١٣٨٢هـ (٥ تشرين الأول ١٩٦٢م)، ووصل أنور السادات أيضاً حيث عقد مع اليمن معاهدة الدفاع المشترك.

قطعت مصر علاقتها السياسية مع المملكة العربية السعودية في ٨ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ، وخسرت مصر في حربها باليمن الأموال الكثيرة، وأعداداً من الجنود كبيرة، أو وقعت في ورطةٍ لم تستطع التخلّص منها. وقد عزل كمال الدين حسين من مناصبه نتيجة معارضته للحرب في اليمن. وكانت إسرائيل تحرّض بصورة غير مباشرةٍ على زيادة إشعال النار في اليمن لتُغطّي على ما تقوم به. ولم يخرج الجنود المصريون من اليمن إلا بعد عام ١٣٨٧هـ بعد الحرب التي حدثت بين الدول العربية وبين إسرائيل، وكان الخروج نتيجة الاتفاق الذي تمّ بين الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية، وبين الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة، وذلك في مؤتمر الخرطوم بالسودان.

مجلس الرئاسة:

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن تشكيل مجلس للرئاسة ليس للحد من سلطته الفردية واستشارة الآخرين، وإنما على ما يبدو للحدّ من سلطة عبد الحكيم عامر التي قويت بين العسكريين حتى خشيها، وتشكل هذا المجلس من نور الدين طراف، وأحمد عبده الشرباصي، وعلي صبري، وكمال الدين رفعت، ومن بقي من الأحياء من مجلس قيادة الثورة، وذلك في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ (٢٧ أيلول ١٩٦٢م)[١].

(١) انظر هوامش الصفحات السابقة.

اقترح جمال عبد الناصر على مجلس الرئاسة أن يكون تعيين قادة الأسلحة من اختصاص مجلس الرئاسة، وفي الجلسة التي عقدت لبحث هذا الموضوع رأس الجلسة عبد اللطيف البغدادي لغياب جمال عبد الناصر، واعترض عبد الحكيم عامر على هذا الاقتراح فأهمل، وأهمل معه المجلس... ثم بدأت الاستقالات حتى انتهى، وهذا يدلنا على الهدف من تشكيله.

وصدر دستور مؤقت للجمهورية العربية المتحدة في ١١ ذي القعدة ١٣٧٣هـ (٢٤ آذار ١٩٦٤م) وقام ما سمي بالتنظيم الطليعي الذي ترتبط به منظمات الشباب، ويرأس هذا التنظيم شعراوي جمعة، وسعد زايد، وسامي شرف، وحلمي السعيد، ومحمد فائق، وأحمد كامل، ويوسف غزولي، ومحمود عروق، ومحمود أمين العالم.

وفي ٦ جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ (١ تشرين الأول ١٩٦٥م) عهد رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر برئاسة الوزراء إلى زكريا محيي الدين[١].

---

(١) صدر قرار التعيين على النحو الآتي:

المادة الأولى: عين زكريا محيي الدين: نائب رئيس الجمهورية رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.

المادة الثانية عين كل من:

١ ـ أحمد عبده الشرباصي: نائب رئيس الجمهورية ووزير الأوقاف، والشؤون الاجتماعية، وشؤون الأزهر.

٢ ـ محمود فوزي: نائب رئيس الوزراء للشؤون الخارجية.

٣ ـ عبد المنعم القيسوني: نائب رئيس الوزراء للشؤون المالية والاقتصادية.

٤ ـ كمال رمزي أستينو: نائب رئيس الوزراء للتموين والتجارة الداخلية.

٥ ـ مصطفى خليل: نائب رئيس الوزراء للصناعة، والثروة المعدنية، والكهرباء، ووزيراً للصناعة والثروة المعدنية، والكهرباء.

٦ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي، والسياحة.

٧ ـ عبد المحسن أبو النور: نائب رئيس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للإصلاح، واستصلاح الأراضي.

٨ ـ محمود يونس: نائب رئيس الوزراء للنقل والمواصلات، ووزيراً للمواصلات.

المادة الثالثة: عين كل من:

١ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم. =

مقدمات الحرب مع اليهود:

ما قامت حرب في المنطقة إلا وزُجّ قبلها العلماء والإخوان المسلمون، ورجال الحركات الإسلامية في السجون، وفي الوقت نفسه يُطلق العنان للمفسدين والشيوعيين للحركة والنشاط وبثّ الأفكار.

لقد صدر عفو عام شامل عن العقوبات التي صدرت فيما مضى ضد /

= ٢ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
٣ ـ عبد الوهاب البشري: وزيراً للحربية.
٤ ـ محمد طلعت خيري: وزير دولة للشباب.
٥ ـ محمد صدقي سليمان: وزيراً للسدّ العالي.
٦ ـ محمد عبد اللطيف: وزيراً للعمل.
٧ ـ محمد لبيب شقير: وزيراً للاقتصاد، والتجارة الخارجية، والتخطيط.
٨ ـ محمد عزت سلامة: وزيراً للإسكان والمرافق.
٩ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
١٠ ـ محمود عبد السلام: وزيراً للنقل.
١١ ـ نزيه أحمد ضيف: وزيراً للخزانة.
١٢ ـ شفيق علي الخشن: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ شعراوي محمد جمعة: وزيراً للدولة.
١٤ ـ سليمان حزين: وزيراً للثقافة.
١٥ ـ عبد الفتاح حسن: وزيراً للدولة.
١٦ ـ محمد عصام الدين حسونة: وزيراً للعدل.
١٧ ـ أحمد حمدي أحمد عبيد: وزير دولة للإدارة المحلية.
١٨ ـ عبد الخالق الشناوي: وزيراً للري.
١٩ ـ محمد نور الدين قره: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢٠ ـ عزيز أحمد ياسين: وزيراً للسياحة والآثار.
٢١ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للإرشاد القومي.
٢٢ ـ حسين محمد سعيد: وزيراً للتعليم العالي.
المادة الرابعة:
عين كل من:
١ ـ إبراهيم نجيب إبراهيم: نائباً لوزير الإسكان والمرافق.
٢ ـ عبد الملك سعد: نائباً لوزير المواصلات.
٣ ـ يوسف حافظ: نائباً لوزير الداخلية.
٤ ـ أحمد محمد خليفة: نائباً لوزير الأوقاف والشؤون الاجتماعية.

الشيوعيين. وتشكّلت لجنة برئاسة عبد الحكيم عامر لتصفية الإقطاع، وكان الغرض منها إثارة أصحاب الأملاك ضد عبد الحكيم عامر، وهذا ما يُريده جمال عبد الناصر، وإثارتهم أيضاً ضد الحكم عامة، وهذا ما يهدف إليه الذين كانوا وراء التخطيط لهذا الموضوع.

وبدأت اعتقالات الإخوان المسلمين في ٢ ربيع الثاني ١٣٨٥هـ (٣٠ تموز ١٩٦٥م)، وأُجريت المحاكمات وحُكم على سيد قطب واثنين من إخوانه بالإعدام، ونُفِّذ فيهم الحكم رغم وساطاتٍ كثيرةٍ من العالم الإسلامي، ومُظاهراتٍ تُندّد بالظلم والطغيان.

وفي ٢٥ جمادى الأولى ١٣٨٦هـ (١٠ أيلول ١٩٦٦م) غيّر الرئيس جمال عبد الناصر الوزارة، وكلّف محمد صدقي سليمان برئاستها[1].

---

(١) قرر رئيس الجمهورية:
المادة الأولى: عُيّن السيد محمد صدقي سليمان: رئيساً للوزراء.
المادة الثانية: عُيّن كل من:
١ ـ محمود فوزي: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الخارجية.
٢ ـ عبد المحسن أبو النور: نائباً لرئيس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للإصلاح الزراعي واستصلاح الأراضي.
٣ ـ محمود يونس: نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للكهرباء، والبترول، والتعدين.
٤ ـ ثروت عكاشة: نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للثقافة.
المادة الثالثة: عُيّن كل من:
١ ـ حسن عباس زكي: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢ ـ محمد يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
٣ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
٤ ـ عبد الوهاب البشري: وزيراً للإنتاج الحربي.
٥ ـ محمد طلعت خيري: وزير دولة للشباب.
٦ ـ محمد عبد اللطيف سلامة: وزيراً للعمل.
٧ ـ محمد لبيب شقير: وزيراً للتخطيط.
٨ ـ محمد عزت سلامة: وزيراً للتعليم العالي.
٩ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
١٠ ـ محمود عبد السلام: وزيراً للنقل.
١١ ـ نزيه أحمد ضيف: وزيراً للخزانة. =

كانت الثورة المصرية قد قامت برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، وبتوجيه منها لتحلّ محلّ إنكلترا في مصر، واتجهت هذه الثورة في بداية أمرها إلى تسوية الوضع الداخلي بإزالة المعارضة، وما تُريد الدول الغربية تنفيذه فأزاحت الشيوعيين، ونكّلت بالإخوان المسلمين، وكمّت الأفواه، ولكن هذا التصرّف قد قطع الصلة بين الحكم العسكري القائم وبين الشعب في مصر بل وفي المنطقة العربية، لذا فقد اتّجه قادة الثورة بعدئذٍ إلى كسب الدعاية لأنفسهم في مصر والمنطقة العربية كلها، فكانت فكرة السدّ العالي، وتأميم قناة السويس، وكان العدوان الثلاثي على مصر، وقامت وسائل الإعلام بدورها، فربح الحكام الجولة، وكسبوا الدعاية، وأصبح جمال عبد الناصر الناطق الرسمي باسم الشعب العربي، وذلك كله بالتوجيه نفسه والدعاية ذاتها التي قامت الثورة في مصر مستندة عليهما.

وبالتوجيه نفسه أخذت مصر بالتقرّب نحو الكتلة الشرقية، فكانت

= ١٢ ـ شفيق علي الخشن: وزيراً للزراعة.
١٣ ـ شعراوي محمد جمعة: وزيراً للداخلية.
١٤ ـ محمد عصام الدين حسونة: وزيراً للعدل.
١٥ ـ أحمد حمدي أحمد عبيد: وزير دولة للإدارة المحلية.
١٦ ـ عبد الخالق الشناوي: وزيراً للري.
١٧ ـ محمد نور الدين قره: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٨ ـ عزيز أحمد ياسين: وزيراً للإسكان والمرافق والسياحة.
١٩ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للدولة.
٢٠ ـ شمس الدين بدران: وزيراً للحربية.
٢١ ـ أحمد توفيق البكري: وزيراً للصناعة.
٢٢ ـ محمد محمد فائق: وزيراً للإرشاد القومي.
٢٣ ـ كمال هنري أبادير: وزيراً للمواصلات.
٢٤ ـ أحمد محمد خليفة: وزيراً للأوقاف والشؤون الاجتماعية.
المادة الرابعة: عُيّن كل من:
١ ـ إبراهيم نجيب إبراهيم: نائباً لوزير الإسكان والمرافق.
٢ ـ عبد الملك سعد: نائباً لوزير المواصلات.
٣ ـ يوسف حافظ: نائباً لوزير الداخلية.

الولايات المتحدة تقوم بتصرّفٍ تجعل مصر تتجه نحو روسيا فتقبل روسيا ما رفضته الولايات المتحدة ويسير المخطط، ترفض الولايات المتحدة مثلاً مدّ مصر بالسلاح فتتجه مصر نحو الكتلة الشرقية فتقوم بإعطاء السلاح، تسحب الولايات المتحدة عرضها بتمويل السدّ العالي فتتحرّك مصر نحو روسيا فتتعهد روسيا بتمويل السدّ العالي، وتقوم بتنفيذ ما تعهدت به.

وأحسّت روسيا بالدور الذي يقوم به جمال عبد الناصر، وأحسّت بوقوعها بالمخطط الذي رُسم لها لذا فقد وقفت موقفاً عدائياً للوحدة بين مصر وسوريا، وكذلك وقف عملاؤها الشيوعيون في كلا البلدين لذا فقد لاحظنا أن الزعماء الشيوعيين في سوريا قد غادروا البلاد عندما تمت الوحدة إشارةً إلى رفضها ومُحاربتها، وقد نكَّلَ عبد الحميد السراج وكيل جمال عبد الناصر في سوريا ببعض من بقي منهم، وقد أذاب فرج الله الحلو في حمض الكبريت المكثّف.

غير أن روسيا لا ترغب أن تظهر بسذاجتها أمام الشعوب لذا فقد أبقت الصلة الظاهرة مع جمال عبد الناصر، وبقيت على مدّه بالسلاح مكتفيةً بما تربحه من دعايةٍ لنفسها ولنظامها بين أفراد الشعب، وبما تُحقّقه لأنصارها من تمكين، لكنها لا تدخّر وسعاً في المحاولة لتحطيم جمال عبد الناصر لتريه سوء عاقبة ما يقوم به.

وشعرت الولايات المتحدة أن روسيا قد أحسّت باللعبة الدولية، لذا فقد طلبت من جمال عبد الناصر أن يتجاهل ما يُريده الروس، وما يقوم به هو، وأن يزيد من صلته بالروس، ويُحقّق لهم بعض ما يرغبون فيه، لذا نراه يعفو عن الشيوعيين، ويُشكّل لجنةً لتصفية الإقطاع، ويبدأ باعتقال الإخوان وهذا ما يهمّ الروس ويعملون من أجله بل إنه يزور موسكو، ومن هناك يتهم الإخوان ويُعلن عن اعتقالهم، وكل ذلك ليُبعد الروس عما ظنّوا به، ولكن الروس تجاهلوا أيضاً، وأظهروا رضاهم، وأضمروا في أنفسهم شيئاً.

وأرادت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً توريط جمال عبد الناصر، فقد استُهلك ولم يعد لها رغبة فيه إذ كُشف للروس دوره، وهو في الوقت نفسه لم يُؤدّ مهمته إذ كان قد رسم له أن يخطو خطوةً واسعةً بالنسبة إلى القضية الفلسطينية غير أن خطوته كانت أقلّ مما توقع الأعداء، لقد اقتصرت على عدم

تقوية الجيش المصري، وتفرقة صفوف الدول العربية، والعمل على إبراز منظمة التحرير الفلسطينية لتُؤدّي دورها في المستقبل نيابةً عن الحكومات العربية، والتهديدات المستمرة لليهود لتدعوهم إلى العمل الجاد. لذا كان من الضروري للولايات المتحدة أن يُستبدل بشخصٍ آخر يمكنه أن يخطو خطوةً جديدةً وربما تكون أوسع لمصلحة اليهود، ومن هذا المنطلق كان التخطيط.

وكان جمال عبد الناصر وحكام سوريا من البعثيين كفرسي رهانٍ على المتاجرة بالعصبية العربية، ومُحاولة كسب الشعب، وأرضاء الجماهير، لذا كان البعثيون يرغبون فعلاً في تحطيم جمال عبد الناصر، ولا يقلّ هو عنهم في نظرته إليهم بل لا ينسى كارثة الانفصال. ولهذا لم يُوضّح البعثيون حقيقة الوضع على حدودهم مع فلسطين إذ لم تكن أية حشودٍ يهوديةٍ هناك(١)، كما كان يُذاع بل حرصوا على تأكيد ذلك لتوريط جمال عبد الناصر في الموضوع.

وأما إسرائيل فكانت تُريد التوسّع غير أنها محاطة، وتوجد في سيناء قوات دولية للطوارئ، وتخشى التوسّع في جهات الأردن، وسوريا، ولبنان قبل تأمين الجبهة الجنوبية لذا لا بد من حربٍ على تلك الجبهة وإخراج مصر من المعركة أولاً ثم التوجّه إلى الجبهات الثانية.

لقد كانت اللعبة دولية، ومثّل كل طرفٍ دوره أحسن تمثيلٍ منهم من يدري أين يسير، ومنهم لا يدري وإنما يُنفّذ ما يُطلب منه، وربما كان يظنّ أنه يسير في طريقٍ تخدم أمته، وتُحقّق له مصلحته وزعامته إذ نُصح وأُفهم أن النتيجة ستكون كذلك.

---

(١) كان الكاتب على الحدود قبل القتال بشهر ولم تكن هناك أية حشود، وبدأ القتال على الجبهة المصرية ومعظم جنود اليهود على تلك الجبهة، أما الجبهة السورية فكانت شبه خالية حتى جاء دورها في القتال. واستمر هناك إلى أيام القتال، ولما أطلقت القوات السورية قذائف مدفعيتها على أرض فلسطين لم يكن هناك من جنود ويهود. وبقي الوضع على الحدود على هذه الحالة، ولم تتقدم القوات السورية في الأرض الفلسطينية رغم أنه لا يوجود ما يمنعها أو يحول دون ذلك، فلما جاءت القوات اليهودية حيث أتى الدور للجبهة السورية، انسحب الجيش السوري أمامها، وكان ذلك بأوامر من وزارة الدفاع السورية.

قامت إسرائيل في ٢٧ ذي الحجة ١٣٨٦هـ (٧ نيسان ١٩٦٧م) بشنّ غارةٍ على سوريا انتقاماً من الفدائيين الذين دخلوا فلسطين من الجبهة السورية، وقاموا ببعض العمليات، وتمكنت إسرائيل من إسقاط بعض الطائرات السورية التي تعرّضت لها فوق أجواء ضواحي دمشق. وأبلغ الروس آنذاك جمال عبد الناصر أن إسرائيل قد حشدت عشرة ألويةٍ على الحدود السورية لغزوها، ويُريدون توريطه في حرب للقضاء عليه.

كانت المهاترات قائمةً بين بعض حكام الدول العربية، وكان هجوم جمال عبد الناصر على الملك حسين ملك الأردن شديداً، وأراد الملك حسين الدفاع عن نفسه وردّ الهجوم فأعلن أن مصر تضع قوات الطوارئ الدولية على أرضها وعلى نفقتها، وفي الوقت نفسه تفسح المجال لليهود بالملاحة عبر خليج العقبة حيث توجد أيضاً قوات للأمم المتحدة في «شرم الشيخ»، وكان هذا كله سرًّا ومجهولاً من قبل الشعب.

أخذت جمال عبد الناصر الحمية أو استُدرج إليها فأمر يوم ٥ صفر ١٣٨٧هـ (١٤ أيار ١٩٦٧م) القوات المصرية أن تزحف إلى سيناء، وهي منزوعة السلاح منذ عام ١٣٧٦هـ. وطلب في اليوم التالي من (يوثانت) الأمين العام للأمم المتحدةِ إنهاء عمل قوات الطوارئ الدولية في الأرض المصرية، فاستجاب «يوثانت» للطلب مباشرةً، فاحتلّ المصريون مكانها في سيناء وفي شرم الشيخ[١]، وتأزّم الوضع.

وأعلنت مصر في ١٤ صفر ١٣٨٧هـ (٢٣ أيار ١٩٦٧م) إغلاق خليج العقبة أمام السفن اليهودية، والسفن التي تحمل بضائع لإسرائيل، ولو لم تكن السفن إسرائيليةً، وأن ذلك هو ما كان معمولاً به قبل عام ١٣٧٦هـ.

أما إسرائيل فقد أعلنت أنها ستقوم بفتح مضائق تيران بالقوة إن استدعى الأمر ذلك، وإذا لم تجد الوسائل السياسية، وقد وقف «جونسون» رئيس

---

(١) شرم الشيخ: ميناء يطل على مضائق «تيران» التي تشرف على الملاحة بين خليج العقبة والبحر الأحمر.

الولايات المتحدة الأمريكية، ورئيس وزراء بريطانيا «ويلسون» مؤيدين لإسرائيل.

وصل الأمين العام للأمم المتحدة «يوثانت» إلى القاهرة في ١٥ صفر عسى أن يحلّ الموضوع بشكلٍ سلميٍ ولكن جمال عبد الناصر تعنّت ورفض ذلك أيما رفضٍ، ولكن خرج «يوثانت» من القاهرة، وقد أخذ ضماناتٍ من مصر ألا تقوم بالهجوم، وهو المطلوب.

وفي اليوم التالي سافر وزير الحربية المصري شمس الدين بدران إلى موسكو، فنصحه الروس أن لا يكون المصريون مُهاجمين، لأنهم لو قاموا بالهجوم لفسدت الخطة، وإنما يجب أن ينتظروا حتى يُباغتوا بالضربة لتكون القاضية وهذا ما حدث.

وبدأت وسائل الإعلام المصرية، وخطب جمال عبد الناصر تُذكي نار الحرب بالتهديدات التي تُطلق دون معرفةٍ للنتائج.

وفي ٢٠ صفر بُحث موضوع النزاع المصري ـ الإسرائيلي في مجلس الأمن دون فائدةٍ وذلك لأن اللعبة الدولية تقضي بقيام حربٍ لتحقيق الأهداف المرسومة.

ولإخراج الدور بشكلٍ جيدٍ قام الملك حسين بزيارة للقاهرة يوم ٢١ صفر، ووقّع اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر، ونُسي الخلاف الذي كان قائماً بين الطرفين قبل أيامٍ في سبيل مُواجهة العدو المشترك، ولم تلبث العراق أن انضمّت إلى هذه الاتفاقية بعد أربعة أيامٍ فقط أي قبل يومٍ واحدٍ من بدء القتال.

والواقع أن الجيش المصري لم يكن مُهيّأً إذ لم يهتمّ به جمال عبد الناصر أبداً، ولم يكن يتوقّع أن تكون هناك حرب في بداية الأمر أو منذ أن قام الجيش بحركته وكان يتصوّر أن الهدنة ستحول دون قيام نزاعٍ مسلحٍ، يقول محمود رياض في مذكراته: «فتحدّثت مع الرئيس جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أكثر من مرةٍ في بداية عام ١٩٥٣م حول ضرورة تقوية الجيش المصري بغرض الحفاظ على توازن القوى مما يحول دون إقدام ابن غوريون

على مغامرةٍ عسكريةٍ من أجل التوسّع إلا أن الرئيس عبد الناصر كان من رأيه ضرورة إعطاء مشاريع التنمية الأولوية في الإنفاق، كما كان مقتنعاً بأن اتفاقية الهدنة تحول دون قيام نزاعٍ مُسلحٍ.

وقد استمر عبد الناصر على موقفه هذا إلى أن قامت إسرائيل بهجومٍ على قطاع غزة في ٢٨ شباط ١٩٥٥م، مما أدّى إلى مقتل ثمانية وثلاثين من العسكريين المصريين، وكان ذلك الهجوم نقطة تحوُّلٍ في المنطقة، فقرّر عبد الناصر ضرورة الإسراع بتقوية الجيش بعد أن تبيّن له بوضوح أن ابن غوريون لا يرغب في السلام لأنه يعوق خططه التوسعية»[١]. وقد عُقدت اتفاقية عسكرية بين مصر وسوريا في ٤ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٥٥م) وانضمّت إليها الأردن قبل أقلّ من عام، ولكن لم يكن لهذه الاتفاقية أيّ مفعولٍ فلم نجد لها أيّ أثرٍ في العدوان الثلاثي، وقد طلبت سوريا عدّة مراتٍ التدخل في القتال وزحف الجيش على فلسطين من الشمال لتخفيف الضغط عن المصريين في الجنوب، وكذلك طلبت الأردن، ولكن جمال عبد الناصر أبى وحذّر، ولذا لا ندري هل كان عدم الاهتمام بالجيش المصري التفاتاً إلى مشروعات التنمية أم السير ضمن مخططٍ مرسومٍ، وأنا أميل إلى الجانب الثاني، يقول محمود رياض في مذكراته: «وعرضت سوريا والأردن معاونتهما العسكرية لمصر بالهجوم على إسرائيل لتخفيف الضغط عليها، إلا أن الرئيس عبد الناصر طلب عدم اشتراكهما في المعركة حتى لا يتعرّضا للعدوان البريطاني ـ الفرنسي.

وقد حضرت جلسةً صاخبةً لمجلس الوزراء السوري بطلب من رئيس الجمهورية شكري القوتلي لإقناع الوزراء بأن مصر هي التي تلحّ في عدم خوض سوريا المعركة، وكان عدد من الوزراء يصرّ على دخول المعركة بجانب مصر مهما كانت النتائج، ويُردّدون لا يحقّ أن يُسجّل التاريخ أن مصر كانت تضرب والشعب السوري ساكن لا يتحرّك»[٢].

---

(١) مذكرات محمود رياض البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط ص١٨.

(٢) المرجع نفسه ص٢١ =

وإذا كان جمال عبد الناصر قد اهتمّ بالجيش المصري قبيل العدوان الثلاثي وبعده كما يزعم محمود رياض، وهو غير صحيحٍ، فقد شغله بأمورٍ ما له أن يُشغله بها إذا أرسل قوات إلى الكونغو، وإلى قبرص، وساعد نكروما، ونقل أكفأ الضباط إلى وزارة الخارجية، وأشغل بعضهم بالسياسة فكان منهم الوزراء، ومديرو المديريات والمؤسسات، وهؤلاء الذين تدرّبوا على السلاح والقتال قبل الثورة، أما الذين دخلوا الكليات الحربية في ظلّ الثورة فقد تربّوا على المخابرات لذا فقد امتلأت بهم الدوائر في مصر والسفارات خارج مصر، وعندما تتعرّض مصر للعدوان لا يجد الجنود وسيلةً لهم إلا التراجع بل يتلقّون أوامر الانسحاب قبل التفكير بالتراجع(١).

الحرب:

قامت إسرائيل بالهجوم صباح ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م)،

= كان من المفروض دخول سوريا والأردن المعركة إلى جانب مصر ليظهر للأعداء أن الشعب العربي متضامن حتى يحسبوا حساباً لكل عمل يقدمون عليه ضده في أية بقعةٍ كانت.

(١) وكان هناك تذمر في صفوف الجيش للتصرفات التي تحدث:
ففي ٨ شوال ١٣٨٦هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٦٧م) تقدم عشرون ضابطاً بطلب إلى عبد الحكيم عامر لرفع الحجر المفروض على عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين، وكان عبد اللطيف البغدادي قد أعفي من مهماته منذ عام ١٩٦٢م ووضع تحت الإقامة الجبرية، ولحقه كمال الدين حسين في عام ١٩٦٥م.
في ١١ شوال ١٣٨٦هـ بدأت المطالبة بالحريات الدستورية. ووضعت متفجرات في مكاتب أجهزة الإعلام المصري. وأعلنت حالة الطوارئ وفرض منع التجول في ست قرى مصرية. وأحرق مقر وكالة أنباء الشرق الأوسط في القاهرة. وشكلت لجنة برئاسة عبد الحكيم عامر لتقصي الأخبار عن العناصر المحركة المعارضة للحكم.
ووضعت مذكرة على مكتب الرئيس جمال عبد الناصر بتوقيع الضباط الأحرار وفيها بعض المطالب ومن أهمها.
١ ـ وجوب سحب القوات المصرية من اليمن.
٢ ـ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين المدنيين والعسكريين.
٣ ـ إلغاء مجلس الأمة.
٤ ـ إلغاء الاتحاد الاشتراكي.
٥ ـ إلغاء الحلف بين موسكو والقاهرة.
٦ ـ إبعاد البعثة الروسية.

واستهدفت المطارات بغاراتٍ خاطفةٍ، وما هي إلا ساعة من الزمن إلا وغدا الطيران المصري خارج المعركة بعد أن فقد معظم طائراته، وتعطّلت المطارات، وبذا فقد الجيش المصري الحماية وأصبح مكشوفاً، وجاءت أوامر الانسحاب، فكان الطيران الإسرائيلي يعمل حصداً في المنسحبين مما كان له أكبر الأثر في زيادة الخسائر، ولو أن الجيش المصري لم يتراجع وإنما تقدّم واشتبك مع الجيش الإسرائيلي في القتال لخفّ أثر الطيران الإسرائيلي، وربما لم تكن الخسائر بهذه الصورة وخاصةً إذا علمنا أن اليهود لا يجرؤون على القتال إلا في قرىً محصّنةٍ أو من وراء جُدُرٍ، لذا فإن قتالهم الرئيسي إنما يعتمد على المدرعات والطيران فإن خفّفنا من أثر طيرانهم بالاشتباك ما دمنا قد فقدنا طيراننا فيجب أن ننازلهم بالبر ومدرعاتنا وأسلحتنا لم تصب بعد بأذى.

ونتيجة الانسحاب فقد خسر الجيش المصري ٨٠٪ من سلاحه، وفقد عشرة آلاف جندي، وألف وخمسمائة ضابط، وترك من الأسرى خمسة آلاف جندي، وخمسمائة ضابطٍ، وطلبت مصر وقف إطلاق النار، وتوقّفت الحرب على الجبهة المصرية، والتفتت إسرائيل إلى الجبهة الأردنية، وكانت لا تزال حتى هذا الوقت هادئةً فاحتلّت الضفة الغربية رغم المقاومة الشريفة، ولكن ما النتيجة والروح المعنوية منهارة والقوى غير متكافئة، وطلبت الأردن وقف إطلاق النار فكان لها، واتجهت إسرائيل نحو الجبهة السورية وكانت لا تزال هادئةً حتى ساعتذاك، بل لم يكن على الجانب الإسرائيلي أية جنودٍ رغم ما ادُّعي قبل الحرب من وجود حشودٍ يهوديةٍ عليها، وجاءت الأوامر من وزارة الدفاع السورية بالانسحاب قبل أن يكون اشتباك جاءت الأوامر للقوات الاحتياطية فقط دون تعميمٍ على القوات العضوية لكن لم ير قادة القوات العضوية انسحاب الاحتياط حتى سبقوهم عشوائياً دون تخطيطٍ، ولم تحدث مقاومة إلا من القطاع الشمالي حيث بدأ الخرق الإسرائيلي من جهة «القلع»، وكانت المقاومة في موقع «تل الفخار» حيث ظهرت البطولة إذ كان هناك عدد من ضباط الإخوان المسلمين الذين أُبعدوا إلى الجبهة، وسقطت مرتفعات الجولان مع قاعدتها مدينة القنيطرة، وتوقّف القتال، وتنفّست إسرائيل الصعداء بعدما بذلته من جهدٍ، وشعرت بنشوة النصر، وشعر قادة الجيوش المنهزمة بالخزي.

أعلن الرئيس المصري أنه سيتخلّى عن السلطة ما دام قد هُزم في المعركة، غير أنه من جانبٍ آخر قد أوعز إلى المخابرات، وعمال مصانع الدولة والمؤيدين له بالقيام بالمظاهرات والهتافات له رئيساً للبلاد، وبحياته، ومُتابعة طريق العزة والكرامة التي أهداها للشعب المصري، فاستجاب الزعيم لهذه النداءات واستمرّ على رأس السلطة يتحمّل المسؤولية كاملةً بكل جرأةٍ لا يُبالي بالعواصف العاتية.

وظهرت نغمة جديدة تبريراً للهزيمة المنكرة، وهي أن إسرائيل قد فشلت في حربها فقد استهدفت الأنظمة القائمة في مصر وسوريا، ولم تستطع تحقيق هدفها إذ ثبتت الأنظمة وظهر صمودها، أما الأرض فلا قيمة لها حيث تسترجع، إن القيمة كل القيمة لهذه الأنظمة التي منحها الله للشعب في هذين المصرين.

وعاش الشعب بئيساً لهزيمته ولاستمرار هذين النظامين اللذين ابتلاه الله بهما، وبدأ يسعى لتضميد جراحه ليأتي النظام بجديد يُوسّع فيه الجراح، ويزيد له جراحاً أخرى. وأعاد جمال عبد الناصر تشكيل الوزارة في ١١ ربيع الأول ١٣٨٧هـ (١٩ حزيران ١٩٦٧م) برئاسته[١].

---

(١) شكل جمال عبد الناصر الوزارة برئاسته وكانت على النحو الآتي:
جمال عبد الناصر: رئيس الجمهورية رئيساً للوزراء.
زكريا محيي الدين: نائباً للرئيس.
حسين محمود الشافعي: نائباً للرئيس، ووزيراً للأوقاف والشؤون الاجتماعية.
علي صبري: نائباً للرئيس، ووزيراً للإدارة المحلية.
محمد صدقي سليمان: نائباً للرئيس، ووزيراً للصناعة، والكهرباء، والسد العالي.
وعُيّن كل من:
١ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للعمل.
٢ ـ عبد المنعم القيسوني: وزيراً للتخطيط.
٣ ـ عبد المحسن أبو النور: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
٤ ـ محمود يونس: وزيراً للنقل، والبترول، والثروة المعدنية، والإسكان والمرافق.
٥ ـ ثروت عكاشة: وزيراً للثقافة.
٦ ـ سيد مرعي: وزيراً للزراعة، والإصلاح الزراعي.
٧ ـ عبد العزيز السيد: وزيراً للتربية والتعليم. =

بعد الحرب:

عقدت اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، وتحدث جمال عبد الناصر في اللقاء الذي تمّ يوم ٢٧ و٢٨ ربيع الثاني ١٣٨٧هـ، وانتقد نقداً شديداً نظام الحكم القائم، واقترح أن يكون حزباً آخر مُعارضاً غير الاتحاد الاشتراكي حتى لا يكون استبداد في المستقبل يُؤدّي إلى سيطرة فردٍ أو جماعةٍ على الحكم، واقترح إجراء انتخاباتٍ في شعبان (كانون الأول من عام ١٩٦٧م) على أساس قيام حزبين.

ونتيجة المناقشات تمّ الاتفاق على عدم إجراء أي تعديلٍ في الحكم حتى إزالة آثار العدوان.

وعدّ جمال عبد الناصر قيادة عبد الحكيم عامر للجيش سبباً من أسباب الهزيمة حيث اتهمه بأنه قد سلّم القيادة لعناصر ليست بذات كفاءةٍ، مواليةٍ له،

= ٨ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
٩ ـ عبد الوهاب البشري: وزيراً للحربية والإنتاج الحربي.
١٠ ـ محمد طلعت خيري: وزيراً للشباب.
١١ ـ محمد لبيب شقير: وزيراً للتعليم العالي.
١٢ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
١٣ ـ نزيه أحمد ضيف: وزيراً للخزانة.
١٤ ـ شعراوي محمد جمعة: وزيراً للداخلية.
١٥ ـ محمد عصام الدين حسونة: وزيراً للعدل.
١٦ ـ عبد الخالق الشناوي: وزيراً للري.
١٧ ـ محمد نور الدين قره: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٨ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للدولة.
١٩ ـ أحمد شفيق البكري: وزيراً للدولة.
٢٠ ـ محمد محمد فائق: وزيراً للإرشاد القومي.
٢١ ـ كمال هنري أبادير: وزيراً للمواصلات.
٢١ ـ أمين مصطفى شاكر: وزيراً للسياحة.
ثم صدر في ٢٤ شوال ١٣٨٧هـ (٢٤ كانون الثاني ١٩٦٨م) قرار بتعيين:
١ ـ عبد المحسن أبو النور: وزيراً للإدارة المحلية.
٢ ـ محمد فوزي: وزيراً للحربية.
٣ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للدولة.

لذا فقد تمّ عزله، ثم مات بالسم مقتولاً أو منتحراً، وتمّ تعيين الفريق أول محمد فوزي قائداً عاماً للقوات المسلحة.

ورأى الحكم أن يكون الجيش بعد الآن لتحرير الأرض لا لحماية النظام.

أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فقد وقفت موقفاً تظهر فيه الشدّة ضدّ مصر، واتفقت مع روسيا بشأن عدم جواز غزو الأراضي بواسطة الحرب طبقاً لميثاق الأمم المتحدة، ويطلب مشروع القرار الذي تمّ الاتفاق عليه من كل أطراف النزاع أن تقوم إسرائيل دون تأخير بسحب قواتها من الأراضي التي تمّ احتلالها بواسطتها بعد ٤ حزيران ١٩٦٧م. لكن الولايات المتحدة عادت فسحبت موافقتها على مشروع القرار ليزول الشك من الصلة مع الحكم المصري القائم. وفي الوقت نفسه فقد ارتأى جمال عبد الناصر أن يلتجئ إلى الروس نهائياً أمام الموقف الأمريكي، وأعلم بذلك الروس الذين خُدعوا للمرة الثانية، وطلبوا زيارة جمال عبد الناصر لموسكو غير أنه قد ردّ عن طريق السفير الروسي في القاهرة الذي قابل وزير الخارجية المصري محمود رياض أن العرف المتبع أن يُزار المصاب في بيته ولا يذهب لزيارة الآخرين. وبالفعل فقد وصل إلى القاهرة يوم ١٤ ربيع الأول ١٣٨٧هـ (٢١ حزيران ١٩٦٧م) من موسكو: بودغورني، ورئيس أركان الجيش «المارشال زخاروف»، وتمت اللقاءات وحضرها من الجانب المصري إلى جانب الرئيس جمال عبد الناصر كل من زكريا محيي الدين، وعلي صبري، ومحمود رياض، والفريق أول محمد فوزي. وبدأ الخبراء الروس بعدها يصلون إلى مصر، وتتدفّق الأسلحة الروسية المنسّقة من الجيش الروسي، وفي الوقت نفسه تتراكم الديون على مصر.

وعقد مؤتمر القمة العربي في الخرطوم في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٨٧هـ (٢٩ آب ١٩٦٧م) وتعهدت دول النفط وهي: المملكة العربية السعودية، والكويت، وليبيا تقديم مساعدات كتعويض للخسائر التي مُنيت بها الدول العربية التي اعتدت عليها إسرائيل، وقد تعهدت أن تدفع الكويت ٥٥ مليون جنيه إسترليني، والسعودية ٥٠ مليون جنيه إسترليني، وليبيا ٣٠ مليون جنيه

إسترليني، فالمجموع هو (١٣٥ مليون جنيه إسترليني)، وهو المبلغ الذي طُلب من هذه الدول. ولم تحصل سوريا على شيء، إذ كانت تُهاجم المملكة العربية السعودية باستمرار، ولم تحضر مؤتمر القمة هذا.

وكان الضغط على مصر من كل جهة لعقد صلحٍ منفردٍ مع إسرائيل غير أن الحكم لم يستطع أن يخطو هذه الخطوة أمام الشَعب الذي يحقد على اليهود لما يراه من جرائم وعدوان. وأعاد جمال عبد الناصر تشكيل الوزارة[١].

---

(١) أعاد جمال عبد الناصر تشكيل الوزارة برئاسته أيضاً، وكانت على النحو الآتي:
١ ـ حسين محمود الشافعي: نائباً للرئيس، ووزيراً للأوقاف.
٢ ـ محمد صدقي سليمان: وزيراً للكهرباء والسدّ العالي.
٣ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للعمل.
٤ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة، والبترول، والثروة المعدنية.
٥ ـ عبد المحسن أبو النور: وزيراً للإدارة المحلية.
٦ ـ ثروت عكاشة: وزيراً للثقافة.
٧ ـ محمد أبو نصير: وزيراً للعدل.
٨ ـ سيد مرعي: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي.
٩ ـ حسن عباس زكي: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
١٠ ـ محمد النبوي المهندس: وزيراً للصحة.
١١ ـ محمد عبد الوهاب البشري: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٢ ـ محمد لبيب شقير: وزيراً للتعليم العالي.
١٣ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
١٤ ـ شعراوي محمد جمعة: وزيراً للداخلية.
١٥ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للدولة.
١٦ ـ محمد محمد فائق: وزيراً للإرشاد القومي.
١٧ ـ كمال هنري أبادير: وزيراً للمواصلات.
١٨ ـ محمد حلمي مراد: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٩ ـ محمد فوزي «فريق أول»: وزيراً للحربية.
٢٠ ـ محمد عبد الله مرزبان: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢١ ـ إبراهيم زكي قناوي: وزيراً للري.
٢٢ ـ علي زين العابدين صالح: وزيراً للنقل.
٢٣ ـ أحمد مصطفى أحمد: وزيراً للبحث العلمي.
٢٤ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.
٢٥ ـ حسن حسين مصطفى: وزيراً للإسكان. =

وقد جرى الاستفتاء في ٤ صفر ١٣٨٨هـ (٢ أيار ١٩٦٨م)، كما جرت انتخابات الاتحاد الاشتراكي.

حرب الاستنزاف:

بدأت المناوشات بين المصريين والإسرائيليين في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٨٨هـ (أيلول ١٩٦٨م)، كما جرت كذلك على الجبهة السورية، وعرفت هذه المناوشات باسم حرب الاستنزاف إذ كان السوريون والمصريون يُريدون إنهاك العدو الإسرائيلي بهذه المناوشات إضافةً إلى ما يقوم به الفدائيون الفلسطينيون من عملياتٍ جريئةٍ داخل فلسطين، ولا شك فإن حالة اليهود الاقتصادية السيئة في فلسطين ستضطرّهم إلى الانسحاب من الأراضي التي احتلّوها لأن الاستنفار الدائم في الجيش يُكلّف نفقاتٍ باهظةٍ إضافةً إلى التدمير

= ٢٦ ـ محمد بكر أحمد: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
٢٧ ـ عبد العزيز محمد حجازي: وزيراً للخزانة.
٢٨ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للسياحة.
٢٩ ـ محمد صفي الدين أبو العز: وزيراً للشباب.
٣٠ ـ ضياء الدين محمد داود: وزيراً للشؤون الاجتماعية، ووزير دولة لشؤون مجلس الأمة.

وعين:
عبد العزيز كامل: نائباً لوزير الأوقاف.
وفي ٦ شعبان ١٣٨٨هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٦٨م) صدر أمر بتعيين:
١ ـ عبد العزيز كامل: وزيراً للأوقاف.
٢ ـ محمد حمدي عاشور: وزيراً للإدارة المحلية.
٣ ـ عبد الوهاب علي البرلسي: وزيراً للتعليم العالي.
٤ ـ محمد عبد الوهاب شكري: وزيراً للصحة.
٥ ـ حافظ بدوي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
وفي ٢٥ ربيع الثاني ١٣٨٩هـ (١٠ تموز ١٩٦٩م) صدر أمر بتعيين.
١ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للتربية والتعليم.
وفي ١٨ جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ (٣١ آب ١٩٦٩م) صدر أمر بتعيين:
١ ـ مصطفى كامل إسماعيل: وزيراً للعدل.
وفي ١٠ رجب ١٣٨٩هـ (٢٢ أيلول ١٩٦٩م) صدر أمر بتعيين:
١ ـ محمد عوض القوني: وزيراً للسياحة.

الذي يحدث في البلاد، والروح المعنوية التي تضعف تدريجياً بالمناوشات، وبالمقابل فإن اليهود أخذوا يشنّون غاراتٍ جويةٍ على مصر وسوريا، ثم أخذت تدخل في الأعماق، وتستهدف المؤسسات الاقتصادية بل والمنشآت الاجتماعية، فقد أغارت في شهر ذي الحجة ١٣٨٩هـ على مصنع أبي زعبل، وقتلت سبعين عاملاً، وجرح مثلهم، وأغارت في شهر صفر عام ١٣٩٠هـ على مدرسة بحر البقر، وقتلت ستةً وأربعين طفلاً، وجرح أكثر منهم.

ورحّب جمال عبد الناصر بمبادرة «روجرز» للسلام فبدأ الهجوم الفلسطيني عليه من إذاعة صوت فلسطين في القاهرة فأغلق الرئيس المصري هذه المحطة.

وفي ١٠ شوال ١٣٨٩هـ (١٩ كانون الأول ١٩٦٩م) عيّن جمال عبد الناصر زميله أنور السادات رئيساً أول لرئاسة الجمهورية، وذلك قبيل مغادرته القاهرة لحضور مؤتمر القمة العربي في الرباط، وقد فشل المؤتمر، وانسحب الرئيس المصري منه.

ووقعت مصر اتفاقيةً عسكريةً مع سوريا.

وجرى خلاف بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية أدّى إلى صدامات واسعة بين الطرفين في شهر رجب ١٣٩٠هـ (أيلول ١٩٧٠م) قدّم الفلسطينيون خلالها كثيراً من الضحايا، ودعا الرئيس المصري إلى عقد مؤتمر قمةٍ عربيٍ مستعجلٍ في القاهرة لتدارك الوضع، وتمّ اللقاء، ولم تُدع الأردن إلى ذلك المؤتمر، وأرسل المؤتمرون وفداً إلى الأردن، فأبلغهم الملك بأنه سيحضر إلى القاهرة، وقد حضر، وشرح للمجتمعين الموضوع، وانتهى المؤتمر، وأخذ الممثّلون يُغادرون القاهرة، ويُودّعهم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وكان آخر المغادرين أمير الكويت، وخرج جمال لوداعه، فكانت وفاته يوم الاثنين ٢٨ رجب ١٣٩٠هـ (٢٨ أيلول ١٩٧٠م) أثناء الوداع.

وهكذا دامت رئاسة جمال عبد الناصر أكثر من أربعة عشر عاماً، وتعاقبت خلالها عشر وزارات.

شكّل جمال عبد الناصر منها	أربع وزاراتٍ	٤
ونور الدين طراف	وزارةً واحدةً	١
وكمال الدين حسين	وزارةً واحدةً	١
وعلي صبري	وزارتين	٢
وزكريا محيي الدين	وزارةً واحدةً	١
ومحمد صدقي سليمان	وزارةً واحدة	١
		ــــ
		١٠

١ ـ جمال عبد الناصر (الثالثة): ١٧ ذي القعدة ١٣٧٥ ـ ١٥ شعبان ١٣٧٧هـ. (٢٥ حزيران ١٩٥٦ ـ ٦ آذار ١٩٥٨م).

٢ ـ جمال عبد الناصر (الرابعة): ١٥ شعبان ١٣٧٧ـ ٢٤ ربيع الأول ١٣٧٨هـ. (٦ آذار ١٩٥٨ ـ ٧ تشرين الأول ١٩٥٨م).

٣ ـ نور الدين طراف: ٢٤ ربيع الأول ١٣٧٨ ـ ٩ ربيع الثاني ١٣٨٠هـ. (٧ تشرين الأول ١٩٥٨ ـ ٣٠ أيلول ١٩٦٠م).

٤ ـ كمال الدين حسين: ٩ ربيع الثاني ١٣٨٠ ـ ١٨ ربيع الثاني ١٣٨١هـ. (٣٠ أيلول ١٩٦٠ ـ ٢٨ أيلول ١٩٦١م).

٥ ـ علي صبري (الأولى): ١٨ ربيع الثاني ١٣٨١ ـ ١٢ ذي القعدة ١٣٨٣هـ. (٢٨ أيلول ١٩٦١ ـ ٢٥ آذار ١٩٦٤م).

٦ ـ علي صبري (الثانية): ١٢ ذي القعدة ١٣٨٣ ـ ٦ جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ. (٢٥ آذار ١٩٦٤ ـ ١ تشرين الأول ١٩٦٥م).

٧ ـ زكريا محيي الدين: ٦ جمادى الآخرة ١٣٨٥ ـ ٢٥ جمادى الأولى. ١٣٨٦هـ. (١ تشرين الأول ١٩٦٥ ـ ١٠ أيلول ١٩٦٦م).

٨ ـ محمد صدقي سليمان: ٢٥ جمادى الأولى ١٣٨٦ ـ ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ. (١٠ أيلول ١٩٦٦ ـ ٥ حزيران ١٩٦٧م).

٩ ـ جمال عبد الناصر (الخامسة): ١٢ ربيع الأول ١٣٨٧ ـ ٢١ ذي الحجة ١٣٨٧هـ. (١٩ حزيران ١٩٦٧ ـ ٢٠ آذار ١٩٦٨م).

١٠ ـ جمال عبد الناصر (السادسة): ٢١ ذي الحجة ١٣٨٧ ـ ٢٨ رجب ١٣٩٠هـ. (٢٠ آذار ١٩٦٨ ـ ٢٨ أيلول ١٩٧٠م).

❀ ❀ ❀

٣ ـ عَهْد أنور السَّادات

انتهى جمال عبد الناصر في نظر الغرب والشرق. فالولايات المتحدة شعرت أن روسيا قد أحسّت بالدور الذي يلعبه جمال عبد الناصر في التفاهم مع المعسكر الشرقي لمصلحة الغرب، ولذا فلم يعد يصلح لها للقيام بهذه المهمة، ومن جانب آخر فإنه لم يستطع أن يخطو خطوةً واسعةً لمصلحة إسرائيل التي يُطالب بها اليهود حكومة الولايات المتحدة، ويستعجلونها في ذلك، ويؤكّدون عليها باستمرار، ومع أنه قد انسحب مرتين أمام إسرائيل، وتخلّى في المرتين لها عن سيناء إلا أنه لا يزال يخشى الضغط الشعبي مع أنه قد وصل إلى مرحلةٍ يستطيع معها أن يحرّك الشعب العربي وكثيراً من الشعوب الإسلامية التي تُؤيّد العرب من باب العاطفة الإسلامية والشعور بوحدة الأمة غير أنه يخاف أن يهدّم ذلك المجد الذي بناه لنفسه لذا فهو يترنّح في الجرأة السياسية التي عُرف بها، ويحذر التقدّم نحو إسرائيل أو الركوع أمامها أكثر مما فعل، لذا يجب استبداله من جهة الولايات المتحدة بآخر يخطو خُطوةً أخرى وأوسع نحو إسرائيل. وانكشف أمره أمام المعسكر الشرقي وانتهى. إذن لا بدَّ من التخلّص منه بأية صورةٍ، ووضع له الزئبق في الطعام، وكان ما كُتِب له من حياةٍ قد انتهى بأمر الله ومات فجأةً ـ كما رأينا ـ.

تسلَّم أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية في عهد جمال عبد الناصر منصب الرئاسة بالنيابة ريثما تتفق الهيئات العليا للدولة على اختيار رئيس جديدٍ، ثم رشّح أنور السادات نفسه من قبل الاتحاد الاشتراكي لتولّي المنصب، وقد تمّ هذا في الاستفتاء الذي أجري في ١٤ شعبان ١٣٩٠هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٧٠م). وقدَّم وزير الإعلام محمد حسنين هيكل استقالته من الوزارة وقبل ذلك الرئيس، واستقالت الحكومة، وعهد إلى محمود فوزي

تشكيلها[1] وصدر القرار بالتعيين في ١٩ شعبان ١٣٩٠هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٧٠م).

---

(١) صدر قرار عن رئاسة الجمهورية في مصر، يقضي بتشكيل الحكومة الجديدة على الشكل الآتي:
١ ـ محمود فوزي: رئيساً للوزراء.
٢ ـ محمد صدقي سليمان: وزيراً للكهرباء والسدّ العالي.
٣ ـ كمال الدين محمود رفعت: وزيراً للعمل.
٤ ـ عزيز صدقي: وزيراً للصناعة والبترول والثروة المعدنية.
٥ ـ ثروت عكاشة: وزيراً للثقافة.
٦ ـ سيد مرعي: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي.
٧ ـ حسن عباس زكي: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٨ ـ محمود رياض: وزيراً للخارجية.
٩ ـ شعراوي محمد جمعة: وزيراً للداخلية.
١٠ ـ أمين حامد هويدي: وزيراً للدولة.
١١ ـ محمد محمد فائق: وزيراً للإرشاد القومي.
١٢ ـ كمال هنري بادير: وزيراً للمواصلات.
١٣ ـ محمد فوزي: وزيراً للحربية.
١٤ ـ محمد عبد الله مرزبان: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٥ ـ علي زين العابدين صالح: وزيراً للنقل.
١٦ ـ إبراهيم زكي قناوي: وزيراً للري.
١٧ ـ أحمد مصطفى أحمد: وزيراً للبحث العلمي.
١٨ ـ سيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.
١٩ ـ حسن حسن مصطفى: وزيراً للإسكان والمرافق.
٢٠ ـ محمد بكر أحمد: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
٢١ ـ عبد العزيز محمد حجازي: وزيراً للخزانة.
٢٢ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للتربية والتعليم.
٢٣ ـ محمد صفي الدين أبو العز: وزيراً للشباب.
٢٤ ـ عبد العزيز كامل: وزيراً للأوقاف، وشؤون الأزهر.
٢٥ ـ محمد حمدي عاشور: وزيراً للإدارة المحلية.
٢٦ ـ عبد الوهاب البرلسي: وزيراً للتعليم العالي.
٢٧ ـ حافظ علي بدوي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٢٨ ـ عبده محمود سلام: وزيراً للصحة.
٢٩ ـ مصطفى كامل إسماعيل: وزيراً للعدل.
٣٠ ـ محمد عوض القوني: وزيراً للسياحة. =

لم تكن شخصية أنور السادات تلك الشخصية البارزة في العهد السابق، ولست أدري فيما إذا كانت قوة شخصية جمال عبد الناصر قد طغت عليه، أم أن طبيعة أنور السادات هي كذلك لا يمكنها الظهور فيما إذا كانت تعمل تحت إدارة غيرها، وهي مُنفِّذة وليست صانعة للقرار، ولكنها تلمع عندما تكون القرارات بأيديها؟. وربما كانت المهمة المنوطة به هي التي جعلته يُؤدّي دور الصموت في المرحلة الأولى ودور الخُطا الواسعة والتحدّي في المرحلة الثانية، وكلها أسئلة ربما كانت أجوبتها واحدةً أو متكاملةً بعضها مع بعضٍ.

بدأ الرئيس السادات يُبدي أن يسير على غرار ما سار عليه جمال عبد الناصر، ولكنه يغمز منه، ويُلمّح إلى عدم الحكمة في منهجه في الحكم، وفي أسلوب مُعالجته للموضوعات، ويعود في نهاية الخطبة أو في آخر الحديث إلى الترحّم عليه، وعلى كلٍّ فقد استطاع تدريجياً أن يُقوّي مركزه، وأن يُثبّت أعوانه في مراكز السلطة، وأن يُقلّل من مكانة جمال عبد الناصر من النفوس، ويُخفّف من هيبته التي فرضها بالقوة، وأخاف بها الناس بالتجسّس عليهم، وبالقتل، وعدم الخوف من الله، وارتكاب أبشع الجرائم بمخالفيه.

وفي ١٧ رمضان ١٣٩٠هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٧٠م) قدّم محمود فوزي استقالته للرئيس المصري أنور السادات الذي قبلها، وكلّفه بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ. وطلب من الوزراء الاستمرار في أعمالهم حتى صدور قرارات إعادة التشكيل التي تمت بعد يومين[1].

= ٣١ ـ حسن محمد التهامي: وزيراً للدولة.
٣٢ ـ محمد سعد الدين زايد: وزيراً للدولة.
٣٣ ـ عبد الرؤوف سامي شرف: وزيراً للدولة.
وأصدر الرئيس أنور السادات قراراً بتعيين الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء مساعداً لرئيس الجمهورية للشؤون السياسية.
وأصدر قراراً ثانياً بتعيين محمد محمد فائق وزير الإرشاد القومي وزيراً للخارجية بالنيابة.
وأصدر قراراً ثالثاً بتعيين حسين الشافعي، وعلي صبري نائبين لرئيس الجمهورية.

(١) شكل محمود فوزي وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ ـ محمود فوزي: رئيساً للوزراء. =

=

٢ ـ عزيز صدقي: نائباً لرئيس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للصناعة والنفط والثروة المعدنية.
٣ ـ سيد مرعي: نائباً لرئيس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي.
٤ ـ محمود رياض: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٥ ـ شعراوي محمد جمعة: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٦ ـ محمد محمد فائق: وزيراً للإعلام.
٧ ـ كمال هنري بادير: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ محمد فوزي: وزيراً للحربية.
٩ ـ محمد عبد الله مرزبان: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
١٠ ـ إبراهيم زكي قناوي: وزيراً للري.
١١ ـ علي زين العابدين صالح: وزيراً للنقل.
١٢ ـ أحمد مصطفى أحمد: وزيراً للبحث العلمي.
١٣ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.
١٤ ـ محمد بكر أحمد: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
١٥ ـ عبد العزيز حجازي: وزيراً للخزانة.
١٦ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للتربية والتعليم.
١٧ ـ محمد صفي الدين أبو العز: وزيراً للشباب.
١٨ ـ عبد العزيز كامل: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
١٩ ـ محمد حمدي عاشور: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢٠ ـ عبد الوهاب البرلسي: وزيراً للتعليم العالي.
٢١ ـ حافظ بدوي: وزيراً للشؤون الاجتماعية، ووزير دولة لشؤون مجلس الأمة.
٢٢ ـ عبده سلام: وزيراً للصحة.
٢٣ ـ محمد سعد الدين زايد: وزيراً للإسكان والمرافق.
٢٤ ـ سامي شرف: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
٢٥ ـ حلمي السعيد: وزيراً للكهرباء.
٢٦ ـ محمد حافظ إسماعيل: وزيراً للدولة.
٢٧ ـ محمد أحمد محمد: وزيراً للإدارة المحلية.
٢٨ ـ حسن فهمي البدوي: وزيراً للعدل.
٢٩ ـ عصمت عبد المجيد: وزيراً للدولة.
٣٠ ـ أحمد السيد درويش: وزيراً للسياحة.
٣١ ـ بدر الدين أبو غازي: وزيراً للثقافة.
٣٢ ـ عبد اللطيف بلطية: وزيراً للعمل.
٣٣ ـ محمد الخواجة: نائباً لوزير الاقتصاد والتجارة الخارجية.

=

وحذَّر محمود فوزي إسرائيل من أنه ليست هناك فرص للسلام طالما ظلّت فوق الأرض العربية. وأعلن أن مصر تُريد السلام، وقد قبلت قرارات الأمم المتحدة، ومُبادرة وزير الخارجية الأمريكية «وليم روجرز»، ووافقت على وقف إطلاق النار ولكن ليست هناك استجابة من إسرائيل.

وأخذ الرئيس السادات يُصرّح بضرورة الحرية الفكرية، وطرق المناقشة والحوار، وأن حكومته لن تكون حكومة الرأي الواحد مثل طريق المرور. فالاستبداد هو عدم السماح بإبداء الرأي، وعدم سماع آراء غير رأي أصحاب السلطة.

كما بدأ بالتركيز على موضوع السلاح والثناء على موقف الروس في تزويد مصر بالأسلحة، ويُطالب بالمزيد منها، ويبدو أنه كان يُفكّر بموضوع ويعمل له، ويسعى إليه، ثم يقوم فجأةً بالتنفيذ.

كانت الوزارة دائمة التغيير، رغم أن معظم وزرائها هم أنفسهم لم يتغيّروا أبداً، ورئيس الوزراء نفسه وهو الدكتور محمود فوزي، وقد شكّل أربع وزاراتٍ مُتلاحقةٍ، وكانت مدة الوزارة حوالي ستة أشهر، ففي ١٩ ربيع الأول ١٣٩١هـ (١٤ أيار ١٩٧١م) شكلّ محمود فوزي الوزارة الثالثة[1].

= ثم صدر قرار بتعيين أحمد نوح وزيراً للدولة لشؤون الطيران المدني.
كما ألحق بقرار آخر بتعيين محمد عبد السلام الزيات وزيراً للدولة لشؤون مجلس الأمة.

(١) كانت الوزارة الثالثة على النحو الآتي:
١ ـ محمود فوزي: رئيساً للوزارة.
٢ ـ عزيز صدقي: نائباً لرئيس الوزراء للإنتاج والتجارة، ووزيراً للصناعة والبترول والثروة المعدنية.
٣ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للإعلام.
٤ ـ سيد مرعي: نائباً لرئيس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي واستصلاح الأراضي.
٥ ـ محمود رياض: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٦ ـ كمال هنري بادير: وزيراً للمواصلات.
٧ ـ محمد عبد الله مرزبان: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية، ووزيراً للتموين بالنيابة.
٨ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط. =

وكان أنور السادات على خلافٍ مع بعض الشخصيات التي كانت تُحيط بجمال عبد الناصر، والتي كانت تقوم بدور كبيرٍ في الحكم، وتتسلّط على الناس، وكانت الكراهية تتحكّم في الفريقين، ولا بُدَّ من أن يأكل أحدهما الآخر، فلما تسلّم السلطة أنور السادات أبدى أنه سيترك الأمور على حالتها

= ٩ ـ عبد العزيز حجازي: وزيراً للخزانة.
١٠ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للتربية والتعليم.
١١ ـ عبد العزيز كامل: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
١٢ ـ محمد حمدي عاشور: وزيراً للإدارة المحلية.
١٣ ـ عبد الوهاب البرلسي: وزيراً للبحث العلمي.
١٤ ـ حافظ بدوي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
١٥ ـ عبده محمود سلام: وزيراً للصحة.
١٦ ـ محمد حافظ إسماعيل: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٧ ـ محمد أحمد محمد: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
١٨ ـ حسن فهمي البدوي: وزيراً للعدل.
١٩ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٠ ـ أحمد السيد درويش: وزيراً للسياحة.
٢١ ـ عبد اللطيف بلطية: وزيراً للعمل.
٢٢ ـ أحمد نوح: وزيراً للدولة لشؤون الطيران المدني.
٢٣ ـ محمد عبد السلام الزيات: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الأمة.
٢٤ ـ ممدوح سالم: وزيراً للداخلية.
٢٥ ـ محمد أحمد صادق: وزيراً للحربية.
٢٦ ـ محمد مرسي أحمد: وزيراً للتعلم العالي.
٢٧ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.
٢٨ ـ علي السيد محمد: وزيراً للإسكان والمرافق.
٢٩ ـ سليمان عبد الحي: وزيراً للنقل.
٣٠ ـ محمد عبد الرقيب: وزيراً للري.
٣١ ـ علي والي: وزيراً للدولة للبترول والثروة المعدنية.
٣٢ ـ مصطفى كمال طلبه: وزيراً للشباب.
٣٣ ـ إسماعيل غانم: وزيراً للثقافة.
٣٤ ـ إسماعيل صبري عبد الله: نائباً لوزير التخطيط.
ثم عين محمد فتح الله الخطيب: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
وعين عبد الملك سعد: وزيراً للمواصلات، وأعفي كمال هنري بادير.
وعينت عائشة راتب: وزيرة للشؤون للاجتماعية.

الأولى، وسيُبقي كلاً في مكانه الذي يحتلّه ومركزه الذي يُشغله. ثم وجد أعواناً له، واعتمد على الفريق محمد صادق قائد الجيش، وعلى ممدوح سالم قائد الشرطة، واتفق معهما على إنهاء وضع المتسلّطين، وقد أوكل إلى الفريق محمد صادق وزارة الحربية، وإلى ممدوح سالم وزارة الداخلية في وزارة محمود فوزي الثالثة، وفي اليوم التالي لاستلام هذه الحكومة السلطة ضرب أنور السادات ضربته واعتقل مخالفيه[1]، وقد صبّ أنور السادات عداءه على منافسيه على حين ترك الذين يلعبون بشؤون الناس من المحتكرين، وتجار المخدرات وغيرهم يمرحون كما يحلو لهم.

ولما نجح أنور السادات في مساعيه أعاد تشكيل مجلس الشعب، والاتحاد الاشتراكي، بل ومجالس المؤسسات والأندية، وأصبح للعهد الجديد صفةً خاصةً تختلف عما كانت عليه أيام جمال عبد الناصر، وغدا السادات سيّد البلاد، وله حاشية جديدة.

وأصدر قراراً بإعادة إطلاق كلمة «مصر» على البلاد، وأصبح الاسم الرسمي هو «جمهورية مصر العربية» بعد أن حملت اسم «الجمهورية العربية المتحدة» ما يقرب من اثني عشرة سنةً أي منذ الوحدة بين مصر وسوريا حتى بعد وفاة جمال عبد الناصر بسنةٍ واحدةٍ.

وشكّل محمود فوزي وزارته الرابعة والأخيرة[2] في ٢٩ رجب ١٣٩١هـ

---

(١) كان على رأس مخالفيه علي صبري نائب رئيس الجمهورية في عهد جمال عبد الناصر. وشعراوي محمد جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية السابق، ومحمد فوزي وزير الحربية، وسامي شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية، وشمسي بدران، وصلاح نصر و....

(٢) كانت وزارة محمود فوزي على النحو الآتي:
١ ـ محمود فوزي: رئيساً للوزراء.
٢ ـ عزيز صدقي: نائباً أول لرئيس مجلس الوزراء.
٣ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائب لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للثقافة والإعلام.
٤ ـ سيد مرعي: نائب لرئيس مجلس الوزراء للزراعة والري، ووزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي واستصلاح الأراضي.
٥ ـ محمود رياض: نائب لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية. =

(١٩ أيلول ١٩٧١م). وبدأ الرئيس محمد أنور السادات يعمل على إطلاق الحريات، ذلك لأن المهمّة المهيّأة تقتضي أن يكون ذلك، فالحرب مثلاً إذا دخلها مستبدّاً، ولم تكن نتائجها في مصلحته أثارت عليه الرعية، وربما قضى ذلك قبل أن يُؤدّي الدور المعدّ له، وهو بالنسبة إلى الرئيس المصري أنور السادات القيام بخطوةٍ واسعةٍ نحو التقارب مع إسرائيل لذا فقد وُجّه نحو إطلاق الحريات، فأخرجت أفواج من السجون، وبدأ الحديث عن الحريات، وجرى شيء من الانفتاح بالنسبة إلى الصحف والمجلات، كما أخذ الرئيس

= ٦ ـ محمد عبد الله مرزبان: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية، ووزيراً للتموين والتجارة الداخلية بالنيابة.

٧ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.

٨ ـ عبد العزيز حجازي: وزيراً للخزانة.

٩ ـ محمد حافظ غانم: وزيراً للتربية والتعليم.

١٠ ـ عبد العزيز كامل: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.

١١ ـ محمد أحمد محمد: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.

١٢ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الوزراء.

١٣ ـ أحمد السيد درويش: وزيراً للصحة، ووزيراً للشؤون الاجتماعية بالنيابة.

١٤ ـ عبد اللطيف بلطية: وزيراً للقوى العاملة.

١٥ ـ أحمد نوح: وزيراً للدولة لشؤون الطيران المدني.

١٦ ـ ممدوح سالم: وزيراً للداخلية.

١٧ ـ محمد أحمد صادق: وزيراً للحربية.

١٨ ـ محمد مرسي أحمد: وزيراً للتعليم العالي.

١٩ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.

٢٠ ـ علي السيد محمد: وزيراً للإسكان والتشييد.

٢١ ـ سليمان عبد الحي: وزيراً للنقل والمواصلات.

٢٢ ـ محمد عبد الرقيب: وزيراً للري.

٢٣ ـ علي والي: وزيراً للدولة لشؤون البترول والثروة المعدنية.

٢٤ ـ إبراهيم نجيب: وزيراً للسياحة.

٢٥ ـ محمد سلامة: وزيراً للعدل.

٢٦ ـ محمد إبراهيم حسن سليم: وزيراً للدولة لشؤون الإنتاج الحربي.

٢٧ ـ محمد مراد غالب: وزيراً للدولة لشؤون الخارجية.

٢٨ ـ محمود حمدي: وزيراً للنقل البحري. (توفي بعد ثلاثة أشهر وقام سليمان عبد الحي بأعمال الوزارة).

نفسه يستمع إلى بعض رجالات البلاد وأبناء الشعب.

وفي أول ذي الحجة ١٣٩١هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٧٢م) شكّل عزيز صدقي الوزارة[١] بعد استقالة حكومة محمود فوزي الرابعة.

---

(١) شكلت الحكومة على النحو الآتي:
١ ـ عزيز صدقي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للإعلام والثقافة.
٣ ـ محمد عبد السلام الزيات: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٤ ـ محمد عبد الله مرزبان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٥ ـ ممدوح سالم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٦ ـ محمد أحمد صادق: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية والإنتاج الحربي.
٧ ـ محمود رياض: وزيراً للمواصلات.
٨ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.
٩ ـ عبد العزيز حجازي: وزيراً للخزانة.
١٠ ـ أحمد نوح: وزيراً للطيران المدني.
١١ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.
١٢ ـ محمد سلامة: وزيراً للعدل.
١٣ ـ محمد إبراهيم حسن سليم: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٤ ـ محمد مراد غالب: وزيراً للخارجية.
١٥ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
١٦ ـ عبد العزيز كمال محمد: وزيراً للإسكان والتشييد.
١٧ ـ إسماعيل صبري عبد الله: وزيراً للدولة للتخطيط.
١٨ ـ محمد حسن الزيات: وزيراً للخارجية.
١٩ ـ يحيى الملا: وزيراً للصناعة والبترول والثروة المعدنية.
٢٠ ـ فؤاد موسى: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢١ ـ أحمد محمد عفت: وزيراً للنقل الجوي.
٢٢ ـ مصطفى الجبلي: وزيراً للزراعة واستصلاح الأراضي.
٢٣ ـ عبد الحليم محمود: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
٢٤ ـ علي عبد الرزاق: وزيراً للتربية والتعليم.
٢٥ ـ عزيز يوسف سعد: وزيراً للري.
٢٦ ـ زكي هاشم: وزيراً للسياحة.
٢٧ ـ عبد المنعم يونس عمارة: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٨ ـ عثمان عدلي بدران: وزيراً لاستصلاح الأراضي. =

طرد الخبراء الروس:

ومنذ ٢٧ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ (٨ تموز ١٩٧٢م) أخذ الروس يتباطؤون بإرسال الأسلحة إلى مصر، وأحسّ الرئيس أنور السادات أن الموضوع مُتعمّداً إذ اكتشف الروس أن الانحياز المصري للغرب بيّن وواضح، ويجب ألا يُخدعوا أكثر من مرّةٍ لذا أخذوا لا يُبالون في رضا مصر أم غضبها، فأبلغ الرئيس المصري السفير الروسي بإنهاء عمل الخبراء الروس في مصر، مع استبقاء الوحدات العسكرية الروسية على أن يتمّ وضعها تحت القيادة المصرية، وفي حالة رفض الطلب فعليها أن تُغادر الأراضي المصرية قبل يوم ٦ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ (١٧ تموز ١٩٧٢م). وغادر الروس مصر، واستعادت مصر القاعدة العسكرية التي كانت قد منحتها للخبراء الروس، وشنَّ الروس على مصر حملةً إعلاميةً شعواء في أنها دولة تسير ضمن المخطط الاستعماري، وأنها تأتمر بأوامر الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ٢٢ صفر ١٣٩٣هـ (٢٧ آذار ١٩٧٣م) شكّل رئيس الجمهورية أنور السادات حكومةً جديدةً برئاسته[١]، وأحسَّ أنه سائر في دربٍ تنتهي به إلى

= ٢٩ ـ شمس الدين الوكيل: وزيراً للتعليم العالي.
٣٠ ـ حسن حميدة: وزيراً للنقل.
٣١ ـ محمود محمد محفوظ: وزيراً للصحة.
٣٢ ـ صلاح الدين محمد غريب: وزيراً للقوى العاملة.
٣٣ ـ أحمد كمال أبو المجد: وزيراً للدولة للشباب (عين فيما بعد).
ثم عُيّن: أحمد إسماعيل علي: وزيراً للحربية.
أحمد كامل البدري: وزيراً للإنتاج الحربي.

(١) شكل أنور السادات الحكومة على النحو الآتي:
يتولى رئيس الجمهورية محمد أنور السادات رئاسة مجلس الوزراء.
١ ـ محمد عبد القادر حاتم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للثقافة والإعلام.
٢ ـ ممدوح محمد سالم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٣ ـ عبد العزيز محمد حجازي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٤ ـ عبد العزيز عبد القادر كامل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الدينية، ووزيراً للأوقاف.
٥ ـ أحمد إسماعيل علي: وزيراً للحربية.
٦ ـ محمود رياض: وزيراً للمواصلات. =

حربٍ، فالروس لا يُقدّمون السلاح حيث لا يُريدون لمصر أن تنتصر على

= ٧ ـ السيد جاب الله السيد: وزيراً للتخطيط.
٨ ـ محمد مراد غالب: وزيراً للإعلام.
٩ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
١٠ ـ إسماعيل صبري عبد الله: وزيراً للدولة للتخطيط.
١١ ـ محمد حسن الزيات: وزيراً للخارجية.
١٢ ـ علي عبد الرازق: وزيراً للتربية والتعليم.
١٣ ـ عزيز يوسف سعد: وزيراً للري.
١٤ ـ عثمان عدلي بدران: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
١٥ ـ محمود محمد محفوظ: وزيراً للصحة.
١٦ ـ صلاح الدين محمد غريب: وزيراً للقوى العاملة.
١٧ ـ أحمد كمال أبو المجد: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٨ ـ أحمد كامل البدري: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٩ ـ يوسف السباعي: وزيراً للثقافة.
٢٠ ـ فخري محمد عبد النبي: وزيراً للعدل.
٢١ ـ محمد مجيب محمد زكي: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي.
٢٢ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزير الدولة لأمانة الحكم المحلي والمنظمات الشعبية.
٢٣ ـ محمود أمين عبد الحافظ: وزيراً للإسكان والتشييد.
٢٤ ـ أحمد عز الدين حسن هلال: وزيراً للبترول والثروة المعدنية.
٢٥ ـ إبراهيم سالم محمدين: وزيراً للصناعة.
٢٦ ـ حسن أحمد الشريف: وزيراً للتأمينات.
٢٧ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٨ ـ أحمد محمد ثابت: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢٩ ـ إسماعيل فهمي: وزيراً للسياحة.
٣٠ ـ عبد العزيز محمد عيسى: وزيراً لشؤون الأزهر.
٣١ ـ محمد كامل ليلة: وزيراً للتعليم العالي.
٣٢ ـ عبد المعطي أحمد إسماعيل العربي: وزيراً للنقل البحري.
٣٣ ـ الحسيني عبد اللطيف عبد الرحمن: وزيراً للنقل.
ثم عُيّن:
عثمان أحمد عثمان: وزيراً للتعمير.
عبد الحميد حسن محمد: نائباً لوزير الدولة للشباب.
ثم جرى تعديل فأصبح.
إسماعيل فهمي: وزيراً للخارجية.
ومحمد حسن الزيات: مستشاراً لرئاسة الجمهورية.
ومحمد عبد القادر حاتم: وزيراً للإعلام.

إسرائيل، بل لا يستطيعون ذلك لأن الولايات المتحدة لا تُوافق على هذا، وروسيا تُخطّط مع دولةٍ كبرى هي الولايات المتحدة، ولا تُخطّط مع مصر أو أية دولةٍ أخرى صغيرةٍ وهكذا تكون لعبة الأمم، وكذلك لا تريد الولايات المتحدة أن تنتصر مصر على إسرائيل لما لإسرائيل من نفوذٍ في الولايات المتحدة أولاً ثم لأن مصر لو انتصرت على إسرائيل لأسرعت خطا المنطقة نحو التجمّع والاتحاد ولكان لها شأن ربما أزعج الولايات المتحدة وروسيا معاً، وهذا ما ترفضانه وتحولان دونه كل الحيلولة.

حرب رمضان:

شعر العرب بالمرارة في حرب ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م) إذ تظاهر عليهم الشرق والغرب، وحتى في البلدان العربية أصبحت فجوة بين الشعب الذي اعتقد أن أصحاب السلطة قد قصّروا في الاستعداد وتهاونوا في القتال وبين الذين بيدهم الأمر إذ اعتمدوا على سلاح الشرق فخذلهم، ولم يتوقّعوا من الغرب دعماً لإسرائيل بهذه الصورة نتيجةِ الصلة معه فخاب الظنّ، ووقف الغربيون بجانب اليهود وخذلوا العرب. وكان الشعب العربي والمسلمون من ورائه يتألّمون لما أصابهم، وأصبح عندهم أمل للاندفاع ذاتياً دون الاعتماد على أحدٍ علّهم يُحرزون بعض ما عجزت عنه الجيوش.

ودرس الغرب والشرق هذه الظاهرة وحاولوا التخفيف من مرّها على العرب خوفاً من حركاتٍ داخليةٍ تقوم دون إمكانية استيعابها وخاصةً أنهم قد وجدوا تحرّكاً في العمل الفدائي الفلسطيني، وتأييداً مُتزايداً له بل واندفاعاً نحوه. وإذا كانت رؤوس خيطانه بأيديهم لكنهم لا يضمنون تفلّت بعض هذه الخيوط تحت تأثير الضغوط المتزايدة والرغبة في قيادة التيارات الهائجة والظهور على أكتافها وتجاوز القيادات القائمة وخاصةً أن الأسلحة قد أصبحت في مُتناول الأيدي، أيدي الأفراد الذين تأخذهم الحماسة وربما انفلتوا من عقالهم وتركوا قيادتهم.

وجد الغرب والشرق مُتفاهمين تخفيف المرارة على سكان المنطقة، ورأوا إعادة الربط بين السلطة والشعب إلى حدٍّ، فتغيّرت الواجهات السياسية في مصر وسوريا قطبي المعركة والقتال، وإن لم تكن الواجهات الجديدة بعيدة

عن الساحة عام ١٣٨٧هـ إلا أنه تغيير، وإذا كان التغيير في مصر قد أعلن سيره نحو الغرب فقد أبدى المسؤولون في سوريا تحركهم نحو الشرق أو المحافظة على ما كان سلفهم عليه مع اتهام من سبقهم بالتوجّه نحو الغرب، والحقيقة التي لا مراء فيها أن كلا الواجهتين سواء أكانتا قبلاً أم حديثاً فإنهما تشربان من منهلٍ واحدٍ، وتسيران في فلكٍ واحدٍ، مع ادّعاءاتٍ مُتباينةٍ، وتصريحاتٍ تُشير إلى خطٍ، وتسير في خطٍ، ومع وعودٍ بالتحرير ومُناداةٍ بالاستعداد نفد صبر الناس وانتظروا وهم على يقين ألا يحدث جديد، ولا يتمّ إلا ما هو مُخطَّط له أن يتمّ.

ورأى الغرب والشرق مُتفاهمين أن يحدث جديد بعد التغيير يُخفّف من المرارة ويُعيد للشعب شيئاً من الطمأنينة بعدم التكالب على المسلمين من كل الجهات كما يُعيد للقيادات شيئاً من الثقة في نفوس رعاياهم، ولكن لن يكون هذا أبداً على حساب إسرائيل بل لا يصحّ أن يكون، وإنما يمكن أن يكون انتصاراً وهمياً، وحبذا لو كان سياسياً، أو يكون بتقدم طرفٍ في قطاعٍ وتراجعه في قطاعٍ ثانٍ فيكون كل فريقٍ قد أحرز نصراً أمام شعبه، وتأتي صافرة الحكم التي هي مجلس الأمن الدولي ويقف كل فريقٍ في مكانه، وتكون إسرائيل قد تفوّقت أمام اليهود في القطاع الذي تقدّمت فيه، أو الجبهة التي أحرزت فيها نصراً وتبقى في أعين شعبها ذات إمكاناتٍ دفاعيةٍ متطوّرةٍ، وتكون الحكومات العربية التي دخلت المعركة قد استرجعت بعض الأجزاء التي فقدتها، ولو كان الاسترجاع لمدة محدودةٍ أو في معركةٍ فاستعادت شيئاً من هيبتها أمام رعاياها بل استعادت مكانتها أمام جيرانها، وهذا ما كان من سير المعركة، وإن كنا نتوقّعه من بعد انتهاء حرب عام ١٣٨٧هـ بمدةٍ وجيزة، ويجب ألا ننسى أن الحقد العربي على الدول الكبرى يقلّ إذ يمتصّه النصر الوهمي الذي تُنادي به وسائل الإعلام كلها.

حرصت الولايات المتحدة الأمريكية أن تتمّ العملية سياسياً فلم تُوفّق إذ استمرّت سنةً ونصف السنة قبل المعركة وهي تُحاول توقيع اتفاقيةٍ بين مصر وإسرائيل تحت رعايتها، وأخيراً بذل جهده وزير خارجيتها «كيسنجر» فلم ينجح، إذ أن الشعب العربي لا يمكنه أن يرضى عن هذا ولا يمكن أن يسير السادة إلا في التيار نفسه خوفاً من الغرق.

وكان الاتفاق والتنسيق بين مصر وسوريا على حرب إسرائيل ومُتابعة القتال لتحرير الأرض المحتلّة عام ١٣٨٧هـ، وعلى هذا الإعلان للشعب دخلتا الحرب بعد تخطيطٍ وتوقيتٍ، ولم تكن الأردن بعيدةً عن المخطط، وإن كان طول جبهتها لا يسمح لها بزجّ قواتها في المعركة قبل جلاء بعض النتائج ووضوح سيرها.

في ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) اجتازت القوات المصرية قناة السويس، وانتقلت إلى الضفة الشرقية، واقتحمت خط «بارليف» الذي أقامه اليهود على حدود شبه جزيرة سيناء الغربية والذي حصّنوه جيداً، ووضعوا أمامه تلّاً ترابياً ليحمي تحرّكهم عن أعين المصريين الراصدة، وكان هذا العبور وهذا الاقتحام المُفاجىء والسريع قد زاد في مبالغة وسائل الإعلام العربية كلها بل والعالمية حتى أصبح مُعجزةً في نظر العرب عامةً والمصريين خاصةً، وتاجرت به القيادة مدةً طويلةً ولا تزال تتغذّى عليه، ولكن الجيش المصري مع الأسف لم يُتابع تقدّمه في سيناء ليُحررّها مع وجود الإمكانية يومذاك، كما لم يتجه نحو المضائق ليُغلقها في وجه إسرائيل ويحصرها من جهة الجنوب، وإنما اتخذ له مواقع دفاعيةً على بعد عشرة كيلومترات من شاطئ القناة الشرقي في داخل سيناء، وهذا ما عرّض مصر للنقد السوري إذ أن إسرائيل استطاعت بهذا التصرف المصري أن تنقل قواتها من الجبهة المصرية إلى الشمال وترمي بثقلها وبإمكاناتها كاملةً ضدَّ الجيش السوري بينما اتخذ الجيش المصري موقف المدافع في الوقت الذي هو فيه قادر على الهجوم والتقدّم لتحرير الأرض، ولتخفيف الضغط الإسرائيلي عن الجبهة السورية، ولكنّه مُخطَّط مرسوم لا يمكن للجيش المصري أن يتجاوزه. وبهذا نال الجيش المصري شرف هذا النصر، واستعادت القيادة هيبتها، واكتفت بهذا تُردّده، واستمرَّت في ترديده حتى بعد قيام اليهود بالهجوم المعاكس والحصول على النصر.

وفي ٢٠ رمضان عبرت عدّة دباباتٍ يهوديةٍ قناة السويس في منطقة «الدفرسوار»، وفتحت ثغرةً في القوات المصرية فتبعت الدبابات دبابات أخرى، وقوات انتشرت على طول القناة على الضفة الغربية، وحاصرت مدن القناة، وحجزت القوات المصرية في سيناء، وبهذا انقطعت وسائل الاتصال بين القطاعات المصرية، وبدت إسرائيل أمام اليهود جميعاً أنها المنتصرة، وأنها

مُتحكّمة في القوات المصرية في سيناء، ويمكنها أن تعدّها أسيرةً لديها، كما حاولت دخول مدن القناة إذ قامت بعدّة هجماتٍ في سبيل اقتحام السويس، والإسماعيلية، وبور سعيد ولم تنجح، وبذا لم تفقد شيئاً من مكانتها السابقة التي حقّقتها بعد حرب ١٣٨٧هـ.

أما الجبهة على الحدود السورية فقد تقدّمت القوات السورية بشكلٍ سريعٍ في القطاع الجنوبي، ووصلت إلى مياه بحيرة طبريا أي استعادت في هذا القطاع كلّ ما فقدته في حرب ١٣٨٧هـ، ولكنها لم تُنظّف المنطقة التي استعادتها بشكلٍ جيدٍ فبقيت فيها بعض الجزر اليهودية في تحصيناتها، ولكن القوات الإسرائيلية تقدّمت في القطاع الشمالي ودخلت عدّة قرىً جديدةٍ إذ وصلت إلى قرب قرية «سعسع»، وتراجعت أمامها القوات السورية، ولكن تصوير المعركة في وسائل الإعلام لم يكن واضحاً وخاصةً بالنسبة إلى الذين لا يعرفون المنطقة، إذ تصمد القوات السورية أمام القوات الغازية في موقعٍ في معركةٍ، ثم تنسحب إلى موقعٍ خلفي، ولكن لا تذكر وسائل الإعلام هذا الانسحاب، ثم تعود إلى الصمود في الموقع الخلفي ثانيةً، وهكذا فيتصور المستمع أن الصمود مستمر في المواقع المتقدّمة ما دام لا يعرف المنطقة.

ولمّا اتّخذت القوات المصرية خطّة الدفاع، واتخذت مواقع لذلك، ووقفت عندها، نقل اليهود قواتهم من الجبهة المصرية إلى السورية وزجّوا بقواتهم كلها في المعركة واستطاعوا احتلال ما خرجوا منه من القطاع الجنوبي، وخسر الجيش السوري كثيراً في هذا التراجع إذ حاول التشبّث فيما دخله ولكن دون جدوى. وإذا كان السوريون قد عزوا هذا الانسحاب الذي اضطروا إليه إلى المصريين الذين لم يتقيّدوا بما اتفقوا عليه من دخول المعركة معاً والخروج منها معاً، واستمرار القتال على الجبهتين حتى لا تتهيّأ الفرصة لإسرائيل لنقل قواتها من جبهةٍ إلى جبهةٍ وتجميع قواتها ضدّ طرفٍ واحدٍ[1]. إلاّ أن هذا النقد السوري كان سرياً وعلى المستويات الرسمية دون إعلانه، أو إذاعة شيءٍ منه. أما من حيث الإعلام فقد كانت سوريا أيضاً تُردّد تقدّمها في الأيّام الأولى في

(١) انظر الجزء العاشر من هذه الموسوعة، موضوع حرب رمضان.

القطاع الجنوبي وتبني من ذلك أمجاداً، وتُردّد وسائل الإعلام كلها ذلك مما أعاد للسلطة شيئاً من المكانة التي فقدتها في حرب ١٣٨٧هـ، حيث كان المستمع يسمع هذا من أية محطةٍ إذاعيةٍ استمع إليها، وغدت حقيقةً في الأوساط الرسمية والشعبية. وفي الوقت نفسه فإن إسرائيل كانت تفخر أمام شعبها بتقدّمها في القطاع الشمالي والرجوع إلى ما تخلّت عنه في القطاع الجنوبي وأعلمت شعبها أنها لم تخسر شبراً واحداً من الأرض التي سبق لها أن احتلتهاعام ١٣٨٧هـ بل زادت فيها، وبذا فقد احتفظت بمكانتها أيضاً. وعلى هذا فقد تمّ ما خطّط له الشرق والغرب.

كانت مدة وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهرٍ تنتهي في ١٤ ذي الحجة ١٣٩٣هـ (٧ كانون الثاني ١٩٧٤م)، وقد عقد الرئيس أنور السادات مجلس الدفاع لمناقشة هذا الموضوع في ١٦ ذي الحجة، ورأى أعضاء المجلس تمديد وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهرٍ أخرى بالإجماع.

وكانت مصر قد وافقت على ما تقدّم به وزير خارجية الولايات المتحدة «كيسنجر» من حيث وقف إطلاق النار وذلك في ١٤ شوال ١٣٩٣هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٧٣م).

وزار كيسنجر الرئيس المصري في أسوان فوافق على فضّ الاشتباك بين مصر وإسرائيل في ٢٤ ذي الحجة ١٣٩٣هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٧٤م)، أما سوريا فقد تمت الموافقة منها على فضّ الاشتباك بعد ستة أشهر من موافقة مصر.

الهجوم على الكلية الفنية العسكرية:

وفي شهر ربيع الأول من عام ١٣٩٤هـ (نيسان ١٩٧٤م) وقع الهجوم على الكلية الفنية العسكرية بإمرة صالح عبد الله سرية، فقُدّم هو وزملاؤه إلى المحكمة التي حكمت على بعضهم بالإعدام وعلى بعضهم الآخر بالسجن لمدةٍ مختلفةٍ، وقد صادق الرئيس المصري على الأحكام في ٨ شوال ١٣٩٥هـ. وقد نُفّذ حكم الإعدام بصالح عبد الله سرية، وكارم عزت الأناضولي.

تخلّص الرئيس أنور السادات قبل حرب رمضان ١٣٩٣هـ من بقايا أعضاء

مجلس قيادة الثورة، ولم يبق منهم سوى حسين الشافعي الذي كان نائباً لرئيس الجمهورية، ولم يكن سوى صورةٍ في هذا المنصب الذي يتقلّده، وبعد الحرب أُنهيت مهمة حسين الشافعي، وعُيّن مكانه نائباً لرئيس الجمهورية حسني مبارك. وبذا انتهت آثار الثورة التي هزّت المنطقة بوسائل الإعلام، وبالحروب، والتهديدات، وقيام الاتحادات ولم يبق من آثارها سوى الرئيس نفسه أنور السادات، الذي أعلن بصورةٍ غير رسميةٍ تبرؤه منها، ومن سلفه الذي حمل اسمها أو حملت اسمه وهو جمال عبد الناصر الذي لم تقتصر ويلاته على مصر بل تجاوزت ذلك إلى المنطقة كلها.

وفي ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (٢٥ نيسان ١٩٧٤م) أعاد أنور السادات تشكيل الوزارة[١]، وأخذ يسير نحو ما أطلق عليه الحرية، فقد حصل على

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ يتولى رئيس الجمهورية منصب رئيس الوزراء.
٢ ـ عبد العزيز محمد حجازي: نائباً أول لرئيس مجلس الوزراء.
٣ ـ ممدوح محمد سالم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٤ ـ عبد العزيز عبد القادر كامل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للشؤون الدينية.
٥ ـ أحمد إسماعيل علي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية.
٦ ـ محمود رياض: وزيراً للنقل والمواصلات.
٧ ـ إسماعيل فهمي: وزيراً للخارجية.
٨ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.
٩ ـ إسماعيل غانم: وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
١٠ ـ إبراهيم نجيب إبراهيم: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
١١ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
١٢ ـ إسماعيل صبري عبد الله: وزيراً للتخطيط.
١٣ ـ عثمان عدلي بدران: وزير دولة لشؤون السودان.
١٤ ـ محمود محمد محفوظ: وزيراً للصحة.
١٥ ـ صلاح الدين محمد غريب: وزيراً للقوى العاملة.
١٦ ـ أحمد كمال أبو المجد: وزيراً للإعلام.
١٧ ـ أحمد كامل البدري: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٨ ـ يوسف السباعي: وزيراً للثقافة.
١٩ ـ محمد محب محمد زكي: وزيراً للزراعة واستصلاح الأراضي.
٢٠ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزير دولة للحكم المحلي والتنظيمات الشعبية. =

شيءٍ من التأييد بعد أن اعتقد الناس أنه قد حقّق نصراً على العدو الإسرائيلي وذلك تحت تأثير وسائل الإعلام، والشعب في مصر عاطفي يتأثّر بسرعةٍ إضافةً إلى ما أعطى من حريةٍ بالنسبة إلى سلفه، ولما كانت خطوته المقرّر القيام بها لم تتم بعد لذا كان لا بدّ من مقدّماتٍ لها من حريةٍ، وإظهار الإخلاص، والعمل لصالح البلاد و. . . والاستماع إلى بعض الرجال، وإن كان يرغب أن يكون هناك صراع بين الفئات ليتمكّن من الخطو وإذا ما حدث نقد فإنما يقع الصراع بين الفئات المتباينة في الداخل، ويبقى هو في منأى، وتتمّ العملية.

وفي ٩ رمضان ١٣٩٤هـ (٢٥ أيلول ١٩٧٤م) شكل عبد العزيز حجازي الوزارة[١]، وبذا فقد ترك الرئيس منصب رئاسة الوزارة ليكون العمل باسم

= ٢١ ـ أحمد عز الدين حسن هلال: وزيراً للبترول.
٢٢ ـ إبراهيم سالم محمدين: وزيراً للصناعة والتعدين.
٢٣ ـ حسن أحمد الشريف: وزيراً للتأمينات.
٢٤ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية.
٢٥ ـ عبد العزيز محمد عيسى: وزيراً لشؤون الأزهر.
٢٦ ـ عبد المعطي أحمد إسماعيل العربي: وزيراً للنقل البحري.
٢٧ ـ آلبرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
٢٨ ـ عثمان أحمد عثمان: وزيراً للإسكان والتعمير.
٢٩ ـ مصطفى أبو زيد فهمي: وزيراً للعدل.
٣٠ ـ أحمد علي كمال: وزيراً للري.
٣١ ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم: وزيراً للمالية.
٣٢ ـ محمد هادي المغربي: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٣٣ ـ فتحي أحمد المتبولي: وزيراً للتجارة الخارجية.
٣٤ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتربية والتعليم.
٣٥ ـ يحيى عبد العزيز الجمل: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
وعُيّن:
عبد الحميد حسن: نائب وزير للشباب.
محمد أحمد السيسي: نائب وزير للسياحة والطيران المدني.
ثم عُيّن فيما بعد. :
محمد سميح أنور: وزير دولة للشؤون الخارجية.

(١) تشكلت الوزارة على النحو التالي:
١ ـ عبد العزيز محمد حجازي: رئيساً لمجلس الوزراء. =

الحكومة التي ستتحمّل المهمّة الأساسية في التّصرف، وبدأت الخُطا تُسرع

=
٢ ـ ممدوح محمد سالم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٣ ـ عبد العزيز عبد القادر كامل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الدينية، ووزيراً للأوقاف.
٤ ـ أحمد إسماعيل علي: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للحربية.
٥ ـ محمود رياض: وزيراً للنقل والمواصلات.
٦ ـ إسماعيل فهمي: وزيراً للخارجية.
٧ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.
٨ ـ إسماعيل غانم: وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
٩ ـ إبراهيم نجيب إبراهيم: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
١٠ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
١١ ـ إسماعيل صبري عبد الله: وزيراً للتخطيط.
١٢ ـ عثمان عدلي بدران: وزير دولة لشؤون السودان.
١٣ ـ صلاح الدين محمد غريب: وزيراً للقوى العاملة.
١٤ ـ أحمد كامل البدري: وزيراً للإنتاج الحربي.
١٥ ـ محمد كمال أبو المجد: وزيراً للإعلام.
١٦ ـ يوسف السباعي: وزيراً للثقافة.
١٧ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً للصحة.
١٨ ـ أحمد عز الدين حسن هلال: وزيراً للبترول.
١٩ ـ حسن أحمد الشريف: وزيراً لتأمينات.
٢٠ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزير دولة للمتابعة والمراقبة.
٢١ ـ عبد العزيز محمد عيسى: وزيراً لشؤون الأزهر.
٢٢ ـ عبد المعطي أحمد إسماعيل العربي: وزيراً للنقل البحري.
٢٣ ـ البرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
٢٤ ـ عثمان أحمد عثمان: وزيراً للإسكان والتعمير.
٢٥ ـ مصطفى أبو زيد فهمي: وزيراً للعدل.
٢٦ ـ أحمد علي كمال: وزيراً للري.
٢٧ ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم: وزيراً للمالية.
٢٨ ـ فتحي أحمد المتبولي: وزيراً للتجارة.
٢٩ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتربية والتعليم.
٣٠ ـ يحيى عبد العزيز الجمل: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
٣١ ـ محمد سميح أنور: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٣٢ ـ طاهر أمين حسن: وزير دولة للتعاون الاقتصادي.
٣٣ ـ محمود علي حسن: وزيراً للصناعة والتعدين.
٣٤ ـ محمود أحمد عبد الآخر: وزيراً للزراعة واستصلاح الأراضي. =

نحو القيام بالمهمة المعدّة له والمُقرّر أن يقوم بتنفيذها، وكان العمل يسير بالتقرّب من إسرائيل وفي الوقت نفسه تُهيّأ الظروف الدولية، كما يسعى للتقرّب من البلدان العربية وخاصةً الشرقية منها، مع السعي للدعاية لنفسه في الداخل والقيام ببعض المشروعات التي تكون أداةً لتلك الدعاية، وأكثر ما كان يهمّ الشعب المصري يوم ذلك قناة السويس، وحقول النفط في سيناء لأنها تؤمّن دخلاً لمصر وربّما أثّر ذلك على حياة الشعب الذي يعيش في حالةٍ من البؤس إذ لا تتوفّر الحاجات الضرورية.

وفي ٤ ربيع الثاني ١٣٩٥هـ (١٦ نيسان ١٩٧٥م) أُعيد تنظيم المناصب العليا في الدولة، وعهد إلى ممدوح سالم بتشكيل الوزارة[١].

= ٣٥ ـ محمد حامد محمود: وزير دولة للحكم المحلي والتنظيمات الشعبية.
٣٦ ـ عبد الرحمن الشاذلي: وزيراً للتموين.
ثم عين: أحمد حمدي النشار: وزيراً للمالية.
وأسندت وزارة التأمينات إلى محمد عبد الفتاح إبراهيم بعد وفاة حسن أحمد الشريف وزير التأمينات.
وعين: الفريق أول محمد عبد الغني الجمسي وزيراً للحربية بعد وفاة أحمد إسماعيل علي.
وعين:
عبد الحميد حسن: نائباً لوزير الشباب.
محمد أحمد السيسي: نائباً لوزير السياحة والطيران المدني.

(١) صدر القرار رقم ٣٣٦ الذي عُيّن بموجبه:
أ ـ محمد حسني مبارك: نائباً لرئيس الجمهورية.
ب ـ ممدوح محمد سالم: رئيساً لمجلس الوزراء.
جـ ـ محمد حافظ غانم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتعليم العالي.
د ـ إسماعيل فهمي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
هـ ـ محمد عبد الغني الجمسي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية.
وكان أعضاء الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ عبد اللطيف بلطية: وزيراً للقوى العاملة والتدريب.
٢ ـ أحمد سلطان: وزيراً للكهرباء.
٣ ـ إبراهيم نجيب: وزيراً للسياحة.
٤ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
٥ ـ عثمان عدلي بدران: وزيراً للزراعة، ووزير دولة لشؤون السودان. =

الحريات:

وأخذ الرئيس المصري يُعطي الحرية تدريجياً إذ وجد أنه من الأصلح له أن يستمع إلى آراء الآخرين، ويتصرَّف من خلال ما يتشكّل عنده من انطباعات خوفاً من العمل السري ضدّه، فقد أصدر قراراً بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ (٣ تموز ١٩٧٥م) بإعادة أملاك تسع عشرة شخصيةً سياسيةً كانت قد

= ٦ ـ أحمد كمال أبو المجد: وزيراً للإعلام.
٧ ـ أحمد كامل البدري: وزيراً للإنتاج الحربي.
٨ ـ يوسف السباعي: وزيراً للثقافة.
٩ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً للصحة.
١٠ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للبترول.
١١ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء، والرقابة.
١٢ ـ البرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
١٣ ـ عثمان أحمد عثمان: وزيراً للإسكان والتعمير.
١٤ ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم: وزيراً للتأمينات.
١٥ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتربية والتعليم.
١٦ ـ محمد حامد محمود: وزير دولة للحكم المحلي، والتنظيمات الشعبية.
١٧ ـ عبد الرحمن الشاذلي: وزيراً للتموين.
١٨ ـ عادل يونس: وزيراً للعدل.
١٩ ـ محمود عبد الرحمن فهمي: وزيراً للنقل البحري.
٢٠ ـ إبراهيم حلمي عبد الرحمن: وزيراً للتخطيط.
٢١ ـ حسين فهمي: وزيراً للداخلية.
٢٢ ـ زكريا توفيق عبد الفتاح: وزيراً للتجارة.
٢٣ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للري.
٢٤ ـ عيسى عبد الحميد شاهين: وزيراً للصناعة والتعدين.
٢٥ ـ محمد عبد المعبود الجبيلي: وزيراً للبحث العلمي والطاقة الذرية.
٢٦ ـ جمال الدين محمد صدقي: وزيراً للنقل.
٢٧ ـ أحمد أحمد أبو إسماعيل: وزيراً للمالية.
٢٨ ـ محمد محمد زكي شافعي: وزيراً للاقتصاد والتعاون الاقتصادي.
٢٩ ـ محمد كمال الدين حسنين: وزيراً للمواصلات.
٣٠ ـ محمد حمدي أبو زيد: وزيراً للطيران المدني.
٣١ ـ محمد السيد حسين الذهبي: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
ثم عُيّن فيما بعد:
محمد محمود رياض: وزير دولة للشؤون الخارجية.

أمّمت أملاكهم، ومن بينهم فؤاد سراج الدين أمين سرّ حزب الوفد، وإبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء الأسبق والأمين العام للهيئة السعدية.

وكان قد أصدر قراراً في ٢٨ جمادى الآخرة بالعفو عن ألفين من السياسيين الذين صدرت بحقهم أحكام قبل ٢٠ ربيع الأول ١٣٩١هـ (١٥ أيار ١٩٧١م) أي قبل المحاولة التي تزعّمها علي صبري وعدد من السياسيين ضدّه، وقد شمل هذا القرار العفو عن الإخوان المسلمين، والشيوعيين.

وصدر في غرة شهر رجب قرار من مجلس الدولة المصري بالإجازة للأفراد بإصدار صحفٍ خاصةٍ، وكانت الصحف قد أُمّمت منذ عام ١٣٨٠هـ بموجب قانون تنظيم الصحافة.

ووافق الرئيس المصري على اقتراح من أعضاء المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي بإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية لفترةٍ ثانيةٍ، حيث تنتهي مدة رئاسته في شهر شوال ١٣٩٦هـ.

ووافق على إعادة فتح قناة السويس، وابتدأ تطهيرها بعد انسحاب إسرائيل من الضفة الشرقية للقناة، وقد أُعيد فتحها في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩٥هـ (٥ حزيران ١٩٧٥م) أي بعد مرور ثمان سنوات على إغلاقها.

وفي هذه الأثناء توتّرت العلاقات بين مصر وليبيا إذ حاولت الثانية منهما العمل لضمّ قسمٍ من الصحراء الغربية المصرية إليها، وأخذت كل منهما تتّهم الأخرى باتّهاماتٍ مُثيرةٍ، ثم تحسّنت العلاقات بين الطرفين، وقام ممدوح سالم رئيس الوزراء المصرية بزيارة ليبيا.

وفي مطلع رمضان من عام ١٣٩٥هـ أعلن فكُّ الارتباط الثاني، وتقرّر انسحاب إسرائيل إلى ما بعد الممرات في سيناء، وعودة مكامن النفط في «البلاعيم» و«أبو رديس» إلى مصر.

وفي ١٧ شوال ١٣٩٥هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٧٥م) أخذت فكرة العودة إلى تعدّد الأحزاب للمعارضة البنّاءة خوفاً من استبداد الرأي الفردي وحب التسلّط، وبدأت فكرة إقامة المنابر الحرة تمهيداً لقيام الأحزاب، ولكن ذلك لم

يجد أذناً صاغيةً لدى الشعب إذ تمّ ذلك ضمن الاتحاد الاشتراكي الذي يرمز إلى الاستبداد والطغيان الذي مارسه الحاكم ضد رعيته، ثم كلّف الرئيس المصري أنور السادات رئيس وزرائه أن يُؤلّف حزب مصر الذي لم يكن سوى امتدادٍ للاتحاد الاشتراكي الذي هو أيضاً امتداد للاتحاد القومي، وما الاتحاد القومي سوى تتمة لهيئة التحرير. كما أشار إلى إبراهيم شكري أن يُؤلّف حزب العمل، وأنشأ مصطفى كامل مراد حزب الاتحاد، وخالد محيي الدين حزب التجمّع، وكانت خيوط هذه التجمّعات تلتقي في يد الرئيس.

ثم ظهر حزب الوفد الجديد، ولم يستمر سوى مائة يوم حيث توقّف نشاطه بعد ذلك لحرمان رئيسه فؤاد سراج الدين من الحقوق السياسية.

وفي ١٨ ربيع الأول ١٣٩٦هـ (١٩ آذار ١٩٧٦م) عُدّل تشكيل الوزارة بقرار رئيس الجمهورية رقم ٣٣٦ برئاسة ممدوح سالم[١] الذي يعدّ رئيس

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ ممدوح سالم: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ محمد حافظ غانم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للتنمية الاجتماعية والخدمات، ورئيساً للجنة الوزارية للحكم المحلي.
٣ ـ إسماعيل فهمي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٤ ـ محمد عبد الغني الجمسي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية والإنتاج الحربي.
٥ ـ أحمد سلطان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للكهرباء والطاقة.
٦ ـ عبد اللطيف بلطية: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
٧ ـ إبراهيم نجيب: وزيراً للسياحة والطيران.
٨ ـ عائشة راتب: وزيرة للشؤون الاجتماعية، والتأمينات.
٩ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً للصحة.
١٠ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للبترول.
١١ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزيراً للنقل والمواصلات.
١٢ ـ آلبرت برسوم سلامة: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الشعب.
١٣ ـ عثمان أحمد عثمان: وزيراً للإسكان والتعمير.
١٤ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتعليم.
١٥ ـ محمد حامد محمود: وزيراً للدولة للحكم المحلي، والتنظيمات الشعبية والسياسية.
=

حزب مصر، وهو زعيم الأغلبية في مجلس الشعب رغم أن هذا المجلس والوزارة لم يكونا سوى امتدادٍ للاتحاد الاشتراكي أي المجموعة التي تتحكّم في شؤون البلاد، حتى النقابات، ومنها الاتحاد النسائي الذي تُشرف عليه زوج الرئيس المصري، والتي تُسمّى سيدة مصر الأولى، ولم يكن دورها في السلطة بأقل من زوجها أبداً. بل كانت تتدخّل في كل الموضوعات وتحلّ القضايا باسمها، ولم يكن من يستطع الوقوف في وجهها، وربما كانت من أسباب النقمة الرئيسية على أنور السادات زوجها.

وفي ١٧ ذي القعدة ١٣٩٦هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٧٦م) أعاد ممدوح سالم تشكيل الوزارة بقرارٍ من رئيس الجمهورية[١].

= ١٦ ـ عادل يونس: وزيراً للعدل.
١٧ ـ محمود عبد الرحمن فهمي: وزيراً للنقل البحري.
١٨ ـ زكريا توفيق عبد الفتاح: وزيراً للتجارة والتموين.
١٩ ـ حسين فهمي: وزيراً للداخلية.
٢٠ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للزراعة والري.
٢١ ـ عيسى عبد الحميد شاهين: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٢٢ ـ محمد عبد المعبود الجبيلي: وزيراً للدولة للبحث العلمي والطاقة الذرية.
٢٣ ـ جمال الدين محمد صدقي: وزيراً للدولة للإنتاج الحربي.
٢٤ ـ أحمد أحمد أبو إسماعيل: وزيراً للمالية.
٢٥ ـ محمد محمد زكي شافعي: وزيراً للاقتصاد والدولة للتعاون الاقتصادي.
٢٦ ـ محمد السيد حسين الذهبي: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
٢٧ ـ محمد محمود رياض: وزيراً للدولة للعلاقات الخارجية.
٢٨ ـ أحمد فؤاد الشريف: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء والمتابعة والرقابة والتنمية الإدارية.
٢٩ ـ جمال العطيفي: وزيراً للإعلام والثقافة.
٣٠ ـ حسن بهجت محمد حسنين: وزيراً للدولة للزراعة وشؤون السودان.
٣١ ـ محمد محمود الإمام: وزيراً للتخطيط.
وتوفي عادل يونس فعُيّن مكانه أحمد سميح طلعت.
وتوفي أحمد فؤاد الشريف.

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ ممدوح محمد سالم: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ عبد المنعم القيسوني: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون المالية والاقتصادية. =

معاهدة دفاع مع السودان:

وفي ٢٥ محرم ١٣٩٧هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٧٧م) وُقّعت معاهدة دفاع

= ٣ ـ محمد حافظ غانم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للتنمية الاجتماعية والخدمات.
٤ ـ إسماعيل فهمي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٥ ـ عبد الغني الجمسي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية والإنتاج الحربي.
٦ ـ أحمد سلطان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للكهرباء والطاقة.
٧ ـ عبد اللطيف بلطلية: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
٨ ـ إبراهيم نجيب: وزيراً للسياحة والطيران.
٩ ـ عائشة راتب: وزيرة للتأمينات والشؤون الاجتماعية.
١٠ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً لشؤون مجلس الشعب.
١١ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للبترول.
١٢ ـ عبد الفتاح عبد الله محمود: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
١٣ ـ ألبرت برسوم سلامة: وزيراً للدولة لشؤون مجلس الوزراء والمتابعة والرقابة.
١٤ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتعليم.
١٥ ـ محمد حامد محمود: وزير دولة للحكم المحلي، والشباب، والتنظيمات الشعبية والسياسية.
١٦ ـ حسين فهمي: وزيراً للداخلية.
١٧ ـ زكريا توفيق عبد الفتاح: وزيراً للتجارة والتموين.
١٨ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للزراعة والري.
١٩ ـ عيسى عبد الحميد شاهين: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٢٠ ـ محمد عبد المعبود الجبيلي: وزيراً للدولة للبحث العلمي، والطاقة الذرية.
٢١ ـ جمال الدين محمد صدقي: وزير دولة للإنتاج الحربي.
٢٢ ـ محمد محمود رياض: وزير دولة للعلاقات الخارجية.
٢٣ ـ جمال العطيفي: وزيراً للإعلام والثقافة.
٢٤ ـ عبد العزيز حسين: وزير دولة للزراعة وشؤون السودان.
٢٥ ـ محمد محمود الإمام: وزيراً للتخطيط.
٢٦ ـ أحمد سميح طلعت: وزيراً للعدل.
٢٧ ـ علي عبد الحميد عبده: وزير دولة للتنمية الإدارية.
٢٨ ـ حسن محمد حسن: وزيراً للإسكان والتعمير.
٢٩ ـ حامد عبد اللطيف الساج: وزيراً للاقتصاد والتعاون الاقتصادي.
٣٠ ـ إبراهيم جميل مصطفى بدران: وزيراً للصحة.
٣١ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
٣٢ ـ محمد متولي عبد الحافظ الشعراوي: وزيراً للأوقاف، ووزير دولة لشؤون الأزهر.

بين مصر والسودان، وقد وقّعها نيابةً عن مصر، الفريق أول محمد عبد الغني الجمسي وعن السودان الفريق بشير محمد علي.

وفي اليوم التالي وجّهت مصر تحذيراً للحبشة التي كانت تقوم بحشد جيوشها على حدود السودان استعداداً للهجوم عليها، وأعلمت الحبشة أن أي هجومٍ على السودان إنما هو هجوم على مصر.

أعمال الشغب:

وقد قامت بعض أعمال التخريب في البلاد في يومي ٢٩ و ٣٠ محرم فألقى الرئيس المصري أنور السادات خطاباً اتهم فيه الحزب الوحدوي التقدمي اليساري أنه وراء هذه الأعمال، وأنه يتلقّى التعليمات من موسكو.

الحرية السياسية:

وفي ١٤ صفر ١٣٩٧هـ (٢ شباط ١٩٧٧م) أعطى أنور السادات حرية تكوين الأحزاب السياسية. وفي اليوم نفسه أعلن عن تعديل الوزارة[١].

وفي هذا الوقت كانت المحاولة السياسية تتجه نحو إقامة وحداتٍ بين بعض الأمصار العربية، وقد قطعت مرحلةً بين كل من مصر، وسوريا،

---

(١) شمل التعديل الوزاري:
١ ـ ممدوح محمد سالم: رئيساً لمجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للري.
٣ ـ عبد العزيز حسين: وزير دولة للمجمعات الزراعية والصناعية والثروة المائية وشؤون السودان.
٤ ـ عبد المنعم محمود الصاوي: وزيراً للإعلام والثقافة.
٥ ـ إبراهيم محمود شكري: وزيراً للزراعة.
٦ ـ محب رمزي ستينو: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٧ ـ آمال عثمان: وزيرة للشؤون والتأمينات الاجتماعية.
وأبعد: حسين فهمي: وزير الداخلية.
جمال العطيفي: وزير الثقافة والإعلام.
وعُيّن محمد نبوي إسماعيل: نائباً لوزير الداخلية.
كمال حامد خير الله: نائباً لوزير الداخلية.
ثم عُيّن عبد الرزاق عبد المجيد: وزيراً للتخطيط.

والسودان، وفي ١٤ رمضان ١٣٩٧هـ (٢٨ آب ١٩٧٧م) أُعلنت أسماء القيادة السياسية بين هذه الأمصار الثلاثة.

زيارة إسرائيل:

كان التخطيط أن يخطو الرئيس المصري خُطوةً أوسع مما قبله من حكام مصر، ومن غيره من البقية، لذا كان عليه أن يتفاهم مع عددٍ من رؤساء الدول العربية حتى لا ينفرد وحده بهذه الخطوة أو يضمن على الأقل عدم الهجوم عليه بشكلٍ واسعٍ وخاصةً أن الشعب العربي لن يتقبّل هذه الخُطوة ويضطر الرؤساء في كثيرٍ من الأحيان مُسايرة الشعوب قبل سير مثل هذه الخُطوات، وكان أكثر ما يُريده أن يتفاهم مع سوريا التي تُعدّ مركز الجبهة الشمالية وقوتها الرئيسية، كما أن مصر مركز الجبهة الجنوبية وقوتها الرئيسية، وإذا كان الشعب العربي في مصر أكثر ليونةً وتقبّلاً لهذه الخُطوة إلا أنه في بقية الدول العربية لن يتقبّل ذلك بتلك السهولة التي ربما يسكت عنها الكثير من المصريين.

قام أنور السادات في ١٤ ذي القعدة ١٣٩٧هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٧٧م) بتعديل الوزارة، وعهد إلى ممدوح سالم رئيس الوزارة نفسه بإعادة تشكيلها[١].

---

(١) أعاد ممدوح سالم تشكيل وزارته على النحو الآتي:
١ ـ ممدوح محمد سالم: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ عبد المنعم القيسوني: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون المالية والاقتصادية، ووزيراً للتخطيط.
٣ ـ محمد حافظ غانم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للتنمية الاجتماعية، ووزيراً لشؤون مجلس الوزراء، وشؤون السودان.
٤ ـ محمد عبد الغني الجمسي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية والإنتاج الحربي.
٥ ـ أحمد سلطان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للكهرباء والطاقة.
٦ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً لشؤون مجلس الشعب.
٧ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للصناعة والبترول والتعدين.
٨ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتعليم، ووزير دولة للبحث العلمي. =

وأعلن في ٢٨ ذي القعدة ١٣٩٧هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٧٧م) أمام مجلس الأمة أنه على استعداد للذهاب إلى جنيف للمفاوضة مع إسرائيل بل بإمكانه الذهاب إلى الكنيست الإسرائيلي بفلسطين ومُناقشة اليهود هناك، وربما كان هذا التصريح جسّ نبضٍ للشعب ولمعرفة ردّ الفعل الذي يمكن أن يكون داخل مصر وخارجها.

وأمام هذه التصريحات فقد قدّم استقالته من الوزارة المصرية إسماعيل فهمي نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، ومحمد محمود رياض وزير

= ٩ ـ محمد حامد محمود: وزيراً للدولة للحكم المحلي، والشباب، والتنظيمات الشعبية والسياسية.
١٠ ـ زكريا توفيق عبد الفتاح: وزيراً للتجارة والتموين.
١١ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للري واستصلاح الأراضي.
١٢ ـ عيسى عبد الحميد شاهين: وزيراً للدولة للرقابة والمتابعة.
١٣ ـ محمد محمود رياض: وزيراً للشؤون الخارجية.
١٤ ـ أحمد سميح طلعت: وزيراً للعدل.
١٥ ـ حامد عبد اللطيف السايح: وزيراً للاقتصاد والتعاون الاقتصادي.
١٦ ـ إبراهيم جميل مصطفى بدران: وزيراً للصحة.
١٧ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
١٨ ـ محمد متولي عبد الحافظ الشعراوي: وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر.
١٩ ـ عبد المنعم محمود الصاوي: وزيراً للإعلام والثقافة.
٢٠ ـ إبراهيم محمود شكري: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي والتنمية الريفية.
٢١ ـ محب رمزي ستينو: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٢٢ ـ آمال عثمان: وزيرة للشؤون والتأمينات الاجتماعية.
٢٣ ـ محمد نبوي إسماعيل: وزيراً للداخلية.
٢٤ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للإسكان والتعمير.
٢٥ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة.
٢٦ ـ نعيم مصطفى أبو طالب: وزير دولة.
٢٧ ـ عبد الستار مجاهد عرفة: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
٢٨ ـ علي السلس: وزير دولة.
٢٩ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
ثم استقال إسماعيل فهمي: نائب رئيس مجلس الوزراء، ووزير الخارجية.
ومحمد محمود رياض: وزير الدولة للشؤون الخارجية.
وعين بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.

الدولة للشؤون الخارجية، وقد قبل الرئيس المصري هذه الاستقالات، وعيّن وزير الدولة بطرس بطرس غالي وزير دولة للشؤون الخارجية.

وقام الرئيس المصري بزيارةٍ مُفاجئةٍ إلى سوريا، وأمله كبير في أن يتجه إلى القدس مع الرئيس السوري حافظ الأسد، غير أن الشعب العربي في سوريا لا يمكنه السكوت عن مثل هذا التصرّف، وقبول مثل هذا الضيم، وقد رفض الرئيس السوري مُشاركة الرئيس المصري في هذه الخُطوة ونصحه أثناء وداعه بالمطار للعدول عنها، غير أن السادات كان من المُقرّر أن يقوم بها، وقد عزم على ذلك، ولا يمكنه أن يتراجع، وفعلاً قام بزيارة القدس في ٨ ذي الحجة ١٣٩٧هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧م).

وما إن عاد من الزيارة حتى تغيّرت النظرة إليه داخلياً وخارجياً، ففي الداخل شعر الشعب أن الحرية التي أعطاها ولو كانت نسبيةً إلا أنه كان يقصد منها أن يشتغل الناس في الخلافات فيما بينهم، فالصراع الحزبي يُلهي رجال الأحزاب بعضهم ببعض وخاصةً أن النشاط في أوله، كما حرص الرئيس المصري على إثارة الخلافات الدينية فأثار النصارى على المسلمين الذين اتهمهم بالتعصب والتطرف، كما عمل على تفرقة المسلمين فيما بينهم ونعت جماعةً منهم بالرجعية وآخرين بالمرونة وإمكانية التفاهم معهم وذلك من أجل الإيقاع بهم، كل هذا من أجل أن يشغل الناس عن خُطوته التي خطاها.

ولكن هذا قد جعل حقداً عليه، وخاصةً من الفئات الإسلامية التي اعتاد أن يُوجّه إليها اللوم في مناسبةٍ وغير مناسبةٍ، واستطاع أن يستوعب بعض المشايخ من أهل السوء ويطلب منهم مناقشة من سجن من الفئات الإسلاميّة في عمليةٍ لغسل الأدمغة حسب تخطيطه إلا أن بعض هؤلاء الشباب كان أقدر على الجدل من أولئك المشايخ، ما داموا على الحق، وما داموا يتكلّمون مؤمنين بما يقولون، أما أهل الشرّ فإنما يتكلّمون إرضاءً لمن بعثهم، وزُلفى، وفي سبيل الحصول على مغنمٍ عند السلطان، دون الإيمان بما يُخاطبون به الذين يُناقشونهم، بل إن أحاديثهم للناس أثناء الوعظ والتذكير لتختلف عما يُجادلون به مع من كُلّفوا بجدالهم.

وفي الوقت نفسه فقد أعطى شيئاً من الحرية، وسمح بإصادر الصحف والمجلات، وأقام ما أطلق عليه اسم المنابر في سبيل رصد عناصر كل مجموعةٍ لمراقبة أهل الرأي فيها والحركيين من أفرادها، فقد سمح للإخوان المسلمين بإصدار مجلة «الدعوة» وكان همّه رصد العناصر العاملين فيها والذين ينشطون في الكتابة والتوزيع، وعملية الطباعة إذ أن ضعف إمكاناتهم المادية تُلزمهم على تكليف أفرادهم للقيام بمثل هذه المهمة، وقد استطاع أن يرصد ما أراد لحسن نية الإخوان وعدم إدراك قادتهم ألاعيب السياسة، وسوء المقصد.

كما أن المسلمين الملتزمين إسلامياً قد ضاقوا ذرعاً بزوج الرئيس «جيهان» التي كانت كالصبي المراهق تقطع البلاد طولاً وعرضاً، وتتحرّك يميناً وشمالاً، تلتقي مع الرجال والنساء على حدٍّ سواء ومع الساسة والتنظيمات الاجتماعية، وتتدخّل بأمور السياسة، بل كانت صاحبة باعٍ طويلٍ فيما أطلق عليه «تقنين الشريعة» وهي في كل هذه الحركة حاسرةً سافرةً هازلةً كالفتيان.

وكانت كل الأحزاب التي وجدت حذرةً منه، تتحرّك على حذرٍ، وتُصدر البيانات على وجلٍ، تخشى رجال المخابرات وتخاف ساعة البطش المفاجئة.

واستمرّ الحقد على الرئيس المصري والحذر منه حتى اغتيل عام ١٤٠١هـ في احتفالٍ عام بتخطيطٍ وتدبيرٍ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

أما من الناحية الخارجية فقد وقف في وجه تصرّفه الحكومات العربية، فقاطعت مصر سياسياً إضافةً إلى وقف عضويتها في جامعة الدول العربية، والمنظمات والمؤتمرات العربية والإسلامية، وانتقل مقرّ الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس، وكذا المؤسسات العربية الأخرى التي توزّعت في عواصم الدول العربية، واستمرّ ذلك مدة عهد أنور السادات ومدةً من عهد خلفه حسني مبارك.

كان سكوت الشعب العربي في مصر على هذه الخطوة التي أقدم عليها رئيسه نتيجة تخطيط عدّة عقودٍ من السنوات أذاق المسؤولون في البلد رعاياهم الذلّ، وسقوهم من كأس الإهانة حتى يصلوا إلى هذه المرحلة من الخنوع والسكوت عن كل ما يقوم به رؤساؤهم خوفاً من أن يُصيبهم ما أصابهم سابقاً.

وأما الأحزاب التي قامت فلم تكن بحالةٍ أفضل من عناصر الشعب العاديين ليس خوفاً، وإن كان هذا عند الأعضاء العاديين، وإنما للسير في الطريق نفسه وأخذ الماء عنصر الحياة عندهم من النبع ذاته. وإذا كانت الحركة الإسلامية قد أبدت بعض التأفّف وعدم الرضا إلا أن الصوت كان ضعيفاً والخُطوة أضخم منه والمخطط أكبر منه، ولم يحدث ردّ فعلٍ بالمعنى الصحيح، ومرّت العاصفة ولم يحدث شيء رغم تبجّح السياسيين، ولم يكن أحد يتوقّع هذا، وربما كانت تظهر همسات وترتفع أحياناً لتصل إلى إعلانات وتصريحات بأننا موافقون على ما تمّ فقد قدّمت مصر الكثير من الضحايا ومن الأموال والتضحية في المصلحة ولم نصل إلى نتيجةٍ، كل ذلك في سبيل الفلسطينيين الذين يعيشون بحالةٍ أفضل مما يعيشه المصريون، فليُضحّوا من أجل بلدهم وأرضهم، ولا شكّ أن هذه كلمات مسمومة ومُوجّهة من أعداء، وممّن لا يخافون الله ويُردّدها جهلة غافلون. وعلى كلٍّ فلم تحدث اضطرابات، ولم تفتح معتقلات.

وفي ٢ جمادى الآخرة عام ١٣٩٨هـ (٩ أيار ١٩٧٨م) عهد الرئيس المصري إلى ممدوح سالم بإعادة تشكيل الوزارة[١].

---

(١) أعيد تشكيل الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ ممدوح محمد سالم: رئيساً لمجلس الوزراء.

٢ ـ محمد عبد الغني الجمسي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للحربية والإنتاج الحربي.

٣ ـ أحمد سلطان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج ووزير، الكهرباء والطاقة.

٤ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: وزيراً لشؤون مجلس الشعب.

٥ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للصناعة والبترول والتعدين.

٦ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتعليم، ووزير دولة للبحث العلمي.

٧ ـ محمد حامد محمود: وزير دولة للحكم المحلي والتنظيمات الشعبية والسياسية والشباب.

٨ ـ زكريا توفيق عبد الفتاح: وزيراً للبترول.

٩ ـ عبد العظيم عبد الله أبو العطا: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السودان.

١٠ ـ عيسى عبد الحميد شاهين: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء والمتابعة والرقابة.

١١ ـ حامد عبد اللطيف السايح: وزيراً للاقتصاد والتعاون الاقتصادي.

١٢ ـ إبراهيم جميل مصطفى بدران: وزيراً للصحة.

١٣ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية. =

ولم تكن الأوضاع في البلدان الأخرى بأفضل حالاً، إذا عدّوا ذلك قضيةً محلّيةً، أو أن ما أصاب الشعب العربي في مصر قد أصابه في الأمصار الأخرى، على حين اتّخذ الحكام في البلدان العربية إجراءات ضدّ الحكم المصري أكثر مما حدث من ردود فعلٍ من الشعب إذ كانوا يتوقّعون حركاتٍ صاخبةٍ، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على أن سياسة الضغط والقمع التي اتُّخذت مدةً ليست قصيرةً قد أثمرت وألزمت الشعب على الخنوع والسكوت عمّا يحدث بسبب الخوف، وبسبب تعميق وترسيخ الفكرة الإقليمية حيث أصبح الشعب يعدّ كل ما يحدث في مصرٍ آخر قضايا محلّية لا علاقة له بها، حتى قضية فلسطين أصبحت محليّة تخصّ أبناءها، وأُبعدت عنها الصفة الإسلامية، وهذا ما يخطط له الأعداء ويعملون له منذ مدةٍ طويلةً.

وفي ٣ ذي القعدة ١٣٩٨هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧٨م) قبل الرئيس المصري استقالة حكومة ممدوح سالم وعهد إلى مصطفى خليل بتشكيل

= ١٤ ـ محمد متولى عبد الحافظ الشعراوي: وزيراً للأوقاف، ووزير دولة لشؤون الأزهر.
١٥ ـ عبد المنعم محمود الصاوي: وزيراً للثقافة والإعلام.
١٦ ـ إبراهيم محمود شكري: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
١٧ ـ محب رمزي ستينو: وزيراً للصناعة والطيران المدني.
١٨ ـ آمال عثمان: وزيرة للشؤون والتأمينات الاجتماعية.
١٩ ـ عبد الرازق عبد المجيد: وزيراً للتخطيط.
٢٠ ـ محمد إبراهيم كامل: وزيراً للخارجية.
٢١ ـ محمد نبوي إسماعيل: وزيراً للداخلية.
٢٢ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير والمجتمعات الجديدة.
٢٣ ـ بطرس بطرس غالي: وزيراً دولة للشؤون الخارجية.
٢٤ ـ نعيم مصطفى أبو طالب: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
٢٥ ـ عبد الستار مجاهد عرفة: وزيراً دولة للإنتاج الحربي.
٢٦ ـ علي السلس: وزير دولة للتنمية الإدارية.
٢٧ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
٢٨ ـ أحمد طلعت توفيق: وزيراً للإسكان.
٢٩ ـ أحمد ممدوح عطية: وزيراً للعدل.
٣٠ ـ محمود محمد داود: وزيراً للزراعة.
٣١ ـ ناصف عبد المقصود إبراهيم طاحون: وزيراً للتموين.

الوزارة[1]. ولم تكن استقالة ممدوح سالم إحساساً منه بما قام به من دورٍ،

---

(١) تشكلت الحكومة على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى خليل: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ فكري مكرم عبيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء لشؤون مجلس الشعب.
٣ ـ كمال حسن علي: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٤ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للبترول.
٥ ـ حامد عبد اللطيف السايح: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية والتعاون الاقتصادي.
٦ ـ محمد نبوي إسماعيل: وزيراً للداخلية.
٧ ـ محمود أمين عبد الحافظ: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٨ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للشؤون والتأمينات الاجتماعية.
٩ ـ عبد الرازق عبد المجيد: وزيراً للتخطيط.
١٠ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير والمجتمعات الجديدة.
١١ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٢ ـ علي محمد السلمي: وزير دولة للمتابعة والرقابة.
١٣ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
١٤ ـ محمود محمد داود: وزيراً للزراعة.
١٥ ـ ناصف عبد المقصود طاحون: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٦ ـ حسن محمد إسماعيل: وزيراً للتعليم والبحث العلمي والثقافة.
١٧ ـ أحمد علي موسى: وزيراً للعدل.
١٨ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزير دولة للحكم المحلي.
١٩ ـ توفيق حامد كراره: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
٢٠ ـ محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السودان.
٢١ ـ عبد الآخر محمد عمر عبد الآخر: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
٢٢ ـ علي فهمي الداغستاني: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
٢٣ ـ مصطفى متولي الحفناوي: وزيراً للإسكان.
٢٤ ـ إبراهيم عبد الرحمن: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٢٥ ـ مصطفى كمال صبري: وزيراً للكهرباء.
٢٦ ـ علي جمال الناظر: وزير دولة للتعاون الاقتصادي.
٢٧ ـ محمد عبد الرحمن بيصار: وزيراً للأوقاف، ووزير دولة لشؤون الأزهر.
٢٨ ـ حسني محمد السيد علي: وزير دولة للإسكان.
٢٩ ـ كمال توفيق أحمد نصار: وزير دولة للإنتاج الحربي.
٣٠ ـ ممدوح كمال جبر: وزيراً للصحة.
٣١ ـ علي لطفي محمود لطفي: وزيراً للمالية.
٣٢ ـ محمد أحمد العقيلي: وزيراً للدولة.

ولا تأثراً بما يسمع من نقدٍ أو ما يُهمس نحوه من خيانةٍ قام بها سيده، وإنما كانت مهمته قد انتهت، وقد ذكرنا أن أنور السادات قد طلب منه أن يؤلّف حزب مصر، وقد قام بما أوكل إليه، ثم رأى الرئيس المصري أن يكون هو زعيم حزبٍ يحكم البلاد، فأنشأ الحزب الوطني الديمقراطي، وقد أُضيفت كلمة ديمقراطي لأنه لم يكن الدستور ليُبيح إعادة حزبٍ قديم، وكذا أضيفت كلمة «الجديد» إلى حزب الوفد. فلما تأسّس الحزب الوطني الديمقراطي انضمّ إليه رجالات وأعضاء حزب مصر، وبقي رئيسه ممدوح سالم دون أية قاعدةٍ فانسحب واستقال من الحكم، إذ فقد سبب وجوده، فالحزب الوطني هو امتداد لحزب مصر الذي قام مكان الاتحاد الاشتراكي وريث الاتحاد القومي بديل هيئة التحرير. وهكذا فهذا الحزب ونظيره لم يقم على مبدأ أو فكرة، وإنما لمصلحة وصول صاحب السلطة، فلما كان أنور السادات يدعم حزب مصر لقي تأييداً فلما أقام حزباً جديداً تبعته العناصر، وانضوت تحت جناحه.

وفي ٢٤ رجب ١٣٩٩هـ (١٩ حزيران ١٩٧٩م) أعاد مصطفى خليل تشكيل الوزارة[1]. وأخذ الاستبداد يظهر من جديد والتبذير في الأموال العامة

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ مصطفى خليل: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ فكري مكرم عبيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء لشؤون مجلس الشعب.
٣ ـ كمال حسن علي: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٤ ـ أحمد عز الدين هلال: وزيراً للبترول.
٥ ـ مصطفى كمال حلمي: وزيراً للتعليم والبحث العلمي.
٦ ـ حامد عبد اللطيف السايح: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية والتعاون الاقتصادي.
٧ ـ محمد نبوي إسماعيل: وزيراً للداخلية.
٨ ـ محمود أمين عبد الحافظ: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٩ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للشؤون والتأمينات الاجتماعية.
١٠ ـ عبد الرازق عبد المجيد: وزيراً للتخطيط.
١١ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير والمجتمعات الجديدة.
١٢ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٣ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب المهني.
١٤ ـ ناصف عبد المقصود طاحون: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٥ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزير دولة للحكم المحلي. =

يبدو على الرئيس إذ أصبح له في كل مدينةٍ مصريةٍ قصر يحمل اسم «استراحة»، ولا يقبل نصحاً، ولا رأياً من أحدٍ مما أخذ النقد يشتدّ، والمعارضة الداخلية السرّية تظهر.

وفي ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ (١٤ أيار ١٩٨٠م) شكّل الرئيس المصري أنور السادات وزارة برئاسته[1]. ويبدو أن دور أنور السادات قد انتهى

= ١٦ ـ توفيق حامد كرارة: وزيراً لاستصلاح الأراضي.
١٧ ـ محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السودان.
١٨ ـ عبد الآخر محمد عبد الآخر: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
١٩ ـ علي فهمي الداغستاني: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
٢٠ ـ مصطفى متولي الحفناوي: وزيراً للإسكان.
٢١ ـ إبراهيم عبد الرحمن عطا الله: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٢٢ ـ مصطفى كمال صبري: وزيراً للكهرباء.
٢٣ ـ علي جمال الناظر: وزير دولة للتعاون الاقتصادي والتمويل الخارجي.
٢٤ ـ كمال توفيق نصار: وزير دولة للإنتاج الحربي.
٢٥ ـ ممدوح كمال جبر: وزيراً للصحة.
٢٦ ـ علي لطفي محمود لطفي: وزيراً للمالية.
٢٧ ـ عبد المنعم أحمد النمر: وزيراً للأوقاف.
٢٨ ـ عبد الحميد حسن محمد: وزير دولة للشباب والرياضة.
٢٩ ـ أنور عبد الفتاح أبو سحلي: وزيراً للعدل.
٣٠ ـ منصور محمد محمود حسن: وزير دولة لرئاسة الجمهورية.

(١) يتولى رئيس الجمهورية محمد أنور السادات رئاسة مجلس الوزراء.
أ ـ يُعيّن محمد حسني مبارك نائباً لرئيس الجمهورية.
ب ـ يعين كل من:
١ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٢ ـ فكري مكرم عبيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء لشؤون مجلس الشعب.
٣ ـ أحمد عز الدين هلال: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للبترول.
٤ ـ محمد نبوي إسماعيل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للخدمات، ووزيراً للداخلية.
٥ ـ عبد الرزاق عبد المجيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية والمالية، ووزيراً للتخطيط والمالية والاقتصاد.
وينوب أحمد فؤاد محيي الدين عن رئيس الجمهورية في الإشراف على اجتماعات مجلس الوزراء في حالة غيابه، وهو يتولى تقديم برنامج الوزارة لمجلس الشعب.
ج ـ يعين كل من: =

ويجب أن يأتي غيره ليقوم بدورٍ جديدٍ، فما قام به لم يكن له ردّ فعل عند

= ١ ـ أحمد بدوي سيد: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٢ ـ مصطفى كمال حلمي: وزير دولة للتعليم والبحث العلمي.
٣ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات الاجتماعية، ووزيرة دولة للشؤون الاجتماعية.
٤ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير، ووزير دولة للإسكان واستصلاح الأراضي.
٥ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٦ ـ سعد محمد أحمد: وزير دولة للقوى العاملة والتدريب.
٧ ـ محمود محمد داود: وزير دولة للزراعة والأمن الغذائي.
٨ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
٩ ـ محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السوادن.
١٠ ـ عبد الآخر محمد عمر عبد الآخر: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب.
١١ ـ علي جمال الناظر: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
١٢ ـ ممدوح كمال جبر: وزير دولة للصحة.
١٣ ـ أنور عبد الفتاح أبو سحلي: وزيراً للعدل.
١٤ ـ منصور محمد محمود حسن: وزير دولة للثقافة والإعلام.
١٥ ـ محمد طه زكي: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
١٦ ـ محمد ماهر محمد عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء.
١٧ ـ أحمد أحمد نوح: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٨ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٩ ـ زكريا البري: وزير دولة للأوقاف.
ثم عين
١ ـ فؤاد كمال حسين: وزير دولة للمالية.
٢ ـ سليمان سليمان نور الدين: وزير دولة للاقتصاد.
٣ ـ عثمان أحمد عثمان: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للتنمية الشعبية. ولم يلبث أن استقال.
٤ ـ سعد محمد السيد الشربيني: وزير دولة للتنمية الشعبية.
٥ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي، وقائداً عاماً للقوات المسلحة.
٦ ـ أحمد سمير سامي: وزيراً للعدل بعد استقالة أنور عبد الفتاح أبو سحلي.
ثم عيّن البرت برسوم سلامة: وزير دولة.
ومحمد رشوان محمود: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب والشورى.
ومحمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة للثقافة.
ومختار حسن سالم هاني: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب والشورى.

الشعب العربي في مصر أو في غيرها، ومعنى هذا أنه أصبح الوضع عند الشعب قابلاً لإنهاء قضية فلسطين أو بالأحرى إسرائيل، غير أن أنور السادات لا يمكنه أن يقوم بأكثر مما قام به، وخاصةً أن الشعب قد ملّه، وكرهه، ولذا فقد وُجّه لاتباع سياسة الظلم ليكون ضحيتها.

لقد قام باعتقالاتٍ واسعةٍ في شهر ذي القعدة من عام ١٤٠١هـ، وقد شملت ما يزيد على ١٢٣٥ شخصاً، وتحتلّ العناصر الإسلامية الطليعة فيها، مما أثار النقمة، وأخذت النفوس تتوثّب، وكانت الخيانة التي قام بها في زيارته للقدس، واشتداده على العناصر الإسلامية، ومحاولة النيل منها في كل مناسبةٍ، واستهتاره بأمر الدين رغم محاولة إظهاره، وتبذيره لأموال المسلمين، وتصرّف زوجه جيهان كلها عوامل دعت إلى اغتياله.

وفي الاحتفال الذي أُقيم في ٨ ذي الحجة عام ١٤٠١هـ (٦ تشرين الأول ١٩٨١م) بمناسبة حرب رمضان ١٣٩٣هـ، وبينما كان على منصة الشرف يرتدي البزة العسكرية، وحوله أعوانه، وتمرّ أمامه أرتال الجند ومختلف أسلحة الجيش تقدّم منه الضابط خالد إسلامبولي، وأطلق عليه النار، وأرداه قتيلاً.

تولّى أنور السادات حكم مصر ما يزيد على أحد عشر عاماً، حكمت خلالها ست عشرة وزارةً، شكّل:

محمود فوزي منها	أربع وزارات	٤
وعزيز صدقي	وزارةً واحدةً	١
وأنور السادات نفسه	ثلاث وزاراتٍ	٣
وعبد العزيز حجازي	وزارةً واحدةً	١
وممدوح سالم	خمس وزاراتٍ	٥
ومصطفى خليل	وزارتين	٢
		١٦ وزارة

وكانت على الشكل التالي:

١ ـ محمود فوزي (الأولى): ١٩ شعبان ١٣٩٠ ـ ١٧ رمضان ١٣٩٠هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٧٠ ـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠م).

٢ ـ محمود فوزي (الثانية): ١٧ رمضان ١٣٩٠ ـ ١٩ ربيع الأول ١٣٩١هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ ـ ١٤ أيار ١٩٧١م).

٣ ـ محمود فوزي (الثالثة): ١٩ ربيع الأول ١٣٩١ ـ ٢٩ رجب ١٣٩١هـ (١٤ أيار ١٩٧١ ـ ١٩ أيلول ١٩٧١م).

٤ ـ محمود فوزي (الرابعة): ٢٩ رجب ١٣٩١ ـ ١ ذي الحجة ١٣٩١هـ (١٩ أيلول ١٩٧١ ـ ١٧ كانون الثاني ١٩٧٢م).

٥ ـ عزيز صدقي: ١ ذي الحجة ١٣٩١ ـ ٢٢ صفر ١٣٩٣هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٧٢ ـ ٢٧ آذار ١٩٧٣م).

٦ ـ أنور السادات (الأولى): ٢٢ صفر ١٣٩٣ ـ ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (٢٧ آذار ١٩٧٣ ـ ٢٥ نيسان ١٩٧٤م).

٧ ـ أنور السادات (الثانية): ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤ ـ ٩ رمضان ١٣٩٤هـ (٢٥ نيسان ١٩٧٤ ـ ٢٥ أيلول ١٩٧٤م).

٨ ـ عبد العزيز حجازي: ٩ رمضان ١٣٩٤ ـ ٤ ربيع الثاني ١٣٩٥هـ (٢٥ أيلول ١٩٧٤ ـ ١٦ نيسان ١٩٧٥م).

٩ ـ ممدوح سالم (الأولى): ٤ ربيع الثاني ١٣٩٥ ـ ١٨ ربيع الأول ١٣٩٦هـ (١٦ نيسان ١٩٧٥ ـ ١٩ آذار ١٩٧٦م).

١٠ ـ ممدوح سالم (الثانية): ١٨ ربيع الأول ١٣٩٦ ـ ١٧ ذي القعدة ١٣٩٦هـ (١٩ آذار ١٩٧٦ ـ ٩ تشرين الثاني ١٩٧٦م).

١١ ـ ممدوح سالم (الثالثة): ١٧ ذي القعدة ١٣٩٦ ـ ١٤ ذي القعدة ١٣٩٧هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٧٦ ـ ٢٦ تشرين الأول ١٩٧٧م).

١٢ ـ ممدوح سالم (الرابعة): ١٤ ذي القعدة ١٣٩٧ ـ ٢ جمادى الآخرة ١٣٩٨هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٧٧ ـ ٩ أيار ١٩٧٨م).

١٣ ـ ممدوح سالم (الخامسة): ٢ جمادى الآخرة ١٣٩٨ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٩٨هـ (٩ أيار ١٩٧٨ ـ ٥ تشرين الأول ١٩٧٨م).

١٤ ـ مصطفى خليل (الأولى): ٣ ذي القعدة ١٣٩٨ ـ ٢٤ رجب ١٣٩٩هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧٨ ـ ١٩ حزيران ١٩٧٩م).

١٥ ـ مصطفى خليل (الثانية): ٢٤ رجب ١٣٩٩ ـ ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ (١٩ حزيران ١٩٧٩ ـ ١٤ أيار ١٩٨٠م).

١٦ ـ أنور السادات (الثالثة): ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٠٠ ـ ٨ ذي الحجة ١٤٠١هـ (١٤ أيار ١٩٨٠ ـ ٦ تشرين الأول ١٩٨١م).

٤ ـ عهد محمّد حسني مبارك

انتهى دور مصر المرحلي بالخُطوة التي خطاها الرئيس أنور السادات بزيارة القدس، والاعتراف بإسرائيل، والصلح معها، والتبادل السياسي مع حكومتها، وأدّى هذا إلى مُقاطعة الدول العربية لمصر، وانتقال مقرّ جامعة الدول العربية إلى تونس، كما نُقلت المؤسسات التابعة إلى الجامعة إلى العواصم العربية الأخرى، وإذا كان أنور السادات قد أدّى هذا الدور فإن على خلفه محمد حسني المبارك أن يُنهي دور القطيعة العربية، وأن يُعيد لمصر مكانتها السابقة بين شقيقاتها، وأن يسير بها إلى ما سار سلفه أنور السادات دون أن تكون مُعارضة لها لسياسة مصر، ولا انتقاد منه لما تسير عليه بل ينطلق الجميع في مسيرةٍ واحدةٍ نحو ما سُمّي بالحلّ السلمي، وإحلال السلام في المنطقة حسب الاصطلاح الذي أُطلق يومذاك.

قُتل الرئيس محمد أنور السادات يوم ٨ ذي الحجة عام ١٤٠١هـ (٦ تشرين الأول ١٩٨١م) في الحفل الذي أقيم للاحتفال بذكرى حرب رمضان عام ١٣٩٣هـ، فتولّى رئاسة الجمهورية مُوقّتاً رئيس مجلس الأمة صوفي أبو طالب حسب الدستور المصري، فأصدر في اليوم التالي قراراً عُيّن فيه محمد حسني مبارك نائباً لرئيس الجمهورية، كما فُوّض في مُباشرة الاختصاصات المقررة في اللوائح والقوانين للقائد الأعلى للقوات المسلحة، وترأس اجتماعات مجلس الوزراء القائم.

وانقضت عطلة عيد الأضحى التي كانت ستبدأ في اليوم التالي، وتسلّم بعدها محمد حسني مبارك مُهمّة رئاسة الجمهورية، وفي ١٦ ذي الحجة

١٤٠١هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٨١م)، شكّل وزارةً جديدةً برئاسته[1].

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي:

١ - يتولى محمد حسني مبارك رئيس الجمهورية رئاسة مجلس الوزراء.

٢ - يعين أحمد فؤاد محيي الدين نائباً أول لرئيس مجلس الوزراء، وينوب عن رئيس الجمهورية في رئاسة اجتماعات مجلس الوزراء في حالة غيابه، ويتولى تقديم برنامج الوزارة لمجلس الشعب.

٣ - يُعيّن كل من:

فكري مكرم عبيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء لشؤون مجلسي الشعب والشورى.

كمال حسن علي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.

أحمد عز الدين هلال: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للبترول.

محمد نبوي إسماعيل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للخدمات، ووزيراً للداخلية.

عبد الرزاق عبد المجيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية والمالية، ووزيراً للتخطيط والمالية والاقتصاد.

٤ - يُعيّن كل من:

١ - محمد عبد الحليم أبو غزالة: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.

٢ - البرت برسوم سلامة: وزير دولة.

٣ - مصطفى كمال حلمي: وزير دولة للتعليم والبحث العلمي.

٤ - آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات الاجتماعية، ووزيرة دولة للشؤون الاجتماعية.

٥ - حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير، ووزير دولة للإسكان واستصلاح الأراضي.

٦ - بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.

٧ - سعد محمد أحمد: وزير دولة للقوى العاملة والتدريب.

٨ - محمود محمد داود: وزير دولة للزراعة والأمن الغذائي.

٩ - سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.

١٠ - محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السودان.

١١ - عبد الآخر محمد عمر عبد الآخر: وزير دولة لشؤون مجلس الشعب والشورى.

١٢ - علي جمال الناظر: وزيراً للسياحة والطيران المدني.

١٣ - ممدوح كمال جبر: وزير دولة للصحة.

١٤ - محمد طه زكي: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.

١٥ - محمد ماهر محمد عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.

١٦ - أحمد أحمد نوح: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.

١٧ - جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.

١٨ - زكريا البري: وزير دولة للأوقاف. =

وتمّ إعدام قاتل الرئيس السابق أنور السادات، وسارت البلاد بعدها بشكلٍ يظهر عليه الهدوء لتأدية الدور المنوط بها. ولم يكن من خلافاتٍ سياسيةٍ مع البلدان العربية إلا ما كان مع ليبيا ومع سوريا، وكلها صراعات إعلامية فقط لم تتعد ذلك، وأما بقية البلدان العربية فكانت السياسة الخارجية معها هادئةً تماماً.

اكتمل الانسحاب الإسرائيلي من شبه جزيرة سيناء عام ١٤٠٢هـ، ولم يبق من خلافٍ على الأرض بين مصر وإسرائيل سوى موقع (طابا) على خليج العقبة.

عادت مصر إلى نشاطها في المؤتمر الإسلامي، وأُلغي قرار الاعتقال الذي صدر في أواخر عهد الرئيس السابق أنور السادات.

وفي ٨ ربيع الأول ١٤٠٢هـ (٣ كانون الثاني ١٩٨٢م) كلّف الرئيس المصري محمد حسني المبارك الدكتور أحمد فؤاد محيي الدين بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ[١].

= ١٩ ـ فؤاد كمال حسين: وزير دولة للمالية.
٢٠ ـ سليمان سليمان نور الدين: وزير دولة للاقتصاد.
٢١ ـ سعد محمد السيد الشربيني: وزير دولة للتنمية الشعبية.
٢٢ ـ أحمد سمير سامي: وزيراً للعدل.
٢٣ ـ محمد رشوان محمود: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٤ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة للثقافة.
٢٥ ـ مختار حسن سالم هاني: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ فكري مكرم عبيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٣ ـ كمال حسن علي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٤ ـ أحمد عز الدين هلال: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للبترول.
٥ ـ محمد نبوي إسماعيل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للخدمات، ووزيراً للحكم المحلي.
٦ ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية والمالية، ووزيراً لشؤون الاستثمار والتعاون الدولي. =

=

٧ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: وزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٨ ـ البرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٩ ـ مصطفى كمال حلمي: وزير دولة للتعليم والبحث العلمي.
١٠ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
١١ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات الاجتماعية، ووزيرة دولة للشؤون الاجتماعية.
١٢ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير، ووزير دولة للإسكان واستصلاح الأراضي.
١٣ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٤ ـ سعد محمد أحمد: وزير دولة للقوى العاملة والتدريب.
١٥ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
١٦ ـ محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري، ووزير دولة لشؤون السودان.
١٧ ـ محمد ماهر محمد عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.
١٨ ـ أحمد أحمد نوح: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٩ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
٢٠ ـ سعد محمد السيد الشربيني: وزير دولة للتنمية الشعبية.
٢١ ـ أحمد سمير سامي: وزيراً للعدل.
٢٢ ـ محمد رشوان محمود: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٣ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة للثقافة.
٢٤ ـ مختار حسن سالم هاني: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٥ ـ جاد الحق علي جاد الحق: وزير دولة للأوقاف.
٢٦ ـ محمد صبري زكي: وزير دولة للصحة.
٢٧ ـ عادل محمود عبد الباقي: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزير دولة للتنمية الإدارية.
٢٨ ـ محمد صفوت محمد يوسف الشريف: وزير دولة للإعلام.
٢٩ ـ كمال أحمد الجنزوري: وزيراً للتخطيط.
٣٠ ـ فؤاد إبراهيم أبو زغلة: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٣١ ـ عادل إبراهيم طاهر: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٣٢ ـ حسن سليمان أبو باشا: وزيراً للداخلية.
٣٣ ـ فؤاد هاشم عوض: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٣٤ ـ يوسف أمين والي: وزير دولة للزراعة والأمن الغذائي.

ثم عُيِّن: جاد الحق علي جاد الحق شيخاً للأزهر، وعين إبراهيم الدسوقي عبد الحميد مرعي وزيراً للأوقاف.

وقفت مصر بجانب العراق في حربها مع إيران، ودعمتها بشكلٍ واضحٍ تقرّباً من السياسة العربية، وقد توّج هذا الموقف بقيام مجلس التعاون العربي بين كلٍ من مصر، والعراق، والأردن، واليمن وذلك عام ١٤٠٩هـ.

وسمح لأحزاب المعارضة باستئناف النشاط، إذ سمح لحزب الوفد بالعودة إلى مُمارسة نشاطه، وصدر قرار ببطلان حرمان رئيسه فؤاد سرجِ الدين من الحقوق السياسية بل صدر قرار آخر بأن حزب الوفد لم يُحل ولكنه جُمّد، ويحقّ له النشاط في الوقت الذي يراه مُناسباً، وأخذ الوضع يسير نحو الحياة الدستورية بصورةٍ باهتةٍ، ولكنها لم تكن سوى صفةٍ اسميةٍ للحياة الدستورية.

وفي ١٢ ذي القعدة ١٤٠٢هـ (٣١ آب ١٩٨٢م) تشكّلت حكومة جديدة برئاسة رئيس الوزراء السابق أحمد فؤاد محيي الدين[١].

---

(١) تشكلت الحكومة الجديدة على النحو الآتي:

١ ـ أحمد فؤاد محيي الدين: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ كمال حسن علي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٣ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٤ ـ أحمد عز الدين هلال: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للإنتاج، ووزيراً للبترول.
٥ ـ مصطفى كمال حلمي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء للخدمات، ووزيراً للتعليم والبحث العلمي.
٦ ـ البرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٧ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
٨ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات الاجتماعية، ووزيرة دولة للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير، ووزير دولة للإسكان واستصلاح الأراضي.
١٠ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١١ ـ سعد محمد أحمد: وزير دولة للقوى العاملة والتدريب.
١٢ ـ أحمد ممدوح عطية: وزيراً للعدل.
١٣ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
١٤ ـ محمد عبد الهادي سماحة: وزيراً للري.
١٥ ـ محمد ماهر محمد عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة. =

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة المصرية تسير بخطٍ متوازٍ مع السياسة العربية كي تعود إلى الجامعة العربية حتى تستطيع أن تُؤدّي الدور المُناط بها والمُكلّفة به لكنها من حيث السياسة الداخلية لم تعمل على إقامة مشروعاتٍ حيويةٍ تُفيد الاقتصاد الوطني وترفع من مستوى المواطن المصري، وهذا ما جعل الوضع الاقتصادي يتردّى باستمرار، ويشعر السكان بالبؤس والشقاء، ويحسّون بالحياة تطحنهم، فانزوى بعضهم بؤساً وانحنى بعضهم الآخر زُلفى يتقرّب من السلطة يبتغي لقمة العيش. وفي ٥ شعبان ١٤٠٤هـ (٥ أيار ١٩٨٤م) توفي رئيس الوزراء، وهو في مكتبه فتولى رئاسة الوزارة نائبه كمال حسن علي حتى ١٧ شوال ١٤٠٤هـ (١٦ تموز ١٩٨٤م) حيث

= ١٦ ـ أحمد أحمد نوح: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
١٧ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٨ ـ محمد رشوان محمود: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
١٩ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة للثقافة.
٢٠ ـ مختار حسن سالم هاني: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢١ ـ محمد صبري زكي: وزير دولة للصحة.
٢٢ ـ عادل محمود عبد الباقي: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزير دولة للتنمية الإدارية.
٢٣ ـ محمد صفوت محمد يوسف الشريف: وزير دولة للإعلام.
٢٤ ـ كمال أحمد الجنزوري: وزيراً للتخطيط.
٢٥ ـ فؤاد إبراهيم أبو زغلة: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
٢٦ ـ حسن سليمان أبو باشا: وزيراً للداخلية.
٢٧ ـ يوسف أمين والي: وزير دولة للزراعة والأمن الغذائي.
٢٨ ـ إبراهيم الدسوقي عبد الحميد مرعي: وزير دولة للأوقاف.
٢٩ ـ يوسف صبري أبو طالب: وزير دولة للأوقاف.
٣٠ ـ وجيه محمد شدى: وزيراً لشؤون الاستثمار والتعاون الدولي.
٣١ ـ مصطفى كامل السعيد إبراهيم: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٣٢ ـ توفيق عبده إسماعيل: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
ثم عُيّن في ٢٨ جمادى الأولى ١٤٠٣هـ.
١ ـ محمد سعد الدين مأمون: وزير دولة للحكم المحلي.
٢ ـ محمد ناجي محمود شتلة: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٣ ـ محمد السيد الغروري: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.

كلّفه الرئيس المصري محمد حسني مبارك رسمياً بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1].

---

(١) تشكلت الحكومة الجديدة على النحو الآتي:

١ ـ كمال علي حسن: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ مصطفى كمال حلمي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
٣ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٤ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: وزيراً للخارجية.
٥ ـ آلبرت برسوم سلامة: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٦ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
٧ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات الاجتماعية، والشؤون الاجتماعية.
٨ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير والمجتمعات الجديدة، واستصلاح الأراضي.
٩ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٠ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب.
١١ ـ أحمد ممدوح عطية: وزيراً للعدل.
١٢ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
١٣ ـ محمد ماهر عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.
١٤ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٥ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزيراً للثقافة.
١٦ ـ محمد صفوت محمد يوسف الشريف: وزيراً للإعلام.
١٧ ـ محمد صبري زكي: وزيراً للصحة.
١٨ ـ كمال أحمد الجنزوري: وزيراً للتخطيط والتعاون الدولي.
١٩ ـ حسن سليمان أبو باشا: وزيراً للحكم المحلي.
٢٠ ـ يوسف أمين والي: وزيراً للزراعة والأمن الغذائي.
٢١ ـ وجيه محمد شندي: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٢٢ ـ مصطفى كامل السعيد إبراهيم: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢٣ ـ توفيق عبده إسماعيل: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٤ ـ محمد ناجي محمود شتلة: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢٥ ـ أحمد رشدي: وزيراً للداخلية.
٢٦ ـ عصام راضي عبد الحميد راضي: وزيراً للري.
٢٧ ـ محمد محمود فرج عبد الوهاب: وزيراً للصناعة.
٢٨ ـ عبد الهادي محمد قنديل: وزيراً للبترول والثروة المعدنية.
٢٩ ـ عاطف محمد محمد عبيد: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزيراً للتنمية الإدارية. =

ومع الحرية المزعومة والحياة الدستورية المدّعاة إلاّ أن الحزب الحاكم «الحزب الوطني الديمقراطي» كان يتصرّف بأمور البلاد والعباد، بل إن قانون الانتخابات المبني على أساس القائمة الواحدة والذي يجعل من أصوات الأحزاب الضعيفة التي لم تحصل على نسبةٍ معينة من الأصوات تكون من نصيب أكبر الأحزاب، وهي طريقة وحيدة في الدنيا، وتجعل الحزب الحاكم يستمر في حصوله على الأغلبية وتبقى السلطة بيده على الدوام، كما تضعف الأحزاب الأخرى بجانبه، ولذا يقبض على الحكم بكلتا يديه ويستبدّ، وتضعف المعارضة ويكون أثرها محدوداً.

وفي ٢٠ ذي الحجة ١٤٠٥هـ (٥ أيلول ١٩٨٥م) عهد الرئيس المصري محمد حسني مبارك إلى علي لطفي محمود لطفي بتشكيل الوزارة فألّف الحكومة من اثنين وثلاثين وزيراً[1].

= ٣٠ ـ عبد السلام عبد القادر عبد الغفار: وزيراً للتربية والتعليم.
٣١ ـ محسن عبد الفتاح صدقي: وزيراً للإسكان والمرافق.
٣٢ ـ محمد الأحمدي أبو النور: وزيراً للأوقاف.

(١) تشكلت الحكومة على النحو الآتي:
١ ـ علي لطفي محمود لطفي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٣ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٤ ـ كمال أحمد الجنزوري: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتخطيط والتعاون الدولي.
٥ ـ يوسف أمين والي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للزراعة والأمن الغذائي.
٦ ـ محمود صلاح الدين حامد: وزيراً للمالية.
٧ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات والشؤون الاجتماعية.
٨ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للتعمير والمجتمعات الجديدة واستصلاح الأراضي.
٩ ـ بطرس بطرس غالي: وزيراً للدولة للشؤون الخارجية.
١٠ ـ سعد محمد أحمد: وزيراً للقوى العاملة والتدريب.
١١ ـ أحمد ممدوح عطية: وزيراً للعدل.
١٢ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري. =

ومع ضعف المعارضة وعدم إقامة مشروعاتٍ حيويةٍ في البلاد فقد ضاق بعض الناس ذرعاً بالحكم، وظهرت بعض الأحداث التي أطلقت عليها السلطة أعمال الشغب والفوضى، وكان للتجمّعات الإسلامية النصيب الأوفى منها لأنها كانت مستهدفةً باستمرار، وكان كل ما لا يروق الدولة يُعرف بالتّطرّف أو هكذا تُسمّيه وكل ما يُسايرها هو المرونة والتعقّل حتى أصبح العمل الإسلامي إذا ما أوضح حقيقة الإسلام كان تطرّفاً إذ الدولة لا تسير على النهج الإسلامي، وكل من نافق وتزلّف وانتقد العمل الإسلامي كان هو العارف لدين الله الملتزم بشرعه، وأصبح كل من ينتقد يتّهم بالتطرّف، وظهرت كتابات كثيرة عن التطرّف، ومن كان اليوم متطرّفاً يُصبح غداً غير مُتطرّفٍ، فيما لو ظهر على

= ١٣ ـ محمد ماهر عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.
١٤ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٦ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
١٧ ـ محمد صفوت الشريف: وزيراً للإعلام.
١٨ ـ حسن سليمان أبو باشا: وزيراً للحكم المحلي.
١٩ ـ محمد ناجي محمود شتلة: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢٠ ـ أحمد رشدي: وزيراً للداخلية.
٢١ ـ عصام راضي عبد الحميد راضي: وزيراً للري.
٢٢ ـ محمد محمود عبد الوهاب: وزيراً للصناعة.
٢٣ ـ عبد الهادي محمد قنديل: وزيراً للبترول والثروة المعدنية.
٢٤ ـ عاطف محمد محمد عبيد: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزير دولة للتنمية الإدارية.
٢٥ ـ محمد الأحمدي أبو النور: وزيراً للأوقاف.
٢٦ ـ محمد سلطان أبو علي: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢٧ ـ السيد علي السيد: وزير الدولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٨ ـ منصور إبراهيم حسين: وزيراً للتربية والتعليم.
٢٩ ـ عبد الرحمن لبيب: وزيراً للإسكان والمرافق.
٣٠ ـ أحمد عبد المقصود هيكل: وزيراً للثقافة.
٣١ ـ وليم نجيب سيفين: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٣٢ ـ محمد فتحي محمد علي: وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
٣٣ ـ فؤاد عبد اللطيف سلطان: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٣٤ ـ حلمي عبد الرزاق الحديدي: وزيراً للصحة.

الساحة من يُنادي بالاستقامة، فكل مستقيمٍ مُتطرّف في نظرهم، والواقع أن الضغط هو الذي يُوجد التطرّف.

وفي ٩ ربيع الأول ١٤٠٧هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٨٦م) عهد الرئيس المصري محمد حسني مبارك إلى عاطف محمد نجيب صدقي بتشكيل الحكومة(١).

---

(١) تشكلت الحكومة على النحو الآتي:

١ ـ عاطف محمد نجيب صدقي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٣ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٤ ـ كمال أحمد الجنزوري: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتخطيط والتعاون الدولي.
٥ ـ يوسف أمين والي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للزراعة واستصلاح الأراضي.
٦ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات والشؤون الاجتماعية.
٧ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للإسكان والمرافق والتعمير والمجتمعات العمرانية.
٨ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٩ ـ أحمد ممدوح عطية: وزيراً للعدل.
١٠ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري.
١١ ـ محمد ماهر عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.
١٢ ـ جمال السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٣ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
١٤ ـ محمد صفوت الشريف: وزيراً للإعلام.
١٥ ـ عصام راضي عبد الحميد راضي: وزيراً للري.
١٦ ـ محمد محمود عبد الوهاب: وزيراً للصناعة.
١٧ ـ عبد الهادي محمد قنديل: وزيراً للبترول والثروة المعدنية.
١٨ ـ عاطف محمد محمد عبيد: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزيراً للتنمية الإدارية.
١٩ ـ السيد علي السيد: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٠ ـ أحمد عبد المقصود هيكل: وزيراً للثقافة.
٢١ ـ فؤاد عبد المعطي سلطان: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
٢٢ ـ زكي مصطفى بدر: وزيراً للداخلية.
٢٣ ـ محمد جلال الدين أبو الذهب: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية. =

وقامت الدولة تضغط على الحركة الإسلامية، وتُحاول أن تُوقع بين الجماعات منها بعضها ضد بعضٍ، وتأخذ آراء بعض العناصر البارزة عن التطرّف فيتحدّثون عن التعصّب والشدّة في طلب الحقّ، ويُقصد منه العمل الإسلامي، وقد لجأ العمل الإسلامي إلى إنشاء مؤسساتٍ إسلاميةٍ لسدّ ما قصّرت به الدولة في إيجاد عملٍ لبعضهم واستثمار أموال من يملك منها فضغطت عليها الدولة، وعملت على اتهامها، وإماتتها، والقضاء عليها بصورٍ شتّى.

وعهد الرئيس المصري محمد حسني مبارك في ٢٠ صفر ١٤٠٨هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٨٧م) إلى عاطف محمد نجيب صدقي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١].

= ٢٤ ـ عادل عبد الحميد عز: وزير دولة لشؤون البحث العلمي.
٢٥ ـ محمد راغب دويدار: وزيراً للصحة.
٢٦ ـ يسري علي مصطفى: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢٧ ـ أحمد سلامة محمد: وزيراً للحكم المحلي.
٢٨ ـ أحمد فتحي سرور: وزيراً للتعليم.
٢٩ ـ محمد أحمد الرزاز: وزيراً للمالية.
٣٠ ـ محمد علي محجوب: وزيراً للأوقاف.
٣١ ـ عدلي عبد الشهيد بشاي: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٣٢ ـ عاصم عبد الحق صالح: وزيراً للقوى العاملة والتدريب.

(١) تشكلت الحكومة الجديدة على النحو الآتي:
١ ـ عاطف محمد نجيب صدقي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ محمد عبد الحليم أبو غزالة: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدفاع والإنتاج الحربي.
٣ ـ أحمد عصمت عبد المجيد: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٤ ـ كمال أحمد الجنزوري: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتخطيط.
٥ ـ يوسف أمين والي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للزراعة واستصلاح الأراضي.
٦ ـ آمال عبد الرحيم عثمان: وزيرة للتأمينات والشؤون الاجتماعية.
٧ ـ حسب الله محمد الكفراوي: وزيراً للإسكان والمرافق والتعمير والمجتمعات العمرانية الجديدة.
٨ ـ بطرس بطرس غالي: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٩ ـ سليمان متولي سليمان: وزيراً للنقل والمواصلات والنقل البحري. =

وبدا الحكم ضعيفاً، وأخذ يترنّح رغم استبداد الحزب الواحد، وأخذ وزير الداخلية اللواء زكي مصطفى بدر يُشدِّد قبضته، ويخرج عن دائرة الحرية السياسية والعمل الرسمي، ويتحدّث بكلامٍ غير مألوف لا يليق، ويبدو أن دور الحرية المزعومة قد انتهى، وأخذت تسير الموجة نحو حكمٍ استبدادي جديدٍ لتأدية دورٍ مطلوبٍ بعد أن خنع الشعب، ويبدو أنه قد دنا من الاستسلام حتى الشركات اليهودية التي كانت المقاطعة العربية قد وضعتها ضمن قائمة المحظور التعامل معها قد نزلت إلى السوق لتأخذ مكانها، وكان آخرها شركة «فورد» للسيارات، وشركة «كولا» للمرطبات.

= ١٠ ـ محمد ماهر عثمان أباظة: وزيراً للكهرباء والطاقة.
١١ ـ جمال الدين السيد إبراهيم: وزير دولة للإنتاج الحربي.
١٢ ـ محمد عبد الحميد رضوان: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
١٣ ـ محمد صفوت الشريف: وزيراً للإعلام.
١٤ ـ عصام راضي عبد الحميد راضي: وزيراً للأشغال العامة والموارد المائية.
١٥ ـ محمد محمود عبد الوهاب: وزيراً للصناعة.
١٦ ـ عبد الهادي محمد قنديل: وزيراً للبترول والثروة المعدنية.
١٧ ـ عاطف محمد محمد عبيد: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء، ووزيراً للتنمية الإدارية.
١٨ ـ فؤاد عبد اللطيف سلطان: وزيراً للسياحة والطيران المدني.
١٩ ـ زكي مصطفى بدر: وزيراً للداخلية.
٢٠ ـ محمد جلال الدين أبو الذهب: وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.
٢١ ـ عادل عبدالحميد عز: وزير دولة لشؤون البحث العلمي.
٢٢ ـ محمد راغب دويدار: وزيراً للصحة.
٢٣ ـ يسري علي مصطفى: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢٤ ـ أحمد سلامة محمد: وزير دولة لشؤون مجلسي الشعب والشورى.
٢٥ ـ أحمد فتحي سرور: وزيراً للتعليم.
٢٦ ـ محمد أحمد الرزاز: وزيراً للمالية.
٢٧ ـ محمد علي محجوب: وزيراً للأوقاف.
٢٨ ـ عاصم عبد الحق صالح: وزيراً للقوى العاملة والتدريب.
٢٩ ـ فاروق محمود سيف النصر: وزيراً للعدل.
٣٠ ـ موريس مكرم الله واصف: وزير دولة لشؤون التعاون الدولي.
٣١ ـ فؤاد إسكندر إسكندر: وزير دولة لشؤون الهجرة والمصريين في الخارج.
٣٢ ـ فاروق عبد العزيز حسني: وزيراً للثقافة.

وفي ٧ شعبان ١٤٠٩هـ (١٤ آذار ١٩٨٩م) تمّ الاتفاق بين الجانب المصري والجانب الإسرائيلي بشأن بلدة «طابا» وما جاورها حيث عادت إلى مصر، ودفعت حكومة مصر ما يزيد على خمسة وأربعين مليون جنيه استرليني ثمن الفندق القائم هناك والمنشآت السياحية.

ولما كانت الحكومة تريد إضعاف الجماعات الإسلامية وهذا أمر أصبح طبيعياً كلما أرادت دولة أن تقوم بعمل أو تدخل معركةً لا بدّ لها من القبض على رؤوس العمل الإسلامي، وقبل أن يقع مثل هذا فقد طلبت الدولة من عددٍ ممن يُشار إليهم أن يتحدثوا عن التطرف، وأن الحكومة لا تعمد مخالفة الشرع، وقد أصدر هؤلاء المشايخ بياناً ذكروا فيه أن الحكومة لا تردّ حكماً لله، ولا تقوم بعمل يُخالف الشرع، وإنما تحرص الحرص كله على العمل بمنهج الله، وتعمل تدريجياً حتى تجد الوقت المناسب لتطبيق الشريعة فعلى الشباب ألا يتسرعوا في الحكم عليها، ولا يتصرفوا بما يخالفها ويثير عليها[1].

❀ ❀ ❀

---

(١) انظر مجلة الاعتصام العدد العاشر تاريخ ١٥ جمادى الآخرة عام ١٤٠٩هـ (كانون الثاني ١٩٨٩م).

الفصل الثالث
الصراعات الداخلية

يُقدّر عدد سكان مصر بما يقرُب من ستةٍ وأربعين مليوناً عام ١٤٠٨هـ، وتُقدّر الزيادة السنوية باثنين بالمائة، وتزيد هذه النسبة في الريف على ما هي عليه في المدن نتيجة العمل الزراعي.

يعيش معظم السكان في الوادي والدلتا أي في مساحةٍ لا تزيد على ثلاثةٍ وثلاثين ألفاً من الكيلومترات المربعة، وهو ما يُعادل ١/ ٣٠ من مساحة مصر البالغة مليون كيلومتر مربع تقريباً. أي أن ٩٨٪ من السكان يعيشون في هذه المنطقة، وتكون الكثافة ١١٠٠ في الصعيد، و٩٠٠ في الدلتا. أما الصحراء الغربية فيعيش فيها ٢٥٠,٠٠٠ في منطقة تبلغ مساحتها ٤٥,٠٠٠كم². وفي الصحراء الشرقية يعيش ٨٢,٠٠٠ في منطقة تبلغ مساحتها ٣٠,٠٠٠كم². وفي شبه جزيرة سيناء يعيش ٢١٠,٠٠٠ في منطقة تبلغ مساحتها ٢٢,٠٠٠كم². وفي الساحل الشمالي الغربي يعيش ٢٥٠,٠٠٠ في منطقة تبلغ مساحتها ١٨,٠٠٠كم².

ويتجمّع ربع سكان مصر في المدينتين الكبريين القاهرة والإسكندرية إذ يعيش فيهما ما يزيد على أحد عشر مليوناً لذا فإن الحياة السياسية تكاد تتركّز فيهما.

يدين ٩٢,٥٪ من السكان بالإسلام، وجميعهم من أهل السنة والجماعة، وقد وُجد في الآونة الأخيرة أفراد من الفرقة البهائية الضالة. وهناك ٦,٥٪ من النصارى وجلّهم من الأقباط. وقد وفدهم أفواج من نصارى بلاد الشام قبيل الحرب العالمية الأولى، وأكثر هؤلاء النصارى يعيشون في المدن، وتكون نسبتهم في القاهرة ١٠,١٣٪، وفي الاسكندرية ٦,٧٤٪، وتقلّ نسبتهم في مدن القناة فهي ٢,٧٨٪ في الإسماعيلية، و٤,٢٤٪ في بورسعيد، و٤,٢٧٪ في

السويس. وأقلّ نسبةٍ لهم في الدلتا في دمياط إذ لا تزيد على ٠,٢٥٪، وترتفع نسبتهم في مصر الوسطى أو في شمال الصعيد فهي: ١٤,٦٪ في سوهاج، و١٩,٣٨٪ في المنيا، و١٩,٩٩٪ في أسيوط، وفي الفيوم ٣,٧٧٪، وفي الجيزة ٣,٨٣٪.

وتعيش في مصر جاليات أوروبية نصرانية منها: اليونانية والإيطالية وغيرهما، ويُقيم أكثرها في القاهرة والإسكندرية.

أما اليهود فلا تزيد نسبتهم على ٠,٥٪ وبذا فلا يصل عددهم إلى ٢٥٠ ألفاً، وقد غادر أكثرهم مصر إلى فلسطين عندما استطاع اليهود السيطرة على القسم الأكبر منها، وأقاموا لأنفسهم فيها دولةً، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم من اليهود في البلدان العربية الأخرى التي كانوا يسكنون فيها بأمنٍ وأمانٍ. ويُقيم معظم من بقي من اليهود في القاهرة والإسكندرية.

ويتكلّم السكان جميعاً اللغة العربية، غير أن اللهجة المصرية قد دخلها كثير من الكلمات الأجنبية وخاصةً التركية، والإنكليزية، والفرنسية نتيجة حبّ التقليد عند المصريين وبسبب سيادة التركية من قبل، ثم شيوع الإنكليزية والفرنسية، ومن اللهجة المصرية انتقلت هذه الكلمات إلى عددٍ من البلدان العربية نتيجة أسبقية مصر في التعليم، ووجود عددٍ من أبنائها يعملون في هذه المهنة في بلدانٍ عربيةٍ ثانيةٍ، إضافةً إلى أسبقية مصر لشقيقاتها في مهنة التمثيل.

ويعمل أغلب سكان مصر في الزراعة، وهم أهل الريف، أما أهل المدن فيعملون في الصناعة والتجارة، وبعضهم من المُلاّك، ومع الأسف فإن بعضهم متفرّغ لما يُسمّونه الفنّ، وللسرقة، وأحياناً للسؤال بطريقةٍ من الطرق. وجلّهم يعيش حياة استقرارٍ ولا تُمثّل البداوة سوى ٠,٧٪ من السكان، وأكثر القبائل تحيا حياة شبه استقرارٍ في الصحراء الغربية، والشرقية،، وشبه جزيرة سيناء والساحل الشمالي الغربي.

يمكن أن نُميّز في هذا العصر الصراعات الداخلية في مصر حسب ثلاث مراحل:

١ ـ **المرحلة الأولى**: وتمتدّ من ٢ رجب ١٣٤٠ ـ ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ

(٢٨ شباط ١٩٢٢ ـ ٢٣ تموز ١٩٥٢م). وتتميّز بالصراعات الحزبية، والأحزاب يزداد عددها في مصر مع مرور الأيام. وعدد منها قد انشقّ عن حزب الوفد، ويلتقي معظمها على مُحاربة حزب الوفد، ويُخطّط لذلك القصر والإنكليز كي يبقى التوازن قائماً ـ حسب اصطلاحهم ـ فلا يطغى الوفد، ويتحكّم بالبلاد وتكون له القوة وربما خرج عن رأي المحتلّين، أما القصر فيختلف عن المحتلّ في نظرته هذه، لأن الوفد على خلافٍ دائم مع القصر، فكل منهما يريد أن لا يكون له مُنازع في حرية اليد، ولا معادي في بسط النفوذ.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: وتمتدّ من ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ ـ ١٥ شعبان ١٣٩٠هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢ ـ ١٥ تشرين الأول ١٩٧٠م). وتتميّز بالصراع بين السلطة والإخوان المسلمين، واتخاذ كل الإجراءات لإضعاف شأن الإخوان، واستعداء الناس عليهم وتسخير وسائل الإعلام للنيل منهم، وفي الوقت نفسه التمجيد بشخصية الحاكم وإرواء غروره بالسلطة.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: وتمتد من ١٥ شعبان ١٣٩٠هـ... إلى اليوم (١٥ تشرين الأول ١٩٧٠م ـ......) وتتميّز بعودة الحياة الحزبية وصراعها فيما بينها، وتنقّل الإخوان بين الأحزاب، وتعدّد الجماعات الإسلامية.

❋ ❋ ❋

المَرحَلَة الأولىٰ

بدأ النشاط الحزبي بعد الحرب العالمية الأولى، ولم يبق من الأحزاب التي نشأت قبل الحرب سوى الحزب الوطني، أما بقية الأحزاب أو التجمّعات فقد وُجدت من جديدٍ، وكان أهمها حزب الوفد الذي يرجع عدد من رجاله إلى حزب الأمة الذي كان قائماً قبل الحرب، والذي يرى المرونة مع الاحتلال. وعندما برز واكتسب شعبيةً للظروف التي نشأ فيها أو نتيجة العوامل الخارجية لظهوره على الساحة أسرع إليه أصحاب المصالح والذين يرغبون في الشهرة فانضووا تحت لوائه. لقد بدأ سعد زغلول بالالتقاء بالزعماء، وضمّهم إليه، وتجميعهم حوله، وقد كان من غير شك صاحب إمكاناتٍ ومواهب، ولو لم يكن كذلك لم يقع الاختيار عليه ليقوم بمهمة التمكين لإنكلترا في مصر، ولم يستطع أن يقوم بما قام به، ولم يُؤد الدور الذي أدّاه ورُسم له.

حزب الوفد:

تأسّس حزب الوفد في ٨ صفر ١٣٣٧هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩١٨م)، وقد التقى سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي، وعلي الشعراوي، ومحمد محمود سليمان، وحمد الباسل مع المعتمد البريطاني «ريجينالد وينغث»، فنفوا إلى جزيرة مالطة، ومنها سافروا إلى باريس، ولما رجعوا تشكّلت هيئة الوفد المصري من سبعة أعضاء، خمسة منهم من حزب الأمة والمتعاطفين معه، واثنان من الحزب الوطني.

توالى على رئاسة حزب الوفد اثنان من الزعماء فقط وهما: سعد زغلول، واستمرّت حتى وفاته عام ١٣٤٦هـ، وخلفه مصطفى النحاس الذي بقي في رئاسة الحزب حتى أُلغيت الأحزاب بعد الحركة الانقلابية ٢ ذي القعدة عام ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م).

وشكّل حزب الوفد سبع وزاراتٍ حزبيةٍ، كما شارك في ثلاث وزاراتٍ ثانيةٍ، ولم يقبل الإنكليز إبرام أية معاهدةٍ إلاّ مع حزب الوفد، لأن الأحزاب الأخرى لم تكن واثقةً بنفسها من الناحية الشعبية، كما لم يثق الإنكليز بقدرتها، على حين يتوفّر هذا لحزب الوفد، ومن ناحيةٍ أخرى فإن إنكلترا ترغب في إبراز هذا الحزب في الوقت الذي تُعلن أنها غير راضيةٍ عنه، كما تُجبره أحياناً لترك الحكم تأكيداً لعدم رغبتها في سياسته، غير أنها في الظروف الحرجة التي تُريد أن تضمن تأييدها والسير بجانبها تُجبره على تسلّم السلطة.

الأحرار الدستوريون:

وبعد فشل مفاوضات «عدلي ـ كيرزون» وتصريح ٢ رجب ١٣٤٠هـ (٢٨ شباط ١٩٢٢م)، وانتقاد سعد الحاد لعدلي يكن تأسّس حزب «الأحرار الدستوريون» في ٩ ربيع الأول من عام ١٣٤١هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٢م) برئاسة عدلي يكن. وقد توالى على رئاسة هذا الحزب أربعة زعماء وهم: عدلي يكن، وعبد العزيز فهمي، ومحمد محمود، ومحمد حسين هيكل، وكان أكثر أعضائه من الذين كانوا من حزب الأمة أو ممن كانت لهم علاقة بهذا الحزب، ومنهم: مدحت يكن، وحافظ عفيفي، وأحمد عبد الغفار، ودسوقي أباظة. وكان الصراع بين الوفديين والأحرار الدستوريين واضحاً.

حزب الاتحاد:

وظهر حزب الاتحاد في الثالث من جمادى الآخرة من عام ١٣٤٢هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٢٤م)، وقد عمل على تأسيسه وكيل الديوان الملكي حسن نشأت، وكان رئيسه الفعلي، ولكن رسمياً يرأسه يحيى إبراهيم رئيس الوزارة السابق، وكانت مهمته الإيقاع بين الوفديين، والسير على سياسة الديوان الملكي، وظهرت جريدة «الاتحاد» التي تنطق باسم هذا الحزب، ورأس تحريرها النائب الوفدي الذي انضمّ إلى حزب الاتحاد عبد الحليم البيلي، وظهرت كذلك في الإسكندرية جريدة «الشعب المصري» إضافةً إلى جريدة «الليبرتية» التي تصدر باللغة الفرنسية. وجعل هذا الحزب شعاره «الولاء للعرش» وعلّل حسن نشأت تأسيس هذا الحزب الجديد بقوله: إن في البلد

حزبين لا ثالث لهما، والحزب الجديد يُراد به أن يكون حزب موازنةٍ في المجلس النيابي، يستطيع القصر به أن يُغلّب أحد الحزبين على الآخر. وقد انضمّ إليه محمد سعيد رئيس الوزراء الأسبق بعد أن انشقّ عن الوفد، واللواء المتقاعد موسى فؤاد. وأطلق على هذا الحزب «حزب الملك».

أُقيم حفل تأسيس الحزب في فندق سميراميس يوم ٣ جمادى الآخرة عام ١٣٤٢هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٢٤م) وحضر الحفل ثلاثمائة شخص. وتمّ اختيار لجنةٍ تضمّ ثمانيةً وعشرين شخصاً بينهم ستة أعضاءٍ في مجلس الشيوخ. ولم يتمّ بعد اختيار رئيس للحزب.

وفشلت محاولات إقناع توفيق نسيم، وأحمد ذو الفقار، وأحمد زيور في تسلّم رئاسة حزب الاتحاد، كما اعتذر للملك عزيز عزت في قبول هذا المنصب. ويبدو أنه قد انضمّ إلى هذا الحزب خمسة وعشرون عضواً في مجلس الشيوخ من بين خمسةٍ وأربعين يُعلنون معارضتهم لسعد زغلول. وأصبح مكتب حسن نشأت في قصر عابدين ملتقى لأولئك الذين يرغبون التزلّف للملك، أو إنه مقرّ للحزب غير رسمي، وضمّ الحزب كثيراً من مُلّاك الأراضي الأغنياء، وأخيراً رست رئاسة الحزب على يحيى إبراهيم.

وكان لنجاح حزب الاتحاد، ولانفضاض بعض الزعماء عن الوفد أثر كبير في نفسية سعد، وهذا ما جعله يترك قصره في القاهرة، ويذهب إلى فندق «مينا هاوس» بجوار الهرم ليعتكف هناك.

ولكن لم يلبث هذا الحزب أن ضعف إذ لم يحصل إلاّ على أربعة مقاعد في انتخابات (١٩٢٦م)، وعلى ثلاثة مقاعد في انتخابات (١٩٢٩م)، وقد شارك بعد هذا بعضوين في وزارة محمد محمود، وبوزيرٍ واحدٍ في كلٍ من وزارتي حسن صبري، وحسين سري، وبوزيرٍ في وزارة محمد محمود الرابعة.

صدر أمر بحلّ المجلس النيابي في ٢٨ جمادى الأولى من عام ١٣٤٣هـ (٢٤ كانون الأول١٩٢٤م)، والدعوة إلى انتخاباتٍ جديدةٍ، وأشرفت وزارة أحمد زيور على إجراء الانتخابات العامة.

عدّل رئيس الوزراء أحمد زيور قانون الانتخابات وجعلها على درجتين

بعد أن كانت مباشرةً على درجةٍ واحدةٍ، وجرت الانتخابات، وحصل الأحرار الدستوريون وحزب الاتحاد على خمسةٍ وثمانين مقعداً أي أقل من ثلث مقاعد المجلس بينما حصل حزب الوفد على مائة وثلاثة وعشرين مقعداً. وقد سقط عدلي يكن في الانتخابات عن دائرة عابدين، وفاز خصمه طبّاخه الخاص الذي رشّحه سعد زغلول ضدّ سيّده، فغضب عدلي يكن من هذه النتيجة المخزية، واستقال من رئاسة الحزب، ونجح عبد العزيز فهمي في استلام منصب رئاسة حزب الأحرار الدستوريين.

اجتمع المجلس النيابي في ٢٨ شعبان ١٣٤٣هـ (٢٣ آذار ١٩٢٥م)، وتلا أحمد زيور خطاب العرش، وهو البيان الوزاري، وجرى اقتراع على رئاسة المجلس ففاز سعد زغلول بأغلبية ١٢٣ صوتاً ضدّ عبد الخالق ثروت الذي رشّحته الأحزاب الأخرى، والذي حصل على ٨٥ صوتاً، وحُدّد موعد حلّ المجلس النيابي في أول ذي القعدة من عام ١٣٤٣هـ (٢٣ أيار ١٩٢٥م) على أن تجري عملية الانتخابات بعد يومين أي في الثالث من ذي القعدة غير أنها لم تجر إلاّ بعد عامٍ من هذا التاريخ.

وكان أحمد زيور قد قدّم استقالة وزارته في ١٨ شعبان ١٣٤٣هـ (١٣ آذار ١٩٢٥م)، وكلّف في اليوم نفسه بتشكيل وزارةٍ من الاتحاديين والأحرار الدستوريين والمستقلين.

ولكن الوئام بين الحزبين لم يكن قائماً، وكانت مُهمّة أحمد زيور وإسماعيل صدقي التوفيق بين حزبي الاتحاد والأحرار الدستوريين.

وفي ١٨ ذي القعدة من عام ١٣٤٣هـ (٩ حزيران ١٩٢٥م) صدر قانون العقوبات للتشديد على الصحافة، وبعد ٢٤ ساعة من صدور هذا القانون يُسافر رئيس الوزراء أحمد زيور في إجازةٍ صيفيةٍ، حُدّدت بأربعة أشهرٍ، فتولّى كانه بالنيابة يحيى إبراهيم أي في منصب رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية، وكان يحيى إبراهيم ضعيفاً يخضع لزوجته وتفرض عليه المحسوبيات، ويضطر إلى أن يلجأ إلى عدم الصدق، والمنصب الذي تسلّمه بالنيابة جعل منه أحاديث الشارع. كما كان الحديث يتناول أحمد زيور الذي سيُسافر إلى أوروبا، وسيمرّ

على لندن، وسيلتقي بالمندوب السامي الجديد «جورج لويد» في الوقت الذي لا توجد في البلاد حياة نيابية، وسعد زغلول معتزل، والحكم ضعيف بل إن يحيى إبراهيم قد وقع تحت نفوذ حسن نشأت وكيل الديوان الملكي ورئيسه بالنيابة، وحسن أنيس وكيل وزارة الخارجية.

وكان هناك خلاف بين يحيى إبراهيم وبين إسماعيل صدقي فقد اتهم إسماعيل صدقي بعلاقته مع ابنة يحيي إبراهيم، وانتحرت الفتاة نتيجة ذلك، ولا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر مع أن كلاهما في وزارةٍ واحدةٍ أحدهما وزيراً للداخلية والآخر وزيراً للمالية، فلما سافر رئيس الوزراء أحمد زيور وآلت الرئاسة إلى يحيى إبراهيم لم يستطع إسماعيل صدقي أن يتحمّل ذلك، فقرّر السفر في إجازةٍ صيفيةٍ إلى أوروبا أيضاً بعيداً عن مصر، وعن يحيى إبراهيم.

ولما كان المندوب السامي «نيفيل هندرسون» قائماً بالنيابة أيضاً لذا فقد بقي بعيداً عن الصراعات الداخلية في مصر، وترك أصحابها يُوجّهون اهتمامهم إلى الخلافات الحزبية.

موضوع كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:

وبدأ يتأجّج الصراع الداخلي بسبب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لمؤلفه الشيخ علي عبد الرازق، القاضي الشرعي بمحكمة المنصورة، والشيخ من أسرةٍ مصريةٍ معروفةٍ واسعة النفوذ والأملاك، وكانت ترعى حزب الأمة، وتعمل على تمويل حزب الأحرار الذي يعدّه كثير من السياسيين امتداداً لحزب الأمة.

وتوجد خصومة شخصية بين الملك وهذه الأسرة لأنها رفضت بيع بيتها المجاور للقصر الملكي في عابدين، وقد رفض الملك تعيين محمود عبد الرازق وزيراً عندما رشّحه محمد محمود عام ١٣٤٧هـ.

وحسن عبد الرازق شقيق الشيخ علي كان مُؤيّداً للإنكليز في ثورة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وقتل عند خروجه من اجتماع مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين الذي عُقد في مقرّ جريدة «السياسة». وشقيقاه محمود، ومصطفى من رجال الحزب البارزين.

وفي ٢ ذي الحجة من عام ١٣٤٣هـ (٢٣ حزيران ١٩٢٥م) يرفع اثنان وستون عالماً من رجال الأزهر إلى شيخه، وإلى بعض المقامات العالية، طلباً لمحاكمة الشيخ علي عبد الرازق.

الحزب الوطني يُهاجم من خلال صحفه الكتاب، ويستعدي الملك على حزب الأحرار الدستوريين، وفي الوقت نفسه يكون قد استعدى حزب الاتحاد، وهو حزب الملك على الأحرار أيضاً، ويقف حزب الوفد الموقف نفسه.

ويحرص حزب الاتحاد ألا يخوض في هذا الموضوع، ولذا فقد بقيت صحيفة «الاتحاد» صامتة ثم أخذت بعد شهرين تتحدّث عن الرأي وحرية الكلام...

أما جريدة «السياسة» صحيفة حزب الأحرار الدستوريين فهي وحدها التي دافعت عن الكتاب وصاحبه.

وفي ٨ محرم ١٣٤٤هـ (٢٩ تموز ١٩٢٥م) أعلنت هيئة كبار العلماء اتهامات الشيخ علي وأبلغته إياها، وأن المحاكمة ستكون يوم ١٥ محرم، فطلب التأجيل أسبوعاً واحداً لإعداد دفاعه، فأُجّلت المحكمة إلى ٢٢ محرم، وعقدت في اليوم المذكور برئاسة محمد أبو الفضل شيخ الجامع الأزهر.

واستعان أنصار الشيخ وحزب الأحرار الدستوريين بالملك وبالمندوب السامي لمنع المحاكمة. وكثر الحديث والجدل حول هذا الموضوع.

ومن المعلوم أن مجلس العلماء يتمتع بمقتضى قانون عام (١٩١١م) بسلطة تجريد العالم من صلاحيته الدينية إذا ثبتت إدانته باقتراف أمرٍ غير لائقٍ، ويتضمّن هذا القرار بصورةٍ آليةٍ طرده ـ كإجراءٍ إداريٍ ـ من أيّ وظائف مدنيةٍ قد يشغلها.

ولمّا كان الشيخ علي قاضياً في المحاكم الشرعية، فإن إدانته سيعقبها أمر مُوقّع من وزير العدل «الحقانية» بحرمانه من هذا المنصب. ووزير العدل هو عبد العزيز فهمي رئيس حزب الأحرار الدستوريين فلا يمكنه أن يُوقّع مثل هذا الأمر، وسيستقيل من الوزارة ولن يُوقّع هذا الأمر، وسيستقيل معه وزيرا

الحزب أيضاً وهما محمد علي علوبة وزير الأوقاف، وتوفيق دوس وزير الزراعة، وربما تعاطف معهم وزير الداخلية إسماعيل صدقي. ومعنى ذلك سيؤدّي الأمر إلى استقالة الحكومة ويختلف الحزبان اللذان تتألّف منهما الحكومة «الاتحاد والأحرار الدستوريون».

وسرت إشاعة أن الملك هدّد بطرد شيخ الأزهر إن لم يصوّت ضد الشيخ علي، ويدينه. وذلك لأن الملك أحمد فؤاد كان يطمح بالترشيح للخلافة بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة في تركيا، فإذا لم يقف بجانب العلماء فمعنى ذلك أنه لا يستحقّ أن يكون خليفةً للمسلمين إضافةً إلى أن الملك لا يُكنّ تقديراً لأسرة عبد الرازق للخلاف الذي سبق أن ذكرناه، كما أنه لا يحبّ الأحرار الدستوريين.

لكن المعتمد البريطاني كان يرغب أن تكون وقيعة بين الملك وحزب الاتحاد من جهةٍ وبين حزب الأحرار من جهةٍ أخرى ويكون صراع بين الطرفين وتستفيد السلطة البريطانية فتنفّذ مُخطّطاتها.

وجاء الموعد المحدد للمحاكمة يوم ٢٢ محرم ١٣٤٤هـ، وحضر الشيخ علي، وجرت المحاكمة واستمرّت ساعتين ونصف، وأصدرت بعدها هيئة كبار العلماء الحكم الآتي: «حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر، بإجماع أربعة وعشرين معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي عبد الرازق، أحد أعضاء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الشرعية، ومؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» من زمرة العلماء».

الصراعات الشخصية:

كانت هناك صراعات بين رجالات مصر الكبار، وكان لهذه الصراعات دورها الكبير على السياسة الداخلية.

١ ـ بين إسماعيل صدقي وعبد الخالق ثروت: يبدو للعامة أن هناك صداقةً حميمةً بين الرجلين، والواقع أن بينهما خلافاً واسعاً. كان إسماعيل صدقي يأمل أن يتسلّم رئاسة الوزارة غير أن عبد الخالق ثروت كان يسدّ أمامه الطريق. لذا كان إسماعيل صدقي يلحّ ليكون عبد الخالق عضواً في مجلس

الشيوخ، كي يبتعد عن مجلس النواب، وهذا ما تمّ له أخيراً عن طريق الملك.

٢ ـ بين عبد العزيز فهمي رئيس حزب الأحرار الدستوريين وبين يحيى إبراهيم رئيس حزب الاتحاد، وقد بدأ العداء عندما كان يحيى إبراهيم رئيساً للوزراء، وقد كانت الوزارة يومذاك مُكلفةً بوضع الدستور، فكان عبد العزيز فهمي يُوجّه خطابات مفتوحةً في الصحف يُطالب فيها رئيس الوزراء بصدور الدستور.

وفي وزارة أحمد زيور كان عبد العزيز فهمي وزيراً للعدل، وقد طلب يحيى إبراهيم لابنه منصباً قضائياً استثناءً، وقد رفض عبد العزيز فهمي هذا الطلب بعنفٍ، فلما استقال عبد العزيز فهمي من الوزارة عُيّن ولد يحيى إبراهيم في المنصب الذي طلبه.

٣ ـ بين يحيى إبراهيم وإسماعيل صدقي: إن يحيى إبراهيم ضعيف في بيته ولزوجه أثر كبير عليه، وهذا ما جعل بناته يتصرّفن بحريةٍ، ونشأت علاقة بين إسماعيل صدقي وإحدى بنات يحيى إبراهيم وتطوّرت الصلة حتى فُضح الأمر، فانتحرت الفتاة فنشأت عداوة بين الرجلين.

٤ ـ وكان الملك أحمد فؤاد يكره عبد العزيز فهمي لأمور تتعلّق بوقوف عبد العزيز فهمي أمام مصالح الملك في تبادل بعض أملاكه مع بعض أملاك الدولة، هذا إضافةً إلى كونه رئيس حزب الأحرار الدستوريين غير المرغوب كثيراً عند الملك.

٥ ـ ويكره الملك أحمد فؤاد إسماعيل صدقي أيضاً لأنه يظهر الاستقلالية مع أنه يتعاطف مع حزب الأحرار الدستوريين أكثر من أعضاء الحزب البارزين، ويرى الملك أنه ليس هناك من مُحايدٍ، فلا بُدّ للرجل من أن يكون صاحب اتجاهٍ واضحٍ وخطٍّ بيّنٍ، وهذا لم يجده عند إسماعيل صدقي لذا كان يعدّه مُنافقاً.

هذا إلى جانب الخلافات الحزبية وصراعات القيادات، فكل ما عدا الوفديين يُحارب سعد زغلول ويقف في وجه الوفد، ويتضايق سعد زغلول

عندما يرى رجالاً عمل على إبرزهم، ثم تركوه وانفضّوا من حوله، وساروا نحو أحزابٍ أخرى، ويعملون من خلالها على حربه. وكان عبد العزيز فهمي يرى نفسه أحقَّ بقيادة الأمة من سعد زغلول.

الصراعات الحزبية:

تُوفّي أحد أعضاء مجلس الشيوخ وهو إبراهيم سعيد، وكان من حزب الوفد، فأراد حزب الأحرار الدستوريين أن يُعَين مكانه رجل من الحزب، ورشَّح لهذا المنصب أحد رجالاته وهو إبراهيم هلباوي، غير أن الاتحاديين قد رفضوا ذلك، واشتدّ الخلاف بين الحزبين.

ورغب الأحرار أن يحصل إبراهيم الهلباوي على رتبة باشوية، ورفض الاتحاديون أيضاً فزاد الخلاف.

وجاء موضوع كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، ورئيس الوزراء أحمد زيور غائب في أوروبا، وإسماعيل صدقي الذي يدعم الأحرار غائب في أوروبا أيضاً. وعدلي يكن وعبد الخالق ثروت من رؤساء الوزارات السابقة وهم من أعضاء حزب الأحرار الدستوريين أيضاً في أوروبا. وسبعة آخرون من زعماء الحزب في أوروبا وهم: محمد محمود وحافظ عفيفي وكيلا الحزب، وإبراهيم هلباوي، ووهيب دوس، ومحمد الشريعي، ونعمان الأعصر، وكامل بطرس.

أرسل شيخ الجامع الأزهر الحكم إلى رئيس الوزراء طالباً تنفيذه لأن المادة ١٦٨ من قانون الأزهر تجعل رئيس الوزراء مسؤولاً عن تنفيذ هذا القانون.

والمادة ١٠١ من قانون الجامع الأزهر، والتي أُدين بمقتضاها الشيخ علي صريحة، وتقول: «إذا وقع من أحد العلماء أيًا كانت وظيفتة أو مهنته ما لا يُناسب وصف العالمية يُحكم عليه من شيخ الأزهر، بإجماع تسعة عشر عالماً معه من هيئة كبار العلماء بإخراجه من زمرة العلماء، ولا يُقبل الطعن في هذا الحكم.

ويترتَّب على الحكم محو اسم المحكوم عليه من سجلّات الجامع الأزهر

والمعاهد الأخرى، وطرده من كل وظيفةٍ، وقطع مرتّباته من أيّ جهةٍ كانت، وعدم أهليته للقيام بأيّةٍ وظيفةٍ عموميةٍ دينيةٍ كانت أم غير دينيةٍ».

وكان رئيس الوزراء بالنيابة يحيى إبراهيم لا يعرف ماذا يفعل؟ هل يُفصل القاضي بقرارٍ من مجلس الوزراء أم بمرسومٍ ملكيٍ، لأن القضاة يُعيّنون بمرسومٍ ملكيٍ، أم يُحال الأمر إلى وزير العدل لفصل الشيخ؟

وكان وزير العدل عبد العزيز فهمي رئيس حزب الأحرار الدستوريين بحيرة أكبر من حيرة رئيس الوزراء بالنيابة، فالملك يريد تفتيت حزب الأحرار وهذه فرصة مناسبة، فإذا قام بفصل الشيخ عليّ عبد الرازق فإن أسرته ستتخلّى عن الحزب وهي أسرة يعتمد عليها الحزب، وتُشكّل بعض عناصره البارزين، وسينقسم الحزب، وإذا رفض الفصل فإن أعداء الحزب سيتهمونه بالإلحاد، وستكون فرصة لإخراجه من الحكم، وسيتظاهر الملك بأنه من أنصار الدين ورجال العلم لتحقيق ما يُريد.

ووزير العدل عبد العزيز فهمي عضو في لجنة الدستور، ومن المعروفين بالدفاع عن الدستور، فكيف يتّخذ إجراءً غير دستوري؟ ويبدو أنه كان مستعدّاً لفصل الشيخ على ألاّ يُوقّع قرار الفصل بنفسه حسبما كان يُسرّ لبعض إخوانه.

المعتمد البريطاني لم يكن مُتعاطفاً مع حزب الأحرار إلى الحدّ الذي يُؤيّد بقاءه في الحكم، فلم يُنذر المعتمد البريطاني «هندرسون»، ولم يتوعّد كما كان سابقه «اللنبي»، وإنّما يُريد أن يتصارع زعماء مصر بعضهم مع بعض ليلعب كما يرغب.

القصر مُتردّد، أيترك الأزمة قائمةً ليحلّها رجالها بأنفسهم، ويستمرّ الصراع أم يتدخّل، ويسحب الثقة من الوزارة حتى تسقط الوزارة، ويأتي بغيرها بالصورة التي يبغيها؟

ويرى وزير العدل عبد العزيز فهمي من ناحيةٍ أخرى أن قرار الفصل لو جاء من مجلس الوزراء فإن ذلك سيُريحه إذ يُخليه من مسؤولياته تجاه الحزب والأسرة، ولما لم يفعل مجلس الوزراء ذلك وإنما أحال الموضوع إلى وزير العدل، لذا فإن وزير العدل كان يُريد تأجيل الموضوع حتى تنتهي الأزمة، ويتخلّص من بعض الإحراجات له.

أرسل شيخ الجامع الأزهر الحكم بحيثياته إلى الشيخ علي نفسه، والذي قام بدوره بإبلاغ وزير العدل أن القرار باطل، وأرسل الوزير يستشير أهل القانون. وبُحث الموضوع في مجلس الوزراء عدّة مراتٍ، وطُولب وزير العدل بتنفيذ الأمر فأبى أن يُنفّذه على غير بيّنةٍ، وأجاب: أنا لا أفعل إلا ما يرضى عنه ضميري مهما كانت الأحوال، وخرج رئيس الوزراء بالنيابة من الجلسة ليُقابل المندوب السامي والملك. وفي الجلسة التالية: أعلن مخاطباً وزير العدل أن عملنا معاً غير متيسرٍ فإما أن تستقيل وإما أن أقيلك، ورفض الوزير الاستقالة، فاستصدر يحيى إبراهيم مرسوماً بتعيين علي ماهر وزيراً للعدل بالنيابة.

وجرت محاولات لعدم فرط عقد التحالف بين الأحرار والاتحاديين، باشتراك أحد أعضاء حزب الأحرار بالوزارة، أو استقالة يحيى إبراهيم أو. . . غير أن حزب الأحرار قد قرّر في اجتماع مجلس الإدارة التخلّي عن الوزارة. ويُقدّم وزيرا حزب الأحرار «توفيق دوس، ومحمد علي علوبة» استقالتهما، ويطلب منهما رئيس الوزراء بالنيابة الاستمرار في عملهما انتظاراً لقرار جلالة الملك، فكان الوزيران يحضران إلى مكتبيهما ويُوقّعان بعض الأوراق الرسمية.

وكانت الفكرة عند الديوان الملكي ورئيس الوزراء بالنيابة التخلّص من إسماعيل صدقي بل يتكلّم وزراء الاتحاد عن استقالتهم فيما إذا بقي إسماعيل صدقي في الوزارة، ويعلم إسماعيل صدقي أن دوره قادم لطرده من الوزارة لذا فقد قدّم استقالته تضامناً مع حزب الأحرار، رغم ادعائه أنه مستقلّ. وقبلت استقالته قبل قبول استقالة وزراء الأحرار. وتأخّر الملك في قبول استقالة وزيري الأحرار غير أنهما امتنعا عن مزاولة عملهما في الوزارة، وأخيراً صدر مساء الأحد ٢٤ صفر عام ١٣٤٤هـ (١٢ أيلول ١٩٢٥م) مرسوم ملكي بتعديل تأليف الوزارة التي استقال منها وزراء حزب الأحرار والتي يرأسها أحمد زيور. وقد عُيّن أحمد ذو الفقار وزيراً للعدل مكان عبد العزيز فهمي، وعُيّن محمد توفيق رفعت وزيراً للأوقاف والمواصلات مكان محمد علي علوبة، وعُيّن نخلة جورجي المطيعي وزيراً للزراعة مكان توفيق دوس، وعُيّن حلمي عيسى وزيراً للداخلية مكان إسماعيل صدقي.

وانضمّ الوزراء الجدد بعد تعيينهم وزراء إلى حزب الاتحاد، فأصبحت الوزارة كلها اتحادية، وانفرد حزب الاتحاد بالحكم.

تمّ كل هذا ورئيس الوزراء أحمد زيور في مدينة «فيشي» بفرنسا يستجمّ، وأُخبر برقياً بكل ما حدث، وبقي هناك حيث كان رئيساً صورياً.

ويستمرّ الصراع الحزبي بين الاتحاد وبين الأحرار، ويتمثَّل في الحرب الصحفية في جريدتي الاتحاد والسياسة، وأخيراً يستقيل توفيق دوس من حزب الأحرار.

ونفّذ وزير العدل الجديد علي ماهر حكم هيئة كبار العلماء ضدّ الشيخ علي عبد الرازق.

ووصل إلى مصر المندوب السامي الجديد «جورج لويد» بتاريخ ٤ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٢٥م)، وبدأت لقاءاته بالملك وكبار رجال الدولة.

وعاد رئيس الوزراء أحمد زيور بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني (٩ تشرين الثاني)، واشتدّت معارضة الحكومة التي أصبحت ضعيفةً، وتناولها الوفديون والأحرار، والقصد من ذلك النيل من الملك، وحسن نشأت، ورئيس الحكومة.

تدخّل المندوب السامي وضغط على الملك لنقل حسن نشأت من الديوان الملكي، فعُيّن وزيراً مفوَّضاً في مدريد.

واجتمع المجلس النيابي المنحلّ تلقائياً في ٤ جمادى الأولى أي بعد شهر من وصول المندوب السامي، وطالب الشعب بالدستور بل إن كثيراً من أفراد الأسرة المالكة قد طالبوا الملك أحمد فؤاد بالدستور.

استقال عبد العزيز فهمي من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين في شعبان ١٣٤٤هـ (آذار ١٩٢٦م)، واستقال أحمد زيور رئيس الوزارة، وأُجريت الانتخابات في شوال ١٣٤٤هـ (أيار ١٩٢٦م)، وتشكّلت وزارة ائتلافية من الوفديين والأحرار الدستوريين لعام ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ (٧ حزيران ١٩٢٦م)، وكانت برئاسة عدلي يكن أول رئيس لحزب الأحرار الدستوريين، ورفض المندوب السامي أن

يتسلّم سعد زغلول رئاسة الوزارة ليكون فوق رؤساء الأحزاب. ولإمكانية الضغط به على من يُريد، ولكن اختير رئيساً للمجلس النيابي. وكان قد اجتمع مؤتمر الخلافة في القاهرة في شهر شوال من عام ١٣٤٤هـ. ولم يحصل حزب الاتحاد في الانتخابات إلا على أربعة مقاعد.

في الشعر الجاهلي:

حصلت أزمة حول كتاب ألّفه طه حسين أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة «جامعة فؤاد سابقاً» فثار ضدّه علماء الأزهر، والطلاب الوفديون، واجتمع مجلس الجامعة لبحث الموضوع وترك الأمر لمدير الجامعة أحمد لطفي السيد ليتصرّف بالموضوع، وعندما عاد طه حسين إلى مصر من سفره في فرنسا تراجع عمّا ورد في الكتاب ممّا يتعلق في الأمور الدينية، غير أن الجامعة جمعت نسخ الكتاب من السوق، ولكن طه حسين أعاد طباعة الكتاب بعنوانٍ جديد «في الأدب الجاهلي» بعد أن حذف بعض الفصول منه.

كان طه حسين يُهاجم سعد زغلول في جريدة السياسة، فهل ينتقم الوفديون، ويُثيرون حلفاءهم في الوزارة الأحرار الدستوريين، أم يتركون حرية الرأي وليتكلّم طه حسين كما يُريد، ويتلّقون نقمة أهل العلم.

وكانت المعركة داخل المجلس النيابي، وكان وزير المعارف وفدياً، وهو علي الشمسي، كما كان وزير العدل وفدياً، وهو أحمد زكي أبو السعود، وهما أصحاب الشأن في هذا الموضوع. وزادت المناقشة عُنفاً بين رئيس مجلس النواب سعد زغلول ورئيس الوزراء عدلي يكن، ولما تدخّل وزيرا المعارف والعدل مُؤيدين رأي رئيس الوزراء على الرغم من أنهما من حزب الوفد غضب سعد زغلول، وخرج من المجلس بعد أن رفعت الجلسة. واسترضى عدد من رجالات، البلاد سعد زغلول أمثال حسين رشدي رئيس مجلس الشيوخ، وعدلي يكن رئيس مجلس الوزراء، ومحمد محمود، وفتح الله بركات.

وعاد المجلس النيابي للانعقاد في اليوم التالي، وأصرّ سعد زغلول على

حقّ المجلس النيابي في مراقبة وتوجيه الحكومة، على حين بقي عدلي يكن يرفض هذا المبدأ. ولكنّه تقرّر ترك قضية طه حسين بين يدي وزير المعارف.

حزب الشعب:

أسّس إسماعيل صدقي حزب الشعب في ٢٦ جمادى الآخرة من عام ١٣٤٩هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٣٠م)، وأصدر جريدة الشعب التي يرأسها محمد زكي عبد القادر، وقد رأس الوزارة التي أجرت الانتخابات النيابية، وأشرفت عليها، وحصل حزب الشعب على أكثرية مقاعد المجلس النيابي فيها، وأعاد تشكيل الوزارة، ثم اختلف مع الملك أحمد فؤاد إذ خاف الملك من تسلّط إسماعيل صدقي. ثم شارك الحزب في وزارة عبد الفتاح يحيى التي تشكّلت بعد وزارة صدقي الثانية.

الهيئة السعدية:

أجرت وزارة علي ماهر الانتخابات النيابية، وقد فاز فيها حزب الوفد فشكّل زعيم الحزب مصطفى النحاس الوزارة في ١٠ صفر ١٣٥٥هـ (١ أيار ١٩٣٦م)، وفي أيام هذه الوزارة تولّى الملك فاروق السلطة الدستورية في ١٨ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (٢٦ تموز ١٩٣٧م) فكان على مصطفى النحاس أن يُقدّم استقالة حكومته فقدّمها، وكُلّف ثانيةً بإعادة تأليفها، فرآها فرصةً مُناسبةً للتخلّص من بعض الوزراء ومنهم وزير المواصلات محمود فهمي النقراشي، فكان أن انشق حزب الوفد، وتأسس منه حزب الهيئة السعدية، وأصدر محمود فهمي النقراشي بياناً بتاريخ ٢ رجب ١٣٥٦هـ (٧ أيلول ١٩٣٧م) انتقد فيه مصطفى النحاس، وبعد ذلك أصدر حزب الوفد بياناً بعد ستة أيامٍ (٨ رجب) فصل فيه النقراشي من الحزب.

وفي ١٨ رجب ١٣٥٦هـ انسحب رئيس المجلس النيابي من حزب الوفد بعد أن أصدر بياناً أيضاً انتقد فيه الوزارة النحاسية. وفي أواخر عام ١٣٥٦هـ تكوّنت الهيئة السعدية التي اختارت أحمد ماهر رئيساً لها.

وفي ٢٧ شوال ١٣٥٦هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٣٧م) قدّم مصطفى النحاس استقالة حكومته، وكُلّف محمد محمود بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ. وقد

جرت الانتخابات النيابية في شهر صفر من عام ١٣٥٧هـ (نيسان ١٩٣٨م) حصل فيها السعديون على أكثريةٍ في المجلس إذ فازوا بثمانين مقعداً على حين لم يحصل الوفديون إلاّ على اثني عشر مقعداً.

الحزب الوطني:

تُوفيّ رئيس الحزب الوطني محمد فريد في أوروبا عام ١٣٣٨هـ، وكانت أهم النقاط التي يرتكز عليها هذا الحزب: ١ ـ رفض الاحتلال. ٢ ـ الجامعة الإسلامية. ٣ ـ تأييد الخديوي عبّاس حلمي، لذا لم يعترف الحزب بالسلطان حسين كامل ولا بخليفته أحمد فؤاد. غير أن أحمد فؤاد قد قوي مركزه عندما أصبح ملكاً.

وعاد الحزب الوطني إلى النشاط عام ١٣٣٨هـ في صحيفته «المحروسة» القاهرية، و «الأمة» في الإسكندرية، ولم تلبث أن صدرت بعد عام «اللواء المصري» التي يرأس تحريرها حافظ رمضان. وكان نائب رئيس الحزب علي فهمي كامل شقيق مصطفى كامل، وقد تبادل البرقيات مع الخديوي عبّاس حلمي مُتجاهلاً السلطان أحمد فؤاد، فطلب منه السلطان مُغادرة مصر، وأصدر أمراً بتعطيل صحيفة «اللواء المصري» ولكنها لم تلبث أن عادت إلى الصدور بعد عامٍ، وانتخب حافظ رمضان بعد عامٍ آخر رئيساً للحزب بسبب غياب علي فهمي كامل. وقد ترك الحزب الروابطَ مع الكماليين ومع الخديوي عبّاس الثاني، واعترف بالملك فؤاد. وعلى كلٍّ فإن شعار الحزب الوطني كان لا مفاوضات قبل الجلاء، والعمل الثوري.

ولم يكن الحزب الوطني على وفاقٍ مع الوفد ولا مع بقية الأحزاب التي انشقّت عن الوفد كالأحرار الدستوريين، والهيئة السعدية، وذلك بسبب موقفه من الإنكليز، وكذلك بالنسبة إلى بقية الأحزاب كالاتحاد بسبب موقفه من الملك.

لقد كان معظم نشاط الحزب الوطني منصباً في بداية الأمر على الصحافة، ومن هذا المجال كان يُهاجم خصومه السياسيين عندما يجد فرصةً لذلك. وكان على صلةٍ حسنةٍ مع «مصر الفتاة»، أما بالنسبة إلى المشاركة

السياسية الإدارية فقد كان بعيداً عن الوزارات، ولكنه شارك لأول مرةٍ في وزارة محمد محمود التي تألّفت في ٢٩ شوال ١٣٥٦هـ (١ كانون الثاني ١٩٣٨م)، وفي وزارة حسن صبري ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م)، ووزارة أحمد ماهر، ووزارة محمود فهمي النقراشي، وقد استقال حافظ رمضان من وزارة النقراشي في ٢ شوال عام ١٣٦٤هـ (٩ أيلول ١٩٤٥م)، وقد عُرف من رجالات هذا الحزب إضافةً إلى حافظ رمضان، نور الدين طرّاف، وعبد الرحمن الرافعي، وفكري أباظة، فتحي رضوان، سعد الدين كامل، ويوسف حلمي.

مصر الفتاة:

وقد ظهرت في النصف الثاني من عام ١٣٥٢هـ، وأسّسها أحمد حسين، وفتحي رضوان، وكان الهدف الاستفادة من الشباب، وجذبهم عن طريق العادة على الطاعة والنظام، وحفظ نشيدٍ يُردّدونه، ولباس زيٍ واحدٍ، وهذا يُغري الشباب، إذ يُشعرهم بالقوة عندما يكثر عددهم. وقد اتّخذوا لباس القمصان الخضراء، وقد اتّهمهم أعداؤهم بأنهم يُريدون السيطرة بالقوة.

وكانوا يُعادون حزب الوفد، وقد اتّخذ حزب الوفد لشبابه لبس القمصان الزرقاء وحدثت صدامات بين الجماعتين، حتى اضطرت الدولة إلى إلغاء لباس القمصان الملوّنة بعد خمس سنواتٍ من تشكيل الجماعة، إذ أن أصحاب القمصان الزرقاء قد تمكّنوا من ضرب أصحاب القمصان الخضراء.

لما كانت العداوة قد تأصّلت بين مصر الفتاة وحزب الوفد، لذا فإن رجالات حزب مصر الفتاة قد حاولوا الإفادة من معاداة بعض الأحزاب للوفد، وتقرّبوا منهم: مثل حزب الوطني، والأحرار الدستوريين، بل وصلوا إلى درجةٍ أكبر من ذلك حيث عملوا على التعاون مع الطليان الذين برزوا يومذاك أيام موسوليني من أجل ضرب الإنكليز في مصر، وفكّر رجالات الحزب أثناء الحرب العالمية الثانية، تسمية حزبهم بالحزب الإسلامي الوطني، وقد قضى هؤلاء الرجال أكثر أيام الحرب في المعتقلات.

وبعد الحرب العالمية الثانية ترك فتحي رضوان جماعته والتحق بالحزب الوطني، وانفرد أحمد حسين برئاسة الحزب، وسار به نحو خطٍّ اشتراكيٍ حتى

أطلق عليه اسم «الحزب الاشتراكي» وكانت الصحيفة الناطقة باسمه تسمى «الاشتراكية» وتصدر مرتين في الأسبوع.

كان هذا الحزب أكثر الأحزاب ضجةً بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أظهر الصخب في المظاهرات، والاجتماعات، ووسائل العمل السياسي، ومهاجمة الإنكليز والقصر. واتُّهم أعضاء هذه الجماعة في حريق القاهرة ٢٨ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢م).

ولم تشترك هذه الجماعة في المجالس النيابية ولا في الوزارات المتتالية لأن الحكومات كانت دائماً تُلاحقها، وإن كان إبراهيم شكري وحده قد نجح في انتخابات عام ١٩٥٠م عن دائرة «شربين»، ودخل المجلس النيابي لشهرته في منطقته لا لكونه أحد أقطاب مصر الفتاة أو الحزب الاشتراكي.

الكتلة الوفدية:

نشأت خلافات في حزب الوفد، وربما بدأ هذا الخلاف قبيل الحرب العالمية الثانية إذ بينما كان مكرم عبيد يُسيطر على الحزب، دخلت عناصر لتقف في وجه هذه السيطرة وتمكّنت من جذب زينب الوكيل زوجة زعيم الحزب مصطفى النحاس إلى جانبها ومن بين هذه الشخصيات فؤاد سراج الدين فأصبح في الحزب جناحان.

ولمّا نجح مكرم عبيد في فرض سيطرته، وحدث أن انشقّ محمود فهمي النقراشي وأحمد ماهر، وتشكّلت الهيئة السعدية ظهرت في الأفق إشارات إلى هيمنة مكرم عبيد فأصبحت بعض الشخصيات تخافه، وتعمل في الخفاء على إبعاده عن الحزب.

ولما فرض الإنكليز أثناء الحرب العالمية الثانية حزب الوفد فرضاً على الحكم ليأمنوا المحافظة على الوضع في مصر، وهذا رغم أنف القصر. لذا فإن رجال القصر يريدون أن يثأروا من حزب الوفد ويعملوا على تجزئته في سبيل إضعافه، وهذا ما بذله رئيس الديوان الملكي أحمد حسين باشا، وجاءت الفرصة المناسبة إذ طلب النحاس بعض الاستثناءات ورفضها وزير المالية مكرم

عبيد ونشر مذكرة اللجنة المالية التي عدّها مصطفى النحاس تشهيراً به، فعدّل الوزارة وأخرج منها وزير المالية مكرم عبيد، ثم أُخرج من الحزب.

تقدّم ١٤ نائباً وفدياً وثلاثة شيوخ من هيئة الوفد باستقالاتهم في مُذكرةٍ مشهورةٍ وشكّلوا «الكتلة الوفدية» برئاسة مكرم عبيد، وتذكر هذه المذكرة برنامج الكتلة المزمع إنشاؤها.

وكانت ظروف الحرب قائمةً، ويُعدّ رئيس الوزراء مصطفى النحاس حاكماً عسكرياً، ومع ذلك فقد أصبحت الكتلة الوفدية تتحدّاه، بل رفع رجالها عريضةً إلى الملك يبدون فيها مخالفات الحاكم العسكري، وهذا ما دعا إلى اعتقال مكرم عبيد واتخاذ إجراءات قمع ضد الكتلة الوفدية.

دخل الحزب الجديد الانتخابات التي جرت في أواخر عام ١٩٤٤م وحصل على تسعةٍ وعشرين مقعداً، ولم يدخل الحزب انتخابات سوى هذه المرة، وشارك في وزارات السعديين الثلاث التي تشكّلت مرتين برئاسة أحمد ماهر، والثالثة برئاسة محمود فهمي النقراشي.

بقي مكرم عبيد يُعطي لنفسه المكانة التي كانت له في حزب الوفد، فيظنّ بنفسه أكبر من الجميع حتى من رئيس الوزارة التي يُشارك هو فيها، ويُعدّ أحد أعضائها إذ كان بالفعل أكبر منه يوم كانا معاً في الحزب، فلما سار كل في خطّه غدت مكانته الشخصية مرهونة بمركزه الذي يحتلّه وبمكانته داخل المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا ما سبّب مُنغّصات واضحةً في وزارة النقراشي مما جعلها تستقيل بسبب استقالة مكرم عبيد ورفاقه منها في ١٣ ربيع الأول ١٣٦٥هـ (١٤ شباط ١٩٤٦م)، وهذه آخر مرةٍ يشترك فيها مكرم عبيد أو بقية أعضاء حزبه في وزارة.

وأصدرت الكتلة الوفدية صحيفة «الكتلة» ولكنها بقيت ضعيفةً بسبب ضعف الحزب أولاً وآخراً، رغم إمكانات مكرم عبيد البلاغية وجهده الكبير الذي يبذله حيث يظهر أثره في كل موضوعٍ، ولكن من الصعب بمكانٍ أن يستمرّ إنسان وحده يبذل هذه الطاقة لمدةٍ طويلةٍ، الأمر الذي جعل الموضوع يتراجع تدريجياً.

والأمر الذي يُلفت الانتباه أن الأحزاب تنشأ، وتتمكّن مُباشرةً من الحصول على أكثرية في المجلس النيابي، وتُشكّل الوزارة أو تُشارك في ائتلافٍ وزاريٍ، يُلاحظ هذا في حزب الأحرار الدستوريين، والاتحاد، والهيئة السعدية، والكتلة الوفدية، وحزب الشعب، وإذا كان حزب الاتحاد قد برز بقوة القصر، وحزب الشعب بشخصية إسماعيل صبري فإن بقيّة الأحزاب، وإن كنا لا نُنكر قوة زعمائها المؤسسين لها، إلاّ أنها مُنشقّة عن حزب الوفد، والشكل الطبيعي ألاّ تحتل المكان الذي احتلّته بهذه السرعة وربما يعود هذا لأسباب منها:

١ ـ طبيعة الشعب في مصر الذي يُؤيّد من بيده السلطة، ويرغب في التزلّف إليه دون النظر إلى ماضيه أو السياسة التي يرتبط بها.

٢ ـ التلاعب في الانتخابات، فالذي يُشرف على الانتخابات يحصل على نتائج طيبةٍ، وهذا يرتبط بالسبب الأول إلى حدٍّ.

٣ ـ رغبة القصر، ورغبة المندوب السامي أو المعتمد البريطاني في عدم بقاء السيطرة لحزبٍ واحدٍ حتى ولو كانت ترضى عنه الجهة التي تدعمه، خوفاً من تطوّراتٍ تحدث دون علمها، وعلى غير رأيها، وربما كان هذا السبب الذي دعا إلى الانشقاق المتتابع عن حزب الوفد، وإن كان لطبائع النفوس دور، كما للخلافات دور، وللمصالح مثل ذلك.

وكما تظهر الأحزاب بقوةٍ مباشرةً تعود للاختفاء سريعاً فبعد أن تبرز إثر دورةٍ انتخابيةٍ تعود للانكماش فترجع أحزاباً ثانويةً لها بعض الأثر، وقد تُشارك في ائتلافٍ وزاريٍ، وربما اختفت من الساحة السياسية.

وإذا كان حزب الوفد قد بقي قوياً رغم الانشقاقات المتتابعة التي تعرّض لها، فإن ذلك يعود إلى أنه لم يكن على وفاقٍ أبداً مع القصر الذي لم يرتح إليه الشعب في غالب الأحيان، كما يظهر للعامة أنه على خلافٍ مع الإنكليز الدخلاء المعتدين الذين يكرههم الشعب في قرارة نفسه، وإن كان يبدو أحياناً غير ذلك على عادة المصريين في عدم وقوفهم أمام المتسلّط بقوةٍ أو رغبة بعضهم في التزلّف، وإن كان هذا ليس عامّاً فإن في مصر من الفحول ما فيها، وفيها الكثير من العمالقة الرجال والقادة الأبطال فالغالب لا يمنع وجود

الخصوص، والواقع أن الإنكليز كانوا على رضىً تام عن زعيمي الحزب اللذين تولّوا أمره، وهم الذين أبرزوهما، إذ لم يرغبوا في مفاوضةٍ إلاّ مع هذا الحزب، وإذا حَزَبَ الأمر لم يقبلوا غيره حاكماً، وفي الحرب العالمية الثانية عندما اشتدّ أمر المحور، واقترب الألمان مع حلفائهم الطليان من حدود مصر الغربية، ضغط الإنكليز على القصر، وألزموه في إعطاء الحكم لحزب الوفد، وشكّل مصطفى النحاس الوزارة مرّتين حتى إذا انتهت الحرب وزال خوف الإنكليز، وتراجع المحور، جرت الانتخابات، وفازت الهيئة السعدية، وتسلمت الحكم، وابتعد الوفد عن الساحة السياسية نسبياً. ولمّا اشتدّ ضغط الشعب على الإنكليز عام ١٣٧٠هـ، وجرت أعمال الفداء على ضفاف قناة السويس، وكانت قضية فلسطين تُؤثّر تأثيراً واضحاً في النفوس ويُخشى من أحداث لم يجد الإنكليز بدّاً من تسليم الحكم إلى حزب الوفد، وعاد مصطفى النحاس يُشكّل الوزارة، غير أن إنكلترا كانت تُظهر عداءها لحزب الوفد ولزعمائه عندما لا تكون بحاجةٍ إليهم لتُرسّخ نفوذهم عند الشعب، وتُقوّي سلطانهم في نفوس أفراد المجتمع العاديين، وأكثر شعبنا، ومعظم مجتمعاتنا على درجةٍ من البساطة حيث يُصدّقون ما تنشره وسائل الإعلام حتى أولئك الذين يدّعون أنهم يُتابعون الأحداث، ويعرفون خفايا السياسة. وتدّخر إنكلترا الوفد لوقت الملمّات وساعة حاجتها إليه.

أما الحزب الوطني فمعروف بعدائه للمحتلّ، ويطرح دائماً شعار لا مفاوضات قبل الجلاء، كما هو معروف بخلافه مع القصر لذا فإنه قد بقي في ظلّ السياسة على الرغم من وجود عناصر قويةٍ في عداد أعضائه، وإذا دعت الحاجة شاركت بعض هذه العناصر في الوزارة لقوّتها لا لانتمائها إلى الحزب الوطني، ولكن تحسب عليه بصفتها الحزبية. ومع هذا لا يمكننا أن ننفي إمكانية استغلال بعض عناصر هذا الحزب وتسييرها بخطٍ مُعيّن والإفادة منها سياسياً غير أن هذه العناصر أيضاً تستغلّ لضعفها أو لسيرها وراء مصالحها وشهواتها لا لانتمائها إلى الحزب.

الحزب الشيوعي:

على الرغم من انتشار الفقر في المجتمع المصري، ووجود أصحاب

الأملاك الواسعة، وهما ما ترتكز عليهما الشيوعية في دعايتها، وتجد المُناخ الملائم في مثل هذا الوسط لبثّ سمومها، ومع هذا فلم تجد البيئة المناسبة لها في مصر، ولم تقم خلايا شيوعية ظاهرة على الأقلّ، ولعلّ ذلك يعود إلى سيطرة العاطفة الدينية لدى المصريين، وهذا ما يحول دون تقبّلهم مثل هذه الأفكار الإلحادية التي تختفي تحت غطاء الظروف الاقتصادية والاجتماعية. هذا إضافةً إلى أن إنكلترا صاحبة الكلمة الأولى في مصر ذات نظامٍ اقتصادي يختلف عن النظام الشيوعي، وهذا ما حال أيضاً دون الجهر بمثل هذه الآراء خوفاً من السلطة، وهيبةً من أصحاب النفوذ من المّلاك.

غير أن الحرب العالمية الأولى قد أفرزت في نهايتها سيطرة الحزب الشيوعي على مُقدّرات روسيا، وأخذ يمتدّ إلى بقية الأجزاء التي يُسيطر عليها الروس، وإذا كان قد وجد مُقاومةً في كثيرٍ من الجهات إلاّ أنه في النهاية قد تربّع على كل أجزاء الإمبراطورية الروسية، وهذا ما شجّع قيام بعض الحركات التي حملت اسم الاشتراكية، وطرحت بعض الآراء في الصحف، في البلدان الأخرى ومنها مصر إذ ظهرت فيها تنظيمات اشتراكية ومن أهمها: «الحزب الاشتراكي المصري» الذي نشر برنامجه في جريدة الأهرام في ٢٥ ذي الحجة من عام ١٣٣٩هـ (٢٩ آب ١٩٢١م) ومن أبرز أعضائه: حسن عرابي صاحب الرأي الماركسي، وسلامة موسى الاشتراكي النزعة، ولم يستدر العام حتى حدث انشقاق في هذا الحزب إذ انفصلت شعبة الحزب في الإسكندرية ذات الاتجاه الماركسي، وسيطر الشيوعيون على الحزب، ولم يلبث أن قام زعماؤه بحركةٍ للسيطرة على المعامل في شهر رجب من عام ١٣٤٢هـ (شباط وآذار من عام ١٩٢٤م) فتصدّت لهم حكومة سعد زغلول، واعتقلت الزعماء، وأودعتهم السجن، وأصدرت أحكاماً ضدّهم في شهر ربيع الأول من عام ١٣٤٣هـ (تشرين الأول ١٩٢٤) وهكذا قُضي على هذا الحزب، غير أن الفكر لا يُقضى عليه بالضغط ولا يُحارب بالشدّة، وإنما الفكر والحجّة الأقوى، لذا قامت مجموعات مُتعدّدة حول أشخاصٍ معروفين، وإن كانت أكثر اعتمادها على العناصر النصرانية من يونانيةٍ، وإيطاليةٍ، وشاميةٍ.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، واشتدّ الغلاء حيث سيقت المواد الغذائية

إلى الجبهات، وكانت الحكومات وخاصّةً الخاضعة منها لنفوذ أو لسيطرة الدول المتحاربة تجمّع المواد الغذائية بالإكراه، وإبقاء السكان بحالةٍ من الجوع، والفقر، والمرض فتأثّر الناس، وطُرحت عليهم الشعارات المعسولة فتقبّلتها بعض النفوس نتيجة الضيق الذي تُعانيه، فظهرت«الحركة المصرية للتحرّر الوطني» و «الشرارة» و «تحرير الشعب» و «الطليعة» و «الفجر الجديد» و «عصبة الماركسيين»، كان هذا، ولم تنته بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي نهاية الحرب كانت هناك ثلاثة تنظيمات شيوعية هي: «طليعة العمال» وتُصدر مجلة «الفجر الجديد» و «الشرارة» وتضمّ مجموعة من المتعلّمين، و«الحركة المصرية للتحرّر الوطني» وتشمل تنظيمين، أولهما «عصبة الماركسيين» وثانيهما «شعوب وادي النيل» وقد أصدرت صحيفة «أم درمان» التي يُشرف عليها الشيوعيون السودانيون من داخل هذا التنظيم.

قام الشيوعيون بحركاتٍ تخريبيةٍ لإشاعة الفوضى كعادتهم إذ أن حياتهم تنتعش في الفوضى، وهذا ما أدّى إلى استقالة حكومة النقراشي في ربيع الأول ١٣٦٥هـ (شباط عام ١٩٤٦م)، وقيام حكومة إسماعيل صدقي التي ضغطت على الشيوعيين.

وجاءت أحداث فلسطين، وأُعلنت الأحكام العرفية، واضطر الشيوعيون إلى الخنوع، وخاصةً أن الامبراطورية الروسية، التي اعتمدوا على دعمها، وقوي مركزهم بمساعدتها قد أيّدت تقسيم فلسطين، ووقفت موقفاً مُؤيّداً لليهود فخجل من كان يستحي من الشيوعيين، وسكتوا عن الحديث عن فكرتهم.

وعادت الحرية السياسية منذ تشكيل وزارة حسين سري الائتلافية في شوال من عام ١٣٦٨هـ حتى قيام الانقلاب العسكري في ذي القعدة من عام ١٣٧١هـ فتأسّس الحزب الشيوعي المصري، وأصدر جريدة «راية الشعب»، وكان هذا التنظيم سرياً، ومُعادياً صريحاً للوفد.

الإخوان المسلمون:

أسّس جماعة الإخوان المسلمين حسن البنا المعلّم في الإسماعيلية، وقد وجد تجاوباً طيباً فالدعوة حقّ، والرجل مُخلص ونشيط، والتربة خصبة

فالمصريون أصحاب عاطفة دينيةٍ، وقد يئسوا من الأنظمة الوضعية الفاسدة، وملّوا الوعود الخلّابة بتحسين الأوضاع بانتهاء الاحتلال الأجنبي، وخروج الدخيل على حين أن أصحاب الوعود يرتمون أمام القصر، ويتلقّون تعليمات المحتلّ، ويسيرون على نهجه، وحسب إرشاداته، وكبار مُلّاك الأرض يرتعون في المناصب، ويدخلون ضمن ألاعيب السياسة.

وبعد خمس سنواتٍ من العمل في الإسماعيلية بدءاً من عام ١٣٤٦هـ انتقل إلى القاهرة فوجد ما لقيه في الإسماعيلية من نجاحٍ، وقويت الجماعة وبخاصةٍ بعد عام ١٣٥٥هـ نتيجة تأييد الثورة في فلسطين، فدعم الحاج محمد أمين الحسيني الحركة، كما تقرّب إلى حسن البنا عدد من الزعماء في مصر أمثال عبد الرحمن عزام، وعلي ماهر ليستفيدوا من نشاطه وحركته في مصر، بل وفي الدعاية لهم خارج مصر.

وفي عام ١٣٥٧هـ قرّر البنّا الدخول في معترك السياسة المصرية، وأصدر مجلة «النذير»، وأعلن أن شُعب الإخوان قد بلغ عددها ثلاثمائة شُعبة، وأعلن للإخوان أنه سيُخاطب رجالات البلاد، ويدعوهم للعمل بالإسلام، وسينصح، وأبان أن الإخوان سيُواجهون خصوماً عنيفين داخل مصر وخارجها، وسيتعرّضون للابتلاء.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وزاد نشاط الإخوان، وكثر عددهم، وانضمّ إليهم أعضاء جدد كثيراً، وأصبح لهم فرق للجوّالة، ولجمع السلاح، وتنظيم خاص سرّيّ يتدرّب على الطاعة والسلاح.

كان لهذا الإقبال الشديد على الجماعة، وهذا التنظيم والتدريب آثار إيجابية وأخرى سلبية، فمن الإيجابيات المساهمة في القتال في فلسطين وقد أبدوا ضروباً كبيرة من الشجاعة والتضحية بل إن العمل المصري في فلسطين يكاد يقتصر على ما قدّمه الإخوان، وإنهم قد دعموا الجيش المصري، وأنقذوه عدّة مراتٍ من مآزق وقع فيها. وكانت الصحف كلها تذكر لهم هذه المآثر وتفتخر بها، ومن الإيجابيات أيضاً قتالهم الإنكليز على ضفاف قناة السويس لطرده من الأراضي المصرية كلها وذلك في عام ١٣٧١هـ، ويمكن أن نُضيف

إلى الإيجابيات إنقاذهم لكثيرٍ من الشباب من الوقوع في مهاوي الرذيلة والأخذ بأيدي أعضائهم إلى طريق الخير، وتأثير ذلك على المجتمع كله.

أما السلبيات فيمكن أن نقول: إن أعداداً قد دخلوا في صفوف الجماعة، ولم يُربّوا التربية الكاملة مما يعرّضهم للوقوع تحت التأثيرات الكثيرة التي قد تُؤدّي إلى زلزلة الجماعة وتمزيق صفوفها، أو السير ببعض تجمّعات منها نحو طرق غير سليمةٍ. بل إن كثرة الإقبال كثيراً ما كانت حائلاً دون إمكانية احتضان وتربية كل العناصر الملتزمة حديثاً، وهذا ما يُؤدي أيضاً إلى ضعفٍ في التربية الإسلامية في صفوف الجماعة. وإن القوة التي أظهرتها الجماعة في القتال سواء أكان ذلك في فلسطين أم على ضفاف القناة أم في المظاهرات أم في كثرة الأعداد التي كثيراً ما كانت فخر رجالها قد جعل منها ما ينتاب أعداءها الحذر سواء أكانوا في الخارج أم في الداخل، وبدأت توضع الخطط للقضاء عليها أو لضربها من الداخل بزرع أفرادٍ فيها ورعايتهم وتوجيههم أو للتأثير على بعض العناصر بالمغريات المتعددة، وربما كان بعض الأحيان بإثارة حماسة الشباب في نفوس بعضهم بعضاً فيقوم ببعض الأعمال التي تُؤدّي بالجماعة إلى الهاوية. وإن النظام السري قد نما وشعر قادته بإمكاناتهم وقوّتهم وهذا ما أفقدهم عنصر الطاعة عندما لا يؤخذ برأيهم، ويُحكّم السلاح وخاصة عندما غاب المرشد الأول حسن البنا، وكذلك لعبت حماسة الشباب في هذا النظام الدور نفسه، بل ربما استطاع بعضهم أن يحتوي بعض هؤلاء الشباب تحت التأثير، ودوافع الحماسة، والإخضاع للقوة. وغدا كل ما يحدث من تفجيرات أو تخريب يُنسب للإخوان ولو كانوا بعيدين عنه كل البعد، وربما قامت به عناصر معادية لهم كي يُنسب إلى الإخوان، وإذا ما اغتيل أي إنسان له خصومة أو خلاف مع الإخوان نُسب إليهم ذلك الاغتيال أو تلك الجريمة، وهم غالباً لا يقومون بمثل هذه الأعمال خوفاً من الله إلا إذا كانت واضحةً كل الوضوح في خيانة إنسانٍ ضالٍّ أو وقوف أحدٍ يُحارب الله ورسوله علناً ويتحدّى الدعوة.

ونتيجة الخوف من جماعة الإخوان المسلمين من أطرافٍ متعددةٍ، منها الإنكليز، والقصر، ورجالات الأحزاب الأخرى فقد أصدر رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي أمراً بحلّ الجماعة بتاريخ ٧ صفر ١٣٦٨هـ (٨ كانون

الأول ١٩٤٨م)، ولكن لم يمض أكثر من أربعةٍ وعشرين يوماً حتى قُتل النقراشي بتاريخ ٢٧ صفر فتعرّضت الجماعة لضغوطٍ كثيرةٍ، وقُتل حسن البنا بعد ذلك بتاريخ ١٤ ربيع الثاني أي بعد مقتل النقراشي بستةٍ وأربعين يوماً، واستمرّ قرار حلّ الجماعة حتى أُلغي في عهد وزارة حسين سري في أوائل عام ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م)، حيث شاركت الجماعة في أعمال الفداء على ضفاف قناة السويس، وكان لها الدور الأساسي في تلك الأعمال.

وكان همّ خصوم الإخوان العمل ضدّهم مثل: الوقوف في وجه ترشيح حسن البنا للمجلس النيابي، حلّ الجماعة، ومُصادرة أملاكها، ومُطاردة أعضائها، بثّ الشائعات ضدّها، اختلاق التّهم ورمي أعضاء الجماعة بها، ارتكاب الجرائم ونسبها للإخوان مثل: حريق القاهرة، وإلقاء المتفجرات.

الصراع الديني:

منذ أن فتح المسلمون مصر والأقباط يعيشون في ظلّ الحكم الإسلامي بكل أمنٍ وحريةٍ مُطمئنين على أنفسهم، وأملاكهم، وأموالهم، وأعراضهم اللّهم إلاّ في أوقاتٍ قصيرةٍ يعمل فيها الأقباط بتحريض من الأوروبيين فينالون جزاء خيانتهم كما حدث أيام نزول الصليبيين في مصر سواء أكان ذلك أيام الحملات الصليبية أم أيام الاستعمار الصليبي من فرنسيين وإنكليز، وما أن يخرج الصليبيون من البلاد حتى يعود الأقباط إلى رشدهم خوفاً أو تعقّلاً فلا يجدون عند المسلمين إلا العفو والمسامحة حتى تزيد أحياناً على الحدّ، الأمر الذي يجعل الخيانة تتكرّر.

وفي هذه المرحلة أسّس الأقباط حزباً خاصاً بهم، أمام دعوة الحزب الوطني للخلافة الإسلامية ـ على زعمهم ـ وكانت لهم صحفهم، بل كانوا أصحاب عدة صحفٍ ومجلاّت، وكان الإنكليز يدعمونهم، ويُحرّضونهم على بعض الأعمال وضدّ بعض الفئات، ويركنون إلى المحتلّين، وقد حاول الانكليز إثارة الأقباط ضد الفدائيين من الإخوان المسلمين أثناء القتال على ضفاف قناة السويس، وقام جنود المحتّل بإحراق كنيسة السويس، وادعوا أن الإخوان أقدموا على هذا الفعل. وزار حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين البطريرك الذي ذكر أنه على يقينٍ تامٍ أن الإخوان بريئون من هذا العمل.

المرحلة الثانية

سبق أن ذكرنا أن هذه المرحلة قد امتازت بالصراع بين السلطة والإخوان المسلمين، وإذا كانت الأحزاب قد أُلغيت وتوقّف دورها ونشاطها خلال هذه المرحلة إلاّ أن الإخوان المسلمين ليسوا حزباً سياسياً بالمعنى الصحيح أو ليسوا كبقية الأحزاب فهم أصحاب منهجٍ وفكر وعمل لن يستطيعوا أن يتخلّوا عنه كما تفعل بقية الأحزاب التي يتركُ أعضاؤها مركزهم ولقاءهم فيه، ويصبحوا مثل بقية الأفراد العاديين في المجتمع، وربما التقى بعضهم مع بعضٍ فتحدّثوا عن أوضاع البلاد أو انتقدوا أو. . . وربما أخذ بعضهم منصباً فنسي ما كان يدعو إليه بالأمس أو تحقّقت مصلحة له فأصبح يُطنب في المديح ويُثني. أما الإخوان فإن عليهم واجباتٍ يتميزوا بها عن غيرهم، وهي العبادات، وصحيح أنها واجبة على كل مسلمٍ، وليس كل مسلمٍ منخرطاً في تنظيم إلا أنّه معروف من كان داخل التنظيم منْ غيره، وما دام مواظباً على عباداته وسلوكه فهو في نظر غير الملتزمين بالعبادة والسلوك مُنظّم في جماعةٍ أو داخل في تنظيم، وهذا أمر أصبح معروفاً في أكثر الأمصار الإسلامية.

والواقع أن الحرب كانت على الإسلام أكثر من أن تكون على جماعة الإخوان، فالحقد الصليبي على الإسلام كبير، وقد يأخذ أشكالاً مُتعددةً. فلو كان الحرب على التنظيم لكان شأن الإخوان شأن بقية الأحزاب، أُغلقت المراكز، ومُنعت الاجتماعات وانتهى الأمر بمصادرة صحف ومجلات وأملاك وأموال الفئات كلها، ولكن الأمر غير ذلك فلو أن أحد أعضاء الإخوان استمرّ في عباداته وارتياده على المساجد وهذا واجب عليه، يفرضه عليه دينه لعُدّ هذا العضو أنه لا يزال على نشاطه وصلاته بإخوانه فيخضع للرقابة والضغط وللاعتقال، ويُحال بينه وبين أي عملٍ حكوميٍ يُريد أن يتسلّمه، ولكن لو أن

أحد الأعضاء ـ وهو نادر ـ ترك عبادته، واتجه إلى لهوه وفساده لعُدّ أنه قد صلح حاله وسار في طريقٍ سليمةٍ، وهذا منتهى الغرابة فالمستقيم الذي يسير في طريقٍ صحيحةٍ غير مرضيٍّ عنه ويقال إنه يسير في دربٍ غير سليمةٍ، والمنحرف الذي يمشي في الفساد والفجور مستقيم، وهذا في عُرف أعداء الإسلام، ومن هذا يصل المرء إلى أن العداء كان للإسلام لا لتنظيم جماعة الإخوان، وكل مسلمٍ مستقيم لا يرضون عنه ينسبونه إلى الإخوان المسلمين أو أية جماعة إسلاميةً أخرى غير مرضي عنها من قبل المحتلّين الأعداء أو المتسلّطين الخصوم، لذا كان الضغط منصبًّا عليهم دون سواهم.

وسبق أن ذكرنا في الفصل السابق أن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تحلّ محلّ إنكلترا في مصر من جملة المراكز الأخرى التي تسعى أن تحلّ محلّ إنكلترا وفرنسا فيها، وإذا كانت الولايات المتحدة وانكلترا أعداء للإسلام وللحركات الإسلامية الواعية كبقية الدول الصليبية إلا أن سبيل الولايات المتحدة في حربها ضدّ الإسلام يختلف عن طريق إنكلترا العريقة في الاستعمار، والتي لها أسلوبها الخاص في محاربة الإسلام. كانت انكلترا تستعدي في مصر القصر، ومُؤيديها من الأحزاب، ورجالات البلاد على الحركات الإسلامية وأفرادها، وتُشيع الشائعات، وتُحاول تنفير الناس من الحركات الإسلامية، وتدفع من يقوم ببعض الجرائم، وتلصقها بأعضاء الحركات، ولا تترك وسيلةً إلا وتتخذها لتدمير التنظيمات بل وتشجّع الفرق المنحرفة والضالة وربما يصل الأمر بها إلى تبنّيها، أما الولايات المتحدة فقد رأت زرع أعوانٍ لها بين أفراد الحركات الإسلامية وخاصّةً الإخوان منهم واستخدامهم وسيلة لجرّ بعض الأعضاء البارزين إليها أو كسبهم إلى جانب أتباعها للتعاون معاً والسير بالجماعة إلى تغيير نظام الحكم، وهي تسعى إليه، وتريد الولايات المتحدة جعله يتّجه للسير في فلكها بدلاً من أن يكون في خطّ انكلترا، فاتصلت بضباط في الجيش المصري ووجّهتهم ليكونوا على صلةٍ بضباط تنظيم الإخوان في الجيش وفي النظام الخاص، وقد جرت صلات في القتال في فلسطين وفي القناة، وتوقّعوا أن يكون بعض الضباط الذين احتكّوا بهم على صلةٍ بالإخوان نتيجة السلوك والعبادة. الإخوان يُريدون تغيير النظام

لتطبيق الإسلام، والولايات المتحدة تُريد تغيير النظام وإيجاد نظامٍ تابعٍ لها، والإخوان قوة يمكن الإفادة منها بل أوّل الفئات التي تتجه الأنظار نحوها للإفادة منها أو لاستغلالها لقوتها، وهكذا التقى الطرفان في هدفٍ واحدٍ هو تغيير النظام، وإن عمل كل منهما وحده، غير أن الإخوان يظنّون أن الضباط الآخرين مخلصين وطنيين ما داموا من أبناء البلاد فهم يسعون لمصلحة بلادهم، وقد رأوا فساداً قد استشرى يُريدون إصلاحه، لذا فقد مدّ الإخوان أيديهم نحوهم، أو كانت لهم قنوات تصلهم بهم. أما الطرف الآخر فإنه يُريد استغلال الإخوان لذا كان يحرص على إغراء بعضهم بكل الوسائل للسير معهم وربما حصلوا على بعض النصر فكسبوا بعض العناصر الأساسية والمهمّة وبخاصّةٍ عندما تمكّنوا من السلطة، وكان من خطة الولايات المتحدة أن تحصل على مواضع أسلحة الإخوان التي استعملوها في فلسطين، وعلى مواطن ضعفهم، ومقاتلهم، ومراكز قوّتهم من الصلة بين عناصرها ـ أقصد العناصر التي أصبحت تستطيع توجيهها ـ وعناصر الإخوان أو من الأعضاء الذين تمكّنت عناصرها من كسبهم وذلك لضرب الإخوان الضربة القاضية، أو استخدام تلك العناصر لحياكة بعض الألاعيب أو التمثيليات ورمي الإخوان ببعض التهم أو إلصاقها بهم، أو جعل بعض هؤلاء الأفراد يُؤدّون بعض الأدوار فيجرّوا الإخوان إلى المهالك أو القيام بردود الفعل، وإذا تصرّف أحد هذه العناصر ببعض الأعمال أخذت الجماعة بجريرة عمله وقُضي عليه وعليها.

استطاعت الولايات المتحدة بالفعل تغيير النظام في مصر في ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ، وساعدها على ذلك نقمة الشعب على الحكم ومفاسده، والقصر وفساده، ونقمة الجيش على أوضاعه، وتسلّط الديوان عليه عن طريق بعض الأفراد، وكان للإخوان دور في هذا التغيير عن طريق عناصرهم في الجيش، وعن طريق تأييدهم للحركة والوقوف إلى جانبها عسى أن يكون فيها خير للبلاد والمجتمع.

ونهض الجيش بالأمر، وأصدر قراراً بإلغاء الأحزاب، واستثنى الإخوان على أنهم جماعة دينية وليسوا حزباً سياسياً، وقام الإخوان في هذه المدة بنشاط فعّال ودورٍ تأييدي بنّاء. فلما تمكّن رجال الجيش المهيئون لذلك أزاحوا

من طريقهم كل مراكز القوى التي يمكن أن تقف في وجههم وفي مقدمتها الإخوان المسلمون، وصدر الأمر بحلّ الجماعة، فلما قامت تُريد الدفاع عن نفسها وحماية ما انكشف من مراكزها عن طريق تلك الصلات بينها وبين السلطة الجديدة، وقف جمال عبد الناصر في وجهها، وهو الرجل القوي لأنه المُهيَّأ لهذا الدور، فأزاح من طريقه كل ما يمكن أن تستند عليه الجماعة في حماية نفسها، ثم كانت حادثة تمثيلية الأزبكية، وبدأ الصراع واضحاً مكشوفاً سافراً بين جمال عبد الناصر ومن وراءه وبين الإخوان المسلمين ومن يُؤازرهم من الشعب أو بالأحرى من بقي إلى جانبهم لأن المؤيدين يكثرون في الرخاء وعند اقتراب جني المصالح حسب توقّعهم ويقلّون عند الشدّة فيتناثرون من جانب من ساروا بالقرب منه بالأمس عسى. . . .

وأقول هنا وأُكرّر وربما لألف مرّةٍ لا للنقد ولا لإصلاح رجال اليوم فإن أيامهم قد انصرمت وإنما لتربية الأجيال ولتعريف الدعاة، وكما زرع آباؤنا لنأكل، فنحن نزرع ليأكل أبناؤنا وأحفادنا، وكذلك نكتب لتعتبر الأجيال من بعدنا ولنُقدّم ما وصلنا إليه، إن تجميع الأعضاء والحرص على كثرة الأعداد دون تربيةٍ لا يُؤدّي إلاّ إلى الاختلاف، والانشقاقات، والاحتواء، وضياع الدعوة. إن وجود أصحاب مصالح في أية حركةٍ سيجعل الخلاف يقع بين أفرادها بعد مدةٍ وجيزةٍ وخاصةٍ إن وجدت مغانم أو لاحت في الأفق مصالح.

لقد حرص الإخوان المسلمون في مصر وفي كثير من الأمصار الإسلامية على زيادة الأعداد وحشد الأفراد لا إساءةً أو تفاخراً وإنما رغبةً في إسلام الناس ومحبةً في الأجر وأملاً في تطبيق الإسلام، ولم تكن عندهم الإمكانات لاحتواء هذه الجموع وتربيتها لذا بقي هناك نقص ظاهر في التربية، وعدم معرفة الواقع، والتصرّف السليم في الأوقات الحرجة، وفي الوقت نفسه كانت هناك أعداد من الذين التحقوا بالجماعة قد انضمّوا إليها مُجاملةً وصحبةً لأصدقائهم الملتزمين، ومنهم من انضمّ لأن أسرته قد عُرفت بهذا الاتجاه فدافع عنه عصيبةً لا إيماناً ومن الدفاع انقلب إلى عضو أو عُدّ منها لدفاعه عنها، ومنهم من ينوي الرفعة، ومنهم من يحرص على الفائدة بعد أن رأى النشاط والقوة فظنّ أنّ الوقت قد حان لقطف الثمار، وقد وصل بعض هؤلاء إلى

القيادة ولا تزال الأفكار التي دخل عليها ترتع في نفسه وتراوده بين الحين والآخر، ولا شك أن هناك فئةً وهي الغالبة ما انضوت في صفوف الجماعة إلاّ إيماناً صادقاً للعمل في سبيل الله.

إن الخلل لا يظهر إلاّ في القادة الكبار الذين يظهرون للناس جميعاً ولهذا بدا الأمر واضحاً في قيادة الثورة «الضباط الأحرار» الذين حكموا البلد، والذين لم يكن التحاق أكثرهم بحركة الإخوان المسلمين إلاّ مصلحةً وإفادةً من قوّة الإخوان العسكرية والشعبية فأرادوا استغلالها للوصول إلى أهدافهم التي وضعوها نصب أعينهم، كما أن كثيراً من المدنيين لم يكونوا أقلّ من العسكريين مصلحةً، وقد أفاد العسكريون عندما وصلوا إلى السلطة من هؤلاء المدنيين أصحاب المصالح، فانتزعوهم من حركة الإخوان بتأمين بعض المصالح لهم، وضربوا بهم الجماعة وفرّقوا صفوفها فأضعفوها، ثم تصرّفوا حيث شاءوا، وقد زالت من أمامهم أكبر قوّةٍ كانوا يخشونها، وأكبر عثرة تُعرقل خط سيرهم المنحرف.

ولما كان العسكريون قد حكموا مصر، وسُلّطت عليهم الأضواء، وعرفهم الناس، فلا بدّ من بحث موضوع الصراع معهم. بدأ عمل الإخوان في الجيش منذ عام ١٣٥٧هـ، وخاصةً أن مجلة «النذير» الإخوانية كانت تُناقش بعض القضايا التي تحدث في الجيش ومنها القضايا الاجتماعية، وموضوع خدمة الضباط من قبل الأفراد الأمر الذي جعل كثيراً من أفراد الجيش يقرؤون هذه المجلة فتأثّر بها عدد منهم، كما أن الإخوان كانوا دائمي الحديث عن الجهاد، وموضوع القوة، وعدم الخضوع للأعداء، وكانت مصر تئن من وطأة الاستعمار الإنكليزي، وهذه الموضوعات تُغري الشباب، وتُثير فيهم الحماسة، وتهزّ مشاعرهم، وهذا ما جعل أعداداً من العاملين في الجيش يلتفتون نحو الإخوان، ويتأثرون بهم، أو يطمحون بالوصول إلى أهدافهم عن طريق هذه الجماعة.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية أراد بعض أفراد الجيش الإفادة من ظروف الحرب القائمة وتحقيق بعض مصالح مصر، فتقدّم عدد منهم في شهر

ذي القعدة عام ١٣٦٠هـ، (كانون الأول ١٩٤١م) بعريضةٍ تحمل توقيع اسم «الجنود الأحرار»، ورفعوها إلى السلطات العليا مُطالبين بإلغاء اتفاقية ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، مع انكلترا ومنع كل ما يتعارض مع الإسلام في الجيش، وكان المسؤول عن هذا النشاط صلاح شادي فإذا ما توسّم في ضابطٍ الخير ولاحظ عليه العبادة تعرّف عليه، وعرّفه على المرشد، ويقوم المرشد باللقاء معه، ثم يُعرّفه على وكيل الجماعة للشؤون العسكرية محمود لبيب، وأخيراً يجمعه محمود لبيب برئيس النظام الخاص عبد الرحمن السندي، إذ كان العمل العسكري في الإخوان المسلمين مرتبطاً يومذاك بالنظام الخاص الذي وجد عام ١٣٥٩هـ أي في نهاية السنة الأولى من بداية الحرب العالمية الثانية، وكان يُشرف عليه في أول الأمر لجنة مؤلفة من: صالح عشماوي، وحسين كمال الدين، وحامد شربت، وعبد العزيز أحمد، ومحمود عبد الحليم، ثم رُشّح لرئاسته عبد الرحمن السندي، وبقي يخضع لإشراف حسن عشماوي، وحسين كمال الدين المسؤولين عن الإخوان في القاهرة.

لما كثر عدد الإخوان في الجيش أُفرد لهم قسم خاص، وكان رئيس قسم الجوّالة في الإخوان محمود لبيب هو المسؤول عن هذا القسم ويُساعده في هذا الحقل الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف، ويتمّ التنسيق عادةً بين كلٍ من:

محمود لبيب الضابط السابق، وعبد المنعم عبد الرؤوف الضابط الطيار في الجيش.

صلاح شادي الضابط في الشرطة «البوليس».

عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص.

حسين كمال الدين المسؤول عن الإخوان في القاهرة.

وكان عدد الضباط الذين اتصلوا بالإخوان عن هذه الطريق، وأثناء الحرب العالمية الثانية كبيراً، ومنهم: جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف البغدادي، وحسين الشافعي، وكمال الدين حسين، وخالد محيي الدين، وصلاح سالم، وحسن إبراهيم، وحمدي أبو زيد، وعبد الرحمن عنان أي أكثر رجال الثورة. وقد عمل عدد منهم على تدريب الإخوان على الأسلحة

في أوقات مُتعددةٍ، ومن هؤلاء المدرّبين جمال عبد الناصر، وصلاح سالم الذي كان يشتري الأسلحة للإخوان وينقلها إليهم من العريش إلى قناة السويس، وعبد اللطيف البغدادي الذي شكّل كتائب فدائيةً من الإخوان وأمدّهم بالأسلحة والذخيرة. ويبدو أن أكثر هؤلاء قد انضمّ إلى الإخوان حماسةً للجهاد والقتال الذي كان يُنادي به الإخوان، أو طمعاً إلى الوصول إلى السلطة، وإن كنا لا نستطيع أن ننفي الأثر الإيماني الذي يتجلّى في بعض الأوقات عند كثيرٍ منهم وخاصةً عند كمال الدين حسين.

وكان الشباب عامّةً والضباط خاصّةً يتألّمون من وجود الإنكليز في قناة السويس ويتمنّون في كل حينٍ لو يتمكّنون من إزالتهم ويستعدّون لليوم الذي يُفسح أمامهم المجال لطردهم، وقد بلغت هذه الحماسة ذروتها أثناء الحرب العالمية الثانية إذ كانت الظروف مناسبةً لذلك وربما كان أنسب تلك الظروف عندما تقدّم الألمان مع الطليان في ليبيا نحو مصر، حتى فكّر عدد من الضباط بالاتصال مع الألمان للعمل على طرد الإنكليز من مصر، ومن هؤلاء الضباط أنور السادات، وقد دخل السجن من أجل هذا، وفرّ بعض الضباط المصريين إلى الألمان، وانتقل أحدهم بطائرته إليهم، ولكنه لم يستطع الوصول لسقوط الطائرة «عبد المنعم عبد الرؤوف».

وربما نستطيع أن نلحظ رغبة بعض هؤلاء الضباط بالسلطة، وحبّ المصلحة من الصلة بكل مراكز القوى القائمة يومذاك، ولنأخذ مثلاً أنور السادات الذي كان على صلةٍ مع القصر عن طريق عبد الرؤوف نور الدين أحد ضباط الستار الحديدي الذي يعمل لخدمة الملك وحمايته وتنفيذ أوامره، وعن طريق يوسف رشاد طبيب القصر الخاص، وقد نفّذ أنور السادات بعض العمليات لحساب القصر، وفي الوقت نفسه اتصل بالإخوان المسلمين، ولسنا ندري إن كانت له صلات أخرى مع جهاتٍ ثانية، وهذا أنموذج من الضباط الأحرار.

كان أبرز الضباط بلا شك وألمعهم وأكثرهم طموحاً جمال عبد الناصر، وكان لا يقف في وجه طموحه أخوة ولا عهد. اتصل جمال بالإخوان

المسلمين بعد عودته من السودان، ولم يجد عند عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص ورئيسه المباشر ما يُحقِّق أطماعه ويملأ نفسه، وقد قام جمال عبد الناصر في هذه المرحلة بتدريب الإخون على السلاح. واتصل في عام ١٣٦٣هـ بالرائد محمود لبيب وسُرّ كل منهما بالآخر، واستمرّت الصلة بينهما، ولكن يبدو أن جمال عبد الناصر قد بدأ منذ عام ١٣٦٥هـ بالعمل لنفسه فكان يجمع الضباط حوله من خلف الرائد محمود لبيب، ولذا كان يُبدي له كثيراً من الودّ كي لا ينتبه إلى ما يُخطّط له.

وفترت الصلة بين الإخوان وبين مجموعة الضباط في المدة التي صدر فيها قرار حلّ الجماعة أيام حكومة محمود فهمي النقراشي، ونعود مرّةً أخرى إلى ضعف التربية لدى الإخوان فنُلاحظ أن هؤلاء الضباط في أيام غياب الجماعة عن الساحة يضيعون فيسير كل في هواه على حين أن تربية الضباط يجب أن تكون على شيء من التركيز نتيجة ظروفهم والبيئة التي يعيشون فيها، وربما إذا أردنا أن نجد بعض الأعذار لهم نقول: إن الظروف التي مرّت فيها الجماعة بين أوقاتٍ تُعلن فيها الأحكام العرفية، وأيام تتوقّف عن النشاط بسبب الحلّ كل هذا جعل التربية ضعيفةً عند الضباط. ففي هذه المدة أُهدي لخالد محيي الدين بعض الكتب الشيوعية فتأثّر بها، ونحى نحوها فابتعد عن الخطّ الإسلامي الذي كان أحد أفراده.

وجاءت حكومة حسين سري إثر استقالة إبراهيم عبد الهادي فأصدرت الحكومة الجديدة قراراً بإعادة الجماعة وعاد النشاط إلى الإخوان، وأرادت مجموعة الضباط أن تستفيد من هذا النشاط وخاصةً أن معظمها كان له صلة سابقة مع الإخوان تنظيماً أو عملاً. وعرض صلاح سالم على عبد الفتاح غنيم إعادة تشكيل الضباط الذين كانوا من جماعة الإخوان قبل حلّها، فجمعه مع صلاح شادي الذي وافق على هذا العرض، وتمّ اللقاء بين كل من صلاح شادي، وعبد المنعم عبد الرؤوف، وجمال عبد الناصر، وصلاح سالم، وكان اللقاء في مكتب حسن عشماوي، وطلب جمال عبد الناصر يومها برنامجاً ثقافياً لمجموعة من الضباط فقام حسن عشماوي بعمل ذلك المنهج وقُدّم لجمال عبد الناصر.

وفي نهاية عام ١٣٧١هـ (مطلع عام ١٩٥٢م) زاد النشاط العسكري، وزاد نشاط الإخوان المسلمين، وظهرت الحركة الشيوعية، وأحسّت المخابرات الأجنبية بهذه التحرّكات كلها، بل إن نشاط جماعة الإخوان المسلمين كان شبه مكشوفٍ وظاهراً، وهذا ما دعا وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن تُرسل «كيرميت روزفلت» إلى مصر، واستمرّت هذه الزيارة ثلاثة أشهرٍ، اتّصل خلالها بالمسؤولين، كما اتّصل بقيادة الضباط الأحرار، ورجع وقد استكمل الصورة الحقيقية عن واقع مصر يومذاك، ورفع تقريراً إلى وزير خارجية الولايات المتحدة «دين اتشيسون» وقد جاء فيه ما ملخصه:

١ ـ لم تعد وزارة الخارجية تخشى الثورة الشعبية التي يسعى إليها الإخوان المسلمون أو الشيوعيون.

٢ ـ لم يعد هناك أمل في إبعاد الجيش عن القيام بانقلاب.

٣ ـ يرفع قادة الانقلاب شعارات فيها لين للشعب لإسكاته وليس فيها ما تخشاه الولايات المتحدة الإمريكية.

٤ ـ يجب موافقة الحكومة الأمريكية على إقصاء فاروق عن الحكم وربما التخلُّص من النظام الملكي نهائياً.

وقد رسم جمال عبد الناصر المسؤول عن تنظيم الضباط الأحرار لنفسه خطةً في مطلع عام ١٣٧٢هـ يمكن أن نلخصها بما يلي:

١ ـ إبقاء الصلة مع الإخوان المسلمين للإفادة من قوتهم وشعبيتهم، وذلك بإظهار استمرار الارتباط بهم وتلقّي التوجيه منهم.

٢ ـ إبعاد ضباط الإخوان عن مجموعة الضباط الأحرار، ولذا فقد أطاح برأس ضباط الإخوان عبد المنعم عبد الرؤوف قبل الحركة بثلاثة أشهر تقريباً، وأن تستمرّ الصلة به شخصياً أو بمن يثق به على ألاّ ينفرد بلقاء.

٣ ـ ألاّ يدخل مجموعة الضباط الأحرار ضابط ذو رتبةٍ أعلى من رتبة جمال عبد الناصر كي يبقى هو المسيطر، وذلك حتى قبيل الحركة بقليل حيث يمكن قبول عناصر ذات رتبٍ عاليةٍ تستغلّ مرحلياً، ويمكن التخلّص منها

بسهولةٍ بعد الحركة إذ ليست ذات جذور بين رجال الثورة، وذلك كي تعود له القيادة دون مُنازعٍ، وهذا ما حدث مع محمد نجيب على سبيل المثال.

٤ ـ الحرص على إيجاد نقاط إدانة للإخوان المسلمين تكون جاهزةً عندما يُريد أن يصطدم بهم، فيُشيع الشائعات عنهم، ويُثير حولهم التهم.

وجاءت الأمور مناسبةً منذ أواخر عام ١٣٧١هـ فقد وقع حريق القاهرة في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢م)، ويعود السبب ـ كما مرّ معنا في الفصل الثاني ـ إلى أن القوات البريطانية في الإسماعيلية قد حاصرت قوات الشرطة المصرية، وطلبت منها تسليم الأسلحة ورفع الأيدي، فرفض ضباط الشرطة، ووقعت معركة ذهب ضحيتها سبعون من رجال الشرطة المصريين، فصدرت أوامر الحكومة المصرية إلى القوات في (الجيزة) والمكلّفة بحماية الجامعة بالسفر إلى الإسماعيلية لمعاونة إخوانهم هناك، واستلام أماكنهم، وفي الطريق وأثناء المرور بالقاهرة أخذ أفراد القوات يهتفون ضدّ الإنكليز، وضدّ الحكومة ويبدو أن هذا قد تمّ للفت نظر الشعب إلى ما حدث وإلى ما قد يحدث، وإشعار الناس بتقصير الحكومة، وفي الوقت نفسه فقد أحرقوا المحلاّت الإنكليزية. وكان ذلك اليوم قد بلغ العمل الفدائي مداه في قناة السويس، وأُعلنت في مصر الأحكام العرفية، وأُقيلت حكومة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد، وكُلّف علي ماهر بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ وهدّد الإنكليز بالزحف على القاهرة لإعادة النظام.

وكان جمال عبد الناصر قد كّلف مجدي حسنين بتدريب شباب الإخوان على استخدام الأسلحة الخفيفة، فلما كان يوم حريق القاهرة ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧١هـ، طلب جمال من الإخوان مكاناً لإخفاء الأسلحة الموجودة في مدرسة الأسلحة الخفيفة، فنُقلت بسيارات منير دلة، وحسن عشماوي، وعبد القادر حلمي، وصالح أبو الرقيق إلى منزل عبد القادر حلمي، ثم نقلت إلى عزبة والد حسن عشماوي في الريف بناءً على طلب جمال عبد الناصر الذي ذهب إلى العزبة، ورسم مخطط مكان التخزين بنفسه. واحتفظ جمال عبد الناصر لنفسه بالسرّ الذي يكمن وراء نقل هذه الأسلحة وتخزينها، فستكون يوماً تهمةً للإخوان على حيازة الأسلحة لمحاولات إجراميةٍ وتغيير الحكم.

ومن الأمور التي جاءت مواتيةً للضباط الأحرار تغيير الوزارات المستمرة، فقد أُقيلت حكومة الوفد إثر حريق القاهرة يوم ٢٨ ربيع الثاني عام ١٣٧١هـ، وجاءت حكومة علي ماهر ولم تدم أكثر من ثلاثة وثلاثين يوماً، إذ استقالت في ٣ جمادى الآخرة، وجاءت وزارة نجيب الهلالي، ولم تزد مدتها على أربعة أشهرٍ، إذ استقال إثر عيد الفطر مباشرةً، وقد أشرفت حكومته على الانتخابات، وفشلت في جرّ الإخوان إلى دخول المعركة الانتخابية. وجاءت حكومة حسين سري ولم تستمرّ في عملها سوى سبعة عشر يوماً إذا استقالت في ٢٨ شوال من العام نفسه، وقد طلب تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية، ولكن الملك رفض، وطلب تعيين حسين عامر، وعاد نجيب الهلالي إلى رئاسة الوزارة وعيّن إسماعيل شيرين وزيراً للحربية، غير أن هذه الحكومة لم تكمل يومها الثاني إذ قامت الحركة الانقلابية في ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م).

ومن الأمور التي جاءت مناسبةً للضباط الأحرار، انتخابات نادي القوات المسلحة إذ رشّح عامة الضباط اللواء محمد نجيب، واعترض الملك عليه، ورشّح أحد أعوانه، غير أن نتائج الانتخابات قد أعطت اللواء محمد نجيب رئاسة النادي بالأغلبية، فكان هذا حافزاً لإمكانية العمل ضدّ القصر إذ دلّت هذه الحادثة أن الملك ليس له مُؤيّدين بين الضباط إلاّ النذر اليسير في حقيقة الأمر لا في الظاهر.

الحركة:

بعد حادثة حريق القاهرة كثر اللقاء بين جمال عبد الناصر وجماعة الإخوان المسلمين، وكان يُمثّلهم: صالح أبو الرقيق، صلاح شادي، حسن عشماوي، عبد القادر حلمي. وقد ناقشوا موضوع الحركة، وتوصّلوا إلى:

١ ـ الانقلاب: إمكانية النجاح قائمة بل مضمونة إذ ذكر جمال عبد الناصر أن الحراسة في القاهرة بيد الجيش، وأكثر المشرفين عليها من الضباط الأحرار. وفي كل قطعةٍ مجموعة منهم عدا البحرية ولكن لا يُخشى منها إذ لا تُشكّل خطراً علي الحركة.

٢ ـ الحكم: استبعدوا أن يظهر الإخوان في الواجهة فإن ذلك يُثير الدول الأخرى وخاصة الكبرى منها. ولكن يُؤيّد الإخوان ويُوجهون.

كما أن الجيش يجب أن يبتعد عن السلطة وإنما يبقى المُوجّه لها، لذا يجب أن يكون الحكم بيد سلطةٍ مدنيةٍ، وقد اقترح الإخوان حكومةً مدنيةً برئاسة علي ماهر.

٣ ـ التأييد الشعبي: اتّفقوا على أن رجال الأحزاب سيُؤيّدون الحركة بل سيُسرعون في التقرّب لتأمين مصالحهم، ولن يستنكف سوى الشيوعيين، ولكن لا وزن لهم، وسيقوم الإخوان بالتأمين الشعبي، كما سيتولّون حراسة المنشآت.

٤ ـ الموقف الدولي: أكّد جمال عبد الناصر أن أمريكا لا تتدخّل بل تُؤيّد أيّ انقلابٍ ضدّ الملك، ولكن ليس لديه معلومات عن إنكلترا.

٥ ـ الملك: إن الظروف هي التي تتحكّم في وضعه.

وفي يوم ٢٧ شوال ١٣٧١هـ (١٨ تموز ١٩٥٢م) تمّ لقاء في دار صلاح شادي حضره عن جماعة الإخوان المسلمين: صلاح شادي، وصالح أبو الرقيق، وحسن عشماوي، وعبد القادر حلمي، وعن مجموعة الضباط الأحرار: جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وكمال الدين حسين، وقد رأوا ضرورة القيام بالحركة ولكن يجب أخذ موافقة المرشد العام حسن الهضيبي قبل ذلك، وكان الهضيبي في الإسكندرية، فأرسل الإخوان إليه فحضر إلى القاهرة، وتمّ اللقاء مع الضباط يوم ٣٠ شوال، واتّفقوا على تطبيق الشريعة، وأن تكون الحركة مُشاركةً بين جماعة الإخوان المسلمين ومجموعة الضباط الأحرار. وانطلق كل ليُؤدّي دوره.

وقد لاحظ ضباط من الإخوان المسلمين «عبد المنعم عبد الرؤوف وأبو المكارم عبد الحي» تحرّكات الضباط الأحرار فجاءا إلى صلاح شادي يستوضحان عن الأمر فلم يُخبرهما إذ لم يكن مخولاً من المرشد بإعلام أحدٍ عن الحركة.

وفي الساعة الثالثة من فجر ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م) تحرّكت القطعات العسكرية، واستلمت مراكزها، واستولت على المراكز المحدّدة لها، وجاءت الأوامر إلى عبد المنعم عبد الرؤوف بمحاصرة قصر

الملك بالإسكندرية بقواته فأدى دوره تماماً، ولم ينظر إلى خلافه مع جمال عبد الناصر الذي عمل على إبعاده عن الضباط الأحرار منذ ثلاثة أشهرٍ. وقام الإخوان بدورهم أيضاً فوقفت جماعات منهم على طريق السويس لمقاومة الإنكليز فيما إذا فكّروا بالتقدّم نحو القاهرة، وكانت جماعات منهم أيضاً تقوم بحماية المنشآت والسفارات حسب خطةٍ مرسومةٍ بين القيادة العسكرية وقيادة الإخوان.

وبعد الانتهاء من استلام السلطة والسيطرة على جميع المرافق استدعى جمال عبد الناصر حسن عشماوي وطلب منه أن يُصدر المرشد حسن الهضيبي بياناً بتأييد الثورة.

وفي ٥ ذي القعدة أُجبر الملك على التنازل عن العرش إلى ولي عهده الصغير أحمد فؤاد الذي لم يتجاوز من العمر ستة أشهرٍ على أن يقوم عليه مجلس وصاية من كلٍ من: الأمير محمد عبد المنعم، ورشاد مهنا، وبهاء الدين بركات.

وفي ٧ ذي القعدة تم اللقاء بين حسن الهضيبي وجمال عبد الناصر في منزل محمود عبد الحليم وحضر اللقاء من الإخوان صلاح شادي، وحسن عشماوي، وعبد القادر حلمي، وقال يومها جمال عبد الناصر لحسن الهضيبي: قد يقال لك إننا اتفقنا على شيءٍ والواقع أننا لم نتفق على شيءٍ بعد. ودعا الهضيبي جمال عبد الناصر إلى تطبيق القرآن فردّ بأن الثورة قامت ضدّ الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الإنكليزي لا لتحكيم القرآن، وقد طالبت الثورة بالتحقيق في مقتل البنا، وطالبت حكومة علي ماهر بالإفراج عن السياسيين، وفي مقدمتهم الإخوان.

وتشكّل مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب، وعُهد إلى علي ماهر بتشكيل وزارةٍ حسب رأي الإخوان.

وفي ٩ ذي القعدة تمّ لقاء أيضاً في دار صالح أبو الرقيق بين حسن الهضيبي وجمال عبد الناصر.

الصراع بين الإخوان والثورة:

استقرّت الأوضاع واستتب الأمر لرجال الثورة، وشعرت جماعة الإخوان

أنها شاركت مُشاركة فعّالةً في الحركة وأن لها اليد الطولى في النجاح سواء أكان ذلك في التأييد الشعبي أم في تأدية الدور المطلوب منها عسكرياً، وجوّالةً، وفي التوجيه والتخطيط.

ورأى جمال عبد الناصر أنه قد آن الأوان للسير في مخططه لقطف ثمار جهده والعمل لنفسه، وقرّر أن يسير بالأمر منفرداً، يتخلص من الإخوان كما يتخلّص من الضباط أصحاب الرتب الذين هم أعلى منه رتبةً، ورأى أن عليه:

١ ـ توجيه الأنظار إلى الضباط الكبار بإبرازهم بدءاً للتخلص منهم، فسلّم اللواء محمد نجيب رئاسة مجلس قيادة الثورة، ثم رئاسة الوزارة، ثم رئاسة الجمهورية وليس بعد ذلك إلا الإقالة والعزل.

وحلّ الأحزاب والإبقاء على جماعة الإخوان المسلمين الذين يظنّون أن هذا الاستثناء قربى لهم وحسن صلةٍ، وهو في الواقع حقداً، وفي سبيل إحصاء تحرّكاتهم وتصرّفاتهم، وهم المجموعة القوية شعبياً، القوية عدداً، القوية تنظيماً.

وعندما تزول القوى الرئيسية من أمامه والتي تستطيع أن تقول: لا. لا يوجد بعدئذٍ من يقول له: لا، أو يقف في وجهه. وعندما يختلق أحداثاً أو يدّعي أشياء ضدّ من يُريد لا يوجد هناك من يُكذّبه، وأجهزة الإعلام بيده، والمتزلّفون يُؤمّنون على أفعاله، ويصفونها بالإلهام.

٢ ـ إبعاد الإخوان عن الضباط الأحرار كي لا يكون لهم عليهم أي أثرٍ، وكل ما يدّعيه ضدهم يُصدّق من قبل رجال الثورة، وقد رأينا كيف أبعد عبد المنعم عبد الرؤوف قبل ثلاثة أشهرٍ من قيام الحركة. وإذا استطاع شراء بعض عناصرهم التي في الجيش فهو أمر مطلوب، ويُسعى له، وقد فعل، وتمكّن من إغراء بعضهم.

٣ ـ العمل على التفرقة بين الإخوان، وضرب مجموعةٍ بأخرى لإضعافهم، وإمكانية القضاء عليهم. وقد حرص على ضرب المرشد بالنظام الخاص الذي يرأسه عبد الرحمن السندي على الرغم من عدم محبته للسندي والشكوى السابقة منه، ويُمكنه استعمال طرق الإغراء بالمناصب لبعض هؤلاء

ما دام الأمر قد أصبح بيده. وقد تمكّن من بعض النجاح عن هذه الطريق. فقد أخرج أحمد حسن الباقوري من الجماعة بتسليمه وزارة الأوقاف. وهيّأ صالح العشماوي لاستلام منصب المرشد العام، وسلّم إبراهيم الطحاوي رئاسة هيئة التحرير، وأعطى مجدي حسنين مديرية التحرير، وترك له حرية العمل بالرشوة. واستقدم نجيب جويفل من بيروت وأعطاه جواز سفر، وكلّفه بمهمة التفرقة بين الإخوان في البلدان العربية ليكون بمنزلة المرشد العام. وقد استجاب هؤلاء لأطماعهم، ومشوا في الطريق التي رسمت لهم.

والغريب أن جماعة الإخوان حتى الآن لم تأخذ عبرةً من هذه الدروس، ويعود السبب في ذلك إلى أن أفرادها لم يعترفوا بهذه الأخطاء، وإنما يجدون الأعذار والمبررات، وما دامت لا توجد أخطاء فالأمر صحيح وليس هناك من عبرةٍ، وإلى الآن لا يوجد في الجماعة جهاز لحماية أفرادها والسهر على أمنها لذا فكل يتصرّف بما يُرشده إليه فكره دون رقابةٍ ولا مُحاسبة، ورُبّما وُجد مثل هذا الجهاز في بعض الأوقات في بعض الأمصار ولكن لم يُمارس صلاحياته فبقي مُعطّلاً كأن لم يوجد. كما لا يوجد في الجماعة مكتب استشاري، يُشير على المسؤول الأول، ويُقوّم أعماله لذا كانت تصدر تصريحات وخاصةً في الآونة الأخيرة غير مُوفّقة تُظهر ما يجب ستره، وتستر ما يجب إظهاره، بل تحدّث بعضهم عن أوائل حياته وقال: إنه رقص، وإنه مارس كل شيءٍ سوى الزنا والخمر، وهذا أمر ستره الله عليه، فيجب ستره لأنه يُقلّل من هيبة الرجل ويُضعف من شأنه، ولم ينصحه أحد من إخوانه ولم ينتقده أحد من جماعته، فالجماعة كأنها معصومة فلا أخطاء، ولذا لا توجد عبرة نستفيد منها، وتقوم العصبية الحزبية التي لا يقرّها أحد، ولو تكلّم أحد وأراد النصح أجابه بعض صغار العقول: إن للجماعة علماءها وهم على معرفةٍ، ويُمكنهم التقويم وإسداء النصح عند الحاجة إليه فما حدث صحيح، ولا يمكن أن يصدر إلا صحيح لأن علماء الجماعة قد عرفوه وأقرّوا ذلك، فيصل بذلك إلى العصمة ولا يدري ما يقول سوى العصبية، وصحيح أنه توجد مجالس شورى في أكثر الجماعات الإسلامية القائمة لكنها لا تُمارس ما يجب مُمارسته وإنما يظن أعضاؤها أن مُهمّتهم قانونية فقط ومناقشة بعض الجوانب وخاصةً السياسية منها.

وزارة محمد نجيب:

وفي شهر ذي الحجة من عام ١٣٧١هـ (أيلول ١٩٥٢م) استدعى جمال عبد الناصر إلى مكتب قيادة الثورة حسن عشماوي، وأبلغه عن تضايق مجلس قيادة الثورة من رئيس الوزراء علي ماهر، وقد اتّخذ قراراً للتخلّص من علي ماهر وإسناد رئاسة الوزارة إلى اللواء محمد نجيب، وأن يشترك عدد من الضباط الأحرار في هذه الوزارة، وأن يكون سليمان حافظ نائباً لرئيس مجلس الوزراء، وأن يشترك الحزب الوطني أيضاً بوزيرين، ويرغب مجلس قيادة الثورة أن يشاور الإخوان المسلمين في هذا الموضوع.

وتمّ اللقاء بين حسن الهضيبي وجمال عبد الناصر، وقد دعا جمال عبد الناصر الإخوان إلى الاشتراك بالوزارة بثلاثة وزراء، وفي حالة عدم الرغبة في الاشتراك ترشيح أشخاص للوزارة، وكان يرى جمال أن يكون وزراء الإخوان: أحمد حسن الباقوري، وحسن عشماوي، ومنير دلّة.

اجتمع مكتب الإرشاد وقرّر عدم الاشتراك بالوزارة غير أنه قد رشح بعض العناصر لها مثل عبد العزيز علي، وأحمد حسني، وقد تسلّما مناصب وزاريةً فعلاً، غير أن جمال عبد الناصر قد استطاع إقناع أحمد حسن الباقوري بالخروج عن قرار مكتب الإرشاد وقبول وزارة الأوقاف، وكان أن قدّم استقالته من الإخوان كلياً، وهكذا بدأت الإغراءات، وبدأت عوامل التجزئة تظهر. وحاول كمال الدين حسين إقناع الجماعة بالعدول عن قرارها غير أنه لم يُفلح، وعدّ جمال عبد الناصر هذا التصرّف خلافاً بينه وبين الجماعة.

وما مرّت أربعة أشهر من العام الجديد ١٣٧٢هـ حتى بدأن الأحداث تتلاحق وتزدحم إذ بدأ كل طرفٍ ـ بالسرعة ـ لإنجاز ما خطّط له.

هيئة التحرير:

صدر قرار بحلّ الأحزاب السياسية، ولم ينل هذا القرار الإخوان المسلمين على أنهم جمعية إصلاحية دينية وليسوا حزباً سياسياً، وقد قصد هذا القرار إزالة العقبات من وجه جمال عبد الناصر للتفرّد بالسلطة، وإزاحة كل منظمةٍ يُمكن أن يصدر منها نقد للحاكم الوحيد، إذ يُمكن بعدها تأسيس جماعةٍ

يعتمد عليها في دعم سلطانه وتقوم بتنفيذ مآربه، وتُحقّق له كل ما يرغب، وتُهيّيءُ السبيل لذلك.

قام جمال عبد الناصر بجولة في الوجه القبلي تهيئةً لتأسيس جماعته بإبراز شخصه بالاحتفالات وتسليط الأضواء على زعيم مصر الصاعد إلى القمة بالهتافات، وطلب من الإخوان قبل الزيارة تهيئة الاستقبال الشعبي له حيث يرتحل، وقد قاموا بالفعل، غير أن هذا قد كان مُنغّصاً له ولهم. إذ كانت تُثيره هتافاتهم الخاصة بدعوتهم، على حين كان يُريد أن يكون كل شيءٍ مُوجّهاً له ولمصلحته الخاصة التي يُريد منها الآن ظهوره في المجتمع بمظهر الزعيم المنقذ والرائد المصلح. وأحسّ من داخله وبكل جوارحه أنه لا يُمكن وجود جوادين في آنٍ واحدٍ، فإما هو وإما جماعة الإخوان، لذا يجب البدء بالتخطيط للقضاء عليهم والخلاص منهم.

وكان الإخوان قد ظنّوا عندما صدر القرار بحلّ الأحزاب السياسية واستثنى الإخوان إنما يُراد لهم خير غير أنهم شعروا الآن أن ذلك القرار قد استبقاهم ليكونوا مطيةً يرتقي عليهم جمال عبد الناصر، لذا يجب الحذر، ولم يقوموا بتقويم تلك المرحلة التي اجتازوها ويعترفوا بما وقعوا فيها من زلاّت وإنما أوجدوا لأنفسهم التبريرات واعتقدوا أن كل ما قاموا به كان صحيحاً.

رجع جمال عبد الناصر من رحلته، وصدر الأمر بتشكيل هيئة التحرير لتكون القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الحكم، وأسرع إليها المُتزلّفون وانضمّوا إليها، وهرع نحوها أصحاب المصالح، وانضووا تحت لوائها، وأصبحت تمثّل قطاعاً كبيراً من الشعب، وأُسندت رئاستها إلى إبراهيم الطحاوي.

ومن الأمور التي يجب ملاحظتها أنه تشكّل في سوريا في هذه الآونة حزب سياسي يحمل الاسم نفسه «هيئة التحرير» ويتزعّمه رئيس جمهورية سوريا العسكري أديب الشيشكلي ومن المعلوم أنهما يسيران في فلكٍ واحدٍ، وقد جرت محاولات للتنسيق بين الهيئتين.

وأصبحت جماعة الإخوان المسلمين تُمثّل بالنسبة إلى جمال عبد الناصر

وإلى هيئة التحرير الجماعة الضرار، ولا بدّ من إزالة إحدى الهيئتين، ولا شكّ فإن جماعة الإخوان المسلمين هي الي ستزول بصفتها المعادية لحاكم البلاد العسكري، وبصفتها الهرمة نسبياً، على حين أن هيئة التحرير شابة وضخمة الإمكانات ما دامت تضمّ مجموعة الحكم وبيدها الإغراءات من مناصب ومراكز و. . . ولكن الواقع غير ذلك فالإخوان المسلمون جماعة مُنظّمة تحمل فكراً وتُمثّل عقيدةً يُؤمن بها أكثر المجتمع المصري على حين أن هيئة التحرير منظمة تضم أصحاب المصالح الذين يتفرّقون عنها ويبتعدون منذ أوّل أزمةٍ إذ لا يمكن لفردٍ من أعضائها أن يُضحّي في سبيل لا شيء، وهو قد وُجد في موقعه لمصلحته فقط فإن زالت مصلحته فلا داعي لوجوده أساساً، وهذا ما حدث فقد زالت هيئة التحرير وعفى عليها الزمن ونسيها الناس، ولا تزال جماعة الإخوان المسلمين قائمةً.

رأى جمال عبد الناصر لإزالة جماعة الإخوان المسلمين دمجها في هيئة التحرير فتذوب شخصيتها، ويزول تميُّزها، ويتوزّع أعضاؤها في المراكز والمناصب، وتطلّعاتهم والإغراءات التي توفّرها السلطة لهم.

اتصل جمال عبد الناصر بحسن عشماوي وأرسل إليه إبراهيم الطحاوي ليطلب منه العمل على دمج جماعة الإخوان المسلمين في هيئة التحرير، وقد جعل هذا الطلب تحت شعار كاذب «توجيه الهيئة والإشراف عليها»، ويحمل هذا الطلب في طياته الإغراءات الواسعة إذ يُظنّ توجيه السلطة واستلام الأمر وهذا ما تمّ الاتفاق عليه عند التخطيط للقيام بالحركة العسكرية. وطلب جمال عبد الناصر في الوقت نفسه تحديد موعد للقاء. وتمّ اللقاء في دار عبد القادر حلمي وحضره من جانب الإخوان: حسن عشماوي، صالح أبو الرقيق، فريد عبد الخالق، منير دلّة، عبد القادر حلمي، محمود عبد الحليم، وحضره من جانب الضباط: جمال عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، كمال الدين حسين، عبد اللطيف البغدادي، صلاح سالم، أنور السادات، وأحمد أنور «قائد البوليس الحربي». ورفض الإخوان هذا الدمج، وهذا أمر طبيعي إذ من المستحيل الموافقة عليه لأن الهدف منه معروف وهو إذابة كيان الجماعة ضمن إطار هيئة التحرير. وبعد الرفض أجابهم جمال عبد الناصر: إنكم عصاة. وإن

جرى نقاش حول هذه العبارة إلا أن القصد من إلقائها هو الإيذان ببدء الخلاف، والإشعار بأن كل طرفٍ يسير في طريق.

المفاوضات مع الإنكليز:

كانت إنكلترا تعتقد أن الحركة التي حدثت في مصر كانت مُشاركةً بين جماعة الإخوان المسلمين وجماعة الضباط الأحرار، وكانت الحركة مُوجّهةً ضدّ انكلترا بالدرجة الأولى ولما أحسّت بشيءٍ من الخلاف بين الطرفين المشاركين في الحركة وفي السلطة اليوم، فكّرت زيادة الخلاف وكسب طرفٍ من هاتين الجماعتين إليها، وهذا الطرف هو الإخوان طبعاً رغم كرهها الشديد للإخوان بل حقدها الدفين عليهم وعلى دعوتهم، كما أن الإخوان لا يقلّون كرهاً لها عن كرهها لهم، والطرف الثاني وهو الضباط الأحرار مرتبط مع منافستها في الاستعمار الولايات المتحدة الأمريكية على حين أن الإخوان لا ارتباط لهم بأية جهةٍ من الجهات، فإذا استطاعت كسب ودّ الإخوان مرحلياً، وانتصرت بهم فقد رجعت إلى مركزها وتسلّطها على مصر، وإن حدث قتال بين الطرفين واتهامات، وإن مجرّد الاتصال بالإخوان سيحدث هذا، فإن المجموعتين تضعفان ويمكنها إعادة نفوذها عن طريق رجالها الذين لم تزل لهم قوة، وإن انتصر الطرف الثاني وهو رجال الثورة من الضباط فإنها تكون قد تخلّصت من أحد العدوّين، ولن يكون أسوأ ممّا حدث فقد تزعزعت أركانها في مصر. وربما تكتفي بإشاعة هي أن الإخوان عملاء فإن لم يشعر أحد أشاعته هي ونشرت ما تمّ من لقاءات بينها وبينهم.

وكان مجلس قيادة الثورة العسكري يرى ضرورة التفاهم مع إنكلترا للجلاء عن قناة السويس، وإن لم يتّم ذلك عن طريق التفاوض والتفاهم فليس هناك من حلّ سوى العودة إلى الجهاد.

اتصل محمد سالم الذي له علاقة بالسفارة الإنكليزية نتيجة علاقته بها كمستشار في إحدى المؤسسات مع صالح أبو الرقيق ونقل له رغبة السفارة الإنكليزية بالالتقاء ببعض المسؤولين من الإخوان، فأبلغ صالح أبو الرقيق المرشد العام حسن الهضيبي بهذا الخبر، فكلّف المرشد العام كلاً من منير دلّة

وصالح أبو الرقيق بالالتقاء مع «إيفانز» المستشار الشرقي للسفارة، وطلب منهما الاستماع دون إبداء الرأي، كما كلّف في الوقت نفسه حسن عشماوي لإبلاغ عبد الناصر بهذا الخبر.

أوضح «إيفانز» للإخوان أن إنكلترا أصبحت على قناعةٍ تامةٍ بضرورة الجلاء خلال سنتين على أن تكون هناك علاقة بينها وبين مصر بعد الجلاء، ونقل الإخوان هذا الحديث إلى المرشد فكلّف صالح أبو الرقيق بكتابة محضرٍ عن اللّقاء وإرسال نسخةٍ منه إلى جمال عبد الناصر.

وتمّ لقاء بين المرشد و «إيفانز» في بيت المرشد بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (٩ شباط ١٩٥٣م)، واتصل المرشد إثرها بجمال عبد الناصر، وحدثت لقاءات في بيت منير دلّة. وضرب موعد للقاء جديد في ٨ جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ (٢٢ شباط ١٩٥٣م) بين المرشد و «إيفانز» في منزل المرشد، وأُبلغ جمال عبد الناصر بالموعد فحضر قبل يومين من الموعد فأُعلم ثانيةً بأن الموعد مع «إيفانز»، ورأى جمال عبد الناصر ألاّ تكون هناك مفاوضات قبل أن يكون هناك اتفاق تام مع الإخوان.

وجاء الموعد المحدّد، وأتى «إيفانز» إلى بيت المرشد، وعرض العرض نفسه الذي عرضه على صالح أبي الرقيق ومنير دلّة.

وتمّ لقاء بين جماعة الإخوان ومُمثّلي مجلس قيادة الثورة في منزل منير دلّة بتاريخ ١١ جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ (٢٥ شباط ١٩٥٣م) حضره عن جماعة الإخوان: حسن الهضيبي المرشد العام، وحسن عشماوي، وصلاح شادي، وصالح أبو الرقيق، وعبد القادر حلمي، ومنير دلّة، وحضره عن مجلس قيادة الثورة: جمال عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، كمال الدين حسين، صلاح سالم. وفي اللّقاء أبدى جمال عبد الناصر بُعد إمكانية التوجّه نحو المعسكر الشرقي، ولكن التوجّه نحو الغرب أمر طبيعي يفرضه الواقع وتُحتّمه الظروف، وما يمنع إبقاء قاعدة الإسماعيلية بيد الإنكليز، ولكن يجب تحديد عدد المُشرفين الإنكليز فهم عشرة آلاف، ويرى المصريون ألا يزيد ذلك العدد على خمسة آلاف. وكذلك يُوافق ـ على عودة الإنكليز إلى القاعدة في حالة قيام

حربٍ فعليةٍ في بلاد تقع في خط الدفاع الأوّل عن مصر مثل تركيا، وليس كما يعرض الإنكليز في حالة وجود خطر قيام الحرب.

يبدو من هذا الكلام الذي طرحه جمال عبد الناصر وهو يحوي الخطوط الرئيسية التي قامت عليها اتفاقية الجلاء فيما بعد أن هناك مُشاورات بين السفارة الإنكليزية في القاهرة وبين مجلس قيادة الثورة المصري إذ كان الإنكليز يتحرّكون على محورين، ففي الوقت الذي كانوا يُفاوضون الإخوان المسلمين كانوا يتشاورون مع مجلس قيادة الثورة حيث كانوا يرغبون في مسك أطراف الخيوط كلها بأيديهم أو أنهم عندما وجدوا تشدّداً من المرشد حسب رأيهم إذ طلب من «إيفانز» الجلاء مباشرة دون شروط، وأنه إذا أرادت إنكلترا قيام علاقةٍ طيبةٍ مع مصر فإن ذلك لا يكون إلا بجلائها عن قناة السويس. فلما رأت السفارة الإنكليزية ذلك اتّجهت إلى مجلس قيادة الثورة لعلّها تجد تجاوباً أكثر أو مرونةً أفضل، فوجدت تساهلاً لم يكن يخطر على بالها. وأغلب الظن أن الولايات المتحدة كانت وراء عملية التفاهم بين قيادة الثورة وإنكلترا فكل طرفٍ حليف لها في جهة قيادة الثورة في مصر، وإنكلترا في حلف الأطلسي ولكل مصلحة في الجهة التي يرتبط فيها.

ولكن جمال عبد الناصر مُمثّلاً لمجلس قيادة الثورة كان يُخفي ما يدور في السرّ بينه وبين الإنكليز، ويمكر بالإخوان، ويُخطّط لضربهم والتخلّص منهم، بينما كان الإخوان من باب حسن النية أو إن شئت تسمّيها غفلةً يذكرون كل شيءٍ مُباشرةً لجمال عبد الناصر، ويُعلمونه ما يُريدون طرحه وموعد اللقاء، ويظنّون أن هذا يُبرّر لهم تلك اللقاءات المريبة إذا لا يحقّ لهم الاتصال بدولةٍ أجنبيةٍ ما داموا لا يُمثّلون جهةً رسميةً، ويعتقدون أن إخبار السلطة مُتمثّلةً بجمال عبد الناصر يُبرّر لهم ذلك غير أن جمال عبد الناصر كان يستفيد من هذا كثيراً فيحتفظ به وما يؤكده من وثائق ومحادثات لإبرازها وقت الحاجة، الوقت الذي يُريد فيه ضرب الإخوان فيُبرز هذا للناس ويُبرهن على أنهم كانوا على صلةٍ رسميةٍ بدولة أجنبيةٍ ولديه الدليل، ولا يستطيع أحد أن يُكذبه، بل لا يستطيع أن يقول له: إنك كنت على علمٍ بكل تفصيلات الموضوع وخُطوةً خُطوةً فوسائل الإعلام بيده وليس في مصر فوقه أحد، ولا يُسمع سوى صوته،

وهذا ما حدث فعلاً. لقد أصبحت الوثائق بيده وبخطّ صالح أبو الرقيق، والمكالمات مُسجّلة بينه وبين حسن الهضيبي، كما أنه على علمٍ بموضع الأسلحة التي خبّأها بيده في عزبة والد حسن عشماوي وبناءً على رأيه وتوجيهاته بل وصُنع المخزن حسب تخطيطه وكل هذه مستمسكات بيده، ويدين بها الإخوان وسيستعملها وقت الحاجة إليها. ولكن ـ مع الأسف ـ لا يزال الإخوان على موقفهم لم يعترفوا بهذا الغلطة التي وقعوا فيها، إذ ليس لهم الحقّ بالاتصال بأية سفارةٍ ما داموا لا يحملون الصفة الرسمية، مهما كانت قوّتهم ومهما كان دورهم في الثورة، ومهما كانت شعبيتهم، لذا لم يأخذوا العبرة مما حدث، وهم على وضعهم الذي كانوا فيه يوم ذاك. مع اعتبار التراجع بالنسبة إلى مرور الزمن.

وفي ١٣ شعبان ١٣٧٢هـ (٢٧ نيسان ١٩٥٣م) تشكّل وفد المفاوضة المصري برئاسة اللواء محمد نجيب وعضوية كلٍّ من جمال عبد الناصر، وصلاح سالم، ومحمود فوزي، وحامد سلطان، وعلي حسن زين العابدين. ولما رأت إنكلترا التساهل من الطرف المصري تشدّدت في مطالبها من مصر الأمر الذي أوقف المفاوضات في ٢٧ شعبان ١٣٧٢هـ (١١ أيار ١٩٥٣م)، وجاء في اليوم نفسه «جون فوستر دالاس» وزير خارجية الولايات المتحدة لزيارة مصر.

كانت الولايات المتحدة ترغب في الاتفاق بين مصر وإنكلترا لجلاء إنكلترا عن قناة السويس وإنهاء وضعها في مصر، ولم تكن ترغب في الصدام، وكان اللواء محمد نجيب قد طلب من الرئيس إيزنهاور رئيس الولايات المتحدة في ربيع الأول ١٣٧٢هـ (أوائل عام ١٩٥٣م) مساعدات عسكرية ومالية، فأجاب بموافقة الولايات المتحدة على ذلك إذا ما تمّ الاتفاق بين مصر وإنكلترا، وقد رأينا أن المفاوضات قد بدأت ولكنها تعثّرت وتوقّفت، ثم استؤنفت في ١١ ذي القعدة ١٣٧٣هـ (١١ تموز ١٩٥٤م)، واستمرّت ستة عشر يوماً، حيث انتهت بوساطة الولايات المتحدة التي قدّمت لمصر أربعةً وأربعين مليون دولار أمريكي، وثلاثة ملايين دولار أيضاً هديةً شخصيةً لرئيس الدولة، وجاء مندوبان لتزويد مصر بالسلاح الذي يحتاج له الأمن الداخلي. ووُقّع على الاتفاقية نهائياً

في ٢٢ صفر ١٣٧٤هـ (١٩ تشرين الأول ١٩٥٤م)، وقد انتقد الإخوان هذه الاتفاقية لأنها زادت في رباط قناة السويس بإنكلترا بدلاً من أن تنهيه، وذلك لأن إنكلترا كانت مُلزمةً بالجلاء عن قناة السويس حسب اتفاقية عام (١٩٣٦م) قبل أقلّ من عامين من تاريخ توقيع الاتفاقية الأخيرة، أما الآن فلها الحقّ في العودة إليها في حالة اعتداءٍ على أية دولةٍ عربيةٍ أو على تركيا، كما أن رأي الإخوان أن معاهدةً كهذه يجب أن تُعرض على مجلسٍ منتخبٍ. ويجب أن نُلاحظ هنا نقطةً رُبّما يقول بعضهم: كيف تُنافس الولايات المتحدة الأمريكية إنكلترا وفي الوقت نفسه ترغب في عقد اتفاقية بين مصر وإنكلترا بل دفعت أموالاً في سبيل تنفيذ هذه الاتفاقية؟ والأمر واضح فإن الولايات المتحدة قد أخرجت إنكلترا من مصر، وبقيت القناة ـ مرتبطةً في المعسكر الغربي ككل، وقابل جمال عبد الناصر انتقاد الإخوان بالتنكيل بهم.

انتقاد الإخوان للثورة:

كان الإخوان ينتقدون الحكم العسكري لما فيه من تسلّطٍ واستبدادٍ، والحكم من قبل فردٍ أو على الأقلّ من قبل مجموعةٍ قليلة العدد ورُبّما لا خبرة لها في السياسة، لذا كانوا يرفضون حلّ التنظيمات السياسية والأحزاب ولو استثناهم القرار من ذلك، فهم يعملون لمصلحة الأمة لا لمصلحة أنفسهم ولا يُفكّرون في العصبية الحزبية والمكاسب الخاصة. وكانوا يدعون إلى إجراء انتخاباتٍ عامةٍ والعودة إلى الحياة النيابية، وهذا لا شكّ يُخالف رأي العسكريين الذين يُريدون أن يستأثروا بالسلطة، ويُطالب الإخوان بتحديد موعدٍ لإعلان الدستور، غير أن العسكريين لن يرضوا بهذا لأنه يحدّ من تسلّطهم واستبدادهم.

وكان الإخوان ينتقدون الحفلات التي تُسمّى بالترفيهية والتي تُقام في المعسكرات والتي كان يُقيمها وجيه أباظة وأمثاله.

وانتقد الإخوان اتفاقية الجلاء، كما سبق أن ذكرنا، وقد هاجم حسن دوح زعيم الإخوان في الجامعة هذه الاتفاقية بتاريخ ٢٨ ذي الحجة ١٣٧٣هـ (٢٧ آب ١٩٥٤م)، وفي اليوم نفسه هاجم جمال عبد الناصر الإخوان بمقرّ هيئة التحرير.

تخطيط جمال عبد الناصر للصراع:

إن لجمال عبد الناصر دوراً عليه أن يُؤدّيه لغيره، وهو تأمين مصالح الذين دعموه، وهذه المصالح تكاد تكون ثابتةً للولايات المتحدة، ورُبّما كان أهمها: التمكين لليهود في فلسطين، وتأمين قواعد للمعسكر الغربي في نقاطٍ مُهمّةٍ فيما يُسمّونه بالشرق الأوسط، ومحاربة الإسلام وضرب التنظيمات الإسلامية الحركية وخاصةً الإخوان المسلمين، وخنق الشيوعية. وكذلك فإنّ لجمال عبد الناصر دوراً يُؤدّيه تجاه نفسه فهو يُريد الزعامة بل لا يمكن أن يعمل في أي مجال يكون فيه الرجل الثاني بل لا بدّ من أن يكون دائماً الرجل الأول بل الرجل الذي يأمر فلا يُخالف، ويتكلّم فلا يُناقش، وهذه ميزات أهّلته ليكون موضع الاختيار في الدور الذي سيؤدّيه والمُهمّة التي ستقع على عاتقه، وهي مُهمّة صعبة، ولكن إمكانات الرجل كافية، وطموحه وميزاته مناسبة.

لقد أدّى جمال عبد الناصر الخُطوة الأولى، وحلّت الولايات المتحدة الأمريكية محلّ إنكلترا في مصر، وأخذ يستعدّ لتنفيذ المراحل الثانية لمُهمّته الشخصية والعالمية.

عندما خطّط أو خُطّط له كان عليه أن يستغلّ جماعة الإخوان المسلمين وقد فعل، وعليه الآن أن يتخلّص منهم. فما أن انتهى من المرحلة الأولى ووضع رجله على أول درجةٍ من السلّم حتى أخذ يُفكّر في الثانية وهي التخلّص من جماعة الإخوان المسلمين ومن ضربهم. فبدأ بإخبارهم أن هناك مجموعتين: مجموعة الضباط الأحرار وجماعة الإخوان المسلمين ولكلٍّ لها طريقها ومنهجها لتبدو التفرقة من بداية الطريق، فقال لحسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين: إننا لم نتفق على شيءٍ، وعندما زاره صلاح شادي ومنير دلّة، وطلبا منه عرض القوانين على الإخوان قبل إصدارها أجابهما: لا نُريد وصايةً من أحدٍ. وعندما رفض الإخوان إذابة كيانهم في هيئة التحرير قال لهم: إنكم عصاة، وعندما دعاه حسن الهضيبي إلى تطبيق الشريعة أجاب: إن الثورة قد قامت ضدّ الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الإنكليزي لا لتطبيق الشريعة، إذن فالمنهج مُتباين، والفكر مُغاير.

إن جمال عبد الناصر لا يستطيع أن يُنزل الضربة بجماعة الإخوان المسلمين ما دامت هناك فئات أخرى، وما دامت كلمة لم تزل بين كلمات، فهناك الملك ومجلس الوصاية، وهناك محمد نجيب، وهناك الأحزاب، فأخذ يُزيل عقبةً بعد عقبةٍ. حلّ الأحزاب بعد الثورة بستةِ أشهرٍ، وأزال النظام الملكي بعد أقلّ من سنةٍ في ٤ شوال ١٣٧٢هـ (١٦ حزيران ١٩٥٣م)، فلم يبق إلاّ محمد نجيب والإخوان فلا بدَّ من مُناورات ليرى بأيّهم يبدأ.

وجّه اهتمامه ضدّ جماعة الإخوان المسلمين، وحاول أن يفرّق بينهم، وتمكّن من فصل أحمد حسن الباقوري، وكيل الجماعة بإدخاله في وزارة محمد نجيب، وكان يلتقي مع عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص رغم كرهه له، ويحرّضه على المرشد العام وعلى القيادة، ويعمل على إبعاد حسن الهضيبي فيُشيع الشائعات ضدّه بأنه غريب عن الجماعة ـ والواقع أنه كان من الجماعة ومن بين أعضائها غير أن منصبه قد اقتضى في المدة الأولى أن يكون بعيداً عن الجو العام ـ وهذا بناءً على اتفاق بينه وبين حسن البنا. ويُرشّح صالح العشماوي لتولّي منصب المرشد العام حقداً لا حُبّاً، وأخيراً رشّح النظام الخاص صالح عشماوي ليكون مرشداً، وقامت محاولة في ٢١ ربيع الأول ١٣٧٣هـ (٢٧ تشرين الثاني ١٩٥٣م) لاحتلال المركز العام من قبل الفئات التي تريد التغيير، لإجبار الهضيبي على الاستقالة، وكانت النتيجة أن فُصل من الجماعة: عبد الرحمن السندي، وصالح عشماوي، وأحمد زكي، وأحمد عادل كمال، وأحمد عبد العزيز جلال، ومحمد الغزالي، ومحمود الصباغ، وسيد سابق وعدد من الإخوان. ومع ما في هذا الحادث من فاجعةٍ إلاّ أن الإخوان قد تماسكوا واستمرّت الدعوة، وعُيّن يُوسف طلعت مكان عبد الرحمن السندي مسؤولاً عن النظام الخاص.

وأرسل جمال عبد الناصر شاباً يُدعى نجيب جويفل إلى البلدان العربية ليقوم بالدور نفسه في التفرقة بين الإخوان بعد أن كسبه إلى صفّه باستقدامه من بيروت، وكان قد فرّ إليها خِلسةً بعد اتّهامه في مقتل حامد جودة، وقدّم له جواز سفرٍ رسميٍّ وأكرمه. وقد تمكّن نجيب من أداء مُهمّته وخاصةً في

سوريا[1]، واضطر حسن الهضيبي يومذاك من السفر إلى سوريا ولبنان في ٢٧ ذي القعدة ١٣٧٣هـ لحلّ هذه المشكلة غير أنه لم يُفلح، ووقع الخلاف في سوريا أو بالأحرى قد استمرّ إذ كانت رغبة نجيب جويفل إبعاد مصطفى السباعي عن قيادة العمل، والتفّ حول نجيب لفيف من الشباب الطامحين، وشكّل منهم نظاماً خاصاً، وأراد ربطه بمصر بحجة أن العمل في البلدان العربية كلها مرتبط في مصر، وذلك ليكون الارتباط بعبد الرحمن السندي أو نائبه أحمد زكي، وجاء المرشد، وأنكر هذا، وقال: كل بلدٍ عربي قد اختار تسميةً خاصة للمسؤول عن التنظيم، فمصر اختارت المرشد العام، واختارت سوريا، والأردن، والكويت والسودان المراقب العام، واختارت لبنان أمير الجماعة، واختارت العراق رئيس جميعة إنقاذ فلسطين. ولكل بلدٍ ظروفه الخاصة، فلا يصحّ أن يتحمل التنظيم، في بلدٍ ما يحدث في البلد الثاني، ولكن الفكر واحد، والتعاون قائم، غير أن نجيب لم يسمع لأنه لا يرغب أن يسمع إذ في نفسه شيء يُريد أن يُحقّقه، واستمرّ الخلاف أو بالأحرى الانشقاق، كما استمرّت هذه الفكرة، كل يُريد أن يُفسّرها كما تروق له، واستمرّ لكل بلدٍ تنظيمه حتى كان المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية في عام ١٣٨٢هـ، برئاسة عصام العطار من سوريا، ولمّا اقترح التنظيم السوري أن يكون التنظيم في البلدان العربية كلها واحداً كانت مصر أوّل المعارضين وكذلك العراق، والسودان. ولما عاد النشاط للتنظيم المصري بعد وفاة جمال عبد الناصر رأى القادة الجدد في التنظيم أن يكون لهم نفوذ على بقية البلدان العربية، وحدث نتيجة ذلك انشقاق في سوريا. وهذا أمر غريب إذ أن دعوة الإخوان تقوم على المناداة بتطبيق الإسلام، ومن مبادئ الإسلام التي لا يجهلها أحد أن الخليفة لا يُشترط فيه أن يكون من مكان دون مكانٍ، على حين أنهم يفرضون على تنظيمات البلدان العربية أن يكون المسؤول «المرشد» ـ ويُمثّل الخليفة ـ من مصر.

وعندما فشل جمال عبد الناصر بالإيقاع بين الإخوان بالشكل المطلوب

---

(١) يراجع في هذا الموضوع إلى الجزء العاشر من هذا الكتاب في الباب الأول ـ الفصل الثالث.

استدعى محمد فرغلي لإغرائه ففشل معه، وأصدر بعدها قراراً بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٥٤م) بحل جماعة الإخوان المسلمين.

ووجد الحظّ قد حالفه فبدأ الضغط على محمد نجيب حتى أجبره على تقديم استقالته إلى مجلس قيادة الثورة، وقبلت في ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢٥ شباط ١٩٥٤م)، غير أن الضغط الشعبي كان كبيراً إضافةً إلى ما بدا على العسكريين من تذمّرٍ، وخاصةً ضباط الفرسان، وذلك أن كمال رفعت، وحسن التهامي قد قبضا من نفسيهما على محمد نجيب ونقلاه إلى مقرّ سلاح المدفعية، وبعد حركة ضباط سلاح الفرسان في ٢٤ جمادى الآخرة التقى مجلس قيادة الثورة وورد عزم أكيد على تدمير سلاح الفرسان، ولكن تغيّر في الوقت نفسه، وصدر قرار عودة محمد نجيب، وعودة الحكم المدني.

وفي اليوم التالي ٢٥ جمادى الآخرة أُعيد محمد نجيب إلى مناصبه رئيساً للجمهورية، والوزارة، ومجلس قيادة الثورة، ولكن جمال عبد الناصر قد احتفظ لنفسه بالحاكم العسكري.

وفي اليوم الثاني ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (١ آذار ١٩٥٤م) تظاهر الشعب وفرح بعودة الرئيس محمد نجيب، وكان الإخوان من المؤيّدين لهذه المظاهرات والمشاركين فيها، وكان عبد القادر عودة بينهم، وخرج محمد نجيب ليردّ على المتظاهرين، فرأى عبد القادر عودة فدعاه ووقف إلى جانبه، وقال محمد نجيب في خطابه ذاك: «إننا قرّرنا أن تكون الجمهورية نيابيةً، وعلى أساس أن نبدأ فوراً بتأليف جمعيةٍ تأسيسيةٍ تمثّل كافة هيئات الشعب المختلفة لتُؤدّي وظيفة المجلس النيابي موقتاً، وتُراجع مواد الدستور بعد أن يتمّ وضعها، وبعد ذلك تعود الحياة النيابية إلى البلاد، وفي مدةٍ أقصاها المرحلة الانتقالية وهذا مُتّفق عليه، ونحن عند وعدنا الذي قطعناه على أنفسنا، من أننا لم نقم إلا لإعادة الدستور على أساسٍ سليمٍ في نهاية فترة الانتقال.

وفي ٢٨ جمادى الآخرة قامت سلطات الشرطة العسكرية «البوليس الحربي» باعتقال ١١٨ رجلاً، منهم ٤٥ من الإخوان المسلمين، و ٢٠ من

الاشتراكيين، و٥ من حزب الوفد، و٤ من الشيوعيين بتهمة أنهم يُريدون إحداث فتنةٍ مُستغلّين الفرحة بعودة محمد نجيب، وكان من بين الإخوان: حسن الهضيبي، وعبد القادر حلمي، وصالح أبو الرقيق و... وكان جمال عبد الناصر قد ظنّ أنّ لعبد القادر عودة دوراً فيما قاله الرئيس محمد نجيب إذ كان بجانبه الأمر الذي زاد من حقده على الإخوان.

وفي ٢١ رجب ١٣٧٣هـ (٢٥ آذار ١٩٥٤م) أُعلن أن مجلس قيادة الثورة لن يُؤلّف حزباً، وليس هناك من حرمان أحدٍ من الحقوق السياسية، وأن مجلس قيادة الثورة سيحلّ في ٢٤ ذي القعدة ١٣٧٣هـ (٢٤ تموز ١٩٥٤م)، وستنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً مُباشراً، وستنتخب هذه الجمعية رئيس الجمهورية وفي هذا اليوم أُفرج عن الإخوان المعتقلين جميعاً، وزارهم جمال عبد الناصر في بيت المرشد، وفي اليوم التالي عاد الإخوان إلى النشاط. وبعد أربعة أيّامٍ أيّ في ٢٥ رجب خرج عمال وزارة الزراعة في سيارات هيّأتها لهم الوزارة وبتشجيع منها، وكانوا يهتفون في الشوارع، لا أحزاب، ولا حزبية، ولا انتخابات ولا جمعية تأسيسية، وبنى جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة على هذا أن الشعب لا يريد مجلساً نيابياً ولا إجراء انتخاباتٍ لذا فقد حدث تراجع عما سبق أن أُعلن، وبقي مجلس قيادة الثورة يُمارس صلاحياته وكذا الحاكم العسكري جمال عبد الناصر.

وكانت بعد ذلك قد بدأت حرب النشرات التي كان يُصدرها الإخوان يُندّدون فيها باتفاقية الجلاء، ويُبيِّنون عُوارها.

وفي ٢٧ ذي القعدة خرج حسن الهضيبي إلى سوريا ولبنان لإصلاح ما حدث من خلافٍ ولم يُوفّق، ورجع بعد غيابٍ دام ستةَ وعشرين يوماً.

محاولة اغتيال جمال عبد الناصر:

اقتنع جمال عبد الناصر أنه لا بدّ من إنزال ضربةٍ قاسيةٍ بالإخوان المسلمين، ودُبّرت تمثيلية، وأُخذ محمود عبد اللطيف أحد عُمّال الإخوان إلى المكان المعدّ ليكون ساحة التمثيلية، وبينما كان جمال عبد الناصر يُلقي خطاباً أُطلقت عليه النار فوقع أرضاً، ثم قام ليُلقي خطاباً حماسياً وكان ذلك في ميدان

المنشية في الإسكندرية بتاريخ ٢٩ صفر ١٣٧٤هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٥٤م) فأُلقي القبض على محمود عبد اللطيف وقيل: إنه هو الذي أطلق النار مُحاولاً اغتيال جمال عبد الناصر. واستنكر كثير من الناس هذا الأسلوب، وعُدّت الحادثة حقيقيةً فليس هناك من مصدرٍ سوى من خطّط لهذه الحادثة ورسم خطوطها وقام على تنفيذها.

وفي ٦ ربيع الأول ١٣٧٤هـ (١تشرين الثاني ١٩٥٤م) شُكّلت محكمة عسكرية برئاسة قائد الجناح جمال سالم، وقُدّم للمحكمة عدد من المتهمين وفي طليعتهم: يوسف طلعت، رئيس النظام الخاص، وصلاح شادي قائد تنظيم رجال الشرطة «البوليس»، وعبد المنعم عبد الرؤوف قائد التنظيم العسكري. وكانت النتيجة أن أعدم ستة من الإخوان وهم: يوسف طلعت، وعبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وهنداوي دوير، وإبراهيم الطيب، ومحمود عبد اللطيف، وقضت المحكمة بسجن المئات وأكثرهم من كبار الإخوان، وقضى بعضهم عشرين سنةً في السجن، وتوسّط عدد من زعماء المسلمين لتخفيف الحكم فلم يُجدِ ذلك، ونُفّذ الحكم، وخرجت مُظاهرات في أكثر أمصار العالم الإسلامي تُندّد بالظلم والتسلّط والحكم الاستبدادي وجمال عبد الناصر، وهذا ما زاد من حقد حاكم مصر. وانطلقت وسائل الإعلام تُطلق الشائعات، وتفتري الكذب على الإخوان، وقدّم لها جمال عبد الناصر ما ادخره في جعبته، مخزن الأسلحة الذي صنعه بنفسه والمفاوضات التي كان على علمٍ بها، وحيكت من هذين الموضوعين قضايا واتهامات لا حصر لها.

وتعرّض الإخوان عامةً لمحنةٍ قاسيةٍ داخل السجون بنفوسهم وأجسامهم وخارج السجون بأسرهم، ومسّهم ضُرّ شديد، وحدثت أحداث يندى لها الجبين، وسكت الإخوان على آلامهم وجراحهم، واستمرت المحنة أكثر من عشر سنوات، وما كادت تنفرج حتى أعقبتها محنة ثانية، وقدّم الإخوان فوجاً جديداً من الشهداء الأبرار.

كان سيد قطب قد أُلقي في السجن في المحنة الأولى ١٣٧٤هـ، وقضى عشر سنوات، وقوّم ما حدث، وأحسّ أنه كان هناك توسّع أُفقي في التنظيم، ويجب أن تتكوّن قبل ذلك قاعدة صلبة يقوم عليها هيكل البنيان التنظيمي،

ونظر في المجتمع وتطلّعاته، ولمح الجاهلية الحديثة بكل أبعادها، واتجه إلى مُنطلقاتٍ جديدةٍ وأخذ يُدوّن بعض أفكاره، فكانت الأجزاء التي صدرت من كتابه «في ظلال القرآن» في السجن تختلف عما كان قد صدر منها قبل السجن، كما صدر له كتاب «معالم في الطريق» فكان له أثره في الناس وخاصة الناشئة منهم، وأخذ يُفكّر في أسس بناءٍ تنظيميٍ جديدٍ، وخرج من السجن عدة أشهرٍ، ثم أعيد، ورأى المتسلّطون والجاهليون خطراً في هذا الرجل عليهم، بل كان هذا رأي أعداء الإسلام من قبل، فحُبكت مُؤامرة لقتله، واتُّهم أنه يعمل لتغيير الأوضاع القائمة بالقوة، ونُفّذ فيه حكم الإعدام بتاريخ ١٤ ربيع الثاني ١٣٨٥هـ (١ آب ١٩٦٦م) مع مجموعةٍ من إخوانه، رغم وساطاتٍ كثيرةٍ من زعماء العالم الإسلامي ومنهم: عبد السلام عارف الرئيس العراقي الذي لقي حتفه بعد هذه الوساطة، واستمرّت محنة الإخوان أو تجدّدت، غير أن الرئيس المصري كان قد بلغ أوج جبروته، وبدأت بعدها تتوالى هزائمه ويتعاقب فشله، وأحسّ موجّهوه أن دوره قد انتهى، ولم يعد قادراً على تأدية مُهمّاتٍ أخرى، وكان من مُخطّطاتهم أن تدخل قضية فلسطين مرحلةً جديدةً، وتتقدّم خُطوة أُخرى بالنسبة إلى مسؤولي جيرانها، ويجب أن يرحل هذا الصديق الذي خدمهم ثمانية عشر عاماً، وكان أن أخذ الزئبق يدخل في طعامه، ومات فجأة مُرهقاً وهو يستقبل أو يودّع حاكم الكويت.

الصراع مع الشيوعيين:

برز الرئيس جمال عبد الناصر مُؤيّداً ومُؤيَّداً للمعسكر الغربي ومنه، وخاصةً الولايات المتحدة، وقد أدخل نفوذها إلى مصر وأحلّه محلّ النفوذ الإنكليزي، وأخذ يُؤدّي دوره المرسوم له ضمن دائرة طموحاته وحبّه الشديد للزعامة وإرضاء غروره بها. غير أن ذلك قد بدا واضحاً وضوحاً صارخاً كاد يُفقده إمكانية تأدية الدور الواجب عليه عمله. كما أن استبداده وجبروته وتعلّقه بالوصول إلى القمة فجأةً قد أبغض الناس فيه وأكرههم له، وكم خرجت مُظاهرات في كثيرٍ من الأمصار الإسلامية تُندّد بالظلم والاستبداد وخاصةً أن بعضها قد أُزيح عنه شيء من الكابوس الذي كان يجثم عليه من ضغط الاستعمار، وظلم المسؤولين فيه، والأحكام العرفية التي سادت أثناء الحرب

العالمية الثانية وبعدها، ورأى بصيصاً من نور فانطلق يطلب المزيد من الضوء، ويعمل للزحزحة قليلاً من تحت ما وضع فوقه، فلما شعر أن ركاماً ثقيلاً وعبئاً غليظاً قد جيء به ليوضع فوق كاهل أبناء مصر ويخشى أن يلحقه منه أذى، أو يُصيبه شرر منه انطلق يُحاربه ويهتف بسقوطه. فكان على الموجّهين أن يخرجوا الرئيس المصري من الهوة التي كاد يسقط فيها، وأن يُمهّدوا له الطريق ليصل إلى هدفه ويُوصل إليهم ثمن ما قدّموه إليه.

وتجرّع المسلمون المرّ من الاستعمار الغربي إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها ويكفي ذكر ما أصابهم منه في فلسطين وكشمير، ويكفي جلوسه على صدور المسلمين في كثير من أمصارهم وكأنّهم بهذه الجرعة الشديدة المرارة قد نسوا ما لحقهم من مُنافسة الاستعمار الشرقي في بلاد القفقاس، وتركستان، وبلاد التتار، وكأن الشدّة القائمة تُنسي السابقة أو لا يذكر الإنسان إلا معاناته الحالية، لذا فكان كل من يتعاون أو يُفكّر في ذلك أو يلقى تأييداً ودعماً من تلك الجهة فقد حُكم عليه بالإعدام من قبل الشعب، ولما كان الارتباط سافراً بين جمال عبد الناصر والمعسكر الغربي لذا كان لا بدّ من وضع قناعٍ يُخفي تلك الحقيقة ويُغطّي بشاعتها. وإذن يجب إدخال الرجل في دور التجميل وإخراجه للناس من جديدٍ في ثوبٍ قشيبٍ ـ حسب تفكيرهم السياسي ـ.

كان العدوان الثلاثي، وكانت كراهية الناس شديدةً لدول العُدوان من قديم: استعماراً، وعقيدةً وظلماً، وسوءاً، واتجهوا لمحاربة تلك الدول، واضطروا للانضواء تحت لواء الذي يرفع شعار محاربتها أو من وضعته الظروف رمزاً لقتالها، فكان جمال عبد الناصر بطل الحرب المتوّج وإليه تتجه الأنظار لذا رُشّح لتمثيل هذا الدور وهو التوجّه نحو المعسكر الشرقي، حتى التحق به العامة، وكانوا بالأمس يُحاربونه، وتركوا خصومه وكانوا البارحة معهم، وغدا أعداؤه خصوم الأمّة ـ حسب التصور الجديد ـ ويُرسل مندوبه من قريب إلى الشام فلا يوجد من يستقبله واليوم تحنّ إليه نفوس الشاميين.

ويُعلن توجّهه إلى المعسكر الشرقي لأخذ السلاح فيُصبح كلامه شعاراتٍ لإنصاف المتعلّمين وأصحاب الغايات الذين يُريدون مُعاداة الحركة الإسلامية خصمهم التقليدي.

ولكن الزعيم المصري لا يُمكنه أن يُقدم على عملية التأميم التي قد تُؤدّي إلى حربٍ إلاّ إذا ضمن الموقف الدولي المتمثّل بالولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، وإذا كانت الولايات المتحدة مضمون موقفها ولكنها غير مستعدةٍ في هذه الظروف للدخول في حرب مع الاتحاد السوفيتي أو شنّ حرب عالمية، لذا يجب ضمان موقف الاتحاد السوفيتي ليكون منسجماً مع موقف الولايات المتحدة وهذا يستدعي أيضاً التوجه نحو الاتحاد السوفيتي، ولكن لا يمكن أن يكون التوجّه هكذا مُباشرةً، ودون مُقدّماتٍ أو أسبابٍ، ومن الدواعي لذلك أن يكون الأمر دولياً، ولا تعدم الدول الكبرى أسباباً تجعل لصنائعها مجالاً للتحرّك لتخدم مصالحها وتُحقّق أغراضها وتُنفّذ لها مُخطّطاتها. فقد سحبت الولايات المتحدة وإنكلترا في ١١ ذي الحجة عام ١٣٧٥هـ (١٩ تموز١٩٥٦م) تعهدهما بتمويل السدّ العالي، وأعلن ذلك البنك الدولي، وأسرع الاتحاد السوفيتي ليُعلن استعداده لتمويل السدّ العالي وبنائه، وانطلت اللعبة، وبدأت العلاقة تتوطّد مع الروس، وأعلن جمال عبد الناصر في ١٧ ذي الحجة قرار تأميم قناة السويس وظهر الأمر طبيعياً ـ حسب اللعبة الدولية ـ إذ كان ردّ فعلٍ من الرئيس المصري، ولمّا كانت الولايات المتحدة وإنكلترا تمثّلان المعسكر الغربي، فتكون ردّة الفعل بالتوجّه نحو المعسكر الشرقي، وبدا للناس استقلالية الرئيس المصري ووطنيته وإخلاصه، وتتابع مسلسل اللعبة الدولية فقام ردّ الفعل الغربي، وشنّت إنكلترا وفرنسا غارةً على القاهرة في ٢٧ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٥٦م) على أنهما من أصحاب أسهم قناة السويس، وحدث العُدوان الثلاثي، وانطلق الشعب المصري يعمل على ردّ المعتدين ويقف وراء رئيسه، وأخذت وسائل الإعلام تُشيد بالرئيس الملهم، والوطنية، والزعامة... وتدخّل الرئيس الأمريكي والرئيس السوفيتي، وأُنذرت دول العدوان الثلاثي بإنهاء القتال وتوقّف. وخرج جمال عبد الناصر مُنتصراً أمام الشعب، وبلغ أوجه القوة وليس هذا في مصر بل وفي البلدان العربية جميعها، وربما تعدّى ذلك إلى كثيرٍ من المسلمين خارج بلاد العرب إذ لم يعرف الشعب شيئاً عن خفايا السياسة الدولية، وما يجري خلف الأستار.

وتبسّمت الولايات المتحدة الأمريكية لدقّة إخراج اللعبة فقد بدا كبير

أنصارها أنه من أعوان المعسكر الشرقي أو على الأقلّ قد تخلّص من ربقة النفوذ والاستعمار الغربي، وهذه هي اللعبة السياسية: أن يبدو المرء على غير حقيقته يتحرّك نحو اليمين ويُشير إلى الشمال.

وهلّل الشيوعيون بالتوجّه نحو الروس، وهتفوا لجمال عبد الناصر بهذا الحدث العظيم، ورحّبوا بوصول النفوذ الروسي إلى مصر، ودخل الخبراء الروس لإقامة السدّ العالي، وأبدوا إعجابهم بتقدّميّة جمال عبد الناصر بضرب الحركة الإسلامية، وتجاوزه لآثار الرجعية في الأمة غير مبالٍ بما تُعشعش في عقول الناس من أفكارٍ وآراءٍ رجعيةٍ، وقد زال أمامهم الخطر الإسلامي الذي يعدّونه عدوّهم الأول الذي يسبق الإمبريالية بأشواطٍ طويلةٍ.

ليس معنى ذلك أن الاتحاد السوفيتي بعيد عن اللعبة الدولية أو أنَّ ساسته مغفّلون لدرجةٍ لم يُدركوا حقيقة جمال عبد الناصر وما يحدث على الساحة المصرية، نعم يُدركون كثيراً من الحقائق ولكن رضوا بما يحصلون عليه من ربحٍ في وضع أقدامهم على أرض مصر، ودخول رجالهم إليها كخبراء وصلتهم مع أنصارهم مُباشرةً، وتوجّه الشعب نحو الروس خلف الرئيس، وإذا كان الرئيس ميؤوس منه إلاّ أنَّ الشعب لا يُدرك ما يدور في الخفاء، ويظنّ أنَّ الروس أصدقاء له كما يُردِّد، وهذا غاية ما يأمل به سدنة الكرملين.

ويبدو أن الشيوعيين قد غالوا في هذا النصر الذي أحرزوه بعد أن رأوا الخبراء الروس يصلون إلى مصر، والأسلحة الروسية تتدفّق على مصر، وتمادوا في تمجيد الرئيس المصري حتى خاف جمال عبد الناصر من طغيانهم، وخافت الولايات المتحدة من أن يتسرّب الدخان إلى الهشيم دون رؤيةٍ واضحةٍ، حتى سدنة السياسة الروسية قد خشوا أن يتعلّق الشيوعيون في مصر بجمال عبد الناصر، وأن ينقلب عندهم الفكر الشيوعي العالمي إلى شيوعيةٍ وطنيةٍ. وكان على الولايات المتحدة أن تُوجّه للحدّ من النشاط الشيوعي وتُخوّف منه، وكان على جمال عبد الناصر أن يضغط، وكان على روسيا أن تُؤكد على الأفكار الشيوعية التي تتبنّاها.

وضغط جمال عبد الناصر على الشيوعيين، وكبح جماحهم، وارتاحت

الولايات المتحدة لهذا التصرّف، وصحا الشيوعيون من سكرتهم، وأحسّوا أن جمال عبد الناصر ليس إلاً صديقاً مُؤقّتاً، وأنه في الواقع بعيد عن الفكر الشيوعي بل وعدوّ له. وارتاحت موسكو لهذا أيضاً إذ بعُد أنصارها عن جمال عبد الناصر، وتُريد منهم أن يتربّوا في المحن وتحت الضغط لينشأوا حاقدين على مجتمعاتهم. وأعلن جمال عبد الناصر أنه صديق للروس، وأنه من دعاة السلام (الذي ينادي به الروس) ولكنه على خلاف مع الشيوعيين في مصر وسوريا ولا يقبل منهم تصرّفاتهم السياسية والاجتماعية وذلك كي لا يُتّهم في دينه من قبل أعدائه. غير أن الشيوعيين لا يُريدون هذا فقط ولا يقبلون إلا أن يكون المرء منهم مُحارباً للأديان، عدوّاً للأوطان، لذا فهم عملوا ضدّ مشروعاته، وعندما أُعلنت الوحدة بين مصر وسوريا وقف الشيوعيون ضدّها، وخرج خالد بكداش الزعيم الشيوعي السوري من سوريا، وقبض عبد الحميد السراج المتصرّف في سوريا باسم جمال عبد الناصر على فرج الله الحلو، وأذابه في حمض الكبريت المكثّف. وظهرت الغيوم في جوّ العلاقات الودية بين جمال عبد الناصر والشيوعية، وكان الخط البياني لسياسة الرئيس المصري قد بدأ ينزل، وحدث الانفصال بين مصر وسوريا، وتجرّأ الناس على الهجوم على شخصه، وتورّط في اليمن، وبدأت تظهر حملات إعلامية ضدّه.

أراد جمال عبد الناصر أن يعود ثانيةً إلى دغدغة حلف وارسو والاتحاد السوفيتي والشيوعية، فزار موسكو ومنها أعلن إعدام سيد قطب فابتهجت موسكو رضىً عن ذلك التصرّف وإن لم ترض عن جمال عبد الناصر ولا عن سياسته، وصفّقت واشنطن بكل ارتياحٍ، غير أن نزوله استمرّ، وجاءت حرب ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) فأنزلته من مكانته، وأخذ يُعالج موقفه، ويُحاول تضميد جراحه من غير جدوى، وجاءه الأجل المحتوم.

ومن المعلوم أنه لم يكن في هذه المرحلة صراع بين الأحزاب لأنه لم يوجد سوى حزب واحد هو حزب الرئيس جمال عبد الناصر سواء سُميّ حركة التحرير أم الاتحاد القومي أم الاتحاد الاشتراكي حسب المراحل التي مرّ فيها.

المَرحَلَة الثَالثَة

مات جمال عبد الناصر فجأةً، وكاد يحصل صراع على السلطة لأن نواب الرئيس لم تكن لهم بالواقع سلطة، وإنما كانوا أسماء من غير مُسميّات، لأن شخصية جمال عبد الناصر كانت تطغى عليهم، ولم تترك لهم مجالاً للعمل، كما أن الخوف منه كانت تجعلهم يسمعون ويُطيعون بل ويُحنون رؤوسهم، فقد تخلّص من أصدقائه، وأحبّ الناس إليه، وممن خدموه في العسر واليسر وأظهروا له الخضوع، ومجّدوا فيه الرجولة، وقضوا حياتهم في رفعه والعمل على تعظيمه، فقد انتهى جمال سالم، ولا نعرف كيف قضى نحبه، وانتهى صلاح سالم كأخيه، وعُزل كمال الدين حسين، وعبد اللطيف البغدادي، وحسين الشافعي من غير سببٍ، وفرضت على علي صبري الإقامة الجبريّة دون داعٍ لها، ونُحر عبد الحكيم عامر وقالوا: انتحر، وأُقصي خالد محيي الدين، وهؤلاء الذين عاونوه، وهم الذين نهضوا بالعبء معه، وتحمّلوا سوء تصرّفاته، وحموه في الشدّة، ووقفوا في وجه خصومه وهم يعلمون أن صاحبهم مُخطئ، ومن رأى العبرة بغيره فليعتبر، وكان قد بقي من جماعته الكبار أنور السادات، وعلي صبري، وزكريا محيي الدين لذا كانوا قوى سكوت فلّما مات جمال عبد الناصر برز الذين كانوا الأداة المُنفّذة له والأيدي الباطشة بأمره من مخابراتٍ وأجهزةٍ خاصةٍ مثل: شمس الدين بدران، وسامي شرف، وصلاح نصر، وشعراوي جمعة، ومحمد فائق و...

مات جمال عبد الناصر وقد خلّف وراءه تركةً ثقيلةً تتمثّل في نقطتين:

١ ـ رهبة شديدة من السلطة نتيجة الظلم الذي لحق بالشعب عامةً وبالإخوان المسلمين خاصةً حتى لم يعد أحد يجرؤ على قول الحقيقة. وأصاب الذلّ الناس، وهذا ما يهدف إليها المستبدّون.

٢ ـ فقر مدقع نتيجة الإجراءات التي اتخذها ومنها ما أطلق عليه الاشتراكية، حتى كره الناس هذا الاسم ومن يحمله رغم رفعه شعاراً والمناداة به أحياناً بسبب الخوف ومسايرة الحاكم فيما يقول.

جاء أنور السادات ليُؤدّي المهمة مهمّة التمكين لليهود، والتي يجب دفعها خُطوةً نحو الأمام، إذ أصبح جمال عبد الناصر في أواخر أيامه عاجزاً عن دفعها بسبب الفشل الذي مُني به والهزائم السياسية التي أصابته، ورأى أنور السادات أنه عاجز عن معرفة رأي الشعب بسبب ما حلّ به أيام جمال عبد الناصر من خوفٍ فهو يقول ما يُريد الرئيس لذا قرّر أن:

١ ـ يُعطي الحرية، ويسمح بقيام الأحزاب السياسية، ويُفرج عن المعتقلين السياسيين فقد كانت السجون تغصّ بهم، وتمتلىء خاصةً بالإخوان المسلمين.

٢ ـ طرد الخبراء الروس والتوجّه إلى الولايات المتحدة صراحةً مع الإبقاء على كلمة الاشتراكية. وفتح المجال أمام التجار والذين يُريدون العمل خارج مصر.

وتأمّل أن تؤدّي هذه السياسة إلى المصارحة مع الشعب، ودفع العجلة للاعتراف بدولة اليهود في فلسطين.

ولكن لا يستطيع أن يسير في هذه الطريق قبل أن يتخلص من منافسيه والذين بدؤوا في الصراع معه ما داموا يحملون شرف الانتماء إلى تلك الثورة التي هدّت كاهل مصر بالديون، والأعباء، والتضحيات، وقتل الكثيرين من السكان وإذلال من بقي، وهم من رجالها ومن مساعدي بطلها جمال عبد الناصر.

لقد استطاع أنور السادات أن يكسب الجولة على منافسيه، وأن يقبض على رؤوسهم: علي صبري، وشعراوي محمد جمعة، ومحمد فوزي، وسامي شرف، ومحمد فائق، وشمسي بدران، وصلاح نصر. وأصبح سيد الموقف، ولا منافس له، ولا منازع فقد انتهى أصحاب شرف الانتماء إلى الثورة وبقي فريدهم، وحامل مشعلها. وإذا بقي ضابط آخر هو حسين الشافعي فوضعه في

ظله نائباً له في رئاسة الجمهورية لكن لم يكن سوى صورة، وكان من قوى السكوت.

استطاع أنور السادات إخراج منافسيه من ساحة الصراع إذ قبض عليهم يوم ٢٠ ربيع الأول ١٣٩١هـ (١٥ أيار ١٩٧١م)، فشعر الناس بالراحة إذ وجدوا ركائز الظلم تتهدّم وقواعد الاستبداد تُدكّ، القاعدة تلو الأخرى، وكسب السادات شيئاً من المحبة.

وأفرج عن المعتقلين السياسيين فخرج الآلاف من الأقبية، ورأوا النور وخاصةً الإخوان المسلمين فأحسّ الناس بشيءٍ من الحرية، وإن كان الحذر يشوب كل حركةٍ إذ لا يزالون يتصوّرون الإجرام السابق، ويرون في الرئيس الجديد شريكاً للرئيس السابق فيخشونه، ومع ذلك فقد شعروا بقليلٍ من الانفراج، وإن كان الخوف لا يزال قائماً فسيّد الموقف اليوم أحد طغاة الأمس.

وطرد الخبراء الروس، وسار مُتوجّهاً نحو الغرب، واستقبل الناس هذا بابتهاجٍ لعلهم يحصلون على لقمة العيش التي حرمتهم إياها الاشتراكية والدعوة إليها، ولقي التأييد ونال محبة جزءٍ من الناس، وهم غالباً الذين أجاعتهم الاشتراكية وأذلّتهم.

وطرح فكرة الحرية، وأعطى الضوء الأخضر لقيام الأحزاب، وسمح بإنشاء الصحف والمجلات فلقي هذا سروراً من الشعب، وظنّوا أن الضوء سينبلج، وينتهي الظلام فاكتسب شيئاً من الشعب على الرغم مما يقوم به المحتكرون، وما تعيشه البلاد من ضائقةٍ إذ نسوا هذا أمام ما يحصلون عليه، والذي طال انتظارهم له، ويعدّونه أملاً لهم.

ودخل الحرب مع اليهود حرب رمضان، وأخذ الدعاية بالنصر في الأيام الأولى التي غطّت على الأيام التالية، كما كانت الدعاية الواسعة من شتّى الجهات كفيلةً أن تُغطّي على كل ما أتت به الأيام التي تلت العبور لقناة السويس، واجتياز خط «بارليف» بل كفيلة بأن تُغطّي على أضعاف ما حدث. كما ابتهج الشعب في مصر بإعادة افتتاح قناة السويس.

ومن هذه الأعمال التي قام بها حصل على كل من كان يريد إذ ربح الجولة على منافسيه، وسبقهم فقبض عليهم، وبقي السيد الوحيد، وارتفع في أعين شعبه، وغداً يمكنه أن يتصرّف بما يرغب وخاصةً أن منافسةً أصبحت بين الأحزاب التي أوجدها، فهي حديثة النشأة ويريد قادتها الحصول على مركزٍ ممتازٍ في البلد ليتمكّنوا من الحكم، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه منذ مدةٍ لم يحدث نشاط يُمارسه الشباب، ولم تُعط الحرية منذ وقتٍ طويلٍ لممارسة هذا النشاط فاندفع الشباب، كما يتسابقون إلى الخروج في المنتزهات في يوم مشمسٍ من أيام الربيع جاء بعد أيامٍ مطيرةٍ وقت عطلةٍ.

وقبل أن يخطو الرئيس المصري خطوته المطلوب منه أن يسيرها جعل صراعاً في مصر يقوم بين الأحزاب أولاً ثم بين الأديان، أما الأحزاب وإن أخذت في محاولةً لمنافسة الحزب الحاكم وهو الحزب الوطني الديمقراطي إلا أنها محاولة يائسة، فالحزب الحاكم بيده السلطة أي بيده المناصب والوظائف، والمصريون يجاملون السلطة كثيراً، ويتودّدون لأصحاب المناصب أكثر، ولربما كان الضغط الكثير الذي قاسوه هو الذي جعل هذه العادة متأصّلةً في نفوسهم، ولربما كان الفقر والحاجة هما اللذان يدفعانهم لهذا السلوك، وإذا كان للسلطة اعتبار يُقوّم بين ٦٠ ـ ٧٠٪ في بلاد العالم فإن هذا الاعتبار يصل في مصر إلى أكثر من ٨٠٪. ثم هناك قانون الانتخابات الذي يجعل للحزب الحاكم تفوّقاً دائماً، وهذا ما يبقي السلطة بيده باستمرار، ويشجع الناس للتزلّف له وإظهار التأييد والانخراط في صفوفه وطلب العضوية. وأما الأديان فقد رغب الرئيس المصري أن يُشجّع الأقباط ويُهدّد بهم المسلمين بأن الحركات الإسلامية فيما إذا بقيت على إصرارها بالمطالبة بتطبيق الشريعة وإظهار الشدّة فإن الأقباط سيتحرّكون، ويطلبون إبعاد الشريعة وسيحدث انشقاق في الصف الوطني لذا يجب على المسلمين أن يكونوا على درجة من اللين والتعقل، وقد أخذ يدعو إلى لقاءات يحضرها علماء من المسلمين وبطارقة الأقباط ويستمع من كلا الطرفين، ويغمز أحياناً بالمسلمين كلما سنحت له الفرصة، ولم يكن هذا التصرف في مصلحته أو مصلحة مصر حسب زعمه إذ نلاحظ أن الأقباط قد بدأوا ينشطون في مناطق تجمعهم وخاصةً في الوجه القبلي في «أسيوط، والمنيا،

ثم بني سويف» غير أن هذا النشاط القبطي قد قابله نشاط إسلامي في المناطق نفسها، وربما أدّى هذا إلى احتكاكٍ وانقسامٍ على حين لو ترك الأمر على حالته الطبيعية لم يُفكّر الأقباط بأي شيءٍ فهم يعيشون في أمنٍ واستقرارٍ وطمأنينةٍ واحترامٍ منذ أن دانت مصر بالإسلام سنة عشرين للهجرة حتى يومنا هذا، وهذا ما يُطالَب به أتباعه في معاملة أهل الذمة، وإذا حدثت بعض المنغصات في التاريخ فذلك عندما يقوى الصليبيون، ويهددون المسلمين، ويقتربون من حدودهم، ويتصلون ببعض الأقباط فيستجيبون لهم، وهذا ما تمّ أيام الحروب الصليبية، ويوم مجيء الفرنسيين والإنكليز مستعمرين وهذا ما أراد له أنور السادات أن يتمّ ليحمي نفسه من الحركات الإسلامية، غير أن الأقباط ما أن ينتهي أمر الصليبيين، ويزول خطرهم عن ديار الإسلام، أو يجلوا عن الأرض حتى يعلموا أنهم كانوا على وهم، فيعودون يطلبون العفو من المسلمين فيجدونهم رحماء رغم تكرار هذه الخيانة، والأصل ألا يقبل المسلمون غدراً تكرر.

أما الحركات الإسلامية فقد كانت قبل الثورة قويةً تتمثل بالإخوان المسلمين، وإن وجدت مجموعات أخرى فدونها، فقد وجدت جمعية الشبان المسلمين غير أنها كانت على صلةٍ وثيقةٍ بالإخوان وكذلك وجدت جمعية أنصار السنة لكن لم تكن لتختلف مع الإخوان، وهكذا يبدو الانسجام غير أنه بعد انتهاء جمال عبد الناصر ومجيء أنور السادات إلى الحكم والإفراج عن الإخوان المسلمين ظهرت الحركة الإسلامية مهيضة الجناح، فهناك انقسامات حدثت في صفوف الإخوان في بداية الثورة، ووجد علماء استزلهم الشيطان فوقفوا ضد الإخوان مسايرة لرجال الحكم تزلفاً وطمعاً في مغنم، وهناك من استطاعت السلطة شراءهم، وكان عدد منهم من رجال الأزهر المعروفين أو أصحاب المناصب البارزين، وهذا ما ضعضع الحركة. ثم كان الضغط، وكان السجن، وكان العذاب فسقط بعضهم، وإن كان أكثرهم قد ثبت وأعانه الله على الصبر وتحمّل الأذى غير أن كثيراً من الناس الذين كانوا قريبين من الإخوان قد أخافهم الأمر فابتعدوا عن الجماعة وهكذا فقدت الحركة بعض أنصارها الذين كانوا بجانبها في السابق.

وفتح أنور السادات أبواب السجون وخرج الإخوان، خرجوا بقلوبٍ ثابتةٍ غير أن بعضهم قد أثقله العذاب داخل السجن فخرج متثاقلاً، وبعضهم قد قضى مايقرب من العشرين سنةً داخل الأقبية صابراً محتسباً غير أن الزمن قد هدّ من جسمه، وحطّ السنّ من بدنه، وإن كانت الروح المعنوية عالية في أغلب الأحيان عند أكثرهم، ولكن الشباب وإن دبت الحماسة فيهم، وتحركت روح الإيمان عندهم فاندفعوا إلى العمل، غير أنهم أحبّوا النشاط تحت أجنحة القدماء الذين عرفوا فلا ضير عليهم والذين نجحوا في الامتحانات. وأراد أنور السادات أن يرصد نشاطهم من خلال تحرّكهم فسمح لهم بإصدار مجلة الدعوة أو العودة إلى إصدارها باسم صاحبها الأول رغم تركه الجماعة منذ مدةٍ ليست قصيرة المهمة كانت عنده الرصد، وعندهم الحركة، فانطلقوا في مهمتهم، وتابع تنفيذ مخططه.

رأى الإخوان ألا يبرز أحدهم لذلك اعتمدوا على تشكيل قيادة جماعية من غير أن تُعرف عند المجتمع ومن غير أن يعرف من يبايع عند قادة الإخوان في البلدان العربية، وهذه طريقة بعيدة عن الإسلام لذا فقد تعرّضوا لنقدٍ شديدٍ من هذه الناحية.

أرادت قيادة الحركة الإخوانية في مصر رغم اختفائها لفّ الإخوان المسلمين في بقية الأمصار تحت جناحها، رغم رفضهم هذه الفكرة سابقاً لأنه لكل بلدٍ مشكلاته الخاصة وأوضاعه السياسية الخاصة التي قد تعرّض الآخرين لأمورٍ هم في غنى عنها، ولم يكن الذين سبقوهم ليقرّوا هذا، وقد استبعد حسن الهضيبي ـ رحمه الله ـ هذا الموضوع كثيراً، وهذا التصرّف قد سبب انشقاق الإخوان في سوريا، وعرض الإخوان في مصر لانتقاداتٍ كثيرةٍ منها غياب المسؤول، وعدم معرفة القائد.

ونتيجة هذا النقد ظهر عمر التلمساني ـ رحمه الله ـ كمسؤول ومن بعده حامد أبو النصر وكلاهما من الذين قضوا وقتاً مديداً في السجن، وتحمّلوا الكثير، وثبتوا، ونجحوا في الامتحانات، ولكن لم يكونا بالفعل هما اللذان يقودان العمل إنما هناك أيد تحركهما وهما واجهة، ورغم فضلهما لكن ليست

لديهما كفاءة القائد[١]، إن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، من السابقين للإسلام وله من الفضل ما لغيره، وإن سعيد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين وله من الفضل ما لغيره، وإذا ما تحرك جيش الجهاد يقوده خالد بن الوليد أو عمرو بن العاص رغم أفضلية ابن مسعود وسعيد بن زيد عليهما، والقاعدة الشرعية تصح ولاية الفاضل مع وجود الأفضل، وأبو بكر، رضي الله عنه، يقول: «إني لقد وليت عليكم ولست بخيركم»، ولكن يبدو أن عمر التلمساني ـ رحمه الله ـ وحامد أبو النصر قد وضعا لأنهما معروفان فلا حاجة للتعمية عنهما، وبارزان لا يحتاج الأمر للدعاية لهما كثيراً، وقد ثبتا أثناء المحنة فاكتسبا فضلاً يعرفه لهم أصحاب الفضل والإيمان أما الذين غير معروفين فيجب أن يبقوا خلف الواجهات يعملون لله، وربما ليسيران بالجماعة حسب رأيهم، ونرجو أن يكون في ذلك الخير. وإن كان يبدو على الشاشة بوضوح أن بطانة الرجلين ليست من النصحة إذ كثيراً ما صدرت تصريحات للمسؤول الأول لا تدلّ على خبرةٍ في القيادة ومعرفة في السياسة، وأمور يُحبّ ويفضل سترها، وإذا كان أغلبها يدل على إيمان وطيبٍ إلا أن بعضها يعطي خطًا في السياسة ليس صحيحاً، وبعيداً عن الوعي الإسلامي والفكر الإيماني، وأكثر هذا ما كان في السياسة، وهو الذي كان يمسّ قضية فلسطين. ولنمرّ سريعاً على بعضها: أجاب المرشد العام للإخوان المسلمين على سؤالٍ وجّهته إليه مجلة المجتمع الكويتية ضمن أسئلةٍ كثيرةٍ: هل يُؤيّد الإخوان إقامة حكومةٍ فلسطينيةٍ في المنفى، أم أن الأمر لن يضيف جديداً؟ فقال: إن أمر تكوين حكومةٍ فلسطينيةٍ في المنفى هو من شأن الإخوة الفلسطينيين أنفسهم فهم أدرى الناس بحقيقة أمورهم، ونحن نؤيد كل خُطوةٍ سليمةٍ وصادقةٍ تُعبّر عن إرادة الشعب الفلسطيني الكريم[٢].

---

(١) ولم يكن اختيارهما إلا لتقدمهما في الجماعة وثباتهما، ولم أعرف مبدأ يقرر هذا الاختيار ولو صح لاختير بلال خليفة.

(٢) مجلة المجتمع:

الواقع أن قضية فلسطين قضية إسلامية، وإقامة حكومة لهم تهمّ المسلمين جميعاً وليست من شأن الفلسطينيين وحدهم، وخاصةً إذا علمنا أن الذي ينطق باسم الفلسطينيين هي منظمة التحرير وهي تنطلق من منطلقاتٍ علمانيةٍ، وليست من منطلقات إسلامية لذلك لا يمكن أن نترك لها حرية التصرف، ونسكت إن كانت هناك ضرورات للكلام.

ولننظر إلى بعض الفقرات من الرسالة التي وجهها المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر حامد أبو النصر إلى الرئيس المصري محمد حسني مبارك: لهذا يقتضينا الواجب الديني والوطني أن نتقدّم لسيادتكم ببعض المقترحات رجاء أن تجدوا فيها ما ينفع الأمة في حاضرها ومستقبلها.

أولاً: عدم الدخول في أي تحالفِ عسكري تحت أي اسم[1]. وعدم منح تسهيلات عسكرية لأية دولةٍ من الدول[2] لما لذلك من أخطار ماحقة لا تخفى على سيادتكم.

ثانياً: عدم التورط في أي حربِ إقليميةٍ عربيةٍ أو غير عربيةٍ[3]، فمن الميسور أن تبدأ الحرب ولكن من العسير انتهاءها وحسبنا تجربة اليمن في الماضي، والعراق حالياً[4].

وجاء في الرسالة نفسها في فقرة السياسة الداخلية: أما في مجال السياسة الداخلية فأود أن أعرض على سيادتكم بعض الحقائق:

أولاً: إن مصر هي زعيمة العالم الإسلامي وحاميته على مدى القرون، ومنارته عبر الأجيال، بها يهتدون، ومنها يستمدون. وفي أزهرها الشريف يتعلمون أسمى المعارف وأرقى العلوم، وإن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بالدين ويقدسون شعائره، وقامت حضارتهم القديمة منذ أكثر من سبعة آلاف عام مضى[5]، ثم أصبح المصريون في تاريخهم الحديث حماة الأمة الإسلامية والخلافة الإسلامية ومهبط آل بيت رسول الله ﷺ. إن الصحوة الإسلامية التي تشهدها مصر الآن ليست نتوءاً بل هي تعبير صادق من صميم وجدانها أدركت هذا يا سيادة الرئيس منذ أكثر من خمسين عاماً مضت.

ويقول في الرسالة نفسها في مجال التعليم:

---

(١) أحتى لو كان التحالف إسلامياً ضدّ عدوٍ لله؟

(٢) أحتى لو كانت دولةً إسلاميةً تبغي مداهمة يهود؟.

(٣) هل لو كانت ضد اليهود، أو دعم دولة إسلامية تعرّضت لغزو اليهود؟

(٤) مجلة الشعب العدد ٣٧٦ الثلاثاء ١٨ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ (١٧ شباط ١٩٨٧م).

(٥) هل يقول أكثر من هذا أكثر دعاة القومية المصرية تطرفاً؟

١ ـ إصلاح التعليم: فينبغي أن يتوحد التعليم في مصر حتى تتقارب ثقافات أبناء الوطن الواحد، ولا بد أن يكون التعليم في مستوى عالمي، يحفظ للأجيال المصرية قدراً من العلم لا يقلّ بحالٍ عن أندادهم في الدول الأخرى، ولا بد أن يكون التعليم تعليماً قومياً[١]، لا يضيع معه تراث الوطن وتاريخ الأمة، ولا تطغى عليه الثقافات الأجنبية كل هذا مع الحرص التام على تدريس المواد الدينية في كافة مراحل التعليم، كل بما يناسبها، بالقدر الذي ينبغي على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يعلمه من أمور دينه، كما ينبغي العناية بالتربية والسلوك والعمل حتى يشبّ النشء على مبادئ الأخلاق الفاضلة الكريمة.

ويبدو أن السياسة العامة للتنظيم الدولي للإخوان المسلمين قد أخذت تتجه للسير في طريقٍ لا تُرفض عالمياً إذ يمكنها أن تخضع للعبة الدولية، وتتحرّك ضمن أطرها العامة دون معرفةٍ من القواعد التي تتحرك إيمانياً فقط، ولا من شخصية المرشد العام الطيب.

إن طريقة اختيار المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر بأن يكون أكبر أعضاء مكتب الإرشاد في الماضي سناً لطريقة غريبة جداً، إذ لا تهتمّ بالكفاءة على القيادية ولا بأمرٍ آخر، وكأن القصد منها إيجاد شخص لا يستطيع الإشراف على مؤسسات الجماعة كاملة كي يتمكن أفراد من العمل باسمه من خلفه. وإنها لطريقة لا تختلف عن طريقة قانون الانتخابات المصري الذي يحرص على إبقاء الحزب الحاكم في السلطة وأخذ أصوات الأحزاب الصغيرة التي لا تستطيع الحصول على نسبةٍ معينةٍ إليه.

ولما كان قانون الانتخابات المصري لا يسمح للجماعات التي تحمل

(١) هل يقول دعاة العصبية القومية بأكثر من هذا؟

الواقع أن الرسالة مطلوب بعثها، واجب الإكثار منها، مفروض النصح للمسؤولين، غير أنها جاءت بفكرٍ امتزجت فيه الفكرة الإسلامية بالدعوة القومية الأمر الذي يدلّ على سطحيةٍ، وعدم وضوح في الرؤية، وعدم وجود نصحة من الإخوة الأحبة، ألا تعرض أمثال هذه الرسالة على لجنة؟، وأظن أن الهدف إظهار المرونة وعدم التمييز لقبول فكر الجماعة داخلياً وعالمياً.

صفة دين معين دخول الانتخابات والوصول إلى المجلس النيابي، وكان الإخوان يرغبون في دخول المجلس النيابي، لذا فقد تحالف الإخوان مع حزب الوفد، ودخلوا الانتخابات تحت مظلته وشعاره. وفي الدورة الانتخابية التالية تحالفوا مع حزب الأحرار بل انضم بعض أفرادهم إليه، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على عدم التميّز الإسلامي الصحيح، وعدم السعي وراء هذا التميّز.

وعندما قامت الثورة في إيران كان هناك تعاطفاً من التنظيم الدولي للإخوان المسلمين نحوها بل إن بعض التنظيمات فيه مثل لبنان، وسوريا قد اندفعوا خلفها وكانوا المنافحين عنها من غير نظرٍ صحيحٍ إلى موضوع العقيدة، ثم لم يلبث التنظيم السوري أن تحالف مع العراق وبدأ حملة شعواء عليها، وهذه تنظيمات ضمن التنظيم الدولي الذي يتبع تنظيم مصر وإن لم يتغير الوضع إلى هذه الدرجة في مصر. لذا فإن وزير الداخلية المصري زكي بدر يزعم ويتهم الإخوان أنهم أتباع إيران كذباً وزوراً، ويريد الهجوم عليهم وتشبيه فكرتهم بحركة الخميني بعد أن ظهر أنها ليست إسلامية وإنما عصبية متعصبة لمذهبٍ بعيد عن الإسلام، وأنها دموية متطرفة.

هذه السلوكيات فتتت الحركة الإسلامية الواحدة في مصر وجعلتها جماعات وإن لم يكن بينها صراعات صارخة إلا أنها قائمة، وسهل على من يريد الوقوف في وجهها بعد أن كان صعباً إذ كانت كلها من قبل وراء حركة الإخوان المسلمين.

بعد إعدام سيد قطب ـ رحمه الله ـ نشأت جماعة فهمت أن المفاصلة مع المجتمع الجاهلي مفاصلة تامة وليست مفاصلةً شعورية، لذا فقد كفّرت هذا المجتمع، وانفردت برأيها وتصرفها وعُرفت باسم جماعة الهجرة والتكفير، وبرزت مدةً ثم قلّ شأنها، وعُرف زعيمها مصطفى شكري.

وفي عام ١٤٠٦هـ لما عادت جماعة الإخوان المسلمين إلى النشاط رأى شباب من الحركة عدم الانضواء تحت لوائها فالقيادة غير معروفة ولا يوثق بمجهول، ولما ظهر المرشد العام عمر التلمساني ظهر لهم أنه يُستغلّ ولا

يشرف تماماً على كافة مؤسسات التنظيم، وأن آخرين يتحرّكون من خلفه ليسوا نصحةً له ولا للدعوة، لذا فإن هؤلاء الشباب رفضوا الانضواء تحت جناح الإخوان وعملوا دون تنظيم، ثم لم يلبثوا أن أطلقوا على أنفسهم اسم الجماعات الإسلامية «تنظيم الجهاد»، وبرز منهم عمر عبد الرحمن كرأسٍ لهم ـ هكذا يظنّ ـ وقد كثر أفراد هذه الجماعة حتى ضاهوا حركة الإخوان أو بزّوهم، أو هكذا يتصوّر المراقبون.

وأصبح تجمّع خاص بالحركة السلفية أيضاً، وقد برز في الإسكندرية الطبيب محمد إسماعيل، وفي القاهرة أسامة عبد العظيم وهو أحد الأساتذة في جامعة الأزهر.

وهناك جماعة أنصار السنة التي يُشرف عليها محمد حامد الفقي، والجمعية الشرعية التي يتعهدها عبد اللطيف المشتهري، وجمعية الشبان المسلمين و. . .

كما أن هناك عدداً من العلماء الذين يرون رأي أصحاب السلطة، ويتحرّكون بتوجيههم في سبيل مراكزهم وبعض المغانم التي يأملون بها، وهؤلاء أكثر ما يُضايق الشباب.

أما صراعات الأحزاب في هذه المرحلة فتكاد تكون ضعيفة لأنّها تنصبّ بين الفئات المعارضة كلها وبين الحزب الحاكم الذي بيده السلطة، ويملك الأغلبية وهذا ما يجعل المعارضة لا وزن لها، وخاصةً أن قانون الانتخابات المصري يبقي الوضع على حاله الراهنة. وتتمثّل المعارضة في حزب الوفد الذي يرأسه فؤاد سراج الدين، وحزب الأحرار الذي يرأسه مصطفى كامل مراد، ويعمل الإخوان ضمنه، ولهم عدد من النواب في المجلس النيابي، وحزب العمل الذي يرأسه إبراهيم شكري، وإن برز مجاهد أحمد الذي يُنافس إبراهيم شكري على زعامة الحزب، وحزب التجمع الذي يرأسه خالد محيي الدين، وهناك حزب الأمة برئاسة أحمد الصباحي.

ولكن الحزب الحاكم لا يبالي بهذه المعارضة الحزبية وإنما يحسب حساباً للتجمّعات الشعبية التي تتمثّل بالدرجة الأولى في التيار الإسلامي الذي

يبرز في الجماعات التي تحدثنا عنها، وفي مقدمتها الإخوان المسلمون. ثم أخذت تظهر تجمعات ضعيفة تتمثل في الشيوعيين والناصريين ولكن لا يُؤبه بها أمام التيار الإسلامي لقلّة أتباعها.

ويبدو أن هذه الحرية الدستورية المزعومة القائمة في مصر ستتحول إلى استبدادٍ عسكري يفوقه استبدادية الحزب القائم بكثير، وهذا ما يشير إليه خطّ مجريات الأحداث.

❋ ❋ ❋

المَراجِع

- **الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢**، يونان لبيب رزق، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - أيار ١٩٧٧م.
- **الإخوان المسلمون رؤية من الداخل**، محمود عبد الحليم.
- **أسرار مجلس الوزراء**، كامل مرسي، المكتب المصري الحديث، القاهرة - الإسكندرية.
- **أصول الحكم - تاريخ مصر بالوثائق**، محسن محمد، دار المعارف - القاهرة.
- **البناء السياسي**، إشراف: محمد فتح الله الخطيب، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- **الثائر الصامت**، عبد العزيز علي، دار المعارف - القاهرة.
- **ثورة يوليو الأمريكية**، محمد جلال كشك، الزهراء للإعلام العربي.
- **دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ١٩٨٨م.
- **سنوات ما قبل الثورة ١٩٣٠ - ١٩٥٢م**، صبري أبو المجد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
- **موسوعة التاريخ الإسلامي**، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٩٨٨م.

الباب الثاني

السُّودان

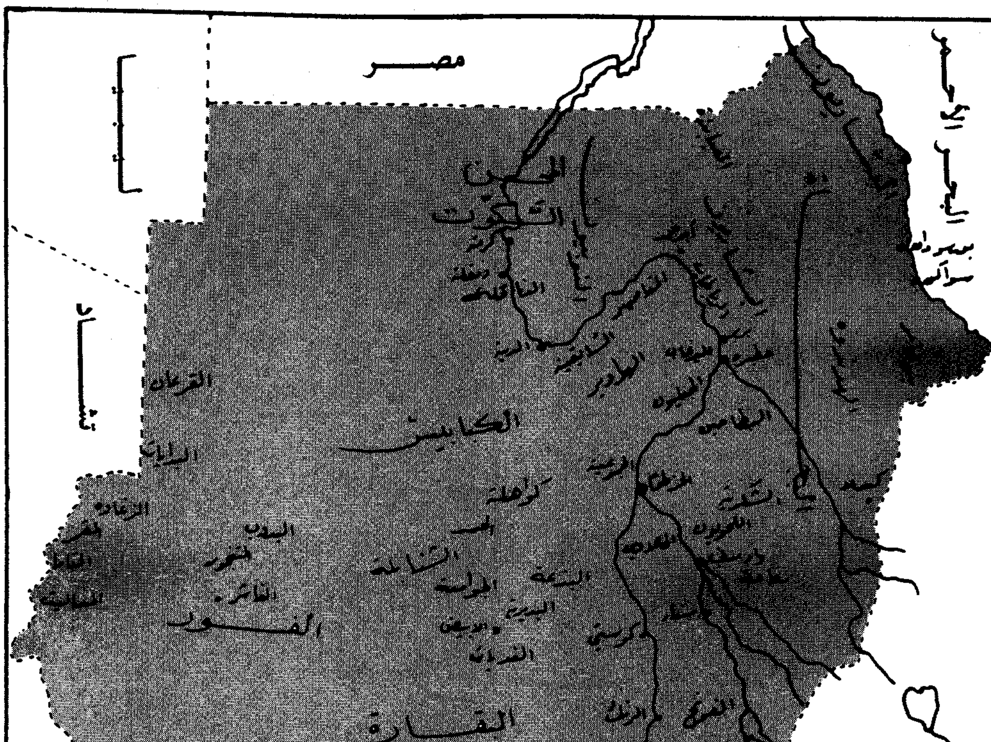
مصر
البحر الأحمر
سواكن
تشاد
الكبابيش
الفور
النوبا
النوير
جمهورية أفريقيا الوسطى
الحبشة
زائير
أوغندا
كينيا
القياس
كيلومتر

لمحة تاريخية
من احتلال إنكلترا للسودان حتى إلغاء الخلافة

احتلّ محمد علي باشا والي مصر عام ١٢٣٦هـ منطقة وادي النيل في السودان الشمالي، وبقي حكم هذا الجزء لأسرته من بعده، وفي عام ١٢٨٧هـ عين إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي ضابطاً إنكليزياً يهودياً هو «صموئيل بيكر» على السودان، وأعطاه رتبة فريقٍ، وعهد إليه بفتح جنوبي السودان بما في ذلك ما يُسمّى اليوم «أوغندا» فعمل بيكر لمصلحة بني جنسه، وأهل عقيدته، ولما انتهت مدة عقده اختار إسماعيل ضابطاً إنكليزياً آخر هو «غوردن» وقد جاء هذا أيضاً إلى المنطقة لخدمة المصالح البريطانية، وعمل في أوغندا للوقوف في وجه الإسلام، وبذل جهده لاعتناق الوثنيين النصرانية، وعندما انتهى عقده كافأه إسماعيل فعيّنه حاكماً عاماً للسودان فعمل على بثّ الفوضى، وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة كي يشعر أهل البلاد بفساد الحكم المصري، ويطلبوا الانضواء تحت ظل السيطرة الإنكليزية، كما أخذ يُفرّق بين المصريين والسودانيين، وبين شمالي السودان وجنوبيه، وهذا ما حرّك مشاعر السكان، وقامت الثورة المهدية عام ١٢٩٩هـ، ونجحت في السيطرة على المنطقة.

أما المنطقة الغربية من السودان «دارفور» فكانت تحت حكم أسرة الفور، وقد تمكّن الزبير باشا من دخول المنطقة، وأنهى حكم آخر ملوكها، وقتله عام١٢٩٢هـ، وأعلن ضمّ هذه المناطق التي سيطر عليها كلها إلى الحكم المصري الذي يتبع بدوره الدولة العثمانية اسمياً، فمنحه الخديوي لقب

باشا[1]، ثم ترك ابنه سليمان وسار هو إلى مصر، وجاءت القوات المصرية بقيادة «جس» الإيطالي، فاستسلم له سليمان بعد أن أُعطي الأمان، ولكن «جس» غدر به وقتله مع سبعمائةٍ من رجاله رمياً بالرصاص، أما رابح أحد قادته فقد انتقل مع ألفٍ من أتباعه إلى منطقة تشاد حيث أسّس دولةً له هناك. وحكم المنطقة «سلاطين باشا» النمساوي الذي استسلم للمهديين عام ١٣٠٢هـ، وأعلن إسلامه.

سيطر المهديون على السودان كلها، وجاءت الأوامر الإنكليزية للمصريين بالانسحاب من السودان، وأحس المصريون خطر هذا الانسحاب ومصلحة إنكلترا فيه فرفض رئيس الوزارة محمد شريف الأوامر، واستقال، ورفض رياض باشا تشكيل الوزارة، فعهد إلى نوبار الأرمني النصراني فشكل الوزارة ونفذ أوامر الانسحاب، وتوفي المهدي في أواخر عام ١٣٠٣هـ، وخلفه عبد الله التعايشي، وجاءت على البلاد سنوات عجاف.

وتنوي إنكلترا العودة إلى السودان واحتلالها من جديد، وأخذت تستعدّ لذلك. وهُزمت إيطاليا أمام الحبشة في معركة «عدوة» في ١٧ رمضان ١٣١٣هـ (١ آذار ١٨٩٦م) فاستنجدت إيطاليا بإنكلترا وطلبت منها أن يتحرّك الجيش من الشمال من «حلفا» باتجاه السودان أو من «سواكن» على ساحل البحر الأحمر نحو الداخل ليحول دون التفاهم بين المهديين والأحباش.

وتشكّل جيش مصري تحت قياداتٍ إنكليزيةٍ من أجل إعادة احتلال السودان، وتجمّع في حلفا، وصدرت الأوامر للجيش بالتقدّم نحو السودان من المندوب السامي الإنكليزي دون علم الحكومة المصرية، فلما علمت بالخبر أبدى الخديوي غضبه لعدم استشارته غير أنه اضطر للخضوع للأمر الواقع،

---

(١) وقع الخلاف بين الزبير باشا وبين حاكم السودان المصري إسماعيل أيوب، فاستدعي الزبير إلى مصر، وترك دارفور لابنه سليمان، وسُيّر الزبير عام ١٢٩٤هـ لقتال الروس بجانب العثمانيين، ولما انتهت الحرب عام ١٣٠٣هـ عاد إلى مصر، واتهم بالتآمر مع المهديين فنفي إلى جبل طارق، وبعد عامين ونصف رجع إلى مصر، وتوفي في السودان عام ١٣٣٣هـ.

وإظهار الرضا بما تمّ إذ ليس له من الأمر شيء، وطلبت الحكومة المصرية نصف مليون جنيه من الاحتياطي العام لهذا الغرض.

قاد الجيش «كتشنر» وهو ضابط إنكليزي من سلاح الهندسة، وبلغ عدد أفراد هذه القوة عشرة آلاف مُقاتلٍ بالاستعداد الكامل، وتجمّعت القطعات في الجنوب في منطقة «حلفا»، وفي ١٩ ذي القعدة من عام ١٣١٣هـ (١ أيار ١٨٩٦م) أُعطيت له الأوامر بالتّقدم في أرض السودان، وفي اليوم نفسه حدث اصطدام بين دوريةٍ من هذا الجيش وقوةٍ من الأنصار.

وحدثت معركة «فركة» يوم ٢٦ ذي الحجة ١٣١٣هـ (٧ حزيران ١٨٩٦م)، ولم يكن عدد السودانيين لِيزيد على ثلاثة آلاف على حين كان الجيش المصري بكامله وهو عشرة آلاف، فكانت النتيجة أن قُتل ثمانمائةٍ من السودانيين بينهم قائدهم «حمودة»، وجُرح خمسمائةٍ، وأُسر ستمائةٍ، وتراجع بقية الجيش نحو «دنقلة». وجرت اتصالات سرية بين الضباط الإنكليز وأعيان «كردفان»، وزعيم الكبابيش، وعبد الله ولد سعد زعيم قبيلة الجعليين لإعادة الحكم المصري، غير أن الجيش المصري قد أُصيب بكارثة انتشار مرض الكوليرا بين أفراده.

وجد أمير دنقلة ولد بشارة أنه لا يستطيع الصمود أمام الغزاة فأخلى مدينته، ودخلها «كتشنر» دون مُقاومةٍ، ووصل إلى مدينة «مروى». ومدّ الإنكليز خطاً حديدياً على جناح السرعة بين «حلفا» و «أبو حمد»، وحاولت قوة مهدية المقاومة في «أبو حمد» غير أنها قد هُزمت أمام قوة السلاح رغم ما قدّمت من تضحيةٍ، وكذلك فقد انسحب أمير «بربر» إلى أم درمان.

وجاءت قوة من الجيش المصري من «سواكن» على البحر الأحمر، وتقدّمت نحو الداخل، وأخذت مدينة «كسلا» من أيدي الإيطاليين وذلك في ٢٦ رجب عام ١٣١٥هـ (٢٠ كانون الأول ١٨٩٧م). وانتصر «كتشنر» على قائد الجيش السوداني «محمود» في بلدة «النخيلة» على نهر عطبرة في ١٥ ذي القعدة ١٣١٥هـ (٦ نيسان ١٨٩٨م).

وتقدّم الإنكليز بجنودهم المصريين نحو الجنوب وجرت معركة «كرري»

في منتصف الطريق بين «شندي» و «أم درمان» يوم ١٦ ربيع الثاني ١٣١٦هـ (٢ أيلول ١٨٩٨م)، وقتل في هذه المعركة عشرة آلافٍ من الأنصار، من بينهم يعقوب أخو الخليفة عبد الله التعايشي، ومحمد بن المهدي. وانتقل عبد الله التعايشي إلى إقليم «كردفان».

ودخل «كتشنر» الخُرطوم، ورُفع عليها العلمان المصري والإنكليزي. وتمّ التفاهم مع الفرنسيين في «فاشودة».

وفي ٨ رمضان ١٣١٦هـ (١٩ كانون الثاني ١٨٩٩م) تمّ التوقيع على الحكم الثنائي للسودان وذلك بين «كرومر» المندوب السامي الإنكليزي في مصر، ووزير خارجية مصر بطرس غالي. وقد جاءت هذه الاتفاقية كما يأتي:

اتفاقية

بين حكومة جلالة ملكة الإنكليز وحكومة الجناب العالي خديوي مصر بشأن إدارة السودان في المستقبل

حيث إن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن طاعة فخامة الحضرة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي تمت باتحاد حكومتي جلالة ملكة الإنكيز والجناب العالي الخديوي، وحيث قد أصبح من الضرورة وضع نظامٍ خاصٍ لإدارة الأقاليم المفتوحة المذكورة، وسنّ القوانين اللازمة لها لمراعاة ما هو عليه من الأهمية الكبرى لتلك الأقاليم من التخلف وعدم الاستقرار على وضعٍ حتى الآن، وما يلزم لكل جهةٍ من الاحتياطات المختلفة، وبمقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتّب على ما لها من حقّ الفتح فإن من حقّها أن تشترك في وضع النظام الإداري والقانوني الآنف ذكره، وفي تنفيذه، وتوسيع نطاقه في المستقبل، وقد تبيّن أنه من الأفضل إلحاق «وادي حلفا» و «سواكن» إدارياً بالأقاليم المفتوحة المجاورة لها، ولذلك فقد تمّ الاتفاق والإقرار بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو:

المادة الأولى: يُطلق لفظ السودان في هذه الاتفاقية على جميع الأراضي الواقعة جنوب خط العرض ٢٢ شمالاً. وهي:

أ ـ الأراضي التي لم تُخلها قطّ الجنود المصرية منذ عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م).

ب ـ الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة، وفقدتها مؤقتاً، ثم أعادت دخولها حكومة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد.

ج ـ الأراضي التي قد تدخلها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن وإلى المستقبل.

المادة الثانية: يُرفع العلمان البريطاني والمصري في البر والبحر في جميع أنحاء السودان عدا مدينة «سواكن» فلا يرفع فيها إلا العلم المصري. (ثم ألحقت «سواكن» بإدارة السودان في اتفاقيةٍ خاصةٍ في ربيع الأول ١٣١٧هـ (تموز ١٨٩٩م).

المادة الثالثة: تُفوّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان إلى موظفٍ واحدٍ يُلقّب حاكم عموم السودان، ويتمّ تعيينه بأمرٍ سامٍ من الخديوي بناءً على ترشيح من حكومة جلالة الملكة، ولا يُفصل من وظيفته إلا بأمرٍ سامٍ من الخديوي يصدر بموافقة الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة: إن القوانين وكافة الأوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به، والتي من شأنها تحسين الإدارة في السودان، أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها، وما تؤول إليه والتصرّف فيها يجوز سنّها، أو تحريرها، أو نسخها من وقتٍ إلى آخر بمنشورٍ من الحاكم العام. وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزءٍ مُعيّنٍ منه، ويجوز أن يترتّب عليها صراحةً أو ضمناً تبديل أو نسخ أي قانونٍ أو لائحةٍ من القوانين واللوائح المعمول بها.

المادة الخامسة: لا يسري على السودان أو على أي جزءٍ منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن وما بعد إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالصورة السابق بيانها.

المادة السادسة: المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي يتمّ بموجبها التصريح للأوروبيين من أية جنسيةٍ كانت بحريّة التجارة، أو السكن بالسودان، أو الملكية ضمن حدوده لا يشمل تخصيص دولةٍ مُعيّنةٍ أو عدّة دولٍ.

المادة السابعة: لا تُدفع رسوم على البضائع الواردة من الأراضي المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز دفع رسومٍ على البضائع العادية القادمة من غير الأراضي المصرية. وإذا ما وردت تلك البضائع عن طريق «سواكن» أو أي ميناءٍ آخر من موانئ البحر الأحمر فلا يجوز أن تزيد الرسوم على القيمة التي تدفع على ما يُماثلها من البضائع الواردة إلى مصر من الخارج. وتُقرّر رسوم على البضائع التي تُصدّرها السودان حسب ما يُقدّره الحاكم العام من وقتٍ إلى آخر بالمنشورات التي يُصدرها بهذا الشأن.

المادة الثامنة: لا تمتدّ سلطة المحاكم المختلطة على أية جهةٍ من جهات السودان، ولا يُعترف بها فيه بوجهٍ من الوجوه فيما عدا مدينة «سواكن» (أصبح الأمر نافذاً على مدينة سواكن) بعد اتفاقية ربيع الأول ١٣١٧هـ (تموز ١٨٩٩م).

المادة التاسعة: تُطبّق في السودان بكل أراضيه «عدا سواكن» الأحكام العرفية وتبقى سارية المفعول حتى يتمّ خلاف ذلك بمنشورٍ من الحاكم العام.

المادة العاشرة: لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري مراكز بالسودان، ولا يُسمح لهم بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة: يُمنع منعاً مُلطقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو أخذه منها، وسيصدر منشور بالإجراءات الواجب اتخاذها لتنفيذ هذا الأمر.

المادة الثانية عشرة: اتّفقت الحكومتان على وجوب محافظتهما على تنفيذ معاهدة «بروكسل» المبرمة بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١٣٠٧هـ (٢ تموز ١٨٩٠م) فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية، والذخائر الحربية، والخمور وبيعها أو تصنيعها.

القاهرة ٨ رمضان ١٣١٦هـ (١٩ كانون الثاني ١٨٩٩م).

التوقيع: كرومر. بطرس غالي.

والواقع أن المعتمد البريطاني في مصر يُشرف على أوضاع السودان بشكلٍ غير مباشرٍ وخاصةً أيام المعتمد كرومر. وكان المعتمد البريطاني كرومر يرى أن تكون السودان لإنكلترا رغم أن الجندي المصري والخزينة المصرية تحمّلا العبء الكبير، ولكنه يرى أن كفاءة الجندي المصري القتالية لولا التدريب الإنكليزي لم تكن موجودةً وأن المالية المصرية إن كانت قد نمت فإنما هو بفضل الإنكليز. وأن وجود بريطانيا في السودان يُنهي السيادة العثمانية الاسمية. ولكن ربط السودان بإنكلترا يثير إشكالاتٍ دوليةٍ وخاصةً من قبل فرنسا لذلك فمن الأفضل تغطية وجود بريطانيا في السودان بإدخال مصر شريكاً لبريطانيا في الحكم للسودان، ومصر لا تتحرّك إلا برأي الإنكليز وهم أصحاب السيادة الرسمية في مصر. ولو ضُمَّت السودان إلى مصر فإن السيادة العثمانية الاسمية هي المعترف عليها في مصر دولياً ولو كان ذلك نظرياً، والعلم عثماني، والنقد المتداول عثماني، والحكومة الشرعية هي حكومة الخديوي، ويُعيّن الخديوي بمرسوم من السلطان، وإن كانت السلطة الفعلية بيد المعتمد السامي البريطاني. لذا فإن أفضل وسيلةٍ لحكم السودان إنما هو اشتراك مصر وبريطانيا في ذلك، وهو ما أطلق عليه اسم «الحكم الثنائي» إذ أن ذلك يحول دون الإشكالات الدولية بوجود مصر وفي الوقت نفسه يُنهي السيادة العثمانية بوجود إنكلترا. مع أن مصر تحكم رسمياً من قبل بريطانيا.

وعُيّن «كتشنر» أوّل حاكمٍ عامٍّ للسودان مع احتفاظه بمنصبه في الجيش المصري.

كان الخليفة عبد الله التعايشي قد انتقل بعد معركة «كرري» إلى إقليم كردفان، فأقام مدّة في «أم ركبة» غرب «كوستي»، ثمّ اتصل بقائد حامية «الأُبيّض» الختيم موسى، ورحل إلى ديار قبيلة «الجوامعة»، واستقرّ في «الغبشة»، واتصل بقائد حامية «القضارف» أحمد فضيل.

حاول عبد الله التعايشي السير إلى جبال النوبا حيث يمكنه الاعتصام فيها

لوعورة مسالكها، ولكنه وجد مُقاومةً عنيفةً فسار إلى «قدير» دار الهجرة الأولى للمهدي، واستقرّ هناك فأرسل له «كتشنر» حملةً مُؤلفةً من ثمانية آلاف مُقاتلٍ، غير أن الحملة لم تواصل السير إذا بلغها أن عبد الله التعايشي قد سار إلى «أم درمان» لأخذها من يد السلطات الإنكليزية.

فخرج إليه «وينغث» في جيشٍ لصدّه عن العاصمة أم درمان فالتقى الطرفان في «أم دويكرات» صباح يوم ٢١ رجب ١٣١٧هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٩م)، فانتصر الإنكليز، وقُتل التعايشي وأصحابه في المعركة.

بقي الجيش المصري حامياً للوضع في السودان دون أن يكوّن جيشاً خاصاً بالسودان، مع وجود قوةٍ رمزيةٍ إنكليزيةٍ لحفظ الذخيرة والأسلحة.

وكان للحاكم العام ـ كما نصّت الاتفاقية ـ سلطات واسعة ولكن عن طريق المعتمد الإنكليزي في مصر، وكان كرومر في بداية الأمر هو المعتمد البريطاني فهو صاحب الكلمة المسموعة والرأي المطاع، وربما أكثر من أي معتمدٍ آخر جاء بعده.

عيّن الحاكم العام في السودان «كتشنر» مُعاونيه من العسكريين في الإدارة المركزية، وكانت جميع الرواتب من الخزينة المصرية لأنهم ضباطاً بالأصل في الجيش المصري.

واضطرت إنكلترا إلى سحب «كتشنر» من السودان، ونقله مع عددٍ آخر من الضباط الإنكليز الذين يعملون في الجيش المصري إلى جنوبي إفريقية لزجّهم في حرب «البوير» التي كانت مُشتعلةً هناك. وسرت شائعة في الجيش وهي نقل عددٍ من الفصائل السودانية التي تعمل في الجيش المصري إلى جنوبي إفريقية، وبدأ العمل على سحب الذخيرة من تلك الفصائل، فرفض الجنود تسليم أسلحتهم والذخيرة التي معهم، ففُصل عدد منهم وعوقب آخرون.

وعُيّن حاكماً عاماً للسودان «ريجنلد وينغت» خلفاً لـ «كتشنر» المنقول إلى جنوبي إفريقية، وفي الوقت نفسه كان «ريجنلد وينغت» مدير شؤون الضباط في الجيش المصري، كما كان سلفه «كتشنر». واضطر الحاكم الجديد أن يُعيّن في

الإدارة المركزية عدداً من الموظفين المدنيين ليحلّوا محلّ أولئك الضباط الإنكليز الذين نُقلوا إلى جنوبي إفريقية.

الحركات:

إن العاطفة الدينية قوية في السودان، واستطاعت الحركة المهدية أن تزيدها رسوخاً، غير أن الجهل يُخيم على الأوساط الشعبية على نطاقٍ واسعٍ الأمر الذي يجعلهم يتأثّرون بكل من يُنادي بالإسلام سواء أكان عن علمٍ وبيّنةٍ وحكمةٍ أم عن هوىً واستغلالٍ، ولم يعدم وقت من الأوقات جهلة يريدون الإفادة من عاطفة الناس فيدعون دعاوى باطلة. لذا كان بين الحركات من ادّعى أمراً من الأمور كذباً ودجلاً.

في ١٣٢١هـ سار الشريف محمد الأمين من مهاجري الغرب لأداء فريضة الحج ورجع يحمل وثيقةً تُثبت أنه من آل البيت وتدعو القبائل السودانية إلى مُناصرته، فسيّر إليه «ماهون» مدير كردفان حملةً قضت عليه قبل أن يقوى أمره.

وفي عام ١٣٢٢هـ ادّعى رجل في «سنجة» أنه نبي الله عيسى، عاد إلى الأرض ليُصلحها، ويُقيم حكم الله فيها.

وفي عام ١٣٢٤هـ ثار مدير مركز «أبو رفاس»، ولكن الحكم عاجله، وقضى عليه.

وفي عام ١٣٢٥هـ ادّعى رجل آخر في القضارف أنه النبي المنتظر عيسى، عليه السلام، ولكن أمره لم يتوسّع.

وفي عام ١٣٢٦هـ أعلن العصيان أحد رجال قبيلة الحلاويين، ويدعى «عبد القادر ولد حبوبة»، وقد كان مع الأنصار، ورافق الحملة التي انطلقت لغزو مصر بإمرة عبد الرحمن النجومي وأُسر، ولكن قُضي عليه، وأُعدم مع أتباعه.

وقامت ثورة في جبال النوبا، واستطاعت الحكومة القضاء عليها في شهر صفر من عام ١٣٣٦هـ (كانون الأول ١٩١٧م).

حركة علي دينار:

كانت أسرة «سولونغ» تحكم منطقة دارفور حتى عام ١٢٩٣هـ حيث استطاع الزبير باشا أن يدخلها، وأن يقتل آخر الملوك فيها وهو إبراهيم، وأعلن الزبير تبعية دارفور للدولة العثمانية مع بقائه حاكماً عليها باسم العثمانيين، ثم استُدعي إلى مصر بعد أن وقع خلاف بينه وبين إسماعيل أيوب حاكم السودان من قبل مصر، فسار إلى القاهرة وترك ابنه سليمان مكانه، وفي مصر اعتقل الزبير، ونفي إلى جبل طارق حيث قضى هناك عامين ونصف العام، وأُعيد إلى مصر حيث بقي فيها حتى أيامه الأخيرة، ثم رجع إلى السودان، ومات فيها عام ١٣٣٣هـ، ودُفن بقرية «الجبلي» مسقط رأسه في محافظة الخرطوم على الضفة الشرقية لنهر النيل.

أما سليمان بن الزبير الذي حكم مكان أبيه عندما استُدعي إلى مصر فقد أُرسلت له حملة عام ١٢٩٧هـ بإمرة «جسّ» الإيطالي، وطُلب منه الاستسلام بعد إعطائه الأمان، وإرسال النصح له من أبيه بالتسليم، فلما أصبح بيد «جسّ» أمر بقتله رمياً بالرصاص مع ٧٠٠ رجلٍ من أتباعه، وهكذا انتهت أسرة الزبير أيضاً من دارفور.

حكم دارفور سلاطين باشا الذي استسلم لجيش المهديين، وأعلن إسلامه، غير أن عبد الله التعايشي حاكم السودان بعد المهدي والذي حمل اسم خليفة قد استقدم إليه زعماء دارفور، ومنهم سلاطين باشا، ومنهم علي دينار بن زكريا من أسرة «سولونغ» التي كانت تحكم دارفور قبل مجيء الزبير إليها، وبقي هؤلاء على باب عبد الله التعايشي حتى معركة «كرري».

فرّ سلاطين باشا من بيت عبد الله التعايشي، ووصل إلى مصر، وجاء في جيش «كتشنر» لدخول السودان.

وقبيل معركة «النخيلة» على نهر عطبرة في ١٥ ذي القعدة عام ١٣١٥هـ (٦ نيسان ١٨٩٨م) هرب من جيش المهديين إبراهيم علي الذي يمتّ إلى أسرة «سولونغ» بصلة، والتجأ إلى جيش المصريين فأرسله «كتشنر» إلى دارفور لينشر الأمن في ربوعها ـ على حدّ زعمه ـ ويتسلّم زمام السلطة الموقّتة إلى أن يفرغ

الجيش من مهمته في السيطرة على أرض السودان كله، وبعدها يرى «كتشنر» ما يراه صالحاً لحكم دارفور.

وبعد معركة «كرري» في ١٦ ربيع الثاني عام ١٣١٦هـ (٢ أيلول ١٨٩٨م) أو في اليوم السابق لها غادر أم درمان علي دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل مع مجموعةٍ من أصحابه تقلّ عن عشرة أفراد مُستغلّين فرصة الاضطراب التي سادت أم درمان، واتّجهوا نحو الغرب ناحية دارفور، وكان أثناء طريقه ينضمّ إليه بعض أبناء منطقته فما وصل إليها إلا ومعه ما يقرب من ألفي رجلٍ. وما حلّ في «الفاشر» حتى سلّمت له السلطات التي كانت تُباشر الحكم نيابةً عن المهديين.

بدأت المنافسة بين علي دينار وإبراهيم علي، وأُخبر «كتشنر» بالخبر فطلب منهما التريّث ريثما ينتهي من أمر السودان تماماً، غير أن إبراهيم وجد نفسه دون علي دينار لذلك فقد تنازل له عن الأمر دون تدخل الحكومة.

كانت رغبة حكومة السودان إيجاد سلطنةٍ في دارفور بإمرة علي دينار، حيث تُترك له حكم المنطقة ذاتياً على أن يطلب المستشارين منها، ويُقيم بجواره معتمد من قبلها، وأبدى علي دينار الموافقة، والتزم بدفع ضريبةٍ معلومةٍ سنوياً، ولكنه لم يكن في قرارة نفسه ليرغب أن تتدخل حكومة السودان في شؤونه، لذا بدأ يعمل ضمناً لاستقلاله عنها. وفي الواقع فإن الحكومة قد تركته وشأنه وخاصةً أنه قد وطّد الأمن في منطقته والتي عجزت الحكومة بل ومن قبلها حكومات على توطيد الأمن في جهات دارفور. ولكن زعماء بعض القبائل المجاورة لدارفور بقيت تشنّ الغارات عليها كالبقارة، والرزيقات، والناما وغيرها. وفي إحدى الغارات التي شنتها قبيلة الرزيقات سار إليها علي دينار، وأخضعها إلاّ أن زعيمها، «موسى مادبو» قد التجأ إلى الخرطوم فآوته الحكومة، فأخذ علي دينار يعتب على الحكومة في هذا التصرّف.

كان سلاطين باشا النمساوي قد ارتدّ عن الإسلام الذي أظهره أيام المهديين، وجاء إلى أم درمان ليعيش فيها على باب عبد الله التعايشي، ثم فرّ إلى مصر، وجاء مع «كتشنر»، وارتفعت مكانته ثانيةً، وأصبح ضابط الاتصال

بين الحكومة وبين علي دينار، وكان في ردّه على خطابات علي دينار يُظهر نوعاً من الاستعلاء عليه، ويرفض علي دينار مثل هذه الأجوبة لسلطان.

بدأت العلاقات تتوتّر بين الحكومة السودانية والسلطان علي دينار، فهي ترى أن شهرته قد وصلت إلى درجةٍ أصبحت تزعجها، وكان يرسل محملاً إلى الحجاز في كل عام كبقية حكام المسلمين، وهي تتأثّر من هذا كل التأثّر، ويستطيع أن يخضع ما تعجز عنه، وبالمقابل فإنه يرى أنه لا يحصل على حقّه ولا يلقى أية مُساعدةٍ فيطلب أسلحةً وذخيرة فلا يُعطى، ويعتدي الفرنسيون من تشاد على دارفور فلا تقوم حكومة السودان بأي ردّ فعلٍ، بل تسكت عن هذا كلياً، ويقوم زعيم قبائل الرزيقات بمناهضته وتُؤويه حكومة السودان، ويتعدّى الكبابيش على دارفور فلا تُنصفه الحكومة منهم، وتفرّ قبائل الزيادية من وجهه إلى كردفان فلا تعيدها الحكومة، ويُرسل مندوباً إلى الحجاز لشراء الذخيرة، فلا يسمح للمندوب بالسفر. وبذا فُقدت الثقة بين الحكومة والسلطان.

اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخلت الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا ضدّ الحلفاء الذين هم: إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا و. . . وبدأت الشائعات تروّج في كل مكانٍ، فأعداء أي طرفٍ يُشيعون الأخبار غير الصحيحة ضدّ الطرف الثاني، ومن هنا كان أعداء الإنكليز في السودان يُروّجون الشائعات ضدّ الحلفاء ولمصلحة العثمانيين وتجد آذاناً صاغيةً عند المسلمين الذين يتعاطفون مع العثمانيين، وكثرت الشائعات من هذا النوع في دارفور حتى اضطرت الحكومة السودانية أن تخبر السلطان علي دينار أن الأخبار الصحيحة هي ما تنشره جريدة السودان التي تصدر في الخرطوم، وما عدا ذلك فهو غير صحيح يجب تكذيبه ومُعاقبة مُروّجيه. ولما كان السلطان علي دينار مُتديناً فقد كان مُتعاطفاً مع العثمانيين ويقبل الأخبار التي تُشاع ضدّ الحلفاء، وأن هزيمتهم أضحت وشيكةً، وقد بعث علي دينار برسالةٍ إلى خليفة المسلمين يُبدي له عواطفه نحو دولة الخلافة، وردّ أنور باشا وزير خارجية الدولة العثمانية على رسالة علي دينار بخطابٍ مُؤرّخٍ بـ ١٩ ربيع الأول ١٣٣٣هـ (٣ شباط ١٩١٥م) يذكر له فيه اعتداء الحلفاء، وفتوى علماء المسلمين بأن الجهاد أصبح فرض

عينٍ على المسلمين كافةً، وأنه قد أرسل له جعفر بك، في حين أرسل للسنوسي في ليبيا نوري بك «شقيق أنور باشا»، ويروي له أيضاً انتصارات الدولة العثمانية وأصدقائها.

وردّ السلطان علي دينار على خطاب أنور باشا، وأعلمه أنه قد قطع علاقته مع الكفار منذ أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، واعتدى الكفار على خليفة المسلمين وما فعل ذلك إلا غيرةً لدينه.

وصلت أخبار تلك المراسلات إلى الحكومة السودانية، وعرفت أن نيّة السلطان علي دينار إعلان العصيان على حكومة السودان، ورأت أن تبدأ به قبل أن يستعدّ أو يقوم هو بالهجوم، أو تصل إليه مساعدات من العثمانيين. وجهّزت الحكومة حملةً قوامها ثلاثة آلاف مُقاتلٍ أغلبهم من الجنود المصريين، وجعلت قيادتها إلى «كلي باشا»، وسارت الحملة إلى دارفور، وفي شمال الفاشر بعشرين كيلومتراً جرت وقعة «برنجية» بين الطرفين، وثبت جيش السلطان غير أنه هُزم في النهاية أمام الأسلحة الآلية، وخلّف خمسمائة قتيلٍ في أرض المعركة. وترك السلطان العاصمة وانتقل إلى جبل «مرّة» يتحصّن فيه، فتابعه «هدلستون» بعد أن علم أن أتباع السلطان قد بدأوا يتخلّون عنه، وقُتل السلطان علي دينار يوم ١١ محرم عام ١٣٣٥هـ (٦ تشرين الثاني ١٩١٦م)، وضُمّت دارفور إلى السودان.

ونُلاحظ من هذه الحركات أن السودانيين لم يستكينوا لحكم الإنكليز ولم يهدأوا، وإذا كانت حركاتهم أو ثوراتهم غير كبيرة، ولا مُنظّمةً تنظيماً دقيقاً فإن ذلك يعود لأسباب منها:

١ ـ البساطة التي تغلب على السودانيين، والعاطفة مع الجهل الذي يسود الأمر الذي يجعلهم يسيرون وراء كل ناعقٍ دون المعرفة الجيدة التي يجب أن يتمتع بها. وخاصةً أن تلك المرحلة التي نتحدث عنها كانت تغلب عليها تلك الصفة ليس في السودان فحسب بل في العالم الإسلامي كلّه.

٢ ـ اتساع أرض السودان التي تجعل اتصال الناس بعضهم مع بعض ضعيفاً، وخاصةً إذا علمنا سوء المواصلات في تلك المرحلة، والفقر، والعوامل الطبيعية التي تفصل بين الأقاليم كالصحارى في الشمال.

٣ ـ تغطية الاستعمار الإنكليزي بالحكم المصري، ومصر ترتبط اسمياً بالدولة العثمانية التي تمثّل الخلافة الإسلامية، فالعلم في مصر عثماني، والنقد المتداول عثماني، والخديوي يُعيّن بأمرٍ من السلطان، إذن مصر جزء من دولة الخلافة، والسودان ترتبط بمصر، فالسودان من أراضي الخلافة الإسلامية، وليس وضع الإنكليز، وسيطرتهم، ونفوذهم إلا أمور طارئة تزول بقوة المسلمين. وهذا ما يجعل المتدينين في السودان يحقدون على الإنكليز دون كبير نظرة سوءٍ إلى الحكم لأنه من مصر، ومصر مسلمة، ومن أرض الخلافة الإسلامية وإن كان مغلوب على أمرها في الوضع الراهن، لذا لا يرون ضرورةً قصوى للقيام بالثورات التي قد تعود برد فعلٍ معاكسٍ قد يؤدّي إلى تمكين الإنكليز، واتّباع طريقة التحكّم التام، والضغط على السكان، وزيادة الوطأة عليهم.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى، وأعلنت إنكلترا الحماية على مصر، وإلغاء التبعية الاسمية للدولة العثمانية، تغيّر الوضع بالنسبة إلى السودانيين، وتغيّرت نظرتهم إلى الإنكليز إذ غدت نظرة كرهٍ ومقتٍ، فهم مستعمرون صليبيون يريدون إذلال المسلمين، ومصّ دمائهم، والسيطرة على بلادهم، غير أن ظروف الحرب، وتطبيق الأحكام العرفية قد حالت دون القيام بحركاتٍ اللّهم إلا ما كان من حركة علي دينار ـ كما رأينا ـ أو ظهور النيّة عنده للقيام بحركة.

بعد الحرب:

بدأت مُقاومة السودانيين للإنكليز بعد الحرب، وأخذت طريق التنظيم وإن كان في أول أمره غير دقيق، ولكنه يتّفق والوسائل المتاحة له آنذاك، وإذا كان بعض شيوخ القبائل وبعض الأعيان تبدو عليهم الملاينة فإن ذلك يعود إلى وجودهم في الواجهة، واضطرارهم إلى التعاون مع المسؤولين في الحكم، والضغط عليهم أحياناً، وإجبارهم على اتخاذ بعض المواقف في الأمور الرسمية كالتهنئة بالنصر إثر الحرب، والسفر إلى لندن للسبب ذاته، وفي الوقت نفسه لا ننسى أن لبعضهم مصالح وارتباطات ولا تزال مقدمةً على غيرها، وكما يجب أن نعترف أنهم ليسوا جميعاً على مستوىً من الوعي الإسلامي أو الفكري والسياسي.

نشأت بعد الحرب جمعية «الاتحاد السوداني» وهو جمعية سريّة لمقاومة الإنكليز عن طريق المنشورات لنشر الوعي وتعبئة المجتمع ضد المتسلّطين الصليبيين الدخلاء. وكان أكثر أعضاء هذه الجمعية من خريجي كلية «غوردن»، وقد بعثت هذه الجمعية بعض خريجي الكلية إلى مصر لمتابعة الدراسة.

❋ ❋ ❋

الفصل الاول
من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

ألغى مصطفى كمال الخلافة يوم ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) بتوجيهٍ من إنكلترا التي ارتبط بها الارتباط كله، فتناثرت الدول الإسلامية التي كانت تشعر برابطٍ يجمعها بعضها إلى بعضٍ، وإن كان يومها رابط تبدو عليه العاطفة غير أنه ذو جذورٍ راسخةٍ في النفوس، وغدا كل إقليم يتخذ لنفسه مساراً مُنفصلاً يسير فيه، ويريد أن يتطوّر ضمن حدوده، وتنشأ نتيجة هذه الانفصالية أفكار خاصة غريبة عن عقيدة سكان العالم الإسلامي وربما كانت مُوجّهةً إليهم من أعدائهم الأوروبيين، ويحدث بسبب ذلك التقوقع.

لم تعد إنكلترا ترى ضرورةً لارتباط مصر والسودان بعضها مع بعض ما دامت دول الخلافة قد تناثرت، وأقاليمها قد تجزّأت وتبعثرت، وغدت إنكلترا تطرح فكرة «السودان للسودانيين»، وتُحاول أن تصوّر للسودانيين الماضي وما حدث في ديارهم من آثار المصريين، دخول إسماعيل بن محمد علي وما فعله بالجعليين، الأحداث التي قام بها الإنكليز تنسبها إلى المصريين، المآسي التي تمّت والمذابح والجرائم يوم عاد المصريون تحت قياداتٍ إنكليزية إلى السودان إثر القضاء على الحركة المهدية...

كانت مصر ترى أنّ قضية السودان مرتبطة بها الارتباط كلّه بل هي جزء منها، على حين يرى الإنكليز أنّ قضية السودان منفصلة كلّ الانفصال عن مصر، ولا علاقة لمصر بالسودان، ولا يُهمّها منها سوى مياه نهر النيل.

جمعية اللواء الأبيض:

أسّس الملازم علي عبد اللطيف[١] جمعيةً أسماها «جمعية اللواء الأبيض»

---

(١) ولد علي عبد اللطيف عام ١٣١٠هـ في حلفا، وعمل أبوه جندياً في الجيش المصري، =

وقد ربطت كفاحها بمصر، وجعلت شعارها علماً رسم عليه نهر النيل من المنبع إلى المصب، وكتب تحته عبارة «إلى الأمام». وقد قامت هذه الجمعية بمظاهراتٍ في عددٍ من المدن السودانية فقُبض على رؤسائها، وأُلقوا في السجن، وقد مات أمين سر الجمعية عبيد حاج الأمين في السجن، وبقي علي عبد اللطيف يُنقل من سجنٍ إلى آخر حتى مات، وقُضي على الجمعية في ذي القعدة من عام ١٣٤٢هـ (حزيران ١٩٢٤م). وكانت مظاهرات هذه الجمعية تأييداً لما يحدث في مصر.

كان الأعضاء في المجلس النيابي المصري ينتقدون الحكومة في سكوتها على ما تتمتع به إنكلترا من وضعٍ ممتازٍ في السودان، وليس لمصر شيء من هذا على الرغم من أنها شريكة إنكلترا في حكم السودان. كما كان الانتقاد على وضع قيادة الجيش المصري في السودان بأيد الإنكليز الذين لهم وحدهم حقّ القيادة بل حقّ التصرّف. وطالب أعضاء المجلس أيضاً بأن تُعرض ميزانية السودان على المجلس النيابي المصري، كما كانت تُعرض على الجمعية التشريعية قبل الحرب فماذا جدّ بعد الحرب؟ وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على تردّي الأوضاع والرجوع إلى الخلف. (الواقع كما ذكرنا أنه قبل الحرب كانت مصر والسودان تتبعان اسمياً الدولة العثمانية ـ وكانت توجد خلافة والآن لا تبعية ولا خلافة ـ).

مظاهرات طلاب المدرسة الحربية:

وفي مطلع عام ١٣٤٢هـ (آب ١٩٢٤م) خرج طلاب المدرسة الحربية في الخرطوم بمظاهراتٍ سياسيةٍ تُؤيّد ما يدور في مصر حول السودان، وعدّ الإنكليز هذه المظاهرات تمرّداً وخاصةً أنهم لم ينصاعوا لأوامر رؤسائهم من

= والتحق علي عبد اللطيف بالمدرسة الحربية في الخرطوم وتخرّج منها ضابطاً عام ١٣٣٩هـ، وعُيّن نائباً لقائد الكتيبة المرابطة في وادي مدني، واختلف مع رئيسه الإنكليزي بسبب التحية، وأحيل إلى الاستيداع، ورجع إلى الخرطوم وكتب مقالاً لجريدة «حضارة السودان» وهي الوحيدة يومذاك، فلم يُنشر المقال، وقُدّم صاحبه للمحكمة، وحكم عليه سجن سنة، وقد سجن.

الضباط الإنكليز وهذا في العرف العسكري عصيان ويُقدّم من يقوم به إلى محكمةٍ عسكريةٍ، وقد أحاط الجيش الإنكليزي بالمدرسة الحربية، وقبض على الطلاب فيها، وألقوا في السجن، وفُصل بعضهم. ومع أن الطلاب الذين يتخرّجون من هذه المدرسة يُقسمون على الولاء والطاعة للملك (ملك مصر) ولكن لا أثر لمصر على الجيش أبداً، ولو كان معظم أفراده من مصر بالذات.

مقتل حاكم عام السودان:

عقد اجتماع في لندن برئاسة رئيس الوزراء البريطاني رمزي مكدونالد، حضره المندوب السامي البريطاني في مصر الجنرال «اللنبي» وحاكم عام السودان «لي ستاك»، واتفقوا فيه على أن تخرج مصر من السودان، وتتشكّل قوة دفاعٍ سودانيةٍ خاصة لا سلطة لمصر عليها، ولا تضمّ مصريين.

وأثناء عودة الحاكم العام مرّ من القاهرة، وكان الفدائيون يُفكّرون باغتيال أمين سره فلما جاء هو اتجهت الأنظار نحوه، واغتيل يوم ٢١ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٢٤م). فأرسلت الحكومة البريطانية إنذاراً إلى مصر لسحب القوات المصرية من السودان، ودفع ٧٥٠ ألف جنيه كنفقات لقوة الدفاع السودانية التي سوف تنشأ، ومطالب أخرى[١] واستقالت بناءً على ذلك وزارة سعد زغلول، وشكّل أحمد زيور وزارة جديدةً قبلت شروط الإنذار كاملةً، وبدأت بتنفيذها.

أخذت السلطات الإنكليزية بإجلاء القوات المصرية غير أن الجنود السودانيين قد تضامنوا مع المصريين، وتحرّكوا لمنع انسحابهم، ويُحاول الحاكم العام للسودان «هدلستون» منعهم فيرفضون ويُصرّون على أن الأوامر إنّما هي من «رفعت» الذي اتصل بالملك ليتلقّى الأوامر منه لا ليصدرها. وأرسل الملك أمراً بطائرةٍ خاصةٍ. وسرت شائعة أن المدفعية تُقاوم أمر الجلاء فهبّ الجنود السودانيون، وخرجوا بأسلحتهم وذخيرتهم فتصدّت لهم القوات الإنكليزية التي تحتلّ كلية «غوردون»، ومنعتهم من التقدّم، فأمر الحاكم العام

---

(١) يرجع إلى هذا الموضوع في الباب الأول من هذا الكتاب ـ الفصل الأول.

«هدلستون» بإطلاق النار، ودمّر أكبر مستشفى آنذاك بالخرطوم، ودارت معركة بين السودانيين والقوات الإنكليزية استمرّت سبع ساعاتٍ فقُتل ثلاثة ضباطٍ من الإنكليز، وأُصيب سبعة عشر من القوات الإنكليزية، غير أن الذخيرة قد نفدت من الجنود السودانيين، فأُلقي القبض عليهم، وقُدّم أربعة ضباطٍ منهم إلى المحكمة فحُكم عليهم بالإعدام، ثم خُفّف الحكم إلى خمس عشرة سنة سجناً.

وما أن انتهى شهر جمادى الأولى من عام ١٣٤٣هـ (كانون الأول ١٩٢٤م) حتى تمّ سحب الضباط والجنود المصريين، وأُخلي السودان منهم تماماً، ثم تبع ذلك سحب المدرسين وبعض الموظفين الآخرين. واقترح نائب الحاكم العام إنزال العلم المصري من جانب العلم البريطاني في كل أنحاء السودان، وإزالة كل صفةٍ قانونيةٍ للوجود المصري إذ لا يمكن إنشاء جيشٍ مزدوج الطاعة، لملك مصر وللحاكم العام الإنكليزي، وإن الأُسس التي بُني عليها الحكم الثنائي قد أصبحت مزعزعة الأركان.

أشاع الإنكليز أن هذه الحركات التي قامت في السودان ليست إلا من دعايةٍ مصريةٍ، وتوجيهٍ وتمويلٍ مصريين، وتأثّر بهذه الشائعات بعض السودانيين، واعتقدوا أن مصر تُريد أن تفرض سيطرتها على هذا الجزء من وادي النيل، بينما يجب أن تكون السودان للسودانيين حسب هذا الشعار الذي طرحه الإنكليز، ولم يُطالب هؤلاء السودانيون البسطاء الإنكليز باستلام أهل البلاد للحكم وإحلالهم محل المصريين على أقلّ تقديرٍ، أو تدريب المواطنين على استلام المناصب الإدارية، وإنما اكتفوا بالدعاية الإنكليزية وقد كان لهذا الفريق السوداني من الناس التأييد الكامل من المستعمر وتقديمه على غيره. أما الفريق الذي قام بالحركات، ومن أيّدهم، ومن نظر بعين الواقع فقد كان يرى الإذلال الذي يتبعه الإنكليز ضد السودانيين، وما يتصرّف به الضباط الأجانب من المستعمرين في محاولة احتقارهم للعسكريين المصريين والسودانيين على حدٍ سواء جنوداً وضباطاً لذا رأوا أنه لا بدّ من ربط مصيرهم بمصر ومقاومة المتسلّطين الغرباء بكل ما أوتوا من قوةٍ، وحتى لو كانوا أتباعاً لمصر حسبما تدّعي إنكلترا فهو أفضل بألف مرّة من أن يكونوا تبعاً للإنكليز ويحيون في ذلٍ وامتهانٍ مدة حياتهم.

«جون مافي» وسياسته:

عُيّن حاكم عام جديد للسودان خلفاً للحاكم السابق المقتول «لي ستاك»، وكان الحاكم الجديد يدعي «جوفري آرثر» لكنه لم يلبث أن اختلف مع المندوب السامي الإنكليزي في مصر «جورج لويد»، كما اختلف مع كبار مُعاونيه في السودان لذا فقد قدّم استقالته ورحل عن البلاد، وعُيّن مكانه «جون مافي»، وكانت سياسته تقوم على مُقاومة النفوذ المصري، ومُراقبة طرق المواصلات بين البلدين، والضغط على المتعلمين، وتطوير الإدارة المحلية ومنحها سلطاتٍ واسعة. وتشكّلت في هذه الآونة قوة دفاعٍ سودانيةٍ خاصة تدين بالطاعة للحاكم العام، وليس للحكم المصري أي نفوذٍ عليها، وإن كانت نفقاتها، وهي ٧٥٠ ألف جنيه تدفعها مصر سنوياً تبعاً للإنذار الذي قبلته الحكومة المصرية (وزارة أحمد زيور) بعد مقتل «لي ستاك» حاكم عام السودان الأسبق.

أ ـ الإدارة:

أصدر الحاكم العام لائحة الإدارة الأهلية، حدّد فيها سلطات واختصاصات زعماء القبائل. إذ كانت الإدارة حسب لائحته تعتمد على شيوخ ورجال العشائر. وكانت المحاكم الأهلية تتعدّى على اختصاص المحاكم الشرعية، وتهدف إلى إزالتها.

وعمل «جون مافي» على تأهيل بعض السودانيين لاستلام الوظائف الإدارية، غير أن الترشيح لا يكون حسب المؤهلات العلمية، وإنما حسب التوصيات من زعماء القبائل المتعاونة معهم، ومن رجالات الإنكليز، أي من الذين يعملون بإيحاءاتٍ خارجيةٍ ويقبلون الأفكار الغربية.

وكانت نتيجة هذه السياسة سيئةً جداً، إذ غدا الإداريون من الذين تهمهم مصالحهم ومصالح قبائلهم، ومن الذين يرتبطون بالسياسة الإنكليزية.

وكانت الأحكام القضائية لا تستند على شرعٍ ولا تعتمد على قانونٍ أو عرفٍ وإنما تصدر حسب نزواتٍ فرديةٍ وآراءٍ شخصيةٍ، وقد تكون حسب مكانة المحكوم عليه، وصلته بالغرباء الإنكليز.

وتراجع مستوى التعليم إذ فقد عنصراً أساسياً بترحيل المدرسين المصريين، وقد عملت الحكومة على إملاء الفراغ الذي تركوه بمديري المدارس الأولية، واستقدام عددٍ من الشاميين النصارى من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت للتدريس في كلية غوردون.

وهبط المستوى العسكري لدى الضباط إذ أُغلقت المدرسة الحربية، وأصبح الترفيع إلى رتبة الضباط يتمّ حسب الترشيح والرضا عن سلوك الجنود في الخضوع للإنكليز.

ووُجدت النعرات القبلية والإقليمية لاعتماد الإدارات على رجال القبائل.

وبعُدت الشقة بين الإدارة والحكم المصري فلم تعد للحاكم العام صفة الارتباط بالجيش المصري والتبعية لوزير الحربية. وأصبحت القوة السودانية تدين بالولاء للحاكم العام وليس لملك مصر، وبشكلٍ عامٍ فقد انفرد الإنكليز بالسيطرة على السودان، ولم يبق من آثار الحكم الثنائي سوى العلم المصري الذي يُرفع فوق الدوائر بجانب العلم الإنكليزي.

ب ـ مياه نهر النيل:

كان كثيراً ما يُطالب بعض الزعماء المصريين بنصيب مصر في حكم السودان الثنائي، ويكون الردّ الإنكليزي إن مصر لا يُهمّها من السودان سوى مياه نهر النيل، وإن بريطانيا تضمن هذا لمصر.

وعندما أُقيم مشروع الجزيرة في السودان حُدّدت المساحات التي يمكن زراعتها، كما عُيّنت المدة التي لا يحقّ للسودان أن تأخذ فيها مياه من نهر النيل وهي أيام التحاريق وذلك لتصل المياه إلى مصر بشكلٍ منتظمٍ.

ولما قُتل الحاكم العام «لي ستاك» كان الإنذار الإنكليزي الذي قدّم المندوب السامي في مصر الجنرال «اللنبي» إلى حكومة سعد زغلول ينصّ على بندٍ يتعلق بمياه نهر النيل وهو أنّ للسودان الحقّ في زيادة مساحات الأرض المزروعة كما لها الحقّ في سحب ما تراه من مياهٍ في أي وقتٍ من الأوقات، ثم سحب هذا البند من الإنذار إلا أن مصر قد بقيت قلقةً على موضوع المياه حتى حدثت اتفاقية حول هذا الموضوع بين الطرفين عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م).

ج ـ الأزمة الاقتصادية:

ظهرت أزمة مالية في العام عام ١٣٤٨هـ، فانخفضت في السودان نتيجة ذلك أسعار القطن، كما رافق ذلك نقص في الإنتاج بسبب انتشار أمراض القطن، وغزو الجراد لحقول الذرة، فعملت الحكومة على تخفيض المصروفات فقللت عدد الوظائف، وأنقصت رواتب خريجي كلية غوردون، فأحسّ هؤلاء الخريجون بالغبن الذي لحقهم وهم يشعرون أنهم يعيشون تحت الضغط منذ مقتل الحاكم العام الأسبق «لي ستاك»، وزاد من شعورهم هذا عودة أول بعثةٍ تعليميةٍ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، إذ رجع هؤلاء المبتعثون عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) ومعهم شيء من حرية الأفكار فبدأ الحديث عن الضغط. وما يُؤدي إليه، وعن الحرية وما يتفتق عنها، وعن العلم وما ينتج عنه، وكل هذا دعا إلى قيام إضراب.

د ـ إضراب طلاب كلية غوردون:

عندما اقتُطع من رواتب الخريجين أحسّ الطلاب أن رواتبهم ستكون ضئيلةً عندما يتخرّجون، وحرّضهم الطلاب الذين رجعوا من بيروت فأعلنوا إضرابهم عن الدراسة، ولم تُجد مُحاولات إعادتهم. وتشكّلت لجنة من المتخرّجين ضمّت عشرة عناصر توسّطت بين الحكومة والطلاب، ونجحت في مساعيها إذ أنقصت الحكومة نسبة تخفيض الرواتب فأصبحت ٢٠٪ بعد أن كانت ٣٠٪، ولو أن ما حصل عليه الطلاب من زيادةٍ كان قليلاً إلاّ أنّه قد أثمر، وأصبح سلاحاً عند الكثيرين.

ونستطيع أن نقول: إن قتل الحاكم العام الأسبق «لي ستاك» قد جرّ على السودان مُشكلاتٍ كثيرة، وحاول الحاكم الجديد «جون مافي» أن يثأر لسلفه من أهل السودان فصبّ عليهم نقمته بما قام به من تصرّفاتٍ سيئةٍ بقصد الانتقام والإغاظة ثأراً للحاكم للمقتول.

جورج «ستيوارت سايمز»:

انتهى عهد «جون مافي»، وانتهى معه عهد الضغط والظلمة على السودان إذا عُيّن حاكم عام جديد للسودان هو «جورج ستيوارت سايمز».

أخذ الحاكم الجديد يُعيد شيئاً من الاتصال مع مصر. ودعا لزيارة بعثةٍ اقتصاديةٍ مصريةٍ إلى السودان.

وخفّف من الضغط على السكان، وكبت الحريات.

وفي الوقت نفسه فقد تحسّنت الأوضاع الاقتصادية إذ انتهت الآفات الزراعية وتحسّنت أسعار القطن، وأعاد الرواتب إلى ما كانت عليه قبل الأزمة، كما فتح الباب من جديد لملء الشواغر في الوظائف. وأخذت الأوضاع تتطوّر وتتقدّم ولو كانت بصورةٍ نسبيةٍ.

معاهدة ١٣٥٥هـ في مصر:

كانت إيطاليا قد احتلّت أريتريا أو كانت من نصيبها عندما تقاسمت الدول الصليبية شرقي إفريقية عام ١٣٠٦هـ، غير أن إيطاليا أخذت بالتفكير في الحبشة وظهرت أطماعها فيها تماماً رغم أن الكنيسة هي المسيطرة على الحكم، وتُعدّ الحبشة دولةً نصرانية رغم أن أكثرية سكانها من المسلمين، ورغم أن الدول الصليبية التي تقاسمت فيما بينها شرقي إفريقية قد أعطت الحبشة جزءاً من هذه القسمة بصفتها دولةً نصرانيةً حيث حصلت على منطقتي «هود، والأوغادين» من الصومال وهما جزءان داخليان من الصومال ويدين أهلهما بالإسلام، كما يختلف أبناؤهما، عن الأحباش من حيث الأصول.

وهُزمت إيطاليا في معركة عدوة يوم ١٧ رمضان عام ١٣١٣هـ أمام الحبشة، غير أنها قد تحصّنت في أريتريا، فلما قام موسوليني وأخذ يُرسل جيوشه خارج إيطاليا تتوسّع في المناطق، وتنشر الذعر والإرهاب بما تقتل وتُدمر، ومن هذه المناطق كانت ليبيا في غرب مصر والسودان، وكانت الحبشة في شرق السودان.

واستطاعت جيوش إيطاليا أن تتسلّط على ليبيا وأن تغدر بالشيخ عمر المختار، وأن تُخيف الآمنين، كما استطاعت أن تدخل الحبشة، وأن تُسيطر عليها، واضطر الإمبراطور هيلاسيلاسي أن يخرج من بلاده، ورأت إنكلترا وقد أصبح الحكم الإرهابي «الفاشستي» يُجاور مصر والسودان من الضرورة أن تعقد مُعاهدةً مع مصر تضمن عدم اتجاه أنظار بعض المصريين أو السودانيين إلى

ذلك الحكم للتخلّص من الإنكليز، ومن هذا المنطلق كانت معاهدة ٩ جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ (٢٦ آب ١٩٣٦م).

وإذا كانت هذه المعاهدة قد نصّت في أحد بنودها على أن تبقى السودان شركةً بين مصر وإنكلترا، ولم يكن لمصر من هذه الشركة كما سبق أن ذكرنا سوى رفع العلم المصري بجانب العلم الإنكليزي، إلا أن الملاحق لها قد تعرّضت لموضوع السودان، وزادت من الأثر المصري، حيث سمحت بإعادة فصيلةٍ من الجيش المصري إلى السودان تحت إشراف الحاكم العام، وجعلت المساواة بين المصريين والإنكليز في الوظائف عندما لا يتوفّر لها سودانيون، وكذلك أشارت إلى إقامة خبيرٍ اقتصادي مصري في الخُرطوم، وكما يتساوى المصريون والإنكليز في الوظائف يتساوون أيضاً في التجارة والهجرة وملكية الأراضي.

ولقد كانت هذه الاتفاقية ذات أهميةٍ بالنسبة إلى إنكلترا حتى جرت في القاهرة وليس في لندن، واشترك فيها ممثلون عن الأحزاب المصرية جميعها، ولم ينفرد بها حزب واحد، وعندما اتفق الفريقان المتفاوضان على كل فقراتها سافروا إلى لندن حيث جرت مراسيم التوقيع، ووافق عليها المجلسان النيابيان في كلٍ من القاهرة ولندن.

جورج ستيوارت سايمز وسياسته:

لم يرض الحاكم الجديد عما سار عليه سلفه من الضغط على المتعلمين، بل لا بد من أن تكون هناك سياسة تقاربٍ بين السلطة والمتعلمين وهذا ما سار عليه إذ جعل المتعلمين يُشاركون في المجالس البلدية في المدن وخاصةً في الخرطوم، بل رأى أن تكون إمكانية التعليم الجامعي للسودانيين.

الخريجون:

كان نشاط الخريجين من الناحية الاجتماعية على كتابة بعض المقالات بين الحين والآخر في الصحف، أو إلقاء بعض الكلمات في المناسبات التي تقوم عادةً في البلدان الإسلامية مثل المولد النبوي والهجرة و... أو المناقشات في الجلسات الأدبية في البيوت أو الأندية هذا مع الخوف الشديد من السلطة نتيجة الضغط القائم.

وتأسّست دار للثقافة فكانت كمنتدى يتبادل فيها المتعلمون الآراء، وربما كانت مشكلة الرواتب أهم دوافع اللقاء والمناقشة لذا تكوّن جهاز إداري للعمل الجماعي من أجل حلّ هذه المشكلة، وتأسّست بعض المنتديات والجمعيات الأدبية. وأثناء المناقشات طُرحت في الجمعية الأدبية بنادي الخريجين بمدينة «واد مدني» فكرة إنشاء جهازٍ إداري للخريجين، وانتقلت الفكرة إلى العاصمة أم درمان، وفعلاً نشأت هيئة مؤتمر الخريجين في ١٢ ذي الحجة ١٣٥٦هـ (١٢ شباط ١٩٣٨م).

ووُضعت لهذه الهيئة أهداف، كما وُضع دستور، ومن أجل الحصول على مُوافقة السلطة على هذه الهيئة فقد سُجّلت بشكلٍ لا ترى فيها الحكومة أي خطر عليها أو أية صفةٍ سياسيةٍ، وقد جاء هذا في خطاب أمين سرّ الهيئة الذي وجهه إلى أمين السر الإداري إذ جاء فيه، إن الهيئة تهدف إلى العمل في ميدان الإصلاح الاجتماعي والأعمال الخيرية، وليس من أهدافها إحراج الحكومة أو القيام بنشاطٍ يتعارض مع سياستها، وإن أغلبية أعضائها من موظفي الحكومة، وهم يشعرون بواجبهم كموظفين، وهم على ثقةٍ من أن الحكومة تُقدّر موقفهم كمجموعةٍ أخذت نصيباً من العلم عليها واجبات يجب أن تقوم بها للمصلحة العامة. وكذلك كان نصّ مقدمة دستور الهيئة في أنها تعمل لخدمة مصالح الخريجين أولاً ومصالح البلاد عامةً ثانياً. وقد كان ردّ أمين السر الإداري باسم الحكومة بأنه يُرحّب بقيام هذه الهيئة ما دامت تهدف خدمة البلاد والأعمال الخيرية، ولكن الحكومة لا تعترف بها كهيئةٍ سياسيةٍ، وليس لها أن تُمثّل غير وجهة نظر أعضائها.

بدأت هيئة مؤتمر الخريجين نشاطها بجمع التبرعات لفتح المدارس الأهلية الابتدائية التي تحتاج إليها البلاد، إذ لم يكن في السودان كله سوى عشر مدارس ابتدائية يومذاك. وفي الواقع فإن مؤسسي هيئة مؤتمر الخريجين كان ينوون منذ البداية على جعل هذا المؤتمر هيئةً سياسيةً تتحدّث باسم أبناء السودان، ولكن بعد أن تقف على رجليها ويقوى ساعدها، وتُعرف في الأوساط العامة، ويظهر أثرها في المنتديات، ويبرز رجالها من خلال العمل الاجتماعي في البداية.

أخذ الخريجون بشكلٍ طبيعيٍ يتصلون ببعض الأعيان والشخصيات المعروفة كأي عضوٍ في المجتمع السوداني، وكان من أبرز هذه الشخصيات عبد الرحمن المهدي بن محمد أحمد المهدي، وعلي الميرغني.

كان عبد الرحمن المهدي صغيراً عندما دخل الإنكليز إلى السودان على رأس الجيش المصري عام ١٣١٦هـ، وشهد مصرع إخوته الذين هم أكبر منه برصاص الإنكليز فتولّدت في نفسه كراهية الإنكليز وحقده عليهم، ولكن ليس بيده شيء فعندما شبّ انصرف إلى أعماله الخاصة واتجه إلى زراعة القطن فاستفاد من ذلك مادياً وكثر الخير عنده، وأبدى كرماً فبرز، وكان يفد إليه أناس من جهات كردفان في الغرب من جماعة أنصار أبيه، وتضايق الإنكليز من هذا، تضايقوا من نجاح زراعة القطن عنده إذ زادت من موارده فأنفق منها، وليس كالإنفاق على الناس طريق إلى الشهرة والظهور، وليست زعامة لبخيلٍ أو مُقتّرٍ، وتضايقوا من وفود جماعاتٍ من غربي السودان إليه، وتضايقوا من التفاف الأنصار حوله، فكانت إنكلترا لذلك تخشى من تطلعه إلى حركةٍ تشبه حركة أبيه، وخاصة أن جذور المهدية لم يقض عليها، وتحملها بعض الحركات التي قامت تُناوئ الإنكليز، هذا بالإضافة إلى العاطفة الدينية الموجودة في السودان والتي رسّخت جذورها الحركة المهدية، ورغب الإنكليز في لفّ عبد الرحمن المهدي في ركابهم، ومحاولة إشعاره أن ظهوره كان عن طريقهم، فقد أُخذ إلى لندن تأييداً لإنكلترا في حربها ضدّ الألمان والعثمانيين. كما سار مرّةً ثانيةً إلى العاصمة الإنكليزية تهنئةً بالنصر في الحرب، وكانت الرحلة في المرتين مع أعيان السودان ومشايخهم، وعدّ هو على رأس الوفد مع السيد علي الميرغني، ولكن لم يُخدع بهم وبسلوكهم فإن نفسه مليئة منهم إذ هم الذين قضوا على أسرته، وأزالوا الدولة التي أقامها والده، وحطّموا الحكم الإسلامي الذي يعمل له، وفوق هذا كله فهم نصارى صليبيون مستعمرون أعداء له ولأمته ولبلده. ومع هذا كانوا يُظهرون له الاحترام ويحذرون منه أشدّ الحذر، وربما زاد الحذر والخوف منه عندما استضاف عام ١٣٥٤هـ الوفد التجاري المصري في الجزيرة، فقدم إليه الوفد، وكان هناك مجرىً صغير لفرع من النيل يحول دون وصول عربات الوفد فأشار على أنصاره بردمه فردِم

بساعاتٍ، ويحتاج ردمه إلى مشروعٍ من الدولة يستمرّ عدّة أيّام فأحسّ الإنكليز بحبّه من أنصاره وطاعتهم له والبَذل أمامه، فتوجّسوا منه خيفةً، وأصبحوا يحسبون له حساباً.

أما السيد علي الميرغني فكان والده محمد عثمان الميرغني يُعارض الحركة المهدية، وقد انتقل إلى مصر يوم نجاحها وهناك نشأ وتربّى ولده علي الميرغني فكانت له صلات، ولما عاد المصريون والإنكليز إلى السودان رجع إلى شرقي السودان وأقام في «الخاتمية» جنوب «كسلا» حيث يُدفن هناك جده الأعلى صاحب الطريقة الختمية فعمل مُوجّهاً دينياً، ولما قضي على عبد الله التعايشي انتقل السيد علي الميرغني إلى أم درمان يعمل موجهاً دينياً كوالده، ولم يكن الإنكليز يحذرون منه كحذرهم من عبد الرحمن المهدي إذ لم يسبق لهم أن قضوا على أسرته ليتولّد عنده حقد عليهم، كما لم يُزيلوا دولةً أقامها أحد أسلافه، ولم يكن أبوه سوى موجّهٍ يلتفّ حوله الناس، بل عارض الحركة المهدية وانتقل إلى مصر وعاش في كنف السلطة الإنكليزية هناك حيث تسيطر على الحكم ورجع معهم، لذا كان الإنكليز يُظهرون له الاحترام، ويعدّونه الموجّه الديني الأكبر نكايةً في عبد الرحمن المهدي أولاً ومُحاولةً لكسبه إلى صفّهم ثانياً، وقد سافر إلى لندن على رأس الوفد في المرتين اللتين سافر بهما عبد الرحمن المهدي. وكان السيد علي الميرغني يُبادل الإنكليز احتراماً باحترامٍ.

برز هذان السيدان بين الحربين العالميتين مُعتمدين على ماضي أسرتيهما، فعبد الرحمن المهدي قد أقام والده حركة المهدية ودولتها، ولا يزال لها أتباع وأنصار، وقد حملوا اسم الأنصار وهم أقرب إلى الطريقة الصوفية، وعلي الميرغني كان لوالده وجدّه أتباع الطريقة الختمية التي آلت إليه مشيختها. وغدت المنافسة بين الفريقين، وكانت إنكلترا تُغذّيها لتتمكن من تفرقة السودانيين وسيطرتها عليهم.

ولمّا بدأ الخريجون يلتقون بهذين السيدين، ويتأثّر كل فريقٍ بالسيد الذي يلتقي معه، بدأت الجذور الحزبية تتكوّن وتظهر تدريجياً، وفي الوقت نفسه أصبح الإنكليز يتقرّبون من المثقفين، ويحرصون على كسب أو لفّ من يستطيعون للسير في ركابهم والتحرّك في فلكهم. وأدّى الانشقاق في الخريجين

إلى وجود مجموعتين: يتزعّم الأولى أحمد السيد الفيل، وقد نسبت مجموعته إليه وتابع علي الميرغني، ومحمد علي شوقي ونسبت جماعته إليه، وقد تابع عبد الرحمن المهدي. ورغم هذا الانشقاق فإن مؤتمر الخريجين قد أعلن تأييده للديمقراطية ضدّ دول المحور، غير أنه رفض الدعوة إلى تجنيد السودانيين. وهكذا أخذ الخريجون يتدخّلون في الأمور السياسية، إضافةً إلى إذاعة بعض النشرات باسم مؤتمر الخريجين في إذاعة أم درمان التي أُنشئت عام ١٣٥٩هـ.

وفي اجتماع الخريجين للمرة الثانية عام ١٣٥٨هـ، لم يكن عدد الحضور كبيراً، وأُعيد انتخاب إسماعيل الأزهري أميناً عاماً للمرة الثانية. واهتم الخريجون بالتعليم إذ أوصوا بزيادة عدد المدارس، ومنذ عام ١٣٥٨هـ بدأت استشارة الخريجين بالمنح الدراسية للطلاب السودانيين الذين يدرسون في مصر، وقدم المؤتمر مذكرتين للحكومة إحداهما تخصّ المعهد العلمي في أم درمان، وتطالب الحكومة بزيادة المخصصات له، وإدخال المناهج الحديثة في الدراسة، واستقدام أساتذة له من الأزهر، وحبذا لو تولى الأزهر أمر إدارته، واختصت الثانية بالتعليم بشكلٍ عامٍ حيث من الواجب أن تستهدف السياسة التعليمية: محو الأمية ورفع مستوى التعليم، والتربية على روح التعاون. وقد قُدّمت المذكرة في جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ.

وفي الاجتماع الثالث انتخب حماد توفيق أميناً عاماً، وحدثت خلافات مع الإدارة البريطانية فاستقال بعض الأعضاء، فانتخبت لجنة جديدة تولّى رئاستها إسماعيل الأزهري.

وعندما انتصر الحلفاء على الإيطاليين في معركة «كرن» في ١٧ صفر ١٣٦٠هـ (١٥ آذار ١٩٤١م)، كما انتصروا في العلمين بقيادة مونتغمري أرسلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر برقيةً للحاكم العام تبدي ارتياحها بهذا النصر، وتأمل بأن يعترف الحلفاء بعد تحقيق النصر بحقوق السودان في حق تقرير المصير وبقية الدول العربية. وانتخبت لجنة جديدة عام ١٣٦١هـ برئاسة إبراهيم أحمد، وكانت ترى التعاون مع الإدارة البريطانية.

كانت إنكلترا بعد ثورة اللواء الأبيض قد عملت على تعميق الخلاف بين

الشمال والجنوب، وأخذت تحول دون انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية من الشمال إلى الجنوب، وخاصةً أنها قد عدّت بعض قادة تلك الحركة من الجنوب، وقد قامت سياسة إنكلترا منذ عام ١٣٤٩هـ على هذا الأساس، وأُصدرت عدة قرارات وقوانين وتبنتها، وعدّت فيها الجنوب منطقةً مُغلقةً في وجه الشمال، وأهم أسس هذه السياسة:

١ ـ توفير العاملين الذين تحتاجهم الإدارة في الجنوب من غير الناطقين بالعربية.

٢ ـ استخدام اللغة الإنكليزية لغةً أساسيةً في التعامل، إلى جانب اللهجات المحلية.

٣ ـ حظر هجرة التجار من الشمال إلى الجنوب، وإغلاق الجنوب تماماً في وجه الشمال.

٤ ـ العودة إلى حياة التقاليد والأعراف.

٥ ـ منع الزواج المختلط بين الشمال والجنوب.

٦ ـ إبعاد القبائل ذات الأصول العربية من الجنوب.

ولما بدأت كفّة الحرب تأخذ في الرجحان إلى جانب الحلفاء قدّم مؤتمر الخريجين العام مذكرةً تضمُّ المطالب الآتية:

١ ـ إصدار تصريحٍ مُشتركٍ في أقرب فرصةٍ مُمكنةٍ من الحكومتين الإنكليزية والمصرية بمنح السودان بحدوده الجغرافية حقّ تقرير مصيره بعد الحرب مُباشرةً، وإحاطة ذلك الحق بضمانات تكفل حرية التعبير عن ذلك الحقّ حريةً تامةً، كما تكفل للسودانيين الحقّ في تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفاقٍ خاصٍ بين الشعبين المصري والسوداني.

٢ ـ تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيته من السودانيين، وتخصيص ما لا يقلّ عن ١٢٪ من الميزانية للتعليم.

٣ ـ تأسيس هيئةٍ تمثيليةٍ من السودانين لإقرار الميزانية والقوانين.

٤ ـ فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.

٥ ـ إلغاء قوانين المناطق المقفولة، ورفع قيود مزاولة التجارة والانتقال داخل الأراضي السودانية عن السودانيين.

٦ ـ وضع تشريعٍ يُحدّد الجنسية السودانية.

٧ ـ وقف الهجرة إلى السودان فيما عدا ما قرّرته المعاهدة الإنكليزية ـ المصرية.

٨ ـ عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة.

٩ ـ تطبيق مبدأ الرفاهية والأولوية في الوظائف وذلك بـ:

أ ـ إعطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلي في الحكم بتعيين سودانيين في وظائف ذات مسؤوليةٍ سياسيةٍ في جميع فروع الحكومة.

ب ـ قصر الوظائف على السودانيين. أما المناصب التي تدعو الضرورة لملئها من غير السودانيين فتُملأ بعقودٍ محدودة الأجل يتدرّب في أثنائها سودانيون لشغلها في نهاية المدة.

١٠ ـ تمكين السودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية والزراعية والصناعية.

١١ ـ وضع قانون بإلزام الشركات والبيوتات التجارية بتحديد نسبٍ معقولةٍ من وظائفها للسودانيين.

١٢ ـ وقف الإعانات لمدارس الإرساليات التنصيرية وتوحيد مناهج التعليم بين الشمال والجنوب.

غير أن الأمين الإداري الإنكليزي «دوغلاس نيوبولد» قد ردّ على المذكرة ردّاً مختصراً، وأعلن رفضها، وأعلنت الإدارة البريطانية أن المؤتمر بتقديمه هذه المذكرة قد نقض عهد التعاون معها، كما خالف شروط الاعتراف به.

وأما حيثيات الردّ فقد كانت مبنيةً على:

١ ـ طرحت المذكرة قضايا تتعلّق بالوضع السياسي، وهي مسألة تخصّ دولتي الحكم الثنائي.

٢ ـ خالف المؤتمر دستوره وذلك بمحاولة جعل نفسه هيئةً سياسيةً على الصعيد الوطني، وادّعى أنه يُمثّل السودانيين.

٣ ـ إن الحكومة كانت تعني بالرغبة الوطنية المشروعة الخاصة بالمستنيرين السودانيين لزيادة مُساهمتهم في الإدارة وتطوير بلادهم. وهذا الأمر هو واجب ومسؤولية حكومة السودان وحدها ولا يخصّ أي هيئةٍ أو منظمةٍ سواها.

ولكن الأمين الإداري الإنكليزي حاول رأب الصدع مع اللجنة التنفيذية للمؤتمر والتقى مع بعض أعضائها، وأرسل لهم خطاباً بأن الحكومة الإنكليزية لا تقف موقفاً مُعادياً من المستنيرين السودانيين، وأبدى استعداده للتعاون. ولكن بعد تبادل المذكرات طلب عدم استمرارها، وهذا ما وسّع شقّة الخلاف بين الطرفين، واتجه مؤتمر الخريجين إلى النشاط التعليمي والتنظيمي، وكان يُمثّل المعتدلين إبراهيم أحمد على حين يُمثّل إسماعيل الأزهري الأقلّ اعتدالاً. وانتخب في عام ١٣٦٢هـ إسماعيل الأزهري رئيساً للمؤتمر، وانسحب المعتدلون من اللجنة التنفيذية.

هنّأ المؤتمر الحكومة بالنصر على إيطاليا عام ١٣٦٢هـ، وقال: إنه يأمل أن تستجيب الحكومة لمطالب السودانيين. وأخذت الحكومة على عاتقها مُشاركة السودانيين في الحكومة المركزية، وأعلنت عن تكوين مجلس استشاري لشمالي السودان. غير أن مؤتمر الخريجين رفض فكرة المجلس الاستشاري، وهدّد بفصل العضو الذي يشترك فيه وذلك:

١ ـ لأنه لم يكن للمجلس المقترح أية سلطةٍ تشريعيةٍ.

٢ ـ لإبعاد الجنوب من المجلس، وقصره على الشمال فقط.

٣ ـ لأن غالبية الأعضاء من زعماء العشائر.

٤ ـ إن ما خُصّص لمؤتمر الخريجين من أعضاء وهو عضوان لا يمكنهما القيام بأي عملٍ.

وإن هذا الرأي قد سبّب خلافاً آخر في المجلس إذ كان هناك من يرى المشاركة، وهو فرصته لمساهمة المتعلمين لمناقشة قضايا البلاد، وانفصل من المؤتمر أصحاب هذا الرأي.

المفاوضات بين مصر وإنكلترا بعد الحرب العالمية الثانية:

كانت السودان نقطةً أساسيةً في كل المفاوضات التي جرت بين مصر وإنكلترا، وكانت وجهتا نظريهما مختلفة تمام الاختلاف ففي الوقت الذي كانت مصر تطالب فيه إنكلترا بالجلاء عن البلاد، كانت تعدّ السودان جزءاً منها أو تحرص على ذلك على حين أن إنكلترا ترغب في أن تفصل قضية مصر عن السودان، وترغب في البقاء في السودان وحكمها منفردةً، ولا ترى في قرارة نفسها معاهدة الحكم الثنائي سوى معاهدةٍ صوريةٍ تريد منها أن تستخدم المصريين في تنفيذ مطامعها في السودان.

مذكرة النقراشي:

في مطلع عام ١٣٦٥هـ وفي شهر محرم (كانون الأول ١٩٤٥م)، قدّمت الحكومة المصرية مذكرةً رسميةً إلى إنكلترا تتعلّق بالجلاء عن مصر، وتحقيق الوحدة بين مصر والسودان، ولكن الحكومة البريطانية قد ردّت ردّاً غير مقبول إذ ادّعت أنها لا تزال تتمسّك بمعاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، وهذا ما أدّى إلى قيام مظاهراتٍ في مصر قمعتها الحكومة، واضطر محمود فهمي النقراشي إلى تقديم استقالة حكومته في ١٤ ربيع الأول ١٣٦٥هـ (١٥ شباط ١٩٤٦م)، وسحبت إنكلترا مندوبها في مصر اللورد «كيلرن»: واعتمدت مكانه «رونالد كامبل». إلا أن المظاهرات قد استمرّت في مصر بل انتقلت إلى السودان حيث تظاهر طلاب كلية غوردون، واتحاد العمال الزراعيين، ومؤتمر الخريجين قد أسهم في هذه المظاهرات إسهاماً واضحاً.

مفاوضات صدقي ـ بيفن:

كلّف الملك إسماعيل صدقي بتأليف وزارةٍ مصريةٍ جديدةٍ، وتشكّل وفد مصري برئاسة رئيس الوزارة المصرية إسماعيل صدقي، وتألّف وفد إنكليزي برئاسة وزير الخارجية «بيفن» من أجل المفاوضات، وقدّم الوفد المصري في

هذه المفاوضات ملحقاً خاصاً بالسودان جاء فيه: «يتعهّد الطرفان الساميان المتعاقدان بالدخول فوراً في مفاوضاتٍ بقصد تحديد نظام الحكم في السودان في نطاق مصالح الأهالي السودانيين على أساس وحدة وادي النيل تحت تاج مصر». غير أن المفاوضات لم تتقدّم خُطوةً واحدةً نحو الأمام رغم استمرارها مدةً طويلةً، وهذا ما جعل رئيس الوزراء إسماعيل صدقي يُقدّم استقالة حكومته في ٣ ذي القعدة ١٣٦٥هـ (٢٨ أيول ١٩٤٦م). غير أن الملك فاروق رفض الاستقالة وطلب منه الاستمرار في الحكم، والسفر إلى لندن لمتابعة المفاوضات، وتمّ الاستمرار، وتمّ السفر، وجرت المفاوضات واستمرّت شهراً كاملاً (٢٣ ذي القعدة ـ ٢١ ذي الحجة ١٣٦٥هـ)، وانتهت بالاتفاق على مشروع معاهدةٍ، وبروتوكولين: أحدهما يتعلّق بجلاء إنكلترا عن مصر، ويتعلّق الثاني بالسودان وهذا ما يُهمّنا وقد جاء فيه: «إن السياسة التي يتعهّد الطرفان الساميان المتعاقدان اتباعها في السودان في نطاق وحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك ستكون أهدافها الأساسية تحقيق رفاهية السودانيين، وتنمية مصالحهم، وإعدادهم إعداداً فعلياً للحكم الذاتي، وتبعاً لذلك ممارسة حقّ اختيار نظام الحكم للسودان في المستقبل.... وإلى أن يتسنّى للطرفين الساميين المتعاقدين الاتفاق التام المشترك بينهما تبقى اتفاقية سنة ١٨٩٩م ساريةً، وكذلك الماد ١١[1] من معاهدة ١٩٣٦م

---

(١) تنص المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦م وملحقها على ما يلي:
١ ـ الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي ١٩ كانون الثاني و١٠ تموز ١٨٩٩م ـ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين، ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين. والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين.
٢ ـ وبناءً على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين في السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذي يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة التي لا يتوفر لها سودانيون أكفاء.
٣ ـ يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين.
٤ ـ تكون هجرة المصريين إلى السودان خاليةً من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام. =

مع ملحقها[1] والفقرات من ١٤ ـ ١٦[2] من المحضر المتفق عليه للمعاهدة المذكورة نافذةً».

= ٥ ـ لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين في شؤون التجارة والمهاجرة والملكية.
٦ ـ اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة في ملحق هذه المادة فيما يتعلّق بالطريقة التي تصبح بها الاتفاقات الدولية ساريةً في السودان.

(١) الملحق بالمادة (١١) هو:
ما لم وإلى أن يتفق الطرفان المتعاقدان على غير ما يأتي تطبيقاً للفقرة الأولى من هذه المادة يتعيّن أن يكون المبدأ العام الذي يراعيانه في المستقبل بالنسبة إلى الاتفاقات الدولية هو أنه لا تطبق على السودان إلا بعمل مشترك تقوم به حكومة المملكة المتحدة وحكومة مصر، وإن مثل هذا العمل المشترك يكون لازماً كذلك إذا أريد إنهاء اشتراك السودان في اتفاقٍ دولي منطبق عليه.
والاتفاقات التي يراد سريانها في السودان تكون على العموم اتفاقات ذات صفةٍ فنيةٍ أو أنسانية، ومثل هذه الاتفاقات تكاد تشمل على الدوام حكماً خاصاً بالانضمام إليها فيما بعد. وفي مثل هذه الأحوال تتبع هذه الطريقة لجعل الاتفاق سارياً في السودان ويجري الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها عن مصر وعن المملكة المتحدة كل فيما يخصه شخصان مفوضان في ذلك تفويضاً صحيحاً، وتكون طريقة إيداع وثيقة الانضمام في كل حالة موضع اتفاق بين الحكومتين.
وفي حالة ما إذا أريد أن يطبق على السودان اتفاق لا يحتوي على نص خاص بالانضمام تكون طريقة تحقيق ذلك موضع تشاورٍ واتفاقٍ بين الحكومتين.
وإذا كان السودان بالفعل طرفاً في اتفاقٍ وأريد إنهاء اشتراكه فيه فتشترك المملكة المتحدة ومصر في إصدار الإعلان اللازم لهذا الإنهاء.
ومن المتفق عليه أن اشتراك السودان في اتفاق ما وإنهاء ذلك الاشتراك لا يكون إلا بعملٍ مشتركٍ يجري خصيصاً بالنسبة إلى السودان ولا يترتبان على مجرد كون المملكة المتحدة ومصر طرفين في الاتفاق ولا نقضهما لهذا الاتفاق.
وفي المؤتمرات الدولية التي تجري فيها المفاوضات في مثل هذه الاتفاقات يكون المندوبان المصري والبريطاني بطبيعة الحال على اتصالٍ دائمٍ بالنسبة لأي إجراء قد يتفقان على أنه مرغوب فيه لصالح السودان.

(٢) الفقرات من ١٤ ـ ١٦ هي:
١٤ ـ من المتفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الأولى من المادة الحادية عشرة أن يُقدّم الحاكم العام إلى حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية تقريراً سنوياً عن إدارة السودان وأن يبلغ التشريع السوداني إلى رئيس مجلس الوزراء المصري مباشرةً.
١٥ ـ من المتفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أنه بينما يكون =

ولكن يبدو أن كل طرفٍ قد فهم الاتفاقية من خلال وجهة نظره الخاصة وما استقرّ في ذهنه، إذ صرّح إسماعيل صدقي بعد عودته إلى القاهرة «أن الوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصري قد تقرّرت نهائياً».

وصرّح وزير الخارجية البريطانية «بيفن» في مجلس العموم أنه لم يحدث أي تغيير على حالة السودان القائمة، وكل ما تمّ لا يعدو أن يكون تأكيداً لما هو قائم. ثم أكّد ذلك بمذكرةٍ سُلّمت إلى السفير المصري في لندن بتاريخ ١٢ محرم ١٣٦٦هـ (٦ كانون الأول ١٩٤٦م).

واضطر إسماعيل صدقي بالردّ على المذكرة، كما اضطر إلى تقديم استقالة حكومته في ١٥ محرم أي بعد ثلاثة أيامٍ فقط من تسليم المذكرة البريطانية إلى السفير المصري. وكلّف الملك فاروق، محمود فهمي النقراشي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ.

إن التصريحات البريطانية قد شجّعت الحاكم العام في السودان إلى دعم العناصر التي تدعو إلى انفصال السودان عن مصر، كما أنهى خدمة قاضي قضاة السودان المصري حسن مأمون، ونشطت حركة الحاكم العام بما يتفق والأهداف الإنكليزية.

= تعيين الرعايا المصريين في وظائف السودان الرسمية خاضعاً بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية، ووقت خلوها، ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها، فإن أحكام تلك الفقرة تسري فوراً مجرد نفاذ المعاهدة.

وتكون ترقية الموظفين في حكومة السودان إلى أية درجةٍ كانت دون مراعاة للجنسية وذلك بالاختيار تبعاً للجدارة الشخصية.

ومن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً في بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخرى إذا لم يتيسر وجود ذوي المؤهلات من الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين أو من السودانيين.

١٦ ـ من المتفق عليه فيما يتعلّق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشرة أنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في إرسال جنودٍ إلى السودان فإن الحاكم العام سيبادر بالنظر في أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان والأماكن التي يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم، وسترسل الحكومة المصرية فوراً مجرد نفاذ المعاهدة ضابطاً مصرياً عظيماً يستطيع الحاكم العام استشارته في هذه الأمور.

مفاوضات النقراشي ـ كامبل:

قدّمت حكومة محمود فهمي النقراشي في ٢٢ صفر ١٣٦٦هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٤٧م) مشروع بروتوكول خاص بالسودان، وقد جاء فيه: «اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان بغية ضمان رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم والعمل الدائب على إعدادهم للحكم الذاتي على أساس وحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك أن يدخلا فوراً في مُباحثاتٍ عن السودان تُمثّل فيها مصر والمملكة المتحدة ويُستشار فيها السودانيون.

وإلى أن يبلغ السودان الحكم الذاتي تستمرّ اتفاقية سنة ١٨٩٩م ساريةً، وتظلّ المادة ١١ من معاهدة سنة ١٩٣٦م مع ملحقها والفقرات من ١٤ ـ ١٦ من المحضر المتفق عليه، والملحق بالمعاهدة المذكورة معمولاً بها». ولم يستطع الجانبان الاتفاق، لذا فقد قرر مجلس الوزراء المصري في ٣ ربيع الأول ١٣٦٦هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٤٧م) قطع المفاوضات وعرض قضية البلاد على مجلس الأمن.

سافر وفد سوداني إلى مصر برئاسة إسماعيل الأزهري، وضمّ مختلف الأحزاب السودانية، لكن لم يلبث أن اختلف أعضاؤه ورجع أعضاء حزب الأمة، ومن يُؤيّدهم إلى السودان. كما استطاعت إنكلترا أن تزيد الشقاق بين الأطراف السودانية وقد سافر عبد الرحمن المهدي إلى لندن في مطلع عام ١٣٦٦هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٦م)، والتقى برئيس الوزارة البريطاني «اتلي» وبأعضاء مجلس العموم وزعماء المعارضة وحذّر الجميع من مغبة الاتفاق مع مصر لضمّ السودان إلى التاج المصري.

قضية السودان في مجلس الأمن:

قدّمت حكومة محمود فهمي النقراشي مذكرةً إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٩ شعبان ١٣٦٦هـ (٨ تموز ١٩٤٧م) عن طريق الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة عن طريق السفير المصري في نيويورك محمود حسن وقد جاء فيها: «إن احتلال القوات البريطانية لمصر في سنة ١٨٨٢م كان غير مشروع، وإن احتلالها للجزء الجنوبي لوادي النيل أي السودان كان تبعاً لذلك، وهذا ما مكن

لحكومة المملكة المتحدة من سنة ١٨٩٩م من أن تفرض على مصر اشتراكها معها في إدارة السودان، وقد تنفرد بعدئذٍ بالسلطان، وقد استخدمت حكومة المملكة المتحدة هذا الوضع لكي تتبع سياسةً ترمي إلى فصل السودان عن مصر عاملةً على تشويه سمعة مصر والمصريين، وبذر بذور التفرقة بين المصريين والسودانيين، وبثّ الانقسام بين السودانيين أنفسهم، وإثارة حركاتٍ انفصاليةٍ مُصطنعةٍ والحضّ عليها.

وأنه وفقاً للمادة ٢٣ من ميثاق الأمم المتحدة ـ وعلى الرغم من أن وجود القوات الأجنبية لا يتلاءم بداءةً مع حرية المفاوضات ـ سعت الحكومة المصرية في حسن نيةٍ إلى الوصول إلى حلٍ عادلٍ لهذا النزاع عن طريق مفاوضاتٍ مُباشرةً مع المملكة المتحدة، لكن أخفقت هذه المفاوضات الطويلة المضنية، وحاولت حكومة المملكة المتحدة التمسّك بمعاهدة ١٩٣٦م، لكنه لا يمكن أن تلتزم مصر بها إذ أنها استنفدت أغراضها».

بحث مجلس الأمن القضية من ١٨ رمضان المبارك حتى ٢٤ شوال ١٣٦٦هـ (٥ آب حتى ١٠ أيلول ١٩٤٧م). وفي يوم ١٨ رمضان عرض رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي القضية أمام مجلس الأمن، وردّ عليه رئيس الوفد البريطاني «ألكسندر كادوغان» ثم ردّ عليه النقراشي... وأخيراً امتنع مجلس الأمن عن إصدار قرارٍ بهذا الشأن. ففشلت مصر في بحث الموضوع.

مفاوضات صلاح الدين ـ بيفن:

أرسل وزير خارجية مصر محمد صلاح الدين في جمادى الأولى ١٣٦٩هـ (آذار ١٩٥٠م) مذكرةً رسميةً إلى «أرنست بيفن» وزير خارجية بريطانيا لفتح باب المفاوضات للوصول إلى وضعٍ مُستقرٍ يُؤدّي إلى الاستقلال التام ووحدة وادي النيل، واستجابت بريطانيا لذلك، واستؤنفت المفاوضات في ١٣ ذي القعدة ١٣٦٩هـ (٢٦ آب ١٩٥٠م).

واستمرّت ما يقرب من عامٍ حيث انتهت بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٧٠هـ (٢٦ تموز ١٩٥١م).

تقدّمت الحكومة البريطانية ببعض المبادئ لتكون أساساً لمناقشة مسألة السودان وهي:

١ ـ بالنظر إلى اعتماد كلٍ من مصر والسودان على مياه نهر النيل، ولضمان التوسّع في كميات المياه التي يمكن الانتفاع بها ـ يتطلّب الأمر أن يرتبط الشعبان بأوثق علاقات الصداقة.

٢ ـ الهدف المشترك لمصر وبريطانيا العظمى هو أن تُمكّنا الشعب السوداني من بلوغ الحكم الذاتي الكامل في أقرب فرصةٍ.

٣ ـ بسبب الفروق الواسعة بين السودانيين في الثقافة، والجنس، والدين، والتطور السياسي ـ فإن الوصول إلى الحكم الذاتي الكامل ـ يقتضي تعاون مصر والمملكة المتحدة مع السودان.

٤ ـ من أجل ذلك تُوافق الحكومتان على أن تُؤلّفا لجنةً ثلاثيةً لمعاونة السودانيين على بلوغ الهدف الموضّح في الفقرة الثانية ومساعدتهم على وضع دستورهم المقبل.

وقد اقترح الوفد المصري على أن تكون مبادئ المناقشة كالآتي:

١ ـ وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري.

٢ ـ تمتع السودانيين في نطاق الوحدة وفي مدى عامين بالحكم الذاتي.

٣ ـ انسحاب القوات البريطانية والموظفين البريطانيين، وإنهاء الحكم القائم حالياً في السودان بعد انتهاء هذين العامين.

٤ ـ وفي حالة قبول هذه المبادئ تُوافق الحكومة الملكية المصرية على تأليف لجنةٍ ثلاثيةٍ للمعاونة على بلوغ الهدف الموضّح في الفقرة الثانية.

وطالت المباحثات دون فائدةٍ، وفي الاجتماع الأخير ٢٢ شوال ١٣٦٩هـ قال وزير الخارجية المصري محمد صلاح الدين رئيس الوفد إلى الوفد الإنكليزي: «إنني لا أرى بارقة أملٍ تدلّ على إمكانية الاتفاق لأنكم:

١ ـ تُنكرون حقّنا الثابت في وحدة مصر والسودان.

٢ ـ تدّعون لأنفسكم ـ دون حق ـ مسؤوليات قبل السودان ونحن لا نُقرّكم عليها.

٣ ـ تتعلّلون بهذه المسؤوليات لتعقيد الموقف واستمرار الحالة القائمة في السودان ـ حيث يتعذر الوصول إلى حلٍ مرضٍ».

واتهم كل طرفٍ الآخر في موضوع تعثّر المفاوضات، وكان المصريون يرون أن المرحلة الانتقالية في السودان للحكم الذاتي تحتاج إلى سنتين على حين يرى الإنكليز أن هذه المدة تحتاج إلى خمسة عشر عاماً على الأقل.

إلغاء معاهدة ١٩٣٦م:

وفي ٨ محرم ١٣٧١هـ (٨ تشرين الأول ١٩٥١م) ألغت الحكومة المصرية من جانبها معاهدة ١٩٣٦م، وصدق الملك فاروق على ذلك بعد أسبوعٍ، وكان القرار قد وافق عليه مجلس الشيوخ ومجلس النواب بالإجماع.

وصدر قرار آخر بتعديل الدستور، وقد أُلغيت المادة ١٥٩ واستعيض عنها بالنص الآتي: «تجري أحكام الدستور على المملكة المصرية جميعها ـ ومع أن مصر والسودان وطن واحد ـ فإنه ينفرد نظام الحكم في السودان بقانونٍ خاص».

وأُلغيت المادة ١٦٠ واستعيض عنها بـ «يُلقّب الملك بملك مصر والسودان».

وصدر قانون آخر بوضع دستورٍ ونظامٍ خاص بالسودان، ويقضي هذا القانون بأن يكون للسودان دستور خاص تُعدّه جمعيةٌ تأسيسية تُمثّل أهالي السودان، ويُنفّذ بعد تصديق الملك عليه. ويكفل هذا الدستور قواعد أساسية أهمها.

١ ـ إقرار النظام الديمقراطي النيابي في البلاد سواء تكونت الهيئة النيابية من مجلسٍ أم من مجلسين.

٢ ـ الفصل بين السلطات الثلاث ـ التشريعية ـ التنفيذية ـ القضائية.

٣ ـ إنشاء مجلسٍ وزاريٍ من أهل السودان وتكون الوزارة مسؤولةً مسؤوليةً تضامنيةً لدى الهيئة النيابية.

٤ ـ تشترك الهيئة النيابية مع الملك في مُمارسة السلطة التشريعية بما في ذلك اقتراح القوانين.

٥ ـ ضمان استقلال السلطة القضائية.

٦ ـ كفالة حقوق الأفراد والحريات العامة.

٧ ـ يحتفظ بالشؤون الخارجية، وشؤون الدفاع، والجيش، والنقد، فيتولاّها الملك في جميع أنحاء البلاد.

غير أن رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» رفض هذا، وأعلن تمسّك حكومته بمعاهدة ١٩٣٦م، واتفاقيتي عام ١٨٩٩م، وأن حكم السودان من مسؤولية الحاكم العام.

وتشكّلت في مصر فرق الفدائيين التي لعب فيها الإخوان المسلمون دوراً كبيراً. وحدثت معركة في الإسماعيلية بين قوات الشرطة المصرية والإنكليزية بتاريخ ٨ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٥٢م).

وتمّ الانقلاب في مصر في ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م) ورأى الحكام الجُدد أن علاج مشكلة السودان كفيل بحلّ مشكلة الجلاء عن مصر. لذا قدّمت الحكومة في صفر ١٣٧٢هـ (تشرين الثاني ١٩٥٢م) مذكرةً للحكومة البريطانية بشأن الحكم الذاتي للسودان وحقّ تقرير مصيره. وقد تضمّنت المذكرة:

١ ـ إن الحكومة المصرية تُؤمن بحقّ السودانيين في تقرير مصيرهم.

٢ ـ وللوصول إلى هذا الهدف لا بدّ من:

أ ـ تمكين السودانيين من مُمارسة الحكم الذاتي الكامل.

ب ـ تهيئة الجوّ الحرّ المُحايد الذي لا بدّ من توفّره لتقرير المصير.

٣ ـ تُعدّ مدّة الانتقال تصفيةً للإدارة الثنائية.

٤ ـ يُعاون الحاكم العام للسودان في مدة المرحلة الانتقالية لجنة مؤلّفة من خمسة أعضاء: مصري ـ بريطاني ـ اثنين من السودان ـ وعضو هندي أو باكستاني تُعيّنه حكومته.

٥ ـ تُشكّل لجنة من ستة أعضاء (ثلاثة من السودان، مصري، بريطاني، أمريكي، هندي أو باكستاني) وذلك لاتخاذ الإجراءات اللازمة للانتخابات.

٦ ـ تكون الانتخابات مُباشرةً في جميع الدوائر باستثناء مديرية بحر الغزال، والمديرية الاستوائية، ومديرية أعالي النيل.

٧ ـ تبدأ الانتخابات قبل نهاية عام ١٩٥٢م.

٨ ـ تُشكّل لجنة للسودنة للإسراع في سودنة الإدارة، والشرطة، وقوة دفاع السودان، وغير ذلك من الوظائف الحكومية. وعلى هذه اللجنة أن تُنجز مهمتها في ثلاث سنواتٍ.

٩ ـ تُوصي الحكومة المصرية بإنشاء منصب وكيل وزارة سوداني يكون حلقة اتصال بين الحاكم العام ومجلس الوزراء.

١٠ ـ تبدأ مدة المرحلة الانتقالية بتعيين اللجنة الخماسية، ولا تتجاوز مدتها ثلاث سنواتٍ.

١١ ـ عند انتهاء المرحلة الانتقالية تعدّ الحكومة السودانية القائمة وقتذاك مشروعاً بقانون الانتخاب (جمعية تأسيسية).

١٢ ـ تنسحب القوات العسكرية البريطانية والمصرية من السودان بعد إجراء انتخابات الجمعية التأسيسية بسنةٍ واحدةٍ على الأقلّ.

١٣ ـ مهمة الجمعية التأسيسية:

أ ـ تقرير مصير السودان.

ب ـ إعداد دستور بما يتماشى مع القرار الذي يُتخذ. ويكون تقرير مصير السودان إما الارتباط بمصر على صورةٍ ما، وإما الاستقلال عن المملكة المتحدة ومصر.

١٤ ـ تحترم الدولتان القرار الذي تتخذه الجمعية التأسيسية في شأن مصر والسودان، وتتخذ كل من الحكومتين من جانبهما التدابير اللازمة التي تكفل تنفيذ هذا القرار.

مباحثات محمد نجيب ـ ستفنسون:

بدأت المباحثات بين الطرفين في رئاسة مجلس الوزراء المصري بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٢م)، وانتهت بتاريخ ٢٨ جمادى

الأولى ١٣٧٢هـ (١٢ شباط ١٩٥٣م). وكان الوفد المصري برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس مجلس الوزراء، وكان الوفد الإنكليزي برئاسة «رالف ستفنسون» السفير الإنكليزي في القاهرة، وأهم بنود هذه الاتفاقية:

١ ـ حقّ الشعب السوداني في تقرير مصيره.

٢ ـ تُعطى مرحلة انتقالية يتوفّر للسودانيين فيها الحكم الذاتي الكامل، وتكون هذه المرحلة تمهيداً لإنهاء الإدارة الثنائية (المادتان ١، ٢).

٣ ـ يُمارس الحاكم العام ـ إبان مرحلة الانتقال ـ سلطاته بمعاونة لجنة خماسية تُشكّل من اثنين من السودان، وعضو مصري، وعضو من بريطانيا، وعضو باكستاني (المادة ٣، ٤).

٤ ـ الاحتفاظ بوحدة السودان كإقليم واحد (مادة ٥).

٥ ـ تُشكّل لجنة للانتخابات من سبعة أعضاء ثلاثة من السودانيين، وعضو مصري، وعضو من بريطانيا، وعضو من الولايات المتحدة الأمريكية، وعضو هندي تكون له رئاسة اللجنة (المادة ٧).

٦ ـ تُشكّل لجنة للسودنة من عضو مصري، وآخر بريطاني، وثلاثة أعضاء سودانيين وعضو أو أكثر من لجنة الخدمات العامة (مادة ٨) وحُدّدت وظيفة هذه اللجنة في ملحق الاتفاق باتمام سودنة الإدارة، والشرطة، وقوة الدفاع السودانية وغير ذلك من الوظائف الحكومية التي قد تُؤثّر على حرية السودانيين عند تقرير المصير. وتنظر اللجنة في الوظائف غير الضرورية أو الزائدة عن الحاجة التي يشغلها الموظفون المصريون أو البريطانيون، وحُدّد لهذه اللجنة مدة لا تتعدّى ثلاثة أعوامٍ لإنهاء مهمتها.

٧ ـ تنتهي المرحلة الانتقالية عندما يعرب المجلس النيابي السوداني عن رغبته في اتخاذ التدابير للشروع في تقرير المصير، وحينئذٍ يجب أن تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان، وتنتخب جمعية تأسيسية (المواد ٩، ١٠، ١١).

٨ ـ مهمة الجمعية التأسيسية:

أ ـ أن تُقرِّر مصير السودان كوحدةٍ لا تتجزّأ إما بارتباطها بمصر على أية صورةٍ أو الاستقلال التام.

ب ـ تُعدّ دستوراً للسودان يتواءم مع القرار الذي يتخذ في هذا الصدد.

٩ ـ تحترم الحكومتان المتعاقدتان قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلّق بمستقبل السودان وتقوم كل منهما باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار، وقد أُلحق بهذا الاتفاق أربعة ملاحق: تتعلّق بسلطات لجنة الحاكم العام، وسلطات لجنة الانتخابات، وسلطات لجنة السودنة، وملحق ببعض التعديلات لمشروع قانون الحكم الذاتي وفقاً لهذا الاتفاق.

أصدر الحاكم العام القانون التفصيلي للحكم الذاتي الكامل في السودان بتاريخ ٦ رجب عام ١٣٧٢هـ (٢١ آذار ١٩٥٣م).

وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ (١١ كانون الثاني ١٩٥٥م) أنهت لجنة السودنة مهمتها وأبلغت حكومة السودان دولتي الحكم الثنائي بقرار الجمعية التأسيسية بالرغبة في مزاولة حقّ تقرير المصير، وقبلت الدولتان قرار اللجنة.

وفي ٢٤ ربيع الأول عام ١٣٧٥هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٥٥م) جلت قوات الدولتين عن الأراضي السودانية نهائياً. وتركت الحكومة المصرية جميع الأسلحة الثقيلة الخاصة بها إلى السودان.

وفي ٥ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (١٩ كانون الأول ١٩٥٥م) أصدر مجلس النواب السوداني قراراً يقضي بأنه يعدّ جلاء الجيوش عن أرضه استقلالاً له، فلا حاجة إلى إجراء استفتاء لاختيار نوع الحكم.

وأعلنت الحكومة السودانية قيام الجمهورية السودانية، وأبلغت دولتي الحكم الثنائي بذلك، ودعت لانتخاب جمعية تأسيسيةٍ لتضع الدستور النهائي للسودان.

وفي ١٧ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (٣١ كانون الأول ١٩٥٥م) أقرّ المجلس النيابي السوداني الدستور وأصبح نافذاً من اليوم التالي أي من مطلع عام ١٩٥٦م.

التطورات الإدارية:

شكّل الحاكم العام لجنةً خاصةً بتاريخ ٢٧ ذي الحجة عام ١٣٦١هـ (٤

كانون الثاني ١٩٤٣م) لدراسة إمكانية تشكيل مجلسٍ استشاريٍ لشمالي السودان، فقامت اللجنة بالمهمّة، وأدخل الحاكم بعض التعديلات، ثم أصدر قانوناً بإنشاء مجلسٍ استشاريٍ لشمالي السودان بتاريخ رمضان ١٣٦٢هـ (أيلول ١٩٤٣م)، وعدّه خُطوةً كي يشترك السودانيون في الحكومة المركزية.

وكان المجلس يتألّف من رئيسٍ هو الحاكم العام، ونائبٍ للرئيس هو الأمين الإداري «دوغلاس نيوبولد» وثمانيةٍ وعشرين عضواً. (٣ أعضاء من كل إقليم من الأقاليم الشمالية الستة وهي: النيل الأزرق - كسلا - دارفور - كردفان - الخَرطوم - الإقليم الشمالي) وعشرة أعضاءٍ يُعيّنون من قبل الحاكم العام.

وقد قاطعت الأحزاب الاتحادية المجلس الاستشاري، وانتقدته، على حين أن حزب الأمة والجبهة الاستقلالية كانوا يرون أن التبعية لمصر جريمة.

ودعت الحكومة السودانية في ٢١ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٢٢ نيسان ١٩٤٦م) لعقد مؤتمر إدارة السودان، ويتمّ تشكيل هذا المؤتمر من أعضاء بريطانيين بحكم وظائفهم، ومن ممثلين عن المجلس الاستشاري لشمالي السودان، وطلب الحاكم العام من الأحزاب الاتحادية ومن مؤتمر الخريجين إرسال ممثلين عنهم غير أنهم رفضوا الاشتراك فيه.

وفي ٩ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (٣١ آذار ١٩٤٧م) قدّم رئيس المؤتمر «روبرتسن» للحاكم العام تقريراً شاملاً عن المؤتمر، وما يراه، وكان من أهم ما يراه:

١ - إنشاء جمعية تشريعيةٍ تتألّف من أعضاء سودانيين يتمّ انتخابهم، بحيث تضمّ الجمعية التشريعية مُمثّلين عن السودان كله شماليه وجنوبيه، وأن تحلّ محلّ المجلس الاستشاري وقد حُدّدت مُهمّتها بالتشريع، والإدارة، والمالية، واقترح المؤتمر أن يكون عدد أعضاء الجمعية ستين عضواً، وربما يزيد في المستقبل حتى يصل عدد الأعضاء إلى المائة، وأن يحتفظ بعددٍ من المقاعد يتمّ تعيين أصحابها عن طريق الحاكم العام.

٢ - إنشاء مجلسٍ تنفيذي يحلّ محل الحاكم العام ويتألّف من اثني عشر عضواً (رئيس وثلاثة أمناء وستة وكلاء وعضوين ويُرشّحهم الحاكم العام).

ورفع الحاكم صورةً من التقرير إلى كلٍ من الحكومتين المصرية والبريطانية، وقد رفضته الحكومة المصرية، وأبدت عليها الملاحظات التالية:

١ ـ إن تشكيل اللجنة التشريعية على هذه الصورة المقترحة لا يفسح المجال لتمثيل السكان تمثيلاً صحيحاً، فهي أقرب إلى التعيين منها إلى الانتخاب، وأن من الواجب وضع قانونٍ للانتخاب يسمح بتمثيل السودانيين تمثيلاً صحيحاً.

٢ ـ إن السلطات التي أُعطيت للجمعية التشريعية محدودة بالنسبة إلى السلطات التي خُوّلت للحاكم العام ومُعاونيه الأربعة الذين يعدّون أعضاء بحكم وظائفهم في المجلس التنفيذي، وهؤلاء كلهم من الإنكليز.

٣ ـ رأي الجمعية التشريعية لا يخرج على أنه استشاري محض.

٤ ـ لا يتسنّى للجمعية التشريعية النظر في جميع القوانين قبل نفاذها، مع أنها لا تملك إلا الرأي الاستشاري.

٥ ـ لا يُستساغ الجمع بين الوظيفة الحكومية وعضوية الجمعية التشريعية.

٦ ـ لا تملك الجمعية إلا رأياً استشارياً في الميزانية كما هي الحال في بقية القوانين الأخرى.

٧ ـ لا يملك أعضاء الجمعية التشريعية اقتراح مشروعات قوانين يتقدّمون بها إلى الجمعية.

٨ ـ الحاكم العام له الحقّ المطلق في التصديق على التشريعات أو رفضها.

٩ ـ إن معاوني الحاكم العام في المجلس التنفيذي المقترح كلهم من الإنكليز، وقد أعطاهم النظام المقترح السيطرة على المجلس.

١٠ ـ يلقي النظام المقترح المسؤولية الكاملة على البريطانيين على الرغم من أن الغرض منه تدريب السودانيين على الحكم الذاتي.

١١ ـ لم يُشر النظام إلى الحريات الدستورية، والشخصية، والصحافة.

١٢ ـ لم يضمّ المؤتمر الذي أصدر هذه التوصيات عناصر كان من اللازم حضورها حتى يتمكّن المؤتمر من القيام بمُهمّته بشكلٍ مُرضٍ.

ورفض ذلك حزب الأمة وأنصاره، وكذلك رفضته أكثر الأحزاب الاتحادية غير أن المجلس الاستشاري قد وافق عليه، ومن ثم أصدر الحاكم العام قانون الجمعية التشريعية ونشر رسمياً في ١٢ شعبان عام ١٣٦٧هـ (١٩ حزيران ١٩٤٨م).

وحدثت مظاهرات صاخبة، ودعت الأحزاب الاتحادية إلى مقاطعة الانتخابات، وزاد الأمر تعقيداً اختلاف وجهات نظر أبناء السودان وخاصة الأنصار والختمية.

وفي ١٤ صفر ١٣٦٨هـ (١٥ كانون الأول ١٩٤٨م) افتتحت الجمعية التشريعية، وكان نصف أعضائها من الجبهة الاستقلالية، وقد استمرّت المظاهرات، واعتُقل إسماعيل الأزهري. وكان من قانون الجمعية أن تنتخب الجمعية رئيساً لها، ويكون وزيراً، وهو بالاتفاق مع الحاكم العام يُعيّن الوزراء. ويستطيع الحاكم العام إقالة الوزراء ووكلائهم، وتعيين آخرين مكانهم، وحلّ الجمعية التشريعية بل له الكلمة الأولى والأخيرة في كل شيء.

وفي شهر صفر ١٣٧٠هـ (تشرين الثاني ١٩٥٠م) تقدّم الأمين العام الإداري باقتراحٍ جديدٍ يقضي بأن يكون جميع أعضاء الجمعية التشريعية من المنتخبين، وأن يكون جميع أعضاء مجلس الوزراء من السودانيين، وأن يكون مجلس الوزراء مسؤولاً أمام الجمعية التشريعية عن كل الشؤون باستثناء الشؤون الخارجية. وأن يكون للسودان حكم ذاتي، وفي الوقت نفسه يبقى الحاكم العام مسؤولاً عن الشؤون الخارجية والدفاع ولديه سلطات محدّدة للتدخّل في الشؤون السياسية لحفظ الأمن، والنظام، ووقف التدهور الاقتصادي، ومراعاة الطوائف الأجنبية بما في ذلك الموظفين الإنكليز.

وفي الشهر نفسه (صفر ١٣٧٠هـ) أصدرت الجمعية التشريعية قراراً بتكوين لجنة الانتخابات، ولم يمض شهر على ذلك حتى وافقت الجمعية على اقتراح بالحكم الذاتي بأغلبية ٣٩ صوتاً ضدّ ٣٨ عضواً.

غير أن الحاكم قد رفض هذا، وعدّ القرار ضعيفاً إذ أن نتيجة التصويت تدلّ على أن الانقسام قوي في الجمعية التشريعية، كما أن هذا ليس من اختصاص الجمعية التشريعية.

وفي ٢٥ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (٢٠ شباط ١٩٥٢م) أبلغت وزارة الخارجية البريطانية الأمين المدني أنه ليس من سياسة حكومة صاحب الجلالة إعداد السودان للحكم الذاتي في العام المقبل فلا بدّ من مرور مرحلةٍ.

وفي هذه الآونة أخذت السودان تدخل ضمن السياسة الدولية، وذلك لأن الولايات المتحدة أخذت تحلّ محلّ شريكتيها فرنسا وإنكلترا في مستعمراتها تارةً بالغزو الاقتصادي وأخرى عن طريق الانقلابات العسكرية لتصبح دول أوروبا الغربية، وكل الدول صاحبة النظام الرأسمالي تدور في فلك الولايات المتحدة كما تدور الدول الشيوعية في فلك الروس لتكون دول المعسكر أكثر ترابطاً في مواجهة دول المعسكر الآخر، وفي الوقت نفسه تريد الدول الرأسمالية وفي طليعتها إنكلترا وفرنسا أن يبقى لها كيانها، وتبقى لها هيمنتها، وقد استطاعت الولايات المتحدة أن تُنفّذ سياستها في بعض الدول وأن تنجح فيما قامت به، وجاء دور مصر وتعني مصر (مصر والسودان) لذا بدأت إنكلترا ترسم لنفسها سياسةً جديدةً بعد أن كانت تهتمّ بالدرجة الأولى في فصل السودان عن مصر لاختلاف التطوّر السياسي بين المنطقتين ـ حسب مزاعمها السياسية ـ فإن مصر لا بدّ من أن تجلو عنها عاجلاً أم آجلاً، فإذا جاء وقت الجلاء ترى أن تتخذ الخطة لتبقى منطقة السودان ضمن دائرة نفوذها، في الوقت الذي ترى فيه مصر أن السودان جزء منها وإنكترا يجب أن تجلو عن الجزأين على أنهما جزء واحد.

طلبت الحكومة البريطانية من رجالات الحكم في مصر الذين يُمكنها التعاون معهم أن يُوطّدوا علاقتهم بالسودانيين لتبقى المنطقتان في دائرة نفوذها ويمكنها الثبات أمام اللعبة أو السياسة الأمريكية، فكأن إنكلترا أصبحت ترغب في بقاء مصر والسودان معاً على أن تُركّز جهودها فيهما لتقوية نفوذها عن طريق أنصارها في الجزأين عامةً.

بدأ الحكم المصري يُفاوض حزب الأمة غير أن المفاوضات لم تلبث أن انقطعت في ١٨ شعبان ١٣٧١هـ، وقامت بعد ذلك بقليل حركة ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م)، وتغيّرت السياسة في مصر، وأصبح للولايات المتحدة النفوذ الأول فيها. ورأى الحكم الجديد أن موضوع جلاء إنكلترا عن القناة والأراضي المصرية عامة إنما هو مرتبط بموضوع السودان لذا فإن من الأفضل فصل الموضوعين بعضهما على بعض للحصول على الجلاء أولاً، وإذا كان للولايات المتحدة دور في هذا الشأن غير أنها لا تمانع في السيطرة على مصر مرحلياً، ثم ترسم خطةً جديدةً لكن كان للحكّام الجدد مصلحة فعادت المفاوضات مع حزب الأمة والجبهة الاستقلالية، وتمّ الاتفاق في ٢٣ محرم ١٣٧٢هـ، ثم اتفقوا مع الأحزاب الاتحادية في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ. كانت سياسة إنكلترا من البدء فصل السودان عن مصر، واستمرّت على ذلك، وكانت سياسة حزب الأمة والجبهة الاستقلالية كذلك بل كانوا يعدّون التبعية لمصر جريمةً. وكانت سياسة الحكم الجديد في مصر الالتفات إلى مصر لجلاء القوات الإنكليزية وللتمكين لأنفسهم، وهذا ما تفاهموا عليه مع الأحزاب الاتحادية وإن كان الأمر يقتضي عندهم وعند الولايات المتحدة توطيد الصلة مع الأحزاب الاتحادية من أجل المستقبل، ومن أجل إحلال السياسة الأمريكية مكان السياسة الإنكليزية في السودان.

وفي ٢٨ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ تمّ الاتفاق بين مصر وإنكلترا على منح السودان الحكم الذاتي، وحقّ تقرير المصير. وكان القرار الذي سبق أن ألمحنا إليه يقضي أن تتشكّل لجنة للانتخابات من ثلاثةٍ من السودانيين، وعضو بريطاني، وعضوِ أمريكيٍ، وعضوِ هنديٍ.

وجرت الانتخابات النيابية في السودان، ودعي المجلس للاجتماع في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٤م) وكان مُؤلّفاً من الأحزاب الآتية:

الحزب الوطني الاتحادي	وحصل على	٥١ مقعداً.
حزب الأمة	وحصل على	٢٢ مقعداً.
الحزب الجمهوري الاشتراكي	وحصل على	٣ مقاعد.

المستقلون	وحصل على	١١ مقعداً.
الحزب الشيوعي	وحصل على	١ مقعد.
حزب الأحرار الجنوبيين	وحصل على	٩ مقاعد.
		٩٧ مجموع مقاعد المجلس النيابي.

وفي ٥ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ تشكّلت أول وزارةٍ سودانيةٍ برئاسة إسماعيل الأزهري[1].

وكان مجلس الشيوخ يتألّف من ثلاثين عضواً، حصل الحزب الوطني الاتحادي على اثنين وعشرين مقعداً في هذا المجلس.

أخذت مصر تُفكّر بمدّ نفوذها إلى السودان لعلّها تستطيع ضمّ السودان إليها، وكانت الولايات تحثّ على هذا لتحلّ هي محلّ إنكلترا في السودان عن طريق مدّ النفوذ المصري الذي غدا يتعاون مع الولايات المتحدة أو هو من صنائعها. وكُلِّف الرائد صلاح سالم عضو مجلس الثورة المصري بمتابعة أوضاع السودان، وقد عقد اجتماعاً في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ مع حزب الأشقاء الذي انضمت إليه الأحزاب الاتحادية «الأشقاء ـ الاتحاديون ـ الأحرار

(١) كانت الوزارة على الشكل الآتي:
١ ـ إسماعيل الأزهري: رئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ مبارك رزوق: وزيراً للمواصلات.
٣ ـ خلف الله خالد: وزيراً للدفاع.
٤ ـ أمين السيد: وزيراً للصحة.
٥ ـ ميرغني حمزة: وزيراً للري، والزراعة، والمعارف.
٦ ـ علي عبد الرحمن: وزيراً للعدل.
٧ ـ حماد توفيق: وزيراً للمالية.
٨ ـ سانتنيودينغ: وزيراً للدولة.
٩ ـ دال داي: وزيراً للدولة.
١٠ ـ إبراهيم المفتي: وزيراً للاقتصاد والتجارة.
١١ ـ محمد نور الدين: وزيراً للأشغال.
١٢ ـ بولين أكير: وزيراً للدولة.

الاتحاديون ـ وحدة وادي النيل و....» وأسّسوا الحزب الوطني الاتحادي.

وفي ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (١ آذار ١٩٥٤م) زار وفد مصري برئاسة محمد نجيب السودان، غير أن حزب الأمة وأنصاره قد تجمهروا، وبدأت هتافات مُعادية، واصطدموا مع الشرطة، واضطر محمد نجيب للعودة، وقطع الزيارة، وأُلغي الاحتفال، وأعلن حزب الأمة أنه لا يقبل أي نوعٍ من التعاون مع مصر، وأنهم يريدون الاستقلال التام، وإذا لم يتمّ ذلك فستقع أحداث دامية، ولن يستقر السودان.

وبدأت العجلة تدور نحو الاستقلال وتدوس على فكرة الاتحاد، فانسحب وزيران من الوزراء من الحزب الوطني الاتحادي وهما: ميرغني حمزة، وخلف الله خالد، وسحبوا ثقتهم من إسماعيل الأزهري، وأسّسوا حزب الاستقلال الجمهوري مع أحمد جالي في ٩ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ بتأييد علي الميرغني.

ثم جرت مصالحة بين زعيم طائفة الأنصار عبد الرحمن المهدي، وعلي الميرغني زعيم طريقة الختمية وأصدرا بياناً في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٥ كانون الأول ١٩٥٥م) أنهما يعملان لمصلحة السودان.

كما أعلن عبد الرحمن المهدي أنه من أنصار الاستقلال وذلك بتاريخ ٢٣ رجب ١٣٧٤هـ، وما كان من حزب الأمة إلا أن عارض سياسة حزب الاتحاد الوطني وإسماعيل الأزهري.

وفي آخر يوم من أيام عام ١٣٧٤هـ (١٨ آب ١٩٥٥م) أُعلن التمرّد في الجنوب، وكان الهدف الحصول على الحكم الذاتي، وأعلنوا أن الجنوب لن يُوافق على الاستقلال إن لم يمنح الجنوب الاستقلال الذاتي، وطلبت مصر من الحاكم العام إرسال قواتٍ مصريةٍ وإنكليزيةٍ للجنوب للقضاء على التمرد لكنه رفض، وهدأت الأحوال ذاتياً.

وفي ١١ محرم ١٣٧٥هـ قرّر المجلس النيابي السوداني الاستفتاء المباشر، ووجده أفضل وسيلةٍ للتعبير الصحيح عن رغبة الشعب غير أنه لم يلبث أن

وجده صعب التحقيق لذا فقد أقلع عنه بعد أن رأى صعوبة إجراء الاستفتاء.

وفي ٢٧ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ قدّم الحاكم العام للسودان استقالته إلى رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري، وأعلنت الحكومة البريطانية، وأبلغت الحكومة المصرية أيضاً أنها لا تريد ترشيح آخر ليحلّ محلّ الحاكم العام المستقيل في محاولة للتقرّب من السودانيين، فكان على السودانيين أن يُعلنوا استقلال بلدهم من داخل المجلس النيابي، كما على المجلس اختيار رأس الدولة. والتقت الأحزاب السودانية على تأليف حكومةٍ من مختلف الأحزاب واتفقت على أن يكون رئيسها إسماعيل الأزهري، غير أن الوزارة السابقة[١] قد استمرّت في مهمتها حتى شهر رجب حيث تشكلت حكومة قومية.

وفي يوم ٥ جمادى الأولى ١٣٧٥ أعلن الاستقلال في داخل المجلس النيابي فقد وقف النائب عبد الرحمن محمد إبراهيم دبكة[٢] وقال: نحن أعضاء

---

(١) وكانت الحكومة على الشكل الآتي:
١ ـ إسماعيل الأزهري: رئيس الوزراء، ووزيراً للداخلية.
٢ ـ محمد نور الدين: وزير الأشغال.
٣ ـ ميرغني حمزة: وزير التربية.
٤ ـ حماد توفيق: وزير المالية.
٥ ـ إبراهيم المفتي: وزير التجارة.
٦ ـ مبارك رزوق: وزير المواصلات.
٧ ـ خلف الله خالد: وزير الدفاع.
٨ ـ محمد أمين السيد: وزير الصحة.
٩ ـ علي عبد الرحمن: وزير العدل.
١٠ ـ بدر الدين البرت: وزير دولة.
١١ ـ سانتينيو دينغ: وزير دولة.
١٢ ـ يحيى الفضلي: وزير الشؤون الاجتماعية.
١٣ ـ محمد أحمد المرضي: وزير الحكومات المحلية.
١٤ ـ إبراهيم حسن: وزير التعدين.
١٥ ـ حسن عوض الله: وزير الزراعة.
١٦ ـ مدثر علي البوشي: وزير العدل/ لاحقاً.

(٢) من نواب حزب الأمة من منطقة دارفور.

مجلس النواب في البرلمان نعلن باسم شعب السودان القوي الباسل أن السودان قد أصبح دولةً مستقلة كاملة السيادة، ونرجو من معاليكم أن تطلبوا من دولتي الحكم الثنائي الاعتراف بذلك فوراً.

وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٦م) كان استقلال السودان، وتشكّل مجلس السيادة الأولى من خمسة أعضاء[١].

* * *

(١) تألّف مجلس السيادة من:
١ ـ أحمد محمد ياسين.
٢ ـ عبد الفتاح المغربي صالح.
٣ ـ أحمد محمد صالح.
٤ ـ سريسيو أرو.
٥ ـ الديرديري محمد عثمان.

الفصل الثاني
الاستقلال

انضمّت السودان إلى جامعة الدولة العربية بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٥٦م) واستمرّت حكومة إسماعيل الأزهري حتى ١ رجب ١٣٧٥هـ حيث ألّف وزارةً قوميةً ضمّت مختلف الأحزاب[1]. وذلك أن كل الأحزاب قد ابتعدت عن مصر، وتقاربت آراؤها بعضها مع بعض بعد أن رأوا أن رجال الثورة قد تنكّروا لرئيسهم محمد نجيب الذي كان يُعدّ أو هكذا يعدّه السودانيون على الأقل أنه رمز الوحدة بين مصر والسودان. ثم رأوا تصرّف رجال الثورة المصريين تجاه السودان فقد كان الرائد صلاح سالم وزير الإرشاد القومي وفي الوقت نفسه وزير شؤون السودان إذ حرص الحرص

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ إسماعيل الأزهري: رئيس الوزراء، وزير الداخلية، وزير الدفاع.
٢ ـ مبارك رزوق: وزير المواصلات والأشغال.
٣ ـ حماد توفيق: وزير المالية.
٤ ـ إبراهيم المفتي: وزير التجارة والصناعة.
٥ ـ علي عبد الرحمن: وزير التربية والتعليم.
٦ ـ محمد أمين السيد: وزير الصحة.
٧ ـ سانتينيو دينغ: وزير دولة.
٨ ـ يحيى الفضلي: وزير الشؤون الاجتماعية، والتعدين.
٩ ـ محمد أحمد المرضي: وزير الحكومات المحلية.
١٠ ـ خضر حمد: وزير الري.
١١ ـ مدثر البوشي: وزير المواصلات.
١٢ ـ حسن عوض الله: وزير دولة.
١٣ ـ فلمون ماجوك: وزير النقل الميكانيكي.
١٤ ـ بوث ديو: وزير الثروة الحيوانية.

الشديد على إيقاع الخلاف أو زيادته بين الأنصار والختمية، وعمل على الاندساس بين صفوف الضباط السودانيين في الجيش وتشكيل مجموعة الضباط الأحرار ليكونوا بيد مصر تتصرّف بتوجيههم وتحريكهم حسب مصالحها كلما رأت ذلك، وقد أنفق الأموال الكثيرة في سبيل تحقيق أغراضه، وكل هذا بمنتهى الأعمال الصبيانية المكشوفة والمفضوحة وقد ذهب إلى الجنوب ومن أجل التقرّب إلى الشعب حسب رأيه ـ رقص عارياً مع مجموعة القبائل هناك داخل الأحراج ليرتبطوا به ما دام يُوافقهم ويعدّ نفسه واحداً منهم. والواقع أن هذا كله كان من سياسة الولايات المتحدة التي تريد أن تمدّ نفوذها إلى السودان وتحلّ محلّ إنكلترا كما فعلت في مصر، وليكن سفراؤها في سياستها هذه أولئك الذين اعتمدتهم في مصر لنقل النفوذ من إنكلترا إليها. وما دام الساسة السودانيون قد أدركوا هذا فقد أصبح من البعيد أن يعود النفوذ المصري إلى السودان وكذلك من وراءه ومن يُوجّهه على الأقلّ في المرحلة الراهنة بل إن هذا قد سبّب جفوة بين الشعبين الشقيقين المتجاورين. وقبلت السودان عضواً في هيئة الأمم المتحدة بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١٣٧٦هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٥٦م).

انحلّ عقد حزب الاستقلال الجمهوري في هذه الآونة وقبل ثلاث سنواتٍ والذي أسّسه، ميرغني حمزة، وخلف الله خالد، وأحمد جالي، وظهر حزب جديد أطلق عليه حزب الشعب الديمقراطي وكان برئاسة علي عبد الرحمن وزير العدل في وزارة إسماعيل الأزهري السابقة، كما كان الحزب السابق برئاسة اثنين من وزراء إسماعيل الأزهري أيضاً وهما كما ذكرنا ميرغني حمزة وزير الري والزراعة والمعارف وخلف الله خالد وزير الدفاع. وهذا ما خلخل الوزارة القومية[1]، واستقالت حكومة إسماعيل الأزهري، وتشكّلت

---

(١) عدل إسماعيل الأزهري وزارته بعد شهر من تشكيلها وأصبحت كما يأتي:
١ ـ إسماعيل الأزهري: رئيس الوزراء، ووزير الداخلية.
٢ ـ مبارك رزوق: وزير الخارجية، والعدل.
٣ ـ حماد توفيق: وزير المواصلات.
٤ ـ إبراهيم أحمد: وزير المالية، والاقتصاد.
٥ ـ عبد الله خليل: وزير الدفاع.
٦ ـ زيادة أرباب: وزير الشؤون الاجتماعية. =

وزارة ائتلافية[1] ضمت أحزاب الأمة، والشعب الديمقراطي، والأحرار الجنوبيين، وأصبح الحزب الوطني الاتحادي في المعارضة. وعلى كلٍّ فإن هذه الوزارة تلقى تأييد عبد الرحمن المهدي زعيم الأنصار قطب الائتلاف، وعلي الميرغني زعيم الطريقة الختمية قطب الائتلاف الثاني، والقطبان هما حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي، ولا تختلف هذه الوزارة عن سابقتها إذ كانت مؤيّدةً أيضاً من الأنصار والختمية وكل ما في الأمر أن الختمية كانت تؤيد إسماعيل الأزهري وأصبحت اليوم تُؤيّد علي عبد الرحمن.

بدأت الشكوك تدور حول مصر وربما كان أهمها بسبب السدّ العالي الذي يُضيع على السودان جزءاً من الأرض تغمرها مياه نهر النيل، وثانيهما

= ٧ ـ محمد نور الدين: وزير الحكومات المحلية.
٨ ـ ميرغني حمزة: وزير الزراعة والري.
٩ ـ بنجامين لونكي: وزير التعدين.
١٠ ـ ستناسلوس بايساما: وزير النقل الميكانيكي.
١١ ـ يوسف العجب: وزير دولة.

(١) تشكلت الوزارة الائتلافية برئاسة عبد الله خليل وكانت كما يأتي:
١ ـ عبد الله خليل: رئيس الوزراء، ووزير الدفاع.
٢ ـ علي عبد الرحمن: وزير الداخلية.
٣ ـ ميرغني حمزة: وزير الزراعة والري.
٤ ـ إبراهيم أحمد: وزير المالية.
٥ ـ محمد أحمد محجوب: وزير الخارجية.
٦ ـ محمد نور الدين: وزير الحكومات المحلية.
٧ ـ زيادة أرباب: وزير العدل، والتعليم.
٨ ـ محمد أمين السيد: وزير الصحة.
٩ ـ حماد توفيق: وزير التجارة.
١٠ ـ بنجامين لونكي: وزير الأشغال.
١١ ـ مأمون حسين شريف: وزير المواصلات.
١٢ ـ يوسف العجب: وزير دولة.
١٣ ـ الفرد بيرجوك: وزير التعدين.
١٤ ـ غوردون أيوم: وزير الثروة الحيوانية.
١٥ ـ أمين التوم: وزير دولة.
١٦ ـ محمد أحمد أبو سّن: وزير الشؤون الاجتماعية.

بسبب فكرة القومية العربية التي أخذت مصر تُصدّرها إلى السودان وإلى بقية البلدان العربية، وفي السودان مجموعات لا تنتمي إلى العنصر العربي فهي تُحارب الفكرة أولاً والأحزاب السودانية تريد ودّها للكسب الحزبي أو للظهور بالمظهر الوطني، وهناك نقطة أخرى تنطلق من النقطة الثانية وهي أن القوميين العرب بدأوا يظهرون في السودان، ويعرفون على حقيقتهم، وينمون عن طريق البذخ حيث يمدّهم بالمال زكريا محيي الدين الذي غدا وزيراً للداخلية، وأسّس دولة المخابرات، وهناك مشروع النقطة الرابعة الأمريكي الذي يقضي بتقديم المساعدات العسكرية والمالية إلى الحكومات التي تحتاجها بغية بناء جهازها الدفاعي، كما أن الرئيس الأمريكي من حقّه أن يُرسل القوات المسلحة الأمريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الأوسط التي تُواجه تهديداً مسلّحاً من قبل أية دولةٍ أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية، وفي حالة عدم وجود مثل هذا التهديد السافر فيمكن تقديم المساعدات الاقتصادية، وهذا ما خوّله الكونغرس الأمريكي للرئيس ايزنهاور.

كانت مصر تتلقّى المساعدات الاقتصادية والأغذية من الدول الغربية كافةً ومن بينها أمريكا، ومع هذا فإن مصر تُعلن أن سيرها حسب خطٍ اشتراكيٍ، وأن هناك عوامل لقاءٍ وارتباطٍ بينها وبين موسكو، كالسائق الذي يشير نحو اليسار ويتجه نحو اليمين.

وزار «ريتشارد نيكسون» نائب الرئيس الأمريكي عدة دولٍ إفريقية ومنها السودان، وجرت محادثات بعد ذلك بين السودان والحكومة الأمريكية، ولعدم معرفة الساسة السودانيين بأساليب الألاعيب السياسية فقد ظنّ حزب الشعب الديمقراطي أن اللعبة إنما هي إحلال النفوذ الأمريكي في السودان مكان النفوذ المصري الذي هو حليف حزب الشعب الديمقراطي، ولم يدر محمد عبد الرحمن زعيم هذا الحزب أن النفوذ الأمريكي لا يدخل إلى السودان إلا عن طريق مصر، وأن التوجّه نحو موسكو لم يكن سوى تعمية على الشعوب التي أخذت تتضايق من التصرّفات والمواقف الأمريكية خاصةً والغربية عامةً في الوقت الذي تكره فيه الشيوعية وتمقتها، لذا بدأ محمد عبد الرحمن يضع العراقيل في وجه حليفه في الحكم حزب الأمة. ولما زار نيكسون السودان

خرجت المظاهرات التي دبّرها حزب الشعب الديمقراطي وأعوان الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وندّد المتظاهرون بالمواقف الأمريكية، لكن السفير الروسي كان أول رجالات السلك السياسي الذين يستقبلون نائب الرئيس الأمريكي.

وكان الرئيس المصري في غاية السرور وهو يرى الألاعيب تنطلي على حزب الشعب الديمقراطي وبعض رجال السياسة، وخاصةً أنه كان في بداية ارتفاع الخط البياني لشهرته وتزعمه للشارع في كثيرٍ من البلدان العربية، ومع هذا فإن الذين يُخالفونه في السودان كثيرون، لذا بدأ بإعطاء الأوامر بالتحرّك العسكري الذي عمل له الرائد صلاح سالم وزير شؤون السودان، ومن بعده زكريا محيي الدين رئيس الوزارة.

وفي شهر رجب من عام ١٣٧٦هـ جرت محاولة انقلاب برئاسة العميد محمود أبو بكر، والنقيب عبد الرحمن كبيدة، ويعقوب كبيدة، وعمر خلف الله، وعوض بابكر، والملازم أول جعفر النميري، وقد أُبعد عدد منهم من الخدمة، وأُحيل بعضهم إلى الاستيداع بعد التحقيق والمحاكمة وكان الملازم أول جعفر النميري من الذين أُحيلوا على التقاعد.

وكان الخلاف بين مصر والسودان حول مياه نهر النيل، وحول «حلايب والحدود الشمالية» إذ كانت مصر تطلب من السودان التنازل لها عن المناطق الواقعة شمال خط العرض ٢٢° شمالاً، والحلايب بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأحمر، وقد أُثيرت هذه القضايا أثناء الاستعداد للانتخابات النيابية، وفي الوقت نفسه كان الاستعداد للاستفتاء على الوحدة بين مصر وسوريا (٣ شعبان ١٣٧٧هـ)، غير أن السودان قد رفض هذا التنازل، وأعلن أنه سيُحارب في سبيل المحافظة على الحدود الشمالية. وسافر وزير الخارجية السودانية على رأس وفدٍ إلى القاهرة في ٢٩ رجب، ورُفعت القضية إلى مجلس الأمن في ٢ شعبان. والواقع أن القصد من إثارة هذا الخلاف كان هو تأجيل الانتخابات السودانية إلى ما بعد الاستفتاء على الوحدة بين مصر وسوريا حيث تُثار عاطفة الوحدة وتستفيد منها الأحزاب الاتحادية في السودان المناصرة

للرئيس المصري أو تلك الأحزاب التي يستخدمها جمال عبد الناصر للدعاية لنفسه ولتنفيذ مخططاته، وربما استطاعت هذه الأحزاب النجاح والدعوة بالانضمام إلى دولتي الوحدة، وفي الوقت نفسه فإن الأحزاب السودانية الاستقلالية كانت أيضاً تريد الاستفادة من إثارة الرأي العام السوداني ضدّ مصر لتحقق الانتصار على خصومها في الانتخابات، كما أنها تخشى آثار الوحدة بين مصر وسوريا.

وجرت الانتخابات السودانية في موعدها المحدد يوم ٨ شعبان ١٣٧٧ هـ (٢٧ شباط ١٩٥٨م)، واستمر الائتلاف بين أحزاب الحكومة (الأمة - الشعب الديمقراطي)، واتفقا أيضاً على عدم التنافس فيما بينهما في الدوائر الانتخابية، وتقسيم الدوائر التي زادت على مقاعد المجلس النيابي السابق فيما بينهما، وخاضا الانتخابات بصورة غير مشروعةٍ وتُخالف كل ما يُسمّونه الديمقراطية حيث كان التنسيق بينهما شبه تامٍ.

ظهرت نتيجة الانتخابات للجمعية التأسيسية في ٢٩ شعبان ١٣٧٧هـ. وكانت كالآتي:

حزب الأمة ٦٣ مقعداً.

حزب الشعب الديمقراطي ٢٦ مقعداً.

الحزب الوطني الاتحادي ٤٠ مقعداً.

حزب الأحرار الجنوبي ٤٠ مقعداً.

وشكّل عبد الله خليل أمين عام حزب الأمة حكومةً ائتلافيةً[1] من حزبه،

---

(١) تشكلت الوزارة الائتلافية الجديدة على الشكل الآتي:
١ - عبد الله خليل: رئيس الوزراء، ووزير الدفاع.
٢ - ميرغني حمزة: وزير الداخلية، والري.
٣ - إبراهيم أحمد: وزير المالية.
٤ - علي عبد الرحمن: وزير الزراعة، والتجارة.
٥ - محمد أحمد محجوب: وزير الخارجية.
٦ - محمد نور الدين: وزير الصحة.
٧ - علي عبد الرحمن طه: وزير الحكومات المحلية.
٨ - محمد أحمد أبو سنّ: وزير الشؤون الاجتماعية.

=

وحزب الشعب الديمقراطي الذي يتسلّم زعيمه علي عبد الرحمن وزارة الداخلية، وكانت المعارضة من الحزب الوطني الاتحادي وحزب الأحرار الجنوبي. ولم يكن الائتلاف الحكومي وطيد الأركان، وبدت تظهر بوادر للتفاهم والتقاء وجهات النظر بين الحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديمقراطي، وبدأت المناورات السياسية والإشاعات تنطلق في الشارع. وتطلب الحكومة المعونة الأمريكية وتُهاجم المعارضة ذلك بشدّة، وأكثر ما يكون الهجوم من وسائل الإعلام المصرية، بل إن علي عبد الرحمن رغم كونه مُشاركاً في الحكومة فإنه يُشيع أن الولايات المتحدة قد طلبت مقابل المعونة إقامة مطارات حربية في «نيالا» و «جبيت».

وسرت شائعة نشرتها وكالة أنباء «رويتر» أن عبد الله خليل قد رحّب بالإنزال الأمريكي في لبنان لحماية الرئيس كميل شمعون، كما أن الشائعة قد صدرت بقبول عبد الله خليل لمبدأ ايزنهاور.

ومقابل هذا فإن علي عبد الرحمن قد رحّب بالثورة في العراق، وندّد بالإنزال الأمريكي في لبنان وبالحماية الإنكليزية للأردن. وقد وجّهت مصر حملةً إعلاميةً شديدةً على السودان حتى اضطرت الحكومة إلى الإعلان في ٣ محرم عام ١٣٧٨هـ (١٩ تموز ١٩٥٨م) أن قنصل مصر الجديد «علي خشبة» غير مرغوب فيه لاتهامه من قبل سلطات الأمن باتصاله بالعناصر المخرّبة، وأمرته بمغادرة البلاد خلال ٢٤ ساعة.

سافر أمين سر الحزب الوطني الاتحادي «خضر حمد» إلى مصر في ١٨ صفر ١٣٧٨هـ رغبةً في إعادة التفاهم بين الأحزاب الاتحادية، وطلب الرئيس

= ٩ ـ زيادة أرباب: وزير العدل، والتعليم.
١٠ ـ بوث ديو: وزير الأشغال.
١١ ـ مأمون حسين شريف: وزير المواصلات.
١٢ ـ فيرناند اربينغ: وزير التعدين.
١٣ ـ أمين التوم: وزير دولة.
١٤ ـ عبد الله عبد الرحمن: وزير دولة.
١٥ ـ سانتينيو دينغ: وزير الثروة الحيوانية.

المصري من إسماعيل الأزهري عدم الهجوم على علي عبد الرحمن، وجاءت الفرصة المناسبة للمعارضة كي تتحرّك إذ ساءت الأوضاع الاقتصادية، واستطاع الحزب الشيوعي أن يُؤثِّر على اتحاد النقابات التي نظّمت المظاهرات المستمرة حتى ٨ ربيع الثاني ١٣٧٨هـ، وبدأت المعارضات بالنقد، فأخذ إسماعيل الأزهري يتهم رئيس الحكومة بالرغبة في ربط السودان في فلك الدول الغربية إذ أخذ أسلحةً بريطانيةً، كما انتقد وزير الداخلية ميرغني حمزة، ووجّه له التهمة نفسها وبالتفاهم مع الأنظمة الرجعية، وقام الإخوان المسلمون بمظاهراتٍ في جامعة الخرطوم تضامناً مع الشارع دون أن يكون لهم أيةُ مصلحةٍ في ذلك.

لم يكن من طريق أمام الحكومة إلا أن تمنع تلك اللقاءات السياسية التي كانت تتمّ، وتقف في وجه مظاهرات الطلاب في جامعة الخرطوم وأم درمان خوفاً من زيادة تصاعدها.

وأخيراً أعلن حزب الشعب الديمقراطي فكّ الائتلاف القائم مدّعياً أن مجموعةً من حزب الأمة تفكر جديّاً في إعلان الملكية في البلاد وتتويج عبد الرحمن المهدي ملكاً على السودان. وسافر عبد الله خليل رئيس وزراء السودان ووزير الداخلية، ووزير الري ميرغني حمزة إلى القاهرة للتفاهم مع الرئيس المصري على مياه نهر النيل، كما اتّفق الطرفان على أن تدفع مصر مبلغ ٣٥ مليون جنيه مصري كتعويضٍ لأهالي وادي حلفا الذين ستغرق مياه السد العالي بلدتهم وأرضهم.

رجع رئيس الوزراء إلى الخرطوم فوجد أن الجنوب يستعدّ للتمرّد من جديد. وهناك احتمال للتفاهم بين حزب الشعب الديمقراطي والحزب الوطني الاتحادي. وأن الرئيس المصري يسعى للقيام بانقلابٍ في السودان وقيام حكومةٍ برئاسة إسماعيل الأزهري، ويتشكّل ائتلاف بين الحزبين «الاتحادي والشعب الديمقراطي». كما بلغه احتمال التفاهم بين حزبي الأمة والاتحادي لتشكيل حكومةٍ ائتلافيةٍ برئاسة الأزهري، وشعر عبد الله خليل أن حزبه أيضاً ضدّه من الخلف، وتوقع أيضاً أن تطرح الثقة بالوزارة في أول اجتماع للمجلس

النيابي الذي كان مقرراً أن يكون في ٦ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨م) وستحجب الثقة عن حكومته، لذا أجّل اجتماع المجلس النيابي إلى ٢٧ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ (٨ كانون الأول ١٩٥٨) بعد أن كان في ٦ جمادى الأولى أي أنه قد أجّله مدة ثلاثة أسابيع ريثما يدرس الموضوع.

استقرّ رأي عبد الله خليل على تسليم السلطة إلى العسكريين فإنه أفضل له حسبما رأى من أن يستلّمها من خصومه السياسيين، ودرس المجلس الأعلى للقوات المسلّحة الأمر، وكان من قبل متردداً، غير أن إلحاح رئيس الوزارة بالسرعة في استلام العسكريين للسلطة وذلك قبل انعقاد اجتماع المجلس النيابي، وأخيراً تمت موافقة الجيش، وتسلّم السلطة اللواء إبراهيم عبود في ٦ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨م).

❁ ❁ ❁

الإنقلاب العسكري الأوّل

٦ جمادى الأولى ١٣٧٨ ـ ١٥ جمادى الآخرة ١٣٨٤ هـ

(١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨ ـ ٢١ تشرين الأول ١٩٦٤م)

حلّ القائد العام الأحزاب كلها وصادر ممتلكاتها، وألغى المجلس النيابي، وعطل الدستور والصحف، كما حلّ النقابات العمالية، وطالب الشعب بعدم الاشتغال بالأمور السياسية، ووعد بعودة الجيش إلى مراكزه في الوقت المناسب. وشكّل المجلس الأعلى للقوات المسلحة من ثلاثة عشر عضواً[١]، وسلّم سبعةً منهم وزاراتٍ في الوزارة التي شكّلها، والتي شملت بعض المستقلين.

أعلنت الوزارة[٢] السودانية أنه لا يوجد في اتفاقية المعونة الأمريكية ما يحدّ

---

(١) شكل المجلس الأعلى للقوات المسلحة من:

١ ـ الفريق إبراهيم عبود: القائد العام، ورئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة.
٢ ـ اللواء أحمد عبد الوهاب: نائب القائد العام.
٣ ـ اللواء محمد طلعت فريد.
٤ ـ اللواء أحمد عبد الله حامد.
٥ ـ العميد محمد أحمد عروة.
٦ ـ العميد أحمد مجذوب البحاري.
٧ ـ العميد أحمد رضا فريد.
٨ ـ العميد حسن بشير نصر.
٩ ـ العميد محمد نصر عثمان.
١٠ ـ العميد محمد أحمد التيجاني.
١١ ـ العميد محمد أحمد الخواص.
١٢ ـ العقيد عوض عبد الرحمن صغيرون.
١٣ ـ العقيد حسين علي كرار.

(٢) أما الوزارة فكانت على الشكل الآتي:

١ ـ إبراهيم عبود: رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع. =

من استقلال السودان أو يخدش كرامته، وقد صادق مجلس الوزراء على الاتفاقية. وقد وافق عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني على الحكومة وأظهرا التأييد، وهذا ما كان له أثره على نفسية الرئيس المصري الذي يصعب عليه أن يرى في دولٍ مجاورةٍ له اتفاقاً بين أهلها دون أن يكون له أيدٍ تتحرّك وخاصةً أن الذين أيّدوا من الختمية كان يعدّهم من أنصاره. لذا أخذت الشائعات تروّج للتفريق بين الطرفين المتنافسين: الأنصار، والختمية، فيُشاع أن نائب القائد العام وزير الداخلية اللواء أحمد عبد الوهاب يريد أن يستأثر بالسلطة لصالح حزب الأمة، وأنه على باب الإطاحة بالقائد العام. كما أخذت الدعايات تُثير كوامن النفس الشخصية، وقد اتصل أناس بالضباط أصحاب الرتب العالية، وحرّضوهم، كيف يضمّ المجلس الأعلى للقوات المسلحة رُتباً دونهم؟ وكيف تشمل الوزارة عسكريين أقلّ منهم رتبةً؟. وفي الوقت نفسه أطلقت الشائعات أن الحكم يميل إلى الغرب وأنه يُحارب الشيوعية ليتحرّك أنصارها، ولتضعف الحكومة، ولتُوضع أمامها العراقيل.

في ٢١ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ منعت جريدة «الطليعة» من الصدور، وهي صوت نقابة العمال. فأرسل اتحاد العمال احتجاجاً في ٢٧ جمادى

= ٢ ـ أحمد عبد الوهاب: وزيراً للداخلية، والحكومات المحلية.
٣ ـ محمد طلعت فريد: وزير الاستعلامات والعمل.
٤ ـ أحمد عبد الله حامد: وزير الزراعة.
٥ ـ محمد أحمد عروة: وزير التجارة.
٦ ـ أحمد مجذوب البحاري: وزير الحكومات المحلية.
٧ ـ أحمد رضا فريد: وزير المواصلات.
٨ ـ عبد الماجد أحمد: وزير المالية.
٩ ـ أحمد خير: وزير الخارجية.
١٠ ـ زيادة أرباب: وزير التربية والتعليم.
١١ ـ مكي لمنا: وزير الري.
١٢ ـ سانتينيو دينغ: وزير الثروة الحيوانية.
كما اشترك في الوزارة في أوقات مختلفة:
١٣ ـ محمد أحمد علي: وزير الصحة.
١٤ ـ أحمد علي الزاكي: تسلّم وزارة الصحة في ٢٠ شباط ١٩٦٢.
١٥ ـ سليمان حسين: تسلّم وزارة المواصلات في ٢٠ شباط ١٩٦٢.
١٦ ـ مأمون بحيري: تسلّم وزارة المالية في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣.

الأولى، فألقت الحكومة القبض على الشفيع أحمد الشيخ أمين سرّ الاتحاد وعلى ستةٍ من رفاقه. واحتجّ الاتحاد ثانيةً وبعث ببرقيةٍ إلى مكتب العمل الدولي في جنيف. وكان من قبل قد أعلن الحزب الشيوعي معارضته للانقلاب.

وفي ٢٢ شعبان أرسل العميد عبد الرحيم شنان قائد القيادة الشمالية في شندي، والعميد محيي الدين أحمد عبد الله سعد قائد القيادة الشرقية في القضارف كتيبتين لدخول الخرطوم وهما في طريقهما إلى الجنوب بواسطة القطارات. وكانت الكتيبة الشمالية بقيادة العقيد أبو بكر فريد والكتيبة الشرقية بقيادة العقيد إبراهيم رمضان، وقد استطاعت هاتان الكتيبتان بمساعدة القوات القادمة من الجنوب بإمرة المقدّم حسن إدريس والرائد أحمد محمد أبو الذهب من احتلال الخرطوم في ٢٢ شعبان وتطويق القيادة العامة للجيش وإلقاء القبض على اللواء أحمد عبد الوهاب مع اثنين من أعضاء المجلس الأعلى، وحصار منزل الفريق إبراهيم عبود، ثم جاءت قوات إضافية من الشمالية والشرقية للدعم ـ وللسيطرة على الخرطوم. واضطر القائد العام أن يرضخ للأمر الذي يُطالب قادة الحركة وهو تشكيل مجلسٍ أعلى جديدٍ يضمّهم ويشمل أيضاً العميد مقبول الأمين الحاج قائد القيادة الوسطى بكردفان، وتصحيح موقف الحكومة من الجمهورية العربية المتحدة، ففي مساء ٢٤ شعبان أعلن الفريق إبراهيم عبود قبول استقالة المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وتشكيل مجلسٍ جديدٍ يضمّ عشرةً من العسكريين بينهم قادة الحركة. ووقع خلاف داخل الوزارة وأصر اللواء أحمد عبد الوهاب على تقديم الانقلابيين إلى محكمةٍ عسكريةٍ لتمرّدهم وإثارة الفتنة والشائعات، وتأزّم الموقف داخل الجيش وكادت تحدث اشتباكات، واضطرّ أحمد عبد الوهاب إلى الاستقالة إذ لم يستجب لرأي من آرائه وذلك في ٢٩ شعبان، وهكذا خرج اللواء أحمد عبد الوهاب من المجلس ومن الحكومة، ودخل الانقلابيون المجلس، وتسلّموا مناصب وزارية، إذ أُعطي العميد مقبول الأمين الحاج وزارة الداخلية وفي الوقت نفسه تسلّم أمين سر المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وأعطي العميد عبد الرحيم شنان وزارة الحكومات المحلية، وأعطي العميد محيي الدين أحمد عبد الله وزارة المواصلات، وأُعيد بعض الضباط إلى الخدمة وكانوا من قبل قد طردوا من الجيش.

بدأ العميد عبد الرحيم شنان يُثير المشكلات داخل المجلس الأعلى، وفي الوزارة ويُسانده أيضاً اللواء محيي الدين عبد الله، وفي ١٤ ذي القعدة من عام ١٣٧٨هـ تقدّمت أربعة سياراتٍ مُدرّعةٍ من القيادة الشرقية بالقضارف إلى الخرطوم لكنها اضطرّت إلى العودة، وحاولت قوة من «شندي» أن تتقدّم إلى الخرطوم أيضاً للغرض نفسه فاعتقل أفرادها قبل دخولهم المدينة، وكان القصد منها السيطرة على الحكم، وقد سبق ذلك هجوم واضح على اللواء حسن بشير نصر الذي تولّى مسؤولية الجيش بالنيابة عن الفريق إبراهيم عبود، فاتُّهم أنه يميل إلى حزب الأمة وإلى الغرب. غير أن باقي أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة قد تضامن بعضهم مع بعضٍ، ووقفوا بحزمٍ، فأصدر المجلس أوامره بالقبض على العميد عبد الرحيم شنان والعميد محيي الدين عبد الله وأنصارهم. وبعد شهرٍ من الحركة قُدّم أفرادها إلى المحكمة التي أعلنت أحكامها في ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٩هـ وهي:

حكم العميد عبد الرحيم شنان بالإعدام.

العميد محيي الدين عبد الله بالإعدام.

المقدم محمد علي السيد بالسجن المؤبد.

المقدم حسن إدريس بالسجن المؤبّد.

المقدم محمود حسيب بالسجن المؤبد.

الرائد أحمد محمد أبو الذهب بالسجن المؤبّد.

المقدم عبد الحفيظ شنان بالسجن ١٥ عاماً.

النقيب محجوب بابكر سوار الذهب بالسجن ١٥ عاماً.

النقيب أسامة المرضي بالسجن عامين.

الملازم أول محمد علي كيلا بالسجن عامين.

الرائد عبد الحفيظ حسيب بالسجن عاماً واحداً.

وطرد من الجيش سبعة عشر ضابطاً منهم: .

١ ـ العقيد علي صالح سوار الذهب.

٢ ـ المقدم عبد الحليم شنان.

٣ ـ المقدم عباس أبو نوره.

٤ ـ النقيب عبد الغفار شنان.

٥ ـ النقيب جعفر النميري.
٦ ـ النقيب عبد الله الطاهر بكر.
كما أُبعد اللواء حسن بشير نصر نائب الفريق إبراهيم عبود.
كما صدرت أحكام على أعضاء من الحزب الشيوعي منهم:

عبد الخالق محجوب.

الشفيع أحمد الشيخ.

أحمد سليمان.

عز الدين علي عامر.

جوزيف قرنق.

وفي ١٠ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ وضعت الحكومة يدها على حركة يقودها رشيد الطاهر بكر المراقب العام للإخوان المسلمين، وقد كان أول رئيس لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم واصطدم مع الشيوعيين في الاتحاد وقد تمكّن من إخراجهم منه. كان أخوه عبد الله قد اشترك في محاولة الانقلاب السابقة وطُرد من الجيش فكان يزور أخاه الرشيد في مكتبه مكتب المحاماة الذي يشترك فيه مع محمد أحمد محجوب، وبمجيء أخيه صار يلتقي مع زملاء أخيه من الضباط فسار في تيارهم، وعرض على الإخوان المسلمين فكرة الانقلاب فرفضوا وحذّروه من عاقبة الأمر، كما حذّره محمد أحمد محجوب شريكه في مكتب المحاماة، وحذّره أيضاً علي طلب الله الذي أخبره بأن الحكومة تراقب الحركة. وقبض على رشيد الطاهر بكر، والمقدم علي حامد، والمقدم يعقوب كبيدة.

ورأت الحكومة أن تشتدّ في أحكامها كي يُردع الطامعون في السلطة والمتطلّعون إلى الحركات والانقلابات، وشُكّلت المحكمة بسرعةٍ وقُدّم إليها الانقلابيون وخلال أسابيع قليلة صدرت الأحكام، وكانت إعدام خمسة ضباط وهم:

١ ـ المقدم علي حامد.

٢ ـ المقدم يعقوب كبيدة.

٣ ـ الرائد عبد البديع كرار.

٤ ـ النقيب عبد الحميد عبد الماجد.

٥ ـ النقيب الطيار الصادق محمد الحسن.

وصدر الحكم بحق ضابطين بالسجن المؤبد وهما: الرائد عبد الرحمن كبيدة، والملازم محمد محجوب عثمان.

كما صدر الحكم بسجن النقيب عبد الله الطاهر بكر مدة أربعة عشر عاماً، أما أخوه الرشيد الطاهر فقد حكم عليه بسجن خمس سنوات.

وتعرّض للطرد من الخدمة العسكرية والإحالة على الاستيداع: المقدم أبو بكر فريد، والرائد محمد خير محمد سعيد، والنقيب جعفر النميري، والنقيب محمد الحسن أبو طيارة، والملازم محمد حسن مكي.

وتشكّل وفد اتحاد جامعة الخرطوم وذهب إلى الصديق المهدي وطلب منه التدخل والضغط على الحكومة حتى لا يُنفّذ حكم الإعدام في الضباط غير أنه رفض. فإن إعدامهم يزيد من النقمة على الحكم. ولم يمكنهم من الذهاب إلى علي الميرغني إذ أن طريقته مُتهمة على أن لها يداً في الحركة. ونُفّذت الأحكام بسرعةٍ.

ومع أن الحكومة قد أرادت إعطاء ضجّةٍ لهذه الأحكام ليُردع الناس إلا أنها في الوقت نفسه قد حالت دون إقامة التعزية والنواح على عادة السودانيين وقد صلّى الناس مع اتحاد الطلاب صلاة الغائب على الذين أعدموا وخرج المصلون من جامعة الخرطوم بمظاهرةٍ صاخبةٍ، واعتُقل عدد من الطلاب. كما اعتقل الرائد فاروق عثمان حمد الله.

وكان اتحاد الطلاب[1] قد تقدّم بمذكرةٍ إلى المجلس الأعلى للقوات المسلحة يُطالبه بعودة الجيش إلى الثكنات العسكرية وذلك في شهر ربيع الأول

---

(١) كان رئيس اتحاد الطلاب جعفر الشيخ إدريس وهو من الإخوان المسلمين، وطالب بعودة الحياة المدنية أيضاً.

من عام ١٣٧٩هـ فاعتقلت السلطة اللجنة التنفيذية لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم.

وطلب الصديق المهدي تشكيل حكومةٍ مدنية للإعداد للانتخابات فلم يُردّ عليه، وتقدّم إسماعيل الأزهري بمثل ذلك فلم يُسمع منه، وأُهملت المذكرتان.

وبدأ التنظيم والإعداد للإطاحة بالنظام. حيث تشكّلت الجبهة الوطنية من حزب الأمة، والوطني الاتحادي، والحزب الشيوعي، وبعض المستقلين.

زار الرئيس المصري جمال عبد الناصر السودان في شهر جمادى الأولى من عام ١٣٨٠هـ، فأعدّ له الصديق المهدي استقبالاً شعبياً، كان القصد إبراز قوة الأنصار وحزبهم حزب الأمة.

وقدّم السياسيون مذكرةً تُطالب بتشكيل حكومةٍ مدنيةٍ وإجراء الانتخابات وذلك في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٠م)، ووقعت هذه المذكرة من حزب الأمة، والوطني الاتحادي؛ والشيوعي من غير جدوى[١]، واستمرّ تقديم المذكرات، واستمرّ الإهمال لها.

أعيد تنظيم الضباط الأحرار في الجيش، وصدرت مجلتهم السرية الأولى «صوت القوات المسلحة» وجرى تعديل قانون جامعة الخرطوم فأضرب الطلاب مدة يومين، وأخيراً وبعد سنتين أُلحقت الجامعة بوزارة التربية والتعليم. فتقدّمت المذكرات احتجاجاً على هذه التصرّفات، واستقال بعض أساتذة الجامعة.

وأضرب عمال السكك الحديدية فكانت النتيجة أن حُلّت نقابتهم.

وجرت مصادمات بين حزب الأمة والشرطة وقتل أحد عشر شخصاً.

أُرسلت برقية إلى الفريق إبراهيم عبود احتجاجاً على التعذيب لأحد

---

(١) وقع على المذكرة صديق المهدي، إسماعيل الأزهري، عبد الله خليل، مبارك رزوق، محمد أحمد محجوب، محمد أحمد المرضي، عبد الرحمن شاخور، عبد الله عبد الرحمن نقد الله، عبد الخالق محجوب، أحمد سليمان فاعتقلتهم السلطات وأضربوا عن الطعام فأطلق سراحهم.

السجناء السياسيين في مدينة «الأبيّض»، وهو حسن أبو حسنين من الحزب الشيوعي.

بعد الجفوة التي كانت قد وقعت بين مصر والسودان سافر وفد من السودان ضم ثلاثةً من أعضاء المجلس العسكري فقط دون خبراء، وكان الوفد برئاسة اللواء محمد طلعت فريد، ووصل الوفد إلى القاهرة بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٥٩م)، وبحث الوفد موضوع توزيع مياه النيل بعد بناء السد العالي، وتمّ الاتفاق على أن تكون حصة مصر من مياه النهر ٥٥ مليار متر مكعب، ونصيب السودان ١٨ مليار متر مكعب، وتدفع مصر مبلغ ١٥ مليون جنيه مصري كتعويضٍ لأهالي وادي حلفا عن منازلهم وأراضيهم على حين أن حكومة عبد الله خليل الأخيرة كانت قد طلبت ٣٥ مليون جنيه مصري، ثم وجدت أن تكلفة البناء للسكان المهجّرين تصل إلى ٦٠ مليون جنيه. وبعد توقيع الاتفاقية أعلن الفريق عبود أن الجفوة التي كانت بيننا وبين مصر قد انتهت. وأصبح الحكم في السودان بعدها تقدّمياً في نظر الرئيس المصري وأعوانه، وغدت وسائل الإعلام في البلدين مُتشابهةً إن لم نقل واحدةً. أما نتائج الاتفاقية عند الشعب في السودان فقد كانت صعبةً فلم يجد أهالي مدينةِ وادي حلفا أمامهم سوى المظاهرات تعبيراً عن سخطهم، وانتقلت تلك المظاهرات إلى مدينة عطبره، وإلى بورسودان.

وكان للانفصال بين مصر وسوريا دور في الحركة السودانية إذا شجّع السكان على الرئيس المصري الذي هزّ الانفصال كيانه، وحطّ من كبريائه، إذ لم يستطع قبلها حاكم أو شعب عربي أن يخرج عن الرئيس حيث تنزله وسائل الإعلام الناصرية إلى أسفل سافلين، وتلوكه ألسنة الأعوان، وتجرّحه أنيابهم.

وجاءت إضرابات الشيوعيين واتحادات العمال، وقامت مظاهرات الإخوان المسلمين، في الجامعة والمعاهد العلمية، وتأزّم الموقف بين الشعب والحكم.

غير أن أشدّ الخطر قد جاء إلى السلطة من الجنوب حيث مسّ كيان الغرب، واتحاد الكنائس العالمي. لقد كان محافظ المديرية الاستوائية (علي بلدو) قد فتح معاهد للقرآن الكريم، ومدارس للغة العربية، وحرص الحكم

على توحيد العطلة الأسبوعية في البلاد، حيث تصبح يوم الجمعة فإن ذلك أفضل من أن تكون يوم الجمعة في الشمال ويوم الأحد في الجنوب، هذا إضافةً إلى توحيد المناهج التعليمية إذ تصبح واحدةً بين الشمال والجنوب وهنا ثارت ثائرة الإرساليات التنصيرية في السودان، وأشاعت في الدول النصرانية أن جنوبي السودان مُهدّد بالإسلام وذوبان ما فيه من نصارى، وحثّتهم للإسراع وإنقاذ أبناء الصليب، وبدأ التحريض، فما كان من الحكم السوداني إلا أن طرد ثلاثمائة رجل دين نصراني من رجال الإرساليات، فبدأ تحريض أبناء الجنوب من خارج البلاد، فنشأ تنظيم عسكري عُرف باسم منظمة «الأنيانيا» وبدأت بالهجوم على الثكنات العسكرية، والغارات على المراكز الحكومية. وفي الوقت نفسه كانت الفاتيكان تستحث الدول الأوروبية لتتحرك وتزيل نظام الحكم القائم في السودان، وتدخّل إمبراطور الحبشة في الموضوع، وتدخّل وزير الخارجية اللبنانية فؤاد عمّون الذي هو معتمد بابوية الفاتيكان.

أخذت جماعة الإخوان المسلمين تُقيم ندواتٍ علميةٍ في الجامعة، وأصدر الحكم العسكري أمراً بمنع تلك الندوات فلم يُستجب لطلبه، وفي ١٥ جمادى الآخرة ١٣٧٤هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٤م) أُقيمت ندوة علمية، وحاولت السلطة منعها، وأطلقت الرصاص وقُتل أحمد القرشي طه، فعمّت المظاهرات، وتقدم أساتذة الجامعة باحتجاجاتٍ وقدّم بعضهم استقالته، وأعلن قضاة المحكمة العليا الاحتجاج أيضاً، واستقال بعضهم، واضطر الحكم العسكري إلى ترك السلطة إلى المدنيين، ورشّح بعض القادة العسكريين سر الختم خليفة لاستلام رئاسة مجلس الوزراء، ووافقت عليه الأحزاب وجبهة الهيئات.

كان الفريق إبراهيم عبود قبل تركه الحكم بسنةٍ تقريباً قد أقام مؤسسةً تشريعية أطلق عليها اسم «المجلس المركزي» ويتألّف من سبعين عضواً يتمّ انتخاب بعضهم من قبل الشعب مباشرةً ويتمّ اختيار بعضهم الآخر، وقد ضمّ هذا المجلس ستةً وأربعين عضواً من أتباع الطريقة الختمية[1]، كما شمل اثني

(١) يُعدّ إبراهيم عبود من أتباع الختمية لصلته الوثيقة مع زعيم الطريقة علي الميرغني، ولانتمائه بالأساس إليها.

عشر عضواً من حزب الأمة، ومع أن هذا المجلس كان يتألّف بأغلبية أعضائه من هاتين المجموعتين، فإن هاتين المجموعتين أيضاً قد كانتا من العوامل الأساسية في زوال حكم إبراهيم عبود، فكأن البلاد كلها تتألف من هاتين المجموعتين فقط. هذا ويُعدّ الوزراء أعضاء في المجلس بحكم مناصبهم.

❀ ❀ ❀

الحكم المدني الثاني

١٥ جمادى الآخرة ١٣٨٤ ـ ٩ ربيع الأول ١٣٨٩هـ

(٢١ تشرين الأول ١٩٦٤ ـ ٢٥ أيار ١٩٦٩م)

اجتمعت جهود مختلف الفئات للإطاحة بالحكم العسكري، وعُقد مؤتمر المائدة المستديرة الذي ضم:

١ ـ حزب الأمة.

٢ ـ الحزب الوطني الاتحادي.

٣ ـ حزب الشعب الديمقراطي.

٤ ـ حزب الاستقلال الجمهوري.

٥ ـ جبهة الميثاق الإسلامي.

٦ ـ الحزب الجمهوري الاشتراكي.

٧ ـ الحزب الشيوعي.

٨ ـ الحزب الإسلامي الاشتراكي.

٩ ـ حزب السلام الوطني الديمقراطي.

١٠ ـ اتحاد جبال النوبا العام.

١١ ـ حزب مؤتمر البجاة.

١٢ ـ حزب الأحرار الجنوبيين.

١٣ ـ جبهة الجنوب.

١٤ ـ حزب الاتحاد الوطني السوداني «سانو».

١٥ ـ اتحاد الكنائس العالمي.

١٦ ـ جبهة الهيئات «النقابات والمهنيين».

ووضع الميثاق الوطني الذي ينص على:

١ ـ تصفية الحكم العسكري الحالي.

٢ ـ إطلاق الحريات العامة وحرية الصحافة.

٣ ـ رفع حالة الطوارئ.

٤ ـ تأمين استقلال القضاء.

٥ ـ تأمين استقلال الجامعة.

٦ ـ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

٧ ـ تتبع الحكومة الانتقالية سياسةً خارجية ضد الاستعمار.

٨ ـ أن تضمّ الوزارة الانتقالية عضواً من كل من الأحزاب التقليدية وهي: حزب الأمة ـ الوطني الاتحادي ـ الشعب الديمقراطي ـ الإخوان المسلمون ـ الحزب الشيوعي، وسبعة أعضاء من اتحاد النقابات ويكون من بينهم أمين عام اتحاد العمال، ورئيس اتحاد المزارعين، إضافة إلى عضوين من الجنوب وبهذا يكون عدد أعضاء الوزارة الانتقالية أربعة عشر وزيراً دون رئيس الوزارة.

ولما انسحب العسكريون من السلطة، واقترح بعض القادة العسكريين سر الختم خليفة لرئاسة الوزارة، ووافقت عليه الأحزاب وجبهة الهيئات. شكّل سر الختم خليفة الوزارة[1]، وظهر أنها وزارة أكثر أعضائها من ذوي الميول

---

(١) تشكلت الوزارة الانتقالية على الشكل الآتي:

١ ـ سر الختم خليفة: رئيساً للوزراء، ووزيراً للدفاع.

٢ ـ محمد أحمد محجوب: وزيراً للخارجية. «الأمة».

٣ ـ مبارك رزوق: وزيراً للمالية. «الوطني الاتحادي».

٤ ـ أحمد السيد أحمد: وزيراً للري. «الشعب الديمقراطي». =

الشيوعية، فالوزراء الخمسة الذين يُمثّلون الأحزاب معروفون وكذا وزراء الجنوب، أما ممثلو جبهة الهيئات فلم يكن من المتوقّع أن يكونوا على هذه الصورة.

وإذا كانت الجفوة قد زالت بين البلدين الشقيقين المتجاورين مصر والسودان بعد توقيع اتفاقية مياه نهر النيل في ٩ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ ولكنها رجعت الآن من جديدٍ، وتحاول مصر السيطرة على الوضع، وبدأت بمحاولة القيامة بانقلابٍ على يد عدد من الضباط، وقد أُعلن من إذاعة أم درمان في اليوم الأول من شهر رجب عام ١٣٨٤هـ بيان بأسماء هؤلاء الضباط الذين منهم:

١ ـ العميد عمر الحاج موسى.

٢ ـ العميد محمد الباقر أحمد.

٣ ـ العميد مزمل سليمان غندور.

٤ ـ المقدم جعفر النميري.

٥ ـ المقدم فؤاد ماهر فريد.

٦ ـ المقدم محمد عبد الحليم.

= ٥ ـ محمد صالح عمر: وزيراً للثروة الحيوانية. «إخوان مسلمون».
٦ ـ أحمد سليمان: وزيراً للزراعة. «شيوعي».
٧ ـ خلف الله بابكر: وزيراً للاستعلامات والشؤون الاجتماعية.
٨ ـ عبد الكريم ميرغني: وزيراً للتجارة، والصناعة، والتموين.
٩ ـ الأمين محمد الأمين: وزيراً للصحة.
١٠ ـ الشفيع أحمد الشيخ: وزيراً لشؤون الرئاسة.
١١ ـ رحمة الله عبد الله: وزيراً للتربية والتعليم.
١٢ ـ كليمنت أمبورو: وزيراً للداخلية.
١٣ ـ أزبوني مونديري: وزيراً للمواصلات.
١٤ ـ عابدين إسماعيل: وزيراً للحكومات المحلية.
١٥ ـ عبد الرحمن العاقب: وزيراً للأشغال والثروة المعدنية.

٧ ـ المقدم أحمد عبد الحليم.

٨ ـ الرائد فيصل حماد توفيق.

٩ ـ الرائد فاروق عثمان حمد الله.

١٠ ـ الرائد عزت منصور دسوقي.

١١ ـ الرائد مصباح الصادق.

١٢ ـ الرائد علاء الدين محمد عثمان.

١٣ ـ النقيب بابكر عبد الرحيم.

١٤ ـ النقيب منير حمد.

١٥ ـ النقيب الرشيد محمد نور الدين.

١٦ ـ الملازم خالد حسن عباس.

كما وزّع تنظيم الضباط الأحرار منشوراً هاجم فيه الحكومة، وأثنى على الضباط المعتقلين وعدّهم عنوان الحرية ورمز الوطنية، وأنهم قد ساهموا مساهمةً فعالة في القضاء على الحكم المباد.

اختلف رئيس الوزراء سر الختم خليفة مع قائد الجيش الفريق إبراهيم عبود حول هؤلاء الضباط إذ رأى إبراهيم عبود أن يُوزّع هؤلاء الضباط في أنحاء البلاد، ويُبعدوا عن العاصمة ما داموا لم يُباشروا التهمة التي أُلصقت بهم، فتّم ذلك وأُبعد المقدّم جعفر النميري، والرائد فيصل توفيق حماد إلى دارفور، ووُزّع بعضهم في مديريات الجنوب، وعُيّن بعضهم ملحقين عسكريين في السفارات السودانية في الخارج.

وفي ١٠ رجب ١٣٨٤هـ تقدّم مائتا ضابطٍ بمذكرةٍ تُطالب بتطهير القوات المسلحة فاعترض عليها قائد الجيش الفريق إبراهيم عبود، وخرجت في اليوم التالي مظاهرات تُطالب بإبعاده، فاضطر إلى تقديم استقالته وخرج من الجيش.

وفي ١٤ رجب تشكّلت لجنة من بعض الضباط، وبعض رجال القانون للعمل على تطهير القوات المسلحة، فكان أول ما عملته إبعاد نائب القائد العام

اللواء الطاهر عبد الرحمن مقبول، واللواء عوض عبد الرحمن صغيرون، ثم عملت على طرد عددٍ من الضباط الآخرين.

وفي ١٨ رجب أصدر مجلس الوزراء قراراً بإطلاق سراح السجناء السياسيين والعسكريين، وكان على رأسهم العميد عبد الرحيم شنان، والعميد محيي الدين أحمد عبد الله. وهكذا عاد عدد من الضباط المعتقلين والمبعدين، وأبعد عدد من القائمين على رأس عملهم، وأصبح الجيش يعمل بالسياسة تبعاً لتصرّفات الحكومة فكان العمل تخريبياً أكثر مما يكون تطهيراً وإصلاحاً.

وكان رئيس الوزراء قد وعد في ٢٦ جمادى الآخرة بحلّ مشكلة الجنوب في بيان وجّهه إلى الشعب، كما أعلن العفو العام عن المتمرّدين، ومن كان قد ناصرهم من الجنوبيين، ودعا إلى عودة كل من غادر البلاد إلى الدول المجاورة فراراً من سياسة البطش والإرهاب التي كانت سائدةً أثناء الحكم العسكري. ثم دعا إلى عقد مؤتمرٍ قوميٍ تشترك فيه جميع الأحزاب السودانية الشمالية والجنوبية ويشهده مراقبون من سبع دولٍ إفريقيةٍ عربيةٍ وغير عربية وذلك للنظر في مشكلة الجنوب برمّتها والتشاور في أفضل الوسائل لحلّها.

وفي ١٤ شعبان ١٣٨٤هـ (١٨ كانون الأول ١٩٦٤م) جرى الانقسام والخلاف على الانتخابات التي ستجري في البلاد فقدّم رئيس الوزراء سر الختم خليفة استقالة حكومته، ولكن عهد إليه ثانيةً فأجرى تعديلاً وزارياً[1] في ٢٢ شوال ١٣٨٤هـ (٢٣ شباط ١٩٦٥م).

---

(١) شمل التعديل الوزاري:

١ ـ محمد جبارة العوض: وزير دولة.
٢ ـ صالح محمود إسماعيل: وزير الاستعلامات والشؤون الاجتماعية.
٣ ـ محمد إبراهيم خليل: وزير الحكومات المحلية.
٤ ـ هلاري باولو لوقالي: وزير الأشغال والتعدين.
٥ ـ أحمد المهدي: وزير الري.
٦ ـ الرشيد الطاهر: وزير الثروة الحيوانية.
٧ ـ بدوي مصطفى: وزير التعليم.
٨ ـ الهادي عابدون: وزير الصحة.
وانضم إلى الوزارة في ٣ ذي الحجة ١٣٨٤هـ.
إبراهيم المفتي: وزيراً للمالية، والاقتصاد.

وكان في ٢٩ رجب ١٣٨٤هـ (٣ كانون الأول ١٩٦٤م) قد تشكّل مجلس السيادة الثاني من خمسة أعضاء[1]، وكانت رئاسته دوريةً، حيث يتناوب على الرئاسة عضو كل شهرٍ.

وجرت الانتخابات النيابية في محرم ١٣٨٥هـ (أيار ١٩٦٥م) وكانت نتائجها كالتالي:

حصل حزب الأمة على ٧٣ مقعداً.

حصل الحزب الوطني الاتحادي على ٥١ مقعداً.

حصل المستقلون على ١٨ مقعداً.

وحصل حزب الشعب الديمقراطي على ٣ مقاعد.

وحصلت جبهة الميثاق الإسلامي على ٣ مقاعد.

وحصل مؤتمر البجاة على ١٠ مقاعد.

وتشكّل مجلس السيادة الثالث[2] في ٢٢ صفر ١٣٨٥هـ (٢١ حزيران ١٩٦٥م) واختير إسماعيل الأزهري رئيساً دائماً للمجلس.

---

(١) ضم مجلس السيادة الثاني:
١ ـ التيجاني الماحي.
٢ ـ عبد الحليم محمود.
٣ ـ مبارك الفاضل شداد.
٤ ـ لوينجي أورنوك يونغ.
٥ ـ إبراهيم يوسف سليمان.

(٢) ضم مجلس السيادة الثالثة:
١ ـ إسماعيل الأزهري: اختارته الجمعية التأسيسية رئيساً دائماً لمجلس السيادة في ٩ صفر.
٢ ـ خضر حمد.
٣ ـ عبد الله الفضل المهدي: توفي في ٢٨ محرم ١٣٨٦هـ، وخلفه في مجلس السيادة داود الخليفة في ١٩ شوال ١٣٨٥هـ.
٤ ـ لوينجي أورنوك يونغ: استقال من المجلس مباشرةً، وخلفه فلمون مجوك في ٧ ربيع الأول ١٣٨٥هـ.
٥ ـ عبد الحليم محمد: استقال من المجلس، وخلفه عبد الرحمن عبدون.

وعقد في ١٤ ذي القعدة ١٣٨٤هـ (١٦ آذار ١٩٧٥م) مؤتمر المائدة المستديرة لحلّ مشكلة الجنوب، وقد ضمّ مختلف الأحزاب[١]. وكان ذلك خُطوةً لردّ الثقة إلى النفوس، وقد عاد عدد من الذين كانوا قد غادروا البلاد، ومنهم «وليم دينغ» أحد أعضاء حزب الاتحاد الوطني السوداني «سانو» الذي حضر وشارك في المؤتمر مُمثّلا، ولكن لم يلبث أن وقع الخلاف بين الشمال والجنوب.

عُهد إلى محمد أحمد محجوب تشكيل حكومةٍ ائتلافيةٍ[٢] إثر الانتخابات وقد ضمّت حزب الأمة، والوطني الاتحادي، والإخوان المسلمين، فتألفت الوزارة[٣] في ١٤ صفر ١٣٨٥هـ (١٣ حزيران ١٩٦٥م).

---

(١) ضم مؤتمر المائدة المستديرة:
١ ـ حزب الأمّة: ومثّله الصادق المهدي.
٢ ـ الوطني الاتحادي: ومثّله إسماعيل الأزهري.
٣ ـ جبهة الميثاق الإسلامي: ومثّله حسن الترابي.
٤ ـ حزب الشعب الديمقراطي: ومثّله علي عبد الرحمن.
٥ ـ الحزب الشيوعي: ومثّله عبد الخالق محجوب.
٦ ـ جبهة الجنوب: ومثله غوردون مورتان.
٧ ـ حزب سانو: ومثله وليم دينغ.

(٢) كان الاتفاق أن تضم حكومة محمد أحمد محجوب ٣ وزراء من كل من: حزب الأمة، والوطني الاتحادي، والشعب الديمقراطي، وكتلة الجنوب، ووزيراً من كل من: الإخوان المسلمين، والحزب الشيوعي.

(٣) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ محمد أحمد محجوب: رئيساً للوزراء، ووزيراً للدفاع.
٢ ـ عبد الرحمن نقد الله: وزيراً للحكومات المحلية.
٣ ـ محمد أحمد المرضي: وزيراً للتجارة والصناعة والتعاون والتموين.
٤ ـ أحمد عبد الرحمن المهدي: وزيراً للداخلية.
٥ ـ محمد إبراهيم خليل: وزيراً للخارجية، والعدل.
٦ ـ حسن عوض الله: وزيراً للتعليم.
٧ ـ الشريف حسين الهندي: وزيراً للري.
٨ ـ عبد الرحمن النور: وزيراً للاستعلامات، والعمل.
٩ ـ أحمد بخاري: وزيراً للصحة.
١٠ ـ نصر الدين السيد: وزيراً للمواصلات. =

وبعد وفاة الصديق المهدي انشقّ حزب الأمة إلى قسمين: قسم تزعّمه الصادق بن الصديق بن عبد الرحمن بن المهدي، وآخر تزعمه عمّه الهادي بن عبد الرحمن بن المهدي.

وأما حزب الشعب الديمقراطي فبقي خارج المجلس النيابي، ثم رجع فانضمّ إلى الوطني الاتحادي وأصبح الحزبان يحملان اسم حزب الاتحاد الديمقراطي، ويحظى برعاية علي الميرغني شيخ الطريقة الختمية.

أما الإخوان المسلمون فقد اختلفوا مع المراقب العام السابق الرشيد الطاهر بكر، وكان قد خرج من السجن بعد الإطاحة بالحكم العسكري مع من خرج، وترشّح للانتخابات ونجح باسم الإخوان لكن كانت له صلة بالضباط الأحرار من الإخوان المسلمين في مصر وعلى رأسهم أبو المكارم عبد الحي لذا كان يرى فكرة إنشاء تنظيمٍ عسكريٍ واستلام السلطة عن طريق الانقلاب، فاختلف مع جماعته فانفصل عنهم، وسار في طريقه، حتى كان في التجمّع الناصري «الاتحاد الاشتراكي»، وتعاون مع جعفر النميري حيث عرفه يوم التخطيط للانقلاب الذي أسلفنا عنه، إذ كان صديق أخيه عبد الله الطاهر بكر.

وكانت هذه المرحلة مرحلة انصراف الناس من الصراع بين حزبي البلاد التقليديين حزب الأمة والحزب الوطني الاتحادي أو بالأحرى بين الأنصار والختمية إلى الصراع بين الإخوان المسلمين والشيوعيين، فالإخوان يعتمدون على عاطفة الشعب الإسلامية، ويعتمد الشيوعيون على دقة التنظيم والدعم الخارجي ومناصرة كل الفئات غير الإسلامية الملحدة والصليبية واليهودية. وقد بدأت الأزمة في ندوة عن مشكلة البغاء في معهد المعلمين العالي. فتعرّض

= ١١ ـ عبد الحميد الصالح: وزيراً للدولة.
١٢ ـ عبد الماجد أبو حسبو: وزيراً للأشغال العامة، والثروة الحيوانية.
١٣ ـ أندرو ديو: وزيراً للزراعة والغابات والمياه الريفية.
١٤ ـ الفرد وول: وزيراً للدولة.
١٥ ـ بوث ديو: وزيراً للثروة المعدنية.
ثم عُيّن:
١٦ ـ داود عبد اللطيف: وزيراً للاستعلامات، والعمل.

المحاضر[1] إلى قول كارل ماركس بأن البغاء ظاهرة اجتماعية بورجوازية فقام أحد الشيوعيين للردّ وتعرّض لبيت النبوة وهذا ما أثار الشعب. ووصل الخبر إلى الشارع فتجمهر الناس في مظاهرات عنيفة انطلقت إلى بيت رئيس مجلس السيادة إسماعيل الأزهري مطالبين بحلّ الحزب الشيوعي فأخذته الحمية أيضاً، وأعلن أنه سيقود المظاهرات إن لم تتخذ الجمعية التأسيسية مرسوماً بحلّ هذا الحزب الملحد.

استمرّت المظاهرات في شهر رجب ١٣٨٥هـ، وجهتها الجمعية التأسيسية لاتخاذ قرارٍ سريعٍ لحلّ الحزب، كما كان لخطباء المساجد دور وإسهام بتعبئة الشعور في كل أنحاء البلاد.

وفي اجتماع الجمعية التأسيسية بتاريخ ٢٩ رجب ١٣٨٥هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٥م) أصدرت الجمعية التأسيسية تعديلاً للمادة ٤١، ألغت بموجبه عضوية النواب الذين ينتمون للحزب الشيوعي، وصدر قرار في ١٥ شعبان ١٣٨٥هـ (٨ كانون الأول ١٩٦٥م) بحلّ الحزب ومصادرة أملاكه.

لم يعترف الحزب بقرار الحل، ورفع نائبان يمثلان الحزب مذكرة احتجاج إلى المحكمة الدستورية العليا، فأصدر القاضي صلاح حسن قاضي المحكمة العليا حكماً بعدم دستورية الحلّ. واستمرّ هذا الموضوع يشغل الرأي العام عدة سنواتٍ وحتى كان انقلاب ٩ ربيع الأول ١٣٨٩هـ (٢٥ أيار ١٩٦٩م) برئاسة العقيد جعفر النميري. فأيّدت نقابة المحامين قرار المحكمة الدستورية العليا، ودافعت الحكومة والجمعية التأسيسية عن رأييهما، وحدث خلاف بين القضاة، واستقال رئيس القضاء بابكر عوض الله، وانتقل إلى مصر مُؤيّداً وجهة نظر الشيوعيين، وقد أظهرته وسائل الإعلام المعادية للإسلام حتى غدا في مصاف المحامين عن الحرية التي لا يعرفها الشيوعيون، ولم ترد في معاجم أفكارهم.

في هذه الأثناء عُقد مؤتمر المائدة المستديرة، وجرى الخلاف بين

---

(١) كانت المحاضرة للسيدة سعاد الفاتح.

الشمال والجنوب[1]. وفي ١٣ ربيع الأول ١٣٨٦ هـ (١ تموز ١٩٦٦م) شكّل الصادق المهدي حكومةً ائتلافيةً[2] من حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي، بعد أن سحب المجلس النيابي الثقة من حكومة محمد أحمد محجوب.

وفي ١٦ رمضان ١٣٨٦هـ (٢٨ كانون الأول ١٩٦٦م) جرت محاولة انقلاب أعدّ لها الملازم خالد حسين الكد (ابن أخت عبد الخالق محجوب) وقد استغلّ تدريبه للجنود في بداية التحاقهم بالخدمة، وبدأ يتحدّث مع الرقباء، ووصلت المعلومات إلى رئيس الوزراء الصادق المهدي الذي كلّف القوات المسلحة بمتابعة المؤامرة، وكان المخطط أن يتألّف مجلس القيادة العسكري بعد النجاح من:

١ ـ العقيد جعفر النميري.

٢ ـ المقدم الرشيد محمد نور الدين.

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الباب الصراعات الداخلية.

(٢) تألّفت حكومة الصادق المهدي: رئيساً للوزراء، ووزيراً للثروة الحيوانية، والمياه الريفية.
٢ ـ إبراهيم المفتي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٣ ـ حسن عوض الله: وزيراً للتعليم.
٤ ـ عبد الرحمن نقد الله: وزيراً للداخلية.
٥ ـ أحمد بخاري: وزيراً للصحة.
٦ ـ نصر الدين السيد: وزيراً للمواصلات، والسياحة.
٧ ـ الشريف حسين الهندي: وزيراً للحكومات المحلية.
٨ ـ حمزة ميرغني: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٩ ـ جيرفس يول أوبانيو: وزيراً للري.
١٠ ـ مأمون سنادة: وزيراً للعدل.
١١ ـ عز الدين السيد: وزيراً للصناعة والتعدين والتجارة والتموين.
١٢ ـ أحمد إبراهيم دريج: وزيراً للتعاون والعمل.
١٣ ـ أروب يور أيوك: وزيراً للأشغال.
١٤ ـ أحمد عبد الرحمن المهدي: وزيراً للاستعلامات، والشؤون الاجتماعية، والدفاع.
١٥ ـ محمد خوجلي: وزيراً للزراعة والغابات.
وبعد ما يقرب من ستة أشهرٍ عُيّن محمد موسى الحلو، وعمر نور الدايم، أعضاء في مجلس الوزراء بدلاً من أحمد عبد الرحمن المهدي، ومحمد خوجلي.

٣ ـ الرائد مصطفى عبادي.

٤ ـ الرائد عثمان أبو شيبة.

٥ ـ الرائد بابكر حسن إسماعيل.

٦ ـ النقيب هاشم العطا.

٧ ـ النقيب الرشيد أبو شامة عبد المحمود.

وتابعت المخابرات العسكرية خيوط المؤامرة، وقبل التنفيذ أُلقي القبض على المحرّكين لها من الضباط كما قُبض على أربعمائةٍ من المدنيين على رأسهم عبد الخالق محجوب، والشفيع أحمد الشيخ والنواب الذين طُردوا من المجلس النيابي على أنهم من الحزب الشيوعي. وقد وُجدت أسلحة في منزل معاوية سورج أمين سر الحزب الشيوعي، ومع هذا فقد خرج الجميع من السجن قبل انتهاء شهر رمضان حيث لم تصل مدة سجنهم إلى أسبوعين.

وشكل محمد أحمد محجوب وزارة[1] في ٢٢ محرم ١٣٨٧هـ (١ أيار

---

(١) شُكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ محمد أحمد محجوب: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ ـ حسن عوض الله: وزيراً للداخلية.
٣ ـ يحيى الفضلي: وزيراً للتخطيط، والتعليم.
٤ ـ بوث ديو: وزيراً للري.
٥ ـ أحمد السيد أحمد: وزيراً للتجارة والتموين.
٦ ـ هيلاري باولو لوقالي: وزيراً للعمل والتعاون.
٧ ـ الشريف حسين الهندي: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٨ ـ نصر الدين السيد: وزيراً للثروة الحيوانية.
٩ ـ عبد الماجد أبو حسبو: وزيراً للاستعلامات والشؤون الاجتماعية، والعدل.
١٠ ـ الفرد وول: وزيراً للأشغال.
١١ ـ حسن محجوب مصطفى: وزيراً للحكومات المحلية.
١٢ ـ ميرغني حسين زكي الدين: وزيراً للزراعة والغابات.
١٣ ـ أحمد زين العابدين: وزيراً للصحة.
١٤ ـ محمد زيادة: وزيراً للصناعة والتعدين.
١٥ ـ محمد عبد الجواد: وزيراً للمواصلات، والسياحة.
١٦ ـ آدم محمد موسى مادبو: وزيراً للدفاع.

١٩٦٧م). وحلّ مجلس السيادة المجلس النيابي، وجرت الانتخابات لتشكيل جمعيةٍ تأسيسيةٍ في مطلع عام ١٣٨٨هـ (نيسان ١٩٦٨م)، وكانت نتائج الانتخابات كالآتي:

الحزب الاتحادي الديمقراطي ١٠١ مقعداً.

حزب الأمة جناح الهادي المهدي ٣٨ مقعداً.

حزب الأمة جناح الصادق المهدي ٣٥ مقعداً.

حزب سانو ١٥ مقعداً.

المستقلون ١٠ مقاعد.

الإخوان المسلمون ٣ مقاعد.

اتحاد جبال النوبا العام ١ مقعد.

حزب البجاة ١ مقعد.

الجبهة الاشتراكية ٢ مقعد.

حزب النيل ١ مقعد.

وفي مطلع شهر صفر ١٣٨٨ هـ (أيار ١٩٦٨م) اختار المجلس النيابي مجلس السيادة من:

١ ـ إسماعيل الأزهري.

٢ ـ خضر حمد.

٣ ـ داود الخليفة عبد الله.

٤ ـ الفاضل البشري عبد الله.

٥ ـ جيرفس بباك.

وأمام صراعات الأحزاب بعضها مع بعض، وانقسام بعضها على بعض، وأمام مشكلة الجنوب التي استعصت على فئات الشمال، والتمرّد الذي يقوم به بعض الزعماء في الجنوب ويُسيطرون على السكان وعلى المنطقة كل هذا أظهر ضعف الحكم ولا بد من استبداله، وقام جعفر النميري بحركته.

كان جعفر النميري، بعد حركة ١٥ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٤م) قد أُرسل في بعثةٍ إلى أمريكا للحصول على أركان حرب، ورجع إلى السودان بعد غياب أقل من سنتين، ورُفِع إلى رتبة عقيد، والتحق بالقيادة الشرقية بالقضارف، واتهم بالاشتراك بحركة ١٦ رمضان ١٣٨٦هـ (٢٨ كانون الأول ١٩٦٦م) التي قام بها الملازم خالد حسين الكد (ابن أخت عبد الخالق محجوب الأمين العام للحزب الشيوعي) غير أن المحكمة قد برّأت ساحة جعفر النميري.

أوكلت الحكومة إلى جعفر النميري مهمة تدمير معسكرٍ لمنظمة «الأنيانيا» الجنوبية، فتمكّن من القيام بالمهمة بمساعدة المظليين، والمدفعية الثقيلة، فسلّطت الأضواء على هذه المهمة، وعمل الشيوعيون على إبراز شخصية قائد العملية.

نقل النميري إلى مدرسة المشاة في «جبيت» على تلال البحر الأحمر كقائدٍ ثانٍ للمدرسة.

❁ ❁ ❁

الانقلاب العسكري الثاني

٩ ربيع الأول ١٣٨٩ - ١٦ رجب ١٤٠٥ هـ

(٢٥ أيار ١٩٦٩ - ٦ نيسان ١٩٥٨ م)

قام انقلاب عسكري بزعامة العقيد جعفر محمد النميري، واستولى على الحكم، وأزاح وزارة محمد أحمد محجوب، وشكل مجلساً للثورة[١]، وحكومة[٢].

---

(١) ضم مجلس قيادة الثورة الضباط الآتية أسماؤهم:
١ ـ جعفر محمد النميري: رئيساً لمجلس قيادة الثورة.
٢ ـ فاروق عثمان حمد الله.
٣ ـ خالد حسن عباس.
٤ ـ مأمون عوض أبو زيد.
٥ ـ أبو القاسم هاشم.
٦ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٧ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٨ ـ هاشم عطا الله.
٩ ـ بابكر النور عثمان.
هذا بالإضافة إلى بابكر عوض الله من المدنيين.

(٢) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ بابكر عوض الله: رئيساً لمجلس الوزراء، وزيراً للخارجية.
٢ ـ جعفر محمد النميري: وزيراً للدفاع.
٣ ـ فاروق عثمان حمد الله: وزيراً للداخلية.
٤ ـ عبد الكريم الميرغني: وزيراً للاقتصاد، والتجارة.
٥ ـ منصور محجوب: وزيراً للخزانة.
٦ ـ مكاوي مصطفى: وزيراً للتخطيط.
٧ ـ محيي الدين صابر: وزيراً للتربية والتعليم.
٨ ـ أمين الطاهر الشبلي: وزيراً للعدل، والنائب العام. =

وفي اليوم التالي أعاد إلى الخدمة عدداً من الضباط[1].

وكان الانقلاب العسكري قد استهدف الجبهة الإسلامية قبل غيرها إذ اعتقل أعضاءها قبل أن يعتقل أعضاء الحكومة.

وقد جرت تعديلات على هذه الوزارة[2]، وأُملئت المناصب الشاغرة.

= ٩ ـ موريس سدرة: وزيراً للصحة.
١٠ ـ محمد عبد الله نور: وزيراً للزراعة والغابات.
١١ ـ محجوب محمد عثمان: وزيراً للإرشاد والإعلام.
٢ ـ محمود حسيب: وزيراً للمواصلات.
١٣ ـ أبيل ألير: وزيراً للإسكان.
١٤ ـ سيد أحمد الجاك: وزيراً للأشغال.
١٥ ـ مصطفى أحمد إبراهيم: وزيراً للري.
١٦ ـ موسى المبارك: وزيراً للصناعة والثروة المعدنية.
١٧ ـ طه الطيب عابدون: وزيراً للثروة الحيوانية.
١٨ ـ فاروق أبو عيسى: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
١٩ ـ جوزيف قرنق: وزيراً للتموين والتجارة.
٢٠ ـ خلف الله بابكر: وزيراً للإدارة المحلية.
٢١ ـ طه بعشر: وزيراً للعمل.
٢٢ ـ خلف الله بابكر: وزيراً للحكومة المحلية.
وبقيت وزارات شاغرة.

(١) في ١٠ ربيع الأول صدر أمر بإعادة الضباط الآتية أسماؤهم:
١ ـ العقيد الطيار محيي الدين أحمد مبروك.
٢ ـ العقيد محمد خير عمر.
٣ ـ المقدم أحمد عبد الحليم عبد الرحمن.
٤ ـ المقدم عمر محمد سعيد.
٥ ـ الرائد أحمد دوقة فضل مولى.
٦ ـ الرائد فاروق عثمان حمد الله.
٧ ـ النقيب محمد المباركة.
٨ ـ الملازم أول خليل أحمد طه.
٩ ـ الملازم أول النور عبد النور.

(٢) في ٤ ربيع الثاني ١٣٨٩هـ (١٩ حزيران ١٩٦٩م) أعفي جوزيف قرنق من وزارة التموين والتجارة، وأسندت مؤقتاً إلى أبيل ألبير وزير الإسكان.
وعين عمر الحاج موسى: وزيراً للدفاع. =

حمل الانقلاب عنواناً اشتراكياً، وضمّ تحت هذا العنوان عناصر مختلفةً، منها الشيوعية، ومنها الاشتراكية، ومن التي تُنادي بالاشتراكية وتعمل في الوقت

= ومنصور خالد: وزيراً للشباب والرياضة.
وعثمان أبو القاسم: وزيراً للتعاون والتنمية الريفية.
ومبارك سنادة: وزيراً للإسكان.
جوزيف قرنق: وزيراً للدولة لشؤون الجنوب (وقد أحدثت في هذا التاريخ).
محمد عبد الله نور: وزيراً للإنتاج والإصلاح الزراعي (أحدثت في هذا التاريخ) وقد أضيفت إلى وزير الزراعة، والأغذية والموارد الطبيعية.
وفي ١٧ شعبان ١٣٨٩هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٦٩م) عُيّن:
جعفر محمد النميري: رئيساً للوزراء، إضافةً إلى رئاسة مجلس قيادة الثورة.
بابكر عوض الله: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، والنائب العام.
الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للحكم الشعبي المحلي.
أحمد سليمان: وزيراً للمالية والاقتصاد.
عمر الحاج موسى: وزيراً للثقافة والإعلام.
الرائد هاشم عطا: وزيراً للثروة الحيوانية.
علي التوم: وزيراً للإنتاج والإصلاح الزراعي.
وفي الوقت نفسه فقد أُعفي من منصبه كل من:
عبد الكريم ميرغني: وزير المالية والاقتصاد الوطني.
محجوبٌ عثمان: وزير الثقافة والإعلام.
أمين الطاهر الشبلي: النائب العام.
مكاوي مصطفى: وزير التخطيط القومي.
وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٩٠هـ (٢١ تموز ١٩٧٠م) أُعفي من الوزارة كل من:
أبيل ألير: وزير التموين والتجارة.
موريس سدرة: وزير الصحة.
موسى المبارك: وزير الصناعة.
طه بعشر: وزير العمل.
محمد عبد الله نور: وزير الزراعة والأغذية والموارد الطبيعية.
سيد أحمد الجاك: وزير التشييد والأشغال العامة.
منصور خالد: وزير الشباب والرياضة.
أحمد سليمان: وزير المالية والاقتصاد.
وفي الوقت نفسه عُيِّن كل من:
جعفر محمد النميري: أضيفت وزارة الخارجية إلى مهامه رئيس مجلس قيادة الثورة، ورئيس مجلس الوزراء.
علي التوم: وزيراً للزراعة، والانتاج الزراعي، والغابات. =

نفسه بخطٍ رأسمالي وهذه الأخيرة هي العناصر المؤيّدة من الحكم في مصر القائم يومذاك والذي يتمثّل في جمال عبد الناصر.

= طه بعشر: وزيراً للصحة.
أبيل ألير: وزيراً للتشييد والأشغال العامة.
فاروق أبو عيسى: وزيراً للعمل.
الرائد أبو القاسم هاشم أبو القاسم: وزيراً للشباب والرياضة.
أبو القاسم محمد إبراهيم: مساعد رئيس مجلس الوزراء.
المقدم بابكر النور عثمان: وزيراً للتخطيط القومي، مساعد رئيس مجلس الوزراء للاقتصاد.
سيد أحمد الجاك: وزيراً للمواصلات.
مأمون عوض أبو زيد: وزيراً للدولة لشؤون الرئاسة، ورئيساً لجهاز الأمن القومي.
منصور محجوب: وزيراً للتجارة، والاقتصاد، والتموين.
محمد عبد الحليم: وزيراً للخزانة.
معاوية إبراهيم: وزيراً للخارجية.
وفي ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ (٢٢ آب ١٩٧٠م) عُيِّن:
فاروق أبو عيسى: وزيراً للخارجية إضافةً إلى وزارة العمل.
وفي ٢١ شعبان ١٣٩٠هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٧٠م). عُيِّن:
الرائد هشام عطا: مساعداً لرئيس مجلس الوزراء للقطاع الزراعي، إضافةً إلى وزارة الثروة الحيوانية.
وفي ١٨ رمضان ١٣٩٠هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠م) أُعفي من منصبه:
المقدم بابكر النور: مساعد رئيس مجلس الوزراء للاقتصاد، وزير التخطيط القومي.
الراشد هاشم عطا: مساعد رئيس مجلس الوزراء للقطاع الزراعي، وزير الثروة الحيوانية.
الرائد فاروق حمد الله: وزير الداخلية.
وفي اليوم نفسه تسلّم:
جعفر محمد النميري: وزيراً للتخطيط القومي.
الرائد زين العابدين محمد أحمد: مساعداً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للثروة الحيوانية.
الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للداخلية.
وفي ٢٢ رمضان ١٣٩٠هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٠م) تسلّم:
مأمون يحيى منصور: وزيراً للثروة الحيوانية.
معاوية إبراهيم سودغ: وزيراً للعمل.
وفي التاريخ نفسه أعفي:
الرائد زين العابدين محمد أحمد: وزير الثروة الحيوانية.
فاروق أبو عيسى: وزير العمل.
وفي ١٠ ذي القعدة ١٣٩٠هـ (٦ كانون الثاني ١٩٧١م) تسلّم عثمان أبو القاسم: وزيراً=

بدأت الحركة بتطبيق الاشتراكية في بعض القطاعات، وانقسمت البلاد إلى قسمين: الحكومة وأنصارها من جهةٍ، وجبهة المقاومة الشعبية من جهةٍ أخرى، وقد ضمّت هذه المقاومة فئات من حزب الأمة، والحزب الوطني الاتحادي، وجبهة الميثاق الإسلامي، واختارت لجنة تخطيطٍ لها تألّفت من:

١ - الشريف حسين الهندي: رئيساً، من الحزب الوطني الاتحادي.

٢ - عمر نور الدين: نائباً للرئيس، من حزب الأمة.

٣ - عثمان خالد مضوي: عضواً، من جبهة الميثاق الإسلامي.

٤ - محمد صالح عمر: عضواً، من جبهة الميثاق الإسلامي.

٥ - زين العابدين الركابي: عضواً، من جبهة الميثاق الإسلامي.

وابتدأ تدريب أفراد من جبهة المقاومة الشعبية، والعمل للإطاحة بالحكم، وقد يكون العمل مكشوفاً نتيجةً طبيعيةً للحياة القبلية في السودان التي لا يزال لها دورها. وقد طلبت الجبهة الدعم من الهادي المهدي فعرض شروطه

= للزراعة، والإنتاج الزراعي، والغابات.

وفي ١٦ ذي الحجة ١٣٩٠هـ (١١ شباط ١٩٧١م) عُيّن:

جعفر محمد علي بخيت: وزير الحكم الشعبي المحلي.

عبد الرحمن عباس: وزير دولة لقطاع الخدمات.

محمد إدريس محمود: وزير دولة للقطاع الاقتصادي.

عبد الجليل حسن عبد الجليل: وزير دولة.

وفي ٢٦ ذي الحجة من العام نفسه أضاف الرئيس جعفر محمد نميري إلى مهامه منصب وزير الخزانة.

وفي ١٠ جمادى الأولى ١٣٩١هـ أُعفي فاروق أبو عيسى من وزارة الخارجية.

وفي ٢٤ جمادى الأولى ١٣٩١هـ (١٧ تموز ١٩٧١م) عُيّن:

أحمد بابكر عيسى: أميناً لمجلس الوزراء برتبة نائب وزير.

وعزل جوزيف قرنق من منصبه.

للتعاون وهي:

١ ـ إبعاد الشيوعيين عن الحكم.

٢ ـ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

٣ ـ تحديد مدة المرحلة الانتقالية لعودة الحياة الدستورية.

ومع أن هذه الشروط كان متفقاً عليها إلا أنها قد رُفضت بحجة أنه لا تُملى شروط للعمل الوطني، وما دام الاتفاق قائماً على أن الحكم غير شرعي ومرفوض.

بدأت الصدامات بين الحكومة وأنصارها من جهةٍ وبين حركة المقاومة الشعبية من جهةٍ أخرى، وكان أول الصدامات دخول قوات الأمن إلى مسجد عبد الرحمن المهدي الذي يتجمّع فيه الأنصار عادةً، فقُتل ثلاثون رجلًا من قوات الأمن على حين قُتل ألف من الأنصار (جماعة المهدي)، وقد رفض الهادي زيارة النميري لجزيرة «أبا»[1] لأنه لم يُجب على أسئلته التي وجّهها إليه.

تجمّعت قوات من جبهة المقاومة الشعبية في جزيرة «أبا»، وقد ادّعى الرئيس جعفر النميري يوم ٢٠ محرم عام ١٣٩٠هـ (٢٧ آذار ١٩٧٠م) أنه قد جرت محاولة لاغتياله بسكينٍ، لذا فقد قامت قوات الحكومة وداهمت جزيرة «أبا» بالمدفعية والمدرعات، والطائرات، واشترك الطيران المصري[2] فقتلت أعداداً كبيرةً من قوات الجبهة بل ومن السكان، وقد وصل الرقم عند بعض الجهات إلى ٢٥ ألف قتيلٍ، وفي ليلة ٢٥ محرم أُذيع نبأ مقتل الهادي المهدي عند الحدود الشرقية مع دولة الحبشة في محاولته الهرب من البلاد. وكانت

---

(١) جزيرة أبا: تقع في النيل الأبيض جنوب مدينة الخرطوم بحوالي أربعمائة كيلومتر، ويملكها المهدي.

(٢) كان الطيران المصري الذي اشترك في قصف جزيرة أبا بإمرة محمد حسني مبارك الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمهورية مصر العربية.

القوة العسكرية التي أرسلها النميري إلى جزيرة «أبا» بقيادة العميد أبو الذهب، ومعه قائد حامية «كوستي» وبرفقة ستمائة جندي.

وبعد معركة جزيرة «أبا» عمل الشيوعيون في الحكومة على جرّها لتصفية جميع أعدائهم تصفيةً جسديةً، فعمّ القتل في البلاد، وساد جو من الرعب والذعر، فخنع الناس، وظهر إثر ذلك أن الشعب قد استكان، وأن الأمر قد استتب للحكام. ووضعت مكافأة مقدارها خمسة آلاف جنيه لمن يقبض على محمد صالح عمر.

انقسم الشيوعيون في السودان إلى فريقين: أحدهما بزعامة عبد الخالق محجوب الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني ويرى ضرورة النضال الحزبي بصورةٍ متميزةٍ لتطبيق النظام الشيوعي وإعلان إقامة حكم شيوعيٍ، والثاني بزعامة وزير الصناعة والتعدين أحمد سليمان، وفاروق أبو عيسى وزير الخارجية، ومعاوية عبد الحي إبراهيم وزير العمل، ويرى هذا الفريق ضرورة ركوب الحكم القائم والإفادة منه ريثما يتهيّأ الجو المناسب، فالشعب في السودان لا يمكن حمله الآن على تطبيق النظام الشيوعي إلا إذا أبيد القسم الأكبر منه، ولو تمّ ذلك لانكشف أمر الشيوعية، وابتعد عنها الناس، ولم يقتصر الأمر على السودان بل لكان لذلك صداه العالمي.

توسّعت شقة الخلاف بين الفريقين الشيوعيين، واستطاع فريق أحمد سليمان أن ينتصر، وأن يبعد أنصار الفريق الأول عن السلطة وعن مجلس قيادة الثورة، فأرسل المقدم بابكر النور عثمان، والرائد فاروق عثمان حمد الله إلى لندن، ونُحّي الرائد هاشم العطا من منصبه، أما عبد الخالق محجوب فقد وضع في البداية تحت الإقامة الإجبارية، ثم اختفى، وأخيراً زجّ به في السجن.

ابتدأ جعفر النميري يُهاجم الحزب الشيوعي الجناح المعارض جناح عبد الخالق محجوب، وكان أول هجوم له في البيان الذي ألقاه في ١٧ ذي الحجة ١٣٩٠هـ (١٢ شباط ١٩٧١م)، وقد أعلن جعفر النميري آنذاك أنه لا مانع لديه من التعاون مع الشيوعيين الوطنيين بشرط خدمة البلاد تحت راية الحكم، والاشتراكية، والوطنية، واتهم الجناح المعارض له بالعمالة.

وفي ١٨ ربيع الأول ١٣٩١هـ (١٣ أيار ١٩٧١م) نحّى الرئيس جعفر النميري كلًا من:

١ - بابكر عوض الله: النائب الأول لرئيس الجمهورية، وعضو المكتب السياسي.

٢ - بابكر النور عثمان، وأُبعد إلى لندن.

٣ - فاروق عثمان حمد الله: وأبعد إلى لندن.

٤ - هاشم العطا.

وحرموا من المناصب التي يتسلّمونها، والرتب التي يحملونها في السودان.

وفي ٢٩ ربيع الأول من العام نفسه تمّ تعيين اللواء أركان حرب محمد الباقر أحمد نائباً للرئيس إضافةً إلى منصبه الرسمي كوزير للداخلية.

وكانت حكومة السودان قد عزمت على الدخولِ مع مصر، وليبيا في اتحادٍ عربي، ولكن الشيوعيين عارضوا هذا الاتحاد، وخاف عبد الخالق محجوب الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني أن يُعيد لحزبه تجربته مع الحكم المصري أيام جمال عبد الناصر، كما أن ليبيا تُعارض الشيوعية صراحةً وتُحاربها لذا لا بدّ من الوقوف في وجه هذا الاتحاد، ولما كان الحكم عازماً على ذلك لذا فلا بدّ من حركةٍ تحول دون ذلك.

كما أن الجنوبيين يُعارضون هذا الاتحاد إذ يرون أن شخصيتهم تضيع فيه لذا فقد شدّدوا من هجماتهم بغية إزعاج الحكم، وشلّه، وإظهار المعارضة له، وكذلك فإن الشيوعيين يريدون إرضاء الجنوب للالتقاء معهم في الوثنية ومُعاداة الإسلام، ومُعارضة الحكم، كما لهم أنصار بينهم، ويرون فيهم سنداً قوياً وقت الأزمات، والحاجة إليهم عند التخطيط لتحريكهم ضد السلطة.

الانقلاب الشيوعي:

تحرّكت بعض القطاعات العسكرية بإمرة الرائد هاشم العطا، وسيطرت على الوضع، واعتقلت اللواء جعفر النميري في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩١هـ (١٩ تموز ١٩٧١م)، غير أنها لم تستطع السيطرة على الحكم لأكثر من ثلاثة

أيام، حيث قامت القطعات الموالية لجعفر النميري، ودعمها طلبة الكلية العسكرية المصريون في الخرطوم، وبعض القوات المصرية المتمركزة في الجنوب، واستدعى وزير الدفاع في حكومة جعفر النميري اللواء خالد حسن عباس القوات السودانية المرابطة على حدود سيناء ضدّ إسرائيل، فنُقلت إلى السودان، إضافةً إلى الطيران المصري الذي اشترك في المعركة.

انتقل المقدم بابكر النور عثمان، والرائد فاروق عثمان حمد الله من لندن إلى السودان على طائرةٍ بريطانيةٍ، وهما من زعماء الانقلاب الذي وقع في السودان غير أن الطائرة قد أُجبرت على الهبوط في بنغازي في ليبيا، وقام الحكم الليبي بتسليمهما إلى اللواء جعفر النميري.

تمكن النميري من القيام بحركةٍ مُضادةٍ، وإحباط الانقلاب الشيوعي، والعودة إلى الحكم في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٩١هـ، وأخذ في الهجوم على الذين كانوا وراء الانقلاب الشيوعي وقال: إن الروس هم الذين كانوا وراءه، وتأزّم الموقف بين الدولتين، وقطعت العلاقات السياسية بينهما.

وقُطعت العلاقات أيضاً مع العراق التي كانت قد أعلنت تأييدها للانقلاب منذ الساعات الأولى، وأرسلت وفداً على مستوى عالٍ لتنسيق التعاون بين العراق والانقلابيين، غير أن الوفد لم يستطع الوصول إلى السودان حيث احترق مع الطائرة التي كانت تقله إلى الخرطوم أثناء رحلتها.

ويُظن أن بريطانيا كانت مُؤيّدةً للحركة في بدايتها، أو أنها استدرجت الانقلابيين للقيام بحركتهم غير المدروسة فلما تم لهم الأمر عملت على تحطيمها، وكان لها دور في الإعلان عن انتقال قادتهم من لندن إلى الخرطوم، وهبوط الطائرة التي تقلّهم في بنغازي.

نسب اللواء جعفر النميري كل ما حدث من فوضى، ومن تصرفات قتلٍ وانتقام أثناء حكمه السابق إلى الشيوعيين، وأعلم عن قيام حكم وطني وجبهةٍ وطنيةٍ جديدةٍ في البلاد، وشكّل وزارة جديدة[1] في ٢٤ شعبان ١٣٩١ (١٤

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي:

=

تشرين الأول ١٩٧١م)، وكان قد قام ببعض التعديلات في المناصب

=
١ ـ جعفر النميري: رئيساً للوزارة، ووزيراً للتخطيط.
٢ ـ اللواء خالد حسن عباس: وزيراً للدفاع.
٣ ـ منصور خالد: وزيراً للخارجية.
٤ ـ اللواء محمد الباقر أحمد: وزيراً للداخلية، نائباً أول لرئيس الجمهورية.
٥ ـ أحمد سليمان: وزيراً للعدل، النائب العام.
٦ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للخدمة العامة، والإصلاح الإداري.
٧ ـ جعفر محمد بخيت: وزيراً للحكومة المحلية.
٨ ـ مبارك سنادة: وزيراً للإسكان والمرافق العامة.
٩ ـ الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للصحة.
١٠ ـ بشير عبادي: وزيراً للمواصلات.
١١ ـ موسى عوض بلال: وزيراً للتموين.
١٢ ـ محمد عبد الحليم عبد الرحمن: وزيراً للخزانة.
١٣ ـ إبراهيم منعم منصور: وزيراً للاقتصاد.
١٤ ـ الرائد زين العابدين أحمد عبد القادر: وزيراً للنقل.
١٥ ـ أحمد عبد الرحمن العاقب: وزيراً للصناعة.
١٦ ـ وديع حبشي: وزيراً للزراعة.
١٧ ـ عثمان أبو القاسم: وزيراً للتعاون والتنمية الريفية.
١٨ ـ أحمد محمد الحسن: وزيراً للتعليم العالي.
١٩ ـ محمد النصري حمزة: وزيراً للإنتاج الحيواني.
٢٠ ـ يحيى عبد المجيد: وزيراً للري والطاقة الكهربائية.
٢١ ـ محيي الدين صابر: وزيراً للتربية والتعليم.
٢٢ ـ عمر الحاج موسى: وزيراً للإعلام والثقافة.
٢٣ ـ المقدم صلاح عبد العال: وزيراً للشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية.
٢٤ ـ عون الشريف قاسم: وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية.
٢٥ ـ أبو القاسم هاشم: وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية.
٢٦ ـ موسى المبارك الحسن: وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٧ ـ أبيل ألير: وزير الدولة لشؤون الجنوب.

كما تضمن التشكيل الوزاري:
١ ـ اللواء مصطفى عثمان: نائباً لوزير الدفاع.
٢ ـ فخر الدين محمد: نائباً لوزير الخارجية.
٣ ـ أحمد عبد الحليم: نائباً لوزير الإعلام والثقافة.
٤ ـ نفيسة أحمد الأمين: نائبة لوزير الشباب والرياضة.
٥ ـ بيترجوات كوات: نائباً لوزير الدولة لشؤون الجنوب.
٦ ـ مهدي مصطفى الهادي: أمين عام رئاسة الجمهورية برتبة وزير.

الوزارية[1] في ١١ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ (٣ آب ١٩٧١م)، ضمّت عدداً من الجناح الشيوعي المعارض للجناح الذي قام بالانقلاب، كما وعد بإنهاء مشكلة الجنوب، وهي أكبر مشكلةٍ واجهت الحكم منذ الاستقلال، وكانت سبباً رئيسياً في زوال معظم الحكومات التي تعاقبت على البلاد.

كان اللواء جعفر النميري قد أعلن بعد تسلّمه السلطة إعطاء الحكم الذاتي للجنوب، وقام بتعيين (أبيل ألير) أحد زعماء الجنوب نائباً لرئيس الجمهورية، ودخل في المكتب السياسي للتنظيم السياسي الوحيد الموجود في البلاد، وأعلن النميري كذلك عن تعيين ثلاثة محافظين جدد لمديريات الجنوب من أبناء تلك المديريات، ومثّل الجنوب في الوزارة عدد من الوزراء، واشترك عدد من الجنوبيين في السلك السياسي السوداني. وبدأ النميري بالاتصال بالدول المجاورة التي تعطف على الجنوبيين، وبالدول الغربية ذات العلاقة، وبمجلس الكنائس العالمي، وبالإرساليات التنصيرية التي لا يتّم شيء دونها، وأخيراً توالت الاتصالات التي انتهت باتفاقية إديس أبابا في ١٢ صفر ١٣٩٢هـ (٢٧ آذار ١٩٧٢م).

---

(١) شملت التعديلات تعيين:
منصور خالد: وزيراً للخارجية.
موسى المبارك: وزيراً للعمل.
يحيى عبد المجيد: وزيراً للري.
زين العابدين محمد أحمد: وزيراً للمواصلات.
تربي مادوت: وزيراً للدولة لشؤون الجنوب.
ميرغني النصري حمزة: وزيراً للثروة الحيوانية.
لويجي أدوك: نائب وزير.
وفي الوقت نفسه عزل:
يحيى مأمون منصور: وزيرالثروة الحيوانية.
معاوية إبراهيم: وزير العمل.
سيد أحمد الجاك: وزير المواصلات.
وفي ١٩ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ حيث عُيّن:
عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للحكم الشعبي المحلي.
كما سبق أن عُيّن:
نور محجوب: وزيراً للمالية والاقتصاد في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٩١هـ (٢١ تموز ١٩٧١م).

اقترح الجنوبيون تسع دول إفريقية ليكون المؤتمر في إحداها وهي: زائير، أوغندا، كينيا، الحبشة، تانزانيا، تشاد، الكمرون، سالح العاج، إفريقية الوسطى، وأخيراً تمّ عقد المؤتمر في الحبشة.

وبدأت محاكمة زعماء الانقلاب الشيوعي ومن أيّدهم، وقد أُعدم كل من: عبد الخالق محجوب الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني، والمقدم بابكر نور عثمان الذي كان من المقرر أن يصبح رئيس مجلس قيادة الثورة، والرائد هاشم العطا رأس الحركة والمخطط لها، والرائد فاروق عثمان حمد الله، والمقدم محجوب إبراهيم، والنقيب بشير عبد الرزاق، والملازم أحمد زيادة، والشفيع أحمد الشيخ أمين عام اتحاد نقابات العمال، والدكتور مصطفى خوجلي المرشّح لرئاسة الحكومة الانقلابية، ثم استبدل هذا الحكم بالسجن مدة عشرين سنةً.

كان التغيير في المناصب الكبرى وفي الدوائر الرسمية لإمكانية القبض على زمام الأمور والارتباط الدائم برأس البلاد[1].

---

(١) في ٢٤ شعبان ١٣٩١هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٧١م) أُعفي:
نور محجوب من وزارة المالية والاقتصاد.
وأبو القاسم محمد إبراهيم: من وزارة الداخلية، وأسندت إليه وزارة الصحة.
وعُيِّن كل من:
صلاح عبد العال مبروك: وزيراً للشباب والرياضة.
موسى مبارك: وزيراً لشؤون رئاسة مجلس الوزراء.
بشير عبادي: وزيراً للمواصلات.
فخر الدين محمد: نائباً لوزير.
محمود جادين: نائباً لوزير الإسكان.
نفيسة أحمد الأمين: نائبة لوزير الشباب والرياضة.
وفي ٣٠ ذي القعدة ١٣٩١هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٧٢م) عُيِّن: مهدي مصطفى الهادي: مستشاراً عاماً لرئاسة الجمهورية.
وأُعفي: أحمد عبد الحليم من منصبه كنائب لوزير الثقافة والإعلام.
وأُعطي: بيتر جاث كوت: منصب مستشار لوزارة الجنوب برتبة وزير بعد أن كان نائباً لوزير الجنوب.
وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٩١هـ (٢ شباط ١٩٧٢) عُيِّن: =

ونُصّب جعفر النميري رئيساً للجمهورية في ٢٢ شعبان ١٣٩١هـ (١٢ تشرين الأول ١٩٧١م) بعد الانتخابات، وأصبح الحزب السياسي الوحيد المعترف به هو الاتحاد الاشتراكي السوداني. إذ أحبّ أن يكون الحكم دستورياً، فوُضعت قواعد للانتخابات، وأُجريت الانتخابات في ١٤ شعبان ١٣٩٢هـ (٢٢ أيلول ١٩٧٢م)، وكان من شروط المرشح أن يُبرز شهادة من الاتحاد الاشتراكي السوداني بعدم الاعتراض على ترشيحه، واجتمع المجلس الذي عُرف باسم «مجلس الشعب القومي»، وكان عدد مقاعده مائةً وخمسةً وعشرين مقعداً، سبعون منها لفئات قوى الشعب العاملة، وهي تتوزّع على النحو الآتي:

١٠ مقاعد اتحاد المزارعين.

١٠ مقاعد اتحاد العمال.

= أبو القاسم هاشم: وزيراً للتخطيط.
وأُعطي: مهدي مصطفى الهادي: رتبة وزير.
وفي ٢٤ محرم ١٣٩٢ هـ (٩ آذار ١٩٧٢م) عُيّن:
مهدي مصطفى الهادي: وزير دولة لرئاسة الجمهورية.
أبو بكر عثمان محمد صالح: أمين عام لرئاسة الجمهورية برتبة نائب وزير.
وفي ٢٤ صفر ١٣٩٢هـ (٨ نيسان ١٩٧٢م) عُيّن:
لورنس وول: وزير دولة لشؤون التخطيط.
سر الختم خليفة: وزير التعليم العالي والبحث العلمي.
وبهاء الدين محمد إدريس: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
موسى مبارك: وزير الخزانة.
صموئيل لوباي: وزير دولة لشؤون الحكم الشعبي المحلي.
جعفر محمد علي بخيت: وزير الحكم الشعبي المحلي.
محمود حسيب: نائب وزير الحكم الشعبي المحلي.
وفي ٢١ صفر ١٣٩٢هـ (٥ نيسان ١٩٧٢م) عُيّن:
أبيل ألير: وزير شؤون الجنوب نائباً لرئيس الجمهورية.
وفي ١٣ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ (٢٤ تموز ١٩٧٢م) أسند إلى:
بونا ملوال: نائب وزير الثقافة والإعلام.

٤ مقاعد الرأسمالية الوطنية.

٤ مقاعد القوات النظامية.

٨ مقاعد الأساتذة الجامعيين.

١ مقعد الأطباء.

١ مقعد المهندسون.

٢ مقعد المهن الزراعية.

٤٠

٣٠ مقعداً للمنظمات الجماهيرية وهي:

١٠ لجان تطوير القرى.

١٠ اتحاد الشباب.

١٠ اتحاد النساء.

٧٠

كما عين ٣٢ عضواً بينهم ثلاث نساء، وبذا أصبح عدد النساء في مجلس الشعب ١٥ امرأةً. وأعلن عن استقالة الحكومة، وشكّل حكومة جديدة[١] في ٢ رمضان ١٣٩٢هـ (٩ تشرين الأول ١٩٧٢م).

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي:

١ ـ اللواء جعفر محمد النميري: رئيساً للوزارة، وزيراً للدفاع.

٢ ـ اللواء محمد الباقر أحمد: وزيراً للداخلية.

٣ ـ منصور خالد: وزيراً للخارجية.

٤ ـ أحمد سليمان: وزيراً للعدل، والنائب العام.

٥ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للخدمة العامة.

٦ ـ الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للصحة.

٧ ـ مبارك سنادة: وزيراً للإسكان والمرافق العامة.

٨ ـ جعفر محمد علي بخيت: وزيراً للحكومة المحلية. =

وعين الرئيس السوداني لجنةً مركزيةً للاتحاد الاشتراكي التنظيم السياسي الوحيد في السودان وتتألف من مائتين وستين عضواً، وتضم الوزراء جميعاً. وفي الوقت نفسه قبل استقالة الرائد زين العابدين محمد أحمد عبد القادر من عضوية المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي(١).

= ٩ ـ بشير عبادي: وزيراً للمواصلات.
١٠ ـ إبراهيم منعم منصور: وزيراً للاقتصاد الوطني.
١١ ـ مليكة عوض خلاف: وزيراً للصناعة.
١٢ ـ لورنس وول: وزيراً للتخطيط.
١٣ ـ إبراهيم الياس: وزيراً للخزانة.
١٤ ـ أحمد الأمين حميدة: وزيراً للنقل.
١٥ ـ وديع حبيشي: وزيراً للزراعة.
١٦ ـ يحيى عبد المجيد: وزيراً للري وللقوى الكهربائية.
١٧ ـ عبد الله عبد الرحمن: وزيراً للموارد الطبيعية.
١٨ ـ بونا ملوال: وزيراً للإعلام والثقافة.
١٩ ـ صلاح عبد العال منصور: وزيراً للشباب.
٢٠ ـ سر الختم خليفة: وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
٢١ ـ عوني الشريف: وزيراً للشؤون الدينية.
٢٢ ـ محمد خير عثمان: وزيراً للتربية والتعليم.
٢٣ ـ مهدي مصطفى الهادي: وزير دولة لشؤون رئاسة الجمهورية.
٢٤ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٥ ـ صموئيل لوباي: وزير دولة لشؤون الحكم المحلي.
٢٦ ـ عبد الله الحسن الخضر: وزير التعاون والتنمية الريفية.
٢٨ ـ مصطفى عثمان: نائب وزير النقل.
٢٨ ـ موسى عوض بلال: نائب وزير الصناعة.
٢٩ ـ محمود حادين: نائب وزير الإسكان.
٣٠ ـ نفيسة أحمد الأمين: نائبة وزير الشباب والرياضة.
٣١ ـ أحمد بابكر عيسى: نائب وزير الأمين العام لمجلس الوزراء.
٣٢ ـ عمر الحاج موسى: وزير الإعلام والثقافة.
٣٣ ـ عبد العلام الحسن: وزير المصادر الوطنية.

(١) كان المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني يضم:
١ ـ جعفر محمد النميري.
٢ ـ بابكر عوض الله. =

وكانت الوزارة السودانية في شهر ربيع الأول ١٣٩٣هـ (نيسان ١٩٧٢م) كما هو مُبيّن أدناه[1].

= ٣ ـ المقدم خالد حسن عباس.
٤ ـ الرائد مأمون عوض أبو زيد.
٥ ـ أبو القاسم هاشم.
٦ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٧ ـ الرائد زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٨ ـ أبيل ألير.
٩ ـ محيي الدين صابر.
١٠ ـ عثمان أبو القاسم.
١١ ـ موسى المبارك.
١٢ ـ مهدي مصطفى الهادي.
١٣ ـ أحمد عبد الحليم عبد الرحمن.
١٤ ـ بيتر غاسكون.
١٥ ـ كامل محجوب.
والأمين العام: الرائد مأمون عوض أبو زيد.

(١) الوزارة السودانية:
١ ـ جعفر محمد النميري: رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع.
٢ ـ منصور خالد: وزيراً للخارجية.
٣ ـ محمد الباقر أحمد: وزيراً للداخلية.
٤ ـ أحمد سليمان: وزيراً للعدل.
٥ ـ لورنس وول: وزيراً للتخطيط.
٦ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
٧ ـ جعفر محمد علي بخيت: وزيراً للحكم المحلي.
٨ ـ مبارك سنادة: وزيراً للإسكان.
٩ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للصحة.
١٠ ـ بشير عبادي: وزيراً للمواصلات.
١١ ـ إبراهيم إلياس: وزيراً للخزانة.
١٢ ـ إبراهيم منعم منصور: وزيراً للاقتصاد.
١٣ ـ موسى عوض بلال: وزيراً للصناعة.
١٤ ـ أحمد الأمين حميدة: وزيراً للنقل.
١٥ ـ وديع حبيشي: وزيراً للزراعة.
١٦ ـ عبد الله الحسن الخضر: وزيراً للمصادر الطبيعية.
١٧ ـ يحيى عبد المجيد: وزيراً للري والطاقة الكهرمائية. =

وجرى تعديل في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني إذ أصبح كما هو مُبيّن أدناه[1].

= ١٨ ـ محمد خير عثمان: وزيراً للتعليم.
١٩ ـ عمر الحاج موسى: وزيراً للثقافة والإعلام.
٢٠ ـ صلاح عبد العال مبروك: وزيراً للشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية.
٢١ ـ عون الشريف قاسم: وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية.
٢٢ ـ سر الختم خليفة: وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي.
٢٣ ـ مهدي مصطفى الهادي: وزيراً لشؤون الرئاسة.
٢٤ ـ بهاء الدين إدريس: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء.
٢٥ ـ صموئيل لوباي: وزيراً للشؤون المحلية للدولة.

(١) المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني:
١ ـ جعفر محمد النميري.
٢ ـ محمد الباقر أحمد.
٣ ـ أبيل ألير.
٤ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٥ ـ جعفر محمد علي بخيت.
٦ ـ منصور خالد.
٧ ـ بيتر غاتكوث.
٨ ـ أحمد عبد الحليم عبد الرحمن.
٩ ـ مهدي مصطفى الهادي.
١٠ ـ لويجي أدوك.
١١ ـ توبي مادوت.
١٢ ـ هيلري لوغالي.
١٣ ـ لورنس وول.
١٤ ـ جوزيف أودوهو.
١٥ ـ عمر الحاج موسى.
١٦ ـ إبراهيم منعم منصور.
١٧ ـ صلاح عبد العال مبروك.
١٨ ـ نفيسة الأحمد الأمين.
١٩ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٢٠ ـ عز الدين السيد.
٢١ ـ عبد الله الحسن الخضر.
٢٢ ـ وديع حبيشي.
٢٣ ـ عبد الرحمن عبد الله. =

وفي ٩ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ (١١ أيار ١٩٧٣م) أُعيد تشكيل الوزارة[١].

= ٢٤ ـ بدر الدين سليمان.
٢٥ ـ مبارك سنادة.
ويُضاف إلى هؤلاء أعضاء الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي السوداني.
أما المجلس التنفيذي الأعلى للجنوب فيضمّ أحد عشر عضواً برئاسة أبيل ألير، والناطق الرسمي كليتو حسن.

(١) أعيد تشكيل الوزارة على النحو الآتي:
- جعفر محمد النميري: رئيساً لمجلس الوزراء.
- محمد الباقر أحمد: نائباً للرئيس.
- أبيل ألير: نائباً للرئيس، ورئيس اللجنة العليا للجنوب.
- عوض خلف الله: وزيراً للدفاع.
- منصور خالد: وزيراً للخارجية.
- عبد الله الحسن الخضر: وزيراً للداخلية.
- سر الختم خليفة: وزيراً للتعليم.
- بونا ملوال: وزيراً للثقافة والإعلام.
- عمر الحاج موسى: وزيراً للثقافة والإعلام.
- موسى عوض بلال: وزيراً للصناعة والمعادن.
- مبارك سنادة: وزيراً للإنشاء والأشغال العامة.
- زكي مصطفى: وزيراً للعدل، والنائب العام.
- أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للصحة والشؤون الاجتماعية.
- وديع حبيشي: وزيراً للزراعة والمصادر الطبيعية.
- بشير عبادي: وزيراً للنقل والمواصلات.
- المقدم صلاح عبد العال مبروك: وزيراً لشؤون رئاسة الدولة والشؤون المصرية في السودان.
- إبراهيم منعم منصور: وزيراً للاقتصاد.
- يحيى عبد المجيد: وزيراً للري.
- جعفر محمد علي بخيت: وزيراً للحكم الشعبي المحلي والمرافق العامة.
- أحمد بابكر عيسى: أمين عام الحكومة بدرجة وزير دولة.
- حسين محمد علي بليل: أمين عام للدولة للتجارة.
- عون الشريف قاسم: الأمين العام للمجلس القومي للشؤون الدينية والأوقاف.
- جمال محمد أحمد: وزيراً للدولة.
- بهاء الدين محمد إدريس: وزيراً للدولة للشؤون الخاصة.
- محمد خير عثمان: وزيراً للدولة للتعليم العالي.
- حسين إدريس: وزيراً للدولة للأبحاث والخدمات. =

وفي ١ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (١تموز ١٩٧٣م) ردّ الرئيس جعفر النميري الاعتبار لعددٍ من الإخوان المسلمين والشيوعيين، ثم ألقي القبض على ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي[1]، وكانوا قد اختفوا منذ الانقلاب الشيوعي الفاشل الذي وقع في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ (١٩ تموز ١٩٧١م).

وفي بداية العام الجامعي ١٣٩٣هـ أصدر اتحاد طلاب جامعة الخرطوم بياناً بتوقيع أحمد عثمان مكي أعلن فيه أن هذا العام هو عام الحسم مع النظام وحمل البيان تاريخ ١١ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (١١ تموز ١٩٧٣م). وفي ٣٠

= - كمال عبد الله عقباوي: وزيراً للدولة للإنتاج الزراعي.
- يحيى عبد المجيد: وزيراً للدولة لشؤون الري.
- محمود حسيب: نائب وزير الحكم الشعبي المحلي.
- الشريف الخاتم: نائب وزير المالية.
- بشير صالح عيسى: نائب وزير للشباب والرياضة.
- فاطمة عبد المحمود: نائبة وزير الرعاية الاجتماعية.
- مصطفى عثمان: نائب وزير النقل والمواصلات.
- أندريو ويو: نائب وزير التنسيق.

وجرت بعض التعديلات على الوزارة.

في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (١٠ تموز ١٩٧٣م) عُيّن:

اللواء مصطفى عثمان نائب وزير النقل والمواصلات، وزير دولة للتشييد والأشغال العامة مكان مبارك سنادة الذي أُعفي من منصبه.

وفي ١ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (٢٣ نيسان ١٩٧٤) عُيّن:

المقدم صلاح عبد العال مبروك وزير دولة لشؤون مصر بالسودان، وقد أنشئت هذه الوزارة لأول مرة، وكان يتولّى وزير دولة لشؤون رئاسة الدولة، وفي الوقت نفسه عُيّن مكانه فيصل محمد عبد الرحمن.

وفي ١٨ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (١٠ أيار ١٩٧٤م) أحيل وزير الدفاع الفريق الطيار عوض خلف الله على التقاعد، وتولّى وزارة الدفاع مكانه الرئيس جعفر محمد النميري.

وفي ٢ رجب ١٣٩٤هـ (٢١ تموز ١٩٧٤م) عُيّن:

أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي.

النذير دفع الله: وزيراً للصحة.

وفي التاريخ نفسه أُعفي يحيى عبد المجيد من وزارة الري.

(١) وهم: علي حزيلي السيد، والسيد جعفر، وخضير نصّار.

جمادى الآخرة خرج الطلاب بمظاهرةٍ، وخرج كذلك الاتحاد الاشتراكي ووقع صدام بين الطرفين، فقتل أحد الشباب وجرح آخرون.

وتضامن مع اتحاد الطلاب كل من نقابة المحامين، ونقابة السكة الحديدية، ونقابات النقل، وتجمع العمال وأعلنوا الإضراب لمدة ثلاثة أيام.

وأعلنت حالة الطوارئ، وأغلقت المدارس والجامعات في ٨ شعبان ١٣٩٣هـ (٥ أيلول ١٩٧٣م).

جرت الانتخابات في ربيع الأول ١٣٩٤هـ (نيسان ١٩٧٤م)، وكانت الجمعية الشعبية تتألّف من مائتين وخمسين عضواً يُنتخب نصفهم (١٢٥ عضواً) لمدة أربع سنوات، وتقدّم الاتحادات المهنية، وتجمّع العمال مائة عضوٍ، ويختار الرئيس الخمسة والعشرين عضواً الباقين. وافتتحت الجمعية في شهر ربيع الثاني ١٣٩٤هـ. وكانت الوزارة السودانية في شهر جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ (تموز ١٩٧٤م) كما هو مُبيّن أدناه[1] وعمّ إضراب الطلاب، واضطرت السلطة

---

(١) ١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس الوزراء.
٢ ـ محمد الباقر أحمد: النائب الأول للرئيس.
٣ ـ أبيل ألير: النائب الثاني للرئيس، رئيس المجلس التنفيذي الأعلى لجنوب السودان.
٤ ـ منصور خالد: وزير الشؤون الخارجية.
٥ ـ عوض خلف الله: وزير الدفاع.
٦ ـ جعفر محمد علي بخيت: وزير الحكم المحلي، والتنمية.
٧ ـ إبراهيم منعم منصور: وزير المالية والاقتصاد الوطني.
٨ ـ سر الختم خليفة: وزير التعليم.
٩ ـ وديع حبيشي: وزير الزراعة والتغذية، والمصادر الطبيعية.
١٠ ـ عمر الحاج موسى: وزير الثقافة والإعلام.
١١ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم: وزير الصحة والرعاية الاجتماعية.
١٢ ـ بشير عبادي: وزير النقل والمواصلات.
١٣ ـ موسى عوض بلال: وزير الصناعة والتعدين.
١٤ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزير الخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١٥ ـ زاكي مصطفى: وزير العدل، والنائب العام.
١٦ ـ عبد الله الحسن الخضر: وزير الداخلية.
١٧ ـ صلاح عبد العال مبروك: وزير الشؤون المصرية.
١٨ ـ إبراهيم حسن علام: وزير المدقق العام. =

إلى الخضوع لشروط الطلاب، واعترفت باتحاد الطلاب القائم. واقتحم الطلاب الإسلاميون في جامعة الخرطوم لقاءً للاتحاد الاشتراكي وتوتّر الوضع.

والتقت المعارضة من جديد، وأسّست الجبهة الوطنية برئاسة زعيم حزب الأمة الصادق المهدي، وبدأ التدريب العسكري خارج البلاد في ليبيا، وفي الحبشة. وكان شباب الإخوان المسلمين يهيئون الشعب داخل البلاد بالمظاهرات وتوزيع المنشورات. وفي الخارج بإذاعة بيانات الجبهة الوطنية.

= ١٩ ـ جمال محمد أحمد: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٢٠ ـ يحيى عبد المجيد: وزير دولة للري.
٢١ ـ صموئيل لوباي: وزير دولة للحكم المحلي.
٢٢ ـ بونا ملوال: وزير دولة للإعلام.
٢٣ ـ حسن محمد علي بليل: وزير دولة للتجارة.
٢٤ ـ كمال عبد الله عقباوي: وزير دولة للإنتاج الزراعي.
٢٥ ـ محمد خير عثمان: وزير دولة للتعليم العام.
٢٦ ـ أحمد بابكر بيزا: وزير دولة لأمانة سر الحكومة.
٢٧ ـ مصطفى عثمان: وزير دولة للعمل والتشييد.
٢٨ ـ فيصل محمد عبد الرحمن: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
٢٩ ـ حسين إدريس: وزير دولة للبحوث والخدمات.
٣٠ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير دولة لشؤون رئاسة الحكومة.
وتألّف المجلس التنفيذي الأعلى للجنوب من اثني عشر عضواً برئاسة أبيل ألبير، والأمين العام كليتو حسن. وقلّ عدد أعضاء المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي إذ خرج منه كل من:
١ ـ بيتر غاتكوث.
٢ ـ توبي مادوت.
٣ ـ صلاح عبد العال مبروك.
٤ ـ نفيسة الأحمد الأمين.
٥ ـ عز الدين السيد.
٦ ـ وديع حبيشي.
٧ ـ عبد الله الحسن الخضر.
٨ ـ عبد الرحمن عبد الله.
٩ ـ مبارك سنادة.
وانضمّ إليه فقط عوض خلف الله.

انقلاب حسن حسين عثمان:

ووقع في ٢٩ شعبان ١٣٩٥هـ (٥ أيلول ١٩٧٥م)، وقد نجح في بداية الأمر، وأخرج الانقلابيون السجناء السياسيين من المعتقلات، لكن لم يلبث أن انتهى أمر جماعة الانقلاب، ورجع الرئيس جعفر محمد النميري إلى السلطة، وحاكم قادة الانقلاب وأعدمهم، وكانوا ثمانية عشر عسكرياً، واتهم الرئيس جعفر النميري الحكومة الليبية بأنها كانت وراء عملية الانقلاب الفاشلة.

انقلاب محمد نور سعد:

ولم يستدر العام حتى وقع انقلاب آخر بقيادة العقيد محمد نور سعد بتاريخ ٥ رجب ١٣٩٦هـ (٢ تموز ١٩٧٦م)، وهرب الرئيس جعفر النميري، واحتلّ الانقلابيون المعسكرات، ومطار الخرطوم، ودار الهاتف، وكان لشباب الإخوان المسلمين دور في احتلال المطار، ودار الهاتف.

واستطاع جعفر النميري أن يعود بعد يومين إلى مقره، وانضمّت إليه بعض القطعات، فقادها، وقام بعملية مضادة، ولم يستطع دخول دار الهاتف إلا بصعوبةٍ حيث كان يرابط فيها الإخوان المسلمون، وقُتل تسعة منهم، ورفضت جماعة الأنصار التي ساهمت في هذه الحركة إطلاق سراح المعتقلين السياسيين الذين هم في سجن «كوبر»، كما منعوا الإخوان المسلمين والاتحاديين من دخول دار الإذاعة التي سيطروا عليها، غير أنهم لم يعرفوا إدارة الأجهزة فيها، وربما كان هذا من أسباب فشل هذه الحركة. إذا اختلف القائمون بالحركة بعضهم مع بعض، وعطلوا الإذاعة عن البثّ. وساعدت مصر الحكومة السودانية إذ سمحت بانتقال ألفاً وخمسمائة جندي سوداني كانوا يرابطون على قناة السويس إلى جانب إخوانهم المصريين.

وقتل في هذه الحركة ثمانمائة شخص، سبعمائة منهم من الانقلابيين، وأُعدم بعد ذلك ما يقرب من المائة شخص.

وكانت الوزارات تتغير باستمرار وتدخل عليها تعديلات بشكلٍ دائم[١]

---

(١) كانت الوزارة في ٩ صفر عام ١٣٩٦هـ (١٠ شباط ١٩٧٦م) على النحو الآتي:

١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع. =

= ٢ ـ محمد الباقر أحمد: النائب الأول لرئيس الجمهورية، وزيراً للداخلية.
٣ ـ أبيل ألير: النائب الثاني لرئيس الجمهورية، رئيس مجلس الجنوب.
٤ ـ محجوب مكاوي: وزيراً للخارجية تسلم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
٥ ـ خالد حسن عباس: وزيراً للصحة. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
٦ ـ بونا ملوال: وزيراً للثقافة والإعلام. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
٧ ـ صلاح عبد العال مبروك: وزيراً للشؤون المصرية في السودان.
٨ ـ منصور خالد: وزيراً للتربية. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
٩ ـ مأمون بحيري: وزيراً للتخطيط والاقتصاد الوطني. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
١٠ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم: وزيراً للزراعة والتغذية والموارد الطبيعية.
١١ ـ عثمان حسن: وزيراً للأشغال.
١٢ ـ بدر الدين سليمان: وزيراً للصناعة. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
١٣ ـ فاطمة عبد المحمود: وزيرة للشؤون الاجتماعية. تسلّمت الوزارة في ٢٠ شعبان ١٣٩٥هـ.
١٤ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١٥ ـ بشير عبادي: وزيراً للمواصلات.
١٦ ـ مأمون عوض أبو زيد: وزيراً للداخلية. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
١٧ ـ يحيى عبد المجيد: وزيراً للري والطاقة.
١٨ ـ عبد الله الحسن الخضر: وزيراً لشؤون الرئاسة. تسلّم مهامه في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
١٩ ـ زين العابدين أحمد محمد عبد القادر: وزيراً للشباب والرياضة. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
٢٠ ـ عون الشريف قاسم: وزيراً للشؤون الدينية والأوقاف. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
٢١ ـ هارون العوض: وزيراً للتجارة والتموين. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
٢٢ ـ محمد أحمد كرار وكان: وزيراً للحكم الشعبي المحلي. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.

خلف الله الرشيد: رئيس المحكمة العليا.
زكي عبد الرحمن: النائب العام، ووزيراً للعدل. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
إبراهيم حسن علام: المراجع العام.
عز الدين حامد: وزير دولة لشؤون الرئاسة. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
فرنسيس دينغ: وزير دولة للشؤون الخارجية. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
عز الدين الحافظ: وزير دولة للتعليم العام.
إسماعيل الحاج موسى: وزير دولة للثقافة والإعلام. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ. =

= الشريف الخاتم: نائب وزير دولة للخزانة. تسلّم الوزارة في ٢٠ شعبان ١٣٩٥هـ.
بهاء الدين محمد إدريس: وزير دولة لرئاسة الحكومة.
إبراهيم قنديل: وزير دولة للتعاون. تسلّم الوزارة في ١٠ ربيع الثاني ١٣٩٥هـ.
عباس عبد الماجد: وزير دولة للإنتاج الزراعي. تسلّم الوزارة في ٢٠ شعبان ١٣٩٥هـ.
محمود حسيب: وزير دولة حاكم إقليم جنوبي كردفان.
أمين الربيع: وزير دولة حاكم إقليم شمالي كردفان.
بشير إبراهيم عثمان: وزير دولة للمالية. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
نصر الدين مصطفى: وزير دولة للتخطيط. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
عثمان هاشم عبد السلام: وزير دولة للاقتصاد. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
محمد توم التيجاني: وزير دولة للتعليم العالي. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
مصطفى عثمان: وزير دولة للتشييد والأشغال العامة. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
أتون داك: وزير دولة للحكم الشعبي المحلي. تسلّم الوزارة في ١٣ محرم ١٣٩٥هـ.
أمين أبو سنينة: نائب وزير الصناعة. تسلّم الوزارة في ٥ جمادى الأولى ١٣٩٥هـ.
جمال محمد أحمد: وزيراً للخارجية. تسلّم الوزارة في ٥ جمادى الأولى ١٣٩٥هـ.
عبد المجيد إمام: وزيراً للعدل، والنائب العام. تسلّم الوزارة في ٥ جمادى الأولى ١٣٩٥هـ.
مزمل سليمان غندور: وزيراً للداخلية. تسلّم الوزارة في ٢٠ شعبان ١٣٩٥هـ.
مبارك عثمان رحمة: وزيراً للتجارة والتموين. تسلّم الوزارة في ٢٠ شعبان ١٣٩٥هـ.
أندرو ويو: وزير دولة للشؤون الإدارية برئاسة الجمهورية. تسلّم الوزارة في ٢٣ شعبان ١٣٩٥هـ.
الشريف الخاتم: وزير دولة للحكم الشعبي المحلي. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
عبد الرحمن عبد الله: وزير دولة للصناعة. تسلّم الوزارة في ٩ صفر ١٣٩٦هـ.
وكان المجلس الأعلى للجنوب على الشكل الآتي:
أبيل ألير: رئيساً للمجلس.
غاما حسن: الوزير الإقليمي للزراعة.
كليتو حسن: الأمين العام.
إيزكيل كودي: الوزير الإقليمي للتنمية الريفية.
لورنس وول: الوزير الإقليمي للتجارة.
العقيد صموئيل أبو جون: الوزير الإقليمي للمالية والتنمية.
هيليري باولو لوغالي؛ الوزير الإقليمي للطرق والمواصلات.
مادينغ دي قرنق: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام والشباب.
جستنيان ياك: الوزير الإقليمي للصحة. =

= لوباري رامبا: الوزير الإقليمي للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
مرسيس شول: الوزير الإقليمي لإدارة الشرطة والسجون.
لورنس لوال لوال: الوزير الإقليمي للتربية.
أوليفر أكينو: الوزير الإقليمي للإسكان والمرافق العامة.
ناتالي ألواك: الوزير الإقليمي لشؤون الرئاسة والمجلس التنفيذي العالي.
وكان رشيد الطاهر بكر الناطق الرسمي باسم الجمعية الشعبية، ورئيسها جعفر محمد علي بخيت. أما في الجنوب فكان هيلري باولو لوغالي الناطق الرسمي على حين أن الأمين العام هو إسكندر نجيب.
وكان المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي وهو التنظيم السياسي الوحيد في السودان يتألف من:
١ ـ جعفر محمد النميري رئيساً.
٢ ـ محمد البشير أحمد نائباً للرئيس.
٣ ـ أبيل ألير.
٤ ـ مكاوي عوض المكاوي.
٥ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٦ ـ بدر الدين سليمان.
٧ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٨ ـ فاطمة عبد المحمود.
٩ ـ أحمد عبد الحليم.
١٠ ـ ناتالي ألواك.
١١ ـ مهدي مصطفى الهادي.
١٢ ـ عبد الله الحسين الخضر.
١٣ ـ عوض خلف الله.
١٤ ـ جعفر محمد علي بخيت.
١٥ ـ هيلري باولو لوغالي.
١٦ ـ لورنس وول وول.
١٧ ـ منصور خالد.
١٨ ـ عمر الحاج موسى.
١٩ ـ مأمون بحيري.
٢٠ ـ عبد الرحمن عبد الله.
٢١ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٢٢ ـ خالد حسن عباس.
٢٣ ـ مأمون عوض أبو زيد. =

واستمرّ التعديل الوزاري، وتقريب مؤيدين، وإبعاد من لا يرضى عنهم الرئيس جعفر النميري[1] نتيجة تردّي الأوضاع، فأيّ تصرّف ليس فيه تزلف يُفسّر بعدم الرضا، فيُبعد عن المسؤولية صاحبه.

وفي ٢١ صفر ١٣٩٧هـ (١٠ شباط ١٩٧٧م) جرت إعادة لتشكيل الوزارة[2]. وبعد شهرين أُعيد انتخاب الرئيس جعفر محمد النميري رئيساً للدولة.

= ٢٤ ـ أبو القاسم هاشم.
وكانت الأمانة تتألف من:
١ ـ جعفر محمد النميري.
٢ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.

(١) في ١٤ ربيع الثاني ١٣٩٦هـ (١٤نيسان ١٩٧٦م) عين كل من:
محمد الشاذلي عثمان: وزيراً للدولة.
عبد الرحيم مكي: وزيراً للدولة.
عبد الله الحسن الخضر: وزيراً لشؤون مصر في السودان.
واستقال في التاريخ نفسه:
صلاح عبد العال مبروك من وزارة شؤون مصر في السودان.
وفي ٢١ جمادى الأولى عين صغيرون زين صغيرون وزيراً للري.
وفي ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٥هـ (٢٨ كانون الأول ١٩٧٥م) أبعد فيصل عبد الرحمن عن الوزارة.
وفي ١٣ شعبان ١٣٩٦هـ (٩ آب ١٩٧٦م) أبعد أبو القاسم محمد إبراهيم عن وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي.
وفي التاريخ نفسه عُيِّن:
دفع الله الحاج يوسف: وزيراً للتربية والتعليم.
عباس عبد الماجد: وزيراً للزراعة.
علي شمو: وزير دولة للشباب والرياضة.
الفريق أول بشير محمد علي: وزيراً للدفاع.
والشريف الخاتم: وزيراً للحكم الشعبي المحلي.
وعُيِّن في ١٦ شعبان ١٣٩٦هـ (١٢ آب ١٩٧٦م):
أحمد عبد الكريم بدري: وزير دولة للمواصلات.
وفي ٣ رمضان ١٣٩٦هـ (٢٨ آب ١٩٧٦م) عُيِّن:
عبد الله الحسن الخضر: وزير شؤون مجلس الوزراء.
عز الدين الحامد: وزير دولة برئاسة مجلس الوزراء.

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي: =

=

١ ـ جعفر محمد النميري: رئيساً للوزراء، والرئيس الأعلى للقوات المسلحة.
٢ ـ محمد البشير أحمد: النائب الأول للرئيس.
٣ ـ أبيل ألير: النائب الثاني، ورئيس المجلس الأعلى للمناطق الجنوبية.
٤ ـ منصور خالد: مساعد رئيس الجمهورية للتنسيق، ووزيراً للخارجية.
٥ ـ بشير محمد علي: وزيراً للدفاع.
٦ ـ خالد حسن عباس: وزيراً للصحة.
٧ ـ بونا ملوال: وزيراً للثقافة والإعلام.
٨ ـ دفع الله الحاج يوسف: وزيراً للتعليم.
٩ ـ الشريف الخاتم: وزيراً للمالية والاقتصاد الوطني.
١٠ ـ عبد الأحمد عبد الله: وزيراً للزراعة والمصادر الطبيعية.
١١ ـ عبد الرحمن عبد الله: وزيراً للصناعة والمعادن.
١٢ ـ فاطمة عبد المحمود: وزيرة للشؤون الاجتماعية.
١٣ ـ كرم الله العوض: وزيراً للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١٤ ـ حسن عابدين: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
١٥ ـ فرنسيس دينغ: وزير دولة للشؤون الخارجية.
١٦ ـ حسن أحمد يوسف: وزير دولة لشؤون التعليم.
١٧ ـ إسماعيل الحاج موسى: وزير دولة لشؤون الثقافة والإعلام.
١٨ ـ عبد الرحيم مكي: وزير دولة لشؤون الري والتغذية والمصادر الطبيعية.
١٩ ـ بشير عبادي: وزيراً للنقل والمواصلات.
٢٠ ـ عبد الوهاب إبراهيم: وزير دولة للداخلية.
٢١ ـ صغيرون الزين صغيرون: وزير دولة للري والطاقة المائية.
٢٢ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر: وزيراً للرياضة والشباب.
٢٣ ـ عون الشريف قاسم: وزيراً للشؤون الدينية والأوقاف.
٢٤ ـ هارون العوض: وزيراً للتجارة والتموين.
٢٥ ـ نصر الدين مصطفى: وزيراً للتخطيط.
٢٦ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزيراً للشؤون الخاصة.
٢٧ ـ محمد هاشم عوض: وزيراً للتعاون.
٢٨ ـ مأمون عوض أبو زيد: وزيراً للحكم الشعبي المحلي.
٢٩ ـ حسن عمر: وزيراً للعدل، والنائب العام.
٣٠ ـ عثمان هاشم عبد السلام: وزير دولة للتجارة والاقتصاد الوطني.
٣١ ـ محمد بشير جماع: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
٣٢ ـ عز الدين حامد: وزير دولة للشؤون المصرية في السودان.
٣٣ ـ علي شمو: وزير دولة للشباب والرياضة.

=

وفي ١١ جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ (٦٩ أيار ١٩٧٧م) جرت تعديلات وزارية واسعة، شملت تغييرات في الحقائب الوزارية، ودخل الوزارة أعضاء جدد ونُحّي آخرون، فقد أضيف وزراء للدولة محمد طاهر حمد، وخالد الخير، كما دخلت أم سلمى سعيد كنائبة لوزير الشباب والرياضة.

اللقاء بين الحكومة والمعارضة:

التقى رئيس الجبهة الوطنية المعارضة للحكومة الصادق المهدي مع ممثلي السلطة بتاريخ ٢١ رجب ١٣٩٧هـ (٧تموز ١٩٧٧م) دون أن يعلم بذلك اللقاء بقية قادة الجبهة آنذاك. ثم تمت المصالحة مع الإخوان المسلمين مع بقائهم في صف المعارضة.

وجرت تعديلات على الوزارة إذ عيّن الرئيس جعفر النميري نائباً له، ووزيراً للخارجية الرشيد طاهر بكر في ٢٧ رمضان ١٣٩٧هـ (١٠ أيلول ١٩٧٧م)، وهو من كبار جماعة الإخوان المسلمين سابقاً، إذ كان فيما مضى المراقب العام لهم في السودان، ثم اعتزلهم، وأصبح من أعضاء الاتحاد الاشتراكي المؤيّد لرئيس مصر جمال عبد الناصر.

واستمرّ جعفر النميري في طريقته بالتغييرات الوزارية والتعديلات بشكلٍ

= ٣٤ ـ أحمد عبد الكريم بدري: وزير دولة للمواصلات والنقل.
٣٥ ـ محمد الشاذلي عثمان: وزير دولة للتشييد والعمران.
٣٧ ـ معاوية أبو بكر: وزير دولة للتشييد والعمران.
٣٨ ـ أمين أبو سنينة: وزير دولة.
أما المجلس الأعلى للجنوب فبقي أعضاؤه كما كانوا عليه في العام الماضي.
وأما الجمعية الشعبية فكان رئيسها مهدي مصطفى الهادي، ومركز الناطق الرسمي شاغراً، وفي الجنوب كان الناطق الرسمي جونشان ملوال والأمين العام توماس كويم.
ودخل المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني:
بيتر غاتكوث.
بشير عبادي.
وخرج منه:
فاطمة المحمود.
جعفر محمد علي بخيت.
عوض خلف الله.

مُستمرٌ، وكانت الوزارة في ربيع الأول ١٣٩٨هـ (شباط ١٩٧٨م) تضم عناصر جديدة[١].

---

(١) كانت الحكومة على النحو الآتي:

١ - جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس الوزراء، القائد الأعلى للقوات المسلحة، وزير المالية.

٢ - عبد العظيم محمد إبراهيم: النائب الأول للرئيس.

٣ - أبيل ألير: رئيس المجلس الأعلى للجنوب، ونائب الرئيس، ووزير الشؤون الخارجية.

٤ - بشير محمد علي: وزير الدفاع، ورئيس القوات الشعبية.

٥ - خالد حسن عباس: وزير الصحة.

٦ - بونا ملوال: وزير الثقافة والإعلام.

٧ - دفع الله الحاج موسى: وزير التعليم.

٨ - عبد الله أحمد عبد الله: وزير الزراعة، والتغذية، والمصادر الطبيعية.

٩ - معاوية أبو بكر: وزير العمل والتشييد.

١٠ - بشير عبادي: وزير الصناعة.

١١ - فاطمة عبد المحمود: وزيرة الشؤون الاجتماعية.

١٢ - كرم الله العوض: وزير الخدمة العامة والإصلاح الإداري.

١٣ - عبد الرحمن عبد الله: وزير المواصلات.

١٤ - عمر محمد الطيب: وزير الأمن الوطني.

١٥ - يحيى عبد المجيد: وزير الري والطاقة الكهربائية.

١٦ - زين العابدين محمد أحمد عبد القادر: وزير الشباب والرياضة.

١٧ - شريف قاسم: وزير الشؤون الدينية.

١٨ - هارون العوض: وزير التجارة والتموين.

١٩ - نصر الدين مصطفى: وزير التخطيط الوطني.

٢٠ - بهاء الدين محمد إدريس: وزير شؤون الرئاسة.

٢١ - محمد هاشم عوض: وزير التعاون.

٢٢ - مأمون عوض أبو زيد: وزير الطاقة والتعدين.

٢٣ - حسن عمر أحمد: وزير العدل، والنائب العام.

٢٤ - خالد الخير عمر: وزير دولة لشؤون الرئاسة.

٢٥ - فرنسيس دينغ: وزير دولة للشؤون الخارجية.

٢٦ - حسن أحمد يوسف: وزير دولة للتعليم.

٢٧ - إسماعيل الحاج موسى: وزير دولة للثقافة والإعلام.

٢٨ - محمد الشاذلي عثمان: وزير دولة للزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية.

٢٩ - عثمان هاشم عبد السلام: وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني. =

= ٣٠ ـ عز الدين حامد: وزير دولة لشؤون مصر في السودان.
٣١ ـ علي شمو: وزير دولة للرياضة والشباب.
٣٢ ـ أحمد عبد الكريم بدري: وزير دولة للمواصلات.
أما المجلس الأعلى للجنوب فقد تشكل على النحو الآتي:
١ ـ أبيل ألير: رئيساً للمجلس.
٢ ـ غاما حسن: الوزير الإقليمي للزراعة.
٣ ـ إيزكيل كودي: الوزير الإقليمي للتعاون والتنمية الريفية.
٤ ـ لورنس وول وول: الوزير الإقليمي للتجارة.
٥ ـ صموئيل أبو جون: الوزير الإقليمي للطرق والمواصلات.
٦ ـ بيتر غاتكوث: الوزير الإقليمي للمالية والتنمية.
٧ ـ مادينغ دي قرنق: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
٨ ـ جستنيان ياك: الوزير الإقليمي للصحة.
٩ ـ لوباري رامبا: الوزير الإقليمي للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١٠ ـ عيسى كولانغ: الوزير الإقليمي للشباب والرياضة.
١١ ـ مرسيس شول: الوزير الإقليمي لإدارة الشرطة والسجون.
١٢ ـ لورنس لوال لوال: الوزير الإقليمي للتربية.
١٣ ـ أوليفر أكينو: الوزير الإقليمي للإسكان والمرافق العامة.
١٤ ـ ناتالي ألواك: الوزير الإقليمي لشؤون الرئاسة والمجلس التنفيذي العالي.
١٥ ـ هنري باغو: الوزير الإقليمي لشؤون الرئاسة والمجلس التنفيذي العالي.
أما الجمعية الشعبية فالناطق الرسمي باسمها: أبو القاسم هاشم ورئيسها أمير جمال الدين.
وأما الجمعية الشعبية للمناطق الجنوبية. فالناطق الرسمي باسمها جون أثان ورئيسها توماس كويم.
ويشمل المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني:
١ ـ جعفر محمد النميري.
٢ ـ محمد البشير أحمد.
٣ ـ أبيل ألير.
٤ ـ بيتر غاتكوث.
٥ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٦ ـ خلف الله رشيد.
٧ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٨ ـ أحمد عبد الحليم.
٩ ـ بشير محمد علي.
١٠ ـ مهدي مصطفى الهادي. =

وفي هذا العام جرت الانتخابات، وأصبحت الجمعية الشعبية تتألف من ثلاثمائة وأربعة أعضاء، ويُنتخب منهم مائتان وأربعة وسبعون عضواً لمدة أربع سنوات، أما الباقي وهو ثلاثون عضواً فإن الرئيس السوداني جعفر محمد النميري يتولّى تعيينهم.

أجرى الرئيس جعفر النميري تعديلات وزارية، فكانت الصيغة الوزارية في جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (نيسان ١٩٧٩م) على النحو المشار إليه أدناه[١].

= ١١ ـ بونا ملوال.
١٢ ـ بشير عبادي.
١٣ ـ هيلري بالو لوغالي.
١٤ ـ لورنس وول.
١٥ ـ منصور خالد.
١٦ ـ جوزيف لاغو.
١٧ ـ محمد هاشم عوض.
١٨ ـ عبد الرحمن عبد الله.
١٩ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٢٠ ـ خالد حسن عباس.
٢١ ـ مأمون عوض أبو زيد.
٢٢ ـ أبو القاسم هاشم.
٢٣ ـ موسى المبارك.
٢٤ ـ عون الشريف قاسم.
٢٥ ـ صلاح عبد العال مبروك.
هذا بالإضافة إلى الأمانة العامة التي تضمّ تسعة أعضاء.

(١) ١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، القائد الأعلى للقوات المسلحة، رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع.
٢ ـ أبيل ألير: نائب الرئيس.
٣ ـ جوزيف لاغو: نائب الرئيس، رئيس المجلس الأعلى للمناطق الجنوبية.
٤ ـ الرشيد طاهر بكر: نائب الرئيس، وزير الشؤون الخارجية.
٥ ـ عثمان هاشم عبد السلام: وزير المالية والاقتصاد الوطني.
٦ ـ خالد حسن عباس: وزير الصحة.
٧ ـ علي شمو: وزير الثقافة والإعلام.
٨ ـ دفع الله الحاج يوسف: وزير التعليم.
٩ ـ عبد الله أحمد عبد الله: وزير الزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية. =

=

١٠ ـ محمد سيد أحمد عبد الله: وزير التشييد والعمل.
١١ ـ بشير عبادي: وزير الصناعة.
١٢ ـ كرم الله العوض: وزير الخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١٣ ـ أحمد عبد الكريم بدري: وزير المواصلات.
١٤ ـ عمر محمد الطيب: وزير الأمن الوطني.
١٥ ـ يحيى عبد المجيد: وزير الري والطاقة.
١٦ ـ محمد هاشم عوض: وزير التجارة والتموين.
١٧ ـ نصر الدين مصطفى: وزير التخطيط الوطني.
١٨ ـ أبو بكر عثمان محمد صالح: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء.
١٩ ـ شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
٢٠ ـ مصطفى عثمان حسن: وزير النقل.
٢١ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير شؤون الرئاسة.
٢٢ ـ مهدي الفحل: وزير العدل، والنائب العام.
٢٣ ـ خالد الخير عمر: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
٢٤ ـ فرنسيس دينغ: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٢٥ ـ إسماعيل الحاج موسى: وزير دولة للثقافة والإعلام.
٢٦ ـ محمد الشاذلي عثمان: وزير دولة للزراعة، والتغذية والمصادر الطبيعية.
٢٧ ـ فاروق المقبول: وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني.
٢٨ ـ عز الدين حامد: وزير دولة لشؤون مصر في السودان.
٢٩ ـ يوسف ميخائيل: وزير دولة مستشاراً قانونياً لرئيس الجمهورية.
٣٠ ـ محمد محجوب سليمان: وزير دولة مستشاراً صحفياً لرئيس الجمهورية.
٣١ ـ الشيخ بشير الشيخ: وزير دولة مستشاراً لشؤون الحكم الشعبي المحلي لدى رئيس الجمهورية.

ثم عُيّن في ٢٥ رمضان ١٣٩٩هـ (١٨ آب ١٩٧٩م):
حيدر كبسون: وزير دولة للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
أما المجلس الأعلى للجنوب فكان على النحو الآتي:
١ ـ جوزيف لاغو: رئيس المجلس.
٢ ـ صموئيل أروبول: الوزير الإقليمي لإدارة الشرطة والسجون.
٣ ـ بنيامين بول أكوك: الوزير الإقليمي للزراعة والغابات والحيوانات ومصادر السمك.
٤ ـ جوزيف أدوهو: الوزير الإقليمي للتعاون والتنمية الريفية.
٥ ـ إيزكيل ماكوي كودي: الوزير الإقليمي للتجارة والصناعة والتموين.
٦ ـ جوزيف جيمس تومبورا: الوزير الإقليمي للطرق والمواصلات.
٧ ـ لورنس وول وول: الوزير الإقليمي للمالية والتخطيط الاقتصادي. =

=
٨ ـ سيمون موري: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
٩ ـ باسيفيكو لوليك: الوزير الإقليمي للصحة والرعاية الاجتماعية.
١٠ ـ أكوت أتم: الوزير الإقليمي للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
١١ ـ دانيال كوت ماثويث: الوزير الإقليمي للشباب والرياضة.
١٢ ـ صموئيل غيتوت: الوزير الإقليمي للسياحة.
١٣ ـ ماتزو أوبور أنينغ: الوزير الإقليمي للتربية.
١٤ ـ بارنابا دومو: الوزير الإقليمي للإسكان والمرافق العامة.
١٥ ـ أرنو لوب: الوزير الإقليمي لشؤون الرئاسة والمجلس التنفيذي العالي.
١٦ ـ صموئيل لوبي: الوزير الإقليمي للشؤون القانونية.

وكان رئيس الجمعية الشعبية بدر الدين سليمان والناطق الرسمي باسمها أبو القاسم هاشم. وأما الجمعية الشعبية للمناطق الجنوبية فإن الناطق الرسمي هو كلمنت مبورو ورئيسها فيليب أكوت.

وأما المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي فكان كما يأتي:

١ ـ جعفر محمد النميري.
٢ ـ محمد البشير أحمد.
٣ ـ أبيل ألير.
٤ ـ بيتر غاتكوث.
٥ ـ أبو القاسم محمد إبراهيم.
٦ ـ خلف الله رشيد.
٧ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٨ ـ أحمد عبد الحليم.
٩ ـ عبد الرحمن عبد الله.
١٠ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
١١ ـ خالد حسن عباس.
١٢ ـ مأمون عوض أبو زيد.
١٣ ـ أبو القاسم هاشم.
١٤ ـ بشير محمد علي.
١٥ ـ مهدي مصطفى الهادي.
١٦ ـ بونا ملوال.
١٧ ـ بشير عبادي.
١٨ ـ هيلري باولو لوغالي.
١٩ ـ لورنس وول وول.
٢٠ ـ منصور خالد.
=

كان الإخوان المسلمون في هذا الوقت يطالبون بتعديل الدستور، وتقييد السلطات المطلقة للرئيس، وحرية الصحافة، وقد قاطعوا الاستفتاء الذي جرى لتجديد الولاء لرئيس الجمهورية.

وقام الإخوان بمظاهرات تعلن سخطها على غزو الروس لأفغانستان، كما قادوا مظاهرات أخرى تطالب بتطبيق الشريعة إذ قامت ثورة في إيران تدعو إلى ذلك وإن كانت على فكرة الرفض التي لا يعرف العامة شيئاً عنها. وكذلك قاموا بمظاهرات تستنكر زيارة الرئيس المصري أنور السادات لدولة اليهود التي اغتصبت أرض فلسطين وأقامت عليها حكماً لها.

وأخذ الإخوان يُلحّون على تطبيق الشريعة الإسلامية لإنقاذ أوضاع السودان مما هي عليه بعد أن أفلست القوانين الوضعية من رأسماليةٍ، واشتراكيةٍ، وشيوعيةٍ وغيرها في وضع حدٍ للتدهور المستمر[1].

= ٢١ ـ جوزيف لاغو.
٢٢ ـ محمد هاشم عوض.
٢٣ ـ موسى المبارك.
٢٤ ـ عون الشريف قاسم.
٢٥ ـ صلاح عبد العال مبروك.
٢٦ ـ صادق عبد الرحمن المهدي.
٢٧ ـ حسن عبد الله الترابي.
٢٨ ـ أحمد الميرغني.
٢٩ ـ كلمنت مبورو.
٣٠ ـ صموئيل أرو.
٣١ ـ بدر الدين سليمان.

(١) كانت الدولة والوزارة في ربيع الأول ١٤٠٠هـ (شباط ١٩٨٠م).
١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء.
٢ ـ عبد الماجد خليل: النائب الأول للرئيس، وزير الدفاع، القائد الأعلى للقوات المسلحة.
٣ ـ أبيل ألير: نائب الرئيس.
٤ ـ جوزيف لاغو: نائب الرئيس، رئيس المجلس الأعلى للمناطق الجنوبية.
٥ ـ الرشيد الطاهر بكر: نائب الرئيس، وزير الشؤون الخارجية.
٦ ـ بدر الدين سليمان: وزير المالية والاقتصاد الوطني. =

=
٧ ـ نصر الدين مصطفى: وزير التخطيط الوطني.
٨ ـ دفع الله الحاج يوسف: وزير التربية والتعليم.
٩ ـ إسماعيل الحاج موسى: وزير الثقافة والإعلام.
١٠ ـ خالد حسن عباس: وزير الصحة.
١١ ـ فاروق المقبول: وزير التجارة والتعاون والتموين.
١٢ ـ عثمان حسن عبد السلام: وزير الصناعة.
١٣ ـ عبد الله أحمد عبد الله: وزير الزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية.
١٤ ـ محمد سيد أحمد عبد الله: وزير العمل والعمران.
١٥ ـ شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
١٦ ـ يحيى عبد المجيد: وزير الري والطاقة الكهربائية.
١٧ ـ عمر محمد الطيب: وزير الأمن الوطني.
١٨ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير شؤون الرئاسة.
١٩ ـ أحمد سيد حمد: وزير المواصلات.
٢٠ ـ جلال علي لطفي: وزير الشؤون الاجتماعية.
٢١ ـ حسن عبد الله الترابي: وزير العدل والنائب العام.
٢٢ ـ خالد الخير عمر: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
٢٣ ـ أبو بكر عثمان محمد صالح: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.
٢٤ ـ محمد محجوب: وزير دولة للشؤون الصحفية.
٢٥ ـ بشير الشريف: وزير دولة لشؤون الحكومات المحلية.
٢٦ ـ عز الدين حمد: وزير دولة للشؤون المصرية.
٢٧ ـ عثمان عبد الله النذير: وزير دولة للمالية والاقتصاد.
٢٨ ـ محمد ميرغني مبارك: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٢٩ ـ محمد حسن الجاك عمر الأمين: وزير دولة للزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية.
٣٠ ـ محمد حيدر كبسون: وزير دولة للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
٣١ ـ أحمد سالم: وزير دولة للتعاون، والتجارة والتموين.

أما المجلس الأعلى للجنوب فكان على النحو الآتي:

١ ـ جوزيف لاغو: رئيساً للمجلس.
٢ ـ بيتر غاتكوث: الوزير الإقليمي للمالية، والصناعة والتخطيط الاقتصادي.
٣ ـ جوزيف أدوهو: الوزير الإقليمي للخدمة العامة والمصادر البشرية.
٤ ـ ناتال ألواك ألولاوين: الوزير الإقليمي للإدارة والشؤون القانونية، والتنسيق.
٥ ـ جوزيف جيمس تومبورا: الوزير الإقليمي للعمل الشعبي، والإسكان، والطرق والمواصلات.
٦ ـ باسيفيكو لوليك: الوزير الإقليمي للصحة.
٧ ـ جوستين ياك أروب: الوزير الإقليمي للزراعة والمصادر الطبيعية. =

وأضيف في ربيع الأول ١٤٠٠هـ (شباط ١٩٨٠م) إلى الجمعية الشعبية حوالي ١٢٠ ـ ١٤٠ مقعداً من التنظيمات الأخرى حيث نال حزب الأمة عشرين مقعداً، والحزب الاتحادي الديمقراطي ثلاثين مقعداً، وجماعة الإخوان المسلمين عشرين عضواً، وحوالي ٤٠ ـ ٦٠ مقعداً للشخصيات ذات النفوذ المحلي، وما بقي وهو ما يقرب من عشرة مقاعد إلى الأحزاب اليسارية الوطنية.

وكانت السلطة التنفيذية في ربيع الأول ١٤٠١هـ (كانون الثاني ١٩٨١م) على النحو الموضح أدناه[١].

= ٨ ـ بارنابا دومو: الوزير الإقليمي للتربية والتعليم.
٩ ـ مارتين ماجير: الوزير الإقليمي للتعاون والتجارة والتموين.
١٠ ـ لورنس وول وول: الوزير الإقليمي لشؤون الوزارة.
١١ ـ أمبروز رنغ تيك: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
وكانت الجمعية الشعبية السودانية برئاسة عون الشريف قاسم، وكان الناطق الرسمي باسمها أبو القاسم هاشم، وأما الجمعية الشعبية للمناطق فرئيسها ميخائيل وول، والناطق باسمها عيسى كولانغ.
أما المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني فيتألف من:
جعفر محمد النميري.
أبيل ألير.
زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
خالد حسن عباس.
عمر محمد الطيب.
الرشيد طاهر بكر.
بدر الدين سليمان.
مهدي مصطفى الهادي.
أحمد السيد حمد.
عون الشريف قاسم.
إسماعيل الحاج موسى.
حسن عبد الله الترابي.
عبد الله حمد عبد الله.
بيتر غاتكوث غوال.
هيلري لوغالي.
بونا ملوال.
جوزيف لاغو.
نفيسة أحمد الأمين.

(١) ١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء. =

= ٢ ـ عبد الماجد خليل: نائب الرئيس، وزير الدفاع، القائد الأعلى للقوات المسلحة.
٣ ـ أبيل ألير: نائب الرئيس، رئيس المجلس الأعلى للجنوب.
٤ ـ بدر الدين سليمان: وزير التخطيط الوطني.
٥ ـ نصر الدين مصطفى: وزير التخطيط الوطني.
٦ ـ دفع الله الحاج يوسف: وزير التربية والتعليم.
٧ ـ إسماعيل الحاج موسى: وزير الثقافة والإعلام.
٨ ـ خالد حسن عباس: وزير الصحة.
٩ ـ فاروق إبراهيم مقبول: وزير التعاون والتجارة والتموين.
١٠ ـ عز الدين حامد: وزير الصناعة.
١١ ـ عبد الله حمد عبد الله: وزير الزراعة، والتغذية والمصادر الطبيعية.
١٢ ـ محمد سيد أحمد عبد الله: وزير التشييد والعمل.
١٣ ـ شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
١٤ ـ الرياح عبد السلام: وزير الري والطاقة الكهرمائية.
١٥ ـ عمر محمد الطيب: وزير الأمن الوطني.
١٦ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير شؤون الرئاسة.
١٧ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزير الشؤون الداخلية.
١٨ ـ أحمد سيد حمد: وزير المواصلات.
١٩ ـ حسن عبد الله الترابي: وزير العدل والنائب العام.
٢٠ ـ خالد الخير عمر: وزير دولة لشؤون الرئاسة.
٢١ ـ أبو بكر عثمان محمد صالح: وزير دولة لشؤون رئاسة مجلس الوزراء.
٢٢ ـ محمد محجوب: وزير دولة للشؤون الصحفية.
٢٣ ـ بشير الشريف: وزير دولة لشؤون الحكومات المحلية.
٢٤ ـ محمد أحمد الحاج: وزير دولة للشؤون المصرية.
٢٥ ـ عبد الرحمن عبد الوهاب: وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني.
٢٦ ـ محمد ميرغني مبارك: وزير دولة للشؤون الخارجية.
٢٧ ـ محمد حسن الجاك: وزير دولة للزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية.
٢٨ ـ عمر الأمين: وزير دولة للزراعة والتغذية والمصادر الطبيعية.
٢٩ ـ محمد حيدر كبسون: وزير دولة للخدمة العامة والإصلاح الإداري.
٣٠ ـ أحمد سليم: وزير دولة للتعاون والتجارة والتموين.
٣١ ـ محمد عثمان أبو ساق: وزير دولة للإعلام.
٣٢ ـ ميرغني محمد أحمد: وزير دولة للتخطيط الوطني.
أما المجلس الأعلى للجنوب فكان على الشكل الآتي:
١ ـ أبيل ألير: رئيساً للمجلس.
٢ ـ بيتر غاتكوث غوال: نائباً للرئيس، والوزير الإقليمي، للمالية والصناعة التخطيط الاقتصادي. =

= ٣ ـ هيلري لوغاري: الوزير الإقليمي لإدارة الشرطة والسجون.
٤ ـ عيسى كولانغ: الوزير الإقليمي للطرق والمواصلات والنقل.
٥ ـ جوستين ياك أروب: الوزير الإقليمي للتعاون والتنمية.
٦ ـ غاما حسن: الوزير الإقليمي للزراعة والمصادر الطبيعية.
٧ ـ آرثر أكوين: الوزير الإقليمي للتجارة والصناعة والتموين.
٨ ـ توبي مادوت: الوزير الإقليمي للإسكان والعمل.
٩ ـ مارتين ماجير: الوزير الإقليمي للشؤون القانونية، والتنسيق.
١٠ ـ صموئيل أبو جون: الوزير الإقليمي للسياحة والصيانة.
١١ ـ أندرو ويو: الوزير الإقليمي للتعليم.
١٢ ـ دانيال غانفيك: الوزير الإقليمي لشؤون المجلس الأعلى.
١٣ ـ زكريا دينغ: الوزير الإقليمي للصحة.
١٤ ـ جوزيف يوكلّو: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
١٥ ـ مانوه ماجوك: مستشار رئيس المجلس التنفيذي الأعلى.

وأما الجمعية الشعبية السودانية فكان المنظم لها عبد الحمد صالح، وكان الناطق الرسمي باسمها الرشيد الطاهر بكر. وأما الجمعية الشعبية للمناطق في جوبا فكان رئيسها سيمون موري، والناطق الرسمي أنجلو بيدا.

أما المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي السوداني فكان يتألف من:
١ ـ جعفر محمد النميري: رئيساً.
٢ ـ عبد الماجد خليل: أميناً عاماً.

والأعضاء هم:
١ ـ أبيل ألير.
٢ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٣ ـ خالد حسن عباس.
٤ ـ عمر محمد الطيب.
٥ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٦ ـ بدر الدين سليمان.
٧ ـ مهدي مصطفى الهادي.
٨ ـ أحمد السيد حمد.
٩ ـ عون الشريف قاسم.
١٠ ـ حسن عبد الله الترابي.
١١ ـ إسماعيل الحاج موسى.
١٢ ـ عبد الله حمد عبد الله.
١٣ ـ بيتر غاتكوث غوال. =

تشكلت لجنة لتعديل القوانين حتى تتماشى مع الشريعة الإسلامية، وكانت السلطة التنفيذية في جمادى الأولى عام ١٤٠٢هـ (آذار ١٩٨٢م) على النحو المبيّن أدناه[1].

= ١٤ ـ هيليري لوغلي.
١٥ ـ بونا ملوال.
١٦ ـ جوزيف لاغو.
١٧ ـ نفيسة أحمد الأمين.

(١) ١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، وزير الزراعة والري.
٢ ـ عمر محمد الطيب: نائب الرئيس، وزير الأمن الوطني.
٣ ـ أبيل ألير: نائب الرئيس.
٤ ـ إبراهيم منصور: وزير المالية والاقتصاد الوطني.
٥ ـ النذي دفع الله: وزير التعليم والتوجيه.
٦ ـ علي محمد فادي: وزير الصحة.
٧ ـ فاروق إبراهيم مقبول: وزير التعاون والتجارة والتموين.
٨ ـ محمد البشير الواجي: وزير الصناعة.
٩ ـ خالد حسن عباس: وزير النقل والمواصلات.
١٠ ـ بابكر علي التوم: وزير التشييد والعمل.
١١ ـ محمد شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
١٢ ـ محمد بهاء إدريس: وزير مجلس الرئاسة.
١٣ ـ خالد الخير عمر: وزير مجلس الرئاسة.
١٤ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزير الشؤون الداخلية.
١٥ ـ محمد ميرغني مبارك: وزير الشؤون الخارجية.
١٦ ـ أبو بكر محمد عثمان صالح: وزير شؤون مجلس الوزراء.
١٧ ـ حيدر محمد كبسون: وزير القوى العاملة.
١٨ ـ يوسف ميخائيل بخيت: وزير الشؤون القانونية.
١٩ ـ شيخ بشير الشيخ: وزير اللامركزية.
٢٠ ـ محمد محجوب سليمان: وزير الشؤون الصحفية.
٢١ ـ حسن عبد الله الترابي: وزير العدل والنائب العام.
٢٢ ـ بشير إبراهيم عثمان الشاق: وزير دولة للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٢٣ ـ عبد الرحمن عبد الوهاب: وزير دولة للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٢٤ ـ عثمان عبد الرحمن حكيم: وزير دولة للزراعة.
٢٥ ـ صغيرون زين الصغيرون: وزير دولة للري.
ـ يوسف سليمان: وزير دولة للطاقة والتعدين. =

=

- محمد عثمان أبو ساق: وزير دولة للشؤون الداخلية.
- أحمد سليم أحمد: وزير دولة للتعاون والتجارة والتموين.
- محمد الحسن أحمد الحاج: وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء.

المجلس الأعلى للمناطق الجنوبية

١ ـ كاسمولا عبد الله رازاس: رئيس المجلس.
٢ ـ أندرو ماكوت: نائب الرئيس، وزير التعاون الإقليمي، والتطور التنظيمي.
٣ ـ جوزيف كوال: الوزير الإقليمي للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٤ ـ لورنس وول: الوزير الإقليمي للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٥ ـ توبي مادوت: الوزير الإقليمي للصحة والرعاية الاجتماعية.
٦ ـ صموئيل كيتوت: الوزير الإقليمي للسياحة والصيانة.
٧ ـ أوثوان داك: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
٨ ـ فيليب أوبانغ أويوي: الوزير الإقليمي للتربية والتعليم.
٩ ـ ألكسندر نجيب: الوزير الإقليمي لشؤون المجلس التنفيذي الأعلى.
١٠ ـ ويلسون إيرمابا: الوزير الإقليمي للشؤون القانونية والتنسيق.
١١ ـ مانوه بابك: الوزير الإقليمي للزراعة والمصادر الطبيعية.
١٢ ـ إرنو لوب: الوزير الإقليمي للصناعة والتعدين.
١٣ ـ نيقولا أبويا: الوزير الإقليمي للإسكان.
١٤ ـ صموئيل رينزي: الوزير الإقليمي للخدمة العامة والقوى العاملة.
١٥ ـ داريوس بشير: الوزير الإقليمي للنقل والمواصلات. أما الجمعية الشعبية فقد أصبحت تضمّ ١٥١ عضواً منهم:

٦٨ ينتخبون لمدة أربع سنوات.
٧٠ يقدمهم العمال والاتحادات.
١٣ يختارهم الرئيس.

وكان رئيس الجمعية الشعبية بدر الدين سليمان والناطق الرسمي عز الدين السيد. أما الجمعية الشعبية للمناطق الجنوبية والتي اختيرت في جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ (أيار ١٩٨٠م) في جوبا فقد كان رئيسها سيمون موري، والناطق الرسمي أنجلو بيرا.

أما الاتحاد الاشتراكي السوداني فقد كانت رئاسته تتألف من:

١ ـ جعفر محمد النميري: رئيساً.
٢ ـ عوض مالك: نائباً للرئيس.

أما المكتب السياسي فقد شمل:

١ ـ أبيل ألير.
٢ ـ زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.
٣ ـ خالد حسن عباس.
٤ ـ عمر محمد الطيب.

=

وفي ربيع الثاني ١٤٠٣هـ (شباط ١٩٨٣م) تعدّلت السلطة التنفيذية، وأصبحت كما هو موضّح أدناه[1]. وقد انتهت لجنة تعديل القوانين من

= ٥ ـ الرشيد الطاهر بكر.
٦ ـ بدر الدين سليمان.
٧ ـ أحمد السيد أحمد.
٨ ـ عون قاسم الشريف.
٩ ـ إسماعيل الحاج موسى.
١٠ ـ حسن عبد الله الترابي.
١١ ـ عبد الرحمن محمد.
١٢ ـ حميد علي شاش.
١٣ ـ الفاتح محمد.
١٤ ـ بشير بشارة.
١٥ ـ أحمد إبراهيم ديريغ.
١٦ ـ عبد الله حمد عبد الله.
١٧ ـ بيتر غاتكوث غوال.
١٨ ـ بونا ملوال.
١٩ ـ جوزيف لاغو.
٢٠ ـ نفيسة أحمد الأمين.

(١) ١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الدولة، رئيس الوزارة، وزير الدفاع.
٢ ـ عمر محمد الطيب: النائب الأول للرئيس، وزير الأمن الوطني.
٣ ـ جوزيف لاغو: نائب الرئيس.
٤ ـ إبراهيم منعم منصور: وزيراً للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٥ ـ عثمان سيد أحمد إسماعيل: وزير التعليم.
٦ ـ علي محمد فادي: وزير الصحة.
٧ ـ محمد البشير العراجي: وزير الصناعة.
٨ ـ خالد حسن عباس: وزير النقل والمواصلات.
٩ ـ بابكر علي التوم: وزير التشييد والعمل.
١٠ ـ محمد شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
١١ ـ عثمان عبد الرحمن حكيم: وزير الزراعة والري.
١٢ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير في مكتب الرئيس.
١٣ ـ خالد الخير عمر: وزير في مكتب الرئيس.
١٤ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزير الشؤون الداخلية.
١٥ ـ محمد عثمان أبو ساق: وزير الإعلام والتوجيه الوطني.
١٦ ـ محمد ميرغني مبارك: وزير الشؤون الخارجية.
١٧ ـ أبو بكر محمد عثمان صالح: وزير في مكتب رئيس مجلس الوزراء. =

مهمتها، وأخذ تطبيق الشريعة الإسلامية يُنفّذ من شهر ذي الحجة ١٤٠٣هـ (أيلول ١٩٨٣م)، فأثار ذلك الأمر الأعداء، وكأن الأرض قد زلزلت تحت أقدامهم فتحرّك اتحاد الكنائس العالمي، والإرساليات التنصيرية، والدول الصليبية، وأتباع الأنظمة الوضعية كلها، وإسرائيل، وأصحاب العصبيات، وحُذّر الرئيس السوداني من مغبة ذلك، فخاف على مركزه، وأخذ يُغيّر رأيه ويُبدّل طريقه إذ استحب الحياة الدنيا، وكانت السلطة التنفيذية في جمادى

= ١٨ ـ محمد الحسن أحمد الحاج: وزير في مكتب رئيس مجلس الوزراء.
١٩ ـ حيدر محمد كبسون: وزير شؤون القوى العاملة.
٢٠ ـ يوسف ميخائيل بخيت: وزير الشؤون القانونية.
٢١ ـ شيخ بشيرالشيخ: وزير شؤون اللامركزية.
٢٢ ـ محمد محجوب سليمان: وزير الشؤون الصحفية.
٢٣ ـ حسن عبد الله الترابي: وزير العدل والنائب العام.
أما المجلس التنفيذي الأعلى للجنوب فقد بقي وكان في ذلك العام على النحو الآتي:
١ ـ جيمس جوزيف تومبورا: رئيس المجلس.
٢ ـ داهول أشول: نائب الرئيس والوزير الإقليمي للشؤون القانونية.
٣ ـ اوثوان داك: الوزير الإقليمي للمالية والتخطيط الاقتصادي.
٤ ـ فليب أوبانغ أويوي: الوزير الإقليمي للتربية والتعليم.
٥ ـ آجو ديدي: الوزير الإقليمي للزراعة والمصادر الطبيعية.
٦ ـ نيكانورا مانوك: الوزير الإقليمي للصحة والرعاية الاجتماعية.
٧ ـ أرشنجولو لولواك: الوزير الإقليمي للإسكان.
٨ ـ سيفارينو واني: الوزير الإقليمي للنقل والمواصلات.
٩ ـ فاروق أكاشاه: الوزير الإقليمي للثقافة والإعلام.
١٠ ـ جون وول: الوزير الإقليمي للتنسيق والتطور التنظيمي.
١١ ـ هاباكوك سورو: الوزير الإقليمي للسياحة والصيانة والمصادر.
١٢ ـ صموئيل رينزي: الوزير الإقليمي للخدمات والقوى العاملة.
١٣ ـ شارلس غوات كافوني: الوزير الإقليمي للحكومة اللامركزية.
١٤ ـ نيقولا أبويا: الوزير الإقليمي للتجارة والتموين.
١٥ ـ دانيال ماثويس: الوزير الإقليمي للصناعة والتعدين.
١٦ ـ كورنيلو كوريوم: الوزير الإقليمي للتنسيق في الخرطوم.
١٧ ـ فرنسيس وغو: الوزير الإقليمي لشؤون المجلس التنفيذي الأعلى.
١٨ ـ باسيفيكو لادولوليك: مستشار الشؤون السياسية.
١٩ ـ داريوس بشير: مستشار الحكومة الشعبية المحلية.

الأولى ١٤٠٤هـ (شباط ١٩٨٤م) على النحو الموضّح أدناه[١].

أعلن الرئيس جعفر محمد النميري في جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ (١٠ آذار ١٩٨٥م) عن اكتشاف مؤامرة ضده من الإخوان المسلمين، فألقى القبض على بعضهم، وأبعد الآخرين. وأعلن تغيير الوزارة[٢]. وألغت الدولة دعم الغذاء

---

(١) جعفر محمد النميري: رئيس الدولة.
عمر محمد الطيب: النائب الأول للرئيس، وزير الأمن الوطني.
جوزيف لاغو: النائب الثاني للرئيس.
الوزارة:
١ ـ جعفر محمد النميري: رئيس الوزراء، وزير الدفاع.
٢ ـ إبراهيم منعم منصور: وزير المالية والتخطيط الاقتصادي.
٣ ـ عثمان سيد أحمد إسماعيل: وزير التعليم.
٤ ـ علي محمد فادي: وزير الصحة.
٥ ـ أحمد سليم أحمد: وزير التعاون والتجارة والتموين.
٦ ـ محمد البشير الواجي: وزير الصناعة.
٧ ـ خالد حسن عباس: وزير النقل والمواصلات.
٨ ـ أبيل ألير: وزير التشييد والعمل.
٩ ـ محمد شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
١٠ ـ عثمان عبد الرحمن حكيم: وزير الزراعة والري.
١١ ـ بهاء الدين محمد إدريس: وزير في مكتب الرئاسة.
١٢ ـ خالد الخير عمر: وزير في مكتب الرئاسة.
١٣ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزير الشؤون الداخلية.
١٤ ـ محمد خوجلي صالحين: وزير التوجيه والإعلام الوطني.
١٥ ـ محمد ميرغني مبارك: وزير الشؤون الخارجية.
١٦ ـ أبو بكر محمد عثمان صالح: وزير في مكتب رئاسة الوزارة.
١٧ ـ محمد الحسن أحمد الحاج: وزير في مكتب رئاسة الوزارة.
١٨ ـ بدر الدين سليمان: وزير العمل والضمان الاجتماعي.
١٩ ـ الرشيد الطاهر بكر: وزير العدل والنائب العام.

(٢) ١ ـ **رأس الدولة:**
جعفر محمد النميري: رئيس الدولة.
عمر محمد الطيب: النائب الأول للرئيس، رئيس جهاز أمن الدولة.
جوزيف لاغو: النائب الثاني للرئيس.
الرشيد الطاهر بكر: النائب الثالث للرئيس.
٢ ـ مجلس الرئاسة:
=

والوقود، فارتفع سعر الخبز بنسبة ٣٣٪ فازداد إحساس الناس بالضيق، وقامت المظاهرات التي كانت تمهيداً للانقلاب الذي قام بتاريخ ١٦ رجب ١٤٠٥هـ (٦ نيسان ١٩٨٥م) أي بعد أقل من شهرٍ من إعلان الرئيس جعفر النميري لاكتشاف مؤامرة من الإخوان المسلمين ضده، ولم يكن ذلك الإعلان سوى وجود مبرر لضرب هذه الجماعة، وقد عمّت الفوضى البلاد مدة هذا الشهر وهذا ما دعا الجيش للتحرك والقيام بالانقلاب.

نلاحظ مما تقدم أن عهد الرئيس جعفر محمد النميري قد مرّ بأربع مراحل:

١ ـ التعاون مع الشيوعيين وتسليمهم المناصب الحسّاسة في الدولة والمراكز العسكرية، وتقديم العناصر الملحدة غير أنهم لم يصدقوا معه، ولم

= جعفر محمد النميري: رئيس مجلس الوزراء.
عبد الرحمن سوار الذهب: وزير الدفاع.
عبد الرحمن عبد الوهاب: وزير المالية والتخطيط الاقتصادي.
عثمان سيد أحمد إسماعيل: وزير التعليم والتربية.
عبد السلام عيسى: وزير الصحة والرعاية الاجتماعية.
فوزي رحيم وصفي: وزير التجارة والصناعة والتعاون.
أبو غورون: وزير الشؤون القانونية.
خالد حسن عباس: وزير النقل والمواصلات.
أبيل ألير: وزير التشييد والعمل.
محمد شريف التهامي: وزير الطاقة والتعدين.
عثمان عبد الرحمن حكيم: وزير الزراعة والري.
خالد الخير عمر: وزير في مكتب الرئيس.
علي ياسين إبراهيم: وزير الشؤون الداخلية.
علي محمد شمو: وزير الثقافة والإعلام.
هاشم عثمان: وزير الشؤون الخارجية.
محمد الحسن أحمد الحاج: وزير شؤون الرئاسة.
فرح حسن: وزير العمل والضمان الاجتماعي.
حسن بشير: وزير الطيران المدني والسياحة.
صغيرون زين الصغيرون: وزير الري والطاقة الكهرمائية.
فيصل محمد عبد الرحمن: وزير الدولة في مجلس الرئاسة.
عوض الجيد: وزير العدل والنائب العام.

يقبلوا منه ما دام ليس منهم، ولم يُظهر شيوعيته، ولم يُعلن قيام الدولة الشيوعية في السودان، ولم يرتبط بموسكو، رغم أن الدولة بأيديهم لذا فقد قاموا ضده بانقلاب، ولكنهم فشلوا، وحصلوا على بعض ما اقترفوا.

٢ ـ التوجّه نحو الرأسمالية، وتقديم العناصر الموالية للغرب والمعروفة بالاتجاه العلماني، غير أن الشعب ضاق ذرعاً بالانتهازيين، وأصحاب المصالح، وعانت الدولة من الفساد، والرشوة.

وأراد سدنة النظام الرأسمالي من الرئيس جعفر محمد النميري أن يسير خطوات أوسع نحو الارتماء بالأحضان، والتنكّر لعقيدته وأمته، وأن يفسح المجال للتنصير في الجنوب على نطاق كبير، وأن يعلن استقلال الجنوب لترتع الإرساليات التنصيرية بصورةٍ أرحب رغم أنه أعطى الجنوب المزيد من الحرية وجعل منه إقليماً شبه مستقل ولكن لم يقنع المُنصّرون ومن وراءهم بهذا بل يريدون المزيد. . .

٣ ـ التوجّه نحو الإسلام: إذ لم يرض عنه سدنة النظام الرأسمالي ولا الإرساليات التنصيرية، ولا اتحاد الكنائس العالمي مما أجبره على تركهم والتحرّك تدريجياً نحو الإسلام عدوّهم الألد، وربما تحرّك في نفسه الإيمان، وعزّ عليه أن يتخلّى عن عقيدته أو أن يجعل أمته هملاً فأخذ يعود إلى انتماءاته بعاطفةٍ لا بإيمان صادق. وقد يكون نظر بعين الواقع فوجد أن بلاده لم تجن من الشيوعية إلا القتال، ولم تحصد من الرأسمالية إلا الشوك، وقد جرّب كلاهما وبقيت بلاده فقيرةً بئيسة مُتخلّفةً فأراد تجربة الإسلام فانطلق نحوه، فأخذت أوضاع البلاد تتحسّن وتزدهر، وشعر السكان بالطمأنينة، وساروا وراء رئيسهم وأيّدوه، ولو استمرّ الوضع بتطبيق الإسلام لتقدّمت البلاد، وعاش الناس بأمنٍ ورفاهيةٍ.

٤ ـ طار صواب أعداء الإسلام، وخشوا أن تخرج السودان من أيديهم إلى النهاية، وأن تحذو البلدان الإسلامية حذوها وتُطبّق الإسلام، وأن يقبل الناس نحو الإسلام بعد أن أحسّوا بالخير، ويسلم من لم يسلم، وهذا ما يُشكّل خطراً على سدنة الصليبية واليهودية، والبلدان النصرانية كلها، وعلى

أصحاب النظريات السياسية والاقتصادية، ورجال الأنظمة الوضعية... لذا فقد خوّفوا الرئيس جعفر محمد النميري من استمراره على هذا السلوك، وحذّروه من بقائه على هذا التفكير...

خاف النميري وقرر تغيير خطه فأعلن عن اكتشافه مؤامرة من الإخوان المسلمين ضده فبدأ بالتخلّي عنهم، والحرب عليهم، ورجع يلتمس النصر من الغرب ومن الشرق... فأظهروا تأييدهم له، وحمايته من خصومه... وأبطنوا رميه في أماكن المهملات... وتضايق المسلمون أيضاً منه بعد أن رأوا ارتماءه في أحضان الأعداء... وخافوا أن يضيعوا ما كسبوه من تطبيق الشريعة وحصلوا عليه من الأمن والطمأنينة وتحسّن الأوضاع الاقتصادية...

قامت حركة ضدّه وأطاحت بنظامه الغريب. وبقي المسلمون يعملون على استمرار تطبيق القوانين الشرعية، وأخذ الأعداء من رأسماليين، وشيوعيين، وعلمانيين، وصليبيين، ويهود يُحاربون استمرارية تطبيق تلك القوانين، ووحّدوا صفوفهم وعملوا على دعم حركة التمرّد في الجنوب للتخلّص من تطبيق الشريعة الإسلامية ووضعوا ثقلهم وراء تلك الحركة الانفصالية، وخلف الدول المجاورة النصرانيّة، ويدعم ذلك اتحاد الكنائس العالمي، والإرساليات التنصيرية، والدول النصرانية كافةً من شيوعيةٍ ورأسمالية، وإسرائيل، وكل من يسير في فلك هذه الدول.

لذا أصبح استمرار تطبيق الشريعة الإسلامية هو الحدّ الفاصل للتفاهم أو الاختلاف في كل حوارٍ أو مناقشةٍ، وتأييد النظام القائم أو محاربته.

ورغم أن الرئيس جعفر محمد النميري قد جعل من الجنوب إقليماً خاصاً، وجعل له مجلساً تنفيذياً أعلى أشبه ما يكون بحكومةٍ مستقلةٍ فإن جون قرنق يُحمّله مسؤولية كل ما حدث إذا يدعي أن جعفر النميري كان يريد أن يتخلّص من معاهدة «أديس أبابا» عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م). كما يتهمه بحلّ المجلس النيابي والتنفيذي للجنوب عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) دون سندٍ دستوري.

الإنقلاب العسكري الثالث

١٦ رجب ١٤٠٥ - ١٦ رجب ١٤٠٦ هـ
(٦ نيسان ١٩٨٥ - ٢٦ آذار ١٩٨٦ م)

قام بالانقلاب وزير الدفاع عبد الرحمن سوار الذهب مع عدد من كبار ضباط الجيش الذين شكّلوا المجلس العسكري[١] الأعلى الذي تحمّل مسؤولية تسيير الحكم، وقد أعلن من البداية أنه لا يريد الاستئثار بالسلطة، وإنما سيسلمها إلى حكومةٍ مدنيةٍ بعد مرحلةٍ انتقاليةٍ لا تزيد على السنة، وقد وفى بوعده فعلاً.

عمل المجلس العسكري قبل كل شيءٍ على إنهاء قضية الجنوب، ودعا ما يُسمّى بالحركة الشعبية المتمرّدة إلى صفوف القوى الوطنية التي قامت بالحركة الانقلابية غير أنه لم يجد أية استجابةٍ من قبل المتمرّدين.

وأصدر المجلس العسكري عفواً عاماً، وأمر بوقف إطلاق النار، ووجّه النداءات المتكررة إلى جون قرنق للحضور إلى الخرطوم للتفاهم. غير أن المتمرّدين وصفوا المجلس العسكري برئاسة عبد الرحمن سوار الذهب[٢] أنه

---

(١) ضمّ المجلس العسكري:
١ - الفريق أول: عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب.
٢ - الفريق: تاج الدين عبد الله.
٣ - الفريق: يوسف حسين.
٤ - الفريق: توفيق خليل.
٥ - اللواء: حسن تاج.

(٢) كان عبد الرحمن سوار الذهب صديقاً لجون قرنق، وقبل أن يعلن جون قرنق تمرّده بيومين كان عند عبد الرحمن سوار الذهب في منزله وقد تناول عنده طعام الغداء.

(مايو رقم ـ ٢ ـ) وأخذ جون قرنق يدعو إلى التمرّد، ويُحرّض السكان على القيام ضدّ الحكم العسكري القائم.

كلّف قائد الانقلاب العسكري عبد الرحمن سوار الذهب رئيس نقابة الأطباء دفع الله الجزولي بتشكيل حكومةٍ انتقاليةٍ[1] لمدة سنة واحدةٍ، تجري في نهاية مدتها انتخابات الجمعية التأسيسية، وتسلّم الحكم للمدنيين.

أرسل رئيس الوزراء دفع الله الجزولي خطاباً إلى جون قرنق زعيم الحركة الشعبية المتمرّدة في الجنوب للانضمام إلى صفوف السودانيين والتفاهم معهم، غير أن جون قرنق شنّ هجوماً على الحركة العسكرية وعلى الحكم في بيان أصدر بتاريخ ٢٩ رجب ١٤٠٥هـ (١٩ نيسان ١٩٨٥م) كردٍّ على خطاب رئيس الوزراء، ثم أصدر بياناً آخر بتاريخ ٨ رمضان ١٤٠٥هـ (٢٧ أيار ١٩٨٥م) هاجم فيه الحكام العسكريين الجدد بشكلٍ أعنف مما جاء في البيان الأول.

وأعلنت الحركة الشعبية المتمرّدة في الجنوب بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٤٠٥هـ أنها سترّد على خطاب رئيس الوزارة دفع الله الجزولي، غير أنها لم

---

(١) تشكلت الحكومة في ٢ شعبان ١٤٠٥هـ (٢٢ نيسان ١٩٨٥م) على النحو الآتي:
١ ـ دفع الله الجزولي: رئيساً للوزراء.
٢ ـ صموئيل أرو: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للري.
٣ ـ إبراهيم طه أيوب: وزيراً للخارجية.
٤ ـ عوض عبد المجيد: وزيراً للمالية، والتخطيط.
٥ ـ سيد أحمد السيد: وزيراً للتجارة، والتعاون، والتموين.
٦ ـ عبد العزيز عثمان موسى: وزيراً للطاقة، والصناعة، والتعدين.
٧ ـ بيتر جات كوت: وزيراً للنقل والمواصلات.
٨ ـ صديق عابدين: وزيراً للزراعة والموارد الطبيعية.
٩ ـ حسين أبو صالح: وزيراً للصحة والرعاية الاجتماعية.
١٠ ـ أوليفر باتال البينو: وزيراً للخدمة العامة والعمل.
١١ ـ اللواء عباس مدني: وزيراً للداخلية.
١٢ ـ أمين مكي مدني: وزيراً للتشييد والبناء.
١٣ ـ محمد بشير حامد: وزيراً للثقافة والإعلام.
١٤ ـ بشير حاج التوم: وزيراً للتعليم.

تفعل. وكانت مطالب جون قرنق التي أعلنها بعد قيام الحركة العسكرية في ١٦ رجب ١٤٠٥هـ هي إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية التي اتخذت في ذي الحجة من عام ١٤٠٣هـ (أيلول ١٩٨٣م)، ووقف إطلاق النار، ورفع حالة الطوارئ، ووقف إعلان سيادة الشمال على الجنوب.

ولما كانت قضية الجنوب أهم مشكلةٍ تواجه السودان لذا فقد جرت عدة مبادراتٍ، وكان منها:

مبادرة جوزيف لاغو:

جوزيف لاغو أحد زعماء الجنوب، تسلّم الوزارة مراتٍ عدة، وتقلّد منصب رئيس المجلس التنفيذي الأعلى في الجنوب سنواتٍ عدة. اقترح أن تترك الحركة الشعبية المتمرّدة في الجنوب شعار الاشتراكية الذي ترفعه لأنه غير مقبول سواء أكان في الشمال أم في الجنوب، كما اقترح قيام حكومةٍ قويةٍ على أساسٍ نسبيٍ بين الشمال والجنوب، وبناء جيش سوداني على أساسٍ نسبيٍ أيضاً، وإقامة مجلس رأسٍ للدولة مؤلفٍ من خمسة أعضاء على أن يكون اثنان منهم من أبناء الجنوب.

مبادرة الأساقفة النصارى:

تعد النصرانية قضية الجنوب السوداني قضية ذات أهميةٍ بالغةٍ بالنسبة لها حيث يجري فيها صراع بينها وبين الإسلام على حد رأي سدنتها من الأساقفة والبطارقة لذا فهم يمدّون أنوفهم في كل موضوع بل يُثيرون الشغب والفوضى باستمرار ضد الحكم القائم، ويتحرّكون باسم الصليبية ويُحرّضون النصارى في العالم أجمع ودولهم ضد المسلمين ولدعم الجنوب ولو كان دعماً للوثنية.

تقدّم الأساقفة بمبادرةٍ منهم باقتراحاتٍ في ربيع الثاني من عام ١٤٠٦هـ (كانون الأول ١٩٨٥م)، ومن هذه الاقتراحات إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية المعمول بها، وإيجاد حلولٍ لمشكلات الجنوب.

مبادرة الحكومة:

كان الحكم السوداني قبل هذا، وفي مطلع عام ١٤٠٦هـ (أيلول ١٩٨٥م)

قد طرح إجراء تجمّعٍ وطنيٍ يضمّ جميع القوى الشعبية في السودان لبحث قضية الجنوب.

مبادرة حزب الأمة والنقابات:

تمّ اجتماع بين حزب الأمة ممثلاً في إدريس البنا، وبشير عمر علي، وشاركت فيه بعض النقابات وبين الحركة الشعبية المتمرّدة مبادرةً من حزب الأمة، وقد تمّ الاجتماع في شهر رجب من عام ١٤٠٦هـ (آذار ١٩٨٦م)، واقترح حزب الأمة تجميد قوانين الشريعة الإسلامية، وقد عُرف هذا الاتفاق باسم «اتفاقية كوكادام».

❁ ❁ ❁

الحكمُ المدني الثّالِث
١٦ رجب ١٤٠٦ ـ ٢٧ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ
(٢٦ آذار ١٩٨٦ ـ ٣٠ حزيران ١٩٨٩ م)

وجرت الانتخابات النيابية في السودان لتشكيل الجمعية التأسيسية في شعبان ١٤٠٦هـ (نيسان ١٩٨٦م) حسب الوعود التي قطعها على نفسه قائد الانقلاب العسكري عبد الرحمن سوار الذهب، واجتمعت الجمعية التأسيسية في ١٦ شعبان ١٤٠٦هـ (٢٦ نيسان ١٩٨٦م)، وحاز حزب الأمة على أكثر الأصوات، وتلاه الحزب الاتحادي الديمقراطي فالجبهة الإسلامية، فاختير الصادق المهدي رئيساً للوزارة[١]، كما تشكّل في الوقت نفسه مجلس لرئاسة

---

(١) تشكلت الوزارة يوم الاثنين ٧ رمضان ١٤٠٦هـ (١٥ أيار ١٩٨٦م)، وقد ضمت ثمانية وزراء من حزب الأمة، وستة وزراء من الحزب الاتحادي الديمقراطي، وأربعة وزراء من أحزاب الجنوب، وأبعد عن الوزارة الحزب القومي السوداني الذي يرأسه فيليب غبوش، وكانت الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ الصادق المهدي: رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع (الأمة).
٢ ـ عمر نور الدائم: وزيراً للزراعة. (الأمة).
٣ ـ آدم موسى ماديبو: وزيراً للطاقة. (الأمة).
٤ ـ مبارك عبد الله الفاضل: وزيراً للصناعة. (الأمة).
٥ ـ بكري أحمد عديل: وزيراً للتربية. (الأمة).
٦ ـ صلاح الدين عبد السلام خليفة: وزيراً لشؤون مجلس الوزراء. (الأمة).
٧ ـ بشير عمر علي: وزيراً للمالية. (الأمة).
٨ ـ عبد المحمود حاج صالح: وزيراً للعدل. (الأمة).
٩ ـ زين العابدين الشريف الهندي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، وزيراً للخارجية. (اتحادي ديمقراطي).
١٠ ـ سيد أحمد حسين: وزيراً للداخلية. (اتحادي ديمقراطي).
١١ ـ محمد طاهر جيلاني: وزيراً للإسكان. (اتحادي ديمقراطي).

الدولة[1] من خمسة أعضاء يُمثّلون الحزبين الرئيسيين وهما: حزب الأمة والحزب الاتحادي الديمقراطي إضافةً إلى عضوٍ يُمثّل الجنوب. وقد شغلت مشكلة الجنوب الحكومة والشعب المدة كلها.

قام الصادق المهدي بزيارةٍ للحبشة، بصفته الشخصية من غير أن يحمل صفة رئاسة الوزارة أو زعامة حزب الأمة وذلك بناءً على اقتراح من جون قرنق وإصرارٍ على هذا الاقتراح، والتقى فيها مع جون قرنق لمدة تسع ساعاتٍ يوم ٢٤ شوال من عام ١٤٠٦هـ (١ تموز ١٩٨٦م)، وأبدى الصادق المهدي وجهة نظره في إعادة النظر في اتفاقية «كوكادام» لأنه لم يُشارك فيها حزبان رئيسيان هما: الاتحادي الديمقراطي، والجبهة الإسلامية إضافةً إلى أن إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية لا بدّ لها من إيجاد بديلٍ لها قبل إلغائها. غير أن جون قرنق رأى أن الصادق المهدي يُريد التهرّب من الاتفاق، وأن إعادة النظر في الاتفاقية أو إلغاءها لا بدّ من موافقة كل من حضر الاتفاقية، وحدث خلاف بين الرجلين، وعدّ قرنق أن الاتصال مع ليبيا ومع الحبشة ليس له من داعٍ لولا الرغبة في العمل على خنق حركته لذا فقد أعلن عن توطين نفسه لحربٍ طويلةٍ.

وفي ١١ ذي الحجة ١٤٠٦هـ (١٦ آب ١٩٨٦م) أسقطت الحركة الشعبية الجنوبية طائرة مدنيةً فوق مدينة «ملكال»، بإطلاق صاروخ من نوع سام ـ ٧ ـ فأغلقت قناة الحوار.

---

١٢ ـ محمد وفيق أحمد: وزيراً للإعلام. (اتحادي ديمقراطي).
١٣ ـ محمود يوسف أبو حريرة: وزيراً للتجارة. (اتحادي ديمقراطي).
١٤ ـ حسين أبو صالح: وزيراً للصحة. (اتحادي ديمقراطي).
١٥ ـ الدواغوا دينغ: وزيراً للحكم المحلي. (جنوب).
١٦ ـ جاشو ديلوار: وزيراً للحكم المحلي. (جنوب).
١٧ ـ إسماعيل أباكار: وزيراً للثروة الحيوانية. (جنوب).
١٨ ـ وولتر كونيغوك: وزيراً للعمل. (جنوب).
١٩ ـ خالد ياجي: وزيراً للوحدة والسلام. (جنوب).
٢٠ ـ سرفينو واني: وزيراً للاتصالات. (جنوب).

(١) ضمّ مجلس رئاسة الدولة: أحمد علي ميرغني رئيساً من الحزب الوطني الاتحادي، وإدريس البنا نائباً للرئيس من حزب الأمة وكل من ميرغني النصري من الوطني الاتحادي، وعلي حسن تاج الدين من حزب الأمة، وباسفيكو لادوليغ ممثلاً للجنوب.

أما الجبهة الإسلامية فقد عارضت اتفاقية «كوكادام»، وأرسلت وفوداً إلى الحبشة، وكينيا، وأوغندة، وإنكلترا التقت بمُمَثّلين عن الحركة الشعبية التي يتزعّمها جون قرنق، وطرحت حلاًّ لقضية الجنوب مُغايراً لاتفاقية «كوكادام»، وهو ما عُرف بميثاق السودان، وترى إقامة حكمٍ اتحاديٍ في البلاد، وعقد مؤتمرٍ للسلام بدلاً من المؤتمر القومي الدستوري وذلك في شهر جمادى الأولى من عام ١٤٠٧هـ (مطلع عام ١٩٨٧م).

ندوة واشنطون:

في ١٧/١٨ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ (١٦/١٧ شباط ١٩٨٧م) عقد فرانسيس دينغ أحد زعماء الجنوب السوداني، وكان وزيراً أيام حكم جعفر النميري ندوةً في مدينة واشنطون في معهد «ودور ويلسون» الدولي للعلماء، وقد رأى رجال الندوة أن قضية الجنوب ليست صراعاً بين المسلمين والنصارى، ولا بين الشمال والجنوب، وإنما نتيجة التخلّف القائم في جنوبي السودان، وأنه يمكن اعتماد اتفاقية «كوكادام» منطلقاً لحلّ المشكلات.

وفي ٧ رمضان من عام ١٤٠٧هـ (٥ أيار ١٩٨٧م) أسقطت قوات جون قرنق طائرةً سودانيةً أُخرى فوق مدينة «ملكال» أيضاً، فازداد الوضع سوءاً، وخاصةً أنه كان قد أُشيع في الشهر الماضي عن محاولةٍ جرت لتغيير نظام الحكم غير أن الصادق المهدي قد نفى ذلك.

وفي ١٦ شوال ١٤٠٧هـ (١٣ حزيران ١٩٨٧م) أعلن الشيوعيون عن رأيهم في القضية فاقترحوا إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية، وإلغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر لإعطاء الثقة للحركة الشعبية المتمردة وزعماء الجنوب كافةً.

وفي ذي الحجة من عام ١٤٠٧هـ (آب ١٩٨٧م) تقدم الرئيس النيجري «أوباسنغو» بمبادرةٍ منه وبواسطة من فرانسيس دينغ باقتراحٍ لحلّ مشكلة الجنوب بإلغاء قوانين الشريعة الإسلامية، والاتفاقات العسكرية، وتحديد جدول أعمال المؤتمر الدستوري.

وفي مطلع عام ١٤٠٨هـ (أيلول ١٩٨٧م)، قام وفد من الأحزاب الإفريقية السودانية بزيارة الحبشة، وأوغندة، وكينيا، والتقى الوفد بممثلين عن الحركة

الشعبية المتمرّدة وزعماء تلك الدول وتمّ توقيع ثلاثة مواثيق التزموا فيها بخط الحركة الشعبية والتوقيع على اتفاقية «كوكادام».

وعمل الرئيس الأوغندي «يوري موسفيني» على الوساطة لحلّ المشكلة. . . ولكن الحركة الشعبية قد رفضت المبادرة وكل ما سبق من مبادراتٍ.

وفي ربيع الثاني من عام ١٤٠٨هـ (أواخر عام ١٩٨٧م) قامت قوات الحركة الشعبية باحتلال الكرمك، وتصدّت لها القوات الحكومية وأوقفتها من التقدم.

وفي جمادى الأولى من عام ١٤٠٨هـ (مطلع عام ١٩٨٨م) تمّ التوقيع على ميثاق السودان الانتقالي الذي يقضي بتشكيل لجنةٍ من الأحزاب الموقّعة عليه كافةً، وتُسمى لجنة كلّ الأحزاب، وقد شكّلت هذه اللجنة لجنةً تسيير برئاسة «باسفيكو لادوليغ» عضو مجلس الرئاسة، غير أن حلّ حكومة الائتلاف وتشكيل حكومة الوفاق[1] قد جمّد نشاط اللجنة.

---

(١) تشكلت حكومة الوفاق في ٢٨ رمضان ١٤٠٨هـ (١٤ أيار ١٩٨٨م) على النحو الآتي:

١ ـ الصادق المهدي: رئيساً للوزراء.
٢ ـ الفريق أول متقاعد عبد الماجد خليل: وزيراً للدفاع.
٣ ـ حسين سليمان أبو صالح: وزيراً للخارجية.
٤ ـ حسن عبد الله الترابي: وزيراً للعدل، ونائباً عاماً.
٥ ـ فاتح التيجاني: وزيراً للزراعة والموارد الطبيعية.
٦ ـ بكري أحمد عديل: وزيراً للطاقة والتعدين.
٧ ـ صلاح الدين عبد السلام خليفة: وزيراً لشؤون رئاسة مجلس الوزراء.
٨ ـ محمود بشير جماع: وزيراً للري والموارد المائية.
٩ ـ شيخ محجوب: وزيراً للتربية والتعليم العالي، والبحث العلمي.
١٠ ـ ريتشارد ماكوبي: وزيراً للتنسيق الإقليمي، وتخطيط الحكم المحلي.
١١ ـ أوهاج محمد موسى: وزيراً للصحة.
١٢ ـ عبد الوهاب عثمان: وزيراً للصناعة.
١٣ ـ علي حاج محمد آدم: وزيراً للتجارة الداخلية، والتعاون، والتموين.
١٤ ـ إسماعيل أدكر: وزيراً للثروة الحيوانية.
١٥ ـ والدواغو دينغ: وزيراً للنقل.
١٦ ـ تاج السر مصطفى عبد السلام: وزيراً للاتصالات العامة.
١٧ ـ عثمان عمر علي المحامي: وزيراً للأشغال العامة، وتخطيط إسكان.
١٨ ـ ماسيور أبور: وزيراً للعمل.

=

وفي احتفالات ليبيا بالفاتح من أيلول (٢٠ محرم ١٤٠٩هـ) حضر وفد سوداني إلى طرابلس، وكان برئاسة حسين سليمان أبو صالح وزير الخارجية السوداني، وقد جرت مفاوضات مع المسؤولين في ليبيا لتشكيل لجانٍ سودانيةٍ ـ ليبيةٍ للإعداد لمشروع الوحدة بين البلدين، وقد صدر بيان مشترك بهذا الشأن، إذ أعلن نائب الأمين العام للحزب الاتحادي سيد أحمد الحسين أن الحزب يرفض أي شكلٍ من أشكال الوحدة مع ليبيا، وذلك للعلاقة التاريخية التي تربط الحزب بمصر والتي أرسى دعائمها علي الميرغني راعي الحزب، وإسماعيل الأزهري مُؤسّس الحزب ومعظم القيادات التقليدية للحزب. هذا مع العلم أن وزير الخارجية السوداني رئيس الوفد حسين سليمان أبو صالح هو الذي وقّع على البيان المشترك، وهو من الحزب الاتحادي نفسه. كما أعلن تاج السر محمد صالح وزير الدولة بوزارة الخارجية السودانية وهو من الحزب الاتحادي الديمقراطي نفسه عدم علمه أو موافقته على البيان، وأن التوقيع على البيان إنما تمّ بصفة حسين سليمان أبو صالح الشخصية لا بصفته الوزارية ولا بصفته الحزبية، فردّ وزير الخارجية بأن التوقيع قد تمّ بصفته الحكومية كما أن

= ١٩ ـ مبارك عبد الله الفاضل المهدي: وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية.
٢٠ ـ عبد الله محمد أحمد حسن: وزيراً للثقافة والإعلام.
٢١ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزيراً للرعاية الاجتماعية، وشؤون اللاجئين.
٢٢ ـ جشو دي وال: وزيراً للشباب والرياضة.
٢٣ ـ حسن شبو: وزيراً للإغاثة والنازحين.
٢٤ ـ فضل الله علي فضل الله: وزيراً للخدمة العامة، والإصلاح الإداري.
٢٥ ـ عبد الملك الجعلي: وزيراً للشؤون الدينية.
٢٦ ـ أمين بشير فلين: وزيراً للسياحة، والفنادق، والطيران.
٢٧ ـ أنجلو بيد: وزيراً رئيساً لمجلس الجنوب.
وبذا ضمّت هذه الوزارة:
١ ـ عشرة وزراءٍ من حزب الأمة.
٢ ـ ستة وزراءٍ من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
٣ ـ خمسة وزراءٍ من الجبهة الإسلامية.
٤ ـ خمسة وزراءٍ من الأحزاب الجنوبية الصغيرة والتي تُؤيّد رئيس الوزراء.
٥ ـ وزيراً واحداً يُمثّل الحزب الوطني السوداني الذي يُمثّل سكان النوبا.

أعضاء من الحزب قد شاركوا في إعداد هذا البيان مُشيراً إلى زميله في الوفد وفي الوزارة وفي الحزب، وهو أحمد سعد عمر وزير شؤون رئاسة الجمهورية. أما صحافة الحزب الاتحادي فكانت تسخر من هذا المشروع.

أما حزب الأمة الذي ينتمي إليه رئيس الوزراء، وهو الحزب الرئيسي في الحكم فقد أعلن تأييده للبيان، ولمشروع الوحدة، وإن وزير الإعلام عبد الله محمد أحمد الذي ينتمي إلى حزب الأمة هو الذي قطع برامج الإذاعة وأذاع البيان، كما أن عمر نور الدايم وزير المالية والاقتصاد، وهو من كبار رجالات حزب الأمة قد أعلن صراحةً تأييده وتأييد الحزب لمشروعِ الوحدة، واتهم الحزب الاتحادي بالتهرب من المسؤولية، وقال: إن الشريف حسين الهندي كان من أكبر المؤيّدين لمشروع الوحدة مع ليبيا، وقد وقّع بياناً بذلك عام ١٣٩٢هـ، كما شارك يومها بالتوقيع على ذلك البيان حزب الأمة ممثلاً بشخصية «عمر نور الدايم»، والإخوان المسلمون ممثلين بعثمان خالد مضوي.

وأما الجبهة الإسلامية فكان موقفها عادياً ليس فيه شيء من المعارضة رغم توقيع اثنين من أعضائها على البيان وهما: عثمان خالد مضوي، ومهدي إبراهيم، وفي الوقت نفسه ليس في موقفها نوع من الحماسة.

وهذا قد جعل خلافاً في الحكومة حسب انتماءات أعضائها، وفي الوقت نفسه وقع خلاف بين أعضاء الحزب الاتحادي الديمقراطي.

وتقدّمت الحكومة الجديدة بمبادرةٍ جديدةٍ عن طريق الحبشة «منغستو مريام»، وقد نصّت المبادرة على عقد اجتماعٍ تمهيديٍ لمناقشة ترتيبات وقف إطلاق النار، وتنشيط عمليات الإغاثة للمناطق المُتضرّرة، وموعد، ومكان اللقاء للمؤتمر القومي الدستوري، وجدول أعمال المؤتمر، ومناقشة طبيعة الدولة أهي مركزية أم اتحادية؟ وموضوع الدين والسياسة، وتوزيع الثروة والتنمية العادلة، والمشاركة في الحكم.

وجرت عدة لقاءاتٍ بين مُمثلين من حزب الأمة ومن الحركة الشعبية نوقشت فيها اتفاقية «كوكادام» وإمكانية تعديلها باتفاقيةٍ جديدةٍ.

الاتفاق بين الحزب الاتحادي الديمقراطي والحركة الشعبية:

وفي مطلع عام ١٤٠٩هـ (آب ١٩٨٨م) التقى بعض أعضاء الحزب

الاتحادي الديمقراطي برئاسة سيد أحمد الحسين نائب الأمين العام للحزب، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية مع وفدٍ من حركة جون قرنق، وبحثوا موضوع إلغاء اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعت مع مصر في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ (١٥ حزيران ١٩٧٦م)، ورأى الحضور ضرورة لقاء الزعيمين زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي محمد عثمان الميرغني، وزعيم الحركة الشعبية جون قرنق. بدأت المحادثات في «لندن»، ثم انتقلت إلى «نيروبي»، ثم إلى «أديس أبابا» حيث التقى الزعيمان، واتفقا في ٩ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٨٨م) على

١ ـ تجميد قوانين الشريعة الإسلامية.

٢ ـ إلغاء الاتفاقات العسكرية ومنها معاهدة الدفاع المشترك مع مصر.

٣ ـ وقف إطلاق النار.

٤ ـ رفع حالة الطوارئ.

٥ ـ عقد المؤتمر الدستوري في ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ (٣١ كانون الأول ١٩٨٨م).

غير أن الجبهة الإسلامية قد عارضت هذه الاتفاقية بعنفٍ، ولما كانت الجبهة مُشاركةً في الحكومة لذا فإن الحكومة لم تُوافق على هذه الاتفاقية، وسقطت عندما طُرحت على المجلس النيابي. وهذا ما دعا إلى خروج الحزب الاتحادي الديمقراطي من الحكم، كما اضطر أعضاء الحزب في مجلس رئاسة الدولة إلى الاستقالة[١]، وجاءت هذه الأزمة في الوقت الذي حدثت فيه زيادة في أسعار السكر الأمر الذي أدّى إلى انشقاق في الجبهة الداخلية.

وفي يوم الخميس ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨م) أي بعد الاتفاقية بثلاثة أيامٍ أطلقت قوات جون قرنق صاروخاً من نوع سام ـ ٧ ـ على طائرة وزير الدفاعِ عبد الماجد حامد خليل والقائد العام للقوات المسلحة

(١) أعضاء الحزب الاتحادي الديمقراطي في مجلس رئاسة الدولة. أحمد علي ميرغني رئيس المجلس، وميرغني النصري.

السودانية الفريق أول فتحي أحمد علي بعد إقلاعها من مدينة «واو» بلحظاتٍ وكان على متن الطائرة أيضاً عدد من القادة العسكريين[1].

إن هذا الحادث أعطى صفة الخداع لتلك الاتفاقية كما أعطى المبرر لمعارضة الجبهة الإسلامية لهذه الاتفاقية.

انسحب الحزب الاتحادي الديمقراطي من الحكومة فأعاد الصادق المهدي تشكيل الوزارة حيث دخلتها الجبهة الإسلامية[2]. وبقيت مشكلة الجنوب شغل السلطة الرئيسي.

---

(١) ادعت جماعة جون قرنق أن الذين أطلقوا الصاروخ على الطائرة من الذين كانوا داخل الأحرار، ولم يعلموا بما تمّ من اتفاقٍ، مع العلم أن عبد الماجد خليل هو الذي كان قد بعث جون قرنق إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على شهادة الدكتوراه.

(٢) شمل التعديل الوزاري عدداً من الوزارات، وقد عُيّن بموجبه:
١ ـ حسن عبد الله الترابي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ ـ والدواغوا دينغ: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للزراعة والموارد الطبيعية.
٣ ـ مأمون يوسف: وزيراً للصحة.
٤ ـ مبارك عبد الله الفاضل المهدي: وزيراً للداخلية.
٥ ـ عبد الله محمد أحمد: وزيراً للاقتصاد.
٦ ـ حسن شيخ إدريس: وزيراً للأشغال العامة والإسكان.
٧ ـ حبيب سرنوب الضو: وزيراً للطاقة والتعدين.
٨ ـ تاج السر مصطفى: وزيراً للنقل والمواصلات.
٩ ـ بشير عمر محمد فضل الله: وزيراً للثقافة والإعلام.
١٠ ـ حافظ الشيخ زاكي: وزيراً للعدل، ونائباً عاماً.
أما باقي الوزارات فلم تحدث فيها تغييرات حيث احتفظ في حقيبته الوزارية كل من:
١١ ـ الفريق أول عبد الماجد حامد خليل: وزيراً للدفاع.
١٢ ـ عمر نور الدايم: وزيراً للمالية والتخطيط.
١٣ ـ علي الحاج محمد آدم: وزيراً للتجارة الداخلية.
١٤ ـ أحمد عبد الرحمن محمد: وزيراً للرعاية الاجتماعية والزكاة.
١٥ ـ محمود بشير جماع: وزيراً للسياحة والفنادق.
١٦ ـ صلاح الدين عبد السلام خليفة: وزيراً لشؤون الرئاسة.
١٧ ـ ريتشارد ماكوبي: وزيراً للتنسيق الإقليمي.
١٨ ـ فضل الله علي فضل الله: وزيراً للخدمات العامة، والإصلاح الإداري.
١٩ ـ إسماعيل أدكر: وزيراً للثروة الحيوانية.

منبر برغن:

عُقد ما عُرف بمنبر «برغن» في النرويج، وقد ضمّ كل القوى السياسية بالسودان بما فيها حركة «قرنق»، وقد هدّد وفد الجبهة الإسلامية بالانسحاب فيما إذا طُرح موضوع اتفاق الحزب الاتحادي الديمقراطي والحركة الشعبية، ولكن لم يتوصّل الحضور إلى نتيجة.

محاولة انقلاب:

جرت محاولة انقلاب أعدّ لها أنصار الرئيس السوداني السابق جعفر محمد النميري غير أنها فشلت وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٩هـ (كانون الأول ١٩٨٨م).

مذكرة القوات المسلحة:

تقدّمت القوات المسلحة بمذكرةٍ إلى الحكومة، وطالبتها بتوسعة قاعدة الحكم، وبحث قضية الجنوب بشكلٍ جدي، إمّا بتقديم المال للقوات المسلحة للقضاء على المتمرّدين، وإمّا بالمفاوضة لإحلال السلام.

حكومة الجبهة الوطنية المتحدة:

شكّل الصادق المهدي حكومةً جديدةً[1] في ١٨ شعبان ١٤٠٩هـ (٢٥

---

(١) تشكلت الحكومة ولم يكتمل بعد توزيع الحقائب الوزارية، ودون اشتراك أحزاب الجنوب التي وقع خلاف فيما بينها أدّى إلى سحب مرشحيها للوزارة. كما حدث خلاف داخل حزب الأمة فأسندت وزارة الطاقة والتعدين إلى عمر بشير الذي كان قد أعطي وزارة النقل، ومن ثم بقيت دون وزير. وقام الصادق المهدي باستعجال مجلس رئاسة الدولة بقبول الحكومة حتى يزول الغموض الذي ساد الأجواء السياسية في الأيام السابقة. وقد صدرت المراسم الخاصة بتشكيلها من حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي مناصفةً، وكانت على النحو الآتي:

١ ـ الصادق المهدي: رئيساً لمجلس الوزراء. من حزب الأمة.

٢ ـ مبارك عثمان رحمة: وزيراً للدفاع. من حزب الأمة.

٣ ـ عمر نور الدايم: وزيراً للمالية والتخطيط. من حزب الأمة.

٤ ـ مبارك الفاضل المهدي: وزيراً للداخلية. من حزب الأمة.

٥ ـ الشيخ محجوب جعفر: وزيراً للتربية والتعليم. من حزب الأمة. =

آذار ١٩٨٩م) لبحث قضية الجنوب بشكلٍ جدّي، فتبنّت مبادرة السلام، وشكّلت لجنةً وزاريةً لهذا الغرض. واجتمعت اللجنة الوزارية مع ممثلين عن الحركة الشعبية وتحدّد يوم ١٧ صفر ١٤١٠هـ (١٨ أيلول ١٩٨٩م) موعداً لاجتماع المؤتمر الدستوري.

وعاد الصادق المهدي بعد خمسة أشهرٍ من توقيع الاتفاقية الحزب الوطني الاتحادي الديمقراطي والحركة الشعبية فوافق عليها، وجرت الجولة الأولى من المباحثات في شهر ذي الحجة ١٤٠٩هـ (حزيران ١٩٨٩م)، وتقرر أن تكون الجولة الثانية في ١ ذي الحجة ١٤٠٩هـ (٤ تموز ١٩٨٩م) غير أن حركة الجيش التي قادها العميد عمر حسن أحمد البشير قد أنهت الموضوع.

محاولة انقلاب:

أعلن الصادق المهدي عن محاولة انقلاب وقعت في ١٥ ذي القعدة ١٤٠٩هـ (١٨ حزيران عام ١٩٨٩م) بقيادة العميد صلاح الضوي من سلاح المظلات، والعميد علي يوسف، والمُقدّم محمد أبو سنّ، وأُعلن أنها كانت لصالح الرئيس السوداني السابق جعفر النميري.

= ٦ ـ بشير عمر: وزيراً للطاقة والتعدين. من حزب الأمة.
٧ ـ إسماعيل أدكر: وزيراً للإسكان والأشغال. من حزب الأمة.
٨ ـ محمود بشير جماع: وزيراً للري والقوى المائية. من حزب الأمة.
٩ ـ صلاح الدين عبد السلام خليفة: وزيراً لشؤون الرئاسة. من حزب الأمة.
١٠ ـ سيد أحمد الحسين: وزيراً للخارجية. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١١ ـ حسين أبو صالح: وزيراً للإعلام. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٢ ـ أوهاج محمد موسى: وزيراً للرعاية الاجتماعية. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٣ ـ ميرغني عبد الرحمن: وزيراً للتجارة. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٤ ـ عثمان عمر علي المحامي: وزيراً للعدل ونائباً عاماً. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٥ ـ إبراهيم رضوان: وزيراً للصناعة. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٦ ـ عبد الرحمن أبو الكل: وزيراً للصحة. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٧ ـ عكاشة بابكر: وزيراً للعمل. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.
١٨ ـ أبو زيد محمد صالح: وزيراً للخدمة العامة. من الحزب الاتحادي الديمقراطي.

الانقلاب العسكري الرابع

في صباح يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة ١٤٠٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٨٩م) وقع الانقلاب العسكري الرابع بقيادة العميد الركن عمر حسن أحمد البشير[1]، الذي أعلن نفسه رئيساً لمجلس قيادة الثورة الجديد[2] في السودان، وقد أعلن

---

(١) عمر حسن أحمد البشير: ولد عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) في قرية جنوب شندي تدعى «حوش ودبانقا» حصل على الثانوية العامة عام ١٣٨٥هـ، والتحق بالكلية العسكرية، وتخرّج منها ١٣٨٧هـ في سلاح المظلّات، وينتمي إلى قبيلة «الجعليين»، ونال درجة الماجستير في العلوم العسكرية «أركان حرب» من الخرطوم، وانتدب للعمل في وزارة الدفاع في دولة الإمارات العربية عام ١٣٩٩هـ، ثم عمل في القيادة العامة رئيساً لأركان حرب سلاح المظلّات، ثم في اللواء الثامن جنوبي كردفان، ثم في منطقة «بانتيو» جنوبي السودان، وقاد فرقته العسكرية لتحرير مدينة «مايوم» من أيدي المتمردين عام ١٤٠٧هـ، وله سبعة إخوة ذكور هو أكبرهم. وابتعث إلى القاهرة لحضور دورةٍ تدريبيةٍ، وهو في طريقه من جنوبي السودان إلى القاهرة مكث في الخرطوم للراحة عدّة أيام وحضّر للانقلاب وقاده.

(٢) تألف مجلس قيادة الثورة من:

١ ـ العميد الركن عمر حسن أحمد البشير رئيساً.
٢ ـ العميد الركن الزبير محمد صالح نائباً للرئيس.
٣ ـ العميد الركن التيجاني آدم طاهر عضواً.
٤ ـ العميد الركن فيصل علي أبو صالح الزين عضواً.
٥ ـ العميد الركن عثمان أحمد حسن عثمان عضواً.
٦ ـ العميد الركن إبراهيم نايل إيدام عضواً.
٧ ـ العميد الركن البحري حسين محمد فراج عضواً.
٨ ـ العقيد الركن سليمان محمد سليمان البدري عضواً.
٩ ـ العقيد الركن الطيار فيصل مدني عضواً.
١٠ ـ المقدم الركن محمد الأمين خليفة يونس عضواً.
١١ ـ المقدم الركن بكري حسين صالح عضواً.
١٢ ـ الرائد إبراهيم شمس الدين إبراهيم عضواً. =

قادة الانقلاب بياناتهم باسم «الحركة القومية لتصحيح الأوضاع»، ثم أطلقوا على أنفسهم «ثورة حزيران» ثم «ثورة الإنقاذ الوطني»، وقد أعلنت البيانات الإطاحة بحكومة الصادق المهدي، وتعطيل الدستور، وحلّ المجلس النيابي، والأحزاب السياسية، ومجلس رأس الدولة، وحكومات الأقاليم، وجميع النقابات، ومصادرة أملاك الأحزاب. وألغت رخص الصحف، وحلّت الجمعيات كلها غير الدينية منها، ثم عين قائد الانقلاب نفسه رئيساً لمجلس قيادة الثورة، ورئيساً للوزراء، ووزيراً للدفاع، وقائداً للقوات المسلحة، وفي اليوم الثاني للانقلاب، أعلن العفو العام، وتوقّف إطلاق النار، ونشاط عمليات الإغاثة.

وقع الانقلاب في الوقت الذي كان فيه رئيس مجلس رأس الدولة أحمد الميرغني في اليونان لقضاء إجازته هناك. كما أن رئيس الوزراء الصادق المهدي كان يستعدّ للسفر إلى ليبيا للقيام بزيارةٍ رسميةٍ، وكان سيغادر الخرطوم في اليوم التالي للانقلاب.

وفي يوم الاثنين ٧ ذي الحجة ١٤٠٩هـ (١٠ تموز ١٩٨٩م) أي بعد عشرة أيام من وقوع الانقلاب تشكّلت الوزارة برئاسة قائد الانقلاب العميد عمر حسن البشير[١]، والذي حمل بعدها رتبة فريق.

= ١٣ ـ العميد دومنيك كاسيانو قينوا وابخيت عضواً.
١٤ ـ العقيد بيو بكوان دينغ عضواً.
١٥ ـ العقيد مارتن ملوال أروب عضواً.
١٦ ـ العقيد البحري صلاح الدين محمد أحمد كرار، عضواً.

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:
١ ـ الفريق عمر حسن أحمد البشير: رئيساً للوزراء، ووزيراً للدفاع.
٢ ـ العميد الزبير محمد صالح: نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ المقدم الصبيب إبراهيم محمد خير: وزيراً لشؤون الرئاسة.
٤ ـ علي سحلول: وزيراً للخارجية.
٥ ـ العميد فيصل علي أبو صالح: وزيراً للداخلية.
٦ ـ حسن إسماعيل البيلي: وزيراً للعدل، ونائباً عاماً.
٧ ـ علي محمد شمو: وزيراً للثقافة والإعلام.
٨ ـ سيد علي زكي: وزيراً للمالية والتخطيط الاقتصادي الوطني. =

وفي ١٧، ١٨ محرم ١٤١٠هـ (١٩ و٢٠ آب ١٩٨٩م) كانت جولة المفاوضات الأولى للسلام سافر وفد إلى الحبشة برئاسة العقيد محمد الأمين خليفة، والتقى بممثلين عن الحركة الشعبية، وتمّ الاتفاق أن يكون الاتصال مباشراً بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية عن طريق السفارة السودانية في أديس أبابا.

وفي الوقت الذي كان الحكم يُفاوض المتمردين كان في الوقت نفسه يستعدّ لمنازلتهم وينتصر عليهم، ويُقلّل من دائرة نفوذهم وذلك لأنه رأى تعنّتهم، وعدم الرغبة عندهم بالوصول إلى حلٍّ إذ كان وراءهم من نصارى ويهودٍ وعلمانيين من يُشجّعهم لبث الفوضى في أرجاء السودان رغبةً منهم في امتداد نفوذ الإرساليات النصرانية لتعمل عملها في شمالي السودان وكل أنحائه. وإن انتصار الحكم السوداني الجديد على المتمرّدين قد هزّ كيان الأعداء للمسارعة في دعم الحركة الشعبية في الجنوب ومدّها بما تحتاج إليه مادياً ومعنوياً، وأسرعت الحبشة، وإسرائيل، ونصارى إفريقية، واتحاد الكنائس العالمي، والإرساليات التنصيرية لتقديم المساعدات والوقوف إلى جانب المتمرّدين، وتدعم ذلك كله الدول الكبرى وبقية الدول النصرانية التي تعدّ نفسها صاحبة الشأن.

= ٩ ـ أحمد علي قنيف: وزيراً للسياحة والموارد الطبيعية.
١٠ ـ عبد الله دينق نيال: وزيراً للإرشاد والتوجيه.
١١ ـ ناتالي بانكي أسيو: وزيراً للحكم المحلي، وتنسيق شؤون الأقاليم.
١٢ ـ يعقوب أبو شورة موسى: وزيراً للري.
١٣ ـ عبد المنعم خوجلي: وزيراً للطاقة والتعدين.
١٤ ـ محمد عمر عبد الله: وزيراً للصناعة.
١٥ ـ محجوب البدوي محمد: وزيراً للتربية والتعليم.
١٦ ـ محمد الهادي مأمون المرضي: وزيراً للإسكان والتشييد والمرافق العامة.
١٧ ـ بيتر أورات أدور: وزيراً للإغاثة وشؤون النازحين.
١٨ ـ علي أحمد إبراهيم: وزيراً للنقل والمواصلات.
١٩ ـ جورج كونقا: وزيراً للعمل والتأمينات الاجتماعية.
٢٠ ـ فاروق البشري: وزيراً للتجارة والتعاون والتموين.
٢١ ـ شاكر السراج: وزيراً للصحة والرعاية الاجتماعية.

كما أن الاتجاه العام للحكم يميل إلى الإسلام، وهذا ما زاد من حقد الأعداء حتى أن الولايات المتحدة قد قطعت المساعدات التي كانت تُقدّمها للسودان بحجة أن الحكم إسلامي، وقد أعلنت هذا بكل صراحةٍ ومن غير خجلٍ، وحبذا لو يدرك المسلمون الذين يتجهون شرقاً أو غرباً إلى ما وراء هذا الإعلان.

وتنتظر الدول الأخرى لتُؤدّي دورها تجاه هذا الحكم وبشكلٍ أقوى مما بدأت به الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ٣ جمادى الأولى ١٤١٠هـ (١ كانون الأول ١٩٨٩م) جرت مفاوضات أيضاً بين الحكومة السودانية[١] والحركة الشعبية المتمرّدة التي يتزعّمها جون قرنق[٢]، واستمرّت خمسة أيام دون الوصول إلى نتيجة.

---

(١) كان وفد الحكومة برئاسة اللواء الطيار عبد الخالق إبراهيم، ويضم في عضويته كلاّ من:
١ ـ سفير السودان في الحبشة علي نميري.
٢ ـ العميد كمال علي مختار.
٣ ـ عبد الباسط سبدرات.
٤ ـ عبد السميع عمر.
٥ ـ العقيد حسن ضحوي.
٦ ـ عبد الله إدريس.
٧ ـ غازي صلاح الدين.
٨ ـ فيليب أوبانغ.
٩ ـ ماثيور أوبور.
١٠ ـ أندرو كاوانغ.
١١ ـ أندرو ليك.
١٢ ـ صلاح محمد إبراهيم.
١٣ ـ فضل السيد أبو قصيصة.

(٢) كان وفد الحركة الشعبية المتمرّدة يضمّ:
١ ـ منصور خالد.
٢ ـ ياسر عرمان.
٣ ـ بنجامين برنابا.
٤ ـ اليجا مالو.
٥ ـ محمد سعيد بازرعة.

وتبثّ الحركة الشعبية المتمرّدة أخبارها عن طريق إذاعة أديس أبابا التي تُخصّص لها ساعةً كل يوم لتذيع أنباء الحوادث الدائرة في الجنوب من وجهة نظرها، وتُوجّه النداءات لأبناء السودان، والدول المجاورة، والنصارى لدعمها، وتبثّ اتهاماتها للحكومة السودانية.

ومن المؤسف أن كل من يختلف مع الحكم القائم لأي سببٍ من الأسباب يتجه نحو المتمردين دون التفكير في شؤون عقيدته أو أمته أو بلاده التي يُحاربها أعداء من الخارج ويدعمون جون قرنق ليُؤدّي الدور عنهم، وربما يغضّ المرء الطرف عن إنسانٍ عاديٍ جاهلٍ فيجد له العذر لجهله أما أمثال منصور خالد الذي شغل في يوم من الأيام نائب رئيس الدولة وتقلّد عدة وزاراتٍ، وعدة مناصب سياسية هامة ثم يلتجئ إلى جون قرنق ويكون رئيس وفده، والرجل الناطق باسمه، وأمثال مبارك عبد الله الفاضل المهدي الذي يُعدّ أحد أقطاب حزب الأمة، ذلك الحزب الذي يدّعي الاتجاه الإسلامي، وحامي الأنصار، وأن أسرة مبارك من آل المهدي قد حملت لواء الإسلام في سنوات خلت... ومع ذلك فإن مجرد ابتعاده عن السلطة قد جعله يُعادي الحكم الجديد، ويتجه إلى المتمردين، مع علمه الكامل أن العهد الجديد لا يُحارب بهذه الضراوة إلا لما يحمل من أفكارٍ وتوجّهٍ إسلامي.

غير أن الشعب قد انتبه إلى ما لم يتنبه إليه الساسة الكبار فعضد الحكم، وشمّر عن الساعد لقتال المرتدين.

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث
الصراعات الداخلية

تزيد مساحة السودان على مليونين ونصف من الكيلومترات المربعة وهي مساحة كبيرة، إذ تُعدّ السودان أكبر البلدان العربية مساحةً، وكذلك أكبر دول إفريقية، ومع هذا فلا يزيد عدد سكانها على اثنين وعشرين مليوناً كثيراً، وبذا فالكثافة السكانية قليلة مع إمكانات البلاد الكثيرة.

ويختلف السكان من حيث الأصول ويتباينون حسب نمط المعيشة، ويفترقون حسب المناطق وأنواع المناخ ومع ذلك فإن هذا لا يُسبّب تفرقةً فيما بينهم، وإنما يبدو الاختلاف حسب العقيدة، وهذا هو الواقع والصحيح، وإن كان الأعداء المتمثّلون في المستعمرين وفي الإرساليات النصرانية هم الذين حاولوا توسعة هذا الخلاف في محاولةٍ لنشر النصرانية بين القبائل الوثنية في الجنوب، وفي محاولةٍ لفصل الجنوب عن الشمال. ومع هذا الذي يجب أن يُدركه المسلمون، ويعملوا على توثيق أواصر الصلة فيما بينهم، ويسعوا للوقوف في وجه الأعداء فإن المصالح قد فرّقتهم، والأهواء قد شتّتتهم، وجاءت الأحزاب السياسية فقسّمتهم وجعلتهم فرقاً أمام الأعداء فسُهل النيل منهم، ورسم المخططات لإذلالهم.

الجماعات البشرية:

إن موقع السودان واتساع أرضه قد جعله موطناً لعددٍ من الجماعات البشرية وطريقاً لمرور عددٍ آخر فاستقرّ على أرضه بعضها ومن أهم هذه الجماعات:

١ ـ النوبيون:

ويعيشون في شمال السودان على طرفي نهر النيل، ويُشكّلون ٢,٩٪ من

سكان البلاد، ويدينون بالإسلام، ويتكلّمون العربية إضافةً إلى لغتهم الخاصة. وهم: الدناقلة ويسكنون المناطق الواقعة إلى جنوب مدينة «دنقلة» وإلى الشمال منها. و«السُّكّوت» شمال المجموعة الأولى، و«المَحَس» قرب الحدود المصرية. ويعيش الآن نصف هذه المجموعات في المديرية الشمالية أي في مواطنهم الأصلية، على حين قد ارتحل النصف الآخر طلباً للرزق، فأقام نصف المرتحلين في العاصمة «الخرطوم»، وربعهم في مديرية «النيل الأزرق»، وأكثر القسم الباقي يعمل في «كردفان» و«كسلا». ولما غمرت مياه السدّ العالي أجزاء من أراضي «المَحَس» و«السُّكّوت» انتقلوا إلى العمل والاستيطان في مشروع «خشم القربة».

٢ ـ البجاة:

وينتشرون في الشمال الشرقي من السودان بين البحر الأحمر، ونهر النيل، ونهر عطبرة، ويدينون جميعاً بالإسلام، ويُجيدون العربية مع لغتهم الخاصة، ويمتهنون رعي الإبل غالباً ثم الزراعة، ويُشكّلون ٦٪ من سكان البلاد، وهم أربع مجموعاتٍ رئيسيةٍ إضافةً إلى مجموعاتٍ أخرى وقبائل صغيرة، والمجموعات الكبرى هي: البشاريون: ويُؤلّفون ١/١٠ البجاة، وجماعة «أم علي» يعيشون في الشمال الشرقي، وجماعة «أم ناجي» يُقيمون حول عطبرة حتى سهل «البطانة». والأمرار: ويُؤلّفون ١/٦ البجاة، ويُقيمون شمال الخط الحديدي عطبرة ـ بور سودان. والهدندوة: ١/٣ البجاة، وينتقلون بين «سواكن» و«سنّار». وبنو عامر: ١/٦ البجاة، ويصلون إلى أريتريا، ويسكنون في منطقة «كسلا» و«القضارف» و«خور بركة».

٣ ـ العرب:

ويُقيمون في المناطق الوسطى، وقد جاءوا في أوقاتٍ مختلفةٍ ومنهم:

أ ـ الجعليون: ويعيشون على طول مجرى نهر النيل من جنوب دنقلة إلى جنوب أم درمان، وتعيش جماعات منهم على مجرى النيل الأبيض، وأخرى وسط كردفان. وهم مجموعات كثيرة، وبطون متعددة، حتى غدت بطون كثيرة وقبائل لها استقلاليتها، ويظنّ أفرادها أنهم لا يترابطون بغيرهم.

ب ـ الكواهلة: ويُقيمون على النيل الأبيض، وشمالي كردفان، ومنهم مجموعة تسكن على النيل الأزرق.

ج ـ جهينة: ويعيشون في منطقة الجزيرة، وسهل البطانة، ومنهم: رفاعة، والشكرية، والحلاوين، وكنانة، والعوامرة، والخوالدة. كما انتقلت مجموعات منهم إلى غرب نهر النيل، ويعيش معظمهم في منطقة كردفان، ومنهم: الكبابيش والبقارة.

الفونج: ويدّعون الانتساب إلى بني أمية، ويُقيمون بجنوب الجزيرة.

وهناك الرشايدة، والزبيدية، والعبابدة، والقرعان، والزغاوة، والبدايات، والهواوير. وكلهم من العرب، والعرب في السودان جميعهم من المسلمين.

٤ ـ الفور:

ويسكنون غربي السودان في المنطقة المنسوبة إليهم «دارفور» وعليهم ملامح الزنوج، وإن كانوا يدّعون الانتساب إلى العباسيين. وهم عدة مجموعاتٍ، ويبدو أن بعضها يعود إلى أصلٍ عربيٍ، وربما رجعت إلى بني هلال، وهي «الكنجارة»، ومجموعات تبدو عليها التقاطيع الزنجية مثل «الداجو» و«الميدوب» و«التاما» و«القمر» و«المساليت» وغيرها.

٥ ـ أهل النوبا:

وهم من الزنوج، ويسكنون تلال النوبا إلى الغرب من النيل الأبيض وشمال بحر الجبل، وتُمثّل هذه القبائل ٤٪ من مجموع سكان السودان، وبدأ الإسلام ينتشر بينهم، واللغة العربية تدخل إلى لسانهم، وحاولت الإرساليات النصرانية البروتستانتية تنصيرهم غير أنها فشلت.

٦ ـ المجموعة السودانية:

وتعيش في الجنوب الغربي، وتُمثّل ٣,٥٪ من مجموع السكان، وأبرز قبائل هذه المجموعة: الزاندي الذين لهم لغة مكتوبة، والبونغو، والميتو.

٧ ـ المجموعة النيلية:

وتعيش في مديرية أعالي النيل، وبحر الغزال، وتُمثّل ١٧,٥٪ من مجموع

السكان، وأشهر قبائلها: الدنكا، والنوير، والشُّلك، والأنواك، واللو، واللانغو، وربما كانت قبيلة الدنكا نصف هذه المجموعة، وتُمثّل النوير الربع.

٨ ـ المجموعة النيلية الحامية:

وتعيش في المديرية الاستوائية، وتُمثّل ٤٪ من مجموع السكان، وهي عدد من القبائل مثل: الباري، والمنداري، والكوكو، والمورو وغيرها.

٩ ـ الهمج:

وهم عدد من المجموعات تعيش في الجبال الواقعة جنوبي الجزيرة، ومنها قبائل: البرتا، والبورون.

ويعيش في السودان عدد من الأجانب تبلغ نسبتهم ١٠٪ من مجموع السكان، معظمهم من غربي إفريقية، ويُقيمون في بور سودان، وكسلا، والجزيرة، وكردفان، ودارفور ويعمل أكثرهم حمّالةً أو في المشروعات الزراعية، وهناك بعض اليمنيين وبعض المصريين وغيرهم.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الكبير في المجموعات العرقية والتجمعات القومية إلا أنه لم تحدث صراعات على هذه الأسس، وإن كانت تحدث أحياناً خلافات بين القبائل وربما كانت من أصلٍ واحدٍ، على مناطق الرعي، أو رغبةً في توسعة منازل هذه القبائل بعضها على حساب بعض. غير أن الصراعات التي حدثت إنما قامت على أساس العقيدة.

يدين أكثر من ٨٠٪ من السكان بالإسلام، ويشمل: العرب، والبجاة، والنوبيون، والفور وجزءاً من أهل النوبا، وقسماً من سكان الجنوب.

ويدين بالنصرانية ما يقرب من ٥٪ فقط يعيش معظمهم في الجزء الجنوبي من البلاد، وقد اعتنقوا النصرانية تحت تأثير الاستعمار والإرساليات التنصيرية، ورغم أن هذه النسبة قليلة إلا أن أثرها كبير وذلك بسبب الإمكانات التي تملكها والتي تمدّها بها الإرساليات، وبسبب الدعم الكبير من قبل الدول الأوروبية عامةً، وبسبب انتشار الوثنية في أماكن وجودها الأمر الذي يجعل الوثنيين الضعفاء البسطاء الفقراء يتبعون النصارى الأقوياء بالدعم الذي يتلقّونه،

الماكرين بالمخططات التي ترسمها لهم الإرساليات، الأغنياء بالمساعدات التي تصل إليهم، ويضطر الوثنيون مسايرة النصارى للحصول على الدواء والغذاء والتعليم، وكل هذا بيد الإرساليات النصرانية، لذا يتوهّم كثير من الناس أن الجنوب نصراني، وربما شاع هذا حتى ثبت في أذهان الناس وخاصةً أن أحداث الجنوب التي تتحرّك بإمرة النصارى للسبب الذي سبق وذكرت. وتعيش في الشمال أقلية نصرانية في المدن، وهم من الأقباط ويعودون إلى أيام النصرانية الأولى حيث انتشرت في السودان في القرن النصراني الأول، وعاش هؤلاء النصارى بين المسلمين في أمنٍ وأمان. كما يوجد النصارى الأرثوذكس وغيرهم من أتباع بقية المذاهب، ويعود بعضهم إلى أصلٍ يوناني، كما يرجع بعضهم إلى بلاد الشام الذين عملوا في الماضي تُجّاراً والذين سهل الاستعمار قدومهم إلى السودان كما سهل مجيئهم إلى مصر في تلك المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، ومن المدن التي يعيش فيها هؤلاء النصارى: الخرطوم، بور سودان، كسلا، القضارف، وادي مدني، عطبرة، الأُبيّض، كوستي.

وتوجد أعداد من اليهود لا يصل عددهم إلى المئات.

وتوجد مجموعة من الهنود الهندوس وتتوزع في: الخرطوم، وبور سودان، وكسلا، والقضارف.

ويعيش ١٥٪ من مجموع السكان من الوثنيين في جنوبي السودان وجبال النوبا، ورغم هذه النسبة المرتفعة قليلاً إلا أن أثرهم ضعيفٌ بسبب الحياة البدائية التي تعيشها قبائلهم أو البساطة الغالبة، غير أن وقوعهم تحت تأثير رجال النصرانية الذين تدفعهم الصليبية وتشحنهم الإرساليات حقداً قد جعلهم يعدّون دائماً ضمن أبناء الجنوب الذين يتحرّكون حسب الرأي النصراني. ولم يكن الخلاف قائماً قبل مجيء الاستعمار، فإنكلترا هي التي أثارت الصراع بين الشمال والجنوب أو بين المسلمين في الشمال وسكان الجنوب من الوثنيين الذين يسيرون بالتوجيه النصراني. وذلك بغية جذب الوثنيين إلى النصرانية والتأثير عليهم.

الصراع بين الشمال والجنوب:

وهو في الواقع صراع بين الإسلام والنصرانية، وهو ما أوجده الاستعمار

وعملت الإرساليات التنصرية على تحريكه باستمرار. إن الصراع بين العقائد لم يحدث في ديار الإسلام في أي مرحلةٍ من مراحل التاريخ بل عاش أصحاب العقائد الأخرى من أهل الكتاب ومن تبعهم من المجوس في ظل الإسلام حياةً كلها طمأنينة وسعادة، محفوظة أموالهم، مأمونة أعراضهم، محترمة عقائدهم، محمية دور عبادتهم. وإذا حدث أن وقعت بعض الأحداث البسيطة، وهي لم تقع، ورجعنا نتقصّى أسبابها وجدنا جهةً خارجيةً تُغذّيها، وقد بدأت تظهر هذه الأحداث بعد الحروب الصليبية إذ انحاز بعض النصارى إلى الغزاة المعتدين وبقوا على صلةٍ بهم بعد اضطرارهم إلى الرحيل. ثم لما ضعف المسلمون وقوي الصليبيون وقاموا بغزوهم الاستعماري بدؤوا يحرّكون نصارى البلدان التي دخلوها ليكونوا عوناً لهم، وأداةً يُسيّرونها، ووسيلةً يحكمون بها، وعيوناً لهم على أبناء وطنهم، وجهازاً للحكم مُعدّاً فيما إذا ارتحل الصليبيون عن البلد، يُنفّذون مخططاتهم عن طريقهم، ويبقون على ارتباطٍ بهم، وعملوا على نشر النصرانية تحت هذه الإغراءات وإغراءات منها المال، ومنها الجنس، ومنها التعليم، وتقديم الدواء والغذاء، وأعدّوا لذلك الإرساليات التنصيرية لتُؤدّي هذا الدور على أن هذا من مهمتها الأساسية التي وجدت من أجلها فهي مؤسسات تعليمية، وصحية، واجتماعية ولكنها لم تكن في الواقع سوى مؤسساتٍ صليبيةٍ تعمل لدينها وتطعن في بقية العقائد وخاصةً الإسلام الذي تعدّه عدوّها الأول، استعماريةٍ تعمل بتوجيه دولها لتمكين نفوذها وترسيخ أقدامها في البلدان التي احتلتها، فهي تُؤدّي دور دولها وتأخذ منها الأعطيات السخية، وتنفث سمومها بدافع حقدها الصليبي، على حين تدّعي الدول الاستعمارية الغازية أنها دول علمانية لا تهتمّ بأمر العقائد ولا تُفضّل ديناً على آخر، والجميع عندها سواء، تدّعي هذا وقد أوكلت مُهمّتها إلى رجال الإرساليات المختصين بهذه الأمور فهم أقدر على تنفيذ هذه السياسة. وربما نجد أنموذجاً على هذه السياسة بعمل إنكلترا في السودان.

طبقت إنكلترا سياستها الاستعمارية الصليبية في السودان بعد إعادة احتلاله، وقد مرّت هذه السياسة بثلاث مراحل رئيسية وهي:

المرحلة الأولى:

منذ إعادة الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد اتخذت

إنكلترا في هذه المرحلة قراراً بعد إعادة الاحتلال بأربع سنواتٍ فصلت فيه الجنوب عن الشمال، وعاملت كل قسم معاملةً تختلف عن معاملة الآخر بحجة أن الجنوب بحاجةٍ إلى المزيد من الوقت والمال والوسائل لتطويره بسبب الحياة البدائية فيه. وكانت الحجة الثانية هي حماية الجنوبيين من تجارة الرقيق التي يُمارسها الشمال ـ حسب دعواها ـ إذ هي الدولة الرحيمة بالعالم، والتي تحمل وحدها صفة الإنسانية بغضّ النظر عما يُقترف من جرائم في مستعمراتها، وتُشرّد شعوباً وتحلّ مكانها آخرين، والواقع أنها قد فقدت هذه الإنسانية وخاصةً أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ وجدت مآسي الحرب، وما تقوم به الدول الأخرى فاضطرت إلى مسايرتها فوعدت اليهود بإعطائهم أرض فلسطين وإحلالهم محلّ سكانها الآمنين بشرط أن يرتكبوا أبشع الجرائم ضد المسلمين مع مراعاة حماية النصارى. وكانت السمة الغالبة على السياسة البريطانية في جنوبي السودان عدم التدخل في شؤون هذا الإقليم إلاّ بالقدر الذي تُمليه عليها ضرورات حفظ الأمن، وهيبة الحكم، وتيسير نشاط المُنصّرين، وعدم القيام بأي مشروعٍ من المشروعات الإنشائية بسبب الفقر إلا بمقدار ما تقتضيه الضرورات الثلاث: الأمن ـ الحكم ـ التنصير. وقد أُعطي للمنصّرين حرية العمل التامة بغية إحداث نوع من التحسّن العام في أحوال السكان واكتساب ولائهم للحكم الإنكليزي بالإضافة إلى كسبهم إلى النصرانية. وذلك لأن تحسّن أحوال السكان لا يتمّ إلا عن طريق الإرساليات التنصيرية لأنها مختصة بالمعرفة النصرانية، والتعليم، وتقديم الخدمات الصحيّة والاجتماعية، أما دولة إنكلترا العظمى يومذاك فهي غير مستعدةٍ للقيام بمثل هذه المهمات أو عاجزة عن ذلك، لذلك فقد أطلقت يد الإرساليات النصرانية لتُؤدّي عنها هذه الأعمال الجليلة التي تعمل على تحسّن أوضاع السكان. وكان المنصرون يرون بسبب حماستهم الشديدة لدينهم أنه لا بدّ من السعي لتنصير سكان البلاد جميعاً من مسلمين ووثنيين، شماليين وجنوبيين فإن أوضاع السكان لا تتحسّن إلا إذا اعتنقوا النصرانية الديانة الوحيدة للحضارة والمدنية إذ لا يمكن للبشرية أن تتطوّر، وتتحسّن أوضاع أبنائها إلا إذا دانت للنصرانية، ولم يكن «كرومر» حاكم السودان الإنكليزي يومذاك يرى هذا الرأي لذلك فقد تعرّض لكثيرٍ من الضغوط

كي يسمح بذلك. وقُسّم الجنوب إلى عددٍ من مناطق النفوذ كل منطقةٍ لإحدى الكنائس أو المذاهب النصرانية المختلفة تُمارس فيها نشاطها بحريةٍ كاملةٍ بغية تنصير السكان، وفي الوقت نفسه فقد فُتحت بعض المدارس التنصيرية في مدينة الخرطوم، وبنيت فيها كنيسة، وبُرّر ذلك بوجود عددٍ من غير المسلمين في المدينة. وكانت الحكومة النمساوية تدعم الإرساليات والمدارس الكاثوليكية إضافةً إلى حكومات فرنسا، وإيطاليا، على حين تدعم إنكلترا الكنائس، والإرساليات، والمدارس الإنجيلية، وعدد من آباء هذه الكنيسة من ذوي النفوذ والجاه في العالم كله. وهكذا مضت الجمعيات النصرانية في مزاولة نشاطها في جنوبي السودان في حمى الحكومة الاستعمارية وبمساعدتها مما كان له أعمق الأثر في تعميق هوة الاختلاف بين جزئي السودان.

المرحلة الثانية:

وتمتدّ من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت إنكلترا قبل هذه المدة تعدّ مصر والسودان وحدةً ماليةً وإداريةً، فلما قامت الحركة في مصر بعد الحرب الأولى ضدّ إنكلترا ولو كانت تمسك خيطها بيدها، إلا أنها خشيت أن يمتدّ لهيب تلك الحركة إلى السودان، ولم تستعدّ لها، ولم تُهيّئ الرجال الذين يُحرّكونها، ويقبضون زمامها بشكلٍ ترتاح إليه كما فعلت في مصر، لذا خافت أن تفلت الأمور من يدها وتسير الحركات على غير هواها ودون رأيها، لذا فقد عملت على تغيير سياستها والعمل على فصل مصر عن السودان، والتأكيد على سياسة فصل شمالي السودان عن جنوبيه وبشكلٍ أوضح وأمتن، وتهدف من وراء ذلك إلى عزل جنوبي السودان عن المؤثّرات الإسلامية إلى أبعد حدٍّ ممكنٍ، لذلك عملت على أن يكون الموظفون في الجنوب من أبناء المديريات الجنوبية، وإذا دعت الضرورة القصوى إلى موظفين في الجنوب لا تتوفّر في أبنائه فيجب أن يكونوا من أقباط مصر. كما جعلت العطلة الأسبوعية يوم الأحد، وبحثت إنشاء نظام لامركزي في السودان، يستهدف فصل الأقاليم الشمالية الإسلامية عن الإقليم الجنوبي الوثني، وتقرّر بناءً على هذه السياسة أن يجتمع مديرو الجنوب وحدهم منفصلين عن مديري الشمال.

وقد صدر قانون الجوازات عام ١٣٤٠هـ، وكان أكثر الوسائل التي اتخذتها الإدارة البريطانية فعاليةً لفصل شطري السودان بعضهما عن بعض. فقد عدّ هذا القانون المديريات الجنوبية مناطق مُقفلةً لا يحق للمسلمين مهما كانت جنسياتهم دخولها على حين يسمح لرجال الإرساليات التنصيرية بصبغها بالألوان التي يرونها. وأدخل بموجب هذا القانون نظام التصاريح الذي يمنع الأجانب من دخول السودان دون إبداء أي سببٍ لذلك، وخوّل هذا القانون السلطة اعتبار أية منطقةٍ تُريدها مُقفلةً. وجعل المناطق المقفلة قسمين: قسم سُمّي بالمناطق المقفلة تماماً وقد حرّم دخولها على الأجانب والسودانيين الشماليين تحريماً تاماً، وقسم سمح للمسؤولين بإعطاء تصريح لدخولها لمن يرون، ومنع من يرون. وأُقيمت منطقة مجرّدة بين الشمال والجنوب كالمناطق التي يدور فيها قتال ضار، وتوقّف فيه القتال بتوسط جهةٍ معينةٍ.

وبعد أن تمّ طرد الشماليين من الجنوب، والفلاتة[١]، والغرباويين[٢]، والبندلة[٣] بدأ تنفيذ المخطط البريطاني بشنّ الحملات الإرهابية على الذين اعتنقوا الإسلام من الجنوبيين، وتسمّوا بأسماء عربية، وبدأ فصل كل مسلمٍ جنوبي من أي عملٍ حكوميٍّ يتولاّه.

وفي الوقت نفسه فقد منع قانون الجوازات أيضاً هجرة الجنوبيين إلى الشمال للعمل خوفاً من المؤثرات الإسلامية عليه، وفي الوقت الذي منع التجار المسلمين شجع التجار اليونانيين والشاميين النصارى بالمتاجرة مع الجنوب. ولما كانت العلاقات بين جزئي السودان ليست تجاريةً فقط بل هي اجتماعية ورسمية لذا فقد أبعد الموظفون الشماليون عن الجنوب أيضاً، غير أن هذا قد أنقص الإداريين، ولم يكن باستطاعة الجنوبيين ملء الشواغر الإدارية الناجمة عن رحيل الشماليين، ولم يكن التدريب كافياً لدى الجنوبيين لذا فقد

---

(١) الفلاتة: هو الاسم الذي يطلق في السودان على كل القادمين إليه من مسلمي غربي إفريقية، وأصله مشتق من قبيلة الفولاني.

(٢) الغرباويون: يقصد بهم سكان غربي السودان أي: كردفان، ودارفور.

(٣) البندلة: قوم مختلطون من آباءٍ عرب وأمهاتٍ من جنوبي السودان.

عملت الحكومة على تشجيع الإرساليات النصرانية، وزيادة المعونات لها للقيام بتدريب الجنوبيين على إدارة الأعمال.

وعملت الإدارة البريطانية على محو اللغة العربية من مناهج التدريس ومن التحدّث بها، وشجّعت اللهجات المحلية واللغة الإنكليزية كلغةٍ بديلةٍ، كما رغّبت في التعصّب القبيلي، ومنعت استعمال الكلمات العربية مثل: شيخ، وسلطان، واتخذت العبارات المقابلة لها في اللهجات المحلية مثل: كلمة «بنغ» عند قبائل الدنكا، وحثّت زعماء العشائر وعامة الناس الجنوبيين على المحافظة على أسمائهم القبيلية، وكانت السلطة ترفض تسجيل أي مُواطن جنوبي باسم عربيٍ، وكانت تعطيه رقماً مؤقتاً حتى يبقى حاملاً معه اسماً قبيلياً يشبه أسماء الحيوانات. ومن الغريب فعلاً أن تجد مسلماً يتكلم العربية، واسمه اسم نصراني أو وثني، ثم يتقدّم بطلب للدراسة في جامعةٍ إسلاميةٍ.

وحاربت الإدارة البريطانية صنع الألبسة العربية، وحاولت اتخاذ الأزياء الأجنبية أو الإبقاء على العريّ، وربما يتساءل المرء عن هذه الحضارة التي تحرص على الإبقاء على العريّ خوفاً من انتشار لباسٍ معروفٍ لدى شعبٍ من الشعوب. فهل العريّ خير من اللباس؟ وهل الخوف من هذا الشعب لهذه الدرجة؟ وما السبب في ذلك؟.

وفي الوقت الذي ركد فيه التعليم في الشمال ركوداً تاماً اهتمت الحكومة المستعمرة بتعليم أبناء الجنوب على يد الإرساليات النصرانية لتربية الأجيال على كره الإسلام، وتثقيفهم الثقافة الغربية، وجعلهم أعواناً لسلطتها وخاصةً بعد جذبهم إلى ديانتها، وكانت تزيد الإعانات إلى هذه الإرساليات بين المدة والأخرى وذلك لمساعدتها في تنفيذ خطتها التي تسعى إليها. وكان التعليم في المدارس الابتدائية باللهجات المحلية التي جعلت كتابتها بالحرف اللاتيني، وفي المدارس المتوسطة كانت اللغة الإنكليزية هي السائدة.

ورأت إنكلترا أن تضمّ جنوبي السودان إلى شرقي إفريقية أو إلى أوغندة واعتبارهما دولةً واحدةً وذلك لإبعاد الجنوب الوثني عن الشمال المسلم، ولتحول دون تقدّم الإسلام نحو الجنوب، ولتقطع الطريق على الدعاة والتجار

المسلمين، وليزيد عدد الوثنيين في الدولة المقترحة وفي الوقت نفسه تقلّ نسبة المسلمين فيضعف شأنهم ويقلّ مركزهم، وبدأت إنكلترا تُهيّئ لهذه الخطة فشقّت الطرق بين جنوبي السودان وأوغندة، وهي غير موجودة مع شمالي السودان، كما وجهت أبناء جنوبي السودان لإتمام دراستهم في جامعة «ماكريري» الأوغندية التي افتتحتها بدلاً من التوجّه إلى الخرطوم. ويظهر هذا جليّاً مما وصفه الحاكم البريطاني العام للسودان في أواخر عام ١٩٢٩م (١٣٤٧هـ) بأن سياسةً جديدةً ستتبع وتقوم على عدّة أسسٍ أهمها:

١ ـ إلغاء تطبيق القوانين الحديثة واللجوء إلى العرف والتقاليد للتحكيم بين أبناء الجنوب.

٢ ـ العمل على تشجيع اللهجات المحلية، وتثبيت الحياة القبيلية بكل مظاهرها وعاداتها وتقاليدها.

٣ ـ نشر اللغة الإنكليزية، وجعلها لغةً رسميةً، ولغة التفاهم الرئيسية بين القبائل الجنوبية ومحاربة اللغة العربية والأسماء العربية.

٤ ـ محاربة العادات والتقاليد التي انتقلت من الشمال إلى الجنوب، وتشجيع العريّ والإبقاء عليه.

٥ ـ نقل كل ضباط الإدارة والحكومة المحلية الشماليين من الجنوب.

وتحدّد ٣١ كانون الأول من عام ١٩٣٠م (٥ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ) موعداً أقصى لطرد الشماليين بعدما صدر قانون الجوازات الذي تكلمنا عنه عام ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ).

وعمدت الإدارة البريطانية إلى تخفيض مرتبات الجنوبيين بحجة أن الحياة لا تستدعي أجوراً عاليةً، وأصبح أجر العامل اليومي لا يزيد على ثلاثة قروش فازداد البؤس نتيجة انخفاض الدخل، وكانت هذه سبيل لتوجّه السكان نحو الكنائس والإرساليات النصرانية وطلب المساعدات منها. وتدخّلت الكنائس فعلاً، وقدّمت المساعدات المادية والعينية، فسدّت بذلك النقص الذي نشأ من تخفيض المرتبات، وظهرت للأهالي بمظهر العطوف الرحيم الذي يهتمّ بالإنسان، ولعل أن تكون هذه المساعدات مجالاً للإقبال على النصرانية بعد أن سيطرت الكنائس على العاملين في القطاع الحكومي بالمدن.

٣ ـ المرحلة الثالثة:

وتمتد من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عهد الاستقلال عام ١٣٧٦هـ، وقد حدثت عدة أمورٍ سياسيةٍ، جعلت إنكلترا تُغيّر سياستها القائمة في السودان، وأهم هذه الأمور:

أ ـ تغيّرت السياسة الاستعمارية الصليبية بعد الحرب العالمية الثانية إذ أصبح سدنة الاستعمار وخاصةً الإنكليزي منه يُفضّلون تسليم الحكم في البلاد المستعمرة إلى رجالٍ من أهل البلاد، فهم يحملون الصفة الوطنية غير أنهم يرتبطون معهم مُقابل تسليمهم السلطة، وهم مقابل هذا يُنفّذون المخططات الاستعمارية الصليبية سواء أكانت سياسيةً أم اقتصاديةً أم اجتماعيةً أم دينيةً، حيث تكون بلادهم مفتوحةً لبضائع المستعمرين السابقة، ويختار المستعمرون من المواد الخام التي تتوفّر في البلاد ما يشاءون ولهم حرية التنقيب والاستخراج والتصدير حسب المصلحة التي يراها. ولا يرتبطون مع دولةٍ ثانيةٍ إلا بعلمهم كما لا يعقدون معاهدةً أو حلفاً مع آخرين إلا برأيهم، وللمستعمرين الحق في إنشاء قواعد عسكرية سواء أكانت بريةً أو بحريةً أم جويةً وربما كان أكثر من ذلك، وهو الاحتفاظ بعددٍ من جنود المستعمرين على جزءٍ من أرض الوطن، وتقديم التسهيلات والخدمات المطلوبة وقت الضرورة وخاصةً أيام الحروب، هذا بالإضافة إلى مساعدة مدارس الإرساليات النصرانية وحمايتها وإعطائها استقلاليتها في التربية والمناهج، والمحافظة على الحرية الفردية والدينية ويقصد من وراء هذا المصطلح لا الصورة البراقة التي تعطيها، ولا الناحية الإنسانية التي ربما تخطر على بال الناس، وإنما القصد منها إعطاء الفرد الحرية الكاملة في الفساد من شربٍ للخمر، وزنا، وتحرّرٍ من الأخلاق، وحرية التعبير على كل ما هو متعارف عليه أنه غير مسموحٍ به كالأدب السافر ويقصد به غير الأدب والكلام على العقائد والمقدسات و . . . وقبول النصح أي العمل بالإيحاء عن الفئات والتجمّعات فهذه فرقة يمكن التعاون معها والإفادة منها، وتلك رجعية يجب الحذر منها ومراقبتها وضربها بحزم وشدةٍ إن دعا الأمر و . . . وربما كانت هذه الأمور ما يتطلّبها المستعمر من الّذين يُؤهلهم لتسلّم السلطة أو يمنحهم الدعم والحماية إذا ساروا عليها،

وإذا خالفوا حسب تخطيطٍ لهم يظنّونه بأنفسهم خديعةً أو حسب نزواتٍ فرديةٍ تخلى المستعمرون عنهم فأصبحوا عرضة للتيارات التي قد تعصف بهم أو بالأحرى سيخضعون لنقمة ساداتهم الذي ولّوهم الأمر، وسيُزيلونهم عما نصّبوهم عليه، والأمر سهلٍ على المستعمرين إذ لديهم أكثر من جوادٍ يُراهنون عليه، وكل منهم مُسرج مُعدّ للوقت اللازم، ولذا يكون الخنوع أكثر والخوف أشدّ على المنصب، والتمسّك به يؤدّي إلى الاستسلام للذي يُخشى منه. ومن يُطاح به يكون عبرةً لخلفه فيبقى أكثر طواعيةً وأشدّ خضوعاً، مثل هؤلاء وعلى هذا النهج ربّى المستعمرون لهم أعواناً قبل أن يرحلوا، واستمرّ ذلك بعد ذهابهم.

قدّر المستعمرون أن هذه البلاد نتيجة ظروفها الاقتصادية ستبقى مرتبطةً بالاستعمار الذي خطّط لهذه السياسة، فالمواد الأولية التي تنتجها البلاد لا تجد لها سوقاً إلا في أوروبا، والمصنوعات ليس لها معامل في البلاد، وهي بحاجةٍ إليها، مضطرة إلى أن تشتريها من أوروبا. وبهذه السياسة يُوفّر المستعمر على نفسه تكاليف الإدارة، وإيجاد الحامية على حين لم يتغيّر شيء بالنسبة إليه من الناحية الخارجية والاقتصادية بل والاجتماعية، وفي الوقت نفسه فهو ليس بحاجةٍ إلى مقاومة الحركات التي تُطالب بالاستقلال، وليس بحاجةٍ إلى الإعلام للردّ على الدعاية ضدّه والنقمة عليه فإن ما يُريده يُحقّقه على أيدي أبناء البلاد الذين تقوم عليهم النقمة والحركات والثورات ويستدعيه الأمر إلى البطش والعنف وربما كان هذا من طبعه وسياسته الخاصة المحليّة والمُوجّهة، وينظر المستعمر من بعيدٍ ويُردّد إنها أحداث داخلية لا نتدخّل فيها.

ب ـ دلّت خطط إنكلترا في شرقي إفريقية على ضعف وعدم وضوح وخاصّةً فيما يتعلّق بربط جنوبي السودان بشرقي إفريقية نتيجة الخلاف وعدم التجانس، وما يجب أن يُبذل من جهودٍ وأموالٍ في سبيل رفع المستوى.

جـ ـ النقد الشديد لسياسة الفصل التي تنتهجها إنكلترا فقد قدّم مؤتمر الخريجين إلى حكومة السودان عام ١٣٦٠هـ مذكرةً تقضي بإلغاء نظام المناطق المقفلة، ورفع القيود التي كانت مضروبةً على تحرّكات السودانيين داخل بلادهم، وأرسلت لجنة «السودنة» التي أُنشئت عام ١٣٦٥هـ لجنةً فرعيةً لدراسة

أوضاع الجنوب، حيث قدّمت تقريراً ضافياً بعد زيارتها للجنوب فضحت فيه السياسة البريطانية وانتقدتها أشدّ النقد.

وبناءً على ذلك كله، وبناءً على الصعوبات التي كان يجدها الموظفون الإنكليز في الجنوب وخاصةً بالنسبة إلى الأسماء حيث كان للكثير أسماء يُعرفون بها بين أترابهم وفي القبيلة، وهي أسماء عربية بينما هي في السجلات الحكومية أسماء قبيلية، وهذا ما يستغرق وقتاً طويلاً للتحقيق من هذا. لذا عقدت الحكومة مؤتمراً في مدينة «جوبا» عام ١٣٦٦هـ برئاسة السكرتير الإداري وعضوية مديري المديريات الجنوبية، ومدير ديوان شؤون الموظفين، وسبعة عشر من أعيان الجنوب بعضهم زعماء العشائر وبعضهم الآخر من خريجي مدارس الإرساليات النصرانية، وستة أعضاء من الشمال، وقرّر المؤتمر رغبة الجنوبيين في الاتحاد مع الشمال في دولةٍ واحدةٍ، وبناءً عليه تقرّر وجوب تمثيل الجنوب في الجمعية التشريعية المقترحة، كما يجب تشجيع التجارة وتحسين المواصلات بين الجزأين، وتوحيد سياسة التعليم.

أخذت إنكلترا بمقترحات المؤتمر وغيّرت سياستها السابقة، وربما فكّرت في الإبقاء على السودان موحّداً، وتستطيع بما لها من نفوذٍ في الإقليمين وبما بينهما من خلافٍ أن تُثير للمشكلات في كل وقتٍ ترى من مصلحتها ذلك، وكثيراً ما يلجأ المستعمرون إلى مثل هذا، فقبل أن يرحل المستعمر يُبقي بعض المشكلات الحادة أو الخلافات القائمة بين أجزاء الدولة الواحدة أو مع الدول المجاورة لها. وهكذا كان لإنكلترا الأثر الكبير في وجود مشكلة جنوبي السودان وترك جراحٍ عميقةٍ بين الشمال والجنوب لا يمكن علاجها ومعالجتها بسهولة.

وجاء الاستقلال عام ١٣٧٦هـ والسودان مُوحّد غير مجزّأ، وإن كانت فكرة التجزئة قائمةً في نفوس عددٍ من أبناء الجنوب، ممن اعتمدتهم الدولة المستعمرة من النصارى، ومن ربّتهم على هذه الفكرة وعلى كره الشمال المسلم.

اصطدمت الحكومة الوطنية أثناء تطبيق سياستها التعليمية الموحدة بالواقع

المرّ الذي أوجده في الجنوب المستعمرون والإرساليات التنصيرية، ولذا فقد اهتمت بمشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، أما معالجة المشكلة على الصعيد السياسي والدستوري فقد أوكل الأمر كله إلى لجنة الدستور القومية التي لم تكن من صلاحياتها بحث هذا الأمر. كما أن أعضاء الجنوب في هذه اللجنة قد انسحبوا منها عندما رفضت البحث في طلبٍ تقدّموا به قبل الاستقلال لإقامة حكومةٍ اتحاديةٍ في المديريات الجنوبية.

تأسّس في الجنوب حزب «الاتحاد الوطني السوداني» «سانو»، ويرأس هذا الحزب «جوزيف أودوهو» وأمين سره «وليم دينغ» ومساعده «اكري غادين»، كما انضمّ إليه «ساترينو لاهورا»[1] رئيس حزب الأحرار الجنوبي، وكثير من المتعصبين والذين لديهم حماسة زائدة ضدّ الشمال.

ومع استمرار مشكلة الجنوب استمرّت الصدامات بين أبناء الشمال وأنصار الحكومة الوطنية وبين أبناء الجنوب الذين قادهم حزب الاتحاد الوطني السوداني، وزادت أعمال التمرّد والعصيان.

استمرّت مشكلة الجنوب، وازدادت تأزّماً أيام الحكم العسكري برئاسة الفريق إبراهيم عبود إذ ظهرت في الجنوب منظمة عسكرية عُرفت باسم «أنيانيا» ومعناها ثعبان الكوبرا السام الأسود، وقد أعلنت في بيانٍ لها أن الصبر قد نفد، وأن العنف هو الطريق الوحيد للوصول إلى حلٍّ حاسمٍ، ونشطت هذه المنظمة في أعمالها، وأخذت تتلقى المساعدات العسكرية والمادية من جهاتٍ دوليةٍ مُتعددةٍ، ولعل أكبر المساعدات كانت تأتي عن طريق الإرساليات التنصيرية.

حاولت الحكومة العسكرية معالجة مشكلة الجنوب غير أنها سلكت حلاً غير مقبول إذ اتخذت أسلوب البطش والإرهاب والقتل دون تمييزٍ مما أذهل مسلمي الجنوب حيث نالهم ما نال غيرهم وأصاب الآمنين ما لحق بالمتمردين وهذا ما أجبر عدداً من المسلمين في الجنوب إلى العمل مع الوثنيين ضد

---

(١) قتل ساترينو لاهورا على الحدود الأوغندية عام ١٣٨٧هـ.

تصرّف الحكومة غير الصحيح، فقد قُتل عدد من زعماء التجار وكبارهم، واضطر عدد من السكان إلى الهرب خارج الحدود عبر أراضي أوغندة، والحبشة، وكينيا، وتشاد.

وإضافةً إلى هذا فقد أقدم الحكم العسكري على طرد الإرساليات التنصيرية من الجنوب على أنها أساس المشكلة، ومع أنه تصرّف داخلي ومنطقي إلاّ أنه قد أزعج المستعمرين بشكلٍ كبيرٍ فطار صوابهم لأنهم يعملون خلف رجال تلك الإرساليات، ومنذ تلك اللحظة تغيّرت النظرة للحكم العسكري وبدأت تقوية خصومه وتجميع صفوفهم، وعُقد مؤتمر المائدة المستديرة حيث ضمّ أحزاب الشمال وأحزاب الجنوب إضافةً إلى اتحاد الكنائس العالمي، وجبهة الهيئات التي تضمّ النقابات والمهنيين التي تشكّلت إثر ذلك. ونتيجة المقاومة اضطر الحكم العسكري إلى ترك السلطة وتسلّمتها حكومة مدنية برئاسة «سر الختم خليفة» ووعد رئيس الوزراء في بيانٍ وجّهه إلى الشعب في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٦٤م). أعلن فيه العفو العام عن المتمردين، وعمن كان قد ناصرهم من الجنوبيين، ودعا إلى عودة كل من غادر البلاد إلى الدول المجاورة فراراً من سياسة البطش والإرهاب التي كانت سائدةً أثناء الحكم العسكري، كما دعا إلى عقد مؤتمرٍ قوميٍ تشترك فيه جميع الأحزاب السودانية الشمالية والجنوبية، ويشهده مراقبون من سبع دولٍ إفريقيةٍ عربيةٍ وغير عربيةٍ وذلك للنظر في مشكلة الجنوب برمتها والتشاور في أكثر الوسائل نجاحاً لحلّها.

عُقد مؤتمر المائدة المستديرة بالخرطوم على الصورة التي سُمّي بها وذلك في شهر ذي الحجة من عام ١٣٨٤هـ (آذار ١٩٦٥م) فكان خطوةً لردّ الثقة إلى النفس، ولتلمّس الطريق إلى حلولٍ سياسيةٍ وإداريةٍ مُرضيةٍ من الشمال والجنوب على حدٍّ سواء، وقد عاد عدد من الذين غادروا البلاد ومنهم «وليم دينغ» أحد زعماء حزب سانو، وشارك في مؤتمر المائدة المستديرة، ولكن لم يلبث أن ظهر الخلاف بين الشمال والجنوب.

قال الجنوبيون: إن مؤتمر جوبا عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) الذي طالب

بالوحدة بين الشمال والجنوب لم يكن يُمثّل إرادة الجنوبيين، كما ادّعى أنصاره، وإن اتفاقية ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) كانت بين إنكلترا، ومصر، وأحزاب الشمال، ولم يكن أي رأيٍ للجنوبيين فيها، وإن استغلال الشمال للجنوب كان في الماضي والحاضر إذ لم تقم أية مشروعاتٍ حيويةٍ في الجنوب. ثم طالبوا باستقلال الجنوب، وانسحاب الجيش وقوات الأمن من المديريات الجنوبية، وادّعوا أنِ الحكومة لا تسيطر على الوضع.

واقترحت أحزاب الجنوب وهي: حزب سانو، وجبهة الجنوب إجراء استفتاءٍ في مديريات الجنوب تحت إشراف هيئةٍ مُستقلّةٍ على أن تُرفع حالة الطوارئ، ويعود الجيش إلى ثكناته في الشمال، وتتعهد أحزاب الجنوب بالعمل على إنهاء التمرّد. ولا شك فإن انسحاب الجيش من الجنوب هو تسليم زمام السلطة إلى المتمرّدين. وترى أحزاب الجنوب أن يكون الاستفتاء على الاحتمالات الآتية:

أ ـ الاتحاد اللامركزي.

ب ـ الوحدة المركزية.

جـ ـ الانفصال.

وتكون نتائج الاستفتاء ملزمة للشمال والجنوب على حدٍّ سواء. إن الاستفتاء الذي يجري في الجنوب بعد انسحاب الجيش وقوات الأمن سيكون تحت ترتيب وتهيئة وضغط المتمرّدين، وإن كانت توجدُ هيئة إشرافٍ مستقلةٍ، بل يمكن لأحزاب الجنوب أن تلعب لعبتها وعلى مرأى من هيئة الإشراف وتدّعي بعدئذٍ ما تريده، ويتمّ الأمر، وتظهر النتائج، وتأخذ الصفة الشرعية، ولهذا فإن أحزاب الجنوب كانت مطمئنةً إلى النتائج حسب ما ترغب.

أما أحزاب الشمال فترى أن حزب سانو وجبهة الجنوب لا يُمثّلان رأي الجنوبيين وإنما يفرضون أنفسهم على السكان فرضاً والدليل على ذلك أنهما قد أصدرا بياناً دعوا فيه لوقف القتال، ولكن لم يُستجب لندائهما. ومعنى سحب قوات الأمن من الجنوب حسب طلب أحزاب الجنوب إنما معناه تعرّض حياة المواطنين هناك للخطر، وخاصةً أنه توجد فئات تعيث فساداً في المنطقة دون

احترامٍ لأي قانونٍ، وكذلك بالنسبة لسحب الجيش إلى الشمال، فالجيش لكل البلادِ وليس لمنطقةٍ دون أخرى، كما لا يصحّ لجماعات تتمثّل في الحكومة بثلاثة وزراء أن تتهمها بأنها لا تسيطر على الوضع ولا على الجيش إلا إن كان هؤلاء الوزراء لا يُمثّلون أحداً. وإن كل الأقوال التي تكلمت فيها أحزاب الجنوب لا يُفهم منها إلا الرغبة في تقسيم البلاد، وهذا ما لا يرضاه مواطن. وأن الاستفتاء الآن لا يمكن أن يتمّ بسبب الأمطار، وسوء المواصلات، وفساد المتمرّدين، إضافةً إلى أن حقّ تقرير المصير هو حقّ للأمّة وليس لجزءٍ منها، كما أن الاستفتاء إعلان صريح لفشل المؤتمر. وأن انتخاب عام ١٣٧٣هـ كان مُمثّلاً للشعب السوداني تمثيلاً صادقاً، حيث تم تحت إشراف لجنةٍ دوليةٍ، وأعلن المجلس المنتخب آنذاك استقلال السودان بحدودها الحالية المعروفة وذلك في ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٧٥هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٦م).

ورأت أحزاب الشمال أن أفضل حلٍّ هو الحكم الإقليمي حيث اعتقدت أنَ الحكم المركزي لا يناسب الحال بسبب وجود الخلاف، كما أن الحكم الاتحادي لن يُؤدّي إلا إلى الانفصال وزيادة أعمال القتال. ورأت هذه الأحزاب الشمالية أن يكون للجنوبيين في الحكومة المركزية نيابة رئاسة الجمهورية وما لا يقلّ عن ثلاثة وزراء، ونواب حسب السكان.

أصرّ الجنوبيون على الاستفتاء وأضافوا نقطةً رابعة يمكن الاستفتاء عليها وهي الحكم المحلي، وبالنتيجة لم يتوصّل مؤتمر المائدة المستديرة إلى قرارٍ إجماعيٍ حول شكل الحكم الذي ينبغي تطبيقه في البلاد، إلا أنه قرّر وجوب استبعادِ شكلين للحلّ هما: الانفصال واستمرار الوضع الحالي «الدولة المركزية» لذلك طلب من الأعضاء أن يتقدّموا إلى اللجنة بمقترحاتهم حول الوضع الدستوري لمعالجة المشكلة.

وأخيراً تمّ الاتفاق على الحكم الإقليمي، ووُضّحت سلطات الحكومة المركزية والإقليمية والمشتركة بينهما، إلا أن الخلاف قد عاد فظهر حول تقسيم البلاد إلى أقاليم، ثم أصدرت اللجنة القومية للدستور توصيات حول الحكم الإقليمي وذلك في ١٦ شوال عام ١٣٨٧هـ (١٦ كانون الأول عام ١٩٦٧م).

وبينما كانت الحكومة تقوم من جهتها بتنفيذ القرارات كانت الأحوال في الجنوب سيئةً وتزداد تعقيداً، حيث كانت أعمال العنف تعرقل تنفيذ ما يجب عمله لذلك بقيت المشكلة قائمةً. وتتهم الحكومة منظمة «الأنيانيا» بالقيام بأعمال الإرهاب، وتدينها، بينما يقول الجنوبيون: إن هذه الأعمال ليست من طرفٍ واحدٍ بل إن جنود الحكومة هم الذين يرتكبون أغلبها.

ويبدو من هذا أن المفاوضين الجنوبيين من حزب «سانو» وجبهة الجنوب لا يمثلون أبداً سكان مناطقهم حيث أن أعمال التمرّد لا تزال قائمةً بل تزداد والمفاوضات مستمرة وأن النداء الذي وجهانه إلى وقف أعمال العنف لم يستمع إليه أحد ولم يلتفت إليه المشاغبون. ثم إن الخلاف إنما هو قائم على أساس شمال وجنوب أو مسلم وغير مسلم بغضّ النظر عما تعنيه كلمة مسلم، فالإخوان المسلمون والشيوعيون وبقية الأحزاب على اختلافها في الشمال على اتفاقٍ في وجهات النظر، وأحزاب الجنوب على اختلافها مع اتحاد الكنائس العالمي على اتفاق في وجهات نظرهم فالمشكلة موضوع انتماء إلى عقيدةٍ دون النظر إلى الإيمان بها، فالحقد على الشيوعي الذي ينتمي إلى أصلٍ إسلاميٍ كالحقد على أي مسلمٍ آخر مؤمنٍ بدينه مُنفّذٍ لتعاليمه.

وأثناء أحد الاجتماعات تلقّت أمانة السرّ برقيةً من حزب «سانو» بشرقي إفريقية مضمونها فصل «وليم دينغ» من الحزب وتكليف جبهة الجنوب بتمثيلهم في اللجنة إلا أن «وليم دينغ» ومُؤيّديه أصرّوا على أنهم الممثّلون الشرعيون لحزب «سانو» ورغم وصول ممثلٍ جديدٍ لحزب «سانو» من الخارج إلا أن اللجنة قررت الاعتراف بحقّ حزب «سانو» في داخل البلاد بالتمثيل في اللجنة، وهكذا ظهر الانشقاق في هذا الحزب، وتزعّم «وليم دينغ» جناحاً بينما تزعّم الجناح الآخر «جوزيف أودوهو» من خارج البلاد، واستمرّت الانشقاقات، وتشكيل الجبهات، ومنها جبهة «أزانيا» للتحرر والتي تهدف لإقامة دولةٍ تحمل اسم «أزانيا»[1] تبلغ مساحتها ربع مساحة السودان أي ما يقرب من ستمائة وخمسين ألف كيلومتر مربع، وتضمّ ٣٧٪ من مجموع سكان السودان. وقد

---

(١) أزانيا: اسم لمملكة قديمة قامت في الجنوب.

قامت أيضاً حكومات جنوبية خارج البلاد، منها حكومة جنوبي السودان الموقتة برئاسة «اكري غادين» وقامت عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)، وحلّت مكانها حكومة النيل الموقتة[١]، ونافستها حكومة «أنابيدي» الموقتة، وكانت لكل من هذه الحكومات جهات ومصادر لتقديم المساعدات المادية والعسكرية والإعلامية ومن وراء كل هذا الإرساليات التنصيرية ومجلس اتحاد الكنائس العالمي.

وظهرت خلال هذه الانشقاقات في القيادة السياسية زعامة الكولونيل «جوزيف لاغو» رئيس منظمة «الأنيانيا» الذي قاد العمل السياسي والعسكري للجنوبيين من خارج البلاد.

وعندما استقرّ وضع جعفر النميري في الحكم وعد بإنهاء مشكلة الجنوب، وهي أكبر مشكلةٍ واجهت الحكم منذ الاستقلال، وكانت سبباً رئيسياً في زوال الحكومات التي تعاقبت على البلاد. وكان الرئيس جعفر النميري قد أعلن بعد حركة ٧ ربيع الأول ١٣٨٩هـ (٢٥ أيار ١٩٦٩م) إعطاء الحكم الذاتي للجنوب، وقام بتعيين «أبيل ألير» أحد زعماء الجنوب نائباً لرئيس الجمهورية، ودخل في التنظيم السياسي القائم في البلاد، وأعلن عن تعيين ثلاثة محافظين جددٍ لمديريات الجنوب من أبناء تلك المديريات، ومثّل في الوزارة عدد من الوزراء، واشترك عدد من الجنوبيين في السلك السياسي السوداني، وبدأ الاتصال بالدول المجاورة التي تعطف على الجنوبيين، وبالدول الغربية ذات العلاقة، وبمجلس اتحاد الكنائس العالمي، والإرساليات التنصيرية التي لا يتمّ شيء في هذا المجال دونها، وأخيراً توالت الاتصالات التي انتهت باتفاقية «أديس أبابا» في مطلع عام ١٣٩٢هـ (آذار ١٩٧٢م).

وتقدّم الجنوبيون باقتراح تسع دولٍ إفريقية ليكون المؤتمر المقترح فيها، وهي: زائير، أوغندة، كينيا، الحبشة، تانزانيا، الكاميرون، ساحل العاج،

---

(١) حكومة النيل الموقتة أقامها «غوردن مارتان»، وقد عارض اتفاقية أديس أبابا. أما حكومة «أنابيدي» فقد أقامها الجنرال «تافن» بعد فشل انقلابه ضدّ «غوردن مارتان» وحكومته «حكومة النيل الموقتة»، وكان قد تسلّم رئاسة أركان حكومة «اكري غادين»، وهو يعارض أيضاً اتفاقية أديس أبابا.

تشاد، إفريقية الوسطى. ويلاحظ أن ستاً من هذه الدول مجاورة للسودان، وهي ذات حكوماتٍ نصرانيةٍ تُعادي الإسلام، وإن كان بعضها ذا أكثرية مسلمةٍ وهي: الحبشة، وتشاد، وتانزانيا، وإفريقية الوسطى، والكاميرون، وساحل العاج أما أوغندة فكان عيدي أمين لا يزال يسير في فلك الدول الأوروبية، ولم يتجه بعد نحو الدول الإسلامية، وكانت مقرّ الحكومات الموقتة السودانية الجنوبية، إضافةً إلى أنها ترغب في فصل الجنوب السوداني عن الشمال وترى أنه ربما ينضم الجنوب إليها كما كانت خطة إنكلترا الدولة المستعمرة للمنطقتين.

وكانت تشاد تساعد المتمرّدين، وتعمل حكوماتها على إقامة معسكراتٍ لهم، وتقوم على تدريبهم في أرضها، وتحرص على فصل الجنوب السوداني عن شماليه.

وأما الحبشة فقد كانت يومذاك من أكبر مراكز العداوة للإسلام، وقاعدةً لانطلاق الاستعمار، كما أنها مركز للإرساليات النصرانية ومن هذا المنطلق فهي تساعد ثوار جنوبي السودان ضدّ الشمال، ولما كانت السودان تساعد ثوار أريتريا لذا فإن الحبشة قد اتخذت من مساعدة الجنوب ضغطاً على الشمال لوقف مساعدة الثورة الأريترية، وهذا ما حدث بالفعل حيث توقفت كل مساعدةٍ للثورة الأريترية بل إن الحدود السودانية قد أُغلقت في وجهها تماماً الأمر الذي جعلها تضعف عما كانت عليه من قبل. وكانت عاصمة الحبشة «أديس أبابا» مركزاً لتسوية القضية السودانية. ولكن يجب أن نُؤكّد أن مساعدة الحبشة للمتمردين في الجنوب لم تكن ردّ فعلٍ لمساعدة السودان الدائمة للثورة الأريترية، وإنما كانت مساعدة الحبشة تقوم على أساس العقيدة ومعاداة الإسلام.

ويجب ألاّ ننسى دعم اليهود في فلسطين للمتمرّدين، واتحاد الكنائس العالمي، ثم هناك سوء المواصلات، وكثرة المستنقعات، والقتال داخل الغابات، والبيئة التي لم يعتد الشماليون على القتال فيها. كل هذه العوامل مجتمعةً قد ضغطت على الشمال، وجعلته يقبل بالشروط التي يفرضها

الجنوبيون. أما الجنوبيون فقد رأوا أن الانفصال مستحيل لأن المنطقة فقيرة ومعزولة وسط إفريقية، وبعيدة عن كل صلة بالبحر الذي يُسهّل ارتباطها ببقية دول العالم، وأن الانضمام إلى إحدى الدول المجاورة أمر صعب، فقد كانت أوغندة هي الهدف الذي يُسعى إليه غير أنها أصبحت الآن لا تختلف كثيراً عن الشمال بعد تحوّل الرئيس عيدي أمين الفكري والسياسي، إضافةً إلى أن انتشار الإسلام في أوغندة وتوسّعه بسرعةٍ يجعل المستقبل غامضاً بل إن مصلحة التنصير والإرساليات النصرانية فصل أوغندة عن المناطق المسلمة في الشمال بدولةٍ وثنيةٍ يكون للتنصير فيها دوره الكبير وقاعدته الخطيرة. كما أن العمل العسكري صعب لتفوّق الشمال عددياً وثقافياً. إضافةً إلى سوء المواصلات التي تُعيق الحركة بالنسبة للقوات المقاتلة.

وإن عدم اتفاق زعماء الجنوب على رأيٍ واحدٍ بالنسبة إلى المستقبل لعب دوراً، فقد كان مُمثّل جبهة الجنوب «اكري غادين» قد طالب باسم جبهته التي يتزعّمها «أزبوني منديري» بالاستقلال للجنوب، وكلّف «أميورو» الوزير في حكومة إبراهيم عبود العسكرية عام ١٣٨٤هـ بالعمل لذلك، أما «وليم دينغ» مُمثّل حزب «سانو» فقد اقترح نظاماً اتحادياً يُعطى فيه الجنوب صلاحياتٍ واسعةً.

هذه العوامل مجتمعةً أيضاً جعلت قادة الجنوب يتنازلون عن بعض الشروط التي كانوا في الماضي يُصرّون عليها، وجعلتهم أكثر مرونةً حيث يرضون عن بعض شروط الشمال.

انعقد مؤتمر «أديس أبابا»، ومثّل الشمال فيه «أبيل ألير» نائب رئيس الجمهورية، وهو من مديريات الجنوب، ويرافقه «دافيد كول» أحد قادة الجنوب، وهذا التمثيل معناه موافقة الشمال على ما يُمليه الجنوب إذ كان الحلّ كله بيد أهل الجنوب حيث يُمثّلون الطرفين المتنازعين، أما رئيس وفد الجنوب فكان «جوزيف لاغو» قائد قوات «الأنيانيا»، وحضر المؤتمر مُمثّلون عن المنظّمات الكنسية، والمنظمات الدولية، ومنظمة الوحدة الإفريقية، وإنكلترا، وعدد من الدول الإسكندنافية، والفاتيكان وهذه الجهات كلها كانت

وراء المشكلة. ويدلّ هذا الحشد على أهمية هذه القضية بالنسبة إلى الحضور وخاصةً دول أوربا النصرانية والفاتيكان.

أعدّت الحكومة السودانية مؤتمراً لإغاثة وتوطين أهل الجنوب أثناء انعقاد المؤتمر، ورصدت المنظمة الدولية «اليونيسيف» ثلاثة ملايين دولار للمساهمة في المشروعات الصحية.

توصّل المؤتمر إلى الاتفاق على قيام اتحادٍ بين الشمال والجنوب، تقوم فيه الحكومة المركزية بكل شؤون الدفاع، والخارجية، والمالية، والتعليم، والمواصلات، كما شمل إصدار قانون بالعفو العام عن الذين شاركوا في التمرّد والعصيان، وعملوا ضدّ السلطة، وتمّ الاتفاق على:

١ ـ أن تكون اللغة الرسمية للبلاد هي اللغة العربية، وأن تكون اللغة الإنكليزية لغة رئيسيةً في الجنوب إلى جانب اللغة المحلية الأساسية التي تقضي الإدارة بضرورة استعمالها.

٢ ـ تصبح مديريات الجنوب إقليماً واحداً، ويقصد بمديريات الجنوب: مديريات أعالي النيل، وبحر الغزال، والاستوائية بحدودها التي كانت عليها يوم الاستقلال عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م).

٣ ـ تكون مدينة جوبا عاصمة الإقليم الجنوبي.

٤ ـ يكون للإقليم الجنوبي مجلس تشريعي وآخر تنفيذي.

٥ ـ تُقدّر القوات المسلّحة في الجنوب باثني عشر ألف جندي، نصفهم من الجنوبيين خلال خمس سنواتٍ.

٦ ـ يتمّ التوقيع النهائي على هذا الاتفاق يوم ١١ صفر عام ١٣٩٢هـ (٢٧ آذار ١٩٧٢م)، وهذا التأخير لإمكانية إبلاغ الأوامر للثوار الجنوبيين حيث لا تسمح الظروف الطبيعية بالإبلاغ السريع.

ويمكن أن نقول: إن إنكلترا والمنظمات الكنسية الدولية كان يمكنها إبقاء مشكلة الجنوب السوداني قائمةً تستفيد منها كلما وجدت لها مصلحةً في ذلك هذا فيما لو كان سكان الجنوب من المسلمين حيث ترغب دائماً في اقتتال

الطرفين، وإجراء فعالية الأسلحة على الجانبين. ولكن العقيدة مُتباينة، وزيادة القتل في الجنوبيين لا تُوافق عليه أبداً، وإقامة دولةٍ في الجنوب فيه مصلحة لاتحاد الكنائس العالمي وللاستعمار حيث ينتهي حلّ المشكلة. وقد نتج عن الحل.

١ ـ وقف القتل في أبناء الجنوب، وتوطينهم، وإعادة المشرّدين إلى ديارهم.

٢ ـ إعادة عمل التنصير بشكلٍ جيدٍ ومُنظّمٍ بعد أن ضعُف أثناء تأزّم المشكلة.

٣ ـ إضعاف قوة السودان بعد تجزئته.

٤ ـ الفصل بين مسلمي أوغندة وشمالي السودان بدولةٍ مصطنعةٍ يحتضنها التنصير والاستعمار.

٥ ـ إنهاء مشكلة أريتريا بالضغط على السودان فيما إذا فكّر بمساعدة الأريتريين، وحصرها بقطع كل طرق المساعدة.

٦ ـ إضعاف مصادر الثورة في تشاد ضدّ حكومة الأقلية النصرانية، وقد تكرّرت هذه الثورة ثلاث مراتٍ خلال ستة أعوامٍ، وقادتها من المسلمين الذين لهم صلات مع السودان.

وقد عارضت الجبهة الوطنية السودانية، وهي التي تُعارض حكم الرئيس جعفر النميري، هذا الاتفاق، ووزّعت بياناً حمل توقيع حسين الهندي[1]، رئيس الجبهة، وعمر نور[2]، وعثمان خالد مضوي[3]. وقالت الجبهة في بيانها: إن هذا الاتفاق سيُؤدّي حتماً إلى الانفصال التام خاصةً وأن مديريات الجنوب قد أصبحت إقليماً واحداً[4].

---

(١) حسين الهندي: من أعضاء الحزب الوطني الاتحادي، وكان وزيراً للمالية في حكومات محمد أحمد محجوب التي قامت حركة ٧ ربيع الأول ١٣٨٩هـ ضدّها.

(٢) عمر نور: من حزب الأمة.

(٣) عثمان خالد مضوي: من الإخوان المسلمين ويمثل جبهة الميثاق الإسلامي.

(٤) حدث خلاف حول تقسيم السودان أثناء انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة إذ رفض الشمال دمج مديريات الجنوب الثلاث في إقليمٍ واحدٍ.

وبعد اتفاقية أديس أبابا فُتحت الحدود بين أوغندة والسودان في ٢٩ ربيع الأول ١٣٩٢هـ (١١ أيار ١٩٧٢م) بعد أن أُغلقت لمدة ثلاثة أعوامٍ كاملةٍ من قبل أوغندة بحجة أن القوات السودانية كانت تُلاحق مجموعات من المتمردين داخل أراضيها.

وظنّ الناس أن الأزمة قد فرجت ولو نسبياً غير أنه لم تلبث أن ظهرت بوادر أزمةٍ جديدةٍ في مطلع عام ١٤٠٠هـ بين الحكومة المركزية وعددٍ من السياسيين الجنوبيين بشأن اتجاه الحكومة إلى تقسيم الإقليم الجنوبي إلى ثلاثة أقاليم. وقد بعث عدد من السياسيين الجنوبيين مذكرةً إلى الرئيس النميري يُحذّرونه من مغبة هذا العمل. وردّ النميري بإجراء استفتاءٍ في الجنوب لمعرفة الرأي بهذا الشأن، فانقسم الجنوبيون إلى فريقين: أحدهما يُوافق على التقسيم حتى لا تبقى سيطرة قبيلة «الدنكا» أكبر قبائل الجنوب على المنطقة كلها، ومن أصحاب هذا الرأي «جوزيف لاغو»[1] والفريق الآخر يُعارض التقسيم ويرى فيه تجزئة للجنوب أمام الشمال، ويتزعّم هذا الرأي «أبيل ألير»[2] أحد أبناء «الدنكا»، وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٤٠٣هـ قبض الجنوبيون على ثلاثة عشر رجلاً معظمهم من التجار وذبحوهم قرب حدود أوغندة، وهذا ما سبّب

---

(١) جوزيف لاغو: ولد في قرية جولي من قرى مدينة جوبا في المديرية الاستوائية عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، وينتمي لقبيلة الزاندي، ودرس في مدارس الإرساليات النصرانية، التي تتبع الكنيسة الإنكليزية، والتحق في الخرطوم بالكلية العسكرية في الخرطوم عام ١٣٧٨هـ، وتخرّج منها عام ١٣٨٠هـ، وعندما اختير للتدريب في إنكلترا، ذهب ليودّع أهله غير أنه دخل حدود أوغندة والتحق بحركة جنوبي السودان عام ١٣٨٣هـ، ثم انضمّ إلى حزب سانو عام ١٣٨٤هـ. وعندما تسلم رئاسة الحزب «أكري غادين» خلفاً لجوزيف أودهو تسلّم جوزيف لاغو رئيس الجناح العسكري لمنظمة «الأنيانيا»، وعاد الاتفاق إلى المنقسمين تحت اسم جديدٍ هو «أزانيا» فعاد جوزيف لاغو عام ١٣٨٦هـ إلى رئاسة الأركان من جديدٍ. وعنّدما أقام «أكري غادين» حكومةً موقتةً عام ١٣٨٨هـ تسلّم جوزيف لاغو رئاسة أركانها. وطلب منه «غوردن مارتان» استلام رئاسة أركان حكومة النيل الموقتة التي أسسها ولكنه رفض ذلك، وبقي يعمل وحده في منظمة «الأنيانيا» حتى مؤتمر «أديس أبابا». ثم عمل رئيساً للمجلس التنفيذي العالي للإقليم الجنوبي، ثم أقاله النميري من منصبه وسلّمه نيابة رئيس الجمهورية.

(٢) أبيل ألير: أحد أبناء قبيلة الدنكا، تسلم رئاسة حكومةٍ موقتةٍ، ونائب لرئيس الجمهورية بعد اتفاقية أديس أبابا.

قلقاً في السودان كله إذ أنه بداية حوادث عنفٍ أو حربٍ أهليةٍ قادمةٍ عليها البلاد.

وعندما بدأت فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان، واشترك الإسلاميون في السلطة، وإن لم يكونوا الأساسيين فيها، وإنما مُشاركةً، اهتزّت رؤوس المتمرّدين، وحرّكهم الذين يُساعدونهم ويدعمونهم، وعادت عملية الفوضى والإرهاب إلى الجنوب، وبدأ وضع الحكومة يترنّح، وأحسّ الرئيس النميري بسخونة الوضع وأحبّ أن يركن إلى هوى نفسه، وبدلاً من أن يثبت ويتخذ الإجراءات اللازمة ضد المتمرّدين والمشاغبين ضعُف وجبُن، وأزاح الإسلاميين عن مواضعهم، ولكن لم يجده ذلك نفعاً فلم يلبث أن سقط، كما أن تغيير الوضع لم يُفد السودان شيئاً إذ استمرّ التمرّد في الجنوب.

كان أحد ضباط الجيش السوداني وهو «جون قرنق» وهو من الجنوب قد أعلن انفصاله عن الجيش السوداني مع قطعته، وأخذ يقود حركة المتمرّدين من جديدٍ، وأصبح لهم مطلب جديد هو عدم تطبيق الشريعة الإسلامية ما داموا هم لا يؤمنون بالإسلام هذا بالنسبة إلى الذين يرون استمرار الاتحاد مع الشمال أي المعتدلين، أما الآخرون فلا يرون بُدّاً من الانفصال.

ومن المؤسف أن فئاتٍ من الشمال تُؤيّد المتمرّدين في المطالبة بإلغاء القوانين الإسلامية التي طُبّقت، وعدم التفكير في موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية، وتجد هذه الفئات مُبرراً لحركة التمرّد في الجنوب أي أن الجنوب أصبح يجد له مُؤيدين ومُناصرين في الشمال.

ومن المؤسف أيضاً أن المسلمين لم يستفيدوا من تجاربهم في الأمصار الثانية، وينتبهوا إلى أولئك الذين يُؤهّلونهم في الكليات العسكرية إلى أنه لا يركن لغير المسلمين، وإنهم خوفاً من أن يتّهموا بالتعصّب للدين أو العصبية للإقليم يقبلون أبناء أولئك الأعداء، فإذا ما وصلوا إلى مرحلة التأهيل والتدريب والقيادة أذاقوا المسلمين الويلات بغضّ النظر عن انتماءاتهم وتطبيقهم للإسلام فإن كل من ينتمي إلى الإسلام سيناله غضب أولئك وحقدهم ولو كان كافراً بالإسلام.

وأنه من المؤسف أيضاً أنه في الوقت الذي يستعدّ فيه أهل الجنوب للتمرّد والعصيان ويعدّوا العدّة لذلك فإن أهل الشمال يختلفون على الحكم،

ويقوم الصراع بين الأحزاب سواء على أمورٍ فكريةٍ وربما كان لأهل الحق منهم عذرهم أم على كسب الشعب إلى جانبهم لتسلّم السلطة والانفراد بها أم لأخذ الحظ الأوفى منها.

الطرق:

انتشرت الطرق الصوفية في السودان لعدم وجود الجهاد في تلك المرحلة ونتيجة الخمول الذي ينتشر غالباً لدى سكان المناطق الحارة وخاصةً الرطبة منها، فالطرق تُؤمّن الجانب الروحي لأتباعها مع المحافظة على الكسل الذي يميل إليه سكان تلك الجهات باسم التواكل أو الزهد والقناعة بالكفاف. وأول هذه الطرق التي انتشرت في السودان كانت الشاذلية التي تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي(١)، وقد دخلت إلى السودان عن طريق «محمد أبو دنانة» وذلك في أواخر القرن التاسع الهجري يوم كان الحكم لا يزال بأيدي النصارى إذ كانت مملكة «علوة» هي صاحبة السلطة.

ثم دخلت الطريقة القادرية عام ٩٥٢هـ عن طريق «تاج الدين البهاري» المتوفى عام ٩٦٠هـ أي في بداية عهد الفونج، وتنسب هذه الطريقة إلى عبد القادر الجيلاني(٢).

ثم جاءت الختمية على يد «محمد عثمان الميرغني»(٣) في أواخر عهد الفونج الذي انتهى عام ١٢٣٦هـ، ولقيت في السودان ميداناً رحباً لانتشارها.

---

(١) أبو الحسن الشاذلي: علي بن محمد بن محمد بن خلف المنوفي المصري الشاذلي، ولد وتوفي بالقاهرة، من فقهاء المالكية، له عدة تصانيف، ينسب إلى بلدة «شاذلة» بتونس، حيث يعود إليها في نسبه، وكانت وفاته عام ٩٣٩هـ.

(٢) عبد القادر الجيلاني: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسين، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي، ولد في جيلان وراء طبرستان، انتقل وهو شاب إلى بغداد، وبها توفي عام ٥٦١هـ، وله عدة كتبٍ، وتنتشر الطريقة القادرية في كثيرٍ من الأمصار الإسلامية.

(٣) محمد عثمان الميرغني: ولد بالطائف عام ١٢٠٨هـ، وتعلّم بمكة، وانتقل إلى مصر، واستقرّ بالسودان بـ«الخاتمية» جنوب «كسلا»، وتوفي بالطائف عام ١٢٦٨هـ، وله عدة كتب.

وهناك الطريقة السمّانية التي تنسب إلى «محمد بن عبد الكريم السمّان» وقد دخلت إلى السودان عن طريق أحمد الطيب بن البشير العباسي، وصاحب الطريقة محمد ولد بالمدينة المنورة عام ١١٣٠هـ، وتوفي بها عام ١١٨٩هـ.

وأخيراً جاءت طائفة الأنصار التي وجدت مع الحركة المهدية على يد محمد بن أحمد المهدي الذي ثار على الأوضاع القائمة في البلاد وما فيها من فسادٍ، وتمكّن من السيطرة على المنطقة، وانسحب المصريون من السودان.

ولم يكن هناك صراع حادّ بين هذه الطرق، وإنما يلتفّ عدد من الناس حول شيخهم، ويعملون على نشر طريقتهم بالاتصالات والزيارات، وليس من أهدافٍ حتى تتضارب مع أهداف الطريقة الأخرى. ومع ذلك فقد انصبّ ما يمكن أن نُسمّيه صراعاً في الصراع الحزبي القائم إذ كانت الطريقة الختمية تُؤيّد الحزب الوطني الاتحادي على حين تُؤيّد طائفة الأنصار حزب الأمة، ويتنازع هذان الحزبان على السلطة، ويضمّان أعضاء يلتقون حول واجهاتٍ سياسيةٍ.

صراع المجموعات العرقية:

سبق أن ذكرنا أنه توجد عدة مجموعاتٍ عرقيةٍ في السودان، وإن لم يحدث بينها صراع واضح أو حاد، فإن كل مجموعةٍ قد شكّلت لها حزباً خاصاً بها، فالبجاة انضووا تحت لواء حزب مؤتمر البجاة، وشكّل «النوبا» اتحاد جبال النوبا العام، وكان لأهل الجنوب أحزابهم الخاصة بهم.

وتقوم الأحزاب على أساس قبيلي أو إقليمي أو قومي عندما يضعف الإيمان في النفوس، وتحلّ محلّه أفكار أخرى بعيدة عنه كل البعد، أو عندما يغيب الحكم الإسلامي عن الساحة فلم يعد هناك من يعمل للجهاد، ويشحن النفوس بمزيدٍ من الإيمان، ويُقدّم للشعب حاجاته الأساسية، عندها ينفرط عقد الأمة، وتتمزّق، وتتوزّع إلى تجمّعاتٍ قبيليةٍ وإقليميةٍ وقوميةٍ، ومن باب الفراغ القائم تحاول أن تتجمّع على بعض هذه الأسس الواهية، وقد يكون لها مصالح وأماني تتعارض مع مصالح التجمّعات الأخرى فيقع نوع من الخلاف، ومع ذلك فإنه لا يُعدّ صراعاً كما سبق أن ألمحنا، وإنما ينصبّ في الصراع الكبير القائم بين الشمال والجنوب فأحزاب الشمال على اختلاف جنسياتها وأقاليمها

وأصولها تلتقي بعضها مع بعض لتقف في وجه أحزاب الجنوب التي تلتقي بعضها مع بعضٍ أيضاً رغم تباين قبائلها وخلافاتها فيما بينها.

الصراع الحزبي:

بدأت الحركات الوطنية تبرز في السودان قبيل الحرب العالمية الثانية، ولعلّ أول ما برز كان مؤتمر الخريجين العام الذي ظهر عام ١٣٥٧هـ برئاسة إسماعيل الأزهري، وقامت الحرب وشغل الناس بأحداثها فلما وضعت أوزارها شهد السودان ميلاد الأحزاب السياسية التي كان من أبرزها:

١ ـ حزب «الأشقاء» برئاسة إسماعيل الأزهري ويدعو إلى الاتحاد مع مصر لتكوين جبهةٍ متحدةٍ في وادي النيل يمكنها الوقوف بقوة أمام أعدائها، وكان يُصدر صحيفة باسم «الأشقاء» وقد نشأ هذا الحزب عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) ويُؤيّده شيخ الطريقة الختمية علي الميرغني. وقد انقسم هذا الحزب عام ١٣٧١هـ إلى جناحين: أحدهما برئاسة إسماعيل الأزهري والآخر برئاسة محمد نور الدين، وقد حمل هذا اسم الجبهة الاتحادية.

٢ ـ حزب الاتحاديين، وظهر أيضاً عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) برئاسة عبد الله ميرغني، ويُصدر صحيفةً تحمل اسم «اللواء»، وضمّ مجموعةً من المتعلمين فقط، ويرى الاتحاد مع مصر على نظام اللامركزية «الاتحاد».

٣ ـ حزب الأحرار: ونشأ في العام نفسه الذي نشأت فيه الأحزاب السابقة، ويرى قيام حكومةٍ في السودان مع وجود اتحادٍ مع مصر تحت التاج المصري. وكان يُصدر صحيفة «الأحرار».

٤ ـ حزب وحدة وادي النيل: وتأسّس عام ١٣٦٤هـ برئاسة الدرديري أحمد إسماعيل، وينادي بوحدة وادي النيل، والجلاء عن مصر والسودان، ويُصدر صحيفة «الحقيقة».

وقد عملت الطريقة الختمية على تأسيس جبهةٍ وطنيةٍ من هذه الأحزاب، فظهر الحزب الوطني الاتحادي، مع استمرارية حزب الأشقاء، وحزب وحدة وادي النيل، كما أن مصر لها دورها في دمج هذه الأحزاب بعضها مع بعض.

٥ ـ الحزب الوطني: وظهر عام ١٣٦٣هـ، ويُنادي بتدريب السودانيين وتأهيلهم للحكم الذاتي.

٦ ـ حزب الأمة: وظهر عام ١٣٦٤هـ، وقد رفع شعار «السودان للسودانيين» ويُصدر صحيفة «الأمة». وكان برئاسة الصديق بن عبد الرحمن المهدي، وتسلّم عبد الله خليل الأمانة العامة. وقد عملت جماعة الأنصار على تأسيس الجبهة الاستقلالية من هذين الحزبين بزعامة حزب الأمة، ولقي ذلك تأييد من عبد الرحمن المهدي زعيم الأنصار.

٧ ـ الحزب الجمهوري الاشتراكي: وقد ظهر عام ١٣٧١هـ حيث انفصل زعماء من رجال القبائل، وأسّسوا هذا الحزب. وكان برئاسة يوسف العجب.

٨ ـ حزب الشعب الديمقراطي: وقد نشأ برئاسة علي عبد الرحمن بتأييد علي الميرغني الذي سحب ثقته من إسماعيل الأزهري. ولكن سيعود هذان الحزبان للالتقاء بعد مدةٍ.

٩ ـ الحزب الشيوعي: وقد نشأ عام ١٣٦٥هـ، وبرز في بداية الأمر على شكل مجموعاتٍ بين الطلاب الذين كانوا يدرسون في مصر، حيث كانوا يصدرون هناك مجلة «أم درمان»، وكان من بينهم عبد الخالق محجوب، وقد أسّسوا أيضاً اتحاد الطلبة السودانيين، ورابطة الطلبة السودانيين، وفي الوقت نفسه كان بعضهم يعمل في صفوف حزب الأمة مثل: عبده ذهب حسنين، وعبد الماجد أبو حسبو، وعز الدين علي عامر، ومنهم من يعمل بتحرير جريدتهم «الأمة» أمثال: حمداي، ومحمد أمين حسين. كما تعاون بعضهم الآخر مع إسماعيل الأزهري أمثال: إبراهيم المفتي. والمهم أن يُحقّق لجماعته نصراً عن أي طريقٍ مهما كان يخالفه بالرأي بل مهما كان ملتوياً في نظره.

وكان يتزعم الحركات الشيوعية في مصر «هنري كوربيل» وهو أحد الإنكليز الذين خدموا في مصر. كما كان في السودان وكيل عريف إنكليزي يدعى «ستوري» أسّس حلقةً لدراسة الأفكار الماركسية، وقد اتصل مع أحمد زين العابدين، وحسن محمد الحامد، والطاهر السراج، وجاء المدرس الإنكليزي «دكنسون» فأكمل عمل «ستوري» وكان أول من نظم حلقة لدراسة

الماركسية في السودان ثلاثة من الأرمن قدموا إليها (١٣٣٥ ـ ١٣٣٨هـ) وهم: «أرتين أركيان» و«بادروس ساهوتيان» و«أينس ظهر بيان» وعندما ذهبوا انتهى التنظيم.

لا شك أن الجهل في الفكر الماركسي والحركة الشيوعية هو الذي جعل السودانيين ينخرطون في صفوف تلك الحركة التي تُخالف عقيدتهم وأفكارهم، كما أن الفقر الذي كان يعصر السكان هو الذي جعل الناس يستهوون الكلام الشيوعي المعسول في تقديم الخدمات لهم والآمال العريضة التي يُؤمّلهم بها، إضافةً إلى الدعم غير القليل الذي كانوا يجدونه من الحكومات الشيوعية سواء أكانت موسكو أم بكين أم غيرها والتي تُريد استغلالهم لتمكينهم من السيطرة على المنطقة ثم تقديمها لهم ليحلّوا محلّ المستعمرين السابقين أو على الأقل لتحريكهم لمصلحتها في سبيل الضغط على المستعمرين أو على الحكام الوطنيين فيما بعد لتنفيذ آرائها، أو مخططاتها وسياستها سواء أكانت محليةً أم دوليةً.

وكما حدث في بقية الأحزاب من انشقاقات فقد حدث في الحزب الشيوعي أيضاً إذ فصل عبد الخالق محجوب نصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني أثناء غيابهم، كما حدث في الحزب جناح يرتبط بموسكو، ويُؤيّد سياستها، ويسير على نهجها، وآخر يُؤيّد بكين وينحو منحاها في الفكر الماركسي والسياسة العامة.

١٠ ـ الإخوان المسلمون: وقد ظهروا عام ١٣٦٦هـ، انطلاقاً من عقيدة الشعب، وقاموا يدعون إليها، ويحاولون تعليم الناس مبادئ الإسلام، وتوضيح أن الإسلام يشمل مختلف الجوانب الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية ولا يصحّ عزل جانبٍ من هذه الجوانب، فالإسلام دين ودولة، ولا يصحّ أخذ أي منهجٍ يُخالف ذلك، وفي الوقت نفسه لا يصحّ المناداة بمذهب اقتصاديٍ آخر أو تطبيقه سواء أكان شيوعياً أم رأسمالياً و... وبرز من قادتهم رشيد الطاهر الذي تولّى في السبعينات قيادة العمل. ثم ظهر حسن الترابي الذي عمل على تأسيس جبهة الميثاق الإسلامي لتضمّ أيضاً غير المنظمين من الإسلاميين إذ

كانت هذه الجبهة تعمل ضمن دائرتين تشمل الأولى المنظمين في صفوف الإخوان المسلمين على حين تشمل الثانية الآخرين من الإسلاميين، وكانت تصدر لهم جريدة تعمل باسمهم، وتحمل اسم «الميثاق».

١١ ـ الحزب الاشتراكي الإسلامي: وقد أسسته مجموعة رفضت الانضواء تحت لواء الإخوان المسلمين، ومنهم: بابكر كرار النور، وميرغني النصري، وعبد الله زكريا، ومحمد يوسف مضوي.

هذا بالنسبة إلى أحزاب الشمال. ورغم هذا التعدد فإننا نستطيع أن نقول: إنها تُصنّف في أربع فئات.

أ ـ حزب الأمة: ويلقى تأييد جماعة الأنصار، ويتزعّمه آل المهدي، ويحمل عاطفةً دينيةً، وفيه مجموعات قريبة من الصوفية. وتسير معه كل الأحزاب التي كانت ترى الاستقلال عن مصر في بداية الأمر، ثم اندمج أكثرها به.

ب ـ الحزب الوطني الاتحادي، أو الاتحادي الديمقراطي، ويلقى تأييد الطريقة الختمية وهي طريقة صوفية، ويتزعمه مشايخ الطريقة من آل الميرغني، ويُظهر أحياناً عاطفةً دينيةً باردةً، لكن تهمه السلطة قبل كل شيءٍ وقد انضوت فيه بقية الأحزاب التي كانت ترى الوحدة مع مصر وذلك قبل الاستقلال.

جـ ـ الإخوان المسلمون: ويعملون على تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بذلك، ويُنظّمون ضمن جبهة الميثاق، ويتزعمهم حسن الترابي.

د ـ الحزب الشيوعي: ويعمل على تطبيق الفكر الشيوعي عامةً، ويُنادي بتطبيق المنهج الاقتصادي الخاص بالحزب، ويُحاول جذب العمال إليه والفلاحين والفقراء من الناس ويُمنيهم الأماني، ويلقى دعم الحكومات الشيوعية الأجنبية، ويهاجم الأديان عامةً والإسلام خاصة، ويقول عنها: إنها خرافات.

وقد كان الصراع قائماً في البداية وخاصةً في المرحلة التي سبقت الاستقلال والمرحلة التي تلتها مباشرةً بين حزب الأمة والأحزاب الاستقلالية التي تُؤيّده في الاستقلالية وبين الحزب الوطني الاتحادي والأحزاب الاتحادية

التي تُؤيّده في الوحدة مع مصر. ويبدو أن كفة الأحزاب الاستقلالية هي التي نجحت وتمّ الاستقلال. واستمرّ ذلك الصراع حتى تمّ الانقلاب العسكري الأول وحتى نهايته عام ١٣٨٤هـ.

ثم ظهر في المرحلة الثانية الإخوان المسلمون والحزب الشيوعي حيث انضمّا إلى المجموعتين السابقتين، فأصبحت الفئات المتصارعة أربع فئات، وإن أصبح الصراع يحمل الواجهة الفكرية بعد أن كان يحمل الواجهة السياسية والوصول إلى السلطة قبل كل شيء. لقد أصبح الإخوان المسلمون الآن يُنادون بتطبيق الإسلام ويُعارضهم الشيوعيون أشد المعارضة وقد حقّقوا جانباً مما يُنادون به، وأصبح الصراع يقوم على هذا الجانب لمتابعة الخطا فيه أو لمسح ما تمّ، ويتأرجح حزب الأُمّة بين التأييد المطلق وبين ما يُسمّيه «التروّي» في محاولةٍ لتوطيد سلطانه ونفوذه على الدولة. أما الحزب الاتحادي فيترنّح بين صوفيته الباردة ورغبته في بقائه في السلطة والتمكين لأفراده وهو إلى جانبه الثاني أقرب، لذا فهو على غير وفاقٍ مع الإخوان.

ويُنادي الحزب الشيوعي بتطبيق فكره ويُعارضه الإخوان المسلمين أشدّ المعارضة، وقد نجح في القيام بحركةٍ انقلابيةٍ إذ شارك في الحكم، ولكن لم يلبث سلطانه أن انهار، وعاد جعفر النميري إلى السلطة وقُدّمت المجموعة الشيوعية الانقلابية إلى المحكمة فأُعدم بعضها، وسُجن بعضها الآخر، ومع هذا فقد بقي للحزب الشيوعي قوة ونفوذ لا يستطيع أحد إغفال ذلك، وسيبقى ذلك ما وجد الفقر والجهل وما دامت مشكلة الجنوب قائمةً إذ يُؤيّد مُحرّكوها الشيوعيين الذين يُعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية والتي يعدّها نصارى الجنوب مشكلتهم الأولى، وتدعم ذلك الإرساليات التنصيرية التي لا تتوانى أبداً في دعم الحزب الشيوعي ما دام يعارض تطبيق الشريعة، ويحارب الإخوان المسلمين، وبذا يلتقي أعداء المسلمين من شيوعيين ورأسماليين في خندقٍ واحدٍ ضدّ الإسلام وهذا أمر طبيعي. أما حزب الأمة فيُعارض الحزب الشيوعي على استحياءٍ حرصاً على مصالحه السياسية. ولا يعرف الحزب الاتحادي أين يضع أقدامه على خجلٍ وإن كان أقرب إلى السكوت منه إلى المعارضة.

إن من يُهاجم الإخوان المسلمين يحمل عليهم مشاركتهم لجعفر النميري في السلطة عندما سايرهم في تطبيق الشريعة الإسلامية، ثم نكص على عقبيه، وقد تمّ الانقلاب عليه فيعدّونهم من أنصار حكم جعفر النميري على حين ألقى بهم في السجون في آخر عهده، ثم يقولون عنهم: إنهم متشددون في دعوتهم، وينظرون إلى غيرهم نظرة خاصةً.

ومن يُهاجم الشيوعيين يحمل عليهم أنهم لا تهمّهم سوى الشيوعية، وقد قاموا بانقلابٍ على حكمٍ هم شركاء فيه، وأنهم غير وطنيين إذ يعملون بوحيٍ من الخارج سواء أكان ذلك من «موسكو» أم من «بكّين»، وأن عقيدتهم تُخالف الإسلام فهم مُلحدون عُملاء.

أما حزب مؤتمر البجاة فقد تأسّس بعد المرحلة التي تكوّنت فيها الأحزاب السودانية، وهو حزب محلي صغير، يعمل لمصلحة تلك الجماعة التي تعيش في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد، وتأثير هذا الحزب ضعيف في سياسة البلاد العامة.

وأحزاب الجنوب وهي وإن كانت محلية بل قبيلية بالدرجة الأولى إلا أنها ذات تأثير حسّاس بسبب مشكلة الجنوب، ومن هذه الأحزاب:

١ ـ حزب الاتحاد الوطني السوداني، ويعرف بـ«سانو» وكان برئاسة «جوزيف أودوهو» وانتخب «وليم دينغ» أميناً عاماً له، و«أغري غادين» أميناً مساعداً. ثم انضمّ إلى الحزب «ساترينو لاهورا» رئيس حزب الأحرار الجنوبي، والذي قتل عام ١٣٨٧هـ على الحدود الأوغندية. وقد حدث انشقاق في الحزب عام ١٣٨٧هـ إذ تزعّم «جوزيف أودوهو» جناحاً، وتزعّم «وليم دينغ» جناحاً آخر، وقد تأسس الحزب عام ١٣٨٤هـ.

٢ ـ حزب اتحاد جبال النوبا العام: وهو حزب محلي يمثّل أبناء هذه المنطقة «جبال النوبا» لذا فإن تأثيره في السياسة العامة ضعيف.

٣ ـ حزب الأحرار الجنوبي: وتأسس عام ١٣٧٣هـ، وحلّ عام ١٣٧٨هـ. وقد برز فيه «سطانسلاوس بياساما» و«بنيامين لولي»، وقد أخذ دوره ثم حل محله حزب «سانو».

٤ ـ جبهة الجنوب: وقامت عام ١٣٨٤هـ بزعامة كليمنت أمبورو، وتتمتع بتأييد واسعٍ في الجنوب.

٥ ـ حزب الوحدة السوداني: وتأسس عام ١٣٨٤هـ برئاسة سانتينو دينغ.

٦ ـ حزب السلام الديمقراطي الوطني.

٧ ـ حزب النيل.

٨ ـ الحزب الديمقراطي الجنوبي.

ولا شك فإن تعدّد هذه الأحزاب الجنوبية مع تعدد القبائل أيضاً وصراعها بعضها مع بعضٍ، وعدم وضوح الأهداف، والخلاف مع الشمال كل هذه تؤدي إلى الصراعات الحزبية في الجنوب أيضاً، والانقسامات داخل الحزب الواحد، والانشقاقات، وقيام منظمات عسكرية بعضها شديد التطرّف وبعضها الآخر أقل تطرّفاً. وقيام حكوماتٍ مختلفةٍ فيما بينها خارج البلاد، قد تلتقي في بعض النقاط، وقد تختلف أحياناً، ويقع بينها صراع. فإن حكومة النيل الموقتة التي أعقبت حكومة جنوبي السودان التي أسسها «أغري غادين» كانت برئاسة «غوردن مارتان»، وقد كانت هذه الحكومة «النيل الموقتة» تُعارض اتفاقية «أديس أبابا» أشد المعارضة، وكذلك قامت حكومة «أنابيدي» الموقتة التي تُعارض حكومة «النيل الموقتة»، وقد أسّسها الجنرال «تافن» وذلك بعد أن فشل بانقلابه ضد «غوردن مارتان».

ورغم أن عدد أتباع النصرانية في جنوبي السودان قليل إلا أنهم هم المسيطرون، وهم الذين يُؤسّسون الأحزاب، وهم الذين يقودون الحركات، وذلك بسبب الإمكانات المادية الضخمة التي تقدمها لهم المؤسسات النصرانية والإرساليات التنصيرية، والتحريض الدائم لهم. وأن عدداً كبيراً من السكان يضطر لمسايرتهم عصبيةً للقبيلة، وخوفاً منهم لوجودهم تحت حماهم، إضافةً إلى التخويف القبيلي الدائم من الشمال، إذ أن وسائل إعلام القبيلة إنما هو بيد رؤسائها من أتباع النصرانية.

وقد ظهرت أحزاب جديدة في الشمال وفي الجنوب ومنها:

الحزب القومي السوداني (غبوش).

حزب الشعب السوداني الإفريقي (سابكو).

حزب البعث العربي (العراقي).

حزب البعث العربي (السوري).

حزب العمل.

حزب التجمّع الناصري.

قوى الريف.

التضامن المستقل.

ولكن هذه التكتلات أو الأحزاب أو التجمعات لا تزال صغيرةً تعيش على هامش الأحزاب أو المجموعات الكبرى، وإن كان لبعضها وزن في الحياة العامة بسبب الإمكانات التي تمدّه بها بعض الدول الأخرى سواء أكانت عربيةً أم غير عربيةٍ.

❁ ❁ ❁

المَراجع

- **الإمبريالية والقومية في السودان**، مدثر عبد الرحيم، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧١م.
- **تاريخ الانتخابات في السودان**، محمد إبراهيم طاهر، بنك المعلومات السوداني ١٩٨٦م.
- **تاريخ الحركة الوطنية في السودان**، محمد عمر بشير، الدار السودانية للكتب - الخرطوم ١٤٠٠هـ.
- **تاريخ السودان الحديث**، ضرار صالح ضرار، دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٨م.
- **تاريخ سودان وادي النيل وعلاقته بمصر**، شوقي عطا الجمل، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٠م.
- **جعفر النميري والأحداث الساخنة**، عبد الله أبو إمام، . . .
- **السودان عبر القرون**، مكي شبيكة، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٥م.
- **قضية وحدة وادي النيل**، يونان لبيب رزق، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ١٩٧٥م.
- **وجاء مايو**، عامر العقاد، دار الجيل - بيروت ١٩٧٢م.
- **يقظة السودان**، إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

— ١٤ —

التاريخ المعاصر
بلاد المغرب

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

- ١٤ -

التاريخ المعاصر

بلاد المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد بن عبد اللّه ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين ، *أما بعد* :

فإنّ المسلمين بعد أن فتحوا مصرَ عام عشرين للهجرة أطلقوا على كل المناطق التي تقع إلى الغرب منها اسم : « بلاد المغرب » ، ويقصد بمصر المنطقة العامرة من وادي النيل ، وبذا فإن كل المناطق الواقعة إلى الغرب من وادي النيل تدخل تحت مسمّى : « بلاد المغرب » بما في ذلك الصحراء الغربية المصرية . فلمّا جُزّئت المناطق ، ورُسمت لها حدود سياسية ؛ أصبحت الأجزاء التي تقع غرب حدود مصر هي بلاد المغرب : بدءاً من ليبيا ، وانتهاءً بموريتانيا .

وقد كان يُطلق اسم : « إفريقية » على منطقة تونس اليوم ، غير أنه لم يلبث أن أطلق اسم الجزء على الكلّ ، وأصبح اسم : « إفريقية » يُطلق على القارة كلّها ، ثم أصبح علماً لها . ودخل اصطلاح : « تونس » ضمن مُسمّى : « بلاد المغرب » .

ولما جاء الاستعمار الصليبي الحديث ، وتقاسم الأمصارَ بين دُوَله ، واحتلّت إيطاليا منطقة ليبيا ؛ احتفظت المنطقة بهذا الاسم « ليبيا » على حين

استقلّت تونس ، والجزائر ، ومراكش ، باسم : بلاد المغرب ، بل عُـرفت باسم : « بلاد المغرب العربي » وكلها تخضع للاستعمار الصليبي الفرنسي ، ولم ترغب فرنسا يومذاك ، وهي التي تسيطر على موريتانيا أن تُدخلَ هذا الجزءَ من البلاد تحت مُسمّى اصطلاح : « بلاد المغرب العربي » إمعاناً في تجزئة البلاد ، وعدم اعترافٍ منها بأن موريتانيا جزءٌ من المنطقة العربية .

ولّما تجزّأت المنطقة على يد الاستعمار الصليبي ، وبذل جهده في ترسيخ فكرة التجزئة ، وتعميق جذور الانفصالية ، ثم استقلّ كل جزءٍ منفصلاً عن غيره زمنياً وسياسياً ، احتفظ كل مِصْرٍ بالاسم الذي عُرف به إقليمياً : (تونس ـ الجزائر ـ مراكش) وقد عُرف الجزء الغربي باسم عاصمته : (مراكش) منذ أن أُسّست عام ٤٥٠هـ على يد زعيم المرابطين ومُؤسّس دولتهم : « يوسف بن تاشفين » . غير أن حكومة مراكش بعد الاستقلال قد اختارت اسم : « المغرب » على الجزء الغربي من بلاد المغرب ، أو من الأراضي التي تقع تحت سيطرتها .

ومن هذه المقدمة ؛ فإن بلاد المغرب تُطلق على الأراضي التي تقع غرب حدود مصر إلى آخر حدود موريتانيا ، وعلى هذا الاصطلاح ستكون دراستنا ـ إن شاء الله ـ وهي تشمل الأمصار الآتية : ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانيا .

يسكن بلاد المغرب عناصر من العرب والبربر ، يجمع الإسلام بينهم ، ولا يعيش بينهم بالأصل نصراني واحد ، وكل من فيها من النصارى اليوم إنما يرجعون إلى أصول استعمارية ؛ فإمّا أن يكونوا قد جاءوا مع المستعمرين الصليبيين الأوائل ، فاستوطنوا المنطقة بعد أن منحتهم السلطة الاستعمارية أملاكاً وأرضاً ، أو قَدِموا فيها بعد في ظلّ السيطرة الاستعمارية ، فحصلوا على امتيازاتٍ واسعةٍ ، وأملاكٍ انتزعوها من أيدي أصحابها الأصليين .

وإن كان لا يوجد في بلاد المغرب نصارى أصليون ، إلّا أنه يوجد يهود ، وقد جاء معظمهم من بلاد الأندلس عندما طُرد منها المسلمون ، ولم

تتحمّل النصرانية بضيقها سكناهم ، فاستوعبهم الإسلام بسعته ورحـابته ، وفتح أمامهم أبواب بلاده، وصدور أبنائه ، فعاشوا في بلاد المغرب ، بحكم أنها أقـرب المناطق إلى الأنـدلس ، كـما انتقـل بعضهم إلى أراضي الـدولـة العثمانية ، ومع هذا الترحيب الإسلامي ، والعيش بين المسلمين بأمنٍ وطمأنينةٍ وحماية ، فإن المسلمين كانوا أول ضحايا غدر اليهود عندما أصبح لليهود أظافر وأنياب ، وكانت بلاد المسلمين أول البلدان التي طمع بها اليهود وأول المناطق التي اغتصبوها. والحقيقة أنّ خروج اليهود من الأندلس مع المسلمين كان خطة وتآمراً مع النصارى ليهدّموا في بلاد الإسلام ويمهدوا لهم، فاليهود دائماً خدماً للقوي ولمصالحهم، وقد أظهر عدد منهم الإسلام، وبدأت مساعيهم للوصول إلى أهدافهم، وقد حققوا بعضها.

كانت الدولة العثمانية آخر من حكم ، من المسلمين ، الأجزاءَ الشرقية (ليبيا - تونس - والجـزائر) ،فلما ضعُفت الـدولة ، وتكـالبت عليها الـدول النصرانية الأوربية ؛ اقتطعت فرنسا الجزائر وتونس ، واغتصبت إيطاليا ليبيا ، أمّا المغرب وموريتانيا فلم تصل إليهما أقدام العثمانيين ، ولكنهما كانتا محطّ أنظار المستعمرين من قبل ، منذ أن طُرد المسلمون من الأندلس ، بل قبل ذلك ، وذلك لأنهما أقرب بلاد المسلمين إلى الأندلس ، ولأنهما كانتـا مركـز انطلاق الجيوش الإسلامية لدعم مسلمي الأندلس ؛ منذ أيـام المرابـطين ، ومروراً بالموحّدين ، وحتى عهد بني مرين . أمّا بنو وطّاس الذين خَلَفُوا بني مرين في حكم المغرب ، ودام عهدهم من ٨٢٣هـ حتى ٩١٦هـ ؛ فإن البرتغاليين قد احتلّوا في أيامهم شواطىء المغرب ، وهذا ما جعل المسلمين يَنْقِمُون على بني وطّاس ، ويستدعون السعديين الذين حكموا البلاد بعـد زوال سلطان بني وطّاس . وقف السعديـون في وجه الصليبيـين ، ولكن كانت عـلاقتهم مع العثمانيين بين مدٍّ وجـزرٍ ، فإذا سـاد الوعي الإسـلامي اتفق الطرفـان ضدّ الأعداء من النصارى ، وإذا تمكّن الصليبيـون من إثارة الفتنـة ورمي البلاء وقعت الوقيعة بين الجانبين ، وربما حدث صدامٌ بينهما . وعلى كلٍّ فقد كانت أيام السعديين أيام صراع مع الصليبيين ، وإن كانت هناك أيـامٌ يتفق فيها

المصارعان . ولمّا ضعُف أمر السعديين قوي شأن الأسرة العلوية التي تمكنت من دخول فاس عام ١٠٧٧هـ ، ومع الأيام ضعُفت هذه الأسرة أيضاً ، فتقدم الصليبيون ، فأخذت فرنسا منطقة موريتانيا اليوم ، على حين أخذت إسبانيا بالتفاهم مع فرنسا منطقة الصحراء المغربية ، وذلك عام ١٣١٨هـ ، وسبق لإسبانيا أن أخذت عام ١٣١٦هـ منطقة « ايفني » ، وتوسع الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الأولى ، فاحتلوا بقية أجزاء المغرب ، وفي الوقت نفسه احتلت إسبانيا منطقة الريف .

وهكذا خضعت بلاد المغرب كلها للاستعمار الصليبي ، وكان لهذا أثره الكبير على السكان من الناحية الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والثقافية ، والسياسية ، بل وجميع جوانب الحياة ، ويختلف هذا الأثر بين استعمار وآخر ـ وإن كان لا يوجد في بلاد المغرب سوى الاستعمار الفرنسي ، والإيطالي ، والإسباني ـ كما يختلف بين جزءٍ وآخر .

ونرجو أن نوفق في إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن أوضاع بلاد المغرب في الوقت المعاصر ، الذي تتضارب فيه الآراء ، وتتكاثر فيه التحليلات السياسية ، وكلٌ منها ينطلق من وجهة النظر التي يحملها صاحبها . ونرجو أن يكون الرأي الذي نُقدمه منطلقاً مما يشدّ السكان بعضهم إلى بعضٍ ، ويجمعهم ضمن إطارٍ واحدٍ ، وهو العقيدة الإسلامية ، التي اصطدم بها المستعمرون منذ وطأت أقدامهم أرض بلاد المغرب ، وكانت الصخرة الصمّاء التي تحطّمت عليها مخططاتهم وآمالهم ، كما كانت في الوقت نفسه الدرع الذي حمى شخصية السكان ، ووجدوا فيه السلاح الكافي للمقاومة وللوقوف في وجه البغاة المستعمرين .

ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لله ، لنُؤجر عليه ، ونسأله سبحانه أن يُسَدِّد خطانا في كلِّ مرحلة نقطعها ، وأن يُوفِّقنا إلى ما فيه الخير والصلاح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غُرّة المحرّم من عام ١٤١٠هـ

محمود شاكر

الباب الأول

ليبيا

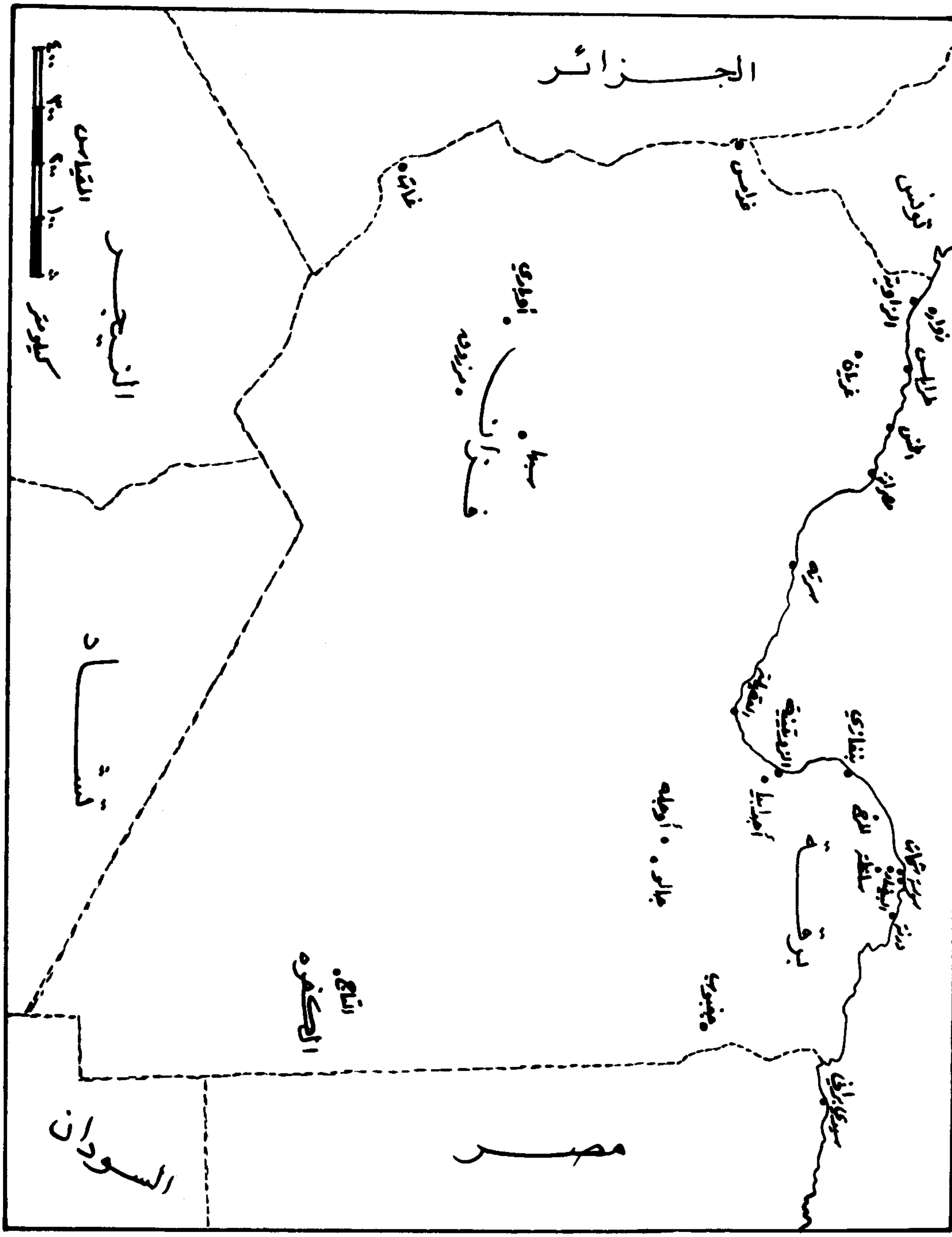

الجزائر
تونس
النيجر
تشاد
فزان
برقة
طرابلس
بنغازي
سبها
سرت
الكفرة
مصر
السودان

لمحة عن ليبيا قبل إلغاء الخلافة

ما أن تمكن النصارى الإسبان والبرتغاليون من طرد المسلمين من الأندلس عام ٨٩٨هـ حتى انطلقوا وراءهم ، وكأنهم أُفلتوا من عِقالهم ، يبغون ملاحقتهم والفتك بهم ، واحتلال بلادهم طمعاً وحقداً ، وربما كان هذا قد استقر في خلدهم ، أثناء صراعهم معهم ، وقد انسلوا فعلاً من معاقلهم ، واحتلّوا بعض المواقع : بعضها على شواطىء المحيط الأطلسي ، وبعضها الآخر على سواحل البحر المتوسط . وكانت أوربا النصرانية تدعم نصارى الأندلس ، وترمي بثقلها وراءهم ، وتعدّ نفسها الظهير لهم والسند . وما أن انطلق نصارى الأندلس وراءَ المسلمين ؛ حتى انطلقت دول أوربا الأخرى ؛ تضرب وتحتلّ وتفتك بحقد ، وتنتقم ـ حسب رأيها ـ بوحشية ، وتنتشي نشوة الظفر .

كان الصليبيون يهاجمون بلاد المسلمين ، ويُغيرون عليها لاحتلالها ، وإن لم يتمكنوا بالسيف والقوة ؛ فبالغدر والخديعة . وقد قام الطليان مرة بقيادة « فيليب دوريا » بزيارة ودّيةٍ لمدينة طرابلس المغربية ، وأثناء تلك الزيارة هاجموا المدينة غدراً ، واحتلّوها ، ولم يخرجوا منها حتى افتداها أمير مدينة (قابس) بمبلغٍ كبيرٍ من الذهب يروي جشعهم .

احتل فرسان مالطة (فرسان القِدّيس يُوحنّا الأورشليمي) منطقة برقة عام ٩١٦هـ ، غير أن المماليك لم يلبثوا أن رجعوا إليها ، وفي العام نفسه

احتلت قوة إسبانية مدينة طرابلس بقيادة « بترونافار » ، وقد قتل خمسة آلاف مسلم ، وأسر ستة آلاف ، ومن نجا من سكان المدينة فرّ منها ، ولم يبقَ في طرابلس سوى القوة الإسبانية ، وفي عام ٩٣٦هـ قرّر « شارل الخامس » ملك إسبانيا التنازل عن طرابلس لفرسان مالطة مقابل مُساعدتهم الإسبان في الأعمال البحرية ضد العثمانيين ، وبقي فرسان مالطة في طرابلس حتى عام ٩٥٨هـ حيث جاء العثمانيون .

كان العثمانيون قد نذروا أنفسهم لطرد الصليبيين من الأماكن التي احتلوها من بلاد المسلمين ، ولهذا جاء القائد العثماني « سنان باشا » إلى طرابلس ، واستطاع قائد البحرية « طرغول » دخولها ٩٥٨هـ ، وقد حاولت إسبانيا الرجوع إلى طرابلس دون جدوى . أما منطقة برقة ؛ فقد ذكرنا أنها كانت تتبع المماليك ، فلمّا حل العثمانيون محلهم في مصرَ عام ٩٢٣هـ ؛ تبعتهم برقة ، وهكذا أصبحت منطقة ليبيا تتبع الدولة العثمانية ، وعُيِّن « مراد آغا » أول والٍ عثمانيٍّ على البلاد ، ومن آثاره المسجد الذي لا يزال قائماً حتى الآن في مدينة « تاجوراء » واستمر الولاة العثمانيون يتعاقبون على منطقة ليبيا حتى عام ١١٢٣هـ حيث استقل فيها « أحمد القره مانلي » ، وأسس أسرةً استمرت في حكم المنطقة حتى عام ١٢٥١هـ .

رأت الدولة العثمانية تمرّد محمد علي والي مصر ، واحتلاله بلاد الشام ، وصلته بالصليبيين مُمثلين بفرنسا ، وفي الوقت نفسه احتلال فرنسا لبلاد الجزائر ، وهذا ما جعل الدولة تخشى على منطقة ليبيا من الدول النصرانية ، لذا أسرعت وقضت على الدولة القره مانية ، ورجعت ترسل الولاة من قبلها ، وأخذت تقوم بإثارة العاطفة الإسلامية ، وإعلان الرابطة الدينية التي تربط سكان البلدان الإسلامية بعضهم مع بعض ، وتوضيح أطماع الصليبيين في الأمصار الإسلامية ، وما يعانيه الجزائريون ، وجميع المسلمين الذين وقعوا تحت سيطرة الدول النصرانية . ومن ناحية أخرى ؛ فقد عملت الدولة على تخفيف الضرائب عن السكان في منطقة ليبيا ، ومحاولة تحسين الأوضاع

الاقتصادية .

استقرّ عددٌ من النصارى في منطقة طرابلس عندما خضعت لسيطرة فرسان مالطة ، فلمّا أخرجتهم الدولة العثمانية عام ٩٥٨هـ ؛ بقي من استقر من النصارى في مناطقهم ، فعاشوا بين المسلمين حياة أمن وطمأنينة ، فلمّا قوي نصارى أوربا ، وأخذوا يرمقون ليبيا بأبصارهم ، ويطمعون في احتلالها ؛ مد الصليبيون الذين استقروا فيها يدهم إلى إخوانهم ، ودعوهم للقدوم إليها ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفهم ، وأخذوا يدعون أنهم مضطهدون ، وأنهم مظلمون . وحاولت الدول النصرانية التدخل في شؤون منطقة ليبيا عدة مرات ، بحجة حماية الأقلية النصرانية فيها .

لقد كانت الدولة العثمانية على قناعة بنقطتين رئيسيتين : الأولى : أن الدول الأوربية النصرانية تطمع في احتلال منطقة ليبيا ، وقد احتلت إنكلترا مصرَ والسودان ، واحتلت فرنسا تونس والجزائر ، وبقيت منطقة ليبيا في الوسط ، ولا شك أنّها كانت محطَّ أنظار بعض الدول الأوربية ، وأن هذه الدول ستتفاهم فيما بينها ، وتتقاسم أجزاء البلاد ، وسيدعم بعضها بعضاً ضد السكان وضد الدولة التي تمثّلهم ، وهي الدولة العثمانية ، ويبدو أن إيطاليا هي التي كانت تضع ليبيا نصب عينيها ، وتطمع فيها ، ولكنها لا تستطيع القيام بأية عمليات لتنفيذ أطماعها قبل أن تتفق مع إنكلترا وفرنسا المجاورتين لليبيا من الشرق والغرب ، واللتين هما سيدتا المستعمرين في تلك المرحلة .

الثانية : أن الدولة العثمانية لا تستطيع الدفاع عن ليبيا أمام الدول الأوربية النصرانية مجتمعة لضعفها أولاً ، ولاجتماع كلمة الدول الصليبية المعادية لها ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع سكان ليبيا الدفاع عن أنفسهم ، لقلتهم وضعفهم ، وأن الدعم الذي يمكن أن تُقدّمه الدولة العثمانية لا يُعدّ كافياً مهما حرصت عليه أمام قوة الدول الأوربية ، لذا كان لا بُد من اتخاذ بعض الإجراءات ، ومنها : حاولت نقل بعض العائلات الكردية بناءً على

اقتراح الوالي « أحمد راسم » الذي تسلم الولاية من عام ١٢٩٩هـ إلى ١٣١٤هـ ، وقد أسكنت هذه العائلات في منطقة « سرته » ، وقُدّمت لها المساعدات لتقوم بالزراعة ، ولكنها لم تتعود أن تقوم من قبل بمثل هذه الأعمال ، لذلك فإن المشروع قد فشل ، كما فشلت فكرة إدخال بعض العناصر منهم في القوات العثمانية المرابطة في المنطقة . ومن هذه الإجراءات : إسكان بعض أهالي جزيرة كريت المسلمين الذين تعرضوا لأبشع الأعمال الوحشية بل والإبادة من قبل السكان النصارى بعد أن فصلت كريت عن الدولة العثمانية عام ١٣١٦هـ ، إذ كان بعضهم قد اضطر إلى اللجوء إلى مصر ، وأقام في الاسكندرية ، كما أقام بعضهم في منطقة برقة ، وقد بلغ تعداد الذين أقاموا في منطقة برقة أكثر من ألف أسرة ، وانصهروا مع السكان بصفتهم من المسلمين .

ووُجدت محاولة لإسكان اليهود في ليبيا أيضاً ، وكانت الدولة العثمانية قد تساهلت مع اليهود ، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد أن طردهم النصارى من الأندلس يوم أن أخرجوا المسلمين منها ، وقد أساء اليهود للسلطة وللشعب في كل منطقة حلّوا فيها ، وقد ظهر حقدهم بشكل واضح ، وزاد جشعهم في السيطرة على بعض المناطق عندما لم يسمح لهم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بالتوسع في فلسطين، غير أنه قد تساهل معهم في ليبيا بناءً على توصية من واليها « رجب باشا » الذي تسلّم ولايتها من عام ١٣٢٢ هـ إلى ١٣٢٦هـ . كان قد أقام في ليبيا من اليهود بعد طردهم من الأندلس أكثر من ثمانمائة أسرة ، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة التجارة ، وقد تساهل معهم الوالي رجب باشا ، وكان يرى إعطاءهم الأراضي خوفاً من التوسّع الإيطالي ، ولهذا حرصت إيطاليا على نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ، وقد عيّنه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد والترقّي وزيراً للحربية ، غير أنه قد توفي يوم تعيينه ، وبذا فقد اليهود نصيراً لهم ، وقد كان من جماعة الاتحاد والترقّي ، ولكنه غير

ظاهر ، إذ كان يعمل سرّاً لهذه الجماعة . وقد كان لليهود دورٌ بارزٌ في هذه المجموعة التي أطاحت بالخليفة العثماني السلطان عبد الحميد ، ثم كان لها دورها أيضاً في إلغاء الخلافة . وكان مشروع الوالي رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر ، وعلى الرغم من الخلاف بين كل ما يُخَطِط له « رجب باشا » وبين ما يعمل له الطليان ؛ فإن اليهود قد دعموا الاستعمار الإيطالي لليبيا ، وساعدوا على تمكين الطليان من ارتكاب أبشع الجرائم والأعمال الوحشية ، فالأمر يحلو لهم ما دام ينال من المسلمين ، ولا يصل إلى بني جلدتهم منه شيء .

الاحتلال الإيطالي : كانت إيطاليا تعدّ تونس وليبيا مناطق نفوذٍ لها بعد احتلال فرنسا للجزائر ، وقد هاجر عدد من الطليان إلى هاتين المنطقتين ، وأنشأوا هناك شركات تجارية ، وأقرضوا الأموال للسكان ، وأسّسوا المدارس النصرانية لأبناء ديانتهم ، وبنوا المشافي لهم ، وحرصوا على كسب الدعاية لهم من قِبَل السكان .

احتلّت فرنسا تونس ، وساعدتها الظروف السياسية الدولية على ذلك ، فشعرت إيطاليا أنها قد خسرت الجولة ، وفقدت ما كان يجب أن يكون لها ، فأرادت أن تعوِّض عن ذلك ، فاتجهت إلى شرقي إفريقية ، غير أنها هُزمت أمام الأحباش في معركة « عدوة » عام ١٣١٣هـ .

وجّهت إيطاليا اهتمامها إلى ليبيا ، ولم يبقَ لها في الشمال الإفريقي سواها ، ففتحت فرعاً لمصرف (بنك دي روما) في طرابلس وبرقة ، وأخذ يقدِّم المساعدات للمزارعين ، فإذا ما تعذّر على هؤلاء المزارعين تسديد ديونهم ؛ استولى المصرف على أراضيهم ، وأنشأت مكتباً للبريد في بنغازي ، فكان الإيطاليون يرسلون عن طريقه ما يشاؤون من رسائل وتقارير بغير رقابة ، كما كانت لهم سفينة تنقل البريد العثماني ، وأنشأت إيطاليا بعض المدارس لتعليم اللغة الإيطالية ونشر ثقافتها ، كما بنت بعض المستشفيات ، وأخذت ترسل البعثات المختلفة ، وأهمّها البعثات التنصيرية الكاثوليكية ،

وبعثات الجمعية الإيطالية للكشوف الجغرافية والتجارة بمدينة (ميلانو) ، ومنها بعثة للتفتيش عن الفوسفات ، إضافةً إلى عمليات مسح الأراض التي تمّت ، وقد انضمّ إليها ضبّاط من أركان حرب الطليان ، واستطاع أعضاؤها أن يضعوا المخططات والخرائط العسكرية . وقد حصل الرعايا الطليان على مساحاتٍ ليست قليلةً من الأراضي الليبية الخصبة الصالحة للزراعة ، وهي من الأراضي التيكان يحجزها المصرف ثم يستولي عليها، ويقدِّمها للرعايا الطليان .

وسلكت إيطاليا مسلكاً سياسياً إلى جانب المسلك الاقتصادي والاجتماعي ، فقد اعترفت لفرنسا بالحماية على تونس بعد معارضتها في بداية الأمر ، واتفقت مع إنكلترا عام ١٣٠٥هـ على أن تُطلق يدها في ليبيا ؛ مقابل الاعتراف الإيطالي باحتلال إنكلترا لمصر . ووقفت بجانب فرنسا في المواقف الدولية ، وخاصّة مؤتمر الجزيرة عام ١٣٢٤هـ ، فوافقت فرنسا على إطلاق يد إيطاليا بليبيا مُقابل الاعتراف لها بحقِّها في المغرب . وهكذا أمّنت إيطاليا الوضع السياسي الدولي لها إلى جانب الدعاية لها في ليبيا ، وأخذت تنتظر الفرصة المناسبة لها لتعتدي على ليبيا وتحتلّها .

خافت الدولة العثمانية من هذا النفوذ الذي أصبح لإيطاليا في ليبيا ، وعرفت ما تضمره إيطاليا ، وكاد احتلال إيطاليا لطرابلس أن يتمّ عام ١٣٢٦هـ ؛ لولا أن أرسلت الدولة العثمانية إلى ليبيا جيشاً قويّاً لتقوية حاميتها هناك ، فأجّلت إيطاليا تنفيذ مخططها إلى حين .

وجدت إيطاليا الضعف الذي حلّ بالدولة العثمانية بعد الانقلاب الذي أطاح بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ؛ فأخذت تنتهز الفرصة الملائمة ، غير أن احتلال فرنسا للمغرب قد عجّل بالأمر ؛ فقررت إيطاليا اقتحام ليبيا ، واتصلت بالدولة النصرانية الاستعمارية الكبرى لتحقيق ما تنوي فعله ، فحصلت على موافقة إنكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، ووافقت النمسا بشرط ألا تتعدى العلميات الحربية منطقة شمالي إفريقية ، وألا تسري إلى ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا وأوربا وخاصّة البلقان .

لقد كانت الدول النصرانية الأوربية تتعاون فيما بينها على الظلم ، واستعمار أرض غيرها ، وتقسيم تلك الأراضي فيما بينها ، وقتل الناس ، وتتلذّذ حكوماتها بل وشعوبها عندما ترى الأوربيين يفتكون بالآخرين ، ويتفنّنون بالقتل جماعاتٍ وأفراداً ، يُردِّد الأوربيون فيما بينهم ، وأين ما كانوا ؛ صور ذلك القتل وتلك المجازر ، وخاصّة فيما إذا كان القتلى من المسلمين . وهم الآن يتحدّثون عن التخلّف وأسبابه ، وهل كان السبب إلا هم بما اقترفته أيديهم ؟! .

ورأت إيطاليا الفرصة مناسبة ؛ فأرسلت في ٤ شوّال ١٣٢٩هـ (٢٧ أيلول ١٩١١م) إنذارها الشهير فجأة إلى الدولة العثمانية ، تشير فيه إلى سوء النظام في طرابلس الغرب وبنغازي ، وإلى مصالحها العسكرية ، وتهديد طرابلس لها لقربها منها ، وتجاهل الدولة إلى رغبات إيطاليا في طرابلس ، وإهمالها مصالحها الاقتصادية ، والتحريض على الأوربيين أو الطليان خاصّة واضطهادهم ، وقرار إيطاليا باحتلال طرابلس وعلى الدولة العثمانية أن تسهِّل ذلك . وكانت مدّة الإنذار أربعاً وعشرين ساعة .

حاولت الدولة العثمانية أن تُوسِّط الدول الأوربية النصرانية الأخرى بينها وبين إيطاليا ، فبادرت بإرسال برقيّات باسم السلطان إلى تلك الدول يطلب فيها السعي للوساطة على أن تحقن إيطاليا الدماء ، ويكون لها مركز ممتاز في ليبيا ، غير أن تلك الدول قد أظهرت الحياد ، وأنها لن تتدخل في شؤون غيرها ، ونسي العثمانيون أنهم بهذا الطلب أو الرجاء كحملٍ خشي من ذئب ، فذهب إلى ذئاب أخرى يرجوها ألّا تسمح لذلك الذئب الكاسر من أن يأكله ، فماذا يكون الجواب ؟! .

وانتهى وقت الإنذار ، وتحرّك الأسطول الإيطالي وبدأ بقصف مدينة (درنة) يوم السابع من شوّال ١٣٢٩هـ (٣٠ أيلول ١٩١١م) ، وفي اليوم العاشر انتقل يقصف مدينة طرابلس ، ولم ينقض الشهر حتى احتلّ الطليان مدن : طرابلس ، وبنغازي ، ودرنة . وكانت الحملة الإيطالية تتألف من :

ثلاثمائةٍ وأربعين ألف مُقاتلٍ ، وستة آلافٍ وثلاثمائة حصانٍ ، وألفٍ وخمسين عجلة، وثمانيةٍ وأربعين مدفع ميدان، وأربعةٍ وخمسين مدفعاً جبليّاً. وكان طريق البحر مفتوحاً لنقل الاحتياطي والعتاد والسلاح والمؤن عند الحاجة ، إضافةً إلى أن أسواق الدول الأوربية النصرانية الأخرى مفتوحة للسلاح والمؤن ولا تتوانى الأساطيل التجارية عن النقل ؛ إن دعت الضرورة لذلك . أما الحامية العثمانية فتقدّر بخمسة آلاف جندي في طرابلس ، وألفين في برقة ، وكانت إضافةً إلى قلّة العدد هذه ضعيفةً ناقصةَ السلاح والعتاد .

أرسلت الدولة العثمانية جيشاً لمساعدة السكان على المقاومة ، غير أن إيطاليا قد وسّعت نطاق الحرب ؛ كي تجبر الدولة العثمانية على الاعتراف باحتلالها لليبيا ، وتسحب جيوشها منها . احتلت إيطاليا جزيرة « رودوس » والجزر الأخرى القريبة من الأناضول ، وأرسلت أسطولاً ضرب مدينة (بيروت) عام ١٣٣٠هـ ، وهددت مضيقي : (البوسفور) و (الدردنيل) وقامت تحرّض سكان البلقان للقيام بحركاتٍ ضدّ العثمانيين ، وتصرخ : كيف يقبل نصارى بحكم المسلمين لهم ؟! يجب أن يثوروا ويطردوهم .

أرسلت الدولة العثمانية بعض الضبّاط للإشراف على القتال وقيادته ، وكان منهم : أنور باشا ، وعبد العزيز علي المصري ، ومصطفى كمال ، وجعلت القيادة لأنور باشا ، وقسّمت الجبهة إلى ثلاث مناطق : الأولى في بنغازي بقيادة عبد العزيز علي المصري ، والثانية في درنة بقيادة مصطفى كمال الذي لم يلبث أن ترك القيادة وغادر ليبيا متوجّهاً إلى استانبول ، والثالثة في طبرق بقيادة ناظم بك . غير أن المقاومة الحقيقية كانت من المتطوّعين . ومنذ أن وصل أنور باشا إلى ليبيا ؛ أخذ يطوف على القبائل ، ويزور الزوايا السنوسية ، ويدعو الجميع إلى الجهاد . وقد اتصل بأحمد شريف السنوسي[1]

---

(١) أحمد شريف بن محمد بن محمد بن علي السنوسي الخطابي : ينتمي إلى آل الخطاب من قبيلة =

في واحة الكفرة ، ورجاه أن يوزِّع منشوراً إلى أتباعه يحثُّهم فيه على جهاد أعداء الله والإسلام .

استدعت الدولة العثمانية أنور باشا لما أصبح له من مكانة في الحكم الجديد الذي تولّى أمر تركيا ، وقبل أن يرحل أنور باشا من ليبيا زار أحمد شريف السنوسي في واحة « جغبوب » ، وأبلغه أنه ترك القيادة بعده لعبد العزيز علي المصري ، وأبلغة أوامر السلطان ؛ وهي أسناد أمر ليبيا إلى أحمد شريف السنوسي، وأنها أصبحت مستقلّة، ولها الحقّ في أن تدافع عن نفسها ، وهذا ما جعل السنوسية صاحبة الكلمة الأولى في ليبيا فيما بعد ، وبيدها مقاليد الأمر .

كانت الدولة العثمانية قد اضطرّت إلى التفاهم مع إيطاليا بعد أن وسّعت نطاق الحرب معها ، واضطرّت إلى عقد معاهدة « أوشي » قرب لوزان بسويسرا في ٢٢ شوّال ١٣٣٠هـ (٣ تشرين أول ١٩١٢م) ، وقد انسحبت الدولة العثمانية أو بالأحرى تركيا من الحرب ، وخرجت من ليبيا ، وتركت أهلها وحدهم وجهاً لوجهٍ أمام الطليان .

والواقع أن العثمانيين كانوا يَعدّون ليبيا جزءاً من بلادهم ما داموا يحكمون باسم الإسلام ، ويرفعون شعار الجامعة الإسلامية ، فلمّا تسلّمت السلطةَ جمعية الاتحاد والترقّي التي تتخذ من القومية الطوارنية (التركية) فكرة لها ، وتنادي بها ؛ كان من هذا المنطلق أنهم لاعلاقة لهم بليبيا ، وعليه فقد سهُل عليهم التخلّي عن ليبيا ، واستدعوا قادتهم وجنودهم منها، وعقدوا

= « مجاهر » التي تنزل قرب (مستغانم) بالجزائر ، وُلد أحمد شريف في واحة جغبوب ١٢٨٤ هـ ، وأقام بـ (التاج) بواحة الكفرة ، قاد القتال ضد الطليان ، واختلف مع ابن عمه، فرحل إلى تركيا، وأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة ، ثم والى الحركة الكمالية ، وأقام بـ (مرسين) ، واتُهم بالاتصال بآل عثمان ، وطُلب منه مغادرة تركيا ، فارتحل إلى دمشق ، وطلب منه الفرنسيون مغادرة الشام ، فسافر إلى المدينة حيث توفي بها عام ١٣٥١ هـ .

معاهدةً مع إيطاليا تنازلوا فيها عن حقِّهم في الدفاع عن ليبيا أو حمايتها . وعندما وصل خبر المعاهدة إلى أحمد شريف السنوسي ؛ أرسل خطاباً إلى أنور باشا ، قال فيه : « نحن والصلح على طرفي نقيض ، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه ؛ إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو » .

ركز الطليان جهودهم أول الأمر على منطقة طرابلس ، واضطرّ المجاهدون بعد قتالٍ مريرٍ إلى قبول عرض إيطاليا بإصدار عفوٍ عام عنهم وتوقّف القتال في هذه المنطقة ، غير أن قسماً منهم قد رفض هذا ، وانتقل إلى الجنوب إلى ولاية فزّان يُتابع الجهاد هناك .

أمّا في برقة فقد استمرّ القتال بإمرة عبد العزيز علي المصري ، وإشراف أحمد شريف السنوسي ، ووقعت أعنف المعارك قرب الساحل ، ولعلّ أشهرها معركة يوم الجمعة التي وقعت في تاريخ ١٠ جمادى الآخرة ١٣٣١هـ (١٦ أيّار ١٩١٣م) ، وقد اشترك فيها أحمد شريف السنوسي بنفسه ، وهُزم الطليان ، وارتدّوا إلى مدينة « أدرنة » وفشلوا في احتلال الجبل الأخضر حسبما كان مقرّراً لهم .

ضغطت إيطاليا على تركيا لسحب قوّاتها من ليبيا ، كما ضغطت على إنكلترا لسحب القوّات والمتطوعين المصريين أيضاً . وسافر عبد العزيز علي المصري إلى الإسكندرية ، ومنها إلى استانبول آخذاً معه أسلحته مجبراً على ذلك ، وكان أحمد شريف السنوسي قد أرسل عمر المختار لاستلام الأسلحة من عبد العزيز المصري ولو كرهاً .

بقي المجاهدون وحدهم في الميدان ، فالتقوا مع الطليان في عدّة معارك انتهت باحتلال إيطاليا للمنطقة ؛ حيث وصلت في ٦ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ (٣ آذار ١٩١٤م) إلى فزّان ، واحتلت واحة « مرزوق » . وابتدأت بعدها حرب العصابات ؛ حيث استطاع المجاهدون إجبار الإيطاليين على إخلاء فزّان ، وحصرهم ثانيةً في الساحل .

اندلعت الحرب العالمية الأولى ، ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ، على حين انحازت إيطاليا إلى جانب الحلفاء فعملت تركيا على مساعدة الليبيين ضدّ الطليان والإفادة منهم لقتال الإنكليز في مصر ، والفرنسيين في تونس والجزائر ، وأرسلت إليهم بعض الرجال القادة وكان منهم نوري بك[1] وجعفر العسكري[2] ، وعبد الرحمن عزّام ، وقامت بعض المعارك ، وحصلت القوات الليبية على انتصاراتٍ رائعةٍ ، وخاصّة تلك المعارك التي قادها شقيق « أحمد شريف السنوسي » ، وهو صفي الدين الشريف . وانتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وشركائها ، ومن بينهم تركيا ، على حين انتصر الحلفاء الذين من بينهم إيطاليا . وبهزيمة تركيا سحبت مُجبرة ما كانت قد أرسلته إلى ليبيا ، وبقي المجاهدون مرّة ثانية وحدهم في الميدان .

منذ أن بدأت الهزائم تظهر على الجيوش التركية والألمانية بادر عبد الرحمن عزّام إلى جمع زعماء القبائل والأعيان لتوحيد جهودهم في سبيل

(١) نوري بك : شقيق أنور باشا رجل الاتحاد والترقي ، ووزير الخارجية والحربية في حكومة الاتحاد والترقي في أواخر أيام الدولة العثمانية حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى .

(٢) جعفر العسكري: ولد ببغداد عام ١٣٠٢هـ، وتخرج من المدرسة الحربية باستنبول، ثم من برلين . حارب مع الأتراك في القصيم من شبه جزيرة العرب عام ١٣٢٣هـ ، واشترك في حرب البلقان ، وأرسل عام ١٣٣٤هـ على غواصة ألمانية إلى ليبيا لحمل السنوسيين على مهاجمة مصر من حدودها الغربية ، والعمل مع نوري باشا في مشاغلة الجيش الإنكليزي ، فترك في بنغازي ، واعتقله الإنكليز جريحاً في (مرسي مطروح) عام ١٣٣٥هـ ، أفرج عنه ، والتحق بجيش فيصل بن الحسين قائد جيش ما عُرف بالثورة العربية ، ولحق به في العقبة ، وجعله فيصل حاكماً على (عمان) ، ثم على (حلب) ، وكان من كبار مرافقيه ، وخرج معه من دمشق ورجع إلى بغداد ، وكان وزيراً للدفاع في أول حكومة وطنية ، ثم تولّى رئاسة الوزراء ، وفي أيامه وُضع الدستور ، وعُقدت المعاهدة الأولى بين العراق وإنكلترا ، ثم عُيّن وزيراً مفوّضاً للعراق في لندن ، وتولّى وزارتي الخارجية والدفاع عام ١٣٤٩هـ في بغداد ، واشترك في عقد معاهدة ثانية مع إنكلترا ، وعُيّن وزيراً للدفاع عام ١٣٥٤هـ ، وثار بكر صدقي ، فقصده جعفر لإخماد نار الفتنة ، فاستقبله بعض ضباط الثورة ، وقتلوه ، وذلك عام ١٣٥٥هـ .

تأليف حكومة من أبناء البلاد ، وقد رشّح أحدُ زعماء القبائل الأمير عثمان فؤاد ابنَ الخليفة العثماني محمد رشاد لاستلام منصب الرئاسة ، غير أنه اعتذر عن قبول هذا المنصب ، وكان قد جاء إلى ليبيا مع عبد الرحمن نافذ للاشتراك في القتال .

انتخب زعماء ليبيا مجلساً جمهورياً مؤلّفاً من خمسة أعضاء ، ومجلساً للشورى يتألف من عشرين عضواً ، واختاروا عبد الرحمن عزّام ليكون مستشاراً لهذه الجمهورية التي استمرّت ما يقرب من خمس سنواتٍ ، وكان مقرّها مدينة (مسلاتة) .

كان الليبيون قد دحروا القوات الإيطالية ، وقاموا بهجوم على الإنكليز بمصر ، غير أنهم لم ينجحوا ، ولمّا فشلت حملتهم تلك على مصر تنازل أحمد شريف عن زعامة الحركة السنوسية لابن عمه محمد إدريس الذي هزم الطليان في عدّة معارك ، واضطروا إلى إبرام إتفاقيةٍ معه اعترفوا له فيها بنفوذه على المناطق ، كما تعهّدوا بإبقاء المحاكم الشرعية والعناية بالقرآن الكريم ، وعدم التعرّض للزوايا السنوسية ، والسماح بالمبادلات التجارية بين المناطق الساحلية والداخلية .

وعُقدَ مؤتمر في مدينة (غريان) ١٣٣٨هـ ضمّ ممثّلين عن جميع أبناء البلاد عدا البربر ، واتفقوا على توحيد الجهاد . وخاف الطليان من نتائج ذلك ، واضطروا إلى الاعتراف بمحمد إدريس السنوسي أميراً على المناطق الداخلية التي كانت تحت سلطته ، كما أصدروا دستوراً للمناطق الساحلية . كل ذلك خوفاً من انطلاق الجهاد بعد أن تعاهد عليه الزعماء ، وحرصاً على الوقت ليتمكنوا فيه من الاستعداد ، وحشد القوات .

وعُرفت نوايا الطليان ؛ فعقد الليبيون مؤتمراً عام ١٣٣٩هـ في مدينة (سرت) حضره ممثّلون عن السنوسيين ، وعن منطقة طرابلس ، وكان قد وقع الخلاف بين زعماء طرابلس وبرقة ، وتمّت فيه البيعة إلى محمد إدريس

السنوسي ، وكان الطليان قد استعدّوا ، وعاد القتال ، ولم يستطع المجاهدون مُقاومة ما حشد الأعداء من جيوش جرارةٍ ، فاحتلّ الإيطاليون منطقة طرابلس في ١٧ صفر ١٣٤٢ هـ (٢٨ أيلول ١٩٢٣م) وقضوا على جمهورية ليبيا الأولى .

أما في برقة فقد أعطى محمد إدريس السنوسي القيادة فيها إلى عمر المختار[١] الذي اتخذ مدينة (شحات) في الجبل الأخضر مقرّاً لقيادته . وأحرز عدّة انتصارات على الأعداء ، الأمر الذي جعلهم يُفكّرون بالاستيلاء على المناطق المحيطة بالجبل الأخضر ، ولكنهم هزموا شرّ هزيمة ، كما هُزموا في محاولتهم احتلال « فزّان » ، وأخيراً استطاع الطليان من السيطرة على المناطق المحيطة بالجبل الأخضر .

---

(١) عمر بن مختار بن عمر المنفي : ينتمي إلى قبيلة « مِنفة » التي تتنقل في بادية برقة ، وُلد عام ١٢٧٥هـ في (البطنان) ببرقة ، وتعلم في زاوية السنوسيين في (جغبوب) وجعله محمد المهدي الإدريسي شيخاً على زاوية « القصور » بالجبل الأخضر قرب (المرج) ، وسافر معه إلى السودان ، وتسلم مشيخة زاوية « كلك » حتى عام ١٣٢١هـ ، حيث رجع إلى برقة ، وإلى مشيخة زاوية « القصور » ، خرج لجهاد الطليان بعد أن احتلوا مدينة بنغازي عام ١٣٢٩هـ ، وصمد للعدو صموداً منقطع النظير .
وبينما هو في سرية من رجاله تقدر بخمسين فارساً بناحية (سلنطة) بالجبل الأخضر ، يستطلع مواقع العدو فوجىء بقوةٍ من الأعداء أحاطت به فقاتلها ، واستشهد أكثر من كان معه ، وأصيب هو بجراح ، وعُقر جواده ، فانقضّ عليه الطليان ، وحملوه أسيراً ، وهم لا يعرفونه ، وحُمل إلى (سوسة) ، ثم عرفوه ، فنقلوه بطرادٍ إلى بنغازي ، وسُجن أربعة أيام ، ثم حقّقوا معه ، فكان مثال المسلم ، وأجاب بصراحةٍ ووضوحٍ ، ثم أعدم شنقاً في مركز « سلوق » ببنغازي ، وذلك عام ١٣٥٠هـ ، فكان عمره خمسة وسبعين عاماً ، ومع ذلك كان يجاهد على جواده ، ويقوم بنفسه باستطلاع العدو .

الفصل الأول

استعمار ليبيا

ألغيت الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وكانت هي البقية الباقية التي تربط المسلمين بعضهم ببعض ، فلمّا ألغيت زالت الروابط الرسمية ، ولم تبقَ إلّا المعنوية التي لا توجد في مجتمع ضعيفٍ متخلّفٍ جاهلٍ ، وانقطعت الصلات التي كانت تربط الليبيين بإخوانهم وبقوا وحدهم في الميدان ، ولم تعد تصل إليهم أيّة مساعداتٍ ، فيجب الاعتماد على أنفسهم وإمكاناتهم .

وترسّخت فكرة الإقليمية الضيقة نتيجة التجزئة التي فُرضت على المسلمين من قِبَل أعدائهم الذين سيطروا على بلادهم ، وأصبحت لهم الكلمة الأولى ، وارتبطت مصالح بعضهم بالمستعمرين ، إذ نالوا منهم حظوة ، وسُلِّموا السلطات ، فأصبحوا يُدافعون عنها لتبقى لهم السيادة ؛ فنادوا باسم الوطنية التي فسّروها بالإقليمية التي سُوِّدوا فيها . وبدأت المسابقات لرفع هذه الشعارات ، وإبراز بعض الأعمال لتبرير استلامهم السلطة ، والأعداء يُوجِّهون ويدفعون ، ويُسرّون بما يجري .

وإن المشكلات الكثيرة لكل إقليمٍ قد جعلت أهله ينصرفون إلى حلِّ موضوعاتهم الخاصّة ، وهذا ما جعل جذور الانفصالية تتعمّق ، حيث يلتفت سكان كل إقليمٍ إلى مشكلاتهم ، هذا ؛ إضافةً إلى الجهل ، فلا يَعرف أهلُ منطقةٍ ما يحلّ بإخوانهم في المنطقة الثانية ، ويزيد الأمر سوءاً توجيه المستعمر

إلى ما يثير الأحقاد بين الأقاليم ، ويزرع الشكوك بين أهلها ، وبين الراعي والرعية . وإذا وجدت الروح المعنوية ؛ فهي عند فئةٍ قليلةٍ منهم ، وتحاول الفئات المتسلِّطة قتلها وإماتتها .

السيطرة الإيطالية : استطاع موسوليني أن يتسلّم زعامة إيطاليا ، وأن يسيطر على حكمها تماماً في الثلث الأول من عام ١٣٤١هـ (أواخر عام ١٩٢٢م) ، وأراد أن يُثبِّت دعائم حكمه بلفت نظر السكان إلى خارج البلاد ، وإشغالهم بانتصارات واسعةٍ ضد شعبٍ قليل العدد ، قليل الإمكانات ، آمن مطمئن ، لا يعرف الحقد ، ولا يرغب في العدوان . وإذا ما اتجه الناس إلى خارج حدود بلادهم ، وانصرف اهتمامهم إلى تلك الجهات ؛ تركوا ما يحدث داخل البلاد من ظلمٍ ، وما يرتكب من مُخالفاتٍ دستوريةٍ وتعدّياتٍ على الآخرين وحقوقهم .

نقض موسوليني الاتفاقات التي قطعتها حكومة إيطاليا السابقة على نفسها ، فنقض الاعتراف بحكومة محمد إدريس السنوسي في داخل ليبيا ، ورفض الاعتراف بالمحاكم الشرعية في المناطق التي يسيطر عليها الطليان ، وباللغة العربية ، وبالعناية بالقرآن الكريم ، وبعدم التعرّض للزوايا السنوسية ، وبالسماح بالتجارة بين الجهات الساحلية التي تخضع للاستعمار الإيطالي والجهات الداخلية التي لا تزال تحت سيطرة الليبيين أنفسهم ، وأبى موسوليني أي شيءٍ سوى الخضوع لإيطاليا والرضوخ له شخصياً ، وعدّ ما هو قائم في ليبيا ضعفاً من حكومة إيطالية السابقة ، ويجب أن تبرز الآن قيمة إيطاليا شامخة .

عيّن « موسوليني » حاكماً جديداً على ليبيا يُدعى « بونجيوفاني » ، وزوّده بصلاحياتٍ واسعةٍ ، ووضع تحت تصرّفه جيشاً ضخماً يقوده اللواء « بادوليو » واللواء « غرازياني » . أحبّ « بادوليو » أن يتعرّف على معنويات عمر المختار وطريقة تفكيره ، فأجرى مُفاوضةً معه ، وسأله : ما هي الشروط التي تضعونها للمصالحة مع حكومة إيطاليا ؟ .

فأجاب عمر المختار : ألّا تتدخل الحكومة الإيطالية في أمور ديننا ، وأن تكون اللغة العربية لغةً رسميةً معترفاً بها في دواوين الدولة ، وأن تُفتح مدارس خاصة ؛ يُدرّس فيها التوحيد والتفسير والفقه وسائر العلوم ، وأن تُفتح مدارس لتعليم اللغة العربية ، وأن يُلغى القانون الذي وضعته إيطاليا ، فهو وضعيّ يُخالف شرع الله ، وهذا لا يصحّ في عقيدتنا . فعرف « بادوليو » أنه أمام عملاق ، ولا بدّ من قوةٍ عظيمةٍ لتحقيق النصر عليه .

حشد «بادليو» قوّةً ضخمةً مشحونةً بالحقد على الإسلام، مليئةً قلوبها بالرعب من أبنائه ، مسحوقةً في بلادها بالاستبداد ، وسُمح لها بعمل كل شيء ، وما أبشع ما يرتكبه الخائف إذا انتصر ، والحاقد إذا غلب ، والذليل إذا عزّ ، والفقير إذا أبطرته النعمة ! وهذا ما كان من جنود الطليان في ليبيا ، كانوا كأنهم بهائم رُبطت منذ مدّة ، ثم تُركت ترتع سائمةً في مرعىً غضٍّ ، فكانت أعمالهم وحشيةً يندى لها جبين الإنسانية لما ارتكبوه من سبي للنساء ، وصلبٍ لهنّ ، وهنّ عاريات ، وذبح بالجملة ، وقتل للرجال صبراً وأمام ذويهم ؛ وانتهاكِ حُرمات المساجد ، ودوس المصاحف بالأقدام . وكان عدد القتلى من المسلمين في منطقتي برقة وطرابلس خمسمائة وسبعين ألفاً وتسعمائة وثمانين وعشرين (٥٧٠٩٢٨) إنساناً .

كان محمد إدريس السنوسي قد اضطرّ لترك ليبيا والالتجاء إلى مصر، واستمرّ عمر المختار يرفع لواء الجهاد ، ويقوم بحرب العصابات ، وخاصةً في (برقة) في منطقة الجبل الأخضر ، وبقي في جهاده مدة ثمان سنوات (من ١٣٤٢ إلى ١٣٥٠هـ) ، وقد انقطعت عن ليبيا خلال هذه المدة كل الإمدادات والمساعدات التي كانت تصل إليها من الخارج ، أو يحتمل أن تصل من بعض المسلمين ، ومن البلدان العربية المجاورة .

قام المفوض السامي الإيطالي الجديد « بونجيوفاني » بحلّ المعسكرات في منطقة برقة ، واحتلّت القوات الإيطالية مدينة (إجدابيا) العاصمة السنوسية في تاريخ ٦ رمضان ١٣٤١هـ (٢١ نيسان ١٩٢٣م) ، ثم أعلن المفوّض

السامي بعد ثلاثة أيام من احتلال العاصمة السنوسية إلغاء جميع الاتفاقات المعقودة بين إيطاليا والسنوسي ، وأن الطريقة السنوسية لم تعد سوى طريقة دينية . وأبلغ وزير إيطاليا المفوّض في القاهرة هذا القرار إلى محمد إدريس السنوسي ، وبذا فقد زال أيّ نفوذٍ للسنوسيين في المناطق الداخلية من ليبيا حسبما كان سارياً نتيجة الاتفاقات ، كما انتهى مفعول ما قطعته إيطاليا على نفسها من قيودٍ في المناطق الساحلية .

وفي ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ (٢ كانون الأول ١٩٢٥م) تنازلت مصر أو بالأحرى إنكلترا عن واحة « جغبوب » لإيطاليا ، وهي منطقة الدعوة السنوسية ، فدخلتها القوات الإيطالية . وقد كانت إنكلترا تريد مجاملة إيطاليا وعدم إغضابها ما دامت إيطاليا تفتك بالمسلمين بطريقةٍ أكثر سوءاً مما تقوم هي به ، كما أنها لا تريد الصدام معها بعد تسلّط الحكم الفردي الاستبدادي عليها ، وخوفاً من قيام أنظمةٍ شبيهة أخرى ، والتحرّك نحو ألمانيا التي كانت تسير في المنحى ذاته .

وتقدّم الطليان في داخل ليبيا فاحتلوا (العقيلة) و (مرزوق) و (غات) ، وبذا تمّت سيطرتهم على (فزّان) وغربي ليبيا . ثم تحرّكت قواتهم نحو واحات الجزء الشرقي فاحتلوا (أوجلة) و (جالو) ، وأخيراً سقطت واحات الكفرة ، آخر معاقل السنوسيين في ١٥ شعبان ١٣٤٩هـ (٤ كانون الثاني ١٩٣١م) ، وبذلك عُزل الجبل الأخضر من كل ناحية .

كان قد بقي من زعماء الجهاد عمر المختار ومحمد الرضا فبدأ الطليان بمفاوضتها . أمّا محمد الرضا ؛ فقد استسلم في ١٥ رجب ١٣٤٦هـ (٧ كانون الثاني ١٩٣٨م) ، وأمّا عمر المختار فقد رفض ، واستمرت المفاوضات معه حتى غرّة جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م) أي ما يقرب من سنتين من استسلام محمد الرضا .

أعلن عمر المختار استئناف الجهاد في غرّة جمادى الآخرة ، وقطع

المفاوضات بعد أن تأخّر « بادوليو » بردّ الجواب عليه ، واستمرّ في جهاده هذه المرة عشرين شهراً . وبينما كان يستطلع مع خمسين من فرسانه قوات العدو في « سلنطة » ؛ فوجىء بقواتٍ ضخمةٍ للعدو ، فاصطدم معها ، واستشهد أكثر فرسانه ، وسقط هو مثخناً بالجراح ، وقد قُتل جواده ، وحمله الأعداء أسيراً ، ولم يعرفوه ، وذلك في تاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ (١١ أيلول ١٩٣١م) . ولّما عرفوه نقلوه بسرعة إلى « سوسة » ومنها أركب الطراد « أوسيني » وسجن أربعة أيام ، ثم حُوكم محاكمةً صوريةً ، وأجاب غير هيّابٍ ، وأخذ على نفسه مسؤولية كل ما حدث من أعمال الجهاد ، فقررت المحكمة إعدامه على الرغم من أن عمره يزيد على الخامسة والسبعين ، فأعدم في اليوم التالي شنقاً في ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ (١٦ أيلول ١٩٣١م) بمركز « سلوق » في (بنغازي) ، وأجبر الأهالي على مشاهدة إعدامه ، وكان منظراً مؤثراً ورهيباً أثار الناس وحرّك فيهم روح الجهاد ، مما جعل الطغاة يخشون عاقبة ما قاموا به ؛ فدفنوه سرّاً ، وأخفوا معالم القبر .

لقد خاض عمر المختار مائتين وثلاثاً وستين معركةً خلال العشرين شهراً الأخيرة ، وكانت أشهَر هذه المعارك : « الرحيبة » و « عقيرة المطمورة » و « كرسّة » وهي أسماء معارك في الجبل الأخضر في منطقة برقة .

خلت الساحة بعد استشهاد عمر المختار ، فأغلقت الزوايا السنوسية ، وصودرت أملاكها . ولا نستطيع أن نقول : إن حركة المقاومة قد أخمدت تماماً ، وإنما بقي منها أثرٌ يظهر بين الحين والحين .

قُدّر عدد الشهداء من الليبيين في السنوات العشر الأولى من الاحتلال الإيطالي بسبعين ألف شهيدٍ ، ووصل هذا الرقم في النهاية إلى خمسمائةٍ وسبعين ألفاً وتسعمائةٍ وثمانيةٍ وعشرين إنساناً كما سبق أن ذكرنا . واستولى الطليان على مساحاتٍ واسعةٍ من أخصب الأراضي ، ولقد وضعوا أيديهم حتى عام ١٣٥٠هـ على مائةٍ وعشرين فداناً في منطقة برقة فقط ، ولم يدفعوا سوى ثلث ثمنها ، ثم تضاعفت هذه المساحات بعد عامين . وشجّعت إيطاليا هجرة

أبنـائها إلى ليبيـا ، وأمدّتهم بـالأموال ، وأسكنتهم بـالأراضي والأملاك التي اغتصبتها ، وأقامت مزارع فردية ، ومزارع حكومية على شكل مستعمـرات إغراءً للطليان بالهجرة إلى ليبيا . وفي ١٩ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (٩ كـانون الثاني ١٩٣٩م) أي قبل اندلاع نار الحرب العالمية الثانية بأقل من تسعة أشهر أعلنت ضمّ طـرابلس وبـرقـة إلى ليبيـا[١] ، وعـدّتهـا جـزءاً من الأراضي الإيـطالية ، ومنحت السكـان الجنسية الإيـطالية ، وأجـبرت القبـائـل عـلى الاستقرار ، وإضافةً إلى هذا الظلم ملأت إيـطاليا البـلاد الليبية بـالمدارس الإيطالية ، وألزمت السكان على تعلّم لغتها ، وعاملت الأهالي معاملةً سيئةً جداً حيث حرّمت عليهم الكثير ، وهتكت الأعراض ، وألقت الناس من الطائرات وهم أحياء إذا قالوا قولة حقٍّ أو انتقدوا ، وساقت العمال والمجنّدين للخدمة مع الجيش الإيطالي في الحبشة أو في الصحراء الغربية ، وارتكبت أبشع الجرائم والمنكرات .

هذا بالنسبة إلى الأعمال العسكرية وبعض مظالم الطليان في ليبيا ، أمّا بـالنسبـة إلى نشـاط السكـان السيـاسي خـارج البـلاد ، فقـد أسّس بشـير السعداوي[٢] جمعية الدفاع الليبي (الطرابلسي ـ البرقـاوي) في دمشق عام ١٣٤٧هـ ، وإن كان جلّ أعضائها من الليبيين المهاجرين ؛ إلّا أنه قد دخلها بعد الأساتذة من غير الليبيين ، وكانوا يومذاك أكثر أفـراد المجتمع اطّـلاعاً نسبيـاً ، وكان منهم : عبـد الغني الباجقني وهـو من أصل ليبي ، وبكـري قدورة ، وكامل عيّاد ، وكانت أهم مطالب هـذه الجمعية التي أعلنتهـا عام ١٣٤٨هـ هي :

---

(١) ليبيا بالأصل اصطلاح يطلق على الصحراء التي تقع غرب نهر النيل وجنوب برقة وطرابلس .

(٢) بشير السعداوي : من أهالي (طرابلس الغرب) ، رحل عام ١٣٥٥هـ إلى المملكة العربية السعودية ، وعمل مستشاراً عند ملكها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، ورجع إلى بلاده عند استقلالها ، ولكن لم يسترح إلى الملك محمد إدريس السنوسي ، فرجع إلى القاهرة ، ومات فيها عام ١٣٧٦هـ ، صنّف رسالةً سمّاها : « فظائع الاستعمار الإيطالي الفاشستي في طرابلس وبرقة » .

١ ـ تأسيس حكومةٍ وطنيةٍ ذات سيادةٍ ، على رأسها زعيمٌ مسلمٌ تختارة الأمة .
٢ ـ تشكيل جمعيةٍ تأسيسيةٍ لوضع دستور للبلاد .
٣ ـ انتخاب مجلس للنواب .
٤ ـ جعل اللغة العربية لغةً رسميةً .
٥ ـ المحافظة على شعائر الدين الإسلامي .
٦ ـ العناية بالأوقاف بإدارةٍ إسلاميةٍ .
٧ ـ إصدار عفوٍ عام .
٨ ـ عقد معاهدةٍ مع إيطاليا يقرّها المجلس النيابي .

وقد افتَتحت هذه الجمعية فرعاً لها في تونس عام ١٣٤٩هـ برئاسة محمد عريقب الزليطي .

وتأسست جمعية في مصر برئاسة أحمد السويحلي ، وقامت بنشاطٍ واسعٍ ، وافتَتحت عام ١٣٦٢هـ نادي طرابلس الغرب الثقافي .

وشكّلت الجاليات الليبية التي تقطن مختلف أرجاء العالم الإسلامي لجنةً للدفاع عن حقوق ليبيا ، واتخذت هذه اللجنة ميثاقاً وطنياً لها ، وعندما انعقد المؤتمر الإسلامي في القدس عام ١٣٥٠هـ ؛ أرسلت هذه اللجنة مندوبين عنها لحضور المؤتمر ، وقدّمت له نسخةً من الميثاق الوطني . وقد طالبت اللجنة المسلمين في أقطار الأرض كلها تقديم المساعدة لإخوانهم المنكوبين في ليبيا . وقد جاء في الميثاق ما يلي :

١ ـ تأليف جمعيةٍ تأسيسيةٍ لسنِّ دستور البلاد .
٢ ـ انتخاب الأمة مجلساً حائزاً على الصلاحية التي يخوّله إياها الدستور .
٣ ـ اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم .
٤ ـ المحافظة على شعائر الدين الإسلامي وتقاليد القطر في جميع أرجائه .
٥ ـ العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنةٍ إسلاميةٍ .
٦ ـ العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه .

٧ ـ تحسين العلاقات بين الشعب في طرابلس وبرقة والدولة الإيطالية بمعاهدةٍ يعقدها الطرفان ، ويصدِّقها المجلس النيابي .

٨ ـ تأليف حكومةٍ وطنيةٍ ذات سيادةٍ يرأسها زعيمٌ مسلمٌ تختاره الأمة .

يبدو من البيانات هذه أن الليبيين كانوا يقفون موقف الملاينة مع الطليان لعلّهم يحصلون على شيءٍ من تخفيف الشدّة بعد أن زاد طغيانهم ، فهم يطالبون بعقد معاهدةٍ مع الطليان ينالون فيها شيئاً من الاعتراف بالذات ، ولو كان لإيطاليا شيء من النفوذ .

ويبدو أن فرنسا كانت تُناهض إيطاليا وتختلف في ذلك عن إنكلترا ، فقد قامت الجمعيات الليبية في مناطق نفوذ فرنسا في سوريا وفي تونس ، ولعلّ إيطاليا وفرنسا كانتا على خلافٍ من أجل تونس ، أو أن كلاهما تريد منطقة ليبيا لنفسها ، لذا فإن فرنسا كانت تُعادي إيطاليا ، وتحرّك الليبيين ضدّها .

الحرب العالمية الثانية : اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (١ أيلول ١٩٣٩م) ، ودخلت فيها إيطاليا إلى جانب ألمانيا واليابان على حين كان في الطرف المقابل : إنكلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والأمبراطورية الروسية ، ومعنى ذلك أن أرض ليبيا ستكون ساحة صراع بين الأطراف المتخاصمة ؛ فأرضها محتلة من قبل إيطاليا ، بينما تسيطر إنكلترا على الأراضي التي تحدّها من الشرق ، وهي أرض مصر ، وتستعمر فرنسا المناطق التي تحدّ ليبيا من الغرب والجنوب وهي : تونس ، والجزائر ، والنيجر ، وتشاد . حتى السواحل الليبية ستكون ميداناً لحربٍ بحريةٍ كاسحةٍ ، فالأسطول الإنكليزي له قوته في البحر المتوسط ، ويأتي بعده الأسطول الفرنسي حيث تشرف فرنسا على هذا البحر من ناحية الجنوب ، وتستعمر البلدان التي تشكل شطآنه الجنوبية من ناحية الغرب ، وهي : تونس ، والجزائر ، والمغرب ، كما تستعمر أجزاءً من شطآنه الشرقية وهي :

سوريا ولبنان . أما إيطاليا فإن أراضيها تمتدّ وسط هذا البحر ، وتكاد تجعله جزأين ، إضافةً إلى أنها تعدّ ليبيا جزءاً من مملكتها .

بدأت الحرب بهجومٍ ألماني صاعق اكتسح بولندا من ناحية الشرق ؛ فأعلنت إنكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا ، فالتفتت ألمانيا إلى ناحية الغرب ؛ فضربت فرنسا ضربةً قويةً ألقت السلاح بعدها ، وعدّت عاصمتها باريس مدينةً مفتوحةً ، فدخلها الألمان . وتشكّلت في فرنسا حكومة « فيشي » برئاسة الجنرال « بيتان » وعقدت معاهدةً مع الألمان ، وعدّتهم حلفاء لها ، وكان لهذه الحكومة النفوذ في المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار ، وبذا فإن الصدام بين فرنسا وإيطاليا لن يكون ، ولن تكون هناك حربٌ على الحدود الليبية من جهة الغرب والجنوب في مراحل الحرب الأولى على الأقل ؛ لأن لفرنسا حكومة أخرى خارج أرضها وهي حكومة فرنسا الحرّة برئاسة الجنرال « ديغول » حيث يقيم في لندن ، ويعمل مع الحلفاء ، ولا بدّ من صدامٍ بين حكومتي فرنسا تبعاً لمجريات أحداث الحرب .

أما منطقة الحدود المصرية ـ الليبية فستكون إحدى مناطق الصراع الرئيسية في العالم خارج القارة الأوربية ، وذلك للتماس المباشر بين طرفي الحرب ، حيث إنكلترا في مصر ، وإيطاليا في ليبيا ، وسيعمل كل طرفٍ لإنزال ضربةٍ قاضيةٍ في خصمه ـ إن استطاع ـ لإخراجه من دائرة القتال ، وسيستعمل لذلك كل الوسائل المتوفرة لديه أو التي يمكن أن يستفيد منها .

إن أهم وسيلةٍ لدى إنكلترا الاتصال بالمجاهدين الليبيين ، ودعمهم ضدّ الطليان وحثهم على القتال ، وكأنهم أصبحوا أصدقاء لهم ، وكانوا بالأمس أعداء ، بل إن إيطاليا لم تتقدّم إلى احتلال ليبيا إلاّ وقد ضمنت عدم معارضة إنكلترا ، ولكنهما اليوم كلاهما أعداء لإيطاليا ، وعداوة إنكلترا عداوةٌ مرحليةٌ أو مؤقتةٌ اقتضتها السياسة والنزاع لفرض النفوذ ، وغداً تعودان للقاء وللقتال في خندق واحدٍ ضد المسلمين ، فكلاهما مشحون بالحقد على

الإسلام ، ويعمل لخدمة الصليبية . أمّا عداوة ليبيا فعداوة عقيدةٍ ، وهي باقية حتى يدين الطليان بالإسلام ، أو يُنزع الإسلام من قلوب الليبيين ، بل لن يؤمن الطليان بنزع الإسلام من قلوب الليبيين ؛ حتى يُعادونه ويُحاربونه ، ويُصبحوا نصارى أو يهوداً . وعلى كل فقد ادّعت إنكلترا الصداقة للمجاهدين ، ومدّت لهم يد العون ، وقدّمت إليهم المساعدات ، بل وكانت على صلةٍ مباشرةٍ بكبيرهم محمد إدريس السنوسي ؛ فهو يعيش في مصر ، في منطقة نفوذها ، وتحت سيطرتها ، وفي حمايتها ورعايتها ، وقد وجدت فيه ضالتها ؛ فهو الصلة لها مع المجاهدين ، وهو وسيلتها لحكم بلاده في المستقبل ، وراعي مصالحها فيما إذا خرجت من أرضه ، لذا يجب رعايته بالشكل المطلوب، وعلى قدر ما تنجح في سياستها معه؛ على قدر ما تحقّق نصرها في الوقت الحالي ، ومصالحها في الأيام القادمة والمستقبل القريب .

لم يكن محمد إدريس السنوسي يقوم بأيّ نشاطٍ سياسي في مصر ، على حين يقوم غيره بذلك ، بل لم تكن إنكلترا لتسمح له بذلك ، فإن أي نشاطٍ ؛ يسيءُ للعلاقة بين إنكلترا وإيطاليا ، ولم تكن كلتاهما تريد ذلك للظروف الدولية التي تمرّ بها القارة الأوربية خاصةً ، لذا نلاحظ أنه رغم وقوع مصر بجوار ليبيا ، ورغم وجود محمد إدريس السنوسي في مصر ، بل وعددٍ آخر من الليبيين معه ؛ إلّا أنه لم تكن هناك نشاطات سياسية ضد إيطاليا على حين وُجد مثل هذا النشاط في تونس ودمشق ، رغم البعد بين دمشق وليبيا ، وعدم وجود كثير من الليبيين في دمشق .

لما دخلت إيطاليا الحرب بجانب ألمانيا؛ نشطت إنكلترا، ودفعت محمد إدريس السنوسي للعمل ، وقد عُقد اجتماعٌ في بيت السنوسي بالاسكندرية في تاريخ ٦ رمضان ١٣٥٨هـ (١٩ تشرين الأول ١٩٣٩م) وحضره عن طرابلس أحمد السويحلي ، وأحمد المريض ، وعون وسوف ، وتوفيق الغرياني ، ومحمد العيساوي ، وعن منطقة برقة : عبد السلام الكدّة ، وعبد الحميد

العباد . وبعد أربعة أيام تم الاتفاق على تجديد البيعة لمحمد إدريس السنوسي بالإمرة على منطقة ليبيا، وتشكيل لجنةٍ برئاسة الأمير وعضوية أحمد السويحلي وأحمد المريض وعبد الحميد العباد و . . . للعمل من جديدٍ ضدّ الطليان .

من السياسة ألاّ تقدّم إنكلترا عروضاً كبيرةً لليبيين ، وإنما تترك ذلك للأيام وحسب الظروف ؛ لتبلوهم ، وتختار من تشاء ، وعندها تقدّم له العروض ليصبح في المستقبل خاضعاً لها ؛ فمكانه من بعض فضائلها عليه أو من بعض فضلاتها تُقدّم له ، فكأن بلاده من خيراتها وتهب له منها ، على حين أنها غريبة والبلاد لأهلها . ومن السياسة أن تبدأ بتسخير أهل ليبيا لمصلحتها ، وفي حدود ما ترسم لهم ، ثم تمنح ما تشاء .

عرضت إنكلترا العمل على الليبيين ، وتقديم المساعدة للجهاد ضدّ الأعداء من الطليان ، وكلّفت حمد الباسل[1] للتوسط في ذلك ، وعرضت أجراً زهيداً للذين يتطوّعون للقتال في صفوف الجيوش الإنكليزية ، غير أن الطرابلسيين.رفضوا ذلك العرض ، وعرفوا أن إنكلترا تريد استغلالهم ؛ فبالأمس كانت بجانب إيطاليا وضدّ أهل ليبيا ، واليوم تريد أن تقاتل إيطاليا بأهل ليبيا لمصلحة الإنكليز والإنكليز فقط .

رضي محمد إدريس السنوسي العمل برأي إنكلترا ، وعهد إلى صفي الدين السنوسي بتجنيد المتطوعين ، وفتح مكتباً لتجنيد السنوسيين ومن يقبل العمل معهم ، واستطاع أن يجنّد أربعة عشرَ ألفِ جنديٍ ، ومائةً وعشرين ضابطاً .

شكّل محمد إدريس السنوسي الجمعية الوطنية الليبية التي قرّرت إعلان

---

(١) حمد بن محمود بن محمد الباسل : وُلد في القاهرة عام ١٢٨٨هـ ، وهو من أصل مغربي ، وقد حُافظ في لباسه على الزي المغربي ، تعلم الإنكليزية والفرنسية بالممارسة الكلامية ، وسُمّي عمدةً لقبيلة « الرماح » قرب الفيوم ، وكان من أعضاء الجمعية التشريعية ، كان مع سعد زغلول ، ونُفي معه إلى مالطة ، ومات بالقاهرة عام ١٣٥٩هـ .

بيعته وتفويضه دون قيدٍ أو شرطٍ ، وخوض الحرب إلى جانب إنكلترا ، غير أن زعماء منطقة طرابلس قد رفضوا الموافقة على قرارات هذه الجمعية ، وانطلقوا إلى بقية البلدان العربية للعمل للقضية الليبية .

مضى أكثر من عامٍ على نشوب الحرب العالمية الثانية ؛ ولم تتحرك الجبهة بين ليبيا ومصر ، أو بالأحرى بين إيطاليا وإنكلترا في هذه الجبهة ، وذلك لانشغال دول أوربا بالقتال على أرض قارتهم . فلمّا أنهى الألمان وضع فرنسا ، وسيطروا على معظم أوربا ، ولا يستثنى منها إلاّ روسيا وإنكلترا ، وقد فشلوا بالنزول في إنكلترا ؛ عندها فكروا بنقل المعركة إلى البحر المتوسط لضرب مواقع الإنكليز المهمة واحتلالها ، وهي : جبل طارق ، ومالطة ، وقبرص ، والإسكندرية .

التقى هتلر بموسوليني في « برينير » في ٣ رمضان ١٣٥٩هـ (٤ تشرين الأول ١٩٤٠م) ، وأعلمه أنه غيّر فكرته بالنزول إلى إنكلترا ، وأنه يجب نقل المعركة إلى البحر المتوسط ؛ لإجبار إنكلترا على الركوع على ركبتيها بعد احتلال قواعدها في المتوسط .

بدأ الطليان بالهجوم على مصر من ليبيا، ودخلوا أرضها، ولم تمضِ إلاّ أيام قليلة تزيد على الشهرين ؛ حتى وصلوا إلى موقع « سيدي براني » وبعد شهرينِ آخرين قام الإنكليز بهجوم كاسح معاكس بالجيوش الأسترالية ، والنيوزيلاندية ، والهندية ، وألقوا بالإيطاليين حتى بنغازي ، وشكّلوا حكومة عسكريةً في برقة مقرّها في مدينة بنغازي. غير أن الألمان والطليان بقيادة «رومل» قاموا بهجوم كسحوا فيه القوات الإنكليزية ، ووصلوا إلى حدود مصر في جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (حزيران ١٩٤١م) ، ثم تابع سيره باتجاه الإسكندرية ، غير أنه توقّف في موقع « العلمين » ، ووصل الألمان والطليان بذلك إلى ذروة تفوقهم .

عُيِّنَ « مونتغمري » قائداً للجيش الإنكليزي الثامن في تاريخ ٣ شعبان

١٣٦١هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٤٢م) .

وأصبح «رومل» بين نارين، واستطاعت القوات الإنكليزية دخول مدينة طرابلس الغرب في تاريخ ١٧ محرم ١٣٦٢هـ (٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣م) ، وانسحب الطليان من ليبيا بعد أسبوعين من احتلال طرابلس .

ثم تمَّ الإنزال في جزيرة صقلية في تاريخ ٨ رجب ١٣٦٢هـ (١٠ تموز ١٩٤٣م) وتخلّى بعدها موسوليني عن السلطة في ٢٨ رجب ١٣٦٢هـ (٣٠ تموز ١٩٤٣م) ، وحدث الإنـزال في شبه الجـزيرة الإيـطالية في ٩ رمضـان ١٣٦٢هـ (٨ أيلول ١٩٤٣م) واستمر تراجع دول المحور حتى انتهت الحرب باستسلام ألمانيا في ٢٥ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٧ أيار ١٩٤٥م) .

وبينما كانت تتقـدّم القوات الإنكليـزية من الشرق ، وتنهـار المقاومـة الألمانية ـ الإيطالية ؛ كانت القوات الفرنسية تتقدّم من الجنوب ، وقد احتلّت منطقة فزّان ، وهكذا أصبحت ليبيا منطقة عدوٍّ محتلّة من قِبـل دولتين ؛ إذ أقامت إنكلترا حكماً عسكرياً في كل من برقة وطرابلس ، وأقامت فرنسا حكماً عسكرياً في فزّان ، وحصلت الولايات المتحدة على قواعد جوية .

فصلت إنكلترا بين برقة وطرابلس ، وميّزت بين القسمين في المعاملة فأمّا برقة فقد سمحت بالتعامل فيها بالجنيـه المصري ، ورفعت الرقـابة عن المطبوعات ، والقيود عن التجارة ، كما سمحت بالسفر لمن أراده ، ولم تمانع في سفر السكان ، ولم تفرض ضرائب مباشرة حتى عام ١٣٦٥هـ . وأمّا طرابلس فقد أبقت الأحكام العسكرية فيها . وقد قدّمت مساعدات لخزينة القسمين .

وأمّا فرنسا فقد قسّمت المناطق التي احتلّتها إلى ثلاثة أقسام وهي :

١ ـ غدامس : وألحقتها بتونس .

٢ ـ غات : وألحقتها إدارياً بالجزائر .

٣ ـ فزان : وألحقتها إدارياً بالجزائر .

وفـرضت الفرنـك الفـرنسي محـلّ اللير الإيـطالي ، وأعـادت منصب

المتصرّف العثماني ، وعيّنت أحمد سيف النصر متصرّفاً على فزّان .

النضال والمناورات السياسية : اختلف النضال بين منطقةٍ وأخرى . فالأصل أن الحكم عسكري ؛ فلا أحزاب ولا هيئات ، ولا صحافة ، ولا أندية سواء أكانت فكرية أم سياسية ، ولا منافسة على تأمين الوضع الأفضل للوصول إلى السلطة ، فالرأي والحكم أولاً وأخيراً للحاكم العسكري .

ففي المنطقة الفرنسية (فزّان) وعد ديغول الذي آل إليه الحكم بعد انتصار فرنسا الحرة بزعامته مع الحلفاء ، وعد سكان فزّان بالطمأنينة والأمن وسيادة النظام في ظلّ فرنسا ، وبما أن المنطقة قد قسّمت ، وعدد السكان قليل ؛ لذا لم يبدُ أي أثر للدعوات أو التنظيمات .

وأمّا في المنطقة الإنكليزية (برقة وطرابلس) ؛ فالتقسيم قائم . ففي برقة يرغب الأهالي بإمرة محمد إدريس السنوسي غير أنه لم يرضَ أن يأتي على أساس غامض ، وإنكلترا لم تعترف بإمرته ، لذلك بقي في مصر . إنكلترا تريد أن يطلب هو بنفسه الإمارة منها ، ويُلحّ في الطلب ، ويسعى إليها ، عندها تقدّمها له ، وتُسلّمه حكم برقة ، فتكون صاحبة الفضل والمنة عليه ؛ فتربطه بها ويسير في فلكها ، وتجعل مصيره بيدها . وهو يُريد أن يُحجم قليلاً حتى يطالب به السكان ، ويتظاهرون من أجل ذلك ، وتضطّر إنكلترا عندها أن تستجيب للأهالي ومطالبهم ، وتدعوه لاستلام الإمرة ، فيكون قد جاء بناءً على اختيار السكان وتلبية لمطالبتهم به ، فالرأي لهم ، ولا يكون لإنكلترا فضل عليه ، ولكن السكان لم يستطيعوا فعل شيء ؛ فالحكم عسكري ، وإنكلترا هي المنتصرة ، ولذلك بقي الوضع هادئاً ، ولم يحدث شيء . ووجد السنوسي أنه إن لم يطلب هو لنفسه الإمرة ويستجيب لمطالب إنكلترا ؛ فإنها ستجد غيره ، وكثيرٌ أولئك الذين يرتمون أمامها ، ويعرضون أنفسهم عرضاً غير مشرّف ، وسينفّذون لها الرأي الذي ترغب . ووجد أنه سيطلب الإمرة في النهاية وإلاّ ضاعت منه إلى النهاية ، وإنكلترا تعرف هذا وتنتظر ، وهو يدرك هذا ويتريّث .

في برقة : استأنف نادي عمر المختار[1] نشاطه في مطلع عام ١٣٦٣هـ (مطلع عام ١٩٤٤م) ، وقد تولّى رئاسته مصطفى عامر بعد وفاة مؤسسه أسعد بن عمران، ولم يمتد نشاطه في البداية ثم توسّع خارج مدينة بنغازي حتى غدت له فروعٌ (درنة) وغيرها. ودعا إلى تأسيس دولةٍ ليبيةٍ متحدةٍ بإمرة محمد إدريس السنوسي، وقد ظهر على أنه نادٍ أدبي ليس إلاّ، ولكنه لم يلبث أن أصدر مجلةً باسم «مجلة عمر المختار»، كما أسس جريدةً عُرفت باسم جريدة « الوطن » ، ومن هذا يبدو أن العمل سياسي ؛ وإن حمل اسم ناد . وحدد النادي أهدافه بتأييد إمارة محمد إدريس السنوسي والانضمام إلى جامعة الدول العربية . ولكن إنكلترا عندما زاد النادي من نشاطه حلّته لتؤكّد أن الأمر بيدها لا بيد أحدٍ غيرها مهما كان وزنه السياسي أو الاجتماعي واسعاً ، وعطّلت صفحة ، واضطهدت أعضاؤه ، ثم ظهر مرةً أخرى ، وبعد مدة باسم « جمعية عمر المختار » ، وأحياناً كان يُطلق عليها اسم « الجمعية الوطنية » .

ونشأت في برقة أيضاً رابطة الشباب الإسلامية ، وكان من أبرز أعضائها صالح مسعود بويصر الذي كان لا يزال يدرس بمصر في الجامع الأزهر ، وتتمّ اللقاءات في بيته . وتأسّس للرابطة فروعٌ في مدينتي : « درنة » و « المرج » وغيرهما .

لم تكن الجمعية ولا الرابطة لتبحث في أمور وحدة الأقاليم التي تكوّنت منها فيما بعد دولة ليبيا (برقة ـ طرابلس ـ فزّان) ، وإنما كانتا تتفقان في المطالبة بإمارة السنوسي ، ثم وصل البحث في الوحدة وكانت الرابطة ترى أنه لا يمكن جمع هذه الأقاليم الثلاثة إلاّ في ظلّ الإمارة السنوسية ، وترى أن تكون الإمارة التي تدعو إلى الاستقلال ، فإذا ما تمّ كانت الدعوة إلى الوحدة .

أمّا الجمعية فأصبحت ترى الدعوة إلى الوحدة فإذا ما تحققت كان العمل

---

(١) تأسس نادي عمر المختار في القاهرة عام ١٣٤١هـ ، ثم توقّف نشاطه عندما تقدّم الألمان ووصل روميل إلى العلمين .

إلى تسليم السنوسي زعامة الدولة المرتقبة ، ولكن فرع الجمعية في « درنة » قد أعلن أنه يمكنه أن يتخلّى عن الوحدة ، غير أنه لا يمكنه أبداً أن يتخلّى عن إمارة السنوسيين .

رأى محمد إدريس السنوسي نفسه مضطراً للتنازل عن فكرته بعدم الطلب من إنكلترا بالسماح له بالعودة إلى برقة والاستقرار فيها ، فإنه إن لم يرضخ للأمر الواقع جيء بغيره ونصّب أميراً ، وبقي هو بعيداً، لذا فقد أقدم وطلب من السلطات الإنكليزية السماح له بالرجوع إلى بلده ومغادرة مصر ، فسمحت له ، ورجع مُكَرماً ، ومُعتَرفاً له بمكانته .

غادر السنوسي برقة فجأة ، وارتحل إلى مصر آيباً إليها في جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (نيسان ١٩٤٦م) ، فتجمّع الناس حول بيته ، وحالوا دون التحاق زوجته به ، وطالبوا بعودته ، وظهرت فوضى ، واكفهر الجوّ ، ولم يُزل الغمة إلّا قدوم ضابطٍ أبلغ الشعب أن السيد محمد إدريس السنوسي سيعود إليهم خلال عشرة أيامٍ ، وفعلاً فقد رجع في الأول من رمضان عام ١٣٦٥هـ (٢٩ تموز ١٩٤٦م) . وفي هذه الأثناء تشكلت الجبهة الوطنية من إخوان عمر المختار الذين حملوا معه السلاح ، وجاهدوا ضد الطليان .

وفي ٢٩ محرم ١٣٦٧هـ (١٢ كانون الأول ١٩٤٧م) طلب محمد إدريس السنوسي من الهيئات السياسية في برقة حل نفسها ، وهي : جمعية عمر المختار ، رابطة الشباب الإسلامية ، الجبهة الوطنية البرقاوية ، وتشكيل هيئةٍ واحدةٍ ، وقد وافقت كلها وانصاعت لأمره ، وشكّلت المؤتمر الوطني البرقاوي العام في ٢٨ صفر من عام ١٣٦٧هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٤٨م) ، وعيّن محمد إدريس السنوسي أعضاءه بنفسه ، وكان عددهم سبعةً وستين عضواً ، ثم زادهم حتى غدوا سبعين عضواً ، وقد عيّن محمد الرضا السنوسي رئيساً له[1] . وكانت الدعوة في برقة إلى استقلال إقليم برقة ، وقيام حكومةٍ دستوريةٍ فيها برئاسة محمد إدريس السنوسي وورثته من بعده ، ورفض أي تعاون مع

---

(١) تألّفت اللجنة التنفيذية للمؤتمر من : =

إيطاليا ، أمّا وحدة أقاليم ليبيا فيجب أن تكون ضمن شرطين :

١ ـ ملكية محمد إدريس السنوسي ووراثة أبنائه من بعده .

٢ ـ عدم عودة إيطاليا .

وكان المؤتمر الوطني البرقاوي هو الهيئة السياسية الوحيدة المعترف بها .

إن الحرص الذي أبداه محمد إدريس السنوسي على الإمارة والتنازل الذي أظهره لإنكلترا مع إهمالها له ، وطلب السماح له منها بالرجوع إلى برقة ومغادرة مصر ، والتلويح الدائم لسلطاتها لتسليمه الزعامة ؛ كل هذا جعله ضعيفاً وسيجعله ضعيفاً أمامها في المستقبل ، ومنفّذاً لرغباتها وسيجعلها في الوقت نفسه سيدة الموقف ، والسيدة له ، وسيكون مُداناً لها بإمرته . ولمّا كانت إنكلترا ترغب في فصل برقة عن طرابلس لذا فهو يسعى إلى هذا بالتبعية دون البحث في موضوع وحدة الإقليمين ومصلحة الأمة ، ولمّا كان أعضاء المؤتمر الوطني البرقاوي من اختياره وتعيينه لذا فهم ينفّذون رغباته فقط ، وينطلقون من خلالها ، وكان جلّ اهتمامهم تنصيبه ملكاً على إقليمهم أو حيث تريد إنكلترا ، وعدم عودة الإدارة الإيطالية حيث في عودتها إبعادٌ لإنكلترا عن الساحة ، وبالتالي إطاحة لصنيعتها . أما موضوع الوحدة بين برقة وطرابلس وفزّان فلم يعيروه اهتماماً زائداً ، ويعدّونه أمراً ثانوياً تماماً.

في طرابلس : ويختلف الأمر تماماً في إقليم طرابلس عمّا هي الحال في إقليم برقة ؛ إذ كانت الاتجاهات السياسية والأهداف تنطلق من مصلحة الأمة ، والرغبة قائمة في وحدة الأقاليم كلها ، بل في وحدة الأمة الإسلامية كلها ، ولا اهتمام بالشخصيات ؛ فهي تزول ، أما الوحدة فإنها تبقى ، وغايات الأمة دائمة ، وكذلك توجد عدّة هيئاتٍ سياسيةٍ ؛ فقد تأسّس نادي طرابلس عام ١٣٦٢هـ ، وهو أوّل نادٍ سياسي ، وقد قام بنشاطٍ ظاهرٍ ،

= ١ ـ محمد الرضا السنوسي .
٢ ـ الصديق السنوسي .
٣ ـ أبو القاسم السنوسي .
٤ ـ علي الجربي .
٥ ـ خليل القلال .

وفُتحت له فروعٌ في كثيرٍ من نواحي البلاد ، ولما قوي أمره عام ١٣٦٤هـ ؛ قام بمظاهرةٍ كبرى رفع فيها المتظاهرون نداءاتٍ ضدّ الطليان ، وأزالوا كل اللافتات الإيطالية ، وحتى اللوحات المكتوبة باللغة الإيطالية . وخاف على أنفسهم أولئك الذين سبق لهم أن تعاونوا مع الإدارة الإيطالية ؛ فقاموا بردّ فعلٍ وتقدّموا بعرائض دعوا فيها إلى وصايةٍ إنكليزيةٍ ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أمرين اثنين وهما : أن هؤلاء الرجال الذين تقدّموا بالعرائض ؛ إنما هم أصحاب مصالح ، وهم على استعدادٍ للتعاون مع أي استعمارٍ ، وفي الواقع ليست إنكلترا بأفضل من إيطاليا ، وليست إيطاليا خيراً من إنكلترا ، فكلاهما عدوّ صليبي ، مستعمر دخيل ، حاقد بغيض يريد أن ينتقم منا ، وأن يسلبنا خيرات بلادنا ، أما الأمر الثاني فهو أن إنكلترا كانت من وراء تلك المظاهرات تحرّكها ، وتهيّىء نفسها لتحلّ محل إيطاليا ، فقد ضمنت برقة ، ووجدت فيها من يمكنه أن يعمل بتوجيهها ، وربما سعى لمصالح إنكلترا من إنكلترا نفسها ، وتريد الآن أن تؤمّن طرابلس . وإذا كانت فكرة الوحدة واجباً شرعياً ، وغايةً نبيلةً ، وأمراً مطلوباً بحدّ ذاته إلّا أن القصد منها هنا هو ضمّ طرابلس إلى برقة لتكونا تحت جناح إنكلترا وتدورا في فلكها معاً وبمسارٍ واحدٍ .

وتأسّست اللجنة الطرابلسية في القاهرة في شهر شوّال من عام ١٣٦٢هـ (تشرين الأول ١٩٤٣م) ، وكانت تسعى لاستقلال طرابلس دون البحث في موضوع الرجل أو الأسرة التي تسلّم لها مقاليد الأمور ، وهذا السعي إلى الاستقلال يسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى وحدة الأقاليم الثلاثة .

وتأسّس الحزب الوطني عام ١٣٦٤هـ برئاسة « علي بن حسين الفقيه » وكان من رجاله البارزين : مصطفى ميرزان ، وعون وسوف ، ومحمد بن حسن ، وعبد السلام المريض ، ومحمد المنصف ، وأعلن الحزب منهجه ، ودعا فيه إلى مقاومة عودة الطليان ، ومنع هجرتهم إلى ليبيا ، وإلغاء القوانين الإيطالية في البلاد كافةً ، وكان هذا الحزب الجواد الثاني للرهان ، وأبدت

إنكلترا عدم الاهتمام به ، أو عدم الاعتراف به ، وذلك كي يستطيع التحرّر والبعد عن كل ارتباطٍ ، فلو اعترفت به مباشرةً ، ودعمته لشكّل ذلك إشارات استفهام حوله ، فلما برز نشاطه اعترفت به وذلك في تاريخ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٨ نيسان ١٩٤٦م) ، وبعد شهرٍ وثلاثة أسابيع من الاعتراف الإنكليزي بالحزب ؛ انشقّ على نفسه ، فتشكّلت الكتلة الوطنية الحرة بزعامة علي بن حسن الفقيه رئيس الحزب سابقاً ، أما الفرع الذي بقي يحمل اسم الحزب الوطني فتولّى زعامته مصطفى ميزران ، وكان ذلك في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (٣٠ أيار من عام ١٩٤٦م) .

ولزيادة إبعاد شبهة الصلة بالحزب الوطني بفرعيه المنشقين الحزب الوطني ، والكتلة الوطنية الحرة ؛ رأت إنكلترا إيجاد حزب من المتعاونين معها صراحةً ، فإن المنافسة بين الحزب الموالي وبين الأحزاب المخالفة له تجعل العامة يعطون الولاء للأحزاب المخالفة للحزب الموالي والمتعاون مع أي جهةٍ ، أما أصحاب المصالح فيسيرون في ركاب الحزب المتعاون مع السلطة ؛ لأن المنافع تكون أقرب منالاً حسب الظاهر ، أمّا المستعمر - وهنا إنكلترا - فتعدّ الطرفين ليكونا جوادي الرهان ، فتهدّد الموالين لها جهاراً بالمنافسين لهم والمتعاونين معها خفيةً ، وذلك كي يطيعوا طاعةً تامةً ، وينفّذوا لها كل ما تريد ؛ حرصاً على مصالحهم ، ومحاولةً للبقاء في مراكزهم التي وضعتهم فيها ، وفي الوقت نفسه تُمنّي المعارضين باستلام السلطة إن كانوا أكثر طواعية ، وبناءً على ذاك تشكّلت الجبهة المتحدة برئاسة سالم المنتصف في تاريخ ٩ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (١٠ أيار ١٩٤٦م) ، وكان من أعضائها البارزين محمد أبو الإسعاد العالم الذي سُمّي مفتياً أيام الحكم الإيطالي ، وأكثر أعضاء هذه الجبهة من الذين كانوا يتعاونون مع السلطة الإيطالية ، وقد سبق أن ذكرنا أن أمثال هؤلاء على استعدادٍ للتعاون مع أية سلطةٍ مهما كانت عقيدتها أو جنسيتها أو عداوتها لعقيدتهم ؛ ما دامت تؤمّن لهم مصالحهم ويجدون في ظلّها المنصب والجاه .

وانشقّ عن الكتلة الوطنية الحرة مجموعة برئاسة علي رجب ، وشكّلت الاتحاد المصري ـ الطرابلسي ، وذلك في تاريخ ٢٢ محرم ١٣٦٦هـ (١٦ كانون الأول ١٩٤٦م) ، ودعت هذه المجموعة ـ كما يظهر من اسمها ـ إلى الاتحاد مع مصر حيث تفرض إنكلترا نفوذها هناك ، فالأمر لا يبعد عن منطقة هيمنتها .

ومن الملاحظ ؛ أن أكثر المجموعات السياسية التي نشأت في هذه المرحلة إنما كانت نقطة البدء في تأسّسها في القاهرة حيث النفوذ الإنكليزي ، وكانت تتحرّك تحت سمع ونظر الإنكليز مما يشكّل إشارات استفهامٍ حول تحرّكها السياسي ، وإذا كانت ستتولّى زعامة طرابلس أو سيؤول إليها الحكم ؛ فإن المراقب السياسي يستطيع أن يدرك إلى أية جهةٍ يكون توجّهها .

وفي منتصف شهر شوال من عام ١٣٦٦هـ (الأول من أيلول ١٩٤٧م) تأسّس حزب العمال على نمط حزب العمال البريطاني، ولكن ليس على النهج الاشتراكي.

وفي مطلع شهر جمادى الأولى من عام ١٣٦٧هـ (١١ آذار ١٩٤٨م) تشكّل حزب الأحرار برئاسة صادق بن زارع الذي كان يشغل منصب وكيل الحزب الوطني .

وهكذا أصبحت الأحزاب الطرابلسية تحمل أسماء الأحزاب الإنكليزية : العمال ، والأحرار ، ويشبه الحزب الوطني بجناحيه حزب المحافظين .

كانت الأحزاب في طرابلس ذات اتجاه (وحدوي) بشكل عام ، وتقف في وجه كل من يدعو إلى انفصال برقة عن طرابلس ، وقد عملت على التفاهم مع محمد إدريس السنوسي ليكون أميراً على الجزأين الليبيين. وعندما غادر السنوسي برقة مرتحلاً إلى مصر ؛ أرسلت الجبهة الوطنية الحرّة إليه محمود المنتصر وطاهر المريض لاستطلاع رأيه السياسي في موضوع الإمارة ، وسبب

مغادرته البلاد ، وفي القاهرة تمّ اللقاء ؛ بعد أن انضمّ إلى الوفد بشير السعداوي في تاريخ ٢٧ رجب ١٣٦٥هـ (٢١ حزيران ١٩٤٦م) ، وعرضوا عليه وحدة ليبيا على أن تكون الإمرة محصورة بشخصه ولا تتعداه بعد موته إلى أفراد أسرته ، أي دون أن تكون وراثية ، فأبدى الموافقة .

كان حزب الأحرار وحزب الجبهة الوطنية يريان بحث موضوع الإمارة بعد تحقيق الوحدة ، أما في هذه المرحلة فلا معنى لها ، إذ ما معنى بحث إمرة محمد إدريس السنوسي على طرابلس ، وهو أمير برقة ، ولا توجد وحدةٌ بينهما .

وأما الحزب الوطني والكتلة الوطنية الحرة فقد رفضا موضوع الإمارة أساساً ، ولكن الاتحاد المصري - الطرابلسي قد أهملها تماماً ، ولم يتحدث فيها . وكان حزب العمال يرفضها غير أنه لم يصرح بذلك ليس إهمالاً وإنما متعمّداً ذلك .

وعندما رجع محمد إدريس السنوسي من مصر إلى برقة في الأول من رمضان عام ١٣٦٥هـ (٢٩ تموز ١٩٤٦م) ؛ ذهب وفد من طرابلس إلى بنغازي ضمّ بشير السعداوي ومحمد المنصف ، وعرضا على السنوسي إمرة طرابلس إضافة إلى برقة فأبدى شيئاً من الموافقة فيه تحفّظ ، وكأنّه يشير إلى رغبته في أن يكون الطلب من جميع الزعماء الطرابلسيين ، وأن يكون العمل لتلك الفكرة رسمياً ، فعرضا عليه عقد مؤتمر يضمّ أعضاء من طرابلس وآخرين من برقة لبحث هذا الموضوع ؛ فوافق .

حضر وفدٌ من طرابلس[1] إلى برقة حيث التقى بوفدها[2] ، وكانت

---

(١) ضم وفد طرابلس : محمد أبو الإسعاد العالم رئيساً ، وعضوية كل من : عبد الرحمن القلهود ، وعون وسوف ، وإبراهيم شعبان ، وسالم المريض ، ومحمد الميت ، وعبد المجيد كعبار ، ومحمد المنقاري ، وعن اليهود إسحاق حبيب .

(٢) ضمّ وفد برقة : عمر منصور الكيخيا رئيساً ، وعضوية كل من : عبد الحميد الديباني ، ومنير =

الجلسات في ٢٣ و٢٥ و٢٧ صفر عام ١٣٦٦هـ (١٦ ، ١٨ ، ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٧م) ، واتفق الحضور على وحدة البلاد بجزأيها ، واستقلالها ، وإمرة السنوسي عليها ، وضرورة الانضمام إلى جامعة الدول العربية ، غير أنه ظهر أن وفد طرابلس يؤكّد على استقلال ليبيا ووحدتها ، ثم المناداة بإمرة السنوسي ، أما وفد برقة فإنه يؤكّد على إمرة السنوسي ، ثم العمل للاستقلال والوحدة، وأصرّ رئيس وفد برقة - رئيس ديوان الأمير محمد إدريس السنوسي : عمر منصور الكيخيا - على الاعتراف بإمرة السنوسي دون قيدٍ أو شرطٍ ، وكأنه يصرّ على الإلزام ، فرفض وفد طرابلس ، كما رفض فكرة تجزئة النضال من أجل الاستقلال .

في فزّان : لم يكن في إقليم فزّان آراء سياسية متباينة ؛ لطبيعة الحياة القبلية ، وكانت أسرة « سيف النصر » صاحبة الكلمة الأولى في الإقليم ، وقد ارتبطت مصالح هذه الأسرة مع فرنسا ؛ فلم تكن هناك صراعات .

جامعة الدول العربية : تعدّدت اجتماعات جامعة الدول العربية في هذه المرحلة ، وفي الاجتماع الذي عقد في (أنشاص) بمصر في تاريخ ٢٧ و٢٨ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (٢٨ و٢٩ أيار ١٩٤٦م) ؛ أيّدت استقلال ليبيا ووحدة أراضيها ، وأكّدت ذلك في الاجتماع الذي عقد بعد شهر في (بلودان) بسوريا .

وأرسلت إلى مجلس وزراء خارجية الدول الكبرى المنعقد في شوال ١٣٦٤هـ (أيلول ١٩٤٥م) تطالبه ببحث مصير المستعمرات الإيطالية، وفي الوقت نفسه تطالبه باستقلال ليبيا.

وكان محمد إدريس السنوسي قد طلب من الهيئات السياسية في طرابلس

= بعباع ، وحسين بسيكري ، وعبد الحميد العبار ، وعبد الرزاق شقلوف ، وعلي العبيدي ، وعوض لنقي ، وعن اليهود : ريناتو تشويه .

حلّ نفسها وتشكيل هيئةٍ واحدةٍ ، غير أنها قد رفضت ذلك في شهر ربيع الأول ١٣٦٥هـ (شباط ١٩٤٦م) إذ عدّت ذلك مناورةً منه حتى يستطيع التأثير على تلك الهيئة وتوجيهها حسبما يرى . غير أن الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزّام قد عمل على ذلك فيما بعد ؛ واستطاع ، وحلّت الهيئات كلها نفسها في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (١٣ آذار ١٩٤٧م) ، وشكّلت ما عرف باسم « هيئة تحرير ليبيا » ، وكان من بين أعضائها البارزين : بشير السعداوي ، ومحمود المنتصر ، وأحمد السويلحي ، وطاهر المريض ، ومنصور قدارو ، وجواد ذكرى ، وبعد مدة انضمّ إليها مفتي طرابلس ، وتغيّر اسمها ، وحملت اسم « المؤتمر الوطني الطرابلسي » ، وأرسل هذا المؤتمر وفداً إلى بنغازي حيث التقى بمحمد إدريس السنوسي ، واتفق معه على قيام دولةٍ اتحاديةٍ من طرابلس وبرقة ؛ تحت رئاسة السيد السنوسي ، وقد أعطى موافقته هذه المرة ؛ لأن الوفد حسب رأيه يمثّل طرابلس فعلاً ، ولم يكن كذلك في المرة السابقة ، وقد درس المؤتمر موضوع استقلال ليبيا ووحدتها ، غير أن زعماء إقليم برقة قد رفضوا الاشتراك في هذه الهيئة لأنها لم تشر إلى إمارة السنوسي صراحةً .

الموقف الدولي : منذ أن اجتمعت هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية ، ونظرت في قضية ليبيا ؛ اتفقت آراء الدول الكبرى على أن توضع ليبيا تحت وصاية إحدى الدول العظمى ، ولكن عندما بحثوا الموضوع الحسّاس وهو أية دولةً كبرى ستكون هي الوصية على ليبيا ؛ اختلفت الآراء ؛ لاختلاف المصالح والسعي وراء الأطماع .

شرع وزراء خارجية الدول الكبرى ، وهي : الولايات المتحدة الأمريكية ، وروسيا ، وإنكلترا ، وفرنسا ؛ بدراسة مستقبل ليبيا في مؤتمر سان فرانسيسكو عام ١٣٦٤هـ . اقترحت روسيا أن تُعطى هي الوصاية على منطقة ليبيا ، وذلك لأنها ترغب في الدخول إلى مياه البحر المتوسط ، وهذه فرصة لها لتحقق هذا الحلم ، غير أن الدول الأخرى لم توافق على هذا الاقتراح . وتقدّمت إيطاليا بطلبٍ إلى المجلس تُبدي رغبتها بالعودة إلى ليبيا ؛ فلم يُنظر

إلى هذا الطلب. واقترحت الولايات المتحدة أن تكون هناك وصاية مشتركة، فاستغلّت روسيا هذا الاقتراح حين أدركت أن إنكلترا لا منازع لها في منطقة ليبيا، فعدّلت اقتراحها واكتفت بطلب إدارة إقليم طرابلس، وهكذا لم يتمّ الاتفاق، وانفضّ المؤتمر.

وعاد وزراء خارجية الدول الكبرى إلى الاجتماع في باريس في تاريخ ٢٤ جمادى الأولى من عام ١٣٦٥هـ (٢٥ نيسان ١٩٤٦م)، ورجعوا إلى دراسة الوصاية على ليبيا، فاقترحت الولايات المتحدة ـ حلاً للنزاع ـ أن تعود إيطاليا إلى الوصاية على ليبيا، رغم أن إيطاليا دولة كانت سبباً في اندلاع الحرب العالمية الثانية فهي مجرمة بذلك، وقد هُزمت في الحرب؛ فيجب أن تفرض عليها عقوبات لا أن تقدّم لها مكافآت، إلاّ أنها أكثر الدول خبرةً بشؤون ليبيا ما دامت قد كانت تحت سيطرتها، وكان هذا الكلام أو هذا الادعاء الأمر الرسمي الظاهر، أما الحقيقة أو ما تنطوي عليه النفس؛ فإن الولايات المتحدة تريد أن تقول: إن الدول النصرانية وإن اختلفت فيما بينها إلاّ أنه خلاف مؤقت ويجب أن تحصل على مقابل ما بذلت من جهدٍ في خدمة النصرانية، وإن إيطاليا قد قدّمت جهوداً في قتال المسلمين فيجب أن يُحتفظ لها بحقّها، وإن كانت قد أثارت حرباً ثم هُزمت فيها. وأيّدت فرنسا عودة إيطاليا إلى ليبيا بشرط أن تعدّل الحدود لصالح إمبراطوريتها. وأما إنكلترا فأظهرت عدم اهتمامٍ بإقليم طرابلس، وربما كانت تؤيّد ما ذهبت إليه الولايات المتحدة وفرنسا بعودة إيطاليا إلى طرابلس، ولكنها لم توافق أبداً على عودة إيطاليا إلى منطقة برقة إذ تعدّها لنفسها، ويبدو هذا للجميع، وأنها قد هيّأت محمد إدريس السنوسي ليتولّى السلطة نيابةً عنها في إقليم برقة. وبعد هذا عادت روسيا فوافقت على إعطاء إيطاليا إقليم طرابلس، أي وافقت على حلٍ متوسطٍ ترضى عنه الدول الغربية، إذ أن إنكلترا تصرّ على برقة، والولايات المتحدة وفرنسا ترغبان في عودة إيطاليا. وعادت إنكلترا فرأت وحدة ليبيا واستقلالها مع مراعاة مصالح فرنسا في ضمّ أجزاء من هذه الأقاليم

للمستعمرات الفرنسية التي تجاور تلك الأقاليم الليبية ، وبالتالي فإنها كانت تطمع ببسط نفوذها في إقليمي برقة وطرابلس . ورجعت روسيا إلى طلب أن تكون هي وإيطاليا الوصيتين على ليبيا، غير أنها عندما وجدت بقية الدول الكبرى تظهر عدم الحديث لمصالحها ؛ عادت فأيّدت عودة الطليان إلى ليبيا .

وعُقد مؤتمر الصلح في باريس في العام نفسه ، وبحث الموضوع الليبي ، فأيّدت إنكلترا عودة إيطاليا إلى ليبيا ، وبذلك تكون قد عدّلت رأيها ، ولكنها كانت قد هيّأت لها الأوضاع الداخلية في برقة وطرابلس ، غير أنه تقرّر في المؤتمر نزع المستعمرات الإيطالية من إيطاليا ، واتجه البحث إلى موضوع الوصاية . فاقترحت روسيا وصاية إيطاليا ، ورأت إنكلترا والولايات المتحدة إعطاء إنكلترا الوصاية على إقليم برقة ، وتأجيل موضوع طرابلس ، أما فرنسا فرأت تأجيل الموضوع كله إلى ما بعد المؤتمر وعقد الصلح مع الدول ذات العلاقة .

وعُقد الصلح مع إيطاليا في ٢٩ شوال ١٣٦٦هـ (١٥ أيلول ١٩٤٧م) ، ونتيجة الصلح تنازلت إيطاليا فيه عن ممتلكاتها ، ورأت الدول الكبرى أن تدرس وضع ليبيا من خلال رغبات السكان مدة عام ، فإن لم يتوصّل وزراء خارجية الدول الكبرى إلى قرارٍ نهائي تُعاد القضية إلى الهيئة العامة للأمم المتحدة .

أرسل وزراء خارجية الدول الكبرى لجنةً رباعيةً لدراسة رغبات سكان ليبيا ، ووصلت اللجنة إلى الأقاليم الليبية في أواخر شهر ربيع الثاني من عام ١٣٦٧هـ (آذار ١٩٤٨م) ، وطافت في المناطق المختلفة ، والتقت بالسيد السنوسي ، وأبدى رأيه لها ، وانتهت من أعمالها في تاريخ ١٢ رجب ١٣٦٧هـ (٢٠ أيار ١٩٤٨م) ، وقدّمت تقريرها إلى وزراء خارجية الدول الكبرى ، وقد جاء فيه : إن السكان في برقة يؤيّدون الاستقلال لإقليمهم في ظلّ التاج السنوسي الوراثي . وأن السنوسي يرى استقلال ليبيا وتحالفها مع إنكلترا ويسعى لذلك، وأظهر عدم رضاه عن زعماء طرابلس إذا لم يقفوا منه الموقف

الذي وقفه أهل برقة ، وربما كان هذا الكلام ليسير الطرابلسيون في طـريق وحـدهم ويسعون لاستقـلال منطقتهم وحـدهـا . ولم يتعـرّضـوا إلى إمـارة السنوسي . غير أن أهل فزّان يرون إقامة حكومـةٍ إسلاميـةٍ ، وهم راضون بالإدارة الفرنسية ، وليس عندهم شعور ضد الطليان .

وبعد وصول نتائج الدراسة إلى مجلس وزراء خارجية الدول الكبرى بدأ البحث في الموضوع ؛ فاقترحت روسيا إعطاء إيطاليا الوصاية على ليبيا ، على حين رفضت الدول الغربية هذا الاقتراح ، وطال النقاش ، فأحيل الموضوع إلى الهيئة العامـة للأمم المتحـدة في شهر جمـادى الآخرة من عـام ١٣٦٨هـ (نيسان ١٩٤٩م) حيث كان من المقرر بحثه في تلك الدورة غير أنه قد أجّل مدة خمسة أشهر .

وعند البحث أيّدت روسيا استقلال ليبيا ووحدتها بعد أن رأت عـدم استجابةٍ لطلباتهـا بالـوصايـة ؛ فأصبـح من الخير لهـا أن تمنع الآخـرين كما منعوها ، ومن ناحيةٍ أخرى تظهر أمام الشعوب أنها بجانب الشعـوب ضد الاستعمار ، غير أن ذلك لم يكن إلاّ بعد أن عجـزت عن تحقيق رغباتهـا في الوصاية . ورأت إنكلترا الاستقلال دون الوحدة ؛ مع مراعاة مصالح فرنسا . وأما الولايات المتحدة فقد رأت الاستقلال السريع على أن يتمّ خلال ثلاث سنوات أو أربع على الأكثر ، ولكن فرنسا لم تعترف بوحدة ليبيا ، بل لم تعترف بشيء اسمـه ليبيا . وأثنـاء التصويت عـلى الاستقلال في جلسـة ٣٠ محـرم ١٣٦٩هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٩م) وافقت الجمعية العمومية على استقلال ليبيا مع وحدة أراضيها بأغلبية تسعةٍ وأربعين صوتاً ، وامتناع تسعة أعضاء عن التصـويت من بينهم إنكلترا وفرنسـا ، وكان نصّ القـرار ألاّ تزيـد مـرحلة الاستقلال على مطلع عام (١٩٥٢م) أي الرابـع من ربيع الثـاني من عام ١٣٧١هـ ، وتشكّلت لجنة دولية للإشراف على تنفيذ القرار برئاسة « أدريان بلت » .

موقف السنوسي : أرسل محمد إدريس السنوسي وفداً إلى لندن برئاسة

رئيس ديوانه عمر منصور الكيخيا في تاريخ ٢٢ محرم من عام ١٣٦٨هـ (٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٨م) لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية حول استقلال إقليم برقة وحده ، وتمّ التفاهم ، ورجع الوفد من لندن .

وأخبر المؤتمر البرقاوي الهيئات الطرابلسية أن يعمل كل إقليم لاستقلاله ، ويساعد الإقليم الآخر .

المناورات : ومن ناحيةٍ أخرى عملت إنكلترا على التفاهم مع فرنسا وإيطاليا لحلّ موضوع ليبيا بشكل منفرد ، وقد تمّ الاتفاق بين وزير خارجية إنكلترا « بيغن » ووزير خارجية إيطاليا « سفورزا » على أن :

١ ـ تتولى إيطاليا الوصاية على إقليم طرابلس تحت إشراف مجلس استشاري يضم مصر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية .

٢ ـ تتولّى إنكلترا أمر إقليم برقة .

٣ ـ تتولّى فرنسا أمر إقليم فزّان .

وأرسل الاتفاق إلى الأمم المتحدة . ولكن المؤتمر البرقاوي رفض إلّا الاستقلال . ولمّا أخذت الهيئة العامة للأمم المتحدة بمناقشة موضوع ليبيا سافر وفد ليبي ؛ لإحباط مشروع الاتفاق الجانبي ، وكان الوفد برئاسة منصور قدارو ، وعضوية علي العنيزي وفؤاد شكري ، وقد اعترضت إنكلترا على هذا الوفد وادّعت أنه لا يمثّل الليبيين . وفي الوقت نفسه كان قد سافر وفد من برقة برئاسة عمر شنيب ، وعضوية خليل القلال وعبد الحميد العبار ، وقد ذهب ليطالب باستقلال ليبيا تحت إمرة السنوسي . وإن وجود أكثر من وفد ليبي في الأمم المتحدة قد دعم حجة إنكلترا بأن الوفد الأول لا يمثّل أهالي ليبيا .

وفي هذه الأثناء حدثت ثورة في طرابلس ، وهاجم السكان فيها الإيطاليين ، وحملوا على الأوربيين عامة حتى إن الحاكم العسكري البريطاني قد حظر على الأمريكيين والإنكليز مغادرة منازلهم ، وسمح للإيطاليين بحمل

السلاح ، كما وقعت أحداث مشابهة في إقليم برقة . وهذا ما كان له أثر في رفض اتفاق (بيغن - سفورزا) في تاريخ ١٨ رجب ١٣٦٨هـ (١٥ أيار ١٩٤٩م) .

إعلان استقلال برقة : اجتمع المؤتمر البرقاوي في بنغازي في تاريخ ٥ شعبان ١٣٦٨هـ (الأول من حزيران ١٩٤٩م) ، وألقى محمد إدريس السنوسي كلمة فيه ، وأعلن فيها عن مولد دولة برقة ، وأيّد المؤتمر ذلك بالإجماع ، واعترفت إنكلترا بالدولة الجديدة مباشرةً ، وإذا كان المؤتمر قد وافق على ذلك ؛ فإن الشعب قد أبدى استياءً كبيراً ، فقامت مظاهرة في مدينة بنغازي ضدّ السنوسي ، واتّجهت نحو قصره ، وحاولت اقتحامه ، كما قام أمين سر جميعة عمر المختار بإخبار السنوسي أن إعلان استقلال برقة معناه الموافقة الأكيدة على تجزئة البلاد ، وطالبه بإعلان استقلال البلاد كلها ، وقيام دولةٍ واحدةٍ في البلاد تحت إمرته ، وكما لقي ذلك التصرّف استياءً داخل البلاد ؛ فإنه قد لقي مثله خارج البلاد وفي كل الأوساط الإسلامية الواعية ، وحيث لم تكن وسائل الإعلام آنذاك قد تطوّرت على الصورة التي نعرفها اليوم والتي تصل فيها الأخبار إلى المجتمعات والشعوب كلها ، وأظهر عبد الرحمن عزام أمين عام جامعة الدول العربية أسفه لما تمّ .

وأرسلت هيئة تحرير ليبيا إلى محمد إدريس السنوسي تبلغه عدم اعترافها بما حدث ، وذلك في تاريخ ٨ شعبان ١٣٦٨هـ (٤ حزيران ١٩٤٩م) . ثم قدم وفد من طرابلس إلى بنغازي برئاسة محمد أبو الإسعاد العالم ومحمود المنتصر ، وبحث مع السنوسي خطر إقامة دولة في (برقة) ، وطالبه بضرورة العمل لوحدة البلاد ، فاحتجّ السنوسي بأنّ اتحاد برقة مع طرابلس سيعيد الإيطاليين إلى برقة ؛ لأن الأمم المتحدة قررت جعل طرابلس لإيطاليا .

وفي ١٠ رمضان عام ١٣٦٨هـ تشكّلت أوّل حكومة في برقة برئاسة فتحي الكيخيا ، ويمثّل إنكلترا المعتمد البريطاني ، وبيده الخارجية ، والدفاع ، والتجارة ، والإشراف على الملاحة ، وكل ما يتعلّق بالاتصالات .

وسافر محمد إدريس السنوسي إلى لندن ومعه رئيس وزرائه فتحي الكيخيا ، وفي طريقه مرّ على طرابلس فاستقبل استقبالاً حاراً ، وألقى كلمة وعد فيها بالعمل لمصلحة البلاد عامةً ولتطلعات شعبها ، غير أنه لم يتحدّث بعدها إلاّ عن برقة ، واستقلالها ، وحكومتها .

وفي لندن بحث مع السلطات الإنكليزية :

١ ـ استبعاد فكرة الوصاية عن برقة ، وطرابلس ، ٢ ـ محاولة الإبقاء على الإدارة البريطانية . ٣ ـ منح برقة وطرابلس استقلالاً ذاتياً . ٤ ـ وصاية فرنسا على إقليم فزّان .

اعترض رئيس وزراء برقة على هذه الموضوعات ؛ فترك اللقاء ، وتخلّى عن أميره ، وغادر لندن ، وسافر إلى باريس ، ومنها أرسل استقالته .

رجع السنوسي من لندن إلى برقة بعد أن تمّ التفاهم بينه وبين الحكومة البريطانية . وفي ١٥ ذي القعدة ١٣٦٨هـ (٧ أيلول ١٩٤٩م) منح رئيس الإدارة البريطانية « دوكاندول » حقّ وضع دستور لبرقة للأمير محمد إدريس السنوسي ، وأعلن الدستور في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦٨هـ ، ويتألف من ٦٨ مادة . وأخذت إنكلترا بعدها تنقل السلطات الداخلية في برقة إلى أميرها محمد إدريس السنوسي .

ومع كل ما حدث ، ومع صدور قرار من الأمم المتحدة في تاريخ ٣٠ محرم ١٣٦٩هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٩م) بإعلان استقلال ليبيا ؛ إلاّ أن الوضع لم يتغير شيئاً بالنسبة إلى السيد السنوسي ، ويبدو أنه لم يتلقّ بعد الضوء الأخضر ليقبل بالاتحاد ، وهذا ما تشير إليه الأحداث ، لقد أصدر بالاتفاق مع إنكلترا قانون الانتخاب البرقاوي في تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ (٥ نيسان ١٩٥٠م) .

جرت الانتخابات في برقة في ١٩ شعبان ١٣٦٩هـ (٥ حزيران ١٩٥٠م) وتألّفت الجمعية الوطنية من خمسين عضواً منتخباً ، ويضاف لهم

عشرة أعضاء يعيّنهم الأمير .

اجتمعت الجمعية الوطنية ، وتشكّلت الوزارة برئاسة محمد الساقزلي وشغل فيها مصطفى بن حليم ناظراً للأشغال العامة في المجلس التنفيذي لولاية برقة ، ولكن لم تلبث أن استقالت بعد شهرٍ واحدٍ .

تشكّلت وزارة برئاسة عمر منصور الكيخيا ، وصدر قانون الجنسية البرقاوية ، وتأسّس جيش خاص ببرقة بإشراف مدربين من إنكلترا التي مُنحت قواعد عسكرية في البلاد . غير أن الجمعية الوطنية البرقاوية قد عارضت هذه السياسة الانفصالية التي لا يزال يتبعها الأمير على الرغم من اتفاق على الاتحاد مع الطرابلسيين ، ورغم صدور قرار من الأمم المتحدة بالاتحاد بين برقة وطرابلس . كما عارضت الجمعية سياسة التبعية لإنكلترا رغم قرار الاستقلال الذي أقرّته الأمم المتحدة ، وقد أجبرت هذه المعارضة حكومة عمر منصور الكيخيا على الاستقالة ، ولكن الأمير لم يلبث أن حلّ الجمعية الوطنية ؛ إذ لم يقبل توجيه أي انتقادٍ له ، ودعا إلى انتخاباتٍ جديدةٍ ، وتمّت تحت نظره ورضي عن نتائجها ، ولا يوجد في البلاد هيئات أو أحزاب منذ أن أمر بحلّها في مطلع عام ١٣٦٧هـ .

في طرابلس : تعدّدت الوفود في هذه المرحلة ، فقد أرسل المؤتمر الوطني الطرابلسي وفداً برئاسة بشير السعداوي إلى بنغازي لتهنئة سكان برقة بالاستقلال ، وتهنئة محمد إدريس السنوسي بالإمارة ، ودعوته لزيارة طرابلس ، وقد سافر الوفد في تاريخ ١٧ رجب ١٣٦٨هـ (١٤ أيار ١٩٤٩م) ، وقام بالمهمة المكلّف بها .

لبّى السيد محمد إدريس السنوسي الدعوة بزيارة طرابلس وقام فعلاً بتلك الزيارة في ٢٢ رجب ١٣٦٨هـ (١٩ أيار ١٩٤٩م) ، وفي طرابلس ألقيت عليه قنبلة ، ولكن لم يصب بأذى ، ولم تقع خسائر .

وسافر وفد من المؤتمر الوطني الطرابلسي أيضاً برئاسة بشير السعداوي ،

وعضوية مصطفى ميرزان وفؤاد شكري إلى الأمم المتحدة للدفاع عن القضية الطرابلسية ، وإبداء رأي أهالي البلاد .

وسافر وفد آخر من حزب الاستقلال إلى الأمم المتحدة أيضاً للغاية نفسها ، وكان برئاسة مختار المنتصر ، وعضوية كل من عبد الله بن شعبان ، وعبد الله الشريف ، وأحمد راسم كعبار .

كما سافر (أورفال قره منلي) يطالب بعودة الطليان إلى إقليم طرابلس.

وسافر وفد من برقة برئاسة عمر شنيب، وعضوية خليل القلال، وعبد الرزاق شقلوف ؛ لنقل آراء سكان إقليمهم إلى الأمم المتحدة .

قرار الأمم المتحدة : سبق أن قلنا : إن الأمم المتحدة قررت في تاريخ ٣٠ محرم ١٣٦٩هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٩م) استقلال ليبيا ، على ألّا يتأخر عن مطلع عام ١٩٥٢م (الرابع من ربيع الثاني ١٣٧١هـ) . كما أرسلت « أدريان بلت » مندوباً لها على رأس لجنةٍ دوليةٍ للإشراف على تنفيذ هذا القرار ، ويساعد مندوبَ الأمم المتحدة مجلسٌ استشاري يتألف من عشرة أعضاء ، يمثّل كلاً من : مصر ، وباكستان ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإنكلترا ، والولايات المتحدة الأمريكية : عضو واحد ، ويضاف إلى ذلك ثلاثة أعضاء يمثّلون ليبيا : ويكون من كل إقليم عضو ، وعضو آخر يمثّل الأقليات .

وقد دعا مندوب الأمم المتحدة « أدريان بلت » إلى أن يحتفظ المعتمد البريطاني في برقة ، ورئيس الإدارة البريطانية في طرابلس ، والمعتمد الفرنسي في فزّان؛ بجميع السلطات التنفيذية، والخارجية، والمالية، وقد عارض كل من مندوب مصر[1] وباكستان[2] هذه الدعوة في ٧ شوال ١٣٦٩هـ (٢٢ تموز ١٩٥٠م) وعدّا هذا مخالفاً لما اتخذته الأمم المتحدة من قرار.

---

(١) مندوب مصر هو : محمد كامل سليم .

(٢) مندوب باكستان هو : عبد الرحيم خان .

وتقرّر تشكيل لجنةٍ تتألف من واحدٍ وعشرين عضواً يمثّل كل إقليمٍ سبعةُ أعضاء : يختارهم في إقليم برقة أميرها محمد إدريس السنوسي ، وزعماء طرابلس في إقليم طرابلس ، ورئيس إقليم فزّان في ذلك الإقليم . واقترح مندوب الأمم المتحدة إضافة إيطالي وآخر يهودي ، غير أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح .

وُفِّقت لجنة الأمم المتحدة بإجراء الانتخابات النيابية والإشراف عليها ، وتشكيل الجمعية الوطنية ، التي عُيّن أعضاؤها بالتساوي بين الأقاليم الثلاثة ، ووضعت دستوراً للبلاد ، وقررت الحكم الاتحادي ، ومبايعة محمد إدريس السنوسي ملكاً على البلاد ، وقد تمّت البيعة في ٢٠ ذي القعدة ١٣٦٩هـ (الثاني من أيلول ١٩٥٠م) . وقد نص الدستور على :

- ليبيا مملكة وراثية اتحادية ديمقراطية . دينها الإسلام ، وتحمل اسم « المملكة الليبية المتحدة » .

- يتألف المجلس النيابي الليبي من مجلسين : أحدهما للشيوخ والآخر للنواب .

- يتألف مجلس الشيوخ من أربعة وعشرين عضواً : ثمانية أعضاء لكل ولاية يعيّن الملك نصفهم ويُعيّن الباقون من قبل المجالس التشريعية المحلية . وبهذا يوزّع أعضاء مجلس الشيوخ بالتساوي بين الولايات الثلاث .

- ينتخب النواب على أساس نائب لكل عشرين ألف ناخبٍ ، على ألّا يقلّ عدد ممثلي الولاية عن خمسة أعضاء . وبذا كان عدد نواب الولايات كما يأتي :

ولاية طرابلس	٣٥	نائباً .
ولاية برقة	١٥	نائباً .
ولاية فزّان	٥	نواب .
	٥٥	نائباً .

تمّ انتخاب اللجنة التمثيلية في إقليم فزّان ، وانتخب أحمد سيف النصر رئيساً للإقليم في تاريخ ٢٤ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ (١٢ شباط ١٩٥٠م) . وقد قاطع سكان مدينة « غات » الانتخابات بحجة انتمائهم إلى قبائل الطوارق . كما قاطع سكان « سبها » تلك الانتخابات بحجة أنهم يؤيّدون الانضمام إلى طرابلس ، فلا حاجة إذن للانتخابات ، وكانوا يؤيّدون عبد الرحمن البركولي .

وتشكّلت حكومة اتحادية مؤقتة برئاسة محمود المنتصر[1] في تاريخ ٢١ جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (٢٩ آذار ١٩٥١م) ، كما قامت حكومات محلية في الولايات الثلاث .

---

(١) تشكّلت حكومة محمود المنتصر المؤقّتة على النحو الآتي :

١ ـ محمود المنتصر : للرئاسة . ٤ ـ منصور قدارو : وزيراً للمالية .

٢ ـ علي الجربي : وزيراً للخارجية والصحة . ٥ ـ إبراهيم بن شعبان : وزيراً للمواصلات .

٣ ـ عمر شنيب : وزيراً للدفاع ٦ ـ محمد بن عثمان : وزيراً للدولة .

الفصل الثاني

الاستقلال

أعلن عن استقلال ليبيا ، وقيام المملكة الليبية المتحدة ، وتسلّم الملك محمد إدريس السنوسي الحكم فيها في تاريخ ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٧١هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٥١م) .

١ - **حكومة محمود المنتصر** : شكّل محمود المنتصر رئيس الحكومة السابقة حكومة اتحادية جديدة[١] ، وقامت حكومة محلية في كل ولاية ، وأطلق عليها المجلس التنفيذي . وقام مجلس للنواب ، وآخر للشيوخ ، ومجلس تشريعي في كل ولاية وعين الملك والياً يمثّله في كل ولاية للإشراف على الدستور ، والقوانين الاتحادية . وتحدّد يوم ٢٤ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (١٩ شباط ١٩٥٢م) موعداً لإجراء الانتخابات النيابية .

أجريت الانتخابات في موعدها المقرر ، ولم يفز سوى خمسة مرشحين من

---

(١) تشكّلت أول وزارة ليبية بعد الاستقلال برئاسة محمود المنتصر على النحو الآتي :

١ - محمود المنتصر : رئيساً للوزارة ، وزيراً للخارجية .

٢ - فتحي الكيخيا : نائباً للرئيس ، وزيراً للعدل ، وزيراً للمعارف .

٣ - منصور قدارو : وزيراً للمالية والاقتصاد .

٤ - علي الجربي : وزيراً للدفاع الوطني .

٥ - إبراهيم بن شعبان : وزيراً للمواصلات .

٦ - محمد بن عثمان : وزيراً للصحة .

مرشحي حزب المؤتمر الوطني الطرابلسي الذي يتزعمه بشير السعداوي ، والذي تعد طرابلس مركزه الرئيسي ، فقام أعضاؤه يدافعون عن مراكزهم ، وحملوا السلاح ضدّ الحكومة ، فأصدر رئيس الوزراء محمود المنتصر تعليماته إلى والي طرابلس فاضل بن ذكرى بإبعاد بشير السعداوي ، فألقي عليه القبض في يوم ٢٦ جمادى الأولى عام ١٣٧١هـ ، وأبعد إلى بنغازي ، ولم يكن في المجلس من يمثّل هيئات أو أحزاب سوى هؤلاء الأعضاء الخمسة من أتباع حزب المؤتمر الوطني الطرابلسي الذين ذكرناهم .

وها قد مرّ على استقلال ليبيا ما يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً ، وقد مرّت بمرحلتين : الأولى منهما كان النظام ملكياً ، وقد استمرّ ما يقرب من سبع عشرة سنة ، وكانت معظم الأحداث التي شغلت الحكم داخليةً ، أما الثانية فقد أصبح نظام الحكم جمهورياً نتيجة انقلاب تعرّضت له البلاد ، وكانت معظم الأحداث خارجيةً ولها أصداؤها الواسعة ، وفي كلتا المرحلتين تولّى الأمر حاكم واحد .

أولاً : المَلَكِيَّة

منذ أن استقلّت البلاد ؛ تولّى الحكم فيها محمد إدريس السنوسي ، وقد نصّ الدستور الذي وُضع على أن ليبيا مملكة وراثية اتحادية ديمقراطية . وقد انصرف الحكم إلى معالجة القضايا الداخلية التي نشأت نتيجة الظروف التي مرّت البلاد بها من استعمار ، وحروب ، وحكم عسكري أجنبي ، هذا بالإضافة إلى النظام الاتحادي الذي قام بعد الاستقلال ، والمعاهدات المكبلة للبلاد ، والارتباط الذي يسير عليه المسؤولون والذي أوصلهم إلى السلطة .

١ ـ النظام الاتحادي : كانت كل ولاية تظنّ أن لها الحرية التامة في التصرّف ضمن أراضيها بل إن هذه الولايات قد دخلت في مفاوضات فيما بينها لتحديد الحدود التي تفصل بينها بشكل رسمي ، وكان المنتقل بين ولايةٍ وأخرى يضطّر إلى الوقوف عند حدود الولاية ، ويخضع إلى تفتيش وسؤال ، وكأنه يجتاز حدوداً بين دولتين بينهما خلافات دائمة ، وكان هذا التفتيش للأشخاص والأمتعة ، وتسجيل أسماء المتنقّلين في سجلاّت خاصة يشمل النواب والوزراء سواء أكانوا محليين أم اتحاديين .

٢ ـ حكومة محمد الساقزلي : استقالت حكومة محمود المنتصر التي تشكّلت مع الاستقلال ، وعُهد إلى رئيس الديوان الملكي محمد الساقزلي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (١٨ شباط

---

(١) تشكّلت وزارة محمد الساقزلي على النحو الآتي :

١ ـ محمد الساقزلي : رئيساً للوزارة ، وزيراً للخارجية .

٢ ـ عبد الرحمن القلهود : وزيراً للعدل .

٣ ـ علي العنيزي : وزيراً للمالية .

٤ ـ خليل القلال : وزيراً للدفاع . =

١٩٥٤م) ، واستمرّ الوضع الاتحادي القائم على ما هو عليه . وأخذوا يشكون من هذا الوضع القائم الذي لا يشعرون معه أنهم في دولةٍ واحدةٍ ، كما أخذ النواب والمسؤولون يحسّون بخطورة الأمر الذي هم فيه فأخذوا يطرحون الموضوع في المجلس النيابي ، ويعرضونه على الوزارة ، واستقالت وزارة محمد الساقزلي في ٨ شعبان ١٣٧٣هـ (١١ نيسان ١٩٥٤م) .

٣ - حكومة مصطفى بن حليم : عُهد إلى مصطفى بن حليم بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١] . وبدأت مناقشة الموضوع في مجلس النواب ، وأخذت تظهر معارضة لهذا النظام القائم ، غير أن مجلس النواب لم يستطع أن يضع حدًّا لهذا الخلل الواقع ، وذلك لأن كل ولاية تعدّ لنفسها الحقّ في التصرّف بما تراه مناسباً ، ولو كان يتعارض مع الدستور ، أو يخالف أوامر الحكومة الاتحادية ،

= ٥ - إبراهيم بن شعبان : وزيراً للمعارف .
٦ - محمد الطاهر العالم : وزيراً للصحة .
٧ - مصطفى بن حليم : وزيراً للمواصلات .
٨ - إسماعيل بن الأمين : وزيراً للدولة .
٩ - خليل ناصوف : وزيراً للدولة .

(١) تشكّلت وزارة مصطفى بن حليم على النحو الآتي :
١ - مصطفى بن حليم : رئيساً للوزارة .
٢ - عبد المجيد كعبار : نائباً لرئيس الوزارة ، وزيراً للمواصلات .
٣ - عبد الرحمن القلهود : وزيراً للعدل .
٤ - إبراهيم بن شعبان : وزيراً للمعارف .
٥ - محمد بن عثمان : وزيراً للصحة .
٦ - نور الدين العنيزي : وزيراً للمالية .
٧ - خليل القلال : وزيراً للدفاع .
٨ - مصطفى السراج : وزيراً للاقتصاد .
٩ - علي الساحلي : وزيراً للدولة .
١٠ - سالم القاضي : وزيراً للدولة .
١١ - عبد السلام بسيكري : وزيراً للخارجية .

أو يضر بمصلحة الدولة . وهذا بالنسبة إلى الرجال الذين يستطيعون أن يوصلوا أصواتهم إلى أعلى المراجع ، وربما كان بعضهم من هذه المراجع غير أنهم عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً . أما الأفراد العاديون وهم السكان جميعاً تقريباً فكانوا يحسّون بمرارةٍ وأسى ، ولا يشعرون أبداً أنهم ضمن دولةٍ واحدةٍ لذا كانوا يتندّرون بما يصل لأسماعهم من حوادث من هذا القبيل ، ويفرحون عندما تقع لبعض النواب والوزراء ، ليس شماتةً بهم ، وإنما لبحث الموضوع على مستوىً عالٍ في المجلس النيابي أو في الوزارة الاتحادية ، ومع علمهم أنهم لا يستطيعون فعل شيء إلاّ كثرة الحديث ، وتكرار الوقائع ، فربما يغيّر شيئاً. وكان النواب الذين يطرحون مثل هذه الموضوعات وينتقدونها ؛ يجدون تأييداً من قبل الشعب لأن ذلك يتجاوب مع ما في نفوسهم ، وكانوا يحصلون في الانتخابات على أعلى الأصوات رغم كل ما يقع من تلاعب في الانتخابات . أما الذين يسكتون أو يؤيّدون الوضع القائم فلم يكن لهم من نصيب من النجاح في الانتخابات لولا السيف المصلت ، واللعب في النتائج .

٤ ـ **حكومة عبد المجيد كعبار** : وانتهى عهد وزارة مصطفى بن حليم في ٢٧ شوال ١٣٧٦هـ (٢٦ أيار ١٩٥٧م) ، وجاءت حكومة عبد المجيد كعبار[١] التي استمرّت حتى ٢٥ ربيع الثاني ١٣٨٠هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٦٠م) حيث :

٥ ـ **حكومة محمد بن عثمان** جاءت حكومة محمد بن عثمان[٢] . وكانت

---

(١) لم تتغيّر حكومة عبد المجيد كعبار عن الحكومات السابقة بأعضائها وتصرّفاتها ، وإنما كان التغيير في توزيع الحقائب الوزارية ؛ ليس أكثر .

(٢) محمد بن عثمان السعيد من ولاية فزان ، وقد تشكّلت حكومته على النحو الآتي :

١ ـ محمد بن عثمان السعيد : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سليمان الجربي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ وهبي البوري : وزيراً للعدل .
٤ ـ أحمد الحصيري : وزيراً للمالية .
٥ ـ محمد بشتي : وزيراً للتعليم .
٦ ـ يونس عبد النبي بلخير : وزيراً للدفاع .
٧ ـ عبد القادر البدري : وزيراً للصحة .
٨ ـ سالم الصادق : وزيراً للاقتصاد .

شركات النفط قد أخذت تعمل داخل البلاد ، فوجدت مصاعب كثيرة في الانتقال داخل البلد الواحد ، وأخذت تشكو من تعدد الجهات التي تدّعي كل منها حقّاً من الحقوق أو اختصاصاً في موضوع،وتسلب الجهة الثانية هذا الاختصاص ، فاقترحت هذه الشركات توحيد أجزاء المملكة ، وفرضت شيئاً من هيمنتها ، ووافقت السلطات المسؤولة ، وأعدّ القصر ما يجب من بياناتٍ ؛ لتقليص نفوذ المجالس التنفيذية (الحكومات المحلية) وزيادة إشراف الحكومة الاتحادية ، وذلك بعيداً عن الوزارة ، ثم قُدِّم إلى رئيس الوزراء ؛ لتنفيذ ما يجب ، ثم ألغيت المجالس التنفيذية (الحكومات المحلية) .

= ٩ ـ حميد عبيدي : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ حسن ظافر بركان : وزيراً للإعلام .
١١ ـ عبد المولى لانغي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ فؤاد قابازي : وزيراً لشؤون النفط .
١٣ ـ أبو القاسم علاقي : وزيراً للصناعة .
١٤ ـ محمد بحيح : وزيراً للدولة .

حكومة ولاية طرابلس :

١ ـ فضل بن زكري : الوالي .
٢ ـ محمد رفعت : رئيس المجلس .
٣ ـ محمد طبيب : وزيراً للداخلية .
٤ ـ سيفو كربيش : وزيراً للصحة .
٥ ـ محمد بيدورنا : وزيراً للزراعة .
٦ ـ أحمد بريس : وزيراً للمالية .
٧ ـ محمد الشوجيا : وزيراً للعدل .
٨ ـ شمس الدين بهية : وزيراً للعمل الشعبي والاتحاد .

حكومة برقة :

١ ـ حسين مازق : الوالي .
٢ ـ ونيس قذافي : رئيس المجلس .
٣ ـ محمد بوشريدا : وزيراً للداخلية .
٤ ـ حسن العبار : وزيراً للاقتصاد .
٥ ـ عثمان الجربي : وزيراً للزراعة .
٦ ـ محمد يعديم : وزيراً للعمل الشعبي والاتحاد .
٧ ـ حسن غاني : وزيراً للتعليم .
٨ ـ أحمد مختار : وزيراً للعدل .

حكومة فزان :

١ ـ عمر سيف النصر : الوالي .
٢ ـ سيف نصر عبد الجليل : رئيس المجلس .
٣ ـ نصر بن شاهين : وزيراً للمالية .
٤ ـ أنور بن طاهر : وزيراً للعدل .
٥ ـ حسن الزيني : وزيراً للصحة .
٦ ـ المهدي بن أحمد : وزيراً للتعليم .

بقيت وزارة محمد بن عثمان السعيد حتى ٢٤ شوال ١٣٨٢هـ (١٩ آذار ١٩٦٣م) ، وإن كان قد جرى عدة تعديلات ، فدخل الوزارة مثلاً عبد الرحمن القلهود ، وسليمان بو ربيدا ، ونوري بن غرسا، وأحمد عون وسوف، وونيس قذافي ، وإبراهيم بن شعبان ، وأبو بكر نعمان ، وعمر محمود المنتصر ، ومحمد أبو نويرة ، ومحمود فتال ، وعبد السلام بريش ، ومحمد صفات ، وجرى تعديل في الحقائب الوزارية ، كما خرج عدد منها في أوقات متعددة .

٦ ـ حكومة محي الدين فكيني : جاءت حكومة محي الدين فكيني بعد حكومة محمد بن عثمان السعيد ، وكان أول الأعمال التي قامت بها إلغاء ما بقي من النظام الاتحادي ، وقد رحّب الملك بهذه الخطوة ، وأعطى رئيس الوزراء الجديد الضوء الأخضر لتنفيذ ما ارتآه ، واجتمع مجلس الوزراء في مدينة البيضاء في ١٤ ذي القعدة من عام ١٣٨٢هـ (٧ نيسان ١٩٦٣م) ، واقترح تعديل الدستور ، وحدّد المواد التي يجب تعديلها . واجتمع مجلس النواب في ٢١ ذي القعدة ، وأقرّ هذا التعديل . كما اجتمع مجلس الشيوخ في ٢٣ ذي القعدة ، ووافق على هذا التعديل .

وبقي المجلس النيابي ، أما مجلس الشيوخ الذي كان محدّداً على أساس النظام الاتحادي ؛ فقد عُدّل ، وأصبح تعيينه من صلاحيات الملك ، وبقي عدد أعضائه كما كان سابقاً : أربعة وعشرون عضواً ، دون النظر إلى الولايات .

المعاهدات : وقّعت ليبيا معاهداتٍ مع ثلاث دول غربيةٍ ، وهي : إنكلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة .

أ ـ مع إنكلترا : انتقل محمد إدريس السنوسي من مصر إلى برقة إثر هزيمة دول المحور في الشمال الإفريقي ، فقد وصل إلى برقة في شهر رجب ١٣٦٣هـ (تموز ١٩٤٤م) ، وقد أعلنت إنكلترا يومذاك أن برقة لن تعود إلى الحكم الإيطالي أبداً .

ألقى محمد إدريس السنوسي خطبةً في بنغازي في شعبان ١٣٦٣هـ (٢٨ تموز عام ١٩٤٤م) دعا فيها إنكلترا إلى الاعتراف باستقلال برقة ، وأنه على استعدادٍ لعقد معاهدةٍ معها . وأرسل كتاباً إلى « إدوارد كريغ » وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط في ٨ رجب ١٣٦٤هـ (١٨ حزيران ١٩٤٥م) يطلب منه فيه اعتراف إنكلترا باستقلال برقة ، وأنه يرحّب بكل مساعدةٍ بريطانية ، وأنه على استعدادٍ أيضاً للاستعانة بمستشارين إنكليز في دوائر الحكومة ، ولا مانع عنده من بقاء قوات بريطانية في برقة على اعتبار أنهما دولتين حليفتين .

وعندما جاءت لجنة التحقيق في مصير المستعمرات الايطالية صرّح لها السنوسي أنه يفضّل الاستقلال والتحالف مع إنكلترا ، وكذا كانت دائماً تصريحاته للمعتمد البريطاني ولجريدة برقة الجديدة .

وعندما أعلن استقلال برقة في ٥ شعبان ١٣٦٨هـ (الأول من حزيران ١٩٤٩م) اعترفت إنكلترا بذلك الاستقلال الذاتي ، وبمحمد إدريس السنوسي أميراً على برقة ، ودعته لزيارتها ؛ فلبّى الدعوة ، وسافر إلى لندن في ٢٠ رمضان ١٣٦٨هـ (١٥ تموز ١٩٤٩م) ، ووقّع هناك اتفاقاً خاصاً مع السلطات البريطانية جاء فيه : تحتفظ إنكلترا والولايات المتحدة بقواعد عسكرية حسب اتفاقات تُعقد بعد الاستقلال ، ويستفيد السنوسي بعدد من المستشارين الإنكليز في أجهزة الدولة ، وبعدد آخر من الضباط الإنكليز في الجيش والشرطة .

تمّ التوقيع على اتفاق ماليٍّ مع إنكلترا في ١٥ ربيع الأول ١٣٧١هـ (١٣ كانون الأول ١٩٥١م) وقّعه عن الجانب الليبي رئيس الحكومة محمود المنتصر ، وعن الجانب البريطاني المعتمد البريطاني في طرابلس « بلاكلي » ، وهو عبارة عن خمس مواد ، ويبقى ساري المفعول حتى ١٦ رجب ١٣٧٢هـ (٣١ آذار ١٩٥٣م) :

١ ـ تتعهد بريطانيا بتقديم مساعدة مالية مقدارها خمسمائة ألف جنيه للمؤسسة الليبية العامة للتنمية والاستقرار والشركة المالية الليبية .

٢ ـ تتعهد بريطانيا بتقديم منحة مالية للحكومات أو الإدارات المحلية في طرابلس الغرب وبرقة .

٣ ـ تغطي أي عجز في ميزانيات الحكومات .

٤ ـ توافق الحكومة الليبية على أن يكون موظف بريطاني في المالية والاقتصاد له حق الاتصال المباشر مع رئيس الوزراء ووزير المالية .

٥ ـ توافق الحكومة الليبية على وجود مدقق بريطاني للحسابات .

وجاء إلى ليبيا مائة وثلاثة وتسعون موظفاً بريطانياً ، وتوزّعوا في مختلف دوائر الحكومة ، وتسلّموا أعلى المناصب .

ثم مُدّ أجل هذه الاتفاقية مدة أربعة أشهر تمهيداً لعقد معاهدةٍ جديدةٍ تتحدّد فيها العلاقات المالية والعسكرية بين الدولتين .

وعند البحث في الاتفاق المالي اقترح وزير المالية منصور قدارو الاستفادة من خبرة بعض الخبراء العرب في موضوع هذه الاتفاقية واستشارتهم ، فعُيّن سفيراً لبلاده في لندن ، وكان أول سفير لليبيا في لندن ، وبذا سهل توقيع الاتفاق المالي دون إشكالات .

وتمّ توقيع المعاهدة الجديدة في ١٨ ذي القعدة ١٣٦٢هـ (٢٩ تموز ١٩٥٣م) ، وقد وقّعها في بنغازي رئيس الحكومة الليبية محمود المنتصر والسفير البريطاني «كيرك برايد» وتشمل المعاهدة سبع مواد، واتفاقية عسكرية، وأخرى مالية ، وتنصّ على التحالف بين الدولتين ، ونجدة أحدهما للآخر في حالة الحرب ، وتقديم بريطانيا مساعدةً ماليةً لليبيا ، وتتعهد ليبيا مقابل ذلك بأن تقدّم أراضيها في برقة وطرابلس والتي حدّدتها الملاحق العسكرية لاستعمال القوات البريطانية ، كما تسمح بحرية تنقل هذه القوات في كافة أراضي البلاد

وتحليق الطائرات في سماء ليبيا كلها ، وإضافة إلى هذا أنه لا تدفع هذه القوات أية رسوم على البضائع التي تستوردها ، وتعدّ خارجة عن دائرة القوانين والتشريعات الليبية في الوقت الذي يحقّ لها التدخل في شؤون قوات الأمن والشرطة . ومدة المعاهدة عشرون عاماً .

ويبقى الاتفاق ساري المفعول حتى تتم مصادقة المجلس النيابي الليبي على هذه المعاهدة . وقد أحيلت هذه المعاهدة إلى لجنة الخارجية والدفاع اللتين حاولتا إبراز عيوبها ، وكذلك الحال في مجلس الشيوخ ، ثم جاء الأمر من الأمير محمد الرضا السنوسي نائب الملك في ٢٣ صفر ١٣٧٣هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٥٣م) بإبرام المعاهدة بعد أن صادق عليها مجلسا الشيوخ والنواب .

وحاول رئيس الحكومة عبد المجيد كعبار الذي جاء إلى الحكم في ٢٧ شوال ١٣٧٦هـ أن يبدأ مفاوضاتٍ جديدةٍ مع إنكلترا بشأن المساعدة التي تقدّمها لليبيا طبقاً لنصوص المعاهدة الخاصة ؛ بإعادة النظر في هذه المعونة كل خمس سنوات . وبدأت المفاوضات في الأول من رجب من عام ١٣٧٧هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٥٨م) في مدينة طرابلس ، واقترح المندوب البريطاني تخفيض المعونة من ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف جنيه إلى مليون جنيه ؛ فرفض رئيس الوزارة الليبية هذا الاقتراح ، وسافر إلى لندن حيث التقى مع وزير الخارجية البريطانية في ١٤ شوال ١٣٧٧هـ (٣ أيار ١٩٥٨م) ، واتفق معه على تخفيض المعونة نصف مليون ، حيث تدفع إنكلترا ثلاثة ملايين ومائتين وخمسين ألف جنيه ، وفي الوقت نفسه تقوم بتدريب الضباط الليبيين ، وتزويد ليبيا بالمعدات العسكرية .

ب - مع الولايات المتحدة : منذ أن دُحرت دول المحور في الشمال الإفريقي ، وتقدّم الإنكليز في أرض ليبيا ؛ سمحت إنكلترا للولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء مطار الملاحة (هويلس) ، فلما استقلّت ليبيا طلبت

الحكومة الأمريكية من الحكومة الليبية المؤقتة الدخول في مفاوضات لتنظيم وضع القوات الأمريكية في ليبيا ، وبالمقابل تقديم العون المادي الأمريكي للدولة الناشئة حديثاً ، وبدأت المباحثات فعلاً ، وقد مثّل الجانب الليبي رئيس الحكومة محمود المنتصر ، ومثّل الجانب الأمريكي « أندروغ لنش » القائم بالأعمال في طرابلس . وقد أعدّت الاتفاقية ، وكان الملك محمد إدريس السنوسي على اطلاع عليها ، وقد أمر رئيس وزرائه بالتوقيع عليها يوم الاستقلال المقرر ، وهو ٢٦ ربيع الأول ١٣٧١هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٥١م) .

منحت هذه المعاهدة الولايات المتحدة الأمريكية حقّ البقاء في قاعدة (الملاحة) مدة عشرين عاماً ، وحق السيطرة على السماء الليبية ، والمياه البحرية الإقليمية ، وحرية تنقل القوات الأمريكية في البلاد كلها ، وإعفاء القوات الأمريكية من كل رسوم على البضائع التي تستوردها أو تدخلها إلى الأراضي الليبية ، وتدفع الولايات المتحدة مقابل ذلك مليون دولار سنوياً .

وُقّعت هذه المعاهدة دون عرضها على المجلس النيابي ، أي لم تكتسب الصفة الشرعية ، فلما بدأ النواب يتساءلون ، ويوجّهون الأسئلة إلى الحكومة عند وضع قاعدة (الملاحة) ؛ عملت حكومة محمد الساقزلي الجديدة التي خلفت حكومة محمود المنتصر على إجراء مفاوضاتٍ جديدةٍ مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لإخفاء المعاهدة الجديدة عن النواب ، وتشكّلت لجنة لهذا الغرض ، وبدأت أعمالها في ٥ رجب ١٣٧٣هـ (٩ آذار ١٩٥٤م) ، واستمرّت أيام حكومة مصطفى بن حليم ، وإن كان أعضاؤها قد جرى عليهم التغيير، وفي ٧ رمضان ١٣٧٣هـ (٩ أيار ١٩٥٤م) توصّل الجانبان إلى عقد اتفاقيةٍ جديدةٍ ، وإن اختلفا في الحصانة القضائية للقوات الأمريكية ، ومبلغ المعونة الأمريكية .

سافر رئيس الوزراء الليبي مصطفى بن حليم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإنجاز المعاهدة ، والاتفاق على ما كان فيه خلاف بين الطرفين .

وتمّ التفاهم ، ووقّعت المعاهدة ، وبقيت القاعدة للولايات المتحدة ، والتي سُمح لها أيضاً بالحركة الحرة في أراضي ليبيا ، وكذلك سُمح لها الاستيراد دون رسوم ، وبُيّنت القواعد التي تستعملها الولايات المتحدة الأمريكية في ليبيا ، وهي : قاعدة الملاحة التي تعدّ أكبر قاعدة لها خارج الولايات المتحدة ، ومنطقة في كل من مدن مصراطة ، وبنغازي ، ودرنة ، وطبرق ، وأية منطقة أخرى تراها الولايات المتحدة ضرورية للدفاع . ومدة المعاهدة عشرون سنة تدفع خلالها الولايات المتحدة لليبيا أربعين مليون دولار ، بمعدل مليونين كل عام .

وهمّ رئيس الوزراء مصطفى بن حليم عرض الاتفاقية على مجلس النواب والشيوخ ، فعدّل وزارته وأدخل فيها بعض رجال المعارضة[١] ، وأعفى رئيس مجلس الشيوخ من منصبه ؛ عندما أبدى معارضةً للاتفاقية[٢] .

عُرضت الاتفاقية على مجلس النواب ؛ فأحالها إلى لجنة الشؤون الخارجية ، وكان عدد أعضائها سبعة نواب ، فعارضها خمسة منهم[٣] ، وأيّدها اثنان[٤] ، وقدّم كل فريق تقريراً خاصاً برأيه ، فاستبعدت الحكومة تقرير الفريق المعارض ، وطرحت على المجلس النيابي تقرير المؤيّد ، وحصلت على التصديق ، ثم عرضت ذلك على مجلس الشيوخ وطلبت إمرارها بسرعة ؛ فوافق ، وصدّق عليها الديوان الملكي ، وأصبحت سارية المفعول .

وزار « جيمس ريتشاردز » مساعد الرئيس الأمريكي طرابلس يوم ١٦

---

(١) دخل الوزارة عبد الرحمن القلهود ، ومصطفى السراج ، وكانا من المعارضة سابقاً .

(٢) كان رئيس مجلس الشيوخ عمر منصور الكيخيا ، فأُعفي من منصبه ، ونُصّب مكانه « علي العابدية » .

(٣) عارضها كل من : صالح بويصر ، ومصطفى ميرزان ، ورمضان الكيخيا ، ومفتاح عريقب ، وعبد السلام بسيكري .

(٤) أيّدها محمد سيف النصر ، وحسين الفقيه .

شعبان ١٣٧٦هـ (١٧ آذار ١٩٥٧م) واستمرّت الزيارة ثلاثة أيام عرض خلالها مشروع آيزنهاور بالنسبة للشرق الأوسط ، فوافق رئيس الوزارة الليبية مصطفى بن حليم ، وحصلت ليبيا بعدها على مساعدة أمريكية مقدارها سبعة ملايين دولار .

وطلب رئيس وزراء ليبيا مصطفى بن حليم أسلحة أمريكية غير أن حكومته قد سقطت ، وجاء إلى الحكم وزارة جديدة برئاسة عبد المجيد كعبار في تاريخ ٢٧ شوال ١٣٧٦هـ ، فتابع المباحثات ، وتمّ توقيع اتفاقية بهذا الخصوص في تاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٧٦هـ (٣٠ حزيران ١٩٥٧م) وقّعها عن الجانب الليبي وزير الخارجية « وهبي البوري » ، وعن الجانب الأمريكي السفير الأمريكي في طرابلس « جون تاين » ، ولكن حُدّد استعمال هذه الأسلحة في الأغراض التي وُقّعت من أجلها الاتفاقية .

ثم طلب رئيس وزراء ليبيا عبد المجيد كعبار زيادة مبلغ المعونة الأمريكية ، وجرت مباحثات بين الطرفين في السفارة الأمريكية في طرابلس تمخّضت عن وضع أربعة ملايين دولار تحت تصرّف الحكومة الليبية .

وعاد الطلب بالزيادة ، وجرت مفاوضات أخرى رفعت بعدها الولايات المتحدة مساعدتها إلى ليبيا إلى عشرة ملايين تُدفع إلى الحكومة الليبية مباشرة .

جـ - مع فرنسا : وقّعت الحكومة الليبية يوم الاستقلال ٢٦ ربيع الأول ١٣٧١هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٥١م) اتفاقية عسكرية مؤقتة مع فرنسا ، سمحت بموجبها للقوات الفرنسية بالبقاء في ولاية فزّان مقابل مساعدة مالية تُقدّمها فرنسا إلى المجلس التنفيذي لتلك الولاية ، ولم تعرض هذه الاتفاقية على مجلس النواب الليبي ، وإنما أبقتها الحكومة سراً ، غير أن ذلك كشفه خطاب العرش الذي ألقاه رئيس الحكومة محمود المنتصر نيابة عن الملك في المجلس النيابي عند اجتماعه يوم ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ (٢٥ آذار ١٩٥٢م) .

وعندما عرضت الميزانية الأولى للدولة الليبية على المجلس النيابي عُرفت حقيقة تلك الاتفاقية ، وأن فرنسا تدفع مبلغ مائة وثلاثة وستين ألف جنيه ، وأن هناك موظفاً فرنسياً مكلّفاً بالشؤون المالية والاقتصادية المتعلّقة بولاية فزان ، وقد حملت المعارضة على هذه الاتفاقية ، بل وسخِرت من هذا المبلغ الذي يمكن للولاية أن تقتصده من ميزانيتها لو طلب منها ذلك .

وبعدئذٍ قرر الملك عدم تجديد الاتفاقية مع فرنسا ، إذ أعلن ذلك في خطاب العرش الذي قرأه رئيس الوزارة مصطفى بن حليم نيابةً عنه يوم ١٤ ربيع الثاني ١٣٧٤هـ (٩ كانون الأول من عام ١٩٥٤م) بمناسبة افتتاح الدورة الرابعة لمجلس الأمة، وأمر بإبلاغ الحكومة الفرنسية ضرورة الجلاء عن فزان .

وجرت مباحثات بين رئيس وزراء ليبيا مصطفى بن حليم في باريس وبين رئيس وزراء فرنسا «بيار منداس فرانس» واتفقا على النقاط الأساسية بين الجانبين على أن تُدرس من قِبَل لجان من الطرفين في طرابلس بعد الاتفاق المبدئي الذي تمّ ، وبدأت المباحثات فعلاً في طرابلس في تاريخ ٢٩ ذي القعدة ١٣٧٤هـ (١٨ تموز ١٩٥٥م) ، وتمخّضت عن توقيع معاهدة في تاريخ ٢٢ ذي الحجة عام ١٣٧٤هـ (١٠ آب ١٩٥٥م) ، وهي معاهدة صداقة ، واتفاقية تعاون اقتصادي ، وتنمية للتبادل التجاري بين الدولتين ، ومقدار مساهمة فرنسا المالية في الميزانية الاتحادية للدولة الليبية ، واتفاقية حسن جوار تنظّم الأمن على الحدود ، وتجارة القوافل ، وانتقال البدو ، واتفاقية ثقافية . ومدة المعاهدة عشرون سنة . وتعهّدت فرنسا بالجلاء عن فزان خلال سنة واحدة بدءاً من وضع المعاهدة موضع التنفيذ ، كما تسلّمها مطارات (سبها) و (غات) و (غدامس) والمباني والمعدات التابعة لها بشرط استخدام فنيين فرنسيين ، وتسهيل المواصلات الجوية الفرنسية . كما تسمح الحكومة الليبية للطائرات الفرنسية بناءً على إشعارٍ سابق الهبوط في مطار (سبها) والإقلاع منه لمدة خمس سنوات ، وفي مطار (غات) و (غدامس) لمدة سنتين . كما سمحت ليبيا للقوات الفرنسية باتخاذ منطقة فزان ممراً لها في ذهابها إلى تشاد أو

إيابها منها إلى الجزائر وتونس . وفوق كل هذا استأجرت فرنسا قطعة أرض ليبية بجوار حدود الجزائر ؛ لاستخدامها كمهبط للطائرات الفرنسية ، وتعادل قيمة هذا الإجار مائة قرش سنوياً ولمدة عشرين سنة(١) .

عُرضت المعاهدة على مجلس النواب ؛ فبدت معارضة ضعيفة كان على رأسها عبد العزيز الزقلعي ، أما صالح مسعود بويصر الذي اعتاد معارضة أي ارتباطٍ فقد اضطّر إلى مغادرة البلاد . ولما كانت المعارضة ضعيفة ؛ نالت المعاهدة على الموافقة ، وكذلك صادق عليها مجلس الشيوخ في ٨ شعبان ١٣٧٥هـ (٢٠ آذار ١٩٥٦م) .

المطالبة بإلغاء المعاهدات : بدأ وعي الشعب في ليبيا نتيجة مطالبة عددٍ من النواب بإنهاء المعاهدة الأجنبية التي تقيّد الحكومة والشعب معاً بأغلال ثقيلةٍ ، كما كان أثر ما تكتبه الصحف العربية في البلدان العربية الأخرى واضحاً ، إضافة إلى الهجوم الذي أخذ يشنّه الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، والذي كان على خلافٍ واسع مع الاستعمار الإنكليزي حيث كان يتحرّك بتوجيه أمريكي ؛ فقد وصل إلى السلطة بدعمٍ منه غير أنه يخفي هذا بإعلان الهجوم على أمريكا ليدفن تحته شيئاً آخر ، كما كان يقوم بمغازلة الاستعمار الروسي ، وبهذا ذرّ الغبار في عيون الكثيرين حتى خفيت الحقيقة تحت هذه السياسة .

٧ ـ حكومة محمود المنتصر : سقطت حكومة محي الدين فكيني في ٨ رمضان ١٣٨٣هـ (٢٢ كانون الثاني ١٩٦٤م) ، وعُهد إلى محمود المنتصر

---

(١) مثّل ليبيا في هذه المباحثات : مصطفى بن حليم رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وعبد المجيد كعبار نائب رئيس الوزراء ووزير المواصلات ، وسيف النصر عبد الجليل رئيس المجلس التنفيذي لولاية فزان ، وسليمان الجربي وكيل الخارجية ، والرائد السنوسي الأطيوشي ، والنقيب نوري الصديق ، وحسن مخلوف ، وأحمد ابن سعود .
ومثّل الجانب الفرنسي : « موريس دوغان » سفير فرنسا في ليبيا ، و « أوبوافو » الوزير المفوّض في الخارجية الفرنسية ، و « مايار » المدير المساعد في الخارجية .

بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ؛ فشكّلها في اليوم التالي . ونتيجة الوعي الذي انتشر في الأوساط كافة ونتيجة الظروف المواتية تقدّم عـدد من النواب[1] بمشروع قانونين إلى مجلس النواب : أحدهما يقضي بإلغاء المعاهدات الليبية مع الدول الأجنبية . والثاني يقضي بتصفية القواعد العسكرية من البلاد ، فأحال المجلس النيابي هذين المشروعين إلى لجنة الشؤون الخارجية وذلك في تاريخ ٢٥ شوال ١٣٨٣هـ (٩ آذار ١٩٦٤م) ، وكان رئيس الحكومة محمود المنتصر قد صرّح بعزم الحكومة على عدم تجديد أو تمديد الاتفاقيتين الإنكليزية والأمريكية .

ودرست لجنتا الدفاع والخارجية مشروع القانونين ، ووافقتـا عليهما ، ورفعتا تقريرهما إلى مجلس النواب بالموافقة ، وأوصتا بتأجيل مناقشة الموضوع لإفساح المجال للحكومة للدخول في مفاوضات تستهدف إلغاء المعاهدات ، وتصفية القواعد العسكرية ، وجلاء الأجنبي تماماً عن البلاد .

أثناء ذلك انتقل الملك محمد إدريس السنوسي من البيضاء إلى طـبرق واستدعى رئيس الوزراء ، ورئيس النواب ، ورئيس مجلس الشيوخ ، وأبلغهم عزمه على التنازل عن الملك ، وذلك في تاريخ ٦ ذي القعدة ١٣٨٣هـ (١٩ آذار ١٩٦٤م) ، وحاولوا ثنيه عن عزمه ، غير أنهم فشلوا ، ولما انتشر الخبر قامت مظاهرات في ٨ ذي القعدة تطالب الملك بالعدول عن رأيه ؛ فاستجاب لرأي الشعب .

طلبت الحكومة الليبية من الحكومتين الإنكليزية والأمريكية الدخول في مباحثات حـول جلاء قـواتها عن القـواعد التي تحتلّهـا في الأرض الليبية ؛ فوافقت الحكومتان المعنيتان بالأمر على هذا الطلب .

---

(١) كان من بين هؤلاء النواب : أحمد الرماش ، وأحمد الغرياني ، وأحمد الخرباشي ، وعبد السلام التهـامي ، والسائح فلفل ، وعـلي مصطفى المصراطي ، وعمـران البصير ، ومحمـد بشير المغيربي ، ومحمد نشنوش ، ومحمود فتح الله ، والفيتوري زميط ، ومحمود صبحي ، ومحمد أبو صاع .

٨ ـ حكومة حسين مازق : وبدأت مباحثات من أجل الجلاء في عهد حكومة محمود المنتصر ، واستمرّت أيام حكومة حسين مازق[1] التي خلفت حكومة محمود المنتصر في يوم ١٨ ذي القعـدة ١٣٨٤هـ (٢٠ آذار من عام ١٩٦٥م) ، وكان من نتائج المباحثات مع الجانب الإنكليزي أن أعلن مقر القوات البريطانية في ليبيا يوم ٨ ذي الحجة ١٣٨٥هـ (٢٩ آذار ١٩٦٦م) أن القوات البريطانية سوف تبحر من طرابلس يوم الخميس ١١ ذي الحجة ١٣٨٥هـ (الأول من نيسان ١٩٦٦م) أي بعد يومين فقط من الإعلان ، وذلك باستثناء حامية جوية ، وبعثتين إحداهما بحرية والأخرى برية .

وعندما اعتدى اليهود في فلسطين على الأراضي العربية المجاورة في ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م) ، وظهر تعاون الإنكليز والأمريكان مع

---

(١) تشكّلت حكومة حسين مازق على النحو الآتي :

١ ـ حسين مازق : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سالم لطفي القاضي : وزيراً للمالية .
٣ ـ أحمد بشتي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٤ ـ محمد منصوري : وزيراً للدفاع .
٥ ـ ونيس قذافي : وزيراً للتخطيط والتنمية .
٦ ـ طاهر عقبي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٧ ـ أبو سيف ياسين : وزيراً للصناعة .
٨ ـ فؤاد قابازي : وزيراً لشؤون النفط .
٩ ـ محمد بيديرنا : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ السنوسي الأطيوشي : وزيراً للمواصلات .
١١ ـ أحمد عون وسوف : وزيراً للداخلية .
١٢ ـ بوبكر بن عمر : وزيراً للعدل .
١٣ ـ طاهر باكير : وزيراً للتعليم .
١٤ ـ خليفة طاليسي : وزيراً للثقافة والإعلام .
١٥ ـ حامد عبيدي : وزيراً للعمل الشعبي .
١٦ ـ عمر جودة : وزيراً للصحة .
١٧ ـ أحمد سويدي : وزيراً للاقتصاد والتجارة .
١٨ ـ عبد القادر البدري: وزيراً للإسكان والحكم المحلي .
١٩ ـ عبد الله سكتا : وزير دولة للخدمة العامة .
٢٠ ـ مهدي بوظو : وزير دولة للمجلس النيابي .

اليهود تحرّك الشعب في ليبيا ، وقامت مظاهرات ضدّ إنكلترا والولايات المتحدة ، وجرت محاولات لإحراق سفارتيهما في بنغازي ، وطولبت الحكومة الليبية بإنهاء التحالف مع هاتين الدولتين المعتديتين ، وتصفية قواعدهما العسكرية فوراً ، هذا رغم أن الحكومة قد أمرت القطعات العسكرية الليبية أن تتحرّك نحو مصر لتؤدّي واجبها في القتال إلى جانب الأخوة الأشقاء ، كما سمحت للقطعات العسكرية الجزائرية بالمرور من الأرض الليبية لتقوم بالدور نفسه .

وتشكل وفد من طرابلس ، وأعدّ مذكرة ليقدّمها إلى رئيس الوزراء حسين مازق يطالبه فيها بالعمل لإنهاء التحالف مع إنكلترا وأمريكا وتصفية قواعدهما العسكرية في الأرض الليبية تنفيذاً لقرار مجلس الأمة الليبي الذي اتخذ من سنتين[١] . وكذلك فعل أهل برقة ؛ تشكّل وفد منهم للغرض نفسه[٢] . فالتقى الوفدان في بنغازي يوم ٢٨ صفر ، فسارا معاً إلى البيضاء ، وتمّ اللقاء مع رئيس الوزراء في الأول من شهر ربيع الأول[٣] .

وفي ٩ ربيع الأول طلب وزير الخارجية الليبي من أمريكا وإنكلترا الدخول في مباحثات للانسحاب من ليبيا ، وتصفية قواعدهما منها في أقرب وقت . غير أن وزارة الخارجية الأمريكية قد أعلنت في يوم ١٠ ربيع الأول ١٣٨٧هـ (١٧ حزيران ١٩٦٧م) بأن الطلب الليبي يهدّد الوجود العسكري

---

(١) ضمّ وفد طرابلس : محمد كريكشي ، ومحمود صبحي ، وإبراهيم الغويل ، ومصطفى ميرزان .

(٢) ضمّ وفد برقة : بشير المغيربي ، وعلي زوارة ، ومحمد الصابري ، ومصطفى بن عامر .

(٣) عندما وصل الوفد إلى البيضاء كان مجلس الوزراء في حالة انعقاد ، وهذا ما حال دون اللقاء السريع مع الوفد ولم يستطع رئيس الوزراء مقابلة الوفد حتى سافر إلى طبرق حيث التقى مع الملك هناك ، وأخذ التعليمات منه ، ولما رجع إلى البيضاء التقى بالوفد ، واضطرّ الوفد إلى الانتظار مدة هذين اليومين .

الأمريكي في المنطقة . ثم عادت فأعلنت في يوم ١٥ ربيع الأول أنها قد أبلغت سفيرها في طرابلس بالتعليمات اللازمة ، وأن يضع نفسه في خدمة الحكومة الليبية فيما يتصل بالمباحثات .

٩ ـ حكومة عبد القادر البدري: استقالت حكومة حسين مازق في ٢١ ربيع الأول ١٣٨٧هـ ، وخلفتها حكومة جديدة برئاسة عبد القادر البدري[١] الذي كان يشغل منصب وزير الإسكان في الوزارة السابقة . وطلبت الحكومة الجديدة من إنكلترا وأمريكا الدخول في مباحثات من أجل قواعدهما في ليبيا .

بدأت المباحثات مع الجانب البريطاني في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٨٧هـ (الأول من شهر آب ١٩٦٧م) ، وخلال يومين انتهت المباحثات في بنغازي وأذاعت وزارة الخارجية الليبية أن الجلاء عن القواعد البريطانية في ليبيا سيتمّ خلال ستة أشهر ، غير أن الخارجية الإنكليزية قد أعلنت أن اتفاق بنغازي إنما هو اتفاق جزئي لا يشمل كل الأراضي الليبية ، وإنما يشمل منطقة بنغازي فقط ولا يتعدّاها إلى طبرق .

وبدأت المباحثات مع الجانب الأمريكي في تاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣٨٧هـ (١٠ آب ١٩٦٧م) ومثّل الجانب الليبي فيها وزير الخارجية أحمد البشتي ، ومثّل الجانب الأمريكي السفير الأمريكي في ليبيا ، وقد توقّفت المباحثات قليلاً ثم استؤنفت في يوم ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٧هـ ، وأذاعت إثرها ليبيا بياناً أعلنت فيه أن الاتفاق قد تمّ على تجميد موضوع الانسحاب من قاعدة الملاحة فيما إذا حدث عدوان على أية دولةٍ من الدول العربية ، وتشكيل لجنة مشتركة تقوم بجرد المعدات والطائرات الموجودة في القاعدة .

١٠ ـ حكومة عبد الحميد البكوش : جاءت حكومة عبد الحميد

---

(١) ضمّت وزارة عبد القادر البدري جميع أعضاء وزارة حسين مازق المستقيلة السابقة .

البكوش[1] بعد حكومة عبد القادر البدري في ٢٣ رجب ١٣٨٧هـ (٢٦ تشرين الأول من عام ١٩٦٧م) ، وقد أذاعت بعد ثلاثة أيامٍ من تسلّمها السلطة أن المفاوضات مع الجانبين البريطاني والأمريكي ما زالت مستمرّة ، وأنها قد أحرزت تقدّماً نحو الوصول إلى الهدف . وأذيع في ١٢ رمضان ١٣٨٧هـ (١٣ كانون الأول من عام ١٩٦٧م) بيان رسمي جاء فيه أن الاتفاق مع الجانب البريطاني قد تمّ على سحب جميع وحدات الجيش البريطاني

---

(١) تشكّلت حكومة عبد الحميد البكوش على النحو الآتي :

١ ـ عبد الحميد البكوش : رئيساً للوزراء ، وزيراً للعدل .
٢ ـ عبد الهادي القعود : وزيراً للمالية .
٣ ـ عمر بن عامر : وزيراً للمواصلات .
٤ ـ حامد بوصورويل : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٥ ـ أحمد نجم : وزيراً للاقتصاد والتجارة .
٦ ـ بشير المنتصر : وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء .
٧ ـ أحمد العون سوف : وزيراً للداخلية .
٨ ـ ونيس القذافي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٩ ـ عبد الكريم الياس: وزيراً للزراعة والمصادر الحيوانية .
١٠ ـ أحمد صالحين الهوني : وزيراً للثقافة والإعلام .
١١ ـ مهدي بوظو : وزير دولة لشؤون المجلس النيابي .
١٢ ـ شمس الدين عربي : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٣ ـ طارق باروني : وزيراً للصناعة .
١٤ ـ حامد عبيدي : وزيراً للدفاع .
١٥ ـ علي ميلودي : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
١٦ ـ عمر جودة : وزيراً للصحة .
١٧ ـ علي عتيقة : وزيراً للتنمية والتخطيط .
١٨ ـ أحمد سويدي : وزيراً للشباب والرياضة .
١٩ ـ خليفة موسى : وزيراً لشؤون النفط .
٢٠ ـ مصطفى بايو : وزيراً للتعليم .
٢١ ـ فتحي جودة : وزيراً للعمل الشعبي .
٢٢ ـ حسين غناوي : وزير دولة للخدمة العامة .
٢٣ ـ معتوق آدم : وزيراً للسياحة .
٢٤ ـ أنور سامي : وزيراً للإسكان .

من بنغازي بحلول شهر شباط من عام ١٩٦٨م (٣ ذي القعدة ١٣٨٧هـ) باستثناء البعثة العسكرية البريطانية .

وفي ٣ ذي القعدة ١٣٨٧هـ (١ شباط ١٩٦٨م) تسلّمت السلطات الليبية المعسكر الإنكليزي في بنغازي ، غير أن البريطانيين قد بقوا في (طبرق) والقاعدة الجوية في (العادم) كما بقي لهم وحدات بحرية في طرابلس ، وبعثات عسكرية في بنغازي .

وفي شهر محرم من عام ١٣٨٨هـ (نيسان ١٩٦٨م) أبرمت اتفاقية مع شركة الطيران البريطاني لتوريد نظام دفاع جوي متكامل بمبلغ مائة مليون جنيه ، ويشمل صواريخ قصيرة المدى ، وأحدث أجهزة الرادار .

وقد قام الملك حسين بن طلال ملك الأردن بزيارةٍ إلى ليبيا، وتعهّدت الحكومة الليبية بتقديم أجهزةٍ دفاعيةٍ للأردن ، وكذلك لمصر .

١١ ـ حكومة ونيس القذافي : في ١١ جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ (٤ أيلول ١٩٦٨م) قدّمت حكومة عبد الحميد البكوش استقالتها ، وخلفتها وزارة ونيس القذافي[1] الذي كان يشغل منصب وزير الشؤون الخارجية في

---

(١) تشكّلت وزارة ونيس القذافي على النحو الآتي :

١ ـ ونيس القذافي : رئيساً للوزارة .

٢ ـ حامد العبيدي : وزيراً للدفاع .

٣ ـ أحمد عون سوف : وزيراً للداخلية .

٤ ـ حامد صورويل : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

٥ ـ مهدي بوظو : وزيراً لشؤون المجلس النيابي .

٦ ـ أحمد صالحين الهوني : وزيراً للثقافة والإعلام .

٧ ـ عبد الكريم الياس : وزيراً للزراعة والمصادر الحيوانية .

٨ ـ فتحي جودة : وزيراً للعمل الشعبي .

٩ ـ عمر جودة : وزيراً للصحة .

١٠ ـ طارق الباروني : وزيراً للصناعة .

١١ ـ بشير المنتصر : وزيراً لشؤون مجلس الوزراء .

١٢ ـ أحمد السويدي : وزيراً للشباب والرياضة .

الوزارة السابقة .

وتحسّنت أوضاع ليبيا المادية بعد اكتشاف الكثير من آبار النفط ، وقدّمت معونات للدعم العربي تقدّر باثنين وخمسين مليون دولار ، وزادت عشرين مليوناً في العام التالي للعدوان اليهودي .

وهكذا توالت إحدى عشرة حكومة على الحكم في العهد الملكي وهي حكومات :

١ ـ محمود المنتصر : ١٦ ربيع الأول ١٣٧١ ـ ١٥ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٥١ ـ ١٨ شباط ١٩٥٤)

٢ ـ محمد الساقزلي : ١٥ جمادى الآخرة ١٣٧٣ ـ ٨ شعبان ١٣٧٣هـ (١٨ شباط ١٩٥٤ ـ ١١ نيسان ١٩٥٤م) .

٣ ـ مصطفى بن حليم : ٨ شعبان ١٣٧٣ ـ ٢٧ شوال ١٣٧٦هـ (١١ نيسان ١٩٥٤ ـ ٢٦ أيار ١٩٥٧م) .

٤ ـ عبد المجيد كعبار : ٢٧ شوال ١٣٧٦ ـ ٢٥ ربيع الثاني ١٣٨٠هـ (٢٦ أيار ١٩٥٧ ـ ١٦ تشرين الأول ١٩٦٠م) .

٥ ـ محمد بن عثمان السعيد : ٢٥ ربيع الثاني ١٣٨٠ ـ ٢٤ شوال ١٣٨٢هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٦٠ ـ ١٩ آذار ١٩٦٣م) .

= ١٣ ـ خليفة موسى : وزيراً لشؤون النفط .
١٤ ـ مصطفى بايو : وزيراً للتعليم .
١٥ ـ عبد الهادي القعود : وزيراً للمالية .
١٦ ـ علي ميلودي : وزيراً للشؤون البلدية .
١٧ ـ حسين الغناوي : وزير دولة للخدمة العامة .
١٨ ـ عمر بن عامر : وزيراً للمواصلات .
١٩ ـ أنور ساسي : وزيراً للإسكان .
٢٠ ـ معتوق آدم : وزيراً للسياحة .
٢١ ـ شمس الدين عربي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٢٢ ـ أحمد نجم : وزيراً للاقتصاد والتجارة .
٢٣ ـ علي أحمد عتيقة : وزيراً للتنمية والتخطيط .
٢٤ ـ رجب المجري : وزيراً للعدل .

٦ ـ محيي الدين فكيني : ٢٤ شوال ١٣٨٢ ـ ٨ رمضان ١٣٨٣هـ (١٩ آذار ١٩٦٣ ـ ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٤م) .

٧ ـ محمود المنتصر : ٩ رمضان ١٣٨٣ ـ ١٨ ذي القعدة ١٣٨٤هـ (٢٣ كانون الثاني ١٩٦٤ ـ ٢٠ آذار ١٩٦٥م) .

٨ ـ حسين مازق : ١٨ ذي القعدة ١٣٨٤ ـ ٢١ ربيع الأول ١٣٨٧هـ (٢٠ آذار ١٩٦٥ ـ ٢٨ حزيران ١٩٦٧م) .

٩ ـ عبد القادر البدري : ٢١ ربيع الأول ١٣٨٧ ـ ٢٣ رجب ١٣٨٧هـ (٢٨ حزيران ١٩٦٧ ـ ٢٦ تشرين الأول ١٩٦٧م) .

١٠ ـ عبد الحميد البكوش : ٢٣ رجب ١٣٨٧ ـ ١١ جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٦٧ ـ ٤ أيلول ١٩٦٨م) .

١١ ـ ونيس القذافي : ١١ جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩ جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ (٤ أيلول ١٩٦٨ ـ ١ أيلول ١٩٦٩م) .

ثانياً: الجُمْهُورِيَّة

بدأ الوضع الاجتماعي والفكري والسياسي يتغيّر في ليبيا نتيجة الظروف التي جدّت على الساحة ، وبسبب الأوضاع التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في العالم كله ، ولا بدّ من أن تتأثّر بها ليبيا ، أو ينالها شيء من أثارها .

الأوضاع المادية الليبية تحسّنت بعد ظهور النفط وزيادة مـردوده، وأخذ الناس يتطلّعون إلى خارج منطقتهم ، ويعرفون ما يجري فيها ، ويحلّلون بعض تلك الأحداث ، وإن لم يستطيعوا بعد ؛ فقد كانوا يتأثّرون بها ، ويعملون على التفكير بواقعهم الذي يعيشون فيه ، بعد أن كانوا منعزلين على أنفسهم يجدّون لتحصيل لقمة العيش .

أعداد السكان تزايدت ؛ بعد أن كان الأهالي قلّة موزّعة في تلك الفيافي الواسعة ، بين الجماعة والأخرى بيداء قاحلة ، وكـلٌ منصرفٌ لعمله يكـابد التعب، ويتحمّل لظى الشمس المحرقة، يغالب البيئة ليأخذ منها ماءه، وما يقتات به .

وانتشر العلم ، وافتتحت الجامعات ، وأصبح بالإمكان تلقّي المعرفة ؛ فـالانتقال ميسـور بسهولـة المواصـلات ، والإنفاق سهـل بتحسّن الأوضاع المادية ، والقلوب عطشى تسعى جاهـدة وراء المناهـل التي أخذت ينـابيعها تتدفّق .

ووسائل الإعلام أخذت تبثّ ما تريده ، ووخزات منبّهة أخذت تأتي من المناطق القريبة والتي يرتبط أبناؤها مع سكان ليبيا بروابط العقيدة، فأخذوا يلقون إليهم من تلك الوشائج ما ينبّهمم إلى أوضاعهم ، وما يحرّكهم ليصحوا ويستيقظوا ، ويطالبونهم بالتقاء بعضهم مع بعض ليكونوا قوة .

الأوضاع التي تتعاقب على الساحة الداخلية : مجموعة قليلة تتحكّم في الناس ، تتصرّف كما تشاء ، تدني ، تبعد ، تنفق من مال الشعب وتبذخ ، تحرم الأهل ، وتهب الأعداء ، تعطي من تخضع له ، وترتبط به دون حساب ، يحميها وتبذل له ، سلطها على السكان ، وتسلط عليها حتى غدت يده التي تضرب ، وتأخذ ، وتتجبّر ، ثم ترتمي في أحضانه . يُقتل أحد أفراد هذه المجموعة المتسلّطة ، ويدعى إبراهيم الشلحي ؛ فينعى بالإذاعة ، وتفرض حالة الطوارىء في البلاد كلها ، ويعلن الحداد سبعة أيام في أرجاء ليبيا جميعها ، وهذا كله لأنه على صلةٍ وثيقةٍ برئيس الوزراء مصطفى بن حليم أحد رجالات هذه المجموعة الظالمة لنفسها .

ويأتي أحد أثرياء الطليان الذين كانوا قد استولوا على أراضٍ شاسعةٍ في برقة تعدّ من أخصب البقاع ، واستبدّ بالناس وسخر من السكان واستعبد البلد وأهله أيام استعمار بني جلدته من النصارى لديار المسلمين ، ذلك هو « مرزوتو » الكونت الإيطالي ، فتهتزّ البلاد لتلك الزيارة ، وتُسخّر إمكاناتها لخدمته وخدمة موكبه ، وينتقل من برقة إلى طرابلس فينتقل معه العز والشرف ، وما ذلك الإكرام والتبجيل ، والحفاوة والتعظيم ؛ إلّا لصلته برجل يدعى عبد الله عابد الذي يكون بدوره صديقاً لرئيس الحكومة مصطفى بن حليم ، فيثور الشعب ويغضب ويتحرّك رجال القبائل ، ويسير الناس إلى قصر الملك في مدينة البيضاء على مقربة من تلك الاحتفالات بالضيف العزيز ، ويعلن الجميع استنكارهم لهذه الزيارة ، وما تنطوي عليه من ازدراءٍ للشعب المسلم الذي قاتل ضدّ الطليان من أمثال هذا القادم ، والذي طالما عمل على إذلال الناس .

وكان لقضية فلسطين دورها ، فإنه لما عُقد مؤتمر القمة العربي الأول بالقاهرة في شهر شعبان ١٣٨٣هـ (كانون الثاني ١٩٦٤م) حضرته ليبيا(١) ،

---

(١) اعتذر الملك محمد إدريس السنوسي عن حضور المؤتمر ، وكلّف =

وخرج الطلاب تأييداً للمؤتمر بمظاهرات ، ورأى قائد قوة دفاع برقة ومدير الشرطة في الحكومة الاتحادية[1] فرصةً للضغط على الحكومة وجعلها في وضع حرج نتيجة الخلاف معها ، فأعطى أوامره بمنع الطلاب من الخروج بمظاهرات ، واصطدمت الشرطة معهم ، ووقع ثلاثة طلاب صرعى نتيجة الصدام ، وجرح عدد آخر ، وتأثّر الشعب من هذا التصرّف وهاجم مراكز الشرطة في بعض المناطق ، وتضامن طلاب طرابلس مع إخوانهم في بنغازي وتظاهروا ، وحاول مدير الشرطة أن يعزو هذا التصرّف إلى الحكومة .

وتشكّلت لجنة للتحقيق ، وثبت لديها أن الشرطة هي سبب ما وقع من أحداث ، وأن مدير الشرطة هو المسؤول عنها ، فطلبت الحكومة إقالة المسؤول ، وفصل بعض الضباط ، غير أن طلبها قد رفض ؛ فقدّمت استقالتها ، وتظاهر الشعب مؤيّداً لها ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً ، فأسرّ الناس ذلك في نفوسهم ولم يستطيعوا إبداء شيء .

ويوجد في ليبيا بعض اليهود ، فلما أعلن اليهود عن قيام دولتهم في فلسطين في ٧ رجب من عام ١٣٦٧هـ (١٥ أيار ١٩٤٨م) ؛ ارتبط اليهود في ليبيا بصلاتٍ وثيقةٍ مع ما عُرف باسم دولة إسرائيل في فلسطين ، وكانوا ينتقلون إليها عن طريق إيطاليا ، ولا يخفون ذلك ، بل أحياناً يفاخرون برحيلهم إلى فلسطين ، كما يفخرون بتلك الدولة وقيامها رغم أنوف المسلمين جميعاً ؛ فكان هذا يزعج الشعب في ليبيا غير أنه مغلوب على أمره .

ورست في ميناء طرابلس باخرة يهودية لتنقل من يريد الارتحال من ليبيا

= ولي العهد الحسن الرضا أن يمثّله في هذا المؤتمر ، وكان من أعضاء الوفد رئيس الحكومة محيي الدين فكيني، ورئيس مجلس النواب عبد الحميد العبار ، ورئيس مجلس الشيوخ مفتاح عريقيب .

يدعى مدير الشرطة « محمود بوقويطين » .

إلى فلسطين مع جميع أمتعته وأملاكه ، فكان لهذا وقعه السيء على نفوس السكان .

وكان في طرابلس نادٍ لليهود يعرف بنادي (المكابي) وكان يرفع علم دولة ما عُرف بإسرائيل ؛ فتأذى الشعب أشدّ الإيذاء ، وسأل النواب الحكومة عن سبب افتتاحِ مثل هذا النادي وفيه تحدٍّ للأمة ، وطالبوا بإغلاقه ، ولكن لم يُجدِ ذلك شيئاً ، إلى أن كثرت التساؤلات، واحمرّت الأعين ؛ حينئذٍ أمر بإغلاقه .

وفي هذه الأثناء انضمّت ليبيا إلى جامعة الدول العربية في ١٣ رجب ١٣٧٢هـ (٢٨ آذار ١٩٥٣م) رغم كل هذه التصرّفات ، وكان النواب الليبيون يطالبون حكومتهم بتطبيق قرارات جامعة الدول العربية ، والتي منها مقاطعة إسرائيل . وإن الموقف الحالي من إسرائيل ليعدّ خارقاً فاضحاً لإجماع الدول العربية ، ولم يطبّق قانون مقاطعة إسرائيل إلاّ بعد هجوم عنيف ومرور عدة سنوات ، وتحت ضغط النواب والشعب اتخذ ذلك القرار في ٢٢ رمضان ١٣٧٥هـ (٢ أيار ١٩٥٦م) ، وأنشيء مكتب لمقاطعة إسرائيل في طرابلس ، وله فرعان : أحدهما في بنغازي ، والآخر في (سبها) .

كل هذا أوجد رغبةً عند السكان في التغيير ، وبدأ التحرّك في هذا الاتجاه ، وتشكّلت بعض المجموعات التي دخلت عليها بعض المؤثرات الخارجية ، وكانت عن طريق أحد الضباط ثم الوزراء الشاميين[1] . وقد قبض على مائة وستة أشخاص ، وقدّموا للمحاكمة ، وحكم عليهم بالسجن مدة تتراوح بين سنتين وست سنوات .

---

(١) ويُدعى هاني الهندي ، وينتمي إلى حركة القوميين العرب الذين يحملون اتجاهاً غربياً بمنطلقات شرقية ، وينادون بالاشتراكية لمصلحة الرأسمالية ، يرفعون بكل حماسة شعارات يسارية وأيديهم مكبّلة بقيود من الغرب ؛ حيث يتلقّون الدعم من هناك ، ويعملون على نسف الجذور الفكرية والسياسية القائمة في البلدان العربية .

عندما يدخل بلد يخضع لنفوذٍ أجنبيٍّ مرحلةً مثل هذه المرحلة التي وصلت إليها ليبيا ؛ تفكّر الدولة صاحبة النفوذ بالتغيير لمصلحتها ، خوفاً من أن يحدث تغيير دون علمها ، فقد تجد صعوبةً حتى تستطيع أن تمسك بيدها كافة الخيوط مرةً أخرى ، وقد تحدث فوضى ، وربما خرج الأمر من يدها ، وأكثر ما تخشاه أن يكون الاتجاه إسلامياً، فهذا ما يقضّ مضجعها؛لأن في ذلك اهتزاز للصليبية العالمية واتحاد كنائسها وإرسالياتها ، كما تخاف أن يكون التوجّه نحو دولةٍ معاديةٍ لها ، أو يكون الدافع له معسكر مضاد لها ، أو خط يقابل الخط الذي تسير فيه .

إن الدولة صاحبة النفوذ الأول في ليبيا كانت يومذاك هي إنكلترا ، فهي التي أبرزت محمد إدريس السنوسي ، وتحالفت معه ، وأوصلته إلى السدّة ، وبالتالي المجموعة التي تدور في فلكه ، وتنتفع من السلطة ، وترى رأيه ؛ إما اقتناعاً ، وإما مصلحةً وانتفاعاً ، ولا شك ؛ فإن إنكلترا كانت قد اصطفت أثناء هذا المسير فئةً منها ، تتخذها جياد رهان ، تمتطي واحداً منها حتى إذا تعب أو أعيته الحيلة في التصرّف ؛ استبدلته بآخر ، وجعلت منهم مجالاً للمنافسة تضرب أحدهما بالآخر،وتمنّي بعضهم بمقامٍ أرفع على حساب بعض ، وتعلّق الأماني في مكانٍ عالٍ لا يطاله إلّا الذي يُبدي طاعةً أكثر .

أما النفوذ الأمريكي فقد دخل إلى ليبيا مع دخول الحلفاء إلى المنطقة في الحرب العالمية الثانية بصفة أن الولايات المتحدة هي إحدى دول الحلفاء ، ولقد سمحت إنكلترا التي دخلت جيوشها ليبيا من مصر بقيادة مونتغمري ، ودحرت قوات المحور بقيادة رومل ؛ سمحت لها ببناء قاعدة الملاحة . وقد كان النفوذ الأمريكي نفوذ قوة وهيمنة ، لا نفوذ علاقة وارتباط ، لذلك يمكن أن نعدّه سطحياً ليس له تأثير عميق في السكان كالنفوذ الإنكليزي .

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية ، وبرزت الولايات المتحدة الأمريكية كأقوى قوة عالمية مادياً وعسكرياً ، وتزعّمت الدول الرأسمالية ، ورأت من

مصلحة هذه الدول التي شكّلت حلف شمال الأطلسي ليقف في وجه حلف وارسو الذي تشكّل من الدول الشيوعية ؛ رأت أن تحلّ محلّ إنكلترا وفرنسا في مناطق نفوذهما ليكون هناك رأس واحد في المعسكر الغربي كما يوجد رأس واحد في المعسكر الشرقي وهو الامبراطورية الروسية فيكون موجّه واحد ، وذلك أفضل من وجود عدة رؤوس قد تعطي عدة توجيهات إذ ينطلق كل رأس من خلال نظرته الخاصة التي تنسجم مع مصالحه ، وإن ذلك الرأي الأمريكي لن يضعف المعسكر شيئاً إذ لن تخرجه عن أية إمكانات ، وإنما تبقى ضمن دوله ، وإن كانت تنتقل من دولة إلى أخرى . واستطاعت فعلاً أن تحلّ محلّ حليفتيها في كثير من المناطق ، غير أنها قد رضيت بنفوذها القليل في ليبيا الموجود بجانب النفوذ الإنكليزي . ولكن الظروف سارت على غير ما تشتهي ، إذ أن السكان قد كرهوا النفوذ الإنكليزي ، وكان هناك من يثيرهم باستمرار ، وغالباً ما كانت تأتي تلك الإثارة من ناحية مصر المجاورة لها من ناحية والتي كان رئيسها جمال عبد الناصر في صراع عنيف مع الإنكليز كما سبق أن ذكرنا ، وهذا ما زاد من قوة معارضة الشعب للحكم في ليبيا حتى إنه لم يستطع أن يسير علناً في أي مخطط استعماري ، إذ رفض حلف بغداد (المعاهدة المركزية - فيما بعد -) وغيره من المخططات ، وقد دعم المعارضة الليبية قوة معاداة الحكم المصري الظاهرية للولايات المتحدة رغم أنه يعدّ من أقوى ركائزها في البلدان العربية آنذاك ، وبذا أصبح الحكم المصري أو بالأحرى الناصري له قوته في ليبيا .

رأت الولايات المتحدة أن تحلّ في نفوذها محلّ النفوذ الإنكليزي في ليبيا خوفاً من أن ينتهي وضع الحكم الليبي المؤيّد من قبل إنكلترا على حين غفلة من الدولتين الإنكليزية والأمريكية ، وأن تُنهي هذا الوضع الضعيف الذي لا يستطيع السير في مخطط تقتضيه مصلحة المعسكر الغربي . وفي القضاء على هذا الضعف مصلحة لإنكلترا . ويساعد الولايات المتحدة في مشروعها هذا سكوت مصر عن أية حركة تقوم بها ما دامت تدور في فلكها ، وإن كانت ظاهراً تبدو في خارجه ؛ بل من ألدّ أعدائه .

ومعنى هذا أن وضع ليبيا سيتغير على أيدي رجال يخالفون سياسة إنكلترا ويحاربون نفوذها ، ويمكنهم السير في الفلك الأمريكي واقعاً ، ومحاربته ظاهراً ،ويُدعمون من الرئيس جمال عبد الناصر ، رئيس مصر ، الذي يسير في الخط نفسه بل يعدّ رائداً فيه . ويمكن أن تستفيد أمريكا من هذا التغيير ؛ إذ أن أيام الرئيس المصري قد أصبحت وشيكة الانتهاء ، ويجب استبداله فقد انتهى دوره ، وأخذت الأحداث تقضّ من مضجعه، وتسير به إلى حتفه المحتوم ، وربما بالتغيير الليبي يظهر بديل له ، ويحلّ محلّه ويمشي في الطريق نفسها . لقد فشلت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا ، وحرب اليمن أثارت بعض الكمائن في نفوس أبناء مصر ، والهزيمة أمام اليهود عام ١٣٨٧هـ ، واختلاف الرجال العسكريين المصريين فيما بينهم ، كل هذا جعل الرئيس المصري في حالة نزول دائم ولا بدّ من معايشة الوريث مدة قبل انتهاء الحياة .

وبدأ التخطيط ، وتوحيد الجهود ، وتنسيق العمل بين المعارضة وبين الذين يتلقون الدعم والتأييد من مصر ، وفي الفاتح من أيلول ١٩٦٩م (١٩ جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ) تحرّك الجيش بقيادة العقيد معمر القذافي وقضى على الوضع القائم الذي وجده هشّاً ؛ إذ أن نقمة الشعب كانت عارمة عليه ، وتشكّل المجلس الأعلى لقيادة الثورة[1] ، كما تشكّلت حكومة جديدة[2] من

---

(١) تشكّل مجلس قيادة الثورة من الضباط الآتية أسماؤهم :

١ ـ العقيد معمر القذافي
٢ ـ الرائد عبد السلام جلود .
٣ ـ الرائد بشير الصغير هوادي .
٤ ـ النقيب مختار عبد الله جروي .
٥ ـ النقيب عبد المنعم الهوني .
٦ ـ النقيب خوالدي الحميدي .
٧ ـ النقيب محمد نجم .
٨ ـ النقيب علي عوض حمزة .
٩ ـ النقيب أبو بكر يونس جبر .
١٠ ـ النقيب مصطفى الخروبي .
١١ ـ النقيب عمر عبد الله المهدي .
١٢ ـ الملازم الأول محمد أبو بكر الكريف .

(٢) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ العقيد معمر القذافي : رئيس مجلس الوزراء ، وزير الدفاع .
٢ ـ الرائد عبد السلام جلود : نائب رئيس مجلس الوزراء ، وزير الداخلية والحكم المحلي . =

عسكريين ومدنيين . ولا بدّ للوضع الجديد كي يكون مقبولاً لدى السكان من نقطتين : أولاهما اتخاذ موقف سياسي يكون له أثر واضح لدى السكان ، وهذا ما قام به الوضع ، إذ طلب من الولايات المتحدة الدخول في مفاوضات للجلاء عن قاعدة الملاحة ، فاستجابت لذلك الطلب بسرعة ، وبعد مفاوضاتٍ شكليةٍ قصيرة الزمن ؛ سلمت الولايات المتحدة القاعدة ، وتسلّمتها ليبيا ، وأطلق عليها إسم « قاعدة عقبة بن نافع » . كما اتفق الوضع مع إنكلترا لإلغاء المعاهدة المعقودة بين الطرفين ، وانسحبت إنكلترا من ليبيا ، وبذا لقي الوضع تأييداً كبيراً وحماسةً شديدةً من قبل غالبية السكان . أما النقطة الثانية فهي اتخاذ الطابع الإسلامي ، فالشعب في ليبيا مسلم متمسك بإسلامه ، وقد زادت السنوسية من غرس العقيدة في النفوس بغضّ النظر عن الأخطاء التي وقعت فيها ، كما أنه شعب مرتبط بأصالته العربية . لقد أصدرت الثورة قانوناً بمنع تعاطي الخمور في الأرض الليبية ، وعملت على تطبيق فريضة الزكاة ، وأصدرت مجموعة من القوانين لهذا الغرض ، و . . . ، وأعلن القائد توجّهه الإسلامي . وهاتان النقطتان هما اللتان سار عليهما الرئيس المصري جمال عبد الناصر عندما قام بحركته ، فموضوع الجلاء عن قناة السويس ، ثم

= ٣ ـ الرائد بشير الصغير هوادي : وزير التعليم والتوجيه الوطني .
٤ ـ النقيب عمر عبد الله المهدي : وزير الاقتصاد والصناعة .
٥ ـ النقيب محمد الكريف : وزير الإسكان .
٦ ـ صالح مسعود بويصير : وزير الوحدة والشؤون الخارجية .
٧ ـ عمر الهادي : وزير المواصلات والعمل .
٨ ـ محمد علي الجدي : وزير العدل .
٩ ـ مفتاح الاسطا عمر : وزير الصحة .
١٠ ـ جمعة شريها : وزير الزراعة والإصلاح الزراعي .
١١ ـ عز الدين مبروك : وزير شؤون النفط والمعادن .
١٢ ـ عبد العاطي العبيدي : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ محمد هلال الرابل : وزير الخزانة .

العدوان الثلاثي على مصر ، وتأييده للحركة الإسلامية في بداية الأمر ؛ هو الذي ثبّت له الوضع وسوّاه له .

ومات الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ٢٨ رجب ١٣٩٠هـ (٢٨ أيلول ١٩٧٠م) ، وأبدى قائد الثورة الليبية أنه الوريث له في الزعامة العربية ، وأخذ يتحرّك في مختلف المجالات ، وبما يرضي الأمة الإسلامية عامة والشعب العربي .

أخذ يهاجم الشيوعية ومبادئها وأفكارها ، وعندما انقضّ الشيوعيون على الحكم في السودان ، وقلبوا ظهر المجن للرئيس السوداني محمد جعفر النميري في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩١هـ (١٩ تموز ١٩٧١م) كان للرئيس الليبي دور في إفشال الحركة الشيوعية وإعادة الرئيس محمد جعفر النميري إلى الحكم .

وعملت الثورة الليبية على إقامة اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة الذي تألّف من مصر وسوريا وليبيا ، وكانت طرابلس مقرّ المباحثات التي دارت لإقامة هذا الاتحاد ، ووُقّع الميثاق في بنغازي في ٢١ صفر ١٣٩١هـ (١٧ نيسان ١٩٧١م) ، ووقّعت بعدها الاتفاق على الوحدة الاندماجية مع مصر .

ودعمت الثورة الإسلامية في تشاد ضدّ الأقلية النصرانية المتسلّطة التي أقامها الاستعمار الفرنسي الذي سلّم السلطة قبل انسحابه إلى هذه الأقلية وأعطى الحكم لفرانسوا تومبلباي ، وهذا ما جعل الخلاف بين ليبيا وفرنسا يستعر .

وأمدّت المسلمين في جنوب الفليبين بالمساعدات ، وكانت عاصمتها طرابلس مقرّ المفاوضات التي دارت بين الحكومة الفليبينية والمسلمين والتي اشتركت فيها أيضاً دول المملكة العربية السعودية والسنغال والصومال وليبيا ، وقد وُقّع اتفاق بمدينة طرابلس في ٢ محرم ١٣٩٧هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٧٦م) يقضي بإعطاء ولايات جنوب الفليبين الاستقلال الذاتي .

وساعدت الثورة الليبية المسلمين في أوغندا ، ودعمت الرئيس عيدي

أمين ، وأيّدت باكستان عندما اعتدت عليها الهند عام ١٣٩١هـ ، وأدّى ذلك إلى فصل إقليم البنغال ، وهو ما كان يُعرف باسم « باكستان الشرقية » عن دولة باكستان ، وتأسيس دولة خاصة حملت اسم بنغلاديش ، مع العلم أن بعض الدول العربية قد وقفت يومذاك إلى جانب الهند تاركةً رابطة العقيدة التي تربطها مع باكستان .

ودعمت الثورة الليبية القضية الفلسطينية دعماً قوياً ، كما ساعدت بعض الدول العربية ؛ فقدّمت لها معونات مادية .

وكل هذه التصرّفات حسنة ، وقد دعمت الحكم ، ورسّخت قواعده ، وعمّقت جذوره ، وأخذ بعدها ينطلق من خلال فكر رجالـه ، ومن خلال الدور الذي سيؤدّونه ، وربما ظن المراقب المتتبّع لتاريخ هذه المرحلة في ليبيا أن الرئيس الليبي ليس له تفكـير واضح ثـابت وإنما مبتـذل حسب الظروف ، والحقيقة غير ذلك ، فالرئيس رجل معتدّ بشخصه وفكره لدرجةٍ تصل إلى أن يستهتر بكل ما سواه ، ولا يرى إلّا رأيه صـالحاً حتى ولـو وصل الأمـر إلى العقيدة ، فما يراه لا يمكن أن يحيد عنه أبداً .

إن رفاقه الذين يؤيّدونه في كل شيء هو معهم ، فإذا أحسّ بخلافٍ من أحدهم في رأي أو فكر مهما كان صغير الشأن تخلّى عنه ، وانتهى أمره ، وهذا ما نلاحظه في تعاقب الوزارات[1] التي شكّلها إذ مجرد أن يختفي اسم رجل من

---

(١) كانت الوزارة الليبية في شهر ذي القعدة عام ١٣٩٠هـ (كانون الثاني ١٩٧١م) كما يأتي :
١ ـ العقيد معمر القذافي : قائد القوات المسلحة ، رئيس الوزراء ، وزير الدفاع .
٢ ـ الرائد عبد السلام جلود : نائب رئيس الوزراء ، وزير الصناعة والاقتصاد والمالية .
٣ ـ الرائد خوالدي حميدي : وزير الداخلية والحكم المحلي .
٤ ـ الرائد بشير هوادي : وزير التعليم والتوجيه الوطني .
٥ ـ الرائد مختار جروي : وزير الوحدة .
٦ ـ النقيب محمد الكريف : وزير الإسكان .
٧ ـ محمد الجدي : وزير العدل . =

٨ ـ مفتاح اسطا عمر : وزير الصحة .
٩ ـ عبد العاطي العبيدي : وزير الشؤون الخارجية ، والعمل والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ عز الدين مبروك : وزير شؤون النفط .
١١ ـ محمد علي تابو : وزير الزراعة .

وكانت الوزارة الليبية في شهر شوال ١٣٩١هـ (كانون الأول ١٩٧١م) على النحو الآتي :

١ ـ العقيد معمر القذافي : رئيس مجلس قيادة الثورة ، قائد القوات المسلحة ، وزير الدفاع .
٢ ـ الرائد عبد السلام جلود : وزير الصناعة ، والاقتصاد والخزانة .
٣ ـ الرائد عبد المنعم الهوني : وزير الداخلية ،
٤ ـ صالح مسعود بويصير : وزير الإعلام .
٥ ـ محمد الجدي : وزير العدل .
٦ ـ مفتاح اسطا عمر : وزير الصحة .
٧ ـ عبد العاطي العبيدي : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
٨ ـ عز الدين مبروك : وزير الزراعة والإصلاح الزراعي .
٩ ـ محمد علي تابو : وزير الإسكان .
١٠ ـ طه شريف بن عمرو : وزير المواصلات وشؤون الكهرباء .
١١ ـ الرائد خوالدي حميدي : وزير الحكم المحلي .
١٢ ـ محمد مصطفى مازك : وزير التعليم والتوجيه الوطني .

وكانت الوزارة الليبية في شهر ذي القعدة ١٣٩١هـ (كانون الثاني ١٩٧٢م) :

١ ـ عبد السلام جلود : رئيساً للوزارة .
٢ ـ خوالدي حميدي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ منصور راشد كيلي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٤ ـ أبو بكر شريف : وزيراً للاقتصاد .
٥ ـ عز الدين مبروك : وزيراً لشؤون النفط .
٦ ـ محمد زعروك رجب : وزيراً للمالية .
٧ ـ محمد الجدي : وزيراً للعدل .
٨ ـ عبد الكريم فضولة : وزيراً للتخطيط .
٩ ـ محمد علي تابو : وزيراً للزراعة والإصلاح .
١٠ ـ عبد العاطي عبيدي : وزيراً للعمل .
١١ ـ الشريف بن عمرو : وزيراً للمواصلات والطاقة .

=

١٢ ـ محمد أحمد منقوش : وزيراً للإسكان .
١٣ ـ مصطفى اسطا عمر : وزيراً للصحة .
١٤ ـ جاد الله عزوز الصالحي : وزيراً للصناعة والتعدين .
١٥ ـ صالح مسعود بويصير : وزيراً للثقافة والإعلام .
١٦ ـ محمد أحمد شريف : وزيراً للتعليم .
١٧ ـ عبد الحميد زناتي : وزيراً للشباب والشؤون الاجتماعية .
١٨ ـ محمد أبو بكر يونس : وزيراً للخدمة العامة .
١٩ ـ عبد المجيد جود : وزيراً للتنمية الزراعية .

وكانت الوزارة الليبية في شهر صفر ١٣٩٢هـ (نيسان ١٩٧٢م) على النحو الآتي :
١ ـ معمر القذافي : رئيس مجلس الوزراء ، وزير الدفاع .
٢ ـ عبد السلام جلود : وزير المالية والاقتصاد ، والصناعة والثروة الحيوانية ، ونائب وزير الإنتاج .
٣ ـ محمد مصطفى مازيق : وزير التعليم والتوجيه الوطني .
٤ ـ محمد أحمد منقوش : وزير الإسكان .
٥ ـ . . . . : وزير الوحدة والشؤون الخارجية .
٦ ـ طه شريف بن عمرو : وزير المواصلات والطاقة .
٧ ـ محمد علي الجدي : وزير العدل .
٨ ـ مفتاح اسطا عمر : وزير الصحة .
٩ ـ محمد علي تابو : وزير الزراعة والإصلاح الزراعي .
١٠ ـ عبد العاطي العبيدي : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ عبد المنعم طاهر الهوني : وزير الداخلية .
١٢ ـ صالح مسعود بويصير : وزير الإعلام .
١٣ ـ مصطفى يعقوبي : وزير الحكم المحلي .

وكانت الوزارة في صفر من عام ١٣٩٣هـ (آذار ١٩٧٣م) على النحو الآتي :
١ ـ معمر القذافي : رئيس الدولة وزير الدفاع .
٢ ـ عبد السلام جلود : رئيساً للوزارة .
٣ ـ محمد أحمد الشريف : للتعليم والتوجيه الوطني .
٤ ـ محمد أحمد منقوش : للإسكان والخدمة العامة .

=

٥ ـ منصور راشد الكيخيا : وزيراً للشؤون الخارجية .
٦ ـ طه شريف بن عمرو : وزيراً للمواصلات والكهرباء .
٧ ـ محمد علي الجدي : وزيراً للعدل .
٨ ـ مفتاح إسطا عمر : وزيراً للصحة .
٩ ـ عبد الحميد الزناتي : للشباب والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ محمد علي تابو : للزراعة والإصلاح الزراعي .
١١ ـ عز الدين مبروك : وزيراً لشؤون النفط .
١٢ ـ عبد العاطي العبيدي : وزيراً للعمل .
١٣ ـ خوالدي حميدي : وزيراً للداخلية .
١٤ ـ أبو بكر الشريف : وزيراً للاقتصاد .
١٥ ـ أبو زيد عمر دوردا : وزيراً للثقافة والإعلام .
١٦ ـ محمد زروق رجب : وزيراً للخزانة .
١٧ ـ جاد الله عزوز الصالحي : للصناعة والتعدين .
١٨ ـ عبد الكريم فضولة : وزيراً للتخطيط .
١٩ ـ عبد المجيد جود : وزير دولة للتنمية الزراعية .
٢٠ ـ محمد أبو بكر بن يونس : وزيراً للخدمة العامة .

وكانت الوزارة الليبية في ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (أيار ١٩٧٤م) على النحو الآتي :

١ ـ عبد السلام جلود : رئيساً للوزارة .
٢ ـ . . . . : وزيراً للدفاع ،
٣ ـ محمد أحمد الشريف : وزيراً للتعليم والتوجيه الوطني .
٤ ـ محمد أحمد منقوش : وزيراً للإسكان والخدمة العامة .
٥ ـ طه شريف بن عمرو : وزيراً للمواصلات والكهرباء .
٦ ـ محمد علي الجدي : وزيراً للعدل .
٧ ـ مفتاح إسطا عمر : وزيراً للصحة .
٨ ـ محمد علي تابو : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٩ ـ عبد العاطي عبيدي : وزيراً للعمل .
١٠ ـ خوالدي حميدي : وزيراً للداخلية .
١١ ـ أبو زيد عمر دوردا : وزيراً للثقافة والإعلام .
١٢ ـ أبو بكر الشريف : وزيراً للاقتصاد .

. . . .

=

١٣ ـ محمد زروق رجب : وزيراً للخزانة .

١٤ ـ جاد الله عزوز الصالحي : وزيراً للصناعة والمعادن .

١٥ ـ عبد الحميد الزناتي : وزيراً للشباب والشؤون الاجتماعية .

١٦ ـ عبد الكريم بالو : وزيراً للتخطيط .

١٧ ـ محمد أبو بكر يونس : وزيراً للخدمة المدنية .

١٨ ـ عبد المجيد جود : وزيراً للتنمية الزراعية .

وكانت الوزارة الليبية في شهر صفر ١٣٩٦هـ (شباط ١٩٧٦م) على النحو الآتي :

١ ـ عبد السلام جلود : رئيساً للوزارة .

٢ ـ عبد المنعم طاهر الهوني : للشؤون الخارجية .

٣ ـ خوالدي حميدي : وزيراً للداخلية .

٤ ـ عمر عبد الله المهدي : وزيراً للتخطيط .

٥ ـ محمد علي الجدي : وزيراً للعدل .

٦ ـ مفتاح إسطا عمر : وزيراً للصحة .

٧ ـ جاد الله عزوز الصالحي : للصناعة والمعادن .

٨ ـ محمد زروق رجب : وزيراً للخزانة .

٩ ـ محمد أحمد الشريف : وزيراً للتعليم .

١٠ ـ عبد المجيد جود : وزير دولة للتنمية الزراعية .

١١ ـ طه شريف بن عمرو : لشؤون المجلس العسكري .

١٢ ـ عبد العاطي العبيدي : وزيراً للعمل والخدمة العامة .

١٣ ـ عز الدين مبروك : وزيراً لشؤون النفط .

١٤ ـ محمد علي تابو : للزراعة والإصلاح الزراعي .

١٥ ـ محمد أحمد المنقوش : وزيراً للإسكان .

١٦ ـ نوري الفيتوري عمر : وزيراً للمواصلات .

١٧ ـ أبو بكر الشريف : وزيراً للاقتصاد

١٨ ـ عبد السلام الفيتوري : للشؤون الإجتماعية .

١٩ ـ محمد أبو القاسم زاوي : وزير دولة .

٢٠ ـ عمر أحمد الماغسي : للغذاء والمصادر البحرية .

٢١ ـ مفتاح محمد كبة : للشؤون البلدية والقروية .

٢٢ ـ منصور محمد بدر : وزيراً للنقل البحري .

٢٣ ـ جمعة سالم العربش : وزيراً للطاقة الكهربائية .

=

. . . .

= وكانت الوزارة الليبية في شهر محرم ١٣٩٧هـ (كانون الثاني ١٩٧٧م) على النحو الآتي :

١ ـ عبد السلام جلود : رئيساً للوزارة .

٢ ـ عبد المنعم طاهر الهوني : للشؤون الخارجية .

٣ ـ خوالدي حميدي : وزيراً للداخلية .

٤ ـ موسى أحمد أبو فروة : وزيراً للتخطيط .

٥ ـ محمد علي الجدي : وزيراً للعدل .

٦ ـ مفتاح إسطا عمر : وزيراً للصحة .

٧ ـ عبد العاطي العبيدي : للعمل والخدمة العامة .

٨ ـ عز الدين مبروك : وزيراً لشؤون النفط .

٩ ـ محمد علي تابو : للزراعة والإصلاح الزراعي .

١٠ ـ عمر محمود حمودة : للسدود والمصادر المائية .

١١ ـ نوري الفيتوري عمر : وزيراً للمواصلات .

١٢ ـ أبو بكر علي الشريف : وزيراً للاقتصاد .

١٣ ـ جاد الله عزوز الصالحي : للصناعة والمعادن الكهربائية .

١٤ ـ محمد زروق رجب : وزيراً للخزانة .

١٥ ـ محمد أحمد المنقوش : وزيراً للإسكان .

١٦ ـ محمد أحمد الشريف : وزيراً للتعليم .

١٧ ـ علي الطريقي : وزير الدولة للشؤون الخارجية .

١٨ ـ عبد المجيد جود : وزير دولة للتنمية الزراعية .

١٩ ـ طه شريف بن عمرو : وزير دولة لشؤون المجلس العسكري .

٢٠ ـ ميلود عبد السلام شاملة : وزير دولة لشؤون الحكومة .

٢١ ـ عبد السلام الفيتوري : للشؤون الاجتماعية .

٢٢ ـ محمد أبو القاسم زاوي : وزير دولة .

٢٣ ـ عمر أحمد الماغسي : للغذاء والمصادر البحرية .

٢٤ ـ أبو زيد عمر دوردا : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .

٢٥ ـ منصور محمد بدر : وزيراً للنقل البحري .

٢٦ ـ جمعة سالم العربش : وزيراً للطاقة الكهربائية .

٢٧ ـ مفتاح محمد كبة : وزير للشباب .

وكان تنظيم الدولة في شهر صفر ١٣٩٨هـ (كانون الثاني ١٩٧٨م) على النحو الآتي :

= رئيس الدولة : العقيد معمر القذافي .

= الأمانة العامة لمجلس الشعب :

الأمين العام : العقيد معمر القذافي .

الأعضاء : الرائد عبد السلام جلود .

المقدم أبو بكر يونس جبر .

المقدم مصطفى الخروبي .

الرائد خوالدي حميدي .

١ ـ عبد العاطي عبيدي : رئيس قيادة القاعدة الشعبية .

٢ ـ محمد أبو القاسم زاوي : أمين سر الثقافة والإعلام .

٣ ـ محمد علي الجدي : أمين سر العدل .

٤ ـ عمر أحمد الماغسي : أمين سر الغذاء والمصادر البحرية .

٥ ـ مفتاح إسطا عمر : أمين سر الصحة .

٦ ـ منصور محمد بدر : أمين سر النقل البحري .

٧ ـ عز الدين مبروك : أمين سر شؤون النفط .

٨ ـ جمعة سالم العربش : أمين سر الطاقة الكهربائية .

٩ ـ محمد علي تابو : أمين سر الزراعة والإصلاح الزراعي .

١٠ ـ نوري الفيتوري عمر : أمين سر النقل .

١١ ـ محمد أحمد منقوش : أمين سر الإسكان .

١٢ ـ أبو زيد عمر دوردا : أمين سر الشؤون البلدية والقروية .

١٣ ـ طه الشريف بن عمرو : أمين سر مكتب الارتباط .

١٤ ـ مفتاح محمد كبة : أمين سر الشباب .

١٥ ـ أبو بكر علي الشريف : أمين سر الطرق .

١٦ ـ علي عبد السلام الطريقي : أمين سر الشؤون الخارجية .

١٧ ـ جاد الله عزوز الصالحي : أمين سر الصناعة .

١٨ ـ ميلود عبد السلام شاملة : أمين سر القيادة الشعبية والأمانة العامة .

١٩ ـ محمد رزوق رجب : أمين سر الخزانة .

٢٠ ـ موسى أحمد أبو فروة : أمين سر التخطيط .

٢١ ـ محمد أحمد الشريف : أمين سر التعليم .

٢٢ ـ عمر سليمان حمودة : أمين سر المصادر المائية .

٢٣ ـ عبد المجيد الجود : أمين سر الإصلاح الزراعي . =

. . . .

= ٢٤ ـ العقيد يونس أبو القاسم : أمين سر الداخلية .
٢٥ ـ محمد الفيتوري : أمين سر الشؤون الاجتماعية .
٢٦ ـ محمد الطاهر المحجوب : أمين سر العمل والخدمة العامة .
وكان مجلس قيادة الشعب في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) على النحو الآتي :
رئيس الدولة : معمر القذافي
الأمانة العامة لمجلس الشعب :
الأمين العام : عبد العاطي العبيدي
نائب الأمين العام : محمد أبو القاسم زاوي .
أمين سر المجلس : علي أبو الخير .
أمين سر شؤون قيادة مجلس الشعب : عبد الله زهمول
أمين سر الارتباط : مختار كوربو .
مجلس الشعب :
١ ـ جاد الله عزوز الصالحي : أمين سر مجلس القيادة
٢ ـ عبد المجيد جود : أمين سر مكتب الارتباط
٣ ـ محمد علي الجدي : أمين سر العدل .
٤ ـ مفتاح إسطا عمر : أمين سر الصحة .
٥ ـ عز الدين مبروك : أمين سر شؤون النفط .
٦ ـ محمد أحمد المنقوش : أمين سر الإسكان .
٧ ـ أبو بكر الشريف : أمين سر الاقتصاد .
٨ ـ محمد رزوق رجب : أمين سر الخزانة .
٩ ـ محمد أحمد الشريف : أمين سر التعليم .
١٠ ـ عمر أحمد الماغسي: أمين سر الصناعة الخفيفة .
١١ ـ جمعة سالم العربش : أمين سر الكهرباء .
١٢ ـ أبو زيد عمر دوردا : أمين سر المواصلات والنقل .
١٣ ـ مفتاح محمد كبه : أمين سر الرياضة الجماهيرية .
١٤ ـ علي عبد السلام الطريقي : أمين سر الشؤون الخارجية .
١٥ ـ موسى أبو فروة : أمين سر التخطيط
١٦ ـ عمر مصطفى المنتصر : أمين سر الصناعة الثقيلة .
١٧ ـ بشير جده : أمين سر الإصلاح الزراعي وإحياء الموات .
١٨ ـ محمد سويدي : أمين سر الإعلام . =

= ١٩ ـ محمد عبد الله مبروك : أمين سر الخدمات العامة .

٢٠ ـ إبراهيم حسن : أمين سر الشؤون الاجتماعية .

وكانت الحكومة الليبية في ربيع الثاني عام ١٤٠٠هـ (آذار ١٩٨٠م) على النحو الآتي :

١ ـ أمين سر قيادة الشعب : جاد الله عزوز الصالحي .

٢ ـ أمين سر العدل : محمد علي الجدي

٣ ـ أمين سر شؤون النفط : عبد السلام زكار .

٤ ـ أمين سر الإسكان : محمد أحمد المنقوش .

٥ ـ أمين سر الاقتصاد : أبو زيد عمر دوردا .

٦ ـ أمين سر المالية : محمد زروق رجب .

٧ ـ أمين سر التعليم : عبد الحفيظ زلطاني .

٨ ـ الصناعة الخفيفة : عمر أحمد الماغسي .

٩ ـ الشؤون الإسلامية : محمد أحمد الشريف .

١٠ ـ المواصلات والنقل : سالم البخاري هودا .

١١ ـ أمين سر الرياضة : مفتاح كبة .

١٢ ـ أمين سر الكهرباء : جمعة سالم العربش .

١٣ ـ أمين سر البلدية والقروية : محمد الدويك .

١٤ ـ الشؤون الخارجية : علي عبد السلام الطريقي .

١٥ ـ أمين سر التخطيط : موسى أبو فروة .

١٦ ـ الإصلاح الزراعي وإحياء الموات : بشير جده .

١٧ ـ الصناعة الثقيلة : عمر مصطفى المنتصر .

١٨ ـ أمين سر الإعلام : محمد محمود حجازي .

١٩ ـ أمين سر الخدمات العامة : محمد عبد الله المبروك .

٢٠ ـ أمين سر الشؤون الاجتماعية : إبراهيم حسن

كانت الحكومة الليبية في ربيع الأول ١٤٠١هـ (كانون الثاني ١٩٨١م) على النحو الآتي :

رئيس الدولة : معمر القذافي .

الأمانة العامة للمؤتمر الشعبي :

الأمين العام : عبد العاطي العبيدي .

نائب الأمين العام : علي أبو الخير .

أمين سر شؤون اللجنة الشعبية : عبد الله زهمول .

أمين سر شؤون الوحدة : مختار كوربو .

اللجنة الشعبية :

١ ـ أمين سر اللجنة الشعبية : جاد الله عزوز الصالح .

٢ ـ أمين اللجنة للشؤون البلدية والقروية : محمد محمود حجازي .

٣ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للعدل : أبو القاسم الزاوي .

٤ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للرياضة : مفتاح محمد كبة .

٥ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للصحة : مراد لانقي .

٦ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للخارجية : علي عبد السلام الطريقي .

٧ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للنفط : عبد السلام زكار .

٨ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للتخطيط : موسى أبو فروة .

٩ ـ أمين سر اللجنة للإسكان : محمد أحمد المنقوش .

١٠ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للإصلاح الزراعي : بشير جده .

١١ ـ أمين سر اللجنة للاقتصاد : أبو زيد عمر درودا .

١٢ ـ أمين سر اللجنة للصناعة الثقيلة : عمر مصطفى المنتصر .

١٣ ـ أمين سر اللجنة للخزانة : محمد قاسم شلالة .

١٤ ـ أمين سر اللجنة للخدمات العامة : محمد عبد الله المبروك .

١٥ ـ أمين سر اللجنة للتعليم : عبد الحفيظ زليطي .

١٦ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للشؤون الاجتماعية : إبراهيم حسن .

١٧ ـ للصناعة الخفيفة : عمر أحمد الماغسي .

١٨ ـ أمين سر اللجنة لشؤون الاتصالات : عبد العاطي العبيدي .

١٩ ـ أمين سر اللجنة للكهرباء : جمعة سالم العربش .

٢٠ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للطاقة الآلية : عبد المجيد الجود .

٢١ ـ للمواصلات والنقل البحري : سالم البخاري هودا .

٢٢ ـ أمين سر اللجنة الشعبية للداخلية : مفتاح إسطا عمر .

وكانت الحكومة في صفر عام ١٤٠٣هـ (كانون الأول ١٩٨٢م) على النحو الآتي :

رئيس الدولة : معمر القذافي .

الأمانة العامة للمؤتمر الشعبي :

١ ـ الأمين العام : محمد زروق رجب .

٢ ـ نائب الأمين العام : علي أبو الخير .

٣ ـ أمين سر شؤون اللجنة الشعبية : عبد الله زهمول .

٤ ـ أمين سر شؤون المؤتمر الشعبي : محمد علي بواش .
٥ ـ أمين سر الوحدة : مختار كوربو .

اللجنة الشعبية :

١ ـ الأمين العام : جاد الله عزوز الصالحي .
٢ ـ أمين سر اللجنة للتغذية : محمد عبيد شكري .
٣ ـ أمين سر اللجنة للعدل : محمد أبو القاسم زاوي .
٤ ـ أمين سر اللجنة للتخطيط : فوزي شكشوكي .
٥ ـ أمين سر اللجنة للصحة : مراد علي لانقي .
٦ ـ أمين سر اللجنة للإصلاح الزراعي : أبو زيد عمر دوردا .
٧ ـ أمين سر اللجنة للنفط : كمال حسن مبهور .
٨ ـ أمين سر اللجنة للصناعة الثقيلة : عمر مصطفى المنتصر .
٩ ـ أمين سر اللجنة للإسكان : محمد أحمد المنقوش .
١٠ ـ أمين سر اللجنة للخدمات العامة : محمد عبد الله المبروك .
١١ ـ للاقتصاد والصناعة الخفيفة : موسى أبو فروة .
١٢ ـ أمين سر اللجنة للشؤون الاجتماعية : إبراهيم الفقيه .
١٣ ـ أمين سر اللجنة للخزانة : محمد قاسم شلالة .
١٤ ـ أمين سر اللجنة للاتصالات : عبد العاطي العبيدي .
١٥ ـ أمين سر اللجنة للتعليم : عبد الحفيظ زليطي .
١٦ ـ أمين سر اللجنة للقوى الآلية : عبد المجيد الجود .
١٧ ـ أمين سر اللجنة للكهرباء : جمعة سالم العربش .
١٨ ـ أمين سر اللجنة للرياضة : إبراهيم الخويضر .
١٩ ـ أمين سر اللجنة للمواصلات والنقل البحري : سالم البخاري هودا .

وكانت الحكومة الليبية في جمادى الأولى ١٤٠٤هـ (شباط ١٩٨٤م) على النحو الآتي :

رئيس الدولة : معمر القذافي .

الأمانة العامة للمؤتمر الشعبي :

١ ـ الأمين العام : مفتاح الإسطا عمر .
٢ ـ نائب الأمين العام : علي عثمان أبو الخير .
٣ ـ أمين سر المؤتمر العام : عمر إشكال .
٤ ـ أمين سر اللجنة الشعبية : محمد محمود حجازي .

وزارة فقد انتهى من العمل الوزاري نهائياً ، إلاّ أن يعـود راكعاً تـائباً وقلّما يحدث هذا .

وإن لباسه الخاص لا يتقيّد به حسب مراسم معيّنـة أو يتخذ الصفـة الرسمية ، فيغيّر من الأزياء ما يحلو له دون مراعاة مظهر أو مناسبة أو . . .

أصدر كتيباً أسماه « الكتاب الأخضر » وقد وصفه بأنه المنهج السياسي والاجتماعي الذي سيسير عليه ، وقد أطنب في مدحه والثناء عليه ، وأنه لم

= ٥ ـ أمين سر الوحدة : فيتوري دالي .

اللجنة الشعبية :

١ ـ الأمين العام : محمد زروق رجب .
٢ ـ أمين سر اللجنة للتخطيط : فوزي شكشوكي .
٣ ـ أمين سر اللجنة للعدل : مفتاح محمد كبه .
٤ ـ أمين سر اللجنة للصناعة الثقيلة : عمر مصطفى المنتصر .
٥ ـ أمين سر اللجنة للصحة : محمد لانقي .
٦ ـ أمين سر اللجنة للإصلاح الزراعي : أبو زيد عمر دوردا.
٧ ـ أمين سر اللجنة للنفط : كامل حسن مبهور.
٨ ـ أمين سر اللجنة للخدمة العامة : محمد عبد الله المبروك .
٩ ـ أمين سر الاقتصاد والصناعة الخفيفة : موسى أبو فروة .
١٠ ـ أمين سر اللجنة للرياضة : محمد أبو بكر عقيلة .
١١ ـ أمين سر اللجنة للخزانة : محمد قاسم شلالة .
١٢ ـ أمين سر اللجنة للشؤون الاجتماعية : إبراهيم الفقيه حسن .
١٣ ـ أمين سر اللجنة للتعليم : عبد الحفيظ زليطي .
١٤ ـ أمين سر اللجنة للشؤون الخارجية : علي عبد السلام الطريقي .
١٥ ـ أمين سر اللجنة للكهرباء : جمعة سالم العربش .
١٦ ـ أمين سر اللجنة للقوى الآلية : عبد المجيد الجود .
١٧ ـ للمواصلات والنقل البحري : مبارك شامخ .
١٨ ـ أمين سر اللجنة للارتباط : يونس بلقاسم علي .
١٩ ـ أمين سر اللجنة للإسكان : محمد عبيد شكري .
٢٠ ـ أمين سر اللجنة للجامعات : يوسف حامد شاهين .

يسبق إليه ، ولم تأت به الأوائل ولا تستطيعه الأواخر ، ويكاد يصل إلى مستوى الكتب المقدسة .

وتَحْدُثُ أحداثٌ في منطقةٍ ما فيرى طرفاً مظلوماً ؛ فيدعمه بإمكاناته كافة ، تدخّل في أحداث مالطة ، وكان له دور فيها ، ودعم الجيش الثوري في إيرلنده الشمالية ، وأسرف في الدعم ، وربما كان هذا نتيجة الخلاف الأصلي مع إنكلترا على الطريقة نفسها التي كانت بين الرئيس المصري جمال عبد الناصر وإنكلترا .

وأخذ يغازل الاستعمار الروسي ، ويعلن التوجه نحو الشرق كنوع من السياسة الغربية التي تهدف إلى محاربة الاشتراكية باسم الاشتراكية ، وإبعاد التهمة عن التعاون الذي يقوم بينه وبين رجالات بعض البلدان أو المنظّمات ، وهي السياسة التي طُلبت من الرئيس جمال عبد الناصر أن يسلكها ، وقد نجحت إلى حدٍّ كبير ؛ نتيجة عدم المعرفة السياسية الموجودة في بلداننا النائمة (النامية). ومن خلال هذه السياسة كان هناك صراع ظاهري عنيف بين ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية ؛ وصل إلى الهجوم على ليبيا عسكرياً ، ومقاطعتها ، ووصل من الطرف الثاني إلى الخطب الحماسية ، والطعن الدائم بالسياسة الأمريكية ، وإلقاء اللوم عليها في كل قضية ، واتهامها بأنها وراء كل حادث يقع ، وأظهر الرئيس الليبي جانباً من اعتزازه بلغته ، ومعاملة الدول الأجنبية معاملة الندّ للندّ ، فرفض دخول أي أجنبي إلى ليبيا ما لم يكن يحمل جواز سفره التعريف بصاحبه باللغة العربية ، كما أن تلك الدول ترفض دخول أي عربي إلى أراضيها ما لم يكن جواز سفره يحمل كافة المعلومات عن الشخص باللغة الأجنبية .

ومن ناحية العقيدة فإن الرئيس الليبي شديد الحماسة لها ، غير أن له قناعات غريبة لا يقبل المناقشة فيها لأنها ثابتة عنده ولو خالف بها المسلمين جميعاً ، وهو الحادث فعلاً ، فهو يعلن قبوله للقرآن الكريم بكل ما جاء فيه ، أما موقفه من السنّة فهو يتردد في قبولها ، ويعتقد أنه ما دامت هناك أحاديث

ضعيفة وأخرى موضوعة فإنه لا يُقبل شيء منها ، ومهما قيل له : إنّ السنّة شارحة لكتاب الله ، وإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وغيرها من الآيات الدالة على أن السنة واجبة الاتباع كالقرآن ؛ إلّا أنه من باب الاعتزاز بالرأي ليس على استعداد أن يغيّر من رأيه أو أن يستمع من أحد ، وإنما يبقى ويصرّ على رأيه الغريب .

وحتى القرآن الكريم يرى فيه رأياً غريباً ، وهو أن كلمة (قل) الواردة فيه ؛ إنما هي خطاب للرسول ﷺ ، ولا داعي لنا نحن أن نقولها أو نثبتها في المصحف الشريف ، وهذا القول فيه خطر عظيم كما لا يخفى .

وفي التأريخ ؛ وجد الرئيس الليبي أن يكون لدولته تأريخاً خاصاً يغاير ما تعارف عليه المسلمون من أن يبدأ تأريخهم من هجرة رسول الله ﷺ ، وأوّل من بدأ بهذا الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، ورأى الرئيس الليبي أن يبدأ التأريخ من وفاة رسول الله ﷺ ، وقد أخذ يؤرّخ بهذا التأريخ وحده من بين المسلمين .

وقد خالف الكثير من الليبيين رئيسهم ، واضطروا إلى مغادرة البلاد ، وقد حاول ملاحقتهم في أي مكان نزلوا فيه ، ولم يكن لديه أي مانع من اتخاذ أي أسلوب في سبيل القبض عليهم أو إعادتهم ، وهذا ما سبّب لليبيا خلافات مع كثير من الدول التي لجأ إليها هؤلاء المعارضون واتهمت هذه الدول الليبيين بالعنف والإرهاب ، وأصبح دخولهم إلى أراضيها صعباً ، وقد عانى الليبيون من هذا الكثير .

وفي شهر ربيع الأول ١٣٩٧هـ (آذار ١٩٧٧م) جرت انتخابات مجلس الشعب ، وانتخب المجلس العقيد معمر القذافي رئيساً للدولة . ولم يرق له تسمية وزير الاسم الشائع والمتعارف عليه دولياً ورأى أنه قد أصبح مبتذلاً ، فأمر أن يُطلق على الوزارة اسم « اللجنة الشعبية » ، وعلى كل وزير اسم « أمين سر اللجنة الشعبية » .

العلاقة مع تشاد : الصلة وثيقة بين الشعبين ، فكلاهما مسلم ، وخضعا معاً للاستعمار الصليبي ، وانتشرت الطريقة السنوسية في ليبيا ، ومنها امتدّت إلى تشاد فانتشرت في الأجزاء الشمالية منها ، والحدود طويلة بين الدولتين ، وتوجد قبائل واحدة تعيش وتنتقل بين البلدين ، وينشط التجار الليبيون في تشاد ، كما أن أعداداً من رجال قبيلة « التيبو » التشادية يعملون في الجيش الليبي .

ويوجد خلاف على الحدود بين الدولتين . وكانت فرنسا وإيطاليا الدولتان المستعمرتان قد رسمتا الحدود بين مستعمرتيهما عام ١٣٣٧هـ أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم عُدّلت هذه الاتفاقية في عام ١٣٥٣هـ ، ودخلت بموجب هذا التعديل الأقسام الشمالية من جبال تيبستي ضمن الحدود الليبية ، غير أن هذا التعديل لم ينفّذ .

ولما دخلت فرنسا ولاية فزان أثناء الحرب العالمية الثانية وسّعت فرنسا حدود تشاد الشمالية على حساب ليبيا ، وبعد الحرب صُرف النظر نهائياً عن اتفاقية عام ١٣٥٣هـ ، فإيطاليا قد هُزمت وانسحبت من ليبيا ، وكانت فرنسا من الدول المنتصرة ، ودخلت ولاية فزان ، وبهذا بقيت أقسام من ليبيا ضمن تشاد . وتعدّ ليبيا ممر (كوريزو) نقطة حدود بين الدولتين ، بينما يقع الآن ضمن الأراضي التشادية ، ويبعد عن الحدود التي رسمتها فرنسا أكثر من مائة وستين كيلومتراً .

أخذت ليبيا تتدخّل في الصراع الذي يدور في تشاد بين المنظمات الإسلامية بعضها مع بعض ، وبينها وبين الحكومة التشادية التي تمثّل الأقلية النصرانية ، ويرأس الدولة منذ انقلاب عام ١٣٩٥هـ وإزاحة « فرانسوا تومبالباي » عن الحكم ؛ يرأسها فيلكس مالوم . دعمت ليبيا جبهة فرولينا التي يتزعّمها « غوكوني عويدي » ، وأخذت تسعى للتقارب بين هذه الجبهة وبين الحكومة التشادية ، وعُقد مؤتمر (سبها) الذي أسفر عن وقف إطلاق

النار الشامل في ربيع الثاني ١٣٩٨هـ .

ووقع الخلاف بين رئيس الدولة « فيلكس مالوم » ، الذي التجأ إلى (لاغوس) عاصمة نيجيريا . وسار في الوقت نفسه نحو العاصمة « غوكوني عويدي » بقوات جبهة (فرولينا) ووصل إليها بعد ساعات من دخول حسين هبري إليها ، وتشكّلت حكومة تسلّم فيها حسين هبري وزارة الدفاع ، بينما تسلّم « غوكوني عويدي » وزارة الداخلية ، ثم عاد الخلاف فوقع بين وزيري الداخلية والدفاع ، كما اختلف « غوكوني عويدي » مع ليبيا ، ثم عاد الوئام بينهما بعد زيارة علي عبد السلام الطريقي وزير خارجية ليبيا إلى العاصمة التشادية (نجامينا) ، وربما كان الخلاف بين الوزيرين بسبب العلاقة مع ليبيا التي كانت قواتها تسيطر على إقليم (أوزو) كدعم لدولة تشاد وتأييد للمسلمين فيها . فما كان من غوكوني عويدي إلّا أن طرد حسين هبري من الوزارة ، ووقّع معاهدة صداقة مع ليبيا ودفاع مشترك في شهر رجب عام ١٤٠٠هـ (حزيران ١٩٨٠م) ، وانسحب حسين هبري بقواته شرقاً نحو الحدود السودانية ، وأيّدته كل من مصر والسودان بسبب خلافهما آنذاك مع ليبيا ، وأصبح جسر جوي بين القاهرة والجنينة في غرب السودان .

استقرّ الوضع لغوكوني عويدي فطلب من ليبيا أن تسحب قواتها من الأراضي التشادية ؛ فاستجابت للطلب ، وانسحبت من تشاد ، وما أن انسحبت ليبيا حتى تمكّن حسين هبري من العودة بقواته إلى العاصمة التشادية ودخولها ، وانسحب « غوكوني عويدي » من تشاد وتمركز في (سبها) في جنوبي ليبيا، ولم تعترف الحكومة الليبية بحكومة حسين هبري.

استطاع غوكوني عويدي من دخول مدينة (لارغو) (فايا ـ سابقاً ـ) في شمال تشاد في أوائل شهر رمضان من عام ١٤٠٣هـ (١٢ حزيران ١٩٨٣م) .

استمرّ الصراع بين الجانبين ، واشتركت فيه عدة أطراف ، كان من بينها ليبيا التي تدعم غوكوني عويدي ، ومصر وفرنسا اللتان تدعمان حسين هبري

الذي بقيت له السيطرة .

الوحدة : يندفع الرئيس الليبي إلى الوحدة مع أية دولة عربية ، ويُقبل عليها بحماسة من غير دراسة ولا تخطيط ، وربما كانت العاطفة وحدها هي الدافع ، ثم لا تلبث هذه الوحدة أن تنهار دون أن تقوم ، وربما لم يستمر بعضها سوى أربع وعشرين ساعة ، وهي الوحدة التي قامت بين تونس وليبيا ، وبمجرد أن يرى أنه لا يستطيع أن يحقق ما كان يرجو من وراء هذه الوحدة يفصم عراها ، وكما يندفع نحو الوحدة يندفع نحو من لا يعجبه منه تصرّف أو يرى في نظامه ما لا يتفق مع مزاجه فهو مع الثورة والحركة مهما كانت .

وقد اتفقت ليبيا مع عدد من الدول العربية على إقامة وحداتٍ سياسية معها ، منها سوريا ومصر وتونس والسودان و . . . وبلاد المغرب ، ولم يكتب لواحدة منها النجاح .

يبدو أن هناك خلافاً ظاهرياً بين ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية يستعر أحياناً لدرجةٍ لا يبقى إلا المواجهة ثم يفتر حتى يظهر أنه لا أثر لذاك الخلاف، وما ندري هل في هذه السياسة رفع للرئيس الليبي ليظهر بمظهر القوي المخلص أمام شعبه أم أن هناك خلافاً مستتراً؟ ويبدو أن الحالة الأولى هي الصحيحة، ويحصل على الدعم والتأييد الخفي.

منذ عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) أكّدت ليبيا أن خليج سرت كله ضمن المياه الإقليمية وليس المسافة المعروفة دولياً التي هي ١٢ ميلاً بحرياً.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٦هـ (كانون أول ١٩٨٥م) رسم الرئيس الليبي خطاً سمّاه «خط الموت» يسار خط العرض الشمالي ٣٢,٣٠° ولا يسمح للسفن الأمريكية والأجنبية تجاوزه نحو الجنوب.

وفي منتصف جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (أواخر كانون الثاني ١٩٨٦م)

نشرت القوات الأمريكية أسطولها على طول الساحل الليبي، ولكن لم تتجاوز خط الموت.

وفي رجب ١٤٠٦هـ (آذار ١٩٨٦م) أطلقت القوات الليبية صواريخ باتجاه طائرات أمريكية كانت تحلّق فوق خليج سرت.

هاجمت طائرات أمريكية تجهيزات الرادار، ومواقع الصواريخ الليبية، كما هاجمت أربعة زوارق بحرية.

وفي شعبان ١٤٠٦هـ (نيسان ١٩٨٦م) هاجمت الطائرات الأمريكية مواقع عسكرية ليبية، ومطارات، ومبانٍ حكومية، وضمنها سكن الرئيس الليبي.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٩هـ (كانون الأول ١٩٨٨م) وافق الرئيس الأمريكي «ريغان» على القيام بعملٍ عسكري، ضد مصنع للأسلحة الكيميائية قرب مدينة بنغازي.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ (كانون الثاني ١٩٨٩م) حصل اشتباك بين طائرات ليبية وأمريكية فوق البحر المتوسط، وتم إسقاط طائرتين ليبيتين.

وفي شعبان ١٤١٠هـ ادعت الولايات المتحدة وألمانيا أن ليبيا بدأت بإنتاج غاز الخردل من مصنع «ربطا» قرب بنغازي، وبعد أيام اندلعت النيران في هذا المصنع فاتهمت ليبيا كلاً من الولايات المتحدة، وألمانيا، وإسرائيل بالقيام بهذا العمل التخريبي وقد اتهمت ليبيا هذه الدول التورّط بهذا العمل.

أظهر الرئيس الليبي إنهاء خلافاته مع الفصائل الفلسطينية.

وفي شهر المحرم ١٤٠٨هـ (أيلول ١٩٨٧م) أعادت ليبيا توطيد علاقاتها مع العراق. وأبدت تعديل سياستها في دعم إيران، وأظهرت حرصاً لوقف إطلاق النار بين العراق وإيران.

رفض الرئيس معمر القذافي حضور مؤتمر القمة العربي الذي عقد في عمان وبعث مندوباً عنه هو عبد السلام جلود، وحاول إظهار عدم دعم ليبيا لإيران.

وفي شهر صفر ١٤١١هـ (أيلول ١٩٩٠م) ادعت فرنسا أن سوريا وليبيا والجبهة الشعبية الفلسطينية مسؤولون عن التخطيط لتفجير طائرة ركاب فرنسية فوق النيجر قبل عام.

حضر العقيد معمر القذافي الرئيس الليبي مؤتمر القمة العربي الطارئ في القاهرة في ١٩ محرم ١٤١١هـ (١٠ آب ١٩٩٠م) لمناقشة الغزو العراقي للكويت، لكن ليبيا لم تصوت إلى جانب القرار القاضي بإرسال قوات عسكرية مع الولايات المتحدة للوقوف في وجه التقدم العراقي في السعودية فيما إذا حدث. وبعد شهر ادعت وكالات الأنباء العالمية أن طائرات ليبية تنقل الغذاء إلى العراق متحدية قرار الحظر المفروض على العراق.

وفي جمادى الأولى ١٤١٢هـ (تشرين الثاني ١٩٩١م) تدهورت العلاقات ظاهرياً بين ليبيا وكلٍّ من الولايات المتحدة وبريطانيا عندما أعلنت أمريكا وبريطانيا أنهما بصدد البحث عن شخصين ليبيين متهمين بالمسؤولية عن تفجير طائرة «بان ـ أمريكان» فوق لوكربي ـ إسكوتلندا. وأنكرت ليبيا تورّطها في هذه الحادثة، ولكن بقي هذا الموضوع إلى الآن يثار كلما عنّ للغرب قضية.

وفي شعبان ١٤١٢هـ (شباط ١٩٩٢م) تبنّى مجلس الأمن فرض حظرٍ على ليبيا. وبعد شهر تبنّى المجلس قرار رقم (٧٤٨) بفرض حظر اقتصادي على ليبيا إذا لم يتم تسليم الرجلين الليبيين المتهمين بحادثة لوكربي حتى نهاية ١٣ شوال ١٤١٢هـ (١٥ نيسان ١٩٩٢م)، وفي أعقاب ذلك مُنعت العلاقات التجارية، وخُفّض التمثيل السياسي (الديبلوماسي).

هدّد الرئيس الليبي بعدم تصدير النفط، وسحب المصالح كافةً للدول

التي ساندت قرار مجلس الأمن رقم (٧٤٨)، وفي عيد الفطر ١٤١٢هـ (٢ نيسان ١٩٩٢م) قامت مظاهرات في العاصمة الليبية طرابلس وحاصرت سفارات الدول الغربية، وسفارة فنزويلا التي كانت تترأس دورة مجلس الأمن.

وفي ١٣ صفر ١٤١٣هـ (١٢ آب ١٩٩٢م) جدد الحظر على ليبيا مدة أربعة أشهرٍ إضافية.

وفي أوائل رجب ١٤١٣هـ (أوائل كانون الثاني ١٩٩٣م) أغلقت ليبيا حدودها مدة ثلاثة أيام احتجاجاً على قرار مجلس الأمن.

وبعد ثمانية أشهر أعلنت الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا أنها ستطلب من مجلس الأمن تشديد الحصار بالقوة ضدّ ليبيا إذا لم تلتزم حتى نهاية العام بقرارات الأمم المتحدة، غير أن ليبيا رفضت الإنذار.

وفي ربيع الثاني ١٤١٤هـ (تشرين الأول ١٩٩٣م) روت وكالات الأنباء العالمية محاولة قيام انقلاب ضد حكم الرئيس القذافي، ولكن أنكرت هذا، مع أن عبد السلام جلود قد وضع تحت الإقامة الجبرية في منزله.

وفي ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٤هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٩٣م) تبنى مجلس الأمن قرار رقم (٨٨٣) الذي يقضي بتشديد الحصار الاقتصادي ضد ليبيا، بحجة أن ليبيا لم تتعاون في تطبيق قرارات الأمم المتحدة (٧٣١) و(٧٤٨)، وشمل هذا الحصار نظرياً إغلاق مكاتب الخطوط الليبية في الخارج، والحظر على مبيع معدات تستخدم في مجال الطيران المدني، وحجز المدخرات الليبية في العالم، وحظر معدات النفط، وإنقاص عدد السياسيين.

وفي رمضان ١٤١٤هـ (شباط ١٩٩٤م) أوصى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بإجراء حظر على مبيعات ليبيا البترولية إذا واصل هذا البلد تحديه للمجتمع الدولي.

وفي أواخر رمضان (أواخر شباط ١٩٩٤م) أشارت ليبيا إلى احتمال انسحابها من جامعة الدول العربية بسبب فشلها في الدفاع عن الحقوق العربية ضد أمريكا وإسرائيل.

وفي ٤ المحرم ١٤١٥هـ (١٢ حزيران) تبنى وزراء خارجية مجلس التعاون الخليجي قراراً يحث مجلس الأمن على إلغاء الحظر المفروض على ليبيا.

وفي ٥ المحرم ١٤١٥هـ ادّعى عضو في المجلس الثوري لحركة فتح أن المجلس كان المسؤول عن تدمير طائرة بان ـ أمريكان في لوكربي.

وادعت عدة جهات أن حادثة لوكربي كان وراءها إيران، وسورية، وأعضاء فلسطينيون في منظمة فتح. وأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كانت تعلم مسبقاً بهذا الحادث.

وفي أواخر شوال ١٤١٥هـ (أواخر آذار ١٩٩٥م) جدّد مجلس الأمن الحظر المفروض على ليبيا، وحث الولايات المتحدة على أن تعلن بأنها ستقوم بحظرٍ صارمٍ من جانبٍ واحدٍ على ليبيا. وتستمر الاقتراحات والتوصيات.

الفصل الثالث

الصّراعات الدّاخليّة

لم تقم صراعات داخلية في ليبيا كما هو معروف في المناطق الثانية ، وذلك لأسباب منها :

١ ـ لا توجد هناك مجموعات بشرية مختلفة الأصل كبيرة الحجم يمكنها أن تتحرّك لتنافس غيرها على السلطة ، أو تكون لها مطالب خاصة بأبناء جنسها ، فالعرب يشكّلون أكثر من ٨٧٪ من مجموع السكان ، وما عداهم لا توجد مجموعة بشرية يمكنها أن تتحرّك على الساحة ، وتطالب ببعض الامتيازات لها ولأفرادها .

٢ ـ لا توجد أقليات عقيدية تسعى لتحقيق بعض مطالبها ، فالمسلمون يشكّلون أكثر من ٩٩٪ من مجموع السكان ، وما يوجد من فرق إسلامية فهي قليلة العدد أيضاً .

٣ ـ لا توجد أحزاب سياسية تتنافس على السلطة ، لأن المرحلة التي وجدت فيها الأحزاب والهيئات السياسية إنما هي مرحلة قصيرة جداً لا تتجاوز السبع سنوات من رحيل الطليان عن البلاد حتى نيل الاستقلال، ولم تكن هناك هيئات سياسية أيام الحكم الملكي ، ثم جاء الحكم العسكري وحكم باسم الجمهورية غير أنه عسكري بكل مضمونه .

٤ ـ لا توجد صراعات على الأرض ؛ فالأرض واسعة والسكان قلّة ، وحالة

البلاد المادية جيدة بعد انبثاق مكامن النفط في أراضيها فلا مجال للصراعات الطبقية .

ليبيا : تبلغ مساحة ليبيا ١,٧٥٩,٥٤٠ كيلومتراً مربعاً ، وتضمّ ثلاث ولايات هي :

١ ـ ولاية طرابلس : وهي أصغر الولايات ، وتبلغ مساحتها ٣٥٣,٠٠٠ كيلومتر مربع ، وتشمل خمس محافظات وهي :

أ ـ محافظة طرابلس .

ب ـ محافظة الزاوية .

جـ ـ محافظة الخمس .

د ـ محافظة مصراطة .

هـ ـ محافظة غريان .

٢ ـ ولاية برقة : وتبلغ مساحتها ٨٥٥,٣٧٠ كيلومتراً مربعاً ، وتشمل ثلاث محافظات وهي :

أ ـ محافظة البيضاء .

ب ـ محافظة درنة .

جـ ـ محافظة بنغازي .

٣ ـ ولاية فزّان : وتبلغ مساحتها ٥٥١,١٧٠ كيلومتراً مربعاً ، وتشمل محافظتين فقط ، وهما :

أ ـ محافظة سبها .

ب ـ محافظة أوباري .

ويقدّر عدد سكان ليبيا حسب تقديرات عام ١٤١٠هـ بثلاث ملايين تقريباً ، يقيم منهم في ولاية طرابلس ما يقرب من ١,٧٥٠,٠٠٠ ساكن ، وتكون الكثافة أكثر من خمسة أشخاص في الكيلومتر المربع الواحد ، ويسكن في ولاية برقة ما يقرب من المليون ، بكثافة تزيد على شخص في كيلومتر

مربع ، وكان لوجود النفط أثر في زيادة سكان برقة أكثر من غيرها ، ويقطن في فزّان ما يقرب من مائتي ألف ، بكثافة تقل عن نصف شخص في الكيلومتر المربع الواحد .

المجموعات البشرية : تعيش في ليبيا عدة مجموعات بشرية ، وتُعدّ قليلة ؛ إذ لا تزيد على سبع مجموعات ، وهي :

أ ـ **العرب** : ويشكّلون غالبية السكان ؛ إذ تزيد نسبتهم على ٨٧٪ من مجموع السكان ، ويقدّر عددهم بمليونين وستمائة ألف ، وتكثر نسبتهم في الشرق ، وتنخفض نسبياً في الغرب والجنوب ، وقد دخل العرب إلى ليبيا مع الفتح الإسلامي ، وأثناء هجرة قبائل بني هلال وبني سُليم نحو الغرب في القرن الخامس الهجري .

ب ـ **البربر** : كانوا سكان البلاد قبل الفتح الإسلامي ، وانصهر أكثرهم مع العرب واستعربوا ، وبقي منهم في ليبيا اليوم ما يقرب من ٣٦٠ ألف ، وأكثر ما يقيمون اليوم في ولاية طرابلس في المدن الغربية منها ، مثل « زوارة » و « يفرن » ويشكّلون ١٢٪ من مجموع سكان ليبيا ، ويتبع معظمهم المذهب « الأباضي » ، ويعيشون مستقرين ، ولا يعرفون التنقل ، ويتكلمون لغة خاصة بهم إضافة إلى اللغة العربية التي يعرفونها جميعاً .

جـ ـ **الطوارق** : وهم « التوارك » الذين تركوا الإسلام وارتدّوا عنه ، ولم يتمكن المسلمون من إقامة حد الردة عليهم ، ثم عادوا إلى الإسلام ، وحسن إسلامهم،ويعرفون أيضاً بالملثمين ؛ لأنهم يضعون اللثام على وجوههم اتقاءً لرمال الصحراء حتى صار ذلك عادةً لا تفارقهم ، ولهم لغة خاصة إضافةً إلى العربية .

د ـ **الزنوج** : وعددهم قليل ، ويكثرون في فزان ، وهم من سلالة العبيد الذين جلبوا من قلب إفريقية .

هـ ـ **التيبو** : وهم مزيج من العرب والزنوج ، ويقيمون في أقصى

الجنوب في مرتفعات « تيبستي » على الحدود مع تشاد .

و ـ عناصر مختلفة : جاءت عدة عناصر واستقرت في ليبيا ، وانصهرت مع السكان لأنها مسلمة ، ولكن لا تزال بعض السمات تدلّ على أصولها مثل : الأتراك ، والشركس ، والكريتيين .

ز ـ الأجانب : يقيم في البلاد عدد من الأجانب أي من غير المسلمين ، ولكن لا يزيد عددهم على المائة ألف ، وينتمون إلى خمس وثلاثين جنسية ؛ يسكن معظمهم في ولاية طرابلس ، ويشكّلون ٩٢٪ من مجموع الأجانب ، و٧٪ منهم في برقة ، و١٪ في فزّان ، ويشكّل الطليان أكبر نسبة من الأجانب ، إذ تصل نسبتهم إلى ٨٠٪ ، ويقطنون مدينة طرابلس ، ويليهم الإنكليز ، فالمالطيون ، فالألمان ، فالفرنسيون ، فاليونانيون ، فالأمريكان ، . . .

ولا علاقة للذين يقيمون بصفة مؤقتة ، يعملون بالنفط أو بغير ذلك ، حيث توجد جاليات عربية من تونس ، ومصر ، والشام .

العقائد : يدين معظم السكان بالإسلام ، ولا قيمة للعقائد الأخرى ؛ إذ لا تصل نسبتها في أي مرحلة من مراحل التاريخ بعد انتشار الإسلام إلى ١٪ من مجموع السكان ، وفيما يلي بيان ذلك :

أ ـ المسلمون : ويشكلون أكثر من ٩٩٪ من مجموع السكان حتى إنهم يشتركون في المذهب ؛ فكلهم على مذهب الإمام مالك رحمه الله .

ونجد بين المسلمين الخوارج الأباضية الذين أكثرهم من البربر ، وأكثر مناطقهم في جبل نفوسه في « يفرن » و « غريان » ثم في ومدينة « زوارة » . ولكن نسبة الأباضية قليلة جداً بين السكان لا تصل إلى أكثر من ٨٪ .

كما نجد بين المسلمين الطرق الصوفية ، والدعوة السنوسية إحدى هذه الطرق ، وإن كانت هذه الدعوة تختلف عن الصوفية ببعض النقاط ومنها

الجهاد ، فلقد كان للسنوسية دور بارز في مقارعة الاستعمار ، بل تعدّ هي حاملة لواء الجهاد ضدّ الطليان ، وكان مشايخها هم قادة المجاهدين ، وتلتقي مع الصوفية في بعض الجوانب الأخرى مثل تقدير المريد للشيخ وإجلاله ورفعه فوق المستوى المطلوب و . . .

تنتسب السنوسية إلى مؤسّسها الأول محمد علي السنوسي الذي قدم من الجزائر إلى مكة حاجّاً عام ١٢٥٢هـ ، وقد تأثر هناك ببعض آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأسّس زاوية في مكة في جبل أبي قبيس ، ثم قام بتأسيس زوايا أخرى ، وعندما رجع وأراد دخول الجزائر عام ١٢٥٥هـ ؛ منعه الفرنسيون ، إذ كان وضعهم العسكري قد أخذ بالتحسن في مواجهة عبد القادر الجزائري ، فأقام السنوسي في ليبيا ، واستقرّ في واحة جغبوب ، وأسّس هناك زاوية كانت المركز الرئيسي للدعوة ، ومنها انتقلت إلى بقية المنطقة ، وخاصة إلى جهة الصحراء حيث أقامت عدة زوايا ، كان أشهرها ما أقيم في واحة الكفرة . وتضم الزاوية عدة أبنية ، منها : المسجد ، والمدرسة ، وبيت الشيخ ، والمضافة ، وحول الزاوية أرض يعمل فيها الأتباع بالزراعة ، وهي بهذا تختلف عن الصوفية التي تدعو إلى التواكل وتثبيط الهمة ، وكذلك تختلف السنوسية عن الصوفية بأنها تحارب البدع والخرافات .

ولم تعمل السنوسية على محاربة الدولة العثمانية ؛ الأمر الذي أتاح لها حرية العمل والانصراف إلى الدعوة ، فأقامت الكثير من الزوايا في الصحراء في ليبيا وتشاد .

ومن الطرق الصوفية العمروسية ـ السلامية التي أسّسها أبو العباس بن عمروس ، وأعاد لها الحركة سيدي عبد السلام الفيتوري الذي له ضريح في « زليطن » غرب « مصراطة » يزوره الأتباع .

ومن المجموعات من يسمّون أنفسهم بالمرابطين ، ويقومون ببعض أعمال الشعوذة ، ويعدّونها من الأسرار التي يملكونها ، ويؤمن بهم وبأفعالهم

بعض البسطاء والسذّج .

ولكن هذه الطرق والمشعوذين قلّة قليلة لا يؤبه لهم .

ب ـ النصارى : لا يوجد أتباع لهذه الديانة في ليبيا أبداً ، وقد انحسرت تماماً من بلاد المغرب كلها ، ثم جاءت مع المستعمرين ، فالنصارى الذين يقيمون اليوم في ليبيا إنما هم من الأجانب ، ولا يوجد نصراني واحد من أصل ليبي .

جـ ـ اليهود : وقد جاءوا إلى ليبيا أيام الرومان ، ويوم طردوا من الأندلس ؛ بعد أن أخرج منها المسلمون ، فسمحت لهم الدولة العثمانية بالإقامة في المناطق التي تحت سلطانها إنسانيةً ورحمةً ، ثم جاء بعضهم في القرن الثالث عشر الهجري ليؤدّوا دورهم في الهدم ، كما فعل يهود الدونمة في مقرّ الدولة العثمانية جزاءً لإحسانها إليهم ، وقد بلغ أكبر عدد لهم في ليبيا ستة وعشرين ألفاً حسب إحصاء عام ١٣٦٦هـ ، ولكن رحل القسم الأكبر منهم إلى فلسطين يوم أن أقيمت لهم دولة فيها ، وطردوا أهلها منها عام ١٣٦٧هـ . ولم يبق اليوم في ليبيا سوى ستة آلاف يقيم معظمهم في طرابلس إضافة إلى عدة مئات يسكنون برقة .

وهكذا نجد أنه لا توجد أية صراعات بين المجموعات البشرية أو بين العقائد ؛ لضآلة وقلّة النعرات العصبية والمذاهب العقدية فيها .

الأحزاب : كذلك لم توجد أحزاب ، ولم تتح الظروف لها ، فلم تؤسس ولم تقم بنشاط إلّا لمرحلة قصيرة ، فقد تأسّس نادي عمر المختار في برقة عام ١٣٦٢هـ ، غير أن الإدارة العسكرية الإنكليزية لم تلبث أن حلّته عام ١٣٦٦هـ ، ثم ظهر باسم الجمعية الوطنية ، ولكن محمد إدريس السنوسي عندما جاء إلى برقة عام ١٣٦٧هـ حلّها مع بقية الهيئات ، وشكّل المؤتمر الوطني البرقاوي العام فكان حزب الأمير ، ولا منافس له ، إلّا ما ظهر من معارضة الشعب له وللسنوسي عندما أعلن عن قيام دولة برقة ، والرعية ترغب دولةً

موحّدة ، فهذه ليست منافسة أو صراعاً ، وإنما معارضةً لموقف .

وفي إقليم طرابلس تأسّس « نادي طرابلس » ، ثم تأسّس الحزب الوطني عام ١٣٦٤هـ ، وانشقّ على نفسه ، وتشكّلت الكتلة الوطنية الحرة ، وانشقّ حزب الأحرار عن الكتلة الوطنية الحرة ، كما تأسّس حزب الجبهة المتحدة غير أن هذه الأحزاب وأجنحتها كلها لا تخرج عن دائرة المخطط الإنكليزي ، وكلها تطالب بالوحدة بين إقليمي ليبيا ، وأن تكون الدولة المرتقبة تحت الوصاية الإنكليزية ، وأن تتحالف في المستقبل وبعد الاستقلال مع إنكلترا .

وتأسّست بعدئذٍ هيئة تحرير ليبيا ، ولكنها تدور في الفلك نفسه . وعندما تمّت الوحدة حلّ السنوسي هذه الهيئات كلها ، وانتهى عهدها ، ولم يكن هناك صراع حزبي في ليبيا أبداً .

الصراع الإقليمي : لما وضع الدستور وتمّت الوحدة بين أقاليم ليبيا لم يكن أهالي إقليم طرابلس راضين ، فإن إقليمهم يضمّ ثلثي سكان البلاد وهم أكثر نشاطاً ووعياً من غيرهم ، ومع ذلك ؛ فإن نصيبهم في مجلس الشيوخ يعادل نصيب إقليم فزّان الذي يقطنه ما نسبتهم ١ : ٥٠ من سكان إقليم طرابلس ، لذا كانت هناك معارضة إقليمية طرابلسية ، وهذا ما جعل السنوسي يقدم على حلّ الحزب الوطني ، وتشتيت أتباعه ؛ ظناً منه أنه يتولّى قيادة المعارضة، غير أنه لم يلبث أن تبينّ له أن المعارضة إقليمية عامة. وبدا المجلس التشريعي الطرابلسي المحلّي الذي انتخب في ١٢ ذي الحجة ١٣٧١هـ (١ أيلول ١٩٥٢م) معارضاً للحكم ، فأقدم السنوسي على حلّه أيضاً ، وعلى هذا كان هناك صراع إقليمي على مقاعد مجلس الشيوخ وعلى مراكز السلطة ، أما الإقليمان الآخران برقة وفزّان فإن أهلهما على رضى ؛ إذ نالا أكثر مما ينبغي ، ويعدّ أهالي برقة السنوسي منهم ، وقد تسلّم ملك البلاد وحكمها .

وفي العهد الجمهوري يعدّ الحكم عسكرياً ، وليس هناك من أحزاب ،

ولا توجد أية صراعات ، وإنما توجد معارضة ؛ سواء من الذين خرجوا من البلاد ، أم من الذين بقوا داخلها ويكتمون معارضتهم خوفاً من السلطة التي لا تفسح مجالاً لأية معارضة ، أو لوجود أية صراعات ، إذ تعدّ ذلك إهداراً لطاقات الأمة وإمكاناتها ، وفسح المجال للتدخل في شؤون البلاد ، أو لاتجاه جماعاتٍ نحو أيدٍ غريبةٍ في سبيل تحقيق أطماعهم أو الوصول إلى مآربهم .

الباب الثاني

تونس

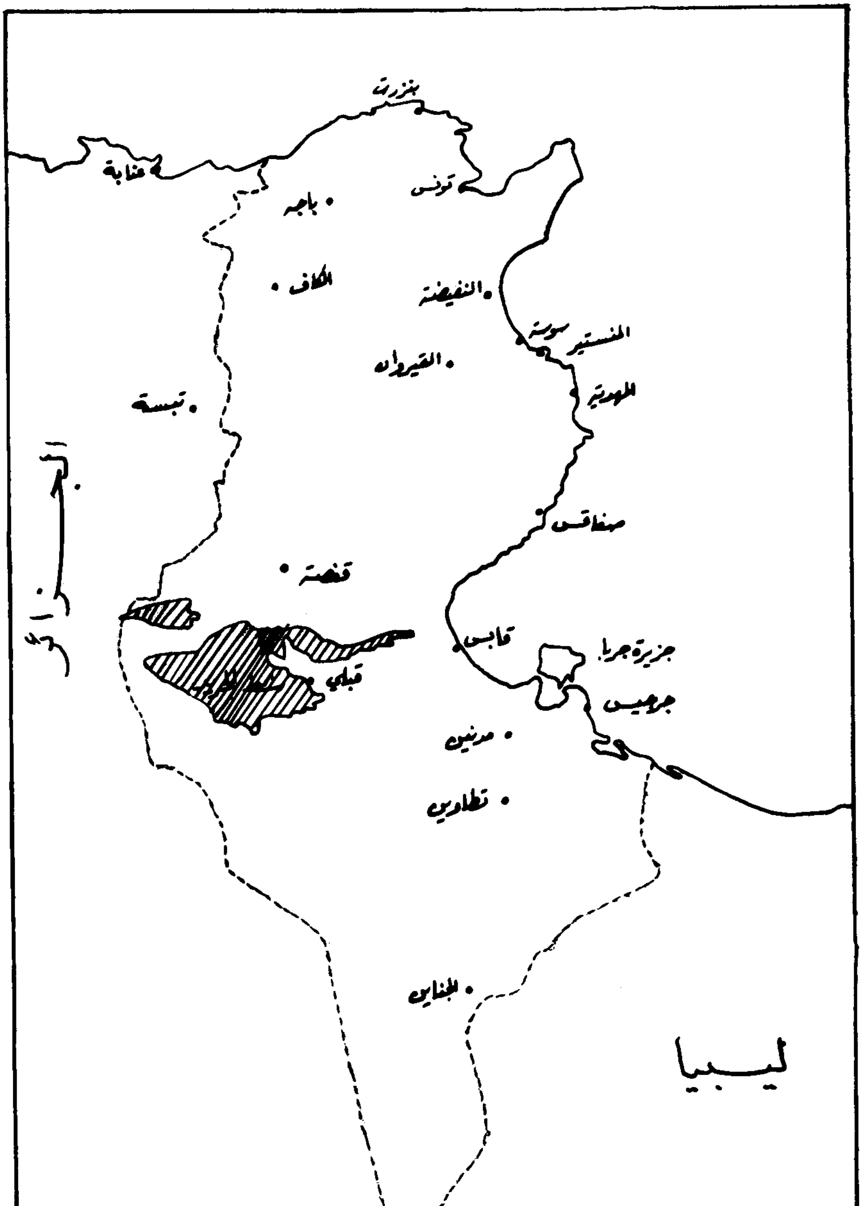
بنزرت
عنابة
تونس
باجه
الكاف
النفيضة
المنستير
سوسة
القيروان
المهدية
تبسة
الجزائر
صفاقس
قفصة
قابس
جزيرة جربا
قبلي
جرجيس
مدنين
تطاوين
الجنائن
ليبيا
غدامس
المقياس
كيلومتر ٤٠ ٨٠ ١٢٠ ١٦٠

لمحة عن تونس قبل إلغاء الخلافة

دخل العثمانيون تونس عام ٩٨١هـ، وأنهوا حكم الأسرة الحفصية، كما طردوا الأسبان الذين استنجد بهم آخر الحكام الحفصيين . ووضع القائد العثماني سنان باشا نظاماً للحكم في تونس ، يقوم على وال يمثّل السلطان برتبة « باشا » وهو رجل مدني ، يساعده مجلس استشاري ، يتألف من عدة ضباط ، وموظف يشرف على الشؤون المالية يلقّب « الباي » ، وقائد عسكري برتبة رائد يحمل لقب « الآغا » ، ويتبعه ضباط للفرق العسكرية ، كل واحد منهم برتبة نقيب ، ويعرف بـ « الداي » غير أن الدايات قد استأثروا بالحكم دون الوالي ، وتعاقبوا على السلطة حتى عام ١٠٤٧هـ ، حيث برزت سلطة الباي فتغلّب على الداي ، وتسلّم الحكم ، وظهرت أسرتان من البايات ، أولاهما : الأسرة المرادية التي حكمت من ١٠٤٧ إلى ١١١٤هـ ، ثم الأسرة الحسينية ، وتعاقب الحكام منها من ١١١٤ إلى ١٣٧٧هـ .

برز الباي أحمد الذي حكم من سنة ١٢٥٥ إلى ١٢٧٢هـ ، فقد أنشأ مدرسةً حربيةً ، ودعا إليها مدرّبين من الضباط الفرنسيين ، ونظّم جيشاً قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل ، وبنى أسطولاً خاصاً بتونس ، ساعد العثمانيين في حرب القرم ، وكان محباً للعلم ؛ فأكرم أهله ، غير أن الحضارة المادية بهرته ، وأعجب بالعمران الفرنسي ، وحاول أن يقلّد بالعمران قصر فرساي ؛ فبنى قصر « المحمدية » قرب مدينة تونس ، وأدّى هذا إلى تدهور المالية إضافةً إلى

السرقات التي قام بها بعض أعوانه . وخلفه في الحكم أخوه محمد الثاني ، فسار على نهج سلفه ، وأدّى الأمر إلى التدخّل الفرنسي الذي فرض المساواة بين المسلمين وأهل الذمة ، ومنح الأجانب (النصارى) حقّ التملّك وحرية التجارة ، ومعنى هذا فتح أبواب البلاد على مصراعيها أمام الصليبيين ، وفي الوقت نفسه قامت بعض الإصلاحات ، وخاصةً تلك التي قام بها وزير الحربية خير الدين التونسي الذي أصلح ميناء « حلق الوادي » ، وأنشأ مصنعاً لبناء السفن ، وفي عهد هذا الباي دخلت الطباعة إلى تونس ، وسُحبت مياه « عين رغوان » بالأنابيب إلى مدينة تونس . واستمرّ حكم محمد الثاني من ١٢٧٢ إلى ١٢٧٦هـ .

ثم جاء إلى الحكم الأخ الثالث محمد الصادق من سنة ١٢٧٦ إلى ١٣٠٠هـ ، وبقي خير الدين التونسي وزيراً للحربية ، وشكّل الباي مجلساً للشورى يتألّف من ستين عضواً، وجعل خير الدين رئيساً له، وتجاوز المجلس بعض الحدود الشرعية ؛ فعارضه العلماء ، واستقال خير الدين التونسي عام ١٢٧٩هـ ، وعلّق الباي الدستور عام ١٢٨١هـ بعد أن ثارت القبائل .

وتراكمت الديون على الدولة ؛ فكثرت المصاعب أمامها ، وبدأ الضغط الفرنسي والمطالبة بالديون ، وأخيراً تشكّلت عام ١٢٨٦هـ لجنةً دوليةً للإشراف على المالية ، وتضمّ ممثلين عن فرنسا ، وإيطاليا ، ومالطة ، إضافة إلى تونس ، غير أن خير الدين لم يستطع الاستمرار في عمله فاضطرّ للاستقالة عام ١٢٩٤هـ ، وغادر البلاد إلى استانبول حيث سلّمه السلطان عبد الحميد الثاني الصدارة العظمى في ٢٢ محرم ١٢٩٦ هـ .

التدخل الفرنسي : كانت السياسة الفرنسية ترمي إلى هدفين تجاه تونس ، فهي أولاً لا تريد أن تكون لها حدود مع الدولة العثمانية ، ،لذا ترغب أن تبعد العثمانيين عن تونس لتكون فاصلاً بينها وبينهم في طرابلس ، وبالتالي تريد أن تنهي الحكم العثماني الاسمي في تونس كي يفسح المجال لها للتدخّل في هذا الإقليم ، وفي الوقت نفسه لا ترغب أن يكون انفصال تونس عن الدولة

العثمانية قوة لتونس ؛ إذ لا تستطيع عندها التدخّل في شؤونها ، فهي تريد قبل كل شيء إضعاف تونس بإبعاد العثمانيين عنها ، فيتدهور الوضع فيها .

كانت فرنسا ترسل أسطولها إلى مياه تونس لمنع تدخّل العثمانيين ، ولإبراز قوتها أمام التونسيين ، وللإعلان عن بداية التدخّل ، غير أن السلطان قد أعلن عن حقوقه في تونس ، فصرّح أنه يُدعى له فيها على المنابر ، وأن النقود المستعملة فيها مضروبة باسمه ، وتعيين الولاة فيها إنما يصدر بأمر منه ، وأن الولاة يقدّمون له المساعدة في كل حرب يخوضها ، غير أن فرنسا لم تستمع لهذا كله ولم تعترف به ، وإنما أعلنت أن (بايات) تونس مستقلّون عن الدولة العثمانية ، ولا رابط لهم بها ، وأن الدول الأخرى تخاطبهم مباشرة ، ويعقدون المعاهدات باسمهم لا باسم الدولة العثمانية .

وشجّعت ألمانيا فرنسا للتوجّه نحو إفريقية لتبعدها عن التفكير في الانتقام منها بعد هزيمتها أمامها ، وطلبت ألمانيا من إنكلترا ترك فرنسا وشأنها في تونس ، فوافقت إنكلترا على ترك فرنسا تتصرّف في تونس مقابل سكوتها عن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص .

ولكن إيطاليا قاومت النفوذ الفرنسي في تونس ، ورفضت التحذير الفرنسي والإنذار ، وأن تتوجّه إلى احتلال بلاد أخرى ، وعرضت على (الباي) الحماية الإيطالية ؛ فرفض ؛ وطلبت منه التنازل عن ميناء (بنزرت) ؛ فأبى ، وأبدت رغبتها في أن يكون ميناء (بنزرت) ميناءً حرّاً ؛ فلم يوافق ، ولكن الباي قد رفض أيضاً مشروعاً فرنسياً بتشكيل حلفٍ دفاعي . ووقف القنصل الإنكليزي بجانب مطلب القنصل الإيطالي ، فلم توافق السياسة الإنكليزية على تصرّف قنصلها ، فأنهت خدماته من تونس إرضاءً لفرنسا ، وخشيت فرنسا التأخّر بالتدخّل في تونس ، فالإبطاء ليس من صالحها ، وفكرة الجامعة الإسلامية التي طرحها السلطان عبد الحميد تنمو بسرعة ، وأصبحت فرنسا تخشى على وضعها في الجزائر ، لذلك أسرعت وأرسلت قوة عسكرية عام ١٢٩٨ هـ ، ووصلت إلى قرب العاصمة التونسية ،

فاضطرّ الباي إلى توقيع معاهدة (باردو) في ١٣ جمادي الأولى ١٢٩٨ هـ (١٢ أيار ١٨٨١م) التي أعطت فرنسا حقّ الإشراف على الشؤون المالية والخارجية والعسكرية ، وحقّ تعيين مفوّض فرنسيّ في مدينة تونس يكون صلة الوصل بين البلدين . وثارت قبائل في جنوب البلاد ، فأخمدتها القوات الفرنسية بعنف ، وبعدها فرضت على تونس معاهدة (المرسى) في ٣ شعبان عام ١٣٠٠هـ (٨) حزيران ١٨٨٣م) وألزمت الباي فيها بتعديلاتٍ في الإدارة والقضاء والمالية ، وأعطتها اسم الإصلاحات .

احتجّت الدولة العثمانية على اعتداء فرنسا على ولايةٍ من ولاياتها ، ولكن فرنسا لم تهتمّ لذلك ، ولم تستطع الدولة العثمانية عمل شيء لضعفها وكثرة المصائب التي تنزل بها ، إذ كانت إنكلترا في ذلك الوقت تعتدي على مصر، وتركّز حكمها في جزيرة (قبرص) ، غير أنها بقيت تعترف باستمرار السيادة العثمانية الاسمية على مصر وقبرص ، على حين أن فرنسا لم تعترف بأي سلطةٍ للعثمانيين على تونس .

وأما إيطاليا فلم ترض عن الحماية الفرنسية لتونس ، وبقيت تعدّ ذلك اختلاساً لحقّ من حقوقها ، فهي الأولى بتونس لقربها منها ، غير أن فرنسا قد أعطتها بعض الامتيازات فسكتت عن تصرّفها في تونس، وذلك عام ١٣١٤هـ وكانت الامتيازات التي حصلت عليها إيطاليا هي :

١ ـ تحتفظ بالامتيازات التي منحها إياها الباي عام ١٢٨٥ هـ .
٢ ـ يحقّ للإيطاليين الذين يقيمون في تونس الاحتفاظ بالجنسية الإيطالية .
٣ ـ يحصل الإيطاليون على الحقوق نفسها التي يحصل الفرنسيون عليها في تونس ، ومنها ممارسة المهن الحرة ، وافتتاح المدارس ، وتشكيل الجمعيات .
٤ ـ يحقّ للإيطاليين الهجرة إلى تونس بالشروط نفسها التي يحقّ للفرنسيين

الهجرة بها .

الحماية الفرنسية : لم تذكر معاهدة (باردو) فرض الحماية على تونس ، وإنما ذكرت أن الاحتلال العسكري إجراءٌ مؤقتٌ فرضته الظروف ، غير أن الوزير الفرنسي المفوّض المقيم في تونس كان بمثابة وزير خارجية حسبما ورد في المرسوم الذي أصدره الباي محمد الصادق بعد توقيع معاهدة (باردو) عام ١٢٩٨ هـ ، وبذا فقد تخلّى الباي عن صلاحياته في الإشراف على الشؤون الخارجية للوزير المفوّض الفرنسي ، وأبقت فرنسا الباي صورة ، وأخذت تنتزع منه الصلاحيات تدريجياً ، وقد فرضت منصباً جديداً أسمته أمين السر العام (السكرتير العام) وفوّضت إليه الإشراف على الشرطة ، والسجون ، و . . .

صدر مرسوم جمهوري فرنسي في تاريخ ٢٠ ذي الحجة أصبح بموجبه الوزير الفرنسي المفوّض والمقيم في تونس يتمتع بسلطاتٍ تشريعيةٍ وتنفيذيةٍ واسعةٍ ، ولا تعدّ أوامر الباي نافذةً إذا لم يصادق عليها المقيم العام الفرنسي .

كان الباي قد احتفظ اسمياً بالسلطة التشريعية ، كما أنه يصادق على القانون والأوامر الواجب تنفيذها في الولاية ، وهو الذي يتولّى أمر إصدارها بالتوقيع عليها ، وأخذت فرنسا تعمل لتغيير الهياكل الإدارية والقضائية والمالية في البلاد ، وتتخذ الإجراءات التي ترمي إلى تطبيق الإدارة الفرنسية والمنهج المعادي للإسلام لتبديل الشخصية العربية الإسلامية .

المقاومة : وجّه الباي محمد الصادق في ١٦ جمادى الأولى ١٢٩٨هـ (١٥ نيسان ١٨٨١م) الدعوة إلى قوات القبائل في وسط وجنوب البلاد للتعبئة العامة ، فنسيت هذه القبائل الخلافات فيما بينها ، وتركت مشكلاتها الخاصة ، وعملت معاً ضدّ العدو المشترك ، وأخذت تتشاور فيما بينها لمقاومة الدخيل الصليبي . وبرز بين رؤساء هذه القبائل علي بن خليفة شيخ قبائل (نفات) ، فجعل قيادته قرب مدينة صفاقس ، وأخذ يتصل مع القوات العثمانية في

طرابلس ، وانضم رجال القبائل الأخرى إلى هذا الزعيم ، وأخذ أهالي (الجريد) يطاردون الفرنسيين .

وفي ١٨ رجب ١٢٩٨ هـ (١٥ حزيران ١٨٨١ م) أخذت الاجتماعات تعقد في جامع عقبة بن نافع في القيروان برئاسة علي بن خليفة ، وقد ضمّت هذه الاجتماعات ممثلين من مختلف القبائل ، واستمرت خمسة أيام ، وتمخّضت عن قرار يقضي بمقاومة الفرنسيين والاتصال بالعثمانيين في طرابلس ، وبالفعل فقد أوفدوا عدداً من المبعوثين إلى طرابلس .

وهبّ الحاج محمد كمون ومحمد الشريف وبقية أعيان صفاقس ، واتصلوا بعلي بن خليفة للتنسيق ، كما اتصلوا بالعثمانيين للمساعدة والدعم ، وقرروا عدم الاعتراف بـ « حسونة الجلولي » ممثل الباي في صفاقس .

الثورة : وانضمّت مدينة قابس إلى مدينة صفاقس ، وأعطت زمام أمرها إلى علي بن خليفة ، وأخذ رجالها يعتدون على اليهود الذين يقيمون فيها لأنهم اختاروا الحماية الفرنسية بعد أن عاشوا آمنين في كنف المسلمين مدة طويلةً من الزمن . وعندما جاءت البارجة الفرنسية « الكرسيكي » في ٨ جمادى الآخرة ١٢٩٨هـ (٧ أيار ١٨٨١م) إلى ميناء قابس أسرع السكان إلى حمل السلاح ، فأخبر اليهود البارجة فرجعت ولم ترس في الميناء ، وهذا ما أغضب السكان ، فقطعوا أسلاك البرق ، وكسروا أعمدة الهاتف ، واعتدوا على اليهود .

وفي غرة شعبان وصلت إلى ميناء صفاقس بارجة فرنسية ، فالتفّ الناس حول علي بن خليفة الذي أبقى رجال قبائله خارج المدينة خوفاً من الحصار ، وشكّل لجنة للدفاع عن المدينة بقيادة محمد الشريف قائد الحامية ، فحاصر الأعداء المدينة ، فهاجمهم رجال القبائل الذين بقوا خارجها ، وأرسلت فرنسا ست بوارج لقصف المدينة ، وساعدتها إنكلترا وإيطاليا ، فأرسلت إنكلترا بارجتين من بوارجها بحجة مساعدة المالطيين المقيمين في صفاقس بصفتهم من النصارى ، وبعثت إيطاليا بارجة لمساعدة فرنسا وإنكلترا على أنهما من الدول النصرانية ، واشتركت البوارج التسع الفرنسية والبريطانية والإيطالية بقصف

المدينة والميناء ، وكان قائد الأسطول الفرنسي أمير البحر المساعد « غارنو » وتمكّن الفرنسيون في ١٩ شعبان ١٢٩٨ هـ (١٦ تموز ١٨٨١ م) من النزول بالمدينة بقيادة المقدّم جورج ، ولم تفد مقاومة المجاهدين رغم ما بذلوه من جهود وتضحيات ، وذلك لتفوّق الفرنسيين الكبير في الرجال والسلاح والعتاد ، بينما لم يكن لدى المجاهدين من سلاح ؛ لمقاومة ما يحوزه الفرنسيون . وفرض المقدّم جورج سحب السلاح من السكان ، وغرامة حربية قدرها خمسة عشر مليون فرنك ، وبدأ رجاله أعمال السلب والنهب .

أما المجاهدون فقد انسحبوا من صفاقس بقيادة علي بن خليفة ، واستقرّوا في وادي (مدران) على بعد خمسين كيلومتراً من المدينة ، واستمرت صلتهم مع قبائل (الجلاص) الذين يدافعون عن القيروان ، وقبائل (الهمامة) الذين يناوشون الفرنسيين في (قفصة) ، واستقرّ صالح بن خليفة - شقيق علي - في القبائل .

وكان الباي قد أرسل مجبراً قوة مؤلّفة من ألف رجل إلى صفاقس ، غير أن هذه القوة قد انضمّت إلى المجاهدين ، وسلّمت أمر قيادتها إلى علي بن خليفة فأبقى رجالها مع رجاله .

وفي بلدة (جارة) حدث تردّد بين السكان خوفاً من الفرنسيين ، فقام مفتي الأعراض الشيخ علي الحبيب بن عيسى وحرّض السكان ، وحثّهم على الانضمام إلى المجاهدين ، وطلب من قائد الحامية مصطفى التركي توزيع الأسلحة على الرجال الذين يرغبون في الجهاد ؛ فأبى مصطفى ، فقام « زروق ابن علي» والي منطقة الأعراض ووزّع الأسلحة التي انتزعت من السكان ، وانضمّ الأهالي إلى المجاهدين ، واندلعت فيها حركة المقاومة .

وفي مدينة قابس نزل الفرنسيون في ٢٨ شعبان (٢٥ تموز) ، واضطر المجاهدون للاستسلام ؛ لكثرة من نزل من قوات العدو ، واستشهد مفتي حي المنزل الحاج الجيلاني الذي كان أحد أركان الجهاد في قابس .

وفي القيروان كان رجال قبائل (الجلاص) بقيادة الحاج حسين بن

المسعي يسيطرون على الوضع ، وكان علي بن عمار ينازل القوات الفرنسية في الكاف ويتخذ القيروان مقرّاً له .

ودعا أحمد بن يوسف إلى عقد اجتماع في (سبيطلة)، وضمّ ممثلين عن قبائل الغرب والجنوب الغربي كافة ، ودام الاجتماع ثلاثة أيام من ٢٠ إلى ٢٣ رمضان ١٢٩٨ هـ (١٥ ـ ١٨ آب ١٨٨١ م) ، وقرّر الحضور إعلان الجهاد . وبرزت قبائل (الهمامة) و (أولاد يعقوب) و (الفراشيش) بقيادة « علي بوعلاق » ، ووصل الهجوم إلى ضواحي العاصمة ، وكانت سيطرة الفرنسيين لا تصل نحو الجنوب إلى أكثر من مدينة (الكاف) .

وفي ٢٤ ذي القعدة ١٢٩٨ هـ (١٧ تشرين الأول ١٨٨١ م) تحرّكت ثلاث فرق عسكريةٍ نحو القيروان: من تونس، ومن سوسة، ومن مدينة (تبسة) في الجزائر ، فاضطرّت القيروان إلى الاستسلام .

انتقل كثير من المجاهدين إلى ليبيا ، واستقرّ عدد منهم في مدينة طرابلس ، وأقام عدد منهم في جنوب جبل نفوسة ، وأخذوا ينظّمون صفوفهم على الحدود الليبية التونسية ، ويأملون مساعدة العثمانيين ، ومن بداية شهر صفر من عام ١٢٩٩ هـ أخذوا يتسللون إلى تونس حتى إن بعضهم كان يصل إلى مدينة (قفصة) ولكن يبدو أن فرنسا قد تمكّنت من السيطرة على الحدود .

وتوفي الباي محمد الصادق في ٢٠ ذي القعدة ١٢٩٩ هـ (٢ تشرين الأول ١٨٨٢ م) وخلفه أخوه علي ، وكان ضعيفاً ، كما أن الوزيرين الأولين كانا ضعيفين أيضاً ، وهما : محمد الجلولي ، ومحمد العزيز بوعتور .

وعقدت اتفاقية (المرسى) بين الباي علي وبين بول كمبون ، وذلك في ٣ شعبان ١٣٠٠ هـ (٨ حزيران ١٨٨٣ م) وهي تؤكّد معاهدة الحماية التي عقدت من قبل في باردو (القصر السعيد) .

وتفاوضت فرنسا مع الدول الأوروبية التي لها جاليات في تونس ، فألغت تلك الدول محاكمها القنصلية ، وأصبح مواطنوها يرجعون إلى المحاكم الفرنسية ، وكانت هذه الدول هي : السويد ـ النرويج ـ الدانمارك ـ إنكلترا ـ هولندا ـ النمسا ـ اليونان ـ روسيا ـ إيطاليا .

وكانت المحاكم التونسية تنظر في قضايا رعايا الباي ، وتطبّق فيها القوانين التونسية ، أما المحاكم الفرنسية فتنظر في قضايا الفرنسيين والأوربيين جميعاً ، والقضايا التي تجمع بين الفرنسيين أو الأوربيين من جهة والتونسيين من جهة أخرى .

وتوفي علي بن خليفة في ٣٠ محرم ١٣٠٢هـ (١٨ تشرين الثاني ١٨٨٤م) عن عمر يزيد على الثانية والثمانين سنة ، وبقي كثير من المجاهدين يعيشون خارج تونس .

وقررت فرنسا مصادرة أملاك المقاومين الذين لا يعودون إلى تونس قبل تاريخ ١٥ جمادي الأولى ١٣٠٢هـ (آذار ١٨٨٥م) ، ووجّه الباي علي نداءً بهذا الخصوص في تاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣٠٢هـ (٢٩ كانون الأول ١٨٨٤م) ، ولم يستجب لهذا النداء إلّا النزر اليسير ، ولكن جهود يوسف بن أندريه الليفرو قد حقّقت بعض النجاح ، وهو من أصل جنوي إيطالي ، وكان عميلاً مزودجاً يعمل لصالح فرنسا وصالح تونس في الظاهر ، وقد وصل إلى رتبة أمير الأمراء ، وقد بذل هذا العميل جهداً لإعادة رجال المقاومة إلى البلاد ؛ فأخذوا يعودون تدريجياً .

النشاط السياسي : سمحت وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في ١١ ربيع الأول ١٣٠٨ هـ (٢٤ تشرين الأول ١٨٩٠ م) للمقيم العام الفرنسي بعقد ندوات اجتماعية ، ونتج عن هذه الندوات في عام ١٣٢٥ هـ إحداث مجلس استشاري ، يتألّف من ستة عشر عضواً ، يعيّنهم المقيم العام الفرنسي ، ولم يمض على تأسيسه سوى ثلاث سنوات حتى صدرت التعليمات بأن يلتقي الأعضاء التونسيون وحدهم كما يجتمع الفرنسيون وحدهم ، ثم زاد عدد أعضاء هذا المجلس فأصبحوا أربعةً وخمسين عضواً ، منهم ثمانية عشر عضواً من تونس يعيّنهم المقيم العام الفرنسي ، وستة وثلاثون عضواً ينتخبهم الفرنسيون المقيمون في تونس .

وفي ١٩ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (١٣ تموز ١٩٢٢ م) صدرت الأوامر بأن يتشكّل مجلس نيابي ، وقد عُرف بالمجلس الكبير ، حيث ضمّ ثمانية

وتسعين عضواً ، وحلّ محلّ المجلس الاستشاري ، ويضمُّ المجلس الكبير ستة وخمسين من الفرنسيين ، واثنين وأربعين من التونسيين . أما القسم الفرنسي فيؤخذ بالانتخاب ، ويشمل اثنين وعشرين يمثّلون الزراع والتجار ، وأربعة وثلاثين يمثّلون باقي أفراد الجالية الفرنسية في تونس ، وأما القسم التونسي فيؤخذ بالتعيين ، ويشمل أربعة وثلاثين مسلماً ، وأربعة من اليهود ، وأربعة يمثّلون مدينة تونس على أن يكون أحدهم من اليهود ، هذا مع العلم أن عدد الفرنسيين في تونس كان يومذاك أقل من ربع مليون (٣٤٠،٠٠٠) على حين كان عدد سكان تونس ثلاثة ملايين مسلم .

اشتدّت وطأة الفرنسيين على تونس ، وأحسّ بشدتها المسلمون الملتزمون ، لأنه لم يتغيّر عل غير الملتزمين شيء ؛ فالفساد ديدنهم ، وهم والأعداء سواء ، أما المسلمون فيقع عليهم وقع الصاعقة ، لذا فقد تحرّكوا ، وتزعّم هذه الحركة « علي أبو شوشة » الذي يصدر جريدة « الحاضرة » ، فأخذ ينادي بتقوية الروابط مع الأمصار الإسلامية ، ويعمل للجامعة الإسلامية ، وأيّده والتفّ حوله لفيف من الشباب . وشعر بوطأة الفرنسيين أيضاً المزارعون إذ سيطر الأجانب على أفضل الأراضي وأخصبها ، وتملّكوا المساحات الواسعة بالطرق الملتوية والوسائل غير المشروعة ، وقدّمت لهم المساعدات ، وأعطيت لهم القروض . وشعر بوطأة الفرنسيين التجار ؛ لأن الصليبيين احتكروا كثيراً من المواد ، وأعطيت لهم التسهيلات ، ومُنحوا المساعدات ، وأحسّ الفقراء من المسلمين وطأة الفرنسيين ؛ إذ ارتفعت الأسعار ، وقلّت البضائع ، واختفى بعضها من السوق .

حركة الشباب التونسي : أسّس علي باشا حمبة[1] عام ١٣٢٤هـ حزب

---

(١) علي باشا حمبة بن مصطفى بن علي الشريف : يعود إلى أصل تركي ، وُلد في تونس عام ١٢٩٦هـ ، ودرس بجامع الزيتونة ، ودرس الحقوق بباريس ، ورجع إلى تونس ، فعمل محامياً ، وعندما احتلّت إيطاليا طرابلس عام ١٣٣٠هـ ثار أهل تونس على الطليان الذين يعيشون في تونس ، فاعتقلت السلطات الفرنسية علي باشا حمبة ، وأخرجوه من البلاد ، فتوجّه إلى استانبول ، فعُيِّن مستشاراً لوزارة الخارجية عام ١٣٣٥هـ ، ثم مستشاراً للصدارة =

المقاومة ، وأيّده الكثير من الشباب ، وفي ٢٤ ذي القعدة ١٣٢٤ هـ (٧ شباط ١٩٠٧ م) أسّس جريدة « التونسي » باللغة الفرنسية ، وانضمّ إليهم عبد العزيز الثعالبي [١] عام ١٣٢٦ هـ حيث عُهد إليه برئاسة تحرير النسخة العربية من جريدة « التونسي » ، وتغّير اسم « حزب المقاومة » ، وأصبح يحمل اسم حزب « تونس الفتاة » ، وقد جاهد هذا الحزب بتأييد جهاد الطرابلسيين ضدّ الطليان ، وجهاد الجزائريين ضدّ الفرنسيين ، ودعا إلى مقاطعة اليهود الذين يدعمون الفرنسيين ويؤيّدونهم ، ويحرّضونهم على المسلمين .

الانتفاضة : عمل الفرنسيون على مدّ خط حديدي عبر مقبرة « الزلاج » فوقف المسلمون بوجههم ؛ إذ أثار نبش القبور مشاعرهم ، ولما أصرّ الفرنسيون عل فتح الطريق ومدّ السكة الحديدية انتفض المسلمون في ١٦ ذي القعدة من عام ١٣٢٩ هـ (٧ تشرين الثاني ١٩١١ م) ، غير أن الفرنسيين قد قمعوا هذه الانتفاضة بعنف ، وألقوا القبض على عبد العزيز الثعالبي ، وعليّ باشا حمبة ، وعلى أخيه محمد ، وعلى بشير الأصفر ،وحسن قلاتي ، ومحمد نعمان ، وحلّوا حزب « تونس الفتاة » وقد ارتحل محمد باشا حمبة إلى جنيف وأصدر هناك جريدة « المغرب » للدفاع عن بلاد المغرب العربي ، وبقيت هذه الجريدة تصدر مدة سنتين إبان الحرب العالمية الأولى .

الحرب العالمية الأولى: اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وسكت المسلمون على جراحهم ، ففي الداخل يعيشون مقهورين لا يستطيعون فعل شيء ، وفي

= العظمى ، وبقي على صلة بالحركة الإسلامية في تونس ، وتوفي في استانبول عام ١٣٣٦هـ .

(١) عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي : من أصل جزائري ، وُلد بتونس عام ١٢٩١هـ ، أصدر جريدة « سبيل الرشاد » ، وانتسب إلى حزب « تونس الفتاة » ، وسجنه الفرنسيون عام ١٣٢٩هـ ، ثم أُطلق سراحه ، فسافر إلى باريس ، واستانبول ، والهند ، وأندونيسيا ، ورجع إلى تونس عام ١٣٣٢هـ ، وحرر كتاب « تونس الشهيدة » ، واتهم بالتآمر ، واعتُقل في فرنسا ، ونُقل إلى سجن تونس ، وأسس أنصاره حزب الدستور ، وجعلوه رئيساً له ، وترأسه بعد إطلاق سراحه ، وأصدر جريدةَ « الفجر » ، وزار مصر والشام والعراق والحجاز والهند ، ورجع إلى بلاده ، وترك الحياة العامة ، وتوفي عام ١٣٦٣هـ .

الخارج لا يوجد من يسمع أصواتهم لأن الناس منصرفون لسماع أخبار الحرب يلهيهم أزيز الرصاص وأصوات المدافع ، وشارك التونسيون في الحرب العالمية الأولى بثمانين ألف مقاتل وقفوا إلى جانب فرنسا ، قتل منهم عشرة آلاف وسبعمائة وثلاثة وعشرون رجلاً ، وانتقل عشرة آلاف عامل للعمل بالزراعة بدلاً من الذاهبين إلى ساحات القتال .

وما أن انتهت الحرب حتى انطلق وفد تونسي برئاسة عبد العزيز الثعالبي إلى باريس لعرض قضية بلاده على مؤتمر الصلح ، وقدّم مذكرة إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية « ويلسون » وطالب فيها بحقّ تقرير المصير ، ولكن دون جدوى فإن المنتصر لا يسمع أنين الجرحى ، ويشغله عنه نشوة الظفر ، فكيف بالصليبي الحاقد ؟ ورجع الوفد إلى تونس خائباً . وحاول عبد العزيز الثعالبي إعادة حزب تونس الفتاة غير أنه لم يفلح .

وانتقل الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى فرنسا واستقرّ في باريس .

ولما اطّلع التونسيون على كتاب « تونس الشهيدة » الذي حرّره الشيخ عبد العزيز الثعالبي ؛ التقوا جميعاً على فكرة المطالبة بالدستور ، والتقى شيوخ جامع الزيتونة وخريجوه مع خريجي الجامعات الفرنسية ، كما التقوا مع المواطنين كافة ، وعقدوا الاجتماعات ، وكان يعقد أكثرها في بيت « علي كاهية » أحد أعيان العاصمة ، ويقع البيت في « نهج الباشا » ، وقد وضعوا في هذه الاجتماعات منهجاً للعمل ، وكان أول مطلب فيه المطالبة بالدستور ، وقد أرسلت نسخة من المنهج إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي ؛ فأقرّه ، ورأى تقديمه إلى الباي محمد الناصر ، وإلى المقيم العام ، وإلى رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي وإلى مجلس النواب .

ونتيجة تلك الاجتماعات نشأ الحزب الحر الدستوري تلقائياً وكان من أبرز قادته : « علي كاهية » و « محمد نعمان » و « الشاذلي القسطلي » و « الصادق الزولي » و « حسن قلاتي » و « أحمد السقا » و « صالح فرحات » و « الطيب الجميل » و « الشاذلي خازندار » و « أحمد الصافي » و « محي الدين

القليبي » و« حسين الجزيري » وكان ذلك في ٢٩ رمضان ١٣٣٨هـ (١٥ حزيران ١٩٢٠م) ، وظهرت جريدة « الصواب » في ذلك اليوم تحمل أكبر عنوان : الدستور في تونس . وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي غائباً عن البلاد ، ومع هذا الغياب فإن قادة الحزب قد أسندوا إليه رئاسة حزبهم ، ولما رجع إلى البلاد تسلّمها فعلاً .

وفي صباح اليوم التالي جرى استقبال في دار المقيم العام بمناسبة قدوم نائب للمقيم العام ، حيث كان المقيم العام في إجازة في فرنسا بسبب المرض ، وفي الوقت نفسه كان ذلك اليوم عيد الفطر السعيد ، وتكلّم في الحفل أحد أساتذة جامع الزيتونة وهو الشيخ « الصادق النيفر » فألقى خطبة باللغة العربية فيها احتجاج صارخ على تدخل فرنسا بالشؤون الدينية لتونس ، ومنها مسألة أراضي الأوقاف وشؤونها العامة ، كما طالب بمنح الدستور ، وظن نائب المقيم العام أن الخطبة ترحيب به ، فلما ترجمت له عرف أن الشعب ساخط على نظام الحماية سخطاً كبيراً .

وفي ثالث أيام عيد الفطر ذهب وفد برئاسة الشيخ الصادق النيفر إلى الباي محمد الناصر ، وهنّأه بالعيد ، وقدّم له نسخة من المطالب الوطنية . ولما كان الوزير الأول الطيب الجلولي غائباً فقد قُدّمت نسخة من المطالب الوطنية إلى محمد المنصف الابن الأكبر للباي محمد الناصر .

وتشكّل وفد من أعيان تونس ، وقابل الوزير الفرنسي المفوض المقيم العام في تونس ، وكلّمه في مطالب البلاد ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، وقابل الوفد الباي غير أنه لا يملك من الأمر شيئاً ، وإن كان في الحقيقة إلى جانب المسلمين قلباً وعاطفة .

وتشكّل وفد سافر إلى فرنسا لمقابلة المسؤولين ، وقد ضمّ : أحمد الصافي ، وصالح بالعجوزة ، والبشير عكاشة عن المحامين ، وضمّ من أعيان العاصمة : البشير البكري ، ومصطفى الباهي ، وفي باريس انضمّ إليهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، ولكن رئيس وزراء فرنسا « الكسندر ميلران » قد

رفض المقابلة ، وأمر باعتقال الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، ونقل إلى بنزرت مخفوراً حيث أودع هناك السجن في تاريخ ٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (٢٢ تموز ١٩٢٠م) .

وسافر وفد آخر في غرة ربيع الثاني ١٣٣٩هـ (١١ كانون الأول ١٩٢٠م) برئاسة الطاهر بن عامر ويساعده اليهودي « ايلي زيرح » ، وقد ضمّ الوفد في عداده حسونة العياشي ، وعبد الرحمن اللزام ، وحمودة المنستيري ، وانضمّ إليهم في باريس فرحات بن عياد .

الحزب الإصلاحي : رفض حسن القلاتي الانضمام إلى الوفد المسافر إلى فرنسا ، فحدث شبه انشقاق في الحزب الحر الدستوري التونسي ، إذ شكّل أصدقاء حسن القلاتي الحزب الإصلاحي في ٨ شعبان ١٣٣٩هـ (١٦ نيسان ١٩٢١م) وأخذ بالهجوم على الشيخ عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الحر الدستوري التونسي . وأصدر هذا الحزب جريدة (البرهان) وبعد عدة أشهر صدرت مكانها جريدة (النهضة).

الإفراج عن الثعالبي : أفرج عن الثعالبي في ٢٣ شعبان ١٣٣٩هـ (١ أيار ١٩٢١م) .

مالت حاشية الباي محمد الناصر إلى الحزب الحر الدستوري التونسي ، ومنهم ابنه الأكبر محمد المنصف ، وقرّروا تسيير مظاهرة يوم وصول رئيس الجمهورية الفرنسية « الكسندر ميلران » إلى تونس .

وتقدّم الباي محمد الناصر ببعض المطالب ، وقد ضمّنها ثماني عشرة نقطة ، وهدّد بالتنازل عن العرش إن لم تنفّذ كاملة خلال أربعة أيام ، وتعاهد الأمراء على عدم قبول الملك في حالة تنازل الباي .

وفي ٨ شعبان ١٣٤٠هـ (٥ نيسان ١٩٢٢م) نشرت جريدة الصواب خبر تنازل الباي عن منصبه ، فانتشر الخبر بسرعة ، وسارت مظاهرة كبيرة نحو (المرسى) وأضربت العاصمة تلقائياً ، وسارت جموع نحو القصر تطلب من الباي التراجع عن قراره ، وتشكر له شجاعته في تأييده للدستور ، وقد تقدّم

المظاهرة الشيخ الصادق النيفر الأستاذ في جامع الـزيتونـة ، وقابـل وفد من المتظاهرين الملك ، وعند خروجهم أعلنوا أن الباي لم يتنازل حقيقة ، وقـد وعدهم بتأييد الدستور ، وكان لهذه الحادثة الأثر الكبير ؛ إذ دلّت على الترابط القوي بين الملك والرعية ، وعلى التأييـد المعنوي للملك ، وتـأييده بـالتالي للعناصر الوطنية .

وقام بعد ظهر ذلك اليوم المقيم العام بزيارة للباي وفيها تهديد واضح إذ سار إليه على رأس كوكبة من الجند انتشروا حول القصر حين دخول المقيم العام إليه ، ويبدو أن الباي قد تراجع عن موقفه ،وذكـر للمقيم العام أنه لم يكن ينوي التنازل ، فاقترح المقيم العام فرض عقوبة على الأمراء لأنهم هم الذين كانوا سبباً في تلك الأزمة ، وخرج المقيم العام سريعاً .

وكان نتيجة ذلـك أن أوقف الموظفـون الذين شـاركوا في المـظاهرة ، وخاصة شيـوخ جامـع الزيتـونة الـذين ينظر إليهم الفـرنسيون نـظرة الحقد والكراهية من منطلق صليبي ، وصدر أمر بتعطيل جريدة الصواب لإعلانها عن المظاهرة مباشرة لكونها تثير الشغب ، وأعفي الشاذي الخازندار من مهمته في البلاط ، وأثني على الذين رفضوا الاشتراك في المظاهرة ، ورفع كبارهم فقد أصبح الطيب الجلولي وزيراً أول ، وابنه حسين والـيـاً على (جربة) ، وابنه الثاني عبد العزيز والياً على (قـابس) ونال خـير الله بن مصطفى رتبـة أمير الأمراء ، وعُيِّن مديراً لجمعية الأوقاف ، وحصل على وسام جوقة الشرف من الصنف الثالث ، وقد قلّده إياه رئيس الجمهورية « ألكسندر ميلران » بنفسه .

وعندما جاء الرئيس الفـرنسي إلى تونس لم يقم بـزيارة البـاي ، وإنما استدعاه إليـه في (المرسى) ؛ حيث يقيم . وبـدا الحزب الحـر الدستـوري التونسي غير مرضيٍّ عنه ، وأنه معارض عنيف للحماية الفرنسية .

عاد الهدوء إلى تونس بعد زيـارة الرئيس التـونسي لها ، وفي ١٥ ذي القعدة من عام ١٣٤٠هـ (١٠ تموز ١٩٢٢م) مات الباي محمد الناصر بعد

مرضٍ ، وترك الملك لابن عمه محمد الحبيب . وفي ١٨ ذي القعدة ألغي المجلس الاستشاري ليحلّ محلّه المجلس الكبير ـ كما سبق أن ذكرنا ـ .

وسافر وفد تونسي إلى فرنسا ، ويضمّ : أحمد الصافي ، والطيب الجميل ، وصالح فرحات ، وأحمد توفيق المدني ، وذلك من أجل توزيع مذكرة تحمل عنوان « المسألة التونسية » على النواب الفرنسيين ، ولكن سدّت كل الطرق في وجههم .

والمشكلة أن التونسيين كانوا يتقدّمون بمطالبهم المتواضعة ظناً منهم أنهم سيحصلون عليها ما دامت بسيطة ، ونسوا أن العرف السائد يدعو إلى طلب الجليل كي يحصل على القليل ، فعندما تقدّموا بالمتواضع لم ينالوا شيئاً بل لم يلتفت إليهم أحد ، ولو طلبوا الاستقلال ، وأعدّوا ما يجب إعداده لينالوا مبتغاهم لحصلوا على أكثر مما طلبوا الآن ، إنهم طلبوا الاستقلال بالمذكرة التي قدّموها إلى الرئيس الأمريكي ويلسون ، ولكن لم يطلبوا من الفرنسيين ذلك ، وإنما طلبوا وألحّوا عليهم بمساواتهم بهم في تونس ، وبمشاركتهم في الحكم ، فكأن ذلك من حقّ الفرنسيين ، وهم يستجدون ذلك منهم استجداءً ، وكانت مطالبهم كما يلي :

١ ـ تشكيل جمعية تشريعية ومختلطة (تونسيون وفرنسيون) لها صلاحيات واسعة وخاصة في القضايا المالية .
٢ ـ تأليف وزارة تكون مسؤولة أمام الجمعية التشريعية .
٣ ـ الفصل بين السلطات .
٤ ـ حقّ إشغال الوظائف حسب كفاءاتهم ، ومساواتهم بالفرنسيين .
٥ ـ المساواة بالرواتب بين التونسيين والفرنسيين .
٦ ـ انتخاب مجالس محلية .
٧ ـ جعل التعليم إجبارياً .
٨ ـ منح التونسيين حقّ شراء أراضي الدولة .
٩ ـ منح التونسيين حقّ تشكيل الأحزاب ، وعقد الاجتماعات .

١٠ ـ ضمان حرية الصحافة .

ولم تهتم فرنسا بهذه المطالب ، وكأنها لم تقدّم إليها . وعندما جاء المقيم العام الجديد « لوسيان » ، وكان سابقه « فلاندان » عنيفاً ذهب أربعون رجلاً من أعيان تونس ، وقابلوا الباي « محمد الحبيب »[١] ، فشجعهم على مقابلة المقيم العام « لوسيان » فقابلوه ؛ فوافق على أكثر المطالب ، وأبدى تحفظاً على الطلبين الأولين ، وألغى حالة الطوارىء القائمة منذ عام ١٣٢٩هـ ، وسمح للشيخ عبد العزيز الثعالبي بالعودة إلى البلاد ، ووافق على فصل السلطات ، وأسّس عام ١٣٤٢هـ وزارة عدل تونسية ، وسمح لأكثر من عشرين صحيفة بالصدور ، وشهر الحزب الحر الدستوري التونسي نفسه برئاسة عبد العزيز الثعالبي وبشير الأصفر ، وذلك بصورةٍ رسمية ، ولكن الحزب لم يستطع أن يحصل على شيء من الفرنسيين لصالح البلاد .

وأعلنت الحكومة الفرنسية عن إحداث تغييرات إدارية في تونس باسم إصلاحات ، وقد ناقش المجلس النيابي الفرنسي هذه التغييرات في تاريخ ١٠ ـ ١١ ذي القعدة ١٣٤٠هـ (٤ ـ ٥ تموز ١٩٢٢م) ، وأبدى النواب الفرنسيون رأيهم بأنه يجب ألّا تتعارض هذه التغييرات مع الاحتفاظ بمركز فرنسا في تونس ، مع استمرار تشجيع الفرنسيين على الاستقرار فيها ، وأصدر المقيم العام في تاريخ ١٩ ذي القعدة ١٣٤٠هـ (١٣ تموز ١٩٢٢م) قراراً بإنشاء المجلس الكبير ليحلّ محلّ المجلس الاستشاري ، إلّا أن التفرقة لا تزال قائمة

---

(١) الباي محمد الحبيب : محمد بن محمد (المأمون) بن حسين بن محمود بن محمد (الرشيد) ابن حسين بن علي باي [مؤسس الدولة الحسينية عام ١١١٧هـ] ، ومحمد الحبيب هو الباي السادس عشر في هذه الأسرة ، وُلد عام ١٢٧٥هـ ، وبعد عامين توفي والده ، فربّاه عمه محمد الصادق ، فتعلّم الفقه والأدب ، وسُمّي ولياً للعهد عام ١٣٢٤هـ ، وتولّى الحكم عام ١٣٤٠هـ بعد وفاة محمد الناصر ، كانت داره موئلاً للمخلصين عندما كان ولياً للعهد ، وجارى فرنسا عندما آل إليه الأمر ، وتوفي في باريس عام ١٣٤٧هـ ، ونُقل إلى تونس .

إذ يلتقي التـونسيون وحـدهم والفرنسيـون كذلـك وحدهم ، كـما أن عدد الأعضاء الفرنسيين يعادل أضعـاف عدد الأعضـاء التونسيـين ، رغم الفرق الكبير في عدد من يمثّل كل طرف ، إذ يزيد عدد سكان تونس اثني عشرة مرة على عدد المستوطنين الفرنسيين ، كما وُجدت مجالس للمقاطعات والبلديات .

لم يقبـل رجال حـزب « الدستـور الحـر » بهـذه الإجـراءات ، فلجـأ الفرنسيون إلى الشدّة ضدّ زعماء البلاد ، فاعتقلوا من استطاعوا اعتقاله ، وفرّ من تمكّن من الفرار ، وعطّلوا الصحف ، ومنعوا الاجتماعات ، وكان عبـد العزيز الثعالبي قد فرّ فقاد الحزب أثناء غيابه محي الدين القليبي[1] ، ولجنة تنفيذية منها : الطـاهر أحمد الصافي ، والصالح فرحات .

أخذ الفرنسيون يطبّقون قواعد جديدة للجنسية ، فقد صدر في تاريخ ٨ ربيع الأول ١٣٤٠هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٢١م) قانون يجيز سحب الجنسية التونسية فيما إذا كان قد حصل عليها من مدة قريبة ، فيمكن أن تُسحب منه حتى لو كان جده من مواليـد تونس ، وهؤلاء الـذين تسحب منهم الجنسية التونسية تعطى لهم الجنسية الفرنسية ، وعـدّوا الأجانب الـذين يعيشون في تونس جميعاً من الرعايا الفرنسيين ، ثم صدر قانون آخر في تاريخ ٣ شعبان ١٣٤١هـ (٢٠ آذار ١٩٢٣م) يمنح الجنسية الفـرنسية لكـل من يطلبهـا ، ويكفي أن يظهر عواطف نحو فرنسا ، وهذا كله في سبيل جعل الكثير ممن يقيمون في تونس يحملون الجنسية الفرنسية ، وبعدها يمكن لفرنسا أن تعمل

---

(١) محيي الدين القليبي : وُلد عام ١٣٠٠هـ ، ويُنسب إلى إقليبية من بلد تونس ، تعلّم بجامع الزيتونة ، واشتغل بالصحافة ، فتولّى تحرير جرائد : « الإدارة » اليـومية ، و « الصـواب » الأسبوعية ، و « لسان الشعب » الأسبوعية ، كما ترأس صحيفة « الزهرة » أقـدم الصحف التونسية ، وتولّى أعمال الحزب الدستوري بعد غياب رئيسه عبد العزيز الثعالبي ، واعتقلته السلطات الفرنسية عام ١٣٥٣هـ ، ونُفي إلى الصحراء ، وأُطلق سراحه بعد عشرين شهراً . ارتحل إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج عام ١٣٦٧هـ ، وفي طريق عودته استقرّ بمصر يتابع أحداث بلده ، ثم سافر إلى دمشق ، وتوفي بها عام ١٣٧٤هـ ، ولـه عدة مؤلفـات منها : « مأساة عرس » ، « ذكرى الحماية » ، « رسالة عن التعليم بتونس » .

على ضمّ تونس إليها وعدّها جزءاً منها .

لقد أحسّ كثير من المسلمين خطر هذا العمل الذي يقوم به الفرنسيون ، وشعروا أن كيانهم سوف يضيع في المستقبل ، وأن شخصيتهم ستذوب وسط المجتمع الفرنسي ، لذلك يجب عليهم مقاومة هذا التيار والوقوف في وجهه ، إذ أن كثيراً من الذين أصيبوا بالهزيمة النفسية من التونسيين قد طلبوا الجنسية الفرنسية ، كما طلبها أصحاب المصالح الذين يريدون المناصب لتكون لهم الأفضلية لحملهم الجنسية الفرنسية ، وطلبها الذين يرغبون أن ترفع رواتبهم بحملهم تلك الجنسية ، إذ من المعلوم أن المستعمرين الصليبيين كانوا يعطون الذين يحملون جنسية بلدانهم أفضلية في الوظائف، ورواتب أعلى ليشعر المسلمون المواطنون أنهم أدنى بدرجات من المستعمرين فتحلّ بهم الهزيمة النفسية ، ويسعون للحاق بهم تقليداً فيتركون عقيدتهم وسلوكهم ، وفي الوقت نفسه يشعر المستعمرون الصليبيون ومن لحق بهم أنهم أعلى بدرجات فيحسّون بالتفوّق ، وأن من حقّهم أن يتحكّموا في أبناء هذا البلد ، وأن تسلّطهم إنما هو لخدمة سكان البلاد المستعمرة ليرفعوا من شأنهم وليأخذوا بأيديهم نحو الحضارة ، وهذا ما كان يدّعيه كثير من المستعمرين أمام شعوب العالم . هذا إضافة لما في هذا من منافع مادية لأبناء جلدتهم ، وتشجيعاً لهم على الهجرة والاستيطان كي يتمكنوا بهم من ترسيخ أقدامهم في البلدان المغلوب على أمرها ، وتثبيت حكمهم .

قاوم المسلمون هذا التيار اجتماعياً وعقدياً ، فقاطعوا كل مسلم طلب الجنسية الفرنسية ، وعدّوه مخالفاً للإسلام لا يصحّ دفنه في مقابر المسلمين ، وأحسّ المسلمون الذين حملوا الجنسية الفرنسية بخطر ما أقدموا عليه على بلدهم ودينهم ، لذلك دعوا إلى اجتماع ، وأقسموا وتعاهدوا فيما بينهم على العمل لاستعادة الجنسية التونسية التي هي موضع فخرهم ، وقدّموا مذكرة إلى الباي يرجون منه التوسّط لاستعادة جنسيتهم ، غير أن المقيم العام الفرنسي ، والجالية الفرنسية في تونس وصحفها ؛ قد حملوا على هؤلاء حملة عنيفةً

واتهموهم بالجبن ، وأن الفرنسيين يريدون رفع مكانتهم ، وهم يبغون الذلّ ، وأنّ الحقّ إنما يعود على القانون الذي أعطاهم هذه الميزة التي لا يستحقونها . والنتيجة أن هذه الفئة قد أصبحت محتقرة من الطرفين ، من المسلمين من جهة ، ومن الفرنسيين النصارى من جهة أخرى .

كان المسلمون على صفائهم لا يعرفون ألاعيب السياسة بعد ، ولا تقسيماتها ، ولا تنظيماتها النيابية ، فكانوا يلقون من حكام فرنسا الذلّ والشدّة والعنف والضغط ، وكان هناك معارضون في فرنسا ينتقدون الحكم ، ويحملون عليه ، وهم من يسمّون أنفسهم باليساريين ، فكان المسلمون في تونس يظنّون أن هؤلاء اليساريين أقرب إليهم أو أقلّ سوءاً من الذين يستلمون السلطة ما داموا ينتقدونهم ، لذا بدأ المسلمون يتقرّبون من اليساريين ، ويتودّدون إليهم بغفلةٍ وبساطةٍ ، وهم لا يدرون إلى أين يسيرون ؟ أما اليساريون فقد وجدوا صيداً دسماً ، فأبدوا لهم شيئاً من اللين ، وابتسموا في وجوههم ، فأحسّوا بنشوة من الإنسانية ، وأخذ التقارب بين الفريقين ، ولكن فريق مغفّل بسيط ، وفريق ماكر خبيث .

وفي ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٢م) قام المستوطنون بمسيرةٍ احتفالاً بالذكرى المئوية لأحد المطارنة ، وتقدّم المسيرة تمثال يحمل صليباً ، وطلبوا من أعوانهم الذين يتزلّفون ويتقرّبون إليهم المشاركة في المسيرة ففعل بعضهم ، وكان هذا تحدّياً واضحاً لأهل البلاد المسلمين ، فقامت يوم ٩ ربيع الثاني ١٣٤١هـ مظاهرة إسلامية ضخمة سار فيها ألف رجل من أساتذة وطلاب جامع الزيتونة كردّ فعل على مسيرة الفرنسيين وأعوانهم ، كما شارك فيها الحزب الحر الدستوري التونسي ومعظم أهالي العاصمة ، إضافة إلى من جاء من خارجها .

وبعد هذه المظاهرة ترك الحزب الحر الدستوري التظاهر ما يقرب من تسع سنوات ، وقد رأى أنها ليست بالوسيلة الناجعة .

الأسرة الحسينية :

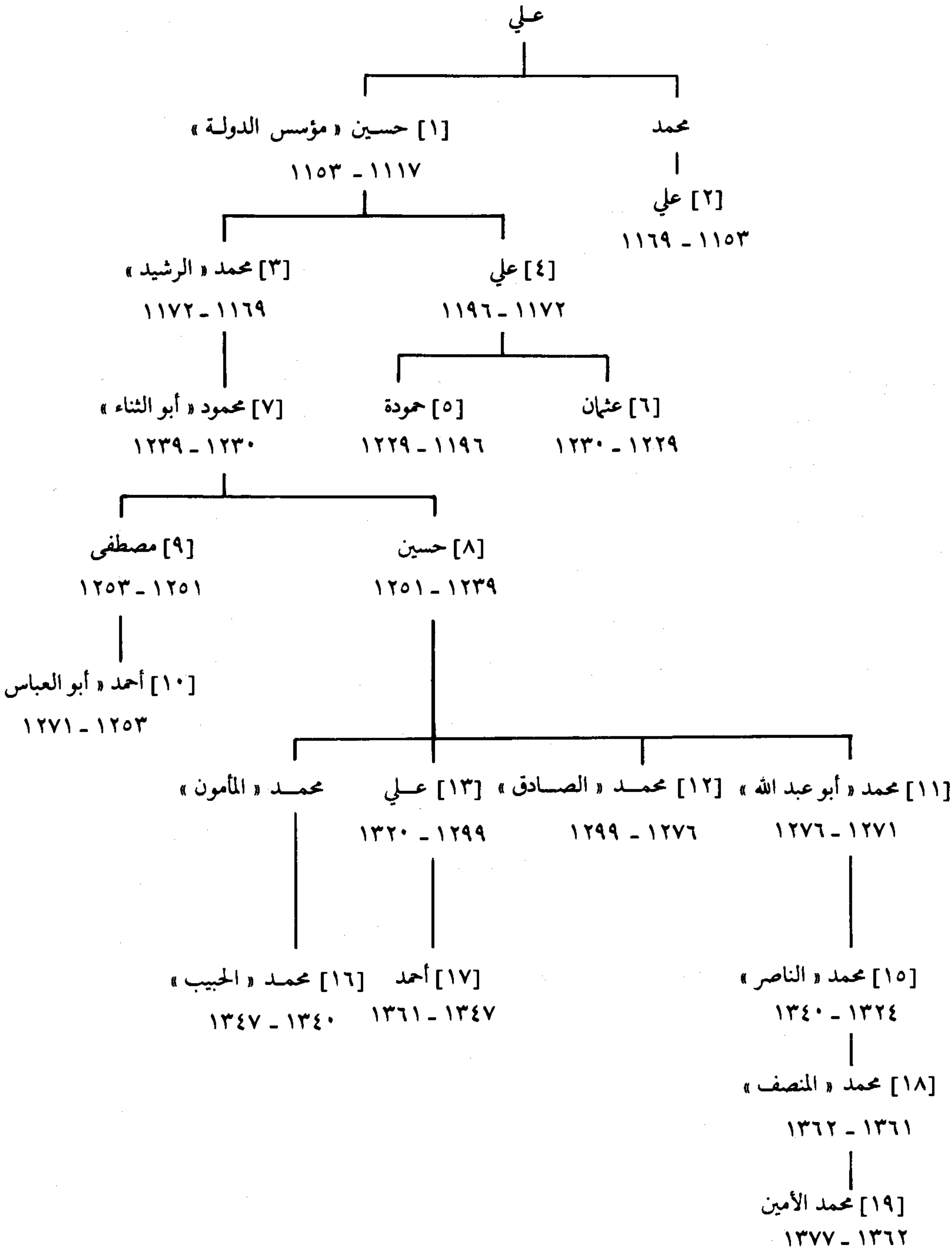

الفصل الأول

الاستعمار بعد إلغاء الخلافة

ألغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وانقطعت الشعرة الباقية التي كانت تربط بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وانكمش كل إقليمٍ على نفسه يضمّد جراحه الساخنة ، أو يعمل على قطع النزيف المتدفّق ، في الوقت الذي كان المستعمر الصليبي يعمل على تعميق الجراح بنفسه ، أو يكلّف من يؤدّي عنه هذه المهمة من أهل البلاد اصطنعه لنفسه ، أو وجد نصرانياً ممن كان يعيش بين المسلمين آمناً مطمئناً حتى إذا جاءه المستعمرون مع أبناء دينه انقلب كالوحش على من أحسن إليه وعاش معهم دهوراً ، يدعو إلى الوطنية ليهدم ، وهو يقطّع أوصال الوطنية .

ذكرنا أن المسلمين في تونس قد أخذوا يتصلون بمن يُسمّون أنفسهم باليساريين في فرنسا ظناً منهم أنهم أفضل ممن يتسلّطون على المسلمين من حكام فرنسا الذين كانوا يحكمونها يومذاك ، إذ كان اليساريون ينتقدون الذين يحكمون ، فالتقى المسلمون مع اليساريين في الانتقاد ، فكان ذلك عامل اللقاء أو التقارب ، ولم يدر المسلمون يومذاك أنهم أنفسهم يطلبون حقًّا ، وينتقدون باطلاً ، أما اليساريون فإنهم يطلبون سلطةً ، وينتقدون الحكم ؛ ليتسلّموا مكان رجاله .

تمكّن اليساريون من النجاح ، وشكّل « هريو » وزارة يسارية عام ١٣٤٢هـ ، وسُرّ المسلمون ، وانتعشت آمالهم ، وراودتهم الأحلام ، وأنهم

سيحصلون على شيء ؛ فقد فاز الذين كانت لهم معهم صلة ، وأسرع رجال الحزب الدستوري فأرسلوا وفداً إلى باريس برئاسة الطاهر أحمد الصافي لمفاوضة حكومة « هريو » وعرض مبادىء الحزب التسعة التي كان يرفعها ، وينادي بها ، ويدعو لها . ويا للصدفة ! ويا للمفاجأة ! لقد رفض « هريو » مقابلة الوفد ، وردّه ، فاكتفى الطاهر أحمد الصافي بأن قدّم مذكرة بمطالب البلاد إلى أحد العاملين في مكتب « هريو » ، وعاد خائباً .

أدرك المسلمون أن النصارى الفرنسيين سواء أكانوا حاكمين أم معارضين تغلي فيهم روح الصليبية ، ويعملون على ردّ المسلمين عن دينهم إن استطاعوا أو الفتك بهم ، وأن أيّة صلةٍ يبدونها للمسلمين إنما غايتها السير معهم ، وثنيهم عن عقيدتهم ، كما أدرك المسلمون أن الصلة التي وجدت بين حزب الدستور واليساريين الفرنسيين إنما كانت تهدف إلى ثني المسلمين عن دينهم . وقد رأى اليساريون أن هذه الصلة لا جدوى لها مع زعماء الحزب الذين عركتهم الأيام ؛ فعرفوا حلوها ومرّها ، وخبروا الرجال ، ونشأوا على العيقدة الصافية ، لذا أخذوا يتصلون مع الشباب ، ويحاولون إغراءهم بشتى الوسائل ليسيروا معهم في درب الاشتراكية في سبيل إبعادهم عن دينهم من هذا الطريق ، إذ أن الطريق المباشرة مستحيلة ، وإن كان فيها احتمال بسيط فهو غير مضمون ، وأبدى الفرنسيون أن علاقتهم معهم ، وقبول المفاوضة ؛ إن أرادها التونسيون فلن تكون إلّا عن طريق الاشتراكية ، وهكذا أخذت الاشتراكية تنمو ، وتلقى تشجيعاً من قبل الفرنسيين ، ويهرع إليها أصحاب المصالح ما داموا يرتفعون مباشرة الى الصف الأول ، وأصحاب الشهوات ما داموا يجدون مرعىً ومرتعاً خصباً .

أظهر حكام فرنسا الجدد من الاشتراكيين أنه يمكنهم التفاهم مع الاشتراكيين التونسيين فقط ، وهذا ما كان له الأثر الكبير ، إذ أراد الشباب المتطلعون إلى الظهور والشهرة نفض أيديهم من قدامى حزب الدستور . كما برز الحزب الاشتراكي في تونس ، وتقدّم بمطالب شبيهة بالمطالب التي تقدّم بها

حزب الدستور ، فوعد رئيس الوزراء بدراستها ولم تكن هذه المطالب إلّا دعوة للمساواة بالفرنسيين ، كما تعدّ الفرنسيين وكأنهم أصحاب حقٍّ مشروع في البلاد ، ويمكن ن نلخّص هذه المطالب بما يلي :

١ ـ مساواة التونسيين بالفرنسيين في عدد النواب في المجلس الكبير .

٢ ـ حقّ التونسيين في انتخاب أعضاء المجلس الكبير ، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين .

٣ ـ إعطاء المجلس الكبير حقّ النظر في الميزانية ، ومراقبة المصروفات .

٤ ـ انتخاب أعضاء المجلس بالاقتراع السري .

٥ ـ الفصل بين السلطات الثلاث : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية .

٦ ـ مشاركة التونسيين في الوظائف العامة في تونس .

٧ ـ مساواة رواتب التونسيين مع رواتب الفرنسيين .

٨ ـ حرية الصحافة .

٩ ـ حرية الاجتماعات ، وتأسيس الأحزاب .

وبعد أن درست الحكومة الفرنسية هذه المطالب أوصت بضرورة إصلاح جهاز الخدمة المدنية ، ودواوين الدولة .

وبدأ الشباب النضال من أجل الشهرة ، وليس لهم من باب سوى الاشتراكية ، وقد فتحته لهم السلطة على مصراعيه ليلج منه من يريد حيث يجد أمامه الجو مهيّئاً : المنصب والشهوة . فتزاحم على الباب أصحاب المنافع وطلاب الشهوة ، وأصدر الشاذلي خير الله جريدة « صوت التونسي » عام ١٣٤٨هـ ، وشارك في تحريرها الحبيب بورقيبة .

وعقد الشباب مؤتمراً للحركة الوطنية في ٨ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٣٠م) ، وانتخبوا هيئة الكفاح ، وكان منها : الشاذلي خير الله ، والحبيب بورقيبة، ومحمود الماطري، والطاهر صفر، و . . .

أخذت فرنسا من جانبها أيضاً العمل لإبراز هؤلاء الشباب لتتخلّص من الرجال العاملين المخلصين ، وكان عمل فرنسا : دعوة الشباب لمؤتمرات عالمية

للفت النظر إليهم ، والقيام بالهجوم عليهم لإعطائهم صفة الصدق والإخلاص ، وتشجيعهم على المستعمرين عامةً والفرنسيين خاصةً ، فالكلام الفارغ لا يُملىء أحمالاً ، والتظاهر للقيام بعملٍ ثم فشله نتيجة جهود الشباب الاشتراكيين الثائرين .

أخذت الكلمات ذات المدلول الإسلامي تنحسر من المجتمع ، وتحلّ محلّها كلمات وتعبيرات ذات مدلول آخر :

فالجهاد ؛ حلّ محلّه : الكفاح والنضال .
النصرانية : المسيحية .
العمل للإسلام : العمل للوطن .
الأعداء : الأخوة المستوطنين .

كما زالت الدعوة إلى التعليم الإلزامي باللغة العربية ، واستعمال اللغة العربية في الدواوين ، وأن تكون اللغة الرسمية للدولة .

وتظاهرت فرنسا أنها تريد الاحتفال بمرور خمسين عاماً على الاحتلال الفرنسي لتونس ، وطلبت من الشباب أن يقفوا في وجه هذه المحاولة ، إذ أنها تصرّف فردي من المقيم العام . ولا يمكن لفرنسا أو للمقيم العام أن يفكّر في مثل هذا الاحتفال، فما الفائدة التي تجنى منه؟ على حين تأتي منه أضرار وفرنسا في غنىً عنها ، إذ فيه إثارة لمشاعر السكان ، وربما اندلعت نتيجة ذلك ثورة لا تعرف نتائجها. وأبدى الفرنسيون أنهم جادّون في القيام بالاحتفال، وانطلق الشباب يقاومون ذلك ، وفشل الاحتفال ، ونجح الشباب ، وارتفع ذكرهم .

وأخذت فرنسا تفكّر فيمن تصطفي من بين هؤلاء الشباب لتوجّه اهتمامها على من يقع الاختيار عليه ، وقد ركّزت جهدها على أكثرهم تمرّغاً في الرذيلة ، واندفاعاً وراء الشهوة ، وسعياً وراء الشهرة ، ويبدو أن الحبيب بورقيبة كان من أوائل الذين وقع الاختيار عليهم .

انعقد مؤتمر لحقوق الإنسان في مدينة (فيشي) بفرنسا في ذي الحجة

١٣٤٩هـ (أيار ١٩٣١م) ، فحضره الحبيب بورقيبة والطاهر صفر ، وقدّما إليه مذكرة بمطالب التونسيين .

وأعطي الحبيب بورقيبة ترخيصاً عام ١٣٥٠هـ لإصدار جريدة « العمل التونسي » .

دعا حزب الدستور إلى عقد مؤتمر في ١٨ محرم ١٣٥٢هـ (١٢ أيار ١٩٣٣م) فانعقد المؤتمر (قسم الجبل - الشباب) ، ودعا إلى النضال لتحرير الشعب التونسي ، وإقامة مجلس نيابي ، ووزارة مسؤولة أمام المجلس النيابي ، وكانت أهداف المؤتمر :

١ - انتخاب مجلس نيابي انتخاباً حرّاً .
٢ - تأليف وزارة مسؤولة أمام المجلس النيابي .
٣ - فصل السلطات .
٤ - إصدار قانون تونسي يطبّق على المقيمين في تونس كافة .
٥ - إعطاء الحريات العامة .
٦ - إلزامية التعليم .
٧ - حماية الاقتصاد الوطني .

وجد الشباب في حزب الدستور أنهم لا يستطيعون الاستمرار بالعمل في حزب واحد مع زعماء الحزب أو الرعيل الأول فيه ، بل لا يمكنهم العمل تحت قيادتهم فلكل تفكيره ، ومنطلقاته ، ولكل وجهة هو موليها ، لذا رأوا الانفصال عنهم ، ولم يفكّروا بطردهم ، وإنما عملوا على تأسيس حزب جديد ، أو باسم قريب من الاسم الأول حتى لا تكون هناك ضجّة وانقسام في الصفوف ، وعقد الشباب مؤتمراً في بلدة (قصر الهلال) التونسية ولم يُدعَ له رجال الحزب الحقيقيين وقادته ، وذلك في مطلع عام ١٣٥٣هـ ، وأعلن المؤتمرون تبني المبادىء التي اتخذها قسم الجبل ، والدعوة إلى الاستقلال على مراحل ، وتأسيس حزب جديد يحمل اسم « حزب الدستور الجديد » برئاسة

محمود الماطري ، وكان الحبيب بورقيبة الأمين العام للجنة السياسية للحزب . وكان أكثر أعضاء الحزب الجديد من الشباب المندفع للظهور ، غير المبالي بعادات المجتمع ، وكان من أبرزهم : صالح بن يوسف ، والطاهر بن صفر ، وعلي البهلوان ، ومنجي السليم ، وجلولي فارس ، ويوسف الرويسي ، وغيرهم كثير ، وكانت صلتهم بالمقيم الفرنسي حسنة ، لذا فقد سمح لهم بإعادة إصدار جريدة « العمل » حسبما رأى المقيم العام من السياسة الفرنسية ، غير أن الحكم الفرنسي لا يريد ذلك ؛ إذ تُكشف اللعبة ولا تنطلي على الشعب ، لذا فقد استدعى المقيم العام السابق ، وجاء مقيم عام جديد أكثر إدراكاً للعبة .

اعتقل المقيم العام الجديد زعماء حزب الدستور الجديد ؛ ولمّا يمض على تأسيسه أكثر من خمسة أشهر ، فإن اللعبة أن يبرز هؤلاء الزعماء وأن يرتبط الشعب بهم ، ويصبحوا قادته الحقيقيين ، ويرتفعوا بأعين التونسيين ، وينسى الناس الزعماء السابقين . وحدثت اضطرابات في البلاد نتيجة تلك الاعتقالات ، وبقي الزعماء في المعتقل حتى عام ١٣٥٥هـ أي ما يقرب من عام ونصف ، وعندما أطلق سراحهم ابتهجت البلاد واستقبلهم الناس بحرارة ، وغدوا قادة . وعقدوا مؤتمراً في صيف عام ١٣٥٥هـ ، واتجه بعدها الحبيب بورقيبة إلى باريس للمفاوضة فقد أصبح يتكلّم باسم الشعب،ويعدّ نفسه ممثّلاً له ، فاستجابت الحكومة الفرنسية ، وأرسلت مبعوثاً لها لدراسة أوضاع البلاد ، ورجع المبعوث وفي جعبته اقتراحات للإصلاح ، غير أن الحكومة الفرنسية قد عارضت هذه الاقتراحات ؛ لتلفت النظر نحو زعماء تونس الجدد ، وليقوموا بمطالب جديدة، ويتحرّكوا ويبدوا نشاطاً، ويرتفعوا في نظر الشعب .

وأراد الفرنسيون أن يبدأوا بإثارة الشعب ليتحرّك الشباب الحزبيون فأعلن المقيم العام في ٢٩ محرم ١٣٥٢هـ (٢٣ أيار ١٩٣٣م) أنه قرّر إقامة مقبرة عامة للمسلمين والنصارى ، فهاج الشعب ، وأعلنت الصحف

سخطها ، فعطّل المقيم العام الصحف كلها في ٣ صفر عام ١٣٥٢هـ (٢٧ أيار ١٩٣٣م) ، وتحرّك الحزب ، فأعلن المقيم العام حلّه في ٧ صفر ١٣٥٢هـ (٣١ أيار ١٩٣٣م) ، وما دام الفرنسيون يحاربون الحزب الحر الدستوري فإن الشعب قد أيّده والتفّ حول رجاله ، وانطلق أعضاؤه يتحرّكون وينشطون ، وأخذ المستعمر الصليبي يحقّق لهم بعض مطالبهم ليزدادوا ارتفاعاً في أعين الناس ، وكان من ذلك ما يلي :

في ١١ ربيع الأول ١٣٥٢هـ (٣ تموز ١٩٣٣م) سُمح للتونسيين باستلام الإدارات العامة بالشروط نفسها التي تطلب من الفرنسيين .

وفي ١٤ رجب ١٣٥٢هـ (١ تشرين الثاني ١٩٣٣م) صدرت جريدة : « العمل التونسي » بالتعاون بين كل من محمود الماطري ، والحبيب بورقيبة ، والطاهر صفر ، والبحري قيقة .

قرّر الحزب إلحاق أسرة جريدة « العمل التونسي » باللجنة التنفيذية للحزب ، والتي سبق أن أعيد انتخابها في ١٨ محرم ١٣٥٢هـ .

وفي هذه الأثناء حدثت إضرابات ومظاهرات في مدينة (المنستير) ، إذ رفض السكان دفن أحد النصارى من الذين حصلوا على الجنسية التونسية في مقبرة المدينة ، وقد حاول المقيم العام إجبارهم على ذلك ففشل وقامت الإضرابات في ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ (٧ آب ١٩٣٣م) .

الانشقاق في الحزب الحرّ الدستوري : وصل إلى تونس المقيم العام الجديد « بيروطون » يوم ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ ، في الوقت الذي يرفض فيه المسلمون دفن نصراني في مقبرة المدينة ، وحاول إجبارهم فعجز . فترك الأمر وأخذ يدرس أوضاع البلاد ، فعرف ما يرغبه الأهالي ، ورأى شقّ الحزب ، وقد وجد عناصر متباينة في الفكر والمبدأ ، فأظهر أنه يريد القيام ببعض الإصلاحات ، وأخذ يعمل بمكر .

١ ـ شكّل لجنة ، وكلّفها بالإعداد للإصلاحات التي تراها ضرورية .
٢ ـ عيّن لإدارة جامع الزيتونة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

٣ ـ أعاد الشيوخ الذين عزلهم « مانصرون » المقيم العام الأسبق إلى عملهم الأساسي في جامع الزيتونة .
٤ ـ أحدث مقابر خاصة بالنصارى .
٥ ـ زاد عدد أعضاء القسم التونسي في المجلس الكبير .

رأى بعض أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي أن هذه اصلاحات مفيدة ، وربما كان المقيم العام متفهّماً للوضع فلا مانع من الاتصال به، وكان من هؤلاء الأعضاء أحمد الصافي، وصالح فرحات وما أن أعلن هؤلاء عن رأيهم حتى هبّت في وجههم أسرة جريدة « العمل التونسي » واتهمتهم بالتواطؤ وعدم الإخلاص . وأخذ الوضع يتدهور بين الفريقين ، ويظهر على غير حقيقته : بدا أن أسرة جريدة « العمل التونسي » وهي من اللجنة التنفيذية أنها متشدّدة ، والواقع أنها متساهلة ، ومتقبّلة للفكر الغربي ، ومتحرّرة من القيم التي تنبع من العقيدة الإسلامية ، وبدت اللجنة التنفيذية للحزب وهي القديمة أنها تلين مع سلطات الحماية الفرنسية ، وهي في الواقع تناصبهم العداء ، وترفض أفكارهم وسلوكهم ، وانطلق الشباب وراء أمثالهم من الشباب في أسرة الجريدة .

انفصلت أسرة جريدة « العمل التونسي » عن الحزب ، وخرجت من اللجنة التنفيذية ، وشكّلت حزب « عمل الشبيبة الدستورية » في أوائل رمضان من عام ١٣٥٢هـ (أواخر عام ١٩٣٣م) وفي ١٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ (٢ آذار ١٩٣٤م) عقد الحزب مؤتمراً استثنائياً ضمّ مختلف ممثلي الشعب الدستورية في مناطق تونس كافة ، واطلع على ما قدّمه حزب الشبيبة ، وأبدى رأيه في عمل اللجنة التنفيذية ، كما استمع إلى الردّ ، وكانت النتيجة أن حلّ الحزب اللجنة التنفيذية ، وحدّد برنامج العمل ، وأقرّ الميثاق الذي صادق عليه المؤتمر في ١٨ محرم ١٣٥٢هـ .

عاد حزب الشبيبة واحتفظ باسم الحزب الأم ، ولكن أضاف إليه كلمة « الجديد » فأصبح في البلاد حزبان يحملان الاسم نفسه وهو « الحزب الحر

الدستوري التونسي » ويُميز بعضهما عن بعض بالقديم والجديد ، وعيّن الحزب الجديد أعضاء الديوان السياسي الجديد على النحو الآتي :

١ ـ محمود الماطري : رئيساً .
٢ ـ الحبيب بورقيبة : أميناً عاماً .
٣ ـ الطاهر صفر : أمين عام مساعد .
٤ ـ محمد بورقيبة : أمين مال .
٥ ـ البحري قيقة : أمين مال مساعد .

واتجهت الأنظار نحو الحزب الجديد ، إذ ظهر للناس أنه الأكثر تشدّداً ، والأكثر حيوية ونشاطاً ، إضافةً إلى أن الأعداء يعملون على إبرازهم بإظهار العداوة لهم ، وإلقاء القبض عليهم أحياناً ، أو نفيهم وإبعادهم أحياناً أخرى ليكبروا في أعين الشعب ، وليعتقد الناس فيهم الخير والإخلاص ، وفي الوقت نفسه فهم ينادون بأصواتٍ مرتفعةٍ بالعمل على محاربة الدخلاء ومقاطعتهم ، ومع ذلك تُؤمّن مصالحهم ، ويفسح لهم بالتعبير عن آرائهم .

لقد صدرت جريدة العمل باللغة العربية . ودعا الحزب الجديد إلى مقاطعة البضائع الفرنسية ، والامتناع عن دفع الضرائب .

قرّر المقيم العام في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ (٣ أيلول ١٩٣٤م) إلقاء القبض على الحبيب بورقيبة ، ومحمد بورقيبة ، ومحمود الماطري وإبعادهم إلى الجنوب التونسي ، ثم عطّل جريدة العمل ، ومنع الاجتماعات العامة ، فقامت المظاهرات وعمّت البلاد ، فألقي القبض على كثيرين من خصوم الفرنسيين الحقيقيين ، من خريجي جامع الزيتونة ، وأعضاء الحزب الحر الدستوري القديم ، أناس يبرزون كقادة وآخرون يدفعون الثمن للأعداء ، ويحملون من صنعهم الدخلاء قادةً على أكتافهم ، ثم أبعد الطاهر صفر ، والبحري قيقة إلى الجنوب التونسي .

أما الحزب الحر الدستوري القديم فقد انصرف عنه الكثير من الشباب

لوقوعهم في شرك المناورات السياسية ، ولأنه لا يوجد من يدعمهم ولا من يحاول إظهارهم ، لذا بقوا يمثّلون تاريخهم بأشخاصهم ، وبُعد نظرهم ، واحترام الآخرين لهم ، إضافةً إلى عملهم وخبرتهم وتجاربهم ، وبعد مدة سيزول كل أثرٍ لهم ، وسيبقون رجالاً في التاريخ .

وفي ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٤هـ (٢١ آذار ١٩٣٦م) جاء مقيم عام جديد هو « أرمان ڤيون » بعد أن رفضت الحكومة الفرنسية اقتراحات المقيم العام السابق « بيروطون » في تحديد عدد الطلاب المسلمين الذين يتقدّمون إلى الثانوية العامة . عفا المقيم العام عن خريجي جامع الزيتونة الذين كانوا يعتقلون في كل أزمة ، فكانت تتجه نحوهم الأنظار ويعرفون بعدائهم للصليبيين ، وهذا ما لا يريده الفرنسيون ، ولا يخططون له ، إذ يريدون أن يبقى جامع الزيتونة وأساتذته وطلابه على هامش الحياة والأحداث لما يحقدون عليهم ، لذا فلا داعي لاعتقالهم ولفت النظر إليهم ، كما سمح بعودة خمسين شخصاً من المبعدين . وفي ١٤ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ (١ آب ١٩٣٦م) أعطى الحرية للصحافة ، وفسح المجال للاجتماعات واللقاءات . وأظهر الحزب نشاطاً واسعاً ، وتفاهم مع المقيم الجديد ، وأعلن صراحةً أنه لا يرى أعمال العنف ولا يلجأ إليها ، كما سعى لفتح باب الحوار بين قادة الحزب والمسؤولين الفرنسيين ، وساعدته جمعية النجمة للكشافة ، والشبيبة الدستورية ، وجمعية قدماء الصادقية .

وفي ١٤ ذي الحجة ١٣٥٥هـ (٢٤ شباط ١٩٣٧م) سافر الحبيب بورقيبة لإجراء الحوار مع المسؤولين الفرنسيين ، وصرّح هناك أن الوحدة التي لا تنفصم بين تونس وفرنسا تمثّل القاعدة الأساسية لمطالب الحزب الدستوري الجديد .

وفي هذه الأثناء رجع الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى تونس ، وظهر الخلاف بين الحزب القديم والجديد ، وبين الدين والعلمانية .

وعاد الحزب إلى سياسة التظاهر ، واضطرّ محمود الماطري إلى تقديم استقالته من رئاسة الحزب في ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٣٧م) .

وفي ٨ صفر ١٣٥٧هـ (٨ نيسان ١٩٣٨م) قامت مظاهرات عنيفة كان سببها في البداية اعتقال علي البهلوان الأستاذ بالمعهد الصادقي ، ثم إغلاق المعهد ، وإلقاء القبض على الكثيرين ، ثم كانت الأحداث يجرّ بعضها بعضاً .

الحرب العالمية الثانية : اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (١ أيلول ١٩٣٩م) ، واتجه الناس يتابعون أحداثها ، وبعد شهرين من اشتعالها ألقي القبض على الباهي الأدغم ، والهادي السعيدي ، والهادي خفشة ، والبشير زرق العيون .

واجتاح الألمان الأرض الفرنسية ، ودخلوا باريس ، وتشكّلت حكومة « فيشي » برئاسة الجنرال « بيتان » ، وعقدت صلحاً مع ألمانيا وإيطاليا ، وغدت تونس وشمالي إفريقية كله يتبع هذه الحكومة ، ولكن الجنرال ديغول انتقل إلى إنكلترا وشكّل حكومة فرنسا الحرّة، واستمرّ يتعاون مع الحلفاء.

وألقي القبض على الطيب سليم ، والحبيب ثامر في ذي الحجة ١٣٥٩هـ (كانون الثاني ١٩٤١م) وتوفي الباي أحمد بن الباي علي في ٢٥ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١٩ حزيران ١٩٤١م) ، وارتقى إلى منصب الباي : محمد « المنصف » بن محمد « الناصر » .

أخذ الضعف يظهر على دول المحور بعد أن وصلت قوتهم إلى الأوج في صيف هذا العام ، وأخذ الحلفاء يصمدون ، ويخططون للقيام بالهجوم المعاكس ، وقرّروا إنزال جيوشهم في شمالي إفريقية ، وفي غربي أوربا وفي فرنسا بالذات . استولى الألمان على مطار (العوينة) في ١ ذي القعدة ١٣٦١هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٤٢م) ، كما أنزل الألمان قواتهم البرية والبحرية والجوية بـ (حلق الواد) و (بنزرت) في ٤ ، و٥ ذي القعدة ١٣٦١هـ (١٢ ، و١٣

تشرين الثاني ١٩٤٢م) ، ودخلوا العاصمة دون قتال ، كما استولوا على الموانىء الشرقية .

نزلت الفرقة الإنكليزية ٧٨ بمدينة (عنابة) في الجزائر ، واستولت على مدينة (قفصة) التونسية : القوات الأمريكية والفرنسية .

تمكّن الألمان من إيقاف هجوم الحلفاء في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦١هـ (٤ كانون الأول ١٩٤٢م) وقاموا بهجوم معاكس ضدّ الفرنسيين في ١٢ محرم ١٣٦٢هـ (١٨ كان الثاني ١٩٤٣م) ، ودحروهم ، غير أن الأمريكان قد قاموا بمساعدة الفرنسيين .

طُرد الألمان من ليبيا ، فدخلوا تونس في ٢٠ محرم ١٣٦٢هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣م) . وفي ٢٤ محرم ١٣٦٢هـ (٣٠ كانون الثاني ١٩٤٣م) قام روملِ بهجوم معاكس ضدّ الفرنسيين فدحرهم ، وطرد الأمريكان من (قفصة) ، وتابع زحفه نحو الغرب ، غير أنه عاد فانسحب من (قفصة) .

عاد الحلفاء في ٢٢ صفر ١٣٦٢هـ (٢٧ شباط ١٩٤٣م) إلى الهجوم ، فاستولوا على (قفصة) في ١٢ ربيع الأول (١٧ آذار)، واحتلّ « مونتغمري » مدينة (قابس) يوم ٢٣ ربيع الأول (٢٩ آذار) ، واحتلّ الإنكليز (صفاقس) و(سوسة) يوم ٧ ربيع الثاني (١٢ نيسان) ، و(تونس) يوم ٣ جمادى الأولى (٧ أيار) .

كان الباي محمد المنصف قد أعلن حياده بين الأطراف المتنازعة ؛ وإن كانت المعارك تدور فوق تراب بلاده ؛ خوفاً من نقمة المنتصر إن لم يكن بجانبه ، وقد تمكّن من الحصول على موافقة المقيم على إطلاق سراح السجناء السياسيين ، وأعفى الوزير الأول الهادي الأخوة من منصبه دون رأي المقيم العام ، وكلّف محمد شنيق الذي اختاره محمود الماطري وزيراً للداخلية ، وصالح فرحات وزيراً للعدل ، ومحمد العزيز الجلولي وزيراً للأوقاف ، كما ألغى الأمر المؤرخ في ٧ ذي القعدة ١٣٥٤هـ (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦م)

الذي يخوّل المستعمرين الحصول على أملاك الأوقاف عن طريق التعويض بالنقد أو الملك . وأخذ الموظفون التونسيون منحة ٢٨٪ التي كان يأخذها أمثالهم من الموظفين الفرنسيين ، وأبدى بعض الشباب حماسة وتعاطفاً مع الألمان ، وظهر ذلك في جريدة « الشباب » ومنذ مطلع عام ١٣٦٢هـ ظهرت جريدة « إفريقية الفتاة » .

وفي ٣ جمادى الأولى ١٣٦٢هـ (٧ أيار ١٩٤٣م) اقتحم الإنكليز قصر حمام الأنف حيث يوجد الباي محمد المنصف ، فألقوا القبض عليه ، وذهبوا به إلى تونس ، وبجهود الكاتب العام للحكومة « بينوش » استطاع الباي أن ينتقل إلى قصره بـ (المرسى) . وجاء الجنرال جوان إلى الباي يوم ٩ جمادى الأولى وطلب منه التنازل عن منصب الباي ؛ فرفض محمد المنصف ذلك . ووقّع الجنرال « جيرو » القائد العام للقوات الفرنسية في إفريقية أمراً يقضي بعزل الباي الذي أبعد إلى (الأغواط) .

واضطرّ الباي محمد المنصف أن يرسل وثيقة التنازل إلى الجنرال « ماسط »[1] ، وعندها حمل إلى مدينة (تنس) في شمالي الجزائر ، ثم إلى مدينة (پو) في فرنسا ، وبقي حتى توفي في ٢٧ شوال ١٣٦٧هـ (١ أيلول ١٩٤٨م) ، واتهمه الحلفاء بالتعاون مع دول المحور .

وقبل انتهاء الحرب ألغى المقيم العام الجنرال « ماسط » وزارة الأوقاف ، وأحدث وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاتحدت جميع الاتجاهات السياسية عدا الشيوعيين ، وأصدرت بيان الجبهة التونسية المؤرخ في ١٠ ربيع الأول ١٣٦٤هـ (٢٢ شباط ١٩٤٥م) ويطالب البيان بمنح الاستقلال الداخلي للبلاد التونسية ، وإقامة نظام ملكي دستوري .

وقامت مظاهرات في البلاد بمناسبات عدة وكانت تساعد الجبهة

---

(١) كتب وثيقة التنازل ، وأرسلها بتاريخ جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ (٦ حزيران ١٩٤٣م) .

التونسية ، فقد خرجت مظاهرات بمناسبة وفاة الرئيس الأمريكي « روزفلت » في ٣ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (١٥ نيسان ١٩٤٥م) ، وبمناسبة انتصار الحلفاء في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٨ أيار ١٩٤٥م) وكلها كانت تُبدي تأييدها للجبهة التونسية .

وفي هذه الأثناء نشأ الاتحاد العام التونسي للشغل برئاسة فرحات حشاد ، ولكن انقسمت الحركة الوطنية ، فكانت الشبيبة الزيتونية برئاسة الفاضل بن عاشور تمثّل جبهة ، وكانت حركة « الفلاقة » ـ وتعني المقاومة ـ تمثّل جبهة ثانيةً برئاسة « بزر مدين » .

بعد الحرب العالمية : عادت الجهود فتوحّدت ، ونشأت جبهة وطنية تونسية ضمّت كلاً من :

١ ـ الشبيبة الزيتونية .
٢ ـ أتباع الباي محمد المنصف .
٣ ـ الحزب الدستوري القديم .
٤ ـ الحزب الدستوري الجديد .

وعقد مؤتمر الاستقلال في مدينة تونس برئاسة « العروسي الحداد » رئيس الدائرة الجنائية ، وذلك في تاريخ ٢٦ رمضان ١٣٦٥هـ (٢٣ آب ١٩٤٦م) ، وتكلّم فيه صالح فرحات الكاتب العام للحزب الدستوري القديم ، واحتجّ على الإدارة المباشرة ، وعلى إبعاد الباي محمد المنصف ، وطالب بالاستقلال التام ، وعندما وقف صالح بن يوسف الكاتب العام للحزب الدستوري الجديد ، وأراد الكلام اقتحم الأمن العام المبنى ، فصرخ صالح بن يوسف : هل أنتم موافقون على الاستقلال ؟ فردّد الجميع بالإيجاب ، ولكن ألغي المؤتمر ؛ إذ توقّف الكلام ، واعتقل خمسون رجلاً من رجال المؤتمر .

احتجّ الباي محمد الأمين على هذه التصرّفات من قبل الإدارة الفرنسية ،

وألغى الاحتفالات بعيد الفطر خوفاً من وقوع اضطرابات .

وفي ٢٣ صفر ١٣٦٦هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٤٧م) عُيِّن « جان مونص » مقيماً عاماً في تونس ، فأخذ يتصل بالزعماء ، وألغى الرقابة على الصحافة ، وزاد عدد الوزراء من أربعة إلى ستة ، وأعطى صلاحيات واسعة للوزير الأول . وفي ٢٧ شعبان ١٣٦٦هـ (١٦ تموز ١٩٤٧م) عُيِّن « مصطفى الكعاك » وزيراً أول . وفي هذه الأثناء أعلن الاتحاد العام التونسي للشغل الإضراب العام مطالباً بتحسين الأجور .

الحبيب بورقيبة : كان رجلاً يحبّ الشهرة ويسعى إليها ، لا يقف في وجهها عقيدة أو وطنية ، فكل شيءٍ يطرحه جانباً ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه ، ومن أجل هذا باع نفسه بيعاً سرياً ، إذ عمل منذ عام ١٣٤٦هـ في مخابرات البحرية الفرنسية ، وكانت المهمة التي ألقيت عليه مراقبة اللاجئين السياسيين الإيطاليين في فرنسا ، وكان الرقم الذي يحمله (١٣١٢٠) .

ولما برزت قوة إيطاليا بعد تسلّم موسوليني السلطة ، وأخذ يضرب يمنةً ويسرةً ، ويُلقي التصريحات الحماسية ظن الحبيب بورقيبة أن بيعه لإيطاليا أقرب منالاً لتحقيق الشهرة ، فارتمى عند أقدام الطليان ، ولاحظ الفرنسيون شيئاً على رَجُلهم فراقبوه ، فقبضوا في شهر محرم ١٣٥٧هـ (آذار ١٩٣٨م) في مدينة (قفصة) على رجل يدعى « علي الشريف »[١] يحمل رسالة من الحبيب بورقيبة إلى الطليان . وبعد مدة قبضت الشرطة على عميل إيطالي يُدعى « لوبالبو » يحمل رسالة من موظف إيطالي يُسمّى « فيليبو أنفوزو » إلى الحبيب

---

(١) علي الشريف : مذيع في إذاعة مدينة (باري) الواقعة جنوبي شبه الجزيرةالإيطالية التي كانت توجّه إلى العرب في المناطق القريبة وهي إذاعة عربية يديرها منير لبابيدي وتحت إشراف الكونت « غاليا نوتشياو » صهر موسوليني .
وكان علي الشريف أيضاً صلة الوصل بين الطليان والحزب الدستوري من الأعضاء الذين يؤيّدون الحبيب بورقيبة .

بورقيبة ، وبذا اكتشفت السلطات الفرنسية دور الحبيب بورقيبة ؛ فأودعته السجن ، ونقلته إلى فرنسا . وأخذت حكومة « ليون بلوم » تراقب أعضاء الحزب الدستوري بعد أن حلّت التنظيم .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، واجتاحت ألمانيا الأرض الفرنسية ودخلت باريس ، وتشكّلت حكومة « فيشي » الموالية لألمانيا برئاسة الجنرال « بيتان » عمل الألمان على التفاهم مع الحبيب بورقيبة ، وكان عليهم إخراجه من السجن ، وكلّف هتلر في ٢٢ محرم ١٣٦٦هـ (١٦ كانون الأول ١٩٤٢م) «كلاوس باربي» بإخراج الحبيب بورقيبة من السجن بعد محاولة التفاهم معه ، ونُقل الحبيب بورقيبة من سجن قلعة (مونليك) في (ليون) إلى قلعة (فانسيا) في (آن) ، وهناك التقى به « كلاوس باربي » ، وعرف أنه مرتبط مع إيطاليا .

نُقل الحبيب بورقيبة من سجن (فانسيا) إلى (ستالون سور ساون) ؛ حيث التقى مع رجل مخابرات نيازي آخر هو « والتر بورغاو » المختص بالشؤون العربية في جهاز الأمن السري ، وتسلّم رجل المخابرات النيازي من السجن الحبيب بورقيبة في الأول من شهر محرم ١٣٦٢هـ (٧ كانون الثاني ١٩٤٣م) ، ونقله بالقطار إلى (نيس) ، حيث سلّمه هناك إلى القنصل الإيطالي الذي تولّى بدوره نقله إلى روما . عندما قبض على الحبيب بورقيبة بتهمة التجسس لحساب إيطاليا ، وأودع السجون الفرنسية ، وحلّ الحزب الدستوري ؛ ظهرت مقاومة سرية بقيادة « بشير زرق العيون » ، وكانت تعمل على نقل توجيهات الحبيب بورقيبة إلى أنصاره ، وفي الوقت نفسه تؤمّن الاتصالات بين الألمان والطليان من جهة ، وبين أنصارهم من رفاق الحبيب بورقيبة ؛ من جهة ثانية .

وفي اليوم الثاني من وصول الحبيب بورقيبة إلى روما (٣ محرم ١٣٦٢هـ) التقى بالزعيم الإيطالي موسوليني في قصر (ريسبيغي) القريب من مقر عشيقة موسوليني «كلارا بيتاتشي». وقد وُضع في جناح من ذلك

القصر الحبيب بورقيبة وصديقاه: صالح بن يوسف، وسليمان بن سليمان.

ولاحظ الحبيب بورقيبة أن ميزان الحرب قد أخذ يميل لمصلحة الحلفاء ، وقد تراجع الألمان والطليان في شمالي إفريقية ، وأنزل الحلفاء قواتهم في المغرب على حين كان قائدهم الإنكليزي يتقدّم من مصر ، ويدحر أمامه قوات القائد الألماني رومل ، لذا فكّر أن الطريق التي تصل به إلى الشهرة والمجد إنما هي طـريق الحلفاء ، فعـدّل سيره ، واتجـه إلى الولايـات المتحدة عـظيمـة دول الحلفاء . . ، وكان عليه أن يغادر إيطاليا قبل أن يكتشف أمره .

رجع الحبيب بورقيبة إلى تونس ، وأخـذ دوره بين رجـال المخابـرات الأمريكية ، غير أن الحرب بدأت تأخذ طريقها نحو النهاية ، وتشير إلى قرب انتصار الحلفاء ، وأخذت القوات الفرنسية ترجع إلى تونس وتأخذ مكانها ، وإن كانت لا تزال قوات إنكليزية وأخرى أمـريكية في البـلاد ، إلاّ أن كل المؤشرات تشير إلى عودة فرنسا إلى تونس ، والفرنسيون قد عرفوا اتصالاته مع دول المحور ، لذا أصبح يخشى على نفسه ، وصار يتـوسط لدى الأمـريكان ليكونوا شفعاء له عند الفرنسيين ، فإن الأمور قد وضحت له بعد أن كانت خافية ، وقد حدّد طريقه النهائية ، وأنه بجانب الحلفاء ، غير أن مركزه لدى أعضاء حزب الدستور الجديد معروف ، وأخذ يـظهر في الأوسـاط الشعبية والرسمية ، ولا يمكن أن ينتظره الفرنسيون ، ولكن الأمريكان يخططون لدور يلعبه في المستقبل ولا بدّ من رفع شـأنه ، ولا يمكن أن يكـون هذا داخـل البلاد .

في الوقت الذي رجع فيه الحبيب بورقيبة إلى تـونس في شهر جمـادى الآخرة ١٣٦٢هـ (حزيران ١٩٤٣م) كان قد غادرها قبل شهر عدد من زعماء حزب الدستور الجديد ، ومنهم : الحبيب ثامر ، والطيب سليم ، ورشيـد إدريس ، ويوسف رويسي ؛ غادروا تونس مع الجيش الألماني المنهزم ، وكان الحبيب بورقيبة بعد ذلك يفتخر بهذه الحادثة مدلّلاً على بعد نظره السياسي ، فيقول : توقّعت انتصار الحلفاء ، واتجهت نحوهم ، فعدت إلى البلاد ؛ على

حين بقي بعضنا مع دول المحور فخرجوا من ديارهم .

التقى الحبيب بورقيبة سراً بالقنصل الأمريكي « هوكر دولتيل » الذي تجاهل ماضي بورقيبة ، وعمل على إقناع الجنرال الفرنسي « ألفونس جوان » بضرورة إبراز بورقيبة ، وتلميع صورته ، وتنظيف سجله من الملاحقات القضائية الفرنسية كلها[1] .

بدأ الحبيب بورقيبة يبرز على الساحة السياسية، وكان قد سافر في ١٢ ربيع الثاني ١٣٦٤هـ (٢٦ آذار ١٩٤٥م) إلى القاهرة تاركاً الحزب الدستوري الجديد ، وبعد عام لحقه الحبيب ثامر ، والطيب سليم ، والرشيد إدريس ، وبدأوا يكتبون في النشرات التي تصدرها لجنة تحرير المغرب العربي التي تأسّست بالقاهرة عام ١٣٦٦هـ . أما الحزب الدستوري بتونس ؛ فكان يصدر جرائد : « الهلال » و « الكفاح » و « الانفجار » ، وكانت توزّع سراً .

وفي مطلع عام ١٣٦٥هـ (كانون الأول ١٩٤٥م) انتقل الحبيب بورقيبة إلى نيويورك ، وأخذ يتصل بالزعماء الأمريكيين ، ورأى فيهم الدعم الخارجي ، وعندما انتهت المهمة رجع إلى تونس ، وحشدت جموع لاستقباله .

أخذ الحبيب بورقيبة يسير في الخط الذي رُسم له لينال المكافأة التي وعد بها . فنراه يعلن عن رفض الوحدة مع الشيوعيين ؛ دون داعٍ لهذا الإعلان ، كما رفض معارضة الحرب في فيتنام ، ورفض القيام بالدعايةً ضدّ الولايات المتحدة . وحمل فرحات حشّاد على اتحاد النقابات العالمي ذي النزعة الشيوعية ، وعمل على الانخراط في الاتحاد الدولي للنقابات الحرة ذي النزعة الرأسمالية . وعندما جُرّ سليمان بن سليمان إلى حركة السلام التي نشطت في

---

(١) انظر مجلة « الوطن العربي » العدد : (١٥٧) تاريخ ١٦ آذار ١٩٩٠م (١٩ شعبان ١٤١٠م) .

تلك الآونة فُصل من الحزب الدستوري الجديد . وفي ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ (١٢ نيسان ١٩٥٠م) سافر الحبيب بورقيبة إلى باريس من نفسه ، وفي ٢٧ من جمادى الآخرة سلّم لوكالة « فرانس برس » مطالب تونس السبعة ، وهي :

١ ـ بعث السلطة التنفيذية التونسية .

٢ ـ تشكيل حكومة تونسية منسجمة يرأسها عاهل البلاد .

٣ ـ إلغاء الكتابة العامة للحكومة الفرنسية .

٤ ـ إلغاء المراقبين المدنيين .

٥ ـ إلغاء الشرطة الفرنسية .

٦ ـ إنشاء بلديات منتخبة مع تمثيل المصالح الفرنسية حيث يوجد جاليات فرنسية .

٧ ـ إحداث مجلس وطنيٍّ تأسيسيٍّ منتخب بالاقتراع العام .

غضب المستوطنون الفرنسيون ، وطالبوا باسم « انطوان كولونا » عدم الاشتراك بين السيادتين التونسية والفرنسية . وفي ٣ شعبان ١٣٦٩هـ (٢٠ أيار ١٩٥٠م) قدّم « أنطوان كولونا » تقريراً عن الوضع في تونس وما يجب اتخاذه في سبيل المحافظة على مصالح المستوطنين الفرنسيين وعلى مصلحة فرنسا ، ورفع التقرير إلى « روبار شومان » وزير الشؤون الخارجية الفرنسية .

وفي ١٤ شعبان ١٣٦٩هـ (٣١ أيار ١٩٥٠م) تمّ تعيين مقيم عام جديد هو « لوي باريلي » .

الباي محمد الأمين : لما ارتقى محمد الأمين إلى منصب الباي بعد اعتقال والده « محمد المنصف » ، ثم تنازله عن منصبه ، بقي محمد الأمين يشعر أنه غير شرعي ، بل ينظر إليه الوطنيون أنه عاق ، وارتقى إلى منصبه بإرادةٍ فرنسيةٍ مستعمرةٍ ، لذا لم يستطع الاتصال بالحركة الوطنية ورجالها ، فلما توفي والده أخذ يتحرّك ، وأظهر التعاطف مع كبار رجال البلاد ، والعمل لمصلحة

القضيـة التونسيـة ، ففي ٢ شوال ١٣٦٨هـ (٢٧ تمـوز ١٩٤٩م) بمناسبـة الاحتفال بعيد الفطر طالب المقيم العام الفرنسي بإجراء إصلاحات في البلاد ، وقام بإرسال رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في تاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ (١١ نيسان ١٩٥٠م) تحدّث فيها عن نفاذ الصبر عند التونسيين بسبب مماطلة فرنسا وتسويفها الذي لا ينتهي .

وزارة محمد شنيق : عُيّن محمـد شنيق وزيراً أول في ٤ ذي القعـدة ١٣٦٩هـ (١٧ آب ١٩٥٠م) فكلّف صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد بوزارة العدل، وكان محمد شنيق الوزير الأول قد اتهم بميوله الواضحة نحو دول المحور أثناء الحرب العالمية الثانية عنـدما كـان بالمنصب نفسه . وقد قام المستوطنون الفرنسيون بارتكاب الجرائم ، والاستفزازات ، ورفضوا التعاون مع الوزارة الجديدة .

وإذا كانت فرنسا قد رأت المفاوضة مع الحكومة للسير بتونس نحو طريق الاستقلال الداخلي ، غير أن الجنرال « جوان » قـد رفض ذلك وأصرّ عـلى الاستمرار على الوضع الراهن ، وعدّ كل تغيير يحدث يؤدي إلى قلب الأوضاع في البلدان المجاورة وستحصد فرنسا شراً نتيجة ذلك .

وحـدث إضراب زراعي في مدينـة (النفيضة) في تـاريخ ١٠ صفـر ١٣٧٠هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٠م) فأرسلت لهم السلطات الفرنسية قوات الشرطة فقتل خمسة من التونسيين ، وجرح عشرة ، وظهرت الغيوم في جـو العلاقات التونسية الفرنسية ، وفي هذا الوقت وافق المجلس الوطني للحزب الـدستوري الجـديد عـلى إجراء مفـاوضات مـع فرنسـا ، وعدّ المفـاوضات مرحلية ، ولكن الحزب الدستوري القديم ، والشبيبة الزيتـونية قـد هاجمـوا المفاوضات ، وعدّوا ذلك خيانة ، وأيّدهم على ذلك المغاربة والجزائريون ، ومحمد عبد الكريم الخطابي ، والأمين العام للجـامعة العـربية عبـد الرحمن عزام ، وذلك لأن الحبيب بورقيبة كان قد تعهّد وهو في القاهرة ألاّ يقوم بأية مفاوضات منفصلة .

وافق الباي محمد الأمين على الإصلاحات ، فهدّده المقيم العام الفرنسي أثناء زيارةٍ له بقصر (قرطاج) ، وطالبه بإبعاد الوزير الأول محمد شنيق ، ووزير العدل صالح بن يوسف . ومع أن المقيم كان يتخذ أسلوب المراوغة ؛ إلّا أنه قد أماط اللثام عن وجهه فبدا على حقيقته بعد أن أُلقي خطاب الباي محمد الأمين في ٩ شعبان ١٣٧٠هـ (١٥ أيار ١٩٥١م) بمناسبة ذكرى تسلّمه منصب الباي ، ولم يعرض هذا الخطاب على المقيم العام ـ كما جرت العادة ـ .

المقاومة : سافر الوزير الأول محمد شنيق ، ومعه من الوزراء : محمد بدرة ، وصالح بن يوسف ، ومحمد سعد الله إلى باريس في تاريخ ١٦ محرم ١٣٧١هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٥١م) وفي يوم ٣٠ محرم ١٣٧١هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٥١م) سلّم مذكرة إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية « روبار شومان » ويطالب فيها باستقلال تونس الداخلي ، وإنشاء مجلس نيابي ، وإمكانية عقد اتفاقات مع فرنسا تتعلّق بالميدان الثقافي والاقتصادي رغبةً في إبقاء علاقات وطيدة مع فرنسا ، وضمان حقوق المستوطنين الفرنسيين كاملة .

رفض الفرنسيون المقترحات التونسية في اجتماع مجلس الوزراء في تاريخ ٢١ صفر ١٣٧١هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٥١م) ، وهذا ما دعا إلى قيام إضراب عام في تونس في تاريخ ١ ربيع الأول ١٣٧١هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١م) . وفي مذكرة مؤرخة في ١٧ ربيع الأول ١٣٧١هـ (١٥ كانون الأول ١٩٥١م) ومحررة بالإدارة الفرعية للمحميات بوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية تؤكّد فيها الحكومة الفرنسية على مبدأ السيادة المزدوجة ، وإصرارها على عدم التخلّي في المستقبل عن القيام بعملها لفائدة مجموع المستوطنين الفرنسيين بولاية تونس .

وبعد يومين وجّه الحزب الدستوري الجديد ، والاتحاد العام التونسي للشغل ، والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة ، واتحاد المزارعين التونسيين برقية إلى « روبار شومان » تؤكّد إصرار التونسيين على عدم قبول تحكّم جالية أجنبية

في الشؤون التونسية . ورجع الحبيب بورقيبة من باريس إلى تونس ، وجعل يدعو إلى الكفاح .

ورفض الباي محمد الأمين والوزير الأول محمد شنيق ما جاء في المذكرة الفرنسية ، وسافر صالح بن يوسف ومحمد بدرة إلى باريس في محاولة لإدراج قضية تونس في جدول أعمال الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة التي كانت منعقدة يومذاك في باريس .

وصل المقيم العام الفرنسي الجديد « جان دي هوتكلوك » إلى تونس في تاريخ ١٦ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (١٣ كانون الثاني ١٩٥٢م) ، وسلّم الباي محمد الأمين رسالة من وزير الشؤون الخارجية الفرنسية يدعوه فيها لإبعاد الوزراء الحاليين عن مناصبهم .

بدأت التجمعات الوطنية تظهر في كثير من الأماكن ، فقد عقد اجتماع في مدينة بنزرت ، ودعا فيه الحبيب بورقيبة إلى الكفاح والدخول في المعركة الحاسمة ، وعقد مؤتمر في مدينة باجة ، وشاركت المرأة فيه ؛ إشارة إلى الدور الذي يقوم به المتزعّمون للمؤتمر في تقليد الغرب ، وعدم التقيّد بالمبادىء الإسلامية ، وأن جهود الحبيب بورقيبة قد أثمرت ، ولم يعد الخوف يراود الصليبيين من المسلمين . وحاول المقيم العام منع عقد مؤتمر للحزب الدستوري الجديد الذي كان مقرراً أن يكون في ٢١ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٥٢م) وذلك باعتقال الحبيب بورقيبة ومائة وخمسين من زعماء الحزب ، إلّا أن المؤتمر قد عقد برئاسة الهادي شاكر ، وطالب بإلغاء الحماية . ومنذ ذلك اليوم عمّت الاضطرابات البلاد ، وبدأت العمليات الإرهابية في الجنوب القبلي .

خشي المستوطنون الفرنسيون على وضعهم فأخذوا يطالبون باتخاذ أكثر الوسائل صرامةً للحفاظ على الأمن ، والبطش بالوطنيين التونسيين ، وفي ١ رجب ١٣٧١هـ (٢٦ آذار ١٩٥٢م) تمّ اعتقال الوزير الأول محمد شنيق ، ووزرائه : محمود الماطري ، وابن سالم ، ومحمد صالح مزالي ، ونفيهم إلى

الجنوب القبلي ، وهكذا بقيت البلاد دون وزارة ، إذ كان بقية الوزراء وهما : محمد بدرة ، وصالح بن يوسف في باريس ، ولم يبق سوى محمد سعد الله ، ووجد الباي محمد الأمين نفسه وحيداً فأبرق إلى رئيس الجمهورية الفرنسية محتجًّا على هذه التصرّفات ، ويدعوه للتدخّل لإعادة الوزراء المعتقلين ، غير أن رئيس الجمهورية أجاب بأنه لا يستطيع أن يخذل ممثّله . وهذا ما شجّع المقيم العام على مزيد من التصرّفات الارتجالية والحمقى التي فيها إظهار القوة وإرضاء غروره فقام في تاريخ ٦ رجب ١٣٧١هـ (٣١ آذار ١٩٥٢م) بفرض عبد الهادي البكوش وزيراً أول ، وقد رفض يومها الهادي نويرة الاشتراك بهذه الوزارة ؛ فأبعد منفياً .

التقى البـاي محمـد الأمـين في ١١ ذي القعـدة ١٣٧١هـ (١ آب ١٩٥٢م) بأربعين شخصاً من زعماء مختلف البلاد ، وطلب منهم إبداء الرأي بالإصلاح ، وانبثقت عن اللقاء لجنة مؤلفة من اثني عشر عضواً لتحرير التقرير اللازم ، والذي رفعه الباي بدوره إلى رئيس الجمهورية الفرنسية .

عرضت القضية التونسية على الهيئة العمومية لمنظمة الأمم المتحـدة ، وكانت مناقشتها من ١٧ إلى ٢٥ ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٤ إلى ١٢ كانون الأول ١٩٥٢م) ، ولكن لم تكن النتائج حـاسمة ، وإنمـا اتسمت بالمـرونة وعـدم المبالاة ؛ ما دامت القضية تتعلّق بالمسلمين . وفي هذه الأثناء اغتيل فرحات حشّاد رئيس الاتحاد العام التونسي للشغل ، وهو في طريقه من رودوس إلى تونس ، وخلفه في رئاسة الاتحاد محمود المسعدي الذي اعتقل .

ونظّم المقيم العام الفرنسي « جان دي هوتكلوك » انتخابات للبلديات غير أن الشعب لم يبال بها ، وهذا ما جعل الحكومة الفرنسية تعرف أن سياسة المقيم العام غير ناجحة ؛ فاستدعته ، وعيّنت مقيماً عاماً جديداً هو « فوازار » فأنهى في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (٢ آذار ١٩٥٤م) مهمة الوزير الأول الهادي البكوش ، وعـينّ محمد صـالح المـزالي وزيراً أول ، وكلّفـه بتشكيل حكومة جديدة ، وكانت الأغلبية للتونسيين في هذه الحكومة ، وقرّر كذلك

إحداث مجلس تشريعي يضمّ تسعين عضواً موزّعاً بالتساوي بين التونسيين والفرنسيين .

وقف الباي محمد الأمين بصراحة بجانب القضية التونسية ، وكان مؤيّداً للزعماء المخلصين ، على حين كانت الوزارة متعاطفة مع المقيم العام . وقد اتسع نطاق المقاومة ، ليس في المدن فحسب وبشكل إرهابي وإنما تجاوزت ذلك إلى الريف ، وكانت على شكل حرب عصابات شنتها مجموعات منظّمة عُرفت باسم « الفلاقة » وتعني المقاومة .

وقد سيطرت مجموعة من الفلاقة يقودها « الطاهر الأسود » على منطقة (حامة قابس) ، وسيطرت مجموعة « الأزهر الشرائطي » على منطقة (قفصة) وتعدّدت المجموعات ، وانتشرت في وسط البلاد بقيادة « العجيمي » ، وسيطرت مجموعة « ساسي الأسود » على مدينة (الكاف) ، وكان في بنزرت وتونس مجموعات « محجوب بن علي » و « هلال الفرشيشي » .

ومن الطرف الثاني فقد ظهرت مجموعات إرهابية مضادّة للحركة الوطنية ولمجموعات « الفلاقة » حيث برزت منظمة اليد الحمراء الفرنسية .

أخذت الأمور تسير لمصلحة الحركة الوطنية ، إذ هُزم الجيش الفرنسي في الهند الصينية ، وعجز الجيش والشرطة في القضاء على حركة الإرهاب داخل تونس ، إذ أخذت الضحايا تتساقط تباعاً ، وزاد نشاط « الفلاقة » عندما بلغهم في ٥ رمضان ١٣٧٣هـ (٧ أيار عام ١٩٥٤م) ، خبر هزيمة الفرنسيين في الهند الصينية . وأخيراً حجبت الجمعية الوطنية الفرنسية الثقة عن حكومة « لانيال » ، وعُهد إلى « بيار منداس فرانس » بتشكيل حكومة ، وكلّف بإجراء مفاوضات في الهند الصينية ، وذلك في تاريخ ١٧ شوال ١٣٧٣هـ (١٨ حزيران ١٩٥٤م) ، وفي اليوم التالي سافر إلى تونس رئيس الوزراء الفرنسي « بيار منداس فرانس » وزار الباي محمد الأمين في قصر (قرطاج) ، وألقى كلمة قال فيها : « إن الحكومة الفرنسية تعترف بالاستقلال الداخلي للدولة التونسية دون قصد خفي ، وهي حريصة في الوقت نفسه على تأكيد ذلك من حيث المبدأ ، والعمل على أن تُوفّر الأسباب لتحقيقه ، وتأمين طرق

النجاح جميعها » .

المفاوضات : تشكّلت حكومة برئاسة الطاهر بن عمار للمفاوضة ، وقد وافق الحزب الدستوري الجديد على هذه الحكومة ، وما دام قد وافق عليها الحزب فقد وافقت عليها تونس ؛ لأن هذا الحزب قد أصبحت الدوائر الاستعمارية تبرزه ، وتظهر رئيسه ؛ إذ تريد أن تسلّمه السلطة ، كما وافقت عليها فرنسا التي تعدّ الطاهر بن عمار معتدلاً ، وقد تسلّمت الوزارة صلاحياتها في ٩ ذي الحجة ١٣٧٣هـ (٨ آب ١٩٥٤م) .

بدأت المفاوضات من الشهر الأول من عام ١٣٧٤هـ (أيلول ١٩٥٤م) ، غير أن مجموعات المقاومة « الفلاقة » قد أقلقت الحكومة الفرنسية ، وخاصةً بعد اندلاع الثورة الجزائرية في ٦ ربيع الأول ١٣٧٤هـ (١ تشرين الثاني ١٩٥٤م) . وأمام هذه الأحداث لم يكن أمام تونس إلاّ خياران :

١ ـ رفض الشروط الفرنسية والمفاوضات .

٢ ـ القضاء على المقاومة ، وإعطاء الثقة للحكومة الفرنسية ، والتصديق على كل ما تقوله وما يصدر عنها .

فاختارت الحكومة التونسية الخيار الثاني ، ودعت المقاومة إلى وقف القتال ، ووضع السلاح ، وفي الوقت نفسه تعهّدت فرنسا بإعطاء رجال المقاومة الأمان .

استجابت المقاومة لوقف القتال ، وسلّم ثلاثة آلاف مقاوم أسلحتهم ، ومع ذلك فإن المفاوضات قد تعرقلت بسبب مشكلة مطالب وحقوق الفرنسيين المقيمين في تونس ، إضافةً إلى مشكلة الأمن . وفي الجمعية الوطنية الفرنسية بدأ الهجوم على حكومة « بيار منداس فرانس » حتى سقطت .

عادت المفاوضات بعد تشكيل « ادغار فورفيفري » الحكومة الفرنسية وقد التقى مع الحبيب بورقيبة في باريس في تاريخ ٢٩ شعبان ١٣٧٤هـ (٢١ نيسان ١٩٥٥م) حيث كان بورقيبة يقيم في (شانتي) في فرنسا ، وانتهى اللقاء بالتفاهم . وفي ١٣ شوال ١٣٧٤هـ (٣ حزيران ١٩٥٥م) وقعت

الاتفاقية . وحصلت تونس على صلاحيات السيادة الداخلية ، وإقامة علاقة اقتصادية بين الدولتين ، وضمنت حقوق الفرنسيين المكتسبة أثناء الحماية ، وخاصةً فيما يتعلّق بالوظائف .

رجع الحبيب بورقيبة إلى تونس في ١١ شوال ١٣٧٤هـ ، وأخذ يهيء الأمور لنفسه بصفته رئيس الحزب ، غير أن الأمين العام للحزب صالح بن يوسف قد أخذ يعارض الاتفاقية ويتهم الحبيب بورقيبة بالخيانة ، ويدعو إلى مواصلة الكفاح .

ورجع صالح بن يوسف إلى تونس في ٢٦ محرم ١٣٧٥هـ (١٣ أيلول ١٩٥٥م) ، وأخذ يصرّح بمعارضته ، ويتهمه بعداوته للإسلام وللعرب ؛ فلقد عرف عن قرب ، ويدّعي أنه كان يسكت عن سلوك بورقيبة في سبيل مصلحة الوطن خوفاً من انقسام الحركة أمام العدو . وبدأ التميّز في الحزب الدستوري الجديد . وأعاد الطاهر بن عمار تشكيل حكومته من جديد[1] في تاريخ ٣٠ محرم ١٣٧٥هـ (١٧ أيلول ١٩٥٥م) .

انعقد مؤتمر الحزب في مدينة صفاقس في تاريخ ٣٠ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٥٥م) ، ورفض صالح بن يوسف الأمين العام للحزب المساهمة فيه ، وعندما صدرت قرارات المؤتمر رفضها بل وعارضها . وظهرت الغيوم في جوّ البلاد ، إذ استعادت بعض مجموعات

---

(١) شكّل الطاهر بن عمار حكومته الثانية على النحو الآتي :

١ ـ الطاهر بن عمار : وزير أول .
٢ ـ المنجي سليم : وزيراً للداخلية .
٣ ـ موسى الكاظم بن عاشور : للعدل .
٤ ـ جلولي فارس : للتربية الوطنية .
٥ ـ الهادي نويرة : وزيراً للمالية .
٦ ـ عز الدين العباسي : للأشغال العامة .
٧ ـ الصادق المقدم : وزيراً للصحة العمومية .
٨ ـ محمد بدرة : وزيراً للفلاحة .
٩ ـ محمد المصمودي : للاقتصاد الوطني .
١٠ ـ الشاذلي رحيم : للبريد والبرق والهاتف .
١١ ـ فتحي زهير : وزيراً للشغل .
١٢ ـ ألبير بسيس : وزيراً للتعمير .

المقاومة « الفلاقة » نشاطها . ولكن الحكومة كانت تعمل بجانب الحبيب بورقيبة ، ففي ليلة ١٥ جمادى الآخرة ألقي القبض على أنصار صالح بن يوسف ، أما هو فقد استطاع أن يفرّ ، وأن يصل إلى ليبيا[١] .

شكّل الوزارة الفرنسية « غي موليه » ، وسافر الحبيب بورقيبة إلى باريس في غرة رجب ١٣٧٥هـ (شباط ١٩٥٦م) ، والتقى مع رئيس الوزارة الفرنسية ، واتفقا على منح تونس الاستقلال من حيث المبدأ ، وجرت مفاوضات سريعة انتهت يوم ٨ شعبان ١٣٧٥هـ (٢٠ آذار ١٩٥٦م) ، وختمت بالتوقيع على وثيقة الاستقلال التي أنهت الحماية الفرنسية على تونس .

---

(١) استطاع الهرب بمعرفة وزير الداخلية المنجي سليم نفسه ، فقد أخبره بضرورة المغادرة ، وأنه مطلوب ، ورسم له الطريق ، وهيّأه له .

الفصل الثاني

الاستقلال

رجع الحبيب بورقيبة منْ فرنسا بعد أن ربط نفسه وبلاده باتفاقات ثقافية واقتصادية مع فرنسا ، وبناءً عليه تمّ توقيع وثيقة الاستقلال بشكلٍ سريعٍ ، وحصل هو على مركزٍ ممتاز ، ودعمٍ لينال مكافأة مقابل ما بذل ، ومن المعروف أن الصليبية الفرنسية تركّز على الجوانب الثقافية أكثر من غيرها حيث ترى أن ترسيخ أفكارٍ معيّنة ومفاهيم خاصة ولو كانت مادية ، وإحلالها محلّ أفكار إسلامية هو الهدف الرئيسي لها ، وهو ما تعمل له النصرانية ، فهو أشبه ما يكون بغسيل المخ ، وهذا ما يتمّ مع الزمن بنشر الأفكار المادية والإلحادية باسم الموضوعية ، وأحياناً باسم العلم افتراءً ، وإذا ما ساد هذا بين المسلمين فإنه أفضل من عمل الجيوش بكثير .

كما كان الحبيب بورقيبة قد حصل على التأييد السياسي من الولايات المتحدة الأمريكية عندما انتقل إليها من القاهرة عام ١٣٦٥هـ ، وفي هذه المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة تعمل لتحلّ محلّ إنكلترا وفرنسا في مناطق نفوذهما ، ولذلك دعمت الحبيب بورقيبة ليكون صنيعتها في تقوية النفوذ الأمريكي في تونس ، ومن المعلوم أن الصليبية الأمريكية تعمل على التوجيه من خلال تأثيرها ونفوذها السياسي ، حيث ترى أن المرتبط بها يُنفّذ ما يطلب منه ، ومن هذه الطريق تُدخل ما تريده من أفكار ، وقد تبثّها عن طريق الدعايات وعلى هذا فلا تعارض بين الصليبية

الفرنسية والأمريكية ولا داعي إلى ذلك التعارض والتضارب ، وبذا حصل الحبيب بورقيبة على التأييد من الجانبين ، وآن له أن يحصل على المكافأة ليتمكن من تحقيق الدور المعدّ له .

حصلت البلاد على الاستقلال في ٨ شعبان ١٣٧٥هـ (٢٠ آذار ١٩٥٦م) وكانت وزارة الطاهر بن عمار الثانية هي التي تحكم البلاد . وما دام قد تغيّر الوضع فلا بدّ من أن تقدّم الحكومة استقالتها ، وخاصة أن الطاهر بن عمار لم يكن من أعضاء الحزب الدستوري الجديد الذي تمّ الاستقلال باسمه . قدّم الطاهر بن عمار استقالة حكومته ، ولا بدّ من أن يُعهد إلى زعيم الحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة .

عهد الباي محمد الأمين فعلاً حسب القواعد الدستورية والديمقراطية إلى الحبيب بورقيبة بتشكيل حكومةٍ تبدأ بالبناء على أساس أن البلاد قد حصلت على الاستقلال ، ويحتاج الأمر إلى عزمٍ وجدٍّ كي يشعر المواطنون بقيمة الاستقلال ، ولا يرون تراجعاً في مجال من المجالات بأنواعها المختلفة .

وفي ٥ رمضان ١٣٧٥هـ (١٥ نيسان ١٩٥٦م) شكّل الحبيب بورقيبة الوزارة[١] . وكان همّه الأول ترسيخ قواعده ، ولن يكون هذا إلّا بإزاحة

---

(١) وُلد الحبيب بورقيبة في ١٠ جمادى الأولى ١٣٢١هـ (٣ آب ١٩٠٣م) ، ويعود في أصله إلى ولاية المنستير ، وقد درس الحقوق ، وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ الحبيب بورقيبة : وزير أول ، ووزير الخارجية .
٢ ـ الهادي نويرة : وزير المالية .
٣ ـ الباهي الأدغم : وزير الدفاع .
٤ ـ محمد المصمودي : وزير الدولة .
٥ ـ الفرجاني بلحاج عمار : وزير الاقتصاد .
٦ ـ محمود الماطري : وزير الصحة العمومية .
٧ ـ المنجي سليم : وزير دولة .
٨ ـ عز الدين العباسي : وزير الأشغال العمومية .
٩ ـ محمود الخياري : وزير البريد والبرق والهاتف .
=

خصومه ؛ لذا فقد عمل قبل كل شيءٍ على تصفية أنصار خصمه السياسي صالح بن يوسف ، واستمر هذا ما يقرب من سنة ، فلما انتهى من خصومه السياسيين المباشرين اتجه إلى إزالة من فوقه ، وقد أمّن المعارضة والذين كان يمكنهم الوقوف في وجهه .

وفي ٢٨ ذي الحجة ١٣٧٦هـ (٢٥ تموز ١٩٥٧م) ألغي منصب الباي (النظام الملكي) ، وأعلن الجمهورية ، وتسلّم هو منصب الرئاسة ؛ فليس هناك من ينازعه عليه أو يمكنه المعارضة .

ورغم أن قضية فلسطين كانت شغل العرب الشاغل ومركز اهتمام المسلمين ؛ فإن هذا لا يمنع الحبيب بورقيبة من تعيين أحد اليهود وزيراً ، وهو « أندري باروش » وزير الإسكان ، وإضافةً إلى هذا فإن هذا الوزير كان أحد أعضاء الحزب الدستوري الجديد البارزين ، وإذا كانت الوزارة السابقة - وزارة الطاهر بن عمار - قد ضمّت أحد اليهود « ألبير بسيس » بين أعضائها ، وقد كان موكلاً إليه وزارة التعمير ؛ إلاّ أنه ربما كان ذلك بضغطٍ فرنسي ما دامت البلاد لم تستقلّ بعد ، واليهود هم أحد الأركان الذين يعتمد عليهم الاستعمار ، ولكنه في الواقع العلمانية ، فإن الحبيب بورقيبة وحزبه الدستوري الجديد وأنصاره كانوا يرضون عن وزارة الطاهر بن عمار كل الرضا ، وما تسلّم اليهودي الوزارة إلاّ برأيهم . وكان الحبيب بورقيبة يحمل منذ نشأته كراهية للإسلام لأن مبادئه تحول دون أهوائه وشهواته . ولم يكن عدد اليهود أيام

= ١٠ - الأمين الشابي : وزير التربية الوطنية .
١١ - عزوز الرباعي : وزير الرياضة والشباب .
١٢ - البشير بن يحمد : وزير الإعلام .
١٣ - مصطفى الفيلالي : وزير الفلاحة .
١٤ - أندري باروش : وزير الإسكان .
١٥ - الطيب المهيري : وزير الداخلية .
١٦ - محمد شقرون : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٧ - أحمد المستيري : وزير العدل .

الاستقلال ليزيد على مائة ألف من أصل ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف ؛ عدد سكان تونس يومذاك ، ومع زوال الاستعمار بدأ العدد يتناقص ، فلا يوجد اليوم في البلاد أكثر من ثلاثة آلاف يهودي .

وما دام قد ارتقى الحبيب بورقيبة إلى منصب رئاسة الجمهورية فإن منصب رئاسة الحكومة قد أصبح شاغراً ؛ فاختار الباهي الأدغم ليملأه ، ويشكّل الحكومة من جديد . وعندها يصبح هو الرأس المهيمن على مقدرات البلاد ، ويمكنه التصرّف كما يريد ، يرسم ويخطّط وفق هواه ومصالحه وإرضاءً لغروره ، وهناك من ينفّذ .

وفي ٢ محرم ١٣٧٧هـ (٢٩ تموز ١٩٥٧م) عُيّن الباهي الأدغم[١] وزيراً

---

(١) الباهي الأدغم : وُلد في تونس في ٢ صفر ١٣٣١هـ (**١٠ كانون الثاني ١٩١٣م**)، ودرس المرحلة الثانوية فقط ، وتسلّم عدة مهام وزارية ، منها : الدفاع ، والمالية ، والتخطيط ، والتجارة ، ثم عُيّن وزيراً أول ، وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ الباهي الأدغم : وزير أول .
٢ ـ الهادي نويرة : وزير الاقتصاد .
٣ ـ محمد المصمودي : وزير السياحة .
٤ ـ الصادق المقدم : وزير الخارجية .
٥ ـ المنجى سليم : وزير العدل .
٦ ـ عز الدين العباسي : للتجارة والصناعة .
٧ ـ الأمين الشابي : وزير التربية الوطنية .
٨ ـ عزوز الرباعي : وزير الشباب والرياضة .
٩ ـ أندري باروش : الأشغال العمومية والإسكان .
١٠ ـ البشير بن يحمد : وزير الإعلام .
١١ ـ أحمد المستيري : وزير المالية .
١٢ ـ عبد السلام الكتاني : وزير التخطيط .
١٣ ـ الطيب المهيري : وزير الداخلية .
١٤ ـ محمو الخياري : وزير الفلاحة .
١٥ ـ محمد شقرون : الشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ الرشيد إدريس : البريد والبرق والهاتف .
١٧ ـ أحمد بن صالح : الصحة العمومية .

وجرى على هذه الوزارة التي دامت ثلاث عشرة سنة عدة تغييرات وزارية ، إذ تركها وزراء في أوقات مختلفة ، ودخلها آخرون ، وهذه التعديلات هي :

أ ـ في ٢٥ صفر ١٣٧٧هـ (٢٠ أيلول ١٩٥٧م) ترك الوزارة بشير بن يحمد ، وحلّ مكانه =

. . . .

= مصطفى الفيلالي .

ب - في ٩ جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ (٣١ كانون الأول ١٩٥٧م) ترك الوزارة عزوز الرباعي .

جـ - في ٩ شعبان ١٣٧٧هـ (٢٨ شباط ١٩٥٨م) ترك أندري باروش وزارة الأشغال العمومية والإسكان ، وحلّ مكانه أحمد نور الدين .

د - في ١٧ شوال ١٣٧٧هـ (٦ أيار ١٩٥٨م) ترك الأمين الشابي وزارةالتربية الوطنية ، ومحمد شقرون وزارة الشؤون الاجتماعية ، وشغل محمود المسعدي وزارة التربية الوطنية .

هـ - وفي ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٥٨م) ترك مصطفى الفيلالي وزارة الإعلام ، كما ترك محمود الخياري وزارة الفلاحة ، واشترك في الوزارة الهادي خفشة ، وأُضيفت وزارة الفلاحة إلى عبد السلام الكناني .

و - وفي ١٦ رجب ١٣٨٠هـ (٣ كانون الثاني ١٩٦١م) دخل الوزارة المنذر بن عمار وأُسندت إليه وزارة الصحة العمومية .

ز - وفي ٢٧ ربيع الثاني ١٣٨١هـ (٧ تشرين الأول ١٩٦١م) تسلّم وزارة الإعلام الشاذلي القليبي .

ح - وفي ٢٨ شوال ١٣٨١هـ (٣ نيسان ١٩٦٢م) جاء عبد المجيد شاكر إلى وزارة الإعلام والفلاحة .

ط - وفي ١٦ ذي القعدة ١٣٨١هـ (٢٠ نيسان ١٩٦٢م) ترك عبد السلام الكناني وزارة التخطيط والفلاحة .

ي - وفي ٩ ربيع الأول ١٣٨٢هـ (٩ آب ١٩٦٢م) ترك الصادق المقدم وزارة الخارجية .

ك - وفي ١٢ شوال ١٣٨٣هـ (٢٥ شباط ١٩٦٤م) ترك الرشيد إدريس وزارة البريد والبرق والهاتف ، وعُيّن لها نجيب البوزيري .

ل - وفي ٨ رجب ١٣٨٤هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٦٤م) جرت التعديلات الآتية :

دخل محمد الجدي الوزارة ، وأُسندت إليه وزارة الفلاحة .

وعبد الله فرحات ، وأُسندت إليه وزارة البرق والبريد والهاتف .

والحبيب بورقيبة الابن ، وأُسندت إليه وزارة الشؤون الخارجية .

وعبد الرزاق الرصاع ، وأُسندت إليه وزارة المالية والتنمية .

والبشير الناجي ، وأُسندت إليه وزارة الصناعة والتجارة .

وفتحي زهير ، وأُسندت إليه وزارة الصحة العمومية .

وفي الوقت نفسه ترك الوزارة :

نجيب البوزيري وزير البريد والبرق والهاتف .

والطيب المهيري وزير الداخلية .

م - وفي ٧ ربيع الأول ١٣٨٥هـ (٥ تموز ١٩٦٥م) اشترك في الوزارة الباجي قائد السبسي ، =

أول بعد أن تسلّم الحبيب بورقيبة رئاسة الدولة ، وقد استمرّت حكومة الباهي الأدغم أكثر من ثلاث عشرة سنة .

بعد أن شكّل الباهي الأدغم الحكومة أخذ الرئيس الحبيب بورقيبة يتفحّص أعضاءها ، ويدرس ارتباطاتهم ، فأخذ يبعد منهم كل من يمتّ بصلةٍ مهما كان نوعها إلى صالح بن يوسف ، فأبعد مثلاً عزوز الرباعي وزير الشباب والرياضة ؛ ولمّا يُمض في الوزارة شهره الخامس .

= وعُهد إليه بوزارة الداخلية .

ن ـ وفي ١٩ جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ (٤ تشرين الأول ١٩٦٦م) ترك فتحي زهير وزارة الصحة العمومية .

س ـ وفي ١٩ ربيع الثاني ١٣٨٧هـ (٢٦ تموز ١٩٦٧م) جرت التعديلات الوزارية الآتية :
ترك البشير الناجي وزارة الصناعة والتجارة ، وأُسندت إلى منصور معلى .
وترك محمد الجدي وزارة الفلاحة ، وأُسندت إلى الأسعد بن عصمان .

ع ـ وفي ٢٣ رجب ١٣٨٧هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٦٧م) اشترك الطيب السليم في الوزارة كوزير للدولة .

ف ـ وفي ١٤ محرم ١٣٨٨هـ (١٢ نيسان ١٩٦٨م) تسلّم محمد مزالي وزارة الداخلية .

ص ـ وفي ٢ ربيع الثاني ١٣٨٩هـ(١٧ حزيران ١٩٦٩م) تسلّ الطاهر بلخوجة وزارة الفلاحة .

ق ـ وفي ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ (٨ أيلول ١٩٦٩م) جرت التعديلات الآتية :
عُهد إلى محمد السنوسي بوزارة العدل .
وإلى حسان بلخوجة بوزارة الصناعة والتجارة .
وإلى إدريس قيقة بوزارة الصحة العمومية .

ر ـ وفي ٢٧ شعبان ١٣٨٩هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٦٩م) ترك أحمد بن صالح وزارة الصحة العمومية . واشترك في الوقت نفسه الشاذلي العياري بالوزارة حيث أُسندت إليه وزارة التخطيط ، ومحمد الصياح وعُهد إليه بوزارة الإعلام ، والصادق بن جمعة وأُعطي وزارة الشؤون الإجتماعية ، والتيجاني الشلّي وقُلّد وزارة الأشغال العمومية .

ش ـ وفي ٨ ربيع الثاني ١٣٩٠هـ (١٢ حزيران ١٩٧٠م) تسلّم الحبيب بولعراس وزارة الشؤون الثقافية ، وحسيب عمار وزارة الدفاع الوطني .

ت ـ وفي ١٣ ربيع الثاني ١٣٩٠هـ (١٧ حزيران ١٩٧٠م) عُهد إلى :
الحبيب بن الشيخ بوزارة الأشغال العمومية .
وبكار التوزاني بوزارة الاقتصاد .
وعبد العزيز بلطيف بوزارة التربية الوطنية .

النقابات : تشكّلت قبل الاستقلال بعض الاتحادات مثل : الاتحاد العام التونسي للشغل ، ومنظمة الصناعة والتجارة ، والمنظمات الفلاحية والطلابية والنسائية ، فلما نالت البلاد الاستقلال أرادت هذه المنظمات مضاعفة النشاط والانطلاق نحو أهدافها ، غير أنها اصطدمت مع السلطة التنفيذية ، وحدثت أزمة بين الطرفين ، فأراد الحبيب بورقيبة الإفادة بتعيين عدد من قياديي الاتحاد في الحكم ، فدخل الحكومة أحمد بن صالح ، ومصطفى الفيلالي ، ومحمود الخياري ؛ لعلّه يتمكّن من شراء بعضهم ، واحتواء بعضهم الآخر ، وتنتهي المشكلة لمصلحة السلطة التنفيذية . غير أن الأزمة قد تجدّدت مما أدّى إلى إقصاء بعض النقابيين من الحكومة مثل : مصطفى الفيلالي ، والأمين الشابي ، ومحمود الخياري ، وتعيين وزراء آخرين مكانهم مثل محمود المسعدي ، وأحمد نور الدين .

وحتى يكون تصرّف رئيس الجمهورية دستورياً ومبرّراً فقد نصّ الدستور في الفصل ٣٧ تاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٧٨هـ (١ حزيران ١٩٥٩م) على أن رئيس الجمهورية هو الذي يمارس السلطة التنفيذية . فكان هو الذي يعيّن الوزراء ، وهو الذي يعفيهم من مناصبهم أو يطردهم . ولما كان الحبيب بورقيبة وحدهِ في الميدان فقد كثر المتزلّفون إليه شخصياً ، والمرتبطون به فردياً .

معركة ساقية سيدي يوسف : كانت الثورة الجزائرية قد قويت ، وامتدّ لهيبها ، وكان بعض المجاهدين إذا اشتدّ عليهم الضغط دخلوا حدود تونس ، وكانت الحكومة التونسية ملزمة أدبياً بقبول ذلك أو السكوت عنه ، وكانت فرنسا تحتجّ دائماً على هذا السكوت التونسي ، وتعدّه مساعدة من تونس إلى الجزائريين ، أو أنه عدوان صريح على فرنسا ، ولم يكن لفرنسا أي وسيلة لإلزام تونس على إغلاق حدودها في وجه المجاهدين الجزائريين ، وأن الاتفاقية الموقّعة بين الطرفين لم تنصّ على شيء من هذا ، وكذلك وثيقة الاستقلال ، وكل ما هنالك أنه توجد اتفاقات ثقافية واقتصادية . أما من الناحية السياسية فإن الارتباط ؛ إنما هو مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وسبق أن ذكرنا أن

الولايات المتحدة تريد إضعاف النفوذ الفرنسي في مراكزه المنتشرة فيها ، والحلول مكانه ، لذا فهي ترغب من تونس إيواء المجاهدين الجزائريين في أراضيها وعدم الرضوخ للضغوط الفرنسية التي تمارسها ، ومن هنا كانت السياسة التونسية ملزمة لمساعدة الجزائريين أدبياً بصفة أن الجزائر دولة مجاورة وأن سكانها من العرب المسلمين ، ومجبرة سياسياً تبعاً للسياسة الأمريكية التي تنتهجها في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وخاصة ما بعد عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) . ولما وجدت فرنسا هذا الأمر كانت ترى أنه لا بدّ من الضغط العسكري لذا قامت في عام ١٣٧٨هـ بالاعتداء على ساقية سيدي يوسف حيث توجد بعض المراكز للمجاهدين الجزائريين حسب الزعم الفرنسي ، وقصف الطيران الفرنسي تلك المراكز والساقية ، ووقع عدد من القتلى ، فاحتجّت تونس رسمياً لمنظمة الأمم المتحدة ، وقامت الدول العربية تساندها وتشجب العدوان ، ثم حلّت القضية سلمياً .

مقتل صالح بن يوسف : وقُتل صالح بن يوسف خارج تونس في ظروف غامضة ، وذلك عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) ، وكان يعدّ من أبرز المعارضين للحكم التونسي ، لذا كانت الاتهامات بالقتل تشير إلى رئيس الحزب الدستوري الجديد ، وكان القتل في ألمانيا ، وعلى يد بشير زرق العيون ، وخفي الأمر يومها .

والسلطة كانت محتكرة بطريقة غير دستورية ؛ خارج الحزب بإخماد المعارضة ، وداخله باحتواء المنظمات كلها ، حيث حلّت كل الجمعيات التي كانت قائمة يوم الاستقلال ، وأصبح أعضاء اللجنة المركزية للحزب يُعيّنون من قبل رئيس الحزب .

محاولة الانقلاب : جرت في عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) محاولة انقلابٍ عسكريٍّ غير أنها فشلت ، ويبدو أن الاتهام كان موجّهاً إلى أعضاء الحزب الشيوعي . ولكن بعد القضاء على المحاولة جرى سكوتٌ مؤقّتٌ مدّةً من

الزمن ، ثم اتخذت التدابير اللازمة لذلك ، وقامت عملية بطش رهيبة كي لا يفكّر عسكري في العمل السياسي .

منع النشاط الحزبي : أعلن عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) عن تعطيل الحزب الشيوعي ، وإيقاف صحف المعارضة ، والإبقاء على الحزب الواحد إذ لم يُسمح لنشاط أي حزبٍ أو اتجاهٍ سياسيٍّ بعدها .

لقد كان رئيس الجمهورية ، رئيس الحزب الحاكم ، الحزب الدستوري يُعيّن الوزير الأول ، ويتقلّد بموجب ذلك الأمانة العامة للحزب على عكس ما يجب أن يكون ، إذ من المعروف أن الأمين العام للحزب يتولّى منصب الوزير الأول ؛ لا العكس .

وكان يُقبل في الحكومة أعضاء يحملون اتجاهاتٍ معارضةً للحزب أو مغايرةً له ، وكل ما هنالك أنهم يعلنون تخلّيهم عن أفكارهم السابقة ، وقبول آراء الحزب الحاكم ، وأنهم سيساهمون في مسيرة الحزب ولمصلحة الحكم ، فـ « محمد الصياح » يميل إلى الحزب الشيوعي ، و « زكريا بن مصطفى » يحمل أفكار حزب البعث ، و « المنجي بن حميدة » يميل إلى اليسار التروتسكي ، ومع ذلك فقد ساهموا جميعاً في الحكومات التونسية تحت مظلّة الحزب الحرّ الدستوري ، يتنكّر الواحد منهم لأفكاره ويتزلّف لرئيس الحزب حتى يصبح في الحكم .

معركة بنزرت : كانت وثيقة الاستقلال ، وما جرى من مفاوضات قبلها بين تونس وفرنسا قد تركت (بنزرت) قاعدةً لفرنسا . وقد حان لتونس أن تطالب بها ، وتسترجعها من أجل مصلحة البلاد ، وما تقتضيه الظروف السياسية في تحجيم النفوذ الفرنسي والإنكليزي في مناطق نفوذهما، وإحلال النفوذ الأمريكي محلّها ، كي تصبح الولايات المتحدة الدولة القوية وتدور دول حلفائها في فلكها لمصلحة حلف شمال الأطلسي ليكون اتخاذ القرار من مصدر واحد ؛ كما هو شأن « حلف وارسو » وليس من عدة مصادر كما هو شأن

« حلف شمالي الأطلسي » عندما يكون فيه عدة دولٍ قويةٍ ، ولن يفقد الحلف أية قوةٍ بإضعاف النفوذ الفرنسي أو الانكليزي لحساب الولايات المتحدة الأمريكية ، فقوة الحلف هي مجموعة قوى الدول الداخلة فيه . فما ضاع من قوة إنكلترا أو فرنسا ذهب إلى الولايات المتحدة ، وبذا لن يخسر الحلف شيئاً من قوته ، وإنما يستفيد في التركيز على مصدرٍ واحدٍ يتخذ القرارات .

وكانت الحكومة التونسية بحاجةٍ إلى تقوية مركزها في الداخل بعد التفرّد بالسلطة ، وسياسة البطش التي اتبعتها ضدّ العسكريين ، وإلغاء تراخيص الصحف المعارضة ، وحظر الحزب الشيوعي ، ومقتل صالح بن يوسف ، واختفاء كل المنظمات ؛ ما عدا الحزب الحرّ الدستوري ، فلا بدّ من عمل شيءٍ يُعيد للحكومة مكانتها ، وكان موضوع قاعدة (بنزرت) أهم ما يؤدّي هذا الغرض .

طالبت تونس الفرنسيين بترك قاعدة (بنزرت) والانسحاب منها ، ولكن فرنسا رفضت ذلك ، وأصرت على البقاء فيها ؛ لأنها ضرورة بالنسبة لها ، وأخذت المقاومة تغير على القاعدة ، وتضرب أهدافاً فرنسية ، ووقعت أزمة بين الدولتين انتقلت إلى الأوساط الدولية ، وإلى أروقة الأمم المتحدة ، واضطرّت فرنسا إلى الانسحاب من بنزرت عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) بعد عدد من المعارك جرت بين التونسيين والفرنسيين .

التعديل إلى الاشتراكية : بدأ الاقتصاد التونسي يتدهور ، وأخذت تلوح في الجوّ إشارة أزمةٍ حادّةٍ ، فقدّم أحمد التليلي استقالته من الحزب الدستوري ، ورفع مذكرةً إلى رئيس الحزب يُصوّر فيها الأسباب التي أدّت إلى ذلك ، وطريقة الخلاص .

وكانت النتيجة أن اتجهت البلاد نحو الاشتراكية ، وغُيّر اسم الحزب من « الحزب الحرّ الدستوري » إلى « الحزب الاشتراكي الدستوري » ، وذلك عام

١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) ، وكان هذا التغيير نتيجة الأسباب التالية :

١ ـ كانت الفكرة الاشتراكية قد عمّت في الثمانينات من القرن الرابع عشر الهجري كثيراً من المجتمعات في العالم ، وخاصةً المجتمع العربي ، فكان ذلك مسايرةً للركب .

٢ ـ امتصاص نقمة المنادين بالاشتراكية، والذين خُدعوا بها دون معرفة، وإنما بسبب شيوعها والمناداة بها .

٣ ـ البرهان العملي على أن الاشتراكية تزيد في البؤس ، وتؤدّي إلى التواكل ، وهذا ما يدفع إلى محاربتها بعد تطبيقها والممارسة العملية لها .

٤ ـ التلويح بأن تونس غير مرتبطةٍ بالغرب ، وإنما هي دولة غير منحازة يمكن أن تأخذ بأي نظام تراه مناسباً لها ، أو تتوقّع النفع منه . وقد سبق أن ذكرنا أن الولايات المتحدة لا يهُمّها العناوين والشعارات وإنما تعطي الاهتمام كله إلى التوجّه السياسي ، فإن الشعارات الفارغة لا تملأ فراغاً ، وإنما تدفع إلى ردّ الفعل ، فلو وضعت على وعاءٍ مُلِىء سكّراً ورقةً كُتب عليها ملح ؛ فإن ذلك لا يجعل المحتوى ملحاً ، ولا يُصير السكر مالحاً .

إن يوغوسلافيا كانت شيوعيةً في مُسمّاها ، رأسماليةً في منحاها ، أمريكيةً في توجّهها السياسي ، عيناً للرأسمالية في قلب الشيوعية .

لم يتغيّر شيءٌ في تونس بعد تغيير العنوان ولبس الشعار الجديد ، واستمرّت الأزمة ، واستقال أحمد المستيري ، وإنما الذي تغيّر أن صمت الذين يرغبون في الاشتراكية ، وكُمّت أفواههم .

السياسة العامة : لم تكن هناك أحداث جسام في سياسة تونس الخارجية بعد معركة (بنزرت) ، وإنما كانت أحداث داخلية ، وكان الشعب منصرفاً إلى قضاياه الخاصة مع تحرّقٍ على ما يجري على الساحة التونسية دون إمكانية فعل شيءٍ .

كان الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية ، رئيس الحزب الاشتراكي

الدستوري أكثر نظرائه استهتاراً بالقيم وبعقيدة الشعب ، فكـان يمارس مـا يخالف عقيدة المسلمين ، ويجاهر بذلـك ، ويصرّح ، ويصدر القـوانين دون مراعاة لأية قيم ، فكان أن استصغر الأمة بعينه بعد أن رفعته ، وازدراها بعد أن سلّمته قيادها .

وكانت عنده من الناحية السياسية جرأة أن يقول ويعلن ما لا يجرؤ أحد من أمثاله أن يفعله ، وذلك لعدوم اهتمامه بالشعب . كانت في تلك المرحلة قد بلغت القضية الفلسطينية مرحلة دقيقة ، فالأمة الإسلامية كلها تكره أن تعترف بدولة اليهود في فلسطين ، والشعب العربي لا يمكن أن يقبل من أحدٍ أن يبحث في هـذا الموضـوع ، والطريق الـدولية مسـدودة ، وهنـاك تفـاهم ضمني على الاعتراف ، ولكن يخشى من الأمة ، وثورة الشعب . وفي أواخر عام ١٣٨٤هـ عُقد مؤتمر القمة العربي، وبحث موضوع فلسطين والاعتراف بالوضع الراهن، وصمت الجميع ، وتعهّد الحبيب بورقيبة بإعلان ذلك إذ لا يهاب شعبه على أن لا يُهاجم ولا يُحرّض عليه ، وصمت الجميع موافقةً دون الإعلان ، وذهب وصرّح بذلك ، فانطلقت المظاهرات ضدّه ، واضطرّت وسائل إعلام من أقرّ بالسكوت ؛ على الهجوم عليـه والتنديـد به ، وكـان نتيجة استهتـاره بالقيم والعقيدة ، وجرأته السياسية التي تنبع من ازدرائه للشعب الذي يخالف سياسة رئيسه العامة أن أصبح الرئيس بورقيبة غير محبوب من قبل أكثر أبناء الشعب العربي وبقية الشعوب الإسلامية .

وقبض رئيس الحـزب على نـاصية الأمـر بشكل قـويٍّ ، فتقرّب منـه أصحاب المصالح والأهواء ، وتزلّف إليه الطامعون في المناصب والوظائف ، وكان منهم أصحاب الاتجـاهات المتبـاينة ، وسكت الآخـرون من المسلمين الملتزمين الذين وجدوا أنهم لا يستطيعون فعل شيءٍ ، وخاصةً أن أمثالهم ينكّل بهم في كثيرٍ من الأمصار ، كما صمت العامة الذين لا يعرفون شيئاً لجهلهم بالعقيدة وعدم اهتمامهم بشيءٍ إذ ينصرفون إلى أعمالهم وشؤونهم الخـاصة ، وهذا جلّ اهتمامهم .

وبقي العامة في جهةٍ ، يمارسون حياتهم اليومية ، عقيدتهم سليمة ، لا يرغبون الانخراط في السياسة لعدم وجود فراغٍ لها عندهم ، ولأن الأمور تضيع عندهم فلا يعرفون الحقّ من غيره ، فوسائل الإعلام تزيّن لهم الأخبار ، وما يعرفونه بطبيعتهم السليمة لا يتفق مع ذلك ، فيقعون في خضم الأحداث المتناقضة في أذهانهم . والمسلمون الملتزمون في جهةٍ ، يعلمون الواقع المرير ، ولا يمكنهم تغييره ، إذ ليس في أيديهم ما يساعدهم على ذلك ، وإذا كانوا يلقون محبةً وعطفاً وتأييداً من العامة غير أنه لا يمكنهم قيادتهم لتمنّع العامة نتيجة عدم معرفتهم الحقيقة ، ولخوفهم من مغبّة الأمر ، حيث يسمعون ما يجري في بقية الجهات .

وأما المجموعات الأخرى فيختلط بعضها مع بعض ، وكلها تسعى وراء مصالحها ، وتعمل لتحقيق أهدافها ، وإذا كان لكل منها وجهةٌ هو مولّيها إلاّ أنه يمكنه أن يدخل إلى صفوف التجمعات الثانية ، لأنه لا يختلف أحدها عن الآخر ؛ إلاّ في الوجهة التي هو مولّيها ، أما السلوك فهو واحد ينبع من مصدرٍ بعيدٍ عن الإسلام ، والتصرّف واحد ، والنظرة إلى الحياة المادية واحدة ؛ سواء أكانت مادية فردية (رأسمالية) ، أم جماعية (شيوعية) ، والأخلاق واحدة ، لذا فهم جميعاً يُبقون وجهتهم التي يولّون وجوههم نحوها في نفوسهم إلاّ على من يعرفون أنهم يتفقون معهم تماماً في الوجهة، ثم يسيرون معاً يُظهرون الاتفاق فيتقاسمون المصالح ، وينهلون من المنهل نفسه .

وفي ٨ رمضان ١٣٩٠هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٧٠م) أقصي الباهي الأدغم عن منصبه ، وكان غائباً عن تونس ، إذ كان في عمان في مهمّةٍ للمصالحة بين الحكومة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وقد كلّف بهذه المهمة من قبل جامعة الدول العربية ، وكانت تونس آنذاك تمرّ بأزمةٍ اقتصاديةٍ وسياسيةٍ حادّةٍ ، وعُيّن الهادي نويرة وزيراً أول[1] .

---

(١) الهادي نويرة : وُلد في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٩هـ (٦ نيسان ١٩١١م) ، ويعود إلى ولاية =

= المنستير ، وقد درس الحقوق ، وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ الهادي نويرة : وزير أول .
٢ ـ محمد المصمودي : وزير الخارجية .
٣ ـ محمود المسعودي : وزير دولة للشؤون الثقافية .
٤ ـ الهادي خفشة : وزير التجهيز .
٥ ـ الشاذلي القليبي : وزير الإعلام والثقافة .
٦ ـ منصور معلى : وزير البريد والبرق والهاتف .
٧ ـ محمد مزالي : وزير الدفاع الوطني .
٨ ـ عبد الله فرحات : وزير النقل والمواصلات .
٩ ـ الحبيب بورقيبة الابن : وزير العدل .
١٠ ـ أحمد المستيري : وزير الرياضة والشباب .
١١ ـ عبد الرزاق الرصاع : وزير الصناعة والتجارة .
١٢ ـ الأسعد بن عصمان : الأشغال العمومية والإسكان .
١٣ ـ الحبيب بولعراس : وزير الإعلام .
١٤ ـ حسيب بن عمار : وزير الدفاع الوطني .
١٥ ـ الطاهر بلخوجة : وزير الداخلية .
١٦ ـ حسان بلخوجة : وزير الفلاحة .
١٧ ـ إدريس قيقة : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٨ ـ الطيب سليم : وزير الدولة وممثل شخصي للرئيس .
١٩ ـ الشاذلي العياري : وزير التخطيط .
٢٠ ـ محمد الصياح : وزير دولة .
٢١ ـ الصادق بن جمعة : وزير دولة .
٢٢ ـ التيجاني الشلّي : وزير المواصلات .
٢٣ ـ الحبيب بن الشيخ : وزير المواصلات .
٢٤ ـ بكار التوزاني : وزير الكتابة العامة للحكومة .
٢٥ ـ فرح الجباسي : وزير التعليم الفني .
٢٦ ـ محمد غديرة : وزير الإنتاج الفلاحي .
٢٧ ـ المكي الزيدي : وزير الاقتصاد .
٢٨ ـ مصطفى الزعنوني : وزير التخطيط .
٢٩ ـ علي الزواوي : مدير البنك المركزي .

وقد جرت عدة تعديلات على هذه الوزارة التي دامت ما يقرب من عشر سنوات ، ومن هذه التعديلات :

أ ـ محمد الفيتوري : تسلّم وزارة العدل في ٨ رمضان ١٣٩٠هـ (٦ تشرين الثاني =

. . . .

= ١٩٧٠م) .
ب ـ أحمد المستيري: ترك وزارة الداخلية في ١٤ رجب ١٣٩١هـ (٤ أيلول ١٩٧١م) .
جـ ـ الحبيب بولعراس : تـرك وزارة الإعلام في ٢٣ ربيـع الثاني ١٣٩١هـ (١٧ حـزيران ١٩٧١م) .
د ـ وفي ١٠ رمضان ١٣٩١هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٧١م) جرى تعديل وزاري واسع ، إذ أن :
عبد الرزاق الرصاع : ترك وزارة الصناعة والتجارة .
وحسيب عمار : ترك وزارة الدفاع الوطني .
والبشير المهذبي : جاء إلى وزارة الدفاع الوطني .
وعبد الرحمن بن مسعود : جاء إلى وزارة الفلاحة .
والضاوي الحنابلية : جاء إلى وزارة الداخلية .
وعبد الحميد ساسي : جاء إلى وزارة التجهيز والإسكان .
وأحمد شطورو : جاء إلى وزارة الشباب والرياضة .
ومحمد بللونة : جاء إلى وزارة العدل .
وحامد الزغل : جاء إلى وزارة التربية القومية .
وفرحات الدشراوي : جاء إلى وزارة الشؤون الاجتماعية .
هـ ـ علي الزواوي : ترك البنك المركزي في ٤ محرم ١٣٩٢هـ (١٨ شباط ١٩٧٢م) .و ـ محمد غنيمة : عُهد إليه بالبنك المركزي في ١٩ محرم ١٣٩٢هـ (٤ آذار ١٩٧٢م) .
ز ـ التيجاني الشلّي : عُهد إليه بوزارة المواصلات في ٧ صفر ١٣٩٢هـ (٢٢ آذار ١٩٧٢م) .
ح ـ وجرى في ٥ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ (٥ حزيران ١٩٧٣م) التعديلات الآتية :
أحمد شطورو : ترك وزارة الشباب والرياضة .
محمد بللرنة : ترك وزارة العمل .
صلاح الدين بالي : عُهد إليه بوزارة العدل .
ط ـ وجرى في ٢ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (٢ تموز ١٩٧٣م) التعديل الآتي :
بكار التوزاني : ترك الكتابة العامة للحكومة .
المنصف بلحاج عمر : عُهد إليه بالكتابة العامة للحكومة .
ي ـ صلاح عبد الله : تسلّم وزارة الإعلام في ٧ شعبان ١٣٩٣هـ (٤ أيلول ١٩٧٣م) .
ك ـ عبد العزيز الخمراوي : تسلّم وزارة الشؤون الخارجية في ١٠ شوال ١٣٩٣هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٧٣م) . =

. . . .

= ل ـ الطيب سليم : ترك وزارة الدولة وكممثل شخصي للرئيس في ٢٥ شوال ١٣٩٣هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٣م) .

م ـ وجرى في ٦ ذي القعدة ١٣٩٣هـ (٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٣م) التعديل الآتي :

الحبيب بن الشيخ : ترك وزارة المواصلات .

العربي الملاخ : تسلّم وزارة التجهيز والإسكان .

فؤاد المبزع : تسلّم وزارة الشباب والرياضة .

ن ـ وجرى في ٢١ ذي الحجة ١٣٩٣هـ (١٤ كانون الثانى ١٩٧٤م) التعديل الآتي :

محمد المصمودي : ترك وزارة الشؤون الخارجية .

الحبيب الشطي : تسلّم وزارة الشؤون الخارجية .

فرحات الدشراوي : ترك وزارة الشؤون الاجتماعية .

محمد الناصر : تسلّم وزارة الشؤون الاجتماعية .

أحمد بندور : تسلّم وزارة الدفاع الوطني .

س ـ وجرى في ١٣ صفر ١٣٩٤هـ (٧ آذار ١٩٧٤م) التعديل الآتي :

صلاح الدين عبد الله : ترك وزارة الإعلام .

محمود المعموري : تسلّم وزارة الإعلام .

ع ـ المكي الزيدي : ترك وزارة الاقتصاد في ١٣ ربيع الأول ١٣٩٤هـ (٥ نيسان ١٩٧٤م) .

ف ـ وجرى في ٩ رمضان ١٣٩٤هـ (٢٥ أيلول ١٩٧٤م) التعديل الآتي :

حامد الزعل : ترك وزارة التربية القومية .

عبد العزيز الخمراوي : ترك وزارة الشؤون الخارجية .

محمود المعموري : ترك وزارة الإعلام .

مصطفى المصمودي : استلم وزارة الإعلام .

الهادي الزعل : عُهد إليه بوزارة التربية القومية .

عبد العزيز الأصرم : عُهد إليه بوزارة الاقتصاد .

المنجي الكعكي : عُهد إليـه بوزارة الشؤون الخارجية .

ص ـ عبد الرحمن بن مسعود : ترك وزارة الفلاحة في ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٥هـ (٢٦ أيار ١٩٧٥م) .

ق ـ الشاذلي العياري : ترك وزارة التخطيط في ٨ صفر ١٣٩٥هـ (١٩ شباط ١٩٧٥م) .

ر ـ الهادي خفشة : ترك وزارة التجهيز في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ (٢٥ أيار ١٩٧٥م) .

ش ـ إبراهيم التركي : تسلّم وزارة الخارجية في ٢٤ رجب ١٣٩٦هـ (٢١ تموز ١٩٧٦م) . =

ت ـ محمود المسعدي : ترك وزارة الدولة للشؤون الثقافية في ١٧ ذي الحجة ١٣٩٦هـ (٩ كانون الأول ١٩٧٦م) .

غ ـ وفي ١٦ محرم ١٣٩٨هـ (٢٦ كانون الأول ١٩٧٧م) جرى التعديل الآتي :

الحبيب الشطي : ترك وزارة الشؤون الخارجية .

المنجي بن حميدة : عُهد إليه بوزارة الصحة العمومية .

محمد جمعة : عُهد إليه بوزارة الشؤون الاجتماعية .

صلاح الدين مبارك : عُهد إليه بوزارة الصناعة والاقتصاد .

عبد العزيز المطهري : عُهد إليه بوزارة المالية .

رشيد صفر : عُهد إليه بوزارة المناجم والطاقة .

نور الدين الكتاري : عُهد إليه بوزارة الشؤون الاجتماعية ـ التكوين المهني .

عثمان كشريد : عُهد إليه بالكتابة العامة للحكومة في وزارة الداخلية .

ظ ـ المنجي من حميدة ترك وزارة الصحة العمومية .

ض ـ إبراهيم التركي : ترك وزارة الخارجية في ١٠ رمضان ١٣٩٨هـ (١٣ آب ١٩٧٨م) .

ث ـ عبد العزيز بن ضياء : عُهد إليه بوزارة التعليم والبحث العلمي في ١٨ شوال ١٣٩٨هـ .

خ ـ مصطفى المصمودي : ترك وزارة الإعلام في ١٨ شوال ١٣٩٨هـ (٢٠ أيلول ١٩٧٨م) .

ذ ـ محمد اليعلاوي : عُهد إليه بوزارة الشؤون الثقافية في ١٨ شوال ١٣٩٨هـ (٢٠ أيلول ١٩٧٨م) .

ـ الشاذلي القليبي : ترك وزارة الثقافة في ٣ شعبان ١٣٩٩هـ (٢٨ حزيران ١٩٧٩م) .

ـ عبد الله فرحات : ترك وزارة النقل والمواصلات في ٢٠ شوال ١٣٩٩هـ (١٢ أيلول ١٩٧٩م) .

ـ وجرى تعديل وزاري في ١٧ ذي الحجة ١٣٩٩هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٧٩م) حيث أن :

محمد اليعلاوي : ترك وزارة الشؤون الثقافية .

نور الدين الكتاري : ترك وزارة الشؤون الاجتماعية ـ التكوين المهني .

محمد علي السويس : عُهد إليه بوزارة التجهيز .

محمد جمعة : ترك وزارة الشؤون الاجتماعية .

عمر رورو : عُهد إليه بوزارة الصناعة والمناجم والطاقة .

عبد الحميد ساسي : عُهد إليه بوزارة التجهيز والاسكان .

عقد الحزب مؤتمره الثامن عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) فحدثت أزمة في داخله نتيجة إبداء آراء في حرية التعبير عن الرأي ، فأبعد عدد من قادته ، وجرى نتيجة ذلك تعديل في الوزارة .

الوحدة مع ليبيا : جرت اتصالات سريعة بين الحكومتين الليبية والتونسية في أواخر عام ١٣٩٣هـ ، وكان نتيجة الاتصالات إعلان الوحدة بين الدولتين ، ولم يطل أمدها ، إذ لم تلبث أن انفصمت عراها ، وفشلت الوحدة ، وأقيل وزير الشؤون الخارجية التونسي محمد المصمودي في ٢١ ذي الحجة ١٣٩٣هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٧٤م) .

الخلاف مع الاتحاد العام التونسي للشغل : حدثت أزمة بين الحكومة وبين الاتحاد العام التونسي للشغل في مطلع عام ١٣٩٨هـ ، وجرى تعديل وزاري ، وقامت إثر ذلك أحداث في ١٧ صفر ١٣٩٨هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٧٨م) ، وجرت إثرها محاكمة القيادة النقابية ، واضطرّت الحكومة لأول مرةٍ إلى أن تلجأ إلى الجيش لإخماد الحركة ، وأخذ الاستعداد خوفاً من المضاعفات ، وعُزل الطاهر بلخوجة ، وقدّم ستة وزراء استقالتهم ، إذ حدث انقسام داخل الحكومة بعد عزل وزير الداخلية .

أحداث قفصة : وقعت أحداث دامية في مدينة قفصة في تاريخ ١٤ صفر ١٤٠٠هـ (٢ كانون الثاني ١٩٨٠م) ، وكانت وسائل الإعلام التونسية تشير إلى ليبيا بأنها وراء الأحداث ، مما أدّى إلى توتّر العلاقات بين الدولتين .

= إبراهيم خواجة : عُهد إليه بوزارة النقل والمواصلات .
العربي الملاخ : ترك وزارة التجهيز والإسكان .
محمد شاكر : عُهد إليه بالوظيفة العمومية والإصلاح الإداري .
المنصف زعفران : عُهد إليه بالكتابة العامة للحكومة .
ـ عثمان كشريد : عُهد إليه بالكتابة العامة للحكومة ـ وزارة الداخلية في ١٤ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ (١ آذار ١٩٨٠م) .

واضطّرت الحكومة إلى اللجوء إلى الجيش للمرّة الثانية للتدخّل لإخماد الأحداث التي وقعت في قفصة ، وهذا ما رفع أيضاً من شأن وزير الدفاع الوطني محمد مزالي عند رئيس الجمهورية . وهيّأه لاستلام منصب الوزير الأول .

وأصيب الوزير الأول الهادي نويرة بمرض عقب أحداث قفصة ؛ إذ كان لها أثر بالغ في نفسه .

وفي ١٠ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ (٢٥ نيسان ١٩٨٠م) ، بينما كان الوزير الأول الهادي نويرة مريضاً يلازم بيته منذ أربعة أشهر ، وإثر حوادث قفصة أقصي الوزير الأول عن منصبه ، وكلّف محمد مزالي برئاسة الوزراء[1] ،

---

(١) محمد مزالي : وُلد في المنستير في ٨ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٢٥م)، وقد درس الآداب ـ قسم الفلسفة . وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ محمد مزالي : وزير أول .
٢ ـ الحبيب بورقيبة الابن : مستشار رئيس الدولة .
٣ ـ الباجي قائد السبسي : وزير معتمد لدى الوزير الأول .
٤ ـ الأسعد بن عصمان : وزير الفلاحة .
٥ ـ منصور معلى : وزير المالية .
٦ ـ الطاهر بلخوجة وزير الإعلام .
٧ ـ حسان بلخوجة : وزير الخارجية .
٨ ـ إدريس قيقة : وزير الداخلية .
٩ ـ محمد الصياح : وزير إدارة الحزب .
١٣ ـ المنصف بلحاج عمر : الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري .
١٤ ـ فؤاد المبزع : وزير الشؤون الثقافية .
١٥ ـ محمد الناصر : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ أحمد بنور : وزير الدفاع الوطني .
١٧ ـ المنجي الكعكي : الممثل الشخصي لرئيس الدولة .
١٨ ـ الهادي الزغل : وزير الشباب والرياضة .
١٩ ـ عبد العزيز الأصرم : وزير الإقتصاد .
٢٠ ـ صلاح الدين مبارك : وزير التجارة والصناعة .
٢١ ـ رشيد صفر : وزير الاقتصاد . =

. . . .

=

١٠ ـ الصادق بن جمعة : وزير التجهيز .

١١ ـ محمد غنيمة : مدير البنك المركزي .

١٢ ـ صلاح الدين بالي : وزير الدفاع .

٢٢ ـ عبد العزيز بن ضياء : إدار الحزب ـ الشؤون الثقافية .

٢٣ ـ إبراهيم خواجة : وزير البريد والبرق والهاتف .

٢٤ ـ محمد شاكر : الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري في وزارة العدل .

ولكن جرت تعديلات وزارية على النحو الآتي :

ـ محمد غنيمة : ترك إدارة البنك المركزي التونسي في ١٠ رمضان ١٤٠٠هـ (٢٢ تموز ١٩٨٠م) .

ـ الهادي الزغل : ترك وزارة الشباب والرياضة في ٢٤ شوال ١٤٠٠هـ (٤ أيلول ١٩٨٠م) .

ـ فرج الشاذلي : عُهد إليه بوزارة التربية القومية في ١٤ شوال ١٤٠٠هـ (٢٥ آب ١٩٨٠م) .

ـ المنصف بلخوجة : عُهد إليه بإدارة البنك المركزي في ٣٠٠ شعبان ١٤٠٠هـ (١٢ تموز ١٩٨٠م) .

ـ محمد كريم : عُهد إليه بوزارة الشباب والرياضة في ٢٤ شوال ١٤٠٠هـ (٤ أيلول ١٩٨٠م) .

ـ المازري شقير : عُهد إليه بالوظيفة العمومية والإصلاح الإداري في ٢٦ محرم ١٤٠١هـ (٣ كانون الأول ١٩٨٠م) .

ـ البشير بن سلام : عُهد إليه بوزارة الشؤون الثقافية في ٢٦ صفر ١٤١٠هـ (٢ كانون الثاني ١٩٨١م) .

ـ حسان بلخوجة : ترك وزارة التربية الخارجية في ١١ جمادى الآخرة ١٤٠١هـ (١٥ نيسان ١٩٨١م) .

ـ محمود المستيري : عُهد إليه بوزارة الشؤون الخارجية في ١٠ شوال ١٤٠١هـ (١٠ آب ١٩٨١م) .

ـ زكريا بن مصطفى : عُهد إليه برئاسة بلدية العاصمة في ٢٤ محرم ١٤٠٢هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٨١م) .

ـ أحمد بن عرفة : عهد إليه بوزارة الخارجية في ٣ جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ (١٧ آذار ١٩٨٣م) .

ـ منصور معلى : ترك وزارة المالية في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .

=

. . . .

= - الطاهر بلخوجة : ترك وزارة الإعلام في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .
- عبد الرزاق الكافي : عُهد إليه بوزارة الإعلام في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .
- صالح بن مبارك : عُهد إليه بوزارة المالية في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .
- عز الدين شلبي : عُهد إليه بوزارة السياحة في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .
- إسماعيل خليل : عُهد إليه بوزارة التخطيط في ٨ رمضان ١٤٠٣هـ (١٨ حزيران ١٩٨٣م) .
- عبد العزيز الأصرم : عُهد إليه بوزارة الاقتصاد في ٨ محرم ١٤٠٤هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٨٣م) .
- الحبيب التوهامي : عُهد إليه بوزراة الصحة العمومية في ٨ محرم ١٤٠٤هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٨٣م) .
- فتحية مزالي : عُهد إليه بوزارة العائلة والنهوض بالمرأة في ٢٥ محرم ١٤٠٤هـ (١ تشرين الثاني ١٩٨٣م) .
- سعاد اليعقوبي الوحشي : عُهد إليها بوزارة الصحة العمومية في ٢٥ محرم ١٤٠٤هـ (١ تشرين الثاني ١٩٨٣م) .
- عامر غديرة : عُهد إليه بوزارة الداخلية في ٤ ربيع الثاني ١٤٠٤هـ (٧ كانون الثاني ١٩٨٤م) .
- إدريس قيقة : عُهد إليه بوزارة التربية القومية في ١٤ ربيع الثاني ١٤٠٤هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٨٤م) .
- الحبيب التوهامي : ترك وزارة الصحة العمومية في ١٧ ربيع الثاني ١٤٠٤هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٨٤م) .
- الهادي البكوش : عُهد إليه بإدارة الحزب والشؤون الاجتماعية في ١١ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ (١٣ آذار ١٩٨٤م) .
- الهادي البكوش : عُهد إليه بإدارة الحزب والشؤون الاجتماعية في ١١ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ (١٣ آذار ١٩٨٤م) .
- المنصف بلحاج عمر : ترك الوظيفة العمومية في ٢٩ ذي القعدة ١٤٠٤هـ (٢٥ آب ١٩٨٤م) .
- الصادق بن جمعة : ترك وزارة التجهيز في ٢٩ ذي القعدة ١٤٠٤هـ (٢٥ آب ١٩٨٤م) . =

. . . .

= ـ محمد شاكر : ترك الوظيفة العمومية ـ العدل في ٤ صفر ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) .

ـ أحمد بنور : ترك وزارة الدفاع الوطني في ٤ صفر ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) .

ـ زين العابدين بن علي : عُهد إليه بوزارة الداخلية في ٤ صفر ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) .

ـ رضا بن علي : عُهد إليه بوزارة العدل في ٤ صفر ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) .

ـ منصور السخيري : عُهد إليه بإدارة الديوان الرئاسي في ٦ محرم ١٤٠٦هـ (٢٠ أيلول ١٩٨٥م) .

ـ الهادي أبو ريشة : عُهد إليه بوزارة الشباب والرياضة في ٩ صفر ١٤٠٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٨٥م) .

ـ نور الدين حشاد : عُهد إليه بوزارة الشغل في ٩ صفر ١٤٠٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٨٥م) .

ـ رضا حمزة : عُهد إليه بوزارة الحماية الاجتماعية في ٩ صفر ١٤٠٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٨٥م) .

ـ محمد كريم : ترك وزارة الشباب والرياضة في ٩ صفر ١٤٠٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٨٥م) .

ـ محمد الناصر : ترك وزارة الشؤون الاجتماعية في ٩ صفر ١٤٠٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٨٥م) .

ـ الحبيب بورقيبة الابن : ترك منصب مستشار الرئيس في ٢٦ ربيع الثاني ١٤٠٦هـ (٧ كانون الثاني ١٩٨٦م) .

ـ المنجي الكعكي : ترك منصب الممثل الشخصي للرئيس في ١١ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٨٦م) .

ـ رضا بن علي : ترك وزارة العدل في ٢ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٨٦م) .

ـ محمد صالح العياري : عُهد إليه بوزارة العدل في ٣ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ (١٢ شباط ١٩٨٦م) .

ـ المنصف بلخوجة : ترك إدارة البنك المركزي في ٥ رجب ١٤٠٦هـ (١٥ آذار ١٩٨٦م) .

ـ محمد السخيري : عُهد إليه بإدارة البنك المركزي في ٥ رجب ١٤٠٦هـ (١٥ آذار ١٩٨٦م) . =

غير أنه لم يدخل في الوزارة من جديد سوى فرج الشاذلي ، ولم ينته العام حتى أبعد من الحكومة الوزراء الذين عُرفوا بصلتهم القوية مع الهادي نويرة ، وأعيد كثير من الوزراء الذين سبق لهم الخدمة في الحكومة ، وذلك بما عُرف بسياسة « الانفتاح » لمسح آثار الأزمة التي حدثت . فمن الوزراء الذي أبعدوا لصلتهم بالهادي نويرة : الوزير الأول السابق محمد الفيتوري ، ومصطفى الزعنوني ، والضاوي حنابلية ، والهادي الزغل ، وعبد العزيز المطهري ، وعثمان كشريد ، وصلاح الدين بن مبارك ، ومحمد علي السويسي ، وعمر رورو ، والمنصف زعفران ، كما ترك محمد غنيمة مركزه كمحافظ للبنك المركزي . وكان من أبرز الذين أعيدوا : الباجي قائد السبسي ، ومنصور معلّى ، والطاهر بلخوجة ، وإدريس قيقة ، والصادق بن جمعة ، والمنصف بلحاج عمر ، وعبد العزيز الأصرم ، والمنجي الكعكي ، وهؤلاء كانت قد حدثت خلافات بينهم وبين الهادي نويرة .

إن السياسة التي سار عليها محمد مزالي رئيس الحكومة والتي أطلق عليها سياسة الانفتاح قد شجّعت أصحاب الاتجاهات على التحرّك والنشاط ، ومن

= - المازري شقير : ترك الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري في ٢٨ رجب ١٤٠٦هـ (٧ نيسان ١٩٨٦م) .
- الهادي بوريشة : ترك وزارة الشباب والرياضة في ٢٨ رجب ١٤٠٦هـ (٧ نيسان ١٩٨٦م) .
- حامد القروي : عُهد إليه بوزارة الشباب والرياضة في ٢٨ رجب ١٤٠٦هـ (٧ نيسان ١٩٨٦م) .
- عمر الشاذلي : عُهد إليه بوزارة التربية والتعليم في ٢٦ شعبان ١٤٠٦هـ (٥ أيار ١٩٨٦م) .
- عامر غديرة : ترك وزارة الداخلية في ٢٦ شعبان ١٤٠٦هـ (٥ أيار ١٩٨٦م) .
- فرج الشاذلي : ترك وزارة التربية القومية في ٢٦ شعبان ١٤٠٦هـ (٥ أيار ١٩٨٦م) .
- البشير بن سلامة : ترك وزارة الشؤون الثقافية في ٤ رمضان ١٤٠٦هـ (١٢ أيار ١٩٨٦م) .
- محمد علي بوليمان : عُهد إليه برئاسة بلدية العاصمة في ٥ رمضان ١٤٠٦هـ (٢٣ حزيران ١٩٨٦م) .
- نور الدين حشاد : ترك وزارة الشغل في ١٦ شوال ١٤٠٦هـ (٢٣ حزيران ١٩٨٦م) .

ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الحزب الحاكم الحزب الاشتراكي الدستوري قد ازدحم عليه مختلف أصحاب المصالح من الاتجاهات كلها، وخاصةً الذين ليست لديهم إمكانات ، وهذا ما دفعهم إلى التوجّه نحو الحزب ؛ لتغطية ضعفهم ، وستر عيوبهم ، وأرادوا تعويض النقص بالإلحاح في طلب المناصب ، فامتلأت الدوائر بالرجال غير الأكفاء حتى المراكز العليا ومنها الوزارات ، لذا كانت الحكومة تضطرّ إلى التغيير الدائم في المراكز الإدارية ، بل ويضطرّ الوزير الأول إلى التعديل الوزاري .

جرت الانتخابات التشريعية عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) ، وجرت عمليات تزوير في النتائج باعتراف الوزير نفسه في الرسالة التي وجّهها إلى رئيس الجمهورية فيما بعد ، وكان لهذا التزوير زيادة في فقدان الثقة من قبل الشعب بالسلطة ، بل وتعدّى ذلك إلى داخل الحكومة ذاتها .

عودة الحزبية : وفي العام نفسه (١٤٠١هـ) صدر قرار برفع الحظر عن الحزب الشيوعي ، فأخذ أفراده يتحرّكون ، وكان قد انتهى دور زعماء الحزب الحاكم التاريخيين ، وبرز الذين دخلوا حديثاً في الحزب ؛ سواء أكان دخولهم عن قناعةٍ أم عن مصلحةٍ فقد خفّت حماستهم .

وفي عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) أعطي ترخيص لحزبين هما : حزب حركة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وحزب الوحدة الشعبية .

ووجدت تجمعات وأحزاب دون ترخيص رسمي ، غير أن نشاط أفرادها واضح ، ومنها :

١ ـ تجمع الدراسات والعمل الاشتراكي التونسي .
٢ ـ حزب البعث .
٣ ـ منظمة العمل التونسي .
٤ ـ منظمة الشعلة .
ـ تجمع الاشتراكي التقدمي .

٦ ـ الاتجاه الإسلامي .

ولم يكن لهذه الفئات أي دورٍ في الحكم . ولكن برز الاتجاه الإسلامي بشكلٍ قوي ، وإن كانت بقية الفئات قد سبقته بالظهور لأن كثيراً من أفرادها كانوا ضمن أعضاء الحزب الحاكم ، ويمكن اختلاط الأفراد بعضهم مع بعض بل المزج والانصهار ، وذلك أن أفكارهم إنما تنبع من مصدرٍ واحدٍ ، ويلتقون في هدفٍ واحدٍ ، وكلها تعود إلى أسس ماديةٍ ، إضافةٍ إلى أن التصرّف والسلوك ينطلق من فكرة عدم التقيد بأية قيم أو مبدأ أو عقيدة ، كما أن ذلك لا يناقض الفكر الذي يحملونه والمنهج الذي يسيرون عليه . أما الاتجاه الإسلامي فله فكره الذي ينبثق من العقيدة ، وله منهجه الخاص ، ولأفراده السلوك والتصرّف الذي ينسجم مع ما يؤمنون به ، وهو يختلف تمام الاختلاف عمّا يتصرّفه غيرهم من غير الملتزمين الذين لا ضوابط لسلوكهم.

ومع نشاط الاتجاه الإسلامي اتجهت الأنظار نحوه ولقي تأييداً من الشعب ، وفي الوقت نفسه أخذت الحكومة تضغط عليه ، فبدأت الاعتقالات ، وفتحت السجون أبوابها لأفراده من غير تهمةٍ سوى العمل غير المشروع مع بثّ الشائعات .

الانتفاضة عام ١٤٠٤هـ : أصدرت الحكومة قراراً برفع التعويض عن المواد الغذائية الأساسية ومنها الدقيق ، ومن قبل كانت تدفع تعويضات عنها ، فارتفعت الأسعار مباشرة ، وفُقد الخبز من السوق ، وقام الشعب يوم ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٤هـ (٣ كانون الثاني ١٩٨٤م) بانتفاضةٍ ضدّ الحكومة ، يُطالب بالخبز وبالمواد الاستهلاكية التي ارتفعت أسعارها كثيراً ، أو فُقدت تماماً نتيجة عدم دفع التعويضات عنها .

وكان لهذه الانتفاضة الدور الإعلامي الواسع الذي هزّ الحكم ، ودفع السلطة إلى محاكمة إدريس قيقة .

أوضاع الرئيس : أخذت أوضاع الرئيس الحبيب بورقيبة تزداد سوءاً سواء أكانت الجسمية أم النفسية ، لذا نراه يقوم بعزل ابنه الحبيب بورقيبة الابن ، ثم يطلّق زوجته وسيلة بنت عمار ، ثم أخذت تراوده الشكوك في رئيس وزرائه ، فنراه يعزل المقربين إليه في الحكم ، ثم يعزل وزيرة العائلة والنهوض بالمرأة فتحية مزالي[1] زوجة رئيس الوزراء محمد مزالي ، وذلك في تاريخ ١٦ شوال ١٤٠٦هـ (٢٣ حزيران ١٩٨٦م) . وأخذ يتصرّف دون مبالاة بأحد ؛ سواء في الناحية السياسية أم في الناحية الأخلاقية ، وأخذ الناس يسخرون منه ؛ وإن كانوا يخشون بأسه خوفاً من إعطاء الأوامر ضدّهم لسببٍ أو دون سبب .

وفي ٢ ذي القعدة ١٤٠٦هـ (٨ تموز ١٩٨٦م) تمّ إقصاء محمد مزالي عن الحكومة بعد إبعاد الوزراء المقربين إليه واحداً بعد واحدٍ ، وبعد أسابيع صدر أمر بمنعه من السفر خارج البلاد ، ففرّ متخفياً عبر الحدود إلى الجزائر ، وصدر حكم بسجنه غيابياً . وكان قد كلّف رشيد صفر[2] وزير الاقتصاد في

---

(١) نسبت إلى زوجها على القاعدة الأوربية النصرانية في انتساب المرأة إلى زوجها ، وفقدان شخصيتها ، وهذا لا يصحّ في الإسلام ، إذ أن للمرأة شخصيتها وتحافظ عليها سواء أكان ذلك قبل الزواج أم بعده .

(٢) رشيد صفر : من ولاية المهدية ، وُلد في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ (١١ أيلول ١٩٢٣م) ، ودخل في وزارة الهادي نويرة ، كم اشترك في وزارة محمد مزالي ، إذ تسلّم الاقتصاد ، ثم عُهد إليه بالوزارة الأولى ، وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ رشيد صفر : الوزير الأول .
٢ ـ الأسعد بن عصمان : وزير النقل والمواصلات .
٣ ـ محمد الصياح : وزير التجهيز .
٤ ـ محمد غديرة : الإنتاج الفلاحي والصناعات الغذائية .
٥ ـ صلاح الدين بالي : وزير الدفاع الوطني .
٦ ـ صلاح الدين بن مبارك : وزير الصناعة .
٧ ـ عبد العزيز بن ضياء : وزير الشؤون الثقافية .
٨ ـ محمد كريم : وزير النقل .
=

. . . .

٩ - إبراهيم خواجة : وزير البريد والبرق والهاتف .
١٠ - محمود المستيري : وزير الشؤون الخارجية .
١١ - أحمد بن عرفة : وزير الشؤون الخارجية .
١٢ - زكريا بن مصطفى : رئيس بلدية العاصمة .
١٣ - عبد الرزاق الكافي : وزير الإعلام .
١٤ - صالح بن مباركة : وزير الطاقة والمناجم .
١٥ - عز الدين الشلبي : وزير السياحة .
١٦ - سعاد اليعقوبي الوحشي : الصحة العمومية .
١٧ - إسماعيل خليل : وزير المالية .
١٨ - الهادي البكوش : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٩ - زين العابدين بن علي : وزير الداخلية .
٢٠ - رضا حمزة : وزير الحماية الاجتماعية .
٢١ - منصور السخيري : الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري .
٢٢ - محمد صالح العياري : وزير العدل .
٢٣ - محمد السخيري : مدير البنك المركزي .
٢٤ - حامد القروي : وزير الشباب والرياضة .
٢٥ - عمر الشاذلي : وزير التربية القومية .
٢٦ - محمد علي بوليمان : رئيس بلدية العاصمة .

وقد جرت تعديلات وزارية على هذه الحكومة :
- عز الدين الشلبي : ترك وزارةالسياحة في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٦هـ (١ تموز ١٩٨٦م) .
- رضا حمزة ترك وزارة الحماية الاجتماعية في ٢٤ ذي القعدة ١٤٦٠هـ (١٩ تموز ١٩٨٦م) .
- الهادي المبروك : تسلّم وزارة الشؤون الخارجية في ١١ محرم ١٤٠٧هـ (١٥ أيلول ١٩٨٦م) .
- محمود المستيري : ترك وزارة الشؤون الخارجية في ٣ صفر ١٤٠٧هـ (٧ تشرين الأول ١٩٨٦م) .
- الطيب السحباني : تسلّم وزارةالشؤون الخارجية في ٣ ربيع الأول ١٤٠٧هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٨٦م) .
- حسين الشريف : تسلّم منصب الوظيفة العمومية والإصلاح اداري في ١٨ رمضان ١٤٠٧هـ (١٦ أيار ١٩٨٧م) .

الوزارة السابقة بالوزارة الأولى وعُهد إليه بتشكيل الحكومة .

وفي ٩ صفر ١٤٠٨هـ (٢ تشرين الأول ١٩٨٧م) كلّف الرئيس الحبيب بورقيبة زين العابدين بن علي[1] ـ وزير الداخلية في وزارة رشيد صفر

= ـ عبد القادر المهيري : تسلّم وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في ١٨ رمضان ١٤٠٧هـ (١٦ أيار ١٩٨٧م) .
ـ الهادي خليل : تسلّم وزارة التربية والتعليم [الابتدائي والثانوي] في ١٨ رمضان ١٤٠٧هـ (١٦ أيار ١٩٨٧م) .
ـ عبد الرزاق الكافي : ترك وزارة الإعلام في ١٧ محرم ١٤٠٨هـ (١٠ أيلول ١٩٨٧م) .
ـ عبد الوهاب خليل : تسلم وزارة الإعلام في ١٧ محرم ١٤٠٨هـ (١٠ أيلول ١٩٨٧م) .
ـ محمد الغنوشي : تسلّم وزارة التخطيط في ١٧ محرم ١٤٠٨هـ (١٠ أيلول ١٩٨٧م) .
ـ النوري الزرقطاني : تسلّم وزارة المالية في ١٧ محرم ١٤٠٨هـ (١٠ أيلول ١٩٨٧م) .
ـ عبد الملك العريف :تسلّم إدارة الحزب في ٦ صفر ١٤٠٨هـ (٢٩ أيلول ١٩٨٧م) .

(١) زين العابدين بن علي : وُلد في جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ (٣ أيلول ١٩٣٦م) يعود إلى ولاية سوسة ، وهو خريج الكلية العسكرية ، فهو ضابط ، تسلّم وزارة الداخلية في ٤ صفر عام ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) في وزارة محمد مزالي ، ثم في وزارة رشيد صفر .
وكانت وزارة زين العابدين بن علي على النحو الآتي :

١ ـ زين العابدين : وزير أول ، ووزير الداخلية :
٢ ـ عمر الشاذلي : مدير الديوان الرئاسي .
٣ ـ محمد الصالح العياري : وزير دولة .
٤ ـ الهادي المبروك : وزير الشؤون الخارجية .
٥ ـ صلاح الدين بالي : وزير الدفاع الوطني .
٦ ـ حامد القروي : مدير الحزب الدستوري ، ووزير العدل .
٧ ـ حسين الشريف : وزير الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري .
٨ ـ صلاح الدين بن مبارك : الاقتصاد الوطني .
٩ ـ محمد الغنوشي : وزير التخطيط .
١٠ ـ النوري الزرقطاني : وزير المالية .
١١ ـ الأسعد بن عصمان : وزير الفلاحة .
١٢ ـ سعاد اليعقوبي الوحشي : الصحة العمومية .
١٣ ـ الهادي البكوش : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٤ ـ منصور السخيري : وزير التجهيز والإسكان والنقل . =

السابقة ـ بالوزارة الأولى ، ولم تدم وزارة رشيد صفر أكثر من سنة وشهرين ، وهي مدة حكمٍ قصيرةٍ بالنسبة إلى مدة الحكومات السابقة .

أخذت الأمراض المزمنة عند الرئيس الحبيب بورقيبة تزداد ، وتقدّمت به السن حتى فقد الرصانة في تسيير الحكم ، كما فقد المنطق ، وأخذ تأثير الحاشية يظهر على القرارات السياسية ، كما كانت محاكمة قيادي حركة الاتجاه الإسلامي ذات مفعول عكسي لدى الشعب . وبشكل عام فقد اهترأ الوضع ، وأصبح يخشى من تغيير مفاجىء دون علم الدوائر السياسية الغربية ، فكان لا بدّ من تبديله على علمٍ منها . وكان زين العابدين بن علي الشخصية المرشحة لذلك ؛ إذ كان وزيراً للداخلية أولاً ، ثم وزيراً أول ، ومرضياً عنه من قبل الحبيب بورقيبة لما اتصف به من تنفيذ أوامره بدقة .

وفي ١٦ ربيع الأول ١٤٠٨هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٨٧م) قام الوزير

= ١٥ ـ إبراهيم خواجة : وزير المواصلات .
١٦ ـ فؤاد المبزّع : وزير الشباب والرياضة .
١٧ ـ عبد الله القلال : كاتب دولة لدى وزير الداخلية .
١٨ ـ أحمد بن عرفة : كاتب دولة للخارجية .
١٩ ـ الطيب السحباني : كاتب دولة للخارجية .
٢٠ ـ المنذر الزنايدي : كاتب دولة للصناعة والتجارة .
٢١ ـ صالح الجبالي : كاتب دولة للمناجم والطاقة .
٢٢ ـ عبد القادر المهيري : كاتب دولة للتعليم العالي والبحث العلمي .
٢٣ ـ محمد غديرة : وزير الإنتاج الفلاحي والصناعات الغذائية .
٢٤ ـ محمد الصياح : وزير التربية والتعليم والبحث العلمي (برتبة وزير دولة) .
٢٥ ـ زكريا بن مصطفى : وزير الشؤون الثقافية .
٢٦ ـ عبد الوهاب عبد الله : وزير الإعلام .
٢٧ ـ الهادي خليل : كاتب دولة للتعليم الابتدائي والثانوي .
٢٨ ـ إسماعيل خليل : محافظ البنك المركزي .
٢٩ ـ محمد علي بوليمان : رئيس بلدية العاصمة .

الأول زين العابدين بن علي بتنحية الرئيس الحبيب بورقيبة ، وتسلّم السلطة ، وعيّن الهادي البكوش[1] وزيراً أول . وأخذ الرئيس الجديد بإزالة آثار العهد

---

(١) الهادي البكوش : وُلد في ١٥ شعبان ١٣٤٨هـ (١٥ كانون لثاني ١٩٣٠م) ويرجع إلى ولاية سوسة ، وقد درس العلوم السياسية ، وتسلّم إدارة الحزب الدستوري في وزارة محمد مزالي في تاريخ ١١ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ (١٣ آذار ١٩٨٤م) ، وتابع العمل في وظيفته في وزارة رشيد صفر ، كما تسلّم وزار الشؤون الاجتماعية في وزارة زين العابدين بن علي . وكانت وزارته على النحو الآتي :

١ ـ الهادي البكوش : وزير أول .
٢ ـ محمد صالح العياري : وزير دولة .
٣ ـ صلاح الدين بالي : وزير الدفاع .
٤ ـ محمود المستيري : وزير الشؤون الاجتماعية .
٥ ـ الحبيب عمّار : وزير الداخلية .
٦ ـ حامد القروي : وزير معتمد لدى الوزير الأول مدير الحزب الدستوري ، وزير العدل .
٧ ـ محمد الغنوشي : وزير معتمد لدى الوزير الأول مكلف بالتخطيط .
٨ ـ حسين الشريف :وزير معتمد لدى وزير الدولة مكلف بالوظيفة العمومية والإصلاح الإداري .
٩ ـ عبد الوهاب عبد الله : وزير الإعلام .
١٠ ـ صلاح الدين مبارك : وزير الاقتصاد .
١١ ـ النوري الزرقطاني : وزير المالية .
١٢ ـ التيجاني الشلّي : وزير التربية والتعليم والبحث العلمي .
١٣ ـ الصادق بن جمعة : وزير التجهيز والإسكان .
١٤ ـ عبد الرزاق الكافي : وزير النقل والسياحة .
١٥ ـ توفيق شيخ روحة : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ سعاد اليعقوبي الوحشي : وزيرة الصحة العمومية .
١٧ ـ الأسعد بن عصمان : وزير الفلاحة .
١٨ ـ محمد غديرة : وزير الإنتاج الفلاحي ، والصناعات الغذائية .
١٩ ـ زكريا بن مصطفى : وزير الثقافة .
٢٠ ـ فؤاد المبزّع : وزير الشباب والرياضة .
٢١ ـ إبراهيم خواجة : وزير المواصلات .
٢٢ ـ إسماعيل خليل : محافظ البنك المركزي (برتبة وزير) . =

الماضي ، وما خلّف من آثارٍ سيئةٍ وسلبيات في نفوس الشعب ، فأزال التماثيل العديدة التي نصبت في أماكن كثيرةٍ للحبيب بورقيبة ، وأزاح عن النفوس ما كانت تحسّ به من قهر ، وأخرج أكثر قادة الاتجاه الإسلامي من المعتقلات ، وفتح باب البلاد لمن شاء أن يؤوب ، كما فسح المجال للحوار والتفاهم ، ويبدو أن استقبال الوضع الجديد كان يتسم بالغبطة ، وقد عبّر عن ذلك قادة التجمعات السياسية في البلاد ، ورحبّت الصحف بذلك ، وبدا أن الوضع قوي ، وأن الشعب متعاون .

وفي ١٧ صفر ١٤١٠هـ (٢٧ أيلول ١٩٨٩م) بينما كان الوزير الأول الهادي البكوش في زيارةٍ لسويسرا صدر مرسوم بإقالته وتعيين وزير العدل حامد القروي[1] رئيساً للحكومة ، ولم يحدث أي تغيير في بقية الحقائب الوزارية ، وكل الذي تمّ هو تعيين مصطفى بوعزيز رئيس ديوان وزير العدل وزيراً للعدل ، وهو رجل قانون ، وقد كان ضابطاً في الجيش الوطني برتبة عميد قبل أن يلتحق بديوان وزارة العدل . ومما يمكن الإشارة إليه أيضاً أنه قد صدر مرسوم آخر فصل بين الوزارة وبين محافظ البنك المركزي التي كان يشغلها إسماعيل خليل ، وبهذا لم يعد محافظ البنك المركزي ضمن قائمة

= ٢٣ ـ عبد الله القلال : كاتب دولة للرئاسة .

٢٤ ـ الطيب السحباني : كاتب دولة لدى وزير الخارجية .

٢٥ ـ أحمد بن عرفة : كاتب دولة لدى وزير الخارجية مكلف بالتعاون الدولي .

٢٦ ـ محمد كربول : كاتب دولة لدى وزير الداخلية .

٢٧ ـ المنذر الزنايدي : كاتب دولة لدى وزير الاقتصاد مكلف بالصناعة والتجارة .

٢٨ ـ صالح الجبالي : كاتب دولة لدى وزير الاقتصاد مكلف بالمناجم والطاقة .

٢٩ ـ عبد الرحيم الزواري : كاتب دولة لدى وزير الإنتاج الفلاحي والصناعات الغذائية .

٣٠ ـ الهادي خليل : كاتب دولة لدى وزير التربية مكلف بالتعليم الابتدائي والثانوي .

٣١ ـ عبد السلام المسدّي : كاتب دولة لدى وزير التربية مكلف بالتعليم العالي ، والبحث العلمي .

(١) حامد القروي : وُلد في ٢١ شوال ١٣٤٣هـ (١٤ أيار ١٩٢٥م) في ولاية المنستير ، وهو طبيب .

الوزارة ، ولم يعد إسماعيل خليل يحضر بعدها الاجتماعات الوزارية ، كما جاء تعيين محمد سعد والي مدينة (الكاف) مديراً لديوان رئيس مجلس الوزراء .

وكان الرئيس زين العابدين بن علي قد زار عدداً من الدول العربية ، وتفاهم مع حكوماتها ، وأبدى استعداده لإصلاح ما فسد .

ولما شعر أن الوضع قد استقرّ ، وتفاءل الناس ، وحصل على التأييد ؛ أحسّ أن مرحلة المسايرة وإظهار غير الواقع قد انتهت فرجع إلى السياسة التي كان عليها بورقيبة فلم يزد دوره على إعطاء دمٍ جديدٍ للسياسة القديمة التي كان هو أحد دعائمها . والواقع أن مثل هذا التمثيل يجعل الرعية تصاب بإحباط ؛ إذ تحسّ بعدم إمكانية الإصلاح ما دام أن التغيير لن يدوم سوى المـدة التي يكسب فيها التأييد واختيار الرجال الذين يسيرون وراءه. وكانت السياسة العامة ضرب التيار الإسلامي لكسب الرضا والتأييد من المحافل الدولية.

الفصل الثالث

الصّراعات الدّاخليّة

يبلغ عدد سكان تونس ما يقرب من ثمانية ملايين ، وتبلغ مساحتها ما يزيد قليلاً على مائةٍ وخمسةٍ وعشرين ألف كيلومتر مربع (١٢٥,١١٨ كم مربع) ، وبذا تكون الكثافة حوالي ستين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد ، غير أن هذه الكثافة تختلف بين منطقةٍ وأخرى ، فهي كبيرة في مدينة (تونس) وما حولها ، ثم في منطقة الساحل الشمالي ، والقسم الشمالي من الساحل الشرقي ، وتتناقص في الداخل ، وتقلّ في الجنوب .

ويتجانس السكان في تونس ، فالغالبية العظمى من العرب ، إضافةً إلى أعدادٍ من البربر في الغرب على حدود الجزائر ، وفي الجنوب ، وقلّة قليلة من اليهود ، كما استوطن بعض الأوربيين البلاد أثناء التسلّط الاستعماري ، لذا لا نجد صراعات بين مجموعات بشرية كما هي الحال في كثيرٍ من البلدان .

ويتجانس السكان عقدياً ، فالمسلمون يشكّلون أكثر من ٩٧٪ ، وتزداد هذه النسبة باستمرار ، وذلك لأن المسلمين يتزايدون أكثر من أصحاب الديانات الأخرى ؛ أولاً ، ثم إن غير المسلمين ـ اليهود والنصارى ـ يغادرون البلاد مرتحلين إلى بلادٍ أخرى ، ويأخذ أكثر المسلمين بمذهب الإمام مالك ، والقليل ؛ بمذهب الإمام أبي حنيفة ، فهم من أهل السنة والجماعة ، ولا توجد إلاّ مجموعة صغيرة من الخوارج الإباضية يعيش معظم أفرادها في جزيرة (جربا) ، ولذا لا نجد في داخل البلاد صراعات عقدية بين مجموعات

متباينة ، كما يحدث ذلك في كثيرٍ من البلدان الأخرى .

أما النصارى فقد قدموا إلى البلاد حديثاً حيث جاءت أعداد منهم منذ أن ضعف المسلمون ، وبدأ الصليبيون يتجهون غزاة حاقدين نحو سواحل بلاد المغرب العربي على البحر المتوسط في أواخر القرن التاسع الهجري وإذا كان قد طرد هؤلاء ؛ إلاّ أن بعضهم قد جاء مستأمناً ، وأقام في المناطق الساحلية ، وعاش في كنف المسلمين الذين سمحوا لأهل الكتاب بالعيش بين أظهرهم على الرغم من أنهم كانوا يتعرّضون بين المدة والأخرى لحملاتٍ صليبية ، وقد زاد هذا العدد فيما بعد حيث جاء الاستعمار الصليبي ؛ فأقبلت الجموع من النصارى معه . لقد كان في تونس طليان ، ومالطيون ، وإنكليز ، وإسكنديناڤيون ، وفرنسيون ، ولكن زاد الفرنسيون مع الحماية الفرنسية ، ثمّ مع الاستعمار ، كما زاد الأوربيون عامة ؛ وإن كانت زيادة الفرنسيين أكثر بكثير . لقد أخذ هؤلاء النصارى الذين استوطنوا في بلاد المغرب ومنها تونس امتيازاتٍ في المناصب الإدارية ، ومراكز الدولة ، وفي الاستيراد والتصدير بل والاحتكار ، وقدّمت لهم أراضي الأوقاف الإسلامية ، وأملاك الدولة ، كما استولوا على أخصب الأراضي الزراعية بطرق ملتويةٍ في أغلب الأحيان ، وقد وقف هؤلاء النصارى مع الدولة المستعمرة ، وبذلوا طاقاتهم لاستمرار سيطرتها ، ووقفوا في وجه الوطنيين وأمام مطالبهم ، كما شكّلوا فرق مقاومةٍ مضادّةٍ لحركة المقاومة الوطنية ، وعندما اضطرّ المستعمرون الصليبيون للخروج من تونس أخذت جماعات من المستوطنين يغادرون البلاد، ويؤوبون إلى بلدانهم ، وبذا تقلّص عدد النصارى . لقد كان بإمكانهم الحركة والمقاومة أيام الاستعمار ؛ لما لهم من نفوذٍ وسلطة ، ولما يملكون من سلاح لا يحوزه غيرهم . أما الآن فليس لهم من دور ، ولا يمكنهم الدخول في صراعات ؛ ما داموا قلّة ، ولا يشكّلون أكثر من ٢,٥٪ من مجموع السكان.

وأما اليهود فلا يزيد عددهم اليوم على ثمانية آلاف ، فليس لهم نسبة إذ لا تزيد على واحدٍ بالألف ، وهذه القلّة لا يمكنها الصراع ، وكل ما تستطيعه

هـو إثارة الفتنـة ، والإغراء ، ونشر الفسـاد الذي هـو من اختصـاصهم ، ويتفوّقون فيه على غيرهم ، أما عدا ذلك فليس لهم أي دور في السياسة ، أو أي أثرٍ في الحياة الاجتماعية . ومعظمهم يقيم في العاصمة مدينة تونس . لقد كان عددهم في الماضي أكبر ، وزاد مع الاستعمار ، ثم أخذوا بالـرحيل إلى فلسطين عندما أقام إخوانهم اليهود دولة لهم هناك على جثث الأبرياء من أبناء البلاد ، ومكان الذين شرّدوهم بتأييد ودعم الصليبية العـالمية ، وبقي منهم عدد في تونس لما يأملونه من الاستعمار الصليبي الفرنسي ، ولما كانوا يحصلون عليه من امتيازات بصفتهم من ركائز التسلّط الفرنسي ، ولما كانوا يحوزون عليه من منافع بوسائلهم وطرقهم المعروفة . ولمّا حصلت البلاد على الاستقلال ؛ كان عددهم (١٠٥) ألف ، وعندما أضاعوا الكثير مما كانوا يحصلون عليه أخذوا يرحلون حتى لم يبق منهم سوى ثمانية آلاف . وفي العهد الاستعماري كان لهم دور ، وكان لهم نفوذ ، وإن لم يستطيعوا الصراع لأنه لا يتفق مع طبيعتهم ؛ إلّا أنـه يمكنهم التجسس للمستعمرين ، وإثـارة الصليبيين عـلى المسلمين ، ورمي الوقيعة بين أفراد المجتمع ، وقد انتهى دورهـم مع انتهاء الاستعـمار ، وإن كانـوا يحاولـون التحرّك في الخفـاء ولغـير مصلحـة البـلاد بأعدادهم القليلة . وعلى هذا فـلا توجـد في تونس صراعـات على أسـاس العقيدة ؛ لأن الأكثرية الساحقة من أبناء عقيدةٍ واحدةٍ وهي الإسلام .

الصراعـات الحزبيـة : كان المسلمـون في تونس كتلةً واحـدةً في أول الأمر ، ويقفون جميعاً في وجه الاستعمار الفرنسي الصليبي ، فهم يختلفون عنهم في العقيدة ، كما يتمايزون عنهم في اللغة ، وقد دخلوا البلاد ؛ قوةً واقتداراً ، وأظهروا مباشرةً حقدهم الصليبي الدفين على المسلمين ، فكل تصرّفاتهم تظهر فيها الصليبية ، وموجّهة بوضوح ضدّ المسلمين ، وكـل ما كـان المنتمي إلى الإسلام أكثر إيماناً ، وأكثر تمسّكاً بسلوكه ومحافظاً على قيمه ؛ كان أكثر تعرّضاً للأذى الفرنسي .

لقد وقف المسلمون جميعاً في وجه الاحتـلال ، واتحدوا كلهم لمقـاومة

الاستعمار ، والتقت القبائل بعضها مع بعض ونسيت ما كان بينها بالأمس من خلافات ، ولما عجزوا عسكرياً بقوا مترابطين معنوياً ، فقد دعموا على بوشوشة الذي أصدر جريدة « الحاضرة » ، ودعا إلى الجامعة الإسلامية ، وزيادة الصلة مع الأمصار الإسلامية كافة .

وانضمّ الكثير إلى حزب المقاومة الذي أسسه على باش حمبة ، ودعموه ، واستمرّوا كذلك عندما أصبح اسمه حزب « تونس الفتاة » ، وغدت اللقاءات كثيرة ، والاجتماعات متعددة ؛ لدراسة الوضع واتخاذ ما يرونه مناسباً ، ونتج عن هذه اللقاءات تأسيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي ضمّ مختلف الأعيان ، وأسندت الرئاسة فيه إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي رغم غيابه مُبعداً عن البلاد ، ولّما سمح له بالعودة تسلّم الرئاسة فعلاً . كل هذه المدة والمسلمون كتلة واحدة حتى أوائل شعبان عام ١٣٣٩هـ ؛ حيث أخذت تلعب الأهواء والقضايا الشخصية .

الحزب الإصلاحي : تشكّل الوفد التونسي للسفر إلى فرنسا ، ورفض « حسن قلّاتي » الانضمام إلى الوفد ، وأخذ يهاجم عبد العزيز الثعالبي ، واجتمع حوله المقرّبون إليه ، وأسّسوا الحزب الإصلاحي في ٨ شعبان ١٣٣٩هـ ، فكان هذا هو الانشقاق الأول ولّما يمض على تأسيس الحزب الحر الدستوري سنة (رمضان ١٣٣٨هـ) ، وصبّت هذه المجموعة جام غضبها على عبد العزيز الثعالبي ، وكانت مقالات حسن قلاتي ، ومحمد نعمان مثيرة ، غير أن الثعالبي وبقية الأعيان لم يردّوا بالمثل ، وكظموا غيظهم ، فهدأت الموجة ، ولم يطل الزمن حتى انتهى الحزب الإصلاحي .

الحزب الدستوري الجديد: عندما تأسّس الحزب الحرّ الدستوري التونسى ضمّ مختلف الأعيان ، كما انتسب إليه الكثير من الأفراد التونسيين من مختلف أصحاب الآراء والسلوك، فكأنه كان تجمّعاً وطنياً لمقاومة الغاصبين والوقوف في وجه الفرنسيين ، ولكن مع الأيام لا بدّ من أن تتجمّع العناصر المتقاربة بعضها مع بعض ، وفعلاً ظهر تياران في الحزب : أحدهما ممن حافظ

على شخصيته العربية الإسلامية أو يرغب في تلك المحافظة ويسعى إليها ولو كان مقصّراً أو يخالف في بعض الجوانب فهو صاحب عاطفةٍ إسلاميةٍ حريص عليها ، وثانيهما : حريص على مصلحة بلاده ولكن يرى أن تسير على النهج المادي الأوربي وفي الطريق العلماني ، وقد تسلّم هذا الجناح جريدة « العمل التونسي » ، ولا شكّ أن القسم الثاني هو الأقرب إلى الفرنسيين ، بل إنهم ليحاربون القسم الأول كل محاربة ، ولا يستطيعون التفاهم معه ، ومن هنا كان همّهم الفصل بين الجناحين ، ثم اصطفاء الأعوان لهم من القسم القريب إليهم ، والذي سيعملون على رفعه وإبرازه ، واختيار عناصر الإدارة منه ، وإذا دعت الحاجة تسليم السلطة إليه . إن مجرد الانقسام في الحزب مصلحة للفرنسيين ؛ حيث تضعف المقاومة في وجههم ، لذا فقد عمل الفرنسيون للانشقاق ، والاختلاف في الفكر بين القسمين يساعد على الانشقاق ، وعلى هذا فقد تمّ بسهولة ، انفصلت أسرة جريدة « العمل التونسي » عن اللجنة التنفيذية في الحزب وهي منها ، فانقسم الحزب تلقائياً ، وأسّس القسم الثاني حزب « شبيبة العمل التونسي » ثم عاد قادة هذا الحزب ، واحتفظوا باسم الحزب ؛ ولكن أضافوا إليه كلمة « جديد » ، فأصبح في البلاد حزبان ، أو أصبح الحزب قسمان : ١ ـ الحزب الحرّ الدستوري القديم . ٢ ـ الحزب الحرّ الدستوري الجديد ، ونتيجة عمل فرنسا المستمرّ لإبراز الحزب الجديد بتقديم بعض المطالب لهم ، واعتقالهم ونفيهم ؛ لتسليط الأضواء عليهم ، والاهتمام بهم بإظهارهم في وسائل الإعلام كلها ، والإشارة إليهم أنهم الناطقون باسم الشعب والمخلصون لقضيتهم ، ثم إعلان العداوة لهم ، كل هذا قد جعل الناس تلتف حولهم وتنسى الحزب القديم ، ويجب ألّا ننسى أيضاً نشاطهم ليصلوا بسرعة إلى المكافأة التي تنتظرهم نتيجة سلوكهم وتفاهمهم . إذن برز الحزب الجديد ، واختفى أو كاد ؛ الحزب القديم .

صالح بن يوسف : كان الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الحر الدستوري الجديد بعد استقالة محمود الماطري ، وكان بورقيبة يريد السير في طريق

العلمانية بخطا واسعة ، وبشكل صريح ، وكان صالح بن يوسف الأمين العام للحزب أقل ميلاً إلى العلمانية أو لا يخالف نهجها ، وإن كان يساير الحبيب بورقيبة كثيراً في هذا المجال ، والتفاهم بينهما قائم ، والعمل مشترك . ولما بدأت المفاوضات وبرز الحبيب بورقيبة وحده ؛ كأن يوسف بن صالح أصبح في نفسه شيء ، وبدأ يتبرّم من بعض تصرّفات رئيس الحزب .

ولما دعا بورقيبة « الفلاقة » لإلقاء السلاح ، وترك المقاومة عارضه صالح بن يوسف ، ورأى استمرار المقاومة ، وترك التفاهم مع الفرنسيين ، واستمرّ بورقيبة في طريقه ، ولم يبال بآراء صالح بن يوسف الذي أخذ يهاجم بورقيبة ، ويتهمه بالعلمانية ، ومخالفة الإسلام ، ومحاربة العربية ، و . . .

وتمّ الاستقلال ، وألقي القبض على أنصار صالح بن يوسف ، أمّا هو ؛ فقد هرب خارج البلاد ، وجرى تعديل في الوزارة ، وأخرج منها كل من كانت له صلة بصالح بن يوسف ، ثم اغتيل صالح وهو بعيد عن بلده ، وانتهى أمره .

الحزب الشيوعي : وُجد الحزب الشيوعي بشكلٍ سريٍّ بعد الحرب العالمية الأولى ، وبدأ ينمو وينشط بسرعةٍ نتيجة الدعم الذي يلقاه من مقرّ الشيوعية العالمية في موسكو ، وبسبب حربه ومعادته للاستعمار ، وسكان تونس يئنّون من وطأة الاستعمار مما يجعلهم يُعيرون اهتماماً لنداءاته ، إضافةً إلى أن الجهل يجعلهم لا يعرفون أفكاره ، وآراءه بالإسلام ، كما أن الفقر يجعلهم يميلون إلى شعاراته التي يرفعها ، ويدعو إليها ، ويصدّقون ولو كانت مزيّفة ، فالملقى في اليم يتخيّل القشّة زورق نجاة ، والمحتاج يظنّ كل صاحب كلام بالمساعدة صادقاً .

والحزب الشيوعي يُعادي الاستعمار الغربي لا من وجهة نظرٍ إسلاميةٍ ؛ أو وطنيةٍ على الأقلّ ، وإنما من وجهة نظر الاستعمار الروسي الذي ينافس الاستعمار الغربي ، فهي منافسة لا محاربة ، لذا فالشيوعيون التونسيون هم

منطلقاتهم الخاصة في معادتهم لفرنسا تختلف عن منطلقات بقية الشعب التونسي .

واستطاع الحزب الشيوعي التونسي أن يؤثّر على بعض الاتحادات العُمّاليّة ، وقد أخذت هذه الاتحادات تضغط على الاتحاد العام التونسي للشغل الذي بدأ يختلف مع الحكم ، وبعد الاستقلال جرت محاولة انقلابٍ في عام ١٣٨٢هـ ، وكانت الاتهامات موجّهةً إلى أعضاء في الحزب الشيوعي ، وفي عام ١٣٨٣هـ مُنع الحزب الشيوعي من النشاط ، وعُطّلت صحفه ، ولم يُسمح بالنشاط الحزبي سوى للحزب الحاكم الذي بقي حده في الميدان ، وحمل اسم « الحزب الاشتراكي الدستوري» . أما الشيوعيون الكبار من أصحاب المصالح فقد انخرطوا في الحزب الحاكم ، وأعلنوا تركهم أفكار كل ما سوى أفكار الحزب الاشتراكي الدستوري ، وأما العامة وهم أكثرية أعضاء الحزب فقد اختفوا من الساحة ، وإن بقيت عندهم عواطف نحو الشيوعية ؛ لجهلهم وفقرهم ، كما انخرط عدد منهم في النقابات العُمّالية ، ومن خلالها يتحدّث عن أفكاره الاشتراكية ؛ إن كان قادراً، أو يظن أن العمل العُمّالي واحد، فهو لا يزال على فكره ، ويحلم بالآمال المعسولة ، وهذا شأن العمّال غير القادرين عن الحديث عن الاشتراكية ومبادئها ومفاهيمها .

وفي عام ١٤٠١هـ رُفع الحظر عن الحزب الشيوعي ، وبعد عامين أعطي ترخيص لحزب حركة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وآخر لحزب الوحدة الشعبية ، وهكذا عادت الحياة الحزبية ، ولكن لم يبدأ الصراع فيما بينها بعد ، ويبدو أن المناهج واحدة؛ وإن تعدّدت الأسماء واللافتات . وعندما قام زين العابدين بن علي بحركته أيّد الجميع هذه الحركة ، وأعلن ذلك صراحة « محمد مواعدة » الأمين العام لحزب الديمقراطيين الاشتراكيين ، و« منير الباجي » الأمين العام للحزب الاجتماعي .

التيارات الفكرية : لم تكن هناك أفكار غريبة في تونس قبل فرض الحماية عليها ، كما لم تكن هناك أفكار متباينة ، وإنما كانت الأفكار واحدة ،

وكلها تنبع من العقيدة التي عليها الشعب وهي الإسلام ، وإذا كان هناك تساهل في أداء بعض العبادات ؛ إلّا أن العاطفة الإسلامية قوية ، واحترام أهل العلم ، والوقوف عند الحدود الشرعية موجود .

فلما فُرضت الحماية ، وكثر المستوطنون ، وظهر التفوّق العسكري الفرنسي ، وأصبح الأجانب المعتدون هم أصحاب السيادة وبيدهم الأمر والنهي ؛ كثر المتزلّفون ، وانتشر التقليد في الزي والسلوك ، بل وفي اللغة والمحاكاة . ومع الزمن ؛ ظهر الذين أصيبوا بالهزيمة النفسية ، فأصبحوا يطالبون بالسير على المنهج المادي العلماني ، وبدؤوا بتطبيق ذلك على أنفسهم ، ثم بالدعوة له ، وبذا وُجد تياران فكريان واضحان .

١ ـ **الفكر الإسلامي** : الذي ينبع من العقيدة ، وإن كان مستوى الوعي آنذاك بسيطاً ، وقد حافظ أصحابه على ما اكتسبوه من إيمانهم ، وكانت لهم شخصية متميّزة ، ويرون أخذ العلم التجريبي من الحضارة المادية ، والبعد عن سلوك أصحابها وتصرّفاتهم ، وعقائدهم التي أخذوها من حضارتهم المادية ، حيث يعطي الماديون العقل صفة الوصول إلى الحقائق المطلقة ، فلم يؤمنوا إلّا بما يلمسونه بأيديهم ، أو يتوصّلون إليه بعقولهم وهذا لا يتفق مع الإسلام ، ولا مع العلم الذي يؤمنون به .

ومن أصحاب هذا الفكر علماء وطلاب جامع الزيتونة حتى عُرفوا بالزيتونيين ، وأحياناً أخرى بالشبيبة الزيتونية ، وأساتذة المعهد الصادقي ، ويُعرفون أحياناً بقدماء الصادقية ، ورجالات الحزب الحرّ الدستوري التونسي القدماء أو زعماؤه الحقيقيون ، وقد يُطلق عليهم أحياناً الحزب القديم ، ويضاف إلى ذلك عامة الشعب ، المسلمون بالفطرة ، والذين لا يعرفون إلّا الإسلام فكراً ، وعقيدةً ، وسلوكاً ، ومنهج حياة ، وأخلاقاً ، وقيماً ، ومنه تنبع جميع قضايا حياتهم .

وهؤلاء أنموذج في الوطنية ، إذ يرون أنه لا يمكنهم التعايش مع

الفرنسيين المستعمرين الصليبيين لأنهم يؤمنون تمام الإيمان أنهم يختلفون عنهم تمام الاختلاف ؛ عقيدةً ولغةً ، ولما كانت كل جوانب الحياة تؤخذ أو تنبع من العقيدة لذا فهم لا يلتقون مع الفرنسيين أبداً ، بل هناك ما هو أشدّ من هذا إذ يعتقدون أن الفرنسيين إنما دخلوا تونس وغيرها من الأقطار الإسلامية لإذلال المسلمين ، وفي سبيل القضاء على الإسلام بدافع الحقد الصليبي ، فكيف ينظر المرء إلى آخر جاء لإذلاله ، وقتل أعزّ شيءٍ عنده ، وهو العقيدة ؟! إذن لا يمكن أن يقبل هؤلاء الفرنسيين أبداً ، ولا بدّ من قتالهم لإخراجهم من البلاد . فهم إذن أصحاب عقيدة ، ويلتقون مع المخلصين بالوطنية بل إنهم أشدّ الوطنيين إخلاصاً .

وإذا كان الفكر الإسلامي قبل الحماية غير واضح تماماً لدى الأفراد نتيجة المرحلة التي عاشها المسلمون من التأخر ، وغياب المنهج والجهل ، ثم جاء الاستعمار الصليبي وبذل جهده لإبقاء المسلمين على حالتهم ؛ بل وتركهم نياماً ، وإعطاء المنوّمات لهم بإذلالهم ، وإفقارهم ، وتجهيلهم ، وإبعادهم عن المناصب ، فاشتدّت المصيبة ، إلّا أن المسلمين قد أخذوا يستيقظون من سباتهم ، وينفضون عن عيونهم الغبار الذي تراكم عليهم فيما مضى ، فبدأت الصحوة ، وغدا الفكر الإسلامي واضحاً ، والمنهج بيّناً ، وبرز في تونس ؛ وإن كان متأخراً قليلاً عما ظهر في بقية الأمصار الإسلامية كمصر والشام وباكستان وذلك بسبب تأخر تربع الاستعمار الفرنسي على صدور التونسيين ، وبرز منهم قادة أمثال راشد الغنوشي وعبد الفتاح مورو وغيرهما، وبدأ الاتجاه الإسلامي يقوى حتى احتلّ المكانة الأولى في البلاد .

ولقد خشي أصحاب الفكر المستورد هذا النشاط الإسلامي ؛ فوقفوا في وجهه جميعاً ، وخاصة أن السلطة بيدهم ، وتدعمهم الدول الأخرى التي لها النفوذ العالمي ، والتي تخشى انكماش ذلك النفوذ فيما إذا عادت للإسلام دولته وعاد له مجده . ووُضع القادة في السجون ، وألقى القبض على الكثيرين ، وتحدّثت وسائل الإعلام العالمية عن الرجعية ، والتخلّف ، والتعصّب ،

والتطرّف ، وتحدّث بعض المسلمين عن وعي وعن غير وعي ، وأثيرت الاتهامات ، وكثرت الافتراءات ، ولكن الفكر لا يقاوم بالسيف ، والعقيدة لا تحارب بالضغط .

وعندما قامت حركة زين العابدين بن علي خرج قادة الاتجاه الإسلامي من السجن ، وأخذ الاتجاه دوره بين الحركات ؛ وإن كان يُنظر إليه بعين الحذر من بقية الفئات . ثم كُشف النقاب عن هذه الحركة ، وعاد الضغط على أصحاب الفكر الإسلامي .

٢ ـ **الفكر المستورد** وقد دخل مع الحماية الفرنسية ، إذ هُزم بعض الرجال فكرياً بعد أن هُزموا عسكرياً ، وفُتن بعض الناس بالعلم التجريبي ، وبُهر بعضهم بالحضارة المادية ، وأعجب بعض السكان بسلوك الفرنسيين المتحرّر من كل قيمة ، وغلبت على بعضهم أهواؤهم وشهواتهم ، فرغبوا أن يعبّوا من دنياهم ما شاء لهم هواهم ، فانطلق هؤلاء وأولئك يقلّدون الفرنسيين ، ويطالبون بالسير على منهجهم بترك مخلّفات الماضي وما فيها من إيجابيات وسلبيات ، وأخذوا يجترّون الكلمة الدخيلة كالديمقراطية ، والاشتراكية، والعلمانية، والشيوعية، والماسونية، و. . . وهذا يدعو لهذا المبدأ ـ حسب زعمه ـ ويجعله عنواناً لتجمعه ، وذاك ينادي بذلك الشعار ويضعه لافتةً لحزبه ، ويتكلّم من يتكلّم ، ويتشدّق من يتشدّق ، و . . . وقد ينتقل بعضهم من خطٍّ إلى آخر ـ كما سنرى ـ إذ لا فرق بين مسارٍ وثانٍ ؛ فكلها تنبع من معينٍ واحدٍ ، وهو المادة ، والتحرّر من كل قيدٍ عقدي أو أخلاقي ، أو ما تعارف عليه المجتمع ، ومن كل القيم . وقد برز الحزب الشيوعي ، والحزب الحرّ الدستوري الجديد ، وتجمعات ثانية ، فلما تسلّم الحزب الحرّ الدستوري السلطة ، ومُنع الحزب الشيوعي ، وبقية الأحزاب والتجمعات من النشاط وحظر عليها ذلك انخرط قادتها كلهم في صفوفه ، إذ الفكر واحد والسلوك واحد ؛ وإن اختلف المدار .

ولما سُمح بعودة النشاط عادت لتظهر من جديد ، إذ كانت تعمل تحت

جناح الحزب الاشتراكي الدستوري ، ومن المصلحة الآن أن يبرز قادتها مستقلين ، وأن ينطوي غيرها تحت جناحها ، وإن كانت تعمل في ظلّ السلطة فيجب أن تعمل الآن لتتسلّم هي السلطة ، ويستظلّ غيرها بظلّها ، فالقضية قضية زعامة ، وقد برز حزب حركة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وحزب الوحدة الشعبية ، وحزب البعث ، ومنظمة العمل التونسي ، ومنظمة الشعلة ، وتجمّع الاشتراكي التقدمي .

وليست هذه الأحزاب والتجمعات كلها ذات موقفٍ واحدٍ من الإسلام ، فبعضها يعلن الحرب عليه كالشيوعية ، وبعضها يُخفي تلك الحرب كالعلمانية ، وبعضها يريد التحطيم تحت غطاء كالماسونية ، وبعضها يسكت غير أن أفراده يسلكون السلوك المخالف للإسلام ، فلا يؤدّون العبادات ، ولا يقومون بأي شعيرةٍ من شعائره ، ويرتكبون المحرّمات ، ونسائهم سافرات متبرِّجات ، وبعضها يعادي الإسلام ما دام يقف أمام شهواته ومصالحه ، ويحارب كل من يريد أن يذكّره أو ينصحه أو يعظه ، وربما كان أفراد من مختلف هذه الجماعات لا يعادون الإسلام ، بل لا يعرفون أن جماعاتهم ضدّ الإسلام ، وإنما يسيرون وراء قادتها ، وقد يتعصّبون لهم ولأحزابهم سيراً وراء مصالحهم وتبعاً لأهوائهم .

وإذا كانوا جميعاً يدّعون الوطنية فإنهم يختلفون في صدقهم ، وفي الفلك الذي يدورون فيه ، فالحزب الشيوعي وحده ينظر إلى الوطنية من خلال الفكر الشيوعي العالمي الذي تمليه موسكو على أتباعها ، وتطرحه من خلال مصالحها الخاصة ، ومنافستها مع الرأسمالية ، ففكره وتصرّفه مفروضٌ عليه ، ولا ينبع من كيانٍ ذاتي ، وهو يدور في الفلك الشيوعي . وأما ما عداه من الأحزاب والتجمعات ذات الفكر المستورد فتدعو إلى الوطنية من خلال مصالحها الخاصة وسيطرتها على السلطة دون أن تكون تابعةً في قراراتها الداخلية لغيرها ، وإن كان أكثرها يدور في فلك الرأسمالية لتأييده ودعمه في الوصول إلى القمة والمحافظة عليه بعد ذلك . وأكثر القواعد والأفراد يرغبون في استقلال بلادهم

وتميّزها بكيانها الذاتي .

وفي كل تجمّع أفرادٌ يختلفون في آرائهم ، وبينهم من يحمل الأفكار كلها ، وتدرّجها من طرفٍ إلى آخر ، فهو بين هذا وذاك .

ويسعى الاتجاه الإسلامي إلى التعريب والتميّز الكامل بالشخصية العربية الإسلامية ، ولا يبالي غيره بالتعريب ولا يهتمّ بذلك ، وإذا وُجد من دعا إليه من باب التعصّب إلى العربية فهي مجرّدةٌ من مضمونها الإسلامي الذي فيه التصحيح لكل المقوِّمات العربية .

البَابُ الثَّالِث

الجَزَائِر

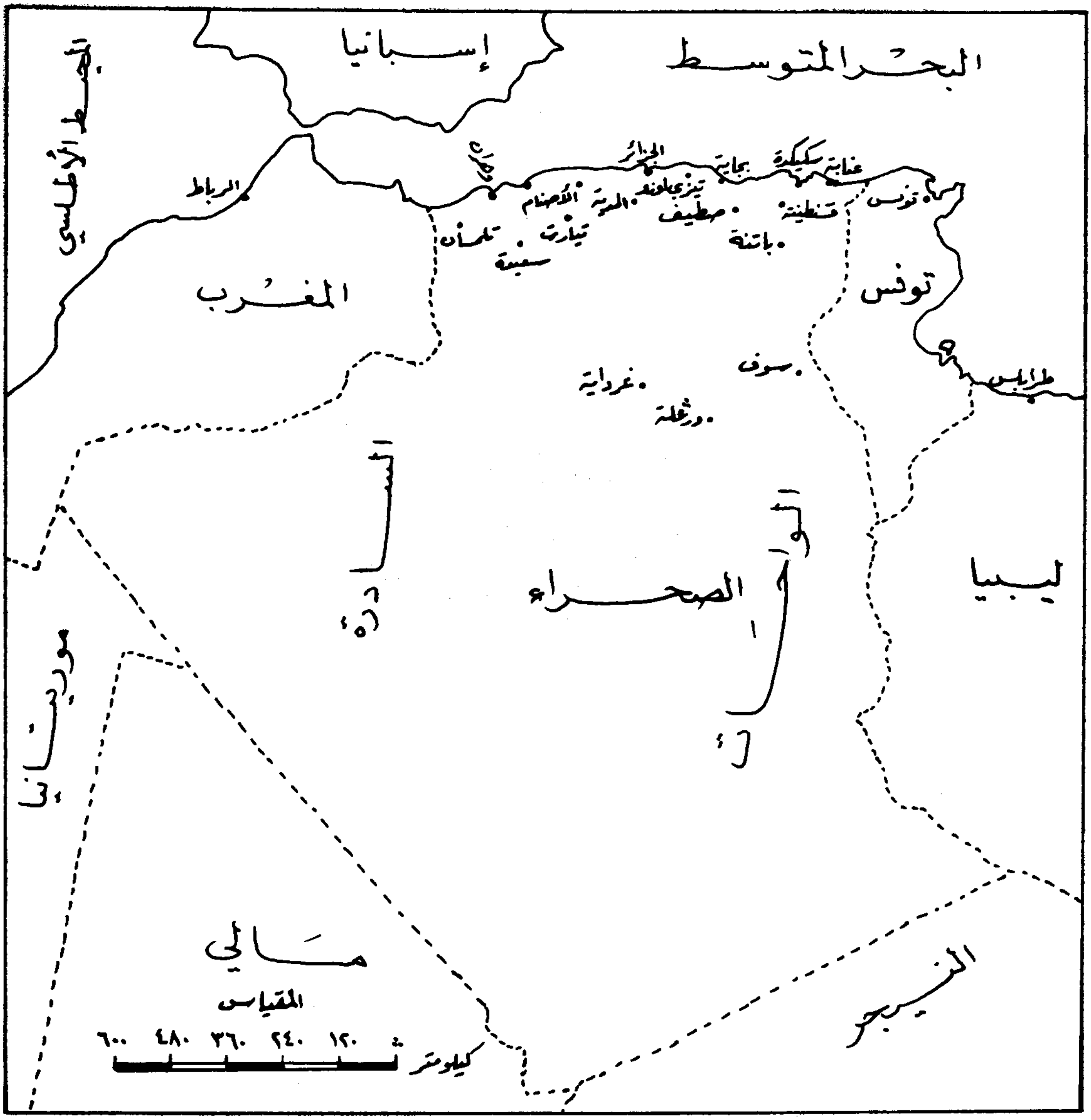

إسبانيا
البحر المتوسط
الرباط
المغرب
الجزائر
بجاية
سكيكدة
عنابة
قسنطينة
سطيف
باتنة
تيزي وزو
المدية
الأصنام
تيارت
تلمسان
تونس
تونس
طرابلس
سوف
غرداية
ورقلة
الصحراء
ليبيا
موريتانيا
مالي
النيجر
المقياس
٠ ١٢٠ ٢٤٠ ٣٦٠ ٤٨٠ ٦٠٠
كيلومتر

لمحة عن الجزائر قبل إلغاء الخلافة

طمعت فرنسا بالجزائر رغبةً في احتلال أراضيها ، ونهب خيراتها ، وغنى الجزائر يُطمع فيها ، كما كانت فرنسا تودّ أن تلفت نظر الفرنسيين في الداخل إلى الخارج وإلى انتصاراتٍ وهميةٍ ، فإن ما في الداخل يقضّ مضاجع الحكم فيريد أن يُلهي الناس في التفكير بما يحدث وراء الحدود ، وإن ضعف الجزائر لَيُشجّع فرنسا على الإقدام على هذه المغامرة ، وكانت فرنسا مدينةً للجزائر بأموال كبيرةٍ ثمن قمحٍ اشترته منذ أيام الثورة الفرنسية ، وماطلت في الدفع للظروف التي تمرّ بها ، وأملاً في عدم الدفع باحتلال الجزائر ، ويجب ألّا ننسى الحقد الصليبي الدفين الذي يكمن بين ضلوع نصارى أوربا .

أخذت فرنسا تتحينّ الفرص للقيام بمغامرتها ، وجاءت الفرصة عندما طالب « الداي » في الجزائر القنصل الفرنسي بتسديد الديون ، فأساء القنصل الأدب ، فما كان من الداي إلّا أن صفعه ، وأمره بالخروج من القصر ، فكتب القنصل إلى حكومته بما تمّ ، فعدّت ذلك إهانة ، وأخذت تستعد للغزو ، ولم تُجدِ الوسائل السياسية في إقلاع فرنسا عما صمّمت عليه .

ولما أكملت فرنسا استعدادها أرسلت في أواخر عام ١٢٤٥هـ حملةً مؤلّفةً من ١٠٣ سفينة بحرية ، وأربعمائة سفينة نقل تحمل أربعين ألف مقاتل ، ونزلت هذه القوة على البر ، واحتلّت موقع (سيدي فرج) في تاريخ ٢٣ ذي الحجة ١٢٤٥هـ (١٤ حزيران ١٨٣٠م) ، وبعد معارك طاحنةٍ بين

الطرفين ، ومقاومةٍ عنيفـةٍ أبدتهـا القوات الجـزائريـة ، وتضحياتٍ جسيمـةٍ قدّمتها ؛ انتصر المعتدون ، ودخلوا مدينة الجزائر في تاريخ ١٤ محرم ١٢٤٦هـ (٥ تموز ١٨٣٠م) ، واضطر الداي إلى الاستسلام ، وترك مدينة الجزائر ، واتجه إلى مصر حيث نزل بالإسكندرية . اتجه الفرنسيون إلى بقية الولايات ، فساروا إلى (وهران) حيث تمكّنوا من دخولها عام ١٢٤٩هـ بعد أن انتصروا على واليها العثماني « حسن بك » ، ودخلوا (قسنطينة) عـام ١٢٥٣هـ بعد مقاومة واليها العثماني « أحمد بك » هذه المدة كلها ، وانتهى الفرنسيـون من احتـلال ولاية الجـزائر كلهـا عام ١٢٥٥هـ ، أي أن احتـلال هذه الـولاية الضعيفة النائية استمرّ تسع سنوات من قبل القوات الفرنسية المعتدية .

حاولت فرنسا اغتصاب الأراضي الخصبة من أرض الجزائر ، وإعطاءها للفرنسيين إغراءً لهم في سكنى الجزائر ؛ ليكونوا عوناً لها وعيوناً لتثبيت أقدام الفرنسيين فيها ، وليخلصوا لحكومتهم بعد أن قدّمت لهم المنح السخية التي نهبتهـا من البلاد التي احتلّتهـا ، وفي الوقت نفسـه تكون قـد أفقرت أهـل الجـزائر ، فيضـطّرون نتيجة الحـاجة إلى الخضـوع للمعتدين ، والـرضـوخ لأوامرهم ، فيصيبهم الذلّ ، وما ذلّ قوم إلاّ وسلّموا قيادهم لغـيرهم ، كما عمل الفرنسيون على نشر المفـاسد وشيـوع الرذيلة وخلع المـرأة المسلمة من مجتمعها المسلم ، وجعلها تقلّد المجتمعات الغربية التي لا تعرف حشمةً ولا حياءً ، ولا حرمةً ولا وقاراً ، فقد ترك الفرنسيون حبل الفساد عـلى مداه ، وبذروا الحب لكل راغبٍ أو راغبةٍ ، ومتى انطلق الناس وراء شهواتهم تركوا الآخرين يرتعون في مرعاهم ، ولا يبالون أيهم تسلّم زمام الأمر فيه .

وقفت القبائل في وجه الاستعمار الفرنسي الصليبي ، وقد وجـدت في الفرنسيين حقداً شديداً ضدّ المسلمين وخيانـةً وغدراً ونقضاً للعهود ، لقد أمر القائد الفرنسي « روفيجو » بتحويل أجمل مسجدٍ في مدينة الجزائر إلى كنيسة ، فقام الجنود الفرنسيون باقتحام المسجد على حين كان في داخله أربعة آلاف مسلم ، وأعملوا فيهم القتل بالحراب ، وهم يؤدّون الصلاة داخـل المسجد

الذي لم يلبث أن تحوّل إلى « كاتدرائية الجزائر »[1] .

كما أقدم الفرنسيون على ذبح قبائل مسلمةٍ كاملة، مثل قبيلة العوفية ، وهذا ما أثار سخط المسلمين جميعاً ، وإذا كان الحضر لا يستطيعون الحركة لأن الفرنسيين فوق رؤوسهم ؛ فإن القبائل كانوا على حريةٍ نسبياً ، فنهضوا للجهاد .

بداية المقاومة : قرّر القائد الفرنسي « دوبورمون » الذهاب إلى مدينة (بليدة) يوم ٢٩ صفر ١٢٤٩هـ (٢٥ تموز ١٨٣٠م) على رأس جيشٍ مكوّن من ألف جندي مشاة وبعض مئات من الخيالة ومدفعين ، فكتب إليه « ابن زعمون » رئيس قبيلة « فليسة » يطلب منه عدم التقدّم إلّا بعد توقيع معاهدة مع العرب تنظّم العلاقة مع الفرنسيين ، ولكن « دوبورمون » لم يبال ، وسار إلى (بليدة) ، فاصطدم أثناء عودته مع « ابن زعمون»، ففقد أحد معاونيه والمئات من رجاله . وزادت قوة « ابن زعمون » ، وانضمّت إليه القبائل في سهول (متيجة) ، واقتحم مدينة (بليدة) يوم ٢ رجب ١٢٤٩هـ (٢٦ تشرين الثاني ١٨٣٠م) ، ودارت معركة عنيفة أبيد فيها الكثير من الحامية الفرنسية التي كانت تعمل تحت قيادة العقيد « رولير » ، وفي اليوم التالي وصل القائد « كلوزول » إلى (بليدة) من حملته الفاشلة على بلدة (المدية) عاصمة إقليم (تيطري) ، فوجد ما حلّ بالحامية الفرنسية في (بليدة) ، فاضطّر إلى سحب القوات إلى مدينة الجزائر . ثم انضمّ « سيدي السعدي » إلى « ابن زعمون » ، كما كان « مصطفى بو مرزاق » يقود المقاومة من جهةٍ ثانيةٍ في سهل (المتيجة) . غير أن قوات فرنسا الضخمة قد تمكّنت من تشتيت قوات « ابن زعمون » ، واضطرّ بعدها للاعتزال ، على حين انضمّ بقية القبائل وزعماؤها إلى حركة عبد القادر الجزائري[2] .

---

(١) جهاد شعب الجزائر ـ المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي ص ٨٩ ـ بسام العسلي .

(٢) انظر المرجع السابق .

كان شيوخ قبائل المرابطين ، وهم من خرج من الأندلس ، واستقرّ في الجزائر ؛ قد ضاقوا ذرعاً بأعمال الفرنسيين ووحشيتهم ، فتشاوروا فيما بينهم ، وأشار عليهم أحدهم ـ وهو محي الدين بن مصطفى الحسني ـ بالتوجّه إلى سلطان المغرب ، ففعلوا ، ووعدهم عبد الرحمن بن سليمان سلطان المغرب ، وأرسل لهم ابنه علياً بقوةٍ تقدّر بخمسة آلاف مقاتل ، فاجتمع المرابطون ، وبايعوا محي الدين أميراً عليهم لقتال الفرنسيين ، فقادهم مدة سنتين ، ثم تنازل لابنه عبد القادر[1] .

كان في الجزائر ما يقرب من ستة آلاف من العثمانيين قُتل منهم ألف وخمسمائة ، وعمل الباقون مع الجزائريين . أما اليهود فقد كانوا أكبر أعوان الفرنسيين ، وأسوأ أعداء المسلمين ، مع أن الأسباب المباشرة لاحتلال فرنسا للجزائر إنما كانت نتيجة مطالبة الجزائر لفرنسا بديونها وحقوق رعاياها من يهود حيث كانت لهم ديون على الحكومة الفرنسية يومذاك .

أعلن عبد القادر الجزائري الجهاد ، ونظّم حكمه فكان بمثابة رئيس للوزراء ، وله نائب ، ووزراء للخارجية ، والخزانة ، والأوقاف ، والزكاة والأعشار ، والخزانة الخاصة ، وكان للوزراء كتبة ، واختار مجلساً للشورى يتألف من أحد عشر عضواً يمثّلون مختلف مناطق البلاد ، وعلى رأسهم كان

---

(١) عبد القدر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري : وُلد عام ١٢٢٢هـ في (القيطنة) إحدى قرى ولاية وهران ، وتعلّم في وهران ، وحجّ مع أبيه عام ١٢٤١هـ ، فزار المدينة ، ودمشق ، وبغداد ، وبايعه الجزائريون لقتال الفرنسيين ، فقاد الجهاد خمس عشرة سنة ، وضرب نقوداً سماها « المحمدية » ، وأنشأ معامل لصنع الأسلحة والأدوات الحربية ولباس الجند ، ولما انقطع دعم سلطان المغرب ضعف عبد القادر ، فطلب شروطاً للاستسلام رضي بها الفرنسيون ، فاستسلم عام ١٢٦٣هـ ، فنفوه إلى (طولون) ، ثم نقلوه إلى (أنبواز) ، فبقي فيها أكثر من أربع سنوات ، وزاره في سجنه الإمبراطور « نابليون الثالث » ، وأطلق سراحه ، ولكن اشترط عليه ألاّ يعود إلى الجزائر ، فزار باريس ، واستانبول ، ودمشق ، واستقرّ في دمشق عام ١٢٧١هـ وفيها حمى النصارى عندما وقعت أحداث عام ١٢٧٧هـ ، وتوفي في دمشق عام ١٣٠٠هـ .

قاضي القضاة . ونظّم الجيش فكان الرقيب يقود اثني عشر جندياً ، ورئيس الصف يقود عشرين جندياً ، ويقود السياف مائة جندي ، والآغا ألف جندي . وكان في كل منطقةٍ من الجزائر رئيس عليها ومعه عدد من المقاتلين ؛ يتفاوت بين منطقةٍ وأخرى . واتخذ من مدينة (المعسكر) قاعدةً له . واتصل بمن بقي من العثمانيين فأعلنوا السمع والطاعة .

بويع عبد القادر الجزائري أميراً للجهاد في ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٤٨هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٨٣٢م) ، ولكن رفض البيعة والطاعة بعض المقاتلين المنافسين ؛ حسداً من عند أنفسهم لتكون لهم الإمرة ، واضطرّ إلى الصدام معهم ، وانتصر عليهم ، ودخل مدينة تلمسان ، وعامل أهلها أحسن معاملة ، وتوفي والده في هذه الأثناء .

استولى القائد الفرنسي « دي ميشيل » على (أرزو) و (مستغانم) ، وقد أسرع عبد القادر وأغار عليهما ، وحاصر مستغانم ، واضطرّ إلى العودة إلى قاعدته في (المعسكر) . وعقد الجنرال « تريزيل » معاهدةً مع « مصطفى ود إسماعيل » رئيس قبائل (الدوائر والزمالة) . ثم جرت معاهدة بين الأمير عبد القادر والجنرال دي ميشيل في تاريخ ١٧ شوال عام ١٢٤٩هـ (٢٦ شباط ١٨٣٤م) ، لوقف القتال ، وإطلاق سراح الأسرى ، وحرية التجارة ، واحترام عادات وديانة المسلمين .

لم ترق المعاهدة السابقة للفرنسيين ؛ فاستدعوا « دي ميشيل » ، وعيّنوا حاكماً للجزائر ؛ هو « ديرلون » ، وأصبح حاكماً عاماً بعد أن كان سلفه قائداً للحملة . فقرّر الحاكم الفرنسي نقض المعاهدة السابقة ، وجاءت الظروف مواتيةً له ، إذ هُزم عبد القادر أمام مصطفى ود إسماعيل ، ثم التقيا ثانية في معركةٍ طاحنةٍ في سهل (محرز) يوم ٧ ربيع الأول ١٢٥٠هـ (١٣ تموز ١٨٣٤م) ، غير أنهما قد تصالحا ، ولكن استطاع عبد القادر من الانتصار على منافسيه الآخرين وهما « سيدي العريبي » ، و « الغماري » رئيس قبائل بني أنجاد . ألغى « ديرلون » المعاهدة ، وسار عبد القادر فقضى على تمرّد قادة

أولاد سيدي العريبي في وادي الشليف ، ثم انطلق بعدها إلى موسى حسن الملقّب بأبي حمار ، وكان قد احتلّ بلدة (المدية) فانتصر عليه . وكان لا بدّ من الصدام مع الفرنسيين ، فالتقى عبد القادر مع الجنرال « تريزيل » على نهر المقطع قرب الساحل ، فانتصر عبد القادر انتصاراً رائعاً ، واضطرّ الفرنسيون على توقيع معاهدة (المقطع) مع عبد القادر في الأول من ربيع الأول ١٢٥١هـ (٢٦ حزيران ١٨٣٥م) .

استدعى الفرنسيون « ديرلون » ، وحلّ الجنرال « دارلانغ » مكان الجنرال « تريزيل » ، وأعيد « كلوزيل » إلى الجزائر في تاريخ ١٦ ربيع الثاني ١٢٥١هـ (١٠ آب ١٨٣٥م) ، ومنها سار إلى وهران ، فوصل إليها في ١ شعبان ١٢٥١هـ (٢١ تشرين الثاني ١٨٣٥م) ، وبعد ستة أيامٍ انطلق نحو مدينة (المعسكر) قاعدة الأمير عبد القادر باثني عشر ألفاً من المقاتلين ، واستطاع دخولها في ١٦ شعبان ١٢٥١هـ (٦ كانون الأول ١٨٣٥م) .

أعاد الأمير عبد القادر جمع القبائل ، وعاهدوه على الجهاد مرةً ثانيةً ، وخرج بهم للدفاع عن تلمسان ، وخرج قائد مستغانم الجديد « بوشناق » ليشاغل الأمير عن مدينة المعسكر ، غير أن قواته التقت مع جيوش المسلمين عند (البطحة) ، فتمزّق شمل جنده ، وعاد مدحوراً إلى (مستغانم) ، أما الأمير عبد القادر فقد سار لتأديب قبائل الزمالة التي تحالفت مع الفرنسيين ، فقتل قائدها ، وتابع سيره نحو تلمسان ، فالتقى بقواتٍ جديدةٍ للزمالة بقيادة رئيسها مصطفى ود إسماعيل ، فدحرها بعد أن أباد قسماً منها ، ورجع الباقي إلى تلمسان ، ثم التقى بعبد الله غماري قائد قبيلة « أنجاد » الذي جاء دعماً للزمالة ، ولكن أفراد هذه القبيلة فرّوا مباشرةً ، وجُرح رئيسهم .

وأراد « كلوزيل » إخراج نفسه من الحرج الذي وقع فيه بهزيمة القبائل التي تتعاون مع فرنسا ، فسار إلى تلمسان يريد دخولها بثمانية آلاف جندي ، واصطدم مع الأمير عبد القادر بمعركةٍ حاميةٍ على أبواب تلمسان ، وانضمّت بعض القبائل إلى الفرنسيين إلى جانب مصطفى ود إسماعيل ، وتمكّن

الفرنسيون من دخول تلمسان في تاريخ ٢٥ رمضان ١٢٥١هـ (١٣ كانـون الثاني ١٨٣٦م) ، واضطرّ الأمير عبد القادر إلى الانسحاب إلى (وجدة) على الحدود الجزائرية مع المغرب . وفرض « كلوزيل » على أعوانه من العرب مائة ألف فرنك دليلاً على إخلاصهم .

كان هدف « كلوزيل » إبقاء صلةٍ بين الساحل وتلمسان ، ووجد أن منطقة (تافنة) صالحة لتأمين هذا الاتصال ، وإن كانت منطقةً جبليةً تفصل بين الساحل وتلمسان ، وبينما كان في (تافنة) ؛ وجد نفسه أمام جيش يقوده الأمير عبد القادر ، فانهزل « كلوزيل » ، وانسحب إلى تلمسان ، حيث ترك هناك حاميةً بقيادة نائبه « كافينياك » ، وهرب باتجاه وهران ، وإذا بكوكبةٍ من جند الأمير عبد القادر تـلاحقه حتى أبـواب وهران حيث حجبتـه المدينـة ، وحالت بينه وبين مطارديه ، ولكنه استمرّ يلهث من الخوف ، وأصدر تعليمات بتعيين الجنرال « دارلنـغ » قائـداً على وهـران ، والجنرال « بهـاراغوا » عـلى الجند ، وانسحب هو إلى مدينة الجزائر . وعنـدما شعـر بالأمن وابتعـد عن الخصم أصدر بياناً أعلن فيه أن الحرب قريبة الانتهاء ، وأن الأمير عبد القادر قد أنهكته الهزائم . وفي النهاية أعطى تعليـمات للجنرال « دارلنـغ » بإقـامة حصن في (تافنة) لتأمين الصلة بين وهران وتلمسان .

وأقام الجنرال « دارلنغ » الحصن في (تافنة) ، واصطدم بالمسلمين في عدة معارك ، وكان يحاصر مع جيشه في كل مرة حتى استطاع الوصول إلى وهران خائر القوى بعد أن ترك أكثر أتباعه جثثاً في العراء ، وأخبر حكومته بما حـدث ، وطلب منها الـدعم ، فأرسلت لـه النجـدات ، ووصـل الجنـرال « بيجو » على رأس ثلاث فرق عسكريةٍ إلى (تافنة) يوم ٢١ صفر ١٢٥٢هـ (٦ حزيران ١٨٣٦م) ، وفتح الطريق إلى تلمسان بالقـوة ، واصطدم مـع الأمير عبد القادر في معركةٍ على ضفاف نهير (الزقاق) ، وانتصر فيها بعد أن تخلّت القبائل عن مواقعها في جيش الأمير عبد القادر . وانتفش « بيجو » زهواً بما أحرزه ، وأبلغ حكومته وسافر إلى باريس .

وجد « كلوزيل » بعد أن رجع من فرنسا أن ينهي على الباي أحمد في (قسنطينة) ، فوصل إلى (عنّابة) في شعبان ١٢٥٢هـ (تشرين الثاني ١٨٣٦م) ، ومنها انتقل إلى (قالما) ثم سار إلى قسنطينة ، فاصطدم مع ابن عيسى في معركةٍ حاميةٍ فقد فيها معظم جنده ، ومن بينهم ابنه ، ونجا هو بنفسه بقدرٍ من الله ، فعزلته فرنسا ، وانتقل إلى أسبانيا حيث قضى بقية حياته فيها .

لما هُزم « كلوزيل » أمام أحمد باي قسنطينة هجم الأمير عبد القادر ومن انضمّ إليه على الفرنسيين فلم يبق لهم أي أثرٍ في إقليم وهران ، وأصبح سهل (متيجة) تحت نفوذه ، ثم أصدر أوامره إلى مصطفى التهامي وابن حميدي بالتوجّه إلى مدينة وهران لاحتلالها ، وأصدر أمراً آخر إلى محمد بن علال لاحتلال مدينة الجزائر ، وقد استطاع محمد بن علال دخول الجزائر ، وتوجّه الأمير عبد القادر لدخول تلمسان .

حوصر الفرنسيون حتى أصابهم الجوع ، فعمل أحد اليهود ، واسمه « دوران » في إقناع الأمير عبد القادر لإمداد الفرنسيين بالطعام والحبوب ، وأن يمدّوه بالحديد والرصاص .

ولما وصل الجنرال « بيجو » إلى الجزائر بدأ بالاتصال مع الأمير عبد القادر ، ونتيجة الاتصالات كانت معاهدة (تافنة) . إذ عقد الأمير عبد القادر مؤتمراً قرب (تافنة) دعا إليه زعماء المسلمين الجزائريين ، والقادة العسكريين ، ورؤساء القبائل ، وحدّثهم عن المعاهدة مع الفرنسيين ، وبعد مناقشاتٍ وخلافاتٍ وُقّعت المعاهدة في تاريخ ٢٦ صفر عام ١٢٥٣هـ (٣١ أيار ١٨٣٧م) .

وتنصّ المعاهدة على ما يلي :

١ ـ يعترف الأمير عبد القادر بالسلطة الفرنسية على الجزائر .

٢ ـ تحتفظ فرنسا لنفسها بوطن في بلدان : وهران ، ومستغانم ، ومازغران ،

ونواحيها المحيطة بوهران وأرزو ، ومنطقةٍ أخرى محدودةٍ من الشرق بنهر المقطع والسباخ التي يجري فيها ، ومن الجنوب بخطٍّ يبدأ من السباخ المذكورة مارًّا بالضفة الجنوبية للبحيرة وممتدًّا إلى وادي المالح في اتجاه سيدي سعيد ، ومن هذا النهر إلى البحر يكون تابعاً للفرنسيين .

أما إقليم الجزائر فيعدّ منطقةً فرنسيةً : مدينة الجزائر ، والساحل ، وسهل متيجة محدّداً من الشرق بوادي الخضرة إلى أمام حتى حدّ رأس أول جبل ، حتى وادي (شفة) ، ويدخل في ذلك (البليدة) وسائر نواحيها ، وغرباً من وادي (شفة) إلى المد المقابل لوادي مازغران ، ويمتد من هناك حتى يوازي ساحل البحر ويشمل القليعة ونواحيها كلها .

٣ ـ يحكم الأمير عبد القادر إقليم وهران ، وإقليم (تيطري) ، وما لم يحدّد في المادة الثانية لفرنسا، وليس له الحق في دخول أي جزءٍ آخر من الولاية.

٤ ـ ليس للأمير أية سلطةٍ على المسلمين الذين يرغبون في الإقامة في المنطقة الفرنسية ، ولكن لهؤلاء حرية الانتقال منها ، والإقامة في المنطقة التابعة للأمير عبد القادر ، وفي الوقت نفسه يمكن للسكان المقيمين في المناطق التابعة للأمير أن ينتقلوا منها ، ويقيموا في المناطق الفرنسية .

٥ ـ يتمتع المسلمون الذين يقيمون في المنطقة الفرنسية بحرياتهم الدينية ، ويمكنهم إقامة المساجد ، وممارسة شعائر دينهم في كل خصوصياته تحت سلطة قضاتهم وعلمائهم .

٦ ـ يقدّم الأمير للجيش الفرنسي ثلاثين ألف مكيال من القمح ومثلها من الشعير ، وخمسة آلاف رأس من البقر ، ويتمّ تسليم هذه المواد في وهران على ثلاث دفعات ، تعطى أولاها في منتصف أيلول ، ويقدّم الباقي بعد شهرٍ دفعتين متتاليتين بينهما شهرٌ واحدٌ .

٧ ـ يمكن للأمير أن يشتري من فرنسا البارود ، والكبريت والأسلحة التي يحتاجها .

٨ ـ يتمتع الكراغلة الذين يرغبـون في البقاء في تلمسـان أو غيرهـا بحريـة التملك ، ويعاملون كمواطنين . أما إذا رغبـوا في الانتقال إلى المنـطقة الفرنسية فعليهم أن يبيعوا أملاكهم أو يؤجّروها قبل الانتقال .

٩ ـ تتخلّى فرنسا للأمير عن (راشقون) ، و (تلمسان) وقلعتها ، وعن كل المدافعِ التي كانت فيها ، ويتعهّد الأمير بنقل الأمتعـة كلها إلى وهران إضافةً إلى العتاد الحربي التابع للحامية الفرنسية في تلمسان .

١٠ ـ تبقى المبادلات التجارية حرّةً بين المسلمين والفرنسيين ، ويمكن لكـل طرفٍ أن يقيم مبادلةً في منطقة الآخر .

١١ ـ يلقى الفرنسيون موضع الاحترام بين المسلمين ، وكذا المسلمـون بين الفرنسيين ، ويضمن المسلمون الأملاك التي اقتناها الفرنسيون في منطقة المسلمين أو التي يمكن أن يقتنوها ، ويتصرّفون بها في حرية ، ويضمن الأمير خسارة ما قد يسبّبه المسلمون فيها .

١٢ ـ يتعهّد الأمير بعدم تسليم أي جزءٍ من الساحل إلى أية دولةٍ أجنبيةٍ مهما كانت دون إذن فرنسا .

١٣ ـ يتمّ تبادل المجرمين بين المنطقتين .

١٤ ـ لا يصحّ إجراء المعاملات التجارية للولاية إلاّ في الموانىء الفرنسية .

١٥ ـ يكونِ لفرنسا ممثّلون لدى الأمير ، وفي المدن الخاضعة لسلطانه ليعملوا وسطاء لمصلحة الرعايا الفرنسيين ، وللنظر في كل الخصومـات التي قد تحدث بينهم وبين المسلمين ، وللأمير الامتياز نفسـه في المدن والمـوانىء الفرنسية(١) .

رشقون ٢٦ صفر ١٢٥٣هـ ، ٣١ أيار ١٨٣٧م .

بعـد هذه المعـاهدة تفـرّغ الأمير عبـد القادر لتنـظيم شؤون دولتـه وتصفيـة

---

(١) انظر المعاهدة في سلسلة جهاد شعب الجزائر ـ الجزء الرابع ـ بسام العسلي . دار النفائس ـ بيروت .

منافسيه ، كما تفرّغ الفرنسيون للقضاء على أحمد باي قسنطينة ، ومع الأسف ؛ يبدو أن المسلمين لم يتعاون بعضهم مع بعض رغم أنهم يقاتلون الفرنسيين ، وربما كان بعضهم ينتظر ليرى مصرع الآخر على يد العدو الصليبي المشترك ، وهذا ما كان ينتظره الأمير عبد القادر لأحمد باي قسنطينة ، فعندما كان الجنرال « كلوزيل » يوجّه جهده لأحمد باي قسنطينة كان الأمير عبد القادر ينتظر نتيجة الصراع ، فلما انتصر الباي تحرّك عبد القادر ضدّ الفرنسيين ، وهذا ما يجعل التفكير يسبح بعيداً ، ويقف عند دراسة كل جزئيةٍ أو قول كل كلمةٍ قد تأتي في موضع الثناء . وكان الأمير عبد القادر صوفياً من مشايخ الطريقة الدرقاوية ، وله منافسات لمشايخ بقية الطرق .

وعُيِّن « فالي » حاكماً عاماً جديداً للجزائر في ٣ رمضان ١٢٥٣هـ (٣٠ تشرين الثاني ١٨٣٧م) ، ويحمل معه تعليماتٍ محدّدةٍ للتمسك ببعض المناطق التي تصل بين مدينة الجزائر وقسنطينة إذ أنها ذات أهميةٍ خاصةٍ بالنسبة للفرنسيين من ناحية التموين والانتقال ، وعندما وصل الحاكم العام الفرنسي إلى الجزائر أرسل هذه التعليمات إلى الأمير عبد القادر الجزائري ، وأخذ في مفاوضته في سبيل تنفيذها .

وعرف الأمير عبد القادر من خلال التعليمات ما تنويه الحكومة الفرنسية لذا فقد أسرع واحتلّ هذه المناطق ، وشدّد قبضته عليها ، ونظّم أمور قبائلها ، وعيّن عليها أحمد بن سالم نائباً له .

أرسل الحاكم الفرنسي « فالي » الجنرال « دوسال » إلى (مليانة) في ذي القعدة ١٢٥٤هـ (شباط ١٨٣٩م) حيث يعقد الأمير عبد القادر مؤتمراً لرؤساء القبائل وزعماء المسلمين ، وقد تكلّم الجنرال « دوسال » للحضور ، وحاول أن يبرهن لهم على ضرورة التنازل عن هذه المناطق لمصلحة الفرنسيين ، فكان جواب الجميع أن الحرب خير من التنازل . وحاول الأمير عبد القادر تغطية ما قام به من عملٍ عسكريٍّ بعملٍ سياسيٍّ فاتصل بملك فرنسا « لويس

فيليب » ، وبوزير الخارجية الفرنسية ، ولكن لم يفده ذلك شيئاً إذ أن فرنسا مصممة على العمل العسكري .

جاء دوق دي أورليانز ـ ابن الملك لويس فيليب ـ للإشراف على تحرّك عمليةٍ فرنسيةٍ من قسنطينة إلى مدينة الجزائر عن طريق المنطقة المتنازع عليها ، واجتازوا باب الحديد بحيلةٍ وأوراقٍ مزوّرةٍ ، فاحتجّ الأمير عبد القادر ، وأعلن الحرب على القوات الفرنسية في تاريخ ٢٢ رمضان ١٢٥٥هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٨٣٩م) ، وهاجم المناطق الفرنسية ، فاعتصم الفرنسيون في مدينة الجزائر ، ولكن مدافعهم قد أوقفت هجوم الأمير عبد القادر ، وجاء الدعم إلى الماريشال « فالي » ، فأصبح جيشه ثلاثين ألفاً ، وأعلنت فرنسا أن الجزائر منطقةً فرنسيةً ، لا يمكن التنازل عنها ولا التراجع عن هذا أبداً .

كان الأمير عبد القادر يتجنّب الصدام مع الفرنسيين في معركةٍ نظاميةٍ لقلّة جنده أمام القوات الفرنسية ، وإنما كان يعتمد على الإغارة والهجوم على أجنحة القطعات الفرنسية ، وحرب العصابات وخاصةً في الجبال .

تولّى الماريشال « بيجو » حاكماً عاماً فرنسياً جديداً للجزائر في ١ محرم ١٢٥٧هـ (٢٢ شباط ١٨٤١م) ، وبدأ يطارد الأمير عبد القادر ، وتمكّنت القوات الفرنسية من مباغتة الأمير بالقرب من زاوية المرابط سيدي يوسف في ٢٨ شعبان ١٢٥٩هـ (٢٢ أيلول ١٨٤٣م) ، واستطاع أن ينجو ، ثم هُزم في معركةٍ وقعت في ١٨ رمضان ١٢٥٩هـ (١١ تشرين الأول ١٨٤٣م) ، واضطرّ للتوجّه نحو حدود المغرب ، وتمّ نتيجة ذلك اشتباك بين الفرنسيين والمغاربة ، واحتلّ الماريشال « بيجو » مدينة (وجدة) ، ثم قام الأسطول الفرنسي بضرب مدينة (طنجة) المغربية ، ومدينة (موغادر) المغربية أيضاً ، وهذا ما جعل المغرب ترضخ لمطالب فرنسا ، وتتوقف عن دعم الأمير عبد القادر واحتضانه ، وهذا ما أثار شعور المسلمين في المغرب ، فراسلوا الأمير عبد القادر لمساعدتهم لخلع سلطانهم وتسليمه أمرهم ، غير أنه قد رفض ذلك .

وفي ربيع الأول ١٢٦١هـ (آذار ١٨٤٥م) رفع محمد بن عبد الله الملقّب « بومعزة » ـ من مشايخ الطريقة الدرقاوية ـ لواء الجهاد . ورجع الماريشال « بيجو » إلى الجزائر ، ووصل عدد قواته إلى مائةٍ وعشرين ألفاً ، وبدأ حرب إبادةٍ تامةٍ للسكان ، والحيوانات ، والمزارع ، فوقع الذعر في قلوب الناس ، وبدؤوا يتخلّون عن الأمير عبد القادر الذي اضطرّ إلى مراسلة الجنرال « لامور سيير » ، والإعلان له عن رغبته في الاستسلام وذلك في تاريخ ١٤ محرم ١٢٦١هـ (٢١ كانون الأول ١٨٤٧م) فوافق مباشرةً على شروطه ، وفي ١٨ محرم من العام نفسه غادر الأمير عبد القادر الجزائر مع ثمانيةٍ وثمانين من أتباعه إلى حيث لا رجعة ، حيث اعتقل في جنوبي فرنسا في (طولون) و (أنبواز) أكثر من أربع سنوات ، وزالت بعد مدّةٍ ملكية لويس فيليب ، وأعلنت الجمهورية التي انقلبت إلى إمبراطورية ، واعتلى العرش نابليون الثالث ، فزار الأمير عبد القادر في سجنه ، وأطلق سراحه بشرط ألّا يعود إلى الجزائر ، فزار باريس ، واستانبول ، ثم استقرّ في دمشق عام ١٢٧١هـ ، وبقي فيها حتى مات عام ١٣٠٠هـ .

حركات المقاومة : لم تهدأ مقاومة الجزائريين بعد رحيل الأمير عبد القادر أبداً ، فما تندلع ثورةٌ وتهدأ ، وينقطع نزيف الدم ، ويضمّد المجاهدون جراحهم ؛ حتى تقوم حركةٌ عارمةٌ في جهةٍ ثانيةٍ ، وإذا كان يؤخذ على حركات المقاومة هذه أنها لم توحّد جهودها ، ولم تخطّط للقيام في وقتٍ واحدٍ في مختلف المناطق ، وليس لهذا ما يبرّره ، إلّا أننا نحاول أن نجد لها الأعذار في صعوبة الاتصال والمواصلات ، ويجب أن لا نسقط الحاضر على الماضي ، وننظر إلى الحاضر وما فيه من سهولة الاتصال وسرعة المواصلات ، إذ لم يكن هذا متوفرا في تلك الأيام . كما أن كثرة القبائل ، والمنازعات فيما بينها ؛ يلعب دوراً في هذا ، إضافةً إلى عدم الوعي ، وعدم الفهم الصحيح للإسلام ، والطرق الصوفية ، والمنافسة فيما بينها ، ويجب ألّا ننسى حظ النفس ؛ ما دام الوعي الإسلامي قليلاً . وإذا كنا نثني على من بقي في الساحة

مجاهداً فإننا لا نعرف عن الذين مضوا شيئاً ، فقد اتهم بعضهم بالخيانة وأعدم، وهُزم بعضهم في الميدان وقُتل، ولو استمر ربما كان خيراً ممن بقي. ولكن دُوّنت الأحداث لمصلحة من واتته الظروف ، وعاش ، وأضفى عليه المدوّنون كل صفات الرجولة ، وأعطوا من انتهى غير ذلك ، وهكذا إن لم تدون الأحداث إثر وقوعها ، وتُحفظ لتُؤخذ منها العبرة .

لقد قام الكثير من الثورات ، وحركات المقاومة ضدّ الفرنسيين ، ولعلّ من أهمّها :

١ ـ حركة ناصر بن شهرة عام ١٢٦٧هـ ، وكان يتنقل بين (نغزاوة) و (الجريد) .

٢ ـ حركة محمد الأمجد بن عبد الملك المعروف بالشريف « بوبغلة » عام ١٢٦٧هـ ، وقد تمّ القضاء عليها في ربيع الأول ١٢٧١هـ (كانون الأول ١٨٥٤م) ، وإن كانت قد استمرّت قليلاً بعد ذلك بقيادة الحاج عمر ، والإخوان الرحمانيين .

٣ ـ ثورة قبيلة بني « لالا فاطمة » ، واستمرّت حتى ٢٠ ذي القعدة ١٢٧٣هـ (١١ تموز ١٨٥٧م) .

٤ ـ حركة الصادق بن الحاج من أولاد سيدي منصور ١٢٧٣ ـ ١٢٧٥هـ .

٥ ـ حركة محمد بن بوختناش من أولاد سيدي رحاب البراكتية ١٢٧٦هـ .

٦ ـ ثورة أولاد ابن عاشور .

٧ ـ ثورة أولاد سيدي الشيخ في جنوب وهران .

٨ ـ حركة « ابن خدومة » أبو بكر بن قدور بن خدومة ١٢٧٥ ـ ١٢٨٦هـ .

٩ ـ حركة الصبايحية ١٢٨٦هـ .

١٠ ـ حركة أولاد عيدون بـ (الميلية) .

١١ ـ حركة أولاد خليفة بـ (تبسة) .

ثم جاءت حركة محمد المقراني .

ولعلّ الدافع الأول لهذه الثورة وما قبلها الوحشية البالغة التي يرتكبها

الفرنسيون بحقّ الشعب المسلم الجزائري ؛ من نهبٍ للأرض ، وسلبٍ للأملاك ، وهتكٍ للأعراض ، وإبادةٍ للأفراد ، وحرقٍ للزروع ، ثم الجهاد في سبيل الله ضدّ المغتصبين الصليبيين الذين يعيثون في الأرض فساداً ، وأخيراً الدفاع عن البلاد والعباد والحقوق ، ولكن يجب ألّا ننسى الدوافع الأخرى ، فالعثمانيون كانوا يثيرون الناس ضدّ المعتدين ، ويحملون فكرة الجامعة الإسلامية ، والجزائريون جزءٌ من هذه الأمة الإسلامية ، والخلافة التي أسندت للعثمانيين تجمع عناصر الأمة بعضها إلى بعض ، فلا بدّ من أن يعملوا على الإثارة ضدّ الصليبيين ، وإن كانوا لا يستطيعون فعل شيءٍ ، إذ تحدق بهم الأخطار من كل مكان، حتى إن المسلمين قد أخذوا يأتمرون بأوامر الصليبية العالمية ، ويؤدّون دورهم في خدمتها ، ولعلّ والي مصر محمد علي وابنه إبراهيم كانا الصورة المثلى لهذا الائتمار، فقد أنهكا الدولة إضافةً إلى ما تعانيه من إنهاكٍ في قتال الصليبيين الأوربيين : الروس ، والإنكليز ، والفرنسيين ، والنمساويين ، وأمم أوربا وشعوبها كلها .

وهناك انتقال محي الدين بن عبد القادر الجزائري من دمشق إلى الإسكندرية فتونس ، والاختفاء على الحدود بين تونس والجزائر ، والالتقاء برجالات الجزائر ، ومراسلة قبائلها ، والتفاف المهاجرين والفارّين والمشرّدين الجزائريين حوله ، وإشاعة قرب ساعة الخلاص ، وإعداد جيش عثمانيٍّ لاستعادة الجزائر .

وهناك هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) ، فشجّع ذلك الجزائريين على الثورة والثأر .

وهناك الكوارث الطبيعية ؛ من سنواتٍ عجافٍ ، وانتشار مرض الكوليرا ، وغزو الجراد ، وكلها أدّت إلى تدهور الحالة الاقتصادية الميتة من سوء تصرّف المستعمرين ، فانتشرت المجاعة ، وجاء اليهود فاستغلّوا تلك المجاعة أبشع استغلال ، فأخرج الجوع الناس مع ما في نفوسهم من واجب الجهاد ، وواجب الدفاع عن الأرض ، وواجب مقاتلة المغتصبين .

حركة محمد المقراني : انطلق محمد المقراني مجاهدا في سبيل الله ، ثائراً على المغتصبين الصليبيين ، مدافعاً عن حقوق العباد ، وزحف على بلدة (البرج) في تاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٨٧هـ (١٦ آذار ١٨٧١م) ، وفي الوقت نفسه أمر أخاه « بومرزاق » بالتحرّك في منطقة سور الغزلان ، وابن عمه وصهره السعيد بن داود بالتحرّك في منطقة (الحضنة) وبلاد أولاد نائل ، وابن عمه الثاني بوزيد بن عبد الرحمن بالزحف إلى البرج مع خمسة عشر ألف مقاتلٍ لدعم الثورة . غير أنه فشل في دخول بلدة البرج بعد حصارٍ دام عدة أيام .

واستشهد محمد المقراني وهو يصلّي ، إذ باغته الفرنسيون ، ولم يكن قد أخذ حذره بالشكل المفروض ، وذلك في تاريخ ١٥ صفر ١٢٨٨هـ (٥ أيار ١٨٧١م) ، ولما يمض على ثورته أكثر من واحدٍ وخمسين يوماً . ومع ذلك تُعدّ حركة محمد المقراني من أكبر حركات المقاومة الجزائرية ضدّ الفرنسيين ، إذ اشترك فيها أكثر من مائتي ألف مجاهد ، وخاضوا أكثر من ثلاثمائةٍ وأربعين معركة ، وعمل ضدّهم ما يزيد على ثمانمائة ألف مقاتلٍ فرنسيٍّ .

ثورة الشيخ محمد أمزيان الحداد : وينتمي إلى الطريقة الرحمانية[1] التي كان لها دورٌ في مقاومة الاستعمار الصليبي الفرنسي في الجزائر . فقد ساهم في الجهاد مع عبد القادر الجزائري ، وفي ثورة الشريف « بونبلة » عام ١٢٧٢هـ ، وقاد الحاج عمر شيخ الرحمانيين حركةً بنفسه واعتُقل ، ونُفي إلى تونس ، كما قادت زوجته « لالا فاطمة » حركةً بنفسها ، وهي بنت الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية الرحمانية ، فلما اعتُقلت قاد الرحمانيين محمد أمزيان بن علي الحداد ، إذ آلت إليه مشيخة زاوية (صدوق) ، وقد دفع

---

(١) تنسب الطريقة الرحمانية إلى مؤسسها محمد بن عبد الرحمن المتوفى عام ١٢٠٩هـ ، ولد في قرية (آيت إسماعيل) في جبال جرجورة ، ودرس بالأزهر في مصر ، وأسس المدرسة الحفناوية نسبةً إلى أستاذه بالأزهر محمد بن سالم الحفناوي ، وصار له أتباع وتلامذة وأسسوا مدارس وعندما توفي خلفه في مشيخة الطريقة علي بن عيسى والد « لالا فاطمة » .

ولديه « عزيز » و « محمد » للجهاد ؛ لكبر سنه ، واندفع الناس وراءهما للجهاد حتى عمّت الثورة شرقي الجزائر كله .

كان محمد المقراني قد دعا محمد أمزيان للجهاد ، فأبدى استعداده ، وكان بين العائلتين خلاف استطاع محمد المقراني إزالته .

استسلم « عزيز » للفرنسيين في معسكر آيت عاشم يوم ١٢ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ (٣٠ حزيران ١٨٧١م) ، واعتُقل أخوه « محمد » بعد يومين ١٤ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ (٢ تموز ١٨٧١م) ، واضطرّ الوالد محمد أمزيان للاستسلام بعد عشرة أيام ٢٤ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ (١٢ تموز ١٨٧١م) ، وبعد ذلك ضعفت الثورة .

حركة أحمد بومرزاق : هو شقيق محمد المقراني ، كان أخوه قد وجّهه إلى منطقة سور الغزلان ، فأخذ معه ابن عمه علي بن بورنان ، وتابع الجهاد بعد استشهاد شقيقه ، وتعاون مع أبناء الحداد ، فلما استسلم أحدهما ، واعتُقل الآخر ؛ أصبح بومرزاق ؛ هو القائد الفعلي للثورة، وأخذ ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ يواجه الفرنسيين ، ويغير عليهم حتى ٤ ذي القعدة ١٢٨٨هـ (١٤ كانون الثاني ١٨٧٢م) حيث ضلّ مع ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن عن القافلة ، وتعرّضا للجوع والعطش ومدة ستة أيام ، ووجدتهما سرية استطلاعٍ فرنسيةٍ في حالة إغماء ، فحملتهما إلى المعسكر الفرنسي ، وأسعفتهما ، وتعرّفت عليهما ، وكان ذلك في ١٠ ذي القعدة ١٢٨٨هـ (٢٠ كانون الثاني ١٨٧٢م) .

حوكم زعماء الثورة في محكمة الجنايات في قسنطينة في تاريخ ١٩ رجب ١٢٨٩هـ (٢١ أيلول ١٨٧٢م) ، واستمرّت المداولات أكثر من ستة أشهر ، ثم صدرت الأحكام ، فكانت كما يلي :

أحمد بومرزاق : إعدام .

محمد أمزيان بن علي الحداد : السجن المنفرد لمدة خمس سنوات ، فتوفي

بعد خمسة أيام ؛ إذ كان عمره يزيد على الثمانين .

عزيز بن محمد أمزيان الحداد : النفي خارج البلاد .

محمد بن محمد أمزيان الحداد : السجن المنفرد لمدة عشر سنوات .

فلما رُفعت الأحكام إلى رئيس الجمهورية للتصديق ؛ استبدلت جميعها بالنفي إلى كاليدونيا من قارة أوقيانوسيا ، وعددهم مائةٌ وأربعة مجاهدين ، غير أن الفرنسيين قد عادوا فسمحوا لهم بالعودة إلى الوطن بعد عشر سنوات عدا أحمد بومرزاق الذي بقي في منفاه اثنتين وثلاثين سنة ، ثم عاد ولكنه لم يلبث سوى سنة في الجزائر حتى توفي . وفرّ « عزيز بن محمد أمزيان » إلى أستراليا فمكة حيث عاش متنقلاً بين جدة ومكة حتى سُمح له بالعودة ، غير أنه مات مسموماً في مرسيليا ، ومحمد بن محمد أمزيان الذي توفي في كاليدونيا عام ١٣٠٦هـ .

كما صودرت أملاك آل المقراني وآل الحداد كلها .

وبعد إخماد هذه الثورة (١٢٨٨م) ضعفت حركة الجهاد الجزائري ، وخفّت المقاومة ، وقلّت الثورات بسبب الأعمال الوحشية التي قام بها الفرنسيون ، ومنها الإبادة التامة ، وبسبب فقدان العنصر القيادي ؛ إذ استشهد مئات الألوف ، ونُفي الألوف إلى فرنسا ، وتونس ، والشام ـ وخاصةً دمشق ـ ، ومصر ، وليبيا ، وبقية جهات العالم ، وأذل بقية الشعب بالإفقار ، والسجن ، والمراقبة الدائمة ، إضافةً إلى الحرب النفسية ، وانتهاك الحرمات .

وجاءت الحرب العالمية الأولى، وساقت فرنسا أبناء الجزائر إلى ساحات القتال ، فمات منهم الكثير ، وانتظر الجزائريون نهاية الحرب لعلّ الضغط أن يخفّ عليهم ، فما ازداد المستعمرون في النهاية إلاّ همجيةً وشراسةً .

الفَصْـل الأوّل

الاستِعمار بَعدَ إلغاء الخِلافَة

ألغيت الخلافة في تـاريخ ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وانقطعت الروابط بين الأمصار وبين الشعوب الإسلامية حتى الواجب الأدبي على الأقل الذي كان على دولة الخلافة تجاه الجزائر ومساعدتها أو غيرها من الأمصار قد زال ، وأصبح كل مصرٍ يتقـوقع عـلى نفسه يصـارع الأعداء ؛ ضعيفاً مستكيناً لا إخوة له يسندونه ، ولا أمة ينتمي إليها تكون ظهيرةً له ، وهو قليل العدد أمام جموع الأعداء ، قليل الإمكانات أمام ضخامتها لـدى الصليبيين المستعمرين ، منهوك القوى أمام جحافل تترى بعضها وراء بعض ، مقطِّع الأوصال أمام ضربات الخصوم ، مفرّق الجماعات أمام تخطيط الأعداء ، وصعوبات المواصلات ، وكمائن المستعمرين .

لقد خمد الشعب العربي المسلم في الجزائر بسبب السياسة الاستعمارية الصليبية التي اتبعتها فرنسا ، لقد دان لحكّامهـا بعد الـذلّ الذي أصـابه ، ورضخ للأمر الواقـع بعد أن وجـد أنه لا قِبـل له أمـام الباغـين ، وخضع لسلطانهم عندما لم يجد له سنداً ، وخنع لقوانينهم الجائرة عندما زال قادتـه وعلماؤه على أيدي الطغاة الدخلاء .

السياسة الاستعـمارية الصليبيـة : لم يكن هدف فـرنسا من قتـالها في الجزائر ، ولاستعمارها لبلادها أو لأي مصر آخر ؛ التخلّص من سداد بعض الديون التي عليها ، أو امتلاك بعض الأراضي الخصبـة ، أو الحصول عـلى

بعض الأماكن ليتوسّع فيها أبناؤها بعد أن ضاقت بهم بلدانهم ، أو التسلّط على بعض منابع الثروات المعدنية ، أو استرقاق السكان ليخدموا أبناءها ، ويكونوا لديها عمّالاً وخدماً ، أو لتكون الجزائر أو غيرها سوقاً لفرنسا أو لغيرها من الدول الصليبية بعد أن تكدّست المصنوعات في مستودعات معاملها ، لم يكن هذا كله غاية الاستعمار الصليبي ، وإنما قد يكون هذا من بعض أهدافها . ويمكن أن ينال هذا بأقلّ مما حدث ، فإن معركةً واحدةً كافيةٌ لإخضاع الشعب وحكمه فقد مُثِّل هذا في كثيرٍ من أجزاء إفريقية ، وبقي المستعمرون هناك مئات السنين ، حتى تركوا البلاد هم من أنفسهم إذ وجدوا أنه من الخير لهم تكليف أحد أبناء البلد بحكمه نيابةً عنهم ، ويرحلون عنه فيوفّرون الكثير ؛ من المصروفات ، ومن الجنود ، ومن إبعاد الناس عن ذويهم ، و . . . ومع هذا تأتيهم خيرات البلاد ، ويبقى سوقاً لمنتجاتهم ، وأكبر من هذا وذاك عدم إبقاء كراهيتهم من قبل الأهالي ، وتوفير الدماء من الطرفين ، أو على الأقل من طرفهم أنفسهم إذ لا يبالون بدماء غيرهم وخاصةً إذا كانت دماءً مسلمةً فهي رخيصة مهدورة في نظرهم ، ومن هذه البلدان : كينيا ، وموزامبيق ، ومدغشقر ، وجنوبي إفريقية ، وأنغولا ، والغابون ، وزائير ، والكونغو ، ورواندا ، وبورندي ، وبنين، والتوغو ، وليبيريا ، و . . . ولكن الأمر في الجزائر يختلف عن هذه البلدان إذ أن سكانها من المسلمين ، والمسلمون تسري في نفوسهم روح الجهاد فمتى أذكاها الإيمان وبثّها وأطلقها كانت على الأعداء سيلاً من الحمم تقذفهم وتلقيهم وراء الحدود ، ومع أنها حمم إلّا أنها لا تجعل في القلب غلاً ولا حقداً ، ولا ترتكب منكراً ، ولا تقتل طفلاً ولا امرأةً ولا شيخاً ، ولا تحرق زرعاً ، ولا تنتقم إلّا من مقاتل جاء إلى قتال المسلمين طواعيةً ورغبةً ، ولا تنظر إلى من جاء مكرهاً كمن أتى راضياً ، لذا كانت غاية المستعمرين الصليبيين جميعاً ـ من فرنسيين وغيرهم ـ قتل هذه الروح قبل كل شيء ، والتشفّي من المسلمين ؛ فقلوبهم مليئة بالحقد الصليبي منذ الاحتكاكات الأولى التي دارت بين المسلمين والنصارى ، وقد حاولوا تفريغها في الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يستطيعوا ، بل ازدادت

امتـلاءً ، ثم شُحنت خلال العصـور التي تلت . ومع كـل مـا ارتكبـوه في الاستعمار الصليبي الحديث فإنه لم يفرغ من هذا الحقد إلّا القليل، وكلما تسرّب منه شيء جاء الرهبان ليشحنوه من جديد ، فإن فشلوا في التنصير ؛ نظروا إلى الإسلام على أنه من وراء فشلهم ، فصبّوا جام حقدهم على أهله ، وكذلك إن عجزوا عن تنفيذ مهمـة ، أو خسروا في نقاش ، أو عجـزوا في جدال ؛ حمّلوا الإسلام وأهله مسؤولية ذلك ، ولم يُرجعوا إلى أنفسهم ذلك العجز وذلك الفشل ، فهم يجادلون بما لا يتفق مع النفس البشرية ، ويناقشون بما صاغوه هم أو أسلافهم لأنفسهم من كتاباتٍ وقالوا : هي من عند الله ، وما هى من عند الله . . .

لقد أراد المستعمرون الصليبيون إذن إماتة روح الجهاد عند المسلمين ، والتشفّي منهم قبل كل شيء ، لذلك أقدموا عـلى ما ارتكبـوه من جرائم ، ووحشيةٍ ، وإبادةٍ ، وهتكٍ للأعراض ، وسلبٍ للأموال ، ونهبٍ للأملاك ، وامتلاكٍ للأراضي بالقوة .

إن الوسيلة الوحيدة لإماتة روح الجهاد هي هدم العقيدة ، فإذا ما تمّ للفرنسيين ذلك أمكنهم ترسيخ أقدامهم ، والتحكّم بـالمسلمين ، والتشفّي منهم، ثم نهب أراضيهم وأملاكهم، وجعلهم خدماً عند النصارى الفرنسيين .

١ ـ **السيطرة على مراكز الإشعاع** : وضع المستعمرون الصليبيون نصب أعينهم المسـاجـد ؛ فهي مـراكـز الإشعـاع الإسـلامي ، حيث يلتقي فيهـا المسلمـون ، ويؤدّون عبـادتهم ، ويستمعـون إلى خـطب الجمعـة التي تنـير الدرب ، وتزيد الوعي ، وفيها يتعلّم الناشئة القرآن ومبادىء الإسلام ، فهي لذلك عدوّ النصرانية الأول ؛ إذن يجب التخلّص منها والقضاء عليها ، ومنذ أن دخل الفرنسيون الجزائر بدؤوا بهذه الخطة ، ولنأخذ على سبيل المثال مدينة الجزائر نفسها ؛ إذ يصعب الحديث عن كل مدينةٍ وكل قريةٍ ، وقـد يسبّب للقارىء أيضاً مللاً ، لقد كان في مدينة الجزائر يوم دخلها الفرنسيون عـام ١٢٤٦هـ مائة وستة مساجد ، وبقي فيها يوم خرجوا منها عام ١٣٨٢هـ ثمانية مساجد فقط ، وكانت هذه المساجد تُحوّل إلى كنائس ، وإلى سكناتٍ للجيش

أو الشرطة ، وإلى اصطبلات للخيول ، أو حظائر للأغنام ، وربما كانت تُهدم لتُحوّل أرضها إلى أبنيةٍ وغيرها .

٢ ـ السيطرة على الأوقاف : إن المساجد تعتمد بالدرجة الأولى في تأدية مهمتها ، كنفقات الإمام والخطيب ، والأثاث ، والمشرف ، ونفقات طلاب العلم ؛ على ما تملك من أوقاف ، ويُعرف الجزائريون بكثرة ما يهبون من مالٍ وأملاكٍ إلى المساجد والتكايا ، والزوايا ، فلما جاء الفرنسيون مستعمرين وقّعوا اتفاقيةً مع حاكم الجزائر الداي حسين قبل أن يغادرها ويسلّمهم أمرها ، وتنصّ هذه الاتفاقية على احترام الشريعة الإسلامية ، غير أن أول من نقض هذه الاتفاقية هو الذي وقّعها ؛ الحاكم العام العسكري : « دوبومون » ، إذ أصدر بعد شهرين أمراً في تاريخ ٢٠ ربيع الأول عام ١٢٤٦هـ (٨ أيلول ١٨٣٠م) يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية ، وأتبعه بأمرٍ آخر في تاريخ ٢١ جمادي الآخرة ١٢٤٦هـ (٧ كانون الأول ١٨٣٠م) ؛ يقضي بحقّ التصرّف بالأملاك الدينية بالتأجير والكراء . فإذا ما انقطع المورد الأساسي لقيام المسجد انتهى دوره ، ثم انتهى وجوده ، وهذا ما حدث إذ زالت أكثر المساجد ، وما بقي منها قائماً أصبح تعيين الإمام والخطيب والمسؤول عن النظافة بيد الفرنسيين ، وبعبارةٍ أخرى تعيين أئمة المسلمين وخطبائهم يتمّ عن طريق النصارى ، وهذا يعني ألاّ يُعيّن شخصٌ يصلح لأداء المهمة التي يقوم بها ، وإنما يُعيّن أشخاصٌ جهلةٌ يسيئون إلى الإسلام ويجعلونه سخريةً بالنسبة إلى العامة ، كما أنهم أنفسهم يكونون سخرية ، وهذا ما يُضعف شأن الدين ، ويُقلّل من هيبته ؛ هذا من جهة ، ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن هؤلاء الأئمة والخطباء المعيّنون من قبل النصارى الفرنسيين غالباً ما يكونون عيوناً للأعداء ، بل هذا ما يشترطونه عليهم عند تعيينهم ، وغالباً ما يقبلون بهذه الدنيّة وهذا الأمر المخالف للإسلام نتيجة الفقر المدقع الذي يعيشونه ، وهم لا يصلحون لهذا الأمر لجهلهم الذي يعيشون تحت وطأته .

وصدر عام ١٣٢٣هـ قانون فصل الدين عن الدولة ، وطُلب العمل به

في الجزائر ، وطُبّق على النصرانية واليهودية ، وبقيت السلطة المدينة النصرانية ، أو العسكرية الصليبية تتحكّم في أمور المسلمين حتى التعبّدية منها كإمامة الصلاة ، وخطبة الجمعة ، وفي توجيه الخطباء فيما يقولون ، وبما يوجّهون ، بل وحتى في أمور القضاء ـ كما سنرى ـ كما أن إحدى هاتين السلطتين أو كلتاهما تتحكّم في أمور أوقاف المسلمين من وارداتٍ وتصرّف ، وربما تؤجّرها إلى ما هو محرّم ، كحاناتٍ للخمر ، وملاهٍ ، ومراقصَ ، ودورٍ للبغاء ، و . . .

٣ ـ التنصير : منذ أن وضعت فرنسا يدها على الجزائر أخذت ترسل الإرساليات التنصيرية أملاً في أن تنصّر هذا الشعب ، وظنّت أن أهل الصحراء سيُقبلون على النصرانية بيسر ؛ ما داموا على بساطتهم وطبيعتهم الفطرية ، وأنهم بعيدون عن التعمّق بالإسلام وعلومه ، ومعرفتهم به لا تزال معرفةً سطيحةً ، فأغرقت الصحراء بالإرساليات الكاثوليكية وزوّدتهم بكل ما يحتاجونه ، وبالإمكانات الكبيرة ، وانطلقت تلك الإرساليات إلى الصحراء ، كما انطلقت إلى المدن والقرى ، غير أنها فشلت فشلاً ذريعاً ، إذ لم تستطع تنصير فردٍ واحدٍ ، وإذا كان فشلها في كل مواطن سارت إليه إلّا أنه كان في الصحراء أكثر ، فربما كان في أهل القرى والمدن من يظهر القناعة بما سمع أو يبدي الموافقة على ما يقال له وهو كارهٌ لما يسمع ومنكرٌ له أشدّ الإنكار غير أن البدو كانوا على طبيعتهم يريدون أن يقتنعوا ، ويتساءلوا كي تصل الحقيقة إلى أذهانهم فكان الأولاد في الصحراء يسألون الراهب المختصّ باللاهوت ، والذي أمضى السنوات الطوال في أعمال التنصير ، وتلقين القسيسين تعاليم النصرانية ، يسأله الولد : كيف يمكن جمع ثلاثةٍ في واحدٍ (الأب ـ الابن ـ روح القدس) ؟! هل هم مواد جامدة تسحق وتخلط لتكون عنصراً واحداً ؟! أو هم مواد سائلة تُمزج ليخرج منها سائلٌ واحدٌ ؟! أو هم غازات يتكوّن منها غازٌ له صفةٌ واحدةٌ ؟! ويسمع الراهب هذه التساؤلات ؛ فلا يستطيع الإجابة ، فيكاد يتميّز من الغيظ ، والولد البدوي لا يعرف أنه قد أثار

معلّمه ، وكل ما هنالك أنه تساءل ، ولا بدّ للتساؤل من إجابة لتوضّح الحقيقة المطلوب تثبيتها في الفكر .

وربما سأل الولد البدوي : كيف يستطيع بشرٌ أن يتغلّب على إلـهٍ ، ويصلبه ؟! هل يقوى مخلوقٌ على خالق ؟! لا . . . لا . هل يأتي يوم يتغلّب اللوح المصنوع فيأتي بالنجار ويقتله ويصنع منه لوحاً ، وينتصب اللوح نجّاراً صانعاً ؟! .

وإذا التقى الراهب ببعض المتعلّمين أو الدارسين لكتـاب الله ، وربما بعض الحافظين شيئـاً من الآيات ، وأخـذ يُلقي عليهم تعليمات النصرانيـة والآلهة الثلاثة التي تجتمع لتكون إلهاً ؛ أجابه بقوله تعالىٰ : ﴿ قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالىٰ عمّا يقولون علوّاً كبيراً ﴾[1] ، وأجاب آخر بقوله تعالىٰ : ﴿ لـو كان فيهـما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا فسبحـان الله ربّ العرش عـمّا يصفون * لا يُسـأل عمّا يفعـل وهم يُسألون ﴾[2] ، وأجاب ثالثٌ بقوله تعالىٰ : ﴿ ما اتّخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذن لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحان الله عمّا يصفون ﴾[3] ، وما أن ينتهي الثالث من كلامه ، ويريد رابعٌ أن يتكلّم ؛ حتى يـترك الراهب الجلسـة ، ويذهب مغـاضباً يشتم معلمي الكتـاتيب ، وأئمة المساجد ، وربما وصل إلى الإسلام في شتائمه المقذعة ؛ إن كان قريباً من مركزٍ فرنسيٍّ لا يخشى وقتذاك على نفسه من المسلمين .

ويتحادث المجتمعون لتلقّي التعاليم النصرانية بعضهم مـع بعضٍ ، ويتساءلون : هل هذا مجنون ، أو يحسب أننا مجانين ؟ كيف نقبل ثلاثـةً في واحد ؟! كيف نجمعهم ؟! هل من عاقل يقبل ذلك ؟ عاقلٌ يسمع ومجنونٌ

---

(١) سورة الإسراء ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) سورة المؤمنون ٩١ .

يتكلّم ! . . ما هذا الدين الذي يقول به ؟! هل هذا من الإنجيل ؛ والإنجيل كتابٌ من عند الله ؟ لا . . لا . . . ، هل هذا من تعاليم المسيح عليه السلام ؛ والمسيح رسولٌ من الله ؟ لا . . . لا .

إذن فشلت الإرساليات النصرانية فشلاً ذريعاً في مهمتها ؛ سواء أكان ذلك في المدن والقرى ، أم في الصحراء ، وربما كان هذا الفشل أكثر وضوحاً في الصحراء ، وعزت الإرساليات فشلها إلى أئمة المساجد ، وإلى معلمي الكتاتيب ، ورفعت تقاريرها إلى المسؤولين ، وصبّت غضبها في هذه التقارير على المسؤولين عن فشلها في القيام بمهمتها . . . . ، وجاء البلاء ، أعلنت الحرب على معلمي الكتاتيب وأئمة المساجد ؛ حرب الشائعات ، الحرب النفسية ، الأذى البدني ، الإلقاء في السجون ، وذنبهم مضاعف فهم أولاً من المؤمنين ، وهذه جريمة وحدها يستحقّ صاحبها القتل بعد التعذيب والإهانة والإذلال ، وهم ثانياً سبب فشل مهمة الإرساليات التنصيرية ، وهذه جريمة أخرى ، ولا تقلّ عن الأولى في عقوبتها . لقد أغلقت معظم الكتاتيب ، وزُجّ معلموها في غياهب السجون ، وألحق بهم أئمة المساجد الذين خافوا الله ؛ فرفضوا أوامر الطغاة .

٤ ـ **السيطرة على القضاء** : القضاء في الإسلام يعتمد على الشرع ، وهو القانون المعمول به في المحاكم الإسلامية ، ولا قانون سواه ، ولا يقوم به إلّا من تعمّق في الفقه ، ودرس آيات وأحاديث الأحكام ، وبذا فهو من اختصاص المسلمين ، إضافةً إلى أن الإيمان بهذه القوانين على أنها من عند الله ، ولا يحقّ مخالفتها أبداً ، ومن تعمّد مخالفتها فإن الله به عليم ، وإن له نار جهنم ، لذا فالمسلم يؤمن بها ، ويعمل جاهداً مجتهداً على عدم مخالفتها خوفاً من الله ، على حين لا يبالي غيره ما دام لا يؤمن بها ، ولا يعتقد أنها من عند الله ، وإنّما يظنّ أنها من عند محمّدٍ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، فالنصراني لحقده الذي ورثه وشُحن به مدة حياته يسخر منها . لقد فرضت فرنسا أن تصدر الأحكام باسم ملك فرنسا ، أو امبراطورها ، أو اسم الدولة الفرنسية حسب

الحكم القائم فيها، وهذا لا يصحّ شرعاً. كما أجازت حقّ الاستئناف إلى قضاةٍ يهودٍ أو نصارى ،وكيف يُصدر الحكم من كان جاهلا بالقوانين كليّاً ؟! وكيف يدرس القضية من لا يعرف القواعد الفقهية ؟! . . .

٥ ـ الإفساد : إفسادٌ في الأرض ، وإفساد أخلاق الأمة ، وكلاهما يُبعد عن الإسلام ، ويسير بالأمة نحو الهاوية .

فالإفساد في الأرض قد شجّعت عليه السلطات الفرنسية ، فالمجرم القاتل تتراوح عقوبته عن ستة أشهر إلى خمس سنوات ، وهي عقوبةٌ سهلةٌ لا تتناسب مع فداحة الجريمة التي ارتكبها وهي قتل النفس الإنسانية ، هذا ما يشجّع المجرمين على الإستمرار في جرائمهم ، ويؤدّي هذا إلى الإحن بين القبائل ، والثارات بين الأسر ، والانقسام في المجتمع وربما انصرف كل طرفٍ إلى السلطة ليتقوّى بها على خصمه ، ولتأخذ له بثأره ، هذا بالنسبة لجريمة القتل ؛ وهي من أصعب الجرائم ، فما بالك في الجرائم الأخرى والجنايات والتعدّيات ؟!

وإفساد أخلاق الأمة بافتتاح الحانات ، ومحلات البغاء ، والمراقص ، والملاهي ، التساهل في انتهاك الحرمات ، التشجيع على العري والسفور والاختلاط .

لقد بدأ الفرنسيون يقومون بهذه الأعمال علناً : معاقرةٍ للخمور ، وارتيادٍ للحانات ، والتعرّي في الشوارع وسط مجتمعٍ مسلمٍ لا يعرف هذه الأمور ، ولم تصل إليه بعد ، وكان المسلمون يستنكرون هذا في بداية الأمر ويجدون فيه الغرابة ، فهل يمكن للإنسان أن يتدنّى إلى هذا المستوى من البهيمية وقلّة الغيرة على الشرف ؟! ولكن بعد مدةٍ أصبح شيئاً عادياً لا يجد الجزائريون فيه غرابةً بالنسبة إلى الفرنسيين ، لكن أخذ الأمر يتسع وينتقل إلى الجزائريين الذين يخالطون الفرنسيين ، ويحاولون التقرب منهم ، ثم تقليدهم، وأخيراً فشا الأمر ، وغدا حديث الشباب الجزائريين عن الحانة ؛ والعاهرة فلانة ، والفنانة فلانة ، و . . . وارتكبت كذا ، وفعلت

كذا ، . . . ، والفرنسيون يسرّون لهذا ، ويشجّعون ، ويجلبون المادة الخام لهذا كله ، وكم من فرقةٍ فنيةٍ أتوا بها إلى الجزائر بغية الإفساد ! وينفق الجزائريون أموالهم ، ويبيعون ما يملكون ، وبعدها يستجدون ، وأخيراً يبيعون أنفسهم لعدوّهم ، وبذا يفقدون ما بقي عندهم من رصيدٍ من الإسلام .

٦ ـ **التشفّي من المسلمين** : إن الحقد ليغلي في نفوس الصليبيين على المسلمين ، فلما تمكّنوا منهم واحتلّوا ديارهم أرادوا أن يُفرغوا هذا الحقد كله دفعةً واحدةً ، ولكنهم لم يستطيعوا على ما يبدو لكثرته وشدّته إضافةً إلى ما يشحنه الرهبان كل ما قلّ ، فمنذ أن وطأت أقدام الفرنسيين الجزائر بدؤوا يُفرغون مما يغلي في قلوبهم على الإسلام وأبنائه ، فإضافةً إلى الحروب التي شنّوها على الإسلام وأهله أخذوا بإبادةٍ جماعيةٍ للأسر ، وللقبائل ، وللتجمّعات،و . . . . كان الفرنسيون يعتدون على أسرةٍ من الأسر ، وهي التي يفكّرون بإبادتها لأخذ أملاكها وتشفّياً بقتل أفرادها ، يكون الاعتداء بسلب مالٍ ، أو نهب أرضٍ ، أو تعدٍّ على امرأةٍ ، أو فحش بالقول ، فيثور أحد أفراد الأسرة أو كلها ، فيدّعي الفرنسيون أنها تمردّت ، فيعملون على إبادتها ، ولكن ربما يفرّ بعض أبنائها ، فيلاحقونهم إلى الجبال أو إلى الصحارى ، ويطاردونهم حتى يموت الأفراد جميعاً جوعاً وظمأً ، أو تعباً وعناءً ، أو من شدّة البرد ، وقد تنتفض القبيلة كلها للاعتداء الذي تمّ ، فيطاردونها ويؤول الأمر إلى فنائها ، وكأن الأسرة لم تكن ، ولا فرق عند الفرنسيين إن كان عدد الهالكين قليلاً أو كثيراً، بل إن كان كثيراً فهو أحبّ إلى قلوبهم، وأدعى للتشفّي ، وأكثر غبطةً لهم وهم ينظرون إلى الأفراد الكثيرين صرعى بصورٍ مختلفة . وقد يؤدّي ذلك الاعتداء إلى ثورة القبيلة أو ثورةٍ عامةٍ ، وتكون المطاردة لكل من يستطيعون متابعته حتى يصل إلى غايته المحتومة ، وكم كانوا يسرّون عندما يرون امرأة قد لفّت وليدها بين أضلاعها خوفاً عليه من الموت برداً ، ولكنه كان قد مات لأن جسمه ما زال غضّاً لا

يمكنه تحمّل البرد ، ثم لا تلبث أن تموت أمه وراءه بعد أن زاد البرد ولم تعد الأم تتحمّل أيضاً ، فترى الأم ميتةً ووليدها بين أضلعها حانيةً عليه ، ويضحك الفرنسيون لهذا المنظر المؤلم ، ويتسابقون لرؤية مشهدٍ آخر ، والسعيد من يرى منظراً يلفت الانتباه ، ويدعو زميله ليضحكا معاً ، وقد فَرُغ شيءٌ مما يحملان في قلبيهما من حقد .

وهم أنفسهم الذين رووا هذه الأحاديث ؛ إذ لم يرها غيرهم ، فأفراد القبيلة قد هلكوا ، وبقية المسلمين لا جرأة عند أحدهم ليرى ما حلّ بإخوانه إلّا إذا أراد لنفسه الهلاك ولقبيلته كلها الموت من بعده .

يقول « سانت آرنو » : (إن بلاد بني مناصر رائعة حقّاً ، وهي إحدى المناطق الغنية التي شاهدتها في إفريقية ، فالقرى والمساكن متقاربةٌ جدّاً ، لقد أحرقنا ودمّرنا كل شيء ، إنها الحرب ، وكم من نساءٍ وأولادٍ لاجئين إلى ثلوج الأطلس ؛ قضوا نحبهم من البرد والبؤس) .

وكتب العقيد « دومونتانياك » إلى العميد « لامور سيار » : (طلبت مني في مقطع من رسالتك أن أخبرك عن مصير النساء اللواتي نسبيهنّ ، إننا نحتفظ ببعضهنّ كرهائن ، وبعضهن نستبدلهن بالجياد ، ثم نبيع الباقيات بالمزاد العلني على اعتبارهنّ حيواناتٍ لنقل الأحمال ، ولكي أطرد الأفكار السوداء التي تمتلكني بعض الأحيان ، أقوم بقطع رؤوس ، لا ، ليس رؤوس نبات « الأرضي شوكي » ، بل رؤوس رجال حقيقيين ، ولا بدّ لهؤلاء المساكين الذين يصبحون دون مأوى ، حفاةً عراةً ، أن يلجؤوا إلى الكهوف التي هي آخر ملجأ طبيعي للإنسان ، تقيه الحرّ والقرّ ، وتحميه من غوائل الليل ووحوش القفار)(١) .

وفي هذه الكهوف حدثت أشنع أعمال الإبادة ضدّ قبيلة « أولاد رباح »

(١) رسائل جندي ـ دومونتا نياك .

التي جاءها إنذار من العقيد « باليسي » يوم ١١ حزيران عام ١٨٤٥م يأمرها فيه بالاستسلام خلال عشر ساعات ، ولما كان الاستسلام يعني مدّ الرقبة للجزّار فقد اشترطت القبيلة لخروجها انسحاب القوات الفرنسية ، ودون إنذار آخر أوقد « باليسي » النار أمام الكهوف ، وسلّط الدخان على المحتمين فيها طوال الليل حتى قضوا نحبهم خنقاً . ويصف العقيد « دومونتانيك » هذه العملية في كتابه « رسائل جندي » ، فيقول : (أية ريشةٍ تستطيع وصف هذا المنظر ؟! عند منتصف الليل ، وتحت ضوء القمر ، لقد شُغل قسمٌ من القوات الفرنسية في تهيئة النار المستعرة ، إننا نسمع الأنّات المتقطّعة المنبعثة من الرجال والنساء والأطفال والحيوان ، وطقطقة الصخور المحترقة وهي تتساقط ، وطلقات الأسلحة المستمرة ، لقد حدث في هذا اليوم أعنف صراع بين الإنسان والحيوان ، ففي الصباح ، وبينما كنا نخلي مداخل الكهوف فوجئنا بأعنف مشهدٍ يقع عليه البصر ، لقد رأينا في داخل الكهوف جثث الثيران والأغنام والحمير التي اندفعت بغريزتها الفطرية إلى التنفّس من الهواء الطبيعي الذي حُرمت منه في الداخل ، وقد تجمّعت بين هذه الحيوانات وتحتها جثث الرجال والنساء والأطفال ، ورأيت رجلاً ميتاً جاثياً على ركبتيه ، تمسك يمناه بقرن ثور ، وبالقرب منه امرأةٌ تحمل طفلها على ذراعيها ، ومن السهل التعرّف على أحداث هذا المنظر : فالرجل قد اختنق مع امرأته وطفله والثور أيضاً في الوقت الذي كان الرجل فيه يدافع عن عائلته من ثورة هذا الحيوان وهو يصارع الموت . لقد كانت الكهوف واسعة ، حتى إننا أحصينا فيها سبعمائة وستين جثة ، ولم ينج ويتمكّن من الخروج سوى ستين إنساناً ، ما لبث أن فقد أربعون منهم الحياة ، ونقل رجال الإسعاف عشرةً منهم في حالةٍ خطيرة ، أما الباقون وهم عشرة فقد تركناهم يعودون إلى قومهم يقفون على الأطلال يبكون الخراب ، ويندبون موتاهم)[١] ،

هذه هي الحضارة التي حملها إلينا الاستعمار الصليبي في أية بقعة ، وهي

---

(١) المرجع السابق نفسه .

التي يفخر بها ، ويدّعي أنه قد جاء إلى الشعوب المتخلّفة لينير لها الدرب ، ويُعرّفها على الحضارة ، ولقد عرفنا فعلاً الظلم والبؤس والشقاء والموت والإبادة والذلّ على يديه ، فأي دجلٍ ؟ وأي نفاقٍ ؟ وأي تمويهٍ للحقيقة ؟ وأية مواربةٍ هذه ؟ ولعلّها تكون أكبر عملية تمويهٍ للحقيقة وقعت في التاريخ .

أصرّت فرنسا على أن تحرم شعب الجزائر وسائل الحياة جميعها ، فعليه إما أن يستسلم للموت ، وإما أن يستسلم للإرساليات التنصيرية التي تقدّم له بعض هذه الوسائل من طعامٍ وشرابٍ مقابل أن يتخلّى عن عقيدته ، وكم وقعت من أحداثٍ ، يندى لها الجبين في مراكز هذه الإرساليات ومن رهبانها ، إنهم يرفضون إسعاف إنسان ينازع سكرات الموت من الجوع أو الظمأ قبل أن يرضى بالدخول في النصرانية ، وكم من إنسان استسلم للموت وقضى نحبه قبل أن يخرج من تلك المراكز الحضارية رافضاً النصرانية راضياً بالموت بل ومعتزاً بذلك ، ومعلناً للدنيا من بعده أن لا حضارة من غير إيمان بالله الواحد الأحد .

٧ ـ **إذلال المسلمين** : لم يكن ذلك الحقد الذي في قلوب المستعمرين منصبّاً على المسلمين الذين يقفون في وجه الطغاة أو يثورون عليهم ، لا ليس هذا أبداً ، وإنما كان منصبّاً على المسلمين جميعاً بصفتهم مسلمين لا بصفتهم ثائرين أو متمردّين ، لأنه حتى أولئك الجزائريون الذين تخلّوا عن أوامر دينهم وراحوا يتمسّحون بأعتاب المستعمرين ، ويتزلّفون إليهم ، بل ويتجسّسون لهم على إخوانهم لم يكونوا بعيدين عن الضغط الفرنسي ، وإن لم تلحقهم حرب الإبادة إلّا أنهم لم ينجوا من الحرب النفسية ، ومن الإذلال الذي أصاب الشعب كله .

لقد عدّ الفرنسيون الصليبيون المجتمع في الجزائر قسمين : القسم الأول : ويشمل الأوربيين ؛ النصارى واليهود ، وهم الصنف المفضّل ، الحاكم بأمره ، المتسلّط على غيره . والقسم الثاني : ويشمل الشعب الجزائري المسلم كله ، وهو الخدم للفريق الأول ، فهل بعد هذا إذلال ؟!

لقد عدّت الحكومة الفرنسية الجزائر أرضاً فرنسية ، وهي ليست سوى

مقاطعةٍ فرنسيةٍ لا تختلف أبداً عن مقاطعة بريتاني أو مقاطعة نورماندي ، ومع هذا الاعتبار فقد بقيت الإدارة الاستعمارية قائمةً حتى اشتعال نـار الثورة . وبقي للجزائر نظامٌ جمركيٌّ خاصٌ بها ، ونقدٌ جزائريٌّ خاصٌ مـع ارتباطـه بـالفرنـك الفرنسي ، وبقيت الانتخـابـات تتـألّف من مجتمعـين : المجتمـع النصراني ـ اليهودي ، والمجتمع المسلم ، ولكلٍ دوائره الخاصة ، وصناديقه الانتخابية الخاصة .

لقد كان هناك تمييز واضح بل صارخ ، لقد كانت فروق في الرواتب ، وأفضلية في الوظائف ، وتمييز في المدارس والمستشفيات ، بل وفي حقّ المرور ، و . . . ، ولقد كان هناك فرق كبير كبير في المستوى المادي بـين الفرنسيـين والجزائريين مع أن الاستعمار يعدّ الجزائر قطعةً من الأرض الفرنسية .

ولو طالب أحد الجزائريين بالمساواة ، وتساءل أليست الجزائر جزءاً من فرنسا؟ لم يأته الجواب، بل لم يجرؤ أحد على إجابته، لأنه لو قيل له : نعم ؛ لوجب إلغاء التمييز ، وإبطال التفضيل ، والعمل على رفع المستـوى المادي والاجتماعي في الجزائر حتى يصل إلى المستوى في فرنسا ، ولوجب إلغاء النظام الجمركي ، ونظام النقد ، وتعديل القوانين ، وتغيير الأنظمة ولانقلب الأمر انقلاباً ولزال الحقد الصليبي ، ولكن لا يمكن أن يزول أبداً فهو باق ، لذا لا يمكن أن يكون الجواب : نعم . ولو قيل : لا ؛ لوجب أن تسير الجزائر بخطٍّ متميز، وتدعو إلى الاستقلال ، والمحافظة على الشخصية ، لذا لا يمكن أن يقال : لا . ويبقى الأمر محيّراً ، والجواب الصحيح : أن الجزائـر مستعمرة فرنسية ، والشعب الجزائري شعب مسلم ، لذا يجب أن يذلّ ، ويعمل على إبادته .

٨ ـ **محـاربة اللغـة العربيـة** : لما كانت اللغة العربية أساس من أسس التعليم الإسلامي ، لذلـك بذل الفـرنسيون جهـدهم في محاربتهـا والقضاء عليها ، واعتقدوا أن إبعاد الجزائرين عنها سيجعلهم ينسون دينهم مع الزمن ، ويبتعدون عن تعاليمه ، وهذا غاية ما يرجوه المستعمرون الصليبيون ، ومن هذا المنطلق أخذوا يفرضون اللغة الفرنسية لتحلّ محلّ العربية في التعليم وفي

الدواوين ، فكان التعليم إلزامياً بالفرنسية منذ البداية ، ولا يُعلّم بالعربية أبداً ، ولا يُقبل في وظائف الدولة من لا يجيد الفرنسية ، ويحرم الحديث داخل دوائر الدولة إلّا بلغة الحاكم المستبدّ ، وبهذا أخذت الفرنسية تحلّ محلّ العربية تدريجياً ؛ حتى غدت هي الوحيدة ، والرسمية ، ولغة الشعب ، ولا تسمع الحديث والمحاورة أينما كانت إلّا بالفرنسية .

لم يلبث أن لاحظ الفرنسيون أن الكتاتيب في الأرياف ، والقرى ، وواحات الصحراء ، وفي مدارس الجوامع ؛ لا تزال تعلّم الناشئة باللغة العربية ، تعلّمهم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومبادىء القراءة ، وبعض السيرة ، فارتاع الفرنسيون ، وأعلنوا حربهم على هذه الكتاتيب وفرضوا الضرائب على المشرفين والقائمين عليها ، وفرضوا العقوبات على أولياء الطلاب ، واتّخذوا كافة الإجراءات للحيلولة دون تأدية الكتاتيب لدورها ، ولكن أراد الله أمراً غير ذلك ولا رادّ لأمره .

والنتيجة : فقد الجزائريون قوام حياتهم بعد مدة من الاستعمار الصليبي الغاشم ، لقد فقدوا أكثر أملاكهم فأصبحوا فقراء مشرّدين ، وأهمل الفرنسيون التعليم والوسائل الصحية إهمالاً مروّعاً فبقي الجزائريون جهلةً مرضى ، وفقدوا لغتهم فغدوا تبعاً لغيرهم بعيدين عن تعاليم دينهم، وعدّهم الفرنسيون خدماً ، ونظروا إليهم نظرة امتهان ، وأعطوهم صورةً مضخّمةً عن النصارى الأوربيين فعاشوا أذلاء .

وهذه حياة المستضعفين في الأرض في بقعةٍ من العالم ، ابتلاها الله بالمستعمرين الصليبيين ، وربما كان هذا الابتلاء بما اقترفته أيدي أبنائها من تهاونٍ في أمر دينهم ، وترك تعاليمه

ردّ الفعل الجزائري: قاوم الجزائريون المستعمرين الصليبيين ، وقاموا بحركاتٍ وثوراتٍ ، غير أنها فشلت جميعها ، وربما كانت هنا أسباب كثيرة لذلك الفشل الذي مُنوا به ، ذلك أنهم لم يتحرّكوا معاً وبوثبةٍ واحدةٍ ، وكانت بينهم إحنٌ وثارات ، وكانت فرقةٌ ، وكان منهم من مالأ الكفار ، ولم يأخذوا بأسباب الاستعداد للجهاد بالشكل المفروض عليهم ، هذا إضافةً إلى كثرة

قوات الأعداء ، وضخامة إمكاناتهم ، والفتك وحرب الإبادة التي لجأت إليها القوات الصليبية الغازية . هذا من الجانب المادي ، أما من الجانب المعنوي فإن البعد عن الإسلام كان السبب الرئيسي في الهزيمة التي مُني بها المسلمون .

ومع فشل حركات المقاومة استأسد الصليبيون ، وازدادوا وحشيةً وضراوةً وتضاعف البلاء ، إذ تقطّعت أوصال الأمة وتراخت ، واستسلمت ، ولم تعد تبدي حراكاً ، وكثر الذين يتزلّفون للفرنسيين من أبنائها ، وزاد عدد الذين يرتمون أمام الأعداء وفي أعتابهم ، ووُجد المقلّدون والذين أخذوا يسيرون على النهج النصراني سلوكاً واجتماعاً ، وبرز الذين فُتنوا بالحضارة المادية ، وفي الوقت نفسه قلّ المصلحون .

فكّر المصلحون ورأوا أنه لا قبل لهم بالفرنسيين في الأوضاع الراهنة ، وبعد أن حلّ بالبلاد ما حلّ ، وأن حركات المقاومة لا تجدي ، وخاصةً أن الفشل لا يعقبه إلّا زيادةٌ في الارتماء في أحضان المعتدين ، إذ غالباً ما يتساقط عدد من الرؤوس بعد فشل عملٍ عسكريٍّ يتهاوون أمام الطغاة سواء أكانوا خصومهم المباشرين أم غيرهم ممن يتسلّط على بلدانٍ مجاورةٍ باسم الاستعداد من جديد ، وتلقّي العون ، وباسم التنسيق والتفاهم ، وتحت شعار عدم القدرة على المقاومة بالإمكانات المتاحة لجماعةٍ محدودة .

رأى المصلحون أن العمل يجب أن يقوم على التربية الإسلامية من جديد ، وإعادة البناء من البداية ، وتكوين القاعدة الصلبة التي يمكن أن يقوم عليها الجهاد في المستقبل ، وهذا هو المنطق الذي يجب البدء به ، مع عدم إهمال الصراع السياسي والتنظيمي فكلاهما جزء لا يتجزّأ من العمل الإسلامي .

ورأى آخرون ترك المقاومة ، والتوجّه إلى الجانب السياسي بالمطالب والدعاية للقضية الجزائرية في كل جهةٍ من العالم ، ورفعها إلى الهيئات الدولية ، والنشاط ، وتأسيس المنظمات السياسية .

أولاً : التربية الإسلامية : لم نقل إن الإسلام كان بعيداً عن ساحات حركات المقاومة السابقة ، بل كان العنصر الباعث لها والمحرّك ، غير أن

الجانب العاطفي هو الغالب ، والوعي الصحيح غير متكامل ، فالفرقة أيضاً باسمه ، والتنافس باسمه مع أنهما أمران لا يلتقيان ، فإسلام وخصومة بين الأخوة ، وتسابقٌ على الزعامة ، أو تنافسٌ على عرض من أعراض الدنيا وعدوّ الله في ديار الإسلام أمرٌ لا يكون أبداً ، ولا بدّ من إعادة البناء من جديد وتكوين القاعدة الصلبة التي يتحطّم عليها مكر الأعداء وتخطيطهم ، وتُحطّم الأعداء وقواتهم .

ولعلّ أبرز هؤلاء المصلحين عبد الحميد بن باديس[1] الذي أخذ يلقي دروساً في تفسير القرآن في جامع سيدي الأخضر بقسنطينة ، فالتفّ حوله المخلصون ، وأخذ الوعي الإسلامي ينتشر ، والناس يعودون تدريجياً إلى إيمانهم ، وإلى معرفة واقعهم الذي آلوا إليه ، وجاء إليه علماء من مختلف نواحي المصر ، فاشتدّ ساعده ، واتفقوا على دعوة العلماء على مختلف مناهجهم لتوحيد الكلمة ، ومعالجة المجتمع الإسلامي في الجزائر ، وتمّ دعوة مائةٍ وعشرين عالماً ، فحضر مائةٌ وتسعة علماء ، وتمّ اللقاء في نادي « الترقي » في مطلع عام ١٣٥٠هـ ، واتفق الجميع على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وطلبوا من عبد الحميد باديس أن يتولّى رئاستها فرفض لأنّ أباه وإخوته يعملون موظفين في الإدارة الفرنسية ، غير أنه عاد فقبل عندما أصرّ العلماء عليه ، وأخذت هذه الجمعية تفتح المدارس للناشئة المسلمين ، وتقيم لهم الأندية ، كما أصدرت جريدة « المرصاد » التي كان يتولّى أمرها « محمد عبابسة » .

---

(١) عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس : أسس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، وكان رئيساً لها من يوم نشأتها عام ١٣٥٠هـ ؛ حتى وفاته ١٣٥٩هـ ، وُلد في مدينة (قسنطينة) عام ١٣٠٥هـ ، وأتمّ دراسته بجامع « الزيتونة » بتونس ، وحجّ عام ١٣٣٠هـ ، وزار يومها مصر والشام وعندما عاد أخذ يلقي دروسه في جامع سيدي الأخضر بقسنطينة ، ويفسّر القرآن مدة أربعة عشر عاماً ، وقد جُمع هذا التفسير ، وطُبع بالجزائر باسم « مجالس التذكير » ، وأصدر جريدة « الشهاب » وصدر منها في حياته خمسة عشر مجلداً ، وحمل على الفرنسيين ، فأوذي واضطهد ، وقاومه أبوه وإخوته ؛ إذ كانوا موظفين لديهم ، واستمرّ في جهاده ، وأنشأ كثيراً من المدارس الإسلامية ، وتوفي في حياة أبيه عام ١٣٥٩هـ .

أخذ الشيخ عبد الحميد يحمل على الفرنسيين ، وإدارتهم ، وسوء معاملتهم ، واستعمارهم ، وبغيهم وظلمهم ، وفي الوقت نفسه يردّ على المستشرقين ، والذين يهاجمون الإسلام من المغتصبين الفرنسيين الذين يقيمون في الجزائر ، ويدافع عن الإسلام ، وكان يكتب المقالات باسمه الصريح ، وقد تعرّض في سبيل ذلك للأذى ، والاضطهاد ، ولكن لم يبال ما دام يرجو بذلك الله ، ويعمل في سبيله ، وقد شنّع على التجنّس بالجنسية الفرنسية ، وعدّ ذلك ذوباناً للشخصية الجزائرية الإسلامية في بوتقة « الفرنسية » ، وأخذ يطالب بتعليم اللغة العربية ، والدين الإسلامي ؛ ما دام أن أهل البلاد من العرب المسلمين ، وإضافةً إلى ذلك كان يعمل باستمرار لإبقاء التفاهم بين العلماء ، إذ أن مشاربهم مختلفة ، وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور إلى حدٍّ كبير . وقد بذلت فرنسا جهدها للإيقاع بين العلماء ، وقد وصلوا إلى جزءٍ من هدفهم ، وقد ألقى الطيب العقبي مرةً كلمةً حمل فيها على أصحاب الطرق ، وكان بعضهم حضوراً ، فتركوا الاجتماع ، وخرجوا ، وأسّسوا جمعية « علماء أهل السنة » التي أصدرت جريدة « البلاغ الجزائري » ، وحاولت فرنسا توسعة شقة الخلاف بين الجمعيتين ، ولكن عبد الحميد بن باديس كان يعمل على رأب الصدع ، وعدم زيادة الخلاف .

لقد أثمرت الدروس التي كان يلقيها الشيخ عبد الحميد في جامع سيدي الأخضر بقسنطينة ، وبدا أثرها في المجتمع ، وأثمرت المقالات التي كان يكتبها في « الشهاب » ، وفي « المرصاد » ، وبانت نتائجها في المصر الجزائري كله ، وأثمرت المدارس والأندية التي افتتحتها جمعية العلماء ، وعاد الوعي الإسلامي إلى عددٍ كبيرٍ من الشباب ، وأصبح بالإمكان الاعتماد عليهم في المستقبل ، وفي تربية جيلٍ قادمٍ .

وأحسّ الأعداء بخطر عمل العلماء عليهم ، وكم حاولوا القضاء عليه وفشلوا ، ومرّ أحد اليهود عام ١٣٥٣هـ عند جامع سيدي الأخضر ، ووجد النشاط الإسلامي ، وتوادّ المسلمين ، فعظم عليه ذلك ، وأخذ يشتم الإسلام وأهله ورسوله ، ووقعت فتنةٌ كبيرةٌ استمرّت أسبوعاً كاملاً قُتل فيه اثنان

وعشرون يهودياً ، وعجزت السلطات الفرنسية عن إطفاء نار تلك الفتنة ، وتوقّعت أن المسلمين سيستأصلون اليهود جميعاً من مدينة قسنطينة ، لذا أسرعت وتوسّلت إلى عبد الحميد بن باديس ، وإلى نائب مدينة قسنطينة ابن حلول بالعمل لإخماد الفتنة ، وقد تمكّنا من إطفائها ، وارتفع شأن ابن باديس كثيراً في الأوساط الجزائرية كلها ، وأصبحت الأوساط الفرنسية تخشاه ، وتخشى من القيام بعمل ضدّه ، لأن ذلك قد يؤدّي إلى ثورةٍ عارمةٍ .

كان النواب الجزائريون الذين يمثلون بلادهم في المجلس النيابي الفرنسي ممن ترضى عنهم السلطات الفرنسية ، أو على الأقلّ لا تجد فيهم ما يشكّل خطراً عليها ، وهذا يعني أنهم من الذين أصيبوا بالهزيمة النفسية ، ويتمنّون الجنسية الفرنسية ليتساووا مع الفرنسيين في الحقوق والواجبات ، أويدعون إلى الفرنسة ، فلما قامت جمعية العلماء وعلى رأسها عبد الحميد بن باديس وأخذ يهاجم الفرنسة ، ويدعو إلى الشخصية الجزائرية الإسلامية المتميّزة ، وإلى الاعتزاز بها والفخر ، أخذ هؤلاء النواب يتراجعون ، بل ويطالبون بفصل الإدارات ذات الصبغة الدينية الإسلامية عن الحكومة الفرنسية ، ويدعون إلى إدخال اللغة العربية بصفةٍ إلزاميةٍ ضمن مناهج التعليم ، ولما كان هذا لا يروق للسلطات الفرنسية لذا فقد أبدت استنكارها من هذه التصرّفات ، فما كان من نواب الجزائر في المجالس البلدية والمالية والنيابية ، وعدهم تسعمائة وخمسون ممثّلاً إلّا أن قدّموا استقالاتهم من المراكز التي يحتلّونها بصورةٍ إجماعيةٍ . وعلى إثر ذلك جاء وزير الداخلية الفرنسي في زيارةٍ للجزائر في ربيع الثاني ١٣٥٤هـ ، غير أن سلطات الأمن لم تمكّنه من الالتقاء بممثلي الشعب ، فرجع يهدّد ويتوعّد .

وجاءت الانتخابات الفرنسية عام ١٣٥٥هـ ، ونجح تكتّل الشمال الذي ضمّ : الثوريين ، والشيوعيين ، والاشتراكيين .

وتشكّلت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة « ليون بلوم » ، واستفاد المسلمون من هذه التغييرات في الحكومة الفرنسية ، وتداعوا إلى عقد لقاءات انتهت بعقد مؤتمر عام في تاريخ ١٨ ربيع الأول ١٣٥٥هـ (٧ حزيران

١٩٣٦م) ، وقد حضر العلماء بصفتهم الخاصة خوفاً من صبّ الغضب على جمعية العلماء ، والمجاهدون ، والشيوعيون ، والنواب كافة ، وتبنّى النواب مطالب جمعية العلماء ، ثم تقرّر تشكيل وفدٍ برئاسة عبد الحميد بن باديس ، والذهاب إلى فرنسا ، وتقديم مطالب الشعب الجزائري إلى الحكومة الفرنسية الجديدة ، وكانت المطالب هي :

١ ـ إلغاء كافة القوانين والقرارات الاستثنائية بالجزائر .
٢ ـ إلغاء الحاكم العام للجزائر، وجعلها تابعةً مباشرةً لفرنسا.
٣ ـ أن تكون الهيئة الانتخابية في الجزائر واحدة ، يشترك فيها المسلمون والأوربيون . (فتصبح الأغلبية للمسلمين لكثرتهم العددية) .
٤ ـ أن يكون للمسلمين الجزائريين نوابهم الذين يمثّلونهم في المجلس النيابي الفرنسي بباريس .
٥ ـ أن يكون الجزائريون فرنسيين بصفةٍ تامةٍ . (أي ليس هناك فروق وتمييز بالحقوق والواجبات) ، مع احتفاظ المسلمين بشخصيتهم الإسلامية .
٦ ـ استقلال الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية كبقية الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ، وتنفق على مؤسساته من أموال الأوقاف والتي اغتصبتها فرنسا منذ بداية الاحتلال ، ومن الضرورة الآن إعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال .
٧ ـ تعدّ اللغة العربية لغة الدراسة في المدارس الجزائرية .

وتقرّر إرسال وفدٍ كبيرٍ إلى باريس يضمّ رجال الشعب من علماء ونواب ومفكّرين ، برئاسة عبد الحميد بن باديس ليتدارس مع الحكومة الفرنسية مطالب الشعب الجزائري المذكورة أعلاه .

سافر الوفد ، وطلب من حكومة « دلادييه » تنفيذ مرسوم ٢٧ أيلول ١٩٠٧م القاضي بفصل الدين عن الدولة ، وبقية مطالب الشعب التي يحملها الوفد ، وحاول « دلادييه » إرهاب الشيخ ، فكان ابن باديس أكثر جرأةً وحماسةً ، وتخويفاً من الله ، الذي لا غالب له ، إذ هدّد « دلادييه » بالمدافع

الطويلة المدى ، فهدّده ابن باديس بقدرة الله التي لا تُقهر ، وكاد أن يقع الصدام حتى تدخّل « ليون بلوم » الذي أصبح رئيساً للجمهورية والذي رفض مطالب المسلمين ، ولكنه اقترح توسعة دائرة الناخبين الجزائريين ضمن الهيئة الانتخابية الفرنسية في الجزائر ، وذلك بإدخال واحدٍ وعشرين ألفاً من الناخبين ضمن الناخبين الفرنسيين الذين كان عدهم ٢٠٢,٧٥٠ ناخباً ، ولكن الفرنسيين رفضوا ذلك ، وأعلنوا أنهم سيستقيلون جميعاً فيما إذا نُفّذ هذا الاقتراح ، وكذلك احتجّ محافظو المدن ، وهدّدوا بالاستقالة أيضاً ، وكان من كل ما تمّ زيادة عدد نواب المسلمين بمجلس النيابة المالية ، ورفعه من ٢١ إلى ٢٤ نائباً ، وبذا يصبح عددهم نصف عدد النواب الفرنسيين الذي يبلغ ثمانيةً وأربعين نائباً ، وعاد الوفد خائباً .

أخذت فرنسا تساعد رجال الطرق الصوفية ، وتشجّعهم على النشاط ، وتحرّضهم ضدّ جمعية العلماء ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ أخذت تُنصّب مشايخ السوء ، وتطلب منهم معارضة جمعية العلماء، وإرسال البرقيات ضدّها، ولا شك؛ فإن الشعب لا يستطيع رؤية مثل هذه التصرّفات ، وقد تُكلِّف من يقوم بقتل بعض هؤلاء المشايخ ، وتتهم جمعية العلماء بالقتل ، كما فعلت بالشيخ عمر بن دالي الذي جعلته إماماً للجامع الكبير في قسنطينة ، وطلبت منه الهجوم على الوفد الذي سافر إلى باريس برئاسة عبد الحميد بن باديس ، وإرسال البرقيات بهذا الشأن ، ثم دفعت من قتله ، واتهمت جمعية العلماء بقتله ، وقبضت على الطيب العقبي ، وأودعته السجن ، وأخذت تنشر الشائعات ضدّ جمعية العلماء ، ثمّ وُجد مرتكب الجريمة ، واسمه عكاشة ، وقد اعترف ، وأطلق سراح العقبي ، غير أنه في السجن قد تعب ، وكانت السلطات الفرنسية تريد أن تكسبه إلى جانبها ، وأخذه بعدها للعمل لتهديم جمعية العلماء ، وثنيها عن مواقفها ، ومشروعاتها ، وجهادها .

وتوفي الشيخ عبد الحميد بن بايس في ٨ محرم ١٣٥٨هـ (١٦ شباط ١٩٤٠م) ، فخلفه في رئاسة جمعية العلماء الشيخ محمد بشير الإبراهيمي

الذي كان معتقلاً عندما توفي سلفه ابن باديس ، فاختاره العلماء ليكون رئيساً للجمعية بمجرد أن يُطلق سراحه ، وعندما خرج من السجن تسلّم رئاسة الجمعية ، فوجد أنها قد قوي مركزها ، وترسّخت مكانتها ، فانصرف إلى نشر العلم ، فاستطاعت الجميعة فتح أكثر من مائةٍ وسبعين مدرسةً ؛ تعلّم الدين ، والتاريخ الإسلامي ، واللغة العربية ، وبقية العلوم ، وتضمّ هذه المدارس أكثر من خمسين ألف طالب . وشكّل رئيس الجمعية لجنةً للتعليم لتشرف على المناهج ، وتتابع التنفيذ، وكان منها : محمد الحفناوي ، ومحمد الصالح رمضان .

وافتتح أول معهدٍ للتعليم الثانوي في مدينة قسنطينة عام ١٣٦٦هـ ، وقد أصبح عدد طلاب القسم الثانوي عام ١٣٧٣هـ ألفاً وخمسمائة طالب كما ارتفع عدد المدارس الابتدائية إلى أربعمائة مدرسة ، وكانت جمعية العلماء ترسل بعض الطلاب إلى جامع الزيتونة بتونس ليُتابعوا تعليمهم هناك .

وكانت جمعية العلماء تُصدر مجلة « عيون البصائر » الأسبوعية ، وتطبع منها في كل أسبوع ثلاثين ألف نسخة ، ثم أغلقت عام ١٣٧٦هـ .

وانتخب الشيخ محمد بشير الإبراهيمي[1] رئيساً للجنة إعانة فلسطين.

وكان عدد من العلماء بجانب عبد الحميد بن باديس ومحمد بشير الإبراهيمي منهم : العربي التبسي ، ومبارك محمد الميلي ، وإبراهيم بن عمر

---

(١) محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي : وُلد عام ١٣٠٦هـ في (صطيف) ، رحل إلى المشرق عام ١٣٣٠هـ ، فأقام بالمدينة ست سنوات ، وفي دمشق أربع سنوات ، وعاد إلى الجزائر ، فنُفي إلى صحراء وهران عام ١٣٥٩هـ ، وبقي في معتقل « آفلو » ، وتسلّم رئاسة جمعية العلماء ، فأنشأ في عامٍ واحدٍ ثلاثاً وسبعين مدرسةً ، ولم يلبث أن سُجن بعد سنتين ، ثم أُفرج عنه ؛ بعد أن عُذّب ، وقام بجولات وبنشاط ، واستقرّ بالقاهرة عام ١٣٧٢هـ ، وقامت الثورة الجزائرية ، فسافر إلى الهند بقصد دعم الثورة ، وبعد نجاح الثورة عاد إلى الجزائر ، وانزوى حتى توفي عام ١٣٨٥هـ . وكان من أعضاء مجامع اللغة العربية : في دمشق ، وبغداد ، والقاهرة .

بيوض ، والطيب العقبي ، وإبراهيم أبو اليقظان ، وأحمد توفيق المدني ، والأمين العمودي ، ويحيى الحمودي ، ومحمد خير الدين ، والسعيد الزهراوي ، ومحمد سعيد آيت جر ، والجيلاني الفارسي ، وعبد اللطيف سلطاني .

وكان لكلٍ دوره في العلم ، فقد نشط أحمد توفيق المدني - على سبيل المثال - في الأندية والجمعيات ، مثل نادي الترقي الذي اجتمع به العلماء وجمعية الفلاح ، وجمعية الزكاة ، والجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى ، واشتهر الطيب العقبي بسلفيته ونشاطه ، وعُرف العربي التبسي بوعيه وهدوئه ، وتكامل العمل بلقاء بعضهم مع بعض .

ثانياً : النشاط السياسي : أيقن كثير من الناس أنه لا قبل لهم بمواجهة الفرنسيين ؛ لضعفهم أمامهم مادياً ، وقلّة الإمكانات لديهم ، ولا شك أن هؤلاء الناس هم من الماديين الذين يقيسون الأمور بالمفهوم والمستوى المادي ، ويتركون الروح المعنوية جانباً ، ورأى هؤلاء أن أفضل طريق للمقاومة الاستعمارية إنما هو التنظيم السياسي ، ومن الطبيعي ألا يكون هؤلاء جميعاً بأفكارٍ واحدةٍ ، فمنهم الذين يرون أن الغاية من عملهم إنما هو المساواة بالفرنسيين ، ومنهم الذين يرون محاربة الفكر الاستسلامي الذي سيطر على قسم من أفراد المجتمع حيث أصابهم اليأس ، وحلّت بهم الهزيمة النفسية ، ومنهم الذين يحملون العصبية الجزائرية أو الوطنية ؛ من غير أن يكون لهم منهج متميّز أو شخصية خاصة ، هم جزائريون عرب مسلمون ، ولكنهم لا يهمهم سوى ذلك ، فأي منهجٍ أو دستورٍ يطبّقونه لا يبالون بذلك ، ليأخذوا الدستور الفرنسي ، . . . السويسري ، . . . الإنكليزي ؛ كله سواء ، المهمّ عندهم سيطرتهم واستقلالهم بجزائرهم وفقط ، ومنهم الشيوعيون الذين يرون تطبيق المنهج الشيوعي في الاقتصاد ، واستبدادية الطبقة العاملة في الحكم ، وترك الحبل على الغارب في الحياة الاجتماعية .

والمهمّ في النشاط السياسي السرية في العمل والتهيئة للاستقلال ، وقد ظهرت تنظيمات منها اللجنة الوطنية التي شكّلها المحامي أبو دربة والصحفي

صديق دوران، ومصالي الحاج، وذلك عام ١٣٢٨هـ، ودعت إلى الجامعة الإسلامية ، كما التفّت جماعةٌ بعضها حول بعض ، وعُرفوا بالنخبة ، وهم من الذين تثقّفوا ثقافةً فرنسيةً ، ودعوا إلى الاندماج مع فرنسا ، ومن أبرزهم ابن جلول ، والزناتي ، وقد أصدروا جريدة « الأهالي » ، وأهم هذه التنظيمات :

أ ـ **حزب الجزائر الفتاة** : الذي أسّسه خالد الهاشمي الجزائري الذي كان يقيم في دمشق ، فهو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ، ولا تزال هذه الأسرة تحسّ بأنها ظلمت واضطهدت ، وعاشت مشرّدة عن وطنها ، غريبةً عن بلادها ، قسا عليها الفرنسيون ، ولم يكن لكبيرها من ذنبٍ سوى أنه أحبّ وطنه ، ودافع عنه ضدّ المعتدين ، فكان مصيره وأهله التشريد . وقد كان تأسيس هذا الحزب بعد الحرب العالمية الأولى، ونظّم مؤسّسه خالد الهاشمي مؤتمراً في باريس عام ١٣٤٢هـ طالب فيه بحقوق أهل الجزائر ، وأصدر جريدة « الإقدام » ، غير أن هذا التنظيم قد حلّ ، ورجع منظّمهُ إلى دمشق ، وتوفي فيها عام ١٣٥٤هـ .

ب ـ **جمعية نجم شمالي إفريقية** : وأسّسها محمد جيفال في باريس في ١٦ صفر ١٣٤٣هـ (١٥ أيلول ١٩٢٤م) ، وكان من أعضائها عبد القادر بن الحاج علي ، ومصالي الحاج ، وعلي الحمامي . ولكن هذه الجمعية لم تشتهر إلاّ عندما تولّى رئاستها مصالي الحاج عام ١٣٤٦هـ ، لقلّة أعضائها في بداية الأمر، ولنشاط مصالي الحاج حيث اقترنت باسمه فيما بعد ، وكانت ذات ميولٍ شيوعية .

ومن الطبيعي أن يبرز الشيوعيون قبل غيرهم ؛ لأنهم لا يختلفون عن النصارى الفرنسيين في السلوك ، أو التصرّف ، أو الأخلاق ، أو الاستهتار بالقيم، فهم يلتقون معهم على موائد الخمر، والقمار، والفحش، ولا يعرفون عنهم شيئاً سوى ذلك ، فما على الشيوعيين إذن إلاّ كتمان الأمر وإخفاء تنظيمهم ، إضافةً إلى أن بين الفرنسيين مجموعات من الشيوعيين فيتعاون بعضهم مع بعض على الرفقة التي تجمع بينهما . وكما أن الفرنسيين يتلقّون دعماً

من باريس ؛ فإن الشيوعيين يتلقّون دعماً من موسكو ، وتزويداً بالمعلومات ، وتوجيهاً تبعاً للمتغيّرات الدولية . ولم أستثن الوطنيين وأفصلهم عن الشيوعيين رغم كثرة أوجه التشابه بينهم ، إلاّ لأنه قد يوجد بينهم بعض الشخصيات المسلمة ، لكنها لا تستطيع التمييز بين الفكر الإسلامي والفكر الوطني ، إذ أن الأمور مختلطة عندها لقلّة الوعي الإسلامي ، أما أصحاب الفكر الإسلامي فيمكن كشف أمرهم مباشرةً حيث أن لهم شخصيةً متميّزةً ، ولا يمكنهم مسايرة أصحاب الاتجاهات الأخرى في السلوك والتصرّف .

يرتبط النشاط الشيوعي بمصالي الحاج الذي وُلد عام ١٣١٦هـ في مدينة (تلمسان) ، ونشأ نشأةً فقيرةً ، إذ كان والده صانع أحذيةٍ ، ولم يلبث أن توفي ، لذا لم يستطع أن يتابع تعليمه ، والفقير الجاهل فريسةٌ للأفكار الشيوعية ، ولعلّ أول ما أدرك مصالي الحاج ؛ رأى إخراج أهل تلمسان إخراجاً جماعياً من مدينتهم بإجبار من الفرنسيين ، فبقي هذا المنظر في نفسه ، وتولّد عنه كرهٌ للفرنسيين . وقاتل في صفوف الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى ، فلما انتهت عاد إلى بلاده فقيراً بئيساً ، وقد انتشرت البطالة في الجزائر بعد الحرب ، على حين أن فرنسا كانت بحاجةٍ إلى عمّالٍ ؛ لإعادة عمران ما خرّبته الحرب، فارتحل إلى فرنسا واشتغل في بعض المصانع ، وعمل بائعاً متجوّلاً ، والفراغ عنده كبير وخاصةً في ليالي الشتاء لذا كان يحضر أحياناً بعض المحاضرات في جامعة بوردو ، كما جرّه الرفاق أمثاله إلى أوكار الشباب الذين لا يجدون عملاً فيتصيّدون اللهو وما يجرّ إليه ، واتصل بالعمّال الفرنسيين ، وانضمّ عن طريقهم إلى الحزب الشيوعي .

أصدرت جمعية نجم شمالي إفريقية مجلّة « الأمة » ، وحاول مصالي الحاج نقل نشاط الجمعية وصحيفة « الأمة » إلى الجزائر ؛ فلم يستطع ، فسافر مع عبد القادر بن الحاج علي إلى الجزائر ، وحاول الاتصال بالزعماء الوطنيين من أهل العلم ، فرفضوا اللقاء به لما يحمله من أفكارٍ إلحاديةٍ وصرّحوا له : بأنه ما لا فرق بين الاستعمار الفرنسي وعملائه من جهة ؛ والاستعمار الروسي وعملائه من

جهة ثانية ؟ وربما كان الروس بـإلحادهم وسحقهم للمسلمـين أشدّ خـطورةً وسوءاً من الفرنسيين ، ولكن أصحاب الهوى لا يدركون بعقـولهم ، ولكنهم يجاوبـون مع عواطفهم ؛ فلا يسمعون إلاّ ما تمليه العاطفة عليهم .

وفي عام ١٣٤٨هـ صدر قرار بحلّ جمعيـة « نجم شمالي إفـريقية » ، ولكن لم يلبث أن قـام مكـانها حـزب « النجم الثـاقب » ، غـير أنـه صـدر قـرارٌ بحلّه عـام ١٣٤٩هـ بضغطٍ من الجزائريين على الحكومة الفرنسية .

عادت الجمعية إلى الظهور ثانيةً باسم « حزب نجم شمالي إفريقية » ، وعقدت مؤتمراً في باريس ، اعتُقل عـلى أثره مصـالي الحاج ، وحكم عليـه بالسجن سنتان ، وقد أمضى العقوبة التي فُرضت عليه ، وعندمـا خرج من سجنه ظهر الحزب باسمٍ جديدٍ هو « الاتحاد الوطني لمسلمي شمالي إفريقية » ، ويبدو أن مصالي الحـاج قد أخـذ يحسّ أن هناك فـرقاً كبيـراً بين المسلمـين وغيرهم ، وأن المسلمين في شمالي إفريقية يتميّزون عن النصارى الفرنسيـين الذين كان قسمٌ منهم ضمن حزبه الأول . واعتُقل مصالي الحاج ثانيةً ، وحكم عليه بالنفي ستة أشهر خارج حدود فـرنسا ، ولـه الحقّ في اختيار المنفى ، فانتقل إلى سويسرا ، وحضر المؤتمر الإسلامي هناك ، والتقى بشكيب أرسلان الذي كان يعيش في سويسرا ، وأعجب شكيب به وبنشاطه ، ورأى فيه شاباً مغرّراً به لجهله بـالإسلام، وفقره، ونشـاطه الـذي لا بدّ من أن يجد مجالاً لـه يصرفه فيه، فكتب رسائل إلى ابن باديس، وأحمد توفيق المدني، ومبارك الميلي، والـطيب العقبي في الجزائر، وإلى غيـرهـم في تـونس والمغـرب يوصيهم به، ويطلب منهم الإفادة من نشاطه.

ولما قضى مدة النفي عاد إلى فرنسا ، ثم سافر إلى الجزائر في ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ (٨ آب ١٩٣٦م) ، ووجد أرضاً خصبةً لحزبه ، فقام بجولةٍ في البـلاد استطاع خـلالها أن يفتتـح ثلاثـةً وثلاثـين فرعـاً لحزبـه ودعا إلى الاستقلال ، فعارضه الشيوعيون المشاركون في حكم فرنسا إذ كانـوا ضمن الجبهة الشعبية التي نجحت في الانتخابات الفرنسية ، وشُكّلت حكومة « ليون بلوم » إذ كانت الجبهة بصفتها الحاكمة ترى التمسّك بالتسلّط الفرنسي على

الجزائر ، وهذا ما جعل الذين يفكّرون بعقولهم من الشيوعيين الجزائريين يتخلّون عن الشيوعية ، ويرون فيها استعماراً ، وسعياً وراء المصلحة ، وقناعاً من الدعايات تتستّر به ، ومن هؤلاء كان مصالي الحاج نفسه .

وحلّت الجبهة الشعبية الفرنسية التي يشترك فيها الشيوعيون حزب « نجم شمالي إفريقية » في أول شهر ذي القعدة ١٣٥٥هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٣٧م) ، والذي كان يحمل اسم « الاتحاد الوطني لمسلمي شمالي إفريقية » ، فاتصل مصالي الحاج ببعض الشخصيات ، ومنهم : عماش عمار ، ونحال محمد رزق ، وراجف بلقاسم ، وموسوي رباح ، وأخذوا في تنظيم حزب الشعب الجزائري .

جـ ـ حزب الشعب الجزائري : وتألّف من عناصر جزائرية فقط ؛ على حين كان حزب نجم شمالي إفريقية يضمّ عناصر من مناطق المغرب كلها (تونس ـ الجزائر ـ المغرب) ، وذلك لأن المطالب مختلفة ، إذ كانت فرنسا تعدّ تونس والمغرب محميتين فرنسيتين ، بينما تعدّ الجزائر إقليماً فرنسياً . وكانت أهداف هذا الحزب : إقامة مجلس نيابيّ خاصاً بالجزائر ، وإقامة حكومةٍ خاصةٍ كذلك ، والعودة إلى التعليم باللغة العربية ، والاعتماد على الدين الإسلامي في التشريع ، وقد أيّد العمّال الجزائريون في فرنسا هذا الحزب ، ولم يكن هذا التأييد في الواقع نتيجة أفكارٍ أو معرفةٍ وإنما عصبيةً للجزائر ولشخصية رئيس الحزب .

رجع مصالي الحاج إلى الجزائر في ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (حزيران ١٩٣٧م) ، وجرت انتخابات البلدية ، ورشّح الحزب بعض عناصره لخوض هذه الانتخابات ، غير أن رئيس الحزب مصالي الحاج وأعضاء الهيئة الإدارية قد اعتُقلوا جميعاً في يوم ٢٠ جمادي الآخرة ١٣٥٦م (٢٧ آب ١٩٣٧م) ، وفي اليوم ذاته صدر العدد الأول من جريدة « الشهاب » التي أصدرها الحزب ، وكان رئيس تحريرها « مفدّى زكريا » ، وما كانت هذه الاعتقالات إلّا لمصلحة الحزب ، إذ أخذ الشعب يتعاطف معه بعدها ، وكذلك لم يلبث أن اعتُقل رئيس تحرير الجريدة الجديد « غنانيش محمد » ويظهر هذه التعاطف واضحاً في

انتخابات البلدية التكميلية إذ نجحت القائمة التي دعمها الحزب ـ قائمة « أحمد بـومنجل » ـ بالأكثرية الساحقة ، وأصدر الحزب جريدةً أسبوعيةً باللغة الفرنسية أسماها « المجلس النيابي الجزائري » .

واندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، ولم تلبث أن أصدرت الحكـومة الفرنسية قرارها بحـلّ حزب الشعب ، وإغـلاق صحيفة « المجلس النيـابي الجزائري » ، وذلك في يوم ١٥ شعبان ١٣٥٨هـ (٢٩ أيلول ١٣٣٩م) ، ثم أطلقت سراح الهيئة الإدارية للحزب . . ، ولم تمضِ سوى مدةٍ يسيرةٍ حتى عادت فاعتقلت بعض الأعضاء وعلى رأسهم مصالي الحاج ، وذلك في يوم ٢٠ شعبان ١٣٥٨هـ (٤ تشرين الأول ١٩٣٩م) ، أي أنّ إطلاق السراح لم يزد على ثلاثة أيام ، وربما كان هذا خطة فرنسية للفت النظر إلى الحزب بشكل عام ، وإلى رئيسه بشكل خاص ، إذ كثيراً ما تلجأ السياسات إلى مثل هذا التصرّف ، فيكسب أعوانها شعبيةً كبيرةً إذ يظنّهم الشعب مخلصين ، ويعطف عليهم لما يعانون ، وما يصيبهم من أذى ظاهري ، وهم في الواقع ليسوا سوى أجراء ، وربما كانت فرنسا قد غيّرت من سياستها تجاه مصالي الحاج ، أو جرى بين الطرفين تفاهم سرّي للوقوف معاً في وجه جمعية العلماء التي أخذت تكتسح المجتمع والشارع ، ولا شك أن الفكر الشيوعي أقرب إلى الفكر الرأسـمالي بآلاف المرات من الفكر الإسلامي ، فالشيوعية والرأسمالية توأمان ، فكلاهما مادي ، غير أن كل فريق يأخذ جانباً من الحياة الاقتصادية ، إذ تُصرّ الشيوعية على سيطرة الحكومة على الإنتاج على حين تتبنّى الرأسمالية حرية الفرد المطلقة في هذا الجانب ، وكلاهما عدو لدودٌ للإسلام ، ونلاحظ هذا دائماً في السياسـة الدولية حيث يلتقي الطرفان دائماً عندما يكون الإسلام على الساحة أو لأتباعه دورٌ في المعركة ، وقد يزيد الأمر عندنا توكيداً عندما ننـظر إلى الحكم الذي صدر على مصالي الحاج في تاريخ ١ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (٢٨ آذار ١٩٤١م) بعد تقديمه إلى محكمةٍ عسكريةٍ ، لقد صدر الحكم عليه بالأشغال الشاقّة لمدة ستة عشر عاماً ، والنفي عشرين عاماً خارج الأرض الفرنسية والمحميات ،

وغرامة مالية قدرها ثلاثون مليون فرنك ، وهو حكم جائر وعنيف جداً لمن ينظر إليه من بعيد ، وهذا ما يجعل الناس يعطفون عليه ، ولا يلبث أن ينقلب العطف إلى تأييد ودعم ، وفي واقع الأمر أن الحكم لم يكن فيه شيء ، لا سجن ، ولا عزل عن الأعوان ، والغرامة لا يمكنه دفعها أبداً ، وبخاصة في تلك الأيام ، ولو نظرت إلى ميزانية الجزائر يومذاك لوجدتها دون ذلك .

لم يخبُ نشاط الحزب وظلّ على صلةٍ برئيسه ،وإن كانت قد تشكّلت له هيئةٌ إدارية جديدةٌ منها : أحمد مزغنة ، وحسين الأحول ، وأمين دباغين ، ومكري حسين . وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية عاد الحزب للنشاط بصورةٍ رسميةٍ ، وكان قبلها يعمل بصورةٍ غير رسميةٍ ؛ مما يؤكّد ما ذكرناه ، ولم يُلغَ الحكم الصادر في حقّ مصالي الحاج ومع ذلك فقد صدر أمر جديد يقضي بمنعه من دخول المدن الجزائرية ، وتُفرض عليه الإقامة الجبرية في بلدة « بوزريعة » القريبة من مدينة الجزائر العاصمة ليسهل على أتباعه اللقاء به ، ولينصرف هو إلى التنظيم .

د ـ حركة انتصار الحريات الديمقراطية : أخذ مصالي الحاج ورفاقه في تنظيم حركةٍ جديدةٍ أطلق عليها « حركة انتصار الحريات الديمقراطية » ، ولست أدري لماذا هذا التغيير؟ مع العلم أن حزب الشعب قد كسب مؤيّدين ، وانتشرت دعايته ، وأن العمل الجديد لا بدّ له من مدةٍ ليصل إلى المرحلة التي وصل إليها العمل السابق ، لكن يبدو أن بعض إشارات الاستفهام أخذت توضع على سلوك الحزب ، أهمّها التعاون السرّي مع السلطات الفرنسية ، والتنسيق بين الطرفين . ومن أعضاء هذه الحركة البارزين إلى جانب مصالي الحاج : محمد خيضر ، وحسين الأحول ، وأمين دباغين .

أخذت هذه الحركة تدعو إلى الاستقلال ، وجلاء الفرنسيين ، وانتخاب جمعية تأسيسية ، والتعليم في المرحلة الثانوية باللغة العربية ، وإعادة الأراضي المغتصبة إلى ذويها ، وعودة الأوقاف إلى المسلمين وإشرافها على المساجد .

قرّرت الحركة الاشتراك في الانتخابات التي جرت في شهر ذي القعدة ١٣٦٠هـ ورفضت تشكيل « جبهة متحدة » من الجزائريين العاملين في الحقل السياسي حيث تضمّ : العلماء ، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية ، والاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان ، والحزب الشيوعي . وقد حصلت الحركة على خمسة مقاعد منهم : أحمد مزغنة ومحمد خيضر عن مدينة الجزائر ، وأمين دباغين عن قسنطينة .

لقد قامت فرنسا يوم ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٨ أيار ١٩٤٥م) بمذابح رهيبة في الجزائر ، وخاصةً في مدينتي « صطيف » و « قالمة » مما كان له أسوأ الأثر في نفوس الجزائريين ، وزيادةً في بُعد الشقة بين الطرفين ، كما كانت فرنسا مشغولةً في عمران ما خرّبته الحرب ، وفي الحرب في الهند الصينية ، لذا لم تلتفت إلى أوضاع الجزائر ، وتحاول حلّها .

وكانت الحركة قد اشتركت في الانتخابات التي جرت عام ١٣٦٧هـ و١٣٧٠هـ ، وبدأت الخلافات داخل الحركة ، كان أولها بين مصالي الحاج وأمين دباغين حيث فُصل الثاني من الحركة ، ثم بين مصالي الحاج وبعض أعضاء اللجنة التنفيذية حيث أبعد عن اللجنة كلٌّ من : حسين الأحول ، ويوسف بن خده ، وعبد الرحمن كيوان ، ثم عاد مصالي الحاج فاختلف مع من كان بجانبه من أعضاء اللجنة ففصلهم ، ومنهم أحمد بن مزغنة ، ومولاي رباح .

وكانت فرنسا قد أبعدت مصالي الحاج نهائياً عن الجزائر ، وأسكنته في فرنسا في (نيورت) ، وأطلقت على سكناه الإقامة الجبرية مع بقائه على رأس العمل الحزبي حيث كان يديره من مسكنه أو من محلّ إقامته . وربما كان هذا النقل بعد أن أنهكه النضال ، وزاد عمره على الخامسة والخمسين فأخذ يتصرّف بشكل يختلف مع أتباعه ، وفي كل هذا ما ليس من مصلحة فرنسا ، خوفاً من إفشاء ما كان مستوراً ، ثم احتراماً للرجل الذي تعب ، ونفيه إشارة إلى وطنيته وبقاء معارضته للفرنسيين .

كان مصالي الحاج يريد السيطرة الشخصية على الحركة، بينما تريد اللجنة التنفيذية القيادة الجماعية ، وكانت العاطفة نحوه تجعل بعض الأعضاء يؤيّدونه ، ثم لا يلبثون أن يختلفوا معه . وقامت الثورة الجزائرية في يوم ٥ ربيع الأول ١٣٧٤هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٥٤م) ، ولم يكن على علمٍ بها . وقد حاول رؤساء جمهورية فرنسا « لاكوست » و « ديغول » طرح مصالي الحاج على الثورة على أنه يمثّل الاعتدال ، ولكن آراءه لم تعد تقبل ، وإن هذا ليُعطي دليلاً آخر على أن مصالي الحاج لم يكن بعيداً عن السياسة الفرنسية ، وتخطيطاتها أو ألاعيبها .

وكانت الحركة قد أصدرت جريدة « الجزائر الحرّة » لتكون الناطقة باسمها ، فلما وقع الخلاف أصدرت اللجنة التنفيذية جريدة « الشعب الجزائري » لتتحدّث إلى الشعب من خلالها .

هـ ـ جمعية العلماء : سبق أن ذكرنا أن جمعية العلماء قامت في مطلع عام ١٣٥٠هـ لتقف في وجه التيار المادي الطاغي الذي أخذ يعصف بالمسلمين لعدم وجود المناعة لديهم بالوعي الإسلامي ، والعلم ، والفكر الصحيح ؛ نتيجة فقرهم ، والأذى الذي ينالهم ، والضغط الذي يسحقهم ، فأحبّ العلماء أن يعلّموا الشعب ويزوّدوه بالإسلام لتكون عنده المناعة فيتحمل العواصف التي تريد أن تطيح به ، وتتكوّن من المسلمين قاعدةٌ صلبةٌ تتحطّم عليها كل المحاولات الاستعمارية ، وتكون أساس حركة الجهاد للتخلّص من نير الاستعمار ، فكان عملهم تربوياً بالدرجة الأولى .

إضافةً إلى العمل التربوي الذي قامت به جمعية العلماء كان هناك عملٌ سياسي ، وإن كنا لا نستطيع أن نفصل جانباً من جوانب الحياة عن الإسلام ، فالإسلام منهج حياةٍ يشمل كافة جوانب النشاط الاجتماعي ، وإذا قلنا هذا فإنما هو لتسهيل الموضوع فقط . لقد لاحظ العلماء قيام الحزب الشيوعي من قبل ثمان سنوات ، وبداية نشاط أفراده ، وتلقّي الدعم من موسكو قاعدة النظام الشيوعي في العصر الحديث والمعاصر . ولم تكن فرنسا لتهتمّ بانتشار الشيوعية في الجزائر على الرغم من أنها تقف في الصف المعادي لها ، وذلك لأن

المستعمرين الصليبيين الغربيين كثيراً ما يستفيدون من الشيوعية كمرحلةٍ من المراحل لإفساد الناس ، وإبعاد المسلمين عن عقيدتهم ، غير أنها عندما وجدت إقبال المسلمين على جمعية العلماء التي تخطّت الحزب الشيوعي بمراحلَ كثيرةٍ منذ بداية قيامها وبإمكاناتها المحلية الضعيفة على الرغم من إمكانات الحزب الشيوعي الضخمة التي تأتيه من الخارج ، والمدة التي تمرّس فيها على العمل ، والمعلومات العالمية التي تأتيه ، والتوجيهات الخاصة التي تصل إلى أفراده ، وعندها فكّرت برفده برافدٍ إضافيٍّ يحمل الأفكار الشيوعية وإن كان لا يعمل بها ليمتصّ من هذا التيار ومن ذاك ، وتتضافر الجهود ضدّ جمعية العلماء ، فكان حزب نجم شمالي إفريقية وما حمل من أسماءَ ثانيةٍ .

إذن كان عمل جمعية العلماء تربوياً ؛ ليقف الجيل الناشىء في وجه الاستعمار ، وسياسياً ؛ ليقف لمقاومة الفرنسيين والشيوعيين ، فهو عملٌ بنّاء ، وفي الوقت نفسه كان دفاعياً وهجومياً .

وهنا يجب توضيح نقطة ، وهي أنه لما كان أهل الجزائر جميعاً من المسلمين تقريباً فإنه قد تتداخل المعاني ، وإن كانت أحياناً لا تستعمل بمعناها الصحيح ، فقد يستعمل الشيوعيون كلمة المسلمين ، ويعنون الجزائريين ، وإن كان استعمالهم هذه اللفظ مقصوداً ؛ للتمويه على العامة ، وتغطية إلحادهم ، وكذا قد يستعمل اللفظ نفسه أتباع السياسة الاندماجية وللغرض نفسه ، وقد يستعمل المسلمون لفظ الجزائريين مكان لفظ المسلمين ، وليس هذا دلالة على الفكر الوطني ، كما قد يستعملون لفظ القومية ، أو العروبة ، ويعنون اللغة العربية كمحافظة على الفكر الإسلامي وتعاليمه . ومع هذه الإشارة البسيطة ؛ إلّا أنني أقول : إن المعاني والأفكار لم تكن واضحةً في تلك المرحلة من الزمن الوضوح التام ولم تكن متميّزة التميّز الصحيح ، وخاصةً عند رجالات الجزائر يومذاك ، ولهذا نلاحظ في كتابات جمعية العلماء وكتابات رؤسائها من المعاني ما نرفضه على الرغم من أنهم كانوا على درجةٍ كبيرةٍ من الوعي ـ رحمهم الله ـ .

كما استعمل غير المسلمين معاني إسلامية ، مثل اصطلاح الجهاد ؛ حتى يفقد معناه الإسلامي ، وكذا اصطلاح الشهيد ؛ حتى لم يعد لها ذلك المعنى الرائع الذي ينبض بالإيمان ، والخلود في الجنّة ، وباب الريان ، و . . . ، وصار النصراني ، وقاطع الطريق ، والفاسق ؛ شهداء وضاعت المعاني الإسلامية الحقيقية .

و ـ **الاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان** : يُقرن هذا الحزب دائماً مع مؤسسة فرحات عباس . ولد فرحات عباس في بلدة (الطاهر) قرب قسنطينة عام ١٣١٧هـ ، ودرس الصيدلة ، وكان رئيس اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين ، ثم من أنصار خالد الهاشمي مؤسس حزب « الجزائر الفتاة » .

كان فرحات عباس يرى سياسة الاندماج مع فرنسا مع الاحتفاظ بالهوية الجزائرية الإسلامية ، وكان يتفق مع نائب قسنطينة ابن جلول على هذا الرأي ، ثم اختلف معه ، فأسّس ابن جلول « التجمّع الجزائري - الفرنسي » ، وأسّس عباس فرحات « اتحاد الشعب الجزائري » .

إن انهيار فرنسا أمام ألمانيا ، واختلاف القادة الفرنسيين قد قلّل من هيبة فرنسا في نظر السياسيين الجزائريين ، ثم جاءت قسوة حكومة « فيشي » بقيادة الجنرال « بيتان » ، فدفع هذا المعتدلين الجزائريين للوقوف إلى جانب الجبهة الإسلامية .

نزلت قوات الحلفاء في بلاد المغرب في ٢٩ شوّال ١٣٦١هـ (٨ تشرين الثاني١٩٤٢م) ، وأعلنوا مبادىء الحرية ، وحقّ تقرير المصير ، وبعض الأمور المعسولة ليقف الجزائريون إلى جانبهم وليستفيدوا منهم ، وقدّم الجزائريون ـ فعلاً ـ تضحياتٍ كثيرةً ، وتقدّم فرحات عباس بسلسلةٍ من المطالب ، حتى قدّم أخيراً البيان النهائي .

بعد نزول الحلفاء في المغرب ، وتأكيدات الرئيس الأمريكي « روزفلت » تداعى زعماء الجزائر لعقد اجتماع يدرسون فيه الشروط مع

الحلفاء ، وقد كلّف الزعماء فرحات عباس بصياغة البيان ، ووافق الجميع عليه ، وقد جاء فيه ما يلي :

ـ إلغاء النظام الاستعماري الذي ليس هو في الحقيقة سوى استغلال شعبٍ آخر ، وهو استعباد جماعي كالرق الفردي في العصور الماضية ، وإضافةً إلى ذلك فهو أحد الأسباب الرئيسية في المنازعات بين الدول الكبرى .

ـ تطبيق حقّ تقرير المصير للبلدان كلها ؛ الصغيرة منها والكبيرة .

ـ إعلان دستور جزائري يضمن :

أ ـ الحرية والمساواة بين السكان جميعاً دون تمييز في العنصر أو الدين .

ب ـ إلغاء الملكية الواسعة ، وتطبيق نظام يشمل الإصلاح الزراعي ، وحقّ الفلاحين بالرفاهية .

جـ ـ الاعتراف باللغة العربية لغةً رسميةً على المستوى نفسه الذي تتمتّع به اللغة الفرنسية .

د ـ حرية الصحافة وحقّ الاجتماع .

هـ ـ التعليم الإلزامي والمجاني للأطفال ذكوراً وإناثاً .

و ـ حرية العبادة بالنسبة للسكان جميعاً ، ويُطبّق مبدأ فصل الدين عن الدولة بالنسبة للدين الإسلامي .

ز ـ مشاركة عرب الجزائر بشكل فعّالٍ وفوريٍّ في حكم بلادهم كالصورة التي أعلنتها الحكومة البريطانية ، والجنرال « كاترو » في سوريا . وإن مثل هذه الحكومة هي وحدها التي يمكنها أن تحقّق المُناخ الذي تسوده الوحدة المعنوية التامة لمساهمة الشعب الجزائري في المعركة المشتركة .

ح ـ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين سواء أكان قد صدر حكمٌ بحقّهم أم لم يصدر ، وبغضّ النظر عن الحزب الذي ينتمون إليه .

حمل الوفد الذي ضمّ : فرحات عباس ، وصياح عبد القادر ، وابن

جلول ، وتمزالي ولد رباح ، وشريف بن علي ، والأخضري ، وقابل الحاكم العام « مارسيل بارتان » يوم ١٥ ربيع الأول ١٣٦٢هـ (٢١ آذا ١٩٤٣م) كما سلّم الوفد صورةً عن البيان في اليوم التالي إلى ممثلي الولايات المتحدة ، وإنكلترا، وروسيا، كما أرسلت نسخة منه إلى الجنرال ديغول، وإلى الحكومة المصرية . ووعد الحاكم العام بتشكيل لجنةٍ لوضع مشروع للإصلاحات التي يمكن تنفيذها بشكل فوري .

تشكّلت اللجنة ، ووضعت ما عُرف بملحق البيان ، ويشمل جزأين ، أما الجزء الأول فيترك حتى ينتهي النزاع ، وأما الجزء الثاني فقد جاء فيه :

ـ مشاركة الممثلين العرب بشكل فوري وفعال في حكم الجزائر وإدارتها .

أ ـ تحويل حكومة عموم الجزائر إلى حكومة جزائرية ، وتتألّف من وزراء موزّعين بالتساوي بين الجزائريين والفرنسيين . وتصبح الإدارات الحالية إدارات وزارية ، ويصبح رئيس الوزراء حاكماً عاماً ، والمفوض السامي سفيراً لفرنسا في الجزائر .

ب ـ يتساوى تمثيل الجزائريين والفرنسيين في المجالس المنتخبة والأجهزة الاستشارية (مجلس الحكومة الأعلى ، المفوضيات المالية للمجالس العامة ، مجلس البلديات ، غرف التجارة والزراعة ، مجلس الأطباء ، المصالح ، المجالس ، اللجان ، الهيئات ، والنقابات كلها) يُدعى المنتخبون بالتتابع لتكملة تمثيل العرب في هذه المجالس بدءاً بالمندوبين الماليين حتى ممثلي النقابات العمالية .

جـ ـ يسمح للعرب بتسلّم الوظائف العامة جميعها ، ومن بينها سلطات الحاكم العام ضمن الشروط نفسها والتي هي سارية المفعول في التوظيف والترقية والتقاعد على الموظفين الفرنسيين ، والإقرار بمبدأ التوزيع المتساوي لهذه الوظائف بين العرب والفرنسيين .

د ـ إلغاء القوانين والإجراءات الاستثنائية كلها ، وتطبيق مبدأ الحقّ العام

ضمن التشريع الجزائري .

ــ المساواة أمام ضريبة الدم .

أ ـ إلغاء القيود المفروضة على المواطنين ، والخدمة العسكرية المسماة « تسخير المواطنين » ووضع صيغ موحدة للتعبئة ، والمساواة في الرواتب ، والسلف ، ومعاشات التقاعد ، والمكافآت ، والحقّ بالترفيع إلى الرتب كافة .

ب ـ تسليم الأعلام الجزائرية إلى أفواج من جيش الحملة الإفريقية لأن رفع الأعلام الجزائرية مع الأعلام الفرنسية ترفع من الروح المعنوية لجنودنا .

كان الجنرال ديغول قد جاء إلى قسنطينة من (برازافيل) عاصمة الكونغو ، وذلك في ١٥ ذي الحجة ١٣٦٢هـ (١٢ كانون الأول ١٩٤٣م) ، واتخذ من الجزائر مقرّاً له ولقيادته . وبعد أقلّ من شهر ، وفي محرم ١٣٦٣هـ (كانون الثاني ١٩٤٤م) تألّفت لجنة الإصلاحات الإسلامية من ثمانية عشر عضواً ، ستة منهم فرنسيون ، وستة آخرون فرنسيون يستوطنون الجزائر ، وستة من المسلمين ، ويمثّل المسلمين : جمعية العلماء ، وحزب الشعب الجزائري ، وحركة أصدقاء البيان والحرية التي تأسّست بعد قليل .

تسلّم السلطة الجنرال ديغول ، وأرسل الجنرال « كاترو » حاكماً عاماً للجزائر ، فرفض مطالب المعتدلين الجزائريين ، وفُرضت الإقامة الجبرية على فرحات عباس .

أسّس فرحات عباس حركة أصدقاء البيان والحرية في تاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٣٦٣هـ (١٤ آذار ١٩٤٤م) ، وأصدر جريدة « المساواة » الأسبوعية في رمضان ١٣٦٣هـ (أيلول ١٩٤٤م) والناطقة باسم الحركة . وكان يدعو إلى قيام جمهورية جزائرية مستقلة ذاتياً ، ومتحدة مع فرنسا. ووقع الخلاف بينه وبين مصالى الحاج .

كانت في البلدان العربية تجري المداولات لتأسيس الجامعة العـربية ، وقد كلّلت الجهود بالنجاح ، وتمّ تأسيس الجامعة العربية في تاريخ ٨ ربيع الثاني ١٣٦٤هـ (٢٢ آذار ١٩٤٥م) ، وابتهج الجزائريـون لهذا ، وزادهم ذلك نشاطاً للجهاد والحركة ، فحمل الفرنسيون في أنفسهم ما تمّ ، وأثناء احتفالات الحلفاء بانتصارهم في الحرب العالمية الثانية على دول المحور يوم ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٨ أيار ١٩٤٥م) أقدم الفرنسيون على مذبحةٍ رهيبةٍ للجزائريين ، وخاصةً في (صطيف) و (قالمة) ، واعتُقل فرحات عباس ، ومصالي الحاج ، وعدد كبير آخر من رجالات البلاد .

أسّس فرحات عباس بعد الحرب حزبه « الاتحاد الديمقراطي لأنصـار البيان الجزائري » في مدينة (صطيف) بعد إطلاق سراحه مباشرة ، وخاض معركة الانتخابات للجمعية التأسيسية الثانية ، وقد حصـل على أحـد عشر مقعداً من أصل ثلاثة عشر مقعداً ، وتدخّلت الإدارة الفرنسية في انتخابات البلدية ، وعملت على التزوير بشكل صارخ ، فـاحتجّ فـرحات عبـاس في الجمعية التأسيسية على هذا التزوير ، ولم يسمح له المتسوطنون الفرنسيون من متابعة الكلام ؛ إذ وقفوا في وجهه ، فما كان منه ومن أنصاره إلّا أن انسحبوا من الجمعية ، وأخيراً كانت النتيجة طردهم منها ، وكان « أحمد بـومنجـل » يومئذٍ من أنصاره ومن أعضاء حزبه .

ز ـ الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريـة واحترامهـا : وتشكّلت عام ١٣٧١ هـ من أحزاب المعارضة كلها لكي يقوى موقفهـا باتحـادها ، وهـذه الأحزاب هي :

١ ـ جمعية العلماء .
٢ ـ الاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان .
٣ ـ حركة انتصار الحريات الديمقراطية .
٤ ـ الحزب الشيوعي .

وقد حدّدت هذه الجبهة أهدافها بما يأتي :

١ ـ إلغاء انتخابات الجمعية التشريعية التي جرت في رمضان عام ١٣٧٠هـ (حزيران ١٩٥١م) .
٢ ـ احترام حرية الاقتراع في انتخابات الدرجتين .
٣ ـ احترام الحريات الأساسية للعقيدة ، والفكر ، والصحافة ، والاجتماع
٤ ـ مقاومة الاضطهاد بأشكاله وصوره كلها .
٥ ـ إطلاق سراح المعتقلين والسجناء السياسيين جميعهم .
٦ ـ الفصل بين العقيدة الإسلامية والدولة .

غير أن هذه الجبهة لم تلبث أن تفكّكت .

ح ـ الحزب الشيوعي : نشأ عام ١٣٤٢هـ ، فهو أقدم الأحزاب الجزائرية لما سبق أن ذكرنا ، ونضيف هنا أنه كان جزءاً من الحزب الشيوعي الفرنسي ، واستمرّ على ذلك مدّة خمسة عشر عاماً ثم أصبح مستقلاً ، أي خاصّاً بالجزائر ، على أن يتلقّى تعليمات موسكو عبر قناة باريس . لذا كان يتبع بسياسته باريس أو موسكو ، فعندما استلمت الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا أصبح موقفه دعماً للاستعمار ، وعندما اتفق الروس مع الألمان أصبح عدوّاً للاستعمار ومؤيّداً للاستبداد والفردية ، وعندما يلتقي مع أحزاب الجزائر ؛ يتحدّث زعماؤه عن الوطنية ، والإسلام ، والعروبة حسب الموقف، ويستعملون الاصطلاحات الإسلامية : الجهاد، والاستشهاد و. . . ، وعندما أقدمت فرنسا على إقامة مذابح في الجزائر في احتفالات انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ٢٦ جمادى الأول ١٣٦٤هـ (٨ أيار ١٩٤٥م) أخذ شيوعيو الجزائر يوجدون المبرّرات للحكم الفرنسي ، ثم اتهموا زعماء الجزائر بأنهم كانوا السبب الرئيسي للمذابح و. . . ، وكان الشيوعيون يعارضون استقلال الجزائر عن فرنسا ، وأخيراً منعوا أتباعهم من الانضمام إلى الثورة الجزائرية .

الضغط يولد الانفجار

بعد مذابح جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٨ أيار ١٩٤٥م) ألغيت الحريات ، وتسلّمت القوات العسكرية أمر الشرطة ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وسُلّح الأوربيون النصارى ، ومُنع المسلمون الجزائريون من مغادرة دورهم إلّا بتصريحاتٍ رسميةٍ .

يوم ٢ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ أخرج ستون رجلاً من سجن (قالمة) ، وأعدموا دون مبرّر إلّا أن السلطات ادّعت أن محكمةً عسكريةً شُكّلت داخل السجن وحكمت عليهم . ودُمّرت إحدى وأربعون قريةً بالطائرات تدميراً كلياً .

وكان قد أعدم يوم ٢٧ جمادى الأولى ثمانمائة إنسان في مدينة الجزائر ، وبدأ تفتيش الدور والنهب يشتدّ يوماً بعد يوم ، وأصبح من حقّ أصغر مستوطن أوربي أن يُصدر حكم الإعدام بأي جزائري ، ويقوم بالتنفيذ بنفسه من غير محاسب ، لذا فإن كثيراً ممن كان يخشى على نفسه ، أو نجا من مجزرةٍ ، أو توقّع أذى ؛ قد غادر داره ، والتجأ إلى الجبال ، واعتصم فيها ، يكتفي بما يحصل عليه من الحقول المجاورة ليسدّ به رمقه خوفاً على نفسه وعلى أهله ، وتكرّرت المذابح ، وتعدّدت المجازر في ذلك العام والأعوام التي تلته حتى أصبحت النفوس تغلي ، وتنتظر شيئاً ليفجّرها ، وأصبح المستوطنون الأوربيون يخشون من كل مطالبةٍ بأي حقٍّ من الحقوق؛ فإن الحصول عليه سينقلب ناراً عليهم من الجزائريين لما فعلوه بهم ، لذا غدوا أكبر أعداءٍ للحرية ، ويخشون على أنفسهم من كل نسمةٍ فيها أثر من حرية أو من حقّ ، كما صاروا يتصوّرون الجزائريين أسوداً في أجمةٍ محصورين فيها ، وكل ما يخشونه تفلّتهم .

الثـــورة

لقد تمادت السلطات الفرنسية في جرائمها ، وزادات من طغيانها حتى فشل معها كل عمل سلميٍّ ، وخُذل السياسيون ، ولم تعد تجدِ تنازلاتهم ، وتمزّقت الأحزاب نتيجة الضغط ، وخاف الناس ، وفي مثل هذه الظروف لا يصلح إلاّ العمل السرّي، ولا بدّ من الحركة لاستنشاق قليل من الحرية، ثم التخلّص من الوضع القائم المليء بالرعب ، والمثقل بالحاجة والفقر .

وكانت الحركة الديمقراطية لأنصار الحرية قد انقسمت على نفسها ، ففريق منها لا يرى عملاً خارج دائرة شخصية مصالي الحاج ، وآخر يرى أن الرجل المنظور إليه لا ينسجم وجوده مع عمل تنظيمي سرّي ، وأن الفرد معرّض للخطأ ، وتعظيم الرجل ، وربط كل عمل فيه ؛ خطر وخطأ ، لذا لا بدّ من قيادةٍ جماعيةٍ تتمثّل في اللجنة المركزية ، وفريقٌ ثالثٌ حار في أمره لا يدري ما يفعل ، والعمل ضرورة وواجبٌ ، والقاعدة للعمل غدت مهيّأة بما بذلته جماعة العلماء من تربية ، وما نشرته من وعي ، والعمل السياسي أصبح مقبولاً لما قام به فرحات عباس ومصالي الحاج وغيرهما ، وإمكانية العمل العسكري متوفّر ، فكثير من الذين نشأوا بين الحربين قد خدموا في الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية ، وتمرّنوا على السلاح ، وتمرّسوا على القتال .

تشكّلت لجنةٌ مؤلّفةٌ من اثنين وعشرين عضواً ، وفوضّت محمد بوضياف لاختيار قيادةٍ لعملٍ منظّمٍ سرّيٍّ . شكّل محمد بوضياف لجنةً من تسعة أعضاء أوكل إليهم مهمة العمل لإشعال الثورة ، وقد عُرفت هذه اللجنة باسم « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » ، وقد ارتحل ثلاثة منهم إلى خارج حدود الجزائر للتنسيق مع أحزاب المغرب وتونس من أجل الثورة في بلاد المغرب العربي كلها، ومن أجل تلقّي الدعم، وإعداد الرجال والمؤتمرات، وهؤلاء هم : محمد خيضر من مدينة الجزائر ، وحسين آيت أحمد من جبال القبائل ،

وأحمد بن بللا من منطقة الحدود مع المغرب ، أما الستة الباقون فقد انتقلوا إلى مناطقهم للإعداد ، وهم :

١ ـ مصطفى بن بولعيد : من جبال أوراس .
٢ ـ محمد العربي بن مهيدي : من منطقة وهران .
٣ ـ رابح بيطاط : من منطقة قسنطينة .
٤ ـ محمد بوضياف : من مسيلا .
٥ ـ مراد ديدوش : من منطقة الجزائر .
٦ ـ كريم بلقاسم : من منطقة القبائل .

لقد قام هؤلاء بتشكيل « جبهة التحرير الوطني الجزائـرية » ، وكُلّف محمد بوضياف بمهمة القيام بالتنظيم ، وكانت تُوجّه الأسئلة التالية إلى من يقع عليهم الاختيار للانضمام إلى الجبهة :

١ ـ هل تؤيّدون العمل المباشر ؟
٢ ـ في حالة الإيجاب ـ ماذا تضعون تحت تصرّفه ؟ .
٣ ـ إذا بدأ العمل دون مشاركتكم ، فما هو موقفكم ؟ .

أما جماعة مصالي الحاج فقد رفضوا التأييد ، إذ لا يقبلون أي عملٍ لا يكون على رأسه مصالي الحاج ، ولا يتلقون أمراً إلاّ منه . أما جماعة اللجنة المركزية فقد تحفّظوا من غير معارضة .

أما جماعة الاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان ـ جماعة فرحات عباس ـ فقد وافقوا على الانضمام إلى العمل الجديد مع الجبهة .

اجتمع أعضاء الجبهـة يوم ١٣ صفـر ١٣٧٤هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٥٤م) لتحديد موعد انطلاقة الثورة ، وأبدى الحـركيون استعـدادهم ، وأدّى كلٌ دوره ، وقد حدّدت الجبهة ٦ ربيـع الأول ١٣٧٤ هـ موعـداً لبدء الثورة ، ويصادف الأول من تشرين الثاني ١٩٥٤م ، وهو عيد القديسين عند الفرنسيين . ثم جرى اجتماع آخر في مدينة الجزائر يوم ٢٦ صفر لتحديد يوم

الانطلاقة بشكل نهائي .

وفي ٦ ربيع الأول ١٣٧٤هـ أعلنت جبهة التحرير الوطني الجزائرية بيانها الأول ، وحدّدت فيه أهدافها ووسائلها ، ومما جاء فيه :

الهدف : الاستقلال الوطني عن طريق :

١ ـ إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ، ضمن إطار المبادىء الإسلامية .

٢ ـ احترام الحريات جميعها دون تمييز عرقي أو ديني .

أ ـ الأهداف الداخلية :

١ ـ التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي ، والقضاء على مخلّفات الفساد كلها التي كانت عاملاً مهماً في تخلّفنا الحالي .

٢ ـ تنظيم ولمّ شمل الطبقات السليمة كلها لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري .

ب ـ الأهداف الخارجية :

١ ـ تدويل القضية الجزائرية .

٢ ـ تحقيق وحدة شمالي إفريقية داخل إطارها العربي والإسلامي .

٣ ـ وفي إطار ميثاق الأمم المتحدة نؤكّد عطفنا الفعّال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية .

وسائل الكفاح : انسجاماً مع المبادىء الثورية ، ومراعاةً للأوضاع الداخلية والخارجية فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل التي تحقّق هدفنا .

وحتى تحقّق جبهة التحرير هدفها فإنه يجب عليها إنجاز مهمتين

أساسيتين في وقتٍ واحدٍ ، وهما :

العمل الداخلي : سواء أكان في الميدان السياسي ، أم في ميدان العمل المحض .

العمل الخارجي: جعل القضية الجزائرية حقيقةً واقعةً في العالم كله ، وذلك بمساندة حلفائنا الطبيعيين كلهم ، وهذه مهمةٌ شاقةٌ ، وثقيلة العبء ، وتتطلب كل القوى، وتعبئة الموارد الوطنية كلها . وحقيقةً فإن الكفاح سيكون طويلاً ، ولكن النصر سيكون محقّقاً .

وأخيراً ؛ وتحاشياً للتأويلات الخاطئة ، ودلالةً على رغبتنا الحقيقية في السلم ، وتحديداً للخسائر البشرية وإراقة الدماء ؛ فقد قدّمنا للسلطات الفرنسية وثيقةً مشرِّفةً للمناقشة ؛ إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة لتعترف نهائياً للشعوب التي تستعمرها بحقّها في تقرير مصيرها بنفسها ، وعليها :

الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقةٍ علنيةٍ ورسميةٍ ، ملغيةٍ بذلك لكل التصريحات والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسيةً ، التاريخ ، الجغرافيا ، واللغة ، والدين ، والعادات للشعب الجزائري .

٢ ـ فتح باب المفاوضات مع ممثلي شعب الجزائر على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية على أنها وحدة لا تتجزّأ .

٣ ـ **إيجاد جوٍّ من الثقة بإطلاق جميع المعتقلين السياسيين ، ورفع كل الإجراءات الخاصة ، وإيقاف كل مطاردةٍ ضدّ القوات المجاهدة .**

وفي المقابل :

١ ـ **فإن المصالح الفرنسية سواء أكانت ثقافية أم اقتصادية والتي تمّ الحصول عليها بحقٍّ ونزاهة ستحترم ، وكذلك بالنسبة للأفراد والعائلات .**

٢ ـ **يكون لجميع الفرنسيين الذين يرغبون بالبقاء في الجزائر حقّ الاختيار بين**

جنسيتهم الأصلية ؛ ويعدّون بذلك أجانب أمام القوانين المعمول بها ، وبين الجنسية الجزائرية ؛ ويعدّون في هذه الحالة جزائريين بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

٣ ـ تحدّد الروابط بين فرنسا والجزائر ، وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل .

أيها الجزائري : إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة ، ومن واجبك أن تنضمّ إلينا لإنقاذ بلادنا ، والعمل على أن نسترجع لها حريتها . إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك ، وإن انتصارها هو انتصارك ، أما نحن ؛ العازمين على مواصلة الجهاد ، الواثقين من مشاعرك المناهشة للاستعمار ؛ فإننا نقدّم للوطن أغلى وأنفس ما نملك .

وتأسّس في ذلك اليوم جيش التحرير الوطني الجزائري ، وأصدر بياناً كذلك .

وفُتحت مكاتب لجبهة التحرير الوطني الجزائري في عددٍ من المناطق ، وأهمّ هذه المكاتب : مكتب القاهرة ، وكان برئاسة أحمد بن بلّه ، ومكتب دمشق برئاسة محمد الغسيري .

لقد ذُعرت فرنسا لهذه الأنباء ، وأحسّت بالخطر ، فأرسلت نجداتٍ سريعةٍ ، كما سحبت فرقتين كاملتين مجهّزتين بمعدات حلف شمالي الأطلسي ، وقد تمّ هذا السحب بعد مباحثاتٍ سرّيةٍ جرت بين الجنرال الفرنسي « غليوم » والجنرال « غرونتر » قائد قوات حلف شمالي الأطلسي ، وكانت الطائرات والمدرّعات تدعم القوات الفرنسية التي حُشدت في جبال أوراس حيث ترابط أقوى فرق المجاهدين الجزائريين .

الانطلاقة : قُسّمت بلاد الجزائر إلى خمس مناطق للعمل العسكري حسب المقاطعات الإدارية ، فكانت : ١ ـ أوراس . ٢ ـ وهران . ٣ ـ الجزائر . ٤ ـ القَبائل . ٥ ـ شمالي قسنطينة . وبقي أمر تنظيم المنطقة السادسة

إلى ما بعد انطلاق الثورة .

وكان عدد القوات الفرنسية في الجزائر يوم بدء الثورة ما يقرب من خمسين ألف جندي ـ ٤٩,٧٧٠) جندي ، ولم تستطع حماية نفسها ؛ فطلبت التعزيزات .

تولّى مصطفى بن بولعيد أمر أوراس ، ويساعده بشير شيحاني ، وتولّى كريم بلقاسم أمر القبائل ، ويعاونه رمضان عبانة ، وتولّى محمد العربي بن مهيدي منطقة وهران ، وتولّى مراد ديدوش شمالي قسنطينة ، وتولّى أمر مدينة الجزائر رابح بيطاط ، بينما كان محمد بومضياف يتولّى أمر الارتباط بالنسبة إلى خارج الجزائر .

قام المجاهدون بأكثر من خمسين هجوماً يوم بدء الثورة ، وخاصة في منطقة أوراس والقبائل، وبعد العمليات عادوا فاعتصموا في الجبال .

كانت شؤون الجزائر مرتبطةً بوزير الداخلية الفرنسي ، وكان يومذاك « فرانسوا ميتران » ، فصرّح يومها بأن الجزائر هي فرنسا ، وألقت السلطات الفرنسية القبض على الزعماء الجزائريين المعروفين ، وحلّت حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، ومنعت صحفها من الصدور .

واستطاع المجاهدون السيطرةعلى منطقة الأوراس ، وتبلغ مساحتها ما يزيد على اثني عشر ألف كيلومتر مربع ، أي ما يقرب من مرةٍ وربع من مساحة لبنان ، ولم تعد القوات الفرنسية تدخل إلى المنطقة إلاّ ضمن المصفّحات ، ومحميّةً بالمدرّعات والطائرات ، كما سيطر المجاهدون على أكثر منطقة القبائل .

وفي يوم ١٧ ربيع الثاني ١٣٧٤هـ (١٢ كانون الأول ١٩٥٤م) قامت القوات الفرنسية بعمليات قمع في الأوراس والقبائل ، وأعلن المستوطنون الأوربيون معارضتهم للحكومة ، إذ اتهموها بالتهاون مع الثائرين المسلمين ، واحتجّ النواب المسلمون على عملية القمع التي تتخذها الحكومة في عملية ملاحقة الثوار ، لكن احتجاجهم لم يؤبه له . وفي المجلس الجزائري جرت

مناقشة الوضع ، فرفض ابن جلول نائب قسنطينة فكرة استقلال الجزائر .

وصل عدد القوات الفرنسية العاملة في الجزائر إلى ثمانين ألفاً في منتصف عام ١٣٧٤هـ أي بزيادة ثلاثين ألفاً عمّا كانت عليه في بداية الثورة ، ومعنى هذا أنه قد دخل هذا الرقم خلال ثلاثة أشهر فقط .

استطاعت القوات الفرنسية من إلقاء القبض على مصطفى بن بولعيد القائد الأول لمنطقة أوراس على الحدود التونسية ـ الليبية ـ الجزائرية ، وأودعته سجن قسنطينة ، غير أنه استطاع أن يفرّ بعد مدةٍ من السجن ، ومع تسعة عشر سجيناً كان قد حُكم عليهم بالإعدام .

أعلنت جبهة التحرير في ٢١ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ (٣ شباط ١٩٥٦م) استعدادها للمفاوضة من أجل وقف القتال وحلّ المشكلة الجزائرية .

مؤتمر الصومام : وفي ١٤ محرم ١٣٧٦هـ (٢٠ آب ١٩٥٦م) عُقد مؤتمر وادي (الصومام) في منطقة القبائل ، وحضره كبار القادة ؛ ليبرهنوا على أنهم سادة الموقف على حين تدّعي فرنسا أنها تسيطر على المنطقة ، وربما كان قادة القبائل هم الذين أصرّوا على مكان المؤتمر ، ومنهم رمضان عبانة ، وكريم بلقاسم ، ويوسف زيروت الذي يسيطر على قسنطينة . والواقع أن الوصول إلى مكان المؤتمر لم يكن بالأمر السهل ، إذ لم يستطع حضوره أعضاء البعثة الخارجية الذين كانوا ينتظرون في ليبيا وفي إيطاليا ، ولقد تأخر موعد المؤتمر قليلا ، ثم تمّ في ١٤ محرم ، ولذا فقد حضره عدد من كبار القادة فقط[١] ، وتمثّلت فيه جميع الولايات، حتى ولاية الصحراء التي أصبح مسؤولاً عنها علي الملاح . وقد اتخذ المؤتمر عدة قرارات :

---

(١) حضر المؤتمر من القادة الكبار : كريم بلقاسم ، رمضان عبانة ، يوسف زيروت ، محمد العربي بن مهيدي ، الأخضر بن طوبال ، عمر بن بولعيد .

١ ـ يكون كريم بلقاسم قائداً عاماً للجيش ، وقد تبنّى المؤتمر تنظيم الجيش على الأسلوب المتبع في جيش منطقة القبائل .

٢ ـ إقامة المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، ويتألّف من سبعة عشر عضواً[1] ، وسبعة عشر مساعداً[2]، وبذا يكون مجموع أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية أربعة وثلاثين عضواً ، وكان لهذا المجلس مهمة التوجيه العام للثورة .

٣ ـ انتخاب لجنة التنسيق والتنفيذ للإشراف على الثورة وقيادتها ، وضمّت خمسة أعضاء[3] ، ولم تذكر أسماؤهم ؛ إذ بقيت من الأسرار .

اختطاف الطائرة : وفي يوم ١٨ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٥٦م) اختطفت طائرة مغربية كانت في طريقها إلى تونس ، وعلى

---

(١) الأعضاء :

١ ـ حسين آيت أحمد .
٢ ـ فرحات عباس .
٣ ـ رمضان عبانة .
٤ ـ أحمد بن بلّة .
٥ ـ مصطفى بن بولعيد .
٦ ـ يوسف بن خده .
٧ ـ محمد العربي بن مهيدي .
٨ ـ رابح بيطاط .
٩ ـ محمد بومضياف .
١٠ ـ محمد خيضر .
١١ ـ سعد دحلب .
١٢ ـ كريم بلقاسم .
١٣ ـ محمد الأمين بن دباغين .
١٤ ـ أحمد توفيق المدني .
١٥ ـ محمد يزيد .
١٦ ـ يوسف زيروت .
١٧ ـ عبد الحميد العمراني

(٢) المساعدون :

١ ـ عمارة العسكري .
٢ ـ الأخضر بن طوبال .
٣ ـ محمد بن يحي .
٤ ـ هواري بومدين .
٥ ـ محمود شريف .
٦ ـ عبد الحفيظ بوصوف .
٧ ـ سليمان دهيليس .
٨ ـ أحمد فرنسيس .
٩ ـ أحمد محساس .
١٠ ـ عبد الحميد المهري .
١١ ـ علي الملاح .
١٢ ـ الطيب الثعالبي .
١٣ ـ إبراهيم مزهودي .
١٤ ـ العموري .
١٥ ـ ابن عورة .
١٦ ـ عمر بلعيد .
١٧ ـ يوسف زيغوت .

(٣) ١ ـ كريم بلقاسم .
٢ ـ رمضان عبانة .
٣ ـ سعد دحلب .
٤ ـ محمد العربي بن مهيدي .
٥ ـ يوسف بن خده .

متنها أربعة من قادة الثورة ، وهم حسين آيت أحمد ، وأحمد بن بلة ، ومحمد خيضر ، ومحمد بومضياف .

المؤتمر الثاني : عُقد المؤتمر الثاني للمجلس الوطني الجزائري في القاهرة في مطلع عام ١٣٧٧هـ (شهر آب ١٩٥٧م) ، وتقرّر فيه :

١ ـ زيادة عدد أعضاء المجلس إلى أربعة وخمسين عضواً بعد أن كان أربعة وثلاثين ، بحيث يشمل أعضاء المجلس الأول والذين قاموا بدور فعّال في الثورة ، وقد عُهد إلى لجنة التنسيق والتنفيذ اختيار الأعضاء العشرين الذين سيضافون .

٢ ـ زيادة أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ من خمسة إلى أربعة عشر ، على أن تشمل القادة الذين هم في سجن العدو ، سواء أكانوا في باريس ، وهم الخمسة الذين اختطفوا في الطائرة [حسين آيت أحمد ـ أحمد بن بلّة ـ محمد خيضر ـ محمد بومضياف ـ مصطفى الأشرف] ، أم كانوا في الجزائر ، وهو رابح بيطاط الذي وقع في الأسر منذ عام ١٣٧٥هـ[١] .

وقد وزّعت اللجنة المهمات الحكومية على أعضائها على الشكل الآتي :

١ ـ فرحات عباس	:	للشؤون الإعلامية .
٢ ـ كريم بلقاسم ٣ ـ عمار عمارنة ٤ ـ عبد الحفيظ بوصوف	:	للشؤون العسكرية .
٥ ـ محمد الأمين دباغين	:	للشؤون السياسية .
٦ ـ الأخضر بن طوبال	:	للشؤون الداخلية .

---

(١) أصبحت لجنة التنسيق والتنفيذ تضمّ إلى جانب السجناء : فرحات عباس ، رمضان عبانة ، كريم بلقاسم ، محمود شريف ، محمد الأمين دباغين ، الأخضر بن طوبال ، عبد الحفيظ بوصوف ، عمار عمارنة ، عبد الحميد المهري . وكان قد استشهد أو اعتُقل من اللجنة السابقة : محمد العربي بن مهيدي ، سعد دحلب .

٧ ـ محمود شريف : للشؤون المالية .
٨ ـ عبد الحميد المهري : للشؤون الاجتماعية .

أخذت اللجنة تنسّق أعمالها مع حكومتي تونس والمغرب .

ومن الناحية الصحفية فقد تولّى أمرها أحمد بومنجل ، وقد توحّدت صحيفتا « المجاهد الحرّ » و « المقاومة الجزائرية » ، وأصبحت تصدر باسم « المجاهد » ، فهي الصوت الناطق باسم المجلس الوطني للثورة الجزائرية .

وقد دعت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى إضرابٍ عام في بلاد الجزائر كلها لتبرهن للأمم المتحدة وللعالم أجمع تأييدها المطلق من الشعب الجزائري كله ، وفعلاً ؛ قد تجاوب الشعب ، وتمّ الإضراب على الصورة التي طلبتها اللجنة .

الأخوة : لقي الجزائريون دعماً قوياً من إخوانهم الذين يجاورونهم ، سواء من ناحية الغرب [المغرب] ، أم من ناحية الشرق [تونس] ، وكانت لهم قواعد ، وقد حرصت السلطات الفرنسية الحرص كله على الفصل بين الجزائريين وإخوانهم ، وعملت على إقامة أسلاك شائكة، وأسلاك مكهربة ، وحقول ألغام ، ولكن من غير جدوى ، فقامت بالاعتداء على « ساقية سيدي يوسف » بالإغارة عليها يوم ١٩ رجب عام ١٣٧٧هـ (٨ شباط ١٩٥٨م) ، فذهب ضحيتها سبعون إنساناً ، وادّعت أنها كانت تستهدف جماعة المجاهدين الجزائريين الذين اتخذوا من هذا الموقع قاعدةً لهم ، غير أنه لم يكن بين الضحايا جزائريٌّ واحدٌ ، ووقعت أزمة بين تونس وفرنسا ، وتوسّطت الولايات المتحدة وإنكلترا في المشكلة ، وأدّى إلى انسحابٍ جزئيٍّ للقوات الفرنسية في تونس على أن تتجمّع في ميناء (بنزرت) ، ولكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت هذا الاتفاق مما جعل حكومة « غايار » تسقط ، وتنشأ أزمةٌ وزاريةٌ في فرنسا ، وامتدّت طويلاً .

وأخذ التقارب يظهر بين أمصار بلاد المغرب الثلاثة ، فقد عُقد مؤتمرٌ في مدينة طنجة في ٨ شوال ١٣٧٧هـ (٢٧ نيسان ١٩٥٨م) ، واستمرّ أربعة

أيام ، وضمّ : حزب الاستقلال المغربي ، وحزب جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ، وحزب الدستور الجديد التونسي ، وبحث المؤتمر مشكلة الجزائر ، وأيّد استقلال الجزائر ومما صدر عنه :

١ - أن تعمل الأحزاب الثلاثة على حشد كل ما لدى شعوبها وحكوماتها من قوى لدعم الشعب الجزائري المجاهد في سبيل استقلاله .
٢ - يوصي الحضور بتشكيل حكومةٍ جزائريةٍ بعد التشاور مع الحكومتين التونسية والمراكشية .
٣ - يقترح المؤتمر تشكيل مجلسٍ استشاريٍّ مغربيٍّ ، يعقد جلساتٍ منتظمةً ، ويدرس القضايا المتعلّقة بالمصلحة المشتركة ، ويتخذ التوصيات الضرورية بشأنها .
٤ - يوصي المؤتمر بعقد اجتماعاتٍ لزعماء الأمصار الثلاثة لدراسة تنفيذ التوصيات التي يتخذها المجلس الاستشاري .
٥ - توصي الأحزاب حكوماتها أن لا تعالج القضايا المتعلّقة بمصير الشمال الإفريقي في ميدان العلاقات الخارجية بصورةٍ فرديةٍ ، وقبل أن يتمّ وضع الدساتير الاتحادية .
٦ - يقرّر المؤتمر إقامة أمانةٍ عامةٍ دائمةٍ تضمّ ستة أعضاء ، يمثّل كل مصر من الأمصار المشتركة اثنان[1] ، على أن يكون لها مكتبان أحدهما في الرباط ، والآخر في تونس .
٧ - يستنكر المؤتمر وجود القوات الأجنبية في شمال إفريقية ، كما يطالب المؤتمر بأن تتوقّف القوات الفرنسية فوراً عن استخدام الأرض المغربية والتونسية كقواعد للعدوان على الشعب الجزائري .

(١) اختارت جبهة التحرير الوطني الجزائرية أحمد أبو منجل وأحمد فرنسيس ممثّلين لها في الأمانة العامة .

٨ ـ يستنكر المؤتمر بلسان الشعب الذي يمثّله موقف الدول التي تدعم فرنسا ، وإن هذه الدول ستخسر صداقة الشعب العربي في شمالي إفريقية ، بل الشعب العربي كله ، ومن ثم الأمة الإسلامية ، ويأمل المؤتمر أن تتخلّى هذه الدول عن دعمها للقوات التي تُنزل الكوارث بالشعوب والأمم . ثم وجّه نداءً سريعاً للدول الاستعمارية بأن توقف كل دعم يؤدّي إلى استمرار الحرب .

اجتمع ممثلو الحكومتين التونسية والمراكشية مع لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية في مدينة المهدية بتونس في تاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (١٥ حزيران ١٩٥٨م) لتنفيذ مقرّرات مؤتمر طنجة ، غير أن تأخير تشكيل الحكومة الجزائرية قد أخّر الموضوع .

وتجاه هذه الأحداث فإن الجيش الفرنسي في الجزائر والمستوطنين الأوربيين فيها قد تحدّوا سلطات باريس ، وألّفوا لجنةً للأمن العام في ٢٤ شوّال ١٣٧٧هـ (١٣ أيار ١٩٥٨م) ، وقد طالبت هذه اللجنة ومؤيّدوها الحكومة الفرنسية بالدمج التام بين الجزائر وفرنسا ، وهذا ما هزّ الحكومة الفرنسية ، وجاء الجنرال ديغول إلى رئاسة الوزراء في ١٤ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (١ حزيران ١٩٥٨م) .

وتعلّق الجيش الفرنسي بسياسة الدمج ، وأراد نيل شيء من النصر ليخفف من عار الهزائم التي مُني بها في الحرب العالمية الثانية أمام الألمان ، وفي الهند الصينية أمام سكانها ، وفي الاشتراك في العدوان على مصر ، لذا بذل كل جهوده لإحراز نصرٍ في الجزائر ، لكن خاب أمله ، إذ أنهكته حرب العصابات والالتجاء إلى المناطق الوعرة في الجبال ، واتخذ كافة الوسائل من إبادةٍ ، وحرقٍ ، وانتهاك حرمات ، و . . . ، غير أنه فشل .

ونقل الجزائريون الحرب إلى فرنسا نفسها في مطلع عام ١٣٧٨هـ (شهر آب ١٩٥٨م) ، فقاموا بعددٍ من الغارات والهجمات على المؤسّسات

العسكرية ، ومراكز الشرطة ، ومستودعات النفط ، فذُعرت الحكومة ، وأقدمت على اعتقال أعدادٍ من العمّال الجزائريين وتعذيبهم .

وفي ٦ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (١٩ أيلول ١٩٥٨م) تشكّلت الحكومة الجزائرية المؤقّتة برئاسة فرحات عباس[1] ، ولم ينقضِ شهر ربيع الأول حتى اعترفت بالحكومة المؤقّتة إحدى عشرة دولةً إسلاميةً ، وثلاث دولٍ شيوعيةٍ آسيويةٍ هي الصين الشعبية ، وفيتنام الديمقراطية ، وكوريا الشمالية ، والاعتراف الشيوعي ضدّاً بالغرب لا تأييداً للحقّ ، أما بقية الدول الشيوعية

---

(١) تشكّلت الوزارة المؤقتة على النحو الآتي :

١ ـ فرحات عباس : رئيس الوزراء .
٢ ـ أحمد بن بلة : النائب الأول لرئيس الوزراء (معتقل) .
٣ ـ كريم بلقاسم : نائب رئيس الوزراء ، وزير الدفاع .
٤ ـ محمد الأمين دباغين : وزير الشؤون الخارجية .
٥ ـ الأخضر بن طوبال : وزير الشؤون الداخلية .
٦ ـ محمود شريف : وزير التسلح والتموين .
٧ ـ عبد الحفيظ بوصوف : وزير المواصلات .
٨ ـ عبد الحميد المهري : وزير شؤون شمالي إفريقية .
٩ ـ أحمد فرنسيس : وزير الاقتصاد والمالية .
١٠ ـ محمد يزيد : وزير الاستعلامات .
١١ ـ يوسف بن خدة : وزير الشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ أحمد توفيق المدني : وزير الشؤون الثقافية .
١٣ ـ حسين آيت أحمد : وزير دولة (معتقل) .
١٤ ـ رابح بيطاط : وزير دولة (معتقل) .
١٥ ـ محمد بومضياف : وزير دولة (معتقل) .
١٦ ـ محمد خيضر : وزير دولة (معتقل) .
١٧ ـ الأمين خان : وزير دولة (معتقل) .
١٨ ـ عمر صديق : وزير دولة (معتقل) .
١٩ ـ مصطفى استانبولي : وزير دولة (معتقل) .

فلم تعترف بالجزائر إلّا بعد الاستقلال التام كبقية الدول الاستعمارية الأوربية .

وكان للحكومة الجزائرية ثلاثة مكاتب : في القاهرة ، وتونس ، والرباط . وتحوّلت الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر إلى حزبٍ سياسيٍّ ، وصدر له نظامٌ بيّن علاقة الحزب بالدولة .

أعلنت الحكومة الجزائرية العفو عن أسرى الحرب الفرنسيين ، والمسجونين ، وأطلقت سراحهم .

وفي ١٠ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ أعلن الجنرال ديغول عن قبول فرنسا للمفاوضات ، وإن كان بأسلوبٍ غير مقبول « ليأتي ممثّلو المنظمة الخارجة على القانون والمتمردون إلى فرنسا » ، فما كان من الحكومة الجزائرية أن ردّت على ذلك في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٩م) أنها كلّفت الزعماء الجزائريين الخمسة [أحمد بن بلّة ورفاقه] والمعتقلين في سجون فرنسا، بإجراء المفاوضات حول تقرير المصير ، غير أن الجنرال ديغول قد رفض ذلك ، وقال : إنه يتوجّه من جديد إلى المقاتلين .

وفي ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٩هـ (١٦ كانون الأول ١٩٥٩م) اجتمع المجلس الوطني الجزائري في طرابلس بليبيا ، واستمرّ في جلساته أكثر من شهر ، واختتم بتعيين العقيد هواري بومدين قائداً عاماً لجيش التحرير ، ويساعده المقدّم سليمان ، والمقدّم عز الدين ، والمقدّم منجلي .

اعتقلت فرنسا عدداً من أعضاء جبهة التحرير الجزائرية في فرنسا ، وأخذت تفجّر القنابل الذرية في الصحراء ، مما زاد من نقمة الشعوب الإفريقية عليها . وزادت من جرائمها في الإبادة ، واستعمال قنابل النابالم ، وانتهاك الحرمات ، وزادت كذلك العمليات العسكرية بين المجاهدين والقوات الفرنسية ، وخاصةً على الحدود التونسية ، واستطاع المجاهدون قطع الخط المكهرب ، واستشهد السيد الزبير قائد مجاهدي منطقة الجزائر .

جرى تمرّدٌ عسكريٌّ في القوات الفرنسية في الجزائر بقيادة بعض الجنرالات ، وقد أعلنوا ذلك عبر إذاعة الجزائر ، وذلك في تاريخ ٧ ذي القعدة ١٣٨٠هـ(٢٢ نيسان ١٩٦١م) ، وفي اليوم التالي مباشرةً انضمّ جنرالان آخران للتمرّد . وفي الحادي عشر من شهر ذي القعدة (٢٦ نيسان) قامت مظاهراتٌ عنيفةٌ في الجزائر ضدّ الاحتلال الفرنسي .

أعلنت الحكومة الجزائرية المؤقّتة والفرنسية في وقتٍ واحدٍ في تاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٨٠هـ (١٠ أيار ١٩٦١م) في الشروع في محادثات (إيفيان) ، وقد بدأت المحادثات فعلاً في الخامس من شهر ذي الحجة ، ولكن لم تلبث أن توقّفت بسبب الخلاف في موضوع الصحراء ، وحاولت فرنسا خلال مدة هذا التوقّف الاتصال بالدول المجاورة وإثارتهم للمطالبة ، وعندما يقع الخلاف بين هذه الدول تكون فرنسا هي المستفيد الأول ، فتعالج الموضوع بالشكل الذي تراه ، غير أن حكومة الجزائر قد اتصلت من جانبها أيضاً بوزارات الخارجية للدول المجاورة ، وأوضحت لها وجهة نظرها ، فتمّ الاتفاق ، وخسرت فرنسا الجولة .

استؤنفت المفاوضات بين فرنسا وجبهة التحرير الوطنية الجزائرية في ٧ صفر ١٣٨١هـ (٢٠ تموز ١٩٦١م) في (لوغران) ، وحاولت فرنسا تأجيل موضوع الصحراء إلى ما بعد انتهاء المفاوضات ، غير أن الجزائريين قد رفضوا ذلك ، وأصرّوا على بحثها ، وأخيراً اضطرّت فرنسا في ٢٦ صفر ١٣٨١هـ (٨ آب ١٩٦١م) إلى الاعتراف بحقّ الجزائر في الصحراء .

عادت المفاوضات إلى التوقّف من جديد في ٢٩ رجب ١٣٨١هـ (٥ كانون الثاني ١٩٦٢م) ، ولكنها عادت فاستؤنفت من جديد في (إيفيان) في ١ شوّال ١٣٨١هـ (٧ آذار ١٩٦٢م) ، وتمّ الاتفاق على وقف إطلاق النار في ١٢ شوال ، وبدأ تنفيذ وقف إطلاق النار في اليوم التالي ، وتمّ الاتفاق على أن تتولّى شؤون الجزائر هيئةٌ مؤقّتةٌ تتألّف من اثني عشر عضواً .

وفي ٢٩ محرم ١٣٨٢هـ (١ تموز ١٩٦٢م) جرى الاستفتاء على استقلال الجزائر ، فكانت النتيجة ٩٧,٣٠٪ لصالح الاستقلال .

وتشكّلت حكومةٌ انتقالية برئاسة يوسف بن خده . وعُقد مؤتمرٌ في طرابلس ، وجرى اختلاف في الآراء حيث وقف محمد خيضر ، وأحمد بن بلّة ، والقيادة العسكرية ؛ ضدّ الحكومة ، فما كان من الحكومة إلّا أن تركت طرابلس ، واتجهت إلى تونس قبل انتهاء المؤتمر .

شكّل مؤتمر طرابلس بعد رحيل الحكومة الانتقالية ما عُرف بالمكتب السياسي الذي أعلن أنه السلطة العليا باسم جيش التحرير ، وجبهة التحرير .

الفصل الثاني

الاستقلال

كان النص الكامل لاتفاقات إيفيان كما يلي :

« إن المحادثات التي جرت بإيفيان من ٧ إلى ١٨ آذار ١٩٦٢م بين حكومة الجمهورية الفرنسية والحكومة المؤقّتة للجمهورية الجزائرية انتهت إلى النتيجة التالية :

إبرام اتفاق لوقف القتال ، وسيوضع حدٌّ للعمليات العسكرية والكفاح المسلّح في مجموع التراب الجزائري يوم ١٩ آذار ١٩٦٢م في منتصف النهار .

إن الضمانات الخاصة بتطبيق تقرير المصير وتنظيم السلطات العمومية بالجزائر أثناء المرحلة الانتقالية قد حُدّدت باتفاقٍ مشتركٍ . ونظراً إلى أن تكوين دولةٍ مستقلّةٍ وذات سيادةٍ إثر تقرير المصير يتلائم مع الواقع الجزائري ، ونظراً إلى أن التعاون بين فرنسا والجزائر يتجاوب في هذه الحال مع مصالح القطرين فإن الحكومة الفرنسية تعتبر بالاشتراك مع الحكومة المؤقّتة للجمهورية الجزائرية أن حلّ استقلال الجزائر بالتعاون مع فرنسا هو الحلّ الذي ينسجم مع هذا الوضع .

إن الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقّتة للحكومة الجزائـرية اتفقتـا تبعاً لذلك على تحديد هذا الحلّ في التصريحات التي ستعرض على موافقة الناخبين أثناء اقتراع تقرير المصير .

تنظيم السلطات العمومية :

أثناء الفترة الانتقالية وضمانات تقرير المصير :

١ ـ ستسمح الاستشارة حول تقرير المصير للناخبين بأن يعلنوا هم أنهم يريدون الجزائر المستقلّة ، وفي هذا الحال ؛ هل يريدون أن تتعاون فرنسا والجزائر في ظروفٍ تضبطها التصريحات الحالية ؟ .

٢ ـ تجري هذه الاستشارة بعموم التراب الجزائري ، أي في المقاطعات الخمس عشرة الآتية: العاصمة الجزائرية باتنة ـ عنابة ـ قسنطينة ـ المدية ـ مستغانم ـ الواحات ـ وهران ـ الأصنام ـ سعيدة ـ سادرة ـ صطيف ـ تيارت ـ تيزو أوزو ـ تلمسان .

٣ ـ تكون حرية الاستشارة وصدقها مضمونين وفقاً للقانون الذي يضبط ظروف استشارة تقرير المصير .

٤ ـ يكون تنظيم السلطات العمومية حتى إنجاز تقرير المصير مقاماً وفقاً للقانون المرفق للتصريح الحالي تحدث سلطة تنفيذية مؤقّتة ، ومحكمة للنظام العمومي ، ويمثل الجمهورية الفرنسية في الجزائر مندوبٌ سامٍ وتقوم هذه المؤسّسات وخاصة السلطة التنفيذية المؤقّتة فور وقف إطلاق النار حيز التنفيذ .

٥ ـ يكون المندوب السامي الممثّل لسلطات الجمهورية الفرنسية لا سيما في ميدان الدفاع والأمن وحفظ النظام بوصفه صاحب الكلمة عند الضرورة القصوى ، أي عندما تطلب منه ذلك الهيئة التنفيذية .

٦ ـ تُكلّف السلطة التنفيذية المؤقتة خاصة :

ـ بالتصرّف في الشؤون العامة التي تهمّ الجزائر ، وتسهر على تسيير إدارة الجزائر ، وترجع لهم مهمة إدخال الجزائريين إلى مختلف هذه الإدارة .

ـ وبحفظ الأمن العام ، وتكون لهذه الغاية مصالح شرطة ، وقوة أمن توضع تحت نفوذها .

- وبإعداد تقرير المصير وتنفيذه .

٧ ـ تتألّف محكمة النظام العام من عددٍ متساوٍ من حكام أوربيين وحكام مسلمين .

٨ ـ تعاد في أقرب الآجال ممارسة الحريات الفردية ، والحريات العامة بصفةٍ مطلقةٍ .

٩ ـ تعدّ جبهة التحرير الوطني تشكيلة سياسية ذات طابعٍ شرعيٍّ (قانوني) .

١٠ ـ يُفرج عن المعتقلين سواء في فرنسا أم في الجزائر في أجل أقصاه عشرون يوماً ؛ ابتداءً من وقف إطلاق النار .

١١ ـ يعلن فوراً عن العفو ، ويُفرج عن الأشخاص المعتلقين .

١٢ ـ الأشخاص اللاجئون في الخارج يمكنهم أن يعودوا إلى الجزائر ، وستتولّى لجانٌ تقوم في المغرب وتونس تسهيل هذه العودة .

- الأشخاص الذين وقع جمعهم يمكنهم أن يعودوا إلى مكان سكناهم الاعتيادي .

- السلطة التنفيذية المؤقّتة تتخذ التدابير الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ؛ الرامية إلى ضمان عودة هؤلاء السكان إلى الحياة العادية .

١٣ ـ الاقتراع على تقرير المصير يجري في أجل ؛ أدناه ثلاثة أشهر ، وأقصاه ستة أشهرٍ، وسيضبط التاريخ باقتراحٍ من السلطة التنفيذية المؤقّتة في غضون الشهرين اللذين يليان قيامها .

الاستقلال والتعاون :

إذا وقع اختيار على الاستقلال والتعاون فإن فحوى التصريحات التالية يكون ملزماً للدولة الجزائرية .

استقلال الجزائر :

١ ـ الدولة الجزائرية تمارس سيادتها المطلقة والتامة في الداخل والخارج ،

وتمارس هذه السيادة في كل الميادين ، وخاصةً في الدفاع المدني والشؤون الخارجية .

تتخذ الدولة الجزائرية لنفسها مع كامل الحرية مؤسّساتها الخاصة بها ، وتختار النظام السياسي والاجتماعي الذي تراه أكثر ملاءمةً لمصالحها ، وفي الميدان الدولي تختار وتنفّذ مع كامل السيادة السياسية التي تختارها .

تصادق الدولة الجزائرية دون تحفّظٍ على التصريح العالمي لحقوق الإنسان ، وتقيم مؤسّساتها على مبادىء ديمقراطية ، وعلى التساوي في الحقوق السياسية بين كل المواطنين دون ميزة في الجنس أو الأصل أو الدين ، وتطبّق خاصةً الضمانات المعترف بها للمواطنين من ذوي الحالة المدنية الفرنسية .

٢ ـ حقوق الأشخاص وحرياتهم وضماناتها .

ترتيبات مشتركة : لا يمكن أن يستهدف أي شخصٍ لتدابير الشرطة أو العدالة أو عقوبات زجرية أو أي تمييزٍ مهما كان بسبب أفكارٍ عبّر عنها بمناسبة الحوادث التي جرت بالجزائر أو أعمال ارتكبها بمناسبة هذه الحوادث نفسها قبل الإعلان عن وقف القتال .

ولا يمكن لأي جزائريٍّ أن يجبر على مبارحة التراب الجزائري ، أو يمنع من الخروج منه .

أ ـ أحكام تخصّ المواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني من الحق العام :

١ ـ نظم الوضع القانوني للمواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني للحقّ العام في نطاق التشريع الجزائري الخاص بالنسبة للجنسية الجزائرية حسب :

ـ طوال مدة ثلاث سنوات ابتداءً من تاريخ تقرير المصير يستطيع المواطنون الفرنسيون ذوو النظام المدني للحق العام المبادىء التالية :

ـ إذا كانوا مولودين بالجزائر ومقيمين بها منذ عشر سنوات إقامةً عاديةً منتظمةً حتى يوم تقرير المصير . يستطيع هؤلاء التمتّع بالحقّ الكامل في حقوق المواطنة الجزائرية ، وأن التابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية لا يمكنهم في الوقت نفسه ممارسة حقوق المواطنة الفرنسية .

وبانتهاء أجل السنوات الثلاث المشار إليها يحصلون على الجنسية الجزائرية بواسطة مطلب تسجيل أو مطلب تأكيد لتسجيلهم في القوائم الانتخابية ، وفي حالة عدم تقديمهم هذا المطلب يقبل تمتعهم باتفاقية الاستيطان .

٢ ـ حفظاً وضماناً لحماية الأشخاص والأملاك والمشاركة النظامية في حياة الجزائر خلال السنوات الثلاث بالنسبة للتابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية وبالنسبة للجزائريين ذوي النظام المدني الفرنسي بعد انقضاء هذا الأجل تقرّرت التدابير التالية :

ـ تتاح لهم مساهمة عادلة وحقيقية في الشؤون العامة ، فيكون تمثيلهم في المجالس مناسباً لقيمتهم الفعلية ، وتضمن لهم مشاركةٌ عادلةٌ في مختلف فروع الوظيفة العمومية ، وتضبط مساهمتهم الحياة البلدية بمدينتي الجزائر ووهران في أحكام خاصة ، وتحترم حقوق ملكيتهم فلا تتخذ أي إجراءات انتزاع ملكية ضدّهم دون تقديم التعويض العادل الذي يتمّ تحديده مسبقاً .

ـ يتلقّون الضمانات الملائمة لميزانيتهم الثقافية واللغوية والدينية ، ويحافظون على نظام حالتهم الشخصية الذي يحترم وينفذ من قبل المجالس العدلية الجزائرية المشتملة على قضاة منتسبين للنظام نفسه . ويستعملون اللغة الفرنسية داخل المجالس وفي علاقتهم مع السلطات العمومية ، وستساهم جميعة صيانة حقوقهم في حماية هذه الحقوق

المضمونة لهم ، وستقوم محكمة الضمانات وهي مؤسّسة من مشمولات القانون الجزائري الداخلي بالسهر على احترام هذه الحقوق .

ب ـ العلاقات بين فرنسا والجزائر :

تقوم العلاقات بين البلدين على الاحترام المتبادل لاستقلالهما ، وعلى تبادل المصالح والمزايا بين الجانبين ، فالجزائر تضمن مصالح فرنسا ، والحقوق المكتسبة فيها يتعلّق بالشخصيات المادية والمعنوية حسب الشروط المحدّدة في هذه البيانات ، وفي مقابل هذا تمنح فرنسا للجزائر إعانتها الفنية والثقافية ، وتقدّم إعانةً ماليةً ممتازةً لفائدة تطوّرها الاقتصادي والاجتماعي .

١ ـ الإعانة الفرنسية محددة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وسيحدّد مبلغها حسب ظروف ، وحسب مستوى يماثل مستوى المشروعات الجارية ، وسيحدّد البلدان في نطاق احترام الاستقلال التجاري والجمركي للجزائر مختلف الميادين التي تتمتّع فيها المبادلات التجارية بنظامٍ امتيازي .

وستكون الجزائر داخلة في منطقة الفرنك ، وستكون لهم عملتها الخاصة ، وخزينة العملة الصعبة الخاصة بها ، وستكون بين الجزائر وفرنسا حرية تحويل الأموال حسب شروط تتلاءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي للجزائر .

٢ ـ في مقاطعتي الواحات والسادرة يتمّ استثمار ثروات ما تحت الأرض حسب المبادىء التالية :

أ ـ يتضمن التعاون الفرنسي الجزائري إنشاء جهازٍ فنيٍّ للتعاون الصحراوي يمثّل فيه الجانبان بنسبةٍ متساوية، ودور هذا الجهاز على الأخص هو تطوير الشبكات اللازمة لاستثمار ما تحت الأرض ، وإبداء رأيه في مشروعات القوانين والتنظيمات ذات الصبغة المنجمية ، ودراسة المطالب المتعلّقة بإعطاء رخصة تنقيب ، لكن

الدولة الجزائرية هي التي تمنح رخص التنقيب ، وهي التي تملي وتحدد التشريع المنجمي في نطاق السيادة الكاملة .

ب ـ المصالح الفرنسية تكون مضمونة على الأرض بواسطة :

١ ـ ممارسة الحقوق المتعلّقة بالرخص المنجمية التي منحتها فرنسا حسب قوانين التشريع النفطي الصحراوي كما يوجد حالياً .

٢ ـ في حالة ما إذا كانت العروض متساوية ستعطى الأولوية للشركات الفرنسية فيما يتعلّق بإعطاء الرخص الجديدة حسب الإجراءات التي ينصّ عليها التشريع المنجمي الجزائري .
الدفع يقع بالفرنك الفرنسي فيما يخصّ الوقود الصحراوي المعين لسدّ حاجات الاستهلاك الداخلي الفرنسي والبلدان الأخرى التي تنتمي لمنطقة الفرنك .

٣ ـ تطوّر فرنسا والجزائر علاقاتهما الثقافية: يستطيع كل بلدٍ أن ينشيء فوق تراب الآخر ديواناً جامعياً وثقافياً يكون مفتوحاً للجميع .
وستقدّم فرنسا إعانتها لتكوين الفنيين الجزائريين ، وسيوضع الفرنسيون وخصوصاً المعلّمون والفنيون تحت تصرّف الحكومة الجزائرية بواسطة اتفاق بين البلدين .

تسوية المسائل العسكرية : فيما إذا تمّت المصادقة على حل استقلال الجزائر والتعاون بين الجزائر وفرنسا ستسوّى المسائل العسكرية حسب المبادىء الآتية :

ـ القوات الفرنسية التي سيخفّض عددها تدريجياً ابتداءً من إيقاف القتال ستنسحب من الحدود الجزائرية في وقت ممارسة تقرير المصير ، وسينخفض عددها إلى ثمانين ألف جندي في ظرف اثني عشر شهراً ابتداءً من تقرير المصير ، وعودة هذه القوات إلى وطنها يجب أن يتمّ في ظرف أجل ثانٍ يمتد إلى أربعةٍ وعشرين شهراً ، وسيقع الجلاء عن المنشآت العسكرية بالتدرّج نفسه .

ـ تُسوِّغ الجزائر لفرنسا استعمال قاعدة المرسي الكبير لمدة خمسة عشر عاماً قابلة للتجديد باتفاق البلدين .

ـ كما تُسوِّغ الجزائر لفرنسا استعمال بعض المطارات والميادين والمنشآت العسكرية التي هي ضرورية لها .

تسوية الخلافات : تسوّي الجزائر وفرنسا مختلف الخلافات التي تنجم بينهما بوسائل التسوية السلمية ، وسيلجآن إلى وسائل التسوية السلمية سواء بواسطة التصالح أو التحكيم ، وفيما إذا لم يتمّ الاتفاق على هذه الإجراءات يستطيع كل من الطرفين أن يتوجّه مباشرةً إلى محكمة العدل الدولية .

نتائج تقرير المصير : مجرد الإعلان الرسمي المنصوص عليه في المادة ٢٧ من قانون تقرير المصير يبدأ تنفيذ الأعمال المنصوص عليها .

ـ وفيما إذا تمّت المصادقة على حل الاستقلال والتعاون .

ـ استقلال الجزائر يقع الاعتراف به حيناً من طرف فرنسا .

ـ تحويل الصلاحيات يتمّ في الحين .

ـ تصبح القوانين المنصوص عليها في التصريح العام والتصريحات التي ستلحق بها نافذة المفعول في الوقت نفسه .

ـ تُنظِّم الهيئة التنفيذية المؤقّتة في ظرف ثلاثة أسابيع بعد الاستفتاء انتخابات لتعيين المجلس الوطني الجزائري الذي ستحول له سلطاتها » .

تشكّلت الهيئة التنفيذية[1] التي تخصّ المسلمين في طرابلس ، ثم انتقلت إلى تونس برئاسة يوسف بن خده . ومنذ أيام المؤتمر في طرابلس ظهر الخلاف بين مجموعتين : مجموعة (تيزي أوزو) ويمثّلهم كريم بلقاسم ، وجماعة تلمسان ويمثّلهم محمد خيضر ، وأحمد بن بلّة ، وفرحات عباس ،

---

(١) كان الاتفاق يقضي أن تضمّ الهيئة التنفيذية اثني عشر عضواً : تسعة من المسلمين ، وثلاثة من النصارى الفرنسيين، وأن تدير البلاد إلى جانب المندوب السامي الفرنسي ، وأن تدخل البلاد غداة نتائج الاستفتاء وإعلان الاستقلال .

وهواري بومدين، وقد زاد هذا الخلاف عندما انتقلوا إلى الجزائر .

جرى الاستفتاء في ٢٩ محرم ١٣٨٢هـ (١ تموز ١٩٦٢م) على إعلان استقلال الجزائر ، فجاءت النتيجة ٩٧،٣٠٪ لمصلحة الاستقلال .

دخلت الحكومة إلى أرض الجزائر ، وأخذت تستعد لإجراء الانتخابات، غير أن الخلاف بين مجموعتي الصراع قد استعر أواره، إذ سارت كل مجموعة إلى مراكز نفوذها ، وتدّعي أنها الحكومة ، وتجهّز نفسها لسحق المجموعة الثانية ، غير أن الشعب الجزائري قد أخمد نار هذه الفتنة إذ وقف في الطرقات التي يجب أن تسلكها قوات المتقاتلين في طريق سير كل منهما نحو الطرف الآخر لقتاله .

أعلن استقلال الجزائر في ٣ صفر ١٣٨٢هـ (٥ تموز ١٩٦٢م)[١] ، وقامت الدولة الجزائرية ، ولكن المشكلات كانت تعرقل سيرها ، فالمستوطنون الفرنسيون لم يعترفوا باتفاقية الصلح ، وتشكّلت منظمات سرية فرنسية للإطاحة بما تمّ . وكان الخراب قد أصاب البلاد أثناء الثورة ، وبسبب سياسة التدمير التي سارت عليها القوات الاستعمارية ، وعودة المهاجرين من خارج البلاد بأعدادٍ كبيرة ، والأيتام ، والثكالى ، والأرامل ؛ بحاجةٍ إلى المساعدات الكثيرة ، إذ زاد عدد شهداء الثورة على المليون شهيد ، والإدارة تنوء بالأعباء ؛ إذ تخلّى الكثير عن وظائفهم ، والحاجة إلى التعريب ضرورة ماسة ، وليس هنالك إمكانات للتعريب بالشكل المطلوب من السرعة ، والمشكلات الاقتصادية عقيمة الحل ، ناهيك عن الخلافات على الحدود التي قامت مع الدول المجاورة .

بدأ الجزائريون يتجاوزون الصعاب ، ويتخطون عقبةً إثر عقبةٍ حتى يمكنهم السير ؛ وإن كان لا بدّ من وقفات أحياناً أثناء السير .

---

(١) [٥ تموز] هو اليوم نفسه الذي احتلّت فيه فرنسا مدينة الجزائر عام ١٨٣٠م .

المستوطنون الفرنسيون : رفض المستعمرون الفرنسيون الذين يعيشون في الجزائر اتفاقية (إيفيان) ، وعدوّها ظلماً عظيماً لحق بهم ، حيث أصبحت أملاكهم التي اغتصبوها عرضةً للضياع ، وغدوا هم يتبعون من كانوا بالأمس عبيداً عندهم ، لذا فقد أعلنوا رفضهم للاتفاقية ، وأدانوا الحكومة الفرنسية ، وتشكّلت منظمات سرية إرهابية فرنسية تعمل على الإخلال بالأمن ليشعر الناس أن الجزائريين غير قادرين على إدارة البلاد .

غير أن الحكومة الجزائرية بالتعاون مع الحكومة الفرنسية قد استطاعت القضاء على هذه الفتنة ، وأخذت أعداد من المستوطنين تترك الجزائر وتعود إلى فرنسا، وتخلّصت البلاد من كثيرٍ من الحاقدين؛ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وهاجر من الجزائر ما يقرب من مليون مستوطن فرنسي.

الخلاف مع تونس: كان يعيش في تونس ربع مليون لاجىء جزائري، فلما أعلن وقف إطلاق النار بين حكومة الجزائر المؤقّتة وبين الحكومة الفرنسية أخذ هؤلاء اللاجئون يعودون إلى ديارهم حسب الاتفاق الذي تمّ بين الطرفين اللذين كانا يتصارعان ، وقد عاد بعض اللاجئين الذين لا يملكون عقاراتٍ وليست لهم أموالٌ في تونس ، أما الذين لديهم أموالٌ أو يملكون عقاراتٍ فلم يتمكّنوا من العودة قبل بيع ما يملكون ، ويجب أن يكون بالعملة الجزائرية ، وكذا تحويل الأموال ، لأن الدينار التونسي لا يمكن تحويله أو صرفه في الجزائر ، وتقدّر هذه الأموال بثلاثة مليارات فرنك فرنسي ، وتونس في ضائقةٍ ماليةٍ لا تستطيع معها أن تحوّل أكثر من نصف مليار فرنك ، فرفعت تونس الموضوع إلى جامعة الدول العربية بغية مساعدتها أو إيجاد حلٍّ للمشكلة . وجرى اجتماعٌ في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية يوم الأحد ٢١ محرم ١٣٨٢هـ (٢٤ حزيران ١٩٦٢م) ، فقامت دولة الكويت بحلِّ المشكلة بتقديم المبلغ المطلوب ، ووضعه في أحد المصارف التونسية لتحويل الدنانير التونسية .

الانضمام إلى جامعة الدول العربية : إن الخلاف الذي جرى بين القادة

الجزائريين قد أخّر الانضمام إلى جامعة الدول العربية ، وأخيراً تقدّم بطلب الانضمام إلى جامعة الدول العربية ، أحمد بن بلّه نيابةً عن المكتب السياسي ، ورفع الطلب أحمد توفيق المدني الذي عُيّن مندوباً دائماً للجزائر لدى جامعة الدول العربية في تاريخ ٢٣ صفر ١٣٨٢هـ (٢٥ تموز ١٩٦٢م) .

جرت الانتخابات في الموعد المقرر ، وقدّمت الحكومة المؤقّتة استقالتها ، وفي ٢٨ جمادى الأول عام ١٣٨٢هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩٦٢م) شكّل أحمد بن بلّة الوزارة الأولى[١] ، وتسلّم فرحات عباس رئاسة الجمهورية .

وُضع الدستور ، وأقرّه المجلس ، وبموجبه انتُخب أحمد بن بلّه

---

(١) كانت وزارة أحمد بن بلّة الأولى على النحو الآتي :

١ ـ أحمد بن بلّة : رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ رابح بيطاط : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ عمار بن تومي : وزير العدل والقانون .
٤ ـ أحمد مدغاري : وزير الداخلية .
٥ ـ هواري بومدين : وزير الدفاع .
٦ ـ محمد خمستي : وزير الشؤون الخارجية .
٧ ـ أحمد فرانسيس : وزير المالية والرياضة .
٨ ـ عمار أوزغان : وزير الزراعة والفلاحة .
٩ ـ محمد خوبزي : وزير التجارة .
١٠ ـ لاورسي خليفة : وزير الطاقة والصناعة .
١١ ـ عبد الرحمن بن حميدة : وزير التربية الوطنية
١٢ ـ بشير بوماذا : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ أحمد بومنجل : وزير النقل والمواصلات .
١٤ ـ محمد صغير نكاش : وزير الصحة .
١٥ ـ موسى حساني : وزير البريد والبرق والهاتف .
١٦ ـ محمد سعيدي : وزير ضحايا الحرب والمجاهدين القدماء .
١٧ ـ عبد العزيز بوتفليقة : وزير الشباب والرياضة .
١٨ ـ أحمد توفيق المدني : وزير الأوقاف .
١٩ ـ محمد حاج حمود : وزير الإعلام .

رئيساً للدولة .

توالى على الجزائر بعد استقلالها حتى الآن ثلاثة رؤساء للجمهورية ، ونستطيع أن نعدّهم من العسكريين أو الثوّار ، هذا بالإضافة إلى فرحات عباس الذي يعدّ سياسياً ، وحكم مدةً قصيرةً .

١ ـ **أحمد بن بلّه** : برز اسمه أثناء الثورة إذ تسلّم مدير مكتب الجزائر في القاهرة ، ثم كان بين القادة الجزائريين الخمسة الذين اختطفتهم السلطات الفرنسية بالطائرة التي كانت تقلّهم من المغرب إلى تونس يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٢٣ تشرين الأول ١٩٥٦م) ، وبعد الاستقلال انتُخب رئيساً للجمهورية .

أعلن أحمد بن بلّه القوانين الاشتراكية ، واستيلاء الدولة على ما يُسمّى بالأملاك الشاغرة ، وتطبيق قانون الإصلاح الزراعي .

وجرى خلافٌ مع المغرب على الحدود ، وجرت معارك بين الدولتين في جمادى الأولى عام ١٣٨٣هـ (تشرين الأول ١٩٦٣م) ، ثم حلّت الأمور بالطرق السلمية .

بدأ تذمّر السكان الجزائريين من الحكم القائم ، إذ خاب أملهم ، كانوا يتوقّعون أثناء الثورة أنهم إذا ما استقلّوا أصبحت لهم شخصيتهم المتميّزة المستقلّة ، ويعود لعقيدتهم صفاؤها بعد أن عمل المستعمرون الصليبيون على تشويهها ، وتعود للغتهم العربية مكانتها بعد أن حاول الفرنسيون النصارى إزاحتها عنها وفرض لغتهم وإحلالها مكان العربية ، وتصبح الصلة مع إخوانهم المجاورين في المغرب وتونس صلة العقيدة والرحم ، وتعود المحاكم الشرعية لتفصل بينهم فيما قد يقع بين الإخوة ؛ بما يؤمنون به ، ويرضونه عن طيب خاطر . . . ، وتزول مظاهر الفساد التي نشرها أعداؤهم ، غير أنه لم يحدث شيءٌ من هذا أبداً ، فكأن الوضع استمرّ على ما كان عليه أيام الاستعمار ، فلم يختلف سوى الاسم دون أن يتغيّر شيءٌ من المضمون . التعريب لم يسر إلّا بخطاً وئيدةٍ جداً ؛ بل قد سُطّر على الأوراق ونطقت به

أفواهٌ فقط دون أي شيء محسوس ، لم تقم المحاكم الشـرعية ، وبقي القانون الفرنسي ، مظاهر الفساد لم تتغـيّر ، الخلاف مـع الإخوة اتسـع ؛ بل ونشب القتال ، و . . . ، أعلنت القوانين الاشتراكية بتعال فارغ ، ولم يُصرِّح أحدٌ من المسؤولين بالإسلام . . . .

ومن الناحية السياسية الدولية بقيت فرنسا صاحبة النفوذ الفعلي رغم الخلاف الأساسي معها ، والثورة إنما قامت ضدّها . بقي النفوذ الفرنسي لأنه لا يمكن أن يزول بخطّ قلمٍ بعد أن جثم على صدر المسلمين الجزائريين ما يزيد على مائةٍ وثلاثين سنة ، ونتيجة الثقافة والمفاهيم أن تلقّاها الجزائريون بما فيهم قادة اليوم ، ونتيجة الاتفاقية التي نالت الجزائر بمـوجبها الاستقـلال ، والتي ربطت الجزائر بالعملة الفرنسية ؛ ولو بدرجةٍ نسبيةٍ . هذا في الوقت الـذي كانت فيه بعض البلدان العربية تحمل أو تنادي بالفكر الاشتراكي ، وتحمل على السياسة الأمريكية ظاهراً على حـين تعمل ضمن مخـطّطها ، وتسـير في فلكها ، ويتزعّم ها الخط الرئيس المصري جمال عبد النـاصر ، أو كان هـو الرجل المعتمد لهذا التيار السياسي ، وكان على صلةٍ وثيقةٍ بالرئيس أحمد بن بلّة الذي قضى مدةً من الزمن في القاهرة يوم كان مديراً لمكتب الثورة الجزائرية هنـاك ، لذا كـانت تبدو الصلة وثيقـةً بين الـدولتين ، حتى أعلن الـرئيس الجزائري القوانين الاشتراكية مسايرةً للتيار السياسي العام ، ولكن هذا كله يبدو في الظاهر ، أما الحقيقة فغير ذلك حيث لا يقبل أصحاب اللعبة الدولية بهذا التحرك الغامض ، لذا أخذ التخطيط يسير في غير هذا المنحى .

تمّ تشكيل مجلسٍ عسكريٍّ برئاسة العقيد هواري بومدين ، وفي ٢٠ صفـر ١٣٨٥هـ (١٩ حزيـران ١٩٦٥م) قرّر هـذا المجلس عزل الـرئيس أحمد بن بلّه، والقبض عليه بتهمة استخـدام أموال الـدولة في غـير وجهها الشرعي . وتسلّم العقيد هواري بومدين رئاسة الدولة .

وفي ١٢ ربيع الأول ١٣٨٥هـ (١٠ تموز ١٩٦٥م) شكّل رئيس مجلس

الثورة ـ رئيس الدولة هواري بومدين ـ الوزارة[1] .

كانت الأوساط السياسية تتوقّع أن تتردّى الأوضاع بين مصر والجزائر للعلاقات الوثيقة التي كانت تربط البلدين بعضهما مع بعض ، وقد بدا فعلاً بعض الفتور في الأيام الأولى كنوع من احترام ماء الوجه ، وحفظاً لكرامة وجه

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :

أ ـ
١ ـ هواري بومدين : رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ رابح بيطاط : وزير الدولة .
٣ ـ عبد العزيز بوتفليقة : وزير الشؤون الخارجية
٤ ـ أحمد مدغاري : وزير الداخلية .
٥ ـ أحمد قايد : وزير المالية والتخطيط
٦ ـ أحمد محساس : وزير الزراعة والفلاحة .
٧ ـ بشير بومازا : وزير الإعلام .
٨ ـ محمد بيجاوي : وزير العدل والقانون .
٩ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزير التعليم الوطني .
١٠ ـ تيجاني هدام : وزير الصحة العامة .
١١ ـ بوعالم بن حمودة : وزير المجاهدين القدماء .
١٢ ـ بلعيد بن عبد السلام : وزير الصناعة والطاقة .
١٣ ـ عبد القادر الزيبق: البريد والاتصالات، الهاتفية .
١٤ ـ عبد النور علي يحيى : وزير الأشغال العامة .
١٥ ـ محمد الهادي حاج إسماعيل : وزير الإسكان والتعمير .
١٦ ـ نور الدين دلّيسي : وزير التجارة .
١٧ ـ عبد العزيز زرداني : وزير الشؤون الاجتماعية والعمل .
١٨ ـ عبد العزيز ماوي : وزير السياحة .
١٩ ـ عبد الكريم بن محمود : وزير الشباب والرياضة .
٢٠ ـ العربي سعدوني : وزير الأوقاف .

ب ـ يكلّف رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء بأعباء وزير الدفاع الوطني .
جـ ـ تمارس الدولة عملها تحت إشراف مجلس الثورة الذي يصدر الأوامر بمراسيم تشريعية .
د ـ الوزراء مسؤولون فردياً أمام رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء ، وجماعياً أمام مجلس الثورة .
هـ ـ تحكم الدولة بتفويض من مجلس الثورة في السلطات الضرورية لسير العمل لأعضاء الدولة وحياة الأمة .

السياسة التي يحملها الرئيس المصري . ولكن لم يلبث أن زال هذا ، وعادت الأمور إلى أفضل ما كانت عليه ، وأصبحت سياسة البلدين تسير في خطٍّ واحدٍ ، وتبيّن أن الرئيس المصري كان له دورٌ في هذا التغيير الذي حدث .

٢ ـ هواري بومدين[١] : أخذ بالسياسة الاشتراكية ، والسير بالتوجّه نحو الغرب، وعمل على دفع حركة التعريب نسبياً ؛ إذ كان أحد ثلاثة في مجلس الوزراء يعرفون العربية فقط ، مع ملاحظة أن السياسة الأمريكية أقلّ اهتماماً في جانب اللغة والثقافة من السياسة الفرنسية ، وربط رجال السلطة بشخصه ، وأدخل بعضهم في الوزارة[٢] .

وفي ٢١٨ جمادى الأولى ١٣٩٠هـ (٢١ تموز ١٩٧٠م) شكّل الرئيس الجزائري وزارةً جديدةً[٣] .

---

(١) هوارين بومدين : هو الاسم الحركي لـ« محمد بن إبراهيم بوخرّوبة » ، اتخذه اسماً عندما انضمّ إلى الثورة ، وكلمة « بومدين » نسبة إلى صاحب قبر في تلمسان يعرفه العامة هناك بـ«الغوث بومدين » كاصطلاح صوفي .

(٢) صدر مرسوم في ٨ ذي الحجة ١٣٨٧هـ (٧ آذار ١٩٦٨م) عُيِّن بموجبه :

١ ـ شريف بلقاسم : وزيراً للاقتصاد والتخطيط .
٢ ـ محمد الطيبي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٣ ـ محمد سعيد مازوزي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

(٣) كانت الوزارة الجديدة على النحو الآتي :

١ ـ هواري بومدين : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء ، وزير الدفاع .
٢ ـ شريف بلقاسم : وزير دولة .
٣ ـ رابح بيطاط : وزير دولة للمواصلات .
٤ ـ عبد العزيز بوتفليقة : وزير دولة للخارجية .
٥ ـ أحمد مدغاري : وزير الداخلية .
٦ ـ محمد الطيبي : الزراعة والإصلاح الزراعي .
٧ ـ بوعالم بن حمودة : العدل والقانون (حماية الأمن) .
٨ ـ عبد الكريم بن محمود : التعليم الابتدائي والثانوي .

=

وفي ٢٧ شوّال ١٣٩٥هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٧٥م) شكّل لجنةً لإعداد الميثاق الوطني الذي يريد أن يضمنّه المبادىء التي يسير عليها . ولما انتهى إعداده عُرض على الندوة الوطنية ، فتمّت الموافقة عليه في ٢١ جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ (١٩ حزيران ١٩٧٦م) ، عرض على استفتاءٍ عامٍ في ٢٩ جمادى الآخرة ، فكانت النتائج لصالحه ، كنتيجة كل استفتاءٍ ، الذي هو وسيلة من وسائل اللعب لأخذ الصفة القانونية أو الرسمية . فأصبح نافذ المفعول بدءاً من ٧ رجب ١٣٩٦ هـ الموافق ٥ تموز ١٩٧٦م ، فأصبحت القوانين الاشتركية رسميةً ، والشعب لا يستطيع أن يُبدي حراكاً ؛ فالضغط عليه من كل جانب .

وفي ٥ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ (٢٣ نيسان ١٩٧٧م) شكّل الرئيس

= ٩ ـ عمر بوجلاب : وزير الصحة العامة .

١٠ ـ محمد صديق بن يحيى : التعليم العالي .

١١ ـ عبد القادر الزيبق : الأشغال العامة والعمران .

١٢ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزير الإعلام والثقافة .

١٣ ـ بلعيد عبد السلام : وزير الطاقة والصناعة .

١٤ ـ مولود قاسم : التعليم الأصلي والشؤون الدينية .

١٥ ـ عبد العزيز ماوي : وزير السياحة .

١٦ ـ محمد سعيد مازوزي : العمل والشؤون الاجتماعية .

١٧ ـ لياشي يعكر : وزير التجارة .

١٨ ـ إسماعيل محروق : وزير المالية .

١٩ ـ محمود كوينز : وزير المجاهدين القدماء .

٢٠ ـ محمد القاضي : وزير البريد والاتصالات .

٢١ ـ عبد الله الفاضل : وزير الشباب والرياضة .

٢٢ ـ كمال عبد الله الخوجة : أمين سر الدولة للتخطيط .

٢٣ ـ عبد الله عرباوي : أمين سر الدولة للطاقة المائية .

الجزائري وزارةً جديدةً[1] .

وقد اشتدّ الخلاف بين المغرب والجزائر أيام الرئيس هواري بومدين على

---

(١) كانت الوزارة الجديدة على النحو الآتي :

أولاً : ١ ـ عبد العزيز بوتفليقة : وزير الشؤون الخارجية .

٢ ـ محمد الطيبي : وزير الزراعة والثروة الزراعية .

٣ ـ محمد بن أحمد عبد الغني : وزير الداخلية .

٤ ـ أحمد بن شريف : وزير الطاقة المائية وحماية البيئة .

٥ ـ أحمد درايا : وزير المواصلات .

٦ ـ أحمد الطالب الإبراهيمي : مستشار لرئيس الدولة .

٧ ـ بوعالم بن حمودة : وزير الأشغال العامة .

٨ ـ بلعيد عبد السلام : وزير الصناعات الخفيفة .

٩ ـ محمد صديق بن يحيى : وزير المالية .

١٠ ـ محمد سعيد مازوزي : وزير المجاهدين .

١١ ـ مولود قاسم نية بلقاسم : نائب رئيس الدولة مكلف بالشؤون الدينية .

١٢ ـ سعيد آيت مساء الدين : وزير الصحة العامة .

١٣ ـ مصطفى الأشرف : وزير التربية .

١٤ ـ عبد الملك بن هابيل : وزير العدل .

١٥ ـ عبد اللطيف رحال : التعليم العالي والبحث العلمي .

١٦ ـ محمد زرقاني : وزير البريد والاتصالات .

١٧ ـ محمد أمير : وزير العمل والملاك الوظيفي .

١٨ ـ عبد المجيد أوشيش : وزير الإسكان والعمران .

١٩ ـ محمد يالا : وزير التجارة .

٢٠ ـ ردحة مالك : وزير الثقافة والأنباء .

٢١ ـ عبد الغني العقبى : وزير السياحة .

٢٢ ـ جمال هوهو : وزير الشباب والرياضة .

٢٣ ـ محمد الياسين : وزير الصناعات الثقيلة .

٢٤ ـ أحمد غزالي : الطاقة والصناعات البتروكيماوية .

٢٥ ـ كمال عبد الله الخوجة : أمين سر الدولة للتخطيط .

=

الصحراء الغربية ، وقد أوجدت الجزائر منظمةً عُرفت بـ « بوليساريو » كان الهدف منها إزعاج المغاربة بالقيام بأعمالٍ تخريبيةٍ يُستنتج منها أن سكان الصحراء المغربية لا يؤيّدون الانضمام إلى المغرب ، ولا تزال هذه المنظمة قائمةً ؛ وإن كانت آثارها قد خفّت بعد رسوخ قدم المغاربة في الصحراء .

٣ ـ الشاذلي بن جديد : تُوفّي العقيد هواري بومدين (محمد بن إبراهيم بوخروبة) في أواخر عام ١٣٩٨هـ ، واجتمع المجلس العسكري ، وكتم أمر الوفاة حتى اتفق أعضاؤه على تسليم أحدهم الرئاسة ، ووقع الاختيار على الشاذلي بن جديد ، وهو وإن كان قصير النظر ضيّق الأفق ؛ إلّا أنه هادىء في الأحوال العادية، وعنيف نزق عند الشدّة، وقد عهد إلى العقيد محمد بن أحمد عبدالغني بتشكيل الوزارة(١) ، وقد كان يشغل منصب وزارة الداخلية في

= **ثانياً** : يتحمل رئيس الدولة أعباء وزير الدفاع الوطني .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

أولاً : ١ ـ محمد بن أحمد عبد الغني : وزير أول .
٢ ـ عبد العزيز بوتفليقة : وزير مستشار لدى رئيس الدولة .
٣ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزير مستشار لدى رئيس الدولة .
٤ ـ محمد صديق بن يحيى : وزير الشؤون الخارجية .
٥ ـ سعيد آيت مسعودان : وزير الصناعات الخفيفة .
٦ ـ محمد زركيني : وزير البريد والمواصلات .
٧ ـ عبد المجيد أوشيش : تخطيط المدن الإسكان والتعمير .
٨ ـ محمد حامد يعلى : وزير المالية .
٩ ـ عبد الغني عكبي : وزير التجارة .
١٠ ـ جمال حوحو : وزير الشباب والرياضة .
١١ ـ عبد الحميد مهري : وزير الإعلام والثقافة .
١٢ ـ محمد شريف المسعدية : وزير المجاهدين .
١٣ ـ عبد المجيد الأهوم : وزير السياحة .
١٤ ـ سليم سعدي : الزراعة واستصلاح الأراضي .
١٥ ـ عبد الرزاق بوحارة : وزير الصحة .
١٦ ـ صالح قوجيل . وزير المواصلات .
١٧ ـ لاحسين صوفي : وزير العدل .
١٨ ـ مولود أومزيان : وزير العمل والتكوين المهني .
١٩ ـ بوعلام باقي : وزير الشؤون =

الوزارة السابقة ، وذلك في تاريخ ٨ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (٨ آذار ١٩٧٩م) .

أخذ الشباب الناشيء يشعر بالضغط ويتعطّش إلى الحرية ، الجيل الذي نشأ أثناء الاستقلال ، والذي لم يكابد الاستعمار الفرنسي ، يسمع بالحرية في البلدان الثانية ؛ فيتلهّف لها ، ولكن الضغط يكبت أحلامه ، ولم يحسّ هذا الشباب بالفرق بين حياة الجزائريين المسلمين وحياة غيرهم من الأوربيين النصارى ؛ فالمفاسد منتشرة ، والخمور معروضة ، و . . . ويزيد المرارة في نفسه عندما يحدّثه الذي يتقدّمون عليه في السنّ أنهم قد أضرموا نار الثورة وروّوا الأرض بدماء أبنائهم الذين استشهدوا كي يكونوا أحراراً ، ولكن عندما نالوا الاستقلال حُرموا الحرية ، وقاتلوا كي ترتفع راية الإسلام فعندما انتصروا ارتفعت شعارات الاشتراكية الجوفاء ، وأنهم يحسّون النار تلتهب في أحشائهم ، ولكن الأفواه قد كمّها البطش ، وأخذت السلطات الجزائرية بما يغلي في النفوس فلجأت إلى تبديل الواجهات وتعديل الوزارات لإشغال الناس .

= الدينية .

٢٠ ـ غزالي أحمد علي : وزير الأشغال العامة .

٢١ ـ الشريف خروبي : وزير التربية .

٢٢ ـ رفيق عبد الحق برارحي : التعليم العالي .

٢٣ ـ محمد الياسين : وزير الصناعات الثقيلة .

٢٤ ـ أحمد الغزالي : وزير الطاقة المائية .

٢٥ ـ إسماعيل حمداني : سكرتير عام الدولة (برتبة وزير) .

٢٦ ـ بلقاسم نابي : وزير الطاقة والصناعة البتروكيماوية .

٢٧ ـ عبد الحميد إبراهيمي : التخطيط وتوزيع الأراضي .

٢٨ ـ أحمد حوحات : سكرتير الدولة للصيد .

٢٩ ـ إبراهيم إبراهيمي : سكرتير الدولة للغابات وإعادة التشجير .

ثانياً :يقوم رئيس الدولة بأعمال وزير الدفاع الوطني .

ثالثاً : يقوم الوزير الأول بأعمال وزير الداخلية .

وفي ١٠ رمضان ١٤٠٠هـ (٢٢ تموز ١٩٨٠م) أعاد محمد بن أحمد عبد الغني تشكيل الوزارة من جديد[١] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

أولاً :

١ ـ محمد بن أحمد عبد الغني : وزيراً أول .

٢ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزيراً لدى رئاسة الدولة .

٣ ـ بوعلام بن حمودة : وزيراً للداخلية .

٤ ـ محمد الصديق بن يحيى : وزيراً للشؤون الخارجية .

٥ ـ سعيد آيت مسعودان : وزيراً للصناعات الخفيفة .

٦ ـ محمد حامد يعلى : وزيراً للمالية .

٧ ـ جمال حوحو : وزيراً للشبيبة والرياضة .

٨ ـ عبد المجيد علاهم : وزيراً للسياحة .

٩ ـ سليم سعدي : للفلاحة والثروة الزراعية .

١٠ ـ صالح قوجيل : للنقل والصيد البحري .

١١ ـ بوعلام باقي : وزيراً للعدل .

١٢ ـ مولود أومزيان : للعمل والتكوين المهني .

١٣ ـ الغزالي أحمد علي : للإسكان والتعمير .

١٤ ـ محمد الياسين : وزيراً للصناعة الثقيلة .

١٥ ـ بلقاسم نابي : للطاقة والصناعات البتروكيماوية .

١٦ ـ إبراهيم إبراهيمي : وزيراً للري .

١٧ ـ عبد الحميد إبراهيمي : وزيراً للتخطيط والتهيئة العمرانية .

١٨ ـ جلول بختي نميش : وزيراً للمجاهدين .

١٩ ـ بوعلام بسايح : وزيراً للإعلام والثقافة .

٢٠ ـ عبد العوزيز خلاف : وزيراً للتجارة .

٢١ ـ عبد النوربكة : وزيراً للبريد والمواصلات .

٢٢ ـ محمد قرطبي : وزيراً للأشغال العمومية .

٢٣ ـ عبد الرحمن شيبان : وزيراً للشؤون الدينية .

٢٤ ـ محمد رويغي : كاتب الدولة للغابات واستصلاح الأراضي .

٢٥ ـ أحمد بن روحة : كاتب الدولة للصيد البحري .

٢٦ ـ محمد العربي ولد خليفة : كاتب الدولة للثقافة والفنون الشعبية .

=

ثم أعيد تكليفه مرّةً ثانيةً بالوزارة ، فعمل على توسيع قاعدتها عسى أن تخفّ النقمة الكامنة في النفوس ، والتي تنتظر الفرصة الملائمة ، فشكّل محمد بن أحمد عبد الغني الوزارة الثالثة[1] في ١٧ ربيع الأول ١٤٠٢هـ (١٢

=

٢٧ ـ الشريف خروبي : للتربية والتعليم الأساسي .

٢٨ ـ رفيق عبد الحي برارحي : للتعليم والبحث العلمي .

٢٩ ـ محمد نابي : كاتب الدولة للتكوين المهني .

٣٠ ـ الشريف الحاج سليمان : كاتب الدولة للتعليم الثانوي والتقني .

٣١ ـ علي أوبوزار : كاتب الدولة للتجارة الخارجية .

ثانياً : يتولّى رئيس الجمهورية مهام وزارة الدفاع الوطني .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

أولاً :

١ ـ محمد بن أحمد عبد الغني : الوزير الأول .

٢ ـ بوعالم بن حمودة : وزير المالية .

٣ ـ محمد صديق بن يحيى : وزمير الخارجية .

٤ ـ محمد يالا : وزير الداخلية .

٥ ـ بوعالم باكي : وزير العدل .

٦ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزير لدى رئيس الدولة .

٧ ـ سعيد آيت مساء الدين : وزير الصناعات الخفيفة .

٨ ـ عبد المجيد علاهم : وزير السياحة .

٩ ـ سليم السعدي : الزراعة والثروة الفلاحية .

١٠ ـ صلاح قوجيل : وزير النقل .

١١ ـ عبد الرزاق بوحارة : وزير الصحة .

١٢ ـ مولود أومزيان : وزير العمل .

١٣ ـ غزالي أحمد علي : وزير الإسكان والعمران .

١٤ ـ شريف خروبي :وزير التربيةوالتعليم الأساسي .

١٥ ـ بلقاسم نبي : الطاقة والصناعات البتروكيماوية .

١٦ ـ إبراهيم الإبراهيمي : وزير الطاقة المائية .

١٧ ـ عبد الحميد الإبراهيمي : التخطيط وتوزيع الأراضي .

١٨ ـ جلول بخيت نيميش : وزير المجاهدين .

١٩ ـ بوعالم بسايح : وزير الإعلام .

=

كانون الثاني ١٩٨٢م) .

لم تفد قاعدة الوزارة شيئاً ، وزادت النقمة ، وكانت الأساليب الاشتراكية عاملاً رئيسياً في تردّي الأوضاع ، فقد ضعُف الإنتاج الزراعي .

وفي ١٩ ربيع الثاني ١٤٠٤هـ (٢٢ كانون الثاني ١٩٨٤م) وبعد الانتخابات الرئاسية، والتي لم يرشح فيها سوى الشاذلي بن جديد كلّف عبد الحميد الإبراهيمي بتأليف الوزارة[1]، وقد كان يشغل منصب وزير التخطيط

---

٢٠ ـ عبد العزيز خلّيف : وزير التجارة .
٢١ ـ مرباح قصدي : وزير الصناعات الثقيلة .
٢٢ ـ بشير رويس : وزير البريد والاتصالات .
٢٣ ـ عبد النوربكة : وزير الشباب والرياضة .
٢٤ ـ محمد قرطبي : وزير الأشغال العامة .
٢٥ ـ عبد الرحمن شيبان : وزير الشؤون الدينية .
٢٦ ـ محمد نبي : وزير الملاك الوظيفي .
والثروة الطبيعية .
٢٨ ـ عبد المجيد أومزيان : وزير الثقافة .
٢٩ ـ أحمد بن فرحة : أمين سر الدولة للصيد والنقل البحري .
٣٠ ـ محمد العربي ولد خليفة : للتعليم الثانوي والتقني .
٣١ ـ جلول الخطيب : أمين سر للأعمال الشعبية .
٣٢ ـ علي بوزار : أمين سر للتجارة الخارجية .
٣٣ ـ زهور أونيس : أمين سر للشؤون الاجتماعية .
٢٧ ـ محمد رويشي : أمين سر الدولة للغابات
ثانياً : يكلف رئيس الدولة بأعمال وزير الدفاع الوطني .
ثالثاً : يكلف العقيد عبد الله بلهوشيت نائباً لوزير الدفاع الوطني ومسؤولاً عن الرقابة للجيش الشعبي الوطني .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
أولاً : ١ ـ عبد الحميد إبراهيمي : وزيراً أول .
٢ ـ بوعلام بن حمودة : وزيراً للمالية .
٣ ـ أحمد طالب الإبراهيمي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٤ ـ محمد يعلى : وزيراً للداخلية والجماعات المحلية .
٥ ـ بوعلام باقي : وزيراً للعدل .
٦ ـ عبد الله خالف : وزيراً للفلاحة

= والصيد البحري . (المدعو : مرباح قاصدي) .

٧ ـ بشير رويس : وزيراً للإعلام .

٨ ـ سليم سعدي : وزيراً للصناعة الثقيلة .

٩ ـ صالح قوجيل : وزيراً للنقل .

١٠ ـ محمد الشريف خروبي : وزيراً للتربية الوطنية .

١١ ـ رفيق عبد الحي برارحي : وزيراً للتعليم العالي .

١٢ ـ بلقاسم نابي : للطاقة والصناعات البروكيماوية .

١٣ ـ جلول بختي نميش : وزيراً للمجاهدين .

١٤ ـ بوعلام بسايح : وزيراً للبريد والمواصلات .

١٥ ـ عبد العزيز خلاف : وزيراً للتجارة .

١٦ ـ عبد الرحمٰن شيبان : وزيراً للشؤون الدينية .

١٧ ـ محمد نابي : للتكوين المهني والعمل .

١٨ ـ عبد المجيد مزيان : للثقافة والسياحة .

١٩ ـ زهور ونيسي :وزيرة للحماية الاجتماعية .

٢٠ ـ محمد رويغي : للري والبيئة والغابات .

٢١ ـ أحمد بن فريحة : وزيراً للأشغال العمومية .

٢٢ ـ علي أوبوزار : للتخطيط والتهيئة العمرانية .

٢٣ ـ جمالي الدين حوحو : للصحة العمومية .

٢٤ ـ زيتوني مسعودي : للصناعات الخفيفة .

٢٥ ـ كمال بوشامة : للشبيبة والرياضة .

٢٦ ـ عبد الرحمٰن بلعياط : للتعمير والبناء والإسكان .

ثانياً : يتولّى رئيس الجمهورية مهام وزارة الدفاع .

ثالثاً : يُعيّن السادة :

١ ـ مصطفى بن زارة : نائب وزير مكلفاً بالصيد البحري .

٢ ـ خيرة الطيب : نائبة وزير مكلّفةً بالتعليم الثانوي والتقني بوزارة التربية الوطنية .

٣ ـ نور الدين حربي : نائب وزير مكلّفاً بالتعاون بوزارة الخارجية .

٤ ـ محمد أبركان : نائب وزير مكلّفاً بالتجارة الخارجية بوزارة التجارة .

٥ ـ محمد مازوني : نائب وزير مكلّفاً بالصناعات الميكانيكية والكهربائية والألكترونية بوزارة الصناعة الثقيلة .

٦ ـ محمد أرزقي ايسلي : نائب وزير مكلّفاً بمواد البناء بوزارة الصناعات الخفيفة .

٧ ـ عيسى عبد اللاوي : نائب وزير مكلفاً بالبيئة والغابات بوزاري الري والبيئة والغابات .

وتوزيع الأراضي في الوزارة السابقة.

وأخيراً جاءت الفرصة ؛ إذ ارتفعت الأسعار ، فانطلقت المظاهرات تلقائياً تعبّر عما يختبىء في نفوس الشعب ، وأخذت تطالب بالحريات ، وكان يوم ٢٤ صفر ١٤٠٩هـ (٥ تشرين الأول ١٩٨٨م) يوماً مشهوداً في الجزائر ، واضطرّت السلطة أن تحني رأسها قليلاً ، وأن تعد بالحرية وأخذ الشعب المسلم يستنشق شيئاً من نسمات الحقّ الذي هو طبيعي له ، وأخذت المظاهر الإسلامية تبدو واضحةً في البلاد ، وخاصةً النساء ، وشهدت أوربا لهذه الظاهرة ، وكانت فرنسا أشدّ الدول الأوربية ؛ فقد سُعرت وسائل الإعلام فيها ، وانكمشت الأوساط السياسية على نفسها ، وأخذت جميعها تهاجم ما أطلقوا عليه الرجعية ، والتخلّف ، والتعصّب ، والتطرّف ، وأسماء جديدة اشتقّوها تدلّ كلها على حقدٍ دفينٍ على الإسلام وأهله ، وإن كان هذا أمرٌ معروفٌ بالنسبة لأوربا ؛ لكنه غريبٌ بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى الإسلام ، ويسايرون العلمانيين وأتباع الرأسمالية ، وأعوان الشيوعية ، وأصحاب العصبيات العرقية ، فإن هذه المذاهب كلها كافرة ، فمن أيّدها فقد كفر ، أو أعان على الكفر على الأقلّ .

وتحرّكت نساء الفئات المتحرّرة من القيم يردن أن يظهرن معارضتهن

= ٨ ـ أبو بكر بلقائد : نائب وزير مكلّفاً بالبناء بوزارة التعمير والبناء والإسكان .
٩ ـ مصطفى بن عمرو : نائب وزير مكلّفاً بالميزانية بوزارة المالية .
١٠ ـ محمد صالح منتوري : نائب وزير مكلّفاً بالرياضة بوزارة الشبيبة والرياضة .
١١ ـ حاوسين الحاج : نائب وزير مكلّفاً بالصناعات الكيماوية والبتروكيماوية بوزارة الطاقة والصناعات الكيماوية والبتروكيماوية .
١٢ ـ عمرو عزوز : نائب وزير مكلّفاً بالعمل بوزارة التكوين المهني والعمل .
١٣ ـ زين الدين سكفالي : نائب وزير مكلّفاً بالسياحة بوزارة الثقافة والسياحة .
١٤ ـ عبد الملك نوراني : نائب وزير مكلّفاً بالتهيئة العمرانية بوزارة التخطيط والتهيئة العمرانية .

للفكر الإسلامي ، وسلوك المسلمات ، وخرجن بمظاهرةٍ ، ورغم أنهنّ من المجموعات اللواتي يقسن الشوارع ذهاباً وإياباً، وليس هناك من أي مانعٍ لخروجهنّ سافراتٍ مبتذلاتٍ ، إضافةً إلى اللواتي يسايرنهنّ، ويغتنمن الفرصة لعرض أجسامهنّ ، رغم كل هذا لم تستطع هذه المظاهرة أن تضمّ أكثر من بضع مئات . وأراد الاتجاه الإسلامي أن يردّ على هذه الظاهرة بواقع عمليّ يبرهن فيه على أن الجزائر جزءُ من الأمة الإسلامية، وأن الشعب فيها متمسكٌ بعقيدته ، محافظٌ على إسلامه ، مرتبطٌ بتراثه ، حريصٌ على المحافظة على السلوك الإسلامي ، فأعلن عن خروج مظاهرةٍ ضمّت أكثر من مليون امرأة كلهنّ بلباس الحشمة ، وفي غاية النظام ، ويطالبن باحترام المرأة ، وإعطائها حقّها الكامل في الزوجية ، وتربية النشىء في البيوت ، والبعد عن اتخاذها وسيلةً للدعاية ، والرفاهية ، وترك المتاجرة بأنوثتها وجسدها ، هذا مع العلم أن المسلمات اللواتي لم تسمح لهنّ الظروف بالخروج هنّ عامة نساء الشعب الجزائري ، ومع هذا كلّه فقد كان عدد المتظاهرات مليون امرأة ، وأحسّت الأنظمة العلمانية بفشلها ، وشعرت الصليبية بخيبة الأمل بعد كل الجهود التي بذلتها في الجزائر .

وفي ٨ صفر ١٤١٠هـ (٩ أيلول ١٩٨٩م) كُلِّفَ مولود حمروش بتشكيل الوزارة[١] . وظهر أن الاتجاه الإسلامي هو السائد في الجزائر ، وهو صاحب

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مولود حمورش : وزير أول .

٢ ـ سيد أحمد غزالي : وزير الشؤون الخارجية .

٣ ـ علي بن فليس : وزير العدالة .

٤ ـ سعيد شيبان : وزير الشؤون الدينية .

٥ ـ محمد الصالح محمدي : وزير الداخلية .

٦ ـ هني بن علي : وزير منتدب للمجموعات المحلية .

٧ ـ محمد الميلي إبراهيمي : وزير التربية .

٨ ـ عبد السلام علي راشدي : وزير منتدب للجامعات .

٩ ـ عبد القادر بوجمعة : وزير الشبيبة .

١٠ ـ عبد النور كرامان : وزير منتدب للتكوين =

الكلمة عندما تُعطى الحرية الصحيحة . وبرزت الجبهة الإسلامية للإنقاذ برئاسة عباس مدني ، ومعه علي بلحاج . وجمعية الإرشاد والإصلاح (الإخوان المسلمون) برئاسة محفوظ نحناح ، وقد انشقّ عنهم عبد الله جاب الله مع مجموعة سحنون ، وهي جماعة غير سياسية ورئيسها طيب القلب يمكن استغلاله . والطلائع الإسلامية وهم جماعة لا تزال صغيرة تبرز بوعي أفرادها ، وسعة أفقهم السياسي ، وشخصيتهم المتميّزة . واتحاد العلماء الجزائريين برئاسة الشيخ محمد سعيد وهم مجموعةٌ من المتعلّمين يدعون إلى تطبيق المنهج الإسلامي .

ودعت الحكومة إلى إجراء الانتخابات في شهر ذي القعدة من عام ١٤١٠هـ ، وسمحت للأحزاب بخوضها على أساس المنهج الذي يسعون إليه ، فتقدّم خمسةٌ وعشرون حزباً لخوض هذه الانتخابات[١] ، وهذا إن دلّ

= المهني .

١١ ـ غازي حيدوسي : وزير الاقتصاد .

١٢ ـ إسماعيل قومزيان : وزير منتدب لتنظيم التجارة .

١٣ ـ محمد غريب : وزير الشؤون الاجتماعية .

١٤ ـ محمد قارة عمار : وزير منتدب للتشغيل .

١٥ ـ عبد القادر بن داود : وزير الفلاحة .

١٦ ـ حسن كحلوش : وزير الصناعة .

١٧ ـ الشريف رحماني : وزير التجهيز .

١٨ ـ الصادق بوسنة : وزير المناجم .

١٩ ـ الهادي خذيري : وزير النقل .

٢٠ ـ حميد سيدي السعيد : وزير البريد والمواصلات .

٢١ ـ اكلي خديس : وزير الصحة .

٢٢ ـ عبد العزيز خلاف : كاتب الدولة للشؤون المغربية .

٢٣ ـ أحمد مجحودة : الأمين العام للحكومة .

(١) من هذه الأحزاب :

١ ـ حزب الطليعة الاشتراكي الشيوعي .

٢ ـ التجمع من أجل الثقافة الديمقراطية .

٣ ـ الحركة الديمقراطية للتجدد الجزائري. =

على شيءٍ فإنّما يدلّ على الرغبة في الحرية ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه يدلّ على عدم تبنّي مناهج واضحة الأمر الذي يزيد العدد في الأحزاب ، كما يدلّ هذا على الرغبة في الزعامة وعدم توحيد الجهود بين الأفكار المتقاربة . ويبرز بين هذه الأحزاب إضافةً إلى المجموعات الإسلامية التي ذكرناها حزب جبهة التحرير الوطني الجزائرية ، وهو الحزب الحاكم منذ الاستقلال، ويُعدّ علماني الاتجاه .

جرت الانتخابات المحلية في ذي القعدة ١٤١٠هـ (حزيران ١٩٩٠م) فحصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ٥٥٪ من أصوات الناخبين على حين حصلت جبهة التحرير الوطنية على ٣٥٪ تقريباً.

وبعد شهرٍ من تلك الانتخابات حدث خلاف داخل جبهة التحرير

= ٤ ـ الحزب الاجتماعي الديمقراطي .
٥ ـ الحزب الاشتراكي الديمقراطي .
٦ ـ المنظمة الاشتراكية للعمال .
٧ ـ حزب الله بقيادة جمال الدين الباردي .
٨ ـ حزب جبهة التحرير الجزائري .
٩ ـ جبهة الإنقاذ الإسلامية بقيادة عباس مدني .

وقد أعلن حزبان مقاطعة انتخاب البلدية ، وهما :

١ ـ جبهة القوى الاشتركية بقيادة حسين آيت أحمد ؛ الذي عاد من المنفى بعد مرور ثلاث وعشرين سنة .

٢ ـ الحركة من أجل الديمقراطية برئاسة أحمد بن بلّه الذي لا يزال في المنفى .

وتطالب سبعة أحزاب بتأجيل موعد الانتخابات ريثما تكتمل استعدادتها لخوض المعركة .

ويقضي قانون الانتخابات الي أُقرّ في ١٨ رجب ١٤٠٩هـ (٢٣ شباط ١٩٨٩م) :

أ ـ أن الحزب الذي ينال غالبية الأصوات يحصل على مقاعد تتناسب مع الأصوات التي نالها . بينما كان القانون السابق يقضي بالحصول على المقاعد كلها .

ب ـ إذا لم يفز حزب بغالبية الأصوات فإن الحزب الذي يحصل على أكبر نسبة من الأصوات ينال نصف المقاعد ، ويوزع النصف الآخر بالنسبة التي يحصل عليها كل حزب .

وتطالب جبهة الإنقاذ الإسلامية بحلّ المجلس النيابي الذي تنتهي مدته عام ١٩٩٢م ، وإجراء انتخابات مبكرة . لكن الحكومة تؤكد بالمحافظة على موعد إجراء الانتخابات .

الوطنية «الحزب الحاكم» وذلك بشأن مجال الإصلاح الاقتصادي والسياسي فاستقال رئيس الوزراء، ومعه أربعة وزراء من مكتب الحزب السياسي.

أعيد تشكيل مجلس الوزراء، وفصلت وزارة الدفاع عن رئاسة الوزراء وذلك لأول مرةٍ منذ عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).

وفي مطلع عام ١٤١١هـ (تموز ١٩٩٠م) وافق الرئيس الشاذلي بن جديد على طلب الجبهة الإسلامية للإنقاذ بإجراء انتخاباتٍ عامةٍ مبكرةٍ، وأعلن عن إجراء الانتخابات في منتصف عام ١٤١١هـ (مطلع عام ١٩٩١م).

وفي شهر آب ١٩٩٠م صدر عفو عام أُفرج بموجبه عن آلاف السجناء السياسيين، ثم سمح للرئيس الأسبق أحمد بن بلاّ بالعودة من المنفى.

وفي شهر آذار ١٩٩١م قامت نقابة المواصلات الجزائرية بمظاهراتٍ احتجاجاً على ارتفاع الأسعار، هذا رغم ارتباط هذه النقابة بالحزب الحاكم جبهة التحرير الوطنية.

وفي منتصف رمضان ١٤١١هـ (مطلع شهر نيسان ١٩٩١م) أعلن الرئيس الشاذلي بن جديد إجراء أول انتخابات عامة متعددة الأحزاب سوف تجري في ١٥ ذي الحجة ١٤١١هـ (٢٧ حزيران ١٩٩١م)، وطالبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ أن تكون الانتخابات الرئاسية متزامنة مع الانتخابات العامة أو بعدها بقليلٍ.

وبعد عيد الفطر (أيار) نظّمت الجبهة الإسلامية للإنقاذ إضراباً عاماً، وقامت بتظاهراتٍ مطالبةً باستقالة الرئيس الشاذلي بن جديد لضمان حرية الانتخابات، كما طالبت بإجراء تغييرات في قانون الانتخابات، ووقعت مواجهات بين الإسلاميين وبين قوات الأمن تمخّضت عن سقوط عددٍ من الضحايا، وإثر ذلك أعلن الرئيس حالة الطوارئ في الدولة، وقبول

استقالة رئيس الوزراء وحكومته. وعين وزير الخارجية السابق أحمد الغوزالي رئيساً جديداً للوزراء.

وبعد أسبوع آخر من الاضطرابات توصّلت جبهة التحرير الوطنية، والجبهةُ الإسلاميةُ للإنقاذ إلى حلٍّ وسط، إذ تخلّت الجبهة الإسلامية عن الإضراب، وتقرّر إجراء الانتخابات التشريعية والرئاسية قبل منتصف عام ١٤١٢هـ (قبل نهاية عام ١٩٩١م).

وفي أواخر عام ١٤١١هـ (منتصف حزيران ١٩٩١م) أعيد تشكيل الوزارة من جديد، وقبل أقل من أسبوعين وقعت أحداث عنفٍ بين الإسلاميين وقوات الأمن، استقال إثرها الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد من منصب رئاسة جبهة التحرير الوطنية، واعتقلت وحدات من الجيش حوالي سبعمائة فردٍ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، كما احتلت مقر قيادة الجبهة، وكان من بين المعتقلين رئيس الجبهة الإسلامية عبّاسي مدني، ونائبه علي بلحاج، وكان عبّاسي مدني قد هدّد بإعلان الجهاد إن لم تُلْغَ حالة الطوارئ. وقد اتهمته السلطات الحكومية بالعمل لقيام حركةٍ مسلحةٍ ضد الدولة.

ألغيت حالة الطوارئ في ربيع الأول ١٤١٢هـ (أواخر أيلول ١٩٩١م). وعُدّل قانون الانتخابات حيث تضمّن زيادة عدد مقاعد الجمعية من ٢٩٥ مقعداً إلى ٤٣٠ مقعداً كما تضمّنت جعل سنّ المرشح ٢٨ عاماً بدلاً من ٣٥ عاماً.

وفي ٢٠ جمادى الآخرة ١٤١٢هـ (٢٦ كانون الأول ١٩٩١م) جرت الجولة الأولى من الانتخابات حيث جرى الاقتراع على ٢٣١ مقعداً من أصل ٤٣٠ مقعداً من مقاعد الجمعية الشعبية الوطنية. وكانت النتائج كما يأتي:

حصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على	١٨٨	مقعداً.
حصلت جبهة القوى الاشتراكية على	٢٥	مقعداً.

حصلت جبهة التحرير الوطنية على	١٥	مقعداً.
فاز المستقلون بـ	٣	مقاعد.
	٢٣١	مقعداً.

اتّهم الحزب الحاكم (جبهة التحرير الوطنية) أن الانتخابات قد تخلّلها إكراه بالتهديد على نطاقٍ واسع، وأن الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد أساءت التصرف بالانتخابات. وتقرر أن تكون الجولة الثانية في الدوائر الانتخابية الباقية في ١٩٩ دائرة انتخابية في ١٢ رجب ١٤١٢هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٩٢م). ولكن قبل ذلك باثني عشر يوماً تمّ حل الجمعية الشعبية الوطنية بمرسومٍ جمهوري.

٥ رجب ١٤١٢هـ (١١ كانون الثاني ١٩٩٢م) استقال الرئيس الشاذلي بن جديد.

في اليوم التالي ألغى مجلس الأمن الأعلى الذي يضمّ رئيس الوزراء وثلاثة ضباط كبار ووزيرين الجولة الثانية للانتخابات.

١٢ رجب تمّ تعيين المجلس الأعلى للدولة ليقوم بتصريف أعمال الرئاسة حتى تنتهي مدة الشاذلي بن جديد بعد سنة تقريباً (كانون الأول ١٩٩٣م).

ويضمّ المجلس الأعلى للدولة:

١ ـ محمد بوضياف رئيساً، وهو في المنفى منذ عام ١٩٦٤م.

٢ ـ خالد نزار: وزير الدفاع.

٣ ـ علي هارون: وزير حقوق الإنسان.

٤ ـ أحمد غوزالي: رئيس الوزراء.

٥ ـ الشيخ تيجاني هدام: موجه الجامع الكبير في باريس.

٦ ـ علي كافي: رئيس الهيئة الوطنية للمحاربين القدماء.

وقد وقع خلاف من قبل التنظيمات جميعها بما فيها جبهة التحرير الوطنية حول الشرعية الدستورية للمجلس الأعلى للدولة. وطالبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعودة الشرعية فاحتلت قوات الأمن مكاتب الجبهة الإسلامية للإنقاذ في أواخر رجب ١٤١٢هـ (مطلع شهر شباط ١٩٩٢م)، وأعلن المجلس الأعلى للدولة في ٦ شعبان ١٤١٢هـ (٩ شباط ١٩٩٢م) حالة الطوارئ لمدة سنةٍ كاملةٍ، وفتحت مراكز الاعتقال في الصحارى.

وفي رمضان ١٤١٢هـ (آذار ١٩٩٢م) أعلنت السلطات الحكومية حل الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وفي شهر شوال ١٤١٢هـ (نيسان ١٩٩٢م) أعلن محمد بوضياف بصفته رئيساً للمجلس الأعلى للدولة إنشاء مركزٍ وطني للإشراف على حقوق الإنسان ليحلّ محل وزارة حقوق الإنسان. وإنشاء مجلسٍ استشاري وطني يتألف من ستين عضواً يجتمع مرةً في الشهر في مبنى الجمعية المعلقة أعمالها، مع أن هذا المجلس لم يمنح أية صلاحياتٍ تشريعيةٍ.

وفي شهر ذي الحجة ١٤١٢هـ (حزيران ١٩٩٢م) اقترح محمد بوضياف عقد اجتماع وطني لوحدة الصف بتشكيل لجان في كل قريةٍ للإعداد إلى (ديمقراطية) حقيقية متعددة الأحزاب. ووعد بمراجعة الدستور، وحل جبهة التحرير الوطنية، وإجراء انتخاباتٍ رئاسيةٍ، وأمر بالإفراج عن ألفي معتقل من الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وفي ٢٧ ذي الحجة ١٤١٢هـ (٢٧ حزيران ١٩٩٢م) قُدّما زعيما الجبهة الإسلامية للإنقاذ عبّاسي مدني، وعلي بلحاج إلى محكمةٍ عسكريةٍ في مدينة «بليدة» بتهمة التآمر ضدّ الدولة. ولكن تأجّلت الجلسة بعد انسحاب محامي الدفاع.

وفي ٢٩ ذي الحجة ١٤١٢هـ (٢٩ حزيران ١٩٩٢م) اغتيل محمد بوضياف، وهو يلقي خطاباً في مدينة «عنّابة»، وحلّ علي كافي محل محمد

بوضياف في رئاسة المجلس الأعلى للدولة، كما تمّ تعيين رضا مالك رئيس المجلس الاستشاري الوطني عضواً جديداً في المجلس الأعلى للدولة.

وفي ٨ المحرم ١٤١٣هـ (٨ تموز ١٩٩٢م) قدم رئيس الوزراء أحمد غوزالي استقالة حكومته ليفسح المجال أمام رئيس المجلس الأعلى للدولة علي كافي لاختيار رئيس حكومةٍ جديد.

كلّف علي كافي برئاسة الحكومة بلعيد عبد السلام الذي كان يدير سياسة النفط والغاز مدة عشرين سنةً كاملةً في الجزائر. وفي منتصف الشهر تشكلت الحكومة الجديدة.

وفي نهاية الشهر صدر حكم بالسجن مدة اثني عشر عاماً على زعيمي الجبهة الإسلامية للإنقاذ عبّاسي مدني، وعلي بلحاج، فقامت احتجاجات وتظاهرات في مدينة الجزائر وسرعان ما امتدت إلى بقية المدن.

وفي ١٦ صفر ١٤١٣هـ (١٥ آب ١٩٩٢م) دعا علي كافي إلى حوار تحضره الأحزاب كلها يعقد في الشهر القادم لإنهاء الصراع المدني.

اعتقل مدير أمن الرئاسة المقدّم مجبر عبد الوهاب، وقائد الحرس الرئاسي النقيب سايح صادق لأمورٍ تتعلق باغتيال محمد بوضياف.

وفي شهر شعبان ١٤١٣هـ (شباط ١٩٩٣م) تجدد الحكم العرفي إلى مدةٍ غير محدودةٍ، وتبع ذلك محاولة لاغتيال اللواء خالد نزار.

واقترح بلعيد عبد السلام فتح حوار مع المنظمات شبه العسكرية غير الرسمية.

وفي شهر رمضان ١٤١٣هـ (آذار ١٩٩٣م) التقى علي كافي مع ممثلين عن الهيئة الوطنية للمحاربين القدماء، وجبهة التحرير الوطنية، وصدر بيان رئاسي ينص على:

١ ـ توسعة المجلس الاستشاري الوطني.

٢ ـ تعديل الدستور.

٣ ـ وضع صيغة مقبولة للحكم لمرحلةٍ انتقاليةٍ.

وفي شهر ذي الحجة ١٤١٣هـ (حزيران ١٩٩٣م) أعلن المجلس الأعلى للدولة أنه سيحل نفسه بعد ستة أشهرٍ (نهاية كانون أول ١٩٩٣م).

وفي بداية عام ١٤١٤هـ (تموز ١٩٩٣م) حلّ أمين زروال مكان خالد نزار كوزيرٍ للدفاع، مع بقاء خالد نزار في عضوية المجلس الأعلى للدولة.

وفي شهر ربيع الأول ١٤١٤هـ (آب ١٩٩٣م) كلّف رضا مالك بتشكيل الوزارة مع احتفاظه بعضوية المجلس الأعلى للدولة. وفي اليوم نفسه اغتيل رئيس الوزراء الأسبق قاضي مرباح، وكان يشغل منصب قائد الحركة الجزائرية للعدل والتطوير.

وقبل الموعد الذي ضربه المجلس الأعلى للدولة ليحلّ نفسه أعلن أنه لن يُحلّ قبل انتخاب هيئة رئاسية في مؤتمر الحوار الوطني الذي سيعقد في شهر شعبان ١٤١٤هـ (كانون الثاني ١٩٩٤م)، وقد قاطعت أحزاب المعارضة الرئيسية المؤتمر باستثناء حركة حماس التي يتزعمها محفوظ نحناح. ونتيجة المؤتمر تمّ تعيين وزير الدفاع أمين زروال رئيساً للدولة لمدة ثلاث سنوات وذلك من قبل المجلس الأعلى للدولة. وبناءً على توصية مجلس الأمن الأعلى الذي يضمّ ثمانية أعضاء من كبار ضباط الجيش، وتمّ ذلك في ١٩ شعبان ١٤١٤هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٩٤م) وخلال المرحلة الانتقالية ستتم انتخابات رئاسية، وتعيين مجلس انتقال وطني. واحتفظ رئيس الدولة أمين زروال بحقيبة وزارة الدفاع، وبقي مجلس الوزراء كما هو دون أي تغييرٍ.

وفي غرّة ذي القعدة ١٤١٤هـ (١١ نيسان ١٩٩٤م) استقال رضا مالك من رئاسة مجلس الوزراء، وأخذ منصبه مقداد سيفي، وهو وزير

تجهيزات سابق، واحتفظ اثنا عشر وزيراً بحقائبهم الوزارية في الحكومة الجديدة التي أعلن عنها في ٥ ذي القعدة.

عينّ الرئيس أمين زروال المقربين إليه في مناصب حسّاسة ومنهم اللواء أحمد قايد الذي تمّ تعيينه قائداً للقوات البرية. وافتتح الرئيس في الشهر نفسه مجلس الانتقال الوطني، وهو هيئة تشريعية موقتة تضم مائتي عضو لمناقشة القضاية العامة ريثما يتم إجراء الانتخابات التشريعية. وانتخب عبد القادر بن صالح رئيساً للمجلس. وادعت الحكومة أن عدد الأحزاب التي شاركت في المجلس بلغ ٢١ حزباً ولكنها كانت في الواقع غير معروفة سوى «حماس» حيث كانت المقاعد الاثنان والعشرون التي كانت مخصصة للأحزاب الكبرى بقيت خاليةً.

وجرى الحوار عدة مرات غير أن الأحزاب الرئيسية كانت تقاطعه لعدم الجدية، ومحاولة فرض الرأي، والقرارات المسبقة.

وفي ١٠ ربيع الثاني ١٤١٥هـ (١٥ أيلول ١٩٩٤م) تمّ الإفراج عن عبّاسي مدني، وعلي بلحاج، وثلاثةٍ من رجال التنظيمات الإسلامية شبه العسكرية. ولكن وضع زعيما الجبهة الإسلامية للإنقاذ تحت الإقامة الجبرية. وقدّمت وزيرة الدولة لشؤون التضامن الوطني والأسرة «ليلى السلاوي» استقالتها احتجاجاً على إطلاق سراح هؤلاء السجناء.

ولم تشارك الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الحوار الوطني معلنة أن الحوار لن يتمّ إلاّ بعد إصدار عفوٍ عام، وبعد ردّ الاعتبار للجبهة، وبعد إلغاء حالة الطوارئ. وهددت مجموعة الجيش الإسلامية بالانتقام إذا دخلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في حوارٍ مع النظام.

وعملت الحركة البربرية للثقافة والديمقراطية على مقاطعة بدء العام الدراسي، وقامت بإضراب احتجاجاً على استبعاد اللغة البربرية من المنهج. وحاولت الحكومة تشكيل لجنة وطنية لتدريس اللغة البربرية. ولكن الحركة

البربرية أعلنت استمرار مقاطعتها المنشآت التعليمية حتى يُؤكّد للبربر لغة وطنية رسمية.

وفي أواخر جمادى الأولى ١٤١٥ هـ (نهاية تشرين الأول ١٩٩٤م) أعلن الرئيس أمين زروال أن الانتخابات الرئاسية ستجري قبل نهاية عام ١٩٩٥م، وقد رحّب الكثيرون بهذا الإعلان وانتقده آخرون لضيق الوقت، وتساءل فريق ثانٍ عن الغاية من هذه الانتخابات فيما إذا الجبهة الإسلامية للإنقاذ ستستبعد عن العملية السياسية.

وفي جمادى الآخرة ١٤١٥هـ (تشرين الثاني ١٩٩٤م) حضر ممثلون عن معظم الأحزاب الجزائرية الكبرى، ومنها الجبهة الإسلامية للإنقاذ مؤتمراً في روما بإيطاليا لمدة يومين نظّمته جالية «سانت إيجيديو» لرعاية المباحثات عن الأزمة الجزائرية، غير أن الحكومة الجزائرية انتقدت ذلك المؤتمر بشدة، وعدّته تدخّلاً في شؤونها الداخلية، وقد صادق المشتركون في المؤتمر جميعاً في اجتماعٍ لاحقٍ في روما جرى في شعبان ١٤١٥هـ (كانون الثاني ١٩٩٥م) على وثيقةٍ رفضت استخدام العنف للوصول إلى السلطة أو الحفاظ عليها، وحثّت النظام مطالبةً إيّاه بإلغاء الطوارئ وبذلك تُمهّد الطريق للمفاوضات بين الأطراف جميعها.

وفي جمادى الأولى ١٤١٥هـ (تشرين الأول ١٩٩٤م) أدانت منظمة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية قوات الأمن الجزائرية لاستخدام وسائل التعذيب على نطاقٍ واسعٍ والقتل المتعمّد للمعارضين من الإسلاميين بدلاً من الاعتقال. ذلك أن محاولة المسؤولين في الحفاظ على السلطة وتمسكهم الشديد بها قد جعل موقفهم متعنّتاً، واستبدادهم بشعاً، واتخاذهم للوسائل وحشياً حتى وصل بهم الأمر إلى تصفية بعض خصومهم، ثم اتهام الجبهة الإسلامية للإنقاذ بتلك العمليات، وتردد وسائل الإعلام العالمية المعادية للإسلام والمسلمين ذلك، في سبيل إلصاق فكرة الإرهاب بالملتزمين بالإسلام.

الفَصْلُ الثّالِث

الصّراعَات الدّاخِليّة

تبلغ مساحة الجزائر ٢,٣٨١,٧٤١ كيلومتراً مربعاً ، ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات عام ١٤١٠هـ أربعةً وعشرين مليوناً ، غير أن معظم السكان يقيمون في المناطق الأطلسية والسهول الساحلية والنجود ، والتي لا تزيد مساحتها على ١٠٪ من مساحة البلاد ، أما الصحراء التي تبلغ مساحتها ٩٠٪ من البلاد فلا يسكنها سوى أعداد قليلة لا تزيد كثيراً على ١٪ من السكان، وغالبيتهم يتجمّعون في واحات.

يكاد يتجانس السكان عقدياً لذلك لا نكاد نجد صراعاً يحمل أحد هذين الجانبين ، وإن كان هذا لا يمنع من استغلال الجانب البشري في الصراع أو تحريكه بأيدٍ أجنبيةٍ نتيجة عدم الوعي . وأكثر ما يحدث الصراع في الجزائر نتيجة دوافع شخصيةٍ أو تستغل هذه الناحية .

المجموعات البشرية: يتألّف السكان الأصليون من ثلاث مجموعاتٍ رئيسيةٍ ، وهي : العرب ، والبربر ، والزنوج ، وإن كانت المجموعة الأخيرة لا تشكّل إلاّ نسبةً ضئيلةً لا تصل إلى ١٪ ، أما المجموعتان الأساسيتان فهما العرب والبربر .

ثم جاءت مجموعتان دخيلتان ، وهم الأوربيون واليهود ، وإن كنا نستطيع أن نعدّها مجموعةً واحدةً ، إذ كانت مصالحهما واحدةً خلال

الأزمات ، كما يعدّون أنفسهم فئةً واحدةً ، وهي لا تزيد الآن على ٠,٥٪ بل لا تصل إلى هذه النسبة أبداً .

أولاً : السكان الأصليون : وهم ثلاث مجموعات .

أ ـ العرب : ويمثّلون غالبية سكان الجزائر ، وتبلغ نسبتهم ٧٠٪ ، ويقيمون في المناطق الساحلية والداخلية على حدٍّ سواء ، وقد جاء أكثرهم مع الفتح الإسلامي ، ومع هجرة بني هلال وبني سليم ، إضافةً إلى هجراتٍ متواليةٍ على مراحل التاريخ الإسلامي ، فالانتقال لا موانع له ما دام المنتقل مسلماً، وديار الإسلام داره ، وجنسيته عقيدته ، فأينما سار وجد إخوة ، ووجد الأبواب مفتّحةً له ، لذلك كثيراً ما كان المسلمون ينتقلون من بلاد العرب إلى الجزائر ، حتى غدوا أكثرية سكانها .

ب ـ البربر : ويمثّلون ما يقرب من ٢٩٪ من مجموع السكان ، ويقيم أكثرهم في المناطق الجبلية ، وخاصةً في (أوراس) و (القبائل) ، كما يعيش قسمٌ منهم في (وادي ميزاب) منطقة (غرداية) ، إضافةً إلى الطوارق الذين يتنقّلون في الجنوب .

جـ ـ الزنوج : ويقيمون في المناطق الجنوبية ، وهم أقسام ، ومنهم الزنوج الهجناء الذين ظهروا نتيجة اختلاط البربر بالزنوج .والحرطانيون الذين جيء بهم من وسط إفريقية في عهد الرقيق ، ثم تركّزوا في (سوف) و(ورغلة) و (توات) ، وارتبطوا بالأرض ، وأخذوا يمارسون حرفة الزراعة .

وما دام هؤلاء جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً وهي الإسلام ، لذلك لا يمكن أن تقوم صراعات بين هذه المجموعات ، وخاصةً أن الزنوج مرتبطون بالأرض ، ويعيشون في مناطق نائيةٍ عن مركز السلطة وتجمّع السكان ، كما أنهم متباعدون بعضهم عن بعض لذلك فهم لا يفكّرون بموضوعات الصراع، كما أن نسبتهم الضئيلة لا تسمح لهم إن فكّروا بذلك . وأما البربر فهم يشكّلون نسبةً يمكن أن تدخل في صراع مع العرب غير أن إخوة الإسلام

تجمعهم ، ومنذ أن دانوا بالإسلام لم يحدث صراعٌ بينهما إلاّ في حالاتٍ محدودةٍ ، وتنتهي ، غير أن قسماً منهم قد أخذ برأي الخوارج ، وقاتلوا ، غير أن قتالهم لم يكن كمجموعةٍ بشريةٍ ، وإنما كعقيدة ، وهذا ما سنتطرّق له عند البحث عن الصراعات العقدية .

وإن كان هذا لا يمنع من أن يستغلّ زعيمٌ أو ثائرٌ العصبية القومية لمصلحته ، وربما لقي دعماً من بعض أبناء قومه نتيجة البعد عن الإسلام أو بالأحرى عدم المعرفة الصحيحة للإسلام ، ونتيجة العصبية أو الحمية الجاهلية التي قضى عليها الإسلام ، وهذا ما نلاحظ أثره في بعض الحركات التي قامت بعد الاستقلال مثل حركة حسين آيت أحمد ، وكريم بلقاسم ، وغيرم ممن قاموا بحركاتٍ شخصيةٍ ، إذا اعتصموا في مناطقهم ، ووجدوا تأييداً من باب الحمية الجاهلية .

ويجب ألا ننسى أن الاستعمار الصليبي كان يحرص حرصاً شديداً على إثارة هذه الحمية الجاهلية بين الفريقين كي يحقّق بعض مصالحه ، وربما كان يصل أحياناً إلى بعض النجاح الجزئي ، لكن لا تلبث أن تثوب العقول إلى رشدها ، وتعود إلى صوابها من الطرفين فترمي بالعصبية الجاهلية ، وتعود إلى الأخوة الإسلامية ، ويلتقي بعضها مع بعض ضدّ العدوّ المشترك وهو الدخيل الصليبي .

ثانياً ـ الدخلاء : وهم مجموعتان : الأوربيون ، واليهود ، وكلاهما يمكن تصنيفه ضمن المجموعات البشرية ، كما يمكن وضعهما ضمن مجموعات العقيدة حيث الأغلبية الساحقة من المجموعة الأولى من النصارى ، والثانية من اليهود .

أ ـ الأوربيون : ويرجعون إلى أكثر من عشر جنسيات ، منهم : الفرنسيون ، والطليان ، والسويسريون ، والألمان ، والمالطيون ، واليونان ، والإسكندنافيون ، والإسبان و. . . . ، وكلهم لا يصل عددهم إلى المائة ألف ، فهم يشكّلون أقل من ٠,٥٪ ، وكلهم قد بدؤوا يستقرّون في الجزائر

بعد الاستعمار الفرنسي لها ، وقد أصبح عددهم يوم قيام الثورة :

٨٢٣,٠٠٠	فرنسيون
٦٠,٠٠٠	بقية الأوربيين
٣٨٣,٠٠٠	

وكانوا يشكّلون يوم ذاك أكثر من ١٠٪ من السكان ، إذ كان عدد المسلمين آنذاك ٨,٣٦٤,٦٥٢ مسلم . وكانت فرنسا ترغب في جعل الجزائر مقاطعةً فرنسيةً ، لذا كانت تشجِّع الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة على الهجرة إلى الجزائر ، وتفرض على كل من يأتي من الأوربيين إلى الجزائرٍ أن يكتسب الجنسية الفرنسية . كما كانت تطلب وتشجِّع الجزائريين على التجنّس بالجنسية الفرنسية للغاية نفسها ، وقد وافق على ذلك عددٌ من الجزائريين ؛ بغية الحصول على بعض الميزات التي كانت للأوربيين ، والتي لم يكن ليحصل عليها أهل البلاد أبداً بل ولا على جزءٍ منها .

وفي عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) غادر بعض الألمان والسويسريين بلادهم متجهين نحو أمريكا ، فبذلت السلطات الفرنسية كل ما في وسعها لتوجيههم نحو الجزائر ، وقدّمت لهم الأرض الطيّبة ، والحيوانات ، والبذور .

١ ـ **الفرنسيون** : كان الجنرال « بيجو » يرغم الجنود الذين أنهوا مدة خدمتهم بالجندية في الجزائر على البقاء فيها ، ويمنحهم الأرض . واقترح على حكومته تحويل الجنود إلى فلاحين في الجزائر ، غير أن مشروعه قد رُفض ، وكان هذا من جملة أسباب تقديم استقالته عام ١٢٦٣هـ (١٨٤٧م) .

وفي عام ١٢٥٧هـ استقدمت الحكومة الفرنسية عائلات من بلادها ، وبنت لهم قرى على الساحل الجزائري ، ومنحتهم الأراضي .

وعندما أثار الحزب الاشتراكي مشكلاتٍ في فرنسا ، ووقع الخلاف بينه وبين الحزب الجمهوري ، وانتصر الجمهوريون ؛ طردوا مائة ألف عامل ممن أثاروا المشكلات ، وحملوهم إلى الجزائر ، ومنحوهم الأراضي، حيث كانت

المساحات الموزّعة بين هكتارين وعشرين هكتاراً ، واشترطت عليهم استغلال هذه الأراضي خلال ثلاث سنوات؛ وإلّا استرجعتها الحكومة منهم، وذلك عام ١٢٦٤هـ ، غير أن الكثير منهم قد رجعوا ، إذ لم يجيدوا الزراعة ، فأكثرهم من مدينة باريس ، ومن الذين اعتادوا على الصناعة ، ثم إن انتشار مرض الكوليرا في تلك المرحلة قد أهلك عدداً منهم ، وخاف عدد ، واكتفى من الغنيمة بالإياب .

كان استيطان الفرنسيين في الجزائر إجبارياً في بداية الاحتلال ، وتوزيع الأراضي على المستوطنين مجاناً ، ثم أعطي الفرنسيون الحرية في الاستيطان مع التشجيع وتقديم الأراضي بأسعار رمزية ، غير أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وفقدها الألزاس واللورين لصالح عدوتها جعلها تعود إلى سياستها الأولى ، إذ حملت بعض سكان الألزاس واللورين مع الذين أتلفت الآفات الزراعية حقول عنبهم ، ونقلتهم إلى الجزائر ، ووزّعت عليهم الأراضي مجاناً شريطة الاستقرار في الجزائر .

وأخذ المستوطنون يزحفون نحو الداخل بعد أن ملؤوا الساحل ، وكان لا يسمح لأي مستوطن أن يبيع أرضه ، أو قسماً منها ، أو داره ؛ إلّا لمستوطن آخر، ويحرم بيعها لمسلم . وهكذا زادت ملكية الأوربيين للأرض ، ويمكن ملاحظة هذا من الجدول الآتي :

عام ١٢٦٦هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	١٥٠,٠٠٠ هكتار.
عام ١٢٨٧هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	٧٦٥,٠٠٠ هكتار.
عام ١٢٩٨هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	١,٢٤٥,٠٠٠ هكتار.
عام ١٣٠٨هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	١,٦٣٥,٠٠٠ هكتار.
عام ١٣١٨هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	١,٩١٢,٠٠٠ هكتار.
عام ١٣٣٨هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	٢,٥٨١,٠٠٠ هكتار.
عام ١٣٥٩هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	٣,٠٤٥,٠٠٠ هكتار.
عام ١٣٧٤هـ	كانت المساحات الممتلكة للمستوطنين الأوروبيين	٣,٠٢٨,٠٠٠ هكتار.

وهذا ما يعادل ١٥٪ من مساحة الأراضي الخصبة في الجزائر ، والتي كانت مساحتها يومذاك ٢٠,٨٣٠,٠٠٠ هكتار ، على حين أن نسبتهم من السكان لا تزيد على ١٠٪ ، وقد حصلوا على هذه الأراضي الطيّبة مجاناً وبمدةٍ قصيرةٍ ، فأصبحوا أثرياء ، ولهم نفوذ ، ومنهم المتعلّمون ، وكل ما في البلاد كأنه مخصّصٌ لهم ، فلتنظر إلى التعليم في العام الذي سبق الثورة الجزائرية :

المستوى	عدد الطلاب المسلمين	عدد الطلاب الأوربيين
الابتدائي	٢٦٩,٠٠٠ [وبقي ١,٩٦٩,٠٠٠ دون تعليم]	١٣٥,٠٠٠ [هذا عدد جميع الطلاب]
الثانوي	٤,١٥٩	٢٤,٠٠٠
جامعة الجزائر	٥٠٧	٥,١٣٢

٢ ـ **الطليان** : بعد أن احتلّت فرنسا الجزائر سمحت للإيطاليين بالهجرة إلى الجزائر كردٍّ فعلٍ للجميل الذي قدّمه الإيطاليون من مساعداتٍ في نقل المعدات والمواد إلى الجيش الفرنسي الباغي المعتدي ، وكان يحدو الطليان إلى الهجرة البطالة ، والفرار بعد الثورات ، وسيلان لعاب الأثرياء في امتلاك المساحات الواسعة من الأرض الجزائرية الخصبة . وكانت أعدادٌ منهم تعمل في مدِّ السكك الحديدية، ولقد وفد أكثرهم بعد أن قضت فرنسا على مقاومة محمد المقراني والحداد عام ١٢٩١هـ ، وقد وصل عددهم إلى أربعة وأربعين ألفاً عام ١٣٠٧هـ ، ولكن قلّ بعد ذلك ؛ لأن بعضهم قد رفض الجنسية الفرنسية التي كانت تُعطى إلزامياً لمن يُولد في الجزائر ، لذا فقد رجع قسمٌ منهم ، ومن بقي منهم قبيل الحرب العالمية الأولى يُقدّر بخمسةٍ وثلاثين ألفاً ، وغالباً ما يسكنون السواحل الشرقية .

٣ ـ **الإسبان** : وقد جاء معظمهم من جنوب شرقي إسبانيا ، وأقاموا في منطقة وهران ، ووصل عددهم قبيل الحرب العالمية الأولى إلى مائةٍ وخمسةٍ وخمسين ألفاً .

٤ ـ ثم هناك الألمان ، والسويسريون ، و . . . ، ونلاحظ توزّع

الأوربيين عام ١٣١٩هـ حسب الجنسيات على النحو التالي :

الفرنسيون	٣٩٤,٢٥٧	سويسريون	٣,٢٠٠
الإسبان	١٥٥,٢٦٥	بلجيكيون	١,٣٦٩
الطليان	٣٨,٧٩١	إنكليز	١,١٧١
مالطيون	١٢,٨١٥	نمساويون	٠,٣١٣
ألمان	٣,٣١٩		

وهناك أعدادٌ قليلةٌ من : روسيا ، وهولندا ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والدول الإسكندنافية .

وقد أخذ الأوربيون بالزيادة حتى الثورة الجزائرية ، ثم أخذوا بالتناقص حسب الجدول الآتي :

١٣٢٩هـ	٧٥٠,٠٠٠
١٣٣٩هـ	٧٩٠,٠٠٠
١٣٥٠هـ	٨٨٠,٠٠٠
١٣٧٤هـ	٨٨٣,٠٠٠

ثم أخذوا بالتناقص :

١٣٨٣هـ	١٠٠,٠٠٠
١٣٨٦هـ	٦٠,٠٠٠
١٣٨٧هـ	٥٠,٠٠٠

وهم من الفنيين ، والمدرسين ، الموظفين في منظمة التعاون الفني الجزائري ـ الفرنسي .

ب ـ **اليهود** : ويحسبون دائماً على الاستعمار الفرنسي ، ويعدّون ضمن المجموعة الأوربية ، وهذا لا يعني أنهم يعودون إلى أصولٍ أوربيةٍ ، وينظر إليهم من هذا الجانب ، لا ، فالواقع أن قسماً منهم يرجع إلى أصلٍ بربريٍّ ، واعتنق اليهودية ، فارتبط مع أتباعها ارتباطاً وثيقاً ، غير أن ارتباطهم مع الاستعمار الفرنسي إنما يعود إلى المصلحة قبل كل شيء ، فمن المعروف أن

اليهود أصحاب مصلحة ، ولا يسيرون في دربٍ إلّا إذا كانت لهم فيه منفعة أو لأبناء عقيدتهم ، وهم قد أفادوا من الاستعمار الفرنسي كثيراً ، وحصلوا على أرباحٍ وفيرةٍ ، وفي الوقت نفسه فقد استفاد منهم الاستعمار . لذا فقد عدّهم ضمن المجموعة الأوربية ، وأخذوا كل الميزات التي كانت للأوربيين .

ويعيش اليهود عادةً في المدن ، وأهمّ مراكز حياتهم في الجزائر إنما هو في العاصمة ، وتلمسان ، وقسنطينة . ولما كان ارتباطهم بالاستعمار الفرنسي ، وإفادتهم منه كثيراً ، لذا فإنهم لم يهاجروا إلى فلسطين عندما قامت لهم دولةٌ ، أو أقيمت على الظلم والبغي ، وإنما بقوا في الجزائر يحقّقون لأنفسهم الأرباح ، ويخدمون دولتهم بتأمين مصالحها من المستعمرين الفرنسيين ، ولقد وصل عددهم في الجزائر قبيل اندلاع الثورة فيها إلى مائةٍ وخمسين ألفاً ، ولما أحسّوا بقوّة الثورة ، وإمكانية انتصارها بعدما أحرزته من نصرٍ عام ١٣٨٠هـ أخذوا ينسحبون من جانب فرنسا تدريجياً ، ويتسللون إلى فلسطين ، فبقي عددهم مائة وسبعة عشر ألفاً ، ومع فرار المستعمرين هرب أكثرهم ، فلم يبقَ الآن أكثر من ألفٍ منهم في البلاد .

ولقد حدث أعنف صراع بين مجموعة الدخلاء [الأوربيون واليهود] الذين استوطنوا في الجزائر وبين سكانها الأصليين ، لقد عمل الدخلاء في اغتصاب الأرض ، ونهب الأموال والأملاك من المواطنين ، ومن أجل ذلك عملوا على إذلال السكان ، وإبادتهم بمختلف الوسائل ، وكان اليهود عيوناً للمستعمرين ، وأداةً لهم يبطشون بها ، وسخروا أموالهم ، وأنفسهم ، وأعوانهم في سبيل ذلك ، وقد حقّق المستعمرون بعض النجاح في بداية الأمر ، فانتصروا على الثورات وحركات المقاومة ، واشتروا بعض الضعفاء والخونة ، ثم فشلوا ، وانتصر الحقّ ، وغادروا البلاد هاربين ، ولم يبقَ إلّا من رضي عنه السكان الأصليون .

الصراعات العقدية: لا يوجد بين سكان الجزائر الأصليين سوى عقيدةٍ واحدةٍ هي الإسلام ، أما اليهود سواء الذين اعتنقوا اليهودية من البربر ، أم

اليهود الذين خرجوا من الأندلس عندما طُرد المسلمون منها ، واستقبلهم المسلمون ، فأقاموا في شمالي إفريقية ومنها الجزائر ، فهؤلاء اليهود لا يؤبه لهم لقلة عددهم . وما عدا السكان الأصليين فالدخلاء هم من النصارى ، ولهذا كان الصراع بين العقائد هو نفسه الصراع بين المجموعات البشرية ، فالدخلاء نصارى مع قلّةٍ من اليهود ، ولهذا كثيراً ما يُطلق على الأوربيين اسم نصارى ، لأن الاستعمار كان صليبياً ، فهو صراعٌ بين المسلمين والنصارى ، وأما السكان الأصليون فهم من المسلمين مع قلّةٍ قليلةٍ جداً من اليهود ، لذا كثيراً ما نستعمل كلمة المسلمين مرادفةً للجزائريين أو للعرب حتى بالنسبة إلى الذين لا يرون رأينا من المستعمرين أو من أصحاب العصبيات القومية والوطنية .

الصراعات الحزبية : لم تكن لتوجد صراعاتٌ بين الأحزاب في الجزائر ، وذلك لأنه عندما كانت تتعدّد الأحزاب كانت وجهتها واحدةً تقريباً ، وهي محاربة الاستعمار ، والعمل على الاستقلال أو على الأقل العمل على الاحتفاظ بالشخصية الجزائرية ؛ أو الإسلامية ، وكل الجهود كانت منصبّة في هذا الميدان مع شيءٍ من الخلافات المحلية القائمة على التباين في الفكر ؛ وقلّما كانت تظهر لعدم التميّز ، لأن أغلب السكان يومذاك كانوا لا يزالون على الفطرة ، حيث لم تكن الشيوعية قد اتخذت أخاديدها الإلحادية ، ولا بانت الرأسمالية بمجاريها العلمانية ، ولا توضّحت العصبيات بقنواتها المعادية للإسلام ، فالسكان جميعاً ينتمون للإسلام ، ولا يبدون غير ذلك ، والله أعلم بالسرائر . فلما استقلّت البلاد بقي حزبٌ واحدٌ ، هو الحزب الحاكم ، حزب جبهة التحرير الوطني ، ولا يسمح بالمعارضة أو المنافسة ، أو تأسيس حزب آخر .

وسُمح في الآونة الأخيرة بالتعددية الحزبية ، ووصل عدد الأحزاب قبل الانتخابات التي ستجري حسبما هو مخطّط في شهر ذي القعدة من عام ١٤١٠هـ (حزيران ١٩٩٠م) وصل إلى خمسةٍ وعشرين حزباً ، ولا شكّ أنها تضمّ

مختلف الأفكار المعروفة من إسلامية ، وعلمانية ، ومن أصحاب عصبيات ، وشيوعية ، واشتراكية ، ورأسمالية ، ومصلحية ، وتجمعات على أساس الزعامات ، والعصبيات المحلية ، وقد يتداخل بعضها مع بعض لعدم الوضوح الفكري الدقيق باستثناء الإسلاميين منها ، الذين لهم شخصيتهم المتميّزة ، وسلوكهم المتفرّد ، ومنهجهم الخاص بهم . وأكثر هذه التجمعات صغيرة ، ولكن بدا منها اتجاهان واضحان :

أولاً : الإتجاه الإسلامي الذي طغى على الشارع لطبيعة السكان الإسلامية ، ثم لانسجام الإسلام مع الفطرة البشرية ، وأخيراً لإفلاس جميع الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولتركها البشرية على هاوية الحرب دائماً ، وفي حالةٍ من الخواء الفكري ، والصراع المستمرّ ، والاستغلال الذي لا ينتهي ، والخداع الذي لا حدّ له حتى ضاق أصحاب هذه النظم أنفسهم بها ، وما أحداث أوربا الشرقية عنا ببعيد ، إذ ملّ الشيوعيون بأفكارهم التي يحملونها ، فانتفضوا يئدونها ، ويلقونها في الأرض ، ويدوسونها ، شاهدين على أنفسهم بالخطأ والضلال البعيد الذي كانوا يعيشون في ظلّه . فالإسلام عقيدة يؤمن به أتباعه أنه من عند خالق البشر للبشر أنفسهم ، وليس من وضع بقية البشر كبقية الأنظمة خاضع للنقض والمصلحة والتغيّر .

غير أن أصحاب هذا الإتجاه منقسمون على أنفسهم أيضاً ، فهم عدة إتجاهات تدخل فيما بينها في صراعات ، فرابطة الدعوة الإسلامية يغلب على شيخها أحمد سحنون الطيب إذ يمكن استغلاله من أي فئة حتى الرافضة التي أخذت تدخل إلى الجزائر حديثاً تستغلّه ، فليس غريباً أن يخدعه تنظيمٌ آخر بشيءٍ من الكلام المعسول أو الادعاء الباطل ولو مؤقّتاً ، وجمعية الإرشاد والإصلاح (الإخوان المسلمون) ينافسون أصحاب الاتجاه الإسلامي كمنافستهم لبقية الاتجاهات الأخرى ، فالحزبية عندهم أولاً ثم يأتي الاتجاه ثانياً ، لقد غدا التعصّب الحزبي واضحاً في هذه المجموعة ، فالجميع لديهم أحزابٌ بغضِّ النظر عن الأفكار التي تحملها ، وربما كانت منافستهم للجماعات

الإسلامية أكبر ؛ لأنها منافسة على كسب أشخاصٍ يحملون أفكاراً إسلامية فالصراع على ربح الأفراد ، وضمّهم إلى صفوفهم قبل غيرهم ، وعلى البقاء ، والتمثيل للاتجاه . وهذا ما أخذ يظهر بتأييد حزب جبهة التحرير الوطني في الانتخابات بدعوى أنها تضمّ بعض عناصرهم ، فهم بزعمهم يؤيِّدون أفراداً لا اتجاهاً ، وهذا تفسيرٌ خاطئ ، إذ أن هؤلاء الأفراد يمثِّلون الاتجاه ولا يمثِّلون أنفسهم فهم أفراد ضمن اتجاهٍ علمانيٍّ .

أما بقية التنظيمات فيبدو أنها حتى الآن على شيءٍ من التفاهم ، والتنسيق ، والتأييد بعضها لبعض .

ثانياً : الاتجاه العلماني ، وتمثّله عدة تجمعات ، والصراعات الحزبية بينها واضحة في سبيل الزعامة والمصلحة ، ونتيجة المسارات المتعددة في الشيوعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والعصبية ، والمهنية ، والإقليمية ، غير أن أكبرها على ما يبدو حزب جبهة التحرير الوطني ، إذ ضمّت أثناء حكمها ، وتفرّدها بالسلطة مدة الاستقلال كلها كل أصحاب المصالح والمنافع والأهواء والاتجاهات التي لا ترى مانعاً من ركوب أي تيارٍ لقطع مرحلةٍ من مراحل عملها للوصول لمبتغاها ، ولذا فإن الانقسام أخذ يظهر في هذا الحزب في سبيل القفز إلى القمة ، وأخذ كل فريق يتخذ نقطةً ينادي بها كي يبرز أو حتى يتميّز ، ومن هذه الرؤوس مثلاً عبد العزيز بوتفليقة الذي خبا نجمه منذ مدة ويريد الآن أن يعود للظهور ، فاتخذ نداءً له هو دعوة أحمد بن بلّة للعودة للبلاد ، وبهذا النداء أخذ يظهر على الساحة من جديد ، وكذا كل العناصر التي تريد لنفسها الزعامة ، وما أكثرهم ! ، فالحزب في بدايته تجمّعٌ من عناصر متباينةٍ ، ثم هو صاحب السلطة التي تكون دائماً مهوىً لتجمّع أصحاب المصالح ، بل ولأهل الأفكار المادية الذين يخفون أفكارهم مؤقّتاً ليرتعوا في مغانم السلطة ، وليكسبوا عناصر إلى جانبهم بحكم مركزهم الذي يشغلونه .

ومع الزمن وحتى الانتخابات ستتميّز التجمّعات بعضها عن بعض ، وربما يلتقي أحدها مع الآخر في سبيل منافسة تجمّعٍ ثانٍ قوي ، أو لتقارب

أفكارها والتقائها في جوانب من المنهج .

الصراعات الفردية : عندما تشكّلت جبهة التحرير الوطني الجزائري ضمّت مجموعةً من رجالات البلاد سواء أكانوا يلتقون برابطةٍ حزبيةٍ قديمةٍ أم لا يلتقون ، ثم انضمّت إليها مجموعاتٌ أخرى من تجمّعاتٍ سياسيةٍ مثل جمعية العلماء ، والاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان ، وسواء انضمّ هؤلاء بشكل جماعي أم بشكل فردي ، فإن الجبهة قد غدت مجموعةً متفقةً في الأهداف المرحلية ؛ وهي مقاومة الاستعمار ، ومتفقةً في الغايات المرحلية ؛ وهي الاستقلال ، وتأسيس دولةٍ جزائريةٍ ذات سيادة ، ولها حكومتها الخاصة المسؤولة أمام المجلس النيابي المنتخب ، ولكن لم يكن اتفاقٌ على منهج الحكم ، فهناك جمعية العلماء التي ترى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وهناك الذين يرون تطبيق الحكم الديمقراطي ، كما لم يكن هناك اتفاقٌ على ترتيب الرجالات وتوزيع المناصب فيما بينهم ، لذا فإنه لما تحقّقت الغاية المرحلية ، وآل الأمر إلى القادة وقع الخلاف فيما بينهم حسب الأفكار ، وحسب الرغبة في الزعامة واستلام المراكز ، لقد كان التضامن المرحلي بين أنصار الحكم الديمقراطي ففازوا بالموضوع ، واختفت جمعية العلماء من الساحة ، ثم اختلف الذين كانوا بالأمس متفقين ، فاختلف الزعماء فيما بينهم ، وظهر الصراع الإقليمي أولاً ، فاختلف كريم بلقاسم في جماعة من منطقة تيزي أوزو أو رجال القبائل مع جماعة تلمسان الذين كان يمثّلهم محمد خيضر ، وفرحات عباس ، وأحمد بن بلّة ، وهواري بومدين ، أو نستطيع أن نقول : إن الخلاف كان بين العرب والبربر .

ثم ظهر الخلاف بين رئيس الجمهورية فرحات عباس وبين رئيس الحكومة أحمد بن بلّة ، واضطرّ فرحات عباس إلى ترك السياسة والاعتزال ، وتسلّم أحمد بن بلّة رئاسة الجمهورية .

ثم ظهر الخلاف الشخصي بين رفاق الأمس ، زملاء السجن ، وإخوان الاعتقال والقيادة ، والاختطاف ، ونجح أحمد بن بلّه بالتفرّد بالسلطة ، ما

دام الحكم بيده فقضى على حسين آيت أحمد ، وقام كريم بلقاسم بحركة ، وانتهى بعدها ، وغادر البلاد محمد خيضر ، واغتيل في إسبانيا في ظروفٍ غامضةٍ ، وغاب عن الساحة محمد بوضياف ، ورابح بيطاط ، وبقي أحمد بن بلّة وحده في الميدان ولا منافس له .

ثم وقع الخلاف بين رئيس الجمهورية ، رئيس الوزراء أحمد بن بلّة وبين وزير الدفاع هواري بومدين ، فشكّل وزير الدفاع مجلساً عسكرياً أزاح أحمد بن بلّة الذي عاش تحت الإقامة الجبرية ، واستلم السلطة هواري بومدين .

الصراع الحضاري : نشأت جماعةٌ في الجزائر نتيجة الاستعمار تعلّمت اللغة الفرنسية ، ودرست في فرنسا ، وتوظّفت لدى الحكومة الفرنسية ، فارتبطت فيها نتيجة مصالحها ، وغدت تدافع عنها حمايةً لكيانها ، كما أن فئةً أخرى قد فُتنت بالحضارة المادية فتعلّقت بها ، وأحبّت أن تنسلخ عن أمتها وحضارتها ، ونستطيع أن نقول : إن كلتا الفئتين قد تفرنست ، ورغبت في بقاء اللغة الفرنسية اللغة الرسمية ولغة التعليم ، حفاظاً على ثقافتها ، وحرصاً على بقائها تتكلّم اللغة التي تعلّمتها ، وخوفاً من أن لا تستطيع تعلّم اللغة العربية فتخشى أن لا تبقى في مراكزها التي هي فيها ، وحجتها في ذلك أن اللغة الفرنسية لغة عالمية ، وأنها لغة من لغات العلوم الحديثة ، على حين أن اللغة العربية لا يعرفها أحد خارج حدود أبنائها ، وأنها بعيدة عن لغات العلم والمعرفة .

ومن ناحية ثانية هناك مجموعة ترى أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، ولغة التعليم أيضاً ؛ حفاظاً على لغتنا ، وحرصاً على عقيدتنا الإسلامية التي معظم علومها باللغة العربية ، ولضرورة ارتباطنا بتراثنا ، وحضارتنا ، وماضينا ، فالأمة التي تتخلّى عن ماضيها ، وتترك لغتها ؛ لا تلبث أن تفقد شخصيتها وتضيع . وإننا أمةٌ لنا ماضينا ، ولنا حضارتنا ، ويمكن للغتنا أن تواكب العلوم كلها ، وهذا مرتبطٌ بأبنائها ، وباعتزازهم بأمتهم . كما

نختلف عن الفرنسيين في كل شيء ؛ في الحضارة ، وفي الحياة الاجتماعية ، في العقيدة ، وقد قمنا نقاوم الاستعمار الذي أراد أن يُفقدنا شخصيتنا ، وحاربنا الصليبيين الذين أرادوا إذلالنا ، وقدّمنا الضحايا والشهداء حفاظاً على عقيدتنا ، وشخصيتنا ، وكياننا ، فلما تمّ لنا ما نريد نعود مرةً أخرى نرتمي في أحضان الأعداء ، ونستسلم لهم ، ونصبح تبعاً لهم حتى بالفكر .

ويدور صراعٌ عنيفٌ اليوم في الجزائر بين التعريب وأنصاره ويؤيّد التعريب المسلمون الذين يرون أن هذا من العقيدة ، وبعض الذين يتعصّبون عصبيةً جاهليةً لقومهم ولغتهم ؛ وبين الفرنسية ، وترك العربية ، ويدعم هذا المتفرنسون ، والمستهترون ، والذين أصابتهم الهزيمة النفسية ، ومن بين هؤلاء أهل الفن والطبقة الوضيعة في المجتمع ، لذا نلاحظ أنه كلما تقدّم التعريب خطوةً نحو الأمام وُضعت العراقيل في وجهه ، فتباطأت حركته ، ولا شكّ أن النشاط الإسلامي الحديث والوعي الفكري سيكونان عاملاً قوياً في دفع حركة التعريب ، وإن كانت الأحزاب الإلحادية وذات العصبيات الجاهلية تحاول أن تقف في وجهه على الدوام .

الباب الرابع

المغرب

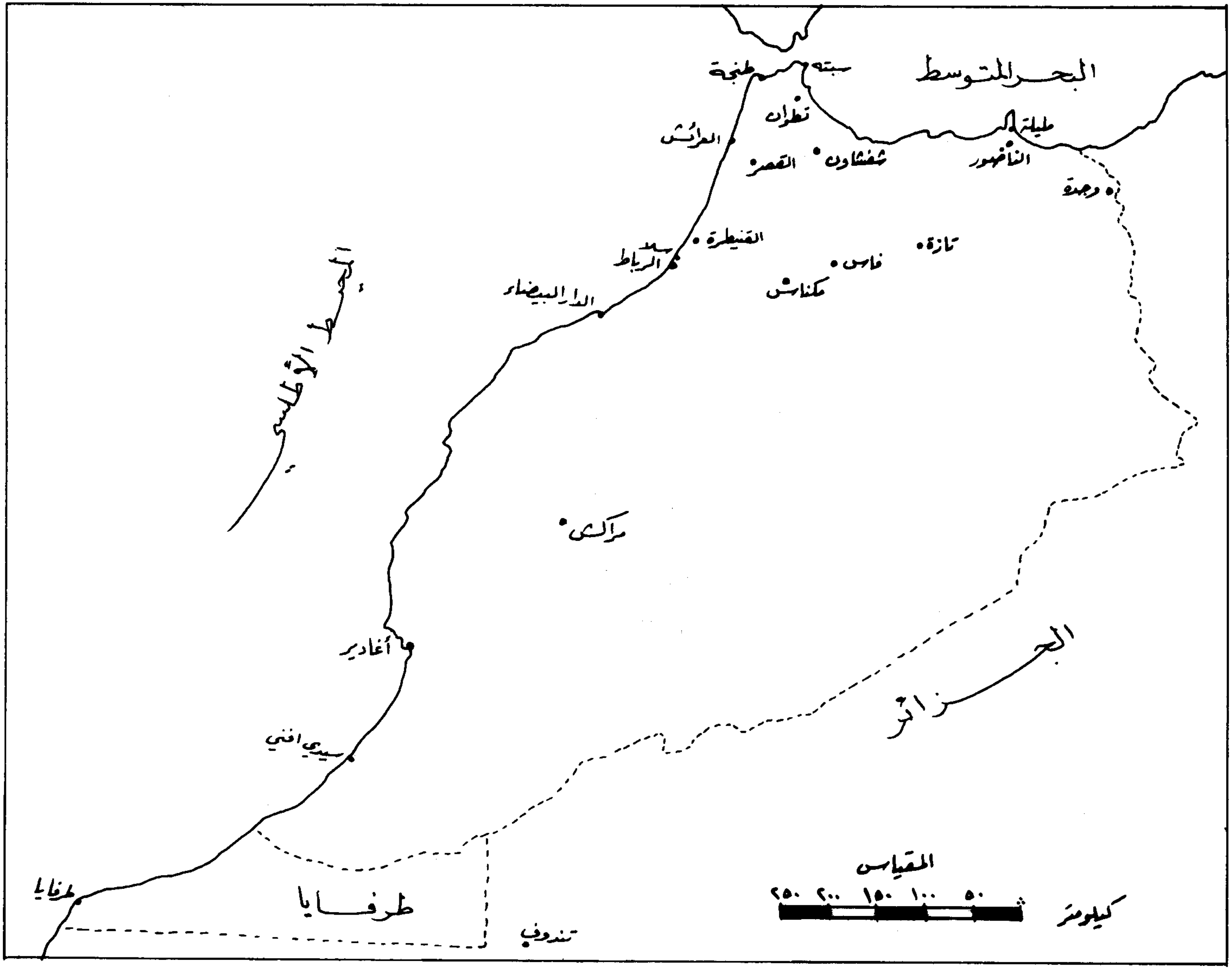
البحر المتوسط
سبتة
طنجة
تطوان
العرائش
القصر
شفشاون
مليلية
الناظور
وجدة
القنيطرة
سلا
الرباط
الدار البيضاء
تازة
فاس
مكناس
المحيط الأطلسي
مراكش
الجزائر
أغادير
سيدي افني
طرفايا
تندوف
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
كيلومتر

لمحة عن تاريخ المغرب قبل إلغاء الخلافة

سقطت الأندلس بيد الإسبان والبرتغاليين ، ويحكم المغرب بنو وطّاس ، ولم يكتفِ النصارى بما فعلوه بمسلمي الأندلس ، بل أرادوا متابعتهم ، فاحتلّ البرتغاليون شواطىء المغرب ، فكره الناس بني وطّاس ، واتجهوا إلى شيخ السعديين الذين كانوا يقيمون في وادي (درعة) في واحة (تغمدرت) ، وينتسب السعديون إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ومنهم من يجعل نسبهم إلى قبيلة حليمة السعدية ـ مرضعة رسول الله ﷺ ـ .

استطاع السعديون أن يدخلوا مدينة فاس ، وأن يقضوا على دولة بني وطّاس عام ٩٥٥هـ ، وأعلن مؤسّس دولة السعديين أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله الجهاد ، وقاتل النصارى ، وساعده ولداه أحمد الأعرج ، ومحمد المهدي المعروف بالشيخ ، وهما اللذان توليا الأمر بعده . وساعد العثمانيون السعديين ، وأمدّوهم ، وحثّوهم على قتال الصليبيين ، غير أن الصليبيين قد استطاعوا أن يوقعوا بين الأخوة بنقل معلوماتٍ كاذبةٍ تتحدّث عن رغبة العثمانيين في دخول المغرب ، فوقعت الشكوك ، وحثّ النصارى سلطان السعديين أحمد الأعرج ، ودعموه لقتال العثمانيين ، ووقع الخلاف وحدث القتال وشُحن المغاربة بالكراهية ضدّ العثمانيين وسَعِدَ الصليبيون بما تمّ ، فكان يستعين أحد السلاطين بالصليبيين لتوطيد حكمه ، أو لاستعادته من أحد أفراد أسرته فيستعين خصمه بالعثمانيين ، وهكذا ، وتكون الخسائر دائماً من

المسلمين ؛ لأنهم في كلتا الحالتين في الطرفين المتنازعين ، وفي معركة (وادي المخازن) شمال العرائش مثلاً جاءت جيوشٌ من ألمانيا وفرنسا ، وفرسان البابا ، وإسبانيا ، وانضمّت إلى البرتغاليين الذين يدعمون السلطان السعدي محمد المتوكل على الله والذي ينافس ابن أخيه السلطان أحمد المنصور الذي أمدّه العثمانيون ، وانتصر السلطان أحمد المنصور في تلك المعركة التي حدثت عام ٩٨٦هـ ، وقُتل في المعركة ملك البرتغال ، والسلطان السعدي محمد المتوكل على الله الذي كان بجانب البرتغاليين ، والسلطان عبد الملك أخو أحمد المنصور ، حتى سمّيت تلك المعركة بمعركة الملوك الثلاثة .

توطّدت علاقة المنصور بعدها مع الإسبان ، وساءت مع العثمانيين ، واتجه نحو قلب إفريقية ، وحرص على مواجهة البرتغاليين ، وطردهم من الشواطىء المغربية. والإسلامية كافة في غامبيا ، و (أرغين) وغيرها ، غير أن الإسبان قد احتلّوا بلاد البرتغال ، وحلّوا مكانهم في مستعمراتهم . وحاول المنصور أن يتفاهم مع إنكلترا ، ولكن لم يوفّق كثيراً .

وتُوفي المنصور عام ١٠١٢هـ ، واختلف أبناؤه بعضهم مع بعض ، إذ قام المأمون وأبو الفوارس ضدّ أخيهم الكبير زيدان المرشّح لاستلام الحكم ، وتسلّم المأمون السلطة ، وولّى أخاه أبا الفوارس منطقة مراكش ، ثم تنكّر له ، فوقعت بينهما الوقيعة ، وقام زيدان فسيطر على فاس ، وضعُف أمر المأمون ؛ فاتجه إلى الصليبيين الإسبان يطلب مساعدتهم مقابل إعطائهم ميناء (العرائش) ، وفضح لهم أمر الأندلسيين الذين اتفقوا مع الجزائريين للقيام بحركةٍ ضدّ الإسبان وإعادة المسلمين إلى الأندلس ، وهذا ما حمل الإسبان على القضاء على من بقي من المسلمين في الأندلس ، فكره المسلمون المأمون ، وسقطت هيبته من نفوسهم ، فقُتل عام ١٠٢٢هـ في مدينة (تطوان) .

وجاء إلى الحكم عبد الله بن المأمون يحمل وزر أبيه ، لذا كان أمره ضعيفاً ، فلم يجرؤ على المطالبة بالسلطان على السعديين ، ولم يتمكّن زيدان

من بسط نفوذه على الأقاليم كلها ، وأخذ شأن السعديين يضمحل ، وتوالى ثلاثة سلاطين حتى زالت دولتهم ، وهم : عبد الملك الثاني ، ومحمد الثاني الأصغر ، وأحمد العباس ، ولكن ظهر القائد الفذّ محمد العياشي ، وأخذ على عاتقه محاربة البرتغاليين في (أزمور) ، والإسبان في (العرائش) و (المهدية) .

وفي الوقت نفسه ظهرت قوة الأشراف العلويين الذين قوي نفوذهم في مدينة (سجلماسة) ومنطقة (تافيللت) كلها ، وكانوا قد وصلوا إليها في القرن الثامن ، ثم امتدّ نفوذهم إلى منطقة (السوس) و (وادي درعة) عندما ضعف أمر السعديين ، وبرز محمد الشريف بن علي بن يوسف[1] الذي بايعه أهله (سجلماسة) عام ١٠٤١هـ ، ونازعه « بنو الزبير » أصحاب حصن (تايو عصامت) ، فأرسل لهم ابنه محمداً في نحو مائتي فارس ، فباغتهم ، واستولى على الحصن ، وكان الحصن يتبع لسلطان (السوس) أبي حسن السملالي ، فأرسل هذا إلى عامله بـ (سلجماسة) التي كانت تتبع لسلطان (السوس) أيضاً ، فقبض العمل على الشريف ، وبعثه إلى السوس ، فاعتُقل مدة ، وافتكه ولده محمد بمالٍ جزيل عام ١٠٤٧هـ ، وكان ابنه قد قام بالأمر في غيابه ، فنزل له الشريف عن بيعته عام ١٠٥٠هـ ، وانقطع هو للعبادة إلى أن تُوفي في (سجلماسة) عام ١٠٦٩هـ .

قام محمد بن محمد الشريف عندما كان أبوه معتقلاً في السوس ، واستمال إليه هل (سجلماسة) قاعدة منطقة (تافيللت) ، فبايعه أهلها عام ١٠٥٠هـ ، فقاتل بهم أبا حسن السملالي الذي يعتقل والده ، فانتصر عليه ، وتغلّب على (وادي درعة) ، وأغار على مدينة (فاس) فبايعه أهلها ، ثم خرج منها منهزماً ، واتجه نحو الصحراء ، وإلى شرق المغرب ، والتجأ إلى

---

(١) محمد الشريف بن علي بن يوسف بن علي الشريف بن حسن بن محمد بن حسن بن قاسم الحسني . وُلد في (سجلماسة) عام ٩٩٧هـ ، ونشأ فيها ، وهو جد الملوك من الأسرة العلوية التي تحكم المغرب حتى اليوم .

القبائل، فبايعته عدة قبائل، واستولى على مدينة (وجده)، وجعل مقرّه بها، ويرتحل أحياناً إلى (سجلماسة)، فيقيم بها، ولما مات أبوه جُدّدت له البيعة، ولكن لم يلبث أن خرج عليه أخوه الرشيد، وقاتله قُرب (وجده) ، فأصابته رصاصة ، وقُتل عام ١٠٧٥هـ ، واستلم أخوه الرشيد[1] السلطة .

دخل الرشيد مدينة (تازة) ، غير أن (سجلماسة) قد امتنعت عليه ، ورفضت بيعته ، فأخضعها ، وزحف على فاس ، فدخلها عام ١٠٧٦هـ ، ثم دخل مراكش ، وجعلها قاعدةً له ، وأخضع بلاد السوس ، وجهّز جيشاً لدخول طنجة ، وإنقاذها من أيدي الصليبيين ، وتُوفي عام ١٠٨٢هـ .

بعد وفاة الرشيد بويع أخاه إسماعيل[2] الذي كان عاملاً على مكناسة من قِبل أخيه، فبايعه أهلها عند وفاة أخيه، كما بايعه أهل فاس، ودخل مراكش عنوةً عام ١٠٨٣هـ، ففرّ ابن محرز إلى فاس، واستمرّت الوقائع بينهما حتى قُتل ابن محرز عام ١٠٩٦هـ. أخذ يحارب ولاية الجزائر، واتجه إلى مخالفة فرنسا لأنها لم تساعده في مهمته بالقتال في الجزائر، وربما بدأ تفكير فرنسا باحتلال الجزائر من ذلك الوقت ، كما وصلت جيوشه إلى قلب إفريقية ، ولكنه لم يصطدم مع الصليبيين حسب البيعة التي أعطاها المغاربة لمؤسّس الدولة محمد الشريف ، وهذا ما جعل الشعب يستاء جداً من شيوخ هذه

---

(١) الرشيد بن محمد الشريف وُلد في (تافيللت) عام ١٠٤٠هـ ، كان محباً للعلم والعلماء ، نُعت بأمير المؤمنين ، من أثاره في مدينة فاس مدرسة « الشراطين » لطلبة العلم وتشتمل على ٢٣٢ بيتاً ، والخزانة العلمية ، ضرب النقود ، ونقش عليها : (الله ربنا ، محمد رسولنا ، الرشيد إمامنا) ، وعلى الجانب الآخر (لا حول ولا قوة إلّا بالله) ضرب بفاس عام ١٠٨١هـ ، جمح به جواده فأصابه فرع شجرة نارنج ، فهشم رأسه ومات ، ودُفن بقصبة مراكش ، ثم نُقل إلى فاس .

(٢) إسماعيل بن محمد الشريف ، أبو النصر المظفر بالله ، أمير المؤمنين ، وُلد عام ١٠٥٦هـ في (سجلماسة) كانت أيامه أسعد أيام هذه الدولة ، كان في سجونه خمسة وعشرون ألف أسير يعملون في البناء للسلطان ، وبين أيديهم ثلاثون ألفاً من السجناء المجرمين ، وقد بنى ستاً وسبعين قلعة .

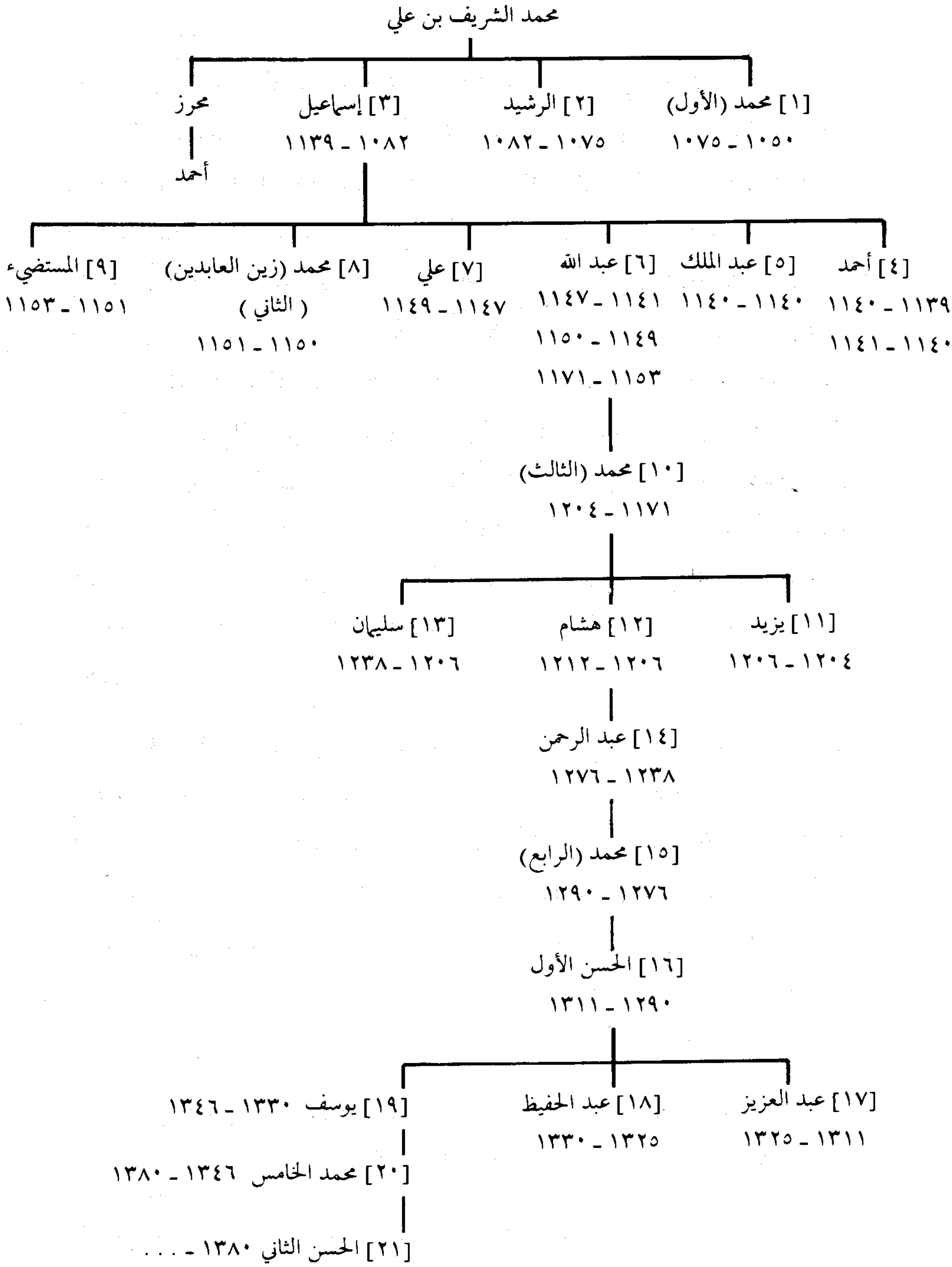
محمد الشريف بن علي
[١] محمد (الأول)
١٠٥٠ ـ ١٠٧٥
[٢] الرشيد
١٠٧٥ ـ ١٠٨٢
[٣] إسماعيل
١٠٨٢ ـ ١١٣٩
محرز
أحمد
[٤] أحمد
١١٣٩ ـ ١١٤٠
١١٤٠ ـ ١١٤١
[٥] عبد الملك
١١٤٠ ـ ١١٤٠
[٦] عبد الله
١١٤١ ـ ١١٤٧
١١٤٩ ـ ١١٥٠
١١٥٣ ـ ١١٧١
[٧] علي
١١٤٧ ـ ١١٤٩
[٨] محمد (زين العابدين)
(الثاني)
١١٥٠ ـ ١١٥١
[٩] المستضيء
١١٥١ ـ ١١٥٣
[١٠] محمد (الثالث)
١١٧١ ـ ١٢٠٤
[١١] يزيد
١٢٠٤ ـ ١٢٠٦
[١٢] هشام
١٢٠٦ ـ ١٢١٢
[١٣] سليمان
١٢٠٦ ـ ١٢٣٨
[١٤] عبد الرحمن
١٢٣٨ ـ ١٢٧٦
[١٥] محمد (الرابع)
١٢٧٦ ـ ١٢٩٠
[١٦] الحسن الأول
١٢٩٠ ـ ١٣١١
[١٧] عبد العزيز
١٣١١ ـ ١٣٢٥
[١٨] عبد الحفيظ
١٣٢٥ ـ ١٣٣٠
[١٩] يوسف ١٣٣٠ ـ ١٣٤٦
[٢٠] محمد الخامس ١٣٤٦ ـ ١٣٨٠
[٢١] الحسن الثاني ١٣٨٠ ـ . . .

الأسرة من بداية حكمهم ، وجرت عدة محاولات لقتل السلطان إسماعيل ، وحدثت الفوضى في مناطق كثيرة ؛ في (فاس) وفي (تازة) ، وفي الريف (تطوان) ، وجاء الخضر غيلان من الجزائر إلى تطوان عاصمة بلاد الريف ، فالتفّ الناس حوله، وبايعه أهل (أصيلا) و (القصر) ، وأخذ يدعو إلى وحدة المسلمين ، والوقوف في وجه الصليبيين ، غير أن السلطان إسماعيل هاجمه بقواتٍ كثيفةٍ إذ لم يكن معه إلاّ القليل من الجند ، وأحسّ إسماعيل بعدها بخطئه ؛ فالتفت إلى منازلة النصارى، واستطاع أن يستردّ (طنجة) من الإنكليز [كان الإنكليز قد أخذوا (طنجة) من البرتغاليين عام ١٠٧٢هـ أيام السعديين مهراً لملكتهم من ملك البرتغال الذي تزوّجها . أما البرتغاليون فكانوا قد احتلّوا (طنجة) عام ٨١٨هـ في عهد بني وطّاس] ، كما استردّ السلطان إسماعيل (المهدية) عام ١٠٩٩هـ ، و (العرائش) عام ١١١١هـ ، و (أصيلا) عام ١١١٣هـ ، وتُوفي إسماعيل عام ١١٣٩هـ بعد أن حكم سبعاً وخمسين سنة .

بعد وفاة إسماعيل اختلف ابناؤه بعضهم مع بعض، فقد بُويع ابنه أحمد(١) ، ولكن لم يلبث أن ثار عليه أهل فاس ، وتبعهم أهل مكناسة ، فقبضوا عليه ، وبايعوا أخاه عبد الملك(٢) ، فنفى أخاه أحمد إلى (سجلماسة) ، ثم انتفض العبيد على عبد الملك ، ففرّ إلى (فاس) ، وأعيد أحمد ثانيةً إلى الملك ، وسار إلى (فاس) ، وقبض على أخيه عبد الملك ، ولما أحسّ أحمد بدنّو أجله أمر بخنق أخيه عبد الملك ، فخُنق ، ومات هو بعده

---

(١) أحمد بن إسماعيل ، أبو العباس الذهبي ، بويع بعد وفاة أبيه ، فبسط يده بالعطاء حتى عُرف بالذهبي ، قتل عمال أبيه ، وأركان دولته ، وكان ضعيفاً يستشير عبيده في شؤون الدولة ، فتسلّطوا عليه وعلى الناس ، ومات مسلولاً .

(٢) عبد الملك بن إسماعيل ، أبو مروان ، كان أميراً على السوس من قبل أخيه ، فلما رأى تسلّط العبيد على أخيه وعلى الدولة ، أراد تطهير الحكم منهم فثار العبيد عليه ، واتهموه بالبخل ، ونهبوا مكناسة ، وأرسلوا أخاه أحمد المخلوع فجددوا له البيعة .

بثلاثة أيام عام ١١٤١هـ . .

بعد وفاة أحمد تولّى أخوه الثالث عبد الله ، وقد خُلع أربع مرات ، وحكم ست مرات ، وتُوفي عام ١١٧١هـ ، فحكم علي[1]، ومحمد زين العابدين[2] ، والمستضيء[3] .

وتولّى أمر الأشراف محمد بن عبد الله بن إسماعيل[4] ، واتّخذ مدينة (مراكش) عاصمةً له ، وكانت المدن في اضطرابٍ ؛ فأصلح أمرها ، وزارها ، وبنى مدينة (الصويرة) ، وصنع السفن . وغزا الفرنسيون مينائي (سلا) و (العرائش) ؛ فصدّهم ، وغزا البرتغاليون ميناء (الجديدة) فردّهم ، وأنفق أموالاً كثيراً على فكِّ أسرى المسلمين، ولكنه جعل (طنجة) مركزاً للأوربيين .

---

(١) علي بن إسماعيل ، الأعرج ، كان مقره بسجلماسة ، فلما خلع العبيد أخاه عبد الله بايع له أهل فاس ، فجاء إليها ، ولكن خلعه العبيد بعد ما يقرب من عامين وأعادوا أخاه عبد الله المخلوع ، فذهب علي إلى (تازة) ثم سمح له أخوه بالعودة إلى سجلماسة عام ١١٦٩هـ ، فلم يلبث أن توفي عام ١١٧٠هـ .

(٢) محمد بن إسماعيل ، زين العابدين ، ابن عُريبة : بويع له بفاس ، بعد خلع أبيه عبد الله للمرة الثانية عام ١١٥٠هـ ، وسار إلى مكناسة فاحتاج إلى المال فاستولى على محصول المزارع ، وأرسل أخاه الوليد إلى فاس ، وأمره بمصادرة الأموال ، ولحق به فقتل أثرياءها ، وحاز أموالهم ، فثار عليه العبيد وخلعوه ، واستدعوا أخاه المستضيء من (تافيللت) ، وبايعوه ، فلما وصل المستضيء إلى فاس أرسل أخاه محمداً إلى سجلماسة مكبلاً بالحديد ، وأمر بسجنه ، فبقي في السجن حتى مات عام ١١٨٩هـ .

(٣) المستضيء بنور الله بن إسماعيل: حكم بعد خلع أخيه محمد ، فقد استدعوه من (تافيللت) ، فجاء إلى مكناسة فبايعوه ، واستقرّ بفاس ، وصادر الأموال ، وقتل كل من في السجون ، وتآمر عليه العبيد ، فخافهم ، فخرج من مكناسة مع بعض أنصاره إلى طنجة ، ثم سار إلى مراكش ، وبقي حتى عام ١١٥٥هـ ، وقاتل من أجل الملك ، ولكن لم يفلح ، ولم ينقطع القتال بينه وبين أخيه عبد الله ، ثم سار عام ١١٦٤هـ إلى مدينة (آصيلا) ، واشتغل فيها بالتجارة ، وأخيراً إلى سجلماسة ، وتوفي فيها عام ١١٧٣هـ .

(٤) محمد بن عبد الله بن إسماعيل : وُلد عام ١١٣٤ ، وكان أيام أبيه أميراً على مدينة مراكش ، اشتهر بالعلم ، وله بعض المؤلفات في الحديث ، وفك الأسرى ، وتوفي عام ١٢٠٤هـ .

وبعد وفاة محمد عام ١٢٠٤هـ توالى أولاده على الحكم ، فكان يزيد بعده ، إذ ثار على أبيه على حين أنه كان يقدِّمه ، فسار إليه والده ليؤدِّبه ، غير أنه قد لقي حتفه في طريقه إليه، وكان يزيد قريباً من تطوان، فبايعه أهلها، وجاءته وهو في تطوان بيعة أهالي (طنجة) و (العرائش) و (أصيلا) و (فاس) ، وانتقل إلى (مكناسة) ، فجاءته بيعة الأقاليم كلها ، وسار لجهاد الإسبان في (سبتة) ؛ إلاّ أن الجنوب قد ثار عليه ، وبايع أخاه هشاماً ، فسار إليه ، ودخل مدينة (مراكش) ، وعاقب أهلها ، وأصيب أثناء القتال مع هشام برصاصةٍ في خدّه ، فرجع إلى مراكش ، ومات فيها عام ١٢٠٦هـ ، ثم نُقل إلى فاس . وتولّى هشام السلطة في مراكش، ولم يطل أمره ؛ إذ انتشر الوباء، ومات عام ١٢١٢هـ . أما في مكناسة فقد بويع سليمان بن محمد بعد وفاة أخيه يزيد ، غير أن مراكش قد امتنعت عليه ، فسار إليها ودخلها عام ١٢١١هـ ، ولكن لم يطب له فيها المقام ، فرجع إلى مكناسة ، واستقرّ له الملك حتى توفي عام ١٢٣٨هـ .

بويع لعبد الرحمن بن هشام بعد وفاة عمه سليمان الذي كان يقدّمه على أبنائه لما عُرف عنه من صلاح، وكان مقيماً في (تافيللت)، فولاّه عمه ميناء (الصويرة) ، فكان حسن السيرة ، فولاّه بعدها (فاس) ، وعهد له بالخلافة من بعده ، وقد اهتمّ ببناء الأسطول ، ورعاية العلم ، وفي أيامه احتلّت فرنسا الجزائر ، فساعد الأمير عبد القادر الجزائري الذي هبّ يقاوم الاحتلال الصليبي ، فاحتجّت فرنسا على هذه المساعدة ، واحتلّت مدينة وجدة ، فجهّز عبد الرحمن جيشاً ، وسار إلى وجدة ، ولكنه هُزم أمام الفرنسيين ، فاضطرّ أن ينفي الأمير عبد القادر من بلاد المغرب . وعقد عبد الرحمن اتفاقيةً تجارية مع إنكلترا عام ١٢٧٣هـ ، وتوفي بمكناسة عام ١٢٧٦هـ.

بعد وفاة عبد الرحمن تولّى أمر المغرب ابنه محمد (الرابع) ، وكان مقدّماً أيام أبيه ، ومفوّضاً في أمور الدولة ، يقود الجيوش ، ويُعيّن ويعزل ، إذ كان ساعد أبيه الأيمن ، فإذا كان أبوه بمراكش كان هو في الشمال بفاس أو بمكناس،

والعكس ، وقد احتلّ الإسبان مدينة (تطوان) ، فأرسل جيشاً لقتالهم فانتصروا عليه ، فاتفق على صلحٍ معهم بأن يخرجوا من تطوان مقابل عشرين مليون ريال فدفع لهم نصفها ، واتفق معهم على أن يستوفوا النصف الثاني من واردات موانئ المغرب ، فخرجوا من تطوان عام ١٢٧٨هـ . وكان من آثار هزيمة المسلمين في تطوان أن قلّلت من هيبتهم في نظر النصارى الذين استأسدوا بعدها على المسلمين وبلادهم ، وهذا ما جعل السلطان يعمل على تنظيم جيش ، وأرسل بعثةً إلى مصر ، وعمّ الرخاء والأمن في البلاد أيامه ، غير أنه تساهل مع الفرنسيين ، إذ كان صديقاً لملكهم الإمبراطور نابليون الثالث، فمنحهم لذلك امتيازات اتخذوها بعد ذلك ذريعةً للاستعمار والاحتلال. وتوفي بمراكش عام ١٢٩٠هـ.

وبعد وفاة محمد الرابع خلفه ابنه الحسن الأول ، وكان أبوه يعتمد عليه في الملمّات ، وقد سلّمه قيادة الجيش ، وحدثت في أيامه فتنٌ حلّها بنفسه ، وقام بعددٍ من الإصلاحات ، وضرب نقوداً لا تزال تُعرف إلى الآن بالحسنية نسبةً إليه ، وتوفي عام ١٣١١هـ أثناء رحلةٍ له من مراكش إلى مكناس .

وخلف الحسن الأول ابنه عبد العزيز أبو فارس ، وقد أنشأ داراً للآثار بمدينة فاس ، وفي عهده دخل النور الكهربائي إلى البلاد ، وقبض عليه الفرنسيون، ونفوه عام ١٣٣٣هـ ، وذلك أنّه عيّن أخاه عبد الحفيظ(١) نائباً له

---

(١) عبد الحفيظ بن الحسن ، أبو المواهب ، وُلد بفاس عام ١٢٨٠هـ ، ونشأ في قبيلة بني عامر في الجنوب الغربي من البلاد ، كان أديباً فقيهاً ، له (منظومة في مصطلح الحديث) ، و (الجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع) ، و (ياقوتة الحكام في مسائل القضاء والأحكام) ، وكلها نظم ، وله (العذب السلسبيل في حل ألفاظ الخليل) ، و (كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع) في الرد على بعض المتصوفة ، و (نيل النجاح والفلاح في علم ما به القرآن لاح) ، وعندما تخلّى عن الحكم نُقل بطراد فرنسي إلى مدينة (مرسيليا) ، ومنها إلى (فيشي) ، ثم إلى فرساي وعاد إلى (طنجة) ، وحجّ عام ١٣٣١هـ ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى استقرّ في إسبانيا ثم أخذ يتسلّى بالصيد ، وبقي حتى توفي عام ١٣٥٦هـ ، وحُمل إلى المغرب ، ودُفن في مدينة فاس .

بمـراكش، فنادى بـه أهل تلك الجهـات سلطاناً عليهم عـام ١٣٢٥هـ، فانقسمت الدولة إلى قسمين: عبد العزيز سلطانـاً في فاس، وعبـد الحفيظ سلطاناً في مراكش، واتخذ عبد العزيز من ممثلي الألمان أعواناً له، واتخذ عبد الحفيظ من الفرنسيين أولياء، وخُلع عبد العزيز، وانتظم الأمر لعبد الحفيظ، فانتقل إلى العاصمة فاس، وثارت عليه القبائل، وثار عليه أخٌ ثانٍ له يُدعى « زين » في مكنـاس، واستولى عليهـا، وألّف حكـومـة، ودعـا إلى نفسـه، فـطلب عبد العزيز - مع الأسف - دعماً من الفرنسيين، فأجابوه بسرعة، فقضت على الحركتين، وجاءت بأخيه « زين » معتقلاً، فعفا عنه، وعقدت فرنسا معه معاهدةً في ١٢ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ (٣٠ آذار ١٩١٢م)، وتولّى مكانه أخوه يوسف.

بعد أن تنازل أو أنزل عبد الحفيظ بويع أخوه يوسف، وهو في رباط الفتح (الرباط)، فنقل إليها مركز الحكم بعد أن كان في مدينة فاس.

ولما كانت أمـور هذه الأسرة قـد وصلت إلى ما هـو عليه من تـدخل الفرنسيين، إذ قبضوا على عبـد العزيـز، ونفوه، وألـزموا عبـد الحفيظ على التنازل عن الحكم تضايق الناس، وشُحنت نفوسهم، وثار أحمد هبة الله بن الشيخ ماء العينين في الأجزاء الجنوبية، ودعا إلى الجهاد، وإنقـاذ البلاد، وحاصر مدينة مراكش، ودخلها عنوة، وبويع فيها سلطاناً للمغرب الأقصى في الخامس من شهر رمضان من عام ١٣٣٠هـ أي بعد أربعة أيامٍ فقط من مبايعة يوسف بن الحسن، فأرسلت الحكومة الفرنسية جيشاً إلى أحمد هبة الله انتصر عليه، وفرّ، وزال سلطانه، وبقي يوسف بن الحسن سلطاناً من غير منافس. وبقي حتى توفي بفاس عام ١٣٤٦هـ.

الاستعمـار: إن الضعف الـذي أصاب المغـرب، واختـلاف أبنـاء الأسرة الحاكمة فيما بينهم، واستعانـة بعضهم بالصليبيـين ضدّ بعض، ثم هزائمهم أمام النصارى؛ كل هذا قد قلّل من هيبة الحكام أمام الرعية، وهيبة البلاد أمام الأعداء، فطمعوا بها، وأخذت الدول الأوربيـة تسعى لبسط

نفوذها على العباد والبلاد طمعاً وحقداً : إذ لا تزال تراود طغاتها فكرة ملاحقة المسلمين ، واحتلال بلادهم ، والتحكّم بهم ، وإذلالهم : منذ أن أخرجوهم من الأندلس .

كانت البداية تلك المعاهدة التي عقدها السلطان محمد بن عبد الرحمن عام ١٢٧٩هـ مع إسبانيا ، ولم تكن إسبانيا صاحبة الحظ الأوفى في المغرب أيام هذا السلطان ، وإنما كانت فرنسا أيضاً ، بل ويفوق نفوذها نفوذ إسبانيا .

وفي أيام الحسن الأول عُقدت معاهدة (مدريد) عام ١٢٩٨هـ ، وأصبح لمدينة (طنجة) مجلس صحي يتناوب رئاسته قنصلا فرنسا وإسبانيا واكتسب الأجانب حقّ تأسيس محاكم قنصلية في المغرب ، وحماية مواطنين مراكشيين [وهم اليهود أو النصارى الذين أخذوا يستوطنون في المغرب] . وعندما أعلنت فرنسا الحماية على تونس عام ١٣٠٠هـ أخذت تشرئب بعنقها نحو المغرب ، فخاف السلطان الحسن الأول على بلاده فاتجه نحو إنكلترا التي حمته من الاستعمار الفرنسي مدة ، كما اتجه نحو ألمانيا وعقد معها معاهدة عام ١٣٠٨هـ ، وهكذا أصبح الصراع الاستعماري على المغرب بين فرنسا ، وإسبانيا ، وإنكلترا ، وألمانيا .

كان الحكم في أيام الحسن الأول بيد الوزير «باأحمد»، وهو ابن جاريةٍ سوداءٍ ، وكان يقبض على السلطة بشكلٍ جيّدٍ ، فلما توفي الحسن الأول عام ١٣١١هـ ، أخذ الوزير « باأحمد » البيعة لعبد العزيز بن الحسن الأول ، وأخلص له ، غير أنه لم يلبث أن توفي عام ١٣١٢هـ ، وصادر عبد العزيز ممتلكات وزيره ، وأخذ ينفق من الأموال الكثير ، ويبّذر في المصروفات ، مما ألزمه على الاقتراض من البنوك الأوربية التي أخذت تتدخّل في شؤون المغرب ، وخاصةً بنك فرنسا ، والأراضي المنخفضة (هولندا) ، وأخذت فرنسا تتحيّن الفرص للانقضاض على المغرب ، وكذلك كانت إسبانيا التي تملك أجزاءً ومدناً على السواحل المغربية مثل سبتة ، ومليلة ـ وهي لا تزال حتى الآن تحت حكم الإسبان ـ وإيفني .

وفي عام ١٣١٨هـ قامت حركة في جنوب المغرب برئاسة الشيخ ماء العينين[1] هدفها مقاومة النفوذ الفرنسي ، والمطالبة بحكمٍ دستوري ، غير أنها قد فشلت ، ووجدت فرنسا فرحتها ، فاتفقت مع إسبانيا على اقتسام الصحراء المغربية ، فأخذت فرنسا ما عُرف فيما بعد باسم (موريتانيا) ، وأخذت إسبانيا ما عُرف بالصحراء المغربية ، وأطلقت عليها إسبانيا (ريودو أورو) ، وهي كلمة إسبانية وتعني « ساقية الذهب » ، واضطرّ السلطان إلى القبول بالأمر الواقع عام ١٣١٩هـ .

أخذت فرنسا تتفاهم مع الدول الأوربية التي تخشى منافستها على المغرب ، فاتفقت مع إيطاليا في ١٩ صفر ١٣٣٩هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٠م) على أن تترك إيطاليا لفرنسا حرية العمل في المغرب مقابل أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في طرابلس .

واضطرّ السلطان إلى تشكيل مجلس لإدارة مدينة طنجة عام ١٣٢١هـ ، ويتألّف هذا المجلس من ستةٍ وعشرين عضواً ، يعيّن القناصل الأجانب عشرةً منه ، وينتخب الأجانب الذين يقيمون في المدينة اثني عشر منهم ، ويعيّن حاخام اليهود واحداً منهم ، كما يعيّن السلطان واحداً ، والحاكم المحلي يعيّن أيضاً اثنين من المسلمين ، وهذا ما أثار النقمة ضد السلطان ، وقامت الثورة ضدّه ، وأطلق الناس عليه « عبد الأجانب » . وكانت قاعدة الثورة مدينة (تازة) .

كان السلطان قد أقام فعلاً مجلساً للأعيان ، وكان يعتمد عليه في رفض

---

(١) ماء العينين : محمد مصطفى بن محمد بن فاضل بن محمد مأمين الشنقيطي ، أبو الأنوار ، الملقب بماء العينين ، من قبيلة « القلاقمة » من عرب شنقيط ، وُلد في بلدة الحوض عام ١٢٤٦هـ ، وفد على ملوك المغرب في رحلته إلى الحج ، فلقي عندهم حظوة ، كان عالماً باللغة والحديث ، وله دارية بالسياسة ، واشتغل بالعلم ، وله الكثير من المؤلفات ، وقد كتب اسمه على مؤلفاته : محمد مصطفى الشريف الحسني الإدريسي ، وتوفي في بلدة (تنزيت) عام ١٣٢٨ هـ .

مطالب فرنسا ، ويحتجّ بأن مجلس الأعيان يمثّل الشعب وقد رفض هذه المطالب .

وجدت فرنسا فرصة الثورة للتدخّل في شؤون المغرب ، غير أنها وجدت إنكلترا وألمانيا واقفتين لها بالمرصاد ، فلجأت إلى السياسة ، وإرضاء الدول المعارضة ، فعقدت مع إنكلترا معاهدة « الاتفاق الودّي » في ٢٣ محرم ١٣٢٢هـ (٨ نيسان ١٩٠٤م) التي أعطت فرنسا حرية العمل في المغرب مقابل حرية العمل لإنكلترا في مصر . وقد نصّت هذه الاتفاقية على :

١ - لفرنسا حقّ حفظ الأمن في المغرب ، وتقديم المساعدات للقيام بإصلاحات .
٢ - تبقى معاهدة إنكلترا القديمة مع مراكش سارية المفعول .
٣ - لا تتخذ إجراءات مالية ، ولا تسن قوانين تضرّ بالمصالح البريطانية .
٤ - تبقى المنطقة الساحلية الشمالية غير محصّنة باستثناء مليلة وتوضع تحت إشراف إسبانيا .
٦ - تصبح الاتفاقية سارية المفعول ولو رفضتها إسبانيا .

غير أن إسبانيا قد وافقت على الاتفاقية فوراً ، وعقدت اتفاقيةً مع فرنسا في ٢١ جمادى الآخرة ١٣٢٢هـ (١ أيلول ١٩٠٤م) ، ومما جاء فيها إعطاء الأمن في طنجة إلى قوةٍ فرنسيةٍ - إسبانيةٍ مشتركةٍ .

أما ألمانيا فقد غضبت ، وجاء الإمبراطور غليوم إلى مدينة طنجة في ٢٢ محرم ١٣٢٣هـ (٢٨ آذار ١٩٠٥م) ، وألقى خطاباً أعلن فيه صداقة ألمانيا لسلطان مراكش ، كما لوّح فيه بالتهديد لمن يعتدي على السلطان وبلاده ، وحاول أن يحبط المؤامرة الفرنسية - الإنكليزية - الإسبانية .

وحاول السلطان عبد العزيز ومجلس الأعيان أن يُعرَضَ أمر مراكش على مؤتمرٍ دولي؛ إضعافاً للنفوذ الفرنسي، وانعقد مؤتمر «الجزيرة» في المدة الواقعة من ٢٠ ذي القعدة ١٣٢٣هـ حتى ٢٤ ربيع الثاني ١٣٢٤هـ (١٥ كانون الثاني

حتى ١٦ حزيران ١٩٠٦م) ، وحضره ممثّلو خمس عشر دولةً ، ومن أهمّ ما جاء فيه : أنّه تمّ الاتفاق على الاعتراف بسيادة السلطان ، واستقلاله ، ووحدة أراضيه ، ومساواة الدول جميعها في تجارتها مع مراكش ، ومساعدة السلطان على تنفيذ برامج الإصلاح ، وتأسيس مصرفٍ مركزي برأسمالٍ دولي ، وتشكيل قوةٍ من الشرطة لحفظ الأمن الداخلي ، وتكون فرنسية - إسبانية بإمرة سويسري ، وكل منهما في منطقة نفوذها ، وتوضع الجمارك تحت رقابةٍ دوليةٍ ، وتوزّع امتيازات المشروعات الاقتصادية بين شركات مختلف الدول ، وتُكلّف فرنسا بحماية حقوق جميع الدول في مراكش شريطة الاعتراف باستقلال البلاد ، ووجدت ألمانيا وحدها في هذا المؤتمر لا يقف بجانبها سوى النمسا ، أما روسيا ، وإنكلترا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ؛ فقد وقفت بجانب فرنسا ، وأما هولندا والبرتغال ، وسويسرا ، وبلجيكا ؛ فكانت قوى سكوت ، وإن كانت إلى فرنسا أقرب ، وكانت مراكش هي الضحية التي يتنازع عليها إذ لم يمضِ عام حتى احتلّت فرنسا الجزء الشرقي من البلاد ، ثم ادّعت أنه وقع اعتداء على الرعايا الأجانب في مدينة الدار البيضاء لذا أسرعت واحتلّت الميناء ، وأسرعت إسبانيا واحتلّت بلاد الريف .

لم يقنع المغاربة بقرارات مؤتمر الجزيرة ، وخاصةً بعد الذي قامت به فرنسا من احتلال ، وإسبانيا من دخول الريف ، لذلك فقد ثاروا على سلطانهم وخلعوه ، وربما كانت فرنسا تريد هذه الثورة ، وقد تكون محرّكةً لها من الخلف ، وتودّ خلع السلطان عبد العزيز لأنها كانت تشعر أنه أقرب إلى الألمان ، بينما ترى في أخيه عبد الحفيظ سلطاناً أفضل لها .

بايع المغاربة عبد الحفيظ سلطاناً عليهم ، واشترط المبايعون أن يعمل السلطان على استرداد الجهات المقتطعة من البلاد ، وأن يبادر إلى طرد المحتلين ، وإلى إلغاء الامتيازات الأجنبية ، كما اشترطوا عليه ألاّ يستشير الأجانب ، وألاّ يعقد معهم معاهدات إلاّ بعد استشارة الأمة .

أخذ السلطان عبد الحفيظ يصانع فرنسا ، فثارت عليه القبائل، وثار

عليه أخوه « زين » في مكناس ، واستولى عليها ، وألّف حكومة فيها ، ودعا لنفسه ، فاستنجد السلطان بفرنسا ، فأسرعت بإرسال النجدة ، واستطاعت القضاء على ثورة أخيه « زين »، وأتت به تحمله إلى أخيه ، فعفى عنه ، وفي الوقت نفسه فإن السلطان عبد الحفيظ قد استطاع أن يقضي على ثورة «أبي حمارة » ، ولكن قد كلّفه ذلك كثيراً ، لذا فقد عقد قروضاً بمبلغ مائة مليون فرنك لتسديد نفقات حملاته العسكرية ، لذا فإن الشعب قد بقي ناقماً على سلطانه .

وعندما جاءت القوات الفرنسية لنجدة السلطان احتلّت فاس في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٩هـ (٢١ أيار ١٩١١م) ، ثم احتلّت مكناس والرباط ، فثارت ثائرة إمبراطور ألمانيا ، فأرسل طرّاداً إلى مياه ميناء أغادير في ٥ رجب ١٣٢٩هـ ، غير أن فرنسا أعطته جزءاً من الكاميرون إرضاء له ، فأقرّ بالاحتلال الفرنسي لمراكش في ١٣ ذي القعدة ١٣٢٩هـ (٤ تشرين الثاني ١٩١١م) .

وفرضت فرنسا على السلطان عبد الحفيظ معاهدة الحماية في ١٢ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ (٣٠ اذار ١٩١٢م) ، وثار الجيش على الملك لقبوله الحماية ، وقتل الجنود ضباطهم الفرنسيين ، كما استمرّت ثورة الشعب ، وأباد الوطنيون الحامية الفرنسية في مدينة (فاس) في اليومين الأولين من شهر جمادى الأولى ١٣٣٠هـ (١٧ و١٨ نيسان ١٩١٢م) ، وندم عبد الحفيظ على ما فعل من الاستنجاد بالفرنسيين ، فتنازل لأخيه يوسف في ١ رمضان ١٣٣٠هـ (١٣ آب ١٩١٢م) ، وانتقل هو إلى مدينة (طنجة) ، وكان أخوه قد سبقه إليها .

استمرّت ثورة المغاربة ، وتحرّك في الجنوب أحمد هبة الله بن الشيخ ماء العينين ، ودعا إلى الجهاد ، فالتفّ حوله الناس ، وسار بهم إلى مدينة مراكش ، وحاصرها ودخلها عنوةً ، وبويع بالإمامة في ٥ رمضان ١٣٣٠هـ أي بعد بيعة يوسف بن الحسن بأربعة أيام ، وأرسلت فرنسا جيشاً إلى أحمد

هبة الله[1] ؛ فانتصر على القوات الفرنسية ، فأعادت الكرة ؛ فهزمته ، فانهزم من مراكش إلى (تارودانت) و)وتحصّن بها ، وزاد الفرنسيون في مطاردته من موقع إلى آخر ، حتى كان في (تندوف) ، فنصب أنصار هبة الله الكمائن للفرنسيين ، وفتكوا بهم ، فارتفعت معنوياتهم ، وعادت قوتهم ، فجهّز الفرنسيون جيشاً ضخماً من المغرب ، والجزائر ، والسنغال ، ومالي ، بقيادة الجنرال « غورو » ويدعمه الطيران ، والمدفعية ، والمدرّعات ، ووصل الجيش إلى (تنزيت) وعسكر فيها ، وتعددت الوقائع ، وانقسم رجال أحمد هبة الله على أنفسهم ، وقُتل كثير من رجال القبائل ، وتوفي هو بمرض أصابه ، فضعف رجاله من بعده ، حتى تمكّن الفرنسون منهم أثناء الحرب العالمية الأولى .

قامت الحرب العالمية الأولى والمغاربة يقاومون الفرنسيين في الأطلس الأوسط ، والأطلس الكبير ، ومنطقة (تافيللت) ، ولكن لم تنته الحرب إلاّ وكانت القوات الفرنسية قد سيطرت على أجزاء المغرب كلها ، وحملت الكثير من أبنائها على الاشتراك في القتال إلى جانب الحلفاء ، سواء أكان ذلك في أوربا أم في غيرها ، وإن كان الفريق « ليوتي » قد رفض فرض الجندية الإلزامية على السكان في مراكش ، وهو أول مقيمٍ عامٍ فرنسيٍّ ، وهو الذي احتلّ البلاد ، وأخضع مناطقها .

وتسلّم المقيم العام وزارة الخارجية ، ووزارة البحرية ، كما تولّى إدارة الأمور المالية رجالٌ فرنسيون ، وهكذا أصبح السلطان صورةً ، والمقيم العام

---

(١) أحمد هبة الله بن محمد مصطفى ماء العينين ، وُلد ونشأ في واحة الصمارة التي أنشأها أبوه وسط الصحراء ، لازم أباه ، وتعلّم منه ، وخلفه في مدينة (تنزيت) عندما توفي عام ١٣٢٨هـ .
وعندما فرضت الحماية على السلطان عبد الحفيظ سخط علماء منطقة السوس ، وأجمعوا في تنزيت على خلعه ، ومبايعة أحمد هبة الله على أمر الجهاد في شهر رجب ١٣٣٠هـ ، ودعوا القبائل للبيعة ؛ فلم يتخلّف منهم أحد ، وانضمت حامية مدينة مراكش إليه عوضاً من أن تقاومه ، كما تقدّم إليه بالطاعة خليفة السلطان عبد الحفيظ ، وكثرت المعارك ، حتى توفي أحمد هبة الله في (بكردوس) عام ١٣٣٧هـ ، وقد حاول الفرنسيون إغراءه بالمناصب والمال والسلطة ، فأبى عليهم .

هو المتصرف في شؤون البلاد ، وألغيت الخلافة والسلطان يوسف بن الحسن الأول ملك البلاد .

أما منطقة الريف فقد خضعت للاستعمار الإسباني ، وأخذ يمارس فيها السياسة الصليبية ، وحددت فرنسا مع إسبانيا منطقة نفوذ كل منهما مع احترام الوحدة المراكشية [الاحترام الذي لا معنى له] . كما تمّ الاتفاق على تعيين خليفةٍ لسلطان مراكش في منطقة الريف على أن يخضع لرقابة المندوب السامي الإسباني . وكما ثار المراكشيون ضدّ الفرنسيين ثاروا كذلك ضدّ الإسبان ، وكانت أول هذه الثورات ثورة أحمد بن محمد الريسوني(١) الذي عُرف من قبل بالثورة ، فقد قام ضدّ الفرنج عامة ، وضدّ حكومة مراكش ، وبدأ في جبال (بني عرّوس) ، وقد قوي أمره ، فسيطر على المناطق التي حول طنجة من بلاد الريف ، وخُطب باسمه على منابر (تازروت) وما حولها ، ثم صالحه السلطان عبد العزيز ، وعينّه معتمداً له على طنجة ، فكان شبه مستقل فيها ، يحكم باسم السلطان عبد العزيز ، ولا سلطان لعبد العزيز عليه ، وقد ساد الأمن المنطقة في عهده .

بدأت أطماع الدول في طنجة فطلبوا من السلطان عبد العزيز عزله ، فعزله ، فرجع إلى قريته وحاربه السلطان . ولما آل الحكم إلى السلطان عبدالحفيظ ذهب إليه مهنئاً ، وأصبح من رجاله . وعندما احتلّ الإسبان تطوان ، وأخذوا يتجهون نحو المناطق الغربية عام ١٣٣١هـ ثار عليهم

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني ، الحسني ، الإدريسي ، العرّوسي ، أبو العباس ، وُلد في بلدة (زَينات) حوالي عام ١٢٧٠هـ ، في « بني عرُّوس » ، ويسميه الفرنجة « الرسولي » ، خرج ثائراً أيام السلطان الحسن الأول ، ولم تتمكن الحكومة من السيطرة على حركته ، فاستعملت معه الحيلة ، وقبضت عليه ، وسجنته في ميناء الصويرة مدة ثلاث سنوات ، ولما مات السلطان الحسن الأول ، وخلفه ابنه عبد العزيز ، عفا عن الريسوني ، فلما اضطرب أمر الدولة عاد إلى الثورة ثانية ، ونجح حتى غدا سيد المناطق الغربية في الريف ، إضافة إلى طنجة .

أحمد بن محمد الريسوني ، وقاتلهم قرب تطوان ، ودخل مدينة (شفشاون) ، فطلب الإسبان منه الصلح ، فعُقد مؤتمر عام ١٣٣٣هـ ، اتفقوا فيه على أن تكون الجبال والمناطق الداخلية لأحمد بن محمد الريسوني ، والمناطق الساحلية للإسبان ، غير أن الإسبان لم يلبثوا أن نقضوا الصلح ، وتجدّد القتال بعد أن اختلف الريسوني مع الجنرال الإسباني « غوردانا » ، ومات « غوردانا » ، وجاء بعده الجنرال « برنغر » ، فعدّ الريسوني ثائراً ، وأخذ يطارده ، واقترب من معقله ، فقبل الريسوني بشروط الإسبان ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الثورة بعد أن هُزم الإسبان أمام الخطابي ، وبدأ القتال ، واستمرّ إلى جانب ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي ، ووقعت الفجوة بين المجاهدين ، إذ بذل الإسبان العهود والوعود كي يقبل أحمد بن محمد الريسوني الصلح ؛ ففعل ، ودعاه محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مساعدته في أمر الجهاد ؛ فامتنع ، ووقع الناس في اللغط ، حتى ساءت العلاقة بين الطرفين ، وقيل : إن الريسوني أخذ يؤلّب القبائل عن مناصرة الخطابي ، ويدعوها إلى الخضوع للإسبان ، فأرسل إليه الخطابي حملةً هاجمته في مدينة (تازروت) ، وبعد معركةٍ دامت يومين أسر الريسوني ، وكان مريضاً فحمل إلى بلدة (تماسنت) ، فتوفي بها عام ١٣٤٣هـ .

وكانت الثورة الثانية حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي[1] ، وكان أبوه

---

(١) محمد بن عبد الكريم الخطابي : وُلد عام ١٢٩٩هـ في بلدة (أغدير) قرب (الحسيمة) من بلاد الريف ، وينتمي إلى قبيلة (ورياغل) أكبر قبائل البربر في بلاد الريف ، حفظ القرآن الكريم ، وهو صغير ، وأرسله أبوه إلى جامع القرويين بمدينة فاس ، وعُيّن قاضياً في مدينة (مليلة) ، بينما درس أخوه الصغير (التعدين) في مدريد ، وقام مجاهداً ضد المستعمرين الإسبان ، وانتصر عليهم ، واضطرّ أخيراً إلى الاستسلام بعد أن تعاون عليه الإسبان والفرنسيون ، فسجن ونفي إلى جزيرة (رينيون) في شرق إفريقية مع أخيه وبعض أقربائه ، وبقي في المنفى حتى عام ١٣٦٦هـ ، وأراد الفرنسيون نقله إلى فرنسا ، فأُركب باخرةً ، فلمّا مرّت بمدينة السويس فرّ منها بتدبير بعض المغاربة ، والتجأ إلى القاهرة فبقي مستقراً فيها حتى توفي بسكتةٍ قلبيةٍ عام ١٣٨٢هـ .

قد أبدى معارضته للاستعمار الإسباني ، ورفض تقديم الولاء الذي طلبه منه المندوب السامي الجنرال « غوردانا » ، فما كان من المندوب السامي إلاّ أن عزل ابنه محمداً من قضاء (مليلة) ، وأودعه السجن ، وفي هذه الأثناء توفي الأمير عبد الكريم ، وخلفه ابنه محمد في مشيخة القبيلة(ورياغل)،فلما أطلق سراحه جمع أنصاره ، وقاتل الإسبان .

زحف الجنرال « سلفستر » قائد قطاع (مليلة) نحو منازل قبيلة (ورياغل) ، واحتلّ مدينة (أنوال) ، ولم يبالِ بتحذيرات الأمير محمد ، وتقدّم اثني عشر كيلومتراً بعد مدينة (أنوال) ، واقترب من بلدة (أغدير) ، فداهمه الأمير محمد بهجومٍ معاكسٍ في ٢٥ شوّال ١٣٣٩هـ (١ تموز ١٩٢١م) ، فارتدّ الإسبان ، وخرجوا من (أنوال) بعد معركةٍ حاميةٍ ، واستمرّ الخطابي يلاحقهم حتى لم يبقَ لهم سوى حصن (مليلة) ، وأبيد جيش « سلفستر » تماماً ، واعترف الأعداء أنهم خسروا خمسة عشر ألف جندي ، وخمسمائة وسبعين أسيراً ، إضافةً إلى كمياتٍ كبيرةٍ من العتاد والذخيرة ، منها : ثلاثون ألف بندقية ، وأربعمائة مدفع رشاش ، ومائة وتسعة وعشرون مدفع ميدان ، ولم ينتبه الخطابي إلى ما أدركه من نصرٍ حاسمٍ ، إذ لو تابع القتال لما وجد أمامه قوة ، ولدخل حصن (مليلة) دون مقاومة ، ولأنهى وضع الإسبان في تلك النواحي ، غير أنه توقّف ظنّاً منه أن الإسبان لا تزال لديهم قوة ، وقد هيّأ لهم هذا التوقّف فرصةً لزجّ ستين ألف جندي في المعركة الجديدة، إذ قاموا بهجومٍ معاكسٍ في ١٠ محرم ١٣٤٠هـ (١٢ أيلول ١٩٢١م) ، فاستعادوا بعض ما فقدوه ، وبلغ مجموع القوات الإسبانية في منطقة الريف في جمادى الأولى من عام ١٣٤٠هـ أكثر من مائةٍ وخمسين ألف مقاتل .

استطاع الجنرال « برنغر » من احتلال معقل الريسوني ، غير أنه قدّم استقالته كمندوبٍ سامٍ بضغطٍ من الحكومة الإسبانية . وجاء بعده الجنرال « برنغت » الذي هادن الريسوني ليتفرغ لقتال الخطابي الذي كان قد بسط نفوذه على القبائل المجاورة ، ونظّم حكومةً عاصمتها (أغدير) ، وأعلن قيام

جمهورية الريف ، وأرسل الوفود إلى أوربا لشرح قضية بلاده ، وتمكّن من إحكام قبضته على المناطق التي يسيطر عليها ، وصدّ هجمات الإسبان عليها ، ولم يمكن الوصول إلى حلٍّ سلميٍّ بينه وبين المستعمرين .

وقع انقلابٌ عسكريٌّ في إسبانيا في اليوم الأول من شهر صفر من عام ١٣٤٢هـ (١٢ أيلول ١٩٢٣م) ، وتسلّم الحكم الجنرال « بريمو دي ريفيرا » ، فأعلن عن سياسةٍ جديدةٍ لإسبانيا في مراكش ، وهي الانسحاب من المناطق الداخلية ، والتمركز في مواقع حصينةٍ على السواحل ، فنشط عمل أهل الريف ، وسيطروا على أكثر بلادهم ، حتى وصلوا إلى قرب تطوان ، وقطعوا طرق المواصلات بينها وبين كلٍّ من (طنجة) و (شفشاون) ، وأشرف الجنرال « بريمو دي ريفيرا » بنفسه على عمليات الانسحاب ، وقد كلّفت هذه العلميات الإسبان خسائر كبيرةً ، إذ فقدوا فيها من القتلى مائةً وعشرة ضبّاط ، وثلاثة آلاف وثمانمائة من الجنود ، ومن الجرحى سبعمائة ضابط ، وأربعة عشر ألف جندي ، كما فُقد ستون ضابطاً ، وألفان وخمسمائة جندي .

أما محمد الخطابي فقد بسط نفوذه على أكثر بلاد الريف ، وأخضع قبائل (جبالا) في غرب الريف ، وتمكّن من تنظيم جيشه، وتجميع القبائل حوله ، وأخذت قوته تزداد يوماً بعد يومٍ ، وحاول الإسبان الإيقاع بينه وبين المجاهد الآخر أحمد بن محمد الريسوني ، وقد نجحوا إلى حدٍّ ما .

أما مدينة طنجة فإنها ذات موقعٍ مهمٍّ ، لذا حرصت الدول أن يكون لها وضعٌ خاصٌّ ، وقد شُغلت الدول بأحداث الحرب العالمية الأولى ، لذا لم تستطع وضع نظام لها، فلما وضعت الحرب أوزارها، وضعت الدول الكبرى لطنجة نظاماً دولياً محايداً يقضي بأن يكون للميناء:

١ ـ حاكم إداري فرنسي ، وله مساعدان ، أحدهما إنكليزي ، والآخر إسباني .

٢ ـ السلطة التنفيـذية بيـد هيئة المـراقبة التي تتـألّف من ممثّـلي : فـرنسـا ، وإسبانيا ، وإنكلترا ، ومندوب عن سلطان مراكش .

٣ ـ مجلس تشريعي .

الفصل الأول

الاستعمار بعد إلغاء الخلافة

ألغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، فزاد ذلك المسلمين تفرّقاً فوق فرقتهم، واهتمام أهل كل إقليم بإقليمهم، وجهلاً ببقية الأمصار الإسلامية ؛ وذلك نتيجة الجهل ، واختلاف الاستعمار ، وانصرافاً للشؤون الخاصة بالمنطقة التي تغرق السكان فلا تترك لهم أي وقتٍ للتفكير بأوضاع إخوانهم ، وكان أن ترسّخت التجزئة ، وظهرت فكرة الوطنيات الضيّقة ، والعصبيات الجاهلية .

عندما ألغيت الخلافة كان المصر المراكشي مجزّءاً إلى الأقسام الآتية :

١ ـ بلاد الريف : تحت النفوذ الإسباني .
٢ ـ مراكش : تحت النفوذ الفرنسي .
٣ ـ طنجة : لها وضعٌ دولي .
٤ ـ إيفني : تحت النفوذ الإسباني .
٥ ـ الصحراء المغربية : تحت النفوذ الإسباني .
٦ ـ موريتانيا : تحت النفوذ الفرنسي . [أصبحت دولة خاصة] .

أولاً : بلاد الريف : كانت إسبانيا قد انسحبت إلى المناطق الساحلية ، وتحصّنت فيها ، بينما كانت المناطق الداخلية تحت إشراف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ، كما أن أحمد الريسوني لا يزال ذا قوةٍ ونفوذٍ ، وبدأ

الخلاف بين الاثنين ، وتمكّن الخطابي من أسر الريسوني في تاريخ ٣ رجب ١٣٤٣هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥م) ، وألّف الخطابي حكومةً في الريف ، وأعلن الجمهورية . في هذا الوقت كانت فرنسا لا تزال تتابع احتلالها لبلاد المغرب ، وتتحرّك قواتها في المناطق الجبلية المتاخمة لبلاد الريف ، وتصطدم برجال القبائل ، ومنها القبائل الموالية للأمير محمد الخطابي ، وتجد صعوبةً في تحرّكاتها ، كما تحلّ بها الهزائم أحياناً ، وهذا ما أزعج المقيم العام الفرنسي الجنرال « ليوتي » ، فأخذ ينتقد انسحاب الإسبان من المناطق الريفية الداخلية ، ويعلن أن ذاك الانسحاب مخالف للاتفاقية الفرنسية ـ الإسبانية ، وأخذ يحذّر إسبانيا خاصة والدول الأوربية النصرانية عامة من خطر انتصار الريفيين المسلمين على الإسبان فإن ذلك سيكون له ما بعده من أثرٍ على الشعوب الإسلامية الخاضعة للاستعمار الأوربي النصراني ، فإن ذلك سيجعلها تتحرّك ، ولما لم تبالِ إسبانيا كثيراً في بداية الأمر ؛ اتجه إلى إنكلترا التي تسيطر على كثيرٍ من أراضي المسلمين ، ويخضع لها عددٌ من الشعوب الإسلامية ، فتحرّكت إنكلترا ، وأثارت إسبانيا .

وحاول الأمير محمد الخطابي أن يتفاهم مع فرنسا ، أو يتوصّل إلى اتفاقٍ ، ولكن دون جدوى ، لقد أرسل أخاه موفداً من قبله إلى باريس للاتفاق مع الحكومة الفرنسية ، ولكن لم يجد آذاناً صاغيةً ، وبعث موفداً إلى مدينة فاس للاتصال بالسلطات الفرنسية في مراكش ؛ فلم يجد إلّا ما وجد أخوه في باريس ، لقد وجد كلا الوفدين حقداً صليبياً جامحاً لا يكاد يدرك سوى التشفّي من المسلمين ، ووجدا رغبةً فرنسيةً في اجتياح بلاد الريف لمصلحة إسبانيا كنوعٍ من التعاون الصليبي ، ثم خوفاً من انتشار روح الجهاد في بقية بلاد المغرب ، وانتقالها من الريف إلى مراكش ، أو بشكلٍ أوضح توسّع دائرة الجهاد ، وربما تقدّم المجاهدون الريفيون إلى مراكش .

كان مجموع القوات الفرنسية في مراكش ٦٥,٠٠٠ جندي ، وكانت فرنسا ترى أن هذا العدد غير كافٍ لزجّه في الريف ، لذا فقد أرسلت قواتٍ

أخرى حتى وصل المجموع إلى ١٥٨,٠٠٠ مقاتل ، وهي :

١٣,٠٠٠	فرنسي .
١٢,٠٠٠	أوربي .
١٣٣,٠٠٠	مغربي .
١٥٨,٠٠٠	ويدعم ذلك ١٣٢ طائرة .

أما القوات الإسبانية فكانت كما يأتي :

٧٠,٠٠٠	إسباني .
٣٧,٠٠٠	احتياطي .
١٣,٠٠٠	مغربي .
١٢٠,٠٠٠	

أما قوات جمهورية الريف بقيادة الأمير محمد الخطابي فكانت حوالي ستين ألفاً ، فهي ما يقرب من خمس القوات العدوة ، بل إنها أقل من نصف عدد الجنود المغاربة الموجودين في جيوش الأعداء . وكان يشرف على العلميات العسكرية الجنرال الفرنسي «بيتان» رئيس حكومة فيشي الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية ، والجنرال « ليوتي » المقيم العام الفرنسي في مراكش ، وتمّ الاتفاق على خطةٍ عسكريةٍ واحدةٍ بين فرنسا وإسبانيا ، كما اتفقتا على ألّا تعقد إحداهما مع المسلمين صلحاً منفرداً .

وكان لا بدّ من الجهاد ، وما أن انتهى شهر رمضان حتى استعدّ المسلمون ، ومع نهاية عيد الفطر بدأ الهجوم على الخطوط الفرنسية ، وأمكنهم خرقها في قطاع (تازة) إلى الشرق من فاس ، وأصبح موقف الفرنسيين حرجاً في ذلك القطاع ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الجنرال « بيتان » لإنقاذ الموقف ، وعيّنت الجنرال « ستاسلاس فوليه » قائداً للقوات الفرنسية في مراكش .

قام الفرنسيون في ٢٢ صفر ١٣٤٤هـ (١٠ أيلول ١٩٢٥م) بهجوم ٍ معاكس ٍ في قاطعين ، أولهما في جهة (ورغاء) ، حيث بدؤوا بقصفٍ مدفعي مركّزٍ لإشغال الريفيين عن الهجوم في القاطع الآخر الذي كان في جهة (تازة) ، ويهدف إلى الاتصال بالقوات الإسبانية للتعاون ولخرق الريف ، وقسمه إلى جزأين ، والفصل بين القوات المسلمة في الجزأين ، غير أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت قد أوقفت العمليات العسكرية ، ولم يتمكّن الفرنسيون من أن يحقّقوا أي نجاح ، أو يحصلوا على أي هدفٍ وضعوه نصب أعينهم . ومن الجانب الإسباني لم تكن المعارك أكثر من مناوشاتٍ أو قتالٍ محلّي .

إن صغر حجم القوات المسلمة كان يجعل تطلعاتها محدودةً ، غير أن ثقتها بالله ثم اعتمادها على الروح المعنوية العالية التي يتمتّع بها أفرادها قد جعلها تفكّر بالنصر ، وكانت تهدف إلى إثارة القبائل في جبال الأطلس المقيمة خلف الخطوط الفرنسية ، والتي يمكن لو تحرّكت تلك القبائل لصرفت جزءاً من القوات الفرنسية نحو معاقلها ، وخفّفت بذلك الضغط عن قبائل الريف ، غير أنه في الوقت نفسه كان الفرنسيون يحاولون إغراء القبائل الموالية للأمير الخطابي بشتّى الوسائل ، وتحذيرها من النتائج الوخيمة التي تنتظرها فيما لو بقيت في مواقعها فإن الخطّابي لا قبل له بما حُشد له ، وقد أدرك الفرنسيون بعض النجاح ، وأخذت بعض القبائل تتخلّى عن مواقعها .

رأى الخطّابي أن القيام بعمَلٍ عسكريٍّ سريعٍ سيجعل القبائل تضطرّ إلى الاشتراك في القتال وتبقى بجانبه ، ويستطيع إن حصل على بعض النصر أن يظفر بشروطٍ أفضل من الفرنسيين أو الإسبان ، فحاول في مطلع شهر رجب أن يقوم بنشاطٍ عسكريٍّ ، غير أنه لم يحقّق ذلك النجاح الذي كان يأمل به ، فبعث بالوفود إلى الدول الأوربية ، ونشر في الصحف عن رغبته في إحلال السلام ، واستعداده للدخول في مفاوضاتٍ للصلح وإنهاء حالة الحرب القائمة . وافق الفرنسيون والإسبان على إجراء مفاوضات للصلح في مدينة (وجدة) في تاريخ ٣ شوال ١٣٤٤هـ (١٥ نيسان ١٩٢٦م) ، وتمّ اللقاء ،

واستمرّت المفاوضات مدة ثلاثة أسابيع ، غير أن الطرفين لم يستطيعا التوصّل إلى اتفاقيةٍ رغم تنازل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطّابي عن الكثير من رغباته ، كما وافق على الانسحاب من المعركة ، والانتقال إلى بلدٍ إسلاميٍ آخر .

عدّ الفرنسيون والإسبان أن هذا التنازل من قبل جمهورية الريف ليس سوى بداية الانهيار ، لذا فقد تشدّدوا ، وانقطعت المفاوضات ، وشنّ الأعداء هجوماً قوياً فورياً ليحصلوا على نصرٍ خاطفٍ ، وبعد عشرة أيام من بدء القتال تمّ الاتصال بين القوات الفرنسية والإسبانية ، فطلب الخطابي وقف القتال ، وعرض الاستسلام دون قيدٍ أو شرطٍ ، غير أن الفرنسيين قد طلبوا منه قبل الاستسلام إطلاق سراح الأسرى الذين عنده ، فنفّذ هذا الشرط ، وسلّم نفسه للقوات الفرنسية في تاريخ ١٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ (٢٥ أيار ١٩٢٦م) .

استمرّت المعارك بعد استسلام الخطابي مدة ، فقد أخرج سكان (شفشاون) مندوب الخطابي من بلدهم يوم ٢١ ذي الحجة ١٣٤٤هـ (١ تموز ١٩٢٦م) ، وانتخبت قبائل (جبالا) زعيماً لها ، وتابع الإسبان احتلال بلاد الريف أو المنطقة المتفق عليها بينهم وبين الفرنسيين ، وباتفاق الدولتين أيضاً نُفي محمد الخطابي إلى جزيرة (رينيون) في شرق إفريقية .

ثانياً : مراكش : سيطر الفرنسيون على منطقة مراكش سيطرةً كليةً عام ١٣٤٥هـ ، ولم يبقَ للملك سوى الاسم النظري ، ويُدعى بالسلطان ، وليس لقصره الذي يُطلق عليه « المخزن » أي نفوذ ، وربما بدا عليه أحياناً بعض المكانة ، منها أيام الأعياد الإسلامية ، حيث يؤمّه الأعيان ورجالات البلاد للسلام والتهنئة بالعيد ، وكان من مهماته وضع (الطابع الشريف) أي الختم ، والإشراف على الأحكام الشرعية ، وشؤون الأوقاف ، وكان السلطان يومذاك يوسف بن الحسن الأول ، ولكن لم يلبث أن توفي عام ١٣٤٦هـ ،

وتولّى مكانه ابنه محمد الذي لُقّب بالخامس[1] ، ولم يكن أكبر إخوته ، وإنما قدّمه الفرنسيون للملك ، وهم يظنّون أنهم يستطيعون التأثير عليه لصغر سنه ، ولين طبعه ، لذا فقد اعتقدوا أنه سينقاد لهم تماماً ، إذ لم يزد عمره على السابعة عشرة عاماً .

شعر الملك محمد الخامس أنه لا يستطيع فعل أي شيءٍ ، فالفرنسيون بيدهم السلطة ، ويستبدّون بالأمر ، وفشلت القبائل ورجالات البلاد في مقاومة المستعمر الصليبي ، لذا فقد انصرف إلى الدرس على يد العلماء الذين هم في القصر ، وعمل على إصلاح جامع القرويين بفاس ، وأنشأ بعض المدارس ، ورمّم المساجد ، وأسّس كلية ابن يوسف بمراكش ، ولما نضج أخذ يتصل سرّاً بأهل الفكر ، وأصحاب الوعي الذين لمس فيهم الرغبة في العمل للتحرّر .

منذ أن دخلت فرنسا البلاد وضعت نصب عينيها التفرقة بين العرب والبربر ، فإذا تمكّنت ضربت مجموعةً بأخرى ، وكلما رأت مصلحةً لها قوّت فئةً على ثانية ، وخاصة أن البربر يؤلّفون مجموعةً كبيرةً تكاد تصل إلى ٤٥٪ من مجموع السكان ، وهم يكثرون في المناطق الجبلية ، في بلاد الريف ، وجبال الأطلس ، بل ذهبت بأحلامها بعيداً ففكّرت بتنصير البربر ، وإذا نجحت تكون قد حقّقت سياستها الصليبية بجعل مراكش دولةً نصرانيةً ، وعندها تستطيع حكمها بأعوانها الجدد ، وإلاّ تركتها تتصرّف بشؤونها فقد أدّت أهمّ مهمةٍ عندها .

استصدرت السلطات الفرنسية في مراكش مرسوماً (ظهيراً) عُرف بالظهير البربري ، وذلك عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) ، أعفت فيه البربر من تطبيق الشريعة الإسلامية ، ومن دراسة اللغة العربية ، وسمحت لهم

---

(١) محمد الخامس بن يوسف بن الحسن الأول : وُلد عام ١٣٢٩هـ بمدينة فاس ، ونشأ وتعلّم بها ، ولما بويع بعد وفاة أبيه انتقل إلى الرباط التي جعلها والده عاصمة البلاد .

بالتقاضي حسب العادات والأعراف السائدة لديهم ، وبالدراسة باللغة البربرية . ثم استصدرت مرسوماً آخر عام ١٣٤٠هـ ، نظّمت فيه انتقال الأراضي وملكيتها في المناطق البربرية ؛ بصورةٍ تتعارض مع الشريعة الإسلامية في الإرث ، ثم استصدرت مرسوماً ثالثاً في تاريخ ١٧ ذي الحجة ١٣٤٨هـ (١٦ أيار ١٩٣٠)، وقد جاء فيه أن يحكم شيوخ القبائل في مناطقهم حسب العرف والعادة المتبعة لديهم ، وأن تشكّل محاكم تحكم حسب عادات القبائل البربرية ، فكان أن ثارت ثائرة المسلمين ، فكانت المظاهرات تنطلق من الجوامع ، وأعنفها ما خرج من جامع القرويين بمدينة (فاس) ، ومن المسجد الأعظم بمدينة (سلا) يوم ٨ صفر ١٣٤٩هـ (٤ تموز ١٩٣٠م) ، ولم يقتصر الأمر على المغرب بل تعدّى ذلك إلى المشرق الإسلامي ، ففي مصر كانت جمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية الإسلامية تتعرضان لما يهدف إليه الظهير البربري ، كما كانت مجلة الفتح تنشر المقالات الكثيرة عنه ، وكانت تصل إليها المقالات من كثيرٍ من المغاربة الذين يقيمون في فرنسا ، وينشرون بأسماء مستعارة ، وتوزّع هذه المجلة في المغرب بأعدادٍ كبيرةٍ ، حتى منعت السلطات الحاكمة دخولها ، وشجب المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في القدس عام ١٣٥٠هـ هذا التصرف الذي قامت به السلطة الفرنسية في المغرب .

ونتيجة المظاهرات والمقابلات مع العميد « ميلي » مدير الاستخبارات ، ومع الصدر الأعظم الحاج مقري الذي عيّنه الفرنسيون ، فوفى لهم ، واللقاءات في المساجد ، وذكر اسم الله اللطيف ؛ ظهرت الحركة الوطنية ، فقد دُعي إلى المجلس البلدي ما يقرب من مائةٍ من الأعيان يوم ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٩هـ (٢٢ آب ١٩٣٠م) لانتخاب عشرين عضواً لتحرير عريضة بمطالب الأهالي ، وتمّ اللقاء ، وانتخب الحضور عشرين عضواً هم :

١ ـ محمد بن عبد السلام الحلو .
٢ ـ علال الفاسي .
٣ ـ حمزة الطاهري .

٤ - محمد بن الحسن الوزاني .
٥ - عبد الرحمن القرشي .
٦ - أحمد بن الحاج الطاهر مكوار .
٧ - محمد أشرقي .
٨ - أحمد بوعياد .
٩ - محمد بن المفضل بن جلون .
١٠ - عبد السلام المراكشي .
١١ - عبد العزيز بن إدريس .
١٢ - الحسن بوعياد .
١٣ - إدريس بن محمد الوزاني .
١٤ - عبد الواحد الفاسي .
١٥ - إدريس بن عبد الرحمن برادة .
١٦ - الهاشمي الفيلالي .
١٧ - محمد بن العربي التازي .
١٨ - أحمد الرامي .
١٩ - عبد الهادي بن المواز .
٢٠ - عمر بن عبد الجليل .

ثم اختار هؤلاء عشرةً منهم ، وهم :

١ - عبد الرحمن القرشي .
٢ - إدريس بن محمد الوزاني .
٣ - عبد الواحد الفاسي .
٤ - عبد الهادي بن المواز .
٥ - محمد بن المفضل بن جلون .
٦ - محمد بن الحسن الوزاني .
٧ - علال الفاسي .

٨ ـ عمر بن عبد الجليل .
٩ ـ محمد بن عبد السلام الحلو .
١٠ ـ محمد الديوري .

وفي مساء اليوم التالي تكوّنت الجماعة الأولى للكفاح في دار أحمد بن الحاج الطاهر مكوار ، وأقسمت يمين الإخلاص لله ، ثم للوطن والملك ، وأعطيت أسماء حركية بأسماء العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهي :

١ ـ حمزة الطاهري : [أبو بكر] .
٢ ـ علال الفاسي : [عمر] .
٣ ـ محمد بن الحسن الوزاني : [عثمان] .
٤ ـ العربي بوعياد : [علي] .
٥ ـ أحمد بوعياد : [سعد] .
٦ ـ الحسن بوعياد : [سعيد] .
٧ ـ عبد القادر التازي : [طلحة] .
٨ ـ محمد الديوري : [الزبير] .
٩ ـ إدريس بن عبد الرحمن برادة : [عبد الرحمن بن عوف] .
١٠ ـ أحمد مكوار : [أبو عبيدة] .

وأطلق على هذه الجماعة اسم « الطائفة » ، وعلى الجماعة التي تليها اسم « الزاوية » .

وفي ٢٩ ربيع الأول ١٣٤٩هـ (٢٣ آب ١٩٣٠م) ، أعدّت العريضة التي ستقدّم إلى السلطان ، والتي تشمل مطالب البلاد ، وهي :

١ ـ إلغاء التشريعات المتعلّقة بالظهير البربري .
٢ ـ توحيد التشريع والإدارة بالبلاد .
٣ ـ تركيز جمع السلطات بيد السلطان وحكومته .

وبعد ثلاثة أيام أي في ٢ ربيع الثاني سافر الوفد إلى الرباط ، ويتألّف من :

١ ـ عبد الواحد الفاسي .
٢ ـ عبد الرحمن القرشي .
٣ ـ عبد الهادي المواز .
٤ ـ إدريس بن محمد الوزاني .
٥ ـ محمد بن جلون .
٦ ـ علال الفاسي.
٧ ـ محمد بن الحسن الوزاني.
٨ ـ عمر بن عبد الجليل .
٩ ـ محمد الديوري .

غير أن السلطة قد منعت علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوازني من السفر بحجة أنهما قد سجنا بموضوع الظهير البربري ، كما تضامن معهما عمر بن عبد الجليل ؛ فلم يسافر ، وهكذا بقي الوفد ستة أعضاء[1] ، ورجع الوفد يوم ٦ ربيع الثاني بعد أن قابل الملك ، والتقى بالأعضاء العشرين المنتخبين ، وأبلغهم جواب الملك ، وهو : « حيث قدمتم أصلحكم الله ، سننظر في مطالبكم ونجيبكم ولا يكون إلّا الخير » . وعادت المظاهرات ، وذكر اسم الله اللطيف في المساجد ، فاعتقلت السلطات في اليوم التالي محمد بن عبد السلام الحلو مع بعض الناس ، ثم تتابعت الاعتقالات ، فلما كان موعد الحضور إلى جامع القرويين يوم ٩ ربيع الثاني ١٣٤٩هـ (٢ أيلول ١٩٣٠م) لم يحضر سوى خمسة ، إذ كان الآخرون قد اعتقلوا ، أو نُفوا ، أو فرّوا ، والذين حضروا في ذلك اليوم : أحمد مكوار ، وأخوه المدني مكوار ، والحسن بوعياد ، وأخوه محمد بوعياد وعبد القادر الأزرق ، ثم فرّ الحسن بوعياد إلى طنجة ،

---

(١) ادعت السلطة الفرنسية أن سبب المنع هو رفض الملك مقابلة هذين الرجلين ، وذلك للإيقاع بين الملك وأعيان البلد ، غير أن الزعماء لم يقبلوا هذه الدعوى .

ومنها اتجه إلى مصر حيث أقام هناك .

ابتدأت لجان العمل الوطني ، وخاصةً في مدن (فاس) على أنها العاصمة القديمة ، و(الرباط) بصفتها العاصمة الجديدة ، و (سلا) ، و (تطوان) .

لم تطالب الحركات الوطنية باستقلال البلاد ، وجلاء القوات الأجنبية عنها ، فالاستقلال لا ينال إلّا بالسيف ، والعدو لا يجلو إلّا بالطرد ، ولا يكون الطرد إلّا بالقوة ، وقد فشل المغاربة في مقاومتهم المسلّحة ، وأخفقوا في ثوراتهم ، لذا كانت مطالبهم سهلةً على المعتدين ، وتعطي أملاً في التفاهم ، وإمكانية العيش بسلام في ظلّ الحماية الفرنسية رغم ما فيها من ظلمٍ وتشفٍّ ، وما يعقبه من ذلٍّ .

بدأ العمل ، وتجمّع المسلمون ، وبرزت « كتلة العمل الوطني » فكانت أول تنظيمٍ سياسيٍّ في البلاد ، وأصدرت جريدتين باللغة الفرنسية ، إحداهما في فاس ، وتحمل اسم « الشعب » ، وصدرت الأخرى في بارس باسم « المغرب » ، وكانت الكتلة تضمّ المتعلّمين الأوائل من أصحاب العاطفة الإسلامية ، وقد اتصلوا بإخوانهم من أبناء البلدان العربية والإسلامية ، وخاصةً مصر ، حيث كان اتصالهم بجمعية الشبان المسلمين ، وبجمعية الهداية الإسلامية ، إضافةً إلى صلتهم بالصحف مثل الفتح وغيرها ، وصاحبها محب الدين الخطيب ، كما اتصلوا بجمعية العلماء في الجزائر ، وحزب الدستور في تونس . ثم صدرت جريدة « الحياة » ، ومجلة « السلام » في مدينة (تطوان) ، وصدرتا باللغة العربية .

قدّمت كتلة العمل الوطني مذكّرةً إلى الملك محمد الخامس ، وإلى السلطات الفرنسية ، كما أرسلت نسخاً منها إلى ممثلي الدول الأجنبية ، وتشمل المطالب المغربية ، وأهمّها :

١ ـ إلغاء مظاهر الحكم الفرنسي المباشر ، وتطبيق معاهدة الحماية نصّاً وروحاً ،

وقيام حكمٍ ملكيٍّ دستوريٍّ .
٢ ـ ضرورة إلحاق أهل المغرب بالوظائف ليتمرّسوا على العمل .
٣ ـ تحقيق الوحدة القضائية والإدارية للبلاد جميعها ، والمحافظة على وحدة التراب المراكشي .
٤ ـ الفصل بين السلطات .
٥ ـ تأسيس مجالس : بلدية ، وإقليمية ، ومجلس وطني على أن يكون أعضاء هذه المجالس كلها من المغاربة .

والغريب أن الفرنسيين في المغرب كانوا يطالبون بمجلسٍ نيابيٍّ خاصٍّ بهم على حين لم يكن لأهل البلاد بعد مجلس نيابي ، واحتجّت كتلة العمل الوطني على هذا الطلب ،ولكن المقيم الفرنسي حلّ حـزب كتلة العمل الوطني .

واصلت الكتلة نشاطها على الرغم من صدور قرارٍ بحلّها ، ولكن تحت اسم « الحركة الوطنية لتحقيق المطالب » ، وأخذت تسعى في نشر التعليم ، وحماية الثقافة العربية ، ونشر الوعي بين شباب المغرب ، وقد لقيت الكتلة تأييداً من قبل الشعب الأمر الذي زاد من نشاطها ، وأخذت تتحرّك في مختلف النواحي ، ولكنها ظنّت أن نجاح الجبهة الاشتراكية في فرنسا واستلام الحكم يخفّف الوطأة ، وعقدت مؤتمـراً في مدينة الرباط في تاريخ ١٠ شعبان ١٣٥٥هـ (٢٥ تشرين الأول ١٩٣٦م)، وقد اتخذت قرارات مستعجلة رُفعت إلى المقيم الفرنسي، وكُتبت عرائض من قبل الشعب بتأييد قرارات المؤتمر ومطالب الحركة الوطنية، ثم عُقد اجتماعٌ آخر في مدينة الدار البيضاء ، ولكن المقيم الفرنسي « نوغس » اعتقل ثلاثةً من زعماء الحركة الوطنية ، فأعلن الشعب الإضراب العام ، وانطلقت المظاهرات في المدن ، وحدثت معارك عنيفة بين أفراد الشعب المتظاهرين والقوات الفرنسية فما كان من المقيم العام إلاّ أن تراجع ، وأطلق سراح المعتقلين ، وسمح بإصدار أربع صحف باللغة العربية ، وواحدة باللغة الفرنسية ، وكان في هذا أن عاد للحركة نشاطها ، فافتتحت لها مكتباً في مدينة فاس ، وانتخب علال الفاسي

رئيساً للكتلة فانسحب منها محمد بن الحسن الوزاني ، ووجدت السلطات الفرنسية مجالاً لها في هذا الاختلاف الشخصي بين زعماء الحركة ، فأصدرت قراراً بحلّ الحركة الوطنية في تاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٣٥٥هـ (٩ آذار ١٩٣٧م) .

النشاط السياسي في بلاد الريف : كان العمل السياسي واحداً في مراكش كلها ، ويعدّ في بلاد الريف تتمةً لما يقوم به المغاربة في المنطقة التي تقع تحت سيطرة النفوذ الفرنسي ، فكتلة العمل الوطني أو الحركة الوطنية في مراكش لها امتداد في الريف ، وقد تولّى زعامتها هناك « عبد الخالق الطريسي » ، غير أن حركة فرانكو في إسبانيا قد جعلت الحركة في الريف تنفصل عن الحركة الوطنية في مراكش ، وقد دعا الطريسي حركته باسم « حزب الإصلاح الوطني » ، والواقع أن هذا الحزب قد بقي على صلةٍ وثيقةٍ مع الحزب الوطني في مراكش والذي يرأسه علال الفاسي ، ثم الذي غدا يحمل اسم حزب الاستقلال ، وأخيراً اندمج في حزب الاستقلال عام ١٣٧٦هـ .

أصدر عبد الخالق الطريسي جريدة « الحياة » باللغة العربية في مدينة تطوان في شهر ذي القعدة عام ١٣٥٢هـ (آذار ١٩٣٤م) ، وأسّس المعهد الحرّ ، وشكّل فرق الفتيان المغاربة ، كما اشترك مع آخرين منهم الشريف الوازني ، والطيب ينون ، ومحمد الفاسي ؛ في تشكيل عصبة الفكر المغربي ، ولكن انشقّ محمد المكي الناصري ، وألّف حزب « الوحدة » ، وأصدر جريدة « الوحدة المغربية » ، وأسّس « المعهد الخليفي » ، كما انشقّ عن عبد الخالق الطريسي الزعيم محمود بودرة ، وشكّل حزب الأحرار ، وأصدر جريدة « الريف » . وهكذا أصبح في بلاد الريف ثلاثة أحزاب ، وتنطق باسمها ثلاث صحف .

استمرار النشاط في مراكش : أعاد رجالات البلاد تنظيمهم ولكن باسمٍ جديدٍ هو « الحزب الوطني » برئاسة علال الفاسي ، وأخذوا في

نشاطهم ، فأحسّ الفرنسيون بالخطر عليهم ، فقاموا باعتقال لجنة الحزب التنفيذية كاملة ، ونفوا أعضاءها .

أما محمد حسن الوازني فقد أسّس اللجنة القومية ، ثم أطلق على تنظيمه « حزب الاستقلال الديمقراطي » ، وأصدر جريدة « الرأي العام » لتنطق باسم الحزب ، وكان برنامجه تثبيت الحكم الدستوري النيابي ، والتدرّج في العلاقات مع فرنسا حيث يطالب ببعض الحقوق فإذا حصل عليها انتقل إلى مطالب أخرى ، فإن المطالب الرئيسية يصعب على فرنسا تحقيقها بل البحث فيها ، وهذا ما يؤدّي إلى توتر العلاقات دون الحصول على شيء .

وبدأت الاضطرابات العامة في البلاد بإضراب العمالِ بتحريضٍ من اتحاد العمل الفرنسي ، فأقدمت السلطات الفرنسية على حلّ التجمعات العمالية ، وأعقبتها حوادث مكناس حيث احتفظ الفرنسيون بمياه الري لأنفسهم وحرموا منها أهل البلاد ، فأدّى إلى قيام انتفاضةٍ ساخطةٍ على الدخلاء الأمر الذي جعل المقيم الفرنسي يشرف على إطفائها بنفسه باتخاذ إجراءات تعسفية ، وتلتها حملات عنيفة في المساجد قادها العلماء ضدّ الفرنسيين ، وخاصةً في مدينتي (الرباط) و (فاس) ، فأصدر الوزير الأول قراراً بمنع استخدام المساجد لأسبابٍ سياسيةٍ ، وهي نغمةٌ معروفةٌ في الأمصار الإسلامية ، فإن أي كلمةٍ لا ترضي الحاكم في المساجد يمنعها بعنف ، ويطلق عليها سياسة ، وأنه يجب إبعاد الدين عن السياسة ، وإبقاءه على نقائه وصفائه على حدّ زعم الطغاة ، مع أن الإسلام يشمل جوانب الحياة كلها ، ولا يمكن فصل جانب عن جانب ، وما السياسة إلاّ أحد هذه الجوانب ، ولا يمكن فصلها عن الإسلام أبداً ، وأن المسجد هو المكان الأساسي للبحث في قضايا الحياة كلها ، ودراسة أوضاع المسلمين في العالم كله ، سواء أكان ذلك في خطب الجمعة أم في غيرها ، بل وفي كل وقت من الأوقات ، والمساجد تبقى مفتّحة الأبواب لهذا الغرض ، وفي عهد رسول الله ﷺ ، وفي أيام الخلفاء الراشدين من بعده ، وعلى مدار التاريخ الإسلامي كلما حزب المسلمين أمرٌ نودي :

الصلاة جامعة ، فيتوافد المسلمون إلى المساجد ، وتُعرض القضية ، ويُعرّف الناس بما يجب عليهم اتخاذه .

ولما جاء المستعمرون الصليبيون كانوا في وادٍ ، والمسلمون في وادٍ آخر ، فهم نصارى دخلاء يريدون التشفّي من المسلمين ، وإرواء حقدهم بما يقومون به من جرائم وانتهاك للحرمات ، والمسلمون أبناء البلاد مغلوبٌ على أمرهم ، فلا مكانِ لهم يجمعهم إلّا المسجد ، ولا موضع يلجؤون إليه إلّا المسجد ، ولا موقع يحتمون به إلّا المسجد ، فيتدارسون أمورهم هناك ، ويرفعون مطالبهم ، ويبدون آراءهم ، وكان الأمر طبيعياً أن يحول الدخلاء دون هذا ، ويدّعون إبعاد الدين عن السياسة ، وخرج المستعمرون ، وعادت البلاد إلى يد أبنائها ، غير أن الأحزاب والتنظيمات غير الإسلامية رأت الحديث في المساجد عن شؤون البلاد ليس في مصلحتها ، وإنما هو عليها ، إذ تستفيد منه الهيئات الإسلامية ، وإن لم تكن معادية لها سياسياً فهي تعمل للإسلام ، والأحزاب العلمانية تعادي الإسلام ، فكل لقاءٍ في المسجد إنما هو ضدّ منهجها ، ولا يتفق مع خطها السياسي على الأقل ، لذا فقد حافظت هذه الأحزاب على السياسة الصليبية الاستعمارية سواء أكانت في السلطة أم في المعارضة ، كما استمرّت في تطبيق السياسة الاستعمارية في شعارات فصل الدين عن الدولة ، وعدّت كل حديثٍ في الشؤون العامة في المساجد إنما هو إقحام الدين في السياسة ، وهذا لا يصحّ أبداً على زعم الصليبيين ومن سار على نهجهم .

الحرب العالمية الثانية : اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (١ أيلول ١٩٣٩م) ، ولم تلبث أن انهارت فرنسا أمام الألمان ، وقامت فيها حكومة « فيشي » برئاسة الجنرال « بيتان » الذي وقّع الهدنة مع الألمان ، على حين بقي الجنرال ديغول خارج فرنسا يعادي حكومته « فيشي » ، ويقاتل بجانب الحلفاء ، وقد شكّل حكومة « فرنسا الحرّة » .

أسرعت إسبانيا واحتلّت طنجة ، وسمحت للألمان بالتدريب في المنطقة المراكشية الخاضعة لنفوذها ، بل قامت مظاهراتٌ فيها تطالب الحكومة

باحتلال المحمية الفرنسية من مراكش ، وقد كان الجنرال « فرانكـو » حاكم إسبانيا إلى جانب الحكومات الاستبدادية في كلٍّ من ألمـانيا وإيـطاليا ، ومن مؤيّديها ، ما دام أنه أحد الاستبداديين .

أما المغرب فتبعت حكومة « فيشي » الموالية للألمان ، وكـان السلطان محمد الخامس بجانب الحلفاء ، ويبدو أنه على كرهٍ بدول المحور الاستبدادية الحكم ، أو كان يحسّ ضمناً أن نتيجة الحرب ستكون لمصلحة الحلفاء رغم أن السنوات الأولى من القتال كانت لمصلحة دول المحور ، بل إن الألمـان قـد اكتسحوا معظم الأرض الأوربية . وكان محمد الخامس على علاقةٍ وطيدةٍ مع الوطنيين في بلاده .

نزل الحلفاء بالمغرب في ١١ ذي القعـدة ١٣٦٢هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٤٣م) ، وخرج منها أتباع حكومة « فيشي » ، وأخذت الحـركة الـوطنية بنشاطها من جديد ، وفي اليوم الأول من عام ١٣٦٣هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٣م) ، نشأ حزب الاستقلال برئاسة علال الفاسي ، وحلّ محلّ الحزب الـوطني ، وتسلّم أمانـة السرِّ فيه أحمـد بلفريـج ، وأصدر الحـزب جريـدة « العلم » باللغة العربية ، وجريدة « الاستقلال » باللغة الفرنسية ، وقد نال تأييداً كبيـراً في الأوساط الشعبيـة ، بل كـان الملك محمد الخـامس من أول المؤيّدين له ؛ وإن كان بشكل سريٍّ ، وفي ١٦ محرم ١٣٦٣هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٤م) التقت الأحزاب المغربية ، واتخـذت ميثاقـاً تضمن أهداف الشعب المغربي ، ووقّع عليها أربعةٌ وستون زعيماً من رجالات البلاد ، وفوّضوا حزب الاستقلال بتقـديم المطالب إلى الملك ، وإلى المقيم الفـرنسي العام ، ومتابعة مراحل المطالبة بالاستقلال ، وكانت أهمّ بنود هذا الميثاق :

١ ـ المطالبة بالاستقلال التام ، ووحدة الأراضي المغربية .

٢ ـ إقرار الملكية الدستورية كنظامٍ للحكم .

٣ ـ التعاون بين الملك والشعب على تحرير البلاد، وتحقيق الإصلاح المنشود على أنه أمر داخلي لا علاقة للفرنسيين بالتدخّل فيه .

وقد قرّر الزعماء أن نظام الحماية لا يحقّق شيئاً للبلاد ، ولا يمكن أن تستفيد منه ، وأن الاستقلال هو السبيل الوحيد لتحقيق الإصلاح .

قدّم الحزب المطالب إلى الملك ، وإلى المقيم العام ، أما الملك فقد أيّد هذه المطالب دون الرجوع إلى السلطات الفرنسية ، وشكّل لجنةً لدراستها ، وعقد مؤتمراً للأعيان ، وعيّن لجنةً للاتصال مع الحزب ، أما المقيم العام الفرنسي فقد كان ردّه بالأمر بإلقاء القبض على زعماء الحزب ، ونفيهم إلى الجنوب ، ووقعت أحداثٌ داميةٌ ، وامتلأت السجون بأبناء البلاد وزعمائهم .

وقدّم المقيم العام « جبريل بيو » كردّ فعل مشروعاً سمّاه إصلاحياً ، ولكن في حدود معاهدة الحماية التي يرفضها المغاربة إذ تتنافى مع سيادة بلادهم ، وردّ عليه حزب الاستقلال ، وبيّن أن هذا المشروع اعتداء على حقوق المغرب إلّا أن المقيم العام قد أصرّ على المشروع ، وأراد فرضه بالقوة ، غير أنه أخفق في ذلك ، وحاول فرضه بالتمويه ففشل ، فاتخذ إجراءاتٍ تعسفيةٍ شديدةٍ ، وقام باعتقال زعماء الحزب ونفيهم ، حيث نُفي « علال الفاسي » إلى (الغابون) و « أحمد بلفريج » إلى جزيرة (كورسيكا) ، و « محمد اليزيدي » إلى (بنزرت)، و . . . ، وقامت مظاهرات في أنحاء متعددة من البلاد تضامناً مع الحزب وزعمائه ، فقمعها الفرنسيون بعنف ، ونفّذوا حكم الإعدام بعددٍ من الشباب صباح ١٢ ربيع الأول ، ولما رأت فرنسا أن الحركة الوطنية عنيفة ، وأن التعسّف قد يجرّ ويلاتٍ عليها ، لذا فقد غيّرت سياستها ، واستدعت المقيم العام « جبريل بيو » ، واستبدلته بآخر .

بعد الحرب : جاء المقيم العام الجديد « أريك لابون » ، فأمر بإعادة الزعماء المنفيين ، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ، والسماح بإصدار صحفٍ عربيةٍ ، وذلك كنوع من سياسة الإرضاء ، أو محاولة الموافقة على السياسة الجديدة ، إذ قدّم مشروعاً سمّاه إصلاحياً أيضاً ، ويعتمد على سياسة نظام اللامركزية بالحكم بصورةٍ يستفيد منه المستعمرون بالحكّام . فمن ناحية الحكم اقترح أن تُجرى انتخابات في المدن والقرى لممثلين في المجالس لها ، على

أنهم جزء من الأسرة المغربية ، حيث يقترح المشروع دمجهم مع أبناء المغرب في أسرةٍ واحدةٍ على حدِّ تعبيره، كما يُعدّ السلطان ملكاً للعنصرين ، أما من الناحية الاقتصادية فقد رسم المقيم العام سياسة بقاء استعمار فرنسا اقتصادياً للمغرب حتى بعد الاستقلال الذي يعدّ أنه آتٍ لا محالة ، فقد حاول أن يؤمّم بعض المناجم [بصفته الاشتراكية] لحساب الحكومة الفرنسية الاستعمارية ، وأن يؤسّس شركاتٍ استثماريةٍ فرنسيةٍ ، وبدأ التأسيس فعلاً .

ردّ حزب الاستقلال على مشروع المقيم العام والذي عارضه الملك أيضاً . رفض الحزب والملك اشتراك الفرنسيين في الحكم في المجالس المنتخبة فهم غرباء عن البلاد ، وليس لهم الحقّ في حكمها ، واقترح كبديل إلغاء معاهدة الحماية العمل في مشروع اتفاقيةٍ للاستقلال ، وأما في المقترحات الاقتصادية فقد عدّ الحزب مشروع المقيم العام نوعاً من الإقطاع الفرنسي في أرض المغرب ، وأسّس الحزب لجنةً اقتصاديةً لتوجيه الممولين المغاربة للردّ العملي على المشروعات الفرنسية ، فلما مضى المقيم العام في تأسيس الشركات الفرنسية ، ومنها شركة الطيران ؛ أسّس الوطنيون شركة « النجوم » للنقل المدني الجوي . وأسّس المقيم العام شركةً للإخراج السينمائي ؛ فأسّس الوطنيون شركة « استديو المغرب » .

قام الملك بزيارةٍ لطنجة ، وأتبعها بزيارةٍ لبلاد الريف ؛ كنوعٍ من التظاهر بتأييد سياسة حزب الاستقلال ، وقد ألقى خطباً ، واستُقبل استقبالاً حافلاً في كلتا المنطقتين ، وكان يعلن في كل كلمة يلقيها وحدة المغرب ، وأن كل أقليمٍ منه جزء لا ينفصل عنه ، وأن المغرب لها شخصيتها العربية والإسلامية لا تحيد عنها ، ولا تتزحزح مهما تعرّضت لعوامل ، وقد أقضّت هذه الزيارات مضاجع الفرنسيين ، وكانوا من قبل قد حاولوا ثنيه عن القيام بهذه الزيارات ؛ فلم يفلحوا ، وارتكبوا عدة مذابح وجرائم في الدار البيضاء ليحولوا دون قيامه بالزيارة ؛ فلم ينجحوا .

امتنع الملك عن التصديق على مشروع مرسومٍ خاصٍّ بتأسيس شركةٍ

فرنسية للفحم ، ورفض كذلك التصديق على عددٍ من مشروعات المراسيم التى تهدف إلى تمليك الثروة المغربية للحكومة الفرنسية أو لشركاتٍ فرنسيةٍ ، فزاد الموقف تأزّماً بين الملك والسلطات الفرنسية الحاكمة ، وزاد أكثر عندما قام الملك برحلته إلى طنجة ، وكلامه عن ضرورة التعاون بين المغرب والجامعة العربية .

غيّرت فرنسا المقيم العام ، وأرسلت مقيماً آخر هو الجنرال « جوان » تحدّياً لإرادة الملك الذي كان قد كتب إلى باريس يرجو أن يكون المقيم العام من غير العسكريين . فجاء « جوان » وهو من مواليد الجزائر ، ويرى بشكلٍ صريحٍ أن فرنسا يجب أن تحتفظ بممتلكاتها في شمالي إفريقية بأي ثمن [كنوع من الاشتراكية التي ينتمي إليها ، وتأييداً لسياسة حكومة « رامادييه » الاشتراكية التي تحكم فرنسا يومئذ] ، وهو رجلٌ صلبٌ لا يتزحزح عن موقفه ، ويستحيل ثنيه عن فكرةٍ تخطر في باله أو رسمها في ذهنه مسبقاً .

ما أن وصل « جوان » إلى مراكش حتى أخذ يستعمل التهديد ، والمكر والخداع ، ويحاول الإيقاع بين الزعماء ، وبين الشعب بعضهم على بعض ، فقد حاول إقناع بعض العلماء لإصدار فتوى بمخالفة أعمال الملك للشرع ، وحاول تشويه سمعة حزب الاستقلال متهماً زعماؤه بأنهم جماعة من المتعلّمين الناقمين العاطلين عن العمل ، ولا يمثّلون إلاّ أنفسهم . وحاول أن يفسد بين العرب والبربر ، وأن يفسد بين السلفية والصوفية ، فقد حرّض عبد الحي الكتاني شيخ الطرق الصوفية للوقوف ضدّ حزب الاستقلال الذي لا يؤيّد الصوفية ، ويعدّ الملك من الذين يدعمون حزب الاستقلال ، وبذا أصبح الكتاني مناوئاً للملك ، وعمل على إصدار منشورات تنال من الأسرة الحاكمة ، وتحمل توقيع اسم حزب مستعار ، تارةً تحمل اسم حزب الله ، وتارةً حزب الإخوان المؤمنين ، ورغب في استصدار مرسوم يمنع فيه من الهتاف بالحرية والاستقلال فيما إذا رأى الملك أو ولي العهد .

حاول حزب الاستقلال التفاهم مع باريس مباشرةً متخطياً الجنرال

« جوان » نتيجة إجراءاته التعسفية ، وطريقة المكر والخداع التي يتخذها ، وأسلوب الإيقاع الذي يسلكه ، فسافر وفدٌ من الحزب يتألّف من : عمر بن عبد الجليل ، وعبد الكريم جلون ، وأحمد الحمياني ؛ لشرح الموقف للمسؤولين وللرأي العام الفرنسي ، فلم يظفر الوفد بحاجته . ثم سافر أمين سر الحزب أحمد بلفريج ؛ فلم يصل إلى نتيجة ، ثم ذهب علال الفاسي ، فأخبر أنه لا أمل بالتفاهم مع أحدٍ من المغاربة مهما كان مركزه بعد أن مُنح المقيم العام الجنرال « جوان » سلطاتٍ واسعةٍ ، وأعطي صلاحيات خلع الملك إذا اقتضى الأمر ، فرجع علال الفاسي إلى الرباط ، غير أنه قد رأى أن نشاطه محصور ، ولا بدّ من الانطلاق ، فسافر إلى القاهرة في جمادى الآخرة ١٣٦٦هـ (أيار ١٩٤٧م) ، والتقي هناك بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان قد لجأ إلى مصر ، وأسّسا مكتب المغرب العربي ، واستلم محمد الخطابي رئاسته .

وقف الملك من المقيم العام الجنرال « جوان » موقفاً صلباً ، إذ كان يرفض توقيع مشروعات القوانين التي تُعرض عليه ، ويحيلها إلى لجانٍ وزاريةٍ لدراستها ، فكانت هذه اللجان تقترح مشروعات تغاير فكرة المقيم العام ، وتوافق رغبات الملك ، فيقرّها . ورفض فكرة وزارة مشتركة من المغاربة والفرنسيين، ومجلس للشورى مشترك، بل رفض مبدأ اشتراك الفرنسيين أساساً في المجلس والوزارة ، وكاد الأمر يصل إلى القطيعة بين الطرفين ، بل إلى الانكسار .

زيارة فرنسا : خشيت فرنسا أن تقع الواقعة بين الملك وبين المقيم العام « جوان » ، وأن يساند الشعب الملك ، وعندها يصعب رتق ما خرق ، لذا رأت أن تجامل الملك بعض المجاملة لتقريب الشقة بينها وبينه ، وربما يؤدّي هذا التصرّف وما تقوم به بعده من محاولة إيجاد هوةٍ بين الملك وشعبه إلى إخضاع الملك وتأديبه ـ على حسب رأيها ـ وكل من يعاندها ويخرج عن إرادتها ، وضرب الشعب بما يستحقّ . دعت فرنسا الملك لزيارتها ، فلبّى

الدعوة ،وسافر في ١٩ ذي الحجة ١٣٦٩هـ (١ تشرين الأول ١٩٥٠م) ، ومعه الوزراء ، والأعيان ، وبعض القادة ، وديوانه الخاص ، وفي اليوم الثاني من أيام وصوله قدّم مذكّرةً لرئيس الجمهورية طالب فيها بإلغاء معاهدة الحماية التي فرضتها فرنسا على بلاده ، ودرست الوزارة الفرنسية مذكرة الملك مع أنها تعرّضت لضغطٍ شديدٍ من السلطات الفرنسية في مراكش ، بل ومن المستوطنين الفرنسيين هناك ، ورأت الوزارة أن على فرنسا أن تتابع الحماية مع إمكانية إجراء بعض الإصلاحات الإدارية التي يمكن أن تدرسها لجنةٌ مغربية - فرنسية .

وانتهت زيارة الملك لفرنسا ، وقبل أن يغادر باريس أعطى رئيس الجمهورية الفرنسي مذكرةً ثانيةً أبدى فيها أسفه لإصرار الحكومة الفرنسية على التمسّك بمعاهدة الحماية ، وتفضيلها مصالح المستوطنين الفرنسيين على كل مصلحة ، بل على أهل مراكش جميعاً ، وطالب مرةً أخرى بمذكرته باستقلال مراكش ، ودعا فرنسا لعقد معاهدة على أساس هذا الاستقلال ، ورجع من غير أن يحقّق شيئاً أو يظفر بحاجة .

وعندما عاد الملك أخذ تهامي الجلاوي يعلن تأييده لفرنسا ، وينتقد موقف الملك من مسايرة حزب الاستقلال ودعمه رغم أنه لا يمثّل سوى فئةٍ قليلةٍ من أهل المدن . ولكن أظهر الشعب تأييده للملك ، وظهر هذا خاصةً في الاحتفالات التي أقيمت في البلاد بمناسبة ذكرى جلوس الملك على عرش البلاد ، وإن الأعضاء المنتخبين في مجلس شورى المقيم قد تكلّموا بالثناء على الملك ، وإن العضو « محمد الأغزاوي » قد ألقى كلمةً أعلن فيها فشل نظام الحماية ، وطالب بالاستقلال ، فما كان من المقيم العام إلّا أن أسكت الخطيب « محمد الأغزاوي » ، ومنعه من متابعة الكلام ، وطرده من القاعة ، فخرج غاضباً محتجّاً ، وخرج معه تضامناً « أحمد اليزيدي » و « محمد العراقي » ، ثم خرج أكثر الأعضاء المنتخبين ، أما المعيّنون فهم من أنصار السلطة الفرنسية ، وما عيّنوا إلّا لهذه الصفة ، وقد انطلق الذين خرجوا من القاعة إلى

قصر الملك ، فاستقبلهم بحفاوة ، واستمع منهم .

وعاد الفرنسيون إلى التهديد ثانيةً ، وكان المقيم العام الفرنسي في رحلةٍ إلى أمريكا ، فقبل أن يغادر مراكش مرّ على الملك ، كمودعٍ حسب الأعراف السياسية ، إلّا أنه قدّم له إنذاراً يطلب منه فيه :

١ ـ طرد أعضاء ديوان الملك .
٢ ـ طرد بعض كبار الموظفين .
٣ ـ التخلّي عن حزب الاستقلال ، وعن تأييده ومساعدته .
٤ ـ توقيع مشروعات المراسيم المجمّدة .

وأنذره أنه في حالة رفضه لهذه البنود فما عليه إلّا أن يتنازل عن العرش ، أو تخلعه فرنسا بالقوة ، وتشهّر به ، وسافر المقيم العام ، وعاد فوجد الملك على حالته لا يتزحزح عنها أبداً ، فجدّد إنذاره ، فلم يتغيّر شيء ، واستمرّ الملك على سياسته الأولى ، غير أن القوات الفرنسية قد قامت بتهديد عملي ، إذ احتلّت المدن الرئيسية ، وحاصرت قصر الملك في تاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (٢٤ شباط ١٩٥٢م) ، فاضطرّ الملك إلى عزل أعضاء ديوانه ، وعزل رئيس جامعة القرويين في مدينة فاس ، وتوقيع بعض المراسيم التي سبق أن رفض توقيعها ، كما أصدر بياناً في اليوم التالي أعلن فيه أنه فوق الأحزاب ، وشجب أعمال العنف والانقسامات المخالفة للدين الذي يأمر بعدم الفرقة ، وأكّد صداقته لفرنسا .

كانت جامعة الدول العربية قد بحثت في دورتها العادية أوضاع المغرب ، واستنكرت الأعمال التي تقوم بها فرنسا هناك . وكان مندوب جريدة الأهرام المصرية زائراً لمدينة الرباط في تلك الأيام ، فأعلن له الملك أنه رضخ لتنفيذ ما قام به مكرهاً ، ونشرت الجريدة الخبر ، فكان له أسوأ الأثر في نفوس المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي أجمع .

وقامت بعض ردود الفعل الداخلية ، لكن لم تكن على المستوى

المطلوب ، إذ احتفل حزب الاستقلال في طنجة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ (٢٢ آذار ١٩٥٢م) بمناسبة ذكرى تأسيس الجامعة العربية ، أو ما يُعرف خطأً بعيد جامعة الدول العربية ، فقام بمظاهرةٍ ضخمةٍ بهذه المناسبة ، ورُفعت فيها أعلام الدول الإسلامية المستقلّة ، وبعض الدول الآسيوية والإفريقية الأخرى ؛ إظهاراً لارتباطها بها .

قضية المغرب في الأمم المتحدة : خرجت قضايا المغرب عن إطارها المحلي، وترددت أصداؤها في أكثر الدول الإسلامية ، وعرضت كتلة الدول الآسيوية ـ الإفريقية القضية على هيئة الأمم المتحدة أثناء اجتماعها في باريس ، غير أن الجمعية العمومية قرّرت تأجيل النظر فيها ، إذ أن الكتلة الآسيوية ـ الإفريقية رغم كثرة عدد أصواتها في الهيئة إلاّ أن أثرها الحقيقي ضعيف ، والأثر الفعلي للدول الكبرى رغم قلة عدد أصواتها نسبياً . وأن الدول التي تسمّى دول عدم الانحياز ليست في الواقع كذلك ، فإن أكثرها منحاز ، ومضطرٌ للالتزام بما تمليه عليه الدول العظمى المرتبطة بها سياسياً أو اقتصادياً أو مصلحة أو. . . .

أتى الخريف ، وجاءت ذكرى جلوس الملك محمد الخامس على عرش المغرب ، فاحتفل حزب الاستقلال بهذه المناسبة ، وشاركت وفود البلدان العربية ، وتكلّم بعضها . وفي المناسبة نفسها أعلن الملك في الرباط ضرورة إلغاء معاهدة الحماية ، وطالب الشعب بالهدوء ، وذكّرهم أن المطالبة تكون بالهدوء ، وتُنال بالرضا .

وبدّلت فرنسا المقيم العام ، وجاء المقيم الجديد « أغوستين غيوم » في ٢٨ ذي القعدة ١٣٧١هـ (١٨ آب ١٩٥٢م) .

وتجمّعت الأحزاب الوطنية في ١٤ ربيع الثاني ١٣٧١هـ (١١ كانون الثاني ١٩٥٢م) ، وشكّلت جبهةً وطنيةً واحدةً وقدّمت مذكرةً إلى الملك ؛ هي المذكرة نفسها التي قدّمتها قبل ثمان سنوات في اليوم نفسه .

بدأت بعض الأمصار الإسلامية تتجاوب مع الأصداء التي تصل إليها من المغرب ، وتتفاعل معها ، إذ قدّمت الدول العربية احتجاجاً إلى هيئة الأمم المتحدة وإلى فرنسا على الأعمال التي تقوم بها فرنسا في المغرب ، وطالبت حكومة الأردن الولايات المتحدة بالتدخّل في الأمر ، وقامت مظاهرات صاخبة في باكستان ولبنان ضدّ فرنسا وجرائمها في المغرب ، واجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ (١٣ آذار ١٩٥٢م) ، وقررت الاحتجاج على أعمال فرنسا ، وإثارة القضية في الأمم المتحدة ، ورُفعت مذكرة احتجاج فعلاً من السعودية ، ومصر ، والأردن ، وسوريا ، غير أن الحكومة الفرنسية قد رفضت تلك المذكرة وردّتها .

قوي موقف الملك بعد أن رأى ذلك التأييد في الداخل وفي الخارج ، فبعث في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ مذكرةً إلى رئيس الجمهورية الفرنسية أيّد فيها المطالب الوطنية بالاستقلال وإلغاء معاهدة الحماية ، فرفضت الحكومة الفرنسية المذكرة والمطالب الوطنية ، وتقدّمت بعروضٍ جديدةٍ ، غير أن الملك قد رفضها أيضاً ، وأصدر في أوائل رجب من عام ١٣٧١هـ بياناً بيّن فيه أوجه الخلاف بين الملك والشعب المغربي من جهةٍ وبين السلطات الفرنسية من جهةٍ ثانيةٍ .

قدّمت العراق مذكرةً إلى هيئة الأمم المتحدة ، وطلبت فيها عرض قضية المغرب عليها ، وأيّد العراق ثلاث عشرة دولة إسلامية ، وأقرّت اللجنة التوجيهية صفة الاستعجال للقضية ، وناقشت اللجنة السياسية موضوع المغرب ، ورفضت مشروعاً عربياً ، وأقرّت مشروعاً تقدّمت به دول أمريكا اللاتينية مرن المفهوم ، ووافقت عليه اللجنة العمومية بأكثرية خمسةٍ وأربعين صوتاً .

انفراج الأزمة باشتدادها : أعلن حزب الاستقلال واتحاد النقابات في المغرب الإضراب العام تضامناً مع تونس التي أضربت بسبب مقتل « فرحات حشّاد » على أيدي السلطات الفرنسية ، فاستغلّ الفرنسيون هذه الفرصة بالإضرابات ، وقاموا بمذبحةٍ في مدينة الدار البيضاء ذهب ضحيتها أربعة

آلاف مواطن ، كما اعتقلوا زعماء حزب الاستقلال ورؤساء اتحاد نقابات المغرب ، وأعلنوا حلّ حزب الاستقلال ، وعطّلوا الصحف العربية ، وقاموا بإجراءاتٍ تعسفيةٍ كثيرةٍ ، ثم ألزمت الكثير من الوجهاء والقادة على التوقيع على عريضة تطالب بخلع الملك لمعارضته الإصلاحات التي تحتاج إليها أجهزة الدولة والإدارات ، لأن ثقافته عصرية (علمانية) تخالف تعاليم الإسلام السمحة ، ولذا فهو لا يصلح أن يكون مرجعاً في الأمور الدينية ، ويجب خلعه ، وذلك في تاريخ ١٧ رمضان ١٣٧٢هـ (٣٠ أيار ١٩٥٣م) .

وعقد « تهامي الجلاوي » مؤتمراً في ٣ ذي الحجة ١٣٧٢هـ (١٣ آب ١٩٥٣م) الهدف منه معاداة الملك ، وقد أعلن في هذا المؤتمر خلع الملك ، وكانت فرنسا قد قررت التخلّص من الملك بأية صورةٍ من الصور ، وإنما أخذت تمهّد لذلك ، وتقوم بالمقدّمات ، وفي التاسع من شهر ذي الحجة من عام ١٣٧٢هـ أي يوم الوقوف بعرفة قدّم المقيم العام الفرنسي « أغوستين غيوم » وثيقةً للملك تتضمن اختياره بين التنازل عن الملك أو النفي ، غير أن الملك قام بتمزيق الوثيقة ، وألقى بها ، وفي اليوم التالي صبيحة عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة ١٣٧٢هـ (٢٠ آب ١٩٥٣م) جاءت قوةٌ من القوات الفرنسية ، واعتقلت الملك وأفراد عائلته ، ونقلتهم إلى المطار ، حيث أقلّتهم طائرة إلى (أجاكسيو) عاصمة حزيرة كورسيكا، ثم بعدئذٍ حُملوا إلى جزيرة مدغشقر في المحيط الهندي في شرق إفريقية ، ونُصِّب مكانه أحد أفراد أسرته وهو محمد بن عرفة .

تفاقم الوضع ، ولم يعد هناك من حلٍّ يرضي أحد الطرفين إلاّ بتحقيق مبتغاه ، فإما أن يحصل المغاربة على الاستقلال ، وتتراجع فرنسا عن موقفها ، وتتخلّى عن المغرب وتنسحب ، وإما أن تصرّ على موقفها ، وتتشبّث بالأمر ، وتفتك بأكثرية السكان ، ويبدو من أول الأمر أن الأحداث كانت تجري لمصلحة الموقف الأول ، إذ تضافر الشعب كلّه إلاّ قليلاً منه ، وهبّ لتأييد الملك، وأبدى تمسّكاً به، والعمل على إعادته، وامتاز المنافقون والعملاء؛ عن

الصادقين بالعمل لبلدهم .

وانطلق المخلصون ولم يستمعوا إلى طلب بعض الزعماء بالهدوء خوفاً من موجة النقمة العارمة المرتقبة ، ولم يرعووا إلى أحد، ولم يعد أحدٌ يقبل بفكرة الحلّ السلمي والمفاوضة ، والعمل السياسي . وانقضّ الثائرون على عددٍ كبيرٍ من المتعاونين مع فرنسا ، والموالين لها ، والذين ينادون بالتفاهم معها ؛ ففتكوا بهم .

وتجاوز الأمر منطقة الحماية الفرنسية ، ووصل إلى منطقة الريف حيث الحماية الإسبانية ، إذ اجتمعت القبائل ، وعقدت مؤتمراً في ١٦ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٥٤م) حضره المندوب السامي الإسباني الجنرال « غارسيا » ، وقد أعلن الحاضرون تأييد الملك محمد الخامس ، واستنكار ما أقدمت عليه فرنسا من اعتقال ونفي لرمز بلاد المغرب .

وفي منطقة الحماية الفرنسية جرت محاولة لاغتيال محمد بن عرفة المنصّب من قبل الأعداء ، ولعددٍ من البارزين في تعاونهم مع السلطات الفرنسية ، وقاطع السكان البضائع الفرنسية تلقائياً ، وزادت الاضطرابات ، ونتيجةً للأعمال المعادية للفرنسيين كان لا بدّ من تخطيط وتنظيم ، وتدبر للموضوعات والمراقبة ، فنشأ عن ذلك جيش التحرير السري الذي استطاع أن يقوم ببعض الأعمال الناجحة في الإغارة على ثكنات الجيش الفرنسي ، وعلى بعض مؤسساتهم ، ومراكز الشرطة ، وتجاوز الأمر فوصل إلى بعض أفرادهم .

التراجع الفرنسي : أمام السيل الشعبي الجارف ، والتأييد الدولي ، واستنكار الأعمال الفرنسية ، والجرائم التي تمقتها النفوس الكريمة ؛ كان لا بدّ من التراجع .

بدأ التراجع بتغيير المقيم الفرنسي العام ، إذ جاء « فرنسيس لاغوست » ، ولكن ذلك لم يجدِ شيئاً ، رغم كثر التصريحات التي فيها شيءُ من محاولة إعطاء الاطمئنان للشعب ، وعادت الدول الإسلامية إلى عرض مشكلة

المغربِ على الأمم المتحدة ، ولكن حزب الاستقلال أصرّ على رفض أي حلٍّ في ظلِّ السلطان المنصّب محمد بن عرفة .

فكّرت فرنسا بالموضوع ، فرأت أن السلطان المنصّب ليس إلّا دمية تحرّكها هي ، ولا يستطيع أن يتصرّف في أي أمرٍ حتى يرجع إليها إذ لا رأي له ، فلا فائدة منه أبداً فمنصبه ودونه سواء ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فهو مكروهٌ من الشعب ، بل يعدّه عدوه ما دام قد قبل المنصب مكان الذي يرغبه الشعب ويؤيِّده ، وما دام الملك الشرعي قائماً لا داعي لوجود هذا ، ثم إنه مفروضٌ على الرعية فرضاً ، ومن قبل الأعداء ، وبعد هذا فهو من أسرة الملك الشرعي ، لذا لا يمكن إقناع السكان بابن عرفة أبداً .

الدول غير راضية عن تصرّف فرنسا : الدول الإسلامية تضامناً مع المغرب لرابط العقيدة ، فالمغرب جزء من ديار الإسلام ، ومصر إسلامي له مكانته . دول المعسكر الشرقي منافسةً لدول المعسكر الغربي ، ومتاجرةً بمحاربة الاستعمار ، وأنها مع الدول المستضعفة ، وتمهيداً لمدّ جذورٍ لها هناك وبذر الأفكار الشيوعية . الدول الاستعمارية خوفاً على مواقعها التي تتشبّث بها ، وإحدى هذه الدول فرنسا بالذات حيث تتوقّع انتقال الحركات إلى البلدان الإفريقية الأخرى ، وخاصةً المجاورة لمراكش ، والواقع أن تونس قد تحرّكت المقاومة فيها ، وأرض الجزائر قد التهبت بالثورة ، وتصل إليها المساعدات من الدول الإسلامية ؛ وإن كانت على نطاقٍ ضيّق ، ولا تزال من نوع الأسلحة القديمة المنسّقة من الجيوش إلّا أنها صالحة لرجال الثورة ، وليس غريباً إن عمّ البركان بلاد المغرب كلها أن ترفع راية الجهاد ، وتنطلق من مختلف أرجاء الأمصار الإسلامية . ولكن يجب أن نأخذ دور الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الموضوع بالدرجة الأولى فهي سيدة الدول الغربية ، ومعسكر شمالي الأطلسي ، وأقوى دول العالم ، ولا شكّ فإن لموقفها دوراً حاسماً في القضية .

في هذا الوقت كانت الولايات المتحدة تسعى جاهدةً لتحلّ محلّ إنكلترا وفرنسا وبقية الدول الغربية في مستعمراتها ؛ لتزداد قوّة إلى قوتها ، ولتضعف

الدول الغربية أمامها ، فتبقى زعيمتها ، وتدور الدول في فلكها ، كما تدور الدول الشيوعية في فلك روسيا ، فيصبح الحلف أكثر تماسكاً ما دام الذي يسيّره جهة واحدة ، وليست جهات متعددة ، والرأس فيه واحد ، وليس عدة رؤوس ، وفي الوقت نفسه لا يضيع أي شيءٍ على المعسكر ، فما كان يأتي لهذه الدول متفرّقاً أصبح يأتي مجتمعاً ، وعوضاً من أن يصبّ في عدة مصبّات يصبّ في مكانٍ واحدٍ .

حلّت الولايات المتحدة الأمريكية محلّ حلفائها بعد انقلاباتٍ عسكريةٍ أو تغييراتٍ اقتصاديةٍ ، وكلما كان النفوذ السابق أكثر رسوخاً كانت الصعوبة في التغيير قائمة ، أما هنا فالوضع مختلف إذ لا نفوذ لأي دولةٍ أجنبيةٍ في المغرب ، والدولة ذات السيطرة هي فرنسا ، وبلاد المغرب شعباً وملكاً على خلافٍ كبيرٍ معها ، وقنوات التفاهم مسدودة بين الطرفين ، بل فُصِمت وكسرت ، فالأمر لا يحتاج إذن إلاّ إلى التفاهم مع ملك المغرب لأخذ مكان الصدارة أو حقّ الأفضلية بين الدول الأجنبية في المشروعات الاقتصادية ، والتفاهم السياسي ، وتبادل الخبرات ، وما إلى ذلك من مصطلحات تستعمل في قاموس الاستعمار ، وسيتمّ هذا دون تفاهم مسبق ما دام الخلاف قائماً بين سكان البلد المستضعف وبين الدولة المسيطرة وذات النفوذ الاسمى، وليس على الولايات المتحدة سوى الوقوف بجانب المغرب ، والضغط على فرنسا لتغيّر من سياستها ، وتتخذ الحكمة ، وتنسحب من الميدان ، إذ يستحيل التفاهم ، ولا داعي لإثارة الرأي العام العالمي ضدّ دول الحلف ، ولا لاستغلال الشيوعية هذه الموضوعات لمحاربة معسكر الغرب .

ومارست الولايات المتحدة الأمريكية ضغطها ، وما كان على فرنسا إلاّ أن تخضع ؛ وقد غلّقت المنافذ أمامها ، فجيش التحرير يغير على المواقع الفرنسية في داخل المغرب ، والمستوطنون الفرنسيون يتعرّضون للخطر ، ويخشون على أنفسهم ، وأعوانها لا يجرؤون على الظهور ، وصنيعتها السلطان لا رأي له ، وليس في الشعب من يرغب به سلطاناً ، والنيران تشتعل في

المناطق المجاورة للمغـرب ، وتلتفّ حول الفـرنسيين من كـل ناحيـةٍ تريـد حرقهم، والرأي العام يستنكر تصرّفاتها، والشيوعية تفضح مواقف المستعمرين استغلالاً ولمصلحتها ، وفوق كل هذا يأتي الضغط الأمريكي عنيفاً قاسياً .

رضخت فرنسا للأمر ، واتصلت مع الملك محمد الخامس في منفاه ، ووقّعت اتفـاقيةً مغـربيةً ـ فـرنسيةً في (إكس لي بـان) في شهر ذي الحجـة ١٣٧٤هـ (آب ١٩٥٥م) حددت فيها كيفية عودتـه إلى بلاده ، ثم صـدر تصريح مشترك من الملك ومن فرنسا في تاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٥٥م) ، وهو ما عُرف بتصريح « سان كلو » ، واعترفت فيه فرنسا باستقلال مراكش ، وإقامة حكم ملكي دستوري فيها ، وفي غرة ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٥٥م) حطّت الطائرة في مطار (سلا) شمال الرباط تقلّ الملك محمد الخامس وعائلته ، وقد أعيد إلى عرشه ، وحُمل الصنيعة محمد بن عرفة إلى طنجة .

وبعد مدة سافر محمد الخامس مع وفد وزاري إلى مدريد حيث وقّع مع إسبانيا على تصريح يلغي الحماية الإسبانية على منطقة الريف ، وذلك في تاريخ ٦ شعبـان ١٣٧٥هـ (٧ نيسـان ١٩٥٦م) ، وبـذلـك تـوحّـدت الأقسـام الرئيسية ، وإن بقيت جيوب إسبانية في بلاد المغرب مثل : طرفايا ، وإفني ، وسبتة ، ومليلة ، و . . . ، إضافةً إلى الصحراء المغربية .

وفي ٢٢ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٧ كـانون الأول ١٩٥٥م) عُهـد إلى مبارك البكاي ـ وهو من المستقلّين ـ بتشكيل وزارة ائتلافية[١] ، ضمّت أربعةً

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مبارك البكاي :	رئيساً للحكومة	مستقل
٢ ـ محمد الزغاوي :	نائباً لرئيس الحكومة .	مستقل .
٣ ـ الحسن اليوسي :	وزيراً للداخلية .	مستقل ، حتى ٢٤ رمضان ١٣٧٥هـ .
٤ ـ عبد الملك فرج :	وزيراً للصحة .	مستقل

=

من المستقلّين ، منهم رئيس الحكومة ، ونائبه ، ووزير الداخلية ، ووزير الصحة ، وبعد خمسة أشهر تخلّى وزير الداخلية عن حقيبته ، كما ضمّت تسعة من حزب الاستقلال ، ثم أضيف إليهم أحمد بلفريج وزيراً للخارجية ،

= ٥ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للعدل . — من حزب الاستقلال

٦ ـ أحمد بن منصور : وزيراً للزراعة . — من حزب الاستقلال .

٧ ـ أحمد اليزيدي : وزيراً للصناعة والتجارة . — من حزب الاستقلال .

٨ ـ محمد الدويري : وزيراً للأشغال العمومية . — من حزب الاستقلال

٩ ـ محمد الفاسي : وزيراً للتعليم — من حزب الاستقلال .

١٠ ـ عبد الله إبراهيم : وزيراً للأنباء والسياحة . — من حزب الاستقلال

١١ ـ المختار السوسي : وزيراً للأحباس . — من حزب الاستقلال .

١٢ ـ إدريس المحمدي : وزيراً للدولة . — من حزب الاستقلال. ثم وزيراً للداخلية بالنيابة في ٢٤ رمضان ١٣٧٥هـ .

١٣ ـ عبد الرحيم بوعبيد : وزيراً للدولة . — من حزب الاستقلال . .

١٤ ـ عبد القادر بن جلون : وزيراً للمالية . — من حزب الشورى والاستقلال .

١٥ ـ التهامي الوزاني : وزيراً للإنتاج الصناعي والمعادن . — من حزب الشورى والاستقلال .

١٦ ـ محمد بن بوشعيب : وزيراً لشؤون التعمير والسكن . — من حزب الشورى والاستقلال .

١٧ ـ أحمد بن سودة : وزيراً للشبيبة والرياضة . — من حزب الشورى والاستقلال .

١٨ ـ عبد الهادي بوطالب : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية . — من حزب الشورى والاستقلال .

١٩ ـ وفي ١٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ عُيّن ليون بن زاكين وزيراً للبريد والبرق والهاتف ، وهو يهودي .

وفي ١٦ رمضان ١٣٧٥هـ (٢٦ نيسان ١٩٥٦م) دخل الوزارة :

٢٠ ـ أحمد بلفريج : وزيراً للخارجية ، وهو من حزب الاستقلال .

٢١ ـ أحمد رضا كديرة : وزيراً للدولة ، ثم وزيراً للدفاع في ١٦ رمضان ١٣٧٥هـ .

فأصبحوا عشرة ، وخمسة من حزب الشورى والاستقلال ، وعضواً من حزب الأحرار المستقلّين ، وهو أحمد رضا كديرة ، هذا بالإضافة إلى أحد اليهود ، وهو ليون بن زاكين وزير البرق والبريد والهاتف . وتسلّم الوزراء مناصبهم ، وحلّوا محلّ المديرين الفرنسيين الذين كانوا الوزراء الفعليين في كل عهد الحماية .

واستمرّت المفاوضات بين الطرفين ، وانتهت بصدور بيان « وثيقة الاستقلال »[1] في تاريخ ٢٠ رجب ١٣٧٥هـ (٢ آذار ١٩٥٦م) الذي أعلن فيه إلغاء الحماية ، واستقلال المغرب ، ووحدة أراضيه .

أما في الداخل فإن حزب الاستقلال بدأ يهاجم الحكومة ، وينعت كل حسنة لوزرائه ، ويدعو إلى تشكيل حكومة استقلالية غير أن رئيس الوزراء مبارك البكاي رغم هذا كله لم يقدّم استقالة حكومته حتى وقعت أحداث مكناس احتجاجاً على اختطاف طائرة الزعماء الجزائريين الخمسة في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٦هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٥٦م) ، لأن هؤلاء الجزائريين كانوا ضيوفاً عند الملك ، لذا عدّها اعتداء على عرشه وعلى السيادة المغربية ، كما أن الطائرة الفرنسية المقاتلة قد تصدّت لطائرةٍ تجارية ترفع العلم المغربي .

---

(١) طالبت فرنسا بتمثيل جميع القوى في وفد المفاوضات ، فتشكّل الوفد على النحو الآتي :
محمد المقري (الصدر الأعظم) ، التهامي المقري ، محمد الناصري ، ويمثّلون المخزن (قصر السلطان محمد الخامس) .
الجلاوي باشا المدني بن حبون ، ويمثّلان المخزن (قصر ابن عرفة) .
محمد اليزيدي ، عمر عبد الجليل ، عبد الرحيم بوعبيد ، المهدي بن بركة ، محمد بوشة ، محمد الدويري ، ويمثّلون حزب الاستقلال .
مبارك البكاي ، محمد الزغاري ، الفاطمي بن سليمان ، أحمد بركاش . ويمثّلون المستقلين .
عبد الحميد الكتاني ، جواد الصقلي ، حماد العراقي . ويمثّلون العلماء .
اوكوتورين ، كوس ، لوكير ، ويمثّلون المستوطنين الفرنسيين.
جاك دهان ، ليون بن زاكين . ويمثّلان اليهود .
ونتيجة المفاوضات وُقّعت وثيقة « اكس ليبان » .

أخذ الملك يسعى لإطلاق الزعماء المختطفين ، غير أن الحكومة الفرنسية أصرّت على اعتقالهم ، واضطرّ الملك عندها لسحب سفيره من باريس .

وقدّم مبارك البكاي استقالة حكومته في ٢٢ ربيع الأول (٣٠ تشرين الأول ١٩٥٦م) .

وكان في هذا العام ١٣٧٥هـ قد انتهت مشكلة الريف ، إذ ألغيت الحماية الإسبانية ، وتوحّد مع مراكش في ٦ شعبان ١٣٧٥هـ (٧ نيسان ١٩٥٦م) ، وكذلك فقد استعادت المغرب في العام نفسه طنجة بعد أن كانت تحت إدارةٍ دوليةٍ منذ عام ١٣٤١هـ.

الفصل الثاني

الاستقلال

حصلت المغرب على الاستقلال رغم محاولة فرنسا التمسّك بنفوذها، غير أن التأييد العالمي، وخاصةً من الولايات المتحدة الأمريكية قد ألزمها بالانسحاب، وجعلها توافق على الاستقلال مُكرهةً، وكان هذا في الوقت الذي تعمل فيه الولايات المتحدة الأمريكية على بسط نفوذها مكان نفوذ حلفائها: فرنسا، وإنكلترا، لتجعلهما تدوران في فلكها مع بقية حلفائها من الدول الغربية، ليكون الحلف الأطلسي أكثر تماسكاً وترابطاً بقيام رأسٍ واحدٍ له، فإن ذلك أفضل من وجود عدة رؤوس قد تختلف فيما بينها، أو تتباين وجهات نظرها، وعندها يبدو شيءٌ من التخلخل نسبياً.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تلجأ لتحقيق هذا الغرض إلى الضغط الاقتصادي أو إلى الانقلابات العسكرية إن تعذّر الضغط الاقتصادي، وقد جاءت هنا مكان فرنسا تلقائياً، واستمرّ التعاون بين الدولتين، والتبادل الاقتصادي، وهذا ما حمى المغرب من قيام انقلاباتٍ عسكريةٍ ليحلّ نفوذٌ محلّ نفوذِ دولةٍ أخرى، كما حدث في كثيرٍ من بلدان ما يُسمّى بالعالم الثالث، والتي كانت السيطرة فيها للنفوذ الإنكليزي أو الفرنسي أو البلجيكي أو الهولندي أو الإيطالي أو غيرها، ولذا عاشت المغرب في شبه استقرارٍ لما سبق أن ذكرنا، واستطاعت أن تقوم ببعض المشروعات الإنمائية، وإذا كانت قد حدثت بعض المحاولات سواء أكانت ذاتيةً محليةً أم ذات مصدر دفعٍ خارجي؛ فإنها لم

تحصل على ما تريد لثبات الوضع واستقراره على دعائمَ قويةً .

كانت المغرب لا تزال بحاجةٍ إلى فرنسا ؛ إذ تتلقّى منها مساعداتٍ لتغطية الميزانية، إضافةً إلى أنها بحاجةٍ إلى بعض البضائع الفرنسية، وفي الوقت نفسه فإن فرنسا سوقٌ لعددٍ من المنتجات الزراعية المغربية، واستمرّ هذا مدّةً ؛ حتى غطّت الولايات المتحدة ذلك ، وحلّت محلّ فرنسا ، ومع ذلك بقيت العلاقات حسنةً بين المغرب وفرنسا ، والتبادل التجاري قائماً ، وتتجه أفواجٌ من العمال المغاربة للعمل في فرنسا . ولا تزال الثقافة الفرنسية واللغة لها مكانتها في المغرب كما لها أنصارها ومؤيّدوها ، ولا تبالي الولايات المتحدة بموضوع اللغة والثقافة ، وإنما يهمّها العامل الاقتصادي ، وتعدّه المفتاح الأساسي للتيار السياسي .

وفي ٢٤ ربيع الأول من عام ١٣٧٦هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٥٦م) عُهد إلى مبارك البكاي بإعادة تأليف الوزارة[١] ، فشكّل وزارةً ائتلافيةً من :

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مبارك البكاي : رئيساً للحكومة .	مستقل .
٢ ـ محمد زغاوي : وزيراً للدفاع .	مستقل .
٣ ـ عبد الملك فرج : وزيراً للصحة .	مستقل .
٤ ـ بيون بن زاكين : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .	يهودي .
٥ ـ أحمد بلفريج : وزيراً للخارجية .	من حزب الاستقلال .
٦ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للعدل .	من حزب الاستقلال .
٧ ـ إدريس المحمدي : وزيراً للداخلية .	من حزب الاستقلال .
٨ ـ عمر عبد الجليل : وزيراً للزراعة .	من حزب الاستقلال .
٩ ـ عبد الرحيم بوعبيد : وزيراً للاقتصاد الوطني .	من حزب الاستقلال .
١٠ ـ محمد الدويري : وزيراً لشؤون التعمير والسكن .	من حزب الاستقلال .
١١ ـ محمد الفاسي : وزيراً للشبيبة والرياضة .	من حزب الاستقلال .
١٢ ـ عبد الله إبراهيم : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .	من حزب الاستقلال .
١٣ ـ أحمد رضا كديرة : وزيراً للأنباء والسياحة .	من حزب الأحرار المستقلين.
١٤ ـ رشيد مولين : وزيراً للوظيفة العمومية .	من حزب الأحرار المستقلين .

حزب الاستقلال ، حيث مُثِّل بثمانية أعضاء ، ومن حزب الأحرار المستقلّين ، وقد مُثِّلوا بعضوين ، وأخذ المستقلّون أربع حقائب منها رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع التي أصرّ السلطان على تسليمها لمستقلّ . ورفض حزب الشورى والاستقلال قبول الائتلاف ، إذ رأى أن الحقائب الوزارية التي أسندت إلى أعضائه لا تتناسب مع حجمه السياسي ، إضافةً إلى الهجوم الذي شُنّ عليه نتيجة آرائه حيث عارض حلّ « كاديما » الصهيونية عندما اقترح في ٢٣ ذي القعدة عام ١٣٧٥هـ (١ تموز ١٩٥٦م) ، ولكن هذا لم يكن لينفرد به حزب الشورى والاستقلال ، فقد كان في الحكومة وزيرٌ يهوديٌّ ، وهو ليون بن زاكين ، وزير البرق والبريد والهاتف ، وقد كان يتعامل مع اليهود في فلسطين كما أن عبد القادر بن جلون أحد وزراء حزب الاستقلال قد طالب بمشاركة اليهود في الحكم .

وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٥٧م) جرى تمرّدٌ قام به عامل (قصر السوق) ، ومدّ يده للقوات الفرنسية ، وكان محمد الخامس في زيارةٍ رسميةٍ لفرنسا ، وقد أناب عنه ولي عهده الحسن ، وكانت فرنسا تساعد هذ التمرّد ؛ على أمل إبقاء قواتها في المغرب ؛ هذا من ناحية ؛ ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنها تريد تهديد الملك لوقف تأييده للثورة الجزائرية . وعرض الحسن موضوع التمرّد على مجلس الوزراء ، فاختلف المجلس في الوسيلة التي يستخدمونها للقضاء على التمرّد ، وعندها قرر الحسن - نائب الملك - استعمال السلاح ، وأرسل القوة اللازمة ، فاعترضت المدرعات الفرنسية القوة المغربية . وفي الوقت نفسه أرسل وفداً مؤلّفاً من الوزير المستشار بمجلس التاج الحسن اليوسي مع أحد أعضاء المجلس ، وأعلن مرسومٌ بعزل العامل المتمرّد « عدي وبيهي » ، وتعيين ضابطٍ مكانه . ووصلت القوات المغربية إلى مكان التمرّد صباح ٢٣ رجب ١٣٧٦هـ (٢٢ شباط ١٩٥٧م) ، ودخلت دون أي مقاومة ، واعتذر العامل ، ومع ذلك فقد اعتُقل ونُفي .

وفي ١٩ شوّال ١٣٧٧هـ (٨ أيار ١٩٥٨م) أصدر الملك ميثاقاً ، وعد

فيه الشعب بإقامة مؤسسات دستورية ، وأنه سيتخلّى عن إقامة المنظمات التي تمثّل القبائل إذا ظهر عدم صلاحها ، وأنه سيبدأ بانتخاباتٍ للمجالس البلدية والقروية ، ثم سيعمل على تشكيل مجلسٍ وطنيٍّ جديدٍ ، يضمّ بعض أعضاء المجالس البلدية والقروية المنتخبة ، والباقي سيقوم الشعب بانتخابهم .

وفي ٢٣ شوّال ١٣٧٧هـ (١٢ أيار ١٩٥٨م) كلّف الملك أحمد بلفريج الأمين العام لحزب الاستقلال بتشكيل حكومةٍ منسجمةٍ بعدما قدّم مبارك البكاي استقالة حكومته عندما قدّم عمر عبد الجليل استقاله وزراء حزب الاستقلال من الحكومة في الرسالة التي رفعها إلى الملك ، وفيها أيضاً انتقاد لرئيس الحكومة ، وعدم إمكانية وزراء الحزب العمل معه .

وإذا كانت هذه الوزارة[1] بأكثريتها من حزب الاستقلال ، إذ شملت ثمانيةً من الحزب من أصل عشرة وزراء ، وقد كان الوزيران الآخران من المستقلّين ، واختُلف في وزير الداخلية مسعود الشيكر .

وعندما عيّن الملك المجلس الوطني الاستشاري لم يضمّ هذا المجلس

---

(١) شكّل أحمد بلفريج حكومته على النحو الآتي :

١ ـ أحمد بلفريج : رئيساً للحكومة ، ووزيراً للخارجية .	من حزب الاستقلال .
٢ ـ عبد الرحيم بوعبيد : نائباً لرئيس الحكومة ، ووزيراً للاقتصاد الوطني .	من حزب الاستقلال .
٣ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للعدل .	من حزب الاستقلال .
٤ ـ مسعود الشيكر : وزيراً للداخلية .	مستقل .
٥ ـ أحمد اليزيدي : وزيراً للدفاع .	مستقل .
٦ ـ محمد الدويري : وزيراً لشؤون التعمير والسكن .	من حزب الاستقلال .
٧ ـ عمر عبد الجليل : وزيراً للشبيبة والرياضة .	من حزب الاستقلال .
٨ ـ محمد عواد : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .	من حزب الاستقلال .
٩ ـ عبد الملك فرج : وزيراً للصحة .	مستقل .
١٠ ـ البشير بن العباس : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .	مستقل .

سوى عشرة أعضاء من حزب الاستقلال ، وستة من حزب الشورى، والاستقلال من أصل ستةٍ وسبعين عضواً ، حيث كان الآخرون من الهيئات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهذا يدلّ على أن الملك لم يقبل بوجود حزبٍ واحدٍ في البلاد ؛ هو حزب الاستقلال ، وهو ما كان يخطط له هذا الحزب . ولم يطل عهد هذه الوزارة التي أكثريتها من حزب الاستقلال ، إذ قدّمت استقالتها بعد سبعة أشهر ونصف من تشكيلها ، وتشكّلت وزارةٌ جديدةٌ ارتفع فيها عدد المستقلّين إلى ما يقرب من عدد وزراء حزب الاستقلال ، هي وزارة عبد الله بن إبراهيم .

قامت مظاهراتٌ عماليةٌ ، وساهم فيها عمال الحكومة ، فتصدّى رجال الشرطة لهذه المظاهرات في الرباط والدار البيضاء ، وحدثت فوضى ، وتوقّف الإنتاج ، واستاء زعماء العمّال الذين يؤيّدون حزب الاستقلال على تصرّف حكومتهم هذا التصرّف غير الطبيعي في نظرهم ، لذا فقد تركوا مسؤولياتهم في لجان الحزب ، وكان عبد الله إبراهيم الناطق باسم الحركة العمّالية وزيراً للأنباء والسياحة في وزارة مبارك البكاي الأولى ممثّلاً لحزب الاستقلال، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة أحمد بلفريج وأخذ المهدي بن بركة عضو حزب الاستقلال البارز، والمسؤول عن صحيفة الحزب يهاجم الأرستقراطية الفكرية، ويقصد رئيس الحكومة أحمد بلفريج الأمين العام لحزب الاستقلال، فما كان من رئيس الحكومة إلاّ أن أوعز إلى بعض رجال الحزب باحتلال مكاتب جريدة الحزب، وإبعاد المهدي بن بركة عن توجيهها، وأخذ الانشقاق في الحزب يظهر، وحدثت صداماتٌ في البادية بين أعضاء الحزب ممن يوالي علال الفاسي ومن يؤيّد عبد الله إبراهيم الذي احتجزته الشرطة، أما المهدي بن بركة فقد ذهب خارج البلاد مسافراً إلى يوغسلافيا والصين.

حاول عبد الرحيم بوعبيد ـ نائب رئيس الحكومة ، وزير الاقتصاد الوطني ـ عضو حزب الاستقلال ـ التوسّط ؛ فلم يفلح ، لذا قدّم استقالته من الحكومة .

وكلّف الملك أن يتوسّط علاّل الفاسي ـ رئيس الحزب ـ بصفته الحيادية والزعامية بين الطرفين ؛ فلم يفلح ، حيث اقترح أن يقوم رئيس الحكومة أحمد بلفريج بإدخال تعديل في حكومته حيث يتسلّم :

عبد الله إبراهيم	وزيراً للداخلية .
مهدي بن بركة	وزيراً للتعليم
إدريس المحمدي	وزيراً للعدل .

وكان عبد الرحيم بوعبيد يصرّ على أن يكون إدريس المحمدي وزيراً للداخلية لمعرفته بشؤون القبائل ، وإتقانه للغة البربرية ، غير أن أحمد بلفريج رفض الحلول كلها ، وتمسّك برأيه ، وسكت رئيس الحزب .

وإذا كان الانشقاق لم يحدث رسمياً في صفوف الحزب إلاّ أنه أصبح واضحاً ، وخرج عبد الله إبراهيم ، وأخذ يلقي المحاضرات ، ويقيم الندوات ضمن إطار حزب الاستقلال .

وكلّف الملك بعدئذٍ عبد الله إبراهيم بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ بصفته الشخصية لا بصفته السياسية على أنه عضوٌ في حزب الاستقلال ، وهذا ما وسّع الخلاف في صفوف الحزب ، لأنه من المفروض أن يرشّح الحزب أحد أعضائه لتولّي مهمة تشكيل الوزارة ، أما أن يختار الملك عضواً من الحزب ، ويكلّفه بتشكيل الحكومة ؛ فهذا يعني أن الوزارة غير حزبية ، ولا علاقة للحزب بها ، أما عبد الله إبراهيم ومن معه من أعضاء فقد أصرّوا على تمسّكهم بالصفة السياسية ، وبالصفة الحزبية بانتمائهم لحزب الاستقلال .

استعادة طرفايا : وفي هذه الأثناء قامت حركاتٌ في منطقة طرفايا التي لا تزال تحت السيطرة الإسبانية ، فسارت قطعاتٌ من القوات المغربية لمساعدة الأهالي ، وضمّت المنطقة إلى أرض الوطن الأم .

وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (٢٨ كانون الأول ١٩٥٨م) شكّل

عبد الله إبراهيم وزراةً جديدةً[1] تضمّ أحد عشر وزيراً ، ستةٌ منهم من حزب الاستقلال ، وخمسة من المستقلّين .

وفي عهد هذه الحكومة صدر قانون الانتخابات في ٢٨ صفر ١٣٧٩هـ (١ أيلول ١٩٥٩) .

وكان الملك قد أعلن تأليف « مجلس خاص » يستشيره في إصدار القوانين . وبعد تشكيل الحكومة بقليل قامت اضطرابات مسلّحة ظهرت في بلاد الريف ، ثم امتدّت إلى إقليم (تازة) ، ومنه وصلت إلى شمال مدينة (فاس) ، وانتشرت إلى نهر الملوية ، ولكن قُضي عليها .

وأخذ الجيش الفرنسي يتوسّع من الجزائر في حدود المغرب ، وقد احتلّ عدداً من القرى ، وذلك بقصد الصدام مع القوات المغربية ، ومنع المغرب من مساعدة الثورة الجزائرية أولاً ، ثم احتلال الأرض المغربية وفرض الحماية عليها

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الله إبراهيم : رئيساً للحكومة ، ووزيراً للخارجية . من حزب الاستقلال .

٢ ـ عبد الرحيم بوعبيد : نائباً لرئيس الحكومة ، ووزيراً للاقتصاد الوطني . من حزب الاستقلال .

٣ ـ التهامي عمار : وزيراً للزراعة . من حزب الاستقلال .

٤ ـ إدريس المحمدي : وزيراً للداخلية . مستقل .

٥ ـ محمد عواد : وزيراً للدفاع . مستقل .

٦ ـ عبد الرحمن بن عبد العلي : وزيراً لشؤون التعمير والسكن . من حزب الاستقلال .

٧ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للشبيبة والرياضة . من حزب الاستقلال .

٨ ـ محمد المذبوح : وزيراً للبريد والبرق والهاتف . مستقل وهو ضابط عسكري .

٩ ـ يوسف بن عباس : وزيراً للصحة . مستقل .

١٠ ـ المعطي بوعبيد : وزيراً للشغل والشؤون الاجتماعية . مستقل .

١١ ـ محمد باحنيني : وزيراً للعدل . مستقل .

من جديد ، وبذلك تحبط الثورة الجزائرية ـ حسب تقديرهم ـ . ولما كان ولي العهد هو رئيس الأركان العامة ؛ لذا فعليه يقع عبء المسؤولية كنائبٍ للملك ، وعبء المسؤولية كرئيسٍ للأركان ، وكان الملك في سويسرا يتلقّى العلاج ، لذا فقد سافر ولي العهد مع رئيس الوزراء إلى سويسرا لمقابلة الملك وشرح الموضوع له . فكلّف ولي العهد بالتمهيد للقاء بين الملك المغربي والرئيس الفرنسي ديغول . وعاد الملك إلى المغرب ، وفرنسا تعمل على إجراء التجارب النووية في الصحراء ، وقوات من الولايات المتحدة ، وفرنسا ، وإسبانيا لا تزال فوق الأرض المغربية . ومع هذا فالصراع على أشدّه بين جناحي حزب الاستقلال رغم مسؤوليته في السلطة ، إذ ينفرد بأكثر من نصف أعضاء الوزارة ، ويشنّ حملةً على الجيش أيضاً ، ثم ضربت الزلازل مدينة أغادير في ٣ رمضان ١٣٧٩هـ (٢٩ شباط ١٩٦٠م) ، وفي ٢٤ ذي القعدة ١٣٧٩هـ (١٩ أيار ١٩٦٠م) استدعى الملك رئيس الوزراء، وأبلغه بانتهاء مدته في الوزارة ، وانتهاء مهمة حكومته .

وفي ٢٩ ذي القعدة ١٣٧٩هـ (٢٤ أيار ١٩٦٠م) شكّل الملك محمد الخامس بنفسه الوزارة[١] ؛ فكان رئيس الحكومة ، وكان ابنه ولي العهد

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ الملك محمد الخامس : رئيساً للحكومة .

٢ ـ المولى الحسن ولي العهد : نائباً لرئيس الحكومة ، ووزيراً للدفاع .

٣ ـ عبد الخالق الطريس : وزيراً للعدل .	من حزب الاستقلال
٤ ـ مبارك البكاي : وزيراً للداخلية .	مستقل .
٥ ـ إدريس المحمدي : وزيراً للخارجية .	مستقل .
٦ ـ محمد الدويري : وزيراً للصناعة والتجارة .	من حزب الاستقلال .
٧ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للشبيبة والرياضة .	من حزب الاستقلال .
٨ ـ محمد الشرقاوي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .	من حزب الاستقلال .
٩ ـ يوسف بن عباس : وزيراً للصحة .	مستقل .

=

الحسن نائباً له ، وزيراً للدفاع ، وقد بقيت هذه الحكومة حتى توفي الملك في ١١ رمضان ١٣٨٠هـ (٢٦ شباط ١٩٦١م) .

وقد أشرفت هذه الحكومة على انتخاباتٍ للمجالس البلدية والقروية . وعملت على اتفاقٍ مع فرنسا لسحب قواتها من أرض المغرب قبل نهاية عام ١٩٦٣م (منتصف شعبان ١٣٨٣هـ) ، كما توصّلت إلى اتفاقٍ مع إسبانيا لسحب قواتها من أرض المغرب .

وعملت على منع فرنسا من إجراء تجاربها النووية في الصحراء الكبرى . وإيجاد مخرج للحرب في الجزائر ، كما حاولت أن تحتل المغرب مركزاً دولياً بالاتفاقات مع حكومات العالم الثانية ، وتبادل الزيارة .

وفي اليوم الذي كان يرفع العلم المغربي على مقرّ القيادة العامة للجيش الفرنسي سابقاً في الرباط توفي الملك محمد الخامس أثناء إجراء عمليةٍ جراحيةٍ في أنفه . وتولّى مكانه ولد الأكبر ، ولي عهده الحسن الثاني .

= ١٠ ـ عبد الكريم الخطيب : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية . — من حزب الحركة الشعبية .

١١ ـ محمد بوستة : وزيراً للوظيفة العمومية . — من حزب الاستقلال .

١٢ ـ حسن الزموري : وزيراً للزراعة . — مستقل .

١٣ ـ عبد الرحمن بن عبد العلي : وزيراً للتعمير والسكن . — مستقل .

١٤ ـ مولاي أحمد العلوي : وزيراً للأنباء والسياحة . — مستقل .

الحسن الثاني(1)

تسلّم الملك في ١٦ رمضان ١٣٨٠هـ (٣ آذار ١٩٦١م) أي بعد وفاة أبيه بخمسة أيام ، وشكّل الوزارة(2) برئاسته .

وفي ١٨ ذي الحجة عام ١٣٨٠هـ (٢ حزيران ١٩٦١م) أعاد الملك تشكيل الوزارة(3) من جديد برئاسته أيضاً ، وكان الملك محمد الخامس قد وعد

---

(١) الحسن الثاني : وُلد في الثاني من صفر عام ١٣٤٨هـ (٩ تموز ١٩٢٩م) . وسمي ولياً للعهد عام ١٣٧٧هـ أي بعد الاستقلال بعام ، وهو أكبر إخوته .

(٢) شكّل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ الملك الحسن الثاني : رئيساً للحكومة ، ووزيراً للدفاع ، والزراعة .
٢ ـ الحاج محمد باحنيني : أمين سر عام مجلس الوزراء .
٣ ـ مبارك البكاي : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عبد الخالق الطريس : وزيراً للعدل .
٥ ـ إدريس المحمدي : وزيراً للخارجية .
٦ ـ محمد الدويري : وزيراً للاقتصاد الوطني ، والمالية .
٧ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للتعليم الوطني .
٨ ـ محمد الشرقاوي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
٩ ـ يوسف بن عباس : وزيراً للصحة الوطنية .
١٠ ـ عبد الكريم الخطيب : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ محمد بوستة : وزيراً للوظيفة العمومية .
١٢ ـ إدريس السلاوي : للتجارة والصناعة ، والمعادن ، والصناعات اليدوية ، والتجارة الخارجية .
١٣ ـ عبد الرحمن بن عبد العلي : وزيراً للأشغال العامة .
١٤ ـ مولاي أحمد العلوي : وزيراً للإعلام والسياحة .

وأعضاء الوزارة هم أعضاء الوزارة السابقة أنفسهم إذ لم يدخل الوزارة سوى إدريس السلاوي ، ولم يتركها سوى حسن الزموري .

(٣) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ الملك الحسن الثاني : رئيساً للحكومة ، وزيراً للخارجية . =

. . . .

= ٢ ـ فال ولد عمير : وزير دولة مكلف بالشؤون الموريتانية والصحراء المغربية .
٣ ـ علال الفاسي : وزير دولة مكلف بالشؤون الإسلامية .
٤ ـ محمد حسن الوزاني : وزير دولة .
٥ ـ محمد رشيد مولين : وزير دولة مكلف بشؤون التعليم الوطني .
٦ ـ عبد الكريم الخطيب : وزير دولة مكلف بالشؤون الإفريقية .
٧ ـ أحمد رضا كديرة : وزيراً للداخلية ، والزراعة .
٨ ـ محمد بوستة : وزيراً للعدل .
٩ ـ محمد الدويري : وزيراً للتجارة الوطنية والمالية .
١٠ ـ محجوبي أحرضان : وزيراً للدفاع الوطني .
١١ ـ عبد الكريم بن جلون : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ محمد بن هيمة : وزيراً للأشغال العامة .
١٣ ـ مولاي أحمد العلوي : وزيراً للإعلام ، والسياحة ، والفنون .
١٤ ـ أحمد الجندي : وزيراً للتجارة ، والصناعة ، والمعادن ، والصناعات اليدوية ، والتجارة الخارجية .
١٥ ـ يوسف بن عباس : وزيراً للصحة العمومية .
١٦ ـ محمد بن عبد السلام الفاسي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
وتُربط وزارة الوظيفة العمومية مباشرة مع رئيس الوزراء ، وتوضع تحت إشراف أمين سر عام الحكومة .
وفي ٢٢ ذي الحجة ١٣٨٠هـ عُيّن محمد العربي العلامي أمين سر دولة للشؤون الخارجية .
وفي ١ محرم ١٣٨٠هـ أُضيفت حقيبة وزارة التعليم الوطنية إلى يوسف بن عباس ، وترك محمد رشيد مولين الوزارة .
وفي ٢٢ رجب ١٣٨٠هـ أُنهيت خدمة محمد العربي العلامي من أمانة سر الدولة للشؤون الخارجية .
وفي ١٨ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ (١٨ أيلول ١٩٦٢م) جرى تعديل وزاري حيث :
ترك أحمد الجندي وزارة التجارة ، والصناعة ، والمعادن ، وأُسندت هذه الوزارة إلى محمد بن هيمة الذي ترك وزارة الأشغال العامة حيث عُيّن لها إدريس السلاوي .
وعُيّن أحمد عثمان أمين سر للدولة للتجارة والمعادن .
ومفضل شرقاوي أمين سر للدولة للشؤون الداخلية .
وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٢هـ (١٨ تشرين الأول ١٩٦٢م) جرى تعديل وزاري أيضاً ، إذ ترك يوسف بن عباس وزارة الصحة الوطنية ، وأُسندت إليه وزارة التعليم الوطني . وأُسند إلى =

باصدار دستور ، غير أنه توفي قبل انتهاء الموعد الذي ضربه ، فلما تولّى الأمر الملك الحسن الثاني ؛ نفّذ ما كان وعد به والده ، فأصدر دستوراً[1] ، ثم أصدر مرسوماً ملكياً يرخّص لخمسة أحزابٍ بالمشاركة بالاستفتاء ، وهي : الاستقلال ، والاتحاد الوطني للقوى الشعبية ، والأحرار المستقلّون ، والحركة الشعبية ، والدستور الديمقراطي . وقد أرّخ المرسوم في ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٨٢ (١٩ تشرين الثاني ١٩٦٢م) ، وجرى الاستفتاء في ١١ رجب ١٣٨٢هـ (٧ كانون الأول ١٩٦٢م) ، وجرت الانتخابات في مطلع عام ١٣٨٣هـ (٢٤ أيار ١٩٦٣م) ، واجتمع المجلس النيابي لأول مرةٍ في ٢ رجب ١٣٨٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣م) .

كان الاتحاد الوطني للقوى الشعبية قد قاطع الاستفتاء على الدستور ، كما وقف موقف المعارضة من المجلس النيابي ، ونتيجة ذلك فقد حُلّ المجلس النيابي .

استعادة إفني : كانت إسبانيا تستعمر منطقة سيدي إفني منذ مدةٍ طويلةٍ ، وتبلغ مساحة هذا الجيب سبعمائةٍ وأربعين كيلومتراً مربعاً . وفي ٢٣ ربيع الثاني ١٣٧٧هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٥٧م) اندلع قتالٌ بين قبائل آيت باعمران والقوات الإسبانية، فساند جيش التحرير المغربي القبائل بناءً على طلبها ، فهُزم الإسبان ، واقترحوا في جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٨) مناقشة قضية سيدي إفني ، فوافقت المغرب ، وبقيت المناقشات أكثر من ثلاث سنوات ونصف . وقد استطاعت المغرب استعادتها بموجب اتفاقيةٍ بين الطرفين في ١٧ صفر ١٣٨١هـ (٣٠ تموز ١٩٦١م) ، وقد أصبحت هذه

= عبد الكريم الخطيب وزارة الصحة الوطنية إضافة إلى وزارة الشؤون الإفريقية .
وفي ٢ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ (١ تشرين الثاني ١٩٦٢م) جرى تعديل وزاري آخر ، إذ عُيّن عبد الهادي بوطالب أمين سر دولة وكلف بوزارة الإعلام التي استقلت عن السياحة .

(١) عُدّ بيان ١٨ ذي الحجة ١٣٨٠هـ (٢ حزيران ١٩٦١م) دستوراً مؤقتاً .

الاتفاقية سارية المفعول في ١٥ ربيع الثاني ١٣٨٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٦٩م) .

جلاء القوات الأجنبية : كانت لكلٍّ من فرنسا وإسبانيا بعض القطاعات العسكرية في أرض المغرب بعد إلغاء الحماية ، وبالمفاوضات السياسية فقد جلت هذه القوات في منتصف عام ١٣٨١هـ (أواخر عام ١٩٦١م) .

وكذلك فقد جلت القوات الأمريكية التي كان لها بعض القواعد البرية والبحرية قبل نهاية عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) . وذلك بناءً على طلب المغرب .

وفي ٧ شعبان ١٣٨٢هـ (٣ كانون الثاني ١٩٦٣م) أعفي أعضاء حزب الاستقلال كلهم من الوزارة ، وأصبح الحزب في صفوف المعارضة .

وفي ٩ شعبان ١٣٨٢هـ (٥ كانون الثاني ١٩٦٣م) ، قام الملك الحسن الثاني بإعادة تشكيل الوزارة[1] برئاسته .

---

(١) شكّل الحسن الثاني الوزارة برئاسته على النحو الآتي :

١ ـ الحسن الثاني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ أحمد بلفريج : الممثل الشخصي للحسن الثاني .
٣ ـ فال ولد عمير : وزير دولة مكلف بالشؤون الموريتانية والصحراء المغربية .
٤ ـ عبد الكريم الخطيب : وزير دولة مكلف بالشؤون الإفريقية ، ووزيراً للصحة الوطنية .
٥ ـ أحمد رضا كديرة : وزيراً للداخلية ، والزراعة .
٦ ـ يوسف بن عباس : وزيراً للتعليم الوطني .
٧ ـ إدريس سلاوي : وزيراً للمالية .
٨ ـ أحمد باحنيني : وزيراً للعدل .
٩ ـ أحمد برغش : وزيراً للأوقاف ، ومكلفاً بالشؤون الإسلامية .
١٠ ـ محجوبي أحرضان : وزيراً للدفاع الوطني .
١١ ـ عبد القادر بن جلون : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ غصوص بن سالم : وزيراً للأشغال العامة .
١٣ ـ أحمد علوي : وزيراً للسياحة ، والأعمال اليدوية .
=

محاولة انقلاب : في ٢٥ صفر ١٣٨٣هـ (١٧ تموز ١٩٦٣م) اكتشفت السلطة محاولةً لتغيير نظام الحكم ، واتجهت الأنظار إلى حزب الاتحاد الوطني للقوى الشعبية ، فجرت اعتقالاتٌ واسعةٌ في صفوف الحزب ، وخاصةً فرع الدار البيضاء ، وحُكم على محمد البصري ، وعمر بن جلون بالإعدام ، وأجِّل التنفيذ ، فنالهم العفو الملكي في ١٢ ذي الحجة ١٣٨٤هـ (١٣ نيسان ١٩٦٥م) . ثم جرت محاولةٌ لاغتيال الملك في مراكش ٥ جمادى الآخرة ١٣٨٣هـ (٣ تشرين الأول ١٩٦٣م) ، واعتُقل الفقيه البصري في مدريد ، واتُهمت ليبيا أنها وراء العملية .

الخلاف مع الجزائر : أثناء فرض الحماية على بلاد المغرب أرسلت فرنسا قوةً من أرض الجزائر التي تفرض حمايتها عليها منذ مدةٍ طويلةٍ تزيد على الثمانين سنةً إلى موريتانيا لبسط نفوذها عليها ، وقد مرّت هذه القوات عبر منطقة (تندوف) ، وعدّت هذه المنطقة جزءاً من أرض الجزائر ، ولا توجد معالم طبيعية واضحة بين البلدين، وسكان كلا البلدين مسلمون لا يختلف بعضهما عن بعضٍ في شيءٍ ، فالحدود اصطلاحية ، رُسمت حسب اتفاقاتٍ عندما

= ١٤ ـ محمد بن هيمة : وزيراً للتجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
١٥ ـ عبد الهادي بوطالب : أمين سر الدولة للإعلام ، والشباب والرياضة .
١٦ ـ محمد بن عبد السلام الفاسي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .

ملاحظة : وحولت صلاحيات وزير الاقتصاد الوطني بشكل مؤقت إلى رئيس المجلس . وفي ١٣ محرم ١٣٨٣هـ (٦ حزيران ١٩٦٣م) جرى تعديل وزاري ، إذ أعفي غصوص بن سالم من حقيبة وزارة الأشغال العامة ، وحولت أمانة سر الدولة للإعلام والشباب والرياضة إلى وزارة .

وتم تعيين :
١ ـ أحمد حياتي : وزيراً للداخلية .
٢ ـ محمد بن هيمة : وزيراً للأشغال العامة .
٣ ـ إدريس دباغ : وزيراً للتجارة والصناعة والموارد المعدنية والتجارة البحرية .
٤ ـ عبد الهادي بوطالب : وزيراً للإعلام والشباب والرياضة .

جُزِّئت الدولة الإسلامية ، ولكن أهل المغرب لم يعترفوا على أخذ هذا الجزء من بلدهم ، وضمّه إلى الجزائر ، ولم يكن مجالٌ لبحثه ما دامت فرنسا تفرض حمايتها على كلا البلدين ، وعندما تشكّلت حكومةٌ للجزائر مؤقّتةٌ برئاسة عباس فرحات أثناء الثورة الجزائرية ؛ بُحث الموضوع ، ولم يكن مجال خلاف ، فلما استقلّت المغرب قام قائد منطقة (تندوف) بالانضمام إلى المغرب من تلقاء نفسه ، فجاءت قوةٌ جزائريةٌ ، وعسكرت في المنطقة ، وأدّى ذلك إلى وقوع خلافٍ بين الطرفين ، ووقعت بعض الأحداث على الحدود .

وفي شهر جمادى الأولى من عام ١٣٨٣هـ (تشرين الأول ١٩٦٣م) تقدّمت قوةٌ جزائريةٌ إلى أرض المغرب ، وأبادت حاميتين مغربيتين في موقعي : حاسي البيضاء ، وحاسي تيمجوك ، وتوتّرت الأوضاع ، وزادها تأزّماً وقوف مصر إلى جانب أحد الطرفين المتنازعين، وأرسلت قواتٍ إلى محلِّ النزاع، وجرت بعض المعارك ، وهذا ما أدّى إلى ترحيل المصريين عن المغرب ، على حين كان يمكن الإصلاح بين الدولتين الشقيقتين بالوسائل السياسية والحكمة .

وبعد أن قُبلت موريتانيا عضواً بالأمم المتحدة واعترفت المغرب بها ، وجرى لقاءٌ بين الملك الحسن الثاني ، والرئيس الجزائري هواري بومدين ، والرئيس الموريتاني في (نواذيبو) في موريتانيا في شهر رجب ١٣٩٠هـ (أيلول ١٩٧٠م) ، تمّ توقيع معاهدة صداقة بين الدول الثلاثة ، والعمل على تحرير الصحراء المغربية .

الحالة الاستثنائية : أصدر الملك الحسن الثاني دستوراً للبلاد في ٢ ربيع الأول ١٣٨٥هـ (٣٠ حزيران ١٩٦٥م) ، غير أن المظاهرات قد جعلت الملك يعطّل الدستور ، ويحلّ المجلس النيابي ، ويضع السلطات كلها في يده في ٩ ربيع الأول ١٣٨٥هـ (٧ تموز ١٩٦٥م) .

وفي جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ (تشرين الأول ١٩٦٥م) اختُطف المهدي بن بركة زعيم اتحاد القوى الشعبية في مقهى باريس ، ثم قُتل ،

وادّعت فرنسا أن هذا الاختطاف كان لصالح اللواء محمد أوفقير الذي طلبت تسليمه لتقديمه للمحاكمة ، غير أن المغرب قد رفضت ذلك ، وأنكرت علاقتها بالموضوع ، وتوتّرت العلاقة بين الدولتين ، وقُطعت العلاقات السياسية ، ونتيجة ذلك فقد قطعت فرنسا عن المغرب المعونة التي كانت تقدّمها لها ، وهذا ما جعل ملك المغرب يتجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية . غير أن فرنسا لم تلبث أن أعادت تلك المعونات التي كانت تقدّمها للمغرب ؛ ولمّا تمضِ ثلاث سنوات على الانقطاع .

وفي ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٨٣هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م) عُهد إلى أحمد باحنيني بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ[١] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد باحنيني : رئيساً للوزارة .
٢ ـ فال ولد عمير : وزير دولة مكلف بالشؤون الموريتانية والصحراء المغربية .
٣ ـ عبد الهادي بوطالب : وزير تحت تصرف رئيس الوزارة .
٤ ـ إدريس سلاوي : وزير الشؤون الاقتصادية والمالية ، والزراعة .
٥ ـ أحمد علوي : وزير الإعلام والسياحة ، والفنون الجميلة ، والأعمال اليدوية .
٦ ـ عبد الرحمن الخطيب : وزير للداخلية .
٧ ـ أحمد رضا كديرة : وزير الشؤون الخارجية .
٨ ـ عبد القادر بن جلون : وزير العدل.
٩ ـ العربي شرايبي : وزير الصحة العامة .
١٠ ـ محجوبي أحرضان : وزير الدفاع الوطني .
١١ ـ تهامي الوزاني : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ محمد بن هيمة : وزير الأشغال العامة .
١٣ ـ هادي أحمد برغش : وزير الأوقاف ، ومكلف بالشؤون الإسلامية .
١٤ ـ أحمد بن ناني : سكرتير دولة ثان للتجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
١٥ ـ يوسف بن عباس : وزير التعليم الوطني .
١٦ ـ محمد بن عبد السلام الفاسي : وزير البريد والبرق والهاتف .
١٧ ـ حدو شيكر : سكرتير دولة ثان للداخلية .
=

. . . .

١٨ ـ نور الدين : سكرتير دولة ثان للزراعة .

١٩ ـ مأمون الطاهري : سكرتير دولة ثان للمالية .

٢٠ ـ عبد الرحمن الكوهن : سكرتير دولة ثان للإعلام ، والسياحة ، والفنون الجميلة ، والأعمال اليدوية .

ملاحظة : ترتبط خدمات الشباب والرياضة مع رئيس الوزراء .

ـ وفي ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٤هـ (١٧ آب ١٩٦٤م) أعفي عبد القادر جلون من مهمة وزارة العدل .

ـ وفي ٧ ربيع الثاني ١٣٨٤هـ (١٥ آب ١٩٦٤م) أعفي أحمد رضا كديرة من مهمة وزارة الشؤون الخارجية .

ـ وفي ٩ ربيع الثاني ١٣٨٤هـ (١٧ آب ١٩٦٤م) تمّ تعيين أحمد طيبي بن هيمة وزيراً للشؤون الخارجية .

ـ وفي ١٢ ربيع الثاني ١٣٨٤هـ (٢٠ آب ١٩٦٤م) جرى تعديل وزاري ، وأصبحت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد باحنيني : رئيساً للوزارة .

٢ ـ اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزيراً للدفاع الوطني .

٣ ـ عبد الهادي بوطالب : وزيراً للعدل .

٤ ـ محمد شرقاوي : وزير الشؤون الاقتصادية والمالية .

٥ ـ أحمد علوي : وزير الإعلام والسياحة ، والفنون الجميلة ، والأعمال اليدوية .

٦ ـ اللواء محمد أوفقير : وزيراً للداخلية .

٧ ـ محمد بن هيمة : وزير الأشغال العامة .

٨ ـ عبد الرحمن الخطيب : وزيراً للشباب والرياضة .

٩ ـ العربي شرايبي : وزير الصحة العامة .

١٠ ـ محجوبي أحرضان : وزيراً للزراعة .

١١ ـ تهامي الوزاني : وزيراً للأشغال العامة والشؤون الإدارية .

١٢ ـ عبد الحفيظ بوطالب : سكرتير دولة ثان للداخلية .

١٣ : هادي أحمد برغش : وزير الأوقاف ، ومكلف بالشؤون الإسلامية .

١٤ ـ أحمد بن ناني : سكرتير دولة ثان للتجارة ، والصناعة ، والمعادن .

١٥ ـ يوسف بن عباس : وزير التعليم الوطني .

١٦ ـ حدو شيكر : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .

١٧ ـ محمد طاديلي : سكرتير دولة ثان للتعليم الفني .

قضية الصحراء المغربية: وتُعرف أيضاً باسم الساقية الحمراء، ووادي الذهب ، وهي منطقة واسعة تزيد مساحتها على ٢٦٦,٠٠٠ كيلومتر مربع ، فهي بذلك تزيد على نصف مساحة المغرب ، ويبلغ طول ساحلها على المحيط الأطلسي ١١٢٥ كيلومتر ، وسواحلها غنيةٌ بالثروة السمكية ، كما أن جوف أراضيها غنيٌّ بالفوسفات والثروة المعدنية .

كان أول ظهور للأسبان والبرتغاليين على سواحل الصحراء المغربية في القرن التاسع الهجري قبل خروج المسلمين من الأندلس .

وبدأت الغارات الإسبانية على ذلك الجزء من المغرب عام ١٢٨٢هـ ، وجاءت بعثةٌ إيطاليةٌ استطلاعية عام ١٢٨٦ هـ .

= ١٨ ـ مأمون الطاهري : سكرتير دولة ثان للمالية .

١٩ ـ عبد الرحمن الكوهن : سكرتير دولة ثان للإعلام ، والسياحة ، والفنون الجميلة .

ملاحظة : يكلف رئيس الوزراء بوزارة الشؤون الموريتانية والصحراء المغربية . وفي ٥ رجب ١٣٨٤هـ (٩ تشرين الثاني ١٩٦٤م) تمّ تعيين :

١ ـ محمد بن طيبي : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

٢ ـ أحمد بن ناني : سكرتير دولة ثان للتجارة والصناعة والمعادن .

وفي ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٤هـ (١٩ أيلول ١٩٦٤م) تمّ تعيين :

١ ـ العربي سعودي : سكرتير دولة ثان للتعليم الابتدائي .

٢ ـ عبد الله شورفي : سكرتير دولة ثان للشؤون الخارجية .

وفي ٩ شعبان ١٣٨٤هـ (١٣ كانون الأول ١٩٦٤م) تمّ تعيين :

١ ـ بدر الدين السنوسي : سكرتير دولة ثان للتجارة والصناعة والمعادن ، بدلاً من أحمد بن ناني الذي أعفي من الخدمة منذ ٢٠ رجب ١٣٨٤هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٤م) .

وفي ٢٠ رجب ١٣٨٤هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٤م) تمّ تعيين عبد السلام بن عيسى سكرتير ثان للدفاع الوطني ، وكلف بشؤون رجال المقاومة وقدماء عناصر جيش التحرير والمحاربين القدماء .

وفي ٥ رمضان ١٣٨٤هـ (٧ كانون الثاني ١٩٦٥م) تمّ تعيين : مولاي حسن بن إدريس العلوي : وزيراً للشؤون الموريتانية والصحراء المغربية .

وفي ٢٨ شوال ١٣٨٤هـ (١ آذار ١٩٦٥م) تمّ تعيين هادي أحمد برغش : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .

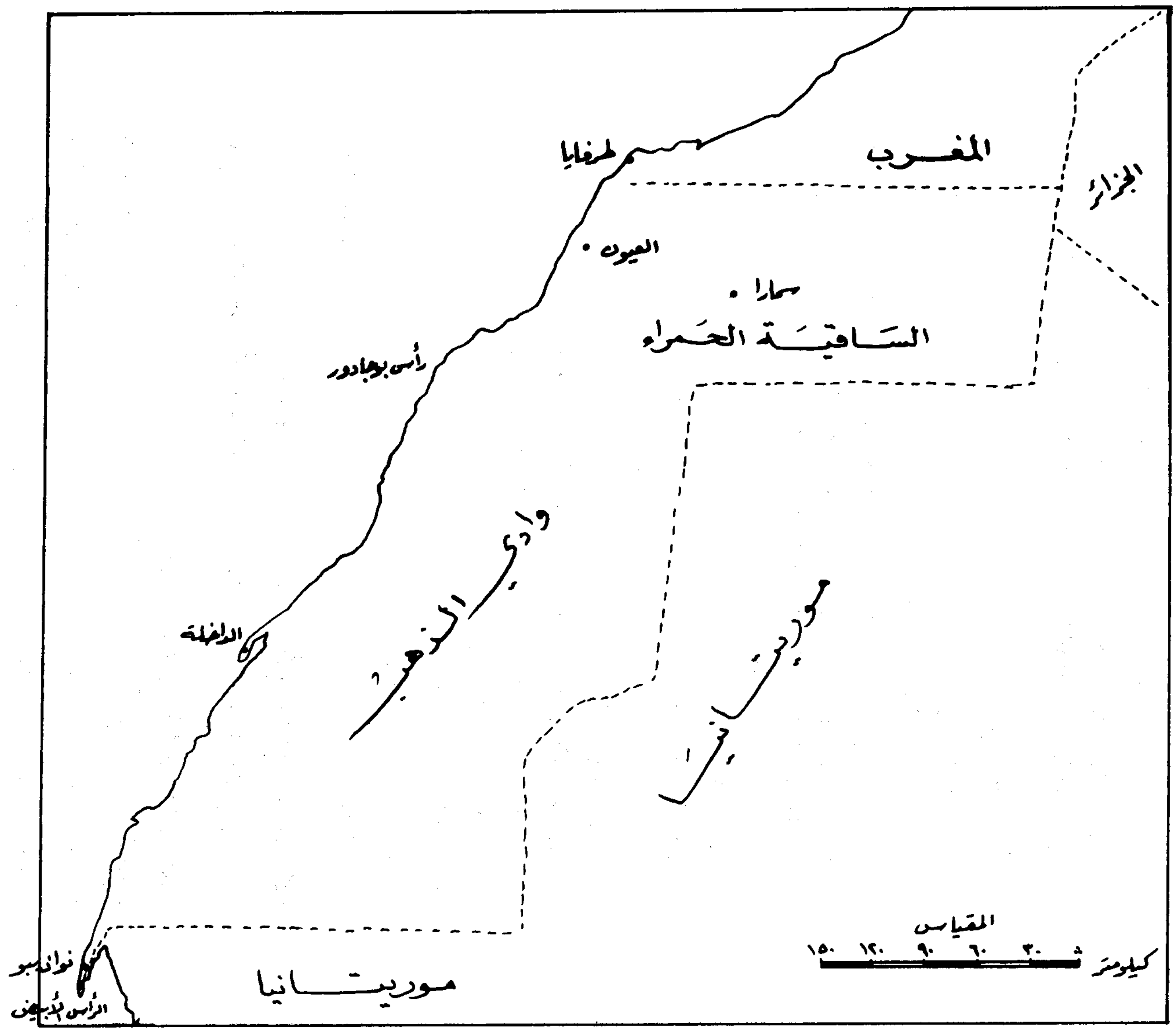
المغرب
الجزائر
طرفايا
العيون
سمارا
الساقية الحمراء
رأس بوجادور
وادي الذهب
الداخلة
موريتانيا
موريتانيا
نواذيبو
الرأس الأبيض
المقياس
كيلومتر
٠ ٣٠ ٦٠ ٩٠ ١٢٠ ١٥٠

وجاء رجلٌ إنكليزيٌّ يُدعى « ماكينزي » ، فأقام مركزاً تجارياً جنوب رأس (بوجادور) ، وذلك عام ١٢٩٠هـ .

وفي عام ١٢٩٤هـ أخذت الحكومة الإسبانية تشجّع الشركات الخاصة على احتلال شاطىء وادي الذهب ، وكانت أول هذه الشركات التي اتجهت إلى تلك الناحية شركات الصيد البحري .

وفي عام ١٣٠٢هـ منحت الحكومة الإسبانية امتيازاً لاستغلال شواطىء الصحراء المغربية سياسياً وتجارياً إلى مؤسّسةٍ يرأسها « إيميليو بونيلي » ، وبدأت المؤسسة نشاطها قبل مؤتمر برلين الذي وزّع مناطق النفوذ في إفريقية بين دول أوربا ، ونزل « إيميليو بونيلي » في موقع على الشاطىء عند خط العرض ٢٣ شمالاً ، وأقام ثلاثة مراكزٍ تجاريةٍ بين رأس (بوجادور) والرأس الأبيض ، وأبرم اتفاقاً مع زعماء بعض القبائل هناك متخذاً لمؤسسته اسم « شركة المهتمين بإفريقية » . وقد لقيت هذه المؤسسة دعماً كبيراً من حكومة مدريد .

وحاولت إسبانيا إغراء ألمانيا للعمل معاً في استثمار هذه الشواطىء ، غير أن ألمانيا رفضت ذلك لأن هذه الشواطىء إنما هي ملكٌ للمغرب ، فاتجهت إسبانيا بعدها إلى بلجيكا واقترحت عليها إقامة مركزٍ تجاريٍّ على شواطىء وادي الذهب .

وجدت إسبانيا مقاومةً من السكان ، واحتجاجاً من فرنسا وإنكلترا ، فكان ردّ الفعل أن صدر مرسوم في مدريد يقضي بوضع منطقة وادي الذهب من رأس (بوجادور) إلى الرأس الأبيض وبعمق مائةٍ وخمسين كيلومتراً تحت سلطة الحاكم العسكري الإسباني لجزر الخالدات (كناريا) .

وفي ٣٠ ربيع الأول ١٣١٨هـ (٢٧ تموز ١٩٠٠م) جرى اتفاقٌ بين إسبانيا وفرنسا يحدّد مناطق نفوذ كلٍّ من الدولتين ، كما أدّى ذلك إلى عقد معاهدتين بين الدولتين ، كانت أولاهما في ٢٤ رجب ١٣٢٢هـ (٣ تشرين الأول ١٩٠٤م) ، وثانيتهما في ١٨ ذي الحجة ١٣٣٠هـ (٢٧ تشرين الثاني

١٩١٢م) .

واحتلّ الإسبان رأس جوبي عام ١٣٣٤هـ بمؤازرة الجيش الفرنسي ، كما اقتحموا مدينة (الكويرة) الكائنة في أقصى جنوب وادي الذهب عام ١٣٣٨هـ ، ولكن لم يستطع الإسبان إخضاع القبائل في الصحراء المغربية حتى عام ١٣٥٣هـ .

أخذ جيش التحرير المغربي يقوم بهجماتٍ على المراكز الإسبانية منذ عام ١٣٧٧هـ ، وفي ٢١ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ (١٣ كانون الأول ١٩٥٧م) ، وخلال يومين متتاليين وقع هجومٌ على ثلاثة مراكزٍ إسبانيةٍ في وادي الذهب ، ومركزٍ في طرفايا ، وآخر في رأس (بوجادور) ، ومركزٍ أيضاً في الساقية الحمراء ، وزلزل الوضع الإسباني في الصحراء المغربية ، غير أن ظهور مناجم الفوسفات في منطقة (بوكراع) في الساقية الحمراء قد جعل الإسبان يعملون على التشبّث بالصحراء .

وذكرنا أن المغرب دخلت جزءاً في الساقية الحمراء ، وهو إقليم طرفايا في رمضان ١٣٧٧هـ (نيسان ١٩٥٨م) .

بعد أن استرجعت المغرب (طرفايا) و (إفني) أخذت تطالب بالصحراء المغربية ، وقد طُرحت المشكلة على الأمم المتحدة في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٦٤م) ، فأحالت القضية إلى لجنة تصفية الاستعمار التي اتخذت قراراً في ١٠ شعبان ١٣٨٤هـ (١٤ كانون الأول ١٩٦٤م) ، وقد جاء فيه :

١ ـ تبدي اللجنة أسفها لتأخّر الدولة الإسبانية الحاكمة بتطبيق مبدأ تصفية الاستعمار، وكذلك في تحرير هذه الأراضي [الساقية الحمراء ووادي الذهب] من السيطرة الإسبانية .

٢ ـ ترجو اللجنة بإلحاح الحكومة الإسبانية أن تطبّق تمام التطبيق ، ودون قيدٍ أو شرطٍ مقتضيات التصريح الخاص بمنح الاستقلال للبلدان أو الشعوب المستعمرة .

ولكن إسبانيا لم تبالِ بالموضوع .

عرضت المغرب القضية على الجمعية العمومية لـلأمم المتحدة ، والتي أصدرت قراراً عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ) يؤكّد القرار السابق . ثم أعادت المغرب الموضوع إلى لجنة تصفية الاستعمار في العام التالي ، وأخذت موريتانيا تطالب أيضاً بالصحراء ، أما لجنة تصفية الاستعمار فقد قرّرت استفتاء .

رفضت إسبانيا كل اقتراح ؛ لأهمية الصحراء بالنسبة لهـا ، لغناهـا ، ولموقعها بالنسبة إلى جزر كناريـا [الخالـدات] التي تتبع أيضـاً إلى السيطرة الإسبانية .

أراد الملك الحسن الثاني حلّ الموضوع سياسياً ؛ فقام بزيارةٍ إلى مدريد عام ١٣٩٠هـ ، والتقى بالجنرال فرانكو ، وعرض عليه احتفاظ إسبانيا ببعض القواعد لها في الصحراء المغربية ، والمشـاركة المغـربية ـ الإسبـانية في ثـروة الصحراء ، ولكن ذلك لم يفد شيئاً ، حيث أصرّت إسبانيا على موقفها ، إذ قرّرت في ٥ ذي الحجة ١٣٩٠هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٧١م) تشكيل مجلسٍ لممثّلي سكان الصحراء بإجراء انتخاباتٍ قبل منتصف عام ١٣٩٥هـ . وتحرّكَ الجيش المغربي إلى جنوبي المغرب ليكون على مقربةٍ من الحدود مع الصحراء ، وكان تحرّكه بقيادة أحمد الديلمي . وأعلنت موريتانيا أنها على استعدادٍ للتعاون مع المغرب في إيجاد حلٍّ لقضية الصحراء .

كان الخلاف بين المغرب ، والجزائر ، وموريتانيا يشجّع إسبـانيا عـلى التشبّث بموقفها ، واجتمع وزراء خارجيـة كلٍّ من : المغـرب ، والجزائـر ، وموريتانيا في نواكشوط في ربيع الثاني ١٣٩٣هـ (أيار ١٩٧٣م) للـوصول إلى اتفاقٍ حول الصحراء ، وأعلنوا موافقتهم على حقّ تقرير المصير .

طلب الملك الحسن الثاني ملك المغرب عرض القضية على محكمة العدل الدولية ، وأقرّت لجنة تصفية الاستعمار في ٢٧ ذي القعـدة ١٣٩٤هـ (١١ كانون الأول ١٩٧٤م) عرض القضية عـلى محكمة العدل الدولية ، وطلبت من إسبانيا إيقاف عملية الاستفتاء المزمع إجراؤها ، حيث كانت إسبانيا قد

أبلغت أمين سر الأمم المتحدة أنها تنوي إجراء استفتاء لتقرير المصير قبل منتصف عام ١٩٧٥م (١٣٩٥هـ) ، وطلبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ١٢ أيلول ١٩٧٤م أخذ رأي محكمة العدل الدولية : هل الصحراء المغربية عندما استعمرتها إسبانيا كانت أرضاً لا مالك لها ، أو كانت أرضاً مملوكة ؟ .

رفضت المغرب هذه الإجراءات، وأعلنت إسبانيا أن استقلال الصحراء المغربية سيجد معارضةً واسعةً.

وعندما علمت المغرب عزم إسبانيا على اتخاذ مبادرةٍ انفراديةٍ بشأن الصحراء بعث الملك الحسن الثاني في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ (٥ تموز ١٩٧٤م) ، رسالةً إلى الجنرال فرانكو يحذِّره مغبّة الأمر الذي تريد أن تُقدم عليه الحكومة الإسبانية .

وفي ١١ شوال ١٣٩٥هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٧٥م) أعلنت محكمة العدل الدولية رأيها بأن الصحراء أرضاً مغربية . وفي ذلك اليوم ألقى الملك الحسن الثاني خطاباً أعلن فيه عزم المغرب على القيام بمسيرةٍ شعبيةٍ إلى الصحراء المغربية لتحريرها ، وأعلن أنه سيشترك في هذه المسيرة ثلاثمائة وخمسون ألفاً من المتطوعين من مختلف مناطق المغرب .

وبعد ضمّ الصحراء المغربية بقيت جيوبٌ من أرض المغرب في الشمال تتبع إسبانيا ، وهي :

١ ـ سبتة : وقد احتلّها الإسبان منذ عام ٩٨٨هـ (١٥٨٠م) وتقدّر مساحة مينائها بسبعة أميالٍ مربعةٍ ، ويسكنها ما يزيد على المائة ألف .

٢ ـ مليلة : وتقدّر مساحة مينائها بخمسة أميال مربعة ، ويسكنها ما يزيد على المائة وثلاثين ألفاً .

٣ ـ الجزر المغربية في البحر المتوسط الواقعة بين سبتة ومليلة .

ويبدو أن مرحلةً من الصمت تخيّم على المغرب عن هذه الجيوب في هذه المرحلة .

على حين أن الجزائر وموريتانيا قد وافقتا على استقلال الصحراء ، وظهرت جبهة « بوليساريو » التي تدعمها الجزائر ، وتدافع عن استقلال الصحراء .

أجرت إسبانبا محادثاتٍ بين كلٍّ من المغرب وموريتانيا في مدريد ، وأعلنت حكومة « خوان كارلوس » في ٨ ذي الحجة ١٣٩٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٧٥م) أنها توافق على اقتسام الصحراء المغربية بين المغرب وموريتانيا . ووافقت الأمم المتحدة على اتفاقية مدريد بين كلٍّ من موريتانيا والمغرب بأغلبية ٤٨ صوتاً ضدّ ٣٢ صوتاً ، وامتناع ٥٢ عن التصويت . وكذلك فإن منظمة الوحدة الإفريقية قد وافقت على إعطاء الصحراء حقّ تقرير المصير .

وتمّت المسيرة ، وضمّت المغرب إليها الصحراء ، وانتهى الخلاف مع موريتانيا، وبقيت الجزائر لا تعترف بهذا الانضمام، وتقوم جبهة البوليساريو ببعض أعمال التخريب داخل الصحراء، ثم تنسحب إلى الجزائر.

أعربت كل من الحكومة المغربية وجبهة البوليساريو عن أملها في إجراء استفتاء شعبي خلال ستة أشهرٍ، غير أن التفكير كان متجهاً إلى حفظ الأمن أثناء عملية التصويت، وضرورة انسحاب القوات المغربية من أرض الصحراء.

وتعهدت الأمم المتحدة في شوال ١٤١١هـ (نيسان ١٩٩١م) بوضع قوة لحفظ الأمن أثناء عملية الاستفتاء الشعبي الذي كان من المقرر أن يجري قبل ثلاث سنوات.

وافقت جبهة البوليساريو على دعم عملية وقف إطلاق النار في ذي الحجة ١٤١١هـ (حزيران ١٩٩١م) وأنه سيكون محكماً في ٢٧ صفر ١٤١٢هـ (٦ أيلول ١٩٩١م).

وقد وصل إلى المنطقة ألفان من قوات الأمم المتحدة، واستلموا

مهماتهم في مطلع عام ١٤١٢هـ (آب ١٩٩١م).

أفادت التقارير أن ثلاثين ألفاً من المغرب قد دخلوا الصحراء في مطلع شهر ربيعٍ الأول ١٤١٢هـ (أواخر أيلول ١٩٩١م) بغية تغيير توجّه السكان السياسيِّ، كما أعيد أكثر من مائةٍ وسبعين ألفاً من أهل الصحراء كانوا قد غادروا منطقتهم قبل خمسة عشر عاماً في سبيل المشاركة في عملية الاستفتاء.

في جمادى الأولى ١٤١٢هـ (تشرين الثاني ١٩٩١م) تمّ نشر مائتي جندي فقط لحفظ الأمن، ولم تسحب المغرب أحداً من جنودها، وقد كان من المقرر أن تسحب مائةً وثلاثين ألفاً في ٧ ربيع الأول ١٤١٢هـ (١٥ أيلول ١٩٩١م). وهذا ما جعل الثقة تفقد في حفظ الأمن لإجراء الاستفتاء، كما أن هذه الثقة قد زعزعت أكثر عندما أعلنت الأمم المتحدة ضرورة إجراء تعديل قائمة الذين يحق لهم التصويت، وإضافة أربعين ألفاً آخرين لم يكونوا مسجلين في قائمة التعداد التي وضعت قبل سبعة عشر عاماً. وادعت جبهة البوليساريو أن الأمم المتحدة تعمل لصالح المغرب. وظهر أن الاستفتاء سيؤجّل.

وفي منتصف عام ١٤١٢هـ (أوائل عام ١٩٩٢م) جرى خرق لوقف إطلاق النار في الصحراء المغربية، وكل طرفٍ يتهم الآخر.

جرت محادثات غير مباشرة بين الطرفين في جنيف بسويسرا تحت رعاية الأمم المتحدة في أواخر عام ١٤١٢هـ (حزيران ١٩٩٢م)، ولكن لم تصل إلى نتيجة، وأعقبتها بعد شهرين في نيويورك، وكانت كسابقتها. واستمرّ خرق وقف إطلاق النار، وعادت جبهة البوليساريو إلى التهديد.

حدّد أواخر عام ١٩٩٣م لإجراء الاستفتاء الشعبي، وجرت مفاوضات مباشرة بين الحكومة المغربية وجبهة البوليساريو في مطلع عام ١٤١٤هـ (تموز ١٩٩٣م)، ولكن عملية الاستفتاء تأجّلت عدة مراتٍ، ثمّ أعلن أنه لا يمكن أن يتم قبل أوائل عام ١٩٩٦م.

وكان الملك الحسن الثاني قد أقال الوزارة القائمة ، وشكّل وزارةً جديدةً[1] برئاسته منذ ٩ صفر ١٣٨٥هـ (٨ حزيران ١٩٦٥م) .

---

(١) شكّل الحسن الثاني الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ الحسن الثاني : رئيساً للوزارة .

٢ ـ محمد زغاري : وزيراً للدولة .

٣ ـ مولاي حسن بن إدريس العلوي : وزيراً للشؤون الموريتانية والصحراء المغربية .

٤ ـ عبد الهادي بوطالب : وزيراً للعدل .

٥ ـ أحمد طيبي بن هيمة : وزيراً للشؤون الخارجية .

٦ ـ محمد شرقاوي : وزيراً للتطوير .

٧ ـ اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزيراً للدفاع الوطني .

٨ ـ اللواء محمد أوفقير : وزيراً للشؤون الداخلية .

٩ ـ هادي محمد باحنيني : وزيراً للشؤون الخارجية .

١٠ ـ محمد بن هيمة : وزيراً للتعليم الوطني ، والفنون الجميلة ، والشباب والرياضة .

١١ ـ مأمون الطاهري : وزيراً للمالية .

١٢ ـ محجوبي أحرضان : وزيراً للتطوير الزراعي .

١٣ ـ محمد الغزاوي : وزيراً للصناعة والموارد المعدنية ، والسياحة .

١٤ ـ أحمد الاسكي : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

١٥ ـ عبد الحميد زاسوري : وزيراً للتجارة .

١٦ ـ العربي شرايبي : وزيراً للصحة العامة .

١٧ ـ هادي أحمد برغش : وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .

١٨ ـ حدو شيكر : وزير البريد والبرق والهاتف .

١٩ ـ عبد الحفيظ بوطالب : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .

٢٠ ـ أحمد مجيد بن جلون وزير الإعلام .

٢١ ـ عبد الله شورفي : سكرتير دولة ثان للشؤون الخارجية .

٢٢ ـ بدر الدين سنوسي : سكرتير دولة ثان للشؤون الإدارية .

٢٣ ـ هادي محمد باحنيني : سكرتير عام للحكومة إضافة إلى وزارة الشؤون الإدارية .

٢٤ ـ محمد الغزاوي : وزيراً للصناعة والموارد المعدنية إضافة إلى مهامه كمدير عام لمكتب الفوسفات .

وفي ١٢ ربيع الأول ١٣٨٥هـ (١٠ تموز ١٩٦٥م) أُنهيت خدمة محمد الغزاوي من وزارة الصناعة والموارد المعدنية ، وتمّ تعيين :

يحيى بن سليمان : وزيراً للصناعة والموارد المعدنية .

=
عبد الحميد زاسوري : وزيراً للتجارة والصناعات اليدوية .
حسين عيابو : وزيراً للسياحة .
عبد السلام بن عيسى : سكرتير دولة مكلف بشؤون رجال المقاومة ، ورجال جيش التحرير والمحاربين القدماء .
وفي ١٠ رمضان ١٣٨٥هـ (١ كانون الثاني ١٩٦٦م) تمّ تعيين :
محمد بن العالم : سكرتير دولة ثان للداخلية .
ناصر الفاسي : سكرتير دولة ثان للتعليم الوطني ، والفنون الجميلة ، والشباب والرياضة .
وفي ٤ ذي القعدة ١٣٨٥هـ (٢٣ شباط ١٩٦٦م) تمّ تعيين :
مهدي بن بوشتة : سكرتير دولة ثان للشباب والرياضة .
وفي الوقت نفسه أُنهيت خدمة محمد طيبي بن هيمة من وزارة الشؤون الخارجية ، وفي اليوم التالي أُعفي يحيى بن سليمان من وزارة الصناعة والموارد المعدنية .
وفي ٥ ذي القعدة ١٣٨٥هـ (٢٤ شباط ١٩٦٦م) أصبح :
محمد زغاري : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ومكلف بوزارة التطوير .
محمد الشرقاوي : وزير الشؤون الخارجية .
أحمد العلوي : وزير الصناعة والموارد المعدنية .
وفي ١٢ محرم ١٣٨٦هـ (٢ أيار ١٨٦٦م) تمّ تعيين : محمد برغش : وزيراً للتطوير ، ومكلفاً بالتخطيط .
كما أُعفي في اليوم نفسه محمد زغاري : من وزارة التطوير .
وفي ٥ صفر ١٣٨٦هـ (٢٥ أيار ١٩٦٦م) تمّ تعيين :
١ ـ محمد طاديلي : سكرتير دولة ثان للتنمية الوطنية .
٢ ـ محمد إيماني : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طيب زعمون : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
وفي ١٩ صفر ١٣٨٦هـ (٨ حزيران ١٩٦٦م) تمّ تعيين :
محجوبي أحرضان : وزير دولة مكلف بالدفاع الوطني .
حدو شيكر : وزيراً للزراعة .
بدر الدين السنوسي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
وفي ١٩ رجب ١٣٨٦هـ (٢ تشرين الثاني ١٩٦٦م) تمّ تعيين :
أحمد بن ناني : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
وفي ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٦هـ (١١ آذار ١٩٦٧م) أُعفي من مناصبه الحكومية جميعها كل من :
محمد زغاري : نائب رئيس مجلس الوزراء .
=

= محمد شرقاوي : وزير الشؤون الخارجية .
محمد برغش : وزير التطوير والمكلف بالتنمية الوطنية والتخطيط .
محجوبي أحرضان : وزير الدولة المكلف بالدفاع .
حدوشيكر : وزير الزراعة .
عبد الحميد زاسوري : وزير التجارة والصناعات اليدوية .
طيب زعمون : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
محمد إيماني : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
محمد طاديلي : سكرتير دولة ثان للتنمية الوطنية .
وفي ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٦هـ (١١ آذار ١٩٦٧م) تمّ تعيين :
محمد زغاري : وزيراً للزراعة ، ومكلفاً بالشؤون الاقتصادية .
محمد شرقاوي : وزيراً للدفاع الوطني .
أحمد العراقي : وزيراً للشؤون الخارجية .
أحمد علوي : وزيراً للتجارة والصناعة والموارد المعدنية .
محمد إيماني : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
طيب زعمون : سكرتير دولة ثان عند رئيس مجلس الوزراء .
عبد الوهاب العراقي : سكرتير دولة ثان للتجارة .
وفي ٤ محرم ١٣٨٧هـ (١٣ نيسان ١٩٦٧م) تمّ تعيين :
محمد بوستة : سكرتير دولة ثان للشباب والرياضة عند وزير التعليم الوطني عُيّن سكرتير دولة ثان للشباب والرياضة عند رئيس مجلس الوزراء (أي نُقل من وزارة التعليم الوطني إلى رئاسة مجلس الوزراء) ، وفي التاريخ نفسه نُقلت خدمات الشباب والرياضة المرتبطة بوزارة التعليم الوطني إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وأصبحت مرتبطة فيها .
وفي ٢ صفر ١٣٨٧هـ (١٢ أيار ١٩٦٧م) أُعفي :
أحمد العراقي : من وزارة الأشغال العامة والمواصلات . وأُعفي في اليوم التالي كذلك :
عبد الهادي بوطالب : من وزارة العدل والإعلام بالوكالة .
محمد بن هيمة : من وزارة التعليم الوطني والفنون الجميلة .
وفي اليوم نفسه تمّ تعيين :
علي بن جلون : وزيراً للعدل .
عبد الهادي بوطالب : وزيراً للتعليم الوطني والفنون الجميلة .
محمد بن هيمة : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

إلى محمد بن هيمة بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ(١) ، أي في اليوم الثاني من القتال

---

(١) شكّل محمد بن هيمة الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ محمد بن هيمة : رئيساً للوزراء .
٢ ـ عبد الهادي بوطالب : وزير التعليم الوطني والفنون الجميلة .
٣ ـ مولاي حسن بن إدريس : وزير الشؤون الموريتانية ، والصحراء المغربية .
٤ ـ علي بن جلون : وزير العدل .
٥ ـ أحمد العراقي : وزير الشؤون الخارجية .
٦ ـ اللواء محمد أوفقير : وزير الداخلية .
٧ ـ الحاج محمد باحنيني : وزير الشؤون الإدارية ، وسكرتير عام الحكومة .
٨ ـ محمد حدو شيكر : وزير الدفاع الوطني .
٩ ـ مأمون طاهري : وزير المالية .
١٠ ـ أحمد العراقي : وزير التجارة والصناعات اليدوية والموارد المعدنية ،
١١ ـ محمد برغش : وزير الزراعة ، ومكلف بالتنمية الوطنية .
١٢ ـ يحيى شفشاوني : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
١٣ ـ العربي شرايبي : وزير الصحة العامة .
١٤ ـ هادي أحمد برغش : وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .
١٥ ـ بدر الدين السنوسي : وزير البريد والبرق والهاتف .
١٦ ـ عبد الحفيظ بوطالب : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
١٧ ـ أحمد السنوسي : وزير الإعلام . ١٨ ـ حسن عبابو : وزير السياحة .
١٩ـ عبد السلام بن عيسى : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء لشؤون المحاربين القدماء .
٢٠ ـ أحمد بن ناني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية .
٢١ ـ محمد إيماني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتخطيط .
٢٢ ـ مهدي بوستة : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشباب والرياضة .
٢٣ ـ عبد الله شورفي : سكرتير دولة ثان للشؤون الخارجية .
٢٤ ـ محمد بن العالم : سكرتير دولة ثان للداخلية .
٢٥ ـ طيب زعموني : سكرتير دولة ثان للزراعة .
٢٦ ـ عبد الوهاب العراقي : سكرتير دولة ثان للتجارة .

وفي ٥ ربيع الثاني ١٣٨٧هـ (١٢ تموز ١٩٦٧م) تمّ تعيين محمد أمزيان زهراوي وزير مكلف بالتنسيق بين قوات المملكة .

وفي ١٨ شوال ١٣٨٧ هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٦٨م) أُعفي من منصبه كل من : يحيى شفشاوني : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
=

= حسن عبابو : وزير السياحة .

عبد الحفيظ بوطالب : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .

عبد السلام بن عيسى : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء لشؤون المحاربين القدماء .

وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :

إدريس سلاوي : وزيراً للعدل .

عبد الحفيظ بوطالب : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

عبد السلام بن عيسى : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

تهامي الوزاني: وزيراً للسياحة .

عبد الوهاب العراقي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء .

أحمد بن قيراني : سكرتير دولة ثان للتجارة والصناعة والموارد المعدنية .

وفي ١١ صفر ١٣٨٨هـ (٩ أيار ١٩٦٨م) أُعفي من منصبه كل من :

عبد الوهاب العراقي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء .

أحمد بن ناني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون الاقتصادية .

محمد إيماني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتخطيط .

مهدي بن بوستة : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشباب والرياضة .

وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :

محمد إيماني : وزير عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون الاقتصادية والتخطيط .

مهدي بن بوشتة : وزير عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشباب والرياضة .

وفي ٢١ ربيع الأول ١٣٨٨هـ (١٧ حزيران ١٩٦٨م) أُنهيت خدمة كل من :

عبد الهادي بوطالب : وزير التعليم الوطني والفنون الجميلة .

محمد حدو شيكر : وزير الدفاع الوطني .

محمد أمزيان زهراوي : وزير مكلف بالتنسيق بين قوات المملكة .

وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :

عبد الهادي بوطالب : وزير دولة .

اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزير الدفاع الوطني .

محمد حدو شيكر : وزير التعليم الابتدائي . عبد اللطيف فلالي : وزير التعليم العالي .

قاسم زهيري : وزير التعليم الثانوي والصناعي .

وفي ١٣ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ (٩ تموز ١٩٦٨م) تمّ تعيين :

محمد الفاسي فهري : وزير دولة مكلف بالشؤون الثقافية .

وفي ١٩ جمادى الأولى ١٣٨٨هـ (١٣ آب ١٩٦٨م) أُنهيت خدمة كل من :

أحمد علوي : وزير الصناعات اليدوية ، والموارد المعدنية ، والتجارة .

=

تهامي الوزاني : وزير السياحة .
أحمد قيراقي : سكرتير دولة ثان للتجارة ، والموارد المعدنية ، والصناعات اليدوية .
وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :
أحمد علوي : وزير دولة مكلف بالسياحة والصناعات اليدوية .
جواد بن إبراهيم : وزير الصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
وفي ٨ جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ (١ أيلول ١٩٦٨م) عُيّن :
عباس قيسي : سكرتير دولة ثان في وزارة الشؤون الإدارية ، وأمين سر عام الحكومة .
وفي ٢٠ ذي القعدة ١٣٨٨هـ (٧ شباط ١٩٦٩م) أنهيت خدمات :
إدريس سلاوي : وزير العدل .
عبد الحفيظ بوطالب : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
محمد إيماني : وزير مكلف بالشؤون الاقتصادية والتخطيط عند رئيس مجلس الوزراء .
وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :
أحمد رضا كديرة : وزير دولة مكلف بالتخطيط . عبد الحفيظ بوطالب : وزير العدل .
محمد إيماني : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
وفي ٢٣ محرم ١٣٨٩هـ (١٠ نيسان ١٩٦٩م) أنهيت خدمات :
عبد السلام بن عيسى : وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
مهدي بن بوشتة : وزير الشباب والرياضة .
وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :
مهدي بن بوستة : وزير العمل التوظيفي والتعليم التخصصي .
عمر بوستة : وزير الشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية .
العربي الرميلي : سكرتير دولة ثان للدفاع الوطني .
وفي ٢٤ جمادى الأولى ١٣٨٩هـ (٧ آب ١٩٦٩م) أنهيت خدمات :
أحمد رضا كديرة : وزير دولة مكلف بالتخطيط .
عبد اللطيف فلالي : وزير التعليم الثانوي والصناعي .
وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :
أحمد رضا كديرة : وزير دولة مكلف بالتعليم الثانوي والصناعي والعالي .
مصطفى فارس : سكرتير دولة مكلف بالتخطيط عند رئيس مجلس الوزراء .
وفي ٢٦ رجب ١٣٨٩هـ (٧ تشرين الأول ١٩٦٩م) أنهيت خدمات :
محمد بن هيمة : رئيس الوزراء . عبد الهادي بوطالب : وزير دولة .
أحمد العراقي : وزير الشؤون الخارجية . أحمد برغش : وزير الزراعة والمكلف بالتنمية الوطنية .
وفي الوقت نفسه تم تعيين :

الذي دار بين بعض البلدان العربية واليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين ، وبعد هذه الحرب قامت مظاهراتٌ صاخبةٌ في المغرب تطالب بإقصاء اليهود الذين لهم دورٌ مرموقٌ في المغرب عن مواقعهم ـ على الأقل ـ .

بعد الحالة الاستثنائية التي فُرضت على البلاد منذ عام ١٣٨٥هـ ، وكانت السلطات كلها بيد الملك ، دعا حزب الدستور الديمقراطي إلى تكتلٍ وطني، وفي الوقت نفسه فإن الملك قد جمع هيئةً حكوميةً من الرجالات الذين يحملون صفة وزير ليتحمّلوا أعباء الحكم، وكان هذا التشكيل أمراً ملكياً[1]،

= أحمد العراقي : رئيساً للوزراء .

مولاي حسن بن إدريس : وزير دولة .

محمد بن هيمة : وزير دولة مكلف بالزراعة .

عبد الهادي بوطالب : وزير الشؤون الخارجية .

وفي ١٠ شعبان ١٣٨٩هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٩م) أُنهيت خدمات :

أحمد علوي : وزير دولة مكلف بالسياحة والصناعات اليدوية .

العربي شرايبي : وزير الصحة العامة .

جواد بن إبراهيم : وزير التجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية . وفي الوقت نفسه تمّ تعيين :

أحمد علوي : وزير دولة مكلف بالتنمية الوطنية ، والصناعات اليدوية .

محمد جعيدي : وزير التجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .

عبد الكريم الأزرق : وزير السياحة .

(١) كان هذا التشكيل على النحو الآتي:

١ ـ إدريس سلاوي: المدير العام للمكتب الملكي .

٢ ـ أحمد بلفريج : ممثل شخصي للملك الحسن الثاني .

٣ ـ محمد معمري زواوي: وزير البيت الملكي.

٤ ـ أحمد العراقي : رئيس الوزراء .

٥ ـ مولاي حسن بن إدريس : وزير دولة .

٦ ـ محمد بن هيمة وزير دولة للزراعة .

٧ ـ محمد الفاسي فهري : وزير دولة للثقافة .

٨ ـ أحمد علوي : وزير دولة للتنمية الوطنية .

٩ ـ عبد الحفيظ بوطالب : وزير العدل . =

١٠ ـ عبد الهادي بوطالب : وزير الشؤون الخارجية .
١١ ـ اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزير الدفاع الوطني .
١٢ ـ اللواء محمد أوفقير : وزير الداخلية ، والإسكان ، ومكلف بشؤون المحاربين القدماء.
١٣ ـ محمد باحنيني : وزير الشؤون الإدارية ، وأمين سر عام الحكومة .
١٤ ـ مأمون طاهري : وزير التعليم الثانوي ، والفني ، والعالي .
١٥ ـ أحمد برغش : وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .
١٦ ـ محمد حدو شيكر : وزير التعليم الابتدائي .
١٧ ـ اللواء إدريس بن عمر علامي : وزير البريد والبرق والهاتف .
١٨ ـ بدر الدين سنوسي : وزير الشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية .
١٩ ـ مهدي بوستة : وزير العمل والعمال والتدريب .
٢٠ ـ أحمد سنوسي : وزير الإعلام .
٢١ ـ عبد الحميد كريم : وزير السياحة .
٢٢ ـ عبد المجيد بلساهي : وزير الصحة العامة .
٢٣ ـ محمد عواد : وزير لشؤون الأمراء .
٢٤ ـ أحمد بن سعود : وزير البلاط الملكي .
٢٥ ـ أحمد مجيد بن جلون : وزير المكتب الملكي .
٢٦ ـ مصطفى فارسي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء ومكلف بالتخطيط .
٢٧ ـ العربي رميلي : سكرتير دولة ثان للدفاع الوطني .
٢٨ ـ محمد بلعالم : سكرتير دولة ثان للداخلية .
٢٩ ـ عبيس القيسي : سكرتير دولة ثان للشؤون الإدارية .
٣٠ ـ محمد علي بن شفيق : سكرتير دولة ثان للتعليم الثانوي ، والمهني ، والعالي ، والتدريب .

واستمرت الوزارة في مهمتها ، وإن كانت السلطة كلها بيد الملك ، فكانت التعيينات وإنهاء الخدمات :

في ١٥ ذي الحجة ١٣٨٩هـ (٢١ شباط ١٩٧٠م) أنهيت خدمة أحمد رضا كديرة من منصبه كوزير دولة مكلف بالتعليم الثانوي ، والمهني ، والعالي .

وبعد خمسة أيام (٢٠ ذي الحجة) تمّ تعيين محمد بن علي شفيق : سكرتير دولة للتعليم الثانوي ، والمهني ، والعالي عند رئيس مجلس الوزراء .

وفي ١٨ محرم ١٣٩٠هـ (٢٥ آذار ١٩٧٥م) أُعفي رئيس مجلس الوزراء أحمد العراقي من تكليفه بالتعليم الثانوي والمهني والعالي .

= وفي اليوم نفسه أُنهيت خدمات كل من :
مأمون طاهري : وزير التعليم الثانوي ، والفني ، والعالي .
عبد الكريم الأزرق : وزير المالية .
اللواء إدريس بن عمر علامي : وزير البريد والبرق والهاتف .
بدر الدين سنوسي : وزير الشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية .
عبد الحميد كريم : وزير السياحة .
محمد بن علي شفيق : سكرتير دولة ثان للتعليم الثانوي ، والمهني ، والعالي .
وفي ٥ جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ (٧ آب ١٩٧٠م) أُعفي كل من :
محمد بن هيمة : وزير دولة مكلف بالزراعة .
محمد إيماني : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
وفي الوقت نفسه كُلِّف :
أحمد العراقي : رئيس الوزراء بمهمة الإشراف على وزارة الزراعة .
واللواء محمد أوفقير : وزير الداخلية بوزارة الأشغال العامة والمواصلات .
وبعد يومين فقط عاد الملك فأعفى :
أحمد العراقي : رئيس الوزراء من مهمة الإشراف على وزارة الزراعة .
واللواء محمد أوفقير : وزير الداخلية من وزارة الأشغال العامة والمواصلات .
وفي الوقت نفسه عُيِّن :
أحمد لاسكي : وزيراً للزراعة .
حسن الشامي : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .
وفي ١٧ رجب ١٣٩٠هـ (١٧ أيلول ١٩٧٠م) أُعفي من منصبه كل من :
عبد الحفيظ بوطالب : وزير العدل ،
مهدي بن بوشتة : وزير العمل والعمال والتدريب التخصصي .
وتمّ تعيين :
أحمد بوستة : وزيراً للعدل .
عبد الحفيظ بوطالب : وزير العمل والعمال والتدريب التخصصي .
وفي ٣ شعبان ١٣٩٠هـ (٣ تشرين الأول ١٩٧٠م) أُنهيت خدمات :
اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزير الدفاع .
محمد باحنيني : وزير الشؤون الإدارية .
وتمّ تعيين :
اللواء محمد أمزيان زهراوي : وزير دولة . =

وطرح على الاستفتاء عام ١٣٩٠هـ مشروع دستوره .

حادثة الصخيرات ومحاولة اغتيال الملك : ١٦ جمادى الأولى ١٣٩١هـ (٩ تموز ١٩٧١م) أقام الملك الحسن الثاني احتفالاً ضخماً بمناسبة بلوغه السن ٤٢ عاماً ، وبينما كان الملك والمدعوون على مائدة الغداء اقتحم القصر جماعةٌ من طلبة الكلية الحربية بقيادة اللواء محمد المذبوحي أكبر العسكريين في القصر ، ومدير الكلية عبابو .

كانت الكلية الحربية قد أعلنت عن إجراء مناورةٍ بالذخيرة الحية ، وأنه سيشترك في هذه المناورة أكثر من ١٤٠٠ عسكري بين ضابطٍ وجندي ، وكانت هذه القوات مضطرّةً للمرور قرب قصر الصخيرات ، وعندما وصل طلبة الكلية إلى قرب القصر ؛ أعلن مدير الكلية عبابو أن الملك في خطر ، وعلينا إنقاذه ما دمنا بالقرب منه ، فاقتحم الطلاب القصر ، وكان الحرس الملكي منزوع السلاح في ذلك اليوم ، ومع ذلك فقد حاولوا المقاومة ، فقُتلوا ، وكذلك فقد قتل اللواء محمد المذبوحي خطأً ، قتله العميد عبابو .

وكان كبار الضباط الذين اشتركوا في هذه الحركة الألوية : مصطفى ، وبوغرين ، وحمو ، والفنيري ، إضافةً إلى كبير عسكريي القصر اللواء محمد المذبوحي ، واللواء عبابو مدير الكلية العسكرية الملكية . وقد قتل أحد الجنود اللواء عبابو .

طوّق اللواء محمد أوفقير القصر بقواته ، فاضطرّ الثائرون إلى

= محمد باحنيني : وزير الدفاع الوطني ، مع بقائه سكرتير عام للحكومة .
أحمد عثمان : وزير الشؤون الإدارية .
وفي ١٢ شعبان ١٣٩٠هـ (١٢ تشرين الأول ١٩٧٠م) أُنهيت خدمة :
عبد الهادي بوطالب : وزير الشؤون الخارجية .
وتعيين :
يوسف بن العباس التعزي : وزيراً للشؤون الخارجية .
وفي ٥ ربيع الأول ١٣٩١هـ (٣٠ نيسان ١٩٧١م) أُنهيت خدمة :
طيب زعمون : سكرتير دولة ثان للزراعة .

الاستسلام ، ولكن بعد أن فشل الانقلابيون قاموا باحتلال القيادة العامة للقوات المسلّحة الملكية ، ولكنهم اضطرّوا إلى الاستسلام أيضاً ، وقد تمّ إعدام أربعين ضابطاً من كبار الضباط في اليوم الثالث للحركة .

وكانت ليبيا قد أسرعت واعترفت بحكومة الانقلابيين وهذا ما أدّى إلى قطع العلاقات السياسية بين الدولتين .

وأخذ الملك بعدها يعتمد على اللواء محمد أوفقير حيث ولّاه قيادة فرقة المدرّعات ، وعلى اللواء إدريس بن عمر حيث عيّنه مساعداً في تسيير القيادة لأركان الجيش الملكي .

وفي ١٤ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ (٦ آب ١٩٧١م) كلّف الملك الحسن الثاني وجهاً جديداً لتأليف الحكومة هو محمد كريم العمراني(١) .

(١) شكّل محمد العمراني الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ محمد كريم العمراني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد باحنيني : وزيراً للعدل ، وسكرتيراً عاماً للحكومة .
٣ ـ اللواء محمد أوفقير : وزيراً للدفاع الوطني .
٤ ـ أحمد بن بوشتة : وزيراً للداخلية .
٥ ـ عبد اللطيف فلالي : وزيراً للشؤون الخارجية .
٦ ـ أحمد العصري : وزيراً للثقافة ، والتعليم العالي والثانوي .
٧ ـ أحمد برغش : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
٨ ـ اللواء إدريس بن عمر علامي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
٩ ـ أحمد ماجد بن جلون : وزيراً للشؤون الإدارية .
١٠ ـ معطي جوريو : وزيراً للزراعة .
١١ ـ محمد برنوسي : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .
١٢ ـ عبد المجيد بلماحي : وزيراً للصحة العامة .
١٣ ـ أرسلان الجديدي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية ، والشباب والرياضة .
١٤ ـ عبد القادر صحراوي : وزيراً للإعلام .
١٥ ـ محمد بن علي شفيق : سكرتير دولة ثان للثقافة ، والتعليم العالي ، والثانوي ، والتدريب التخصصي .
=

وفي ٦ محرم ١٣٩٢هـ (٢ شباط ١٩٧٢م) أعلن الحسن الثاني دستوراً جديداً ، وطرحه للاستفتاء في ١٨ محرم ١٣٩٢هـ (٣ آذار ١٩٧٢م) ، فحصل على تأييد ٩٨,٧٥٪ ، غير أن الاستفتاء لا يدلّ على حقيقة ، حيث ليس هو إلّا خديعة براقة لكسب الصفة الشرعية ، وقد شجبت المعارضة هذا الدستور ، وكانت تتمثّل المعارضة في حزب الاستقلال ، واتحاد القوى الشعبية ، والحزب الشيوعي .

وفي ٢٨ صفر ١٣٩٢هـ (١٢ نيسان ١٩٧٢م) أعاد محمد كريم العمراني تشكيل الحكومة[1] .

= وفي ١٩ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ (١١ آب ١٩٧١م) تمّ تعيين :

محمد المدغري : سكرتير دولة ثان للمالية .

عبد العزيز بن جلون : سكرتير دولة ثان للتجارة والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .

عبد الكامل رحراحي : سكرتير دولة ثان للسياحة .

وكُلّف رئيس الوزراء بالإشراف على التخطيط ، والشؤون الاقتصادية ، والسياحة .

وكُلّف وزير الداخلية بالإشراف على الإسكان ، والصناعات اليدوية ،

وكُلّف وزير الدفاع الوطني بشؤون المحاربين القدماء .

وكُلّف وزير الزراعة بالتنمية الوطنية .

وفي ١٤ رجب ١٣٩١هـ (٤ أيلول ١٩٧١م) تمّ تعيين :

مصطفى فارس : سكرتير دولة للمالية .

(١) كان تشكيل الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ محمد كريم العمراني : رئيساً للوزراء .

٢ ـ محمد باحنيني : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للعدل ، سكرتيراً عاماً للحكومة .

٣ ـ اللواء محمد أوفقير : وزيراً للدفاع الوطني ، القائد العام للقوات الحربية الملكية .

٤ ـ محمد بن هيمة : وزيراً للداخلية .

٥ ـ عبد اللطيف فلالي : وزيراً للشؤون الخارجية .

٦ ـ الحبيب الفهري : وزيراً للثقافة ، والتعليم العالي والثانوي .

٧ ـ أحمد برغش : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .

٨ ـ اللواء إدريس بن عمر علامي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف . =

الهجوم على الملك الحسن الثاني : سافر الملك إلى باريس بزيارةٍ رسميةٍ بدعوةٍ من رئيس الجمهورية الفرنسية في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ (٦ آب ١٩٧٢م) ، وكان سفره بحراً من طنجة ، وكان في وداعه اللواء محمد أوفقير ، وانتهت الزيارة ، ورجع إلى وطنه في ٧ رجب عام ١٣٩٢هـ (١٦ آب ١٩٧٢م) ، وفي طريق العودة جوّاً ، وفي سماء (تطوان) ؛ انقضّت على طائرة الملك « البوينغ » طائرت الفانتوم التي انطلقت من قاعدة (القنيطرة) بحجّة حماية الطائرة الملكية ، وأطلقت قذائفها على « البوينغ » ، وأفرغت ما

= ٩ ـ أحمد ماجد بن جلون : وزيراً للشؤون الإدارية .
١٠ ـ مصطفى جوريو : وزيراً للزراعة .
١١ ـ عبد الرحمن الكوهن : وزيراً للسياحة .
١٢ ـ عبد الرحمن تهامي : وزيراً للصحة العامة .
١٣ ـ أرسلان الجديدي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية ، والشباب والرياضة .
١٤ ـ عبد القادر صحراوي : وزيراً للإعلام .
١٥ ـ محمد حدو شيكر : وزير التعليم الابتدائي .
١٦ ـ مصطفى فارس : وزير المالية .
١٧ ـ عبد العزيز بن جلون : وزير التجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
١٨ ـ حسن زاسوري : وزير الإسكان والبيئة .
١٩ ـ محمد بن علي شفيق : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء .
٢٠ ـ عبد اللطيف إيماني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالتخطيط وتطوير المناطق .
٢١ ـ عبد الله الفاسي فهري : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون الاقتصادية .
٢٢ ـ عبد الله غرنيط : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالتنمية الوطنية .
٢٣ ـ عبيس قيسي : سكرتير دولة ثان للداخلية .
ويكلف رئيس مجلس الوزراء بالتخطيط ، وتطوير المناطق ، وتهيئة العناصر ، والشؤون الاقتصادية ، والتنمية الوطنية .
وفي ١٠ ربيع الثاني ١٣٩٢هـ (٢٣ أيار ١٩٧٢م) أُعفي عبد اللطيف فلالي من وزارة الشؤون الخارجية ، وأُسندت إلى أحمد طيبي بن هيمة .

لديها من ذخيرة ، حتى نفدت من طائرة فوزي ، ومن طائرة بوخالدي ، أما اللواء « كويرة »[1] قائد الهجوم فقد اختلّ مدفع طائرته ، واضطرّ أن يلقي نفسه بالمظلّة ، وقُبض عليه ، ورفضت الشرطة التي قبضت عليه أن تسلّمه للواء محمد أوفقير رغم إلحاحه الشديد . أما محمد أمقران فقد انتقل بطائرةٍ عموديةٍ إلى جبل طارق ، وألقت السلطات البريطانية هناك القبض عليه ، وحقّقت معه ، واعترف أن قائد التمرّد هو اللواء محمد أوفقير . واستطاع قائد الطائرة الملكية أن يصل إلى مطار (سلا ـ الرباط) سالماً ، ولما رأى المتمرِّدون أن الملك قد خرج من الطائرة سليماً ، قاموا بالهجوم على المطار لمدة ساعة ، كما هاجموا القصر الملكي ، ولكن فشل تمرّدهم ، وقُبض على قادتهم ، وقد انتحر اللواء محمد أوفقير ، ورفض مقابلة الملك رغم استدعائه عدّة مرات . وسرت الشائعات أن طائرة الملك قد أصيبت إصاباتٍ خطيرةٍ ، وأن الذي أنقذها بعد عناية الله استعمال الملك للمذياع الموجود في الطائرة ، وإعلانه للمطاردين أنه الميكانيكي ، وأخبرهم أن الملك قد جُرح جروحاً خطيرة ، وهو مثخنٌ بها ، وأن ملاحي الطائرة قتلا . والواقع أن الذخيرة قد نفدت ، ومدفع اللواء كويرة قد اختلّ ولم يعد صالحاً للرمي ، وهذا ما أوقف قذف الطائرة الملكية .

وجّه الملك رسالة في ١٥ شعبان ١٣٩٢هـ (٢٣ أيلول ١٩٧٢م) إلى الأحزاب الآتية : حزب الاستقلال، والاتحاد الوطني للقوى الشعبية ، والدستور الديمقراطي ، والحركة الشعبية الديمقراطية في محاولاتٍ لتطويق الاتجاهات اليسارية غير الوطنية .

وفي ١٤ شوال ١٣٩٢هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٢م) عهد الملك

---

(١) كان اللواء كويرة قد عُيِّن قائداً لقاعدة القنيطرة الجوية العسكرية قبل سفر الملك بدقائق بناء على إلحاح اللواء محمد أوفقير ، وكان توقيع الملك على أمر التعيين آخر ما وقعه قبل سفره .
وظهر أن التخطيط لهذه العملية كان منذ يوم ٣ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ (١٤ تموز ١٩٧٢م) .

الحسن الثاني إلى أحمد عثمان بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] .

---

(١) شكّل أحمد عثمان حكومته على النحو الآتي :
١ ـ أحمد عثمان : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد باحنيني : وزيراً للدولة .
٣ ـ بشير بن عباس تعرجي : وزيراً للعدل .
٤ ـ محمد طيبي بن هيمة : وزيراً للداخلية .
٥ ـ أحمد طيبي بن هيمة : وزيراً للشؤون الخارجية .
٦ ـ غصوص بن سالم : وزيراً للمالية .
٧ ـ محمد حدو شيكر : وزير التعليم الوطني .
٨ ـ اللواء إدريس بن عمر علامي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
٩ ـ أحمد مجيد بن جلون : وزيراً للإعلام .
١٠ ـ حسن زاسوري : وزيراً للإسكان والبيئة .
١١ ـ محمد أرسلان الجديدي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية ، والشباب والرياضة .
١٢ ـ عبد الرحمن تهامي : وزيراً للصحة العامة .
١٣ ـ محمد مكي الناصري : وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ، والثقافة .
١٤ ـ عبد الرحمن الكوهن : وزير السياحة .
١٥ ـ عباس القيسي : وزير الشؤون الإدارية ، وسكرتير عام للحكومة .
١٦ ـ عبد السلام برادة : وزير الزراعة .
١٧ ـ عبد القادر بن سليمان : وزير التجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
١٨ ـ صلاح مزيلي : وزير الأشغال العامة والمواصلات .
١٩ ـ عبد اللطيف إيماني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتخطيط ، وتطوير المناطق ، وتهيئة الاخصائيين .
٢٠ ـ عبد الله غرنيط : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتنمية الوطنية .
٢١ ـ عبد الكريم حليم : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتعليم العالي .
٢٢ ـ محمد بوعامود : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتعليم الثانوي والابتدائي .
٢٣ ـ منير دوكالي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشباب والرياضة .
وفي ٩ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ (١١ أيار ١٩٧٣م) أنهيت خدمات :
محمد طيبي بن هيمة : وزير الداخلية .
ومحمد حدو شيكر : وزير التعليم الوطني .
=

= وفي الوقت نفسه عُيِّن :
محمد حدو شيكر : وزيراً للداخلية .
ولد سيدي بابا : وزيراً للتعليم الوطني .
وفي ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ (١٤ أيار ١٩٧٣م) أُنهيت خدمة عباس القيسي : وزير الشؤون الإدارية ، وسكرتير عام الكومة ، وعين مكانه محمد بن يخلف .
وفي ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (٢٥ نيسان ١٩٧٤م) جرى تعديل وزاري عام ، فكان على النحو الآتي :
١ ـ أحمد عثمان : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد باحنيني : وزير دولة مكلف بالشؤون الثقافية .
٣ ـ أحمد العراقي : وزير دولة مكلف بالشؤون الخارجية .
٤ ـ محمد طيبي بن هيمة : وزير دولة مكلف بتهيئة الاخصائيين والتنسيق .
٥ ـ أحمد طيبي بن هيمة : وزير دولة مكلف بالإعلام .
٦ ـ عباس القيسي : وزيراً للعدل .
٧ ـ محمد حدو شيكر : وزيراً للداخلية .
٨ ـ اللواء إدريس بن عمر علامي : وزيراً للبريد والبرق والهاتف .
٩ ـ عبد القادر بن سليمان : وزيراً للمالية .
١٠ ـ حسن زاسوري : وزيراً للسياحة والإسكان والبيئة .
١١ ـ أحمد رمزي : وزيراً للصحة العامة .
١٢ ـ ولد سيدي بابا : وزيراً للشؤون الإسلامية والأوقاف .
١٣ ـ محمد بن يخلف : وزير الشؤون الإداري ، وسكرتير عام للحكومة .
١٤ ـ أحمد التازي : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .
١٥ ـ عبد اللطيف غساسي : وزير التجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .
١٦ ـ صلاح مزيلي : وزير الزراعة .
١٧ ـ عبد اللطيف بن جليل : وزيراً للتعليم العالي .
١٨ ـ محمد بوعامود : وزيراً للتعليم الثانوي والابتدائي .
١٩ ـ محمد العربي الخطابي : وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل .
٢٠ ـ عبد الله غرنيط : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالصناعات اليدوية .
٢١ ـ عبد الكامل رحراحي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالمالية .
٢٢ ـ عبد السلام زنيند : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون العامة . =

وقد ساهمت المغرب في الحرب الدائرة في المشرق الإسلامي بين بعض الدول العربية وبين اليهود الذين اغتصبوا فلسطين ، وقد أرسلت المغرب قطعاتٍ من قواته المسلّحة إلى الشام ، ورابطت في الجولان في سوريا ، وقاتلت في الحرب التي اندلعت يوم ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧٣م)، وأبدت بطولاتٍ رائعةٍ، وطلبت مصر من المغرب إرسال بعض قطعاتٍ عسكريةٍ من قواتها لدعم الجبهة المصرية ، وقد وافقت المغرب على هذا الطلب غير أن اندلاع الحرب قد أوقف تحرّك تلك القطعات إذ فات الأوان للإفادة منها وقد توقّف إطلاق النار بين الفريقين المتحاربين .

وفي ٢٧ شوال ١٣٩٧هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٧٧م) قدّم أحمد عثمان

= ٢٣ ـ محمد بلخياط : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون الاقتصادية .

٢٤ ـ طيب بن شيخ : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالتخطيط وتنمية المناطق .

٢٥ ـ إدريس بصري : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للداخلية .

٢٦ ـ محمد محجوبي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للإعلام .

٢٧ ـ حسن لوقاش : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الإسلامية والأوقاف .

٢٨ ـ موسى سعدي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للتجارة ، والصناعة ، والموارد المعدنية ، والتجارة البحرية .

وفي ٦ جمادى الأولى ١٣٩٤هـ (٢٧ أيار ١٩٧٤م) تمّ تعيين :

محمد طاهري جوطي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشباب والرياضة .

وفي ٦ شعبان ١٣٩٤هـ (٢٤ آب ١٩٧٤م) عُيِّن :

أحمد شرقاوي : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الخارجية .

وفي ٣ ذي الحجة ١٣٩٤هـ (١٧ كانون الأول ١٩٧٤م) أُضيف إلى عبد السلام زنيند الشؤون الصحراوية .

وفي ١ ربيع الأول ١٣٩٥هـ (١٣ آذار ١٩٧٥م) أُنهيت خدمات أحمد رمزي من وزارة الصحة العمومية .

استقالة حكومته إلى الملك الحسن الثاني ، فعهد إليه بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] .

---

(١) شكّل أحمد عثمان حكومته على النحو الآتي :

١ ـ أحمد عثمان : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد بوستة : وزير دولة مكلف بالشؤون الخارجية والتنسيق .
٣ ـ محجوبي أحرضان : وزير دولة مكلف بالبريد والبرق والهاتف .
٤ ـ محمد باحنيني : وزير دولة مكلف بالشؤون الثقافية .
٥ ـ محمد طيبي بن هيمة : وزير دولة مكلف بالشؤون الداخلية .
٦ ـ معطي بوعبيد : وزيراً للعدل .
٧ ـ محمد الدويري : وزيراً للتنمية الوطنية .
٨ ـ عبد اللطيف غيساسي : وزيراً للمالية .
٩ ـ مصطفى فارس : وزيراً للزراعة والتطوير الزراعي .
١٠ ـ محمد العربي الخطابي : وزيراً للإعلام .
١١ ـ أحمد رمزي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
١٢ ـ محمد بوعمود : وزيراً للعمل والتعليم الاختصاصي .
١٣ ـ محمد بن يخلف : وزيراً للشؤون الإدارية .
١٤ ـ محمد حدو شيكر : وزيراً مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
١٥ ـ عز الدين العراقي : وزيراً للتعليم الوطني وتهيئة الاخصائيين .
١٦ ـ عبد الحفيظ القادري : وزيراً للشباب والرياضة .
١٧ ـ عباس الفاسي : وزيراً للإسكان .
١٨ ـ عبد الله غرنيط : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٩ ـ مهند العنصر : وزيراً للنقل .
٢٠ ـ عبد الكامل رحراحي : وزيراً للتجارة والصناعة .
٢١ ـ رحّال رحّالي : وزيراً للصحة العامة .
٢٢ ـ موسى سعدي : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية .
٢٣ ـ منصوري بن علي : وزيراً للسياحة .
٢٤ ـ طيب بن شيخ : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالتخطيط وتنمية المناطق .
٢٥ ـ إدريس بصري : سكرتير دولة للداخلية .
٢٦ ـ عبد السلام زنيند : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون العامة . =

وفي ٣٠ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (٢٩ آذار ١٩٧٩م) عهد الملك الحسن الثاني إلى معاطي بوعبيد بتشكل حكومةٍ جديدةٍ(١) .

= ٢٧ ـ عثمان سليماني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالشؤون الاقتصادية .
٢٨ ـ عبد الرحمن باردو : سكرتير دولة للشؤون الخارجية .
٢٩ ـ سيد بلبشير : سكرتير دولة للتعليم العالي والبحث العلمي .
٣٠ ـ عبد الحق تازي : سكرتير دولة لتهيئة الإخصائيين .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ معاطي بوعبيد : رئيساً للوزراء ، ووزيراً للعدل .
٢ ـ محمد بوستة : وزير دولة مكلف بالشؤون الخارجية والتضامن .
٣ ـ محجوبي أحرضان : وزير دولة مكلف بالبريد والاتصالات .
٤ ـ محمد باحنيني : وزير دولة مكلف بالشؤون الثقافية .
٥ ـ عبد الكامل رحراحي : وزيراً للمالية .
٦ ـ محمد أرسلان الجديدي : وزير التوظيف والتثقيف المهني .
٧ ـ محمد الدويري : وزيراً للتنمية الوطنية .
٨ ـ إدريس البصري : وزيراً للداخلية .
٩ ـ عبد اللطيف غساسي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٠ ـ عبد الواحد بلقزيز : وزيراً للإعلام .
١١ ـ أحمد رمزي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
١٢ ـ عبد الله غرنيط : وزيراً للشؤون الاجتماعية والحرفية .
١٣ ـ منصور بن علي : وزيراً للشؤون الإدارية .
١٤ ـ محمد حدو شيكر : وزيراً مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
١٥ ـ عز الدين العراقي : وزيراً للتعليم الوطني والتثقيف الإداري .
١٦ ـ عبد اللطيف خضيري : وزيراً للشباب والرياضة .
١٧ ـ عباس الفاسي : وزيراً للإسكان وتهيئة الأقاليم .
١٨ ـ محمد ناصور : وزيراً للمواصلات .
١٩ ـ رحّال رحّالي : وزيراً للصحة الوطنية .
٢٠ ـ عز الدين غصوص : وزيراً للتجارة والصناعة .
٢١ ـ عبد السلام زنيند : وزيراً للسياحة .
٢٢ ـ موسى سعدي : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية .
٢٣ ـ عبد اللطيف جواهري : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء .
٢٤ ـ طيب بن شيخ : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلف بالتخطيط وتنمية =

وفي ٧ محرم ١٤٠٢هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٨١م) عهد الملك الحسن الثاني إلى معاطي بوعبيد بإعادة تشكيل الوزارة[١] .

= الأقاليم .

٢٥ ـ عبد الرحمن بـادو : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء .

٢٦ ـ سيد بلبشير : سكرتير دولة للتعليم العالي والبحث العلمي .

٢٧ ـ خالي حنا ولد الرشيد : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الصحراوية .

٢٨ ـ عبد الحق تازي : سكرتير دولة للتثقيف الإداري .

وفي ٩ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ (٢٥ شباط ١٩٨٠م) أُنهيت خدمة عبد السلام زنيند وزير السياحة وعُيّن أحمد علوي مكانه كوزير دولة مكلف بالسياحة .

(١) شكّل معاطي بوعبيد الوزارة الثانية على النحو الآتي :

١ ـ معاطي بوعبيد : رئيساً للوزراء ، ووزيراً للعدل .

٢ ـ محمد بوستة : وزير دولة مكلف بالشؤون الخارجية .

٣ ـ محجوبي أحرضان : وزير دولة مكلف بالتضامن .

٤ ـ محمد باحنيني : وزير دولة .

٥ ـ أحمد علوي : وزير دولة .

٦ ـ محمد أرسلان الجديدي : وزيراً للتنمية الوطنية والتوظيف .

٧ ـ محمد الدويري : وزيراً للتخطيط والتثقيف الإداري والمهني .

٨ ـ إدريس البصري : وزيراً للداخلية .

٩ ـ مصطفى بلعربي علوي : وزيراً للعدل .

١٠ ـ عبد الواحد بلقزيز : وزيراً للإعلام والشباب والرياضة .

١١ ـ هاشم فلالي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .

١٢ ـ عبد اللطيف سملالي : سكرتير دولة للشباب والرياضة .

١٣ ـ منصور بن علي : وزيراً للنقل .

١٤ ـ عبد الكريم غلّاب : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء .

١٥ ـ عز الدين العراقي : وزيراً للتعليم الوطني.

١٦ ـ عبد اللطيف جواهري : وزيراً للمالية .

١٧ ـ عباس الفاسي : وزيراً للشؤون الاجتماعية والحرفية .

١٨ ـ عثمان ديمناطي : وزيراً للزراعة .

١٩ ـ رحّال رحّالي : وزيراً للصحة العامة .

٢٠ ـ عز الدين غصوص : وزيراً للتجارة والصناعة والسياحة . =

وفي ٢٥ صفر ١٤٠٤هـ (٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٣م) عهد الملك الحسن الثاني إلى محمد كريم العمراني بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١] .

---

٢١ ـ محمد قياج : وزيراً للتجهيزات .
٢٢ ـ موسى سعدي : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية ،
٢٣ ـ صميلي بن سالم : وزيراً للصيد البحري والتجارة البحرية .
٢٤ ـ سيد بلبشير : وزيراً للشؤون الثقافية .
٢٥ ـ خالي حنا ولد الرشيد : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الصحراوية .
٢٦ ـ عبد الحق تازي : سكرتير دولة للشؤون الخارجية .
٢٧ ـ المفضل الحلو : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
٢٨ ـ عباس القيسي : سكرتير عام للحكومة .
٢٩ ـ مهند النصير : وزيراً للبريد والاتصالات .
٣٠ ـ أحمد بلحاج : وزيراً مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
٣١ ـ محمد طوخاني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الإدارية .
٣٢ ـ عبد اللطيف حجاجي : سكرتير دولة للإسكان وتطوير الأقاليم .

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :
١ ـ محمد كريم العمراني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ معاطي بوعبيد : وزير دولة .
٣ ـ محجوبي أحرضان : وزير دولة .
٤ ـ محمد باحنيني : وزير دولة .
٥ ـ عبد الرحيم بو عبيد : وزير دولة .
٦ ـ محمد أرسلان الجديدي : وزير دولة .
٧ ـ أحمد عثمان : وزير دولة .
٨ ـ مولاي أحمد العلوي : وزير دولة .
٩ ـ محمد الدويري : وزيراً للتخطيط والتثقيف الإداري والمهني .
١٠ ـ إدريس البصري : وزيراً للداخلية .
١١ ـ مولاي مصطفى بلعربي العلوي : وزيراً للعدل .
١٢ ـ عبد الواحد بلقزيز : وزيراً للشؤون الخارجية .
١٣ ـ هاشم فلالي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
١٤ ـ عبد اللطيف فلالي : وزيراً للإعلام .
١٥ ـ منصور بن علي : وزيراً للنقل .
=

. . . .

١٦ ـ سيد بلبشير : وزيراً للشؤون الثقافية .
١٧ ـ عز الدين العراقي : وزيراً للتعليم الوطني .
١٨ ـ عبد اللطيف جواهري : وزيراً للمالية .
١٩ ـ عباس الفاسي : وزيراً للشؤون الاجتماعية والحرفية .
٢٠ ـ محمد قباج : وزيراً للتجهيزات .
٢١ ـ عبد اللطيف سملالي : وزيراً للشباب والرياضة .
٢٢ ـ عز الدين غصوص : وزيراً للتجارة والصناعة .
٢٣ ـ صميلي بن سالم : وزيراً للصيد البحري والتجارة البحرية .
٢٤ ـ موسى سعدي : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية .
٢٥ ـ المفضل الحلو : وزيراً للإسكان وتطوير الأقاليم .
٢٦ ـ طيب بن شيخ : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الثقافية .
٢٧ ـ عباس قيسي : سكرتير عام للحكومة .
٢٨ ـ مولاي زين زاهدي : وزيراً للتوظيف والتنمية الوطنية .
٢٩ ـ خالي حنا ولد الرشيد : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء للشؤون الصحراوية .
٣٠ ـ عبد الحق تازي : سكرتير دولة للشؤون الخارجية .
٣١ ـ أحمد بلحاج : وزيراً مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
٣٢ ـ مهند النصير : وزيراً للبريد والاتصالات .
٣٣ ـ محمد طوخاني : سكرتير دولة عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الإدارية .
٣٤ ـ عبد اللطيف حجاجي : سكرتير دولة للإسكان وتطوير المناطق .
٣٥ ـ عبد الواحد راضي : وزيراً مكلفاً بالتضامن .
٣٦ ـ عثمان ديمناطي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٣٧ ـ عبد الكريم غلاب : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء .

وفي ٢٢ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ (٢٣ شباط ١٩٨٤م) تمّ تعيين .

عبد الكبير مدغري : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .

وفي ٢٩ رمضان ١٤٠٤هـ (٢٧ حزيران ١٩٨٤م) تمّت تسمية :

محمد قباج : وزيراً للتجهيزات والتثقيف المهني .

عبد الحق تازي : وزيراً للتخطيط .

وإنهاء خدمة : محمد دويري : وزير التخطيط والتثقيف الإداري والمهني .

عبد الحق تازي : سكرتير دولة للشؤون الخارجية .

وفي ٤ صفر ١٤٠٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٤م) أُنهيت خدمة :

وفي ٢١ رجب ١٤٠٥هـ (١١ نيسان ١٩٨٥م) طلب الملك من محمد كريم العمراني إعادة تشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١] .

= أحمد بلحاج : وزير مكلف بالعلاقات مع المجلس النيابي .
عباس القيسي : سكرتير عام للحكومة ، وقد كلّف بتنظيم العلاقات بين الحكومة وغرفة الممثلين .
وفي ٢٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ (١٨ شباط ١٩٨٥م) أُنهيت خدمة :
عبد الواحد بلقزيز : وزير الشؤون الخارجية ، وعُيّن مكانه عبد اللطيف فلالي .

(١) شكّل محمد كريم العمراني وزارته على النحو الآتي :
١ ـ محمد كريم العمراني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد باحنيني : وزيراً للدولة .
٣ ـ مولاي أحمد العلوي : وزيراً للدولة .
٤ ـ مولاي مصطفى بلعربي العلوي : وزيراً للعدل .
٥ ـ عبد اللطيف فلالي : وزيراً للشؤون الخارجية ، والتضامن ، والإعلام .
٦ ـ إدريس بصري : وزيراً للداخلية .
٧ ـ عز الدين العراقي : وزيراً للتعليم الوطني .
٨ ـ طيب بن شيخ : وزيراً للصحة العامة .
٩ ـ عبد اللطيف جواهري : وزيراً للمالية .
١٠ ـ عز الدين غصوص : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء ومكلفاً بالعلاقات مع المجموعة الاقتصادية الأوربية .
١١ ـ موسى سعدي : وزيراً للسياحة .
١٢ ـ صميلي بن سالم : وزيراً للصيد البحري ، والتجارة البحرية .
١٣ ـ محمد قباج : وزيراً للتجهيزات ، والتثقيف الإداري والمهني .
١٤ ـ محمد بوعمود : وزيراً للمواصلات .
١٥ ـ مهند النصير : وزيرا للبريد والاتصالات .
١٦ ـ عثمان دمناطي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٧ ـ عبد اللطيف سملالي : وزيراً للشباب والرياضة .
١٨ ـ مولاي زين زاهدي : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء ومكلفاً بالشؤون الاقتصادية .
١٩ ـ عبد الكبير مدغري علاوي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
٢٠ ـ رشيدي الرهزواني : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالتخطيط . =

٢١ ـ خالي حنا ولد الرشيد : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الصحراوية .
٢٢ ـ محمد عبيد : وزيراً للشؤون الاجتماعية والحرفية .
٢٣ ـ محمد فتاح : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية .
٢٤ ـ طاهر مصمودي : وزيراً للتجارة والصناعة .
٢٥ ـ محمد بن عيسى : وزيراً للشؤون الثقافية .
٢٦ ـ عبد الرحمن بوفتاس : وزيراً للإسكان .
٢٧ ـ حسن عبادي : وزيراً للتوظيف .
٢٨ ـ طاهر عفيفي : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
٢٩ ـ عبد الرحيم عبد الجليل : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء ، مكلفاً بالشؤون الإدارية .

وفي ٢٧ محرم ١٤٠٦هـ (١١ تشرين الأول ١٩٨٥م) عُيِّن :
مولاي أحمد الشرقاوي : سكرتير دولة للشؤون الخارجية .

وفي ٣ ربيع الأول ١٤٠٦هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٨٥م) أخذت وزارة الإعلام من عبد اللطيف فلالي ، واحتفظ بوزارة الشؤون الخارجية والتضامن ، وأسندت وزارة الإعلام إلى إدريس بصري إلى جانب حقيبة وزارة الداخلية التي يحملها .

وفي ٢ رجب ١٤٠٦هـ (١٢ آذار ١٩٨٦م) عُيِّن عز الدين العراقي وزير التعليم الوطني نائباً لرئيس الوزراء .

وفي ٢٨ رجب ١٤٠٦هـ (٧ نيسان ١٩٨٦م) أُنهيت خدمة عبد اللطيف جواهري من وزارة المالية ، وأُسندت هذه الوزارة إلى محمد برادي .

وفي ٢٦ محرم ١٤٠٧هـ (٣٠ أيلول ١٩٨٦م) أنهيت خدمة رئيس الوزراء محمد كريم العمراني ، وتسلم رئاسة الوزراء مكانه نائبه عز الدين العراقي الذي ترك وزارة التعليم الوطني إلى محمد هلالي .

وفي الوقت نفسه عُيِّن محمد سقاط سكرتير دولة للشؤون الخارجية ومكلفاً بالعلاقات مع المجموعة الاقتصادية الأوربية .

وفي ١٦ محرم ١٤٠٨هـ (٩ أيلول ١٩٨٧م) أُنهيت خدمة كل من :
طاهر مصمودي : وزير التجارة والصناعة ، وأُسندت الوزارة إلى عبد الله عزماني .
وطاهر عفيفي : الوزير المفوض عند رئيس مجلس الوزراء للعلاقات مع المجلس النيابي ، وأُسندت هذه الوزارة إلى عبد السلام بركة .

وفي ١٦ شوّال ١٤٠٨هـ (١ حزيران ١٩٨٨م) طلب الملك الحسن الثاني من رئيس الوزراء عز الدين العراقي إدخال تعديل على وزارته ؛ ففعل[١] .

تحسّنت علاقات المغرب مع دول بلاد المغرب الأخرى. ففي شهر

---

(١) أصبحت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عز الدين العراقي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ محمد باحنيني : وزيراً للدولة .
٣ ـ مولاي أحمد العلوي : وزيراً للدولة .
٤ ـ مولاي مصطفى بلعربي العلوي : وزيراً للعدل .
٥ ـ عبد اللطيف فلالي : وزيراً للشؤون الخارجية ، والتضامن .
٦ ـ إدريس بصري : وزيراً للداخلية ، والإعلام .
٧ ـ محمد هلالي : وزيراً للتعليم الوطني .
٨ ـ طيب بن شيخ : وزيراً للصحة العامة .
٩ ـ محمد برادي : وزيراً للمالية .
١٠ ـ عباس القيسي : سكرتير عام للحكومة .
١١ ـ موسى سعدي : وزيراً للسياحة .
١٢ ـ صميلي بن سالم : وزيراً للصيد البحري ، والتجارة البحرية .
١٣ ـ محمد قباج : وزيراً للتجهيزات ، والتثقيف الإداري والمهني .
١٤ ـ محمد بوعمود : وزيراً للنقل .
١٥ ـ مهند النصير : وزيراً للبريد والاتصالات .
١٦ ـ عثمان دمناطي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٧ ـ عبد اللطيف سملالي : وزيراً للشباب والرياضة .
١٨ ـ مولاي زين زاهدي : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء ومكلفاً بالشؤون الاقتصادية .
١٩ ـ عبد الكبير مدغري علاوي : وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية .
٢٠ ـ رشيدي الغزواني : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالتخطيط .
٢١ ـ خالي حنا ولد الرشيد : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الصحراوية .
٢٢ ـ محمد عبيد : وزيراً للشؤون الاجتماعية والحرفية .
٢٣ ـ محمد فتاح : وزيراً للطاقة والموارد المعدنية .

رمضان ١٤٠٨هـ (أيار ١٩٨٨م) وافقت كل من المغرب والجزائر على إقامة علاقات سياسية بين الدولتين.

استؤنفت العلاقات بين المغرب وموريتانيا في رجب ١٤٠٥هـ (نيسان ١٩٨٥م) وكانت قد قطعت عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

اجتمع رؤساء دول المغرب العربي (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب - موريتانيا) في مراكش في رجب ١٤٠٩هـ (شباط ١٩٨٩م)، ووقعوا معاهدة لإقامة اتحاد المغرب العربي، وتهدف إلى تسهيل التجارة بين هذه الدول.

وبعد عام (١٤١٠هـ) وُقّعت اتفاقيات جانبية فردية للتعاون الاقتصادي بين كل من ليبيا، والجزائر، والمغرب.

كانت هناك خلافات سياسية داخل الاتحاد مثل دعم الجزائر لجبهة البوليساريو، وشجب المغرب لغزو العراق للكويت. لكن العلاقات عادت فتحسنت بين المغرب والجزائر في منتصف عام ١٤١٢هـ (أوائل عام ١٩٩٢م) إثر استلام محمد بوضياف رئاسة المجلس الأعلى للدولة في الجزائر. ومع ذلك كانت العلاقات بين الدولتين بين مدٍّ وجزرٍ.

= ٢٤ - عبد الله عزماني : وزيراً للتجارة والصناعة .
٢٥ - محمد بن عيسى : وزيراً للشؤون الثقافية .
٢٦ - عبد الرحمن بوفطاس : وزيراً للإسكان .
٢٧ - حسن عبادي : وزيراً للتوظيف .
٢٨ - عبد السلام بركة : وزيراً مكلفاً بالعلاقات مع المجلس النيابي .
٢٩ - عبد الرحيم عبد الجليل : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء مكلفاً بالشؤون الإدارية .
٣٠ - محمد سقاط : وزيراً مفوضاً عند رئيس مجلس الوزراء ومكلفاً بالعلاقات مع المجموعة الاقتصادية الأوربية .

توقّفت لقاءات رؤساء دول اتحاد المغرب العربي، ولم يطبق من بنود المعاهدات الخمس عشرة شيء.

وفي أوائل جمادى الآخرة ١٤١٦هـ (تشرين الأول والثاني ١٩٩٥م) رعى الملك الحسن الثاني ملك المغرب أول قمة شرق أوسطية وشمالي إفريقية في الدار البيضاء شملت موضوعات منها أسلوب تمويل مصرف إقليمي جديد للشرق الأوسط.

بعد غزو العراق للكويت في مطلع عام ١٤١١هـ (آب ١٩٩٠م) شجبت المغرب هذا الغزو، وأعلنت أنها ستقوم بإرسال قوةٍ لمساندة المملكة العربية السعودية ضدّ أي عدوان محتمل. وفي جمادى الأولى ١٤١١هـ (كانون أول ١٩٩٠م) وصل ألف وخمسمائة جندي مغربي إلى المملكة العربية السعودية للعمل ضمن التحالف الدولي المتعدد الجنسيات لإجبار العراق للانسحاب من الكويت.

وقامت مظاهرات مؤيّدة للعراق، وأظهرت الحكومة بشكل غير مباشرٍ دعم ذلك. وفي منتصف رجب ١٤١١هـ (أوائل شباط ١٩٩١م) قامت مظاهرات تدعو إلى انسحاب الكتيبة المغربية من القوة الدولية المتعددة الجنسيات. وتجاهلت الحكومة المغربية ذلك، وأعلنت أن الكتيبة للدفاع عن المملكة العربية السعودية، وليست موجهة للقتال ضد العراق.

وفي ربيع ١٤١٤هـ (أيلول ١٩٩٣م) قام رئيس وزراء الكيان اليهودي بزيارة للرباط إشارةً إلى تحسّن العلاقات بين الدولتين، وعن الدور الذي لعبه الملك الحسن الثاني في عملية السلام في الشرق الأوسط. وبعد عام فتحت مكاتب ارتباط في تل أبيب والرباط، وفي جمادى الآخرة ١٤١٤هـ (تشرين الثاني ١٩٩٣م) افتتح شمعون بيريز رئيس وزراء الكيان اليهودي المكتب في الرباط. ثم أقيمت علاقات سياسية بين الدولتين في شوال ١٤١٥ هـ (آذار ١٩٩٥م).

الفصل الثالث

الصّراعات الدّاخليّة

يُقدّر عدد سكان المغرب عام ١٤١٠هـ بخمسةٍ وعشرين مليوناً ، وتكون الكثافة حوالي خمسين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد ، لأن المساحة العامة تقرب من ٤٤٦,٠٠٠ كيلومتر مربع عدا الصحراء المغربية التي غدت الآن جزءاً منه ، وبذا تصبح المساحة العامة ٦٧٢,٠٠٠ كيلومتر مربع .

وتعدّ الصراعات الداخلية قليلةً بشكلٍ عامٍّ ، وذلك لقلّة المجموعات البشرية ، وقلّةالمجموعات العقدية ، إضافةً إلى سياسة الملك الخاصة التي يمسك فيها بخيوط التجمّعات السياسية كلها، وله قنوات تصل بينه وبينها؛ يحرّكها ، ويعرف مراميها البعيدة ، ويتحرّك من خلال ذلك بحكمةٍ وحنكةٍ .

المجموعات البشرية : يوجد في البلاد مجموعتان رئيسيتان ، وهما : العرب ، والبربر .

١ ـ **العرب** : ويشكّلون ٥٠ ـ ٥٥٪ ، ويقيمون غالباً في المناطق الساحلية ، وقد دخلوا إلى البلاد إبّان الفتح الإسلامي ، ثم مع بني هلال ، إضافةً إلى مراحل متعددةٍ في التاريخ ، فكلما حدثت هزّةٌ في المشرق انطلق إثرها أعدادٌ نحو المغرب ؛ بعداً عن الأجواء السياسية التي ألجأتهم للمغادرة ، وهؤلاء مثل: الأدارسة، والأشراف والسعديين، والأشراف الحسنيين (الحكام اليوم) ، كما أن الصراع الطويل الذي قام بين مسلمي الأندلس ونصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم الفرنجة كان يستدعي أفواجاً من بلاد العرب

وغيرها من الأمصار الإسلامية للارتحال نحو بلاد المغرب للجهاد في سبيل الله ، وزجَّ أنفسهم في أتون ذلك الصراع ، وإن الكثير منهم كان يستقرّ هناك ، وكذلك عندما طُرد المسلمون من الأندلس عام ٨٩٨هـ التحقوا ببلاد المغرب ، وأقاموا فيها على أمل العودة إلى موطنهم الأندلسي ؛ سواء أكان بجهودهم أم بجهود المسلمين الذين لا شكّ ستتحرّك فيهم الحماسة إلى الجهاد .

٢ - البربر : ويشكّلون من ٤٠ - ٤٥٪ من مجموع السكان ، ويقيمون عادةً في المناطق الجبلية ، الريف - الأطلس الأعلى - الأطلس الأوسط ، وقد وُجدوا أساساً في البلاد ، إذ نستطيع أن نعدّهم سكان البلاد الأصليين ، وقد اعتنقوا الإسلام عند وصولهم إليهم، وأسهموا بالفتوحات إلى جانب إخوانهم المسلمين من بقية الشعوب الأخرى ، وخاصةً العرب ، وكان منهم قادةٌ بارزون ؛ ومنذ أن حسن إسلامهم بعد حركات الارتداد التي وقعت في بعض أوساطهم أيام الكاهنة ، وهم لم ينازعوا الأمر أهله ، وإنما كانوا دائماً في صفوف المجاهدين ، وإذا وقعت فتنة ، وأثار النعرة العصبية بعض المغرضين للإفادة من تشتّت الصفوف ، ولا شكّ أنهم سيجدون آذاناً صاغيةً عند العامّة ، وكانت تقع أحداثٌ تدمي لها القلوب ، ولكن لا يلبث العقلاء أن يعودوا إلى رشدهم ، ويوحّدوا الصف الإسلامي ، وكانت سيوف البربر الأساسية في الوقوف بوجه المدّ الصليبي في الأندلس ، وصدّه ، وإلحاق الهزيمة به أيام المرابطين والموحّدين وفيما بعد ذلك، ولا تزال معركة (الزلاّقة) عام ٤٧٩هـ بقيادة أمير المرابطين يوسف ين تاشفين ، ومعركة (الأرك) عام ٥٩١هـ بقيادة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمير الموحّدين ؛ موضع عزٍّ وفخار ، ومثالاً للجهاد . والبربر شعبٌ مسلمٌ مثل بقية الشعوب الإسلامية التي تتألّف منها الأمة الإسلامية ، ويعيش مع إخوانه العرب حياةً واحدةً، وليس معنى هذا أنه لم تحصل محاولاتٌ للتفرقة بين الأخوة، نعم؛ حدثت محاولاتٌ ، وخاصةً أيام الاستعمار ، ووجدت من يستمع لها ، ولكن

لمدةٍ وجيزةٍ وحتى ينتبه الطرفان : العرب والبربر ، ويُقضى على تلك المحاولات ، إذ يشعر كل فريقٍ أن العقيدة هي التي تربط بين الطرفين ، ولا ربط سواها .

ولا ينافس البربر العرب على الحكم ، وإنما يعدّونه حقّاً للعرب ؛ ما دامت الأسرة الحاكمة ترجع في نسبها إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أثره في المغرب ، وعند العامة في كل مكان ، ونرى رجال الحكم يحرصون على التركيز على هذا الموضوع .

أما بقية المجموعات البشرية فهي عقدية وعصبية ، ولا تصل نسبتها مهما بالغ أصحابها بذلك إلى ٥٪ ، وهي المجموعة الأوروبية واليهود .

٣ ـ الأوربيون : وهم سلاح الاستعمار ووسيلته ، وقد حصلوا على أفضل الأراضي ، وأحسن التسهيلات بالتملّك ، والصناعة ، والعمل ، والوظائف ، ولكن نقص عددهم عند الاستقلال فجأة ، إذ رحل منهم عن المغرب أكثر من مائة ألف ، ولا يزيد عددهم اليوم على نصف مليون ، وهو ما يعادل ٢٪ من مجموع السكان ، ويقيمون عادةً في المدن الكبرى ، والموانىء : الدار البيضاء ، والرباط ، وطنجة ، وعلى الرغم من أن معظمهم اليوم من مواليد المغرب التي أصبحت وطنهم، ويحملون جنسيتها إلاّ أن قلوبهم مع أوربا .

يشكّل الفرنسيون ٨٤٪ من مجموع الأوربيين ، ويليهم في العدد الإسبان ، فالألمان . ومع أن نسبة الأوربيين ضئيلة إلاّ أن أثرهم في الحياة العامة ، وفي الصناعة ، والتجارة ، والتعليم ، والمشروعات الزراعية ، وصيد السمك ، والتعدين ، ولكن ينعدم الأثر السياسي لقلّة نسبتهم .

٤ ـ اليهود : وهم مجموعة قليلة ، ويعود بعضهم إلى أصلٍ بربريٍّ اعتنقوا اليهودية قديماً ، ونشأوا في ظلّها ، وتطبّعوا بطباع أهلها ، وجاءت جموعٌ منهم في الأندلس، حيث طُردوا مع المسلمين، فإنه لم يكن لنصارى الإسبان والبرتغاليين ولا غيرهم أن يتحمّلوا تصرّفات اليهود ؛ فأخرجوهم مع

المسلمين الذين صبروا عليهم وعلى أذاهم ، فأقاموا في المغرب في ظلِّ الحياة الإسلامية ، وشعروا بالسعادة ، غير أنهم كانوا يقابلون الأحسان في كل مرّةٍ بالنكران للجميل، فما يأتي مغتصبٌ إلّا ويكونون العون له، وعندما جاء الاستعمار الصليبي كانوا عينه على المسلمين . وقد وصل عددهم عام ١٣٥٥هـ إلى ١٦٢,٠٠٠ يهودي ، ووصل عددهم عام ١٣٧٠هـ إلى ١٩٩,٠٠٠ يهودي رغم مغادرة ٤٠ ألف يهودي إلى فلسطين عام ١٣٦٧هـ ، إذن بقي عددهم كبيراً في المغرب ، حيث كانوا يحلمون بأن يكون أثرهم واضحاً في الحياة السياسية ، وأن تكون المغرب الجسر الذي يعبرون منه إلى بقية الأمصار العربية ، ولما لم يستطيعوا أن يحقّقوا كل ما يريدون اكتفوا بأن يبقى هذا الحلم أملاً يحقّقونه إن سنحت لهم الظروف ؛ سواء أكان ذلك عن طريقهم أم عن طريق غيرهم ، وأخذت جموعٌ منهم تتحرّك نحو فلسطين ، وتركوا حلمهم بأيدٍ ظاهرةٍ على السطح مخفيةٍ من الساحة حتى لم يبقَ منهم في المغرب إلّا ما يقرب من خمسين ألفاً ، ويقيم أكثرهم في الدار البيضاء ، والرباط ، وطنجة ، وفاس ، وأثرهم الاقتصادي محسوسٌ في البلاد .

إذن لا يوجد صراعاتٌ بين المجموعات البشرية .

المجموعات العقدية : والواقع أنه لا توجد سوى مجموعةٍ واحدةٍ هي المسلمون الذين يشكّلون الأكثرية الساحقة من السكان ، وتبلغ نسبتهم من ٩٥٪ ، والواقع ٩٧,٥٪ ، والحقيقة السكان كلهم ، لأن المجموعتين الأخريين وهم النصارى واليهود لا يشعرون أنهم من أهل البلاد رغم أنهم يحملون الجنسية المغربية ، ولا يحسّون أنهم يرتبطون بالبلاد رغم انتمائهم إليها اسمياً ، إذ ترتبط المجموعة الأولى وهي النصرانية بأوربا ، أو الدول التي تعود أصولها إليها ، ويرتبط اليهود حسب مصالحهم أينما وُجدت .

١ ـ المسلمون : وهم سكان البلاد جميعها ، وكلهم من أهل السنة والجماعة ، وعلى مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وقد توجد آثار أفكارٍ

للخوارج في منطقة (تافيللات) ، ولا تكاد تذكر ، بل نستطيع أن نعـدّها مندثرة .

٢ ـ **النصارى** : لا يوجد في المغرب كله أي نصراني من سكان البلاد الأصليين ، وإنما جاؤوا جميعاً مع الاستعمار ، وفي ظلال سيوفه ، وعاشوا في أكنافه، وكانوا عيونه التي يرى فيها ما يتمّ داخل البلاد، وآذانه التي يسمع بها ما يجري ، وهم لسان حالـه ، وصوتـه الناطق ، وكـان تفكير المستعمـرين الصليبيين أن يكون هؤلاء المستوطنون النصـارى في المستقبل الـدعامـة التي يعتمدون عليها في تنفيذ مشروعاتهم ، وتحقيق آمالهم الاستعمارية ، ومصالحهم الاقتصادية . وهؤلاء النصارى أعداء ألداء لكل من يحمل فكراً إسلامياً أو له علاقة باللغة العـربية ، وإن كـانت اللغة العـربية ليست سـوى جانب من الجوانب الإسلامية .

٣ ـ **اليهود** : وقد بقيت نسبتهم ضعيفةً جداً بعد هرب كثيرٍ منهم إلى فلسطين ، ومن بقي منهم فإن علاقته وطيدة مع اليهود الذين اغتصبوا منطقة فلسطين من أرض الشام ، وهم يحقدون على كـل ما يمتّ إلى الإسـلام أو العربية بصلة .

ومن هنا يتبين أنه لا توجد في المغرب صراعاتٌ على أساس عقدي .

الأحزاب السياسية : كان نشوء الأحزاب السياسية في المغرب والتنظيم ردّ فعل لأحداث ، ولعلّ أبرزها :

أ ـ هزيمة محمد عبد الكريم الخطابي في الـريف : فظهـرت إثر ذلـك الرابطة المغربية في ٢٣ محرم ١٣٤٥هـ (٢ آب ١٩٢٦م) حيث تشكّل مكتبٌ يضمّ أحمد بلفريج المكي الناصري ، ومحمد القباج ، ومحمد بنونة . وقد تبينّ لهؤلاء الرجال إثر هزيمة محمد الخطابي أن الحلّ العسكري لم يؤدِّ إلى نتيجة ، لذا لا بدّ من طرح العمل السياسي والتهيئة والتنظيم له ، وفي الوقت نفسـه لم يعترفوا بالتجزئة التي لحقت بالمغرب التي تقاسمها الفرنسيون والإسبان ، وقد ضمّ مكتب الرابطة أعضاء من أقسام المغرب كلها .

ب ـ الظهير البربري : إن إصدار هذا الظهير (المرسوم) قد أحدث اضطراباتٍ أعقبها اعتقالات، وبرزت كتلة العمل الوطني كأول تنظيمٍ سريٍّ في ٢٩ ربيع الأول ١٣٤٩هـ (٢٣ آب ١٩٣٠م) ، وقد ضمّت : علال الفاسي، العربي بوعياد ، الحسن بوعياد ، محمد الدويري ، إدريس برادة ، عبد القادر التازي ، أحمد مكوار ، محمد حسن الوازني ، حمزة الطاهري . وقد قامت على أساس التنظيم الهرمي ، حيث تضمّ الزاوية عشرة أعضاء في البداية ؛ ثم غدت تضمّ عشرين عضواً ، وتليها الطائفة التي تضمّ ستين عضواً ، فلجنة المسافر ، فالمسيرون الذين تتألّف منهم الخلايا ، وقد استعملوا اصطلاح الزاوية حيث هو شائع لدى البربر حرصاً على وحدة الكلمة ، وقد كلّف علال الفاسي ، ومحمد حسن الوازني لوضع القانون الداخلي ، وقد كان همّ الكتلة منصبّاً على كتابة العرائض ، وإصدار الصحف ، ومحاربة الظهير البربري .

جـ ـ قانون إلحاق المغرب بالمستعمرات : عندما سيطرت فرنسا على المغرب فرضت الحماية عليها ، لكن حكومة « دلادير » الفرنسية أصدرت قانوناً في أول ذي القعدة ١٣٥٢هـ (١٤ شباط ١٩٣٤م) ألحقت فيه المغرب بالمستعمرات ، وقد احتجّ السلطان دون أي جدوى ، وهذا ما أدّى إلى زيادة النشاط السياسي والتركيز على التنظيم .

بقيت كتلة العمل الوطني حزباً شبه مغلق لم يقم بأي نشاطات ، وتقوده مجموعة تتألّف من عشرة أعضاء . وعندما وصلت الجبهة الشعبية في فرنسا إلى الحكم عملت على تمزيق كتلة العمل الوطني . وسافر وفدٌ من الكتلة إلى باريس ، يضمّ عمر عبد الجليل ، ومحمد حسن الوازني ، وذلك في شهر ربيع الثاني ١٣٥٥هـ (تموز ١٩٣٦م) وبعدها بدأت الكتلة تنشط في أوساط الشعب منذ شهر رجب ١٣٥٥هـ ، وأخذت التجمعات الشعبية تظهر ، والمظاهرات تتكرّر ، فاعتقلت السلطات الفرنسية علال الفاسي ، ومحمد حسن الوازني ، ومحمد اليزيدي ، ثم أفرج عنهم .

رأت الكتلة أنـه لا بـدّ من وجـود رأس لهـا عـوضـاً عن القيـادة الجـماعيـة ، العمل الإسلامي لا بدّ له من أمير « إن كنتم ثلاثة فأمرّوا عليكم » ، والثلاثة أقـلّ الجماعـة ، والقيادة الجـماعيـة ليست في الحسـاب بـالنسبـة إلى العمـل الإسلامي . وعقدت مؤتمرها بمدينة الـرباط في ١٠ شعبـان ١٣٥٥هـ (٢٥ تشرين الأول ١٩٣٦م) ، وقد حضره ثمانيةٌ من القياديين ، ورجع محمد حسن الوازني من فرنسا بعد أربعة أيام ، فوجد حزباً يقوده علال الفاسي وحده ، فأسرّها في نفسه ، ولم يبدها حتى حين .

واجتمعت اللجنة التنفيذية في ذي القعدة ١٣٥٥هـ ، واختارت هيئتها على النحو الآتي :

علّال الفاسي	:	رئيساً .
محمد حسن الوازني	:	أميناً عاماً .
أحمد مكـوار	:	أمين صندوق .
محمد اليزيدي	:	عضواً .
محمد غازي	:	عضواً .
عمر عبد الجليل	:	عضواً .
عبد العزيز إدريس	:	عضواً .

الحركة القومية : انسحب محمد حسن الوازني من كتلة العمل الوطني ، وشكّـل الحركـة القوميـة في ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥هـ (٢١ كـانـون الثـاني ١٩٣٧م) ، وأسّس جـريدة « عمـل الشعب » ، وكـذلـك أسّس جـريـدة « الدفاع » باللغة العربية ، غـير أن هذه الحـركة قـد انتهت في ٢٤ شعبان ١٣٥٤هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٧م) عندما نُفي محمد حسن الوازني ، غير أن الصراع قد ظهر بين جناحي كتلة العمل الوطني .

الحزب الوطني : بعد انسحاب محمد حسن الوازني من كتلة العمـل الوطني اختير أحمد بلفريج أميناً عاماً مكانه ، وحصـل محمد اليـزيدي عـلى رخصةٍ لإصدار جريدة « الأطلس » ، ولكن لم تلبث أن مُنعت كتلة العمل

الوطني من النشاط في ٦ محرم ١٣٥٦هـ (١٨ آذار ١٩٣٧م) . ولكن عقدت مؤتمراً سرياً في ٢٠ محرم ، واتفقت على ظهورها باسم جديدٍ هو « الحزب الوطني » الذي برز في ١٥ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (٢٣ تموز ١٩٣٧م) .

تعرّض الحزب الوطني للمضايقة بعد حوادث « بوفكران » في ٢٥ ، ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١ ، ٢ أيلول ١٩٣٧م) ، ومُنعت صحفه عن الصدور ، فنظّم المظاهرات ، وعقد الحزب مؤتمره العام بمدينة الرباط ، في ٨ شعبان ١٣٥٦هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٣٧م) بدار أحمد الشرقاوي رئيس مكتب فرع الرباط ، ثم لم يلبث أن نُفي علال الفاسي إلى الغابون ، وبقي فيها ما يزيد على تسع سنوات ، وانتقل عمر عبد الجليل إلى منطقة الريف ، ثم تبعه أحمد بلفريج ، وبقيت المسؤولية على كاهل محمد اليزيدي .

وقد تشكّل وفدٌ باسم الحزب في ١٤ رجب ١٣٥٨هـ (٢٩ آب ١٩٣٩م) في سبيل تقديم بعض المطالب . وقد ضمّ هذا الوفد كلاً من : أحمد الشرقاوي ، محمد غازي ، بوبكر القادري ، أحمد بن غبريط .

حزب الإصلاح الوطني : كانت الحركة الوطنية واحدةً في بلاد المغرب بأجزائها ، وقد كان يقودها في منطقة الريف عبد السلام بنونة ، فلما توفي تسلّم الزعامة عبد الخالق طريس ، وقد عُرفت الحركة هناك باسم « الكتلة الوطنية بشمالي المغرب » ، وقد أسّست مجلة « المغرب الجديد » ، وجريدة «الريف»، وأبدى عبد الخالق طريس قوةً بصفته معارضاً للأحزاب اليسارية في أوربا المناوئة لفرانكو طاغية إسبانيا، لذا فقد اعتُقل عبد الخالق طريس. وتحوّل اسم « الكتلة الوطنية بشمالي المغرب » إلى حزب « الإصلاح الوطني في الريف » ، وذلك في ٥ شوّال ١٣٥٥هـ (١٨ كانون الأول ١٩٣٦م) ، وذلك لإظهار الانفصال عن الحركة الوطنية في جنوبي المغرب ، والواقع أن الصلة قد بقيت وثيقةً مع الحزب الوطني .

أصدر حزب الإصلاح الوطني في ١٩ ذي الحجة ١٣٥٥هـ (١ آذار ١٩٣٧م) جريدة « الحرية » في مدينة تطوان بإشراف أحمد غيلان .

والحقيقة أن حركة فرانكو في إسبانيا في تاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ (١٨ تموز ١٩٣٦م) ضدّ الجمهورية ، والسير بخطٍ وسياسيةٍ نازيةٍ قد فصل الحركة الوطنية في بلاد المغرب ، إذ اضطرّ الزعماء في منطقة الريف إبداء التأييد لسياسة فرانكو ، ومهاجمة السياسة الفرنسية في المغرب ، على حين أظهر الزعماء في جنوبي المغرب تأييدهم للجمهوريين في إسبانيا ، ومهاجمة سياسة فرانكو . ومن هذا المنطلق أصبح حزب الإصلاح الوطني يدرّب شبابه وينظّمهم على الطريقة النازية مستغلاً الفرصة التي تؤيّدها السلطات الإسبانية الاستعمارية للإعداد والتقوية .

حزب الوحدة المغربية : ظهر هذا الحزب برئاسة محمد المكي الناصري كمنافسٍ لحزب الإصلاح الوطني ، وأصدر صحيفة « الوحدة المغربية » في تاريخ ٢٣ ذي القعدة ١٣٥٥هـ (٣ شباط ١٩٣٧م) .

مكتب الدفاع الوطني : وهو تجمع سياسي قاده « إبراهيم الوازني » ، وقد كان ينتهج سياسة الدفاع عن النازية التي يؤيّدها « فرانكو » ، ويرى هذا التجمّع أن توحيد المغرب لن يتمّ إلاّ عن طريق ألمانيا .

المطالبة بالاستقلال : اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في أوربا ، وضرب الألمان ضربتهم القاسية في بداية الأمر ، ثم أخذ موقفهم بالضعف والتوقّف ، وتمكّن الحلفاء من النزول في بلاد المغرب في ٢٩ شوّال ١٣٦١هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٤٢م) ، ومع رجحان كفّة الحلفاء على دول المحور ؛ أخذ الحلفاء ينادون بحقّ تقرير المصير للشعوب المغلوبة ، وإعطاء الحرية والاستقلال للدول المستعمرة ، وذلك في سبيل كسب الرأي العام العالمي إلى جانبهم ، ووقوف سكان البلدان المستعمرة بإخلاص معهم طمعاً في نيل الحرية ، وهذا ما جعل الدعوة إلى الاستقلال تبرز في المغرب بوضوح .

لقد كانت الحركة الوطنية في المغرب حتى هذا التاريخ تلحّ على الإصلاح الداخلي، ولا تطالب بالاستقلال، فلما لوّحت دول الحلفاء بحق تقرير

المصير أخذت الحركة الوطنية تسير في خطٍّ جديدٍ هو المطالبة بالاستقلال .

ففي منطقة الريف صدر ميثاق وطني في تاريخ ١٠ ذي الحجة ١٣٦١هـ (١٨ كانون الأول ١٩٤٢م) من حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية ، وينصّ على :

١ ـ منح المغرب الحرية والاستقلال .
٢ ـ إقامة نظام حكمٍ ملكيٍّ إسلاميٍّ وطنيٍّ تحت قيادة الأسرة الحسنية العلوية .
٣ ـ إقامة وحدة المغرب من خلال إلغاء نظام المناطق .
٤ ـ الاعتراف بالسياة الداخلية والخارجية للمغرب .

أما في جنوبي المغرب فقد تبنّت فرنسا فكرة إقامة الاتحاد الفرنسي من الدول التي تخضع لنفوذها ، سواء أكانت محميةً أم مستعمرةً ، غير أن السلطان محمد الخامس قد رفض هذه الفكرة ، وشجّع الحركة الوطنية ، والدعوة إلى الاستقلال ، وقام بزيارةٍ إلى فرنسا في تاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٣٦٩هـ (١١ تشرين الأول ١٩٥٠م) ، وقدّم للمسؤولين هناك مذكرةً مؤرّخةً في الثالث من تشرين الأول ١٩٥٠م يبيّن فيها رأيه ، ومخالفته لفكرة الاتحاد الفرنسي .

حزب الاستقلال : في اليوم الأول من عام ١٣٦٣هـ أسّس أحمد بلفريج الأمين العام للحزب الوطني حزب الاستقلال من أعضاء حزبه السابق ، وفي ١٦ محرم ١٣٦٣هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٤م) صدر بيان حزب الاستقلال الذي دعا فيه إلى الاستقلال والمطالبة به . وقد اعتُقل أحمد بلفريج ومحمد اليزيدي ، وستة عشر عضواً بتهمة التعاون مع النازية ، وقامت مظاهراتٌ في الشهرين الأوليين من عام ١٣٦٣هـ ، ونُفي أحمد بلفريج إلى جزيرة كورسيكا .

كانت مهمة إعادة تنظيم الحزب من جديد على عاتق محمد اليزيدي ، وقد قام بها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في شهر ذي القعدة من عام

١٣٦٤هـ (تشرين الأول ١٩٤٥م) ، ولم يلبث أن اعتُقل محمد اليزيدي .

انفجرت الأحداث في الدار البيضاء خاصة ؛ احتجاجاً على مقتل النقابي التونسي فرحات حشّاد في ٢١ ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٨ كانون الأول ١٩٥٢م) ، فاعتقلت السلطات الفرنسية اللجنة التنفيذية للحزب ، وكثيراً من أعضائه ، كما اعتقلت عدداً من أعضاء الحزب الشيوعي ، إضافةً إلى محمد الشرايبي محرر جريدة « الرأي العام » من حزب الشورى والاستقلال .

حزب الشورى والاستقلال : عندما عاد محمد حسن الوازني من المنفى حوّل الحركة القومية التي سبق أن أسّسها عندما انسحب من كتلة العمل الوطني إلى حزبٍ سمّاه حزب الشورى والاستقلال ، وأصدر جريدة « الرأي العام » . وكان يطالب بإلغاء نظام الحماية ، وإقامة مملكةٍ ديمقراطيةٍ قبل الاستقلال ، ويرى طريقة المفاوضات مع فرنسا كوسيلةٍ للوصول إلى ما يرمي إليه ، وتنتهي المفاوضات بمعاهدة تحالف ، وإقامة حكومةٍ وطنيةٍ مؤقّتةٍ بدلاً من نظام الحماية . على حين كان حزب الاستقلال يرى أن الاستقلال هو الوسيلة إلى الوصول إلى ملكيةٍ دستوريةٍ .

انتقل محمد حسن الوازني إلى منطقة الريف حيث وجد لأفكاره قبولاً أكثر من بقية المناطق المغربية ، أما زعيم حزب الشورى والاستقلال في منطقة الحماية الفرنسية فقد بقي عبد القادر بن جلون بعد انتقال محمد حسن الوازني .

الحزب الشيوعي : كان الحزب الشيوعي محظوراً في المغرب من قبل السلطات الفرنسية ، فلما وصلت الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا في حزيران عام ١٩٣٦م ؛ سمحت بتشكيل الحزب الشيوعي بعد مقابلة عددٍ من زعماء حملة الفكر الشيوعي للمقيم العام الفرنسي « نوجيس » ، ووُجد تجمّعٌ لهم في الدار البيضاء ، وثان في الرباط . غير أنه لم يلبث أن اعتُقل زعماء الشيوعية في المغرب .

أعيد تأسيس الحزب الشيوعي في المغرب في شهر رجب ١٣٦٢هـ (تموز ١٩٤٣م) بزعامة « ليون سلطان » ، وقد أصدر صحيفة « الوطن » التي تناهض الفاشية ، ويتحرّك الحزب ضمن إطار فكرة الاتحاد الفرنسية ، وهذا يعني أن الحزب الشيوعي في المغرب ما هو إلاّ فرعٌ من الحزب الشيوعي الفرنسي . فلما مات ليون سلطان في العام نفسه تسلّم زعامة الشيوعيين في المغرب « علي يعتة » ، فغيّر اسم الحزب من « الحزب الشيوعي في المغرب » إلى « الحزب الشيوعي المغربي » ، وانفصل عن الحزب الشيوعي الفرنسي ، ورفض فكرة الاتحاد الفرنسي ، وأصدر صحيفةً سريّةً باللغة العربية حملت اسم « حياة الشعب » .

بدأ هذا الحزب نشاطه بين العمال حتى اكتسح الموقف ، وأخذت النقابات تُسيّر من قبل الشيوعيين .

كان الصراع قوياً بين حزب الاستقلال وبين حزب الشورى والاستقلال ، أما الحزب الشيوعي فلم يهتمّ به كثيراً ، فلما اكتسح النقابات أخذ حزب الاستقلال يدخل معه في صراع ، وقد سمح حزب الاستقلال لأعضائه بالانتماء إلى النقابات ، فتوسّع نفوذه بسرعة ، وخسر الحزب الشيوعي كثيراً منذ عام ١٣٧٠هـ ، وفي عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) كان المكتب النقابي يتألّف من عشرة أعضاء : أربعة منهم من حزب الاستقلال ، وأربعة من الشيوعيين الفرنسيين ، واثنين من الشيوعيين المغاربة .

أخذ الحزب الشيوعي يطالب بالاستقلال ليدلّل على وطنيته ، وطالب بتشكيل جبهةٍ وطنيةٍ مغربية ، غير أن حزب الاستقلال رفض ذلك ، وشكّ في وطنيته ، وأعلن أن الشيوعية وإن بدت أنها محلية ، وأنها تنطلق حسب أهدافٍ وطنيةٍ ؛ إلاّ أنها في الواقع ليست سوى صنائع لموسكو ، وأنها تتحرك حسب التوجيهات الخارجية التي تتلقاها من مراكز الشيوعية العالمية .

وإثر مقتل النقابي التونسي فرحات حشّاد حدثت اضطرابات شارك فيها

الاستقلاليون ، كما شارك الشيوعيون ، فجرت اعتقالات في صفوف الحزبين ، ونُفي زعماؤها ، ومُنعت صحفهما .

وزّع الحزب الشيوعي منشوراً بمناسبة فرض الحماية في ١٥ رجب ١٣٧٢هـ (٣٠ آذار ١٩٥٣م) وطالب بإلغاء نظام الحماية .

وبعد عزل السلطان محمد الخامس أصدر الحزب الشيوعي كتيباً في صفر ١٣٧٣هـ (تشرين الأول ١٩٥٣م) ، ووزّع منشوراً آخر في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٥٤م) طالب فيه بعودة السلطان .

الجبهة الوطنية المغربية : عُقد مؤتمر المغرب العربي في القاهرة في المدة الواقعة بين ٢٤ ربيع الأول ، والأول من ربيع الثاني من عام ١٣٦٦هـ (١٥ - ٢٢ شباط ١٩٤٧م) ، وضمّ ممثّلين عن تونس والجزائر والمغرب ، وقد تمّ بعدها تشكيل جبهةٍ وطنيةٍ مغربيةٍ بإلحاحٍ من مندوب الجامعة العربية صالح أبو الرقيق في ٣ رجب ١٣٧٠هـ (٩ نيسان ١٩٥١م) ، وقد ضمّت هذه الجبهة الأحزاب الآتية : حزب الاستقلال ، حزب الشورى والاستقلال ، حزب الإصلاح الوطني ، حزب الوحدة المغربية .

تمّ التوقيع على الميثاق الآتي :

١ ـ تلتزم كل الأحزاب الموقّعة على الميثاق بالدفاع عن الاستقلال .

٢ ـ عدم قبول الانضواء في الاتحاد الفرنسي .

٣ ـ لا يمكن متابعة الأهداف قبل الحصول على الاستقلال .

٤ ـ لا يصحّ إجراء أية مفاوضات قبل الاستقلال .

٥ ـ لا مفاوضات مع الاستعمار في إطار النظام الحالي .

٦ ـ التنسيق بين المغرب وجامعة الدول العربية .

٧ ـ عدم قبول تأسيس جبهةٍ أو وحدةٍ مع الشيوعيين .

٨ ـ تشكيل لجنةٍ من الأحزاب الموقّعة على الميثاق .

تطورات : أ ـ في منطقة الريف :

حزب الإصلاح الوطني : أصدر حزب الإصلاح الوطني ميثاقاً في شهر ذي القعدة ١٣٦١هـ (كانون الأول ١٩٤٢م) طالب فيه بالاستقلال ، وذلك بعد نزول الحلفاء في المغرب بمدةٍ يسيرةٍ لا تزيد على الشهر ، ولكن الحزب لم يلبث أن تفكّك بعد الحرب العالمية الثانية بهزيمة ألمانيا ، وكانت جريدة الحرية قد توقّفت منذ أن أخذت كفّة الحلفاء ترجح في الحرب على دول المحور .

سمحت السلطات الاستعمارية الإسبانية لـ « عبد الخالق طريس » بإعادة تأسيس الحزب في شهر صفر ١٣٦٥هـ (كانون الثاني ١٩٤٦م) وقد عقد الحزب مؤتمره الأول في ٤ ربيع الأول ١٣٦٥هـ (٥ شباط ١٩٤٦م) ، واختير « الطيب بنونة » أميناً عاماً للحزب ، وفي الوقت نفسه فقد سُمح له بإصدار جريدته « الحرية » المتوقّفة عن الصدرو منذ أربع سنوات . وأصبح حزب الاستقلال الوطني ينسّق مواقفه مع حزب الاستقلال في جنوبي المغرب منذ شهر شوّال ١٣٦٥هـ (أيلول ١٩٤٦م) ، وطالب « المهدي بنونة » إسبانيا بالاعتراف بوحدة أجزاء المغرب ، واستقلال البلاد .

حزب الوحدة المغربية : انتقل المكي الناصري إلى مدينة طنجة بعد الحرب العالمية الثانية بسنة ، ونقل أيضاً نشاط حزبه إليها . وقد نظّم مظاهراتٍ تنديداً بالأحداث التي جرت في الدار البيضاء في ٢٥ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (١٦ نيسان ١٩٤٧م) .

حزب الوحدة الريفية : تأسّس حزب الوحدة الريفية إبّان الحرب العالمية الثانية بجهود المقيم الإسباني « فاريلا » ولكن لم يلبث أن اختفى بعد انتهاء الحرب .

حزب الدفاع الوطني : بعد أن التجأ محمد عبد الكريم الخطابي إلى مصر في رجب ١٣٦٦هـ (حزيران ١٩٤٧م) تأسّس حزب الدفاع الوطني ، وكان يرأسه خالد الريسوني في مدينة العرائش ، والغالي داود في مدينة طنجة ،

وإبراهيم الوازني في مدينة القصر .

لما رأت السلطات الاستعمارية الإسبانية أن الأحزاب التي تتبنّاها لا تلقى نجاحاً ، ولا تلبث أن تزول لذا فقد قرّرت إلغاء الأحزاب الوطنية ، وصدر قرارٌ بحظر الأحزاب الوطنية في ٢١ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (١ شباط ١٩٤٨م) ، وبذا فقد مُنع حزب الإصلاح الوطني ، وحزب الوحدة المغربية .

غير أن السلطات الاستعمارية استمرّت في تبنّي قيام أحزابٍ تقبل التوجيه منها .

حزب المغرب الحر : تأسّس في مدينة (الناضور) عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) بعد عودة عبد الخالق طريس إلى تطوان ، وترأس هذا الحزب الجديد « محمد زريوح » .

حزب الهلال : وقد أسّسه خالد الريسوني عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) .

ب ـ في جنوبي المغرب [منطقة الحماية الفرنسية] :

الحزب الديمقراطي المغربي للأحرار : أسّسه في مدينة الدار البيضاء المولى إدريس[1] عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) . وكان المولى إدريس يرافق الجلاوي في كثيرٍ من تحرّكاته . وقد أعلن هذا الحزب عداءه للسلطان محمد الخامس في شهر ربيع الأول ١٣٧٢هـ (كانون الأول ١٩٥٢م) ، وأيّد خلعه في ١٠ ذي الحجة ١٣٧٢هـ (٢٠ آب ١٩٥٣م) ، وأعلن مبايعته للسلطان المأجور محمد بن عرفة .

حزب الشعب المغربي : أسّسه عبد القادر الزمراني عام ١٣٦٧هـ

---

(١) المولى إدريس : أستاذ بمعهد الفنون الجميلة في مدينة الرباط ، وضع كتاباً ، روّج له الفرنسيون كثيراً ، وعملوا على إبراز صاحبه ، وقدموا له المساعدات السخية ، فأسس الزاوية العلية بالصحراء التي مُنعت فيها بعد بأمر سلطاني عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) .

(١٩٤٨م) ، وكان يرى فصل الديـن عن الدولة ، ويعمل على النضج قبل الاستقلال ، وتركّز هذا الحزب في مدينة وجدة عـام ١٣٧١هـ ، وفي العام التالي أصبحت فاس ومكناس أهمّ مراكزه .

قام الحزب بمظاهرةٍ في ١٥ رجب ١٣٧٢هـ (٣٠ آذار ١٩٥٣م) بمناسبة عقد معاهدة الحماية ، وقد هلّلت المظاهرة بهـذه المناسبـة على حـين أن بقية المظاهرات للأحزاب الأخرى كانت تطالب بالاستقلال وإلغاء الحماية .

وكذلك قام الحزب بمظاهرةٍ في ٢٣ شعبان ١٣٧٢هـ (٧ أيار ١٩٥٣م) لفائدة عبد الحي الكتاني .

الصراع الحزبي بعد الاستقلال

كانت التنظيمات السياسية كلها والأحـزاب كلها تـتطالب بالإصـلاح الداخلي منذ التوقيع على معاهدة الحماية في ١٢ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ (٣٠ آذار ١٩١٢م) حتى نزول الحلفاء بالمغرب أثناء الحرب العالمية الثانية في ٢٩ شوال ١٣٦١هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٤٢م) ، فلم يكن هناك صراعٌ واضحٌ بينهما .

أما بعد نزول الحلفاء في المغرب وحتى الاستقلال فقد كانت المطالب الرئيسية هي الاستقلال ، وكان صراع بين الأحزاب كمنافسةٍ بـين الزعـماء أحياناً ، وعلى السيطرة على الساحة أحياناً أخرى . وبـرز في منطقـة الريف حزب الإصلاح الوطني ، وحزب الوحدة المغربية ، وبرز في الجنوب في منطقة الحماية الفرنسية حزب الاستقلال ، وحزب الشورى والاستقلال ، إضافةً إلى الحـزب الشيوعي المغـربي . كما وُجـد صراعٌ بين الأحـزاب الوطنيـة وبـين السلطات الاستعـماريـة حيث كـان المقيم العـام ، سـواء في الـريف أم في الجنوب ؛ يعمل على منع الأحزاب الوطنية بين المدة والأخرى من النشاط ، وفي الوقت نفسه يسعى لإنشاء أحزابٍ مأجورةٍ يتبنّاها ، وترتبط به ، غير أن وعي الشعب في المغرب ينفّر من الأحزاب العميلة ، ويمقت رجالها ، وينبذها

حتى تبقى دون أتباع فتتهاوى وتموت ، وتعمل السلطات الاستعمارية على إنشاء غيرها بتبديل الواجهات ، أو تغيير الشعارات ، ولكن لا تلبث أن يُكشف أمرها ، ويكون مصيرها شأن سابقيها ، وهكذا .

وجاء الاستقلال ، ولم يعد هناك مقيمٌ عامٌ ، أو سلطاتٌ استعماريةٌ ، أو . . . ليتحرّك الوطنيون ضدّهم ، لذا أخذ الصراع الحزبي يشتدّ للسيطرة على الحكم ، وكسب الأعوان ، وتطبيق المناهج التي يتبنّاها كل حزب ، ويريد تنفيذها .

الصراع بين القصر وحزب الاستقلال : السلطان دون شكٍّ يملك قوة معنويةً هي هيبة الحكم وسلطان الدولة ، وكان حزب الاستقلال أقوى أحزاب المغرب ، وأكثرها أعضاءً ، وأعظمها شعبيةً ، وكان هذا الحزب يرى أن يكون في البلاد حزبٌ واحدٌ ، ولا يقصد إلاّ تنظيمه ، وتكون الحكومة له ، وكان يعلن هذا ، ويطالب به ، ورغم أنه قد شارك في حكومتين ائتلافيتين ؛ إلاّ أنه يعدّ هذه المشاركة تنازلاً منه ، وتساهلاً لدفع عجلة الاستقلال قليلاً إلى الأمام ريثما تترسّخ دعائم السلطة . أما الملك فكان يرى تعدّد الأحزاب كي لا تنفرد مجموعةٌ بالسلطة ، ويستأثر رجالها بالحكم ، ومن هذا المنطلق يريد أن يخفّف من قوة حزب الاستقلال ، فعمل على إبعاد رجال الحزب عن الجيش وقوات الشرطة .

أما حزب الاستقلال فكان ينظر إلى حزب الأحرار المستقلّين الذي يمثّله أحمد رضا كديرة أنه يمثّل القصر ، لذا فقد رفض مشاركته في الحكومة التي كُلّف أمينه العام أحمد بلفريج بتشكيلها .

الصراع بين الأحزاب : كان حزب الاستقلال أكبر الأحزاب ، وكانت أكبر التنظيمات التي يمكن أن تقف في وجهه إنما هو حزب الشورى والاستقلال الذي يرأسه محمد حسن الوزّاني ، حيث كان كلاهما يريد السيطرة على الساحة ، وإن كان التفوّق دائماً لحزب الاستقلال الأكثر عدداً ، والذي رأى أن

يضمّ إليه بعض التنظيمات الصغيرة فيزداد قوةً ، ويخفّف من المعارضة التي تواجهه ، وبدأ الاندماج مع حزب الإصلاح الوطني الذي كان في منطقة الريف ، ويرأسه عبد الخالق طريس ، فهو أقرب الأحزاب إليه ، وبينهما تنسيقٌ يعود تاريخه إلى أكثر من عشر سنوات . وبالمقابل فقد قام حزب الشورى والاستقلال بضمّ حزب المغرب الحر أيضاً ، ويسعى في ذلك إلى ما يسعى إليه حزب الاستقلال .

وكان حزب الاستقلال يطالب بتأليف وزارةٍ منسجمةٍ ، أي يكون أعضاؤها جميعهم من حزبٍ واحدٍ ، أو مجموعةٍ واحدةٍ منسجمةٍ بعضها مع بعض ، حيث يخطط ليتجه نحوه الشعب ، ولو كانوا من أصحاب المصالح ، ما دامت السلطة بيده ، وقد رفع رسالةً إلى الملك تتضمن هذا الموضوع ، وذلك في تاريخ ٢٦ رمضان ١٣٧٧هـ (١٥ نيسان ١٩٥٨م) .

ولم يعترف حزب الاستقلال بالحزب الشيوعي ، وكان ينظر إليه على أنه مجموعةً من العملاء يرتبطون بموسكو ، ويعيشون على أرض المغرب ، فهم يتلقّون المساعدات والتوجيهات من خارج البلاد ، من مناطق لا تمتّ إلى العرب أو الإسلام بصلة .

وذكرنا أيضاً أنه كان ينظر لحزب الأحرار المستقلّين أنهم من صنائع قصر الملك ينظرون إلى مصلحته دون مصلحة الشعب أو الأمة .

الحركة الشعبية : شكّل الحسن اليوسي حزباً أطلق عليه الحركة الشعبية لمعارضة حزب الاستقلال ، واتخذ الحسن اليوسي من البربر قاعدةً للقوة ، وأثار فيهم العصبية للانضمام إلى حركته ، ولم تلبث أن انتقلت زعامة هذه الحركة إلى « المحجوبي أحرضان » وإلى « عبد الكريم الخطيب » ، ولكن مُنعت بعد مدةٍ بقرار من الحكومة .

أعلن « المحجوبي أحرضان » إعادة تكوين الحركة الشعبية في شعبان ١٣٧٨هـ (شهر شباط ١٩٥٩م) ، وأخذ يتحدّث عن الاشتراكية

الإسلامية ، وأنها هدفٌ من أهداف حركته .

انشقاق حزب الاستقلال : كان الحزب يضمّ عناصر كثيرةً متباينةً بالآراء مختلفةً بالأفكار ، متباعدةً في الوسائل والأهداف ، تجمعها فكرة محاربة الاستعمار التي بدأت بالمطالبة بالاصلاح ، ثم بالدعوة إلى الاستقلال ، فلما تمّ الاستقلال كان لا بدّ من أن تظهر تياراتٌ متعددةً داخل الحزب ، ولا بدّ من أن يبدأ الخلاف الذي سيؤدّي إلى الانشقاق .

بدأ الانشقاق عندما كانت الحكومة برئاسة الأمين العام للحزب أحمد بلفريج ، وكان أكثر أعضائها من رجالات الحزب أيضاً ، وحدث أن قامت مظاهراتٌ ، فتصدّى لها رجال الشرطة بأمر الحكومة ، فتأثّر من ذلك زعماء العمال الذين ينتمون إلى حزب الاستقلال ، فوقع الخلاف ، وبدأ الانشقاق ، وباءت كل محاولات رأب الصدع بالفشل .

الاتحاد الوطني للقوى الشعبية : انشقّ المهدي بن بركة ، وشكّل « الجامعات المتحدة لحزب الاستقلال » في ١٦ رجب ١٣٧٨هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٥٩م) ، ولكن لم يلبث أن انقلب هذا التنظيم في ١٥ ربيع الأول عام ١٣٧٩هـ (١٧ أيلول ١٥٩٥٩م) إلى « الاتحاد الوطني للقوى الشعبية » ، وكان بجانب مهدي بن بركة كل من عبد الله بن إبراهيم ، وعبد الكريم بن جلون ، وعددٌ من رجالات الحزب أمثال محمد عواد ، وإدريس المحمدي ، والتهامي عمار ، وعبد الرحيم بوعبيد ، وغيرهم .

حزب الدستور الديمقراطي : حوّل محمد حسن الوزّاني حزبه « الشورى والاستقلال » إلى حزب « الدستور الديمقراطي » في ١٢ رجب ١٣٧٩هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٦٠م) ، وقد قاطع هذا الحزب الاستفتاء الذي جرى في ١١ رجب ١٣٨٢هـ (٧ كانون الأول ١٩٦٢م) .

جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية ؛ في ٢٥ شوّال ١٣٨٢هـ (٢٠ آذار ١٩٦٣م) أسّس أحمد رضا كديرة الذي كان رئيس حزب الأحرار

المستقلّين جبهةً جديةً أسماها « جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية » ، وقد ضمّت كلاً من الأحزاب الآتية :

١ ـ حزب الأحرار المستقلّين .
٢ ـ الحركة الشعبية .
٣ ـ حزب الدستور الديمقراطي .

وقد حصلت هذه الجبهة في الانتخابات التي جرت في مطلع عام ١٣٨٣هـ (٢٤ أيار ١٩٦٣م) على أكثريةٍ نسبيةٍ ، إذ أحرزت : ٦٩ مقعداً .
على حين حصل حزب الاستقلال على : ٤١ مقعداً .
والاتحاد الوطني للقوى الشعبية على : ٢٨ مقعداً .
والمستقلّون : ٦ مقاعد .

---

١٤٤ مقعداً .

غير أن هذه الجبهة لم تكن متماسكةً تماماً ، لذا لم تلبث أن تفكّكت .

الحزب الاشتراكي الديمقراطي : أسّس أحمد رضا كديرة من جديد الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ٢ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (١٤ نيسان ١٩٦٤م) ، غير أنه لم يمضِ أكثر من سنةٍ حتى تخلّى عن الحزب أكثر مؤسّسيه ، وانتهى أمره .

انشقاق الحركة الشعبية : شاركت الحركة في انتخابات ٤ ذي الحجة ١٣٧٩هـ (٢٩ أيار ١٩٦٠م) ، وكان يمثّلها سبعة أعضاء في مجلس الدستور ، وكذلك شاركت في حكومة الملك الحسن الثاني في ١ محرم ١٣٨١هـ (١٤ حزيران ١٩٦١م) ، وانتخبت عبد الكريم الخطيب رئيساً للمجلس الوطني ، كما انتُخب محجوبي أحرضان أميناً عاماً .

وعندما تأسّست جبهة الدفاع عن المؤسّسات ا لدستورية رفض عبد الله

الوكوتي المشاركة فيها .

واتفق عبد الكريم الخطيب ومحجوبي أحرضان على أن تشارك الجبهة في حكومة أحمد باحنيني التي عُدّلت في ١٤ ربيع الثاني ١٣٨٤هـ (٢٠ آب ١٩٦٤م) ، وإن يرشّحا عبدالله الوكوتي ، ومحمد الشرادي ، وبوخرطة للمشاركة في هذه الحكومة . غير أن محجوبي أحرضان قد أخلّ بهذا الاتفاق ، وأبعد الذين رُشّحوا للمشاركة ، وشارك هو بنفسه ، وتسلّم وزارة الزراعة ، كما رشّح عبد السلام عيسى الذي عُيّن كاتباً للدولة ، وحدو الشيكر الذي أسندت إليه وزارة البرق والبريد والهاتف .

قرّر الملك تشكيل حكومةٍ برئاسة عبد الكريم الخطيب بعد أحداث ذي القعدة ١٣٨٤هـ (آذار ١٩٦٥م) ، غير أن الخطيب قد وضع شروطاً صعبةً للقبول بتسلّم الوزارة ، وبدأ انشقاق الحركة ، إذا انسحب عبد الكريم الخطيب ، وعبد الله الوكوتي ، ومحمد البكاي ، وبوخرطة .

ومن جهةٍ أخرى أعلن محجوبي أحرضان طرد كلٍّ من عبد الله الوكوتي وبوخرطة ، ولم يتخذ شيئاً مقابل عبد الكريم الخطيب الذي عدّ « محجوبي أحرضان » مخالفاً لقانون الحزب حيث لم يعقد أي اجتماع لمجلس الحزب منذ مدة ، والذي يجب أن يجتمع كل عامين ، لذا فهو ليس أميناً عاماً للحزب . وانتُخب عبد الكريم الخطيب أميناً عاماً ، وعندها أعلن محجوبي أحرضان طرد عبد الكريم الخطيب من الحركة .

الحركة الشعبية الديمقراطية : بعد أن سيطر محجوبي أحرضان على الحركة الشعبية ، وطرد منها مخالفيه ومنهم عبد الكريم الخطيب ، الذي قام في شهر ذي القعدة من عام ١٣٨٦هـ (شباط ١٩٦٧م) بتشكيل الحركة الشعبية الديمقراطية .

الحزب الشيوعي المغربي : حوّل هذا الحزب اسمه إلى حزب « التحرر والاشتراكية » عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) في سبيل تخفيف الكراهية عن

أعضائه ، لأن كلمة الشيوعية غير محبّبة لدى الناس ، ولكن هذا التبديل في الاسم لم يغيّر شيئاً ؛ لأن السلوك لم يتغيّر شيئاً ، والارتباط لم يتبدّل . ولم يلبث أن مُنع الحزب في شهر رجب ١٣٨٩هـ (أيلول ١٩٦٩م) .

الكتلة الوطنية : إن الحالة الاستثنائية المفروضة على المغرب منذ ١٣٨٥هـ قد جعلت حزب الدستور الديمقراطي يدعو إلى تكتلٍ وطنيٍّ بتأليف مجلس قمةٍ وطني ، ويتمّ :

١ ـ اجتماع مائدةٍ مستديرةٍ بين قادة الأحزاب .

٢ ـ تحديد خطة العمل للمستقبل .

٣ ـ وضع ميثاق الائتلاف .

٤ ـ تأليف لجنةٍ تنفيذيةٍ مشتركةٍ .

٥ ـ رفع مذكرةٍ للملك لوضع حدٍّ للحالة الاستثنائية .

تأسّست الكتلة الوطنية في ١٩ جمادى الأولى ١٣٩٠هـ (٢٢ تموز ١٩٧٠م) ، وضمّت حزب الاستقلال ، والاتحاد الوطني للقوى الشعبية .

وقاطعت الكتلة الانتخابات التشريعية المزمع إجراؤها في ٢٩ جمادى الآخرة ، و٧ رجب ١٣٩١هـ (٢١ ، ٢٨ آب ١٩٧١م) ، ووقفت موقف المعارض ، وصوّتت ضدّ مشروع دستور ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) ، وقررت مقاطعة الاستفتاء .

وقام الملك بمفاوضاتٍ مع الكتلة الوطنية في شوال ١٣٩١هـ (تشرين الثاني ١٩٧١م) ، ودعاها لاشتراك في حكومة « كريم العمراني » في ١٨ ذي الحجة ١٣٩١هـ (٣ شباط ١٩٧٢م) ، فرفضت . ولم يمضِ وقتٌ غير قصير حتى حدث الانشقاق بين جماعاتها ، وذلك في ١٩ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ (٣٠ تموز ١٩٧٢م) .

ومن المنظمات القائمة اليوم في المغرب :

١ ـ الاتحاد الدستوري .

٢ ـ التجمع الوطني للأحرار .
٣ ـ الحركة الشعبية .
٤ ـ حزب الاستقلال .
٥ ـ الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية .
٦ ـ الحزب الوطني الديمقراطي .
٧ ـ منظمة العمل الديمقراطي .
٨ ـ حزب التقدم والاشتراكية .
٩ ـ الاتحاد الوطني للقوات الشعبية .

وهناك نقاباتٌ ذات وزنٌ في السياسة المغربية ، مثل : نقابة الاتحاد المغربي للشغل ، والاتحاد العام للشغالين بالمغرب ، واتحاد النقابات الشعبية ، والاتحادية الديمقراطية للشغل . والمنظمة المغربية لحقوق الانسان ، والعصبة المغربية لحقوق الإنسان ، ورابطة القضاة ، وهيئة المحامين ، وهيئة الأطباء ، وهيئة الأساتذة الجامعيين ، و . . . .

وأخذ الوعي الإسلامي ينتشر في المغرب كبقية الأمصار الإسلامية ، واتجه الشباب إلى العلم ، واللقاء بعضهم مع بعض في سبيل العمل الإسلامي ، ومحاولة تطبيق تعاليمه على أنفسهم ودعوة الآخرين للعمل به . وتأسّست جمعيةٌ إسلاميةٌ ، وانطلق أفرادها يدعون ، حتى إذا بدا أثرهم أخذت يد الملاحقة تطاردهم . وقُتل أحد رجال الشيوعيون في المغرب في الظلام ، وهو عمر بن جلون ، فاتُهم بعض أفراد الجمعية بذلك ، فجاء الأمر بحظرها ، وملاحقة أعضائها ، فمنهم من فرّ خارج الحدود ، ومن ألقي القبض عليه منهم أودع السجن . فخمدت جذوة النشاط قليلاً حتى مرّت موجة المتابعة ، ثم أخذت تظهر ثانيةً ، فإن الفكر لا يحارب بالسياط ، وإنما بالحجة والإقناع ، ولا تُنتزع العقيدة بالقوة ، وإنما بالعقل والبرهان . ولكن العمل السياسي يسوق أصحاب العقائد كما يلاحق اللصوص والمجرمين ، وربما يسعى أن يضرب بعضهم ببعض ، فقد قُتل ابن جلون الذي يحمل فكرة

الإلحاد ، ومخالفة السلطة والنظام ، فتخلّص منه المسؤولون ، واتهموا به المسلمين الذين يؤيّدون الأمن ، ويحاربون الفوضى ، ولا يدعون إلاّ إلى ما يؤمن به الشعب في المغرب ، فطاردهم النظام ، وتخلّص منهم ، فكان الطرفان على حدٍّ سواء .

عاد النشاط الإسلامي إلى المغرب ، وبرز الشيخ عبد السلام ياسين ، فالتفّ حوله الناس ، إذ غدوا يتوقون إلى النظام كي يخلّصهم مما يعانون ، وينقذهم من الأوضاع المتردية باستمرار ، وقد أفلست الأنظمة الوضعية كلها على اختلاف مشاربها وتباين أساليبها في معالجة قضايا الحياة ، هذا إضافةً إلى إيمان السكان بالإسلام كعقيدة ومنهج شامل لجميع جوانب الحياة ، أنزله خالق الناس الذي هو العليم وحده بما ينفعهم في أمور دنياهم وأخراهم ، فهم وإن سار بعضهم وراء بعض الناعقين للشرق أو الغرب فهو سير مؤقت وراء مصالح عابرة أو على غفلةٍ من النفس عندما تضعف أمام مغريات دنيوية ، ولكنها لا تلبث أن تستيقظ وتثوب إلى رشدها ، وترجع إلى عقيدتها ، وتسير في الخط الإسلامي .

وكلما نشط الاتجاه الإسلامي وُضعت أمامه العراقيل ؛ إرضاءً للخط الدولي العام العامل دائماً ضدّ الإسلام والمسلمين ، وتختلف هذه العراقيل بين وقتٍ وآخر بين الشدة والعنف إلى اللين والمطاردة ، كما تتباين الأساليب في الحنكة والدهاء ، وغالباً ما يتخذ أصحاب الاتجاهات الأخرى على اختلاف مناهجها وسيلةً للحدّ من هذا النشاط ، فأصحاب الاتجاهات جميعهم يقفون في الصف المقابل للاتجاه الإسلامي .

وفي ١٣ شوال ١٤١٠هـ (٨ أيار ١٩٩٠م) أعلن الملك الحسن الثاني عن تشكيل المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان في المغرب ، وأوكل رئاسته إلى محمد العربي المجبود رئيس المجلس الأعلى للقضاء ، وفي هذا تهدئة للوضع ، وتطييب لخواطر الذين قد ينالهم ظلم . . . ، وقد ضمّ هذا المجلس

بعض الوزراء وممثلين عن الأحزاب والنقابات[1] . وسيكون هذا المجلس

---

(١) تشكّل المجلس الاستشاري على النحو الآتي :

١ ـ محمد العربي المجبود : رئيساً . وهو الرئيس الأول للمجلس الأعلى للقضاء .
٢ ـ مولاي مصطفى بلعربي العلوي : وزير العدل .
٣ ـ عبد اللطيف الفيلالي : وزير الخارجية .
٤ ـ إدريس البصري : وزير الداخلية والإعلام .
٥ ـ عبد الكريم العلوي المدغري : وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .
٦ ـ أحمد رضا كديرة : مستشار الملك .
٧ ـ أحمد العسكي : ممثل التجمع الوطني للأحرار .
٨ ـ محمد زيان : ممثل الاتحاد الدستوري .
٩ ـ مسعود المنصوري : ممثل الحركة الشعبية .
١٠ ـ فيصل الخطيب : ممثل حزب الاستقلال .
١١ ـ محمد بوزبع : ممثل الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية .
١٢ ـ الحسن كابون : ممثل الحزب الوطني الديمقراطي .
١٣ ـ التهامي الخياري : ممثل حزب التقدم والاشتراكية .
١٤ ـ محمد الشتوكي : ممثل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية .
١٥ ـ المحجوبي أحرضان : ممثل قدماء جيش التحرير .
١٦ ـ عبد السلام الجبلي : ممثل قدماء المقاومة .
١٧ ـ الهاشمي بناني : ممثل نقابة الاتحاد المغربي للشغل .
١٨ ـ عبد الرزاق افيلال : ممثل نقابة الاتحاد العام للشغالين بالمغرب .
١٩ ـ محمد حاتمي : ممثل اتحاد النقابات الشعبية .
٢٠ ـ عبد المجيد بوزبع : ممثل الاتحادية الديمقراطية للشغل .
٢١ ـ أحمد بن عمو : عن العصبة المغربية للدفاع عن حقوق الإنسان .
٢٢ ـ محمد الصديقي : عن المنظمة المغربية لحقوق الإنسان .
٢٣ ـ محمد بوزيان : عن رابطة القضاة .
٢٤ ـ مصطفى الريسوني : عن جمعية هيئة المحامين .
٢٥ ـ محمد جلال السعيد : عن هيئة الأساتذة الجامعيين .
٢٦ ـ عبد الله العروي : عن هيئة الأساتذة الجامعيين .
٢٧ ـ الحبيب المالكي : عن هيئة الأساتذة الجامعيين .
٢٨ ـ علال سي ناصر : عن هيئة الأساتذة الجامعيين .
=

وسيلةً للحلّ الذي ينسجم والاتجاه العلماني المعادي للاتجاه الإسلامي الذي اشتدّ عليه الضغط في الآونة الأخيرة بعد النشاط الذي أظهره ، والتجاوب الذي لقيه من السكان ، وبعد بروز الاتجاه الإسلامي في الجزائر ، ووصوله إلى القمة الذي أخاف أوربا ، وهذا ما بدا على صحفها ، وجميع وسائل الإعلام فيها ، وعلى تصريحات المسؤولين ، وقد خشي أصحاب اللعبة الدولية أن ينتقل هذا الأثر إلى المغرب فجأةً بحكم الجوار والعقيدة الواحدة . وسيكون هذا المجلس أحد صمامات الأمان لهم أو الكوابح . وإن اتجاه أعضاء هذا المجلس ليعطي الخط العام للسير ، إضافةً إلى الجهة التي سيمثّلها .

= ٢٩ ـ عبد الرزاق كنون : عن هيئة الأطباء .
٣٠ ـ ماكسيم أزولاي : رئيس الغرفة الإدارية بالمجلس الأعلى .
٣١ ـ عبد الهادي بوطالب : مدير عام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة .
٣٢ ـ أحمد أفزاز : رئيس المجلس العلمي لإقليم وجدة .
٣٣ ـ عبد الله الكرسيفي : رئيس المجلس العلمي لإقليم أغادير .
٣٤ ـ أحمد الفيزازي : محافظ سابق .
٣٥ ـ خطري ولد سيدي سعيد الجماني : عضو المجلس الاستشاري الخاص بشؤون الصحراء .
٣٦ ـ محمد ميكو : الأمين العام السابق لمنظمة وزراء العدل العرب .
٣٧ ـ ألبير ساسون : عن الجالية اليهودية المغربية بباريس .

البَابُ الخَامِس

مُورِيتَانِيَا

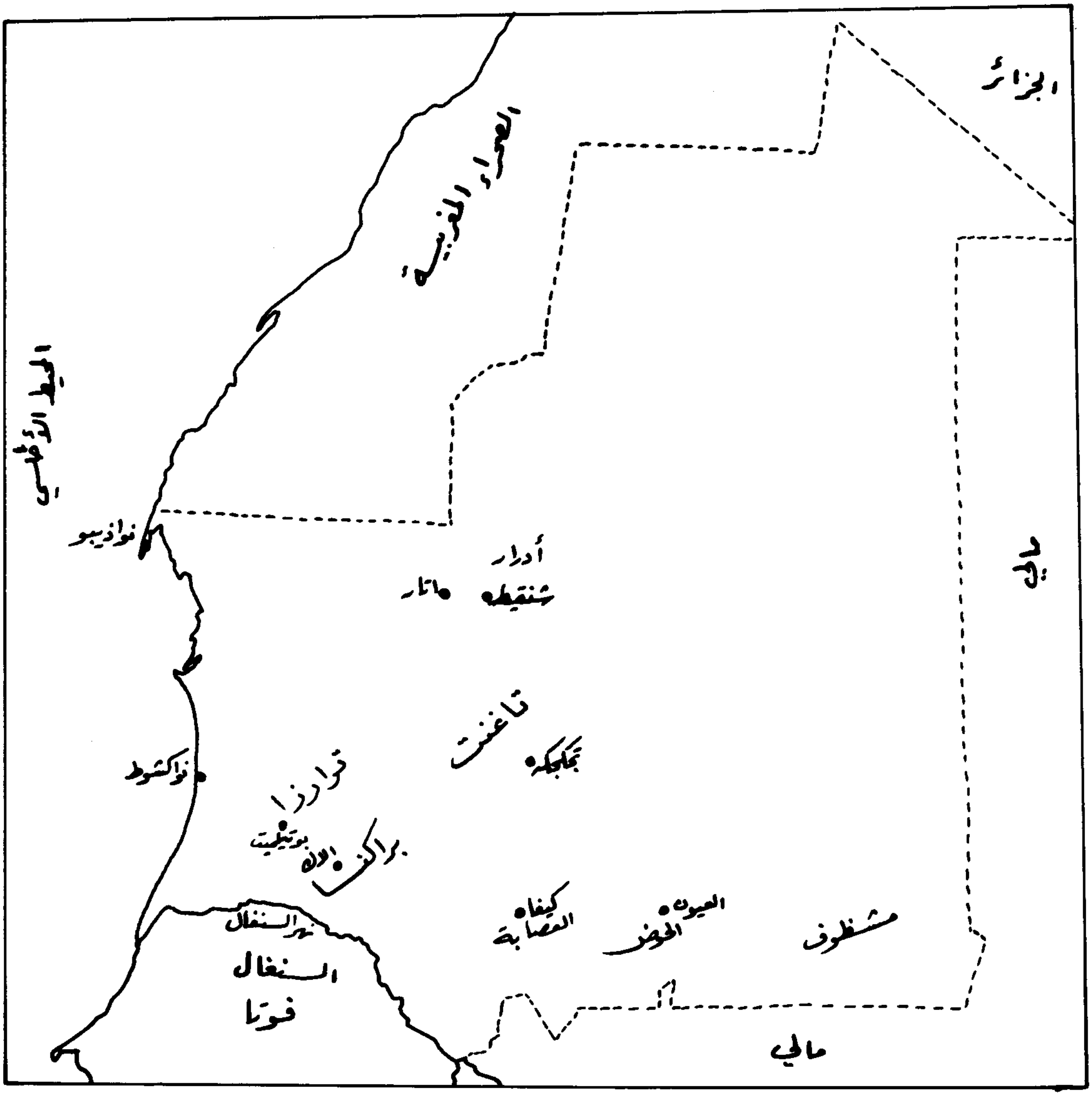
الجزائر
الصحراء الغربية
نواذيبو
أدرار
شنقيط
أطار
تاغنت
تجكجة
نواكشوط
ترارزا
بوتلميت
نهر السنغال
السنغال
فوتا
كيفة
العصابة
العيون
الحوض
مشظوف
مالي

لمحة عن موريتانيا قبل إلغاء الخلافة

انتشر الإسلام في الأراضي التي تشملها اليوم دولة موريتانيا في وقتٍ مبكّرٍ يعود إلى القرن الأول والثاني الهجريين ، وخاصةً أيام دولة الأدارسة حيث انضمّت ديار الملثّمين من بطون صنهاجة [جدالة - لمتونة - مسوفة] تحت لوائهم ، وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، ونتج عن ذلك تحالفٌ قوي بين بطون صنهاجة المختلفة بزعامة لمتونة ، وأخذ الحلف يتوسّع نحو الجنوب لقوة الأدارسة وحلفائهم من زناتة ومصمودة في الشمال ، واصطدم هذا الحلف مع إمبراطورية غانا التي نشأت في بداية القرن الرابع الهجري .

ويبدو أن أحد الأشراف قد وصل إلى إمبراطورية غانا ، وأسّس مدينة (كومبي صالح) التي أصبحت عاصمة تلك الإمبراطورية ، وتقع جنوب شرقي مدينة (تومبوكتو) وعلى بعد سبعين كيلومتراً منها ، وكانت قد توسّعت هذه الإمبراطورية حتى شملت أراضي موريتانيا اليوم .

وفي ٤٢٧هـ سافر أمير الملثّمين يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وفي طريق عودته مرّ بمدينة القيروان ، والتقى بأبي عمران الفاسي ، وشكا له جهل الملثّمين بالإسلام ، فكتب له رسالةً إلى « وكّاك بن زلو اللمطي » بمدينة « نفيس » بجنوب المغرب ليساعده على تعليم الملثّمين على أمور دينهم ، فانتدب له « وكّاك » عبد الله بن ياسين الجزولي ليرافقه إلى ديار الملثّمين ، فسار معه ، ولكن عبد الله وجد معارضةً شديدةً من الملثّمين أو

صعوبةً في تعليمهم ، فنفوسهم لم تعتد على الطاعة ، كما لم تعتد على اتباع أخلاقٍ معينةٍ ، وانقيادٍ لسلوكٍ معين ، ونتيجة هذه الصعوبة التي وجدها قرر الاعتكاف ، فأوى إلى جزيرةٍ صغيرةٍ عند مصب نهر السنغال ، ولم يفارق يحيى بن إبراهيم الشيخ عبد الله وفاءً للشيخ لما كان قد وعده عندما سار معه وتقديراً له ، كما نزل معهما عددٌ ممن تأثّر بالشيخ ، وبنوا لهم مقرًّا في موقع (تيدرة) شمال (نواكشوط) وعلى بعد ستين كيلومتراً منها إلى جهة الشمال ، وأطلقوا عليه اسم (الرباط) ، وبعد عشر سنوات تكاثر عدد الأتباع ، فخرجوا من رباطهم معلنين الجهاد ، واستشهد يحيى في المعركة التي فُتحت فيها مدينة (أودغشت) فخلفه في زعامة المرابطين يحيى بن عمر اللمتوني ، وجاء بعده أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني ، ولم يمضِ وقتٍ طويل حتى استشهد عبد الله بن ياسين في الحرب التي دارت بينهم وبين قبيلة « برغوطة » .

وفي هذه المرحلة قامت دولةٌ للتكرور ، وكان لأميرها « وارجبي » صلةٌ وثيقةٌ مع أبي بكر بن عمر اللمتوني . وقد حكمت هذه الدولة جزءاً صغيراً من الأراضي التي تُعرف اليوم باسم موريتانيا . وعاون أبا بكرٍ ابن عمه يوسف بن تاشفين ، ثم وقع الخلاف بينهما ، إذ سار يوسف نحو الشمال ، واتخذ أبو بكرٍ طريقه نحو الجنوب ، وأخذ يدعو إلى الإسلام ، ولم يلبث أن تُوفّي عام ٤٨٠هـ . وضعف أمر المرابطين في الجنوب بعده فاستقلّ حكام غانا من قبيلة السوننكي ، وأعلنوا ارتباطهم بالدولة العباسية .

وفي عام ٦٣٨هـ قامت دولة مالي ، وامتدّ نفوذها حتى شمل الأجزاء الشرقية من الأراضي الموريتانية .

وفي هذه الأثناء كان بنو هلال قد توجّهوا إلى بلاد المغرب ، وقد نزح قسمٌ منهم ، وهم بنو معقل ، إلى الجنوب ، ومن بني معقل بنو حسان الذين توزّعوا في تلك المناطق ، واستقرّ قسمٌ منهم عند مصب نهر السنغال وإلى الشمال منه ، ومن هؤلاء : الذين يعرفون اليوم باسم « الترارزة » ، ويدّعي الحسانيون أنهم يعودون في أصولهم إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما .

وأسّس الحسانيون عـدة إماراتٍ ، ومن أهمّهـا : إمارة أولاد رزق بن ودي بن حسان ، وقد حكمت منطقة الترارزة ، وبراكنة ، واستمرّ سلطانهم من القرن التاسع إلى الحادي عشر الهجريين ، ثم تغلّب عليهم بنـو عمهم المغافرة ، فأنشأوا عدة إماراتٍ منها :

١ ـ إمارة الترارزة : ومؤسسها أحمد بن دامان ، وهو الذي انتصر على أولاد رزق في معركة « انتيتام » عام ١٠٤٠هـ ، وقد بقيت هذه الإمارة حتى جاء الاستعمار ، وقاعدتها (بوتيليميت) .

٢ ـ إمارة البراكنـة : واستمرّت حتى جـاء الفرنسيـون ، وحاضرتهـا مدينـة (إلاك) .

٣ ـ إمارة أولاد مبارك : التي حكمت منطقة الحوض ، وكانت عاصمتها مدينة (العيون) .

٤ ـ إمارة أهل يحيى بن عثمان : وقد حكمت منطقة أدرار ، وأسسها عثمان بن الفضيل حوالي عام ١١٤٥هـ ، واستمرّت حتى جاء الاستعمار الصليبي ، وعاصمتها مدينة (أطار) ، ومن مدنها الرئيسية (شنقيط) .

٥ ـ إمارة أدوغيش الصنهاجية : وقامت في القـرن الحادي عشر الهجـري ، وانشقّت منها إمارتان فرعيتان هما :

١ ـ إمارة تاغنت : وقاعدتها مدينة (تجكجكة) .

٢ ـ إمارة العصابة : وقاعدتها مدينة (كيفا) .

٦ ـ إمارة مشطوف في الحوض : وهي إمارةٌ صنهاجيةٌ أيضاً .

٧ ـ إمارة نواذيبو : وقاعدتها (ايتين) .

قامت هذه الأمارات على أيدي القبائل المحاربـة ، وفي الوقت نفسـه حاول أهل الزوايا [جماعات العلم] إقامة دولةٍ لهم في القرن الحـادي عشر بقيادة أوبك (أبو بكر) بن أبُهُم ، الملقّب ناصر الدين ، الذي نهض حوالي عام ١٠٤٥هـ ، وبايعته قبائـل الجنوب ، وعمـل لنشر الإسلام ، ودخـول السودان الغربي ، وتصـدّى للمؤسسات الاستعـمارية الصليبيـة التي أخذت

تنتشر ، وخاصةً الفرنسية منها ، وقد ألغى تجارة الرقيق ، وحاول إخضاع القبائل العربية المحاربة صاحبة الإمارت المذكورة ، فحدثت حربٌ أهليةٌ ، قُتل فيها ناصر الدين عام ١٠٨٥هـ ، وفشلت محاولة الزوايا ، وتعزّز موقف الإمارات الحسانية والصنهاجية .

وقامت دولةٌ في حوض نهر السنغال ، وكان من أهمّها دول المامي (الأئمة) ، وظهر منها الحاج عمر في منطقة (فوتا) و (والو) ، وقاوم الفرنسيين ، واستشهد في إحدى معاركه عام ١٢٨٢هـ ، واختلف أبناؤه من بعده ، فسيطرت فرنسا على الضفة اليسرى لنهر السنغال عام ١٣٠٩هـ ، ثم تقدّمت بعد هزيمة أحمد بن الحاج عمر ، والذي توفي عام ١٣١٦هـ . وقد دانت بعض أجزاء موريتانيا لهذه الدولة .

ولما كانت هذه الإمارات صغيرةً ، وغير موحّدةً فيما بينها ، لذا فقد كانت تخضع للدول الكبيرة التي تقوم في المنطقة ، وغالباً ما كانت تخضع للحكم المغربي ، ويعدّها المغاربة جزءاً من أرضهم ، وخاصةً في أيام القوة ، أو نستطيع أن نقول : إن الحكم المغربي عندما يقوى تفقد الإمارات الحسانية والصنهاجية شيئاً من نفوذها، فإذا ما ضعفت المغرب عادت لتلك الإمارات قوتها ونفوذها، ولكن في حالة الضعف أو في حالة القوة فإن هذه الإمارات تخضع للحكم المغربي، ولكن يختلف الأمر بين أن يكون اسمياً وبين أن يكون حقيقياً يفرض هيبته ويصدر أوامره.

ولكن هذه التجزئة وذلك الضعف الذي حلّ بالحكم المغربي قد شجّع الصليبيين المستعمرين للتقدّم من السواحل إلى الداخل ، ولم يجد الاستعمار أمامه ذلك السدّ القوي أو الدولة المتماسكة القوية ، وإنما وجد إماراتٍ ضعيفةٍ لا رباط بينها ، فتقدّم بسهولةٍ ، وتمكّن من إحراز النصر . ولما أحسّت هذه الإمارات بالخطر لم تسرع إلى التوحّد والوقوف صفّاً واحداً في وجه المستعمرين الصليبيين ، وإنما بقيت على وضعها رغم المدة الطويلة التي بقي فيها الأوربيون على السواحل يتحفّزون للتقدم إلى الداخل غير أنهم كانوا خائفين من الصدام

مع المسلمين ، ولكن بعد أن درسوا الوضع ، وعرفوا حقيقة الأمر تقدّموا والتهموا الإمارة تلو الإمارة حتى ابتلعوها جميعاً .

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع دائراً على أشدّه بين المسلمين والنصارى في الأندلس أي في القرن التاسع الهجري أخذ نصارى البرتغال يفكّرون بالإبحار جنوباً على سواحل المحيط الأطلسي للوصول إلى مراكز حصينةٍ ، ومنازلة المسلمين منها ، وبذا يُحكمون الضغط عليهم من جهتين : من الشمال من الأندلس ، ومن الجنوب من هذه المراكز ، أو على الأقل يشاغلون مسلمي المغرب ، فيصرفونهم عن التفكير في مساعدة مسلمي الأندلس ، وفي الوقت نفسه ينطلق نصارى الإسبان على سواحل البحر المتوسط للغرض نفسه ، وقد تمكّن الطرفان من تحقيق بعض النجاح ، واحتلال مراكز لهم على السواحل التي انطلقوا نحوها .

وشاء الله أن يُهزم المسلمون في الأندلس ؛ لما أحدثوه ، ولانصرافهم إلى أمور الدنيا ، ولهوهم ، واختلافهم فيما بينهم ، وطُردوا من الأندلس عام ٨٩٨هـ ، وهذا ما دفع النصارى إلى إكمال مخططاتهم التي بدؤوها ، فتابع البرتغاليون سيرهم للهدف نفسه ، وهو تطويق المسلمين للقضاء عليهم ، وإبادتهم نهائياً في العالم كله بعد أن قضوا عليهم وأخرجوهم من الأندلس، ووصل البرتغاليون إلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية ، والتفّوا حولها ، ووصلوا إلى أرض العرب ، واحتلّوا عدن ، ونزلوا في الخليج العربي ، ووصلوا إلى الهند ، وماليزيا ، وأندونيسيا . وأما الإسبان فقد ساروا غرباً بالتفاهم مع البرتغاليين ، وعرفوا أمريكا ، وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ما أطلقوا عليه اسم الفيليبين على اسم ملكهم ، وعادوا عن الطريق التى عرفها البرتغاليون لأن المسلمين قد قتلوا طاغيتهم ماجلان ، وكثيراً ممن معه عندما أراد أن يحوّل المسلمين هناك بالقوة إلى نصارى .

أما المراكز البرتغالية التي أُقيمت على شواطىء المحيط الأطلسي في غربي إفريقية فقد أخذت تؤدّي مهمتها في تزويد القوافل البرتغالية المنطلقة على ذلك

الساحل لتتابع أهدافها ، وفي الوقت نفسه تقوم بالتجارة لتغذّي المقيمين فيها، والقادمين إليها، والراحلين منها، والظاعنين فيها، كما تمدّ بما تحصل عليه البرتغال الوطن الأم . وقد أثمر العمل التجاري جيداً لكثرة هذه المراكز ، ومواقعها على أرضٍ بكرٍ، وبساطة أهلها ، وغنى أرضهم ، ووجود خيراتٍ كثيرةٍ لم تعرفها أوربا بعد مع عظيم فائدتها .

أخذت الدول الأوربية الأخرى تحسد البرتغاليين على غناهم ، وترى أنهم قد استأثروا بالخير كله لهم ، مع أن دول أوربا كلها كانت وراءهم تمدّهم وتدعمهم في صراعهم مع المسلمين ، وكان للجشع أثره إذ أصبحت الدول الأوربية تنافس البرتغال ، وتنطلق على سواحل المحيط الأطلسي تتخذ لنفسها مراكز كمحطات البرتغاليين وإلى جانبهم ، ولا بدّ من أن يقع التنافس ، وقد وقع ، ولكن لم يغيّر هذا واقع المنطلق الأساسي لهذا التحرّك ، وهو الدافع الصليبي ، الذي نسيه بعضهم عمداً ، ورأى بعضهم هذا الجانب المادي فقط ؛ جهلاً ، أو لعدم النظر إلى الماضي إبعاداً عن الأثر الديني خطةً ، هذا بالنسبة إلى الصليبيين؛ أما بالنسبة إلى غيرهم فهو عميً، وأخذاً من النصارى من غير تفكيرٍ وتحليلٍ للواقع .

وصل الإسبان بعد البرتغاليين ، ولحق بهم الهولنديون ، وتبعهم الفرنسيون ، وسار إثرهم الإنكليز ، ووقعت المنافسة ، وزاد الطمع في الحصول على الصمغ العربي ، ثم كانت الاتفاقات على تقاسم مناطق النفوذ وجهات الاستغلال، وأعطيت منطقة السنغال إلى فرنسا إثر الحروب النابليونية باتفاقية باريس عام ١٢٣٠هـ ، وأخذ الفرنسيون بعدها يتحرّكون بحذرٍ نحو الداخل عبر نهر السنغال ، وأخذوا يقيمون مراكز لهم على طول مجرى النهر يختطفون الرفيق ، ويجمعون الصمغ العربي ، وجرت اعتداءات من قبل السكان على هذه المراكز بسبب هذه التصرّفات ، فثارت ثائرة الدخلاء ، كيف تحدث مثل هذه الاعتداءات ؟! وهل يصحّ أن يثور الأهالي لكرامتهم ؟! وهل يتحرّك السكان فيما إذا اختطفت أبناؤهم، أو أهينت كرامتهم، أو اعتدي على

أملاكهم ؟! ورأى هؤلاء المستعمرون أنه من الضرورة استعمار هذه المناطق ، واستعباد أهلها لتأديبهم .

وقامت حركة عام ١٣١٨هـ بقيادة الشيخ ماء العينين ، هدفها مقاومة تغلغل النفوذ الفرنسي ، غير أنها قد فشلت ، إذ استطاع القائد الفرنسي « كافيار كوبولاني » استغلال الخلافات القائمة بين القبائل ، فأثارها ، واخذ الحيلة والوقيعة ديدنه ، ورجال القبائل بسيطة لا تعرف المكر والخداع ، وطلبت إحدى القبائل الحماية الفرنسية خوفاً من خصومها ، فأسرع « كوبولاني » واحتلّ منطقة (الترارزا) عام ١٣٢١هـ ، ثم منطقة (براكنا) عام ١٣٢٢هـ ، وأتبعها بمنطقة (تاغنت) عام ١٣٢٣هـ ، وهذا كله بعد الاتفاق مع الإسبان ، إذ كان التفاهم على أن تأخذ فرنسا المنطقة التي عُرفت فيما بعد باسم (موريتانيا) ، وأن تأخذ إسبانيا الصحراء المغربية ، والتي أطلقوا عليها اسم ساقية الذهب ، أو حسب الاصطلاح الإسباني (ريو دو أورو) ، واضطرّ السلطان عبد العزيز إلى القبول بالأمر الواقع عام ١٣١٩هـ ، وبذا أصبحت منطقة موريتانيا ضمن دائرة النفوذ الفرنسي ، وأخذت فرنسا تتصرّف فيها ، وتدخل إلى مناطقها ؛ منطقةً بعد أخرى ، بموافقة إسبانيا وعلى تفاهمٍ معها ، وسكوتٍ من الدول الأخرى التي نالت كلٌّ منها نصيبها في جهةٍ أخرى ، والسلطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً بعد أن وافق مُكرهاً ، فأصبح أسير توقيعه .

همّ «كوبولاني» بالتحرّك نحو منطقة (أدرار) ، غير أنه قد لَقي حتفه إذ اغتاله الشريف « زين » أخو السلطان عبد العزيز ، ثم استشهد الشريف « زين » في المعركة نفسها ، فتولّى قيادة الفرنسيين إثر ذلك الجنرال « مانغان » ، فزحف نحو (أدرار) ، فوقف في وجهه الشيخ « ماء العينين » الذي أعلن الجهاد المقدّس ، وطلب من سلطان المغرب مساعدته ، فأرسل إليه حملةً بقيادة الأمير إدريس ، ووصلت الحملة إلى (أدرار) ، وأخذت بالاستعداد للمواجهة . وتولّى أمر القيادة في هذه الأثناء الجنرال « غورو »

الصليبي المعروف ، الذي دخل دمشق إثر معركة ميسلون في ٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ .

واستمرّت المعارك بين الطرفين عامين كاملين (١٣٢٦ ـ ١٣٢٨هـ) تمكّن الفرنسيون بعدها من بسط نفوذهم على منطقة (أدرار) بعد وفاة الشيخ ماء العينين .

وكان أمر المغرب قد ضعف ، فنودي بالشريف عبد الحفيظ في مراكش عام ١٣٢٥هـ، وكان نائباً عليها من قِبل أخيه عبد العزيز السلطان في (فاس) ، فانقسمت الدولة إلى قسمين : فاس ؛ ويقيم فيها السلطان عبد العزيز ، ومراكش ؛ ويقيم فيها السلطان عبد الحفيظ ، ثم خُلع عبد العزيز ، واستقرّ الوضع للسلطان عبد الحفيظ الذي ثارت عليه القبائل ، كما ثار عليه أخوه « زين » في (مكناس) وسيطر عليها ، وشكّل حكومةً خاصةً به فيها ، واضطرّ عبد الحفيظ إلى توقيع معاهدة الحماية مع فرنسا في ١٢ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ (٣٠ آذار ١٩١٢م) ، وأخيراً أجبر على التخلّي عن الحكم ، وتولّى مكانه أخوه « يوسف » في أول رمضان ١٣٣٠هـ (١٣ آب ١٩١٢م) ، وانتقل إلى مدينة الرباط التي أصبحت قاعدة الحكم ، ونتيجة هذا الضعف لم يبقَ أمام الفرنسيين قوةٌ رسميةٌ تقف في وجههم ، ولا سلطةٌ يمكنها أن تحدّ من نفوذهم ، فلا بدّ من قيام ثورةٍ تتسلّم السلطة في البلاد ، وتتولّى أمر الدفاع عنها .

ثار أحمد هبة الله بن الشيخ ماء العينين في منطقة موريتانيا ، ودعا إلى الجهاد ، وإنقاذ البلاد ؛ فقد خلت من الراعي ، وعمل فيها الذئب ، واتجه إلى مدينة مراكش وحاصرها ، ودخلها عنوةً ، وبويع فيها سلطاناً للمغرب الأقصى في اليوم الخامس من شهر رمضان من عام ١٣٣٠هـ ، أي بعد أربعة أيام من تولّي يوسف بن الحسن الأول السلطنة في فاس . فأرسلت فرنسا جيشاً إلى أحمد هبة الله ، فكان النصر إلى جانب المسلمين ـ بإذن الله ـ فعادت فرنسا إلى بعث حملةٍ ضخمةٍ إلى مراكش ، واتخذت الحيلة والخداع ، وقاتلت أحمد

هبة الله ، فهُزم ، وفرّ من مراكش ، فدخلها الفرنسيون ، أما هو فقد سار إلى (تارودانت) وتحصّن بها . غير أن فرنسا قد خافت النتيجة ، وقيام ثوراتٍ أخرى ، وحركاتٍ للمقاومة ؛ ليس في بلاد المغرب فحسب وإنما في كل مناطق النفوذ الفرنسي والمستعمرات ، وخاصةً أن نار الحرب العالمية الأولى قد اشتعلت ، وهذا ما يشجّع الحركات للوثوب بسبب انشغال فرنسا في أحداث الحرب ومشكلاتها الخاصة ، لذا أسرعت بإرسال حملةٍ أخذت تطارد أحمد هبة الله من موقعٍ إلى آخر حتى كان في (تندوف) ، فثبت رجاله هناك للقوات المعتدية ، وفتكوا بها ، وهذا ما زاد من معنوياتهم فعادت إليهم القوة ، ورجع من كان قد تملّكه الخوف فغادر .

جهّز الفرنسيون قوةً ضخمةً ضمّت جنوداً من المغرب ، والجزائر ، والسنغال ، ومالي ، بقيادة الجنرال « غورو » ، ودعمته بالطيران ، والمدفعية ، ووصل الجيش إلى (تنزيت) ، وهي البلدة التي توفي فيها الشيخ ماء العينين والد أحمد هبة الله ، فعسكر الأعداء ، وتعددت الوقائع بين الطرفين ، وكانت المعارك فيها سجالاً ، وبذل الفرنسيون الكثير ، وأعطوا الأماني المعسولة ، فانقسم رجال أحمد هبة الله على أنفسهم ، وقُتل الكثير من رجال القبائل ، وأصاب المرض القائد أحمد هبة الله ، وتُوفّي في (بكردوس) عام ١٣٣٧هـ ، فضعف رجاله من بعده ، وتمكّن منهم الفرنسيون ، وهكذا انتهت حركة أحمد هبة الله ـ رحمه الله ـ .

بعد الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) شعر الفرنسيون أن الوضع قد استقرّ لهم ، فعدّوا موريتانيا جزءاً من إفريقية الغربية الفرنسية ، ولكن الحركات عادت تظهر من جديد لتقاوم المستعمرين الصليبيين .

وكان من قادة المقاومة الذين يحفظ لهم التاريخ جهادهم إضافةً إلى من ذكرنا :

إبراهيم ديانكو ، وديرويكو فليل في غيدي وماغة ، وأمير البراكنة أحمد بن سيدي أعلي .

وأمير تاغنت بكار بن اسويد أحمد الذي استشهد في موقعة « تنقادوم » عام ١٣٢٣هـ .

وأمير أدرار سيدي أحمد بن سيدي أحمد بن عيده ، الذي استشهد في وديان الخروب عام ١٣٥٠هـ .

وأحمد بن الديد في منطقة الترارزة .

ومحمد تقي الله بن الشيخ علي .

ومحمد المختار بن الحامد ، والشيخ عابدين بن سيدي محمد الكنتي ، وأحمد حمادي ، وعلي بن مبارة .

الاستعمار بعد إلغاء الخلافة

ألغى مصطفى كمال الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وكانت موريتانيا قد غدت مستعمرةً فرنسيةً ، وجزءاً من إفريقية الغربية الفرنسية التي كانت تشمل : السنغال ، وغينيا ، وساحل العاج ، والداهومي [بنين] ، وموريتانيا ، ومالي ، والنيجر ، وفولتا العليا [بوركينافاسو].

ألغيت الخلافة والمقاومة لم تهدأ في موريتانيا ، إذ استمرّت حتى عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م) ، حيث تمكّن الفرنسيون من بسط سيطرتهم العسكرية على البلاد مستفيدين من تفوّقهم العسكري في الرجال والسلاح ، ومن الحصار الذي فرضوه على موريتانيا باحتلال المناطق المجاورة ، ومن التنسيق مع إسبانيا التي تحتلّ الصحراء ، ومن ضعف المسلمين يومذاك فليس من مُغيث ، وألغيت الخلافة فليس هناك من شاحذٍ للهمم ، ولا داعٍ للجهاد . والبلاد واسعة، والسكان قلّة مبعثرون في أرجائها ، فالإمكانات قليلة في نجاح مقاومةٍ مسلّحةٍ ، لذا فقد أخلد الناس إلى الهدوء ، ورعت فرنسا في البلاد كما شاء لها هواها .

واندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (١ أيلول ١٩٣٩م) ، فلم تهتمّ فرنسا ، إذ أنها كانت مطمئنةً في مرعاها .

ولكن إذا كان الأمل في السلاح ضعيفاً ، فإن التنظيم والتهيئة للعمل السياسي ممكن ، كما أن المدارس مكان لبثّ روح الوطنية ، وإذكاء مفهوم

الجهاد ، وتحريض على مقاطعة المؤسسات المدرسية والإدارية الفرنسية . ولهذا فرضت فرنسا رقابةً شديدةً على تحرّكات الشيوخ داخل البلاد ، واعتقلت بعضهم ، ونفت بعضهم الآخر مثل الشيخ حماه الله الذي نفته إلى بلاد ساحل العاج . وكان العلماء وشيوخ الزوايا هم القوّة المحرّكة والدافعة للعمل على التنظيم واستقلال البلاد .

ونصّ دستور فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية على إيجاد مجلسٍ عامٍّ في كل اتحاد ، ويُنتخب أعضاؤه من بين الجمعيات الإقليمية في وحدات الاتحاد ، وكانت قوانين الانتخابات معقّدة ، وقد صوّت الموريتانيون لصالح أحمد بن حرمة بابانا ضدّ منافسه الفرنسي « رازاك » ، وقد نجح في الانتخابات ، وكانت له مواقف طيبة في المجلس النيابي الفرنسي ، وقد حصل أحمد بن حرمة على أربعة آلاف صوتٍ على حين لم يحصل « رازاك » إلّا على ثلاثة آلاف صوتٍ رغم التهديدات ، وإجراءات العنف التي فرضتها السلطات الحاكمة .

وبدأت تظهر بوادر الدعوة إلى الاستقلال ، والعمل على التنظيم ، فظهر حزبان هما :

١ ـ حزب الاتحاد الوطني .
٢ ـ حزب منظمات الشباب .

وانحصرت مطالب الحزبين بالمطالبة بالاستقلال المباشر ، والحرية العامة ، وبعدئذٍ اندمجت الحركة الوطنية في حزبٍ واحدٍ ١٣٦٧هـ ، هو حزب التفاهم الموريتاني ، ويهدف إلى توحيد جهود الموريتانيين بعد أن فرقتهم السياسة الفرنسية ؛ متخذةً العصبية القبلية وسيلةً للتفرقة ، ولكن لم يمضِ كبير وقتٍ حتى عاد الانقسام ، فظهر :

١ ـ حزب التفاهم الموريتاني ، وزعميه أحمد بن حرمة بن بابانا، ومن أعضائه البارزين المختار الحامد .
٢ ـ حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني ، وزعميه المختار أنجاي .

وقد فاز حزب الاتحاد التقدمي في الانتخابات التي جرت عام ١٣٧١هـ ، وأصبح المختار أنجاي نائباً في الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس عام ١٣٧٦هـ . أما أحمد بن حرمة فقد غادر موريتانيا وانتقل إلى المغرب حيث كان قد عاد الملك محمد الخامس ملك المغرب من المنفى ، وينتمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، كما يقول بالانتماء نفسه أحمد بن حرمة ، وقد جُعل هذا صلة للتقارب بينهما .

وفي عام ١٣٧٦هـ عُدّل الدستور الفرنسي ، وأصبح يقوم بجانب المجلس الوطني الإقليمي مجلسٌ تنفيذيٌّ يمثِّل السلطة، ويرأس هذا المجلس التنفيذي حاكم الإقليم الذي يعيّن قسماً من المجلس ، بينما يؤخذ القسم الثاني بالانتخابات .

وفي منتصف عام ١٣٧٧هـ (أوائل عام ١٩٥٨م) تألّفت لجنةٌ ممثّلةٌ للحزبين في موريتانيا : حزب التفاهم ، وحزب الاتحاد التقدمي ، وقد قررت هذه اللجنة دمج الحزبين بعضهما مع بعض ، فنشأ حزبٌ جديدٌ بعد دمج الحزبين أطلق عليه حزب التجمع الموريتاني . وكانت الفكرة الأساسية لكل التجمعات التي حدثت إنما هي الدعوة إلى الاستقلال ، وإنما يحدث الاختلاف والانشقاق لقضايا شخصية ، وإلاّ فالفكرة واحدة ، وقد تمّ هذا الدمج لمواجهة جناح حزب التفاهم الموريتاني القائم في المغرب .

وفي عام ١٣٧٦هـ عُقد مؤتمرٌ في باماكو عاصمة مالي يضمّ ممثّلي أقاليم إفريقية الغربية ، وكان من مقرراته ضرورة إعتراف فرنسا بحق تقرير المصير إذ يخشى من اندلاع حركات المقاومة في هذه الأقاليم على شكل ثورة كما حدث في الجزائر ، وأصدر رئيس وزراء فرنسا « غي موليه » قانون الإصلاح الإداري في ١رمضان ١٣٧٦ه (٣١ اذار ١٩٥٧م) ، والذي ينصّ على إجراء انتخابات في كل آقليمٍ لاختيار جمعيات عامّة تولّى تشكيل الوزارة . وفي ٢١ شوال ١٣٧٦هـ (٢٠ أيار ١٩٥٧م) تشكّلت أول حكومة ذات استقلال ذاتي في موريتانيا .

وأوجدت السلطات الفرنسية نظاماً خاصاً أسمته استقلالاً داخلياً ، حيث عيّنت إلى جانب الحاكم العام شخصاً موريتانياً أسمته نائب رئيس المجلس ، وكانت الحكومة صورية .

وفي شوال من عام ١٣٧٧هـ (أيار ١٩٥٨م) جاء ديغول إلى الحكم في فرنسا ، وفكّر في الحفاظ على مستعمرات فرنسا فيها وراء البحار ، فعرض دستوره الذي يعطي الحرية لكل إقليم في أن يصوّت بـ « نعم » أو « لا » ، وينصّ على أن البلدان التي تصوّت بـ « نعم » أي تقبل الدستور تصبح أعضاء في مجموعة الشعوب الفرنسية ، وتشكّل حكوماتٍ محليةً ،وتتمتّع بالاستقلال الداخلي ، على أن تكون السلطة المركزية لفرنسا في الدفاع ، والاقتصاد ، والشؤون الخارجية . كما يمكن أن يُعقد اتحادٌ مركزيٌّ بين بلدين أو عضوين في مجموعة الشعوب الفرنسية . أما الأقاليم التي تصوّت بـ « لا » أي لا توافق على الدستور فتحصل على الاستقلال التام ، وعندها تقطع فرنسا مباشرةً كل معونةٍ ؛ فنية كانت ، أم مالية ، أم إدراية . وقد صحب هذا العرض كثير من التهديدات ، حتى إن الكثير من السكان قد قاطع الاستفتاء .

وفي ١٥ ربيع الأول من عام ١٣٧٨هـ (٢٨ أيلول ١٩٥٨م) جرى الاستفتاء ، وكان التصويت في موريتانيا بجانب دستور ديغول ، وبذا أصبحت موريتانيا ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية ، وتتمتّع بالاستقلال الداخلي . وأصبح نائب رئيس المجلس الموريتاني وزيراً أول ، ولكن بقيت السلطات بيد الحاكم العام .

وبقي حزب التجمع الموريتاني يعمل ضمن هذا الخط ، وكانت وزارة مختار ولده داده تسير على هذا المنهج .

بعد نتيجة عام ١٣٧٨هـ (آب ١٩٥٨م) نشأ حزبٌ جديدٌ ، هو حزب النهضة ، ويدعو إلى استقلال موريتانيا التام ، ثم ضمّها إلى الوطن الأم المغرب ، وعدّ موريتانيا جزءاً من المغرب لا يتجزّأ ، ويعدّ هذا الحزب ، هو

الحزب المعارض ، وكان من زعمائه :

١ ـ محمد فال ولد عمير ، أمير الترارزة .

٢ ـ محمد المختار ولد أباه ، وزير التربية والتعليم في وزارة المختار ولد داده الأولى .

٣ ـ الشيخ أحمدو ، رئيس الشبيبة الموريتانية .

٤ ـ أحمد بن حرمة ولد بابانا رئيس حزب التفاهم الموريتاني سابقاً .

٥ ـ الدّيّ بن سيدي بابا ، وزير التجارة والصناعة والمعادن في وزارة المختار ولد داده الأولى .

ويعيش هؤلاء القادة لاجئون في المغرب ، ويؤيّدون مطالبة المغرب بموريتانيا ، ويؤيّد هذا أيضاً منظمة الشباب الموريتاني .

وفي مطلع عام ١٣٧٩هـ (تموز ١٩٥٩م) نشأ حزب الاتحاد الوطني الموريتاني الذي يُعدّ فرعاً من حزب الاتحاد الإفريقي ، ويمثّله المختار أنجاي الذي كان رئيس حزب الاتحاد التقدمي سابقاً . ولكن هذا الحزب كان ضعيفاً ، وزاد ضعفه عندما فُصمت عرا الاتحاد بين مالي والسنغال ، ويعود المختار أنجاي في أصله إلى مدينة (سان لويس) السنغالية .

وجرت الانتخابات ، وتشكّلت الجمعية التأسيسية ، وقُدّم الدستور إلى الجمعية الوطنية ، فوافقت عليه في ١٣ رمضان ١٣٧٨هـ (٢٢ آذار ١٩٥٩م) ، وكان مما جاء في الدستور :

المادة الأولى : اسم البلاد : الجمهورية الإسلامية الموريتانية .

المادة الثانية : دين الشعب الموريتاني هو الإسلام .

المادة الثالثة : اللغة الوطنية في موريتانيا هي العربية ، واللغة الرسمية هي الفرنسية .

المادة الرابعة : عاصمة البلاد هي نواكشوط .

المادة الخامسة : الراية الوطنية هي : علم أخضر ، فيه هلال ، ونجمان ذهبيان .

المادة الرابعة والستون : الشريعة المدنية ، الفقه الإسلامي ، تتحرّى الدولة وتحكم حسب الفقه الإسلامي في جميع الدوائر المدنية والتجارية، وتصدر أحكامها باسم الشعب الموريتاني.

أخذت المغرب تطالب بضم موريتانيا إليها على أنها جزءٌ من أراضيها ، وقد عرضت على الجمعية العمومية للأمم المتحدة في دورتها الرابعة عشرة عام (١٩٥٩م) وتقدّمت الأردن ، وليبيا ، وأندونيسيا بمشروعٍ يدعو إلى إجراء استفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة ، غير أن هذا المشروع سُحب ، وتقدّمت العراق بمشروعٍ يدعو إلى إجراء مفاوضاتٍ بين المغرب وفرنسا على أساس حق تقرير المصير ، ولكن فشل إذ صوّتت تسعاً وثلاثون دولـة ضدّه ، وامتنعت خمسٌ وعشرون دولةً عن التصويت .

وإن محـرّكي الأمم المتحدة لا يـريـدون هـذا الانضـمام بـين المغـرب وموريتانيا ، إذ تصبح دولة المغرب غنيةً وكبيرةً ، وهذا ما لا يريدون ، فربما طالبت دولٌ أخرى بمثل هذا الانضمام ، أو انطلقت منها دعوةٌ لجمع الدول الإسلامية ، وهذا ما يخشـاه الصليبيون أصحـاب اللعب الدوليـة . وأخيراً قررت الجمعية السياسية للأمم المتحدة منح موريتانيا الاستقلال في ٧ جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ (٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٠م) ، ونالت موريتانيا الاستقلال بعد يومين من هذا التاريخ . واعترفت بالدولة الجديدة أربـع وأربعون دولةً مباشرة. وأقامت موريتانيا الاحتفالات بهذه المناسبة، ولم تشارك الدول العربية بهذه الاحتفالات ، حيث لم تعترف آنذاك بفصل جزءٍ من بلدٍ عربيٍّ هو عضوٌ في جامعة الدول العربية ، ولم تشارك في هذه الإحتفالات من الدول العربية سوى تونس . ودخلت موريتانيا الأمم المتحدة ، وقُبلت عضواً فيها . وتأخرت البلدان العربية بالاعتراف بدولة موريتانيا ، ثم ثابت إلى رشدها واعترفت ، إذ

لايصحّ أن تُترك موريتانيا تُخطط لنفسها بعيداً عن أخواتها البلدان العربية ، وأصبحت عضواً في جامعة الدول العربية[1] .

---

(١) كان رئيس الجمعية الوطنية يوم الاستقلال : سيدي المختار نديا .
وكان نوابه كل من : بونا مختار .
كيب أمادولامين .
سليمان ولد شيخ سيدا .

أما الأحزاب الموريتانية يومذاك فهي :
١ ـ حزب التجمع الموريتاني : وأمينه العام مختار ولد داده .
٢ ـ حزب الاتحاد الوطني الموريتاني : ورئيسه هد رامي ولد خطاري .
٣ ـ الاتحاد الشعبي الإسلامي في موريتانيا : ورئيسه أحمد ولد خير كوب ، ويدعو إلى الاتحاد مع المغرب .

الاستقلال

نالت موريتانيا الاستقلال في ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٠م) ، واختير مختار ولد داده[١] رئيساً للدولة الجديدة ، وألغيت وظيفة الحاكم العام ، وتمّ اعتقال كثيرٍ من قادة الحركة الوطنية مُمثّلين في حزب النهضة . وتشكّلت وزارةٌ جديدةٌ[٢] .

---

(١) مختار ولد داده : عمل مترجماً لدى الإدارة الفرنسية ، وتزوج امرأة فرنسية تدعى : « ماري تيريز » ، وبقيت الثقافة الفرنسية هي السائدة مدة حكمه ، فكانت هذه أكبر خدمة للمستعمرين الفرنسيين .

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ موريس كومباغني : وزير المالية .
٣ ـ باما مادوسامبا : وزير التخطيط ، والإسكان ، والسياحة .
٤ ـ أمادو دياري سامبا ديوم : وزير العمل الشعبي ، والنقل ، والبريد ، والاتصالات .
٥ ـ محمد المختار ديت معروف : وزير الطرق ، والصناعة ، والتعدين .
٦ ـ شيخنا ولد محمد لاغداف : وزير العدل .
٧ ـ سيدي محمد ديت دوين : وزير التعليم ، والشباب ، والإعلام ، والداخلية .
٨ ـ سيدي أحمد لهبيب : وزير الخدمة العامة والعمل .
٩ ـ حمود ولد أحمدو : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ أبل كامبورسي : الأمين العام لمجلس الوزراء .

ملاحظة : ١ ـ يلاحظ عدم ملء وزارتي الدفاع والخارجية ، إذ بقيتا بيد فرنسا . =

وفي ٦ ذي الحجة ١٣٨٠هـ (٢٠ أيار ١٩٦١م) تمّت المصادقة على أول دستورٍ للدولة الموريتانية المستقّلة .

وفي ١٥ ربيع الثاني ١٣٨١هـ (٢٥ أيلول ١٩٦١م) قبل حزب النهضة المعارض المشاركة في الحكم ، وحلّ نفسه ، كما حلّت الأحزاب الأخرى نفسها ، وهي : حزب التجمّع الموريتاني الحزب الحاكم ، وحزب الاتحاد الوطني الديمقراطي ، وحزب الاتحاد الاشتراكي للمسلمين والموريتانيين ، وتألّف من هذه الأحزاب كلها حزبٌ واحدٌ ، هو حزب الشعب الجمهوري الموريتاني ، وتشكّلت بعدها وزارةٌ[1] ضمَّت بعض رجالات هذه الأحزاب الذين كانوا في صف المعارضة .

وضرب الرئيس مختار ولد داده عملةً خاصةً بالبلاد ، أسماها « أوقية » ، وأمّم شركة المعادن في سبيل بناء اقتصادٍ مستقلّ ، وكانت قد تشكّلت وزراةٌ

= ٢ ـ إبقاء وزارة المالية بيد نصراني فرنسي وكذلك عُهد لفرنسي آخر منصب الأمين العام لمجلس الوزراء .

(١) كانت الوزارة في شهر ذي القعدة ١٣٨١هـ (نيسان ١٩٦٢م) على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء ، وزير الشؤون الخارجية ، وزير الدفاع الوطني .
٢ ـ باما مادوسامبا بولي : وزير المالية .
٣ ـ محمد المختار معروف : وزير التخطيط .
٤ ـ داده ولد سيدي هيبا : وزير الاقتصاد والتعاون .
٥ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير العمران .
٦ ـ باولدني : وزير التعليم وشؤون الشباب .
٧ ـ بابوكر ألفا : وزير الصحة ، والعمل ، والشؤون الاجتماعية .
٨ ـ سيدي محمد دين : وزير الداخلية .
٩ ـ هاد رامي ولد خطار : وزير العدل .
١٠ ـ دي ولد إبراهيم : وزير الإعلام .
١١ ـ بويا غوي ولد عابدين : وزير النقل ، والبريد ، والاتصالات .

جديدةٌ[1] .

وفي عام ١٣٨٤هـ أقرّت الدولة نظام الحزب الواحد ، ولم تسمح بوجود أي حزبٍ آخر سوى حزبها الحاكم حزب « الشعب الجمهوري الموريتاني » .

وفي ١١ شوال ١٣٨٤هـ (١٢ شباط ١٩٦٥م) عُدّل الدستور لمصلحة السلطة الحاكمة ، ثم عُدِّل مرةً أخرى في ٢٤ ربيع الأول ١٣٨٦هـ (١٢ تموز ١٩٦٦م) لإمكانية إعادة انتخاب مختار ولد داده رئيساً للبلاد ، وتجدّدت رئاسته بعد شهر وبعد إجراء ذلك التعديل ، ثم عادت السلطة فعدّلته مرةً ثالثةً في شهر ذي القعدة ١٣٨٧هـ (شباط ١٩٦٨م) .

وكانت وزارة جديدة في رمضان ١٣٨٨هـ (كانون الأول ١٩٦٨م)[2] .

---

(١) كانت الوزارة في شهر ذي القعدة ١٣٨٢هـ (نيسان ١٩٦٣م) على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع الوطني .
٢ ـ شيخنا ولد محمد لاغداف : وزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ باما مادو سامبا بولي : وزير المالية .
٤ ـ محمد المختار معروف : وزير التخطيط .
٥ ـ داده ولد سيدي هيبا : وزيرر الاقتصاد والتعاون .
٦ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير الداخلية .
٧ ـ باولدني : وزير العدل .
٨ ـ بابوكر ألفا : وزير الصحة ، والعمل ، والشؤون الاجتماعية .
٩ ـ سيدي محمد ولد ديت دين : وزير العمران .
١٠ ـ هاد رامي ولد خطار : وزير التعليم وشؤون الشباب .
١١ ـ يحيى ولد مونكوس : وزير الإعلام .
١٢ ـ محمد ولد عبد الرحمن : وزير النقل ، والبريد ، والاتصالات .

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .
٢ ـ حمدي ولد مكناس : وزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ إبراهيم ولد محمد لاغداف : وزير الدفاع الوطني .
=

وأعيد انتخاب الرئيس مختار ولد داده للمرة الثالثة في جمادى الآخرة ١٣٩١هـ (آب ١٩٧١م) ، وأخذت البلاد تتعرّض للجفاف الذي هجم على الدول الإفريقية منذ ذلك العام ، وكانت الوزراة في شهر صفر ١٣٩٢هـ (نيسان ١٩٧٢م) على النحو المبين أدناه[1] .

= ٤ ـ ملام ولد إبراهيم : وزير العدل ، وحارس الأختام .
٥ ـ عبد العزيز سال : وزير الداخلية .
٦ ـ مختار ولد هيبا : وزير التخطيط ، والتنمية الريفية .
٧ ـ سيدي محمد دياغانا : وزير المالية .
٨ ـ محمد سالم ولد ختيرات : وزير التشييد والتعدين .
٩ ـ عبد الله ولد سيديا : وزير التجارة ، والنقل ، والسياحة .
١٠ ـ الي ولد علاّف : وزير التجهيزات .
١١ ـ أحمد بن عمار : وزير التعليم .
١٢ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير الشباب ، والثقافة ، والشؤون الإعلامية .
١٣ ـ غادينغا سامبا : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١٤ ـ بارو عبدولايه : المندوب السامي للتعليم المهني وتدريب الموظفين .

(١) كانت الوزارة كما يلي :
١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .
٢ ـ حمدي ولد مكناس : وزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ سيدي محمد دياغانا : وزير الدفاع الوطني .
٤ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير العدل ، وحارس الأختام .
٥ ـ أحمد بن عمار : وزير الداخلية .
٦ ـ محمد ولد شيخ سيدي : وزير التخطيط ، والبحث .
٧ ـ صومار ديارامونا : وزير المالية .
٨ ـ أحمد ولد سيدي بابا : وزير الثقافة والإعلام .
٩ ـ مامادو العسّان : وزير التعليم الثانوي ، والشباب والرياضة .
١٠ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير الصناعة والمعادن .
١١ ـ أحمد ولد عبد الله : وزير التجارة ، والنقل ، والسياحة .
١٢ ـ عبد الله ولد داده : وزير التجهيزات .
١٣ ـ عبد الله ولد بوي : وزير التعليم الديني ، والشؤون الدينية . =

وبدأ الخلاف بين المغرب ، وموريتانيا ، والجزائر ؛ على الصحراء المغربية ، ووقفت الجزائر في خندقٍ قريبٍ من خندق موريتانيا وساهمت في إعادة بناء الجيش الموريتاني لإمكانية الوقوف في وجه المغرب . وكانت الوزارة في ربيع الأول ١٣٩٣هـ (نيسان ١٩٧٣م) على النحو المبيّن أدناه[١] .

وبقي رجال حزب الشعب الجمهوري الموريتاني ورئيسه يتحكّمون في البلاد ، ولا يسمحون بقيام أي نشاطٍ حزبيٍّ آخر[٢] ، وبقي الجفاف يزداد ،

= ١٤ ـ عبد الله ولد باه : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١٥ ـ محمد باباه : وزير التعليم التقني ، والبحث العلمي ، والتعليم العالي .
١٦ ـ بارو عبدولاية : وزير العمل والخدمة الاجتماعية .
١٧ ـ ديوب مامادو : وزير التنمية الريفية .

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .
٢ ـ حمدي ولد مكناس : وزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ سيدي محمد دياغانا : وزير الدفاع الوطني .
٤ ـ عبد الله ولد بوي : وزير العدل، وحارس الأختام .
٥ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير الداخلية .
٦ ـ سيدي محمد ولد شيخ عبد الله : وزير التخطيط ، والتطور الصناعي .
٧ ـ صومار ديارامونا : وزير المالية والتجارة .
٨ ـ ديوب مامادو أمادو : وزير التنمية .
٩ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير الصناعة والمعادن .
١٠ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير النقل ، والمهن اليدوية ، والسياحة .
١١ ـ عبد الله ولد داده : وزير التجهيزات .
١٢ ـ أحمد ولد سيدي بابا : وزير الثقافة والإعلام .
١٣ ـ محمدين باباه : وزير التعليم المهني ، والبحث العلمي ، والتعليم العالي .
١٤ ـ بامامادو العسّان : وزير التعليم الثانوي ، والشباب والرياضة .
١٥ ـ أحمد بن عمار : وزير التعليم الأولي ، والشؤون الدينية .
١٦ ـ بارو عبدولاية : وزير الخدمة العامة والعمل .
١٧ ـ عبد الله ولد باه : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .

(٢) كان التعديل أو التغيير الوزاري لا يشمل أكثر من تبادل الحقائب الوزارية بين الوزراء أو إدخال =

والخلاف على الصحراء المغربية يتسع ، والحالة الاقتصادية تتأخّر ، وحاول الحزب الحاكم معالجة الأوضاع المتدهورة ، فأصدر عام ١٣٩٥هـ ميثاقاً يتألّف من خمسة مبادىء ، هي :

١ ـ تكفل الدولة القطاعات الرئيسية في الحياة الوطنية .

٢ ـ وجود قطاع مزدوجٍ ، يمكن للدولة أن تشترك فيه مع خصوصيين وطنيين ، أو مع مصالح أجنبية خصوصيةٍ ، أوعموميةٍ .

٣ ـ وجود قطاعٍ خاصٍّ يضمّ المواطنين والأجانب .

٤ ـ القضاء على جميع مخالفات استغلال الإنسان للإنسان .

٥ ـ تطبيق المكافأة والعقوبة بالالتزام .

= بعض أفراد جدد من أعضاء الحزب البارزين مكان آخرين يعطون مناصب أخرى .

وكانت الوزارة في شهر ربيع الأول عام ١٣٨٤هـ (نيسان ١٩٧٤م) على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .

٢ ـ حمدي ولد مكناس : وزير الشؤون الخارجية .

٣ ـ سيدي محمد دياغانا : وزير الدفاع الوطني .

٤ ـ عبد الله ولد بوي : وزير العدل ، وحارس الأختام .

٥ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير الداخلية .

٦ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير التطور الصناعي وشؤون التخطيط الاقتصادي .

٧ ـ صومار ديارامونا : وزير المالية .

٨ ـ ديوب مامادو أحمدو : وزير التنمية الريفية .

٩ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير السياحة ، والأعمال اليدوية .

١٠ ـ عبد الله ولد شيخ : وزير النقل والطرق .

١١ ـ عبد الله ولد داده : وزير التجهيزات .

١٢ ـ أحمد ولد سيدي بابا : وزير الثقافة والإعلام .

١٣ ـ محمدين باباه : وزير التعليم الوطني .

١٤ ـ بامامادو العسّان : وزير الشباب والرياضة .

١٥ ـ أحمد بن عمار : وزير التعليم ، والشؤون الدينية .

١٦ ـ بارو عبدولاية : وزير الخدمة والعمل .

١٧ ـ عبد الله ولد باه : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .

وجرت الانتخابات العامة في شهر شوال ١٣٩٥هـ (تشرين الأول ١٩٧٥م) ، وكان عدد أعضاء المجلس النيابي سبعين عضواً ، ورئيس الجمعية الوطنية هو « دا ولد سيدي هيبا » . وتشكّلت وزارةٌ موسّعةٌ[1] في شهر محرم

---

(١) كانت الوزارة الموسعة على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .
٢ ـ عبد العزيز سال : وزير دولة للتوجيه الوطني .
٣ ـ أحمدو ولد تومبا : وزير الثقافة .
٤ ـ سيدي أحمد ولد دي : وزير الشباب والرياضة .
٥ ـ مصطفى ولد شيخ محمد : وزير الإعلام والاتصالات.
٦ ـ صومار ديارامونا : وزير التطوير .
٧ ـ محمد ولد عمار : وزير المصادر المائية .
٨ ـ عبد الله ولد داده : وزير التنمية .
٩ ـ أحمد ولد سيدي بابا : وزير التشييد .
١٠ ـ عبد الله ولد بايا : وزير دولة للجماعات البشرية والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ بامامادو العسّان : وزير التنظيم الحزبي .
١٢ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير دولة للسلطات الداخلية .
١٣ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير العدل .
١٤ ـ شيخ سعد بوه كان : وزير الدفاع الوطني .
١٥ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير دولة للاقتصاد الوطني .
١٦ ـ باإبراهيم : وزير التخطيط .
١٧ ـ مولاي محمد : وزير المالية .
١٨ ـ حسني ولد ديدي : وزير التجارة والنقل .
١٩ ـ إسحاق ولد راجل : وزير الصناعة والتعدين .
٢٠ ـ ديول مامادو أمادو : وزير التعليم الوطني .
٢١ ـ محمد ولد أبا أباه : وزير التعليم الأولي .
٢٢ ـ حمدين ولد تاه : وزير الشؤون الإسلامية .
٢٣ ـ بارو عبدولاية : وزير دولة للتطوير الاجتماعي .
٢٤ ـ مولاي عبد المعين : وزير الصحة .
٢٥ ـ عيساتا كان : حماية الأسرة والشؤون الاجتماعية .
٢٦ ـ عبد الله ولد شيخ : وزير الخدمة العامة والعمل .

=

١٣٩٦هـ (كانون الثاني ١٩٧٦م) .

ولم يمضِ عامٌ حتى جرت انتخابات الجمعية الوطنية في شعبان ١٣٩٦هـ (آب ١٩٧٦م) ، وكان عدد أعضاء الجمعية سبعةً وسبعين عضواً ، أي زاد سبعة أعضاء ، وأصبح رئيس هذه الجمعية « عبد العزيز سال » . وبقيت الوزارة موسّعةً(١) مع إجراء بعض التعديل عليها .

= ٢٧ ـ حمدي ولد مكناس : وزير دولة للشؤون الخارجية .

٢٨ ـ سيدي محمد دياغانا : وزير شؤون الرئاسة .

(١) أصبحت الوزارة في مطلع عام ١٣٩٧هـ (كانون الثاني ١٩٧٧م) على النحو الآتي :

١ ـ مختار ولد داده : رئيس الدولة ، رئيس الوزراء .

٢ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير دولة للتوجيه الوطني ، وزير دولة للسلطات الداخلية .

٣ ـ عثمان سيدي أحمديا : وزير الثقافة .

٤ ـ سيدي أحمد ولد دي : وزير الشباب والرياضة .

٥ ـ بامامادو العسّان : الإعلام والاتصالات ، البشرية والتنظيم الحزبي .

٦ ـ عبد الله ولد داده : وزير دولة للتنمية .

٧ ـ محمد ولد عمار : وزير المصادر المائية .

٨ ـ يواهي ولد مايوف : وزير التشييد .

٩ ـ ديول مامادو أمادو : وزير التعليم الوطني .

١٠ ـ عبد الله ولد بايه : وزير دولة للجماعات

١١ ـ مالوم ولد إبراهيم : وزير العدل .

١٢ ـ عبد الله ولد باه : وزير الدفاع الوطني .

١٣ ـ شيخ سعد بوه كان : وزير الداخلية .

١٤ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير دولة للاقتصاد .

١٥ ـ باه إبراهيم : وزير التخطيط .

١٦ ـ مولاي محمد : وزير المالية .

١٧ ـ حسني ولد ديدي : وزير التجارة والنقل .

١٨ ـ إسحاق ولد راجل : وزير الصناعة والتعدين .

١٩ ـ عبد الله ولد إسماعيل : وزير الثروة السمكية .

٢٠ ـ محمد ولد باباه : وزير التعليم الأولي . =

استمرّت الأوضاع الاقتصادية في التدهور ، حتى اضطرّ الرئيس مختار ولد داده إلى تخفيض النفقات والمصروفات ، وإلى تقليص عدد أعضاء الوزارة[1] .

الانقلاب الأول : تفاقم الوضع الاقتصادي وتضايق الناس ، وأربكت قضية الصحراء المغربية وضع البلاد ، وانتقل التذمر إلى العسكريين ، فقامت

=

٢١ ـ حمدين ولد تاه : وزير الشؤون الإسلامية .

٢٢ ـ بارو عبدولاية : وزير دولة للتطوير الاجتماعي .

٢٣ ـ مولاي عبد المعين : وزير الصحة .

٢٤ ـ عيساتا كان : وزيرر دولة لحماية الأسرة والشؤون الإسلامية الاجتماعية .

٢٥ ـ حمدي ولد مكناس : وزير دولة للشؤون الخارجية .

٢٦ ـ سيدي محمد ولد دياغانا : وزير شؤون الرئاسة .

٢٧ ـ شيخ مولانين روبرت : وزير شؤون الرئاسة .

(١) كانت الوزارة في شهر صفر ١٣٩٨هـ (شباط ١٩٧٨م) على النحو الآتي :

١ ـ عبد الله ولد بوي : وزير اللجنة الدائمة والتنظيم الحزبي .

٢ ـ حمدي ولد مكناس : وزير دولة للشؤون الخارجية .

٣ ـ محمد ولد باه وزير الدفاع الوطني .

٤ ـ مجتبى ولد محمد فال : وزير العدل والشؤون الإسلامية .

٥ ـ ساكو مامادو : وزير الداخلية .

٦ ـ بارو عبدولاية : وزير دولة للتخطيط الاقتصادي والتعدين .

٧ ـ با إبراهيم : وزير المالية والتجارة .

٨ ـ عبد الله ولد إسماعيل : وزير الثروة السمكية والسوق البحرية .

٩ ـ أحمد ولد محمد صلاح : وزير التجهيزات والطرق .

١٠ ـ سيدي ولد شيخ عبد الله : وزير التنمية الريفية .

١١ ـ أحمد ولد سيدي بابا : وزير التعليم الوطني .

١٢ ـ ديول مامادو أمادو : وزير الإصلاح الإداري ، والصحة ، والشؤون الاجتماعية .

١٣ ـ سيدي أحمد ولد دوي : وزير الثقافة والإعلام .

حركةٌ هدفها تحقيق السلام بإخراج البلاد من حرب الصحراء ، وتقويم الوضع الاقتصادي ، وإعادة الثقة إلى نفوس الرعية ، وقاد الحركة العسكرية :

١ ـ المقدم محمد خونا ولد هيداله : القائد العسكري لناحية الزويرات .
٢ ـ المقدم أحمد ولد عبد الله : القائد العسكري لناحية نواكشوط .
٣ ـ الرائد مولاي ولد بوخريص : القائد العسكري لناحية أطار .
٤ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع : رئيس غرفة العلميات في الأركان .
٥ ـ المقدم جدو ولد السالك : القائد العسكري لناحية أوسرد .

ثم انضمّ إليهم العقيد مصطفى ولد محمد السالك رئيس الأركان ، وقد اختير رئيساً للجنة العسكرية بصفته رئيساً للأركان ، ولأنهم شعروا فيه شيئاً من الضعف فرغبوا أن يمارسوا السلطة من خلفه ، ويكون هو الواجهة لهم .

تمّت الحركة بنجاحٍ تامٍّ يوم ٥ شعبان ١٣٩٨هـ (١٠ تموز ١٩٧٨م) ، وحلّت اللجنة العسكرية للتصحيح الوطني حزب الشعب الجمهوري الموريتاني ، الحزب الحاكم ، والمجلس النيابي ، والنقابات ، وأصبحت هي السلطة التشريعية والتنفيذية في البلاد ، واختارت العقيد ولد مصطفى ولد محمد السالك رئيساً للجمهورية .

أبعد المقدم جدو ولد السالك عن الجيش ، ونُقل إلى وزارة الداخلية ، ثم أقيل من الحكومة ، ولكن لم يلبث أن مات في حادث سيارةٍ غامض في مدينة نواكشوط ، بعد أن رُوّجت إشاعاتٌ كثيرةٌ ضدّه على أنّه مُتعصّبٌ للعرب ضدّ الزنوج .

وفي ٩ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (٦ نيسان ١٩٧٩م) عُزل العقيد مصطفى ولد محمد السالك بعملية مراوغةٍ ذكيةٍ أقرب ما تكون إلى الانقلاب ، قام بها المقدم أحمد بوسيف ، حيث أبعد مصطفى ولد محمد السالك فعلياً ، وأبقى عليه رئيس شرف بعدما اتفق على ذلك كبار الضباط بسبب أخطائه

المتكررة معهم جميعاً .

عيّنت اللجنة العسكرية المقدم أحمد بوسيف رئيساً للوزراء[1] ، وكان ذا شخصيةٍ قويةٍ ، ولكن لم يلبث أن مات في حادث طائرة ، وهو في طريقه إلى دكار ، في شهر رجب من عام ١٣٩٩هـ ، أي لم يمضِ على تسلّمه رئاسة الحكومة أكثر من ثلاثة أشهر . وأصبح اسم اللجنة العسكرية للتصحيح الوطني « اللجنة العسكرية للخلاص الوطني » .

الانقلاب الثاني : كان صاحب النفوذ الكبير في موريتانيا بعد موت المقدم أحمد بوسيف في شهر رجب ١٣٩٩هـ المقدم محمد خونا ولد هيداله وزير الدفاع ، فتسلّم رئاسة الحكومة[2] إضافة إلى وزارة الدفاع التي كان يشغلها

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ المقدم أحمد ولد سيف : رئيس الوزراء .

٢ ـ المقدم محمد ولد با ولد عبد القادر : الوزير المسؤول عن اللجنة العسكرية للإنقاذ الوطني .

٣ ـ المقدم أحمدو ولد عبد الله : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .

٤ ـ المقدم محمد خونا ولد هيداله : وزير الدفاع الوطني .

٥ ـ المقدم محمد محمود ولد أحمد لولي : وزير التشغيل العام .

٦ ـ الرائد صيام الحاج : وزير الداخلية .

٧ ـ الرائد مولاي ولد بوخريص : وزير العدل والشؤون الإسلامية .

٨ ـ محمد المختار ولد زامل : وزير التخطيط والثروة السمكية .

٩ ـ مولاي ولد محمد : وزير المالية والتجارة .

١٠ ـ أحمد ولد زين : وزير الصناعة والتعدين .

١١ ـ باعمر : وزير التنمية الريفية .

١٢ ـ أحمد سالم ولد سيدي : وزير التجهيزات والنقل .

١٣ ـ يوسف دياغانا : وزير العمل ، والصحة ، والشؤون الاجتماعية .

١٤ ـ عبد القادر ولد سيدي : وزير الثقافة ، والإعلام ، والاتصالات .

١٥ ـ محمد ولد محمد محمود : وزير الشباب والرياضة ، والسياحة .

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ المقدم محمد خونا ولد هيداله : رئيس الوزراء ، وزير الدفاع .

٢ ـ الرائد محمد ولد حسين : مستشار لرئيس الوزراء .

=

من قبل ، واستبدّ بالأمر . وبقي المقدم مصطفى ولد محمد السالك صورةً في رئاسة الجمهورية ، ورئاسة اللجنة العسكرية للخلاص الوطني[1] . وحاول المقدم مصطفى ولد محمد السالك استرداد السلطة ، غير أن المقدم محمد خونا ولد هيداله رئيس الحكومة قد عزله عن رئاسة اللجنة العسكرية للخلاص الوطني ، وعيّن مكانه قائد الدرك المقدم محمد محمود ولد أحمد الوالي دون أن تكون له سلطةٌ فعليةٌ ، كما عزله عن رئاسة الجمهورية وتسلّم مكانه ، ورفع نفسه إلى رتبة لواء ، ثم عاد فأعفى المقدم محمد محمود ولد أحمد الولي قائد الدرك من رئاسة اللجنة العسكرية للخلاص الوطني وأحاله على التقاعد ، وتسلّم مكانه رئاسة اللجنة العسكرية ، وبذا أصبحت بيده رئاسة الجمهورية ، ورئاسة اللجنة العسكرية ، ورئاسة الحكومة ، ووزارة الدفاع . ثم تنازل عن رئاسة الحكومة ، وعهد بها إلى أحمد ولي بني جارا ، فشكّل

= ٣ ـ الرائد ديا أمادو : مستشار لرئيس الوزراء .
٤ ـ الرائد أمادو بابالي : وزير التجهيزات والنقل .
٥ ـ النقيب شيخ سيد أحمد ولد بابامين : وزير الداخلية .
٦ ـ محمد المختار ولد زامل : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .
٧ ـ يادولي ولد شيخ : وزير العدل والشؤون الإسلامية .
٨ ـ أحمد ولد زين : وزير الاقتصاد والمالية .
٩ ـ صومار عمر : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .

(١) اللجنة العسكرية للخلاص الوطني :

أ ـ الأعضاء الدائمون :
١ ـ المقدم محمد خونا ولد هيداله .
٢ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع .
٣ ـ المقدم أحمدو ولد عبد الله .
٤ ـ المقدم ديا أمادو .
٥ ـ الرائد يل عبدلايه .
٦ ـ الرائد مولاي ولد بوخريص .
٧ ـ الرائد أمادو بابالي .

ب ـ الأعضاء غير الدائمين :
١ ـ الرائد صومار سلمان .
٢ ـ النقيب محمد سيدنا ولد سيدا .
٣ ـ النقيب أحمد ولد منّين .
٤ ـ النقيب شيخ سيد أحمد ولد بابامين .
٥ ـ النقيب ديوب عبدلايه .
٦ ـ النقيب محمد ولد لاخال .
٧ ـ النقيب محمد ولد لمرابت .

حكومةً جديدةً[1] .

زادت الحالة تأزّماً ، إذ تفاقمت الأزمة الاقتصادية ، وزاد نشاط المخابرات على المواطنين ، وكثرت الاعتقالات ، وخرج عددٌ من المواطنين من البلاد ، ولم تكن الحالة الإدارية بأحسن وضعاً ، إذ كان الفساد قد عمّها .

حاول المقدم محمد خونا ولد هيداله إصلاح الوضع الإداري بزيادة عدد أعضاء اللجنة العسكرية للخلاص الوطني[2] ، وحاول أيضاً عن طريق تغيير

---

(١) كانت الوزارة الجديدة في ربيع الأول ١٤٠١هـ (كانون الثاني ١٩٨١م) على النحو الآتي :

١ ـ أحمد ولد بني جارا : الوزير الأول .
٢ ـ الرائد صومار سلمان : أمين الدولة للدفاع الوطني .
٣ ـ باهام ولد محمد لاغاف : وزير الداخلية .
٤ ـ محمد المختار ولد زامل : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .
٥ ـ عبد العزيز ولد أحمد : وزير العدل والشؤون الاجتماعية .
٦ ـ أحمد ولد زين : وزير الاقتصاد والمالية .
٧ ـ صومار عمر : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .
٨ ـ دفا بكاري : وزير التجهيزات والنقل .
٩ ـ مامادو سيسوكو : وزير الصناعة والتجارة .
١٠ ـ محمد ولد عمار : وزير التنمية الريفية .
١١ ـ أحمد ولد سيدي حنينا : وزير الإعلام والاتصالات .
١٢ ـ يحيى ولد منكوس : وزير التشغيل وتدريب الموظفين .
١٣ ـ حسيني ولد ديدي : وزير التعليم .
١٤ ـ يوسف دياغانا : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١٥ ـ باممود : وزير الشباب والرياضة والثقافة .
١٦ ـ سيدامو ولد طايع : وزير الطاقة والتعدين .
١٧ ـ لوليد ولد ودّاد : وزير المياه والسكن .

(٢) كانت اللجنة العسكرية للخلاص الوطني في شهر ربيع الأول ١٤٠٢هـ (كانون الثاني ١٩٨٢م) على النحو الآتي :

أ ـ الأعضاء الدائمون :
١ ـ المقدم محمد خونا ولد هيداله .

ب ـ الأعضاء غير الدائمين :
١ ـ الرائد صومار سلمان .

=

الوزارة إذ عهد إلى المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع بتشكيل الوزارة[1] ، وهو العضو البارز في اللجنة العسكرية من حيث بعد النظر وسعة الأفق .

= ٢ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع .
٣ ـ المقدم أحمد ولد عبد الله .
٤ ـ المقدم أحمد ولد الحسين .
٥ ـ الرائد يال عبدلايه .
٦ ـ الرائد مولاي ولد بوخريص .
٧ ـ الرائد أنا أمادو بابالي .
٨ ـ النقيب سيد أحمد ولد عيدا .

٢ ـ النقيب محمد سيدنا ولد سيدا .
٣ ـ النقيب أحمد ولد منينة .
٤ ـ النقيب شيخ سيد أحمد ولد بابامين .
٥ ـ النقيب ديوب عبدلايه .
٦ ـ النقيب محمد ولد لاخال .
٧ ـ النقيب بريكا ولد مبارك .
٨ ـ سيدي ولد محمد يحيى .
٩ ـ النقيب محمد لومين ولد زين .
١٠ ـ النقيب سالم ولد ميمن .

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع : الوزير الأول ، وزير الدفاع .
٢ ـ الرائد صومار غابرييل : وزير الداخلية .
٣ ـ أحمد ولد منينة : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .
٤ ـ عبد العزيز ولد أحمد : وزير العدل والشؤون الاجتماعية .
٥ ـ دينغ باو باو فاربا : وزير الاقتصاد والمالية .
٦ ـ المقدم صومار سلمان : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .
٧ ـ المقدم أحمد ولد عبد الله : وزير التجهيزات والنقل .
٨ ـ النقيب محمد محمود ولد ده : وزير الصناعة والتجارة .
٩ ـ محمد ولد عمار : وزير التنمية الريفية .
١٠ ـ يحيى ولد منكوس : وزير التشغيل وتدريب الموظفين .
١١ ـ حسني ولد ديدي : وزير التعليم .
١٢ ـ يوسف دياغانا : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ بامحمود : وزير الشباب والرياضة والثقافة .
١٤ ـ محمد المختار ولد زامل : وزير الطاقة والتعدين .
١٥ ـ محجوب ولد بوي : وزير المياه والسكن .
١٦ ـ المقدم أحمد محمود ولد الحسين : وزير الإعلام والاتصالات .
١٧ ـ الرائد أنا أمادو بابالي : مراقب الدولة العام .
١٨ ـ سيدي ولد أحمد ديا : أمين عام الرئاسة .

عاش السكان في ضائقةٍ اقتصـاديةٍ ، فتـذّمروا من السلطة ، وكـانت السلطة في ضائقةٍ نفسيةٍ وسياسيةٍ نتيجة مركزيـة رئيس الجمهوريـة ، رئيس اللجنة العسكرية للخلاص الوطني اللواء محمد خونا ولد هيداله الذي عمل على توسعة اللجنة العسكرية[1] ، وعمل على إجراء تعديـلاتٍ وزاريةٍ عـلى حكومة المقدم معاوية ولد سيذي أحمد الطايع[2] في سبيل العمل على تحسين

---

(١) كانت اللجنة العسكرية في شهر صفر عام ١٤٠٣هـ (كانـون الأول ١٩٨٢م) على النحـو الآتي :

١ ـ اللواء محمد خونا ولد هيداله .
٢ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطابع .
٣ ـ المقدم أحمد محمود ولد حسين .
٤ ـ المقدم أحمد ولد عبد الله .
٥ ـ المقدم يال عبدلاية .
٦ ـ المقدم مولاي ولد بوخريص .
٧ ـ المقدم أنا أمادو بابالي .
٨ ـ المقدم غابرييل سومبر .
٩ ـ الرائد أحمد ولد منينة .
١٠ ـ الرائد ديالو محمد .
١١ ـ سيدي ولد محمد لمين .
١٢ ـ النقيب محمد سيدنا ولد سيدا .
١٣ ـ الرائد عطية حماس .
١٤ ـ الرائد محمد محمود ولد ده .
١٥ ـ الرائد محمد لومين ولد زين .
١٦ ـ الرائد أحمد ولد إدا .
١٧ ـ الرائد سيديا ولد محمد يحيى .
١٨ ـ الرائد مصطفى ديوب .
١٩ ـ النقيب محمد ولد لاخال .
٢٠ ـ النقيب بريكا ولد مبارك .
٢١ ـ النقيب سالم ولد ميمون .
٢٢ ـ النقيب ديوب غبرييل .
٢٣ ـ النقيب ايلي ولد محمد فال .

(٢) أما الوزارة فكانت على النحو الآتي :

١ ـ المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطابع : الوزير الأول ، وزير الدفاع .
٢ ـ المقدم أحمدو ولد عبد الله : وزير الداخلية .
٣ ـ الرائد أحمد ولد منينة : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .
٤ ـ عبد العزيز ولد أحمد : وزير العدل والشؤون الاجتماعية .
٥ ـ سيدي ولد أحمد ديا : وزير المالية .
٦ ـ محمد ولد سيدي علي : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .
٧ ـ العقيد غابرييل سومبر : وزير التجهيزات والنقل .
٨ ـ الرائد مصطفى ديوب : وزير الصناعة والتجارة .
٩ ـ محمد ولد عمار : وزير التنمية الريفية .

الأوضاع الاقتصادية ، وتشجيع المسؤولين على العمل ، وإيجاد نوعٍ من التفاهم بين أجهزة الدولة ، ولكن دون جدوى ، وهذا ما يجعله يقيل المقدم معاوية ولد سيدي أحمد الطايع من رئاسة الحكومة ويتولّاها بنفسه[1] ، كما

=

١٠ ـ يحيى ولد منكوس : وزير التشغيل وتدريب الموظفين .

١١ ـ حسني ولد ديدي : وزير التعليم .

١٢ ـ الرائد محمد محمود ولد ده : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .

١٣ ـ يوسف دياغانا : وزير الشباب والرياضة والثقافة .

١٤ ـ دينغ باو باو فاربا : وزير الطاقة والتعدين .

١٥ ـ محجوب ولد بوي : وزير المياه والسكن .

١٦ ـ محمد المختار ولد زامل : وزير الإعلام والاتصالات .

١٧ ـ المقدم أنا أمادو بابالي : وزير التخطيط .

١٨ ـ محمود با : الأمين العام للحكومة .

(١) شكّل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ اللواء محمد خونا ولد هيداله : رئيس الجمهورية .

٢ ـ المقدم يال عبدولاية : وزير الداخلية .

٣ ـ المقدم أحمد ولد منينة وزير الشؤون الخارجية والتعاون .

٤ ـ المقدم شيخ ولد بويدا : وزير العدل والشؤون الإسلامية .

٥ ـ سيدي ولد أحمد ديا : وزير المالية والتجارة .

٦ ـ النقيب محمد لومين ولد ديانا : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .

٧ ـ المقدم غابرييل سومبر : وزير التجهيزات والنقل .

٨ ـ الوليد ولد ودّاد : وزير التنمية الريفية .

٩ ـ حسني ولد ديدي : وزير التعليم .

١٠ ـ الرائد محمد محمود ولد ده : وزير الصحة والتشغيل .

١١ ـ با محمود : وزير الشباب والرياضة والثقافة .

١٢ ـ ديابيرا معروف : وزير الصناعة والتعدين .

١٣ ـ محمد فادول ولد ده : وزير المياه والطاقة .

١٤ ـ محمد سالم ولد زين : وزير الإعلام والاتصالات .

١٥ ـ أحمد ولد زين : وزير التخطيط وإصلاح الأرض .

١٦ ـ الرائد عطية هامات : وزير التعليم العالي ، والفني ، والخدمات العامة . =

أجرى بعض التعديلات على اللجنة العسكرية[1]. وهذا ما جعل المقدم معاوية يحمل عليه، ويعمل بصمتٍ ضدّه.

الانقلاب الثالث : قام العقيد ولد سيدي أحمد الطايع رئيس الوزراء الأسبق بانقلابٍ عسكريٍّ في ١٩ ربيع الأول ١٤٠٥هـ (١٢ كانون الأول ١٩٨٤م) ، فأزاح رئيس الجمهورية اللواء محمد خونا ولد هيداله عن مناصبه كلها ، وتسلّم مكانه ، رئيساً لجمهورية ، رئيساً للجنة العسكرية[2] ، رئيساً

= ١٧ ـ المقدم أحمد محمود ولد الحسين : وزير مجلس الرئاسة .
١٨ ـ محمد ولد عمار : الأمين العام للرئاسة .

(١) أما اللجنة العسكرية فأصبحت على النحو الآتي :
١ ـ اللواء محمد خونا ولد هيداله : رئيساً .
٢ ـ المقدم شيخ سيد أحمد ولد بابامين : أميناً عاماً .
٣ ـ المقدم معاوية ولد سيد أحمد الطايع .
٤ ـ المقدم أحمد ولد عبد الله .
٥ ـ المقدم يال عبدولاية .
٦ ـ المقدم مولاي ولد بوخريص .
٧ ـ المقدم أنا أمادو بابالي .
٨ ـ المقدم غابرييل سومبر .
٩ ـ الرائد أحمد ولد منينة .
١٠ ـ المقدم ديالو محمد .
١١ ـ المقدم سيدي ولد محمد لمين .
١٢ ـ المقدم أحمد محمود ولد حسين .
١٣ ـ المقدم محمد سيدنا ولد سيدنا .
١٤ ـ الرائد محمد محمود ولد ده .
١٥ ـ الرائد محمد لومين ولد زين .
١٦ ـ الرائد أحمد ولد عيده .
١٧ ـ الرائد سيديا ولد محمد يحيى .
١٨ ـ الرائد مصطفى ديوب .
١٩ ـ الرائد عطية هامات .
٢٠ ـ النقيب بريكا ولد مبارك .
٢١ ـ النقيب سالم ولد ميمون .
٢٢ ـ النقيب ديوب غبرييل .
٢٣ ـ النقيب علي ولد محمد فال .
٢٤ ـ النقيب محمد ولد لاخال .

(٢) أصبحت اللجنة العسكرية على النحو الآتي :
١ ـ العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع : رئيساً .
٢ ـ العقيد شيخ ولد بوبيدا: أميناً عاماً .
٣ ـ العقيد شيخ سيد أحمد ولد بابامين .
٤ ـ العقيد أحمد ولد عبد الله .
٥ ـ المقدم يال عبدولايه .
٦ ـ المقدم مولاي ولد بوخريص .
٧ ـ المقدم أنا أمادو بابالي .
٨ ـ المقدم غابرييل سومبر .
٩ ـ المقدم أحمد ولد منينة .

للحكومة[1] . وأطلق سراح السجناء السياسيين ، وسمح للهاربين والمنفيين بالعودة إلى البلاد ، وأطلق الحريات ، ومنع التدخّل في شؤون القضاء . لقد

= ١٠ ـ المقدم ديالو محمد .
١١ ـ المقدم سيدي ولد محمد لومين .
١٢ ـ المقدم إبراهيم ولد مواليم نديا .
١٣ ـ المقدم سيدنا عوير .
١٤ ـ الرائد محمد محمود ولد ده .
١٥ ـ الرائد سيدي أحمد ولد بوليل .
١٦ ـ الرائد أحمد ولد عيده .
١٧ ـ الرائد سيديا ولد محمد يحيى .
١٨ ـ الرائد سيديب طوماني .
١٩ ـ الرائد محمد لومين ولد ندياپان .
٢٠ ـ النقيب جدو ولد خاكي .
٢١ ـ النقيب نيانغ أرونا .
٢٢ ـ النقيب ديوب جبرييل مامادو .
٢٣ ـ النقيب علي ولد محمد فال .
٢٤ ـ النقيب محمد ولد لاخال .

(١) أما الوزارة فتشكّلت على النحو الآتي :
١ ـ العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع : رئيس الجمهورية ، رئيس اللجنة العسكرية رئيس الوزراء ، وزير الدفاع .
٢ ـ العقيد غابرييل سومبر : وزير الداخلية .
٣ ـ المقدم أحمد ولد منية : وزير الشؤون الخارجية والتعاون .
٤ ـ مافوده ولد مورابيت : وزير العدل والشؤون الإسلامية .
٥ ـ المقدم أنا أمادو بابالي :. وزير المالية والتجارة .
٦ ـ إسلامو ولد بابا : وزير الثروة السمكية والاقتصاد البحري .
٧ ـ الرائد محمد لومين ولد ندياپان : وزير التجهيزات والنقل .
٨ ـ مصمود ولد بلخير : وزير التنمية الريفية .
٩ ـ حسني ولد ديدي : وزير التعليم .
١٠ ـ جيبو تفسيرو : وزير الصحة والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ بامحمود : وزير الشباب والرياضة والثقافة .
١٢ ـ الرائد محمد محمود ولد ده : وزير الصناعة والتعدين .
١٣ ـ محمد فادل ولد داه : وزير المياه والطاقة .
١٤ ـ أحمد ولد غانا هلاّه : وزير الإعلام والاتصالات .
١٥ ـ طرخيت ولد سيدي : وزير التخطيط وإصلاح الأراضي .
١٦ ـ كامارا علي غولاديو : وزير التعليم العالي والخدمات العامة .
١٧ ـ عبد القادر ولد ديده : نائب لوزير الشؤون الخارجية والتعاون .
١٨ ـ نعكام ليروان : نائب لوزير الداخلية .
١٩ ـ سلموه ولد محمد فان : أمين عام الحكومة .

أطلق سراح أحمد بن حرمة بن بابانا مؤسس حزب النهضة وأمينه العام ، وكان قد أوقف ، فحُقق معه ، وأطلق سراحه ، ثم عُيِّن مستشاراً لدى رئاسة الجمهورية ، ورُشّح لمنصب المدير العام لمنظمة اليونسكو . وأُطلق سراح العقيد مولاي ولد بوخريص ، وعُيِّن رئيساً لشركة الطيران الموريتانية ، واعتُقل الذين قاموا بوشايةٍ كاذبةٍ ضدّه .

وفي شهر صفر من عام ١٤٠٨هـ (تشرين الأول ١٩٨٧م) قام الجناح العسكري لجبهة التحرير الإفريقي لموريتانيا (فلام) بمحاولة انقلاب بحجة أن أراضي موريتانيا أراضٍ زنجيةٌ، وقد اغتصبها البيضان من عربٍ وبربرٍ، وهم يستعبدون من بقي من الزنوج في حوض السنغال ـ حسب زعمهم ـ ويحرّض هؤلاء الزنوج الإرساليات التنصيرية واتحاد الكنائس العالمي ، ويرون في هذا حدّاً لحصر الإسلام في الأقسام الشمالية بحجة أنه للعرب ، وإيجاد تفرقةٍ بين العرب والأفارقة الزنوج ، ولليهود دورٌ غير قليل في هذا الموضوع كما يقف وراء هذه الأفكار أعوان الصليبية ، واليهودية ، وأصحاب المصالح الذين يخشون على مراكزهم ومصالحهم فيما إذا دخل الإسلام .

وقد فشلت هذه المحاولة ، وأعدم ثلاثة ضباط .

وفي ٥ رمضان ١٤٠٩هـ (١٠ نيسان ١٩٨٩م) وقعت أزمة بين موريتانيا والسنغال أو ظهرت حدّتها يومذاك ، إذ أن لها خلفيةً قديمةً ، في ذلك اليوم قُتل اثنان من السنغاليين في قريةٍ على الحدود في الجنوب الشرقي من موريتانيا على يد رعاةٍ موريتانيين من الزنوج ، وقام وزير الداخلية السنغالي بزيارة موريتانيا وقابل رئيسها ، وأعلن أن البلدين سيعملان على تطويق آثار الحادث . وما أن رجع الوزير إلى دكار حتى قام بزيارةٍ إلى مكان الحادث ، وأعلن أن الأمر مبيّت ، ولن تسكت عنه السنغال ، وفي اليوم ٦ رمضان قامت مظاهرة في بلدة (بوكل) السنغالية القريبة من مكان الحادث ، وهاجموا المحلات التي يملكها موريتانيون عرب ، ونهبوا ما فيها ، ثم أشعلوا فيها النيران . وقام وزير الداخلية الموريتاني بزيارةٍ لداكار ، وعمل مع نظيره السنغالي اتفاقاً لتجنّب

حوادث جديدة ، وفي اليوم التالي انفجر الوضع في السنغال ، وأخذ الزنوج ينهبون المحلات التي يمتلكها الموريتانيون ، ويقتلون من يستطيعون قتله ، بل ويمثّلون بالجثث ، وفرّ من فرّ ونجا من القتل إلى المساجد ، وإلى مراكز الشرطة ، وإلى السفارة ومبنى القنصلية الذي لم ينجُ من الهجوم ، وتعرّض لهذه الحرب جميع الموريتانيين الذين يقيمون في السنغال ، ويُقدّر عددهم بنصف مليون تقريباً .

وفي ١٩ رمضان انفجر الوضع في موريتانيا ، فهاجم السكان في (نواكشوط) و (أنواذيبو) الرعايا السنغاليين ، وقاموا بالعمل نفسه الذي قام السنغاليون به ، واستمرّ هذا التصرّف يومين ، وفي اليوم الثالث استدعت الحكومة قواتٍ من الجيش والدرك ، وسيطرت على الوضع ، وأعلنت منع التجوّل ، وجُمع السنغاليون في المساجد ، والمعرض التجاري ، وشُدّدت عليهم الرقابة لحمايتهم .

وفي ٢٤ رمضان عاد الوضع فانفجر من جديد في السنغال بعد بيان من الدولة موجّهٍ إلى موريتانيا ، فارتفعت شعارات الانتقام ، وأخذ القتل يلحق بالموريتانيين حتى الذين يحملون الجنسية السنغالية ، واضطرّت الحكومة إلى إعلان حالة الطوارىء، وفرض منع التجوّل ، ولكن ذلك لم يوقف عمليات التنكيل بالموريتانيين .

وأخيراً اتفق على نقل الرعايا من كل بلدٍ إلى البلد الآخر ، فنقل أكثر من مائتي ألف موريتاني من السنغال ، ومائة ألف سنغالي من موريتانيا رغم أن عدد الموريتانيين في السنغال كثيراً ما يرفعونه إلى خمسمائة ألف إنسان .

وإن مما يؤخذ على الحكم في موريتانيا أيام العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع تسلّط العسكريين ، وخاصةً وزير الداخلية العقيد «غابرييل سومبر» الذي يرجع إلى أبٍ فرنسيٍّ، وإن كان الأصل ليس له كبير أهمية، إلاّ أن هذا الرجل مرتبط بالثقافة الفرنسية أشدّ ارتباط ، ولهذا يُنظر إليه نظرة حذرٍ من قبل المسلمين ، ويحذّرون منه رئيس الدولة الذي يرى فيه صاحب إمكانات ضخمة

من الضروري الإفادة منها ولو مرحلياً ، وقد غيّر وزير الداخلية هـذا اسمه وأصبح « غابرييل ولد عبدالله » بدلاً من «غابرييل سومبر » ليتماشى مع أسماء أبناء البلد ، ولعلّه تقلّ نظرة الكراهية إليه . وأخيراً أخرج من الوزارة في شهر رجب ١٤١٠هـ (شباط ١٩٩٠م) ، ، وأعطيت وزارة الداخلية إلى العقيـد « محمد سيدنـا ولد سيـدي يا » ثم أخـذ رئيس الدولـة يجري تعـديلات في الوزارة ، ويحلّ في كل مرة عدداً من المدنيين مكان عسكريين[1] .

في شهر صفر ١٤٠٨هـ (تشرين الأول ١٩٨٧م) تمّ اعتقال عدد من السود، بعد اكتشاف محاولة انقلاب، وفي ربيع الثاني ١٤٠٨هـ (كانون الأول ١٩٨٧م)، صدر الحكم بإعدام ثلاثة ضباط من القوات المسلحة السود، ونُفّذ الحكم بهم، كما صدرت الأحكام بالسجن على واحدٍ

---

(١) جرى تعديل وزاري في ٦ شوال ١٤١٠هـ (الأول من أيار ١٩٩٠م) وقد شمل :

أ ـ ترك الوزارة :

١ ـ العقيد محمد سيدنا ولد سيدي يا — وزير الداخلية .

٢ ـ محمد سالم ولد عدود — وزير الثقافة والتوجيه ، وأصبح مستشاراً بديوان رئاسة اللجنة العسكرية للخلاص الوطني .

٣ ـ محمد سالم ولد الأمين — وزير المعادن .

٤ ـ حمدي سامبا ديوب — وزير العدل .

ب ـ عُيّن في الوزارة :

١ ـ حسني ولد عيدي — وزيراً للخارجية والتعاون .

٢ ـ مختار ولد هاي — وزيراً للتربية الوطنية .

٣ ـ عبد الرحمن ولد معين — وزيراً للصحة والشؤون الاجتماعية .

٤ ـ سوداما سامبا — وزيراً للعدل .

٥ ـ عيدي ولد بونعامة — وزيراً للثقافة والتوجيه .

جـ ـ جرى تبديل في توزيع الحقائب الوزارية :

١ ـ الرائد شيخ أحمد سيد ولد بابا أسندت إليه وزارة الداخلية ووزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية ، وكان يشغل من قبل ورارة الخارجية والتعاون .

٢ ـ عبد الله ولد مقيا أُسندت إليه وزارة المعادن ، وكان من قبل يشغل وزارة الصحة والشؤون الاجتماعية .

وأربعين شخصاً. وادعت حركة تحرير موريتانيا الإفريقية المتمركزة في السودان أن المعتقلين يتعرّضون للعذاب. وقامت هذه الحركة بحملة هجمات متفرقة على أهدافٍ رسميةٍ.

في جمادى الأولى ١٤٠٨هـ (كانون الثاني ١٩٨٨م) طرد حوالي خمسمائة من ضباط الصف السود من الجيش، والحرس الوطني، والدرك، بعد الاضطرابات التي تلت تنفيذ أحكام الإعدام.

وفي ذي القعدة ١٤٠٨هـ (تموز ١٩٨٨م) اعتقل حوالي ستمائة شخص بمن فيهم أعضاء من القوات المسلحة، وأكثرهم من مؤيدي حزب البعث الموالي للعراق.

وفي شهر المحرم ١٤٠٩هـ (أيلول ١٩٨٨م) صدرت أحكام سجن بين سنتين وخمس سنوات على ثلاثة عشر شخصاً، وبعد ثلاثة أشهر خُفِّفت الأحكام ضد المدانين جميعاً إلى سنةٍ واحدةٍ.

وفي منتصف عام ١٤١١هـ (أواخر عام ١٩٩٠م) قوّضت الآمال بالتقارب بين موريتانيا والسنغال، حيث اتهمت السلطات الموريتانية حكومة السنغال بتدبير مؤامرة للإطاحة بالحكم في موريتانيا، وقد نفت حكومة السنغال صلتها بأي تنظيمٍ أو تدبيرٍ. وبعد ثلاثة أشهر صدر عفو عام عن الذين اعتقلوا نتيجة ذلكَ الاتهام، ولكن يبدو أنه قد غيّب مائتا شخصٍ من أولئك المعتقلين، وقامت مظاهرة نسائية في العاصمة تطالب بمعرفة مصير أقاربهن.

وارتفعت أسعار الخبز فقامت مظاهرات في نواذيبو احتجاجاً على ذلك في أواخر عام ١٤١١هـ (منتصف عام ١٩٩١م) فاعتقلت السلطات عدداً من المتظاهرين.

جرى استفتاء على الدستور، لكن نسبة المنتخبين كانت متدنيةً وأقل من ٨٪، وعدّت اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد. ثم سُمح

بتعدد الأحزاب، وصدر عفو عام عن المعتقلين. وقامت مظاهرة نسائية تطالب بمعرفة أخبار الذين لم يخرجوا من السجن.

وفي ١٣ رجب ١٤١٢هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٩٢م) جرت الانتخابات الرئاسية، واشترك فيها عدّة مرشحين منهم:

معاوية ولد سيدي أحمد الطايع. رئيس الجمهورية.

أحمد ولد داده: الأخ غير الشقيق للرئيس الموريتاني الأول مختار ولد داده.

مصطفى ولد محمد السالك.

وقد انتخب معاوية ولد سيدي أحمد الطايع بنسبة ٦٢,٧٪ من عدد الأصوات مع العلم أن نسبة الذين شاركوا في الانتخابات كانت ٥١,٧٪ من عدد الناخبين المسجلين. وحصل أحمد ولد داده على ٣٢,٨٪ من مجموع الأصوات الذين شاركوا في الانتخابات. واحتج الآخرون، وادعوا وجود تدخل من قبل السلطة.

وفي ٣ ـ ١٠ رمضان ١٤١٢هـ (٦ ـ ١٣ آذار ١٩٩٢م) جرت الانتخابات التشريعية، وكان قد سحب ستة من أحزاب المعارضة مرشحيهم بدعوى انحياز السلطة بشكل غير رسمي إلى الحزب الجمهوري الديمقراطي والاشتراكي، وقد فاز هذا الحزب بسبعة وستين مقعداً من مقاعد الجمعية الوطنية التي يبلغ عددها تسعةً وسبعين مقعداً، وحصل المستقلون على تسعة مقاعد، أم المقاعد الثلاثة الباقية، ففازت بها التنظيمات الأخرى. غير أن نسبة المشتركين في الاقتراع كانت منخفضةً.

وبعد شهرٍ جرت انتخابات مجلس الشيوخ الذي يضمّ ستة وخمسين عضواً، وكانت النتائج كما يأتي:

٣٦	عضواً من الحزب الجمهوري الديمقراطي والاشتراكي.
١٧	عضواً من المستقلين.
٣	أعضاء حجزت للموريتانيين الذين يقيمون في الخارج.
٥٦	عضواً.

وسمّي رئيس وزراء مدني هو سيدي محمد ولد بوبكار، وكان يشغل منصب وزير المالية منذ سنتين. وضمت الوزارة ثلاثةً من السود، ووزيراً واحداً من العسكريين، وآخر يمثّل المعارضة.

جرى تخفيض قيمة العملة الوطنية (الأوقية) في ربيع الثاني ١٤١٣هـ (تشرين الأول ١٩٩٢م) فجرت احتجاجات عنيفة، ونتج عنها آثار اجتماعية صعبة.

وفي شهر ذي القعدة ١٤١٣هـ (أيار ١٩٩٣م) صادقت الجمعية الوطنية على قانون عفو عام يشمل المخالفات جميعها التي جرت قبل الاحتفال بانتخاب الرئيس معاوية بثلاث سنوات، وقد كان الاحتفال في ١٦ شوال ١٤١٢هـ (١٨ نيسان ١٩٩٢م) وقد شمل العفو هذا أفراد الجيش وأفراد قوات الأمن بصورةٍ خاصةٍ.

جرت انتخابات البلديات التي كانت تعددية لأول مرة في شعبان ورمضان ١٤١٤هـ (كانون الثاني وشباط ١٩٩٤م)، وقد فاز الحزب الجمهوري الديمقراطي والاشتراكي بمائة وسبعين محافظة إدارية من أصل مائتين وثمان بلديات، وظفرت وحدة القوى الديمقراطية بسبع عشرة محافظة، وظفر المستقلون بالباقي وهو تسع عشرة محافظة. واحتجّت المعارضة على الانتخابات.

وفي منتصف عام ١٤١٤هـ جرت اعتقالات في صفوف الفئات الدينية.

وارتفعت أسعار الخبز بنسبة ٢٥٪ في شعبان ١٤١٥هـ، ووقعت

حوادث شغب، واعتقل أحمد ولد داده، وحمدي ولد مكناس زعيم حزب الوحدة للديمقراطية والتقدم، وفرض منع التجول في العاصمة.

وما تكاد العلاقات تتحسن مع السنغال حتى تتوتر من جديدٍ، بسبب الانتقال ورعايا الدولتين كل منهما في البلد الآخر. وكذلك العلاقات مع دولة مالي التي لها رعايا في موريتانيا أكثر من ١١٨ ألف كلاجئين.

الصّراعات الداخليّة

أطلق الرومان اسم موريتانيا على المنطقة التي يحتلّونها من بلاد المغرب العربي اليوم ، وكانت ثلاث مقاطعات ، أما اليوم فالتسمية جاءت من الإسبان ، وهي مركّبة من كلمتين : « موروس » وهي كلمة إسبانية رومانية تعني السمر ، ويقصد بها الإسبان « المسلمين » . و « تانيا » وهي كلمة لاتينية ، وتعني « بلاد » وأصبح المعنى « بلاد المسلمين » وقد أطلق الإسبان هذا الاصطلاح على مسلمي الفيليبين ، ولا يزال شائعاً إلى اليوم ، وكذا أطلق البرتغاليون على المسلمين في جزيرة (سيلان) اسم « المورروز » ، وأطلق الفرنسيون على المسلمين في جزيرة (مدغشقر) اسم« المورو » ، بل وعُرف الذين اختُطفوا من قبيلة « الهوفا » مع العرب في الجزيرة نفسها اسم «مورونا » . ولما كانت كلمة « المسلمين » تعني العرب في بلاد المغرب العربي لذا فإن هذا الاصطلاح له معنى « بلاد العرب » ، وكذا فإن العرب والبربر يُطلقِ عليهم الزنوج اسم « البيضان » ، وذلك ليقف السود ضدّهم ، ويعدّونهم مستعمرين ، إذ يُشيعون أن المنطقة أصلها للزنوج ، وقد أخرجهم منها البيضان .

تبلغ مساحة موريتانيا ٧٠٠و ١,٣٠٣ كيلومتر مربع ، ويقترب عدد سكانها من المليونين حسب تقديرات عام ١٤١٠هـ ، وبذا فالكثافة ضعيفة تنقص عن شخصين في الكيومتر المربع الواحد .

وعُرفت هذه المناطق عند المسلمين باسم « بلاد شنقيط » نسبةً إلى مدينة (شنقيط) الواقعة في وسط البلاد إلى الشرق من مدينة (أطار) ، حيث كان يخرج منها عددٌ كبيرٌ من الحجاج ، ويسير معهم حجاج المنطقة ، فينسبون إليهم ، فيقال : « الركب الشنقيطي » وكذلك نسبت المنطقة إلى مدينتهم ، وقد خرج منها جماعةٌ من العلماء على مرّ العصور ، وكانوا يتوزّعون في البلدان ، فينسب كل واحدٍ منهم إلى شنقيط .

العقائد : يدين السكان جميعهم بالإسلام ، ومعظمهم على المذهب المالكي ، غير أنه عند الاستقلال قد اكتسب عددٌ من الفرنسيين الجنسية الموريتانية كإداريين وموظّفين ، وكذلك اكتسبها بعض الفنيين غير المسلمين من السنغال ، وهذا ما يجعلنا نعطي نسبة المسلمين في موريتانيا ٩٩٪ من مجموع السكان ، أما الواقع فالسكان الأصليون ١٠٠٪ مسلمون .

لذا لا نجد صراعاً في العقائد في موريتانيا ، حيث جميعهم على عقيدةٍ واحدةٍ . وقد انتشرت الطرق الصوفية عندهم ، فقد دخلت القادرية في القرن العاشر الهجري ، والشاذلية في القرن الحادي عشر ، والتيجانية في القرن الثاني عشر ، ولكن يبدو أن الصوفية في المغرب تختلف عنها في المشرق رغم أنها فرعٌ منها ، إذ قارعت الاستعمار على غير ما هو معروفٌ عنها في المشرق من التواكل والكسل ، وعدم مواجهة الأعداء مهما بلغ بغيهم ، ويبدو أنها في موريتانيا أقرب إلى الزهد منها إلى التصوّف ، وهذا حسب ما نسمعه ، وليس من رأى كمن سمع .

المجموعات البشرية : يعود أصل أكثر السكان إلى قبيلة صنهاجة ، سواء أكانت عربية أم بربرية ، حسب اختلاف النسّابين ، ولكن يقولون عن أنفسهم أنهم عرب ، وعلينا أن نأخذ بقولهم ، ثم دخلت قبائل بني حسّان الذين جاءوا إلى إفريقية مع قبائل بني هلال ، واستقرّ بنو حسّان في موريتانيا ، وطبعوا المنطقة بطابعهم حتى تعرف اللغة التي يتكلمها السكان أو بالأصح اللهجة بالحسّانية ، وجاءت قبيلة « بافور » وانصهرت ضمن المجموعة

العربية ، ويشكّل العرب أو العرب والبربر نسبة ٨٥٪ من مجموع السكان ، ويعرفون باسم « البيضان » حتى إن نهر السنغال إنما جاءت تسميته نهر صنهاجة نسبةً إلى هذه القبيلة التي تنتشر على ضفاف نهر السنغال .

وتشكّل القبائل الإفريقية ١٤٪ ، وهي من الولوف ، والسوننكية ، والهالبولار ، ويعرفون باسم « السودان » مقابل « البيضان » .

وهناك « اللحمة » ويسمّونهم « زناكة » أي الأوباش أو أطراف الناس ، ولا يعدّون ظلمهم ظلماً ، وكانت القبائل الحسّانية تبيع رقاب « اللحمة » مع اعترافهم بأنهم أحرار ، ولكن يتمّ البيع بسبب الديون التي عليهم .

وهناك « الحراتون » ، وهم بقايا العبيد الذي أعتقوا .

أما « الزوايا » فهو اصطلاحٌ يطلق على الذين يسيرون في طلب العلم ، وإعمار الأرض بحفر الآبار ، وقرى الضيف ، والإمامة ، والتعليم عندهم مجاناً ، وربما التزم الفقيه بنفقة الغريب وكسوته ، أما تعليم القرآن فلا يرون بأساً في أخذ الأجرة على تعليمه . والزوايا من مختلف المجموعات .

وعلى هذا فلا توجد صراعاتٌ بين المجموعات البشرية إذ أنها قليلة العدد ، غير أنه توجد صراعاتٌ عرقية بين البيضان والسودان .

المجموعات العرقية : قلنا إن المجموعات الزنجية لا تزيد نسبتها على ١٤٪ من مجموع السكان ، غير أنها تلقى دعماً أو تحريضاً من الخارج من بعض الدول المجاورة ، ومن الدول الأوربية النصرانية وخاصةً فرنسا ، ولا تتوانى الصليبية ولا اليهودية عن هذا الدعم .

أما الحجج التي يقدّمونها للمجموعات الزنجية فهي أن البلاد في الأصل لهم ، وقد جاء البيضان البربر والعرب مستعمرين ، وأن البيضان يستعبدون السودان ، وحتى في المناطق التي لا يزال أكثرهم يقيم فيها بحوض نهر السنغال .

وقد هزّ الأعداء أن يروا موريتانيا تنخرط في المجتمع العربي ، وتقوم فيها الاستثمارات العربية الأمر الذي يجعلها تتطور بسرعة ، وربما تحذو حذوها

دولٌ إفريقيةٌ أخرى ، على حين أنهم يريدون أن يقع الصراع بين العرب والأفارقة ، وأن تقف الدول الإفريقية في وجه انتشار الإسلام ما دامت على خلافٍ مع العرب ، ويمكن للصليبية أن تلعب دوراً أكبر ، كما يمكن لإسرائيل أن تتغلغل في قلب إفريقية .

وقد رأينا كيف تشكّلت جبهة التحرير الإفريقي لموريتانيا من مجموعة العناصر الزنجية ، وكيف قام الجناح العسكري لها بمحاولة انقلابٍ في صفر من عام ١٤٠٨هـ ، ولكنها باءت بالفشل .

الصراع الحزبي : ظهر حزب الاتحاد الوطني في بداية الأمر كما ظهر حزب منظمات الشباب ، ولم يكن من اختلافٍ في الأهداف بينهما ، وإنما يدعو كلاهما إلى الاستقلال ، لذا فقد اندمجا في حزبٍ واحدٍ هو حزب التفاهم الموريتاني .

ثم عاد الانقسام ، وظهر حزب التفاهم الموريتاني ، وحزب الاتحاد التقدّمي ، وبدأ التنافس بينهما ، ولكن كان النجاح حليف حزب الاتحاد التقدّمي ، فانتقل عددٌ من زعماء حزب التفاهم إلى المغرب ، وأخذوا بالدعوة إلى ضمّ موريتانيا إلى المغرب ، وتشكيل جيش تحرير موريتانيا هناك .

أما من بقي من حزب التفاهم في موريتانيا فقد اندمج مع حزب الاتحاد التقدمي ، وشكّلا معاً حزب التجمّع الموريتاني لمواجهة جناح حزب التفاهم الموريتاني في المغرب ، وأصبح حزب التجمّع صاحب السلطة ، وفي عهد سلطانه تمّ الاستقلال .

ونشأ حزب الاتحاد الوطني الموريتاني الذي يعدّ فرعاً من حزب الاتحاد الإفريقي ، ولكنه بقي ضعيفاً . كما أسّس قادة حزب التفاهم سابقاً والذين يعيشون في المغرب حزب النهضة ، ويعدّ هو الحزب المعارض ، ولكن اعتُقل كثيرٌ من أعضائه الذين يعيشون في موريتانيا في بداية عهد الاستقلال . ولكن لم يمضِ عامٌ حتى حلّ هذا الحزب نفسه ، وقبل المشاركة في الحكم ، كما حلّت

بقية الأحزب نفسها ، ومنها حزب التجمع الموريتاني ، الحزب الحاكم ، ونشأ منها جميعاً حزب الشعب الموريتناني . وبعد ثلاث سنوات أقرّ مبدأ الحزب الواحد ، ولم تعد هناك معارضة ، وإنما حزبٌ واحدٌ هو الحزب الحاكم ، واستمرّ ذلك حتى الانقلاب الي جرى في ٥ شعبان ١٣٩٨هـ .

أصبحت اللجنة العسكرية هي السلطة التشريعية ، والتنفيذية ، ولا يسمح بوجود أحزاب ، أو معارضة ، وبذا فليس هناك من صراعاتٍ حيث لا توجد أحزاب .

إذا كان النظام الرسمي لا يسمح بوجود أحزابٍ ، إلّا أنه في الواقع توجد أحزابٌ غير أنه لا يُسمح لها بالنشاط وتعدّ غير شرعيةٍ ، ومنها :

١ ـ **الحركة الديمقراطية الوطنية** : وهي الحزب الشيوعي ، وقد انشقّت في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري عن حركة الكادحين « الماوية » .

٢ ـ **حزب البعث** : ولا يُظهر في موريتايا الاتجاه العلماني الذي يعدّ منهج حزب البعث في المشرق ، مع العلم أنه في موريتانيا ليس سوى فرع للحزب في المشرق، وذلك لأنه لا يوجد نصارى في المغرب، والدعوة إلى العربية في المغرب تعني الإسلام، إذ لا يوجد ذلك التباين ما دام لا تلحق العلمانية بتلك الدعوة العصبية، فالمفهوم في المشرق غيره في المغرب.

٣ ـ **التيار الفرانكفوني** : أو الفرنجة ، وأكثر أعضاء هذا التيار من العناصر الزنجية .

الصراعات الفكرية : لا توجد تياراتٌ عنيفةٌ في موريتانيا ، ويمكن حصرها في ثلاثة وهي :

١ ـ التيار العربي أو الإسلامي : وهما مترادفان ـ كما ذكرنا ـ إذ لا يوجد توجّهٌ علمانيٌّ ، ولا عصبيةٌ قوميةٌ . وإنما يفهمون العرب يعني الإسلام ، ولا

شكّ أن هذا التيار يشكّل الأغلبية وفيه العناصر الواعية المتفتحة للإسلام والمعاصرة ، وفيه البسطاء من العامة ، وفيه رجال الزوايا المنصرفون إلى التعليم دون الالتفاف إلى العلوم التجريبية .

٢ ـ التيار الفرانكفوني : ويرعب هذا الاتجاه بصبغ البلاد بالصبغة الفرنجية كاملةً دون إدخال أي تحويرٍ عليها . ويحاول أفراده الظهور بجلودٍ غير جلودهم .

٣ ـ التيار الشيوعي : وهو إضافةً إلى الفرنجة التي يسير عليها فإنه يعمل للسير بالنهج الشيوعي ، ويقف دائماً موقف المعارض ، ويرغب في انتشار الفوضى كي يجد المناخ المناسب لنشاطه وحركته .

ويلتقي الخطان الشيوعي والفرانكفوني في معاداتهما للتيار الإسلامي ، وكثيراً ما يسيران في خط واحدٍ سلوكاً ، ومادية ، ولكن يتجه أحدهما للشرق والآخر للغرب .

الصراعات مع رعايا الأجانب : يعيش في موريتانيا رعايا لعددٍ من الدول الإفريقية ، وأكثرها من الدول المجاورة ، وخاصةً من السنغال للحدود المشتركة بينهما ، والارتباط الإداري السابق ، وعَمَلِ الكثيرين من السنغاليين في موريتانيا ، واستمرّ عملهم بعد الاستقلال وإلى الآن ، حتى توتّرت العلاقات أخيراً بين الدولتين وتمّت القطيعة ، والهجوم الإعلامي ، والتهديدات ، وذهب ضحيتها الكثيرين من الطرفين . ولا بدّ من النظر في أهمّ ما وقع من صراعاتٍ بين موريتانيا ورعايا الدول المجاورة ، وهو ما حدث في شهر رمضان من عام ١٤٠٩هـ (نيسان ١٩٨٩م) والخلفية لتلك الأحداث .

احتلّت فرنسا موريتانيا منطلقةً من السنغال ، وكان بين جنودها أعدادٌ من السنغاليين ، وبقي عملهم في موريتانيا ، كما عمل بعض أبناء السنغال مترجمين لدى الإدارة الفرنسية في موريتانيا ، وقد استقرّ قسمٌ من هؤلاء ، ومن

أولئك في مكان عملهم في موريتانيا ، فلم يكن في موريتانيا عند مجيء المستعمرين الفرنسيين سوى مدرسة في (روصو) فأخذ السنغاليون الإدارة والتنظيم ، حتى كان معظم المرشّحين في موريتانيا في بداية عهد الانتخابات من السنغاليين . كما انتقل عددٌ آخر من السنغاليين يوم الاستقلال ؛ حيث انتقلت العاصمة من (سان لويس) السنغالية التي كانت كمقرٍّ إداريٍّ إلى (نواكشوط) العاصمة الجديدة للدولة الناشئة ، فكان الموظفون والإداريون حتى الوزراء ، ولعلّ هاتين المرتين اللتين كان فيهما الانتقال واسعاً ، أما الأمر الطبيعي أن يحدث الانتقال باستمرارٍ بين دولتين متجاورتين شقيقتين يدين أهلهما بعقيدةٍ واحدةٍ ، وهما ضمن الدول النامية التي تحتاج إلى عمالٍ من اختصاصٍ معينٍ ، ومما يساعد على هجرة السنغاليين وجود الإداريين السنغاليين في موريتانيا . وفي المقابل فقد انتقل عددٌ من الموريتانيين إلى السنغال دعاةً وتجّاراً بصفتهم من العرب الأقرب إلى معرفة كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، وقد أصبح عدد السنغاليين في موريتانيا ما يزيد على مائةٍ وعشرين ألفاً ، وإضافةً إلى الإدرايين والموظفين منهم فإنهم أصبحوا يسيطرون على العمل الفني في موريتانيا من حدادةٍ ونجارةٍ وإصلاحٍ للسيارات . وغدا عدد الموريتانيين في السنغال ما يقرب من خمسمائة ألف ، وأصبحت تجارة المفرق ، وتجارة التوزيع في السنغال بأيديهم و . . . وعاشت الدولتان على هذه الصورة ، وحسن الجوار قائمٌ في كلتيهما ، ولكن حدثت مستجدات غيّرت الوضع القائم في حسن الصلة والجوار إلى عداوةٍ وحقدٍ .

عندما يكون حسن الجوار قائماً تُحلّ الأمور المعقدة بيسرٍ وسهولة ، وعندما تسوء العلاقات يمكن لأقلّ الأحداث أن تسبّب مشكلةً عقيمة الحلّ . ففي البداية كانت تحدث دائماً أحداث على الحدود بين السنغال وموريتانيا وتُحلّ ببساطة عن طريق الإدارات المحلية أو بالتفاهم بين الحكومتين ، وعلى سبيل المثال افتتحت موريتانيا مطاراً في (النعمة) ، فظهر كأنه منافس لمطار (داكار) فأغلقته موريتانيا بالتفاهم مع الحكومة السنغالية .

أخذ الأمر يتغيّر بسرعة بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في موريتانيا والتي قادتها العناصر الزنجية ، إذ أخذت تنشط هذه العناصر في السنغال ، وتنشط جبهة التحرير الإفريقي لموريتانيا من العرب . ولعلّ أسباب التوتر بين الدولتين يعود إلى :

١ ـ الجفاف الذي أخذ يصيب البلاد منذ عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) ، ولما كان كثير من السنغاليين يعملون بالزراعة لذا فقد تضرروا من نتائج الجفاف وتأخّرت حالتهم المادية ، وليس لديهم من مهمةٍ أخرى ، فالمصانع والشركات الإنتاجية الكبيرة فرنسية ، وتجارة الجملة بيد الشاميين اللبنانيين ، والتجارة الصغيرة والتوزيع بيد الموريتانيين ، والسنغاليون إما زرّاع ، وإما أجراء ، وساءت أحوال الزرّاع ، فأخذوا وأخذت الحكومة تفكّر في حلٍّ للخلاص من الوضع القائم .

وكان العنصر العربي بعيداً عن ميادين الإدارة ، والزراعة ، والمعادن ، والصيد ، والشرطة ، ولعلّ أكثر اهتمامه وتوجهاته كانت نحو الرعي ، فلما جاء الجفاف وهلك كثير من المواشي وأخذ بعض الموريتانيين ينافسون السنغاليين في الزراعة ، وفي الحرف . . . ، فتأثّر السنغاليون من ذلك .

٢ ـ استصلاح الأراضي : كانت الأرض الموريتانية في حوض السنغال ملكاً للقبائل سواء أكانت عربيةً أم زنجيةً ، موريتانيةً أم سنغاليةً ، وكانت أملاك العرب غالباً ما تؤجّر للزنوج ، ولم تكن هذه الأراضي تستغلّ بشكلٍ جيّدٍ ، فأرادت الدولة استصلاح هذه الأراضي ، ونقلت ملكيتها من القبائل إلى الدولة ، فاحتجّ الأجراء الزنوج، وادّعوا أنهم هم الذين يملكون الأرض . وكذا فقد انتهى عمل الزرّاع السنغاليين ، فضاقوا بهذا الوضع .

٣ ـ التعريب : كانت موريتانيا أيام الاستعمار معزولةً عن واقعها العربي اللغوي والحضاري ، فلما زال الاستعمار بقيت الإدارة بيد السنغاليين ، ويحتاج الأمر إلى ترجمةٍ ويقوم بها السنغاليون ، فلما دخلت موريتانيا جامعة الدول

العربية عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) بدأ التعريب ، ولم يعد الأمر بحاجةٍ إلى ترجمةٍ ، وهذا ما جعل السنغاليين الذين كانوا يعملون في الترجمة لا عمل لهم اليوم ، فانتقلوا إلى السنغال متذمّرين من الوضع الذي آلوا إليه .

وكان الموريتانيون قد وقفوا أمام الثقافة الاستعمارية بما لديهم من خلفياتٍ دينيةٍ ولغويةٍ ، وقد زاد هذا الأمر بعد الاستقلال ، ثم كثر عندما دخلت موريتانيا جامعة الدول العربية ، وأخذت المساعدات العربية تصل إليها ، والمشروعات الاستثمارية تقوم فيها ، وبذا عادت موريتانيا إلى واقعها العربي الإسلامي الأصيل ، وهذا ما أثّر على السنغال ، وأساء إلى فرنسا التي ترغب في بقاء سيطرة ثقافتها ، والوقوف في وجه المدِّ الإسلامي في إفريقية ، وإيجاد خلافٍ بين الدول العربية والأفارقة ، فساهمت في توسعة شقة الخلاف بين موريتانيا والسنغال .

٤ ـ بناء ميناء نواكشوط : كانت موريتانيا تأخذ كثيراً من واردتها من طريق ميناء داكار السنغالي ، فعندما أرادت بناء الدولة ، والاعتماد الذاتي قامت بإنشاءِ ميناءٍ لها في نواكشوط ، وأخذت بعض الدول الإفريقية الداخلية مثل مالي ، وبوركينا فاسو ، والنيجر تستورد وتصدّر البضائع عن طريق نواكشوط الذي أصبح ميناءً منافساً لميناء داكار ، وهذا ما أزعج السلطات في السنغال .

وأخذت السنغال تتحرّك منذ حركة محاولة الانقلاب الفاشلة في موريتانيا عام ١٤٠٨هـ . ولكن فشل الحركة أساء إليها أيضاً ، وهي تعيش ضائقةً اقتصاديةً ، والبطالة تنتشر ، وتعدّ موريتانيا سبباً في هذا سواء بالضائقة الاقتصادية أم بانتشار البطالة .

رأت السنغال أن تغيير الوضع في موريتانيا قد يكون لصالحها فيما إذ كان لها أو للعناصر الزكجية دور ، إذ تبتعد عن المحيط العربي ، وتعدو بالاتجاه نحو الدول ذات الثقافة الفرنسية في غربي إفريقية ؛ فتحتاج إلى الترجمة مرّةً ثانيةً ،

وسيقوم السنغاليون بهذه المهمة ، وبذا يعودون إلى دورهم ، وربما ينتهي دور ميناء نواكشوط ، ويعود الزرّاع السنغاليون إلى حوض نهر السنغال ، و . . . ، ولكن ما الذي يغيّر الوضع ، وقد رأى المخططون حسب الظاهر :

أن إبعاد الموريتانيين عن السنغال يسبّب بطالةً واسعةً في موريتانيا بعد أن يعودوا إلى بلدهم في الأوساط الشعبية ، ويحرّك الرعية ضدّ السلطة .

وأن ترحيل السنغاليين عن موريتانيا سيجعل ضائقةً إذ لا يوجد من يحلّ محلّهم مباشرةً سواء أكان ذلك في الترجمة أم في الإدارة أم في الأعمال الفنية ، وهذا ما يثير أزمةً في وجه الحكومة الموريتانية إذ تتوقف عجلة العمل .

وأن مصادرة أموال الموريتانيين في السنغال سيخفف من الضائقة الاقتصادية في السنغال ، ويقلل من البطالة إذ يحلّ السنغاليون محلّ الموريتانيين في تجارة المفرّق ، وسيخفف من الأزمة السياسية إذ تتجه الأنظار نحو الخارج ، وتؤيّد السلطة في موقفها من العدو حث تُبرز وسائل الإعلام ذلك .

والمهمّ اهتبال الفرصة المناسبة . وقد جاءت يوم ٤ رمضان ١٤٠٩هـ (٩ نيسان ١٩٨٩م) حيث جرى صدامٌ بين رعاةٍ موريتانيين من قرية (صونكو) على ضفة نهر السنغال اليمنى وهم من قبيلة « بولار » الفولية ، وبين مزارعين سنغاليين من قرية (أدياوارا) من قبيلة « السوننيكه » عل ضفة نهر السنغال اليسرى على أرض جزيرة (دوندو غوريه) وهي جزيرةٌ صغيرةٌ تختفي أثناء فيضان النهر ، وتظهر وقت الجفاف ، فأصيب اثنان من السنغاليين ، وقضوا نحبهم ، واختطف الموريتانيون ثلاثة غشر رجلاً من السوننيكه السنغاليين ، ونقلوهم إلى قريتهم سرّاً ، وأخفوهم ، وعدّوهم أسرى لديهم . فأسرعت الحكومة الموريتانية وسلّمت جثث القتيلين ، واعتقلت المعتدين ، واعتذرت للسنغال ، وأبدت لها أنها شرعت في التحقيق ، ثم وجدت الثلاثة عشر رجلاً الذين عُدّوا مفقودين ، وحققت معهم ، وسلّمتهم إلى السلطات في بلدة (بوكل) السنغالية التي تتبع لها قرية (دياوارا) .

لكن في اليوم التالي ٥ رمضان قامت مظاهرات في (بوكل) ضد العرب ، ونهبت أملاكهم . وفي ١٣ رمضان قامت المظاهرات في مدينة (ماتام) ، ووقعت اصطدامات وحوادث نهب ، وفي ١٥ رمضان أجبر العامة السنغاليون التجار الموريتانيين في دكار بدفع الفدية . وفي ١٧ رمضان بدأت أعمال نهب محلات الموريتانيين ، واستمرّت عدة أيام ، كما هوجمت السفارة الموريتانية في دكار ، وبدأ القتل والتنكيل والتمثيل بالموريتانيين .

وقامت ردّة فعلٍ في موريتانيا في مدينتي (نواكشوط) و (انواذيبو) ، فأعلن حظر التجوّل ، وجاءت قوات الجيش والدرك ، وانتشرت في المدينتين ، وقمعت كل أحداث الشغب .

وفي ٢٢ رمضان وصلت أخبار مدينتي (نواكشوط) و (انواذيبو) إلى دكار ، فبدأت في السنغال أعمال القتل الجماعية ، وجاء يوم ٢٣ رمضان فهاجم السنغاليون الموريتانيين في المساجد وذبحوهم حتى أعلنت الحكومة حالة الطوارىء ، فانتقل الذبح إلى القرى ، والمدن البعيدة ، وخاصةً على ضفاف نهر السنغال ، كما هاجموا الرعاة الموريتانيين ، واستمرّ ذلك حتى ٢٧ رمضان .

ثم جرى تبادل الرعايا بين البلدين ، وكان جسرٌ جويٌّ بين نواكشوط ودكار ، فقد نُقل من السنغال إلى موريتانيا مائتي ألف ، ولما كان عدد الموريتانيين يقدّر بخمسمائة ألف فقد عدّ الموريتانيون ثلاثمائة ألف في حكم المفقودين . ونُقل من موريتانيا إلى السنغال مائة ألف ، وربما وصل العدد إلى مائةٍ وعشرين ألفاً ، ولم تتوقّع السنغال هذا العدد مما زاد في البطالة ، وتأزّم الوضع الاقتصادي .

وقدّر الموريتانيون خسائر رعاياهم في السنغال كما يأتي :

١٠,٠٠٠	قتيل .
٣٠٠,٠٠٠	مفقود .
٢٢٠,٠٠٠	رأس من الضأن

٢٠,٠٠٠	رأس من الماعز
٢٠,٠٠٠	رأس من الإبل .
٥,٠٠٠	رأس بقر .
٢٠٠,٠٠٠	متجر نُهبت بضاعتها .
٣٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	فرنك مصادرة .
٧,٠٠٠	دار نُهب أثاثها .
٥,٠٠٠	سيارة .
	عدة آلاف من قطع الأرض .
	ذهب النساء .

وفي موريتانيا لم تتحرّك العناصر الزنجية ، ولم يقم العرب بعمليات انتقام ، وإنما قاد تلك العمليات جماعة « الحراتين » ، وهم من العرب السود الذين كانوا في الماضي عبيداً ثم نالوا حرياتهم بالإعتاق . ولم تكن عمليات الانتقام ضدّ العناصر الزنجية ، وإنما ضدّ السنغاليين .

وتتهم موريتانيا عمدة دكار الذي دفع للفرد من قطّاع الطرق ٢٥٠٠ فرنك يومياً لقاء المهاجمة والقتل ، وكان الاستئجار لحساب الحزب الاشتراكي الحزب الحاكم . كما تتهم وزير الداخلية السنغالي « أندري صونكو » الذي كانت تصريحاته مثيرةً للشغب ، وفيها الكثير من التحريض ، كما تحمّل رئيس الدولة « عبده ضيوف » مسؤولية تصريحاته المليئة بالإثارة وعدم اتخاذ الإجراءات اللازمة من إعلان حالة الطوارىء منذ بداية الأحداث ، وعدم تطبيق حالة الطوارىء عندما أعلنت بشكلٍ جدّي . وتتهم عامةً الحكومة التي صادرت من النازحين الموريتانيين مائتي مليون فرنك ، إضافةً إلى ذهب النساء ، وتؤكّد اتهامها لأمين عام رئاسة الجمهورية « جان كولان »[1] .

---

(١) جان كولان : أمين عام رئاسة الجمهورية ، ووزير دولة في السنغال ، وهو فرنسي جاء من الكاميرون ، وعُيّن مديراً للإذاعة ، ثم مديراً لديوان رئيس الحكومة ، ثم محافظاً للعاصمة دكار ، فأميناً عاماً للحكومة ، فوزيراً للمالية لمدة سبع سنوات متواصلة ، ثم وزيراً للداخلية =

أما السنغال فتتهم وزير الداخلية الموريتاني « غبرييل ولد عبدالله » وتقول : إنه فرنسي ، ومعروفٌ بعدائه للعرب ، وأنه من أنصار التيار الفرانكفوني ، وقد بذل جهده لتصل الأمور إلى ما وصلت إليه من اعتداءاتٍ على العرب ، ووقف الموقف الذي جعل التفاهم يصل بين وزيري داخلية البلدين إلى طريقٍ مسدودةٍ .

وليس غريباً أن تكون الاتهامات على درجةٍ من الصحة ؛ ما دام المسؤولون في وزارة الداخلية من الطرفين من الصليبيين الفرنسيين في دولتين مسملتين . وإن « غبرييل ولد عبدالله » وزير داخلية موريتانيا من أبٍ فرنسي ، غير أن الأوساط الرسمية الموريتانية تدافع عنه .

وربما كانت هذه الأحداث هي أهمّ الصراعات التي تعرّضت لها البلاد منذ استقلالها . وكانت السنغال تتوقّع أن تقف الدول العربية بجانب موريتانيا فتثير السنغال حفيظة أوربا النصرانية ضدّ موريتانيا ؛ إلاّ أن الدول العربية لم تفعل ذلك .

كما كانت تتوقّع موريتانيا أن تقف الدول الإفريقية السوداء إلى جانب السنغال ، غير أنها وقفت كلها بجانب موريتانيا ما عدا الغابون .

وإنا نرجو أن يعود الوئام بين الدولتين المسلمتين الشقيقتين المتجاورتين الإفريقيتين ، وأن تعمل كلتاهما لنسيان ما حدث وتضمّد جراحها .

مدة عشر سنوات متتابعة .

وهو نائب في المجلس النيابي ، وعضو في المكتب السياسي للحزب الحاكم (الحزب الاشتراكي) .

وأصبح في أيام الرئيس عبده ضيوف أميناً عاماً لرئاسة الجمهورية ، ويتدخّل في شؤون الوزراء كلهم .

فهو نصراني يعمل على طرد كل مسلم من الحكومة ، ويعمل على إثارة كل مشكلة في موريتانيا .

المراجع

• الأحزاب السياسية المغربية	خريف محمد	إفريقية الشرق ١٩٨٨م .
• استقلال ليبيا	سامي الحكيم	مكتبة الأنجلو ـ المصرية ١٩٧٠م .
• تاريخ تونس المعاصر	أحمد القصاب	الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٦م .
• جهاد شعب الجزائر١/ ١٥	بسام العسلي	دار النفائس ـ بيروت .
• جمعية العلماء المسلمين الجزائريين	مازن صلاح ـ حامد مطبقاني	دار القلم ـ دارة العلوم ـ بيروت ١٩٨٨م .
• حقيقة ليبيا	سامي الحكيم	مكتبة الأنجلو ـ المصرية ١٩٦٨م .
• حياة كفاح ١/٣	مذكرات أحمد توفيق المدني	المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ١٩٨٨م .
• الظهير البربري	حسن بوعياد	دار الطباعة الحديثة ـ الدار البيضاء ١٩٧٩م .
• مظاهر المقاومة الجزائرية	محمد الطيب العلوي	دار البعث ١٩٨٥م .
• المعجزة المغربية	أحمد عسة	مطبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٧٥م .
• الميثاق الوطني	جبهة التحرير الوطني	الجزائر ١٩٧٦م .
• وزراء بورقيبة	منير الشرفي	مطبعة تونس ـ قرطاج .

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

-١٥-

التاريخ المعاصر

غربي إفريقية

١٣٤٢ - ١٤١٢ هـ
١٩٢٤ - ١٩٩٢ م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

-١٥-

التاريخ المعاصر

غربي إفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن غربي إفريقية يُعدّ منطقةً إسلاميةً، وإن كانت تنخفض نسبة المسلمين في بعض أجزائها التي تعدّ دولاً الآن إلى ما دون النصف، ولكن إذا عددنا المنطقة جزءاً واحداً فإن نسبة المسلمين ترتفع إلى أكثر من النصف وذلك لانتشار الإسلام على نطاقٍ واسعٍ في أجزاءٍ كثيرة.

يشمل غربي إفريقية المناطق التي تقع جنوب بلاد المغرب، وتُشرف على ساحل المحيط الأطلسي من ناحية الغرب، والمناطق الصحراوية التي تقع جنوب الأجزاء الغربية من بلاد المغرب، والمناطق السودانية التي تُشرف على سواحل خليج غينيا من المحيط الأطلسي. وتضمّ حسب التقسيمات السياسية ثلاث عشرة وحدةً سياسيةً وهي: السنغال، غامبيا، غينيا ـ بيساو، غينيا، سيراليون، وهذه الوحدات تُشرف على سواحل المحيط الأطلسي من ناحية الغرب، وهي خمس وحداتٍ سياسيةٍ. وتضمّ المناطق الصحراوية ثلاث وحداتٍ، وهي: مالي، النيجر، بوركينافاسو. وتضمّ المناطق السودانية التي تُشرف على سواحل خليج غينيا خمس وحداتٍ هي: ساحل العاج، التوغو، بنين، نيجيريا، الكاميرون.

كان وصول الإسلام إلى هذه المناطق عن طريق الشمال حيث انتشر هناك منذ الفتوحات الإسلامية الأولى التي تمّت في صدر الإسلام سواء ما

كان منها في العهد الراشدي، أم ما كان في العهد الأموي، حيث فُتحت الأجزاء الشرقية في مصر، وليبيا في العهد الراشدي، وفُتحت الأجزاء الغربية في العهد الأموي، إذ استطاع عقبة بن نافع الوصول عام ٦٠ هـ إلى ساحل المحيط الأطلسي وانتصر، على قبيلة مصمودة البربرية(١)، واستمرّ في تقدّمه على ساحل المحيط الأطلسي حتى وصل إلى مدينة نول(٢) في أقصى بلاد المغرب حيث كانت بعض قبائل الملثّمين تنزل فيها، واستطاع عقبة أن يُخضعها لسلطان الإسلام، ثم فتح مدينة مسوفة، وبنى فيها مسجداً، وفي هذه الأثناء دخلت قبيلة صنهاجة الإسلام. وبهذا وصل عقبة بن نافع إلى أطراف الصحراء، وفتح الطريق للإسلام كي ينتقل إلى بلاد السودان حيث كانت القبائل تنتقل عبر الصحراء بين السودان وبلاد المغرب. واستشهد عقبة عام ٦٢ هـ أثناء عودته إلى القيروان في كمينٍ نصبه له أعداؤه الذين لم يُسلموا.

وتسلّم قيادة الفتح موسى بن نصير عام ٧٩ هـ، وبلغ الأماكن التي وصل إليها عقبة بن نافع من قبل، وأخضع القبائل التي ارتدّت عن الإسلام، بعد استشهاد عقبة. وقد قرّب إليه البربر في سبيل استمالتهم إليه، وقبولهم الإسلام بصدقٍ، وولّاهم الأعمال، وشاركهم مع العرب في إدارة البلاد، وأخذ يُفقههم بالدين فأقبلوا على الإسلام إقبالاً عظيماً.

وعمل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر والي إفريقية من قبل عمر بن عبدالعزيز على نشر الإسلام في المغرب الأقصى حتى لم يبق أحد في ولايته غير مسلمٍ.

وقام عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بحفر

---

(١) قبيلة بربرية، وهي فرع من البرانس الذي يتفرّع منه قبائل: صنهاجة، وكتامة، ولمطة، ومصمودة.

(٢) نول: مدينة على ساحل المحيط الأطلسي في آخر بلاد السوس الأقصى، وتعدّ حاضرة قبيلة لمطة.

سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة أودغشت التي كانت حاضرة قبيلة لمتونة من صنهاجة، وهي الآن غير موجودة، ومكانها في موريتانيا، وكان نتيجة هذه الآبار أن تمكّن الجنود من اجتياز الصحراء والعمل على نشر الإسلام بين القبائل الضاربة في تلك الجهات، كما أصبحت تلك الطرق دروباً للقوافل، وأصبح الإسلام يصل إلى منطقة السودان الغربي عن طريق التجارة.

وأرسل الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك عام ١٠٢ هـ جيشاً إلى داخل إفريقية بغية فتح السودان، واستقرّ عدد من أفراد ذلك الجيش في تلك المنطقة.

ووصل نفوذ دولة الأدارسة التي قامت عام ١٧٢ هـ إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن المناطق السودانية، وانضمّت ديار الملثّمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من البلدان التي تخضع لنفوذهم، وأخذ انتشار الإسلام يزداد بين أفراد قبيلة صنهاجة.

واستطاعت قبيلة لمتونة أن تجمع قبائل الملثمين تحت جناحها، وأن تتجه بهم نحو الجنوب بقصد الجهاد والعمل على نشر الإسلام، ومما شجّعها على ذلك أن مملكة غانة القائمة في منطقة السودان قد أصابها الضعف، وكان لهذا التوّجه نحو الجنوب أثره البالغ في تدفّق المسلمين نحو بلاد السودان، وتمكن هذا الحلف أن يستولي على مدينة أودغشت، ويجعلها قاعدةً له للحركة نحو الجنوب.

وتفككت عرا الحلف عام ٣٠٦ هـ الأمر الذي أعاد القوة لمملكة غانة فاستطاعت دخول مدينة أودغشت، وتحكّمت بذلك بالطرق التجارية المعروفة آنذاك بين بلاد السودان، والمغرب، وسجلماسة. ثم عادت قبائل الحلف للتماسك والارتباط من جديد، فاستعادوا مدينة أودغشت عام ٣٥٠ هـ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها وتركوها لمملكة غانة. وكان لهذا الاحتكاك بين السودان والمسلمين أن سهّل انتشار الإسلام بين الزنوج.

وكان انتشار الإسلام في غربي إفريقية عن طرقٍ كثيرةٍ، كان عن طريق التجارة، وعن طريق القبائل وانتقالها، وعن طريق الدعوة، وعن طريق الدول التي قامت في المنطقة.

التجارة: تختلف حاصلات المنطقة المتوسطية التي هي في شمالي إفريقية عن الحاصلات في المنطقة السودانية التي تقع جنوب الصحراء الكبرى، وهذا ما يجعل التجار يحملون بضائع الشمال إلى الجنوب، وينقلون البضائع السودانية إلى المنطقة المتوسطية، ويسلكون دروباً خاصةً عبر الصحراء تصل بين الواحات الواقعة وسط تلك الفيافي الواسعة، فلما انتشر الإسلام في الشمال اعتنقه تجار الشمال، وأخذوا ينقلونه في قلوبهم إلى قلوب الآخرين الذين هم في الجنوب، ويكون مع التجارة.

القبائل: من عادة القبائل الانتقال تبعاً للمرعى، ومواطن الكلأ، والانتقال في هذه الجهات بين الشمال والجنوب حسب مواقع الغيث، ومع تلك الحركة ينتقل حملة الإسلام ويعملون على نشره في كل مكانٍ يصلون إليه، سواء أقاموا فيه مدةً أم ظعنوا عنه بعد الرحلة. وللقبائل دور كبير في انتشار الإسلام إذ يُسرع أفرادها لاعتناقه فيما إذا قبله شيخ القبيلة.

الدعوة: إضافةً إلى الدعاة الذين لا يخلو منهم عصر، يجوبون البلاد، ويقطعون الفيافي للعمل للإسلام، نجد بعض الدول التي تبنّت فكرة الدعوة، وقد قامت بهذا الدور عدة دولٍ ظهرت في غربي إفريقية، ولكن أبرزها دولة المرابطين التي أخذت ترسل الدعاة إلى كل مكانٍ، حتى وصل دعاتها إلى الكاميرون، والغابون، وتكاد لا تخلو منطقة في غربي إفريقية من دعاةٍ مرابطين، وحاولت الدول التي قامت بعدها أن تسير على نهجها، ولكن لم تستطع أن تبلغ مبلغها من إرسال الدعاة.

الدول: كان الإسلام ينتشر بهدوء في بعض الدول فإذا ما اعتنق الملك الإسلام أخذ ينتشر بسرعةٍ بين الرعية حتى يسود، وتأخذ الدولة عادةً بالتوسّع على حساب جيرانها، أو تضمّ دولاً إليها، فإذا ما توسّعت توسّع

انتشار الإسلام مع امتدادها، وإذا ما ضمّت دولاً أخرى إليها بدأ الإسلام بالانتشار بسرعةٍ في هذه الأماكن على أنه دين الحكام الجدد ودين الأقوياء الغالبون. وانتشر الإسلام تدريجياً بين أفراد من رعايا امبراطورية غانا، وأسلم ملك التكرور عام ٤٣٢ هـ فزاد انتشار الإسلام، ثم خضعت غانا لدولة المرابطين عام ٤٦٩ هـ، وقبل ملكها (تنكامنين) الدخول في الإسلام، وقبل بعد ذلك الكثير من شعب امبراطورية غانا الدخول في الإسلام.

وكذلك قامت مملكة مالي بالدور نفسه، وبقية الممالك التي نشأت في المنطقة.

ولما كان انتشار الإسلام في غربي إفريقية قد جاء وقت ضعف سلطانه، واختلاف أبنائه، وانقسام بعضهم على بعضٍ، وبُعد تلك المنطقة عن مركز ديار الإسلام، وانعزالها عنه بصحارى واسعةٍ، وفيافي شاسعةٍ، ونأيها عن مراكز الثقافة الإسلامية، ومناطق إشعاعها، ومواطن الحضارة، ومجال انتقال العلماء والدعاة لهذا كله كان ارتباط المسلمين في غربي إفريقية بالفكر قليلاً، واتصالهم بالعلم ضئيلاً، ومعرفتهم بالأحكام خفيفة حتى ليمكننا أن نقول: إن صلتهم كانت بالانتماء، وانتماؤهم كان استعلاءً، ومع هذا كله فقد كانوا أكثر تطوراً من غير المسلمين من أبناء المنطقة بشكلٍ واسعٍ بل لا يمكن المقارنة بين الفريقين أبداً، وهذا ما ساعد أيضاً إلى التوجّه نحو الإسلام من قبل الآخرين باستمرار.

ورغم هذا كله أيضاً فقد كان هناك دعاة على مستوى معرفة أبناء المنطقة، وكانت دعوة، وكان عمل، وكانت حضارة، وكان تنظيم، واتجه بعض حكام مالي عام ٧١٠ - ٧١٢ هـ نحو الغرب لمعرفة ما وراء المحيط الأطلسي، ووصلوا إلى الطرف الثاني من المحيط، واستقرّوا في إمريكا الجنوبية، ولكنهم لم يستطيعوا العودة فبقوا هناك، وتركوا آثاراً تدلّ على ذلك، وهذا قبل معرفة الأوروبيين لأمريكا بمائةٍ وخمسةٍ وثمانين عاماً،

وكانت نتيجة خلفهم الإبادة عندما وصل المستعمرون الأوربيون إلى هناك يحملون أحقاداً ضدّ المسلمين تنهدّ منها الجبال.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن انتشار الإسلام في غربي إفريقية بهذه الصورة الهادئة التي لم تجعل لهم أعداءً خارج المنطقة، إذ لم يُقاتلوا نصارى، ولم ينافسوهم على أرضٍ، ولم يختلفوا مع يهود، ولم يناصبوهم عداءً، وكذلك فهم على معرفةٍ بسيطةٍ بتاريخ الإسلام، وعلى علمٍ قليلٍ بأحكامه، ومع هذا فعندما وصل المستعمرون الصليبيون إلى غربي إفريقية، ورسّخوا جذورهم هناك، وشعروا بقوتهم، وأحسّوا بضعف المسلمين قاموا بحربٍ ضدّهم لم تشهدها البشرية من قبل، ولم ترتكب الوحوش أبشع منها حتى الآن، ونخشى أن تتكرر هذه الأيام بعد أن تحكّمت الصليبية بالعالم، وفرضت شراكةً جماعيةً للتسلّط، وعيّنت رعاةً من قبلها على أجزاء العالم، ومن أبدى من المسلمين خاصةً رغبةً في التميّز أو الاستقلال شنّوا حرب الإبادة عليه تحت شعار محاربة الإرهاب، وضرب الحركات المتطرّفة، وقمع الأصولية.

كان النصارى الإسبان والبرتغال في حربٍ مع المسلمين في الأندلس فأرادوا السير في المحيط جنوباً والسير بعدها إلى شواطىء إفريقية الغربية، والنزول بها، ومحاربة المسلمين من الجنوب، أو على الأقل مشاغلة مسلمي إفريقية كي لا يمدّوا يد العون لإخوانهم في الأندلس، وفي الوقت نفسه نزلوا في بعض مواقع على سواحل البحر المتوسط للغرض ذاته الذي هو مشاغلة المسلمين حتى لا يتمكّنوا من مساعدة من يستصرخهم في الأندلس، وهكذا احتلّ الصليبيون مواقع على سواحل إفريقية الغربية غير أن أكثرهم قد انصرف إلى النهب، والسلب، والتملّك، والتجارة حيث وجدوا خيراتٍ كثيرةً، وعرفوا حاصلاتٍ لم يسبق لهم أن عرفوها، ولم يقوموا بمشاغلة المسلمين إذ وجدوا أنفسهم قلةً، ورأوا المسلمين في حالةٍ من الضعف لا تُمكّنهم من تقديم أي دعمٍ لإخوانهم في الأندلس، ورأى الصليبيون أنه ليس من المصلحة إيقاظ النيام بتحرّكهم، والتفكير بدعم

مسلمي الأندلس، لذا استمرّوا بأعمال الاستغلال، وأخذ كل ما تقع أيديهم عليه سرقةً ونهباً.

ومع كل ما سطا عليه الصليبيون، وكل من قتلوهم غيلةً وسرّاً فإنهم لم يُحاولوا اتخاذ الفتك والبطش صراحةً، ولا أسلوب النهب علناً، وإنما عملوا على إظهار اللين واتخاذ أسلوب المكر والخداع، وذلك لأنهم لم يتمكّنوا بعد، ولم يعرفوا نتيجة الصراع مع المسلمين في الأندلس.

وشاءت إرادة الله أن ينتصر النصارى الإسبان والبرتغال على المسلمين في الأندلس لما أحدثوا، وما ابتدعوا من فرقةٍ، وشعر النصارى بنشوة النصر، وانطلقوا يريدون ملاحقة المسلمين في المغرب، وأرادوا حصارهم حسب الخطة السابقة، وانتشروا على سواحل إفريقية، وأخذوا يتصرّفون كالوحوش الكاسرة بل كانوا أكثر وحشيّة، لا يتورّعون عن شيءٍ، ولا يتعرّفون على شيءٍ يُسمّى إنسانيةً، لقد كانوا يصيدون الناس ببنادقهم الآلية الحديثة كما يصيدون الأرانب، ويُغيرون على القرى والمزارع والبيوت في الغابة كما تُهاجم الذئاب قطيع الأغنام، فيقتلون من يشاءون، ويستبقون من أرادوا، ويتصرّفون بمن أبقوا كما يتصرّف المزارع بمزرعته، والراعي بأغنامه إضافةً إلى انتهاك الأعراض أمام الجميع، وتحت نظر الأهل، وتحت سمعهم، وبعضهم أمام بعضٍ، وقد يسملون عيون من يُبدي إنكاراً، أو يقطعون بعض أعضائه، أو كلها عضواً بعد عضوٍ. وقد يتركون بعض الأفراد من نساءٍ ورجالٍ كعبيدٍ عندهم للخدمة، واستغلال الأرض شبه مكبلين، والسياط تكوي جلودهم باستمرار تشفّياً في سبيل إخضاعهم وحقداً، وأما الآخرون فيُساقون إلى النخّاسين ليأخذوا ثمنهم البخس. ويجرّهم النخّاسون إلى الموانىء ليُحملوا بالسفن إلى أمريكا كي يعملوا عبيداً هناك بالمناجم ومزراع القطن، والمغازل والمناسج. وفي الموانىء يُعبّأون في السفن كالحيوانات حيث يُوضع العشرون فرداً في المكان الذي يتسع لعشرةٍ ودون رحمةٍ أو نظرة إنسانيةٍ، إذ يُفرّق بين الرجل وزوجه وبين الواحد منهم وبين أولاده، وربما من شدّة التعذيب تتغير الملامح فلا يعرف الأب ابنه، ولا

الأخ أخاه. ولا يزيد الطعام على كسراتٍ من الخبز يابسةٍ حتى يصلوا إلى المرسى المطلوب، والركاب أو الحمولة في غاية الإرهاق أو في حالة الإعياء، وأثناء الرحلة تجد الجلادين يمرون بين الأفراد المنقولين، ويقضون وطرهم بالشكل الذي يحلو لهم وأمام الجميع بالفتاة التي تعجبهم والمرأة التي تستهويهم، الأب يشهد، والأخ يرى، والأخت تنظر، والأم تتحسّر، والجميع تكاد قلوبهم تتفطّر، والدموع تنسكب مدراراً، وتضاف مع عرق الحرّ، والازدحام، والألم، فتبتل الثياب، وتكون الأمراض، إضافةً إلى أمراض الحسرة، والألم، وقلّة الطعام، والعذاب، وضيق المكان. وبهذه الطريقة نقلت الملايين من المسلمين وغيرهم من سكان غربي إفريقية إلى أمريكا، ومن بقاياهم السود الذين يعيشون إلى الآن في تلك القارة الجديدة، وهذه من حضارة أوربا التي قدّمتها لإفريقية خاصةً وللبشرية عامةً.

لقد كانت الأجزاء الشمالية من غربي إفريقية أقلّ تعرّضاً لأذى الصليبيين نسبياً، وذلك لأنهم كانوا يخشون من المسلمين وإن كان قد حطّ بهم القدر، فالمسلمون ترتفع نسبتهم في تلك الأصقاع أكثر مما ترتفع في الأجزاء الجنوبية، ولهذا لم يتوغّل الصليبيون في الداخل كثيراً في الجهات الشمالية بينما توغلوا أكثر في الجنوبية، ولذا كان صيدهم منها وافر العدد.

وقامت حركات مقاومةٍ وتصدّي للصليبيين في الأجزاء الداخلية الشمالية ولم يحدث مثلها في الجنوب، وحتى في الأجزاء الجنوبية شكل المستعمرون الصليبيون مستعمرات في المناطق الساحلية على حين تشكّلت في المناطق الداخلية محميات.

ظهرت دولة الحاج عمر في بلاد التكرور في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري، وفي الوقت نفسه ظهر ساموري توري في بلاد الماندينغ عام ١٢٧٧ هـ، وبسط نفوذه على قبائل الماندينغ جميعها، واتخذ لقب إمام، وتصدّى للفرنسيين من عام ١٣٠٠ ـ ١٣١٦ هـ. ومن قبل نهض

عثمان دونفديو في شمالي نيجيريا وقاد قبائل الفولاني، وسيطر على المنطقة، ودعا إلى تطبيق الإسلام كما فعل السلف.

ولما نُقل الكثير من سكان غربي إفريقية إلى قارة أمريكا، وأُبيد الكثير منهم على أيدي المستعمرين الصليبيين، وأخذ الإفريقيون في إمريكا يعملون في الزراعة وخاصةً القطن، وفي المغازل والمناسج، ثم في المناجم والصناعة، فكانت التكاليف قليلةً لعدم دفع أجور للعمال الإفريقيين الذين يعملون عبيداً وهذا ما جعل البضائع الأمريكية تُنافس المنتجات البريطانية، وتتفوّق عليها لانخفاض أسعارها، ووجدت بريطانيا أن بضائعها ستكسد إذا استمرّت الحال على ما هي عليه، وأن المعامل بالتالي ستتوقّف لذا لا بدّ من إيجاد حلٍّ لها فأخذت في محاربة الرقيق لمعالجة مشكلاتها، ولبست ثياب الإنسانية، وإن كانت مخالبها وأنيابها تقطر دماً من أجسام الإفريقيين، وانقطع الرقيق بعد مدةٍ، وتوقّفت النخاسة، ولكن بدأ استغلال الأرض وسكانها على نطاقٍ واسعٍ.

وتقاسم المستعمرون الصليبيون المنطقة بصراعٍ فيما بينهم أحياناً، وبالتفاهم أحياناً أخرى، وانصرف كل فريقٍ نحو مستعمراته يمتصّ دم أبنائها، ويأخذ خيرات أرضهم، والمستعمرون لغربي إفريقية هم: انكلترا وفرنسا بشكلٍ رئيسيٍ، ثم هناك ألمانيا، وإسبانيا، والبرتغال، وقد حاولوا جميعاً عزل المناطق الداخلية حيث يكثر المسلمون عن المناطق الساحلية التي يقلّون فيها كي لا يتأثر الساحل بالداخل ويمتدّ الإسلام نحو الشواطىء، وإن اختلفت السياسة بين دولةٍ وأخرى إذ لجأت إسبانيا، والبرتغال، وألمانيا، وفرنسا إلى العنف والشدّة، ولجأت إنكلترا إلى المرونة القائمة على المكر والخديعة، والاستغلال الكلي بالخبث المدهون بالكلام المعسول، فأقامت محمياتٍ في الداخل، ومستعمراتٍ على الساحل لعزل المسلمين بالداخل كي لا يصل تأثيرهم إلى غيرهم، وحتى لا يستفيدوا من خيرات الساحل ويبقوا فقراء تستطيع التحكّم بهم والسيطرة عليهم.

وتنتشر الحياة القبلية في غربي إفريقية، وتكون القبائل كبيرةً، وديارها شاسعةً في الشمال والغرب حيث الصحراء، ومناطق الأعشاب الطويلة (السافانا)، وتكون صغيرةً في الجنوب حيث تنتشر الغابة، إذ تعزل الغابات تلك القبائل بعضها عن بعض فتكون مجموعات صغيرةً.

وتكون القبائل في الشمال والغرب مسلمةً على حين تكون الجنوبية أكثرها وثنيةً، وتقلّ نسبة الإسلام بصفةٍ عامةٍ من الشمال إلى الجنوب وقد جاء الإسلام من الشمال ومنذ أن جاء المستعمرون الصليبيون وقفوا في وجه امتداده نحو الجنوب. وجاءت النصرانية مع المستعمرين الصليبيين الذين ثبّتوا أقدامهم على السواحل، وحاولت التقدّم نحو الداخل، وتمكّنت أن تكسب بعض الوثنيين إليها، ولكنه كان كسباً ضئيلاً لعدم اختلافها كثيراً عن الوثنية حيث تقوم على عبادة أحد المخلوقات كباقي الوثنيات، إضافةً إلى فكرة الرهبانية غير المطبقة إلا بصورة نظريةٍ، وتكون تحت مظلّتها الكثير من الفضائح، وكذلك رفض فكرة تعدد الزوجات الذي ترفضه النصرانية وهذا يخالف ما اعتاد عليه سكان تلك المناطق وغيرها، وفوق كل هذا فقد جاءت مع المستعمرين الذين اكتوى السكان بنارهم صيداً، واختطافاً، وإبادةً، وانتهاكاً للأعراض والحرمات، وسلباً للأملاك والأموال، وأخذاً لثروات البلاد وخيراتها، ولا يزال بعضهم يقومون بهذا إلى الآن. وما كان نجاح النصرانية الجزئي بين الوثنيين إلا نتيجة الحاجة إلى الدواء، والغذاء، والعلم أحياناً، وبسبب تحقيق المصالح لدى السلطة، ويتمّ هذا كله عن طريق الإرساليات التنصيرية، وعن طريق الحكومات الاستعمارية.

وأشهر القبائل المسلمة الواسعة الانتشار في الشمال هي:

١ ـ **الولوف** في السنغال.

٢ ـ **الماندينغ** في مالي، والسنغال، وغامبيا، وغينيا ـ بيساو، وغينيا، وسيراليون، وبوركينافاسو، وساحل العاج. أي تنتشر في أكثر دول غربي إفريقية، وخاصةً الغربية منها.

وتحمل هذه القبيلة عدة أسماء، فالعرب يُسمّـون أفرادهـا «مليل»، والبربر يُطلقون عليهم «مليت» والفولاني يعرفونهم باسم «مالي»، والهاوسا يـدعونهم «وانغـارا» ويُلقّبهم التكرور «مـالنكي»، وقبائـل غامبيـا يُسمّونهم «ماندينغ»، وهم يُطلقون على أنفسهم اسم «ماندي».

والقبيلة عدة فروع منها:

أ ـ الماندنكا (المالنكا) وهو الفرع الرئيسي.

ب ـ السوننكي (الساراكولية)، وهو الذي يعمـل بالفـلاحة في المنـاطق الغربية.

جـ ـ الديولا (الجولا)، ويعيش أكثر أفراد هذا الفرع في دولة مالي.

د ـ البوزو، ويقومون بصيد السمك.

وهذه الفروع كلها تعتنق الإسلام.

هـ ـ البامبارا، وهذا الفرع لا يزال أكثر أفراده على الوثنية، ومنهم قبائل «السوموتو» التي تعمل بصيد السمك.

و ـ الكاسونكا.

ز ـ الجالونك.

٣ ـ **التوكلور**: في السنغال، وانتقلت فروع منها إلى مالي.

٤ ـ **الفولاني**: ويطلقون على أنفسهم اسم «الفولبي» كما يعرفـون بـاسم «الفولا»، و«فيللاتـا» و«البهل»، وينتشـرون في السنغال، وغينيـا، ومالي، وسيراليون، والنيجر، ونيجيريا، وبنين، وبوركينافاسو، أي في أكثر أجزاء غربي إفريقية، وخاصةً في الدول الغربية وشمالي الدول التي هي في جنوب شرقي المنطقة.

٥ ـ **الهاوسا**: وتنتشر في النيجر، وشمالي نيجيريا، وشمالي بنين، وشمالي التوغو، وبوركينافاسو.

٦ ـ **الطوارق**: وتنتشر في مالي، والنيجر، وبوركينافاسو.

٧ ـ **الكانوري**: في شمال شرقي نيجيريا، وفي الكاميرون.

٨ ـ **الغرما**: في النيجر، وشمالي التوغو.

وقد دخل الإسلام قبائل اليوروبا في نيجيريا، وبنين، وقبائل البالانت في غينيا ـ بيساو. وهناك قبائل صغيرة مسلمة مثل: البيل في غينيا وغينيا ـ بيساو، والتوغو، وسينوفا في ساحل العاج، والباريباس في بنين، وقبائل الشوا، والكوتوكا، والماسا في الكاميرون.

وأما بقية القبائل الوثنية فهي في الغابات وأشهرها: الموشي في بوركينافاسو، والكرو في ساحل العاج وغيرهما من قبائل الغابات في الجنوب.

وحصلت النصرانية على نجاح في قبائل الإيبو في شرقي نيجيريا، وقبائل الكريول في سيراليون، وعلى نسبةٍ بسيطةٍ بين القبائل الوثنية، وعلى السواحل وخاصةً في الموانىء، والمدن الكبرى، ومن استقر من أتباع هذه الديانة من المستعمرين الصليبيين، ومن أسرع لمحاكاتهم سعياً وراء مصالحهم من مختلف القبائل.

ومع أن دول غربي إفريقية قد أخذت بالاستقلال بدءاً من عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) إلا أنها لا تزال تسير حسب الخط الذي كانت تسير عليه من قبل، كما أنها لا تزال على ارتباطٍ مع الدول التي كانت تستعمرها، فخيراتها لا تزال بأيدي المستعمرين السابقين، ومناهجها لا تزال كما كانت من قبل، ورعاتها إنما هم يحصلون على التأييد والدعم والتمكين بالسلطة، وكل ذلك بما بذره المستعمرون الصليبيون من أفكار، وما بثّوه من تعاليم، وما اختاروا من صنائع لهم من الذين قبلوا اعتناق عقيدتهم، ومن ربطوا أنفسهم بهم. وربما كانت بعض الدول تختلف عن الأخرى بنسبة التقيد فيما يُفرض عليها وما تتلقّى من توجيهٍ إلا أنها جميعها تنطلق من سياسةٍ واحدةٍ، وتأخذ منحىً واحداً، وتسير في فلكٍ واحدٍ. إذ لم يخرج المستعمرون الصليبيون من أرضٍ كانوا يستغلّونها حتى سلّموا حكمها لمن

قبل عقيدتهم النصرانية، وإن لم يجدوا، أو اضطروا أعطوها لمن قبل منهجهم، وعمل على محاكاتهم، وسار على طريقهم، ولذا فليس هناك من ثقةٍ بأي إحصاء يُقدّمونه عن المسلمين، وغالباً ما يقللون من نسبتهم لدرجةٍ تجعل من دولهم غير إسلامية كذباً وزوراً ليبقوا حكاماً لها، وليخنقوا صوت المسلمين فيها، وإليها.

ونرجو أن نُوفّق في إعطاء معلوماتٍ صحيحةٍ ودقيقةٍ عن هذه المرحلة التي نُؤرّخ لها لهذه الدول، هذه المرحلة التي غطّتها وسائل الإعلام المحلية والدولية بما يخدم مصالحها، ومصالح حكوماتها، ومصالح المخططات الدولية التي تضعها الدول الكبرى، والتي غدت خططاً صليبيةً محضةً، حتى ضاعت الحقائق عن الناس، وتاه الذين يبغون المعرفة ويطلبون الأخبار الصحيحة. والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباب الأول

السِّنِغَال

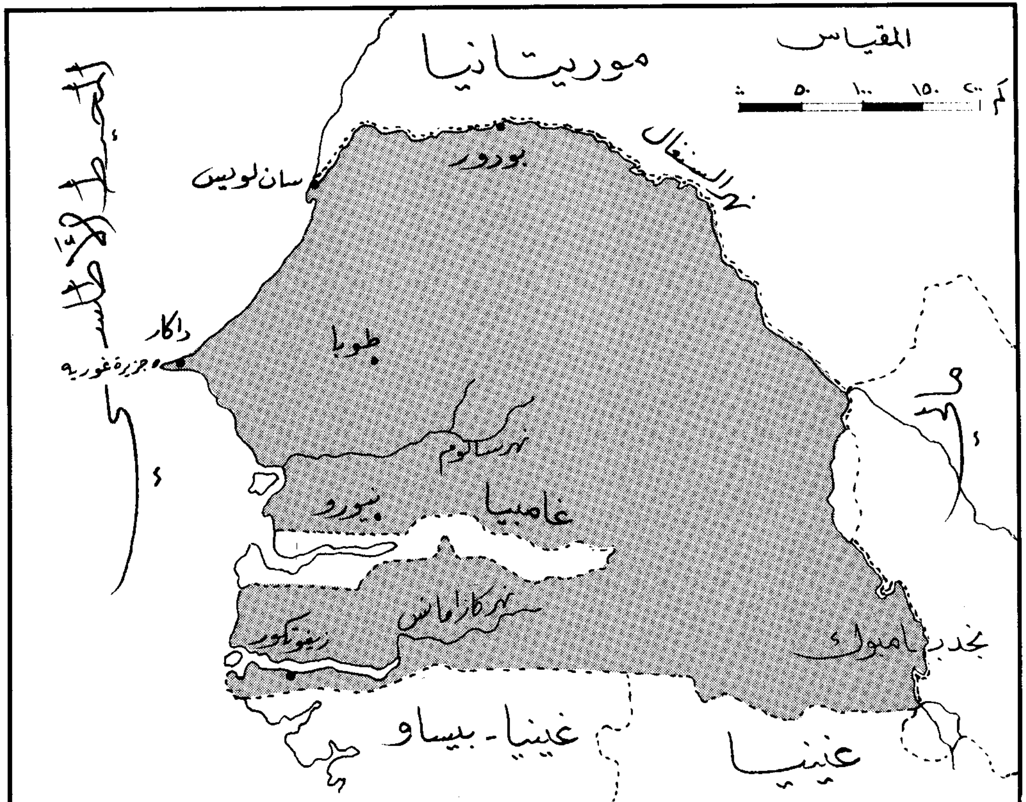
المقياس
كم ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
موريتانيا
نهر السنغال
بودور
سان لويس
المحيط الأطلسي
داكار
جزيرة غوريه
طوبا
نهر سالوم
غامبيا
بيوربو
نهر كازامانس
زيغونكور
تامبا كوندا
غينيا - بيساو
غينيا
مالي

مصور رقم [1]

لمحة عن السنغال قبل إلغاء الخلافة

أخذ الإسلام ينتشر في منطقة السنغال اليوم منذ أيام عقبة بن نافع وذلك بإسلام بعض أفراد القبائل التي كانت تصل في انتقالها إلى تلك الجهات وخاصةً قبيلة صنهاجة وبطونها، مع العلم أن نهر السنغال إنما هو مأخوذ من كلمة صنهاجة، فالأصل أن اسمه نهر صنهاجة، وحُرّف الاسم قليلاً.

وعندما وصل إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المنطقة بعد أن نجا من معركة «فخ» عام ١٦٩ هـ التفّ حوله البربر من صنهاجة ولمتونة والملثّمون من إقليم شنقيط، وبايعوه، فأقام دولة الأدارسة، وانضوت ديار الملثمين تحت سلطانه، وهذا ما زاد من توجّه صنهاجة نحو الإسلام بشكلٍ واسعٍ في القرن الثالث الهجري. وتشكّل حلف من الملثّمين بزعامة قبيلة لمتونة، واتجه نحو الجنوب يعمل لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، واستطاع هذا الحلف من التقّدم نحو الجنوب على حساب مملكة غانا الزنجية التي أصابها الضعف، ونشر الإسلام في منطقة السنغال من المناطق التي قام على نشره فيها.

عمّت الفوضى بلاد المغرب بعد ضعف دولة الأدارسة فكانت تتبع أحياناً الأمويين في الأندلس، ويخضع أحياناً بعض أقسامها للفاطميين.

وجاء عبدالله بن ياسين داعيةً إلى قبيلة صنهاجة بناءً على طلب ودعوة شيخها يحيى بن إبراهيم الجدالي، لكنه وجد عناداً من أفراد هذه القبيلة

فلجأ مع بعض تلامذته إلى جزيرةٍ في نهر السنغال عند مجراه الأخير، وبنوا لهم رباطاً يُعلّمون فيه من يأتيهم، وندمت صنهاجة على ما كان منها بحق الشيخ عبدالله بن ياسين فأظهروا التوبة، وأخذوا يتوافدون إلى رباطه، وخاصةً أفراد قبيلة لمتونة، ولما قوي أمرهم، ووصل عددهم إلى الألف، خرج بهم، وبعث كل فردٍ منهم إلى قبيلته يدعوها إلى الإسلام، ولكنهم لم ينجحوا في هذا حيث لم يجدوا آذاناً صاغيةً، عندئذ قادهم شيخهم عبدالله بن ياسين لقتال القبائل المجاورة وألزم من انتصر عليها على الإسلام، وأعطى جماعته اسم «المرابطون» وقد أحرزوا انتصاراتٍ على من حولهم، وهكذا ازداد انتشار الإسلام في حوض نهر السنغال، كما أنهم أخذوا مدينة (أودغشت) من إمبراطورية غانا، وأثناء المعركة استشهد شيخ قبيلة صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي، وخلفه في رئاسة المرابطين ابن عمه أبو بكر بن عمر زعيم قبيلة لمتونة، ثم بعد مدةٍ قصيرةٍ استشهد الشيخ عبدالله بن ياسين أثناء المعارك التي دارت ضد قبيلة «برغواطة».

اختلف أبو بكر بن عمر اللمتوني مع ابن عمه يوسف بن تاشفين، فاتجه يوسف نحو الشمال، وأسّس مدينة مراكش، وارتفع شأن المرابطين، وانتقلوا إلى الأندلس، ودعموا إخوانهم هناك ضدّ الطاغية النصراني. أما أبو بكر فقد اتجه نحو الجنوب يدعو إلى الإسلام، وقد تمكّن المرابطون من إسقاط امبراطورية غانا. وحوالي عام ٤٤٢ هـ اعتنق ملك وأعيان مملكة التكرور الإسلام، وكان مركزها منطقة السنغال. وكذلك تحوّلت أسرة الفولاني إلى الإسلام حوالي عام ٤٦٩ هـ.

وتفككت قبائل صنهاجة وهي لمتونة، ومسوفة، وجدالة، ومسطاطة، بعضها عن بعضٍ بعد موت أبي بكر بن عمر الأمر الذي أضعف المرابطين فسقطت دولتهم، وقامت دولة الموحدين على أنقاضها عام ٥٢٥ هـ، وكان لهم دور في الدعوة وإن كان دون دور المرابطين. ولما دال أمر الموحدين حكم بنو مرين المغرب، وهم من زناتة، ثم بنو وطاس الذين استعانوا

بالصليبيين البرتغاليين، ثم قام السعديون الذين انتصروا على البرتغاليين، والتفتوا نحو غربي إفريقية يُوطّدون حكمهم فيه.

أما ما يخصّ منطقة السنغال، فقد كانت فيها مملكة التكرور، وفي عام ١٥٣ هـ التجأت الأسرة الحاكمة في امبراطورية غانا بعد أن ثار عليها شعب السوننكي، وسيطروا على الحكم. وأصهرت هذه الأسرة اللاجئة إلى شعب التوكلور، واستطاعت السيطرة على الحياة السياسية، وحكمت البلاد حتى حوالي عام ٤٦٩ هـ، حيث ثار شعب التوكلور عليها، وحكم البلاد حتى عام ٦٣٨ هـ، وخلال القرنين السابع والثامن الهجريين كانت منطقة السنغال جزءاً من مملكة مالي الإسلامية. أما الحكم المحلي فقد أصبح بيد الفولانيين، بعد أن هاجرت أسرة منهم من منطقة (كانياغا) حيث كانت تحكم هناك، واستمرّ حكم هذه الأسرة حتى عام ٧٥١ هـ، حيث ثار عليهم شعب الولوف، وتمكن من الحكم حتى القرن العاشر، حيث رجع شعب التوكلور إلى السلطة، وفي عام ١١٩٠ هـ أسس الفولانيون أسرةً حكمت حتى عام ١٣٠٨ هـ. ومن شعب التوكلور ظهر الحاج عمر الذي أسّس مملكةً واسعةً حكمت حتى عام ١٣١٦ هـ، وكان قد استشهد هو عام ١٢٨٢ هـ، وضعفت بعده الدولة التي حكمها أبناؤه من بعده. وهكذا كانت شعوب التوكلور، والولوف، والفولاني تختلف وتتابع أسرها في الحكم، وكلها شعوب مسلمة، وإن كانت في بعض الأحيان تكون جزءاً من مملكةٍ واسعة الأرجاء، ولكن تبقى السلطة المحلية بيد حكوماتٍ ذات استقلالٍ ذاتيٍ من هذه الشعوب.

هذا وضع منطقة السنغال قبل أن ينزل المستعمرون الصليبيون على السواحل، وبعد نزولهم استمرّ كذلك حكم الشعوب الإسلامية في الداخل حتى تمكّن الفرنسيون من إخضاع المنطقة لنفوذهم السياسي، ولمخططاتهم الاستعمارية.

الاستعمـار:

كان الصراع على أشدّه في الأندلس بين المسلمين من جهـةٍ وبين النصارى الإسبان والبرتغاليين من جهةٍ أخرى، وكان المسلمون يستنجدون أحياناً بإخوانهم في المغرب فيمدّونهم فيهـزمون النصـارى ويعود التفـوّق للمسلمين، كما حدث أيام المرابطين والموحدين، غير أن المغـرب وإن كان قد ضعف أمـرها لكن النصـارى كان يتمثّـل أمامهم المـدّد المغربي فيـرهبهم. وظهر التفـوّق النصراني في الأنـدلس على المسلمين، وأخـذ الإسبان يتقدّمون نحو الجنوب، ولكن الخوف من شمالي إفريقية يُرعبهم لـذا فكّـروا بـأن تنـطلق مجمـوعـات منهم إلى جنـوب بـلاد المسلمين ويُشاغلونهم من هناك، ويعملون على حصارهم أيضاً إن تمكّنوا، والسفن عندهم أصبحت جاهزةً، والقوات مُهيّأةً، وإنما كان لا بدّ من الاستطلاع في بداية الأمر، وأوربا النصرانية كلها من ورائهم تدعمهم وتمدّهم.

انـطلقت السفن الاستـطلاعيـة نحـو الجنـوب غيـر أن الخـوف من المسلمين يكاد يقطع قلوبهم، فلم يجرؤ أحد على النزول إلى السواحل، وإن نزل يخشى الاستقرار، وإن استقـرّ لعدم وجـود ما يُهـدّده خاف من التوغّل إلى الداخل، وهكذا بقوا على السواحل مدةً لا يتعدّونها.

عرف بعض البحارة الأوروبيين نهر صنهاجة (السنغال) عام ٧٤٧ هـ، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يُقيموا فيه. واحتلّ البرتغاليون جـزيرة (أرغين) الصغيرة عام ٨٤٨ هـ. واحتل الهولنديون جزيرة (غورية) الواقعة تجاه مدينة داكار. وظلّ هؤلاء سادة هذه المناطق حتى أوائل القرن العاشر الهجري، حيث كان نصارى الأندلس قد طردوا المسلمين منها.

وكان خوف المستعمرين الصليبيين الأوروبيين من المسلمين يجعلهم كلما نزلوا في مكانٍ خـافوا أن يكـون المسلمون قـد سبقوهم إليـه، لذا يُفكّرون بالرحيل نحو الجنوب أكثر، ظنّاً منهم أن المسلمين لم يصلوا إلى تلك المناطق بعد، وهكذا فقد عرفوا خلال القرن التـاسع الهجـري أكثر

سواحل غربي إفريقية، ولكن لما طرد النصارى في الأندلس المسلمين منها قويت شوكة الصليبيين المستعمرين، وزادت شجاعتهم وغدوا يتسلّلون إلى الداخل، ويبنون المراكز لهم على السواحل، ويبتعدون نحو الجنوب أكثر، تدفعهم الأطماع المادية، وتُداعب أفكارهم الأحلام الصليبية والانتصارات التي سيُحرزونها على المسلمين، وتُخطّط حكوماتهم مُنفردةً للأطماع الاستعمارية، ومُجتمعةً للعمل الصليبي، لذا كانت تحدث منافسات وصراعات على مناطق النفوذ، وتتمّ اتفاقات، ويكون تنسيق لقتال المسلمين واقتسام بلدانهم.

بدأ الفرنسيون يتردّدون على شواطىء السنغال، وينشئون مراكز الإقامة لهم في بعض المواقع. ووصل البرتغاليون إلى الرأس الأخضر، ومنه تسلّلوا إلى نجد (بامبوك) بحثاً عن الذهب، ولكن السكان طردوهم من هناك.

أسّس الفرنسيون عام ١٣٠٦ هـ مستعمرةً لهم عند مصب نهر صنهاجة (السنغال)، وأقاموا حصن. . . (سان لويس) عام ١٠٧٠ هـ، ثم طردوا البرتغاليين من ممتلكاتهم جنوب الرأس الأخضر. وأصبحت شواطىء منطقة السنغال اليوم كلها بأيدي الفرنسيين. ولكن ظلّ الإنكليز يُنازعونهم السيادة عليها مدة الحروب الطويلة التي نشبت بين الدولتين خلال قرنين متواصلين، فقد احتلّ البريطانيون مستعمرة (سان لويس) عام ١١٧٢ هـ، ثم عادت منطقة السنغال إلى فرنسا بموجب معاهدة ١١٩٨ هـ، ثم عاود البريطانيون الكرة، واحتلوا المنطقة، غير أن معاهدة باريس ١٢٣٣ هـ قد أعادت منطقة السنغال إلى فرنسا، ومنذ ذلك الوقت انتهى كل تدخّلٍ أوربيٍ في أمور المستعمرة عدا فرنسا.

وكان الأوروبيون كل هذه المدة يُنشئون على سواحل غربي إفريقية مراكز تجارية تُعرف باسم «كومبتوار»، وقد انحصر نشاط الأوروبيين في هذه المراكز، واقتصر على تجارة العبيد، وأعمال السلب في بداية الأمر، فلما أُلغي الرق تضاءلت أهمية هذه المراكز، وانعدمت قيمة بعضها.

وعندما تولّى نابليون الثالث حكم فرنسا عام ١٢٦٥ هـ وضع مشروعاً للتوسّع في داخل منطقة السنغال، وعيّن الجنرال «فادهرب» حاكماً على المنطقة فجرّد حملاتٍ كبيرةً لإخضاع الجهات الداخلية، واشتبك مع الأهالي بحروبٍ داميةٍ استمرّت بضع سنواتٍ، وانتهت بتوطيد السيادة الفرنسية على منطقة السنغال. ووضع «فادهرب» حجر الزاوية في إنشاء الإمبراطورية الفرنسية الواسعة في غربي إفريقية حيث استخدمت السنغال كقاعدةٍ للعمليات الحربية الاستعمارية الفرنسية.

وأُعيد تنظيم السنغال كإقليمٍ بواسطة فرنسا عام ١٢٧٧ هـ، وأكمل الحكام الذين جاءوا بعد «فادهرب» عمله، إذ لم ينته القرن الثالث عشر الهجري إلا وقد تمّ إخضاع البلاد، وبدأ فيها العمل الاستثماري كنوعٍ من السياسة الاستعمارية في الاستغلال.

وبقي خلاف بين الإنكليز والفرنسيين على حدود السنغال من جهة غامبيا، فعقد الجانبان معاهدة عام ١٣٢٢ هـ سُوّي بموجبها الخلاف، وتنازل الإنكليز للفرنسيين عن جزيرة «غورية»، وتنازل الفرنسيون للإنكليز عن منطقة واسعة على جانبي نهر غامبيا، وتحدّدت بذلك حدود مستعمرة السنغال نهائياً.

الفصل الأول

السنغال من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، وزالت الهالة التي كان ينظر إليها المسلمون نظرة الاحترام رغم الضعف الذي كان يعتورها، والأتعاب التي كانت تُعانيها، والمصاعب التي كانت تُواجهها من حربٍ صليبيةٍ، وحركاتٍ داخليةٍ لها قنوات مع الأعداء. وبعد الإلغاء شعر المستعمرون الصليبيون بالراحة النفسية، وسرّهم أن مخططاتهم قد تمّ تنفيذها، والتي بدأت من هامش ديار الإسلام حتى وصلت إلى القلب، لذا رأوا أنه يجب رسم مخططاتٍ جديدة لمرحلةٍ قادمةٍ من الآن.

أخذ المستعمرون الصليبيون يُطبّقون سياستهم بكل حريةٍ، وإن كان التطبيق لم يتوقّف في يومٍ من الأيام منذ أن حطّوا أقدامهم في بلاد المسلمين، ولكن أصبح الآن دون التفكير بجهةٍ ما، ومن غير حسابٍ لأحدٍ أو لدولةٍ كانوا يتوقّعون أن يصدر منها شيء، أو تُثير، أو تُحرّك العواطف الإسلامية، وإن اشتداد الضغط، وضبط الحواجز التي وضعوها بين أبناء الأمة، والفقر، إضافةً إلى الجهل، وبثّ المغالطات كل هذا جعل المسلمين لا يستطيع الواحد منهم أن يُفكّر إلا بقضاياه الخاصة التي تُغطّي كل قضيةٍ منها سائر وقته وتزيد، فالعامة وقتهم مشغول بتأمين اللقمة، وتدبير وسائل العيش من دواءٍ، ومأوى، وسترٍ للجسم، والساسة منهم صاحب المصلحة الذي يسير في فلك سيده، ومنهم المخلص الذي يُهمّه ويُشغله الجزء الذي يُقيم فيه، والذي أطلقوا عليه اسم الوطن، فهو ينوء بالأحمال

التي تقضّ ظهره بقضاياه وبالأثقال التي تهدّ وزره بمشكلات أبناء بلده، ولا يدري أيضاً ماذا يجري خارج الحدود التي رسموها لـ (موطنه). وخلا الجو للمستعمرين الصليبيين أن يرتعوا، وأن يُنَفّذوا ما خطّطوا له.

أصبحت المراكز التجارية الجديدة القائمة باسم التبادل واستيراد الحاجات الضرورية لا باسم الرقيق والعبودية تتدخّل بشؤون الناس بالديون، وتتغلغل إلى الداخل باسم التجارة، ولم تمض سوى مدةٍ وجيزةٍ حتى أُرهق كاهل (كبار الناس) بالديون، التي أصبحت حملاً عليهم ينوءون به، وغدت مقدراتهم بأيدي الشركات التجارية، ومستقبلهم منوطاً بالممولين من السماسرة، ويريد هؤلاء المساكين التملّص فلا يستطيعون، ويبحثون عن طريق الخلاص فلا يجدون فيضحّون بأملاكهم، فإذا بأخصب أراضيهم ملك للدخلاء، وأطيب ما يحوزون عليه ثروة للأجانب، وإذا هم أجراء يعملون لغيرهم، وعمال يشتغلون لحساب سواهم.

ويتدخّل الغرباء في شؤون القبائل ويبحثون بين أفرادها عمن يقتلهم الجاه والمنصب، ويفتنهم المال والشهرة، ويُغريهم الظهور والشهوة فيُقدّمونهم، ثم يجعلونهم زعماء لقبائلهم، وتقع المنافسة بين الرجال، ويحدث الصراع بين بطون العشائر، ويكون التقرّب ممن يملك القوة، والتزلّف لمن يستطيع الدعم، والخدمة لمن بيده التعيين، ويُنقّب زعماء البطون، ورؤساء العشائر بعضهم عن مساوىء بعض، ويبحث بعضهم عن زلّات الآخرين تقرّباً وحيلةً، ويرمي الأجنبي الدسائس، ويُوقع المكائد، ويزيد من نار الخصومات أواراً، ويُشعل بينهم ناراً، فتضعف قواهم، وتخور عزيمتهم، فيصفو له الجو، فيتسلّم السلطة بعد أن يقضي على زعيم برئيس، وعلى الأمير بآخر، ومتى تسلّم زمام الأمر أخذ بتطبيق سياسته المرسومة، وسار الدخلاء الصليبيون ضمن خطةٍ موضوعةٍ.

الناحية الاجتماعية:

اتبع الفرنسيون في السنغال سياسة التفرقة العنصرية فكانوا يُفضّلون الأبيض على الأسود تفضيلاً مُجاهراً به، ولا حدود له، وقد ينظرون إلى الأسود نظرةً لا تختلف كثيراً عن النظرة إلى أحطّ. . . فلا يستلم ابن البلاد أي عملٍ مؤهلٍ له مهما علت درجة تأهليه، ولا يُوكل إليه أية مهمةٍ مهما بلغت مكانته إلا إذا كان لا يوجد من يسدّ مسدّه آخر من البيض.

كان الفرنسيون يحتقرون السنغاليين، ويُشيعون أنهم شعب خامل، وصدرت كتب تتحدّث عن أثر الحرارة بالخمول، ويدّعي كتابها أن المناطق الحارة لا يمكن أن تقوم فيها الحضارة، وأعطوا أمثلةً عن سكان الغابات الاستوائية، وعن تخلّف سكان البلدان الحارة، وعن حضارة الأقاليم الباردة، وبالغوا بالمغالطات، حتى اقتنع بهذا الرأي الكثير، ومن تلامذة المستشرقين، ومن المستغربين، ومن الذين يُردّدون الكلام دون تفكير كالببغاوات، وامتلأت المناهج والكتب بهذا الكلام في سائر المستعمرات والبلدان التي نهجت في تعليمها على منوال المستعمرين الصليبيين. ونسوا الحوافز التي تُقيم الحضارة كالعقيدة، وأن نشأة الدولة الإسلامية إنما كانت في أقاليم حارة، وقد فاقت حضارتها كل حضارة، وتناسوا الدوافع التي تدفع السكان لامتطاء الصعب، وتركوا ردود الفعل. واقتصروا على مناطق واسعةٍ في ظلمات الغابات الاستوائية لا يسكنها إلا عدد محدود، عزلهم محيطهم فتقوقعوا، ونسوا البرابرة الجرمان، وأوربا في عصورها الماضية، وأمريكا في قبائلها من الهنود الحمر، وأنهم عندما أقاموا حضارةً فيها إنما كانت في المناطق الحارة منها.

وكرّر الفرنسيون للسنغاليين أنه لا يُمكنهم استلام المهمّات، ولا تحمل المسؤوليات، وأن ذكاءهم محدود، وأنه أقل من ذكاء الآخرين من بني البشر، حتى أحسّ سكان البلاد بالصغار، وأُصيبوا بالهزيمة النفسية، فاستكانوا ضعةً، وخنعوا ضعفاً.

وأدخل المستعمرون الصليبيون المسكرات والمخدرات لتفتّ في جسم الشعب كما ينخر السوس داخل الحب. ونشروا المفاسد، وبذلوا جميع الوسائل كي تعمّ، ليلهو الشعب ويعبث، فلا يبالي بما تلعب به صروف الدهر، لعبت به أم لعب بها.

وطبّق الفرنسيون على الأهالي نظام السخرة، مما جعل السنغالي يشعر بالذلّ ويحسّ بعقدة النقص، وعدم تكريمه، وأنه مخلوق دون سواه، وزيادةً بالافتراءات فقد أشاع الفرنسيون في مستعمراتهم خارج إفريقية أن للأسود ذنباً، وكثيراً ما لقيت هذه الشائعات آذاناً صاغيةً نتيجة الجهل، وعدم معرفة خطط المستعمرين الصليبيين الذين يرغبون أن يحتقر البيض ولو كانوا مسلمين السود فلا يقبلونهم إخواناً، ويكون ردّ الفعل، وتكون التفرقة بين المسلمين. وإن المزارع الفرنسية الشاسعة في السنغال والإقطاعات الواسعة وما فيها من ظلالٍ وارفةَ، وأشجارٍ خضراء، وثمارٍ يانعةٍ، ومياهٍ جاريةٍ، إنما هي من عمل السنغاليين، وقد سُقيت تربتها بعرق جبينهم، وأن الجهد الذي بُذل من أجل إظهارها بهذا الشكل كان من جهد السنغاليين، وأن هذا لم يُكلِّف أصحابها قرشاً واحداً، وإنما كان سخرةً وتكليفاً.

وفرّق الفرنسيون بالأجر بين الأبيض والأسود، فأجرة العامل، وراتب الموظف كانا يختلفان اختلافاً كبيراً بين الأبيض والأسود. وأن السنغاليين الذين كانوا يعملون في إقطاعات المستعمرين كانوا يُهانون ويُضربون، ولا يمكنهم ترك مزارعهم وأماكنهم، فهم عبيد، كما هي الحال في أوربا في قرونها الوسطى، وإن كان السنغاليون يلبسون ثياب الأحرار فهم عبيد لدى الفرنسيين.

وميّز الفرنسيون بالقضاء بين البيض والسود فقضايا الإهانة كثيراً ما تقع من كلا الجانبين، فإن كانت من جانب السنغاليين نالوا أشدّ العقاب وأبشعه، وإن كانت من طرف المستعمرين الصليبيين أُهملت، أو سُوِّفت

وأُجّلت حتى تنسى، وقد تُعدّ ردّ فعلٍ، ويصبح المدّعي مُدّعىً عليه. ولم تعمد فرنسا إلى القيام بأي مشروع يهدف إلى رفع مستوى الشعب، ويضمن له حياةً أقلّ بؤساً، وعيشاً أقلّ ضنكاً.

ومن ناحية المرض فكان يفتك بالسكان فتكاً ذريعاً نتيجةً للمُناخ، وسوء التغذية، دون أن تقام المستوصفات أو يهتم بالأهالي أحد، بينما نجد للفرنسيين مشافيهم الخاصة وأطباءهم الذين لا يداوون غيرهم، ولم يخطر ببال فرنسا بناء مشفى كبير كالتي توجد في بلادها لتنقذ السكان من تحكّم الأمراض، وتسلّط الحميّات. وقد كان النشاط الصحي عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) أي بعد استعمار أكثر من قرنٍ من الزمن: وجود دارٍ للتوليد في مدينة «داكار» فقط، وعددٍ قليل من المشافي مقامة في المدن الكبيرة، وهناك دائرة صحية متنقلة، وأخرى للتلقيح ضدّ الأوبئة، وأكثر ما تقدّم من خدماتٍ إنما هي للفرنسيين خوفاً عليهم من العدوى. وهذا النشاط الصحي في إفريقية الغربية الفرنسية كلها، والتي كانت تشمل: السنغال، غينيا، ساحل العاج، موريتانيا، النيجر، مالي، فولتا العليا، وتبلغ مساحة هذه المنطقة نصف مساحة أوربا أي عشرة أمثال مساحة فرنسا، ويمكن المقارنة بعد هذا بين أعمال وزارة الصحة في فرنسا، وبين هذا الوضع في إفريقية الغربية.

ومن ناحية التعليم سار الفرنسيون على خطة إبقاء الشعب في جهلٍ تامٍ حتى يبقى قابعاً خانعاً، لا يدري ما حوله، ولا يُفكّر بما يُحيط به، وإن وجدت مدارس فهي على مستوى المرحلة الابتدائية، وقلما تصل إلى المرحلة المتوسطة. وتُلقّن في المدارس العلوم الموجّهة من قبل الصليبيين، حيث يتلقى الطلاب أن الفرنسيين إنما جاءوا إلى السنغال ليأخذوا بأيدي أهلها نحو الحضارة، وليرفعوا مستوى السكان إلى مستوى بقية الشعوب، وليدفعوا عن البلاد غارات بقية المستعمرين، ولو تركوها لأصبحت لقمةً سائغةً بيد الطامعين، وقطعةً ممزّقةً بأنياب الغاصبين، وكانت لغة التعليم هي الفرنسية فقط ولا يُسمح لغيرها، وذلك في سبيل إذابة الشخصية تماماً

وتُحتقر لغة البلاد، وتُعدّ بدائية. أما اللغة العربية التي تُدرّس في الكتاتيب لقراءة القرآن، وفي الزوايا لعلم التفسير، وفي التكايا لبحث الفقه فقد كانت تُلاحق وتُحارب مُحاربةً لا هوادة فيها. وإلى جانب هذا كانت الإرساليات التنصيرية التي تقوم مدارسها بتعليم البيض والذين يقبلون النصرانية ديانةً لهم، وتدعو إلى ترك الإسلام، وتدّعي أنه دين مستعمرٍ جاء من الشمال عن طريق العرب، وأنه دين السادة، وقد فُرض بالقوة والسيف، وأن سكان البلاد كانوا يقومون بردّ فعلٍ ضده تارةً ينتصرون، وأخرى يُقهرون، وهو الغالب، حتى تمكّن أن يستقرّ. وقد صحا الزنوج الآن بفضل هذه الإرساليات التنصيرية التعليمية الموجّهة فيجب دحره وإخراجه من أرض السنغال. وكانت لهذه الإرساليات الصلاحية المطلقة بالتعليم وفرض المناهج التي تراها مناسبةً، وتتلقى المعونات الضخمة، وتُقدّم لها كل الإمكانات.

وبعد استعمارٍ دام أكثر من قرنٍ أخذت فرنسا تُفكّر بمن يخلفها باستلام السلطة في السنغال بل وفي كل أرضٍ كانت تستعمرها، فلا بدّ من أن تخرج عاجلاً أم آجلاً، مضطرةً مكرهةً أو راغبةً وفق مخططٍ، ورأت كما رأى غيرها من المستعمرين الصليبيين أنه من المصلحة أن يكون الحاكم الذي سيخلفها باستلام السلطة من أهل البلاد، ومن أتباع العقيدة الغالبة، وفي السنغال وكلّ دول إفريقية الغربية العقيدة الغالبة هي الإسلام، ولكن يجب ألا يكون مسلماً ملتزماً، وإنما منحرفاً، أقبل على الحياة الأوروبية المادية بكل جوارحه، وتعاطي المسكرات، واقتنع بالسفور، وعنده فكرة سيئة عن الدين، واختيار أمثال هؤلاء لا بدّ من أن يخضع لرقابةٍ شديدةٍ، أو أن يُربّى تربيةً على أيدي الإرساليات التنصيرية أو في فرنسا بالذات. وأن أمثال هؤلاء أفضل لها لأنها لو اختارت رجلاً نصرانياً من أبنائها أو ممن قبل النصرانية، أو وثنياً، أو من أي مجموعةٍ بعيدةٍ عن الإسلام الذي يُمثّل عقيدة غالبية السكان لوقع الصراع، ولانتصر في النهاية المسلمون ولكان ردّ الفعل الذي يدعوهم إلى الالتزام بالإسلام والتمسّك به.

(كانت الإرساليات التنصرية في السنغال تُوقّع عقوداً مع عددٍ من الأسر السنغالية الفقيرة تقدّم بموجبها تلك البعثات التنصيرية إلى الأسر السنغالية مساعداتٍ عينيةً (ضيئلةً) من أرزٍ مثلاً شهرياً على أن يكون لها حق باختيار طفلٍ من أطفال الأسرة تُربيّه على حسابها. وينصّ العقد على أن الأسرة مجبرة على ردّ ثمن المساعدات وعلى دفع نفقات ابنها ونفقات تعليمه إذا هي خالفت شروط العقد كطلب استردادِ ابنها مثلاً. وتختار البعثة التنصيرية من أطفال تلك الأسرة صبياً دون الخامسة من العمر، ثم تُرسله إلى مدرسةٍ (تنصيرية طبعاً)، وينقطع الصبي عن أهله، وينشأ تنشئةً نصرانيةً، ثم يُرسل إلى فرنسا لإتمام تعليمه العالي. بعدئذٍ يُعاد إلى السنغال يُمنح حق المواطن الفرنسي في المستعمرات من حيث المستوى الاجتماعي والوظائف. ويعطي كاتب المقال في مجلة «روز اليوسف» على ذلك مثلاً فيقول: أنت تعلم أن كلمة «سانجور» (اسم رئيس جمهورية السنغال الحالي) معناها «سان جورج» وتعني «القديس جورج» فإن رئيس الجمهورية نصراني لكن أبويه وإخوته مسلمون. وفي الصفحة من المجلة المشار إليها مقطع متمم للمأساة الناتجة عن التنصير والاستعمار؛ اتفق أن كان أول رئيس للوزراء في السنغال رجل مسلم اسمه «محمد ضيا»، وكان يرى أن مصلحة بلاده أن تستقلّ عن المجموعة الفرنسية، وتنهج طريق الحياد والاشتراكية ـ حسب تفكيره ـ وسافر محمد ضيا إلى دول الكتلة الاشتراكية، ثم عاد ليجد نفسه متهماً بتدبير مؤامرةٍ لقلب نظام الحكم. وسُجن محمد ضيا، وأصبحت السلطات جميعها في يد «سانجور» رئيس جمهورية السنغال بعد أن أصبح نظام الحكم رئاسياً)[1].

---

(١) التبشير والاستعمار: عمر فروخ، مصطفى الخالدي. الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م. الصفحة ١١ ـ ١٢ منشورات المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت.
مجلة روز اليوسف السنة ٣٩ العدد ١٨٤٧ الاثنين ٤ تشرين الأول ١٩٦٣ م ص ٢٦ القاهرة.

الناحية الاقتصادية:

إضافةً إلى نظام السخرة الذي اتبعته فرنسا في أرض السنغال كافةً والذي استفاد منه الفرنسيون كثيراً حيث ينجزون أعمالهم دون دفع أي أجرٍ. نجد أنهم اتبعوا نظاماً تجارياً استعمارياً خالصاً فكانوا يشترون المواد المنتجة بأسعارٍ رخيصةٍ نتيجة فقر السكان، ويخزنونها حتى قبيل الموسم الثاني، ويكون المنتج قد استهلك ما لديه، وأصبح بحاجةٍ ماسةٍ إلى هذه المواد، وعندها تنزل المواد المخزونة إلى الأسواق، وتُباع بأسعارٍ تبلغ أضعافاً مضاعفةً لثمن الشراء. أو بالنسبة إلى البضائع المستوردة من الخارج، والتي لم تكن تنتجها البلاد، فكانت تُباع باختلافٍ كبيرٍ وظاهرٍ عن ثمن شرائها.

وليس من المسموح للفلاح بأن يزرع وينتج المحصول الذي هو بحاجةٍ إليه لاستهلاكه، أو الذي يراه مفيداً، ويدرّ عليه أرباحاً، بل كان عليه أن يزرع المحصول الذي يطلبه منه الاستعمار، والذي بحاجةٍ إليه. كل هذا من سخرةٍ، وتفاوتٍ بين ثمن الشراء والمبيع، وفرص إنتاجٍ معينٍ قد جعل السكان في فقرٍ مدقعٍ، وعيشٍ كئيبٍ. ولم تُفكّر فرنسا في زيادة المساحات الزراعية المروية، ولا في إقامة مشروعات على الأنهار رغم كثرتها، وإمكانية إقامتها.

وكذلك عمدت فرنسا إلى أخذ جميع ثروات السنغال إلى فرنسا وصناعتها هناك حتى لا تقوم صناعة في داخل البلاد، ويستفيد السكان سواء بالصناعة أم بالمال أو بامتلاك تلك المعامل فيما إذا خرجت فرنسا من السنغال. وكل هذا قد جعل أهل السكان يخنعون، ويشعرون بالارتباط بفرنسا خوفاً وجزعاً، ويُنفّذون ما يُطلب منهم.

الناحية العسكرية:

وفرّق الفرنسيون في الرتب العسكرية، حيث كان هناك فرق بين ترقية البيض وترقية السنغاليين، وبين الرتب التي يصل إليها المستعمرون

الصليبيون والتي يصل إليها الإفريقيون. وليست المدة ولا الرتبة هما الفرق فقط، وإنما كانت الرتبة ذاتها وما لها من مزايا مادية ومعنوية، وصفات تختلف بين الجندي الفرنسي والسنغالي، ومع هذا فالجندي السنغالي هو الذي يُقدّم كبش الفداء، ويخوض المعامع، ويُدفع إلى الحروب، ويكون في الصفوف الأمامية، ليتقي به الجندي الفرنسي، ويدفع عن نفسه هول الخطر، وليُقيم على ضحايا السنغاليين مجده الحربي، وعزّه العسكري، وليبقى الدم الأوربي النقي حسب اصطلاح المستعمرين الصليبيين - يجري في العروق خوفاً عليه من الضياع.

وكثيراً ما كان الجنود السود عامةً والسنغاليون خاصةً يُكلّفون بالقيام بالأعمال الوحشية، وارتكاب المجازر في المستعمرات الأخرى، والمناطق الثانية، وتُلصق بهم أيضاً كل الأعمال البشعة التي يقوم بها الجنود الفرنسيون، وذلك حتى ينظر إليهم نظرة سوء، ثم يقال عنهم: إنهم مسلمون فينصبّ الكره على الإسلام من قبل غير المسلمين، أما المسلمون فيأبون أن يكون هؤلاء الذين يتصرّفون مثل التصرّف في عدادهم، ويتكلّمون عنهم، ويكون ردّ الفعل، وتكون التفرقة بين المسلمين حسب اللون و... هذا ما يعمل له المستعمرون الصليبيون، وهذا ما كان يحدث في بلاد الشام إذ أن المجازر التي قام بها الفرنسيون في المجلس النيابي في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٦٤ هـ (٢٩ أيار ١٩٤٥ م) إنما أمروا السنغاليين أن يرتكبوها فألصقت بهم كل صفات الوحشية، وهذا ما خطّط له الفرنسيون.

الحكم:

صدر مرسوم عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) نُظّمت بموجبه أوضاع السنغال، حيث تشكّلت من مدينة «داكار» ومن الأراضي المحيطة بها منطقة خاصة، وقُسّمت البلاد إلى أربع مقاطعات، وكان سكان السنغال يحملون بطاقة الرعاية الفرنسية، ويؤدّون الخدمة العسكرية الإجبارية، كما ينتخبون نواباً عنهم يُمثّلونهم في المجلس النيابي الفرنسي، وكانوا هم الزنوج

الوحيدين الذين يتمتعون بمثل هذه الحقوق السياسية.

وفي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٥ م) أي بعد الحرب العالمية الثانية صدر مرسوم آخر أعاد منطقة «داكار» إلى السنغال. وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٦ م) جرى انتخاب أول جمعية عامة للبلاد، وبعد عشر سنواتٍ تشكّلت أول حكومةٍ لها صفة الاستقلال الذاتي.

وفي عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) صدر قانون ديغول الذي منح فيه الأقاليم الإفريقية حرية الاختيار بين قبول الدستور أو رفضه، ويعني رفضه (أن تمتنع فرنسا عن تقديم أية معونةٍ اقتصادية أو فنيةٍ أو إداريةٍ وذلك بعد الاستقلال) أما الأقاليم التي تقبله فتصبح أعضاء في الجماعة الفرنسية، وهي نوع من الاتحاد، وتغدو إقليماً ذا استقلالٍ داخليٍ، وبعد استفتاء جرى في ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٨ م) أصبحت السنغال عضواً في الأسرة الفرنسية[١]. بعد استعمار دام أكثر من ثلاثمائة سنةٍ.

وفي شهر شوال من عام ١٣٧٨ هـ (نيسان ١٩٥٩ م) انضمّت السنغال إلى السودان الفرنسي ليُؤلّفا معاً اتحاد «مالي»، وبعد أقلّ من عام أيضاً أي (في مطلع عام ١٩٦٠ م) ٣ رجب ١٣٧٩ هـ أصبح اتحاد مالي مستقلاً ضمن الأسرة الفرنسية. ولكن لم يمض سوى ثلاثة أشهرٍ ٨ شوال ١٣٧٩ هـ (٤ نيسان ١٩٦٠ م) إلا وقد انحلّ الاتحاد، وأصبحت السنغال جمهورية مستقلةً في ٢٧ صفر ١٣٨٠ هـ (٢٠ آب ١٩٦٠ م) وفي ١٤ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٥ أيلول ١٩٦٠ م)، وانتخب «سانجور» رئيساً للجمهورية، واختير «محمد ضيا» رئيساً للوزراء. وكان المجلس التشريعي الذي انتخب عام ١٣٧٩ هـ لمدة خمس سنواتٍ يضمّ ثمانين عضواً. وبقيت علاقات السنغال قويةً مع فرنسا التي بقي لها قواعد في السنغال.

---

(١) ينص دستور ديغول المشار إليه على أن السلطة المركزية تكون لفرنسا وتشمل الدفاع، والاقتصاد، والشؤون الخارجية، ويمكن أن يعقد اتحاد بين عضوين في الأسرة الفرنسية أو أكثر.

الفصل الثاني

الاستقلال

١٤ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ - ......

٥ أيلول ١٩٦٠ م - ....

استقلّت السنغال عن فرنسا في ١٤ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٥ أيلول ١٩٦٠ م)، وكانت تحت حكم حزب الاتحاد التقدمي السنغالي، ورئيسه هو رئيس الجمهورية «ليوبولد سنجور» وفي ٧ ربيع الثاني عام ١٣٨٠ هـ (٢٨ أيلول ١٩٦٠ م) أصبحت السنغال عضواً في الأمم المتحدة.

الأحداث الداخلية:

في عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) كان رئيس الوزراء «محمد ضيا» في زيارة لبلدان أوربا الشرقية، وعند عودته، ولدى وصوله إلى المطار اعتقل بتهمة محاولة القيام بانقلابٍ لتغيير نظام الحكم، كما اعتقل أربعة آخرون من الوزراء، واعتمد رئيس الجمهورية على رجال الشرطة والدرك، وتولّى مسؤوليات رئاسة الوزراء إضافةً إلى منصبه، وغدا يُمثّل السلطة التنفيذية والتشريعية.

وفي عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) جرت الانتخابات العامة لاختيار الهيئة الوطنية، وقد فاز حزب الاتحاد التقدمي السنغالي فوزاً كاسحاً في تلك الانتخابات، وهذا ما أدّى إلى ذوبان بقية الأحزاب السياسية في كيان هذه الهيئة، وما جاء عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) إلا وليس في البلاد من حزبٍ سياسيٍ إلا الهيئة الوطنية.

وفي عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) أُعيد منصب رئيس الوزراء، وتسلّم

هذا المنصب «عبده ضيوف» وفي عام ١٣٩٣ هـ كان المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية «ليوبولد سنجور»، وفي عام ١٣٩٦ هـ عُيِّن «عبده ضيوف» نائباً لرئيس الجمهورية.

وفىّ رئيس الجمهورية بوعده فسمح بإعادة الحياة الحزبية تدريجياً، وأطلق سراح السجناء السياسيين جميعاً بما فيهم «محمد ضيا» رئيس الوزراء السابق وذلك عام ١٣٩٤ هـ. وسمح عام ١٣٩٦ هـ لثلاثة أحزاب بالاشتراك في الانتخابات العامة.

وفي شهر ذي القعدة من عام ١٣٩٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٦ م) جرت انتخابات المجالس البلدية على مستوى مقاطعتين من مقاطعات الدولة، كتجربةٍ لتطبيق الفكرة الجديدة التي تقوم على أساس ثلاثة أفكار هي المجتمع الديمقراطي، والديمقراطية الحرة، والماركسية اللينينية، وظهرت النتائج في ذي الحجة ١٣٩٦ هـ (كانون الأول ١٩٧٦ م) حيث فاز:

حزب الاتحاد التقدمي السنغالي بمنصب التجمّع الديمقراطي وحمل هذا الاسم بعد ذلك.

وحزب السنغال الديمقراطي بمنصب الديمقراطية الحرة، وحمل الاسم.

وحزب الاستقلال الإفريقي بمنصب الماركسية اللينينية، وغدا يُمثّل هذه الفكرة.

أما الهيئة الديمقراطية الوطنية فلم يُعترف بها، وأصبح الحكم يحمل فكراً ثلاثياً مُمثّلاً بثلاثة أحزاب. وفي مطلع عام ١٣٩٩ هـ (كانون الأول ١٩٧٨ م) وجدت حركة السنغال الشعبية وتُمثّل جناح اليمين، وقد دعم هذه الحركة أعضاء من حزب التجمع الديمقراطي وبعض المشايخ.

وفي شهر ربيع الأول من عام ١٣٩٨ هـ (شباط ١٩٧٨ م) جرت الانتخابات على مستوى الدولة لنظام الأحزاب الثلاثة فحصل حزب التجمع

الديمقراطي السنغالي على ثلاثة وثمانين مقعداً من أصل مائة مقعد في الهيئة الوطنية، أما بقية المقاعد فقد حصل عليها حزب السنغال الديمقراطي، وفي انتخابات الرئاسة فاز ليوبولد سنجور فوزاً ساحقاً ضدّ عبدالحي ويد رئيس حزب السنغال الديمقراطي.

وتشكلت حكومة جديدة في شهر ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ (آذار ١٩٧٨ م) قوي بها مركز عبده ضيوف.

وفي مطلع عام ١٤٠١ هـ (كانون الأول ١٩٨٠ م) استقال رئيس الجمهورية ليوبولد سنجور من منصبه متنازلاً لرئيس وزرائه عبده ضيوف الذي شغل منصب رئاسة الوزراء أكثر من عشر سنواتٍ متواصلةٍ.

عدّل الرئيس الجديد في الحكومة، وأصدر عفواً عاماً عن السجناء السياسيين، وسمح لأكثر من أربعة أحزاب سياسية بالاشتراك في الانتخابات.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ (شباط ١٩٨٣ م) جرت الانتخابات العامة، ونال عبده ضيوف على ٨٣,٥ ٪ من مجموع الأصوات، وحصل حزبه «حزب التجمع الديمقراطي السنغالي» على مائة وأحد عشر مقعداً من أصل مائة وعشرين مقعداً في الهيئة الوطنية. أما حزب السنغال الديمقراطي فقد حصل على ثمانية مقاعد، وحصل حزب الهيئة الديمقراطية على مقعدٍ واحدٍ. ونظراً للشك في صحة نتائج الانتخابات فقد قرّرت المعارضة مقاطعة اجتماعات الهيئة الوطنية، وبعد خمسة أشهرٍ من الاحتجاج استجاب معظم المعارضين لحضور اجتماع الهيئة الوطنية الذي تمّ في شوال ١٤٠٣ هـ (تموز ١٩٨٣ م) بعد أن ناشدهم رئيس الجمهورية العمل على إبقاء وحدة البلاد، وعمل بعدها رئيس الجمهورية على زيادة سلطاته وتحمّل مسؤولية أعباء الحكم.

وفي ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (كانون الأول ١٩٨٣ م) تحوّل الرفض المتزايد لحكومة السنغال إلى قيام أعمال العنف في مقاطعة «كازامانس»

حيث اشتبكت قوات الشرطة مع أعضاء من حركة القوات الديمقراطية في ولاية «كازامانس» في مدينة «زيغوينكور» وأدّى ذلك إلى مصرع أكثر من خمسة وعشرين شخصاً، وحكم على ٣٥ شخصاً بالسجن لتحريض الشعب على القيام بأعمال الشغب وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م)، ثم بُرّىء سبعة عشر منهم.

وفي اجتماعٍ عاجلٍ لحزب التجمّع الديمقراطي السنغالي في ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م) تقرر تقسيم «كازامانس» و«سان سالوم» إلى مناطق إدارية أصغر. وفي شعبان ١٤٠٦ هـ (نيسان ١٩٨٦ م) أطلق سراح عددٍ من المعارضين. ثم أُلقي القبض على ١٥٢ شخصاً في صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول عام ١٩٨٦ م) بعد اجتماع حزبي لحركة الهيئة الديمقراطية، ثم أُفرج عن ٩٢ منهم في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م).

وحدثت إضرابات في الجامعة لأن الخريجين الجامعيين لا يجدون وظائف لهم، وامتنع الطلاب عن حضور المحاضرات، واستمرّ الإضراب ما يزيد على الشهرين، وانتهى في شعبان ١٤٠٤ هـ (أيار ١٩٨٤ م) بعد أن وعدت الحكومة بحلّ هذه المشكلة.

وحدثت داخل حزب التجمع الديمقراطي السنغالي تكتلات وفوضى عندما استبدل رئيس الجمهورية بعض الأعضاء البارزين بآخرين ممن يُؤيّدونه، وأدّى الأمر إلى عزل وزير الخارجية مصطفى نيازي. مطلع عام ١٤٠٥ هـ (تشرين الأول ١٩٨٤ م). غير أن وضع الحزب قد تحسّن بعد انتخابات مجالس البلدية التي جرت في صفر ١٤٠٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٤ م) حيث حصل الحزب على ٩٦٪ من مجموع الأصوات، ولكن المعارضة لم تشترك في هذه الانتخابات، واستمرّت مُقاطعةً لها.

تشكل حزب سياسي جديد يحمل اسم «وحدة السنغال الديمقراطية المحددة» برئاسة محمد فول في شوال ١٤٠٤ هـ (تموز ١٩٨٤م)، وهو

عضو سابق في حزب السنغال الديمقراطي، فاعترضت خمسة أحزاب بما فيها حزب السنغال الديمقراطي على تشكيل هذا الحزب، فأعلن رئيس الجمهورية أن الحزب الجديد غير معترفٍ به رسمياً، وأعقب ذلك توقيف ستة عشر سياسياً بارزاً من أحزاب المعارضة كان من بينهم عبدالحي ويد زعيم حزب السنغال الديمقراطي، وعبدالحي باثيلي زعيم رابطة الحركة الديمقراطية لحزب العمال، واستمرّ حجزهم مدة أسبوعٍ كاملٍ بتهمة إلقاء تصريحاتٍ غير موثقةٍ.

وعانى حزب السنغال الديمقراطي محنةً شديدةً في صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م) عندما انسحب من الحزب ثلاثة أعضاء من قادته البارزين، وهم من ممثليه في الهيئة الوطنية مع العلم أن عدد مقاعده في الهيئة هو ثمانية مقاعد، ثم استقال نائب رئيس الحزب «فاران ضيائي» في شهر ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) انسحب من الحزب، واستقال من الهيئة الوطنية، وفي شهر ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب عام ١٩٨٧ م) انفصلت مجموعة جديدة من الحزب، وشكلت حزباً سياسياً جديداً.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) أضرب طلاب جامعة «الشيخ أنتا ديوب» لمدة ٣٢ يوماً، فوافقت إثرها الحكومة على خطةٍ ذات ثمانية بنود لرفع مستوى طلاب هذه الجامعة.

وفي شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م) أضربت قوات الشرطة فأدّى الأمر إلى عزل وزير الداخلية، وتوقيف هذه القوات عن العمل مؤقتاً، ثم أعادت إليها المسؤولية بعد إبعاد ستمائة شرطي عن العمل.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م) بدأت انتخابات الرئاسة، وأخذت الصراعات تظهر في بعض المناطق بين رجال الأمن وبين رجال الأحزاب المعارضة. وكانت النتائج المبدئية تنبىء بفوزٍ ساحقٍ للرئيس عبده ضيوف وحزبه «حزب التجمع الديمقراطي السنغالي» الحزب الحاكم، مما حدا بحزب السنغال الديمقراطي للطعن في أمانة الانتخابات، وبدأ

الشغب في العاصمة «داكار» ويعتقد أن السبب الرئيسي لأعمال الشغب هو سخط السكان على الأحوال الاقتصادية المتردّية التي يعيشونها، وعلى سياسة التقشف التي تتبعها الحكومة. أُعلنت حالة الطوارىء، فمُنعت التجمّعات، وأُغلقت المدارس، وفُرض حظر التجوّل ليلاً في العاصمة، وأُلقي القبض على (عبدالحي ويد) زعيم حزب السنغال الديمقراطي، وعلى (أماث دانسوكو) زعيم حزب الماركسية اللينينية، وأعلنت نتائج الانتخابات في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) فظهر أن رئيس الجمهورية عبده ضيوف قد حصل على ٧٣,٢ ٪ من الأصوات، وحصل عبدالحي ويد على ٢٥,٨ ٪ من الأصوات، وحصل حزب التجمع الديمقراطي السنغالي على ١٠٣ مقاعد في الهيئة الوطنية، ونال حزب السنغال الديمقراطي باقي المقاعد، وهو ١٧ مقعداً. وقرّرت الهيئة الوطنية أن تستمرّ حالة الطوارىء إلى أجلٍ غير مُسمّى، غير أن المدارس ستفتح أبوابها، وستخفض ساعات حظر التجول، وأخيراً انتهى حظر التجول في شعبان (نيسان)، أما حالة الطوارىء فبقيت حتى رمضان (أيار).

وفي شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) قُدّم للمحاكمة عبدالحي ويد، وأماث دانسوكو وخمسة من المعارضين الآخرين بتهمة التحريض على الشغب، ومهاجمة رجال الأمن، وقضت المحكمة بالسجن مدة عام على عبدالحي ويد مع وقف التنفيذ، وبرئت ساحة أماث دانسوكو والمتهمين الآخرين. غير أن محاكمة عبدالحي ويد قد أدّت إلى حدوث اشتباكاتٍ جديدة في داكار، مما جعله يطلب من المتظاهرين الخلود إلى الهدوء، واستعداده للتباحث مع رئيس الجمهورية، وأظهر من جانب آخر رئيس الجمهورية عبده ضيوف استعداده للصلح مع المعارضة، وأصدر عفواً عاماً عن كل المعتقلين السياسيين الذين تمّ إلقاء القبض عليهم أثناء الانتخابات، كما أصدر عفواً آخر عن ٣٢٠ شخصاً ممن سبق أن أُلقي عليهم القبض قبل شهر ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) في كازامانس.

التقى رئيس الجمهورية عبده ضيوف مع زعيم المعارضة عبدالحي ويد، وكانت نتيجة اللقاء أن أُلقيت بعض المهمات على أحزاب المعارضة، وقد وافقت تسعة أحزابٍ سياسيةٍ على الاشتراك في المهمة الأولى، وهي الاجتماع لمناقشة المشكلات السياسية في البلاد، وتقرّر أن تبدأ الجلسات في شهر ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م) وشُكّلت لجان متخصصة لمناقشة الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ومشكلات الشباب، والبطالة إلا أن شيئاً لم يحدث حيث أُجّلت الجلسات إلى أجلٍ غير مُسمّى بعد أن اتهمت أحزاب المعارضة الحزب الحاكم «حزب التجمع الديمقراطي السنغالي» بوضع المعوقات والعراقيل في وجه مناقشة النظم الانتخابية، كما اتهمت الحكومة بمنع أحزاب المعارضة من استخدام وسائل الإعلام المحلية في الدعاية الانتخابية أُسوةً بالحزب الحاكم.

وفي اجتماعٍ عاجلٍ لحزب التجمع الديمقراطي السنغالي في شهر شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) أعلن رئيس الجمهورية عن رغبته بفتح حوار مع أحزاب المعارضة، كما أعلن عن اتباعه سياسة جديدة هي سياسة الانفتاح والتجديد، وشكّل لجنةً تنفيذيةً داخل حزب التجمع الديمقراطي السنغالي نفسه مهمتها تعديل النظم الانتخابية، وكلّف هذه اللجنة أن تأخذ بعين الاعتبار مطالب المعارضة. وفي الشهر نفسه رجع عبدالحي ويد من منفاه الذي فرضه على نفسه في فرنسا ولمدة سبعة شهورٍ، وكان يُعلن فيها أن حزبه هو الذي فاز بانتخابات (شباط ١٩٨٨ م) غير أن اللعب في النتائج هو الذي قلب الحقائق، وقد صرّح عند عودته أن رئيس الجمهورية قد وافق على طلبه تشكيل حكومةٍ انتقاليةٍ للإشراف على إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ، ولكن رئيس الجمهورية أنكر على موافقته على شيءٍ مما صرّح به عبدالحي ويد.

وفي رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) أعلن عبده ضيوف عن تعديلات نظام الانتخابات، وأنه يجب أن تكون هناك شروط ومعايير يجب

أن تتوفّر في المرشح ليحقّ له ترشيح نفسه، وأُنقصت كذلك مدة الحملة الانتخابية من ثلاثة أسابيع إلى أُسبوعين فقط، ويسمح خلالها لأحزاب المعارضة استخدام وسائل الإعلام المحلية، وأعلن أن هذه التعديلات ستقضي بتأجيل انتخابات مجالس البلديات مدة عامٍ كاملٍ بعد أن كان مقرراً لها أن تجري في ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م). وكان ردّ فعل أحزاب المعارضة أن أعلنت أن هذه التعديلات وإن كان ظاهرها برّاقاً إلا أنها في الحقيقة ليست إلا في مصلحة الحزب الحاكم حيث تزيد من سلطته وتُقلّل من شأن بقية الأحزاب، وقد أدّى هذا الإعلان إلى إلقاء القبض على أكثر من مائة وخمسين شخصاً. وقد وافقت الهيئة الوطنية على هذه التعديلات في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) مع العلم أن أعضاء الهيئة الوطنية جميعهم من أعضاء الحزب الحاكم «حزب التجمع الديمقراطي السنغالي» لأن أعضاء حزب السنغال الديمقراطي الـ (١٧) في الهيئة الوطنية كانوا قد قاطعوا جلسات الهيئة منذ شهر ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (أواسط عام ١٩٨٩ م) احتجاجاً على التغطية الإعلامية المضلّلة لجلسات الهيئة.

وفي الوقت نفسه أُجريت تعديلات على نظام الاستثمار على الرغم من معارضة أعضاء حزب السنغال الديمقراطي المعارض الذين كانوا أعضاء في مؤسسة العمل السنغالية الوطنية.

التعليم:

أعلن في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) عزل وزير التربية والتعليم، وأُنشئت وزارتان إحداهما للتعليم الوطني والأخرى للتعليم العالي، وعُيّن فيهما موظفون على مرتبةٍ عاليةٍ، كان ثلاثة عشر منهم وزراء سابقون، وعُدّ العام الدراسي ١٩٨٧/١٩٨٨ غير معتبر جامعياً لأن طلبة المدارس الثانوية والجامعات كانوا في إضرابٍ دائمٍ مدة العام الدراسي كله بدءاً من صفر ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م) وحتى انتهاء العام الدراسي.

وفي صفر ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) قدّمت الحكومة خطةً لإصلاح التعليم الوطني، وبعد شهرٍ وافقت على رغبات الطلاب بتحسين أوضاعهم الاجتماعية، كما منحت طلاب جامعة الشيخ أنتا ديوب الاستقلال التعليمي فلم تعد تابعةً لنظام التعليم المركزي.

ورغم هذا فلم يخل العام التالي من مُشكلات حيث قام المعلمون بإضرابٍ دام ثلاثة أشهرٍ في أواخر ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (مطلع عام ١٩٨٩ م. وكانوا يطالبون برفع مستوى المعيشة.

الهيئة الوطنية:

وفي ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) قدّم رئيس الهيئة الوطنية «داود ساو» استقالته، وهذا ما يدلّ على وجود خلافات داخل الهيئة الوطنية رغم أن أكثرية أعضائها من حزبٍ واحدٍ، بل إن أعضاء المعارضة من الحزب الآخر مع قلتهم كانوا كثيراً ما يقاطعون جلسات الهيئة.

القوات المسلحة:

أجبر قائد القوات المسلحة الأول على الاستقالة في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) كما ألزم الجنرال «جوزيف لويس تافاري داسوزا» سفير السنغال في ألمانيا على الاستقالة أيضاً لاكتشاف خطة انقلابٍ كانوا ينوون تنفيذها أثناء الانتخابات التي جرت في جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م).

الصحافة:

حكم على الشيخ «قريشي با» رئيس تحرير صحيفة حزب السنغال الديمقراطي «سوبي» بالسجن لمدة عام واحد مع ثلاثة من الصحفيين بتهمة نشر وإشاعة أخبارٍ كاذبة، وذلك في جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م)، وفي شهر رجب من العام نفسه سُجن رئيس حزب السنغال الديمقراطي عثمان نجوم لنشر مقال في صحيفة الحزب «سوبي»،

وذلك أثناء غياب عبدالحي ويد في فرنسا، فجاء في الشهر نفسه، وخرجت الجموع لاستقباله، وتصدّت لها قوات الأمن لتفريقها، وقد صرّح زعيم حزب السنغال الديمقراطي عبدالحي ويد أن الفائز في انتخابات (شباط ١٩٨٨ م) هو الرئيس عبده ضيوف إلا أنه يُطالب باختيار رئيسٍ آخر نظراً لتدنّي الحالة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، وأعقب ذلك قيام سلسلة من الاحتجاجات والاشتباكات كانت نتائجها حجز عددٍ كبيرٍ من مُؤيّدي أحزاب المعارضة من قبل قوات الأمن، وكانت أشدّ الاشتباكات التي وقعت في شهر رمضان ١٤١٠ هـ (نيسان ١٩٩٠ م) وأعنفها ما كان في ذكرى اليوم الوطني للبلاد.

وفي شعبان ١٤١٠ هـ (آذار ١٩٩٠ م) أعلن الرئيس عبده ضيوف عن تعديلٍ شاملٍ في الحكومة إذ نقص عدد أعضاء الحكومة من ٢٧ وزيراً إلى ٢١ وزيراً، ومن أهم التغييرات التي تمّت عزل أمين السر العام للرئيس الذي هو «جان كولن»، وهو يشغل هذا المنصب منذ أيام الفرنسيين، ومما تجدر الإشارة إليه أن أحزاب المعارضة كانت تعتمد في تأليبها الناس ضدّ الرئيس عبده ضيوف في تأثير «جان كولن» عليه، وعلاقته به، وصلته بفرنسا، وتأثيره الكبير على المجرى السياسي للدولة، وقد عُيّن مكانه «أندريه سونكو» كأمين سر عام للرئيس إضافةً إلى منصبه وزيراً للداخلية، أما منصب وزارة التعليم فقد تسلّمه «جيبوكا»، وتسلّم وزارة الخارجية، «سيدنا عمر ساي» مكان إبراهيم فال. ومن الملاحظ أن وزارة الداخلية بيد النصارى رغم ضعف نسبتهم.

الأحداث الخارجية:

إن الأحداث الخارجية قليلة فالسنغال تسير في فلك دول النظام الحر، وذات علاقة بفرنسا، وإن أكثر الأحداث إنما هو مع الدول المجاورة.

مع غامبيا:

في مطلع عام ١٤٠١ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٠ م) أرسلت السنغال بعض الفرق العسكرية إلى غامبيا لحمايتها من هجوم متوقّعٍ من ليبيا - حسب زعم أصحاب العلاقة - وبعد محاولة انقلابٍ في غامبيا تدخّلت قوات السنغال لحماية الحكومة الغامبية، وكان ذلك في رمضان ١٤٠١ هـ (تموز ١٩٨١ م) وبعد شهرٍ أُعلن عن خطةٍ لاتحادٍ بين السنغال وغامبيا، وإقامة دولةٍ منهما أُطلق عليها سنغامبيا، وظهر الاتحاد في ٧ ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ (الأول من شباط ١٩٨٢ م)، وفي ربيع الأول ١٤٠٣ هـ (مطلع عام ١٩٨٣ م) عُقد أول مجلسٍ يضم كلاً من السنغال وغامبيا، ونوقشت فيه سبل التعاون بين البلدين من ناحية السياسة والاقتصاد ووحدة النقد. غير أن السنغال كانت ضد موقف غامبيا المتردّد في تحقيق الوحدة فعلياً.

وفي محرم عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م)، أعلن رئيس السنغال عبده ضيوف عن سحب القوات السنغالية من غامبيا في احتجاج على طلب رئيس غامبيا في أن يُعطى سلطة أكبر في الاتحاد، وفي نهاية الشعر نفسه أعلن الرئيس السنغالي أن كل عمليات الاتحاد ستتوقف نظراً لتخاذل غامبيا عن الاندماج الفعلي مع السنغال سياسياً واقتصادياً، ثم لم يلبث أن حلّ الاتحاد في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) وتبعه إعلان من الرئيس الغامبي داود غاوارا أن السنغال تفرض ضرائب، وتضع قوانين للتنقّل بين البلدين تضرّ بغامبيا، كما تمنع المؤن والبضائع من دخول غامبيا عبر حدودها معها.

وفي جمادى الأولى ١٤١١ هـ (كانون الأول ١٩٩٠ م) اجتمع الرئيسان في داكار لمناقشة الوضع المتأزّم بين البلدين.

مع غينيا - بيساو:

وقع الخلاف بين السنغال وغينيا - بيساو حول منطقةٍ بحريةٍ غنيةٍ بالأسماك، كما دلّت الدراسات على غناها بالنفط أيضاً، وتقع تحت السيادة السنغالية، وتقدّمت غينيا - بيساو بشكوى إلى محكمة العدل الدولية، وصدر

الحكم لصالح السنغال في مطلع عام ١٤١١ هـ (آب ١٩٩٠ م)، والتقى في نهاية الشهر نفسه رئيسا الدولتين، عبده ضيوف وجواو بيرنارد فييرا لمناقشة الموضوع، كما تدخّلت زائير والبرتغال للإصلاح بين الطرفين دون فائدة.

مع موريتانيا:

وقعت أزمة بين السنغال وموريتانيا وظهرت حدّتها في ٥ رمضان ١٤٠٩ هـ (١٠ نيسان ١٩٨٩ م) حيث قتل اثنان من السنغاليين في قريةٍ على الحدود في الجنوب الشرقي من موريتانيا على يد رعاة موريتانيين من الزنوج، وقام وزير الداخلية السنغالي بزيارة موريتانيا وقابل رئيسها، وأعلن أن البلدين سيعملان على تطويق آثار الحادث، وما أن رجع الوزير إلى داكار حتى قام بزيارةٍ إلى مكان الحادث، وأعلن أن الأمر مبيّت، ولن تسكت عنه السنغال، وفي اليوم التالي ٦ رمضان قامت مظاهرة في بلدة «بوكل» السنغالية القريبة من مكان الحادث، وهاجم المتظاهرون المحلات التي يملكها موريتانيون عرب، ونهبوا ما فيها، ثم أشعلوا فيها النيران. قام وزير الداخلية الموريتاني بزيارة للعاصمة السنغالية، وعمل مع نظيره السنغالي اتفاقاً لتجنّب حوادث جديدة. وفي اليوم التالي انفجر الوضع في السنغال، وأخذ السكان ينهبون المحلات التي يملكها الموريتانيون، ويقتلون من يستطيعون قتله، بل ويمثّلون بالجثث، وفرّ من فرّ ونجا من القتل إلى المساجد، وإلى مراكز الشرطة، وإلى مبنى السفارة، ومبنى القنصلية الذي لم ينج من الهجوم، وتعرّض لهذه الحرب جميع الموريتانيين الذين يقيمون في السنغال، ويُقدّر عددهم بنصف مليون تقريباً.

وفي ١٩ رمضان انفجر الوضع في موريتانيا فهاجم السكان في العاصمة «نواكشوط» وفي مدينة «أنواذيبو» الرعايا السنغاليين، وقاموا بالعمل نفسه الذي قام السنغاليون به، واستمرّ هذا التصرّف يومين، وفي اليوم الثالث استدعت الحكومة قواتٍ من الجيش والدرك،

وسيطرت على الوضع، وأعلنت منع التجول، وجُمع السنغاليون في المساجد، والمعرض التجاري، وشُدّدت عليهم الرقابة لحمايتهم.

وفي ٢٤ رمضان عاد الوضع فانفجر من جديدٍ في السنغال بعد بيانٍ مُوجّه من الدولة إلى موريتانيا، فارتفعت شعارات الانتقام، وأخذ القتل يلحق بالموريتانيين حتى الذين يحملون الجنسية السنغالية، واضطرت الحكومة إلى إعلان حالة الطوارىء، وفرض منع التجول، ولكن ذلك لم يوقف عمليات التنكيل بالموريتانيين.

وأخيراً اتفق الطرفان على نقل الرعايا من كل بلدٍ إلى البلد الآخر، فنُقل أكثر من مائتي ألف موريتاني من السنغال، ومائة ألف سنغالي من موريتانيا رغم أن عدد الموريتانيين في السنغال كثيراً ما يرفعونه إلى خمسمائة ألف إنسان.

وعلى الرغم من موافقة البلدين على حلّ مشكلاتهما بالحوار إلا أن إصرار السنغال على حرمة الحدود التي وضعها الفرنسيون، وإصرار موريتانيا على تعويض أبنائها الذين فقدوا ممتلكاتهم في السنغال من قبل حكومة السنغال كانا عقبتين كبيرتين في وجه أي وفاقٍ بين البلدين الأمر الذي أدّى إلى قطع العلاقات السياسية بينهما في مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م)، وفي نهاية عام ١٩٨٩ م تجدّدت أعمال العنف بين الطرفين نتيجةً لعودة الموريتانيين السود الذين كانوا قد نُقلوا إلى السنغال والمطالبة بالتعويض عن ممتلكاتهم في موريتانيا، ويبدو أن القوات العسكرية السنغالية كانت وراء التشجيع على المطالبة. وفي منتصف عام ١٤١٠ هـ (أوائل عام ١٩٩٠ م) لم يعد هناك أي مجالٍ للصلح بين البلدين وباءت محاولات الأمم المتحدة بالفشل بعد أن حدثت اشتباكات عسكرية بين الدولتين في منطقة الحدود المتنازع عليها.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة السنغال ١٩٦,١٩٠ كيلومتراً مربعاً، وتُشرف على المحيط الأطلسي على طول ٥٣١ كيلومتراً، وتحدّها موريتانيا من الشمال بطول ٨١٣ كيلومتراً، ومالي من الشرق بحدود تبلغ ٤١٩ كيلومتراً، وغينيا، وغينيا ـ بيساو من الجنوب بحدودٍ متساويةٍ تقريباً حيث تبلغ الحدود مع غينيا ٣٣٠ كيلومتراً، ومع غينيا ـ بيساو ٣٣٨ كيلومتراً. وتتوسطها بعدئذ غامبيا بحدود ٧٤٠ كيلومتراً.

ويبلغ عدد السكان حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) سبعة ملايين ونصف المليون، وبذا تكون الكثافة أكثر من ٣٨ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جيدة في تلك المناطق المدارية.

وتنتشر في السنغال عدة قبائل كبيرةٍ منها: الولوف الذين ينتشرون في المناطق الشمالية الغربية، ويُشكّلون ٣٦ ٪ من مجموع السكان. والماندينغ في الجنوب الشرقي على حدود غينيا، وهم فرع «الديولا»، وعلى حدود مالي، وهم فرع «ماندي» وفي الشمال الشرقي على حدود موريتانيا ومالي، وهم فرع «ساراكوليه» ويشكل الماندينغ ٢٠ ٪ من مجموع السكان منهم ٨ ٪ ساراكوليه، ومنهم ٦٪ ديولا، و٦ ٪ ماندي، والفولاني في الشرق والوسط، ويشكلون ١٧ ٪ من مجموع السكان، والتوكلور إلى الغرب من ديار الفولاني ويشكلون ١٨ ٪ من مجموع السكان، والسرير في الجنوب، ويشكلون ١٧ ٪ أيضاً، والباقي، وهو من العرب الشاميين، والأوربيين من

الفرنسيين والبرتغاليين، وتبلغ نسبة مجموعهم ٣ ٪.

٣٦٪ ولوف.
٢٠٪ ماندينغ.
١٨٪ توكلور.
١٧٪ فولاني.
٨ ٪ سرير.
١ ٪ عرب وأوربيون.
١٠٠٪.

أما من حيث العقيدة فإن قبائل الولـوف، والمانـدينغ، والتـوكلور، والفـولاني، فـإنهم جميعــاً من المسلمين، ويُشكّلون ٨٩ ٪ من مجمـوع السكان، ويضاف إليهم بعض قبائل السرير، وبعض العرب وتكون نسبـة المسلمين ٩٢ ٪ من مجموع السكان. أما النصارى فهم الأوروبيون وبعض العرب من الشام، ويشكلون ٢ ٪، وأما الوثنيون، فهم أكثرية قبائل السرير، ويعيشون في الجنوب في الغابة ويُشكلون ٦٪ من مجموع السكان.

٩٢٪ مسلمون.
٢ ٪ نصارى.
٦ ٪ وثنيون.
١٠٠٪

الصراع القبلي:

كان الصراع في الماضي أكثر ما يظهر بين القبائل، وقد مر معنا كيف كان انتقال الحكم من التكرور إلى الفولانيين إلى الـولوف وأخيـراً كانت حكومة الحاج عمر من شعب التوكلور. أما بعد الاستعمار فقد توجّه الصراع نحو الدخلاء، وأصبحت القبائل متعاونةً فيما بينها ضد الصليبيين الغزاة، غير أن الغزاة استطاعوا أن يجرّوا إليهم مع الزمن أصحاب المصالح بعد أن ألقوا أمامهم المناصب، كما شدّ المستعمرون إلى جانبهم أصحاب الأهواء

بعد أن بذروا أمامهم المفاسد، فأخذ الصراع شكلاً جديداً حمل المعنى العقيدي.

الصراع العقيدي:

لما كان الإسلام عقيدة غالبية السكان ٩٢٪ من مجموع الشعب لذا فإن أصحاب العقائد الأخرى لا وزن لهم، وخاصةً إذا علمنا أن الوثنيين داخل الغابة لا يهتمون بهذا كثيراً، وإن كانوا يشكلون ٦٪ من مجموع السكان، وأما النصارى، وهم ٢٪ لا يُشكلون أي خطرٍ مع العلم أن النصرانية لا يمكنها من منافسة الإسلام والدخول في صراعٍ مع أتباعه بشكلٍ متكافىءٍ وذلك لكثرة الطقوس الوثنية التي دخلت النصرانية منذ فرضت على الدولة الرومانية الوثنية حيث بقيت الممارسات وثنية والاسم للنصرانية غير أن الوضع هنا يختلف فالنصارى الذين يُشكّلون ٢٪ من المستعمرين الذين بيدهم السلطة. لذا كان الصراع بين الدخلاء الصليبيين ومن كسبوهم إلى ديانتهم من الوثنيين، وأتباعهم من أصحاب المصالح والأهواء من جهةٍ والمسلمين من جهةٍ أخرى الذين رفضوا السير على خطا الغزاة، واستعلوا بإيمانهم وإن لم يكونوا جميعاً ملتزمين، ولم يكن هذا الصراع متكافئاً إذ أن الجيش، وقوى الأمن، والسلطة كلها بيد طرفٍ واحدٍ هو الصليبية على أن الطرف الآخر، وهو المسلمون، مجرد من كل سلاحٍ، ومن كل قوةٍ، فقير، ضعيف، يسعى وراء لقمة العيش، ولا يجدها هذا إضافةً إلى جهله، وتفرُّقه لعدم تنظيمه، والخلافات القائمة بين قبائله وأقاليمه، وطرقه.

استعمل المستعمرون الصليبيون كل وسائل تهديم خصومهم المسلمين لتحطيمهم ومحاولة إبادتهم، فسلّطوا عليهم من نصّروهم أثناء الحكم الاستعماري، وخلّفوهم مكانهم بعد خروجهم من البلاد، ومكّنوا لمن قلّدوهم، وقبلوا السير في فلكهم، وعلى أسلوب حياتهم، ووضعوا المناهج التي تنشىء الأجيال على هذا الخط، وأثاروا بين المسلمين

النعرات. فأصبح الصراع بين المسلمين أنفسهم: المسلمون الملتزمون الذين يستعلون بإيمانهم، ويرفضون الدنية من طرفٍ، وبين المسلمين المستغربين من طرفٍ آخر، وهؤلاء لا يعرفون من الإسلام سوى الانتماء إليه. وكان الفوز للمستغربين الذين مكّن لهم المستعمرون الصليبيون، وبقوا يُؤيّدونهم حتى بعد خروجهم، ويمدّونهم بكل عناصر القوة من سلاحٍ، ومعلوماتٍ عن أعدائهم، وتأييدٍ، ووسائل مقاومةٍ، ومخططاتٍ، ولا يأتي هذا الدعم من الدولة المستعمرة سابقاً وهنا فرنسا، وإنما من الصليبية العالمية، والقوى الدولية كلها والتي تحرّكها الدول الكبرى وتُوجّهها.

لذا بقي المسلمون مستضعفين، والمتفرنجون المستغربون أقوياء، وتُكال للمسلمين الضربة بعد الضربة ليبقوا ضعفاء أذلاء، وتُؤخذ منهم الأعداد تلو الأعداد - حسب المخطط الصليبي - حتى ينتهوا من الارتباط بالعقيدة، فإذا ما انتهى هذا الدور جاء دور الإبادة، وبُدىء بتنفيذه من هامش العالم الإسلامي باتجاه القلب باسم الشراكة الدولية الذي أخذ يظهر على الساحة، وتحت شعار محاربة الإرهاب الذي تُنعت به كل حركة إسلاميةٍ قويةٍ سليمة الاتجاه في أول الأمر، ثم المسلمون جميعاً.

الصراع بين الطرق الصوفية:

الأمر الذي يُلفت النظر أن بلدان المسلمين التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي تنتشر فيها الطرق الصوفية على حين أن البلدان التي كانت تخضع للاستعمار الإنكليزي تبرز فيها القاديانية، والبهائية، والإسماعيلية.

وتوجد في السنغال طريقتان صوفيتان رئيسيتان، وتفرّعت كلاهما إلى فروع، والطريقتان هما: القادرية، والتيجانية. ومن الملاحظ أيضاً أن الطرق في المغرب وغربي إفريقية وإن كانت من أصلٍ مشرقيٍ إلا أنها تختلف عنها بعض الشيء في موضوع التواكل والتكاسل، وترك موضوع الجهاد، والإخلاد إلى الأرض مع إهمال إعمارها. وهذا الأمر يُخالف

الإسلام ويُبعد صاحبه عنه، وهو ما ينتشر بين الطرق الصوفية في المشرق على اختلافها، لكنه لا يظهر في المغرب وغربي إفريقية بشكلٍ واضحٍ حيث شاركت بعض الطرق بالجهاد.

الطريقة القادرية:

تأسّست في بغداد في القرن السادس الهجري، وتنتسب إلى محمد عبدالقادر الجيلاني، ودخلت إفريقية في القرن التاسع الهجري على أيدي مهاجرين من مدينة «توات»، وهي واحة تقع في النصف الغربي من الصحراء الكبرى، واتخذوا من مدينة «ولاته» في موريتانيا أول مركزٍ لطريقتهم، ثم انتشروا في غربي إفريقية كلها، وافتتحوا المدارس، وأرسلوا الطلاب إلى فاس، والقيروان، وطرابلس، والقاهرة. ثم تفرّعت هذه الطريقة إلى عددٍ من الفروع، ومن هذه الفروع في السنغال:

أ ــ **البكائية**: وظهرت في قبيلة «قنطاس» التي تدّعي أنها من أصلٍ عربيٍ، ومن سلالة عقبة بن نافع الفهري، فاتح بلاد المغرب، وتنتسب إلى سيدي أحمد البكائي الذي عاش في موريتانيا في أواخر القرن التاسع الهجري، وكان فرعها في منطقة «الترارزة» قوياً حيث يعيش حالياً أحفاد الشيخ سيديا، وهم أحفاد الشيخ سيديا الكبير المتوفى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م)، وكذلك انتشرت في مالي، ويبدو أثر هذه الطريقة واضحاً في شعب الفولاني، إذ ظهر منهم الشيخ أحمدو، وعثمان دانفديو.

وتتأثّر السنغال بالطرق التي تنتشر في موريتانيا، فتنتشر الطريقة البكائية القادرية على نطاقٍ واسعٍ. وهناك الجماعة الدينية المعروفة «أبو قنطة»، وأصلها من «تيفاوان»، وتأسّست عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)، ويُدعى رئيسها «أبو أمين» غير أن نفوذها آخذ بالتضاؤل.

وتوجد في السنغال منظمة دينية سوداء، كانت تتبع لأهل الشيخ سيديا، وتُدعى «الكتلة النورية».

ب ــ **المريدية**: وتنتسب إلى «أحمدو بامبا»، من شعب التوكلور،

وكان أبوه شيخ طريقة، ويدعى (مورعنت صل)، ويقطن بلاد الولوف، وبدأ حركته في بلاد «الباؤل» عام ١٣٠٤ هـ، وأنشأ مركزاً دينياً في مدينة «طوبا» عام ١٣٠٧ هـ، واتفق مع الشيخ سيديا الذي منحه الوِرد القادري بعد أن سافر إلى موريتانيا، والتقى به، ثم بدأ بمقاومة الفرنسيين، فقبض عليه عام ١٣١٣ هـ، ونفي إلى «الغابون» فتوسّط له الشيخ سيديا، فسُمح له بالعودة إلى السنغال عام ١٣٢٠ هـ، فاستقرّ في «جاريم»، غير أنه عاود نشاطه ضدّ فرنسا، فنُقل إلى موريتانيا، ووُضع تحت رقابة الشيخ سيديا بالذات. ثم عاد إلى السنغال عام ١٣٢٥ هـ، وتوفّي عام ١٣٤٥ هـ، وقبره في مدينة «طوبا»، ويزور المريدون هذا القبر، وتبدأ الزيارة في ١٨ صفر من كل عامٍ، وتدوم أربعة أيامٍ.

وخلف الشيخ ولداه «حماد» و«مصطفى»، ثم حصل خلاف بينهما، وفي عام ١٣٦٥ هـ استطاع الشيخ مصطفى «نباكي» تأسيس الديوان المريدي، وأصبح للمريدين لباس موحّد، وتبالغ الروايات في عدد المريدين، فتقول: بلغ عدد المريدين أربعمائة ألفٍ، وأن الذين زاروا قبر «أحمدو بامبا» قد بلغ مائة ألف، وأن الحكومة تضطر إلى زيادة عدد القطارات أثناء موسم الزيارة.

ج ـ **الفاضلية**: نشأت في قبيلة «زناتة»، وتنتسب إلى الشيخ «محمد فاضل» المتوفى عام ١٢٠١ هـ، وتوزّع أتباعه في الصحراء الكبرى كلها، واختاروا أماكن إقامة لهم في نقاط التقاء الطرق التي تمرّ منها القوافل، وأماكن تجمع البدو، ومناطق التبادل بين الزراع والرعاة، وأصبحوا يؤلفون أربع زمر وهي:

١ ـ مجموعة الشيخ سعد: ولها نفوذ في منطقة الترارزة في موريتانيا، وفي السنغال، وغامبيا وغينيا. ولها زاوية فرعية في إقليم «كازامانس» في السنغال، ومعظمها من شعب الديولا.

٢ ـ مجموعة الشيخ ماء العينين الذي قاوم الفرنسيين في موريتانيا والمغرب.

٣ ــ مجموعة الشيخ الحضرمي، ولها أتباعها السود من شعب الماندينغ من «الساراكوليه» و«البمبارا».
٤ ــ مجموعة الشيخ محمد الفاضل ولد عبيدي.

الطريقة التيجانية:

نشأت في الجزائر على يد سيدي أحمد بن محمد التيجاني (١١١٠ - ١٢٣٠ هـ)، ولا يحق للتيجاني أن ينتسبوا إلى طريقةٍ أخرى، وللتيجانية فرعان في الجزائر، وفرع في مدينة فاس في المغرب، وأكثر فروعها في إفريقية الغربية ترتبط بفرع فاس، ووصلت إلى بلاد «الساراكوليه» قرب «نيورو»، وينتمي لهذه الطريقة الحاج عمر الذي نشأ في «بودر» في شعب «التوكلور»، وأسّس دولةً واسعةً في غربي إفريقية، ولقي حتفه في إحدى غزواته عام ١٢٨٣ هـ، واستطاع ابنه أحمدو شيخو ضمّ ولايات أبيه لحكمه. وأخيراً دبّت الخلافات في هذه الدولة بين الأخوة الأمر الذي ساعد المستعمرين الصليبيين على دخول المنطقة جزءاً بعد آخر.

ومن فروع الطريقة التيجانية الطريقة «الحماوية» التي تنتسب إلى «حماه الله بن محمد»، ونشأت في شعب «الساراكوليه» حيث عمّ تأثيرها على كل ديار هذا الشعب، وخاصةً منطقة «جورجول»[1] التي عمت فيها أحداث المقاومة فنُفي عام ١٣٤٨ هـ إلى ساحل العاج، واعتُقل خمسة وعشرون من أتباعه، ثم أُطلق سراحه عام ١٣٥٤ هـ، وعاد إلى «نيورو» حيث عاود نشاطه ضد فرنسا، فأعدم مع اثنين من أتباعه عام ١٣٥٩ هـ.

الصراع الحزبي:

يُعدّ الصراع الحزبي عنيفاً في السنغال، ولكن من غير منافسةٍ، إذ أن الحزب الحاكم هو القوي والمسيطر، والذي يُسكت ويكم أفواه رجال بقية

---

(١) جورجول: إقليم في موريتانيا، يمتد على الضفة اليمنى لنهر السنغال، وشمال مدينة «ماتام» ومركزه مدينة «كيهيدي».

الأحزاب الصغيرة والكثيرة كشأن كل البلدان المتخلفة التي تتعدّد فيها الأحزاب لدرجةٍ كبيرةٍ.

كان حزب الاتحاد التقدّمي السنغالي هو الحاكم يوم حصلت السنغال على استقلالها، وكذلك فاز بانتخابات ١٣٨٣ هـ، وبعد ثلاث سنوات بقي الحزب الوحيد، إذ ذابت بقية الأحزاب في حزب الهيئة الوطنية ذي الأكثرية المطلقة. وأصبح حزب الاتحاد التقدمي السنغالي هو الوحيد ولا يسمح بقيام أحزابٍ أخرى، وأصبح أصحاب المصالح ينضمون إليه بصفته الحزب الحاكم والوحيد.

ووعد رئيس الجمهورية ليوبولد سنجور بالتعددية الحزبية، ووفّى بوعده في انتخابات ١٣٩٤ هـ واشتركت ثلاثة أحزاب وهي: حزب الاتحاد التقدّمي السنغالي الذي أصبح حزب التجمع الديمقراطي، ثم الديمقراطي السنغالي، وحزب الاستقلال الإفريقي.

ثم وجدت عام ١٣٩٩ هـ حركة السنغال الشعبية.

وفي الانتخابات التي جرت في ربيع الأول ١٣٩٨ هـ (شباط ١٩٧٨ م) حصل الحزب الحاكم «حزب التجمع الديمقراطي» على ٨٣ مقعداً، وحصل على باقي المقاعد وهو ١٧ مقعداً الحزب الديمقراطي السنغالي، وأما الأحزاب الباقية فلم تحصل على شيءٍ، وبقي الصراع بين هذين الحزبين إلى الآن عنيفاً، وإن الأحزاب الأخرى وإن كانت تقف في صف المعارضة غير أنها ضعيفة.

وفي انتخابات جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ (شباط ١٩٨٣ م)، اشترك حزب جديد فيها وهو حزب الهيئة الديمقراطية، وحصل على مقعدٍ واحدٍ في الهيئة الوطنية. وحصل الحزب الديمقراطي السنغالي. على ثمانية مقاعد، وهذا كل ما حصلت عليه المعارضة، وأما الحزب الحاكم «حزب التجمع الديمقراطي» فقد حصل على بقية المقاعد، وعددها ١١١ مقعداً من أصل ١٢٠ مقعداً. وأخذ الصراع يشتد حيث كانت المعارضة تتهم الحكومة بعدم

الأمانة في الانتخابات. ووقعت أحداث دامية خاصة في مقاطعة كازامانس حيث برز حزب القوات الديمقراطية في تلك الولاية.

وفي انتخابات رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) حصل حزب التجمع الديمقراطي على ١٠٣ مقاعد في الهيئة الوطنية، ونال الحزب الديمقراطي السنغالي على ١٧ مقعداً. وحدثت اشتباكات، وقُدِّم زعماء المعارضة للمحاكمة، وعلى رأسهم عبدالحي ويد، وأماث دانسوكو.

وعلى هذا فالحزب الرئيسي هو الحزب الحاكم «حزب التجمع الديمقراطي» بزعامة رئيس الجمهورية عبده ضيوف، والحزب المعارض الرئيسي، هو الحزب الديمقراطي السنغالي بزعامة عبدالحي ويد، لذا يُعدّ زعيم المعارضة، وبقية الأحزاب صغيرة وتعدّ في صفّ المعارضة.

وتتبدّل أسماء الأحزاب، وإن كان أكثرها يحمل اسم الديمقراطي، وأصبح أيضاً الحزب الحاكم يضيف اسم الاشتراكية حسب المعاصرة الشائعة، وأحزاب السنغال اليوم هي:

١ ـ الحزب الاشتراكي السنغالي، برئاسة عبده ضيوف. الحزب الحاكم. وأمينه العام جيبوكا.

٢ ـ الحزب الديمقراطي السنغالي. برئاسة عبدالحي ويد. الحزب المعارض.

٣ ـ الحركة الديمقراطية الشعبية. برئاسة محمد ضيا.

٤ ـ حزب الاستقلال والعمل. برئاسة أماث دانسوكو.

٥ ـ الحركة الثورية الديمقراطية الجديدة. برئاسة لاندينغ سافان.

٦ ـ حزب العمل الشيوعي. برئاسة دودو دار.

٧ ـ الحزب الديمقراطي ـ حركة العمل. برئاسة عبدالحي باثلي.

٨ ـ حركة الجمهوريين السنغاليين. برئاسة بوبكار جوي.

٩ ـ المنظمة الشيوعية للعاملين. برئاسة مباي باثلي.

١٠ ـ حزب الاستقلال الإفريقي. برئاسة ماجيموث ديوب.

١١ ـ الحزب الإفريقي لاستقلال الشعب. برئاسة علي نايين.

١٢ ـ الحزب الديمقراطي السنغالي الجديد. برئاسة سيرغين ديوب.
١٣ ـ حزب السنغال الشعبي. برئاسة عمر وون.
١٤ ـ حزب تحرير الشعب. برئاسة عبدالحي كان.
١٥ ـ حزب التجمع الوطني الديمقراطي. برئاسة علي مديدو فال.
١٦ ـ الاتحاد الديمقراطي الشعبي. برئاسة حمدين راسين جويسي.
١٧ ـ الاتحاد الديمقراطي السنغالي الجديد. برئاسة محمد فال.
١٨ ـ حركة قوات كازامانس.

وهذه الأحزاب كما ذكرنا تغير أسماءها حسب التسميات الشائعة، فالحزب الاشتراكي السنغالي، وهو الحزب الحاكم حمل اسم «حزب الاتحاد التقدمي السنغالي» ثم «حزب التجمع الديمقراطي» والآن يحمل اسم «الحزب الاشتراكي السنغالي».

كما أن هذه الأحزاب تنقسم على نفسها، فتنشأ أسماء جديدة تحت زعامة رؤساء قدماء ترتبط أسماؤهم بأحزاب تحمل أسماء أخرى.

وهذه الأحزاب لا تختلف في أهدافها، وإنما في رجالها، وتنشأ كثرتها من الرغبة بالظهور وحب الزعامة، شأن كل الدول المتخلفة، وهذا ما يسبب زيادةً في الفوضى.

الباب الثاني

غامْبيا

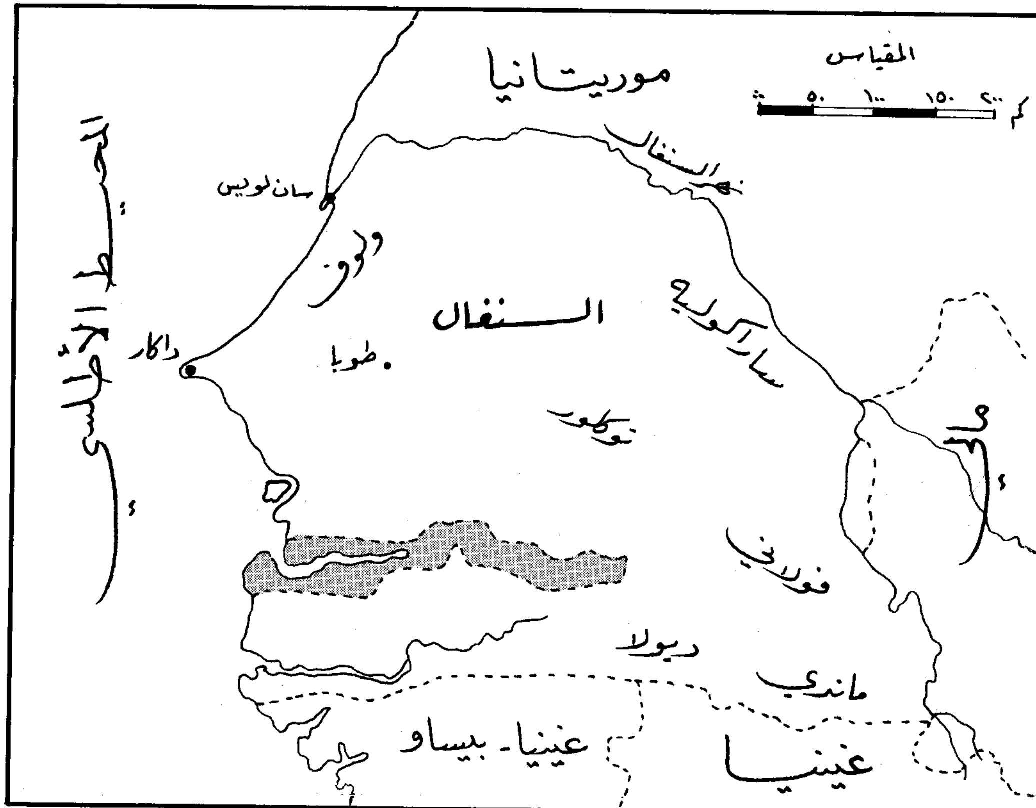
المحيط الأطلسي
موريتانيا
المقياس
كم
٥٠
١٠٠
١٥٠
سان لويس
السنغال
ولوف
السنغال
داكار
طوبا
فولاني
ديولا
ماندي
غينيا بيساو
غينيا
مالي

مصور رقم [٢]

لمحة عن غامبيا قبل إلغاء الخلافة

ليست غامبيا سوى قطعةٍ صغيرةٍ من أرض السنغال، انتشر فيها الإسلام في الوقت الذي انتشر في السنغال، وكان الصراع في ذلك الجزء من الأرض بين المستعمرين الصليبيين من فرنسيين، وبريطانيين، وبرتغاليين، وكان البرتغاليون على درجةٍ من الضعف فطُردوا من المنطقة، وانتهت مراكزهم فيها، واستمر النزاع بين الدولتين الأخريين فرنسا وانكلترا للسيادة على المنطقة مدة الحروب الطويلة التي نشبت بين الاستعمارين خلال قرنين كاملين، حيث احتّل الإنكليز أجزاء من المنطقة، ثم عادت فرنسا إليها حسب معاهدة ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م)، ثم عاد البريطانيون وسيطروا على تلك الجهات، وعُقدت معاهدة (سانت ماري) بين الطرفين عام ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) حيث وضعت بريطانيا يدها على غامبيا، وأعقبها معاهدة عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) إذ عادت منطقة السنغال إلى فرنسا، ولكن بقي الخلاف بين الدولتين على الحدود بين السنغال وبين المراكز البريطانية القائمة عند مصب نهر غامبيا، واستمر الخلاف حتى كانت إتفاقات غربي إفريقية الدولية عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) والتي حددت مصير غامبيا، ولكنها عادت وانفصلت، وأصبحت مستعمرةً بريطانية تتبع سيراليون.

وعقدت معاهدة بين الدولتين الاستعماريتين فرنسا وإنكلترا عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤ م) حيث انتهى النزاع، فتنازل البريطانيون لفرنسا عن جزيرة

(غورية)، وتنازل الفرنسيون للبريطانيين عن منطقةٍ واسعةٍ على جانبي نهر غامبيا، وبذلك وجدت دولة غامبيا، وتحدّدت حدودها نهائياً.

وفي ربيع الثاني ١٣٠٦هـ (كانون الأول ١٨٨٨م) عادت غامبيا مستعمرةً منفصلةً، وتركت تبعيتها لسيراليون إذ عملت انكلترا على توسعة حدودها لتكون منها دولةً، وتمّ الاتفاق على الحدود الحالية عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م). وأخذت انكلترا تتفق مع شيوخ القبائل، وكان آخر تلك الاتفاقات مع (موسى مللو) شيخ الفولانيين عام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م).

وألغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) وكأنه فُرط عقد الدول الإسلامية، وكانت بريطانيا خلال هذه المدة تُطبّق سياستها الاستعمارية المعروفة.

لم تحدث حركات في غامبيا لصغر رقعة هذه المستعمرة، وقلة عدد سكانها، وضعف الأهالي، والحالة الاجتماعية التي يُعانوها من الفقر والجهل حيث كان همهم تأمين حياتهم المعاشية قبل كل شيء، وكانوا يجدّون ولا يحصلون على جزء منها، هذا إضافةً إلى الخوف إذ كان السيف مصلتاً عليهم، والضغط عليهم يحيق بهم من كل جانب، والرحمة غير معروفة حيث كان الحقد الصليبي يدوس عليها، ويخفيها متكبراً متغطرساً.

الفصل الأول

غامبيا من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

استمرّت بريطانيا في تطبيق سياستها الاستعمارية في غامبيا بعد إلغاء الخلافة. وفي الحرب العالمية الثانية جنّدت الدولة الاستعمارية سكان غامبيا للقتال مع الحلفاء. وبعد الحرب، وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) وضع دستور لغامبيا، ونصّ على مبدأ الانتخاب.

تأسّست الأحزاب السياسية بعد عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م)، ولم يلبث أن وضع دستور جديد في عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م).

استحدث منصب رئيس مجلس الوزراء أواخر عام ١٣٨١ هـ، واقتضى هذا تعديل الدستور، فعُدّل في ذي القعدة ١٣٨١ هـ (نيسان ١٩٦٢ م).

جرت الانتخابات بعد العيد الأضحى عام ١٣٨١ هـ (أيار ١٩٦٢ م)، وفاز حزب الشعب التقدّمي، وتولى رئيسه داود كيرايا غاوارا منصب رئيس الوزراء في مطلع عام ١٣٨٢ هـ (حزيران ١٩٦٢ م).

وحصلت غامبيا على الاستقلال الذاتي في جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ (تشرين الأول ١٩٦٣ م).

وأصبحت غامبيا دولة مستقلة ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) في ١٧ شوال ١٣٨٤ هـ (١٨ شباط ١٩٦٥ م) وبقي داود غاوارا رئيساً للوزراء.

وكانت بريطانيا هي التي تقوم بهذه التعديلات أو حسب توجيهها، لضعف الإمكانات، والارتباط الغامبي بها.

الفصل الثاني

الاستقلال

أصبح الحكم في غامبيا جمهورياً في ١٨ محرم ١٣٩٠ هـ (٢٤ نيسان ١٩٧٠ م)، وتولى منصب الرئاسة داود غاوارا، وأعيد انتخابه عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)، وبعد خمس سنوات أخرى في ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ (نيسان ١٩٧٧ م) نتيجة فوز حزبه (حزب الشعب التقدمي) في الانتخابات التشريعية التي جرت في ذلك العام، وقد حصل على ٢٩ مقعداً من أصل ٣٥ مقعداً، بينما حصل حزب الميثاق الوطني على خمسة مقاعد، وأما الحزب المتحد فقد حصل على مقعدٍ واحدٍ.

وفي شوال ١٣٩٨ هـ (أيلول ١٩٧٨ م) ترك عضو الحزب المتحد في المجلس الوطني حزبه، وانضم أيضاً إلى حزب الشعب التقدمي الحزب الحاكم.

وفي السادس من ذي الحجة ١٤٠٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨١ م) اضطرت الحكومة أن تطلب من السنغال أن تُرسل إليها قوات لمساعدتها في حفظ الأمن الداخلي. بموجب اتفاقية الدفاع المشترك بينهما.

وفي شعبان ١٤٠١ هـ (حزيران ١٩٨١ م) وأثناء غياب الرئيس داود غاوارا قامت حركة انقلاب، وشكّل الانقلابيون مجلس الثورة الوطني الذي ضمّ اثني عشر رجلاً، وتسلّم رئاسة الدولة (كاكوي سامبا سانيانغ)، ودعمت القوات السنغالية التي اجتازت الحدود الحكومة، وقهرت حركة الانقلاب، وتمّ اعتقال أكثر من عشرة آلاف شخص، وقُدّم المعتقلون إلى المحكمة

التي قضت بـالحكم بالإعـدام على أكثر من ستين رجـلاً، غير أن هـذه الأحكـام قد استبـدلت عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) بـالسجن مدى الحيـاة. وكذلك فإن حالة الطوارىء قد بقيت سارية المفعول مـا يقرب من أربـع سنـوات حيث لم تـرفـع إلا في جمادى الأولى عــام ١٤٠٥ هـ (شبـاط ١٩٨٥ م).

وأُجريت إنتخابات الرئاسة بالتصويت الشعبي المباشر لأول مرةٍ في تاريخ غامبيا في رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م) حيث أعيد انتخاب داود غاوارا رئيساً، وقد حصل على ٧٢٪ من مجموع الأصوات، وحصل شريف مصطفى ديبا على ٢٨٪ من الأصوات مع أنـه كان رهن الاعتقـال بتهمة التورط في محاولة الانقلاب التي تمت قبل عشرة أشهر. وفي الانتخابات التشريعية التي تمت في وقتٍ واحدٍ مع انتخابات الرئاسة فقد حصل حزب الشعب التقدمي على ٢٧ مقعداً من أصـل ٣٥ مقعداً التي عـدد مقاعـد المجلس الوطني، وبهذا فقد تراجع حزب الشعب التقدمي عما كان عليه قبل خمس سنوات في الانتخابات التشريعية إذ فاز وقتها بتسعـة وعشرين مقعداً لذا فكر بعد الانتخابات باستعادة مكانته بين الشعب بإدخال عددٍ من الشباب والمعروفين بالإصلاح بالوزارة، ولكن حدث ما لم يكن يتوقّع إذ قدّم وزيـر العدل استقـالته في شـوال ١٤٠٤ هـ (تموز ١٩٨٤ م) بحجـة سوء التصّـرف والأداء المالي، وأعقبـه إقالـة وزيـر الاقتصـاد في ربيـع الثـاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) بتهمة سوء استخدام السلطة، وشاعت أخبار كثيرة بعدها عن الفساد، وكانت تقوم الحكومة بتوقيف كبار الموظفين أو فصلهم من منــاصبهم في جمـادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كــانــون الأول ١٩٨٨ م).

وفي الانتخابات التشريعية والرئاسية التي جرت في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) حصل حزب الشعب التقدمي على ٣١ مقعداً من أصل ٣٥ مقعداً بالانتخاب المباشر لمجلس النواب، وحصل حزب الميثـاق الوطني على المقاعد الأربعة الباقية. أما حزب الشعب الغامبي، ومنظمة الشعب

الديمقراطية للإستقلال والاشتراكيـة فلم يفوزا بـأي مقعد. أمـا انتخابـات الرئاسة فقد أعيد انتخاب داود غاوارا الذي حصل على ٥٩٪ من مجموع الأصوات، على حين حصل شريف مصطفى ديبا على ٢٧٪، وكانت قد تمت تبرئته من الاشتراك في محاولة الانقلاب، وأطلق سراحه في شعبان عام ١٤٠٢ هـ (حزيران ١٩٨٢ م)، وحصل رئيس حـزب الشعب الغامبي (حسّان موسى) الذي كان نائباً لرئيس الجمهورية في السابق على ١٤٪ من مجموع الأصوات.

وفي جمـادى الأول ١٤٠٨ هـ (كانـون الثاني ١٩٨٨ م) تمّ اعتقـال عشرة أشخاص بينهم ستة من السنغال بعد اكتشاف مؤامرة لتدبير انقلاب. وقُدّم كل من: موسى سانح، وأحمدو بـاجي، وأدريان سـامبو، وعثمـان سانح، وكان أحمدو بـاجي وأدريان سـامبو عضـوين في حركـة انفصاليـةٍ سنغاليةٍ، وأثنـاء المحاكمـة في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسـان ١٩٨٨ م) ادّعى عثمان سانح أن وثائق سفرٍ مـزورةٍ قد منحت لمواطنين من غامبيا وآخرين من السنغال لتلقي التدريب العسكـري في الخارج. وكشف الشهـود عن تورط كل من (كاكوي سامبا سانيانـغ) قائـد حركـة الانقلاب في شعبـان ١٤٠١ هـ (حزيران ١٩٨١ م)، والمقيم في ليبيا، و (عبدالله وادي) رئيس المعارضة السنغالية في هذه الحركة. وحكم فيما بعد على (موسى سانح) و (أحمدو باجي)، و (عثمان سانح) بالسجن مع الأشغال الشاقة مدداً تتراوح بين (٩ - ٣٠) سنـة، في حين برئت سـاحة (أدريـان سـامبـو)، ورفضت المحكمة طلب الاستئناف الذي تقدم به الذين أدانتهم المحكمة في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م).

وفي رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) أُحيل وزير الماليـة والتجارة (شريف سيدولاسيس) على التقاعد بسبب اعتلال صحته، وهذا ما أدّى إلى إعادة توزيع الحقائب الوزارية فتسلّم وزارة المالية مكانه وزير الزراعة (سيهو سباللي) الذي اتهم سابقاً أنه من عناصر الفساد.

وفي جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) صدر العفو عن أربعةٍ من الذين أدينوا باشتراكهم في محاولة الانقلاب ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م)، كما شمل العفو خمسة آخرين من المجرمين.

الاتحاد مع السنغال:

في شوال ١٤٠١ هـ (آب ١٩٨١ م) أُعلن عن خطة للاتحاد مع السنغال بدولةٍ واحدةٍ تدعى «سنغامبيا»، وقد صادق مجلس النواب الغامبي على هذا الاتحاد في صفر ١٤٠٢ هـ (كانون الأول عام ١٩٨١ م)، وأصبح الاتحاد قائماً في ٧ ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ (الأول من شباط ١٩٨٢ م). وتشكّل مجلس الوزراء الاتحادي برئاسة الرئيس السنغالي (عبده ضيوف) ونائبه الرئيس الغامبي في مطلع عام ١٤٠٣ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٢ م) وعقد جلسته الافتتاحية في ربيع الأول ١٤٠٣ هـ (كانون الثاني ١٩٨٣ م).

وتشكّل المجلس النيابي الاتحادي أيضاً، والمؤلف من ستين عضواً، وأدّت الاجتماعات المتلاحقة إلى اتفاق بشأن تنسيق السياسة الخارجية، والدفاع، والأمن، والمواصلات. ولكن السلطات السنغالية كانت تنتقد الرئيس الغامبي داود غاوارا لتباطئه في العمل إلى الاتحاد الجاد بغية تقليل النفقات على غامبيا.

وفي مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م) أعلن الرئيس السنغالي عبده ضيوف أن القوات السنغالية سوف تنسحب من غامبيا. وقد اتخذ الرئيس السنغالي هذا القرار اعتراضاً على طلب الرئيس الغامبي إعطاء غامبيا سلطات أكبر في الاتحاد. وفي الشهر ذاته أعلن الرئيس السنغالي أنه بالنظر إلى رفض غامبيا السير قدماً نحو التكامل السياسي والاقتصادي مع السنغال فإنه يجب تعليق مهمات الاتحاد الاسمي، وأن يسعى البلدان إلى إقامة اتفاقات تعاون بينهما تكون ممكنة التحقيق. وتمّ حل الاتحاد في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م)، وتلا ذلك تدهور العلاقات بين البلدين. وذُكر

أن السلطات السنغالية قد فرضت قيوداً تتعلّق بالرسوم الجمركية والسفر تتعارض مع مصالح غامبيا، كما منعت نقل بعض البضائع السنغالية الضرورية لغامبيا في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م).

ثم عقدت لقاءات في السنغال بين الرئيسين السنغالي والغامبي لتحسين العلاقات بين بلديهما.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة غامبيا ١١,٣٠٠ كيلو متراً مربعاً، تشرف على المحيط الأطلسي، ويبلغ طول ساحلها ثمانين كيلو متراً، وتحيط بها السنغال من الجهات الثلاثة الأخرى بطول للحدود، ويبلغ ٧٤٠ كيلو متراً، فهي أشبه بوتدٍ داخل السنغال على مجرى نهر غامبيا.

ويبلغ عدد سكانها ثمانمائة ألف، فتزيد بذلك الكثافة على سبعين شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، ويبلغ معدل زيادة السكان سنوياً ٢,٥٪.

واللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية هذا بالإضافة إلى اللغات المحلية، وهي لغة القبائل الكبرى، كالماندينغ، والفولاني، والولوف.

الصراع الإقليمي:

غامبيا منطقة صغيرة، ولا تتباين فيها التضاريس لتتنوع فيها الأقاليم، وإنما هي سهول تمتّد على طرفي نهر غامبيا الذي ينبع من كتلة (فوتاجالون) في غينيا، ويتجه شمالاً، فيدخل أرض السنغال، ويتابع مجراه نحو الشمال والشمال الغربي قليلاً، وتأتيه الروافد، ثم يتجه غرباً حيث تبدأ حدود غامبيا، ويجري مسافة ١٧٥ كيلو متراً، ويصب في خليجٍ واسعٍ يتعمق في أراضي غامبيا مسافة مائةٍ وخمسةٍ وعشرين كيلو متراً، وتقع في نهاية العاصمة (بانغول) (باثورست سابقاً).

الصراع العنصري:

تعيش عدة قبائل في غامبيا، وأكبرها:

الماندينغ: ويشكل أفرادها ٥٢٪ من مجموع السكان، منهم ١٠٪ من قبيلة الديولا التي هي فرع كبير من قبائل الماندينغ.

الفولاني: ويشكل أفرادها ١٨ ٪ من مجموع السكان.
الولوف: ويشكل أفرادها ١٦ ٪ من مجموع السكان.
قبائل أخرى: ويشكل أفرادها ١٣ ٪ من مجموع السكان.
أجانب: ويشكل أفرادها ١٪ من مجموع السكان.
١٠٠ ٪

قبل وصول المستعمرين الصليبيين كان الصراع كبيراً بين تلك القبائل، فلما جاء الدخلاء اتجه الصراع إلى معاداة المستعمرين. فكان السكان في طرفٍ والمستعمرون والذين تأثّروا بهم في طرفٍ آخر، حتى حصلت البلاد على الاستقلال. وانقلب الصراع إلى فكري.

الصراع العقيدي:

لم يكن صراعاً عقيدياً لأن المسلمين هم معظم السكان، ولم يكن يُؤبه بالوثنيين مع أنهم لا يزيدون على ٩ ٪ من مجموع السكان إضافة إلى انعزالهم على أنفسهم، وتقوقعهم، وعدم وجود حضارةٍ لهم، وعدم وجود أهدافٍ مستقبليةٍ لهم، وإنما همهم تأمين حياتهم بالحصول على الرزق والجنس، وهذا ما كان يُسبّب صراعاً فيما بينهم.

فلما جاء المستعمرون الصليبيون ووضعوا نصب أعينهم الضغط على المسلمين، والعمل على الخلاص منهم بالإبادة أو الطرد أو التنصير، كما رسموا لهم سياسة تنصير الوثنيين عندما عجزوا عن تنصير المسلمين، والإفادة ممن ينصرونهم، ومن الوثنيين لمقاومة المسلمين، وقد نجحوا في مهمتهم نسبياً مع الوثنيين عندها بدأ الصراع بين النصارى المستعمرين،

والمتنصّرين الجدد، وبعض الوثنيين، والمتفرنجين من السكان عامة في طرفٍ والسكان المسلمين الملتزمين في طرفٍ آخر.

ويُشكّل المسلمون اليوم	٩٠ ٪	من مجموع السكان.
ويشكل النصارى	٩ ٪	من مجموع السكان.
ولا يزال من الوثنيين	١ ٪	من مجموع السكان.
	١٠٠ ٪	

ولما كانت السيطرة للنصارى حيث مكّن لهم المستعمرون قبل انسحابهم، ولا يزالون يُؤيّدونهم، ويدعمونهم، ويمدّونهم بكل الإمكانات، والنصارى يتّخذون الوسائل كافةً في كسب ضعاف النفوس من المسلمين إليهم بتأمين المصالح، والإغراء بالمنصب، والإغواء بالجنس، والإرساليات التنصيرية ترفدهم بعملها. ويعمل النصارى جهدهم لإذلال المسلمين ببثّ الشائعات ضدهم وتسميتهم بالرجعيين، والإرهابيين، والأصوليين والمتخلفين في سبيل إضعافهم نفسياً، وفي الوقت نفسه يعملون على إفقارهم بإبعادهم عن الوظائف وعدم إقامة المشروعات الحيوية في سبيل سعيهم وراء من بيدهم المال والسلطة ظاهرياً، ومن وقع وصل، ولذا نجد أصحاب المصالح من هؤلاء لم تتركهم ما داموا متفرنجين، ولم يتركوها ما داموا يسعون وراء مصالحهم وأهوائهم.

الصراع الحزبي:

تتعدد الأحزاب في غامبيا حيث نجد:

١ ـ حزب الشعب التقدمي: وهو الحزب الحاكم، ويرأسه رئيس الدولة داود غاوارا.

٢ ـ حزب الميثاق الوطني: أقوى أحزاب المعارضة، ويرأسه شريف مصطفى ديبا.

٣ ـ حزب الشعب الغامبي: من أحزاب المعارضة ويرأسه حسان موسى.

٤ ـ منظمة الشعب الديمقراطية للاستقلال والاشتراكية: من أحزاب المعارضة.

٥ ـ الحزب المتحد: من أحزاب المعارضة.

وهذه الأحزاب ذات أهدافٍ واحدةٍ، وهي استلام السلطة والاستئثار بالحكم، لذا فهي ليست ذات منهج أو مبدأ واضحٍ، فهي غير متباينةٍ. وما دام الحزب الحاكم يُؤدّي دوره، ولا يُبدي أي محاولة للخروج عن الفلك الذي يجري فيه فهو مُؤيّد ومدعوم، ويستطيع أن يكسب الشعب إلى صفّه بما يُقدّم لهم من خدماتٍ، وما يُهيء من وظائف لطلاّبها، وسيبقى بالحكم ما دام على هذا، والأحزاب الأخرى ليست سوى مُهدّدةٍ له لئلا يُغيّر من سيره.

والحزب الحاكم لا يزال بالسلطة منذ عام ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م) أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وهذا شأن الأحزاب الحاكمة في البلدان المتخلّفة ما دامت تسير في خطٍ يرضى عنه السادة من الدول الكبرى التي اتخذت ما أسمته النظام العالمي أو الشراكة لتكون كشرطي مرورٍ للدول التي تُريد أن تخرج عن رأيها، ولتُطبّق الصليبية التي تعمل لها منذ عهدٍ طويلٍ، وقد تمكّنت الآن فيجب أن تصبّ غضبها على المسلمين كمنظماتٍ وحركاتٍ أولاً، ثم على الذين يخرجون عن رأيها، وتعمل على إبادتهم تماماً، وأخيراً على الذين ينتمون إلى الإسلام ولو انتماءً، ويرفضون التخلّي عن دينهم، وقبول النصرانية عقيدةً. والمخطط سيكون كالمخطط الاستعماري يبدأ من الهامش ليصل إلى القلب.

ولا يظنّ غير الملتزمين أنهم في منأى، بعيدين عن عجلات السحق، فإن الدور آتيهم ما داموا ينتمون إلى الإسلام، وإذا ابتعدت الرحى الآن، فإن المرحلة القادمة ستنالهم إلا أن نُغيّر ما في نفوسنا، ونرجع إلى ديننا، ونستعين بالله .

الباب الثالث

غينيا - بيساو

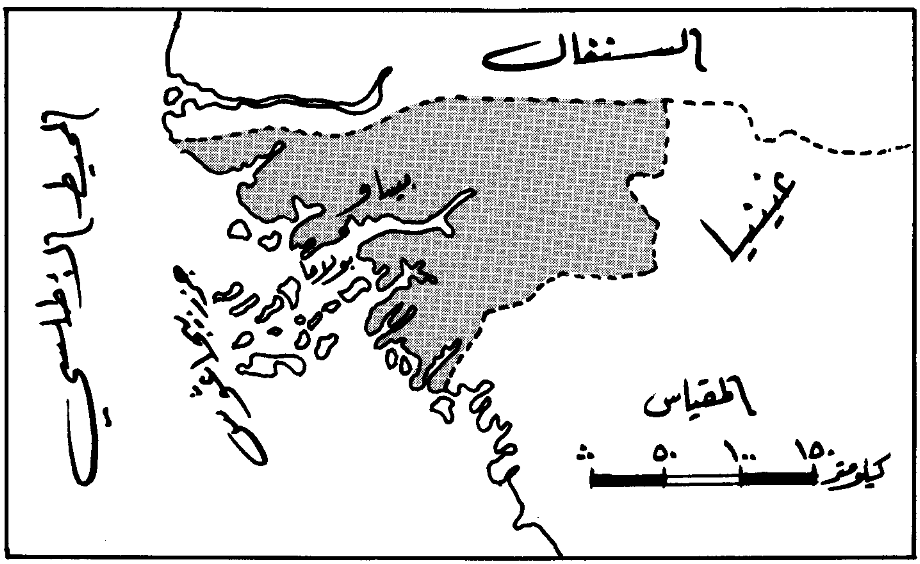

مصور رقم [٣]

لمحة عن غينيا ـ بيساو قبل إلغاء الخلافة

وصل إلى سواحل غينيا ـ بيساو اليوم البحار البرتغالي (نونو تريستاو) عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) أي قبل سقوط الأندلس بأيدي النصارى الإسبان والبرتغاليين بسبعٍ وأربعين سنة.

ونشأت المراكز البرتغالية على الساحل حيث لم تكن القبائل الإسلامية لتُقيم في تلك الجهات، وإنما كانت ديارها في الداخل، وهذا ما مكّن لهذه المراكز أن تتوسّع، ثم أخذ البرتغاليون يتسلّلون نحو الداخل وخاصةً بعد سقوط الأندلس عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) حيث ارتفعت معنوياتهم، وقوي أمرهم، وكانوا يعتمدون في تسلّلهم على السلاح، وإن لم يُفدهم فعلى الخبث والمكر، وسذاجة رجال القبائل. وكلما تقدّموا في بقعةٍ حصّنوا فيها مواقعهم، وعزّزوا قواتهم، حتى توغّلوا قليلاً في الداخل.

وأصبحت أرض غينيا ـ بيساو مستعمرةً برتغاليةً عام ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م). وجرت خلافات بين فرنسا في السنغال وغينيا، وبين البرتغاليين في غينيا ـ بيساو على الحدود في مستعمراتهم، وانتهت بالتسوية في اتفاقية ٩ شعبان ١٣٠٣ هـ (١٢ أيار ١٨٨٦ م)حيث وضعت الحدود التي لا تزال قائمةً بين هذه البلدان إلى الآن.

انتشر الإسلام في أرض غينيا ـ بيساو على نطاقٍ واسعٍ منذ القرن الخامس الهجري، وقد أقام المرابطون أكثر من رباطٍ على أرض هذا الجزء من غربي إفريقية، كما أن قبائل الفولاني والماندينغ قد دانت بالإسلام،

وهي تُشكّل ما يقرب من نصف سكان هذه الرقعة.

ولما جاء المستعمرون الصليبيون وتسلّلوا إلى الداخل، وتمكّنوا في مواقعهم شعرت القبائل المسلمة بخطر هؤلاء الدخلاء، وأحسّت بأنهم جسم غريب في مظاهر حياتهم، وأسلوبهم، وجشعهم بالتوسّع، والحقد الذي يغلي في صدورهم، وإن لم يكن المسلمون يعلمون ما يدور خارج محيطهم، وأيقنت العشائر المسلمة أن هؤلاء الغرباء أشدّ خطراً من الوثنيين المعزولين في مواقعهم، والذين ليس لهم أهدافٍ سوى ما يُؤمّنون به حياتهم وشهواتهم، وفي الوقت نفسه لا يملكون شيئاً خطيراً من المقاومة، وأخذت روح المقاومة تظهر، وبدأ النزاع يبرز، وكان الاحتكاك والقتال بين الطرفين، الدخلاء بأسلحتهم الحديثة يومذاك، وجنودهم من البرتغاليين، والمرتزقة، والوثنيين الأفارقة من جهةٍ، والعشائر المسلمة الضعيفة من جهة أخرى.

وكان البرتغاليون كلما أحسّوا من عشيرةٍ روح المقاومة أُخرجت من أرضها، وحلّ محلّها جماعة أخرى نصرانية أو وثنية جيء بها من المستعمرات المجاورة في سبيل تغيير المجتمع، وإضعاف نسبة المسلمين، وزيادة عدد المؤيّدين، وبدأ البرتغاليون الصليبيون تنفيذ سياستهم هذه منذ القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، واستمرّوا في اتباع هذه السياسة حتى العصر الحديث.

الفصل الأول

غينيا ـ بيساو

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال
٢٧ رجب ١٣٤٢ ـ ٢٨ شعبان ١٣٩٤هـ.
٣ آذار ١٩٢٤ ـ ١٠ أيلول ١٩٧٤م.

استمرّت البرتغال في اتباع سياسةٍ استعماريةٍ تعسُّفيةٍ حاقدةٍ ليس في غينيا ـ بيساو بل في كل مستعمراتها وخاصةً بالنسبة إلى المسلمين، وأكثر ما كانت هذه السياسة جائرة في عهد الطاغية سالازار الذي تولّى حكم البرتغال عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م)، وبقي في السلطة حتى هلك عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) بعد أن أقعده المرض مدة عامين، وقد حكم بلاده بالحديد والنار، وإذا كان هذا شأنه في بلاده فكيف هو في مستعمراته، وهو المشحون بالحقد، لقد أراد هذا الطاغية أن يحول بين سكان مستعمراته وبين العالم الخارجي، ويقطع بينهما كل صلةٍ، ويمنع وصول أي خبرٍ إلى أولئك القابعين في سجونهم الواسعة من المستعمرات البرتغالية، فمنع وصول المذياع إلى أيدي أولئك البائسين، وإذا قُبض على مذياعٍ مع أحدٍ من المسلمين في تلك المستعمرات فُرضت عقوبة قاسية في حقّ صاحبه، وصودر الجهاز.

وكان يحكم غينيا ـ بيساو، وكل مستعمرةٍ برتغاليةٍ حاكم عسكري له الصلاحيات كافةً في إجراء ما يراه ضرورياً، واتخاذ ما يشاء من عقوبات، والتصرّف كما يريد بالأهالي والأملاك.

وفي عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)أصبحت مدينة (بيساو) عـاصمة هـذا الجزء من غربي إفريقية.

وفي ٧ رمضان ١٣٧٠ هـ (١١ حزيران ١٩٥١ م) صدر قـانون رقم ٢٠٤٨ تغيّر بموجبه اسم المستعمرات البرتغالية إلى مايُسمّى (الأراضي عبر البحار)، وكل أرض لها حاكم عام، وتتمتع باستقلالٍ ذاتيٍ في الشؤون الإدارية والمالية، وتخضع ميزانيتها لاعتماد وزير الأراضي عبر البحار، ولا يسمح لها بأخذ قروضٍ أجنبيةٍ.

وفي ٢٦ ربيع الأول ١٣٨١ هـ (٦ أيلول ١٩٦١ م) مُنح سكان غينيا ـ بيساو مع سكان المستعمرات البـرتغاليـة كافـةً الجنسية البـرتغاليـة كاملةً، ويتمتعون بالمكانة نفسها التي يتمتع به الهنود البرتغاليون وغيرهم. غير أن ذلك بقي نظرياً، وربما في الشؤون الخارجية وبعض الشؤون الورقية أما الـواقع فقـد بقي السيف مصلتاً فـوق سكـان غينيـا ـ بيسـاو وغيـرهـم من سكـان المستعمرات البرتغالية الأمـر الذي حـرّك روح المقاومـة في العام التـالي (١٣٨٢ هـ) إذ شعر السكان أن هذا القرار لم يكن سوى ذر رمادٍ من أيدي المستعمرين الصليبيين في عيون سكان المستعمرات، وقامت الحركات في وجه المستعمرين، ولكنها قُمعت بشدةٍ من قبـل الحاكم العـام «سالازار» الذي تولى حكم المنطقة منذ عام ١٣٥٠ هـ حتى تـوفي عام ١٣٨٩ هـ، وخلفه «سبيبولا».

وفي ١٥ رجب ١٣٨٢ هـ (١١ كانون الأول ١٩٦٢ م) اتخذت لجنة الـوصايـة الدوليـة قراراً تُـطالب فيـه البـرتغـال بـالاعتـراف الفـوري بحق المستعمرات البرتغالية بالحكم الذاتي.

وفي ١٩ رجب ١٣٨٢ هـ (١٥ كانون الأول ١٩٦٢ م) أصدرت الأمم المتحدة قراراً تلوم فيه سياسة البرتغـال التعسُّفية في غينيـا ـ بيساو وبقيـة مستعمراتها.

وفي ١٦ شعبان ١٣٨٣ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٦٤ م) أُلغيت الرسوم الجمركية كافةً بين البرتغال والأراضي عبر البحار، كإعطاء صورةٍ على أن هذه المستعمرات جزء لا يتجزأ من أراضي البرتغال.

وفي ٥ ربيع الأول ١٣٩٢ هـ (١٨ نيسان ١٩٧٢ م) اعترفت لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة بالحزب الإفريقي الذي يطالب باستقلال غينيا ـ بيساو، وجزر الرأس الأخضر عن السيطرة البرتغالية. وتمكّن الحزب في هذا العام من الحصول على ثلثي إدارة الدولة.

وفي عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) جرت الانتخابات لتشكيل مجلس الشعب الوطني، وحصلت غينيا ـ بيساو في ٢٧ شعبان ١٣٩٣ هـ (٢٤ أيلول ١٩٧٣ م) على الاستقلال الذاتي، وتسلم لويس كابرال رئاسة مجلس الدولة.

وقع الصدام بين السكان الوطنيين وبين البرتغاليين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً، وأصيبوا بخسائر فادحةٍ، وهذا ما أجبر الحكومة البرتغالية على الانسحاب من غينيا ـ بيساو، وعدّتها دولةً مستقلةً بدءاً من ٢٣ شعبان ١٣٩٤ هـ (١٠ أيلول ١٩٧٤ م).

الفصل الثاني

الاستقلال

٢٣ شعبان ١٣٩٤ ـ ....

١٠ أيلول ١٩٧٤ ـ ....

بعد أن نالت غينيا ـ بيساو استقلالها، جرت الانتخابات في ذي الحجة ١٣٩٦ هـ ومحرم ١٣٩٧ هـ (كانون الأول ١٩٧٦ م وكانون الثاني ١٩٧٧ م) حيث صوّت الناخبون في مجالس الأقاليم المحلية على مجلس الشعب الوطني الذي سبق له أن انتخب.

وفي عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) توفي الرئيس السابق فرانسيكو منديز الذي كان على رأس الدولة منذ عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م)، وتولّى مكانه مؤقتاً (جوا فييرا) رئيس القوات المسلحة ورئيس مجلس الشعب الوطني.

وحتى عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) كان الحزب الإفريقي لتحرير غينيا وجزر الرأس الأخضر يُشرف على غينيا ـ بيساو وجزر الرأس الأخضر، غير أنه بعد ذلك قد انفصل إلى فرعين من الناحية الدستورية، ولكنهما بقيا متحدين بشكلٍ ضمنيٍ وشعبيٍ.

وأقرّت الحكومة الدستور الجديد في ٣ محرم ١٤٠١ هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٨٠ م) وانتخب لويس كابرال رئيساً للدولة غير أنه بعد أربعة أيامٍ فقط أطاح الجيش بمجلس رئاسة الدولة ولويس كابرال، وحُلّ مجلس الشعب الوطني، وغدا (جوا فييرا) رئيساً لمجلس الثورة، واعتقل لويس كابرال.

وفي اجتماع للحزب عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) تقرر أن يكون الحزب

الإفريقي لتحرير غينيا هو الحزب الوحيد في البلاد، ولا يُسمح بحزبٍ آخر، وأن يكون جوا فييرا أميناً عاماً للحزب.

وعلى الرغم من انسحاب جزر الرأس الأخضر من الحزب، وانقطاع العلاقات السياسية بين البلدين بعد الحركة الأخيرة، لكن عادت الأمور إلى حالتها الطبيعية بعد إطلاق سراح الرئيس السابق لويس كابرال عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م)، وفي الوقت نفسه عُيِّن (فيتور سعود ماريا) نائب رئيس مجلس الثورة ووزير الخارجية سابقاً رئيساً لمجلس الوزراء، وكان هذا المنصب قد أُلغي منذ سنتين، كما أن عدداً من الوزراء الذين يحملون أفكاراً يساريةً قد أُبعدوا عن مناصبهم الوزارية أيضاً.

وفي عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) شكل الرئيس جوا فييرا هيئةً برئاسة وزير العدل لمراجعة الدستور، وقانون الانتخابات.

وفي عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) أقال الرئيس جوافييرا رئيس الوزراء فيتور سعود ماريا من منصبه بسبب تجاوزه لصلاحياته بالعمل على تغيير الدستور، والتي كان من المفروض - حسب رأيه - أن تكون بيد الرئيس فقط، وقد تضامن عدد من كبار أعضاء الحزب مع رئيس الوزراء المعزول وتركوا الحزب، وتخلّوا عن مراكزهم التي كانوا يشغلونها. وتسلّم الرئيس جوا فييرا بنفسه رئاسة مجلس الوزراء، وجرت انتخابات مجالس الأقاليم، وأعيد تشكيل مجلس الشعب الوطني، وتمّ اختيار أعضائه من أعضاء مجالس الأقاليم، وأصبح مجلس الثورة مجلساً للدولة، ويضم خمسة عشر عضواً من أعضاء المجلس الوطني. وتسلّم جوا فييرا رئاسة الدولة ورئاسة الحكومة.

وفي أواخر عام ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م) عمل الرئيس جوا فييرا حسب دعواه - على إنهاء الفوضى التي استشرت في البلاد فأقال بعض كبار الموظفين من مناصبهم، وألقى القبض على بعضهم، وأودعهم السجن، وهذا ما أدّى إلى قيام حركةٍ في ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٥ م) بقيادة (كول باول كوريّا) الذي كان يشغل منصب نائب رئيس

مجلس الدولة مع عددٍ من كبار الضباط، غير أن الحركة قد فشلت واعتقل أفرادها، وتعرّضوا لأشد أنواع العذاب، وفي ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) مات ستة منهم في السجن، كما أعدم رئيس الحركة (كول باول كورّيا)، وفي جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) أطلق سراح أربعةٍ منهم بمناسبة اليوم العالمي لحقوق الإنسان، ثم أُفرج في ربيع الثاني من عام ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) عن ثمانيةٍ آخرين، وخُفّف الحكم عمن بقي داخل السجن، وفي منتصف عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م)مُنح الباقون العفو، وعددهم اثنان وعشرون شخصاً.

وفي ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) وسّع الرئيس جوا فييرا مجلس الوزراء، فأصبح يضمّ تسعة عشر وزيراً بعد أن كان خمسة عشر، وأوجد ثلاثة وزراء للأقاليم.

وفي الاجتماع الحزبي الرابع الذي عُقد في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) أُعيد انتخاب الرئيس جوا فييرا أميناً للحزب لمدة أربع سنواتٍ أخرى، ووافق المجتمعون تبنّي سياسة الاقتصاد الحر.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م)عُيّن فاسكو كابرال وزير العدل أميناً عاماً دائماً للجنة المركزية للحزب في محاولةٍ لضمان حصول دعم وموافقة الحزب على حرية الاقتصاد. وحصل تغيير في أعضاء الحكومة إذ عُيّن وزير جديد للعدل ليحلّ محلّ فاسكو كابرال، كما وجد منصب لأمانة سر وزارة العدل، وآخر للخارجية.

وأشيع في رمضان ١٤٠٧ هـ (أيار ١٩٨٧ م) أن عشرين ضابطاً من كبار ضباط الجيش قد اعتقلوا لمخالفتهم لسياسة الرئيس جوا فييرا لكن حكومة غينيا ـ بيساو قد تجاهلت هذا الخبر تماماً مع أن صحف لشبونه عاصمة البرتغال قد أكّدت ذلك، وبعد شهرٍ نفى الرئيس هذه الإشاعة كلياً أثناء زيارته التي قام بها لفرنسا للعلاج.

وفي عـام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) قُتـل وزيـر التخـطيط في حـادثٍ غـامضٍ، وكان هـذا الوزيـر هو الـذي وضع أُسس التنسيق بين غينيـا ـ بيساو والمصرف الدولي، وشغل منصبه بعـده أمين سر الـدولة للشؤون المـالية والتعاون الدولي.

وفي عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) حدث تغيير جزئي في الوزارة، وفي الشهر نفسه أعلن أن الحزب قد شكّل هيئةً وطنيةً لمراجعة الدستور، وتتألف من ستة أعضاء. كما جرت الانتخـابات المحليـة في العام نفسه، وشارك معظم الذين يحق لهم الانتخاب، ونصفهم تقريباً قد شـارك في انتخاب المجلس الوطني الذي يقوم بدوره بانتخاب مجلس الدولة، وأعيد انتخاب الرئيس جوا فييرا رئيساً لمجلس الدولة.

وفي جمادى الآخرة ١٤١١ هـ (كانون الثاني ١٩٩١ م) أعلن الرئيس جوا فييرا عن تشكيل هيئةٍ لمراجعة برنامج الحزب ونظامه استعداداً لعرضه على اجتماع الحزب الخـامس المقرر عقـده في جمادى الأولى ١٤١٢ هـ (تشرين الثاني ١٩٩١ م).

وكانت العلاقات قد توترت مـع البرتغـال عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) عندما دخل ستة من البرتغاليين المياه الإقليمية لغينيا ـ بيساو، وهم في رحلة صيدٍ بحريٍ، فاحتجزت غينيا قواربهم، وعملت البرتغال على الانتقام من غينيا.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة غينيا ـ بيساو ٣٦,١٢٠كيلو متراً مربعاً، وتشمل مجموعة جزر «بيجاغـوس» وجزيـرة «بولامـا». وتشرف على المحيط الأطلسي من ناحية الغرب، ويبلغ طول ساحلها ٣٥٠ كيلو متـراً، وتحدّ المستعمـرات الفـرنسية سـابقاً «السنغـال» و «غينيا» ولا تشتـرك مع حـدود دولٍ أخرى سواهما، ويبلغ طول حدودها البرية ٧٢٤ كيلو متراً، منها: ٣٣٨ كيلو متراً مع السنغال، و ٣٨٦ كيلو متراً مع غينيا.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) ما يزيد على ٩٧٥٠٠٠ إنسان، وبذا تكون الكثافة العامـة هي ٢٧ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

ويتوغّل البحر في البر فيملأ أودية الأنهـار السفلى فتصبح خلجـاناً تتعمّق نحو الداخل، فتصبّ الأنهار في مصباتٍ واسعةٍ هي خلجان كانت بالأصل أودية لتلك الأنهار، فالخلجان من نوع «الرياس» كما هو معروف بالجغرافية.

الصراع العنصري:

تعيش على أرض غينيا ـ بيساو عده قبائل أهمها:

١ ـ البالانت: وتعيش على السهل الساحلي وقرب الشواطىء وفي الجزر، ويشكل عدد أبنائها ٣٠ ٪ من مجموع السكان وتدين بالوثنية، وبعضها

يعتنق النصرانية، وقد جاء أبناء هذه القبائل إلى هذه المنطقة بجهود البرتغاليين ليقلّلوا من نسبة المسلمين، وليستفيدوا من هذه القبائل في الإدارة والدعم.

٢ ـ الفولاني: ويعيشون في الداخل، ويشكلون ٣٠ ٪ أيضاً من مجموع السكان، وهم من المسلمين.

٣ ـ مانجاكا: ويتمركزون في الداخل، ويشكلون ١٤ ٪ من مجموع السكان، وأكثريتهم من المسلمين.

٤ ـ الماندينغ: ويسكنون في الداخل أيضاً، ويشكّلون ١٨ ٪ من مجموع السكان، وهم من المسلمين.

٥ ـ البيل: ويقيمون في الداخل أيضاً، ويشكّلون ٧ ٪ من مجموع السكان، وهم من المسلمين.

ويعيش في غينيا من الأوربيين، وخاصةً من البرتغاليين أقل من عشرة آلاف إنسان أي حوالي ١ ٪ من مجموع السكان، وهم من النصارى.

كان الصراع بين القبائل قوياً في الماضي، فلما جاء المستعمرون الصليبيون توحّدت جهود القبائل ضدّهم، فما كان من البرتغاليين إلا أن جاءوا بقبائل البالانت الوثنية والتي اعتنق بعض بطونها النصرانية، وجعلوها في مواجهة القبائل الإسلامية، وأمدوها، ووقفوا بجانبها، وأسكنوها أخصب الأرض على الساحل ليكون إمدادها سهلاً، فأخذ الصراع شكلاً قبلياً مرةً ثانيةً وإن كان في الحقيقة عقيدياً واستعمارياً، ثم انضمّ إلى جانب البرتغاليين أيضاً أصحاب المصالح والأهواء من المسلمين مع الزمن فقويت الجبهة الاستعمارية الصليبية وتمكّنت من السكان، وطبّقت عليهم سياستها، وإن جلا البرتغاليون عن البلاد إلا أن هذا الصراع لا يزال قائماً بين جبهتين الأولى: إسلامية ضعيفة وتخسر بعض عناصرها باستمرار مع الزمن والثانية تضمّ الجماعات النصرانية والوثنية والعلمانية وتزداد عدداً مع الأيام، وهي قوية بإمكاناتها، وتسلّمها السلطة.

الصراع العقيدي:

تبلغ نسبة المسلمين في غينيا ـ بيساو ٦٠٪، وتعود قلّة هذه النسبة بالنسبة إلى ما جاورها من بلدان مثل: السنغال، ومالي، وغينيا، وغامبيا إلى السياسة البرتغالية التي استقدمت إلى مستعمرتها هذه الكثير من الجماعات الوثنية والنصرانية لإضعاف شأن المسلمين. وللسبب نفسه ارتفعت نسبة الوثنيين إلى ٣٥٪، ونسبة النصارى إلى ٥٪ من مجموع السكان.

ونتيجة كثرة الوثنيين ودعمهم من قبل الإرساليات النصرانية، ومن قبل المستعمرين الصليبيين البرتغاليين الذين بيدهم السلطة، والقوة، والمال أخذ الصراع العقيدي شكلاً عنيفاً، غير أنه لم يكن متكافئاً، وهذا ما جعل المسلمين يخضعون، وكانوا يخسرون قوتهم مع الزمن.

وإذا كان الصراع لم يُعلن عنه، ولم يظهر تحت هذا العنوان إلا أنه في الواقع موجود، ويلمسه كل من يريد أن يتتبع الأحداث، ولم يُخف إلا لعدم إثارة العامة من المسلمين الذين قد يصدقون ما يُذاع، أو يخفى عليهم الواقع، فلو صُرّح به لاتجهوا نحو الالتزام، وتمسّكوا بإسلامهم، وقاتلوا خصومهم.

الصراع الحزبي:

لم تكن البرتغال لتسمح بقيام أي تجمّعٍ سياسي خوفاً من وجود معارضةٍ لسياستها، كما لم تتبنّ قيام أي حزب يجري في فلكها، ويسير في ركابها، ويتلقّى توجيهاتها خوفاً من أن تبرز فيه قيادات تغلب عليها النزعة الوطنية. غير أن هذا لم يحل دون التقاء الناس بعضهم مع بعضٍ وتنظيم أنفسهم سراً، وقد أُطلق على تنظيمهم هذا اسم الحزب الإفريقي لتحرير غينيا وجزر الرأس الأخضر، وما أن عُرف هذا التنظيم حتى انضمّ إليه الكثير من أصحاب الأطماع، وتوقّعوا أن سيكون له دور فيجب أن يكونوا فيه عند قطف الثمار، كما أن البرتغال قد زجّت فيه أعوانها، ولم تمض سوى مدةٍ

وجيزةٍ حتى غدا قادته من المندسّين فيه، ومن رجال السلطة، ومن أهل المصالح، وبرز على الساحة على أنه يعمل لمصلحة البلد، وأنه يسير في اتجاهٍ يتعارض مع اتجاه المستعمرين البرتغاليين، وبذا نال شيئاً من التأييد من العامة.

وفي ٥ ربيع الأول ١٣٩٢ هـ (١٨ نيسان ١٩٧٢ م) اعترفت لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة به، وأصبح الناطق باسم السكان، وآلت إليه السلطة عندما حصلت البلاد على الاستقلال في ٨ رمضان ١٣٩٤ هـ (٢٤ أيلول ١٩٧٣ م)، وبقي هو الحزب الوحيد، واستبدّ، وحال دون وجود تنظيمات سواه منذ عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م)، وإن وُجد بعض الشيوعيين يعملون في الخفاء نتيجة الجريان الكلي في فلك المعسكر الآخر، فكانوا كمعارضةٍ ليحصلوا على التأييد، ويصلوا إلى السلطة.

الباب الرابع

غينيا

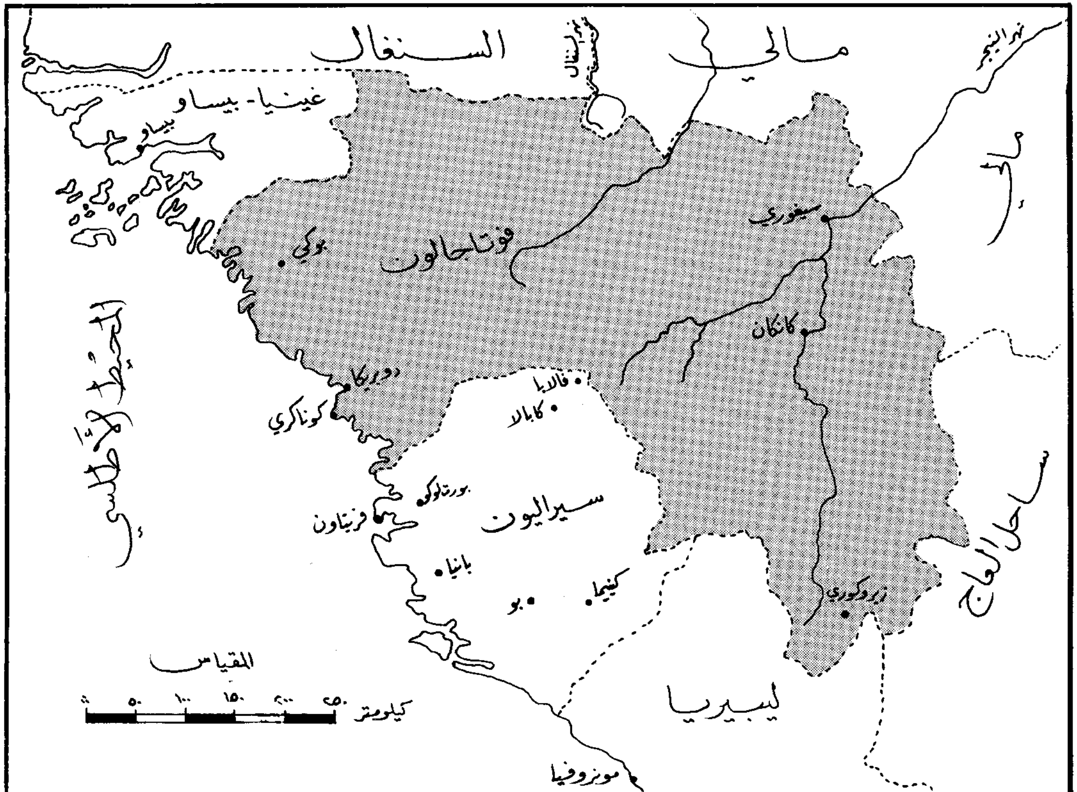
السنغال
مالي
غينيا - بيساو
بيساو
فوتاجالون
بوكي
سيغوري
كانكان
دوبريكا
كوناكري
فالابا
كابالا
فريتاون
سيراليون
كينيما
بو
ساحل العاج
ليبيريا
المحيط الأطلسي
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٤]

لمحة عن غينيا قبل إلغاء الخلافة

بدأ الإسلام ينتشر في منطقة غينيا اليوم منذ أيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري، واستمّر ذلك في عهد الدول التي قامت في بلاد المغرب بعد المرابطين، ومما ساعد على انتشار الإسلام الحياة القبلية فإذا اعتنق زعيم القبيلة الإسلام أخذ أفراد القبيلة في اعتناقه، ويأخذ ذاك الزعيم بغزو القبائل الأخرى والجهاد لنشر الإسلام فإذا ما دخل منطقةً أخذ أبناؤها محاكاته في عقيدته إذ غالباً ما يتأثّر المغلوب بالغالب ويُقلّده في كل شيء، لذا نجد المستشرقين يقولون: كان الدين الإسلامي في إفريقية دين الترفّع والسيادة. وليس اعتناق الإسلام هنا الإلتزام به كلياً بل كثيراً ما كانت تبقى بعض الشوائب عالقةً به عند بعض القبائل.

وشجّع الأفراد على الدخول في الإسلام التخلّص من الزعماء الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، ويُعاملونهم معاملة السوائم، فالإسلام يحرّرهم من التفرقة، ويُبعدهم عن التسلّط، فانطلق الأفراد يبحثون عن حرياتهم، ويُفتّشون عن مصالحهم، واقتنعوا أن الإسلام إنما جاء ليرعى البائسين، ويُنقذ المظلومين، فأقبلوا نحوه، والإسلام دين الفطرة.

وكان للتجارة دورها، وللدعاة أثرهم، وللطرق مجالهم في ذلك الوسط الفطري البسيط. كل ذلك جعل الإسلام يسود منطقة غينيا اللهم إلا إذا استثنينا جهات الغابات حيث بقي سكانها في عزلتهم، وعلى حياتهم الوثنية، يعبدون قوى الطبيعة المختلفة.

وجاء المستعمرون الصليبيون، وأسّسوا لهم مراكز على السواحل، وفي منتصف القرن الثالث عشر الهجري (منتصف القرن التاسع عشر الميلادي) أخذ المستعمرون الصليبيون يتوغّلون نحو الداخل عندما أيقنوا بقوتهم، وعرفوا ضعف القبائل في الداخل، وخلافها فيما بينها.

بدأ نفوذ فرنسا في غينيا عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) إذ وجدت حجةً للتوغّل في الداخل، وهي اختلافها مع أحد أمراء القبائل حول تجارة الرقيق فاحتلّت مدينة «بوكي». وفي عام ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) أرادت أن تحول بين بريطانيا وبين ربط منطقة غامبيا بمنطقة سيراليون باحتلال جهات غينيا لذا أسرعت فرنسا، واحتلّت مدينة «دوبريكا» وما حولها لتقطع على بريطانيا الطريق.

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) عُقد مؤتمر برلين، ونتيجته استقلت فرنسا بأنحاء غينيا، وأخذت تتوسّع بجهات غينيا كلها، واحتلّت جزيرة «تومبو» التي تقع عليها عاصمة البلاد الحالية «كوناكري» عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م)، وبعد عامين أصبحت غينيا تقريباً بحدودها الحالية، وعُرفت باسم «غينيا الفرنسية».

وفي هذه الأثناء ظهر ساموري توري ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م)، وأخذ يعمل على جمع القبائل من الماندينغ، وخلال عشرين سنةً ١٢٨٧ - ١٣٠٧ هـ(١٨٧٠ - ١٨٩٠ م) استطاع أن يبسط نفوذه عليهم، وأراد توحيد غربي إفريقية غير أنه اصطدم بالفرنسيين الذين يتوغلون نحو الداخل فتصّدى لهم، وتمكّنوا من الانتصار عليه، واحتلّوا مدينتي «سيغو» و «تومبوكتو» عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م)، فانتقل إلى أعالي نهر الفولتا، واستمرّ بالمقاومة حتى قبض عليه الفرنسيون عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) في شمال ساحل العاج، ونفوه إلى الغابون، حيث بقي هناك حتى توفي عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م).

أخذت فرنسا تحكم البلاد مباشرةً عن طريق رؤساء القبائل المحليين.

وفي عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) قامت ثورة بزعامة سيكوتوري (غير الرئيس الغيني الذي حكم فيما بعد) ولكن فرنسا استطاعت القضاء عليه وعلى حركته في ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)، وإذا كان قد ذهب زعيم غير أنه توالى زعماء قادوا شعبهم ضدّ المستعمرين الصليبيين.

واندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) فساقت فرنسا أبناء غينيا مع من ساقته من أبناء إفريقية الغربية ومستعمراتها الأخرى إلى الصفوف الأولى على طول جبهات القتال، وقدّموا الكثير من الضحايا في سبيل دولة فرنسا، والحفاظ على دماء أبنائها مكرهين على ذلك بل ومجبرين.

وما أن انتهت الحرب حتى عادت المقاومة إلى غينيا حتى نستطيع أن نقول: إن فرنسا لم تستطع السيطرة على غينيا في يومٍ من الأيام بصورةٍ كاملةٍ. واستمّرت فرنسا تُلاحق المقاومة، وتستعمل أبشع أنواع القمع، وتُطبّق السياسة الاستعمارية بأسوأ الأساليب.

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١٩ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ.
٣ آذار ١٩٢٤ - ٢ تشرين الأول ١٩٥٨ م

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) وفرنسا تسوم الشعب في غينيا بل كل إفريقية الغربية سوء العذاب.

اشتعلت الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) واندحرت الجيوش الفرنسية أمام القوى النازية، واحتلّ الألمان الأرض الفرنسية، وتشكّلت حكومة فيشي الموالية للألمان، ولكن الجنرال ديغول قام من بريطانيا يقود ما أسماه حكومة فرنسا الحرة، ويُقاتل بجانب الحلفاء، ويعمل ضدّ ألمانيا وأتباع حكومة فيشي الموالين لها، ويأخذ على نفسه المواعيد أثناء الحرب بمنح الاستقلال للمستعمرات الفرنسية، وإعطاء الحرية الكاملة للشعوب إثر انتهاء القتال. ووضعت الحرب أوزارها، ونقض ديغول عهوده كلها.

عادت فرنسا إلى تنظيم مستعمراتها من جديدٍ، فأعلنت عن تشكيل اتحادٍ فرنسيٍ يضمّ فرنسا ومستعمراتها فيما وراء البحار جميعها، وجعلت (داكار) عاصمة هذا الاتحاد الجديد. وكانت غينيا - طبعاً - ضمن هذا الاتحاد.

وتعرضت إفريقية الفرنسية إلى عدة تغييرات في الحدود والأقسام السياسية، وظلّت كل مستعمرةٍ خاضعةً لحاكم فرنسي عام يتلقّى أوامره

مباشرةً من وزير المستعمرات الفرنسي، ثم عادت فرنسا فجمعت بعض المستعمرات في وحداتٍ خاصةٍ، ومن هذه الوحدات كانت إفريقية الغربية الفرنسية التي ضمت: موريتانيا ـ السنغال ـ غينيا ـ ساحل العاج ـ مالي ـ فولتا العليا ـ النيجر ـ الداهومي.

وفي مؤتمر «برازافيل» في الكونغو أعلن ديغول فرض الجنسية الفرنسية على سكان المستعمرات كلها. ولكن أولئك الجنود الذين رجعوا من الحرب عادوا إلى بلادهم متأثّرين بالحركات الوطنية التي قامت في أكثر البلدان تُقاوم المستعمرين، وتُناوئهم، أو قامت على النازية، وهي تتراجع مندحرةً في القتال. ونتيجة للغطرسة الفرنسية، وتأثر الجنود بتلك الحركات تأسس حزب «التجمع الديمقراطي الإفريقي» في ساحل العاج برئاسة «فيلكس هوفويه بوانيه» وكان لهذا الحزب فروع في مختلف المستعمرات الفرنسية، ورئيس الفرع في غينيا هو سيكوتوري، وأخذ الحزب يؤدّي دوره في توعية السكان، والمطالبة بالاستقلال والنضال في سبيل تلك الغاية. وكان سيكوتوري يعمل في الجهاز الإداري الفرنسي، غير أنه استقال، وانصرف إلى تنظيم العمال وقيادتهم. وانتخب عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) ممثلاً في الجمعية الوطنية.

قامت في البلاد مظاهرات عنيفة بلغت ذروتها عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م)، وقادها أحمد سيكوتوري وحزبه. وفي العام التالي أُعيد انتخابه ممثلاً في الجمعية الوطنية، وبعد عامين اختير عمدةً لمنطقة «كوناكري» وبرز أحمد سيكوتوري.

وفي عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) جرت في إفريقية الغربية الفرنسية الانتخابات، وقد فاز فيها حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي، وكان أحمد سيكوتوري من بين الفائزين. وفي العام نفسه عُدّل الدستور، وأصبح يقوم بجانب المجلس الوطني الإقليمي مجلس تنفيذي يُمثّل السلطة، ويرأس هذا المجلس التنفيذي حاكم الإقليم الذي يُعيّن قسماً من المجلس التنفيذي بينما يُؤخذ القسم الثاني عن طريق الانتخاب.

وقدّم رئيس وزراء فرنسا «غي موليه» قانوناً عُرف باسم «القانون الإطاري»، ويقضي بإقامة مجالس نيابيةٍ محليةٍ، وهي تُرسل بدورها ممثلين عنها إلى الجمعية الوطنية الفرنسية. وبهذا حدث انشقاق داخل حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي، إذ انفصل كل فرعٍ عن الأصل، وأصبح حزباً محلياً مستقلاً، وقد عُرف الفرع في غينيا باسم «حزب غينيا الديمقراطي» بل إن «فيلكس هوفويه بوانيه» قد خرج من الحزب لأنه أيدّ هذا المبدأ الذي يعني الاتحاد مع فرنسا.

وجرت الانتخابات المحلية عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م)، إثر مؤتمر «باماكو» الذي ضمّ ممثلي إفريقية الغربية، وكان من مقرراته اعتراف فرنسا بحق تقرير المصير لشعوب هذه المنطقة. وفاز في غينيا حزب «غينيا الديمقراطي» وحصل على ثمانيةٍ وخمسين مقعداً من مقاعد المجلس النيابي المحلي والبالغ عددها ستون مقعداً. وكان على المجلس النيابي المحلي تشكيل حكومةٍ محليةٍ، وشُكّلت هذه الحكومة، وعُيّن أحمد سيكوتوري نائباً لرئيسها.

وجاء ديغول إلى حكم فرنسا، وأصدر قانوناً يمنح فيه الأقاليم حرية الاختيار بين قبول الدستور أو رفضه ويعني رفضه (أن تمتنع فرنسا عن تقديم أي معونةٍ اقتصاديةٍ أو فنيةٍ أو إداريةٍ) وذلك بعد الاستقلال. أما الأقاليم التي تقبل الدستور فتصبح أعضاء في الجماعة الفرنسية، وهي نوع من أنواع الاتحاد، وتصبح ذات استقلالٍ ذاتي. وتبيّن لديغول أن الشعب في غينيا ربما رفض الدستور بتوجيهٍ من أحمد سيكوتوري لذا جاء بنفسه إلى غينيا ليكون له تأثير ضمني على الانتخاب، وإذا به يستقبل الأصوات ترتفع وتعلو في وجهه (عُد إلى بلادك يا ديغول فليس لك مكان بيننا). ويقول أحمد سيكوتوري لديغول: (إننا نُفضّل الحرية مع الجوع على الرفاهية في ظل العبودية). ورجع ديغول إلى فرنسا، وأجرى الاستفتاء، ووجّهت السلطة الشعب إلى رفض الدستور، وكانت النتيجة أن ٩٠ ٪ من الشعب في غينيا قد رفض دستور ديغول. وكان معنى هذا الانفصال عن

فرنسا، والحصول على الاستقلال.

وعُدّ يوم ١٦ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ (٢٩ أيلول ١٩٥٨ م) يوم المفاصلة بين فرنسا وغينيا، واحتفلت غينيا بيوم استقلالها في ١٩ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ (٢ تشرين الأول ١٩٥٨ م) بعد استعمار دام قرناً من الزمن.

الفصل الثاني

الاستقلال

١٩ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ - ....
٢ تشرين الأول ١٩٥٨ - ....

بعد مرور عامٍ على الاستقلال أُعلن عن قيام اتحاد بين غينيا وغانا رغم اختلاف الثقافتين بينهما، ورغم عدم وجود حدودٍ مشتركةٍ بينهما حيث يفصل بين الدولتين أراضي ساحل العاج وتزيد المسافة بين الدولتين على خمسائةٍ وخمسين كيلو متراً. وصدر بيان مشترك عن الدولتين، وجاء فيه ما يأتي: (نحن رئيس وزراء غانا ورئيس حكومة غينيا نُقّرر تشكيل نواة الولايات المتحدة الإفريقية الغربية من دولتينا، وسُيعرض ذلك على مجلسي الدولتين الوطنيين للموافقة عليه. وقد وضعنا نصب أعيننا في عملنا هذا الولايات الأمريكية الثلاث عشرة مستوحين منها اتحادها الذي شكلته بعد نيلها الاستقلال، ذلك الاتحاد الذي أدى إلى قيام الولايات المتحدة الأميركية. إننا مدركون الرغبة في اتحادٍ أوثق بين شعوب قارتنا لذلك نُوجّه نداءنا إلى حكومات الدول المستقلة لتشترك معنا في هذا الاتحاد، وإننا نرى:

١ ـ اتخاذ علم للاتحاد، وتشجيع الاتحاد الوثيق بين حكومتينا للوصول إلى تنسيق سياسة بلدينا في الدفاع، والشؤون الخارجية، والاقتصادية بشكل خاص.

٢ ـ وجوب وضع دستورٍ للاتحاد يكفل له القوة والأمن.

وبعد هذا الاتحاد تمّ تقديم قرضٍ من غانا إلى غينيا مقداره عشرة ملايين جنيه استرليني لسدّ الضائقة التي وقعت فيها غينيا بسبب سحب الخبراء والفنيين الفرنسيين جميعاً، وتركهم الوظائف الإدارية كلها، والامتناع عن استيراد البضائع الغينية. كما أن غينيا أرادت أن تسدّ العجز الذي يمكن أن تقع فيه لأنها كانت تتلقّى قروضاً من فرنسا تُقّدر بأكثر من عشرة ملايين فرنك فرنسي سنوياً، وقد توقّفت. ولم تطل أيام هذا الاتحاد إذ لم يلبث أن انفرط عقده وانتهى أجله.

وفي عام ١٣٨٠ هـ أمر أحمد سيكوتوري بضرب عملةٍ خاصةٍ بغينيا، وعقد قرضاً مع الامبراطورية الروسية قيمته اثنا عشر مليون جنيه استرليني لإنشاء مشروعات لاستغلال الألمنيوم وتوليد الكهرباء.

وأعلن عن محاولاتٍ للإطاحة بنظام الحكم القائم في غينيا، في أعوام ١٣٨١ هـ، و ١٣٨٥ هـ، و ١٣٨٧ هـ، وفي عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) جرى اعتداء من قبل جماعاتٍ برتغاليةٍ على أفراد من غينيا، مبعدين وملاحقين نتيجة اشتباه بهم، وتضخّمت هذه الحادثة دولياً وأدّت إلى قطع العلاقات السياسية بين غينيا والسنغال، ثم مع ألمانيا الاتحادية عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)، وبعد عامين مع ساحل العاج أيضاً. ونشرت حكومة غينيا تقارير عن مؤامرةٍ خارجية لإسقاط نظام الحكم في غينيا. وغدت الدولة الغينية في شبه عزلةٍ عما حولها حتى عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) حيث عادت العلاقات السياسية بين غينيا والدول المجاورة لها، بل ومع فرنسا، والدول الغربية مع الحرص الشديد على تقوية العلاقات مع الدول الأخرى، ومنها دول المعسكر الشرقي (الكتلة الشيوعية).

وفي العام نفسه (١٣٩٥ هـ) منحت الحكومة القطاع الخاص حرية التجارة، ولكنها أسندت إدارة الصفقات التجارية إلى مكتب تعاونٍ تُشرف عليه «شرطة الاقتصاد».

وفي رمضان ١٣٩٧ هـ (آب ١٩٧٧ م) تمّ إلغاء السوق التقليدية

فقامت مظاهرات ضدّ إلغاء هذه السوق، وأساءت شرطة الاقتصاد التصّرف الأمر الذي أدّى إلى عقد لقاءٍ نسائيٍ في العاصمة كوناكري، ومن ثمّ قامت مظاهرات تأييدية في المدن الأخرى تمخّضت عن قتل ثلاثةٍ من الولاة المتشدّدين، ونتج عنها حلّ شرطة الاقتصاد، وأخيراً أُعلن عن السماح بالتجارة الخاصة من جديدٍ عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

واتبعت حكومة أحمد سيكوتوري سياسة التقشف وكانت قاسيةً في تطبيقها فقامت المعارضة في وجهها فقوبلت بعنفٍ شديدٍ أدّى إلى فرار الكثير من الفنيين إلى الخارج. وعندما قامت احتجاجات على عدم مراعاة حقوق الإنسان أنكرت الحكومة وجود انتهاكات لهذه الحرية.

وفي شهر ذي الحجة ١٣٩٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٨ م) زاد عدد أعضاء حزب غينيا الديمقراطي في المجلس الوطني، وتمّ دمج أعمال الحزب وتنظيمها من جديد، وأُعلن عن اسم الدولة الجديد «جمهورية غينيا الثورية الشعبية».

وفي المحرم ١٣٩٩ هـ (كانون الأول ١٩٧٨ م) قام الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان بأول زيارة لرئيسٍ فرنسي إلى غينيا المستقلة، وعمل للتخطيط من أجل تعاون اقتصادي بين البلدين. ثم أقامت حكومة غينيا علاقات وثيقة مع الدول الأوربية الأخرى، وبدأت تبتعد تدريجياً عن النظام الاشتراكي القاسي. وفي صفر ١٤٠٠ هـ (كانون الثاني ١٩٨٠) جرت الانتخابات التشريعية للجمعية الوطنية فاز فيها حزب غينيا الديمقراطي، وتنافس على المقاعد مائتان وعشرون مرشحاً، وكان أن انتخب أحمد سيكوتوري رئيساً لغينيا لمرحلة سبع سنواتٍ جديدةٍ وذلك في شهر رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م)، وحسّن علاقاته مع فرنسا رغم صيحات المعارضة، وقام بالعام نفسه بزيارة لفرنسا.

وفي مطلع عام ١٤٠٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٣ م) أُعيد انتخاب أحمد سيكوتوري أميناً عاماً لحزب غينيا الديمقراطي، بناءً على اللقاء الحزبي الذي تمّ لهذه المهمة.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م) أعلنت الحكومة الغينية عن اكتشاف مؤامرةٍ للإطاحة بنظام الحكم، وذلك بعد إلقاء القبض على مجموعةٍ من المرتزقة عددهم عشرون شخصاً كانوا قد احتجزوا الآلاف من الغينيين في جنوب السنغال، فاتهمتهم بأنهم كانوا يعملون لقلب الحكم في جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ (آذار ١٩٨٤ م).

وتوفي أحمد سيكوتوري في غرة رجب ١٤٠٤ هـ (الأول من نيسان ١٩٨٤ م) في الولايات المتحدة الأمريكية أثناء إجراء عمليةٍ جراحيةٍ له في القلب، وقبل أن يختار حزب غينيا الديمقراطي خليفة له استولت قوات الجيش على الحكم في غينيا بالقوة في ٣ رجب ١٤٠٤ هـ (٣ نيسان ١٩٨٤ م).

عيّنت القوات العسكرية لجنةً تحكم البلاد، واختارت العميد «لانزانا كونتيه» رئيساً للحكومة، وأطلق على هذه اللجنة اسم «اللجنة التصحيحية العسكرية» وأعلنت حل حزب غينيا الديمقراطي، والجمعية الوطنية السابقة، وعطّلت الدستور، وعمدت إلى استرجاع الحرية، ومراعاة حقوق الإنسان، فأطلقت سراح مائتين وخمسين من السجناء السياسيين، وأسندت إلى أحد وزرائها، وهو العميد «ديارا تراوري» القيام بجولةٍ سياسيةٍ يجوب فيها دول إفريقية الغربية لدعم حكومة غينيا الجديدة التي أصبحت تحمل اسم «جمهورية غينيا الجديدة» بدءاً من الأول من شعبان ١٤٠٤ هـ (الأول من أيار ١٩٨٤ م). ثم قام العميد ديارا تراوري بزيارةٍ إلى دول أوروبا الغربية في الشهر الذي تلا زيارته لدول إفريقية الغربية، وبذل جهداً لجذب رؤوس أموال أجنبيةٍ إلى غينيا، ولتقوية العلاقات مع دول غربي أوروبا وخاصةً مع فرنسا، ولتشجيع عودة الفنيين إلى البلاد وفعلاً عاد في شهر شوال ١٤٠٤ هـ (تموز ١٩٨٤ م) ما يقرب من مائتي ألف من الغينيين الذين كانوا يعملون خارج البلاد.

وفي شهر صفر ١٤٠٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٤ م) عادت الحكومة لتُحاكم بعض السياسيين، وكان معظمهم من النساء المزارعات اللواتي

اعتقلن أثناء سيطرة الجيش على السلطة.

وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٤ م) أوجدت الحكومة مناصب حكوميةً جديدةً، وألغت أخرى بناءً على رغبات رئيس الدولة لانزانا كونتيه، ووزير دفاعه، ومن المناصب الحكومية التي أُلغيت رئاسة الوزارة الذي كان يشغله العميد ديارا تراوري، والذي أسند منصب وزير التربية الوطنية أي أنزلت مكانته من رئيس للحكومة إلى وزير.

وفي شوال ١٤٠٥ هـ (تموز ١٩٨٥ م) بينما كان الرئيس لانزانا كونتيه يُشارك في مؤتمر قمة في (التوغو) قام العميد ديارا تراوري وزير التربية الوطنية بمحاولة انقلابٍ بثّته إذاعة كوناكري وأدّت تلك المحاولة إلى قتل ثمانية عشر فرداً من القوات العسكرية المؤيّدة للرئيس لانزانا كونتيه، واعتقال عددٍ من أفراد أسرته، وأكثر من مائتين من مُؤيّديه وأتباعه. غير أن جماعاتٍ من الوثنيين قد هاجموا أتباع ديارا تراوري وأعوان الرئيس السابق أحمد سيكوتوري تأييداً للرئيس الحالي لانزانا كونتيه، وانتهى الأمر باعتقال قائد الحركة الانقلابية العميد ديارا تراوري ، ثم قتله، وبذا فشلت المحاولة ورجع الرئيس إلى بلاده.

وفي صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م) شرع الرئيس لانزانا كونتيه باتباع سياسةٍ اقتصاديةٍ حرةٍ بناءً على طلب البنك الدولي كشرط مسبق لمراجعة البنية الاقتصادية وتنمية وسائلها في غينيا.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) أعلنت الوزارة عن إعادة تنظيم الإدارة حيث يجب أن يُشارك فيه جمهور من المواطنين المدنيين، وقامت اللجنة التصحيحية العسكرية الحاكمة بتشكيل لجنةٍ تنفيذيةٍ لهذا الغرض، ووجدت لأول مرةٍ وزارة الإسكان لإعمار المناطق والمدن الرئيسية فيها.

وفي رمضان ١٤٠٧ هـ (أيار ١٩٨٧ م) أعلنت الإذاعة أنه قد حُكم على خمسةٍ وثمانين رجلاً بالموت بينهم تسعة من الوزراء السابقين، كما

صدر إعلان بعد ذلك عن الحكم على أكثر من مائتي شخصٍ كانوا قد اختفوا بين القبائل، واتُّهم بعضهم بارتكابِ جرائم ارتكبوها أيام حكم الرئيس السابق أحمد سيكوتوري، كما اتُّهم بعضهم الآخر بمشاركتهم بمحاولة الانقلاب التي قادها ديارا تراوري في شوال ١٤٠٥ هـ (تموز ١٩٨٥ م)، غير أن الحكومة قد عادت وخفّفت من هذه الأحكام نتيجة الاستنكارات الخارجية والردّ على الحكومة الغينية بأن هذه الاتهامات قد أُعدّت قبل عامين في أعقاب محاولة الانقلاب الفاشلة، ونُفّذَت الآن.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) عفا الرئيس لانزانا كونتيه عن السياسيين الذين قتلوا ديارا تراوري بعد اعتقاله، كما أعلن في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الثاني ١٩٨٨ م) عن إطلاق سراح عددٍ من السجناء السياسيين من بينهم أرملة الرئيس السابق أحمد سيكوتوري وابنه.

وكان الرئيس قد أجّل في ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) زيارةً كان ينوي القيام بها إلى فرنسا، وذلك بناءً على تقارير القوات العسكرية.

وارتفعت أسعار السلع ارتفاعاً حاداً في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الثاني ١٩٨٨ م) فدبّت الفوضى في العاصمة كوناكري، وزادت أعمال الشغب، فاتخذت الحكومة القوة لتثبيت الأسعار وتجميدها.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م) أعاد الرئيس لانزانا كونتيه تشكيل مجلس الوزراء، فحرّك نائبه الرائد (كيرفا لا كامارا) من أمين السر الدائم للجنة العسكرية إلى وزارة السكن في غينيا العليا في (كانكان). وأسند إلى العميد (سوري دومبويا) المنتدب لإعادة تنظيم مناطق غينيا الوسطى منصب وزير الدفاع. كما أعاد الرائد (فاسينيه توريه) وزير الزراعة وتنظيم شؤون الأجانب، [ومن قبل وزير الغابات عام ١٤٠٥ هـ

(١٩٨٥ م)] أعـاده إلى العاصمـة كونـاكـري وزيـراً للنقـل والعمـل السيـاسي.

إن هذه التنقلات في المراكز والتغييرات في المواقع من قبل الرئيس الغيني كان لها تفسيرات واسعة تثبيتاً لمركزه، ومن هذه التصرفات أنه حكم في صفـر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) على أربعـةٍ من أعضـاء الحكـومـة بالسجن.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م) وإثر الجفاف والقحط الذي ساد المنـطقة، وإثـر زيادة سمـوم النفايـات طلبت الحكومـة الغينية مساعدةً من النرويج فرأى المجلس الفخري في النرويج تقديم حمولة باخرة من الإمدادات إلى غينيا.

وفي شهـر ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حـزيران ١٩٨٩ م) أعـاد الرئيس الغيني تنظيم مجلس الوزراء نتيجة سياسة الانغلاق التي تبنّاها رفع الرائد (محمد بالديت) من وزارة إقليميةٍ في المناطق إلى منصبٍ وزاريٍ بارزٍ في كوناكري، وأقال الرائد (كيرفا لا كامارا) أمين السر الدائم للجنة العسكرية ومنظم العلاقات غير الحكومية وعيّنه وزيراً لإقليم ساحلي.

وفي ٢١ صفر ١٤٠٩ هـ (٢ تشرين الأول ١٩٨٨ م) أعلن الـرئيس الغيني بمناسبة ذكرى الاستقلال ومرور ثلاثين سنة عليها، العفو عن تسعةٍ وثلاثين سجيناً سياسياً، وكان من بينهم أولئك الذين شاركـوا في محاولـة الانقلاب على نظام الحكم من قبل. وفي الوقت نفسه اقترح الرئيس الغيني تشكيل لجنةٍ لوضع مسودة وثيقةٍ لنظام حكمٍ جديدٍ.

وفي ربيـع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) أعلن الـرئيس الغيني لانزانا كونتيه على قبوله للوثيقة الموضوعة على أن تُطرح للاستفتاء العام، وتصبح نافذة المفعول فيما إذا وافق عليها الشعب. وقد تمّ ذلك عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م) فحلّت اللجنة العسكرية التي بيدهـا السلطة، وجاء هيكل سياسي عالٍ، وباسم وطني جديد هو لجنة «تصحيح الأوضاع».

لقد تشكلت اللجنة الجديدة للحكم (لجنة تصحيح الأوضاع) من عددٍ متساوٍ من المدنيين والعسكريين، تحكم البلاد لمدة خمس سنواتٍ، ويمكن أن تتجدّد مرةً واحدةً فقط. ونصّت هذه الوثيقة الوطنية على إجراء انتخاباتٍ لرئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة في منتصف التسعينات، كما نصّت على أن كل بُنيةٍ لسلطةٍ تشريعيةٍ يجب أن يتمّ اختيارها عن طريق الانتخاب الشامل في البلاد.

كان على الشكل الجديد لنظام الحكم أن يعدّ قانوناً لصلاحيات السلطة التنفيذية الجديدة بشقيها المدني، والعسكري، وأن يُشرّع للنظام القضائي. وبالفعل تمّ إعلان أسلوب نظام الحكم الثنائي (المدني والعسكري). لقد كان الرئيس الغيني لانزانا كونتيه هو الرابح الوحيد في هذا النظام الجديد، إذ خضع الجميع لنظامه سواء أكان مُؤيّداً له بالأصل أم معارضاً، حيث لا يمكن لأحدٍ أن يرفع صوته محتجاً، بينما كان أعضاء اللجنة العسكرية السابقة بإمكانهم أن يجوبوا أنحاء البلاد بموجب منهج يفرضه النظام.

وكانت عقوبة الموت أو حجر الشرطة الدائم مُطبّقين في غينيا منذ ربيع الأول ١٤١٠ هـ (أواخر تشرين الأول ١٩٨٩ م) وتلك عقوبة من يُخالف النظام أو يحرّض على الشغب والفوضى، وقُتل نتيجة ذلك عدد من السكان على حين توسطت قوات أمنية لعدد من المذنبين.

وفي جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) نفت الحكومة الغينية الادّعاءات والاحتجاجات التي صدرت عن المنظمة الدولية لحقوق الإنسان، وأنكرت اعتقال الرجال، وسجن النساء، وعذاب المعارضين بصورةٍ جماعيةٍ.

وأعلنت السلطات الغينية في شهر رجب ١٤١٠ هـ (شباط ١٩٩٠ م) عن العفو الشامل الذي شمل السجناء السياسيين والمبعدين عن البلاد.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة غينيا ٢٤٥,٨٦٠ كيلو متراً مـربعاً، وتُشـرف من ناحيـة الغرب على المحيط الأطلسي، ويبلغ طول ساحلها ٣٢٠ كيلو متراً، وتجاور عدداً من الدول فمن ناحية الشمال تقع غينيا ـ بيساو ويبلغ طول حدودها معها ٣٨٦ كيلومتـراً، والسنغال وطول حدودها معها ٣٣٠ كيلومتـراً، ومن جهة الشمال والشرق مالي، ويبلغ طول حدودها معها ٨٥٨ كيلومتـراً، ومن جهة الشرق والجنوب ساحل العاج ويبلغ طول الحدود بينهمـا ٦١٠ كيلو مترات، ومن ناحية الجنوب ليبريا ويبلغ طـول الحدود بينهمـا ٥٦٣ كيلو متراً، ومن ناحية الجنوب والغرب سيراليون ويبلغ طول الحدود معها ٦٥٢ كيلومتـراً.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) سبعة ملايين ومائة ألف إنسان، وبذا تكون الكثافة العامة حوالى ٢٩ إنساناً في الكيلو المتر المربع الواحد.

واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، ولكل قبيلةٍ لغتها الخاصة بها.

الصراع العنصري:

يوجد في غينيا ثلاث قبائل رئيسية وهي:

١ ــ السوسو: ويسكن هذا الشعب في السهل الساحلي، ويعمل في زراعة النخيل الزيتي، ويعمل بعض أفراده في اقطاعيات الفرنسيين في مزارع الموز والأناناس.

٢ ـ الفولاني: ويُقيمون في الهضبة الغربية إلى الغرب من كتلة فوتا جالون، ويمتهنون رعي الحيوانات ويُعرفون هنا باسم «البهل» و «الفولا» و «الفولبيه» ويُشكّلون مايزيد على خمس السكان.

٣ ـ الماندينغ: ويسكنون في الداخل، في غينيا العليا، ويُعرفون هنا باسم «المالينكي»، «والديولا» ويعملون بزراعة الموز، والفول السوداني، والسمسم، والذره على طول مجاري الأنهار، وفي الهضاب يعملون بالرعي. ويعدّون تتمة لسكان مالي، فغينيا العليا تتبع مالي بشرياً.

وهناك قبائل أخرى صغيرة. وفي الجنوب الغربي حيث تنتشر الغابة تسكن قبائل وثنية، وأخذت تترك مواطنها، وتنتقل إلى العاصمة خاصةً، بل وتتدخّل بالأمور السياسية.

كان الصراع بين القبائل قوياً في الماضي فلما جاء المستعمرون الصليبيون توحّدت جهود السكان، غير أن الدخلاء بعد أن تمكّنوا من بسط نفوذهم استطاعوا أن يُفرّقوا الصفوف بتقديم الذين كسبوهم إلى جانبهم من الوثنيين، ومن أصحاب الأهواء والمصالح من المسلمين، وبسيطرتهم على الدولة ومؤسّساتها، وبإبراز من استطاعوا تنصيرهم من الوثنيين، وبالقوة التي يملكونها وبدعم رجال الإرساليات التنصيرية واتحاد الكنائس، ووقف هؤلاء جميعاً في وجه المسلمين، وجعل المستعمرون منهم الأداة التنفيذية التي تتحكّم بالبلاد، وسلّطوها على المسلمين، وكان المسلمون يتناقصون باستمرار ممن يخسرونهم من أهل الأهواء، وبمن تغريهم المغريات فينضمّون إلى القوة المعادية التي تزداد على الدوام، وإن كانت القوة لا تُقاس بالأعداد فقط بل بالروح المعنوية ونوعية الرجال وإمكاناتهم وتضحياتهم. وإن السلطة الآن هي بيد الوثنيين، والأوروبيين، وأصحاب المصالح من أهل البلاد.

الصراع العقيدي:

ويُشكّل المسلمون	٩٣,٥ ٪	من مجموع سكان البلاد.
ويُشكل الوثنيون	٥ ٪	من مجموع سكان البلاد.
ويُشكل النصارى	١,٥ ٪	من مجموع سكان البلاد.
	١٠٠ ٪	

ولما كان المسلمون هم الغالبية العظمى لذا لا يمكن أن يكون هناك صراع عقيدي بالمواجهة أو بشكلٍ مباشرٍ لكثرة المسلمين وقلة غيرهم. فلما سيطر الدخلاء شنّوها حرباً صليبيةً، واضطر المسلمون أن يخنعوا أمام القوة، فشكّل الصليبيون جبهةً ضدّ المسلمين ضمّت النصارى والوثنيين، ومن صادوه من المسلمين، ووقع في شراكهم.

وعلى الرغم من أن الرئيس أحمد سيكوتوري أول رئيس لغينيا المستقلة قد غيّر نهجه الذي كان عليه في أول أمره وساير المستعمرين الصليبيين غير أنهم لم يرضوا عنه، فمن تنازل عن عقيدته، وذلّ نفسه لا يمكن أن يقبلوا منه الوقوف عند هذا الحدّ بل لا بدّ من أن يكون أكثر ذلاً وأكثر خنوعاً، يأتمر بأوامرهم، ويُطبّق سياستهم دون سؤال، يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1]. ولا شك أن من يسير في هذه الطريق لا خير فيه.

لقد هيّأ المستعمرون الصليبيون حركةً أطاحت بأحمد سيكوتوري شارك فيها كل أعوانهم، فلما أحسّ أحدهم ممن ينتمي إلى الإسلام وهو «ديارا تراوري» العميد السابق، وخطر على باله أن يُفكّر بحريةٍ، ولا يُميّز بين أفراد الشعب أُبعد عن رئاسة الوزارة، وأسند إليه منصب وزارة التربية الوطنية عسى أن يُدرك السياسة تماماً فيبتعد عن مساواة المسلمين بغيرهم

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠.

غير أنه لم يشعر في بداية الأمر، فأعطي تحذيراً ونّبه، فندم على ما أقدم عليه في الماضي، ورغب أن يُنقذ الوضع، وظنّ أن الفرصة قد واتته بغياب الرئيس فقام بمحاولة انقلابٍ فتصدّى لـه الوثنيـون، وأُلقي عليه القبض، وقُتل، ونال أعـوان الرئيس السـابق أحمد سيكـوتوري مـا نالهم، ويكفي انتماؤهم للإسلام ليُقضى عليهم. وقبضت جبهة الصليبيين بيدٍ من حديد على الوضع، ولا تزال هي المتسلّطة.

ويُشكّل المسلمون ـ كما ذكرنا ـ أغلبية السكان لذا فهم يتوزّعون في كل منطقة. أما الوثنيون فيكثرون في الغابة، وكبارهم يأتون إلى العاصمة، لحماية الجبهة الصليبية ودعمها.

وأما النصارى فيكثرون في العاصمـة كونـاكري، وفي بعض مـراكز السلطة في عواصم الأقاليم، ويمتلكون الإقطاعات في السهل الساحلي.

كان الرئيس السابق أحمد سيكوتوري قد أمر أن يكون رجال الدين النصارى في غينيا ممن يحمل الجنسية الغينية فقط، وهذا ما أثار حقدهم عليه.

وتوجد في غينيا طائفة الكنيسة الإنجيلية، وتتبع من الناحية الإدارية مديرية كنائس غربي إفريقية التي يرأسها أسقف ليبيريا. وتشكّلت مطرانية غينيا في آب ١٩٨٥ م، وتضمّ إحدى عشرة أسقفيةٍ، وهي أولى الكنائس التي تتكلم الفرنسية. ويبلغ عدد أتباع هذه الكنيسة ستة آلاف نصراني.

وهناك أيضاً طائفة كنيسة الروم الكاثوليك، ويرأس هذه الطائفة في غينيا أسقف كوناكري، وأكبر الكنائس في مدن كونـاكري، وزيـروكوري، وكانكان، ويبلغ عدد أتباع هذه الكنيسة خمسة وستون ألف نصراني.

ويوجد في غينيا ستة من البروتستانت، أربعة يتبعون بريطانيا، واثنان يرتبطون بالولايات المتحدة الأمريكية.

الصراع الحزبي:

كان حزب غينيا الديمقراطي هو الحزب الوحيد والحاكم في غينيا منذ الاستقلال بل ومن قبله حتى عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م)، حيث حُلّ، ونشأت بعد ذلك اللجنة التصحيحية العسكرية، واستبدّت بالأمر، وتسلّطت على الرعية حتى عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م) حيث خلفتها لجنة تصحيح الأوضاع، وحلّت محلّها بالتسلّط، ولا يستطيع فرد أن يتفوّه بكلمةٍ حيث يُحاكم بمخالفة النظام، والتحريض على الفوضى، ويُقضى عليه بالموت أو السجن المؤبّد، وقد يحدث هذا دون محاكمةٍ أو استجواب. وهذا ما يُرضي الدول النصرانية إذ يخنع الشعب، ويُذلّ، ويمكن سوقه في أي طريقٍ يرسمها المخطط.

وهذا الاستبداد والفقر جعل بعض الأفراد يُفكّرون بالشيوعية، ويتعاطفون مع شعاراتها التي تطرحها، وما أركبهم هذا المركب الكريه، وأوصلهم إلى التفكير بهذا الجحيم إلا معاناتهم وقهرهم. فلا حرية، ولا رأي، ولا تجمّع، ولا لقاء، ولا تنظيم.

الباب الخامس

مَالِي

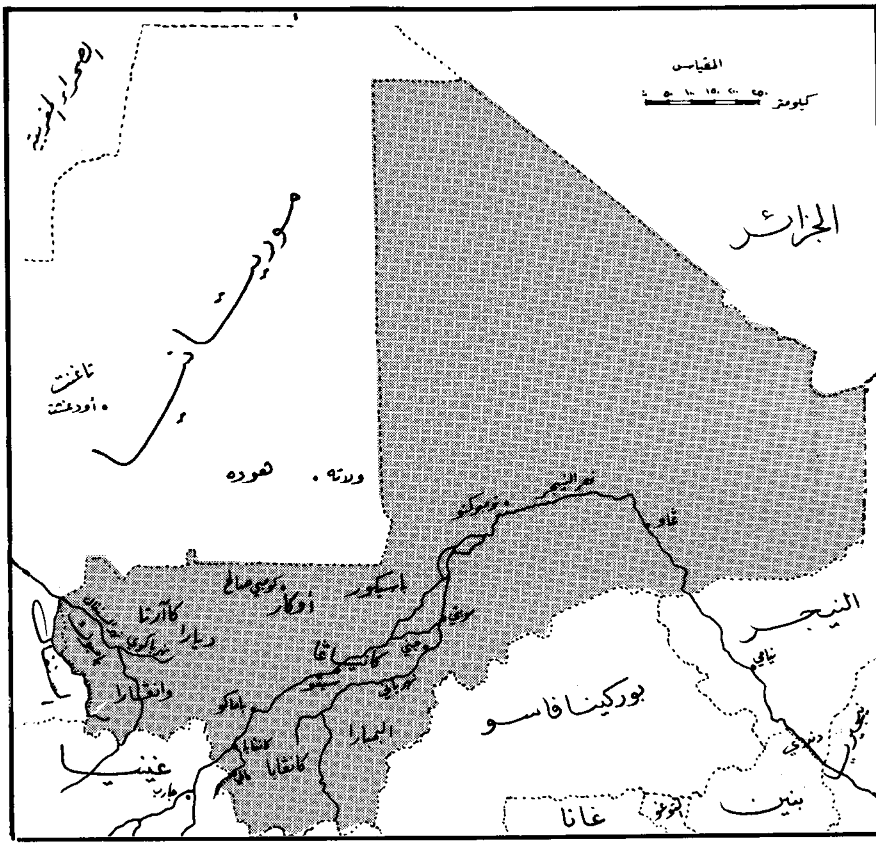
المقياس
كيلومتر
الجزائر
النيجر
بوركينا فاسو
غانا
بنين
غينيا
تاغنت
أودغشت
ولاته
غاو
نهر النيجر
نيامي
كاآرتا
أوكار
البمبارا
كانغابا
باماكو
سيغو
جني

مصور رقم [٥]

مقدمة

مالي دولة تحمل اسم قبيلة واسعة الديار في غربي إفريقيـة، كثيرة البطون حتى غدا كل بطنٍ كأنه شعب خاص لكثرة أبنائه، وغالباً ما كان يسيطر شعب على البقية فيطلق على دولته امبـراطوريـة لغلبة شعبٍ على شعوبٍ أخرى. وما يمضي وقت حتى يقوم شعب من هذه القبيلة ويتقوّى على من بيـده السلطة، ويتغلّب عليـه، ويحــلّ محلّه في السيـطرة على الشعوب الأخرى، ويُؤسّس امبراطوريةً جديدةً. ولا يقضي الغالب المنتصر على من زالت دولته، بل يتركه، ويكتفي منه بالاعتراف به، ودفع أتاوةٍ له دلالةً على الخضوع له، وإشارةً على الخنوع. وقد تعود القوة لمن سبق له أن غُلب فيثور على غالبه، وينتصر على هازمه، ويُؤسّس دولةً من جديد، ويُخضع شعوب قبيلتـه جميعاً إليـه، وتكون دولتـه امبراطـوريةً غيـر التي سبقتها، وغير التي أقامها هو من قبل، وبسط نفوذه على البطون كلها.

دانت هذه القبيلة بالإسلام منذ وقتٍ مبكرٍ ودانت معظم بطونها بـه أيضاً. لذا عملت الامبراطوريات التي أقامتها شعوب هذه القبيلة للإسلام، وسـاهمت الممالـك التي أسّستها بـطون تلك القبيلة في نشرها الإسلام، وإدخاله إلى المناطق السودانية الثانية، والقبائل الزنجية الأخرى ومن هنـا كانت أهمية تاريخ هذه الدولة.

إن كلمة «مالي» هـو الاسم الذي تـطلقه قبيلة الفـولاني على هذه القبيلة، وهو الذي سُمّيت به عاصمتهم، ثم عُرفت به الدولة حديثاً، ولكن

العرب يطلقـون عليهم «مليل» ويعُـرّفهم البربـر باسم «مليت»، والتكـرور يُسمّونهم «مالنكي». وأما قبيلة «الهاوسا» فتُطلق عليهم «وانغارا»، وأما هم فيُسمّـون أنفسهم «المـانـدي»، ويُـطلقــون على الـذين يتكلمــون لغتهم «الماندينغ»، وإن كان هذا الاسم أصبح نفسه علماً على القبيلة بجميـع فروعها. وفي كل منطقة يُطلق على جماعة «الماندينغ» اسم خاص حسب القبائل المجاورة لهم، حتى يظنّ بعضهم أن هذا الاسم علم بقبيلة خاصة.

ولهذه القبيلة فروع كثيرة أشهرها «السوننكي» و«الديولا» و«البمبارا».

وكان لهذه القبيلة وما أسّسته من ممالك، حضارة دفعت بأصحـابها إلى أن يركبوا بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ليعرفوا ما وراءه فوصلوا إلى أمريكا الجنوبية، ولم يتمكّنوا من العودة فبقوا هناك، وخلّفوا بعض الآثار وراءهم الأمر الذي يُشير إلى أنهم أقاموا حضارةً، وذلك قبل وصول الأوروبيين إلى تلك الجهـات بمـائـة وخمسٍ وثمـانين سنـة. ولمـا وصـل المستعمـرون الصليبيون من إسبانٍ وبرتغاليين إلى هناك يحملون الحقد ضـد المسلمين ويُعلنون الكراهية صراحةً، ومحاكم التفتيش لا تزال قائمةً في الأندلس ديار المسلمين السابقة، كما تعقد تلك المحاكم في العالم الجديد لمحاكمة من أخفى إسلامه، أو كان قد وصل إلى هناك قبلهم، أو أراد الصلة ببعض من كانوا مسلمين، لقد أزال هؤلاء المستعمرون الصليبيون كل المسلمين الذين سبقوهم إلى هناك، ومحوا آثارهم، ومحوا كل معلمٍ لهم، وقالوا: لم يكن هنا أحد، وأخذنا هذا الكلام عنهم وصدّقناهم.

وهذا بعض ما في هذه القبيلة التي حملت دولة مالي اسمها، وتشغل مساحةً واسعةً تزيد على ١,٢٤٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، وإن كانت لا تضمّ بطون هذه القبيلة وفروعها جميعاً، حيث تعيش جماعـات كثيرة منهـا في الدول المجاورة لها، وتتوزّع أحياناً بين القبائل الثانية.

لمحة عن تاريخ مالي قبل إلغاء الخلافة

قلنا أن قبيلة مالي «الماندينغ» قد أسّست على الأرض التي تشغلها دولة مالي اليوم عدة امبراطورياتٍ أو ممالك أو دول، وقد اشترك في هذا التأسيس عدة بطونٍ من هذه القبيلة، وأشهر هذه الدول هي:

١ ــ امبراطورية غانا:

جاء الفولانيون من الشمال من منطقة برقة، واتجهوا نحو غربي إفريقية، وتقدّموا إلى منطقة «أوكار»، وسيطروا على شعب «السوننكي» أحد فروع قبيلة «مالي»، وأسّسوا دولةً واسعةً وذلك في القرن الأول للميلاد، وجعلوا مدينة «كومبي صالح» قاعدةً لها.

وفي القرن الثاني الهجري استطاع شعب «السوننكي» طرد الفولانيين، واستلام السلطة منهم، وإقامة أسرةٍ تحكم الدولة، التي عرفت باسم «امبراطورية غانا»، أما الفولانيون فقد اتجهوا نحو بلاد التكرور في منطقة السنغال اليوم، وأقاموا لهم دولةً هناك. وبقيت دولة السوننكي حتى عام ٤٦٩ هـ حيث دخل المرابطون البلاد وسيطروا عليها.

وشملت امبراطورية غانا أكثر أجزاء موريتانيا اليوم، وأكثر السنغال، وجنوبي مالي اليوم، ومناطق من غينيا. وكانت تضمّ اثنى عشر مملكةً، وهي:

١ ــ **أوكار**: وهي قاعدة الحكم للامبراطورية، وقاعدتها مدينة «كومبي

صالح»، وتقع بين نهري النيجر والسنغال في أجزائهما الوسطى، وتشمل أجزاء من جنوبي موريتانيا اليوم، وأجزاء من شمالي مالي.

٢ ـ **تاغنت**: وقاعدتها «أودغشت»، وتقوم اليوم مكانها ـ حسب تقديري ـ مدينة تجكجكة ـ وتقع في موريتانيا.

٣ ـ **هودة**: وهي غرب مدينة «ولاتة» وتقع في جنوبي موريتانيا.

٤ ـ **ديارا**: وهي إلى الشرق من نهر السنغال الأوسط، إلى الغرب من أوكار، وتقع في مالي.

٥ ـ **بامبوك**: وتقع إلى الغرب من مملكة ديارا، بين نهر السنغال، وأحد روافده، وتقع في مالي.

٦ ـ **وانغارا**: إلى الجنوب من ديارا، وبامبوك في أعالي نهر السنغال، وتقع في مالي.

٧ ـ **كانياغا**: في وادي نهر النيجر الأوسط، وقاعدتها مدينة «سيغو» إلى الشمال الشرقي من مدينة «باماكو» عاصمة دولة مالي الحديثة، وتقع في مالي، وهي مقرّ قبائل «الصوصو».

٨ ـ **التكارنة**: في مجرى نهر السنغال الأسفل، وتقع في بلاد السنغال.

٩ ـ **كانغابا**: في أعالي نهر النيجر، وهي مركز الماندينغ (مالي).

١٠ ـ **البمبارا**: إلى الشرق من كانغابا.

١١ ـ **باسيكور**: إلى الشرق من أوكار.

١٢ ـ **الممالك البربرية**: في الشمال، وتسيطر عليها غانا بعض الأوقات. وينتقل الحكم فيها إلى ابن الأخت.

وكان على رأس كل مملكةٍ ملك أو حاكم، وينتقل الحكم بالوراثة.

انتشر الإسلام في امبراطورية غانا قادماً من جهة الشمال عن طريق التجار، ويُقال إن أحد ملوكها، وهو (بولاتان) قد اعتنق الإسلام عام ٢٢٣ هـ، وقام بنشر الإسلام فيما جاوره، وأخذ يجاهد الوثنيين. ومما زاد في انتشار الإسلام في هذه الامبراطورية دخول ملك التكارنة في الإسلام عام ٤٣٢ هـ، وكذلك عندما سيطرت امبراطورية غانا على مدينة «أودغشت»

وهي قاعدة قبيلة «لمتونة» إحدى قبائل البربر، وذلك عام ٣٨٠ هـ، وكانت تلك القبيلة تدين بالإسلام فعملت على نشره في أرجاء الامبراطورية كلها، وخاصةً أن مدينة «أودغشت» لها مكانة خاصة إذ أن حاكمها كان من شعب «السوننكي» الحاكم بل تُتخذ أحياناً قاعدةً للامبراطورية مكان مدينة «كومبي صالح».

استطاع المرابطون دخول مدينة «أودغشت» عام ٤٤٦ هـ، ثم دخلوا مدينة «كومبي صالح» عام ٤٦٩ هـ، فعمّ الإسلام شعب السوننكي، وأصبح يقوم بالدعوة، ولما ضعف أمر المرابطين انفصل شعب السوننكي عنهم عام ٤٨٠ هـ، وأعلن الارتباط بالدولة العباسية. وغدت كلمة «سوننكي» مرادفة لكلمة داعية، وأخذت امبراطورية غانا تضعف، ومما زاد في ضعفها تغيّر المناخ، وقوة امبراطورية «الصوصو» التي استطاعت القضاء على امبراطورية غانا، ودخول عاصمتها مدينة «كومبي صالح» عام ٦٠٠ هـ، فضعف شعب «السوننكي» وخضع لدولة خصمه.

٢ ـ مملكة مالي:

عندما قوي أمر «الصوصو» وثبتت أركان دولتهم، ضمّوا إليهم أكثر الممالك التي كانت تتبع امبراطورية غانا، ومنها مملكة «كانغابا» حيث الماندينغ، وقتل ملك «الصوصو» (سومانغارو) ملك «الماندينغ» (ناري فامغان) وأولاده الأحد عشر جميعاً باستثناء الصغير منهم، وهو (سندياتا) أو كما عُرف في التاريخ باسم (ماري جاطه) وذلك رحمةً به لصغره، وضعف جسمه، ومرضه الذي كان يُلمّ به، وذلك عام ٦٢٨ هـ، ولكن لم يمض سوى خمس سنوات حتى استطاع هذا الصغير المريض أن يُؤلّف جيشاً قوياً ويقوده لقتال الصوصو، وتمكّن من إحراز النصر في معركةٍ فاصلةٍ قتل فيها امبراطور الصوصو عام ٦٣٣ هـ، تمزّقت بعدها امبراطورية الصوصو، وانتهى أمرها.

وسار (ماري جاطه) بعد إلى مدينة «كومبي صالح» عاصمة امبراطورية

غانا، ودمّر ما كان قد بقي منها، ولكنه ترك المسلمين الذين كانوا قد فروا منها إثر غزو الصوصو لها، والتجؤوا في مدينة «ولاته». وأسّس ماري جاطة مملكةً واسعةً، حكمتها أسرة «كيتا».

تعود أسرة «كيتا» إلى جدها «موسى ديجيو» الذي يُلقّب بـ (كيتا)، وحكم هذه الأسرة من عام ٥٩٧ ـ ٦١٥ هـ، واتخذ مدينة «جارب» عاصمةً له، وهو أول من دخل الإسلام من ملوك دولة «كانغابا» أو «ماندينغ»، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم «بومندانه»، وخلفه بالحكم ابنه «ناري فامغان» من ٦١٥ ـ ٦٢٨ هـ، وبذل جهداً واسعاً في نشر الإسلام بين قبائل البمبارا، ثم قتل هو وأولاده على أيدي الصوصو، ثم قام ابنه (ماري جاطه) الذي بقي وحده على قيد الحياة في أسرته، وأعاد الحكم له بعد أن انتصر على الصوصو عام ٦٣٣ هـ، وضمّ إليه أملاك امبراطورية غانا القديمة، ونقل عاصمته من «جارب» إلى مدينةٍ جديدةٍ أنشأها على نهر (سانكاراني) إلى الشمال الشرقي من العاصمة القديمة «جارب»، وقد سُمّيت «نياني»، واشتهرت باسم (مالي)، وأصبحت فيما بعد علماً لدولة (الماندينغ).

وصلت دولة (ماري جاطه) إلى إمارات الهاوسا في شمالي نيجيريا في الشرق، وإلى سواحل المحيط الأطلسي في الغرب، وإلى قلب الغابات في الجنوب، وتوفي عام ٦٥٣ هـ.

تولى أمر أسرة كيتا أو مملكة مالي ابن (ماري جاطه) وهو منسي علي، ويُعدّ أعظم حكام أسرته وقد عرف بالصلاح، وأدى فريضة الحج عام

---

(١) جارب: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى، جنوب مدينة (سيغوري)، وتقع اليوم في دولة غينيا.

(٢) سانكاراني: نهر من روافد نهر النيجر، يشكل اليوم جزءاً من الحدود بين مالي وغينيا، ويرفد نهر النيجر عند مدينة (كانغابا) في مالي قريباً من الحدود الغينية على بعد ٦٥ كيلو متراً منها.

٦٥٨ هـ، وضمّ إليه مملكتي «وانغارا» و«بامبوك»، وتوفي عام ٦٦٩ هـ، فتعرضت البلاد بعده لمرحلةٍ من الاضطراب، حكم خلالها مملكة مالي عدد من الحكام، هم:

١ ـ منسي علي سمّي (منسي علي) وشقيقه، وحكم من ٦٦٩ ـ ٦٧٣ هـ.

٢ ـ خليفة شقيق منسي علي الآخر وحكم ٦٧٣ ـ ٦٧٤ هـ.

٣ ـ أبو بكر أحد أسباط ماري جاطه، وحكم ٦٧٤ ـ ٦٨٤ هـ.

٤ ـ ساركوه أحد موالي أبي بكر اغتصب السلطة ٦٨٤ ـ ٧٠٠ هـ. غزا بلاد التكارنة و(انغارا) و(غاو) عاصمة صنغاي، وأدّى فريضة الحج عام ٧٠٠ هـ، وفي طريق العودة هاجمته جماعة من الدناقل عند ساحل البحر الأحمر، وقتلته.

٥ ـ منسي قو: وهو ابن ماري جاطه، وحكم من ٧٠٠ ـ ٧٠٥ هـ.

٦ ـ محمد بن (منسي قو)، وحكم ٧٠٥ ـ ٧١٠ هـ.

٧ ـ أبو بكر: وحكم من ٧١٠ ـ ٧١٢ هـ، وهو الذي سافر عبر المحيط الأطلسي ليكتشف ما بعده.

وحدثت بعد أبي بكر فتن واضطرابات وانتقل الحكم إلى أسرة ابن أخت (ماري جاطه) وكان منهم:

١ ـ منسي موسى بن أبي بكر الملك السابق، وكان يجيد العربية، ووصلت الدولة أيامه إلى الأوج، وكانت علاقته جيدة، مع دول المغرب، ومصر، وتوفي ٧٣٨ هـ.

٢ ـ مغان الأول أو منسي مغان بن منسي موسى، وحكم ٧٣٨ ـ ٧٤٢ هـ.

٣ ـ سليمان بن منسي موسى، وحكم ٧٤٢ ـ ٧٦٢ هـ.

٤ ـ قنبتا بن سليمان، وحكم تسعة أشهر ٧٦٢ ـ ٧٦٢ هـ.

٥ ـ ماري جاطه (الثاني) بن مغان الأول، وحكم ٧٦٢ ـ ٧٧٦ هـ، وكان سيء السيرة، مُبذّراً.

٦ ـ موسى (الثاني) بن ماري جاطه الثاني، وحكم ٧٧٦ ـ ٧٨٩ هـ.

٧ ـ مغان (الثاني) بن ماري جاطه الثاني، قُتل ٧٩٠ هـ.

٨ ــ صندكي (زوج أم موسى)، وحكم ٧٩٠ ـ ٧٩٣ هـ، وحدثت فتن.
٩ ــ محمود (منسي مغان).

ثم حدث ضعف استمر طويلاً، واستنجدت دولة مالي بالعثمانيين عام ٨٨٦ هـ لحمايتها من دولة صنغاي، غير أن دولة صنغاي استطاعت ضمّها إليها عام ٨٩٤ هـ، وبعدها طلبت من البرتغاليين دعمها، فأرسلت البرتغال سفارةً لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١ هـ حيث قابل (منسي مالي) محمود الثاني، وهذا ما شجّع الماليين على القيام بثورة ضدّ الصنغاي غير أن ثورتهم قمعت بشدةٍ . وبقيت مالي تتبع صنغاي حتى ضعفت مملكة صنغاي نتيجة الحروب التي خاضتها مع مملكة السعديين في مراكش (المغرب).

استغلت دولة مالي ضعف مملكة صنغاي فتحرّك سلطان مالي (محمد الثالث)، كما تحرّك سلطان الفولانيين في (ماسّنا)، واستعاد سلطان بعض أملاكه المفقودة، ولكن السعديين كانوا قد احتلّوا مدينة تومبوكتو عام ١٠٠٠ هـ، وعندما أراد سلطان مالي الاستيلاء على مملكة (جني) غير أن قواته قد أبادتها جيوش السعديين، وأفل نجم دولة مالي عن المسرح السياسي.

حاول ملك مالي (ماما مغان) عام ١٠٨١ هـ أن يتوسّع لكنه هُزم أمام دولة البمبارا. وخلفه (مامبي كيتا) مدة خمسة عشر عاماً، ثم خلفه أبناؤه من بعده فتفرّقوا، واقتسموا أملاكهم فيما بينهم، واستقر آخرهم في مدينة (باماكو).

وتدّعي أسرة (كيتا) أنها تنتمي إلى بلال الحبشي، وليس هناك ما يُؤيّد هذا الادعاء، ولكن لم يكن هذا إلا للارتباط بنسبٍ مع أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣ ــ دولة البمبارا:

البمبارا جماعة من الماندينغ تُقيم في حوض نهر باني أحد روافد نهر النيجر في مجراه الأعلى، وعندما ضعفت دولة مالي، وقامت دولة صنغاي

استطاع البمبارا أن يُؤسّسوا إمارةً في سيغـو، واستطاعت هـذه الإمارة أن تتخلّص من سيادة إمارة (تومبوكتو) عام ١٠٧١ هـ، ثم فرضت عليها الجزية عـام ١٠٨١ هـ، ثم امتدت شمـالاً إلى الصحراء، وجنـوباً إلى الغـابـة، واستطاع ملكها في العام نفسه أن يـطرد سلطان مالي (مـاما مغـان). ثم حدثت فتن انتقل الحكم إثرها إلى أسرة (ديارا) عـام ١١٦٤ هـ، وبقيت الإمارة حتى قضى عليها سلطان التكارنة الحاج عمر عام ١٢٧٨ هـ.

وأقام البمبارا إمارةً أخرى في (كاآرتا)، شمـال نهر (بـاكوي) أحـد روافد نهر السنغال، بل إن مؤسسي الإمارتين كانا أخوين، ووقع الخلاف بين الإمـارتين بانتصـار إمارة سيغـو، وعُرف حكـام إمارة (كـاآرتـا) بقلب (مساسي) الذي يُقابل لقب (منسي) في مملكة مالي. وأشهـر ملوك هذه الدولة (الماسا أبو بكر) الذي قابل عام ١٢١١ هـ المستعمر (منجوبارك)، وكان آخرهم (كانديان) الذي كان مركز حكمه في (نيورو)، وانتهت الإمارة عام ١٢٧٧ هـ على يد سلطان التكارنة الحاج عمر.

٤ ـ دولة ساموري توري:

بعد زوال إمارتي البمبارا بقي الماندينغ منقسمين على أنفسهم، وظهر فيهم ساموري توري عام ١٢٧٧ هـ أي في العـام الذي زالت فيـه إمارة البمبارا في (كاآرتا)، فجمع قبائل الماندينغ مدة عشرين سنة من ١٢٨٧ - ١٣٠٧ هـ، ووحّد صفوفهم إذ كـانوا متفـرقين جنوب دولـة التكارنـة التي يقودها الحاج عمر.

اتخذ ساموري توري لقب إمام، وقاوم الفرنسيين مدة ستة عشر عاماً ١٣٠٠ - ١٣١٦ هـ، وانتصر أخيراً الفرنسيون، ودخلوا «سيغو» و«تومبوكتو» عام ١٣١٠ هـ، فاضطر ساموري توري إلى الالتجاء إلى أعالي نهر الفولتا، واستمرّ في مقاومـة الفرنسيين حتى أُلقي القبض عليـه عام ١٣١٦ هـ في شمال ساحل العاج، وحُمل إلى الغابون حيث توفي هناك عام ١٣١٨ هـ.

وإضافة إلى ممالك الماندينـغ التي قـامت على أراضي دولة مـالي

الحديثة قامت ممالك أخرى أسّستها قبائل ثانية، وأشهر هذه الممالك:

١ ـ امبراطورية الصوصو:

هاجرت جماعة من الفولانيين من بلاد التكرور، واتجهت نحو الشرق، واستقرّت في منطقة «كانياغا»، واستطاعت بعد مدة أن تُؤسّس أسرةً حاكمةً، حكمت شعب الصوصو، وعُرفت باسم «امبراطورية الصوصو». لقد استقلت في «كانياغا» عندما دخل المرابطون امبراطورية غانا، ثم طمعت هذه الدولة الناشئة في أملاك امبراطورية غانا، وتمكّنت من ضمّها إليها، كما استطاعت تدمير مدينة «كومبي صالح» التي هرب منها المسلمون والتجار، والتجؤوا إلى مدينة ولاتة (في موريتانيا اليوم)، والتي غدت سوقاً تجارياً تعدّ من أهم مراكز الصحراء.

وهاجمت بعدئذٍ دولة الماندينغ وقضت عليها في «كانغايا» ولكن لم تلبث هذه من أن تعود إلى الظهور بعد خمس سنوات من سقوطها، وأن تقضي على امبراطورية الصوصو التي لم تدم أكثر من ثلث قرن (٦٠٠ - ٦٣٣ هـ).

٢ ـ امبراطورية الصنغاي:

الصنغاي مجموعة من القبائل الزنجية كانت تعيش في غرب نهر النيجر الأسفل، في المنطقة الواقعة اليوم شمال بنين، وغربي نيجيريا إلى الغرب من نهر النيجر، ثم أخذت هذه القبائل تنتقل إلى الشمال مع مجرى نهر النيجر حتى استقرّت في القرن الأول الهجري في (غاو) في دولة مالي الحديثة اليوم، وفي وادي النيجر مع مجرى النهر، وحول مدينة أغاديس في الداخل.

وفي الوقت نفسه جاءت من الشمال جماعات من قبيلة لمتونة البربرية إلى تلك الجهات، واستطاعت أن تُقيم حكومةً فرضت سيطرتها على قبائل تلك المناطق من الصنغاي. وقد انتقلت العاصمة مع التنقّل نحو الشمال، فكانت في (دندي) في أول الأمر، ثم في (كوكو)، ثم استقرّت في (غاو).

بسطت مملكة مالي نفوذها على دولة الصنغـاي في منتصف القرن السابع الهجري، أيام منسي علي بن ماري جاطه، وأخذت منها عدداً من الرهائن لضمان خضوعهـا، وكان من هـذه الرهـائن ولدا ملك الصنغـاي (زاياسبي) وهما (علي كولن)، و(سليمان نار)، وهما طفلان صغيران.

وشبّت الرهائن، وتمكّنت من الفرار من مقرّ مملكة مالي، واتجهت نحو (غاو) وأنقذتها من الحامية الماندينغيـة، وأسّس (علي كولن) وأخـوه (سليمان نار) مملكةً جديدةً عام ٧٤٠ هـ، في عهد (مغان الأول)، وحكم علي كولن المكملة الناشئة، ولم يطل عهده إذ كان كبير السن، فخلفه أخوه سليمـان نار، ولكن لم تلبث أن عـادت سيـادة مملكـة مـالي على دولـة الصنغاي.

رجع الضعف يدبّ في مملكة مالي، وبدأت القبضة الماندينغيـة تتراخى عن المناطق الشرقية، وفي عهد ملك مالي (موسى الثاني) سار وزيره ماري جاطه إلى المناطـق الشرقية، ومع أنه استطاع أن يتجاوز مدينة (غاو) إلا أنه لم يدخلها.

وفي عـام ٨٢٣ هـ قام ملك الصنغـاي (محمد دوغـو) بحملةٍ ضـدّ مملكة مالي، فأخضع قبائل البمبـارا، وثبّت دعائم حكمـه، وتخلّص من سيطرة مملكة مالي التي كانت في مرحلة من الضعف، وتكاد تقتصر على منطقة (كانغابا)، وتوفي محمد دوغو عام ٨٦٩ هـ فخلفه ابنـه (مسناعلي) الذي يُعدّ مؤسّس امبراطورية الصنغاي، إذ استطاع الاستيلاء على مـدينة (تومبوكتو) عام ٨٧٣ هـ، وطرد الطوارق منها، وحرق أكثر أحيائها، وقتل قسماً من أهلها، ثم أخضع منطقة النيجر، واستولى على مدينة (جني) عام ٨٧٥ هـ، كما سيطر على منطقة (ياتنغا) مقـر قبائـل الموش غيـر أنه لم يستطع إخضاع هـذه القبائـل له تمـاماً. وتـوسّعت مملكته حتى أصبحت امبراطوريةً. وخافت مملكة مالي على نفسها فاستنجـدت بالعثمـانيين عام ٨٨٦ هـ.

وتوفي مسنا علي عام ٨٩٨ هـ، وخلفه ابنه أبو بكر، ولكن قواد أبيه ثاروا عليه، وتمكن القائد محمد بن أبي بكر الطوري من أن يهزم جند الملك، ولكن الملك أبا بكر قد توفي عام ٨٩٩ هـ، وانتقل الحكم من أسرة (زا) التي كانت هي المالكة إلى القائد محمد الذي تسلّم السلطة باسم (أسكيا محمد) فبلغت الدولة في عهده الأوج، وفي عام ٩٠١ هـ أدّى فريضة الحج، وعندما عاد أعلن الجهاد ضدّ قبائل (الموش) الزنجية الوثنية، وقد طلب منهم الإسلام، فلما أبوا قاتلهم، وانتصر عليهم، وتقدّم نحو الشمال حتى وصل إلى الصحراء، وتوسّع نحو الغرب فضمّ إليه ديار الماندينغ، والفولاني، ووصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، وامتدّ نفوذه نحو الشرق حتى وصل إلى بحيرة تشاد بعد أن ضمّ إليه إمارات الهاوسا.

وفي عام ٩٣٥ هـ قام أبناء (اسكيا محمد) وأجبروا أباهم على التخّلي عن الحكم لابنه موسى الذي سبق له أن نُفي إلى جزيرةٍ بعيدةٍ في نهر النيجر، ولكن موسى قُتل عام ٩٣٨ هـ، وتسلّم السلطة بعده أخوه (محمد بنكة)، واستمر حكمه حتى عام ٩٤٤ هـ، حيث عُزل وتولى مكانه أخوه (أسكيا إسماعيل) فحكم عامين، ثم أعاد أباه (أسكيا محمد)، وكان قد كُفّ بصره، ومات عام ٩٤٩ هـ.

ثارت مملكة مالي بعد الاستنجاد بالبرتغاليين غير أن هذه الثورة قد قُمعت بعنفٍ.

تولّى حكم مملكة الصنغاي عام ٩٥٠ هـ (اسكيا إسحاق)، وفي عهده ساءت العلاقة بين ملوك المغرب وملوك الصنغاي، وتولّى عام ٩٥٦ هـ (اسكيا داود)، وفي عهده عادت مملكة مالي إلى الثورة ضدّ الصنغاي، ولكنها هُزمت أمام حملةٍ أُرسلت إليها. وزادت العلاقة سوءاً مع ملوك المغرب، وبقي (اسكيا داود) بالحكم حتى عام ٩٩٠ هـ، وخلفه ابنه (اسكيا حاج محمد الثاني)، ودام بالسلطة مدة خمس سنوات، وبدأت المناوشات في عهده مع المغرب.

وفي عام ٩٩٥ هـ خلع (اسكيا حاج محمد الثاني) إخوته، وتولّى مكانه أخوه محمد الذي حكم ثلاث سنوات، وجاء بعده (اسكيا إسحاق الثاني)، وتردّت العلاقات في هذا العهد مع المغرب، فجاءت حملة مغربية، وانتصرت على الصنغاي في معركة (تندى)، واستولت على عاصمة الصنغاي (غاو).

جرت مفاوضات بين ملك الصنغاي وقائد الحملة المغربية انتهت بوقف القتال، ووضع شروط للصلح، غير أن ملك المغرب منصور السعدي قد رفض هذه الشروط، وتجدّد القتال بين الطرفين، وعادت الكرة بالهزيمة على قوات الصنغاي، فثار الشعب ضدّ حاكمه الذي فرّ من قاعدة ملكه، وقام بتسيير شؤون البلاد رئيس الديوان (محمد كاغ) الذي لم يلبث أن نصّب نفسه امبراطوراً، وتسمّى باسم (اسكيا) إلا أن الشعب لم يقبل به، فعيّنوا ملكاً عليهم هو (اسكيا نوح) عام ١٠٠٢ هـ، وبذا أصبح في البلاد ملكان أحدهما يقرّ بسيادة المغرب، والآخر لا يعترف بذلك، وحاول (اسكيا نوح) أن يبثّ روح المقاومة في أبناء البلاد، فألّف جيشاً قوياً، وبدأ بحرب المقاومة، واستطاع خلال أربع سنوات أن يُحقّق عدة انتصارات على المغاربة، وخاصةً أن الإمدادات قد توقّفت من المغرب إلى قواتها.

أرسل ملك المغرب عدة جيوش إلى الصنغاي الأمر الذي أجبر (اسكيا نوح) إلى الهرب ومغادرة البلاد، وانتهت البلاد بوفاته عام ١٠٠٤ هـ، وتفككت البلاد، وآل الحكم فيها إلى رجال القبائل، وعمّ الظلم، وانتشرت المجاعة، وبهذا انتهت امبراطورية الصنغاي.

إلى جانب هذه الممالك ظهرت على أرض دولة مالي الحديثة عدة إمارات ذات أهمية منها: إمارة لقبائل الفولاني في منطقة (ماسينا) على نهر النيجر جنوب (تومبوكتو)، وقد وجدت جماعة الفولاني في هذه البقعة منذ القرن الثامن الهجري، وظلّوا فيها إلى القرن الثالث عشر يُقرّون لملوك مالي بالسيادة عليهم، ثم خضعوا لباشوات تومبوكتو، وأخيراً لملوك البمبارا

في سيغو، وبدؤوا يدخلون بالإسلام في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وقاموا بحركةٍ من الجهاد ضدّ أبناء جنسهم من الوثنيين، فاستنجد الوثنيون بملوك البمبارا، غير أن المسلمين قد استطاعوا التغلّب، وهزموا جيش (سيغو) وأسّس الفولانيون مملكةً إسلاميةً في (ماسينا) عام ١٢٢٥ هـ حكمت المنطقة كلها.

وأقام التوكلور إمارة (فوتا جالون) في جنوب الحوض الأدنى لنهر السنغال في القرن التاسع حكمت المنطقة، وشملت أجزاء من أراضي دولة مالي اليوم، وظهر منهم عام ١٢٥٤ هـ الحاج عمر الذي وحّد السودان الغربي تحت سلطانه من (فوتا جالون) إلى (تومبوكتو)، وقام عام ١٢٧١ هـ بغزو بلاد (كاآرتا) فدانت له، وحاول التفاهم مع ملك الفولاني في (ماسينا) لغزو إمارة البمبارا في سيغو غير أن ملك الفولاني رفض ذلك، فاضطر الحاج عمر من التوجّه إلى الغرب ولكن الفرنسيين كانوا قد بسطوا نفوذهم على تلك الجهات فحالوا دون تقدّمه فأُجبر إلى التوجّه ثانيةً نحو الشرق، واحتلّ إمارة (سيغو) عام ١٢٧٨ هـ، وإمارة (ماسينا) عام ١٢٧٩ هـ، ثم تومبوكتو عام ١٢٨٠ هـ. ثم قامت هذه المناطق بثورة عليه انتهت بمقتله عام ١٢٨١ هـ.

وتنافس أبناء الحاج عمر فيما بينهم على السلطة، ودخلوا في حروبٍ، فكرههم الناس، وكان آخرهم الأمير أحمد الذي توفي عام ١٣١٦ هـ إثر هزيمة الفرنسيين له أثناء تقدّمهم نحو الشرق حيث وجدوا الطريق مُمهّدة أمامهم لاحتلال البلاد.

الاستعمار:

كانت مراكز المستعمرين الصليبيين على السواحل فلما ضعف أمر المسلمين في الداخل، وأخذت بعض الإمارات تستنجد بأعدائها في الساحل ضدّ بعضها الآخر فتحرّك عندها المستعمرون نحو الداخل باسم

التعرّف والاستطلاع في بداية الأمر، فلما رأوا الظروف مناسبةً لهم تدخّلوا مستعمرين.

كانت أولى الرحلات إلى الداخل موجهةً إلى حوض نهر النيجر عام ١٢١٠ هـ، وقد انطلقت من غامبيا مع مجرى نهر غامبيا، واستطاع رائد هذه الرحلة (منجوبارك) الوصول إلى مدينة (سيغو) على نهر النيجر، ثم توغّل إلى أبعد من ذلك في رحلته الثانية عام ١٢٢٠ هـ، ثم تعدّدت بعد ذلك الرحلات وبخاصةٍ الفرنسية منها إلى مناطق غربي إفريقية، ولم يكن هؤلاء الرحالة إلا رسل بلادهم للتعرّف على ثروات هذه الأرض وإمكانية استغلالها واستثمارها، وهكذا لم تكن هذه البعوث التي حملت الصفة العالمية إلا بداية حركةٍ استعماريةٍ واسعة النطاق للقارة الإفريقية. ولما تمّ لهؤلاء الرحالة التعرّف على البلاد، والكشف عن إمكاناتها وثرواتها بدأت مرحلة جديدة من النشاط في المنطقة، وهي مرحلة الاستيلاء، ثم الاستعمار بأسوأ صوره وأشكاله.

استطاعت فرنسا التوغّل إلى غربي إفريقية عن طريق نهري النيجر والسنغال والقضاء على دولة الحاج عمر عام ١٢٨١ هـ، وحركة ساموري توري عام ١٣١٦ هـ، وبسطت نفوذها على معظم السودان الغربي، وضمّت إلى قواتها العسكرية وحدات من القبائل الوثنية استعملتها لتحقيق أهدافها في القتال والاستعمار.

اضطر السكان إلى قبول الأمر الواقع نتيجة ضعفهم، ولكن مع الزمن لا بدّ من أن تكون هناك حركات مقاومة، ولا بدّ من أن تكون هناك تجمّعات للمطالبة ببعض الأمور كالمساواة والاستقلال. ووجدت التجمّعات السياسية، ولكن من الصعب أن يستطيع أيّ تجمّعٍ إفريقي التمتع بالبقاء في ظلّ القانون الذي وضعته الدولة الاستعمارية دون أن يتعرّض للحلّ أو الإلغاء فيما لو طلب انسحاب فرنسا المباشر من البلاد، لذلك عملت الأحزاب والحركات الوطنية الإفريقية في معظمها من الناحية العملية بين

فكرتين متضادتين:

الأولى: وكانت تُطالب بتصفية الاستعمار.

الثانية: وكانت ترى القبول بالأمر الواقع مع التعديل التدريجي الذي ترضى به الإدارة الفرنسية، ومن الأحزاب التي قامت في البلاد.

١ ــ حزب الاتحاد السوداني.

٢ ــ حزب التجمّع الديمقراطي الإفريقي: وكان في غربي إفريقيـة كله، حيث له فروع في مختلف المستعمرات الفرنسية في غربي إفريقية.

وتعرّضت إفريقية الفرنسيـة إلى عدة تغييـراتٍ في الحدود والأقسـام السياسية، وظلّت كل مستعمرةٍ خاضعةٍ لحاكمٍ فرنسيٍ عامٍ يتلقّى أوامره مباشرةً من وزير المستعمرات الفرنسي، ولكن لم تلبث أن ظهرت مفاسد هذا النظام لذلك فكّرت في جمع بعض المستعمرات في وحداتٍ اتحاديةٍ، ومن هذه الوحدات كانت إفريقية الغربية الفرنسية التي تضمّ: موريتانيـا ـ السنغال ـ غينيا ـ ساحل العاج ـ مالي ـ فولتا العليا ـ النيجر ـ داهومي.

وفي عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) شكلت فرنسا إقليماً في منطقة مالي، وسمي (السنغـال العليا والنيجـر)، ثم استُبدل هـذا الاسم عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م) وأصبح (السودان الفرنسي).

الفصل الأول

مالي من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ ـ ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ

٣ آذار ١٩٢٤ ـ ٢٠ حزيران ١٩٦٠ م

حملت منطقة مالي اليوم اسم «السودان الفرنسي» منذ عام ١٣٣٩ هـ، وتلك تسمية جغرافية بحتة، فالمناطق التي تقع بين خطي عرض ١٠ ـ ١٨° تعرف بالمناطق السودانية حسب لون سكانها، كما تسمى بمنطقة «السفانا» أي المراعي الطويلة، وذلك حسب نباتاتها، وتمتد بلاد مالي بين خطي عرض ١٠ ـ ٢٥° شمالاً أي أن معظم أرضها يقع ضمن النطاق السوداني، أما الجزء الباقي فيقع ضمن النطاق الصحراوي الذي يكون عادةً بين خطي عرض ١٨ ـ ٢٥°. ولما كان الجزء الشرقي من هذا النطاق يحمل اسم «السودان الإنكليزي» نسبةً إلى المستعمر الذي يُسيطر على هذا الجزء، لذا أُعطي الجزء الغربي اسم «السودان الفرنسي» أيضاً نسبةً إلى المستعمر الذي يتحكّم بهذا الجزء.

ونصّ دستور فرنسا عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) على قيام مجلسٍ عامٍ في كل اتحادٍ، وينتخب أعضاؤه من بين الجمعيات الإقليمية، وفي وحدات الاتحاد، وكانت قوانين الانتخاب معقدةً، وجرت الانتخابات الأولى، ونجح فيها الوطنيون الإفريقيون.

وعُدّل الدستور عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، وأصبح يقوم بجانب المجلس الوطني الإقليمي مجلس تنفيذي يُمثّل السلطة، ويرأس هذا

المجلس التنفيذي حاكم الإقليم الذي يُعيّن قسماً من المجلس بينما يتمّ أخذ القسم الثاني بالانتخاب.

وفي عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) عُقد مؤتمر في باماكو يضمّ أقاليم إفريقية الغربية كلها، وكان من مقرراته ضرورة اعتراف فرنسا بحقّ تقرير هذه الأقاليم لمصيرها، وخشي الفرنسيون من اندلاع الثورات، كما حدث في الجزائر التي كانت ثورتها مشتعلةً، فأصدر رئيس وزراء فرنسا (غي موليه) قانون الإصلاح الإداري، ويقضي بإجراء انتخاباتٍ في كل إقليمٍ لتأليف جميعاتٍ عامةٍ تتولى تشكيل الوزارة.

وجاء ديغول إلى حكم فرنسا عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)، وعمل على الحفاظ على مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار، فعرض دستوراً، وأعطى حريةً لكل إقليمٍ أن يُصوّت على الدستور بالقبول أو الرفض، وينصّ هذا الدستور على أن الإقليم الذي يُوافق على الدستور يصبح عضواً في مجموعة الشعوب الفرنسية، ويُشكّل حكومةً محليةً، ويتمتع بالاستقلال الداخلي، على أن تكون السلطة المركزية لفرنسا في الدفاع، والاقتصاد، والشؤون الخارجية. كما يمكن أن يتمّ اتحاد بين إقليمين أو عضوين في المجموعة الفرنسية. أما الأقاليم التي ترفض الدستور الديغولي فتحصل على الاستقلال التام، وعندها تقطع فرنسا عنها مباشرةً كل معونةٍ فنيةً كانت أم ماديةً أم إداريةً، ولكن صحب الاستفتاء على الدستور أنواع من التهديدات والوعود حتى أن القسم الكبير من السكان قد قاطع الاستفتاء، ولهذا كانت النتيجة قبول دستور ديغول في أغلب الأقاليم، ومنها مالي. وتكونت نتيجة ذلك جمهورية مالي ذات الاستقلال الذاتي ضمن المجموعة الفرنسية، وأُلغيت وظيفة الحاكم العام، وتشكلت وزارة «موديبو كيتا».

وفي شهر شوال ١٣٧٨ هـ (نيسان ١٩٥٩ م) تمّ اتحاد بين السودان الفرنسي والسنغال أُطلق عليه اسم مالي رمزاً لمملكة مالي القديمة، وانتخب «موديبو كيتا» رئيساً لهذا الاتحاد، وحصل الاتحاد على الاستقلال

ضمن المجموعة الفرنسية عام ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠ م).

لم يلبث هذا الاتحاد أن انحلّ بعد ثلاثة أشهرٍ من قيامه بسبب خلافاتٍ في السياسة، فأعلن السودان الغربي نفسه جمهوريةً مستقلةً استقلالاً تاماً في ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ (٢٠ حزيران ١٩٦٠ م) مع الاحتفاظ باسم «مالي»، وانتخب «موديبو كيتا» رئيس حزب الاتحاد السوداني رئيساً للجمهورية بالإجماع. وتمّ الإعلان عن جمهورية مالي بدلاً من اتحاد مالي في غرة ربيع الثاني ١٣٨٠ هـ (٢٢ أيلول ١٩٦٠ م). وينتمي «موديبو كيتا» إلى أسرة «كيتا» التي أسّست امبراطورية مالي أيام «ماري جاطه» بعد أن قضى «الصوصو» على مملكة مالي وأسرة «كيتا» بالذات، وكان لهذا الانتماء أثره في نفوس سكان المنطقة، وبدأ حكم امبراطورية مالي عام ٦٣٣ هـ.

الفصل الثاني

الاستقلال

٢٦ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ - ......
٢٠ حزيران ١٩٦٠ م - ......

نهج «موديبو كيتا» سياسةً مركزيةً استبداديةً، وفصل باستقلاله بين بلدان إفريقية الغربية الفرنسية التي كانت من قبل متصلةً بعضها مع بعضٍ.

انسحبت مالي من المنطقة العسكرية الفرنسية في عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، ووطّدت علاقاتها مع روسيا ومجموعة الكتلة الشيوعية الأخرى، غير أن التضخم المالي المتزايد، وموضوع التهريب ضمن حدودها الصحراوية الطويلة كانا العاملين الأساسيين في عودة مالي إلى المنطقة التي سبق لها أن تركتها، لقد انخفضت عملتها إلى ٥٠ ٪ من قيمتها الأصلية، واستخدمت عملة إفريقية الغربية منذ عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) غير أنها لم تندمج تماماً ضمن اتحاد النقد الإفريقي الغربي إلا في عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م).

جرت الانتخابات في ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٣ هـ (١٢ نيسان ١٩٦٤ م) لأعضاء المجلس الوطني، وأعقب ذلك قيام تطهيرات داخل حزب الاتحاد السوداني الحاكم، وضمن الإدارة العامة، وأُلقي القبض على عدة مسؤولين. وفي ٢٨ شعبان ١٣٨٨ هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٦٨ م) قاد الملازم الأول موسى تراوري انقلاباً عسكرياً ضدّ نظام «موديبو كيتا» الذي كان يقوم بنزهةٍ في مركبٍ شراعي بنهر النيجر، ولدى عودته إلى الشاطىء

أُلقي القبض عليه من قبل الانقلابيين الذين كانوا بانتظاره. وتولّت الحكم لجنة عسكرية تضمّ أربعة عشر ضابطاً، وتولّى النقيب «يورودياكيتي» رئاسة الـوزراء في غرة شهـر رمضان ١٣٨٨ هـ (٢١ تشـرين الثاني ١٩٦٨ م). وأطلقت اللجنة العسكرية على نفسها اسم «لجنة التحرير الوطني»، ووعدت بالعودة إلى الحياة النيابية، وتسليم السلطة إلى المدنيين عندما تتمكّن من التغلب على المصاعب الاقتصادية.

ونصّب مـوسى تراوري نفسـه رئيسـاً للجمهـوريـة في ١٦ رمضـان ١٣٨٨ هـ (٦ كانون الأول ١٩٦٨ م)، وطالبت بعض الهيئات بالحياة النيابية فكان الردّ قاسياً إذ عُطّل الدستور، وتمّ الحظر على الهيئات السياسية كلها. وفي رجب ١٣٨٩ هـ (أيلول ١٩٦٩ م) تمّت إزاحة «يوردياكيتي» من رئاسة الحكومة، وحـلّ مكانـه على رأس حكومـةٍ جديـدةٍ الرئيس نفسـه موسى تراوري.

وفي ربيع الأول ١٣٩٤ هـ (نيسان ١٩٧٤ م) أصدرت لجنة التحرير الوطني دستوراً جديداً، واقترحت إنشاء حزبٍ واحدٍ للدولة مع إبقاء الحكم العسكري لمرحلةٍ انتقاليةٍ مدتها خمس سنواتٍ، واعتُمد الدستور في جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ (حزيران ١٩٧٤ م).

وفي رمضـان ١٣٩٦ هـ (أيلول ١٩٧٦ م) اقتـرحت لجنـة التحـريـر الوطني أن يكون الحزب المزمع إنشاؤه هـو الاتحاد الـديمقراطي الشعبي المالي، ولكن قامت معارضة نشطة من السياسيين الذين برزوا قبل انقلاب ١٣٨٨ هـ والذين حظر عليهم النشاط، وقام الـطلاب بمظاهـراتٍ عدائيـةٍ للحكم، دعوا إلى التعددية الحزبية، كما قامت مظاهرات بعد موت الرئيس السابق «موديبو كيتا» في السجن عام ١٣٩٧ هـ(١٩٧٧ م).

وكانت هناك مقاومة داخل الجيش لعودة الحكم المدني، وفي ربيع الأول ١٣٩٨ هـ (شباط ١٩٧٨ م). أُلقي القبض على أربعة ضباطٍ أعضاء في لجنة التحرير الوطني كانوا يرون اتخاذ القمع العسكري وسيلةً للقضاء

على المعارضة، كما أُلقي القبض على اثنين وثلاثين آخرين من كبار رجال الشرطة والقوات المسلحة، وقد اتهموا بالعمل على تقويض أمن الدولة، والفساد، وقضت المحكمة بحكم الإعدام على اثنين من المتهمين وذلك في شهر شوال من عام ١٣٩٨ هـ (أيلول ١٩٧٨ م)، وإن كان قد خُفِّف الحكم عن أحدهما إلى السجن مدة عشر سنواتٍ مع الأشغال الشاقة، كما أن خمسةً وعشرين من المتهمين قد حكم عليهم بالسجن مدداً مختلفةً.

أُعيد تشكيل الوزارة في جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (أيار ١٩٧٨ م)، وضمّت الوزارة خمسة عشر وزيراً، بينهم تسعة من المدنيين والباقي من العسكريين.

وظهر تنظيم حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي المالي في ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (آذار ١٩٧٩ م)، وجرت الانتخابات الرئاسية والتشريعية في رجب ١٣٩٩ هـ (حزيران ١٩٧٩ م)، وكان الرئيس موسى تراوري هو المرشح الوحيد، وقد انتُخب لمدة خمس سنواتٍ، وأُشيع أنه حصل على ٩٩ ٪ من مجموع الأصوات. وكذلك كانت قائمة مرشحي حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي المالي هي الوحيدة، وتضمّ اثنين وثمانين مرشحاً، وهو عدد مقاعد المجلس الوطني، وتمّ الانتخاب بشكلٍ مُشابهٍ لانتخاب الرئيس لمدة أربع سنواتٍ.

وفي صفر من عام ١٤٠٠ هـ (كانون الثاني ١٩٨٠ م) حلّت الحكومة اتحاد الطلاب، ورفضت أن تعدّه فرعاً من فروع حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي، وذلك بعد احتجاجات الطلاب على طريقة الامتحانات، وعلى المنح الدراسية، وشكّلت الحكومة كبديلٍ عن اتحاد الطلاب لجاناً من حركة شباب الحزب في المؤسسات التعليمية، وتمّ احتجاز المئات من الطلبة، وفي جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ (آذار ١٩٨٠ م) توفي رئيس اتحاد الطلاب في السجن، ونتج عن ذلك حوادث شغبٍ واحتجاجات، وأغلقت المؤسّسات التعليمية أبوابها أكثر أيام السنة الدراسية.

وفي شهر صفر من عام ١٤٠١ هـ (كانون الأول ١٩٨٠ م)أعلن عن اكتشاف مؤامرةً للإطاحة بالحكومة، وتمّ إلقاء القبض على كثيرٍ من كبار ضباط الجيش، وأحيلوا إلى المحكمة التي قضت على ثلاثةٍ منهم بحكم الموت.

إن تبنّي الملحق الدستوري في ذي القعدة ١٤٠١ هـ (أيلول ١٩٨١ م) قد زاد من مدة المكتب الرئاسي إلى ست سنواتٍ، على حين انخفضت مدة المجلس الوطني إلى ثلاث سنواتٍ.

وجرت انتخابات المجلس الوطني في شعبان ١٤٠٢ هـ (حزيران ١٩٨٢ م) وفي رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م)، وفازت قائمة مرشحي حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي دون منازعٍ إذا لم يكن سواها مرشح آخر، وأثناء انعقاد مؤتمر الحزب العادي الثاني في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م) أُعيد انتخاب الرئيس موسى تراوري كأمين عام للحزب بموافقة المؤتمر على الملحق الدستوري، وسمح بذلك لقائد الحزب بإعادة انتخابه للرئاسة أكثر من مرةٍ.

وعند انتخابات الرئاسة في رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م) أُعيد انتخاب الرئيس لمرحلةٍ انتخابيةٍ ثانيةٍ، وأُشيع أن حصل على ٩٩,٩٤ ٪ من مجموع الأصوات.

وفي شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) أعاد الرئيس موسى تراوري إعادة تنظيم الحكومة فسلّم منصب وزارة الدفاع إلى أقرب الناس إليه العقيد سيكولي، وعيّن ممدوح ديمبلي وزير الصحة والشؤون الاجتماعية في مكتب رئيس مجلس الوزراء الذي أُعيد إنشاؤه. ثم عاد فألغى هذا المكتب في ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيران ١٩٨٨ م)، ورجع ممدوح ديمبلي إلى منصبه السابق كوزير للصحة والشؤون الاجتماعية. وجرت في الشهر نفسه انتخابات المجلس الوطني فحصلت قائمة الحزب على ٩٨,٥٦ ٪ من مجموع الأصوات، ودخل المجلس أربعون عضواً جديداً.

وفي شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م) تمّ إنشاء لجنة ضدّ الفساد بناءً على توصيةٍ من مؤتمرٍ الحزب غير العادي، والذي أُذيع باسم «بيان التوجيهات الوطنية»، وقد قضت المحكمة الخاصة لأمن الدولة بالحكم بالإعدام على تسعة أشخاص بعد محاكمة ٤٧٠ رجلاً اتهموا باختلاس الأموال العامة، وكان الحكم في ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م)، وفي حكم آخر صدر في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) حكم على أربعةٍ آخرين بالموت، وتلقّى ثلاثون آخرون أحكاماً بالسجن بعد أن اتهموا اتهاماتٍ مماثلةٍ.

يبدو أن الشعب لم يكن مرتاحاً للإجراءات التي قامت بها الحكومة، وخاصةً بدا هذا واضحاً بين الطلبة، والمدرسين، والعمال المدنيين، وأحسّت الحكومة بما يدور في الأوساط الشعبية، فتدارست الوضع، وقُدّمت اقتراحات لإعادة تنظيم مؤسسات الدولة فأدّت هذه الاقتراحات إلى ظهور انقسامات داخل الحكومة.

وفي شهر صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) أعلن الرئيس موسى تراوري عن إغلاق سجن «تودويني» وتخفيف الأحكام الصادرة بحق السجناء. وفي الذكرى العشرين لتولّي موسى تراوري رئاسة الجمهورية أي في ٢٧ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (٦ كانون الأول ١٩٨٨ م) أعلن الرئيس عن إطلاق سراح ٧٨ سجيناً، كان من بينهم بعض السياسيين الذين اتهموا بالتورّط في محاولة الانقلاب عام (١٩٨٠ م)، كما صدر عفو آخر عن ٢٣٧ سجيناً. وفي ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) أعلنت لجنة العفو الدولية التابعة لمنظمة حقوق الإنسان أن أربعة أعضاء من اتحاد الطلاب غير الرسمي قد سُجنوا وعُذبوا دون محاكمة.

وأُعيد تشكيل الحكومة من جديد في أواخر عام ١٤٠٩ هـ (أواسط عام ١٩٨٩ م)، فأُبعد عن الوزارة وزير الخارجية والتعاون الدولي «موديبو كيتا» (غير الرئيس السابق)، ووزير الصحة والشؤون الاجتماعية

ممدوح ديمبلي، وخمسة وزراء آخـرون، وعيّن مكانهم أربعـة وزراء من المقربين إلى الرئيس.

العلاقة مع الدول المجاورة:

كان هناك نزاع إقليمي منذ مدةٍ طويلةٍ بين مالي وبوركينا فاسو على شـريطٍ حدوديٍ يمتـدّ على طـول ١٦٠ كيلومتـراً في منـطقـة «أغـاشيـه» (Agacher)، ويُشاع أن هذه المنطقة تحـوي كمياتٍ كبيـرةٍ من المعادن الثمينة. واشتدّ الصراع حول هذه النقطـة فأدّى إلى قتالٍ بين الطرفين نشب في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م)، واشتبكت قوات البلدين بعضهما مع بعضٍ، واستمرّ القتال ستـة أيامٍ، وذهب ضحيتـه خمسون رجـلاً، ورفع الأمـر إلى محكمة العـدل الدوليـة التي طلبت من الطرفين سحب قواتهما من منطقة النـزاع. وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كـانون الثـاني ١٩٨٦ م) تمّت اجتماعـات طارئـة وافق إثرهـا الرئيسـان: مـوسى تراوري، وتوماس سانغـارا على المصالحـة، وسحب جيشهما من منـطقة «أغاشيه» واستؤنفت العلاقات السياسية بين البلدين في شوال عام ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م)، وقبلا حكم محكمة العدل الدولية النهائي في ربيـع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م)، والذي قضى بمنـح كل طـرفٍ نصف المنطقة المتنازع عليها.

وفي رمضان ١٤١١ هـ (آذار ١٩٩١ م) أطاح (أحمدو توماني ثوري) بحكم موسى تراوري، وتسلّم السلطة مكانه.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

مـالي إحدى دول إفـريقيـة الكبـرى مسـاحـةً حيث تبلغ مسـاحتهـا ١,٢٤٠,٠٠٠ كيلومتراً مربعـاً، وهي دولة داخليـة فلا تشـرف على البحر، وتشغل الصحراء جـزءاً غير قليـلٍ منها، وكـانت حدودهـا طويلة لاتسـاع المساحة، وشبه مستقيمة فى المناطق الصحراوية أي في المناطق الشمالية.

يبلغ طـول حدودهـا ٧,٢٤٣ كيلومتراً منهـا: ٢,٢٣٧ كيلومتـراً مـع موريتانيا، و١,٣٧٦ كيلومتراً مـع الجزائـر، و ٨٢١ كيلومتراً مـع النيجر، و ١,٠٠٠ كيلومتراً مع بوركينا فاسو، و٥٣٢ كيلومتـراً مع سـاحل العـاج، و٨٥٨ كيلومتراً مع غينيا، و ٤١٩ كيلومتراً مع السنغال.

ويبلغ عـدد سكانهـا حسب تقديـرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) ثمـانيـة مـلايين وتسعمائـة ألف إنسان، وبـذا تكون الكثـافة سبعـة أشخاصٍ في الكيلومتر المربع الواحد، فهي من الكثافات القليلة في العالم، وهي تقلّ في الشمـال حيث تغطي الصحـراء مساحـاتٍ واسعـةً، وتـزداد نسبيـاً في الجنوب لزيادة الأمطار السودانية في الصيف الأمر الذي تتوفّر فيه الأعشاب الطويلة، والأدغال، وحيث تجري الأنهار التي تكـون غزيـرةً في الجنوب لزيادة الأمطار، وهذا ما يجعلها تتمكّن من اجتياز الصحراء، وإيجاد واحةٍ طويلةٍ على طول مجاريها، وإقامة حياةٍ مستقرةٍ حضريةٍ.

الصراع العنصري:

يُقيم على أرض مالي عدة مجموعاتٍ بشريةٍ منها:

١ ـ **الماندينغ**: وهم مجموعة الشعوب التي تتكلم لغة الماندي، ومنها الماندي، والسوننكي، والساراكوليه، والديولا، والبوزو، وكلها فروع مسلمةً، والبامبارا، والكاسونكا، والجالونك، وأكثرية هذه الفروع وثنية، وإن كانت قلةً قليلةً، وتشكل الفروع كلها ٤٠ ٪ من مجموع سكان مالي، ويعدّون أنموذجاً للزنوج.

٢ ـ **الصنغاي**: وهم زنوج يعيشون عند ثنية نهر النيجر من موبتي، وتومبوكتو، وإلى غاو، وتُقدّر نسبتهم ١٢ ٪ من سكان مالي، ويعمل أكثرهم بصيد السمك، وأكثرهم من المسلمين.

٣ ـ **الفولاني**: وقد جاءوا من الشمال ويشكلون ١٠ ٪ من السكان، وجميعهم من المسلمين.

٤ ـ **البرنو**: وجاءوا من نيجيريا، وهم من المسلمين.

٥ ـ **التوكلور**: وجاءوا من الغرب من منطقة السنغال، وهم من المسلمين.

٦ ـ **الموش**: قبائل في الجنوب، قرب حدود بوركينافاسو حيث تنتشر هذه القبائل، ولا يزال بعضها على الوثنية، وتعمل بالزراعة.

٧ ـ **السينوفو**: وتشكل هذه القبائل ٣,٥ ٪ من مجموع سكان مالي، وتنتشر في أعالي نهر النيجر، وأعالي نهر الفولتا.

٨ ـ **الماركاكا**: وتشكل ٦ ٪ من مجموع السكان.

٩ ـ **الدوجون**: وتشكل ٣,٥ ٪ من مجموع السكان.

١٠ ـ **الطوارق**: ويعرفون بالملثّمين، وديارهم في الصحراء الشمالية الغربية، وهم عدة مجموعات من العشائر، ويُضاف اسم المكان الذي

تعيش فيه المجموعة إلى كلمة (كل) وتعني أهل أو قوم، مثل: (كل انتصار) للذين يعيشون حول مدينة تومبوكتو. والطوارق مجموعتان:

أ ـ المجموعة الشمالية، وتعيش في الصحراء، وتربي الأغنام والإبل.

ب ـ المجموعة الجنوبية، وتعيش في الجنوب في منطقة المراعي، وتربي الأبقار.

١١ ـ **العرب**: وتعيش مجموعة من العرب حول مدينة تومبوكتو، إضافةً إلى الذين ينتشرون في الصحراء وواحاتها.

كان الصراع بين المجموعات البشرية كبيراً قبل مجيء المستعمرين الصليبيين حتى كان بين بطون المجموعة الواحدة، وهذا ما لاحظناه في تأسيس الامبراطوريات والممالك. فلما جاء الأوروبيون غزاةً توحّدت جهود السكان، ووقفوا صفاً أمام الدخلاء، وكان الصراع عنيفاً حتى تغلّبت الكثرة، والقوة، والسلاح، والنظام، وسيطر المستعمرون الصليبيون، وأخضعوا البلاد لسياستهم الاستعمارية، ونتيجة ما لحق أبناء البلاد من فقرٍ، وجهلٍ، ومرضٍ، وذلٍ، وضغطٍ تمكّن المستعمرون من ضمّ فئةٍ من السكان إلى جانبهم، وهم من أصحاب المصالح، والأهواء، ومن ضعاف النفوس، حتى لم يستطيعوا كسبها إلى جانبهم إلا بعد أن جرّدوها من عقيدتها، وذلك حسب مخططٍ مرسومٍ، ثم سلّموا السلطة إلى هذه الفئة، وانسحبوا هم من الساحة مصلحةً لهم، وسياسةً لبلادهم.

أخذ الصراع بين هذه الفئة التي تسلّطت على الرعية وبين الرعية نفسها، وحسب المخطط المرسوم فقد كان المتسلّطون يشنّون حرباً خفيةً على الدين الإسلامي، وأهله، ولغته العربية، ولا شك أن العربية والإسلام قد جاءا من الشمال، ولهذا بدأ الحرب على الشماليين الذين يمثّلهم العرب، والطوارق، إذ هم الذين حملوا الإسلام والعربية إلى مالي.

يُقيم أكثر العرب، والطوارق في المنطقة الشمالية الغربية المعروفة

باسم «أزواد»، والتي أشهر مدنها: «ليرا»، و«قاوا» و«منكا» و«الرنب» و«لامبارا».

واشترطت فرنسا الدولة المستعمرة للتخلّي عن منطقة أزواد انضمامها إلى مالي في سبيل إبعادها عن المناطق العربية.

ولما استقلّت الجزائر عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) تشكّلت جبهة تحرير أزواد، وقد شكّلها محمد بن محمود بن الشيخ، وقد ضمّت أعداداً من العرب، ومن الطوارق، لكنها انقسمت فكانت الجبهة العربية الإسلامية لتحرير أزواد، وأكثر أعضائها من العرب، وكانت الجبهة الشعبية لتحرير أزواد، ومعظم أفرادها من الطوارق.

أُلقي القبض على محمد بن محمود بن الشيخ وأُودع السجن، واستمرّ في حبسه حتى أطلق سراحه موسى تراوري عندما تسلّم السلطة في ١٦ رمضان ١٣٨٨ هـ (٦ كانون الأول ١٩٦٨ م)، وذلك لأسبابٍ سياسيةٍ، وكانت الجبهة قد ضعفت، وانكمشت، ثم زالت.

عادت الجبهة إلى الظهور من جديدٍ في بداية شهر ربيع الثاني من عام ١٤٠٢ هـ (مطلع عام ١٩٨٢ م)، على يد أبي بكر الصديق، الذي أُلقي القبض عليه بعد مدةٍ غير أنه تمكّن من الفرار، وانتقل إلى موريتانيا، وأخذت الجبهة في التدريب العسكري، والاستعداد للقتال، وكانت أول عملياتها ضدّ حكومة مالي في مدينة «ليرا» بتاريخ ١١ صفر ١٤٠٩ هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٨ م). والأمين العام للجبهة هو (إياد آغ غالي)، وتعدّدت عمليات الجبهة، وهذا ما دعا إلى إيجاد حلّ لها، يقضي عليها، أو يحدّ من نشاطها.

التقى رؤساء دول مالي، والجزائر، وليبيا: موسى تراوري، والشاذلي بن جديد، ومعمر القذافي في جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م)، وقد دعا معمر القذافي قبائل الطوارق للإقامة في ليبيا.

وتُطالب الجبهة بـ:

١ ـ الحكم الذاتي لمنطقة أزواد.

٢ ـ انسحاب جزئي للقوات المالية من المنطقة.

٣ ـ منصب وزير في الحكومة المركزية في باماكو.

وفي ٢١ جمادى الآخرة ١٤١١ هـ (٧ كانون الثاني ١٩٩١ م) جرى لقاء بين الرئيس موسى تراوري وممثلي الجبهة تحت إشراف الجزائر وذلك في مدينة «تامانراست» في جنوبي الجزائر، وتمّ التوقيع على اتفاقيةٍ، ولكن بعد شهرين أُطيح بنظام موسى تراوري بانقلابٍ عسكريٍ، وجاء إلى السلطة (أحمدو توماني ثوري) الذي ينتمي إلى قبيلة «الكوروبرو» التي تُعادي العرب والطوارق. ووقعت مذابح في تومبوكتو في ١٩ شوال ١٤١١ هـ (٣ أيار ١٩٩١ م).

وتتهم مالي جارتها موريتانيا في مساعدة جبهة تحرير أزواد، وإيوائهم.

الصراع العقيدي:

يُشكل المسلمون ٩٣ ٪ من مجموع سكان البلاد، وهم معظم القبائل.

وتصل نسبة الوثنيين إلى ٦ ٪ من مجموع السكان، وأكثرهم من قبائل الجنوب، وفي الغابات في أعالي نهر النيجر.

أما النصارى فلا تزيد نسبتهم على ١ ٪ وهم الذين استطاع المستعمرون الصليبيون والإرساليات التنصيرية التأثير عليهم بتحقيق مصالحهم، وأهوائهم، وشهواتهم. ويخضع أكثر النصارى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وفي مالي كاتدرائية واحدة وخمسة كنائس. وكان يُقدّر عدد النصارى في ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (٣١ كانون الأول ١٩٨٨ م) ٦٥,٢٦٦ إنسان، وهو ما يعادل ٠,٩ ٪ من مجموع السكان، حسب تقديرات الإرساليات التنصيرية التي تعتمدها الأمم المتحدة.

وهناك مراكز تنصير أخرى للبروتستانت تسيطر عليها المؤسسات الأمريكية، وتخضع لإدارتين، ويُقدّر عدد البروتستانت بـ (٣٧٠) نصرانياً.

ولما كان المسلمون يُشكّلون الغالبية العظمى من السكان لذا لا يمكن أن يكون هناك صراع عقيدي صريح، ولكن عندما جاء المستعمرون الصليبيون عملوا على بثّ النصرانية بين الوثنيين، وقرّبوهم إليهم، وقدّموهم على المسلمين، ولعبت الإرساليات التنصيرية دوراً كبيراً في هذا، واستطاعت أن تحصل على بعض النجاح، حيث كسبت بعض الجماعات منهم بالإغراءات، وعملت على إبعاد بعض المسلمين عن عقيدتهم، عن طريق المال والجنس، ولم تستطع تنصيرهم، وعمل هؤلاء الأعوان جميعاً، ودعمتهم الكنائس، وأيّدهم المستعمرون وأخذوا يعملون ضدّ الإسلام بصورةٍ خفيةٍ بالإشاعة، واللهو، وبوضع المناهج العلمانية و. . .

وقام رئيس النصارى البابا يوحنا بولس الثاني بزيارة بلاد مالي، وخطب في باماكو يوم ١٧ رجب ١٤١٠ هـ (١٢ شباط ١٩٩٠ م) ورحّب بالنشاط النصراني الذي دخل البلاد عام ١٩١٥ م.

الصراع الحزبي:

لم يكن هناك صراع حزبي بالمعنى المعروف، إذ أن السائد قيام حزبٍ واحدٍ، هو الحزب الحاكم، ففي أول الأمر كان حزب الاتحاد السوداني الذي تزعّمه موديبو كيتا، وكان فرعاً من حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي الذي أسّسه (فيلكس هوفويه بوانيه) في ساحل العاج. وكان حزب الاتحاد السوداني هو المسيطر على المنظمات والجماعات كافةً في مالي.

ولما وقع الانقلاب الأول بقيادة موسى تراوري في ٢٨ شعبان ١٣٨٨ هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٦٨ م) حُلَّ الحزب، والمنظمات، والمؤسسات كافةً التي تتبع الحزب السابق، وبرزت لجنة التحرير الوطني العسكرية، ثم أنشأت السلطة حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي المالي في ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (آذار ١٩٧٩ م)، وبقي الحزب الوحيد، والمهيمن

على المجلس الوطني الذي يضم مائة عضو، وعلى المكتب التنفيذي الذي يشمل ثمانية عشر عضواً، ويُدار الحزب مباشرة من قبل أمينه العام رئيس الدولة موسى تراوري، وهو وحده صاحب القرار في كل شأن.

كما يوجد الاتحاد النسائي الوطني المالي الذي ترأسه السيدة سوروكياتو، وتشغل منصب الأمين العام فيه مساران كوناتي ديكو.

وهناك اتحاد الشباب الوطني المالي، وهي حركة شباب، ويشغل منصب الأمين العام أحمد داود داديالو. وهذان الاتحادان ليسا سوى بعض منظمات الحزب الحاكم.

والواقع أنه توجد بعض تنظيمات للمعارضة، وكان أهمها عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م) هو:

١ ـ لجنة الدفاع والتحرير الديمقراطي المالية، وتعيش أكثر قواعدها في باريس بفرنسا.

٢ ـ الجبهة الديمقراطية الوطنية المالية.

٣ ـ الحزب المالي الديمقراطي الثوري.

٤ ـ جبهة تحرير أزواد. وهي التي تبرز على الساحة الحالية اليوم، وتقوم ببعض العمليات، وتُطالب بالاستقلال الذاتي، وتتعرّض القبائل الممثّلة فيها إلى مذابح رهيبةٍ في منطقة أزواد، وفي مدينة تومبوكتو.

وبعد الانقلاب الأخير حلّ حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي المالي ومنظّماته كافةً. والله أعلم ما سيكون.

الباب السادس

بُورْكِينَا فَاسُو

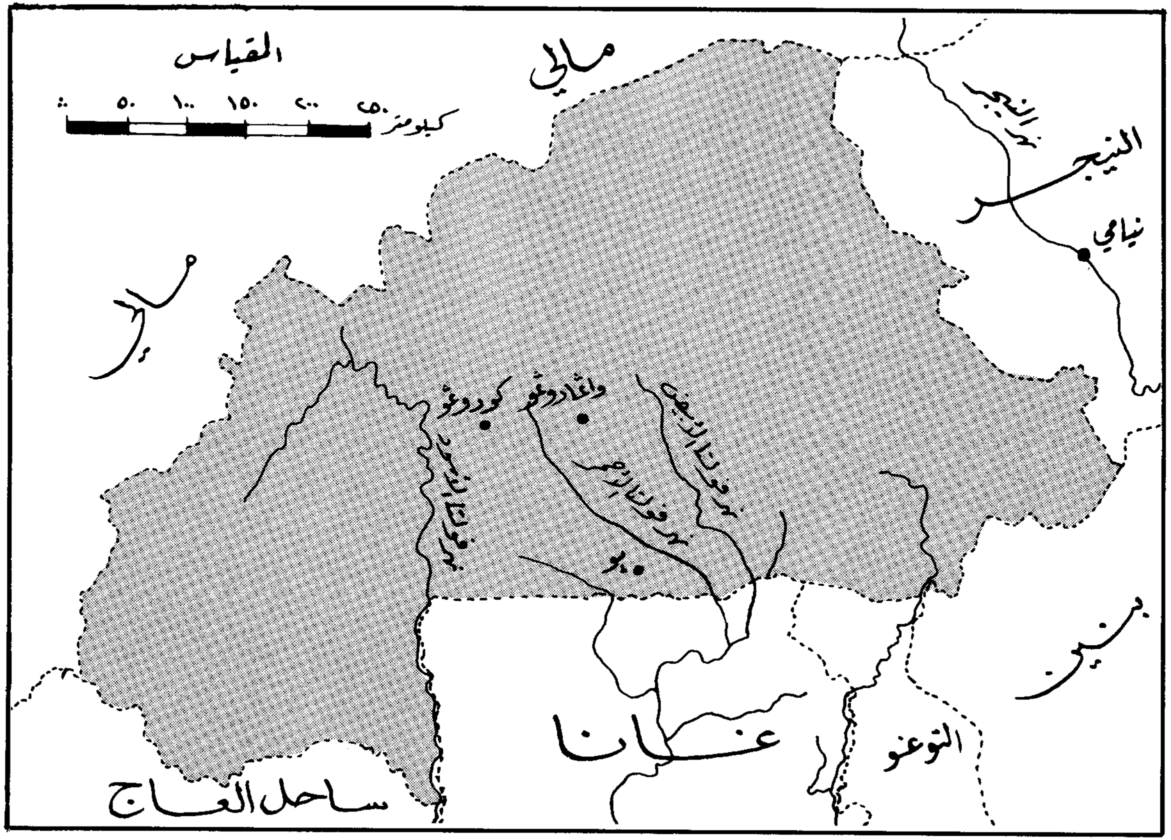
المقياس
كيلومتر ٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
مالي
النيجر
نهر النيجر
نيامي
مالي
كودوغو
واغادوغو
بو
نهر فولتا الأسود
نهر فولتا الأحمر
نهر فولتا الأبيض
بنين
التوغو
غانا
ساحل العاج

مصور رقم [٦]

لمحة عن بوركينافاسو قبل إلغاء الخلافة

جاءت قبائل من شرقي إفريقية في القرن الرابع الهجري، وأقامت في المنطقة المعروفة اليوم باسم بوركينافاسو، وحملت اسم «الموسي» وكانت على الوثنية، وأقامت عدة ممالك صغيرة في تلك الأراضي، برئاسة زعماء تلك القبائل، وسادة منتجعات المياه، وأطلق على ملوكها اسم «مورونابا»، واستمر ذلك ما يقرب من ثلاثة قرونٍ. وانتشر الإسلام فيما حولها، حتى بقيت هذه القبائل كأنها جزيرة وثنية ضمن بلادٍ تدين أكثرية أهلها بالإسلام. ووقفت أمام انتشار الإسلام، وتصدّت للقبائل المسلمة، وحالت دون التقاء أفراد من تلك القبائل مع أبنائها، وقاتلت الممالك الواسعة التي قامت في تلك الجهات، ومع ذلك خضعت أجزاء من أراضي بوركينافاسو اليوم إلى حكم مملكة مالي القديمة، ثم إلى مملكة صنغاي، ومع ذلك فلم ينتشر الإسلام في ربوع تلك الديار وبين قبائل الموسي إلا قليلاً، وذلك في القرن الثامن الهجري.

وضعفت الدول الإسلامية التي قامت في المنطقة، وأخذ المستعمرون الصليبيون يتسلّلون إلى الداخل، وكان الفرنسيون قد سبقوا غيرهم بالوصول إلى هذه الجهات، ووجدوا مملكةً لتلك القبائل في «واغادوغو» يحكمها ملوك يُطلق عليهم «مورنابا» فوقّعوا معهم اتفاقية حمايةٍ عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م)، واتخذت فرنسا من هذه الاتفاقية ذريعةً لجعل المنطقة تحت سيطرتها، وفي عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) ضمّتها مع النيجر وجعلت منهما

مستعمرةً واحدةً اسمتها «فولتا العليا والنيجر».

ثم رجعت فرنسا، وفصلت النيجر عنها، وجعلت منها مستعمرةً خاصةً أطلقت عليها اسم «فولتا العليا» لأن أنهار فولتا الأسود، وفولتا الأحمر، وفولتا الأبيض كلها تنبع منها، وتُعدّ أراضيها المجاري العليا لهذه الأنهار.

وفي هذه الأثناء زاد انتشار الإسلام إذ وقف المسلمون في وجه المستعمرين الصليبيين، وانضمّ إلى جانبهم بعض أبناء البلاد، فاحتكّوا بهم فاعتنقوا الإسلام، على حين عملت فرنسا على عزل الوثنيين، وقرّبتهم لتستفيد منهم ضدّ المسلمين، وخوفاً من اعتناقهم الإسلام.

واتبعت فرنسا سياسةً صليبيةً حاقدةً، واستعماريةً جشعةً إذ فتحت الباب على مصراعيه للإرساليات التنصيرية، وجعلت البلاد مسرحاً لها، وأطلقت يدها، وحمتها، وفي الوقت نفسه حرّضت الوثنيين ضدّ المسلمين ودعمتهم، ووضعت مناهج التعليم بما يتفق وإبعاد المسلمين عن دينهم، وترمي من تنفيذ المخططات الاستعمارية إذلال السكان، وإشعارهم بعقدة النقص، ومحاولة تقليد النصارى الأوروبيين. كما عملت على استغلال ثروات البلاد، وجعل المنطقة سوقاً للبضائع الفرنسية.

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ ـ ١٢ صفر ١٣٨٠ هـ.
٣ آذار ١٩٢٤ ـ ٥ آب ١٩٦٠ م.

تحرّك المسلمون نتيجة السياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا، وقاموا بثورةٍ فما كان من المستعمرين إلا أن جزّأوا البلاد، وألحقوها بمستعمراتهم الأخرى، حيث ضمّوا أجزاء إلى مالي، وأخرى إلى النيجر، وثالثةً إلى ساحل العاج وذلك في ٥ جمادى الأولى ١٣٥١ هـ (٥ أيلول ١٩٣٢ م)، وامّحت بذلك منطقة كانت قائمة، وزال اسم «فولتا العليا» من المصورات. واستمّر ذلك مدة خمسة عشر عاماً، إذ بعد الحرب العالمية الثانية، وفي ١٨ شوال ١٣٦٦ هـ (٤ أيلول ١٩٤٧ م) أُعيدت دولة «فولتا العليا» بالحدود نفسها التي كانت عليها قبل توزيعها، ولم ينته العام حتى جرت انتخابات، واختار السكان لهم جمعيةً وطنيةً، ولكن بقيت تحت إشراف فرنسا بشكلٍ تامٍ مايقرب من عشر سنواتٍ.

وأقيمت أول حكومةٍ للحكم الذاتي في ١٩ شوال ١٣٧٦ هـ (١٨ أيار ١٩٥٧ م)، وجاء بعدها ديغول إلى حكم فرنسا، وطرح دستوره المعروف، ووافقت عليه فولتا العليا فأصبحت في ٣٠ جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ (١١ كانون الأول ١٩٥٨ م) عضواً في الجماعة الفرنسية. ووضع دستور للبلاد في ٢٠ شعبان ١٣٧٨ هـ (٢٨ شباط ١٩٥٩ م) وتمّت الموافقة عليه في اقتراعٍ عام أُجري في ٦ رمضان ١٣٧٨ هـ (١٥ آذار ١٩٥٩ م).

انتخبت الجمعية التشـريعية التي تتـألف من خمسةٍ وسبعين عضـواً، واختار أعضاؤها من بينهم (موريس ياميغو) رئيساً للجمهورية، وتولّى بنفسه رئاسة الوزارة، وأعلن قيام جمهورية فولتا العليا، واستقلالها في ١٢ صفر ١٣٨٠ هـ (٥ آب ١٩٦٠ هـ).

الفصل الثاني

الاستقلال

١٢ صفر ١٣٨٠ هـ - ......

٥ آب ١٩٦٠ م - ....

قُبلت جمهورية فولتا العليا عضواً في الأمم المتحدة في ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠ م)، ولم تمض سوى مدةٍ وجيزةٍ على الاستقلال حتى قام أول انقلاب عسكري بقيادة رئيس الأركان العقيد «سانغولي لاميزانا» فأطاح بحكومة «موريس ياميغو»، وعلّق العمل بالدستور، ونصّب نفسه رئيساً للدولة، وحلّ المجلس الوطني، وأنشأ المجلس الأعلى للقوات المسلحة، ومُنعت النشاطات السياسية من غرة جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ (١٦ أيلول ١٩٦٦ م) واستمّر ذلك حتى رمضان ١٣٨٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٦٩ م).

حاول الرئيس السابق «موريس ياميغو» استغلال تصرّفات العسكريين، فعمل عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) على استعادة الحكم المدني، وشكّل وزارةً مدنيةً، غير أن محاولته باءت بالفشل، واستردّ الرئيس العسكري العقيد «سانغولي لاميزانا» السلطات كافةً، وقبض على الحكم بيدٍ من حديدٍ، ووضع دستوراً جديداً، وتمت الموافقة عليه بعد استفتاء عام جرى في ٣٠ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ (٤ حزيران ١٩٧٠ م) على أساس العودة إلى الحكم المدني بعد مرحلةٍ انتقاليةٍ مدتها أربع سنواتٍ بإدارةٍ عسكريةٍ ومدنيةٍ مشتركةٍ.

وجرت الانتخابات النيابية في ٢٢ شوال ١٣٩٠ هـ (٢٠ كانون الأول ١٩٧٠ م) حصل فيها حزب اتحاد فولتا الديمقراطي على ٣٧ مقعداً من مجموع المقاعد التي يبلغ عددها ٥٧ مقعداً.

وفي ذي القعدة ١٣٩٠ هـ (كانون الثاني ١٩٧١ م) عُيّن الرئيس «سانغولي لاميزانا» قائد حزب اتحاد فولتا الديمقراطي «جيرارد اودراوغو» رئيساً للوزراء، وتسلّم منصبه بعد شهرٍ، وشكلّ وزارةً مشتركةً من العسكريين والمدنيين.

ووصلت الخلافات بين الحكومة والمجلس الوطني في أواخر عام ١٣٩٣ هـ (نهاية عام ١٩٧٣ م) إلى طريقٍ مسدودٍ، فأعلن الرئيس في مطلع عام ١٣٩٤ هـ (شباط ١٩٧٤ م) أن الجيش قد استولى على السلطة ثانيةً، وأقال رئيس الوزراء، وحلّ المجلس الوطني، وجمّد النشاطات السياسية، وتولّى بنفسه رئاسة الوزراء وحظر النظام العسكري الأحزاب السياسية، واستبدل المجلس الوطني بالمجلس الاستشاري الوطني للإصلاح، الذي تشكلّ في جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ (تموز ١٩٧٤ م) وضمّ خمسةً وستين عضواً سمّاهم الرئيس.

وسمح للأحزاب السياسية بمزاولة نشاطها بدءاً من الأول من شهر ذي القعدة ١٣٩٧ هـ (١٢ تشرين أول ١٩٧٧ م) وجرى بعد شهرٍ استفتاء شعبي على مسودة دستورٍ يقضي بالعودة إلى الحكم المدني الديمقراطي.

اشتركت أربعة أحزاب في الانتخابات التي جرت في جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ (نيسان ١٩٧٨ م)، وقد فاز حزب اتحاد فولتا الديمقراطي، بثمانية وعشرين مقعداً على حين حصل حزب الاتحاد الوطني للدفاع عن الديمقراطية على ثلاثة عشر مقعداً، وبعد شهرٍ أي في جمادى الآخرة (أيار) أعيد انتخاب الرئيس «سانغولي لاميزانا» رئيساً للجمهورية. والتقت الأحزاب السبعة في ثلاثة تحالفات، وكان حزب الاتحاد الوطني للدفاع عن الديمقراطية يمثل المعارضة، كما كان حزب اتحاد الفولتا التقدمي في صف

المعارضة. وفي شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م) انتخب المجلس الوطني «جوزيف كونومبو» زعيم حزب اتحاد الفولتا الديمقراطي رئيساً للوزراء.

حاولت حكومة «جوزيف كونومبو» تقريب وجهات نظر المجموعات المختلفة لمعالجة أوضاع الاقتصاد المتدهورة، والتي اعترضت تصرفات العسكريين، واتحاد التجار سبيل تقدّمها. وكذلك كان لبعض أعضاء المجلس الوطني دور في ذلك التدهور، وعانى الناس قلقاً عام ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ (١٩٧٩ - ١٩٨٠ م) من سوء الأوضاع المادية.

وفي مطلع عام ١٤٠١ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٠ م) قام الجيش بحركة انقلابٍ لم ترق فيها دماء بقيادة العقيد «ساي زيربو» قائد منطقة «واغادوغو» عاصمة البلاد، والذي شغل في مرحلة الحكم العسكري السابقة منصب وزير الخارجية. وتشكّلت لجنة عسكرية تضمّ واحداً وثلاثين عسكرياً للنمو الوطني.

وفي صفر ١٤٠١ هـ (٣١ كانون الأول ١٩٨٠ م) شكّل النظام الجديد حكومةً وطنيةً تضمّ عسكريين ومدنيين. وعلّق العمل بالدستور، وحلّ المجلس الوطني، وحظر النشاط السياسي، والأحزاب، وفرض منع التجول. وواجه العقيد «ساي زيربو» معارضةً عنيفةً من اتحاد التجار، وهذا ما أدّى إلى تجميد أعمال الاتحاد. ومنع الإضراب من شهر محرم ١٤٠٢ هـ (تشرين الثاني ١٩٨١ م) إلى ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ (شباط ١٩٨٢ م).

وفي شهر محرم ١٤٠٣ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٢ م) جرى انقلاب عسكري بقيادة العقيد «جان بابتيست أودراوغو»، وذهب ضحية ذلك خمسة أشخاصٍ، وحلّ النظام العسكري الجديد اللجنة العسكرية السابقة، وشكل حكومةً يغلب عليها العنصر المدني، وأنشأ مجلس تحية الشعب.

وتمّ اعتقال عدة شخصياتٍ من المعارضة من المدنيين والعسكريين على حد سواء وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ (شباط ١٩٨٣ م) إثر

ادعاء اكتشاف مؤامرةٍ لإعادة حكومة «ساي زيربو»، وأصبح الصراع عنيفاً داخل مجلس تحية الشعب من أجل السلطة.

وفي شعبان ١٤٠٣ هـ (أيار ١٩٨٣ م)أعلنت بعض العناصر من الحزب الراديكالي اليسارية داخل الحكومة بما في ذلك رئيس الوزراء النقيب «توماس سانكارا» والذي تسلّم منصبه مؤخّراً، والعقيد «جان بابتيست أودراوغو» أعلنوا عن تركهم القوات المسلحة، ومجلس تحية الشعب، وانسحابهم من الحياة السياسية نهائياً، وقد احتجز النقيب توماس سانكارا وبعض مؤيديه في «بو» بالقرب من الحدود مع دولة غانا تحت قيادة النقيب «بليزكومباري»، غير أنه أُطلق سراحهم بعد أسبوعين.

وقام توماس سانكارا بانقلابٍ عسكريٍ ذهب ضحيته حوالي خمسة عشر رجلاً، ونتيجة ذلك وصل إلى السلطة، وفرض الإقامة الجبرية على رجال المعارضة، وفرض منع التجول بشكلٍ صارمٍ، وأنشأ حزب المجلس الثوري الوطني، وأصبح النقيب بليزكومباري رجل الدولة الثاني، وتسلّم منصب وزير الدولة لشؤون الرئاسة، وشكّل الحكم «لجان الدفاع عن الثورة» وشجّع المواطنين للانضمام إليها لتكون القواعد الشعبية التي يستند عليها نظام الحكم القائم.

اعتقل الرئيس الأسبق «ساي زيربو» عندما حاول مؤيدوه الإطاحة بالحكومة الجديدة في ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (أيلول ١٩٨٣ م)، ثمّ أعلنت الوزارة عن إجراءاتٍ إصلاحيةٍ في الإدارة، والقضاء، والجيش، وتمّ تشكيل لجنةٍ شعبيةٍ عسكريةٍ للنظر في قضايا الإخلال بالنظام، وقُدّم عدد من السياسيين السابقين بما فيهم ساي زيربو إلى المحكمة.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ (إذار ١٩٨٤ م) قام اتحاد المعلمين بإضرابٍ مدة ٤٨ ساعة احتجاجاً على اعتقال ثلاثةٍ من قادة الاتحاد.

وتمّ إعدام ثلاثة أشخاص في رمضان ١٤٠٤ هـ (حزيران ١٩٨٤ م) اتهموا بالتآمر للإطاحة بنظام الحكم القائم، واتهم الرئيس «توماس سانكارا»

جبهة فولتا التقدمية والتي تتألف من أكثريةٍ كانت سابقاً في اتحاد فولتا التقدمي، وبالاشتراك مع مجموعاتٍ يساريةٍ أخرى على المؤامرة لقلب نظام الحكم، وادّعى أن العملية قد دعمت من فرنسا، ومن قواتٍ أجنبيةٍ أخرى، وأنكرت فرنسا بشكلٍ حازمٍ هذا الادعاء بأن يكون لها أي يدٍ في مثل هذه الحركة، وتعرّضت العلاقة بين البلدين إلى شيء من الفتور.

وفي الذكرى الأولى لوصول «توماس سانكارا» إلى السلطة في ذي القعدة ١٤٠٤ هـ (آب ١٩٨٤ م) أعلن أن اسم البلاد سيصبح منذ الآن «بوركينا فاسو» أي أرض الرجال المصلحين، ووُضع علم جديد للبلاد، ونشيد وطني جديد. وفي نهاية الشهر نفسه، ومع ظهور الانشقاق داخل مجلس تحية الشعب أعاد توماس سانكارا تشكيل الوزارة محاولاً القضاء على نفوذ الجناح الماركسي في المجلس، والذي أصبح يُشكّل معارضةً للرئيس، ولفكره الشعبي، والذي أخذ اسم الائتلاف الوطني للتطور.

وقد واجه نظام «توماس سانكارا» معارضةً من اتحاد التجار، ومن الائتلاف الوطني للتطوّر الذي تمّ اعتقال أمينه العام في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) لأنه اتهم مجلس تحية الشعب باختلاس أموال الشعب، كما احتجزت الدولة بعد شهرٍ عشرين عضواً من الاتحادات لتنظيم ورقة احتجاج ضدّ إجراءات التقشف. وظهر دور «لجان الدفاع عن الثورة» واضحا في فرض هيمنة الحكومة في المناطق الريفية، وفي تنظيم الشؤون المحلية، وفي إبراز قيادة الرئيس توماس سانكارا.

رفعت الحكومة نظام منع التجول في ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م) بعد مضي سنتين كاملتين على سريان مفعوله.

وفي عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م) جرت محاولات مكثفة للنهوض بالاقتصاد والعمل على تطوير الريف، وهذا ما زاد من توتر العلاقات بين الحكومة وبين اتحاد التجار على الرغم من صدور عفوٍ عام عن السجناء السياسيين جميعاً في شهر صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م).

وفي منتصف عــام ١٤٠٧ هـ (كـانــون الثـاني ١٩٨٧ م) أعلن أن الإصلاح سيشمل إجراءات التقشف، ونظام الضرائب، ومؤسسات القطاع العام، كما تمّ استرداد الضرائب وهذا ما أدّى إلى إغلاق بعض المصالح الصغيرة، وأغلقت بعض اتحادات التجار، ومنها التي تمّ رفع الحظر عنها في العفو العام الذي صدر قبل بضعة شهور قد عاد الحجر عليهـا بتهمة القيام بنشاطاتٍ ثوريةٍ معاكسةٍ. كما اعتقلت سومان توري ثانيةً، وكان العفو السابق قد شملها فخرجت من السجن.

وبمناسبة الذكرى الرابعة لوصول توماس سانكارا إلى السلطة في شهر ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م) وفي الخطاب الذي ألقاه بهذه المناسبة عمل على وحدة القوى السياسية في البلد.

عاد عدم الانسجام يظهر في مجلس تحية الشعب، وبدا ذلك واضحاً في إعادة تشكيل الحكومة حيث فقد عدد من الوزراء مناصبهم، وهم ممن ينضوي تحت لواء الاتحاد الشيوعي الذي أُعيد إنشاؤه.

وفي ٢٢ صفـر ١٤٠٨ هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٨٧ م) قـام النقيب بليز كومباري نائب الرئيس توماس سانكـارا بانقـلابٍ دمويٍ استـولى فيه على السلطة وقتل مباشرة رئيس الجمهورية توماس سانكارا وثلاثة عشر شخصاً من المقرّبين إليه، وحلّ مجلس تحية الشعب، وأغلقت حدود بوركينافاسو وموانئها الجوية لمدة أسبوعين، وفرض منع التجول وبقي ساري المفعول ثـلاثة أشهـرٍ ونصف، ونعت الرئيس السـابق بالإنسـان المتسلط، وتعهّـد باستمرار النهج الثوري الذي ضاع في العهد السابق، وأعلن أن ثقة الشعب بالثورة ستعود بتحسين السياسة الاقتصادية.

وضمت الوزارة التي شكلت في ٩ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٨٧ م) سبعةً وعشرين وزيراً، منهم سبعة وزراء فقط من الحكومة السابقة، وأربعة عسكرين فقط. وأصبح بليزكومباري رئيساً للدولة، ورئيساً للجبهة الشعبية.

وقام عصيان محدود في منطقة كودوغو غرب العـاصمة وعلى بعـد ثمانين كيلومتراً منها بتحريضٍ من النقيب بوكاري كابوري، غير أن العصيان قد فشل وفرّ المحرض عليه إلى غانا. وظلّ الحزن بادياً على موت الرئيس السابق توماس سانكارا.

وظهرت حركة مقاومةٍ سريـةٍ للنظام الجـديد في أواخـر ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م). وتم اعتقال الكثير من المقربين إلى الرئيس السابق، ومن أفراد أسرته، ومن الوزراء السابقين، ودون أن يُقدّموا للمحكمة. ورفضت الجبهة الشعبية ما أذاعته منظمة حقوق الإنسان والعفو الدولي بأن بعض المعتقلين قد تعرّضوا للتعذيب الشديد. وبعد الانقلاب تمّ الإفراج عن سومان توري مباشرةً.

أُعلن في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) ضرورة سحب السلاح من لجان الدفاع عن الثورة، واستبدالها بـاللجنة الثـورية تحت قيـادة النقيب «أرسين يو بوغنيسان».

وفي مـطلع عـام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) أُعيــد تشكيـل مجلس الوزراء، وعُيّن عدد من الوزراء المدنيين لمراقبة تنفيذ البرنامج الاقتصادي للجبهة الشعبية، واكتفى بليزكومباري بمنصب رئاسة الدولة. وقاد في الشهر نفسه حملةً ضدّ الكسل وعدم النشاط بين الموظفين.

وفي ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيـران ١٩٨٨ م) أطلق سراح معـظم أولئك الذين تمّ احتجازهم بعد انقلابه الذي قام به في ٢٢ صفر ١٤٠٨ هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٨٧ م).

وفي جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) تمّ إعدام سبعة ضباطٍ اتهموا بمساندة النقيب بوركاري كابوري الذي قام بعصيانٍ في منطقة كودوغو، وثبتت عليهم تهمة قتل الضابط الذي قمع ذلك العصيان. وتوفي خمسة آخرون من أعوان الرئيس السابق توماس سانكـارا في السجن في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م).

وفي رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) تمّ إنشاء جماعةٍ سياسيةٍ جديدةٍ يطلق عليها «المنظمة الديمقراطيةالشعبية وحركة العمل» تحت قيادة «كلمنت أمارو أودراغو» القائد السابق لاتحاد المجتمعات البوركانية، والتي نشأت مع انشقاقٍ آخر عن اتحاد المجتمعات عُرف باسم الاتحاد الشيوعي، وقد أعلنوا ولاءهم للمنظمة، وكان من المفروض طرد أعضاء المنظمة من المكتب الوزاري في الشهر نفسه، غير أنه قد عُيّن «كلمنت أمارو أودراغو» مندوباً وزارياً للجنة التنسيق للجبهة الشعبية.

وأعلن العفو العام عن السجناء السياسيين، وفيهم عدد من أعوان الرئيس السابق توماس سانكارا إضافة إلى أن العقوبات قد خُفّفت عن مخالفي الأنظمة والقوانين، وقد صدر العفو في مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م)، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ أذاعت منظمة حقوق الإنسان الدولية أن السجناء السياسيين قد قدّموا لمحاكمةٍ قصيرةٍ ومستعجلةٍ ولا زالوا رهن الاعتقال.

وصدر بلاغ في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) أن القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة، وزير الدفاع الشعبي والأمن العميد «جان بابتيست بوكاري لينغاني»، ووزير الاقتصاد النقيب «هنري زونغو» قد نُفّذ فيهما حكم الإعدام، وكلاهما كان عضواً بارزاً في الانقلابيين السابقين، كما نُفّذ حكم الإعدام باثنين آخرين معهما لاكتشاف تورّطهم في محاولة انقلابٍ للإطاحة بنظام الحكم القائم عند عودة الرئيس بليزكومباري من رحلته إلى الشرق الأقصى. وكان هناك اعتقاد واسع بأن الضابطين المذكورين كانا معارضين لسياسة الرئيس تجاه المؤسسات الخاصة. وكان من بين المحتجزين أيضاً سومان توري، وأمين عام الدولة بعد انقلاب بليزكومباري وهو «جان يادتوي» وتولّى الرئيس بليزكومباري بنفسه الدفاع الشعبي والشؤون الأمنية في الوزارة التي تشكلت بعد ذلك.

العلاقات الخارجية:

١ ـ **مع مالي**: كان هناك نزاع على شريطٍ حدوديٍ في منطقة «أغاشيه» بين

بوركينافاسو ومالي، ويبلغ طول هذه الشريط ١٦٠ كيلو متراً، وقيل إن هذا الشريط يحوي على الكثير من المعادن، وزاد التوتر بين الحكومتين في رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م)، وأدّى الأمر إلى صدامٍ بين قوات البلدين في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م)، واستمّر القتال ستة أيامٍ، وذهب ضحيته خمسون رجلاً، وعُرض الأمر على محكمة العدل الدولية، فأصدرت قرارها في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م)، بضرورة سحب قوات الطرفين من المنطقة المتنازع عليها، واستؤنفت العلاقات السياسية بين البلدين في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م)، وتمّ تطبيق حكم المحكمة الدولية في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م)، وهو اقتسام المنطقة المتنازع عليها بين البلدين بالتساوي، وفرضت بوركينافاسو سيادتها على المنطقة التي تقع شرق (بيلي).

٢ ـ **مع غانا**: أقامت بوركينافاسو اتصلاتٍ مكثفةً مع جارتها غانا، وتمت سلسلة من التعاون والاتفاقيات الأمنية بين البلدين في ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م)، وجرت اقتراحات مبدئية لإقامة وحدةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ حقيقية بين الدولتين، وأعلن عن ذلك في دي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م)، ثم ساءت العلاقات بين الدولتين بعد انقلاب كومباري.

٣ ـ **مع بنين**: كانت العلاقات وثيقةً بين بوركينافاسو وجارتها بنين، وعقدت اجتماعات قمةٍ لقادة دول: بوركينافاسو، بنين، غانا، ليبيا بشكل منتظمٍ لتأكيد الوحدة الثورية.

٤ ـ **مع التوغو**: ساهمت بوركينافاسو وغانا بدعم محاولة انقلاب جرت في التوغو وبقيت العلاقات متوترة عدة شهور بين بوركينافاسو والتوغو، وقد دعمت توغو الانقلاب ضد نظام حكم توماس سانكارا. وعندما تسلّم بليزكومباري السلطة بانقلابٍ دمويٍ، أدانت بعض الدول هذا الانقلاب، ومنها: غانا، والكونغو، والغابون، وقام الرئيس الجديد بليزكومباري ومعه بعض أعضاء

بارزين في الجبهة الشعبية بزيارة الدول المجاورة كمحاولةٍ لتأييد النظام الجديد في بوركينافاسو، وقد زار التوغو، وساحل العاج.

وأعلنت ليبيا أن رغبتها المحافظة على صلاتٍ وطيدةٍ مع الجبهة الشعبية، الحزب الحاكم في بوركينافاسو.

وشهدت العلاقات بعض التوتر بين بوركينافاسو وبين كل من فرنسا وغانا لادعاءات بوركينافاسو أن الدولتين قد ساهمتا في دعم محاولة الانقلاب ضد كومباري التي جرت في صفر عام ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م)، مع أن فرنسا تُعدّ الدولة الأولى في علاقاتها التجارية مع بوركينافاسو.

وعلى الرغم من تحسّن العلاقات بين بوركينافاسو وغانا نتيجة الاجتماعات بين قادة البلدين في منتصف عام ١٤٠٨ هـ (أوائل عام ١٩٨٨ م)، واستمّر الرئيس بليزكومباري في جولاته في منتصف عام ١٤١١ هـ (أواخر عام ١٩٩٠ م) لكسب التأييد لنظامه إلا أن سمعته الدولية لم تكن حسنةً لطغيانه وبطشه في قمع محاولة الانقلاب عليه في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م).

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة بوركينافاسو ٢٧٤,٢٠٠ كيلو متراً مربعاً، وهي دولة قارية بعيدة عن مياه البحار والمحيطات، تجاور عدداً من الدول، وتبلغ طول حدودها معها ٣,١٩٢ كيلو متراً، منها ألف كيلومتر مع مالي، و٥٨٤ كيلو متراً مع ساحل العاج، و ٥٤٨ كيلو متراً مع غانا، و ١٢٦ كيلو متراً مع التوغو، و ٣٠٦ كيلو مترات مع بنين، و٦٢٨ كيلو متر مع النيجر.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١م) ثمانية ملايين وسبعمائة ألف إنسان، وبذا تكون كثافة السكان فيها حوالي ٣٢ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

الصراع العنصري:

تسكن بوركينافاسو قبائل كثيرة قد يزيد عددها على الأربعين جماعةً، ولكن أهمها وأكثرها عدداً قبائل «الموسي» التي تتوزّع في معظم أنحاء البلاد وخاصة في الوسط من الشمال إلى الجنوب، ويشكل أبناؤها ٣٥٪ من مجموع السكان، ولا تصل نسبة غيرها إلى ١٠٪، ومن أكبرها: قيرونسي، وسينيوفو، ولوبي، وبوبو، والفولاني، والماندينغ، والهاوسا، والطوارق.

ولما كان هذا التوزّع لذا لا نجد صراعاً عنصرياً واسعاً إذ أن قبائل الموسي لها السيطرة والنفوذ. ولما كان أكثر هذه القبائل لا يزال على الوثنية

لذا لم يقف الاستعمار الفرنسي منها موقف العداء، بل عمل على دعمها، وإبقاء الهيمنة لها، وإن سعى وحثّ الجماعة الوثنية منها للوقوف في وجه الجماعة التي اعتنقت منها الإسلام.

الصراع العقيدي:

لم تكن نسبة المسلمين لتزيد على ٤٠ ٪ من مجموع السكان عندما جاء المستعمرون الصليبيون، وكانت تتمثّل في قبائل الفولاني، والماندينغ، والهاوسا، والبيل، وبعض بطون من قبائل الموسي. وحارب المسلمون الدخلاء ووقف إلى جانب المسلمين بعض السكان فاعتنقوا الإسلام بالاختلاط والمعرفة الصحيحة فارتفعت نسبة المسلمين ٤٥ ٪، فلما سيطر الغزاة وقف انتشار الإسلام نتيجة السياسة الصليبية التي سار عليها المستعمرون والحرب الضروس التي شنوّها على المسلمين، وأكثر من ذلك على من يعتقد الإسلام.

ولما جلا المستعمرون الصليبيون عن أرض بوركينافاسو عاد الإسلام إلى الانتشار رغم أن السياسة بقيت على ما كانت عليه، واستمرّ تنفيذ المخططات الصليبية، وأصبح أكثر من نصف قبائل الموسي من المسلمين، وغدت نسبة المسلمين ٦٥ ٪ من مجموع السكان.

ولا يزال ٢٥ ٪ من أبناء البلاد على الوثنية، وأكثرهم من قبائل الموسي.

ووصلت نسبة النصارى في بوركينافاسو إلى ١٠ ٪ نتيجة جهود الإرساليات التنصيرية، والسياسة الاستعمارية الصليبية التي منحت الحرية للمنصّرين، وقدّمت من تنصّر، وسلمتهم المراكز الحساسة، وأعطتهم الأرض، وأطلقت يد الإرساليات في فتح المدارس، وإقامة المشافي، ووضع المناهج، هذا إلى جانب نشر المفاسد وإطلاق العنان للشهوات وتيسير الأمور أمام أصحابها. وأكثر النصارى في بوركينافاسو من أتباع كنيسة الروم الكاثوليك نتيجة الاستعمار الفرنسي، ويقدر عددهم بسبعمائة ألف

نصراني، كما يوجد ما يزيد على مائة ألف من أتباع الكنائس البروتستانتية.

وتقف الحكومات التي تعاقبت على السلطة في بوركينافاسو موقف المعاداة من الإسلام وأتباعه، إذ ليست إلا صنائع المستعمرين من نصارى، ووثنيين، وعلمانيي المسلمين، وأصحاب الأهواء والشهوات منهم. كما أن الضغط والحكم العسكري له دوره في كمّ الأفواه والوقوف في وجه الدعوة.

الصراع الحزبي:

لم يكن هناك صراع حزبي عنيف على الساحة في بوركينافاسو، وذلك لتعدد الانقلابات المتعاقبة، وكلما وقع انقلاب تبنّى قادته حزبهم الذي ينتمون إليه أو أنشأوا جماعةً خاصةً بهم لتدعم حكمهم، وقد تكون منظمةً عسكريةً، أو حزباً سياسياً، وربما تجمعاً مسلحاً يضمّ أفراداً مدنيين، يخضعون لتدريبٍ عسكريٍ، ويوزّع عليهم السلاح، يستفيدون من السلطة لتحقيق بعض مصالحهم، ولإرضاء غرورهم في حمل السلاح، وإظهار القوة، وتنفيذ آرائهم وربما متطلباتهم، وفي الوقت نفسه تستفيد منهم السلطة في دعم سلطانها، وإبراز شعبيتها عن طريقهم.

لم يكن الاستعمار الفرنسي الصليبي ليسمح بقيام أي تنظيم سياسي إن لم يكن يسير في فلكه، ويعمل على تنفيذ مخططه، ويتلقّى التوجيه منه، وإن كان ينادي بالوطنية، ويرفع شعار الابتعاد عن التبعية، ومحاربة الاستعمار، ولكن الواقع كان يكذبه إذ كانت هذه التنظيمات تسير على نهج المستعمرين، وتقلّدهم في أسلوب حياتهم، فيفقد أعضاؤها شخصياتهم، ويصبحون مع الزمن جزءاً من المجتمعات النامية لا يفكرون، ولا يُحلّلون ـ مع الأسف ـ وما يكون في السر أكثر خطراً من حيث الارتباط، ومتابعة النظام.

كانت هناك عدة تنظيماتٍ سياسيةٍ عند الاستقلال، ولكن برز حزب اتحاد فولتا الديمقراطي كفرعٍ للتجمع الديمقراطي الإفريقي. وهو الذي تسلّم السلطة، وتسلّم زعيمه «موريس ياميغو» الحكم. وعندما قام الانقلاب

بزعامة «سانغولي لاميزانـا» في غرة جمـادى الآخرة ١٣٨٦ هـ (١٦ أيلول ١٩٦٦ م) ومنع النشاط الحزبي إلا أنه اضطر أن يُعطي رئاسة الوزارة إلى زعيم حزب اتحاد فولتا الديمقراطي « جيرارد أودراغو» رئاسة الحكومة.

وعاد سانغولي لاميزانا فسمح للأحـزاب بـالنشاط في الأول من ذي القعـدة ١٣٩٧ هـ (١٢ تشرين الأول ١٩٧٧ م) وشـاركت أربعـة أحـزابٍ بالانتخابات، وهي حزب اتحـاد فولتـا الديمقـراطي، وحصل على ثمـانيةٍ وعشرين معقداً، والاتحاد الوطني للدفاع عن الديمقراطية وحصل على ثلاثة عشر مقعداً، وحـزب اتحاد فـولتا التقـدمي، والمجموعـة الشيوعيـة، كما وجدت أحزاب ثلاثة أخرى ذات اتجاهٍ يساريٍ. وشكّل أخيراً زعيم حزب اتحاد فولتا الديمقراطي «جوزيف كونومبو» الحكومة، واتخذ الاتحاد الوطني للدفاع عن الديمقراطية موقف المعارضة.

وفي مطلع عام ١٤٠١ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٠ م) وقع انقلاب جديد بقيادة «ساي زيربو» فمنـع الأحزاب السيـاسية من النشـاط، وشكّل لجنـةً عسكريةً تضمّ واحداً وثلاثين عضواً تُشرف على الحكم.

وفي مطلع عام ١٤٠٣ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٢ م) وقع انقلاب آخر بقيادة العقيد «جان بابتيست اودراغـو» فأنشـأ مجلس تحية الشعب، وبـدأ الصراع داخله عنيفاً.

وفي العام نفسه قام «توماس سانكارا» بانقلاب، وشكّل لجان الدفاع عن الثورة. ولكن بدأ الصراع داخل مجلس تحية الشعب، وانشقّ الجناح اليساري، وشكّل الائتلاف الوطني للتطّور.

وفـي ٢٢ صـفــر ١٤٠٨ هـ (١٥ تـشــريـن الأول ١٩٨٧ م) قــام «بليزكومباري» بانقلابٍ، وسحب السلاح من لجان الدفاع عن الثورة، وأنشأ اللجنة الثورية.

وظهرت «المنظمة الديمقـراطية الشعبيـة حركـة العمل» في رمضـان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) بزعامة «كلمنت أمارو أودراغو» زعيم المجتمعات

في بوركينا السابق التي تجزأت بالانشقاقات فكان منها: «الاتحاد الشيوعي» و «المنظمة الديمقراطية».

وتوجد الآن المنظمات السياسية الآتية:

١ ـ الجبهة التقدمية في الفولتا: وهي تكتل سياسي لحزب اتحاد فولتا التقدمي مع بعض الأحزاب اليسارية الأخرى، وهي محظورة رسمياً، وأمينها العام «جوزيف ـ كي ـ زيربو» ويمارس نشاطه في المنفى.

٢ ـ مجموعة شيوعي بوركينا، وأمينها العام «جان مارك بالم».

٣ ـ الائتلاف الوطني للتطوّر: وهو ذو اتجاهٍ ماركسي، وميل للروس، والأمين العام هو «حميدو كوليبالي».

٤ ـ الحركة الديمقراطية التقدمية: وأمينها العام «هيرمان ياميغو».

٥ ـ المنظمة الديمقراطية الشعبية/حركة العمل: ورئيسها «كلمنت أمارو أودراغو» وهي مجموعة تكتلات شيوعية.

٦ ـ حزب الاستقلال الإفريقي: ومقره العاصمة «أوغادوغو».

٧ ـ التجمع الديمقراطي الشعبي: ويضم أتباع الرئيس «توماس سانكارا» وزعيمه الآن «فينسنت أودراغو». وهو حركة مقاومةٍ سريةٍ.

٨ ـ اتحاد فولتا الديمقراطي: شعبة بوركينافاسو للتجمع الديمقراطي الإفريقي، وهو حزب محظور رسمياً، ويتزعمه «مالو تريورو».

٩ ـ اتحاد الائتلافات الشيوعية: ومقره في العاصمة أوغادوغو، ورئيس هذا الاتحاد هو «اليان زوغبا».

١٠ ـ اتحاد إعادة تنظيم الائتلافات الشيوعية: ومقره في العاصمة، ومن قادته «فاليري سومي» و «باسيل غويسو».

الباب السابع

سِيرَاليُون

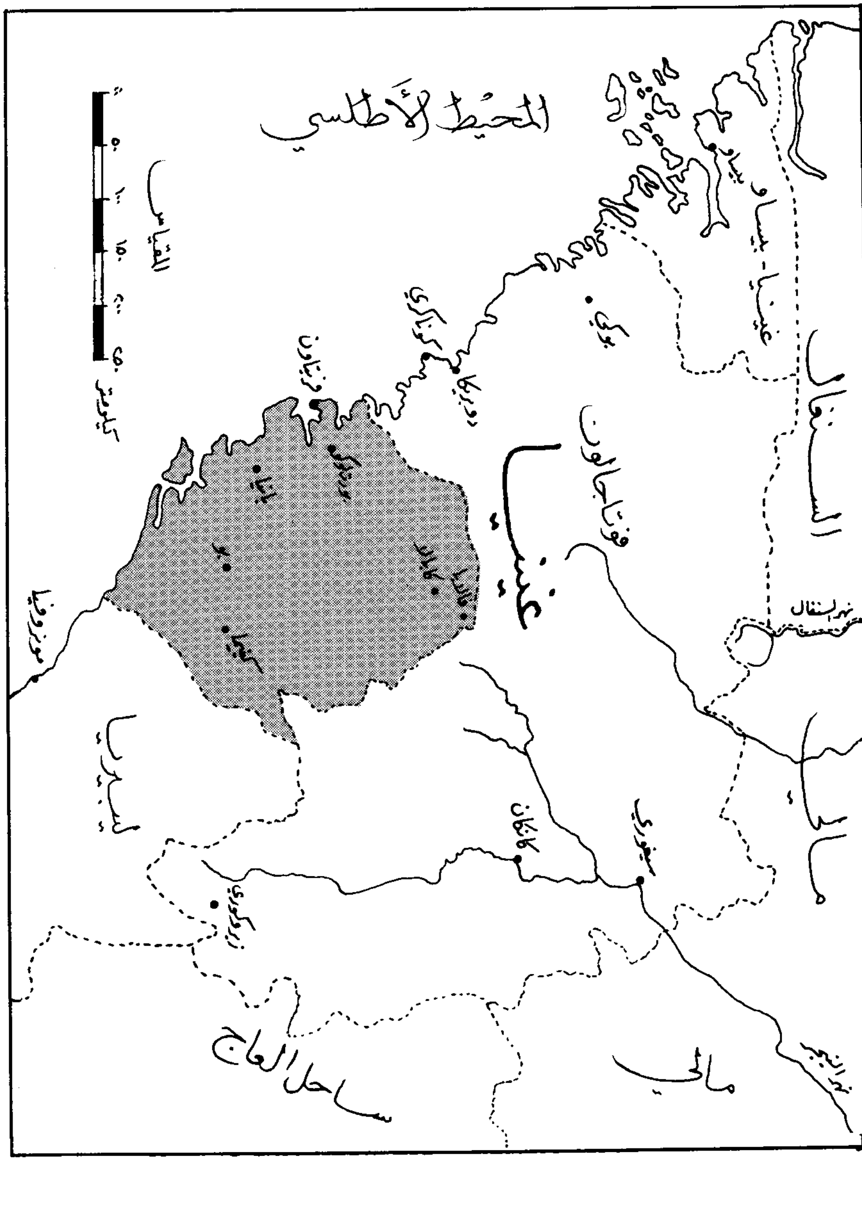
المحيط الأطلسي
السنغال
غينيا
مالي
ساحل العاج
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٧]

لمحة تاريخية حتى إلغاء الخلافة

عُرفت المنطقة الساحلية جنوب غينيا باسم سيراليون عام ٨٦٧ هـ، إذ أطلقه عليها الرحالة البرتغالي (داسنترا) إذ عندما وصل إلى تلك الجهات كثرت الغيوم ووميض البرق، وارتفعت أصوات الرعد التي تشبه زئير الأسد، فأطلق عليها هذا الاسم، ويعني جبال الأسد، حيث ترتفع سواحل شبه جزيرة جنوب (فريتاون) إلى ٦٥٠ متراً.

اعتنقت قبائل الماندينغ والفولاني الإسلام فوصل إلى أفرادها الذين يعيشون في داخل منطقة سيراليون، أما الساحل والغابات فكانت القبائل البدائية تعيش فيهما، وعُرفت المنطقة لدى سكانها القدماء باسم (رومارونغ).

خضعت المنطقة في القرن السابع الهجري لمملكة مالي، ولما كانت هذه المملكة تتركّز في الداخل، لذا لم تهتم بالبحر بل ربما وجدته منطقة أمانٍ لها، حيث لا أرض بعده، ولا سفن تصل إليه، وفي الوقت نفسه ليس لها قوة بحرية أو تجارية لتستفيد منه، وقد جاء الخطر منه، حيث أصبح بحارة المستعمرين الصليبيين يلجؤون إليه لأنهم يعلمون أنه لا توجد قوة تمنعهم من ذلك أو تحول دون اللجوء إليه، وهذا ما جعل تلك السواحل مراكز للملاحين من أية جنسيةٍ كانوا، ومن أي مكانٍ أتوا.

وصل البرتغاليون إلى سواحل تلك المنطقة ـ كما ذكرنا ـ عام ٨٦٧ هـ، وأعطوا ذلك الجزء الاسم الذي يحمله الآن، ولم تمض مدة

يسيرة حتى أصبح للبرتغاليين مراكز يتخذونها منطلقاً للسلب والنهب والاستغلال.

وجاء الإنكليز أيضاً إلى تلك النواحي وامتهنوا تجارة العبيد، وتمكّنوا من أن يكون لهم موطىء قدمٍ، ونقلوا من السكان ما استطاعوا نقله. ثم تغيّرت معهم الحال، وأصبحوا يرغبون في إعادة ما نقلوه بعد الذي حدث لهم بالتجارة، وبعد حرب الاستقلال الأمريكية، وغدوا يحاربون تجارة الرقيق بعد أن كانوا أكبر تجارها. واشتروا في بداية القرن الثالث عشر الهجري قطعة أرض من أحد زعماء القبائل الوثنية في سيراليون لتكون مستعمرةً لهم، ينقلون إليها الزنوج المسرحين من الجيش والبحرية بعد انتهاء حرب الاستقلال الأمريكية، ويحملون إليها كذلك الزنوج الذين التجؤوا إلى لندن، وأقاموا في ضاحيةٍ من ضواحيها، وكانت هذه المستعمرة شبه جزيرةٍ صخريةٍ تقع جنوب مدينة فريتاون الحالية، وكان نواة سكانها أربعمائة زنجي وستين أوربياً معظمهم من النساء السيئات السيرة والسلوك، غير أن هذه المستعمرة قد فشلت فشلاً ذريعاً في وضعها وإنشائها.

وبعد أربع سنوات وفي عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) أُنشئت مستعمرة جديدة من قبل شركة سيراليون ونُقل إليها بعد عامٍ من إنشائها ألف ومائة زنجي للعمل فيها، ولكن لم تمر ثلاثة أعوامٍ حتى نهب الفرنسيون هذه المستعمرة التي عُرفت باسم (فريتاون).

وفي عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) نقلت الشركة حقوقها إلى التاج البريطاني، وفي العام نفسه أُلغيت تجارة العبيد، وعدّها المجلس النيابي البريطاني تجارةً غير مشروعةٍ، وذلك مصلحةً لانكلترا لا إنسانيةً.

كان يقوم نزاع دائم بين سكان فريتاون الغرباء، وبين رجال قبائل المنطقة، لذا عُرفت تلك البقعة باسم «قبر الرجل الأبيض» لما يحدث من قتال بين الفريقين ويذهب ضحيته الكثير من المستعمرين، إضافةً إلى أمراض الملاريا والأوبئة الاستوائية التي تُسبب موت الكثير من الأوروبيين،

ولكن قلّ هذا فيما بعد لارتفاع المستوى الصحي.

وضمّت إنكلترا إلى المستعمرة أراضٍ جديدةً مجاورةً لها عن طريق الشراء الرسمي من زعماء القبائل، تارةً بالإغراء وأخرى بالإكراه والتهديد، فالقبائل متفرقة مفككة، ولا تملك من الأسلحة إلا الرماح، والقسي، والحدائد، على حين يملك المستعمرون السلاح الآلي، كما يُستخدم في تملّك الأرض الخداع والمكر والتخطيط ولا يحفظ المستعمر عهداً، بل تُسيّره مصالحه، ويُوجّهه توسّعه، وكثيراً ما كان الزعماء الإفريقيون لا يعرفون من نصوص المعاهدة أو الاتفاقية شيئاً بل يُوقّعون عليها على أنها نصوص صداقةٍ وتعاونٍ مع الدول الأوروبية، وفي المعاهدة من النصوص الغامضة والعبارات المرنة التي يمكن تفسيرها وتأويلها حسب الرأي الاستعماري، وبالشكل الذي يريده، وهو فرض السيطرة على الأراضي التي جرى عليها الاتفاق أو نصّت عليها المعاهدة.

وفي عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٢ م) بدأ الإنكليز بالتوسّع نحو الشمال الشرقي، واستطاعوا ضمّ منطقة (فالابا) الإسلامية إلى مناطق نفوذهم، بينما خضعت المناطق المجاورة لها للاستعمار الفرنسي.

وخضعت منطقة سيراليون لحكم مملكة فوتاجالون التي أسّسها التوكلور برئاسة الحاج عمر الذي توفي عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) فاختلف أبناؤه من بعده فضعف أمرها.

ودان شرقي سيراليون لحكم ساموري توري الذي جمع قبائل الماندينغ تحت سلطانه، ولكن لم يطل عهده أيضاً إذ قضى الفرنسيون على دولته، وألقوا القبض عليه عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، ونفوه إلى الغابون حيث توفي عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م).

كانت فرنسا تتوسّع في الداخل فيما يسمى اليوم (غينيا) فحصرت النفوذ الإنكليزي من ناحية الشرق، لذا أسرعت بريطانيا ففرضت حمايتها على المناطق الشرقية التي وقّع زعماؤها معها معاهدات عليه، وعلى الأجزاء

التي كانت قد نهبتها بالغارات المتكررة، وأُطلق على مجموع هذه الأراضي اسم سيـراليون، وهي تتـألف من:

١ ــ **المستعمرة**: وتضم شبه جزيرةٍ صغيرةٍ لا تزيد مساحتهـا على ٦٦٤ كيلومتراً مربعاً.

٢ ــ **المحمية**: وتشمل باقي أجزاء سيراليون اليوم، وتبلغ مساحتها ٧٢,٠٠٠ كيلومتراً مربعاً.

وفي عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) وقّعت إنكلترا وفرنسا معاهدةً بينهما لتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين الاستعماريتين، وبعد عامٍ أعلنت انكلترا فرض حمايتها على المناطق التي سُمّيت سيراليون.

ولمـا كانت مـالية انكلتـرا في عهد (غـلادستون) مثقلةً، ولا يمكن للدولة أن تتحمّل أية زيادةٍ في النفقات وبالتالي لا يمكنها أن تحدث جهازاً إدارياً جديداً يتولّى إدارة شؤون سيراليون، وتدفع النفقات الكبيرة، كما أن الإنكليز يرفضون السفر إلى سيراليون لتولّي الأعمال خـوفاً من الأمـراض المنتشرة حسب الشائعات المبالغ فيها، لذا فقد رأت الحكومة البريطانية أن يستمرّ حكام المنـاطق في تسيير شؤون منـاطقهم تحت إشراف منـدوبين إنكليز، وارتبط هذا النظام في حكم غربي إفريقية الإنكليزية. وهكذا كان البريطانيون هم الذين يتولّون المناصب العليا في محمية سيراليون.

قُسمت البلاد إلى ١٤٤ زعامةً، يُشرف على كل منها زعيم من أبناء البلاد، ويساعده في الإدارة مجلس محلي يتألف من الطاعنين في السنّ من أهل المنطقة وذلك في سبيل إضعاف شؤون البلاد، وعدم وجود وحدةٍ بين أبنائها على طـريقة المستعمـرين في سياسـة تفرقـة المجتمع إلى أقسـامٍ متعددةٍ.

ثم عمّ ذلك النظام على المستعمرة. وتقدّم الطب، وذهب الخوف من السفر إلى سيراليون بسبب الأمراض فـأقبل الشبـاب البريـطانيون إلى العمل هناك، وتقلّص عدد الموظفين المحليين حتى الـذين تولّت الإدارة

الإنكليزية تعليمهم لهذه الغايـة، وأصبحت الإدارة السيراليـونية في بـداية القرن الرابع عشر الهجري بيد الإنكليز.

إذن كانت فريتاون مستعمرةً خاصةً، وسيراليون محميةً، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م).

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة الإسلامية في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، وسيراليون تحت الحماية البريطانية، ومدينة فريتاون وما حولها مستعمرة بريطانية، وكان النظام الإداري قد تغيّر قبل عامٍ فيهما، حيث أصبحتا تحكمان عن طريق مجالس تشريعية وأخرى تنفيذية موحدة. فكان يمثل (فريتاون) ثلاثة أعضاء عن طريق الانتخاب، ويُمثّل المحمية ثلاثة أعضاء من رؤساء القبائل، وبقي ذلك حتى الحرب العالمية الثانية.

بعد الحرب اقترح مشروع انتخاب عام وإقامة حكومةٍ تُمثّل السكان جميعاً بصورةٍ متساويةٍ ولكن (الكريول) رفضوا هذا المشروع، وذلك لأنهم رأوا في هذه المساواة إضاعةً لسيطرتهم، وكانوا يشعرون بالتفوق على بقية السكان بثقافتهم التي هيأها لهم المستعمرون.

وضع دستور عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م)، وجرت الانتخابات النيابية، وفاز فيها حزب الشعب السيراليوني بقيادة «ميلتون مارغاي» والذي أصبح عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م) وزيراً أول، ورئيساً للوزراء عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م).

كان المجلس التشريعي يضمّ واحداً وثلاثين عضواً، منهم الحاكم، ونائبه، وعضوان يُمثّلان المصالح التجارية، واثنا عشر عضواً يمثّلون زعماء القبائل، وينتخب باقي الأعضاء انتخاباً، وهم خمسة عشر عضواً.

أما المجلس التنفيذي فيتكون من ثمانية أعضاء، نصفهم يُعيّن تعييناً،

والنصف الآخر ينتخب انتخاباً، واستطاع الكريول أن يحصلوا على أربعة مقاعد في المجلس التنفيذي، وحصل حزب الشعب السيراليوني الذي نشأ حديثاً على مقعدين من المقاعد التي تمّ انتخابها، ونتيجة ذلك انضم الكريول إلى حزب الشعب الأمر الذي جعل الحاكم يمنح مقعدي العضوين الباقيين للحزب نفسه.

وفي عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م) سُمّي أعضاء المجلس التنفيذي وزراء، وتخلّى الحاكم الإنكليزي عن السلطات التي كان يتمتع بها، وبدأت الحكومة في أفرقة بعض الإدارات المدنية.

وفي عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) حدثت ثورة الفلاحين التي كانت تُطالب باستقلال البلاد، والحدّ من سلطة زعماء القبائل الأمر الذي أجبر الحكومة على توقيف الزعماء القبليين، وأصبح الاستقلال مطلباً وطنياً.

جرت انتخابات عامة عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م)، وحصل حزب الشعب السيراليوني فيها على ستةٍ وعشرين مقعداً من أصل واحدٍ وثلاثين مقعداً. وفي العام التالي صدر مشروع بالحدّ من سلطة الحاكم البريطاني، وفي الوقت نفسه ظهر على الساحة حزب جديد هو حزب الشعب الوطني الذي بدأ يطالب بالاستقلال. وقد انتشرت هذه الفكرة بسرعةٍ بعد استقلال غينيا الجارة الكبيرة في ذلك العام.

وكثرت الأحزاب السياسية على الساحة السيرالونية حتى بلغ عددها تسعة أحزاب، منها: المجلس الإسلامي، والحزب الاشتراكي، أجمعت كلها على المطالبة بالاستقلال، ثم اندمجت في جبهةٍ واحدةٍ، وطالبت بريطانيا بالجلاء عن البلاد، وشكّلت وفداً يمثّلها، وسافر الوفد إلى لندن عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، وعندما عاد شكّل أعضاؤه حكومةً ائتلافيةً استطاعت أن تظفر بالاستقلال في ١٢ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ (٢٧ نيسان ١٩٦١ م) ضمن رابطة الشعوب البريطانية، وقُبلت في عضوية الأمم المتحدة، وكانت العضو رقم المائة.

السياسة الاستعمارية:

كانت جموع التنصير ترافق جنود الاستعمار، وقد ركّزت الإرساليات التنصيرية جهودها على الجماعات البدائية، وتعهدت مجموعة (الكريـول) المولّدين في جزر الآنتيل (جزر الهند الغربية) إذ عُمّدوا هناك، وانتموا إلى النصرانية انتماءً، ولقد حرصت تلك الإرساليات على تعليم هؤلاء الكريول، وتثقيفهم ثقافةً نصرانيةً خاصةً، ثم اعتمدتهم في كثيرٍ من الوظائف والأعمال الإداريـة حيث غدوا متميـزين على غيرهم من سكـان مستعمرة فـريتـاون ومحمية سيراليون، كما اعتنت بهم صحياً.

والمستعمر بحاجة إلى أعدادٍ كبيرةٍ من البشر يستخدمهم في الأعمال الزراعية، واستغلال الأرض، والتعدين، والمؤسسات الحكومية، وحفظ الأمن وما إلى ذلك من أعمالٍ، ويرى أنه لا يمكن أن يعتمد على أشخاصٍ لا يعتقدون عقيدته، فالعقيدة هي التي تربط بين الجماعات، وتصل بعضهم مع بعضٍ، والدول الاستعمارية كلها تدين بالنصرانية لذا يمكن أن يدعم بعضها بعضاً في هذا المجال بغض النظر عن اختلاف المذاهب والتبايـن بين الفـرق، وعلى الرغم من وجـود المنافسـة الاستعماريـة بينهم، تترك الكنائس والإرساليات النصرانية الصراعات الاستعمارية والنزاعات السياسية وتعمل لتثبيت دعائم النصرانية. كما يرى المستعمرون أن هؤلاء النصارى من أبناء البلدان المتخلفة يمكن في يومٍ من الأيام أن يحلّوا مكانهم في الحكم دون أن يتغيــر شيء، أو دون أن يحـدث اختــلاف واضح في السياسة، إذ أن الديانة تجمع بين الطرفين، ولربما وقفوا أكثر منهم أمام انتشار عقائد وديانات أخرى، بل ويمكن أن يحاربوا بجانبهم إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك حيث تربط العقيدة بين الجانبين، فعدوهم واحد وهو المبـاين لهم في العقيدة، وصـديقهم واحد هـو ابن ديانتهم أينمـا وجد، وهـدفهم واحد، وإذا حـدث ما يعكـر الصفو بين الجـانبين بسبب بعض المصـالح عملت على حلّه الكنيسـة وإرساليـاتها. ونصـارى أبناء البلدان المستعمرة هم عين المستعمرين على سكان البلد، والأذن التي تسترق لهم

السمع، وتنقل ذلك لهم سواء ادعوا ما يُسمّونه بالوطنية ونادوا بها أم جاهروا بالارتباط، وأعلنوا صلتهم بأبناء عقيدتهم.

وعملت الإرساليات التنصيرية على الوقوف في وجه الإسلام فمنعت أبناءه من الانتساب إلى مدارسها، والدخول في مشافيها، والإفادة من خيرات الأرض، إذ حرصت على سلب أملاكهم في سبيل إفقارهم، ولتجعلهم يلتجئون إليها نصارى مستسلمين. ولم تكن المدارس الرسمية التي افتتحتها الحكومة الاستعمارية لتختلف كثيرًا عن مدارس الإرساليات التنصيرية إذ كانت المناهج موجهةً حسب التعاليم النصرانية، وحسب مقتضيات المصالح الاستعمارية، ولم تسمح للمسلمين بالانتساب إليها إلا ضمن شروطٍ وهي أن يُغيّر الطالب اسمه الإسلامي ليصبح اسماً نصرانياً على الأقل، أو ليقبل عقيدة المستعمرين كلياً، وهذا ما جعل المسلمين في حالة من الجهل والتأخر.

ولم تعتن إنكلترا بالصحة المطلوبة، بل تركت السكان عرضةً للأمراض والأوبئة المنتشرة، واقتصرت في بناء بعض المستوصفات في (فريتاون) وما حولها حيث يُقيم المستعمرون والكريول، وأما بقية المناطق فظلّت كما هي، وكذلك أقامت الإرساليات التنصيرية بعض المشافي لأتباعها الذين جاءوا مع الجيش الاستعماري أو ممن كسبتهم من الوثنيين، وإذا ما توجّه إليها أحد المسلمين فلا بد له من أن يمرّ بمرحلةٍ قبل أن يتلقّى العلاج، رغم ما يعاني من الآلام، ومهما كانت شدّتها، وفي هذه المرحلة يتلقّى مبادىء التنصير وعقيدة التثليث، ويجب أن يُسرع في إظهار الموافقة والقناعة حتى يصل إلى مرحلة العلاج، وقد يُسجّل في عداد النصارى، ولذا بقي المسلمون يُعانون من أمراض البيئة ما يُعانون، وينتابهم المرض، وهم صابرون.

وعمل المستعمرون على نشر الفساد، وإشاعة المنكرات، ومعاقرة الخمرة، والتعليم المختلط، والاختلاط في المجتمع على أن ذلك كله من

ضرورات الحياة، وأنه مظهر من مظاهر المدنية الحديثة.

وأشاع المستعمرون أن الإسلام دين خاص بالعرب، جاءوا به من جهة الشمال ليتسلّطوا به على الزنوج وسكان إفريقية السوداء، وأنه لا ينسجم مع طبيعتهم، ولا مع طبيعة هذه البيئة الحارة حيث لا يمكن للمرأة أن تحتجب ولا تلبس لباس الحشمة الذي يصعب مع شدة الحرارة.

وعمل البريطانيون على التفرقة بين القبائل حيث شحنوا أكبر القبائل وهي الماندي، والتمني بالأحقاد بعضهم على بعضٍ، وقدّموا الكريول على غيرهم، وجعلوهم يشعرون بالتفوّق على كل من سواهم من سكان المنطقة، كما أن النظام الإداري قد جعل البلاد ١٤٤ وحدةً حسب القبائل، وأبقوا نقاط خلافٍ بين هذه الوحدات حيث يمكن إثارتها في كل وقتٍ.

وعجزت الإرساليات التنصيرية كما عجز المستعمرون على تنصير المسلمين لذلك عملوا على تهديم عقيدة المسلمين فإضافةً إلى نشر المفاسد، وإشاعة الخرافات، وتبنّي أصحاب الأفكار المنحرفة فسحوا المجال لانتشار القاديانية التي هي من غراس انكلترا، وتقوم على وجوب طاعة الإنكليز بصفتهم الحكام، والاعتقاد بأن غلام أحمد هو المسيح المنتظر، وهو نبي الأمة الجديد، وقد جاء ليُجدّد ما أتى به رسول الله ﷺ، والادعاء بأن الروح الإلهية تحلّ بغلام أحمد هذا، وباختصار فإن من يعتقد بهذا يعدّ كافراً، ومع هذا الكفر والبعد الصريح عن الإسلام يدعي أتباع القاديانية أحياناً الإسلام في سبيل التهديم، وسمحت بريطانيا لمن يعتنق هذه الفكرة أن يُهاجر إلى أي بلدٍ يخضع لنفوذها، وتعهدت لمن يهاجر أن يجد كل حريةٍ ومساعدةٍ، وفتحت للقادمين منهم ميادين العمل والدعوة لفكرتهم الخبيثة، ومدّتهم بكل وسائل الدعم والتأييد، وكان أولهم قدوماً إلى سيراليون نظير أحمد علي الذي جاء إليها من غانا، واستقرّ هناك عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)، وقد فشل بعد أن لقي بعض النجاح في مدينة (باؤماهون) حيث أسّس مدرسةً ابتدائيةً في تلك المدينة، غير أن انتشار

مرض الجدري هناك قد أضعف شأن المدينة فهجرها كثير من الناس، واضطر هو لتركها. وأخيراً وجد النجاح في مدينة (بو) التي أصبحت مركز قيادة العمل القادياني في سيراليون، إذ أقام أتباعها داراً للطباعة، وقاعةً للمطالعة ومدرسةً ابتدائيةً، ومتجراً كبيراً، وبقي نظير أحمد علي حتى مات عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م).

وقلّ شأن القاديانية بعد الاستقلال في سيراليون، ويقدّر عدد أتباعها اليوم هناك بألفين وخمسمائة إنسان، ولهم عشر مدارس، وثانوية واحدة، وأكثر الموظفين من هذه الجماعة في سيراليون إنما هم من الغرباء، ومن باكستان بصورةٍ خاصةَ إذ استقدمتهم بريطانيا أثناء استعمارها البلاد لنشر هذه الفكرة الزائفة خدمةً لمصالحها هناك.

العمل الإسلامي:

كان المسلمون في منطقة سيراليون لا يزيدون على ٢٥ ٪ في مطلع القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، غير أن نسبتهم بدأت ترتفع بسرعةً فوصلت إلى ٤٠ ٪ في منتصف القرن، ولم ينته حتى وصلت إلى ٧٥ ٪، وهي الآن تزيد على الثمانين، وذلك نتيجة التسابق للإسلام حيث كانوا يعدّون ذلك ارتقاءً في الحضارة لنظرتهم إلى الإسلام وإلى أتباعه، ولأنهم وجدوا في الوثنية تخلّفاً، وفي النصرانية اقتراناً مع الاستعمار والظلم والامتهان، إضافةً إلى ما في النصرانية من طقوس الوثنية، ثم محاولة النصارى للتعاون مع الوثنيين والتقرّب منهم لمحاربة الإسلام.

بدأت القبائل تتسابق للدخول في الإسلام وبناء المساجد، إذ تبني كل قبيلةٍ مساجدها لنفسها، ومسجدها الخاص في المدينة العاصمة، وعلى الرغم من وجود خطأ في هذا العمل حيث فيه تفرقة للمسلمين وإثارة للنعرة العصبية، وهذا ما يرفضه الإسلام ويُحاربه إلا أنه كان إسراعاً لانتشار الإسلام والإقبال عليه. ولكن تطبيق تعاليم الإسلام بشكلٍ سليمٍ أفضل من

انتشاره بصورةٍ غير صحيحةٍ، وبذا كثر عدد المساجد.

وأخذ المسلمون يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب التي افتتحت في أكثر المدن والقرى السيراليونية لتعليم الأحداث قصار السور على طريقة الألواح المشهورة التي تكاد تكون الطريقة الوحيدة للتعليم في أنحاء إفريقية جميعها، حيث يتحلّق الطلاب في أوقاتٍ مُعيّنةٍ من النهار، وفي الليل حول شعلةٍ من نارٍ توقد في باحة دار المعلم لحفظ ما كتبه على ألواحهم وذلك لقاء عملٍ يقوم به الطلاب في حقل المعلم، وفي قشر الأرز، والاحتطاب، وجلب الماء ويبقى الطالب كذلك إلى أن يُتمّ مرحلة تلاوة القرآن بالنظر، وحفظ بعض قصار السور، ويُمنح بعدها لقب (ألفا)، فإن أراد التفرغ للعلم يبدأ مرحلةً تعليميةً ثانيةً، وهي مرحلة تفسير معاني القرآن وترجمتها إلى لغته، مع دراسة بعض الكتب الفقهية المالكية، وعند إتمام هذه المرحلة الدراسية التي تستغرق أحياناً عشر سنواتٍ، يُمنح بعدها لقب (فودي) باحتفالٍ كبيرٍ يحضره أعيان القبيلة وعلماؤها حيث تلفّ على رأسه عمامة (فودي)، ثم يُرفع كرسيه على الأعناق، وهو جالس عليه لُيطاف به في البلدة، ويُؤهّل من مُنح لقب (فودي) لأن يكون إماماً في جماعة[1].

وعلى الرغم ما في هذه الطريقة من بساطةٍ لفقر المسلمين وعدم مساعدة الدولة لهم بل ومحاربتهم فقد استطاعت أن تلعب دوراً هاماً في نشر الثقافة الإسلامية في تلك الجهات إذ دخلت إلى مجاهل الغابات، وأدخلت سوراً من القرآن الكريم وبعض الأحكام الفقهية، والمفهومات الإسلامية على حين لم تستطع ذلك الثقافة النصرانية ثقافة المستعمر مع أنها تملك إمكاناتٍ ماديةً ضخمةٍ ومغرياتٍ كبيرةٍ.

ومع ما في هذه الطريقة من صعوبةٍ وبدائيةٍ إلا أن المسلمين قد

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية شوال ١٣٩٦ هـ، مقال: المسلمون في سيراليون للشيخ أحمد بن صالح المحايري.

تمسّكوا بها خوفاً على عقيدتهم من مدارس المستعمـرين الصليبيين التي تتمثّل في المدارس الرسمية، ومدارس الإرساليات التنصيرية، وكلها تملك وسائل تعليمٍ حديثةٍ غير أنها موجّهة ضدّ عقيدة المسلمين.

أما المساجد فتعود كثرتها إلى أهميتها في الحياة الاجتماعية الإسلامية في سيراليون، فالمسجد هو المكان الأول الذي يهتم بقضايا المسلمين، لذا فقد بنت كل جماعةٍ إسلاميةٍ مسجدها الخاص، وعيّنت له إمامه ليكون كلامه الفصل في المشكلات التي يتعـرّض لها المجتمـع، ففي المسجد يعقد النكاح، ويكون الطلاق، ويفصل في الخصومـات، ويُجهّز الميت، ويعلن عن الدعوات، وتوزّع الزكاة. وكل جماعةٍ مسؤولة عن تغطية نفقات مسجـدها، وتـأتي الواردات إليـه من الاشتراكـات الشهريـة التي يـدفعهـا الأعضاء، والتبرعات، والرسوم على الزواج، وعلى الطلاق، وعلى تجهيز الموتى، وتشمل مصروفات المسجـد: البناء، والتـرميم، والإنارة، وجلب المياه، وراتب الإمام، وغالباً ما يكون هذا الراتب قليلاً، لذا لا نجد الإمام متفرغاً للدعوة بل يزاول أعمالاً أخرى، وربما يكون منها ـ مـع الأسف ـ كتابة الحجب والتمائم التي تنتشر عـادةً بين الشعوب المتـأخّرة وبخـاصة البدائية منها، والذين دانوا بالإسلام لم يتحرّروا تماماً في تلك الجهات من تلك العادات، بل استمرّت بصورٍ شتى، وتنتشر أيضاً مع الخرافات، وقد يكون الإمام ممن يقبل ذلك بل ويقوم بنشره أيضاً.

لم يكن بالعاصمة فريتاون قبل مائة عامٍ غير مسجدٍ واحدٍ، ويزيد عدد جوامعها الآن على خمسةٍ وعشرين جامعاً.

الفصل الثاني

الاستقلال

١٢ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ - ......

٢٧ نيسان ١٩٦١ م - ....

حصلت سيراليون على الاستقلال في ١٢ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ (٢٧ نيسان ١٩٦١ م)، ولكن لم تلبث الحكومة أن وجدت في وجهها معارضةً شديدةً، تُطالبها بإجراء انتخاباتٍ عامةٍ، وتتهمها بالتفاهم مع الاستعمار البريطاني، ولكن الدستور كان قد تمّ الموافقة عليه. وتمثّلت هذه المعارضة بحزب المؤتمر الشعبي العام الذي تشكّل من أعضاء حزب الشعب الوطني السيراليوني الذين تركوا حزبهم، وانضّموا إلى أعضاء من الحزب التقدمي المتّحد، وأسّسوا حزب المؤتمر الشعبي العام الذي أخذ في معارضة الحكومة.

وكان دستور سيراليون ينصّ على أن المملكة البريطانية تُنيب عنها الحاكم العام الذي تُعيّنه بناءً على توصيةٍ من رئيس الحكومة الوطنية.

وتتألف الوزارة من رئيسٍ يختاره الحاكم العام الذي يُعيّن أيضاً بقية الوزراء بناءً على توصيةٍ من رئيس الوزراء، ويجب أن يكون الوزراء أعضاء في المجلس النيابي، ومن بين الوزراء خمسة مسلمون.

أما المجلس النيابي فيتألف من ستين عضواً، ويشترط في العضو أن يكون قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وأن يجيد اللغة الإنكليزية لغة المجلس النيابي.

جرت الانتخابات في ذي الحجة ١٣٨١ هـ (أيار ١٩٦٢ م)، وفاز فيها أيضاً حزب الشعب السيراليوني، ومات رئيس الوزراء «ميلتون مورغاي» في

ذي الحجة ١٣٨٣ هـ (نيسان ـ ١٩٦٤ م)، وخلفه في رئاسة الوزراء أخوه من أبيه «روبرت مارغاي» والذي كان يشغل منصب وزير المالية.

وجرت الانتخابات العامة في ١٣٨٧ هـ وفاز فيها حزب المؤتمر الشعبي العام، وأصبح رئيسه (سيكا ستيفنز) رئيساً للوزراء.

وفي ١٠ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ (٢١ آذار ١٩٦٧ م) وهو اليوم الذي تسلّم (سيكا ستيفنز) رئاسة الوزارة وقع انقلاب عسكري بقيادة (دافيد لانسانا).

وبعد يومين فقط من الانقلاب الأول أي في ١٢ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ (٢٣ آذار ١٩٦٧ م) وقع انقلاب مضاد قاده زعماء الجيش والشرطة، وبعد نجاح الانقلاب قرر قادته إنشاء (جبهة الإصلاح الوطني) برئاسة العميد (اندروجاكسون سميث).

وبعد عامٍ وفي ٢٠ محرم ١٣٨٨ هـ (١٨ نيسان ١٩٦٨ م) أطاح زعماء الجيش والشرطة بجبهة الإصلاح الوطني، وشكّلوا حركةً ثوريةً ضد الفساد عُرفت باسم «الحركة الثورية العامة».

وسلمت الحكم للمدنيين، وشكّلت حكومة من أعضاء الحزبين الكبيرين، وهما: حزب المؤتمر الشعبي العام، وحزب الشعب الوطني السيراليوني، ورجع (سيكا ستيفنز) رئيساً للوزراء.

وقد اعترف بعد الاستقلال بالإسلام كدينٍ رسميٍ على الرغم من أن المسلمين هم الأكثرية غير أن الأقلية النصرانية هي التي تتحكم بشؤون البلاد، وتعطي إحصائياتٍ خاطئةٍ ليبقى لها نفوذها وسيطرتها، ومع هذا فإن عيد الفطر، وعيد الأضحى، والثاني عشر من شهر ربيع الأول تُعدّ عطلاً رسميةً. ويسمح للمسلمين يوم الجمعة بمغادرة أعمالهم ودوائرهم لتأدية فريضة الجمعة، وتنقل وقائع صلاة الجمعة من إذاعة فريتاون أسبوعياً، ومن مساجدها الكبيرة بالتناوب، ويُوجّه مساء ذلك اليوم برنامج تلفزيوني خاص.

وتُفتتح الاحتفالات الرسمية بالقرآن الكريم مقابل دعاءٍ من قسيس. وتفتتح وزارة المعارف مدارس إسلامية، ويسمح بإقامة جميعاتٍ إسلاميةٍ تمارس النشاط الإسلامي، ولكن لا توجد محاكم شرعية في البلاد، وإنما يمارس أئمة المساجد هذا العمل، وكذلك لا توجد مقابر خاصة بالمسلمين.

وفي صفر ١٣٩١ هـ (نيسان ١٩٧١ م) وضع دستور جديد على أساس الجمهورية وأصبح «سيكا ستيفنز» رئيساً تنفيذياً.

ولم يشترك حزب الشعب السيراليوني في الانتخابات الفرعية التي جرت عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)، والانتخابات العامة التي تمت عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م)، وبالتالي لم يتم تمثيل الحزب المعارض في مجلس الشعب، وتمّ بالإجماع انتخاب الرئيس «سيكا ستيفنز» لمدة خمسة أعوامٍ أخرى رئيساً للجمهورية.

وتمخضت الانتخابات التي جرت في جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ (أيار ١٩٧٧ م) والتي شارك فيها حزب الشعب الوطني السيراليوني عن فوز حزب مؤتمر الشعب العام، ولكنها كانت انتخابات مصحوبة بالعنف وادعاءات بالتزوير والتهديد والإكراه.

وجدّد حزب مؤتمر الشعب العام مطالبه بحكومة الحزب الواحد، وأعلن رئيس الهيئة التشريعية في رجب ١٣٩٧ هـ (تموز ١٩٧٧ م) أن حزب الشعب السيراليوني غير قادرٍ على إدارة حكومةٍ للبلاد، وبالتالي لا يحق له أن يكون حزب المعارضة الرسمي.

ووضع دستور جديد في البلاد في جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (أيار ١٩٧٨ م) اعتمد على حكومة الحزب الواحد وتمت الموافقة عليه باستفتاءٍ عامٍ، ووافق عليه مجلس النواب في رجب ١٣٩٨ هـ (حزيران ١٩٧٨ م) وبهذا أصبح حزب مؤتمر الشعب العام هو الحزب الرسمي الوحيد في سيراليون. وتم تجديد مدة الرئاسة للرئيس «سيكا ستيفنز» لمدة سبع سنواتٍ أخرى وذلك في ١٠ رجب ١٣٩٨ هـ (١٤ حزيران ١٩٧٨ م). وقام الرئيس

بعد ذلك بإطلاق سراح السجناء السياسيين، وأعطى عدة حقائب وزاريةٍ لعددٍ من الأعضاء السابقين في حزب الشعب الوطني السيراليوني.

وواجهت الحكومة معارضةً شديدةً عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) إثر فضيحةٍ طالت عدداً من الوزراء وآخرين من كبار الموظفين لسوء التصرف بالأموال العامة واختلاسها. وفي شهر شوال ١٤٠١ هـ (آب ١٩٨١ م) أعلنت حالة الطوارىء في محاولةٍ لاحتواء إضرابٍ عامٍ تذمّراً من ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية. وتسلّم الرئيس «سيكا ستيفنز» بنفسه منصب وزارة المالية في صفر ١٤٠٢ هـ (كانون الأول ١٩٨١ م) وذلك إثر فضيحةٍ ماليةٍ جديدةٍ كان أبطالها بعض كبار موظفي الحكومة.

وجرت الانتخابات التشريعية في رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م) وسط حوادث عنفٍ بالغة الخطورة، وأثارت نتائج انتخاباتٍ مختلف عليها أجريت في أول شعبان ١٤٠٣ هـ (أيار ١٩٨٣ م) أحداث عنفٍ بين القبائل، وتمّ إرسال قوات أمن إلى المنطقة في صفر ١٤٠٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٣ م) وذلك لقطع دابر العنف. وانفجرت المظاهرات في العاصمة «فريتاون» في ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م)، وقد أثارها طلاب كلية خليج فوره احتجاجاً على نقص المواد الغذائية، وارتفاع الأسعار، وقُتل في هذه المظاهرات أربعة أشخاصٍ مما أدّى إلى إغلاق الكلية لمدة شهرين. وتلا ذلك إضرابات قام بها موظفو الحكومة في ربيع الأول وربيع الثاني من عام ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٤ م وكانون الثاني ١٩٨٥ م) احتجاجاً على عدم استلام رواتبهم. وحدثت مظاهرات أخرى قام بها الطلاب في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) على أثر إجراءاتٍ تأديبيةٍ اتخذت ضد زعماء الطلبة.

أعلن الرئيس «سيكا ستيفنز» في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) أنه ينوي ترشيح نفسه لمدةٍ جديدةٍ، وكانت رئاسته تنتهي في رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م)، وكان عمره قد ناهز الثمانين، غير

أنه عاد فعدل عن رأيه إذ أعلن في رجب ١٤٠٥ هـ (نيسان ١٩٨٥ م) أنه لن يُرشّح نفسه مرةً أخرى. وفي الشهر نفسه وافق مجلس النواب على تعديلٍ دستوريٍ تمتدّ بموجبه ولاية الرئيس «سيكا ستيفنز» مدة ستة أشهرٍ لإعطاء فرصةٍ لتسجيل الناخبين وتسمية المرشحين للرئاسة. ثم عاد المجلس فوافق في رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م) على تعديلٍ دستوريٍ آخر يقوم بمقتضاه مجلس رئاسي بدلاً من نائب الرئيس المنصوص عنه في الدستور يحكم البلاد في حالة غياب الرئيس أو استقالته أو وفاته.

وفي مؤتمرٍ للحزب الحاكم «حزب مؤتمر الشعب العام» في ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م) كان اللواء «جوزيف مومو» الذي كان وزيراً للدولة، وقائداً للجيش هو المرشح الوحيد لزعامة الحزب، ولمنصب رئاسة الجمهورية، وتمت الموافقة على ترشيحه من قبل أعضاء المؤتمر الذين كان عددهم سبعمائة عضو.

وفي الانتخابات الرئاسية التي جرت في شهر صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م) حصل «جوزيف مومو» على ٩٩٪ من مجموع الأصوات، وتم تنصيبه رئيساً في ١٦ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٨٥ م). وعلى الرغم من احتفاظه بوضعه العسكري إلا أنه شكل وزارة مدنيةً شملت عدداً من أعضاء الوزارة السابقة. وقد قلّص عدد أعضاء مجلس الوزراء من ٢٩ إلى ١٩ عضواً، وقلّص عدد الوزراء من ٥١ إلى ٣٣ وزيراً.

وأجريت الانتخابات النيابية في رمضان ١٤٠٦ هـ (أيار ١٩٨٦ م) ولم يقع خلالها سوى حوادث قليلة من العنف، والتجاوزات الانتخابية، وقد خاض هذه الانتخابات ٣٣٥ مرشحاً جميعهم من أعضاء حزب مؤتمر الشعب العام لملء ١٠٥ مقاعد نيابية، وقد خسر ما يقارب من نصف عدد النواب مقاعدهم، وأغلبهم من السياسيين المحنّكين الذين شغلوا مناصب مهمة في إدارة الرئيس السابق «سيكا ستيفنز» ومن بينهم أربعة أعضاءٍ في مجلس الوزراء.

شكّل الرئيس «جوزيف مومـوه» وزارةً جديـدةً في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) دخلها خمسة أعضاء جدد، وسبعة وزراء دولة إضافيين. وفي ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كـانون الأول ١٩٨٦ م) أطلق الـرئيس سراح سبعة وعشرين سجيناً سياسياً منهم اثنا عشـر سجيناً كـانوا مُـدانين بتهمة الخيـانة لاشتـراكهم في المحاولـة الانقلابيـة التي جـرت عـام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

وبسبب فشـل إدارة الرئيس «جـوزيف مومـوه» في تحسين الـوضـع الاقتصادي الحرج، وبسبب تأثير الإجراءات التقشفية التي فرضها مجلس النقد الدولي الأمر الذي أدّى إلى ارتفاع الأسعار كل هذا سبّب تناقصاً في شعبية الرئيس التي كان يتمتع بها عند توليه منصب الرئاسة عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٥ م)، وكـذلك الاحتفـاظ بأعضـاء في مجلس الوزراء من حكـومة الرئيس السابق «سيكا ستيفنز» قد أثار موجةً من النقد.

وصادرت سلطات الجمارك الفـرنسية في جمـادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) معـداتٍ حربيةٍ من سفينة شحن، ادعت حكومة سيراليون أنها كانت في طريقها إلى سيراليون لاستخدامها في محـاولةٍ لقلب نـظام الحكم فيها.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) أعلنت الحكومة أنها أجهضت محاولةً انقلابيةً، وتمّ اعتقال ستين شخصاً، وأنها قد وضعت يدها على كمياتٍ كبيرةٍ من الأسلحة والمعدات الحربية ذات الفعالية. وفي أوائل رمضـان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م) تمّ اعتقـال «فرانسيس مينـاه» النائب الأول لرئيس الجمهورية، وأُقيل من منصبه لارتباطه بالمحاولة الانقلابية، وأعقب ذلك تغييرات واسعة في المناصب الحكومية، وعُيّن وزيـر جديـد للمـاليـة، كمـا استحـدثت وزارة مختصـة بـالتنميـة الـريفيـة والخـدمـات الاجتماعية.

وفي صفر ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م) بعـد محاكمـة دامت

خمسة شهور حُكم على فرانسيس ميناه، وخمسة عشر متهماً آخرين بالإعدام بناءً على اتهامهم بالتخطيط لاغتيال الرئيس ومحاولة قلب نظام الحكم، وحُكم على آخرين بالسجن لمدة أربع سنواتٍ وسبع سنواتٍ لتسترهما على جريمة خيانة قادة الحركة. واستأنف الحكم الذين قضت المحكمة عليهم بالإعدام وذلك في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) ولكن تمّ تأييد الأحكام في ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) عدا أربعةٍ منهم، ثم أيّدت المحكمة العليا أحكام الإعدام على المتهمين الاثني عشر في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) إلا أن ستةً من هذه الأحكام قد استبدل بها عقوبة السجن المؤبّد فيما بعد. وتمّ إعدام فرانسيس ميناه والخمسة الذين معه في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) على الرغم من طلبات العفو التي تقدمت بها الدول الأوربية، والحملة التي قامت بها منظمة حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية.

بدأ الرئيس «جوزيف مومـوه» في ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) حملةً على الممارسات المالية السيئة في القطاع الحكومي، فاستقال وزير الزراعة والثروات الطبيعية والغابات في ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) بعد اتهامه بالفساد، وقد أمره الرئيس جوزيف مومـوه بإعادة ستة ملايين من الوحدة النقدية السيراليونية إلى الخزانة العامة.

واتهم أحد النواب فيما بعد وزيرين وعدداً آخر من كبار الموظفين في الحكومة، وفي مصرف سيراليون بالنصب، والاحتيال، وفساد الذمة.

وفي ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) بعد سلسلةٍ من إضراب العاملين في القطاع العام احتجاجاً على قلّة السيولة المالية التي أدّت إلى عجز الحكومة عن دفع الرواتب أعلن الرئيس «جوزيف مومـوه» حالة الطوارىء في قطاع الاقتصاد، وأعلن عن تسعةٍ وخمسين إجراءً تهدف إلى منع احتكار العملة والبضائع الأساسية، كما واصل الحملة ضد التهريب، وطبقاً لهذه الإجراءات عدّ الفساد جنايةً، وأصبح من الممكن

محاكمة أي متهمٍ بأية جريمةٍ حتى في حالة غيابه، ولقد تمّ فرض عقوباتٍ شديدةٍ على اتخاذ الصحف في نشر مقالات التشهير، وأصبح من الممكن تفتيش البريد الخاص، وعيّنت الحكومة رقيباً على النشر.

وفي رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) مُدّد العمل بإجراءات حالة الطوارىء الاقتصادية لعامٍ جديدٍ، ووافق مجلس النواب على ذلك.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) أعلن الرئيس عن تغييراتٍ في الوزارة فقد بمقتضاها نائبا الرئيس منصبيهما الوزاريين، وأصبحت وظيفتاهما شكليتين تماماً، وتمّ فصل أربعة وزراء هم: وزراء الإذاعة والإعلام، والنقل والمواصلات، والتجارة والصناعة، والزراعة. واستحدثت وزارة للصناعة والمشروعات الحكومية.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) انعقد المؤتمر العاشر للنواب الوطنيين (نواب حزب مؤتمر الشعب العام)، وأكّد الرئيس «جوزيف مومو» على ضرورة استفتاء قوى الشعب عامةً لتحقيق التنمية الوطنية وكرر التزامه بإزالة الفساد، ولهذا الغرض تمّ إعلان ميثاق السلوك الشريف للقادة السياسيين، والموظفين الحكوميين، والذي بمقتضاه يُندّد باستغلال النفوذ الرسمي. ولم يكن هذا الكلام إلا للاستهلاك المحلي، والدعاية الرسمية في محاولة لتأييد الشعب للنظام، حيث يظن الحاكم أن الشعب غافل، وليس له أية وزن. وما يجري ويرتكب غير ما يذاع رسمياً وما تتناقله وسائل الإعلام، وما يشيعه أعوان السلطة. وتمت إعادة انتخاب الرئيس «جوزيف مومو» أميناً عاماً للحزب دون معارضة.

وفي مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م) وافق مجلس النواب على تشريعٍ يقضي بضرورة استقالة موظفي الحكومة الذين يريدون ترشيح أنفسهم للانتخابات النيابية المقرر إجراؤها عام ١٤١١ هـ (١٩٩١ م) من مناصبهم قبل ٧ ذي القعدة ١٤١٠ هـ (نهاية أيار ١٩٩٠ م).

وفي جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) تمّ تعيين وزيرٍ

جديدٍ للمالية بعد اتهام وزارة المالية بالتلاعب وسوء التصرف.

وأجريت انتخابات المقاطعات في جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (أوائل عام ١٩٩٠ م) إلا أنها أُلغيت في ثلاث دوائر عقب شكاوى من ممارساتٍ خاطئةٍ. وارتفعت بعدها نسبة التأييد الشعبي لنظام الحكم المتعدد الأحزاب غير أنه في رمضان ١٤١٠ هـ (نيسان ١٩٩٠ م) اتخذ مؤتمر الشعب العام في مقاطعة (بو) الجنوبية قراراً مؤلفاً من خمس نقاطٍ ينتقد فيه التعددية الحزبية.

تقوم السياسة الخارجية لسيراليون رسمياً على مبدأ عدم الانحياز، وهذا شأن أكثر دول العالم الثالث التي تسير في فلك الدول الغربية، وتعلن عدم الانحياز من أجل الاستهلاك المحلي، والتضليل على الشعوب.

اتهم رئيس ليبيريا «صموئيل ديو» في ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٥ م) حكومة سيراليون بالتورط المباشر بالمحاولة الانقلابية الفاشلة في ليبيريا، وأغلق الحدود بين البلدين، ولكن أُعيد فتحها في ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م)، وفي الشهر التالي وقّعت كل من سيراليون، وليبيريا، وغينيا اتفاقية عدم اعتداء وتعاون أمني. وتلا ذلك توقيع سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية مع نيجيريا عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).

عادت العلاقات مع ليبيريا إلى التدهور عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) إثر طرد مواطنين سيراليونيين من ليبيريا في أوائل ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م)، ثم في صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) عقد رئيسا الدولتين بالاشتراك مع رئيسي نيجيريا والتوغو مؤتمراً للمصالحة، وأصدر الرؤساء الأربعة بياناً يؤكد التزامهم بأهداف السوق الاقتصادية لدول غربي إفريقية.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) تمّ إنشاء لجنةٍ مشتركةٍ من سيراليون ونيجيريا لتحسين التعاون الثقافي بين البلدين، وأدّى الأمر إلى تبادل الموارد بعد توقيع عدة اتفاقيات أخرى تغطي الجوانب العلمية والثقافية والاقتصادية.

وفي رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) تمّ قطع العلاقات السياسية مع الامبراطورية الروسية (سابقاً) وذلك عقب طرد اثنين من الصحفيين الروس، واحتجاز سفينة روسية للأبحاث، غير أن العلاقات عادت إلى حالتها الطبيعية في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) بعد تعيين سفير روسي جديد في سيراليون، وتجددت اتفاقية الصيد بين الدولتين. وفي ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) تحسّنت العلاقات بين سيراليون وليبيريا نتيجة إطلاق ستةٍ من مواطني سيراليون كانوا محتجزين في ليبيريا.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة سيراليون ٧٢,٦٤٤ كيلومتراً مربعاً، وتشرف على المحيط الأطلسي من ناحية الغرب بساحلٍ يبلغ طوله ٤٠٢ كيلومتراً، ويبلغ طول حدودها البرية ٩٥٨ كيلومتراً، فتحدها غينيا من الشمال والشرق، ويبلغ طول حدودها معها ٦٥٢ كيلومتراً، وتحدّها ليبيريا من الجنوب، ويبلغ طول حدودها معها ٣٠٦ كيلومترات.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) أربعة ملايين ومائة ألف إنسان، ويشكل الأفارقة ٩٩ ٪ من مجموع السكان، ولا يزيد الأوروبيون على ١ ٪ من السكان. وتصل الكثافة إلى ٥٨ شخص في الكيلو المتر المربع الواحد. وتكون زيادة السكان السنوية حوالي ٢,٥ ٪.

وتقسم البلاد إدارياً إلى أربع مقاطعات وهي:

١ ـ **فريتاون**: وتضم العاصمة، وشبه الجزيرة التي تقع إلى الجنوب من العاصمة، والتي كانت المستعمرة الأولى، وهي أصغر المقاطعات من حيث المساحة.

٢ ـ **المقاطعة الشمالية**: وهي أوسع المقاطعات مساحة، وأكثر سكانها من أفراد قبيلة (التمني).

٣ ـ **المقاطعة الجنوبية**: وقاعدتها مدينة (بو)، وأكثر سكانها من أفراد قبيلة (الماندي).

٤ ـ **المقاطعة الشرقية**: وأكثر أراضيها مرتفعة عدا منطقة (كينيما). ومدينة كينيما هي قاعدتها، ويكثر أفراد قبيلة الفولاني في هذه المقاطعة.

الصراع الإقليمي:

يقع صراع دائم بين سكان الغابة وسكان مناطق المراعي التي تحيط بالغابة، وعندما جاء الكريول وأقاموا في شبه جزيرةٍ على الساحل حدث صراع بينهم وبين الداخل، ولكن هذا الصراع يحمل المعنى العنصري أكثر من المعنى الإقليمي.

الصراع العنصري:

يوجد في سيراليون أكثر من ثلاثين مجموعة قبلية، وأهمها:

١ ـ **التمني**: وينتشر أفراد هذه القبيلة في الشمال، وكانوا يشكلون السكان الرئيسيين لشبه الجزيرة التي كانت نواة الاستعمار الإنكليزي في المنطقة، أو المستعمرة الأولى، عندما تأسّست مدينة فريتاون. وتبلغ نسبة أفراد هذه القبيلة ٢٥ ٪ من مجموع السكان، وللقبيلة عدة جوامع في العاصمة فريتاون، ومنها: جامع الجليل، وجامع التوحيد، وجامع كوتورود، وجامع أوب كون.

٢ ـ **الماندي**: وهي عدة بطون، ويعيش أكثرها في المناطق الجنوبية، وتشكل مجموعها ما يزيد على ثلث السكان، ويعيش بعض بطونها في الجنوب. وللقبيلة جامع القدوس في العاصمة، وقد بناه تجار القبيلة القادمون من غينيا.

٣ ـ **الفولاني**: ويطلق عليهم هنا اسم «الفولا»، ويعيش أكثرهم في الأجزاء الشرقية، وتزيد نسبة أفراد هذه الجماعة على ١٠ ٪ من مجموع السكان، وللقبيلة مسجدان في العاصمة، يحمل أحدهما اسمها.

هذه هي القبائل الرئيسية في سيراليون، وهناك قبائل كثيرة أخرى ـ كما ذكرنا ـ ومنها:

٤ ــ **الكريول**: وأُعيدوا من جزر الهند الغربية (الآنتيل) بعد إلغاء تجارة الرقيق، ويُشكّلون ربع سكان مدينة فريتاون العاصمة، وكان الغرض من إعادتهم اتخاذهم قاعدةً للانطلاق بالتنصير بصفتهم نصارى، وأما المستعمرون فيرغبون اتخاذهم قاعدةً لإلغاء تجارة الرقيق، وللإدارة البريطانية هناك. وقد اشترت لهم الحكومة الإنكليزية أرض شبه الجزيرة الواقعة جنوب مدينة فريتاون من ملك قبيلة التمني آنذاك، وهو الملك (توم)، وتعهدتهم الكنيسة والحكومة معاً، فاعتنقوا النصرانية، وأخذوا الثقافة الغربية، وتعلّموا، وهذا ما جعل لهم امتيازات واسعة في المستقبل.

٥ ــ **السوسو**: ويسكنون في شمالي السهل الساحلي، ويعملون في زراعة النخيل الزيتي، أو في الإقطاعات الأجنبية. ولهذه الجماعة مسجد في العاصمة فريتاون منذ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، ولما لم يعد يتسع للمصلين بنت مسجدين آخرين لأن انتشار الإسلام بين أبناء هذه الجماعة قد أخذ يزداد في الآونة الأخيرة، كما أسّست ثلاث مدارس ابتدائية بجانب هذه المساجد.

٦ ــ **الليمبا**: ولهذه القبيلة مسجد في العاصمة يدعى مسجد الأمين، وبدأت ببنائه عام ١٣٧٠ هـ، وانتهت منه عام ١٣٨٥ هـ، وهو مسجد واسع، وعلى الرغم من اتساعه فقد شيدت هذه القبيلة مسجدين آخرين، كما شيدوا أربع مدارس ابتدائية في العاصمة فقط.

وتعد هذه القبيلة ثالث قبائل سيراليون من حيث العدد، وتبلغ نسبة أبنائها ١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد.

٧ ــ **الفاي**:

٨ ــ **الكرو**:

٩ ــ **الجالينا**:

١٠ ــ **الكونو**:

١١ ــ **الكورنكو**:

١٢ ــ **اللوكو**:

١٣ ــ **الشبرو**:

١٤ ــ **الكيسي**:

١٥ ــ **الهاوسا**: وقد جاءوا من نيجيريا، ولهم مسجد وسط المدينة، بناه أحد تجار القبيلة، وهو (أحمد ترولي).

١٦ ــ **اليوروبا**: وجاءت من نيجيريا أيضاً، وتعرف هنا باسم (فوره بي)، ولها مسجد العتيق في العاصمة، ثم أقامت مسجداً آخر.

١٧ ــ **الأوكو**: ولها فرع يدعى (فولاتاون) له جامع في العاصمة يعرف باسم ذلك الفرع، وكان هذا الجامع كنيسةً، اشتراها أفراد هذه القبيلة، وحوّلوها إلى جامعٍ.

ويوجد في البلاد جالية عربية وبخاصة من الشاميين اللبنانيين الذين يزيد عددهم على الخمسين ألفاً.

لقد كان الصراع بين القبائل قوياً فيما مضى، فلما انتشر الإسلام غدا النزاع بين المسلمين والوثنيين، فمثلاً خرّب المسلمون في غينيا وجلّهم من قبيلتي الفولاني والماندينغ طبل الوثنيين في سيراليون فوقع صراع عنيف وعد المسلمون قتالهم جهاداً، وكانوا بإمرة المعلم (صوري) فطاردوا الوثنيين، واحتلوا مدن (كارينا)، و(فالابا)، و(كابالا)، و(بورت لوكو)، واستوطن كثير من المسلمين في هذه المناطق التي احتلوها.

ولما تسلّل المستعمرون الصليبيون إلى الداخل، واحتلّوا تلك الجهات أخذوا يثيرون القبائل بعضها ضدّ بعضٍ من أجل التفرقة بين السكان وإبقاء السيطرة لهم، وفي الوقت نفسه فقد قوّوا الكريول، وجعلوا لهم السيادة على غيرهم بصفتهم أعوان المستعمرين ورجالهم المعتمدين آنذاك.

وبعد الاستقلال وجد الصراع الحزبي، وتأثير المستعمرين فيه أكبر

من الصراع القبلي، حيث أنه صراع فكري، ويهدم غالباً العقيدة ما دام يسير بتوجيه المستعمرين، ومن صنعهم، ومن ضمن مخططهم، على حين أن الصراع العنصري لا يخضع إلا للعصبية العنصرية ويبقى الارتباط بالعقيدة مع المخالفة بالسير بتلك العصبية المنتنة التي يُحاربها الإسلام.

الصراع العقيدي:

يُشكّل المسلمون أكثر من ٨٠ ٪ من سكان سيراليون على الرغم من تقديم إحصاءات غير صحيحةٍ من قبل الحكومة النصرانية التي لا ترتفع عندها تلك النسبة إلى أكثر من ٣٠٪، ويبدو هذا في أن قبائل الماندي، والتمني، والفولاني، والليمبا تُشكّل ٨٣٪ من سكان البلاد وهي قبائل معظمها مسلمة إن لم نقل كلها، وأن بقية القبائل فيها نسب متفاوتة من المسلمين. وبذا تزيد نسبة المسلمين على ٨٠ ٪ من مجموع السكان.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن حكومةً نصرانيةً لا يمكنها أن تُقدّم للمسلمين ما تقدمه حكومة سيراليون إن لم تزد نسبة المسلمين على ٧٥ ٪، فالوزراء المسلمون كثيرون، والبرنامج التلفزيوني، والعطل الرسمية أيام الأعياد الإسلامية، والسماح بمغادرة الأعمال لأداء صلاة الجمعة، لم يكن ليحدث هذا كله لو لم تكن نسبة المسلمين كما ذكرنا.

ويُشكّل الوثنيون ١٠ ٪ من مجموع السكان، وهم غالباً سكان الغابات، ومن القبائل التي تعيش في المناطق الساحلية.

ويُشكّل النصارى ١٠ ٪ من مجموع السكان أيضاً، وهم من الكريول، والمستعمرين الصليبيين، وبعض الشاميين، والذين كسبتهم الإرساليات التنصيرية، ورجال الاستعمار من الوثنيين.

لا يمكن أن يكون صراع عقيدي ظاهر لارتفاع نسبة المسلمين. وإنما يأخذ شكلاً آخر هو التقاء النصارى، والوثنيين، وأصحاب الأهواء والمصالح من المسلمين ضدّ المسلمين الملتزمين، وهذا ما يشكل خطراً كبيراً ما دام

لا يحمل صفة التعصّب النصراني فلا يقاوم، ولا يلتقي المسلمون في صفٍ واحدٍ، بل يكـون قسم منهم في صف الأعداء، وهم ينتمـون انتماءً إلى الإسلام، وكل منهم يسعى وراء أهوائه ومصالحه، وينهج نهج المستعمرين الصليبيين في حياتهم وسلوكهم. وبهذا يضعف أمر المسلمين وتتحكّم بهم الأقلية النصرانية، وتوجّه وتعطي الإحصـاءات التي تريـد، وترسيخـاً لهذا ظهرت التجمعات الحزبية العلمانية.

الصراع الحزبي:

في الوقت الذي بدأ فيه بعض الزعماء في سيراليون يدعون إلى قيام تنظيمٍ سياسيٍ للمطالبة بالاستقلال، حسب الطريقة الغـربية حـرصاً على تسلّم المنـاصب والوظـائف العليا مكـان الأوروبيين الـذين سيجلـون عن البلاد، ولبقاء السلطة بأيديهم بصفتهم زعماء التنظيم القائم الذي يستطيع أن يقوم بهذا الدور كانت بريطانيـا نفسها حـريصةً على وجـود مثل هـذا التنظيم الذي يضمّ أصحاب مصالح ورجال دنيا لا هدف لهم سوى أهوائهم ولا غاية لهم سوى القبض على زمام السلطة، وفي الوقت نفسه تستطيع بريطانيا معرفتهم وترويضهم واختيار المناسب لها منهم الـذي يُوافق على تطبيق المنهج الذي تريده والسير في فلكها، وهذا أصلاً من ضمن سياستها وذلك خوفاً من أن يتسلّم السلطة رجال لا توافق عليهم لأنهم لا يرون رأيها أو يرون السير فيما تقتضيه مصلحة أكثرية سكان سيراليون الذين هم من المسلمين حيث لهم عقيدة ومنهج حياة تفرضه تلك العقيدة عليهم.

وتأسّس حزب الشعب السيراليوني وفاز بأكثرية مقاعد المجلس التشريعي، ونشأ أيضاً حزب الشعب الوطني منافساً للحزب الأول على طريقة ما يُعرف بالسياسة الديمقراطية، كما وجد المجلس الإسلامي، والحزب الاشتراكي، والحزب التقدمي المتحد. وأخذت كل هـذه التنظيمات تُطالب بالاستقلال، وبدا أن هدفها جميعها هو انسحاب البريطانيين من سيراليون، وتسلّم أبناء البلاد السلطة. دون أن يكون هناك

أية إشارةٍ إلى منهج الحياة، ولما كان الهدف واحداً لذا لا يمكن أن يكون هناك صراع لذا شكّلت تلك التنظيمات جميعها جبهةً واحدةً تطالب بالاستقلال، وألّفت وفداً واحداً سافر إلى لندن للمفاوضة وعندما عاد الوفد شكل حكومةً ائتلافيةً، ووجدت بريطانيا راحةً في هذا الوفد ورجال الأحزاب إذ أنهم جميعاً ذات تطلعاتٍ إلى السلطة فقط، ويمكنها تنفيذ مخططاتها عن طريقهم.

وكان انسحاب بريطانيا في ١٢ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ (٢٧ نيسان ١٩٦١ م)، وقامت حكومة من أبناء البلاد حسب مفهوم ما يعرف بالوطنية، وحصل حزب الشعب الوطني السيراليوني فيها على نصيب الأسد، ولم تتسلم الأحزاب الحكم حتى بدأ الصراع فيما بينها، وتشكل حزب المؤتمر الشعبي العام من أعضاء تركوا حزب الشعب الوطني مغاضبين له لأنهم لم يحصلوا على ما كانوا يرغبون فيه، أو اقتنعوا أن حقّهم قد هُضم، ظلمهم رفاقهم في الحزب، وانضم إليهم أعضاء كانوا أيضاً في الحزب التقدمي المتحد. وأخذ الحزب الجديد بمعارضة الوزارة واتهامها بالتفاهم التام مع بريطانيا الدولة المستعمرة.

وفاز حزب المؤتمر الشعبي العام بانتخابات ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، وتسلّم الحكم ولكن في اليوم نفسه قام الجيش والشرطة بانقلاب أعقبه بعد يومين انقلاب مضاد وتشكل مجلس وطني إصلاحي، ولكن ما مرّ عام أو أكثر بقليلٍ إلا وقام انقلاب ثالث، وشكّل حركةً ثوريةً سلّمت السلطة للمدنيين فكانت حكومة من حزبي المؤتمر الشعبي العام، وحزب الشعب الوطني السيراليوني.

لم يشترك حزب الشعب الوطني السيراليوني بالانتخابات التي جرت عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)، ولا بالانتخابات التي جرت بعد عامين، وبقي حزب مؤتمر الشعب العام وحده في الساحة. ثم عاد فشارك حزب الشعب الوطني السيراليوني في انتخابات عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) غير أنه فشل،

وادّعى أن الانتخابات لم تكن نزيهة وإنما رافقتها التهديدات إضافةً إلى ما وقع من عمليات تزوير. ولما بقي حزب مؤتمر الشعب وحده دون معارضة وضع دستوراً يقوم على الحزب الواحد، ويمنع التعددية الحزبية. وهكذا بقيت الحياة السياسية دون منافسة، ولا معارضة، ولا صراع، وانطلق قادة الحزب الوحيد الحاكم يرعون في السلطة كالسوائم فكثرت الفضائح المالية والاقتصادية وعانى الشعب الكثير منها، حيث لم يكن هناك رادع إيماني، ولا وازع ديني.

بدأت المطالبة بالتعددية الحزبية، ولكن رفضت هذه المطالبة، وانتقدت بشدة. ولكن إن لم توجد تنظيمات سياسية لها صفة الرسمية والاعتراف بها إلا أنها توجد بالواقع بصفة سريةٍ منها:

١ ـ حركة التجمع السيراليوني: ويمارس نشاطه في لندن.

٢ ـ حزب التجمع الوطني: ويقوده الرئيس السابق «أندرو جاكسون سميث»، ومقره الولايات المتحدة.

٣ ـ الحزب الديمقراطي السيراليوني: ويمارس النشاط من لندن.

وهذه الأحزاب تعارض نظام حكم الحزب الوحيد المعترف به رسمياً، والحاكم في سيراليون «حزب مؤتمر الشعب العام» الذي يقوده الرئيس الحالي «جوزيف سعيدو مومو»، وقد تأسس عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م).

الباب الثامن

سَاحِلُ العَاجِ

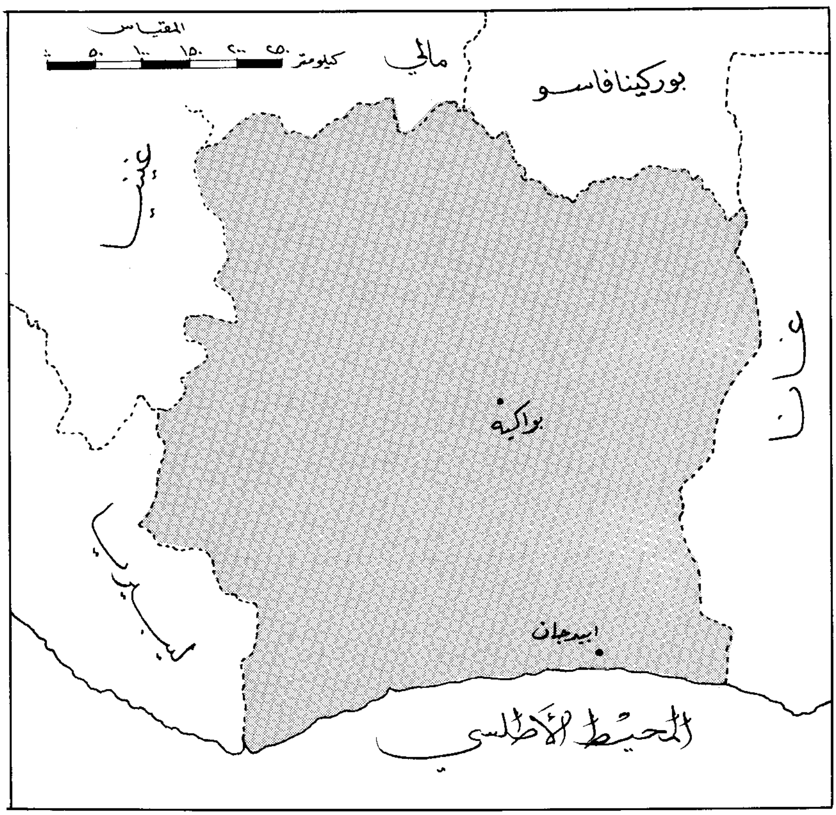

المقياس
كيلومتر ٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
مالي
بوركينافاسو
بواكيه
ابيدجان
المحيط الأطلسي

المصور رقم [٨]

لمحة تاريخية قبل إلغاء الخلافة

انتشر الإسلام في المناطق الداخلية من ساحل العاج أيام كانت جزءاً من الممالك الإسلامية التي قامت في الداخل، وخاصةً مملكة مالي الإسلامية التي قامت في النصف الأول من القرن السابع الهجري، واستمرّ انتشار الإسلام حتى وصل إلى الساحل، وبنى المسلمون مساجد هناك، وكانوا يدعون فيها إلى خليفة المسلمين، وتعود بعض الوثائق إلى أيام السلطنة العثمانية حيث كانوا يدعون إلى السلطان محمد الفاتح العثماني، ويطلبون من الله رعايته وحماية عاصمته، ومن المعلوم أن محمد الفاتح قد دخل القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) وحوّل اسمها إلى استانبول أي مدينة الإسلام، وجعلها عاصمة السلطنة.

ووصل التجار العرب إلى الساحل، وأطلقوا على الشاطىء حيث توجد بعض الصخيرات تشبه بما فيها من تراجع الشفاه الضاحكة «البسّام العظيم».

ووصل المستعمرون الصليبيون إلى سواحل المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، وأخذوا يبنون المراكز التجارية لهم على الشاطىء، وكان تجار الداخل الإفريقيون يجمعون عاج الفيل (الأنياب)، وينقلونها إلى الساحل، ويعرضونها للبيع على شكل أكوامٍ، فيأتي المستعمرون الصليبيون، ويشترون منها، لذا أطلقوا على شاطىء المنطقة اسم «ساحل العاج» وعمّ هذا الاسم، وساد حتى صار علماً على تلك المنطقة.

وفي القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وصلت قبائل «أشانتي» و«آغنـي» من الشرق، واستقرّت في جنوبي منطقة ساحل العاج، وأسّست ممالك لها هناك. أما القسم الشمالي فقد كان جزءاً من مملكة «الموسي» الوثنية رغم انتشار الإسلام، التي أسلم حاكمها في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (حوالي عام ١٨٥٠ م)، وأطلق على نفسه اسم «أبو بكر»، وأصبح سلطانه ضمن مملكة «فوتاجالون» التي أسّسها «ساموري توري»، ولما هُزم ساموري توري عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) التجأ إلى هذا القسم من ساحل العاج فقبض عليه الفرنسيون، ونفوه إلى الغابون، وبقي هناك حتى توفي عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م)، ودخل المستعمرون الصليبيون من الفرنسيين هذا الجزء لأول مرةٍ.

أما الجزء الجنوبي من ساحل العاج فقد فرضت فرنسا الحماية عليه بموجب اتفاقيةٍ عقدتها مع ملك «آغنـي» عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م). ولما سيطرت على القسم الشمالي ضمّته إلى الجزء الجنوبي عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) وجعلتهما مستعمرةً فرنسيةً، ثم جزءاً من إفريقية الغربية الفرنسية.

وفي الحرب العالمية الأولى جنّدت فرنسا ما استطاعت تجنيده من سكان البلاد، وساقتهم إلى ساحات القتال.

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١٤ صفر ١٣٨٠ هـ
٣ آذار ١٩٢٤ - ٧ آب ١٩٦٠ هـ

ضمّت فرنسا جزءاً من فولتا العليا إلى ساحل العاج في ٥ رمضان ١٣٥١ هـ (١ كانون الثاني ١٩٣٣ م) وذلك عندما أرادت إزالة فولتا العليا بعد ثورة المسلمين فيها، ثم عادت فشكّلت فولتا العليا، وانتزعت من ساحل العاج ما سبق أن ضمّته إليه وذلك في ١٩ صفر ١٣٦٧ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٤٨ م).

وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت دولة ساحل العاج ضمن الاتحاد الفرنسي، وانتخبت أول جميعةٍ وطنيةٍ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م). وبعد عشر سنواتٍ تشكّلت فيها أول حكومةٍ تتمتع بالاستقلال الذاتي.

وجاء ديغول إلى حكم فرنسا عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) وفكّر بالحفاظ على مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار، فعرض دستوره، وأعطى لكل إقليمٍ حرية الموافقة على هذا الدستور أو رفضه، وإن كان الأمر لم يخل من ضغوطٍ، ووعودٍ، وتهديداتٍ، فالإقليم الذي يُصوّت سكانه بالموافقة على هذا الدستور يصبح عضواً في مجموعة الشعوب الفرنسية، ويُشكّل حكومةً محليةً تتمتع بالاستقلال الداخلي، على أن تكون السلطة المركزية لفرنسا في الدفاع، والاقتصاد، والشؤون الخارجية، كما يمكن أن يتمّ اتحاد بين إقليمين أو عضوين في المجموعة الفرنسية، أما الأقاليم التي يرفض

الدستور الديغولي، فتُعطى الاستقلال التام، ولكن تقطع عنها فرنسا مباشرةً كل معونةٍ فنيةٍ، أو ماديةٍ، أو إداريةٍ.

وعندما طُرح دستور ديغول صوّت السكان بساحل العاج، إلى جانبه، ومعنى ذلك أن الإقليم سيحصل على الاستقلال الداخلي، وتمّ هذا في جمادى الآخرة ١٣٧٨ هـ (كانون الأول ١٩٥٨ م). فأعلنت في البلاد الجمهورية ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية، وشكّل «فيلكس هوفويه بوانييه» الحكومة.

كان في إفريقية الغربية الفرنسية حزباً وحيداً هو «حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي»، وكان له فرع في كل إقليمٍ من أقاليم تلك المجموعة، وكان زعيمه من ساحل العاج، وهو فيلكس هوفويه بوانييه، وقد تأسّس هذا الحزب إثر الحرب العالمية الثانية. فلما انفصلت بعض الأقاليم، واستقلت عن المجموعة الفرنسية مثل غينيا. أصبح كل فرعٍ للحزب في الأقاليم المختلفة حزباً خاصاً في إقليمه، وعُرف هذا الحزب في إقليم ساحل العاج باسم «الحزب الديمقراطي لساحل العاج»، ثم تطوّرت البلاد، وحصلت على الاستقلال التام في ١٤ صفر ١٣٨٠ هـ (٧ آب ١٩٦٠ م).

الفصل الثاني

الاستقلال

١٤ صفر ١٣٨٠ هـ - ......

٧ آب ١٩٦٠ م - ......

بعد الاستقلال أصبحت دولة ساحل العاج عضواً في الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠ م)، ووضع دستور جديد للبلاد بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٦٠ م)، وجرت انتخابات الجمعية الوطنية التي تألفت من خمسةٍ وثمانين عضواً، وعقدت الجمعية أول جلساتها بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٣٨٠ هـ (٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٠ م) وكان أعضاؤها جميعاً من أعضاء حزب التجمع الديمقراطي، وفي التاريخ نفسه انتخب زعيم الحزب «فيلكس هوفويه بوانييه» رئيساً للجمهورية. وغدا حزب التجمع الديمقراطي لساحل العاج هو الحزب الحاكم، والوحيد، فلا معارضة.

ومع أن أكثرية السكان من المسلمين إلا أن الوظائف كانت من اختصاص النصارى الذين تلقّوا تعليمهم في مدارس الإرساليات التنصيرية، تبعاً للسياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا في مستعمراتها كلها، واتبعها المستعمرون الصليبيون جميعاً، ومن هذه السياسة أن فرنسا امتنعت من فتح المدارس في الجزء الشمالي من البلاد الذي يغلب عليه الطابع الإسلامي، فما كان على المسلمين إلا أن يلتحقوا بمدارس الإرساليات التنصيرية أو يبقوا في ظلامة الجهالة، ففضلوا الجهل عن التخلي عن العقيدة. كما أن

مدارس الدولة لم تكن جيدة من حيث البرامج والتوجيه بل سيئة، وعلى كلٍ فهي أقلّ سوءاً من مدارس الإرساليات التنصيرية على اختلاف أنواعها وكنائسها.

ولم يكن يسمح بتعليم اللغة العربية أول الأمـر حتى في الكتاتيب الملحقة بالمساجد أو في المساجد نفسها. وتتوقّف نهضة البلاد على إعمار القسم الشمالي من ساحل العاج بعد إهماله كلياً، مع أنه يُشكّل جزءاً مهماً من البلاد.

واحتفظت ساحـل العاج بعـد استقلالهـا بروابط وثيقـة مع فـرنسا، والسياسة الخارجية للبلاد تسير بصورةٍ عامةٍ في فلك المعسكر الغربي.

وأسهم المعدل المرتفع للنمو الاقتصادي في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، وكذلـك الدعم القـوي من جانب فـرنسا من استقـرار النظام، وحصلت قلاقل سياسية متفرقة من غير قيادات. وتم اكتشاف مؤامرتين عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) تمثّلان بوضـوح اتجـاه الشبـاب الثـوري، واستيـاء الشماليين من سيطرة الجنوبيين على الحكومة، وضعف الجيش لتقليل نسبة الخطر الذي قد يأتي من التدخل العسكري، وقد استجابت الحكومة لبعض الانتقادات وأخذتها بعين الاعتبار فبدأت بتنفيذ سيـاسة التنميـة الإقليمية، وزيادة الإدارة المحلية للمشروعات التجارية.

كان رئيس الجمهورية يشغل إضافةً إلى منصبه رئاسة حزب التجمع الديمقراطي لساحل العـاج، ووزارة الماليـة، والدفـاع، والزراعـة. وأعيد انتخابه للمرة الثالثة بتاريخ ٦ شوال ١٣٩٠ هـ (٤ كانون الأول ١٩٧٠ م) وسيبقى لمدة خمس سنواتٍ أخرى. ومعروف عنـه وعن أمين عام حـزبه «فيليب باسي» أنهما من أتباع السياسة الغربية، ومن مؤيدي فكرة الحوار مع كلٍ من حكومة جنوبي إفريقية العنصرية، والحكومة البرتغالية التي كانت تستميت في قتـالهـا ضـد الـوطنيين الإفـريقيين في أنغـولا، ومـوزامبيق، وغينيا ـ بيساو وباقي مستعمراتها.

أعاد الرئيس تشكيل الوزارة عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) فاستبدل وزراء المالية، والاقتصاد، والتخطيط، والشؤون الخارجية، ثم أصدر قانوناً لمحاربة الفساد التجاري من احتكارٍ، وتلاعبٍ بالأسعار.

وفي جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (أيار ١٩٧٨ م) تساهل في سيطرة الحزب على دوائر الدولة، حيث تقرر أن يتولّى إدارة الدوائر رؤساء بلديات يتم تعيينهم بالانتخاب عدا مدينتي أبيدجان، وبواكيه بعد أن كان الحزب هو الذي يتولّى اختيار رؤساء البلديات.

وفي أوائل عام ١٤٠١ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٠ م) جرت انتخابات الجمعية الوطنية، ولأول مرةٍ سُمح لأكثر من مرشحٍ بالتنافس على مقعدٍ واحدٍ. ومن قبل كان يختار الحزب المرشح ولا يسمح بمنافسٍ له.

وفي شهر صفر ١٤٠١ هـ (كانون الأول ١٩٨٠ م) بدأت سلسلة من المظاهرات شارك فيها الطلاب، والمجموعات المهنية، واستمرت أكثر من سنتين، وأشرف على تنظيمها المدرسون المحتجون على سحب حقوق السكن المجاني، وأيّدها أعضاء في نقابة الأطباء، وانتهى الإضراب بقرارٍ من رئيس الجمهورية دعا فيه بالعودة إلى العمل، وتمّ طرد وزيرين للتربية والتعليم من الحكومة.

وقامت الحكومة عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) باتخاذ تدابير ضدّ الفساد، وسجنت عدة موظفين حكوميين في قطاع إسكان الدولة بعد أن اتهمتهم بسوء الإدارة.

وفي عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) رفع المصرف الوطني للتنمية الزراعية قضيةً إلى المحكمة بشأن ديونٍ بمبلغ ٥٨ مليون دولار أمريكي ضدّ شركة (كوجكسيم)، ورئيسها عمدة العاصمة أبيدجان «عمانويل ديولو»، وهي شركة تختص بتصدير الكاكاو، والبن، وانتشرت الشائعات، فهرب عمانويل ديولو إلى بلجيكا في شهر جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م)، ثم

صدر عفواً عنه بعد ستة أشهر، وأخيراً عاد إلى ساحل العاج في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م).

جرى تعديل وزاري في صفر ١٤٠٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٣ م) نقص فيه عدد الوزراء من ٣٥ وزيراً إلى ٢٨ وزيراً في محاولة لخفض النفقات الإدراية. وقد صادق المؤتمر العادي الثامن للحزب الديمقراطي لساحل العاج المنعقد في أبيدجان على تبنّي تعديلٍ دستوريٍ يضغط فيه منصب نائب رئيس الجمهورية، ويسمح لرئيس الجمعية الوطنية التأسيسية بتولّي مهمة رئيس الجمهورية بصورةٍ موقتةٍ عند خلو منصب الرئاسة. وبعد شهرٍ أُعيد انتخاب الرئيس «فيلكس هوفويه بوانييه» للمرة السادسة.

وجرت انتخابات بلدية وتشريعية في ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٥ م)، وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) أُعيد انتخاب «هنري كونان بيديه» لرئاسة الجمعية الوطنية التأسيسية.

وجرى تعديل وزاري في ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) ارتفع عدد الوزراء إلى أربعين وزيراً استجابةً للارتياح الواضح من انحسار الأزمة الاقتصادية في البلاد.

وعلى الرغم من أن الدستور في ساحل العاج يسمح بتعدد الأحزاب إلا أنه لم يحقق أي تجمعٍ للمعارضة حتى الآن الاعتراف الرسمي، والحكومة مستمرة بالتعامل بحزم مع الانشقاق أو المعارضة الواضحة. ففي مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م)، اعتقل ثلاثة أعضاء من اتحاد المدرسين عقب انقسامٍ في الاتحاد، واختلافٍ على نقل وتوزّع القيادات، وأُلقوا في السجن بعد إدانتهم بجريمة الاختلاس، بينما أرسل أحد عشر عضواً آخرون من الاتحاد إلى معسكرٍ للجيش مدةً «إعادة تربية وتثقيف»، وأخيراً تمّ الإفراج عنهم جميعاً في ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م).

وفي صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) تمّ اكتشاف مؤامرةٍ انقلابيةٍ، فطُرد بصورةٍ مفاجئةٍ وزير الشؤون البحرية «لامين فاديكا» بعد إقصائه من

مكتب رئيس أركان القوات المسلحة، وكذلك طرد أربعة مسؤولين من الحزب الديمقراطي لساحل العاج.

وفي هذه المدة عاد «لورنت غباغبو» زعيم الجبهة الشعبية العاجية، وهي حركة معارضة إلى ساحل العاج بعد ست سنواتٍ قضاها في منفاه في باريس. ولكن بعد مدةٍ اعتقل مع عددٍ من زعماء الجبهة لزمنٍ قصيرٍ.

وفي الوقت نفسه جرى تعديل وزاري نقص فيه عدد أعضاء الحكومة، واستحدثت وزارة مكافحة المخدرات.

دعا الرئيس «فيلكس هوفويه بوانييه» في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) إلى عقد سلسلةٍ من الاجتماعات في مقره، تمت فيها مناقشة مشكلات ساحل العاج السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحضر هذه الاجتماعات التي خصصت للحوار الوطني أعضاء من الحكومة، ومن الحزب الديمقراطي لساحل العاج، والرسميون الحكوميون البارزون، وكبار ضباط القوات المسلحة، ومُمثّلون عن النقابات العمالية، والمنظمات المهنية في البلاد، وفي الشهر التالي تشكّلت هيئة وطنية لفحص واستقصاء التظلّمات والشكاوى الواردة في الاجتماعات.

بقي «فيلكس هوفويه بوانييه» يُؤكّد أن التعددية الحزبية تُعيق العمل الوطني، وفرض إجراءات أمنية قاسية وشديدة حيث أمر بنشر القوات المسلحة على طول حدود البلاد في محاولاتٍ لمنع التهريب، والانتقال غير النظامي، وكذلك أمر نشر هذه القوات في المدن الرئيسية لمساعدة قوى الشرطة في مكافحة الجريمة. وفي الشهر التالي تمّ إنشاء مؤسسة اعتمادٍ ماليٍ أمنيٍ، دعت جميع المقيمين في ساحل العاج إلى المساهمة فيها بهدف تطوير وإعادة تجهيز قوى الأمن بالسلاح.

وجرى إعادة توزيع الحقائب الوزارية في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) اختفى فيها عدد من الوزراء وظهر آخرون، وانخفض العدد إلى تسعةٍ وعشرين وزيراً، وعين «موسى كوموا كوفي» وزيراً

للاقتصاد والمالية، وكان وزيراً للمالية غير أن هذا المنصب قد أُلغي، وحاز هذا الوزير على احترام وتقدير الدائنين الخارجيين لساحل العاج، وربما كان يهدف الرئيس من هذا التغيير تأمين التمويل من المتبرعين الخارجيين وخاصةً صندوق النقد الدولي، والمصرف الدولي لمساعدة بلاده في جهود التسوية الاقتصادية.

لقد أدّى وجود أعدادٍ كبيرةٍ من الأوروبيين والشرقيين ومواطني الدول المجاورة في ساحل العاج إلى وقوع مصادماتٍ متفرقةٍ بين العاجيين وهؤلاء المقيمين، ففي عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) كان يقيم في ساحل العاج أكثر من مليون غريب عنها. وكذلك أدّت البطالة المتزايدة بين خريجي الجامعات (وهذا الأمر من ضمن هموم ملء الوظائف بمواطني ساحل العاج) والحاجة إلى تخفيض الإنفاق العام لأن تتخذ الحكومة قراراً لتخفيض مستوى المساعدة الخارجية في البلاد. وفي عام ١٤١٠ هـ (١٩٨٩ م) كان في ساحل العاج حوالي ١٦٠٠ فرنسي متعاون بينما كان عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) أربعة آلاف.

العلاقات الخارجية:

استأنفت دولة ساحل العاج علاقاتها مع دولة اليهود في فلسطين في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) بعد انقطاع دام ثلاث عشرة سنة نتيجة الحرب بين الدول العربية وتلك الدولة المزروعة في فلسطين.

وجدّدت علاقاتها كذلك مع الامبراطورية الروسية وعدة دولٍ شرقيةٍ أخرى.

والتزم الرئيس «فيلكس هوفويه بوانييه» بسياسة الحوار بين الإفريقيين السود وبين البيض الحاكمين في دولة جنوبي إفريقية تلك السياسة التي عرّضته لانتقاداتٍ حادةٍ من قبل القادة الإفريقيين الآخرين. وفي ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) زار رئيس دولة جنوبي إفريقية «بوتا» دولة

ساحل العاج، وكذلك لقي خلفه «دي كليرك» حفاوةً بـالغةً من «فيلكس هوفويه» عندما التقى به زائراً لساحل العاج أيضاً.

واستمـرّ الرئيس العـاجي في عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) في جهـوده لتوطيد الحوار بين حكومة أنغولا، وحركة الاتحاد الوطني الإنغولي الإفريقي المعارضة.

وفي عام ١٤١٠ هـ (١٩٨٩ م) ادّعت حكومة ليبيريا أن قوات الثوار التي حاولت الإطاحة بالنظام القائم في بلادها قد دخلت من ساحل العاج، ولكن الرئيس العاجي قد نفى مساعدة المنشقين. وناشد الرئيس الليبيري «صموئيل دو» في منتصف عام ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) السلطات العاجية طالباً منها تأكيداتٍ بضمان سلامة نحو عشرة آلاف لاجىء فرّوا من بلاده إلى ساحل العاج في محاولةٍ للهرب من القتال الـدائر بين القـوات المسلحة الليبيرية والثوار.

وفي شعبان ١٤٠٦ هـ (نيسان ١٩٨٦ م) أعلن الرئيس العاجي رغبة البلاد بأن تُعرف دولياً باسمها الفرنسي «كوت دي فوار» وليس بترجمة ذلك الاسم، وقد قُبل هذا الطلب فيما بعد لدى الأمم المتحدة.

وكان من المتوقّع أن يقوم البابا يوحنا بولس الثاني بزيارةٍ إلى ساحل العـاج خلال عـام ١٤١٠ ـ ١٤١١ هـ (١٩٩٠ م) لمباركـة كاتـدرائيـة في «ياموسوكرو» تمّ إنشاؤها كما أعلن رسمياً على نفقة فيلكس هوفويه بوانييه شخصياً، بتكلفه أربعة مليارات فرنك.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة دولة ساحل العاج ٣٢٢,٤٦٠ كيلومتراً مربعاً، وتُشرف من ناحية الجنوب على المحيط الأطلسي «خليج غانا»، ويبلغ طول ذلك الساحل ٥١٥ كيلومتراً، وتجاور من ناحية الشرق غانا، ويبلغ طول الحدود بينهما ٦٦٨ كيلومتراً. ومن الشمال بوركينا فاسو وطول الحدود بينهما ٥٨٤ كيلومتراً، ومالي ويبلغ طول الحدود بينهما ٥٣٢ كيلومتراً، ومن ناحية الغرب غينيا وطول الحدود بينهما ٦١٠ كيلومترات، وليبيريا ويبلغ طول الحدود بينهما ٧١٦ كيلومتراً.

ويبلغ عدد سكان ساحل العاج حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) أحد عشر مليوناً وستمائه ألف إنسان، وبذا تكون الكثافة العامة ٣٦ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

واللغة الرسمية هي الفرنسية.

الصراع الإقليمي والعنصري:

يعيش على أرض ساحل العاج أكثر من خمسين قبيلةً أهمها: الماندينغ بفروعها المختلفة، الديولا، والبمبارا، والماندي، وتُعدّ لهجة فرع الديولا أكثر اللهجات شيوعاً في ساحل العاج كلها، وتعيش هذه القبائل في منطقة الشمال الغربي.

الفولاني حيث تعيش بعض فروع منها في الشمال.

والسينوفا وتعيش في الشمال أيضاً.

وهذه القبائل مسلمة بمعظمها.

وفي الشرق قرب حدود غانا تعيش قبائل أشانتي، وهي ذات أكثريةٍ مسلمةٍ أيضاً.

وتعيش في الجنوب قبائل أغني، والكرو، والكوا، وهي بأكثريتها لا تزال وثنية.

والصراع بين الشمال والجنوب كناحية إقليمية وبين القبائل كناحيةٍ عنصريةٍ إنما يحمل المعنى العقيدي، حيث كانت تعمل قبائل الشمال للتوسع جنوباً، للتجارة، والإفادة من ثروات الغابة، والدعوة فتقف في وجهها قبائل الجنوب معتصمةً في منازلها داخل الغابة الكثيفة.

وعندما جاء المستعمرون الصليبيون شجّعوا ودعموا الجنوب للوقوف في وجه الشمال، وحين تمت لهم السيطرة قدّموا أهل الجنوب من الوثنيين، وممن كسبوهم إلى ديانتهم نتيجة العمل المستمر، والإغراءات المختلفة، وعندما رحل الفرنسيون سلّموا أتباعهم السلطة، فاستمرت السياسة الإدارية والتعليمية كما كانت من قبل. وإذا اضطرت السلطة لأخذ بعض أبناء الشمال لإبعاد الجانب الإقليمي أو العنصري، فإنما يأخذون أقلّهم التزاماً، وأكثرهم تقليداً للصليبيين سلوكاً ومنهجاً في الحياة.

الصراع العقيدي:

تقدر نسبة المسلمين في دولة ساحل العاج بـ (٦٠ ٪)، وتشمل أكثرية أفراد قبائل الشمال، وتبلغ نسبة الوثنية (٢٨ ٪) وتلفّ أكثرية قبائل الجنوب، حيث توجد نسبة قليلة فيها من المسلمين، ومثلها تقريباً من النصارى. ووصلت نسبة النصرانية إلى (١٢ ٪)، وهي ما ربحته على حساب الوثنية، وتتناقص الوثنية باستمرار لصالح المسلمين بنسبة ٣/٢، ولصالح النصارى بنسبة ٣/١، وإن ما تأخذه النصرانية لن يكون لو لم تكن السلطة بأيديها

أيـام الاستعمار، وبعـده أيضاً. وتعني السلطة القـوة، والمال، والمنصب و. . .

والصراع الواضح في ساحل العاج إنما هو عقيدي، وقد لاحظنا أن الصـراع الإقليمي والعنصري إنمـا يحمل المعنى العقيـدي، ولمـا كـانت النصرانية هي الحاكمة والمسيطرة لذا فإن أكثر الوظائف الحساسة، والمراكز إنما هو بيد أتباعها. وكذلك فإن الإحصاءات التي تقدمها هي إحصاءات مغلوطة تحاول أن تُقلّل من نسبة المسلمين كثيراً، وتزيد من نسبة الوثنية والنصرانية.

الصراع الحزبي:

لا توجد تعددية حزبية ليكون هناك صراع أو منافسة رغم أن الدستور يسمح بذلك، غير أن الحزب الحاكم منذ الاستقلال، بل منذ وجدت دولة ساحل العاج لا يفسح المجال لظهور أحزاب أخرى، بالضغط، والملاحقة، والاتهامات، وبثّ الشائعات.

ورئيس الحزب الديمقراطي لساحل العاج وهـو الحزب الحـاكم هو الرئيس فيلكس هوفويه بوانييه، ولا يزال رأس السلطة من انتهاء الحـرب العالمية الثانية إلى الآن.

وهناك الجبهة الشعبية العاجية، وتأسست في فرنسا عـام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م)، ورئيسها «لورنت غباغو»، وتعد جبهة المعارضة الرئيسية، غير أنها ضعيفة.

والحزب الجمهوري لساحل العاج، وتأسس في فرنسا عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، ويعارض الحكم، ولكن لا أثر له على الساحة السياسية.

الباب التاسع

التُّوغُو

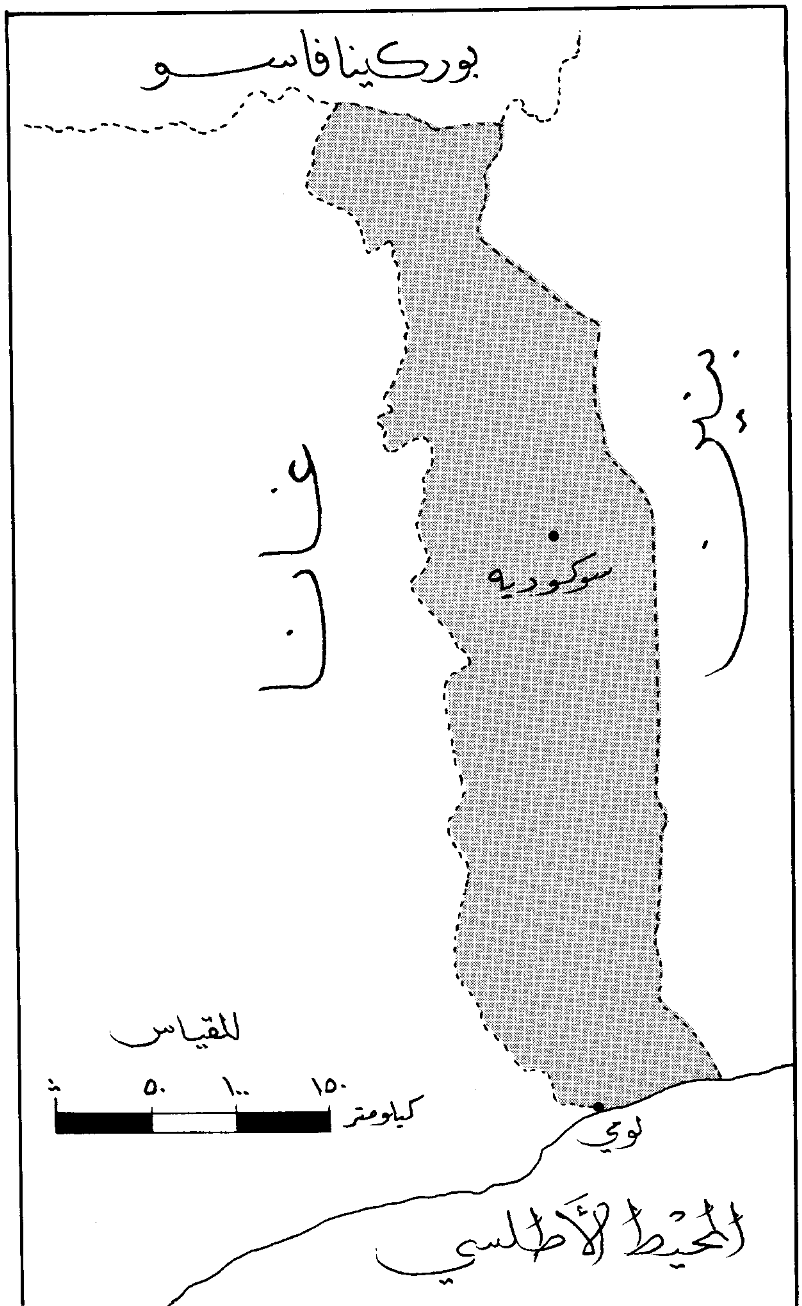
بوركينافاسو
غانا
بنين
سوكوديه
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠
كيلومتر
لومي
المحيط الأطلسي

مصورة رقم [٩]

لمحة عن التوغو قبل إلغاء الخلافة

انتشرت بعض القبائل في أرض التوغو، ففي الشمال عاشت بطون من قبائل الهاوسا، والبيل، والغرما، وفي الجنوب بين الغابات وقرب الساحل عاشت مجموعات من زنوج العابي، والمينا، والواتاشي، وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تحرّكت قبيلة الإيوي من جهات النيجر، واستقرّت في جنوبي التوغو اليوم.

وانتشر الإسلام بين قبائل الشمال عن طريق التجارة، والدعاة، وبعثات دولة المرابطين، ومن بعدهم دولة الموحدين، وكان للفولانيين دور في نشر الإسلام بين قبائل الهاوسا، وعملت الطرق الصوفية عملها، وعلى طريقتها في الإقبال على الإسلام، وخاصةً الطريقة التيجانية.

وجاء المستعمرون الصليبيون عن طريق البحر حيث وصل البرتغاليون إلى شواطىء التوغو في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ثم جاء الفرنسيون، وأسّسوا مراكز لهم على تلك السواحل في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، وأخيراً جاء الألمان واستطاعوا أن يُوحّدوا بين أجزاء التوغو تحت سيطرتهم عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م)، واعترفت فرنسا بوضع التوغو تحت النفوذ الألماني عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م)، ثم اعترفت انكلترا بذلك عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م).

واندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وكان القتال شديداً بين الحلفاء الذين من بينهم الفرنسيون والإنكليز، وبين الألمان، ولم تقتصر دائرة القتال

على الأرض الأوروبية بل تجاوزتها إلى المستعمرات فدخل الإنكليز التوغو من جهة الغرب من مستعمرة غانا (ساحل الذهب سابقاً)، واحتلّوا ما يقرب من ثلث أراضي التوغو، وتقدّم الفرنسيون من جهة الشرق من مستعمرة بنين (الداهومي سابقاً)، واحتلّوا ما يقرب من ثلثي أراضي التوغو، ووضع كل فريقٍ ما احتلّ تحت سيطرته الاستعمارية، وتأكّد هذا التقسيم أو هذا الاستعمار بقرارٍ من عصبة الأمم المتحدة عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م)، ونُسبَ كل قسمٍ للدولة التي استعمرته، فيقال التوغو الإنكليزية، والتوغو الفرنسية. وطُبّقت عليهما السياسة الاستعمارية المعروفة، وحسب نوع الاستعمار القائم في البلد.

الفصل الأول

التوغو من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ ـ ٢ ذي القعدة ١٣٧٩ هـ
٣ آذار ١٩٢٤ ـ ٢٧ نيسان ١٩٦٠ م

خضعت التوغو للسياسة الاستعمارية الفرنسية والبريطانية واستمر ذلك حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، حيث وُضع الجزآن تحت الوصاية الدولية. بمعرفة الأمم المتحدة عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، وكُلّفت الدولتان المستعمرتان فرنسا وبريطانيا للقيام بهذه المهمة، إذ أُعطيت كل منهما الوصاية على ما تحت يدها من التوغو.

أجرت بريطانيا انتخابات في الجزء الذي تحت وصايتها عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م)، وتقرر إثر هذه الانتخابات انضمام هذا الجزء من التوغو إلى دولة غانا وغدا قسماً منها وانتهى الأمر. أما الجزء الذي وضع تحت الوصاية الفرنسية فقد بقي يحمل اسم «التوغو»، وصوّت إلى جانب دستور ديغول فحصل على الاستقلال الذاتي ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية.

كان في التوغو قبل الاستقلال حزبان رئيسيان هما: حزب اتحاد التوغو برئاسة «سيلفانوس أوليمبو» وحزب التوغو التقدمي. وعندما أُجريت الانتخابات بعد الحصول على الاستقلال الذاتي فاز بها حزب اتحاد التوغو، وشكل رئيسه «سيلفانوس أوليمبو» الحكومة.

ونالت التوغو استقلالها التام في الثاني من ذي القعدة ١٣٧٩ هـ (٢٧ نيسان ١٩٦٠ م).

الفصل الثاني

الاستقلال

٢ ذي القعدة ١٣٧٩ هـ ـ ....
٢٧ نيسان ١٩٦٠ م ـ ....

بعد أن حصلت التوغو على الاستقلال التام أجريت الانتخابات لتتولى الحكومة المُمثّلة للشعب مهمة إدارة البلاد الحرة، غير أن حكومة حزب اتحاد التوغو القائمة لم تقبل أي مرشحٍ للانتخابات من الأحزاب الأخرى، واكتفت بمرشح حزبها الذي حصل بطبيعة الحال على مقاعد المجلس الوطني كلها، وبالتالي فاز زعيم الحزب «سيلفانوس أوليمبو» بمنصب الرئاسة، وتقلّده عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).

وفي ١٨ شعبان ١٣٨٢ هـ (١٣ كانون الثاني ١٩٦٣ م) وقع انقلاب عسكري، وقُتل الرئيس «سيلفانوس أوليمبو» وتسلّم رئاسة البلاد مكانه عديله «نيقولا غرو نيتزكي»، الذي كان يُقيم بالمنفى باختياره في الداهومي، وأمر بإجراء الانتخابات العامة، وسمح للأحزاب كلها بالمشاركة فيها على قدم المساواة، وإثر الانتخابات فاز بالرئاسة بشكلٍ قانونيٍ. واتخذ حزب اتحاد التوغو موقف المعارضة.

ومرةً أخرى في الثاني من أيام عيد الفطر ١٣٨٦ هـ (١٣ كانون الثاني ١٩٦٧ م) قامت القوات العسكرية بإمرة العميد «ايتين أياديما» بانقلابٍ لم ترق فيه دماء، وكان قد ساهم في انقلاب ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م) فحُلَّ المجلس الوطني، وأُلغي الدستور، وتسلّم أمر البلاد قائد الانقلاب فشكّل حكومةً مدنيةً، ثم أعلن نفسه رئيساً للجمهورية في ٥ محرم ١٣٨٧ هـ (١٤

نيسان ١٩٦٧ م) وألغى الأحزاب السياسية، وكان يعتمد في حكمه على اتخاذ القرار الشخصي دون قانونٍ يرجع إليه، ويقيد حكمه، ومن غير استشارةٍ أو مناقشةٍ. وأنشأ حزباً جديداً أسماه «حزب شعب التوغو».

وفي عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) جرت محاولة انقلاب، غير أنها فشلت، وألقي القبض على بعض أعوان الرئيس السابق «سيلفانوس أوليمبو»، وأعضاء سابقين في حزب اتحاد التوغو غير الرسمي.

قرر الرئيس «ايتين غناسينغب أياديما» في ذي القعدة ١٣٩١ هـ (كانون الثاني ١٩٧٢ م) الرجوع إلى الشعب في حكمه، فأبدى الأهالي تأييدهم له، فأبدى رغبته بالعودة إلى الحكم المدني، ولكنه جعل أفضلية الحكم للمجلس التنفيذي لحزبه «حزب تجمع شعب التوغو».

جعل الرئيس «ايتين أياديما» من نفسه الممثل الوحيد للقوات العسكرية في مجلس الوزراء في مطلع عام ١٣٩٧ هـ (كانون الثاني ١٩٧٧ م)، وجرت محاولة انقلاب فاشلة في ذي القعدة ١٣٩٧ هـ (تشرين الأول ١٩٧٧ م) وبعد ذلك وقعت الدولة في فتنة سياسية عمياء.

وبعد مرور ستة عشر عاماً من حرمان البلاد من هيئةٍ تشريعيةٍ جرت الانتخابات العامة في مطلع عام ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م) جُدّد انتخاب الرئيس لمدة سبع سنوات أخرى، ووُضع دستور جديد بعد اثني عشر عاماً من تعطيل الدستور.

أعلن الرئيس الجمهورية الثالثة (المرة الثالثة لتجديد رئاسته بعد مرور ثلاث عشرة سنة على حكمه) فنظّم مجلس الوزراء من جديد حيث فصل عدداً من كبار الوزراء.

اهتزّ وضع الأمن الداخلي خلال عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) حيث سُجن عدد كبير من المواطنين، وغدا الحكم محط أنظار منظمة حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية.

وفي مطلع عام ١٤٠٧ هـ (أيلول ١٩٨٦ م) تردّت العلاقات بين التوغو والدول المجاورة لها بعد الهجوم الإرهابي على منزل الرئيس، وعلى محطة الإذاعة الوطنية إذ وجّه الرئيس أصابع الاتهام إلى جارتيه غانا وبوركينا فاسو، وأمر بإغلاق الحدود البرية معهما حتى آخر أيام عيد الفطر ١٤٠٧ هـ (أيار ١٩٨٧ م) بعد أن تردّد في اتهام غانا، وطلب بعض الجنود من فرنسا لحمايته وللدفاع عن حكمه، فلبّت فرنسا الطلب وأرسلت إليه قوةً، ولكن لم تُرابط في التوغو إلا مدةً محدودةً لا تزيد على أيام. وفي شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) طرد وزير العدل وحكم عليه بالسجن مدة سنتين.

وفي جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) أجرى الرئيس تعديلاً في الحكومة ففصل ثلاثة وزراء منها، وفي الشهر نفسه عاد فطرد وزير التجارة والمواصلات، وأمين عام اتحاد التجارة الوطني لاتهامهم باختلاس أموال الدولة.

وفي جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) أُفرج عن وزير العدل السابق، وفي الشهر نفسه أفرج عن المخالفين للنظام بمناسبة مرور ثلاث وعشرين سنة على استلام الرئيس للسلطة، ثم أعقب ذلك الإفراج عن أربعمائة وأربعين سجيناً، وأعلن بعدها عن مراجعة النظام ومعاملة أعضاء الحزب الحاكم.

وفي رجب ١٤١٠ هـ (شباط ١٩٩٠ م) ارتفع عدد أعضاء مجلس الوزراء إلى تسعة عشر عضواً، وفي الشهر التالي جرت انتخابات المجلس الوطني.

ساءت العلاقات السياسية بين التوغو وبين جارتيها غانا وبنين، وأغلقت كلتا الدولتين حدودهما لمكافحة التهريب، والنشاط السياسي الذي يمارسه المنفيون عن وطنهم.

وفي ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانـون الأول ١٩٨٤ م) تمت الاتفاقيـة الأمنية بين كل من التوغو، ونيجيريا، وبنين، وغانا. وتحسنت العلاقة مع غانا بعد زيارة الرئيس الغاني اللواء الطيار «جيري راولينغس» إلى التوغو في ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيران ــ ١٩٨٨ م)، وفي منتصف عام ١٤٠٩ هـ (مطلع ١٩٨٩ م) تمّ طرد مائة وثلاثين من مواطني غينيـا الموجـودين في التوغو.

وتحسّنت العلاقة مع بوركينا فاسو بعد طرد الرئيس «توماس سانكارا» عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧ م).

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة التوغو ٥٦,٧٩٠ كيلومتراً مربعاً، وتشرف على المحيط الأطلسي من ناحية الجنوب بساحل طوله ستة وخمسون كيلومتراً، ويبلغ طول حدودها البرية ١٦٤٧ كيلومتراً منها: ٨٧٧ كيلومتراً مع غانا في الغرب، و٦٤٤ كيلومتراً مع بنين في الشرق، و١٢٦ كيلومتراً مع بوركينا فاسو في الشمال.

ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م).

الصراع العنصري:

يعيش في التوغو عدد كبير من القبائل منها:

أ ـ **في الجنوب**: الإيوي، والواتاشي، والمينا وتتحدث كلها لغة الإيوي أو تتفاهم فيما بينها بهذه اللغة.

ب ـ **في الشمال**: الهاوسا، والغرما، والبيل، وتعدّ لغة الهاوسا الجامعة فيما بينها. هذا بالإضافة إلى بعض جماعات الفولاني و. . .

وفي التوغو ما يزيد على ١ ٪ من مجموع السكان من الأوروبيين والشاميين.

وكان الصراع بين قبائل الشمال والجنوب قديماً فالشماليون يريدون التوسع نحو الجنوب للتجارة، والاستثمار، والدعوة، وقبائل الجنوب تقف

في وجههم، وتصدّهم حفاظاً على ديارها، وعلى البقاء في عزلتها، وكراهيةً للغرباء عنها.

ولما جاء المستعمرون الصليبيون أذكوا نار هـذا الصراع للحدّ من انتشار الإسلام نحو الجنوب.

الصراع العقيدي:

تعـد قبائل الشمال مسلمةً إذ أن أكثر أفرادها يدينون بالإسلام على حين تُعدّ قبائل الجنوب وثنيةً حيث أن أكثر أبنائها لا يزالون على البدائية حياةً وعقيدةً، وقد اعتنق بعضهم النصرانية تحت تأثير المستعمرين الصليبيين مصلحةً، وإغراءً.

تبلغ نسبة المسلمين ٥٥ ٪ من مجموع السكان، وتزيد هذه النسبة في الشمال وتنقص في الجنوب. ولا يزال ٣٠ ٪ من السكان على الوثنية، والباقي وهو ١٥ ٪ من النصارى الذين اعتنقوا هذه الديانة من أبناء الجنوب، وممن جاء من الأوربيين، وبعض الشاميين.

الصراع الحزبي:

كانت هناك منافسة بين الحزبين الأساسيين القائمين قبل الاستقلال وهما: حزب اتحاد التوغو، وحزب التوغو التقدمي، ثم استأثر حزب اتحاد التوغو بالسلطة وحال دون غيره من المشاركة في الانتخابات حتى قام الانقلاب الأول، وسُمح بعد مدة للأحزاب بالنشاط، ولكن لم يلبث أن قام الانقلاب الثاني عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٧ م)، وحظر النشاط السياسي، وتسلّم السلطة «ايتين غناسينغب أياديما»، واستأثر بالحكم، وأنشأ الحكم، ولا يزال الأمر إلى اليوم، لذا فالصراع الحزبي مفقود في التوغو.

الباب العاشر

بِـنيِن

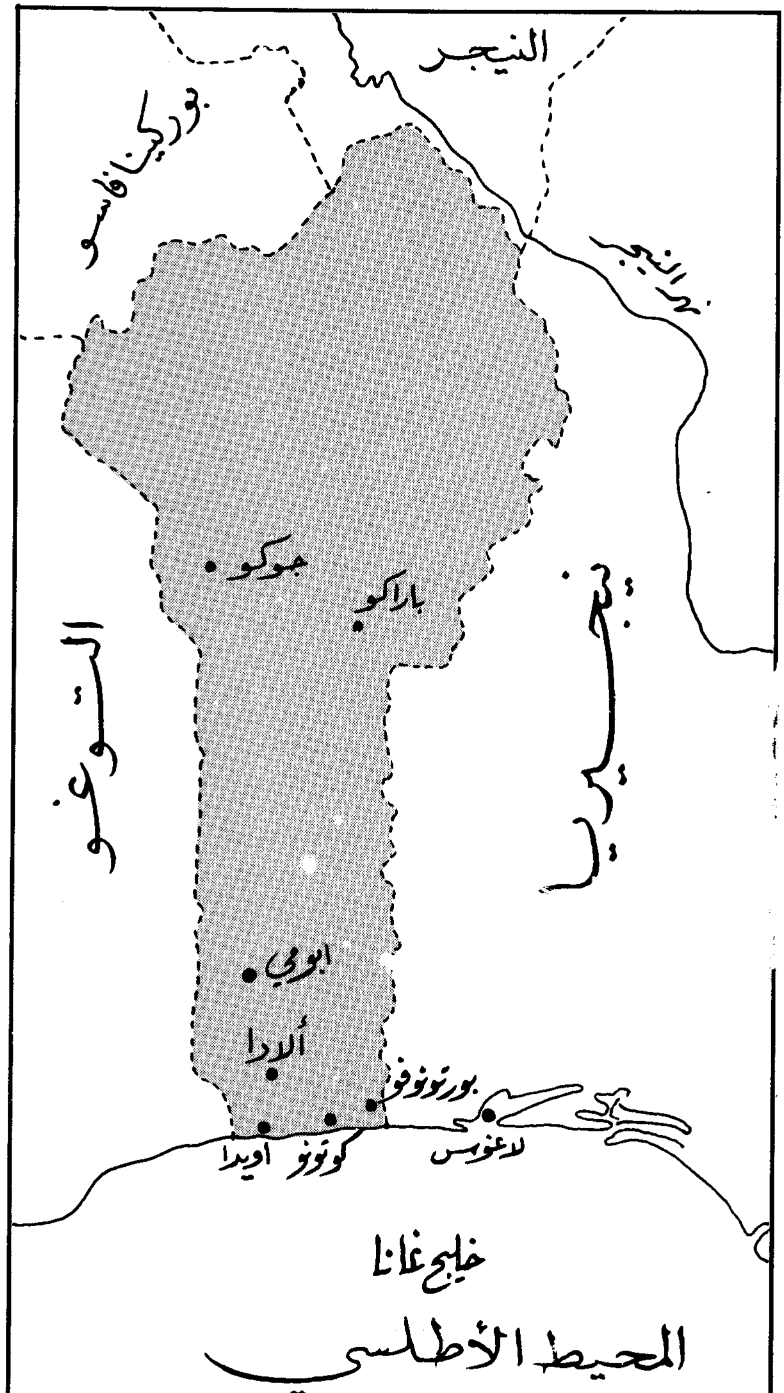
النيجر
بوركينافاسو
نهر النيجر
جوكو
باراكو
التوغو
نيجيريا
ابومي
ألادا
بورتونوفو
اويدا
كوتونو
لاغوس
خليج غانا
المحيط الأطلسي

مصور رقم [١٠]

لمحة عن تاريخ بنين قبل إلغاء الخلافة

إن تاريخ منطقة بنين القديم غير معروف، وإن وجدت بعض قطع من البرونز تدل على قيام حضارة في الماضي، والذي يعرف أن الإسلام قد انتشر في شمالي البلاد، كما انتشر في المناطق المجاورة، قادماً من الشمال مع قوافل التجارة التي تجتاز الصحراء من شمالي إفريقية حيث عمّ الإسلام إلى الجنوب حيث المناطق السودانية وسكانها من الزنوج، وكان شمالي بنين جزءاً من مملكة مالي القديمة، وتنقلت في تلك الديار قبائل الفولاني، والهاوسا والتي اعتنق كثير من أفرادها الإسلام، وعملوا على نشره، أما قبائل «باريباس» فقد اعتنقت الإسلام، ولكن لم تهتم بانتشاره. ولكن زاد انتشار الإسلام بعد الاحتلال الفرنسي إذ كان ردّ فعل ضدّ الاستعمار الصليبي، حيث انضمّ السكان إلى المقاومة التي كانت من المسلمين فأسلموا بعد أن قارنوا بين المسلمين وبين ما هم عليه من معتقداتٍ وثنيةٍ، كما قارنوا بين المسلمين وبين عقيدة المستعمرين الصليبيين فوجدوا أنفسهم قد أصبحوا مسلمين. ولم تعرف إمارات أو ممالك قامت في الشمال.

أما في الجنوب فتعيش قبائل وثنية في الغابات، وقد أسّست تلك القبائل أربع ممالك في منطقة ضيقة في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، وهذه الممالك هي: أويدا، آلادا، بورتونوفو، داهومي، وكانت الأخيرة أقواها جميعاً، وتتألف الكلمة من مقطعين هما: (دان) ويعني منزل، و(هومي) وهو اسم قبيلةٍ معروفةٍ هناك، فأصبح الاسم

يعني ديار قبيلة هومي، كما أن ملكاً لتلك القبيلة قد حمل اسم دان.

وكانت قبيلة هومي قبيلة مقاتلة شرسة، وكان بينها فرقة من النساء المدربات على القتال، وقد عرفن بالشراسة والوحشية، وحملت هذه الفرقة اسم «الأمازون»، وبلغ عدد أفرادها ثمانية عشر ألف امرأةٍ. كما أن الملك (دان) ملك القبيلة كان يأكل فريسته من البشر.

واستطاعت مملكة داهومي أن تحتلّ كـلاً من مملكتي «أويدا» عـام ١٢٣٦ هـ (١٧٢٤ م)، و«ألادا» بعد خمس سنوات، وبلغت هذه المملكة أوج قوتها عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) عندما بـدأ حكم الملك «جيزو» والذي استمرّ مدة أربعين سنةً.

وفي عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١ م) وقّعت فرنسا معاهدةً تجاريةً مع الملك «جيزو» الذي توفي عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م)، وخلفه ابنه «جليجل».

وفي عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) استولت فرنسا على «بورتونوفو» بعد أن استولت بريطانيا على «لاغوس» في نيجيريا، كما أن الألمان كانوا قد ثبّتوا أقدامهم في «التوغو» وأخذوا يتسلّلون إلى الداهومي، غير أنهم قبلوا أن يحصروا منطقة نفوذهم فيما عُرف باسم «التوغو» بعد توقيع معاهدة في ذلك العام بين فرنسا وألمانيا. غير أن الألمان فكروا مرةً ثانيةً في التوسّع في الـداهومي، ولكن وقّعت معـاهـدة أخـرى عـام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) وضعت فيها الحدود بين منطقتي النفوذ.

وفي عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) وقّعت فرنسا وبريطانيا معاهدة وضعت فيها الحدود من مستعمرة بريطانيا في الشرق، والتي عُرفت باسم نيجيريا فيما بعد، وبين مستعمـرة فرنسـا في الغرب في داهـومي، غير أن هـذه الحدود لم تثبت نهائياً إلا بعد اتفاقية عقدت عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) التي تنازلت بريطانيا بموجبها عن منطقة «كوتونو».

وفي عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) وقع الصراع بين ملك داهومي وبين فرنسا التي رغبت تطبيق سياستها الاستعمارية على بلاد الملك المذكور ما

دامت قد عقدت مع سلفه معاهدةً تجاريةً، وقد استبسل السكان بالدفاع عن أراضيهم، ولعبت فرقة «الأمازون» من النساء دوراً بارزاً في قتال الفرنسيين الذين وقّعوا مع الملك «جليجل» معاهدةً عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) استولت فرنسا بموجبها على «بورتونوفو» و «كوتونو» وخصصت له مقابل ذلك راتباً تقاعدياً شهرياً قدره ثمانمائة جنيه استرليني. ولكن توفي الملك جليجل عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م)، وخلفه ابنه «بيهانزين».

أشعل الملك بيهانزين الحرب على فرنسا مرةً ثانيةً، غير أنه هُزم، فأشعل النار في مقر ملكه، وفرّ إلى الشمال، وأخيراً اضطر إلى تسليم نفسه بعد سنتين ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م)، فنُفي إلى خارج البلاد.

قسّمت فرنسا ما استولت عليه إلى قسمين: أولهما «أبومي»، ونصّبوا عليه شقيق الملك بيهانزين، ثم عادوا فنفوه عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) إلى «الكونغو»، وثانيهما «ألادا» وجعلوه تحت سيطرتهم المباشرة مع باقي أجزاء المنطقة.

رُسمت الحدود بين نيجيريا وداهومي بشكلٍ دقيقٍ بعد اتفاقيةٍ بين بريطانيا وفرنسا وُقّعت عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، ثم رُسمت الحدود مع التوغو بعد اتفاقيةٍ مع ألمانيا عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م)، وأخذت داهومي شكلها الحالي تقريباً.

منذ أن وطأت أقدام المستعمرين المنطقة عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١ م) ركّزت الإرساليات التنصيرية جهودها على التعليم خاصةً، وذلك أكثر من أية منطقةٍ ثانيةٍ في غربي إفريقية، وكان نتيجة ذلك أن وجد ١٦٣ ألف نصراني كاثوليكي، و ١٨ ألف نصراني بروتستانتي.

ووقفت القبائل الوثنية الشرسة في الجنوب أمام المدّ الإسلامي من الشمال أول الأمر، وبعدها وقف المستعمرين الموقف نفسه، وشجّعوا الوثنيين على وقوفهم في وجه المسلمين، غير أن الدعوة الإسلامية قد تمكّنت من إيجاد جماعات إسلامية في الجنوب، وأخذت تزداد مع الأيام.

أثناء الحرب العالمية الأولى احتلّت فرنسا ثلثي المستعمرة الألمانية (التوغو)، وجعلتها تحت نفوذها، فأصبحت المستعمرات الفرنسية تحيط بالداهومي، من الغرب (التوغو) ومن الشمال (بوركينافاسو) والنيجر، أما من الشرق فتحيط بها المستعمرة البريطانية (نيجيريا).

الفصل الأول

بنين من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ٨ صفر ١٣٨٠ هـ

٣ آذار ١٩٢٤ - ١ آب ١٩٦٠ م

استمرّت فرنسا في تطبيق سياستها الاستعمارية على شعب وأرض داهومي، وأثناء الحرب العالمية الثانية ساقت أعداداً من أبنائها إلى ساحات القتال، ودفعتهم إلى الصفوف الأولى في الجبهات، ولكن كانوا يمنون الشعوب التي يستعمرونها بالاستقلال بعد الحرب.

تشكّلت حكومة شبه مستقلةٍ في الداهومي بعد الحرب عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وبعد عشر سنواتٍ وفي شوال ١٣٧٦ هـ (أيار ١٩٥٧ م) حصلت على الاستقلال الذاتي.

وصوتت الداهومي إلى جانب دستور ديغول أي أصبحت ضمن المجموعة الفرنسية وعضواً فيها، في جمادى الآخرة ١٣٧٨ هـ (كانون الأول ١٩٥٨ م). ووضعت دستوراً لنفسها في شعبان ١٣٧٨ هـ (شباط ١٩٥٩ م)، وجرت الانتخابات في شوال ١٣٧٨ هـ (نيسان ١٩٥٩ م) لاختيار مجلس تشريعي لمدة خمس سنوات، ويتألف من سبعين عضواً. وشكّل (هيوبرت ماغا) حكومة اتحادٍ وطنيٍ.

وفي ٨ صفر ١٣٨٠ هـ (الأول من آب ١٩٦٠ م) أعلنت داهومي استقلالها التام، وأصبح (هيوبرت ماغا) رئيساً للدولة.

الفصل الثاني

الاستقلال

٨ صفر ١٣٨٠ هـ - ....

١ آب ١٩٦٠ م - ....

قُبلت داهومي عضواً في الأمم المتحدة في ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠ م)، وجرت الانتخابات في جمادى الآخرة ١٣٨٠ هـ (كانون الأول ١٩٦٠ م)، وفاز فيها حزب الوحدة الداهومي بقيادة (هيوبرت غاما) الذي انتخب رئيساً للجمهورية في الشهر الذي تلا الانتخابات (رجب) أي في كانون الثاني ١٩٦١ م، وتمتع بالسلطات كاملةً. وخرجت داهومي بعد استقلالها من مجموعة الشعوب الفرنسية غير أنها في الوقت نفسه وقّعت اتفاقيات للتعاون الاقتصادي والفني والعسكري مع فرنسا.

وقعت اضطرابات قام بها العمال والطلاب في جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ (تشرين الأول ١٩٦٣ م) أدّت إلى قيام انقلابٍ عسكري قاده العقيد (كريستوف سوغلو) رئيس أركان القوات المسلحة، وتسلّم رئاسة الدولة مؤقتاً حتى شعبان ١٣٨٣ هـ (كانون الثاني ١٩٦٤ م) حيث جرت انتخابات فاز بها (سورو ميغان ابيتاي) الذي كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية في عهد الرئيس (هيوبرت غاما)، والرئيس الجديد (سورو ميغان ابيتاي) من الجنوب على حين أن سابقيه من الشمال.

وعُيّن (جوستين أهوماد إغبي) رئيساً للوزراء، وهو من الجنوب أيضاً، لذلك فإن الحكم كان مرفوضاً من الشمال، وقامت اضطرابات عديدة،

وأجبر رئيس القوات المسلحة العميد (كريستوف سوغلو) رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه على الاستقالة من منصبيهما وذلك في رجب ١٣٨٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٦٥ م)، وتشكّلت حكومة موقتة، ولكن الجيش تدخّل مرةً أخرى في شعبان ١٣٨٥ هـ (كانون الأول ١٩٦٥ م) أي لم يمض سوى شهرٍ أو أقل على الحكومة الموقتة، وشكّل العميد (كريستوف سوغلو) حكومةً عسكريةً.

أُلغي الحكم العسكري عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) فوقعت اضطرابات في القطاع الصناعي نتيجة نشاطات العمال في رمضان ١٣٨٧ هـ (كانون الأول ١٩٦٧ م) وهذا ما أدّى إلى وقوع انقلاب عسكري قاده ضباط شباب بزعامة الرائد موريس كواندته، وتشكلت حكومة عسكرية موقتة برئاسة اللواء ألفونس آليه رئيس الأركان السابق، وتسلّم الرائد موريس كواندته رئاسة الحكومة.

وفي عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) جرت محاولة لعودة الحكم المدني، ففي ذي الحجة ١٣٨٧ هـ (آذار ١٩٦٨ م) جرى استفتاء حول وضع دستورٍ جديد للبلاد يرتكز على وجود رئاسةٍ قويةٍ، وفي صفر ١٣٨٨ هـ (أيار ١٩٦٨ م) جرت انتخابات للرئاسة، ومُنع القادة السياسيون من الاشتراك فيها بما فيهم الرؤساء القدامى الذين دعوا أعوانهم لمقاطعة الانتخابات، ونتيجة لذلك فإن نسبة الناخبين لم تزد على ٢٦٪ من مجموع الذين يحق لهم الاقتراع، ولكن نسبة مقاطعة الانتخابات في الشمال كانت كبيرة حيث لم تصل نسبة الناخبين إلى ١٪ فقط، وهذا ما أدّى إلى إلغاء الانتخابات.

وفي ربيع الأول ١٣٨٨ هـ (حزيران ١٩٦٨ م) عيّن النظام العسكري وزير الخارجية (إميل ديرلن زنسو) رئيساً للجمهورية، وبعد شهر أدّى الرئيس اليمين الدستورية.

وفي شوال ١٣٨٩ هـ (كانون الأول ١٩٦٩ م) وقع انقلاب عسكري بقيادة اللواء (موريس كواندته) الذي أصبح رئيساً للأركان، وتشكلت إدارة

عسكرية برئاسة اللواء (بول إميل دي سوزا).

وفي مطلع عام ١٣٩٠ هـ (آذار ١٩٧٠ م) جرت انتخابات للرئاسة لكن وقع أثناءها اضطرابات واسعة فأُلغيت الانتخابات بعدما تبين أن المرشحين الثلاثة (جوستين أهوماد إغبي) و(سور ميغان ابيتاي) و(هيوبرت غاما) قد حصلوا على نسبٍ متساويةٍ.

وفي شهر ربيع الأول ١٣٩٠ هـ (أيار ١٩٧٠ م) نُقلت السلطة العسكرية إلى مجلس رئاسي مدني تشكل من ثلاثة من السياسيين بعدما تمّ الاتفاق على تناوب هؤلاء الثلاثة على الرئاسة بصورة يتسلّم كل واحدٍ منهم الرئاسة مدة سنتين، وتكون على الشكل التالي:

١ ــ هيوبرت غاما يتولّى الرئاسة من أيار ١٩٨٠ - أيار ١٩٧٢ م.
٢ ــ جوستين أهوماد إغبي يتولى الرئاسة من أيار ١٩٧٢ - أيار ١٩٧٤ م.
٣ ــ سورو ميغان ابيتاي يتولى الرئاسة من أيار ١٩٧٤ - أيار ١٩٧٦ م.

وساد الاعتقاد أنه قد جرى تنازل لصالح الشمال، حيث بدأت الرئاسة بأحد أبناء الشمال.

ووقع انقلاب جديد في رمضان ١٣٩٢ هـ (تشرين الأول ١٩٧٢ م) بقيادة الرائد (ماثيو كيركو) نائب رئيس الأركان بالقيادة المدنية الجماعية، وتشكّل نظام عسكري بإمرة الرائد المذكور، ويرتكز على تمثيل متساوٍ بين المناطق الثلاث: الشمالية، والوسطى، والجنوبية.

وتمّ تشكيل مجلس قيادة الثورة الوطني في شعبان ١٣٩٣ هـ (أيلول ١٩٧٣ م)، ثم أعلن الرائد (ماثيوكيركو) في ذي القعدة ١٣٩٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٤ م) أن البلاد ستتبع نظاماً اشتراكياً علمانياً ينبع من المبادىء الماركسية اللينينية، وغدت الدولة تشرف على النواحي الاقتصادية كافةً بما فيها المصارف وتوزيع المنتجات النفطية ثم جرت إعادة مناقشة اتفاقيات التعاون مع فرنسا.

وفي هذه الأثناء ١٣٩٤ - ١٣٩٨ هـ جرى إعداد إدارات محلية تعتمد

على نظام اللامركزية وهذا ما أدّى إلى إعادة النظر في النظام التعليمي، والقانوني من الأساس.

وفشلت محاولة انقلابية قامت في مطلع عام ١٣٩٥ هـ (كانون الثاني ١٩٧٥ م) فعملت الدولة على دمج قوات الشرطة مع الجيش، وأصبحت تُعرف باسم قوات الدفاع الوطني. وكان الذي قاد تلك العملية الانقلابية وزير الإدارة العامة والعمل بالتعاون مع بعض ضباط الجيش.

ولم تلبث الحكومة أن اكتشفت محاولة انقلابٍ أخرى في شوال ١٣٩٥ هـ (تشرين الأول ١٩٧٥ م) بقيادة الرئيس السابق (إميل ديرلن زنسو). وتشكل إثر ذلك وبعد شهرٍ من هذه المحاولة الانقلابية الفاشلة حزب (بنين الثوري الشعبي) ليكون قاعدةً للسلطة، ويُعدّ أكبر تعبيرٍ سياسيٍ عن الإرادة السياسية في البلاد. وتمّ بعد شهرٍ أيضاً تغيير اسم البلاد من (داهومي) إلى (بنين).

وفي الشهر الثاني من عام ١٣٩٧ هـ (كانون الثاني ١٩٧٧ م) قام العقيد الفرنسي (روبرت دينارد) بالهجوم على مدينة (كوتونو) الساحلية غير أن قوات الدفاع الوطني قد تمكنت من صده.

وفي رمضان ١٣٩٧ هـ (آب ١٩٧٧ م) تمت المصادقة على نظام الحكومة الإداري والذي ينصّ على إقامة سلطة عليا للدولة يُطلق عليها «الجمعية الوطنية الثورية»، وجرى اقتراع في ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٩ م) من قبل أعضاء الجمعية البالغ عددهم ٣٣٦ عضواً على قائمةٍ واحدةٍ فقط. وفي مطلع عام ١٤٠٠ هـ عقدت الجمعية الوطنية الثورية أول اجتماعٍ لها، وتقرر أن يكون (ماثيو كيركو) المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية، وفي ربيع الأول ١٤٠٠ هـ (شباط ١٩٨٠ م) تمّ انتخابه بالإجماع.

وأُطلق سراح أعضاء المجلس الرئاسي الثلاثة الذين كانوا قد وضعوا تحت الإقامة الجبرية إثر انقلاب عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) وذلك في

جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (نيسان ١٩٨١ م)، وهذا ما أدّى إلى الشعور بانفراج في الحياة السياسية في البلاد.

وأبدت السلطة رغبتها في محاربة الفساد، وإعطاء المناصب لأصحاب الكفاءات وإبعاد غير المؤهلين، وظهر ذلك في التغييرات الوزارية التي تمّت في جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ (نيسان ١٩٨٢ م) وفي صفر ١٤٠٣ هـ (كانون الأول ١٩٨٢ م) حيث شملت هذه التغييرات أعضاء الجناح اليساري المتطرف من السلطة، وبعض العسكريين حيث أصبح أعضاء الحكومة من العسكريين قلّةً ولأول مرةٍ.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ (شباط ١٩٨٤ م) وفي اجتماعٍ غير عاديٍ جرى تعديل الدستور (النظام الأساسي)، فزاد عدد أعضاء الجمعية العمومية، وزادت مدة الرئاسة من ثلاث سنوات إلى خمس سنوات، وبعد إعادة انتخاب (ماثيو كيركو) أصدر عفواً عاماً شمل عدداً من السجناء السياسيين بما فيهم رئيس الدولة السابق (ألفونس آليه).

وبعد قيام طلاب الجامعات والمدارس بمظاهرات تمّ اعتقال عددٍ كبيرٍ من الطلبة، والمعلمين، والمهندسين، والزعماء السياسيين، ولكن بعد إعادة انتخاب الرئيس للمرة الثانية أعلن أن العفو قد شملهم. غير أن منظمة حقوق الإنسان قد صرحت بأن عدداً كبيراً من السجناء السياسيين ما زالوا حتى عام (١٩٨٨ م) يُعانون ظروفاً صحيةً ونفسيةً بالغة السوء.

أعلن الرئيس (ماثيو كيركو) استقالته من الجيش ليكون رئيساً مدنياً وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (كانون الثاني ١٩٨٧ م) وبعد شهر أجرى تغييراً على الوزارة شمل وزارات الخارجية، والمالية، والاقتصاد.

وتعاظم اهتمام ضباط الجيش بانتشار الفساد على نطاقٍ واسعٍ، ويئسوا من الإصلاحات التي تقوم بها حكومة (ماثيو كيركو) المدنية فعملوا في رجب عام ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) على إعداد انقلابٍ ضمّ عدداً من ضباط الحرس الجمهوري الذي جرى اعتقالهم فيما بعد، وعلى الرغم من

ذلك فإن الرئيس (ماثيو كيركو) لم يعترف بتلك المحاولة الفاشلة صراحةً، وذلك لأنه كان في الوقت نفسه مع وفد يُمثّل صندوق النقد الدولي في مدينة (كوتونو) لمناقشة برنامج البلاد الاقتصادي. كما أُشيع وقوع محاولة انقلابٍ فاشلة أخرى في شهر ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيران ١٩٨٨ م) في الوقت الذي كان فيه الرئيس يحضر مؤتمر قمةٍ اقتصادي لمجموعة بلدان غربي إفريقية في التوغو.

وسرى نبأ وفاة (هوتنجي) في السجن، وربما كانت وفاته نتيجة التعذيب الشديد الذي تعرّض له، وكان من محامي الدفاع عن الذين تورطوا في محاولة الانقلاب الفاشلة، وفرّ (فرانسوا كويامي) مع أربعةٍ من السجناء من داخل السجن قبل تقديمهم للمحاكمة.

وطلب الرئيس (ماثيو كيركو) فتح ملفّ التحقيق في حادث معسكر (كوتونو)، وأعلن أن المعتقلين سيحالون إلى سجون مدنية عدا الذين يثبت عليهم القيام باعتداءاتٍ على أمن الدولة فإنهم سيبقون في السجن العسكري، وذلك في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م).

وكانت محكمة أمن الدولة قد حكمت على النقيب عبدالرحمٰن أمادو الضابط السابق في الحرس الجمهوري، وعلى «أحمد قاضي يوبا» وهو مواطن من موريتانيا، وذلك في رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) بالسجن لمدة عشرين سنة بعد أن ثبت لديها تورطهما في محاولة الانقلاب الفاشلة. وحُكم على ضابطين آخرين بالوضع تحت الإقامة الجبرية. وسبق كذلك أن صدر الحكم غيابياً في ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م) على (غباندامسي موداشيرو) بالسجن مدى الحياة، وفي الشهر نفسه تمّ تأجيل محاكمة باقي المتهمين لاستكمال جمع المعلومات.

وفي انتخابات الجمعية الوطنية في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) حصلت قائمة المستقلين على ٨٩,٦٪ من مجموع الأصوات، وزادت المعارضة على قائمة مرشحي الحزب الرسمي نتيجة عدم رضا

الشعب عن السياسة الاقتصادية حيث غدت الضائقة الاقتصادية مزمنة في البلاد. وتمّ إعادة انتخاب الرئيس (ماثيو كيركو) في اليوم الأول من عام ١٤١٠ هـ (٢ آب ١٩٨٩ م)، وكان المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية. وأعاد تشكيل الوزارة، فانتدب إلى وزارة التخطيط والإحصاء (روبرت دوسو)، وكان في الشهر الماضي قد دعا إلى التعددية الحزبية في بنين، وطالب بمرونةٍ أكبر في تطبيق النظام السياسي القائم. كما عُيّن (دانيال تويما) وزيراً للخارجية والتعاون الدولي، وهو أحد المقربين من رئيس الجمهورية، وأُسندت وزارة الصحة العامة إلى (رافياتو كريمو) وهي أول امرأةٍ في بنين تدخل عضواً في الجمعية الوطنية.

وفي غرة صفر ١٤١٠ هـ صدر العفو عن مائة واثنين وتسعين سجيناً ممن تورّطوا في أحداث مطلع عام ١٣٩٥ هـ (كانون الثاني ١٩٧٥ م)، وأحداث شوال ١٣٩٥ هـ (تشرين الأول ١٩٧٥ م)، وأحداث صفر ١٣٩٧ هـ (كانون الثاني ١٩٧٧ م)، بمن فيهم من يُسمّى بأتباع الحزب الشعبي الديمقراطي (الشيوعي الداهومي)، وكذلك معتقلون تورطوا في المحاولات الانقلابية وما تبعها من أحداث.

وأعلن رئيس الجمهورية أن طرح فكرة التعددية الحزبية يعني إعادة موضوع الإقليمية والقبلية وما يتبعها من صراعاتٍ ومحنٍ.

الوضع المالي:

بدأت حكومة بنين في عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م) مفاوضات مع صندوق النقد الدولي والمصرف الدولي لتسهيل إعادة جدولة الديون الخارجية للبلاد، ومنح قروضٍ جديدةٍ.

وتمّ عزل خمسة وزراء عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) بتهمة عدم تمكّنهم من تصريف شؤون وزاراتهم، وأصبحت وزارتا المالية والاقتصاد وزارتين منفصلتين، وشملتا شؤون المالية، والصناعة، والطاقة. وأثارت محاولات الحكومة إرضاء الدائنين الخارجيين قلقاً بالغاً في بنين.

وقامت مظاهرات موظفي القطاع العام، والخدمة المدنية، والمعلمين، والمحاضرين في جامعة «كوتونو» في العاصمة «بورتونوفو» وفي مدينة «كوتونو» احتجاجاً على تأخير دفع الرواتب، وفي الوقت نفسه قاطع طلاب المنح والبعثات الدراسية الدراسة للسبب ذاته. وتدخّلت القوات المسلحة بالأحداث، وأعطيت لها الأوامر بفتح النار على المتظاهرين، وذلك في منتصف عام ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م)، ولكن لم ينته الشهر حتى اعتمد دفع الرواتب.

وتجمّعت المستحقات مرةً أخرى، وأثيرت فكرة تخفيضات كبيرة في الأجور في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) كجزءٍ من ميزانية التقشف، فأثار هذا الاقتراح المزيد من المشكلات.

وتمّ الاتفاق مع صندوق التنمية الدولي والمصرف الدولي على إجراء تعديلاتٍ اقتصاديةٍ وذلك في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م)، ورغم ذلك فقد تفاقمت موجة الغضب في الشهر التالي عندما ترك الموظفون في عشر وزارات أعمالهم، وأضرب المدرسون، وأعلن إلغاء العام الدراسي في المعاهد التي فيها إضراب.

وعدت الحكومة في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) بدفع جزء من رواتب المعلمين المتأخّرة، وذلك عقب ضماناتٍ بمساعداتٍ مالية كديون من عدة جهات ممولة.

استؤنفت الدراسة في أواخر ربيع الأول ١٤١٠ هـ (أواخر تشرين الأول ١٩٨٩ م)، وفي الشهر نفسه أعلن اتحاد بنين الوطني للنقابات، وهو الاتحاد الوحيد المعترف به رسمياً، أعلن قطع علاقاته مع حزب بنين الثوري الشعبي، وطالب بدفع الرواتب المستحقة للموظفين المدنيين والبالغ عددهم سبعة وأربعين ألفاً، بالإضافة إلى تعهدٍ من الحكومة بالدفع المنتظم في المستقبل.

انسحب اتحاد أساتذة الجامعات من اتحاد بنين الوطني للنقابات

لعلاقة الاتحاد الأخير الوطيدة بالحزب الحاكم. وعادت الدراسة فتعطّلت مرة أخرى في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م). بسبب فشل الحكومة بالالتزام بتعهداتها السابقة.

وفي الشهر نفسه أعلنت الحكومة أن الماركسية ـ اللينينية لن تكون الفكرة الرسمية للدولة، وأن دستوراً جديداً سيتم وضع مسودةٍ له خلال عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م).

العلاقات الخارجية:

اتهمت بنين في عدة مناسباتٍ قوى أجنبية بوقوفها خلف المعارضة في سبيل زعزعة نظام الحكم القائم، وقد تحسّن وضع بنين الدولي بعد تراخي نظام «ماثيو كيركو» عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م).

تعـرّضت العلاقـات بين بنين وفرنسـا لمنعطفٍ حـادٍ عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) بعـد أن تعرض مينـاء «كوتـونو» لهجمـة قوات من المـرتـزقـة والمحمولة جواً، رغم أن فرنسا تعدّ صاحبة المكانة الأولى في تجارة بنين، ومقدمة المساعدات الرئيسية لها، ولكن عادت العلاقات إلى حالتها الطبيعية بين الـدولتين في عـام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م)، واستمـرت بـالتحسّن فقـام الرئيس الفرنسي (ميتران) بزيارة إلى بنين عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).

وتبادلت بنين السفراء مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م). ولكن عادت العلاقـات فساءت بين الـدولتين عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) عندما اتهمت الولايات المتحدة حكومة بنين بالسمـاح لعملاء ليبيين باستخدام أراضيها قاعدةً لنشاطات تخريبية. وعلى كل حالٍ فقد أمر رئيس دولة بنين «ماثيو كيركو» رئيس البعثة السياسية الليبية بمغادرة البلاد بحجة تورّطه بنقل المتفجـرات، كما أمـر بإغـلاق مكاتب وكـالة استيـراد وتصدير مدعومة من ليبيا، وكان لها علاقة بالقضية. وفُرضت قيود جديدة على دخول الليبيين إلى بنين. كما رُفض عرض ليبي بتقديم مساعدات،

الأمر الذي أعطى مؤشراً لرغبة بنين في تقييد علاقاتهامع نظام معمر القذافي في المستقبل.

وثبت من محاكمات المتهمين في محاولة الانقلاب الفاشلة التي تمت في رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) تورط مصالح ليبية في محاولة لزعزعة نظام حكم «ماثيو كيركو».

وتحسّنت العلاقات بين نيجيريا وبنين عقب اجتماع ممثلين عن البلدين عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) لبحث التعاون بين الدولتين فيما يتعلق بالحدود، وتمّ الاتفاق على أن دقة رسم الحدود سيُسهّل ضبط التهريب، والانتقال غير النظامي، كما تمّ بحث تشكيل قوة شرطة لحراسة الحدود.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة جمهورية بنين ١١٢,٦٢٢ كيلو متراً مربعاً، وتشرف من ناحية الجنوب على المحيط الأطلسي (خليج غانا)، ويبلغ طول ساحلها ١٢١ كيلو متراً، أما حدودها البرية فتقع التوغو إلى الغرب منها، ويبلغ طول حدودها معها ٦٤٤ كيلو متراً، وتحدّها من الشمال بوركينافاسو، ويبلغ طول الحدود بينهما ٣٠٦ كيلو مترات، والنيجر وطول حدودها معها ٢٦٦ كيلو متراً، أما نيجيريا فتحدها من ناحية الشرق ويبلغ طول الحدود بينهما ٧٧٣ كيلو متراً، وبذا يكون مجموع طول حدودها البرية ١,٩٨٩ كيلو متراً.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) أربعة ملايين وستمائة ألف إنسان، وبذا تزيد الكثافة على أربعين شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

الصراع العنصري:

تمتد بنين بين خطي عرض ٦,٢° - ١٢,٢° تقريباً شمالاً، ونتيجة هذا الموقع يسود في الجنوب المناخ الاستوائي حيث الأمطار الغزيرة، والحرارة الدائمة، والأشجار الباسقة التي تشكل غاباتٍ تتشابك أطراف أشجارها، فتقيم فيها قبائل بدائية تنعزل في أقاليمها، أما الشمال فيسود فيه المناخ السوداني ذو الصيف الماطر والشتاء الجاف، وتقلّ الغابات، وتتبعثر الأشجار، وتنتشر المراعي الطويلة، وتنتقل فيها قبائل على مساحاتٍ واسعةٍ فتتعامل مع غيرها، ويتفاعل سكانها بعضهم مع بعضٍ، ومن هنا وصل

الإسلام إلى الشمال وقبلته قبائل تلك الجهات، على حين وقفت قبائل الجنوب أمامه، وتحصّنت في غاباتها، وتصدّت له بشراستها التي عُرفت بها، وتحضّر الشمال بالتفاعل مع الآخرين، وانعزل الجنوب، وبقي على سذاجته أو بدائيته.

تتنقل في الشمال قبائل البارِيباس، والهاوسا، وجاء الفولانيون ودانوا بالإسلام، وتشكل هذه القبائل ما يقرب من نصف سكان البلاد، وتعيش في الجنوب قبائل الفون، واليوروبا، والناغي، ولا يزال أكثرها على الوثنية، وإن كان بعضها قد اعتنق الإسلام، أو سار مع النصرانية، وهي أيضاً تقدر بنصف السكان أيضاً.

بدأ النزاع بين الشمال والجنوب من أجل التوغّل إلى الغابة والإفادة من خيراتها فوقفت قبائل الغابة بعنف وشراسة أمام قبائل الشمال وصدّتها، فكان الصراع إقليمياً بين الشمال والجنوب، وعنصرياً بين قبائل تلك الجهات وقبائل هذه النواحي، ثم أصبح عقيدياً بعد أن انتشر الإسلام ووقف الجنوبيون في وجهه. والواقع أن النزاع اقتصر على الجانب العقيدي لأن القبائل لم تكن لتتمايز بين بعضها بعضاً إلا بالعقيدة حيث لم يعد السكن له ذلك الدور الكبير بعد أن اخترقت الغابة.

ولما جاء المستعمرون الصليبيون حرّضوا أبناء الجنوب بصفتهم وثنيين ضدّ القبائل في الشمال، حيث يمكن التعاون بين المستعمرين والوثنيين ضدّ العدوّ المشترك، وهو المسلمون، فاشتدّ النزاع، ولما سيطر المستعمرون الصليبيون عملوا على إبقاء ذلك الخلاف، بل أشعلوا ناره، وزادوا أواره ليتسنّى لهم البقاء وإمكانية التحكّم، فإذا قرّبوا أحداً من الشمال نقم أبناء الجنوب، وإذا عيّنوا أحداً من الجنوب ثار الشماليون، واستمرّ ذلك إلى ما بعد الاستقلال حتى لعب هذا دوراً أساسياً في الانقلابات العسكرية المتكررة التي وقعت في البلاد.

واللغة الرسمية هي اللغة الفرنسية، ولكل قبيلةٍ لغتها الخاصة بها.

الصراع العقيدي:

تبلغ نسبة المسلمين ٦٠٪ في بنين، وتزيد هذه النسبة كثيراً في الشمال إذ تشمل معظم قبائل تلك الجهات، الفولاني، والهاوسا، والبارياس، وتقلّ في الجنوب إذ أخذ الإسلام طريقه إلى قبائل الجنوب متأخّراً وبنسبةٍ قليلةٍ، وإن كان نصف قبائل اليوروبا أصبح من المسلمين.

وتبلغ نسبة الوثنيين ٣٠٪، وتزيد هذه النسبة في الجنوب، وخاصةً بين القبائل المنعزلة في الغابات وكلما كانت أكثر انعزالاً ارتفعت بينهم نسبة الوثنية وقلّت نسبة الإسلام، وتنخفض هذه النسبة في الشمال حتى تكاد تنعدم لسيادة الإسلام هناك.

وتبلغ نسبة النصرانية ١٠٪، وتزيد هذه النسبة في الجنوب بين القبائل الوثنية حيث استطاع رجال الإرساليات التنصيرية أن يُحقّقوا بعض النجاح للتقارب بين الفكرين في عبادة المخلوقات إذ قبل بعض الوثنيين تجسيد قوى الطبيعة التي يعبدونها في بشرٍ، كما تمكن رجال السلطة من المستعمرين الصليبيين جذب بعض أفراد الوثنيين إلى عقيدتهم بإغراءات المنصب والمادة، على حين عجز هؤلاء وأولئك مع المسلمين فاكتفوا منهم بالابتعاد عن دينهم، وقدّموهم بناءً على ذلك في الجهاز الإداري كي يظهروا بمظهر الابتعاد عن التعصّب للعقيدة. وأكثر النصارى من أتباع كنيسة الروم الكاثوليكية، وهذا الأمر طبيعي ما دام المستعمرون من الفرنسيين، وأقلّهم من البروتستانت حيث يوجد منهم في بنين ما يقرب من ثلاثمائة نصراني.

وقلنا: إن الصراع الإقليمي والعنصري قد حمل المعنى العقيدي بالواقع، واستمرّ يُمثّل النصرانية والوثنية متحدتين ضدّ الإسلام، إضافةً إلى ما كسبته السلطة من المسلمين، وإن لم يتخلّوا عن دينهم إذ اكتفى منهم المستعمرون الصليبيون بإهمال العقيدة والسير على منوالهم وحسب أسلوب حياتهم، لتقديمهم، وإعطائهم بعض المراكز حسبما تهوى أنفسهم.

الصراع الحزبي:

كان نتيجة الصراع العقيدي تلك الانقلابات المتكررة الأمر الذي أدّى إلى قيام حكمٍ عسكري يستبّد بالسلطة، ويكم الأفواه، ويحول دون الحرية في أكثر الأوقات، ويفسح هذا الحكم المجال لتمرير المخططات الأجنبية وتنفيذها دون أن يجرؤ أحد على الكلام. وفي ذي القعدة ١٣٩٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٥ م) تشكل حزب بنين الثوري الشعبي ليكون قاعدة للحكم ولم يسمح لغيره من التنظيمات لذا بقي الوحيد، حزب الحكام، ويستبدّ المتنفذون فيه بالسلطة كما كان يستبدّ العسكريون، لذا لم يكن صراع حزبي بالمعنى المعروف، وإنما متسلّطون، ومنتقدون بالسرّ لتصرّفات الحزبيين، وتجاوزاتهم تحت مظلة الحزب، وهذا ما يُشكّل نقمة داخلية لا يمكن الإفصاح عنها.

الباب
الحادي عشر

النَّيْجَر

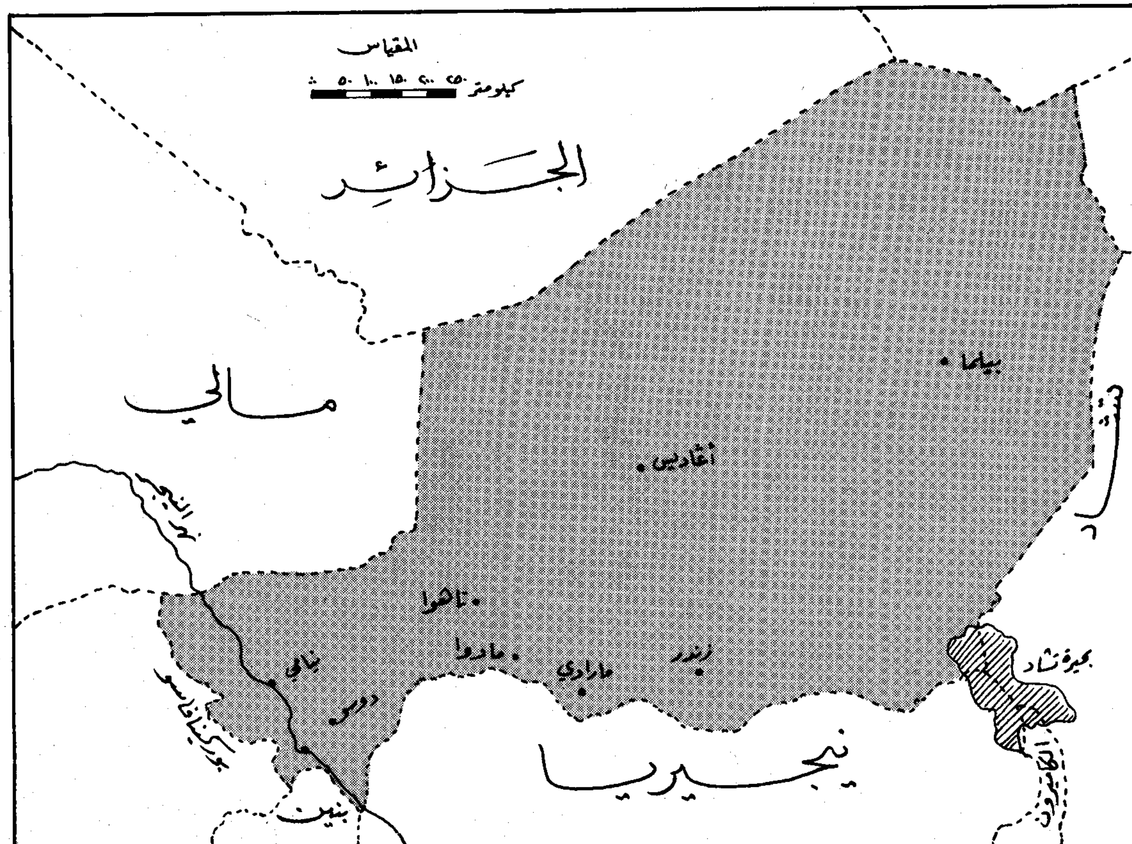

المصور رقم [١١]

لمحة عن النيجر قبل إلغاء الخلافة

تمتد النيجر بين خطي عرض ١٢,٢٤°ـ ٢٣,٣٠° شمالاً، إذ يمرّ مدار السرطان من نقطة التقاء الحدود الليبية ـ الجزائرية ـ النيجرية، وبذا تشمل أرض النيجر على أجزاء من الصحراء في الشمال، وأقسام من المراعي الطويلة في الجنوب، وتعدّ الأخيرة هي المأهولة بالسكان على حين يعيش السكان في الشمال على شكل قبائل تتنقل في فيافيها، وقد توجد فيها بعض الواحات يستقر فيها جمع من الناس.

انتشر الإسلام في المناطق التي تقع شمال الصحراء، وارتحلت القوافل نحو الجنوب، واتجهت خاصةً نحو بحيرة تشاد، فنشأت على طرق تلك القوافل عدد من المراكز التجارية، أو أن أولئك الرحالة قد سلكوا طرقاً على عددٍ من الواحات ليجدوا فيها راحتهم، ويأخذوا منها حاجتهم، ويعرفوا فيها الأمن وسط تلك البيداء الواسعة، وكانت واحة «بيلما» أشهر تلك المراكز، وأهم تلك الواحات، أو أن التجار خصّوها دون غيرها بالتوجه نحوها لأنها كانت أكثر مناطق الملح شهرةً في تلك الأرجاء.

وفي القرن الخامس الهجري أخضعت قبائل الطوارق الأجزاء الشمالية إليها، وهي قبائل مسلمة، وكذلك دخلت قبائل الهاوسا إلى المنطقة، وكان أكثر أفرادها قد اعتنقوا الإسلام، وبقي بعضهم وهو القليل على الوثنية، وتمكنت هذه القبائل أن تسيطر على الأجزاء الجنوبية، ونتيجة ذلك أخذ الإسلام ينتشر على نطاق واسعٍ بين الجماعات المستوطنة هناك، وشكّل

الحكّام عدة سلطناتٍ في تلك الجهات.

وفي عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) سار جيش مملكة صنغاي من مدينة (غاو) بقيادة (إسكيا محمد الأول) إلى المنطقة فأخضع السلطنات فيها سواء أكانت إمارات الهاوسا في الجنوب أم إمارات الطوارق في الشمال، وتمكّن هذا الجيش من دخول مدينة «أغاديس»، وبعد مدةٍ انسحب جيش مملكة صنغاي، وعادت الإمارات إليها.

وفي بداية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) بدأت جماعات الفولاني تتدفّق إلى جنوب المنطقة، وتُسيطر على إمارات الهاوسا، وتعمل على التوسّع نحو الشمال، وهي جماعات مسلمة. وفي الوقت نفسه دخلت قبيلة «غرما» مع قبائل بدويةٍ أخرى من جهة الشمال، وتمكّنوا بزعامة الطوارق أن يُقيموا تكتلاتٍ قويةٍ في هضبة «آير»، وأن يقفوا في وجه الفولانيين. غير أن «عثمان بن فودي» استطاع إخضاع إمارات الهاوسا إلى سلطانه في المدة الواقعة ١٢١٩ - ١٢٢٥ هـ (١٨٠٤ - ١٨١٠ م)، وتمكّن خلفاؤه من بعده بالاحتفاظ بهذه السلطة بصفتهم زعماء دينيين.

وفي عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) وصل إلى المنطقة المقدّم «دنهم» والملازم «كلابرتن» الموفدان من الحكومة البريطانية لمعرفة نهر النيجر، والتقيا بـ (ابن عثمان بن فودي)، ودرسا المنطقة دراسةً جيدةً.

اتفقت إنكلترا وفرنسا عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) على تعيين الحدود، واقتسام مناطق النفوذ بينهما في منطقة وسط إفريقية، وكانت منطقة النيجر من نصيب فرنسا.

أرسلت فرنسا حملةً إلى المنطقة لتسيطر عليها عسكرياً بعد أن اطمأنت إلى عدم المنافسة من بقية المستعمرين الصليبيين بل إلى دعمهم وتأييدهم ما دام التفاهم قد تمّ مع إنكلترا أكثر الدول الاستعمارية منافسةً لها، وتمكّنت الحملة من إخضاع المنطقة الجنوبية، وتابعت طريقها نحو

الشمال فلقيت مقاومةً عنيفةً وسط تلك الصحارى الواسعة والمسالك غير المعروفة لديها. غير أن التعاون الفرنسي ـ الإنكليزي في العمليات العسكرية قد خضد من شوكة المقاومة.

لقد اغتنم الطوارق فرصة اندلاع الحرب العالمية الأولى فأرادوا أن يتخلّصوا من النفوذ الفرنسي، وكان أحمد السنوسي في واحة «الكفرة» في ليبيا قد أعلن الجهاد ضدّ المستعمرين الصليبيين، وكان للسنوسية دور في الصحراء لا ينكر، فاشتعلت الصحراء ناراً. وقام أحد الأعيان في منطقة «العير» شمال «أغاديس» «إيكازكارزان» في «دمروغو» إقليم «طانوت»، وكان قد هاجر إلى «كانم» في تشاد مع «الكيل غرس» وهم لم يخضعوا للاستعمار الفرنسي، فدخل «العير» بجيشٍ كاملٍ مزوّدٍ بخمسمائة بندقية ومدفع، وهذا الزعيم هو (كاوسن آغ محمد)، ووصلت طلائع جيشه إلى أغاديس في صفر ١٣٣٥ هـ (كانون الأول ١٩١٦ م) فحاصرها تسعين يوماً حتى ١٠ جمادى الأولى ١٣٣٥ هـ (٣ آذار ١٩١٧ م)، واضطر بعدها للانسحاب عندما هرعت قوات فرنسية ضخمة لدعم القوات المحاصرة. تراجع نحو (العير) فقاتل هناك، ثم انسحب إلى «دمروغو» وأخيراً تقهقر نحو (كعوار) حيث وقع في فخ نصبه له قطاع الطرق، وأبيدت قوته وقُتل معها في الثالث من ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ (٥ كانون الثاني ١٩١٩ م)، وتمكّنت فرنسا من السيطرة على النيجر كاملةً عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م)، وأخذت تُطبق سياستها الاستعمارية حقداً، وصليبيةً، واستعماراً.

عدّت فرنسا النيجر مستعمرةً لها، وجعلت عليها حاكماً عاماً. ثم أخذت في جمع مستعمراتها ضمن وحداتٍ كبيرةٍ ومن هذه الوحدات كانت إفريقية الغربية الفرنسية التي كانت تضم: موريتانيا ـ السنغال ـ مالي ـ غينيا ـ ساحل العاج ـ النيجر ـ التوغو ـ الداهومي ـ فولتا العليا.

الفصل الأول

النيجر من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١٠ صفر ١٣٨٠ هـ
٣ آذار ١٩٢٤ - ٣ آب ١٩٦٠ م

جنّدت فرنسا سكان مستعمراتها، ومنهم أهل النيجر، وساقتهم في الحرب العالمية الثانية إلى ساحات القتال. وكانت تمنّي السكان بالأماني بعد الحرب. وانتهت الحرب ولم يتغيّر شيء إذ استمرت فرنسا في تطبيق سياستها الاستعمارية بصورها كلها، وألاعيبها جميعها.

ونصّ دستور فرنسا بعد الحرب على إيجاد مجلسٍ عامٍ في كلّ إقليم يحكم الإقليم، ويُختار أعضاؤه من بين الجمعيات الإقليمية التي يتم انتخابها. وجرت الانتخابات، ونجح الوطنيون الإفريقيون حسب المفهوم السائد، أو حسب الظاهر الذي يتراءى للعامة الذين لم يعرفوا ألاعيب الساسة، واللعب الدولية. وشكّل هؤلاء الوطنيون حكومةً تدير أمور البلاد بإشراف فرنسا.

وعرض ديغول دستوره، وجرى الاستفتاء عليه في النيجر، وانجلت النتيجة عن تأييد السكان لهذا الدستور، وحصلت النيجر بهذا على الاستقلال الذاتي، وأُعلنت الجمهورية، وشكّل «هاماني ديوري»، حكومةً جديدةً برئاسته، وأيّده الزعماء المسلمون، ورجالات حزبه المسمى «الحزب النيجري التقدمي» وذلك في جمادى الآخرة ١٣٧٨ هـ (كانون الأول ١٩٥٨ م). وكان هذا الاستقلال الذاتي ضمن المجموعة الفرنسية.

وفي ذي القعدة ١٣٧٨ هـ (أيار ١٩٥٩ م) دخلت النيجر حلفاً يضمّ: فـولتا العليـا، والداهـومي، وساحـل العـاج لتنـظيم السيـاسـة الخـارجيـة والاقتصادية لهذه الأقاليم، وكانت رئاسته دورياً، وقد تولّى رئاسته في السنة الأولى «هاماني ديوري».

أخذت النيجر تطالب بالخروج من المجموعـة الفرنسيـة والاستقلال التام، وقد حصلت على ذلك الاستقلال في ١٠ صفر ١٣٨٠ هـ (٣ آب ١٩٦٠ م).

الفصل الثاني

الاستقلال

١٠ صفر ١٣٨٠ هـ - ....

٣ آب ١٩٦٠ م - ....

تولى «هاماني ديوري» زعيم الحزب النيجري التقدمي رئاسة الجمهورية. وانضمّت النيجر إلى الأمم المتحدة في ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠ م)، وانفصمت عرا الحلف الذي انضمت إليه بعد أن استقلت هذه الأقاليم كلها استقلالاً تاماً عن فرنسا، وانفصلت عن المجموعة الفرنسية.

أخذت السلطة في النيجر تلاحق حزب الاتحاد النيجري الوطني الديمقراطي ذي الميول الاشتراكية والمعروف باسم «سوابا» أيضاً. وبقي الحزب النيجري التقدّمي الوحيد في الساحة السياسية. وأعيد انتخاب هاماني ديوري ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) و ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م)، وقد حافظت الحكومة على صلاتٍ وثيقةٍ مع فرنسا، واتسم الوضع بانطلاق مظاهرات بين الحين والآخر نتيجة العاطفة الوطنية، ولكن رئيس الجمهورية اكتسب مركزاً دولياً بصفته كان المتحدث الرسمي باسم إفريقية التي كانت تحت النفوذ الفرنسي الرسمي.

وقع اضطراب مدني واسع النطاق متهماً الحزب النيجري التقدمي بالفساد وخاصةً بعد ظهور كمياتٍ كبيرةٍ من المواد الغذائية المخزونة في منازل وزراء الحكومة. وأخيراً قامت القوات المسلحة بانقلابٍ

عسكريٍ، واعتقلت الرئيس هاماني ديوري، وتسلّم القائد العام للقوات المسلحة اللواء «سيني كاونتشي» منصب الرئاسة، وتشكلت حكومة عسكرية تحت إشراف المجلس العسكري الأعلى. وقد حلّت المجلس الوطني، واستبدلته بهيئةٍ استشاريةٍ هي المجلس الوطني للإصلاح، وعلّقت الدستور، وحظرت النشاط السياسي، وأعلنت أن هدفها الرئيسي هو القضاء على الفساد، والحصول على مستوى أفضل لمعالجة أحوال المجاعة التي كانت منتشرة آنذاك. ورجع إلى البلاد قائد حزب «سوابا» السابق «ديبو باكاري» والذي كان يعيش في غينيا.

كان التخطيط لاقتصادٍ سليمٍ هو شغل الحكومة الشاغل إذ كان هناك قحط شامل ١٣٨٨ - ١٣٩٤ هـ (١٩٦٨ - ١٩٧٤ م)، وأثّر على اقتصاد النيجر تأثيراً بالغاً، وفي الوقت نفسه فقد حصلت الحكومة الجديدة على انسحاب الجيوش الفرنسية من قواعدها التي كانت تحتفظ بها، كما تقلّص النفوذ الفرنسي في استغلال خامات اليورانيوم، المادة التي عملت فرنسا في التنقيب عنها عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

وتطوّرت علاقات النيجر نحو الأفضل مع البلدن الغربية، وفي صفر ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م) وقّعت النيجر وفرنسا على اتفاقيةٍ جديدةٍ للتعاون بينهما، وادّعت حكومة النيجر أن هذه الاتفاقية قد قضت على ذيول المشكلات المعلقة والتي كانت تعيق العلاقات بينهما.

وفي شعبان ١٣٩٥ هـ (آب ١٩٧٥ م) تمّ اعتقال قائد حزب سوابا السابق «ديبو باكاري»، ونائب رئيس المجلس العسكري، ورئيس الشركة الوطنية «غراوندنت» بتهمة التآمر للاستيلاء على السلطة. ثم ألقي القبض على أمين سر الدولة للإعلام في مطلع عام ١٣٩٦ هـ (كانون الثاني ١٩٧٦ م)، كما أُلقي القبض في ربيع الأول ١٣٩٦ هـ (آذار ١٩٧٦ م) على النقيب موسى باير، وكان قد طرد من الحكومة قبل شهرٍ، فقاد انقلاباً فاشلاً، وقد حُكم على تسعةٍ من هؤلاء المتهمين بالإعدام.

وجاء عامان من القحط، وعملت الحكومة على توسعة قاعدة المساعدات المالية. وفي ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ (آذار ١٩٧٨ م) أطلقت سراح عددٍ من السجناء السياسيين بمن فيهم من أعوان الرئيس السابق هاماني ديوري، وفي غرة جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ (نيسان ١٩٨٠ م) أطلق سراح كل من هاماني ديوري، وديبو باكاري مع الاحتفاظ بالإقامة الجبرية لهاماني ديوري.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ (نيسان ١٩٨٢ م) أُلقي القبض على أربعة عشر شخصاً في مدينة «أرليت» في الشمال، ثلاثة عشر منهم من أصحاب الأموال، واتهموا بأنهم كانوا يقومون بأعمالٍ تخريبية، وكانوا على صلة مع عبدالله ديوري قائد الجبهة الشعبية لتحرير النيجر، ولد الرئيس السابق هاماني ديوري، وهذه الجماعة تعمل سراً في معارضة نظام الحكم القائم، ويعيش قادتها في المنفى.

رفعت الإقامة الجبرية عن الرئيس السابق هاماني ديوري في رجب ١٤٠٤ هـ (نيسان ١٩٨٤ م) بموجب عفو صدر في الذكرى العاشرة للانقلاب. ولكن لم يلبث أن أُعيد اعتقاله بعد غارةٍ على المنطقة الشمالية في شعبان ١٤٠٥ هـ (أيار ١٩٨٥ م)، وذُكر أنها من أعمال فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير النيجر.

بدأ نصيب الجيش في الحكومة يتناقص بدءاً من مطلع عام ١٣٩٨ هـ (كانون الأول ١٩٧٧ م)، حتى تسلّم رئاسة الوزارة أحد المدنيين وهو «عمارو مامين» في غرة ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ (كانون الثاني ١٩٨٣ م)، وهذا ما أثار نقمة بعض العسكريين من أصحاب الطموحات، فأخذوا يعملون في الخفاء لبقاء سيطرتهم على الوضع، واستغلّوا غياب الرئيس «سيني كاونتشي» في فرنسا لحضور القمة الإفريقية الفرنسية فقاموا بحركة انقلاب غير أن أعوان الرئيس والوزراء المخلصين له قد تمكّنوا من إحباط هذه الحركة. وفرّ من البلاد ثلاثة من البارزين الرسميين في الدولة والذين كان لهم دور في فشل الحركة بتسرّب المعلومات عن طريقهم وعدم أداء

دورهم بالشكل المطلوب، غير أنه قد تمّ اعتقال وزيرين وبعض الموظفين المـدنيين للاشتبـاه بهم بالتـورّط في هـذه المؤامـرة التي تمّت في صفـر ١٤٠٤ هـ (تشرين الأول ١٩٨٣ م).

وفي ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٣ م) أعاد عمارو مامين تشكيـل الوزارة، والـذي كان منـذ شهر (آب) قـد عُيّن رئيسـاً للمجلس العسكري الذي أُعيد تشكيله، وبقي رئيساً له حتى مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) حيث خلفه حامد الغابد في رئاسـة الوزراء. وفي غـرة جمـادى الأولى ١٤٠٤ هـ (كانـون الثـاني ١٩٨٤ م) أعلن الـرئيس سيني كاونتشي عن إنشاء لجنة خاصة لعمل مسودة يحدد منهج العمل الوطني.

في رمضان ١٤٠٣ هـ (أواسط عام ١٩٨٣ م) قدّمت الحكومة منهجاً أساسياً لإعادة بناء النظام وتهدف به تصحيح مسار الاقتصاد الـذي أرهقه القحط الـذي عمّ سنتي ١٤٠٤ - ١٤٠٥ هـ (١٩٨٤ - ١٩٨٥ م) وإغـلاق الحدود مع نيجيريا في تلك السنوات، وهذا ما أدّى إلى اعتماد النيجر على المساعدات المالية الخارجية بشكلٍ متزايد.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) انتهى وضع مسودة منهج العمل الوطني، واعتمدتها الحكومة في رمضان ١٤٠٧ هـ (أيار ١٩٨٧ م)، وأجري استفتاء شعبي لاعتمادها فصوّت بالموافقة عليها ٩٩,٦٪ من مجموع الذين أدلوا بأصواتهم في شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م).

قرر الرئيس «سيني كاونتشي» في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م) القيام بسلسلة من الزيارات الرسمية، وكانت أول زيارةٍ رسميةٍ له لفرنسا وعانى فيها من أصابة بشلل المخيخ، ودخل المستشفى العسكري وتوفي فيه في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م). وقبل وفاته بساعات أصدر المجلس العسكري الأعلى قراراً بتعيين العميد «علي سايبو» قائد الجيش رئيساً مؤقتاً للدولة. وفي ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٨٧ م) أُعلن تسلّم علي سايبـو رئيساً رسميـاً للدولـة، ورئيسـاً

للمجلس العسكري الأعلى. وبعد ستة أيامٍ فقط أُعيد تشكيل الحكومة، ودخلت عشر شخصيات جديدة بالوزارة بما في ذلك امرأة، وهي أول وزيرة في تاريخ النيجر.

زاد عدد الشخصيات العسكرية في مجلس الوزراء من خمسٍ إلى سبعٍ، وتمّ تشكيل عددٍ من المؤسسات الحكومية، وأطلق سراح الرئيس الأسبق هاماني ديوري من الإقامة الجبرية في منزله، ورُفع تظلم للمنفيين النيجريين الذين يرغبون بالعودة إلى بلدهم، واستقبل الرئيس كلاً من هاماني ديوري، وديبو كاباري قائد حزب سوابا. (توفي هاماني ديوري في مراكش في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م)).

وأعلن الرئيس علي سايبو عفواً عاماً عن جميع السجناء السياسيين في ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م)، واقترح عقد مجالس محلية للقرى والأقاليم، وإنشاء لجنة للدستور. وتعهد بأن يواصل سياسة الرئيس السابق سيني كاونتشي التي تقوم على الصداقة والتعاون. وأعلن أن الجيش سيبقى مشاركاً في الحكم حتى تتمكن البلاد من تطبيق الدستور، وحتى يُعاد توزيع الحقائب الوزارية من جديد. وأُعيد تسمية عمارو مامين رئيساً للوزراء في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) وزاد عدد الوزراء العسكريين إلى عشرة وزراء، وعُيِّن وزير دولة مدني ليكون مسؤولاً عن المالية.

واجهت الحكومة النيجرية تحديات سياسية عندما قاطع طلاب جامعة نيامي الدروس لمدة اثنين وعشرين يوماً احتجاجاً على تخفيض المنح وتظلمات ثانية، وعاد الطلاب إلى دراستهم بناءً على تعهد الحكومة بدراسة طلباتهم وإنصافهم، وكان عدد هؤلاء الطلاب ثلاثة آلاف طالب.

وأُعطي المجلس العسكري الأعلى مهمة وضع مسودة للدستور في أول ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م) ثم تبنّى وثيقةً دستورية من قبل مجلس الوزراء في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م)

وأجيزت باستفتاء شعبي جرى في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م)، وحصلت على موافقة ٩٩,٢٨٪ من الأصوات الذين استعملوا حقهم في الاستفتاء.

بقي الحظر على النشاط السياسي وعلى المنظمات الحزبية مدة أربع عشرة سنة، ثم أُلغي هذا الحظر في مطلع عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) عندما أعلن الرئيس تشكيل الحزب الحاكم الجديد وهو «الحركة الوطنية للمجتمع الواحد والتطوير» ولكن في الوقت نفسه وقفت معارضة في وجه الرئيس للعمل بالتعددية الحزبية.

تمت في ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) محاكمة المتهمين بالمشاركة في محاولة الانقلاب التي وقعت في صفر ١٤٠٤ هـ (تشرين الأول ١٩٨٣ م)، وحكمت محكمة أمن الدولة على أربعة من المتهمين بالموت غيابياً، وعلى ستة عشر بالسجن، وبرأت ساحة ثمانية من المتهمين، وكان هذا الحكم قد صدر بحق المتهمين سابقاً، غير أن محكمة الاستئناف قد نقضته حتى أكدته محكمة أمن الدولة الآن. وفي خطاب ألقاه الرئيس أثناء الاحتفال بذكرى تسلّم سيني كاونتشي السلطة قبل خمسة عشر عاماً أعلن الرئيس عن عفوٍ خاص لفئاتٍ محددةٍ من السجناء.

انتخبت «الحركة الوطنية للمجتمع الواحد والتطوير» في شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م) مجلساً أعلى للإرشاد الوطني ليحل محلّ المجلس العسكري الأعلى، وكان رئيسه علي سايبو المرشح الوحيد لانتخابات الرئاسة التي ستجري في وقت يتزامن مع الانتخابات للمجلس الوطني المقترح.

أجريت الانتخابات في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) وأعيد انتخاب الرئيس علي سايبو لمدة سبع سنوات جديدة، ونال ٩٩,٦٪ من مجموع أصوات الذين أدلوا بأصواتهم، وفي الوقت نفسه كانت هناك قائمة مفردة للهيئة التشريعية الجديدة، والمرشحون جميعهم وعددهم

٩٣ مرشحاً اعتمدوا من قبل المجلس الأعلى للإرشاد الوطني، وحصلت القائمة على ٩٩,٥٢٪ من مجموع أصوات الذين استعملوا حقهم في الانتخابات. وبعد أسبوع أعلن أن السجينين السياسيين المتبقيين يجب أن يُطلق سراحهما بمناسبة الاحتفال باستلام الرئيس علي سايبو منصبه كرئيسٍ لما سيُدعى بالجمهورية الثانية.

وأعيد تشكيل الحكومة من جديد، وأُلغي منصب رئيس الوزراء، وفي الوقت نفسه تخلى الرئيس علي سايبو عن حقيبة وزارة الداخلية التي كان يشغلها هو بنفسه، وأعطيت لأمادو مادوغو، وهو من المدنيين، كما ألغيت وزارتان ودمجتا في بعض الدوائر.

تدخلت قوات الأمن في مظاهرات الطلبة الذين قاطعوا المحاضرات في جامعة نيامي في شهر رجب ١٤١٠ هـ (شباط ١٩٩٠ م) احتجاجاً على تغييرات مقترحة لنظام التعليم، ولوضع حدّ لوظائف الخريجين في الخدمات المدنية. وأفادت التقارير أنه قد قتل ثلاثة طلاب، وجرح خمسة وعشرون طالباً نتيجة تصرف الشرطة، وكان الرئيس علي سايبو في زيارةٍ رسميةٍ خارج البلاد أثناء الحادث فأعرب عن أسفه لتدخل قوات الأمن، وأعلن عن إغلاق الجامعة والمدارس إلى أجل غير مسمى، وتعيين لجنة للطلبة.

استؤنفت المحاضرات من جديد في الجامعة، وافتتحت المدارس في وقتٍ لاحقٍ من الشهر في شعبان ١٤١٠ هـ (آذار ١٩٩٠ م)، وتمّ طرد وزير الداخلية، ووزير التعليم العالي والأبحاث التقنية، وعُيّن وزير جديد للتعليم العالي، وهذا يشير إلى أن الرئيس عنده رغبة في استرضاء الطلاب. وعُيّن علوي محاميدو وهو من الشخصيات الصناعية البارزة في منصب رئاسة الوزراء حيث أُعيد هذا المنصب، وزاد عدد ضباط الجيش في الحكومة فأصبح سبعة وزراء من الضباط. وفي الوقت نفسه قدّم العقيد أمادو سيني مايغا أمين السر السياسي للمكتب التنفيذي للحركة الوطنية للمجتمع الواحد والتطوير استقالته. وقد طرد أمادو سيني مايغا، وأمادو مادوغو من المجلس الأعلى للإرشاد الوطني.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تقع دولة النيجر وسط القارة بعيدة عن البحار، فهي دولة قارية، تبلغ مساحتها ١,٢٦٧,٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، ويبلغ طول حدودها ٥,٦٩٧ كيلو متراً، وغالباً ما تكون في الشمال مستقيمة لأنها وسط الصحراء، على حين تتعرّج نسبياً في الجنوب. يبلغ طول حدودها مع الجزائر ٩٥٦ كيلو متراً، ومع ليبيا ٣٥٤ كيلو متراً، ومع تشاد ١,١٧٥ كيلو متراً، ومع نيجيريا ١,٤٩٧ كيلو متراً، ومع بنين ٢٦٦ كيلو متراً، ومع بوركينا فاسو ٦٢٨ كيلو متراً، ومع مالي ٨٢١ كيلو متراً.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) سبعة ملايين ونصف المليون، وبذا تكون الكثافة ستة أشخاص في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة قليلة لانتشار الصحراء على نطاقٍ واسع فيها.

الصراع العنصري:

يسكن على أرض النيجر مجموعات قبلية كثيرة وأهمها:

١ ـ **الهاوسا**: ويشكل أفراد هذه القبيلة ٥٦٪ من مجموع السكان، ويتجمع أكثرهم في الجنوب على حدود نيجيريا.

٢ ـ **الغرما**: وتصل نسبتهم إلى ٢٢٪ من مجموع السكان.

٣ ـ **الكانوري**: على حدود نيجيريا.

٤ ـ **الصنغاي**: ولهم تجمعات متفرقة في الشرق، ومثلها في الغرب على مجرى نهر النيجر.

٥ ـ **الفولاني**: في الشرق، ويشكلون ٨,٥٪ من مجموع السكان.
٦ ـ **الطوارق**: في الشمال الغربي، ويشكلون ٨٪ من مجموع السكان.
٧ ـ **العرب**: في الغرب، ويشكلون ١,٢٪، ويتجمعون في منطقة الزواغ.

واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وتسود لغة الهاوسا، والغرما. كما أن التعليم الديني، وأهل العلم إنما يتعلمون العربية من مختلف المجموعات القبلية.

ليس هناك من صراعٍ عنصري لأن الهاوسا أكثرية يصعب الدخول معهم في صراعٍ، هذا من ناحيةٍ ومن ناحية ثانيةٍ فإن أغلب القبائل مسلمة كمجموعات، وغالبية أبنائها مسلمين كأفراد، والعقيدة هي التي تقارب بين الشعوب، وعلى أساسها يتمّ التباين.

وإذا كان يحدث في الماضي البعيد صراع بين القبائل من أجل الاعتداء على الديار أو الاختلاف على مناهل المياه إلا أنه صراع على مستوى محدود. وعندما جاء المستعمرون الصليبيون حاولوا إثارة العصبية القبلية لكنهم لم يفلحوا لأن القبائل جميعها مسلمة، وهم على عقيدةٍ مخالفةٍ للمستعمرين لذا كان مخططهم الرئيسي إبعاد الشعب عن عقيدته كي يتمكنوا من اختراق الحاجز الذي يفصلهم عنهم، وباختراقه يمكنهم التغلغل إلى داخل النفوس والعبث بالأفكار، وبالتالي تحقيق الأهداف، وتنفيذ المخططات.

الصراع العقيدي:

يشكل المسلمون أكثر من ٩٠٪ من مجموع السكان، إذ أن أكثر القبائل مسلمة، ويشكل الوثنيون ٩٪، وهم بعض من بقي من القبائل على بدائيتهم حياةً وعقيدةً، وهناك ١٪ من النصارى، وهم الذين استطاع المستعمرون الصليبيون التأثير عليهم من بعض أفراد القبائل تحت عوامل الإغراءات، وتحقيق المصالح، وتأمين الشهرة المزيفة بالمنصب. فقد نجد بعض أفراد من قبيلة الهاوسا يتبعون النصرانية وكذا من غيرها باستثناء العرب والطوارق.

ولما عجز المستعمرون الصليبيون عن إثارة النزاع القبلي أو العنصري لجؤوا إلى محاولة كسب بعض العناصر والعمل على تجميعهم مع الوثنيين، ثم محاولة إبعاد بعض المسلمين عن عقيدتهم ببث فكرة العلمانيين وتجميع هؤلاء جميعاً لمقاومة المسلمين من جانبٍ، ثم التمكين لهذا الجمع بإعطائهم المراكز الحساسة في الإدارة والجيش وتسليطهم على الشعب.

وهكذا فالصراع العقيدي بين مجموعتين أولاهما الملتزمة بإسلامها، وهي مبعدة عن السلطة، مضطهدة من قبل الحكم تعيش بجهدها، وهذا ما يجعلها فقيرة، ومنصرفة إلى شؤونها، جاهلة بالأوضاع العامة غالباً، وثانيتهما وتضمّ النصارى والوثنيين والمستهترين من المسلمين، وهي صاحبة المسؤولية، وذات المكانة، والمترفة بما تناله، وبما تأخذه لا تبالي جاء بالحلال أم بالحرام، متجهة نحو السياسة لأنها تمسّها قبل كل شيءٍ وهذا ما يجعلها تعرف بعض الأوضاع العامة.

الصراع الحزبي:

إن هذا الصراع قائم في النيجر، ولكن على مستوى ضعيف حيث لم يسمح بالتعددية الحزبية إلا في وقتٍ محدودٍ، ولم تكن الظروف متاحةً بشكلٍ واحدٍ، فإما حزب بالسلطة والتنظيمات الأخرى مضطهدة، أو أنها تعمل من خارج الحدود.

ففي المرحلة الأولى كان على الساحة الحزب النيجري التقدمي، وقد تسلّم السلطة منذ بداية الاستقلال، وحصل على التأييد فأخذ بملاحقة المعارضة التي كانت تتمثّل بحزب الاتحاد النيجري الوطني الديمقراطي «سوابا» حتى شلّه، وأخرج زعيمه ليعيش في المنفى.

وقام الانقلاب العسكري عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م)، وحظر النشاط السياسي، وحاول حزب سوابا الحركة فكانت السلطة له بالمرصاد، واعتقل زعيمه. غير أن الحزب النيجري التقدّمي كان قوياً فزعيمه رئيس الجمهورية، وكان قادته أصحاب السلطة غير أن الحظر لا يسمح لهم

بالحركة، فالسيف مصلت، والقبضة قوية، لذا اتجه إلى العمل نحو الخارج، وظهر تنظيم جديد هو الجبهة الشعبية لتحرير النيجر لإبعاد النظر عن القادة السابقين للحزب إذ لو حمل التنظيم الجديد الاسم القديم لعرّض الذين في داخل البلد إلى الخطر. وقد قاد هذه الجبهة ابن قائد الحزب الحاكم السابق، ابن رئيس الجمهورية المعزول «عبدالله بن هاماني ديوري»، ويعمل من خارج الحدود، ويتحرّك سراً. فكان يقوم بغاراتٍ من الشمال على البلاد، وإذا وقعت أحداث في المدن والأرياف نُسبت إلى تلك الجبهة. وقد يقوم بعض المغرضين بأعمال شغب وفوضى، وينسبون أعمالهم إلى الجبهة.

واستمر الحظر السياسي مدة أربعة عشر عاماً، وتتحكم في الدولة جبهة عسكرية. وبعدها منع الحظر، وشكل الرئيس علي سايبو حزباً هو «الحركة الوطنية للمجتمع الواحد والتطوير»، ولم يسمح لغير حزبه بالعمل، وإن فكر بالتعددية الحزبية، لكن أعوانه وقفوا في وجهه معارضين له، فبقي حزب وحيد رسمياً، وإن كان الدستور يسمح بالتعددية، لكن الواقع شيء آخر. وهكذا لم يوجد صراع، وإن كان كامناً في النفوس لا يستطيع الظهور.

الباب
الثاني عشر

نيجيريا

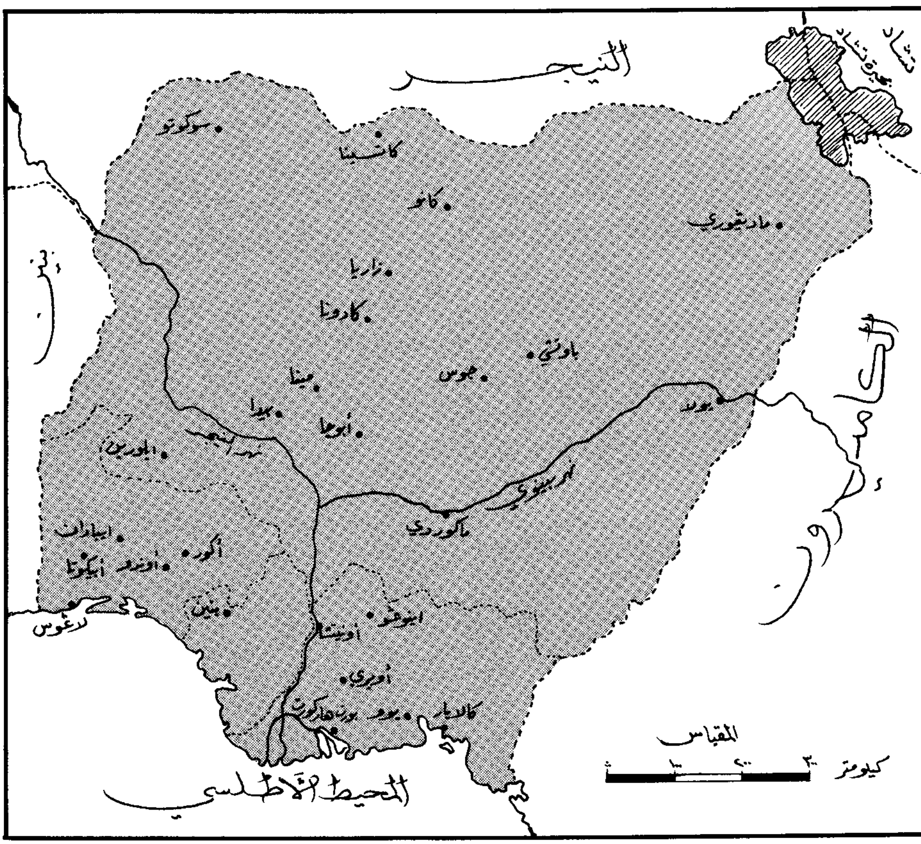

المصور رقم [١٢]

لمحة تاريخية قبل إلغاء الخلافة

جاءت قبائل «اليوروبا» من الشرق، وهم ليسوا من أصلٍ زنجيٍ، ولكنهم اختلطوا بالزنوج، واكتسبوا الكثير من صفاتهم، واتجهوا نحو الغرب، وكانوا إذا نزلوا إقليماً تركوا فيه فريقاً منهم، لذلك تدّعي هذه القبائل أن شعوب السودان كلها تنحدر منها، أو تعود لبعض بطونها. ووصل اليوروبا إلى جنوب غربي نيجيريا اليوم، وحطّوا رحالهم هناك، وأقاموا مملكةً يعتقد أنها دامت من سنة ٢٢ قبل الهجرة حتى سنة ٣٩١ هـ، ثم ضعف أمرها، وانفصل عنها إقليم كابا، وإيلورين. وأسّست مملكة «بنين» نسبةً إلى الخليج الذي تُشرف عليه البلاد، أو أنه عُرف باسم تلك المملكة، وقد دامت من القرن السادس الهجري، واستمرت حتى قضى عليها المستعمرون الصليبيون الإنكليز عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م). كانت القبائل في بداية أمرها تقوم على الوثنية، ويُعرف أكبر كاهنٍ بينهم باسم «أوبا»، وحكمه مطلق، ولا يخرج من قصره أبداً مهابةً وإجلالاً كي لا ترمقه عيون شعبه.

وجاءت قبائل الإيبو، واستقرّت في الإقليم الشرقي من نيجيريا اليوم، وتقوم حياتها الاجتماعية على الوثنية حيث تنتظم حياتها على أساسها، ويلعب الكهان دوراً كبيراً في معيشة الإيبو.

وفي القرن الأول الهجري جاءت من الشرق أيضاً قبائل الهاوسا أي بعد مجيء اليوروبا بقليل، وتأثّرت هذه القبائل بالزنوج، واستقرّت في

منطقة شمالي نيجيريا اليوم، وجنوبي النيجر، وهم ليسوا قبيلةً واحدةً وإنما يشمل هذا الاسم الشعوب التي تتكلّم لغة الهاوسا جميعها. وبقوا حتى القرن السابع الهجري على الوثنية. ويبدو أن قبائل الهاوسا مزيج من الساميين والحاميين أي من العرب والأحباش. وفي الوقت الذي أخذ الإسلام يصل إليهم، كانوا قد أسّسوا سبع إمارات تحمل أسماء أبناء ملكهم (باو) الذي قدم من الشرق، وهذه الإمارات هي: ١ ـ غوبير في الشمال. ٢ ـ دورا. ٣ ـ رانو. ٤ ـ زاريا. ٥ ـ كاتسينا. ٦ ـ كانو. ٧ ـ بيرام. وكانت هذه الإمارات تخضع لحكم الممالك التي حولها مثل صنغاي، وبورنو، أو يتوسّع بعضها على حساب بعض فتزول إحداها، وربما ظهرت نتيجة الصراعات الداخلية إمارات جديدة، وبالفعل اشتهر بعض هذه الإمارات الناشئة مثل زامفاريا، وكب، وبرغ، ونوبي، وياوري، وغرم، ويوروب.

واستقرت قبائل بورنو في شمال شرقي نيجيريا، وهم أيضاً مزيج من العرب والحاميين، وانتشروا في مناطق واسعةٍ، وعاشوا حياةً متنقلةً نتيجةً لطبيعة بلادهم الرعوية.

هذه القبائل القادمة التي جاءت إلى المنطقة حديثاً نسبياً، وكانت قد سبقتها جماعات أخرى فارةً من غيرها والتجأت إلى الغابات، أو أنها ولجت إلى الأدغال عندما جاءت هذه القبائل فخافت منها، وتقوقعت على نفسها، وبقيت تعيش حياتها البدائية، وتُمارس طقوسها الوثنية، وتخضع لأقوى أفرادها، أو للكاهن الأكبر الذي يعتمد على قوة الزعيم الجبار، وهو بدوره يمهّد لذاك القوي حكم الأفراد بما يفتريه من أكاذيب وأباطيل، ويحصل مقابل ذلك على رضا الزعيم، وينال من الأفراد الكثير من الهدايا، وربما تصل به المرحلة إلى أن يتصرف بهم.

انتشار الإسلام:

انطلق التجار المسلمون عبر الصحراء، ووصلوا إلى المناطق

السودانية، وأخـذوا طريقهم نحـو بحيرة تشـاد، وانتقل حكـام دولة كـانم المسلمة إلى منطقة بورنو في شمال شرقي نيجيريا، وخلّصوها من شعب (الصاو) فنشروا الإسلام هناك، وأقاموا حكومةً، ثم استعادوا منطقتهم من شعب (البلالا)، وأصبحت المنطقتان تحت إدارة حكومةٍ مسلمةٍ واحدةٍ فعمّ الإسلام منطقة بورنـو، وأخيراً تبعت المنـطقة حكـومة الفـولانيين بعد أن ضعفت دولة كانم.

ووصل الإسلام إلى إمارات الهاوسـا عن طريق الشمـال، وإن كان يختلف انتشاره بين إمارةٍ وأخرى، وربما تأخّر في دخول بعضها على حين يكون قد عمّ بعضها الآخر، كما أن الوثنية قد بقيت بين أفراد بعض هذه الإمارات حتى قامت دولة الفولانيين. فإمارة غوبير مثلاً وصل إليها الإسلام من الشمال، كما أنها خضعت لنفوذ بـورنو المسلمـة في الشرق، ودانت لمملكة مالي المسلمة في الغرب، ثم لمملكة صنغاي، وهي مسلمة أيضاً وفي الغرب، وبذا عمّ فيها الإسلام، وإن بقيت قلة فيها على الوثنية.

وبقيت إمارة زاريا على الوثنية، وإن انتشر الإسلام بين بعض أبنائها، وخضعت عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) إلى دولة صنغاي، وبعد ضياع مملكة صنغاي في القرن الحادي عشر، أصبحت إمارة زاريا مركزاً لتجارة الرقيق، وفي مطلع القرن الثالث عشر دانت لدولة الفولانيين.

وأسلم ملك إمارة كاتسينا في القرن الثـامن الهجري على يـد أحد العلماء من مالي، وأصبحت من مراكز العلم، وتبعت لمملكة صنغاي عام ٩٢١ هـ، ثم خضعت لإمارة غوبير.

وكذلك انتشر الإسلام في إمارة كانو في القرن الثامن الهجري على يد علماء من مالي، وتبعت في القرن العاشر لمملكة صنغاي، وفي القرن الثالث عشر لدولة الفولانيين.

بدأ شعب الفولاني يفد إلى المنطقة منذ القـرن السابـع الهجري، وأخذ عددهم يتزايد مع الزمن، وغدوا يُنافسون شعب الهاوسا، ويُسيطرون

على إماراته، ويدين الفولانيون بالإسلام، وظهر بينهم عثمان بن فودي (وتعني كلمة فودي «الفقيه» واسمه الحقيقي محمد)، ولد عثمان في بلدة (طفل) عام ١١٦٨ هـ على أطراف مملكة غوبير، ولما شبّ درس اللغة العربية والعلوم الدينية، وأسّس حركةً عُرفت باسم الجماعة، وضمت أفراداً من عدة إماراتٍ، ومن شعوب عدةٍ منها الهاوسا، والفولاني، والطوارق، والزنوج، وأخذ يدعو إلى ترك البدعة فخالفه مجتمعه، وحارب ملك غوبير هذه الجماعة، وهدّدها فأعلنت الجهاد، وتمكّنت من الانتصار على إمارة غوبير رغم مساعدة بقية إمارات الهاوسا، وأخيراً تمكّنت الجماعة من بسط نفوذها على إمارات الهاوسا كلها، وعلى مملكة برنو، وعلى إقليم الأداماوا في الكاميرون. واتخذ عثمان بن فودي مدينة سوكوتو قاعدةً له عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م)، وتوفي عام ١٢٣٢ هـ، وخلفه ابنه محمد بيلو، وكان عالماً ومؤلّفاً، واستمر حكمه حتى عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م)، وتمكّنت هذه الدولة من نشر الإسلام بين رعاياها جميعاً، حيث لم يبق من الهاوسا إلا قلّة على الوثنية. وضعفت الدولة بعد محمد بيلو. فكان أمير المؤمنين يُقيم في سوكوتو، ويُدير بقية المناطق الأمراء من الفولاني تحت إشراف أمير المؤمنين مع أن أكثر الرعية من شعب الهاوسا

ثم أخذ الإسلام طريقه بشكلٍ هادئٍ وبطيء نحو قبائل اليوروبا في الجنوب الغربي من نيجيريا.

الاستعمار:

وصل المستعمرون الصليبيون البرتغاليون عام ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) إلى ساحل بنين الذي أصبح قاعدةً للتجارة بين بلاد اليوروبا وأوربا، وكانت التجارة الرئيسية هي العبيد. ووصل الإنكليز إلى ذلك الساحل عام ٩٦١ هـ (١٥٥٣ م)، وساروا أيضاً حسب المخطط نفسه في تجارة الرقيق، واستمرّوا بذلك أكثر من مائتي سنة، ولكن إنكلترا حسب مصالحها التجارية والصناعية عدّت هذه التجارة غير شرعيةٍ عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م)، لذا

أخذت تسعى في تطوير تجارة العاج والنخيل الزيتي. واقتصرت الاتصالات الأوربية على المنطقة الساحلية فقط. ولكن عندما أحسّ المستعمرون بالقوة، وعرفوا ضعف سكان إفريقية عامةً، والمسلمين خاصةً، وهم سادة إفريقية الشمالية، والغربية، والشرقية، والوسطى، ولمّا تيقّنوا من ذلك أخذوا يتسلّلون نحو الداخل، ومن هذه المنطقة كان التسلّل باسم التعرف على نهر النيجر، وإمكانية الإفادة منه، أي أن الموضوع علمي، هذا مع معرفة ضعف المسلمين.

عرف (مونغو بارك) مجرى نهر النيجر الأعلى، وانطلق الرائد (دينهام)، والعميد (كلابرتون) مع مجرى النهر الأسفل، ووصلا إلى إمارات الهاوسا، وهما أول من دخلاها من المستعمرين الصليبيين، وأعقبهما الأخوان (لاندر)، وتمت للأوروبيين معرفة مجرى نهر النيجر كله عام ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م)، وأنشأوا طريقاً للتوغّل فيه من سواحل نيجيريا إلى الداخل، وبعد روّاد المستعمرين الصليبيين هؤلاء جاء المنصّرون، وجاء التجار منهم، وارتبط أوائل المنصّرين بمجتمع التنصير الكنسي. وفي عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) أُقيمت أول كنيسةٍ للتنصير السكوتلاندي في مدينة (كالابار) على ساحل المحيط الأطلسي.

وفي عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) ضمّ البريطانيون (لاغوس) إلى ممتلكاتهم، بعد أن قبل الملك (دوسيمو)، التخلّي عنها نتيجة الضغط. فوضعتها بريطانيا تحت إمرة الحاكم الإنكليزي لسيراليون عام ١٢٨٤ هـ (١٨٨٦ م) بدعوى تنسيق محاربة الرقيق والمتاجرة به. وفي عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٤ م) انتزعتها من سيراليون، وضمّتها إلى ساحل الذهب (غانا)، وظلّت جزءاً منها حتى ربيع الثاني ١٣٠٣ هـ (كانون الثاني ١٨٨٦ م) عندما تأسّست مستعمرة (لاغوس)، وتوسّع نشاط التجار المستعمرين والمنصّرين من لاغوس وعلى ضفاف مجرى نهر النيجر نحو الداخل، وعندما اشتدّت المنافسة بين الشركات الاستعمارية الفرنسية والألمانية، والإنكليزية، دُمجت الشركات التجارية البريطانية في شركةٍ واحدةٍ هي «شركة إفريقية المتحدة»

في ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م)، وفي شوال ١٣٠٣ هـ (تموز ١٨٨٦ م) سميت «شركة النيجر الملكية»، ووسّعت نشاطها، وامتدّت بأعمالها إلى (سوكوتو) في الشمال. ثم منحت الحكومة البريطانية هذه الشركة امتيازاً خاصاً لممارسة القانون والقضاء في المنطقة التي تعمل فيها.

وفي عام ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) أُنشئت محمية أنهار الزيت الممّتدة من لاغوس حتى الكاميرون، وقامت محمية أخرى شملت تدريجياً بلاد اليوروبا كلها عدا الجزء الذي يحكمه أمير (أيلورين) الفولاني، وقامت حملة منها ضمت (بنين) إليها عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م). وفي العام التالي وقّع البريطانيون معاهدةً مع فرنسا بشأن الحدود الغربية بين منطقتي النفوذين.

وفي عام ١٣١٧ هـ (١٨٨٩ م) تسلّمت الحكومة البريطانية السلطات الإدارية بعد أن ألغت الامتياز المعطى للشركة.

وبعد أن وطّدت بريطانيا نفوذها في المنطقة الجنوبية من نيجيريا اتجهت نحو الشمال، وأخذت تتصل بالأمراء الفولانيين، وتعمل على محاولة إقناعهم بقبول الحماية البريطانية بحجة أن الألمان في الشرق (الكاميرون) والفرنسين في الغرب والشمال (الداهومي والنيجر) يُهددون الدول الفولانية، وأكّدت لهم أنها ستُثبّت الحكام الحاليين في مناصبهم، كما تعهّدت لهم بعدم التدخّل في شؤون الدين الإسلامي والتقاليد المرعية، شريطة أن يعدها الحكام بالولاء، ثم أغرت بعض الأمراء الفولانيين بعقد اتفاقاتٍ معها، فمن حرص على الإمرة وافق، ومن منعه دينه استعلى وأبى.

أعلنت بريطانيا عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) قيام محمية نيجيريا الشمالية، وعيّنت (فريدريك لوغارد) مندوباً سامياً لها على تلك المحمية، وأرسلت الحملات العسكرية ضدّ أولئك الأمراء، الفولانيين الذين رفضوا توقيع اتفاقاتٍ معها فاحتلّت (سوكوتو) و(كانو) عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)، ثم اتجهت إلى (بورنو) واحتلتها عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م). وبقي حكم

محمية الشمال بيد أمراء من الفولاني، ويساعدهم ضباط بريطانيون سياسيون يُسدون لهم المشورة.

ثم جمعت بريطانيا بين مستعمرة (لاغوس) ومحمية الجنوب، وهكذا أخذت نيجيريا امتدادها الطبيعي كما هو عليه اليوم، باستثناء الحدود الشرقية، حيث توسّعت نحو الشرق بعد الحرب العالمية الأولى بضمّ جزءٍ من الكاميرون التي كانت تحت السيطرة الألمانية.

سارت بريطانيا على سياسة إبقاء الإمارات الإسلامية في الشمال وإيجاد الاختلاف فيما بينها، وخشيت من جمعها في إمارةٍ واحدةٍ خوفاً من قوة الإسلام على حين وحّدت الإمارات الجنوبية لتستطيع أن تقاوم الإمارات الإسلامية، وليبقى في الساحة كفتان تكادان أن تكونا متكافئتين، لأنها إن أبقت الإمارات الكثيرة في الجنوب فلن تستطيع أقواها أن تقف أمام أصغر الإمارات الإسلامية، وبالتالي فإنها تذوب تدريجياً في بوتقتها، ويعتنق سكانها الإسلام، وبهذا التصرف يمكن لبريطانيا أن تأمن على الجنوب من انتشار الإسلام فيه ـ حسب تصورها ـ بينما تتولّى هي التنصير وإرسالياته، وقدّمت العروض المغرية للذين يعتنقون النصرانية من أجل أن يبقى الاستعمار في هذه البلاد تحت اسم الرابطة النصرانية، ويُدافع النصارى عن وجود الاستعمار حمايةً لأنفسهم، ومصلحةً لهم، ودافعاً صليبياً، ويجدون في أنفسهم، أنهم جزء من النصرانية الأوروبية.

وفي عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) جاء الحاكم الإنكليزي (لوغارد) فحكم البلاد حكماً ثنائياً بين نيجيريا الشمالية، ونيجيريا الجنوبية، وجعل من الجنوبية مستعمرةً، ومن الشمالية محميةً، وكانت كل منهما تحت حكم مساعدٍ إداريٍ، أما مستعمرة (لاغوس) فتُدار من قبل متصرّف.

واندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وانطلقت حملة بريطانية من نيجيريا نحو المستعمرة الألمانية (الكاميرون) وأسفرت الحملة عن بسط نفوذ البريطانيين على الأجزاء الغربية من الكاميرون، واتفق الحلفاء بعد الحرب

على تقسيم الكاميرون بين الفرنسيين والإنكليز، وجاءت معاهدة فرساي في ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ (كانون الثاني ١٩١٩ م) مُؤيدةً لذلك. وفي ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (٢٠ تموز ١٩٢٢ م) وطبقاً لنظام الانتداب الموضوع من قبل عصبة الأمم وضع كل قسمٍ من الكاميرون تحت انتداب الدولة المسيطرة عليه باسم الوصاية من عصبة الأمم. وتبلغ مساحة القسم الإنكليزي ١٤٥,٢٦٥ كيلومتراً مربعاً، وقد ضُمّ جزء منه إلى نيجيريا، وهو الجزء الشمالي، ويتألف من قطاعين متجاورين مع الحدود الشرقية لنيجيريا، ويفصل بعضهما عن بعضٍ وادي (بينوي) في منطقة (يولا). وتولّت إنكلترا إدارة هذين القطاعين كجزءٍ من نيجيريا عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م).

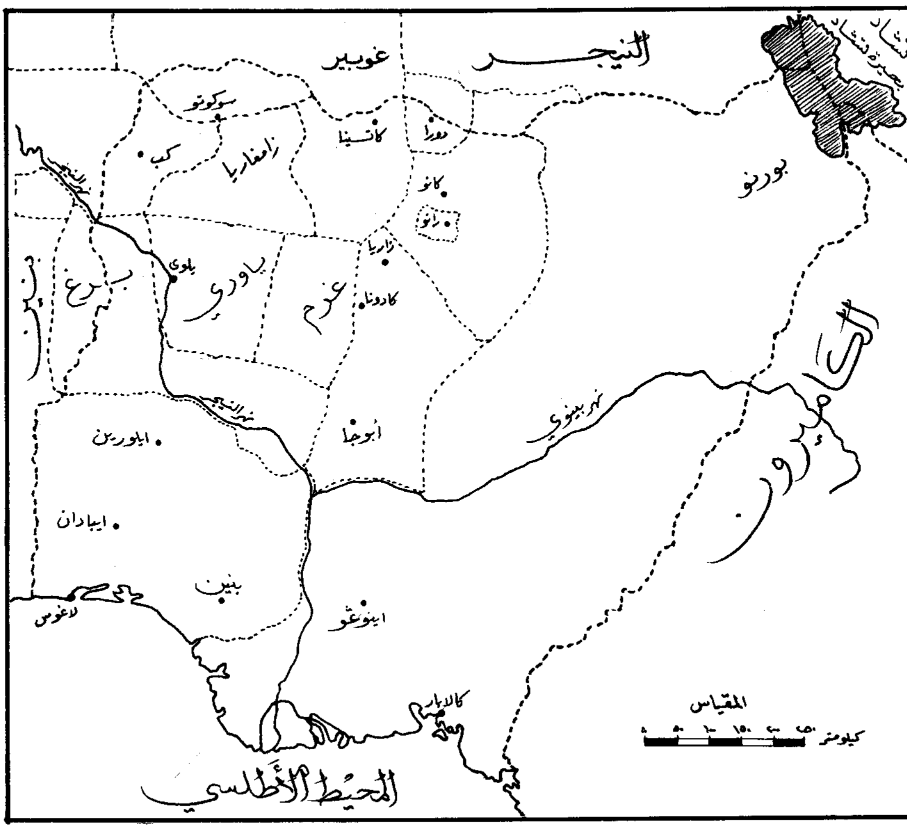

المصور رقم [١٣]

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ

٣ آذار ١٩٢٤ - الأول من تشرين الأول ١٩٦٣ م

منذ أن سيطرت بريطانيا على نيجيريا، وبسطت نفوذها على أجزائها كلها أخذت تُمارس سياستها الاستعمارية المعهودة، وكان همّها الأول تنصير جماعاتٍ كثيرةٍ من أبناء البلاد ليتسلّموا السلطة أثناء وجودها وسيطرتها وبعد غيابها وجلائها عن البلاد، هذا من ناحيةٍ ومن ناحيةٍ ثانيةٍ لتبقى السياسة البريطانية هي المطبّقة والمنفّذة من حيث المخططات الاستعمارية بكل جوانبها من استغلالٍ، واستثمارٍ، وصليبيةٍ، وسياسةٍ، ومن ناحيةٍ ثالثةٍ للعمل الدائم للتنصير والوقوف في وجه الإسلام، ومحاربة أتباعه، وكسبهم إلى النصرانية فإن تعذر وهو المتوقّع فلإبعادهم عن عقيدتهم بشتى الوسائل المختلفة سواء أكانت مشروعةً أم غير مشروعةٍ من إغراءات النساء، واللهو، واللعب، والعصبيات، والمخدرات و. . . ومن ناحيةٍ رابعةٍ لتكون هذه المستعمرات تتمةً للحياة الأوربية السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والفكرية ومختلف جوانب الحياة الأخرى.

وكان لا بدّ لبريطانيا من أن تنهج سياسةً مرنةً كي تستطيع تحقيق ما تهدف إليه وتُخطّط له، فالقسوة في الإدارة تنفّر الناس من أصحابها، وتُبعدهم عن أفكارها بل والسير في ركب المعارضين لها، لذا سارت بريطانيا على أسلوب المرونة، وكلّفت من قرّبتهم من أصحاب المصالح من

أهل البلاد ليقوموا بالعمل الذي تريد أن تقوم به هي، وليُؤدّوا الدور الذي كان من الواجب أن يؤدّيه جنودها، ورجال إدارتها، ليكون الهجوم عليهم من مواطنيهم، وتكون هي بعيدةً عن النقد والتجريح، ويكون موظفوها في منأى عن اللوم.

ومن الأساليب التي سارت عليها السماح للسكان بتنظيم أنفسهم كي تتعرّف على أصحاب الإمكانات فتبذل الجهد لكسبهم إلى سياستها، ولتعلم أهل المصالح فتبذر لهم الحبّ لإيقاعهم في شراكها، ولتدرك الذين يمكنهم قبول النصرانية فتبذل لهم العطاء الزائد، وهم غالباً من الوثنيين، ولتعرف الذين يمكنهم التخلّي عن عقيدتهم فتقدّم لهم الإغراءات كي ينصرفوا إلى الهوى بعيدين بأفكارهم عن دينهم مشغولين بهواهم في دنياهم، وفي الوقت نفسه يكون التنظيم وسيلةً للإدارة، وتعليماً للقيادة.

وقامت أول منظمةً سياسيةٍ عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م)، وهي الحزب القومي الديمقراطي الذي أسّسه «هاربرت ماكولي»، وكانت منطقة (لاغوس) مركز نشاطه بالدرجة الأولى بل لعلّه اقتصر عليها وحدها، وكانت غايته منحصرةً بالاستفادة من أصوات الناخبين، والحصول عليها بأي شكلٍ، ثم الحصول على رئاسة بلدية (لاغوس)، وأن يكون ممثّلوها من أعوانه. ومن المعلوم أن (لاغوس) كانت منطقةً تغلب عليها الوثنية، وكذلك ظهرت لبريطانيا إمكانات «هاربرت ماكولي» حيث استطاع أن يُؤدّي الدور الذي تريده بريطانيا حتى توفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م).

ووجدت عدة تنظيماتٍ سياسيةٍ في الجنوب مثل: الاتحاد الشعبي الذي أسسه (راندل)، واتحاد الشباب النيجيري، الذي ألّفه (أوريسا ديب)، ولم يكن لهذه التنظيمات أهداف معيّنة أو مخططات سياسية وإنما كان همّها التكتلات، والحصول على الأصوات، وكانت بريطانيا تعرف من خلال ذلك مواطن القوة، وإمكانات الرجال، والذين يُمكن أن تعدّهم للمستقبل.

ورغبت بريطانيا أن يوجد تنظيم واحد في الجنوب يستطيع أن يقف

أمام الشمال، ويصدّ المدّ الإسلامي، فظهرت حركة شباب نيجيريا عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) فكان الاعتماد على القبيلة، ثم يلتقي بعضها مع بعضٍ ليشمل قبائل الجنوب جميعها، وكان من المفروض حسب المخطط أن تقف كلها ضدّ الشمال، غير أن التنظيم لم يكن على ما يظهر على المستوى المطلوب، إذ بقيت القبيلة هي محور العمل فجرى الاختلاف وحدث الانشقاق على الأساس القبلي.

عدلت بريطانيا عن خطتها، ورغبت في إيجاد حركة تشمل نيجيريا كلها شمالها وجنوبها على أن تتسلّم القيادة الفئة المتنصّرة، وتمثّل تقريباً صورة الحكم في المستقبل حيث تتوحّد أجزاء نيجيريا تحت مظلّة الطبقة النصرانية المثقّفة، والتي وإن كانت تمثّل الأقليّة من حيث العقيدة إلا أنها تتحّكم باسم الفئة الواعية المتنوّرة، فظهر (ناندي ازيكوي) فوضع ميثاقاً للشباب ليشمل البناء الجديد للدولة، ولم يكن يعتمد في حركته على القبيلة، ولا على الدين، وإنما على أساس ما أسماه بالوطن النيجيري، أو هكذا رُسم له، ونستطيع أن نقول: إنه قد نجح للدعم الذي لقيه من قبل المستعمرين، ولتأييد قبيلته (الإيبو) له، ولتشجيع النصرانية له من إرسالياتٍ واتحاد كنائس، وأفراد قبيلة الإيبو الذين تكثر بينهم النصرانية. وفي انتخابات مجالس البلدية والمجلس التشريعي اكتسح ناندي أزيكوي هذه الانتخابات، وأخذت وسائل الإعلام الاستعمارية والصليبية تبرزه، فغدا زعيماً. إذن أخذت معالم الدولة تظهر كما تريدها بريطانيا، الدولة المستعمرة، فأعطت الضوء الأخضر لناندي أزيكوي كي يتحرّك في اتجاه المطالبة بالاستقلال ليكون زعيم البلاد وسيدها بعد أن تنسحب إنكلترا منها.

قدّم (ناندي ازيكوي) أثناء الحرب العالمية الثانية مذكرةً للحكومة الاستعمارية يُطالبها بالوحدة بين أجزاء نيجيريا كلها، وإنهاء الاستعمار في البلاد، وتأسيس إدارةٍ وطنيةٍ لمدة عشر سنواتٍ كمرحلة انتقالية لتدريب للمواطنين على الإدارة، تخلفها حكومة وطنية كتجربةٍ للمارسة في الحكم،

وتحصل نيجيريا في نهايتها على الاستقلال التام، وبذا ارتبط اسم ناندي ازيكوي بالاستقلال لدى السكان نفسياً، وغدا الناطق باسم الأهالي، وينظر إليه نظرة المخلص، وهذا ما تريده بريطانيا، وقد عملت له، ونجحت في تحقيق هدفها، وتنفيذ مخططها. ونتيجة ذلك تلاشت التنظيمات السياسية كلها، والجمعيات جميعها، وتأسّس حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون برئاسة ناندي إزيكوي، وكان مقرّ الحزب الرئيسي مدينة لاغوس، وانتشر الحزب بصورةٍ واسعةٍ بين أفراد قبيلة الإيبو التي يكثر فيها النصارى، والتي يعتمد عليها ناندي إزيكوي. وكان هذا الحزب يدعو إلى الانتخاب المباشر لكل بالغٍ في نيجيريا، ويُطالب بتعيين وزراء نيجيريين ليُديروا شؤون البلاد، كما يُطالب بالحكم الذاتي والوحدة بين أجزاء نيجيريا. وهذه مطالب مقبولة نظرياً من مختلف أبناء البلاد، ولكن ما الأهداف من ورائها؟ ومن يقف خلفها؟ وما المنهج الذي ستطبّقه الدولة الناشئة؟ ومدى ارتباطها بالدولة الاستعمارية بريطانيا؟ وهذه هي النقاط الجوهرية في حياة الدولة السياسية والفكرية.

وانتهت الحرب العالمية الثانية ووجدت القبائل الأخرى أن قبيلة الإيبو قد سبقتها في الميدان السياسي، وتفوّقت عليها في كل جوانب الحياة فتحرّكت عندها العصبية القبلية، وخرج زعماء قبيلة اليوروبا من الميثاق الوطني وبالتالي من الحزب الوطني لنيجيريا والكاميرون، أي حدث انشقاق في داخل صفوفه، وإن لم يرض عن ذلك من يُسمّون أنفسهم بالمثقفين. وكانت إنكلترا من وراء هذا أيضاً إذ كانت تريد أن تبقى القبلية سلاحاً بيدها تستعمله في الوقت الذي تشاء، غير أنها في الوقت نفسه قد رأت انتشار الإسلام بين قبائل اليوروبا فأرادت أن تشغلهم عن ذلك، وعن الارتباط بالشمال لوحدة العقيدة بالعصبية، فظهر عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) حزب جماعة العمل برئاسة (أوباكيمي أواولو)، وهو نصراني متعصّب مع أن أكثر أفراد حزبه من المسلمين، وذلك لجهلهم وعدم معرفتهم بالمخططات، وعصبيتهم القبلية، وحسب التعليمات المعطاة لهذا الزعيم أخذ يظهر

اهتمامه بأفراد قبيلته من المسلمين فيُطالب بتعليمهم الإسلام بلغة اليوروبا، والهدف من هذا الإساءة وليس الإحسان كما يفهم الجهلة، لأن في هذا زيادة للتعصّب القبلي، وبقاء البعد بين المسلمين من اليوروبا والمسلمين من بقية القبائل وخاصةً الهاوسا والفولاني، ولعدم أية صلةٍ لهم مع العرب، ولبقاء الجهل قائماً عندهم بوجود هوةٍ سحيقةٍ بين مسلمي اليوروبا ولغة القرآن والسنة والفقه. وربما يسير على هذا من التقليد والتعصّب المسلمون من بقية القبائل، وفي الوقت نفسه كانت الدعاية تنطلق من أفواه أفراد القبيلة على أنه رجل يحترم أبناء قبيلته ولا يهتم بالخلافات الدينية فنراه يهتم بالمسلمين ويعطف عليهم رغم أنه نصراني، ويرعى شؤون تعليمهم ويُطالب به، ويعمل على إفهامهم دينهم بلغة قومهم، يقول هذا النصارى اليوروبا خديعةً ومكراً، ويقوله المسلمون جهلاً وغفلةً. ويدّعي هذا الحزب تهيئة الأعمال لأفراد الشعب، ويُعلن نظرياً، وللاستهلاك المحلي محاربة الاستعمار، وهذا أسلوب معروف لدى الدول المتخلّفة إذ يُنادي الزعماء بغير ما يعملون له ويؤمنون به، وينطلي ذلك على الشعب الجاهل لأن وسائل الإعلام تُردّد وتُكرّر ما يريده الرؤساء ولا وسيلة للرعية للتمييز، ولا معرفة لهم بالتحليل. ويُحدّد هذا الحزب تاريخاً للحكم الذاتي بعام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، وبذلك يكون هذا الحزب أسبق الأحزاب والجماعات في موعد الحكم الذاتي، ووصل رئيسه إلى رئاسة وزراء نيجيريا الغربية. وكان يُعارض هذا الحزب من قبائل اليوروبا أحد الذين ينتمون إلى الإسلام، ويدعى (ايدالابو)، ويظهر العاطفة الإسلامية، وتسلّم منصب الوزارة، وهو من أنصار نانْدي ازيكوي زعيم الإيبو وممثّل النصارى، ومن باب كسب تأييد المسلمين عمل على إيجاد مدرسةٍ لتعليم اللغة العربية، ونادى بقطع يد السارق كإقامة حدٍّ من حدود الله، وأدّى فريضة الحج، ثم قتل بحادث سيارة عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

وانتشر حزب الشعب في الساحل، ويعتمد على الأفراد الذين لا ينتمون إلى قبيلة الإيبو، ولذا فهو حزب صغير، وقاعدته نيجيريا الشرقية.

وهناك حزب شعب الوسط الذي ينتشر في الغرب والشمال ويعتمد على القبائل غير المسلمة الموجودة في هاتين المنطقتين، وكذلك على الأفراد غير الملتزمين من القبائل المسلمة في هذين الإقليمين.

أما الشمال حيث يعيش المسلمون من قبائل الهاوسا والفولاني فقد تأخّر فيه التنظيم لتبقى الفوضى، وكي لا يبرز أحد على الساحة السياسية، ولا يعرف أحد خارج دائرة منطقته، حتى قام زعيم الشمال أحمدو بيللو وهو من الفولانيين، ويعدّ أمير المؤمنين، ونظّم حزب هيئة الشمال، ويعرف بلغة الهاوسا باسم (السلاما) ولما كان الشمال مسلماً لذا فلا بدّ لرئيسه أن يتحلّى ببعض الصفات ولو أمام رعيته لذا كان يرفض الانحناء أمام الأميرة ألكسندرا مندوبة الملكة إليزابيت ملكة بريطانيا كمظهر من مظاهر إسلامه الذي يأبى أن يكون الانحناء والخضوع لغير الله. وكذلك وجد حزب آخر هو حزب «اتحاد العناصر الشمالية»، ويُعرف بلغة الهاوسا باسم (الصوابا)، ويعد امتداداً لحزب المجلس الوطني، ويقوم على القبلية لذا لم يستطع التوسع بين المسلمين، لأنه يهمل الدين، وقد أسّسه المعلم أمين الذي اختلف مع أمير كانو الفولاني فذهب وأسّس هذا الحزب. وهكذا عمّ التنظيم مختلف جهات نيجيريا.

بعد الحرب العالمية الثانية جرى تطور سريع في الحياة الدستورية ففي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) صدر دستور جديد قسم الجنوب إلى مقاطعتين شرقية وغربية، وأقام مجالس نيابية للمقاطعات الثلاث (الشمالية - الغربية - الشرقية)، ويُشرف عليها مجلس تشريعي مركزي بأكثريةٍ غير رسميةٍ.

وفي عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) طلبت المقاومة الشمالية بإصرار أن يكون تمثيل الشمال في أي مجلسٍ تشريعي مركزي مساوياً لتمثيل الشرق والغرب مجتمعين على أساس أن سكان الشمال يفوقون مرتين عدد سكان الغرب والشرق مجتمعين، وقد تمّ الاتفاق على هذا الأمر. وفي العام نفسه

صدر قانون يدعو إلى قيام حكومةٍ اتحاديةٍ شبه مسؤولةٍ تتمتع بقدرٍ أكبر من الاستقلال الإقليمي.

وجرت الانتخابات عام ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م)، وظهر حزب هيئة مؤتمر الشمال مسيطراً على الشمال بزعامة أحمدو بيللو، وحزب جماعة العمل في الإقليم الغربي بزعامة أوباكيمي أواولو، وحزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون في الإقليم الشرقي بزعامة نـاندي إزيكـوي. واتفق حزبا «هيئة مؤتمر الشمال» و«جماعة العمل» على تسلّم زمام الحكم مطالبين بإنشاء حكوماتٍ إقليميةٍ قويةٍ، ومُندّدين بحزب المجلس الوطني. ولكن انفصل الحزبان بعضهما عن بعضٍ عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م)، وأُلغي الدستور بغية تأمين استقلال إقليمي أكبر. وأصبح مبدأ الانتخاب للتمثيل المركزي مباشرةً عوضاً عن قيام المجالس الإقلمية باختيار أعضائها الذين يُمثّلونها في المجلس التشريعي المركزي.

وفي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م) جرت الانتخابات، وفاز حزب هيئة مؤتمر الشمال بأكثرية المقاعد رغم فوز حزب اتحاد العناصر الشمالية بعددٍ من المقاعد، وهذا الحزب الأخير يتفق مع حزب المجلس الوطني. وأخفق حزب جماعة العمل في الغرب، وفاز حزب المجلس الوطني في الغرب والشرق. وتشكّلت وزارة اتحادية ائتلافية من هيئة مؤتمر الشمال وحزب المجلس الوطني.

وفي شوال ١٣٧٦ هـ (أيار ١٩٥٧ م) قرّر المجلس النيابي الاتحادي بالإجماع المطالبة باستقلال نيجيريا بعد عامين، واختير أبو بكر تفاوة رئيساً للوزراء، وكان من قبل يشغل وزير المواصلات، وضمت وزارته عضوين من حزب جماعة العمل.

استقلّ الإقليم الشمالي في ٦ رمضان ١٣٧٨ هـ (١٥ آذار ١٩٥٩ م) أما بشأن الاستقلال للاتحاد كله فقد قالت الحكومة البريطانية إنها تُوافق على قرارٍ يطلب منح الاستقلال على أن يصدر ذلك القرار من مجلسٍ

نيابي يتمّ انتخابه من جديدٍ.

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) مباشرةٍ وبالاقتراع السري، وتخلّى كل من (أوباكيمي أواولو) و(ناندي إزيكوي) عن منصبيهما كرئيسين إقليميين سعياً وراء الفوز بالانتخابات النيابية الاتحادية بينما استمرّ (أحمدو بيللو) في تسيير دفة الإقليم الشمالي، وبنتيجة الانتخابات حصلت الأحزاب على المقاعد الآتية:

هيئة مؤتمر الشمال	١٤٣	مقعداً
المجلس الوطني	٨٩	مقعداً
جماعة العمل	٧٣	مقعداً
الأحرار	٨	مقاعد

وتألّفت الحكومة من حزبي هيئة مؤتمر الشمال، والمجلس الوطني برئاسة أبو بكر تفاوة، وضمت عشرة أعضاء من هيئة مؤتمر الشمال، وسبعة أعضاء من المجلس الوطني، وعضوين من الأحرار.

وفي رجب ١٣٧٩ هـ (كانون الثاني ١٩٦٠ م) أثار رئيس الوزراء قضية قرار الاستقلال، مُطالباً منح الاستقلال لنيجيريا في ١٠ ربيع الثاني ١٣٨٠ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦٠ م)، وقد اتخذ القرار بالإجماع، وهكذا أصبح الاتحاد دولةً مستقلةً ضمن رابطة الشعوب البريطانية. وبقيت الدولة تحت رئاسة بريطانيا، وعُيّن ناندي ازيكوي حاكماً عاماً للبلاد، وبقي أبو بكر تفاوة في منصبه رئيساً للحكومة الاتحادية، وجرت احتفالات الاستقلال، واشتركت فيها أكثر الدول الآسيوية والإفريقية.

وفي ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (أيلول ١٩٦٣ م) وافق المجلس النيابي النيجيري على دستورٍ جمهوري، يُعلن قيام جمهوريةٍ اتحاديةٍ ضمن رابطة الشعوب البريطانية بدءاً من ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦٣ م). وبموجب هذا الدستور تنازلت ملكة بريطانيا عن رئاسة دولة نيجيريا. وتقرّر أن يتمّ انتخاب الرئيس من قبل أعضاء مجلسي الشيوخ

والنواب جميعهم، وأن تكون مدة رئاسته خمس سنوات. وبقيت أحكام الدستور السابق كافةً سارية المفعول باستثناء الحكم المتضمن أن رئيس الوزراء لا يجوز عزله من قبل رئيس الدولة، إلا في حالة حجب الثقة عنه في مجلس النواب، وفي الشهر نفسه انتخب ناندي ازيكوي رئيساً للجمهورية، وبقي أبو بكر تفاوه بيلوه رئيساً للوزراء.

قضية الكاميرون:

سبق أن ذكرنا أن الكاميرون كان محميةً ألمانيةً، وقد دخلته القوات الفرنسية والإنكليزية، أثناء الحرب العالمية الأولى، واحتلّت فرنسا منه ما مساحته ٤٣٢,٠٠٠ كيلومتراً مربعاً، ووضع تحت انتدابها وصايةً عليه من قبل عصبة الأمم المتحدة، وأن إنكلترا قد احتلّت من الغرب ما مساحته ١٤٥,٢٦٥ كيلو متراً مربعاً، ووضع أيضاً تحت انتدابها، وتولّت إدارته بهذه الصفة.

ويشمل القسم الذي وضع تحت الانتداب الإنكليزي جزأين شمالي وجنوبي. وشكّل الجنوبي اتحاداً مع نيجيريا عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م)، وضمّ الشمالي إلى نيجيريا قبل أن تنال استقلالها، وأجرت الأمم المتحدة استفتاءً في هذين الإقليمين في شعبان ١٣٨٠ هـ (شباط ١٩٦١ م)، وأيّد سكان الإقليم الشمالي الانضمام إلى نيجيريا بأغلبية ٢٦٥ ١٤٥ صوتاً ضدّ ٦٥٤ ٩٧ صوتاً، وقرّر سكان الإقليم الجنوبي في الاستفتاء ذاته الانضمام إلى جمهورية الكاميرون بأغلبية ٨٣٠ ١٣٥ صوتاً ضدّ ٠٠٠ ٣٠ صوت، وقد تمّ ضمّه في ٢١ ربيع الثاني عام ١٣٨١ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦١ م)، وبذا يكون قد انسحب من الاتحاد مع نيجيريا.

يضم الجزء الجنوبي من الكاميرون الغربي المنطقة الساحلية، ومرتفعات الكاميرون، وإقليم بامندا. أما الجزء الشمالي الذي ضُمّ إلى نيجيريا فيشمل قطاعين يفصل بينهما وادي بينوي عند (يولا)، ويؤلّف القطاع الجنوبي إقليم (أداماوا)، وأما الشمالي فهو قطاع (ديكوا)، ويُعرفان بإقليم (ساردونا).

الفصل الثاني

الاستقلال

١٣ جمادى الأولى ١٣٨٣هـ ــ ....

الأول من تشرين الأول ١٩٦٣ م ــ ....

استقلت نيجيريا تحت اسم «جمهورية نيجيريا الاتحادية»، وتشمل الأقاليم الآتية:

١ ــ نيجيريا الشمالية. وعاصمتها «كادونا».

٢ ــ نيجيريا الغربية، وعاصمتها مدينة «ايبادان».

٣ ــ نيجيريا الشرقية. وتضمّ محمية أنهار الزيت مع جزء من الكاميرون الإنكليزي، وعاصمتها مدينة «اينوغو».

٤ ــ لاغوس. وتضمّ مدينة لاغوس مع بعض المناطق المحيطة بها.

٥ ــ الإقليم الغربي الأوسط الذي وُجد بتقسيم نيجيريا الغربية في ربيع الأول ١٣٨٣ هـ (آب ١٩٦٣ م)، وعاصمته مدينة «بنين» ويشمل الدلتا، وإقليم بنين.

انتخب المجلس النيابي الاتحادي (ناندي ازيكوي) رئيساً للجمهورية، ويُعدّ منصبه شرفياً، وانتخب كل إقليمٍ مجلسه النيابي الخاص به، وحكومته الإقليمية أي أن رؤساء الوزارات الإقليمية كانوا من الإقليم المعني ذاته. أما الحكومة الاتحادية فقد كان رئيسها أبو بكر تفاوه بيلوه الذي كان نائباً لـ (أحمدو بيللو) في رئاسة هيئة مؤتمر الشمال، وكان في العام السابق قد توفي وزير الدفاع الأسبق (محمود ريباردو) الذي كان في

المرتبة الثانية بعد (أحمدو بيللو).

أما الجيش فكان قائده إنكليزياً في السنوات الأولى للاستقلال، ثم استُبدل بقائدٍ نيجيريٍ نصرانيٍ هو (جونسون أغوي إيرونسي) وعلاوةً على ذلك كان هناك عشرة ضباطٍ إنكليز يعملون مستشارين لأن البلاد لم يمض على استقلالها سوى مدةٍ وجيزةٍ. وفكّر (أحمدو بيللو) باستبدال (جونسون إيرونسي) بقائدٍ مسلمٍ غير أنه اصطدم بموضوع الرتبة إذ كان أعلى الضباط المسلمين رتبةً كان بينه وبين المنصب اثنان من الضباط غير المسلمين أحدهما (جونسون أيرونسي)، ويبدو أن (أحمدو بيللو) وجد حرجاً في إحالتهم على الاستيداع فتسامح كي لا تُثار القضية الإقليمية، والعصبية القبلية، وموضوع الدين.

وعمل الإنكليز جهدهم أثناء انتخابات عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) لإقامة تحالفٍ بين الشرق والغرب للوقوف في وجه الشمال، فقد رأى (صاموئيل اكينتولا) أن يتعاون مع الشمال بعد أن كان حليفاً مع الشرق، وكذا حاول وزير المالية الاتحادي (فستوس أوكوتي أيبو) وهو من الإقليم الشرقي أن يقنع رئيس الجمهورية (ناندي ازيكوي) بأن من الحكمة الاعتراف بوزن الشمال، وأن يتعاون معه على هذا الأساس، فأصبح هذا الوزير هدفاً لحقد المتعصبين من النصارى والوثنيين، حيث أطلقوا عليه لقب (الحاج) من قبل السخرية والتشنيع، بمعنى أنه أصبح عميلاً للمسلمين الذين يعدّونهم أعداءً لهم. وقد اغتيل هذان الرجلان غداة الانقلاب (صاموئيل اكينتولا، وفستوس أوكوتي أيبو) على أنهما حلفاء للمسلمين. أما (أوباكيمي أواولو) فقد كان في السجن منذ أكثر من عام، وأصبح يُعادي الشمال.

بدأت الإشاعات تظهر ضدّ الحكومة الاتحادية، فأُشيع أنها عبثت بالإحصاء لكي يُؤكّد سيطرة الشمال على المجلس النيابي الاتحادي، وأنها المسؤولة عن سجن زعيم المعارضة في نيجيريا الغربية (أوباكيمي أواولو)،

وأنها تعيث الفساد، وتعتمد على القبلية.

وجرت الانتخابات في شعبان ١٣٨٤ هـ (كانون الأول ١٩٦٤ م) لاختيار مجلسٍ نيابيٍ اتحاديٍ جديدٍ، وقبل الانتخابات مباشرةً حدث انفراط في عقد الائتلاف الذي كان قائماً بين هيئة مؤتمر الشمال وبين حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون، والذي أصبح اسمه حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا. وجرى إعادة تنظيمٍ جديدٍ للأحزاب. وتمخّضت الانتخابات عن الفوز بأغلبيةٍ كبيرةٍ للتحالف النيجيري الوطني المؤلف من سبعة أحزاب أكبرها هيئة مؤتمر الشمال، والحزب الديمقراطي الوطني النيجيري، وهو مجموعة تنظيمات تشكلت حديثاً وأمسكت بزمام السلطة بالإقليم الغربي. وأُشيع أن الحكومة الاتحادية قد تلاعبت لدرجةٍ أن حزب جماعة العمل بالإقليم الغربي قد قاطع الانتخابات، وأن حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا قد هدّد بالانفصال بالإقليم الشرقي، وأن التحالف التقدّمي الذي يضمّ أربعة أحزاب أكبرها المؤتمر الوطني لنيجيريا، وحزب جماعة العمل قد دعوْا إلى مقاطعة الانتخابات التي كانت شاملةً في الإقليم الشرقي، وواسعةً في منطقة لاغوس.

وجرت الانتخابات التكميلية في الإقليم الشرقي في ذي القعدة ١٣٨٤ هـ (آذار ١٩٦٥ م) حيث فاز التحالف التقدّمي بالمقاعد جميعها، وجرت الانتخابات التكميلية في الإقليم الغربي في جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (تشرين الأول ١٩٦٥ م) ففاز حزب شعب الوسط الذي يرأسه (صاموئيل اكينتولا) الذي يرى التعاون مع الشمال، فامتلأت قلوب جماعة العمل حقداً، وحزب المؤتمر الوطني لنيجيريا غيظاً بل إن كل أعوان التحالف التقدّمي، وأخذوا يُنظّمون أعمال الفوضى والقتل على نطاقٍ واسعٍ في الإقليم الغربي، وغادر رئيسا حزبي جماعة العمل، والمؤتمر الوطني لنيجيريا إلى لندن بحجة الاستشفاء.

الانقلاب الأول:

منذ مطلع شهر شعبان ١٣٨٥ هـ (كانون الأول ١٩٦٥ م) بدأ (تشوكوما نزوغو) الضابط الذي يعمل مدرساً في الكلية الحربية في الشمال يقوم بمناوراتٍ ليليةٍ على أنها تدريبات، ويجري فيها إطلاق النار بالذخيرة الحية، وتقوم القطعات العسكرية بالتحرك من مكانٍ إلى آخر، حتى غدت التحركات العسكرية، وأصوات الطلقات النارية، ودوّي القصف والانفجارات أمراً مألوفاً لدى سكان الشمال.

وفي فجر يوم ٢٤ رمضان ١٣٨٥ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٦٦ م) تحرّك (تشوكوما نزوغو) بمجموعةٍ من العسكريين نحو منزل (أحمدو بيللو) رئيس هيئة مؤتمر الشمال، وألقوا قنابلهم على الحرّاس القليلين، وانتزعوا (أحمدو بيللو) وزوجته من فراشهما، وأطلقوا عليهما الرصاص مباشرةً، ولم يشف غليل حقدهم إلا بعد أن قطّعوا الجثتين إرباً إرباً، ومثّلوا فيهما، وبعد أن تركوا المنزل طعمةً للنيران. وفي الإقليم الغربي قامت حركة مُماثلة حيث قتل المتآمرون رئيس وزراء الإقليم (صاموئيل اكينتولا) المتهم بممالأة المسلمين. وفي العاصمة لاغوس اختطف رئيس وزراء الحكومة الاتحادية (أبو بكر تفاوه بيلوه) ووزير المالية الاتحادي (فستوس أوكوتي) المتهم بممالأة المسلمين أيضاً، ونقلوهما إلى مكانٍ بعيدٍ عن العاصمة وقتلوهما بعد بضعة أيامٍ. وكان هذا الفصل الأول من المؤامرة. وكان الهدف الأول المسلمين عامةً، وأحمدو بيللو خاصةً مع أبو بكر تفاوه بيلوه، ثم الذين يظهرون الرغبة بالتعاون مع المسلمين من غيرهم. كان أحمدو بيللو رمزاً لقوة المسلمين في الشمال فقد ذكرنا أنه رفض الانحناء بصفته مسلماً أمام الأميرة إلكسندرا مندوبة الملكة إليزابيت ملكة بريطانيا في حفل استقلال نيجيريا. ورفض رفضاً قطعياً أي معونةٍ اقتصاديةٍ أو ثقافيةٍ أو فنيةٍ من دولة اليهود في فلسطين. وتوسّط الإنكليز لديه لزيارة (غولد مايرا) وزيرة خارجية اليهود لبلاده فأبى وردّهم، كما رفض أي وساطةٍ أو زيارةٍ بقصد الوساطة أو أي زيارةٍ لأي يهوديٍ قائلاً: إن بلده بلد إسلامي، ولا يسمح شعبه المسلم

لمن دنّس حرمة فلسطين ومناطقها المقدّسة أن يدخل بلاده. وكان (أحمدو بيللو) رئيس وزراء نيجيريا الشمالية قد زار مصر والشام أثناء الوحدة في صفر ١٣٨١ هـ (تموز ١٩٦١ م) وكان من تصريحاته يومذاك أن قال «إن التغلغل الصهيوني في بعض الدول الإفريقية سيكون له الأثر الخطير بين أفراد هذه الشعوب فإننا نعلم أن سياسة مصّ دماء الشعوب الإفريقية المتحرّرة والتي تريد أن تبني اقتصاداً ذاتياً وتحاول التقدّم سريعاً متخطيةً ظلام استعمارٍ عاش سنواتٍ طويلةٍ في القارة الإفريقية. وسياسة مصّ الدماء هي سياسة صهيونية، وقد استطاعت الدول الاستعمارية أن تُثبّت أقدام دولة اليهود في بعض البلدان الإفريقية، وبعد مدةٍ غير قصيرةٍ سنجد أن الدول التي أغلقت الأبواب أمام سياسة مصّ الدماء قد تقدّمت، أما الدول التي تركت اقتصادها في يد بعثات النصب الصهيونية فهي دول لا شك ستتأخر كثيراً لأن خيرات البلاد ستصبح في أيدي هذه البعثات... وهناك كثير من البلدان الإفريقية وخاصةً التي نالت استقلالها حديثاً تشعر تماماً بالخطر الصهيوني فلا تُفكّر بالارتباط أو بالوقوع في الفخ، فعندنا في الإقليم الشمالي من نيجيريا حاولت بريطانيا أن تبثّ بعض النفوذ الصهيوني، ولكننا منعنا تثبيت أقدام العصابة في بلادنا، وأعلنا أننا غير ملزمين بأي ارتباطٍ سواء أكان على شكل اتفاقيةٍ أم على أي شكلٍ آخر مع دولة اليهود تعقدها الحكومة الاتحادية أو بقية الحكومات الإقليمية، كان هذا قبل الاستقلال عندما كانت الأمور بيد بريطانيا. ثم حاولت دولة اليهود بعد استقلالنا أن تُرسل إحدى بعثات النصب، ولكننا منعنا هذه البعثات من دخول أراضينا، وحاولت مرةً أخرى أن تعقد اتفاقياتٍ فرديةً مع التجار لتكون السوق مليئةً بالبضائع اليهودية، ولكننا أغلقنا كل متجرٍ فيه بضاعة يهودية.

إن الشعب عندنا يكره دولة اليهود لعلمه تماماً بعدم شرعية قيامها كدولةٍ، وعدم تكامل شروط الدولة في مجموعة الناس الذين يعيشون في رقعة أرضٍ سرقوها أصلاً من أصحابها المسلمين، والشعب يعرف الدور الخطير الذي لعبته دولة اليهود في العدوان الثلاثي على إقليمكم الجنوبي

عام ١٣٧٦ هـ(١٩٥٦ م) والذي وضعت فيه دولة اليهود العالم على حافة هاويةٍ لحربٍ عالميةٍ ثالثةٍ، ضاربةً عرض الحائط بأصوات السلام التي انبعثت من كل مكانٍ من العالم.

والشعب النيجيري يكره دولة اليهود لأنه يعلم موقفها من التمييز العنصري في اتحاد جنوبي إفريقية، ومن رغبة الشعب الجزائري في الحرية، ومن قضايا الاستقلال في الكونغو، وأنغولا.

وكان (أحمدو بيللو) رغم هذا كله يمتاز بالبساطة، والفهم السطحي للإسلام، وقد تغيّر هذا التفكير في آخر عمرة أدّاها عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) حيث تكلم في حديثٍ تلفزيونيٍ عن هذا التغيير، فقال عندما سئل عن منهجه الجديد: إنه ينوي إنشاء مدارس إسلاميةٍ جديدةٍ تُدرِّس الإسلام الصحيح حتى تُخرِّج جيلاً جديداً يحمل بين جوانحه عقيدة الإسلام. حتى اعتقد الذين سمعوا حديثه أن الاستعمار الصليبي، وإرساليات التنصير، واليهودية ستتحرّك كلها للقضاء عليه. وقد تمّ فعلاً ـ بأمر الله ـ ما توقّعوه.

وكان قد أسّس قبل مقتله جريدة نيجيريا الجديدة، كما شيّد مدرسةً سمّاها «نصر الإسلام» واختلف التوجيه في هاتين المؤسّستين قبل وفاته بقليل عما كان عليه من قبل.

ولا شكّ أن هذا كان السبب الأساسي في الحقد على هذا الرجل الكبير، رئيس وزراء نيجيريا الشمالية وزعيم حزب هيئة مؤتمر الشمال. ونتيجة هذا الحقد كان مصرع هذا الرجل بهذه التمثيلية.

الانقلاب الثاني:

كان هذا هو الفصل الأول من التمثيلية، أما الفصل الثاني فكان ادعاء قائد الجيش (جونسون أغوي إيرونسي) بأنه قام بانقلابٍ مضادٍ لحركة التمرّد، موالٍ للحكومة الشرعية بعد أن قُتل أهم وزرائها، بيد المتمردين،

غير أن سير الأحداث قد فضح المؤامرة، ولم يـدع مجالاً للشك في أن العمليتين كانت فصلين من روايةٍ واحدةٍ يكمل أحدهما الآخر، ذلك أن قائد الجيش الذي زعم أنه موالٍ للحكومة، وسحق التمرد لم يفعل شيئاً يُؤيّد ما ذهب إليه، بل عمـل على تعطيـل أهم مواد الـدستور، وأقـال الحكومـة الاتحادية، والحكومات الإقليمية، وعيّن حاكماً عسكرياً لكل إقليمٍ وجعله مسؤولاً أمامه، وجعل الشرطة الإقليمية تخضع للمفتش العام للشـرطة في العاصمة الاتحادية بدلاً من خضوعها للسلطات الإقليمية، ثم وجه الصحافة في العاصمة إلى مهـاجمة الحكـام السابقين أي المسلمين والـذين يرون التعاون معهم، ولم يكن ذلك إلا لمصالحهم، لأن المسلمين هم الأكثرية، والغريب أن هذا القائد وأمثـاله من الإقليم الشـرقي كانـوا ينادون بـزيادة الاستقلال الإقليمي، ويُهدّدون بالانفصال، وعنـدما استلمـوا السلطة بدأوا يُمهّدون لإلغاء الحكم الإقليمي، ويدعون إلى اتحادٍ قويٍ ليذلّوا المسلمين ويستبدّوا بمصالحهم. أما المتمرّدون الذين زعم قائد الجيش أنه سيسحقهم فقد قال: إنه وجدهم غير راغبين بالقتال لذا أوقف زحف قواته عليهم، ثم أذاع أن قائد التمرّد قد سلّمه سيفه، واستسلم هو وقواته، وأضاف أنه طلب من قائد التمرّد أن يُقدّم له تفسيراً لاغتيال أحمدو بيللو وزوجته، وإحراق بيته على أن يُقدّم هذا التفسير في مؤتمرٍ صحفيٍ، مع العلم أنه قد اغتيل ستون من الزعماء المدنيين، وخمسون ضابـطاً، معظمهم من المسلمين، ومن كان من غيرهم اتُّهم بممالأتهم.

عقد (تشوكوما نزوغو) مؤتمراً صحفياً، هـاجم فيه مـا أسماه حكم الفسـاد، والاستبداد، والقبلية، وصرّح أنه استسلم هو وقواته بعد أن اشترط على قائد الجيش (جونسون إيرونسي) خمسة شـروطٍ قبلها كلهـا منها: سـلامة الأشخـاص الذين اشتركوا بالمؤامرة، وعدم تعـرّضهم لأي أذىً، وطرد رجـال الحكم السابقين من مناصبهم، والقضاء على الحكم القبلي.

وفي اليوم الثاني للانقلاب الأول ٢٥ رمضان ١٣٨٥ هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٦٦ م) قام من تبقّى من الوزراء الاتحاديين بتسليم السلطة إلى

قائد الجيش (جونسون إيرونسي) الذي شكّل بدوره مجلساً عسكرياً أعلى، ثم قام فوراً بتعليق صلاحيات رئيس الجمهورية (ناندي إزيكوي) الذي كان خارج البلاد وقت وقوع الانقلاب، ورئيس الوزراء الاتحادي (أبو بكر تفاوه) الذي كان قد اختطف.

أعلنت السلطة العسكرية مقترحات في شوال ١٣٨٥ هـ (شباط ١٩٦٦ م) لإلغاء الدولة الاتحادية، وإقامة دولةٍ وحدويةٍ، وتبعاً لذلك وقعت موجة من أحداث العنف المتبادل قُتل فيها الكثير ممن ينتمون إلى قبائل الإيبو الذين يعيشون خارج إقليمهم، أو أُجبروا على الرحيل، وأدّت هذه الأحداث إلى زعزعة استقرار البلاد، وانهيار السلطة المركزية.

خلا الجو أمام دولة اليهود للتسلّل إلى الإقليم الشمالي بعد أن كان مُغلقاً أمامها أيام (أحمدو بيللو)، وخلا الجو لقبائل الإيبو للسيطرة على نيجيريا كلها بعد القضاء على (أحمدو بيللو) الرجل القوي الذي كان يقف في وجهها، ومن المعلوم أن الضباط الخمسة الذين تمرّدوا في الشمال، وقائد الجيش المتفق معهم (جونسون إيرونسي) ورئيس الجمهورية المتمارض والموجود خارج البلاد كانوا كلهم من قبائل الإيبو، وهم وراء الانقلاب الأول، وتمثيل دور الانقلاب الثاني لخداع الشعب والرأي العام العالمي.

وأظهرت الصحافة الأجنبية والدوائر الاستعمارية والإرساليات التنصيرية سرورها بما حصل في نيجيريا. واستقبل النصارى والوثنيون الأخبار بالابتهاج والفرح والرقص في الشوارع. وأما المنطقة العربية فقد سادها الصمت عدا مظاهرةٍ إسلاميةٍ ضخمةٍ في السودان نظّمتها التنظيمات الإسلامية، وشارك فيها كبار المسؤولين.

وغيّرت السلطة العسكرية اسم البلاد فأصبحت «جمهورية نيجيريا الاتحادية» بعد أن كانت « اتحاد نيجيريا» وذلك يوم ٤ صفر ١٣٨٦ هـ (٢٤ أيار ١٩٦٦ م)، وجمّدت الأحزاب اسمياً، وكان حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا هو اليد المحركة للانقلاب، وبقي حزب جماعة العمل في الإقليم

الغربي، وحزب اتحاد العناصر الشمالية (الصوابا) في الإقليم الشمالي يعملان بتكليفٍ من الحكومة.

أما الأقاليم، فإن أهل الإقليم الشمالي قد عدّوا الانقلاب مُوجّهاً ضدّهم، وأخذوا يتحينون لحظة الانتقام، وكانت العاطفة عندهم قويةً، وحدثت اضطرابات راح ضحيتها آلاف من أبناء الإقليم الشرقي الذين ينتمون لقبائل الإيبو، وشُرّد بعضهم، وطُرد بعضهم الآخر من وظائفهم. وأما الإقليم الغربي فإن قسماً منه كان مُؤيّداً للانقلاب، وهم حزب جماعة العمل، وقسماً آخر كان ناقماً عليه، وقد أصابه بعض شرره لأنه عُدّ موالياً للمسلمين وهو حزب شعب الوسط، وقد قُتل زعيمه (صاموئيل اكينتولا). وأما الإقليم الشرقي فقد كان صاحب الانقلاب، ومُؤيّداً له، ومسروراً جداً، ولم يُصب الشرر سوى وزير المالية الإتحادي (فستوس أوكوتي أيبو) لأنه عُدّ من ممالئي المسلمين، ولكن عامة الإقليم كانوا بجانب (جونسون ايرونسي) وقد تحدّوا الإسلام وأذاعوا أنهم قتلوا اليوم الصنم في نيجيريا، وغداً سيُحطّمون الصنم في مكة، وتنتهي خرافة الإسلام، وعبادة الأشخاص، وبدت عليهم سمات الغطرسة وإحراز النصر.

الانقلاب الثالث:

كان الإقليم الشمالي يتميّز غيظاً على قبائل الإيبو، وإمكاناته العددية ضخمة، وخوفاً من أن يتحرك أهله فجأةً، وينقضّوا على الإيبو، وتذهب أعداد من النصارى قتلاً، فإن التعليمات والتخطيط قد جاءت لحركة النصارى على قلّتهم من الشمال، فتعود للشماليين سيطرتهم، ويشفى حقدهم، ولكن تحت قيادةٍ نصرانيةٍ، وبذلك تضمن حماية النصارى في الإقليم الشرقي حيث يُشكّلون الأكثرية هناك، ففي ١١ ربيع الثاني ١٣٨٦ هـ (٢٩ تموز ١٩٦٦ م) تحرّك العميد (يعقوب غاوون)، وهو نصراني من قبائل الهاوسا سكان الإقليم الشمالي فنصّب نفسه قائداً أعلى للقوات المسلّحة، وأعلن النظام الاتحادي، وقيام حكوماتٍ محليةٍ في

الأقاليم الأربعة، وعيّن حاكماً عسكرياً على كل إقليمٍ، وفي الشهرين التاليين وقعت مجازر ضدّ عدة آلاف من عناصر قبيلة الإيبو الذين بقوا في الشمال على أيدي قواتٍ من قبيلة الهاوسا. واستغلّ هذا المستعمرون الصليبيون، فعدّوا القضية إسلاميةً، وأرادوا إثارة النقمة على المسلمين مع أن الذين قاموا بالانقلاب جلّهم من النصارى الشماليين، ولا يزيد عددهم على ثلاثمائة جنديٍ، ولكن أخذتهم العصبية القبلية، وهم الذين اختطفوا قائد الجيش السابق (جنسون ايرونسي) ثم انتقلوا إلى المعسكرات واحداً بعد الآخر يقتلون الضباط الذين ينتمون لقبائل الإيبو، وهم أكثر الضباط في كل مكان، ولكن أكثر الجنود كان من الهاوسا، ولذا أصبح الجنود يقتلون ظباطهم في كل معسكر، عندئذٍ أمرت القيادة بجمع هؤلاء الجنود، ووزّعتهم في مدن الشمال، حيث تكون كل فئةٍ، وعددها ٣٣ عنصراً في مدينة، والفئة التي أُرسلت إلى مدينة (كانو) هي التي لعبت دوراً كبيراً في هذه الأحداث.

وفي شوال ١٣٨٦ هـ (بداية عام ١٩٦٧ م) تدهورت العلاقات بين الحكومة الاتحادية والحاكم العسكري للإقليم الشرقي المقدم (تشوكوميكا أودميغو أوجوكو) عندما تمّ اكتشاف النفط بكمياتٍ كبيرةٍ في الإقليم الشرقي إذ نشب النزاع حول توزيع عائدات النفط. وبلغ النزاع أوجه عندما أعلن (يعقوب غاوون) في ١٨ صفر ١٣٨٧ هـ (٢٧ أيار ١٩٦٧ م) عن إلغاء نظام الأقاليم، وتقسيم البلاد إلى اثنتي عشرة ولاية.

طلب المقدم (تشوكوميكا أوجوكو) من جميع قبائل الإيبو في كل مكانٍ وُجدوا فيه أن يعودوا إلى الإقليم الشرقي، وأعطى مهلةً لذلك مدة شهرٍ، ثم مدّدها أسبوعاً آخر، فكان أن انتقل أكثر الناس من الإيبو الذين في خارج إقليمهم إليه عدا المسؤولين الكبار، وموظفي المصارف فلم يلبوا الطلب حيث بقوا في مراكزهم، وفضلوا البقاء ما داموا قد أعطوا الأمان، وبقوا في وظائفهم أحراراً.

أمر الحاكم العسكري للإقليم الشرقي المقدم (تشوكوميكا أوجوكو) جمع المسلمين وأبناء قبيلة الهاوسا جميعاً الذين هم في الإقليم الشرقي في مدينة (أونيتشا) والقضاء عليهم جميعاً، وتمّت المذبحة، ولم ينج إلا أفراد فرّوا بمساعدة أبناء قبيلة (الكالابار) التي تقطن في الإقليم الشرقي.

انتقل الخبر إلى الشمال، وعندها قامت الفئة التي تكلمنا عنها في مدينة (كانو)، وطلبت من رئيسها النقيب (هارون موسى)، وهو ضابط مسلم، أن يُعطيهم السلاح، ولكنه رفض، فطلب منه أحدهم أن يصلي ركعتين فإن الموت آتيه ـ بإذن الله ـ لا محالة، فأخبرهم أن القيادة لا تقبل ذلك ، وقد أُعطي الأوامر بعدم تسليم السلاح إليهم، فأطلقوا عليه النار، فقُتل حالاً، وأخذوا مفتاح المستودع، واستلموا السلاح، وأقبلوا على الموظفين من الإقليم الشرقي المجتمعين في المطار، وهم من كبار الموظفين فقتلوهم جميعاً، وانتقل هذا التصرّف إلى كل من مدن (زاريا) و (كادونا) حيث قتل أفراد قبائل الإيبو المجتمعين في محطة القطار لعودتهم إلى الإقليم الشرقي، واستثنى الجنود أفراد قبيلة (الكالابار) من ذلك لموقفهم من مذبحة (أونيتشا). وعندها طوّقت القيادة هؤلاء الجنود، وعلموا أنهم مقتولون لا محالة، جمعوا حولهم عدداً من الأشرار وأقبلوا على المدن يعيثون الفساد يقتلون ويسلبون.

وأما في بلاد (برنو) في شمال شرقي نيجيريا، فعندما وصل إليهم نبأ مذبحة (أونيتشا)، وأنه كان لأبناء شعبهم نصيب من القتل، وأن قبيلة الإيبو لم تفرق بين القبائل، وإنما كان الذبح للمسلمين جميعاً من أي قبيلةٍ كانوا، قام سلطان البرنو، ولبس الثوب الأحمر دليل إعلان الحرب، وقتلوا أفراد قبيلة الإيبو الذين هم في منطقتهم جميعاً واستثنوا النساء والأطفال إذ سلّموهم إلى الشرطة التي قامت بدورها، وتولّت نقلهم إلى إقليمهم، كما استثنوا من أبناء الإقليم الشرقي أفراد قبيلة (الكالابار).

لم يتوقف الصراع عند هذا الحدّ بل تطورت انقلابات الدم إلى حربٍ أهليةٍ، وقد مهد المقدم (تشوكوميكا أوجوكو) الحاكم العسكري

للإقليم الشرقي في نيجيريا لأحداث الانفصال بإعلانه بأنه سيمضي بمخططه المتعلّق بجعل الحكم لا مركزياً في نيجيريا، وقال: إن تصميم الإقليم الشمالي في نيجيريا على حكم الاتحاد هو السبب الرئيسي في متاعب البلاد، وإن النيجيريين لا يريدون الوحدة، بل مجرد الترابط، وإن علاقات الإقليم الشرقي بالحكومة الاتحادية قد بلغت مرحلة غير العودة.

حكومة بيافرا:

وفي ٢١ صفر ١٣٨٧ هـ (٣٠ أيار ١٩٦٧ م) أعلن العقيد (تشوكوميكا أوجوكو) انفصال الإقليم الشرقي، وأعلن الجمهورية فيه، وأطلق على الدولة اسم «جمهورية بيافرا»، ولكن الحكومة الاتحادية عدّت هذا الانفصال غير مشروع، وأصدرت الأوامر إلى القوات العسكرية بالتوجّه إلى «اينوغو» عاصمة الإقليم الشرقي لإنهاء الحكم الانفصالي بعد أن اتّهمت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بتقديم التسهيلات لتجار السلاح الغربيين لتزويد حكومة بيافرا الانفصالية بالمعدات الحربية والأسلحة.

بدأت الحرب بين الفريقين في ٢٣ ربيع الأول ١٣٨٧ هـ (٣٠ حزيران ١٩٦٧ م)، وأحرزت في بداية القتال القوات الانفصالية بعض التقدّم في الإقليم الغربي، والغرب الأوسط، ولكن القوات الاتحادية تغلّبت في النهاية، وانهارت المقاومة الانفصالية في رجب ١٣٨٩ هـ (أيلول ١٩٦٩ م)، وأخذت قوات بيافرا تتراجع، ودخل الاتحاديون مدينة اينوغو، وغادر (تشوكوميكا أوجوكو) البلاد يوم السبت ٣ ذي القعدة ١٣٨٩ هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٧٠ م) بعد أن ترك (أوفينغ) قائداً لقوات الإقليم الشرقي مكانه، وبعد يومين من فرار (أوجوكو) أي يوم الاثنين ٥ ذي القعدة ١٣٨٩ هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٧٠ م) أصدر (أوفينغ) أوامره لقوات الإقليم الشرقي بالاستسلام وإلقاء السلاح، وظهر (أوجوكو) بعد أسبوع في ساحل العاج، وهي إحدى الدول الإفريقية التي اعترفت بدولة بيافرا الانفصالية إضافةً إلى زامبيا، وتانزانيا، كما أن فرنسا كانت تعطف على الحركة

الانفصالية وتسعى لدعمها. وقطعت نيجيريا علاقاتها مع هذه الدول، ثم استؤنفت في رمضان ١٣٩١ هـ (تشرين الأول ١٩٧١ م).

بدأت المؤسسات الاستعمارية والتنصيرية تتحدّث عن المذابح الجماعية، وعن المجاعات في الإقليم الشرقي، وأذاعت أنه قد مات بالحرب والمجاعة ما بين ٥٠٠,٠٠٠ إلى مليوني شخص جلّهم من قبائل الإيبو وبدأت ترسل المساعدات إلى الإقليم الشرقي، وأخيراً أعلن (يعقوب غاوون) أن نيجيريا ترفض هذه المساعدات وأنها ستتكفّل بالأمر، وأن كل ما تتحدّث به الدوائر الأجنبية إنما هو عارٍ عن الصحة، وليس هناك من مجاعةٍ بالشكل الواسع الذي تُصوّره الدعايات والإذاعات، وأن عفواً عاماً سيصدر عن الذين غُرّر بهم، واشتركوا بحركة الانفصال. كما أعلن في شعبان ١٣٩٠ هـ (تشرين الأول ١٩٧٠ م) أن الحكم العسكري سيستمر ستة أعوام أخرى، غير أنه عاد فأعلن في رمضان ١٣٩٤ هـ (تشرين الأول ١٩٧٤ م) أن عودة الحكم المدني ستتأخر إلى أجلٍ غير محدودٍ.

الانقلاب الرابع:

وفي ٢١ رجب ١٣٩٥ هـ (٢٩ تموز ١٩٧٥ م) وفي احتفالات الذكرى التاسعة للانقلاب الذي جاء بـ (يعقوب غاوون) إلى السلطة، وبينما كان الرئيس النيجيري يحضر مؤتمر قمة منظمة الوحدة الإفريقية المنعقد آنذاك في أوغندا اختار القادة العسكريون النيجيريون الجدد العميد (والذي أصبح لواءً) مرتضى الله رحمة محمد المفوض الاتحادي السابق للاتصالات كي يتولّى منصب رئيس الدولة.

شنّ النظام الجديد حملاتٍ نشطة ضدّ الإهمال والفساد، وتلقّى تأييداً شعبياً واسعاً لأنه مسلم من الشمال، وأعلن في شوال ١٣٩٥ هـ (تشرين الأول ١٩٧٥ م) جدولاً زمنياً تفصيلياً للانتقال من الحكم العسكري إلى الحكم المدني، واقترح تشكيل حكومةٍ مدنيةٍ في ١٠ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ (في الأول من تشرين الأول ١٩٧٩ م)، ومهما يكن من أمرٍ فقد اغتيل اللواء

مرتضى الله رحمة محمد في صفر ١٣٩٦ هـ (شباط ١٩٧٦ م) في محاولةٍ انقلابيةٍ تورّط فيه سلفه (يعقوب غاوون).

تولّى الفريق (أولسيغن أوباسنجو) رئيس أركان القوات المسلّحة مقاليد السلطة فوراً، فوعد على اعتبار أنه الرئيس الجديد للبلاد بتنفيذ برنامج سلفه لتسليم الحكم للمدنيين في الموعد المقرّر له. وجعل عدد الولايات ١٩ ولايةً بعد أن كانت ١٢ ولايةً، واتخذ عاصمةً جديدةً قرب «أبوجا» وسط البلاد، وتم انتخاب مجالس الحكومات المحلية بنهاية عام ١٣٩٦ هـ (كانون الأول ١٩٧٦ م)، وتمّ افتتاح جمعيةٍ عموميةٍ تأسيسيةٍ (انتخبتها هذه المجالس بصورةٍ رئيسيةٍ) في ذي القعدة ١٣٩٧ هـ (تشرين الأول ١٩٧٧ م) لمناقشة الدستور الجديد المقترح.

وفي شوال ١٣٩٨ هـ (أيلول ١٩٧٨ م) صدر الدستور الجديد، وتمّ إلغاء حالة الطوارىء التي بقيت سارية المفعول مدة اثنتي عشرة سنة، وفي الوقت نفسه أُلغي الحظر على النشاط السياسي المفروض كذلك المدة نفسها، وسجّلت الهيئة الانتخابية الاتحادية خمس مجموعاتٍ على أنها أحزاب سياسية في شهر صفر ١٣٩٩ هـ (كانون الثاني ١٩٧٩ م).

جرت الانتخابات في شهر شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م) لأعضاء مجلسي الجمعية الوطنية التأسيسية الجديدة (مجلس الشيوخ ومجلس النواب) وكذلك للجمعيات العمومية بالولايات وحكام الولايات، واتضح من هذه الانتخابات الأربعة أن الحزب الذي حقق أوسع تأييد شعبي هو الحزب الوطني النيجيري الذي كان يضم أعضاء بارزين كثيرين من حزب هيئة مؤتمر الشمال وممثلين من الأحزاب الرئيسية الأخرى جميعها والتي كانت قبل انقلاب يعقوب غاوون ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م)، وكان الحاج شيخو شاغاري هو المرشح الرئاسي للحزب الوطني النيجيري حيث سبق له العمل وزيراً لحزب هيئة مؤتمر الشمال قبل عام ١٣٨٦ هـ، كما عمل مفوضاً اتحادياً في ظل الحكم العسكري بين عامي ١٣٩٠ - ١٣٩٥ هـ (١٩٧٠ - ١٩٧٥ م).

حصل شيخو شاغاري على أعلى نسبةٍ من الأصوات في انتخابات الرئاسة في رمضان ١٣٩٨ هـ (آب ١٩٧٨ م)، وتولّى مهام منصبه على أنه أول رئيس جمهورية تنفيذي لنيجيريا في ١٠ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ (١ تشرين الأول ١٩٧٩ م) عندما نقل النظام العسكري السلطة إلى السلطات المدنية المنتخبة حديثاً، وتمّ تطبيق الدستور.

استفادت الحكومة الجديدة من دخل النفط غير أن انخفاض أسعاره قد أدّى إلى أزمةٍ اقتصاديةٍ في ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ (١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ م) ونجم عنها صعوبات متزايدة لغالبية السكان وإلى انتشارٍ واسعٍ للفساد. وبدءاً من عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) كان على الرئيس شيخو شاغاري أن يدخل في منافسة مع حزب الشعب النيجيري لانهيار التحالف في المجلس النيابي مع الحزب الوطني النيجيري، حيث شكّل حزب الشعب النيجيري ائتلافاً انتخابياً هو «تحالف الأحزاب التقدمية» الذي كان يضمّ «حزب الوحدة النيجيري»، وأجنحةً من حزب «التحرير الشعبي»، والحزب الشعبي لنيجيريا الكبرى استعداداً لانتخابات عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) ذات المراحل الست التي يتمّ فيها انتخاب رئيس الجمهورية، وحكام الولايات، وأعضاء مجلس الشيوخ، ومجلس النواب، والجمعيات الوطنية للولايات، والحكومات المحلية. وعندما بدأت أعمال الحملات الانتخابية جديةً وجد «تحالف الأحزاب التقدمية» نفسه منقسماً على نفسه بشأن قضية اختيار المرشح الرئاسي فقد عاد (تشوكوميكا أوجوكو) من المنفى في رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م) وانضمّ مؤخراً إلى الحزب الوطني النيجيري.

جرت الانتخابات في شهر ذي القعدة وذي الحجة ١٤٠٣ هـ (آب وأيلول ١٩٨٣ م)، وتنافست فيها ستة أحزاب، وفاز في الاقتراع الرئاسي (شيخو شاغاري) لمدة رئاسيةٍ ثانيةٍ، وفاز لاحقاً الحزب الوطني النيجيري بثلاثة عشر منصباً لحكام الولايات من الولايات التسع عشرة، وحقّق أغلبيةً ساحقةً في مجلسي الشيوخ والنواب، بينما سار التصويت بالنسبة لاختيار

الجمعيات الوطنية بالولايات والحكومات المحلية حسب طريقة الانتخابات الحاكمية على نطاقٍ واسعٍ حيث يُفضّل المقترعون الحزب الذي تمّ اختيار مرشحه حاكماً. وبعد الانتخابات سرت شائعات واسعة الانتشار عن التلاعب بالبطاقات الانتخابية من قبل الحزب الوطني النيجيري والهيئة الانتخابية الاتحادية، وكان مصدر هذه الشائعات أحزاب المعارضة التي نجحت في تحقيق أمورٍ مثيرةٍ للجدل والنزاع.

أقسم الرئيس شيخو شاغاري اليمين الدستورية لمدةٍ رئاسيةٍ ثانيةٍ في ٢٤ ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (١ تشرين الأول ١٩٨٣ م)، فأجرى تعديلاً وزارياً سريعاً تمّ فيه استبدال أغلبية الوزراء السابقين.

الانقلاب الخامس:

وفي ٢٧ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (٣١ كانون الأول ١٩٨٣ م) قام انقلاب عسكري بقيادة اللواء محمد بخاري الذي كان مفوضاً اتحادياً للنفط، وتشكلت إدارة عسكرية جعلته رئيساً للدولة، وحلّت الجمعية الوطنية التأسيسية وفرض الحظر على الأحزاب السياسية جميعها، واعتقلت المئات من السياسيين ورجال الأعمال ومن بينهم الرئيس السابق شيخو شاغاري، ونائبه اليكس ايكويم بتهم الفساد، وأُدين عدد من السياسيين من بينهم حكام ولايات سابقون بسوء التصرّف في الشؤون المالية، ومن ثم سُجنوا.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (شباط ١٩٨٤ م) أصدر المجلس العسكري الأعلى الجديد مرسوماً علّق فيه الدستور، وأعطى الحكومة السلطة لاستصدار قوانين لا يمكن الاعتراض عليها أمام المحاكم، وقيّد مرسوم آخر حرية الصحافة، وسمح بإغلاق الصحف، ومحطات الإذاعة، وسجن الصحفيين لمجرد نشر أخبار غير صحيحة. ثم حظرت الحكومة في شوال ١٤٠٥ هـ (تموز ١٩٨٥ م) كل نقاشٍ حول المستقبل السياسي لنيجيريا بحجة مصلحة أمن الدولة، وصرّح محمد بخاري أنه ليس هناك تاريخ مُحدّد لاستعادة الحكم المدني.

الانقلاب السادس:

وفي ثاني أيام العيد الأضحى ١٤٠٥ هـ (٢٧ آب ١٩٨٥ م) جرى انقلاب جديد بقيادة اللواء (إبراهيم بابا نغيدا) كبير أركان الجيش، وأحد أعضاء المجلس العسكري الأعلى، أطاح بنظام الحكم السابق، وتشكّلت إدارة عسكرية جديدة جعلت اللواء (إبراهيم بابا نغيدا) رئيساً للجمهورية، وحلّت المجلس الحاكم للقوات المسلّحة محلّ المجلس العسكري الأعلى (رغم أن معظم أعضائه كانوا أعضاءً في المجلس العسكري الأعلى السابق) هـذا بينما بقيت مؤسسـات أخرى على حـالتها السـابقة نسبيـاً دون تغيير كالحكومة مثلاً إذ بقيت كما هي. ثم أصدر الرئيس الجديد مرسوماً ألغى فيه مرسوم مراقبة المطبوعات، وأطلق سراح ما يزيد على مائة معتقلٍ سبق لهم أن سجنوا دون محاكمـةٍ في العهد السـابق. غير أن الضيق والتبـرم بالسياسات الاقتصادية الصارمة للنظام الجديد والاصـلاحات الثـورية كـان قائماً، وهذا ما أدّى إلى قيام عددٍ من الضباط في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كـانـون الأول ١٩٨٥ م) بمحـاولـة انقـلابٍ فـاشلةٍ، وألقي القبض على المشتركين بالحركة، وفي الشهر التالي أعلن الرئيس إبراهيم بابا نغيدا أن النظام سينقل السلطة إلى حكومةٍ مدنيةٍ يتمّ اختيارها بحريةٍ في ١٢ ربيع الأول ١٤١١ هـ (١ تشـرين الأول ١٩٩٠ م). ولكن سمعـة النـظام قـد تدهورت في رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م) عندما قام بإعدام عشرةٍ من كبار الضباط من الثلاثة والعشرين ضابطاً الذين اتهموا بالتـورّط بمحاولـة الانقلاب والتآمر على النظام.

وشكّل النظام في رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م) مكتباً سياسياً للنظر في التـوصيات المقتـرحة من مختلف المجمـوعات الـوطنية حـول شكـل الحكومة المدنية المقترحة.

وفي جمـادى الأولى ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) أصبحت نيجيـريـا عضواً كامل العضوية في منظمة المؤتمر الإسلامي، وكان هنـاك احتجاج

عنيف من الأقلية غير المسلمة. وانطلقت مظاهرات في جامعة (أحمدو بيللو) في مدينة زاريا ووقعت صدامات بين المتظاهرين ورجال الشرطة فقتل خلالها خمسة عشر طالباً، فوضعت الحكومة قوات عسكرية كحرس في الجامعات الأخرى للحيلولة دون انتشار الاضطرابات، وفرضت حظراً على المظاهرات.

وفي شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) صادقت الحكومة على إنشاء ثلاثة أجهزةٍ للقيام بمهمة «مؤسسة الأمن الوطني» وهي عبارة عن قوة شرطةٍ شبه عسكريةٍ. وفي الشهر نفسه أصدر الرئيس قراراً يمنع المسؤوليين الرسميين الذين أدينوا بتهمة الفساد من تولّي أي منصب في الدولة مدة عشر سنواتٍ، وكذلك سحب جوازات سفرهم لمدة خمس سنوات، وتجميد أو مصادرة أملاكهم، وقد أثار هذا القرار كثيراً من الجدل.

وكانت قد بُرئت ساحة الرئيس السابق (شيخو شاغاري) ونائبه (اليكس ايكويم) من تهم الفساد، ثم أطلق سراحهما في ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) بعد بقائهما رهن الاعتقال مدة ثلاثين شهراً، ولكن بقي الحظر عليهما من ممارسة النشاط السياسي. وكذلك أطلق سراح ١٧ آخرين من المسؤولين السابقين في حكومة شيخو شاغاري.

وفي شهر ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م) جرت إعادة توزيعٍ شاملةٍ لحكام الولايات، فتمّ تعيين ثمانية حكامٍ جددٍ، بينما تبادل المناصب خمسة حكام آخرون. وفي شهر صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م) طُرد رئيس الأركان العامة من المجلس الحاكم للقوات المسلحة، وفي الوقت نفسه تمّ تعيين أربعة أعضاء جدد فيه. وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) اتُّهم رئيسا جهازين من أجهزة أمن الدولة بارتكاب جرائم بعد أن قُتل محرر إحدى المجلات ذات النفوذ بطردٍ متفجرٍ (غير أن هذه التهم قد سُحبت بعد كثيرٍ من الجدل بعد مرور سنةٍ وثلاثة أشهرٍ).

وفي رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) فرضت الحكومة حظر التجول على ولاية كادونا، وأمرت بإغلاق المدارس والجامعات في الولايات الشمالية بعد وقوع مصادماتٍ بين المسلمين والنصارى أسفرت عن قتل ما لا يقلّ عن خمسةٍ وعشرين شخصاً واحتجاز خمسمائة فردٍ.

وفي شهر شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م) أنشأت الحكومة مجلساً استشارياً وطنياً للشؤون الدينية يضم أعضاء مسلمين وآخرين من النصارى للبحث في وسائل تحقيق التسامح الديني في نيجيريا، ومع ذلك استمرّت المظاهرات الغاضبة لدى الطلاب بقية العام، والعام الذي تلاه. ووقعت أعمال فوضى في المدن والجامعات قُتل خلالها ستة أشخاصٍ، وكانت احتجاجاً على زيادة الأسعار، وأجور المنازل، والوقود فأمرت الحكومة بإغلاق عدة جامعاتٍ، ولم تفتتح ثانيةً إلا ما بعد ما يقرب من الشهرين.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) كان اختيار (إبراهيم دسوقي) لمنصب سلطان سوكوتو الجديد سبباً لوقوع شغبٍ بين أعوانه وبين أعوان ابن السلطان السابق.

وفي ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) وعلى أثر تلقي توصيات من المكتب السياسي في شهر رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) أعلن الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) تفاصيل منهجٍ لنقل السلطة إلى حكومةٍ مدنيةٍ في ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) أي بتأخير سنتين عما كان مقرراً أصلاً، رغم أنه كان من المفروض أن تتم على أساسٍ غير حزبيٍ حيث أن الحظر على الأحزاب السياسية كان لا يزال ساري المفعول.

وفي عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) كان ينبغي الحظر على المصادقة على تشكيل حزبين سياسيين فقط، ومن ثم يتنافس هذان الحزبان في انتخابات الولايات عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م)، والانتخابات المحلية عام ١٤١١ هـ، وكان من المقرر إجراء تعدادٍ سكانيٍ قبل انتخابات الهيئة التشريعية

الاتحادية ذات المجلسين، ورئيس الجمهورية المدني المقرر إجراؤها عام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م).

وفي شهر ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م) شكّلت الحكومة هيئةً انتخابيةً وطنيةً لإجراء انتخاباتٍ حـرةٍ ونزيهـةٍ. وفي مطلع عـام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) تمّ إنشاء لجنة مراجعة الدستور لبحث مقترحات وضـع دستور جديد، وأعلن الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) في الشهر نفسه حرمان أي عضوٍ في أي دائرةٍ من خوض الانتخابات إذا ثبتت إدانته بالفساد منذ ثلاثين سنةً، وكذلك حرمـان الذين تـولّوا منـاصب رفيعة أثنـاء الحكم المدني، وكذلك حظر على منسوبي القوات المسلحة الذين يتولّون حالياً أو سبق لهم تولّي مناصب سياسيةٍ رفيعةٍ من خوض الانتخابات أثناء مرحلة الانتقال إلى الحكم المدني، كما استحدث ولايتين جديدتين هما: ولاية كاتسينا التي تمّ استحداثها من أحد أجزاء ولاية كادونا، وولاية أكوا إيبوم التي شُكّلت من ولاية نهر كروس.

وفي ٢١ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (١٢ كانون الأول ١٩٨٧ م) جـرت انتخابات الحكومات المحليـة التي تنافس فيهـا حوالي خمسـة عشر ألف مرشحٍ غير حزبيٍ على المقاعد في (٣٠١) منطقة انتخابية. وقد نجم عن عدم اتخاذ الهيئة الوطنية الاستعدادات الكافية للانتخابـات ادعاءات تفيـد بحدوث سوء تصرّفٍ في الانتخابات فأدّى إلى إلغاء ٣١٢ دائرة حكـومية محلية، وتم إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م)، وأعلن الرئيس بعدهـا أنه سيُعلن دستـوراً جديـداً للجمهوريـة الثالثـة عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م)، ويقضي إلى العـودة إلى الحكم المدني في عـام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م).

افتتحت جمعية عمومية تأسيسية في شوال ١٤٠٨ هـ (أيار ١٩٨٨ م) لمناقشة الشروط الموصى بها من قبل لجنة مراجعة الدستور بشأن مسودة الدستور المقرّر صياغته على غرار دستـور (١٩٧٩ م)، وتشكّلت الجمعية التأسيسية من أربعمائةٍ وخمسين عضواً بواقـع عضوٍ واحـدٍ عن كل دائـرةٍ

انتخابيةٍ اتحاديةٍ ينتخبهم أعضاء المجالس الحكومية المحلية إضافةً إلى ١١٧ عضواً تعينهم الحكومة. واختيرت مدينة «أبوجا» العاصمة الاتحادية المستقبلية مقراً للجمعية التأسيسية.

وفي ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيران ١٩٨٨ م) أعلنت الجمعية التأسيسية أن مسودة الدستور ستحول دون وقوع انقلاباتٍ، وأن التغييرات جميعها ستتم بوسائل (ديمقراطية)، وطالب المسلمون بتطبيق الشريعة الإسلامية إلا أن الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) حظر في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) أي نقاشٍ آخر حول هذا الموضوع حيث أن سير عمل الجمعية التأسيسية تكتنفه عوائق كثيرةً.

وأقرت الجمعية التأسيسية في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) قراراً بموجب الدستور الجديد يقضي بانتخاب رئيس جمهوريةٍ مدني لمدة ست سنواتٍ.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) أطلق سراح رئيس الدولة السابق محمد بخاري بناءً لاعتباراتٍ إنسانيةٍ كما قيل حينذاك بعد اعتقال دام ثلاث سنواتٍ.

وفي رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) تمّ حلّ المجلس الحاكم للقوات المسلّحة، وأعاد الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) تشكيله من جديدٍ، وأنقص عدد أعضائه من تسعةٍ وعشرين عضواً إلى تسعة عشر عضواً مع بقاء الهدف المعلن، وهو تقليص سلطة القوات المسلحة أثناء المرحلة الانتقالية المؤدية إلى الحكم المدني. وأُعيد توزيع أعضاء مجلس الوزراء في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) مع تشكيل هيئةٍ انتخابيةٍ وطنيةٍ جديدةٍ بشكل يتيح للمجلس الحاكم للقوات المسلحة تحديد أي المجموعات السياسية الموصى بها من قبل الهيئة التشريعية الوطنية يحقّ لها التسجيل حيث كان هناك حزبان سياسيان رسميان حين رفع الحظر عن النشاط السياسي فيما بعد في تلك السنة. وفي شهر رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) قدّمت

الجمعية الوطنية التأسيسية تقريرها مع مسودة الدستور إلى الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) رافضةً تضمين شروط عن المرحلة الانتقالية حيث سيجيز ذلك الحكم العسكري إلى درجة ما.

وفي شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م) أعلن الرئيس نهاية الحظر على الأحزاب السياسية، وتمّ الإعلان عن الدستور الذي كان مقرراً سريان مفعوله في ٤ ربيع الثاني ١٤١٣ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٩٢ م) وعليه فقد أعلن عن تشكيل حوالي خمسة وثلاثين حزباً سياسياً، رغم تمكّن ثلاثة عشر حزباً فقط من إكمال مسوغات التسجيل حسب الزمن المنصوص عليه وهو ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م).

وقبل مطلع عام ١٤١٠ هـ (تموز ١٩٨٩ م) تمّ حلّ مجلس الحكومات المحلية، ووضعت تحت إدارةٍ واحدةٍ إلى ما بعد انتخابات الحكومات المحلية المقرر إجراؤها في وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة. وأوصت الهيئة التشريعية الوطنية في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) بقائمةٍ تضمنت ست هيئاتٍ سياسيةٍ رفعتها إلى المجلس الحاكم للقوات المسلحة، ومهما يكن من أمرٍ فقد أعلن الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) قرار المجلس الحاكم للقوات المسلحة بحلّ الهيئات السياسية جميعها التي تشكّلت مؤخراً على أساس أنها بعد كل الجهود قد أخفقت في تلبية متطلبات التسجيل، وأنها كانت متحالفةً مع أحزابٍ سابقةٍ سيئة السمعة، فتشكّل محلّها حزبان جديدان هما: الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وحزب المؤتمر الجمهوري الوطني. وقد نُشرت مسودات الدستور والبيانات الرسمية للحزبين التي أعدتها الهيئة الانتخابية الوطنية في شهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م)، وفي الشهر ذاته أُعلن عن إعادة توزيع الحقائب الوزارية، حقق فيها الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) الذي تسلّم حقيبة وزارة الدفاع السيطرة الكاملة على قوات الأمن، وتأجّلت انتخابات الحكومات المحلية التي كان مقرراً إجراؤها في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) إلى مدة سنةٍ كاملةٍ.

وفي شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م) ورد في التقارير أن هناك ما يزيد على مائة قتيلٍ أثناء مظاهرات الطلاب احتجاجاً على الإجراءات الاقتصادية الصارمة للحكومة، وأنه تمّ إلقاء القبض على ستٍ وعشرين طالباً أثناء المظاهرات إلّا أنه قد أُطلق سراحهم في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م). وفي شهر ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) أعلنت لجنة وطنية برئاسة الرئيس (إبراهيم بابا نغيدا) عن «برنامج إنعاش» تضمن اقتراحاً بإيجاد اثنتين وستين ألف وظيفةٍ جديدةٍ.

وجرى تعديل للتشريع الذي يسمح باعتقال المجرمين المشتبه بهم لمدة تصل إلى ستة أشهرٍ دون توجيه تهمةٍ، وتشكلت هيئة مستشارين لمراجعة واستقصاء الحالات الفردية، وذلك في شعبان ١٤١٠ هـ (آذار ١٩٩٠ م).

وقام صغار ضباط الجيش بمحاولةٍ للإطاحة بالحكومة في ٢٧ رمضان ١٤١٠ هـ هـ٢٢ نيسان ١٩٩٠ م) فاستولوا على محطة الإذاعة الاتحادية، وهاجموا مقر إقامة رئيس الجمهورية، ووقعت إصابات كثيرة، وأعلن الانقلابيون في رسالةٍ إذاعيةٍ اتهامهم الحكومة بالفساد، وزعموا أنهم يتصرّفون نيابةً عن النيجيريين في وسط البلاد، وجنوبها الذين ادعوا أنهم لا يُمثّلون تمثيلاً عادلاً في الحكومة ولا في القوات المسلحة، وأعلنوا أيضاً أن الولايات الإسلامية الشمالية الخمس قد استبعدت من الاتحاد النيجيري، وتمّ قمع المحاولة الانقلابية في اليوم نفسه، وذُكر أن عشرة ضباطٍ، وما يزيد على مائة وخمسين فرداً آخرين من القوات المسلحة قد اعتقلوا.

العلاقات الدولية:

لعبت نيجيريا دوراً قيادياً في الشؤون الإفريقية، وهي عضو بارز في منظمة الوحدة الإفريقية. وأدانت الحكومات النيجيرية المتعاقبة التدخّل العسكري في شؤون القارة سواء أكان هذا التدخل من القوى الغربية أم الشرقية، وكانت توجّه انتقادات حادة لنظام الأقلية البيضاء الذي يقوم على

التميز العنصري في جنوبي إفريقية.

وتحسّنت علاقات نيجيريا مع غانا، تلك العلاقات التي توتّرت في السابق نتيجة الطرد الجماعي للمهاجرين الغانيين غير الشرعيين في أعوام ١٤٠٣ ـ ١٤٠٥ هـ (١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ م)، وتحسّنت هذه العلاقات إثر الزيارة التي قام بها الزعيم الغاني الملازم الطيار (جيري راولنغز) إلى نيجيريا في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) وتمت أثناءها مناقشة تعاونٍ اقتصاديٍ وعسكريٍ أكبر بين البلدين. وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٨٨٩ م) قام الرئيس النيجيري (إبراهيم بابا نغيدا) بزيارة غانا ردّاً لزيارة الزعيم الغاني، وهذه أول زيارةٍ يقوم بها رئيس دولة نيجيريا منذ عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).

وأُغلقت حدود نيجيريا البرية عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) لمنع التهريب، ثم أُعيد فتحها في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) عدا الحدود مع تشاد، التي أُعيد فتحها في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م)، وتمّ توقيع اتفاقية تعاونٍ مع تشاد في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م).

وبدأ العمل برسم الحدود بين نيجيريا وبنين في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) وكان من المتوقّع الانتهاء من تخطيطها عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م).

وتأثّرت العلاقات بين نيجيريا وبريطانيا في شوال ١٤٠٤ هـ (تموز ١٩٨٤ م) نتيجة اختطاف (عمارو ديكو) في لندن، وهو وزير مواصلاتٍ سابق في إدارة (شيخو شاغاري)، وكان قد فرّ إلى لندن، حيث كان مطلوباً للمحاكمة في نيجيريا بتهمة الفساد. ونجم عن الإدعاء تورّط سياسيين نيجيريين في محاولة الاختطاف، فأدّى إلى قطع العلاقات السياسية بين البلدين، وسحب كلتا الدولتين لكبار ممثليها في الدولة الأخرى. وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) وافق وزير الخارجية

النيجيري على محاكمة (عمارو ديكو) المطلوب للعدالة أمام المحاكم البريطانية، ثم أعلن في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) أن نيجيريا وبريطانيا ستستأنفان علاقتهما السياسية الكاملة. وبعد اجتماعٍ تمّ بين الرئيس النيجيري (إبراهيم بابا نغيدا) وبين رئيسة وزراء بريطانيا (مارغريت تاتشر) استُؤنفت العلاقات في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م). وانتهت التحريات التي أجرتها الحكومة البريطانية إلى أن طلب (عمارو ديكو) حق اللجوء السياسي لا أساس له، فطلبت منه مغادرة البلاد في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م).

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة نيجيريا ٩٢٣,٧٦٨ كيلو متراً مربعاً، وتُشرف على المحيط الأطلسي بساحلٍ طوله ٨٥٣ كيلو متراً، ويبلغ طول حدودها البرية ٣٩٦٠ كيلو متراً مع العلم أن الدول التي تشترك معها بالحدود هي ثلاث دولٍ فقط، وهي: بنين، ويبلغ طول حدودها معها ٧٧٣ كيلو متراً، والنيجر، ويبلغ طول حدودها معها ١٤٩٧ كيلو متراً، والكاميرون، ويبلغ طول حدودها معها ١٦٩٠ كيلو متراً. أما تشاد فإن الحدود بينهما مائية داخل بحيرة تشاد، وطولها ٨٧ كيلو متراً. كما أن جزءاً من حدودها مع النيجر ومع الكاميرون هي حدود مائية داخل بحيرة تشاد أيضاً.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) مائةً وخمسة عشر مليوناً وثلاثمائة ألف إنسانٍ، فهي بذلك أكبر دول القارة الإفريقية سكاناً، بل يعدّ سكانها أكثر من ضعف سكان الدولة الثانية التي تليها مباشرة، وهي مصر، والتي بلغ عدد السكان في العام نفسه أربعةً وخمسين مليوناً وثمانمائة ألف شخص.

وتكون كثافة السكان ١٢٥ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

الصراع الإقليمي والعنصري:

تعيش في نيجيريا عدة قبائل، ولكن خمساً منها كبيرة وهي التي يحدث بينها الصراع، وهي:

١ ــ **الهاوسا**: وتعيش في الشمال، وتُشكّل ٤٠٪ من مجموع السكان، وأغلبية أبنائها ينتمون إلى الإسلام.

٢ ــ **الفولاني**: وتعيش في الشمال أيضاً، وتشكل ١٠٪ من مجموع السكان، وهي قبائل مسلمة، ومنها حكام الإقليم الشمالي وأمراؤه.

٣ ــ **الكانوري**: وتتنقل في الشمال الشرقي، وتشكل ١٠٪ من مجموع السكان، وهي قبائل مسلمة.

وهذه القبائل الثلاث شمالية مسلمة، وتعدّ في طرفٍ واحدٍ، إذ أن الصراع بجوانبه كلها يُعدّ صراعاً عقيدياً، وهذا الذي يجعل هذه القبائل تلتقي معاً، وهي بمجموعها تشكل أكثر من ٥٢,٨٪ من مجموع السكان، وفي الوقت نفسه تعدل مساحة الأرض التي تعيش عليها ٧٩,٦٪ من مساحة نيجيريا، وهي ما يُسمّى بالإقليم الشمالي.

٤ ــ **الإيبو**: وتعيش في الإقليم الشرقي، وتشكل ٢٤,٥٪ من مجموع السكان، وتقرب مساحة إقليمها من ٨,٣٪ من مساحة نيجيريا. وأكثر أفرادها ينتمون إلى النصرانية، وتحوّلوا إليها تحت تأثير الاستعمار الصليبي، وإرسالياته التنصيرية، وقد أخذ الإسلام بالانتشار بينهم على نطاقٍ ضيق.

٥ ــ **اليوروبا**: وتعيش في الإقليم الغربي، وتشكل ١٨,٧٪ من مجموع السكان، وسكانها من المسلمين وقد تجاوزوا النصف، ومن الوثنين، وقلة من النصارى، وتبلغ مساحة إقليمها ٨,٣٪ من أرض نيجيريا.

وهناك مجموعات صغيرة مثل الكالابار، والأكوجا، وأكثرها في الجنوب ضمن أراضي الإقليم الشرقي، وقد عملت الإرساليات التنصيرية بينهم، وتمكّنت من كسب بعضهم.

كان الصراع في الماضي بين الفولاني الذين حكموا بلاد الهاوسا والكانوري، في الشمال، وهو من الخلاف بين الحاكم إذا كان من شعبٍ وبين المحكوم إن كان من شعبٍ آخر ويُشكّل الأكثرية. كما كان هناك

صراع في الجنوب بين القبائل على المنازل والديار، فلما جاء المستعمرون الصليبيون عملوا على جمع الجنوب كله بإقليميه الغربي والشرقي وما يتبعهما للوقوف في وجه الشمال. غير أن العصبية القبلية كانت أقوى، مما حال دون نجاح المخطط الاستعماري بالشكل المرسوم له، ومع ذلك وجد صراع بين الشمال والجنوب وإن كان قد حمل المعنى العقيدي أكثر من حمله المعنى العنصري أو الإقليمي، سواء قبل مجيء الاستعمار الصليبي حيث كان الصراع بين الإسلام الذي يريد أتباعه أن يمتدّوا به نحو الجنوب وبين القبائل الوثنية التي تريد التمسّك ببدائيتها والمحافظة على مواطنها، ولكن بعد مجيء الاستعمار أصبح بين الإسلام الذي يريد أتباعه الاحتفاظ بقوتهم والتمسّك بمبادئهم، والدفاع عن أرضهم، والجهاد ضد أعدائهم وبين غير المسلمين في الجنوب. وظهر الصراع بين الأقاليم وبين القبائل غير أنه صراع عقيدي واضح، اتفقت فيه النصرانية والوثنية بجهودٍ استعماريةٍ ضدّ الإسلام.

ومما عملته بريطانيا وسارت عليه إبقاء الإمارات الإسلامية في الشمال، وإيجاد الخلاف بينها، والعمل على اقتتال بعضها مع بعضٍ إذ خشيت من وحدتها في إمارةٍ واحدةٍ، بينما وحّدت الإمارات الجنوبية لتستطيع أن تقاوم الشمال، وليبقى في الميدان كفتان تكادان تكونان متكافئتين، لأنها لو بقيت متفرقةً في الجنوب فلن تستطيع أقواها أن تقف أمام أصغر إمارةٍ في الشمال، وبالتالي تذوب تدريجياً في بوتقتها، وتعتنق الإسلام. وبهذا تكون قد عملت سرّاً ـ حسب رأيها ـ ضدّ الإسلام. وكذلك بقيت السيطرة للشمال عندها قُسّمت نيجيريا إلى ولايات، وهي الآن واحدة وعشرون ولايةً إضافةً إلى العاصمة الاتحادية، كل ذلك نتيجة كثرة عدد المسلمين، والولايات، هي حسب إحصاء ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م):

الرقم	الإقليم	الولاية	المساحة	السكان	العاصمة	ملاحظات
١	الشمالي	سوكوتو	١٠٢,٥٣٥٠	٨,٤٨٨,٠٠٠	سوكوتو	
٢	الشمالي	النيجر	٦٥,٠٣٧	٢,٠١٩,٠٠٠	مينّا	
٣	الشمالي	كادونا	٧٠,٢٤٥	٧,٦٦٤,٠٠٠	كادونا	
٤	الشمالي	كوارا	٦٦,٨٦٩	٣,١٩١,٠٠٠	إيلورين	
٥	الشمالي	كانو	٤٣,٢٨٥	١٠,٨٠٠,٠٠٠	كانو	
٦	الشمالي	باوتشي	٦٤,٦٠٥	٤,٥٤٧,٠٠٠	باوتشي	
٧	الشمالي	بينوي	٤٥,١٧٤	٤,٥٣٩,٠٠٠	ماكوردي	
٨	الشمالي	بورنو	١١٦,٤٠٠	٥,٦٠٦,٠٠٠	ميدوغري	
٩	الشمالي	بلاتو	٥٨,٠٣٠	٣,٧٦٦,٠٠٠	جوس	
١٠	الشمالي	كونغولا	٩١,٣٩٠	٤,٨٧٢,٠٠٠	يالا	
١١	الشمالي	كاتسينا	ـــــ	٤,٧٣٨,٠٠٠	كاتسينا	أخذت المساحة من كادونا
١٢	الشمالي	العاصمة الاتحادية	٧,٣١٥	٢٥٤,٠٠٠	أبوجا	
			٧٣٠,٨٨٥	٦٠,٤٨٤,٠٠٠		
١٣	الغربي	أيو	٣٧,٧٠٥	٩,٧٤١,٠٠٠	إيبادان	
١٤	الغربي	أوندو	٢٠,٩٥٩	٥,١٠٥,٠٠٠	أكور	
١٥	الغربي	أوغون	١٦,٧٦٢	٢,٩٠١,٠٠٠	أبيكوتا	

الرقم	الإقليم	الولاية	المساحة	السكان	العاصمة	ملاحظات
١٦	الغربي	لاغوس	٣,٣٤٥	٣,٧٧٤,٠٠٠	لاغوس	
			٧٨,٧٧١	٢١,٥٢١,٠٠٠		
١٧	الغربي الأوسط	بندول	٣٥,٥٠٠	٤,٦٠٢,٠٠٠	بنين .	
			٣٥,٥٠٠	٤,٦٠٢,٠٠٠		
١٨	الشرقي	أنامبرا	١٧,٦٧٥	٦,٧٢٦,٠٠٠	إينوغو	
١٩	الشرقي	ريفرز	٢١,٨٥٠	٣,٢١٧,٠٠٠	بورت هاركورت	
٢٠	الشرقي	كروس ريفر	٢٧,٢٣٧	٦,٥٠٥,٠٠٠	كالابار	
٢١	الشرقي	أكواأبوم	———	٤,٧٣٨,٠٠٠	يوو	أخذت المساحة من كروس ريفر
٢٢	الشرقي	إمو	١١,٨٥٠	٦,٨٦٨,٠٠٠	أويري	
			٧٨,٦١٢	٢٨,٠٦٤,٠٠٠		
	الشمالي		٧٣٠,٨٨٥	٦٠,٤٨٤,٠٠٠		
	الغربي		٧٨,٧٧١	٢١,٥٢١,٠٠٠		
	الغربي الأوسط		٣٥,٥٠٠	٤,٦٠٢,٠٠٠		
	الشرقي		٧٨,٦١٢	٢٨,٠٦٤,٠٠٠		
			٩٢٣,٧٦٨	١١٤,٦٧١,٠٠٠		إحصاء١٤٠٧هـ(١٩٨٧م)

الإقليم	المساحة	النسبة	السكان	النسبة
الشمالي	٧٣٠،٨٨٥	٧٩،٦٪	٦٠،٤٨٤،٠٠٠	٥٢،٨٪
الغربي	٧٨،٧٧١	٨،٣٪	٢١،٥٢١،٠٠٠	١٨،٧٪
الشرقي	٧٨،٦١٢	٨،٣٪	٢٨،٠٦٤،٠٠٠	٢٤،٥٪
الغربي الأوسط	٣٥،٥٠٠	٣،٨٪	٤،٦٠٢،٠٠٠	٤،٠٪
	٩٢٣،٧٦٨	١٠٠٪	١١٤،٦٧١،٠٠٠	١٠٠٪

كما يوجد بعض الأوربيين وخاصةً من البريطانيين في العاصمة ومدن الجنوب الكبرى، وفي كادونا العاصمة الإدارية للشمال. ويوجد كذلك بعض الجاليات العربية، وخاصةً من الشاميين في كانو في الشمال، وفي لاغوس في الجنوب.

واللغة الإنكليزية هي اللغة الرسمية، ولكل قبيلةٍ لغتها، وإن كانت تنتشر لغة الهاوسا في الشمال، ولغة الإيبو في الشرق، والغربي الأوسط، ولغة اليوروبا في الغرب. غير أنه في الشمال تُعرف اللغة العربية في الأوساط الدينية، وبعض المدارس والجامعات. إذ نجد مدرسة القضاء الشرعي الإسلامي التي افتتحت في مدينة (كانو) عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٤ م)، واللغة العربية هي لغة التعليم فيها للمواد كلها، كما تُعلّم لغة الهاوسا. وهناك جامعة أحمدو بيللو في مدينة (زاريا)، وتتبعها كلية عبدالله بايرو في (كانو)، وهناك مدارس كثيرة على المستوى الابتدائي، ومدارس جمعية أنصار الدين. ومن المعلوم أن لغات الشمال (الهاوسا، والفولاني، والكانوري، والطوارق) تكتب كلها بالحرف العربي، بل إن بعض الكلمات وهي كثيرة في هذه اللغات من أصلٍ عربيٍ، ولكن بريطانيا عملت على تغيير الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني. والمحاكم الوطنية في بلاد الهاوسا كلها يتمّ فيها التقاضي باللغة العربية. كما يوجد المعهد الديني في

(أكيكه) في بلاد اليوروبا، والتعليم فيه باللغة العربية أيضاً.

وقد عملت بريطانيا أثناء استعمارها نيجيريا على إضعاف لغات الشمال لما لها من صلةٍ باللغة العربية، وعلى إبعاد سكان تلك الجهات عن العرب، على حين عملت على إحياء لغات الجنوب الزنجية التي ليست لها كتابةً، وليس فيها أدب، وحاولت جعل الحرف اللاتيني هو الحرف الذي تُكتب به تلك اللغات الزنجية، ليتمّ لها نشر لغتها بسهولةٍ، وقامت مدارس الإرساليات التنصيرية بهذا العمل، وكان نصيب إحدى هذه البعثات التنصيرية أن ذُبحت عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) في مدينة (بينان) فثارت بريطانيا لهذه المذبحة فقتلت من السكان ما شاء لها هواها أن تقتل.

الصراع العقيدي:

تبلغ نسبة المسلمين في نيجيريا ٧٥٪، وتشمل قبائل الشمال كلها سوى نذرٍ يسيرٍ تأثّر بالإرساليات التنصيرية وما قدّمته، وبالاستعمار الصليبي ومغرياته، وعلى كلٍ فلا تقلّ نسبة المسلمين بين تلك القبائل عن ٩٨٪، كما يشمل المسلمون أكثر من نصف قبائل اليوروبا، وقلّة من قبائل الإيبو، ومثلها في الجنوب على السواحل، وفي العاصمة السابقة لاغوس.

وتبلغ نسبة النصارى ١٥٪، وترتفع هذه النسبة بين قبائل الإيبو إذ وجّهت بريطانيا لهذه القبائل عنايةً خاصةً لما وجدت من تجاوبٍ عندها، وتوجد قلّة بين قبائل الجنوب، وأقل من ذلك بين اليوروبا، وأفراد بين قبائل الهاوسا، والمجموعات الثانية، والأوربيين، وبين الشاميين أيضاً.

وتبلغ نسبة الوثنية ١٠٪، وترتفع هذه النسبة بين قبائل الجنوب التي تعيش على الساحل، وفي الغابات، وقلّة في قبائل اليوروبا، والإيبو، وقلّة أخرى تعيش في نجد باوتشي في الشمال.

كانت القبائل في نيجيريا تعيش على الوثنية حتى جاء الإسلام من الشمال، واندفع أبناؤه نحو الجنوب، فأخذ الإسلام ينتشر بين القبائل، وإن

كانت بعض الوثنيات قد فرّت أمام المسلمين، واعتصمت في نجد باوتشي، ولا تزال بقاياها إلى الآن. وأخذ الفولانيون المسلمون يفدون إلى المنطقة منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حتى استطاعوا التأثير على قبائل الهاوسا، وحكموا المنطقة، فعمّ الإسلام الشمال، إذ كان قد انتشر في الشمال الشرقي قبل ذلك، وأراد المسلمون متابعة زحفهم نحو الجنوب غير أن قبائل تلك الجهات قد وقفت في وجههم رغم أن الإسلام قد تسرّب إلى أفراد وجماعات بين قبائل الجنوب بشكل هادئ وبطيء.

وجاء المستعمرون الصليبيون من الجنوب، وأرادوا الوقوف أمام المدّ الإسلامي، ونشر النصرانية بين قبائل الجنوب لكسبهم إلى عقيدتهم، والإفادة منهم في المستقبل، وللوقوف بجديةٍ أمام المسلمين. فدعموا الوثنية وقدّموا لها الإمكانات كافةً، وأغروا أبناءها لكسبهم إلى النصرانية، ولمحاربة الإسلام. وتمكّنوا من تحقيق بعض النجاح، فكسبوا إليهم بعض الجماعات، ووجدوا تجاوباً أكبر لدى قبائل الإيبو فركّزوا جهودهم عليها، أو أعطوا أفرادها عنايةً أكثر. وأطلقوا العنان للإرساليات التنصيرية أن تُؤدّي دورها، ومدّوها بالوسائل جميعها، فتكوّنت لديهم فئة نصرانية أخذت تتلقّى التوجيهات منهم، وتعمل على تنفيذ مخططاتهم.

عمل المستعمرون الصليبيون البريطانيون على تشكيل جبهةٍ من النصارى والوثنيين للوقوف في وجه المدّ الإسلامي أو لوقوف الجنوب في وجه الشمال، وبذلوا جهدهم، بل عملوا على غزو الشمال بوسائلهم المختلفة من فسادٍ وإغراءٍ، بعد أن عجزوا عن كسب جماعاتٍ من المسلمين إلى نصرانيتهم، أو ردّهم عن دينهم، فكانوا مما لجؤوا إليه أنهم كانوا يُقيمون مخيماتٍ على مقربةٍ من المدن الإسلامية ويملؤونها بالمغريات وعناصر الفساد من نساءٍ، وخمرٍ، ولهوٍ، ولعبٍ، ورقصٍ و... ويبثّون الدعايات لها في داخل المدن الإسلامية بين الشباب المراهقين والطائشين، فكان يتسلّل بعضهم إلى تلك المخيمات، وينال منها ما ينال بالمجان إغراءً

وتشجيعاً، ثم يعودون في آخر الليل إلى منازلهم بالمدن، ومع هذه الأساليب الشيطانية فلم يُفلحوا بكسب جماعاتٍ كبيرةٍ إليهم بل عناصر معدودة، ولكن في الوقت نفسه كانوا قد أفسدوا هؤلاء الشباب، وأبعدوهم عن دينهم، وغدوا أقرب إلى العلمانية.

ومع كل جهود المستعمرين الصليبيين والإرساليات التنصيرية بالوقوف أمام انتشار الإسلام بين قبائل الجنوب إلا أنه قد تجاوز العقبات التي وُضعت، وتخطّى الحواجز التي نُصبت، ويكفي أن نعلم أن قبائل اليوروبا قد زاد عدد المسلمين بين أبنائها على النصف، واخترق كل الحدود، ولنذكر حادثةً واحدةً بين قبائل الإيبو التي عُدّت ركيزةً للنصرانية، وكثر فيها المنصّرون الكبار، وكان أحدهم ويُدعى (نواغواي) وأحبّ أن يطّلع على الإسلام ليُجادل أهله، وليعرف نقاط الضعف ـ حسب ظنّه ـ فيدخل منها، فإذا به يعرف الحقيقة فيعتنق الإسلام بعد أن سافر إلى السنغال والتقى بأحد العلماء، والكنيسة عادةً تُحرّم على أتباعها عامةً وعلى المنصّرين منهم خاصةً الإطلاع على الإسلام، والإلتقاء بأهل العلم من المسلمين كي لا يعرفوا عن الإسلام إلا ما يُعطى لهم من قبل قساوستها والبطارقة فيها. ولما أسلم (نواغواي) إذ بستة آلافٍ من أهل البلدة التي يعيش فيها يعتنقون الإسلام، فيقوم بهدم الكنيسة التي كان قد أنشأها، ويشعل فيها النار، ويقيم مكانها مسجداً، ولا يرضى أن يُقام المسجد على أعمدةٍ شُيّدت عليها كنيسة. وتُقام عليه الدعوى، ويقف أمام المحكمة ليقول: إنه هو الذي بناها، وجمع لها التبرعات من سكان البلدة، وها هم أهل البلدة، ويمكن أن يُسألوا عن رأيهم؟ فإذا هم يُجيبون أنهم هم الذين بنوها، ودفعوا التكاليف، وهم الذي هدّموها بأيديهم، وأحرقوها. ولو طلب منهم (نواغواي) بناءها مرةً أخرى وهدمها ثانيةً لفعلوا، وهم على رأيه، يفعلون ما يأمرهم به الإسلام. وقد قضت المحكمة عليه بدفع غرامة الهدم لأنه خرّبها دون إذن البلدية، وغرامة بناء المسجد كذلك وأخذ (نواغواي) يدعو إلى الإسلام بحماسةٍ في بلاد الإيبو، فأسلم على يده في قريةٍ مجاورةٍ ما يقرب

من ألف وخمسمائة شخصٍ. وطلب من أمراء الشمال المساعدة، فوعدوا وأخلفوا، وقبلوا ثم رفضوا، ولم يفتّ هذا من عضده بل زاد من نشاطه، ويُطالبه السكان بزيادة المعرفة غير أنه لا يملكها، وليس هناك من جهةٍ تلبّي طلبه، واستمر يعمل حسب إمكاناته وطاقاته.

بقي البريطانيون يُقاومون الدعوة الإسلامية، ويعملون بروحٍ صليبيةٍ، ويسعون لنشر النصرانية، فلم يكتب لهم ما يرون، فكان الإسلام ينتشر رغماً عنهم أضعاف ما يدخل في النصرانية. وانسحب المستعمرون الصليبيون من نيجيريا بعد أن خلّفوا وراءهم من يُؤدّي دورهم، ويعمل على تنفيذ مخططاتهم ممن ربّوهم على أيديهم، وتحت سمعهم وبصرهم، فإن لم يستطع أحدهم أن يقوم بما عُهد له، استُبدل بآخر أكثر سمعاً لهم، وأكثر حيويةً ونشاطاً، وإذا تهاون مسؤول تسلّم غيره مكانه، لذا كثرت الانقلابات وتعدّدت، والدعوة إلى الإسلام يتيمة، والنشاط النصراني ربيب لكثيرٍ من الجهات كاتحاد الكنائس العالمي، والإرساليات التنصيرية المختلفة، والدول الصليبية الكبرى التي توجه السياسة العالمية، والأمم المتحدة، والشرعية الدولية و. . .

الصراع الحزبي:

لقد حمل الصراع الحزبي في نيجيريا منذ نشأته المعنى العقيدي حيث رغبت إنكلترا بصفتها دولةً استعماريةً أن تتولّى تنظيماتٍ سياسيةٍ في الجنوب لتمرّسها على القيادة فتُساعدها بالإدارة أثناء وجودها، وتخلفها بعد رحيلها، تخلفها في تطبيق السياسة الاستعمارية الصليبية. ولتستطيع هذه التنظيمات حسب الخطة الموضوعة الوقوف في وجه الشمال، والسيطرة عليه، والعمل دون انتشار الإسلام نحو الجنوب، بل ومحاربة الإسلام، والعمل على تهديمه بإفساد أبنائه وإبعادهم عن عقيدتهم، ثم محاولة كسبهم إلى النصرانية. وتستطيع بريطانيا من خلال قيام هذه التنظيمات من اصطفاء العناصر القادرة على الإدارة، المؤثّرة على الشعب، المتمكّنة من جمع

الناس حولها، والمؤهّلة لتنفيذ السياسة الاستعمارية الصليبيـة، وعلى هذا المخطط بدأت التنظيمات الحزبية تقوم في نيجيريا.

أسّس (هاربرت ماكولي) الحزب القومي الديمقراطي عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م)، وكان نشاطه مركزاً في مدينة لاغوس، وما حولها، وكان زعيمه صاحب إمكاناتٍ استطاع من خلالها أن يستقطب حوله الكثير من الزعماء، غير أنه بقي في منطقته، ولم يتمكّن نشاطه من تجاوزها إلا بحدودٍ ضيقةٍ، وعندما مات الزعيم بعد الحرب، حدثت الانشقاقات، فكل رغب بالزعامة، وكان من قبل تحت جناح الزعيم الهالك.

ووُجد أيضاً الاتحاد الشعبي الذي أسّسه «راندل».

وتأسّس اتحاد الشباب النيجيري برئاسة «أوريساديب»، وكانت الرغبة بالزعامة، والغرور باللقب العلمي هو الحافز لقيام هذه التنظيمات لذا لم تجد بريطانيا ضالتها بهم، رغم إظهار العطف والتأييد.

ورأت بريطانيا الدولة المستعمرة ضرورة قيام تنظيمٍ واحدٍ في الجنوب لتنشأ عند الأعضاء فكرة وحدة الجنوب، فتأسّست عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) حركة شباب نيجيريا، واعتمدت على وحدة القبيلة، وقيام قيادةٍ تُنظّم القبائل في عقدٍ واحدٍ، غير أن وحدة القبيلة كانت أقوى من هذا التنظيم الذي ليس له هدف واضح، وكان الهدف فعلاً غير ظاهرٍ إذ هو الوقوف في وجه الإسلام كعقيدةٍ، وفي وجه الشمال كإقليمٍ حيث يضمّ ثقل المسلمين، لذا حدث الانشقاق على أساسٍ قبليٍ.

فكرت الدولة المستعمرة بريطانيا بقيام تنظيمٍ يشمل نيجيـريا كلهـا تحت شعار الوطنية على أن تكون الزعامة للنصارى، وهذا أمر ممكن ما دامت نسبة النصارى كبيرةً نسبياً، ويعتمـدون على دعم قبليٍ كبيرٍ نسبيـاً أيضاً، وأخيراً يتفوّقون على غيرهم من حيث التعليم نتيجة الاهتمام الزائد بهم من قبل المستعمرين الصليبيين، ومن قبل الإرساليات التنصيرية و. . . وأعطي الضوء الأخضر لأحد أولئك الذين يحملون لقباً علمياً، كي يقبله

زعيماً ذلكم الذين يعيشون عقدة نقصٍ في هذا الموضوع، فيرون فيه قائداً عظيماً للإدارة، ولو كان ذلك اللقب في البيطرة فهم من الذين يتردّدون عليه. وانطلق الدكتور (ناندي إزيكوي) عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) ووضع ميثاق الشباب، ولما برزت إمكاناته، ونجحت الفكرة، أخذ يُنادي بالاستقلال، وتأسّس حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون، ومقرّه في العاصمة لاغوس، وذابت في كيانه بقية التنظيمات التي تتلقّى التوجيه من بريطانيا، وكثر أتباعه لدى قبيلة الإيبو، قبيلة الزعيم، والقبيلة التي يكثر فيها النصارى أتباع عقيدة الدولة المستعمرة، وزاد النشاط أثناء الحرب العالمية الثانية.

وبعد الحرب وجد رجال قبيلة اليوروبا أن قبيلة الإيبو قد ذهبت بالقيادة، وتدعمها القواعد التي هي أيضاً من أبناء القبيلة نفسها، فتحركت العصبية، وأسّس «أباكيمي أواولو» حزب «جماعة العمل» عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، ولكن بقي أتباع في قبيلة اليوروبا لحزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون، وقاموا يُعارضون حزب جماعة العمل، ويتزعم هذه المعارضة «ايدالابو»، وهو ممن ينتمي إلى الإسلام، ولكنه يعدّ من أعوان «ناندي إزيكوي».

ووجد حزب الشعب، وهو حزب صغير في الجنوب، ويقوم على أبناء القبائل من غير الإيبو.

وقام حزب شعب الوسط في الغرب والشمال معتمداً على المجموعات غير المسلمة التي تعيش في كلتا المنطقتين، ويتزعّم هذا الحزب «صاموئيل اكينتولا» من الإقليم الغربي، ويحصل هذا الحزب على تأييد حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون.

وهكذا فقد عمّ التنظيم أقاليم الجنوب على اختلافها، وتُعادي هذه التنظيمات الشمال كإقليمٍ لأن أهله ممن ينتمون إلى الإسلام، وتُعادي المسلمين أيضاً كعقيدةٍ، وبرز زعماء هذه التنظيمات في الأوساط السياسية،

وعُرفوا في المجتمعات، أما الشمال فلا تنظيم فيه، ولكلٍ رأيه يتعصّب له. عند ذلك رأى أمير الشمال «أحمدو بيللو» إيجاد تنظيمٍ، وحدةً للرأي، وتنظيماً للجهود، ووقوفاً واحداً أمام بقية التنظيمات التي تستهدف الشمال والإسلام، فتأسّس حزب «هيئة مؤتمر الشمال» الذي عُرف باسم «السلاما» برئاسة الأمير نفسه «أحمدو بيللو»، وهم من سلالة الملوك الفولاني، ورئيس وزراء الإقليم الشمالي، وله نفوذ بين المسلمين. غير أنه لم يلبث أن تأسّس حزب آخر هو اتحاد العناصر الشمالية (الصوابا) برئاسة المعلم أمين، وهو ذو اتجاهٍ علماني، ويُعدّ امتداداً لحزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون.

ولما ابتدأت الانتخابات أخذت تظهر القوة العددية، وقد مرّ معنا أن سكان الإقليم الشمالي يُشكّلون ٥٢,٨٪ من مجموع السكان، وبالتالي فإن مُمثّلي هذا الإقليم سيتفوقون على بقية ممثلي الأقاليم جميعها عددياً، أي أن كلمتهم هي المسموعة، ورأيهم هو المعمول به، وهذا ما تقف ضده بريطانيا لذا لم يلبث أن فرط عقد الائتلاف بين هيئة مؤتمر الشمال وجماعة العمل الذي قام لاستلام السلطة، ولم يمض على قيامه سنةً واحدةً وخاصةً أن هذا الائتلاف قد فضح أهداف المعارضة المتمثّلة في حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون.

وأُعيدت الانتخابات كلعبةٍ من ألاعيب الاستعمار فنجح حزب هيئة مؤتمر الشمال، ولكن حصل منافسه حزب اتحاد العناصر الشمالية على بعض المقاعد، وفشل حزب جماعة العمل في الإقليم الغربي، وفاز حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون في الإقليم الشرقي، كما نجح أعوانه في الإقليم الغربي، وبذا اقتضى قيام ائتلافٍ بين حزب هيئة مؤتمر الشمال وحزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون، وارتاحت الدولة الاستعمارية لهذا إذا أخذ يتغلغل أعوانها في الدولة كلها باسم حزب المجلس الوطني لنيجيريا حسب اللعبة الديمقراطية، ومرت المرحلة الانتخابية أي خمس سنواتٍ بشكلٍ هادئٍ.

وجاءت الانتخابات الجديدة ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م)، وعاد الائتلاف كما كان، وتشكّلت الحكومة من هيئة مؤتمر الشمال، والمجلس الوطني، وعضوين من الأحرار. وفي عهد هذا الائتلاف تمّ الاستقلال.

وجاءت الانتخابات الأولى بعد الاستقلال، وجرى تنظيم جديد للتكتلات الحزبية، إذ انتهى التحالف السابق بين هيئة مؤتمر الشمال والمجلس الوطني، وتشكّل التحالف الوطني النيجيري الذي يضمّ سبعة أحزابٍ أكبرها هيئة مؤتمر الشمال، والديمقراطي الوطني النيجيري الذي يضمّ مجموعة تنظيماتٍ وُجدت حديثاً، ونجح هذا التحالف في الشمال والغرب، وتسلّم السلطة في الإقليمين. كما تشكّل التحالف التقدّمي الذي يضمّ أربعة أحزابٍ أكبرها حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا (حزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون سابقاً) ومعلوم أن الكاميرون قد ترك الاتحاد مع نيجيريا وانضمّ إلى الكاميرون الفرنسي سابقاً، ومن أحزاب التحالف التقدّمي حزب جماعة العمل في الإقليم الغربي. ولما ظهر رجحان كفّة التحالف الوطني النيجيري أخذ حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا، وحزب جماعة العمل يدعوان لمقاطعة الانتخابات، وكذلك بقية أحزاب التحالف التقدّمي، وبدأت الدعايات ضدّ الحكومة، والإشاعات عن عدم نزاهة الانتخابات، وكانت المقاطعة شاملةً في الإقليم الشرقي، وواسعةً في منطقة لاغوس، وهذا ما دعا إلى إجراء انتخابات تكميليةٍ في الإقليم الشرقي، ومنطقة لاغوس، وبعض الدوائر في الإقليم الغربي، أما الشمال فقد أسفرت الانتخابات فيه عن فوز حزب هيئة مؤتمر الشمال بلا نزاعٍ.

وعندما أُجريت الانتخابات التكميلية تمخّضت عن فوز مرشحي التحالف التقدّمي بالمقاعد كلها في الإقليم الشرقي، أما الإقليم الغربي فقد فاز حزب شعب الوسط بزعامة أكينتولا، وهو من التحالف الوطني النيجيري، وفشل حزب جماعة العمل وهذا ما جعل الحقد يملأ قلوب قادة التحالف التقدمي وأتباعهم.

ولما كانت الأكثرية بجانب الإقليم الشمالي نتيجة العدد فإن الذين يرغبون بالزعامة لا بدّ من أن يطلبوا التعاون مع حزب هيئة مؤتمر الشمال، كما أن الذين يريدون للبلاد الاستقرار، والعمل على وحدة الصف، وجمع الكلمة، لا بدّ من أن يطلبوا الطلب نفسه، وكذلك فإن الذين لا يعرفون ألاعيب الاستعمار وأساليبه، ولم يرتبطوا به، أو بأتباعه لا شكّ أنهم يطلبون التعاون مع المسلمين، وأخيراً فإن الذين اقتنعوا بالحياة السياسية الديمقراطية، من حكم الأكثرية، والائتلاف، والمنافسة الحزبية هؤلاء أيضاً لا يرون بدّاً من التعاون مع الشمال، وأخذ بعض هؤلاء يقترح ويُقدّم المطالب صراحةً فحمل الاستعمار الحقد عليهم، وامتلأت قلوب النصارى وحتى الوثنيين غيظاً منهم، ومن هؤلاء (صاموئيل اكينتولا) زعيم حزب شعب الوسط في الإقليم الغربي، و(فستوس أوكوتي إيبو) أحد زعماء الإقليم الشرقي، ووزير المالية الاتحادي، وعُدّوا عملاء للمسلمين، وستقع عليهم العقوبة التي تقع على المسلمين.

رأت الدوائر الاستعمارية الصليبية، ومن سار إلى جانبها من يهودٍ وغيرهم أن الحبل طويل، وأن المسلمين سيكون لهم دور كبير ما داموا هم الأكثرية، وما دامت اللعبة الديمقراطية هي المتبعة، لذا لا بدّ من حلٍّ، ولو أن الكثير من المسلمين غير ملتزمين بل إن بعضهم علمانيون، ويسيرون في فلك أوربا، ويُقلّدون أسلوب حياة أبنائها كلياً ويتبعونهم، ولكنهم مع ذلك لا يوثق بهم، فقد يتبدّل الواحد منهم فجأةً، ويعود إلى عقيدته، وربما يكون أبناؤهم وأحفادهم من الملتزمين بأمور دينهم لذلك لا يركن إليهم، ولا يصحّ الاعتماد عليهم، ما دام هناك نصارى، وما دام يوجد غير مسلمين من وثنيين... فالحاجة إليهم غير ضرورية، والحلّ الوحيد إقامة حكمٍ عسكريٍ يذلّ المسلمين، ويخنعهم، ويقضي على رؤوسهم، وعلى من كان يرى التعاون معهم ليكون عبرةً فيخيف الآخرين من اعتناق الإسلام، أو يُحاول السير مع أهله أو مساعدتهم.

وتحرّك الانقلابيون وقتلوا بعض رؤوس المسلمين ورموزهم أحمدو

بيللو، وأبو بكر تفاوه بيلوه، وعشرات آخرين، وقتلوا أيضاً من أبدى ضرورة التعاون معهم من النصارى أمثال: صاموئيل اكينتولا، وفستوس أوكوتي إيبو في فجر ٢٤ رمضان ١٣٨٥ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٦٦ م)، وإخفاءً لحقيقة الانقلاب تحرّك قائد الجيش ضد الانقلابيين، ولكن استسلموا له فلم يعاقبهم، فكانت اللعبة مفضوحةً، وصبيانيةً. وأُلغيت التنظيمات السياسية كلها باستثناء حزب المؤتمر الوطني لنيجيريا في الإقليم الشرقي، وحزب جماعة العمل في الإقليم الغربي، وكُلّف بإدارة الإقليم، وحزب اتحاد العناصر الشمالية (الصوابا) وكُلّف أيضاً رغم قلّة أتباعه وضعفه على إدارة ذلك الإقليم، وهذان الحزبان يُؤيّدان إدارة الإقليم الشرقي وحزب المؤتمر الوطني لنيجيريا.

ولما اشتدّت النقمة على عناصر الإيبو النصارى، وتعرّضوا للقتل في عدة جهاتٍ، قام نصارى الشمال من الهاوسا باستلام السلطة منهم لحمايتهم، وبذا انتقلت الرئاسة من أيدٍ نصرانيةٍ إلى نصرانيةٍ أخرى ولكنها في الشمال، وللتمويه ادعت الدوائر الاستعمارية أن الحركة مسلمة ما دامت شماليةً، فالرأي العام العالمي لا يعرف الشمال إلا مسلماً، ولا يعرف أن هناك نصارى، أما المسلمون في بقية الأمصار فلا يعرفون شيئاً، لا شرق ولا غرب، ولا شمال ولا جنوب.

وقامت قبائل الإيبو في الإقليم الشرقي بذبح المسلمين الذين يعملون في ذلك الإقليم، وقامت ردّة فعلٍ في الإقليم الشمالي ضدّ رجال قبائل الإيبو الذين انفصلوا بإقليمهم باسم حكومة (بيافرا).

غير أن الخوف على قبائل الإيبو كان قد انتهى موقّتاً، ولذلك وحتى لا تتكرر المشكلات رأت الدوائر الاستعمارية أنه من الأفضل قيام حكمٍ عسكريٍ أو مدنيٍ يتزعّمه قادة علمانيون، وتبقى دولة نيجيريا موحدةً، وحدث انقلاب، ورفع الحظر عن النشاط السياسي، ووجدت خمسة أحزابٍ تُمثّل كافة أقاليم نيجيريا غير أنها بعيدة عن التمثيل الإقليمي أو

العقيـدي، ووُجد في مقـدمتها الحـزب الوطني النيجيـري بزعـامة شيخـو شـاغاري الـذي نجـح في منصب رئـاسـة الجمهـوريـة، وحـزب الشعب النيجيري، وجرى ائتـلاف بين هذين الحـزبين، وتسلّم السلطة، غير أن الائتلاف قد فُصمت عُراه، وشكّل حزب الشعب النيجيري ائتلافاً جديداً باسم (ائتلاف الأحزاب التقدّمية)، ويضمّ حزب الوحدة النيجيري، وحزب التحرير الشعبي، والحزب الشعبي لنيجيريا الكبرى، ووقف هذا الائتلاف موقف المعارضة.

وعـاد (تشوكـوميكا أوجـوكـو) من المنفى، وانضم للحـزب الـوطني النيجيري إشارةً إلى أن الأحزاب لم تقم على أساسٍ إقليميٍ أو عقيديٍ، وجرت الانتخابات، وتنافست فيها ستة أحـزابٍ، ولكن لم يلبث أن وقع انقـلاب محمد بخـاري، ففـرض الحـظر على النشـاط السيـاسي، وبقي الخطر، وجاء انقـلاب (إبراهيم بـابا نغيـدا) الذي لا يـزال في السلطة، واستمرّ الحظر على الأحزاب السياسية. ثم سمح بإنشاء حزبين سياسيين فقط ولكن كان هذا نظرياً، وكانا تحت جناحه. ولما أعلن رفع الحظر عن النشاط السياسي تشكّل مباشرةً خمسة وثلاثون حزباً، غير أن ثلاثة عشر منها فقط هي التي استكملت إجـراءات التسجيـل، ثم رجـع الـرئيس فـألغى التنظيمات السياسية التي تأسّست جميعها، وكان يوجد الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وحزب المؤتمر الجمهوري الوطني، وحُلّت الأحزاب كلهـا، ولا يزال الحظر قائماً.

الباب
الثالث عشر

الكَامِيرُون

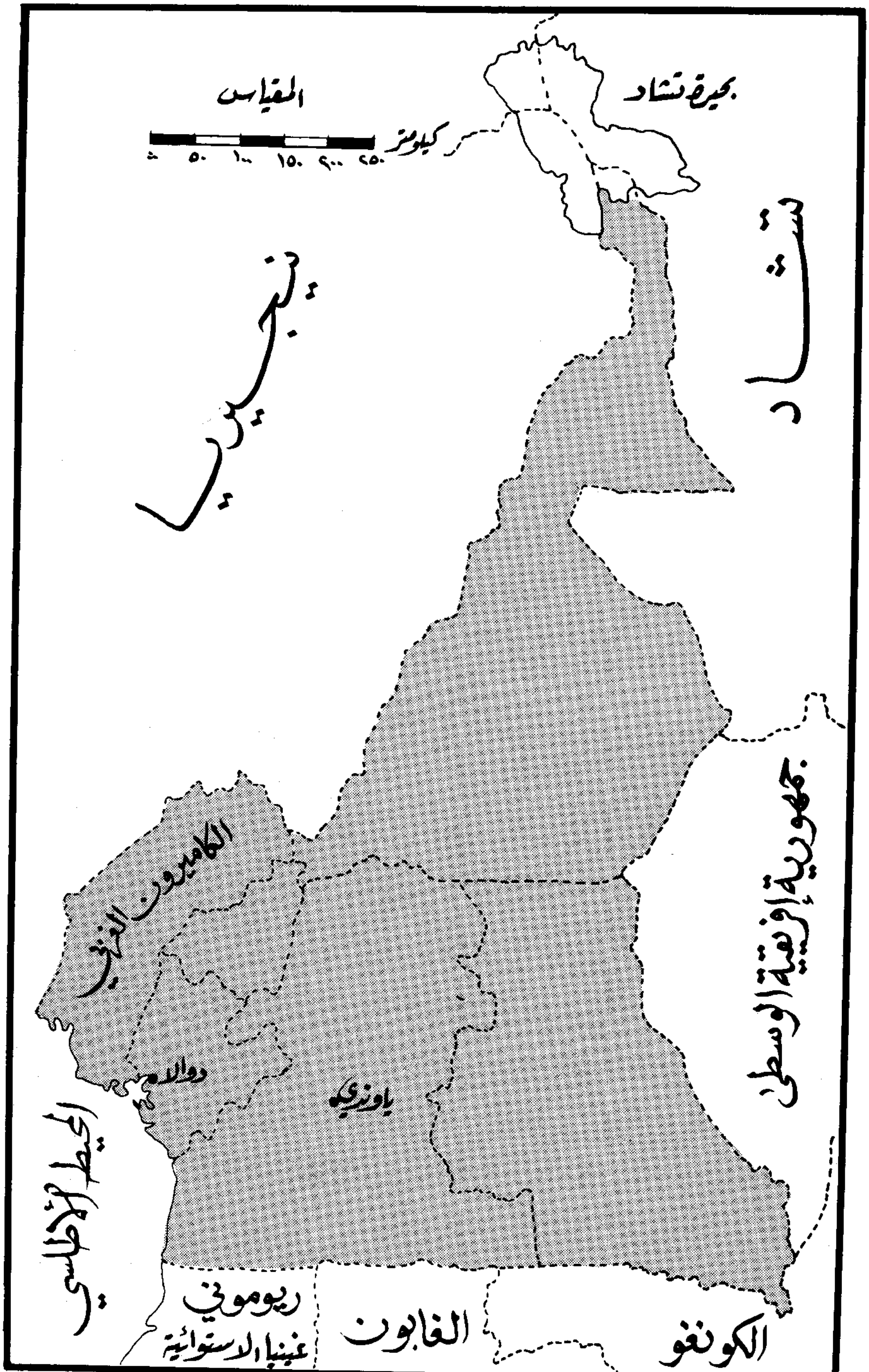

المصور رقم [١٤]

لمحة عن تاريخ الكاميرون قبل إلغاء الخلافة

وصل الإسلام إلى الكاميرون عن طريق الشمال إذ أن التجار المسلمين في شمالي إفريقية قد اجتازوا الصحراء الكبرى بقوافلهم، ووصلوا إلى المناطق السودانية، وعن طريقهم انتشر الإسلام في هذه الجهات، وتمتدّ الكاميرون نحو الشمال حتى خط العرض ١٣° شمالاً فتضمّ مناطق سودانيةً واسعةً شمال خط الاستواء، بل إن بعض القبائل التي تتنقل في جهات الكاميرون الشمالية تدّعي أنها من أصلٍ عربي، ومن بين هذه القبائل قبائل «الشوا» المعروفة.

ووصل الإسلام إلى الكاميرون أيضاً من جهة الغرب عن طريق الدعاة الذين كانت تُرسلهم دولة المرابطين، كما أن الموحدين الذين خلفوا المرابطين في حكم شمال غربي إفريقية قد ساروا على نهج أسلافهم في إرسال الدعاة، وكثرت المناطق الإسلامية، ونشأت سلطنات إسلامية في مناطق شمالي الكاميرون ومنها: سلطنة «غاروا» وسلطنة «لاميدو» المعروفة بـ «ذي بوبا».

وبقيت المناطق الشمالية إسلاميةً عدة قرونٍ، على حين بقي سكان الغابات وثنيين حتى جاء المستعمرون الصليبيون.

وصل البرتغاليون في مطلع القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي) إلى دلتا الكاميرون، وقد سُمّيت المنطقة باسم «كاميرون» نسبةً إلى بعض أنواع سمك الجمبري «القريدس» التي وُجدت

هناك، ومن الساحل عمّ الاسم على المناطق الداخلية التي تبعتها.

عرف الرحالة البريطاني «كلابرتون» منطقة الكاميرون الأصلية عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) قادماً من الشمال بعد أن عرف بحيرة تشاد عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م)، وفي الوقت نفسه كان الرحالة الألماني «بارت» يتقدّم من الجنوب عام ١٢٦٦ هـ (١٨٥٠ م)، وقد وصل إلى المناطق الداخلية عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) وأسّس الألمان محميةً لهم من المناطق التي عرفوها، وبسطوا نفوذهم عليها، وذلك عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) وأخذوا في استثمارها.

ونتيجة المنافسة الاستعمارية والصراع بين دول أوربا على الغنائم كانت الأزمة المراكشية عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)، وقد أرادت ألمانيا أن تحول دون عزم فرنسا على توطيد نفوذها في مراكش (المغرب)، غير أن ألمانيا لم تنل من هذه الأزمة سوى نجاحٍ جزئيٍ لأن مؤتمر الجزيرة الذي انتهى في شهر صفر من عام ١٣٢٤ هـ (نيسان ١٩٠٦ م) أعاق عمل فرنسا بحلّ القضية المراكشية تحت ضمانٍ دوليٍ، ولكنه خوّل فرنسا وكذلك إسبانيا حق تنظيم الضابطة (الشرطة المراكشية).

وظهرت أزمة أغادير عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) إذ أرسلت ألمانيا طراداً إلى أغادير كنوعٍ من التهديد، وكمحاولة لإثبات المكانة والعمل على حصول نصيبٍ من الغنيمة، فهي تعلم حقاً أنها لا تستطيع الآن أن تحول دون توطيد نفوذ فرنسا في مراكش، ولكنها تريد أن تجبر فرنسا على دفع شيءٍ لرضا ألمانيا، أي لتحصل على جزءٍ من الأراضي أينما كان، وكما يقول الألمان أنفسهم على تعويضات. والواقع أن فرنسا قد أرضت ألمانيا بإعطائها القسم الداخلي من الكونغو الخاص بها (الكونغو الفرنسي)، وهكذا توسّعت أراضي المحمية الألمانيّة، وحملت كلها اسم الكاميرون.

وفي الحرب العالمية الأولى دخل البريطانيون والفرنسيون عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) المحمية الألمانية واتفق الحلفاء بعد الحرب فيما

بينهم على تقسيم الكاميرون الألمانية بين الفرنسيين والإنكليز، وجاءت معاهدة فرساي في ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ (كانون الثاني ١٩١٩ م) مؤيدةً ذلك.

وفي ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (٢٠ تموز ١٩٢٢ م) أصبح القسم الأكبر من الكاميرون بموجب نظام الانتداب الموضوع من قبل عصبة الأمم تحت الانتداب الفرنسي (٤٣٢,٠٠٠ كيلومتر مربع) بينما وضع نطاق ضيق صغير في الغرب تحت الانتداب الإنكليزي (١٤٥,٢٦٥ كيلومتر مربع)، وضُمّ الجزء الشمالي منه إلى نيجيريا زيادة، وتولّت إدارته بهذه الصفة عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م).

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة إلى الاستقلال

اتبعت الدولتان الصليبيتان انكلترا وفرنسا سياسةً استعماريةً في الأجزاء الكاميرونية التي وضعت تحت انتدابهما من استغلالٍ وتفرقةٍ بين القبائل والسكان، وتنصيرٍ، ومحاربةٍ للإسلام، واستمرّ ذلك ما يقرب من ربع قرنٍ، عاش الأهالي خلال هذه المدة في ضيقٍ نفسيٍ مما يُعانون من الفقر، والذلّ، والجهل، وجرّ أبنائهم نحو الكفر والفساد بما يُهيّأ لهم من أسباب ذلك كله.

وبعد الحرب العالمية الثانية وُضعت الكاميرون بموجب قرارٍ من هيئة الأمم المتحدة تحت نظام الوصاية الدولية بموجب اتفاقية الوصاية المؤرّخة بـ(١٣ كانون الأول ١٩٤٦ م) ١٩ محرم ١٣٦٦ هـ، وبدأت فرنسا تحكم المناطق التي تحت يدها باسم الوصاية الدولية، ولكنها جابهت حركة مقاومةٍ قويةٍ من قبل السكان، تُطالب بالحكم الذاتي، ثم الاستقلال، وحاولت تهدئة الأوضاع بتأليف حكومة برئاسة النصراني الكاثوليكي «أندريه ماري أمبيوا» الموالي للحزب النصراني الكاثوليكي الفرنسي، وذلك عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٧ م) غير أن حركات المطالبة بالاستقلال لم تهدأ.

وفي ١١ ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٥٨ م) أعلن مجلس الكاميرون التشريعي رسمياً بتصميم شعب الكاميرون على وصول دولته إلى الاستقلال في بداية عام (١٩٦٠ م) ٣ رجب ١٣٧٩ هـ.

وفي ٢٢ ربيع الثاني ١٣٧٩ هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٥٩ م) أخبرت

فرنسا الأمم المتحدة عن نيتها في منح الكاميرون الاستقلال في مطلع العام القادم (١٩٦٠ م) ٣ رجب ١٣٧٩ هـ. وفي اليوم المحدد فعلاً احتفلت الكاميرون باستقلالها برئاسة «أحمدو أهيدجو» الذي تسلّم رئاسة الوزارة منذ عامين، وهو زعيم حزب اتحاد الكاميرون.

وجرت انتخابات المجلس الوطني في ٥ شوال ١٣٧٩ هـ (الأول من نيسان ١٩٦٠ م) فاز فيها حزب اتحاد الكاميرون الذي تدعمه قبائل الشمال المسلمة، وقد ألّف «أحمدو أهيدجو» اتحاداً بين حزبه «حزب اتحاد الكاميرون» وبقية الأحزاب التي كان أقواها «حزب الكاميرون التقدّمي» برئاسة شارل عسّال.

وفي ذي القعدة ١٣٧٩ هـ (أيار ١٩٦٠ م) انتخب المجلس الوطني الجديد «أحمدو أهيدجو» أول رئيسٍ للبلد، وعُيِّن شارل عسّال رئيساً للوزراء. واندمج الحزبان بعضهما مع بعض، كما التحقت بهما أحزاب أخرى، وكان للتجمع الحاكم ٧٤ مقعداً في المجلس الوطني، من أصل مائة مقعدٍ، وهو عدد مقاعد المجلس الوطني التشريعي الكاميروني يومذاك.

أما الكاميرون الذي تحت الانتداب الإنكليزي ثم تحت نظام الوصاية الدولية فيتألف من إقليمين شمالي، وجنوبي، وقد ضُمّ الشمالي إلى نيجيريا قبل أن تنال نيجيريا استقلالها الذي تمّ في شهر ربيع الثاني ١٣٨٠ هـ (تشرين الأول ١٩٦٠ م). وقد أجرت الأمم المتحدة استفتاءً في هذين الإقليمين في شعبان ١٣٨٠ هـ (شباط ١٩٦١ م)، وأيّد سكان الإقليم الشمالي الانضمام إلى نيجيريا بأغلبية ١٤٥,٢٦٥ صوتاً ضدّ ٩٧,٦٥٤ صوتاً. وقرّر سكان الإقليم الجنوبي في الاستفتاء ذاته الانضمام إلى جمهورية الكاميرون بأغلبية ١٣٥,٨٣٠ صوتاً ضدّ ٣٠,٠٠٠ صوت.

وفي ٢١ ربيع الثاني ١٣٨١ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦١ م) تمّ ضمّ إقليم الكاميرون الجنوبي الإنكليزي إلى جمهورية الكاميرون ضمن اتحادٍ حملت الدولة بعده اسم «جمهورية الكاميرون الاتحادية»، وأصبح

«جون نيجو فونشا» رئيس وزراء الكاميرون الغربية، وزعيم حزب الكاميرون الديمقراطي نائباً لرئيس الجمهورية «أحمدو أهيدجو».

وأصبحت اللغتان الفرنسية والإنكليزية رسميتين في البلاد، أما الدستور فقد أخذ من دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة. وللبلاد مجلس نيابي موحد. وغدا الكاميرون الإنكليزي يُعرف بالكاميرون الغربي، والكاميرون الفرنسي بالكاميرون الشرقي.

الفصل الثاني

الاستقلال

٣ رجب ١٣٧٩ هـ - ......
١ كانون الثاني ١٩٦٠ م - ......

حصل الكاميرون الشرقي على الاستقلال في ٣ رجب ١٣٧٩ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٦٠ م)، وحمل اسم جمهورية الكاميرون، وتمّ ضم الكاميرون الغربي إلى جمهورية الكاميرون في ٢١ ربيع الثاني ١٣٨١ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦١ م)، وأصبح اسم الدولة «جمهورية الكاميرون الاتحادية».

أُعيد انتخاب أحمدو أهيدجو رئيساً في شهر المحرم ١٣٨٥ هـ (أيار ١٩٦٥ م)، وفي جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ (أيلول ١٩٦٦ م) اتبعت سياسة الحزب الواحد عندما اتحد الحزبان الرئيسيان «حزب اتحاد الكاميرون» و«حزب الكاميرون الديمقراطي» مع المعارضة، وتشكّل من الجميع حزب «الاتحاد الوطني الكاميروني»، وتوسّع هذا الحزب أيضاً ليضمّ منظمات البلد السياسية كلها من ثقافيةٍ، واجتماعيةٍ، وحرفيةٍ. وكان الحزب الوحيد المعارض هو حزب «اتحاد شعب الكاميرون» وعُدّ حزباً يسارياً متطرفاً، وشيوعياً موالياً للصين لذا فقد صدر مرسوم بحلّه، وسُحق نهائياً عام ١٣٩١ هـ، غير أن قادته قد تابعوا نشاطهم في المنفى، ويُقيم أكثرهم في باريس.

وأُعيد انتخاب «أحمدو أهيدجو» رئيساً للبلاد من جديدٍ في شهر المحرم ١٣٩٠ هـ (آذار ١٩٧٠ م) وأصبح «سولومون مونا» نائباً للرئيس،

وكان قد جاء رئيساً لوزراء الكاميرون الغربي منذ عامين بـدلاً من «جون نيجو فونشا».

وفي جمـادى الأولى ١٣٩٢ هـ (حـزيـران ١٩٧٢ م) انتهى نـظام الجمهورية الاتحادي، وأصبحت البلاد جمهورية متحدة بعد مـوافقةٍ تمّت باستفتاءٍ شعبيٍ لوضع دستورٍ جديدٍ ينصّ على ذلك، وأُلغي مكتب نائب الرئيس الذي كان يشغله رئيس وزراء الكاميـرون الغربي، وتمّت صيـاغة نظامٍ سياسيٍ وإداريٍ متكاملٍ بشكلٍ سريعٍ.

وفي ربيع الثاني ١٣٩٣ هـ (أيار ١٩٧٣ م) جرت انتخابات المجلس الوطني لمدة خمس سنـواتٍ، وأُعيد انتخـاب أحمدو أهيـدجو رئيسـاً في جمادى الأولى ١٣٩٥ هـ (نيسان ١٩٧٥ م) تمّ تعديل الدستور، واختير (بول بيا) من الكاميرون الغربي رئيسـاً للوزراء، رغم قيام معـارضةٍ تـدعو إلى العودة إلى النظام الاتحادي لإبعاد أصحاب الثقافة الإنكليزية عن السلطة التنفيـذية، وكـان ذلك في رجب ١٣٩٥ هـ (حـزيـران ١٩٧٥ م). وأُعيـد انتخاب أحمدو أهيدجو رئيساً بالإجماع في جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ (نيسان عام ١٩٨٠ م) ولمدة خمس سنوات.

وفي مـطلع عـام ١٤٠٣ هـ (تشـرين الثـاني ١٩٨٢ م) أعلن رئيس الجمهورية أحمدو أهيدجو تقديم استقالته وعيّن رئيس الوزراء «بول بيـا» خلفـاً له، ولم يُعط أيـة أسبابٍ رسميـةً لتقديم تلك الاستقـالـة. واختيـر «بيلوبوبا ميجاري» من شمالي الكاميرون رئيسـاً للوزراء. واحتفظ الرئيس السابق «أحمدو أهيدجو» لنفسه بمنصب رئاسـة حزب الكـاميرون الـوطني الاتحادي، وأخذ يُتابع عمله السياسي.

وفي رمضان عام ١٤٠٣ هـ (حزيران ١٩٨٣ م) اختار الرئيس «بـول بيا» وزارةً فنيةً، وأخذ يعمل على إبعاد الرجال المؤيّدين للرئيس السابق. وفي ١٤ ذي القعدة ١٤٠٣ هـ (٢٢ آب ١٩٨٣ م) أعلن الرئيس «بول بيا» عن اكتشافه لمؤامرةٍ تهدف الإطاحة بحكومته، وقام بطرد رئيس الوزراء،

ووزير الدفاع، وكلاهما مسلمان من شمالي الكاميرون.

وفي ١٩ ذي القعدة ١٤٠٣ هـ (٢٧ آب ١٩٨٣ م) أعلن الرئيس السابق «أحمدو أهيدجو» استقالته من رئاسة حزب الكاميرون الوطني الاتحادي، وأخذ ينتقد بشدةٍ نظام الحكم القائم ورئاسة «بول بيا».

وفي ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (أيلول ١٩٨٣ م) انتخب الرئيس «بول بيا» رئيساً لحزب الكاميرون الوطني الاتحادي خلفاً أيضاً للرئيس السابق «أحمدو أهيدجو».

وفي ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٤ م) أُعيد انتخاب «بول بيا» رئيساً، وأُذيع أنه حصل على ٩٩,٩٨٪ من مجموع أصوات الناخبين، وعندما أعاد تشكيل الوزارة ألغى منصب رئاسة الوزراء، وأصبح الحكم رئاسياً، وأعاد اسم «جمهورية الكاميرون» وألغى التسمية السابقة «جمهورية الكاميرون المتحدة».

وكان الرئيس السابق «أحمدو أهيدجو» واثنان من مستشاريه العسكريين قد قُدّموا للمحاكمة لاشتراكهم في محاولة الانقلاب المزعومة عام ١٤٠٣ هـ، وحُكم عليهم بالإعدام، ولكن بعد أسبوعين من صدور الحكم خُفّف، واستُبدل بالسجن مدى الحياة، وكان الرئيس السابق «أحمدو أهيدجو» يعيش في المنفى في باريس، وداكار، وصدر الحكم عليه بالإعدام غيابياً، وبقي في منفاه حتى توفي في ربيع الثاني من عام ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م).

وفي ٦ رجب ١٤٠٤ هـ (٦ نيسان ١٩٨٤ م) حدث تمرّد في عناصر الحرس الجمهوري بقيادة العقيد صالح إبراهيم، وهو مسلم من الشمال، وقد حاول استلام السلطة، وطرد حكومة «بول بيا»، وبعدِ قتالٍ شرسٍ دام ثلاثة أيامٍ ذهب ضحيتها المئات من القتلى حسبما أُذيع وقتذاك، سُحق التمرّد من قبل قواتٍ مواليةٍ للرئيس «بول بيا»، وتشكّلت محاكم عسكرية

حسب رأي الرئيس، وقُدّم الذين اشتركوا في محاولة الانقلاب للمحاكمة في شعبان ١٤٠٤ هـ وصفر ١٤٠٥ هـ (أيار وتشرين الثاني ١٩٨٤ م)، وصدر الحكم بإعدام واحدٍ وخمسين متهماً، ونُفّذ فيهم الحكم. ثم أُذيع فيما بعد أن ستةً وأربعين متهماً آخرين قد نُفّذ فيهم حكم الإعدام بعد ساعاتٍ من صدور الحكم بحقهم.

وتبع تلك الأحداث تغييرات واسعة في الهيئة العسكرية، واللجنة المركزية لحزب الكاميرون الوطني الاتحادي، وفي مؤسسات الدولة، وأُبعد الكثير من المسلمين تحت اسم مُؤيّدي الرئيس السابق، ومناصري حركة الانقلاب، وشفى أعداء الإسلام شيئاً من حقدهم تحت شعار الإصلاح، وفي الوقت نفسه وُضعت رقابة شديدة على الصحافة ووسائل الإعلام كلها. وأعاد الرئيس «بول بيا» تشكيل حكومته من جديدٍ في شوال ١٤٠٤ هـ (تموز ١٩٨٤ م).

وفي اجتماعٍ خاصٍ لحزب الكاميرون الوطني الاتحادي، الحزب الحاكم في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار عام ١٩٨٥ م) أعطي الحزب اسماً جديداً هو «حركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية» وفي شهر ذي القعدة من العام نفسه أُبعد عشرة وزراء كجزءٍ من التغييرات المكثّفة التي قام الرئيس بها.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) ادّعى أعضاء حزب الكاميرون الوطني الاتحادي في المنفى أنه قد تمّ اعتقال ٢٠٠ - ٣٠٠ رجل من معارضي الحكم في الأشهر القليلة الماضية، وأن بعض هؤلاء قد تعرّض لأنواع من الضرب والإهانة والعذاب الشديد، وإن كان قد أُفرج عن قليلٍ منهم.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (مطلع عام ١٩٨٦ م) جرت انتخابات امتدت ثلاثة أشهرٍ، ونتج عنها تغيرات شاملة في البنية الداخلية لحركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية، الحزب الحاكم، حيث استبدل أكثر من

نصف رؤساء الحزب البالغ عددهم تسعة وأربعون قائداً. وتمّت المنافسة على عددٍ من المراكز الإدارية الرئيسية بين أكثر من مرشحٍ واحدٍ من القادة الحزبيين.

وأُعيد أيضاً في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) تنظيم مكتب الرئيس، وعُيِّن أربعة وزراء جددٍ في إعادة تشكيل الحكومة.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (مطلع عام ١٩٨٧ م) طُرد وزير الخارجية «وليم اتكي مبوماوا» من منصبه طرداً بعنفٍ وتشهيرٍ لأنه وقّع على اتفاقيةٍ مع المجر لإعادة العلاقات السياسية بينهما دون معرفة الرئيس الكاميروني. كما اعتقل عدد من الصحفيين لنشرهم بعض الأسرار أو الموضوعات ذات الحساسية الخاصة، وفيهم عدد من الصحفيين الرسميين لجريدة الحكومة اليومية، وفي الوقت نفسه شهدت مؤسسات النشر التي تملكها الدولة تغيرات واسعة.

وفي ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) وضع المجلس الوطني علامةً سريةً جديدةً تمّ تأمينها للترشيح المتعدد في الانتخابات العامة، وفي شهر صفر ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م) أعطى أكثر من ٤٠٪ من عامة الشعب أصواتهم لمرشحي حركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية المعتمدين من قبل الحكومة للمقاعد المائة والستة والتسعين كأعضاء للمجلس البلدي.

فرضت الحكومة في شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م) سياسة تقشفٍ على الشعب، وفي ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) وقعت أحداث شغبٍ في جامعة ياوندي إذ خرج الطلاب محتجين على تأخير دفع المنح الجامعية، فاعتقل ثلاثمائة طالبٍ. وفي الوقت نفسه أُشيع أنه جرت محاولة انقلابٍ بقيادة رئيس أركان القوات الجوية العقيد (نانسو).

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (مطلع عام ١٩٨٩ م) قُدِّمت انتخابات الرئاسة لتتزامن مع الانتخابات العامة للمجلس الوطني في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) بحجة التقنين في النفقات. وإن التعديلات

الدستورية هي التي أعطت الصلاحيات للرئيس بإمكانات تقديم الانتخابات، كما مكّنته من زيادة عدد أعضاء المجلس الوطني من ١٥٠ عضواً إلى ١٨٠ عضواً، وقد اعتُمدت هذه التعديلات في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) من قبل المجلس الوطني. وفي انتخابات الرئاسة أُعيد انتخاب «بول بيا» رئيساً دون منازعٍ، وحصل على ٩٨,٧٥٪ من مجموع الأصوات، وكان للناخبين في انتخابات المجلس الوطني ولأول مرةٍ الخيار بانتخاب مرشحين من قبل حزب «حركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية» الحزب الحاكم، لذا كان مائة وثلاثة وخمسون ممثلاً جديداً في المجلس الوطني.

وأعاد الرئيس «بول بيا» تشكيل الحكومة في شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م)، كما أعاد تنظيم البناء الإداري، فدمجت بعض الوزارات بعضها مع بعض، واقتضى ذلك إلى إعفاء بعض الوزراء من مناصبهم، ودمج منصب أمين سر الحكومة مع مدير الحكومة الرئاسية وأصبح يحمل اسم الأمين العام للرئاسة. وقامت حملة ضدّ الفساد أدّت إلى اعتقال أكثر من مائة ضابطٍ، ومنفّذي الصناعات التي تملكها الدولة، واتهم الجميع بسوء التصرف بالأموال العامة.

وتشكّلت وحدة شرطةٍ خاصة في رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) لمحاربة الإرهاب والجريمة، وتمّ تعيين ثلاثة ضباطٍ كبارٍ في وظائف أمنيةٍ بارزةٍ.

وفي مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م) أعربت لجنة حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية عن قلقهما على أوضاع السجون السياسية في «ياوندي» العاصمة، وفي مدينة «دوالا»، وذكرت عن وجود ما لا يقل عن أربعين سجيناً سياسياً، وأن عدداً منهم قد احتجزوا دون محاكمةٍ بعد حادثة التمرّد التي وقعت في رجب ١٤٠٤ هـ (نيسان ١٩٨٤ م).

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (مطلع عام ١٩٨٩ م) قام المحامون

بإضرابٍ عام احتجاجاً على التجاوزات الدستورية التي يقوم بها الحكم وأعوانه.

السياسة الخارجية:

كانت العلاقات وطيدةً بين الكاميرون وفرنسا، وكانت الكاميرون عضواً في منظمة الدول التي تتكلم اللغة الفرنسية، والتي كانت عاصمة الكاميرون «ياوندي» إحدى قواعدها الرئيسية. وفي جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ (تموز ١٩٧٣ م) أعلن الرئيس «أحمدو أهيدجو» أن بلاده ستنسحب وشيكاً من هذه المنظمة. وفي عام ١٣٩٤ هـ قامت حكومة الكاميرون بإجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لإعادة النظر في اتفاقيات التعاون بينهما، حسب النهج السياسي الذي تبنّاه الرئيس الكاميروني، وهو اتباع سياسةٍ خارجيةٍ مستقلةٍ.

وفي ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م) اضطرت الكاميرون إلى طلب مساعدة الطوارىء الدولية عقب انفجار الغازات البركانية من قاع بحيرة «نايوس» في شمال غربي البلاد، والذي أدّى إلى مقتل أكثر من ١٧٠٠ إنسانٍ، وسبّب فزعاً نفسياً واسعاً.

بعد حرب رمضان ١٣٩٣ هـ (تشرين الأول ١٩٧٣ م) بين البلدان العربية ودولة اليهود في فلسطين انقطعت العلاقات السياسية بين الكاميرون ودولة اليهود، واستمرّت منقطعةً مدة ثلاث عشرة سنةً، ثم عادت إلى حالتها الطبيعية بعد زيارةٍ قام بها رئيس وزراء دولة اليهود «شمعون بيريز» إلى الكاميرون في ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م)، وقد تزامنت هذه الزيارة مع الثوران البركاني في الكاميرون.

وكانت العلاقات معلقةً مع فرنسا على الرغم من أن الكاميرون تحرص ألا تكون معتمدةً عليها من الناحية الاقتصادية على الأقلّ مع أن فرنسا كان بيدها أكثر من ثلث العمليات التجارية الخارجية للكاميرون.

وتوطّدت العلاقة بين الكاميرون وفرنسا بعد زيارة الرئيس «بول بيا» لفرنسا عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) حيث كانت زيارةً رسميةً طُرحت فيها أوجه التعاون الاقتصادي.

وكانت آمال الكاميرون متجهةً في السنوات الأخيرة نحو زيادة الاستثمارات الأجنبية فيها، وخاصةً الاستثمارات الألمانية حيث زار المستشار الألماني «هلموت كول» الكاميرون عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م).

وكانت تقوم نزاعات على الحدود بين الكاميرون ونيجيريا، ثم تحسّنت الأوضاع بعد زيارة الرئيس النيجيري رسمياً للكاميرون، وأعلن أن ضوابط حدودية مشتركة سيتم إنشاؤها قريباً.

وجرت مفاوضات بين الرئيس «بول بيا» وبين رؤساء كلٍ من الكونغو والغابون عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م)، وصدر بيان عن الرؤساء الثلاثة يستعطفون فيه الدائنين من الخارج وضع برنامج لسداد الديون.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة جمهورية الكاميرون ٤٧٥,٤٤٠ كيلومتراً مربعاً. وتُشرف من ناحية الغرب على المحيط الأطلسي، ويبلغ طول سواحلها ٤٠٢ كيلومتراً، ويصل طول حدودها البرية إلى ٤,٥٩١ كيلومتراً، منها ١٦٩٠ كيلومتراً مع نيجيريا، و١٠٩٤ كيلومتراً مع تشاد، و٧٩٧ كيلومتراً مع جمهورية إفريقية الوسطى، و٥٥٣ كيلومتراً مع الكونغو، و٢٩٨ كيلومتراً مع الغابون، و١٨٩ كيلومتراً مع غينيا الاستوائية (إقليم ريوموني).

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) أحد عشر مليوناً، وبذا تكون الكثافة ٢٣ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد. وإن كانت هذه الكثافة تختلف بين منطقةٍ وأخرى.

وتمتدّ بين خطي عرض ٢° شمالاً و١٣° شمالاً فتشمل بذلك منطقتين مناخيتين أولاهما استوائية بين ٢ ـ ٨° غير أن الارتفاع يجعل المناخ الاستوائي لا يظهر إلا في بعض المناطق الساحلية. وثانيتهما سودانية (السافانا) بين ٨ ـ ١٣° حيث تنتشر المراعي الطويلة. وتشمل الغابات ٥٤٪ من المساحة العامة، و١٨٪ مراعي، و١٣٪ مساحات زراعية، و١٥٪ مرتفعات ومستنقعات و. . .

الصراع الإقليمي:

تألّفت الكاميرون سياسياً من إقليمين كان أحدهما، وهو الشرقي

والأكبر تحت الانتداب الفرنسي، وكان ثانيهما، وهو الغربي تحت الانتداب الإنكليزي، فنشأ في كلٍ منهما ثقافة تختلف عن ثقافة الآخر، وترتبط بثقافة الدولة المستعمرة لذلك الإقليم، فلما ضُمّ بعضهما إلى بعضٍ في ٢١ ربيع الثاني ١٣٨١ هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٦١ م) بقي هذا التباين، وقضى الاتحاد بينهما أن يكون زعيم الإقليم الشرقي رئيساً للدولة، وزعيم الإقليم الغربي نائباً للرئيس. واستمرّ ذلك حتى مطلع عام ١٤٠٣ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٢ م) أي ما يزيد على العشرين سنة حيث تسلّم زعيم الإقليم الغربي رئاسة الدولة ولا يزال إلى الآن وذلك بعد تعيينه من قبل سلفه الرئيس الأول للكاميرون. وكان لكل طرفٍ جماعته الخاصة به، ورجاله المخلصون له رغم اندماج الحزبيين بعضهما مع بعضٍ وتأسيس حزبٍ واحدٍ منهما، ولا يزال الوضع إلى الآن حتى ليعدّ نفسياً، وتُطلق كل مجموعةٍ على الأخرى صفة انتمائها للدولة التي كانت تستعمرها، فيقول الشرقيون مثلاً الإنكليز وأعوانهم ويقصدون زعماء الإقليم الغربي، وكذلك ينعت الغربيون الشرقيين بالفرنسيين والكراهية قائمة بين الجانبين ولو شعورياً، وإن كانت تخفّ مع الزمن. وإن هذا الصراع ليحمل في خفاياه الصراع العقيدي، لأن نسبة النصارى في الإقليم الغربي هي أكبر من نسبتهم في الإقليم الشرقي، وكذلك فإن نسبة المسلمين في الإقليم الشرقي هي أكبر من نسبتهم في الإقليم الغربي، فالمسلمون غالبيتهم في الأجزاء الشمالية التي هي ضمن الإقليم الشرقي بل إن زعامة الإقليم الشرقي كانت منهم، وأصبح رئيس الوزراء منهم عندما سيطر زعيم الإقليم الغربي على السلطة، واستمرّ ذلك مدةً حتى أصبحت تُشاع أخبار محاولات الانقلاب والتمرّد، وتُلصق بالشماليين، ويُقصد بهم المسلمين، فيُبعدون، ويُطردون، أو يلقون حتفهم حسب خطةٍ مرسومةٍ.

الصراع العنصري:

تعيش في البلاد أكثر من مائتي قبيلةٍ تعود لأصولٍ مختلفةٍ، وأهمها:

(الشـوا) وتدّعي أنهـا من أصولٍ عـربيةٍ، و(التـوبوري) وهي من قبـائـل الكـانوري التي هي في تشـاد، ونيجيريـا، و(الكـوتـوكـا)، و(الفـولاني) و(الماسا) وكلها تدين بالإسلام، وتُشكّل ما يزيد على ثلث سكان البلاد.

وتعيش في الهضـاب الغربيـة قبائـل زنجية أشهـرهـا: (البـامليكـة) و(البامون) وهي مزيج من قبائل البانتو المتعددة، والإسلام فيها قليل.

وتسكن السهول الجنوبية قبائل (الفانج). ونجد الأقزام في الغابات.

واللغة الرسميـة هي الفرنسيـة في الإقليم الشرقي، والإنكليـزية في الإقليم الغربي، أي أن للبلاد لغتين رسميتين، وتنتشر العربية بين قبائـل الشمال لتعليم الدين الإسلامي، وفي المساجد، وتوجد لغة البانتو بين قبائل أهلها، كما توجد السواحيلية، ولكل قبيلةٍ لغتها.

كانت الغلبة في البداية لقبائل الشمال إذ كانت لها سلطنات مُنظّمة على حين تعيش قبـائل الجنـوب في فوضى دون تنـظيمٍ، وتعتنق قبائـل الشمـال الإسلام فهي ذات حضـارةٍ، وتطوّرٍ، ونـظرةٍ معينةٍ إلى الحيـاة، وتطلّعٍ إلى المستقبل، ووعيٍ لمهمتهم في هذه الدنيا؛ بينما كانت قبائل الجنوب بدائيةً في تفكيرها، وثنيةً في عقيدتها ذات وعيٍ محدودٍ، وتفكيرٍ قاصرٍ، وكانت قبائل الشمال تتجـه نحو قبـائل الجنـوب بقلوبها تـريد أن تُرشدها إلى طريق الخير، وتسير بها نحو النور، وفي الوقت نفسـه تنظر قبائل الجنوب للشمال نظرة احترامٍ وتقديرٍ، وتعترف بتفوّقها عليها وتطوّرها وحضارتها وتتمنّى أن تصل إلى مستواها.

فلما جاء المستعمرون الصليبيون مدّوا أيديهم إلى الـوثنيين وعملوا على تنصيرهم صليبيةً، وللإفادة منهم ضدّ المسلمين، كما عملوا على رفع وضعهم ليتغلّبـوا على المسلمين، وفي الوقت نفسـه عملوا على إضعاف المسلمين والحطّ من شـأنهم بـالإذلال، والإفقـار، وإبعـادهم عن التعليم بمحاربة الكتاتيب ومراكز العلم للناشئة، واستغلّ الـوثنيون هـذه الفرصـة للنهوض ووقف النصارى والمتنصّرون إلى جانبهم وأخذ الصراع بين قبائل

الشمال وقبائل الجنوب، ولكن كان صراعاً يحمل بين طياته الصراع العقيدي حيث يُقصد المسلمون عندما تذكر قبائل الشمال أو الشمال.
وكانت الغلبة للنصارى والوثنيين لا بكثرة العدد، ولا بالقوة، ولكن بالتخطيط، والعمل على إفساد المسلمين، وبثّ الأفكار الغريبة حتى نشأت أجيال من الشمال قبلت مفاهيم المستعمرين التي طرحوها للتعاون بين فئات المجتمع جميعها تحت شعار ما أسموه لهم بـ (الوطن)، فلما عملوا معاً تحت هذا العنوان من الوطنية، فقد المسلمون شخصيتهم، وساروا ضمن الجماعات التي تمكر بهم، فتغلبت عليهم، وأخذت تُنفّذ مخططاتها عليهم، وكان المسلمون، والنصارى، والوثنيون معاً، واختلطوا معاً ضمن منظماتٍ واحدةٍ وعندما اشتدّ عود النصارى بما كسبوه إلى عقيدتهم من أبناء الجنوب انبروا يُقاتلون المسلمين تحت مظلة القيام بتمرّد، ومحاولات الانقلاب حتى بعُد المسلمون عن الساحة وانفرد بها النصارى، فأخذوا يُخططون كما يريدون، ويُعطون الإحصاءات حسب هواهم، ويُوزّعونها في العالم، وتتبنّاها الأمم المتحدة، وتعمّ، وتقدّم إحصاءات غير صحيحةٍ عن أعداد المسلمين في الكاميرون. وربما يسكت الجنوب عمن يسايرهم من الشمال تحت عناوين مختلفة من الوطنية، والحزبية، والقومية، والاشتراكية وغيرها من المصطلحات العالمية، وكل ذلك مرحلياً، فإذا ما سنحت لهم الفرصة، وجاء الدور الصليبي العالمي عملوا بهم إبادة تحت مظلّة النظام الدولي.

الصراع الحزبي:

نشأ حزب اتحاد الكاميرون في أول الأمر برئاسة «أحمدو أهيدجو»، وكانت أكثر عناصره من الشمال على أساس أنهم أكثر وعياً، كما وجد حزب الكاميرون التقدمي برئاسة شارل عسال وأكثر عناصره من غير المسلمين ونال الإقليم الشرقي الاستقلال نتيجة مطالبة هذا الحزب بالحكم الذاتي، وقيادة البلاد نحو الحرية، وأما الإقليم الغربي فقد برز فيه حزب

الكاميرون الديمقراطي الذي كان يقود إقليمه وكانت أكثر عناصره نصرانية، ولما تمّ الاتحاد بين الإقليمين اندمج الحزبان بعضهما مع بعضٍ تحت اسم حزب «الكاميرون الوطني الاتحادي» بزعامة أحمدو أهيدجو، كما ضمّ هذا الحزب جميع أحزاب المعارضة والمنظمات الاجتماعية والثقافية عدا حزب «اتحاد شعب الكاميرون» الشيوعي الذي طرد أتباعه، ولوحقوا حتى خرج أكثر زعمائه من البلاد.

كان «أحمدو أهيدجو» يظنّ أن انضمام معظم العناصر على اختلاف عقائدها في الحزب الحاكم يُهيىء للجميع الفرصة للعمل والنشاط، وإبراز الكفاءات بصورةٍ متساوية داخل ما عُرف باسم «الوطن». ثم بعد مدةٍ قصيرة تبين خطأ تقديره إذ وجد النصارى في الحزب وخارجه، ومن كسبوهم إلى صفهم باسم الوطنية بعد أن أفسدوهم، وحصلوا على دعمٍ من الاستعمار الصليبي، وأخذ الصراع خطأً عقيدياً. وأخذ «بول بيا» السلطة ممثلاً النصرانية.

غيّر «بول بيا» اسم حزب «الكاميرون الوطني الاتحادي» إلى «حركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية» ليقطع صلة أعضاء الحركة بالماضي الحزبي كله. وبقيت هذه الحركة هي المسيطرة على السلطة حتى اليوم، وإن بقي الرئيس السابق أحمدو أهيدجو يدّعي زعامة حزب الكاميرون الوطني الاتحادي حتى توفي، وهو في منفاه، وكذا لا تزال بعض العناصر القديمة تقول هذا، وهي في المنفى.

إضافة إلى حزب اتحاد شعب الكاميرون الذي يُعدّ غير شرعي أيضاً، ويقيم بعض أعضائه في المنفى، والحزب الوحيد الحاكم هو «حركة الكاميرون الديمقراطية الشعبية».

الصراع العقيدي:

تبلغ نسبة المسلمين في الكاميرون ٦٠٪ من مجموع السكان، ويكثر المسلمون في الشمال بل إن قبائل الشمال تعدّ مسلمة كلها، ويقلّون في

الجنوب، ومن هذه الكثرة كانوا يحكمون البلاد، ورضي الفرنسيون مكرهين أن يكون الحكم بيد المسلمين، ولما اتحدّ الإقليمان، وكانت نسبة النصارى في الإقليم الغربي أكبر منها في الإقليم الشرقي، وكان بعضهم مهيأً للإدارة، أخذت المخططات تلعب دورها حتى تسلّم النصارى السلطة، وأخذوا بملاحقة المسلمين تارةً باسم محاولة انقلاب، وأخرى باسم قيام تمرّد، وثالثةً باسم تأييد الرئيس السابق، ورابعةً باسم الانتماء لتنظيمٍ غير مشروعٍ، وخامسةً باسم الإرهاب، وكذلك أخذوا بإذلالهم باسم الرجعية، والأصولية، وأسماء تشيعها الشراكة الدولية و. . . .

ومما اتبعه الحكم النصراني في الكاميرون إعطاء نسبٍ غير صحيحةٍ عن أصحاب الديانات، ومما يُقدّمونه من هذه النسب، أن الوثنيين يشكلون ٥١٪، والنصارى ٣٣٪، والمسلمون ١٦٪ وهذا غير صحيح أبداً. ولو كان قريباً من الحقيقة لما سمح الفرنسيون وغيرهم من المستعمرين أن يتسلّم أحمدو أهيدجو الرئاسة الأولى، ولا فيما بعد عندما سيطر النصارى أن يتسلم رئاسة الوزارة مسلم أبداً، وسياسة المستعمرين معروفةٍ في كل بلدٍ دخلوه، والنسب الصحيحة هي:

المسلمون	٦٠٪.
الوثنيون	٢٤٪.
النصارى	١٦٪.
	١٠٠٪

والسلطة الآن بيد النصارى، ويقومون بحربٍ ضدّ المسلمين في مختلف جوانب الحياة، حتى يتمكّنوا منهم تماماً، وبعدها ليس أمام المسلمين إلا الردّة أو الإبادة، فليحذر المسلمون ما يُدبّر لهم.

وقد لاحظنا أن الصراع الإقليمي، والعنصري، والحزبي كلها تسير في خطٍ عقيديٍ، والنصارى يملكون الإمكانات كلها، والمسلمون مغلوب على أمرهم.

الخاتمة

لقد كانت دول غربي إفريقية الثلاث عشرة ذات الأكثرية المسلمة أكثرها من نصيب الاستعمار الفرنسي، إذ أن تسعاً منها كان يخضع لفرنسا، ويمكن أن نضيف إليها تشاد، وجمهورية إفريقية الوسطى، ونضيف إليها من دول الأقليات الغابون، وبذا يكون عدد الدول الإفريقية التي تبعت الاستعمار الفرنسي في غربي إفريقية هو اثنتا عشرة دولةً، على حين خضع لإنكلترا ثلاث دولٍ فقط هي: غامبيا، وسيراليون، ونيجيريا، ودولة من دول الأقليات هي غانا، وهذا يدلّ على أن إنكلترا لم تكن تهتم كثيراً بغربي إفريقية، وإنما كان اهتمامها بالدرجة الأولى في شرقي إفريقية حيث الطريق إلى الهند، عن طريق قناة السويس، وهذا ما فسح المجال لفرنسا كي تسيطر على أجزاء واسعةٍ في غربي إفريقية، على حين لم نجد لها ذلك النشاط في شرقي القارة.

أما البرتغال فكانت تستعمر دولةً واحدةً هي غينيا ـ بيساو وفي الوقت نفسه تُسيطر على دولةٍ أخرى من دول الأقليات هي أنغولا، وتلك الدولتان من بقايا الاستعمار الأول حيث كانت البرتغال أولى الدول الأوربية التي سارت مع سواحل إفريقية الغربية كخطةٍ صليبيةٍ في محاولةٍ لها لتطويق مسلمي الأندلس في المرحلة الأولى، فلما سقطت الأندلس بيد النصارى الإسبان والبرتغال زاد من نشاط الصليبيين فانطلقت إسبانيا نحو الغرب للوصول إلى شرقي ديار المسلمين، واتجهت البرتغال بمزيدٍ من الشجاعة ونشوة النصر على سواحل إفريقية الغربية لمداهمة جنوبي ديار المسلمين

وكلتا الدولتين إسبانيا والبرتغال سارتا حسب خطةٍ مرسومةٍ ومتفقٍ عليها، وكانت دول أوربا النصرانية تمدّهما بالملاّحين، والبحّارة، والسفن، والرجال، والمال، وكانت حركة ما عُرف بالكشوف الجغرافية. ولم تكن البرتغال تلك الدولة القوية، ولا الكثيرة السكان لتستطيع المحافظة على مستعمراتها، الواسعة فتنازلت عن كثيرٍ منها لمصلحة الدول الأوربية المنافسة لها، وخاصةً إنكلترا، وفرنسا، وهولندا، ولكن أبقوا لها بعض هذه المستعمرات، ومنها غينيا ـ بيساو، وأنغولا، ولم تُنافسها عليها تقديراً لمواقفها الأولى، وإرضاءً للكنيسة إشعاراً لوحدة أوربا النصرانية تجاه العالم الإسلامي.

ويلاحظ أن فرنسا هي الدولة الاستعمارية الأوربية التي تسيطر على أجزاء واسعةٍ من داخل إفريقية وخاصةً في الشمال حيث تشغل الصحراء مساحاتٍ واسعةً منها، حيث نلاحظ هنا في دول غربي إفريقية هذه مالي، وبوركينا فاسو والنيجر هذا إضافةً إلى تشاد وجمهورية إفريقية الوسطى، وهذا يُعطي مُؤشّراً إلى أن إنكلترا الدولة الأوربية المنافسة الأولى لفرنسا بالاستعمار لم تكن لتُعير المناطق الداخلية الاهتمام نفسه الذي تُعيره للمناطق الساحلية، فهي دولة بحرية ذات أساطيل أكثر منها ذات جيوشٍ، وقواتٍ بريةٍ، وهذا ما فسح المجال لفرنسا لكي تتوسّع في الداخل دون منافسةٍ شديدةٍ من قبل إنكلترا الدولة التي هي وفرنسا في سباقٍ دائمٍ لمدّ النفوذ، ومنافسةٍ مستمرةٍ لاستعمار الأراضي. وربما كان هذا سبباً في سير إنكلترا بسياسةٍ استعماريةٍ أكثر مرونةً من السياسة الفرنسية التي تعتمد على استغلال السكان وخيرات البلاد دون الاقتصار على الأرباح التجارية. وكان الاستغلال الإنكليزي بشكلٍ أقل نسبياً من الاستغلال الفرنسي، وإن كانتا في الصليبية كل منهما تتفوّق على الأخرى. وقد يكون التوغّل إلى الداخل هو سبب البطش الزائد إذ في الولوج والخروج صعوبة تُسبّب الخوف من الوقوع في المأزق فيزيد المسؤول اضطراباً بينما يكون المجال مفتوحاً على السواحل، فالمستعمر يبقى مذعوراً، ولو كان متحكماً.

ومما يُلاحظ على دول غـربي إفريقيـة من خلال دراستنـا لها كثـرة الانقلابات العسكرية التي كانت تقع فيها بعد الاستقلال، فهل هي ظاهرة من مظاهر التخلّف التي تعيشها دول القارة الإفريقية وكثير من الدول النامية الأخرى أم هي خاصة بهذه الدول أكثر من سواها؟ الواقع أن التخلّف سبب رئيسي، إذ أن حبّ الزعامة يدفع بالكثيرين إلى ركوب المخاطر والمغامرة، وعدم الرضا بالدنية والاستعداد للارتماء بأحضان الآخرين، وطلب المساعدة ولو من الشيطان في سبيـل الوصـول إلى ما يـرمي إليه، وعـدم الاهتمام بمصلحة البلد، وتفضيل المصلحة الذاتية على كل مـا سواهـا، والرغبة بـالسيـر حسب منهـجٍ غـريبٍ مستقىً من الـدول الكبـرى ليحمــل لقب العلمانية، وتقليد الحياة الغربية بكل ما فيها ليحصل على مظهر التقدّمية حسب منطقه الساذج، وتفكيره المستورد، وعقدة النقص التي عنده، والتي تجعله يضع نفسه وأمته في المرتبة الدنيا، ويضع غيره وبقية الأمم في مكانة الصدارة، والمنزلة العليا. هذا كله صحيح، ومن مظاهر التخلّف، غيـر أنه توجد دول كثيرة من دول العالم الثالث، وفقيرة أكثر من الدول الإفريقية هذه، ولكن لا تحدث فيها مثل هذه الانقلابات، فما السبب؟. إن الدول النامية التي يرسّخ فيها النفوذ الاستعماري وخاصـةً الإنكليزي والأمـريكي بشكلٍ ثابتٍ، أو تقوم فيها سلطة قوية تقبل التوجيه، وترضى بالارتباط فإن الحكم يثبت فيها دون انقلاباتٍ، ويستقرّ دون قلاقل. وكذلك الدول التي يكون فيها المسلمون أقليةً لا وزن لهم فتكون الحرب الصليبية أخفّ ولا يُبالى كثيراً بشؤونها فقد تنجو هذه الدول من كثرة التغييرات.

أما دول غربي إفريقية هذه فإن المسلمين أكثرية، ويجب مراقبتهم دائماً كي لا يصلوا إلى السلطة، كي لا يعملوا على نشر الإسـلام، كي يكـونوا ضعفـاء أذلاء فقراء ينـظرون إلى النصارى نـظرة القـوة، والغنى، والعلم، فإن لم يعمل المسؤول بهذه التعليمات وجب تغييره، ومعناه وقوع انقلاب. وإذا بدا من آخر ضعف في التنفيذ أو توانٍ بالخطة وجب تبـديله، وحدوث انقلاب، ويجب ألا يكون عنده رحمة على المسلمين، ولا عطف

على شعبه إن كان ممن ينتمي إلى الإسلام فإن وجد عنده ذلك يجب عزله. كما يجب ألا يعطي إحصاءات صحيحةٍ عن تعداد المسلمين ونسبتهم، ولا يُصرّح تصريحات فيها معانٍ إسلاميةٍ ذات مدلولٍ ووعيٍ، وإنما عليه تقويم أقوال فيها سطحية، وتدلّ على نفاقٍ، ولا يُطبّق منها شيئاً، بل يُخالفها باستمرارٍ وصراحةٍ، ويُقبل على الزنا، والخمر، والسفور، والاختلاط، وعليه أن يسخر من تعاليم الدين، وإن لم يفعل يُبدّل. وهذا ما يقع في دول غربي إفريقية دائماً لذا تكثر فيها التغييرات.

وربما يكون للدولة ذات النفوذ السابق دور في وصول زعماءٍ للسلطة، ويتغيّرون باستمرار، وهذا ما يتعلّق بفرنسا التي تمتاز مستعمراتها السابقة بكثرة الانقلابات، إذ لم تُحسن اختيار من يخلفها في تطبيق السياسة الاستعمارية الصليبية مكانها، وربما يتساءل المرء فيقول: هذه هي نيجيريا كانت تحت الاستعمار البريطاني وقد وقعت فيها انقلابات كثيرة غير أن هذا ربما يعود إلى كثرة أعداد المسلمين وتجمّعهم في إقليمٍ واحدٍ الأمر الذي يجعل لهم قوة وسيطرة على بقية الأقاليم وهذا ما تُحاربه الدول الاستعمارية كلها من باب الصليبية، وهذا بالتالي يُؤدّي إلى كثرة التغييرات بالإضافة إلى كثرة النصارى بالنسبة إلى بقية الدول الإفريقية، وهم المعتمدون من قبل بريطانيا الدولة المستعمرة، ويكثرون أيضاً في إقليمٍ واحدٍ غير أنهم يستطيعون مضاهاة المسلمين بالعدد، وهذا ما يؤدّي إلى التغييرات، كما أن غنى نيجيريا بالنفط وبقية الثروات الزراعية، وكثرة السكان، وحرص الدوائر الاستعمارية على هذه الدولة العملاقة، وهذا يُؤدّي بدوره إلى زيادة التغييرات، ولكن بشكلٍ عامٍ فالانقلابات في المستعمرات الفرنسية تزيد عدداً عنها في المستعمرات البريطانية.

وقد يكون لطبيعة شعب الدولة الاستعمارية، وأسلوب استعمارها، وطريقة تصرّفها مع مستعمراتها دور في كثرة الحركات، إن محاولة فرنسا في القبض على جوانب الحياة كلها من إداريةٍ، واقتصاديةٍ، وعسكريةٍ، وسياسية بيدٍ من حديدٍ، وشدّتها في قمع الحركات والبطش بأصحابها، وعدم وجود

أية مرونةٍ في التفاهم، أو ليونةٍ في التفاوض، والمركزية القوية في الأسلوب الاستعماري كل هذا جعل عند شعوب مستعمراتها استمراريةً لهذه التصرّفات فالشدّة تُولّد الأحقاد، والإذلال يُورث عدم الإمكانية ويُنشيء عقدة النقص، والضغط يُؤدّي إلى الكسر، وكثرة التحمّل تدعو إلى طلب النصح والمساعدة، وهذا كله يستدعي التغييرات.

وينتج عن السياسة الفرنسية جفاء بين الدولة الاستعمارية ومستعمراتها فيُؤدّي بعد الاستقلال إلى توجّه نحو جهةٍ أخرى، وكي يحلّ نفوذ مكان آخر يحدث انقلاب، وإذا كان النفوذ الاستعماري السابق على شيءٍ من القوة تتكرّر الانقلابات، وهذا ما حدث في الدولة التي استقلّت بعد الحرب العالمية الثانية إذ دخل الاستعمار الأمريكي الساحة ليحلّ محلّ النفوذ السابق سواء أكان فرنسياً أم بريطانياً أم غيره فوقعت الانقلابات وتكرّرت حسب قوة النفوذ السابق.

وأخيراً نرجو من الله أن يستيقظ المسلمون من غفلتهم، ويأخذوا العبرة مما يجري على أرضهم، وما يُعانونه من حقد الصليبية الذي برز في الآونة بشكلٍ مخيفٍ وعنيفٍ وواضح تحت شعار الشرعية الدولية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

التاريخ الإسلامي

* * *

التاريخ الإسلامي المعاصر:

سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية

(في آسيا)

١ ـ تركستان الغربية.
٢ ـ تركستان الشرقية.
٣ ـ قفقاسيا.
٤ ـ باكستان.
٥ ـ أندونيسيا.
٦ ـ اتحاد ماليزيا.
٧ ـ فطاني.
٨ ـ المسلمون في قبرص.
٩ ـ المسلمون في الفيليبين ودولة مورو.
١٠ ـ جزر المالديف.
١١ ـ أفغانستان.
١٢ ـ تركية.
١٣ ـ إيران.
١٤ ـ شبه جزيرة العرب.
- عسير.
- نجد.
- الحجاز.
- البحرين والإحساء والكويت وقطر.
١٥ ـ المسلمون في الهند الصينية.
١٦ ـ خراسان.

(في إفريقية)

١ ـ غينيا.
٢ ـ نيجيريا.
٣ ـ الصومال.
٤ ـ موريتانيا.
٥ ـ أريترية والحبشة.
٦ ـ تشاد.
٧ ـ تانزانيا.
٨ ـ السنغال.
٩ ـ أوغندة.
١٠ ـ ليبيا.
١١ ـ السودان.
١٢ ـ جزائر القُمُر.
١٣ ـ المسلمون في بورندي.
١٤ ـ مالي.
١٥ ـ سيراليون.

* * *

بناة دولة الإسلام ١ ـ ٧

المجموعة الأولى: (١ ـ ١٠)

١ ـ أبو سُبرة ابن أبي رُهم.
٢ ـ أبو سلمة عبد الله المخزومي.
٣ ـ عبد الله بن جحش.
٤ ـ الزبير بن العوام.
٥ ـ زهير ابن أبي أمية.
٦ ـ سهيل بن عمرو.
٧ ـ سعد بن معاذ.
٨ ـ عباد بن بشر.
٩ ـ محمد بن مسلمة.
١٠ ـ أسيد بن الحضير.

المجموعة الثانية: (١١ ـ ٢٠)

١١ ـ الفضل بن العباس.
١٢ ـ جعفر ابن أبي طالب.
١٣ ـ عبد الله بن الزبير.
١٤ ـ عبد الله بن حذافة
١٥ ـ المقداد بن عمرو.
١٦ ـ عقيل ابن أبي طالب.
١٧ ـ صخر بن حرب.
١٨ ـ زيد بن حارثة.
١٩ ـ أبو العاص ابن ربيع.
٢٠ ـ ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة: (٢١ ـ ٣٠)

٢١ ـ العباس بن عبد المطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبد الله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حذيفة ابن عتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة ابن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

المجموعة الرابعة: (٣١ ـ ٤٠)

٣١ ـ مصعب بن عمير.
٣٢ ـ كعب بن مالك.
٣٣ ـ أبو أيوب الأنصاري.
٣٤ ـ سعد ابن أبي وقاص.
٣٥ ـ حمزة بن عبد المطلب.
٣٦ ـ عاصم بن ثابت.
٣٧ ـ عبد الله بن عبد الله.
٣٨ ـ طلحة بن عبيد الله.
٣٩ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.
٤٠ ـ أبو دجانة سماك بن خرشة.

المجموعة الخامسة: (٤١ ـ ٥٠)

٤١ ـ عمرو بن العاص.
٤٢ ـ عكرمة بن عمرو بن هشام.
٤٣ ـ شرحبيل بن حسنة.
٤٤ ـ أبو موسى الأشعري.
٤٥ ـ عياض بن غنم.
٤٦ ـ جرير بن عبد الله البجلي.
٤٧ ـ المثنى بن حارثة الشيباني.
٤٨ ـ خالد بن الوليد المخزومي.
٤٩ ـ عدي بن حاتم الطائي.
٥٠ ـ ثمامة بن أثال.

المجموعة السادسة: (٥١ ـ ٦٠)

٥١ ـ خباب بن الأرت.
٥٢ ـ صهيب بن سنان.
٥٣ ـ بلال بن رباح.
٥٤ ـ عمار بن ياسر.
٥٥ ـ عامر بن فهيرة.
٥٦ ـ مرثد ابن أبي مرثد.
٥٧ ـ سلمان الفارسي.
٥٨ ـ أبو ذر الغفاري.
٥٩ ـ عبد الله بن مسعود.
٦٠ ـ عبد الرحمن بن عوف.

المجموعة السابعة: (٦١ ـ ٧٠)

٦١ ـ أنس بن مالك.
٦٢ ـ البراء بن مالك.
٦٣ ـ جابر بن عبد الله.
٦٤ ـ الطفيل بن عمرو الدوسي.
٦٥ ـ أبو هريرة.
٦٦ ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة.
٦٧ ـ عتبة بن غزوان.
٦٨ ـ معاذ بن جبل.
٦٩ ـ زيد بن ثابت.
٧٠ ـ أبي بن كعب.

سلسلة الخلفاء:

١ ـ الصديق وأسرته رضي الله عنهم.
٢ ـ الفاروق وأسرته رضي الله عنهم.
٣ ـ الأمين ذو النورين وأسرته رضي الله عنهم.
٤ ـ رابع الراشدين علي ابن أبي طالب وأسرته رضي الله عنهم.

- أشواك على الدرب.
- اقتصاديات العالم الإسلامي.
- إلى الدعاة (١ ـ ٢).
- تبصرة الطريق.
- التخلف.
- التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي.
- جغرافية البيئات.
- الجماعات البدائية.
- الجنوح بالأخلاق.
- الجنوح بالعلم أو الذئاب الكاسرة.
- الحضارة المتهاوية.
- سكان العالم الإسلامي.
- سيادة الجهال.
- العالم الإسلامي.
- العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ بلاد الشام والعراق).
- العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ وادي النيل).
- العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه.
- القرامطة.
- الكشوف الجغرافية.
- المرأة المعاصرة.
- المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية.
- المسلمون تحت السيطرة الشيوعية.
- المسلمون والقضايا العامة.
- المشردون.
- مع الهجرة إلى الحبشة.
- المغالطات وأثرها في الأمة.
- المنطلق الأساسي في التاريخ الإسلامي.
- مواقعنا المتأخرة وسبيل التقدم.
- موضوعات حول الخلافة والإمارة.
- ميدان معركة اليرموك.
- هوية الأمة المسلمة.
- وانكشف القناع.

التاريخ الإسلامي

-١٦-

التاريخ المعاصر

شرقي إفريقية

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

المكتب الاسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

-١٦-

التاريخ المعاصر

شرقي إفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

شرقي إفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين. أما بعد :

فإن الصلات بين جزيرة العرب وشرقي إفريقية كانت قويةً قبل الإسلام غير أنها لم تكن راسخة الجذور حيث كانت تقوم على المادة إذ التجارة هي وسيلة الصلة، وما يقوم على المادة تنفصم عراه منذ أول خلافٍ يقع أو أي تعارضٍ بالمصالح يحدث. وقد كان سكان شرقي إفريقية ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى التجار لا يقدمون إلى بلادهم إلا لمصلحتهم، وأنهم ينتزعون منهم ما هو لهم، ويثرون على حسابهم، فكانت نظرتهم إليهم نظرة الشك والريب، وهذه النظرة لا يمكن أن تبقى طويلاً، فأقلّ حادثٍ يمكن أن يمحو كل أثرٍ. وإذا احتفظت اللغات الإفريقية بعددٍ غير قليلٍ من الكلمات العربية فمردّ ذلك إلى أن لغة الأقوى تسيطر، ولهجة التاجر تعمّ. وإذا كان هذا الاحتفاظ قد استمر بل زاد كثيراً فيما بعد فذاك يعود إلى انتشار الإسلام في شرقي إفريقية.

لم يمض وقت طويل حتى داهم الأحباش جنوبي الجزيرة العربية واحتلّوه رغم العلاقات القوية بين المنطقتين، ورغم الصلات المادية المتينة بين الطرفين. ولقد كان هذا الهجوم والاحتلال بدافعٍ وتحريضٍ من الروم الذين يرتبطون مع الأحباش برابطة الدين، وهكذا فقد زال كل أثرٍ للمادة عندما وجدت رابطة العقيدة، وقد فكّر قائد الأحباش إبرهة في غزو مكة وأعدّ العدّة اللازمة وسار إلى وجهته التي قرّر أن يولّيها لكن الله تعالى ردّه

خائباً، وأهلكه وجنده. ولو كان عدد سكان شرقي إفريقية كبيراً يسمح لهم بالحروب والانسياح لانطلقوا نحو الجزيرة العربية يحاولون اقتحامها كما اقتحمها الأحباش. وعلى هذا فقد تغيّرت هذه النظرة بعد الإسلام إذ تغيّرت نفسية التجار العرب بعد أن دانوا بالإسلام، كما تبدّلت نفسية سكان شرقي إفريقية بعد أن رأوا سلوك التجار المسلمين واختلافهم عما كانوا عليه سابقاً، وكما تبدّلت الطبيعة العربية بعد إسلامها تبدلوا هم كذلك بعد إسلامهم إذ صقل هذا الدين الجديد نفسية أبنائه من أي جنسٍ كانوا، ومن أي لون، ومهما كانت الصفات التي يحملونها حيث غدت كلها إنسانيةً.

كان انتشار الإسلام مرافقاً للفتح الذي اتجه نحو الشمال حيث وُجدت التحدّيات، وحيث وقفت في وجهه أقوى دول تلك الأيام وهما: دولة الروم ودولة الفرس، ولذا كان المدّ الإسلامي الأول في الأقاليم التي تتبع تلك الدولتين فعمّ الإسلام الشام، والعراق، وإيران، ومصر، وامتدّ في الشمال الإفريقي، وأجزاء من تركيا، وأواسط آسيا في بلاد ما وراء النهر، وفي السند.

وشاء الله أن تتوقّف الفتوحات لأسبابٍ داخلية أهمها: انصراف الناس إلى الدنيا، وتنافسهم عليها، وترك الجهاد بعد أن سكن من كان أمامهم، وزالت التحدّيات التي كانت سابقاً في وجههم، فأخلدوا إلى الأرض، وانطلق كل في مسعاه منهم من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة.

تابع الذين يريدون الآخرة جهدهم في نشر الإسلام، وكانت التجارة وسيلةً لهم، فانطلقوا مع القوافل دعاةً، أو امتهنوا التجارة وعدّوها طريقة للاتصال بالآخرين، وكانت معاملتهم، وكانت أمانتهم، وكان سلوكهم وسيلةً محببةً لسكان المناطق التي تصل إليها القوافل للتوجّه نحو الإسلام. وكان أسلوبهم في الدعوة، وكانت طبيعة الإسلام التي تنسجم مع الفطرة البشرية، كان كل هذا سبباً لاعتناق الناس الإسلام.

اتجهت قوافل التجار، وسار معها الدعاة نحو جنوب شرقي آسيا، إذ

كانت هذه المنطقة المفتوحة أمامهم إذ أن شمالي آسيا مناطق باردة، مليئة بالغابات، وتكاد تكون خالية من السكان فلا فائدة كبيرة من التجارة فيها، وليس هناك من مجالٍ واسع للدعوة والعمل لنشر الإسلام، كما أن المسلمين في بلاد ما وراء النهر قد غطوا تلك الجهة فانطلقوا يتاجرون بالفراء ويقومون بواجب الدعوة، وفي الغرب أوربا، في الشمال حيث تقف النصرانية مغلقةً أبوابها أمام المسلمين خائفةً من صلة أبنائها بالمسلمين، فقد كانت الكنيسة على يقينٍ من أن الأوربيين إذا اتصلوا بالمسلمين وهم في تفوّقهم القتالي، وسبقهم الحضاري، وتقدّمهم العلمي، ونضجهم في المعرفة والوعي لا بدّ من أن يعتنقوا الإسلام لذا فقد سدّت في وجههم كل طرق الاتصال، ومنها التجارة، والرحلة، وحبست أبناءها عنهم. وأما في الجنوب فقد وصل المسلمون إلى سواحل المحيط الأطلسي، ولم يعلموا بعد ما وراء المياه، وأما باقي إفريقية فصحارى وغابات لا تحتاج إلى قوافل تجارية كبيرة ولا إلى قوافل من الدعاة، وقد غطّى تجّار شمالي إفريقية المسلمون هذه الجهة، وعبروا الصحراء، ووصلوا إلى إفريقية السوداء، وأدّوا دورهم بالدعوة ونشر الإسلام.

لم يبق أمام الدعاة والتجار المسلمين من بلاد العرب ومناطق فارس المشرفة على الخليج العربي سوى التوجّه إلى شواطىء المحيط الهندي فانطلقت السفن الإسلامية من سواحل بلاد العرب الجنوبية، ومن سواحل الخليج العربي الشرقية والغربية نحو جنوب شرقي آسيا، وتركت وراءها سواحل شرقي إفريقية، ولم يكن ذلك التمييز بين شواطىء المحيط الهندي الشرقية والغربية إلا لغنى المناطق الشرقية، وكثرة سكانها، ولفقر الغربية منها وقلّة أهلها، لذا كان التوجّه الواسع نحو جنوب شرقي آسيا على حين عاشت مناطق شرقي إفريقية في الظلّ نسبياً.

انطلق بعض التجار نحو شرقي إفريقية، كما سار بعض الدعاة، واتجه كذلك بعض الفارّين من وجه الدولة لأسبابٍ كثيرةٍ، وكان عملهم ناجحاً غير أنه كان محدوداً بمناطق ضيقةٍ، ومحصورةً على السواحل تقريباً،

والجزر الصغيرة القريبة من الشواطىء، وذلك لقلة السكان، وصعوبة التوغّل إلى الداخل بسبب الغابات في الجنوب أو الجبال في الشمال، أو فقر المناطق في الوسط، ومع ذلك فقد عمّ الإسلام الجهات التي وصل إليها التجار في أي جزء من تلك الأجزاء.

تمتدّ هذه المناطق التي نتحدّث عنها في شرقي إفريقية من خط العرض ١٨° شمالاً عند الحدود السودانية ـ الحبشية على ساحل البحر الأحمر على أساس أن السواحل التي تقع شمال هذا الخط هي سواحل السودان ومصر، وتقع ضمن الأجزاء التي تحدّثنا عنها في الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب، وتمتد على بقية سواحل البحر الأحمر الجنوبية، ثم على شواطىء خليج عدن، فسواحل المحيط الهندي حتى خط العرض ٢٠° جنوباً حيث أقيم ميناء (سُفالة) آخر موقع وصل إليه المسلمون جنوباً على تلك السواحل، ويزيد طول هذه المناطق من الشمال إلى الجنوب على أربعة آلاف وخمسمائة كيلومتر.

ليست هذه المناطق واحدةً في انتشار الإسلام، وإقامة الإمارات، ونسبة المسلمين اليوم، لكنها تختلف بين منطقةٍ وأخرى حسب طبيعة أرضها، وظروف مناخها، ونوع نباتاتها، وعقيدة سكانها، إذ تمتدّ الجبال خلف الساحل في الشمال، وتنتشر الصحارى حتى الشاطىء في الأجزاء الشمالية، ويدين السكان بالنصرانية فيها، على حين تنخفض الأرض بعد السواحل في الجنوب، وتنتشر النباتات والأشجار الاستوائية ولا يعرف السكان سوى الوثنية، ويقلّ القاطنون في هذه الجهات كلها تقريباً عدا الجهات الجبلَية الشمالية حيث يزيدون قليلاً وترتفع كثافتهم نسبياً. وعندما دخل الإسلام إلى هذه المناطق انتشر على الجهات الساحلية في الشمال، وتوقّف عند أقدام الجبال حيث تحصّنت النصرانية، وأمدّتها أوربا بالدعم، وتوغّل المسلمون إلى الداخل في النواحي الصومالية حتى عمّت عقيدتهم الأهالي جميعهم. أما المناطق التي تقع جنوب خط الاستواء فقد ساد الإسلام الجهات الساحلية والجزر القريبة منها، ولم يتعمّق نحو الداخل

لكثافة الغابة، وصعوبة المواصلات، وقلّة السكان، وبدائيتهم، وتقوقعهم على أنفسهم، وطبيعتهم في امتلاء نفوسهم بالشك والريبة من كل غريب، وهذا ما حال دون الاحتكاك بهم، وصعوبة الاتصال بهم، حيث حصروا أنفسهم بالغابة، وعلى هذا يمكننا ملاحظة ثلاث مناطق متباينة في هذه الأجزاء من شرقي إفريقية.

١ ـ القسم الشمالي: ويشمل الحبشة، ويمتدّ من خط عرض ١٣° شمالاً تقريباً عند انتهاء البلاد الصومالية وحتى خط العرض ١٨° شمالاً حيث تبدأ البلاد السودانية.

انتشر الإسلام في الأجزاء الساحلية من هذا القسم نتيجة الدعوة إذ انتقل عدد من الدعاة في صدر الإسلام إلى هذه المنطقة غير أن كنيسة الحبشة قد أثارت أتباعها، وحرّضتهم على الوقوف في وجه المسلمين، فاجتمع قطاع الطرق واللصوص، وانقضوا على العلماء المسلمين فقتلوهم، ومثّلوا بهم، وبقي الصراع في مدينة (مصوع)، ولما رأت الكنيسة تغلّب أتباعها، وانصراف المسلمين إلى الجهاد في الجهات الشمالية، وانشغالهم ببعض مشكلاتهم الداخلية قرّرت الهجوم، وفتح جبهةٍ جديدةٍ على المسلمين لضربهم في القلب نتيجة قربها من مكة والمدينة قواعد الإسلام الأولى، ومركز انطلاقه، ومهوى أفئدة أهله، فشجّعت بعض القراصنة فسطوا على مدينة (جدة)، ودمّروا السفن الراسية هناك، ونهبوا أموالاً كثيرة، وكان الهدف من ذلك أن يدبّ الذعر في صفوف المسلمين، ويبعثوا بجزءٍ من جيوش الجهاد إلى ناحية (جدة) فيخف الضغط عن الجبهة الرومية، إلا أن ردّ الفعل كان قوياً إذ استولى المسلمون على جزر (دهلك)، فكانت قاعدةً لهم للانطلاق إلى السواحل الإفريقية فانتشر الإسلام، وعمّ، وبنى التجار العرب مدينة (هرر)، ولم تستطع الكنيسة ورجالها من القيام بأي ردّ فعلٍ بسبب الهلع الذي وقع في قلوب أتباعها من المسلمين، ثم انتقلت أعداد من المسلمين من أرض العرب إلى العدوة الإفريقية، وكان لهم دورهم في الدعوة، وعمّ الإسلام المنطقة الساحلية المعروفة باسم أريتريا، وانفصل

هذا الجزء عن الحبشة عقيدياً واجتماعياً، كما امتدّ الإسلام جنوباً، وتأسست إمارات إسلامية، وكان الصراع عنيفاً بين الإسلام والنصرانية، وخضعت المنطقة الإسلامية في الحبشة إلى الخلافة العباسية، وإلى المماليك، ثم إلى الخلافة العثمانية، وإن أصبح هذا الخضوع فيما بعد شعورياً.

وضعف أمر المسلمين عامةً، ومنه أمر السلطنات الإسلامية في شرقي الحبشة وجنوبها، وتمكنت المملكة النصرانية الحبشية في الجبال من السيطرة على بعض هذه السلطنات، فلفّتهم تحت جناحها، وفرضت عليهم أحكامها، رغم كثرة المسلمين، ولما أصبح الاحتكاك بين المسلمين والنصارى بصفتهم أتباع مملكةٍ واحدةٍ أخذ بعض الأحباش يعتنقون الإسلام على أنه دين الفطرة، وخشي ملوك الحبشة من هذه الظاهرة إذ كثر عدد الذين أسلموا من الأحباش حديثاً فاتخذوا وسيلة الضغط على المسلمين كي يخنعوا، والعقوبات الصارمة على الذين يعتنقون الإسلام، فأخلد الناس إلى الأرض وخاصةً أنهم الفقراء إذ أن إريتريا وإن كانت في شرقي القارة إلا أن البحر الأحمر لا أثر له حتى لُتعدّ القارة كأنها متصلة بآسيا وهذا ما يجعل أريتريا أقرب إلى الصحراء.

وزاد أمر المسلمين ضعفاً وتوالت عليهم المصائب في المشرق، وفي المغرب، وفي الأندلس، وقوي أمر الصليبية الأوربية، وفكرت المملكة النصرانية الحبشية بغزو المماليك في مصر من جهتها لتؤدّي دورها الصليبي، غير أن مشروعها قد فشل. وطرد النصارى الإسبان والبرتغاليون المسلمين من الأندلس، وانطلقوا يلاحقونهم، ووصل البرتغاليون إلى أقصى الجنوب الإفريقي، والتفّوا حول القارة، واتجهوا نحو الشمال مع السواحل الإفريقية الشرقية، وكانت صيحات المناداة للصليبيين، والترحيب بالبرتغاليين، وطلب الدعم من القادمين، وكانت المساعدات بين الأحباش النصارى وبين البرتغاليين الصليبيين.

وقوي نفوذ الاستعمار الصليبي في الشرق، واحتضن دولة الحبشة النصرانية، ولم يدخل أراضيها، وإنما ساعدها على إذلال المسلمين الخاضعين لها، ورسم لها المخططات، وكان التعاون بين مختلف الدول الاستعمارية وبين مملكة الحبشة حتى أعطوها نصيبها من الصومال عندما اقتسموها فيما بينهم، ونتيجة ضغط النصارى الأحباش على رعاياهم المسلمين، والحديث عنهم أنهم أقلية دار في خلد الكثير من الناس أن أكثرية سكان الحبشة من النصارى، بل كانوا على يقينٍ من ذلك بناء على إحصاءات الأمم المتحدة التي تقدّمها لها الدولة صاحبة العلاقة، أي إحصاءات الحبشة أو ما تزعمه هي وغيرها من الدول التي تحكمها أقلية نصرانية وتتبنّاه الأمم المتحدة التي تسير حسب مخطط الدول النصرانية الكبرى، أي تُؤيّد هذا، وتعدّه صحيحاً، ويأخذه العالم عنها، ويعتبره ثقة.

وتُعدّ دولة الحبشة الوحيدة ذات الأكثرية المسلمة في هذا القسم.

٢ ــ القسم الأوسط: ويشمل الصومال، ويمتدّ من جنوب خط الاستواء بقليلٍ من خط عرض ١° جنوباً إلى خط عرض ١٣° شمالاً، حيث تبدأ المناطق الأريترية. ويعدّ هذا القسم فقيراً إذ هو أقرب إلى الصحراء لأن الرياح الموسمية الصيفية تُغيّر اتجاهها عندما تجتاز خط الاستواء فيصبح اتجاهها من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي أي مسايرةً لخط الساحل الصومالي بعد أن كان اتجاهها من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي قبل أن تجتاز خط الاستواء. وإن مسايرة هذه الرياح لاتجاه الساحل تجعله لا يستفيد منها أي شيءٍ إذ لا يتلقّى غيثاً ولا يُصيبه شيء من حمولتها ببخار الماء فتنتشر لذلك الصحراء حتى خط الساحل، وهذا ما يجعل المنطقة فقيرة على حين أن المناطق الواقعة في مثل هذه العروض في شرقي القارات تكون ذات أمطارٍ صيفيةٍ موسميةٍ غزيرةٍ، وإن كانت تزداد غنىً نسبياً في الجهات الداخلية إذ تتلقّى شيئاً من الأمطار نتيجة الارتفاع. وهذا الفقر جعلها مفتوحةً فأمكن للدعاة المسلمين الولوج إلى الداخل والاحتكاك

بالسكان، والتأثير عليهم، ونقلهم من الوثنية إلى الإسلام. وقامت بعض الإمارات الإسلامية على الساحل أيضاً، كما أن أعداداً من أبناء الصومال قد انتقلوا إلى ديار الإسلام للعمل هناك، وخاصةً في جنوبي بلاد العراق، ونتيجة هذا كله عمّ الإسلام جهات الصومال كلها، بل تكاد تخلو من أي عقيدةٍ سوى الإسلام.

ولما جاء المستعمرون الصليبيون كان حقدهم على أهل الصومال كبيراً لأنهم جميعاً من المسلمين، فقسموه فيما بينهم، فكان لإنكلترا جزء، ولفرنسا جزء، ولإيطاليا آخر، وأعطوا قسماً للحبشة بصفتها دولةً نصرانيةً، وآخر لكينيا حيث يقلّ المسلمون فيها نسبياً، وهذه الأقسام التي أُعطيت للحبشة ولكينيا ستبقى تحت سيطرتهما فيما لو خرج المستعمرون من أرض الصومال، وبذلك يبقى مقسماً، وفي الوقت نفسه تبقى دولة الصومال ضعيفة، ومن ناحيةٍ ثانية تظلّ مناطق نزاع بين دول المنطقة يستغلّه المستعمرون الصليبيون في الوقت الذي يشاءون، ويثيرونه في الزمن المناسب لهم حينما يريدون.

وفي منطقة الصومال اليوم دولتان إسلاميتان هما: الصومال وجيبوتي.

٣ ــ القسم الجنوبي: ويشمل سواحل طويلةً تمتدّ من جنوب خط الاستواء من خط عرض ١° جنوباً تقريباً حتى خط العرض ٢٠° جنوباً حيث توقّف ارتياد المسلمين إلى جنوب ذلك الخط لعدم وجود السكان هناك في تلك الأيام، واقتصر نزول المسلمين على مساحاتٍ ضيقة من السهل الساحلي، وعلى الجزر القريبة من الشاطىء حيث لم يلج المسلمون إلى الداخل حيث تتوقّف مهمتهم إذ لا تجارة، ولا دعوة فليس هناك من مواصلات، وليس هناك من سكان يتبادلون معهم، فالمواصلات معدومة ولا يمكن شقّها لانتشار الغابة، والسكان يخافون من الغريب، فيختفون داخل غابتهم، لا يريدون صلة، ولا يحتاجون إلى شيء لتكون تجارة أو مقايضة.

وإن تركّز المسلمين في مناطق ضيقة من السهل الساحلي والجزر

القريبة منه جعل أعدادهم قليلةً رغم أن الإسلام قد عمّ، وغالباً ما يكون السكان جميعهم من المسلمين. لكن هذا من ناحيةٍ ثانيةٍ قد جعل إماراتهم ضعيفةً لقلّة عدد سكانها، وبالتالي فإن قواتها ضعيفة لا تستطيع ردّ الأقوياء عنها. فلما طلع عليهم المستعمرون الصليبيون البرتغاليون لم يستطيعوا الثبات أمامهم، فاحتلّوا شرقي إفريقية، ودمّروا ما شُيّد منها، وخرّبوا ما عمر، وأفسدوا، وجاروا، غير أنهم لم يتعمّقوا إلى الداخل أيضاً فبقيت جذورهم ظاهرةً على السطح مما سهّل اقتلاعهم وإلقاءهم بعيداً عندما تعاون العثمانيون والعُمانيون ضدّهم ودعمتهم إنكلترا لتحلّ محلّ البرتغاليين.

وجاء العُمانيون إلى شرقي إفريقية، ولاحظوا الخطأ السابق الذي وقع فيه المسلمون السابقون لهم فعملوا على الولوج إلى داخل إفريقية فانتشر الإسلام على طول الطرق التي سلكوها إلى الداخل، وفي الجهات التي حطّ التجار رحالهم فيها، وهذا ما جعل الإسلام محدوداً بالمناطق الساحلية والجزر القريبة منها، وبعض جهات الداخل.

وتوجد في هذا القسم اليوم دولتان إسلاميتان هما: تانزانيا، وجزر القُمُر، وما بقي فأقليات.

٤ ـ ويمكن إضافة دولٍ أخرى إلى شرقي إفريقية ومنها: تشاد، وجمهورية إفريقية الوسطى رغم أنهما من دول وسط إفريقية، وهما إلى غربي إفريقية أقرب منهما إلى شرقيها، وخاصةً أنهما كانتا تتبعان الاستعمار الفرنسي الذي له النفوذ الكبير في غربي القارة، ويحاول جرّ هاتين المنطقتين إلى جهات غربي القارة وربطهما هناك، هذا من وجهة النظر السياسية وبالمقابل فإن هناك صلات مع شرقي القارة لا يمكن إغفالها، وفي محاولة لتوازن الأجزاء وجدنا وضعهما في شرقي القارة، وكذلك فإن العنوان كان يحمل اسم «شرقي إفريقية ووسطها».

نرجو من الله التوفيق، والهداية، وسداد الخطا، وإعطاءنا الرشاد لإمكانية تقديم صورة صحيحة تفيد المسلمين وتخدمهم في معرفة مواطنهم، وتاريخهم، وتعينهم على رسم المخططات اللازمة للنهوض، والصحوة، والوقوف في وجه الأعداء، ثم الانطلاق نحو تحقيق أهدافهم، وتنفيذ مهماتهم في قيادة العالم، وإخراج الناس من الظلمات التي وقعوا فيها إلى النور، والله نعم المولى، ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

غرة ربيع الأول ١٤١٣ هـ.
الموافق ٢٩ آب ١٩٩٢ م.

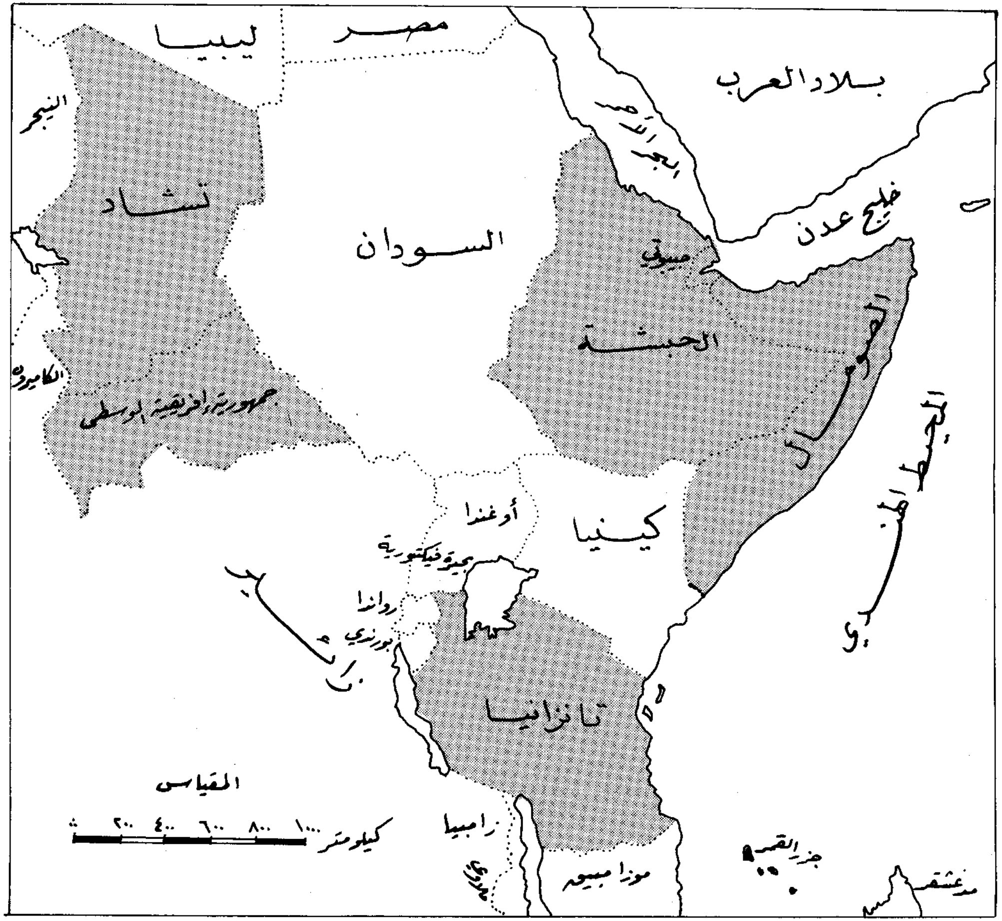

ليبيا
مصر
بلاد العرب
البحر الأحمر
النيجر
تشاد
السودان
خليج عدن
جيبوتي
الحبشة
الصومال
المحيط الهندي
الكاميرون
جمهورية إفريقية الوسطى
أوغندا
كينيا
بحيرة فيكتوريا
رواندا
بورندي
زائير
تانزانيا
المقياس
كيلومتر ١٠٠٠ ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠
زامبيا
ملاوي
موزامبيق
جزر القمر
مدغشقر

مصور رقم [١]

القسم الأول

الحبشة

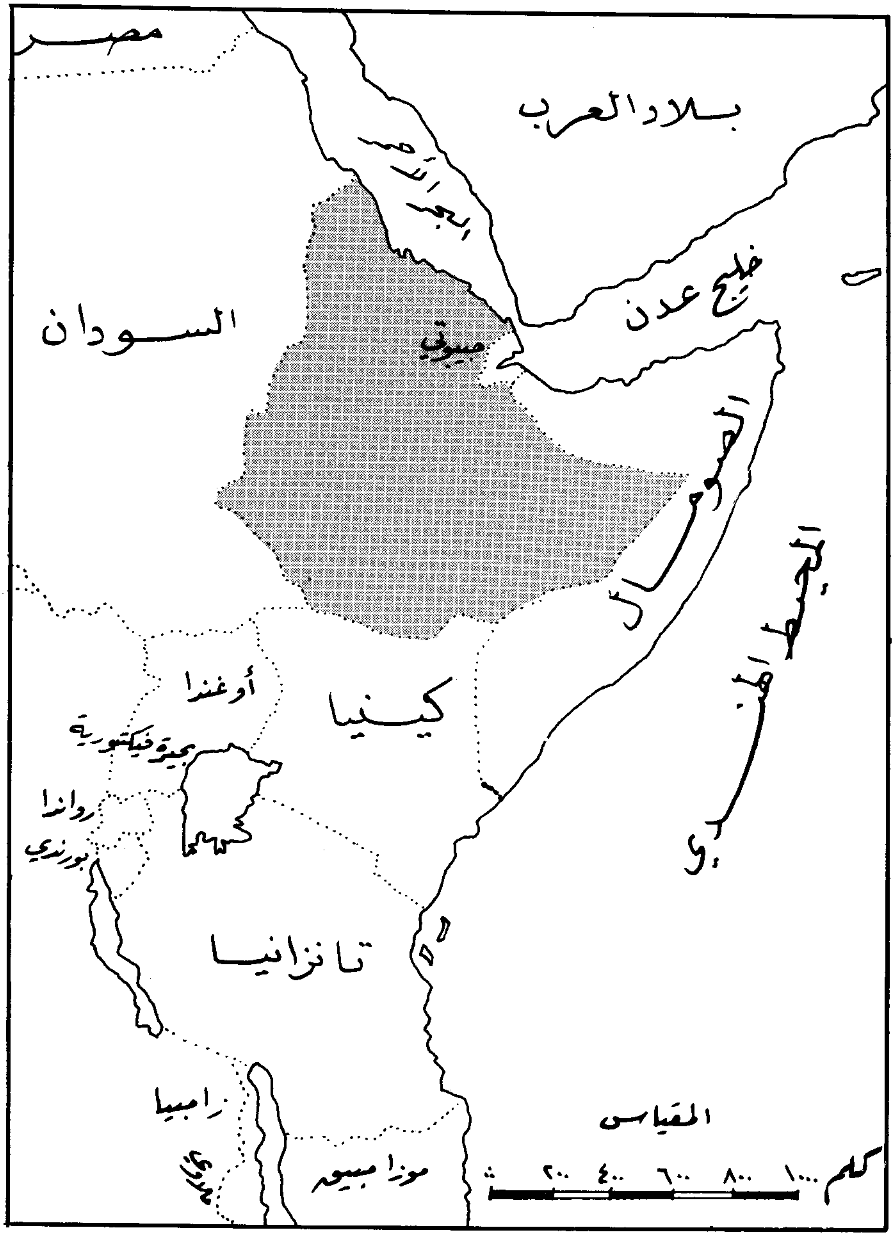
مصر
بلاد العرب
البحر الأحمر
خليج عدن
السودان
جيبوتي
الصومال
المحيط الهندي
أوغندا
كينيا
بحيرة فيكتوريا
رواندا
بوروندي
تانزانيا
زامبيا
موزامبيق
المقياس
كلم ١٠٠٠ ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠

المصور رقم [٢]

لمحة عن الحبشة قبل إلغاء الخلافة

الحبشة هو الاسم التاريخي، واليوم يُطلق عليها اسم «أثيوبيا»، وهو ما تُعرف به دولياً، ولكن تاريخنا لا يعرفها إلّا باسم «الحبشة» لذا أُفضّل المحافظة عليه كي يقترن الاسم بالأرض، وكي يبقى محفوظاً بذهن النشء.

والحبشة هي المركز الثاني في الأرض الذي وصلت إليه دعوة خاتم النبيين محمد بن عبدالله، عليه أفضل الصلاة والسلام، حيث هاجر إليها عدد من الصحابة، رضوان الله عليهم، في شهر رجب من العام الثامن قبل الهجرة، وهبطوا في مدينة (مصوع)، وأحسن النجاشي استقبالهم، واستمع إليهم، وصدّقهم، وردّ وفد قريش الذي جاء يطلب تسليمهم له، وإعادتهم إلى مكة، وقد أسلم النجاشي يومذاك، واختلف مع بطارقته الذين حقدوا على المسلمين حسداً من عندهم أنفسهم، واستمرّ حقد الكنيسة بعدها يزداد، وتشحنه الأحداث التي تشهدها ساحات القتال بين المسلمين والروم النصارى، إذ يغيظ رجال الكنيسة نصر المسلمين، وهزيمة أبناء عقيدتهم النصارى.

ولما تقدّم المسلمون في أرض الروم، ولم يعد بإمكان الروم الثبات في ميادين الحرب أمام المسلمين قاموا يُحرّضون الأحباش على التحرّك من جانبهم عسى أن يخفّ الضغط عليهم، ووجد الأحباش الفرصة مناسبةً للأحداث التي وقعت في المجتمع الإسلامي من فرقةٍ في الكلمة، وخلافٍ في الرأي فقاموا يريدون إثارة الفزع لدى المسلمين الآمنين البعيدين عن

المعارك، فشجّعوا بعض القراصنة الأحباش على الإغارة على جدة، فقاموا بالسطو عليها، وتدمير السفن الراسية هناك، وقتلوا من استطاعوا قتله، ونهبوا أموالاً كثيرةً، ولاذوا بالفرار تحت جنح الظلام، وذلك عام ٨٣ هـ أيام عبد الملك بن مروان الذي أرسل حملةً استولت على جزر (دهلك)، وجعلتها قاعدةً لها، إذ أقامت فيها حاميةً لردّ أي عدوانٍ، فدبّ الرعب في نفوس الأحباش، ولم يُحرّكوا ساكناً، ولم يقفوا أمام التجار المسلمين الذين استطاعوا نقل الإسلام بما قاموا من دعوةٍ له في العدوة الإفريقية، فانتشر الإسلام في أريتريا وشرقي الحبشة، وامتدّ جنوباً، ولم ينته القرن الهجري الأول حتى كان التجار المسلمون قد بنوا مدينة (هرر) التي غدت مركزاً إسلامياً، ولم تخضع في تاريخها لسلطان الدولة الأمهرية حتى عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) عندما احتلّها (منليك الثاني) بالقوة التي بعثها إليها بقيادة ابن عمه (رأس مكتن) والد (هيلا سيلاسي).

وفي بداية عهد الدولة العباسية انتقلت أعداد من المسلمين إلى إقليم أريتريا، وقاموا بدورهم بالدعوة فارتفعت نسبة المسلمين في ذلك الإقليم وغدوا أكثريةً، وانفصل أهله شعورياً عن سكان باقي الحبشة، وتأسّست السلطنة المخزومية عام ٢٨٣ هـ في شرق مقاطعة (شوا)، وقامت تعمل على نشر الإسلام في (شوا) و(عروسي) و(سيدامو). وخضع إقليم أريتريا للدولة العباسية، وعُرف بإقليم (باضع)، وهو اسم مدينةٍ قديمةٍ تقع جنوب (مصوع)، ثم تبع دولة المماليك في مصر، فالخلافة العثمانية، وأصبح يرتبط بمكة المكرمة، ثم غدا ولايةً مستقلةً، يُعرف باسم ولاية (حبش) وتتبعها مدينة جدة. أما مملكة الحبشة فكانت منعزلةً في الداخل، تحكمها الأسرة السليمانية، إذ تدّعي الانتساب إلى سيدنا سليمان بن داود، عليهما السلام، واستمرّ حكم هذه الأسرة حتى عام ٥٣٠ هـ، حيث نازعتها أسرة (زاجوي) على السلطة، وتمكنت من تسلّمها، وادعت الانتساب إلى سيدنا موسى بن عمران عليه السلام، وجهدت هذه الأسرة الجديدة في نشر النصرانية، فأقامت الكنائس، وشيّدت الأديرة، ولكن حكمها لم يدم طويلاً،

إذ تمكّنت الأسـرة السليمـانيـة أن تستعيـد الحكـم عـام ٦٦٨ هـ.

كانت المملكة النصـرانية في الحبشـة تسيم رعايـاها من المسلمين خسفاً، وتتخذ الوسائل كلها لإذلالهم وقهرهم، ولا تتوانى في قتلهم، ولم يكن أمام المسلمين هناك من وسيلةٍ سوى الاستنجاد بإخوانهم المسلمين في ديار الإسلام، إن استطاعوا أن يوصلوا صوتهم إليهم. ففي القرن الثالث الهجري استنجد مسلمو الحبشة بسلطان مصر ابن طولون، وطلب بطريرك مصر من بطريرك الحبشة كفّ الأذى عن المسلمين، غير أن ملك الحبشة ازداد إصراراً على أذاهم وإمعاناً بقتلهم، كما هدّد بقطع مياه نهر النيل.

وفي القرن الرابع الهجري انقسمت مملكة الحبشة النصرانية المعروفة بـاسم مملكة (أكسـوم) إلى قسمين ساحلي يحكمـه المسلمون، وداخلي يحكمـه النصارى، وفيـه الإمارة (الأمهـرية) التي ضمّت منـاطق: تجـرة، بيجمدر، غوجام، وجزءاً من والاغا، وآخر من شوا، ويسكن هذا الجزء الأخير الأمهريون، والجالا. وفي هذه المدة كان الإسلام ينتشر في الأجزاء الشرقية والجنوبية من الحبشة حتى عمّ جزر دهلك، والدناقل، والصومال، وهـرر، وسيدامـو. ونشأت سلطنـة (إيفات) الإسـلامية في شـرق (شوا)، وأخذت على عاتقها نشر الإسلام، وانحصر نفوذ الأسرة الأمهرية النصرانية في الهضبة.

وفي القرن الخامس نشأت عدة إمارات إسلامية في شرقي الحبشـة وجنوبيها، ووقع النزاع بينهـا، فاستغـلّ النصارى هـذا النزاع، فـأخضعوا بعضها، ومنها إمارة (هادية) التي أُجبرت على دفع أتاوةٍ للمملكة النصرانية مع فتاةٍ يرتضيها الملك لنفسه كل عامٍ. ومن هذه الإمارات إيفات، عدل، عروسي، هادية، عربابني، شارخة، بالي، شوا، داوارو. وكانت سلطنـة (إيفات) أقوى الإمارات الإسلامية، لكن أخذ الضعف يدبّ فيها منذ عام ٧١٧ هـ حيث جرى خلاف على الحكم، واستمرّ ذلك حتى القرن التاسع، وشعر الأحباش النصارى بتفوّقهم، حتى قرّروا القيام بحربٍ صليبيةٍ لإزالة

سلطنة المماليك في مصر حيث كانت تُمثّل دولة الخلافة آنذاك، غير أنهم فشلوا في مسعاهم لعدم إمكاناتهم تنفيذ ذلك.

وفي القرن العاشر وصل المستعمرون الصليبيون البرتغاليون إلى المنطقة بعد أن التفّوا حول القارة الإفريقية، وانتصروا على المماليك أصحاب النفوذ البحري في تلك الجهات. واستطاع البرتغاليون الاستيلاء على مدينة (زيلع) وحرقها، وشعرت ملكة الحبشة (إليني) بنشوة النصر الصليبي، فتحرّكت، وأرسلت رسالةً إلى ملك البرتغال عمانوئيل تقول فيها: «بسم الله، والسلام على عمانوئيل سيد البحر، وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم، ودعواتي لكم، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهّز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم، ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند، ونحن على استعدادٍ لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عددٍ من جنودنا في البحر الأحمر، وإلى مكة، أو جزيرة باب المندب، وإذا أردتم نسيّرها إلى جدة أو الطور، وذلك لنقضي قضاءً تاماً على جرثومة الكفر، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملكٍ نصرانيٍ يستطيع في وقتٍ قصيرٍ أن يبيد الأمم الإسلامية المتبربرة. ولما كانت ممتلكاتنا متوغّلةً في الداخل، وبعيدةً عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضروري إذ أنكم أهل بأسٍ شديدٍ في الحرب البحرية»(١).

وهذا التحالف النصراني بين الأحباش والبرتغاليين قد شجّع الأحباش للقيام بهجومٍ واسعٍ على السلطنات الإسلامية في شرق الحبشة، كما أنه شجّع البرتغاليين لتوسعة دائرة نفوذهم في المشرق، ومحاربة المسلمين ما داموا قد وجدوا لهم أعواناً من النصارى من أهل المشرق.

احتلّت الحبشة أيام ملكها (دنجل) عام ٩٢٧ هـ سلطنة عدل الإسلامية بعد مقتل حاكم زيلع الأمير محفوظ قائد جيوش السلطنة، ونقلت

---

(١) علاقة الدولة المملوكية بالدول الإفريقية ـ حامد عمار.

السلطنة العاصمة من زيلع إلى هرر. وفي العام نفسه أرسلت البرتغال بعثةً إلى أديس ابابا، وأخذ المنصّرون الكاثوليك يفدون إلى الحبشة، وبقي البرتغاليون في الحبشة مدة ست سنواتٍ، ثم غادروها عام ٩٣٤ هـ، وبذا أخذت الحبشة تخرج من عزلتها التي كانت عليها.

كانت الخلافة الإسلامية قد آلت إلى الدولة العثمانية بعد دخولها مصر عام ٩٢٣ هـ، فسيطرت على البحر الأحمر، وأسّست أسطولاً فيه، جعلت قاعدته مدينة زيلع فقوّى ذلك عزيمة المسلمين، وقاموا يُهاجمون الأحباش النصارى، واستعادت سلطنة عدل مجدها، فضمّت إليها الصومال، والدناقل، وأسلم أهالي بالي، وشارخه، وإيفات، فطلبت الحبشة من أوربا عامةً، ومن البرتغال خاصةً المساعدة، وعرضت أن تكون كنيسة الحبشة تابعةً للكنيسة الكاثوليكية في روما مع الاحتفاظ بالمذهب الأرتوذكسي وذلك عام ٩٤٢ هـ. وبناءً على ذلك جاء جيش أوربي برتغالي، ونزل في مصوع عام ٩٤٩ هـ بقيادة (كريستوفر دي غاما) ابن (فاسكودي غاما) الملّاح المعروف الذي التفّ حول إفريقية، والصليبي المشهور، غير أن هذا الجيش قد هُزم أمام جيش سلطنة عدل، وقُتل قائده. ولم ينج من الجيش البرتغالي إلا من تمكن من الفرار، فالتحقت فلول هذا الجيش بقوات الحبشة.

وكانت اليمن قد مدّت سلطنة (عدل) بقوةٍ عندما دعمت البرتغال الحبشة فاستطاع الإمام أحمد بن إبراهيم سلطان (عدل) فتح مقاطعة تجرة عام ٩٤٥ - ٩٤٧ هـ، واستقبلته قبائل (ويلو).

وجاءت قوة برتغالية إلى الحبشة، ودعمت اليمن (عدل) عام ٩٥٠ هـ، وجرت معركة رهيبة بين الطرفين عام ٩٥٢ هـ، وسط بلاد مملكة الحبشة النصرانية قرب بحيرة (تانا)، استشهد فيها الإمام أحمد بن إبراهيم، وهُزم جيشه، وضعف أمر المسلمين.

وهاجمت (هرر) الأحباش النصارى عام ٩٦٧ هـ، فقُتل ملك الحبشة، ولكن تراجع المسلمون حتى أخلوا المناطق الجبلية كلها. وكذلك

ضعف شأن النصارى، وجاء شعب الجالا من الجنوب، وكان بدائياً فدمّر المناطق التي مرّ عليها، ثم استقرّ في جنوب (شوا)، فاحتكّ بالمسلمين، وأخذ أبناؤه يدخلون في دين الله.

وأغار الوثنيون من (جالا) على مدينة هرر، فعقد الأمير عثمان معهم معاهدةً بحجة أنهم أخذوا يدخلون في الإسلام، وأن المعاهدة معهم قد جعلهم يعتنقون الإسلام بعد الاحتكاك بأهله، ووجود السلم معهم، غير أن بعض الناس لم يقبلوا هذا الكلام، ووقع الخلاف، ولما اشتدّ ضغط شعب (الجالا) نقلت العاصمة من هرر إلى (العوصا)، ومع ذلك استمرّ الجهاد ضدّ الأمهريين النصارى حكام الحبشة. ووقع الخلاف بين الإمارات الإسلامية.

وكذلك وقع الخلاف في بلاد الأمهرة إذ اختلف الأحباش الأرتوذكس مع البرتغاليين والمنصّرين الكاثوليك، فطرد الأحباش البرتغاليين. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الخلاف بين الأقاليم كان قد وقع، وحصل النزاع، والذي ينتصر من الأمراء يأخذ لنفسه لقب (نجاشي)، وكثيراً ما كان يوجد في البلاد أكثر من نجاشي، ففي عام **١٢٢٩** هـ وجد ستة ملوك يحكمون الحبشة، واستمرّت الفوضى حتى وحّد إمارات الحبشة الإمبراطور تيودور الثاني **١٢٧٢ ـ ١٢٨٥** هـ. وكانت الحبشة في هذه المدة كلها والتي زادت على ثلاثة قرون في معزلٍ عن العالم، وتعيش في مرحلةٍ من الضعف والتأخّر، وتسيطر على شرقي إفريقية، وهذا ما جعل أمراء المسلمين في تلك المنطقة في حالةٍ من الخلاف والنزاع فيما بينهم، وليس باستطاعتهم أيضاً أن يقوموا بالهجوم على أرض مملكة الحبشة النصرانية، وإن كانت قد وقعت بعض مظاهر الخلاف والصراع أو التفاهم وعدم النزاع.

أحيا الأمير داود بن علي إمارة هرر عام **١٠٥٧** هـ، واشتدّ الخلاف بين الأحباش والبرتغاليين حول تحويل الكنيسة الحبشية إلى الكاثوليكية. وهذا ما جعل الامبراطور الحبشي (فاسيلدس) يعقد معاهدةً مع أمراء

المسلمين في (سواكن) و(مصوع) و(زيلع) وذلك بعد طرد البرتغاليين من الحبشة. وبسبب وقف القتال بين المسلمين والنصارى فقد أخذ الإسلام ينتشر بين الأمهريين النصارى، وبين الجالا الوثنيين، فعمل الإمبراطور (يوحنا بن فاسيلدس) عام ١٠٧٨ هـ على الحدّ من انتشار الإسلام بإيجاد صلةٍ قويةٍ، عن طريق المصاهرة بين النصارى والوثنيين، فزوّج (أياسو الأول) أمير الأمهرة من (برزاية) بنت أحد أمراء الجالا، لكن هذا لم يفده شيئاً إذ بقي الإسلام ينتشر بين أفراد الفريقين.

وفي منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدأت قبائل (الجالا) تزحف نحو الشمال تحت ضغط القبائل الصومالية وتستقرّ في الهضبة في بلاد الأمهرة، وكان بعض أبنائها يعتنق الإسلام، وتزعّم حركتها نحو الشمال أحدهم، وهو الأمير علي، فكانت هذه الحركة تقدّماً إسلامياً في منطقة النصارى أكثر من أن تكون تنقّلاً من أجل الرعي. ووقف أمير الأمهرة (كاسا) الذي تلقّب باسم (تيودور) (١١٩٠ - ١٢٧٢ هـ) الزحف، وتمكن من أسر أمير (الجالا) المسلم الأمير علي، وعرض عليه النصرانية أو الموت، ففضّل الموت، وعندما عرض على السيف كرّروا عليه العرض، فأبى أن يعود في الكفر ثانيةً بعد أن أنجاه الله منه، وأصرّ على الشهادة حسب كلماته الأخيرة التي ألقاها قبل أن يحزّ السيف رأسه. ومع ذلك فقد حكم المسلمون منطقة (بيجمدر)، وكان حاكمها (علي بن عمر) الذي تلقّب بالإمام، وذلك عام ١١٨٩ هـ، وكان آخر الأمراء عليها (علي بن الولا). وفي عام ١٢٧٢ هـ استولى على أمر الإمارة الأمهرية أحد قطاع الطرق، وقد تسمّى باسم (تيودور الثاني)، واستطاع أن يُوحّد مناطق النصارى تحت سلطانه، واستمرّ حكمه حتى عام ١٢٨٥ هـ - كما سبق أن ذكرنا -.

وفي عام ١٢٨٣ هـ تنازلت الدولة العثمانية عن أريتريا والصومال إلى واليها على مصر إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، وكان يحبّ التوسّع فأخذ يرسل الحملات من مصر إلى سواحل البحر الأحمر والصومال، وهذا ما أدخل الخوف إلى نفوس الأحباش النصارى مرةً ثانيةً بسبب وصول تلك

الحملات إلى تلك الجهات إذ توقّعوا عودة انتشار الإسلام، ولكن النفوذ المصري لم يدم طويلاً في هذه المنطقة حيث احتلّت بريطانيا مصر بعد حركة أحد عرابي، وامتدّ نفوذها إلى السودان فشعر النصارى الأحباش بالراحة إذ اطمأنوا على وجود البريطانيين في السودان، واعتقدوا أن ظهرهم أصبح محمياً، وسيجدون الدعم من الإنكليز ما داموا نصارى غير أن الحركة المهدية تمكّنت من إحراز النصر، وسيطرت على السودان عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) بل فكّرت بمتابعة سيرها إلى مصر، وإنقاذها من البريطانيين، وهاجر إلى السودان بعض المسلمين المضطهدين الذين احتلّت الحبشة ديارهم، وكان على رأسهم الإمام المجاهد طلحة، وعملوا تحت لواء المهدي، وهذا ما أقلق الأحباش النصارى حتى فكّر الإمبراطور بغزو السودان، وزحف بجيوشه نحوها، غير أن فشل، وقُتل عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م).

سحبت بريطانيا القوات المصرية من السودان وشرقي إفريقية لتُدافع بها عن أرضها ـ كما زعمت ـ والواقع أنها تركت فراغاً سياسياً في شرقي إفريقية، فتقاسمت المنطقة الدول الكبرى، وأعطت الحبشة جزءاً من القسمة بصفتها دولة نصرانية، فكانت منطقة (الأوغادين) من الصومال هو نصيب الحبشة لتقوى، ولتُحكم قبضتها على المنطقة، ولتتمكّن من السيطرة على المسلمين. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ أعادت بريطانيا احتلال السودان من جديدٍ، وأحسّت مملكة الحبشة النصرانية بالسعادة حيث قوي النفوذ الصليبي تماماً في المنطقة، فالسودان من الغرب تسيطر عليه إنكلترا، والصومال من الشرق قُسّم بين الدول الأوربية النصرانية، وحُصر المسلمون بين الأحباش النصارى في الغرب، والمستعمرين الصليبيين في الشرق والجنوب.

ولم يقترب المستعمرون الصليبيون من أرض الحبشة بصفتها دولة نصرانية غير أن إيطاليا قد دخلت الساحة عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)، واحتلّت أريتريا، وبقيت فيها حتى عام ١٣٦٠ هـ عندما هزمت في الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا، ودخل الحلفاء أريتريا.

دخلت إيطاليا الساحة متأخّرةً بعد أن وحّدت بلادها، وكانت الدول الأوربية في هذه الأثناء تتقاسم أرض إفريقية، فرغبت أن تحصل على نصيبها. فاشترت شركة إيطالية ميناء (عصب) من أحد الأمراء المحليين عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٨ م)، ثم تنازلت عنه للحكومة الإيطالية عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) فاحتلّته احتلالاً عسكرياً بعد ثلاث سنواتٍ بتشجيع من انكلترا التي ترغب في منافسة فرنسا التي استقرت في (تاجورة)، ثم توسّعت إيطاليا في أريتريا، وبقيت فيها حتى الحرب العالمية الثانية. ولم ترغب انكلترا هي نفسها أن تحتلّ أريتريا كي لا تُثير فرنسا عليها الكنيسة لذا شجّعت إيطاليا التي أعلنت أنها ما قامت باحتلال إلا مناطق للمسلمين، وأملاً من حصر المسلمين في شرقي الحبشة، بينها وبين مملكة الحبشة حتى يهجروا أرضهم أو يقبلوا الديانة النصرانية عقيدةً لهم.

أخذت إيطاليا تُشجّع المتنافسين على الحكم، وتُثير النزاع بينهم، وتمكّن (منليك الثاني) من الوصول إلى حكم الحبشة، وأعلن نفسه إمبراطوراً عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م)، فعقدت إيطاليا معه معاهدةً، ثم اختلفت معه، وشجّعت المنافسين له في إقليم (تجرة)، وفكّرت باحتلال الحبشة دون النظر إلى الكنيسة ورأيها، غير أنها هُزمت هزيمةً منكرةً في معركة (عدوه) عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م)، ولكنها بقيت في إقليم أريتريا.

أخضعت إيطاليا منطقة (الأوغادين) من الصومال عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، وثارت ثائرة الكنيسة ضدّ دول أوربا الاستعمارية لتعدّياتها على أرضٍ نصرانيةٍ، وطلبت منها الكفّ عن هذه التعدّيات، والتفاهم فيما بينها، ومع الحبشة للعمل معاً على محاربة المسلمين.

اتفقت الدول الاستعمارية الثلاث الكبرى، وهي: بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا على استقلال الحبشة، وإقامة إمبراطوريةٍ فيها تحت تاج (منليك الثاني) تضمّ مملكة الحبشة والإمارات الإسلامية كافةً، وذلك خوفاً من

انتشار الإسلام، وطُلب من الإمبراطور شنّ حربٍ ضدّ المسلمين، ووُعد بتقديم الدعم اللازم له، والعمل على حمايته.

قام منليك الثاني باحتلال هرر، ثم جرّد حملةً على باقي الإمارات الإسلامية فأخضعها بمساعدة الدول الأوربية، وفكّر بصهر المسلمين في إمبراطوريته داخل المجتمع النصراني فزوّج ابنته (أرجاس) من أمير منطقة (ويلو) محمد علي، فأنجبا (ليج أياسو).

اتفقت الدول الاستعمارية الصليبية الكبرى فيما بينها بمعاهدةٍ عقدتها عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) لتقسيم مناطق النفوذ فيما بينها، وفيما إذا انهارت الحبشة.

هلك (منليك الثاني) عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م)، وخلفه حفيده (ليج أياسو) الذي أظهر ميلاً للإسلام، واعتنقه، بل هو بالأصل مسلم إذ أن والده الأمير محمد علي، وإن تسمّى اسماً نصرانياً، ونشأ في رعاية جده (منليك الثاني) والد أمه (أرجاس).

لبس (ليج أياسو) العمامة، وأخذ يتردّد على مساجد هرر، وقرّر نقل العاصمة إلى مدينة هرر، وشيّد المساجد في مدن هرر، ودير داوا، وجكجكا، واتخذ علماً جديداً لدولته، وجعل الهلال في وسطه بعد أن كان الصليب، وأرسل هذا العلم إلى قنصل الدولة العثمانية في (أديس أبابا)، واتصل مع محمد عبدالله حسن الزعيم المسلم الذي ثار في الصومال ضدّ المستعمرين الصليبيين. وحاول (ليج أياسو) توحيد كلمة المسلمين، وأراد إقامة حلفٍ إسلاميٍ ضدّ الحلفاء، وادعى الانتساب إلى آل البيت.

أصدرت الكنيسة قراراً بحرمان (ليج أياسو) من التاج الحبشي، وحرّضت النصارى ضدّه، ففرّ إلى بلاد الدناقل، وبقي هناك حتى قُبض عليه عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م)، فلما انتصر (رأس تفاري)، وهو (هيلا سيلاسي) ذبحه عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م). وأعطت الكنيسة الملك إلى خالته (زاويتو) ابنة منليك الثاني، وعيّنت (رأس تفاري) وصياً، ووريثاً.

الفصل الأول

الحبشة من إلغاء الخلافة
إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية

بعد أن خلعت الكنيسة (ليج أياسو) عيّنت (زاويتو) ابنة منليك الثاني الأخرى إمبراطورةً على الحبشة، وعيّنت (رأس تفاري) وصياً ووريثاً، لكن لم يلبث أن وقع الخلاف بينهما، فأخذ (رأس تفاري) لقب نجاشي بالقوة، وألزم (زاويتو) على التنازل عن الحكم، والاعتراف به إمبراطوراً على الحبشة، فتولّى الحكم باسم (هيلا سيلاسي)، ولم تلبث هي أن هلكت عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م).

أصدر هيلا سيلاسي دستوراً عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م) لكنه كان دستوراً شكلياً. وأخذ يحكم البلاد حكماً استبدادياً، ويضطهد المسلمين اضطهاداً قاسياً، ويعمل على إذلالهم وتقتيلهم يدفعه إلى ذلك الحقد الصليبي، وتحريض كنيسة الحبشة في الداخل، والدول الاستعمارية النصرانية في الخارج.

لم تنس إيطاليا معركة (عدوه) عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م)، فعندما قامت الحركة الفاشية في إيطاليا، وتسلّم الحكم (موسوليني)، وأراد التوسّع، ودفع الطليان إلى التطلّع نحو الخارج، وجاءت مرحلة التسابق الدولي إلى التسلّح في أوربا، وقيام التكتل والمحاور، ثم دعم المتنافسين على الحكم والأمراء المحليين، وأخيراً المنافسة الاستعمارية فقامت إيطاليا بمهاجمة الحبشة، واحتلّتها، معارضةً الكنيسة، بل كان (موسوليني) قد

ألغى دولة الفاتيكان. احتلّت إيطاليا الحبشة عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) رغم معارضة عصبة الأمم، وفرض العقوبات الاقتصادية، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، إذ دخلت مدينة (أديس ابابا) في الأيام الأولى من عام ١٣٥٥ هـ (آذار ١٩٣٦ م)، ومن المعلوم أن عصبة الأمم ومن بعدها هيئة الأمم المتحدة تسير حسب رأي وتوجيه الدول الكبرى، وهي دول نصرانية تُخفي صليبيتها تحت صفة الشرعية الدولية. وأعلن (موسوليني) تشكيل إفريقية الشرقية الإيطالية التي شملت أريتريا، الحبشة، القسم الحنوبي من الصومال (الإيطالي سابقاً)، منطقة الأوغادين، هرر. وصادرت إيطاليا أملاك الكنيسة وكثيراً من أملاك كبار الحكام.

واندلعت الحرب العالمية الثانية، ووقفت إيطاليا بجانب ألمانيا، وشكلت ما عُرف باسم (دول المحور)، وقامت الثورات في الحبشة ضدّ الطليان بتحريضٍ من البريطانيين وباقي الحلفاء، وزحفت القوات البريطانية من السودان نحو الحبشة، وخرج الطليان من البلاد، ودخل الإنكليز مدينة (أديس ابابا) في شهر ربيع الأول من عام ١٣٦٠ هـ (نيسان ١٩٤١ م)، وعاد الامبراطور (هيلا سيلاسي) إليها في شهر ربيع الثاني من العام نفسه (أيار ١٩٤١ م)، واستسلمت آخر الحاميات الإيطالية في (غوندار) عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، وبعدها أعلنت الحبشة الحرب على دول المحور، ووقفت بجانب الحلفاء.

وانتهت الحرب العالمية الثانية، وفصلت الأمم المتحدة التي تشكّلت بعد الحرب بين الحبشة وأريتريا، إذ عدّت أريتريا والصومال الجنوبي، والغربي مستعمراتٍ إيطاليةٍ، أما الحبشة فهي دولة مستقلة غزتها إيطاليا، ثم تحرّرت، وعادت لها الصفة الاستقلالية، وهكذا لم تخضع الحبشة للاستعمار إلا لمدة سبع سنواتٍ من عام ١٣٥٤ - ١٣٦١ هـ (١٩٣٦ - ١٩٤١ م)، ولم تكد تخرج إيطاليا منها إلا عُدّت دولةً مستقلةً على خلاف ما حدث لبقية الدول الإفريقية، وما ذلك إلا لنصرانيتها.

الفصل الثاني

الاستقلال

عُدّت الحبشة دولةً مستقلةً منذ أن عاد الإمبراطور إلى عاصمته (أديس أبابا) في شهر ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ (أيار ١٩٤١ م)، وفرض الإمبراطور سلطته المطلقة، رغم السلطات التي تنازل عنها، والحقوق التي اعترف بها الدستور للمواطنين، ورغم الأجهزة التشريعية والتنفيذية التي قامت، والقوانين الحديثة التي صدرت، رغم هذا كله فالامبراطور هو صاحب السلطة العليا مع وجود دستورٍ رمزيٍ مكتوبٍ. ويُعطي الدستور صفة القداسة لرئيس الدولة «بحكم الدم الإمبراطوري الذي يجري في عروقه، فشخص الإمبراطور مُقدّس، ومنزلته السامية لا يجوز انتهاكها، وسلطاته لا تقبل الجدل». ومع أن الكنيسة لها سلطة واسعة إلا أن رئيس الأساقفة لا بدّ من أن يُوافق الإمبراطور بالذات على تعيينه.

أخذت الأمم المتحدة تبحث قضية المستعمرات الإيطالية السابقة، وكان الخط العام يتجه إلى مسايرة الحبشة والأخذ برأيها، ما دامت دولةً نصرانيةً، وتعرف أوضاع المسلمين في منطقتها، ويمكن أن تكفي أوربا وضعهم في قهرهم، والعمل على تنصيرهم، وكانت الحبشة ترى ضمّ المستعمرات الإيطالية السابقة (أريتريا - هرر - الأوغادين - القسم الصومالي) إليها في سبيل الوصول إلى القوة اللازمة لتتمكّن من القيام بالدور المُلقى على عاتقها، إذ بهذا الضمّ تستطيع أن:

١ ـ تُقوي الحكومة المركزية التي تقوم على النصرانية.

٢ ـ تُضعف شأن الحكام والأمراء المحليين، وأكثرهم من المسلمين.
٣ ـ تصل إلى البحر، ويكون لها موانىء عليه، وتتصل بالعالم الخارجي بعد أن بقيت مدةً طويلةً منعزلةً في الداخل.

وقد بيّن الإمبراطور هيلا سيلاسي طلباته هذه في عدة خطاباتٍ ألقاها، وذكر فيها صراحةً أنه يريد أن يقضي على الإسلام، وكان يستعرض في كلماته العداوة التقليدية مع المسلمين، والحروب التي عرفتها المنطقة بين المسلمين والنصارى خلال التاريخ.

وترى بريطانيا غير هذا الرأي، وكانت لا تزال صاحبة الكلمة الأولى المسموعة في الأمم المتحدة حيث تنظر إلى الموضوع من زاويةٍ استعماريةٍ خاصةٍ بها، وهي أن الحبشة إذا قويت إلى هذه الدرجة يمكن أن تنافسها على طريق الهند، وعلى منطقة النفط في الخليج العربي (بلاد العرب، والعراق، وإيران) والمنافسة الاستعمارية بين الدول النصرانية معروفة، وهذا يعني تهديد المصالح البريطانية الاستعمارية. وترى بريطانيا من جانبٍ آخر أن الحبشة إذا ضمّت إليها المستعمرات الإيطالية السابقة، وهي مناطق مسلمة، غدا النصارى في الحبشة قلّةً قليلةً، وإذا كانوا الآن يتحكّمون بالمسلمين، ويخضعونهم قهراً لسلطتهم، إلا أنهم قد يتحرّكون في المستقبل عندما يرون أنفسهم الغالبية الغالبة، ويقوّضون سلطان النصارى في الحبشة، ويتسلّمون زمام الأمر، ويصبح الوضع معكوساً، بل ربما نشط المسلمون، واستطاعوا التأثير على النصارى، فأخذ النصارى يدخلون في الإسلام، بينما الهدف الذي تعمل له الدول النصرانية من خلال الأمم المتحدة هو تنصير المسلمين، لهذا كله لم ترَ بريطانيا إعطاء الحبشة المستعمرات الإيطالية السابقة.

ولكن بريطانيا عادت مرةً ثانيةً فغيّرت رأيها، وعادت تتبنّى قضايا الحبشة بعد أن وجدت مكانتها قد هبطت في الحبشة، فخشيت أن تحتلّ مكانتها إحدى الدول الاستعمارية الصليبية التي تُؤيّد موقف الحبشة،

وخاصةً فرنسا التي تحتلّ جيبوتي، وتُنافس بريطانيا في المنطقة، لذا رغبت بريطانيا أن تعود إلى منزلتها الأولى، وأن يكون نصارى الحبشة قواعد لها في الشرق، وتكون حكومة الحبشة ركيزةً لبريطانيا في تحقيق مشروعاتها، وتنفيذ مخططاتهـا، لذا أخـذت بريـطانيا تلوّح لـلإمبراطـور هيلا سيـلاسي برعايتها التي شملته بها أيام تشرّده، وعملها لإعادته إلى سلطانه، ورجعت بعدها بريطانيا إلى منزلتها الأولى عند الإمبراطور، وعند النصارى الأحباش.

القضيـة الأريتريـة:

طال بحث قضية أريتريا في أروقة الأمم المتحدة، وأخيراً صدر قرارها في **٢٢** صفر **١٣٧٠** هـ (٢ كانون الأول **١٩٥٠** م) بإقامة اتحادٍ سياسيٍ بين أريتريا والحبشة، كحلٍّ يُرضي بريطانيا حيث لم تتخل عن الحبشة كلياً، فتُعطى أريتريا استقلالها، ولم تُرض الحبشة كلياً بدمج أريتريا بها.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمم المتحـدة تُناقش قضيـة أريتريـا، وتُشكّل لجان استقصاء الحقائق، وتُجري الاستفتاء كـانت الحبشة تعمـل الوسائل كلها لابتلاع أريتريا، رضيت الأمم المتحدة أم كرهت. وكيف تكره وهي نصرانية؟

أرسلت الحبشة كبير أساقفتها إلى أريتريا فجال في أنحائهـا كلها، ودعا النصارى إلى المناداة بدمج وطنهم مع الحبشة، ووعد الكنيسة القبطية بإعادة أراضيها لها التي سبق للحكومة الإيطالية أن أمّمتها، وكانت تصرّفات الإدارة البريطانية في أريتريا تدلّ على تعاونها مع الحبشة لابتلاع أريتريا. ونتيجة ذلك تشكّل حزب (محبر فقري هجر) أي (حزب حبّ الوطن)، ثم لم يلبث أن تشكّـل داخله حـزب آخـر يضمّ الإرهـابيين، ويحمـل اسم (محبر اندنت) أي حزب الانضمام إلى الحبشة، وأخذ يقوم بالاغتيالات، والسطو على الأموال، وأصدر هذا الحزب جريدة (أثيوبيا)، وقد وجّه فيها رئيس الأساقفة إنذاراً نشر في هذه الجريدة إلى النصارى جميعاً يحرم فيه من الحقوق الدينية كل من يُـطالب باستقـلال أريتريـا، وقد انصـاع أكثر

النصارى لهذا النداء، إذ لرجال الدين أثر كبير في هـذه المنطقـة، وكان يرأس هذا الحزب (تدلي بايرو) خريج المدارس التنصيرية. ونتيجة لهذا التعصّب الأعمى نشأت عدة تنظيماتٍ سياسيةٍ منها:

١ ـ حزب الرابطة الإسلامية برئاسة عبد القادر محمد صالح كبيري، وأُسندت الأمانة العامة إلى إبراهيم سلطان علي، ويدعو هذا الحزب إلى استقلال أريتريا.

٢ ـ الحزب التقدّمي الحر: ويدعو إلى استقلال أريتريا أيضاً.

٣ ـ الرابطة الإيطالية الأريترية: وتدعو إلى وضع أريتريا تحت الوصاية الإيطالية.

٤ ـ حزب الشعب: ويُعرف بالحزب الموالي لإيطاليا، ويرى الوصاية الإيطالية.

٥ ـ الحزب الوطني: ويُؤيّد قيام إدارةٍ بريطانيةٍ في أريتريا.

وكثرت الاعتراضات وتعقّدت القضية، فيزعم أعوان الانضمام إلى الحبشة أنهم يُنادون بالواقعية، إذ لو استقلّت أريتريا ـ حسب رأي الرابطة الإسلامية والحزب التقدميّ الحرّ لعاشت البلاد في فقرٍ نتيجة وضعها الاقتصادي البئيس، ولكانت حياتها في فوضى وتخبّطٍ لأن الحبشة ستُثير القلاقل معتمدةً على النصارى، ومُتذرّعةً بضرورة وجود موانىء لها على البحر الأحمر. وفي الوقت نفسه فإن أريتريا ستستفيد من غنى الحبشة فتتحسّن أوضاعها الاقتصادية. ويدّعون كذلك أن الدول الاستعمارية تُؤيّد هذا الانضمام بروحٍ صليبيةٍ، أما المسلمون فلا دعائم لهم، وليست هناك من دولةٍ ذات كلمةٍ مسموعةٍ تنصرهم بل تُدافع عنهم. ويعترض على هذا الكلام أصحاب دعوة الاستقلال، بأننا عشنا في الظلم والظلام، ورأينا الأحباش والطليان، ونُفضّل الفقر على الغنى الممزوج بالظلم، ونقبل الموت مسلمين، والشهادة في سبيل الله على التنصير وحياة الكفر، والعبودية للصليبيين.

ويردّ بعض الناس بأننا لو عشنا مع الأحباش لكانت نسبتنا أكبر بكثير، ويمكننا الدعوة، ولكن لو تمّ الاستقلال وحدث الانفصال لبقي الصراع، وبقيت النفوس مشحونةً بالكراهية، والعصبية قائمةً بنتنها، ولتعطّلت الدعوة، ولم نُؤدّ مهمتنا في الحياة، ولبقيت الحبشة على نصرانيتها إلى الأبد.

أما الذين يطلبون الوصاية الإيطالية أو الإدارة البريطانية فنسبتهم ضعيفة لا يُؤبه لها، ولا تُؤخذ بعين الاعتبار، وإن كانت وراءها منظمات غير أنها ضعيفة، لا تزيد على المنتفعين منها.

هذا ما كان يحدث على الساحة الأريترية، أما في أروقة الأمم المتحدة فنرى اقتراحات الدول الكبرى متباينةً أشدّ التباين، وكل دولةٍ أيضاً تنظر إلى مصالحها، وتبني عليها اقتراحاتها.

اقترحت إنكلترا نوعاً من تقسيم أريتريا، تُمنح الحبشة بموجبه الهضبة حيث ترتفع نسبة النصارى، غير أن هذا التقسيم سيزيد في ضعف الاقتصاد الأريتري، فاقترحت بناءً على ذلك ضمّ المقاطعة الغربية إلى السودان، وتبقى الدناقل وبقية المناطق الفقيرة لتكون في حالٍ لا تستطيع معها الحياة فتضطر إلى الالتحاق بالأحباش أو طلب المساعدات من الدول الكبرى النصرانية فتأتي لاستعمارها. هذا اقتراح بريطانيا، ويظهر فيه الحقد، وتخرج منه رائحة الكراهية والنتن، فالمنطقة الصغيرة الفقيرة تُقسّم، وتُؤخذ منها أحسن مناطقها، ما دامت مسلمةً، وتمنح الدولة الغنية الواسعة بصفتها النصرانية بعض أعضاء المنطقة الصغيرة، لتزداد غنىً واتساعاً، ولتستطيع تحقيق أهدافها في التنصير، وقتل المسلمين. وهذا هو العدل الاستعماري، والحقّ لدى الدولة التي كانت تُوجّه الأمم المتحدة، أو النظام الدولي.

واقترحت فرنسا فرض وصايةٍ دوليةٍ على أريتريا، على أن تُعطى الحبشة منفذاً لها على البحر الأحمر عن طريق ميناء عصب، إرضاءً للدولة النصرانية ـ طبعاً.

واقترحت الولايات المتحدة فكرة الوصاية الجماعية، فتمنح السلطة

التنفيذية إلى محايدٍ يتولى الإدارة، ويكون مسؤولاً أمام مجلس الوصاية، على أن تعاونه لجنة استشارية تضمّ ممثلين لها من الدول الأربع الكبرى (إنكلترا ـ فرنسا ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ الاتحاد السوفيتي)، وإيطاليا، واثنين من المقيمين في الإقليم، كذلك وافقت على إعطاء الحبشة منفذاً لها على البحر الأحمر عن طريق ميناء عصب، وبعد عشر سنواتٍ يحصل الإقليم على الاستقلال، ثم عادت الولايات المتحدة ووافقت على الوصاية العادية، ووافق الاتحاد السوفيتي على المقترحات الأمريكية والفرنسية.

وأمام هذا التضارب في الاقتراحات قرّرت الدول الأربع الكبرى إرسال لجنةٍ إلى أريتريا للاستقصاء، ووصلت اللجنة إلى البلاد في ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٤٧ م)، وبقيت فيها حتى ١٥ صفر ١٣٦٧هـ (٢٨ كانون الأول ١٩٤٧ م) أي سبعةً وأربعين يوماً، وكانت النتائج للاستقصاء أن:

الحزب الاتحادي	قد حصل على	٤٤,٨ ٪	من المؤيدين.
والرابطة الإسلامية	قد حصل على	٤٦,٥٪	من المؤيدين.
والتقدّمي الحرّ	قد حصل على	٤,٤ ٪	من المؤيدين.
بقية الأحزاب	قد حصل على	٤,٣ ٪	من المؤيدين.
		١٠٠٪	

أما بالنسبة إلى الانضمام للحبشة فكانت النتائج كما يأتي:

١" ـ في الهضبة حيث يكثر النصارى.

٧١,٧٪ يُؤيّدون الانضمام للحبشة.

١٤,٩٪ يُعارضون الانضمام.

٢" ـ في غير الهضبة.

٧١,٦٪ يعارضون الانضمام.

١٢,٩٪ يُؤيّدون الانضمام.

أي أن النسبة واحدة تقريباً بين المعارضين للانضمام، والمؤيدين، وإن كانت نسبة المعارضة تزيد قليلاً.

٨٦,٥٪ يعارضون الانضمام.

٨٤,٦٪ يُؤيّدون الانضمام.

ولكن هذه النسبة بعيدة عن الواقع إذ أن المؤيدين للانضمام إلى الحبشة لا يُمثّلون في الواقع أكثر من ٢٥٪، ولكن هذه النتائج بسبب الضغط الذي مارسه الحزب الاتحادي الإرهابي على السكان، وقد عُرف بجرائمه، وكان يتخذ سلاح التهديد باستمرار أثناء وجود لجنة الاستقصاء، وكذلك كان تدخّل الحبشة والدول الأجنبية واضحاً، هذا بالإضافة إلى أن القبائل كان التصويت بحكم المعدوم فيها، وأغلبها من المسلمين الذين يُعارضون الانضمام، ومعروف أنهم من القديم يُحاربون الأحباش، فلا يمكن أبداً أن يُؤيّدوا الانضمام، وقد قاطعوا الاستفتاء لأنهم لم يوافقوا عليه، ورأوا التهديدات وعرفوا أن الاستفتاء دائماً ليس سوى نوعٍ من أنواع اللعب على الشعب لأخذ الصفة الشرعية والوسيلة فيه التزوير والتهديد.

وعندما عُرضت نتائج الاستفتاء على مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى، وهي نصرانية، عاد الاختلاف في الآراء مرةً أخرى لاختلاف المصالح، واختلاف وجهات النظر في تقدير مصلحة النصارى.

اقترحت انكلترا وضع أريتريا تحت الإدارة الحبشية لمدة عشر سنواتٍ، على أن يُشكّل مجلس استشاري يضمّ ممثلين لإيطاليا، وإحدى الدول الإسلامية، ودولاً أخرى غير استعمارية.

واقترحت الولايات المتحدة الأمريكية التنازل فوراً عن الدناقل والهضبة إلى الحبشة. الهضبة لأن نسبة النصارى ترتفع فيها، وإقليم الدناقل من أجل ميناء عصب مع أنه السكان فيه ١٠٠٪ مسلمون، ويجب قهرهم وتنصيرهم إن أمكن مستغلّين فقرهم.

واقترحت فرنسا فرض وصايةٍ دوليةٍ تتولّاها إيطاليا، وتأخذ الحبشة ممراً لها عن طريق ميناء عصب.

واقترح السوفييت فكرة الوصاية الدولية الجماعية.

ونتيجة ذلك أُحيل الموضوع إلى هيئة الأمم المتحدة. فعُرض ضمّ أريتريا إلى الحبشة عدا المقاطعة الغربية فتضمّ إلى السودان، ولكن رُفض هذا العرض.

وغيّرت إيطاليا موقفها، وأصبحت تُطالب باستقلال أريتريا التام، وتظنّ أنها ستكون الدولة ذات النفوذ في أريتريا عند استقلالها، اعترافاً لها بالجميل، وبتأثير الرابطة الأريترية ـ الإيطالية، والحزب الموالي لإيطاليا، ونتيجة المساعدات الاقتصادية التي ستقدّمها لها. ومن المعلوم أن الرابطة الأريترية ـ الإيطالية تتألف بأكثريتها من المستوطنين الإيطاليين المولّدين.

وبعد مناقشة هيئة الأمم المتحدة لقضية أريتريا وعدم الوصول إلى نتيجة برفض العروض التي اقترحت اجتمعت في نيويورك وفود: الرابطة الإسلامية، والرابطة الأريترية ـ الإيطالية، والحزب الموالي لإيطاليا، وطالبت باستقلال أريتريا فوراً، كما أن قادة هذه التنظيمات داخل أريتريا أخذت تتقرّب من الحزب التقدّمي الحرّ للعمل معاً، ثم اتفقت هذه التنظيمات جميعها على تشكيل جبهةٍ واحدةٍ، فكان حزب «الكتلة الاستقلالية».

وفي ذي القعدة ١٣٦٨ هـ في الدورة الرابعة للجمعية العمومية (أيلول ١٩٤٩ م) تقرّر إرسال لجنةٍ للتحقيق، وتشكلت اللجنة، وذهبت إلى أريتريا، ووقع خلاف بين أعضاء اللجنة، وأخيراً في ٢٢ صفر ١٣٧٠ هـ (٢ كانون الأول ١٩٥٠ م) وافقت الجمعية العمومية على أن تكون أرتيريا وحدة ذات استقلالٍ ذاتيٍ، وترتبط مع الحبشة باتحادٍ لامركزي، حسب اقتراح الولايات المتحدة الأمريكية، ومعنى هذا تشكيل حكومةٍ أريتريةٍ تتمتع بسلطاتٍ تشريعيةٍ، وتنفيذيةٍ، وقضائيةٍ في الشؤون الداخلية، ومتحدةٍ مع الحبشة لامركزياً بالشؤون الخارجية، والمالية، والدفاع. وقد تقرّر أن يتمّ

تنظيم حكومة أريتريا، وإعداد دستورٍ لها، وتطبيقه بإشراف مندوبٍ من الأمم المتحدة، في مدةٍ لا تصل إلى السنتين.

تمّ تشكيل هيئةٍ تشريعيةٍ من ثمانيةٍ وستين عضواً، نصفهم من المسلمين، ونصفهم الآخر من النصارى، وقد احتجّ المسلمون على هذا التعيين، إذ أُخذ من المسلمين ما يتفق وآراء رجال الأمم المتحدة النصارى، وذلك حسب ما تقترحه الحبشة، ولكن لم يكن لهذا الاحتجاج أي مستمعٍ، ولم تكن له أية جدوى.

وصدر الدستور، ووافقت عليه الأمم المتحدة، ونصّ أن تكون اللغة العربية والتجرينية اللغتين الرسميتين، وتقرّر أن يكون لأريتريا علم خاص، وقضاء خاص.

لم ترحّب الحبشة بفكرة الاتحاد اللامركزي بينها وبين أريتريا، لأن السلطة فيها مركّزة بيد الامبراطور، ولا يستطيع أن يرى بجانبه سلطةً أخرى، ويعمل ليزيد في تقوية سلطته لا ليضعفها، وهذا ما يجعل تطاول الأمراء والحكام المحليين في بقية المقاطعات الحبشية، لذا أمر الامبراطور الجيش الحبشي عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) باحتلال أريتريا فنفّذ الأمر، واستولى على الثكنات التي كان يحتلّها الجيش الإنكليزي، كما أن البريطانيين قد سلّموا زمام الأمر علناً للأحباش. وعيّن الامبراطور هيلا سيلاسي صهره (أند لكاتشو ماساي) مُمثّلاً له في أريتريا، كما عيّن زعيم الحزب الاتحادي رئيساً للسلطة التنفيذية، وابتدأ بتطبيق السياسة المرسومة.

١″ - استلمت الحكومة الحبشية بالتواطؤ مع الإدارة البريطانية الممتلكات الإيطالية السابقة جميعها، والتي تخصّ الحكومة الأريترية قانوناً، كما استولت على المرافق الحيوية كلها، كالسكك الحديدية، والجمارك، والبريد، والبرق، وسائر المواصلات، والمطارات، والموانىء، ومصانع الملح.

٢″ ـ أنشأت الحكومة الحبشية في أريتريا محاكم خاصة غير دستوريةٍ أسمتها المحاكم الاتحادية، أذاقت بها الشعب في أريتريا الويلات، وملأت بأبنائه السجون نتيجة الأحكام الجائرة.

٣″ ـ حّلت الأحزاب الأريترية كلها عدا الحزب الاتحادي الذي يسير برأيها ورهن إشارتها، فأرسل قادة الأحزاب برقياتٍ إلى أمين عام الأمم المتحدة يرجونه التدخّل بالأمر، وذلك يوم الأول من صفر **١٣٧٣** هـ (**٩** تشرين الأول **١٩٥٣** م)، ولكنه لم يُبال بالأمر.
٤″ ـ عطّلت جريدة «صوت أريتريا» لسان حال حزب «الكتلة الاستقلالية»، وحكمت على المحررين فيها بسنواتٍ من السجن مختلفة.

٥″ ـ فرضت الانتخابات، وجعلتها تحت إشراف ممثلين من الحكومة الحبشية المعتدية.

٦″ ـ حرّمت تدريس اللغة العربية، ومنعت دخول الكتب العربية، والمدرسين الذين يفدون من البلدان العربية.

٧″ ـ أنزلت العلم الأريتري، ونصبت مكانه العلم الحبشي الذي يُمثّل أسداً يحمل صليباً يريد الضرب به.

٨″ ـ عزلت رئيس المجلس النيابي الأريتري إدريس محمد آدم، فانتقل إلى مصر، وعاش لاجئاً سياسياً هناك.

٩″ ـ وطّدت علاقتها مع دولة اليهود في فلسطين، حيث أوفدت بعثاتٍ عسكريةً للتدريب على فنّ المخابرات والتجسّس، كما فتحت الباب على مصراعيه للنفوذ اليهودي، بعد أن اعترفت رسمياً بذلك الكيان.

١٠″ ـ أعادت تشكيل الحزب الاتحادي من جديدٍ، وجعلت أحد القساوسة، وهو (ديمتروس جبران ميكائيل) رئيساً له.

١١″ ـ عمل الامبراطور على إسكان النصارى في المناطق الإسلامية، فأمر بتسليم الأراضي الزراعية الخصبة في وادي (زولا) المنطقة

الإسلامية المحضة إلى نصارى من الهضبة، وبنى لهم كنيسةً هناك، ثم شيّد خزّاناً في الوادي المذكور لريّ الأراضي التي امتلكها النصارى منذ عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م).

وأخذ النصارى يتزايدون في المناطق الحيوية بسرعةٍ، وخاصةً في مينائي (عصب) و(مصوع)، فقد كان عدد النصارى في ميناء عصب عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) حسب إحصاءٍ بريطاني أربعمائة إنسانٍ، فإذا به يصبح عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) أكثر من خمسة عشر ألفاً، ويمثّلهم نائب في الجمعية التشريعية. وضيّقت الحكومة الحبشية على المسلمين في هذه المناطق مما اضطرهم إلى الهجرة إلى سواحل الجزيرة العربية. وليس هذا الوضع في هذه المناطق فقط بل في المناطق الإسلامية كلها، ففي (أغوردات) و(تسني) و(كيرن) عمليات إسكان للنصارى أيضاً، وقد تفوق عمليات الإسكان في الموانىء.

ونتيجة هذه التصرّفات، ضاق المسلمون ذرعاً بتعسف الأحباش فقامت المظاهرات في أرجاء البلاد كافةً، وكانت تُقمع بمنتهى الوحشية، وبقيت الثورات المتكررة، ويفرّ الزعماء من البلاد، وتشكّلت إثر ذلك (جبهة التحرير الأريترية)، وتعمل على الاتصال بالخارج، وتقوم بإصدار النشرات وتوزيعها، وتُطالب بالاستقلال، وأسّست مكتباً لها في مدينة (مقديشيو) عاصمة الصومال، وأصدرت مجلة باسم (الثورة)، وهناك جمعية الصداقة الأريترية ـ الصومالية، وتقوم بمساعدة بعض الثوار الذين يلجأون إلى الصومال. وتطالب جبهة تحرير أريتريا باستقلال بلادها بحدودها الحالية، وبعثت وفداً برئاسة إدريس محمد آدم لزيارة البلدان العربية لتعريف الشعب العربي بقضيتها.

وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٢ م) أصدرت الحكومة الحبشية قراراً يقضي باحتلال أريتريا عسكرياً، وضمها إلى أملاكها رسمياً.

انعقد المؤتمر الإسلامي في مدينة (مقديشيو) عاصمة الصومال لمدة أسبوعٍ إذ استمر من ٢٢ شعبان ١٣٨٤ هـ لغاية ٢٩ منه (٢٦ كانون الأول ١٩٦٤ - ٢ كانون الثاني ١٩٦٥ م)، وقد جاء في البند السادس عشر من قرارات المؤتمر ما يأتي: «درس المؤتمر التقارير المختلفة التي قُدّمت إليه بشأن قضية أريتريا، وقرّر ما يأتي:

أ - اعتبار قرار الحكومة الحبشية القاضي باحتلال أريتريا عسكرياً، وضمّها إلى أملاكها الصادر في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٢ م) عملاً مناقضاً لحقوق الإنسان، ومناقضاً لقرار الأمم المتحدة بشأن إقامة اتحادٍ لامركزيٍ بين الحبشة وأريتريا الصادر في ٢٢ صفر ١٣٧٠ هـ (٢ كانونِ الأول ١٩٥٠ م). ويرى المؤتمر أن استيلاء الحبشة على أريتريا عسكرياً إنما يُشكل عدواناً فاضحاً على شعبٍ إفريقيٍ مُسالمٍ.

ب - يستنكر المؤتمر بشدّةٍ الأعمال الوحشية التي يرتكبها الأحباش ضدّ الشعب الأريتري المكافح في سبيل حقه المشروع في الحرية والاستقلال من تقتيلٍ، وتحريقٍ، وتشريدٍ، وانتهاكٍ للأعراض والمقدّسات، ويُناشد المؤتمر الضمير العالمي، ومنظمة الأمم المتحدة، والهيئات الإنسانية الدولية التدخّل فوراً لوقف هذه المجازر البشرية البشعة التي تشين وجه الإنسانية في عصر الأمم المتحدة، وحقوق الإنسان.

جـ - يُناشد المؤتمر الدول الإسلامية والمحبة للسلام، وخاصةً الإفريقية المستقلة مناصرة الشعب الأريتري في نضاله المشروع، وتبنّي عرض قضيته على منظمة الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية، أو غيرها من المجالات حتى يتحقّق جلاء القوات الحبشية، وقيام الجمهورية الأريترية المستقلة، ويرى المؤتمر أن استمرار العدوان الحبشي، وسكوت الدول الإفريقية عليه يلحق أعظم الضرر بالحركات التحررية في إفريقية، ويُعطي المستعمر الأجنبي الحجة للبقاء، ويُسوّغ له الاستمرار في عُدوانه، حين يرى العالم أن دولاً إفريقيةً تعتدي على شقيقاتها وجيرانها، وتحرم

أهلها من الحقوق الإنسانية المشروعة، كحق تقرير المصير التي تدّعي الغيرة عليه، وتُطالب به للمستعمرات الإفريقية الأخرى.

د ــ يوصي المؤتمر الدول الإسلامية، والدول الصديقة أن تُخصّص في وسائل الإعلام والتوجيه في بلادها برامج لشرح قضية الشعب الأريتري المناضل، وتبيان انتهاك الحكومة الحبشية لقرارات الأمم المتحدة التي كفلت لهذا الشعب حكماً ذاتياً، وإيضاح الفظائع التي يرتكبها الجيش الحبشي ضدّ هذا الشعب الإفريقي الباسل.

وجاء في قرارات المؤتمر الإسلامي العام في دورته الثانية المنعقد بمقرّ رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بدءاً من ١٥ ذي الحجة ١٣٨٤ هـ (١٧ نيسان ١٩٦٥ م) ما يأتي:

القضية الأريترية:

١ ــ يُقرّر المؤتمر أن الأمر الصادر في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٢ م) من قبل حكومة الحبشة باحتلال أريتريا عسكرياً، وإلحاقها بممتلكاتها يتعارض مع قرارات الاتحاد اللامركزي بينهما والذي وافقت عليه الأمم المتحدة في ٢٢ صفر ١٣٧٠ هـ (٢ كانون الأول ١٩٥٠ م)، وأن الاحتلال العسكري لأريتريا هو اعتداء صارخ على شعبٍ إفريقيٍ مسلمٍ مسالمٍ.

٢ ــ يستنكر المؤتمر بشدّة المظالم التي ترتكبها حكومة الحبشة ضدّ الشعب الأريتري المسلم الذي يُطالب بحريته واستقلاله، ويُناشد الضمير العالمي للتدخّل السريع، ووقف المجازر، وانتهاك حرمة الأماكن الدينية، وحرق المنازل والمزارع، وتشريد الأهالي من بيوتهم، وهو أمر يُنافي الإنسانية، ويُناقض ميثاق الأمم المتحدة، ومبادىء حقوق الإنسان.

٣ ــ يحثّ المؤتمر الدول الإسلامية، والمحبة للسلام، وخاصةً الدول الإفريقية المستقلة بتأييد الشعب الأريتري في نضاله المشروع، وتبنّي قضيته

لدى الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية للعمل على جلاء القوات الحبشية، وتمكين الشعب الأريتري من ممارسة حقه في تقرير مصيره، ويلفت المؤتمر النظر إلى أن استمرار الاعتداء، وسكوت الدول الإفريقية عليه يعطي الاستعمار حجةً في الاستمرار ما دامت بعض الدول الإفريقية تستعمر أشقاءها من الشعوب الإفريقية المجاورة، وتنكر عليها حقها في تقرير المصير، بينما تدّعي في الوقت نفسه مطالبتها بحق تقرير المصير للشعوب التي لم تتحرّر بعد في إفريقية.

٤ ـ يوصي المؤتمر جميع الدول الإسلامية والدول الصديقة المناصرة لحرية الشعوب بأن تُجنّد وسائل النشر والإعلام التي لديها جميعها من أجل تنوير شعوبهم، وشعوب العالم، وإفهامهم حقيقة النضال الأريتري.

ورغم هذه المؤتمرات المتعددة، وهذه القرارات الواضحة فإن القضية لم تتحرك من مكانها، ولم يستمع أحد لها وذلك لأن:

أولاً: الدول غير جادة في تنفيذ هذه القرارات، فلا تستعمل لغة التهديد، ولا تُعلن استعدادها للمواجهة بل على العكس يكون تصرّف فردي دائم لاسترضاء دولة الحبشة، وحكومتها، وخاصةً الامبراطور، ولطالما كانت علاقات الامبراطور حسنةً بالرئيس المصري جمال عبد الناصر صديق أعداء الإسلام، بل هم أصدقاؤه الوحيدون، (مكاريوس، نهرو، تيتو، نكروما، لومومبا، نيريري، هيلا سيلاسي)، وتمنع هذه الدول طباعة كل ما يتعلّق بالقضية الأريترية. وهذا ما يدعو حكومة الحبشة لعدم إلقاء أي اهتمام بهذه المؤتمرات وقرارتها، ولا تُعيرها بالاً، ولا تعدّها أكثر من كلامٍ يلقى في الهواء، ولا يفيد شيئاً.

ثانياً: الأمم المتحدة لا يمكنها أن تقف ضدّ مصالح دولةٍ نصرانيةٍ تُعلن صراحةً نصرانيتها، وخاصةً إن كانت مصالحها تُواجه قضيةٍ إسلاميةً، كما هي الحال هنا، فالبابوية والكنائس تبدي رأيها، ولو خالفته الدول الكبرى لكانت مشكلةً كبيرةً بين شعوب وحكومات تلك الدول، ومن ناحية

ثانيةٍ فهيئة الأمم تسير بتوجيهِ الدول الكبرى التي هي دول نصرانية متعصّبة، ولكن تُؤدّى دورها تحت مظلّة هيئة الأمم، والنظام الدولي و. . . . وحتى الآن لم يدرك المسلمون هذا ـ مع الأسف ـ وإن عرفوه فالمسؤولون عنهم لا يريدون أن يقرّوا بهذا حرصاً على مواقعهم القائمة على دعم الدول الكبرى، ووقف الدعم زوال الموقع والمجيء بحارسٍ جديدٍ يُغطّي هذه المواقف، ويُعلن براءة المتهمين صراحةً، وكأننا لم نسمع كلام الله حيث يقول: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا نصير﴾(١). تقرير جازم بعدم رضاهم عنا إلا بولايتهم واتباعهم.

القضية الصومالية:

خرجت الحامية المصرية من هرر في مطلع عام ١٣٠٢ هـ (تشرين الأول ١٨٨٤ م)، وعادت السيطرة إلى الأمراء المحليين، أو بالأحرى حدث فراغ سياسي، واستطاعت الحبشة أن تدخل إمارة هرر بتحريضٍ من بريطانيا التي عملت على إيجاد ذلك الفراغ مقابل أن تشترك الحبشة بالقضاء على دولة المهدي في السودان. وقد عيّن الامبراطور (منليك الثاني) أول حاكمٍ حبشي على إمارة هرر، وهو (ماكوين)، وبدأ يتوسّع بمساعدة الدول الأوربية النصرانية حتى ضمّ منطقة (الأوغادين) إليه، وذلك مكافأةً للامبراطور (منليك الثاني) على موقفه من الحركة المهدية.

عقد إمبراطور الحبشة عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) معاهدةً مع فرنسا في أديس أبابا لرسم الحدود بين جيبوتي (الصومال الفرنسي) وبين منطقة الأوغادين، ثم عقد معاهدةً أخرى مع إيطاليا عام ١٣٢٦ هـ (هـ (١٩٠٨ م) لتخطيط الحدود بين الصومال الإيطالي وبين منطقة الأوغادين، واتفقا أن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

يكون خط الحدود موازياً لساحل المحيط الهندي، ويبعد عنه مسافة ١٨٠ ميلاً. وكانت الحبشة قد دخلت المنطقة بالتآمر مع بريطانيا دون موافقة الأهالي، وكان يرعى فيها ما يقرب من مائتي ألف من الرعاة الصوماليين، وصاحب هذه العملية حركة تنصيرية واسعة قوبلت من الشعب الصومالي بثورةٍ عارمةٍ حمل راية الجهاد فيها محمد بن عبدالله حسن الذي أُطلق عليه «أسد الصحراء»، وقاوم الاستعمار النصراني، واستمرّت حركته مدة اثنتين وعشرين سنةً، ظهرت فيها بطولات رائعة، وتضحيات لا زالت مضرب الأمثال.

وعندما احتلت إيطاليا الحبشة عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) أعلن موسوليني إعادة إقليم الأوغادين إلى الصومال الإيطالي بعد ضم الحبشة إلى إيطاليا. ولما انتصر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ودخلت إنكلترا الصومال الإيطالي عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) عن طريق (كسمايو) أقرت بريطانيا هذا التدبير، وعقدت اتفاقاً مع الحبشة نصّ على اعتبار إقليم الأوغادين منفصلاً عن الحبشة، وتتولّى بريطانيا إدارته، ثم جُدّد هذا الاتفاق عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م). وعندما بعثت دول الحلفاء المنتصرة مندوبيها إلى (مقديشيو) عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٦ م) لمعرفة رغبات الشعب الصومالي أجمع الأهالي على أن تتولى الدول الكبرى إدارته تحت إشراف الأمم المتحدة لمدة عشر سنواتٍ تنتهي بالاستقلال التام، وعمدت بريطانيا إلى مؤامرةٍ شبيهةٍ بما فعلته في فلسطين، إذ سحبت قواتها من الإقليم الموضوع تحت وصايتها، ومهّدت لدخول قوات الحكومة الحبشية إليه بعد اتفاقيةٍ سريةٍ عقدتها مع حكومة الحبشة عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م). وهكذا تمّ فعلاً ضم هذا الإقليم الصومالي إلى الحبشة تحت سمع هيئة الأمم المتحدة التي تسير بتوجيهٍ نصرانيٍ، وتحت بصرها.

لقد قررت الحبشة أن تخضع هذا الإقليم بالحديد والنار حتى يخنع أهله، وينضووا تحت حكمها قهراً وغصباً، وارتكبت في سبيل ذلك أبشع الجرائم، واستخدمت الوسائل الممكنة كلها لمقاومة رغبات الصوماليين في

التحرر من الحكم النصراني، والانضمام إلى الوطن الأم، فأغلقت مكاتب حفظ القرآن الكريم، وعدّت تعليم اللغة العربية جريمةً يُعاقب عليها القانون، وقامت بأعمال الاعتقال والنفي، ورفضت أية مفاوضةٍ على مبدأ تقرير المصير، وفي هذه الظروف الرهيبة قامت حركة مسلحة بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٨٣ هـ (١٤ تموز ١٩٦٣ م) بقيادة الشيخ مختل طاهر، وتشكّلت حكومة موقتة، ومجلس أعلى لقيادة الثورة. وتمكنت هذه الحركة أن تُلحق هزائم كبيرةً بالجيش الحبشي، وأن تحتلّ عدداً من القرى والمناطق المحيطة بمدينة هرر، واستطاعت تعطيل الخط الحديدي الذي يصل بين مدينتي «ديرداوا» و«عواش»، ووقف اليهود والنصارى ممثلين بدولهم وبإشراف الأمم المتحدة إلى جانب الحبشة في محاولتها إفناء هذا الشعب المسلم. وقد اشترك الضباط اليهود في المعارك التي دارت بين القوات المسلمة وبين الجيش الحبشي الذي يخضع لتدريب الضباط اليهود، ويسير حسب الخطط التي يضعونها له، وقد أعارت دولة اليهود في فلسطين ثلاثة آلاف خبيرٍ عسكريٍ يعملون بمختلف القطاعات، هذا بالإضافة إلى المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تتلقّاها الحبشة من دولة اليهود، ومن الدول الاستعمارية النصرانية، والمسلمون ينظرون إلى هيئة الأمم المتحدة لتساعدهم ضدّ أبناء عقيدتها فماذا يتوقّعون؟.

ولم تكتف الحبشة بإقليم الأوغادين بل كانت تطمع بضمّ الصومال كاملاً إليها لتنتقم من المسلمين الذين كانوا في يومٍ من الأيام يُحاربون الأحباش النصارى. وفي الوقت نفسه فهي تخشى من قيام دولةٍ مسلمةٍ على حدودها الشرقية تستطيع دعم الأكثرية المسلمة المستضعفة التي تعيش في الحبشة. وعندما كانت المفاوضات قائمةً بين الصوماليين والإنكليز من أجل الاستقلال، وتوقّفت هذه المفاوضات لأسبابٍ سياسيةٍ تعود إلى اختلاف وجهات النظر، هدّدت الحبشة بالتدخّل بالقوة فيما إذا استقلّت الصومال، وحشدت جيوشها على الحدود الصومالية. وعندما عُقد مؤتمر القمة للدول الإفريقية في أديس ابابا طرحت الصومال المنازعات الإقليمية مع الحبشة

غير أن المؤتمر لم يناقش الأسباب الجوهرية لتلك المنازعات بل اهتم بالشؤون التي تهمّ المؤتمر عامةً.

وقد بحثت قضية منطقة الصومال في المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في مقديشيو ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) والذي أشرنا إليه سابقاً، وقد جاء في البند الخامس عشر من القرارات المتعلقة بالشؤون السياسية ما يأتي: «إن بلاد الصومال وحدة جغرافية متكاملة اقتصادياً وسياسياً، ومواطن لشعبٍ واحدٍ يدين بدينٍ واحدٍ، وله تاريخ واحد، ولغة واحدة، وتقاليد وعادات واحدة، لكن حدود الصومال الحاضرة ليست حدوده الطبيعية الحقيقية، بل هي حدود مصطنعة أقامها الاستعمار في ظلّ حكمه الغاشم عندما شعر بأن بقاءه في إفريقية وشيك الزوال، ولذا ألحق الإنكليز أجزاء من الصومال بالحبشة، وأخرى بكينيا، واحتفظت فرنسا بالجزء الشمالي من الصومال، وهو المسمّى بالصومال الفرنسي [استقل بعدئذٍ باسم جيبوتي] رغم تخليها عن مستعمراتها الإفريقية.

ومع أن الإنكليز أجروا استفتاءً فيما يسمّى بالصومال الكيني [الذي ألحقوه بكينيا] حينما كانت هي نفسها تحت الاستعمار الإنكليزي، وكانت النتيجة هي الإجماع على الالتحاق بالوطن الصومالي الأم، لم يعمل الإنكليز بمقتضى هذا الاستفتاء، وأصرّوا على بقاء هذا الجزء ملحقاً بكينيا كي يبقوا للجمهورية الصومالية مشكلة حدودٍ دائمةٍ مع جيرانها الإفريقية، وهذا أسلوب معروف للاستعمار في وضع المشكلات الدائمة للشعوب المستعمرة، كما فعل الإنكليز في ضمّ جزءٍ من غربي الصومال إلى الحبشة مما يُسمّم علاقات التعايش السلمي بين الدول الإفريقية نفسها. [القضية أبعد من ذلك بكثيرٍ إنها حرب صليبية صريحة لمن يدرك].

ومن ذلك تبيّن أن تمسّك الحبشة وكينيا بالحدود الصومالية المصطنعة التي أقامها الاستعمار موقف عدواني وغير شرعي يحرم الشعب الصومالي من حقوقه الطبيعية في الوحدة الوطنية، ويجعل أجزاء منه تتعرّض للاضطهاد والإبادة في ظلّ حكمٍ أجنبيٍ غاشمٍ.

ومن جهة أخرى ثبت للمؤتمر مما سمعه من بيانات الوفود الإفريقية من مختلف الجهات ومن عدة مصادر موثوقةٍ أن الحبشة وكينيا تقومان بأعمال إبادةٍ جماعية لمسلمي الحبشة، والصومال المحتلّ، وأريتريا تتسم بطابع التعصّب وأبشع صور الاضطهاد الديني مما يعدّ من الجرائم الدولية، ويتنافى مع أوضح وأبسط المبادىء الإنسانية، والأديان السماوية، ومع العقيدة النصرانية، وذلك تنفيذاً للبرنامج التوسعي الاستعماري على حساب الجيران الأفارقة أنفسهم لذلك يقرر المؤتمر ما يلي:

١ ــ يُؤيّد مؤتمر العالم الإسلامي تأييداً كاملاً الحقوق المشروعة للصومال في تحقيق الوحدة الكاملة للأراضي الصومالية، ويُطالب كلاً من فرنسا، والحبشة، وكينيا بإعطاء الصوماليين في المناطق التي تحتلها كل من هذه الدول حق تقرير المصير، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة، وميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، وميثاق حقوق الإنسان، ويُناشد المؤتمر الدول الإسلامية، والدول المحبة للسلام، والضمير الإنساني الحرّ مساندة الصومال بكل الوسائل لتحقيق هذه الغاية الإنسانية.

٢ ــ يستنكر المؤتمر بشدةٍ حملات الإبادة الجماعية، والأعمال الوحشية التي ترتكبها القوات الحبشية والكينية ضدّ الآمنين العزّل من المسلمين، من تقتيلٍ وتحريقٍ للآدميين، والمواشي، وإتلافٍ للممتلكات، ويُناشد الهيئات الإنسانية، والدولية كهيئة الأمم، ومنظمة الصليب الأحمر، والهلال الأحمر، وغيرها التحقيق في الأمر، وإسعاف المنكوبين، كما يُحذّر الحكومتين الحبشية والكينية من نتائج الاستمرار هذه الحملات.

٣ ــ مطالبة الحكومات الثلاث (الحبشية، والكينية، والفرنسية) بالإفراج عن المعتقلين حالاً.

٤ ــ يستنكر المؤتمر حكم الضغط والإرهاب الاستعماري وقمع حركات التحرر الوطنية بالقتل والسجن والنفي مما تمارسه فرنسا فيما يسمى «الصومال الفرنسي»، ويُناشد المؤتمر فرنسا أن تحقق سياستها الجديدة التي

أعلنت أنها ترمي إلى تصفية الاستعمار، وإقامة علاقاتٍ حسنةٍ مع الدول الناشئة، وأن تعطي الشعب الصومالي فيما يسمى (الصومال الفرنسي) حق تقرير مصيره بالاستقلال أو الانضمام إلى الوطن الأم».

وجاء في البند السابع عشر من القرارات المتعلقة بالشؤون السياسية ما يلي: «استمع المؤتمر بمزيدٍ من الألم إلى بيانات أعضائه بشأن سوء معاملة السلطات الحبشية للمسلمين الوطنيين فيها، وما يلقونه من اضطهادٍ بالغٍ، وإهمال وحرمان من حقوقهم المدنية، والسياسية، والاجتماعية، كمنعهم من المشاركة في الوظائف العامة، والجيش، أو تأليف الجمعيات الدينية والثقافية وغير ذلك، وإغلاق المدارس الإسلامية القرآنية، والضغط عليهم بوسائل شتّى من قتلٍ، وتعذيبٍ، ومصادرة أموالٍ لإكراههم على ترك دينهم، وتهديد من يبوح من المواطنين بما يلقونه من أذى ومظالم بالقتل طمساً لمعالم هذه الأعمال وآثارها إذا أريد التحقيق فيها، وغير ذلك مما يدهش السامع لوقوعه في هذا العصر في ظلّ الأمم المتحدة، ومقر منظمة الوحدة الإفريقية، ودولة تدين بالنصرانية، وهيئة تأمر تعاليمها بالسلام والمحبة الإنسانية حتى للأعداء.

والمؤتمر يأسف بالغ الأسف أن تتنكّر السلطات الحبشية لصلات الودّ والصداقة التي قامت بين الحبشة والمسلمين منذ نشأة الإسلام الأولى، حيث كانت لهم موئلاً وملجأً ضدّ البغي والاضطهاد الوثني، وأن تعمد هذه السلطات إلى أن تتبنّى بدلاً من المستعمرين سياسة التمييز العنصري الديني في القارة الإفريقية التي عانت الأهوال الجسام من هذا التمييز، وما زالت دولها، ومعها العالم الحر أجمع تتنادى إلى استئصاله والقضاء عليه.

والغريب جداً أن تتمادى السلطات الحبشية في هذه الأعمال المنافية للإنسانية والأديان تجاه المسلمين المواطنين الذين يبلغون أكثر من ٦٠٪ من سكانها، بينما تلقى حكومة الحبشة ورئيسها مزيد التقدير والتعظيم من الدول الإسلامية عامة والعربية خاصةً، ويتمتع النصارى في البلاد الإسلامية

والعربية بالحرية الكاملة والمساواة والتسامح وفقاً لتعاليم الإسلام. لذلك كله يقرر المؤتمر:

١ ـ استنكار هذه الأعمال التي تقوم بها السلطات الحبشية ضد المسلمين المواطنين فيها.

٢ ـ تحذير السلطات الحبشية من الاستمرار في هذه السياسة غير الإنسانية، التي تُؤدّي إلى العداء المستحكم بينها وبين الدول الإسلامية والعربية والدول المحبة للحق والعدالة والحرية في العالم.

٣ ـ تحقيق المساواة بين المسلمين وغيرهم من المواطنين الحبشيين في الحقوق والواجبات.

٤ ـ الطلب من هيئة الأمم المتحدة، عملاً بميثاقها، وبشرعة حقوق الإنسان أن ترسل لجنة تحقيق برئاسة الأمين العام للأمم المتحدة مع ممثلين من الدول الإسلامية، والفاتيكان، والكنيسة الأرثوذكسية في الشرق، ومن ينتدبه هذا المؤتمر من أعضائه.

٥ ـ دعوة الدول الإسلامية والعربية في العالم إلى الاتصال بالسلطات الحاكمة في الحبشة لإقناعها بالعدول عن سياستها العدوانية لمسلمي الحبشة، ومطالبتها بضمان حقوق المسلمين الدينية، والمدنية، والسياسية، والاجتماعية، ومعاملتهم على قدم المساواة مع سائر المواطنين.

٦ ـ تفويض مكتب المؤتمر الدائم بمتابعة هذه القضية على الصعيد الدولي، واتخاذ كل إجراءٍ ممكنٍ في هذا الموضوع.

وكذلك فإن المؤتمر الإسلامي العام قد بحث قضية المسلمين في الحبشة، وجاء في قرارات دورته الثانية المنعقدة بمقر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة بدءاً من ١٥ ذي الحجة ١٣٨٤ هـ ـ ٢٢ ذي الحجة الموافق (١٧ نيسان ١٩٦٥ م ـ ٢٤ نيسان من العام نفسه) ما يأتي:

إن المصادر المتعددة شهدت لدى المؤتمر، وأكّدت ما يلقاه

المسلمون في الحبشة من اضطهادٍ بالغٍ وإهمالٍ وحرمان أكثرهم من حقوقهم المدنية، والسياسية والاجتماعية، ومن الوظائف العامة ذات الأهمية من مدنيةٍ وعسكريةٍ، والتمثيل النيابي، والحدّ من حريتهم في تأليف الجمعيات الدينية، والثقافية، والتعليم المدني، والضغط عليهم بوسائل شتّى من الإرهاب لإكراههم على ترك دينهم، أو إبقائهم في حالة الجهل، والضعف، والتخلّف، وتهديد من يبوح من المواطنين بما يلقونه من أذى ومظالم طمساً لمعالم هذه الأعمال وآثارها إذا أُريد التحقيق، وغير ذلك مما يُدهش السامع لوقوعه في هذا العصر، في ظل هيئة الأمم المتحدة، ومقرّ منظمة الوحدة الإفريقية، ودولة تدين بالنصرانية التي تأمر تعاليمها بالسلام والمحبة الإنسانية حتى للأعداء.

والمؤتمر يأسف بالغ الأسف لما بلغه من أن السلطات الأثيوبية تتبنّى سياسة التمييز العنصري الديني في القارة الإفريقية التي عانت الأهوال الجسام من هذا التمييز، وما زالت دولها ومعها العالم الحرّ أجمع تنادي وتدعو إلى استئصال هذا الداء الوبيل والقضاء عليه.

«المؤتمر يستغرب هذه الأعمال المنافية للإنسانية والأديان تجاه المسلمين الذين هم أكثرية سكانها بينما تلقى الحكومة الأثيوبية ورئيسها مزيد التقدير والتعظيم من الدول الإسلامية عامةً والعربية خاصةً لهذا كله يُقرّر المؤتمر:

١ ـ استنكار هذه الأعمال التي تقوم بها السلطات الأثيوبية ضد المسلمين المواطنين فيها خلافاً لما تقتضيه سوابق الصلات التاريخية القديمة الكريمة التي قامت بين المسلمين وحكام الحبشة في الماضي.

٢ ـ تنبيه وتحذير السلطات الأثوبية إلى أن الاستمرار في هذه السياسة غير الإنسانية سيُؤدّي إلى استحكام العداوة بينها وبين الدول الإسلامية والدول المحبة للحق والعدالة والحرية في العالم.

٣ ـ مناشدة الحكومة الأثيوبية تحقيق المساواة بين المسلمين وغيرهم من المواطنين في الحقوق والواجبات.

٤ ـ الطلب إلى جميع الدول الإسلامية والصديقة المحبة للسلام أن تُثير هذه القضية في الأمم المتحدة، وتطلب إليها التدخّل لوضع حدٍّ لهذا الاضطهاد الديني بصورة تضمن لمسلمي أثيوبيا حقوق المواطن الكاملة.

٥ ـ دعوة الحكومات الإسلامية والعربية في العالم إلى إعادة النظر في علاقاتها مع الحكومة الأثيوبية بحسب معاملتها مع دولة اليهود في فلسطين، وبحسب سياستها الاضطهادية للمسلمين فيها.

٦ ـ إبلاغ هذا القرار إلى حكومة أثيوبيا، ومطالبتها باسم المؤتمر بالعدول عن سياستها العدوانية للمسلمين لضمان حقوقهم الدينية، والمدنية، والسياسية، والاجتماعية، ومعاملتهم على قدم المساواة مع سائر المواطنين.

قضية الصومال:

اطلع المؤتمر على التقارير الواردة إليه من مصادر معتمدة من أجزاء الصومال الثلاثة التي تحتلها الحبشة، وكينيا، وفرنسا، وعلم ما تضمّنت هذه التقارير الهامة عن كيفية تقسيمها العدواني بمؤامراتٍ استعماريةٍ، وحرص الاستعمار على تمزيق وحدة الشعب الصومالي المسلم تنفيذاً لأغراضه الاستعمارية والصليبية الحاقدة، وأخذ المؤتمر علماً بالفظائع المنافية لأوليات المبادىء الإنسانية في سبيل تنفيذ هذا المخطط العدواني على الصومال، وإبقاء السيطرة الاستعمارية عليه، فقرر المؤتمر ما يلي:

أولاً: يُؤيّد المؤتمر الإسلامي العام تأييداً كاملاً الحقوق المشروعة للصومال في تحقيق الوحدة الكاملة للأراضي الصومالية، ويُطالب كلاً من: فرنسا، وأثيوبيا، وكينيا بإعطاء الصوماليين في المناطق التي تحتلها كل من هذه الدول حق تقرير المصير، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة

الإفريقية، وحقوق الإنسان. ويناشد المؤتمر الدول الإسلامية، والدول المحبة للسلام، والضمير الإنساني الحر مساندة الصومال لتحقيق هذه الغاية الإنسانية، والحصول على حقوقه المشروعة.

ثانياً: يستنكر المؤتمر بشدّة حملات الإبادة الجماعية، والأعمال غير الإنسانية التي ترتكبها القوات الأثيوبية والكينية ضد المسلمين الصوماليين العزّل من تقتيلٍ، وتحريق للآدميين، والمواشي، وإتلاف الممتلكات، ويناشد الهيئات الإنسانية الدولية، كهيئة الأمم المتحدة، وهيئة الهلال الأحمر، ومنظمة الصليب الأحمر، وغيرها التحقّق في الأمر، وإسعاف المنكوبين، وهم يحذّرون الحكومتين الحبشية والكينية من نتائج استمرار هذه الحملات.

ثالثاً: يطالب المؤتمر الحكومات الثلاث أثيوبيا، كينيا، فرنسا بالإفراج عن المعتقلين المسلمين من سياسيين ومدنيين حالاً.

رابعاً: يستنكر المؤتمر حكم الضغط والإرهاب الاستعماري لقمع حركات التحرر الوطني بالقتل، والسجن، والنفي مما تمارسه فرنسا فيما يُسمّى بالصومال الفرنسي، كما يناشد المؤتمر فرنسا أن تحقق سياستها الجديدة التي أعلنت أنها ترمي إلى تصفية الاستعمار، وإقامة علاقات حسنة مع الدول الناشئة، وأن تعطي الشعب الصومالي فيما يُسمّى بالصومال الفرنسي حق تقرير المصير.

خامساً: يكلف المؤتمر رابطة العالم الإسلامي بالتحقيق فيما يجري في المناطق الصومالية المحتلّة بالوسائل المستطاعة كلها للوقوف على ما يُعانيه المسلمون هناك، وما يتعرّضون له من إرهابٍ، وحملات إبادةٍ لكي يعلن ذلك على الرأي العام الإسلامي ليكون على بيّنةٍ من الفظائع غير الإنسانية التي ترتكبها الدول الاستعمارية في المناطق الصومالية التي تحتلّها، وليسهم في إنقاذ الشعب الصومالي المسلم من الاضطهاد الذي يُعانيه.

ولكن هذه المؤتمرات لم تُؤدّ أي دورٍ، ولم يكن لها أي أثر لأن:

١″ ـ هذه الدول المحتلّة إنما تعتمد على هيئة الأمم التي تسير بتوجيهٍ نصرانيٍ حسب ما تراه الدول الكبرى الاستعمارية النصرانية. لذا لم تبال، ولم تهتم بأية قراراتٍ، أو أي كلامٍ، أو أي استنكارٍ ومناشدةٍ فكله كلام يذهب في الهواء.

٢″ ـ هذه الدول المشاركة في المؤتمرات والتي تصدر القرارات، وتستنكر، وتناشد، و. . . تتعاون مع الدول التي تستنكر أعمالها أشدّ تعاون فلو كانت صادقةً لقطعت العلاقات معها، ولاتخذت إجراءاتٍ ضروريةً، وحاسمةً تجبر المعتدي على الوقوف عند حدّه.

٣″ ـ هذه الدول المشاركة في المؤتمرات مرتبطة بالدول الكبرى الاستعمارية التي وراء هذه الأعمال، ومشاركة في هيئة الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية، ولم تقاطعها احتجاجاً. . . فكيف يسمع كلامها؟.

السلطة المركزية:

منذ خروج الطليان من الحبشة عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) والسلطة تبذل جهوداً كبيرةً من أجل إقامة حكومةٍ مركزيةٍ تبسط سلطانها على الأقاليم كافةً، غير أنها تجد أمامها أمراً يكاد يكون مستحيلاً لأسبابٍ كثيرةٍ منها:

١ ـ إن هذه الجهود هدفها الأساسي فرض سلطان الأسرة المالكة، وهذا ما يجعلها تصطدم بالمقاومة في بقية الأقاليم، وخاصةً في (تجره) و (جوجام) و (أوغادين).

٢ ـ ضعف النظام الاتحادي مع أريتريا، ورغبة الحبشة في الاندماج الكلي، وهذا ما قامت به فعلاً، وأخذت تفرض أشدّ أنواع الضغط على المعارضين، على حين أن أريتريا تهدف إلى الاستقلال، والتخلّص من الظلم، والاستعباد، والاستعمار الحبشي.

٣ ـ سوء الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، وسيطرة الإقطاع، وانتشار الفقر، والجوع، والجهل بشكلٍ مخيفٍ، مما يجعل بعض المتنورين يفكرون في تغيير الوضع القائم.

٤ ـ التحكّم بالمسلمين رغم أنهم الأكثرية، ويشهد الأحباش بذلك رغم أنهم يحاولون الإقلال من شأن المسلمين وأعدادهم. فقد وزّعت الحكومة الحبشية منشوراً بمناسبة المعرض الدولي الذي أُقيم في مدينة (أديس أبابا) عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) ـ للدعاية لنفسها ـ تحت عنوان «الكنائس والمؤسسات الخيرية» جاء فيه: «ولو أن أثيوبيا معروفة كأمةٍ نصرانيةٍ إلا أن تسامحها الديني جدير بالاعتبار، فالمسلمون هنا لا يقلون عدداً عن النصارى، ويتمتعون بحرية العبادة دون تمييز»، والواقع أن المسلمين يومذاك كانوا لا يقلّون عن اثني عشر مليوناً بينما لا يزيد النصارى على ستة ملايين، وما بقي من سكان الحبشة، وهو قرابة المليونين فهم من الوثنيين واليهود.

واعترف كذلك بهذه الحقيقة كل من الكاتب الأمريكي (جون جنتر) في كتابه «داخل إفريقية» والمؤرّخ الإنكليزي (ترمنغهام) في كتابه «الإسلام في الحبشة» إذ يقولان عن المسلمين «وعلى ذلك فهم يُبعدون عن الوظائف، فلم يحدث في تاريخ الحبشة الحديث أن وُظّف وزير مسلم، أو نائب وزير، أو مدير، أو أمين سر، أو حتى بوّاب مسلم في وزارة من وزارات الحبشة الخمس عشرة. وفي الجيش الحبشي كله لا يوجد من المسلمين ما يعادل واحد بالألف، وإن وجدت هذه النسبة الضئيلة فرضاً فلا بدّ أن يكونوا قد ألحقوا لاعتباراتٍ خاصةٍ حيث يُكلّفون بأحقر المهمات. أما في صفوف الضباط فمن المستحيل أن تجد ضابطاً مسلماً واحداً في الجيش الحبشي كله، أو في الشرطة جميعها. وسياسة التنصير قائمة في الحبشة، وتتجلّى في إغلاق المعاهد الدينية جميعها، والمدارس الإسلامية، وسجن العلماء والمدرسين المسلمين، ومنع الكتب الدينية الإسلامية، وكذلك جميع المطبوعات العربية، وإرهاق المسلمين بالضرائب الفادحة، وانتزاع

أراضيهم، ومنعهم من الوظائف، ويقصد من هذا كله إجبار المسلمين للجوء إلى الديانة النصرانية، ثم هناك إجبار الأئمة المسلمين للدعاء للامبراطور على المنابر، وقد سجن الحاج عمر إمام جامع «دير داوا» عندما رفض الدعاء في شهر رمضان عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م). ويعدّ النصارى أنفسهم محور الوطنية الحبشية، وأن المسلمين غرباء، ولا يمكن أن يكونوا ضمن الوطنية الحبشية إلا إذا اعتنقوا النصرانية. وإن المدارس الحكومية تشنّ حرباً صليبيةً على المسلمين، وتكتب عن رسول الإسلام ما يخجل عن ذكره السوقة، لذا فالطلاب المسلمون قد أعرضوا عن هذه المدارس. كما أن الأحباش يُضيّقون على المسلمين، ويسدّون في وجوههم كل السبل التي تُؤدّي بهم إلى الثقافة، وقد فرض هيلا سيلاسي دخول المنصّرين إلى المقاطعات الإسلامية جميعها، وفُتحت مراكز التنصير في كل مدينةٍ وقريةٍ إسلاميةٍ، كما بُنيت الكنائس بشكل لا يتصوره عقل، وعند مدخل كل مدينةٍ إسلاميةٍ يجب بناء كنيسةٍ.

ونتيجةً للظلم الواسع، والاضطهاد الشامل، ولهذه التعسّفات الوحشية كان لا بدّ من وجود بعض ردود الأفعال التي تُؤدّي في النهاية إلى أسوأ العواقب، وأوخم النتائج، والتي يندى لها جبين الإنسانية، ومن هذه النماذج.

مذبحة في مقاطعة القراقي:

بعد عامٍ من عودة هيلا سيلاسي إلى الحكم أي في عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، وبعد أن أتمّ استئناف برامجه لتنصير المسلمين جاءت الهيئات التنصيرية السويدية بإيعاز منه إلى منطقة (القراقي) الإسلامية، والتي لا يوجد فيها نصراني واحد، أو يهودي، أو وثني، إذ لا يوجد فيها إلا مسلمون، فهبّ شيخ المقاطعة عبد السلام يطالب عن طريق القانون منع دخول المنصّرين إلى هذه المقاطعة الإسلامية تجنّباً لما قد يحدث من أضرار لأولئك المنصّرين لعدم وجود الوعي الكافي عند السكان، فاتهمته

السلطات الحبشية بأنه يُبيّت العدوان على المنصّرين، وزجّت به في السجن، وعند ذلك احتشد المسلمون في تلك المقاطعة أمام بيت الحاكم الأمهري، وطلبوا منه الإفراج عن الشيخ، فأغلظ لهم في القول، وهدّدهم بإطلاق النار عليهم إذا لم يعودوا إلى منازلهم، ولكنهم رفضوا العودة، وطلبوا منه التفاهم، فدخل إلى قصره بعد أن أمر جنوده بأن يتصرّفوا تصرّفاً حازماً، وأخذ الجنود يضربون المسلمين العزّل بأعقاب البنادق تلاه إطلاق النار، وما هي إلا لحظات حتى تفرّق المجتمعون مخلّفين وراءهم عشرات القتلى والجرحى، وقُضي على الشيخ في السجن بطريقةٍ غامضةٍ، فانتقم الأهالي بإحراق مراكز التنصير، فانتقم منهم الإمبراطور هيلا سيلاسي بمنح أراضيهم الزراعية للمنصّرين، وتشرّد من نجا من الرصاص بعد أن انتزعت أراضيهم التي هي مصدر حياتهم، وأصبحت تلك القرية نصرانيةً بعد أن كانت مسلمةً خالصةً.

تدمير قرية يجو:

في شهر صفر من عام ١٣٦٧ هـ (كانون الأول ١٩٤٧ م) رفض المسلمون في قرية (يجو) أعمال السخرة في مزارع الإقطاعيين الأحباش، كما رفضوا دفع ضريبة الكنيسة المتزايدة، من أجل بناء الكنائس ومراكز التنصير لمحاربة الإسلام، فأُبيدت قرية (يجو) أسوأ إبادة، بعد أن أُحرقت مساجدها، وزُجّ بعلمائها في سجن (ألم بقا) ومعناه نهاية الحياة.

مأساة هرر:

في عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) هبّت هرر تُطالب بحقوقها العادلة، فجهّزت له الحكومة ثلاثة ألويةٍ من الجيش، اقتحمت المدينة، وعملت فيها السلب والنهب، فصودرت المتاجر، والمزارع، والمدارس، واعتقل الآلاف، فامتلأت السجون، وأُقيمت محاكم التطهير، وأُخذت أوقاف المساجد، وأُبعد الزعماء، وتعرّض الناس لأشدّ أنواع العذاب، وكان التعذيب وحشياً لم يقتصر على إطفاء السجاير في الأجساد أو تعرّض الناس

للشمس اللافحة في حالةٍ من الجوع والظمأ الشديدين، وقد وُضعت على مقربةٍ منهم براميل من الماء والطعام، أو هتك الأعـراض على مرأى من الأزواج والآباء، أو العبث في ظهورهم بالسياط بل تعدّاه إلى دقّ خصيات الرجل بأعقاب البنادق، وإلى قذفهم بين أسلاكٍ شائكةٍ تمزّق أجسادهم، والجنود يتلذذون بذلك المنظر الوحشي. واستُخدمت وسائل التعذيب كلها في الاستجواب. واستمرّت هذه الأعمال البشعة سبعة أشهرٍ كاملةٍ، قُتل فيها من قُتل، هلك من هلك بسبب الجوع، والبرد، والتعذيب.

ثم هناك المآسي الكثيرة منها سبي النسـاء، وتنصيرهن، والإعـدام بالمئات. وعندما تقوم حركة تُعطي الحكومة العفو والأمان، فـإذا وضعت السلاح إذ يُعدم كل من اشترك فيها، وتنزع مزارع المشتركين كافةً، وتسبى النساء عامةً من كل قريةٍ اشترك أحد أبنائها ولو كان واحداً فقط. وإذا كانت القرية مسلمةً خالصةً فينسب إليها اشتراك أحد أبنائها بحركةٍ، أو المناداة بالانضمام إلى الصومال، وعندها تطبّق عليها العقوبات المعروفة.

قد تتعرّض بعض الصحف الأجنبية إلى هذه المآسي ببعض عبارات لهـا، وقد تـرد على لسان الكتـاب بعض الفقرات عنهـا، أما الصحـافـة الإسلامية فهي غلف القلوب، صمّ الآذان، عمي الأبصار لم تسمع بها، إذ تخشى أن تُتهم بتأييد المسلمين، وتُصنّف مع الصحف الرجعيـة، أو أن تُصيبها غضبة المستعمرين النصارى وحراسهم في هذه البلدان.

السياسـة الخارجيـة:

كانت الحبشة تطمع في جنـوبي السودان، وتعمـل على فصله عن الشمال، وتُؤيّدها في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، وتبثّ الدعاية لذلك بعض الإرسـاليات التنصيـريـة، وكـانت الأسلحـة والإمـدادات تصـل إلى الانفصاليين في جنوبي السودان عبر الأراضي الحبشية.

وتظنّ الحبشة أن الحركات ضدّها في (الأوغادين) و(أريتريا) إنما هي نتيجة دفع وتغذية المسلمين في الصومال والسودان، لذلك ترى أن لا بدّ

من القيام بحركةٍ تجعل السودان يضطر لترك مساعدة الأريتريين. وكذلك منعت تدريس اللغة العربية في المدارس الأريترية جميعها ابتداءً من ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (أيلول ١٩٦٣ م)، كما أمرت إدارة البلديات بإزالة اللافتات المكتوبة بالعربية، واستبدالها بالأمهرية، وأبطلت استخدام العربية في المحاكم الشرعية التي لا يجيد قضاتها لغة أخرى غير العربية، وتهدف الحبشة من كل هذا تنفيذ مخططاتها العدوانية الموضوعة بقصد تمهير الأريتريين ليبتعدوا عن دينهم الإسلامي بجهلهم اللغة، غير أن الشعب الأريتري يقاوم بعنفٍ وإصرارٍ سياسة الأحباش، فقد أضرب المدرسون في مدارس أريتريا كلها، وعددهم (١٣٠٩) مدرساً ومدرسةً، في أواخر عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م)، وتضامن معهم الطلاب جميعاً، وفشل المدرسون الأحباش الذين استقدمتهم الحكومة الحبشية من أديس ابابا بسبب تصدّي الطلاب جميعاً لهم في مدارس أريتريا كلها.

تسير الحبشة في فلك المعسكر الغربي عامةً، وانطلقت في خط السياسة الأمريكية بعد أن كانت مرتبطةً ببريطانيا. وللولايات المتحدة قاعدة عسكرية في مدينة (أسمرة)، وقد ألقى (روبرت ماكنمارا) وزير الدفاع الأمريكي تقريراً خطيراً أمام لجنة القوات المسلحة التابعة لمجلس النواب الأمريكي جاء فيه: «إن مصالح أمتنا في القارة الإفريقية مركزه الحبشة، وبعض البلدان الإفريقية الأخرى. ومن هنا كانت الصلة وثيقةً بين جمال عبد الناصر وهيلا سيلاسي.

وكانت أمريكا تعمل دائماً لإبراز أهمية الحبشة في القارة الإفريقية كي تستطيع تنفيذ سياستها الاستعمارية من وراء ذلك، وقد سعت كثيراً، وأنفقت أموالاً ضخمةً حتى تكون (أديس أبابا) مركز منظمة الوحدة الإفريقية.

وتتعاون الحبشة مع الكيان اليهودي في فلسطين تعاوناً وثيقاً، بل إنها لتعدّ نفسها دولة اليهود في إفريقية، فقد كانت الأسرة الحاكمة في الحبشة تعدّ نفسها من سلالة بني إسرائيل. وتخرّج ثلاثمائة فدائي من الأحباش في

قاعدة (دقى محاري) التي يديرها خبراء عسكريون من دولة الكيان اليهودي، بعد أن تدرّبوا على حرب العصابات، وتهدف الحبشة إلى الاستعانة بهؤلاء ضد الحركة الأريترية التي عجزت جيوشها النظامية في القضاء عليها. وبلغ عدد الخبراء اليهود في أريتريا سبعين خبيراً، واستقدمت دولة الحبشة عدداً ليس بالقليل من دولة اليهود من خبراء عمليات تركيب الصواريخ التي يصل مداها إلى سبعين كيلومتراً، وتحرق مساحة ثمانية كيلومترات مربعة، وأقام هؤلاء الخبراء مركزاً عاماً لهم في مقر رئاسة الحكومة الأريترية سابقاً في مدينة أسمرة، كما أقاموا معسكراً لهم في مطار مدينة (أغوردات).

التطور السياسي:

قضت الحبشة ما يقرب من ستين عاماً تحت هيمنة الامبراطور هيلا سيلاسي ١٣٣٤ - ١٣٩٤ هـ (١٩١٦ - ١٩٧٤ م)، حيث أصبح وصياً على العرش عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، ثم ملكاً عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) ثم إمبراطوراً عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) وحكم البلاد طيلة هذه المدة باستثناء زمن الاحتلال الإيطالي ١٣٥٥ - ١٣٦٠ هـ (١٩٣٧ - ١٩٤١ م) إلى أن أُقصي عن الحكم إثر حركة انقلابٍ قامت بها القوات المسلحة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) في أعقاب حدوث مجاعةٍ، وموجةٍ من التضخم، والبطالة، وبعد تنامي المطالب الداعية إلى إجراء إصلاحاتٍ (ديمقراطية).

كان حكم الامبراطور هيلا سيلاسي حكماً استبدادياً فردياً، غير أنه عزّز فكرة توسعة الأرض الحبشية التي كان قد بدأها الامبراطور منليك الثاني ١٢٨٢ - ١٣٣١ هـ (١٨٦٥ - ١٩١٣ م). ثم ضمّ أريتريا المستعمرة الإيطالية السابقة إلى الحبشة ضمن ترتيباتٍ اتحاديةٍ في ذي الحجة ١٣٧١ هـ (أيلول ١٩٥٢ م)، ثم عُدّت إقليماً من الحبشة في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٢ م). وقضى هيلا سيلاسي نحبه سجيناً لدى السلطة العسكرية الحاكمة في شعبان ١٣٩٥ هـ (آب ١٩٧٥ م).

كانت حركة شعبان ١٣٩٤ هـ (أيلول ١٩٧٤ م) قد تم التخطيط لها من قبل لجنة تنسيق من القوات المسلحة. كانت تُعرف على المستوى الشعبي باسم (درغيو) أي الظلّ، وقد أمسكت اللجنة العسكرية بزمام السلطة المطلقة، وأقامت حكومةً عسكريةً موقتةً بقيادة اللواء (أمان أندوم).

وفي ذي القعدة ١٣٩٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٤ م) أُبعد أمان أندوم عن السلطة، ثم أُعدم، واستبدلت الحكومة العسكرية الموقتة بمجلسٍ إداريٍ عسكريٍ موقتٍ بقيادة اللواء (تيفري بنتي)، وفي الشهر التالي أُعلنت الحبشة دولةً اشتراكيةً.

وفي ربيع الأول ١٣٩٥ هـ (آذار ١٩٧٥ م) أعلن إلغاء النظام الملكي، وتمّ تنفيذ برنامج وطني باسم «أثيوبيا تكدم» أي (أثيوبيا أولاً)، وأعقبه تأميم شركات التأمين، والمصارف، والمؤسسات المالية، والشركات الصناعية الكبرى، والأراضي الريفية، والمدارس، وأُنشئت جمعيات تعاونية للفلاحين، ومجالس صناعية للعمال.

استمرّت اضطرابات واسعة خلال عامين ١٣٩٥ و١٣٩٦ هـ (١٩٧٥ - ١٩٧٦ م) رغم الإجراءات التي اتخذتها (درغيو) لتخفيف حدة التوتر بإطلاق سراح بعض المعتقلين، وإطلاق الوعود بالعودة إلى الحكم المدني دون تحديد موعدٍ لذلك. ونتج وقوع خلافاتٍ داخل (درغيو)، فأُعيد تنظيمها في ذي الحجة ١٣٩٦ هـ (كانون الأول ١٩٧٦ م). إلا أنه في صفر ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م) قام المقدم (منجستو هيلاي مريام) بإعدام اللواء (تيفري بنتي) ورفاقه المقربين، وحلّ محلّه كرئيسٍ للمجلس الإداري العسكري الموقّت، ورئيس للدولة.

بقيت هناك معارضة للحكومة من جانب مجموعاتٍ سياسيةٍ ومسلحة شيوعيةٍ وغير شيوعية، وذهب ضحية ذلك الآلاف من معارضي الحكم، وألقي الكثيرون في السجن خلال عامي ١٣٩٧ - ١٣٩٨ هـ (١٩٧٧ - ١٩٧٨ م) في برنامج تصفيةٍ أو إصلاحٍ على حدّ تعبيرهم.

وحتى شهر رجب ١٣٩٧ هـ (تموز ١٩٧٧ م) كـانت (درغيو) تتلقى المساعدة من الحركة الاشتراكية لكل أثيوبيا الماركسية، غير أنها فيما بعد شكلت حزبها الخاص بها (أبقوت سيدد) أي اللهب الثوري، والذي حاول الحصـول على تأييـد المدنيين واستقـطاب بعض الزعمـاء إليـه. غيـر أن التجمّعات السياسية جميعها قد استبعدت في مطلع عام ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م) عندما شُكّلت لجنة لتنظيم حزب الشعب العامل لأثيوبيا.

عقدت اللجنة المركزية لحزب الشعب العامل والتي كان يُهيمن عليها العسكريون أول مؤتمرٍ لها في شعبان ١٤٠٠ هـ (حزيران ١٩٨٠ م)، وعقد المؤتمر الثالث للحزب في ذي الحجة ١٤٠٤ هـ (أيلول ١٩٨٤ م) حينما تمّ رسمياً تشكيل حزب عمال أثيوبيا الذي حلّ محلّ لجنة تنظيم حزب الشعب العامل ليوافق الذكرى العاشرة للثورة على الإمبراطور هيلا سيلاسي.

انتخب المقـدم (منجستو مـريام) بـالإجماع الأمين العـام للحـزب، والذي شكل على نهج الحزب الشيوعي السوفيتي، وانتخب المؤتمر أيضاً مكتباً سياسياً للحزب يضمّ أحد عشر عضواً، ولجنةً مركزيةً تتألف من مائةٍ وستة وثلاثين عضواً.

وفي شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) بدأ الإعـداد لنقل السلطة بصورةٍ نهائيةٍ من المجلس الإداري العسكري الموقّت إلى حكومةٍ مدنيةٍ، أعلنت مسودة الدستور، وبعد مناقشاتٍ طويلةٍ تمّ إعدادها بصيغتها النهائية، وجرى في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) استفتاء شعبي عليها، وحصلت على تأييد ٨١٪ من مجموع الأصوات، وبذا تمّ إقرارها رسمياً.

أُجريت انتخابات هيئة تشريعية تتألف من ثمانمائة وخمسة وعشرين عضواً في شهر شوال من عام ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م)، وقد شارك في هذه الانتخابات ٨٥٪ من الناخبين الأحبـاش المسجلين (١٥,٧٠٠,٠٠٠) نـاخب. وسُمّي مجلس النواب (شنغـو)، وعُدّ المقـدم (منجستو مـريـام) وأعضاء المكتب السياسي لحزب عمال أثيوبيا جميعاً نواباً في المجلس دون

خوض المعركة الانتخابية. وفي جلسة افتتاح مجلس النواب الوطني في مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) تمّ إلغاء المجلس الإداري العسكري الموقت، وأعلنت الجمهورية الديمقراطية الشعبية الأثيوبية، وانتخب مجلس النواب بالإجماع (منجستو مريام) رئيساً للجمهورية، وانتخب (فيسيحا ديستا) الذي كان حتى ذلك التاريخ نائب الأمين العام للمجلس الإداري العسكري الموقت نائباً للرئيس، وانتخب مجلس دولة يضمّ أربعةً وعشرين عضواً، ويكون هؤلاء أعضاء دائمين في مجلس النواب (شيغو).

وانطلقت الحركات التحررية في وجه حكومة الحبشة في:

الأوغادين:

أحرز الصوماليون عام ١٣٩٧ هـ انتصاراتٍ رئيسيةً، وكانت تدعمهم قوات جبهة تحرير الصومال، ولكنهم أُجبروا على التقهقر في نهاية عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م)، وسيطرت قوات الدفاع الأثيوبية على إقليم الأوغادين كاملاً، وأُعلن أنه جزء لا يتجزأ من الحبشة، وإن كانت قد استمرّت بعض الاشتباكات العسكرية.

أريتريا:

نشأت جبهة تحرير أريتريا في مصر عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)، وبدأت أعمالها عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) إثر إعلان الحبشة ضمّ أريتريا رسمياً إليها، ودمجها معها.

كانت حكومة الحبشة قد أعلنت في شعبان ١٣٨١ هـ (كانون الثاني ١٩٦٢ م) عملية النجم الأحمر بغية إيجاد تطورٍ سياسيٍ، واجتماعيٍ، واقتصادي في أريتريا على نهج ما يجري في بقية أجزاء البلاد، غير أن الحملة العسكرية التي شُنّت لتنفيذ هذه المشروعات قد فشلت في نهاية شهر ذي القعدة ١٣٨١ هـ (أيار ١٩٦٢ م).

وانقسمت جبهة تحرير أريتريا إلى عدة فصائل، واستغلّت الحكومة

هذا الانقسام فقامت بشنّ هجوم واسعٍ في شهر رمضان ١٤٠٣ هـ (أواخر حزيران ١٩٨٣ م) على جبهة تحرير شعب أريتريا، خارج معقلها الحصين في (نكفا)، وكذلك قامت بهجومٍ مماثلٍ ضدّ جبهة تحرير تجره في إقليم تجره الغربي.

وقامت جبهة تحرير شعب أريتريا بهجومٍ كردّ فعلٍ في ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م)، وعانت قوات الحكومة من الخسائر الفادحة التي لحقتها إثر معارك شرسةٍ، وتمكّنت الجبهة من دخول مدينة (تيسيني) قرب الحدود السودانية، وهي عقدة مواصلاتٍ مهمة. وألحقت قوات الجبهة الهزيمة بجيش الحكومة على ثلاث جبهاتٍ في المرتفعات الأريترية.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) اتفقت ثلاث فصائل أريترية على تشكيل المجلس الوطني الموحد، بجهود أحد الضباط الشاميين الذين يعملون على الساحة الأريترية، وهو عبد الحق شحادة، وبدعم بعض الدول العربية. غير أن جبهة تحرير شعب أريتريا قد رفضت التعاون مع هذه المجموعة، ومن الانضمام معها في جبهةٍ واحدةٍ، وقد تبيّن فيما بعد أن جبهة تحرير شعب أريتريا قد أجرت منذ عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) محادثاتٍ سريةً على فتراتٍ مع حكومة الحبشة بهدف الاتفاق على حكمٍ ذاتيٍ للإقليم، ولكن لم تُثمر تلك المحادثات.

شنّت الحكومة هجوماً واسع النطاق في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م) في إقليم تجره، وأريتريا، وبعد خمسة أشهرٍ كانت قد أحرزت انتصاراتٍ مهمةً منها استعادة مدينتي (بارنتو) و(وتسيني)، ولكن القوات الحكومية اضطرت للتخلّي عن الساحل الشمالي الشرقي في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م)، وواصلت جبهة تحرير شعب أريتريا مهاجمة المنشآت الحيوية.

وأُشيع في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) أن محادثاتٍ سرية

أجريت مؤخراً بين حكومة الحبشة وبين جبهة تحرير شعب أريتريا. وفي هذه الأثناء لم يثبت المجلس الوطني الأريتري الموحد جدارةً في قوته وعملياته بل عانى تراجعاً واضحاً. وبقيت الفصائل الأريترية منقسمةً على نفسها.

وفي مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) أعلن المجلس النيابي الوطني الحبشي المنتخب حديثاً أن خمس مناطق بما فيها (أريتريا) و (تجره) ستصبح مناطق تتمتع بالحكم الذاتي بموجب الدستور الجديد، والذي أعطى إقليم أريتريا أعلى درجة من الحكومة الذاتية غير أن كلاً من جبهة تحرير شعب أريتريا، وجبهة تحرير شعب تجره قد رفضت هذه التنظيمات الجديدة. وحتى منتصف عام ١٤١٠ هـ كانت لا تزال تلك التنظيمات غير مطبقة على الرغم من أن انتخابات المجالس النيابية الإقليمية لإحدى عشرة منطقةً إداريةً، ومناطق الحكم الذاتي في (ديرداوا) و (عصب) و (الأوغادين) قد أُجريت في شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م).

أعلنت جبهة تحرير شعب أريتريا في ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) بداية هجومٍ يهدف إلى طرد قوات حكومة الحبشة من أريتريا، وبعد ثلاثة أشهرٍ استولت الجبهة على مدينة (أفابيت)، وادّعت أنها قتلت ثلث القوات الحكومية في أريتريا كلها. وانتهزت جبهة تحرير (تجره) الاستيلاء على (أفابيت) وتحرّك قوات الحكومة من (تجره) إلى أريتريا فاستولت على ثكنات القوات الحبشية الواقعة في شمالي إقليم تجره. وفي الشهر التالي أعادت كَل من جبهة تحرير شعب أريتريا وجبهة تحرير شعب تجره الاتصال بعضهما مع بعض لتنسيق العمليات العسكرية فيما بينهما على حين بقيتا متباعدتين من الناحية العقيدية. ولقد كان طرد مسؤولي الإغاثة الأجنبية من أريتريا وتجره، ثم إعلان حالة الطوارىء هناك بمثابة تأكيدٍ على مدى النجاح العسكري الذي أحرزته قوات الثوار. وفي ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (حزيران ١٩٨٨ م) استعادت القوات الحكومية السيطرة على بعض حاميات المدن التي سبق لها أن تخلّت عنها، ولكن تكبّدت

خسائر فادحة في تلك العمليات، غير أن الحكومة في منتصف عام ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) وبعد سلسلةٍ من الهزائم التي مُنيت بها تخلّت فعلاً عن إقليم (تجره) كله لصالح جبهة تحرير تجره.

وباءت محاولات قوات الحكومة بالفشل للقيام بشنّ هجوم مضادٍ في أريتريا وتجره بسبب الخسائر الفادحة التي تكبّدتها، وضعف الروح المعنوية لدى عساكرها.

وتحرّكت قوات الحكومة في شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م) نحو أديس أبابا لإجهاض انقلابٍ عسكريٍ أعدّ له عدد كبير من كبار ضباط الجيش بمن فيهم رئيس الأركان العامة، وقائد القوات الجوية، وقائد الجيش في أريتريا، وتمكّنت من إحباط عملية الانقلاب، وجرى بعدها إعادة تشكيل القيادة العسكرية من الأساس، وهذا ما أبقى مزيداً من الشكوك على كفاءة الجيش وقدرته على القيام بحملةٍ فعّالةٍ في الشمال، بينما واصلت قوات الجبهتين حملاتهما العسكرية بقية العام. ثم دخلت كل منهما في حوارٍ مع الحكومة لتمهيد الطريق أمام الحلول السياسية. وقد بدأ الحوار في منتصف عام ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) أي في الوقت الذي كان يدور فيه الصراع على أشدّه في سبيل الضغط على الحكومة. وقد أقرّ المجلس النيابي الحبشي اقتراحاً تقدّم به أحد قادة جبهة تحرير شعب أريتريا، ويقضي بتقسيم أريتريا إلى منطقتي حكمٍ ذاتيٍ، إحداهما في المنطقة المنخفضة ذات الأغلبية المسلمة، والثانية في المنطقة المرتفعة ذات الأكثرية النصرانية، إلا أن هذا الاقتراح قد شجب من جبهة تحرير شعب أريتريا.

وفي ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) وفي جلسةٍ طارئةٍ لمجلس النواب الحبشي وافق المجلس بالإجماع على اقتراح لبدء مفاوضات سلامٍ مع الحركات التحررية، ومن المفروض أن تعقد هذه المفاوضات دون شروطٍ مسبقةٍ بحضور مراقبين دوليين، غير أن الاقتراح لم

يأتِ على ذكر جبهة تحرير شعب تجره (التي تسعى لإقامة حكومةٍ على أسسٍ ديمقراطيةٍ حقيقيةٍ، ولا تدعو للانفصال عن الحبشة).

وأعلن (منسجتو ماريام) فيما بعد إلى أن الحكومة غير مستعدةٍ للتفاوض على استقلال أريتريا، لذلك وجّهت جبهة تحرير شعب أريتريا انتقادات حادةً إلى مبادرة الحكومة، غير أنه في نهاية الشهر وافقت كل من جبهتي «تحرير شعب أريتريا» و«تحرير شعب تجره» على المفاوضة مع الحكومة بحضور مراقبين دوليين.

بدأت المفاوضات بين الحكومة الحبشية وبين جبهة تحرير شعب أريتريا في مدينة «أتلانتا» في الولايات المتحدة الأمريكية تحت إشراف الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر في مطلع شهر صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م)، وفي نهاية اللقاء قرر الوفدان عقد مزيدٍ من المفاوضات في مدينة «نيروبي» عاصمة كينيا في شهر ربيع الثاني (تشرين الثاني) من العام نفسه.

وفي منتصف صفر ١٤١٠ هـ (١٥ أيلول ١٩٨٩ م) تحالفت جبهة تحرير شعب تجره مع الحركة الديمقراطية الشعبية الأثيوبية فيما عُرف بالحركة الديمقراطية الثورية الشعبية الأثيوبية، واحتلت المدينة الوحيدة التي بقيت بأيدي قوات الحكومة في إقليم تجره، وهي مدينة (ميشيو)، هذا بالإضافة إلى الجزء الشمالي الغربي كله من إقليم (ويلو) المجاور. وفي الناحية الجنوبية هدّد تقدّم قوات جبهة تحرير شعب تجره في شهر ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) مدينة (ديسي) التي تسيطر عليها قوات الحكومة، والتي تبعد ٣٧٠ كيلومتراً عن مدينة أديس أبابا من جهة الشمال. وفي أواخر ربيع الأول ١٤١٠ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٨٩ م) استولت على مدينة (ميكان سيلام) على بعد مائتي كيلومتر من العاصمة.

واجتمع ممثلون عن جبهة تحرير شعب تجره في ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) مع وفد الحكومة الحبشية في روما

بحضور مراقبين إيطاليين لإجراء محادثاتٍ تمهيديةٍ لوضع جدول أعمال لمفاوضات السلام، وعلى خلاف المحادثات التي جرت مع جبهة تحرير شعب أريتريا، فقد تزامنت المفاوضات بين الحكومة وجبهة تحرير شعب تجره مع زيادة العمليات العسكرية للجبهة، وانتهت المحادثات بتشكيل لجنةٍ من كل جانبٍ لاستئناف المحادثات في ١٧ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (١٥ كانون الأول ١٩٨٩ م). ومع أن المحادثات قد استؤنفت في الوقت المحدد إلا أنها لم تسفر على اتفاقٍ.

وعقدت جلسة أخرى للمفاوضات بين الحكومة وبين جبهة تحرير شعب تجره في شهر ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) تحت رعاية الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر، وقد انتهت الإجراءات الأولية في الجلسة الأولى، واتفق على استئناف المفاوضات في الأمور الجوهرية في جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) تحت رئاسةٍ مشتركةٍ للرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر، ورئيس تانزانيا السابق جوليوس نيريري.

المجاعة:

أدّى القتال المتواصل في الشمال خلال عامي (١٩٨٤ - ١٩٨٥ م) إلى تفاقم المشكلات في الأقاليم الأثيوبية التي تأثّرت بشكلٍ عنيفٍ فيما سبق بالمجاعة. وفي عام (١٩٨٤ م) منع القطر من السماء للعام الثالث على التوالي. وقدّرت هيئة الإغاثة وإعادة التأهيل في شعبان ١٤٠٤ هـ (أيار ١٩٨٤ م) بأن سبعة ملايين إنسان يمكن أن يُواجهوا خطر المجاعة، وتلقّت الحبشة المساعدات الغذائية من عدة دولٍ غربيةٍ، غير أن توزيع المساعدات واجه مشكلةً كبرى هي أن الموانىء ليست مجهزةً بالشكل الذي يسمح بمجيء عدة سفنٍ فكان الازدحام فيها عائقاً للحركة، لذا تمّ نقل بعض هذه المساعدات عن طريق الجو إلى المناطق الأكثر تأثّراً، على حين أرسلت بعض هيئات الأغذية المساعدات إلى أريتريا عن طريق

السودان. وأدّى هطول بعض الغيث إلى تخفيف حدة الجفاف في الأقاليم الشمالية إلا أن الحبشة بقيت تعتمد على المساعدات الخارجية.

أصاب الأقاليم الشمالية قحط شديد فذهبت المحصولات جميعها في أريتريا، وتجره، وويلو، وشمالي شوا، وذلك في مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) فطلبت الحبشة حوالي مليون طن من المساعدات الغذائية تبرعاً من الدول الغربية لما يقرب من خمسة ملايين إنسان يُواجهون خطر المجاعة. وقد واجهت حملة الإغاثة التي قام بها المجتمع الدولي مصاعب جمّةً بسبب عدم ملاءمة البنية الحبشية لذلك، وعدم كفاءتها، مما أدّى إلى تفاقم المشكلات المتعلقة بتوزيع الطعام في المناطق التي يصعب الوصول إليها في الشمال. وكانت الادعاءات أن جبهة تحرير شعب أريتريا كانت تهاجم قوافل الأمم المتحدة التي كانت تحمل مساعداتٍ غذائية حيوية للمناطق التي ضربها الجفاف، على حين أن الجبهة كانت تدعي أن هذه القوافل كانت تنقل مساعدات عسكريةً لصالح القوات الحكومية. ورفضت الأمم المتحدة فتح حوارٍ مع حركات الثوار. وفي شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) أمرت الحكومة الحبشية بطرد موظفي الإغاثة جميعهم من أريتريا وتجره بحجة أنها تستعد لشنّ هجوم مضادٍ ضدّ الثائرين غير أن هذا الزعم كان مرفوضاً حيث كانت الحكومة راغبةً أن يتعرّض الناس في أريتريا خاصةً إلى مجاعةٍ واسعةٍ عسى أن يستسلموا لقوات الحكومة أو تحرز عليهم انتصاراً بيّناً. وادّعت الحكومة أنها ستقوم بنفسها بمسؤولية توزيع الأغذية غير أن الجميع يعلم أنها غير مُؤهّلةٍ للقيام بهذه المهمة، ولكنها تهدف إلى إحداث المجاعة وليست إلى التخفيف منها. وقام الثوار بتوزيع الأغذية، وظهر أنهم كانوا على إمكانيةٍ للوصول إلى أعدادٍ كبيرةٍ من الناس الجياع حيث كانت لهم القدرة على الحركة والانتقال، وتدفعهم الحماسة للاتصال بالسكان.

ومُنحت هيئة الهلال الأحمر، ومنظمة الصليب الأحمر أذناً للقيام بعملية إغاثةٍ كبيرةٍ لمواجهة المجاعة في المناطق الإدارية الشمالية، إذ دعت

الحاجة إلى حملة إغاثةٍ رئيسيةٍ أخرى وقعت بعد المجاعة السابقة بوقتٍ قريبٍ.

وكانت انتقادات شديدة لإصرار حكومة الحبشة على انتهاج سياسة المزارع الجماعية، والقرى الجماعية في جمادى الأولى من عام ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) حيث ظهر التواكل وبدا الكسل في الوقت الذي تدعو فيه الحاجة إلى وجود الحوافز الفردية.

وفي ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) وتبعاً لموجة قحطٍ شديدةٍ، وتلف المحصولات جميعها في أريتريا وتجره قدرت الأمم المتحدة أن ما يقرب من أربعة ملايين إنسان في تلك المناطق سيحتاجون إلى مساعداتٍ غذائيةٍ بعد شهرين، كما حدث في سنوات المجاعة السابقة. وكان من الواضح أن الناس الأكثر تضرراً والأمس حاجةً إلى الطعام كانوا في مناطق بعيدةٍ عن المراكز الرئيسية لتوزيع الأغذية، وأنه يتعذّر الوصول إليهم إلا عن طريق الجو، أو في عمليات إغاثة عبر الحدود السودانية، على حين ادّعت منظمات الإغاثة المحلية مثل هيئة الإغاثة الأريترية، وجمعية إغاثة تجره أنه باستطاعتها تذليل مشكلات الإمداد والتموين في عمليات توزيع الأغذية، ولكن مشاركة هذه المنظمات في عمليات الإغاثة كان مثار جدلٍ سياسي بسبب ارتباطها بالحركات المقاتلة، وهي جبهة تحرير شعب أريتريا، وجبهة تحرير شعب تجره.

السياسة الخارجية:

بعد الانقلاب الذي قام به المقدم منجستو ماريام في صفر ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م) حلّ الاتحاد السوفيتي حسب الظاهر محل الولايات المتحدة كمصدرٍ رئيسيٍ للسلاح في الحبشة، وفي العام التالي وُقّعت معاهدة صداقة بين الحبشة والاتحاد السوفيتي، إلا أن هذه العلاقة قد فترت بعد خروج السوفييت من أفغانستان، وأنغولا، وبعد ميل السوفييت إلى دعم الحلول السياسية لا العسكرية في صراعات الحبشة الإقليمية.

تحسّنت العلاقات مع الولايات المتحدة قليلاً في ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) عندما وافقت الحكومة على دفع تعويضات في دعاوى يعود تاريخها إلى قبل عشر سنوات لشركات أمريكية بسبب التأميم. وفي رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) سعت الحبشة لتطوير علاقاتها السياسية مع الولايات المتحدة الأمريكية عندما تلقت استجابةً أوليةً حذرةً. وفي صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) هيئت الولايات المتحدة الأمريكية مكاناً لعقد مفاوضاتٍ مباشرة بين الحكومة الحبشة وجبهة تحرير شعب أريتريا، وذلك بعد الجهود التي بذلها الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر.

حسّنت الحبشة روابطها السياسية مع جيرانها كينيا وجيبوتي اللتين حاولتا إجراء مصالحةٍ بين الصومال والحبشة، والتقى الرئيس الصومالي محمد زياد بري بالرئيس الحبشي منجستو مريام بوساطة الرئيس الجيبوتي في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م)، وذلك للمرة الأولى منذ تسع سنواتٍ. وجرت مباحثات بين وزيري الخارجية الصومالي والحبشي في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م) نوقشت فيها قضية إقليم (الأوغادين)، إلا أن العلاقات بين الدولتين لم تلبث أن تدهورت بسبب اشتباكٍ عسكريٍ على الحدود في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) تكبّد فيه الطرفان خسائر فادحة. وعقد اجتماع آخر في جيبوتي في شهر شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) بين الرئيسين الصومالي والحبشي، وتم الاتفاق بينهما على إعادة العلاقات السياسية بين دولتيهما، وعلى سحب القوات من الحدود المشتركة بينهما، وعلى تبادل أسرى الحرب، وكانت الحبشة تصرّ على تسوية الحدود بينهما قبل مناقشة القضايا الأخرى، إلا أنها كانت بحاجةٍ إلى تحسين علاقاتها مع الصومال نظراً لحاجتها السريعة إلى سحب ما تنشره من قوات في الإقليم الأوغادين من قوات يتراوح عددها بين خمسين ألف إلى سبعين ألف جندي لدعم وجودها العسكري في المناطق الإدارية الشمالية في تجره، وأريتريا. وفي ٩ رمضان

١٤٠٨ هـ (٢٥ نيسان ١٩٨٨ م) جرى أول انسحاب للقوات من الحدود المشتركة، وتبعه في مطلع عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) تبادل أسرى الحرب الذين كانوا رهن الاحتجاز منذ حرب الأوغادين عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

وعادت العلاقات السياسية بشكلٍ كاملٍ بين السودان والحبشة بعد الانقلاب العسكري الذي وقع في السودان وأطاح بحكم الرئيس جعفر النميري في ١٦ رجب ١٤٠٥ هـ (٦ نيسان ١٩٨٥ م).

وقام الرئيس الحبشي منجستو ماريام في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م) بزيارة مصر لمدة أربعة أيامٍ لإجراء محادثاتٍ مع الرئيس المصري محمد حسني مبارك.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) التقى الرئيس الحبشي منجستو ماريام في أوغندا برئيس الوزراء السوداني صادق المهدي، ومنذ ذلك اللقاء أخذت السودان تشجع فصائل الثورة الأريترية على إجراء محادثاتٍ مع الحكومة الحبشية، في الوقت الذي دعمت في الحبشة الحركة الانفصالية في جنوبي السودان، أو ما يعرف باسم جيش تحرير شعب السودان برئاسة (جون قرنق)، وأسهمت في دعم اجتماعاتٍ عقدت بين رجال هذه الحركة الانفصالية وبين ساسة سودانيين، وبعد ذلك توتّرت العلاقات بين الحبشة والسودان بسبب تدفّقِ اللاجئين السودانيين إلى الحبشة بعد ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ هرباً من المجاعة والحرب الأهلية في جنوبي السودان، حيث قُدّر عدد أولئك اللاجئين في رمضان ١٤٠٨ هـ (أيار ١٩٨٨ م) بأكثر من ثلاثمائة ألف لاجىء. كما زعمت حكومة الحبشة بأن عدد اللاجئين إليها من الصومال في ذلك التاريخ ما يقرب من أربعمائة ألف لاجىءٍ صوماليٍ فرّوا إليها من شمالي الصومال نتيجة الحرب، وإن كلا المجموعتين كانتا بحاجةٍ إلى كمياتٍ كبيرةٍ من المساعدة الغذائية.

استطاعت جبهة تحرير شعب تجره أن تُسيطر على إقليم تجره في منتصف عام ١٤١٠ هـ (أواخر عام ١٩٨٩ م)، وسيطرت في ٤ شعبان ١٤١٠ هـ (أول آذار ١٩٩٠ م) على إقليمي (بيجمدر) و (غوجام)، وانتقلت بعدها نحو إقليم (شوا) الذي تقع فيه العاصمة (أديس أبابا)، وهو قاعدة (الأمهرة) الذين يُسيطرون على حكم الحبشة، ويتسلّطون عليه أيام (هيلا سيلاسي) و (منغستو ماريام) وفي الوقت نفسه تمكّنت الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا من السيطرة على ميناء (مصوع) في ٢٠ رجب ١٤١٠ هـ (١٥ شباط ١٩٩٠ م)، وكأن هناك تنسيقاً بين الجبهتين للعمل بشكلٍ متوازٍ إذ كان انتصار إحدى الجبهتين يُجبر الحكومة أن تحرّك قواتها نحو الساحة التي اندحرت فيها فتستغلّ الجبهة الثانية الوقت وتقوم بالهجوم بضراوةٍ وتحرز النصر.

وجرت محادثات في صنعاء بين الحكومة الحبشية وقد مثّلها وزير الخارجية (تسفاي دينكا) وبعض فصائل الثورة الأريترية وحضر ممثلون عن: جبهة التحرير الأريترية، التنظيم الموحّد، اللجنة الثورية، المجلس الثوري وذلك في ٩ رمضان ١٤١٠ هـ (٤ نيسان ١٩٩٠ م)، ولم يُؤدّ ذلك إلى نتيجةٍ حاسمةٍ.

وكانت الفاتيكان قد بذلت جهداً لدى حكومة الحبشة والجبهة الشعبية لتحرير أريتريا لعدم انفصام الوحدة النصرانية، ولكن تعنّت الرئيس الحبشي (منغستو ماريام) قد ذرّ كل تفاهمٍ. وتبعه لقاء بين وزير خارجية الحبشية (تسفاي دينكا) وبين (أساياس أفورقي) رئيس الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا في ١٥ ربيع الثاني ١٤١١ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٩٠ م) بإشراف (هيرمان كوهين) مساعد وزير الخارجية الأمريكية.

وكذلك التقى في (واشنطن) في ٧شعبان ١٤١١ هـ (٢١ شباط ١٩٩١ م) الوفد الحكومي الحبشي برئاسة (أشاغري يغليتو) نائب رئيس الوزراء ووفد الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا برئاسة أمينها العام (أساياس

أفـورقي)، وشارك في هـذه المفاوضـات (هيرمـان كوهين) مسـاعد وزيـر الخـارجية الأمـريكية للشؤون الإفـريقية للبحث في إمكـانية الـوصول إلى المخرج السياسي الأمثل لإنهاء النـزاع الأريتري ـ الحبشي دون الإخـلال بمصلحة طرفٍ لفائدة طرفٍ آخر، وقدّم كل جانبٍ ورقته الخاصة.

الـرأي الأمريكـي:

عبّر عنه هيرمان كوهين، ويتألف من خمس نقاطٍ:

١ " ـ وقف إطلاق النار تحت إشرافٍ دولي.
٢ " ـ اعتماد الحبشة دستوراً اتحادياً.
٣ " ـ تتمتع أريتريا بحكومةٍ ذاتيةٍ في إطار الدولة الاتحادية.
٤ " ـ اتفاق الأطراف المعنية على الصلاحيـات التي يتمتع بهـا المجلس النيابي الاتحادي.
٥ " ـ تنـظيم استفتاءٍ بشـأن استمـرار الحبشـة وأريتـريـا في إطـار نـظامٍ اتحاديٍ، أو قيام دولةٍ أريتريةٍ مستقلةٍ، وذلك بعد مرور سنواتٍ على قيام الدولة الاتحادية.

رأي الأحبـاش:

١ " ـ تتبنّى الحبشة النظام الاتحادي.
٢ " ـ يتمتع إقليم أريتريا بحكمٍ ذاتيٍ، ويعدّ عضواً في الدولة الاتحادية.
٣ " ـ يكون للدولة الاتحادية مجلس نيابي يمثّل السلطة العليا في البلاد.
٤ " ـ يكون لأريتريا مجلس نيابي خاص لمعالجة شؤونه الداخلية مثـل: سنّ القـوانين المدنيـة، ووضع السيـاسة التعليميـة، وتنـظيم إدارة الشرطة لحفظ الأمن الإقليمي، وتحديد موازنة الإقليم، والضرائب.
٥ " ـ اعتماد اللغة الأمهرية لغة عملٍ في الدولة الاتحادية، على أن يكون للشعب الأريتري حق في استخدام اللغة أو اللغات التي يختارها في ضوء قرار المجلس النيابي الإقليمي في هذا الشأن.

الـرأي الأريتـري:

١" ـ يجب على الأمم المتحدة الشروع في إعداد استفتاءٍ حرٍ يُقرِّر الشعب الأريتري بموجبه مستقبله بغية حلّ المسألة الأريترية.

٢" ـ تتولّى الأمم المتحدة مهمـة إرسال قـوات حفظ الأمن والسلام في أريتريا، وتنشأ إدارة انتقالية لتسيير شؤون البلاد إلى أن يختار الشعب الأريتري مستقبله السياسي.

٣" ـ إنهاء الاستعمار الحبشي مُمثّلاً بالجيش، والمؤسسـات العسكريـة، والأجهزة الأمنية، والقمعيـة مباشـرةً قبل وصـول قوات حفظ الأمن والسلام الدولية وقبل إجراء الاستفتاء.

٤" ـ بعد انتهاء المفاوضات التمهيدية (وتعدّها الجبهة الشعبية منتهيةً) تبدأ المفاوضات المقبلة تحت مظلّة الأمم المتحدة.

الساحة السياسية الحبشية:

التقت خمسة تنظيماتٍ سياسيةٍ حبشيةٍ معارضةٍ، وشكّلت جبهةً واحداً هي «الجبهـة الديمقـراطية الثـورية لتحـرير شعـوب أثيوبيـا»، وأهم هـذه التنظيمات:

١ ـ جبهة تحرير شعب تجره.
٢ ـ المنظمة الديمقراطية الشعبية الأرومية.
٣ ـ الحركة الديمقراطية الشعبية الأثيوبية.
٤ ـ حركة الضباط الديمقراطية الأثيوبية.

وتمّ الاتفاق على:

١" ـ العمل على إسقاط النظام القائم برئاسة (منسغتو ماريام).

٢" ـ إقامة حكومةٍ موقّتةٍ لمدة سنتين، وتُشارك فيها المنظمات الخمس، وفي نهايتها تجري انتخابات عامة لتشكيل مجلسٍ تأسيسيٍ يُحدّد النظام الجديد، وينصّ على التعددية الحزبية.

٣" ـ إجراء استفتاءٍ في أريتريا حول تقرير المصير.

وجرت مفاوضات في لندن بين الحكومة الحبشية وبين الثوار في الدولة، ومثّل الحكومة رئيسها (تسفاي دينكا). ومثّل الجبهة الديمقراطية الثورية لتحرير شعوب أثيوبيا (ملس زيناوي) رئيس الجبهة، ورئيس جبهة تحرير شعب تجره.

ومثّل الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا أمينها العام (أساياس أفورقي).

ومثّل المنظمة الديمقراطية الشعبية الأرومية رئيسها (يوهانس لاتا).

وحضر الوسيط الأمريكي (هيرمان كوهين) مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشؤون الإفريقية. وأثناء المفاوضات كان القتال على الساحة الحبشية على أشدّه. فمدينة (أسمره) محاصرة منذ ثلاثة شهور، وجبهة تحرير شعب تجره تتقدّم بسرعةٍ نحو العاصمة أديس أبابا، والفوضى تعمّ البلاد، والجيش لم يعد لأحدٍ سلطان عليه.

وفي ٩ ذي القعدة ١٤١١ هـ (٢٢ أيار ١٩٩١ م) قدّم (منغستو ماريام) استقالته، ورحل إلى نيروبي عاصمة كينيا، ومنها انتقل إلى زيمبابوي حيث مُنح حق اللجوء السياسي، وخلّف مكانه زميله في السلاح (تسفاي قبره كدان)، ودخلت قوات جبهة تحرير شعب تجره العاصمة (أديس أبابا)، ودخلت قوات الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا (أسمره) في ١١ ذي القعدة ١٤١١ هـ (٢٤ أيار ١٩٩١ م)، وانتهت المفاوضات في لندن، ورجع المفاوضون إلى بلدانهم.

تسلّم ملس زيناوي رئاسة الدولة بصورةٍ موقّتةٍ، وتسلّم رئاسة الوزارة (ثمرات لايني) وقد ضمّت الوزارة أعضاء من المنظمات التي تتألّف منها الجبهة الديمقراطية الثورية لتحرير شعوب أثيوبيا. وفي الوقت نفسه فقد شكّل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير أريتريا (أساياس أفورقي) حكومةً موقّتةً في أريتريا.

طرد الحكم الجديد من أديس أبابا جماعة (جورج قرنق) الجيش الشعبي المتمرّد على الحكم السوداني. وانهار حزب عمال أثيوبيا الذي أنشأه (منسغتو ماريام) عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م)، وزال تماماً في ١٦ ذي القعدة ١٤١١ هـ (٢٩ أيار ١٩٩١ م).

وفي أريتريا أخذت جبهة التحرير الأريترية ـ التنظيم الموحد تُعارض الحكومة الموقتة، وتعلن أن النضال كان مشتركاً، وليس لمن يسبق بالدخول على العاصمة الحق بالاستئثار بالسلطة.

وفي أديس أبابا انسحبت المنظمة الديمقراطية الشعبية الأرومية من الحكومة، وأعلنت نقمتها على استئثار جبهة تحرير شعب تجره بالسلطة إذ تسلّمت رئاسة الدولة، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية. وتُطالب هذه المنظمة (المنظمة الديمقراطية الشعبية الأرومية) بالاستقلال الذاتي لشعب أرومو الذي يسود المناطق الواقعة جنوب أقاليم (ويلو) و(غوجام) أي الحبشة كلها باستثناء (أريتريا) و(تجره) و(بيجمدر) و(غوجام) وشمالي (شوا). ويَعدّ إقليم (سيدامو) معقل هذه المنظمة التي يرأسها (يوهانس لاتا) ونائبه (لينتشوليتا)، وإن أكثر سكان منطقة أرومو من المسلمين على اختلاف شعوبها.

ولكن «الاتحاد الوطني الأثيوبي» وهو التنظيم السياسي الوحيد في البلاد الذي يضمّ عناصر من معظم شعوب الحبشة دعا الحكومة الانتقالية في الحبشة لإجراء استفتاءٍ شعبيٍ على الميثاق الوطني الذي وُقّع عليه، وهدّد بالدعوة لإضراب عامٍ إذا لم تستجب الحكومة لهذا المطلب.

ثم دعا الاتحاد الوطني إلى مظاهراتٍ اشترك فيها أكثر من عشرة آلاف إنسان في العاصمة أديس أبابا طالبوا خلالها بوحدة الحبشة، ورفض انفصال أريتريا.

يهود الحبشة:

وصل إلى السودان عام ١٩٨٤ م مجموعة من يهود الفلاشا يقدر

عددها بثلاثة عشر ألف يهودي، وسافر هؤلاء من السودان سرّاً بطريق الجو إلى فلسطين المحتلّة.

كانت العلاقات السياسية قد قطعت بين الحبشة ودولة اليهود في فلسطين عام ١٩٧٣ م، ولكن عادت فاستؤنفت من جديد عام ١٩٨٩ م. ورفعت حكومة الحبشة الحظر عن سفر الفلاشا، وسمحت لهم بمغادرة البلاد. كما أن دولة اليهود أخذت بتزويد الحبشة بالأسلحة، ووفّرت لها التدريب ضد حرب العصابات.

وفي شهر ذي القعدة ١٤١١ هـ (أيار ١٩٩١ م) قامت حكومة اليهود بترحيل أربعة عشر ألف يهودي من أديس أبابا.

قام رئيس وزراء الحبشة ثمرات لايني بزيارة لدولة اليهود في شهر ذي القعدة عام ١٤١٣ هـ (أيار ١٩٩٣ م)، وقد تمّ أثناء هذه الزيارة توقيع معاهدة تعاون بين الدولتين لمدة خمس سنوات.

مع أريتريا:

تمكنت الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا برئاسة أساياس أفورقي من التحكم بشؤون أريتريا، وعدّت نفسها مستقلة في أيار ١٩٩١ م، ووقعت مع الحبشة معاهدة تعاون أثناء زيارة الرئيس الأريتري لأديس أبابا في شهر المحرم ١٤١٤ هـ (تموز ١٩٩٣ م) وتضمنت المعاهدة بنوداً للانتفاع المشترك بالموارد، والتعاون في قطاعات الطاقة، والمواصلات، والدفاع والتعليم.

وأبرمت اتفاقية أخرى في العام التالي بشأن حرية نقل البضائع بين البلدين دون فرض رسوم جمركية عليها.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة الحبشة مع أريتريا ١,٢٥١,٢٧١ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) تسعةً وأربعين مليوناً وسبعمائة ألف إنسان.

يبلغ طول حدودها مع السودان ٢,٢٢١ كيلومتراً، ومع جيبوتي ٤٥٩ كيلومتراً، ومع الصومال ١,٦٠٠ كيلومتر، ومع كينيا ٨٦١ كيلومتراً. أما طول الساحل الأريتري، ولا ساحل سواه فهو ١,٠٩٤ كيلومتراً. وتُقدّر الكثافة العامة بـ (٤١) شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة معتدلة أو مرتفعة نسبياً في مثل هذه العروض، ويعود ذلك إلى اعتدال المُناخ بسبب الارتفاع، وغزارة الأمطار للسبب نفسه. وتعدّ مصدراً رئيسياً لنهر النيل.

الصراع الإقليمي:

يوجد صراع إقليمي واضح في الحبشة، وإن كان أكثره يحمل المعنى العقيدي أكثر منه المعنى الإقليمي، فجبهة تحرير أريتريا، لم تنطلق بالثورة على أساسٍ إقليميٍ بل على أساسٍ عقيدي، والصراع في هذه المنطقة بين المسلمين والنصارى قديم، وإصرار الحكم في أديس أبابا على محاربة المسلمين والعمل على إبادتهم هو الذي حرّكهم سواء في أيام الحكم الإمبراطوري السابق، أم في العهد الجمهوري اللاحق.

والحركة في الأوغادين (الصومال الغربي) لم تقم على أساسٍ إقليميٍ، ولا على أساسٍ عنصريٍ بل على أساسٍ عقيديٍ واضحٍ.

أما جبهة تحرير شعب تجره فلم تنطلق بحركتها على أساسٍ إقليمي بل على أساس الحرية فسيطرة الأمهريين وتسلّطهم على الحكم هو الذي دفع شعب تجره إلى الحركة ضدّ السلطة.

الصـراع العنصـري:

يوجد في الحبشة عدة مجموعات بشرية، وهي:

١ ـ **الأمهرة**: وهم من سلالة السكان الأصليين الذين خضعوا للثقافة السامية، وعلى الرغم من قلّة عددهم فقد سيطروا على البلاد، واعتنقوا النصرانية منذ القرن الثالث قبل الهجرة، وجعلوها ديانة البلاد الرسمية. وأصبحت لغتهم لغة الحكومة الرسمية، وتقطن هذه المجموعة في مقاطعة شوا، وجوجام، وبيجمدر، أي في المرتفعات حول بحيرة تانا.

٢ ـ **تجره**: وتسكن هذه الجماعة أيضاً في المرتفعات الشمالية، وتمتدّ إلى أريتريا حيث امتداد المرتفعات، وعلى الرغم من جوار الشعبين بعضهما من بعض فإن خلافاً دائماً بينهما، ويعتنق أكثر أبناء هذه المجموعة النصرانية.

٣ ـ **جالا**: ويُمثّل هذا الشعب نصف السكان في الحبشة، ويقطنون المرتفعات الجنوبية، كان أبناؤه رعاةً، وتحرّكوا نحو الشمال تحت ضغط القبائل الصومالية، فاستقرّوا في مناطقهم هذه، وامتهنوا الزراعة بعد أن تركوا الرعي، واعتنق أكثرهم الإسلام، ودان الذين سكنوا المرتفعات الوسطى بالنصرانية، وبقي قسم منهم على الوثنية، وإن كان هذا القسم قليل العدد، ويسكنون في مقاطعات عروسي، وشوا، وبالي، وسيدامو.

٤ ـ **الجوارغ**: ويُقيم هذا الشعب في الجنوب الغربي من العاصمة، ويعمل بالرعي، ويدين أكثر أبنائه بالإسلام.

٥ ـ **البوران**: ويقطن هذا الشعب في مقاطعة سيدامو في الجنوب على حدود كينيا، واعتنق أكثره الإسلام، وبقي قسم منه على الوثنية،

وأخضع هذا الشعب لسلطانه الإمبراطور منليك الثاني، وضاقت ديارهم بعد غزو قبائل الجالا لجزءٍ من بلادهم.

٦ ـ **الزنوج**: في الجنوب الغربي من الحبشة.

ويمكن أن نضيف الدناقل والصوماليين في الجزء الشرقي، وتعدّ أرضهم محتلّة من قبل الأحباش، وهم جميعاً من المسلمين.

ولا يوجد صراع عنصري بين هذه المجموعات البشرية سوى ما كان في الماضي من صراعات قبلية حول الديار، كانتقال الجالا نحو الشمال. غير أنه الآن يوجد صراع بين الأمهرة والتجره، وهو صراع حول طريقة الحكم قبل أن يكون عنصرياً. ثم هناك صراع الصوماليين والدناقل مع الأحباش، وهو صراع عقيدي لا عنصري فالحبشة تحتلّ أراضي هاتين المجموعتين بالقوة.

وأما في **أريتريا** فتوجد عدة مجموعات بشرية وهي:

١ ـ **تجره**: وهم فرع من الأحباش الذين يقيمون في إقليم تجره، ويقطنون في الهضبة، وأكثرهم من النصارى، وأقلّهم من المسلمين، وعصبيتهم للنصرانية كبيرة، حتى يعدّون غير النصراني منهم منبوذاً.

٢ ـ قبائل تماثل البجاة في الشمال، ويسكنون شمال وغربي المرتفعات، وفي وادي بركة، ويتكلمون لغة تجره، ومنهم بنو عامر، وأكثرهم من المسلمين، وقليل منهم لا يزال على النصرانية.

٣ ـ **الدناقل**: ويعيشون في السهل الساحلي الجنوبي، والصحراء التي حوله، ويتكلمون لغةً حاميةً هي لغة (عفر) وجميعهم من المسلمين.

٤ ـ **ساهو**: ويعيشون في السهل الساحلي الأوسط بين البجاة والدناقل، وجميعهم من المسلمين.

٥ ـ **بلان**: ويقيمون في إقليم (بوجس) الذي مركزه مدينة (كيرين)، ويدين أكثرهم بالإسلام، وأقلهم بالنصرانية.

٦ ـ **باريا:** وتعيش هذه المجموعة في منخفضات نهر (القاش)، وأغلبيتها من المسلمين، وفيها قليل من النصارى، كما أنه لا تزال تسود في بعض فروعها الوثنية، ولا يزيد عدد أفرادها على عشرات الآلاف.

٧ ـ **كوناما:** وتقيم في منخفضات نهر (ستيت)، وأغلبيتها أيضاً من المسلمين، وفيها قلة من النصارى، وبعض الوثنيين.

ولا يوجد صراع عنصري بين هذه المجموعات، وإنما يوجد نزاع ديني، وهو بين تجره حيث تكثر فيها النصرانية وبين غيرها حيث يغلب الإسلام، وقد اقترح أحد قادة المطالبين باستقلال أريتريا بجعلها قسمين أولاهما الهضبة حيث يكثر النصارى، وثانيهما المناطق المنخفضة حيث يغلب المسلمون. ويلاحظ أن المناطق السهلية والساحلية حيث يسهل الاختلاط والاحتكاك قد انتشر الإسلام منذ الجولة الأولى مع الأديان التي كانت سائدةً في المنطقة لأنه دين الفطرة، بينما المناطق المرتفعة لم ينتشر فيها الإسلام لصعوبة الاتصال نتيجة الوعورة فبقيت فيها النصرانية.

واللغة الرسمية هي الأمهرية وهي فرع من اللغة الحبشية القديمة التي تُسمّى لغة (جيز) التي نشأت من اللغة الحامية والسامية، ونمت هذه اللغة وازدهرت أيام مملكة أكسوم، فلما ضعفت المملكة ضعفت اللغة معها، وبقيت لغة الدراسات الأدبية والكنيسة فقط، ومن هذه اللغة نشأت اللغة الأمهرية لغة الملوك والبلاط.

وهناك اللغة (التجرينية) التي تنتشر في أريتريا، وتجره. وإضافةً إلى ذلك توجد لهجات محلية في (شوا) و (جوجام). وتوجد كذلك لغات محلية عند الزنوج.

أما اللغة (الهررية) فقد تأثّرت بالعربية إلى حدٍّ بعيدٍ، وتكتب أحياناً بالحرف العربي. كما توجد لغة (عفر) بين الدناقل. وكانت اللغة العربية تنتشر في المناطق الشرقية بين المسلمين وخاصةً في هرر، والأوغادين، وأريتريا، ولكنها أخذت تضعف تدريجياً بسبب الحروب التي تشنّها

الحكومة الحبشية والكنيسة على التعليم العربية حتى أصبح هذا التدريس جريمةً يُعاقب عليها المرء.

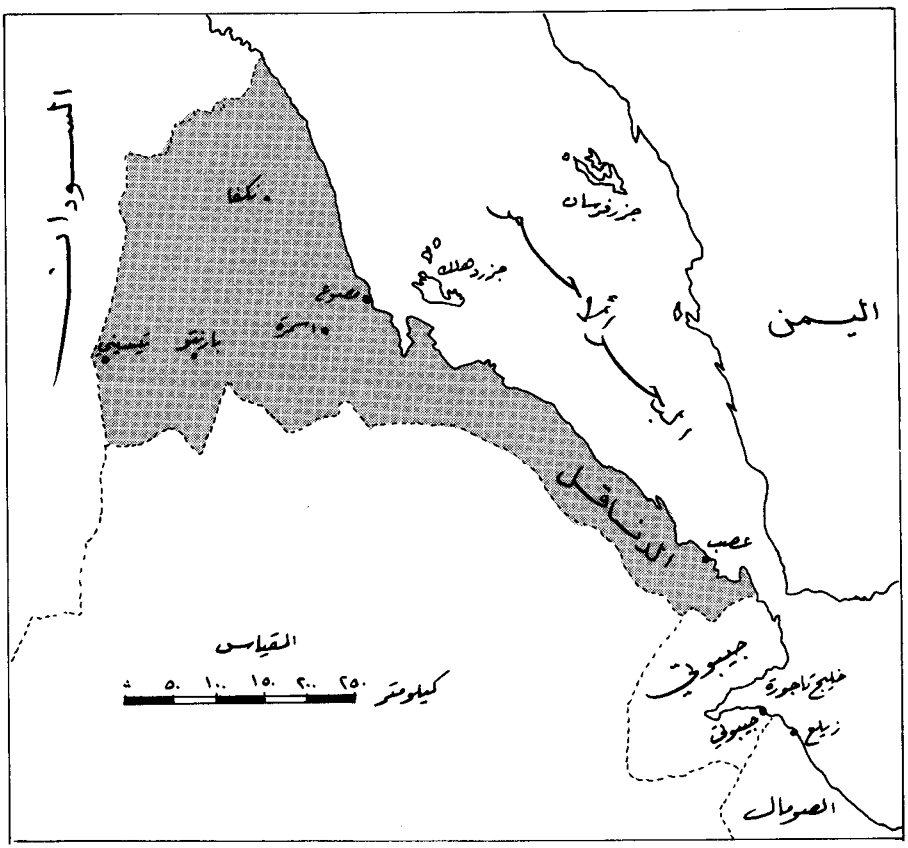

مصور رقم [٣]

الصـراع العقيـدي:

تُقدّر نسبة المسلمين في الحبشة بـ ٦٦٪، ولا تزيد نسبة النصـارى على ٣٠٪، وأما الباقي وهو ٤٪ فهم لا يزالون على الوثنية، غير أن حكم الأقليّة ومحاولة إعطاء المشروعية لحكمها، والتعصب الشديد للنصرانيـة، والأثر الكبير للكنيسة هو الذي يحمل الفئة الحاكمة لتقديم إحصاءات غير صحيحةٍ، وإن استمرارية حكم هذه الأقلية منذ مدةٍ طويلةٍ، واستمرار إعطاء إحصاءات مغلوطة قد جعل الناس يقبلون فكرة نصرانية الأكثرية، وتُسهم الأمم المتحدة في المغالطات إذ تتبنّى هذه الإحصاءات، وتُقدّمها للمجتمع الدولي ضمن المعلومات التي تُقدّمها على أنها معلومات موثقة وصحيحة، وهي مغلوطة مكذوبة. وليست الأمم المتحدة بريئة من هذا التزوير، ولا بعيدة عنه، بل مشاركة فيه، إذ هي على علم بـه، ومثله كثير في بلدانٍ إفريقيةٍ غير الحبشة، وفي غير إفريقية.

إن كل ما في هذه المنطقـة من صراعـاتٍ سواء أكـانت إقليميةً أم عنصريةً أم أسريةً إنما تحمل المعنى العقيـدي، ونستطيـع أن نقول: إن الصراع بين الإسلام والنصرانية في هذه المنطقة منذ أن وصل المسلمون المهاجرون الأوائل إلى المنطقة، ونصرهم وأيّـدهم النجاشي «أصحمـة»، وأسلم، وخالفه البطارقة وأرادوا تسليم المهاجرين إلى وفد قريش. ولمـا اتجه المجاهدون المسلمون نحو الشمال، وأخذوا في منازلة الروم، وحلّوا محلّهم في الشام، وشمالي إفريقية، وأجزاء من تركيا، وجزراً في البحر المتوسط، وتألّق نجم المسلمين، ثم حـدثت أحداث في ديـار الإسلام، ووقعت خلافات، وظهر أن نجم المسلمين قد أفل قليلاً أحب النصارى في الحبشـة الحـركـة للنيـل من المسلمين، وللتخفيف عن الـروم، غيـر أن المسلمين كانوا على حذرٍ، فردّوا على الاعتداء بقوةٍ، واتخذوا لهم قواعد استقرارٍ، ومنها انتشرت الدعوة، فشملت مناطق واسعةً، ونشأت إمـارات بذلت جهدها في رفع راية الجهاد، ونشر الإسلام، فقامت بواجبٍ، ونسيت

واجب الوحدة فاستطاعت النصرانية أن تخترق الصفوف، وأن توقف المدّ الإسلامي، وشحنت أبناءها بحقدٍ عظيمٍ، وعصبيةٍ كبيرةٍ، واستعملت أبشع أنواع الظلم ضدّ من أسلم، وأقسى أصناف الاضطهاد، واتخذت الوحشية وسيلةً لها لتحول دون اعتناق أتباعها الإسلام، ومدّت يدها إلى المستعمرين الصليبيين عندما طلعوا على المنطقة، ثم اتخذتهم سنداً لها، ومستشارين لمصالحها، وقاسموها أجزاء من بلاد المسلمين حيث قدّموا لها الصومال الغربي، وساعدوها على ضمّ أريتريا صليبيةً وأخوةً في العقيدة. واقتنعت حكومة الحبشة أنها لو لم تفعل ذلك لغزاها المسلمون، ولاعتنق أبناؤها جميعاً الإسلام، فما اتخذته حسب قناعتها لم يكن سوى حمايةٍ لعقيدتها.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن هذا التعصّب الأعمى، وهذه التصرّفات الوحشية، وهذا التمييز الواضح من قبل الحكومة هو الذي جعل المسلمين في أريتريا، وحملهم في الأوغادين على القيام بحركاتٍ للاستقلال عن الحبشة، والبعد عنها، وهم يعلمون أن هذا الانفصال سيجعلهم يتخلّون عن الدعوة، وستكون عداوةً بينهم وبين جيرانهم، ولكن قد أجبرتهم حكومة الحبشة النصرانية على الدعوة إلى الاستقلال جبراً، وحملتهم عليه كرهاً، بتعصّبها ضدّ المسلمين، وحقدها عليهم، ومعاملتهم معاملةً لا يقبلها امرؤ حرّ.

إن المسلمين في المناطق الشرقية يعلمون أنهم أمة واحدة دون الأحباش النصارى، وأنهم يرتبطون مع بقية مسلمي العالم ليصوغوا أمة الإسلام، وأن هناك مفاصلةً شعوريةً بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون ضمنه مكرهين، ومع هذا فإنهم لم يطلبوا الاستقلال لو كانت تصرفات حكومة الحبشة سليمةً لأن عليهم واجب الدعوة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وإن حكومة الحبشة النصرانية على يقينٍ تامٍ أنها لو سلكت سبيل الحرية، واتبعت طريق المساواة لأسلم الأحباش، وانتشرت العربية، وفقدت

الكنيسة سيطرتها، وأضاعت نفوذها بل ربما بطارقتها، وهو المتوقّع، ولكن أنّى لها أن تسلك هذا المنهج، وهي تعرف النتيجة، وكيف للكنيسة أن تسكت؟ وكيف يمكنها أن تتخلّى عن هيمنتها، وهي المستفيدة؟

ومن هناك نلاحظ الصراعات الإقليمية والعنصرية تحمل كلها المعنى العقيدة اللهم إلا ما كان من (تجره) فإن حركتها كانت للمطالبة بالحرية، والتخلّي عن الاستبداد، وعدم استئثار الأمهرة بالسلطة.

وإن الأسر الأمهرية التي تنازعت على السلطة قد اتخذت الجانب العقيدي وسيلةً لفرض سلطانها. فالأسرة السليمانية التي كانت هي الحاكمة تتمسّك بالأساطير ليبقى الحكم بيدها، ومن هذه الأساطير أن بلقيس ملكة سبأ في اليمن هي عندهم أميرة حبشية، وأن نبي الله سليمان عليه السلام حينما شرع في إقامة المعبد في أرض القدس أوفد إلى أركان الدنيا الأربعة رسلاً يأتونه بما يلزم لبناء صرحه، وسمع بهذا الخبر تاجر حبشي يُدعى (تاماران) من تجار قصر الأميرة بلقيس، فسافر هذا التاجر إلى نبي الله الملك سليمان حاملاً إليه أحجاراً زرقاء، وخشباً من الأبنوس الصلب، ولما وصل إلى أرض الملك سليمان راعة عظمة الملك وأبهته، وبهرته حكمة الملك، فرفع خبر ذلك إلى الأميرة بلقيس، فقررت زيارة الملك سليمان، فاستقبلت استقبالاً رائعاً، واستمعت إلى أقوال الملك، وقررت ترك عبادة الشمس والقمر، واعتنقت اليهودية، وبقيت هناك ستة أشهرٍ كاملةٍ، وأن الملك سليمان راودته نفسه في بلقيس من أجل أن يأتيهما غلام يكون له عرش الحبشة ليس غير، فتنتشر هناك اليهودية، ويقضى على الوثنية، وعبادة الشمس والقمر.

وتروي الأسطورة حكاية مراودة سليمان لبلقيس بأنه قبل سفرها قد أمر بإعداد وليمةٍ فاخرةٍ لها، وفيها الأطعمة التي تحوي على التوابل، وبعد انتهاء الوليمة دعاها إلى قصره، فتردّدت في أول الأمر، ثم وافقت على ألا يحاول معها أمراً تأباه، وألا تمسّ هي شيئاً في قصره دون إذنه. ولما انتهت

السهرة، وحان وقت النوم أُعد في القصر فراشان للملك وضيفه. فأخذ كل فراشه، وتظاهر سليمان بالنوم العميق، وشعرت بلقيس بالظمأ الشديد نتيجة أكل التوابل، فقامت إلى الماء، فنهض الملك سليمان، وقال لها بأنك قد خالفت العهد، ومسست ما في القصر دون إذني، وإني أصبحت في حلٍّ من عهدي، ونال منها مأربه. وعندما عادت بلقيس إلى الحبشة ولدت ولداً اسمه (منليك)، وقد صدر قانون يقضي بأن يظلّ عرش الحبشة وقفاً على سلالة (منليك) من الذكور دون الإناث.

وتجعل هذه الأسرة هذه الأسطورة الخرافية صكاً لبقائها في السلطة متخذةً الجانب الديني ذريعةً لها رغم أنها تعبث بالدين إذ تجعل من أحد أنبياء الله زانياً، وصاحب حيلٍ وخديعةٍ. ومن المعلوم أن هذه الخرافة تخالف ما ورد في كتاب الله «القرآن الكريم»، فبلقيس ملكة سبأ، وليست أميرةً حبشيةً.

وبقيت هذه الأسرة تحكم حتى عام ٥٣٠ هـ حيث قامت أسرة أخرى هي أسرة (زاجوي)، وانتحلت هذه الأسرة لنفسها نسباً آخر، فادعت أن أصلها يرجع إلى نبي الله موسى، عليه السلام، وذلك حتى تستطيع أن تُضاهي الأسرة السابقة، فزعمت أنها أعرق في أسلافها منها، مستندةً في ذلك إلى ما يُسمّونه كتاب التوراة، وما هو بالتوراة، إن هو إن كتاب لعبت فيه الأيدي، والأهواء، وقد ورد في هذا الكتاب بأن نبي الله موسى، عليه السلام، قد اتخذ لنفسه حليلةً حبشيةً.

ثم استعادت الأسرة السليمانية السلطة عام ٦٦٨ هـ، وبقيت حتى عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م)، حيث وقع انقلاب قبض على الإمبراطور هيلا سيلاسي، وأودعه السجن، وقضى على حكم الأسرة. فالمهم أن الأسر كانت تُحاول أن تثبّت حكمها بدعاوي عقيدية.

والكنيسة الحبشية تتبع الأرثوذكسية، وهي واحدة من الكنائس الشرقية الخمس، وتعرف باسم (تيواحيدو)، وتأسّست عام ٣٢٨ هـ، والهيئة العليا

فيها هي المجمع الكنسي، والمجلس الوطني برئاسة البطريرك. وللكنيسة أثر كبير بين نصارى الأحباش، وتشرف على ١١٣٩ مدرسةً، و١٢ مركزاً للإغاثة.

وبجانب الكنيسة الرئيسية توجد الكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية. والكنيسة الأرمنية للقديس جورج، وتأسست ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م). والكنيسة التنصيرية الأثيوبية، وكلها في العاصمة أديس أبابا.

ويوجد في الحبشة أيضاً عدد قليل من اليهود. كما توجد بعض المؤسسات التابعة للديانة الهندوكية، وأخرى للسيخ.

الصراع الحزبي:

لم تكن هناك حرية حتى تكون أحزاب وتحدث منافسة فيما بينها، وذلك منذ قيام الأسرة السليمانية باستلام السلطة، حيث كانت أيامها أيام استبدادٍ وظلمٍ. ونتيجة ذلك نشأت جبهة تحرير الصومال، وتدعو إلى الانفصال عن الحبشة والانضمام إلى الصومال الوطن الأم، وترى أن الاختلاف بين الصومال والحبشة يقوم على أساس العقيدة.

أما في أريتريا فقد ظهرت الأحزاب حيث رغبت المجموعات ذات الأهداف الواحدة من تنظيم نفسها كي يكون عملها منظماً، وتستطيع العمل لتبيان وجهة نظرها، وإبراز رأيها الذي تدعو له، وحتى يمكنها منافسة غيرها من التنظيمات ومقارعة الحجة بمثلها. فظهر الحزب الاتحادي الذي يدعو إلى الانضمام إلى الحبشة، ويعتمد على تأييد النصارى له. وبرزت الرابطة الإسلامية التي تدعو إلى استقلال أريتريا، وتعتمد على دعم المسلمين لها، وتعلن أن دعوتها إنما هي نتيجة ما يلاقيه المسلمون من عنت حكامهم النصارى، وما ينالهم من ظلمٍ إلا بسبب العقيدة التي يؤمنون بها.

وهناك الحزب التقدمي الحرّ الذي يدعو إلى الاستقلال لما يلحق المسلمين من أذى، ولكن لا يشترط الالتزام بالإسلام، وإنما يكفي

الانتماء. فالظلم للمسلمين جميعاً سواء أكانوا ملتزمين أم ينتمون انتماءً فقط.

وظهرت الرابطة الأريترية ـ الإيطالية، وحزب الشعب الموالي لإيطاليا وأتباعهما قلّة، وهم من المستفيدين من الطليان، والتنظيم يقوم أساساً على هذه الفائدة، ويدعوان إلى استقلال أريتريا.

وهناك الحزب الوطني الذي يرى قيام إدارةٍ بريطانيةٍ، وهو يرى قوة النفوذ البريطاني، ويريد الإفادة منه، وأعوانه قلّة من المنتفعين من بريطانيا والمرتبطين بها.

واتخذ الحزب الاتحادي أسلوب العنف، وطريقة الاغتيال، وكانت الحبشة من ورائه تدعمه، وتمده بالسلاح، والمال، ووسائل الاغتيال. واغتيل رئيس الرابطة الإسلامية عبد القادر محمد صالح كبيري عندما كان يتأهّب للسفر إلى نيويورك ضمن وفد حزبه. وتشكلت الكتلة الاستقلالية من التنظيمات التي تدعو إلى استقلال أريتريا كلها.

وقد أُلغيت هذه الأحزاب كلها عندما صدر قرار ضم أريتريا إلى الحبشة عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) أو بالأحرى بعد احتلال الحبشة لأريتريا، ولم يبق منها سوى الحزب الاتحادي لأنه مُؤيّد من حكومة الحبشة المحتلّة عسكرياً لأريتريا.

ولما طرد رئيس المجلس النيابي الأريتري إدريس محمد آدم انتقل إلى مصر، وشكّل هناك جبهة تحرير أريتريا. وتدعو إلى انفصال أريتريا عن الحبشة، واستقلالها عنها، ما دامت تختلف عنها عقيدياً، والعقيدة أساس كل شيءٍ، وما دامت الحبشة تتخذ العقيدة أساساً للتمييز، والاختلاف في المعاملة، وتلحق بالمسلمين الأذى والظلم، وتحرمهم من حقوقهم المشروعة كلها. وترى جبهة أريتريا اتخاذ السلاح وسيلةً لتحقيق أهدافها، وكرد فعلٍ على عمل الحبشة التي قامت باحتلال أريتريا عسكرياً أي متخذةً القوة والسلاح.

ولكن بعد مدةٍ انقسمت جبهة تحرير أريتريا إلى عدة فصائل مقاتلةٍ، ويختلف بعضها عن بعضٍ بالعقيدة، فهناك فصائل تقوم على أساسٍ إسلاميٍ، وبعضها على أساسٍ وطنيٍ، وبعضها على أساسٍ اشتراكيٍ. وأكبرها كان جبهة تحرير شعب أريتريا، وتعتمد الفكر الاشتراكي أساساً لحركتها، وتعدّ أكبر التنظيمات.

وفي عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) نشأ المجلس الوطني الموحّد للفصائل الإسلامية والوطنية، وكانت هناك منافسة بين هذا المجلس وبين جبهة تحرير شعب أريتريا. وبرزت جبهة تحرير شعب أريتريا على الساحة بشكلٍ قويٍ بينما كان المجلس الوطني يتراجع، وذلك لأن حكومة الحبشة وجبهة تحرير شعب أريتريا تقومان على الاشتراكية، وإن كانتا تختلفان على الوضع في أريتريا.

وأما في الحبشة فقد وجدت جبهة تحرير شعب تجره وذلك للمنافسة بين شعبي (تجره) و(أمهرة) الحاكم في الحبشة إضافةً إلى الفكر الحرّ والمساواة اللذين تنادي بهما جبهة تحرير شعب تجره - وربما للمتاجرة -، ولا يزال هذا الصراع قائماً بين الفريقين.

ونشأت كذلك في الحبشة إثر انقلاب شعبان ١٣٩٤ هـ (أيلول ١٩٧٤ م) حركة عرفت باسم «الحركة الاشتراكية لكل أثيوبيا»، وهي حركة ماركسية أوجدها العسكريون الانقلابيون لدعم سلطانهم، وبقيت كذلك حتى رجب ١٣٩٧ هـ (تموز ١٩٧٧ م) حيث أوجدت السلطة حزباً خاصاً بها عُرف باسم (أبقوت سيدد) أي اللهب الثوري وذلك لدعم حكمها.

وفي مطلع عام ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م) استبعدت التنظيمات كافةً، وشكّلت السلطة الحاكمة «حزب الشعب العامل لأثيوبيا»، والذي حمل بعد ثمانية أشهرٍ اسم «حزب عمال أثيوبيا»، وغدا حزب الحكومة الرسمي، وانتخب رئيس الدولة منجستو ماريام أميناً عاماً له بالإجماع.

ومع أن الحركات الثائرة في أريتريا وتجره حركات اشتراكية، وأن الحزب الحاكم في الحبشة اشتراكي إلا أن الخلاف بينهما على مفهوم الاشتراكية، ومفهوم الديمقراطية، ومفهوم الاستقلالية مع العلم أن هذه الحركات كلها اشتراكية غربية، وإن كانت تدعى الماركسية ظاهراً، فالمناداة شيء والتطبيق شيء آخر، وهناك مفاوضات وحوار دائم بين هذه الحركات. وفي ١٥ صفر ١٤١٠ هـ (١٥ أيلول ١٩٨٩ م) شكّلت جبهة تحرير شعب تجره والحركة الديمقراطية الشعبية الأثيوبية حركةً واحدةً حملت اسم «الحركة الديمقراطية الثورية الشعبية».

تقسم الحبشة عدا أريتريا إلى ثلاث عشرة مقاطعة، إضافةً إلى العاصمة أديس أبابا، وكان عدد سكان هذه المقاطعات حسب تقديرات ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) كما يأتي:

المقاطعة	المساحة	السكان	الكثافة

الحبشة :

المقاطعة	المساحة	السكان	الكثافة
عروسي	٢٣,٦٧٤	١,٦٦٢,٢٣٢	٧٠,٢
بالي	١٢٧,٠٥٢	١,٠٠٦,٤٩٠	٧,٩
غامو ـ كافا	٤٠,٣٧٤	١,٢٤٨,٠٣٣	٣٠,٩
غوجام	٦١,٢٢٤	٣,٢٢٤,٨٨١	٥٢,٧
هرر	٢٧٢,٦٣٦	٤,١٨١,١٦٧	١٥,٣
أيلو بابور	٤٦,٣٦٧	٩٦٣,٥٥٤	٢٠,٨
كافا	٥٦,٦٣٦	٢,٤٥٠,٤٦٨	٤٣,٣
شوا	٨٥,٣١٥	٩,٥٠٣,١٤٠	١١١,٤
سيدامو	١١٩,٧٦٠	٣,٧٩٠,٥٧٧	٣١,٧
تجره	٦٤,٩٢١	٢,٤٠٩,٥٩٩	٣٧,١
والاغا	٧٠,٤٨١	٢,٤٧٧,٢٧٦	٣٥,١
ويلو	٨٢,١٤٣	٣,٦٤٢,٠١٣	٤٤,٣
غوندار (بيجمدر)	٧٩,٥٧٩	٢,٩٢١,١٢٤	٣٦,٧
المجموع	١,١٣٠,١٦٢	٣٩,٤٨٠,٥٥٤	

أريتريا :

المقاطعة	المساحة	السكان	الكثافة
أريتريا	٩٣,٦٧٩	٢,٦١٤,٦٩٩	٢٧,٩
إدارة عصب	٢٧,٤٦٤	٨٩,٠٩٩	٣,٣
المجموع العام	١,٢٥١,٣٠٥	٤٢,١٨٤,٣٥٢	٤٠,٠

ومن المعلوم أن العاصمة أديس أبابا قد أصبحت مقاطعةً إدارية وحدها، وهي في إقليم شوا، وكانت في هذا الجدول ضمن إقليمها.

ويلاحظ أن مقاطعة هرر أكبر المقاطعات مساحةً، وأكثرها جزء من

الصومال، أي أنها منطقة مغتصبة، إضافةً إلى مناطق شرق الحبشة كلها.

وتكـون زيادة السكـان السنويـة ٣,١٪، حسب تقديـرات ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م).

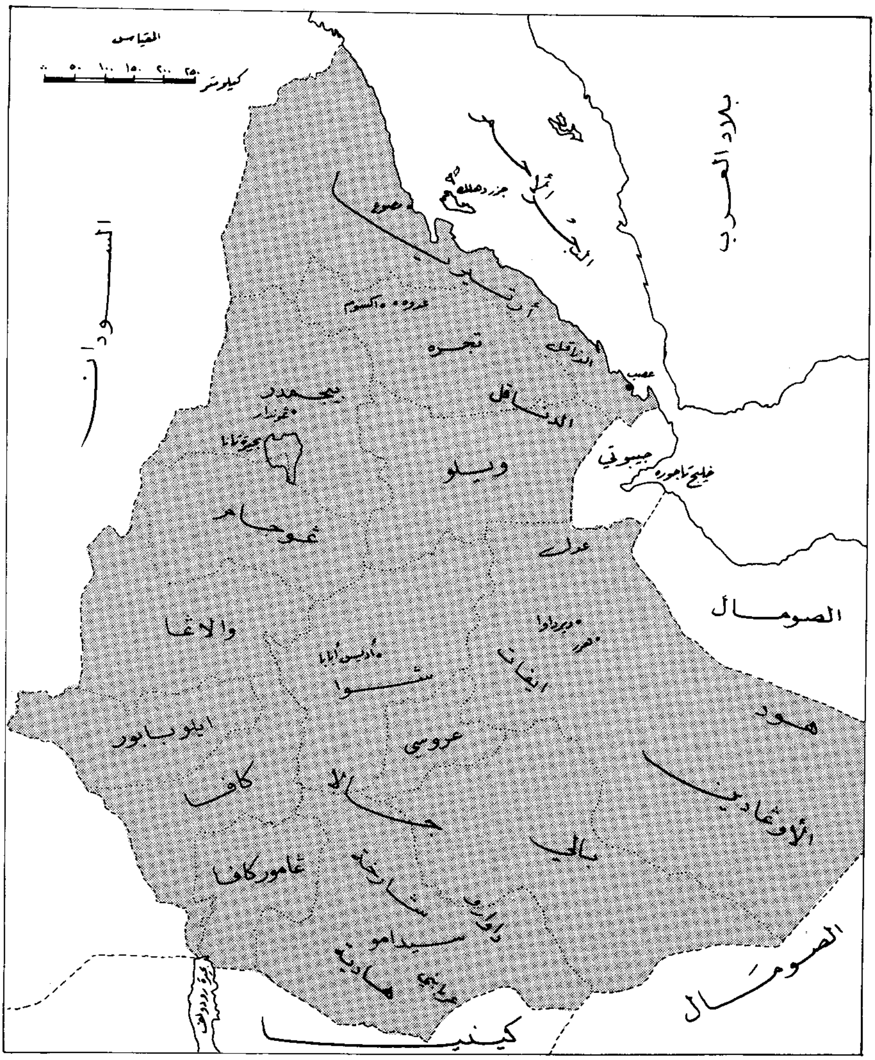

مصور رقم [٤]

القسم الثاني

الأوسط

الصومال وجيبوتي

يمتدّ هذا القسم الثاني من خط العرض ١٣° شمالاً تقريباً عندما تقترب السواحل الإفريقية من شواطىء جزيرة العرب حتى لا يكون بينهما سوى ستة عشر ميلاً فقط حيث يتشكّل مضيق باب المندب بل إن جزيرة بريم تُقرِّب المسافة بين سواحل القارتين الآسيوية والإفريقية، ويكون طول هذا المضيق أربعين ميلاً، وتعيش في المنطقة الإفريقية قبائل (عيسى) و (عفر).

وتتابع السواحل الإفريقية نحو الجنوب مُشكّلة خليج (تاجورا)، ثم نحو الجنوب الشرقي حتى خط العرض ١٠,٣٠° شمالاً تقريباً، ثم تتجه نحو الشرق وإلى الشمال قليلاً موازية سواحل الجزيرة العربية مشكلةً في البحر خليج عدن الذي يصل عرضه إلى ١٧٠ ميلاً تقريباً، وتبقى في ذلك الاتجاه حتى خط الطول ٥٠,٤٠° شرقاً أي بطول ٤٧٥ ميلاً، ثم تتجه نحو الجنوب الغربي حتى خط العرض ١° جنوباً، وإلى خط الطول ٤١° شرقاً، مشكّلةً بذلك القرن الإفريقي، وتعيش القبائل الصومالية.

تُعدّ هذه المنطقة فقيرةً لقلّة الأمطار فيها حتى ليغلب عليها المناخ الصحراوي، إذ لا تصل إليها الرياح الغربية حيث تحجزها عنها هضبة الحبشة وهضبة البحيرات، ومع أن المناطق التي تقع في شرقي القارات وعلى العروض نفسها التي تمتدّ عليها هذه المنطقة تكون ذات أمطارٍ موسميةٍ صيفيةٍ غزيرةٍ، لكنها هنا تُشرف في الشمال على البحر الأحمر الذي يُعدّ مغلقاً وضيّقاً لذا لا أثر له، وتكون المنطقة كأنها ملتصقة بجزيرة العرب، وهي كأنها في وسط القارات فتنتشر فيها الصحراء. وأما المناطق

الجنوبية فتصل إليها الرياح الموسمية الصيفية، وهي رياح رطبة محمّلة ببخار الماء، ويزيد في رطوبتها أنها تأتي من محيطٍ حارٍ، غير أن فائدتها تكون قليلةً بالنسبة إلى هذه البلاد حيث تسير من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي أي مسايرةً للساحل مما يجعلها قليلة الأهمية بالنسبة فيما لو كانت متعامدةً مع النسواحل. فالمحيط الهندي يكون مركزاً لضغطٍ مرتفعٍ نسبياً في فصل الصيف على حين تكون قارة آسيا مركزاً للضغط المنخفض، فتتجه الرياح من المحيط الهندي نحو أواسط قارة آسيا، وتنحرف هذه الرياح نحو الشمال الشرقي بسبب دوران الأرض، وتُسبّب هذه الرياح انقطاع الرياح التجارية التي تأخذ بالأصل اتجاهاً مغايراً، ويكون اتجاهها من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي. أما الرياح التجارية في نصف الكرة الجنوبي فإنها في هذا الفصل تجتاز خط الاستواء، وترفد الرياح الموسمية، وتزيد من قوتها، ويكون اتجاهها قبل أن تجتاز خط الاستواء من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي، ولكنها بعد ذلك الاجتياز تُغيّر اتجاهها بسبب دوران الأرض فيصبح من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي.

وكذلك فإن للارتفاع دوره، والأراضي هنا منخفضة أي حارة، والوقت صيف أي زمن الحرارة لذا لم يسقط شيء من الغيث، إذ أن الرياح الرطبة تنعقد غيثاً عندما تصل إلى منطقةٍ باردةٍ أي أكثر برداً من المنطقة القادمة منها، ولكن هذه الرياح القادمة من المحيط الهندي الدافىء عندما تصل إلى الصومال تمرّ فوق أراضي أكثر حرارةً بسبب انخفاضها وبسبب الحرّ، فترتفع الغيوم بعد أن يتبخّر قسم من بخارها، غير أنها عندما تتوغّل نحو الداخل الأكثر ارتفاعاً تهطل بعض الأمطار، ولكن عندما تصل إلى الحبشة ذات الارتفاع تنهمر أمطار غزيرة، وعلى هذا فالأمطار تزداد بالاتجاه نحو الغرب، وبسبب انخفاض المناطق الساحلية تحدث أحياناً فيضانات تنشأ عن الأمطار التي تتجمّع في نهر شبلّي.

فالمياه في بلاد الصومال قليلة نتيجة قلّة الأمطار، وأكثر المجاري

المائية أودية أو سيول تجري أثناء هطول الأمطار في فصل الصيف، وتجفّ بقية أيام العام، وهذه المجاري كلها تجري من الهضبة باتجاه الساحل، والذي يمكن أن نطلق عليه نهراً هو نهر شبلّي الذي يبدأ من هضبة هرر، ويتجه نحو الجنوب الشرقي، وقبل أن يصل إلى (مقديشيو)، ويكاد يصبّ في البحر يتجه نحو الجنوب الغربي مسايراً لخط الساحل تماماً، حيث يلتقي مع نهر جوبا القادم من هضبة جالا، ثم يتجهان ليصبا في البحر عند مرفأ (كسمايو) حيث تأتيه أيضاً المياه المنحدرة من هضبة كينيا.

ولما كانت هذه المنطقة قليلة المياه لذا كانت قليلة الأشجار بل أقرب إلى الصحراوية أي مفتوحة يمكن الولوج فيها إلى الداخل دون أية عوائق تحول دون الدخول، وهذا ما جعل المسلمين يُمكنهم التوغّل إلى الداخل، ولما كانت البلاد فقيرةً فإن أهلها بحاجةٍ إلى الكثير من السلع، وهذا ما مكّن التجار المسلمين من حملها إليهم، وأخذ ما يزيد عنهم من بعض البضائع كالأغنام، والصمغ، والعسل. ونتيجة وصول المسلمين إلى جهات الصومال كلها استطاعوا التأثير على أهلها، وإدخالهم جميعاً بالإسلام. وهذا ما جعل أيضاً الحقد الصليبي عليهم كبيراً عندما قويت الدول النصرانية، ووصلت إلى المنطقة، فصبّت غضبها عليهم، واقتسمت أرضهم، وعملت على إذلالهم، وإبقاء أغنى مناطقهم بيد نصارى المنطقة من أحباشٍ أو كينيين.

وإن هذا القسم من شرقي إفريقية وهو الصومال تسكنه قبائل صومالية، ويُشكّل إقليماً واحداً، وإن كان في الشمال في منطقةٍ صغيرةٍ نسبياً تُقيم قبائل (عفر) حيث تمتد منازلها على جزءٍ من أرض الصومال، فلما جاء المستعمرون الصليبيون، وجزّأوا هذا الإقليم جعلوا منه دولتين هما: الصومال وجيبوتي إضافةً إلى أقسامٍ أعطوها للحبشة وكينيا ليبقى الإقليم ضعيفاً فقيراً، لا يمكنه الدفاع عن نفسه دون حمايةٍ، ولا الحياة الكريمة من غير مساعداتٍ.

الباب الأول

الصومال

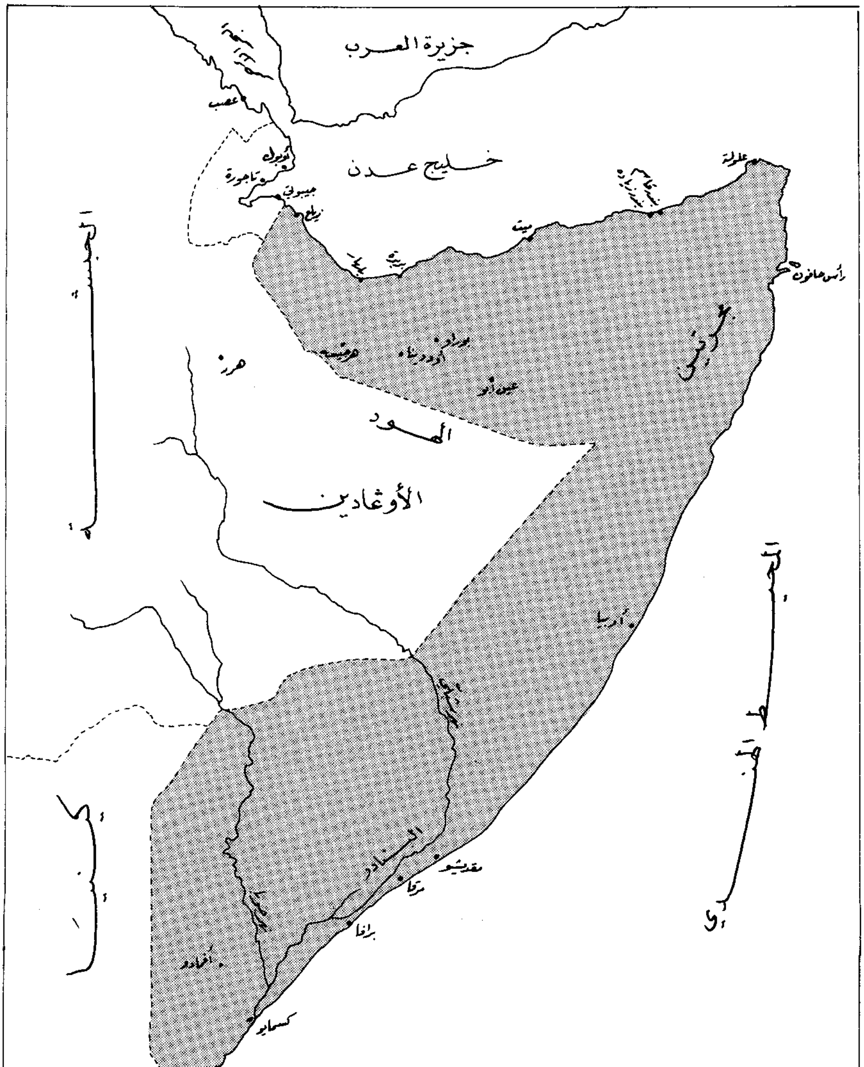
جزيرة العرب
خليج عدن
الهود
الأوغادين
مقديشو
مركة
براوة
كسمايو
علولة
هرر
القياس
كيلومتر

مصور رقم [٥]

لمحة عن تاريخ الصومال قبل إلغاء الخلافة

اعتنق أهل الصومال الإسلام في وقتٍ مبكرٍ نتيجة الصلة الوثيقة بين جزيرة العرب والصومال، وارتبط هذا الإقليم بالدولة الإسلامية بمراحلها كافةً، وانتقل عدد من سكان هذا الإقليم في أيام الدولة العباسية الأولى إلى جنوبي العراق، وقد عُرفوا بالزنج.

وفي القرن الثالث الهجري هاجرت جماعات من أرض العرب إلى إقليم الصومال، واستقرّت هناك، واختلطت بقبائل البانتو، ونتج عن هذا الاختلاط وجود جماعةٍ جنسيةٍ هي القبائل الصومالية التي تحمل بعض الميزات التي تتصف بها المجموعة العربية.

وعندما ضعف أمر الدولة الإسلامية خفّ سلطانها عن الأقاليم البعيدة فنشأت إمارات محلية يحكمها شيوخ القبائل، وزعماء لا يتجاوز سلطانهم المدن الكبرى وما يجاورها.

ووقع صراع بين الإمارات الإسلامية وبين دولة الحبشة النصرانية، ولم تعمل تلك الإمارات على وحدتها، ولا وحدة جهودها لمقاومة التسلّط النصراني على بعض الإمارات التي احتلّها، وعلى المسلمين الذين يعيشون في أرض الحبشة، مما جعل الصراع يطول أمده.

ووصل المستعمرون الصليبيون من البرتغاليين إلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية، والتفّوا حولها عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م)، وساروا مع سواحل إفريقية الشرقية باتجاه الشمال، وسيطروا على الإمارات والمدن الإسلامية

هناك، وأسرع ملك الحبشة يعرض على البرتغاليين التحالف معهم لقتال المسلمين.

وجاء العثمانيون إلى المنطقة ليقفوا في وجه المدّ الصليبي، وحلّوا محلّ المماليك بعد دخول القاهرة عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)، ودانت لهم بلاد الصومال وشرقي إفريقية، وأسّسوا أسطولاً في البحر الأحمر، وجعلوا قاعدته مدينة (زيلع)، وتبيّن لهم خطر الاتفاق بين البرتغاليين والأحباش، فاتفقوا مع سلطان إمارة (عدل) الإسلامية أحمد بن إبراهيم، وقدّموا له المساعدات العسكرية فقام بالهجوم على الأحباش، غير أنه هُزم، وقُتل قائده (محفوظ) حاكم زيلع، فانطلق السلطان بنفسه أمام الجيش، وأعاد الهجوم، وانتصر بإذن الله، واسترجع كل ما فقده في جولته الأولى، واحتلّ عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) قسماً من الحبشة.

استنجد إمبراطور الحبشة (دنجل) بأوربا، وعرض أن تكون الكنيسة الحبشية مرتبطة بروما مع الاحتفاظ بالمذهب الأرتوذكسي.

نزل البرتغاليون فجأةً في مدينة (مصوع) عام ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) غير أنهم هُزموا شرّ هزيمةٍ، وأُبيد معظمهم، والتحقت فلول الفارين من المعركة بالأحباش الذين كانوا يُقاتلون سلطان إمارة عدل في أعالي بلاد الحبشة قرب بحيرة (تانا)، وقد انتصروا هناك، وقُتل السلطان أحمد بن إبراهيم.

وقامت سلطنة (هرر) في الجنوب تحمل على عاتقها نشر الإسلام ومحاربة نصارى الأحباش، ولكنها لم تستطع توحيد السلطنات الإسلامية في دولةٍ واحدةٍ.

أخذ نفوذ البرتغاليين يقوى في الحبشة فخاف المتسلّطون على أنفسهم، وخشي البطارقة على كنيستهم، فألّبوا العامة على البرتغاليين، واستطاعوا طردهم عام ١٠٦٨ هـ (١٦٦٧ م).

أخذت الدولة العثمانية بالضعف، وأصبح واليها على مصر (محمد

علي) صاحب النفوذ مكانها في بلاد الصومال، وأخذت مصر تحكم تلك الأجزاء باسم الدولة العثمانية.

بدأ الصراع الاستعماري يدخل المنطقة، واحتلّت بريطانيا (عدن) عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م)، ودخلت فرنسا باب المنافسة، وأرسلت عدة حملاتٍ استطلاعيةٍ لسواحل البحر الأحمر، إذ الحكم المصري ضعيف، والدولة العثمانية أضعف، وعملت فرنسا على احتلال (زيلع) و(مصوع) ولكنها فشلت في محاولتها، فطلب قائد الحملة الفرنسية من حكومته أن تطلب من محمد علي الوالي على مصر أن يتنازل عن مصوع، وكان يعتقد أنه بالإمكان الحصول على الطلب لأن خزانة مصر لم يكن يصل إليها من هذا الميناء سوى خمسين ألف فرنك، ويمكن لفرنسا أن تُعوّض لها عن هذا المبلغ.

وكانت نتيجة الحملات الاستطلاعية التي أرسلتها فرنسا إلى المنطقة أنها رأت أن أكثر المناطق الصومالية صلاحيةً لفرنسا، ويمكنها الخضوع لها هي (تاجورا) لأن فيها عدداً من النصارى الكاثوليك، ويرغبون في التبعية لفرنسا، كما أن أحد المتنفذين هناك، وهو إبراهيم أبو بكر، يكره بريطانيا ويخشى من سيطرتها على المنطقة، ويمكنه طلب مساعدة أي فريقٍ ينافس بريطانيا مهما كانت هويته، وخاصةً بعد أن حجزت له بريطانيا إحدى البواخر، وادّعت أنها كانت تنقل الرقيق، ولم تعوّض عليه شيئاً.

وضعف الحكم المصري بعد موت (محمد علي) بقليلٍ، وضعفت سيطرته على المناطق الصومالية، وعقدت فرنسا عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) معاهدةً مع أحمد أبي بكر (ابن عم إبراهيم أبي بكر) ممثلاً لمشايخ القبائل في تلك المنطقة، واشترت فرنسا حسب نص المعاهدة ميناء (أوبوك) فأثار هذا غضب الدولة العثمانية التي تعدّ هذه الأراضي جزءاً من دولتها، كما أثار غضب بريطانيا منافسة فرنسا الأولى. ومع ذلك فلم تهتم فرنسا بأراضي (أوبوك) خوفاً من إثارة بريطانيا بل بقيت تنتظر اعتراف الخديوي بحقوقها

في (أوبوك) مقابل إعطائه الأرض التي تشغلها السفارة الفرنسية في القاهرة.

وفي هذه الأثناء وسّعت مصر أملاكها في بلاد الصومال حتى رأس (حافون)، واعترفت بريطانيا بهذا التوسّع. وكان سبب عدم اهتمام فرنسا بـ(أوبوك) أن وزارة البحرية الفرنسية هي التي كانت تُعارض بهذا الاهتمام إذ ترى أن المناخ غير ملائم لقيام نزاعٍ فإن قوة البحرية الفرنسية ضعيفة في المحيط الهندي، ولا يمكن الاعتماد عليها، وأذاعت بياناً للفرنسيين أن من يريد منهم بناء مؤسساتٍ في منطقة (أوبوك) فإنما هو على مسؤوليته الخاصة. وأخيراً رأت فرنسا أن تعطي ملك (شوا) جزءاً من أراضي (أوبوك) لكسب تأييده. وفي عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) أرسلت فرنسا باخرةً لتحديد أراضيها في (أوبوك) غير أن مصر كانت قد سبقتها، ورفعت العلم المصري في (أوبوك)، فعدّت فرنسا هذا العمل تعدّياً على حقوقها، ولكن الدولة العثمانية، ومصر، والأهالي جميعاً قد تجاهلوا هذا الحق الذي تدّعيه فرنسا، وكذلك فإن بريطانيا قد وقفت في الطرف المقابل لفرنسا.

كانت مصر تخشى من وقوف إيطاليا في (عصب) في أرتيريا بجانب فرنسا، وكذلك فإن مصر لم تكن تستند على مساندة بريطانيا، وخاصةً أن الحركة العرابية في مصر كانت قد بدأت، لذلك رأت أن تعطي فرنسا ما تريد، وتنازلت لها عن (أوبوك). ووجد الفرنسيون الفرصة مناسبةً لإرسال قوةٍ لحماية الفرنسيين هناك بعد أن قتل الصوماليون المستعمر الفرنسي (أرنو) عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م).

كان الحاكم المصري لبلاد الصومال يُقيم في (هرر) التي تُعدّ مركز الإقليم، ويتبعها ثلاث محافظات هي: (تاجورا) و(زيلع) و(بربره). ولكن أصبح لفرنسا جزء من محافظة (تاجورا)، وهي أراضي (أوبوك)، وعقدت فرنسا معاهدةً مع سلطان (تاجورا) أحمد بن محمد في ذي القعدة ١٣٠١ هـ (أيلول ١٨٨٤ م) رغم أن القوات المصرية لم تزل فيها، ولم تخلها بعد، وعلى هذا فقد أصبح نفوذ فرنسا يشمل محافظة (تاجورا) كافةً. وخشيت

بريطانيا على طريق الهند بعد أن رأت أطماع فرنسا في سواحل غرب البحر الأحمر، فأرادت أن تسيطر على منطقة باب المندب سيطرةً تامةً فعقـدت معاهدةً مع سلطان (سوقطرى) عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٦ هـ م).

واحتلّت بريطانيا مصر إثر الحركة العرابية، فأرادت أن تحلّ القوات البريطانية محلّ القوات المصرية في شرقي إفريقية، وانتهزت قيام الحركة المهدية في السودان ففصلت سواحـل البحر الأحمـر وبلاد الصـومال عن مصـر، فعادت التجـزئة إلى تلك المنـطقة ثـانيةً، وأخـذ نفوذ السـلاطين المحليين يظهر وخاصةً في المناطق الساحلية مثل (زولا) و(تاجورا).

أرسلت بريطانيا العميد (هنتر) للعمل في الساحل الواقع بين (زيلع) و(رأس حافون)، وكان عليه أن يعقد المعاهـدات مع الـزعماء المحليين وخاصةً في (بُلهار) و(ميت) و(بندر قاسم)، كما كان عليه أن يُسهّل عملية انسحاب الإدارة المصرية، ويمنع تدخّل الدولة العثمانية في العمل لعرقلة الانسحاب والمعاهـدات، فالجـانب الإسلامي يجب أن يكـون بعيداً عن الساحة ولو كان لمصلحة فرنسا إذ تلتقي معها بالصليبية ومحاربة الإسلام.

كان رئيس الوزارة المصرية آنـذاك الأرمني (نوبـار) فأصـدر الأوامر بإخلاء (هرر) وموانىء الصومال، غير أن حاكم (هرر) علي باشا قد أخبره بأن عملية الإخلاء صعبة جداً بسبب اندماج الجنود والموظفين المصريين مع أهالي الإقليم، وخاصةً عن طريق الزواج، وأن الفوضى ستعم البلاد بعد عملية الإخلاء، لذلك فإن التجار والموظفين والجنود سيرفضون ذلك، غير أن (نوبار) أصرّ على الإخلاء، وليحدث ما يكون فالبلاد ليست لنا ـ بصفته نصراني ـ ولكن هذا الإقليم جزء من ديار المسلمين، وأرسل ذلك أيضاً إلى حاكم (زيلع) أبو بكر باشا ليقوم بعملية الإخلاء، وأصدر أمـراً بعزل علي باشا عن (هرر)، وعيّن مكانه رضوان باشا، وكان حاكماً لها في السابق، وجعله تحت صرف العميد البريطاني (هنتر)، وفي الـوقت نفسه فوّض (هنتر) بوقف صرف مرتب أي موظفٍ أو ضـابطٍ يتأخّـر في عملية

الإخلاء. وكان الخديوي توفيق مُتردّداً في إقرار هذا التصرّف، ثم وافق أخيراً، وادّعى أن الدولة العثمانية لم تقبل باستلام هذه المناطق، وهو غير قادرٍ على حمايتها.

لم تكن بريطانيا ترغب آنذاك في مواجهة فرنسا ولا إيطاليا، وإنما أرادت أن تترك يد فرنسا في (تاجورا) ويد إيطاليا في (عصب) لتقف هاتان الدولتان على الحياد عندما تحلّ هي محل الإدارة والقوات المصرية في (هرر) و(زيلع) وبقية المناطق التي كانت فيها، بل ربما تساعدانها وتقفان إلى جانبها ضدّ الدولة العثمانية صاحبة السلطة الاسمية على هذه المناطق.

وأخيراً قرر العميد البريطاني (هنتر) إخلاء الحاميات المصرية من زيلع في ١٠ محرم ١٣٠٢ هـ (٢٩ تشرين الأول ١٨٨٤ م)، واستلمت السلطات البريطانية الجمارك بعد ثلاثة أيام، وسافرت أول سفينةٍ تحمل الجنود المصريين من (زيلع) نحو السويس في ٢٦ محرم ١٣٠٢ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٨٨٤ م). وقرر البريطانيون أن تكون إدارة ساحل بلاد الصومال الممتد من (زيلع) حتى (رأس حافون) تابعةً مباشرةً لحكومة الهند.

واتفقت بريطانيا وفرنسا عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) على إنهاء الخلافات الناشئة بينهما في هذه المناطق على أن يفصل بين منطقتي نفوذهما خط يمتدّ من جنوب (جيبوتي) نحو (هرر)، وأن تضمن كل منهما للأخرى حق التجارة مع إقليم هرر الذي لا يحق لأيٍ منهما الاستيلاء عليه بعد خروج المصريين منه، وأبلغ وزير الخارجية البريطانية سفراء بلاده بأن بريطانيا قد أصبح لها الساحل الممتد من جنوب (جيبوتي) حتى (بندر زيادة). وقد رفض الجنود المصريون إخلاء (هرر) وشكّلوا مع الأهالي كتلةً وطنيةً لمجابهة الأجانب. وهكذا فإن إنكلترا احتلّت مينائي (زيلع) و(بربره)، واتخذتهما مركزاً لمراقبة السفن القادمة من الهند والمسافرة إليها، وبدأت تتوسّع حتى شملت الإقليم الذي عُرف فيما بعد باسم (الصومال الإنكليزي).

لم يستقر وضع الإنكليز في هذا الجزء من الصومال إلا في عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م) حيث قضوا على حركة التعريب التي قادها (محمد بن عبدالله بن حسن) عام ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م)، وادّعى أنه من أصلٍ هاشميٍ، وأنه المهدي، ولُقّب بـ (مهدي الصومال)، واستطاع أن يقاوم المستعمر مدة عشرين عاماً، وبعدما لحق البلاد من فقرٍ، وأصاب القبائل من أذىً لم تستطع بعدها المقاومة، فابتعدت عن (محمد بن عبدالله بن حسن)، فاستتب الأمر لبريطانيا في هذا الجزء من الصومال، وتوفي (محمد بن عبدالله بن حسن) عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م).

وأما جنوبي الصومال وهو ما كان جنوب رأس (حافون) فكان يتبع سلطان زنجبار واستأجر الطليان من سلطان زنجبار عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) موانىء على ساحل الصومال المشرف على المحيط الهندي لمدة خمسين عاماً، وقامت على إدارة هذه الموانىء شركتان إيطاليتان. وعندما ضعف سلطان زنجبار تنازل عن هذه الموانىء للإيطاليين مقابل مبلغ قدره مائة وأربعة وأربعون ألف جنيه. وفي الوقت نفسه قوي إمبراطور الحبشة (منليك الثاني)، واستولى على إقليم (هرر)، وجاء باستعمارٍ نصرانيٍ جديدٍ أكثر همجيةً ووحشيةً من الاستعمار الغربي، كما استطاع أن يحتلّ منطقة (الأوغادين)، ومنح الإيطاليين المناطق الداخلية للموانىء الصومالية.

وفي العام نفسه ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) اتفقت بريطانيا وفرنسا على إنهاء الخلاف بينهما في هذه المناطق، واقتسام النفوذ في سلطنة زنجبار ومنطقة شمالي الصومال، وشاركتهما في الاقتسام كل من ألمانيا وإيطاليا.

أخذت بريطانيا القسم الأوسط من شرقي إفريقية (ساحل كينيا)، وساحل الصومال على خليج عدن (الصومال الإنكليزي).

وأخذت ألمانيا الساحل الجنوبي من شرقي إفريقية (تانجانيقيا).

وأخذت إيطاليا الساحل الشمالي من شرقي إفريقية (الصومال الإيطالي) واعترفت الدول الأخرى لها باحتلالها منطقة أريتريا.

وأخذت فرنسا منطقة جيبوتي على خليج تاجورا (الصومال الفرنسي).

وأعطيت الحبشة القسم الغربي من الصومال (الأوغادين).

وهكذا قُسّم الإقليم الصومالي أبشع تقسيمٍ عقوبةً لأهله لأنهم جميعهم من المسلمين.

وبقيت سلطنة زنجبار محصورةً في جزيرتي (زنجبار) و(بمبا)، ووضعت تحت الحماية البريطانية.

وفي عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) أخذت الحبشة منطقة (الهود) الصومالية من بريطانيا، دون موافقة الأهالي، ويرعى فيها مائتا ألف من الصوماليين. وظهر في منطقة الأوغادين محمد بن عبدالله بن حسن الذي أطلق عليه أسد الصحراء، وقاوم الاستعمار النصراني الحبشي.

كانت إيطاليا قد عقدت معاهدةً مع الحبشة، ثم اختلفت معها، وشجّعت المنافسين للإمبراطور منليك الثاني في إقليم تجره، وفكّرت باحتلال الحبشة، وبدأت بإخضاع الأوغادين عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، ثم اتفقت الدول الاستعمارية الثلاث (بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا) على استقلال الحبشة، وإقامة إمبراطورية فيها تحت تاج (منليك الثاني) تضمّ مملكة الحبشة، والإمارات الإسلامية في المنطقة كافةً، وذلك خوفاً من انتشار الإسلام، وطلب من الإمبراطور شنّ حربٍ على المسلمين، ووُعد بتقديم الدعم له، وهكذا عادت (الأوغادين) للحبشة.

الفصل الأول

الصومال من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ ـ ٦ محرم ١٣٨٠ هـ

٣ آذار ١٩٢٤ ـ ١ تموز ١٩٦٠ م

شعرت بريطانيا بنشوةٍ بإلغاء الخلافة، وخاصةً أنه كان لها اليد الطولى بذلك، وغدا يسيطر على مقرّ الخلافة سابقاً أحد أعوانها، كما شعرت أنه أصبحت لها حرية التصرّف بشؤون المسلمين وبلدانهم على نطاقٍ أكثر شموليةً دون رقابةٍ ومن غير احتجاج هذا إضافةً إلى نفوذها الواسع في عصبة الأمم، والتي تخضع أساساً لتوجيه الدول النصرانية التي هي الدول الكبرى.

تنازلت بريطانيا إثر إلغاء الخلافة عن منطقة جوبا السفلى (أقصى جنوبي الصومال) لإيطاليا، وكانت من قبل تتبع كينيا، وأُعطيت كينيا مقابل ذلك الأراضي الصومالية الواقعة شرق بحيرة «رودولف».

وقامت القوات الإيطالية في أريتريا والصومال بغزو الحبشة عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) رغم معارضة عصبة الأمم، وتمكّنت من دخول العاصمة (أديس أبابا) في الأيام الأولى من عام ١٣٥٥ هـ (آذار ١٩٣٦ م). وفي الحرب العالمية الثانية هُزمت القوات البريطانية في الصومال في بداية الأمر أمام القوات الإيطالية في الصومال الإيطالي، غير أن البريطانيين قد قاموا بهجومٍ معاكسٍ، ودخلت قواتهم عن طريق (كسمايو)، وأرغموا الطليان على الانسحاب من أريتريا، والحبشة، والصومال. وتشكّلت إدارة

عسكرية بريطانية في الصومال الإنكليزي والإيطالي على حدٍّ سواء عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م).

وهُزمت إيطاليا في الحرب مع دول المحور التي كانت هي واحدةً منها، ووُقّعت معها معاهدة السلام في ربيع الأول ١٣٦٦ هـ (شباط ١٩٤٧ م)، وطالبت إيطاليا فيها بحقوقها في الصومال الإيطالي، وأعلنت عن تلك الحقوق التي تدّعيها، وبعد سنتين وضعت الأمم المتحدة المستعمرة الإيطالية السابقة (الصومال الإيطالي) تحت الإدارة الإيطالية لمدة عشر سنواتٍ، وبعدها تحصل على الاستقلال، وتسلّمت إيطاليا الإدارة من بريطانيا في ربيع الأول ١٣٧٠ هـ (كانون الأول ١٩٥٠ م).

كان الصوماليون يهدفون إلى توحيد أجزاء الصومال، وإعلان الاستقلال، ومنذ أن رجعت بريطانيا إلى الصومال بعد انتصارها على إيطاليا، وكانت قد هُزمت أمامها، وخرجت، عادت وأخذت تتقرّب من أبناء الشعب لتجد لها الأعوان، وفي العام نفسه التي رجعت فيه ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) سمحت لثلاثة عشر شاباً بتأسيس نادٍ لهم يجتمعون فيه. ولما انتهت الحرب العالمية الثانية، ورُفعت الأحكام العرفية التي فرضت لظروف الحرب، وكثر الجدل في أروقة الأمم المتحدة حول الوصاية على الصومال، وعندها سمحت بريطانيا لهذا النادي أن يتحوّل إلى حزبٍ سياسيٍ في شهر صفر ١٣٦٥ هـ (كانون الثاني ١٩٤٦ م)، وظنّت أن هذا الحزب سيكون لها عوناً لتفوز بالوصاية على الصومال. وكانت أهداف هذا الحزب وحدة أجزاء الصومال، والعمل على رفع مستوى الشعب الثقافي والاجتماعي.

أرسلت الأمم المتحدة عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) وفداً إلى الصومال يُمثّل الدول الأربع الكبرى (بريطانيا، الولايات المتحدة، فرنسا، إيطاليا)، وحدث اختلاف كبير. وكانت الحبشة تعمل على ضمّ الصومال وتُبدي شدة تمسّكها بالنصرانية ومحاربة الإسلام عسى أن تظفر بذلك. وتعدّدت الآراء والأهواء في البلاد، ووقعت حوادث كثيرة سالت فيها الدماء، وكثرت القتلى.

وفازت إيطاليا بالوصاية على الجزء الجنوبي من الصومال والذي كان ضمن مستعمراتها، فأخذت تضطهد حزب وحدة الشباب الصومالي، وأغلقت بعض فروعه، غير أنها عادت فغيّرت خطتها بعد أن فشلت سياستها الأولى، وبدأت تتقرّب من بعض قيادات الحزب، وحصل بعض التعاون، وافتتحت له الفروع في أجزاء الصومال كلها.

جرت الانتخابات الأولى عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، وحصل حزب وحدة الشباب الصومالي على الأكثرية، وشكّل عبدالله عيسى الوزارة، وانتخب آدم عبدالله عثمان رئيساً للجمعية التشريعية.

وحدثت أزمة كبيرة في الحزب عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) إذ كان من بين المرشحين لرئاسته محمد حسين حامود، وكان له رأي يخالف آراء بعض شخصيات الحزب التي ظهرت في البلاد حيث كان يرى ضرورة التعاون مع البلدان العربية، ويعمل لذلك، فوجدت هذه السياسة انتقاداتٍ واسعةً في صحيفة الصومال، وقد هاجم أحد شباب الحزب هذه السياسة، ففصل من الحزب فما كان منه إلا أن اعتدى على محمد حسين حامود، فأُعطي هذا الشاب منحةً دراسيةً في الولايات المتحدة. وكان الحزب يصدر صحيفة أسبوعية باسم «الوحدة».

فصل محمد حسين حامود من الحزب، فشكّل حزباً خاصاً جديداً، عُرف باسم حزب «صوماليا الكبرى» وذلك في مطلع عام ١٣٧٨ هـ (منتصف عام ١٩٥٨ م).

وتأسّست عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) جمعية الشباب الصومالي في مدينة مقديشيو.

وشكّلت قبيلتا «ديجل» و«مرفلة» الحزب الدستوري المستقل عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، ويرى هذا الحزب أن يكون الحكم في الصومال «اتحادياً» حتى لا يسيطر قسم من البلاد على آخر، ولا يطغى حزب وحيد على الشعب باسم «الوطنية»، ولكن تعرّض هذا الحزب لأزمة بعد عشرة

سنواتٍ من قيامه، وفصل قسم من أعضائه القياديين. وضعف الحزب.

ولما فشلت الحبشة في مسعاها في ضمّ الصومال إليها كما ضمّت أريتريا عملت على تشكيل حزب من بعض أعوانها، وأمدتهم بالأموال، فشكّلوا حزباً عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) عُرف باسم «الشباب الأحرار الصومالي». غير أن هذا الحزب بقي ضعيفا، وقوطع من السكان كافةً لمعرفتهم بنوايا الحبشة، وسياستها النصرانية، وتعصّبها، ومحاربتها للإسلام وأهله خلال التاريخ، وسكان الصومال جميعهم من المسلمين.

وتأسّس في منطقة البنادر حزب محلي بعد عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) عُرف باسم «الاتحاد القومي» غير أنه حزب ضعيف. وقد أُطلق عليه في البداية «شباب البنادر».

وأسّس محمود عبد الرحمن حزب الرابطة الإسلامية، وكان من قبل في حزب وحدة الشباب الصومالي.

وجرت أول انتخابات عامة حيث شملت البالغين جميعاً وذلك في رمضان ١٣٧٨ هـ (آذار ١٩٥٩ م) واستطاع حزب وحدة الشباب الصومالي أن يفوز بثلاثة وثمانين مقعداً من مقاعد المجلس النيابي البالغ عددها تسعين مقعداً، فاستمرّ بالحكم، وبقي عبدالله عيسى رئيساً للوزراء.

كانت الوصاية على الصومال الإيطالي قد حُدّدت بمدة عشرة سنوات وتنتهي في جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ (كانون الأول ١٩٥٩ م)، وكثر الحديث عن الانتخابات الماضية فتجدّدت في مطلع عام ١٣٧٩ هـ (تموز ١٩٥٩ م) ففاز حزب وحدة الشباب الصومالي بواحدٍ وستين مقعداً من أصل تسعين مقعداً أي فقد الكثير مما أحرزه قبل أربعة أشهرٍ، وإن بقي بالحكم، وتقدّم عبدالله عيسى رئيس الوزراء بمشروع للمجلس التشريعي يطالب بوحدة الصوماليين جميعاً ويتلخّص المشروع بـ:

١" ـ يحصل الصومال الإيطالي سابقاً على استقلاله إثر انتهاء مدة الوصاية.

٢″ ـ إنشاء جيش وطني لأن المستعمرين الصليبيين قد حلّوا الجيش الصومالي.

٣″ ـ وحدة أجزاء الصومال في دولةٍ واحدةٍ، لها علم واحد.

الصومال الإنكليزي:

حكمت بريطانيا هذا الجزء حكماً عسكرياً منذ أن رجعت إليه عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن هزمت إيطاليا التي أخرجتها منه في بداية الحرب، واستمرّ يخضع للحكم العسكري حتى عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) حيث عادت الإدارة المدنية.

تأسس في الصومال الإنكليزي حزب «الرابطة الصومالية»، وكانت أهداف هذا الحزب الاستقلال التام، ووحدة أجزاء الصومال، ويصدر صحيفة «قرن إفريقية»، ووقفت الإدارة البريطانية من هذا الحزب موقفاً معادياً، واضطهدت أعضاءه، وأُصيبت البلاد بقحطٍ شديدٍ عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م)، فكانت السلطة البريطانية تمنع وصول الماء إلى المتهمين بالانتماء إلى هذا الحزب حتى يعلنوا تخلّيهم عن الحزب وعن مبادئه. وقد قاطع الحزب الانتخابات التي جرت في رمضان ١٣٧٨ هـ (آذار ١٩٥٩ م) لأنه كان يريد مجلساً نيابياً صومالياً، على حين كان الدستور الذي وضعته بريطانيا يقضي بأن يضمّ المجلس ٣٢ عضواً منهم ٢٠ عضواً بريطانياً، و١٢ عضواً صومالياً.

كانت بريطانيا ترغب بضمّ الصومال الإنكليزي إلى الصومال الإيطالي لتبقى سيطرتها على القرن الإفريقي ذي الموقع المهم، وقد صرح وزير المستعمرات البريطاني في مدينة «هرجيسا» قاعدة الصومال الإنكليزي في شعبان ١٣٧٨ هـ (شباط ١٩٥٩ م) بأن حكومته رأت منح الصومال الإنكليزي حق الاختيار بين الحكم الذاتي أو الاتحاد مع الصومال الإيطالي. بينما ترفض بريطانيا مشروع اتحاد أجزاء الصومال كلها، كما تنادي الأحزاب الصومالية.

الاستقلال:

انتهت مدة الوصاية الإيطالية على الصومال الجنوبي (الإيطالي)، وطالب الشعب بالاستقلال عن طريق المؤسسات والتنظيمات السياسية، ومنح ذلك في المدة المحددة ٣ رجب ١٣٧٩ هـ (١ كانون الثاني ١٩٦٠ م).

وجرت انتخابات جديدة في شعبان ١٣٧٩ هـ (شباط ١٩٦٠ م) في الصومال الإنكليزي، وشاركت فيها الأحزاب التي تدعو إلى الاستقلال وإلى وحدة الصومال.

واجتمع ممثلون عن المنطقتين في شوال ١٣٧٩ هـ (نيسان ١٩٦٠ م)، واتفقوا على دمج جزأي الصومال في جمهوريةٍ مستقلةٍ واحدةٍ.

منح الصومال الإنكليزي الاستقلال في مطلع عام ١٣٨٠ هـ (٢٦ حزيران ١٩٦٠ م)، وتلقّت خطة الاتحاد موافقة المجلس التشريعي في اليوم التالي. وأعلن عن قيام جمهورية الصومال المستقلة في ٦ محرم ١٣٨٠ هـ (١ تموز ١٩٦٠ م). وفي اليوم نفسه اجتمع المجلس التشريعي المنتخب من الجزأين وانتخب آدم عبدالله عثمان رئيس المجلس التشريعي في الصومال الإيطالي ليكون أول رئيسٍ للجمهورية الجديدة.

ويضمّ المجلس التشريعي ١٢١ عضواً، ٩٠ عضواً من الصومال الإيطالي و٣١ عضواً من الصومال الإنكليزي. وقدّم رئيس الوزراء عبدالله عيسى استقالته، وتشكّلت وزارة ائتلافية شملت حزب وحدة الشباب الصومالي من الصومال الإيطالي، والحزبين الرئيسيين في الصومال الإنكليزي، وتولّى رئاسة الوزارة عبد الرشيد علي شيرمارك رئيس حزب وحدة الشباب الصومالي.

وأصبح اسم الدولة الجديدة «جمهورية صوماليا».

الفصل الثاني

الاستقلال

٦ محرم ١٣٦٠ هـ (١ تموز ١٩٦٠ م)

بقي حزب وحدة الشباب الصومالي هو المسيطر على السياسة الصومالية، وتابع مطالب الصومال الإقليمية في الأجزاء التي تخضع للحبشة، وكينيا، وسار في اتجاه الإفادة من أية جهةٍ بغض النظر عن الارتباط بالمعسكر الغربي، إذ تلقّت الصومال في تلك الآونة مساعداتٍ من الإمبراطورية الروسية، ومن بعض الدول الشيوعية الأخرى. ووقعت نزاعات على الحدود مع الحبشة ومع كينيا.

استقال عبد الرشيد علي شير مارك من رئاسة الوزراء في صفر ١٣٨٤ هـ (حزيران ١٩٦٤ م)، وحلّ مكانه عبد الرزاق حاج حسين الذي كان يشغل سابقاً منصب وزير الأعمال فشكّل وزارته من أعضاء حزب وحدة الشباب فقط في ربيع الأول ١٣٨٧ هـ (حزيران ١٩٦٧ م)، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد انتخب المجلس الوطني عبد الرشيد علي شير مارك رئيساً للجمهورية مكان آدم عبدالله عثمان. وكلّف رئيس الجمهورية لتشكيل الوزارة من جديد محمد حاج إبراهيم إيغال الذي كان رئيس وزراء الصومال الإنكليزي سابقاً.

الحدود مع الحبشة:

دخلت جيوش الحبشة إمارة هرر في ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م)، وعُيِّن (ماكوين) أول حاكمٍ حبشيٍ عليها، وأخذ يتوسّع بمساعدة الدول الأوربية النصرانية التي اتفقت فيما بينها أخيراً على تجزئة الصومال، فاستطاع (ماكوين) إخضاع منطقة (الأوغادين).

بدأت المحادثات بين إيطاليا التي دخلت منطقة الصومال الجنوبية، والتي عُرفت فيما بعد باسم (الصومال الإيطالي) وبين الحبشة لتسوية الحدود، واقترح (منليك الثاني) إمبراطور الحبشة أن يكون خط الحدود موازياً لساحل المحيط الهندي ويبعد عنه مسافة ١٨٠ ميلاً، وعُقدت معاهدة بين الطرفين على هذا الأساس عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م).

وبقي الوضع على هذه الحال حتى الحرب العالمية الثانية حيث استطاعت بريطانيا احتلالِ الصومال الإيطالي، وأخذت تتحكّم فيه حتى ربيع الأول ١٣٧٠ هـ (كانون الأول ١٩٥٠ م)، حيث وضعته الأمم المتحدة النصرانية تحت الوصاية الإيطالية فعادت إيطاليا إلى حكمه عدا منطقة (الهود) التي بقيت بيد بريطانيا. وفي ٤ ربيع الثاني ١٣٧٤ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٤ م) عقدت معاهدة في لندن بين بريطانيا والحبشة تنازلت بريطانيا بموجبها عن منطقة (الهود) إلى الحبشة فدخلتها في جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ (كانون الثاني ١٩٥٥ م)، وهكذا استطاعت الحبشة الظفر بإمارة هرر ومنطقتي الأوغادين والهود، ولكن الأوضاع لم تكن لتهدأ، إذ انفجرت ثورات، واهتزّت المناطق، وازدادت الحركات بعد أن استقلّت الصومال إذ أخذت تُطالب بإرجاع هذه الأجزاء إلى الوطن الأم. وكانت الحبشة تُهدّد بقطع العلاقات السياسية فيما إذا استقلّت الصومال. وبقيت العلاقات متوترةً مع الدولتين حتى وقع قتال عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م)، وتدعم جمهورية الصومال جبهة تحرير الصومال الغربي التي تقوم بحرب عصابات في إقليم (الأوغادين).

الحدود مع كينيا:

بعد أن احتلّت إيطاليا القسم الجنوبي من الصومال (الصومال الإيطالي) تنازلت إلى بريطانيا التي تحتلّ كينيا عن قسمٍ من الأراضي الصومالية، والتي عُرفت فيما بعد باسم (الصومال الكيني) عن طريق المساومات والاتفاقات الاستعمارية الصليبية حسب المصالح وتوزيع مناطق النفوذ. فلما استقلّت الصومال كان لا بدّ من أن تُطالب باستعادة ما سُلب منها. وحاولت بريطانيا إثارة هذه القضية لتُؤخّر استقلال كينيا، وطالبت الصومال بإجراء استفتاءٍ لسكان المنطقة وإرسال لجنةٍ لتقصي الحقائق. وشكّلت بريطانيا لجنةً غير أنها لم تفعل شيئاً. وبقيت المشكلة قائمةً، والعلاقات بين الصومال وكينيا مُتوتّرةً.

كانت كينيا ترفض إجراء أي استفتاءٍ، وتُعلن أنها لن تُفرّط بشبرٍ واحدٍ من منطقة الحدود الشمالية وعندما أُجريت الانتخابات في كينيا وقعت صدامات خطيرة بين رجال الأمن وبين سكان المناطق الشمالية الذين قاطعوا الانتخابات، وطالبوا بالانضمام إلى الصومال. فقد وقعت صدامات في بلدة (أسيولو) ذهب ضحيتها أربعة من الصوماليين، وجرح تسعة آخرون، حيث تجمّع السكان أمام مراكز الاقتراع للاحتجاج على إجراء الانتخابات في منطقتهم، فأطلقت قوات الأمن عليهم النار، والقنابل المسيلة للدموع، وكانت الطائرات تُحلّق فوق المنطقة تُراقب تجمّعات السكان، واعتقلت السلطات الكينية عدداً من أعيان الصومالي الكيني.

وأخيراً استؤنفت العلاقات السياسية مع بريطانيا وكينيا عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

الانقلاب الأول:

اغتال أحد الشرطة رئيس الجمهورية عبد الرشيد علي شير مارك في ٤ شعبان ١٣٨٩ هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٦٩ م) وبعد ستة أيامٍ سيطر الجيش وبانقلابٍ عسكريٍ على الحكم عشية اليوم الذي كان مقرراً فيه إجراء

انتخابٍ رئاسي، واستولى على السلطة قائد الجيش والقوات المسلحة محمد زياد بري، فعلق دستور (١٩٦٠ م)، وحلّ المجلس الوطني، وألغى الأحزاب السياسية، وشكّل حكومةً جديدةً من قبل المجلس الثوري الأعلى الذي يرأسه، وأعلن جمهورية الصومال الديمقراطية، وشكّل (المليشيات) الشعبية لتدعم النظام، وتألّفت من الشباب المسلح الذين هم دون سن العشرين، وأُطلق عليها اسم «جول وديال».

وفي شهر شعبان ١٣٩٠ هـ (تشرين الأول ١٩٧٠ م) أعلن محمد زياد بري دولة الصومال الاشتراكية، وتوالت البعثات من الإمبراطورية الروسية، وتعهدت ألمانيا الشرقية بتدريب رجال الأمن والشرطة. وبدأ برنامج ثوري للوحدة الوطنية، والإصلاح الاجتماعي والاقتصادي.

وبدأت أعمال الإعدام في جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ (حزيران ١٩٧٢ م)، وتوجّهت نحو أهل العلم، والتنظيمات الإسلامية فتلقّت الصومال مقابل ذلك أموالاً سخيةً باسم المساعدة الأخوية نتيجة السنوات العجاف التي تجتاح الصومال، وكانت هذه الأموال عن طريق الجامعة العربية من الدول (الإسلامية) الغنية، وقد احتجّ العلماء على إرسالها نتيجة ما يجري في الصومال فدُفعت عن طريق الجامعة العربية.

وفي ٧ رجب ١٣٩٢ هـ (١٦ آب ١٩٧٢ م) أذاع الرئيس محمد زياد بري بدء تطبيق الاشتراكية العلمية في الصومال والتي أسّسها كارل ماركس، وطبّقها لينين (العظيم) ـ حسب رأي البيان ـ.

وفي ١٤ رمضان ١٣٩٢ هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٧٢ م) يوم الذكرى الثالثة للثورة أعلن الصومال إلغاء اللغة العربية، واستخدام الحروف اللاتينية لعدة اعتباراتٍ، ولظروفٍ خاصةٍ ـ حسب رأي أصحاب البيان ـ (وذلك عقب قبول الصومال عضواً في جامعة الدول العربية).

حلّ المجلس الثوري الأعلى نفسه بنفسه، وحُوّلت السلطة إلى الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي الجديد، وأصبح أعضاء المجلس

الثوري الأعلى جميعاً أعضاء في الحزب الحاكم، وتولّى محمد زياد بري الأمانة العامة للحزب.

جرت محاولة انقلاب فاشلة عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) قام بها بعض رجال القوات المسلحة، قتل فيها مئات الأشخاص، وألقي القبض على ١٧ ضابطاً، وحكم عليهم بالخيانة العظمى، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم، وفرّ ضباط آخرون إلى الحبشة، وشكلوا هناك جبهة العمل الديمقراطي الصومالي، ومنهم عبدالله يوسف.

ووُضع دستور جديد للبلاد، وعُدّ ساري المفعول في شوال ١٣٩٩ هـ (أيلول ١٩٧٩ م)، وأجريت الانتخابات العامة لمجلس الشعب الجديد في محرم ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م)، وعقد جلسته الأولى في شهر صفر ١٤٠٠ هـ (كانون الثاني ١٩٨٠ م)، وانتخب محمد زياد بري رئيساً للجمهورية.

أعلن الرئيس الصومالي حالة الأحكام العرفية في ذي الحجة ١٤٠٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٠ م) بسبب زيادة عدد اللاجئين، وأعاد تشكيل المجلس الثوري الأعلى، ومنحه سلطاتٍ مُكثّفةً. ولكن في جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (آذار ١٩٨٢ م) تحسّن الموقف بشكلٍ كافٍ للاستغناء عن المجلس. وأُعيد تشكيل الحكومة بصورةٍ تنسجم مع إلغاء المجلس. ولكن مما تجدر ملاحظته أن نفوذ قبيلة (مارهان) التي ينتمي إليها محمد زياد بري قد طغى على نفوذ قبيلة (ميجرتين) وقبائل (إسحاق) التي تُشكّل مجموعة المعارضة الرئيسية.

وجرت اعتقالات واسعة بين صفوف السياسيين البارزين في المنطقة الشمالية في شعبان ١٤٠٢ هـ (حزيران ١٩٨٢ م)، فتقلص نتيجة ذلك نفوذ قبائل شمالي الصومال، غير أن الحكم قد واجه معارضةً شديدةً في تلك الجهات في العام التالي ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م)، وحدث عصيان في جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ (شباط ١٩٨٣ م)، واستمرت أعمال الفوضى طيلة العام.

وجرى اختطاف الطائرات المدنية في صفر ١٤٠٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٤ م) في سبيل لفت انتباه العالم إلى ما يجري في الصومال. ومع ذلك فإن الانتخابات العامة التي جرت في ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٤ م) قد حصل فيها مرشحو الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي على ٩٩,٩٪ من مجموع أصوات الناخبين، وإن كان هذا يعطي مُؤشّراً إلى الخوف القائم في النفوس من غطرسة الحزب الحاكم.

وأعلن الرئيس الصومالي عن تشكيل حكومةٍ جديدة في جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ (شباط ١٩٨٥ م)، وأعلن أنها ستولي أهميةً خاصةً للدفاع والاقتصاد. وتمّ إحداث وزارة للمالية في ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م) طبقاً لسياسة الإصلاحات الاقتصادية.

وتشكلت في بريطانيا جبهة معارضة عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) حملت اسم حركة الصومال الوطنية، ثم انتقلت قيادتها إلى الحبشة عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).

في رمضان ١٤٠٦ هـ (أيار ١٩٨٦ م) تعرّض الرئيس الصومالي لحادث سيارةٍ أجبره على الغياب عن بلاده مدة خمسة أسابيع للمعالجة الطبية في المملكة العربية السعودية، وتولّى تسيير أمور الدولة في غيابه نائب الرئيس الأول، وزير الدفاع اللواء محمد علي سماتر، بعد فرض حالة الطوارىء الموقّتة.

وأُجريت الانتخابات الرئاسية في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م) وكان محمد زياد بري هو المرشح الوحيد فحصل على ٩٩,٩٣٪ من أصوات الناخبين، وهذه نتيجة كل استفتاءٍ عسكري، وبذا تجددت الرئاسة الثانية لمدة سبع سنوات أخرى.

وأُعيد تشكيل الحكومة من جديدٍ في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) وتسلّم اللواء محمد علي سماتر رئاسة الوزارة، وهو منصب

جديد، وكان يقوم به الرئيس نفسه، ولكن بقي يخضع للرئيس بتصرفاته كلها.

وعُيّن العقيد عبد القادر حاج محمد مساعداً للأمين العام للحزب الاشتراكي الثوري الصومالي، الحزب الحاكم، في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م).

وأُعيد تشكيل الحكومة في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م)، وعُيّن أخ الرئيس لأمه (عبد الرحمن جاما بري) وزيراً للمالية، وكان من قبل يشغل منصب وزارة الخارجية.

وقّعت الصومال والحبشة معاهدة سلام بينهما في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م)، وعُدّت أنها كانت سبباً في زيادة شعبية الرئيس محمد زياد بري على الرغم من أن الصومال قد حصلت على السلام دون التصريح بمطالبتها بمنطقة الأوغادين.

علاقات الصومال مع الدول المجاورة:

كانت الصومال تطالب دائماً بحق تقرير الصوماليين جميعاً وخاصة أولئك الذين يعيشون في منطقة الأوغادين التي تُسيطر عليها الحبشة، ومنطقة الصومال التي تسيطر عليها كينيا، والتي تُشكّل المنطقة الشمالية من كينيا.

أ ــ مع الحبشة:

شنّت جبهة تحرير الصومال الغربية في رجب ١٣٩٧ هـ (تموز ١٩٧٧ م) هجوماً في قلب الأوغادين وبدعمٍ من حكومة الصومال، وهذا ما أدّى إلى إغلاق القنوات العسكرية، والسياسية، والاقتصادية بين الصومال والإمبراطورية الروسية، والتي كانت قائمةً منذ عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) عندما قام الانقلاب الأول في الصومال، وتمّ طرد ستة آلاف إداري روسي من أراضي الصومال في ذي الحجة ١٣٩٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٧ م). وقامت الحبشة بشنّ هجومين معاكسين في أواخر محرم ١٣٩٨ هـ (كانون الثاني ١٩٧٨ م) وبدعمٍ روسيٍ، وكوبيٍ، واضطرت الصومال إلى

الانسحاب في ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ (آذار ١٩٧٨ م)، وبقيت العلاقات بين الصومال والحبشة في دائرةٍ مغلقةٍ، وكان الرئيس الصومالي يرفض أي حوارٍ مع الحبشة، ما دامت الجيوش الحبشية تحتلّ المناطق الحدودية للصومال.

اجتمع الرئيس الصومالي محمد زياد بري مع الرئيس الحبشي منجستو ماريام في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م)، وهو أول لقاءٍ بين قادة البلدين منذ عشر سنوات، وكان اللقاء يهدف إلى وضع حدٍّ للعداوة، وإنشاء لجنةٍ صوماليةٍ ـ حبشيةٍ مشتركةٍ لحلّ موضوع الأوغادين، وتمّ لقاء هذه اللجنة عدّة مراتٍ كل بضعة شهورٍ، ولمدة سنةٍ ونيف لم تقع أية حوادث على الحدود بين الطرفين، وحتى اتهمت الصومال الحبشة في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) بالتدخّل المسلّح في منطقة (توغدير) التي تقع شمال مقديشيو وعلى بعد ٧٠٠ كيلومتر منها، وإن أنكرت الحبشة هذا التدخّل وهذا الادّعاء إلا أن التوتّر تصاعد لأن كلا الجانبين واصل الحملات الإعلامية وادّعاء حشد جيوش الطرف الآخر على الحدود.

ثم عادت المفاوضات وتمّ اللقاء ثانيةً بين رئيسي البلدين في مقديشيو في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) وتمّ توقيع اتفاقية السلام بنجاحٍ، وتشمل أن تعود العلاقات السياسية بين الدولتين، وأن تُسحب جيوش الطرفين من الحدود، وأن يتمّ تبادل الأسرى من الجانبين، وأن يمتنع كل طرفٍ من اتخاذ التهديد بالقوة ضد الفريق الآخر، والتوقّف عن مساعدة منظمات المعارضة للدولة الثانية. ودعوة الأقاليم للاستقلال السياسي، وكذلك تقرّر أن تعالج قضية الأوغادين من قبل لجنةٍ مشتركةٍ فيما بعد، ولم ينقض الشهر حتى سُحبت الجيوش من الحدود، وفي صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) تمّ إعادة ٣٧٤٥ أسير من الجانبين إلى الوطن كانوا قد أُسروا خلال حرب الأوغادين ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ (١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ م). وعقد الاجتماع الأول للجنة الوزارية الصومالية ـ الحبشية المشتركة في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) لتنفيذ اتفاقية السلام التي وُقّعت في مقديشيو في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م).

ب ـ مع كينيا:

وتحسّنت العلاقات بين الصومال وكينيا عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) نتيجة توقيع عدة اتفاقاتٍ بين الدولتين تشمل الموضوعات الأخرى غير السياسية كالتجارة، والتعاون الفني، والاتصالات. وفي ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) وقّع وزراء من كلا البلدين على التعاون المشترك، وتعهد الجانبان بتوطيد العلاقات الوثيقة القائمة. غير أن الحكومة الكينية اتهمت القوات الصومالية في شهر صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) بانتهاك حرمة الحدود أثناء مطاردة أعضاء حزب الحركة الوطنية الصومالية.

إن القتال المتقطع باستمرار في منطقة الأوغادين منذ عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م)، والقحط الطويل منذ ذلك العام أيضاً، ولغاية عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) حيث انهمرت أمطار غزيرة، ومشكلة اللاجئين المعقّدة كلّ هذه أدّى إلى عودة أعدادٍ من اللاجئين الأحباش إلى أراضيهم الزراعية في مواطنهم. غير أن عودة سنوات القحط عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) كان الاحتمال كبيراً لتدفق اللاجئين من جديدٍ من الحبشة، وقدّرت وكالات الأمم المتحدة بأن السكان الذين تمّ تأمين مساكن لهم في مخيمات اللاجئين بالصومال حوالي سبعمائة ألف في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م)، ولكن استمرار تدفّق اللاجئين خلال ذلك العام قد زاد من سكان مخيمات اللاجئين إلى ثمانمائةٍ وأربعين ألفاً في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الثاني ١٩٨٨ م). وأدّى هذا إلى تدهورٍ في الاقتصاد الصومالي، وضرورة طلب مساعداتٍ دوليةٍ. وقدّرت وكالات الأمم المتحدة بأن حوالي ٤٤٥,٠٠٠ لاجئٍ حبشيٍ قد بقوا في الصومال الجنوبي في شعبان ١٤١٠ هـ (آذار ١٩٩٠ م)، وخُطّط لبرنامج مساعداتٍ غذائيةٍ وماليةٍ في جمادى الأولى ١٤١١ هـ (كانون الأول ١٩٩٠ م) تقدّم إلى ٧٠٪ من اللاجئين الذين فضّلوا البقاء في الصومال، وأما ٣٠٪ فقد قرّروا الإياب إلى الحبشة.

ونتيجة انحباس المطر ولسنتين متواليتين قرّرت الحكومة في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) إعلان حالة الطوارىء، وأذاعت أن ثلاثة ملايين إنسانٍ مُهدّدين بخطر المجاعة، وهذا ما نشّط عمل وكالات المساعدة الدولية بالإغاثة.

وقام بعض أعضاء جبهة الخلاص الوطني الصومالية في عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) بمحاولة انقلابٍ فاشلةٍ، وشاركتهم مجموعات معارضة أخرى، وشكّلوا الجبهة الديمقراطية لخلاص الصومال، ثم انضمّت إليهم مجموعة أخرى أسّست عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) الحركة الوطنية الصومالية وبدعمٍ من الحبشة غزت وحدات من هذه الجبهة منطقة الحدود في رمضان ١٤٠٢ هـ (تموز ١٩٨٢ م) وعلى الرغم من المساعدة العسكرية التي جاءت من إيطاليا ومن الولايات المتحدة فإنه لم يكن بالإمكان زحزحة القوات الغازية عن مواقعها. وأعلنت الحكومة الصومالية العفو العام فاستسلم مائتا مقاتلٍ بناءً على ذلك العفو في شعبان ١٤٠٤ هـ (أيار ١٩٨٤ م). وفي عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) أعلنت الجبهة الديمقراطية لخلاص الصومال مسؤوليتها عن أعمال الهجوم التي وقعت في الشمال والغرب. غير أن الحكومة الصومالية قد وضعت اللوم، وعزت القيام بالهجوم إلى الحبشة كعادتها. وقد قلّ حجم مساعدات الحبشة للمعارضة الصومالية بعد اللقاء الذي تمّ بين رئيسي الحبشة والصومال في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) وخاصةً الجبهة الديمقراطية لخلاص الصومال، والتي نُقل أن عدداً من قادتها قد وضعوا تحت الإقامة الجبرية في جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (كانون الثاني ١٩٨٧ م)، وفي الشهر نفسه استطاعت الجبهة الديمقراطية لخلاص الصومال أن تحاصر مدينة «هرجيسة» وأن تعزلها عن بقية المنطقة، وأن تقطع الطريق المؤدّي إلى جيبوتي، وأذاعت الجبهة في الشهر التالي جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) أن مقاتليها قد اشتركوا مع قوات الحبشة في الهجوم الحدودي على منطقة «توغدير»، وبعد ثلاثة أشهر أعادت الجبهة سيطرتها على مدينة «هرجيسة» ومدينة «بوارو»

ومِيناء «بربرة» على خليج عدن. وأنكرت الحكومة هذا الادعاء، وظهر بعد شهرين أي في ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) أن بعض هذه المناطق قد أُعيدت السيطرة عليها.

وجرى قتال عنيف في أشهر الصيف، وانتهى بإعادة سيطرة قوات الحكومة على «بوراو» في أول ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (١٥ تموز ١٩٨٨ م)، وعلى «هرجيسة» في مطلع عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م)، وكان الأجانب قد أخلوا «هرجيسة» في منتصف شوال ١٤٠٨ هـ (١ حزيران ١٩٨٨ م)، ولم تستطع الحكومة بعدها تجاهل مطالب المعارضة الصومالية وحركة الصومال الوطنية.

وصرحت حركة الصومال الوطنية في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) بأنها لا تزال تسيطر على ٩٥٪ من المنطقة، وفي الشهر نفسه، وبتوصية من اللجنة التي كُلّفت للتحقيق بمشكلات الشمال أعلنت الحكومة برنامج إصلاحاتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ للمنطقة. وفي شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) شكلت الحكومة لجنةً وطنية لإدارة المناطق الشمالية الشرقية، ومناطق «توغدير» من البلاد.

وفي هجومٍ مُتجددٍ وقع في رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) أذاعت حركة الصومال الوطنية أنها استولت على مدينة «أودوينا»، وقتلت خمسمائة جنديٍ من جيش الحكومة، وأنها هاجمت مدينة «عين أبو»، وهي مدينة تبعد عن «بوراو» مائةً وعشرين كليومتراً، وتقع إلى الجنوب الشرقي منها. وفي الشهر نفسه عُيّن حسين عبد الرحمن متّان وزيراً للدفاع، وهو أول وزير للدفاع مدني منذ عشرين سنةً مرّت على الصومال، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على رغبة الحكومة بإيجاد حلٍّ سلميٍ للحرب الدائرة في المناطق الشمالية عوضاً عن الحلّ العسكري الذي لم ينتح عنه إلا الخراب.

وفي شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) قام جنود من إقليم الأوغادين، وهم يُشكلّون جزءاً كبيراً من الجيش الصومالي، واحتلّوا مدينة «أفمادو» في

الجنوب، في منطقة «جوبا السفلى»، وذكروا أن هذا إنما كان لطرد ثم اعتقال وزير الدفاع السابق العماد عدنان عبدالله نور، وهو مثلهم من إقليم الأوغادين. وهدأ العصيان بعد مفاوضاتٍ جرت مع بعض الضباط من أصحاب الرتب العالية، وأُعيد تشكيل مجلس الوزراء من جديدٍ في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م).

وفي المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي الثوري الصومالي في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) جرى نقاش حول التعددية الحزبية، ولكن صدر القرار الأخير أن الصومال غير مستعدةٍ في هذا الوقت لهذا التغيير، وكان من المفروض أن تجري الانتخابات العامة لمجلس الشعب في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) غير أنها تأجلت لمدة سنةٍ.

تفجّر الشغب في مقديشيو بعد عيد الأضحى من عام ١٤٠٩ هـ (منتصف تموز ١٩٨٩ م)، وأدّى ذلك إلى اعتقال عددٍ من العلماء في أوائل العام الجديد ١٤١٠ هـ، وأُشيع أن عدداً من أعضاء مجموعة اتحاد صوماليا قد شاركوا في هذه الأعمال، وكذلك أعضاء من جبهة الصومال المتحدة الوطنية، وقد قمع الجيش والشرطة المظاهرات التي كان نتيجتها أربعمائة قتيلٍ وألف جريح، وأعلنت منظمة حقوق الإنسان بأن ستةً وأربعين من الذين قُتلوا قد أُعدموا إعداماً بعد المظاهرات.

وإن قبيلة «مارهان» التي ينتمي إليها الرئيس محمد زياد بري، والتي تُعدّ هي الحاكمة قد فقدت الدعم الذي كانت تحظى به من أفراد قبائل الأوغادين الذين يقيمون في الصومال والذين يعمل كثير منهم في الجيش. وعرض الرئيس أن يتخلّى عن السلطة، كما أعلن أن أحزاب المعارضة سيسمح لها بالمنافسة في انتخابات مجلس الشعب المزمع إجراؤها في جمادى الأولى ١٤١١ هـ (كانون الأول ١٩٠ م).

وأُشيع أن صدامات وقعت بين قوات الحكومة وبين العسكريين الذين

ينتمون إلى قبائل الأوغادين في الصومال الجنوبي، كما أُشيع أن الحكومة قد فقدت سيطرتها على أكثر أجزاء البلاد، ولم يبق تحت هيمنتها سوى مقديشيو، وبربره، وجزء من هرجيسة. وإن العسكريين من الأوغادين الذين أُبعدوا عن الجيش قد شكّلوا مجموعة معارضةٍ جديدةٍ إضافةً إلى الحركة الوطنية الصومالية في الصومال الجنوبي، والجيش الوطني الصومالي في وسط البلاد.

وأعادت الحكومة الصومالية سيطرتها على مدينة «أفمادو» في الصومال الجنوبي من يد الحركة الوطنية الصومالية في أوائل ربيع الأول ١٤١٠ هـ (أوائل تشرين الأول ١٩٨٩ م).

وعيّن الرئيس محمد زياد بري لجنةً لإعادة النظر في الدستور مع فكرة تشكيل أحزابٍ سياسيةٍ معارضةٍ للمشاركة في الانتخابات المقرر إجراؤها. وفي جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) أقال الرئيس الوزارة لفشلها في حلّ المشكلات الاقتصادية والاجتماعية حسبما أذاعه، ودعا اللواء محمد علي سماتر رئيس الوزراء الأسبق وكلّفه بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ، فتمّ تشكيلها في رجب ١٤١٠ هـ (شباط ١٩٩٠ م).

إن الصدامات بين قوات الحكومة والمعارضة قد زاد من خروج الكثيرين من الصومال، ولجوئهم إلى الحبشة وكينيا، وقُدّر عدد هؤلاء اللاجئين في جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) بأربعمائة ألف صومالي كانوا يعيشون في مخيماتٍ في الحبشة.

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية:

كانت الولايات المتحدة بطيئةً في تنفيذ برنامج المساعدة العسكرية والفنية للصومال الأمر الذي أدّى إلى فتور العلاقات بينهما، وأعلن الرئيس محمد زياد بري في صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م) بأن العلاقات السياسية مع الامبراطورية الروسية يجب أن تعود. فقامت بعثة عسكرية أمريكية بزيارة للصومال في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م)، وبعد

مناقشاتٍ مع الحكومة الصومالية، وافقت اللجنة على زيادة المساعدات العسكرية للصومال، ولم تُحدّد هذه المساعدة بأموال لشراء أسلحةٍ أمريكيةٍ دفاعيةٍ، والتي كان عليها قيود من قبل، وبلغت المساعدة العسكرية الأمريكية للصومال عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) تسعة ملايين دولار تقريباً.

واشتركت القوات الأمريكية في تدريباتٍ عسكريةٍ مع القوات الصومالية في الصومال في ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م)، وصرّحت الحكومة الصومالية في ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) عن نيتها في تقوية أواصر الصداقة مع الولايات المتحدة في مجال الدفاع. وادّعت الولايات المتحدة في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) أن هناك مقتاً واسعاً من لجنة حقوق الإنسان على الحكومة الصومالية وخاصةً الجيش الصومالي لما يقوم به ضدّ المعارضة من أعمالٍ وحشيةٍ لذا - وحسب المزاعم الأمريكية فقد علّقت الحكومة الأمريكية مبلغ مليونين ونصف دولار من المساعدة العسكرية، وواحدٍ وعشرين مليوناً من المساعدة الاقتصادية للصومال.

الأحداث الأخيرة:

أسّس الرئيس الصومالي محمد زياد بري في مقديشيو مكتباً للمنظمة الديمقراطية الشعبية الأورومية المعارضة في الحبشة لنظام (منغستو ماريام) فما كان من الحكومة الحبشية إلا أن ضاعفت من دعم المعارضة الصومالية.

واشتدّ القتال بين قوات الحكومة الصومالية، وبين قوات فصائل المعارضة التي زاد ضغطها، وظهر تفوّقها، واضطر الرئيس الصومالي أن يفر من البلاد في ١٣ رجب ١٤١١ هـ (٢٨ كانون الثاني ١٩٩١ م). وتمكّنت القوات المسلّحة المعارضة التي تتألف أكثريتها من أفراد قبيلة «الهوية» أن تدخل مقديشيو بقيادة العقيد (محمد فارح عيديد)، وتسلّم علي مهدي محمد رئاسة الدولة موقتاً لمدة شهرٍ ريثما يتمّ تنظيم الدولة، وكان رئيس

الحكومة الصومالية التي كانت على رأس السلطة يوم قام بالانقلاب محمد زياد بري في ١٠ شعبان ١٣٨٩ هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٩ م). كما عُهد إلى (عمر عرتة) برئاسة حكومةٍ موقتةٍ، وهو من قبيلة الهوية نفسها، ومن التنظيم نفسه (المؤتمر الصومالي الموحد)، وقد تجاهلوا باقي التنظيمات السياسية المعارضة وقواتها المسلحة التي ساهمت في قتال قوات محمد زياد بري، وهذا ما أثارها عليها وخاصةً قبيلة «المجرتين» وتنظيمها «الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال» بقيادة (عبدالله يوسف)، وقبائل «الإسحاق» وتنظيمها «الحركة الوطنية الصومالية» برئاسة (عبد الرحمن أحمد علي تور)، وكذلك الحركة الديمقراطية الصومالية وجماعات إقليم الأوغادين برئاسة (عمر جيس). وقد اشتدّ الخلاف عندما قام (عمر عرتة) بتسريح الجيش الصومالي وسحب الأسلحة منه حيث حُصرت الأسلحة بيد أفراد قبيلة الهوية. بل زاد التجاهل للآخرين حتى وصل إلى الجناح العسكري لقبيلة «الهوية» الذي يتزعّمه العقيد (محمد فارح عيديد). فوقع الخلاف بين بطون قبيلة الهوية نفسها فعشيرة «الأبغال» تُؤيّد علي مهدي محمد الذي ينتمي إليها، والذي يتزعّم الجناح السياسي، كما يؤيّده الزعيم (أحمد جيلو)، وعشيرة «الهبرجدر» تُؤيّد محمد فارح عيديد الذي ينتمي إليها، والذي يتزعّم الجناح العسكري، ويعدّ (عثمان أحمد حسن آتو) مستشاره السياسي.

وبقيت قبائل الداروط تدعم الرئيس السابق محمد زياد بري الذي بقي له كيان صغير في الجنوب على حدود كينيا، ويتزعّم ما يسمى بالحزب الاشتراكي الثوري، وكان محمد زياد بري قد انتقل إلى كينيا بعد فراره من الصومال، ومنها انتقل إلى نيجيريا. وكانت كينيا قد منحت القوات التي تُقاتل مع محمد زياد بري تسهيلاتٍ عسكريةً في المناطق الحدودية داخل كينيا، فتضرب وتعود إلى كينيا، كما أن عبد العزيز بري قد أقام معسكراً للتدريب قرب مدينة (لامو) الكينية، الساحلية، ويُقيم هناك كذلك (محمد سعيد حرسي) صهر محمد زياد بري، والملقّب باسم (مورغان).

واشتدّ الصراع بين الفصائل الصومالية واستقلّ الشماليون، وشكّلوا «جمهورية أرض الصومال» برئاسة عبد الرحمن أحمد علي تور زعيم قبائل الإسحاق. ويُسيطر على العاصمة مقديشيو المؤتمر الصومالي الموحّد الجناح السياسي بقيادة رئيس الدولة الموقّت علي مهدي محمد، ورئيس الوزارة عمر عرتة، ورئيس الأركان أحمد جيلو. ويُنافسهم الجناح العسكري برئاسة العقيد محمد فارح عيديد الذي تعرف جماعته بالجبهة الوطنية الصومالية.

وفي أقصى الجنوب كيان الحزب الاشتراكي الثوري الذي يُؤيّد محمد زياد بري، وتدعمه قبائل الداروط.

وأضرمت نار القتال بين الأطراف الصومالية، وتشرّد الناس نتيجة الحرب، وانتشرت المجاعة، وأخذ السكان يتساقطون صرعى فمن نجا من القتل أهلكته المجاعة...

مؤتمر المصالحة الأول:

وجّه الرئيس الجيبوتي (حسن جوليد ابتدون) نداءً في ٢٣ شوال ١٤١١ هـ (٧ أيار ١٩٩١ م) للمصالحة، ولبّت النداء أربع جبهات هي:

١" ـ الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال.

٢" ـ المؤتمر الصومالي الموحّد.

٣" ـ الحركة الديمقراطية الصومالية.

٤" ـ الحركة الوطنية الصومالية.

وعُقد المؤتمر لمدة سبعة أيامٍ ٢٣ ـ ٢٩ ذي القعدة ١٤١١ هـ (٥ - ١١ حزيران ١٩٩١ م) وتقرّر فيه:

أ ـ تصفية النظام السابق.

ب ـ وقف إطلاق النار بين الفصائل.

جـ ـ عقد مؤتمر للمصالحة في الشهر القادم تشارك فيه الفصائل جميعها.

ووُضع جدول أعمال للمؤتمر المقبل، وفيه:

١ ـ إعداد دستورٍ موقتٍ لجمهورية الصومال.

٢ ـ اختيار أعضاء مجلسٍ نيابيٍ موقتٍ.

٣ ـ اختيار رئيس جمهوريةٍ موقتٍ.

٤ ـ تشكيل حكومة وطنية.

تمّ انعقاد المؤتمر في ٤ ـ ١٠ محرم ١٤١٢ هـ (١٥ ـ ٢١ تموز ١٩٩١ م) برئاسة آدم عبدالله عثمان الرئيس الأسبق لجمهورية الصومال، وبرعاية الرئيس الجيبوتي حسن جوليد ابتدون.

وشاركت فيه الفصائل الصومالية المقاتلة الآتية:

١ ـ الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال.

٢ ـ المؤتمر الصومالي الموحّد.

٣ ـ الحركة الديمقراطية الصومالية.

٤ ـ الحركة القومية الصومالية.

٥ ـ التحالف الديمقراطي الصومالي.

٦ ـ الجبهة الصومالية الموحّدة.

ولم تُشارك فيه الحركة الوطنية الصومالية التي تسيطر على شمالي البلاد.

وشاركت كذلك بعض البلدان العربية بصفة مراقب، وهي: السعودية، اليمن، عُمان، ليبيا، مصر، السودان.

وكذلك شاركت بعض الدول الإفريقية بصفة مراقب أيضاً، وهي: أوغندا، الحبشة، نيجيريا. وبعض البلدان الأجنبية، وهي: إيطاليا، فرنسا، ألمانيا، الصين، الإمبراطورية الروسية، والولايات المتحدة الأمريكية.

والمنظّمات الدولية وهي: جامعة الدولة العربية، منظمة الوحدة

الإفـريقية، الأمم المتحـدة، المؤتمـر الإسـلامي، الجمـاعـة الاقتصـاديـة الأوربية، منظمة مكافحة التصحّر من أجل التنمية.

ولكن لم يُؤدّ الأمر إلى نتيجةٍ واستمرّ الصراع، واشتدّ القتال، وزاد التشرّد، وتفاقمت المجاعة، وكثـر عدد القتـال حتى أصبحت الأرض تئنّ لكثرة من يُدفن فيها، ورثى التراب حالة من يعيش عليه.

وأخيــراً:

كانت تصل إلى الصومال بعض مواد الإغاثة الدولية فتعمل قـوات الفصائل المتحاربة على كسبها لمصلحة أفـرادها، وهكـذا لا تصل مـواد الإغاثة إلى السكان الجياع.

وجدت الولايات المتحدة في تصرّف الفصائل المتقاتلة في الصومال حجةً لدخول الصومال وتحقيق بعض أهدافها في تهديد السودان، فأرسلت قـوات إلى الصومـال، وقد أعلن الـرئيس إرسالهـا فقـال: قـررت بـاسم الـرب. . . إرسال خمسـة وعشرين ألف جنـدي إلى الصومـال. وكذلـك سـاهمت دول كثيـرة في هـذه القـوات المتعـددة الجنسيـات. وليس في الصومال من ثروات، فالحرب اليوم ليست من أجل ثروات إذ أن الصليبيين يضعون أيديهم عليها بالأصل في معظم أمصـار العالم الإسـلامي، وإنما الهدف هو الحرب الصليبية وإبادة المسلمين إبادة. . . فهذه هي المرحلة الأخيرة التي وصلت إليها الحرب الصليبية.

وفي إعلان الرئيس الأمريكي بإرسال القوات ما يُؤيّد ذلك.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة الصومال الحالية ٦٣٧,٦٦٠ كيلومتراً مربعاً، وتُشرف من الشمال على خليج عدن، ومن الشرق على المحيط الهندي، ويبلغ طول ساحلها ٣٠٢٥ كيلومتراً، ويبلغ طول حدودها البرية ٢٣٤٠ كيلومتراً حيث تجاور جيبوتي من الشمال، ويبلغ طول حدودها معها ٥٨ كيلومتراً، والحبشة من الغرب، وطول حدودها معها ١٦٠٠ كيلومتر، وكينيا من الجنوب، وحدودها ٦٨٢ كيلومتراً.

هذه هي مساحة الصومال المستقلة، ولكن هناك أجزاءً صوماليةً تحت سيطرة الحبشة وكينيا، وتُعادل هذه المساحة أيضاً.

ويبلغ عدد سكان الصومال المستقلة ثمانية ملايين وربع حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م)، وبذا تكون الكثافة حوالي ١٣ شخص في الكيلو المتر المربع الواحد. ولكن هناك ما يزيد على ضعف هذا العدد السكاني يقيم في الأجزاء التي تخضع لسيطرة الحبشة وكينيا.

ويبلغ معدل زيادة السكان ٣,٢٪ حسب تقديرات عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م).

الصراع العنصري والقبيلي:

يعود السكان في أصولهم إلى العنصر الصومالي الذي يُشكّل ٨٥٪ من مجموع السكان، وهو من أصل حامي اختلط بالساميين فنشأ عنه العنصر

الصومالي، وهناك قبائل البانتو ولا تشكل أكثر ١٣٪ من مجموع السكان، وهنـاك جاليـات عربيـة، وأخرى أوربيـة وخاصـةً الإيطاليـة في الجنوب، والإنكليزية في الشمال، وثالثة أمريكية وتعمل في شركات النفط وأعمـال النقطة الرابعـة، وأخذت تفـد على البلاد بعـد عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م) ورابعة هندية وباكستانية. وهناك قلّة من اليهود تعيش في المـدن الكبرى وتعمل الصياغة والتجارة والاحتكار.

واللغة الصومالية هي الرسمية، وهي فـرع من السواحيليـة، وكانت تكتب بـالحرف العـربي حتى وقع الانقـلاب العسكـري الأول، وانضمّت الصومال إلى جامعة الدول العربيـة، فألغت الحـرف العربي، واستعملت الحرف اللاتيني لكتابة لغتها، وهناك اللغة الإيطالية، والإنكليزيـة، ولكن اللغة العربية منتشرة في الأوساط المتدينة. لذا لا نجد صراعاً عنصرياً في الصومال.

ولا تزال الحياة القبيلية هي المسيطرة في بلاد الصومال، ولكل قبيلةٍ نفوذ على جزءٍ من الأرض، ولها رئيسها، كما لها صندوق مالي خـاص يُسـاهم فيه كـل فردٍ من أبنـاء القبيلة حسب دخله، وينفق منه لمصلحة القبيلة. وهناك عدّة قبائل رئيسية:

١ ـ الداروط، وأصلها الطارود، وهم من أصلٍ عـربي طردوا من بلادهم.

٢ ـ الهوية.

٣ ـ أزاك.

٤ ـ دير.

٥ ـ ديجل ومرفلة: قبيلتان في الجنوب.

٦ ـ مجرتين: قبائل في الشمال الشرقي.

٧ ـ وهناك قبائل الأوغادين، ولما كانوا قد تركوا ديارهم، ولجؤوا إلى الصومال لذلك فهم يُشكّلون مجموعةً خاصةً، ويعمل أكثر رجالها بالجيش،

وغالباً ما يُؤيّدون السلطة، إذ تطالب بديارهم الأصلية وانتزاعها من أيدي الأحباش، ثم وقفت هذه المجموعة ضدّ السلطة عندما عُزل وزير الدفاع الذي هو أحد أفرادها.

ولكل قبيلةٍ بطون وفروع ومنها عشيرة «مارهان» التي ينتمي إليها محمد زياد بري، وتعدّ الحاكمة، ولما تسلّطت، وزادت غطرستها تحركت القبائل ضدّها حتى طرد الرئيس محمد زياد بري من السلطة.

الصراع الإقليمي:

نتيجة الاستعمار حدث بعض الاختلاف الثقافي والاجتماعي بين الجزء الجنوبي حيث كان السيطرة للطليان وبين الجزء الشمالي حيث كان النفوذ للإنكليز، وإن مدة الاستقلال القصيرة التي لم تزد على التسع سنواتٍ لم تستطع إحداث موازنة بين الإقليمين، وجاء الانقلاب الأول فأعاد الفرقة حيث أعطى إقليم الجنوب وقبائله هيمنةً على الشمال بل أعطى قبيلة الرئيس محمد زياد بري «مارهان» نفوذاً وتحكّماً على البلاد كلها، وهذا ما جعل شيئاً بين التمييز بين الإقليم الشمالي، والإقليم الجنوبي، وكان سكان الشمال يُصنّفون ضمن المعارضة، بل ونشأت رغبة عند بعضهم في فصل الإقليمين بعضهما عن بعضٍ، أو ميل لتحكّم الشمال كردّ فعلٍ عند أصحاب النظرة الضيقة والمحدودة والذين لا يقدّرون الأمور حق قدرها فتطغى عليهم السياسة المحلية أو النزوات الفردية.

الصراع العقيدي:

يُشكّل المسلمون في الصومال أكثر من ٩٩,٥٪، أي أنهم السكان جميعاً حيث لا يُؤبه للنصارى الأوربيين والأمريكان حيث لا يزيد عددهم على بضعة آلاف، ولا إلى اليهود الذين هم دون ذلك، ولا إلى الهندوس والبوذيين الذين هم لا يتعدّون المئات.

ولما كان السكان جميعهم من المسلمين تقريباً، وعلى المذهب

الشافعي لا نجد صراعاً عقيدياً، وفشلت الإرساليات التنصيرية في مهمتها بالتنصير فاكتفت والمستعمرون على إفساد السكان والعمل على إبعادهم عن العقيدة فنشأت مجموعات علمانية لا تهمها سوى مصالحها، فارتبطت مع المسيطرين على مقدرات البلاد من الأجانب، وكانت في صراعٍ مع المسلمين الملتزمين، وتدّعي الواقعية والتقدمية، وترفع شعار الحضارة، وتخفي شهواتها وأهواءها، وقد حصلت ـ بما لقيته من دعمٍ على المكانة فتحكّمت وفرضت مناهج غريبةً عن عقيدة الشعب.

الصراع الحزبي:

ظهرت التنظيمات الحزبية في وقتٍ مبكر نسبياً في الصومال، وإن كان حزب وحدة الشباب الصومالي في القسم الجنوبي هو الذي بدا قوياً، وكانت له الغلبة على باقي الأحزاب، وتسلّم السلطة في الصومال الإيطالي قبيل الاستقلال، وفي جمهورية صوماليا كلها بعد الاستقلال، وبقيت السلطة بيده حتى قيام الانقلاب الأول وإلغاء الأحزاب.

وكان إلى جانبه حزب صوماليا الكبرى، وجمعية الشباب الصومالي، والحزب الدستوري المستقل، والاتحاد القومي، والرابطة الإسلامية، وهذه التنظيمات كلها في القسم الجنوبي، أما في القسم الشمالي فقد كان حزب الرابطة الصومالية أقوى الأحزاب.

وكانت هذه الأحزاب كلها تدعو إلى جمع الصوماليين في دولةٍ واحدةٍ المستقلّ منها والذي لا يزال تحت السيطرة الأجنبية سواء، وإن كان الحزب الدستوري المستقل يدعو إلى قيام اتحاد بين أجزاء الصومال كي لا يطغى جزء على آخر ـ على رأي قادة الحزب الذي يضم زعماء قبيلتي «ديجل» و«مرفلة». وإضافةً إلى هذه التنظيمات كان هناك حزب الشباب الأحرار الصومالي، وتدعمه الحبشة، غير أنه كان ضعيفاً، ولم يلبث أن اختفى للصراع القائم والدائم مع الحبشة.

وعندما قام الانقلاب الأول في ١٠ شعبان ١٣٨٩ هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٩ م) ألغى الأحزاب كلها، وبعد ثلاث سنوات أسس العسكريون قادة الانقلاب الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي، وبقي هو الحاكم، حتى انتهى حكم زعيم ذلك الانقلاب الرئيس محمد زياد بري. لذا لم تبق هناك منافسات حزبية، ولكن وجدت معارضة حملت الصفة العسكرية. فالحكم عسكري والمعارضة أخذت تقاومه عسكرياً.

وجدت جبهة العمل الديمقراطي الصومالي، وشكلها الضباط الذين فروا من الصومال إلى الحبشة إثر محاولة انقلابٍ فاشلةٍ جرت عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

وتشكلت حركة الصومال الوطنية في بريطانيا عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م)، وانتقلت قيادتها بعد عام إلى الحبشة، وشكلت مع سابقتها قوةً مقاتلةً في الحبشة، وحصلت على دعمٍ من قبل الحكومة الحبشية، وأعطتها محطة إذاعة، وشارك تلك القوة المقاتلة أفراد من الجيش الحبشي بالهجوم على الصومال الشمالي واحتلال أجزاء منه. وجرت اعتقالات واسعة في المناطق الشمالية بين صفوف السياسيين البارزين عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م)، وتلا ذلك عصيان في الشمال عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).

وانضمّت جبهات معارضة إلى جبهة الخلاص الوطني الصومالي، وشكلت الجبهة الديمقراطية لخلاص الصومال، ثم انضمت إليها مجموعات أخرى، ونشأ عنها حركة الصومال الوطنية.

ولما رأى الحكم قوة المعارضة العسكرية، وأحسّ بسخونة الموقف رأى بعض قادة الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي، وهو الحزب الحاكم الدعوة إلى التعددية الحزبية حتى يكون عمل المعارضة مكشوفاً لدى السلطة، وسياسياً أفضل من أن يكون عسكرياً، غير أن الحكم قد رفض أخيراً ذلك، وصدر قرار عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) أعلن رفض التعددية الحزبية، وادعى أن الصومال في الوقت الحاضر غير مستعدة للتغيير.

ووجدت جبهات عسكرية معارضة أخرى منها: اتحاد صوماليا، وجبهة الصومال المتحدة الوطنية، والجيش الوطني الصومالي، ومجموعة الأوغاديين الذين أبعدوا عن الجيش.

الباب الثّاني

جيبوتي

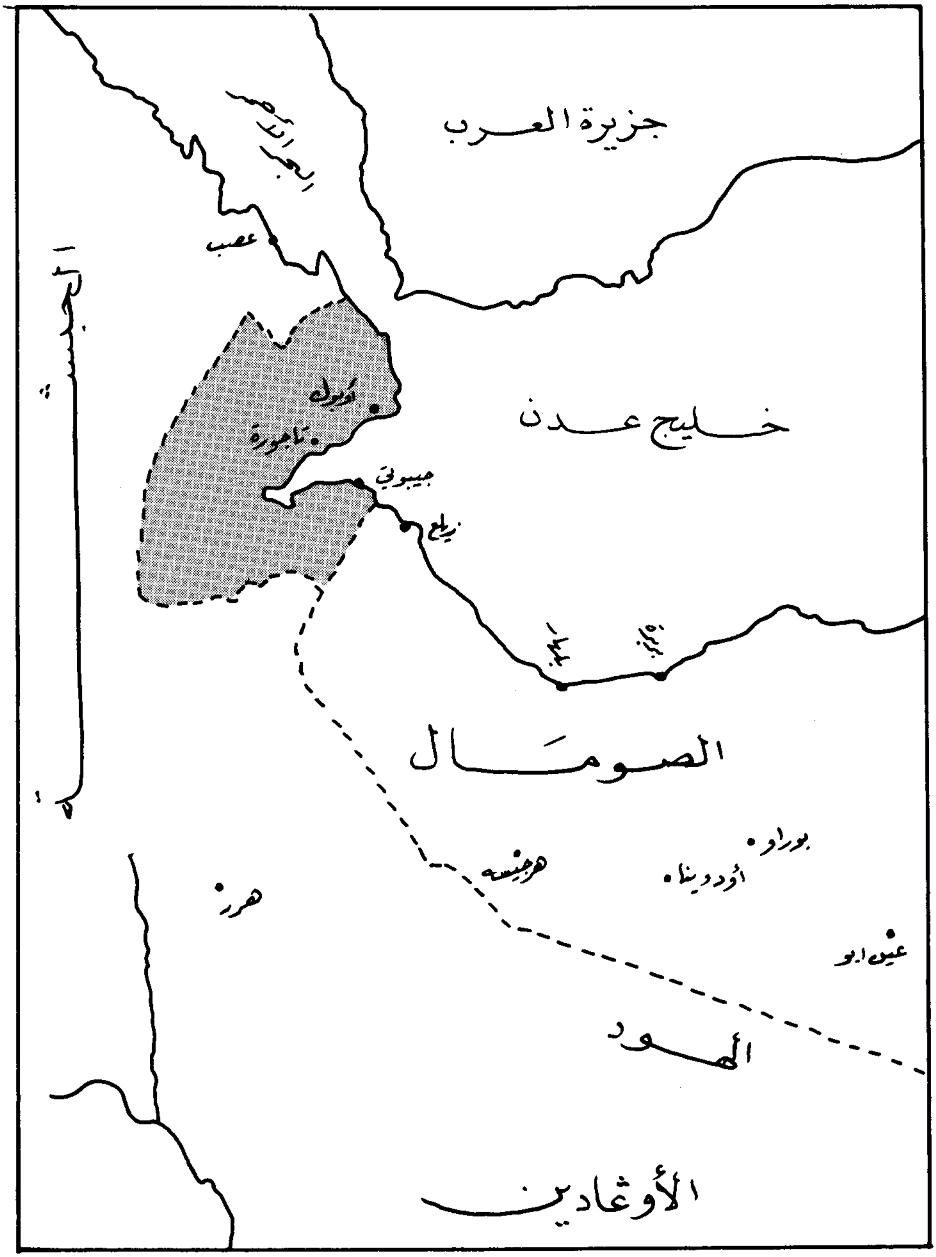

جزيرة العرب
البحر الأحمر
عصب
الحبشة
أوبوك
تاجورة
خليج عدن
جيبوتي
زيلع
الصومال
بوراو
هرجيسه
أودوينا
هرر
عين ابو
الهود
الأوغادين

مصور رقم [٦]

لمحة عن جيبوتي قبل إلغاء الخلافة

اشترت فرنسا ميناء (أوبوك) عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م)، ولكن لم تهتم به خوفاً من المستعمرين الصليبيين الآخرين، ولم تكن يومذاك على استعداد للمواجهة، وعندما قررت العمل فيها عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) أسرعت مصر صاحبة النفوذ وممثّلةً عن الدولة العثمانية، ووضعت حاميةً فيها. ووقفت بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية ومصر في مواجهة فرنسا، لكن مصر لم تلبث أن تنازلت عن (أوبوك) لمصلحة فرنسا خوفاً من مساندة إيطاليا لفرنسا، ولاختلاف مصر مع بريطانيا أثناء الحركة العرابية التي تلاها احتلال بريطانيا لمصر.

وضعت فرنسا قوة حمايةٍ لها في (أوبوك) عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) بعد مقتل الفرنسي (أرنو)، وكانت (أوبوك) جزءاً من محافظة (تاجورا) التي تتبع إقليم (هرر)، وعقدت فرنسا معاهدةً عام ١٣٠١ هـ (١٨٨٣ م) مع سلطان (تاجورا) أحمد بن محمد مع أن القوات المصرية لا تزال في (أوبوك) لم تنسحب منها بعد.

وعندما احتلّت بريطانيا مصر أواخر عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) فصلت سواحل البحر الأحمر وهرر عن مصر، حتى يحدث فراغ سياسي في تلك المناطق وتملؤه الدول الاستعمارية. وأعطى (نوبار) النصراني الأرمني رئيس الوزارة المصرية أوامره إلى قادة القوات في هرر وسواحل البحر الأحمر بالانسحاب والعودة إلى مصر، فتلكأ قائد حامية هرر، وتعاطف معه الأهالي، وجنوده كافةً فجاءت الأوامر بعزله وتولية آخر مكانه، وانسحب

المصريون، وحدث الفراغ السياسي، وعهد (نوبار) إلى القائد البريطاني في منطقة الصومال (هنتر) للإشراف على تلك الجهات، ومعاقبة من لم يمتثل إلى أوامر الوزارة المصرية.

كانت فرنسا قد توسّعت حتى شملت محافظة (تاجورا) كلها. ثم جاء اتفاق الدول الصليبية الاستعمارية على تقسيم المنطقة فيما بينهم عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) حيث لم ترغب بريطانيا أن تكون في مواجهة إخوتها في العقيدة النصرانية والفكر الصليبي، فالمخطط يقتضي التفاهم، وحتى لا تعرّض طريق الهند للخطر، وتوسّعها هناك للمنافسة، حيث بسطت نفوذها على شمالي الصومال، وارتبطت مع سلطان (سوقطرى) بمعاهدة. وكان من نتائج التقسيم اعتراف الدول الصليبية بإعطاء فرنسا محافظة تاجورا، وحقها بالتصرف بما تحت يدها. وعُرفت تلك المحافظة منذ ذلك الوقت باسم (الصومال الفرنسي).

عدّت فرنسا المنطقة ملكاً لها، وأخذت تتصرّف مع السكان كأنهم عبيد لها، فسامتهم سوء العذاب، واضطهدتهم بأقسى أنواع الاضطهاد، وكبتت الحريات، فإذا ما شمّت رائحة حركة تدعو إلى التحرّر أو المطالبة بالحقوق ساقت حملات الإرهاب، وأذاقت الشعب الويل، واستمرّت تلك الحالة حتى أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م).

الفصل الأول

جيبوتي من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١١ رجب ١٣٩٧ هـ.

٣ آذار ١٩٢٤ - ٢٧ حزيران ١٩٧٧م.

استمرّت فرنسا في سياستها التعسفية في (الصومال الفرنسي) بل وفي كل منطقةٍ تخضع لاستعمارها حتى الحرب العالمية الثانية، حيث زاد الإرهاب تحت عنوان الأحكام العرفية وظروف الحرب. فلما وضعت الحرب أوزارها شكلت فرنسا في (الصومال الفرنسي) مجلساً تنفيذياً يضمّ خمسةً وعشرين عضواً منتخباً، وهو بمثابة مجلسٍ استشاريٍ، أما السلطة التشريعية والتنفيذية فهما مُركّزتان بيد الحاكم العام الفرنسي.

وعندما جرى التصويت على قانون ديغول عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) تدخّلت فرنسا بالاستفتاء بشكلٍ علنيٍ، وكانت النتيجة لمصلحة فرنسا، وهي البقاء ضمن المجموعة الفرنسية. وفي منتصف عام ١٣٧٨ هـ (كانون الثاني ١٩٥٩ م) قامت المظاهرات في ميناء جيبوتي تطالب بالاستقلال، وتندد بالاستفتاء الذي جرى، والذي لم يكن حرّاً، بل كان مُزيّفاً، وقد أجرته فرنسا لمصلحتها.

وأعلن العمال الإضراب العام والذي استمرّ أسبوعين متواصلين، ولم يقتصر على فئةٍ معينةٍ أو على العمال وحدهم، بل كان إضراباً عاماً اشتركت فيه الهيئات كافة والأفراد جميعهم وشمل المجلس التنفيذي إلى أقل الأفراد شأناً، وبعد انتهاء الإضراب قامت حملة الإرهاب، وطُرد رئيس المجلس

التنفيذي، ووزير العمل من منصبيهما، وغصّت السجون بنزلائها، وأخرج الكثيرون من البلاد.

ولكن وإن مرّت السنون إلا أن الحوادث كانت تتكرر، ويأبى سكان المنطقة إلا أن يخرج الفرنسيون من البلاد، وأن تنضمّ إلى باقي أجزاء الصومال. وكان يلجأ أكثر الفارين من الحكم الفرنسي إلى دولة الصومال، ويُقيم أكثرهم في العاصمة (مقديشيو)، ومنذ عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) أخذ يتوالى اللجوء، وأخيراً شكلت هذه العناصر جبهةً عُرفت باسم «جبهة تحرير الساحل الصومالي»، وتضمّ أعضاء الأحزاب السياسية، والنقابات العمالية، والجمعيات الإقلمية في الصومال الفرنسي.

وبعد العيد الأضحى من عام ١٣٨٢ هـ (٧ أيار ١٩٦٣ م) اعتقلت السلطات الفرنسية سبعةً من زعماء النقابات بتهمة الاحتفال بيوم العمال العالمي، وقامت بعد شهرٍ باعتقال رئيس حزب الحركة الشعبية وبعض زملائه بتهمة توزيع منشوراتٍ معاديةٍ للسلطات الفرنسية. وقد أصدرت جبهة تحرير الساحل الصومالي بياناً نددت فيه بالأعمال الوحشية والإرهابية التي تقوم بها السلطات الفرنسية في جيبوتي بقصد السيطرة الاستعمارية على الميناء الصومالي. وبعثت الجبهة بنصّ البيان إلى (أوثانت) الأمين العام للأمم المتحدة، وإلى (ظفر الله خان) رئيس الدورة للأمم المتحدة في ذلك الوقت، وشرحت فيه معارضة هذه الأعمال لحقوق الإنسان، وميثاق الأمم المتحدة، وطالبت فيه الأمين العام للأمم المتحدة بالعمل على وقف هذه الأعمال، وتشكيل لجنةٍ دوليةٍ لدراسة الموقف، وإعادة الحريات، وجلاء المستعمر. وكانت الجبهة على درجة من الغفلة حيث ظنّت أن الأمم المتحدة ستفعل شيئاً، وجهلت أنها تسير حسب رأي الدول الكبرى النصرانية والتي تعمل حسب مخطط صليبي لمحو الإسلام.

كانت جيبوتي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية تعرف باسم الصومال الفرنسي، ثم أعلنت أنها منطقة دولية، ولكن في عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)

أعادت نسبتها إليها فأطلقت عليها «المنطقة الفرنسية عفر وعيسى»، وكان لهاتين القبيلتين (عفر وعيسى) علاقات قوية مع الحبشة والصومال. ولم يكن المجتمع في المنطقة لينقسم حسب هاتين القبيلتين حتى منتصف عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م)، ثم أخذ الانفصام يظهر بعد ذلك، إذ كان العيساويون يسيطرون على السياسات المحلية نتيجة أعدادهم الكبيرة في الميناء، وبدت المصالح المتضاربة، وعملت فرنسا على التظاهر بدعم المجتمع العفري ذي الأقلية لرمي الخلافات وإمكانية إبقاء سيطرتها على المنطقة فحدثت توترات وخاصةً في الميناء جيبوتي، ونمت فكرة المطالبة بالاستقلال، وبرز العنف الذي كان على شكلٍ متقطعٍ منذ عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م).

وفقد علي عارف برهان نائب رئيس مجلس الوزراء نجاح ثلاثة عشر نائباً من الذين يُؤيّدونه في الانتخابات التي جرت عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، واضطر إلى الاستقالة في رجب ١٣٩٦ هـ (تموز ١٩٧٦ م).

وتمّ الاتفاق أخيراً على أن يجري استفتاء شعبي على الاستقلال، وفي الوقت نفسه تجري انتخابات لمجموعةٍ من النواب في جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ (أيار ١٩٧٧ م)، وأن الاستقلال يجب أن يتبع ذلك، وبعد شهرٍ واحدٍ. واتفقت الأحزاب جميعها على أن يضمّها حزب واحدٍ يحمل اسم «التجمّع الشعبي من أجل الاستقلال» والذي أصبح بعد سنتين يسمى «التجمّع الشعبي التقدّمي».

وجرى الاستفتاء الشعبي، وأعطى تأييداً تاماً للاستقلال، أما انتخابات مجموعة النواب والتي رافقت الاستفتاء فقد حصلت القائمة الوحيدة للمرشحين التي يُؤيّدها الحزب على ٧٧٪ من مجموع الأصوات، وانتخب حسن جوليد أبتدون رئيساً للجمهورية، وأصبحت جيبوتي مستقلة بدءاً من ١١ رجب ١٣٩٧ هـ (٢٧ حزيران ١٩٧٧ م).

الفصل الثاني

الاستقلال

لعلّ الخلاف القبيلي الذي برز إثر الاستقلال بين قبيلتي عيسى وعفر كان أحد العوامل المهمّة التي واجهتها الدولة، وقد حاولت الإدارة الموازنة بين الجماعتين في المصالح كلّها، ولكن سرعان ما اشتكت (عفر) من التمييز بينها وبين أشقائها، وهاجمت سياسة الحكومة المؤيّدة للصومال التي يقلّ فيها العفاريون، وذلك إثر اعتقال مائتي شخص من أفرادها في مطلع عام ١٣٩٨ هـ (كانون الأول ١٩٧٧ م)، واستقال رئيس الوزراء (أحمد ديني) وأربعة وزراء آخرين ينتمون إلى (عفر). ثم وافق الرئيس الجيبوتي على أن يكون تمثيل (العفاريين) أكبر في الخدمات المدنية، وفي القوات المسلّحة، كما وافق على إطلاق سراح المحتجزين من أبناء هذه القبيلة.

وتم تشكيل وزارةٍ جديدةٍ في ربيع الأول ١٣٩٨ هـ (شباط ١٩٧٨ م) على أساس موازنةٍ قبيليةٍ مدروسةٍ بعناية. وفي شوال من العام نفسه (أيلول ١٩٧٨ م) أصبح (غوارد حمادو) وزير الصحة السابق رئيساً للوزراء. وأعلن عن سياسة «الابتعاد عن القبيلية السريعة».

وصدر قانون في ربيع الثاني ١٤٠١ هـ (شباط ١٩٨١ م) يقضي بانتخاب الرئيس من قبل الشعب مباشرةً عن طريق الانتخاب العام، وكان الرئيس (حسن جوليد ابتدون) هو المرشّح الوحيد، وقد أُعيد انتخابه في شعبان ١٤٠١ هـ (حزيران ١٩٨١ م).

وتبع ذلك صدور قانونٍ آخر في آخر عام ١٤٠١ هـ (تشرين الأول ١٩٨١ م) ويقضي بإنشاء دولةٍ واحدةٍ أي الابتعاد عن القبلية التي جعلت الدولة كأنها اتحاد بين قبيلتين، وجرت الانتخابات العامة في رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م)، وفازت القائمة الوحيدة المعتمدة من قبل حزب التجمّع الشعبي التقدّمي، وحصلت على ٩١٪ من مجموع الأصوات. وتشكّلت حكومة جديدة في شعبان ١٤٠٢ هـ (حزيران ١٩٨٢ م) اختلفت قليلاً عن سابقتها من التقسيم القبيلي. وأعاد الرئيس تشكيل الحكومة من جديدٍ في آخر عام ١٤٠٢ هـ (تشرين الأول ١٩٨٢ م) وقد دخل الوزارة ثلاثة أعضاءٍ جددٍ.

تجدد التوتّر من جديدٍ في جيبوتي في المدة التي سبقت الانتخابات الرئاسية والنيابية، وبدءاً من شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م). وسبق أن انفجرت في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) قنبلة في مقهى يرتاده الجنود في ميناء جيبوتي، وقتل نتيجة ذلك أحد عشر شخصاً منهم ثمانية من الأوربيين، وقيل يومها أن ذاك كان احتجاجاً على الوجود العسكري الفرنسي في البلاد.

وجرت الانتخابات الرئاسية، وكان الرئيس (حسن جوليد ابتدون) هو المرشّح الوحيد وحصل على ٩٠٪ من مجموع الناخبين المسجّلين، كما فازت في الانتخابات النيابية القائمة المعتمدة من قبل حزب التجمّع الشعبي التقدّمي وحصلت على ٨٧٪ من مجموع الناخبين المسجلين، وتشمل القائمة ٦٥ مرشحاً، وهو عدد أعضاء المجلس النيابي.

وحلّ الرئيس الجيبوتي الحكومة في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م)، وتمّ توسعة مجلس الوزراء حتى غدا يضمّ ستة عشر عضواً.

تمّت جولة استطلاعية للانتخابات الرئاسية في المناطق النائية أي خارج العاصمة جيبوتي في جمادى الآخرة من عام ١٤٠٨ هـ (شباط

١٩٨٨ م) أبرزت الوحدة الوطنية، ولكن هجوم حركة التحرير الشعبية على مدينة (بالهو) الحدودية قد أعطى مُؤشّراً إلى بدء عمليات تؤدي إلى خلافاتٍ قبليةٍ واسعة.

وأعاد الرئيس الجيبوتي في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) تنظيم حزب التجمّع الشعبي التقدمي فشمل ثلاثة أعضاء من بين أعضاء قيادته الخمسة عشر.

السياسة الخارجية:

تمّ توقيع معاهدات صداقةٍ وتعاونٍ منفصلةٍ عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) مع كلٍ من الحبشة، والصومال، وكينيا، والسودان كمحاولةٍ للبدء بعملية السلام في شرقي إفريقية. وفي ذي القعدة ١٤٠٤ هـ (آب ١٩٨٤ م) أعاد وزير الخارجية تأكيد سياسة جيبوتي بالحفاظ على الموقف الحيادي في الصراع الحاصل بين جيرانها في القرن الإفريقي، وأعرب عن رغبة حكومته بالعمل كوسيطٍ، وتمّ تشكيل لجنةٍ وزاريةٍ مشتركةٍ بين جيبوتي والحبشة لتقوية العلاقات القائمة والتعاون بين البلدين، وفي جولة المباحثات الأولى والتي عقدت في شوال ١٤٠٥ هـ (تموز ١٩٨٥ م) اتفق على تحسين التعاون الفني والعلمي في القطاع الزراعي. ولكن فسدت العلاقات بين الدولتين بعد أن قام (آدن روبليه أواللـه) وزير التجارة، والمواصلات، والسياحة السابق بحملة تشهير ضد حزب التجمّع الشعبي التقدّمي، وفرّ بعدها إلى الحبشة، ومنح حق اللجوء السياسي، وشكّل هناك مجموعة معارضةٍ جديدةٍ عُرفت باسم «الحركة الوطنية الجيبوتية من أجل الديمقراطية».

علّقت جيبوتي اتصالاتها الجوية والبحرية مع جمهورية جنوبي اليمن الشعبية الديمقراطية في ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م) بعد حادث اعتراض طائرةٍ عسكريةٍ يمنيةٍ طائرةً عسكريةً جيبوتية وأرغمتها على الهبوط في مطار عدن. ولعبت جيبوتي دوراً في إخلاء الجاليات الأجنبية من عدن

أثناء القتال الـذي دار هناك في جمـادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانـون الثاني ١٩٨٦ م)، ولكن عادت العلاقـات السياسيـة بين البلدين في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م).

وضعت خطة جديدة في رجب ١٤٠٤ هـ (نيسان ١٩٨٤ م) لتوطين اللاجئين الأحباش الـذين قُدّر عـددهم بخمسة وثـلاثين ألفاً. وقُـدّر عدد اللاجئين الذين عادوا إلى الحبشة في ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٤ م) بستة عشر ألفاً، وكان الوضع السياسي ورجوع سنـوات القحط ثانيةً سبباً في عودة اللاجئين، وقُدّر عـددهم رسمياً في شـوال ١٤٠٧ هـ (حزيران عام ١٩٨٧ م) بسبعة عشر ألفاً ومائتي لاجىء، وبعد شهرين تمّ الإعلان عن برنامج إعادة توطينٍ جديدٍ من قبل الحكومة الجيبوتية بالتشاور مع حكومة الحبشة. ووفقاً لمصادر جيبوتيةٍ بلغ عدد الذين أُعيد توطينهم طوعاً حسب هذا البرنامج ألفا لاجىء في نهاية رجب ١٤٠٧ هـ (نهاية آذار ١٩٨٧ م).

وشكّل هؤلاء اللاجئون عبئاً على الاقتصـاد، وخاصـةً قدوم لاجئين آخرين بصورةٍ غير نظاميةٍ من الصومال والحبشة، وهذا ما جعل وضع رقابةٍ شديدةٍ على الحركة عبر الحدود، وإعاقة دخول الغرباء، ووضع ضـوابط لها.

وفي جمـادى الآخـرة ١٤٠٩ هـ (كـانـون الثـاني ١٩٨٩ م) وقعت مواجهات عنيفـة بين قوات الأمن وبين سكـان بلدة (بالبـالا) القريبـة من العاصمة جيبوتي والمكتظة بالسكان، وذهب ضحية تلك المواجهة أربعة من القتلى، ومائة جريحٍ ، وادّعت السلطات الجيبوتية أن للغرباء دور واضح في تلك المواجهة.

وزار الـرئيس الفرنسي (ميتـران) جيبوتي في ربيـع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م)، وهي الزيارة الأولى لرئيسٍ فرنسيٍ منذ الاستقلال، وقام الرئيس الجيبوتي حسن جوليد بزيارةٍ رسميةٍ لفـرنسا في ذي القعـدة

١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م)، وقد وصف خلال هذه الزيارة العلاقات مع فرنسا بأنها «نـوعية مُميّـزة»، وأثنى على النفوذ الهـادىء للوجود الفـرنسي العسكري في جيبوتي. إذ من المعلوم أن هناك قوات فرنسية تـرابط في جيبوتي.

ونتيجة الجفاف الذي عمّ المنطقة وجدت منـظمة «تـطوير التعـاون الإقليمي» في جمــادى الأولى ١٤٠٥ هـ (شبـاط ١٩٨٥ م) وشملت ست دولٍ، وكانت جيبوتي المقر الدائم لأمانة المنظمة الجديدة، وأصبح الرئيس حسن جوليد ابتدون الرئيس الأول لهذه الأمانة. وفي الدورة الثـانية التي عقدت في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) اجتمع رؤساء دول المنظمة في جيبوتي، والتقى رئيسا الصومال والحبشة لأول مرةٍ منـذ عشـر سنـوات خلت، وفي اجتمـاعٍ آخـر في شعبــان ١٤٠٨ هـ (نيسـان ١٩٨٨ م) التقى ذلكما الرئيسان أيضاً واتفقا على إعادة العلاقات السياسية بين الدولتين، وعلى سحب جيشي البلدين من الحدود، وعلى تبادل أسرى الحرب.

وتضمّ هذه المنظمة كلاً من: الصومال، كينيـا، أوغندا، جيبـوتي، السودان، الحبشة، ويُطلق عليها الهيئة الحكومية الدولية للتنمية ومكافحة الجفاف، وهدفها التعاون لإيجاد موازنة تقلل من خطر الجفاف، ووافقت الدول المتبرعـة والتي التقت رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) على دعم الهيئة بالتكنولوجيا والمادة لثلاثة وستين مشروعاً تقام في المنطقة نفسها.

وتجمّعت المعارضة المسلحة في جبهة إعادة الوحدة والديمقراطية، ويمثّلها (أحمد ديني) أول رئيس وزراء في جيبوتي بعد الاستقلال.

إن موقف جيبوتي في حرب الخليج التي دارت رحاها في جمادى الآخرة ورجب ١٤١١ هـ (كانون الثاني وشباط ١٩٩١ م) قد عزّز علاقتها مع فرنسا حيث قامت الدولتان في رجب ١٤١١ هـ بتوقيع معاهداتٍ

دفاعيةٍ موسّعةٍ للعمليات العسكرية. مع أن فرنسا قد رفضت التدخل العسكري في النزاع القائم بين جيبوتي والمنظمات العفرية.

وإن تأييد جيبوتي لقرارات الأمم المتحدة الصادرة ضد العراق قد عرّض علاقاتها المستقبلية للخطر مع العراق والتي كانت تقوم بدورٍ فعّال بالدعم العسكري والاقتصادي لجيبوتي.

وقد عزّز الرئيس حسن جوليد بإصرار علاقاته الودّية مع فرنسا، وشجّع على بقاء القوات العسكرية الفرنسية في جيبوتي، وقد كان هذا مثاراً للجدل بعد الغزو العراقي للكويت، وبعد نشوء أزمة الخليج إذ أصبحت جيبوتي قاعدة العمليات العسكرية المرتبطة لاشتراك فرنسا في القوة الدولية المنتشرة في منطقة الخليج.

وفي جمادى الآخرة ١٤١٣ هـ (كانون الأول ١٩٩٢ م) أصبحت جيبوتي مركز عمليات للجنود الفرنسيين المشتركين في القوة العسكرية للأمم المتحدة العاملة في الصومال.

وفي شهر ربيع الثاني ١٤١٤ هـ (تشرين الأول ١٩٩٣ م) تقدّمت المعارضة باقتراحاتٍ مشتركةٍ لوقف إطلاق النار، تعقبها مفاوضات تهدف إلى إنشاء حكومة وحدةٍ وطنيةٍ انتقاليةٍ للإشراف على الإصلاحات الديمقراطية، وقد حددت هذه الأهداف من قبل تنظيمين جديدين تأسّسا في الشهر نفسه، وهما: منظمة كتلة عفار، والحزب المركزي للإصلاحات الديمقراطية.

وفي شهر جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ (كانون الأول ١٩٩٣ م) قام الحزبان الجديدان بحملةٍ لإقناع الحكومة بالموافقة على إجراء انتخاباتٍ تشريعية تحت رقابة لجنةٍ مستقلةٍ.

وفي شهر رجب ١٤١٤ هـ (مطلع عام ١٩٩٤ م) وافقت الحكومة بضغطٍ اقتصاديٍ من فرنسا على تخفيض المصروفات العسكرية، مع أن العمليات العسكرية ضد حزب الدفاع عن الديمقراطية لم تنته.

وفي شهر شوال ١٤١٤ هـ (آذار ١٩٩٤ م) حصل تمزّق خطير في

حزب الدفاع عن الديمقراطية وقد حلّ المكتب السياسي للحزب بزعامة أحمد ديني، وأسس عدد من أعضاء القيادة السابقين مجلساً تنفيذياً جديداً مؤلّفاً من ثلاثة عشر عضواً بزعامة أوغوري كفلة.

وفي شهر ربيع الثاني **١٤١٥** هـ (أيلول **١٩٩٤** م) بدأت الأمم المتحدة برنامجاً لمدة شهرين لإعادة اثني عشر ألف لاجئٍ حبشي إلى مواطنهم.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة جيبوتي ٠٠٠" ـ ٢٢ كيلومتر مربع، ويبلغ طول حدودها البرية ٥١٧ كيلومتراً منها ٤٥٩ كيلومتراً مع الحبشة، و٥٨ كيلومتراً مع الصومال. ويبلغ طول ساحلها ٣١٤ كيلومتراً، ويتعمق خليج تاجورا إلى الداخل الأمر الذي يزيد في طول الساحل، ويجعل لميناء جيبوتي أهميةً.

ويبلغ عدد السكان حسب تقديرات عام ١٣١٢ هـ (١٩٩١ م) ثلاثمائةٍ وتسعةً وعشرين ألفاً، وبذا تكون الكثافة ١٥ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

الصراع العنصري:

يتألف السكان من مجموعتين رئيسيتين هما: قبائل (عيسى) وتُشكّل ٦٠٪ من مجموع السكان، وهي عناصر صومالية، وقبائل (عفر) وتُشكّل ٣٥٪ من مجموع السكان، إضافة إلى أعدادٍ قليلةٍ من العرب ثم من الأحباش والفرنسيين والطليان.

واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وتعدّ اللغة العربية شبه رسميةٍ، ولغة (عفر) واسعة الانتشار.

أخذ الصراع بين المجموعتين الرئيسيتين منذ أن نالت البلاد استقلالها، وكان لا بدّ للإدارة من مراعاة الانتماء القبيلي عند تعيين كل موظف خوفاً من اشتعال نار الفتنة بين القبيلتين بحجة طغيان إحداهما على

الأخرى بتعيين موظف. وحتى السياسة الخارجية كانت تتأثّر بهذا الجانب، إذ أن قبيلة (عيسى) من أصلٍ صومالي، وهي صاحبة الأكثرية، وإن كل توجّه نحو الصومال يجعل القبيلة الأخرى (عفر) تعدّ هذا تعصّباً قبلياً، على حين أن البلاد لا يجاورها سوى دولتين إحداهما الصومال، وجيبوتي أساساً جزء منها، وتحاربهما الحبشة معاً على أساسٍ عقيديٍ، وليس لدولة جيبوتي إلا أن تتجه نحو الصومال عقيدةً وجواراً، وسياسةً ومصلحةً وآخر ما يكون هو الانتماء.

وعندما صدر قانون يقضي بانتخاب الرئيس مباشرةً من قبل الشعب في ربيع الثاني ١٤٠١ هـ (شباط ١٩٨١ م) عدّ العفاريون هذا عصبيةً إذ ما دامت قبيلة (عيسى) هي الأكثرية فلن يكون الرئيس إلا منها، فلم يرقَ لهم القانون، واحتجّوا على ذلك.

وإذا كان حزب التجمّع الشعبي التقدّمي هو حزب الحكومة، وهو الحزب الوحيد الرسمي، وينضوي فيه العيساويون والعفاريون إلا أن الصراع العنصري قائم في داخله، وكل فريقٍ يراقب الآخر، ويلتقي الطرفان فيه، لا يستأثر أحدهما بالسلطة، ولا يطغى جانب على آخر. وتوضع قوائم المرشّحين للانتخابات بالتفاهم بين الجماعتين، ولا يسمح بنزول سوى هذه القائمة.

ووجدت حركة التحرير الشعبية خارج جيبوتي، وتدعو إلى تحرير البلاد من التسلّط القبيلي وضياع حقوق العفاريين، وأخذت تقوم ببعض العمليات.

وعقد العفاريون مؤتمراً لهم بالقرب من مدينة عصب الأريترية، واتخذوا فيه قراراً يعدّ الأول من نوعه، ودعا المؤتمر إلى وحدة العفاريين في كل من جيبوتي، وأريتريا، والصومال، والحبشة، وادّعى المؤتمرون أن عدد جماعتهم يناهز العشرة ملايين موزّعين بين هذه الأمصار، ويجب العمل على جمعهم في مصرٍ واحدٍ ضمن إطارٍ واحدٍ يحكمون فيه أنفسهم. وأعلن

المؤتمر عن تشكيل لجنتين أولاهما للعمل على وحدة أبناء القبيلة وثانيتهما للعمل على ممارسة الحكم الذاتي في مناطق عفر داخل أريتريا. فاستنجد الرئيس الجيبوتي حسن جوليد، وهو من أبناء قبيلة عيسى، بالقوات الفرنسية، وأعلن أن بلاده تتعرض لغزو أجنبيٍ من الخارج في الوقت الذي أعلن فيه العفاريون أن قواتهم الضاربة في أرجاء القرن الإفريقي تحاول إسقاط نظام الحكم في جيبوتي، وإقامة حكومة عفر الكبرى.

الصراع العقيدي:

لا يوجد صراع عقيدي في جيبوتي لأن السكان جميعهم من المسلمين، ويعيش بينهم عدد من النصارى الكاثوليك لا يزيد عددهم على ٨٥٨٥ فرداً أي لا تصل نسبتهم إلى ٠,٢٥٪ إضافة إلى أفراد محدودين من أتباع الكنيسة الأنكليكانية يتبعون للأسقفية في مصر.

ويعمل النصارى بهدوء مستغلين فقر السكان لنشر النصرانية بينهم ولكن دون جدوى، ولم تفلح جهودهم، لذا فإن عملهم الرئيسي ينصبّ لإبعاد المسلمين عن عقيدتهم بالإفساد، وللعمل لدى السلطة للحيلولة دون نشر التوعية الإسلامية، ودون قيام حركاتٍ إسلاميةٍ خوفاً من الصحوة الإسلامية كي يبقى الأهالي على حالةٍ من الجهل يمكن العبث بهم.

الصراع الحزبي:

وُجدت قبل الاستقلال عدة تجمّعاتٍ سياسيةٍ سمحت السلطات الاستعمارية الصليبية لها بالعمل كي يبقى الخلاف بين السكان، وكي تصطفي لنفسها عناصر تتعرف عليها عن قرب باضطرارها الالتجاء إليها لتحقيق مصالحها، ولدعمها ضدّ خصومها السياسيين.

غير أن هذه التجمعات قد التقت بعضها مع بعض قبيل الاستقلال، وشكّلت ما عرف باسم «التجمّع الشعبي من أجل الاستقلال» والذي حمل منذ عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) اسم «حزب التجمّع الشعبي التقدمي» ويضمّ

فئات من مختلف الشعب غير أن الصـراع القبيلي يحدث داخله. وهـذا الحزب هو الوحيد والحاكم في البلاد، وإن كانت الأهواء متباينة بين أفراد القبيلتين.

وقامت «الحركة الوطنية الجيبوتية من أجل الديمقراطية» برئاسة (آدن روبليه أوالله) الذي فرّ إلى الحبشة، وأسّس هناك حركته، وكان من قبل يشغل منصب وزارة التجارة، والمواصلات، والسياحة في جيبوتي، وهو من العفاريين. ثم قامت حركة التحرير الشعبية خارج جيبوتي، وتضمّ عناصر عفارية، وتعمل على بثّ الرعب لإضعاف النظام. فـالصراع قبيلي، وإن حمل أحياناً العنوان الحزبي.

القسم الثالث

الجنوبي

تانزانيا وجزر القمر

يشمل القسم الثالث من شرقي إفريقية الساحل الجنوبي الواقع جنوب خط الاستواء الممتدّ من خط عرض ١° جنوباً، وإلى آخر ما وصل إليه المسلمون على ذلك الساحل عند خط العرض ٢٠° جنوباً. وقد انتشر الإسلام في هذه الأجزاء على السواحل، وفي الجزر القريبة منها، ولم يتوغّل المسلمون إلى الداخل في البر الإفريقي لوجود الغابات، وقلّة السكان، وطبيعتهم البدائية، ونفورهم من الغريب، وتقوقعهم على أنفسهم، فلم يلتقوا بغيرهم لتجارةٍ، ولم يستمعوا لدعوة، وكانت هاتان المهمتان وسيلتي المسلمين للاتصال.

شكّل المسلمون في هذه الأجزاء إماراتٍ كانت موزعةً على الساحل، فكانت تشمل الواحدة منها مدينةً وما حولها، وربما تتسع قليلاً، أو تنضمّ إمارة إلى أخرى مثل: (كيلوا) و (سفالة) و (تانجا) و (لامو) و (ماليندي) و (براوة) وغيرها، كما تأسّست إمارات في تلك الجزر الصغيرة والقريبة من السواحل مثل: (بمبا) و (زنجبار) و (مافيا) و (جزر القُمر)، وهذه هي المناطق التي عمّها الإسلام.

كان هناك تعاون بين هذه الإمارات على أنها أجزاء من دار الإسلام، ولكنها لم تكن ذوات جيوشٍ وإمكاناتٍ قتاليةٍ، فهي صغيرة لا صراع بينها، وقد خفّ الجهاد في ديار الإسلام أو توقّف إلا في مناطق محدودةٍ لما حلّ بالمسلمين من ضعفٍ لبعدهم عن تعاليم دينهم وعدم تطبيق المفاهيم الإسلامية في واقع حياتهم، ولما نزل بهم من خلافاتٍ فيما بينهم. كما أن تلك الإمارات لم تكن تتوقّع غزواً خارجياً لها فالجنوب يمّ لا يأتي من جهته

أحد، والشرق بحر لا يصل من جهته غزاة، والشمال ديار الإسلام حيث المسلمون مشغولون بأنفسهم، لا يبيح لهم الدين غزو هذه الإمارات، وليس فيها ما يطمعهم بها، ولا هي تتحرّش بهم كي تُثيرهم عليها، ومن جهة الغرب تعيش أقوام بدائية لا هي تخرج لقتال بل لا تقبل الاختلاط، بل تهرب للعزلة في الغابة بين الأشجار الكثيفة، لذا كانت حياة أهالي هذه الإمارات في أمنٍ لا تحتاج إلى جنودٍ للدفاع، ولا إلى قواتٍ لردّ المعتدين أو صدّ الجوار.

ولما تعرّضت إمارات شرقي إفريقية للغزو من قبل المستعمرين الصليبيين البرتغاليين لم تستطع الصمود، وليس عندها ما تردّ به الكيد فاستسلمت من غير مواجهةٍ، ودخلها البرتغاليون دون مقاومةٍ بل استغرب السكان خروج هؤلاء الأعداء حيث لم يكونوا يتوقّعون ذلك بل لم يخطر على بالهم ذلك إذ كل مدى علمهم أن الجنوب مياه لا يسكن بعده إنس ولا جان.

واستقرّ البرتغاليون في مراكزهم التي لم تزد على مواقع المسلمين من قبل لذا لم يستطيعوا الدفاع عنها أيضاً، ولم يتمكّنوا من المواجهة فانسحبوا منها خائبين، وتركوا ما كانوا قد دخلوه، وحلّ مكانهم العُمانيون الذين قدموا إلى المنطقة لقتال البرتغاليين الصليبيين، ففرض العُمانيون سلطانهم على تلك الأجزاء فكانت سلطنة زنجبار التي شملت تلك النواحي كلها، وكانت ترتبط بعُمان، وفي عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) نقل السلطان سعيد البوسعيدي عاصمته من مسقط إلى زنجبار، فغدت مدينة زنجبار قاعدة تلك السلطنة الواسعة. وعندما مات عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) قسمت السلطنة بين ولديه، فأخذ ثويني عُمان وما يتبعها، وأخذ ماجد زنجبار وما يلحق بها. وغدت زنجبار سلطنةً خاصةً يتبعها أكثر شرقي إفريقية.

وانتبه ماجد إلى الخطأ السابق الذي فيه وقع رؤساء الإمارات الإسلامية السابقين، وهو الذي سار عليه البرتغاليون فلم يستطع أحد من

كلا الطرفين مواجهة الخصوم والدفاع عما تحت يده. لذا غيّر ما سار عليه من سبقه فنقل عاصمته من مدينة زنجبار في جزيرتها إلى دار السلام على ساحل البر الإفريقي، وفسح المجال للتجّار والدعاة بالولوج إلى داخل إفريقية وحماهم، ومهّد لهم الطرق فانتشر الإسلام في تلك الجهات حتى صار عقيدة أكثرية السكان، وكانت منطقة تانجانيقيا (التي حملت هذا الاسم فيما بعد) منطقةً إسلاميةً.

وقوي أمر المستعمرين الصليبيين فتقاسموا فيما بينهم أراضي سلطنة زنجبار. وكان الجزء الجنوبي مستعمرةً ألمانيةً، ثم تبعت لوصاية بريطانيا باسم عصبة الأمم، واستمر الانتداب فالاستعمار البريطاني حتى استقلت في ٢ رجب ١٣٨١ هـ (٩ كانون الأول ١٩٦١ م) فكانت منطقةً ذات أكثريةٍ مسلمةٍ، أما قاعدة سلطنة زنجبار فهي المدينة والجزيرة التي هي فيها فأصبحت هي وجزيرة (بمبا) القريبة منها بعد تقسيم السلطنة محميةً بريطانيةً عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) حتى استقلّت في ٣ شعبان ١٣٨٣ هـ (١٩ كانون الأول ١٩٦٣ م)، ثم وقع فيها انقلاب، وضُمّت بالقوة إلى تانجانيقيا وشكّلت دولة (تانزانيا) ذات الأكثرية المسلمة.

وأما جزر القُمر فهي قريبة من الساحل بينه وبين جزيرة مدغشقر، لذا كانت مقرّاً تجارياً، ومركزاً لمرور السفن، لذا فقد عمّ فيها الإسلام، وخضعت للحماية الفرنسية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) حتى استقلّت عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م).

ففي هذا القسم من شرقي إفريقية إذن دولتان إسلاميتان هما: تانزانيا، وجزر القُمر. أما بقية الأجزاء فينتشر الإسلام في المناطق الساحلية منها، ويقلّ في الجهات الداخلية، ويُعدّ أتباعه أقلياتٍ في الدول التي يعيشون فيها.

الباب الأوّل

تانزانيا

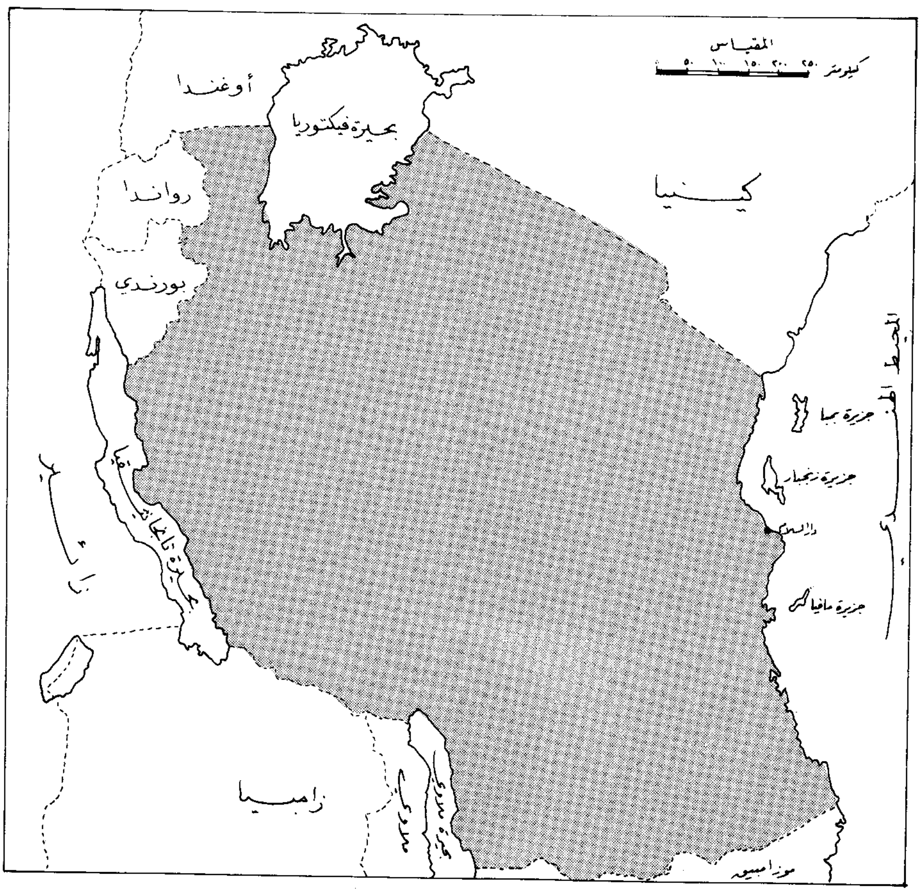
المقياس
كيلومتر
أوغندا
بحيرة فيكتوريا
كينيا
رواندا
بوروندي
جزيرة بمبا
جزيرة زنجبار
جزيرة مافيا
زامبيا
موزامبيق

مصور رقم [٧]

لمحة عن تانزانيا قبل إلغاء الخلافة

انتشر الإسلام في شرقي إفريقية، وعاش أهله والمجتمع من حولهم برخاءٍ، حتى طلع عليهم المستعمرون الصليبيون البرتغاليون من الجنوب، وكان رحّالتهم (فاسكودي ڤاما) قد وصل إلى رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤ هـ (١٤٩٧ م)، ثم سارعت سفنه مع تيار موزامبيق شمالاً، فاحتلّ جزيرة زنجبار عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م)، واستولى على مدينة (كيلوا) عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م).

الاستعمار البرتغالي:

أقام البرتغاليون مراكز لهم على سواحل إفريقية الشرقية، واتجهوا شمالاً، وجرت حروب بينهم وبين المماليك، فكان النصر فيها إلى جانب المماليك مرتين. ثم دخل البرتغاليون عدن عام ٩١٩ هـ (١٥١٣ م)، وتمركزوا في الخليج العربي عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م)، وأظهر الصليبيون حقدهم الدفين فقتلوا، وحرّقوا، وخرّبوا، وقاموا بأعمال يندى لها الجبين. وخاف العثمانيون على الأماكن المقدّسة، وعلى ديار الإسلام، وعلى هزيمة أهله فأسرعوا لملاقاة الصليبيين البرتغاليين، فاحتلّوا بلاد الشام، ومصر، وتسلّموا خلافة المسلمين، ورفعوا راية الجهاد. كما تحرّك أهل عُمان ضدّ البرتغاليين، وأجلوهم عن مسقط. وانتفض سكان شرقي إفريقية ضدّ المستعمرين للمعاملة الوحشية التي استعملها الغزاة فلم يتحمّل السكان ذلك، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد أخذ البريطانيون يُنافسون البرتغاليين على مستعمراتهم، كما أن إسبانيا قد احتلّت أراضي دولة

البرتغال، لهذا كله، ولأن عدد البرتغاليين قليل، ولأن مراكزهم محصورة على الساحل، وليس لهم قواعد يستندون عليها في الداخل، لذا اضطروا أن يتخلّوا عن أكثر مراكزهم.

النفوذ العُماني:

ومع زوال النفوذ البرتغالي أخذت المدن الإسلامية في شرقي إفريقية تستعيد مجدها. وكان لسلطان عُمان دور في شرقي إفريقية، وخاصةً سيف بن سلطان المعروف بـ «قيد البحر» حيث قضى على نفوذ البرتغاليين من (ممباسا) شمالاً حتى شمالي موزامبيق جنوباً، وغدت السلطة في شرقي إفريقية مرتبطةً بعُمان، وانتقل معها المذهب الإباضي الخارجي، وأصبح مذهب الأسرة المالكة في جزيرة زنجبار. ثم أخذ نفوذ عُمان يضعف في المدن الإسلامية القائمة في شرقي إفريقية حتى عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م).

نقل سلطان عمان (سيد سعيد) الخامس من الأسرة الحاكمة في عُمان عاصمته من (مسقط) في جزيرة العرب إلى مدينة (زنجبار) في جزيرة زنجبار في شرقي إفريقية عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) فأخذ النفوذ العُماني يستعيد مكانته في تلك الجهات.

توفي السلطان سيد سعيد عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م)، واختلف أولاده من بعده على السلطة، ثم اتفقا فأخذ (ثويني) حكم عُمان، وأخذ (ماجد) حكم شرقي إفريقية.

نقل ماجد عاصمته من جزيرة زنجبار إلى مدينة دار السلام على ساحل البر الإفريقي ليتوغّل الدعاة والتجار المسلمون إلى الداخل، وتكون لهم قواعد يرتكزون عليها، ويستطيعون حماية السواحل من غزوٍ بحري، حيث لم يكن الغزو يأتي آنذاك إلا من البحر. وفعلاً وصل المسلمون تجاراً ودعاةً إلى سواحل بحيرة تانجانيكا، واجتازوها إلى الكونغو حيث بقوا هناك حتى جاء البلجيك، وجرت الحرب بينهم وبين المسلمين ١٣١٠ -

١٣١٢ هـ (١٨٩٢ - ١٨٩٤ م) حيث هُزم المسلمون، وخرجت مناطق الكونغو من تبعيتها لسلطان السواحل الذين هم من عرب عُمان. وانتشر الإسلام مع دخول الدعاة والتجار لذا أصبحت تانزانيا دولةً إسلاميةً. وكان يُطلق على كل تلك الأجزاء اسم «سلطنة زنجبار».

توفي السلطان ماجد عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م)، وخلفه أخوه الأصغر (برغش).

تقسيم المنطقة:

اتفقت إنكلترا وفرنسا عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) على إنهاء الخلاف بينهما، واقتسام مناطق النفوذ في سلطنة زنجبار والدولة العثمانية، وشاركتهما في الاقتسام كل من ألمانيا وإيطاليا، فأخذت إنكلترا القسم الأوسط من شرقي إفريقية (ساحل كينيا) وساحل الصومال على خليج عدن (الصومال الإنكليزي).

وأخذت فرنسا منطقة جيبوتي على خليج تاجورا (الصومال الفرنسي).

وأخذت إيطاليا الساحل الشمالي من شرقي إفريقية (الصومال الإيطالي)، كما اعتُرف باحتلالها لأريتريا.

وأخذت ألمانيا الساحل الجنوبي من شرقي إفريقية (تانجانيكا).

كما أُعطِيت الحبشة بصفتها دولة نصرانية القسم الغربي من الصومال (الأوغادين) ولا يزال تحت سيطرتها.

أما سلطنة زنجبار فكانت ضعيفةً فلم تستطع الوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية الصليبية، بل خضعت مع جزيرتي (مافيا) و(بمبا) للحماية البريطانية.

وفي العام نفسه توفي السلطان برغش ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) بعد أن شهد تقسيم بلاده، وخلفه عبدالله خليفة.

الاستعمار الألماني:

وعُرفت المنطقة التي خضعت للنفوذ الألماني باسم «إفريقية الشرقية الألمانية»، ولم يكد يتمّ التقسيم حتى انتفض المسلمون في القسم الألماني بقيادة (بشير بن سالم)، ولكن تفوّق الألمان بالسلاح، والإمكانات، والكثرة، والجنود المرتزقة قد هيّأ لهم النصر، وهُزم المسلمون فخضعوا وذلك عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م).

تأسّست الشركة الألمانية لشرقي إفريقية، وحمتها الحكومة الألمانية، ثم تسلّمتها عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)، وعُيّن (بيترس) مندوباً سامياً للإمبراطور، وكان فظّاً، غليظ القلب، سفّاكاً للدماء، فاضطرت الحكومة الألمانية إلى تغييره عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م).

حاولت ألمانيا أن تحكم المنطقة حكماً غير مباشرٍ، فلم يزد عدد الألمان في البلاد على مائة رجلٍ، ولكنها استولت على كثيرٍ من الأراضي، وفرضت ضرائب باهظةً فانتفض السكان ثانيةً، وعُرفت حركتهم باسم (ماجي ماجي)، واستبسل الأهالي بالدفاع عن أنفسهم، وأملاكهم، ولكن ألمانيا قمعت الحركة بوحشيةٍ فائقةٍ ولجأت إلى حرق المنازل حتى استسلم الناس بعد أن قُتل ما يقرب عن عشرين ألفاً من أبناء البلاد. وعملت ألمانيا على تغطية هذه الجريمة فقامت ببعض المشروعات الإصلاحية.

النفوذ الإنكليزي:

قامت الحرب العالمية الأولى ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م)، وكانت ألمانيا وإنكلترا في طرفين متضادين، وتمكّنت إنكلترا من انتزاع «تانجيقيا» من ألمانيا، ووضعت مستعمرة شرقي إفريقية الألمانية تحت وصاية عصبة الأمم، وعُرفت باسم «تانجانيقيا». واشتق الاسم من «تانجا»، وهي مدينة ساحلية في الشمال، كانت مركز إمارة، تتبعها مساحة واسعة من الأرض، و«نيقيا»، وهو اسم يُطلق على الهضبة الوسطى. وانتدبت عصبة الأمم

بريطانيا لتكون هي الوصية عليها بعد انتهاء الحرب مباشرةً، وصدقت عصبة الأمم هذا القرار عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م)، وبذا تحقّقت رغبة بريطانيا في السيطرة على إفريقية الشرقية من الكاب جنوباً حتى القاهرة شمالاً، والسيطرة على طرق المواصلات بينهما. وبقيت (تانجانيقيا) تحت انتداب بريطانيا وصايةً عن عصبة الأمم حتى الحرب العالمية الثانية.

أما زنجبار فمنذ أن قُسّمت سلطنتها عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) بين المستعمرين الصليبيين الفرنسيين، والبريطانيين، والألمان، والطليان بقيت ضعيفةً إذ ذهبت منها كل أراضيها ولم يبق منها يتبع السلطان سوى جزيرتي (زنجبار) و (بمبا)، ولا تزيد مساحتهما على ٤٩٦٤ كيلومتراً مربعاً. ثم وضعت سلطنة زنجبار عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) تحت الحماية البريطانية بالقوة. فكان يوجد إلى جانب السلطان مقيم بريطاني تُعيّنه حكومة صاحبة الجلالة. والتشريع في هذه المحمية منظّم بموجب مراسيم يُصدرها السلطان، ويُوافق عليها المقيم البريطاني.

وأما تانجانيقيا فاتبعت بريطانيا فيها نظام الانتداب، حيث يُدير البلاد حاكم تُعيّنه صاحبة الجلالة، ويُساعده مجلس تشريعي منتخب، ويتألّف من ثلاثة عشر عضواً إفريقياً، وعشرة أعضاء غير إفريقيين، وفي البلاد جيش وطني تحت إمرة ضباط بريطانيين.

الفصل الأول

تنزانيا من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) فتميّع مفهوم الرابطة الإسلامية، وانصرف كل مستعمرٍ ينهش من فريسته كما يشاء، ويصوغ لها أسلوب الحياة كما يريد، واتجه كل مصرٍ إلى قضاياه الخاصة يُحاول الترميم من غير فائدةٍ حيث كان الهدم أسرع من الإصلاح، إذ وُضِع حراس من قالبٍ معينٍ فرضعوا من الحليب الأوربي، وشبّوا على نمط حياة أبناء تلك القارة.

تانجـانيقيـا:

استمرّت شؤون تانجانيقيا تحت شروط عصبة الأمم حتى بعد الحرب العالمية الثانية حتى حُوّلت إلى نظام وصايةٍ بموجب إعلان الأمم المتحدة باتفاقية الوصاية في ١٩ محرم ١٣٦٦ هـ (١٣ كانون الأول ١٩٤٦ م) فكان يحكم البلاد حاكم عام، يُساعده مجلس تنفيذي، وآخر تشريعي يقوم على أساس نظام الجماعات البشرية التي يتألف منها السكان، وتُمثّل فيه الأجناس بنسبةٍ واحدةٍ. وفي هذه الأثناء كانت بريطانيا تعمل على اختيار وتربية الرجال الذين ستُوكل إليهم مُهمّة حكم البلاد، وتعهدت يوليوس نيريري[١].

---

(١) ولد يوليوس نيريري في بلدة تقع على الساحل الشرقي لبحيرة فيكتوريا، وكان أبوه أحد رؤساء قبيلة (الزنكي) التي تعمل في رعاية الأغنام. حصل على دبلوم في =

عمل يوليوس نيريري على تأسيس حزب «الاتحاد الوطني الإفريقي»، ويقوم على معارضة نظام الجماعات العنصرية الذي يقوم عليه المجلس التشريعي، ويُنادي كذلك بإلغاء قيود الملكية الزراعية بالنسبة إلى الإفريقيين.

وعملت إنكلترا على إبرازه فأرسلته عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) كمبعوثٍ للاتحاد الوطني الإفريقي في تانجانيقيا، يعرض قضية بلاده على الأمم المتحدة، ثم أظهرت بريطانيا أنها تعمل ضدّه فطلب الحاكم البريطاني في تانجانيقيا من الأمم المتحدة رفض تقرير يوليوس نيريري، فبدا في بلاده وطنياً مخلصاً.

أعلنت إنكلترا في عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) أنها ستمنح تانجانيقيا حكومةً ذات استقلالٍ داخليٍ، وجرت أول انتخاباتٍ عامةٍ في ربيع الأول ١٣٧٨ هـ (أيلول ١٩٥٨ م) وفي شعبان ١٣٧٨ هـ (شباط ١٩٥٩ م). وتشكّلت حكومة جديدة في المحرم ١٣٧٩ هـ (تموز ١٩٥٩ م)، وضمّت ولأول مرّةٍ بين أعضائها وزراء إفريقيين.

وجرت الانتخابات العامة في ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (أيلول ١٩٦٠ م) فاز حزب الاتحاد الوطني الإفريقي، وحصل على سبعين مقعداً من مقاعد المجلس النيابي البالغ عددها واحداً وسبعين مقعداً، وأصبح زعيم الحزب رئيساً للوزراء وشكّل أول حكومةٍ في ذي القعدة ١٣٨٠ هـ (أيار ١٩٦١ م).

اتخذت الأمم المتحدة في ٦ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ (٢١ نيسان ١٩٦١ م) قراراً يقضي بإنهاء اتفاقية الوصاية. وبعدها أصبحت تانجانيقيا مستقلةً ضمن رابطة الشعوب البريطانية في ٢ رجب ١٣٨١ هـ (٩ كانون الأول ١٩٦١ م).

= التعليم عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وأرسل إلى لندن لإكمال دراسته وتربيته، وحصل على الدكتوراه عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م)، عُيّن بعد عودته مدرساً خارج العاصمة، ثم اشتغل بالسياسة، وترك التدريس.

زنجبــار:

كانت سلطنة زنجبار محمية بريطانيةً منذ عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م)، وسلطانها هو عبدالله خليفة، وبجانبه مقيم بريطاني ويُعدّ السيد الفعلي، والحاكم الرسمي.

وأنشأت بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية مجلساً تشريعياً، وآخر تنفيذياً، أما المجلس التنفيذي فيرأسه السلطان، وأما المجلس التشريعي فيرأسه المقيم البريطاني، وبذلك انتقلت صلاحيات التشريع من السلطان إلى المقيم البريطاني، وضمنت طاعة السلطان، وتنفيذه لما يصدر من تشريعاتٍ لا توافق إلا مصلحة بريطانيا الاستعمارية الصليبية. ويتألّف كل مجلسٍ من ثلاثة أعضاء زنجباريين، وخمسة أعضاء بريطانيين، وستة أعضاء مُمثّلين عن الجاليات التي يتألّف منها السكان. ومدينة زنجبار في الجزيرة التي تحمل اسمها هي العاصمة ومركز الحكم.

أما العدالة فينظّمها القضاء البريطاني الأعلى، ولكن الأهالي يتقاضون في محاكم خاصة تخضع للسلطان.

والأسرة الحاكمة من عُمان، ومذهب الأسرة هو الأباضي.

توفي السلطان عبدالله خليفة عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، وخلفه ابنه (جلمشيد) بن عبدالله، وأصبحت هذه المحمية سلطنةً مستقلةً في ٣ شعبان ١٣٨٣ هـ (١٩ كانون الأول ١٩٦٣ م).

لم يلبث أن وقع انقلاب في زنجبار بتاريخ ٢٧ شعبان ١٣٨٣ هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٦٤ م)، وأُزيح السلطان (جلمشيد) وأُعلنت الجمهورية، وأصبح (عبيد كرومي) رئيساً للجمهورية، وقد قاد هذا الانقلاب الحزب الأفرو- شيرازي، وقُتل في هذا الانقلاب ستة عشر ألف عربي لأن الانقلابيين عدّوا الأسرة العربية الحاكمة أسرةً مستعمرةً للمنطقة، وكذلك فإن العرب جميعاً هم من المستعمرين. وكذلك لقي أربعة وخمسون ألفاً

من المسلمين حتفهم، ولقي من بقي أنواع العذاب والاضطهاد. وكـانت طرق الإبادة غريبة حيث أُغرق ستة آلافٍ دفعةً واحدةً بعد أن أُبعدوا عن الساحل مسافةً طويلةً.

وفي ١١ ذي الحجة ١٣٨٣ هـ (٢٣ نيسان ١٩٦٤ م) وقعت الحكومة مرسوماً مع تانجانيقيا للاتحاد في دولةٍ واحدةٍ، حيث نشأت من الاتحاد دولة تانزانيا.

الفصل الثاني

الاستقلال

حصلت تانجانيقيا على استقلالها في ٢ رجب ١٣٨١ هـ (٩ كانون الأول ١٩٦١ م). ولكن يوليوس نيريري قدّم استقالته ليكرّس نفسه لتوجيه الحزب ـ حسب زعمه ـ وذلك في شعبان ١٣٨١ هـ (كانون الثاني ١٩٦٢ م)، ولكن يبدو أنه قد غيّر مركبه بعد أن رأى المركب الأمريكي أكثر سرعةً وأكثر سلامةً من المركب البريطاني، وخلفه في رئاسة الوزارة (رشيدي كواوا) الذي كان وزيراً دون حقيبةٍ وزاريةٍ في حكومة يوليوس نيريري السابقة. وبعد ستة أشهرٍ صرّح رشيدي كواوا بأن تانجانيقيا يجب أن تصبح جمهوريةً ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

انتخب يوليوس نيريري في ١٣ رجب ١٣٨٢ هـ (٩ كانون الأول ١٩٦٢ م) رئيساً للجمهورية، وحسب الدستور الجديد القائم على النظام الرئاسي لا يوجد رئيس للوزراء، ويتمتّع نائب رئيس الجمهورية بصلاحياتٍ واسعةٍ، وأصبح رشيدي كواوا نائباً للرئيس، وأصبحت تانجانيقيا جمهوريةً ضمن رابطة الشعوب البريطانية.

وفي ١١ ذي الحجة ١٣٨٣ هـ (٢٣ نيسان ١٩٦٤ م) انضمّت زنجبار إلى تانجانيقيا، وأصبحتا دولةً واحدةً، وأصبح يوليوس نيريري رئيساً للجمهورية الجديدة، وعُيّن عبيد كرومي نائباً أولاً للرئيس، وأثناء هذا الاتحاد عادت النكبات تنصبّ على المسلمين، فقُتل منهم عدد كبير، وشُرّد آخرون. ومع أن الانقلاب في زنجبار والانضمام إلى تانجانيقيا كان موجّهاً

صراحةً ضد العرب فإن بعض الدول العربية كانت أول دول العالم اعترافاً بما حدث، ومُقدّرةً لهذه الصنائع الجميلة، وقام الرئيس المصري جمال عبد الناصر بزيارة تانجانيقيا لتقديم الشكر على ما وقع حيث كانا في مركبٍ واحدٍ، إذ جاء يوليوس نيريري إلى المركب الذي فيه الرئيس المصري.

سُمّي الاتحاد الجديد بين تانجانيقيا وزنجبار بـ(تانزانيا) في جمادى الآخرة ١٣٨٤ هـ (تشرين الأول ١٩٦٤ م)، ومدينة دار السلام هي عاصمة الجمهورية الاتحادية.

والحزب الحاكم في تانجانيقيا هو الاتحاد الوطني الإفريقي الذي يرأسه رئيس الجمهورية يوليوس نيريري، أما الحزب الحاكم في زنجبار فهو الحزب الأفرو- شيرازي الذي يرأسه نائب رئيس الجمهورية الأول عبيد كرومي.

اغتيل عبيد كرومي رئيس المجلس الثوري الحاكم في زنجبار في ربيع الأول ١٣٩٤ هـ (نيسان ١٩٧٤ م)، وخلفه في الحكم (عبود جومبي) فأعاد تنظيم حكومة الجزيرة في رجب ١٣٩٤ هـ (آب ١٩٧٤ م)، وأعطى الحزب الحاكم الأفرو- شيرازي سلطاتٍ واسعةً على الرغم من اندماج الجزيرة مع تانجانيقيا.

وأُعيد انتخاب يوليوس نيريري رئيساً لجمهورية تانزانيا عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) و١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) و١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) و١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م).

وفي صفر ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م) تمّ دمج الحزبين (الاتحاد الوطني الإفريقي) في تانجانيقيا و(الأفرو- شيرازي) في زنجبار بعضهما مع بعضٍ، وشكّلا حزباً واحداً يُعرف بـ(شاما شاما بندوزي) وهو الحزب الثوري لتانزانيا.

وفي ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ (نيسان ١٩٧٧ م) وافق مجلس الشعب على دستورٍ دائمٍ لتانزانيا.

أُجريت الانتخابات العامة لأول مرةٍ في زنجبار في صفر ١٤٠٠ هـ (كانون الثاني ١٩٨٠ م) لانتخاب مجلس نوابٍ يتألف من أربعين عضواً.

وجرت محاولة انقلابٍ فاشلةٍ في زنجبار ضدّ حكومة عبود جومبي في شعبان ١٤٠٠ هـ (حزيران ١٩٨٠ م) وأصبح عدم الرضا عن الاتحاد مع تانجانيقيا واضحاً بين سكان زنجبار.

وجرت الانتخابات العامة للرئاسة في ذي الحجة ١٤٠٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٠ م) وأُعيد انتخاب يوليوس نيريري للمرة الرابعة رئيساً للجمهورية، وعبود جومبي نائباً للرئيس بأغلبيةٍ ساحقةٍ. إلا أن ما يقرب من نصف الأعضاء المنتخبين في المجلس النيابي قد أخفقوا بالاحتفاظ بمقاعدهم، وعُدّ ذلك احتجاجاً على نقص المواد الغذائية في الأسواق، وعلى تعقيد الأعمال الحكومية.

في ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ (كانون الثاني ١٩٨٣ م) تمّ اعتقال عدد من المدنيين والعسكريين بتهمة التخطيط للقيام بانقلابٍ عسكريٍ.

في هذه المدة ظهر عدم رضا الزنجباريين من الانضمام إلى تانجانيقيا، وهذا ما جعل عبود جومبي يُقدّم استقالته مع ثلاثةٍ من الوزراء. وفي شهر رجب ١٤٠٣ هـ (نيسان ١٩٨٣ م) انتخب علي حسن مويناي رئيساً لزنجبار بعد أن حصل على ٨٧,٥٪ من مجموع أصوات الناخبين، وهو وزير زنجباري سابق للسياحة، ومصادر الثروة الطبيعية.

وخلال عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) شُنّت عملية واسعة النطاق ضدّ من سُمّوا بالمخربين الاقتصاديين، وقد اتّهموا بالتهريب، وأدّت العملية إلى اعتقال مئات الأشخاص. وعُرض قانون جديد ضدّ الجرائم الاقتصادية.

أقرّ المجلس النيابي في مطلع عام ١٤٠٥ هـ (تشرين الأول ١٩٨٤ م) إجراء تغييراتٍ أساسيةٍ في الدستور، وتهدف هذه التغييرات إلى الحدّ من سلطات الرئيس، وزيادة سلطات المجلس النيابي. وفرض دستور جديد في

زنجبار في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) يسمح بزيادةٍ كبيرةٍ في عدد النواب، ويشمل نظاماً قانونياً جديداً يسمح بوجود محامبي الدفاع، والحق في الاستئناف.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ (آذار ١٩٨٤ م) أعاد الرئيس يوليوس نيريري التأكيد على نيته ترك الرئاسة في نهاية مدته، وإحالة نفسه على التقاعد، وكان من المتوقّع أن يكون خلفه رئيس الوزراء (إدوارد سوكومين) لكنه مات في شهر رجب ١٤٠٤ هـ (نيسان ١٩٨٤ م)، فحلّ مكانه في منصب رئاسة الوزراء (سالم أحمد سالم)، وقد كان يشغل من قبل منصب وزير الخارجية.

تبنّى الحزب الثوري التانزاني (علي حسن مويناي) رئيس زنجبار ونائب رئيس تانزانيا منذ شهر رجب ١٤٠٤ هـ (نيسان ١٩٨٤ م) كمرشحٍ وحيدٍ للرئاسة وذلك في ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م)، وانتخب في مطلع شهر صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م)، وقد حصل على ٩٦٪ من مجموع أصوات الناخبين.

أُجريت الانتخابات العامة للمجلس النيابي في اليوم نفسه الذي تسلّم فيه علي حسن مويناي السلطة.

وعيّن الرئيس علي حسن مويناي (جوزيف ڤاريوبا) رئيساً للوزراء، ونائباً للرئيس، وكان يشغل من قبل منصب وزير العدل، وعيّن سالم أحمد سالم نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للدفاع، وجرت بعض التغييرات الوزارية.

وأُجريت الانتخابات الرئاسية والتشريعية في زنجبار في صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م)، وانتخب إدريس عبد الوكيل رئيساً لزنجبار خلفاً لعلي حسن مويناي، وكان من قبل يشغل منصب المتحدّث الرسمي للمجلس النيابي في زنجبار، وعلى الرغم من أنه كان المرشح الوحيد إلا أنه لم يحصل إلا على ٦١٪ من الأصوات، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على ضعف التأييد له.

وبقي يوليوس نيريري رئيساً للحزب الثوري التانزاني.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) تبنّت اللجنة الوزارية للحزب منهجاً لمدة سنتين يهدف إلى تنشيط الحزب. وفي هذه الأثناء تبيّن للقضاء أن تسعةً من المتهمين قد ثبتت عليهم التهمة، وحُكم عليهم بالسجن مدى الحياة.

شنّ الرئيس التانزاني علي حسن موييناي هجوماً على الفساد، وسوء الإدارة في الحزب الثوري التانزاني وتبع ذلك في الأشهر التالية طرد عددٍ من المسؤولين الإقليميين للحزب، ومديري الهيئات والمؤسسات من وظائفهم، أو نزلت مراتبهم، وفي بعض الحالات كانوا يُطردون من الحزب.

وأُدين (باسل مرامبا) وزير الصناعة والتجارة باستخدامه طرقاً غير مشروعةٍ في انتخابات صفر ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م) ففقد نتيجة ذلك مقعده النيابي، وبالتالي منصبه الحكومي (حسب الدستور).

وفي ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م) بدا أن هناك انقساماً واضحاً بين الاشتراكيين المحافظين الذين يريدون السير على النهج الاشتراكي التقليدي للحزب الثوري التانزاني وبين أصحاب الاتجاه العملي الواقعي (البراغمانيون) الذين يرون السير على نهج أكثر تحرراً للحكومة (كما يرغب الرئيس علي حسن موييناي).

ساد الظن بأن الرئيس السابق يوليوس نيريري سيوافق على إعادة ترشيحه لرئاسة الحزب الثوري التانزاني على الرغم من التصريحات السابقة كلها بأنه سيترك المنصب عام (١٩٨٧ م) عكس رغبته في مواجهة نجاح البراغمانيين في توجيه سياسة الحكومة والذي تمثّل في عقد اتفاقيةٍ مع صندوق النقد الدولي في ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م).

أُعيد انتخاب يولويس نيريري رئيساً للحزب الثوري التانزاني بأغلبيةٍ

كبيـرةٍ في مجلس الحزب في صفـر ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م)، وجرت انتخابـات اللجنة الـوطنية التنفيـذية للحـزب الثوري التـانزاني في مجلس الحـزب. وفي الانتخابـات التي تلتهـا، والتي جـرت في اللجنـة التنفيذية لاختيار اللجنة المركزية للحزب فقد عضوان بـارزان براغمـانيان مقعدهما، وهمـا: (كليوبـا مسوايـا) وزير المـالية، والتخـطيط، والشؤون الاقتصادية، و (سيف شريف حمد) رئيس وزراء زنجبار. ولكن الرئيس علي حسن مـويناي طـرد من حكومتـه في تعديـلٍ أجراه عليهـا ثـلاثـةً وزراء اشتراكيين محافظين لأنهم عارضوا سياسته في التحرّر الاقتصادي.

وفي زنجبار أخذ التوتّر يزداد في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كـانون الثاني ١٩٨٨ م)، ويعكس المنافسـة بين الجزيـرتين اللتين يتكوّن منهمـا الإقليم (زنجبـار) و (بمبا)، وبين العـرب والأفارقـة، وبين الذين يُؤيّـدون الوحدة مع تنجانيقيا والذين يُعارضونها.

علّق الرئيس الزنجباري إدريس عبد الوكيل المجلس الثوري الأعلى، وتولى السيطرة على القـوات المسلحة بنفسـه من مكتب منافسـه الرئيسي رئيس الوزراء (سيف شريف حمد) بعد أن ادّعى الرئيس إدريس عبد الوكيل بأن مجموعـةً من المنشقّين، وفيهم أعضاء في المجلس كـانوا يخـططون للإطاحة بحكومته. ثم عيّن الرئيس مجلساً جديداً في الشهر نفسه استبعد منه خمسة وزراء، كان من بينهم رئيس الوزراء سيف شريف حمد، الذي ينتمي إلى جزيرة (بمبا)، والذي يُفضّل السياسة الاقتصادية المحافظة.

عيّن الرئيس إدريس عبد الـوكيل (عمـر علي جمعة) رئيسـاً جديـداً للوزراء، وهو مسؤول حكومي كبير. ثم طُرد (سيف شريف حمد) وستـة آخرون من المسؤولين الحزبيين في رمضان ١٤٠٨ هـ (أيار ١٩٨٨ م) من المجلس الثوري التانزاني بحجة معارضتهم لأهداف الحـزب، وتعريضهم وحدة تانزانيا للخطر.

وفي الشهر نفسه قام حوالي أربعة آلاف مسلم بمظاهرةٍ في زنجبار.

وبعدها بقليل شكل الـرئيس لجنةً خـاصةً لتقصّي أسبـاب الاضطرابـات، وفُرضت عدة قيود على الصحافة الزنجبارية في شهر صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م).

أرسل أربعة آلاف جنديٍ من تانجانيقيا إلى زنجبار كإجراء وقائي في جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) بناءً على تقارير ذكرت أن انقلاباً يجري الإعداد لـه ضد حكـومة الـرئيس إدريس عبد الـوكيل، وأن الانقلاب يتزامن مع الاحتفالات التي تقام في (كانون الثاني ١٩٨٩ م) في الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال زنجبار، ومرّ الاحتفال دون وقوع أي اضطراب.

وأُعيد تنظيم مجلس الوزراء التانزاني من جديدٍ في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م).

وفي ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) أُعلن أن نائب مجلس الوزراء التانزاني، وزير الدفاع سالم أحمد سالم سيترك منصبه في الحكومة ليتولى أمانة سرّ منظمة الوحدة الإفريقية، وتانزانيا عضو بارز فيها.

وأعاد الرئيس التانزاني علي حسن موينياي تعديل مجلس الوزراء من جديدٍ في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) وثبّت مركزه باستلام المراكـز التي كان يتولّاها سالم أحمد سالم. وأعلن في الشهر التالي أن رئيس وزراء زنجبار عمر علي جمعة قد انتخب ليكون عضواً في اللجنة المركزية للحزب الثوري التانزاني.

شنّ الحزب الثوري التانزاني حملةً ضدّ الفساد بين موظفي الحكومة في رجب ١٤١٠ هـ (شبـاط ١٩٩٠ م)، وفي الشهر التـالي أُعيد تعـديـل مجلس الوزراء، فأُبعد منه سبعة وزراء بحجة معارضتهم خطط الإصلاح الاقتصادي.

وأعلن يوليوس نيريري رئيس الحزب الثوري التانزاني أنه سيتقاعـد ويترك عمله في مطلع عام ١٤١١ هـ (آب ١٩٩٠ م).

في شهر جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ (كانون الأول ١٩٩٣ م) اعتقل (متيكيلا) مع أربعةٍ من أنصار الحزب الديمقراطي، ووجّهت إليهم تهمة التحريض على العصيان. كما حدثت مظاهرة للمعارضة في جزيرة (بمبا) قتلت قوات الأمن رجلاً من المعارضة وجرحت آخر.

وفي شهر ذي القعدة ١٤١٤ هـ (نيسان ١٩٩٤ م) وقعت أعمال عنفٍ بين المسلمين الملتزمين وبين قوات الأمن، واعتقل على أثرها أربعون مسلماً، واتهموا بالقيام بتظاهراتٍ غير قانونيةٍ، واتهم الشيخ يحيى حسين زعيم الحركة الإسلامية (بالوكتا) بالتآمر ضد الحكومة، وعُدّت هذه الحركة منظمة مجرمة خارجة على القانون مع أن التهم التي وُجّهت إلى زعيم الحركة الشيخ يحيى حسين قد سحبت في مطلع عام ١٤١٥ هـ (حزيران ١٩٩٤ م).

وفي شهر ربيع الثاني ١٤١٥ هـ (أيلول ١٩٩٤ م) اعتقل (متيكيلا) مرتين بتهمة التحريض على العصيان، كما اعتقل مرةً ثالثةً في الشهر التالي لذلك مع قادة ثلاثة أحزاب معارضة واتهم هؤلاء بعقد اجتمعاتٍ محظورةٍ، وبإثارة الرعب والخوف، وإهانة الرئيس والحكومة.

وافقت الجمعية الوطنية في صفر ١٤١٤ هـ (آب ١٩٩٣ م) على اقتراح بإنشاء حكومة وهيئة تشريعية منفصلتين بعضهما عن بعض في تنجانيقا وزنجبار، وقد حذر الرئس السابق يوليوس نيريري من هذا الإجراء. واقترحت سلطات زنجبار أنه إذا تمّ هذا فسيكون الحق لكل جزء بإنشاء قوات مسلحة خاصة.

وقد فاز مرشحو الحزب الثوري التانزاني الحاكم على مرشحي المعارضة في الاقتراع المحلي الذي جرى (١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ م)، وأعطت النتائج مؤشرات إلى أن الانقسامات داخل الأحزاب التي حصلت حديثاً على حق العمل السياسي والتنظيمي قد يعيق إقامة تحدٍّ متلاحم ضد الحزب الحاكم في الانتخابات الرئاسية والتشريعية التي ستخوضها لأول مرةٍ في تلك الانتخابات التي من المقرر أن تجري في شهر جمادى الأولى ١٤١٦ هـ (تشرين الأول ١٩٩٥ م). ولكن الأحزاب المعارضة ادعت أنها لم تلق الحرية الكافية التي تدعيها الحكومة.

وفي شهر جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ (تشرين الثاني ١٩٩٤ م) هددت بعض الجهات الدولية المانحة بقطع المعونة عن تانزانيا ما لم تنظم الأمور المالية بشكل دقيق. وفي الشهر التالي أجرى الرئيس علي حسن موايناي تعديلاً وزارياً حيث أزيح عن رئاسة الوزارة (ماليسيلا) كما أزيح (كليوبا أمسويا) وزير الصناعة والتجارة، وكان من قبل يشغل منصب نائب الرئيس، وعيّن (جاكايا ككويتي) وزيراً للمالية، وكان من قبل يشغل منصب وزير الطاقة والثروة المعدنية والمياه.

السياسة الخارجية:

تانزانيا إحدى دول عدم الانحياز التي يسير أكثرها في فلك السياسة الرأسمالية ويدّعي عدم الانحياز، وتنادي تانزانيا بالاشتراكية وتأخذ مركب السياسة الأمريكية، أو تُحارب الاشتراكية بالاشتراكية حيث ينفر الناس من الاشتراكية عند معرفتها على ساحة التطبيق بإفقار المجتمع وإذلاله، وتسلّط الأشرار الحاقدين على علية القوم الكرام.

قدّمت تانزانيا مساعدات لموزامبيق، وساندت جبهة تحرير موزامبيق (فريليمو) في قتالها من أجل الاستقلال. وتعاون البلدان بشكلٍ وثيقٍ على أساس الخلفية الفكرية الاشتراكية التي تجمع بينهما.

وتعهدت تانزانيا بتوفير الدعم العسكري لحكومة موزامبيق في قتالها ضدّ قوات المعارضة بعد موت الرئيس الموزامبيقي في شهر صفر عام ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م).

ووصل إلى موزامبيق في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) ألف ومائة جندي من تانزانيا. ولكن بعد سبعة أشهرٍ تمّ سحب القوات التانزانية المتمركزة في موزامبيق، والتي قيل إن عددها يتراوح بين الألفين والثلاثة آلاف، وأُشيع أن الانسحاب قد تمّ لأن الحكومة التانزانية غير قادرةٍ على دفع التكاليف الباهظة التي تحتاجها تلك العملية.

وفي الشهر الذي تمّ فيه سحب القوات التانزانية من موزامبيق ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) عبر الحدود التانزانية ستة آلاف لاجئٍ من موزامبيق نتيجةً لاضطراب الوضع. وبلغ عدد اللاجئين في رجب ١٤٠٩ هـ (شباط ١٩٨٩ م) اثنين وسبعين ألف لاجئ.

تعزّزت العلاقات مع الجارة زامبيا بعد توجيه جزءٍ كبيرٍ من تجارة زامبيا عبر أراضي تانزانيا بعد أن أقفلت زيمبابوي حدودها مع زامبيا، وزادت العلاقات قوةً بعد تسيير الخط الحديدي الذي أنشأته الصين بين زامبيا وتانزانيا، والمعروف باسم (تازارا) عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م). وقام الرئيس التانزاني علي حسن موينياي بزيارةٍ إلى زامبيا في ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م)، وافقت الدولتان على توطيد التعاون الاقتصادي، والتقني، والثقافي بينهما.

وكانت العلاقات بين تانزانيا وبين كلٍّ من كينيا وأوغندا متوتّرةً وخاصةً بعد حلّ تجمّع الشرق الإفريقي عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م). وفي جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (نيسان ١٩٧٩ م) ساندت القوات التانزانية الجبهة الوطنية الأوغندية بالإطاحة بحكم الرئيس الأوغندي عيدي أمين من باب التعاون الصليبي ضدّ المسلمين. وأُعيد فتح الحدود بين الدولتين عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م)، وكانت قد أُغلقت قبل ست سنواتٍ، وذلك بعد التوصّل إلى اتفاقيةٍ لتوزيع موجودات ومسؤوليات تجمّع الشرق الإفريقي. وفي عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) وافق البلدان من حيث المبدأ على استخدام العملات المحلية في التجارة بين البلدين، كما استأنفت خطوطهما الجوية رحلاتها داخل البلدين، وُوقّعت اتفاقيات للسفر بين البلدين بالطرق البرية.

وقام الرئيس التانزاني علي حسن موينياي بزيارةٍ رسميةٍ إلى كينيا في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) وتوصل إلى توقيع اتفاقيةٍ تجاريةٍ، وإلى اتفاقٍ لتأسيس لجنة تعاونٍ مشتركٍ بين البلدين.

ودعمت تانزانيا في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) نظام موسيفيني الذي استولى على السلطة في أوغندا، وبدءاً من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) أخذت تانزانيا بإرسال مدرّبين عسكريين إلى أوغندا لتنظيم وتدريب القوات الحكومية الأوغندية.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة تانزانيا تسعمائةٍ وخمسةً وأربعين ألف كيلومتر مربع، وتُشرف من ناحية الشرق على المحيط الهندي حيث يبلغ طول ساحلها عليه ألفاً وأربعمائةٍ وأربعةً وعشرين كيلومتراً. وتجاور سبعة دولٍ إفريقيةٍ، ويبلغ طول حدودها معها جميعها ثلاثة آلافٍ وأربعمائةٍ واثنين من الكيلومترات.

حيث يبلغ طول حدودها مع موزامبيق سبعمائةٍ وستةً وخمسين كيلومتراً. (٧٥٦كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة ملاوي أربعمائةٍ وخمسةً وسبعين كيلومتراً. (٤٧٥كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة زامبيا ثلاثمائةٍ وثمانيةً وثلاثين كيلومتراً. (٣٣٨كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة بورندي أربعمائةٍ وواحداً وخمسين كيلومتراً. (٤٥١كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة رواندا مائتين وسبعة عشر كيلومتراً. (٢١٧كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة أوغندا ثلاثمائةٍ وستةً وتسعين كيلومتراً. (٣٩٦كم).

ويبلغ طول حدودها مع دولة كينيا سبعمائة وتسعةً وستين كيلومتراً. (٧٦٩كم).

ومن المعلوم أن جزءاً من حدود تانزانيا مع ملاوي إنما هو مائي حيث يكون خط الحدود على الساحل الشمالي الشرقي من بحيرة (ملاوي). كما أن هناك حدوداً مائيةً مع زائير إذ يكون خط الحدود بين الدولتين في منتصف بحيرة (تانجانيقيا)، وتزيد تلك الحدود على خمسمائةٍ وخمسين كيلومتراً. وكذلك فإن جزءاً من الحدود مع أوغندا إنما يكون في منتصف بحيرة فيكتوريا. وكذا مع كينيا.

ويبلغ عدد سكان تانزانيا حسب تقديرات **١٤١٢** هـ (**١٩٩١** م) خمسة وعشرين مليوناً ومائتا ألف إنسانٍ. وبذا تكون الكثافة سبعةً وعشرين إنساناً في الكيلوالمتر المربع الواحد.

الصراع الإقليمي:

تتألف تانزانيا من اتحاد (تانجانيقيا) و(زنجبار)، ومع مرور أكثر من ثمانٍ وعشرين سنةً على قيام ذلك الاتحاد إلا أن قسماً من سكان زنجبار لا يزالون غير راضين عن ذلك الاتحاد، ويُطالبون بانفصاله وما ذلك إلا لأسبابٍ عقيديةٍ إذ أن أهل زنجبار جميعاً من المسلمين على حين يكثر الوثنيون في تانجانيقيا.

وهناك صراع آخر بين سكان الساحل حيث يعمّ الإسلام وبين سكان الداخل حيث تنخفض نسبة المسلمين فالأسباب عقيدية، ومن المعلوم أن الحياة الاجتماعية، ونمط المعيشة، وأسلوب التفكير، والثقافة كل ذلك ينبع من العقيدة، ويتباين مع اختلافها، ومن هنا ينشأ الصراع.

ونشأ حديثاً صراع أيضاً في زنجبار نفسها بين أهل الجزيرتين اللتين تتألف منهما الدولة (زنجبار) و(بمبا) وذلك على اقتسام السلطة، والسعي وراء المناصب والمصالح.

الصراع العنصري:

يشكل الأفارقة غالبية السكان في تانجانيقيا، وهم مجموعات، ومنهم:

١ ـ **الزنوج**: ويعيشون في مناطق السافانا.

٢ ـ **البانتو**: وهم عدّة جماعاتٍ وقد أُطلق عليهم هذا الاسم لأنهم يتكلّمون لغاتٍ تحمل هذا الاسم، وتعود لأصولٍ حاميةٍ.

٣" ـ **الهوتانتو**: وهم جماعة قليلة، تعيش في المرتفعات، وتُفضّل رعي الأبقار.

وهناك جماعات من غير الأفارقة، ومنهم:

١" ـ **العرب**: وقد جاءوا تجاراً منذ أيام الجاهلية، واستقرّوا في المنطقة، ولم يعد لهم أثر، وإنما الذين بقي أثرهم هم الذين جاءوا بعد الإسلام تجاراً ودعاةً.

٢" ـ **الهنود**: ووصل الهنود تجاراً، واستطاعوا أن يُسيطروا على التجارة حتى أطلق عليهم العرب وسكان البلاد اسم (بانياني)، وهي مشتقة من الكلمة الهندوسية (بونيا) وتعني تاجر.

ثم ركدت تجارة العرب والهنود أثناء مجيء المستعمرين الصليبيين البرتغاليين، ثم عادت الحركة التجارية إلى سابق عهدها بعد زوال النفوذ البرتغالي، وجاءت موجات من الهنود، وشجّعهم الحكم العُماني، ووثق بهم، فوفدت أعداد وفيرة منهم إلى شرقي إفريقية.

وزاد إقبال الهنود بعد عقد اتفاقيةٍ تجاريةٍ بين سلطان عمان سعيد وبين بريطانيا عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وذلك لأن المعاهدة نصّت على امتيازاتٍ كثيرةٍ للرعايا البريطانيين، وكان الهنود يومذاك من الرعايا البريطانيين.

عندما تولّى أمر سلطنة زنجبار (برغش) عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) حدّ من نشاط الهنود بناءً على ملاحظاتٍ له عليهم، غير أن القنصل البريطاني قد تدخّل بالأمر، وثناه عن عزمه، وسُحبت الأوامر الصادرة بحقهم.

وجاء الهنود عسكريين أيضاً، وجنوداً مرتزقةً إضافةً إلى التجارة. وعندما وُضعت تانجانيقيا تحت الاستعمار الألماني، وجد الهنود كل تشجيعٍ من قبل الألمان لأنهم كانوا بحاجةٍ إليهم، وعرفوا أهميتهم الاقتصادية، وخاصةً أن الهنود كانت لهم معرفة بالمناطق الداخلية في إفريقية، ولا يمكن للألمان أن يحلّوا محلّهم، وقد وصل عددهم إلى تسعة آلاف هنديٍ عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م).

وفي الحرب العالمية الأولى دخلت تانجانيقيا قوة مؤلّفة من ثمانية آلاف جنديٍ مُهمّتها المساعدة على إخراج الألمان من المنطقة، ولكن هذه القوة قد سُحبت بعد الحرب لأسباب صحيةٍ.

وبعد انتهاء الحرب وضعت مستعمرة شرقي إفريقية الألمانية تحت الوصاية، وانتدبت عصبة الأمم بريطانيا لتكون هي الوصية، فزادت هجرة الهنود إلى تانجانيقيا بتشجيعٍ من بريطانيا، فوصل عددهم عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) إلى ٢٣,٤٢٢ هندياً. وعندما بيعت ممتلكات الرعايا الألمان السابقين بالمستعمرة بالمزاد العلني، حيث صودرت اشتراها الهنود.

وبعد عشر سنواتٍ من وضع تانجانيقيا تحت الوصاية البريطانية سيطر الهنود على معظم تجارة المفرّق، وتجارة الجملة كلها تقريباً، كما امتلكوا ٩٠٪ من الأملاك الخاصة في مدينة دار السلام، فالفنادق، والمحال التجارية كلها كانت بحوزتهم، ووصل عددهم في تانجانيقيا عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م) إلى أربعةٍ وتسعين ألفاً، على حين كان عددهم يومذاك في زنجبار خمسة عشر ألفاً، ومعظم هذا العدد كان يعيش في المدن الكبرى (دار السلام) و(زنجبار)، وإن بدؤوا يتوغّلون نحو الداخل مع بدء الاستعمار الأوربي.

والهنـود من سكـان شبـه القـارة الهنـديـة قبـل تقسيمهـا، وهـم من المسلمين، والهندوس، والشيعة، والبوهرا، والإسماعيلية، والقاديانية.

٣" ـ **الأوربيون**: أقام الأوربيون مراكز لهم في المناطق المـرتفعة حيث صعبت عليهم الحياة في المناطق المنخفضة لارتفاع الحرارة وزيادة الرطوبة، ومعظمهم من الإنكليز، لأن البرتغاليين انسحبوا من مراكزهم بعد أن طُردوا من البلاد فخرج من استقر منهم مع السلطة، وكذا خرج الألمان بل صودرت أملاكهم وبيعت.

ويتوزّع سكان تانجانقيا كما يأتي:

الإفريقيون	٢٣,٨٤٠,٠٠٠
الهنود	٣٢٠,٠٠٠
العرب	١٥٦,٠٠٠
الأوربيون	٠٤٠,٠٠٠
المجموع	٢٤,٣٥٦,٠٠٠

أما زنجبار فيتألف سكانها مما يأتي:

شيرازيون	٤٦٥,٠٠٠
عرب	١٦٠,٠٠٠
إفريقيون	١٦٣,٠٠٠
هنود	٥٥,٠٠٠
أوربيون	١,٠٠٠
المجموع	٨٤٤,٠٠٠

فيكون سكان تانزانيا:

تانجانيقيا	٢٤,٣٥٦,٠٠٠
زنجبار	٨٤٤,٠٠٠
المجموع	٢٥,٢٠٠,٠٠٠

ولما كان العرب أقليةً في زنجبار، وهم الذين يحكمونها، فالسلطان منهم لـذا تشكّـل حـزب يضمّ المجمـوعتين الأخـريين الكبيـرتين وهمـا: الشيرازيون والإفريقيون، وعُرف هذا الحزب بدمـج في مسمى واحدٍ هـو الحزب (الأفرو- شيرازي)، وما أن استقلت الجزيرة حتى قام هذا الحزب بانقلابٍ وقام على العرب، وأباد قسماً منهم بوسائل مختلفةٍ، ولقي تأييداً من بعض الدول العربية - مع الأسف - وما كان ذلك إلا للركوب في مركبٍ تعود ملكيته إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي تزعّمت الدول النصرانية، وغدت صاحبة الكلمة المسموعة في هيئة الأمم المتحدة الصليبية.

أما تانجانيقيا فإن الإفريقيين هم الغالبية، والمجموعات الأخرى قلّة قليلة بالنسبة إلى الإفريقيين لذلك لا نجد صراعاً عنصرياً واضحاً. وكذلك فإن القبائل الإفريقية في تانجانيقيا لدرجةٍ تكاد تصل إلى المائة، فلا نجد فيها صراعاً واضحاً على السلطة، أما الصراعات المحلية فهي أمر طبيعي ولكن أثرها خارج ديارها لا شأن له.

الصـراع العقيـدي:

تبلغ نسبـة المسلمين في تانـزانيا ٦٢٪، ويشكّـل النصـارى ٢٧٪، والـوثنيون ١١٪، وإن كـانت هـذه النسبـة تختلف في زنجبـار عنهـا في تانجانيقيا.

أولاً: زنجبار:

المسلمون	٩٠٪
النصارى	٤٪
الوثنيون	٤٪
الهندوس	٢٪

١" ـ المسلمون:

الشيرازيون	١٠٠٪	٤٦٥,٠٠٠
العرب	١٠٠٪	١٦٠,٠٠٠
الإفريقيون	٤٢٪	٦٨,٤٦٠
الهنود	٦٢٪	٣٦,١٤٠
المجموع	٩٠٪	٧٢٩,٦٠٠

٢" ـ النصارى:

الإفريقيون	٣٠٪	٤٨,٩٠٠
الأوربيون	١٠٠٪	١,٠٠٠
المجموع	٤٪	٤٩,٩٠٠

٣" ـ الوثنيون:

الإفريقيون	٢٨٪	٤٤,٠٠٠
المجموع	٤٪	٤٤,٠٠٠

٤" ـ الهندوس:

هنود	٣٨٪	٢٠,٠٠٠
المجموع	٢٪	٢٠,٨٠٠

ولما كانت غالبية السكان مسلمين لذا فالصراع العقيدي ضعيف، وقد حلّ مكانه الصراع العنصري الذي تمثّل أيضاً في الصراع الحزبي. أما المذاهب في زنجبار فهي كما يلي:

١ ـ سنة شافعيون ويُشكّلون ٨٩٪ وهم من مختلف الجماعات البشرية (شيرازيون، عرب، إفريقيون، هنود).

٢ ـ أباضيون ويُشكّلون ١٠٪ وهم من العرب والشيرازيين.

٣ ـ شيعة ويُشكّلون ١٪ وهم من العرب والهنود.

ثانياً: تانجانيقيا: يُشكّل:

المسلمون	٦٠٪	١٤,٦١٣,٦٠٠
النصارى	٢٧٪	٦,٥٧٦,١٢٠
وثنيون	١٣٪	٣,١٦٦,٢٨٠
المجموع	١٠٠٪	٢٤,٣٥٦,٠٠٠

أما حسب الأجناس:

١ ـ المسلمون: من الإفريقيين، ومن الهنود، والعرب جميعاً.
٢ ـ النصارى: من الإفريقيين، والأوربيون جميعاً.
٣ ـ الوثنيون: من الإفريقيين فقط.
٤ ـ الهندوس: من الهنود فقط.

المسلمون:

العرب	١٠٠٪	١٥٦,٠٠٠
الإفريقيون	٦٠,٨٠٪	١٤,٣٢١,١١٢
الهنود	٤٨,٥٩٪	١٣٦,٤٨٨
المجموع	٦٠٪	١٤,٦١٣,٦٠٠

النصارى:

الأوربيون	١٠٠٪	٤٠,٠٠٠
الإفريقيون	٢٨٪	٦,٥٣٦,١٢٠
المجموع	٢٧٪	٦,٥٧٦,١٢٠

الوثنيون:

الإفريقيون	١٢,٧٪	٣,٠٢٧,٦٨٠

الهندوس :

الهنود	٥١,٤١٪	١٣٨,٦٠٠

أولاً : تانجانيقيا :

	الإفريقيون	الهنود	العرب	الأوربيون
المسلمون	٦٠٪	٤٣,٥٩٪	١٠٠٪	—
النصارى	٢٨٪	—	—	١٠٠٪
الوثنيون	١٢٪	—	—	—
الهندوس	—	٥٦,٤١٪	—	—
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪

ثانياً : زنجبار :

	الإفريقيون	الهنود	العرب	الأوربيون	الشيرازيون
المسلمون	٤٢٪	٦٢٪	١٠٠٪	—	١٠٠٪
النصارى	٣٠٪	—	—	١٠٠٪	—
الوثنيون	٢٨٪	—	—	—	—
الهندوس	—	٣٨٪	—	—	—
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪

فالصراع العقيدي موجود على نطاقٍ واسعٍ غير أنه مكبوت، فالمسلمون فقراء، وعلى مستوىً من الجهل كبيرٍ، وقد شغلتهم السلطة بأمور حياتهم، وبالحزب الثوري الذي يعمل على إبعاد الناس عن دينهم بإفسادهم، فهذا دور هذا الصراع. ففي الوقت الذي لا يسمح للمسلمين بأي تنظيمٍ في سبيل نشر الوعي والتنبيه إلى أمور الدين، ولكن يُدعون للانضمام إلى صفوف الحزب في سبيل تأمين حياتهم نجد الإرساليات التنصيرية تمرح كما تشاء في البلاد، والباب مفتوح أمامها على مصراعيه،

ولديها الإمكانات الضخمة، وتظهر للناس بالوجه الحسن بما تُقدّمه من خدماتٍ تعليميةٍ وصحيةٍ، واجتماعيةٍ، ومساعداتٍ أحياناً، حتى تستطيع التأثير، حتى إذا شعرت باقتراب الناس منها عملت على سحبهم إلى النصرانية، فإن لم تنجح وهو الغالب تكون قد أبعدتهم عن دينهم، وهو هدف بحدّ ذاته. ولكن قد يحدث صراع في المنطقة الساحلية حيث تكون الغالبية للمسلمين فيتألّمون مما يحدث أمامهم، وقد تقع ردود فعلٍ غير أن الضغط يُسكتهم فإن لم يُجد فالسيف يُخرسهم، ويلعب الحزب الثوري دوره في كبح الحركة وكتم الصوت.

ويتبع النصارى عدة كنائس منها الأنكليكانية، واللوثرية، والإغريق الأرتوذكس، والروم الكاثوليك، والمورافيانية.

كما توجد فئة من البهائيين، ويشرف عليها المجلس الرومي الوطني في العاصمة دار السلام.

الصراع الحزبي:

لا يوجد صراع حزبي في تانزانيا إذ لا توجد تعددية حزبية وإنما حزب واحد، بيده السلطة، ولا يسمح بمنافسٍ له. فقد وجد في تانجانيقيا حزب الاتحاد الوطني الإفريقي الذي أسّسه يوليوس نيريري، وتسلّم الحكم من البداية، وهدفه جمع المؤيّدين ليستطيع البقاء في السلطة، وقد هُرع إليه المنتفعون.

وفي زنجبار وجد الحزب الأفرو- شيرازي الذي يضم أفراداً من المجموعتين الكبريين الإفريقية والشيرازية، واللتان حمل اسمهما، وكان يهدف إلى السيطرة على الحكم، ولا يمكنه تحقيق ذلك إلا بإبعاد الأسرة الحاكمة التي هي من العنصر العربي، لذا عمل على معاداة العرب، ولم تكن بريطانيا الدولة المستعمرة أن تقبل بإزاحة الأسرة العُمانية الحاكمة ما دامت الاتفاقات كلها قد تمّت معها، وفي الوقت نفسه لم تكن ترغب أن تُتهم بالتخلّي عن الأصدقاء، لذا أعطت الجزيرة الاستقلال لتفسح المجال

أمام أعوانها الأقوياء للتخلص من أصدقائها الضعفاء قليلي الأتباع، غير المنظمين. وسيطر الحزب، وتغطرس قادته، فليس هناك من يقف أمامهم.

وتوحّد الإقليمان (تانجانيقيا) و(زنجبار)، وكل حزبٍ سيد في إقليمه، لا فئة تُنافسه، ولا جماعة تستطيع أن تُناوئه. ولا يوجد خلاف بينهما فكل يعمل في ساحة نفوذه. ثم اندمج الحزبان في صفر ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م) أي بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً على انضمام الجزأين بعضهما إلى بعضٍ. وكان من اندمجهما الحزب الثوري الذي بيده مقاليد الدولة، رئيسه رئيس جمهورية تانزانيا، ونائبه رئيس زنجبار، حتى إذا تقاعد رئيسه يوليوس نيريري من رئاسة جمهورية تانزانيا تولّى رئاسة الجمهورية رئيس زنجبار علي حسن موينياي، وبقي يوليوس نيريري رئيس الحزب.

وظهر في الحزب جناحان أحدهما يتمسك بالفكر الاشتراكي ويريد الالتزام بالتطبيق، وآخر يرغب في التحرر الاقتصادي، وظهر بين الجناحين شيء من الصراع غير أن الجناح المتحرّر بزعامة رئيس الجمهورية علي حسن موينياي بقي المهيمن على الوضع، وكلما رفع أحد معارضيه رأسه أُخفض بالقوة، وأُبعد عن منصبه، وإذا دعا الأمر طُرد من الحزب.

وعندما رأى رئيس زنجبار إدريس عبد الوكيل معارضةً له في المجلس الثوري الأعلى علّق صلاحياته، وتولّى بنفسه السيطرة على القوات المسلحة.

إذن وجد صراع داخل الحزب، ولكن بقي أحد الأجنحة هو المسيطر دون إمكانية المعارضة من الجناح الآخر، فكأنّ ذاك الجناح هو الحزب المتحكّم.

البَابُ الثّانِي

جَزائرُ القُمُر

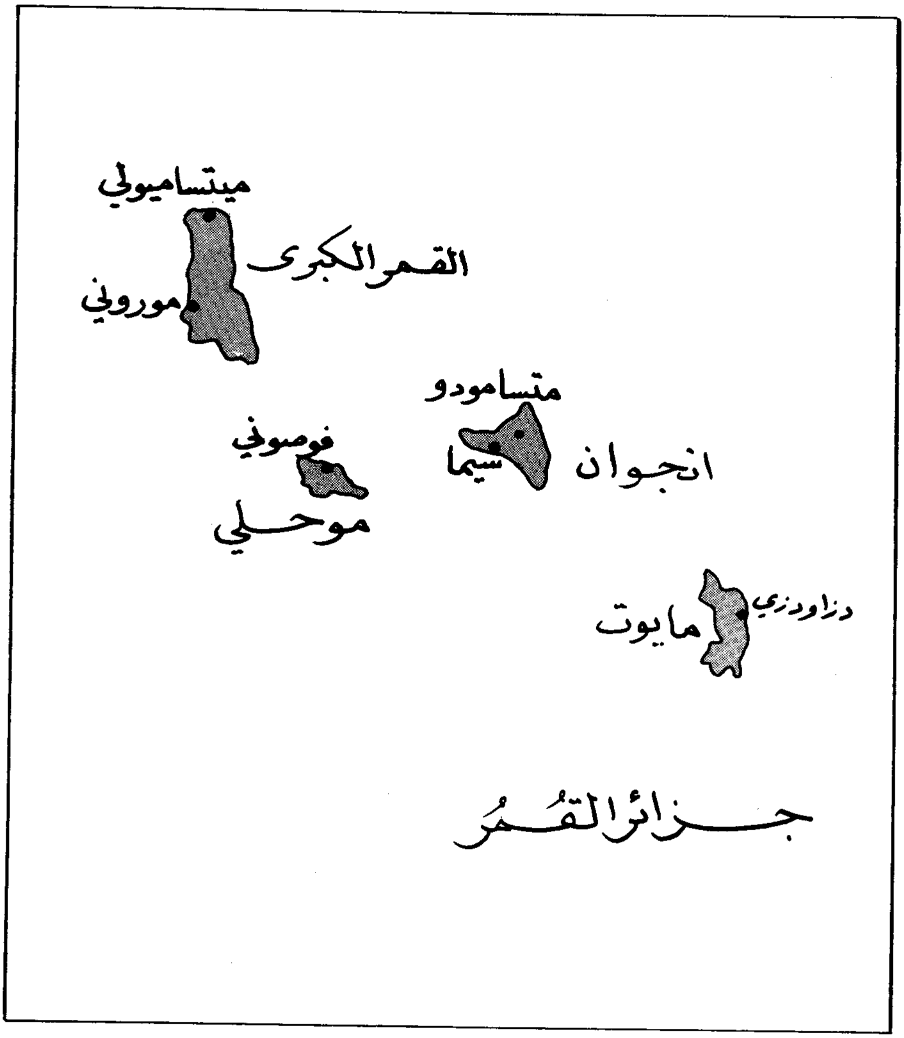
ميتساميولي
القمر الكبرى
موروني
متسامودو
فومبوني
سيما
انجوان
موحلي
دزاودزي
مايوت
جزائر القمر

مصور رقم [٨]

لمحة عن جزائر القُمر قبل إلغاء الخلافة

سكن جزائر القُمر أول من سكنها جماعة من العنصر الماليزي، ثم وصلت إليها جماعة من الآدوميين في القرن العاشر قبل الميلاد أيام نبي الله سليمان عليه السلام، ووفد عليها جماعات من بلاد العرب، وجاء زنوج من مدغشقر، وزنجبار، والبر الإفريقي. وممن نزل فيها فريق من الأزد الأباضيين إذ حلّوا في قنبالو (أنجوان)، كما رحل إليها أعداد من الفرس، ومن هؤلاء جميعاً نشأ المجتمع في جزر القُمُر.

احتلّ البرتغاليون جزائر القُمر عام ٩٠٨ هـ، ولم يجدوا فيها قوةً لافتراق الكلمة، وضعف السكان، وقلّة العدد، وكثرة السلطنات فمرّوا عليها كأنهم عابرو سبيل. ووجدوا فيها المسلمين فأطلقوا عليها اسم «المورو» وهو الاسم الذي أطلقوه عليهم في كل أرضٍ وجدوهم فيها حتى اقترن هذا الاسم بهم. وقام البرتغاليون بأعمالٍ وحشيةٍ في كل منطقةٍ دخلوها، ووجدوا فيها مسلمين، ومنها جزر القُمُر.

طُرد البرتغاليون من أكثر مناطق شرقي إفريقية حيث وقف ضدهم العثمانيون، وأهل عُمان، وبريطانيا، وثار أهالي جزائر القُمُر على البرتغاليين فأخلوها. ونزلت في ذلك الوقت جماعة من شيراز في جزيرة القُمُر الكبرى عام ٩١٢ هـ بإمرة محمد بن عيسى فاحتلّوا الجزيرة، وأرسل محمد بن عيسى ابنه حسناً إلى جزيرة (أنجوان) فحكمها، وأسّس سلطنةً فيها، حيث تزوج بابنة (فاني علي) زعيم مدينة (موتسامودو) كبرى مدن الجزيرة، وتلقب حسن بلقب سلطان، وبعد موته خلفه ابنه محمد الذي تزوّج بابنة زعيم جزيرة (مايوت) وألحق الجزيرة بسلطنته، ثم أضاف إليه جزيرة (موحلي)،

وأخيراً أطاعه سلاطين جزيرة القُمُر الكبرى، وهكـذا جُمعت الجزر كلهـا ضمن سلطنة محمد بن حسن بن محمد بن عيسى.

توفي محمد وخلفه ابنه عيسى، ولكن ضعف أمره، وقلّ نفوذه، وغدا سلطانه على جزيرة القُمر الكبرى اسمياً، وبعد وفاته تولت زوجته (موللانة) مكـانه، وهـذا ما أثـار غضب الزعمـاء على الحكم، فـانتفضت جـزيـرة (مايوت)، واستأثر بأمر (أنجوان) زعيم مدينة (موتسا مودو)، ففرّت الملكة (موللانة) إلى مدينة (دوموني). وفي الوقت نفسه مات زعيم (موتسا مودو) فخلفته زوجته (فاتنة)، فأصبح في الجزيرة ملكتان، إحداهما (فاتنـة) في (موتسا مودو)، والثانية (موللانة) في مدينة (دوموني)، وبقي الخلاف قائماً في الجزيرة حتى أيام الملكة (عالمة) التي بنت الجامع الكبير في مدينة (موتسا مودو) عام ١٠٨١ هـ.

هاجم حكام جزيرة مدغشقر جزيرة (أنجوان)، وتمكّنوا من احتلالها، واستباحوا أرضها، وفتكوا بأهلها.

استطاع الأمير أحمـد حفيد الملكـة (عالمـة) أن يجمع البـلاد عام ١١٨٤ هـ (١٧٦٩ م)، وأن يُعيد إليها الوحدة، ولكن أغارت على الجزائر قبائل (السكالافا) المدغشقريـة، فاضـطرب حبل الأمن، واستقلت جـزيرة (مايوت) عن (أنجوان)، وتوفي الأمير أحمد فخلفه الشيخ سالم الذي حكم حتى عام ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م)، وتولّى بعده ابنه (أحمـد)، وكان صغيـر السن، فقام ينافسه عمه (علوي) غير أنه فشل ففرّ إلى زنجبار. ثم رجع بعد عامين بعد أن هيّأ الأوضاع، وأخذ بالأسباب، فاستطاع خلع ابن أخيه (أحمـد)، وتسلّم الحكم مكانـه، وبقي في السلطة حتى عـام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م).

تولّى بعد (علوي) ابنه عبدالله الأول الذي قاتل أهل جزيرة مدغشقر، وجاءه أحد المتنازعين على الحكم فيها فاراً، فأكرمه، وقـدّمه، حتى إذا قويت شوكته ثار عليه، واحتل جزيرة (مايوت).

توفي عبدالله فخلفه ابنه (علوي) الذي نافسه عمه (سالم)، وإثر فتنةٍ عارمةٍ هرب (علوي) إلى موزامبيق حيث أسره الإنكليز، ونفوه إلى (كلكتا)، ثم إلى (موريشيوس) حيث توفي عام ١٢٥٧ هـ (١٨٤٢ م)، وانفرد سالم بالسلطة.

أما جزيرة (مايوت) فقد استقلّت عن (أنجوان) اسمياً على يد صالح بن محمد بن بشير من أهل عمان، إذ كان يُقيم في (أنجوان)، ويُعدّ من أهل الوجاهة فيها، وقد تزوج بابنة سلطان جزيرة (مايوت) عام ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م)، فلما مات سلطانها خلفه صهره هذا (صالح بن محمد)، وبقيت تتبع (أنجوان) اسمياً حتى احتلتها فرنسا عام ١٢٥٧ هـ (١٨٤٢ م). وهكذا عزلت (مايوت) عن باقي الجزر التي استمرت تحت حكم (سالم)، وعندما توفي خلفه ابنه (عبدالله) الملقب بالكبير، وكان على صلةٍ وثيقةٍ مع البريطانيين.

ثار على (عبدالله) أخوه (محمد)، غير أنه انتصر عليه، وكانت الحرب قد هدّت قواه فطلب حماية فرنسا عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) إلا أن السكان قد قاموا بحربٍ ضدّ الفرنسيين، وقُتل عبدالله مسموماً، وتولى مكانه أخوه الثاني (عثمان)، ولكن أهالي مدينة (موتسا مودو) بايعوا ابن أخيه (سالم بن عبدالله) ووقع القتال بين الطرفين، فانتصر عثمان، والتجأ سالم إلى الفرنسيين، وطلب المساعدة منهم، واعترف بحمايتهم، ولكن عثمان بقي يقاومهم، وأخيراً اضطر إلى الاستسلام، فنُفي إلى كاليدونيا الجديدة.

جيء بأحد أمراء (أنجوان) وهو (عمر) ونُصّب سلطاناً عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)، وأمضى معاهدةً مع الفرنسيين اعترف فيها بالحماية الفرنسية على جزائر القُمُر عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م)، ولم يعش بعدها طويلاً إذ مات بالسنة نفسها.

بعد وفاة عمر تولى مكانه ابنه (محمد) سلطاناً على جزيرة (أنجوان) وملحقاتها، على حين كان ابنه الآخر (علي) يتولّى أمر جزيرة القمر الكبرى

التي كانت عند مجيء فرنسا مقسمةً إلى اثنتي عشرة مقاطعةً، لكلٍ منها سلطان، ويُعرف أكبرهم باسم سلطان (تيبة)، ويخضع الجميع له، وكان صاحب هذه المنصب السلطان (أحمد) عم سلطان (أنجوان) (محمد بن عمر)، فلما مات السلطان أحمد خلفه ابن أخيه (علي بن عمر) حسب وصية عمه السلطان أحمد المتوفّى. كان (علي بن عمر) صغير السن، وقد درس وتعلم اللغة الفرنسية في جزيرة (مايوت)، فلما جاء ليتولّى أمر جزيرة (القمر الكبرى) حسب وصية السلطان السابق رفض بقية السلاطين الخضوع له، وثاروا عليه بإمرة الأمير (موسى فومو) الذي أراد أن يكون مكانه، فوقعت الحرب بين الطرفين، وخرج (علي) من الحرب منتصراً لمعاونة أهالي جزيرتي (موحلي) و(أنجوان) له، إضافةً إلى سلاطين بعض المقاطعات في جزيرة (القُمُر الكبرى) نفسها، كما أن إنكلترا قد عرضت حمايته فرفض، إلا أنه طلب من قائد قوات جزيرة (مايوت) الفرنسي، الحماية والمساعدة. ولما عرضت إنكلترا عرضها على الأمير (موسى فومو) وافق. وهكذا أصبح الطرفان المتنازعان في جزائر القُمُر في حماية الدولتين المتنافستين النصرانيتين فرنسا وإنكلترا.

جاء العالم الطبيعي الفرنسي (هامبولت) إلى المنطقة، واقترح على حكومته مساعدة السلطان علي فوافقت، وعقدت معه معاهدةً عام ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) إلا أن الثورة قد اشتعلت في جزائر القُمر، وعدّت السلطان (علي) خائناً لتصرّفاته هذه، وخضوعه لفرنسا، وذلك عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) إلا أن القوات الفرنسية قد قمعت الثورة، وأقرّت السلطان (علي) سلطاناً على جزيرة (القُمر الكبرى) في الوقت الذي كان أبوه (عمر) قد وقع معاهدةً مع فرنسا اعترف فيها بحمايتها لجزائر القمر. ولما مات (عمر) خلفه ابنه (محمد) ـ كما ذكرنا ـ.

جرت محاولة لاغتيال (هامبلوت) أو هكذا ادّعت فرنسا، واتهمت القوات الفرنسية المحتلّة للجزر أن السلطان (علي) وراء هذه المحاولة

فـأُلقي القبض عليه، ونُفي إلى (ديـاغو)، ثم إلى (بـوربون)، وأصبحت السلطة كلها بيد المقيم الفرنسي، وهو صاحب الأمر والنهي.

كانت جزيرة (مايوت) حتى عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) هي المستعمرة الفرنسية الوحيدة بين جزائر القُمر، ولكنه في العام نفسه صدر قرار أصبحت بموجبه بقية الجزر أيضاً مستعمرةً فرنسيةً.

وفي عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) أُلحقت جزائر القُمر بجزيرة مدغشقر المحتلّة من قبل فرنسا أيضاً، وبقيت عامين كاملين تتبعها، وبعدها رجعت مستعمرةً فرنسيةً وحدها لا ترتبط بغيرها، واستمر هذا الوضع حتى الحرب العالمية الثانية.

الفصل الأول

جزائر القُمر من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، وإن لم يكن لهذه الخلافة أثر قبل الإلغاء إلا أنها كانت تعدّ رمزاً للمسلمين ورابطةً معنويةً لهم. وقد ضاع ذاك الرمز، وزالت تلك الرابطة بذلك الإلغاء ولذا كان الأعداء حريصين جداً على تنفيذه.

فرضت إنكلترا سيطرتها على جزر القُمُر أثناء الحرب العالمية الثانية كإجراءٍ عسكريٍ بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا وقيام حكومة فيشي برئاسة الجنرال (بيتان) التي كانت توالي الألمان. واتخذت بريطانيا هذه الجزر قاعدةً لسفنها الحربية في المحيط الهندي.

عادت هذه الجزر بعد الحرب لفرنسا، وكانت تحكمها جمعية منتخبة مؤلفة من ثلاثين عضواً، وتعدّ هذه الجزر إقليماً خاصاً ضمن الأقاليم الفرنسية فيما وراء البحار.

وفي عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) فتحت فرنسا المجال أمام مستعمراتها في حرية الاختيار بين الاستقلال أو البقاء ضمن المجموعة الفرنسية، وذلك عندما جاء ديغول إلى حكم فرنسا، وفكّر في طريقةٍ للحفاظ على مستعمرات فرنسية فيما وراء البحار، بعد اشتعال الثورة في الجزائر. فعرض دستوره، وأعطى لكل إقليمٍ الحرية في التصويت عليه، ففي حالة الموافقة عليه من قبل إقليمٍ ما، يصبح هذا الإقليم عضواً في مجموعة الشعوب الفرنسية، ويُشكّل حكومةً محليةً، ويتمتع بالاستقلال الداخلي على أن

تكون السلطة المركزية لفرنسا في الدفاع، والاقتصاد، والشؤون الخارجية، كما يمكن أن يُعقد اتحاد بين إقليمين عضوين في المجموعة الفرنسية، أما الأقاليم التي لا تُوافق على الدستور فتحصل على الاستقلال التام، وعندها تقطع فرنسا عنها مباشرةً كل معونةٍ فنيةٍ، أو ماديةٍ، أو إداريةٍ، ولكن رافق هذا الاستفتاء أنواع من التهديدات والوعيد، حتى إن القسم الكبير من السكان قد قاطع الاستفتاء لذا كانت النتيجة قبول دستور ديغول في أغلب الأقاليم.

جرى الاستفتاء في جزائر القمر، فكان رأي السكان أن تبقى بلادهم ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية. فأعطت فرنسا الجزر الحكم الذاتي، غير أن المطالبة بالاستقلال التام والانفصال عن فرنسا لم تلبث أن ظهرت وقويت، وبرز (عبده بكاري) أحد زعماء هذه الحركة، وحصل على تأييدٍ واسعٍ من الشعب.

كان يُدير شؤون جزائر القمر آنذاك مجلس حكومي يتألف من ٦ - ٨ وزراء، ويرأس هذا المجلس رئيس يعدّ بمثابة رئيس وزراء، وكان (سيد محمد الشيخ) هو الرئيس في تلك المرحلة.

أما المجلس النيابي فيتألف من ثمانيةٍ وثلاثين عضواً، وتتمثّل جزائر القمر في الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس. ثم تسلّم (أحمد عبدالله) رئاسة الحكومة بعد (سيد محمد الشيخ).

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)، وفاز حزب (استقلال ووحدة جزر القُمر) وتسلّم زعيم هذا الحزب (أحمد عبدالله) رئاسة الوزراء. وأصبح لفرنسا مندوب سامٍ في البلاد.

وفي عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) قرّر المجلس النيابي إصدار بيانٍ يُطالب فيه بالاستقلال التام، والانفصال عن فرنسا وأعقب ذلك مباحثات بين الحكومة الفرنسية وبين بعض السياسيين في جزر القُمر لوضع مشروع للاستقلال. وانفجرت المطالبة، وجعلت التنظيمات السياسية كلها

الاستقلال هدفاً لها، وأخذت ترفعه وتُنادي به، ومن هذه التنظيمات: الحركة الوطنية لتحرير جزر القُمر، حزب استقلال ووحدة جزر القُمر، الحزب الاشتراكي.

قامت فرنسا بإجراء استفتاءٍ في ٨ ذي الحجة ١٣٩٤ هـ (٢٢ كانون أول ١٩٧٤ م)، وكانت نتيجته تأييد ٩٥,٦٥٪ من الناخبين الذين بلغ عددهم ١٧٥ ألفاً الاستقلال التام والانفصال عن فرنسا في الجزر جميعها، أما الباقي وهو ٤,٣٥٪ فقد أيّدوا البقاء ضمن المجموعة الفرنسية، ومعظم هذه النسبة كانت من جزيرة (مايوت)، حيث كانت نسبة تأييد الاستقلال ٣٦٪، ونسبة تأييد البقاء ضمن المجموعة الفرنسية ٦٤٪، وذلك لأن عدداً من الفرنسيين يُقيمون في هذه الجزيرة، ويُؤلّفون مجموعةً صغيرةً، ولهم حزب خاص يُدعى (الماهور) يتزعمه (مارسيل هنري)، إضافةً إلى الوعود التي مُنّي بها المواطنون، والتهديدات التي اتخذت، لأن فرنسا كانت تعمل للبقاء في جزيرة (مايوت).

عُقد مؤتمر في العاصمة (موروني) ضمّ زعماء الأحزاب في البلاد لوضع صيغة الدستور الذي ستسير عليه البلاد عند الاستقلال. ولكن فرنسا بدأت تعرقل مشروع الاستقلال وهذا ما أجبر رئيس المجلس النيابي على الاستقالة.

كانت فرنسا تتخذ الوسائل جميعها في محاولتها البقاء في جزيرة (مايوت) ولكن معارضةً شديدةً وقفت في وجهها، شملت رئيس المجلس النيابي المستقيل، ورئيس الوزراء، ووصل الخلاف إلى النواب فيما بينهم، حيث انتخب (أحمد دهللاني) رئيساً جديداً للمجلس النيابي، فكان النواب بين مؤيّدٍ ومعارضٍ، وهذا ما أوقع البلاد في دوامةٍ من الفوضى السياسية، ووقوع بعض الحزازات، ووجود التجمعات المتنافرة.

أعلنت الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٥ هـ (٢٦ حزيران ١٩٧٥ م) وثيقة استقلال جزر القمر على أن يجري فيها

استفتاء، على أن يكون في كل جزيرةٍ وحدها، وذلك كي تبقى جزيرة (مايوت) خارج الدولة الجديدة المزمع إنشاؤها، وفي الوقت نفسه تبقى فرنسا في تلك الجزيرة.

أعلن المجلس النيابي في جزر القُمر بعد أربعة أيامٍ فقط مشروعاً يُطالب فيه بعدم إجراء الاستفتاء قبل الاستقلال الذي يشمل الجزر كلها، بما فيها جزيرة (مايوت)، ثم أعلن الاستقلال في الأسبوع التالي ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٩٥ هـ (٦ تموز ١٩٧٥ م)، غير أن نواب جزيرة (مايوت) لم يحضروا هذه الجلسة الأمر الذي أوجد حجةً للحكومة الفرنسية، فأعلن مندوبها حالة الطوارىء، واستقدم قواتٍ احتياطيةً من جزيرة (رينيون) لدعم القوات الفرنسية في جزر القُمر، ولكن المجلس النيابي في جزر القُمر أعلن في اليوم نفسه عن اختيار (أحمد عبدالله) رئيساً للدولة الجديدة، وشكل لجنةً لصياغة دستور البلاد.

أبلغ رئيس الدولة (أحمد عبدالله) المندوب السامي الفرنسي أن منصب المندوب السامي قد انتهى، وأنه قد أصبح سفيراً لفرنسا في جزر القُمر، كما أبلغ الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية، وجامعة الدول العربية للاعتراف بدولة جزر القُمر، فاعترفت بذلك عدة دولٍ أكثرها إفريقية.

وافقت فرنسا على استقلال جزر القُمر عدا جزيرة (مايوت)، وعدّتها أنها ستبقى ضمن إطار المجموعة الفرنسية.

الفصل الثاني

الاستقلال

أُعلن عن استقلال جزر القُمر في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٩٥ هـ (٦ تموز ١٩٧٥ م)، واختير (أحمد عبدالله) رئيساً للدولة الجديدة.

تشكّلت معارضة في جزر القُمر برئاسة الأمير (سعيد محمد جعفر) ضدّ سياسة الرئيس القماري (أحمد عبدالله) التي تدعو حسب زعم المعارضة إلى قيام دولةٍ اتحاديةٍ، وهذا يعني احتفاظ كل جزيرةٍ باستقلالها الذاتي، وبذا تبقى جزيرة (مايوت) مرتبطةً بفرنسا. وقوي أمر المعارضة بسرعة، ولم ينته بعد الشهر الأول على الاستقلال حتى وقع انقلاب بقيادة (علي صويلح) في ٢٦ رجب ١٣٩٥ هـ (٣ آب ١٩٧٥ م)، فخلع الرئيس (أحمد عبدالله)، وأُلغي المجلس الوطني، وتمّ إنشاء مجلسٍ تنفيذيٍ وطنيٍ برئاسة (سعيد محمد جعفر) ومن بين أعضائه قائد الانقلاب (علي صويلح)، وبعد يومين من الانقلاب اختير (سعيد محمد جعفر) رئيساً للدولة، وطالب النظام الجديد بوحدة جزر القُمر كلها بما فيها جزيرة (مايوت)، وبعد أسبوعٍ تشكّل المجلس الوطني الجديد، ويُمثّل جزر القُمر جميعها.

لم تعترف فرنسا باستقلال جزيرة (مايوت)، وبقيت تعدّها إقليماً فرنسياً، وأجرت فيها استفتاءً أعلنت أن نتائجه جاءت لصالح البقاء ضمن المجموعة الفرنسية، ولكن أعلنت حكومة جزر القُمر أن فرنسا قد تلاعبت بالاستفتاء، ومارست ضغطاً شديداً على السكان للموافقة على مخططها، وذلك في صفر ١٣٩٦ هـ (شباط ١٩٧٦ م).

تمّ قبول دولة جزر القُمر بالأمم المتحدة في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٦ هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٧٦ م)، ورضخت فرنسا للأمر الواقع، واعترفت باستقلال الجزر.

وبعد ستة أشهرٍ من الانقلاب الأول أزاح (علي صويلح) قائد الانقلاب (سعيد محمد جعفر) رئيس الدولة، وتسلّم السلطة مكانه في مطلع عام ١٣٩٦ هـ (كانون الثاني ١٩٧٦ م)، وأعطاه الدستور الجديد صلاحياتٍ واسعةً.

قطعت فرنسا مساعداتها جميعها عن جزر القُمر، وتمّ سحب المساعدات الفنية.

وفي ٦ جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (١٣ أيار ١٩٧٨ م) وقع انقلاب جديد قام به مجموعة من المرتزقة الأوربيين يُقدّر عددهم بخمسين شخصاً، يقودهم رجل فرنسي يُدعى (بوب دينارد) بالنيابة عن الرئيس الأسبق (أحمد عبدالله) وقُتل الرئيس (علي صويلح)، وتولّى الأمر (سعيد أتوماني) أحد وزراء الحكومة التي أطاح بها (علي صويلح)، وحملت الدولة اسماً جديداً هو «جمهورية جزر القُمر الاتحادية الإسلامية»، وتسلم رئاستها (أحمد عبدالله عبد الرحمن).

وطُردت حكومة جزر القُمر من منظمة الوحدة الإفريقية في شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م) بسبب الوجود الدائم للمرتزقة الأوربيين في البلاد.

تمّ استفتاء شعبي في ذي القعدة ١٣٩٨ هـ (تشرين الأول ١٩٧٨ م) للموافقة على الدستور الجديد، وأُجري هذا الاستفتاء في ثلاث جزرٍ أي باستثناء جزيرة (مايوت)، وتمّت الموافقة عليه بنسبة ٩٩,٣١٪، كنتيجة أي استفتاء تقوم به حكومة لها علاقة بالموضوع. وتمّ انتخاب (أحمد عبدالله) رئيساً في الشهر نفسه.

وأُجريت الانتخابات في مطلع عام ١٣٩٩ هـ (كانون الأول ١٩٧٨ م)

لتشكيل المجلس الاتحادي، وبعد شهرٍ اعتمد المجلس تشكيل الدولة ذات الحزب الواحد. ولكن وجدت معارضة قوية، وإن لم تكن لها الصفة الرسمية.

وأُشيع خبر محاولة القيام بانقلاب، وإن نفت الحكومة ذلك رسمياً، ولكن تمّ اعتقال مائةٍ وخمسين شخصاً في شهر ربيع الثاني ١٤٠١ هـ (شباط ١٩٨١ م).

واختير وزير الخارجية (علي مراودجي) ليكون رئيساً للوزراء في ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ (شباط ١٩٨٢ م)، وأشرفت الحكومة الجديدة على الانتخابات التي تمت بعد شهرٍ من تسلّمها السلطة. ثم جرت تعديلات دستورية في ذي الحجة ١٤٠٢ هـ (تشرين الأول ١٩٨٢ م) أعطت سلطات واسعةً لرئيس الدولة على حين ضعفت سلطات حكام الجزر.

وفي أوائل شعبان ١٤٠٣ هـ (أيار ١٩٨٣ م) أصدر الرئيس (أحمد عبدالله) مرسوماً بالعفو عن السجناء جميعاً الذين أُدينوا بسجن تقلّ مدته عن عشر سنواتٍ.

واكتشفت محاولة انقلابٍ في ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (كانون الأول ١٩٨٣ م) كادت تطيح بالحكم، وقوامها مجموعة من المرتزقين البريطانيين كانت تُخطّط لاستلام السلطة لمصلحة الأمير (سعيد علي كمال)، وهو سياسي سابق من جزر القُمر، غير أن المؤامرة فشلت باعتقال قائد المرتزقة في أستراليا.

وجرت انتخابات الرئاسة في ذي الحجة ١٤٠٤ هـ (أيلول ١٩٨٣ م)، وكان الرئيس (أحمد عبدالله) هو المرشح الوحيد، ورغم نداءات المعارضة في مقاطعة الانتخابات إلا أنه قد شارك فيها ٩٨٪ من الناخبين المسجلين، وحصل على التأييد بنسبة ٩٩,٤٤٪ من الذين شاركوا بالانتخابات، وبذا فاز بالرئاسة لمدة ست سنواتٍ جديدةٍ.

وأُلغي منصب رئيس الوزراء في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) حسب نصٍ دستوريٍ صدر، وتقلّد الرئيس أحمد عبدالله منصب رئاسة الحكومة أيضاً.

وجرت محاولة من الحرس الرئاسي للإطاحة بالرئيس أحمد عبدالله عندما كان غائباً عن البلاد في زيارةٍ رسميةٍ لفرنسا في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م)، غير أن أمرها قد اكتشف، وأُحبطت. وفي ربيع الأول ١٤٠٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٥ م) صدرت الأحكام ضد المتهمين بالمشاركة في محاولة الانقلاب، وصدر الحكم ضدّ سبعة عشر شخصاً بالأشغال الشاقة المؤبّدة، ومن بينهم (مصطفى سيد شيخ) الأمين العام للجبهة الديمقراطية، المعارضة للحكم، والمحظورةُ رسمياً، وألقي القبض على خمسين آخرين، وأودعوا السجن. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الرئيس (أحمد عبدالله) قد أصدر مرسوماً في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) يقضي بالعفو عن ثلاثين شخصاً من السجناء السياسيين، كان عدد منهم أعضاء في الجبهة الديمقراطية. وفي رمضان ١٤٠٦ هـ (أيار ١٩٨٦ م) صدر حكم جديد باحتجاز خمسة عشر سياسياً تمّت إدانتهم، ثم صدر عفو عنهم.

وعاد الرئيس أحمد عبدالله فمنح عفواً آخر في جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (كانون الثاني ١٩٨٧ م) للسجناء السياسيين. ثم أعلن بعد شهرٍ أن الانتخابات للمجلس الاتحادي ستجري في ٢٢ رجب ١٤٠٧ هـ (٢٢ آذار ١٩٨٧ م)، وأن باب الترشيح سيكون مفتوحاً أمام المعارضة، وأن غير مرشحي الحكومة يمكنهم المنافسة على عشرين مقعداً في جزيرة (القُمر الكبرى). وجرت هذه الانتخابات بالموعد المحدد لها، وحصل مرشحو الحكومة على ٤٢ مقعداً في المجلس الاتحادي، وهذا يُمثّل عدد المقاعد كلها، أما المرشحون من غير المؤيّدين من الحكومة فقد حصلوا على ٣٥٪ من مجموع الأصوات. ولكن لم يشارك في هذه الانتخابات سوى ٦٥٪ من

الناخبين المسجلين. ولكن أُثيرت شائعات حول عمليات الغش والتزوير في تلك الانتخابات.

ويوجد في جزيرة (رينيون) ما يقرب من أربعمائة شخصٍ يرجعون في أصولهم إلى جزر القُمر، وتمّ اعتقال أكثر من نصفهم بتهمٍ مختلفةٍ حيث كانوا قد قدموا إلى موطنهم الأصلي في جزر القُمر، وشاركوا في عمليات الانتخابات.

وافقت ثلاث حركاتٍ معارضةٍ تتمركز في فرنسا على الاندماج في منظمةٍ واحدةٍ، وتمّ هذا في مؤتمرٍ شعبيٍ حضره حوالي ألف شخصٍ من جزر القُمر، عُقد في مدينة (مرسيليا) في فرنسا في شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران عام ١٩٨٧ م).

وأعاد الرئيس أحمد عبدالله الموظفين المدنيين جميعاً والذين كانوا قد طُردوا من وظائفهم، أو جُمّدوا عن العمل بعد محاولة الانقلاب الفاشلة التي وقعت في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م).

أسّست الحكومة شركة وطنية لتوزيع الأغذية في ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م)، وهذا ما يخفّف من سيطرة المرتزقة الأوربيين على سوق التوزيع، والتحكّم بالأسعار.

وفي شهر صفر ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م) وبعد أن غادر الرئيس أحمد عبدالله جزر القُمر إلى فرنسا لحضور مؤتمرٍ هناك وبمدةٍ قصيرةٍ جرت محاولة انقلابٍ أخرى قادتها مجموعة يسارية اشترك فيها أربعة عشر عضواً سابقاً في الحرس الرئاسي، وأعضاء في القوات المسلحة في جزر القُمر، وقد تمّ اكتشافها من قبل السلطات الحكومية بمساعدة فريق من المرتزقة الفرنسيين، ومستشارين عسكريين من جنوبي إفريقية، وقد قُتل ثلاثة من المتمردين أثناء القيام بالهجوم على الثكنات العسكرية، وقُتل عدد من المدنيين أيضاً.

وُزّعت كتيبات ضدّ الحكومة داخل البلاد من مجموعة مركزها جزيرة

(مايوت)، أسّسها أحد الهاربين من (موحلي)، وهدف هذه الجماعة لفت نظر منظمة حقوق الإنسان لوضع (موحلي) البئيس إذ اعتقل منها عدة أفرادٍ، وأن أموال العامة تُبعثر دون وعيٍ، في الوقت الذي لم تدفع للموظفين المدنيين أجورهم منذ تسعة أشهرٍ، ووزعت هذه الكتيبات في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م).

أنشأ نجل الرئيس أحمد عبدالله المدعو (نصّوف عبدالله) حزباً أسماه «الاتحاد الإقليمي» للدفاع عن سياسة الرئيس أحمد عبدالله، وهو حزب مساند للحكومة، ومركزه جزيرة (أنجوان).

كان الرئيس أحمد عبدالله منذ شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م) يفتش عن مخرجٍ قانونيٍ للحصول على مدة رئاسيةٍ جديدةٍ عند انتهاء مدته الثانية عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م)، فلم يجد بدّاً من تعديلٍ دستوريٍ ليحصل على ذلك، وقد جرى هذا التعديل في أوائل ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م)، وأصبح بإمكانه ترشيح نفسه لمدةٍ رئاسيةٍ ثالثةٍ. وجرى استفتاء شعبي على الرئاسة وحصل الرئيس على ٩٢,٥٪ من مجموع الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم. أما عن نتائج ذلك الاستفتاء فقد حدث عليها مناقشات واعتراضات، واحتجّت عليها المعارضة، وتبع ذلك مظاهرات عنيفة، وتمّ احتجاز قادة المعارضة، وادعى السفير القُماري في باريس أن تقارير العنف التي نشرت كان مبالغ فيها.

وقُتل الرئيس أحمد عبدالله يوم ٢٧ ربيع الثاني ١٤١٠ هـ ليلة الثامن والعشرين (٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩ م) أثناء حادث عنفٍ وقع في قصر الرئاسة، واختلفت التقارير في الحادث، فذكر بعضها أن مجموعةً من المتمردين بقيادة قائد القوات المسلحة السابق قد هاجمت القصر وقتلت الرئيس. وذكر بعضها الآخر أن الرئيس قد اغتيل من قبل أعضاء حرس الرئاسة الخاص، والمؤلّف من ستمائةٍ وخمسين حارساً (بما فيهم المستشارون الأوربيون) بقيادة الفرنسي (بوب دينارد)، وأُذيع أنه قد قُتل سبعة وعشرون شرطياً أثناء عملية الهجوم على القصر.

ينصّ الدستور على تولّي منصب الرئاسة في حالة غياب الرئيس لسببٍ من الأسباب رئيس المحكمة العليا كرئيسٍ موقّتٍ، وقد علّق رئيس المحكمة انتخاب الرئاسة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد تسلّم السلطة الفرنسي (بوب دينارد)، وأنكر بشدةٍ مسؤوليته عن مقتل الرئيس أحمد عبدالله.

تمّ تعيين (سعيد محمد جوهر) رئيساً موقّتاً للبلاد. وقام (بوب دينارد) بتجريد الجيش النظامي من أسلحته. وقد أثار تصرّف المرتزقة الأوربيين السخط الدولي، فعلّقت كل من فرنسا وجنوبي إفريقية مساعدتها للجزر.

وانطلقت المظاهرات في أوائل جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م)، وشارك فيها مئات الطلاب، وكانت تُطالب بخلع (بوب دينارد) وأعوانه، وتمّ تفريق المظاهرات من قبل الحرس الرئاسي، وإرسال قوةٍ بحريةٍ فرنسيةٍ إلى المنطقة بحجة نقل المواطنين من الجزيرة، والواقع لاستلام السلطة فيها، غير أن (بوب دينارد) قد رفض التخلّي عن السلطة في بداية الأمر، ولكنه في منتصف شهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (١٣ كانون أول ١٩٨٩ م) تخلّى عن السلطة بطريقةٍ سلمية، وبدأ الجنود المرتزقة ينسحبون من الساحة مع وصول الأرتال الفرنسية إلى العاصمة (موروني)، وفرّ (بوب دينارد) مع خمسةٍ وعشرين من المرتزقة من البلاد على متن طائرةٍ عسكريةٍ تابعة لدولة جنوبي إفريقية. وأعلن الرئيس الموقت (سعيد محمد جوهر) بأن القوات الفرنسية الحكومية ستبقى في جزر القُمر مدة سنتين لتقوم بتدريب قوات الأمن المحلية.

وفي مطلع شهر جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (أواخر كانون الأول ١٩٨٩ م) اتفقت التنظيمات السياسية الرئيسية في البلاد على تشكيل حكومة وحدةٍ وطنيةٍ، وتمّ إعلان العفو عن السجناء السياسيين جميعاً، وتمّ التحقيق في مقتل الرئيس أحمد عبدالله، وإجراء انتخاباتٍ رئاسيةٍ في بداية شهر رجب ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م)، وبهذا انتهى نظام حكم الحزب الواحد.

تضمّنت قائمة المرشحين للرئاسة كلاً من: محمد تقي عبد الكريم الذي كان رئيساً للمجلس الاتحادي، والأمير سعيد علي كمال زعيم حزب الحركة الوطنية لتحرير جزر القُمر، وحزب الوحدة، ومصطفى سيد شيخ زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي، إضافةً إلى الرئيس الموقت سعيد محمد جوهر.

وأجّل الرئيس الموقّت انتخابات الرئاسة إلى ٢٣ رجب ١٤١٠ هـ (١٨ شباط ١٩٩٠ م) فقامت مظاهرات عنيفة في العاصمة (موروني) احتجاجاً على ذلك التأجيل.

وجرت الانتخابات، وأعلنت الحكومة فوز سعيد محمد جوهر الرئيس الموقّت، ولكن طُعن في النتائج، وأُشيع أنها تغيّرت رأساً على عقب، وأن الفائز هو محمد تقي عبد الكريم الذي غادر البلاد لاجئاً إلى فرنسا مرةً أخرى. وبعد مدةٍ قضاها هناك تزيد على السنة رجع إلى وطنه، وجرت مصالحة بينه وبين الرئيس سعيد محمد جوهر، وتلا ذلك مصالحة وطنية بين الأحزاب السياسية جميعها، وتمّ التوقيع على معاهدة بينهم تشمل من بين نقاطها: احترام المبادىء والقيم الإسلامية ـ حظر الانقلابات العسكرية ـ حظر تزوير الانتخابات. ووقع عليها رئيس الجمهورية، واستقالت الحكومة الائتلافية، وتشكّلت حكومة وحدةٍ وطنيةٍ تشمل الأحزاب جميعها.

العلاقات الخارجية:

استؤنفت العلاقات السياسية مع فرنسا في شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م)، ووقّع البلدان اتفاقيات على التعاون الاقتصادي والعسكري في ذي الحجة ١٣٩٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٨ م) وأجّل الطرفان أي قرارٍ بالنسبة إلى مستقبل جزيرة (مايوت) أعادت منظمة الوحدة الإفريقية الاعتراف بجزر القُمر.

وفي الهيئة العمومية للأمم المتحدة جرى التصويت في ربيع الأول

١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) حول قضية جزيرة (مايوت) فأكّد ١٢٨ صوتاً لصالح جزر القُمر، وامتنع ٢٢ عضواً عن التصويت، وصوّتت فرنسا فقط ضد القرار.

انضمت جزر القُمر في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) إلى هيئة المحيط الهندي التي تشمل مدغشقر، وموريشيوس، وسيشل، وجزر القُمر للتعاون الإقليمي والاقتصادي، وعقد الاجتماع الوزاري الرابع للهيئة في (موروني) عاصمة جزر القُمر في جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م)، ثم تمّت إقامة علاقاتٍ سياسيةٍ وتبادل السفراء بين جزر القُمر، وسيشل.

وتوجد بعض المشكلات بين دولة جزر القُمر وتانزانيا، وقام الرئيس أحمد عبدالله بزيارة لتانزانيا في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م)، ولكن صرّح بعد عودته أن المشكلة بقيت دون حلٍّ.

وقام رئيس جزر القُمر أحمد عبدالله في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) مع بعثةٍ وزاريةٍ لزيارة جمهورية الصين الشعبية لمدة أسبوعٍ واحدٍ.

وجزر القُمر لها علاقات وثيقة مع فرنسا أقرب إلى الارتباط اقتصادياً، وعسكرياً، وسياسياً.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة جزر القُمر ٢١٧٠ كيلومتراً مربعاً. وهي أربع جزر رئيسية:

جزيرة القُمر الكبرى (نجزيجة)	ومساحتها ١١٤٨كم٢	وسكانها ٣٠٠,٠٠٠ إنسان
جزيرة أنجوان	ومساحتها ٣٧٨ كم٢	وسكانها ٧٥,٠٠٠ إنسان
جزيرة مايوت	ومساحتها ٣٦٦ كم٢	وسكانها ٤٥,٠٠٠ إنسان
جزيرة موحلي	ومساحتها ٢٧٨ كم٢	وسكانها ٣٠,٠٠٠ إنسان
	٢١٧٠كم٢	٤٥٠,٠٠٠

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) ما يزيد على ٤٥٠,٠٠٠ إنسان، وبذا تكون الكثافة ٢٠٥ أشخاص في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة مرتفعة نسبياً نتيجة المناخ البحري، والموقع التجاري.

الصراع الإقليمي:

تشكل كل جزيرةٍ إقليماً خاصاً، ولما كانت جزيرة القُمر الكبرى أكبر الجزر مساحةً حيث تزيد مساحتها على مساحة بقية الجزر مجتمعةً، كما أنها أكثرها سكاناً حيث يبلغ عدد سكانها ثلثي عدد سكان البلاد، أو ضعف عدد سكان بقية الجزر، لذلك كانت لها الهيمنة، وفيها كانت السلطة، وتليها جزيرة (أنجوان) مساحةً وسكاناً أيضاً، إلا أن تركيز الفرنسيين على

جزيرة (مايوت) في السكن، ومحاولتهم إبقاءها بعيدةً عن بقية الجزر، واهتمامهم بها بالإرساليات التنصيرية، كل هذا جعل لهذه الجزيرة أهميةً رغم قلّة سكانها. كما أن نفوذ الفرنسيين في الدولة عامةً يجعل السكان والسلطة يُحاولون استرضاء أهلها ليكونوا ضمن الدولة، وليصوتوا إلى جانب الاتحاد، وبالتالي يشعر سكان (مايوت) بالتفوّق وخاصةً أن الثقافة الفرنسية تنتشر فيها أكثر من غيرها، ويحسّ أهلها أنهم ينافسون بقية السكان ويتفوقون عليهم.

الصراع العنصري:

توجد عدة قبائل، أو عدد من الأصول العرقية سواء هم من الماليزيين، أم من مدغشقر، أم من البر الإفريقي، أم كانوا عرباً، أم فرساً، فإنه لا يوجد أي تنافسٍ أو صراعٍ بين هذه المجموعات.

واللغة الرسمية هي الفرنسية، وتوجد لغة البلاد التي هي فرع من السواحيلية، وهي لغة التجارة، ومتأثرة بالعربية كثيراً، إضافةً إلى اللهجة الملاغاشية. وهناك لغة (الماكوا)، وهي لغة الزنوج وتأخذ طريقها نحو الاندثار.

أما اللغة الأنجوانية فهي مزيج من العربية والسواحيلية، والبرتغالية، والفرنسية، والإنكليزية، ولغة الماكوا، ويتكلمها تقريباً كل من في جزيرة (أنجوان).

واللغة العربية لغة الدين، وكانت الرسمية حتى مجيء الفرنسيين. وعملت الحكومة على استعادة اللغة العربية لمكانتها، ولكن لم تستطع بسبب كثرة المتفرنجين، وتقدّمت الدولة بطلبٍ إلى جامعة الدول العربية للانضمام إليها. ولكن وقفت عوائق دون ذلك، ولعل أهم تلك العوائق الجهل والتخلّف.

الصراع العقيدي:

سكان جزر القُمر جميعهم من المسلمين، ولكن مع مجيء الاستعمار

الصليبي أخذ بعضهم يسكن هناك وخاصةً من الفرنسيين لأسباب استعماريةٍ أو صليبية أو كلاهما معاً إذ لا يفترق أحدهما عن الآخر. وغدا يُشكّل النصارى ٤٪ من مجموع السكان، وغالبيتهم من الكاثوليك.

ولما كان التفوّق للفرنسيين علمياً، واقتصادياً، ولهم دورهم في السلطة، وتوجد حامية منهم، لذا فقد استطاعوا أن يُفسدوا في البلاد، وينشروا الخمر، وعاداتهم الاجتماعية الخاصة بهم. وأخذ يظهر صراع بينهم ومعهم من استطاعوا إيقاعه في شراكهم وبين المسلمين الملتزمين، وإن كانت المعركة غير متكافئة فالهزيمة النفسية، والحاجة إلى الفرنسيين، وموقف السلطة، وتزلّف أصحاب المصالح، هذا كله يجعل المسلمين في الموقف الأضعف.

الصراع الحزبي:

وجدت عدة أحزابٍ بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من أبرزها حزب استقلال ووحدة جزر القُمر الذي يرأسه أحمد عبدالله، والحركة الوطنية لتحرير جزر القُمر، والحزب الاشتراكي، ولعل السلطات الاستعمارية كانت وراء قيام عددٍ من الأحزاب لإشغال السكان بعضهم ببعض، ومنافستهم فيما بينهم، وهذا ما يحدث دائماً، وخاصةً عندما لا تقوم هذه الأحزاب على مبادىء، وإنما همها الوصول إلى السلطة، والتغلّب على خصومها.

وعندما جرت الانتخابات تمكّن حزب الاستقلال ووحدة جزر القُمر من الفوز وتسلّم السلطة. ولكن اشتدت المعارضة في وجهه برئاسة الأمير سعيد محمد جعفر، ووقع الانقلاب ولم يمض على الاستقلال أكثر من سنةٍ وشهرٍ، وتسلّم سدة الرئاسة سعيد محمد جعفر في ٢٨ رجب ١٣٩٥ هـ (٥ آب ١٩٧٥ م)، ولم تنقص سوى عدة أشهر حتى أزاح قائد الانقلاب علي صويلح الرئيس من أمامه وتسلّم الرئاسة في مطلع عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

بعد سنةٍ ونصفٍ وفي ٦ جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (١٣ أيار ١٩٧٨ م)

قام الفرنسي (بوب دينارد) بانقلابٍ لمصلحة (أحمد عبدالله) فقُتل الرئيس السابق علي صويلح، وتسلّم أحمد عبدالله منصب الرئاسة. وبعد سبعة أشهرٍ ألغى الرئيس الأحزاب المعارضة كلها، واعتمد على الحزب الواحد الذي يترأسه، وهو حزب استقلال ووحدة جزر القُمر.

لكن بقيت معارضة غير رسميةٍ ولعلّ أقواها الجبهة الديمقراطية التي يتزعّمها مصطفى سيد شيخ، غير أن الرئيس أحمد عبدالله قد جعل انتخابات المجلس الاتحادي مفتوحةً أمام المعارضة لدخول المنافسة على عشرين مقعداً فقط وذلك في ٢٢ رجب ١٤٠٧ هـ (٢٢ آذار ١٩٨٧ م).

وأخذت المعارضة تظهر بعد ذلك، وإن كان أكثرها يعيش في المنفى، وفي شوال ١٤٠٧ هـ (حزيران ١٩٨٧ م) وافقت ثلاثة تنظيمات للمعارضة في تنظيمٍ واحدٍ في مؤتمر شعبي عقد في مرسيليا بفرنسا.

أسّس نصّوف عبدالله ابن الرئيس أحمد عبدالله حزب «الاتحاد الإقليمي» ومركزه في جزيرة (أنجوان) للدفاع عن سياسة أبيه.

قُتل الرئيس أحمد عبدالله في ٢٧ ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩ م)، فرجعت الحزبية، وظهرت التنظيمات السياسية، واختفت فكرة الحزب الواحد. وبرز قادة تلك التنظيمات، فدخل انتخابات الرئاسة كل من: محمد تقي عبد الكريم. والأمير سعيد علي كمال زعيم الحركة الوطنية لتحرير جزر القُمر، وحزب الوحدة، ومصطفى سيد شيخ زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي.

فاز بانتخابات الرئاسة التي جرت في ٢٣ رجب ١٤١٠ هـ (١٨ شباط ١٩٩٠ م) الرئيس الموقت سعيد محمد جوهر، ولكن عارضه بعنفٍ محمد تقي عبد الكريم، وادّعى أن انتخابات الرئاسة كانت مزورةً، وغادر البلاد، وارتحل إلى فرنسا، ثم رجع، وجرت مصالحة وطنية، وتشكّلت حكومة وحدة وطنية، وعقدت التنظيمات السياسية كلها معاهدة فيما بينها تعاهدت للسير عليها لمصلحة البلاد.

بلغ عدد التنظيمات السياسية على الساحة القُمارية أربعة وعشرين تنظيماً، ومن هذه التنظيمات: جبهة العدالة الوطنية، وهي تنظيم إسلامي، يرأسه صادق أمبانانزا، والقادة أكثرهم من السلفيين، وحزب الإنقاذ الوطني، ويرأسه سيد أحمد محيي الدين، وإسماعيل محمد، وسيد علي محمد ويؤيده مشايخ الطرق الصوفية.

وحزب الاتحاد الديمقراطي، ويرأسه مصطفى سيد شيخ.

الحركة الوطنية لتحرير جزر القُمر، ويرأسه سعيد علي كمال.

حزب استقلال ووحدة جزر القُمر، وكان يرأسه أحمد عبدالله.

حزب الاتحاد الإقليمي ويرأسه نصّوف عبدالله، في جزيرة أنجوان.

حزب الماهور، وهو حزب فرنسي، في جزيرة (مايوت) ويرأسه (مارسيل هنري).

ويدرك كل إنسانٍ مدى الصراعات الحزبية والخلافات المحلية في ساحةٍ صغيرةٍ كجزر القُمر يوجد فيها أربعة وعشرون تنظيماً سياسياً، هذا إضافةً إلى الطرق الصوفية إذ من المعلوم أن فرنسا تُشجّع في مناطق نفوذها الطرق الصوفية وتفسح لها المجال للحركة كي تنتشر فكرة التكاسل، وتضعف فكرة الجهاد، ويميل الناس إلى الهدوء وقبول الأمر الواقع، وهو الحياة في ظل الاستعمار الصليبي، على حين أن بريطانيا تحتضن الإسماعيلية لتعمل بتوجيهها، وتتبنى القاديانية التي نشأت في أحضانها لتسير حسب أوامرها، وتُفسد عقيدة المسلمين، وتُشتّت أفكارهم.

القسمُ الرّابعْ

تشاد وَجمهُوريّة إفريقية الوسْطى

يشمل القسم الرابع من هذا الكتاب دولتي «تشاد» و«جمهورية إفريقية الوسطى»، وهما من دول وسط إفريقية، ويصعب وضعهما في جزءٍ مستقلٍ، لذا فضّلت ضمّها إلى دول غربي إفريقية أو إلى دول شرقيها. وهي إلى الغربي أقرب منها إلى الشرقي، حيث كانتا تتبعان الاستعمار الفرنسي الذي يطغى على الأجزاء الغربية على حين يطغى الاستعمار البريطاني على الأقسام الشرقية، والمستعمرات الفرنسية في غربي القارة متصلة على حين تتبعثر المستعمرات البريطانية، والعكس في الشرق تماماً إذ تتصل المستعمرات البريطانية بعضها مع بعضٍ، وتتناثر المستعمرات الفرنسية غير أنني لاحظت.

١ ـ أن فرنسا ضمّت مستعمراتها في غربي القارة في شبه اتحادٍ، ولم يشمل هذا «تشاد» أو «جمهورية إفريقية الوسطى»، وإنما شكّلت وحدة «إفريقية الاستوائية الفرنسية» التي شملت كلاً من تشاد، أو بانغي ـ شاري (جمهورية إفريقية الوسطى)، الكونغو، الغابون.

٢ ـ أن الاستعمار طارىء لا يمكن التقيّد بتقسيمه بل النظر إليه، لأن ما اتخذه لم يكن إلا في مصالحه الاستعمارية الصليبية.

٣ ـ أن القبائل لا يمكن أخذها مقياساً فقبائل تشاد في الغرب ذات صلةٍ مع قبائل النيجر، وفي الشمال مع ليبيا، وفي الشرق مع السودان، وفي الجنوب مع سكان جمهورية إفريقية الوسطى. فإذا أردنا أن ننظر إلى السكان يُمكننا ضمّ المنطقة إلى أية جهةٍ أردنا. إذن هناك صلة مع شرقي إفريقية، كما أن هناك صلة مع غربي القارة.

٤ ـ أن اللغة السواحيلية المنتشرة في شرقي إفريقية قد وصلت إلى بعض جهات جمهورية إفريقية الوسطى.

٥ ـ أن هناك صلاتٍ مع شرقي إفريقية أكثر منها مع غربي القارة.

٦ ـ أن المسافة إلى سواحل إفريقية الشرقية أقلّ منها بكثيرٍ إلى سواحل إفريقية الغربية.

لهذا كله رأيت ضمّ هذا القسم إلى شرقي إفريقية ما دام يتعذّر إفراد كتابٍ خاصٍ بوسط إفريقية. ولكن مع هذا فإن هذا الجزء يبقى قسماً خاصاً يُعرف بوسط إفريقية، يتباين مع غربي إفريقية، كما يتباين مع شرقيها. وله مزاياه الخاصة به.

إن الجزء الشمالي من هذا القسم وهو تشاد تشغل الصحراء مساحاتٍ واسعةً منها، وإن كان الجزء الجنوبي يقع ضمن النطاق المداري، وهو جنوب خط عرض ١٢° شمالاً الذي يمرّ جنوب العاصمة نجامينا، فتكثر الأمطار في فصل الصيف، ويبقى الشتاء جافاً، لذا تنتشر الزراعة، كما تكثر المراعي الطويلة، ولكن تبقى الحياة قبلية.

وأما الجزء الجنوبي، وهو جمهورية إفريقية الوسطى فإن المناطق الشمالية فيها التي تقع شمال خط العرض ٨° شمالاً فهي مدارية، وإن كانت قليلةً، فتنتشر فيها المراعي، وتكون مفتوحةً، وأما المناطق التي تقع بين خطي عرض ٥° ـ ٨° شمالاً فهي شبه استوائيةٍ، وهي أغلب أجزاء البلاد، وتكثر فيها الأمطار. وتصبح المناطق استوائيةً جنوب خط العرض ٥° شمالاً، وتكون الأمطار دائمةً، وتتجمّع في أنهارٍ، تلتقي في نهر «أوبانغي» الذي يُشكّل الحدود بين جمهورية إفريقية الوسطى وزائير، وتقع عليه عاصمة البلاد «بانغي»، وأخيراً ينتهي في نهر الكونغو.

وإذا كانت تشاد تعدّ وسط العالم الإسلامي، وتزيد نسبة المسلمين فيها على ٨٥٪ من مجموع السكان، وصلتها وثيقة مع السودان، وليبيا،

ومصر، والجزائر، وتونس، والنيجر، وشمالي نيجيريا، وشمالي الكاميرون لذا فهي موضع اهتمامٍ من أهالي هذا الأمصار، وبالتالي تصل أخبارها إلى الأمصار الإسلامية كافةً فإن جمهورية إفـريقية الـوسطى تقـع على هامش العالم الإسلامي، وتسود المناطق التي تُحيط بها ـ حتى وإن كانت بلدان إسلامية ـ أجزاء غير مسلمة مثل جنوبي السودان، وجنوبي تشاد، وأقسام من الكاميرون، وكذلك فإن المسلمين فيها مسحـوقون، وبعيـدون عن مجال الاهتمام، وعن العلم، لذا لم يسمع بهم المسلمون، ولم يعـرفوا عنهم شيئاً، بل لم يعرفوا أن جمهورية إفريقية الوسطى بلد إسلامي، ويصدّقون ما يُشاع، وما تُذيعه حكوماتهم من أن نسبة المسلمين فيها ٥٪ فقط، وهذا مـا تتبنّاه الأمم المتحـدة، والمنظّمـات التابعـة لها، فتضيـع الحقيقة بين الدعايات، والادّعاءات، والافتراءات، ووسائل الإعلام، وفي الوقت نفسه فقد عاش المسلمون في تلك الجمهورية البائسة بعيدين عن معرفة دينهم، حيث لم يعرفوا إلا قليلاً منها، زيادة على معرفة الانتماء إلى الإسـلام، وهذا ما زاد في جهلهم، والجهـل بهم، حيث لم يشاركـوا إخوانهم في الأحداث الكبرى التي تنتابهم.

البابُ الأوّل

تيار

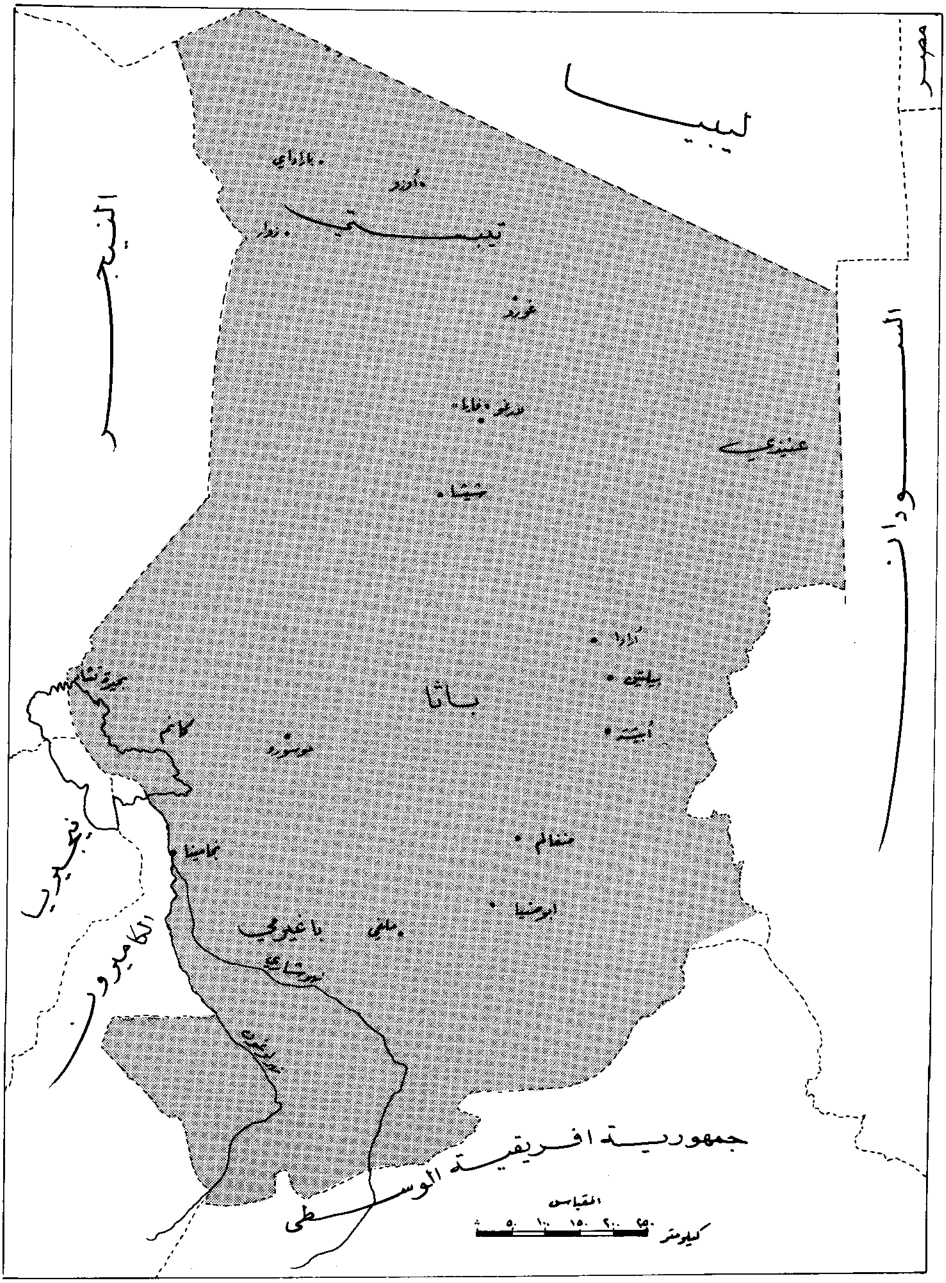
ليبيا
مصر
النيجر
تيبستي
السودان
نيجيريا
الكاميرون
جمهورية افريقية الوسطى
المقياس
كيلومتر

المصور رقم [٩]

لمحة عن تشاد قبل إلغاء الخلافة

نشأت عدة ممالك على الأرض التشادية، ووصل إليها الإسلام من الشمال على مراحل مُتباينةٍ. لقد قامت مملكة كانم شمال شرقي بحيرة تشاد، وقد دخل إليها الإسلام في أواخر القرن الخامس الهجري، وامتدّ سلطانها على مناطق واسعةٍ.

وظهرت مملكة «وادّاي» في الشرق، وبقيت على الوثنية حتى القرن العاشر الهجري، حيث انتشر الإسلام وعمّ، وحدث نزاع داخلي حتى جاء الفرنسيون، وانحازوا إلى طرفٍ، ونصروه على خصمه، ومدّوا بعدها نفوذهم، وأعملوا مخالبهم، وسيطروا على هذا الجزء.

وبرزت مملكة «باغيرمي» في الجنوب، وتأخّر وصول الإسلام إليها لبعدها عن الشمال الذي جاء منه الإسلام، فبقيت على الوثنية حتى القرن العاشر الهجري، ثم دخل الإسلام.

وفي شمال بحيرة تشاد ظهرت مملكة «مانغا»، ووصل إليها الإسلام حوالي القرن السادس الهجري، وعمّ بعدها جهات المملكة كلها.

وإذا كان الإسلام قد ساد مناطق الشمال والوسط إلا أن الجنوب قد بقيت فيه جذور للوثنية، وعندما جاء الاستعمار تمكّن بسلطانه وإرسالياته التنصيرية أن يُحوّل بعض الوثنيين في الجنوب إلى النصرانية، وهكذا أصبحت الأجزاء الجنوبية تشمل الإسلام، والنصرانية، والبدائيين من الوثنيين.

وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م) وصل

إلى تشاد الأمير رابح أحد قادة أمير إقليم دارفور في السودان «سليمان بن الزبير» الذي قتله المستعمرون الصليبيون بعد أن استسلم لهم بناءً على نصيحة أبيه الزبير الذي كان بين أيدي أولئك المستعمرين الصليبيين الإنكليز في مصر. هرب الأمير رابح مع ألف فارسٍ من أتباعه بعد مقتل الأمير سليمان، واستطاع أن يدخل منطقة «وادّاي» ويُسيطر عليها، وأن يصل إلى جنوب بحيرة تشاد، وأن يُقيم في مدينة «ديكوا»[1] حكومةً إسلاميةً. ثم ضمّ إليه مملكة «باغيرمي» عام ١٣١٠ هـ، ومملكة كانم، وبورنو في شمال شرقي نيجيريا.

راسلت الحركة المهدية في السودان الأمير (رابح)، وطلبت منه التعاون، فلم يتجاوب مع قادتها، إذ كان سيء الظنّ بأوضاع السودان، وإنما اكتفى بتأييد الحركة، ورفع شعارها.

وصعب على المستعمرين الصليبيين أن يروا دولةً إسلاميةً تقوم إلى جانب مناطق نفوذهم، وخاصةً أنها ترفع شعار الإسلام، وتعمل على تطبيق أحكامه، وتجد تأييداً واسعاً من الرعية، وتجاوباً من الشعوب المسلمة المجاورة لها، بل والبعيدة عنها التي تصل إليها أخبارها.

أرسل الفرنسيون الحملة تلو الأخرى إلى تشاد للقضاء على دولة الأمير رابح غير أنها كلها كانت تبوء بالفشل، وتُهزم، وتعود خائبةً، فلما رأوا قوة رابح جهّزوا قوةً ضخمةً كانت على ثلاث حملاتٍ، وجعلوها تحت قيادة «لامي» فتمكّنت من التوغّل في دولة الأمير رابح، وجرت معارك حامية بين الطرفين، قُتل في إحداها القائد الفرنسي «لامي»، وكانت على أبواب مدينة «قصيري»، كما أن الأمير رابح قد جُرح في تلك المعركة، ثم فارق الحياة ـ رحمه الله ـ متأثّراً بجراحه في ٣ رمضان ١٣٠٧ هـ (٢٢ نيسان ١٨٩٠ م) ودخل الفرنسيون قاعدة حكمه ديكوا في ١٢ رمضان ١٣٠٧ هـ

---

(١) مدينة «ديكوا» تقع اليوم شمال شرقي نيجيريا، وعلى بعد مائتي كيلومتر من عاصمة تشاد.

(الأول من أيار ١٨٩٠ م)، وتسلّم الراية من بعده ابنه «فضل الله».

قاتل فضل الله بن رابح الفرنسيين، وانتصر عليهم في بعض المعارك، واستعاد «ديكوا»، غير أن الفرنسيين قد تمكّنوا من دخولها ثانية، واستشهد فضل الله ـ رحمه الله ـ في ميدان القتال حيث كانت قوات الفرنسيين كبيرةً، ومُجهّزةً بأسلحةٍ لا يملكها المسلمون يومذاك، وأعدادهم ضخمةً فلم يكن لسكان تلك المنطقة قبل بها، فتمكّن الفرنسيون من دخول البلاد عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)، غير أن المقاومة استمرّت، ولكنها كانت متفرّقة القيادة، متوزّعةً بين المناطق، قليلة السلاح، تنطلق في أوقاتٍ متباعدةٍ حتى استطاعت فرنسا الانتصار عليها بعد معركة «عين جالا» التي جرت عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م). وما أن شعر الفرنسيون بالغلبة، واطمأنوا إلى أن البلاد أصبحت في قبضتهم، وصاروا أصحاب الكلمة، ولم تعد هناك مقاومة أمامهم حتى جمعوا العلماء من أنحاء البلاد، وساقوهم إلى مدينة «أبيشة»، فكان عددهم أربعمائة عالمٍ، وهناك قتلوهم بالساطور في مذبحةٍ رهيبةٍ، عُرفت باسم «مذبحة كبكب»، فروّوا شيئاً من حقدهم الصليبي، وأطفأوا قليلاً من غيظهم على المسلمين، وأشعروا أنفسهم أنهم الأقوياء، وكان ذلك عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م). غير أن المناطق الشمالية لم يستطيعوا السيطرة عليها إلا عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م)، واتخذت هناك فرنسا ثكنات عسكرية في «زوار» و «فور» و «أوزو». وأخذت بعدها تتبع أئمة المساجد، ومعلمي القرآن الكريم حتى أخرجتهم من البلاد خوفاً منهم، ومن أثرهم على الشعب، وإرواءً لبعض غلّها.

وجعل الفرنسيون المدينة التي قتل قائدهم «لامي» على أبوابها، وهي مدينة «قصيري» قاعدةً لهم، وعاصمةً لهذه المستعمرة الجديدة، وأطلقوا عليها اسم ذلك القائد الخائب، فغدا اسمها «فورت لامي» وتعني قلعة لامي تخليداً لقتيلهم، ومسحاً للاسم الإسلامي، وفصلاً للحاضر الاستعماري عن الماضي الإسلامي.

وبموجب معاهدتي ٧ جمادى الأولى ١٣١١ هـ (١٥ تشـرين الثاني ١٨٩٣ م) و ٩ رمضان ١٣١١ هـ (١٥ آذار ١٨٩٤ م) اقتسم الفرنسيـون، والإنكليز، والألمان المناطق المحيطة ببحيرة تشاد. ثم ضمّ الفرنسيون إقليم «بوركو» عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م).

الفصل الأول

تشاد من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

٢٧ رجب ١٣٤٢ - ١٨ صفر ١٣٨٠ هـ

٣ آذار ١٩٢٤ - ١١ آب ١٩٦٠ م

أُلغيت الخلافة، وانقطعت كل صلةٍ كانت تربط المسلمين بعضهم مع بعضٍ، ولو كانت واهيةً، وتوزّع المسلمون في أقاليم منفصلةٍ بعضها عن بعضٍ، ومُقسّمةٍ بين دول المستعمرين الصليبيين التي تفرض نفوذها، وتتحكّم في شؤون مستعمراتها، وتحول دون التقاء بعضهم مع بعضٍ، ودون نجدة بعضهم لبعضٍ، وتضغط عليهم، وتُطبّق عليهم المناهج التي تُريد، والنظام الذي تبغي، وتُحاول أن تشفي بعض غليلها منهم ذلك الغليل الذي أورثتها إياه الحروب الصليبية، وشحنتها به الكنيسة وبطارقتها، والمسلمون ضعاف يخضعون، أو أذلاء يخنعون، ويتسلّط عليهم قادة المستعمرين أو أجراؤهم.

سارت فرنسا بسياستها الاستعمارية الصليبية المعروفة حيث أبقت السكان على حالةٍ كبيرةٍ من الفقر، والجهل، ينتابهم المرض، وتعتريهم جاهلية العصبيات، وعملت على نشر المفاسد وكل ما يدعو إليها من موبيقات من خلاعةٍ وفجورٍ. كما منعت التشاديين من عمل التنظيمات الاجتماعية والسياسية خوفاً من انتشار الوعي بلقاء بعضهم مع بعضٍ، وتذكير بعضهم بعضاً.

كانت منطقة تشاد جزءاً من إفريقية الاستوائية الفرنسية. وفي عام

١٣٥٣ هـ (١٩٣٢ م) عُدّلت الحدود بين تشاد وليبيا، فضمّت ليبيا بموجب تلك المعاهدة الأجزاء الشمالية من جبال تيبستي، غير أن بنود هذه المعاهدة لم تُنفّذ، بل لم يُصادق عليها.

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ويحكم تشاد (غوادا لوب)، ولم يلبث الألمان أن اجتاحوا فرنسا، وتشكّلت حكومة برئاسة الجنرال (بيتان) مقرها مدينة (فيشي) تُوالي ألمانيا، غير أن بعض الفرنسيين لم يقبلوا بالاستسلام، ولم يعترفوا بحكومة بيتان، وفرّ بعض القادة إلى بريطانيا، ومنهم ديغول الذي شكّل هناك حكومة فرنسا الحرة، واستمرّت في حربها لدول المحور، وبقائها بجانب الحلفاء، وأعلن حكام تشاد الفرنسيون تأييدهم لديغول، وهذا عكس بقية المستعمرات الفرنسية التي وقفت بجانب حكومة بيتان، وهكذا توقّف مدّ دول المحور في قلب إفريقية. وكانت تشاد خلال الحرب العالمية الثانية قاعدةً لتموين قوات الحلفاء في شمالي إفريقية. وعُدّت تشاد عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) جزءاً من جمهورية فرنسا فيما وراء البحار. وشارك سكان تشاد في الحرب العالمية الثانية، وسيقوا إلى الجبهات، ومنّاهم ديغول بالأماني المعسولة، ومن تشاد انطلقت القوات التي دخلت ولاية فزّان في ليبيا، والقطعات القتالية التي سارت نحو طرابلس الغرب، وكذلك التي اتجهت نحو تونس.

وطُبّق في تشاد عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) نظام بلاد جمهورية فرنسا لما وراء البحار، ووافقت فرنسا على تأسيس الأحزاب السياسية في تشاد على أن تكون فروعاً للأحزاب الفرنسية، لتُوجّه من باريس، ما دامت تشاد جزءاً من فرنسا، وكان من هذه الأحزاب:

الحزب الراديكالي: ويتولّى رئاسته في تشاد (غبرييل ليزبيت) ومن أعضائه البارزين (فرانسوا تمبالباي).

الحزب الاشتراكي: وهو امتداد للحزب الاشتراكي الفرنسي الذي يتزعّمه (غي موليه)، وفقد هذا الحزب أهميته في تشاد، حيث لم يعد له

موالين أبداً بعد عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) إلا الأجانب المؤيّدين لسياسة فرنسا.

حزب أوديت: ويترأسه في تشاد (ربتليس).

الحزب التشادي التقدمي: ونشأ من ائتلاف الحزب الراديكالي وحزب أوديت، ورئيسه في تشاد (غبرييل ليزبيت)، وهو من مواليد جزر الهند الغربية، وجاء إلى تشاد موظفاً إدارياً، ثم عمل بالسياسة.

الحزب الوطني التشادي: ويرأسه (أحمد أبا).

وجرت الانتخابات الأولى في تشاد لاختيار مجلسٍ نيابيٍ في عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وبعد عشر سنواتٍ تألّفت أول حكومةٍ برئاسة (غبرييل ليزبيت) زعيم الحزب التشادي التقدّمي.

وعرض ديغول دستوره عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)، وطلب من المستعمرات الفرنسية التصويت عليه، فالتي تُوافق عليه تصبح ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية، وتحصل على الحكم الذاتي مباشرةً، ويتساوى سكانها مع الفرنسيين في المجلس والقوانين، أما المستعمرات التي ترفض دستور ديغول، فتنفصل عن فرنسا، وتخرج منها القوات الفرنسية، وتضطر الحكومة الفرنسية أن تقطع عنها المساعدات المالية، والاقتصادية، والفنية جميعها، وأُجري الاستفتاء على الدستور في جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٥٨ م)، وكانت النتيجة لصالح فرنسا، وأصبحت تشاد حسب الدستور الديغولي دولةً ذات استقلالٍ ذاتيٍ عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م)، وحُلّ اتحاد إفريقية الاستوائية الفرنسية، الذي كان يضمّ كلاً من: تشاد، إفريقية الوسطى، الكونغو، الغابون.

أجريت الانتخابات في رمضان ١٣٧٨ هـ (آذار ١٩٥٩ م)، وفاز فيها الحزب الراديكالي، وحزب أوديت، وائتلف الحزبان فيما بينهما، وشكّلا حزباً واحداً، هو الحزب التشادي التقدّمي، وتسلّم رئاسته (غبرييل ليزبيت)

زعيم الحزب الراديكالي سابقاً، وحصل هذا الائتلاف على مقاعد الجمعية التأسيسية كلها، وعددها ٥٨ مقعداً. وتنازل (غبرييل ليزبيت) عن رئاسة الوزراة لـ (فرنسوا تمبالباي)، واحتفظ هو برئاسة الحزب إضافةً إلى نيابة رئاسة الوزراء، وذلك بناء على توجيهٍ من فرنسا. لأن (فرنسوا تمبالباي) من أبناء البلاد، وينتمي إلى إحدى القبائل الرئيسية، وهي قبيلة (سارا) فيكون أقوى، ويحصل على دعمٍ أكبر.

وضع دستور للبلاد، وفي ١٨ صفر ١٣٨٠ هـ (١١ آب ١٩٦٠ م) حصلت البلاد على الاستقلال التام، وأصبح (فرانسوا تمبالباي) رئيساً للجمهورية في اليوم التالي للاستقلال، واحتفظ أيضاً بمنصب رئاسة الوزراء.

الفصل الثاني

الاستقلال

قبلت تشاد عضواً في هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (٢٠ أيلول ١٩٦٠ م)، وبعد شهرين عُدّل الدستور، وأصبحت بموجبه اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وغدت السلطة التنفيذية بيد رئيس الجمهورية، وينتخب من قبل الجمعية العمومية، وأُعفي (غبرييل ليزبيت) من المناصب كلها التي كان يشغلها من قبل، وبقي (فرانسوا تمبالباي) رئيساً للجمهورية، رئيساً للوزارة، رئيساً للحزب الحاكم (الحزب التشادي التقدمي). وأُعيد تشكيل الوزارة من جديدٍ فضمّت ستة عشر وزيراً نصفهم من المسلمين والنصف الباقي من النصارى والوثنيين، وهذا إجحاف كبير بحق المسلمين الذين تبلغ نسبتهم ٨٥٪ من مجموع السكان، وهذا على الأقلّ، ولكن هذا التصرف لم يكن غريباً ما دام من الدخلاء فالمستعمرون الصليبيون هم الذين سلّموا هذه الحكومة السلطة، وهم الذين يُوجّهونها، ويشرفون على التنفيذ، ولكن سيكون لهذا في المستقبل الأثر السيء الكبير وذلك لتسلّط أقليةٍ على أكثريةٍ، وتوجيه السياسة والثقافة كلها في هذا الاتجاه. ومن الوزراء المسلمين الذين شغلوا مناصب وزارية:

أبا نسرو: وزيراً للداخلية. جبريل خير الله: وزيراً للخارجية.
محمد عبد الكريم: وزيراً للدفاع. أحمد كتكو: وزيراً للتربية والتعليم.
علي كوسو: للعدل. جانباتيز: للمواصلات.

وعُيّن هواي الشيخ ابن إبراهيم قاضياً للقضاة، وحصل تعارض بين الشريعة الإسلامية والقانون الفرنسي، وخاصةً لجهل الناس بأحكام الشريعة

فاستحضر قاضي القضاة عدداً من النسخ من كتاب «الرسالة» على مذهب الإمام مالك مترجماً بالفرنسية من الجزائر، وكتباً إسلامية أخرى مترجمةً أيضاً إلى الفرنسية، ووزّعها على المحاكم والمدارس ليُرجع إليها.

سارت الأمور في البداية سيراً حسناً حيث كان رئيس الجمهورية يُبدي المجاملة، وقبول النصيحة والتوجيه حتى يتمكّن، ويجذب إليه بعض المسلمين الذي يُشكّلون أكثرية السكان، حتى إذا تمكّن، وشعر أن الوضع مستتب له قلب ظهر المجن، فألغى الأحزاب كلها بحجة أنها كانت قبل الاستقلال، واستثنى حزبه «الحزب التشادي التقدّمي» فأصبحت تشاد دولةً ذات حزبٍ واحدٍ، وحاول إبعاد التكتل الإسلامي، وذلك في شعبان ١٣٨١ هـ (كانون الثاني ١٩٦٢ م)، وأمر بإلقاء القبض على ثلاثةٍ من زعماء المسلمين بتهمة تهديد أمن الدولة، ثم حلّ المجلس النيابي.

وقام بتعديل الدستور في ذي القعدة ١٣٨١ هـ (نيسان ١٩٦٢ م)، وينص الدستور الجديد على أن دولة تشاد جمهورية، لها رئيس، ومجلس نيابي واحد، يُنتخب أعضاؤه لمدة خمس سنواتٍ، بينما ينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبع سنواتٍ، ويتمّ انتخاب رئيس الجمهورية من قبل المجلس النيابي، ورؤساء البلديات، وزعماء القبائل، والوحدات الإدارية، ولا يمكن إقالته إلا بالأكثرية المطلقة لأعضاء المجلس النيابي.

جرت انتخابات نيابية جديدة عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) إثر صدور الدستور الجديد، وقبل مرور أقلّ من عامٍ أُجريت انتخابات جديدة بديلة، وضمّ المجلس النيابي خمسةً وسبعين عضواً.

ويوجد حزب واحد في البلاد بشكلٍ رسميٍ، هو الحزب الحاكم، الحزب التشادي التقدّمي، وانضمّ إليه حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي، وغير الرسمي، والذي يضمّ عدداً من رؤساء الوحدات الإدارية، وزعماء قبائل الشمال، وكان أبرزهم عمدة منطقة (برداي) الذي يدعى (سوغومي)،

وهو من قبائل التيبو، وجرت محاولة لضمّ ملك تيبستي إلى الحزب، ولكن فشلت المحاولة. وبذا قوي الحزب التشادي التقدمي.

وتجمّع كثير من المسلمين تحت لواء الحزب الوطني الإفريقي الذي تشكّل عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، ولكنه حظر مع بقية الأحزاب، وبقي بشكلٍ غير رسمي، وحصل على ٢٨ مقعداً في المجلس النيابي بالانتخابات الأخيرة، غير أن الحزب الحاكم قد استطاع من التفاهم مع أعضاء هذا الحزب، وعُقد اتفاق بين الحزبين، وقامت منهما ما عُرف باسم «كتلة الحزب التشادي التقدمي».

بدء الأحداث:

وصل سفير دولة اليهود في فلسطين إلى تشاد في أواخر عام ١٣٨١ هـ (نيسان ١٩٦٢ م) فأثار غضب المسلمين هناك، فاتصل قاضي القضاة بوزير الخارجية، ووزير العدل، وقابل أمين الحزب الحاكم (بابا حسن) بصفتهم من المسلمين، وتكلّم معهم بأنه لا يصحّ أن تقبل الحكومة سفيراً لليهود فإن هذا يتنافى مع علاقات وروابط مسلمي تشاد بإخوانهم من المسلمين في الأمصار الإسلامية الأخرى، لأن الكيان اليهودي دولة مُعتدية، وتاريخها، وتاريخ اليهود معروف بالنسبة للمسلمين منذ فجر الإسلام إلى اليوم، وإن قضية فلسطين إنما تخص كل مسلمٍ ومسلمةٍ في أنحاء العالم جميعها، وأنه زار القدس بنفسه أثناء اجتماع المؤتمر الإسلامي، ورأى الظلم الذي لحق المسلمين من اليهود. فوعد هؤلاء المسؤولون قاضي القضاة أن ينقلوا هذا لرئيس الجمهورية، وأن يُعلنوا عدم رضاهم عن موضوع هذا السفير اليهودي.

وفي اليوم التالي قابل السفير اليهودي وزير الخارجية، فكانت مقابلة الوزير مقابلةً جافةً وليس فيها أية مجاملةٍ أو لباقةٍ سياسيةٍ، فقام السفير بمقابلة رئيس الجمهورية، ونقل له ما جرى من وزير الخارجية فأبدى الرئيس تأثّراً بالغاً، وطمأنه أنّ كلّ شيءٍ سيسير نحو الأحسن.

جرى تعديل وزاري بعد أيامٍ قليلةٍ من مقابلة السفير اليهودي لرئيس الجمهورية التشادي خرج نتيجته الوزراء المسلمون جميعاً من مناصبهم، وعُيّن مكانهم وزراء غير مسلمين فقد نُقل:

أبا نسرو من منصب وزير الداخلية إلى وزير للدولة، ومحمد عبد الكريم وزير الدفاع نقل ليشغل منصب رئيس الجمعية الوطنية، أما بقية الوزراء المسلمين فقد تركوا مناصبهم دون أن يشغلوا أي منصبٍ آخر. ونُفي وزير التربية والتعليم خارج البلاد.

وفي اليوم نفسه أمر رئيس الجمهورية باعتقال وزير الدولة (أبا نسرو) ورئيس الجمعية الوطنية (محمد عبد الكريم) ووزير العدل السابق (علي كوسو)، وأمين سر الدولة (الحاج عيسى)، وعضو مجلس النواب (برما مهدي)، وبعد خمسةٍ وثلاثين يوماً أُحضروا للاستجواب، وصدر القرار بإخراج قاضي القضاة من البلاد لأنه ليس من سكان تشاد الأصليين، وذلك بعد مصادرة أمواله جميعها، فعاد إلى موطنه في (مالي)، وبقي الآخرون رهن الاعتقال.

أخذ الزعماء المسلمون يُفكّرون بإجراء تغييرٍ في نظام الحكم، وعملوا على الاتصال بضباط الجيش، لكن عيون رئيس الجمهورية استطاعت من كشف الحركة، وفي جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (تشرين الثاني ١٩٦٢ م) أرسلت الحكومة كوكبة من ضباط الشرطة لاعتقال ثلاثة من زعماء الحركة، وهم:

١" ــ جانباتيز: وهو ابن رجلٍ فرنسيٍ، وأمٍ تشاديةٍ، مسلم، كان يشغل منصب وزير المواصلات في الحكومة السابقة.

٢" ــ جبريل خير الله: وزير الخارجية السابق.

٣" ــ أحمد غلام: رئيس الوزراء قبل الاستقلال.

غير أن هؤلاء الزعماء قد رفضوا الانصياع للأمر، وأبوا الاستسلام، وقتلوا رجال الشرطة المكلّفين بالاعتقال، فأرسلت الحكومة لهم قوةً من

الجيش مسلحةً سلاحاً كاملاً، وجرى تبادل إطلاق النار بين الزعماء الثلاثة والقوة العسكرية، وكان الشعب مهيأً نفسياً للحركة فاشتعلت الثورة، وكان نتيجتها أن اعتقل عدد كبير من المسلمين، وقتل حوالي خمسمائة مسلمٍ، وجُرح الآلاف، توفي منهم خمسمائةٍ متأثّرين بجراحهم.

جرت محاكمة صورية لزعماء الحركة والوزراء المعتقلين سابقاً، وصدرت بحقهم الأحكام التالية:

١ ــ أبا نسرو: وزير الدولة، السجن المؤبد.

٢ ــ محمد عبد الكريم: وزير الدفاع السابق، السجن المؤبد.

٣ ــ علي كوسو: وزير العدل السابق، السجن ٢٠ عاماً.

٤ ــ الحاج عيسى: أمين سر الدولة، السجن ٢٠ عاماً.

٥ ــ بابا حسن: أمين سرّ الحزب الحاكم، السجن ٢٠ عاماً.

٦ ــ برما مهدي: عضو مجلس النواب، السجن ١٥ عاماً.

ويُمثّل المعارضة حزب الاستقلال الوطني، والاتحاد الوطني التشادي، وكلاهما غير رسمي، حيث لا يوجد حزب رسمي سوى الحزب الحاكم الذي هو الحزب التشادي التقدّمي.

تألفت حكومة جديدة من اثني عشر وزيراً، بينهم ثلاثة وزراء فقط من المسلمين الذين يمثّلون ٨٥٪ من السكان على الأقل. وكانت الحركة السابقة في العاصمة على الأقل غير أن الثورة قد انتشرت على نطاقٍ واسعٍ عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).

الثــورة:

قام رئيس الجمهورية التشادية باعتقال ثلاثةٍ من وزرائه بتهمة محاولة اعتقاله، وأذاع أن هناك قائمةً من الشخصيات المشتركة بالمؤامرة لم تكتمل بعد، وأن المعتقلين أعضاء في حزب الاستقلال الوطني. وفرّ بعض الرجال، وزار وفد منهم يُمثّل حزب الاتحاد الوطني التشادي برئاسة

(إبراهيم أنيشا) الأمين العام المساعد للحزب المذكور، و(أبو بكر عثمان) زار الخرطوم، والقاهرة، ودمشق، وبعض البلدان العربية الأخرى ليُوضّح للمسؤولين فيها حقيقة الوضع في تشاد.

بدأت حكومة تشاد باضطهاد المسلمين، وفرض الضرائب، فانتفض السكان، غير أن هذه الانتفاضة لم تكن منظمةً فقُضي عليها بسرعةٍ، ولكن يمكن اعتبارها بدءاً للثورة العامة التي كان مركزها الشمال حيث بقيت تلك المنطقة حتى ذلك العام تحت السيطرة العسكرية الفرنسية لتثبيت الوضع للحكم القائم.

تشكّلت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد في السودان عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م)، واختير (أبو صديق) أميناً عاماً لها، وهو من مؤسسي الحزب التشادي التقدمي، الحزب الحاكم، مع (غبرييل ليزبيت) و(فرنسوا تومبالباي) عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، وبقي من قادة الحزب حتى عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) حيث تفرد (فرانسوا تومبالباي) بالأمر، ومع ذلك بقيا صديقين حتى عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

ولما انتشر خبر الثورة قام رئيس الجمهورية بالاعتقالات التي ذكرناها، والتي شملت الوزراء الثلاثة، وهم: (محمد بارود) الوزير المكلّف بشؤون العدل، و(محمد غوني) وزير شؤون رئاسة مجلس الوزراء، ووزير الدولة، هذا إضافةً إلى اعتقال رئيس الجمعية الوطنية (جلال)، ونائب مدينة بانغور (بول جبرين)، ووقعت صدامات دموية في مدينة (مانغالم)، وأسفرت عن وقوع ثمانية قتلى.

ثم عادت الثورة فاندلعت من جديد عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) بقيادة الجبهة الوطنية لتحرير تشاد، وشملت أكثر المناطق الإسلامية، وخاصةً تيبستي، وبلاد التيبو، وسيطر الثوار على المناطق الشمالية، فاستنجد رئيس جمهورية تشاد بفرنسا فأمدّته بثمانمائة مظلّي عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) غير أن هذه النجدة لم تستطع دخول مدينة (أوزو)، فأرسلت له نجدةً ثانيةً،

تُقدّر بمائتين وستين جندياً من الفرقة الأجنبية، ومشاة البحرية، ووصل هذا الدعم في مطلع عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م)، ومع هذا فلم تستطع حكومة تشاد من السيطرة على الوضع إلا بعد ثمانية أشهرٍ. وكان يدير الجبهة الوطنية لتحرير تشاد، والحركة (أبو صديق) من ليبيا.

تمكّنت حكومة تشاد من تهدئة الوضع بعد أن اتخذ رئيس الجمهورية (فرانسوا تمبالباي) سياسة المهادنة حيث طلب سحب القوات الفرنسية من المناطق الشمالية، فقبلت ليبيا هذا التصرّف، ولكن الجبهة الوطنية لتحرير تشاد التي أصبحت في الجزائر لم تقنع بهذا التصرّف، وكذلك لم يرضَ عنه زعيم قبائل التيبو الذي يعيش في منفاه في ليبيا، حيث كانت حكومة تشاد تُظهر في كل مرةٍ تضعف فيها الرغبة بالتعاون مع المسلمين، فإذا شعرت بالقوة أخذت باضطهادهم، وأعلنت عن محاولتهم تهديد أمن الدولة أو محاولتهم القيام بانقلابٍ، وتدّعي هذا لتضربهم ضربةً قاصمةً، وتتخذ ذلك حجةً لها، دون أن يقوموا بأية حركةٍ.

أعلن محمد الباقلاني الأمين العام للجبهة الوطنية لتحرير تشاد في مقابلةٍ له مع جريدة (فتح) أهداف الجبهة، وكان مما قاله: «إن عدد سكان تشاد ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، منهم ٨٥٪ من المسلمين، و ١٠٪ من الوثنيين، و ٥٪ من النصارى، وإن تشاد كانت مستعمرةً فرنسيةً، وقد مُنحت بتاريخ ١٩٦٠/٨/١١ م استقلالاً شكلياً على أثر جهادٍ طويلٍ ونضالٍ مريرٍ خاضه شعب تشاد ضدّ الاستعمار الفرنسي»، واستدلّ محمد الباقلاني على شكلية الاستقلال بالأمور الآتية:

١ ــ تزوير الانتخابات.

٢ ــ تسليم السلطة لعملاء الاستعمار برئاسة (فرانسوا تمبالباي) وفرض وجوده بالحديد والنار.

٣ ــ فتح الباب أمام التغلغل الصهيوني، إذ أصبحت الشركات (الإسرائيلية) تُسيطر على كل المرافق الموجودة في الدولة: المجالات

العسكرية والإعلامية والمدرسية ـ وخاصةً إدارة اللغة العربية ـ كما قام الصهاينة بإقامة معسكراتٍ للشباب والإشراف عليها، وإرسال القياديين من هؤلاء الشباب إلى فلسطين المحتلة لتدريبهم وإعدادهم كعملاء للصهاينة في المنطقة، كما قاموا بإنشاء ما يُسمّى بالمستعمرات الزراعية، واحتكار الصيد البري والبحري، وافتتاح المراكز الثقافية، وتوزيع الكتب باللغة العربية، والفرنسية، والإنكليزية لتثبيت دعاية الصهاينة، وباختصارٍ فإن (إسرائيل) أصبحت المخطط والموجه لسياسة فرانسوا تمبالباي، مع العلم أنه لا يوجد يهودي واحد من أصل تشادي.

٤ ــ وجود القوات الفرنسية.

٥ ــ حلّ الأحزاب السياسية باستثناء الحزب التشادي التقدمي، الحاكم العميل، فقد كان هناك حزب الاستقلال الوطني الإفريقي، والاتحاد الوطني التشادي، وكانا يشكلان المعارضة في البلاد، ويمثّلان الأغلبية، فما كان من العميل (تمبالباي) إلا أن حلّ هذين الحزبين، وحلّ (البرلمان)، وعيّن بعض العملاء تعييناً تعسّفياً، وقابل كل معارضيه، بقوة السلاح.

هذه الأوضاع جعلت الشعب يستنكر هذه اللعبة الاستعمارية المسماة بالاستقلال، وابتدأت المعارضة بشكل تظاهراتٍ، وبدأ الاستعمار باستعمال وسائل القمع (البوليسية) الإرهابية، واعتقل كل الوزراء المسلمين المشتركين في حكومة تمبالباي، وذلك على ضوء خطة تمزيق البلد بالطائفية، ومسخ نضال الشعب بحيث يبدو وكأنه نضال أغلبية ضدّ أقليةٍ مما يبعده عن الارتباط الصحيح بحركة التحرر العالمي.

هذه الأوضاع الشاذة هي التي جعلت الشعب يلجأ إلى حمل السلاح دفاعاً عن نفسه، وحمايةً عن كرامته وشعوره (القومي). وقد نشأ تنظيم سري تكتل فيه كل الزعماء المعارضين الذين بقوا خارج السجن، وخرج بعضهم إلى الدول الإفريقية والعربية لنقل القضية إلى المحيط الدولي، وبعد الإعداد والتكوين انطلقت الشرارة الأولى للثورة في خريف عام

(١٩٦٥ م) بقيادة الاتحاد الوطني التشادي، وبعد أن توسّعت الحركة الثورية عقد مؤتمر شعبي في صيف (١٩٦٦ م) ونتج عنه تكوين الجبهة الوطنية لتحرير تشاد ومن ذلك الحين أصبحت الجبهة هي المنظمة الوحيدة التي تقود الحركة الثورية في تشاد، وأهداف الجبهة هي:

١ ــ القضاء على النظام (الدكتاتوري).

٢ ــ إجلاء القوات الفرنسية.

٣ ــ تكيوين حكم (ديمقراطي) عادل، يكفل الحقوق لكل المواطنين.

٤ ــ مساندة حركات التحرّر في البلدان الإفريقية والعربية وخاصةً الثورة الفلسطينية.

٥ ــ تصفية النفوذ الصهيوني.

٦ ــ بناء اقتصادٍ وطنيٍ مستقلٍ.

٧ ــ إقامة علاقاتٍ (دبلوماسية) مع الجميع باستثناء إسرائيل وجنوبي إفريقية.

٨ ــ جعل اللغة العربية هي لغة الدولة الرسمية.

والجبهة الوطنية لتحرير تشاد لها نشاط سياسي وعسكري، إلا أنها تُولي النشاط العسكري الأهمية الأولى في هذه المرحلة، وقد تمكّنت من السيطرة على ثلثي البلاد، وكادت تسقط حكومة العميل (تمبالباي) لولا أنه استعان بالقوات الفرنسية التي تستعمل الطيران في محاولةٍ منها لإبادة ثوارنا مما أعاق النصر القريب قليلاً، ولكن على الرغم من الصعوبات كلها فإن الثورة تتقدّم والحكم العميل يخسر.

ويجدر بنا أن نقول: إن الثورة تعتمد على إمكاناتها الذاتية، وعلى بذل الشعب، واستعداده للشهادة، ونحن نأمل أن يتحرك الشعب الفرنسي للضغط على حكومته لإيقاف الاعتداء على شعبنا المناضل.

لقد استطاعت الجبهة أن تصفى المطارات العسكرية الإسرائيلية التي

أُقيمت في تشاد على الحدود المشتركة بيننا وبين السودان من جهةٍ، وبيننا وبين ليبيا من جهةٍ أخرى. كما أنها صفّت كل المستعمرات الزراعية التي أقامها الصهاينة في تشاد ـ المناطق المحررة ـ وكذلك أماكن الصيد التي تبلغ مساحتها مائتي كيلومتر مربع، كما صفّت مراكز تدريب الشباب في منطقة (كوكو نقراتا) وكل هذا على سبيل المثال لا أكثر.

ونريد بهذه المناسبة أن نتجه إلى رجال الثورة الفلسطينية لنؤيّدهم برفض المشروعات التصفوية مثل مشروع مجلس الأمن الصادر في (٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ م) ومشروع روجرز الأخير لأن أية ثورةٍ لا تكتسب ثوريتها إلا من رفضها للتخاذل وأنصاف الحلول، فليس مجلس الأمن هو الذي يضمن حق شعب فلسطين.

واعتقد أن الصحيح والأمثل هو ما رفعته فتح (ثورة حتى النصر). وبهذه المناسبة فنحن نتجه إلى الدول العربية لتعتبر كفاحنا ضد الصهيونية والاستعمار امتداداً لكفاحها، وكم كان شعبنا يشعر بمرارةٍ عندما لم يجد من يستنكر العدوان الفرنسي علينا، ونحن نسأل الإعلام العربي لماذا يستنكر العدوان على فيتنام ويتجاهل العدوان الفرنسي على تشاد وغيرها[1].

وفي عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) أُعلن عن قيام محاولة انقلاب بقيادة أحمد عبدالله الذي انتحر عندما فشلت المحاولة، وقيل في انتحاره أنه يريد إخفاء تفاصيل العملية والذين اشتركوا معه فيها، وتوتّرت العلاقة من جديدٍ بين ليبيا وتشاد، حيث ادّعت حكومة تشاد أن ليبيا من وراء العملية، فقُطعت العلاقات السياسية بينهما، وصرّح رئيس جمهورية تشاد في مؤتمرٍ صحفيٍ له عقده بعد عشرة أيامٍ مضت على محاولة الانقلاب بأنه على استعدادٍ للتعاون مع أي ليبيٍ يرغب في استخدام أرض تشاد منطلقاً لمحاربة الرئيس الليبي معمر القذافي. وقامت حكومة تشاد بإرسال بعثاتٍ

---

(١) جريدة فتح بتاريخ ٢/٨/١٩٧٠ م.

رسميةٍ إلى الدول العربية والإفريقية لشرح تفاصيل المحاولة الانقلابية الفاشلة.

وفي عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) تمّ سجن عددٍ من قادة الحكم التشادي، ومنهم رئيس الأركان (فيلكس مالوم) إثر اتهامات بالتآمر أُلقيت. وحُلّ الحزب التشادي التقدّمي، وتأسّس مكانه حزب سياسي جديد عُرف باسم «الحركة الوطنية للثورة الثقافية والاجتماعية».

التغيير:

لما رأت الأوساط السياسية الغربية ضعف الحكم في تشاد، وقوة المعارضة الإسلامية خشيت على الوضع فعملت على تغييره واستبداله بوضعٍ يكون أقوى منه خوفاً من خروج الأمر من يدها، إذ أضعفت الحكم الثورات وأنهكته المعارضة.

في عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) استولى الجيش على السلطة بقيادة نائب رئيس الأركان (عبد القادر كاموغا)، وهو نصراني من الجنوب أيضاً، فأطلق سراح رئيس الأركان (فيلكس مالوم) وعيّنه رئيساً للجمهورية، ورأساً للمجلس العسكري الأعلى. وقامت الحكومة الموقتة بحلّ الحركة الوطنية للثورة الثقافية والاجتماعية، وأطلقت نداءاتها بالمصالحة الوطنية، وهذا ما شجّع بعض قادة المعارضة على التحالف مع النظام الجديد.

والواقع أن الوضع لم يتغير فيه شيء، فالرئيس السابق، والرئيس الذي وصل إلى السلطة حديثاً، ورئيس الأركان كلهم من الجنوب، ومن النصارى، ومن القبيلة نفسها، وهي قبيلة (سارا)، وقد شكّل (فيلكس مالوم) حكومةً أكثرها من الجنوب النصراني. وقُتل الرئيس السابق (فرانسوا تومبالباي) أثناء حركة الانقلاب.

انقسام المسلمين:

عمل الأعداء على تجزئة المعارضة المسلمة، وقد تمكّنوا من ذلك،

إذ انقسمت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد التي كانت تضمّ في صفوفها القوات المسلمة، ورجال القبائل، والزعماء السياسيين، وظهر عدد من التجمّعات ومنها:

١ ــ قوات الشمال ويقودها (حسين حبري).

٢ ــ الحركة الشعبية لتحرير تشاد ويرأسها (أبو بكر عبد الرحمن).

٣ ــ الجبهة الوطنية لتحرير تشاد برئاسة (غوكوني عويدي)، وتعرف كما كانت باسم (فرولينا).

ومع أن هذه التجمّعات كلها تُصنّف ضمن المعارضة، إلا أن الجبهة الوطنية لتحرير تشاد، وهي الأم، بقيت على صلتها مع ليبيا، وتتلقّى مساندتها بشكلٍ سريٍ، وكانت ليبيا قد احتلّت منذ عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) شريط (أوزو) في شمالي تشاد، وتبلغ مساحة ١١٤,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويعتقد أنه يحتوي على كمياتٍ من اليورانيوام، وتبني ليبيا حجّتها على الاتفاقية التي جرت بين فرنسا وإيطاليا عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م) والتي لم تُصدّق كما أسلفنا.

المصالحة والاختلاف:

عُقد مؤتمر في الخرطوم للمصالحة، وشاركت فيه الحكومة التشادية، وممثلو الجبهات الثلاث، ومندوبون عن الدول المحيطة بتشاد، وهي: ليبيا، النيجر، نيجيريا، الكاميرون، السودان، ولم يتوصل المؤتمر إلى اتفاقٍ، ولكنه أسفر عن تقاربٍ بين الحكومة التشادية وجبهة قوات الشمال التي يرأسها حسين حبري. وواصلت الحكومة السودانية رعاية هذا التقارب فتمّ الاتفاق بين الطرفين بعد خمسة أشهرٍ من بدء انعقاد المؤتمر، ونصّ الاتفاق على:

١" ــ إعلان العفو العام عن السجناء والمعتقلين السياسيين جميعاً بدءاً من ٢٣ صفر ١٣٩٨ هـ (الأول من شباط ١٩٧٨ م).

٢" ــ إعلان وقف إطلاق النار.

٣" ـ إقامة حكومة مصالحةٍ في مدةٍ أقصاها شهران.

واعترف برئاسة (فيلكس مالوم) للجمهورية، وأصبح (حسين حبري) رئيساً للوزراء، ولكن لم يلبث أن وقع الخلاف بينهما، واقتسما السلطة.

وفي مطلع عام ١٣٩٨ هـ (كانون الثاني ١٩٧٨ م) قامت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد (فرولينا) بتوحيد قيادتها في مجلسٍ موقتٍ تحت قيادة (غوكوني عويدي)، واستولت على مساحةٍ واسعةٍ من المنطقة أخذتها من القوات الحكومية قبل أن تصل النجدات الفرنسية.

وفي الوقت نفسه خرج (أحمد الأصيل) من الجبهة الوطنية لتحرير تشاد (فرولينا) فزاد ذلك في انقسامها وأصبح أحمد الأصيل يُقاوم قوات (غوكوني عويدي) الذي بدأ بدوره يتقرّب من ليبيا التي سعت للتقارب بين (غوكوني عويدي) والحكومة التشادية حيث عقد الطرفان مؤتمراً في مدينة (سبها) في ليبيا أسفر عنه وقف إطلاق النار الشامل في ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ (آذار ١٩٧٨ م).

وفي مطلع عام ١٣٩٩ هـ (كانون الأول ١٩٧٨ م) انهارت السلطة المركزية تماماً في تشاد نتيجة الخلاف بين رئيس الجمهورية (فيلكس مالوم) ورئيس الوزراء (حسين حبري)، وتقدّمت قوات الشمال التابعة لرئيس الوزراء نحو العاصمة (نجامينا)، وبعد معارك بين الطرفين دخل حسين حبري العاصمة، واضطر فيلكس مالوم على الاستقالة والفرار من البلاد متجهاً إلى نيجيريا تاركاً المسؤولية لقائد الدرك المقدم (وادال عبد القادر كاموغا).

وسار (غوكوني عويدي) بقواته أيضاً نحو العاصمة نجامينا، ودخلها أيضاً بعد ساعات من دخول حسين حبري إليها، وعقد مؤتمر للمصالحة في نيجيريا في مدينة «كانو» غير أنه فشل، وتشكل مجلس وطني حكم البلاد حوالي ثلاثة أشهر، ثم تشكّلت حكومة موقتة ضمّت أعضاء من الجبهة الوطنية لتحرير تشاد (فرولينا)، وقوات الشمال، والحركة الشعبية لتحرير

تشاد والمعروفة أيضاً بأنها «الجيش الثالث»، وقوات جيش الحكومة التشادية، وعُيّن الملازم الأول (محمد شوا) رئيساً للجمهورية، وهو من أعضاء الحركة الشعبية لتحرير تشاد، وأما غوكوني عويدي فقد تسلّم منصب وزارة الداخلية على حين تسلّم حسين حبري منصب وزارة الدفاع. وأُبعد عن الوزارة أحزاب وعصابات الجنوب التي كان يقودها المقدم عبد القادر كاموغا، ولكن هذه الحكومة كانت موضع استنكار الدول الإفريقية النصرانية.

استمرت حروب متقطعة، وكان هناك شقاق داخل الحكومة بين (حسين حبري) و (غوكوني عويدي) ولم يطل عمر الحكومة أكثر من ثلاثة أشهر أيضاً. وعقد مؤتمر في (لاغوس) عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وتم فيه الوصول إلى اتفاقية بين إحدى عشرة جماعةً وحزباً، وتشكلت حكومة في ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٩ م) تُمثّل الأحزاب الأحد عشر، ولكن لم يمض على هذه الاتفاقية أكثر من ثلاثة أشهر حتى نُقضت، وتسلم (غوكوني عويدي) رئاسة الجمهورية.

اختلف (غوكوني عويدي) مع ليبيا ثم رجع الوئام بينهما بعد زيارة وزير الخارجية الليبية (علي التريكي) إلى نجامينا عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م)، ثم اشتدّ الخلاف بين (حسين حبري) و (غوكوني عويدي) بسبب احتلال ليبيا لإقليم أوزو. وضعفت سلطة (غوكوني عويدي) نتيجة الاختلافات المستمرة، وفي ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ (آذار ١٩٨٠ م) أصبحت الاتفاقية الهشة غير معمول بها، وبدأ القتال مرةً ثانية في العاصمة نجامينا ورغم المحاولات المتعددة لإيجاد تسويةٍ وحلٍ، واتفاقٍ لوقف إطلاق النار، ولكن دون نتيجةٍ.

استمرت الصراعات، وانسحبت القوات الفرنسية جميعها من تشاد في جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ (أيار ١٩٨٠ م) لتفسح المجال أمام المتنازعين للقتال، وليسحق بعضهم بعضاً ما داموا قد أصبحوا كلهم من المسلمين.

وعقدت معاهدة صداقة ودفاع مشترك في رجب ١٤٠٠ هـ (حزيران ١٩٨٠ م) بين الرئيس الليبي معمر القذافي وبين ممثل حكومة (غوكوني عويدي) دون أن تكون هناك موافقة مسبقة من حكومة الوحدة الوطنية للمرحلة الانتقالية. وفي ذي الحجة ١٤٠٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٠ م) تدخلت القوات الليبية مباشرةً في الصراعات الدائرة في العاصمة التشادية نجامينا، وكانت النتيجة هزيمة حسين حبري، وتقهقر قواته المسلحة (قوات الشمال) وانسحابه مع قواته شرقاً نحو الحدود مع السودان، وأيّدته يومذاك كل من مصر والسودان لخلاف تلك الدولتين يومذاك مع ليبيا، وأصبح جسر جوي بين (القاهرة) و(الجنينة) في غربي السودان لدعم الموقف. واستقرّت قوة ليبية في تشاد قوامها خمسة عشر ألف مقاتلٍ. وانحاز (أحمد الأصيل) إلى جانب (حسين حبري) في هذا الصراع، وانضمّ (مصطفى ماتيشي) إلى جانب (غوكوني عويدي).

وهاجمت كل من السنغال، وغامبيا، والنيجر، ونيجيريا وجود القوات الليبية في تشاد.

وقُدّمت اقتراحات لقيام وحدة بين ليبيا وتشاد، غير أن القوات الليبية في تشاد لم يكن مرغوب فيها، وذلك خلال شهر ربيع الأول ١٤٠١ هـ (كانون الثاني ١٩٨١ م)، واستمرت حرب العصابات، وصدر حكم غيابي على حسين حبري وعلى قادةٍ آخرين من قوات الشمال، ويقضي الحكم بالموت عليهم وذلك في شعبان ١٤٠١ هـ (حزيران ١٩٨١ م). وأخيراً وفي ذي القعدة ١٤٠١ هـ (أيلول ١٩٨١ م) عدل غوكوني عويدي عن فكرة الاندماج مع ليبيا. ثم طلب سحب القوات الليبية من تشاد إذ أنّ وجودها غير مرغوب فيه فاستجابت ليبيا لهذا الطلب وسحبت قواتها في مطلع عام ١٤٠٢ هـ (تشرين الثاني ١٩٨١ م)، ووضعت قوة حفظ سلام مكانها من دولٍ إفريقية تحت إشراف منظمة الوحدة الإفريقية التي اقترحت وقف إطلاق النار، والإشراف على إجراء انتخابات نيابية، فأبدت الحكومة التشادية موافقتها على هذين الاقتراحين، ثم تخلّت عنهما بعد أن رفض

(غـوكوني عـويدي) فكـرة المفاوضـة مـع حسين حبـري في ربيـع الأول ١٤٠٢ هـ (كانون الثاني ١٩٨٢ م).

حاول (غوكوني عويدي) تقوية حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية التي أنهكتها الصراعـات فقام بتشكيـل مجلس رئاسي، وتعيين رئيس للوزراء، وأجرى تعديلاً وزارياً في رجب ١٤٠٢ هـ (أيار ١٩٨٢ م).

بعد أن انسحبت القوات الليبية من تشاد، تحرّك حسين حبري بقواته من الشرق نحو العاصمة التشادية نجامينا، واستـطاع أن يدخلهـا في ١٥ شعبان ١٤٠٢ هـ (٧ حزيران ١٩٨٢ م)، وتمّ اختيار مجلس رئاسة جديد برئاسة حسين حبري في ٢٧ شعبان ١٤٠٢ هـ (١٩ حزيران ١٩٨٢ م)، وفي نهاية الأسبوع الأول من رمضان (أواخر حزيران) انسحبت قوات منظمة الوحدة الإفـريقية من تشـاد. وفي ذي القعـدة ١٤٠٢ هـ (أيلول ١٩٨٢ م) أعلن دستـور مُـوقّت، وفي الشهـر التـالي أقسم حسين حبـري اليمين كـرئيسٍ للجمهورية، وشكّل حكومةً جديدةً. أما (غـوكوني عـويدي) فقـد فرّ إلى الكاميرون، ومنها انتقل إلى الجزائر، ثم استقر في ليبيا في مدينة (سبها) ليكون على مقربةٍ من الحدود مع تشاد، وبدعمٍ من ليبيا تمكّن من السيطرة على أجـزاء من شمالي تشـاد، وفي ٥ رمضان ١٤٠٣ هـ (١٥ حـزيـران ١٩٨٣ م) تمكّن من احتلال مدينة (لارغو) وهي مدينة (فايا) سابقاً.

وشكّل أعوان حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية حكومة «خلاص وطنية» منافسةً في (بارداي). ونجح نظام حسين حبري بالحصول على اعتـرافٍ دوليٍ بعد أن حصل على مساندة معظم الدول الإفريقية، وليبيا ـ طبعاً ـ لم تعترف بنظام الحكم الجديد في نجامينا.

في أوائل ربيع الثاني عام ١٤٠٣ هـ (كانون الثاني ١٩٨٣ م) التحق بعض أعضاء القوات المسلحة التشادية التابعة للعقيد عبـد القادر كـاموغـا بالقوات المسلحة التابعة للقوات الشمالية لتشكل معاً جيشاً وطنياً جديداً هو القوات المسلحة التشادية الشمالية.

حصل نظام حسين حبري على عشرة ملايين دولار كمساعداتٍ عسكريةٍ من الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى فرقة مظليين من زائير، وعلى مساعدةٍ من فرنسا. وقامت قوات الحكومة بهجومٍ على مدينة (لارغو) لطرد قوات (غوكوني عويدي) منها، وتمكّنت فعلاً من احتلالها في منتصف شوال ١٤٠٣ هـ (أواخر تموز ١٩٨٣ م)، غير أن قوات (غوكوني عويدي) قد تمكّنت من استعادة المدينة في الشهر التالي بعد مساعدات سلاح الجو الليبي الذي قصف المدينة وقوات الحكومة.

وتدخّلت فرنسا في الخلافات القائمة بناءً على طلبٍ من حسين حبري، وأرسلت إليه قوةً تضمّ ثلاثة آلاف جندي، واقترح الرئيس الفرنسي ميتران إقامة اتحادٍ في تشاد، ويبقى كل زعيم رئيساً على منطقة نفوذه، وذلك كحلٍّ للنزاع، غير أن المتكلم الرسمي باسم (غوكوني عويدي) قد رفض هذا الاقتراح.

وتمّ عمل خط من قبل فرنسا يفصل بين الأحزاب والقوات المتصارعة، ويسير هذا الخط مع درجة العرض ١٥° شمالاً، وأعلن في ٨ ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (١٥ أيلول ١٩٨٣ م) أن الحرب قد توقّفت.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م) عقد اجتماع بين ممثلي الأحزاب جميعها في (أديس أبابا) تحت رعاية منظمة الوحدة الإفريقية، غير أن المحادثات قد أخفقت نتيجة الاختلاف في طريقة أصول التمثيل والحضور. وتجددت الحرب، وسقطت طائرة فرنسية وقُتل قائدها، وبعدها قرّرت فرنسا زيادة دفع الخط الفاصل بين الفئات المتصارعة ١١٠ كيلومترات نحو الشمال أي ليُصبح مسايراً لخط العرض ١٦° شمالاً بعد أن كان مسايراً لخط العرض ١٥° شمالاً.

ومن المعلوم أن المناطق الشرقية وهي: إقليم (وادّاي) وإقليم (بيلتن) والقسم الشرقي من إقليم (باثا) تعدّ هذه المناطق مراكز لحسين حبري وتُعرف قواته بـ(قوات الشمال). وتعدّ المناطق التي تُشرف على بحيرة

تشاد، وهي (كانم) و(البحيرة) وكذلك مناطق الشمال مراكز دعم لغوكوني عويدي، وتعرف قواته بالقوات الشعبية. ويهيمن عبد القادر كاموغا على الجنوب النصراني، وتسمّى قواته بالقوات التشادية المسلحة.

وفي محاولةٍ لتقوية السلطة السياسية قام حسين حبري بحلّ حزبه «حزب جبهة التحرير الوطني لتشاد» في رمضان ١٤٠٤ هـ (حزيران ١٩٨٤ م) وأنشأ حزباً رسمياً جديداً باسم «الاتحاد الوطني للاستقلال والثورة» وتبع ذلك تعديل وزاري بعد شهر من ذلك.

وحدث انشقاق في القوات المناهضة لحسين حبري إذ تشكّلت مجموعات منشقّة جديدة، وحركة مناهضة لغوكوني عويدي عن طريق حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية.

اقترح الرئيس الليبي معمر القذافي انسحاباً متزامناً لعناصر المساندة الليبية والجنود الفرنسيين، وتمّ في أواخر عام ١٤٠٤ هـ (أيلول ١٩٨٤ م) اتفاق بين ليبيا وفرنسا لانسحاب القوات العسكرية لكلا البلدين من تشاد، وأعلن في ٢١ صفر ١٤٠٥ هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٨٤ م) أن جيوش كلا البلدين قد تمّ جلاؤها تماماً عن أرض تشاد، غير أن المخابرات الأمريكية والتشادية قد زعمت أن هناك ثلاثة آلاف جنديٍ ليبيٍ لا يزالون على الأرض التشادية، وهذا ما يتعارض ويتنافى مع الاتفاقية.

وأعلن الرئيس الفرنسي ميتران في مؤتمر القمة الفرنسية الإفريقية الذي عُقد في ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) أن فرنسا لن تستعمل القوة لطرد الليبيين من شمالي تشاد، ولكنها ستتدخّل فيما إذا تحركت القوات الليبية جنوب خط العرض ١٦° شمالاً.

زادت الحرب المدنية في الجزء الجنوبي من تشاد بين قوات الشمال التابعة لحسين حبري وبين الفئات المشاركة في حرب العصابات، وبلغت الأوج في الشهرين الأوليين من عام ١٤٠٥ هـ (تشرين الأول وتشرين الثاني من ١٩٨٤ م)، وقدّر عدد الذين غادروا ديارهم متجهين إلى السودان،

وإفريقية الوسطى، والكاميرون بخمسين ألف لاجئ. وفي محاولةٍ لتخفيف الأزمة قام حسين حبري برحلاتٍ في المنطقة في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م)، وتمكّن بالإغراءات أن يكسب إلى صف حكومته ألف ومائتين من المتمردين الذين كانوا يشنّون الغارات على قواته.

ععقد اجتماع قمّةٍ في (بنين) في شهر ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م) شكّلت فيه الأحزاب الموالية إلى (غوكوني عويدي) مجلساً أعلى للثورة يشتمل على أعضاء من سبع تجمعاتٍ مناهضةٍ لحكومة حسين حبري، وفي الوقت نفسه أعلنت عدة تجمّعاتٍ كانت معارضةً للحكومة تأييدها لها، ومن هذه التجمّعات الجبهة الديمقراطية التشادية، ومجموعة من أربعة أحزابٍ معاديةٍ لكل من حسين حبري، وغوكوني عويدي، وكانت قد ظهرت في جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م) تحت قيادة العميد (جبريل ينجوجوجو)، ولجنة العمل والتخطيط التي انشقّت عن المجلس الديمقراطي الثوري المناهض لغوكوني عويدي في ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م)، واستجابةً لهذا أعلن حسين حبري الإفراج عن ١٢٢ سجيناً سياسياً في جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م).

استؤنفت الصدامات بدعمٍ من ليبيا في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م)، وتُساندها حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية، وأخذت الهجمات تتكرر على المواقع الحكومية جنوب خط العرض ١٦° شمالاً، فاستنجد حسين حبري بالحكومة الفرنسية طالباً زيادة المساعدات العسكرية، فانطلقت طائرة فرنسية من جمهورية إفريقية الوسطى وقذفت مهبط طائراتٍ أنشأته ليبيا عند (وادي دوم) شمال شرقي مدينة (لارغو)، وقامت القوات المعادية بضربةٍ ثأريةٍ على مطار (نجامينا) العاصمة التشادية.

وضعت فرنسا قوةً جويةً دفاعيةً في نجامينا للتدخّل في الوقت المناسب، غير أن القوات الحكومية استطاعت وحدها أن تصدّ غارات عند خط العرض ١٦° شمالاً في رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م). وأمّنت

الولايات المتحدة للحكومة الليبية عشرة ملايين دولار في تلك المدة.

توقّفت الاعتداءات في ٥ رجب ١٤٠٦ هـ (١٥ آذار ١٩٨٦ م) بعد الدمار الذي أحلّته القوات الحكومية في قاعدةٍ للثوار في (شيشا) شمال خط العرض ١٦° شمالاً.

دعت منظمة الوحدة الإفريقية الأطراف المتنازعة في تشاد لحضور محادثاتٍ تعقد في الكونغو في مدينة (لوبومو)، وخُطّط لها أن تبدأ في رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م)، ولكنها فشلت حيث رفض غوكوني عويدي الحضور.

أجرى حسين حبري تعديلاً وزارياً في حكومته، وأدخل عدداً من خصومه السياسيين في الوزارة الجديدة. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن رفض غوكوني عويدي لحضور مؤتمر المصالحة الذي كان مقرّراً أن يتمّ في (لوبومو) قد أثار نائب رئيس حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية عبد القادر كاموغا ضدّ غوكوني عويدي فتقدّم باستقالته من منصبه الاسمي (نائب الرئيس) في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) بل انحاز إلى حسين حبري، وأسرع لنجدته في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م)، والتحق بالحكومة في أواخر عام ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م).

وفي ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م) سحب الشيخ ابن عمر من المجلس الديمقراطي الثوري مساندته لغوكوني عويدي. ودارت مناوشات مُسلّحة في إقليم (تيبستي) في شهر صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م) بين المجلس الديمقراطي الثوري بدعمٍ ليبيٍ وقواته المسلحة الشعبية، وأعلن غوكوني عويدي أنه راغب شخصياً بالبحث عن طريق للوصول إلى المصالحة مع حسين حبري.

وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) تشكّلت حكومة وحدةٍ وطنيةٍ انتقاليةٍ جديدةٍ برئاسة غوكوني عويدي شملت سبعة أعضاء من أحد عشر حزباً يدعمون هذه الحكومة إثر اجتماع عقد في

(بنين) في مدينة (كوتونو) بتأييدٍ من ليبيا، وبجهود الشيخ ابن عمر.

وبدأت مناوشات في إقليم (تيبستي) بين الجنود الليبيين والقوات العسكرية الشعبية وبين القوات الموالية لحسين حبري وذلك في ربيع الثاني ١٤٠٧هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م)، فتحركت القوات المسلحة الشمالية في شمالي تشاد، غير أنها حوصرت هناك. وعملت فرنسا والولايات المتحدة على مساندة القوات الحكومية المحاصرة، وإنزال المؤن لها عن طريق الجو. وفي جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (كانون الثاني ١٩٨٧ م) استطاعت قوات حسين حبري أن تستولي على عددٍ من الأهداف المهمة في شمالي تشاد، وأغارت الطائرات الليبية على مراكز قوات حكومة تشاد في شمالي البلاد، وقامت فرنسا بدورها بهجومٍ جويٍ على (وادي دوم)، وصرّحت فرنسا أنها قد وضعت عدداً من جنودها جنوب خط العرض ١٦° شمالاً.

تمكّنت قوات الحكومة التشادية من السيطرة على (وادي دوم) في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) والقاعدة الجوية فيه، وتراجعت القوات الليبية، وأخلت (لارغو)، وفي رمضان سلّمت مواقعها على شريط (أوزو) إلى قوات (غوكوني عويدي)، وانسحبت من الميدان، وتوسّع دعم فرنسا حتى شمل شمالي تشاد، بينما احتفظت بقوةٍ لها في الجنوب.

وفي أشهر الصيف قام حسين حبري بزيارة كل من فرنسا والولايات المتحدة وتعهد كلا البلدين بمساعدةٍ ماليةٍ وعسكريةٍ إضافيةٍ، وتسلّمت تشاد من الولايات المتحدة أسلحةً ضدّ الدروع. وطلبت فرنسا من تشاد ألا تجرّ إلى صراعٍ مع ليبيا حول منطقة (أوزو)، وأن الأمر يجب أن يحلّ عن طريق التحكيم الدولي.

وفي أواخر عام ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م) احتلّت تشاد مدينة (أوزو) المركز الإداري للإقليم المتنازع عليه، ولكن استطاعت القوات الليبية استعادتها بعد عشرين يوماً، وانتقلت القوات التشادية منها إلى مراكز أخرى في إقليم (تيبستي).

وفي مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) قامت القوات التشادية بمحاولةٍ لتطويق مدينة (أوزو) عن طريق هجومٍ داخل ليبيا بضرب القاعدة الجوية في (ماتنس سارّة) والتي يعتقد أنها كانت مراكز انطلاق الطيران الليبي للإغارة على المواقع التشادية. وبالمقابل فقد أغارت طائرة ليبية على العاصمة التشادية نجامينا، ولكن الدفاع الجوي الفرنسي قد أسقط تلك الطائرة، فقذف سلاح الجو الليبي المواقع الفرنسية في مدينة (أبيشة)، فاحتجّت فرنسا على هذا الاعتداء، وأوقفت مدّ تشاد بالأسلحة حتى رجع الرئيس الفرنسي ميتران إلى مساندته للحكومة التشادية برئاسة حسين حبري في ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (كانون الأول ١٩٨٧ م).

أدّت جهود وساطة للتسوية قامت بها منظمة الوحدة الإفريقية أيام تصاعد الصراع إلى وقف إطلاق النار في ١٨ محرم ١٤٠٨ هـ (١١ أيلول ١٩٨٧ م)، ولكن لم تلبث تشاد أن أعلنت في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) أن قوات الحكومة قد اصطدمت مع أفراد من الجيش الليبي بالقرب من الحدود السودانية، وإن وجود عددٍ من الجنود الليبيين في منطقة دارفور السودانية أدّى إلى تدهور العلاقات خلال عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧ و١٩٨٨ م)، وأعلنت أيضاً أن السلاح الجوي الليبي كان ينتهك المجال الجوي التشادي، وحدثت عدة اشتباكاتٍ بالقرب من (جوزة البيضاء) في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) وفي شرق منطقة (عنيدي) في رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م).

رفضت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) مناقشة مسألة السيادة على إقليم (أوزو) بحجة أن هذا النزاع إنما هو من مسؤولية منظمة الوحدة الإفريقية. وتمّ تحديد اجتماعٍ بين رئيسي البلدين في ٨ شوال ١٤٠٨ هـ (٢٤ أيار ١٩٨٨ م) عن طريق منظمة الوحدة الإفريقية بعد أن تأجّل عدة مرات، وعشية ليلة اللقاء أُعلن أن الرئيس الليبي لن يحضر احتجاجاً على المعاملة التشادية للأسرى الليبيين، ورغم هذا وفي خطابٍ أُلقي في طرابلس يوم ٩ شوال ١٤٠٨ هـ

(٢٥ أيار ١٩٨٨ م) أي في اليوم التالي للموعد الذي كان مقرراً، وبمناسبة الاحتفال بذكرى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية الخامسة والعشرين أعلن الرئيس الليبي رغبته بالاعتراف بنظام الحكم القائم في تشاد.

وقام الرئيس الليبي بدعوة كلٍ من (حسين حبري) و(غوكوني عويدي) لعقد محادثات مصالحةٍ في ليبيا، وعرض تقديم مساعدةٍ ماليةٍ لإعادة إعمار المدن التشادية التي أصابتها القنابل في شمالي تشاد، وكان في ردّ حسين حبري شيء من الحذر ولكنه أعلن أن تشاد مستعدة لإعادة العلاقات السياسية مع ليبيا، والتي كانت قد انقطعت منذ عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).

تمّت مفاوضات بين وزراء خارجية البلدين في الغابون في الأول من ذي الحجة سنة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م) وتمّ التوصل إلى اتفاقيةٍ نصّت على إعادة العلاقات السياسية، ولكن لم يتوصّل إلى الاتفاق على مسألة السيادة على إقليم (أوزو)، ومسائل مصير أسرى الحرب الليبيين في تشاد، ومستقبل أمن الحدود العامة.

وفي صفر ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول ١٩٨٨ م) أصدر البلدان بلاغاً مشتركاً عبّرا فيه عن رغبتهما بالوصول إلى حلٍّ سلميٍ للنزاع الإقليمي القائم، وللتعاون مع لجنة منظمة الوحدة الإفريقية المعينة لذلك الهدف.

تأكّدت اتفاقية وقف إطلاق النار التي تمّ الاتفاق عليها في ١٨ محرم ١٤٠٨ هـ (١١ أيلول ١٩٨٧ م)، وتمّ استئناف العلاقات السياسية، وتمّ تبادل السفراء في ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م)، ومع هذا بقيت تشاد تتهم ليبيا بين الآونة والأخرى بانتهاك اتفاقية وقف إطلاق النار، وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) أسقطت القوات التشادية طائرةً ليبيةً، وزعمت أن الطائرة كانت قد دخلت المجال الجوي التشادي. وفي ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) أُذيع عن

وقوع اشتباكاتٍ بين القوات التشادية، وبين القوات الموالية لليبيا قرب الحدود مع السودان.

وفي ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) أُعلن عن فشل محادثات المصالحة بين الحكومة التشادية وبين غوكوني عويدي، وكان حزب حسين حبري (الاتحاد الوطني للاستقلال والثورة) قد طالب في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م) باعترافٍ عالميٍ بحكومة حسين حبري الشرعية. وكانت بالفعل قد ضعفت حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) نتيجة نزاعٍ حدث بين الشيخ ابن عمر وبين غوكوني عويدي على قيادة الحركة، كما أن عدة تجمّعاتٍ كانت في السابق في صف المعارضة قد أعلنت مساندتها للحكم القائم في تشاد وتركها معارضته.

أُعيد تشكيل حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية تحت قيادة غوكوني عويدي. وفي ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) عقد الشيخ ابن عمر معاهدة سلام مع الاتحاد الوطني للاستقلال والثورة، ورجع مع أعوانه إلى تشاد.

عادت العلاقات فتدهورت من جديد بين ليبيا وتشاد في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) عندما اتهمت الحكومة التشادية ليبيا أنها تعمل مع السودان للاعتداء على تشاد، وقد نشرت بعض قواتها في (بيلتين) شرقي تشاد، وادّعت أن قوات ليبية وسودانية قد حُشدت في إقليم (دارفور) في السودان لشنّ هجومٍ على تشاد. وتوقّفت جلسة لجنة «آدهوك» من منظمة الوحدة الإفريقية المكلّفة بالعمل على حسم النزاع بين ليبيا وتشاد لأن ممثّلي البلدين لم يتفقوا على جدول أعمال اللجنة.

وتقابل الرئيسان الليبي (معمر القذافي) والتشادي (حسين حبري) لأول مرةٍ في العاصمة المالية (باماكو) في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م)، وعلى الرغم من أن اللقاء كان ودّياً إلّا أن الاتفاق بينهما لم يكن حاسماً وذلك لأن الرئيس التشادي رفض اقتراح الرئيس الجزائري

(الشاذلي بن جديد) والذي يقضي بانسحاب القوة العسكرية الفرنسية المرابطة في تشاد. ورغم هذا فقد التقى في الجزائر ٢٩ محرم ١٤١٠ هـ (٣١ آب ١٩٨٩ م) وزير الخارجية التشادي الشيخ ابن عمر الذي كان قد تسلّم هذا المنصب في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) مع نظيره مع وزير الخارجية الليبي جاد الله عزوز الطالي حيث قاما بتوقيع خطوطٍ أساسيةٍ لاتفاقية سلامٍ، ورأيا أن النزاع إذا لم يحلّ خلال عامٍ فإنه من الضروري إحالته لمحكمة العدل الدولية للتحكيم، وانطلاقاً من حسن النوايا لحلّ النزاع فإنه يجب سحب القوات جميعها من منطقة (أوزو) تحت إشراف مراقبين إفريقيين حياديين، وإطلاق سراح أسرى الحرب جميعاً، وأعاد البلدان التأكيد على التزامهما بمبادىء اتفاقية وقف إطلاق النار الموقّعة في ١٨ محرم ١٤٠٨ هـ (١١ أيلول ١٩٨٧ م)، وتمّ إعلان سياسة عدم التدخّل المتبادل في الشؤون الداخلية لكلٍ منهما، وتشكيل لجنة لترعى تنفيذ هذه الاتفاقية.

أطلقت الحكومة التشادية سراح عددٍ غير مُحدّدٍ من الأسرى الليبيين، ولكن رغم توقيع اتفاقية ٢٩ محرم ١٤١٠ هـ (٣١ آب ١٩٨٩ م) فقد تمّ الإبلاغ عن اشتباكاتٍ عسكريةٍ بين القوات المسلحة التشادية الشمالية وبين القوات المؤيّدة لليبيا في شهري ربيعين من العام نفسه (تشرين الأول والثاني من عام ١٩٨٩ م) ومع ذلك عُقدت جلسة اللجنة المشتركة في (نجامينا) في أول جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٩ م) وتوصلت إلى توقيع اتفاقية صداقة.

كان الشيخ ابن عمر قد رجع وأعوانه إلى تشاد، وتسلّم منصب وزارة الخارجية في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م)، وهذا ما أبدى وحدةً وطنيةً سياسيةً داخل تشاد، غير أنه لم يلبث أن أُعلن في ٢٥ شعبان ١٤٠٩ هـ (الأول من نيسان ١٩٨٩ م) أنه قد تمّ القبض على وزير الداخلية والإدارة المحلية (محمد إنتو) وذلك عقب محاولة عمل انقلابٍ، وهو من أبرز الذين

عادوا مع الشيخ ابن عمر إلى تشاد، وفي الوقت نفسه هرب إلى السودان قائد القوات المسلحة (حسن جاموس)، والقائد السابق (إدريس ديبي) وكلاهما كان مشاركاً في تلك المحاولة، ولكن أعلن بعد ذلك عن مقتل حسن جاموس متأثّراً بجراحه التي أُصيب بها أثناء الصراع مع القوات التشادية الحكومية المؤيّدة للرئيس حسين حبري.

شكّل إدريس ديبي حركة معارضةٍ جديدةٍ في السودان في ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) تحت إمرته، وعُرفت باسم «عملية الأول من نيسان»، وقد شاركت قوات هذه الحركة في المعارك التي دارت في شمالي تشاد في شهري ربيع الأول والثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الأول والثاني ١٩٨٩ م). وكان بعض الأعضاء المنفيين قد أعلنوا انسحابهم من حزب «الاتحاد الوطني للاستقلال والثورة» على حين أعرب بعض تجمعات المعارضة عن ولائها لذاك الحزب الحاكم في تشاد، وأيّدت الحكم القائم.

أُعيد تشكيل مجلس الوزراء من جديد في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) بعد موت وزير التخطيط والتعاون (صومائيلا ماهمات) في الشهر السابق، وكان قد قُتل في حادث انفجار طائرةٍ فرنسيةٍ فوق دولة النيجر مع ١٧١ راكباً كانوا على متنها بعد مغادرتها العاصمة التشادية (نجامينا) بمدةٍ وجيزةٍ.

وتشكّلت لجنة لوضع دستورٍ جديدٍ للبلاد في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م)، وجرى استفتاء عام شعبي في ١٢ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (١٠ كانون الأول ١٩٨٩ م) على تجديد انتخاب الرئيس حسين حبري لمدة سبع سنواتٍ أخرى، وقد حصل على التأييد المطلوب، كما مُنح سلطاتٍ واسعةً. وبالتالي أعلن العفو العام عن ١٢٢ رجلاً متهماً بمخالفة القانون العام.

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) تمّ الإعلان عن سحب جهاز الرادار الفرنسي في (موسّورو) في شمال شرقي العاصمة

نجامينا، وعلى بعـد ٢٥٠ كيلومتراً منهـا. وأن يتمّ تخفيض عدد الجنـود الفرنسيين على دفعاتٍ تشمل كل دفعةٍ من ٢٠٠ ـ ١٥٠٠ جندي. وفي صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) تمّ الإعلان عن تخفيضٍ آخر، ومع ذلك فقد كرّرت الحكومة الفرنسية مساندتها لجهود تشاد في العمل على محافظتها على وحدة أرضها.

وفي ٢٧ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (٣٠ حزيران ١٩٨٩ م) رحّبت حكومة الرئيس حسين حبري بالإطاحـة بحكومـة الصادق المهـدي في السودان، واعترفت بحكم عمر البشير الجديد.

كان رئيس أركان الجيش التشادي (إدريس ديبي) وفي الوقت نفسه كان مستشار الرئيس حسين حبري للشؤون العسكرية والأمنية. ولما كـان الخلاف مستحكماً بين ليبيا والنظام في تشاد، فقد عمل على كسب الأسرى الليبيين في تشاد إلى صفّ المعارضة الليبية، فجمعهم، وخاطبهم، ومنّاهم في ٥ شعبان ١٤٠٨ هـ (٢٣ آذار ١٩٨٨ م) بأنهم سيعاملون معاملة طيبةً جداً، وعلى أنهم ليسوا أسرى فيما إذا انضمّوا إلى صفوف المعارضة الليبية وبالتحديد الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا التي يرأسها (محمد المقريف).

وانشقّ (إدريس ديبي) عن حسين حبري في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) بعد أن اتّهم بتدبير محاولة انقلابٍ، وفـرّ إلى السودان، ومنهـا انتقل إلى العاصمة الليبية، والتقى بالرئيس الليبي الذي لم ينسَ الماضي، ولكن أسرّه في نفسه، وعمل على دعمه ما دام يلتقي معه على محـاربة النظام القائم في تشاد.

وأخذ الخلاف يظهر بين الرئيس التشادي حسين حبري وفرنسا، بعد أن طلب الرئيس التشادي في ذي القعدة ١٤١٠ هـ (حزيران ١٩٩٠ م) إبعاد قائد القوات الفرنسية المرابطة في تشاد نتيجة اختلافه معه، كما رأت فرنسا

أن تشاد أصبحت تتقرّب من الولايات المتحدة الأمريكية لتُعادل بين القوتين، وتخلّت فرنسا عن الرئيس حسين حبري.

اشتدّ الصراع بين الحكومة التشادية وبين الحركة الوطنية للإنقاذ برئاسة (إدريس ديبي)، ووقع القتال في المناطق الشرقية، ولما احتدم توجه الرئيس حسين حبري في ٥ جمادى الأولى ١٤١١ هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٠ م) ليكون بنفسه على رأسه الجيش للقضاء على المتمرّدين، ولما وصل إلى الساحة أعطى تعليماته باللاسلكي بضرورة تحرك فرقةٍ من الجيش إلى قرب الحدود السودانية كي لا تفسح المجال للمتمرّدين بالفرار، غير أن (إدريس ديبي) التقط الإشارة، وتمكّن من حلّ رموزها، واتخذ إجراءاتٍ مضادةً إلى ضرب الفرقة الحكومية المتجهة شرقاً، ثم عاد إلى الجيش الذي يقوده حسين حبري بنفسه، والذي كاد أن يقع بالأسر، ولكنه أُفلت وهرب بطائرةٍ إلى نجامينا، ثم غادرها هارباً إلى الكاميرون، ومنها انتقل إلى السنغال.

ودخل إدريس ديبي على رأس قواته العاصمة التشادية نجامينا في ١٤ جمادى الأولى ١٤١١ هـ (الأول من كانون الأول ١٩٩٠ م)، وسيطر على الوضع. وطالب السنغال بتسليم حسين حبري.

أيّد غوكوني عويدي نظام الحكم الجديد برئاسة إدريس ديبي الذي شكّل حكومةً جديدةً ضمّت خمسة وزراء سابقين في وزارة حسين حبري التي كانت بالسلطة يوم دخول إدريس ديبي العاصمة نجامينا.

وأُطلق سراح الأسرى الليبيين بعد سقوط نظام حسين حبري، فغادر نجامينا أربعمائة وخمسون أسيراً.

ونُقل عدد من الأسرى الليبيين إلى بلدان إفريقية أخرى أو إلى أماكن مجهولةٍ بناءٍ على رغبتهم ـ على حدّ ادّعاء النظام ـ، وكانت الولايات المتحدة وراء هذا الإجراء، واحتجّت ليبيا رسمياً.

ولم تطل الأيام بالنظام الجديد حتى ظهرت المعارضة، وبدأت

العقبات تظهر من جديدٍ، وكانت الادّعاءات أن قبيلة زغاوة في الشمال التي ينتمي إليها الرئيس إدريس ديبي قد غدت صاحبة النفوذ والمتسلّطة.

ووجد ما يقرب من تسعة عشر حزباً معارضاً. وكان من أكبرها اتحاد القوى الديمقراطية بزعامة (جالي جاتا نجوثي)، والحزب الجمهوري، وقوى العمل من أجل الجمهورية والديمقراطية والعدالة برئاسة (نجار ليجي يورو نجار)، وحركة الديمقراطية والتنمية التي تتبع حسين حبري.

جرت محاولة انقلاب قام بها وزير الداخلية السابق (مالدوم باداعباس) في ربيع الثاني ١٤١٢ هـ (تشرين الأول ١٩٩١ م).

وجرت محاولة انقلابٍ أخرى قام بها وزير الأشغال العامة السابق (عباس كوتي يعقوب) في ذي الحجة ١٤١٢ هـ (حزيران ١٩٩٢ م)، وهو من أعضاء الحزب الحاكم (الحركة الوطنية للإنقاذ) البارزين، غير أنه اعترض على قبول فكرة التعددية الحزبية، وعلى اشتراك غير حزبيين في الوزارة، فانفصل عن إدريس ديبي، وأخذ يعارض نظامه، ويعمل على تقويضه.

كما أن سكان الجنوب لم يكونوا راضين على الحكم، ويدعون أن الجيش متسلّط عليهم، وأكثر القبائل هناك معارضة قبيلة (هجيري).

كما أن بعض القبائل الشمالية كانت ضمن المعارضة، وأبرزها قبيلة (جورانز) التي ينتمي إليها حسين حبري، والتي تعيش حول مدينة فايا (لارغو) مسقط رأس حسين حبري.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة تشاد ١,٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهي دولة قارية، ويبلغ طول حدودها ٥,٩٦٨ كيلومتراً، منها ١,٠٥٥ كيلومتراً مع ليبيا، و ١,٣٦٠ كيلومتراً مع السودان، و١,١٩٧ كيلومتراً مع إفريقية الوسطى، و١,٠٩٤ كيلومتراً مع الكاميرون، جزء منها وسط بحيرة تشاد، و٨٧ كيلومتراً مع نيجيريا وهي حدود مائية وسط بحيرة تشاد، و١,١٧٥ كيلومتراً مع النيجر، وجزء منها مائي داخل بحيرة تشاد، ولا تزيد على ٨٥ كيلومتراً.

وبحيرة تشاد التي تبلغ مساحتها ١٥,٠٠٠ كيلومتراً مربعاً في حالة الفيضان، وتنقص عن ذلك في الأحوال العادية، ونجد أنه في صيف عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) لم تكن مساحة البحيرة لتزيد على عشرة آلاف كيلومتر مربع، بينما اتسعت فوصلت مساحتها عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) إلى ١٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وأكثر الضفاف تعرّجاً هي الضفة الشمالية الشرقية أي سواحل منطقة (كانم). وكثيراً ما تختفي البحيرة عن الأنظار بسبب النبات الذي ينتشر على أطرافها، وخاصةً الذي يصل ارتفاعه إلى سبعة أمتارٍ، وتُغطّي هذه النباتات ٤/١٠ من مساحة البحيرة، والتي هي عرضة للانطمار والتقطّع بسبب كثرة اللحقيات التي تحملها إليها الأنهار أثناء فيضانها، وبسبب مهاجمة الرمال التي تحملها الرياح الشمالية الشرقية، والتي كانت فيما مضى سبباً في تقطع البحيرة، كما أن هناك عاملاً مهماً آخر، وهو ذهاب مياه نهر (لوغون) نحو نيجيريا عن طريق نهر (بينوي)،

وأكثر مناطق البحيرة عمقاً لا يزيد على أربعة أمتار ونصف، والغالب هو المتران.

ويبلغ عدد سكان تشاد حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) ٤,٩٥٠,٠٠٠، ويبلغ معدل زيادة السكان السنوية ٢,٣٪، وتكون الكثافة للسكان حوالي أربعة أشخاصٍ في الكيلو المتر المربع الواحد، وإن كانت تختلف بين منطقةٍ وثانيةٍ.

الصراع العنصري:

كانت منطقة تشاد ملتقى للأجناس من العرب، والبربر، والزنوج. فمن الشمال جاء العرب والبربر يحملون رسالة الإسلام، واللغة العربية، ومن الجنوب جاء الزنوج ينتشرون نحو الشمال، وهكذا فالشعب التشادي مزيج من الساميين والحاميين، وخليط من البيض والسود. كما التقى على هذه البقعة المسلمون بالوثنيين، ثم جاء المستعمرون النصارى، وساهمت التجارة في زيادة الاحتكاك حيث كانت تشاد مركزاً لالتقاء القوافل، والطرق التجارية من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب.

تزداد نسبة العرب والبربر في الشمال، وتقلّ في الجنوب حيث يكثر الزنوج جنوب خط العرض ١٢° شمالاً، ولا تزال الحياة القبلية تلعب دورها، وأشهر القبائل التي قد يصل عددها إلى مائتي قبيلة هي:

١ ـ بيلي: وتعيش في الشمال الشرقي في إقليم «عنيدي».

٢ ـ تيدا: ومنازلها في الشمال في بلاد «تيبستي».

٣ ـ التيبو: وديارهم في الشمال، وهم رعاة إبل، ويصلون في ترحالهم إلى ليبيا.

٤ ـ البودوما: وتعيش في الجهات الشمالية والشرقية من البحيرة.

٥ ـ شوا: وتعيش وسط تشاد، وجنوب شرقي البحيرة، ويعمل أفرادها في رعي الأغنام والأبقار.

٦ ـ كوتوكو: وهم مزيج من الزنوج والعرب، وإن كانت تغلب عليهم الصفة الزنجية، وهي الظاهرة في ملامحهم، ويعملون في صيد السمك وتجارته، ويصنعون السفن لذلك، وتعمل نساؤهم في تجفيف السمك على ضفاف الأنهار، وإضافةً إلى ذلك يعملون في الزراعة، ويعيشون في الجنوب على ضفاف نهري «شاري» و«لوغون» وروافدهما.

٧ ـ الكانوري: وهم من الزنوج، اختلطوا بالعرب، ويعملون بالزراعة في منطقة «باغيرمي»، كما يعملون بالتجارة التي هي بأيديهم، وأيدي الهاوسا، ويعيشون في الجنوب إلى الجنوب الشرقي من منازل قبائل «الكوتوكو».

٨ ـ الهاوسا: وينتشرون في وسط البلاد، وتعدّ التجارة مهنتهم الرئيسية، ولغتهم هي السائدة في التجارة.

٩ ـ الفولاني أو البهل: ويعيشون في الوسط، ويدعون أنهم من أصلٍ عربي، ويعملون في الرعي.

١٠ ـ السارا: ويعيشون في الجنوب، وينتشرون في جمهورية إفريقية الوسطى، وهم خليط من الساميين والحاميين، ويتصفون بطول القامة، ويعملون في الزراعة.

١١ ـ الزنوج: لم يختلط بعضهم مع غيرهم، فاحتفظوا بصفتهم الزنجية نتيجة العزلة التي فرضوها على أنفسهم، في جبال «ملفي» و«أبو ضيا» في الجنوب.

ثم هناك القبائل القديمة مثل «البولالا» و«الأرنجا» و«الموسجو» و«القرعان» وغيرهم كثير.

ولم يكن هناك صراع قبيلي خاص، وإنما كان ضمن الصراع الواسع العقيدي، والإقليمي، والحزبي، حيث كانت بعض القبائل تُؤيّد فرداً أو تجمعاً أو حزباً لانتمائه إليها، أو لعقيدتها، أو تعصّباً إلى أحد الجوانب

العقيدية، أو القبيلية أو الإقليمية مثل قبيلة «سارا» التي كان منها الرئيس التشادي الأسبق (فرانسوا تمبالباي)، وخلفه (فيلكس مالوم)، وكذا (عبد القادر كاموغا) فقد كانت دائماً بجانب هؤلاء الزعماء على أنهم ينتمون إليها، ويدينون بالنصرانية ديانة أكثر أبنائها، وهم من أبناء الجنوب.

الصراع الإقليمي:

كان الصراع الإقليمي واضحاً، وإن كان مرتبطاً بالعقيدة والحزبية أيضاً، فالجنوب تكثر فيه الوثنية، والنصرانية، والزنوج، على حين يكثر العرب، والبربر في الشمال، كما ينتشر الإسلام، ومن هناك كان الصراع بين الشمال والجنوب، وكان للشمال أحزابه وتجمعاته، وللجنوب أحزابه وفئاته، ومن هنا كان الصراع عقيدياً، إقليمياً، حزبياً، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد كان لحسين حبري وحزبه قوة في المناطق الشرقية، ولغوكوني عويدي وحزبه قوة في المنطقة الغربية الوسطى، ولكلاهما تأييد في الشمال، ولعبد القادر كاموغا قوة في الجنوب.

الصراع العقيدي:

يُشكّل المسلمون ٨٥٪ من مجموع سكان تشاد، وإن قبائل بيلي، وتيدا، والتيبو، والبودوما، والكوتوكو، وشوا هي قبائل مسلمة، وإن أغلبية قبائل الهاوسا، والفولاني هي مسلمة، وإن قسماً من قبائل الكانوري، والسارا قد اعتنق الإسلام. وهناك قبائل صغيرة مسلمة كلها أو بعضها.

ويُشكّل الوثنيون ١٠٪، وهم من الزنوج ونسبة ضئيلة من الفولاني.

أما النصارى فلا يزيدون على ٥٪، وهم الذين تنصّروا تحت تأثير المستعمرين الصليبيين والإرساليات التنصيرية بالإغراء بالمنصب، والمال، والجنس، والدعم في النفوذ.

٤٢٠٨,٠٠٠	المسلمون	ويشكلون	٨٥٪
٤٩٥,٠٠٠	الوثنيون	ويشكلون	١٠٪
٢٤٧,٠٠٠	النصارى	ويشكلون	٥ ٪
٤٩٥٠,٠٠٠			١٠٠٪

ولم يكن هناك صراع عقيدي واسع قبل مجيء المستعمرين الصليبيين لأن الغالبية العظمى من المسلمين، وإن كان يوجد صراع على نطاقٍ ضيق ومحليٍ بين القبائل التي أسلم قسم منها وبقي القسم الآخر على وثنيته. فلما جاء المستعمرون الصليبيون، ووجدت النصرانية، وأصبح لها دور بحكم أن أصحاب السلطة والنفوذ من أتباعها أخذ الصراع يظهر بين المسلمين والنصارى، وخاصةً داخل القبائل التي تنصّر بعض أفرادها، ثم توسّع حتى غدا بين الشمال والجنوب فكان إقليمياً وقبلياً.

ولما ارتحل المستعمرون الصليبيون وسلّموا السلطة لأتباع عقيدتهم أحسّ المسلمون بالخطر، وأخذوا في تنظيم أنفسهم، ولما اتخذ الحكام الجدد الضغط على المسلمين، وبدأت الروح الصليبية تظهر، بدأ الاحتكاك، وتجلّى الصراع العقيدي بأجلى صوره. ويظهر هذا الصراع بين أتباع عقيدتين في قبيلةٍ واحدةٍ، فقبيلة السارا التي كانت هي الحاكمة، وينتمي إليها رئيس الجمهورية (فرانسوا تومبالباي)، ومن جاء بعده مباشرةً من النصارى، كان بعض أبنائها يعتنقون الإسلام، ويتبع بعضهم الآخر النصرانية، وظهر التمييز واضحاً بين المسلمين والنصارى منها فمثلاً كان حاكم منطقة (زوار) وهو (اللافي) من مسلمي قبيلة السارا لم يُرقّ إلى رتبةٍ أعلى من رتبة ملازم أول، بينما كان حاكم منطقة (برداي) من نصارى القبيلة نفسها قد وصل إلى رتبة رائد، وما ذلك إلّا لكونه من النصارى.

ولم يكن يسمح للمسلمين بحمل السلاح أبداً على حين كان يسمح لغيرهم، وكل من يسمح له من المسلمين بحمل السلاح هو ملك

(تيبستي). كما أن بعض السجون كانت خاصةً بالمسلمين، فسجن (برداي) وهو في الشمال لم يعرف سجيناً من غير المسلمين.

ولما قوي المسلمون، وتسلّموا السلطة، غدا الصراع حزبياً، ووقع الخلاف فيما بينهم على حين بقي النصارى خارج حلبة الصراع، يدعمون القوي ليستفيدوا، ويُثيرون جماعةً من المسلمين على أخرى، وكذا تعمل فرنسا، ودول أوربا النصرانية، وبعض دول المنطقة.

الصـراع الحزبـي:

سمحت فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية بتشكيل الأحزاب السياسية على أن تكون فروعاً للأحزاب الفرنسية، وكانت فرنسا تهدف إلى معرفة النشاط وتمسك بخيوطها، وتتعرّف على الزعماء الذين يقبلون التوجيه، ولا يُمانعون في السير على النهج الأوربي، وبالتالي يقبلون السياسة الفرنسية، وتعليماتها سواء أكانت تحكم تشاد وتستعمرهـا أم بعد جـلائها واستقـلال البلاد.

وقد وجد الحزب الراديكالي، والاشتراكي، والوطني التشادي، وحزب أوديت، وظهـر من الانتخـابـات ونتيجـة الـدعم الفـرنسي تقـدّم الحـزب الراديكالي وحـزب أوديت على غيرهمـا، فائتلفـا وشكّلا حـزباً واحـداً هو الحزب التشادي التقدّمي، وتسلّم الحكم، وحصلت البلاد على الاستقلال، وتسلم زعيمه (فرانسوا تمبالباي) رئاسة الجمهورية، فألغى الأحزاب جميعها عدا حزبه التشادي التقدمي.

ورأى المسلمـون التعصب العقيدي المتمثّـل في الإقليم والحزب، فتجمع بعضهم فيما عُرف بالتجمع الديمقـراطي الإفريقي الـذي لم تكن له الصفة الرسمية حيث أن الأحزاب كلها محظورة، غير أن رجال الحكم قد تمكنوا بالمناورة من ضمّ أكثر رجالات هذا التجمّع إليهم، وبقي الحزب الحاكم متفرّداً بالسلطة، متفرّداً بالتنظيم السياسي.

بزغت قرون العصبية الصليبية، فرجع المسلمون ينظمون أنفسهم كي يمكنهم الوقوف بـوجه التيـار النصراني الـواضح والـذي لا يخفي نفسه،

وعُـرف تنظيمهم بـاسم الوطني الإفـريقي، ولكنه أيضـاً لا يحمل الصفـة الرسمية، وبمناورةٍ من الحاكم أيضاً فقد جرّت السلطة هذا التنـظيم إلى اتفاقيةٍ للعمل معاً فزاب التنظيم، واستمرّت الصليبية تتابع مخططها.

وعندما أخذ اليهود يخططون لتسلّل إلى تشاد، وجاء السفير اليهودي إلى البلاد، وتصريح الرئيس التشادي له بما يثير حفيـظة المسلمين شعر بالخطر من لم يشعر من قبل من المسلمين، فنشأ حزب الاستقلال الوطني الإفريقي، وحزب الاتحاد الوطني التشادي، وإن لم يحمل هذان التنظيمان الصفة الرسمية إلا أنهما كانا يُمثّلان المعارضة، وقد قـاد حزب الاتحـاد الـوطني التشادي الثـورة التي توسّعت عـام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م)، وكـان إبراهيم أنيشا وأبو بكر عثمان من جملة المسؤولين عن تلك الحركة.

فشلت الثورة، وتمكّنت الحكومة من القضاء عليها، فتشكّلت الجبهة الوطنية لتحرير تشـاد في السودان عـام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) برئـاسة أبي صدّيق أحد السياسيين القدماء، واندلعت الثورة من جديد عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، واستولت على الشمال حتى اضطر الرئيس التشادي (فرانسوا تمبالباي) إلى الاستنجاد بفرنسا.

حلّ رئيس الجمهوريـة حزبـه، الحزب الحـاكم، الحزب التشـادي التقدّمي، وحلّ مكانه «الحركة الـوطنية للثـورة الثقافيـة والاجتماعيـة» عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) غير أنها أُلغيت بعد حركـة الانقلاب الـذي تمّ عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، وجرت المصالحة مع المعارضة.

انقسمت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد (فرولينا) إلى أجنحةٍ وأحزاب، وبرزت منها:

١ ــ قوات الشمال برئاسة حسين حبري.

٢ ــ الجبهة الشعبية لتحرير تشاد برئاسة أبي بكر عبد الرحمن.

٣ ــ واحتفظ غوكوني عويدي برئاسة القسم الذي احتفظ بالاسم الأصلي «الجبهة الوطنية لتحرير تشاد» (فرولينا).

وجرى مؤتمر في الخرطوم وأمكن لرئيس قوات الشمال أن يتفاهم مع الحكومة، وشارك في السلطة، وتسلم رئاسة الوزارة. كما أن أبا بكر عبد الرحمن قد تفاهم مع الحكومة بوساطة ليبيا في ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ (آذار ١٩٧٨ م)، وهكذا بقي غوكوني عويدي يُمثّل المعارضة.

عاد الخلاف فوقع بين رئيس الجمهورية (فيلكس مالوم) وبين رئيس الوزراء (حسين حبري)، واشتدّ الصراع بينهما، وحدث الصدام، وفرّ فيلكس مالوم، وسيطر على العاصمة حسين حبري، ثم لم يلبث غوكوني عويدي أن دخلها أيضاً.

جرى مؤتمر للمصالحة في (كانو) في نيجيريا، وتسلّم إثره محمد الشوا رئاسة الجمهورية، وهو من الجبهة الشعبية، وتسلّم غوكوني عويدي وزارة الداخلية، وحسين حبري وزارة الدفاع، وأُبعد الجنوبيون أحزاباً وجماعات عن السلطة، فاشتدّت معارضتهم.

عُقد مؤتمر في (لاغوس) عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، ومُثّل فيه أحد عشر حزباً، وانفضّ عن استلام غوكوني عويدي رئاسة الجمهورية.

وقع الخلاف بين غوكوني عويدي وحسين حبري، بسبب احتلال ليبيا لإقليم (أوزو) ودعمت ليبيا غوكوني عويدي فانتصر، واضطر حسين حبري أن يتقهقر، وانسحب بقواته إلى المناطق الشرقية. ولما انسحبت القوات الليبية التي دعمت غوكوني عويدي تقدم حسين حبري ودخل نجامينا في ١٥ شعبان ١٤٠٢ هـ (٧ حزيران ١٩٨٢ م)، وتسلم رئاسة الجمهورية، وانسحب غوكوني عويدي من الساحة نحو الشمال، واتخذ صفة المقاومة، وتمثيل الحكومة الوطنية الانتقالية التي انبثقت عن مؤتمر لاغوس.

تقرّب الجنوبيون من حسين حبري، ما دام قد أصبح سيد الموقف.

وكان للأحزاب كلها قوات مسلحة، لكن الرئيسية منها هي القوية، والتي يمكنها التغيير والمقاومة، فقد كانت قوات حزب جبهة التحرير الوطني

لتشاد الذي يـرأسه حسين حبـري تُعرف بـاسم «قوات الشمـال». وكانت القوات التابعة لغوكوني عويدي، أو لحزبه الجبهة الـوطنية لتحـرير تشـاد «فرولينا» تعرف باسم القوات الشعبية. وكانت قوات الجنوب التي يرأسها عبد القادر كاموغا تعرف باسم «القوات التشادية المسلحة».

وكانت هناك الجبهة الديمقـراطية التشـادية، والمجلس الـديمقراطي الثوري برئاسة الشيخ ابن عمر.

وفي رمضان ١٤٠٤ هـ (حزيران ١٩٨٤ م) حلّ حسين حبري حزبه، وأنشأ حزباً رسمياً جديداً أعطاه اسم «الاتحاد الوطني للاستقلال والثورة».

كانت مصر وفرنسا تدعمان حسين حبري، وكـذا الولايـات المتحدة الأمريكية، على حين تدعم ليبيا غوكوني عويدي، ويتلقّى عبد القادر كاموغا مساعدات من نصارى الدول الإفريقية المجاورة، والحكومـات النصرانيـة أيضاً.

الباب الثاني

جمهورية إفريقية الوسطى

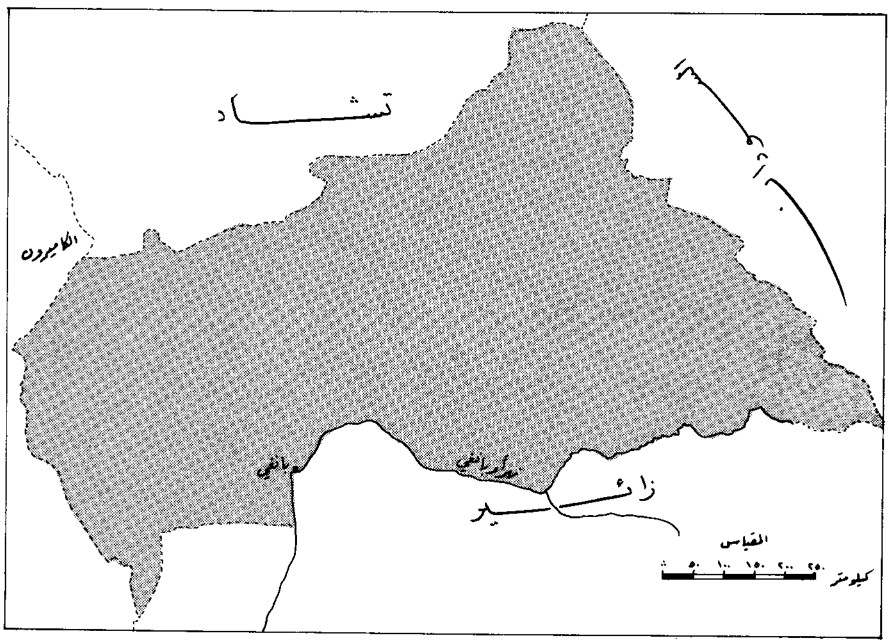

تشاد
الكاميرون
السودان
بانغي
نهر أوبانغي
زائير
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [١٠]

لمحة عن جمهورية إفريقية الوسطى قبل إلغاء الخلافة

سكن شعب البانتو منطقة جمهورية إفريقية الوسطى، وعاش على شكل قبائل بطرقٍ بدائيةٍ، وكانت لها عقائدها الوثنية المختلفة.

تأخّر وصول الإسلام إلى هذه المنطقة نتيجة الموقع البعيد عن المؤثّرات الإسلامية، ولضعف المسلمين بعد مراحلهم الأولى، وضعف الدول الإسلامية الذي أدّى إلى توقّف الجهاد، وتوقّف الدعوة.

بدأ الإسلام يصل إلى سكان جمهورية إفريقية الوسطى في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) عندما بدأ الدعاة يفدون إلى المنطقة، ومن أشهرهم محمد عبد الكريم المغيلي الذي جاء من شمالي إفريقية، ولم يكن هناك من يقف في وجه الدعوة، وإن كان تقوقع الزنوج، وانعزالهم، وهربهم من الآخرين، والخوف منهم أو سوء الظنّ بهم، وطبيعة الأرض، والغابات، وسوء المواصلات كل هذا كان عقبات في وجه انتشار الإسلام.

وخضعت الأجزاء الشمالية، والشمالية الشرقية للممالك الإسلامية التي قامت في تشاد، وفي غربي السودان، ولكن تلك الممالك كانت صغيرةً، وذات إمكاناتٍ قليلةٍ، ولا تحمل الدعوة، وفكرة الجهاد على عاتقها بالشكل المطلوب لذا كان أثرها ضعيفاً مع ذلك فقد زاد انتشار الإسلام.

وأرسل السنوسيون بعض دعاتهم إلى تلك الجهات، كما بعثت الحركة المهدية بعض أتباعها، وأوفد الزبير بعض رسله، وذلك كلّه في نهاية

القرن الثالث عشر الهجري، وبداية الرابع عشر (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي).

ومع تسلّل الاستعمار الصليبي إلى وسط القارة الإفريقية، وتغلغل الإرساليات التنصيرية مع الاستعمار وقعت منطقة إفريقية الوسطى فريسةً بين مخالب وأنياب القادمين فوقفوا في وجه انتشار الإسلام، وحالوا دون قدوم مسلمين من الخارج، وعملوا على القضاء على من أسلم، فمنعوا عنهم ما استطاعوا منعه من وسائل الحياة.

وفي الوقت الذي كان فيه الإنكليز يتقدّمون في السودان للقضاء على الحركة المهدية، كان الفرنسيون يتقدّمون في أراضي جمهورية إفريقية الوسطى، ووصلت طلائعهم إلى العاصمة (بانغي) عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)، ولم يلبثوا أن حوّلوا المنطقة التي كانت تعرف آنذاك (أو بانغي ـ شاري) إلى إقليمٍ خاصٍ تحت سلطانهم.

ضُمّ هذا الإقليم (أو بانغي ـ شاري) إلى تشاد عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ليُشكّل معها وحدةً إداريةً تحت الاستعمار الفرنسي وبعد أربع سنوات تشكلت إفريقية الاستوائية الفرنسية من (تشاد، أو بانغي ـ شاري، الكونغو، الغابون)، واستمر الوضع حتى الحرب العالمية الثانية.

الفصل الأول

من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، وخلا الجو للمستعمرين الصليبيين فلم يعد من يمثّل المسلمين، ولا من يعترض على التسلّط على أراضيهم، ولا من ينتقد السطو على أملاكهم، ولا من يدافع عن إبادتهم، ولم تعد هناك قوة يحسب لها حساب، وإن كان هذا رمزاً قبل ذلك، ولكن رمز له معناه.

وشُغل المسلمون بقضاياهم، حيث عمل المستعمرون الصليبيون على إضعافهم، والضغط عليهم، وإذلالهم، بل وسحقهم، فأصبحوا أشتاتاً، وتفرّقت كلمتهم، وطاب المغنم للدخلاء، وأخذوا يصطفون من السكان أصحاب الإمكانات ممن يقبلون التبعية والعيش على نهج الحياة الأوربية، والبعد عن العقيدة، ويسلّمونهم السلطة.

وفي الحرب العالمية الثانية كان سكان (أوبانغي ـ شاري) من وقود تلك الحرب إذ ساقتهم فرنسا إلى الجبهات كباقي سكان المستعمرات الأخرى، ولم يكن هناك من يستطع أن يرفع رأسه، فالمسلمون قد سحقهم المستعمرون الصليبيون، والنصارى أوجدهم الدخلاء فهم تبع لهم، والوثنيون بدائيون.

واختارت فرنسا أعوانها خلال المرحلة التي قضتها في هذه المنطقة، فظهر (برثلومي بوغندا) كزعيمٍ سياسيٍ في البلاد بعد الحرب العالمية

الثانية، أو هكذا أظهرته فرنسا، وأخذ يُعلن أنه يرغب بالاستقلال، وتولّى رئاسة أول سلطةٍ تنفيذيةٍ في البلاد عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

وصوّت السكان عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) لصالح مشروع ديغول، وبذا حصلت البلاد على الاستقلال الذاتي في جمادى الآخرة ١٣٧٨ هـ (كانون الأول ١٩٥٨ م)، وعُيّن (برثلومي بوغندا) زعيم حركة (التطور الاجتماعي لإفريقية) والمعروفة باسم (ميسان) كأول رئيس للوزراء، وبدا صاحب الدور الرئيس في النضال من أجل الاستقلال، وأبرزته فرنسا بشكلٍ جيدٍ، ولمع اسمه، غير أنه قُتل في حادث طائرةٍ في رمضان ١٣٧٨ هـ (آذار ١٩٥٩ م).

خلف (برثلومي بوغندا) في رئاسة الوزراء ابن أخيه (دافيد داكو)، ولعب الدور نفسه الذي لعبه عمه من قبل، ودعمته فرنسا، وجعلت حوله بطانةً تعمل لصالحها، ثم منحت البلاد الاستقلال في ١٩ محرم ١٣٨٠ هـ (١٣ تموز ١٩٦٠ م).

الفصل الثاني

الاستقـلال

أسّس الرئيس دافيد داكو حزبـاً للدولة عـام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، وكان هو الحزب الوحيد، فلا منافسة، ولا معارضة، ولكن هذا الحزب كان ضمن حركة التطور الاجتماعي لإفريقية.

الانقـلاب الأول:

وقـع انقلاب عسكـري في ٩ رمضان ١٣٨٥ هـ (٣١ كـانون الأول ١٩٦٥ م) بقيادة رئيس الأركان العامة (جان بيدال بوكاسا) وأسّس حكومةً جديدةً، وأزاح الرئيس السابق دافيد داكو، وعلّق الدستور، وحلّ المجلس الوطني.

وقـد وقعت عدة محـاولاتٍ انقلابيـةٍ صحيحةٍ ومـزعومـةٍ، فاتخـذت إجراءات قمعية ضدّ خصوم الرئيس، واتُّهم في حادثتين بعض المقربين من الرئيس. ففي مطلع عام ١٣٨٩ هـ (نيسان ١٩٦٩ م) تمّ سجن ثم إعدام وزير الصحة العامة (ألكسندر بونزا) بتهمة محاولة تدبير انقلاب.

وفي مـطلع عام ١٣٩٢ هـ (آذار ١٩٧٢ م) تمّ انتخـاب المـارشـال بوكاسا رئيساً للجمهورية مدى الحياة. وفي مطلع عام ١٣٩٣ هـ (نيسـان ١٩٧٣ م) اتهم وزير الدولة للإسكان والمواصلات (أوغست. م - بونغـو) بمحاولة القيام بانقلابٍ، وتأييده للمحاولة السابقة.

وأُعيد تشكيل مجلس الـوزراء من جديـدٍ في مطلع عـام ١٣٩٥ هـ (كانون الثاني ١٩٧٥ م) وكُلّفت برئاسة الوزراء (اليزابيت دوميتان) وهي نائبة

رئيس حركة (ميسان)، وكانت أول امرأةٍ في الدول الإفريقية تشغل هذا المنصب، لكن تمّ عزلها في ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ (نيسان ١٩٧٦ م) وتسلّم الرئيس بوكاسا نفسه رئاسة الوزراء.

وحلّ مجلس الوزراء وأُلغيت هذه السلطة التنفيذية، وحلّ مكانها المجلس المركزي الثوري الإفريقي في رمضان ١٣٩٦ هـ (أيلول ١٩٧٦ م) وعين الرئيس السابق (دافيد داكو) مستشاراً شخصياً للرئيس بوكاسا. ثم في ذي الحجة ١٣٩٦ هـ (كانون الأول ١٩٧٦ م) تمّ تغيير اسم «جمهورية إفريقية الوسطى» وأصبح اسم البلاد «إمبراطورية إفريقية الوسطى»، ووضع دستور جديد، ونصّب بوكاسا نفسه إمبراطوراً، واتخذ من (دافيد داكو) مستشاراً خاصاً له. وقد أعطى الدستور الإمبراطور صلاحية تعيين مجلسٍ نيابيٍ دون الرجوع إلى رأي الشعب، وإجراء انتخاباتٍ خاصةٍ بذلك. وتمّ تتويج بوكاسا إمبراطوراً في مطلع عام ١٣٩٨ هـ (كانون الأول ١٩٧٧ م)، وأعدّ لذلك الحفل إعداداً كبيراً حتى قيل إنه كلّف ربع ميزانية الدولة.

وفي جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ (أيار ١٩٧٨ م) أُعيد ترتيب قيادات الجيش لدعم سلطة الإمبراطور، وفي شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م) أُقيلت الوزارة، وعيّن (هنري ميدو) رئيساً للوزارة الجديدة، وكان من قبل يشغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء.

واندلعت مظاهرات الطلاب في شهر صفر ١٣٩٩ هـ (كانون الثاني ١٩٧٩ م)، وتمّ إخمادها بمساعدة قواتٍ زائيريةٍ. وقامت مظاهرات لأطفال المدارس في جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (نيسان ١٩٧٩ م) احتجاجاً على إجبار الطلاب على لبس زيٍّ معينٍ تصنعه شركة تملكها عائلة بوكاسا، فأُلقي القبض على عددٍ كبيرٍ من الأطفال، وقُتل عدد منهم، وأُشيع أن الأطفال قد قُتل منهم مائة طفلٍ ، وأن الإمبراطور بوكاسا نفسه قد ساهم في هذه الجريمة بل أُشيع أنه قد أكل عدداً من هؤلاء الأطفال الذين فُقدوا.

الانقلاب الثاني:

استقال السفير الإمبراطوري في باريس (سلفستر بانغوي) في جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ (أيار ١٩٧٩ م)، ووقف في وجه الحكم، وأصبح في شهر شوال ١٣٩٩ هـ (أيلول ١٩٧٩ م) زعيماً لحكومة المنفى، والتي تألّفت مع أربع جماعاتٍ معارضةٍ. وقام مستشار الإمبراطور الشخصي (دافيد داكو) بانقلاب أبيض على سيده عندما كان الإمبراطور في زيارةٍ لليبيا في ٢٨ شوال ١٣٩٩ هـ (أيلول ١٩٧٩ م). وتولّى (دافيد داكو) منصب الرئاسة، وعيّن (هنري ميدو) نائباً له. وعادت البلاد إلى الحكم الجمهوري ثانية. وكان (هنري ميدو)، رئيساً للوزراء من قبل، وتعاون مع دافيد داكو في القيام بالحركة الانقلابية.

لم يقبل الشعب وخاصةً الطلاب في بقاء رجال العهد السابق بالسلطة، فقام الرئيس (دافيد داكو) بإقالة نائب الرئيس (هنري ميدو)، ورئيس الوزراء (برناردو كريستيان آياندو) في شوال ١٤٠٠ هـ (آب ١٩٨٠ م)، وشكّل وزارةً جديدةً برئاسة (جان بيير لوبودر) وزير التخطيط السابق.

وأما بوكاسا فكان قد فرّ إلى ساحل العاج، ثم انتقل إلى باريس، وقُدّم في بلده للمحكمة، وتمّ الحكم عليه بالإعدام غيابياً في صفر ١٤٠١ هـ (كانون الأول ١٩٨٠ م).

وفي ربيع الثاني ١٤٠١ هـ (شباط ١٩٨١ م) وُضع دستور جديد للبلاد، وتضمن حرية تعدد الأحزاب، وعُرض على الشعب لإبداء الرأي، وأُقرّ من قبل الرئيس (دافيد داكو)، الذي فاز بانتخابات الرئاسة التي تمت في جمادى الأولى ١٤٠١ هـ (آذار ١٩٨١ م)، وأقسم اليمين الدستورية في جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (نيسان ١٩٨١ م) لمدة ست سنواتٍ رئاسيةٍ.

اتهمت المعارضة الرئيس بتزوير الانتخابات، وانفجرت قنبلة في إحدى دور الصور المتحركة في العاصمة (بانغي) وذهب ضحية ذلك ثلاثة

قتلى، وادعت الحركة الوطنية لإفريقية الوسطى من أجل الحرية بمسؤولياتها عن الحادث، وهذا ما أدّى إلى حظرها، وتمّ إعلان حالة الطوارىء، واستعانت الحكومة بالجيش لإقرار النظام.

الانقلاب الثالث:

قام الجنرال (أندريه كولنغبا) بانقلاب أبيض نحّى فيه الرئيس (دافيد داكو) عن منصبه بحجة الاعتداء الكبير على (الديمقراطية)، وذلك في ٣ ذي القعدة ١٤٠١ هـ (الأول من أيلول ١٩٨١ م)، واستولى الجيش على السلطة، ووضعت السلطة بيد ثلاثةٍ وعشرين عضواً من اللجنة العسكرية للخلاص الوطنية، ومنع النشاط السياسي، وتمّ تشكيل حكومةٍ عسكريةٍ. وعاد إلى العاصمة (بانغي) رئيس حركة تحرير شعب إفريقية الوسطى (أنجي باتاس) في جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (آذار ١٩٨٢ م). وكان (أنجي باتاس) رئيس الوزراء في عهد (بوكاسا) لمدة سنتين تقريباً (١٩٧٦ - ١٩٧٨ م)، واشترك في انتخابات جمادى الأولى ١٤٠١ هـ (آذار ١٩٨١ م)، وفشل، واضطر إلى طلب اللجوء السياسي في السفارة الفرنسية في (بانغي) حيث لجأ إليها، وتمّ ترحيله من السفارة ليقيم في المنفى في الكونغو، وأدّت المساعدة الفرنسية له إلى توتّر العلاقة بين فرنسا وبين حكومة جمهورية إفريقية الوسطى العسكرية، ولكن زيارة الرئيس الفرنسي (ميتران) لجمهورية إفريقية الوسطى قد أزالت سوء التفاهم، وعادت العلاقات السياسية بين الدولتين إلى حالتها الطبيعية، وكانت تلك الزيارة في ذي الحجة ١٤٠٢ هـ (تشرين الأول ١٩٨٢ م). وأُشيع أن (أنجي باتاس) كان وراء محاولة الانقلاب الفاشلة.

وأُذيع في ذي القعدة ١٤٠٤ هـ (آب ١٩٨٤ م) عن اكتشاف تنظيم محاولة انقلابٍ، واتهم بعض الوزراء السابقين بالإعداد لذلك ومنهم (كاستون أودان) و(جيروم آلان)، وحكم كل منهم بالسجن لمدة عشر سنوات، واستمرت المعارضة لنظام (آندريه كولنغبا) رغم منع الأحزاب

والنشاطات السياسية، وشكّلت أحزاب المعارضة الثلاثة الرئيسية ائتلافاً فيما بينها في شوال ١٤٠٣ هـ (آب ١٩٨٣ م).

أعلن الرئيس (آندريه كولنغبا) العفو عن زعماء أحزاب المعارضة الذين كانوا يعيشون تحت الإقامة الجبرية، وخفّف مدة حكم السجن عن الوزراء السابقين الذين اتهموا بتنظيم محاولة انقلابٍ، ثم قام الرئيس الفرنسي (ميتران) بزيارةٍ أخرى لجمهورية إفريقية الوسطى عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٤ م) فنجم عنها إطلاق سراح ٨٩ سجيناً سياسياً في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م).

وتحطمت طائرة فرنسية عسكرية فقتل ٣٥ شخصاً بينهم عدد من الطلاب، فقامت مظاهرات طلابية ضدّ الفرنسيين في رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م)، ثم انفجرت قنبلة في طريق مطار (بانغي) فتم طرد عددٍ من السياسيين الليبيين حيث اتهموا بمسؤوليتهم عن حادث انفجار القنبلة، غير أنه في مطلع عام ١٤٠٧ هـ (أيلول ١٩٨٦ م) تمّ إطلاق سراح الطلاب، وعددٍ من السجناء السياسيين بما فيهم الوزيران (كاستون أودان) و(جيروم آلان).

كان الحكم العسكري يخفّ ضغطه ويتجه نحو الحياة المدنية تدريجياً فمنذ ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ (كانون الثاني ١٩٨٤ م) عُيّن عدد من المدنيين في وظائف ملحقةٍ بمجلس الوزراء إثر تعديلٍ وزاريٍ حدث، وحُلّت لجنة (المجلس الثوري العسكري) في مطلع عام ١٤٠٦ هـ (أيلول ١٩٨٥ م)، وضمّ مجلس الوزراء أعضاء مدنيين لأول مرةٍ منذ أن تولّى (آندريه كولنغبا) السلطة في ذي القعدة ١٤٠١ هـ (أيلول ١٩٨١ م) أي قبل أربع سنوات.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) أعلن عن مسودةٍ للدستور، وتضمّن إنشاء حزبٍ سياسيٍ وحيد للدولة، وهو «التجمّع الديمقراطي لإفريقية الوسطى»، وأعطى الدستور سلطةً كبيرةً للرئيس حيث

لم يكن للسلطة التشريعية من دورٍ إلّا الاستشارة فقط، وطُرح الدستور للاستفتاء، وتمّ إقراره بنسبة ٩١,١٧٪ بالاستفتاء الذي جرى في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م)، كما تمّ انتخاب (آندريه كولنغبا) رئيساً لمدة ست سنواتٍ أخرى. وجرى تعديل على مجلس الوزراء فأصبح أغلب أعضائه من المدنيين، وتسلّم الرئيس (آندريه كولنغبا) وزارة الدفاع إضافةً إلى سدّة الرئاسة.

وظهر الحزب «التجمع الديمقراطي لإفريقية الوسطى» بشكلٍ رسميٍ في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) وعُيّن الرئيس (آندريه كولنغبا) رئيساً له، وجرت انتخابات المجلس الوطني في شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م)، وتنافس على مقاعده (٥٨) مائة واثنان وأربعون مرشحاً، ولم يشارك الشعب في هذه الانتخابات بشكلٍ جيدٍ حيث لم تتعدّ نسبة الاقتراع ٥٠٪ من مجموع الناخبين، وعقد المجلس أولى جلساته في صفر ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م). وتلا ذلك اضطرابات طلابية في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م)، فجرى تعديل وزاري، أُبعد فيه وزيرا التعليم الوطني، والتعليم العالي والبحث العلمي، ودمجت الوزارتان في وزارةٍ واحدةٍ.

عاد الإمبراطور السابق (بوكاسا) بصورةٍ مفاجئةٍ إلى البلاد في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) فأُلقي عليه القبض مباشرةً، وأودع السجن، وأُعيدت محاكمته، ووُجّهت إليه أربع عشرة تهمةً، واستمرّت محاكمته ثمانية أشهرٍ، وأُدين، وصدر الحكم عليه بالموت للجرائم التي اقترفها، والاحتجاز غير القانوني، فاستأنف بوكاسا الحكم، ولكن رُفض طلبه من قبل المحكمة العليا في ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م)، ولكن الرئيس (آندريه كولنغبا) قد أصدر أمراً بتخفيف الحكم إلى السجن المؤبّد مع الأشغال الشاقة (ومن المعروف أن الأشغال الشاقة غير قائمةٍ في سجون جمهورية إفريقية الوسطى)، وكان تصرّف الرئيس هذا

رغبةً منه في ظهوره أنه رجلٍ إنساني، ولكن في الوقت نفسه كان يخشى من احتجاجاتٍ يقوم بها أعوان بوكاسا.

وقام الرئيس (آندريه كولنغبا) عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) بتعيين الرئيس السابق (دافيد داكو) ورئيس الوزراء السابق (أنجي باتاس) في مناصب عليا، وكذلك تعيين رئيس الوزراء السابق (هنري ميدو) رئيساً للاتحاد المصرفي لإفريقية الوسطى، وهذه محاولة من الرئيس لدعم الوحدة الوطنية. كما جرى تعديل وزاري في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) فدخل الوزارة الجديدة عدد من رجالات العهد السابق، غير أنه لم يلبث أن تمّ احتجاز اثني عشر معارضاً للنظام القائم بما فيهم الجنرال (فرانسوا بوزيه) الذي كان يعيش في المنفى فاستدعاه الرئيس (آندريه كولنغبا) عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) في محاولةٍ لإعادته للوطن، وأُعلن في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) أنه قد تمّ إلقاء القبض على المعارضين بعد عودتهم من دولة (بنين).

وانتخب (ميشيل داكو) رئيساً للمجلس الوطني في رمضان ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) بعد استقالة سلفه (موريس ميثوت) الذي يُشتبه أنه كان متورّطاً باستيراد وتخزين نفايات خطرةٍ منذ بضع سنواتٍ، ولكن ثبت أنه لا توجد في جمهورية إفريقية الوسطى أية نفاياتٍ من هذا النوع.

ومنذ أن تولّى (آندريه كولنغبا) السلطة في ٣ ذي القعدة ١٤٠١ هـ (الأول من أيلول ١٩٨٩١ م) كان حريصاً على تأمين دعمٍ دوليٍ لنظامه، وخاصةً فرنسا التي بقيت المصدر الرئيسي للميزانية والمساعدات.

وإن القوات الفرنسية المرابطة في جمهورية إفريقية الوسطى كانت تُستخدم لدعم العمليات لحكومة تشاد، والدول التي تكون بينها وبين ليبيا صراعات.

وقام (آندريه كولنغبا) بزيارة لفرنسا ولألمانيا الاتحادية عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م)، وأعلن في العام نفسه عن إقامة علاقاتٍ سياسيةٍ مع

الإمبراطورية الروسية، والتي كانت قد قُطعت سابقاً، كما أُقيمت علاقات سياسية مع أنغولا، وتمّ تبادل السفراء بين الدولتين لأول مرةٍ.

وبعد أن أعلنت حكومة اتحاد جنوبي إفريقية اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م)، وأُقيمت دولة فلسطينية، استأنفت حكومة جمهورية إفريقية الوسطى علاقاتها مع دولة اليهود، وكانت قد قطعت عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م).

وقطعت جمهورية إفريقية الوسطى علاقاتها مع السودان في شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م)، وتمّ إغلاق الحدود بينهما بموجب المقاطعة العربية لدولة اليهود، حيث رفضت السودان السماح لطائرة الرئيس (آندريه كولنغبا) بالمرور فوق أراضي السودان في طريقه لزيارةٍ رسميةٍ لدولة اليهود يقوم بها، مما اضطر إلى تأجيل الزيارة حتى ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) حيث سافر إلى دولة اليهود عن طريق زائير فأوربا. ثم عادت العلاقات مع السودان إلى حالتها الطبيعية في صفر ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م).

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة جمهورية إفريقية الوسطى ٦٢٢,٩٨٤ كيلومتراً مربعاً، وهي دولة قارية، تُحيط بها كبرى دول القارة الإفريقية مساحةً، ويبلغ مجموع طول حدودها ٥,٢٠٣ كيلومتراً، منها ١,١٦٥ كيلومتراً مع السودان، و١,١٩٧ كيلومتراً مع تشاد، و٧٩٧ كيلومتراً مع الكاميرون، و٤٦٧ كيلومتراً مع الكونغو، و١,٥٧٧ كيلومتراً مع زائير.

إنها تحدّ ثلاث دولٍ إسلاميةٍ وهي: السودان، وتشاد، والكاميرون، وهذا يعني أنها تقع على هامش العالم الإسلامي.

ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) مليونين وثمانمائة ألف إنسان، وبذا تكون الكثافة حوالي ٤,٥ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة قليلة جداً نتيجة تغطية الغابات لجزءٍ واسعٍ من أراضيها.

الصراع العنصري:

ينتمي أكثر السكان إلى شعب البانتو، وأهم قبائل هذا الشعب: (الباندا) ويُشكّلون ثلث السكان، و(البايا) في الغرب، وهم ثلث السكان أيضاً، و(المانغا) في الوسط، و(اللندا) في الشرق، و(الزاندي) في الجنوب الشرقي، وتوجد في الشمال قبائل (السارا) وتصل إلى جنوب تشاد. كما تعيش قبائل (البيل) و(البورورو) في المرتفعات الغربية، وهناك

قبائل (امبوم) و (امباكا)، ولا تزال ترتع في غاباتها بعض مجموعات الأقزام التي تحيا حياةً بدائيةً.

ويعيش في جمهورية إفريقية الوسطى ما يقرب من سبعة آلاف أوربي أكثر من نصفهم من الفرنسيين.

واللغة الفرنسية هي الرسمية، وهناك لغات شائعة مثل لغة (سانغوا) و (هونسا) و (السواحيلية) و (العربية) لدى الأوساط الإسلامية، كما أن لكل قبيلةٍ لغتها الخاصة بها.

لم يكن هناك صراع عنصري على مستوىً واسعٍ، وإنما صراعات قبلية محلية على الديار، كما وجدت صراعات إقليمية بين الشمال المداري ذي المناطق المفتوحة والأعشاب الطويلة وبين الجنوب الاستوائي ذي الغابات الكثيفة والمناطق المعزولة، والقبائل البدائية، والصراعات فيها على سلب المنتجات وأخذ الحاجات.

الصراع العقيدي:

تبلغ نسبة المسلمين ٥٥٪ من مجموع السكان، وأكثرهم يعيش في المناطق الشمالية، ويعملون بالرعي، وتبلغ نسبة الوثنيين ٢٠٪، وأكثرهم يعيش في الجنوب حياة بدائيةً إضافةً إلى الذين يحيون في الشمال بشكلٍ مبعثرٍ، وتبلغ نسبة النصارى ٢٥٪ نصفهم من الكاثوليك ونصفهم الآخر من البروتستانت، وأكثرهم يعيش في المدن ممن اصطفاهم المستعمرون الصليبيون، ومن جاء بعدهم على السلطة الذين اختاروهم لها.

لم يكن هناك صراع عقيدي في السابق حتى جاء القرن العاشر حيث دخل الإسلام، ولم يحدث صراع بين المسلمين الوافدين وبين السكان الأصليين، وإنما يقبل بعض الأهالي على الإسلام بهدوءٍ دون خلافٍ مع ذويهم ومن غير نقمةٍ عليهم من قبائلهم، ولذا انتشر الإسلام، ووجد فيه السكان حضارةً وتطوّراً، ورأوا فيه نظرةً شاملةً للحياة، ومفهوماً صحيحاً

لواقع الإنسـان، ولم يُجبر المسلمـون الآخرين على اعتنـاق دينهم، ولم يُفرّقوا في النظرة الإنسانية بين البشر.

ولمـا جاء المستعمـرون الصليبيون وقفـوا قبل كـل شيءٍ في وجـه المسلمين، وعملوا على إذابتهم، وقرّبوا من يقبـل النصرانيـة عقيدةً لـه، فوجدت لها طريقاً بين الوثنيين، وأخذت الضربات تتوالى على المسلمين، ولا بواكي لهم، وليس هناك من يعرفهم، فإخوانهم في غفلةٍ لاهون، أو في مصيبةٍ مشغولـون، أو أنهم جاهلون، وليس هنـاك من يُنبّههم أو يُوقظهم، فالمستعمرون الصليبيون أو من وضعوهم فوق رؤوس المسلمين متيقظون أو في لهوهم عمون، لذا أخذت المفـاهيم الإسلاميـة تضعف لدى أتبـاعها هناك، والعلماء ندرة، حتى لم يبق من معرفة الإسلام سوى الانتماء إليه مع الفخر، إلا من رحم ربك. وأخذ المستعمرون الصليبيـون، والحكومـات الـوطنيـة التي جـاءت على أثـرهم، ونهجت نهجهم تعـطي نسبـةً ضئيلةً للمسلمين في بياناتها فتدّعي أنهم يُشكّلون ٥٪، وربما رفعها بعضهم إلى ١٤٪ من مجموع السكان مخالفةً للواقع.

وعندما جاء بوكاسا إلى السلطة، ورأى نسبـة المسلمين تزيـد على النصف، ويريد الدعم، ووجد في الإسلام كذلك ما ينسجم مـع الفطرة اعتنقه، وثارت ثائرة الـدنيا عليـه، ولحق به الغضب، ووجهت إليـه كل التهم، وغدا يأكل أطفال خصومه، ويقتات بتلامذة المدارس، وحملت ذلك وسائل الإعلام، وانتفض الناس عليه خارج بلاده، وليس هناك من أحـدٍ يعرف الحقيقة. وانتفض خصومه عليه حتى أزاحوه، وفرّ من البلاد، وشعر بعد مدةٍ أنه غير مذنبٍ، فلماذا لا يعود؟ وظنّ بالقضاء العدالة فرجع فأُلقي القبض عليـه، وسُجن، وحُكم عليه بـالإعدام، ورفضت المحكمـة العليا طلب استئنافه الحكم. ولكن الرئيس القائم (آندريه كـولنغبا) خفّف عنـه حكم الإعدام إلى السجن المؤبّد خوفاً من أعوانه ـ وكيف يكون له أعوان أصحاب قوةٍ وهو يأكل الأطفال ـ، وكي يبقى عنواناً ظاهراً لكل من يريد أن يعتنق الإسلام من أصحاب السلطة، وهو لا يزال قابعاً في السجن.

الصراع الحزبي:

لم تكن هناك تنظيمات سياسية قوية بل إن المفهوم التنظيمي ضعيف، ولم تكن منافسة حزبية نشطة، ولا معارضة عنيفة، وليس هناك من أفكار متباينة تقوم عليها التنظيمات إذ ليست الأحزاب السياسية سوى تجمّعات تسعى للمصلحة، أو تُؤسّسها السلطة لدعم مركزها. وأكثر من هذا فإن فرنسا تُشرف وتُوجّه التنظيمات الحاكمة والمعارضة على حدٍّ سواء. ولا تتخلّى فرنسا عن أعوانها بالأمس إذا ما أُقصوا وأُبعدوا، حيث تتوسّط لهم بالعودة، فيرجعون، ويتسلّمون مناصب عليا. وكأن المعارضة ليست سوى تهديدٍ للسلطة الحاكمة كي لا تخرج عن التوجيه الفرنسي، ولا عن الإرادة، وكي لا يأخذ أحدهم الغرور فيسير برأيه كما يهوى، أو كما يقوده تفكيره، أو يدخل في الإسلام، وإن في (بوكاسا) عبرةً، وإن صاحب المنصب يخشى على منصبه إن لم يكن له فكر واضح، وإن ذا المصلحة ليخاف على مصلحته إن لم يكن له مبدأ.

لقد وجدت أول الأمر «حركة التطور الاجتماعي لإفريقية» كمنظمةٍ سياسيةٍ، واصطفى الفرنسيون منها (برثلومي بوغندا) فقاد المنظمة، وتسلّم السلطة، ولكن لم يلبث أن قُتل بحادث طائرة.

وخلف القائد السابق ابن أخيه (دافيد داكو) فسار على نهج سلفه، وأسّس حزباً ضمن الحركة ليعتمد عليه في دعم حكمه. وأخذه شيء من الغرور فأُبعد بانقلابٍ عسكريٍ قاده رئيس أركان القوات المسلحة (بوكاسا).

أسّس (بوكاسا) المجلس المركزي الثوري ليعتمد عليه في الحكم. وأعاد سلفه (دافيد داكو) فعيّنه مستشاراً برأي فرنسا، وتفتحت عيناه للنور فاعتنق الإسلام، فوجهت إليه الاتهامات الغربية، وتناقلتها وكالات الأنباء، وغدت شغلها الشاغل، ورجع (دافيد داكو) إلى السلطة ثانيةً، ولكنه لم يأخذ الدرس الأول بوعي كاملٍ فأزيح عن السلطة.

وجاء (آندريه كولنغبا) فاعتمد على الجيش، ومنع النشاط السياسي، وحلّ المجلس الوطني، وبدأ يعود تدريجياً إلى الحكم المدني، وأنشأ حزب «التجمّع الديمقراطي لإفريقية الوسطى» ليدعم حكمه. ووقفت المعارضة في وجهه، وهي تنظيمات ضعيفة مثل: «الحركة الوطنية لإفريقية الوسطى» و«حركة تحرير شعب إفريقية الوسطى» برئاسة (أنجي باتاس)، وائتلفت التنظيمات الرئيسية الثلاثة لتشكّل قوة معارضةٍ واحدةٍ، ولكن لم يكن لها أثرها. وقرّب الرئيس (آندريه كولنغبا) الرئيس الأسبق (دافيد داكو)، ورؤوس رجالات العهود السابقة كلها، حيث تقف فرنسا وراءهم جميعاً. وفرنسا لها قوة عسكرية في البلاد، وهي تُوجّه، وتولّي السلطة، وتُبعد عنها، وتُعيد، وتقرّب.

وليس للمسلمين تنظيم خاص بهم إذ يُعدّ هذا من الجرائم، وليس لهم كذلك أثر في التنظيمات القائمة حيث لا يصح تقدّمهم، بل يجب أن يبقوا في آخر الركب، ويسحقوا، ومن يبغي الرفعة فعليه الارتداد عن دينه وقبول النصرانية، وبعدها يحصل على ما يريد. ومن أراد العبرة فـ(بوكاسا) أمامه. وليس للمسلمين من بواكي يتقصّون أخبارهم، يُعزّونهم، ويواسونهم إذ انقطعت الأواصر فالرعاة أجراء عند غيرهم، وهم أعداء لأغنامهم.

جرى حوار وطني كبير حول الديمقراطية، وفي نهاية شهر صفر ١٤١٣ هـ (نهاية آب ١٩٩٢ م) وافقت الجمعية الوطنية على سنّ قوانين طبقاً للقرارات التي اتخذتها لجنة الحوار، وتمّ إدخال تعديلات دستورية بشأن الفصل التام بين السلطات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، كما منح الرئيس (كولنغبا) صلاحيات مؤقتة للحكم بمرسوم ريثما يتم انتخاب هيئة تشريعية متعددة الأحزاب.

وفي مطلع شهر ربيع الأول ١٤١٣ هـ (مطلع شهر أيلول ١٩٩٣م) أعلن الرئيس عن إجراء انتخابات تشريعية ورئاسية متزامنة في الشهر القادم، وبدأت الانتخابات ولكن لم تلبث أن عُلّقت بمرسومٍ من

الرئيس، ثم ألغيت بقرار من المحكمة العليا بحجة تخريب مزعوم للعملية الانتخابية.

وفي مطلع جمادى الآخرة ١٤١٣ هـ (مطلع كانون الأول ١٩٩٣ م) استقال رئيس الوزراء (فرانك)، وعين الجنرال (تيموثي ماليندوما) زعيم البرنامج المدني. والذي انسحب من التجمع الديمقراطي لإفريقية الوسطى في مطلع عام ١٤١٣ هـ (منتصف عام ١٩٩٣ م) للاشتراك في الحوار الوطني.

وفي شهر شعبان ١٤١٣ هـ (شباط ١٩٩٣ م) طُرد (تيموثي ماليندوما) من رئاسة الوزارة، وحلّ مكانه (أنوتش لاكو) زعيم الحزب الديمقراطي الاجتماعي.

أعلن الرئيس (كولنغبا) في ٢٥ ذي الحجة ١٤١٣ هـ (١٥ حزيران ١٩٩٣ م) تحت ضغط المعارضة، والضغط الفرنسي للسير نحو الديمقراطية عن إجراء الانتخابات التشريعية والرئاسية متزامنتين بين أواخر شهر آب ومنتصف أيلول. وجرت الانتخابات فعلاً، وحصلت المعارضة على ٣٤ مقعداً من ٨٥ مقعداً على حين حصل الحزب الديمقراطي الاجتماعي على ١٣ مقعداً، وجاء في المركز الثاني. وفاز (أنجي فيلكس باتاس) زعيم الحركة الوطنية لإفريقية الوسطى، ورئيس الوزراء السابق، وقد حصل على ٥٢,٤٧٪ من أصوات الناخبين في الجولة الثانية، وبذلك أصبح (أنجي فيلكس باتاس) رئيساً للجمهورية، وكان المرشحون سبعة رجال منهم: (أندريه كولنغبا)، و(دافيد داكو) و(أبل غاومبا).

وحاول الرئيس السابق (أندريه كولنغبا) تأخير إعلان نتائج الانتخابات بإعلان مرسومين لتعديل قانون الانتخابات، كما عدّل تشكيل المحكمة العليا. ولكن تدخلت الحكومة الفرنسية فوراً وهددت بوقف كل تعاون مع جمهورية إفريقية الوسطى احتجاجاً على الإجراءات التي قام بها الرئيس (كولنغبا)، فتم إلغاء المرسومين.

في منتصف شهر ربيع الأول ١٤١٤ هـ (مطلع أيلول ١٩٩٣ م)

أفرج عن الأمبراطور السابق (بوكاسا) وأخرج من السجن بموجب عفو عام عن المحكومين للاحتفال بالذكرى السنوية الثانية عشرة لتسلّم الرئيس الراحل (أندريه كولنغبا) السلطة، ولكن الامبراطور السابق قد حرم من الاشتراك في الانتخابات مدى الحياة، وخُفّضت رتبته العسكرية التي كان يحملها، وهي مارشال.

تولّى (أنجي فيلكس باتاس) رئاسة الجمهورية في تشرين الأول ١٩٩٣ م، واختار (جون لوك ماندابا) رئيساً للوزراء فشكّل حكومةً ائتلافيةً، وكان للائتلاف ٥٣ مقعداً في الجمعية الوطنية. وبعد شهرين من استلام السلطة شكّلت الحكومة لجنة تحقيق في إدارة الرئيس السابق (أندريه كولنغبا) والتي دامت اثني عشر عاماً، وقد شمل التحقيق التدقيق في مالية الدولة. وألقي القبض على اثنين من الأعضاء البارزين في حزب التجمع الديمقراطي لإفريقية الوسطى، وجُرّد (أندريه كولنغبا) من رتبته العسكرية.

وفي شهر ربيع الأول ١٤١٥ هـ (آب ١٩٩٤ م) بدأت الحكومة بإعداد دستور جديد يستلزم تضمين مواد تتعلّق باللامركزية، وتخصيص أقاليم من خلال إنشاء الجمعيات المحلية. ورغم معارضة مجموعات من الائتلاف الحاكم هذه، أبدت هذه المجموعات قلقها من الصلاحيات الواسعة التي منحت للرئيس إذا سمح له بإعادة انتخابه ثلاث دورات، وأعطي صلاحيات تعيين كبار العسكريين، والمسؤولين المدنيين، وموظفي القضاء، ورغم هذه المعارضة فإن المشتركين في الاستفتاء قد صوّت ٨٠٪ منهم لصالح هذا المشروع، وقد جرى الاستفتاء في ٢٧ رجب ١٤١٥ هـ (٢٩ كانون أول ١٩٩٤ م). وقد تمّ إقرار الدستور في ١٥ رجب ١٤١٦ هـ (٧ كانون أول ١٩٩٥ م).

تبقى فرنسا الدولة المستعمرة سابقاً المصدر الرئيس لشؤون الميزانية. والقوات الفرنسية المتمركزة في جمهورية إفريقية الوسطى استخدمت في دعم العمليات العسكرية لحكومة تشاد أثناء نزاعها مع ليبيا.

أعاد الرئيس كولنغبا العلاقات السياسية مع جنوبي إفريقية قبل مغادرته السلطة في تشرين الأول ١٩٩٣ م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
جيبوتي

القسم الثالث (الجنوبي)
تانزانيا وجزر القُمُر
الباب الأول
تانزانيا

الباب الثاني
جزر القُمُر

القسم الرابع
تشاد وجمهورية إفريقية الوسطى
الباب الأول
تشـاد

الباب الثاني
جمهورية إفريقية الوسطى

التاريخ الإسلامي

- ١٧ -

التاريخ المعاصر

تركيا

١٣٤٢ - ١٤٠٩ هـ
١٩٢٤ - ١٩٨٩ م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعَة الثانيَة
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

-١٧-

التاريخ المعاصر

تركيا

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى إخوانه وآله وأصحابه ومن سار على دربه إلى يوم الدين وبعـــد ؛

فإن الدولة العثمانية قد قامت في أواخر القرن السابع الهجري، وامتدت فتوحاتها، وتوسّعت رقعتها حتى شملت أكثر أجزاء العالم الإسلامي، وقدّمت خدماتٍ جُلّى للمسلمين إذ احتضنت الخلافة فجمعت شتات المسلمين بعد أن كادت الرياح تعصف بهم، وفتحت عاصمة الدولة البيزنطية « القسطنطينية »، وجعلتها قاعدةً لها فأصبحت دار الإسلام « استانبول »، وتصدّت للصليبيين الأوربيين الذين تجمّعوا على حربها حقداً وصليبيةً فاندفعت في بلادهم حتى وصلت إلى « ڤيينا » عاصمة النمسا وحاصرتها أكثر من مرةٍ، كما نازلت الصليبيين المتجهين إلى شرق ديار المسلمين لقتالهم وحصارهم بين جيوش أوربا الصليبية في الغرب وبين الصليبيين الذين وصلوا إلى الشرق والذين تسلّلوا بحراً عن طريق جنوب إفريقية وقد سمّوا أنفسهم بالمكتشفين خديعةً وفخراً وقد شاعت هذه التسمية بين المسلمين فأخذوها لضعفهم وجهلهم على أنها حقيقة، فوقفت الدولة العثمانية في وجه البرتغاليين ولاحقتهم حتى سواحل الهند، وطردتهم من أرض العرب من المواقع التي نزلوها، واحتلّوها في عدن، وعُمان،

وسواحل الخليج، كما عملت على طردهم من شرقي إفريقية وساعدت في ذلك مساعدةً فعّالةً، وقاتلت الصفويين الذين اتكأ عليهم البرتغاليون وانتصرت عليهم، وجاست خيولها في ديارهم، كما حاربت المماليك الذين رغبوا في الوقوف على الحياد وحالوا دون وصول العثمانيين إلى أهدافهم في قتال الصليبيين، ودخلت البلاد التي كانوا يسيطرون عليها وضمّتها إلى حوزتها، وربما كان المماليك قد خافوا على أنفسهم من العثمانيين فوقعوا بما خافوا منه. وبذا فقد حمت الدولة العثمانية ديار الإسلام من أخطار الصليبيين وأحقادهم مدةً من الزمن ليست قصيرةً وهي تزيد على أربعة قرونٍ.

وفي آخر المطاف بدأ الضعف يدبّ في جسم الدولة العثمانية إذ أنهكتها كثرة الحروب التي خاضتها ضدّ الصليبيين في الخارج، ونخر اليهود من الداخل وهم الذين ألجأتهم إلى أراضيها إنسانيةً بعد أن شرّدهم نصارى الأندلس من الإسبان والبرتغال، وتحرّك النصارى في الداخل أيضاً، وهم إخوان الصليبيين، ومع أنهم قد عاشوا بين المسلمين منذ أن وُجد الإسلام آمنين مطمئنين على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم غير أن الأوربيين قد حرّكوهم باسم الأخوة والصليب، فتحرّكوا بالسوء يعملون على بثّ الشائعات، وإثارة الفتن، ونشر الأفكار الغريبة، وعمل الفساد، وتهديم الأخلاق، ولم تتوان الفرق الضالة في التهديم والقيام بالحركات، والدولة مشغولة عن هذا كله بالحروب، وما يُحيكه اليهود والنصارى من مُؤامرات. ونتيجة الحروب وانشغال الدولة والرعية بها انتشر الفقر فنمت الصوفية ربيبة الرفض تحت شعار الزهد فزاد النخر في داخل جسم الدولة. كل هذا قد هدّ من كيان الخلافة فأصبحت تتقي أعداءها بإبرام المعاهدات وعقد الاتفاقات والمهادنات فقوّى ذلك من أعداء الداخل وكان عامل مُنشّط لهم اليهود والنصارى على حدٍّ سواء بل بدا التعاون واضحاً بينهم، وكانت المخططات مشتركةً. حيث أظهر بعض اليهود الإسلام للنخر

من داخل الكيان، وهم الذين عرفوا بـ «الدونمة»، ودعمهم الصليبيون الذين دعموا في الوقت نفسه النصارى لطرح أفكار الهدم في المجتمع الإسلامي كالعصبيات: الوطنية، والقومية، وإثارة الفتن دون المواجهة، وقدّموا لهم المساعدات المادية بسخاءٍ وكل عوامل النجاح. كما تعرّضت الدولة لضربةٍ أخرى من المسلمين بالذات فبدلاً من أن يعمل المصلحون من المسلمين على النصح، والتنبيه، وإصلاح الضعف والوقوف في وجه الخصوم قاموا يُحاربون الدولة المريضة، وينتقدون أسلوب الصوفية المميت للعزيمة، المهدّم للعمل، البعيد عن الإسلام، ويُقاتلون السلطة التي تدعم هذا الاتجاه عن جهلٍ، فكان عملهم معول هدمٍ إلى جانب معاول الهدم الأخرى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ونتيجة الدعم الصليبي، والتحرّك اليهودي، والضعف من الحروب الخارجية والحركات الداخلية استطاع دعاة العصبية القومية من السيطرة على الحكم وهم مزيج من أجناس مُتعددةٍ وأديانٍ متنوعةٍ، ومنهم الدونمة، يجمعهم الفساد، وكره الإسلام، والتوجيه من الخارج، والعمل المشترك على هدم الخلافة، وتجزئة أوصال الدولة، وبعثرة المسلمين، وفكّ عرا وحدتهم، وبدؤوا بفرض أفكارهم فهبّت العصبيات المتنافرة كل منها يعمل عمله ويجمع أبناءه لقمع الآخرين، ومنهم من يعمل عاطفةً، ومنهم من يعمل حقداً، ومنهم من يعمل مدفوعاً بدافعٍ خارجي يبث أفكار السوء وينشر الفساد، ويضع السمّ، وينثر الشوك، ويبذر الفتن، ولا تنسى المُساق جهلاً وغفلةً، كما عمل المتنفّذون الجدد من دعاة العصبية على التلاعب بالسلطان، الذي لم تبق له قوة، لإضعاف هيبته وهيبة الخلافة في نفوس المسلمين، وللتقليل من قيمة الارتباط بفكرة الخلافة، وكان أن ألقت الدولة عصاها وأخذت تنتظر على أي جنبٍ تتكىء لتنام، واستمرّ الوضع حتى جاءت الحرب العالمية الأولى، ولكن الأعداء لا يقبلون إلاّ التجزئة، وهدم الخلافة، وبعدها هدم العقيدة الإسلامية، وقد تمّ لهم بعض ما أرادوا

عن طريق رجالٍ اختاروهم من أبناء البلاد ومن أصحاب عقيدتهم كي لا يكون ردّ فعلٍ من السكان فيما إذا كان غريباً عنهم ومن غير ملّتهم، وكي يكونوا بعيدين حسب الظاهر عن الساحة، ويكتفون بالتوجيه والتخطيط والدعم والإمداد بكل ما يُسهّل مُهمّة الذين أوكلوا لهم التسلّط على البلاد والعباد.

نرجو من الله أن نُوفّق في إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن وضع تركيا بعد أن أُلغيت الخلافة، وتحكّم دعاة القومية، وما طرأ من تغيّراتٍ على الساحة الخارجية والداخلية معاً، والله وليّ التّوفيق، وهو نعم المولى ونعم النّصير، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

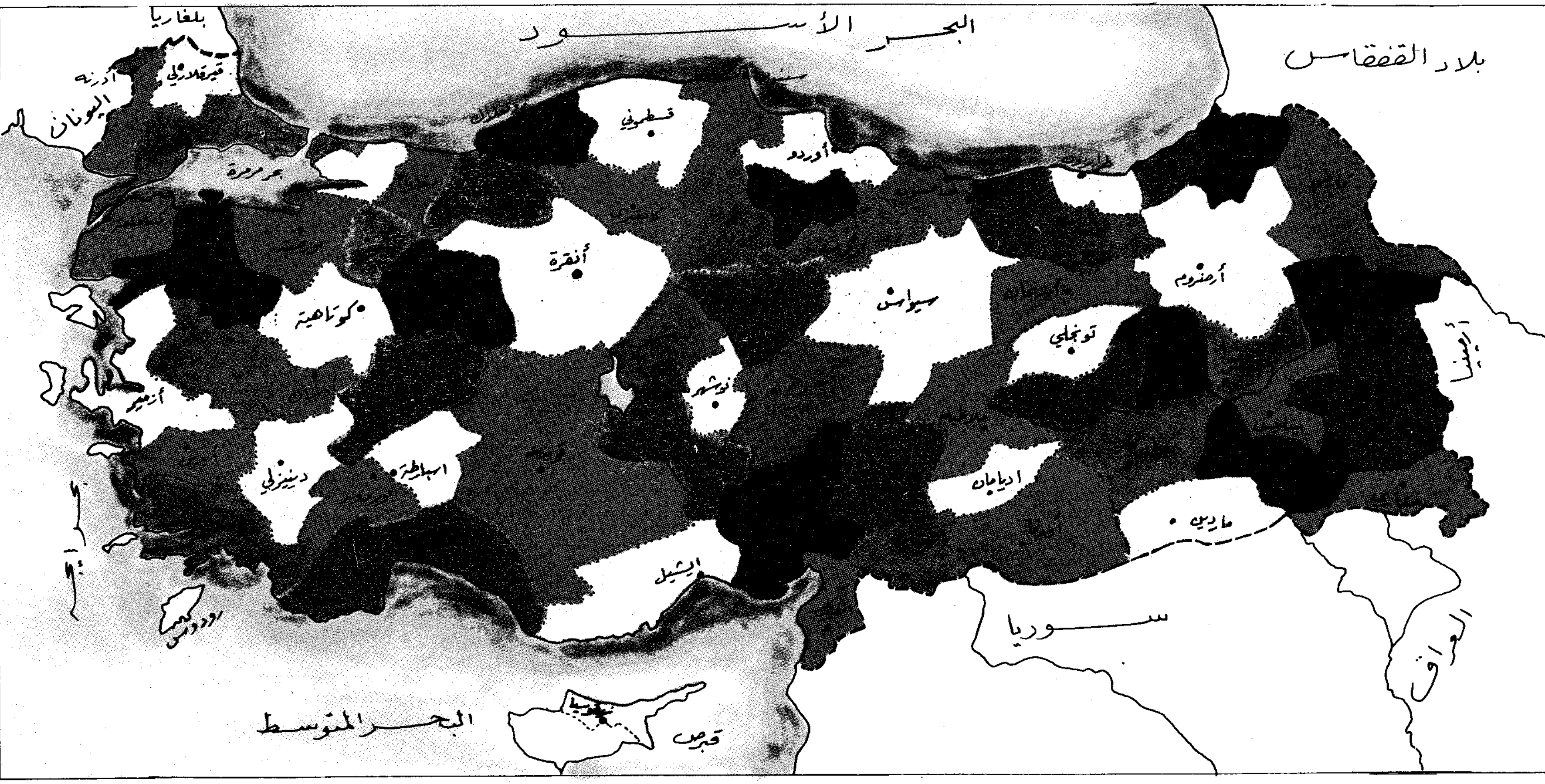
البحر الأسود
بلاد القفقاس
بلغاريا
قيرقلارايلي
أدرنة
اليونان
بحر مرمرة
قسطموني
أوردو
أنقرة
أرضروم
سيواس
كوتاهية
توبجلي
نوشهر
أزمير
دينيزلي
اسبارطة
أديامان
ماردين
ايشيل
أرمينيا
سوريا
العراق
رودس
البحر المتوسط
قبرص
نيقوسيا

لمحة عن تركيا بعد الحرب العالمية الأولى حتى إلغاء الخلافة

كانت الأرض التركية مقرّ الخلافة الإسلامية لعدّة قرونٍ خلت، وكان الخلفاء يعودون إلى أصلٍ تركيٍ، وقد حكموا أجزاء واسعةً من العالم الإسلامي باسم الإسلام، ثم نمت فكرة العصبية التركية تحت تأثيراتٍ دخيلةٍ غريبةٍ بعيدةٍ عن الإسلام، ورُوّجت الدعاية لها لتفتيت الخلافة، وتهديم الفكرة التي تقوم عليها، حيث تتحرّك العصبيات التي يلتقي بعضها مع بعضٍ باسم الإسلام، وتتنافر باسم القوميات، وتمكّن أصحابها بدعمٍ خارجي من السيطرة على الخلافة وبدؤوا العمل حسب المخطط المرسوم.

ودخلت الدولة الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا والنمسا، فكانت إذن طرفاً في القتال، ولكن أي طرفٍ انتصر فلن يكون مصير دولة الخلافة بأفضل مما لو انتصر الطرف الآخر، فالعدو واحد وهو الصليبية، ولها تأثيرها على كلا الطرفين المتنازعين، وأي فريقٍ فاز على خصمه فالمخطط سيُنفّذ على الدولة العثمانية، وإن كانت هناك خلافات بسيطة في التنفيذ وفي الأسلوب، غير أن النتيجة واحدة.

انتصر الحلفاء، وانهزم الطرف الذي دخلت دولة الخلافة إلى جانبه، ونُفّذت المرحلة الأولى من المخطط وهي تجزئة الخلافة إلى دويلاتٍ: تارةً حسب العصبيات القومية وأخرى حسب التقسيمات الإقليمية، وثالثةً حسب المصلحة الأجنبية. وبذا انفصلت الأرض التي تسمى اليوم «تركيا» عن

بقية أجزاء دولة الخلافة باسم العصبية القومية، وسار كل جزءٍ حسب الفكرة التي قام عليها، وحملها وحده منفصلاً عن بقية الأجزاء، بل كان يُدير ظهره إليها في أغلب الأحيان، وإن لم تقع صدامات بين هذه الأقسام فحرب كلامية، لأن العصبيات القومية متنافرة لا يلتقي بعضها مع بعضٍ حيث طبيعة العصبية هكذا، وإضافةً إلى ذلك فإن الذين بيدهم تنفيذ المخططات قد تركوا أموراً مُعلّقةً بين الأجزاء المتجاورة كي يمكن إثارة هذه القضايا في الوقت الذي يريدون والذي تدعو إليه الحاجة بالنسبة لهم.

واحتلّ الحلفاء أجزاء من الأرض التركية، فقد كانت منطقة كيليكيا في الجنوب على الحدود السورية بيد فرنسا التي أُعطيت شمالي بلاد الشام. واحتلّ الطليان منطقة انضاليا في الجنوب أيضاً على ساحل البحر المتوسط، واحتلّت اليونان الأقسام الغربية، وسيطر الحلفاء على استانبول، والمضائق، ولم تستطع روسيا التقدّم في شرقي البلاد لأن الثورة الشيوعية قد اندلعت فيها أثناء الحرب، واضطرت إلى الانسحاب من الحرب وترك الساحة.

بعد أن اندحرت القوات العثمانية في مختلف ميادين القتال كان على الوزارة العثمانية القائمة أن تستقيل، وهي وزارة الاتحاد والترقي، والتي كان يرأسها طلعت باشا، وتألّفت وزارة جديدة برئاسة عزة الأرناؤوط، وقد أرسلت هذه الوزارة وفداً وزارياً برئاسة وزير البحرية رؤوف بك إلى مدينة «مودروس» في جزيرة «ليمنوس» إحدى جزر بحر إيجه لمفاوضة الإنكليز على شروط الهدنة، والواقع أنه قد وقعت هدنة «مودروس» بتاريخ ٢٥ محرم عام ١٣٣٧ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ م).

وغادر بعد يومين البلاد كبار رجالات الدولة من زعماء حزب الاتحاد والترقي وهم: طلعت باشا رئيس الوزراء، وأنور باشا وزير الحربية، وأحمد جمال باشا وزير البحرية، وعزمي بك والي بيروت، وبدري بك مدير شرطة استانبول، وناظم بك، وبهاء بك شاكر من كبار رجال الحزب،

وتخلّف أمين سر الحزب مدحت باشا إذ رجع بعد أن خرج معهم، وقد انطلقوا من استانبول إلى شبه جزيرة القرم على سفينةٍ ألمانيةٍ، ومن هناك سافروا إلى برلين بواسطة القطار، ووصلوا إلى برلين إلا أنور باشا فإنه قد هرب، وانطلق إلى بلاد القفقاس حيث يوجد أخوه نوري الذي يعمل على محاربة الروس هناك، وانتقل بعدها إلى موسكو وحاول التفاهم مع الروس، ولحقه أحمد جمال باشا، وبدري بك غير أنهما لم يلبثا أن رجعا إلى برلين. وزار هو برلين مرتين وحاول إقناع زملائه في مخططه غير أنه فشل في ذلك، ورجع إلى موسكو إلاّ أنه عرف خداع الروس، ومحاولة الاحتفاظ به للوقت المناسب، ففرّ إلى تركستان، وقاتل الروس مع التركستانيين الثائرين، واستشهد هناك قرب مدينة بخارى في ٩ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ ليلة عيد الأضحى (٤ آب ١٩٢٢ م). وسافر أحمد جمال باشا إلى أفغانستان لتنظيم جيشها، وجاء إلى موسكو فاحتجزه الروس، ثم خدعهم بأنه يريد التسلل إلى تركيا لإثارة الشعب ضد الحكم القائم الذي يسير في فلك انكلترا، فوافق الروس على سفره، وانطلق خلال بلاد القفقاس، واغتاله أحد الأرمن في مدينة «تفليس» عاصمة جورجيا، كما اغتال الأرمن طلعت باشا في برلين.

كان السلطان محمد رشاد بن عبد المجيد الذي تولّى الخلافة بعد أخيه عبد الحميد الثاني قد تُوفّي قبل استسلام الدولة العثمانية بعدة شهورٍ، وتولّى مكانه أخوه محمد وحيد الدين إذ غدا ولياً للعهد بعد وفاة الأمير يوسف عز الدين ابن السلطان عبد العزيز وذلك لأن الخلافة تنتقل إلى أكبر أفراد الأسرة الحاكمة، وكانت الشائعات أن يوسف عز الدين قد مات مسموماً على يد الاتحاديين الذين كانوا على خلافٍ كبيرٍ معه.

قادة الاتحاد والترقي:

لم تكن الصليبية ولا اليهودية لترضى عن قادة الاتحاد والترقي كل الرضا، لا من الناحية العقيدية، ولا من الناحية السلوكية بل ولا من الناحية السياسية، إذ كانت عند بعضهم بعض رواسب من العواطف الإسلامية التي تبرز في بعض الجوانب أحياناً، وتختفي في خضم الأحداث السياسية، كما تطفح أحياناً جوانب الوطنية فيزيلون أمامهم بعض العقبات مهما كانت انتماءاتها بل ولو كانت صليبيةً وهذا لا يمكن أن ترضى عنه تلك النفوس التي ورثت الحقد الصليبي وتشبّعته، وربما نستطيع أن نلمس هذه الجوانب خاصةً عند أنور باشا، وأحمد جمال باشا فقد عمل الأول كل جهده لقتال الطليان في ليبيا، وبذل إمكاناته كافةً للانتصار في حروب البلقان، ووقف الثاني مواقف عنيدةً وصلبةً ضدّ الأرمن، إضافةً إلى جهود الاثنين لقتال الروس، وهذه العناصر العدوة التي عملا لقتالها إنما هي عناصر صليبية. ولم تكن عند عددٍ من قادة الاتحاد والترقي الأوائل فكرة عن معاداة الإسلام صراحة وإلغاء الخلافة إلا إذا استثنينا ما كان منهم من الدونمة، ومن الناحية السياسية لم تكن لهم روابط وثيقة بانكلترا، ولا فرنسا، ولا النمسا، ولا روسيا وإنما كانت روابط مصلحةٍ وكرهٍ للحكام بصفتهم أصحاب سلطةٍ وهذه الدول هي التي كانت يومذاك تحمل لواء الصليبية بصفتها الدول الكبرى وليس معنى ذلك أن الدول النصرانية الأخرى لم تكن تحمل الحقد نفسه، بلى غير أن وضعها لم يكن يمكّنها من تلك الصدارة، كما أن هذه الدول هي التي تعّد نفسها حامية المذاهب النصرانية على اختلافها من كاثوليكيةٍ وأرثوذكسيةٍ وإنجيليةٍ أي أن فرنسا والنمسا كانتا تدافعان عن الكاثوليكية وتعدان نفسيهما حاميتين لجميع الكاثوليك في العالم ولا شك فإن شأن ايطاليا وإسبانيا والبرتغال كان دون ذلك، وهذه الدول هي سيدة الكاثوليكية كانت ولا تزال، وروسيا كانت ولا تزال من غير منازعٍ سيدة الأرثوذكسية والمُتبنية لها وسواء أكانت

قيصريةً رأسماليةً أم شيوعيةً حمراء، وسواء أعلنت ذلك أم لم تُعلن، وسواء أبدت أنها على دينٍ أم أنها إلحادية تُحارب الأديان إذ لم تجرّد حربها الصريح الا على الاسلام والمسلمين. وتدافع انكلترا عن الكنيسة الإنجيلية خاصةً وهذا في الماضي والحاضر وإن كانت قد بـرزت في العصر الحاضر إلى جانب هذه الدول الولايات المتحدة وتضمّ مختلف المذاهب النصرانية في أراضيها لذا فهي حامية النصرانية أو هكذا تكلّف نفسها، وتعمل على ذلك وللدقة يمكن أن نقول: إن كل دولةٍ نصرانيةٍ هي صليبية قبل كل شيء وخادمة للنصرانية عامةً، ثم للمذهب الذي ينتمي أبناؤها إليه. وكان رجالات حزب الاتحاد والترقي الأوائل أميل إلى الألمان وهم الذين حملوا الدولة العثمانية على دخول الحرب إلى جانب ألمانيا، بل كانت بعثاتهم العسكرية تتجه إلى ألمانيا قبل غيرها، ويُشرف على تدريب العسكر ضباط ألمان، وانفتحت بعض الأبواب الاقتصادية أمام الألمان قبل الحرب العالمية الأولى في أراضي الدولة العثمانية. ولم يكن من رأي الخليفة محمد رشاد زجّ الخلافة في الحرب الأوربية، فهي دول عدوة غير أن أنور باشا قد حمله على ذلك. ومن الناحية السلوكية لم يكن رجالات حزب الاتحاد والترقي الأوائل على تلك الدرجة من الاستهتار بالقيم وانعدام الرجولة والشهامة فقد كانت لا تزال عند بعضهم صور منها، هذا رغـم مـا ارتكبـوه بحقّ الأمّة، ورغم ما فعلوه من أخطاء، وما حملوا من أوزارٍ نتيجة تصرّفاتهم، ونتيجة هذا السلوك أو ما بقي عندهم من آثار القيم لم تكن الدول النصرانية لترضى عنهم كل الرضا ولكن تجمعهم معهم كراهية أولي الأمر ولكلٍ غاية من هذه الكراهية، ولذا كانت نتيجتهم التي آلت إليهم في النهاية، وكانوا قد اختيروا لمصلحة يصلحون لها، إذ لا يصلح رجال مستهترون لقيادة مجتمع لا تزال فيه بعض عناصر الخير، ولا يمكنهم أن يعزلوا خليفةً وينصّبوا آخر، وفي وقتٍ كانت الأمة على شيء من القوة. أما وقد تجزّأت الأمة، وضعفت الدولة، وانهارت السلطة، وذلّ الشعب، وانتهت المرحلة الأولى، فيجب البدء بالمرحلة الثانية وهي إبعاد الدولة

الجديدة ذات العصبية القومية عن كل ارتباطٍ بأي جزءٍ من أجزاء العالم الإسلامي وسيكون هذا بإلغاء الخلافة، ويمكن أن يقوْم بهذا الدور جماعة من المستهترين بكل القيم، وهؤلاء موجودون في رجالات الاتحاد والترقي في الطبقة الثانية، بل مُهيّئون لذلك، وقد ربّوا ونُشّئوا على ذلك فهم البدائل في قيادة الحزب ولقيادة الدولة، والجياد المُسرجة المُعدّة لتلك المُهمّة.

عندما خطّطت الدول النصرانية، وانكلترا خاصةً لحزب الاتحاد والترقي وهيّأت رجاله وقادته لمرحلةٍ معينةٍ وهي السيطرة على البلاد وبتحقيقها ينتهي دورهم، وقد تمّ ذلك، وفي الوقت نفسه كانت تبحث عن رجالٍ أو عن الرجل الأول الذي تُناط به مهمة إلغاء الخلافة أو تنفيذ المرحلة الثانية، ويجب أن يتصف ببعض الصفات، ولعل أهمها: الحقد على المجتمع، والاستهتار، والعداوة للإسلام، وفي دراستها لأعضاء حزب الاتحاد والترقي من رجالات الدرجة الثانية ليكون البديل، أو الجواد المعدّ للقيام بالدور المطلوب وجدت ضالتها في مصطفى كمال، فهو حاقد على المجتمع، مستهتر لا يُبالي بأيّة قيمةٍ، وعدوّ بيّن للإسلام، وربما كان للبيئة التي نشأ فيها أثر في ذلك.

مصطفى كمال:

ولد مصطفى كمال عام ١٢٩٦ هـ من أمٍّ تُدعى «زبيدة» ونسب في بداية الأمر إلى زوج أمه علي رضا الذي لم يلبث أن توفّي، ولم يتجاوز ربيبه مصطفى الثامنة من العمر، وكانت زبيدة مُستهترةً، وتمكّنت من تأمين زوجٍ، فغضب ولدها مصطفى منها، وترك البيت وذهب إلى بيت أخت علي رضا زوج أمّه، أو عمّته، حسب الظاهر، ودرس في المدارس الحربية في «سالونيك» و«مناستر» ثم التحق بالكلية الحربية في استانبول، وتخرّج منها، وتخرّج من كلية الأركان برتبة رائد عام ١٣٢٢ هـ، وألفّ جمعية «الوطن والحرية» في الشام مع بعض المنفيين إليها. وكان يتدرّب في

لواء الفرسان، وعندما تمّ تدريبه عُيّن في يافا غير أنه هـرب إلى مصر، ومنها انتقل بحراً إلى سالونيك، واستطاع أن يجد وسيلةً لتعيينه هناك عن طريق الارتباطات التي أصبحت له. وعمل لجمعيته التي لم تلبث أن انضمّت إلى جميعة الاتحاد والترقي، ولم يستطع البروز والظهور لأن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يحترموه لاستهتاره بالقيم وانقطاعه إلى الأماكن الموبوءة من حاناتٍ، ومحلاتٍ للفجور، لذا فقد حقد عليهم أيضاً.

ويبدو أنه كان على صلةٍ بجهةٍ لها إمكاناتها ولها نفوذها، تُوجّهه وتحميه، وترسم له وتُمنّيه، وتعده بأعلى منصبٍ، وهو يقتل نفسه في سبيل الشهرة والارتفاع، وكانت تظهر من فلتاتٍ على لسانه في جلسات السكر وهو مخمور، فيُوزّع المناصب، ويُصدر الأحكام، وفي إحدى المرّات على مائدة العشاء التفت إلى رفيقه «نوري جونكر» وقد أعجبه كلامه فقال له: أما أنت فسأُعيّنك رئيساً للوزارة، فضحك نوري، وقال له: إذا كنت تستطيع تعييني رئيساً للوزراء يا أخي فماذا ستكون أنت؟ فأجاب: سأكون الرجل الذي يستطيع تعيين رئيس الوزراء.

أُعلن الدستور في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٢٦ هـ (٢٤ تموز ١٩٠٨ م) وتسلّم حزب الاتحاد والترقي أكثر المناصب الحسّاسة، وكان رجاله يكرهون مصطفى كمال، وخاصةً أنور باشا، فأُبعد مصطفى كمال إلى طرابلس الغرب (ليبيا) بحجة القضاء على ثورةٍ قائمةٍ، ولكن لم يمكث هناك أكثر من شهرين إذ ترك مكانه ورجع إلى سالونيك من نفسه دون إعلام قيادةٍ أو إخبار مسؤولٍ. وسار مصطفى كمال مع جيش سالونيك يوم حادثة ١٠ ربيع الأول عام ١٣٢٧ هـ (٣١ آذار ١٩٠٩ م)، وقد تمّ عزل السلطان عبد الحميد، وتولية أخيه محمد رشاد، ورجع مصطفى كمال بعدها إلى سالونيك. وذهب مع من ذهب إلى ليبيا لقتال الطليان في سبيل الشهرة، ولكن هرب، كما هرب في حرب البلقان.

ويُرسل ملحقاً عسكرياً إلى بلغاريا فيقضي أيامه على الخمور، وفي المجون. وعندما تندلع نار الحرب العالمية الأولى يشترك فيها بناءً على إلحاحه، ويكون تحت إمرة أحد القادة الألمان للدفاع عن (شنقلعة) في شبه جزيرة غاليبولي على مضيق الدردنيل، ويبدأ الهجوم البحري على المنطقة من قبل جيوش الحلفاء في ٣ جمادى الأولى ١٣٣٣ هـ (١٨ آذار ١٩١٥ م) ويصمد الجنود الأتراك، ويبدأ الإنزال البري للعدو في شبه الجزيرة في ١١ جمادى الآخرة ١٣٣٣ هـ (٢٥ نيسان عام ١٩١٥ م).

رُقّي مصطفى كمال إلى رتبة عميد في ١٩ رجب ١٣٣٣ هـ (١ حزيران ١٩١٥ م). وانسحب الأعداء من شبه جزيرة غاليبولي، وأُرسل مصطفى كمال قائداً للفرقة السادسة عشرة في ديار بكر لمواجهة الروس، فانصرف إلى حياة اللهو والمجون، وانسحب الروس من القتال في هذه الجبهة. ورُقّي إلى رتبة لواء (باشا) في ٢٥ صفر ١٣٣٤ هـ (١ كانون الثاني ١٩١٦ م). وبعد أقلّ من عامين يُصبح نائباً لقائد الجيش الثاني المرابط في شرقي البلاد، والذي تتبعه الفرقة السادسة عشرة التي يقودها مصطفى كمال نفسه، ويتراجع هذا الجيش.

ويُرسل إلى جزيرة العرب قائداً للقوة الجوّالة في الحجاز لحماية المدينة المنورة من الإنكليز، وتتبع هذه الفرقة الجيش الرابع الذي مقره في دمشق والذي يتبع قيادة وزير البحرية جمال باشا، أما رئيس أركان هذا الجيش فكان علي فؤاد باشا، وجاء وزير الحربية أنور باشا إلى دمشق لدراسة وضع الدفاع عن المدينة. كان رأي الخليفة محمد رشاد، ورأي طلعت باشا رئيس الوزراء المحافظة على المدينة وإبقاء الجيش العثماني في الحجاز بل إن الخليفة قد هدّد بترك الخلافة فيما إذ سُحب الجيش من الحجاز، وكان رأي أنور باشا الانسحاب ثم غيّر رأيه، وأما جمال باشا فكان رأيه الانسحاب وكذلك مصطفى كمال، أما رأي علي فؤاد باشا فكان يعتقد أن إرسال رجل غير مرتبط بالمشاعر الدينية كي لا يخضع للتأثيرات

العقيدية بالقتال، ويرى وجوب الدفاع عن المدينة المنوّرة والروضة المشرّفة أمراً أساسياً، ويرى أن تُناط المهمة بمصطفى كمال الذي يرفض القيام بهذا الأمر، ويترك موضوع الحجاز.

ويُعيّن مصطفى كمال قائداً للجيش السابع المكلّف بالدفاع عن بلاد الشام، فينسحب أمام التقدّم الإنكليزي، أما قائد الجيش فقد أعفى نفسه ورجع إلى استانبول، وأنهى وظيفته وعيّن وكيله علي رضا باشا الذي كان من قواد إحدى الفرق مكانه، حسب قوله في مذكراته.

وطلب من الخليفة الجديد محمد وحيد الدين القائد العام للقوات المسلحة العودة إلى تسلّم قيادة الجيش السابع، فذهب وأعطى أوامره لجميع القوات الموجودة في دمشق بقيادة عصمت اينونو، والقوات الموجودة في « رياق » بقيادة علي فؤاد باشا بالتحرّك نحو الشمال منسحبةً باتجاه تركيا، وسافر هو بالقطار إلى حمص حيث مقرّ القائد الألماني « ليمان فون ساندرز » فالتقى به وأخبره بالأوامر، وكان قد أرسل إليه نسخةً منها. فوافق كغريب عن الوطن ـ حسب زعمه ـ وطلب من مصطفى كمال إقناع رئيس أركانه « كاظم باشا دياربكرلي » فذهبا معاً إليه وكان مريضاً فوافق، وتمّ الانسحاب، وغادر القائد الألماني البلد بعد أن رأى العجب والخيانة. وهذا كله بعد الاتفاق السري بينه وبين القائد الانكليزي الجنرال « اللنبي » وكانت النتيجة أن وقع في الأسر مائة ألف جندي عثماني إضافةً إلى آلاف القتلى برصاص الدروز والأرمن، ووصل من أُفلت من الأسر إلى دمشق. وكان هذا الانسحاب في ١٤ ذي الحجة ١٣٣٦ هـ (٢٠ ايلول ١٩١٨ م) من المناطق التي تقع جنوب دمشق، ثم وصل الإنكليز إلى دمشق ٢٥ ذي الحجة وإلى حلب في ١٤ محرّم ١٣٣٧ هـ، وأُعلنت الهدنة (هدنة مودروس) في ٢٥ محرم ١٣٣٧ هـ، ووصل الجنرال « اللنبي » القائد الإنكليزي بعدها إلى استانبول، وطلب من الحكومة التركية تعيين مصطفى كمال قائداً للجيش السادس بالقرب من الموصل حيث تهمّ تلك المنطقة

انكلترا، وهذا ما يذكره مصطفى كمال نفسه في مذكراته (صفحة ٨٩ - ٩٠).

ولما كان مصطفى كمال في حلب منسحباً قبل إعلان الهدنة اقترح تشكيل وزارةٍ جديدةٍ برئاسة عزة باشا الأرناؤوط لتخلف وزارة الاتحاديين برئاسة طلعت باشا والتي من المفروض تركها الحكم بسبب الهزيمة في الحرب وانهيار المقاومة، واقترح أن يتسلّم هو (مصطفى كمال) وزارة الحربية، كما رشّح عدداً من الأشخاص لتسلّم المناصب الوزارية، ولم يكن له أية صفةٍ ليُقدّم لهذه الاقتراحات والترشيحات، وتشكلّت الوزارة برئاسة عزت باشا الأرناؤوط فعلاً وضمّت عدداً من الوزراء الذين ذكرهم مصطفى كمال، أما هو فلم يُوافق عليه الخليفة.

وفي (أضنه) تسلّم قيادة مجموعةٍ من بقايا فرق الصاعقة المشتّتة، ولم يكن هذا المنصب إلا نظرياً ومؤقتاً، وقبل أن تستقيل وزارة عزت باشا أرسل له رئيسها ضرورة قدومه إلى استانبول.

وصل مصطفى كمال إلى استانبول، وكانت وزارة توفيق باشا قد خلفت الحكومة السابقة التي كانت برئاسة عزت باشا، ولم تحصل على الثقة بعد، فكان يتصل بنواب المجلس ويُحرّضهم على عدم منح الحكومة الثقة لعلّ عزت باشا يعود إلى رئاسة الوزارة، ويتسلّم هو منصب وزارة الحربية، غير أن جلسة الثقة في مجلس النواب قد أعطت توفيق باشا الثقة.

أخذ مصطفى كمال يتقرّب من حزب أنصار الحرية والائتلاف الذي كان يتعاون مع سلطات الاحتلال، وقد نشأ بعد تشتّت حزب الاتحاد والترقي، غير أن الحزب الجديد لم يبال بمصطفى كمال، ولم يهتمّ به لمعرفته به وبسلوكه.

وطلب خطوبة (صبيحة) بنت الخليفة محمد وحيد الدين غير أن طلبه قد رُفض مُباشرةً.

وكان الحلفاء المحتلّون [انكلترا ـ فرنسا ـ ايطاليا ـ اليونان) يقبضون على كل خصمٍ لهم في استانبول من العائدين من الجبهات، وينفونه إلى مالطة، أو أيةَ جهةٍ أخرى، كما فعلوا بعلي إحسان باشا قائد الجيش السادس الذي كان في العراق. أما مصطفى كمال فقد تركوه وشأنه.

الثورة:

كان الخليفة محمد وحيد الدين، والقصر، ورئيس الوزارة الجديدة فريد باشا يُحسنون الظنّ بمصطفى كمال، رغم كل ما ظهر منه، ويحسبون أن ما قام به لم يكن إلا في سبيل الشهرة وحبّ المناصب العليا فقط، ليس غير.

وكان الخليفة يعرف مصطفى كمال من قبل يوم كان مُرافقاً له، عندما ذهب، وهو ولي للعهد إلى ألمانيا، ليقدّم للامبراطور سيفاً هديةً من الخليفة محمد رشاد. وقد دعاه الآن ليكون مُرافقاً له في البداية، وفي نيّته أن يُكلّفه بمُهمّةٍ خاصةٍ.

كان الخليفة يعتقد أن البلاد منهارة وإذا بقيت بهذه الحالة فإن شروط الصلح ستفرض عليها فرضاً وستكون ثقيلةً عليها وقاسيةً، وستجعلها خانعةً تحت الضغط قابعةً تحت الذلّ تنهش منها أنياب المحتلّين، وتُمزّقها مخالبهم، وسترسّخ فيها أقدامهم وتتمكّن، والحلّ الوحيد للخلاص من هذا الوضع السيء قيام ثورةٍ في شرقي البلاد والمناطق الداخلية والتي لم تصل إليها بعد أقدام المحتلّين، ولن يستطيع أن يقوم هو بنفسه بهذا العمل لأنه يُمثّل أعلى سلطةٍ في البلاد وقد وافق على شروط الهدنة فلا بدّ من أن يقوم به غيره فإذا حدث هذا فإنهم سينتزعون من الحلفاء أفضل شروط الصلح معهم، ووقع اختياره على مصطفى كمال ما دامت الإمكانات عنده، ويقتل نفسه في حبّ الشهرة وإذا لم يُوفّق في المعارك السابقة فذلك لأنه لم يحصد منها شيئاً لنفسه أما الآن فالحصاد كله لشخصه. فاستدعاه وأوكل إليه هذه المُهمّة فسرّ بها سروراً عظيماً، وللتغطية على هذا المخطط عن

أعين الحلفاء عامةً والإنكليز خاصةً الذين يبثّون أعوانهم في كل مكانٍ فقد أصدر أمراً بتعيين مصطفى كمال مُفتشاً عاماً للجيوش، وزوّده بصلاحياتٍ واسعةٍ، ومنحه عشرين ألف ليرةٍ ذهبيةٍ وهو مبلغ ضخم جداً في تلك الظروف القاسية التي تمرّ بها الدولة حتى إن خزينتها لتنوء به، إضافةً إلى هذا فقد وعده بمساعداتٍ أخرى إذا اقتضى الأمر، ولم يقصر رئيس الوزراء صهر السلطان فريد باشا بالأمر فقد طلب من مصطفى كمال أن يكتب له مباشرةً وسيرى أن طلباته ستُحقّق كلها.

وفي ١٤ شعبان ١٣٣٧ هـ (١٤ أيار ١٩١٩ م) أُبلغت الحكومة العثمانية من قبل لجنة الحلفاء العليا المقيمة في باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من انكلترا، وفرنسا، وايطاليا، واليونان قراراً يقضي بنزول الجيوش اليونانية في أزمير، ويُحذّرونها من المقاومة التي يعدّونها مُقاومةً للحلفاء جميعاً ونقضاً للهدنة، وفي ١٥ شعبان نزل اليونانيون في أزمير.

وفي ١٧ شعبان من العام نفسه أي بعد يومين فقط من نزول اليونانيين في أزمير، غادر مصطفى كمال استانبول مُتوجّهاً إلى « صامسون » فوصل إليها بعد يومين لتنفيذ المهمة التي كلّفه بها الخليفة، وما أن وصل إلى « صامسون » حتى أعلن استقلال نفسه وعدم ارتباطه بأية حكومةٍ أو سلطةٍ أو خليفةٍ، بل شقّ عصا الطاعة، وأخذ يحرّض الناس على رفع راية العصيان ضدّ الحكومة العثمانية، وضدّ الخليفة فيقول في خطبه: (يجب دفع الأمة بكاملها ودفع الجيش إلى رفع راية العصيان ضدّ الحكومة العثمانية، والسلطان العثماني، وخليفة المسلمين)[1]. مع اعترافه الكامل بأن الأمة مرتبطة بالخليفة الذي يُمثّل المسلمين، وبالحكم الذي يُمثّله فيقول: (إن الأمة والجيش كانت تهتم بسلامة مقام الخلافة العالي والسلطنة أكثر من اهتمامها بسلامتها، ولم تكن تستطع أن تتصوّر الخلاص والسلامة من دون السلطنة والخلافة، أما من يُبدي فكراً مُعارضاً ومُخالفاً لهذا فالويل له إذ كان

---

(١) الخطابة ص ١٠.

يعتبر في الحال خائناً وكافراً ومُرتدّاً).[١]

كانت في الأناضول الفرقة الثالثةَ ومقرّها « سيواس » بقيادة رفعت بك، والفرقة الخامسة عشرة في « أرضروم » بقيادة كاظم قره بكر باشا، وكلا الفرقتين غير متكاملة العدد، غير كاملة التجهيزات والأسلحة، وألوية هذه الفرق مُوزّعة في « صامسون » و« أماسيا » و« طرابزون ». وكانت أنقره مقرّ الفرقة العشرين بقيادة علي فؤاد باشا، ويكتب له تقارير عن المنطقة الغربية حسب أوامره، وكانت هذه الوحدات تتبع مصطفى كمال مباشرة بصفته العسكرية غير أنه يملك إعطاء التعليمات للعسكريين والمدنيين على حدٍّ سواء للأمر الذي يحمله من الخليفة.

بدأت تصرّفات مصطفى كمال تزعج الحكومة، وقد أرسل وزير الداخلية علي كمال قراراً إلى جميع الولايات يدعوهم فيه إلى الوقوف ضدّ أعمال مصطفى كمال، غير أنه لم يعلم الاتفاق الذي تمّ بين الخليفة ومصطفى كمال، وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة في أشدّ الضيق مما يجري في الأناضول كان الخليفة مسروراً فرحاً ولكنه يُخفي ذلك ولا يُبديه لأحدٍ إذ عُرف بكتمانه الشديد للسر.

احتجّ الحلفاء إلى الوزارة القائمة في استانبول من الأعمال التي يقوم بها مصطفى كمال في الأناضول احتجاج تبرئةٍ لساحته، وإعطائه صفة الوطنية والإخلاص لأمته، وإظهاراً له وإبرازاً، وطالب الحلفاء الوزارة باستقدام الرجل إلى استانبول ووضعه تحت مراقبتهم، وفي الوقت نفسه كثرت شكايات الولايات ضدّه، نتيجة تصرّفاته بسبب الصلاحيات الواسعة التي يتمتّع بها، فدُعي من قبل وزير الحربية فلم يُجب، وتكرّرت احتجاجات الحلفاء، وتكرّرت شكايات الولاة، وتعّددت طلبات استقدامه دون إجابةٍ ومن غير فائدةٍ، فهدّد الحلفاء بإعادة الحرب، واضطرت الحكومة إلى

---

(١) المرجع نفسه ص ٨.

إقالته، وكانت برئاسة فريد باشا الذي كان غائباً في أوربا لحضور مؤتمر الصلح، ويقوم مكانه شيخ الإسلام صبري أفندي.

عرض رئيس الوزارة بالوكالة قرار إقالة مصطفى كمال على الخليفة فلم يُوافق، واكتفى بالتوجيه بدعوته إلى استانبول، وقامت الوزارة بما أوصى به الخليفة ولكن دون فائدة. وفي ١٠ شوال ١٣٣٧ هـ (٨ تموز ١٩١٩ م) قررت الوزارة حلّ موضوع مصطفى كمال وذهب رئيس الوزارة بالوكالة إلى الخليفة لهذا الأمر، وأرسل له الخليفة برقيةً عن طريق رئيس الديوان، فلم يُجب فاضطر الخليفة بعد منتصف الليلِ توقيع قرار الإقالة مُكرهاً.

أما مصطفى كمال فقد قابل قرار الإقالة بتقديم الاستقالة من الجيش، والتقى في أرضروم بالإنكليزي العقيد «راولنسون» ابن أخ وزير الخارجية الإنكليزية «كيرزون» لقاءً خاصاً سرّياً. ثم دعا إلى عقد مؤتمرٍ في أرضروم بتاريخ ٢٥ شوال ١٣٣٧ هـ (٢٣ تموز ١٩١٩ م) ودام هذا المؤتمر أربعة عشر يوماً، وقد انتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر، وانتهى المؤتمر بالقرارات الآتية:

١ - إن البلاد ضمن حدودها القومية وحدة لا تتجزأ.

٢ - في حالة سقوط الحكومة العثمانية فإن الشعب سيُدافع عن نفسه ضدّ أي نوعٍ من أنواع الاحتلال الأجنبي.

٣ - إذا لم تستطع الحكومة الدفاع عن الوطن واستقلاله أو لم تهتّم به فيجب تشكيل حكومةٍ مُؤقّتةٍ تُنتخب في مؤتمرٍ قوميٍ عام، وإذا لم تكن هذه الحكومة في حالة اجتماعٍ فإن على الهيئة التمثيلية أن تقوم بهذه المهمة.

٤ يجب بناء القوة الوطنية، كما يجب جعل إرادة الأمة هي المهيمنة على كل شيء.

٥ - لا يمكن قبول الوصاية أو الحماية الأجنبية.

٦ - يجب ضمان تشكيل واجتماع مجلس الأمة، ويجب وضع الأمة تحت رقابته.

ثم كانت الدعوة إلى مؤتمرٍ أوسع يشمل تركيا كلها، وإن كان هناك من يُعارض فكرة التوسّع ومنهم كاظم باشا قره بكر، إذ يرون الاكتفاء بمؤتمر أرضروم ومُحاولة فرض شروط أفضل للصلح غير أن مصطفى كمال دعا إلى مؤتمر «سيواس» في ١٣ ذي الحجة عامة ١٣٣٧ هـ (٧ أيلول ١٩١٩ م). وانعقد المؤتمر، وكانت حكومة استانبول ترى إلغاء هذا المؤتمر، واعتقال أعضائه، وتتظاهر القوات المحتلّة بتأييد ذلك. وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر، وقد غيّر المؤتمر اسم الجمعية التي نشأت عقب مؤتمر أرضروم من «جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول» إلى «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروملي». وبالتالي فإن الهيئة التمثيلية أصبحت تُمثّل الهيئة العامة للوطن بعد أن كانت تُمثّل شرقي الأناضول فقط. وانتخب المؤتمر هيئةً تمثيليةً. وبقي الأعضاء في «سيواس».

أبلغ مصطفى كمال الدوائر العسكرية والمدنية كلها أن ارتباطهم غدا بالهيئة التمثيلية في «سيواس» ولا علاقة لهم باستانبول حتى تسقط الحكومة القائمة الخائنة التي وقفت سدّاً بين السلطان والأمة.

غادر مصطفى كمال «سيواس» إلى «أنقرة» في ٢٦ ربيع الأول ١٣٣٨هـ (١٨ كانون الأول ١٩١٩ م) للقاء بالنواب الجدد الذي سيُسافرون إلى استانبول ومحاولة التأثير عليهم، وفي الوقت نفسه فقد انتقل مقرّ الهيئة التمثيلية من «سيواس» إلى أنقرة، كما حاول منع اجتماع النواب في استانبول، وحرص على لقائهم في أنقرة، ولكنه لم يُفلح.

اجتمع المجلس النيابي في استانبول في ٢١ ربيع الثاني ١٣٣٨ هـ (١٢

كانون الثاني ١٩٢٠ م)، وقد ظهر في هذا المجلس جناح يُدعى «فلاح الوطن» وقد خالف هذا الجناح رأي مصطفى كمال في إنشاء جناح باسم «جمعية الدفاع عن الحقوق» لذا فقد نعتهم بصفاتٍ كثيرةٍ، ومعروف أن معظمهم كان من الأناضول، كما ظهر في المجلس «الميثاق الملي».

أقال الخليفة من رئاسة مجلس الوزراء الداماد فريد باشا، وكلّف علي رضا بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ. وكان مصطفى كمال في هذه الآونة يرى أنه لا يوجد مجال للمقاومة المسلحة ضد شروط الصلح الفاسدة إلا التقدّم في جهة القفقاس، إذ تضعف مقاومة المسلمين في القفقاس، أما الروس بعد هجوم الأتراك على بلادهم، فيتقدّمون ويحتلّون ثانيةً القفقاس إذ كان المسلمون في بلادِ القفقاس قد انتفضوا ضدّ الروس عندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا، واستقلوا في بلادهم، وأخذوا في مقاومة الروس والوقوف في وجههم ومنعهم من العودة إلى بلاد القفقاس. فإذا ما احتلّ الروس بلاد القفقاس بعد ضعف مقاومة سكانها بسبب الهجوم التركي عليهم يضطر الحلفاء لتقديم شروط صلحٍ أفضا لبقاء دولةٍ تركيةٍ قويةٍ تستطيع البقاء أمام الروس هذا ما كان يراه مصطفى كمال يومذاك.

وفي ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٣٨ هـ (١٦ آذار ١٩٢٠ م) تمّ احتلال الحلفاء لاستانبول بشكلٍ كاملٍ، وبدأ تفتيش المنازل، والاعتقالات فانتشر الذعر الأمر الذي جعل النواب يُغادرون استانبول ويعودون إلى مناطقهم.

احتلّت انكلترا استانبول دون فرنسا وإيطاليا، وإن كان الاحتلال باسمهم، وشكّل صالح باشا حكومة جديدةً ألقت القبض على عددٍ من النواب المؤيدين لمصطفى كمال، وعلى رئيس الوزراء الأسبق سعيد حليم، وألقوا في السجن يوماً واحداً، ثم نقل بعضهم إلى مالطة وغيرها وذلك لإظهار الخلاف بين الإنكليز ومصطفى كمال. وفرضت الحكومة الرقابة على الصحف ووسائل الإعلام كلها وعلى البريد والبرق والهاتف، وراقبت

انكلترا الوزارة وطلبت طاعة أوامر الخليفة لإظهار تأييدها له حتى يكرهه الشعب وينفر منه، ويثبت لدى الأمة أن مصطفى كمال ضدّ الإنكليز وما يتحرّك ضدّ الخليفة إلا لأنه مُؤيّد من قبل المحتلّين، وهذا ما يجعل الشعب يرتبط بمصطفى كمال، ويُؤيدّه ويسير وراءه، وترتبط تركيا بانكلترا، وتتمّ اللعبة الدولية.

وفي ٢٧ رجب ١٣٣٨ هـ (١٥ نيسان ١٩٢٠ م) حُلّ المجلس النيابي، واستقالت حكومة صالح باشا، وشكّل الوزارة الجديدة الداماد فريد باشا من جديد بناءً على طلب الإنكليز وضغطهم ليظهر للناس أن الخليفة وحكومته المتمثلة في صهره يسيران برأي الأعداء المحتلّين فينفر الشعب منهم، ويتجه نحو مصطفى كمال الذي يبدو أنه على خلافٍ مع المحتلّين، وأنه عدوّهم الأول، وعدوّ كل من يسير برأي هؤلاء الدخلاء المعتدين المسيطرين على العاصمة. كما استبّد فريد باشا رئيس الحكومة في حكمه وجار فتضايق السكان وأحبوا الخلاص منه، وليس لهم من طريقٍ سوى التوجّه نحو مصطفى كمال.

جرت الانتخابات ونجح مصطفى غيابياً عن أنقرة، ولكنه لم يُسافر إلى استانبول، وإنما جمع نواب أنقره وعقد منهم مؤتمراً، ونصّب نفسه رئيساً للمجلس وللهيئة التنفيذية التي شكّلها والتي ضمّت ستة أعضاء إضافة إلى شخصه[1]، ولكنها لم تدم سوى تسعة أيامٍ من ٧ ـ ١٦ شعبان حيث

---

(١) ضمت الهيئة التنفيذية:

١ ـ مصطفى كمال : رئيساً عن أنقرة.
٢ ـ عارف جلال الدين: عضواً. عن أرضروم.
٣ ـ جامي بيكوت: عضواً. عن ايدن.
٤ ـ سامي بكر: عضواً. عن أماسيا.
٥ ـ صبحي حمد الله: عضواً. عن انطاليا.
٦ ـ بهيج حقي: عضواً. عن دينزلي.
٧ ـ عصمت إينونو: عضواً. عن أدرنة.

وجد من الأفضل أن تتكوّن وزارة تشمل وزارات الدولة كلها، وإن بقيت تحمل اسم «هيئة تنفيذية»، واجتمع مجلس مصطفى كمال في أنقرة بتاريخ ٥ شعبان ١٣٣٨ هـ (٢٣ نيسان ١٩٢٠ م).

أظهر مصطفى كمال التديّن، ولبس شعاره، فأعلن أن افتتاح المجلس الخاص به في أنقره سيكون يوم الجمعة، اليوم المبارك، وسيلتقي النواب في صلاة الجمعة في جامع (حاجي بيرام) وسيتمّ بعد صلاة الجمعة ختم القرآن الكريم، وقراءة صحيح البخاري و... وعندما ألقى الخطبة الأولى يوم الافتتاح كانت كلها مديحاً للخلافة، وأنه لا يصحّ الفصل بين السلطة والخلافة، وأنه لم ينتقل إلى الأناضول إلا بمعرفة الخليفة، وان كل ما قام به لم يكن سوى تنفيذ لأوامر السلطان، وقد فضح ذلك السر لمصلحته ولكسب رضا الشعب عنه.

أما في استانبول فقد أصدر شيخ الإسلام فتوى ضدّ مصطفى كمال فضعف مركزه، وسيّر الخليفة حملةً إلى كردستان فانضمّت مقاطعاتها كلها إلى جانب الخلافة، وتبعتها كل أجزاء الأناضول باستثناء أنقره. وبعث الخليفة حملةً إلى أنقره فأخذت أوراق مصطفى كمال بالاصفرار، وكادت تتساقط لولا تداركه سادته بإذاعة بنود معاهدة سيفْر.

شكّل مصطفى كمال في أنقرة الهيئة التنفيذية الأولى[1] بتاريخ ١٥

---

(١) تشكلت الهيئة التنفيذية الأولى في أنقرة على النحو الآتي:

١ - مصطفى كمال: رئيساً.

٢ - مصطفى فهمي: وزير الشؤون الدينية.

٣ - جامي بيكوت: وزير الداخلية.

٤ - بهيج حقي: وزير الداخلية في ٢ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.

٥ - ناظم رزمور: وزير الداخلية في ٢١ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ.

٧ - عارف جلال الدين: وزير العدل.

٨ - فاضل إسماعيل: وزير الأشغال.

٩ - سامي بكر: وزير الخارجية.

=

شعبان ١٣٣٨ هـ (٣ أيار ١٩٢٠ م)، وهكذا وجدت سلطتان تنفيذيتان في البلاد إحداهما في استانبول والثانية في أنقرة. وكانت قد تشكلت في البلاد عدة عصاباتٍ تُقاتل المحتلّين، وإن كانت تظلم السكان الذين لا ينقادون لرأيها، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على ضعف الحكومة وعدم سيطرتها على الوضع، وقد عُرفت هذه العصابات بأسماء الرجال الذين قادوها مثل «جركس أدهم» و«يوروك علي» و«توبال عثمان» و«دميرجي أفه» وقد استطاعت هذه العصابات أن تحارب الفرنسيين والأرمن في مدن «مرعش» و«أضنه» و«أورفه» و«عينتاب» وقد استطاع مصطفى كمال أن يستفيد من هذه العصابات وأن يُسخّرها في تنفيذ مخططه فهو مُزوّد بصلاحياتٍ واسعةٍ من السلطان، وبمبالغ كبيرةٍ من الأموال، ويمكنه أن يتخلّص من الذي لا يسير معه، ويقضي على من يُخالفه، وربما إذا برز رجل وخاف منه قتله بآخر، كما تمكّن بما لديه أن يقوم بدورٍ مُهمٍّ في الحركة وجمع الأعوان فالحكومة ضعيفة ولا تصل يدها إلى أكثر الجهات. كما كان ينضمّ إليه أصحاب المصالح لتحقيق مآربهم فقد انضمّ إليه مثلاً «عصمت إينونو» و«فوزي جقماق» ثم تركاه ناقمين منتقدين، وذهبا إلى استانبول، فلمّا أشرفت حركته على النجاح عادا وانضمّا إليها.

وفي الوقت نفسه قامت معارضة في الأناضول ضدّ مصطفى كمال،

= ١٠ - عدنان اديڤار: وزير الصحة.

١١ - يوسف كمال: وزير الاقتصاد.

١٢ - فوزي جقماق: وزير الدفاع.

١٣ - رضا نور: وزير المعارف.

١٤ - أحمد فريد: وزير المالية ٢ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.

١٥ - عمر لطفي: ١٦ ربيع الثاني ١٣٣٩ هـ.

١٦ - صبحي حمد الله ٥ ربيع الثاني ١٣٣٩ هـ.

وعُيّن عصمت إينونو رئيساً للأركان وجرت عدة تعديلات على هذه الهيئة في العام نفسه.

فمثلاً وقف في وجهه علي شكري الضابط البحار سابقاً والنائب عن مدينة «طرابزون» فاغتاله مصطفى كمال على يد توبال عثمان رئيس الحرس الشعبي، ثم اغتيل توبال عثمان على يد رجال حرس مصطفى كمال، كما عارض مصطفى كمال الشاعر محمد عاكف، ونواب أرضروم. كذلك وجدت عدة تجمّعات منها: جماعة الجمهورية التقدمية، ومنها الجماعة الحرة.

لما بايعت مقاطعات الأناضول وانضمت إلى دار الخلافة، ولم يبق سوى أنقرة، وأرسل إليها السلطان حملةً لإخضاعها شعر الإنكليز بالخطر يُحدق بصنيعتهم مصطفى كمال فأسرعوا لإنقاذه، وتمّ عقد معاهدة (سيڤر) في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (١٠ آب ١٩٢٠ م) وكان قد مضى على هدنة (مودروس) ما يقرب من عامين ٢٥ محرم ١٣٣٧ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ م)، وقد وافق السلطان على معاهدة (سيڤر) مُكرهاً ووقّعها الداماد فريد باشا، وكانت هذه المعاهدة مُجحفةً بحقّ العثمانيين إذ تعني تقسيم البلاد بين الأوربيين، إذ تُسلخ بلاد العرب من الدولة، وتُصبح استانبول دولةً وحدها، ويلحق الجزء الأوربي وجزر بحر إيجه بإدارة اليونان، وتصبح أرمينيا دولةً مستقلةً، وتُعطى كردستان حكماً ذاتياً، وتُوضع المضائق (البوسفور والدردنيل) تحت إشراف هيئةٍ دوليةٍ، ويُحدّد عدد الجيش، ويخضع لتوجيه الحلفاء الذين أعطوا في الوقت نفسه حقّ السيطرة على المالية، واحتفظوا بالامتيازات التي كانت ممنوحةً لهم قديماً، كما أُعطيت الأقليات النصرانية امتيازاتٍ إضافيةٍ أخرى. أذيعت نصوص معاهدة (سيڤر) بأسلوبٍ إعلاميٍ مُثير فهاج الشعب، ونقم على الخليفة، وحقد على الداماد فريد باشا وعلى حكومته، وانقلب الرأي العام ضدّ الخليفة بعد أن كان بجانبه وإلى جانب مصطفى كمال بعد أن كان ضدّه. وبعد أن كان رجال الحملة التي أرسلها السلطان إلى أنقرة على درجةٍ من الحماسة ضدّ مصطفى كمال انقلبت هذه الحماسة وأصبحت له، فهُزمت الحملة وتراجعت، وأصبح سيد أنقره يُفكّر في الهجوم على العاصمة استانبول.

وقبل أن يتابع الإنسان في سرد الأحداث لا بدّ من أن يتساءل ويقف عند كثير من الوقائع، لما كان الخليفة بجانب الإنكليز حسب الدعاية فلماذا يُهاجم الإنكليز استانبول مقرّ الخليفة، ولم يقوموا بأي شيءٍ ضدّ مصطفى كمال الذي يُناصبهم العداء؟ إن الأمر واضح، الخليفة معهم ظاهراً وعدوّهم واقعاً، ومصطفى كمال يُهاجمهم في الظاهر وعلى اتفاقٍ معهم في الحقيقة. ولماذا تُهاجم قوات مصطفى كمال الطليان والفرنسيين وتتجنّب الإنكليز مع أن الآخرين (الانكليز) هم الذي احتلّوا استانبول، وهم الذين يتحرّكون على الساحة الدولية، ويُحرّكون الأحجار في اللعبة الدولية؟ إن الهجوم والغارات على القوات الفرنسية والإيطالية يرفع من شأن مصطفى كمال عند أبناء بلده ويُعطيه الصفة الوطنية والإخلاص في العمل، فتستفيد انكلترا بارتفاع صنيعتها على حساب حلفائها ولا تخسر هي شيئاً.

وجاءت معاهدة (سيڤر) في الوقت المناسب، فانتصر على حملة الخليفة، وعلت مكانته، وأرادت انكلترا أن تقطف ثمار تخطيطها فقد غدا صنيعتها في موقفٍ يُؤهلّه لاستلام المنصب الأول.

دعت انكلترا لعقد مؤتمر في لندن لحلّ المسألة الشرقية التي مرّت عليها قرون، وهي صعبة الحلّ مستعصية فكّ الرموز، أما الآن وقد أصبحت انكلترا صاحبة الكلمة الأولى في المنطقة، ولأعوانها من أبناء المنطقة مثل ذلك الموقف، فهي قادرة إذن على الحلّ، وعلى توزيع الغنائم، وتقسيم المناصب بين الأعوان، وكذلك دعت لإعادة النظر في بنود معاهدة (سيڤر) التي لم يجفّ حبرها بعد، والتي كلها في مصلحتها، فلماذا تدعو؟ ألتتنازل عن بعض مصالحها التي تحرص عليها أما ماذا؟ الواقع أنها تريد إعطاء مكافأة للصنيعة التي خدمتها، والتي لم يمكن أن تخدمها أكثر إلا عندما تنال المكافأة التي تسعى إليها.

دعت انكلترا إلى مؤتمر لندن حكومة أنقرة، كما دعت حكومة

استانبول أي أنها اعترفت بحكومة أنقرة ضمناً وساوت بينها وبين الحكومة الشرعية، والغريب كل الغرابة أن يُدعى وفدان إلى مؤتمرٍ يُمثّلان جهةً واحدةً، وإذا كان من الطبيعي أن ترفض حكومة استانبول دعوة طرفٍ ناشزٍ عنها لكنها لم تفعل، غير أن حكومة أنقرة الناشزة هي التي رفضت دعوة حكومة استانبول، واستغربت ذلك، وادّعت انها الحكومة الشرعية الوحيدة وهي الممثلة الوحيدة للأمة مع العلم أن حكومة استانبول هي التي خاضت الحرب، وهي التي هُزمت، وهي المسؤولة عن توقيع الاتفاقات موضوع الصلح. ودعا رئيس الوزراء في استانبول توفيق باشا تشكيل وفدٍ واحدٍ من الطرفين ليتكلم بصوتٍ واحدٍ أمام الأعداء، ولتوحيد الكلمة أمام الخصوم غير أن مصطفى كمال رفض ذلك.

ذهب وفدان تركيان إلى مؤتمر لندن وفد يُمثّل دار الخلافة برئاسة رئيس الوزراء توفيق باشا، والآخر يُمثّل حكومة أنقرة برئاسة وزير خارجيتها سامي بكر. وعُقد المؤتمر في جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (شباط ١٩٢١ م) وقد حضره ممثلون عن انكلترا، وفرنسا، وإيطاليا والدولة العثمانية بجناحيها، وحرصاً على وحدة الصف والحصول على نتائج أفضل فقد سكت وفد الخلافة وأعطى حقه لوفد أنقرة. اقترح وفد أنقرة باسم الأمة جميعها جعل ولاية إزمير ولاية ذات استقلالٍ ذاتي يحكمها نصراني، فرفض الحلفاء إلا أن تكون تحت السيطرة اليونانية، وفشل المؤتمر، وإن كانت قد وقعت اتفاقات خاصة وجانبية مع الفرنسيين، وقد رفض مصطفى كمال تلك الاتفاقات واضطر وزير خارجيته رئيس الوفد سامي بكر أن يستقيل من منصبه، وأُلغيت تلك القرارات وانتهى الأمر.

اتصل مصطفى كمال بفرنسا واعترف لها بحقها في بلاد الشام الشمالية (سوريا ولبنان) أو تنازل لها عنها، واتفق معها على تعيين الحدود بين سوريا وتركيا، ومقابل ذلك التنازل فقد انسحبت من منطقة كيليكيا التي كانت تحتلّها. وحسب المفهوم القومي لم يتنازل مصطفى كمال عن شيء

فإن سوريا خارجة عن نطاق القومية التركية أما بالمفهوم الإسلامي فقد أحدث شرخاً عظيماً في الأمة، فرضيت فرنسا عن مصطفى كمال واعترفت به ممثلاً لدولة تركيا الحديثة.

واتصل مصطفى كمال مع دولة روسيا الشيوعية وعقد معها معاهدة في ٧ رجب ١٣٣٩ هـ (١٦ آذار ١٩٢١ م) وتنازل لها عن منطقة آجاريا التي عاصمتها باطوم، فرضيت روسيا عن مصطفى كمال، واعترفت بحكومة أنقرة على أنها تُمثّل الدولة الحديثة للأتراك.

واتصل مصطفى كمال مع إيطاليا فاعترفت بحكومته، وتنازلت عن منطقة أضاليا التي دخلتها أثناء الحرب، وبذلك فقد قوي مركز مصطفى كمال، واتجهت الأنظار نحوه، وأُغلقت القنوات مع حكومة الخليفة الشرعية والتي يريد النصارى اجتثاثها من جذورها وإزالة كل أثرٍ من آثار الإسلام.

القتال مع اليونان:

لم يتم التفاهم مع اليونانيين كما تم مع الفرنسيين والطليان والروس وربما كان ذلك لإخراج التمثيلية بشكلٍ أفضل أو هكذا اقتضت اللعبة الدولية.

كانت الأسلحة الروسية تتدفّق على مصطفى كمال وتأمل أن يكون تعاون بينها وبينه إذ كانت ترغب في أن يكون لها نقطة ارتكازٍ في تركيا، وإذا كانت تعرف أنه صنيعة للإنكليز غير أنها تأمل في اجتذابه إليها أو ربما تقع جفوة بينه وبين الإنكليز فيكون الروس البديل بالنسبة إلى مصطفى كمال لذا كانت تمدّه بالأسلحة. ولما كانت تعلم ارتباطه بانكلترا لذا فقد احتفظت عندها بأنور باشا لتضربه في الوقت المناسب به، وبقي هذا الوضع حتى تمكن أنور باشا من الانفلات من قبضة الروس بحيلةٍ ونجا، ثم ظهر موقف مصطفى كمال تماماً بالنسبة لها.

كانت الأسلحة الروسية تصل إلى الأناضول عن طريق خطوط الإنكليز

عبر المضائق، وتسكت انكلترا عن هذا بل تُشجّع لأن هذه الأسلحة تكفيها المؤونة إذ تذهب إلى صنيعتها والأفضل لها أن يُمدّ بالأسلحة، ويكفيها غيرها هذا العبء.

بعد أن انسحب الفرنسيون من كيليكيا تحرّكت القوات التركية إلى الجهة الغربية، وشكّل مصطفى كمال الجيش النظامي للمجلس الوطني، وأعطى أوامره بإنهاء القوات غير النظامية أو رجال العصابات التي كانت تُقاتل المحتلّين، ومن رفض هذه الأوامر قُوتل، وقد رفض الانصياع أدهم جركس فطارده الجيش في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩ هـ.

لاحظ اليونانيون تجمّع القوات التركية، وعرفوا أنه الصدام فشنّوا هجومهم على الأتراك في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٢١ م)، وكانوا يتوقّعون دعم الحلفاء لهم بصفتهم حلفاء لهم، ثم إنهم تجمعهم معهم رابطة العقيدة التي قاتلوا تحت رايتها عدة قرونٍ فانطلقت الجيوش الصليبية تحت راية الصليب، ثم جاء الاستعمار الصليبي تحت شعار الاقتصاد، وحمل في هذه المنطقة اسم «المسألة الشرقية» غير أن الصليبية اليوم هي ما تريد كل دولةٍ فيها تحقيق مصالحها قبل غيرها، وإن كانت لا تتنازل أبداً عن مهمتها الرئيسية في ضرب الإسلام. وانكلترا هي صاحبة الكلمة الأولى بين الحلفاء في هذه المنطقة، ومصطفى كمال صنيعتها، وهي لا تريد دعم اليونان ضدّ مصطفى كمال أو بالأحرى ضدّ نفسها، كما لا تريد أيضاً دعم مصطفى كمال ضدّ اليونان وهذا ما يثير الكنيسة عليها، ويُهيّج الرأي العام النصراني ضدّها حيث لا يعرفون خفايا اللعبة، ولكنها على يقينٍ في أن مصطفى كمال سيهدّم في الإسلام أكثر مما تُهدّمه جحافل الصليبيينَ قاطبةً كرهاً منه في الإسلام وتمشّياً مع مصلحته، وما دام من الذين ينتمون إلى الإسلام فإن كثيرين يسيرون معه وراء مصالحهم، ولا يجتمع رأي المسلمين ضدّه على حين أن أية دولةٍ نصرانيةٍ سيطرت على المنطقة فإنها لا تستطيع أن تفعل فعله في التأثير على الإسلام،

وهذا ما حدث فعلاً. لذا فقد أعلنت انكلترا باسم الحلفاء أنهم على الحياد بالنسبة إلى هذا القتال الدائر بين الأتراك واليونانيين، وربما يتساءل قائل فيقول: أي حيادٍ وأن انتصار مصطفى كمال سيكون له الأثر الكبير على الإنكليز الذين يحتلّون استانبول؟ غير أننا لاحظنا أن انكلترا مطمئنة كل الاطمئنان من هذه الناحية، فمصطفى كمال يتحرّك بإشارتها، ولن يصيبها أي تأثيرٍ بانتصاره بل تتحقق خطتها، وأن الإسلام سيناله أكبر ضربةٍ على يد هذه الصنيعة، واللعبة الدولية هي التي تنجح وستُحقّق الأهداف المرسومة.

شنّ اليونان هجومهم في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٢١ م)، وأحرزوا انتصاراً على الأتراك في المعركة التي عُرفت باسم (معركة عصمت إينونو الأولى)، وكان ذلك قبل عقد مؤتمر لندن، وكان الهدف من هذا الهجوم الضغط على المفاوضين الأتراك للحصول على نتائج أفضل في المفاوضات حسب ظاهر التمثيلية غير أن المؤتمر قد فشل، وتوقّفت المفاوضات، لذا كان على اليونانيين الحصول على مغانم بالسيف لم يحصلوا عليها بالمفاوضات سلماً.

زحف اليونانيون في ١٣ رجب ١٣٣٩ هـ (٢٢ آذار ١٩٢١)، وكان المؤتمر لا يزال منعقداً ولكن لم يؤثّر هذا التقدّم على سير المفاوضات، وكان التقدّم باتجاه (أسكي شهر) و(أفيون قره حصار) حيث التقاء السكك الحديدية إذ تُعدّ هاتان المدينتان من عقد المواصلات المهمة في غربي الأناضول، ولكنهم هُزموا وارتدوا إلى (بروسة)، فصمّموا الهجوم على استانبول غير أن القوات البريطانية قد وقفت في وجههم فانكفؤوا نحو الشرق، والتقوا مع القوات التركية التي كانت بقيادة عصمت إينونو، ووصلوا إلى «كوتاهية» واستولوا على (أفيون قره حصار) في الجنوب، وتحرّكوا نحو الشمال، وفي هذا الوقت وصل مصطفى كمال إلى جبهة القتال، وأعطى أوامره للقوات التركية بوقف القتال والتراجع نحو الشرق

رغم ما تتكبّد القوات من خسائر كبيرة أثناء تراجعها، وصدرت الأوامر بالتوقف قرب (سقاريا). وتمّ الانسحاب والتجمع شرق نهر سقاريا. وفي هذه الأثناء جاء وفد من استانبول برئاسة عزت باشا وصالح باشا للتنسيق من أجل القتال ولما وصل الوفد إلى أنقرة منع من العودة حتى أخذ مصطفى كمال تعهداً خطياً من عزت باشا وصالح باشا بالانسحاب من حكومة استانبول.

رجع مصطفى كمال من (أسكي شهر) على جبهة القتال الأولى إلى أنقرة عن طريق السكة الحديدية، وفي أنقرة تجرّأ أعضاء المجلس الوطني على مصطفى كمال فاضطر إلى الرجوع إلى الجبهة الجديدة، وأثار حماسة الضباط، وأعلن أن الجيش لا يزال مُتماسكاً قوياً.

تجمّع الأتراك إلى شرق نهر سقاريا ووصل اليونانيون إلى غربه فتجمّعوا هناك، وبدأ الهجوم اليوناني في شوال ١٣٣٩ هـ (حزيران ١٩٢١ م) وتراجع الأتراك بصورةٍ فوضويةٍ واندحروا أمام اليونان، ولم يستطع أن ينسحب سوى ثلاثين ألفاً من أصل سبعين ألفاً وكان رأي (فوزي جقماق) إخلاء مدينة أنقرة، ونقل العاصمة الى مدينة (قيصرية)، وفعلاً بدأ الناس ينتقلون وكان أولهم وزير المعارف صبحي حمد الله وبعض النواب. وكان انسحاب القوات عشوائياً وحدثت ثغرة صعب سدّها إلا بالفدائيين الذين هاجموا الأعداء بالسكاكين إذ لم يكن لديهم حراب، وفي الوقت الذي همّ مصطفى كمال فيه بإعطاء أوامر الانسحاب والتراجع كان اليونانيون ينسحبون حيث لم يجدوا جدوى من هذا الهجوم الذي دام عشرة أيام حيث توقّف هجومهم فجأةً في الساعة الثانية صباحاً، ثم بدأ الانسحاب في ٥ محرم ١٣٤٠ هـ (٧ ايلول ١٩٢١ م)، وانتبه إلى هذا (فوزي جقماق) فطلب من مصطفى كمال أن يسحب أوامر التراجع، ولكن لم يكن قد أعطاها بعد، وكان اليونانيون يحرقون القرى، ويردمون الآبار، ويسوقون المواشي أثناء تراجعهم، ويقتلون الأهالي، ووصلوا إلى

(أزمير) فتركوها وراءهم في ٧ محرم ١٣٤٠ هـ، وتابعوا سيرهم إلى جهة الغرب، ودخل الأتراك المدينة دون أن يُطلقوا أية رصاصةٍ، وتسلّم محمد نور الدين باشا المدينة، وعقدت الهدنة مع اليونان التي انسحبت من تراقيا أيضاً، وبعد خمسة أيام من الهدنة أُقيلت حكومة السلطان بضغط من القوات الإنكليزية، وكان قد تنازل السلطان فأُبعد عن البلاد مع ابنه، ولم يسمح لهما إلا بأخذ حقيبة ملابس صغيرة ورجل يحملها، وأبحرت بهما الباخرة إلى جزيرة مالطة ونودي بالأمير عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٤٠ هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٢١ م).

وبعد دخول (أزمير) بأقل من شهرين اجتمع المجلس بتاريخ ١ ربيع الأول ١٣٤٠ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢١ م) وبحث موضوع إلغاء السلطنة أي فصل الدين عن الدولة، وبعد أسبوعٍ خرج بقرارِ إلغاء السلطنة دون تحديد لنظام الحكم في المستقبل. وقد سرّ الحلفاء لهذا سروراً بالغاً فما أن مضى عشرون يوماً حتى دعيت حكومة أنقرة إلى لوزان لإعادة النظر في بنود معاهدة (سيقر) في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٠ هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٢١ م).

كانت الحكومات تتبدل تبعاً لرغبة مصطفى كمال وبالشكل الذي يريده ففي ١٥ جمادى الأولى ١٣٣٩ هـ (٢٤ كانون الثاني ١٩٢١ م) سمّى مصطفى كمال أسماء حكومة جديدة[1] ولم تدم أكثر من خمسة أشهر.

---

(١) كانت الحكومة على النحو الآتي:

١ - فوزي جقماق: رئيساً، ووزيراً للدفاع.

٢ - مصطفى فهمي: للأمور الشرعية.

٣ - رفعت أتابك: وزيراً للداخلية.

٤ - عارف جلال الدين: وزيراً للعدل.

٥ - يوسف كمال: ٢٩ وزيراً للعدل في ٢٩ صفر ١٣٤٠ هـ.

٦ - عمر لطفي: وزيراً للأشغال.

٧ - سامي بكر: وزيراً للخارجية. =

ثم عدّل مصطفى كمال أعضاء الوزارة[1] بتاريخ ١٢ رمضان ١٣٣٩ هـ (١٩ أيار ١٩٢١ م)، ولم يكن لهذه الوزارات بيانات أو برامج وإنما كان

= ٨ - عدنان أديفار: وزيراً للصحة.
٩ - يوسف كمال: وزيراً للاقتصاد.
١٠ - محمود جلال بايار: وزيراً للاقتصاد.
١١ - أحمد فريد: وزيراً للمالية.
١٢ - صبحي حمد الله: وزيراً للمعارف.
١٣ - عصمت إينونو: رئيساً للأركان العامة.

(١) تسلّم مصطفى كمال رئاسة الأمة التركية. أما الهيئة التنفيذية فتشكلت على النحو الآتي:
١ - فوزي جقماق: رئيساً، ووزيراً للدفاع.
٢ - مصطفى فهمي: المسؤول الشرعي.
٣ - عبد الله عزمي: ١٥ رمضان ١٣٤٠ هـ.
٤ - رفعت بيلي: وزيراً للدفاع ١ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ.
٥ - كاظم قره بكرلي: وزيراً للدفاع ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ.
٦ - رفيق شوكت: وزيراً للعدل.
٧ - حسن سقا: وزيراً للمالية.
٨ - حسن فهمي: وزيراً للمالية ٢٧ شعبان ١٣٤٠ هـ.
٩ - عطا النكدي: وزيراً للداخلية.
١٠ - رفعت بيلي: وزيراً للداخلية ٢٤ شوال ١٣٣٩ هـ.
١١ - علي فتحي أوقيار: وزيراً للداخلية ٨ صفر ١٣٤٠ هـ.
١٢ - صبحي حمد الله: وزيراً للمعارف.
١٣ - وهبي بولاك: وزيراً للمعارف ١٩ ربيع الأول ١٣٤٠ هـ.
١٤ - عمر لطفي: وزيراً للأشغال العامة.
١٥ - حسين رؤوف أورباي: وزيراً للأشغال ١٧ ربيع الأول ١٣٤٠ هـ.
١٦ - فوزي برنجي زاده: ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ.
١٧ - رفيق سيدام: وزيراً للصحة.
١٨ - رضا نور: وزيراً للصحة ٢٤ ربيع الثاني ١٣٤٠ هـ.
١٩ - يوسف كمال: وزيراً للخارجية.
٢٠ - محمود جلال: وزيراً للاقتصاد.
٢١ - سري بلليوغلو: وزيراً للاقتصاد ٢١ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ.
٢٢ - حسن السقا: وزيراً للاقتصاد ١٥ رمضان ١٣٤٠ هـ.

مصطفى كمال هو الذي يأمر فتُنفّذ الأوامر، وهذه هي البرامج، أو هي آراء ارتجالية يُقرّر تنفيذها في وقتها. كما أنه كان يعزل الوزراء ويُعيّن مكانهم كما يحلو له، وفي الوقت الذي يرغب وحسب مزاجه الخاص، وحسبما يُقدّم له من خدمات.

تشكّل الوفد إلى مؤتمر الصلح في لوزان من وزير الخارجية عصمت إينونو، ووزير الصحة رضا نور، وخبير مالي هو حسن السقا، وجاء الحلفاء وهم: انكلترا، فرنسا، ايطاليا، اليونان، اليابان، الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الرأي كله بيد انكلترا، وكانت الجولة الأولى حامية، وحدثت منازعات حادة، وكانت تلوّح انكلترا بالحرب، وكان مُمثّلها يومذاك في لوزان وزير الخارجية اللورد كيرزون. وكان مستشار ايطاليا أحد يهود الدولة العثمانية وهو (ماتر سالم) إضافةً الى اليهودي (قره صو).

كانت انكلترا تحرص على إلغاء السلطنة بإعلان العلمانية، وإلغاء الخلافة بل وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، ومصادرة أملاكه، والإبقاء على بطركية الروم في استانبول، والإبقاء على الموصل بعيدةً عن تركيا وضمن الأراضي التي تخضع للسيطرة الإنكليزية. وكانت هذه الشروط لإعطاء تركيا الاستقلال. ولكن لم يتمّ الاتفاق بين المفاوضين، غير أن رضا نور عضو الوفد التركي قد صرّح في آخر اجتماعات الجولة الأولى. «إن تركيا أصبحت علمانيةً، وقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا ما تمّ الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية» وكان لهذا التصريح أثره الكبير.

رجعت الوفود إلى بلدانها إذ لم يتم التفاهم والاتفاق، وجاء من استانبول إلى أنقرة (حاييم ناعوم) كبير حاخامات اليهود في الدولة العثمانية والتقى مع الوفد التركي إلى لوزان، وجاء أيضاً (ماتر سالم) مستشار الطليان في المؤتمر وهو يحمل الجنسية العثمانية والإيطالية، ويُشرف على البنك العثماني في (سالونيك)، وأدّى دوره والتقى بالوفد أيضاً.

دعيت الوفود الى لوزان مرةً أخرى للبحث من جديدٍ في بنود معاهدة (سيڤر) أو للجولة الثانية بعد انقضاء مدة ليست قصيرةً، وكانت جولةً سهلةً حتى لم يجد وزير الخارجية اللورد كيرزون ضرورةً لحضوره إذ طُبخت الطبخة أو تمت اللعبة الدولية، وإنما اكتفى بإرسال (رومبولد)، وكان إلغاء الخلافة، وترك الموصل شرطان أساسيان لاستقلال تركيا.

اجتمع المجلس النيابي في أنقرة بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٢٣م)، وقرّر إلغاء السلطنة، وإعلان الجمهورية، وانتخب مصطفى كمال بالإجماع رئيساً للجمهورية من قبل مائة وثمانية وخمسين نائباً اشتركوا في التصويت، ومُباشرةً وبعد يومين وُقع الصلح في لوزان ٢٢ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٣ م)، وأطلقت المدافع مائة طلقةٍ وطلقةً في أنقرة ابتهاجاً بهذا التوقيع.

وفي ١٨ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (١٢ تموز ١٩٢٢ م) كانت قد تشكلّت وزارةً جديدة[1] استمرت ما يزيد على السنة وقد جرت في عهدها

---

(١) كانت الوزارة الجديدة على النحو الآتي:
١ - حسين رؤوف أورباي: رئيساً.
٢ - عبد الله عزمي: المسؤول الشرعي.
محمد وهبي: ١٧ ربيع الأول ١٣٤١ هـ.
٣ - فوزي جقماق: رئيساً للأركان.
٤ - كاظم قره بكرلي: وزيراً للدفاع.
٥ - يوسف كمال: وزيراً للخارجية.
عصمت إينونو: وزيراً للخارجية في ٦ ربيع الأول ١٣٤١ هـ.
٦ - حسن فهمي آتش: وزيراً للمالية.
٧ - وهبي بولاك: وزيراً للمعارف.
إسماعيل صفا: ١٧ ربيع الأول ١٣٤١ هـ.
٨ - عارف جلال الدين: وزيراً للعدل.
رفعت كارزي: وزيراً للعدل في ٢٣ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ.
٩ - محمود أسعد بوزكورت: وزيراً للاقتصاد. =

المفاوضات من أجل اتفاق لوزان، وقبل أن يتمّ التوقيع بأكثر من شهرين جاءت حكومة جديدة[1]، استمرت إلى ما قبل إعلان الجمهورية بثلاثة أيام.

أعلنت الجمهورية على غير رضا من الشعب في وقت كانت فيه الأمة منهوكة القوى مسلوبة الحرية، تتحكّم فيها الدول النصرانية، ويستبدّ بها صنيعة تلك الدول، والجهل منتشر، والفقر طاغٍ، ولا يعرف الناس ألاعيب السياسة، ومكر الصليبية، وخداع الصنائع.

وقد كان المستفيدون من أصحاب المصالح، ورجال الأهواء، ومحبي

= ١٠ - فوزي برنجي زاده: وزيراً للأشغال.
رشاد كيالي: وزيراً للأشغال.
١١ - فؤاد بولو: وزيراً للصحة.
رضا نور: وزيراً للصحة في ٤ صفر ١٣٤١ هـ.
١٢ - إسماعيل صفا: وزيراً للداخلية.
علي فتحي أوقيار ٢٩ محرم ١٣٤١ هـ. ١٤ صفر ١٣٤١ هـ.

(١) تشكلت الحكومة على النحو الآتي:
١ - علي فتحي أوقيار: رئيساً، ووزيراً للداخلية.
٢ - موسى كاظم: المسؤول الشرعي.
مصطفى فوزي: المسؤول الشرعي في ٢٠ محرم ١٣٤١ هـ.
٣ - عصمت إينونو: وزيراً للخارجية.
٤ - كاظم باشا: وزيراً للدفاع.
٥ - إسماعيل صفا: وزيراً للمعارف.
٦ - محمود أسعد بوزكورت: وزيراً للاقتصاد.
حسن السقا: ١٣ صفر ١٣٤٢ هـ.
٧ - رضا نور: وزيراً للصحة.
٨ - حسن فتحي أتش: وزيراً للمالية.
٩ - فوزي برنجي زاده: وزيراً للأشغال.
١٠ - فوزي جقماق: رئيساً للأركان الحربية.
١١ - مصطفى نجاتي أوغرال: وزيراً للعمران والإسكان.

المناصب، والساعين وراء الجاه هم الذين يتحرّكون على الساحة، ورغم قلّتهم يظهرون كثرةً بسبب الحركة الدائبة، والصياح المستمر، يُبدون التأييد، والموافقة على ما تمّ، والمطالبة بالمزيد، وربما كانت مصالحهم هي التي أعمتهم عن رؤية الوقائع على حقيقتها، وقد يكونون فعلاً مقتنعين بما يفعل سيدهم صنيعة الدول الأجنبية وذلك نتيجة افتتانهم بالحضارة المادية، وهزيمتهم النفسية أمام العدو الماكر، ولواقع أمتهم التي تغط في نومها لما لحق بها من ضعفٍ، وذلٍّ وإهانةٍ، بالابتعاد عن العقيدة، وضغط الاستعمار الصليبي.

الفصل الأول

الجمهورية الاستبدادية
أو
حكم الحزب الواحد

يلاحظ أن الأحداث كانت تتابع في أنقرة، والأنظار تتجه إليها، ووسائل الإعلام العالمية تُسلّط الأضواء على مصطفى كمال وتحاول إبرازه يوماً بعد يوم، وتُعطيه الصورة التي تتألّق، فهو ينتقل من نصرٍ إلى نصرٍ حتى خُدع به كثيرون في العالم الإسلامي إذ كان يظهر التديّن أحياناً، وأن ارتباطه بالإسلام أمر طبيعي حسب ادّعائه، فمدحه شعراء، ودعا أدباء مواطنيهم وقادتهم للاقتداء به، والسير على نهجه، فقد حرّر أمته، وانتزع لها النصر انتزاعاً، ووضعها في مصاف الدول المرموقة، أو هكذا خُيّل إليهم بسبب الدعاية الأجنبية وخاصةً الإنكليزية منها، لذا فإن أكثر البلاد التي انتشرت له الدعاية فيها هي التي كان للإنكليز فيها نفوذ أو تخضع لسيطرتهم، وفي هذا الوقت بالذات كانت استانبول تعيش على هامش الأحداث رغم أنها العاصمة، ويُقيم الخليفة فيها، وتوجد بجانبه الحكومة الشرعية، وتحرص وسائل الإعلام الأجنبية التعتيم عليها كلياً، بل تريد أن تُطفىء ما فيها من نورٍ نهائياً، لتظهر أنقرة وحدها، وكأنها هي سيدة الموقف من غير منازعٍ. إن استانبول كانت مركز الخلافة ومركز التوجّه للإسلام، وهذا ما لا يريده الأعداء بل هو ما يرغبون في إزالته والقضاء عليه.

وإذا كان مصطفى كمال قد أعلن الجمهورية، وانتخب رئيساً، لكنه لا

يزال يشعر بأن هناك من هو أعلى منه، هناك الخليفة الذي ينظر إليه المسلمون نظرة احترامٍ لمركزه لا لشخصه فإنه محطّ أنظارهم، ومكان التقائهم مهما وقعت من أحداثٍ بينهم، والخليفة هو سيد مصطفى كمال، هو الذي أرسله للقيام بالحركة، ووجّهه كي ينتزع شروطاً أفضل للصلح، وأغدق عليه المال حتى يستطيع العمل، ولولا الخليفة لم يستطع أن يقوم مصطفى كمال بأي عملٍ، لذا كان يجب أن يحسّ بوخز الضمير - إن كان لديه ضمير - بما يتصرّف به من أعمال تُخالف السلطان، بل لم تكن مُوجّهة إلا ضدّه وضدّ الأمة كلها، ولكن لا يُبالي بل عليه أن ينتهي منه حتى ينفرد بالأمر، ويُرضي الذين وضعوه بهذا المكان، ورفعوه ليُؤدّي هذا الأمر وهو إلغاء الخلافة، ثم ليُحقّق ما في نفسه من طموحٍ ومن حقدٍ على الإسلام.

إلغاء الخلافة:

كان على مصطفى كمال - حسب مخططه - أن يزيل قبل شيء الخلافة لدوافع كثيرة منها شخصية ككرهه للإسلام، وحقده على نظمه، وتحقيقاً لطموحاته بإزالة كل الذين يُخالفونه ويقفون في وجهه، وأمام تصرّفاته، وانفعالاته، وشهواته، وأهوائه، ومنها خارجية إرضاءً لإصدقائه الحلفاء وتنفيذاً لوعوده لهم إلغاء السلطنة والخلافة وأخذ القوانين الأجنبية ولا يقدم على هذا العمل حتى تكون الوزارة كلها من أنصاره، والمجلس النيابي من أتباعه لذا فقد شكّل وزارةً جديدةً[1] قبل يومٍ واحدٍ من إعلان

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.

٢ - مصطفى فوزي: وزيراً للأمور الشرعية.

٣ - فوزي جقماق: للأركان الحربية.

٤ - أحمد فريد تيك: وزيراً للداخلية.

٥ - حسن فهمي أتش: وزيراً للمالية. =

الجمهورية وانتخابه رئيساً، وكانت برئاسة عصمت إينونو الذي أصبح ظلاً له، وعبداً يُنفّذ أوامره ما دامت تتحقّق مصالحه.

أما النواب في المجلس فكان معظمهم من العسكريين، ومن رجال مصطفى كمال المسلحين، لذا طلب منهم الاستقالة والعودة إلى قطعاتهم حتى يأتي بمجلس جديدٍ من أنصاره فقط من غير معارضةٍ فاستقال كاظم قره بكرلي، وعلي فؤاد، ورفعت باشا غير أن جعفر الطيار رفض الاستقالة وأصرّ أن يبقى نائباً، واستقال الآخرون، وبقوا على رأس قطعاتهم بناءً على أوامر الغازي مصطفى كمال.

بعد أربعة أشهرٍ من إعلان الجمهورية يذهب رئيس الجمهورية مصطفى كمال، ورئيس الوزراء عصمت إينونو، ووزير الدفاع كاظم قره بكرلي، ورئيس الأركان فوزي جقماق إلى أزمير، ويأمر الغازي بإلغاء الخلافة، ووزارة الأمور الشرعية، ووزارة الأوقاف، وإلحاق المدارس الدينية بوزارة المعارف، وإخراج الخليفة وأفراد أسرته جميعاً من البلاد وذلك في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م). وتمّ ذلك، وطرد الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز، ونُقل إلى مدينة (نيس) بجنوبي فرنسا على ساحل البحر المتوسط ليعيش هناك.

وأصبح مصطفى كمال سيد البلاد بلا مُنازع، واتجه نحوه أصحاب

= مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٢ هـ.

٦ ـ كاظم قره بكرلي: وزيراً للدفاع.

٧ ـ حسن السقا: وزيراً للاقتصاد.

٨ ـ سيد بك: وزيراً للعدل.

٩ ـ إسماعيل صفا: وزيراً للمعارف.

١٠ ـ مختار جللي: وزيراً للأشغال.

١١ ـ سليمان سري: وزيراً للأشغال في ١٢ جمادى الآخرة ١٣٤٢ هـ.

١٢ ـ رفيق سيدام: وزيراً للصحة.

١٣ ـ مصطفى نجاتي: وزيراً للعمران والإسكان.

المصالح والأطماع، وبعد ثلاثة أيامٍ من إلغاء الخلافة أي في ١ شعبان ١٣٤٢ هـ (٦ آذار ١٩٢٤ م) كلّف عصمت إينونو بتشكيل الوزارة من جديدٍ[١].

وقد جرت في هذه الأثناء محاولة لقتل مصطفى كمال في أزمير غير أنه نجا منها، فإن الله سبحانه وتعالى لم يكتب له نهاية الحياة بعد.

الحياة النيابية:

ظنّ عدد من رجالات البلاد سواء الذين ساروا مع مصطفى كمال أم الذين لم يسيروا أنه ستكون حياة نيابية، وحرية دستورية، وتشكيل أحزاب على غرار الحياة الأوربية التي يُفتن بها مصطفى كمال سيد البلاد، لذا عملوا على تشكيل الأحزاب.

لقد عمل رؤوف أورباي على تشكيل الحزب الجمهوري التقدمي،

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية.
٢ - كاظم قره بكرلي: وزيراً للدفاع.
٣ - أحمد فريدتيك: وزيراً للداخلية.
٤ - مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية.
٥ - رجب بكر: وزيراً للمالية ١٧ شوال ١٣٤٢ هـ.
٦ - حسن السقا: وزيراً للتجارة.
٧ - زكائي أبايدين: وزيراً للزراعة.
٨ - شكري قايا منتشا: وزيراً للزراعة ٢٠ محرم ١٣٤٣ هـ.
٩ - رفيق سيدام: وزيراً للصحة.
١٠ - مصطفى نجاتي: وزيراً للعدل.
١١ - حسين واصف: وزيراً للمعارف.
١٢ - سليمان سري: وزيراً للأشغال.
١٣ - محمود جلال: وزيراً للعمران والإسكان.
١٤ - رفعت جانيتز: وزيراً للعمران والإسكان ٥ ذي الحجة ١٣٤٢ هـ.

وكان معه جعفر الطيار قائد الفرقة السابعة، والنائب في المجلس النيابي، وجمال المرسيني، ورفعت باشا، وكاظم باشا، وعلي فؤاد باشا، وقد حصل هذا الحزب على الأكثرية غير أن مصطفى كمال لا يمكن أن يقبل هذا، فحلّ المجلس، وأتى بمجلسٍ جديدٍ، وتخلّص ممن تصوّرهم مُعارضين له، كلٌّ بطريقة من الطرق، بعضها الإبعاد، وبعضها الشراء و..

وكانت هناك بقايا من حزب الاتحاد والترقي تتمثّل في جاويد، وشكري، ورشدي، وعابدين وغيرهم غير أن دور الاتحاد والترقي قد انتهى كما انتهى دور الرجال الذين أصرّوا على استمرارية حزبهم.

وأسّس عبد القادر كمالي حزب الأهالي، ولكنه لم يعش طويلاً، وكيف يعيش، ولا يأتمر بأمر الغازي مصطفى كمال؟

أما مصطفى كمال نفسه فقد أسّس حزب الشعب الجمهوري، وأمر أعوانه بالانضمام إليه، كما أسرع نحوه أصحاب المصالح حتّى لفّ الكثيرين، وكان هو الحزب الوحيد، وبيد رئيسه مقاليد الأمور كلها، وتُصرف شؤون البلاد بإشارته وحسب رغباته وأهوائه فهي الأمر التي تُكلّف السلطة التنفيذية باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذها. وكان شعار الحزب ستة أسهم يرمز كل سهمٍ الى معنىً من المعاني الآتية: جمهوري - قومي - شعبي - علماني - تقدمي - ثوري.

وخطر على بال مصطفى كمال أن يُحقّق الحياة النيابية بإيجاد معارضةٍ، وحزبٍ لها، فأوعز إلى علي فتحي أوقيار السفير في فرنسا، ورئيس الوزراء الأسبق بتشكيل حزبٍ للمعارضة فصدع بالأمر، وألف «الحزب الحرّ» وقد انضمّ إليه بعض أعوان مصطفى كمال حسب إشارته وتعليماته إذ كان هو الذي يُوزّع الأدوار والأعضاء لرجالاته، فهذا مُعارض وهذا مُؤيّد، وهذا واجب فلان، وهذا دور ذاك، وقد أعطى مصطفى كمال الحزب الحرّ الأعضاء الذين يكرههم أو لا يحبّ وجودهم بجانبه.

وظنّ بعض الناس أن الحياة النيابية بمعناها الغربي قد سادت وأن المعارضة وجُدت، فسرّوا لذلك تخلّصاً من الاستبداد، ولعلّ الفرج يأتي بالقضاء على مصطفى كمال، وكبرت شخصية علي فتحي أوقيار في نفوسهم، وقام علي فتحي أوقيار بجولةٍ حزبيةٍ فاتجه إلى أزمير فاستقبل استقبالاً فخماً، ومُزّقت صور الغازي، وعلت الهتافات لعلي أوقيار ولم يُذكر مصطفى كمال، وهذا ما جعل الرئيس يُغيّر رأيه ويعود إلى فكرة الحزب الواحد، وينتهي من فكرة المعارضة، وبذا انتهى الحزب الحرّ وقضي عليه.

أما معارضة سعيد النورسي فلم تكن بذي بالٍ عند السياسيين إذ أغلق الغازي الزوايا والتكايا، والمدارس الدينية، والصحف، وحدّ من حركة النورسي، كما أودعه السجن بعض الوقت، لذا فقد ضعف أثره، وقلّ تلامذته خوفاً وبعداً.

وقدّم عصمت إينونو استقالة حكومته الثانية، فعهد الغازي إلى علي فتحي أوقيار بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] فألّفها بتاريخ ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٣ هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٤ م).

---

(١) تشكلت وزارة علي فتحي أوقيار الثانية على النحو الآتي:

١ - علي فتحي أوقيار: رئيساً للوزراء، ووزيراً للدفاع.

٢ - محمود أسعد بوزكورد: وزيراً للعدل.

٣ - رجب بكر: وزيراً للعمران والإسكان.

٤ - جميل يوبادين: وزيراً للعمران في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٣ هـ.

٥ - شكري قايا: وزيراً للخارجية.

٦ - مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية.

٧ - سراج أوغلو شكري: وزيراً للمعارف.

٨ - حسن فهمي أتش: وزيراً للزراعة.

٩ - علي جناني: وزيراً للتجارة.

١٠ - فوزي برنجي زاده: وزيراً للأشغال. =

الهدم:

إن افتتان مصطفى كمال بالحضارة المادية الأوربية بكل ما فيها من إيجابياتٍ وسلبياتٍ حتى بما فيها من فحشٍ وفسادٍ جعله يرتمي في أحضانها، ويحسب نفسه أنه يسير على منوالها، ويكون خادماً لسدنتها، ويظنّ أنه يخدم القيم التي تقوم عليها، ويُنصّب نفسه قيّماً على مخططاتها لانبهاره فيها، وما هو بالواقع إلا عبداً لأهوائه وشهواته. وإن رؤيته لأمته ضعيفةً تتهجّم عليها الدول الأوربية، وتفرض آراءها عليها، وتُجبرها على فعل الذي تريد جعله يزدري أمته ويكرهها، فعوضاً من أين يعمل على النهوض بها فإنه عمل على إذلالها بتبعيته لأعدائها، ولو أنه سعى لتقليد أوربا حسب رأيه الذي لا يُوافقه عليه أحد في سبيل خدمة أمته لقيل: إنه عمل حسب قناعته وما هو مؤمن به، غير أنه بذل جهده كاملاً للحطّ من شأنها إذ كان يحتقر كل ما عندها من قيمٍ بل وعاداتٍ وتقاليد، إنه لم يُحارب الإسلام فقط ولو فعل لقيل: إنه كافر عدوّ للإسلام، غير أنه قاد أمته للهاوية، إنه لم يسر بها لينتزع ما لديها من عاداتٍ يمقتها أو لا يحبها، وإنما مشى بها مُزيلاً كل ما تعتّز ليُحطّمها، ويتركها صريعةً، سار عبداً للأعداء لتتبعه ذليلةً لأولئك الذين عادوها قروناً وعملوا على سحقها دهراً، داس عليها أعداؤها أكثر من أربعين سنةً ولا تزال مُحمّلةً ببعض آثار ذلك وتريد الآن ترك ما تحمل، وتنهض من كبوتها غير أن تلامذة مصطفى كمال وبتوجيهٍ من الأعداء الذين يُريدون إبقاء الأمة تحت ذلك الركام الثقيل بما يرفعونه من شأن قائدهم، والمطالبة بالسير على خطاه، والأمة مصممة على ترك آثار تلك الصنيعة الأجنبية. لقد أذلّ مصطفى كمال الأمة بما اتخذ من إجراءاتٍ وألزم الشعب على التقيد بها.

= ١١ - مظهر جرمن: وزيراً للبحرية.

١٢ - إحسان ارفيوز: وزيراً للبحرية ٤ جمادى الآخرة ١٣٤٣ هـ.

غطاء الرأس:

أصدر الغازي مصطفى كمال أمراً بترك الطربوش، واتخاذ القبعة غطاءً للرأس بدلاً منه، والطربوش ليس شعاراً إسلامياً، ولا لباساً خاصاً بالمسلمين، بل هو تصميم أجنبي، إنه من النمسا، لكنه أصبح شعاراً عثمانياً مع الزمن، وانتشر في كل البلدان التي تعيش في ظل الخلافة، في الأناضول، في الشام، في العراق، في وادي النيل، في الغرب، في.. لذا أصبح شعاراً وطنياً بالاصطلاح الحديث، ولا علاقة له بالإسلام، إذ لا يحرّم لبسه ولا يحثّ عليه..

جاء مصطفى كمال يظهر تقزّزه منه واشمئزازه، فهو ليس جانباً إسلامياً ليُقال كراهةً بالإسلام، وإنما قضية خاصة وكراهيته كراهية لزيّ أمته وبالتالي ازدراءً لها. وأمر بارتداء القبعة تقليداً للأعداء فهي ليست أفضل من الطربوش، والإسلام لا يمنعها إن كانت فيها وقاية للرأس ولا يحثّ عليها أيضاً، فهي ليست أكثر من لباسٍ، وإنما يُحرّمها إن كانت مجرد تقليدٍ للأعداء، وهذا ما حرص عليه الغازي مصطفى كمال، ومن هنا جاء ردّ فعل المسلمين، ولكن لم يجرؤ أحد على معارضته لأنه كان مسعوراً في حبه للأوربيين وكرهه لأمته العثمانية، ويكفي للدلالة على ذلك ما فعله من أعمالٍ صبيانيةٍ عندما كان يرى امرأً يلبس طربوشاً حتى ولو كان من غير الأتراك فكثيراً ما أحرج الهيئة السياسية المصرية أمام الخلق.

وقد صدر أمر رسمي بتحريم ارتداء الطربوش في ٢٧ محرم ١٣٤٣ هـ (٢٧ آب ١٩٢٤ م).

الحجاب:

الحجاب واجب شرعي في الإسلام يُحرّم تركه، وهو فرض على كل أنثى بالغةٍ عاقلةٍ، والسفور استهتار بالشرع ومخالفة لأوامر الله، يُعرّض فاعلته لارتكاب إثمٍ كبيرٍ يُؤدّي إلى عقابٍ أليمٍ. والمرأة التركية مسلمة،

إذ أن الإسلام يُشكّل الغالبية العظمى بالنسبة إلى السكان ٩٩٪ من مجموع السكان، لذا فحجاب الفتاة التركية أمر طبيعي، وقد حافظت عليه منذ أربعمائة عامٍ يوم اعتنق أهلها الإسلام، كما أن المرأة التركية مزارعة، وعملها يقتضي الحجاب والحشمة، وإن إلغاء الحجاب الذي فرضه مصطفى كمال إنما هو استهتار بالإسلام، وازدراء بالأمة وشعائرها، ولم يقدم عليه إلا من أجل هذا مع تقليد للأوربيين النصارى سادته والذين قد فُتن بهم، وهام عشقاً بهم.

العطلة الأسبوعية:

وجدت العطلة الأسبوعية للراحة واستعادة النشاط، وتجعل كل أمةٍ هذه العطلة الأسبوعية في اليوم الذي تُؤدّي فيه عبادتها، فالمسلمون يجعلون عطلتهم يوم الجمعة، واليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، وقد درجوا على هذا، ولا يحرّم المسلمون العمل يوم الجمعة بشرط أن تُؤدّى الفريضة، فإذا ما انقضت الفريضة انصرف الناس إلى أعمالهم ولا حرج في ذلك ﴿يا أيهاالذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيركم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا في فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾، فإذا ما اتخذت الأمة المسلمة يوم عطلةٍ فهو يوم الجمعة بشكلٍ طبيعيٍ حتى يتسنّى للناس العبادة دون أن يكون هناك حرج فيها فيما إذا كانت العطلة في يومٍ آخر. وهذا ما جرت عليه العادة في بلاد المسلمين جميعاً، ومن بينها الدولة العثمانية فلما جاء مصطفى كمال وفي نفسه ازدراء هذه الأمة التي نشأ فيها ـ اتخذ يوم الأحد عطلةً رسميةً أسبوعيةً وفرضه على الشعب تقليداً للأمم النصرانية المغرم في حبها، فشعر المسلمون بذلٍّ من هذا التصرف ولكنه مغلوب على أمرهم، وأحسّوا أن سيدهم المفروض عليهم ليس منهم لمخالفته لهم في العقيدة وكل ما ينبع منها من عاداتٍ وسلوكٍ.

الأبجدية:

لم يكن للغة التركية قديماً أبجدية، أي لم تكن لتكتب، وإنما كانت لغة منطوقة فقط، فلما دان أهلها الأتراك بالإسلام اتخذوا الحرف العربي أبجديةً للغتهم، تدويناً لها لتتعلمها الأجيال، وتسهيلاً لدراسة الإسلام قرآناً وحديثاً المُنزَل والمُدوَّن بالعربية، وظهرت الكتابة التركية، ودُوِّنت آدابها وتاريخها بالحرف العربي، بل إن كثيراً من شعوب الأمة المسلمة قد ساروا على النهج نفسه، بل إن حبّ اللغة العربية على أنها لغة كتاب الله، ولغة رسوله، ولغة أولئك النفر الأفذاذ الذين أوصلوا الإسلام إلى تلك الشعوب هو الذي جعلهم يُقدمون على ذلك.

ولما جاء مصطفى كمال أراد أن يفصل شعبه عن مصادر عقيدته كرهاً بالإسلام، وازدراءً لأمته، كما أحبّ أن يفصل ماضي أهله عن حاضرهم. واتخذ أبجديةً جديدةً وهي الأحرف اللاتينية التي تتخذها الأمم النصرانية حباً بهم، وتقليداً لهم، وسيراً على خطواتهم، وتنفيذاً لرغباتهم لأنه يريد ما يريدون من إذلال الشعوب الإسلامية، وقتل العقيدة، وبهذه الطريقة انقطع الماضي عن الحاضر، وأصبح يصعب على الفرد أن يتعرّف على تاريخه، وأحسّت الرعية بالذلّ، وشعرت بالظلم الذي يضغط على أبنائها.

العبادة:

وطمع أن تؤدّى عبادة المسلمين الأتراك بلغتهم وما ذلك إلا جهلاً بالإسلام، وشعر المسلمون في تركيا أن البلاء لا يريد أن يتزحزح عنهم، وأن الظلم يلاحقهم، فقد أصدر الغازي أوامره بأن يتم الأذان باللغة التركية.

الدستور:

الإسلام منهج حياة يشمل جوانب الحياة كلها من اقتصاديةٍ واجتماعية وسياسيةٍ وتربوية و.. وكان المسلمون يُطبّقون هذا النظام على حياتهم، ويعيشون في أمنٍ وراحةٍ وسعادةٍ، وكانت مجلة الأحكام الشرعية في الدولة تستقي قوانينها من الشرع، ويُدوّن فيها ما يتخذ القضاة من أحكامٍ لتكون نبراساً لهم، ودليلاً إلى القواعد الفقهية التي استندوا عليها، وكان المسلمون في الدولة العثمانية يشعرون بأن حياتهم منسجمة مع عقيدتهم، ولهم شخصيتهم المتميزة وإن كان بعض الولاة والمسؤولين كثيراً ما يتجاوزون هذا ويجوورون على الرعية وأحياناً باسم الإسلام بسبب ضعف إيمانهم، وجهلاً بحقيقته، وتحقيقاً لمصالحهم، وظلماً وإبرازاً للشخصية واتباع الهوى.

وجاء مصطفى ليلغى هذا كله ابتعاداً عن عقيدة الأمة وتحقيقاً لرغبات سدنة النصرانية في أوربا مسؤولين في السلطة وفي الكنيسة، وقد عهد إلى محمود أسعد بترجمة القانون السويسري، وعندما تمت الترجمة طُبّق في المحاكم التركية، وقد مرّ معنا أن تطبيق العلمانية كان أحد الشروط الأساسية للاعتراف باستقلال تركيا.

وهكذا وُجد شعب تركي جديد منفصل عن ماضيه، ويُراد له أن يسير في اتجاه يُخالف ما تسير عليه الأمة المسلمة كلها في العقيدة والتشريع، وأن ينسلخ مما تعارف عليه المجتمع.

العصبية القومية:

كان مصطفى كمال يُنادي بالقومية التركية، ويُظهر التعصّب لها، والفخر بها أحياناً وإن كان هذا كله خارج نطاق دائرة تفكيره التي كانت مُنحصرةً في الشهوة والشهرة ولا يُبالي بما سواهما أبداً، وإنما كان الغرض من التعصّب القومي ألاّ تكون هناك نقطة التقاء بين تركيا وجيرانها إذ

كان المخططون يخشون أن تتقارب دول المنطقة بعضها من بعضٍ ولن تكون نقاط اللقاء سوى الإسلام الذي يجمع بين شعوب المنطقة كلها، وإن لم تكن دعوة لذلك يومذاك إلا أنها قد تتولّد مع الزمن بسبب العقيدة التي تجمع بينهم والعاطفة الموجودة حتى بين الأفراد العاديين وهذا ما يرهبه الأعداء، لذا كان التعصّب القومي هو خير مُنفّرٍ بين هذه المجموعات التي كانت حتى عهدٍ قريب شعوباً من أمةٍ واحدةٍ، وكانت تجتمع في دولةٍ واحدةٍ لها مكانتها بين دول العالم، أما الآن فقد أضحت أشتاتاً لا وزن لها سواءً أكانت مُتفرقةً أم مُجتمعةً، بل لن تجتمع ما دامت العصبيات القومية هي التي تتحكّم في النفوس. إذن كانت العصبية إضعافاً للأمة وإذلالاً لها، وهذه هي مهمة مصطفى كمال.

ولعل من الأمور الأخرى التي أذلّ بها الأمة أعمال الفحش التي كان يقوم بها، فلقد أذلّ الكثير من العائلات ممن انتهك أعراضها، وخاصةً تلك الأسر التي درست بناتها في دار المعلمات، فما وقعت عينه على فتاةٍ وأعجبته ثم استطاعت أن تفلت منه إذ كان حوله لفيف ممن يسعون لتأمين شهواته من أولئك اللاتي يشير إليهن. فهذا هو حامي الأمة!!

الحركة الكردية:

لما ألغى مصطفى كمال الخلافة، وقطع أوصال الأمة، وشتّت شملها، وأقام دولةً على أساس العصبية التركية، وفي الوقت نفسه فقد قامت حول منطقة الأكراد دول حديثة أيضاً على أساس العصبيات سواء أخضعت لنفوذ الدول الاستعمارية أم لم تخضع ففي الشام والعراق قامت مثل هذه الدول، وانطلقت منها روائح نتن العصبيات، إذ كان يُنادى بها بمناسبةٍ وغير مناسبةٍ بتوجيه الدول الاستعمارية صاحبة السيادة والتي تريد وأد الفكرة الإسلامية، وأقامت مصطفى كمال لتنفيذ هذا عنها واشترطت عليه هذه الشروط في معاهدة لوزان بل ما كانت تلك المعاهدة لتُوقّع لو لم

يُوافق على ذلك، والواقع أنه بالأساس يُريد هذا، ويسعى إليه انطلاقاً ذاتياً من نفسه وعداوةً للإسلام.

شعر الأكراد أن كل من حولهم أخذ بالدعوة العصبية باستثنائهم، وما دامت الفكرة الإسلامية قد وُئدت بالتآمر بين المستعمرين النصارى وعملائهم في الولايات الإسلامية أمثال مصطفى كمال، فلماذا يبقون هم مُوزّعين في عددٍ من الدول، مُشتّتين في هذه الأقسام التي نشأت حديثاً؟ يتطاول عليهم أصحاب العصبيات وتزدريهم حتى الأقليات وهم الكثرة، لذا فقد تحرّكوا يُريدون الاستقلال بمواطنهم، والفخر بما يفخر به جيرانهم، ومجاراتهم بالدعوة إلى العصبية، وقاموا بحركةٍ ولكن قُضي عليها بعنفٍ، وذلك لأن المستعمرين لا يُريدون إقامة دولةٍ للأكراد وذلك حتى يبقوا أقلياتٍ في الدول المجاورة، يُحرّكون ضدّ أية مجموعةٍ تخرج عن رأي المستعمرين، والأكراد جماعة أشداء أهل للقيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا بقي الأكراد مُوزّعين تتلاعب بهم أيدي الدول ذات الشأن انكلترا، وروسيا، ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية الميدان حديثاً وحلبة الصراع، وإضافةً إلى أعوان هذه الدول في إيران، والعراق، وسوريا، وتركيا، والمناطق التي تخضع للسيطرة الروسية، ولا تزال تراودهم أفكار التجمّع لذا فقد غلبت عليهم فكرة العصبيات حتى المسلمين منهم لم يستطيعوا الانخلاع منها بشكلٍ تامٍ، ويدّعون أن ما يحلّ بهم هو الذي جعلهم يسيرون في هذه الطريق.

ولعله مما يُثير حفيظة الأكراد أن يروا أعداءهم التقليديين الأرمن يُقيمون دولةً خاصةً بهم تحت النفوذ الروسي، وربما كان هذا من الأسباب التي جعلت بعض الأكراد يتجهون نحو روسيا ويتفقون معها بالدعاية لمذهبها الشيوعي شريطة أن تُؤسّس لهم دولةً كرديةً، وكذا الولايات المتحدة الأمريكية، وانكلترا ولكن كل هذا لم يخرج عن دائرة إعطاء الأمل والتسويف السياسي إذ لا يرغب جميعهم بتحقيق شيء من هذا حتى

يبقى الأكراد حجراً مُتحرّكاً في اللعبة الدولية، وتُنفّذ المخططات ويُساهمون في الإخراج دون الحصول على أي غنمٍ، وبعد تنفيذ كل مخططٍ يزداد إعطاء الوعود، ويزداد الارتباط من غير فائدةٍ تُرتجى.

ومع ظهور بوادر الحركة الكردية قدّم علي فتحي أوقيار استقالة حكومته فعهد الغازي مصطفى كمال إلى عصمت إينونو لتشكيل حكومةٍ جديدةٍ تخلفها، وقد ألّف عصمت إينونو حكومته[1] بتاريخ ٨ شعبان ١٣٤٣ هـ (٣ آذار ١٩٢٥ م).

قضية الموصل:

انسحب العثمانيون أثناء الحرب العالمية الأولى من جنوبي العراق، وكانوا يتراجعون نحو الشمال، فلما أُبرمت معاهدة مودروس في ٢٥ محرم ١٣٣٧هـ

---

(١) شكل عصمت إينونو وزراته الثالثة على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزراء.
٢ - جميل يوبادين: وزيراً للداخلية.
٣ - توفيق رشدي: وزيراً للخارجية.
٤ - رجب بكر: وزيراً للدفاع.
٥ - محمود أسعد: وزيراً للعدل.
٦ - سليمان سري: وزيراً للأشغال.
بهيج أركين: وزيراً للأشغال ١ رجب ١٣٤٤ هـ.
٧ - حسن السقا: وزيراً للمالية.
مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية في ٣ محرم ١٣٤٥ هـ.
٨ - علي جناني: وزيراً للتجارة.
مصطفى رحمة: ٦ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ.
٩ - رفيق سيدام: وزيراً للصحة.
١٠ - إحسان أرفيوز: وزيراً للبحرية.
١١ - صبحي حمد الله: وزيراً للمعارف.
مصطفى نجاتي: وزيراً جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ.
١٢ - صبري توراك: وزيراً للزراعة.

(٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ م)، كان تراجعهم قد وصل بهم إلى الموصل، فلما وُقّعت هدنة (سيڤر) في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (١٠ آب ١٩٢٠ م) تنازل الأتراك فيها عن العراق بما فيها الموصل، غير أنهم بعد ذلك، طالبوا بالموصل وقالوا: إننا لم نتخلّ عنها في الحرب، وإنما انسحبنا من الموصل بعد الهدنة وإن سكانها ليسوا من العرب، ولذا يجب أن تكون ضمن الأرض التركية وخاصةً أن المعاهدة التي تخلينا فيها عن الموصل معاهدة (سيڤر) قد أصبحت لاغيةً ولا يعترف عليها الأتراك، وفي الوقت نفسه لا يرغب فيها الحلفاء، ولكن الإنكليز خاصةً والحلفاء عامةً لا يُريدون بل يُمانعون كل الممانعة في أن تكون الموصل ضمن الأرض التركية، وذلك لأنهم يعملون على إضعاف هذه الدولة الناشئة ولا يرغبون في قوتها، ويسعون في أن تضمّ أصغر رقعةٍ مساحةً من الأرض لأنهم يخشون التفاف المسلمين حولها فيما إذا ظهرت عليها القوة وخاصةً أنها كانت محطّ أنظارهم فهي مركز الخلافة الإسلامية قبل أعوامٍ قليلةٍ، ومنطقة الموصل رقعة غنية بالنفط حسبما دلّت عليه تقارير مسح الأرض، لذا فإن انكلترا لا يمكن أن تتنازل عليها، وهي التي وضعت بلاد العراق تحت نفوذها، بل كان تخلّي تركيا عن الموصل شرطاً أساسياً من شروط الاعتراف باستقلال تركيا في معاهدة لوزان، كما ذكرنا أن مصطفى كمال كان صنيعة الإنكليز ولا يمكن أن يتصرّف إلا بما يريدون، حتى لا يرغب في ضمّ منطقة الموصل إلى تركيا في سبيل تقويتها لأنه إضافةً إلى سياسته الخاضعة لانكلترا فإن من مهمته إذلال الأمة المسلمة بل والشعب التركي أيضاً، إذن فكيف يُطالب بالموصل وغيرها ويُنادي بتحرير الأرض، وإخراج المحتلّين، ويُقاتل في سبيل ذلك، ونقول: إن إخراج التمثيلية بشكل جيدٍ ومُرضي للنظارة، وضرورة إظهار اللعبة الدولية بصورةٍ مقبولةٍ يقتضي ذلك، إذ لو تنازل عن كل شيءٍ للإنكليز، وخنع للمحتلّين، وأبدى التفريط في البلاد لظهرت خيانته، وتخلّى عنه الناس ولما تبعه أحد بل لقُتل، وبالتالي فشلت السياسة الإنكليزية، ولم يُحقّق الأعداء

أي نصرٍ، ولم يُنفذّ لهم أي مُخطّطٍ، وبقيت بلاد المسلمين في قوةٍ، وظلّ الإسلام منيعاً وهم لا يريدون هذا، إن من حسن الإخراج أن تظهر الصنيعة وطنيةً، وأن تكون عنيفةً في المطالبة بمصالح البلاد ومُتابعة الخدمة فيرضى عنها الشعب ويسير وراءها وتُنفّذ المخططات من خلفها.

وجاء الوفد التركي إلى معاهدة لوزان لإعادة النظر في بنود معاهدة (سيڤر) وطالب بمنطقة الموصل، وهو يعلم أنه مُتخلٍ عنها، وإلا لم يعترف أحد من الحلفاء باستقلال تركيا بل كانت انكلترا تُلوّح بالحرب وتتظاهر بجديتها في هذا حتى يتوقّع المراقب أن الأمر صحيح، وما هو كذلك إن هو إلا تمثيل لإتقان الإخراج، واتفق المؤتمرون أن يترك موضوع الموصل حالياً، ويبحث في مفاوضاتٍ مباشرةٍ بين انكلترا وتركيا ما دام الأمر يخصّ الدولتين فقط وذلك خلال تسعة أشهرٍ بعد التصديق على معاهدة لوزان، فإن لم يتوصل الطرفان إلى حلٍّ مُرضٍ يُحال الأمر إلى عصبة الأمم.

وُقّعت معاهدة لوزان من قبل الحلفاء والأتراك ثم جاء التصديق عليها من قبل المجالس النيابية، وبدأت المفاوضات بين انكلترا وتركيا بشأن الموصل، ويجب ألا يتوصّلوا إلى حلٍّ، وهكذا تقتضي التمثيلية والإخراج، وأُحيل الموضوع إلى عصبة الأمم، وفي شهر جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ (كانون الأول ١٩٢٤ م) أرسلت عصبة الأمم لجنةً إلى الموصل لدراسة الموضوع على الطبيعة، ثم إصدار التوصية بشأن الموصل، وجاءت اللجنة وقامت بمسحٍ سكاني، ووجدت أن نسبة الأتراك ضئيلةٌ في هذه المنطقة، ورفعت تقريرها، وأوصت بأن تكون الموصل ضمن أرض العراق، وبناءً على ذلك قرّر مجلس عصبة الأمم إبقاء الموصل للعراق.

ولو ضمّت منطقة الموصل إلى تركيا لزادت نسبة الأكراد في تركيا، وأصبحت مخيفةً، ولاضطر الأتراك إلى مشاركتهم في الحكم، وعندها

يمكن للحكم في تركيا أن يتدخّل في شؤون البلدان المجاورة متخذاً وجود الأكراد فيها ذريعةً لذلك التدخّل، وربما جاء يوم سعى لضمّهم إليه وتعود تركيا مرةً أخرى إلى القوة والاتساع وهذا ما لا تريده الدول الصليبية، ومن ناحيةٍ أخرى فإن سلخ الموصل من العراق يُفقدها أقليةً كبيرةً من الأكراد الذين يضعف شأنهم هناك، ولم يعد لهم أثر يمكنه أن يتحرّك في الوقت الذي يُراد له أن يتحرك، ويصبح شبه انسجامٍ سكانيٍ في دولة العراق وهذا ما لا تريده الدول الصليبية، إذ كان من مصلحة تلك الدول إبقاء الموصل ضمن الأرض العراقية لإبقاء تركيا ضعيفةً ولإبقاء شعبين مُتصارعين في العراق تُثار النزعة بينهما في كل وقت يحتاج فيه النصارى لتلك الإثارة، هذا إضافةً إلى اهتمام انكلترا الشديد بالنفط المخزون في طبقات أرض منطقة الموصل، وهي صاحبة الكلمة بين الحلفاء وفي عصبة الأمم.

أصبح عصمت إينونو أكثر الناس طوعاً لمصطفى كمال بعد أن كان متردداً في تأييده في مواقفه، وموافقته على أعماله فلما رأى نجاح مصطفى كمال وتألّقه بما يحظى من دعمٍ خارجيٍ وخاصةً انكلترا انصاع له وخضع لكل أوامره وتصرّفاته، بل غدا رهن إشارته، وبهذا الارتماء أمامه حرصاً على مصالحه أصبح الرجل الثاني في البلاد، والشخص الذي تُناط به المهمات، ويُكلّف بالملمات، ولم يكن عصمت إينونو الشخص الوحيد الذي يخضع لسيد البلاد وإنما كان كثيرون أمثاله من أصحاب المصالح، وطلاّب المناصب، ورجال الجاه، والساعين وراء الشهوات، غير أن عصمت إينونو كان أكثرهم خضوعاً وامتثالاً للأوامر فلم يكن ليردّ أمراً، أو يتلكأ في تنفيذ رغبةٍ، أو يناقش في موضوع مهما كان، فكأنه العبد المطيع ولذا استمّر في منصبه كرئيس للوزراء، ما تقتضي المصلحة في الانتهاء من وزارةٍ إلاّ ويُعهد إليه بتشكيل وزارةٍ تقوم مكان سابقتها.

وفي ٧ جمادى الأولى ١٣٤٦ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٧ م) أعاد

عصمت إينونو تشكيل وزارته من جديد[1]، وقد أصبحت تركيا دولةً ضعيفةً، ولم تعد موضع اهتمام أية جهةٍ بعد أن كانت محطّ أنظار الساسة، ومحور السياسة، ولم تهتمّ الدول الأوربية بها أبداً، وإنما كل ما تريدها منها أن تُدير ظهرها إلى الدول الآسيوية حيث تمتّد رقعة العالم الإسلامي لتنفصل نهائياً عن عقيدتها، وتنقطع تماماً عن ماضيها، وترغب منها أن تتجه إلى أوربا لا لتتقدّم مادياً وتتطوّر صناعياً، وإنما لترتبط بها وتبتعد عن الإسلام، كما تحرص أن يبقى المسؤولون فيها يُحاربون الإسلام وأهله، ويسيرون على نهج مصطفى كمال رئيس الجمهورية، ثم عصمت إينونو رئيس الوزارء، ولما كانت الدول الإسلامية التي تجاورها تخضع في هذه المرحلة للاستعمار لذا لم يحدث أي احتكاكٍ كما لم يحدث أي التقاء، وإنما كان يُعاني كلا الفريقين أزمةً سياسيةً ومحنةً اجتماعيةً، مع أن كل فريقٍ يُدير ظهره للفريق الآخر لأن كلاهما يتبنّى العصبية القومية، ولا يمكنٍ للقوميات أن تتعايش فالتعصّب أمر بغيض وكلاهما يتعصب لجنسه

---

(١) شكل عصمت اينونو وزارته الرابعة على النحو الآتي:

١ ـ عصمت إينونو: رئيساً للوزراء. وتسلم وزارة المعارف في ٦ رجب ١٣٤٧ هـ.

٢ ـ محمود أسعد: وزيراً للعدل.

٣ ـ مصطفى عبد الخالق: وزيراً للدفاع.

٤ ـ شكري قايا: وزيراً للبحرية.

٥ ـ توفيق رشدي: وزيراً للداخلية.

٦ ـ شكري سراج أوغلو: وزيراً للخارجية.

٧ ـ مصطفى نجاتي: وزيراً للمالية.

٨ ـ حسين واصف: وزيراً للمعارف في ٢١ رمضان ١٣٤٧ هـ.
كمال حصني: وزيراً للمعارف في ٤ ذي القعدة ١٣٤٧ هـ.

٩ ـ بهيج أركين: وزيراً للأشغال.
رجب بكر: وزيراً للأشغال ١ جمادى الآخرة ١٣٤٧ هـ.

١٠ ـ مصطفى رحمة: وزيراً للزراعة ووزيراً للاقتصاد في ٢٩ رجب ١٣٤٦ هـ.

١١ ـ رفيق سيدام: وزيراً للصحة.

١٢ ـ شاكر كسبير: وزيراً للاقتصاد في ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٧ هـ.

ويفتخر بقومه، والعرب يعدّون الأتراك أنهم كانوا مستعمرين لهم، وهم سبب تخلّفهم، على حين ينظر الأتراك إلى العرب أنهم قد خذلوهم في الحرب العالمية الأولى بل خانوهم، وهذا ما أدّى إلى ضعف الطرفين بل إلى تجزئة بلاد العرب واستعمار بلادهم جزاء ما اقترفت أيدهم، ونتيجة ما فعله زعماؤهم من انضمامهم إلى الأعداء، والوقوف إلى جانبهم في الحرب.

وفي الخامس من جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ (٢٧ ايلول ١٩٣٠ م) أعاد عصمت إينونو تشكيل وزارته من جديد[1].

لقد لاحظ مصطفى كمال أن عصمت إينونو قد أخذ يرتفع شأنه فقد تولّى رئاسة الوزارة سنوات عدة وأصبح سلطةً تنفيذيةً رئيسيةً، وإن كان لا يخرج عن رأي الرئيس التركي بأي صورةٍ، وقد فكّر مصطفى كمال الذي ينزع إلى الفردية، ولا يحب أن يرى إنساناً آخر قريباً من نفوذه ولو كان من أقرب المقربين إليه حتى ولو كان يظهر العبودية له، لذافقد فكر بإزاحة عصمت إينونو من وجهه، ثم وجد الأزمة الاقتصادية مستحكمة

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته الخامسة على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزراء.
٢ - يوسف كمال: وزيراً للعدل.
٣ - مصطفى عبد الخالق: وزيراً للدفاع.
زكي عابدين: وزيراً للدفاع في ٩ شعبان ١٣٤٩ هـ.
٤ - شكري قايا: وزيراً للداخلية.
٥ - توفيق رشدي: وزيراً للخارجية.
٦ - شكري سراج أوغلو: وزيراً للمالية.
مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية في ٥ شعبان ١٣٤٩ هـ.
٧ - أسعد ساغاي: وزيراً للمعارف.
٨ - زكي عابدين: وزيراً للأشغال.
حلمي يوران: وزيراً للأشغال في ٩ شعبان ١٣٤٩ هـ.
٩ - مصطفى شريف أوزكان: وزيراً للاقتصاد.
١٠ - رفيق سيدام: وزيراً للصحة.

ومن الأفضل تأجيل هذا الموضوع مرحلياً، وربما توقّع إن هذه الأزمة هي التي ستقضي على عصمت، وعندها سيختار آخر ليحلّ محلّه، ويبقى هو بعيداً عن جو التنافس السياسي بين أتباعه، إضافةً إلى أن ذلك سيكون أفضل حتى لا يقال: إنه يرفع الرجال ثم يحسدهم فيلقي بهم بعيداً بعد أن قدّموا له الخدمات.

وفي ١٧ ذي الحجة عام ١٣٤٩ هـ (٤ أيار ١٩٣١ م) أعاد عصمت إينونو تشكيل الوزارة من جديدٍ[1] وفي عهد هذه الوزارة وصلت آثار الأزمة الاقتصادية العالمية إلى تركيا، وتأثرت البلاد إذ نقصت المواد الأولية، وارتفعت الأسعار، وعاش الناس في أزمةٍ حادةٍ. وقامت الحكومة

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته السادسة على النحو الآتي:

١ ـ عصمت إينونو: رئيساً للوزارة.

٢ ـ يوسف كمال: وزيراً للعدل.

شكري سراج أوغلو: وزيراً للعدل ١ صفر ١٣٥٢ هـ.

زكي عابدين: وزيراً للدفاع.

٣ ـ شكري قايا: وزيراً للداخلية.

٤ ـ توفيق رشدي: وزيراً للخارجية.

٥ ـ مصطفى عبد الخالق: وزيراً للمالية.

فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية ١٩ شوال ١٣٥٢ هـ.

٦ ـ أسعد ساغاي: وزيراً للمعارف.

رشدي غالب: وزيراً للمعارف ١٢ رجب ١٣٥١ هـ.

يوسف حكمت: وزيراً للمعارف ٩ رجب ١٣٥٢ هـ.

زين العابدين أوزمن: وزيراً للمعارف ١ رجب ١٣٥٣ هـ.

٧ ـ حلمي أوران: وزيراً للأشغال.

٨ ـ علي شيتنقايا: وزيراً للأشغال ٣ ذي القعدة ١٣٥٢ هـ.

٩ ـ مصطفى شريف أوزكان: وزيراً للاقتصاد.

محمود جلال بايار: وزيراً للاقتصاد في ١٢ رجب ١٣٥١ هـ.

١٠ ـ رفيق سيدام: وزيراً للصحة.

١١ ـ مخلص اركمان: وزيراً للزراعة في ٢١ شعبان ١٣٥٠ هـ.

١٢ ـ علي رانا ترهان: وزيراً للتجارة في ٢١ شعبان ١٣٥٠ هـ.

باتخاذ بعض الإجراءات الاقتصادية لتخفيف آثار تلك الأزمة، وأعلنت للناس أن هذا لم يكن خاصاً بتركيا، وإنما هو أمر عالمي تئنّ منه أكثر الدول، وصبر السكان، وبدأت الآثار تنحسر تدريجياً، ثم مرت بسلامٍ.

وأخذت تركيا تلقى شيئاً من الرعاية أكثر من ذي قبل من انكلترا وذلك لأن النزعة الفردية قد أخذت تظهر في ألمانيا، كما ظهرت من قبل في ايطاليا، وأخذ موسوليني يتوسّع وخاصةً في إفريقية إذ بدأ يرسل الجند إلى ليبيا وإلى اريتريا وإلى الحبشة وهذا ما يصطدم مع السياسة الإنكليزية لذا لا بدّ من ضمان الحلفاء لانكلترا وخاصةً الدول العسكرية الكبرى أمثال فرنسا، وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية إضافةً إلى الدول ذات المواقع الحساسة مثل تركيا.

وتعلم انكلترا أن الحكومة التركية مرتبطة بها كلياً غير أن الشعب يميل نفسياً إلى ألمانيا لذا يجب العناية بالوضع في تركيا بشكلٍ خاص حرصاً على مصالحها وعلى أعوانها.

وفي ٢٦ ذي القعدة ١٣٥٣ هـ (١ آذار ١٩٣٥ م) أعاد عصمت إينونو تشكيل وزارته، فشكل الوزارة السابعة والأخيرة من جديد[١].

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته السابعة والأخيرة على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزراء.
٢ - شكري سراج أوغلو: وزيراً للعدل.
٣ - كاظم أوزالب: وزيراً للدفاع.
٤ - شكري قايا: وزيراً للداخلية.
٥ - توفيق رشدي: وزيراً للخارجية.
٦ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.
٧ - زين العابدين أوزمن: وزيراً للمعارف.
صافد اريكان: وزيراً للمعارف في ١٥ ربيع الأول ١٣٥٤ هـ.
٨ - علي شيتنقايا: وزيراً للأشغال.
٩ - محمود جلال بايار: وزيراً للاقتصاد. =

طلبت تركيا من انكلترا عقد مؤتمرٍ دوليٍ لإعادة النظر في أمر المضائق (البوسفور والدردنيل) التي جعلتها معاهدة (لوزان) ممراتٍ دولية لا يصحّ تحصينها، وقد كان هذا الطلب فيه مصلحة وطنية لتركيا كما أن الحكومة تريد أن ترفع شيئاً من أسهمها التي انخفضت بسبب الأزمة الاقتصادية التي أصابت دول العالم عامةً تقريباً، وقد وافقت انكلترا على هذا الطلب لرفع مركز أعوانها في بلادهم أولاً، ثم تريد الإفادة هي من ذلك أيضاً إذ أن شبح الحرب قد أصبح يقترب تدريجياً من أوربا بعد ظهور الأنظمة الاستبدادية الفردية في كل من إيطاليا وألمانيا والبدء في إلقاء الضربات ولا بد من أن تصطدم مع السياسة الإنكليزية. عقد المؤتمر في (مونترو) بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٣٥٥ هـ (٢٠ تموز ١٩٣٦ م)، وخرج المؤتمرون بنتيجة تعود فيها منطقة المضائق منطقةً عسكريةً أي يسمح لتركيا بإقامة تحصيناتٍ فيها، كما يمكنها أن تمنع مرور السفن في هذه المضائق في حالة قيام حربٍ لم تكن تركيا مشتركةً فيها، وفي الوقت نفسه يمكن للأسطول الروسي اجتيازها والوصول إلى البحر المتوسط في حالة الحرب، وهذا ما تريده انكلترا إذ وجدت نفسها ستكون وروسيا على وفاقٍ في وجه ايطاليا في البحر المتوسط وهذا ما تمّ فعلاً في الحرب العالمية الثانية، وبذا حققت انكلترا فائدة لها، وحققت الحكومة التركية نصراً أمام شعبها.

ومرّت الأزمة الاقتصادية ولم تُطح بعصمت إينونو، وجاء مؤتمر (مونترو) فأعاد في رفع شأن رئيس الحكومة، وعندها رأى مصطفى كمال أنه لا بدّ من إزاحته، وتكليف آخر برئاسة الحكومة، وذلك ليقع التنافس

= ١٠ - رفيق سيدام: وزيراً للصحة.

١١ - علي رانا ترهان: وزيراً للتجارة.

١٢ - مخلص أركمن: وزيراً للزراعة.

شاكر كسبير: وزيراً للزراعة في ٢٢ ربيع الأول ١٣٥٦ هـ.

بين الرجلين، ويقف هو الموقف الحكم، وكل منهما يُحاول التقرّب إليه، ويحكم هو بالتفاضل فقد يُقرّب هو الأدنى ليحطّ من شأن الأعلى، حتى يبقى بعيد المنال عنه، وربما أتى بثالثٍ لتبقى المسافة نائيةً عنه، وعلى كلٍ فقد تخلّى عن عصمت إينونو وطلب منه الاستقالة ففعل.

وفي ٢٧ شعبان ١٣٥٦ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٣٨ م) سقطت حكومة عصمت إينونو، وعهد إلى وزير الاقتصاد محمود جلال بايار بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ.[١]

قضية اسكندرون:

كانت اسكندرون إضافةً إلى كيليكيا ضمن المنطقة الزرقاء التي تشمل سواحل بلاد الشام الشمالية، والتي أعطتها معاهدة سايكس - بيكو إلى فرنسا، وكانت هذه المنطقة تشمل أقلياتٍ نصرانية في لبنان الجزء الجنوبي من المنطقة، ونصيرية في الجبال المعروفة باسمهم وفي اسكندرون وكيليكيا الجزء الشمالي من المنطقة مع مسلمين يُقيمون عادةً في السهل الساحلي وسهل

---

(١) شكل محمود جلال بايار حكومته الأولى على النحو الآتي:
١ - محمود جلال بايار: رئيساً للوزراء.
٢ - شكري سراج أوغلو: وزيراً للعدل.
٣ - كاظم اوزلاب: وزيراً للدفاع.
٤ - شكري قايا: وزيراً للداخلية.
٥ - توفيق رشدي: وزيراً للخارجية.
٦ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.
٧ - صافد أريكان: وزيراً للمعارف.
٨ - علي شيتنقايا: وزيراً للأشغال.
٩ - شاكر كسبير: وزيراً للاقتصاد، ووزيراً للزراعة بالوكالة.
١٠ - خلوصي التاش: وزيراً للصحة.
١١ - علي رانا ترهان: وزيراً للتجارة.
١٢ - فائق كرد أوغلو: وزيراً للزراعة في ١٣ صفر ١٣٥٧ هـ.

عكار كما تسكن كيليكيا جماعات من الأرمن، أما الجبال فهي موطن تلك الأقليات التي ذكرناها، وكانت فرنسا تركّز على الأقلية النصرانية التي في لبنان لارتباطها بها، ولأن فيها جماعات مُقاتلةً لعبت دوراً مُهماً في المنطقة، أما الفئات النصيرية فلم يكن لها شأن إذ كانت فقيرةً ذليلةً مُستضعفةً تسكن البقاع المرتفعة المنيعة ولا تملك أية إمكاناتٍ، وكانت انكلترا تعتمد على الفئات الدرزية التي تسكن المتن والشوف من جبال لبنان، وتتخذها حربةً في وجه فرنسا فيما إذا وقع التنافس والخلاف بين الدولتين المستعمرتين أو إذا أرادت أن تُثير في وجهها المشكلات.

سيطرت فرنسا على هذه الرقعة من الأرض والتي عُرفت بالمنطقة الزرقاء في اتفاقية (سايكس - بيكو) حسب اللون الذي لُوّنت به الخريطة التي تقاسمها الإنكليز والفرنسيون المنطقة. سيطرت عليها فرنسا وأدخلت إليها جيوشها برضا إنكلترا وبتفاهمٍ معها.

اعتمدت انكلترا في تنفيذ سياستها على مصطفى كمال الذي اصطنعته لنفسها غير أن بقية دول الحلفاء وخاصةً فرنسا فلم تقطع الأمل في إيجاد قناةٍ تتصل معه بوساطتها، وقد أجرت معه مفاوضات وانسحبت إثرها من كيليكيا، ورسمت الحدود بين سوريا وتركيا حيث كان لواء اسكندرون في الأرض الشامية.

رغب مصطفى كمال في إظهار العمل لأمته والإخلاص، لقضيتها فأوعزت حكومته إلى مندوبها في جنيف برفع طلبٍ إلى عصبة الأمم لحلّ النزاع القائم بين سوريا مُمثّلةً بفرنسا وبين تركيا، وذلك أن فرنسا تحتلّ أرضاً تركيةً فلواء اسكندرون أكثرية سكانه من الأتراك، واستجابت عصبة الأمم إلى هذا الطلب إذ أن فرنسا لم تكن لتهتمّ بالأمر كثيراً فاسكندرون ليست من بلادها، وتُريد إيجاد صلةٍ مع مصطفى كمال وهذه فرصة مناسبة، وانكلترا تُريد إحراج فرنسا، وكلتا الدولتين الاستعماريتين تريدان إبقاء تركيا إلى جانبها بعيدة عن ألمانيا التي أخذت تقوى، وتُوجّه

ضرباتها في وسط أوربا نحو اليمين ونحو اليسار، وتستفزّ الدول الكبرى ولا بدّ من أن يأتي اليوم الذي تصطدم فيه السياسة الإنكليزية والفرنسية مع التوسع الألماني، وتقف وجهاً لوجهٍ أمامه، وليس ذلك اليوم ببعيدٍ وتعرف انكلترا كما تعرف فرنسا أن مصطفى كمال مضمون الجانب ويسير بسياسته وفق السياسة البريطانية بل تبعاً لها غير أن الشعب في تركيا يكره مصطفى كمال إذ أحلّ به الذلّ وأنزل به الهوان، ولما كان يكرهه فهو يكره الدول التي تُؤيّده وهي انكلترا ثم الحلفاء ويُحبّ من يُعاديها، ويتمنّى لها الهزيمة أمام خصومها لذا فقد يندفع إلى جانب ألمانيا التي لا تزال تجد عطفاً لها داخل تركيا منذ أيام الحرب العالمية الأولى وما قبلها، ولما كان من المحتمل وقوع حربٍ بين انكلترا وفرنسا من جهةٍ وألمانيا من جهةٍ أخرى لذا من الخير لهاتين الدولتين المحافظة على إبقاء الشعب التركي هادئاً أثناء الحرب لا ينحاز إلى جانب ألمانيا ولا يثور ضد طاغيته مصطفى كمال، ويُلزمه إلى التحرك إلى جانب ألمانيا أو الإطاحة به وبالسياسة الإنكليزية في المنطقة، وضرب مصالح الحلفاء كلها ودعم الألمان، وهذه السياسة تقتضي إرضاء الأتراك.

أرسلت عصبة الأمم المتحدة لجنةً إلى اسكندرون، وأجرت استفتاءً، واتصلت بالسكان، وتعرّفت على رغباتهم، ومع أن نتيجة الاستفتاء قد أظهرت أن نسبة السكان الأتراك في لواء اسكندرون لا تزيد على ٣٥٪ من مجموع السكان في اللواء، إلا أنها قد أوصت بضمّه إلى تركيا. تنازلت فرنسا عن اللواء إلى تركيا رغم أن أهم بندٍ من بنود صكّ الانتداب هو المحافظة على أرض الدولة التي انتُدبت عليها، وفرنسا منتدبة على سوريا.

أعطت فرنسا اللواء استقلالاً ذاتياً، وجعلته تحت النفوذ التركي في ٧ شوال ١٣٥٧ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ م)، وقد أسمى الاتراك اللواء محافظة « هاتاي » ثم ضُمّ نهائياً إلى تركيا، ولم يعترف الشاميون على ذلك.

إن تقطيع أوصال الدولة العثمانية وفصل الشام عن تركيا قد راعى

وحدة فرقة النصيرية التي تسكن هذه البقعة الوحيدة من العالم فأبقاها ضمن الشام غير أن انسحاب فرنسا من كيليكيا وتسليمها إلى تركيا قد قسّم هذه الفرقة إلى جزأين متساويين تقريباً قسم يُقيم في تركيا في منطقة كيليكيا والقسم الآخر يسكن الشام في منطقة اسكندرون، وفي اللاذقية في الجبال المعروفة باسمهم، ولكن لما سُلخ اسكندرون من الشام وضُمّ إلى تركيا أصبح القسم الأكبر من أتباع فرقة النصيرية في تركيا غير أن نسبتهم بقيت ضيئلةً لضخامة عدد سكان تركيا النسبي وفي الوقت نفسه فقد انخفضت هذه النسبة في سوريا لذا بقي أتباع هذه الفرقة في الشام من أكبر المعارضين لضمّ اسكندرون إلى تركيا، ورغم قلّتهم في سوريا إلا أن نسبتهم تعدّ كبيرةً نسبياً لقلّة سكان سوريا فهي تصل إلى ١٤٪ وربما ارتفعت في الآونة الأخيرة، بينما هذه النسبة لا تزيد في تركيا كثيراً على ٣٪ لارتفاع عدد السكان، غير أن هذه الفرقة لم يكن لها يومذاك أي أثرٍ أو وزنٍ سياسيٍ في المنطقة، فلما استطاعت السيطرة على الحكم في سوريا صارت نفوس أتباعها في تركيا تهفو إلى سوريا، وتنتقل أعداد منهم إليها، ويلقون ترحيباً ويُعطون المناصب والمراكز، وكما يلقى الذين يعيشون في اسكندرون وكيليكيا عطفاً ودعماً من الحكم السوري، ويجد المرء تقارباً بين الحكمين عندما يتوصل إلى السلطة زعيم حزب الشعب الجمهوري بولاند أجاويد إذ أن أصله يعود الى مدينة أضنه قاعدة كيليكيا رغم أنه هو من مواليد مدينة (استانبول) ونائب عن مدينة (زونغلداك) على البحر الأسود.

وفي ١٩ رمضان ١٣٥٧ هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٣٨ م) أعاد محمود جلال بايار تشكيل حكومته من جديد[1] أي في اليوم التالي لهلاك مصطفى كمال.

---

(١) شكل محمود جلال بايار وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ - محمود جلال بايار: رئيساً للوزراء. =

هلاك مصطفى كمال:

مات مصطفى كمال في ١٨ رمضان ١٣٥٧ هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨ م)، ودُفن بعد تسعة أيامٍ من وفاته في ٢٧ رمضان، وذلك بعد أن تسلّم رئاسة جمهورية تركيا أكثر من خمس عشرة سنةً قضاها بالاستبداد والطغيان فكان أمره لا يُردّ وإشارته أمراً، ومن يجرؤ ويُخالفه يُقضى عليه بصورةٍ من الصور، وارتكب خلال هذه المدة أسوأ أعمال الفحش وأقذرها وحطّم شخصية الأمة وأذلّها.

وكانت وسائل الإعلام كلها مُسخرةً للدعاية له ولخدمته حتى نشأ الجيل الجديد لا يعرف شخصيةً في تركيا إلا مصطفى كمال، وحتى رسخت في نفوس أبناء الجيل فكرة إخلاص أتاتورك ووطنيته، وأنه الزعيم الأوحد، والرجل الملهم، وكان فكر هذا الجيل يتناقض أشدّ التناقض مع فكر الجيل الذي سبقه، كما يتناقض في نظرته إلى شخصية مصطفى كمال، فإذا كان الجيل الذي عاصر مصطفى كمال وعرفه تمام المعرفة ينظر نظرة فيها الكره والازدراء كان الجيل الجديد يرى فيه المثالية والكمال لما لُقّن في

= ٢ - حلمي أوران: وزيراً للعدل.
توفيق فكرت: وزيراً للعدل في ١٣ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ.
٣ - كاظم أوزلاب: وزيراً للدفاع.
٤ - ناجي تيناز: وزيراً للدفاع في ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ.
٥ - رفيق سيدام: وزيراً للداخلية.
٦ - شكري سراج أوغلو: وزيراً للخارجية.
٧ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.
٨ - صافد أريكان: وزيراً للمعارف.
حسن علي يوجل: وزيراً للمعارف في ٧ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ.
٩ - علي شيتنقايا: وزيراً للأشغال.
١٠ - شاكر كسبير: وزيراً للاقتصاد.
حسني جاكير: وزيراً للاقتصاد في ٧ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ.
١١ - خلوصي ألتاش: وزيراً للصحة.

المدارس، وأُشبع من الدعاية ووسائل الإعلام، حتى أصبح من يتكلم عن مصطفى كمال بأقلّ إشارة سوءٍ يقتل، على حين يمكن أن يتكلم عن رسول الله ﷺ، دون أن يتعرض له أحد بكلمةٍ واحدةٍ.

وبعد موت مصطفى كمال بتسعة عشر يوماً وضع لواء اسكندرون تحت إشراف الإدارة التركية، وكذلك جرت الانتخابات، وانتخب عصمت إينونو رئيساً للجمهورية فهو الرئيس الثاني للجمهورية التركية، وليس هذا غريباً فهو رئيس الوزراء أكثر أيام مصطفى كمال إن لم نقل كلها تقريباً لذا كان الشخص الثاني بعد رئيس الجمهورية، وإن كان مصطفى كمال يحرص كل الحرص ألا يكون هناك شخص ثانٍ بعده، وحاول إبعاده عندما رآه يتقدّم إلا أن الموت قد عاجله وقضى على أحلامه التي كانت واسعةً، ولم يتوقّع الموت بهذه المفاجأة غير أن الخمرة والفحش قد هدّت جسمه، وانتهى عمره في الوقت المحدد له بأمر الله.

وفي ١٧ رجب ١٣٥٨ هـ (١ أيلول ١٩٣٩ م) اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، واتجهت أنظار الناس إلى جبهات القتال، ولم تهتم الأوساط السياسية بالدول التي لم تدخل أو التي لم تشهد أراضيها معارك للقتال، وكانت تركيا في منأى عن الحرب وساحاتها، وبذا كانت بعيدةً عن اهتمام الساسة الذين يتجهون إلى الدول التي تريد أن تُقرّر مصير العالم ـ حسب زعمها ـ يومذاك، أو بالأحرى كما كانت عليه سابقاً، فهي من بعد الحرب العالمية الأولى وهي تعيش في منأى عن أحداث العالم الكبرى، ولم فيها سوى أحداث صغيرة وقليلة تلفت الانتباه.

عصْمَت إينونو

بعد أن تسلّم عصمت إينونو إثر الانتخابات رئاسة الجمهورية كان من الطبيعي أن تستقيل الحكومة القائمة، وقد قدّم محمود جلال بايار استقالة حكومته في ٥ ذي الحجة ١٣٥٧ هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ م) فعهد رئيس الجمهورية إلى رفيق سيدام بتشكيل الحكومة[1].

سار عصمت إينونو على نهج سيّده في رئاسة حزب الشعب الجمهوري،

---

(١) شكل رفيق سيدام وزارته الأولى على النحو الآتي:

١ ـ رفيق سيدام: رئيساً للوزراء.

٢ ـ توفيق فكرت سلاي: وزيراً للعدل.

٣ ـ ناجي تناز: وزيراً للدفاع.

٤ ـ فائق أوزتراك: وزيراً للداخلية.

٥ ـ شكري سراج أوغلو: وزيراً للخارجية.

٦ ـ فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.

٧ ـ علي شيتنقايا: وزيراً للأشغال.

٨ ـ حسن علي يوجل: وزيراً للمعارف.

٩ ـ حسني شاكر: وزيراً للاقتصاد.

١٠ ـ خلوصي ألتاش: وزيراً للصحة.

١١ ـ علي رانا ترهان: وزيراً للتجارة.

١٢ ـ خلوصي أركمن: وزيراً للزراعة.

وفي معاداته للإسلام، ومحاولة إذلال الأمة، وإبراز العصبية القومية، وإن كان بالواقع لا يؤمن بها، وفي التبعية للسياسة الرأسمالية عامةً، والإنكليزية منها خاصةً، وكذلك بالعمل على عدم إبراز شخصيةٍ أخرى في البلاد غيره، ولهذا نراه أبعد محمود جلال بايار عن السلطة، وجرى خلاف بينهما وتعمّقت جذوره، وإن كان هذا ما أراده مصطفى كمال بإيجاد تنافسٍ بينهما، ولم يعهد إليه برئاسة أية حكومةٍ، وللغرض نفسه فإنه لم يعهد إلى أي رجلٍ من أعوانه في الحزب بتشكيل الوزارة أكثر من مرتين، ليبقى الآخرون أدنى منه بقليل، وهو بهذا فاق سيده الذي لم ينتبه إلى هذه الناحية إلا في أواخر حياته، أما عصمت فقد أحسّ بها من البداية، ولسنا ندري فلعله استفاد من سلفه بالذي أراد أن يُطبّقه في أواخر عهده، فطبّقه هو من أول أيامه، وربما كان هذا هو الصحيح، وبقي لذلك رؤساء الوزراء الذين تولّوا هذا المنصب في عهد عصمت إينونو شبه مغمورين على حين برز عصمت إينونو أيام مصطفى كمال، وعدنان مندريس في عهد محمود جلال بايار فيما بعد.

أعاد رفيق سيدام تشكيل حكومته من جديد[1] ولم يمض على حكومته

---

(١) شكل رفيق سيدام وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - رفيق سيدام: رئيساً للوزراء.

٢ - توفيق فكرت سلاي: وزيراً للعدل.

علي فتحي أوقيار: وزيراً للعدل في ٧ ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ.

علي منمنجي أوغلو: وزيراً للعدل في ١٤ صفر ١٣٦٠ هـ.

٣ - ناجي تناز: وزيراً للدفاع.

صافد أريكان: وزيراً للدفاع في ٢٧ صفر ١٣٥٩ هـ.

علي رضا أرتونكال: وزيراً للدفاع في ٢٣ شوال ١٣٦٠ هـ.

٤ - فائق أوزتراك: وزيراً للداخلية.

علي فكرت توزر: وزيراً للداخلية في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٦١ هـ.

٥ - شكري سراج أوغلو: وزيراً للخارجية.

٦ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية. =

الأولى أكثر من شهرين وأسبوعٍ واحدٍ. غير أن هذه الوزارة الثانية قد دام حكمها أكثر من ثلاث سنوات.

وفي عهد هذه الوزارة كان التفوق الألماني في الحرب، وكان هتلر يُوجّه الضربات ذات اليمين وذات الشمال، وقد تمكّن من احتلال شبه جزيرة القرم، وتقدّم في بلاد القفقاس ومع ذلك فلم يتوجّه نحو تركيا رغم أنها تملك موقعاً حسّاساً، وأماكن ذات أهميةٍ خاصةٍ ومع هذا فلم يتحرّك نحوها على الرغم من أن حركة رشيد عالي الكيلاني قد قامت في العراق ضدّ النفوذ الإنكليزي وأعوانه، ومدّت يدها نحو ألمانيا، كما كان في بلاد الشام من يُؤيد هذا التوجه، وربما كان من أبرزهم مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني، كما أن الشعب كان أقرب عاطفةً إلى الألمان منها إلى الإنكليز الذين ساهموا مساهمةً فعّالة في تقسيم بلاد الشام، ووعدوا اليهود بجنوبي الشام (فلسطين)، وعملوا على تجزئة دولة الخلافة، وكانوا من وراء إلغاء الخلافة ونشر العلمانية، بل ويمكن أن نُضيف أن السلطة الفرنسية التي تسيطر على

=

٧ - جزمي إرجين: وزيراً للتجارة.

٨ - حسن علي يوجل: وزيراً للمعارف.

٩ - علي فؤاد جبسوي: وزيراً للأشغال.
نظمي توبيجو أوغلو: وزيراً للتجارة في ١٩ رمضان ١٣٥٨ هـ.

١٠ - حسني شاكر: وزيراً للاقتصاد.
سري داي: وزيراً للاقتصاد في ٨ رجب ١٣٦٠ هـ.

١١ - خلوصي التاش: وزيراً للشؤون التعاونية.
ممتاز أوكمن: وزيراً للتجارة في ٢٧ شوال ١٣٥٩ هـ.

١٢ - علي رانا ترهان: وزيراً للجمارك.
رائف قره دينز: وزيراً للجمارك في ٧ ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ.

١٣ - مخلص أركمن: وزيراً للزراعة.

١٤ - علي شيتنقايا: وزيراً للمخابرات العامة.
جودت كريم انجه داي: وزيراً للمخابرات العامة في ٢٠ شوال ١٣٥٩ هـ.
فخري إنجين: وزيراً للمخابرات العامة في ٢٣ شوال ١٣٦٠ هـ.

سوريا أصبحت تتبع حكومة فيشي التي يرأسها الجنرال بيتان الذي وقع الهدنة مع كلٍ من ألمانيا وايطاليا، فهي سلطة إذن تتبع النفوذ الألماني ومع هذا كله لم يُفكرّ الساسة الألمان بالتحرّك في تركيا، وربما كانوا يتوقّعون أن يتحرّك الشعب من تلقاء ذاته ضدّ المسؤولين فيه والمؤيّدين من انكلترا، وكانوا يخشون أن ينقلب الأتراك بعواطفهم ضدّ الألمان فيما لو قامت القوات الألمانية بضربةٍ في تركيا أو شنّوا غارات على أراضيها وهم على مقربةٍ منها من جهاتٍ متعددة، هذا ما يمكن أن يتوقعه الإنسان تجاه هذا التصرّف الألماني، وهو يعرف الضربات الخاطفة التي وجّهها الألمان لأعدائهم والهجوم الكاسح الذي اعتادوا أن يشنّوه على خصومهم بشكلٍ ارتجالي في كثير من الأحيان.

وفي ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦١ هـ (٩ تموز ١٩٤٢ م) عهد إلى شكري سراج أوغلو[1] بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ، وهو وزير الخارجية في

---

(١) شكل شكري سراج أوغلو وزارته الأولى على النحو الآتي:

١ - شكري سراج أوغلو: رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية.
٢ - حسن منمنجي أوغلو: وزيراً للعدل.
٣ - علي رضا ارتونكال: وزيراً للدفاع.
٤ - علي فكري توزر: وزيراً للداخلية.
رجب بكر: وزيراً للداخلية في ٥ شعبان ١٣٦١ هـ.
٥ - نومان منمنجي أوغلو: وزيراً للخارجية في ٢ شعبان ١٣٦١ هـ.
٦ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.
٧ - علي فؤاد جبسوي: وزيراً للأشغال.
٨ - حسن علي يوجل: وزيراً للمعارف.
٩ - سري داي: وزيراً للاقتصاد.
١٠ - خلوصي ألتاش: وزيراً للصحة.
١١ - رائف قره دنيز: وزيراً للجمارك.
١٢ - شوكت راشد خطيب أوغلو: وزيراً للزراعة.
١٣ - فخري أنجين: وزيراً للمواصلات.
١٤ - بهجت أوز: وزيراً للتجارة.

عدة حكوماتٍ سبقت، فكان على اطلاعٍ تامٍ على السياسة الخارجية التي تنتهجها حكومته تجاه الحلفاء الذين ترتبط بهم سياسياً دون أن تدخل الحرب إلى جانبهم، وتجاه دول المحور الذين يتعاطف معهم الشعب دون أن يستطيع أن يُبدي أي تحرّكٍ في ناحية عواطفه فإن الفقر الذي يعيش فيه يحول دون الحركة كما أن الذلّ والسحق الذي مارسه عليهم مصطفى كمال وخلفاؤه من بعده لا يزالون يئنون من وطأته هذا إضافةً إلى ظروف الحرب التي تحول دون إمكانية الحركة وإن لم تدخل تركيا الحرب، وإن لم تعلن الأحكام العرفية صراحةً وبقانونٍ إلا أنها بحكم المعلنة، إذ كانت الصحف تخضع للرقابة، وتُمنع التجمّعات، ويُحال دون قيام مُعارضةٍ، وتُقنّن المواد الغذائية لتُنقل إلى الجبهات بشكلٍ سرّيٍ وعن طريق التجار حسب الظاهر، وقد قاس الشعب الكثير من وراء هذه السياسة، وإن كان مُكبّلاً ولا يملك إلا أن يكون قوى سكوت.

وفي ٣ ربيع الأول ١٣٦٢ هـ (٩ آذار ١٩٤٣ م) شكّل شكري سراج أوغلو وزارةً جديدةً[1]، واستمّرت هذه الوزارة ما يزيد على الثلاث

---

(١) شكل شكري سراج أوغلو وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - شكري سراج أوغلو: رئيساً للوزراء.

٢ - علي رضا تورل: وزيراً للعدل.

ممتاز أوكمن: وزيراً للعدل في ٥ جمادى الأولى ١٣٦٥ هـ.

٣ - علي رضا ارتونكال: وزيراً للدفاع.

٤ - رجب بكر: وزيراً للداخلية.

حلمي أوران: وزيراً للداخلية في ١٦ جمادى الأولى ١٣٦٢ هـ.

٥ - نومان منمنجي أوغلو: وزيراً للخارجية.

حسن السقا: وزيراً للخارجية في ٢٦ رمضان ١٣٦٣ هـ.

٦ - فؤاد أغرالي: وزيراً للمالية.

نور الله أسعد سومر: وزيراً للمالية في ٢٦ رمضان ١٣٦٣ هـ.

٧ - حسن علي يوجل: وزيراً للمعارف.

٨ - سري داي: وزيراً للأشغال.

=

سنوات ونصف معظمها كان خلال الحرب العالمية الثانية التي وقفت فيها تركيا على الحياد، إذ كان الحلفاء يعملون على إرضائها كما قلنا، كما كانت الحكومة تسير على نهج مصطفى كمال في تأييدها للحلفاء ما دام الإنكليز أحدهم، غير أن الشعب كان يحمل كراهيةً للحلفاء الذين عملوا على تقطيع أوصال الأمة، وتجزئة دولة الخلافة، وكراهيةً بصنيعتهم مصطفى كمال ومُنفّذ مخططاتهم فقد كانت عواطفه مع دول المحور، وكان الحلفاء يخشون دائماً ثورةً مُفاجئةً يقوم بها الشعب نتيجة ما يُعاني من ضغط وبسبب ما يحمل من حقدٍ على دول الحلفاء وركائزهم في تركيا، وفي هذه الآونة أخذ الميزان العسكري يتحرّك لصالح الحلفاء، وتتوالى تراجعات دول المحور، وهذا ما أخاف الأتراك ومنعهم من أن يقوموا بأية حركةٍ ربما كان يتوقّعها بعض المراقبين السياسيين، فازداد السكون، وأخلد الناس إلى الخوف.

وفي ١٠ رمضان ١٣٦٥ هـ (٧ آب ١٩٤٦ م) شكّل رجب بكر حكومةً جديدةً[1]، وقد أجرى على وزارته هذه تعديلين أحدهما في ٢٣

= ٩ - فؤاد سرمن: وزيراً للاقتصاد.
١٠ - خلوصي ألتاش: وزيراً للصحة.
١١ - سعدي كونوك: وزيراً للصحة في ٥ صفر ١٣٦٤ هـ.
١٢ - سعاد خيري أركوبلو: وزيراً للجمارك.
١٣ - تحسين خوسكان: وزيراً للجمارك في ١٨ ربيع الأول ١٣٦٥ هـ.
١٤ - شوكت راشد خطيب أوغلو: وزيراً للزراعة.
١٥ - علي فؤاد جبسوي: وزيراً للمواصلات.
١٦ - جلال سعيد سيرن: وزيراً للتجارة.
١٧ - رائف قره دنيز: وزيراً للتجارة في ١٩ جمادى لآخرة ١٣٦٤ هـ.
١٨ - سعدي ايرماك: وزيراً للعمل في ٢٦ جمادى الآخره ١٣٦٤ هـ.

(١) شكل رجب بكر حكومته على النحو الآتي:
١ - رجب بكر: رئيساً للوزراء.
٢ - ممتاز أوكمن: وزيراً للعدل، ونائباً لرئيس الوزراء في ٢٣ شوال ١٣٦٥ هـ.
٣ - مصطفى عبد الخالق رندا: وزيراً للدولة في ٢٣ شوال ١٣٦٥ هـ. =

شوال ١٣٦٥ هـ والثاني في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ، ولكنها لم تستمر بعد التعديل الوراري الثاني سوى خمسة أيام.

وما أن انتهت الحرب العالمية الثاني حتى تنفّس الناس الصعداء، وتحرّكت المنافسة التي وجدت من قبل بين عصمت إينونو ومحمود جلال بايار، فشكّل الثاني منهما الحزب الديمقراطي ليكون جبهة المعارضة، وانضوى الكثير تحت لوائه ليُعبّروا عن رأيهم، غير أن النجاح الذي لقيه هذا الحزب الحديث النشأة ليُعطي دليلاً على كراهية الناس لحزب الشعب الجمهوري الذي أسّسه مصطفى كمال وترأسه وخلفه عصمت إينونو في زعامته، وليست هذه الكراهية لأشخاصٍ بأعينهم وإنما للأفعال التي قاموا بها وارتكبوها بحقّ الأمة، وليست هذه الكراهية، أيضاً للأفعال فقط،

= ٤ - شناسي دورن: وزيراً للعدل في ٢٣ شوال ١٣٦٥ هـ.
٥ - جميل جاهد تيمور: وزيراً للدفاع.
منير بورسل: وزيراً للدفاع في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ.
٦ - شكري سكمنور: وزيراً للداخلية.
٧ - منير خسروغول: وزيراً للداخلية في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ.
٨ - حسن السقا: وزيراً للخارجية.
٩ - خالد نظمي كشمير: وزيراً للمالية.
١٠ - رشاد شمس الدين سرور: وزيراً للمعارف.
١١ - جودت كريم انجداي: وزيراً للنافعة.
١٢ - تحسين بكر بالتا: وزيراً للاقتصاد، ووزيراً للعمل في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ.
١٣ - جاويد إكين: وزيراً للاقتصاد في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ.
١٤ - بهجت أوز: وزيراً للصحة.
١٥ - تحسين جوشكان: وزيراً للجمارك.
١٦ - فائق كرد أوغلو: وزيراً للزراعة.
١٧ - شوكت عدلان: وزيراً للزراعة في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ.
١٨ - شكري كوجاك: وزيراً للمواصلات.
١٩ - عاطف عنان: وزيراً للتجارة.
٢٠ - سعدي ايرماك: وزيراً للعمل.

وإنما للأفكار التي يُنادون، ويُطبّقونها على السكان رغم أنوفهم، وعليهم أن يتقبلوها أذلاء، وإن كان محمود جلال بايار أحد عناصر هذه الفئة غير أنه الآن يتزّعم المعارضة وينتقد ذلك الحزب حزب الشعب الجمهوري الذي هو الأثر الباقي لمصطفى كمال.

وفي ٢٤ شوال ١٣٦٦ هـ (١٠ ايلول ١٩٤٧ م) شكل وزير الخارجية في الحكومة السابقة حسن السقا حكومة جديدة[١].

وكانت هذه الحكومة قد صوتت إلى جانب الاعتراف بدولة اليهود في جنوبي الشام (فلسطين) التي أعلنت نفسها في ٧ رجب ١٣٦٧ هـ (١٥ أيار ١٩٤٨ م) بعد أن اغتصبت جزءاً من الأرض، وشرّدت السكان، وارتكبت أبشع

---

(١) شكل حسن السقا حكومته الأولى على النحو الآتي:

١ - حسن السقا: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ - فائق أحمد بارتجي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٣ - مصطفى عبد الخالق رندا: وزيراً للدولة.
٤ - شيناسي دورين: وزيراً للعدل.
٥ - منير بورسل: وزيراً للدفاع.
٦ - منير خسرو غول: وزيراً للداخلية.
٧ - نجم الدين صادق: وزيراً للخارجية.
٨ - خالد نظمي كشمير: وزيراً للمالية.
شوكت عدلان: وزيراً للمالية في ١٧ جمادى الأولى ١٣٦٧ هـ.
٩ - رشاد شمس الدين سرور: وزيراً للمعارف.
١٠ - قاسم كولك: وزيراً للنافعة.
١١ - جاويد إكين: وزيراً للاقتصاد.
١٢ - بهجت أوز: وزيراً للصحة.
١٣ - شوكت عدلان: وزيراً للجمارك.
١٤ - تحسين جوشكان: وزيراً للزراعة.
١٥ - شكري كوجاك: وزيراً للمواصلات.
١٦ - محمود نديم كوندز ألب: وزيراً للتجارة.
١٧ - تحسين بكر بالتا: وزيراً للعمل.

المجازر، وكان هذا الاعتراف قد رجّح التصويت إلى جانب اليهود إذ كان الفرق صوتاً واحداً بين المؤيدين والرافضين، ومع أنه من المفروض أن تكون من أول الذين يرفضون الاعتراف بدولة اليهود بصفة تركيا دولةً إسلاميةً، ويشكل المسلمون فيها نسبة ٩٩٪ من السكان، ولأن اليهود ظالمين أقاموا دولتهم على الاغتصاب والجرائم أمام سمع العالم وبصره، غير أن الحقد الذي توجده القومية التي تقوم عليه الدولة التركية والتي يدعو لها أكثر حكام العرب يومذاك هي التي جعلت تركيا تقف هذا الموقف الشائن، كما يجب ألا ننسى محاولة البعد عن الإسلام، وهو المبدأ الذي عمل له مصطفى كمال وسار عليه حزبه والحكومات التي توالت أيامه ومن بعده.

في ٣ شعبان ١٣٦٧ هـ (١٠ حزيران ١٩٤٨ م) أعاد حسن السقا تشكيل الحكومة من جديد[1]، واستمّر الوضع في نأيه عن البلدان

---

(١) شكل حسن السقا وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ ـ حسن السقا: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ فائق أحمد بارتجي: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٣ ـ فؤاد سرمن: وزيراً للعدل.
٤ ـ علي رضا أرتن: وزيراً للعدل في ١٤ ربيع الأول ١٣٦٨ هـ.
٥ ـ حسني شاكر: وزيراً للدفاع.
٦ ـ منير خسروغول: وزيراً للداخلية.
٧ ـ نجم الدين صادق: وزيراً للخارجية.
٨ ـ شوكت عدلان: وزيراً للمالية.
٩ ـ تحسين بانكو أوغلو: وزيراً للمعارف.
١٠ ـ نهاد اريم: وزيراً للنافعة.
١١ ـ جاويد إكين: وزيراً للاقتصاد.
١٢ ـ كمالي بيازيد: وزيراً للصحة.
١٣ ـ أمين إرشكيل: وزيراً للجمارك.
١٤ ـ جاويد أورال: وزيراً للزراعة.
١٥ ـ قاسم كولك: وزيراً للمواصلات.

=

الإسلامية والتصاقه بالدول الغربية، وبعده عن جيرانه في الجنوب حيث يحرّك كل طرفٍ التعصّب القومي الذي يشكل طرفان مُتنافران.

وكان الحزب الديمقراطي المعارض يقوى باستمرار، وأراد رئيس الحكومة الحدّ من هذا النشاط بالضغط، وإذا دعا الأمر فبالحلّ غير أن رئيس الجمهورية قد رفض ذلك، ولم يلبث أن وصل الحزب الديمقراطي إلى درجة يكاد يتساوى فيها مع الحزب الحاكم إن لم نقل أنه قد عادله أو تفوّق عليه لكن هذا لم يظهر على الساحة بوضوح لأن الذي بيده السلطة يتقرّب له الأفراد ويُمالئونه حتى ليبدو أنه القوي أو الوحيد في الساحة، وهذا ما غرّر الذين بيدهم السلطة فاطمأنوا إلى قوتهم الظاهرية.

واقترب موعد الانتخابات فدعت المعارضة إلى تشكيل حكومة مُحايدةٍ تتولّى أمر الانتخابات والإشراف عليها إن كانت السلطة تُريد العدل، وتبغي المساواة وهما ما تدعو لهما، وهذا الأصل في الحياة النيابية، واشتّدت المعارضة، واستقالت حكومة حسن السقا الثانية، وشكّل شمس الدين غونالتاي حكومةً[1] في ١٧ ربيع الأول ١٣٦٨ هـ (١٦ كانون الثاني

= ١٦ ـ جميل سعيد برلاس: وزيراً للتجارة.
١٧ ـ تحسين بكر بالتا: وزيراً للعمل.

(١) شكل شمس الدين غونالتاي حكومته على النحو الآتي:
١ ـ شمس الدين غونالتاي: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ ـ نهاد أريم: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٣ ـ نور الدين أسعد سومر: وزيراً للدولة.
٤ ـ جميل سعيد برلاس: وزيراً للتجارة في ١١ شعبان ١٣٦٨ هـ.
٥ ـ فؤاد سرمن: وزيراً للعدل.
٦ ـ حسني شاكر: وزيراً للدفاع.
٧ ـ أمين أريشكيل: وزيراً للداخلية.
٨ ـ نجم الدين صادق: وزيراً للخارجية.
٩ ـ إسماعيل رشدي اكسال: وزيراً للمالية.
١٠ ـ تحسين بانكو أوغلو: وزيراً للمعارف. =

١٩٤٩ م) وكـان مـن مهمتهـا الإشراف على الانتخـابـات، وجـرت الانتخابات وفاز الحزب الديمقراطي، وانتهى بذلك حكم الحزب الواحد، وأصبحت الجمهورية نيابيةً حسب الاصطلاح الأوربي، أي يضمّ المجلس النيابي عدة أحزاب تتنافس على الحكم وعلى خدمة الأمة حسب منهجٍ واضحٍ لكلٍ منها أو هكذا المفروض، لذا نلاحظ في هذه الحكومة أسماء جديدةً تشترك فيها يرضى عن أصحابها الحزب المعارض « الديمقراطي » أو أنها عرفت بالحياد على الأقل.

لم تكن مفاجأة نجاح الحزب الديمقراطي في الانتخابات لدى المراقبين السياسيين الذين يُقدّرون تماماً المهالأة والتزلّف للسلطة، ولكن الحكومة كانت النتائج مُفاجئةً لها إذ ترى الشارع يتحرّك حسب رأيها ويُبدي (الرجال) لها غير ما حدث. فسقطت الحكومة، وسقط الحزب الحاكم، وبدأت مرحلة جديدة.

حكم حزب الشعب الجمهوري الذي شكلّه مصطفى كمال منفرداً مدة تزيد على سبعٍ وعشرين سنة منذ أن أُعلنت الجمهورية في ١١ محرم ١٣٤٢ هـ حتى فشله في الانتخابات وفوز الحزب الديمقراطي في ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ، وقد شكّل خلالها تسع عشرة وزارةً ترأسها ثمانية رؤساء وزارات وهم:

علي فتحي أوقياو	شكل وزارتين	٢

= ١١ ـ شوكت عدلان: وزيراً للنافعة.
١٢ ـ كمالي بيازيد: وزيراً للصحة.
١٣ ـ فاضل شرف الدين بورغو: وزيراً للجمارك.
١٤ ـ جاويد أورال: وزيراً للزراعة.
١٥ ـ كمال ساتير: وزيراً للمواصلات.
١٦ ـ رشاد شمس الدين سرور: وزيراً للعمل.
١٧ ـ منير بورسل: وزيراً للأشغال في ١١ شعبان ١٣٦٨ هـ.

عصمت إينونو	شكل سبع وزاراتٍ	٧
محمود جلال بايار	شكل وزارتين	٢
رفيق سيدام	شكل وزارتين	٢
شكري سراج أوغلو	شكل وزارتين	٢
رجب بكر	شكل وزارةً واحدةً	١
حسن السقا	شكل وزارتين	٢
شمس الدين غونالتاي	شكل وزارةً واحدةً	١
		١٩ وزارة

١ - علي فتحي أوقيار الأولى ١ محرم ١٣٤ - ١٧ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (٢٣ آب ١٩٢٣ - ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٣ م).

٢ - عصمت إينونو الأولى ١٩ ربيع الأول ١٣٤٢ - ١ شعبان ١٣٤٢ هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣ - ٦ آذار ١٩٢٤ م).

٣ - عصمت إينونو الثانية ١ شعبان ١٣٤٢ - ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٣ هـ (٦ آذار ١٩٢٤ - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٤ م).

٤ - علي فتحي أوقيار الثانية ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٣ - ٨ شعبان ١٣٤٣ هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٤ - ٣ آذار ١٩٢٥ م).

٥ - عصمت إينونو الثالثة ٨ شعبان ١٣٤٣ - ٧ جمادى الأولى ١٣٤٦ هـ (٣ آذار ١٩٢٥ - ١ تشرين الثاني ١٩٢٧ م).

٦ - عصمت إينونو الرابعة ٧ جمادى الأولى ١٣٤٦ - ٥ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٧ - ٢٧ ايلول ١٩٣٠ م).

٧ - عصمت إينونو الخامسة ٥ جمادى الأولى ١٣٤٩ - ١٧ ذي الحجة ١٣٤٩ هـ (٢٧ ايلول ١٩٣٠ - ٤ أيار ١٩٣١ م).

٨ - عصمت إينونو السادسة ١٧ ذي الحجة ١٣٤٩ - ٢٦ ذي القعدة ١٣٥٣ هـ (٤ أيار ١٩٣١ -َ آذار ١٩٣٥ م).

٩ - عصمت إينونو السابعة ٢٦ ذي القعدة ١٣٥٣ - ٢٧ شعبان ١٣٥٦ هـ (١ آذار ١٩٣٥ - ١ تشرين الثاني ١٩٣٧ م).

١٠ - محمود جلال بايار الأولى ٢٧ شعبان ١٣٥٦ - ٩ رمضان ١٣٥٧ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٣٨ - ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ م).

هلاك مصطفى كمال

١٢ ـ رفيق سيدام الأولى	٥ ذي الحجة ١٣٥٧ ـ ١٣ صفر ١٣٥٨ هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ ـ ٣ نيسان ١٩٣٩ م).
١٣ ـ رفيق سيدام الثانية	١٣ صفر ١٣٥٨ ـ ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦١ هـ (٣ نيسان ١٩٣٩ ـ ٩ تموز ١٩٤٢ م).
١٤ ـ شكري سراج أوغلو الأولى	٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦١ ـ ٣ ربيع أول ١٣٦٢ هـ (٩ تموز ١٩٤٢ ـ ٩ آذار ١٩٤٣ م).
١٥ ـ شكري سراج أوغلو الثانية	٣ ربيع أول ١٣٦٢ ـ ١٠ رمضان ١٣٦٥ هـ (٩ آذار ١٩٤٣ ـ ٧ آب ١٩٤٦ م).
١٦ ـ رجب بكر	١٠ رمضان ١٣٦٥ ـ ٢٤ شوال ١٣٦٦ هـ (٧ آب ١٩٤٦ ـ ١٠ ايلول ١٩٤٧ م).
١٧ ـ حسن السقا الأولى	٢٤ شوال ١٣٦٦ ـ ٣ شعبان ١٣٦٧ هـ (١٠ ايلول ١٩٤٧ ـ ١٠ حزيران ١٩٤٨ م).
١٨ ـ حسن السقا الثانية	٣ شعبان ١٣٦٧ ـ ١٧ ربيع الأول ١٣٦٨ هـ (١٠ حزيران ١٩٤٨ ـ ١٦ كانون الثاني ١٩٤٩ م).
١٩ ـ شمس الدين غونالتاي	١٧ ربيع الأول ١٣٦٨ ـ ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ ١٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ـ ٢٢ أيار ١٩٥٠ م).

الفصل الثاني

الجمهوريّة النّيابيّة

محمود جلال بايار

عانى السكان كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية من ظروف الحرب، وإن لم تشترك فيها تركيا، إلا أن العالم كله قد قاسى من ويلات الحرب، كما عانى السكان من ضغط الحزب الحاكم واستبداده، وسيره على نهج مصطفى كمال، ومحاولة المتاجرة باسمه والرفع من شأنه من جديد، ومن الصعوبة على الإنسان بمكان أن يسمع الثناء على الرجل السيء. فلما انتهت الحرب أعطى الحزب السكان شيئاً من الحرية، ووقع خلاف بين رئيس الجمهورية عصمت إينونو وبين محمود جلال بايار أدّى إلى انشقاقٍ في داخل الحزب وكانت النهاية أن شكّل محمود جلال بايار الحزب الديمقراطي.

رغم أن الحزبين ينبعان من مشكاةٍ واحدةٍ ويسيران على نهج مصطفى كمال إلا أن الناس قد كرهوا كلمة حزب الشعب الجمهوري لأنه يحمل ذكرى مؤسسه مصطفى كمال لذا فقد أيدّوا الحزب الديمقراطي لا حباً به ولا بمبادئه وإنما كرهاً بحزب الشعب الجمهوري، وهذا ما جعل الديمقراطيين يحصلون على سبعين مقعداً في المجلس النيابي إثر الانتخابات التي جرت بعد الحرب العالمية الثانية وذلك من أصل أربعمائة وستة عشر مقعداً، وإذا كانت هذه النسبة قليلةً إلا أنها تعد جيدةً حسب عمر الحزب إضافةً إلى تدخل الحكومة لمصلحة مرشحيها.

أخذت الحكومة تضطهد أعضاء الحزب فتدخّل رئيس الجمهورية

عصمت إينونو وأراد إظهار الحرية ما دام لا يخشى على شيءٍ فالحزبان من أصلٍ واحدٍ كما ذكرنا، وهذا ما دعا رجب بكر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة حكومته، وشكل حسن السقا وزارتين متتابعتين وكان يميل إلى إعطاء الحرية أكثر من سلفه وهذا ما ساعد على زيادة شعبية الديمقراطيين، كما كانت هذه الحرية مجالاً لظهور حزب آخر جديد هو الحزب القومي. ولما عهد إلى شمس الدين غونالتاي بتشكيل الوزارة وأعطى مزيداً من الحرية، وجرت الانتخابات النيابية فاز الحزب الديمقراطي، وحصل على الأغلبية في المجلس، وجرت انتخابات رئاسة الجمهورية فنجح بها محمود جلال بايار[1] فكان ثالث رئيس جمهوريةٍ في تركيا، وعهد إلى عدنان مندريس بتشكيل الوزارة.

شكّل عدنان مندريس وزارته الأولى[2] في ٥ شعبان ١٣٦٩هـ (٢٢ أيار

---

(١) ولد محمود جلال بايار عام ١٣٠٤ هـ في إحدى ضواحي مدينة (بورصة)، ودرس المالية والاقتصاد في مدرسة يهودية فرنسية، وعمل في مصرف الشرق الألماني، وخدم جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح أمين عام فرع أزمير لتلك الجمعية، وبعد الحرب العالمية الأولى انضم الى حركة مصطفى كمال، وانتخب عضواً في المجلس النيابي التركي نائباً عن مدينة ازمير عام ١٣٣٩ هـ، واشترك في عدة وزارات، ثم شكل الوزارة مرتين عام ١٣٥٦ هـ، وتوفي مصطفى كمال، ومحمود جلال بايار رئيساً للوزارة، وبعدها اختلف مع عصمت إينونو، وشكل بعد الحرب العالمية الثانية الحزب الديمقراطي الذي نجح في الانتخابات الثانية التي خاضها، وأوصل محمود جلال بايار إلى رئاسة الدولة.

(٢) شكل عدنان مندريس وزارته الأولى على النحو الآتي:

١ - عدنان مندريس: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ - صامد آغا أوغلو: نائباً لرئيس الوزراء في ١٩ شعبان ١٣٦٩ هـ.
٣ - فوزي لطفي قره عثمان أوغلو: وزيراً للدولة في ٢٦ رمضان ١٣٦٩ هـ.
٤ - خليل أوزويورك: وزيراً للعدل.
٥ - رفيق شوكت إنجه: وزيراً للدفاع.
٦ - ركن الدين نصوح أوغلو: وزيراً للداخلية.
٧ - فؤاد كوبرولي: وزيراً للخارجية.
٨ - خليل عيان: وزيراً للمالية.

=

١٩٥٠ م)، وكانت تتألف من شخصياتٍ جديدةٍ ما دام قد تسلّم الحزب السلطة لأول مرةٍ، غير أن صلاحيات الوزارة كانت واسعةً أذ أن شخصية رئيسها فذّة، ولم يتدخّل رئيس الجمهورية في شؤون الحكم والسياسة الخارجية عامةً وإنما كان رئيس الحكومة هو الذي يتصرّف بهذا كله. ولم يتغيّر شيء بالنسبة الى سياسة الدولة الخارجية ما دام هذا الحزب لا يختلف عن سابقه إذ هما من أصلٍ واحدٍ، فالتوجّه نحو الغرب محور هذه السياسة غير أنه قد زاد النفوذ الأمريكي أو بالأحرى بدأت الولايات المتحدة تدخل إلى الساحة التركية عن طريق الدعم الاقتصادي، وكانت من قبل مقتصرةً على النفوذ الإنكليزي الذي اصطنع مصطفى كمال من قبل. وبالواقع فإن هذه المرحلة كانت هناك سياسة امريكية قائمة هدفها أن يحلّ النفوذ الأمريكي محلّ نفوذ أصدقائه الإنكليز والفرنسيين ليجعلهم يدورون في فلكه هم وبقية أعضاء دول حلف شمالي الأطلسي حتى يكون فيه رأس واحد تنبع منه السياسة العامة ويستطيع توجيه الحلف إلى الجهة التي يريد،

= ٩ - حسن بولادكان: وزيراً للمالية في ٥ ربيع الأول ١٣٧٠ هـ.

١٠ - عوني باشمان: وزيراً للمعارف.

١١ - توفيق إليري: وزيراً للمعارف في ٢٧ شوال ١٣٦٩ هـ.

١٢ - فخري بلين: وزيراً للمنافع.

١٣ - كمال زيتين أوغلو: وزيراً للمنافع في ١٣ ربيع الأول ١٣٧٠ هـ.

١٤ - زهدي وليبش: وزيراً للتجارة.

١٥ - نهاد رشاد بلجر: وزيراً للصحة.

١٦ - أكرم خيري استنداغ: وزيراً للصحة في ٧ ذي الحجة ١٣٦٩ هـ.

١٧ - نوري أوزسان: وزيراً للجمارك.

١٨ - نهاد ايريبوز: وزيراً للزراعة.

١٩ - توفيق ايلري: وزيراً للمواصلات.

٢٠ - سيفي كورتبيك: وزيراً للمواصلات في ٢٧ شوال ١٣٦٩ هـ.

٢١ - حسن بولادكان: وزيراً للعمل.

٢٢ - خلوصي كومن: وزيراً للعمل في ٥ ربيع الأول ١٣٧٠ هـ.

٢٣ - مخلص اتي: وزيراً للتشغيل.

كما هي الحال في حلف (وارسو) الذي تنبع سياسته من روسيا، ولا يعرف موجهاً له إلا هي.

وفي الأول من جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ (٩ آذار ١٩٥١ م) أعاد عدنان مندريس تشكيل حكومته[1]. وأعلنت الحكومة انحيازها إلى الغرب

---

(١) أعاد عدنان مندريس تشكيل حكومته على النحو الآتي:
١ - عدنان مندريس: رئيساً لمجلس الوزراء.
٢ - صامد آغا أوغلو: نائباً لرئيس مجلس الوزراء.
٣ - فتحي جلكباش: نائباً لرئيس مجلس الوزراء في ٢٤ رجب ١٣٧٢ هـ.
٤ - رفيق شوكت انجه: وزيراً للدولة.
٥ - فوزي لطفي قره عثمان أوغلو: وزيراً للدولة في ١٤ رمضان ١٣٧٠ هـ.
٦ - معمر علاء كنت: وزيراً للدولة في ١٣ صفر ١٣٧٢ هـ.
٧ - جلال يرديمجي: وزيراً للدولة في ٢٤ رجب ١٣٧٢ هـ.
٨ - ركن الدين نصوح أوغلو: وزيراً للعدل.
عثمان شوقي جحك داغ: وزيراً للعدل في ٢٢ صفر ١٣٧٢ هـ.
٩ - خلوصي كومن: وزيراً للدفاع.
سيفي كورتبيك: وزيراً للدفاع في ٢٢ صفر ١٣٧٢ هـ.
كنعان يلماز: وزيراً للدفاع في ٢٤ صفر ١٣٧٣ هـ.
١٠ - خليل أوزويورك: وزيراً للداخلية.
فوزي لطفي قره عثمان أوغلو: وزيراً للداخلية في ٤ ربيع الأول ١٣٧١ هـ.
عتم مندريس: وزيراً للداخلية في ١١ ذي القعدة ١٣٧١ هـ.
١١ - فؤاد كوبرولي: وزيراً للخارجية.
١٢ - حسن بولادكان: وزيراً للمالية.
١٣ - توفيق ايلري: وزيراً للمعارف.
رفقي سالم برجاق: وزيراً للمعارف في ٢٤ رجب ١٣٧٢ هـ.
١٤ - كمال زيتين أوغلو: وزيراً للمنافع.
١٥ - مخلص آتي: وزيراً للاقتصاد.
أنور قورلي: وزيراً للاقتصاد في ١٣ صفر ١٣٧٢ هـ.
فتحي جلكباش: وزيراً للاقتصاد في ١٥ رمضان ١٣٧٢ هـ.
١٦ - أكرم خيري استنداغ: وزيراً للصحة.
١٧ - رفقي سالم برجاق: وزيراً للجمارك. =

إذ انضمّت إلى حلف شمالي الأطلسي عام ١٣٧١ هـ، ثم عقدت معاهدة صداقةٍ مع اليونان ثم مع يوغوسلافيا[1] عام ١٣٧٣ هـ، ثم لم تلبث هذه المعاهدات أن أدّت إلى ظهور حلف عام ١٣٧٤ هـ عُرف باسم «حلف البلقان» إذ كانت السياسة الغربية تعمل آنذاك على إحاطة دولة الإمبراطورية الروسية بمجموعةٍ من الأحلاف كي تحصرها في المناطق التي تُسيطر عليها فقط. وفي الوقت الذي أخذت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تدعم الحزب الديمقراطي كان النفوذ الإنكليزي لا يزال موجوداً ويتمثّل في حزب الشعب الجمهوري، وفي الوقت الذي تتفق فيه السياسة الغربية كلها في حمل تركيا على اتباع سياسةٍ غربيةٍ واضحةٍ تماماً وقد تمثّل هذا في انضمامها إلى حلف شمالي الأطلسي، إلا أنه كان هناك تنافس بين دولٍ غربيةٍ في حمل تركيا للسير في فلكها وقد تمثل في المناقشة بين الحزبين الرئيسيين الحزب الديمقراطي، وحزب الشعب الجمهوري. وفي هذه الأثناء وقعت اتفاقية الجلاء بين مصر وانكلترا وكان من بنودها أنه إذا جرى اعتداء على البلدان العربية أو تركيا فإن لانكلترا الحقّ في العودة

= نوري أوز سان: وزيراً للجمارك في ٢٦ محرم ١٣٧١ هـ.
صدقي يرجالي: وزيراً للجمارك في ٤ ربيع أول ١٣٧١ هـ.
أمين كالافات: وزيراً للجمارك في ٢٤ رجب ١٣٧٢ هـ.
١٨ - نديم أوكمن: وزيراً للزراعة.
١٩ - سيفي كورتيبك: وزيراً للمواصلات.
يمنو أورسين: وزيراً للمواصلات في ٢٢ صفر ١٣٧٢ هـ.
٢٠ - نوري أوزسان: وزيراً للعمل.
صامد آغا أوغلو: نائب وزير العمل في ٢٢ صفر ١٣٧٢ هـ.
خير الدين أركمن: وزيراً للعمل في ٢٤ رجب ١٣٧٢ هـ.
٢١ - حقي غديق: وزيراً للتشغيل.
صدقي يرجالي: وزيراً للتشغيل في ٢٩ ذي الحجة ١٣٧١ هـ.

(١) يوغوسلافيا: دولة شيوعية من حيث النظام، غربية من حيث السياسة أو بالأحرى اشتراكية أمريكية.

إلى قناة السويس وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على الارتباط الوثيق بين الحكم التركي والدول الغربية وعلى رأسها انكلترا ثم الولايات المتحدة الأمريكية[1].

وفي منتصف شهر رمضان ١٣٧٣ هـ (١٧ أيار ١٩٥٤ م) أعاد عدنان مندريس تشكيل الحكومة من جديد[2]. وكانت تركيا في هذه

---

(١) يرجع إلى الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب (وادي النيل).

(٢) شكل عدنان مندريس حكومته الثالثة على النحو الآتي:

١ ـ عدنان مندريس: رئيساً للوزراء.
٢ ـ فاتح رشدي زورلو: نائباً لرئيس الوزراء.
فؤاد كوبرولي: نائباً لرئيس الوزراء في ١٠ ذي الحجة ١٣٧٤ هـ.
٣ ـ مكرم سارول: وزيراً للدولة.
٤ ـ عتم مندريس: وزيراً للدولة في ٢٨ محرم ١٣٧٥ هـ.
٥ ـ فخر الدين أولاش: وزيراً للدولة في ١٣ صفر ١٣٧٥ هـ.
٦ ـ عثمان كاباني: وزيراً للدولة.
٧ ـ عثمان شوقي جحك داغ: وزيراً للعدل.
٨ ـ عتم مندريس: وزيراً للدفاع.
٩ ـ نامق غاديق: وزيراً للداخلية.
١٠ ـ عتم مندريس: وزيراً للداخلية في ١٣ صفر ١٣٧٥ هـ.
١١ ـ فؤاد كوبرولي: وزيراً للخارجية.
١٢ ـ حسن بولادكان: وزيراً للمالية.
١٣ ـ جلال يرديمجي: وزيراً للمعارف.
١٤ ـ كمال زيتين أوغلو: وزيراً للنافعة.
١٥ ـ صدقي يرجالي: وزيراً للتجارة.
١٦ ـ بهجت أوزو: وزيراً للصحة.
١٧ ـ أمين كالافات: وزيراً للجمارك.
١٨ ـ نديم أوكمن: وزيراً للزراعة.
١٩ ـ معمر جاويش أوغلو: وزيراً للمواصلات.
٢٠ ـ خير الدين أركمن: وزيراً للعمل.
٢١ ـ فتحي جاليك باش: وزيراً للتشغيل.
٢١ ـ فتحي جاليك باش: وزيراً للتشغيل.
صامد آغا أوغلو: وزيراً للتشغيل في ١١ ربيع الثاني ١٣٧٤ هـ.

المرحلة ضمن أعضاء حلف بغداد الذي ضمّ تركيا، وإيران، والعراق، وباكستان لاحاطة الامبراطورية الروسية من الجنوب، ويبدو أن أفغانستان قد تركت منذ ذلك الوقت لتبتلعها روسيا إذ لم تُدع للانضمام إلى ذلك الحلف، وكان رئيس الوزراء محمد داود يُظهر تعاطفاً مع الشيوعية، وكانت روسيا والصين لا تزلان ضمن خطٍ واحدٍ، ولم يكن الخلاف قد وقع بينهما بعد، وتتلقى أفغانستان مساعداتٍ روسية ضخمة وقد وصلت إلى ٦٥٪ من مجموع المساعدات على حين أن المساعدات الأمريكية لم تزد يومذاك على ٢٣٪ من مجموع المساعدات التي تتلقّاها أفغانستان من الخارج، كما اتفقت روسيا والصين على شقّ الطرق داخل الأراضي الأفغانية. ولما انسحبت العراق من حلف بغداد بعد إلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية بحركةٍ من الجيش في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ (١٤ تموز ١٩٥٨ م) أصبح الحلف يسمى بالحلف المركزي.

وفي ٢٤ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٩ كانون الأول ١٩٥٥م) أعاد عدنان مندريس تشكيل الوزارة من جديد[1] وقد أُثيرت في عهد هذه الوزارة

---

(١) شكل عدنان مندريس وزارته الرابعة على النحو الآتي:

١ - عدنان مندريس: رئيساً لوزراء، ووزيراً للدفاع.
٢ - محمد جميل بنكو: وزيراً للدولة.
٣ - شامي أركين: وزيراً للدولة.
٤ - فاتن رشدي زرلو: وزيراً للدولة.
٥ - أمين كالافات وزيراً للدولة.
٦ - جلال يرديمجي: وزيراً للدولة.
٧ - حسين عوني كوكتورك: وزيراً للعدل.
٨ - شامي أركين: وزيراً للدفاع في ١ محرم ١٣٧٧ هـ.
٩ - عتم مندريس: وزيراً للداخلية.
نامق غاديق: وزيراً للداخلية في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٦ هـ.
١٠ - فؤاد كوبرولي: وزيراً للخارجية.
١١ - نديم أكمن: وزيراً للمالية.

=

النعرات العصبية بين تركيا وسوريا، إذ لم تقبل الحكومة السورية في هذه الآونة الانضمام إلى حلف بغداد تحت ضغط الشعب فأُثيرت تلك النعرات وكادت تقع الحرب بين الطرفين، وجرت الاستعدادات وحفرت الخنادق، وشُحن الناس، ولكن الله سلّم ولم تحدث تلك الاصطدامات التي كانت مُتوقّعةً.

وأما من جهة السياسة الداخلية فلم تختلف هذه المرحلة عن سابقتها في السير في طريق العلمانية، والعصبية القومية، ومُعاداة الإسلام، وقد سبق أن ذكرنا أن أساس الحزبين واحدٍ، ويلتقيان عند مصطفى كمال، ويزاود كلاهما الآخر بالسير على نهج باعث تركيا الحديثة على حدّ تعبيرهم، فهما ينبعان من أصلٍ واحدٍ، ويسيران على نهجٍ واحد، ويتبعان السياسة الغربية، وإن افترقا بالدوران في أفلاكها، إذ خضع أحدهما للضغط الأمريكي بينما لا يزال الآخر يخضع للنفوذ الإنكليزي.

= ١٢ ـ حسن بولادكان: وزيراً للمالية في ١ جمادى الأولى ١٣٧٦ هـ.
١٣ ـ أحمد أوزال: وزيراً للمعارف.
١٤ ـ توفيق إيلري: وزيراً للمعارف في ١٣ رمضان ١٣٧٦ هـ.
١٥ ـ معمر جاويش أوغلو: وزيراً للنافعة.
١٦ ـ عثم مندريس: وزيراً للنافعة في ٨ ربيع الأول ١٣٧٦ هـ.
١٧ ـ فخر الدين ألاش: وزيراً للتجارة.
١٨ ـ زيات منداليتجي: وزيراً للتجارة في ٢٧ رمضان ١٣٧٥ هـ.
عبد الله عكر: وزيراً للتجارة في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٧٦ هـ.
١٩ ـ نايف كورز: وزيراً للصحة.
٢٠ ـ هادي حسمان: وزيراً للجمارك.
٢١ ـ أسد بوداك أوغلو: وزيراً للزراعة.
٢٢ ـ عارف دميرار: وزيراً للمواصلات.
٢٣ ـ ممتاز ترهان: وزيراً للعمل.
٢٤ ـ صامد آغا أوغلو: وزيراً للتشغيل.
صامد آغا أوغلو: وزيراً للصناعة في ٧ صفر ١٣٧٧ هـ.

وفي الثالث من جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٧ م) شكّل عدنان مندريس وزارته الخامسة والأخيرة[١].

---

(١) شكل عدنان مندريس وزارته الأخيرة على النحو الآتي:

١ ـ عدنان مندريس: رئيساً للوزراء.

٢ ـ توفيق إيلري: نائباً لرئيس الوزراء.

٣ ـ مدني برك: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة في ١١ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ.

٤ ـ صامد آغا أوغلو: وزيراً للدولة في ٢٠ صفر ١٣٧٨ هـ.

٦ ـ أمين كالافات: وزيراً للدولة.

٧ ـ عبد الله عكر: وزيراً للدولة في ٢٠ صفر ١٣٧٨ هـ.

٨ ـ مظفر قربان أوغلو: وزيراً للدولة.

٩ ـ عزت أكجل: وزيراً للدولة في ١ جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ.

١٠ ـ أسد بوداك أوغلو: وزيراً للعدل.

١١ ـ جلال يرديمجي: وزيراً للعدل في ٧ شوال ١٣٧٩ هـ.

١٢ ـ شامي أركين: وزيراً للدفاع.

١٣ ـ عتم مندريس: وزيراً للدفاع في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٧٧ هـ.

١٤ ـ نامق غاديق: وزيراً للداخلية.

١٥ ـ فاتن رشدي زرلو: وزيراً للخارجية.

١٦ ـ حسن بولادكان: وزيراً للمالية.

١٧ ـ جلال يرديمجي: وزيراً للمعارف.

١٨ ـ عاطف بندرلي أوغلو: وزيراً للمعارف في ٩ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ.

١٩ ـ عتم مندريس: وزيراً للنافعة.

٢٠ ـ توفيق ايلري: وزيراً للنافعة في ٢٨ جمادى الآخره ١٣٧٧ هـ.

٢١ ـ عبد الله عكر: وزيراً للتجارة.

٢٢ ـ خير الدين إركمن: وزيراً للتجارة في ٢٠ صفر ١٣٧٨ هـ.

٢٣ ـ لطفي كردار: وزيراً للصحة.

٢٤ ـ هادي حسمان: وزيراً للجمارك.

٢٥ ـ نديم أكمن: وزيراً للزراعة.

٢٦ ـ فوزي أجانار: وزيراً للمواصلات.

٢٧ ـ مظفر قربان أوغلو: وزيراً للمواصلات في ١ جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ.

٢٨ ـ شامي اركين: وزيراً للمواصلات في ٩ جمادى الآخره ١٣٧٩ هـ. =

تأخرت الأوضاع الاقتصادية في البلاد، وتلقّت الحكومة مساعداتٍ كبيرة من الولايات المتحدة الأمريكية دعماً للحزب الديمقراطي الذي يسير في خطٍ موازٍ لسياستها ودعماً لنفوذها في تركيا، ومع هذه المساعدات فإن التدهور الاقتصادي أصبح واضحاً فتضايق السكان وهذا ما قوّى المعارضة المُتمثّلة في حزب الشعب الجمهوري، فقامت الحكومة بإلغاء هذا الحزب المعارض، واعتقلت أعضاءه البارزين، وصادرت أملاكه ومؤسساته، وعملت على كسب ثقة المسلمين الملتزمين الناقمين على السياسة الكمالية وحزب الشعب الجمهوري فأخذت تتقرّب منهم ولكن ذلك لم يفدها شيئاً كثيراً إذ أخذت شعبيتها تتراجع باستمرار.

تأسس حزب الحرية عام ١٣٧٥ هـ، كما تأسّس الحزب القومي الجمهوري غير أن المراقب يُلاحظ أن هذا الحزب ليس هو إلا حزب الشعب الجمهوري الملغى، ويبدو هذا من أعضائه البارزين، وقد اندمج هذان الحزبان مع حزب الفلاحين الجمهوري الذي نشأ حديثاً أيضاً، وشكّل الأحزاب الثلاثة حزباً واحداً بل جبهة واحدةً للمعارضة واتخذت الوسائل المختلفة لمواجهة الحكومة ومنها المظاهرات غير أن الحكومة قد تصدّت لذلك، وقامت بكل وسائل القمع، وهذا ما جعلها تخسر كثيراً في

---

٢٩ ـ خير الدين إركمن: وزيراً للعمل.
٣٠ ـ خلوق شامان: وزيراً للعمل في ٦ ذي الحجة ١٣٧٨ هـ.
٣١ ـ صامد آغا أوغلو: وزيراً للصناعة.
٣٢ ـ صدقي يرجالي: وزيراً للصناعة في ٢٣ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ.
٣٣ ـ ثابت عثمان: وزيراً للصناعة في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ.
٣٤ ـ صدقي يرجالي: وزيراً للاعلام.
٣٥ ـ ثروت سومان أوغلو: وزيراً للإسكان في ٢٣ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ.
٣٦ ـ مدني برك: وزيراً للإسكان.
٣٧ ـ خير الدين اركمن: وزيراً للإسكان في ١١ جمادى الآخره ١٣٧٩ هـ.
٣٨ ـ ثابت عثمان: وزيراً للتخطيط في ٢٣ ذي الحجة ١٣٧٧.
٣٩ ـ عبد الله عكر: وزيراً للتخطيط في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٧٩.

انتخابات عام ١٣٧٧ هـ غير أنه قد بقي الحزب الديمقراطي صاحب الأكثرية وله الحقّ في استلام السلطة حسب قواعد النظام النيابي المعروف بـ (الديمقراطي).

تأثّرت الحكومة من المعارضة فادّعت عام ١٣٧٩ هـ أن هناك مؤامرةً من تسعةٍ من الضباط للإطاحة بنظام الحكم، وزجّت بأعدادٍ من الناس في السجون في سبيل تخفيف وطأة المعارضة. واضطر الحزب إلى التراجع عن عدائه للإسلام، فسمح بقراءة القرآن الكريم بالإذاعة وكان محرّماً قبل ذلك، وقام بافتتاح بعض المدارس الشرعية، كما أحدث الكلية الإسلامية في مدينة أنقرة. وظنّت السلطة أن هذه الإجراءات التي قامت بها كافية للحصول على تأييد شعبيٍ واسعٍ لذا فقد دعت إلى الانتخابات عام ١٣٧٩ هـ، غير أنه أثناء الاستعدادات والدعاية الانتخابية تبيّن أنه ربما حصلت المعارضة على نتائج أفضل وربما لم يحصل الحزب الديمقراطي على الأغلبية النيابية المطلوبة أو التي كان يحلم بها لذا فقد اتخذت الحكومة بعض الإجراءات التي تعرقل نشاط المعارضة، وكان منها منع عصمت إينونو من دعايته الانتخابية غير أنه لم تمض سوى عدة أسابيع حتى قام الجيش بالتدخل في الأمر وقلب الوضع برئاسة رئيس الأركان اللواء جمال غورسيل في ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ (٢٧ أيار ١٩٦٠ م).

ويلاحظ أن المدة التي حكم فيها الحزب الديمقراطي وهي مدة تزيد على عشر سنوات من ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ إلى ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ لم يتسلّم فيها رئاسة الوزارة إلا عدنان مندريس وقد شكّل خلالها خمس وزارات متتابعة، كما أن رئيس الجمهورية كان محمود جلال بايار مدة هذه المرحلة كلها.

الانقلاب العَسكريّ الأوّل
جَمَال غورْسِيل

أرادت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية أن تتزعّم الدول الغربية وتجعلها تدور في فلكها كي تكون كروسيا بالنسبة إلى المعسكر الشرقي، ولكنها لن تستطيع ذلك حتى تُضعف تلك الدول، ولن تستطيع إضعافها إلا إذا جرّدتها من مستعمراتها ومناطق نفوذها، ولن تتمكّن هي أن تتزعّم تلك الدول إلا إذا قويت لدرجةٍ تجعلها بحاجةٍ إليها عسكرياً واقتصادياً وأفضل طريقةٍ لها أن تحلّ محلّ حلفائها في مستعمراتها ومناطق نفوذها، وبذلك لم تُفقد حلف شمالي الأطلسي شيئاً وإنما ينتقل النفوذ والسيطرة من يد دولةٍ في ذلك الحلف إليها وهي أيضاً من أعضائه بل على رأس تلك الأعضاء.

وقد اتّبعت الولايات المتحدة عدة طرقٍ لتحلّ محلّ حلفائها في المستعمرات ومناطق النفوذ، ومنها دعم جماعةٍ سياسيةٍ أو حزبٍ من الأحزاب والعمل على تسلّمه السلطة ثم السير حسب توجيهها أو التنسيق معها قبل القيام بأي عملٍ، ومنها السيطرة الاقتصادية وجعل تلك الدولة مرتبطةً بها اقتصادياً ثم سياسياً، وأخيراً هناك الانقلابات العسكرية إن لم تُجد الوسائل السابقة أو لم يكن من سبيل إليها.

لقد دعمت الولايات المتحدة الحزب الديمقراطي في تركيا وسار أشواطاً حسب رغباتها، وأمّدت الدولة بمساعداتٍ اقتصاديةٍ، ونُفّذ المخطط غير أنه

لم ينجح تماماً نتيجة المزاج الخاص برئيس الحكومة عدنان مندريس وكبار رجالات حزبه إذ كانوا ينزعون إلى الاستقلالية في الرأي والتوجيه وإلى حبّ التحكّم وعدم قبول المعارضة، وهذا ما أدّى إلى الاستبداد والضغط على المعارضة ومقاومة الانتقاد حتى أُلغي حزب الشعب الجمهوري المعارض وصودرت أملاكه ومؤسساته، واعتقل أعضاؤه، ومُنع زعيم المعارضة عصمت إينونو من الدعاية الانتخابية لنفسه وهذا ما لم يتحمّله الشعب فتحرّكت المظاهرات، فقُمعت بعنفٍ.

خشيت الولايات المتحدة هزيمة الحزب الديمقراطي والعودة إلى ما كانت عليه الحالة قبل الحرب العالمية الثانية من استئثار انكلترا بالنفوذ، وكانت المؤشرات تدلّ على ذلك إذ بدأت تتراجع أصوات الحزب الديمقراطي في الانتخابات، ويتقدّم حزب الشعب الجمهوري، ويفقد الحكم شعبيته التي كانت له، وتقوم المظاهرات ضدّه.

وخشيت الولايات المتحدة الأمريكية من نشاط الحركة الشيوعية التي تترعرع في الوسط الفوضوي وهذا ما تسير نحوه تركيا، وتنمو الفكرة الاشتراكية في البيئة الفقيرة وتُعاني تركيا كثيراً من البؤس، ويمكن أن تبرز الشيوعية أو يُساعدها على الحركة انعدام العقيدة وخاصةً الإسلام، وقد عملت النصرانية في أوربا خاصةً وأعداء الإسلام عامةً على نزع الإسلام من نفوس الشعب التركي مدة أكثر من خمسين سنةً، من اليوم الذي استطاعوا فيه بسط نفوذهم على الدولة العثمانية وإحلال العصبية القومية محل الفكرة الإسلامية عن طريق جمعية الاتحاد والترقي، ثم إلغاء الخلافة، وتقطيع أوصالها، وعزل تركيا عن العالم الإسلامي، وتسليط مصطفى كمال الذي شُحن حقداً على عقيدة الأمة، ومحاربة الإسلام بالوسائل جميعها، وتقليد أوربا النصرانية بالعادات والتقاليد وقد أحسّ زعماء الحزب الديمقراطي في نهاية أمرهم بهذا الجانب فأوقفوا أو خفّفوا هجومهم على الإسلام.

وخشيت الولايات المتحدة الأمريكية من عودة الفكرة الإسلامية إلى سابق عهدها بعد وقف الحملات ضدّ الإسلام، وربما كان هذا أكثر ما تخشاه النصرانية أو الصليبية العالمية ومن بينها دولة الولايات المتحدة الأمريكية، وإن محاربة الإسلام والضغط على أتباعه من المهمات الرئيسية للدول النصرانية وربما كانت المهمة الأساسية التي تنطلق منها السياسة الخارجية، وتقوم عليها المخططات، وتتحرّك اللعبة الدولية لتحقيقها.

وجدت الولايات المتحدة أن الحلّ المفروض عليها والذي لا تجد منه بدّاً القيام بانقلابٍ عسكريٍ توطّد به نفوذها، وتقضي به على نفوذ غيرها، وتتابع مهمتها في عداوتها للإسلام، وتحتوي الأحزاب المعارضة لنفوذها أو تبدّل قيادتها بعناصر جديدة ترضخ للأمر الواقع وكان الانقلاب في ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ بقيادة رئيس الأركان جمال غورسيل[١]. أما أعوان الولايات المتحدة السابقين فقد تخلّت عنها، فماذا يربطها بهم إلا العمالة؟ ومتى كان النعل لا يُلقى بعد اهترائه؟ وهل كانوا إلا نعالاً في أرجلها؟ ويجب أن يعلم هذا أعوان الأعداء إذ يُسخّرون لأداء مهمةٍ معينةٍ وتنفيذ دورٍ محدّدٍ ثم يُلقى بهم على الدمن، ويجب أن يعتبروا من الأحداث التي تكرّرت فيكونوا أمناء لأمتهم أعداءً لخصومها. قُبض على عدنان مندريس وأُعدم مع اثنين من وزرائه: وزير الخارجية فاتن رشدي زرلو، ووزير المالية حسن بولادكان، أما رئيس الجمهورية محمود جلال بايار فقد خُفّف عنه حكم الإعدام لكبر سنه واستبدل بالسجن المؤبّد حيث قضى نحبه عام ١٣٩١ هـ، وأُسدل الستار على حكام تركيا في السنين العشرة الماضية.

---

(١) جمال غورسيل: من ضباط مصطفى كمال القدماء، كان معه في غاليبولي، وبقي على نهجه، وأيد الحزب الديمقراطي، وتسلّم أثناء حكمه رئاسة الأركان، فكان ضمن الخط الذي يسير عليه ذلك الحزب، فأمكن الاتصال به، والتخطيط معه للقيام بانقلابٍ عسكريٍ، شكّل وزارتين، ثم تسلم رئاسة الجمهورية عام ١٣٨١ هـ وتوفي عام ١٣٩١ هـ.

شكّل جمال غورسيل لجنة الاتحاد الوطني لتُشرف على الحكم، وبعد ثلاثة أيام من الانقلاب عهدت هذه اللجنة إلى جمال غورسيل لتشكيل الوزارة[1].

---

(١) شكل جمال غورسيل وزارته الأولى على النحو الآتي:

١ - جمال غورسيل: رئيساً للوزارة، ووزير دولة، ووزيراً للدفاع الوطني.

٢ - فخري أوزديلك: نائباً لرئيس الوزارة ووزيراً للدولة.

٣ - عامل أرطس: وزيراً للدولة.

٤ - شفيق عنان: وزيراً للدولة.

٥ - خيري موجي أوغلو: وزيراً للدولة.

٦ - ناصرزيتين أوغلو: وزيراً للدولة.

٧ - عبد الله كوزوبيوك: وزيراً للعدل.

عامل أرطس: وزيراً للعدل في ٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

٨ - محرم إحسان قزيل أوغلو: وزيراً للداخلية.

٩ - سليم ساربر: وزيراً للخارجية.

١٠ - أكرم علي جان: وزيراً للمالية.

كمال كورداش: وزيراً للمالية في ٨ رجب ١٣٨٠ هـ.

١١ - فهمي ياووز: وزيراً للمعارف.

بدر الدين تونجل: وزيراً للمعارف في ١٩ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

١٢ - فخري أوزديلك: وزيراً للدفاع الوطني في ١٥ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ.

حسني عثمان: وزيراً للدفاع في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ.

١٣ - دانيش كوپر: وزيراً للنافعة.

مقبل كوكدوغان: وزيراً للنافعة في ٢١ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

١٤ - جهاد إرن: وزيراً للتجارة.

محمد بايدور: وزيراً للتجارة في ١٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

١٥ - نصرت قره صو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.

راغب أونر: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ١٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

١٦ - فتحي إشقين: وزيراً للجمارك.

١٧ - فريدون استون: وزيراً للزراعة.

عثمان طوسون: وزيراً للزراعة في ٧ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

١٨ - صدقي أولاي: وزيراً للمواصلات.

١٩ - جاهد طلس: وزيراً للعمل. =

وأعلن الانقلابيون أنهم لن يستمروا بالحكم وإنما سيسلّمونه إلى المدنيين عندما تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية، وأنهم سيضعون دستوراً للبلاد، وستجري بموجبه الانتخابات النيابية، وأن الذين سيفوزون بالانتخابات هم الذين يتولّون حكم البلاد.

وقد صدق الانقلابيون بوعودهم فلم يقفوا بوجه العمل السياسي المدني إذ رخّصوا بإنشاء حزبٍ جديدٍ هو «حزب العدالة» بزعامة العميد المتقاعد (راغب جوموسبالا) وهذا دليل على أنهم لا يرغبون بالاستئثار بالحكم، ولم يفرضوا حكماً عسكرياً، وذلك خوفاً من الضغط الذي ربما يُولّد انفجاراً أو يُؤدّي إلى نشوء تجمّعات سياسيةٍ مُعارضةٍ لا يعرفها الحكم، ولا يمسك من وراءه بخيوطها فإن هذا ما تخشاه عادةً الدول الكبرى ذات النفوذ في المناطق التي تدور في فلكها. ولما تقرّر ذلك، فلا بدّ من تشكيل حكومةٍ جديدةٍ للإشراف على انتخاباتٍ قادمةٍ بعد وضع الدستور الذي وعد به العسكريون.

عهدت لجنة الاتحاد الوطني إلى جمال غورسيل رئيسها بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] بتاريخ ١٨ رجب ١٣٨٠ هـ (٥ كانون الثاني ١٩٦١ م).

= راشد بشرلر: وزيراً للعمل في ١٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

٢٠ ـ مختار أولوأر: وزيراً للصناعة.

٢١ ـ شهاب قوجاتوبجو: وزيراً للصناعة في ١٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

٢٢ ـ زهدي طرخان: وزيراً للإعلام والسياحة.

٢٣ ـ أورهان كوبات: وزيراً للإعمار والإسكان.

فهمي ياووز: وزيراً للإعمار والإسكان في ٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.

(١) شكل جمال غورسيل حكومته الثانية على النحو الآتي:

١ ـ جمال غورسيل: رئيساً للوزراء.

٢ ـ محرم إحسان قيزيل أوغلو: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة في ٢١ شعبان ١٣٨٠ هـ.

٣ ـ فخري أوزديلك (عضو لجنة الاتحاد الوطني): نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة في ١٥ رمضان ١٣٨٠ هـ. =

اختير مجلس ممثلين كهيئةٍ تأسيسيةٍ، وكلّف خمسة أعضاء منه لوضع مسودةٍ للدستور التركي، وانتهوا من العمل منه، وقدّموه إلى الهيئة التأسيسية فوافقت عليه في مطلع عام ١٣٨١ هـ، وقد نصّ هذا الدستور

=

٤ ـ خيري موبجي أوغلو: وزيراً للدولة.
٥ ـ عدنان أرزي: وزيراً للدولة في ١٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.
٦ ـ ناصر زيتين أوغلو: وزيراً للدولة.
٧ ـ صدقي أولاي (عضو لجنة الاتحاد الوطني): وزيراً للدولة.
٨ ـ أكرم توزمان: وزيراً للعدل.
كمال تركوغلو: وزيراً للعدل في ٦ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ.
مظفر الأنقوش: وزيراً للعدل.
٩ ـ محرم إحسان قيزيل أوغلو: وزيراً للداخلية.
ناصر زيتين أوغلو: وزيراً للداخلية في شعبان ١٣٨٠ هـ.
١٠ ـ سليم ساربر: وزيراً للخارجية.
١١ ـ كمال كورداش: وزيراً للمالية.
١٢ ـ تورهان فيضي أوغلو: وزيراً للتربية الوطنية.
أحمد تختا قليج: وزيراً للتربية في ١٥ رمضان ١٣٨٠ هـ.
١٣ ـ مقبل كوكدوغان: وزيراً للأشغال العامة.
١٤ ـ محمد بايدور: وزيراً للتجارة.
١٥ ـ راغب أونر: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٦ ـ فتحي إشقين: وزيراً للجمارك.
١٧ ـ عثمان طوسون: وزيراً للزراعة والغابات والحيوانات.
١٨ ـ أورهان مرسينلي: وزيراً للمواصلات.
١٨ ـ أحمد تختاقليج: وزيراً للعمل.
جاهد طلس: وزيراً للعمل في ١٥ رمضان ١٣٨٠ هـ.
١٩ ـ شهاب قوجاتوبجو: وزيراً للصناعة.
إحسان صوياك: وزيراً للصناعة في ١٤ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ.
٢٠ ـ جهاد بابان: وزيراً للصحافة والإعلام والسياحة.
ساهر قورتلو أوغلو: وزيراً للصحافة والإعلام والسياحة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٨١ هـ.
٢١ ـ فهمي ياووز: وزيراً للإعمار والإسكان.
رشدي أوزال: وزيراً للإعمار والإسكان في ٢٢ شعبان ١٣٨٠ هـ.

على أن تركيا جمهورية وطنية علمانية اشتراكية تقوم على مراعاة حقوق الإنسان وحكم القانون. وتتكوّن الجمعية الوطنية الكبرى من مجلسين: أحدهما للنواب والآخر للشيوخ.

أما مجلس النواب فيضم أربعمائه وخمسين نائباً، ينتخبون لمدة أربع سنوات. وأما مجلس الشيوخ فيضمّ مائة وأربعةً وثمانين عضواً، يُؤخذ مائة وخمسون عضواً منهم عن طريق الانتخاب على أن ينتخب ثلثهم (خمسين عضواً) كل سنتين، أي أن مدة العضوية ست سنواتٍ، ويُعيّن رئيس الجمهورية خسمة عشر عضواً منهم، أما الباقي وهو تسعة عشر عضواً فهم أعضاء لجنة الاتحاد الوطني.

وينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبع سنواتٍ في جلسةٍ مشتركةٍ للجمعية الوطنية الكبرى (مجلسا النواب والشيوخ)، ويجب أن يكون في عداد أعضاء مجلس الشيوخ، ويشترط أن يستقيل من الحزب الذي ينتمي إليه فور انتخابه، وينصّ الدستور على فوز المرشح لرئاسة الجمهورية بالحصول على ثلثي الأصوات في دورتي الانتخاب الأولى والثانية، وبالأكثرية المطلقة في الدورات التالية (النصف + ١) أي ٣١٨ صوتاً.

وتقسم تركيا إلى سبعٍ وستين ولايةً، يحكم كلاً منها والٍ، يُعيّن من قبل الحكومة، ويعدّ مسؤولاً أمام وزير الداخلية، ولكل ولايةٍ مجلس ينتخبه سكانها انتخاباً مباشراً، ويختلف عدد أعضائه حسب عدد سكان الولاية، وتنقسم كل ولايةٍ إلى عددٍ من المراكز يختلف حسب مساحتها.

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٨١ هـ، وحصل حزب الشعب الجمهوري الذي عاد إلى الساحة مرةً ثانيةً على ١٧٣ مقعداً، على حين حصل حزب العدالة على ١٥٨ مقعداً، وافتتح المجلس النيابي، وانتخب جمال غورسيل رئيساً للجمهورية، وكان المرشح الوحيد، إذ قلما أن تكون هناك منافسة لمرشحٍ عسكريٍ على رئاسة الجمهورية فإن حدثت غالباً ما

تكون العاقبة وخيمةً، وكلّف عصمت إينونو زعيم حزب الشعب الجمهوري بتشكيل الوزارة، وهكذا انتقلت السلطة من أيدي العسكريين إلى أيدي المدنيين.

ويبدو أن الحكم العسكري الذي جاء ليُوطّد من جديدٍ آراء مصطفى كمال قد أعاد شيئاً من الثقة بحزب الشعب الجمهوري الذي يُقرن اسمه بمصطفى كمال، أو أن الناس قد رأوا الأمن والاستقرار مع انتشار السوء خيراً من الفوضى والاضطراب مع سوء أقل نسبياً ولذا فقد رجعوا يُعطون أصواتهم لحزب الشعب الجمهوري، وربما كان أهل الشرّ أكثر حركةً ونشاطاً فاستطاعوا أن ينتزعوا أصواتاً من الناخبين بحركتهم ونشاطهم وهذا ما يجري عادةً على الساحة السياسية، وقد تكون الأمور كلها مجتمعة، وعلى كلٍ فإن حزب العدالة يُعلن ولا زال أنه قد قام على أنقاض الحزب الديمقراطي فهو وريثه، وكما سبق أن قلنا وكرّرنا أنه وحزب الشعب الجمهوري يرجعان إلى أصلٍ واحدٍ ويشربان من نبعٍ واحد.

شكّل عصمت إينونو وزارةً ائتلافيةً[1] في ١٢ جمادى الآخرة ١٣٨١هـ

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته الائتلافية على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً لمجلس الوزراء.

٢ - عاطف إبي دوغان: (عضو مجلس الشيوخ) نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٣ - تورهان فيضي أوغلو: وزيراً للدولة.

٤ - عوني دوغان: وزيراً للدولة.

٥ - حفظي أوغوزبكاتا (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للدولة في ١٩ ذي الحجة ١٣٨١ هـ.

٦ - نجمي أوكتن: وزيراً للدولة.

٧ - نهاد سو: وزيراً للدولة.

٨ - ساهر قوروتلو أغلو (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للعدل.

٩ - إلهامي سانجار: وزيراً للدفاع الوطني.

١٠ - أحمد طوبال أوغلو: وزيراً للداخلية.

١١ - سليم ساربر: وزيراً للخارجية. =

(٢٠ تشرين الثاني ١٩٦١ م) وكانت هذه الوزارة الثامنة بالنسبة إلى عصمت إينونو إلا أنها الوزارة الأولى بالنسبة إلى هذا العهد.

يبدو أن عصمت إينونو قد وجد النفوذ الأمريكي تمكّن في كثيرٍ من المناطق التي كان فيها النفوذ لانكلترا، ورأى أن الولايات المتحدة قد غدت صاحبة الكلمة الأولى في حلف شمالي الأطلسي، وأنه قد غدا من الأولى له أن يسير في هذا الركب، وأن يترك الذي كان يجري فيه فقد انقضت أيامه، وأن هذا الوقت يختلف عما كان عليه قبل عشر سنوات، إذ أصبحت الولايات المتحدة هي أقوى دولةٍ في العالم وصاحبة أكبر نفوذٍ، لذا فإن التيار الجديد قد لفّه، وهذا شأن الذين ينطلقون وراء مصالحهم ولا يُؤمنون بالله، يتحرّكون حسبما تتجه بهم الريح. وربما بقي على ما كان عليه إلا أن أثره في الحزب قد أصبح ضعيفاً فإن الزعامات الجديدة فيه ترى غير ما كانت القيادات قبل عشر سنوات. وعلى كلا الحالين فإن حزب الشعب الجمهوري قد مشى ضمن دائرة النفوذ الأمريكي، وإن قياداته القديمة قد أصبحت هرمة، وتجاوزت سن عصمت

= ١٢ - فريدون جمال أركين: وزيراً للخارجية في ٢٠ شوال ١٣٨١ هـ.
١٣ - شفيق عنان: وزيراً وزيراً للمالية.
١٤ - حلمي أنجه سولو: وزيراً للتربةي الوطنية.
١٥ - أمين باقسوت: وزيراً للنافعة.
١٦ - إحسان كورسان: وزيراً للتجارة.
١٧ - سعاد سران (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٨ - شوكت بولات أوغلو: وزيراً للجمارك.
١٩ - جاويد أورال: وزيراً للزراعة والغابات والحيوانات.
٢٠ - جاهد أقيار (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للمواصلات.
٢١ - بولاند أجاويد: وزيراً للعمل.
٢٢ - فتحي جلكباش: وزيراً للصناعة.
٢٣ - كاموران أولياء أوغلو: وزيراً للصحافة والسياحة والإعلام.
٢٤ - محيي الدين كووان: وزيراً للإعمار والإسكان.

إينونو الثمانين، وهكذا رجعت القيادات الحزبية التركية الرئيسية ضمن دائرةٍ واحدةٍ، سواء أكانت حاكمةً أم مُعارضةً، ولم تعد الولايات المتحدة تخشى كثيراً على نفوذها في تركيا أما الفئات التي تُعّد خارجةً عن هذه الدائرة فهي ضعيفة مضطهدة سواء أكانت إسلاميةً أم شيوعيةً.

وشكّل عصمت إينونو وزارةً ائتلافيةً ثانية[1] في ٢٣ محرم ١٣٨٢ هـ

---

(١) شكل عصمت إينونو وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - عصمت اينونو: رئيساً للوزراء.
٢ - أكرم علي جان: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - حسان دينجر: وزيراً للدولة.
٤ - تورهان فيضي أوغلو: وزيراً للدولة.
٥ - حفظي أوغوزبكاتا (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للدولة.
٦ - علي شاكر آغان أوغلو: وزيراً للدولة في ٤ جمادى الآخره ١٣٨٢ هـ.
٧ - وفيق برنجي أوغلو: وزيراً للدولة في ٢٦ محرم ١٣٨٣ هـ.
٨ - رائف آيبار: وزيراً للدولة.
٩ - نجمي اوكتن: وزيراً للدولة في ٢٢ رمضان ١٣٨٢ هـ.
١٠ - عبد الحق كمال يوروك: وزيراً للعدل.
١١ - إلهام سانجار: وزيراً للدفاع الوطني.
١٢ - ساهر قوروتلو أوغلو (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للداخلية.
١٣ - حفظي أوغوز بكاتا: وزيراً للداخلية في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٨٢ هـ.
١٤ - إلياس سجكين: وزيراً للداخلية في ٣ جمادى الآخرة ١٣٨٣ هـ.
١٥ - فريدون جمال أركين: وزيراً للخارجية.
١٦ - فريد ملان: وزيراً للمالية.
١٧ - شوكت راشد خطيب أوغلو: وزيراً للتربية الوطنية.
١٨ - إبراهيم أوكتم: وزيراً للتربية الوطنية في ٢٠ محرم ١٣٨٣ هـ.
١٩ - إلياس سجكين: وزيراً للنافعة.
٢٠ - عارف حكمت أونات: وزيراً للنافعة في ٣ جمادى الآخرة ١٣٨٣ هـ.
٢١ - مخلص اته: وزيراً للتجارة.
٢٢ - أحمد أوغوز: وزيراً للتجارة في ٢٦ محرم ١٣٨٣ هـ.
٢٣ - يوسف عزيز أوغلو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي. =

(٢٥ حزيران ١٩٦٢ م). وجرت انتخابات تكميلية عام ١٣٨٣ هـ، فاز فيها حزب العدالة بعددٍ إضافي من المقاعد النيابية، فانفضّ الائتلاف الحكومي، ورأى حزب العدالة أنه أحقّ باستلام رئاسة الحكومة، وصعُب التفاهم بين قادة الحزبين، وعهد رئيس الجمهورية جمال غورسيل إلى عصمت إينونو برئاسة الحكومة فشكّل وزارة أقليةٍ[1] من حزبه في ٩

= ٢٤ - فخر الدين كريم كوكاي: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ١١ رجب ١٣٨٣ هـ.

٢٥ - أوهان أوزتراك: وزيراً للجمارك.

٢٦ - محمد ازمن (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للزراعة والحيوانات.

٢٧ - رفعت أوجتن: وزيراً للمواصلات.

٢٨ - إحسان شرف دورا: وزيراً للمواصلات في ٢١ محرم ١٣٨٣ هـ.

٢٩ - بولاند أجاويد: وزيراً للعمل.

٣٠ - فتحي جلكباش: وزيراً للصناعة.

٣١ - جلال قره صابان: وزيراً للصحافة والإعلام والسياحة.

٣٢ - نور الدين أرديج أوغلو: وزيراً للصحافة والإعلام والسياحة في ٢٦ محرم ١٣٨٣ هـ.

٣٣ - فخر الدين كريم كوكاي: وزيراً للإعمار والإسكان.

٣٤ - خيري موجي أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان في ١١ رجب ١٣٨٣ هـ.

(١) شكل عصمت إينونو وزارته الأخيرة على النحو الآتي:

١ - عصمت إينونو: رئيساً للوزراء.

٢ - كمال ساتر: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٣ - مالك يولاج: وزيراً للدولة.

٤ - إبراهيم صفوت أوماي (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للدولة.

٥ - وفيق برنجي أوغلو: وزيراً للدولة.

٦ - نوويد يتكين: وزيراً للدولة في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٣ هـ.

٧ - سادات جومرالي: وزيراً للدولة.

٨ - سرّي أطالاي (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للدولة في ٨ شعبان ١٣٨٤ هـ.

٩ - إلهامي سانجار: وزيراً للدفاع الوطني.

١٠ - أورهان أوزتراك: وزيراً للداخلية.

١١ - فريدون جمال اركين: وزيراً للخارجية. =

شعبان ١٣٨٣ هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٦٣ م)، وهذا ما شجّع حـزب العدالة المعارض إلى تشديد الهجوم على الحكومة، وتوقّع أنه سيحصل على أغلبيةٍ في الانتخابات فيما إذا جرت، وفي الوقت نفسه فقد أضعف الحكومة إلا أنها توقّعت أن تحصل على أكثريةٍ في الانتخابات القادمة وعندها ستكون أقوى أمام المعارضة التي ستضعف قوتها.

وما دام الحزبان الحاكم والمعارض من أصلٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ فإن المنافسة لم تكن على مشكلاتٍ فكريةٍ أو سياسيةٍ أو منهجيةٍ وإنما منافسة على السلطة فقط، وبالتالي فإن الأحزاب ليست سوى تجمّعات سياسيةٍ تسعى وراء مصالحها، وإذا ما استلمت السلطة ملأت المراكز الإدارية بالمُؤيّدين والأتباع، كي تفي بما قطعته على نفسها أثناء الانتخابات وفي الدعاية لها، وهذا شأن معظم الدول المتخلّفة أو التي تُدعى بالنامية.

= ١٢ - إبراهيم أوكتم: وزيراً للتربية الوطنية.
١٣ - فريد ألب اسكندر (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للمواصلات.
١٤ - محمود وورال: وزيراً للمواصلات في ٨ شعبان ١٣٨٤ هـ.
١٥ - محمد يوجدار: وزيراً للجمارك.
١٦ - معمر أرطن: وزيراً للصناعة.
١٧ - طوران شاهين: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٨ - فني اسلميه لي: وزيراً للتجارة.
١٩ - علي إحسان كوغوش: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٠ - جلال الدين أوزر: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢١ - صادق كوتلاي: وزيراً للإعمار والإسكان في ٨ شعبان ١٣٨٤ هـ.
٢٢ - فريد ملان: وزيراً للمالية.
٢٣ - لبيد يورد أوغلو: وزيراً للشؤون القروية.
٢٤ - عارف حكمت أونات: وزيراً للنافعة.
٢٥ - بولاندا جاويد: وزيراً للعمل.
٢٦ - كمال دمير: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٧ - هداي أورال: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.

واقترب موعد الانتخابات العامة، ولا بدّ من أن تستقيل الحكومة الحزبية لتقوم حكومة مستقلة تُشرف على الانتخابات وتُعطي الفرصة للأحزاب جميعاً حرية العمل والمساواة لتكون النتائج الانتخابية أقرب ما تكون إلى الصحة، وقدّم عصمت إينونو استقالة حكومته في ١٩ شوال ١٣٨٤ هـ (٢٠ شباط ١٩٦٥ م)، وعهد رئيس الجمهورية جمال غورسيل إلى سعاد خيري أوركوبلو (عضو مجلس الشيوخ) ليُشكّل حكومةً وطنيةً تضمّ مختلف الأحزاب[1].

---

(١) شكل سعاد خيري أوركوبلو وزارته الائتلافية على النحو الآتي:

١ - سعاد خيري أوركوبلو (عضو مجلس الشيوخ): رئيساً للوزراء.
٢ - سليمان ديميرل: نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - حسين أتامان: وزيراً للدولة.
٤ - محمد الطونسوي: وزيراً للدولة.
٥ - شكيب اينال: وزيراً للدولة.
٦ - عرفان باران: وزيراً للدولة.
٧ - إحسان كوكنيل: وزيراً للدولة في ٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ.
٨ - حسن دينجر: وزيراً للدفاع الوطني.
٩ - حازم دوغلي وزيراً للدفاع الوطني في ١٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ.
١٠ - إسماعيل حقي أقدوغان: وزيراً للداخلية.
١١ - عزت كونر: وزيراً للداخلية في ٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ.
١٢ - حسن أسعد إشيق: وزيراً للخارجية.
١٣ - إحسان كورسان: وزيراً للمالية.
١٤ - جهاد بلكه خان: وزيراً للتربية الوطنية.
١٥ - أورهان ألب: وزيراً للنافعة.
١٦ - ماجد زران: وزيراً للتجارة.
١٧ - فاروق سوكان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٨ - أحمد طوبال أوغلو: وزيراً للجمارك.
١٩ - تورهان قابانلي (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للزراعة والحيوانات.
٢٠ - مدحت سان: وزيراً للمواصلات.
٢١ - كاظم يرداقل: وزيراً للمواصلات في ٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ.
٢٢ - إحسان صبري: وزيراً للعمل.
=

لم يكن لهذه الحكومة من مهمةٍ سوى الإشراف على الانتخابات، والعمل أمام الحزبين المتنافسين بنزاهةٍ كي لا ينال أحد أعضائها حقداً عليه من أي من الطرفين، وربما تستدعي الظروف أياً منهما لتسلّم السلطة وهو أمر متوقّع، لذا كان بذل الجهد والإعداد كبيراً لهذه الانتخابات.

جرت الانتخابات، وأعطت النتيجة لصالح حزب العدالة، وانتهت مهمة الحكومة السابقة وزارة سعاد خيري أوركوبلو، فقدّم استقالة حكومته، وعهد رئيس الجمهورية جمال غورسيل إلى زعيم حزب العدالة سليمان ديميريل[1] بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ حسب الأعراف النيابية، فشكّل

=
٢٣ - علي نائلي أردم: وزيراً للصناعة.
٢٤ - محمد توغورت: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٥ - عمر زكي دورمان: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٦ - إسماعيل حقي أقدوغان: وزيراً للإعلام والسياحة في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٥ هـ.
٢٧ - رجائي اسكندر أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٨ - سيفي أوزترك: وزيراً للقرى.
٢٩ - مصطفى كبير: وزيراً للقرى في ١٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ.

(١) سليمان ديميريل: سامي سليمان ديميريل: ابن يحيى، ولد في اسبارته في ٤ ربيع الثاني ١٣٤٣ هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٤ م)، درس الهندسة وتخرج مهندساً من جامعة استانبول التقنية عام ١٣٦٨ هـ، واشتغل لمدة سنتين إثرها باحثاً في شؤون الري والكهرباء في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان موظفاً في شؤون الكهرباء في إدارة التخطيط (١٣٦٨ - ١٣٧٥ هـ).
مدير مكتب مشروع نهر سيحان ١٣٧٢ - ١٣٧٤ هـ.
ورئيس دائرة السدود ١٣٧٤ - ١٣٧٥ هـ.
مدير عام شؤون المياه الدولية ١٣٧٥ - ١٣٨٠ هـ.
وعمل مقاولاً مهندساً استشارياً ١٣٨٢ - ١٣٨٤ هـ.
وهو عضو في هيئة التدريس في كلية الهندسة في جامعة الشرق الأوسط في أنقرة.
أسس حزب العدالة عام ١٣٨٥ هـ. ونائباً عن ولاية اسبارته.
تسلّم رئاسة الوزراء ١٣٨٥ - ١٣٩١ هـ. ومن ١٣٩٥ - ١٣٩٧ هـ. ومن ١٣٩٧ - ١٣٩٨ هـ ومن ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ.
=

الحكومة[1] في ٣ رجب ١٣٨٥ هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٦٥ م).

= وكان زعيم المعارضة: ١٣٩٣ - ١٣٩٤ هـ. ومن ١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ.
وأسّس حزب الطريق الصحيح عام ١٤٠٧ هـ.

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته الأولى على النحو الآتي:
١ - سليمان ديميريل: رئيساً للوزراء.
٢ - جهاد بلكه خان: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - رأفت سزكين: وزيراً للدولة.
٤ - حسام الدين أتابيلي: وزيراً للدولة في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٥ - كامل أوجاق: وزيراً للدولة.
٦ - علي فؤاد عليشان: وزيراً للدولة.
٧ - صادق تكين مفتي أوغلو: وزيراً للدولة في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٨ - سيفي أوزتورك: وزيراً للدولة.
٩ - حسن دينجر: وزيراً للعدل.
١٠ - هدايت اديمير (عضو مجلس الشيوخ): وزيراً للعدل في ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ.
١١ - أحمد طوبال أوغلو: وزيراً للدفاع الوطني.
١٢ - فاروق سوكان: وزيراً للداخلية.
١٣ - راغب أونر: وزيراً للداخلية في ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ.
١٤ - إحسان صبري جاغلايانيكل: وزيراً للخارجية.
١٥ - إحسان كورسان: وزيراً للمالية.
١٦ - جهاد بلكه خان: وزيراً للمالية في ١ شعبان ١٣٨٦ هـ.
١٧ - أورهان دينكر: وزيراً للتربية الوطنية.
١٨ - إلهامي أرتم: وزيراً للتربية الوطنية في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
١٩ - أدهم أردنج: وزيراً للنافعة.
٢٠ - أورهان ألب: وزيراً للنافعة في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٢١ - ماجد زران: وزيراً للتجارة.
٢٢ - صادق تكين مفتي أوغلو: وزيراً للتجارة في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ.
٢٣ - أحمد توركل: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٢٤ - أديب صومون أوغلو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٥ - وداد علي أوزكان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
=

ساءت أوضاع رئيس الجمهورية جمال غورسيل الصحية مما دعاه إلى الاعتزال قبل انتهاء مدة رئاسته بما يقرب من السنتين، وجرى انتخاب رئيس مكانه، فنجح جودت صوناي بالرئاسة.

توطّدت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، وثبتت دعائم نفوذها، ولم تعد تخشى على السياسة التركية من الخروج عن دائرة فلكها، ولا العودة إلى النظام الإسلامي الذي هجره أصحاب السلطة فيها بل وأهلوها من مدةٍ ليست بالقصيرة حسب تقدير الساسة الأمريكيين، وفي الوقت نفسه فإن جيرانها من جهة الجنوب قد ساروا في الفلك الذي تسير فيه وهجروا ما هجرت، وأصبح التفكير في العودة إلى الخلافة أمراً مستبعداً، ولا يُفكّر به إلا بعض الرجعيين، وهم محدودو العدد، ضعيفو

= ٢٦ ـ إبراهيم تكين: وزيراً للجمارك.
٢٧ ـ ناهد منتشه: وزيراً للجمارك في ٢٢ رمضان ١٣٨٨ هـ.
٢٨ ـ بحري دكداش: وزيراً للزراعة والحيوانات.
٢٩ ـ مسعود أرز: وزيراً للزراعة والحيوانات في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ.
٣٠ ـ سيفي أوزترك: وزيراً للمواصلات.
٣١ ـ سعد الدين بيلكج: وزيراً للمواصلات في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٣٢ ـ محمد إزمن: وزيراً للمواصلات في ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ.
٣٣ ـ علي نائلي أردم: وزيراً للعمل.
٣٤ ـ ترغوت توكر: وزيراً للعمل في ٢٩ رمضان ١٣٨٨ هـ.
٣٥ ـ محمد تورغوت: وزيراً للصناعة.
٣٦ ـ إبراهيم درينر: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٣٧ ـ رأفت سزكين: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٣٨ ـ نهاد كورشاد: وزيراً للإعلام والسياحة.
٣٩ ـ خلدون منتشه أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان.
٤٠ ـ ثابت عثمان أوجي: وزيراً للغابات.
٤١ ـ تورغوت توكر: وزيراً للقرى في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٦ هـ.
٤٢ ـ صلاح الدين قليج: وزيراً للقرى في ٢٩ رمضان ١٣٨٨ هـ.
٤٣ ـ ثابت عثمان أوجي: وزيراً للقرى في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ.

التأثير، بعيدون عن السلطة، محاربون من كل جهةٍ، وقد كثر خصومهم بأسماء مختلفة، وأحزابٍ متفرقةٍ، وواجهاتٍ مُتباينةٍ، وشعاراتٍ مُتضاربةٍ، وخيوط تحرّكاتهم تلتقي كلها بأيدي سدنة النظام الأمريكي وتُوجّه من هناك، ولذا فإن تركيا يمكنها أن تتصرّف ببعض الحرية كي تتحرّك في مسار الجوار ويكون لها بعض الفعالية التي يمكن أن يُحتاج إليها في ظروفٍ مُعينةٍ، لذا نلاحظ أن تركيا قد أخذت تتحدّث عن عدم الانحياز، وتسير في هذا الدرب الذي فيه التباين الواضح ورغم أن أكثر ما في هذا الخط منحاز إلى اليمين إلا أنه يدّعي عدم الانحياز وقد يقبل المُتفرّجون هذا الكلام ويُصدّقونه لأن فيه بعض أهل الشمال، ويجب أن تكون تركيا في هذا المضمار وتأخذ دورها في اللعبة الدولية ولكل دوره فيها، وقد سعى الساسة الأتراك لتحسين علاقاتهم مع الروس، كما وسّعوا علاقاتهم ورفعوا مستواها السياسي مع بقية الدول الشيوعية، وأبدوا الوقوف إلى جانب البلدان العربية عام ١٣٨٧ هـ إثر العدوان اليهودي على مصر والشام وأغلقوا المكتب السياحي الإسرائيلي في تركيا عام ١٣٨٨ هـ، كما ألغوا الاتفاقية التجارية التي كانت قد عقدت بين تركيا وإسرائيل في تركيا عام ١٣٨٠ هـ. وبسبب هذه الحرية تحرّك الشيوعيون سرّاً وبدؤوا بأعمال الفوضى فأحرق رجال حزب الشباب الإصلاحي الشيوعي السفارة الأمريكية في أنقرة مرتين، وقاد المظاهرات ضد الأسطول الأمريكي عام ١٣٨٨ هـ.

جَودَت صُونَاي

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٨٩ هـ، وفاز حزب العدالة فيها بالأكثرية فعهد رئيس الجمهورية جودت صوناي إلى زعيم حزب العدالة سليمان ديميريل بإعادة تشكيل الوزارة، فألّف حكومةً جديدةً[1] في ٢٣

---

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - سليمان ديميريل: رئيس الوزراء.
٢ - رأفت سزكين: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - حسام الدين أتابيلي: وزيراً للدولة.
٤ - كورهان تيترك: وزيراً للدولة.
٥ - تورهان بلكين: وزيراً للدولة.
٦ - يوسف ضياء أوندر: وزيراً للعدل.
٧ - أحمد طوبال أوغلو: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - خلدون منتشه أوغلو: وزيراً للداخلية.
٩ - إحسان صبري جاغلايانيكل: وزيراً للخارجية.
١٠ - مسعود أرز: وزيراً للمالية.
١١ - أورهان أوغوز: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ - تورغوت كولز: وزيراً للنافعة.
١٣ - أحمد دالّي: وزيراً للتجارة.
١٤ - كورهان تيترك: وزيراً للتجارة في ١٧ ذي القعدة ١٣٨٩ هـ.
١٥ - وداد علي أوزكان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٦ - أحمد إحسان برنجي أوغلو: وزيراً للجمارك. =

شعبان ١٣٨٩ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٦٩ م)، وتابعت السياسة التركية خطها في إظهار عدم الانحياز، والموقف المعتدل بين التيارات العالمية والاختلافات بين الدول العظمى، ويبدو أن الجيش التركي كان هو الرقيب على حركة السياسيين، ومهيأ تهيئةً خاصةً للقيام بمهمته، ويضع الضوابط لتحرّك رجال الحكم حتى لا يخطوا خُطوةً أوسع مما هو مسموح لهم فيها، إذ لهم حدود لا يصحّ أن يتجاوزها أحد أبداً، ويبدو أن حزب العدالة أو بالأحرى زعيمه قد تجاوز أحياناً هذه الحدود على حين غفلةٍ من الرقيب أو أبدى أنه لا يزال ضمن الخطّ على حين أنه قد تخطّاه، لذا فقد أُنذر للرجوع إلى الدائرة المرسومة له والبقاء ضمن الخط المرسوم له، ولكن يبدو أنه لم يبال بهذا الإنذار ولم يكترث به، فهدّد الجيش بتعديل قانون الانتخابات، وحصر حقّ التصويت بالمتعلمين فقط، وهذا التهديد مُوجّه إلى رجالات حزب العدالة بالدرجة الأولى إذ أن أكثرية مُؤيّديهم من الفلاحين الأتراك الذي يُقيمون في الأناضول وشرقي البلاد حيث ترتفع نسبة الأمية وتقلّ نسبة التعليم، ولو تمّ هذا لفقد حزب العدالة الكثير من أصواته الانتخابية ومقاعده في المجلس النيابي.

وقدّم سليمان ديميريل استقالة حكومته في ٢٨ الحجة ١٣٨٩ هـ (٦

= ١٧ - إلهامي إرتم: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٨ - ناهد منتشه: وزيراً للمواصلات.
١٩ - سيفي أوزترك: وزيراً للعمل.
٢٠ - صلاح الدين قليج: وزيراً للصناعة.
٢١ - ثابت عثمان أوجي: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٢ - نجم الدين جوهري: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٣ - خير الدين نقيب أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٤ - تورهان قايانلي: وزيراً للقرى.
٢٥ - حسين أوزالب: وزيراً للغابات.
٢٦ - عصمت سزكين: وزيراً للرياضة والشباب.

آذار ١٩٧٠ م) غير أن رئيس الجمهورية جودت صوناي قد كلّفه بإعادة تشكيلها فألّف وزارةً جديدةً[١].

وكان سليمان ديميريل قد ضعف قليلاً بعد وزارته الأولى إذ انشقّ حزبه

---

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته الثالثة على النحو الآتي:

١ ـ سليمان ديميريل: رئيساً للوزارة.
٢ ـ رأفت سزكين: نائباً لرئيس الوزارة، ووزيراً للدولة.
٣ ـ حسن دينجر: وزيراً للدولة في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٩٠ هـ.
٤ ـ حسام الدين أتابيلي: وزيراً للدولة.
٥ ـ تورهان بلكين: وزيراً للدولة.
٦ ـ يوسف ضياء أوندر: وزيراً للعدل.
٧ ـ أحمد طوبال أوغلو: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ ـ خلدون منتشه أوغلو: وزيراً للداخلية.
٩ ـ إحسان صبري جاغلايانيكل: وزيراً للخارجية.
١٠ ـ مسعود أرز: وزيراً للمالية.
١١ ـ أورهان أوغوز: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ ـ تورغوت كولز: وزيراً للنافعة.
١٣ ـ كورهان تيترك: وزيراً للتجارة.
١٤ ـ وداد علي أوزكان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٥ ـ أحمد إحسان برنجي أوغلو: وزيراً للجمارك.
١٦ ـ إلهامي إرتم: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٧ ـ ناهد منتشه: وزيراً للمواصلات.
١٨ ـ أورهان طغرل: وزيراً للمواصلات في ٧ ذي القعدة ١٣٩٠ هـ.
١٩ ـ سيفي أوزترك: وزيراً للعمل.
٢٠ ـ صلاح الدين قليج: وزيراً للصناعة.
٢١ ـ ثابت عثمان أوجي: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٢ ـ نجم الدين جوهري: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٣ ـ خير الدين نقيب أوغلو: وزيراً للإعمار والاسكان.
٢٤ ـ تورهان قايانلي: وزيراً للقرى.
٢٥ ـ حسين أوزالب: وزيراً للغابات.
٢٦ ـ عصمت سزكين: وزيراً للرياضة والشباب.

حيث انفصل عنه عدد من النواب بعد أن اخرج بعضهم من وزارته مثل (فاروق سوكان) وزير الداخلية، و(محمد تـوغـورت) وزيـر الصنـاعـة، (وسعد الدين بيلكج) وزير المواصلات، وانضمّ إليهم رئيس المجلس النيابي (فروح بوزبايلي) الذي كانت له طموحات واسعة، وأعادوا تشكيل الحزب الديمقراطي مُغاضبين رئيس حزبهم سليمان ديميريل، كما انضمّ إليهم (يوكسيت مندريس نجل عدنان مندريس) و(نوليفر غورسوي بايار) ابنة محمود جلال بايار. وكان هذا قد قوّى المعارضة، وقلّل عدد نواب حزب العدالة، وأوجد حزباً له ماضٍ ، وسبق له أن حكم البلاد مدة عشر سنوات فله أنصاره ومُؤيّدوه.

ومع هذا الضعف الذي حلّ بحزب العدالة فقد بقي سليمان ديميريل يتجاوز الحدّ المرسوم له، ويتخطّى أحياناً الجيش الرقيب عليه الذي كره رئيس الوزراء وضاق به ذرعاً، وهذا ما جعله يتدخّل في السياسة من جديد ويُقيل وزارة سليمان ديميريل وذلك في ١٥ محرم ١٣٩١ هـ (١٢ آذار ١٩٧١ م)، وبقيت البلاد دون وزارة حتى ٢٩ محرم أي مدة أربعة عشرة يوماً حيث تمّ الاتفاق بين قادة الأحزاب والجيش على تشكيل وزارةٍ ائتلافيةٍ[1] من أحزاب العدالة، والديمقراطي، والشعب الجمهوري برئاسة نهاد إيريم.

---

(١) شكل نهاد إيريم وزارته الأولى على النحو الآتي:
١ - نهاد ايريم: رئيساً للوزراء.
٢ - سعدي قوجاش: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - اتيلاقره عثمان أوغلو: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٤ - مسعود أرز: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة في ١٥ شوال ١٣٩١ هـ.
٥ - محمد ازكونش: وزيراً للدولة.
٦ - دوغان كتابلي: وزيراً للدولة.
٧ - إسماعيل أرار: وزيراً للعدل.
٨ - فريد ملان: وزيراً للدفاع الوطني.
=

وغالباً ما تكون الوزارات الائتلافية مترنحة، ويضطر رؤساؤها إلى مسايرة هذا الحزب وذاك، ويخشى من الموافقة على آراء جانب من الجوانب لئلا يُتّهم أنه يُمالئه ولا يوافق الجانب الآخر، وأخيراً لا بدّ من أن يخرج حزب من الائتلاف فتسقط الوزارة، ونلاحظ هنا أن حزب العدالة يملك الأكثرية النيابية غير أن الجيش غير راضٍ عنه لذا فهو على حذرٍ من كل تصرّف، فهو يتكلّم بأكثريته ويلمح بالتهديد بها ولكنه لا

= ٩ - حمدي عمر أوغلو: وزيراً للداخلية.
١٠ - عثمان أولجاي: وزيراً للخارجية.
١١ - سعيد ناجي اركين: وزيراً للمالية.
١٢ - شناسي أورال: وزيراً للتربية الوطنية.
١٣ - جاهد قره قاش: وزيراً للنافعة.
١٤ - مقدر أوزتكين: وزيراً للنافعة في ٢٢ رمضان ١٣٩١ هـ.
١٥ - أوز دربيل: وزيراً للعلاقات الخارجية الاقتصادية.
١٦ - تركان أقيول: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٧ - حيدر أوزالب: وزيراً للجمارك.
١٨ - أورهان دكمان: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٩ - خلوق أربق: وزيراً للمواصلات.
٢٠ - صلاح الدين بابور أوغلو: وزيراً للمواصلات في ٢٥ شعبان ١٣٩١ هـ.
٢١ - جاهد قره قاش: وزيراً للمواصلات في ٢٢ رمضان ١٣٩١ هـ.
٢٢ - اتيلا صاو: وزيراً للعمل.
٢٣ - ايتلا صاو: وزيراً للطاقة في ١٤ رمضان ١٣٩١ هـ.
٢٤ - إحسان طوبال أوغلو: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٥ - نزيه دورس: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية في ٢٢ رمضان ١٣٩١ هـ.
٢٦ - ايهان جلنكر اوغلو: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
٢٧ - أرول يلماز: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٨ - صلاح الدين بابر أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٩ - جودت ايكان: وزيراً للقرى.
٣٠ - صلاح الدين انال: وزيراً للغابات.
٣١ - سزائي اركون: وزيراً للرياضة والشباب.
٣٢ - طلعت حلمان: وزيراً للثقافة في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩١ هـ.

يلبث أن يخضع بسبب عدم الرضا فلما مرّت مدة تقرب من التسعة شهور ولم يحدث شيء أخذ يُهدّد بالانسحاب من الائتلاف عسى أن يعود إلى الانفراد بالحكم، ويتسلّم زعيمه رئاسة الحكومة، وهذا ما قام به أخيراً.

سحب حزب العدالة وزراءه من الحكومة فسقطت، فاضطر نهاد إيريم إلى إعادة تشكيل الوزارة من جديد[1] دون اشتراك حزب العدالة فيها

---

(١) شكل نهاد ايريم وزارته الثانية على النحو الآتي:
١ - نهاد ايريم: رئيساً للوزراء.
٢ - علي إحسان كوغوش: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - دوغان كتابلي وزيراً للدولة.
٤ - الهان أوزتراك: وزيراً للدولة.
٥ - الياس قره أوز: وزيراً للدولة.
٦ - سعاد بلكه: وزيراً للعدل.
٧ - فريد ملان: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - فريد كوبات: وزيراً للداخلية.
٩ - خلوق بايولكان: وزيراً للخارجية.
١٠ - سعيد ناجي أركين: وزيراً للمالية.
١١ - إسماعيل أرار: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ - مقدر أوزتكين: وزيراً للنافعة.
١٣ - نعيم طالو: وزيراً للتجارة.
١٤ - مسعود أرز: وزيراً للصناعة.
١٥ - جودت ايكان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٦ - حيدر أوزالب: وزيراً للجمارك.
١٧ - أورهان دكمان: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٨ - رفقي دانشمان: وزيراً للمواصلات.
١٩ - علي رضا أوزونر: وزيراً للعمل.
٢٠ - نزيه دورس: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ - أورول يلماز اقجال: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ - سربولند بنكول: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٣ - نجمي سونماز: وزيراً للقرى. =

وذلك بتكليف من رئيس الجمهورية جودت صوناي بتاريخ ٢٣ شوال ١٣٩١ هـ (١١ كانون الأول ١٩٧١ م)، وبذا لم ينل حزب العدالة ما كان يحلم به من استلام السلطة فيما إذا سقطت حكومة الائتلاف، وهذا مُؤشّر إلى عدم رضا الجيش عنه لا يزال قائماً فعليه إذن لزوم الصمت، وحتى المعارضة يجب أن تكون هادئةً لا تُثير للحكومة إشكالات أمام الشعب، ولكن هذا الأمر لم يدم أكثر من ستة أشهرٍ حيث أخذت الأمور ترجع إلى حالتها الطبيعية نتيجة الصمت الذي لزمه حزب العدالة، وإن كان اسمياً.

وفي ٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ (٢٢ أيار ١٩٧٢ م) شكّل فريد ملان[١] وزارةً جديدةً[٢]. وفي هذه الرحلة نشأ حزب جديد هو حزب

= ٢٤ ـ صلاح الدين انال: وزيراً للغابات.
٢٥ ـ عدنان قره جوك: وزيراً للرياضة والشباب.

(١) فريد ملان: ابن محمد مدحت، ولد عام ١٣٢٤ هـ في مدينة (وان) وتخرج من كلية العلوم السياسية بأنقرة، وشغل منصب المدير العام للموارد. ونجح نائباً عن ولاية وان، وعيّن عضواً في مجلس الشيوخ، كما تسلّم وزارة المالية في عام ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ هـ في وزارة عصمت إينونو، كما تسلّم وزارة الدفاع الوطني في وزارتي نهاد إيريم السابقتين، ثم عُهد إليه برئاسة الحكومة، وانضم إلى حزب الثقة الجمهوري الذي ألّفه تورهان فيضي أوغلو بعد أن انشقّ عن حزب الشعب الجمهوري.

(٢) شكل فريد ملان وزارته على النحو الآتي:
١ ـ فريد ملان: رئيساً للوزراء.
٢ ـ دوغان كتابلي: نائب رئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ ـ إسماعيل أرار: وزيراً للدولة.
٤ ـ زياد بايقارا: وزيراً للدولة.
٥ ـ إلهان أوزتراك: وزيراً للدولة.
٦ ـ فهمي ألب أصلان: وزيراً للعدل.
٧ ـ محمد إزمان: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ ـ فريد كوبات: وزيراً للداخلية.
٩ ـ خلوق بايولكان: وزيراً للخارجية. =

السلامة الوطني الذي يحمل اتجاهاً إسلامياً، وهذه للمرة الأولى ينشأ مثل هذا الحزب في ظلّ تركيا الكمالية أو العهد الذي يتبنّى أفكار مصطفى كمال العلمانية المُعادية للإسلام صراحةً.

وحدث انشقاق في حزب الشعب الجمهوري، إذ ألّف تورهان فيضي أوغلو حزب الثقة الجمهوري مُنفصلاً عن بولاند أجاويد الذي غدا زعيم حزب الشعب الجمهوري، وقد خلف عصمت إينونو في هذه الزعامة أو اغتصبها سائراً في الفلك الجديد كما سبق أن ألمحنا.

وانتهت مدة الرئيس جودت صوناي في الحكم، وحدثت أزمة في انتخاب رئيسٍ جديدٍ، إذ رشّح الجيش فخري كورتورك رئيس الأركان التركي، فاستقال من رئاسة الأركان، كما استقال في الوقت نفسه وزير الدفاع الوطني محمد أزمان من منصبه الوزاري، ومن عضويته في مجلس

= ١٠ ـ ضياء مؤذن أوغلو: وزيراً للمالية.
١١ ـ صباح الدين أوزبك: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ ـ مقدر أوزتكين: وزيراً للنافعة.
١٣ ـ نعيم طالو: وزيراً للتجارة.
١٤ ـ مسعود أرز: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
١٥ ـ كمال دمير: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٦ ـ حيدر أوزالب: وزيراً للجمارك.
١٧ ـ إلياس قره أوز: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٨ ـ رفقي دانشمان: وزيراً للمواصلات.
١٩ ـ علي رضا أوزونر: وزيراً للعمل.
٢٠ ـ نوري قودامان أوغلو: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ ـ أرول يلماز أقجال: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ ـ تورغوت توكر: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٣ ـ نجمي سونماز: وزيراً للقرى.
٢٤ ـ صلاح الدين انال: وزيراً للغابات.
٢٥ ـ عدنان قره جوك: وزيراً للرياضة والشباب.

الشيوخ ليفسح المجال لرئيس الجمهورية لتعيين فخري كورتورك عضواً في مجلس الشيوخ مكانه لأن القانون التركي ينصّ على وجوب انتخاب رئيس الجمهورية من بين أعضاء مجلس الشيوخ، ولم يكن رئيس الأركان فخري كورتورك من بينهم. أما حزب العدالة فقد رشّح تاكين أريبون الذي كان قائد سلاح الطيران عندما وقع الانقلاب العسكري الأول بقيادة جمال غورسيل، ولكنه لم يشترك في هذا الانقلاب، ولم يُؤيّده، لذا فقد حوكم بعد نجاح الانقلاب، وحُكم عليه بالسجن مدة ستة أشهرٍ، كما جُرّد من رتبته العسكرية. كما حُكم على زوجته بالسجن مدة سنتين ونصف إذ كانت عضواً في المجلس النيابي يومذاك، وهي حفيدة الصدر الأعظم أيام السلطان عبد الحميد، وقد قضت المدة في السجن، وحُرمت من حقوقها المدنية. وكان تاكين أريبون رئيس مجلس الشيوخ، وسيتولّى منصب الرئاسة بحكم القانون إن لم يتوصّل المجلسان إلى انتخاب رئيسٍ جديدٍ.

وخشي المراقبون من وقوع صدامٍ مع العسكريين لأن حزب العدالة كان يرى التمسّك برأيه والتعنت فيه لأن ذلك يجعلهم يحصلون على الرياسة بحكم القانون فيما إذا فشل الانتخاب، لذا فقد بحث الساسة موضوع تمديد مدة الرئيس جودت صوناي عامين آخرين. ولكن الانتخاب قد تمّ وأعطى الرئاسة إلى فخري كورتورك، وهو عديل جودت صوناي إذ أن زوجتيهما شقيقتان.

وقد كان لصمت حزب العدالة في هذا الوقت خير كثير إذ أن العسكريين لا يُواجهون بالتحدّي، وإنما بإبداء اللين، وإظهار الانصياع، وبعدها يمكن السير بهم إلى الجهة التي يريدها من يريد تحريكهم، ولو أعلنوا الإصرار على موقفهم لنالهم أذى، ولوقعت البلاد في أزمةٍ، والبلاد في غنى عنها.

وانتهت رئاسة جودت صوناي، وتسلّم بعده أمرها مرشح العسكريين فخري ثابت كورتورك.

فخري ثابت كورتورك

تسلّم فخري كورتورك رئاسة الجمهورية، واقترب موعد الانتخابات النيابية، وأخذت الأحزاب تستعدّ للصراع، وكان رئيس الوزراء فريد ملان قد انضمّ إلى تورهان فايز أوغلو في تأسيس حزب الثقة الجمهوري الذي انشقّ عن حزب الشعب الجمهوري وزعيمه بولاند أجاويد، وكان لا بدّ من تشكيل وزارةٍ مُحايدةٍ تقوم بالإشراف على الانتخابات، فاستقالت حكومة فريد ملان في ١٣ ربيع الأول ١٣٩٣هـ (١٥ نيسان ١٩٧٣م)، وعهد رئيس الجمهورية إلى نعيم طالو[١] بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[٢]، وهو

---

(١) نعيم طالو: محمد نعيم بن محمد نظام الدين طالو، ولد في استانبول في ٢٤ شوال ١٣٣٧ هـ (٢٢ تموز ١٩١٩ م)، تخرّج من كلية الاقتصاد جامعة استانبول. وشغل عدة مناصب منها: نائب رئيس مجلس إدارة البنك، ومدير عام البنك المركزي، ثم رئيس مجلس إدارة البنك المركزي، وممثل دولي، ووزيراً للتجارة في وزارة نهاد ايريم الثانية، وفي وزارة فريد ملان، ثم عهد إليه برئاسة الحكومة، وبعدها أصبح نائب رئيس مجلس الشيوخ.

(٢) شكل نعيم طالو وزارته على النحو الآتي:

١ ـ نعيم طالو: رئيساً للوزراء.

٢ ـ نجم الدين أركمن: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٣ ـ كمال ساترنائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٤ ـ إسماعيل حقي تكنل: وزيراً للدولة.

٥ ـ إلهان أوزتراك: وزيراً للدولة.

وزير التجارة في الحكومة، ومديراً لأحد المصارف من قبل.

وقد جرت الانتخابات، وتقدّم حزب الشعب الجمهوري على بقية الأحزاب في عدد المقاعد، وتلاه حزب العدالة، وكانت النتائج الانتخابية كالآتي:

حزب الشعب الجمهوري	وحصل على	١٨٩ مقعداً.
حزب العدالة	وحصل على	١٤١ مقعداً.
حزب السلامة الوطني	وحصل على	٤٩ مقعداً.
الحزب الديمقراطي	وحصل على	٤٠ مقعداً.

= ٦ - خيري موبجي أوغلو: وزيراً للعدل.
٧ - إلهامي سانجار: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - مقدر أوزتكين: وزيراً للداخلية.
٩ - خلوق بايولكان: وزيراً للخارجية.
١٠ - صادق تكين مفتي أوغلو: وزيراً للمالية.
١١ - أورهان دنكيز: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ - نور الدين أوق: وزيراً للنافعة.
١٣ - أحمد تركل: وزيراً للتجارة.
١٤ - وفاء طانير: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٥ - فتحي جلكباش: وزيرة للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٦ - أحمد نصرت طونا: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٧ - صباح الدين أوزبك: وزيراً للمواصلات.
١٨ - علي نائلي أردم: وزيراً للعمل.
١٩ - نوري بايار: وزيراً للصناعة.
٢٠ - كمال دمير: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ - أحمد إحسان قرملي: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ - محمد نبيل أوقتاي: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٣ - أورهان كورموغلو: وزيراً للشؤون القروية.
٢٤ - عيسى بنكول: وزيراً للغابات.
٢٥ - جلال الدين جوشقون: وزيراً للرياضة والشباب.

حزب الحركة الملية	وحصل على	١٣ مقعداً
حزب الثقة الجمهوري	وحصل على	١٢ مقعداً
المستقلون	وحصل على	٦ مقاعد
		٤٥٠ مقعداً، وهو عدد مقاعد المجلس النيابي التركي.

وصعب الاتفاق على تشكيل وزارةٍ حزبيةٍ، كما صعب قيام ائتلاف بين الحزبين الرئيسين حزب الشعب الجمهوري، وحزب العدالة، لذا بقيت البلاد دون وزارةٍ مائة يومٍ، وكُلِّفت الوزارة السابقة حكومة (نعيم طالو) بتسيير شؤون الدولة ريثما يتمّ الاتفاق على تأليف حكومةٍ جديدةٍ، وأخيراً تمّ ائتلاف بين حزب الشعب الجمهوري، وحزب السلامة الوطني على تأليف حكومةٍ ائتلافيةٍ، وتشمل هذه الحكومة تأييد مائتين وثمانية وثلاثين نائباً.

حزب الشعب الجمهوري	وحصل على	١٨٩ مقعداً
حزب السلامة الوطني	وحصل على	٤٩ مقعداً
		٢٣٨ مقعداً

على حين وقف حزب العدالة والحزب الديمقراطي وبقية الفئات في المجلس النيابي في صف المعارضة.

كانت الحكومة برئاسة زعيم حزب الشعب الجمهوري بولاند أجاويد[١]، أما نجم الدين أربكان[٢] زعيم حزب السلامة الوطني فقد تسلّم

(١) بولاند بن فخري أجاويد: ولد في استانبول في ٦ ذي القعدة ١٣٤٣ هـ (٢٨ أيار ١٩٢٥ م). تخرج من كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا والأدب الإنكليزي عام ١٣٦٣ هـ، ووُظّف في المديرية العامة للطباعة والنشر، وأصبح موظفاً في ملحق الصحيفة بلندن، وعمل صحفياً ومترجماً، ثم باحثاً في تاريخ الشرق الأوسط في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٣٧٧ هـ، وانتخب نائباً عن انقرة عن حزب الشعب الجمهوري، وكان عضو المجلس التأسيسي عام ١٣٨١ هـ، ثم نائباً عن زونغلداك، وتسلّم وزارة العمل في حكومة عصمت إينونو، ثم أصبح الأمين العام =

منصب نائب رئيس الوزراء، وأُعطي حزبه سبع حقائب وزارية من بينها وزارتا العدل والداخلية. شكّل بولاند أجاويد وزارته[1] في ٣ محرم

= للحزب، وعهد إليه برئاسة الوزارة.

(٢) نجم الدين أربكان: ولد في سينوب عام ١٣٤٤ هـ، تخرّج من جامعة استانبول التقنية، وعمل رئيساً للغرفة التجارية في فترتين مختلفتين، وحصل على الدكتوراه من جامعات ألمانيا، ورجع إلى البلاد ليعمل أستاذاً في جامعته نفسها، ونجح نائباً عن قونية من ١٣٨٩ - ١٤٠٠ هـ، وأسّس حزب السلامة، وأوكلت إليه مهمة نائب رئيس مجلس الوزراء في ثلاث حكومات: أولاها حكومة بولاند أجاويد هذه، ثم في حكومتي الجبهة الوطنية الأولى والثانية واللتين رأسهما سليمان ديميريل عام ١٣٩٥، و١٣٩٧ هـ.
أسس حزب الرفاه عام ١٤٠٧ هـ بعد إلغاء الأحزاب السابقة كلها إثر الانقلاب العسكري الثاني.

(١) شكل بولاند اجاويد وزارته الأولى على النحو الآتي:
١ - بولاند أجاويد: رئيساً للوزراء.
٢ - نجم الدين أربكان: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - أورهان أيوب أوغلو: وزيراً للدولة.
٤ - إسماعيل حقي برلار: وزيراً للدولة.
٥ - سليمان عارف عمرو: وزيراً للدولة.
٦ - شوكت قازان: وزيراً للعدل.
٧ - حسن أسعد إشق: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - أوغوزخان أصيل ترك: وزيراً للداخلية.
٩ - توران كونشي: وزيراً للخارجية.
١٠ - دنيز بيكال: وزيراً للمالية.
١١ - مصطفى اوستونداغ: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ - أرول جوكجة: وزيراً للنافعة.
١٣ - فهيم أداق: وزيراً للتجارة.
١٤ - صباح الدين جزرلي أوغلو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٥ - محمود تركمان أوغلو: وزيراً للجمارك.
١٦ - قورقوت أوزال: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٧ - فردا كولي: وزيراً للمواصلات.
١٨ - أوندر ساو: وزيراً للعمل.
١٩ - عبد الكريم دوغرو: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا. =

١٣٩٤ هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٧٤ م).

ورغم أن هذه الوزارة غير مُتجانسةٍ إذ تضمّ عناصر علمانية في حزب الشعب الجمهوري إلى جانب عناصر إسلاميةٍ في حزب السلامة الوطني، رغم هذا كله فقد قدّمت خدمات إسلامية في المجالات الدينية والاقتصادية والسياسية ففي الجانب الديني اتفقت أطراف الوزارة كلها على العناية بالثقافة الإسلامية في المدارس، والسماح للجمعيات الإسلامية بممارسة نشاطها ودعم الحكومة لها، وتوثيق الصلات مع البلدان العربية والعالم الإسلامي كله، وإذا كان هذا يُناقض الفكر العلماني الذي يحمله الحزبان الشعب والثقة الجمهوريان إلا أنهما قد رضخا لرأي حزب السلامة الوطني في هذا الجانب حرصاً على استلام السلطة. أما في المجال الاقتصادي فقد أقامت هذه الحكومة عدداً من المصانع أربكت أصحاب رؤوس الأموال، وأنصار الغرب. أما في المجال السياسي فكان أعظم الإنجازات وهو الإنزال التركي في جزيرة قبرص، واحتلال أكثر من ثلث الجزيرة، وكان الدافع لهذا التحرّك إيقاف أعمال الإجرام التي تحدث في الجزيرة ضدّ المسلمين، والمذابح التي يتعرّضون بين المدة والأخرى، وإيقاف القبارصة اليونانيين النصارى عند حدّهم، وقد نالت الحكومة بعد عملية الإنزال هذه تأييداً شعبياً واسعاً، وارتفعت أسهمها في الأوساط الرسمية، ورغب كلا الطرفين الأساسيين في الحكم وهما حزب الشعب الجمهوري وحزب السلامة الوطني كسب هذا التأييد وادعاء شرف هذا العمل، فأعلن رئيس الحكومة بولاند

= ٢٠ - جاهد قايرا: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ - أورهان بركيت: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ - علي طوبوز: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٣ - مصطفى أوق: وزيراً للشؤون القروية.
٢٤ - أحمد شنر: وزيراً للغابات.
٢٥ - مصلح الدين يلمازمته: وزيراً للرياضة والشباب.

أجاويد أن حزب السلامة الوطني شريكه في الحكم كان يُعارض هذا الإنزال التركي في جزيرة قبرص، وذلك بغية الاحتفاظ لنفسه فقط بشرف القيام بهذا العمل وخاصةً بعد أن لاحظ ارتفاع أسهم حزب السلامة الوطني وعلو شأن زعيمه نجم الدين أربكان فنُعت له الفضل بظهور قوة تركيا. وردّ حزب السلامة الوطني على دعوى بولاند أجاويد بأن حزب الشعب الجمهوري كان شريكاً في الحكم يوم حدثت مذابح للمسلمين في قبرص عام ١٣٨٣ هـ، ولم يفعل شيئاً سواء أكان داخل الحكومة أم خارجها في الأوساط الشعبية، كما أن حزب العدالة كان يحكم تركيا يوم وقعت المذابح مرةً أخرى في قبرص عام ١٣٨٧ هـ، ولم تحدث مساعدات للمسلمين في الجزيرة، ولم تدع المعارضة التي كانت مُتمثّلةً في حزب الشعب الجمهوري إلى تلك المساعدات أو إلى دعمٍ وإنزالٍ وإنما بقيت معارضةً صامتةً كأن الأمر لا يُهمّها، ولكن الإنزال الذي رفع رأس تركيا قد حدث يوم شارك حزب السلامة الوطني في الحكم الأمر الذي يدلّ أنه كان من ورائه، وكان عامل الضغط الأساسي للتحرّك باتجاه قبرص وإنهاء مذابح المسلمين التي تقع بين مدةٍ وأخرى. وكان حزب السلامة الوطني يرى يومذاك ضمّ الجزء التركي من قبرص إلى تركيا بينما يرى حزب الشعب الجمهوري الحكم الاتحادي في الجزيرة.

ولما ارتفعت شعبية حزب السلامة الوطني وزعيمه نجم الدين أربكان ندم قادة حزب الشعب الجمهوري على الائتلاف الذي أقاموه مع حزب السلامة الوطني، وجعلوه مُشاركاً لهم في الحكم وهذا ما أدّى إلى زيادة نفوذه، ولذا أخذ الحزب يعمل على فكّ الائتلاف وإنهاء المشاركة في السلطة، وربما كان بولاند أجاويد يُفكّر في أن بعض وزراء حزب السلامة الوطني تدفعهم الرغبة الى البقاء في الحكم إلى ترك نجم الدين أربكان فيما إذا أقدم على تقديم استقالته، وطلب من إخوانه وزراء حزبه تقديم استقالاتهم أيضاً. وجاءت الفرصة المناسبة إلى بولاند أجاويد ـ حسب زعمه ـ عندما غادر

البلاد في زيارةٍ إلى البلاد الاسكندينافية، فاختار أحد وزراء الدولة لينوب عنه في رئاسة الوزراء أثناء غيابه، وتجاوز نائب رئيس مجلس الوزراء الوحيد نجم الدين أربكان لإحراجه إما بقبول الإهانة بمخالفة الأعراف السياسية التي تقضي أن يتسلّم نائب الرئيس مكان الرئيس أثناء غيابه، أو يتقدّم بالاستقالة ويتخلّى عن السلطة وهذا ما يريده بولاند أجاويد وحزبه. وفعلاً عدّ نجم الدين أربكان هذا التصرّف إهانةً له ولحزبه فقدّم استقالته وقدّم وزراء الحزب استقالاتهم وسقطت الوزارة.

والواقع أن حزب الشعب الجمهوري بقيادة بولاند أجاويد لم يكن ليُمانع في هذه الآونة بالإنزال التركي في جزيرة قبرص، ولو كان يمانع لما تمّ، وتعود عدم الممانعة الآن في أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تُؤيّد ذلك ولم تكن قبل هذا الوقت تُؤيّد، إذ أصبحت من سياستها الآن مُنافسة انكلترا صاحبة النفوذ الأول في الجزيرة وتملك قاعدتين جويتين فيها، وقد أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر لبولاند أجاويد لهذا الإنزال ولكن لم تكن تتوقّع أن يحصل حزب السلامة الوطني على تلك الشعبية كما حدث.

ولا شك أن نجاح نجم الدين أربكان بالمشاركة في الحكم كان له إيجابيات في تقدّم الحزب وشعور الجماعة الإسلامية بنشوة الظفر إلا أنه في الوقت نفسه كانت له سلبيات إذ أخافت الدوائر الغربية من هذا النجاح وبدأ التفكير بالتخطيط لضرب الحزب أو تغيير الواجهات السياسية كلها، وهذا ما يحدث بعد قليلٍ.

وكان من الصعب تشكيل حكومة ائتلافية للمنافسة بين الحزبين الرئيسيين حزب الشعب الجمهوري وحزب العدالة وعدم تفاهمها، وكذا فقد أصبح الحزب الثالث وهو حزب السلامة الوطني على خلافٍ بل على نفورٍ مع حزب الشعب الجمهوري، ولذا اضطر رئيس الجمهورية إلى تكليف أحد المستقلين برئاسة حكومةٍ جديدةٍ.

عهد رئيس الجمهورية إلى سعدي ايرماق بتشكيل حكومة جديدة[1] بعد سقوط وزارة بولاند أجاويد بانسحاب وزراء حزب السلامة الوطني منها في ٣ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ م). ولكن هذه

---

(١) شكل سعدي إيرماق وزارته على النحو الآتي:

١ - سعدي ايرماق: رئيساً للوزراء.
٢ - زياد بايقار: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - محمد أزكونش: وزيراً للدولة.
٤ - مصلح فر: وزيراً للدولة.
٥ - صالح يلدز: وزيراً للدولة.
٦ - خيري موجي أوغلو: وزيراً للعدل.
٧ - إلهامي سانجار: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - مقدر أوزتكين: وزيراً للداخلية.
٩ - مليح اسنبل: وزيراً للخارجية.
١٠ - بدري كورسوي: وزيراً للمالية.
١١ - صفا رئيس أوغلو: وزيراً للتربية الوطنية.
١٢ - وفاء طانر: وزيراً للنافعة.
١٣ - خلوق جللو: وزيراً للتجارة.
١٤ - كمال دمير: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٥ - باران تونجر: وزيراً للجمارك.
١٦ - رشاد أقتان: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٧ - صباح الدين أوزبك: وزيراً للمواصلات.
١٨ - تورهان اسنر: وزيراً للعمل.
١٩ - محمد كولهان: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
٢٠ - أرهان اشيل: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ - إلهان أوليا أوغلو: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ - صلاح الدين بابر أوغلو: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٣ - إسماعيل حقي آيدنوغلو: وزيراً للشؤون القروية.
٢٤ - فكرت سعاتجي أوغلو: وزيراً للغابات.
٢٥ - زكائي بال أوغلو: وزيراً للرياضة والشباب.
٢٦ - نرمين نفطجي أوغلو: وزيراً للثقافة.
٢٧ - صادق شده: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

الحكومة لم تزد أيام حكمها على أربعة أشهر ونصف إذ لم يلبث أن قدّم سعدي إيرماق استقالة حكومته في ١٩ ربيـع الأول ١٣٩٥ هـ (٣١ آذار ١٩٧٥ م)، أي بعد أربعة أشهر ونصف فقط من تشكيلها، وكان بولاند أجاويد زعيم حزب الشعب الجمهوري في زيارةٍ لألمانيا فقطع تلك الزيارة وعاد إلى البلاد، غير أنه قد رفض التكليف بتشكيل حكومة بصفته صاحب الأكثرية في المجلس النيابي وذلك بغية إيجاد أزمةٍ وزاريةٍ يضطر إثرها رئيس الجمهورية إلى حلّ المجلس النيابي، ويُقدّر أن حزبه سيحصل على الأكثرية في المجلس النيابي الجديد، فيتحكّم هو في حلفائه الذين يختارهم للحكم معاً، ولا يخضع لهم في سبيل الحصول على الثقة بالمجلس النيابي، غير أن رئيس الجمهورية فخري ثابت كورتورك بحكم التقاليد الدستورية يمكنه أن يكلف زعيم الحزب الثاني بتشكيل الحكومة، وقد عمل بالفعل بهذا حيث عهد إلى سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] غير أنه لا يمكنه أن يُؤلّف وزارةً من حزبه إذ لا

---

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته الائتلافية على النحو الآتي:

١ ـ سليمان ديميريل: رئيساً للوزراء.

٢ ـ نجم الدين أربكان: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٣ ـ تورهان فيضي أوغلونائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٤ ـ ألب أرسلان توركيش: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.

٥ ـ سيفي أوزترك: وزيراً للدولة.

٦ ـ مصطفى كمال أرقوان: وزيراً للدولة.

٧ ـ عثمان ألبايراق: وزيراً للدولة في ١٥ جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ.

٨ ـ حسن أقصاي: وزيراً للدولة.

٩ ـ إسماعيل مفتي أوغلو: وزيراً للعدل.

١٠ ـ زياد بايقارا: وزيراً للعدل في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ.

١١ ـ فريد ملان: وزيراً للدفاع الوطني.

١٢ ـ أوغوزخان أصيل ترك: وزيراً للداخلية.

١٣ ـ صباح الدين أوزبك: وزيراً للداخلية في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ.

١٤ ـ إحسان صبري جاغلايانيكل: وزيراً للخارجية. =

يستطيع أن ينال الثقة من المجلس النيابي لذا فقد تحالف مع الأحزاب الصغيرة كي يحرز ولو أغلبية ضئيلة، فقد تحالف مع حزب السلامة الوطني، وحزب الحركة الملية، وحزب الثقة الجمهوري وبذا حصل على مائتين وخمسة عشر صوتاً في المجلس النيابي إضافةً إلى بعض أصوات النواب المستقلين.

= ١٥ - يلماز أركانكون: وزيراً للمالية.
١٦ - علي نائلي أردم: وزيراً للتربية الوطنية.
١٧ - فهيم أداق: وزيراً للنافعة.
١٨ - خليل باشول: وزيراً للتجارة.
١٩ - كمال دمير: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٠ - وفاء طانر: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ.
٢١ - أورهان أوزتراك: وزيراً للجمارك.
٢٢ - قورقوت أوزال: وزيراً للزراعة والحيوانات.
٢٣ - ناهد منتشه: وزيراً للمواصلات.
٢٤ - إبراهيم أقصوي: وزيراً للمواصلات في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ.
٢٥ - أحمد توفيق باكسو: وزيراً للعمل.
٢٦ - شوكت قازان: وزيراً للعمل في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٦ هـ.
٢٧ - عبد الكريم دوغرو: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
٢٨ - صلاح الدين قليج: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٩ - لطفي طوق أوغلو: وزيراً للإعلام والسياحة.
٣٠ - ناهد منتشه: وزيراً للإعلام والسياحة في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ.
٣١ - نور الدين أوق: وزيراً للإعمار والإسكان.
٣٢ - وفاء طانر: وزيراً للشؤون القروية.
٣٣ - تورهان قابانلي: وزيراً للغابات.
٣٤ - علي شوقي أرك: وزيراً للرياضة والشباب.
٣٥ - رفقي دانشمان: وزيراً للثقافة.
٣٦ - أحمد ماهر أبلوم: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

حزب العدالة	١٤١
حزب السلامة الوطني	٤٩
حزب الحركة الملية[١]	١٣
حزب الثقة الجمهوري	١٢
	٢١٥

وتسلّم زعماء الأحزاب الثلاثة المؤتلفة في الحكم مع حزب العدالة نواباً لرئيس الوزراء، أما المعارضة فقد تمثلت في حزب الشعب الجمهوري ١٨٩ نائباً، والحزب الديمقراطي ٤٠ نائباً، وبذا فإن الثقة التي حصلت عليها الوزارة كانت ضعيفةً.

وفي هذه المرحلة انشقّ الحزب الديمقراطي، وأصبح جناحين: الأول يُعرف بالهلالي، ويفخر بالخلافة العثمانية، وقد انضم هذا الفريق، وهو القليل، إلى حزب السلامة الوطني، ويُعرف ثانيهما بالذئبي وذلك لأنه يتخذ الذئب شعاراً له إشارة إلى الذئب معبود الأتراك قبل دخولهم في الإسلام، ويشمل هذا الفريق أكثرية الحزب، وقد انضمّ إلى حزب الشعب الجمهوري، وبذا فقد انتهى الحزب الديمقراطي نهائياً، ولكن سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة يدّعي أن حزبه إنما هو تتمة الحزب الديمقراطي.

وقد تمكّنت هذه الوزارة بجهود نجم الدين أربكان أن تدفع بالصناعة

---

(١) حزب الحركة الملية (الوطنية) ويتزعمه ألب أرسلان توركيش: وقلما يلفظ الأتراك الراء، فيقولون ألبسلان. وهو عقيد ركن متقاعد، ولد في قبرص في مدينة نيقوسيا في حي لفكوشة، وذلك عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م)، وكان عام ١٣٨٠ عضو الوحدة الوطنية، وأصبح مستشاراً في رئاسة الوزراء، أسّس حزب الحركة الملية، له عدد من المؤلفات منها: قضية القومية، وتسعة أضواء، والوجهات الأساسية، وسياستنا الخارجية وقبرص.

خُطوةً نحو الأمام وأن تُقيم بعض المعامل والمؤسسات.

كان كل من حزب الشعب الجمهوري وحزب العدالة يحرص على الإسراع في إجراء الانتخابات ويتوقّع كلاهما أن يحصل فيها على الأكثرية، ثم تقدّم كلاهما بطلبٍ إلى رئيس الجمهورية لتقديم الانتخابات العامة وفعلاً فقد تمّ تقديمها ثلاثة أشهر من خريف عام ١٣٩٨ هـ إلى صيفه.

قدّم سليمان ديميريل استقالة حكومته في ٥ رجب ١٣٩٧ هـ (٢١ حزيران ١٩٧٧ م) وعهد رئيس الجمهورية فخري ثابت كورتورك إلى زعيم حزب الشعب الجمهوري بتشكيل حكومةٍ جديدة، فألّف وزارةً[1] لم

(١) شكل بولاند أجاويد وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - بولاند أجاويد: رئيساً للوزراء.
٢ - أورهان أيوب أوغلو: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - تورهان كونش: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٤ - لطفي دوغان: وزيراً للدولة.
٥ - كنعان بولوط أوغلو: وزيراً للدولة.
٦ - سلجوق الوردي: وزيراً للعدل.
٧ - حسن أسعد إشيق: وزيراً للدفاع الوطني.
٨ - نجدت أوغور: وزيراً للداخلية.
٩ - كوندوز أوكجون: وزيراً للخارجية.
١٠ - بسيم اوستونال: وزيراً للمالية.
١١ - مصطفى اوستونداغ: وزيراً للترابية الوطنية.
١٢ - عبد الكريم زيلان: وزيراً للنافعة.
١٣ - ضياء مؤذن أوغلو: وزيراً للتجارة.
١٤ - جلال أورتوغ: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٥ - محمد جان: وزيراً للجمارك.
١٦ - فكرت كوندوغان: وزيراً للزراعة والحيوانات.
١٧ - أرول جوكجه: وزيراً للمواصلات.
١٨ - باهر ارسوي: وزيراً للعمل.
١٩ - تورهان أردم: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.

=

تدم سوى شهرٍ واحدٍ من ٥ رجب إلى ٥ شعبان من العام نفسه، وذلك لأن الحكومة لا تملك أكثريةً نيابيةً تدعمها، ومجرد طرح الثقة على المجلس النيابي تحجب عنها الثقة فتضطر إلى الاستقالة، وهذه إحدى عيوب الحياة النيابية، إذ تُعطى الثقة أو تُحجب بناءً على الانتماء الحزبي، وليس على أساس الحقّ والباطل، أو الموافقة على منهجٍ أو رفضه لأسبابٍ شرعيةٍ أو على الأقلّ عقليةٍ، ومع هذه السلبيات فإن أنصار هذا النظام يُدافعون عنه دفاعاً عجيباً، ويعتقدون أنه لا صلاح دونه، حتى إن بعض الذين ينتمون إلى الإسلام يظنّون أنه من أساس التشريع، أو أقرب ما يكون إلى الإسلام، ولا يبنون كلامهم هذا على علمٍ ومعرفةٍ، وإنما عن جهلٍ بالإسلام، وافتتانٍ بالأنظمة الغربية التي صدّرت لنا هذا النظام، وما دام قد جاء منها فهو ـ حسب زعمهم ـ النظام الأمثل، ويجب العمل به، والتمسّك به، وكل ما عداه باطل، ولا يأتي بخير.

وفي ٥ شعبان ١٣٩٧ هـ (٢١ تموز ١٩٧٧ م) شكّل سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة وزارةً جديدةً[١] بالتحالف مع حـزب السلامـة الوطني

= ٢٠ ـ نشأت أقماندور: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢١ ـ ألطان أويمان: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٢ ـ أرول تونجر: وزيراً للإعمار والاسكان.
٢٣ ـ علي طوبوز: وزيراً للشؤون القروية.
٢٤ ـ وجدي إلهان: وزيراً للغابات.
٢٥ ـ يوكسل جاقمور: وزيراً للرياضة والشباب.
٢٦ ـ خير الدين أويصال: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته الجديدة وهي خامس وزارة يشكلها على النحو الآتي:
١ ـ سليمان ديميريل: رئيساً للوزراء.
٢ ـ نجم الدين أربكان: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ ـ ألب أرسلان توركيش: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٤ ـ سيفي أوزترك: وزيراً للدولة.
٥ ـ سليمان عارف عمرو: وزيراً للدولة.

وحزب الحركة الملية، وقد شعر بالظفر فقد انهارت حكومة خصمه السياسي بولاند أجاويد بسرعةٍ، ومعنى هذا أن وزارته ستطول مدتها إذ هي قوية وخاصةً أنه جرّب السلطة مع حلفائه ووجد في زعمائهم نجم الدين أربكان، وألب أرسلان توركيش دعامةً للحكم وسنداً، ودائماً تتداعى إلى

= ٦ - سعدي صومونجي أوغلو: وزيراً للدولة.
٧ - علي شوقي أرك: وزيراً للدولة.
٨ - نجم الدين جوهري: وزيراً للعدل.
٩ - سعد الدين بلكيج: وزيراً للدفاع الوطني.
١٠ - تورهان قابانلي: وزيراً للدفاع الوطني في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٧ هـ.
١١ - قورقوت أوزال: وزيراً للداخلية.
١٢ - إحسان صبري جاغلايانيكل: وزيراً للخارجية.
١٣ - جهاد بلكه خان: وزيراً للمالية.
١٤ - ناهد منتشه: وزيراً للتربية الوطنية.
١٥ - صلاح الدين قليج: وزيراً للنافعة.
١٦ - أكاه اوقتاي كونر: وزيراً للتجارة.
١٧ - جنكيز كوكجك: وزيراً للصحة.
١٨ - كون سازاك: وزيراً للجمارك.
١٩ - فهيم أداق: وزيراً للزراعة والحيوانات.
٢٠ - يلماز أركنكون: وزيراً للمواصلات.
٢١ - إسماعيل فهمي جعلي أوغلو: وزيراً للعمل.
٢٢ - أغوزخان أصيل ترك: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
٢٣ - كامران إنان: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٤ - اسكندر جنات أكه: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٥ - محمد رجائي قوتان: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٦ - تورغوت يوجل: وزيراً للشؤون القروية.
٢٧ - صلاح الدين ساوجي: وزيراً للغابات.
٢٨ - أونول شاقار: وزيراً للرياضة والشباب.
٢٩ - علي شوقي أرك: وزيراً للرياضة والشباب في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٧ هـ.
٣٠ - عوني أقيول: وزيراً للثقافة.
٣١ - تورهان قابانلي: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

فكر الإنسان الأمور التي هي في صالحه، وينسى الجوانب الثانية التي قد تنغّص عليه ما هو فيه أو ما حصل عليه من ظفر، فقد نسي سليمان ديميريل أن سقوط حكومة خصمه سيجعله يبذل جهداً كبيراً لإسقاط الحكومة القائمة أيضاً، وأن العسكريين، ورئيس الجمهورية منهم، لا يسمحون لغيرهم أن يتبّوأ مقعداً دائماً في السلطة إذ يرون في ذلك تقليلاً من شخصيتهم ومنافسةً لهم على مركزهم، ولذا إن عجزت المعارضة عن إسقاط الحكومة فإن رئيس الجمهورية سيقيلها بعد مدةٍ، ويكون قد وقف موقف المعارضة، وهذا ليس له فقط وإنما لخصمه أيضاً عندما تؤول إليه السلطة، غير أن سليمان ديميريل لم يُفكّر في هذا الموضوع.

وفي ٢٦ محرم ١٣٩٨ هـ (٥ كانون الثاني ١٩٧٨ م) قدّم سليمان ديميريل استقالة حكومته فعهد رئيس الجمهورية إلى بولاند أجاويد بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١]، ولم تصل مدة حكم سلفه إلى ستة أشهرٍ، حيث سقطت

---

(١) شكل بولاند أجاويد وزارته الثالثة على النحو الآتي:

١ - بولاند أجاويد: رئيساً للوزراء.
٢ - أورهان أيوب أوغلو: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - تورهان فيضي: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٤ - فاروق سوكان: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٥ - حكمت جيتين: وزيراً للدولة.
٦ - أنور أقووا: وزيراً للدولة.
٧ - لطفي دوغان: وزيراً للدولة.
٨ - صالح يلدز: وزيراً للدولة.
٩ - مصطفى قليج: وزيراً للدولة.
١٠ - حسن قورقوت: وزيراً للدولة في ١٠ رجب ١٣٩٩ هـ.
١١ - علي رضا سبتي أوغلو: وزيراً للدولة في ١ شعبان ١٣٩٩ هـ.
١٢ - أحمد شنر: وزيراً للدولة.
١٣ - محمد جان: وزيراً للعدل.
١٤ - حسن أسعد اشيق: وزيراً للدفاع الوطني.
١٥ - نشأت أقماندور: وزيراً للدفاع الوطني في ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ. =

وجاءت حكومة حزب الشعب الجمهوري، وما انشقّ عنه من رجالات حزب الثقة الجمهوري مثل تورهان فيضي أوغلو، ومن بعض من كانوا يُؤلّفون الحزب الديمقراطي الذين انشقوا عن حزب العدالة أمثال فاروق سوكان، ولم تكن حال هذه الحكومة بأفضل من سابقتها بكثيرٍ، إذ لم يزد

= ١٦ - عرفان أوز آيدنلي: وزيراً للداخلية.

١٧ - حسن فهمي كونش: وزيراً للداخلية في ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ.

١٨ - وجدي الهان: وزيراً للداخلية في ١٩ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ.

١٩ - كوندوز اكجون: وزيراً للخارجية.

٢٠ - ضياء مؤذن أوغلو: وزيراً للمالية.

٢١ - نجدت أوغور: وزيراً للتربية الوطنية.

٢٢ - شرف الدين الجي: وزيراً للنافعة.

٢٣ - تأومان كوبرولولار: وزيراً للتجارة.

٢٤ - مته طان: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.

٢٥ - تونجاي مطرجي: وزيراً للجمارك.

٢٦ - كونش أونكوت: وزيراً للمواصلات.

٢٧ - محمد يوجلار: وزيراً للزراعة والحيوانات.

٢٨ - باهر ارصوي: وزيراً للعمل.

٢٩ - أورهان ألب: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.

٣٠ - كنعان بولوط أوغلو: وزيراً للمؤسسات.

٣١ - دينز بايقال: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.

٣٢ - آلاوجوشقون: وزيراً للإعلام والسياحة.

٣٣ - أحمد قره أصلان: وزيراً للإعمار والإسكان.

٣٤ - محمد يوجلار: وزيراً للإعمار والإسكان في ٢٦ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ.

٣٥ - علي طوبوز: وزيراً للشؤون القروية.

٣٦ - وجدي إلهان: وزيراً للغابات.

٣٧ - أحمد شنر: وزيراً للغابات في ٣ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ.

٣٨ - يوكسل جاقمور: وزيراً للرياضة والشباب.

٣٩ - حلمي ايشكوزار: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

٤٠ - صالح يلدز: وزيراً للتأمينات الاجتماعية في ٢٨ رجب ١٣٩٩ هـ.

٤١ - أحمد طانر قشلالي: وزيراً للثقافة.

٤٢ - محمود أوزدمير: وزيراً للإدارات المحلية.

حكمها كثيراً على الأحد عشر شهراً.

ويبدو أن قصر مدة أيام الحكومات لم يكن بسبب المعارضة فقط، ولا بسبب طبيعة رئيس الجمهورية العسكرية فحسب، وإنما بسبب الحرية التي زادت قليلاً عن الحدّ المرسوم لها، حيث كثر النقد، وتوسّع النشاط الإسلامي ووجد المجال له في المساجد والمدارس الشرعية التي وجدت وهذا ما لا تجده بقية الأحزاب، وتنشّط حزب الحركة الملية أيضاً، وكلما زاد النشاط الإسلامي فهو مؤشر إلى اقتراب موعد التغيير حيث لا يمكن لأصحاب النفوذ ان يسمحوا بذلك أو يسمعوا فيه. وفي ٢٢ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ م) قدّم بولاند أجاويد استقالة حكومته وعهد رئيس الجمهورية فخري ثابت كورتورك إلى سليمان ديميريل بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ[1]، واستمّرت هذه الوزارة حتى الانقلاب العسكري

---

(١) شكل سليمان ديميريل وزارته السادسة على النحو الآتي:

١ ـ سليمان ديميريل: رئيساً للوزراء.
٢ ـ أورهان أرن: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ ـ أكرم جيهون: وزيراً للدولة.
٤ ـ محمد كلّجي: وزيراً للدولة.
٥ ـ أحمد قره خان: وزيراً للدولة.
٦ ـ متين موسى أوغلو: وزيراً للدولة.
٧ ـ كوكسال طوبتان: وزيراً للدولة.
٨ ـ عمر أوجوزال: وزيراً للعدل.
٩ ـ أحمد إحسان برنجي أوغلو: وزيراً للدفاع الوطني.
١٠ ـ مصطفى كولجكيل: وزيراً للداخلية.
١١ ـ أورهان أرن: وزيراً للداخلية في ٢٤ رمضان ١٤٠٠ هـ.
١٢ ـ خير الدين أركمن: وزيراً للخارجية.
١٣ ـ عصمت سزكين: وزيراً للمالية.
١٤ ـ أورهان جمال فرسوي: وزيراً للتربية الوطنية.
١٥ ـ صلاح الدين قليج: وزيراً للنافعة.
١٦ ـ خليل باشول: وزيراً للتجارة. =

الثاني في ٣ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ (١٢ ايلول ١٩٨٠ م) بقيادة كنعان إيفيرين.

فسح المجال سليمان ديميريل بالحرية أكثر من الحكومة السابقة فكان على موعدٍ مع الانقلاب.

= ١٧ - منيف إسلام أوغلو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
١٨ - أحمد جاقماق: وزيراً للجمارك.
١٩ - حسين أوزالب: وزيراً للمواصلات.
٢٠ - جمال كولاحلي: وزيراً للزراعة والحيوانات.
٢١ - جاويد أردمير: وزيراً للعمل.
٢٢ - نوري بايار: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.
٢٣ - أسعد قيراكلي أوغلو: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٢٤ - بارلاس كونتاي: وزيراً للإعلام والسياحة.
٢٥ - تورغوت توكر: وزيراً للإعمار والإسكان.
٢٦ - أحمد قره يغيت: وزيراً للشؤون القروية.
٢٧ - حسن أكيجي: وزيراً للغابات.
٢٨ - طلعت آصال: وزيراً للرياضة والشباب.
٢٩ - سومار أورال: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.
٣٠ - توفيق قورالتان: وزيراً للثقافة.

الانقلابُ العَسْكريّ الثاني
كنعان إيڤرين

كانت الدوائر الاستعمارية من شرقيةٍ وغربيةٍ وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية صاحبة النفوذ الأول في تركيا تُراقب الحركات السياسية والنشاطات الفكرية ـ كعادتها ـ وتُتابع التحرّكات، وتقوم بالدراسات، فأخافها النشاط الإسلامي الذي برز من جديدٍ، ويُريد أن يقضي على الآراء الإلحادية والعنصرية التي بذرها مصطفى كمال بتوجيهٍ من النصرانية، وتعهّدتها الدول الغربية، ورعتها اليهودية، والإرساليات التنصيرية، واتحاد الكنائس العالمي.

ومع وجود ثغرةٍ في النشاط الإسلامي وهي عدم الوعي السياسي التام الناتج عن عدم التقدير الكامل لإمكانات الأعداء، وطريقة تصرّفهم، ومُتابعة الدراسة الكاملة للمجتمع، وعن عدم معرفة الواقع الذي يعيش فيه، والوسط الذي يتعامل معه، وربما كان هذا ناشئاً عن الإيمان العميق لرجال الدعوة الإسلامية وتصميمهم على حقهم، وإيمانهم بنصر الله فيما لو استقاموا على الطريق، وعدم مُبالاتهم بالأعداء، ولا شك فإن في هذا قوة وهي التي جعلتهم يحصلون على بعض النتائج الطيبة والنجاح، وفيه سلبيات جعلتهم يُخفقون أحياناً في متابعة سيرهم ويجدون الصعاب أثناء تقدّمهم، غير أن النجاح عندهم قد غطّى هذه السلبيات فلم يروها.

لقد أخاف هذا النشاط الإسلامي الذي ظهر من حزب السلامة الوطني

الدوائر الاستعمارية فكان لا بدّ لها من أن تعمل على الحدّ منه وتقليم أظافره على حدّ زعمها قبل أن يشتدّ عوده، وتعجز بعدها عن إخماده بصورةٍ سهلةٍ، وإن أكثر ما تخافه تلك الدوائر هو الإسلام، وهو أكثر ما تحقد عليه، وتبذل جهدها لضربه، وتعدّ أن مهمتها في الحياة إنما هي القضاء عليه لذا لا بدّ لها من أن تتحرّك وقد رأت النشاط له قد أخذ يحبو.

كما أخاف تلك الدوائر الاستعمارية النشاط العنصري الذي لا يُعادي الإسلام، بل يسكت عنه، وربما يُسايره أحياناً، وهو يتمثّل في حزب الحركة الملية الذي يتزعّمه ألب أرسلان توركيش، والذي أصبح يملك قوّةً ليست سياسيةً فحسب وإنما شبه عسكريةٍ، إذ كانت له مجموعات من الشباب عندها القدرة على القتال، وربما كانت مُدرّبةً عليه، وقد قامت ببعض الصدامات مع خصوم حزبها ووقعت مظاهرات وإضرابات، وكان النجاح غالباً بجانب هذا الحزب، وإذا كان أقواها قد حدث في أضنة ومرعش مكان نفوذ ألب أرسلان توركيش إلا أن نشاطه قد تجاوز هذا، وامتدّ إلى أكثر جهات البلاد، وتخشى تلك الدوائر الاستعمارية أن ينفلت ذلك النشاط من عقاله ويتحرّك في جهةٍ لا تُريدها هي، وربما سار نحو الإسلام فليس من حائلٍ يحول دون ذلك سوى الفكرة العنصرية التي يحملها، والتي ربما كانت واجهةً يتستّر تحتها، أو عنواناً يتخذه مظلّةً يتقي بها. وإن كانت العنصرية لا تُشكّل خطراً أبداً على أعداء الإسلام بل يتخذونها عادةً وسيلةً لضرب الإسلام وأبنائه، ولكنها هنا تخيّل إليهم أنها ليست عنصريةً بمفهوم التعصّب القومي وإنما في إطارٍ يضمّ الإسلام ويشمله ومن هنا جاء الخوف من هذه الحركة وإن كان أقلّ بكثيرٍ من الخوف من الإسلام بل لا يمكن مقارنته معه.

ويخشى ساسة الغرب من انتشار الشيوعية التي تسلك طريق السرية في بداية أمرها، وتترعرع في مجتمعات الجهل والفقر حيث يمكن جرّ الأفراد

نحوها بالأماني ودعايات الإنقاذ، وهذا ما يتوفّر في تركيا، كما تجد الشيوعية طريقاً لها تحت غطاء الفوضى والصراعات الداخلية فتقوم بأعمال الإجرام فيضطر المجرمون إلى الارتباط بها بغية الخلاص وتحتضنهم في سبيل زيادة حوادث الفوضى والفساد، ويزداد هذا وذاك، وتبدأ الشيوعية بالتغلغل في صفوف البائسين الجهلة ويستفيد من وراء ذلك، أو يركب التيار ويقوده المستغلّون ليصلوا إلى ما يريدون من تحقيق مصالح وربما إلى تسلّم السلطة ليرضوا شهواتهم في التحكّم والاستبداد، وأخذت الأحداث تُشير إلى وجود مُنظّماتٍ شيوعيةٍ تعمل في الخفاء وتُسعر نار الفوضى. والشيوعية أقلّ خطراً على الغرب ونظامه حسب تصوّر ساسته وسدنته من الإسلام بكثيرٍ بل لا يمكن المقارنة بينهما إذ أن الشيوعية والرأسمالية نظامان ماديان يلتقيان ويفترقان على أمورٍ ماديةٍ منها استغلال الشعوب، وبسط النفوذ، والسيطرة على المناطق، كما يتفقان على محاربة الإسلام إضافةً إلى ذلك فإن المحرّك لهما واحد، أو له الأثر الكبير عليهما وهو اليهودية وإمكاناتها المادية، ولقد اتفق الفريقان في كثيرٍ من الأحيان على تقسيم مناطق النفوذ، وإشعال نار الحرب، وإن كان هذا قد يُغطّى بأدوارٍ تمثيليةٍ، حيث يأخذ كل طرفٍ دوراً في اللعبة الدولية.

ولهذا فقد رأت الولايات المتحدة صاحبة النفوذ في تركيا أن تُوقف من النشاط الإسلامي، وتحدّ من الفوضى التي يتستّر بها الأخطبوط الشيوعي، وتضرب الحركات المسلمة، وتُلغي ولو مؤقتاً شعار الحرية الذي يتحرّك هذا كله تحته، وهذا يقتضي تحرّك الجيش المُهيأ لمثل هذا الأمر والمتربّص لحماية النظام القائم بأفكاره واتجاهه لا برجاله وأشخاصه.

وفي ٣ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ (١٢ ايلول ١٩٨٠ م) تحرّك الجيش بقيادة رئيس الأركان، وتسلّم الأمر، وبعد تسعة أيام من وقوع الانقلاب عهد رئيسه كنعان إيفيرين الذي تسلّم رئاسة الدولة إضافةً إلى رئاسة الأركان العامة ورئاسة المجلس العسكري الوطني المعتمد عهد إلى بولاند

أولصو[1] بتشكيل الحكومة[2].

---

(١) صائم بولاند أولصو: ابن محمد صالح، ولد في أوسكدار في استانبول في ٢٢ رمضان ١٣٤١ هـ (٧ أيار ١٩٢٣ م) تخرج من الأكاديمية الحربية البحرية عام ١٣٦٠ هـ، وترقى في الرتب العسكرية حتى تسلّم رئاسة الأركان في القوات البحرية، ثم مستشاراً لوزير الدفاع. ورشح نفسه للانتخابات عام ١٤٠٣ هـ، ونجح نائباً عن مدينة استانبول.

(٢) شكل بولاند اولصو وزارته على النحو الآتي:

١ - بولاند أولصو: رئيساً للوزراء.
٢ - زيّاد بياقره: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - تورغوت أوزال: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٤ - سرمد رفيق باشن: وزيراً للدولة في ٢٣ رمضان ١٤٠٢ هـ.
٥ - ايلهان أوزتراك: وزيراً للدولة.
٦ - محمد أوزكونش وزيراً للدولة.
٧ - نعمت أوزداش: وزيراً للدولة.
٨ - جاويد منتش: وزيراً للعدل.
٩ - رفعت بيازيد: وزيراً للعدل في ٤ جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ.
١٠ - كاظم اكدوغان: وزيراً للعدل في ٩ شعبان ١٤٠٣ هـ.
١١ - خلوق بابيتكان: وزيراً للدفاع الوطني.
١٢ - صلاح الدين جيتنر: وزيراً للداخلية.
١٣ - ايلتر توركمان: وزيراً للخارجية.
١٤ - كايا إردم: وزيراً للمالية.
١٥ - عدنان بشير كافاوغلو: وزيراً للمالية في ٢٣ رمضان ١٤٠٢ هـ.
١٦ - حسن سكلام: وزيراً للتربية الوطنية.
١٧ - تحسين أونالب: وزيراً للنافعة.
١٨ - كمال كنتورك: وزيراً للتجارة.
١٩ - نجمي أيانوغلو: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٠ - كايا كيليشتورغي: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ٢٦ صفر ١٤٠٢ هـ.
٢١ - رجائي باتورالب: وزيراً للجمارك.
٢٢ - علي بوزر: وزيراً للجمارك في ٢٦ صفر ١٤٠٢ هـ.
٢٣ - ظفر طيار ساديكلر: وزيراً للجمارك في ١١ شعبان ١٤٠٣ هـ.
٢٤ - نجمي أوزغور: وزيراً للمواصلات. =

بقيت الأحكام العرفية مدةً ليست قصيرةً، ثم بدأت الحياة المدنية تعود تدريجياً، وأخذت الأحزاب تنشأ من جديدٍ، فقد أسّس تورغوت أوزال[1] حزب الوطن الأم، وأسّس اللواء المتقاعد تورغوت صونالب الحزب الديمقراطي، وشكّل نجدت جالب الحزب الشعبي حيث كان يُنادي بالعدالة الاجتماعية، واستمرّت هذه الأحزاب وحدها، وهي التي خاضت انتخابات

= ٢٥ - مصطفى عيسان: وزيراً للمواصلات في ٨ جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ.

٢٦ - صباح الدين أوزبك: وزيراً للزراعة والغابات.

٢٧ - تورهان ازنار: وزيراً للعمل.

٢٨ - شهاب كوجاتبوغو: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا.

٢٩ - محمد تورغوت: وزيراً للصناعة والتكنولوجيا في ٢٦ صفر ١٤٠٢ هـ.

٣٠ - شاربولنت بينغول: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.

٣١ - فهر إيلكل: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية في ٢٦ صفر ١٤٠٢ هـ.

٣٢ - إليهان أوليا أوغلو: وزيراً للإعلام والسياحة.

٣٣ - شريف توتان: وزيراً للإعمار والإسكان.

٣٤ - أحمد شمشورلو: وزيراً للإعمار والإسكان في ٢٣ رمضان ١٤٠٢ هـ.

٣٥ - منير رئيف غوناي: وزيراً للشؤون القروية.

٣٦ - وجدي أوزغول: وزيراً للرياضة والشباب.

٣٧ - صادق شيدا: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.

٣٨ - جهاد بابان: وزيراً للثقافة في ١٨ صفر ١٤٠٢ هـ.

٣٩ - إيلهان أوليا أوغلو: وزيراً للثقافة والاعلام.

(١) تورغوت أوزال: ابن محمد صديق، ولد في ملاطية عام ١٣٤٦ هـ، وتخرج من جامعة استانبول التقنية عام ١٣٧٠ هـ مهندساً كهربائياً. شغل منصب وكيل شؤون إدارة الكهرباء، وأصبح بعدها مستشاراً خاصاً لرئاسة الوزراء للشؤون التقنية، وهو عضو هيئة التدريس بجامعة الشرق الأوسط عام ١٣٨٦ هـ، ومستشار التخطيط لشؤون الدولة ١٣٩١ - ١٣٩٣، ومدير بنك الدنيا (أمريكا) ١٣٩٧ هـ.
كان مرشحاً لحزب السلامة في ولاية أزمير، وشغل منصب نائب رئيس الوزراء في حكومة صائم بولاند أولصو التي قامت بعد الانقلاب العسكري الثاني، والمسؤول عن الشؤون المالية فيها، والمستشار للتخطيط. أسس حزب الوطن الأم، ورشح نفسه عن استانبول ونجح، وفاز حزبه بالانتخابات وشكل الوزارة كما نجح في الانتخابات التالية وعاد لرئاسة الوزراء أيضاً.

عام ١٤٠٣ هـ، ولما كان تورغوت أوزال نائب رئيس الوزراء ووزيراً للدولة فقد قدّم استقالته من منصبه هذا في الحكومة ليستطيع خوض المعركة الانتخابية، وقد استقال بتاريخ ٢٣ رمضان ١٤٠٢ هـ (١٤ تموز ١٩٨٢ م)، وعدلّت الحكومة قانون الانتخابات حيث أصبح الحزب الذي لا يحصل على ١٠٪ من الأصوات يفقد أصواته، وتُعطى للحزب الذي ينال أكثر الأصوات، ولهذا فقد حصل حزب الوطن الأم على أكثر الأصوات إذ نال ٣٦٪ من مجموع الأصوات، وذلك لأنه لم يجد مُنافساً قوياً أمامه، فالناس لا يميلون إلى العسكريين، كما أن الحزب الشعبي لا يزال يعدّ ضعيفاً، ويعدّه بعضهم اشتراكياً، وبذا فقد اتجه الناخبون إلى تأييد حزب الوطن الأم.

عهد كنعان ايفيرين الذي أصبح رئيساً للجمهورية بتأليف حكومةٍ جديدةٍ بعد انتهاء الانتخابات وحسب نتائجها إلى تورغوت أوزال زعيم حزب الوطن الأم، فشكّل الوزارة[1] في ٩ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (١٣ كانون الأول ١٩٨٣ م).

---

(١) شكل تورغوت أوزال وزارته الأولى على النحو الآتي:
١ - تورغوت أوزال: رئيساً للوزراء.
٢ - كايا إردم: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - إسماعيل أوز داغلر: وزيراً للدولة في ١٤٠٥/٤/١٣ هـ.
كمال بويوكباس: وزيراً للدولة في ١٤٠٥/١٢/٢٨ هـ.
٥ - كورتكب ألبتمشن: وزيراً للدولة.
٦ - أحمد قره ولي: وزيراً للدولة.
٧ - سعود طغرل: وزيراً للدولة.
٨ - تيناز ططز: وزيراً للدولة في ١٤٠٥/٤/١٣ هـ.
٩ - مسعود يلماز: وزيراً للدولة.
١٠ - حسن جلال غوزال: وزيراً للدولة ١٤٠٧/٢/١٣ هـ.
١١ - عبد الله تنكجي: وزيراً للدولة.
١٢ - كاظم أوكساي: وزيراً للدولة.
=

واستمرت هذه الحكومة مدة المرحلة الانتخابية كلها، ولما جرت الانتخابات في ٨ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٧ م) بقي الحزب الوطن الأم يتصدّر مقاعد المجلس النيابي، وإن كانت قد انخفضت نسبته إلى ٣١٪ من الأصوات بعد أن كانت ٣٦٪ في الانتخابات

= ١٣ - علي بوزر: وزيراً للدولة ١٣/٢/١٤٠٧ هـ.
١٤ - نشأت إلدم: وزيراً للعدل.
١٥ - محمود أولتان سونغورلو: وزيراً للعدل في ١٣/٢/١٤٠٧ هـ.
١٦ - خليل إرطم: وزيراً للعدل في ٢٣/١/١٤٠٨ هـ.
١٧ - زكي ياوزتورك: وزيراً للدفاع الوطني.
١٨ - علي تانريلر: وزيراً للداخلية.
١٩ - يلديرم أكبلوت: وزيراً للداخلية في ١ صفر ١٤٠٥ هـ.
١٩ - أحمد سلجوق: وزيراً للداخلية في ٢٣ محرم ١٤٠٨ هـ.
٢٠ - وحيد خلف أوغلو: وزيراً للخارجية.
٢١ - ورال أريكان: وزيراً للمالية.
٢٢ - كورتكب ألبتمشن: وزيراً للمالية في ١ صفر ١٤٠٥ هـ.
٢٣ - وهبي دينجرلر: وزيراً للتربية الوطنية.
٢٤ - متين أمير أوغلو: وزيراً للتربية الوطنية في ١٣/٩/١٤٠٥ هـ.
٢٥ - صفا غيراي: وزيراً للنافعة.
٢٦ - محمد آيدين: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٧ - مصطفى كالاملي: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي في ١٣/٢/١٤٠٧ هـ.
٢٨ - يوزال عطاسوي: وزيراً للمواصلات.
٢٩ - إحسان باكل: وزيراً للمواصلات في ٢٣ محرم ١٤٠٨ هـ.
٣٠ - حسنو دوغان: وزيراً للغابات.
٣١ - مصطفى كالاملي: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.
٣٢ - مكرم تاشجيوغلو: وزيراً للتأمينات الاجتماعية في ١٣ صفر ١٤٠٧ هـ.
٣٣ - جاهد أرال: وزيراً للصناعة والتجارة.
٣٤ - كمال بويوكباس: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.
٣٥ - سعود طغرل: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية في ١٣/٤/١٤٠٥ هـ.
٣٦ - مكرم تاشجيوغلو: وزيراً للثقافة والإعلام.
٣٧ - مسعود يلماز: وزيراً للثقافة في ١٣/٢/١٤٠٧ هـ.

الماضية، وقد تمّ له هذا النجاح رغم عودة الأحزاب السابقة التي كانت قبل الانقلاب العسكري إلى الساحة ودخولها المعركة الانتخابية، وكان تحقيق هذا الفوز بسبب قانون الانتخابات الذي ذكرناه والذي يُعطي أصوات الأحزاب التي لم تحصل ١٠٪ من الأصوات إلى الحزب الذي يحصل على أعلى نسبة، وبذا فقد عاد حزب الوطن الأم الى الحكم، وعهد رئيس الجمهورية كنعان إيفيرين إلى تورغوت أوزال بتشكيل حكومةٍ جديـدةٍ[1]،

---

(١) شكل تورغوت أوزال وزارته الثانية على النحو الآتي:

١ - تورغوت أوزال: رئيساً للوزراء.
٢ - كايا إردم: نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للدولة.
٣ - كاظم أوكساي: وزيراً للدولة.
٤ - عبد الله تنكجي: وزيراً للدولة.
٥ - يوزال عطاسوي: وزيراً للدولة.
٦ - علي بوزر: وزيراً للدولة.
٧ - يوسف أوزال: وزيراً للدولة.
٨ - عدنان قهوجي: وزيراً للدولة.
٩ - أحمد يازار: وزيراً للدولة.
١٠ - جميل جيجك: وزيراً للدولة.
١١ - نهاد كتبجي: وزيراً للدولة.
١٢ - محمود أولتان سونغورلو: وزيراً للعدل.
١٣ - أركان يورلهان: وزيراً للدفاع الوطني.
١٤ - مصطفى كالاملي: وزيراً للداخلية.
١٥ - مسعود يلماز: وزيراً للخارجية.
١٦ - كورتكب ألبتمشن: وزيراً للمالية.
١٧ - حسن جلال كوزال: وزيراً للتربية الوطنية.
١٨ - صفا غيراي: وزيراً للنافعة.
١٩ - بولاند أقاركالي: وزيراً للصحة والتعاون الاجتماعي.
٢٠ - أكرم باكديميرلي: وزيراً للمواصلات.
٢١ - حسنو دوغان: وزيراً للغابات.
٢٢ - عمران ايكوت: وزيراً للتأمينات الاجتماعية.
٢٣ - شكرو يورور: وزيراً للصناعة والتجارة.

=

فقدّم استقالة حكومته السابقة وألّف وزارة جديدة بتاريخ ١ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (٢١ كانون الأول ١٩٨٧ م).

وقد عادت تركيا للتقرب من دول العالم الإسلامي فهي إحدى دول مؤتمر العالم الإسلامي، وتحسنت علاقاتها مع أكثر الأمصار ومنها المملكة العربية السعودية التي قام رئيس الوزراء تورغوت أوزال بزيارتها، كما تطوّرت العلاقات الاقتصادية بين هاتين الدولتين وغدت اللحوم وبعض البضائع التركية تجد لها سوقاً في المملكة، إضافةً إلى الذين يذهبون إلى تركيا من أرض العرب ليقضوا الصيف في ربوعها.

جرت الانتخابات المحلية في شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م). واستطاع حزب الوطن الأم من الاحتفاظ بالتفوّق.

وخلف تورغوت أوزال في رئاسة الجمهورية كنعان إيفيرين في ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م)، وكلّف يلديرم أكبولوت برئاسة الوزارة، واستمرت هذه الوزارة حتى ٥ ذي الحجة ١٤١١ هـ (١٧ حزيران ١٩٩١ م) حيث طلب من رئيسها الاستقالة، وكلّف مسعود يلماز بتشكيل وزارةٍ جديدة.

وفي ١٢ ربيع الثاني ١٤١٢ هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٩١ م) جرت الانتخابات العامة وحصلت الأحزاب الرئيسية على النسب التالية:

حزب الطريق القويم	٢٧,٣٪ من الأصوات، ويُمثّله ١٧٨ نائباً
حزب الوطن الأم	٢٣,٩٪ من الأصوات، ويُمثّله ١١٥ نائباً
حزب الشعب الديمقراطي الاجتماعي	٢٠,٦٪ من الأصوات، ويُمثّله ٨٨ نائباً
حزب الرفاه	١٨,٠٠٪ من الأصوات، ويُمثّله ٦٢ نائباً
الحزب الديمقراطي اليساري	١٠,٢ ٪ من الأصوات، ويُمثّله ٧ نواب

= ٢٤ ـ فخر الدين كورت: وزيراً للطاقة والمصادر الطبيعية.

٢٥ ـ محمد تيناز طظز: وزيراً للثقافة والإعلام.

ومن المعلوم أن الأحزاب التي تحصل على أقل من ١٠٪ من الأصوات تفقد ما حصلت عليه، ولا تُمثّل في المجلس النيابي.

شكّل سليمان ديميريل وزارةً ائتلافيةً من حزبه (الطريق القويم)، وقد مثّل بعشرين وزيراً، ومن حزب (الشعب الديمقراطي الاجتماعي) وقد مُثّل باثني عشر وزيراً وتسلم أردال أينونو زعيم هذا الحزب نيابة رئاسة مجلس الوزراء.

مات رئيس الجمهورية تورغوت أوزال في شوال ١٤١٣ هـ (نيسان ١٩٩٣ م) إثر أزمةٍ قلبية، ونجح سليمان ديميريل في تسلّم منصب رئاسة الجمهورية في ٢٥ ذي القعدة عام ١٤١٣ هـ (١٦ أيار ١٩٩٣ م)، وتسلّمت (تانسو تشيلر)[1] رئاسة حزب الطريق القويم، وشكلت وزارةً ائتلافية من حزبها وحزب الشعب الديمقراطي الاجتماعي، في ٦ المحرم ١٤١٤ هـ (٢٥ حزيران ١٩٩٣ م).

وجرت الانتخابات البلدية في ١٥ شوال ١٤١٤ هـ (٢٧ آذار ١٩٩٤ م) وحصل حزب الرفاه على ١٨٪ من مجموع الأصوات، وفاز ببلدية إستانبول وأنقرة وعشرين بلدية أخرى.

توالت على تركيا في هذه المرحلة الجمهورية النيابية اثنتان وثلاثون حكومة من ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ إلى آخر عام ١٤١٥ هـ.

منها:

٥ وزارات متتابعة شكّلها عدنان مندريس في عهد رئاسة محمود جلال بايار وهي مدة حكم الحزب الديمقراطي. (١٣٦٩ - ١٣٧٩ هـ).

و ٢ وزارة شكّلها جمال غورسيل أيام الانقلاب العسكري الأول الذي قام به. (١٣٧٩ - ١٣٨٠ هـ).

---

(١) تانسو تشيلر، ولدت في إستانبول عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، وحملت شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من الولايات المتحدة الأمريكية. وانتخبت عضواً في المجلس النيابي عام ١٤١١ هـ (١٩٩١ م)، وتسلّمت منصب وزيرة دولة للشؤون الاقتصادية. ثمّ شكّلت الوزارة.

و ٥ وزارات في عهد رئاسة جمال غورسيل (١٣٨٠ - ١٣٨٧ هـ). شكّل عصمت إينونو ثلاثاً متتابعة، وسعاد خيري أوركوبلو ووزارة سليمان ديميريل المشتركة مع أيام رئاسة جودت صوناي.

و ٥ وزارات في عهد رئاسة جودت صوناي (١٣٨٧ - ١٣٩٣ هـ) شكّل سليمان ديميريل وزارتين متتابعتين، ونهاد إيريم وزارتين أخريين، وفريد ملان آخر وزارة ولم تنته مدة حكم جودت صوناي ولكن المرض أنهاها.

محمود جلال بايار

١ - عدنان مندريس: ٥ شعبان ١٣٦٩ - ١ جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ (٢٢ أيار ١٩٥٠ - ٩ آذار ١٩٥١ م).

٢ - عدنان مندريس: ١ جمادى الآخرة ١٣٧٠ - ١٥ رمضان ١٣٧٣ هـ (٩ آذار ١٩٥١ - ١٧ أيار ١٩٥٤ م).

٣ - عدنان مندريس: ١٥ رمضان ١٣٧٣ - ٢٤ ربيع الثاني ١٣٧٥ هـ (١٧ أيار ١٩٥٤ - ٩ كانون الأول ١٩٥٥ م).

٤ - عدنان مندريس: ٢٤ ربيع الثاني ١٣٧٥ - ٣ جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ (٩ كانون الأول ١٩٥٥ - ٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٧ م).

٥ - عدنان مندريس: ٣ جمادى الأولى ١٣٧٧ - ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٧ - ٢٧ أيار ١٩٦٠ م).

الحكم العسكري الأول

٦ - جمال غورسيل: ٦ ذي الحجة ١٣٧٩ - ١٨ رجب ١٣٨٠ هـ (٣١ أيار ١٩٦٠ - ٥ كانون الثاني ١٩٦١ م).

٧ - جمال غورسيل: ١٨ رجب ١٣٨٠ - ١٢ جمادى الآخرة ١٣٨١ هـ (٥ كانون الثاني ١٩٦١ - ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦١ م).

جمال غورسيل

٨ - عصمت إينونو: ١٢ جمادى الآخرة ١٣٨١ - ٢٣ محرم ١٣٨٢ هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٦١ - ٢٥ حزيران ١٩٦٢ م).

٩ - عصمت إينونو: ٢٣ محرم ١٣٨٢ - ٩ شعبان ١٣٨٣ هـ (٢٥ حزيران ١٩٦٢ - ٢٥ كانون الأول ١٩٦٣ م).

١٠ - عصمت إينونو: ٩ شعبان ١٣٨٣ - ١٩ شوال ١٣٨٤ هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٦٣ - ٢٠ شباط ١٩٦٥ م).

١١ - سعاد خيري أوركوبلو: ١٩ شوال ١٣٨٤ - ٣ رجب ١٣٨٥ هـ (٢٠ شباط ١٩٦٥ - ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٥ م).

و ٨ وزارات في عهد الرئيس فخري كورتورك (١٣٩٣ ـ ١٤٠٠ هـ)

شكّل محمد نعيم طالو وزارةً واحدةً، وبولاند أجاويد ثلاث وزارات متفرقة، ومثلها سليمان ديميريل، وسعدي إيرماق وزارةً واحدةً.

جودت صوناي

١٢ ـ سليمان ديميريل: ٣ رجب ١٣٨٥ ـ ٢٣ شعبان ١٣٨٩ هـ
(٢٧ تشرين الأول ١٩٦٥ ـ ٣ تشرين الثاني ١٩٦٩ م).

١٣ ـ سليمان ديميريل: ٢٣ شعبان ١٣٨٩ ـ ٢٨ ذي الحجة ١٣٨٩ هـ
(٣ تشرين الثاني ١٩٦٩ ـ ٦ آذار ١٩٧٠ م).

١٤ ـ سليمان ديميريل: ٢٨ ذي الحجة ١٣٨٩ ـ ١٥ محرم ١٣٩١ هـ
(٦ آذار ١٩٧٠ ـ ١٢ آذار ١٩٧١ م).

١٥ ـ نهاد إيريم: ٢٩ محرم ١٣٩١ ـ ٢٣ شوال ١٣٩١ هـ
(٢٦ آذار ١٩٧١ ـ ١١ كانون الأول ١٩٧١ م).

١٦ ـ نهاد إيريم: ٢٣ شوال ١٣٩١ ـ ٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ
(١١ كانون الأول ١٩٧١ ـ ٢٢ أيار ١٩٧٢ م).

١٧ ـ فريد ملان: ٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ ـ ١٣ ربيع أول ١٣٩٣ هـ
(٢٢ أيار ١٩٧٢ ـ ١٥ نيسان ١٩٧٣ م).

فخري كوروتورك

١٨ ـ محمد نعيم طالو: ١٣ ربيع الأول ١٣٩٣ ـ ٣ محرم ١٣٩٤ هـ
(١٥ نيسان ١٩٧٣ ـ ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٤ م).

١٩ ـ بولاند أجاويد: ٣ محرم ١٣٩٤ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ
(٢٦ كانون الثاني ١٩٧٤ ـ ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ م).

٢٠ ـ سعدي إيرماق: ٣ ذي القعدة ١٣٩٤ ـ ١٩ ربيع الأول ١٣٩٥ هـ
(١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ ـ ٣١ آذار ١٩٧٥ م).

٢١ ـ سليمان ديميريل: ١٩ ربيع الأول ١٣٩٥ ـ ٥ رجب ١٣٩٧ هـ
(٣١ آذار ١٩٧٥ ـ ٢١ حزيران ١٩٧٧ م).

٢٢ ـ بولاند أجاويد: ٥ رجب ١٣٩٧ ـ ٥ شعبان ١٣٩٧ هـ
(٢١ حزيران ١٩٧٧ ـ ٢١ تموز ١٩٧٧م).

٢٣ ـ سليمان ديميريل: ٥ شعبان ١٣٩٧ ـ ٢٦ محرم ١٣٩٨ هـ
(٢١ تموز ١٩٧٧ ـ ٥ كانون الثاني ١٩٧٨ م).

٢٤ ـ بولاند أجاويد: ٢٦ محرم ١٣٩٨ ـ ٢٢ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ
(٥ كانون الثاني ١٩٧٩ ـ ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ م).

٢٥ ـ سليمان ديميريل: ٢٢ ذي الحجة ١٣٩٩ ـ ٣ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ
(١٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ ـ ١٢ ايلول ١٩٨٠ م).

و ٣ وزارات أيام الرئيس كنعان ايفيرين (١٤٠٠ - ١٤٠٩ هـ) شكّل منها وزارةً واحدةً بولاند أولصو، ووزارتين تورغوت أوزال.

و ٣ وزارات أيام الرئيس تورغوت أوزال (١٤١٠ - ١٤١٣ هـ) شكل يلديرم أكبولوت وزارة، وأخرى مسعود يلماز، وثالثة سليمان ديميريل.

و ١ وزارة واحدة أيام الرئيس سليمان ديميريل شكلتها تانسو تشيلر.

الانقلاب العسكري الثاني:

الرئيس	رئيس الوزارة	المدة
كنعان إيفرين	٢٦ - بولاند أولصو:	١٢ ذي القعدة ١٤٠٠ - ٩ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (٢١ ايلول ١٩٨٠ - ١٣ كانون الأول ١٩٨٣ م).
	٢٧ - تورغوت أوزال:	٩ ربيع أول ١٤٠٤ - ١ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ ١٣ كانون الأول ١٩٨٣ - ٢١ كانون الأول ١٩٨٧ م).
	٢٨ - تورغوت أوزال:	١ جمادى الأولى ١٤٠٨ - شعبان ١٤٠٩ هـ. (٢١ كانون الأول ١٩٨٧ - آذار ١٩٨٩ م).
تورغوت أوزال	٢٩ - يلديرم أكبولوت:	ربيع الثاني ١٤١٠ - ٥ ذي الحجة ١٤١١ هـ. (تشرين الثاني ١٩٨٩ - ١٧ حزيران ١٩٩١ م).
	٣٠ - مسعود يلماز:	٥ ذي الحجة ١٤١١ - ١٥ ربيع الثاني ١٤١٢ هـ. (١٧ حزيران ١٩٩١ - ٢٣ تشرين الأول ١٩٩١ م).
	٣١ - سليمان ديميريل:	١٥ ربيع الثاني ١٤١٢ - شوال ١٤١٣ هـ. (٢٣ تشرين الأول ١٩٩١ - نيسان ١٩٩٣ م).
سليمان ديميريل	٣٢ - تانسو تشيلر:	شوال ١٤١٣ هـ - . . . . (نيسان ١٩٩٣ م - . . . .).

الفصل الثالث

الصّراعات الداخليّة

يبلغ عدد سكان تركيا حسب تقديرات عام ١٤٠٨ هـ حوالي خمسين مليوناً، وتزيد مساحة البلاد على ٧٨٠ ألف كم٢ أي ما يزيد على مساحة بلاد الشام والعراق، وتكون الكثافة ٦٥ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد. والزيادة كبيرة إذ تصل إلى ٢,٥٪ أي أن السكان يزيدون في كل عامٍ ما ينوف على المليون وربع، وتعود هذه الزيادة إلى ارتفاع نسبة المواليد، وهي ظاهرة عامة في العالم الإسلامي كله.

ويُقيم أكثر السكان في الريف إذ تزيد نسبتهم فيه على ٧٠٪ بينما يُقيم في المدن ٣٠٪ فقط. ولا تهتّم الحكومات بالمشروعات الإنمائية كثيراً، أو هكذا يُطلب منها، لذا فالفقر ينتشر، ويُعاني السكان أزماتٍ، ويضطرون إلى الانتقال خارج الحدود، فنلاحظ أعداداً منهم في أوربا الغربية وخاصةً في ألمانيا الاتحادية إلا أن الضغوط أصبحت تصل إليهم، وتُطالب الحكومات من قبل رعاياها بإخراج الأجانب من بلادها على الرغم من أن الأتراك يقومون بالأعمال الشاقة والوضيعة، ويعيشون حياةً قاسيةً غير أنهم يرونها أفضل مما هي في بلادهم نتيجة التقصير في خدمة البلاد.

وفي الآونة الأخيرة أصبحت جموع تفد إلى دول الخليج وخاصةً المملكة العربية السعودية ويُؤدّي معظمهم أعمالاً يدويةً وخاصةً أن العلاقات حسنة بين البلدين، كما تطوّرت المبادلات التجارية بينهما.

هذا مع العلم أن تركيا غنية زراعياً وغنية في ثرواتها المعدنية، ومع ذلك فالصناعة لا تزال متأخرةً فيها، وتستورد الكثير مما تحتاج إليه، والنشاط الزراعي ضعيف، وهو بحاجةٍ إلى دفع عجلة التطوّر فيه، وإقامة المشروعات الكثيرة لتقدُّمه، من سدودٍ وغيرها، كما أن الفلاحين بحاجة إلى المساعدات والتوجيه.

الصراع بين المجموعات البشرية:

لا نجد صراعاً بالمعنى الصحيح بين المجموعات المتعددة التي تعيش في تركيا وذلك لأن هذه المجموعات قليلة نسبياً، وأعدادها تجعلها تعيش بهدوءٍ، إذ نجد أنه يعيش في تركيا المجموعات الآتية:

١ - الترك:

وهم المجموعة الرئيسية في البلاد، ويُشكّلون ٩٠٪ من مجموع السكان، إذ يبلغ عددهم خمسةً وأربعين مليوناً، وينتمون إلى العرق الأصفر، ويسودون في البلاد كافةً.

٢ - الأكراد:

وهم المجموعة الثانية، ويقرب عددهم من أربعة ملايين، أي أنهم يُشكّلون ٨٪ من مجموع السكان، وينتشرون في المنطقة الجبلية في جنوب شرقي البلاد، وعلى مقربةٍ من الحدود السورية، وهم فقراء لطبيعة بلادهم وإهمال أرضهم.

٣ - العرب:

ويقدّر عددهم بثلاثة أرباع المليون، فتكون نسبتهم ١,٥٪ من مجموع السكان، ويعيشون في اسكندرون، وأضنة، وشمال الأرض الشامية.

٤ - الشركس:

ويعيش أكثرهم في الشمال الشرقي من تركيا، ويتناثر بعضهم في مناطق مختلفة إذ جاءوا مهاجرين فارين بدينهم خوفاً من الروس، ولا يزيد عددهم على مائتي ألف.

٥ - اليونانيون:

وأكثرهم يُقيم في المناطق الغربية على حدود اليونان، وفي مدينة إزمير، ويُقدّر عددهم بمائة وثلاثين ألفاً.

٦ - الكرج:

ويُساوي عددهم عدد اليونانيين، ويعيشون في الشمال الشرقي، ويرجعون في أصولهم إلى جورجيا التي عاصمتها تفليس، والتي تخضع الآن لسيطرة الروس.

٧ - الأرمن:

ولا يصل عددهم إلى المائة الألف، ويُقيم أكثرهم في شرقي البلاد، وفي منطقة كيليكيا، كما تعيش جالية منهم في مدينة استانبول.

٨ - البلغار:

ويُقيمون في الغرب، ويُقدّر عددهم بسبعين ألفاً.

٩ - اليهود:

ويبلغ عددهم أربعين ألفاً، ويسكنون في مدينتي استانبول وإزمير.

ويلاحظ أن أعداد الجماعات البشرية قليلة، وهذا ما لا يسمح لها بالصراع مع المجموعة الرئيسية التي هي التركية، كما أن معظمها يعيش في

مناطق الحدود، وهي غالباً ما تكون خاضعةً للرقابة الشديدة، كما أنها متناثرة على الحدود فهي غير متداخلةٍ بعضها مع بعض ليقوم بينها صراع أو تقع خلافات عصبية، إذ أن كل مجموعةٍ تعيش متباعدةً عن الأخرى إلا إذ استثنينا الأكراد والأرمن الذين تتقارب مناطقهم بعضها من بعض، وقد تتداخل لذا فإنه يقع بين الجانبين صراع، وربما أصبح صراعاً تاريخياً متوارثاً.

وربما كان **الأكراد** وحدهم من بين الجماعات البشرية التي تعيش في تركيا، وتسمح لهم أعدادهم للصراع مع المجموعة التركية الرئيسية مع أن نسبتهم لا تزيد على ٨٪ من مجموع السكان غير أنه يساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الجبلية، وشدة بأسهم التي ورثوها، والتي أثّرت فيها بيئتهم أيضاً، وقربهم من الحدود، وحياة أبناء جنسهم وراء الحدود على مناطق طويلة في سوريا والعراق، إضافةً إلى ظهيرٍ وراء ذلك في إيران، وأذربيجان الخاضعة لسيطرة الروس، وكلها تعيش في مناطق جبليةٍ وعرةٍ تساعد على الاعتصام فيها، وربما عاشت أيضاً مناهضةً للحكم الذي تعيش في ظلّه، وتُعدّ من بين رعاياه.

دخل الأكراد في الإسلام بعد أن وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلادهم واجتازتها، وعاش الأكراد في ظلّ الدولة الإسلامية يشعرون أنهم جزء منها، وشعب من شعوبها، وأن عليهم واجب الجهاد فانخرطوا في صفوف المجاهدين، وواجب السمع والطاعة، وواجب النصح، وقد قاموا بما عليهم، وربما قامت بعض الحركات أو الأحداث الفردية إذ لم تكن لتعمّ الأكراد جميعها شأنها في ذلك شأن أي شعبٍ من الشعوب، إذ ما منها إلا وحدثت فيه مخالفات أو قام بعض أبنائه بحركات سواء أكانوا على حقٍ دعوا له أم ادّعوه أم على باطلٍ تزيلوا به، كما أن ليس من إقليم الا وقامت فيه أحداث تُنغّص على ساكنيه معيشتهم. واستمرّ شأن الأكراد كذلك حتى الحرب العالمية الأولى.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وقامت حركات تدعو إلى العصبية القومية والأكراد ينظرون، وإثر تلك الحرب أُلغيت الخلافة، وكانت قد قُسّمت دولتها، ونشأت مكانها دول حديثة على أساس العصبية القومية، لقد قامت إيران تدعو إلى العصبية الفارسية، وبرزت العراق، وقُسّمت الشام إلى دولٍ، وتأخذ كلها بفكرة العصبية للقومية العربية وتقوقعت تركيا على نفسها تأخذ الفكرة الطورانية وتتبنّاها وتدعو لها، حتى الروس الذين تمكّنوا من السيطرة على بلاد القفقاس وما وراءها قد أقاموا فيها جمهورياتٍ شيوعية على أساسٍ قوميٍ - حسب زعمهم - ومنها جمهوريتا أذربيجان وأرمينيا على تخوم مواطن الأكراد. وزعم الروس عارٍ عن الصحة إذ نلاحظ أن الشركس جعلوهم في ست جمهورياتٍ ومقاطعاتٍ ذات استقلالٍ ذاتيٍ وترتبط كلها بموسكو مباشرةً باستثناء جمهورية أوستينا الجنوبية، وأبخازيا اللتين ترتبطان بجمهورية جورجيا الاتحادية النصرانية، وتقسيم الشعب الواحد إلى هذه المجموعات المتعددة إنما جاء هكذا لأنه مسلم، وكانت كل جمهوريةٍ ذات رقعةٍ صغيرةٍ محدودةٍ، وعددٍ من السكان قليلٍ، وما ذلك إلا لتفتيت هذا الشعب الذي كان مُتمسّكاً بعقيدته، مُدافعاً عنها، ويملك قسطاً كبيراً من الشجاعة وفنّ القتال، والتضحية.

وجد الأكراد أنفسهم بعد الحرب العالمية الأولى إذن في وضعٍ غريبٍ فكل من حولهم قام على أساس العصبية القومية إلاّ هم فقد جُزّئت مواطنهم بين عددٍ من الدول ايران - العراق - سوريا - تركيا - أذربيجان، فعاشوا كأقلياتٍ بين عدّة شعوبٍ، وهذا ما جعلهم يقومون بحركاتٍ في كل دولةٍ يعيشون فيها وتسمح لهم بذلك أعدادهم وهذا ما كان في تركيا، والعراق، وإيران، كما نمّى ذلك عندهم دعوة العصبية القومية بل إن أكثرهم قد اتخذها شعاراً له، ولم يكن للمسلمين بينهم إمكانية مُقاومة تلك الدعوة للجهل المنتشر، ولما تمّ من التقسيم لهم على حين تجمّع غيرهم، وللضغط والملاحقة المستمرة بسبب عدم الخضوع والاستسلام

المطلق لمن وُضعوا بينهم وخاصةً أنهم لم يقوموا على أساسٍ إسلامي يُسكتهم، وحتى ليس على أساس المساواة لتُخَفّف شيئاً من غلوائهم وتمردهم. ولعله تبدو هنا أخطار العصبية القومية المُفرّقة للأمة المُجزّئة لأبناء الدولة ومن هنا كانت حركات الأكراد في تركيا، هذا إضافةً إلى صراعهم مع جيرانهم الأرمن الذين يختلفون معهم بالعقيدة كما يختلفون معهم بالجنس.

وأصبح الأكراد نتيجة خلافاتهم مع دولهم ورقةً رابحةً بيد الدول الكبرى تضغط بهم على تلك الدول حين تريد، وتُمنّيهم بأماني ليكونوا إلى جانبها تُنفّذ عن طريقهم بعض ما تهدف إليه. فالروس يُلوّحون لهم بتجميعهم ضمن جمهوريةٍ سوفيتيةٍ واحدةٍ، وقد وافق بعضهم على هذا العرض، وبدأ يعمل له مُتذرّعاً بأن المرّ الذي يتجرّعه الأكراد هو الذي دفعه للالتجاء إلى الارتماء في هذا الوحل.

والأمريكيون يدّعون أنهم يعملون إلى لمّ شتاتهم في دولةٍ واحدةٍ تقف في وجه الأطماع الروسية، بشرط البعد عن الإسلام وعالميته، وعن الشيوعية وتهديمها، وإلحادها، ووافق فريق من الأكراد على العمل ضمن هذا المخطط ما دام يحفظ للأكراد عصبيتهم، ويُؤمّن رغبتهم بالتجمع في إطارٍ واحدٍ، وهذا يضمن لهم كرامتهم، ويدفعهم للعطاء والإنتاج - حسب تقدير هذا الفريق وزعمه -

والواقع أن كلا الفريقين كاذب في عرضه إذ لا يرغب في جمع الأكراد في دولةٍ واحدةٍ حيث يخشى بأسهم، ويخاف من مناطقهم الوعرة التي تُعدّ حصوناً طبيعية تحميهم من مداهمة العدو، وتقيهم شرّه، ويفضل بالواقع كلا الفريقين أن يبقى الأكراد مُشتّتين يتلاعب بهم ضدّ حكوماتهم فالامريكيون لتنفيذ مخططاتهم، والروس لنشر إلحادهم وشيوعيتهم، وهكذا تبقى مشكلة الأكراد قائمةً، وبين المدة والأخرى يتحرّك الأكراد في شرقي تركيا يدعون إلى استقلالهم الذاتي أو إلى تحسين أوضاعهم المتردية.

ويجب ألا ننسى دور انكلترا التي تخاف على نفط المنطقة فيما إذا تجمّع الأكراد، وقامت لهم دولة، لذا تُفضّل بقاءهم متفرّقين، وتنعم هي بخيرات المنطقة وتُدلي بدلوها بالضغط أحياناً على حكومات المنطقة لتنفيذ سياستها وذلك عن طريق الأعوان لها الذين تمكّنت بالاتصال بهم من الأكراد.

وما أظنّ دولة كبرى إلا ولها يد في الموضوع وإن دورها أقلّ من أدوار الذين تكلمنا عنهم، لذا يبقى بروزهم في سياسة المنطقة ضعيفاً.

وأخيراً فإن مما يُساعد الأكراد على القيام بحركاتٍ أنهم على عقيدةٍ واحدةٍ فجميعهم من المسلمين ولا يشذّ عنهم سوى قلّةٍ قليلة جداً من أتباع عبدة الشيطان (اليزديين).

أما **العرب** وهم المجموعة الثالثة فإن عددهم قليل، وقد لاحظنا أن نسبتهم لا تزيد على ١,٥٪ من مجموع السكان، وهم مُوزّعون في مناطق واسعةٍ على طول الحدود، ويُقدّر ذلك الطول بحوالي ألف كيلو متر إضافةً إلى الدخول في عمق البلاد حتى دياربكر، وماردين، وفي مدن (كلس) و(عينتاب)، وفي مناطق كيليكيا واسكندرون، ويُضاف إلى هذا التوزّع والتبعثر أنهم ليسوا على عقيدةٍ واحدةٍ إذ أن بعضهم من المسلمين، وبعضهم الآخر من فرقة النصيرية التي يعيش أفرادها في اسكندرون وكيليكيا. ويجب أن نعلم أن أوضاع العرب في الدول المجاورة لتركيا ليس بأفضل حالاً من وضع العرب في تركيا بل أكثر سوءاً فما الذي يدفعهم للحركة أهو العمل من أجل الانتقال إلى مناطق لا يجدون فيها عملاً ولا يعرفون الحرية ولا يذوقون طعم الحياة أم للانضمام إلى بلد يكتوون فيها بنار الظلم وينالون مرّ العذاب؟ كما أن البلد العربي الذي يجاورهم لا يتصل بهم ولا يهتّم بل لا يسعى لمساعدتهم فيما اذا نزل بهم بأس كما تفعل الدول التي تحترم نفسها بالنسبة إلى أقلياتها التي تعيش خارج حدودها. ثم إن تركيا التي قامت على أساسٍ قوميٍ، وعملت على محاربة الإسلام في بلادها، وأدارت ظهرها للعرب كلياً، كما أداروا هم ظهورهم أيضاً عندما تبنّوا

فكرة العصبية القومية لذا فإن الحكم يُراقبهم ويرصد حركاتهم، وخاصةً أنهم يعيشون في مناطق الحدود المعرّضة عادةً للمراقبة.

أما **الشركس** فقد رحل الفوج الأول منهم عن بلادهم بعد هزيمة الشيخ محمد شامل أمام الروس ووقوعه أسيراً بأيديهم عام ١٢٨١ هـ حيث انطلقت مجموعات منهم، ومن الشاشان، والداغستان نحو الدولة العثمانية، فأقاموا في بلادهم، وقد وضعت الدولة جزءاً منهم في جبهة القتال في أوربا لما عُرف عنهم من شجاعةٍ، وقد أبدوا هناك الكثير من فنون البطولة حتى كان مؤتمر برلين في رجب ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) بعد هزيمة الدولة أمام الروس، واشترطت الدول النصرانية على العثمانيين نقل الشركس من جبهة القتال، وكان هذا أحد بنود المؤتمر، فاضطرت الدولة على الموافقة، ونقلتهم من أوربا حيث وزّعتهم في أراضي الدولة العثمانية فمنهم من أقام في العراق، ومنهم من سكن الشام، وقد وضعوا على أطراف البادية لردّ غارات البدو عن المراكز الحضارية، ومنهم من عاش في الأراضي التركية مُتفرّقين في المدن المختلفة. ثم جاءت موجات أخرى نتيجة الضغط الروسي، وكان أشهرها هجرة عام ١٢٩٦ هـ. ثم ما كان بعد الحرب العالمية الأولى، وقيام الثورة الشيوعية، وخضوع بلاد الشركس للروس البيض ثم انتصار الشيوعيين ودخول بلاد الشركس حيث فرّ عدد آخر منهم، وأكثر من رحل في هذه الموجات الأخيرة أقام في شمال شرقي البلاد.

ويجب أن ننتبه إلى أن كلمة «شركس» تشمل الشركس وغيرهم من الشاشان، والداغستان، وحتى الآجار، إذ أصبح هذا هو المتعارف عليه، وإن لم يكن هو الحقيقة إذ أن كل مجموعةٍ تشكل شعباً وحده.

عاش الشركس في بداية أمرهم في البلدان التي هاجروا إليها، ولم يشعروا بفارقٍ كبيرٍ إذ انتقلوا إلى ديار إخوانهم، وتقوم الدولة على أساس الإسلام وهم من أتباعه، فهم جزء من الدولة، غير أنهم قد أحسّوا

بالاختلاف عندما حلّت العصبية القومية محلّ الفكرة الإسلامية، فشعروا أنهم غرباء، فأخذت تنمو عندهم العصبية القومية، ولكن لم يكن لهذه العصبية أي أثرٍ ما دام أتباعها قلّةً إذ ذكرنا أن عددهم لا يزيد على المائتي ألف، إلا أن السير في تيار العصبية القومية معناه الابتعاد عن الاسلام، وهم الذين خرجوا في سبيل التمسّك به والدفاع عنه. ثمّ حدث أمر أشدّ خطورةً وهو الوقوع في براثن الشيوعية ذلك أنه عندما انحرفوا عن طريق الإسلام وساروا في طريق العصبية القومية سهل عليهم التحرّك في أي فلكٍ من أفلاك الضلال، حيث بدأ الروس يتصلون بهم، وينشرون في أوساطهم الدعايات، ويُذكّرونهم ببلادهم ومغانيها، وأهليهم، ومواطنهم فحنّت قلوب بعضهم وتأثّروا بالدعاية الشيوعية فجروا في تيارها، وغدوا ضمن الصراع بين الحكم والأفكار الاشتراكية.

وأما **اليونانيون** فإنه رغم قلّتهم يُعدّون ذا أثرٍ حيث يعيشون في المناطق القريبة من بلاد اليونان، على الحدود تقريباً، وفي جزر بحر ايجه التركية، وفي مدينة إزمير، وهم يلقون الدعم والمساعدات من دولة اليونان، ولما كانت هناك نقاط خلافٍ بين دولتي تركيا واليونان، في تراقيا، في الجزر الإيجية، في قبرص فإن اليونان تتخذ من المساعدات التي تُقدّمها لهم مجالاً للاتصال بهم واستغلالهم ليكونوا عيوناً لها، وهم كذلك فكل ما يجري في تركيا ويهمّ اليونان تصل أنباؤه مباشرةً إلى أثينا. ويشعر الأتراك بهذا ويُعانون منه الكثير. ومعظم اليونانيين يتبعون عقيدةً واحدةً هي النصرانية الأرثوذكسية، ويلتقـون مـع دولـة اليـونـان بهذه العقيـدة فيرتبطون معها لهذا، ولما كانت الدولة التركية تُنادي بالعلمانية فإنه يصعب عليها الوقوف ضدّ اليونانيين الذين من عقيدةٍ تُخالف عقيدتها إذ تخشى أن تُتهم بالتعصّب الديني ومُعاداة أصحاب الديانات الأخرى لذا تعمل دائماً على إرضائهم ومداراتهم، وتتودّد إليهم وهم لا يُبالون اتُّهموا بالتعصّب أم لم يُتَّهموا، وُصفوا بالعمالة للأعداء أم لم يُوصفوا ما دامت العقيدة تجمع

بينهم وبين دولة اليونان.

وأما **الكرج** فغالبيتهم من النصارى، وهم يميلون إلى جورجيا إحدى جمهوريات الإمبراطورية الروسية، فالشيوعية تنتشر بين أفرادهم عصبيةً لأبناء جنسهم سواء أكانوا مُقتنعين بالنظام الشيوعي أم غير مُقتنعين، ويحرص الروس أن يُلّوحوا بالدعوة للانضام إلى جورجيا التي ستضمّ في دولتها الكرج جميعاً، ويخضعون غالباً لرقابة الحكم التركي خوفاً من القيام بأعمال التخريب التي يقوم بها عادةً الشيوعيون، وإن وجد أفراد مسلمون بين الكرج وهم قلّة فالمشكلة أنهم جهلة بمبادىء دينهم كما أنهم جهلة بالشيوعية لذا يمكن ـ مع الأسف ـ جذبهم إلى الشيوعية من باب العصبية القومية، وربما يدفعهم إلى هذا أيضاً عدم تطبيق الإسلام في تركيا، والدعوة القومية، والتعصّب لها، فلم يجد هؤلاء الكرج مجالاً للتنظيم أو التحرّك إلا ضمن أبناء جنسهم ومن هنا يكون الانزلاق.

وأما **الأرمن** فهم أشدّ المجموعات تعصّباً لجنسهم، لذا كانوا أكثر انغلاقاً أو تقوقعاً على أنفسهم، ويُحافظون على لغتهم، والذين يُقيمون منهم في شرقي البلاد يعملون على بقاء صلتهم مع إخوانهم في جمهورية إرمينيا التي تخضع للسيطرة الروسية، والتي تقع وراء الحدود التركية مباشرةً، وإن كانت الشيوعية بينهم قليلة الانتشار إلا أن العصبية القومية هي التي تجعل نفوسهم تهفو إلى سكان تلك الجمهورية الشيوعية، ويتأثّرون من باب التضامن، أو يقعون تحت تأثير الدعاية الشيوعية بسبب الارتباط بالعصبية. والذين يعيشون في منطقة كيليكيا يحلمون بإقامة دولةٍ أرمنيةٍ أو إحياء الدولة التي سبق لها أن قامت في تلك الجهات بل يُطلقون على المنطقة اسم «أرمينيا الصغرى» هذا رغم قلّة عددهم، غير أنهم يعتمدون على وجود النصيرية هناك والذين لا وزن لهم، وهذا ما يجعل مقاومة فكرة الدولة الأرمنية ضعيفةً، بل ربما وافق النصيريون الأرمن في إقامة دولتهم حيث يصبحون فيها ذا عددٍ يُحسب له حساب، ولكن لم يكن لهم شأن في

الماضي ليُقدّموا دعماً، أو يعتمد عليهم في المساعدة. والأرمن الذين يعيشون في استانبول يتقوقعون على أنفسهم ويدعمون كأقليةٍ إقامة دولةٍ أرمنيةٍ في منطقة كيليكيا، وإقامة أخرى في شرقي تركيا أو انضمام الأرمن إلى جمهورية أرمينيا الشيوعية أو على الأقلّ هم ضدّ الأتراك في كل حينٍ، وعلى استعداد للعمل مع كل ناعقٍ ضدّ الأتراك سواء أكانوا مدفوعين من الشيوعيين أم من الرأسماليين، والأرمن بينهم من يتبع كلا النظامين ارتباطاً، وبحرارةٍ واحدةٍ.

وأما **البلغار** فهم قلّة أيضاً ويعيشون في الجزء التركي الأوربي على مقربةٍ من حدود بلغاريا، ومعظمهم ضدّ الأتراك، وذلك لأن أكثريتهم من أتباع الديانة النصرانية ثم للخلاف القائم بين تركيا وبلغاريا عقيدةً، ونظاماً، وسياسةً إضافةً إلى ظلم حكام بلغاريا الشيوعيين الدائم للمسلمين فيها ومُحاولة إذابتهم ضمن المجتمع النصراني الأرثوذكسي الشيوعي البلغاري، والعمل المستمر لطرد الأتراك من بلغاريا إذ يعدّونهم من بقايا الحكم العثماني ورمزاً لذلك الحكم على بلغاريا إضافةً إلى الحقد الصليبي الممزوج بالإلحاد ضد الإسلام.

وأما **اليهود** فهم مجموعة عقيدية رغم ادّعاءاتهم أنهم مجموعة تعود لأصلٍ واحدٍ هو إسرائيل (يعقوب) بن إسحاق، عليهما السلام، وهو ادّعاء كاذب لا صحة له أبداً إذ اعتنق اليهودية عدد من الشعوب كان من أبرزهم الخزر، لذا نعّد صراعهم مع الصراعات العقيدية في تركيا، ونهمل وضعهم ضمن المجموعات البشرية.

الصراع بين العقائد:

إذا كانت الأقلّيات من حيث المجموعات البشرية لا تشكل سوى ١٠٪ من مجموع السكان فإن الأقلّيات العقيدية تقلّ عن ذلك كثيراً، ولا تزيد على ١٪ من مجموع السكان، أي أن نسبة المسلمين تُعادل ٩٩٪

وذلك لأن الأتراك كلهم من المسلمين والأقلّيات من أكرادٍ، وعربٍ، وشركسٍ وهي المجموعات الرئيسية وغالبيتها من المسلمين إن لم نقل جميعها، أما الأقلّيات المحدودة وهي اليونانيون، والكرج، والأرمن، والبلغار فغالبيتهم من أتباع الديانة النصرانية الأرثوذكسية، وجميعهم دون نصف مليون، وهؤلاء مع الأسف لا يُقيمون أي وزنٍ للدولة التي يعيشون في ظلّها، رعايا لها، ويُعادون دائماً الحكم فيها، ويتصلّون بالدول الأوربية والولايات المتحدة ويعدّون أنفسهم أتباعاً لها. ولم يستطع المسلمون ـ مع الأسف أيضاً ـ أن يحتووهم ويكسبوهم إلى صفّ الإسلام رغم المدة الطويلة التي عاشوا فيها بينهم، وربما كان يعود ذلك إلى الحروب المستمرة بين الدولة العثمانية وأتباع الديانة النصرانية التي تنتمي إليها هذه الأقلّيات فقد كانوا هم دائماً بجانب أبناء عقيدتهم غير أنهم لم يستطيعوا فعل شيءٍ يومذاك لأن النظام العثماني الذي يستمّد تشريعاته من الإسلام لم يكن ليسمح لأهل الكتاب أو لغيرهم من الانخراط في صفوف جيش الدولة. ثم جاءت مرحلة ضعف العثمانيين وقوة الدول النصرانية فحصل أتباع ديانات الدول الأوربية النصرانية على امتيازاتٍ واسعةٍ تفوق ما يحصل عليه المسلمون فكان هذا مشجّعاً لبقائهم على عقيدتهم رغم فسادها مُعتمدين على دعم تلك الدول النصرانية لهم، وعلى تلك الامتيازات التي تعطيهم فوائد جمة.

ثم جاءت دولة تركيا الحديثة تتبنّى القومية، وتعمل على الانسلاخ من الإسلام، فما كان لهؤلاء أن يُؤمنوا وأهل الإسلام يعملون على تركه تحت تأثير الدعوة الى العصبية، والتوجّه نحو الحضارة المادية التي فُتن بها الناس، وتشجيع الدول النصرانية وكنائسها المستمر على السير في ركاب العلمانية للمسلمين ليتخلّوا عن دينهم على حين تدعو أتباعها للتمسّك بعقيدتهم هذا إضافةً إلى الشائعات التي تروّجها بين المسلمين أن أوربا لم تتقدّم علمياً وتتطوّر مادياً إلا عندما تخلّت عن دينها، وقد قبل هذه الفكرة بعض

ضعفاء المسلمين، واقتنعوا بها، وعملوا لها فأيّدتهم الدول الأوربية التي غدت صاحبة النفوذ، ودعمهم نصارى البلاد، ومنهم مصطفى كمال و...
هذا إضافةً إلى ما يصاب به كثير من المسلمين من هزيمة نفسية، وملاحقة المسلمين الملتزمين، ونشر الشائعات ضدهم.

فالنصارى ضدّ أي عملٍ لمصلحة البلاد، ومع كل عدوٍّ لها، ويعملون في التخطيط لهذا، وينتمون إلى مختلف الأحزاب غير الإسلامية طبعاً، ويعملون من داخلها لبقاء أفكار مصطفى كمال المعادية للإسلام ومنها العلمانية، والقومية، وتقليد الأعداء والسير على نهجهم.

أما **اليهود** فدورهم الاقتصادي كبير، وإمكاناتهم التخطيطية ضخمة، وقدرتهم على بذر الفتن عظيمة، وهم يُعادون الإسلام خاصةً، والأديان الأخرى عامةً ويُسخّرون طاقاتهم كافةً لضرب الإسلام وأهله، ويستخدمون أصحاب الديانات الثانية في سبيل الحصول على هذا الهدف، وقد دعموا النصارى ومشوا وراءهم لهدم الخلافة وتمكّنوا، وأخذوا وعداً منهم بتقديم جزءٍ من جنوبي الشام (فلسطين) لهم بعد انتصار الحلفاء، وتقطيع أوصال الدولة الخلافة، وتقسيم أجزائها فيما بينهم، وقد حدث هذا، ثم دعم تركيا لليهود في فلسطين والاعتراف بدولتهم، وقد تمّ ذلك، ثم التعاون بين الدولتين، وهم يعملون على إبقاء أفكار مصطفى كمال المعادية للإسلام، ومنها العلمانية، والقومية، وتقليد أعداء الإسلام والسير على نهجهم.

واليهود دورهم المالي في استانبول وازمير واضح، ويعملون على تسخير الناس لتنفيذ مخططاتهم ويتخذون الوسائل كلها في سبيل هذه الغاية وأبرزها المال والجنس ثم الوسائل التي تسير عن هذه الطريق مثل وسائل الإعلام كلها، والسلطة والعمل على ظهور الرجال.

الصراعات الحزبية:

يمكن أن نُقسّم الصراعات الحزبية في تركيا إلى ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: منذ إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ حتى ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ، أي ما يزيد على سبعةٍ وعشرين عاماً.

المرحلة الثانية: وتمتد من ٥ شعبان ١٣٦٩ هـ حتى الانقلاب العسكري الأول في ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ، أي ما يزيد على عشر سنوات.

المرحلة الثالثة: وتمتدّ من ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ إلى يومنا هذا..

المرحلة الأولى: أُلغيت السلطنة، وأُعلنت الجمهورية في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٢٣ م)، ثم أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، ولم يكن في البلاد سوى حزبٍ واحدٍ هو حزب الشعب الجمهوري الذي أسسه مصطفى كمال، وعندما عمل رؤوف أورباي، وعلي فؤاد، وجعفر الطيار، وجمال المرسيني، ورفعت باشا، وكاظم باشا على تشكيل الحزب الجمهوري الديمقراطي، تخلّص منهم مصطفى كمال بطريقةٍ من الطرق، كما تخلّص من الحزب بحلّ المجلس، وتعيين مجلسٍ جديدٍ استبعد منه مؤيديهم كافةً أو من كل من لم يكن مؤيداً له مائة بالمائة.

ولما أسّس عبد القادر كمالي حزب الأهالي وُجّهت عليه السهام فزال الحزب ومؤسسه.

كما زالت بقايا جماعة الاتحاد والترقي عندما فكّر بعضهم بإحياء حزبهم من جديدٍ مثل جاويد، وشكري، ورشدي، وعابدين.

إذن لم تكن هناك مُعارضة، ولم تكن صراعات حزبية في هذه المرحلة،

ولذا فكّر مصطفى كمال بإيجاد معارضةٍ فأوعز إلى رفيقه علي فتحي أوقيار بتشكيل «الحزب الحرّ»، وما أن نشأ هذا الحزب حتى لقي نجاحاً مُخالفةً لرئيس الجمهورية زعيم حزب الشعب الجمهوري، وارتفعت أسهم علي فتحي أوقيار فخاف مصطفى كمال مغبة الأمر فقضى على الحزب، ورجع عن فكرة المعارضة، وأصرّ على فكرة الحزب الواحد واكتفى بذلك.

إذن لم يجد حزب الشعب الجمهوري أمامه حزباً يُنافسه، ويقف في صف المعارضة، ويقع الصراع بين الحزبين، وإنما كان الصراع كله منصباً على الإسلام والمسلمين والعادات الأصلية التي تنبع من العقيدة، بل وكل ما يمتّ إليها بصلةٍ من لغةٍ وتاريخٍ وتقاليد فنراه يُلغي الخلافة، ويُجزّىء دولتها، ويقطع أواصر الصلة، ويُنهي الكتابة التركية بالحرف العربي، ويجعل العطلة يوم الأحد مقلداً بذلك النصارى، وأبطل عطلة يوم الجمعة يوم عبادة المسلمين، وفرض لبس القبعة، وأبطل مجلة الأحكام الشرعية، وطبق القانون السويسري، وسخر من العلماء و. . . وهذه اهتمامات رئيس الحزب وخلفائه في مدة تزيد على سبعٍ وعشرين سنةً.

وجاءت **المرحلة الثانية** حيث تأسّس الحزب الديمقراطي في نهاية المرحلة الأولى ولقي تأييداً شعبياً كبيراً كرهاً بحزب الشعب الجمهوري، ومؤسسه، وسياسته، وقفز فجأةً إلى الصدارة وتسلّم السلطة، وبدأ الصراع بين الحزبين على أشدّه، واتخذ الحزب الحاكم السلطة وسيلةً فألغى الحزب المعارض، واعتقل زعماءه، وصادر أملاكه، ولكنه لم يلبث أن ظهر من جديدٍ باسمٍ جديدٍ هو الحزب القومي الجمهوري، كما ظهر حزب الحرية، وحزب الفلاحين الجمهوري واندمج الأحزاب الثلاثة في جبهةٍ واحدةٍ للمعارضة، واشتدّ الصراع بين الفريقين، وأخرجت المعارضة المظاهرات ضدّ السلطة فقمعتها الحكومة بعنفٍ واتخذت ضدها الإجراءات التعسّفية مما جعل الحزب الديمقراطي الذي بيده زمام الأمر يخسر كثيراً، ويفقد من شعبيته، وخاصةً أنه والمعارضة ينبعان من أصلٍ واحدٍ، ولم يحصل على

التأييد إلا لكره الناس بحزب الشعب الجمهوري ومؤسسه مصطفى كمال، غير أنه سار على الدرب نفسه لذا استحق الكراهية نفسها التي استحقها الأول.

لجأت السلطة كما يلجأ غيرها عادةً عندما يرى نفسه ضعيفاً ولم يستطع الصمود في وجه المعارضة إلى الادّعاء بوجود مؤامرةٍ بين الضباط، لتغيير نظام الحكم فادّعت السلطة ذلك، وقامت بالضغط، واعتقلت الناس، وأعدمت بعض الذين ادّعت أنهم يُخطّطون لاستلام السلطة، غير أن هذا لم يفدها شيئاً إلا التأخير اليسير لترك المسؤولية.

لجأت الحكومة إلى أسلوبٍ آخر للوقوف في وجه المعارضة وهو استجداء تأييد المسلمين رغم أنها والمعارضة سواء في العلمانية والوقوف في وجه الإسلام غير أن ضعفها أمام المعارضة قد ألزمها هذا، وأقدمت على افتتاح بعض المشروعات الإسلامية فحصلت فعلاً على بعض ما ترمي إليه، ولكنها لم تدر أنها قد حفرت قبرها لنفسها إذ خشيت الدوائر الغربية التي تدعمها من هذا التوجّه البسيط نحو الإسلام من أن يكون مقدمةً لإعادة تركيا إلى الخط الإسلامي لذا أسرعت تلك الدوائر وقضت على الحكومة بانقلابٍ عسكريٍ بقيادة رئيس الأركان جمال غورسيل في ٢ ذي الحجة ١٣٧٩ هـ، وانتهت بذلك هذه المرحلة التي دامت ما يزيد على عشر سنوات وكانت صراعاً بين حزب الشعب الجمهوري أو بين رجاله عندما اضطروا إلى تغيير اسم حزبهم الأول عندما ألغته الحكومة وبين الحزب الديمقراطي مُتمثّلاً بالسلطة، وبالواقع فإن هذه المرحلة كانت صراعاً بين نفوذين: النفوذ الإنكليزي الذي يُريد أن يتشبّث بمواقعه والنفوذ الأمريكي الذي يُريد أن يحلّ محله وكلاهما ضمن إطارٍ عامٍ هو حلف شمالي الأطلسي حيث يحرص كلا النفوذين أن تبقى تركيا تجري في فلكه.

وجاء الحكم العسكري كمرحلةٍ انتقاليةٍ لم تدم طويلاً إذ لم تزد مدتها كثيراً على السنة، توطّد خلالها النفوذ الأمريكي بشكلٍ قويٍ، وتبدّلت

المراكز القيادية في حزب الشعب الجمهوري مع بقاء عنوانه في شخصية رئيسه عصمت إينونو الذي اضطر إلى مسايرة الوضع الراهن للاحتفاظ بمركزه، وإذا كان العسكريون قد أنهوا الحزب الديمقراطي مع أن النفوذ الجديد قد أسّس دعائمه عليه إلا أنه قد تخلّى عنه، فما هو إلا بضاعة استهلكت وليس من مصلحةٍ في إبقائها بل من الضرورة إلقاؤها فقُذف بجثث قادته، وزال الحزب من الوجود للتعمية وتغطية اللعبة الدولية عن أنظار المراقبين والمتفرجين إلا أنه قد نشأ مكانه حزب العدالة يحمل العنوان نفسه والسياسة ذاتها، وما دامت قد توطّدت دعائم النفوذ الأمريكي فلا مانع من إعادة الحياة النيابية والصراع الحزبي من جديدٍ فهو رمز النظام الرأسمالي، وتكون قد بدأت مرحلة جديدة من الصراعات الحزبية.

بدأت المرحلة الثالثة بظهور قوة حزب الشعب الجمهوري من جديدٍ، وقد تصدّر بأعداد نوابه مقاعد المجلس النيابي، وتلاه حزب العدالة الذي تأسّس حديثاً على أنقاض الحزب الديمقراطي، ولم يعد هناك من تنافرٍ بين الحزبين حيث سارا في مسارٍ واحدٍ، وتسلّما السلطة معاً في حكومةٍ ائتلافيةٍ برئاسة زعيم حزب الشعب الجمهوري عصمت إينونو بلونه الجديد وثوبه الحديث، واستمّر التعاون بين الحزبين في حكومتين، غير أن الانتخابات التكميلية أعطت الفوز لحزب العدالة فتغيّرت النفسيات، وصعب التفاهم بين الحزبين فشكّل عصمت إينونو وزارة أقليةٍ من حزبه.

وفي الانتخابات النيابية العامة فاز حزب العدالة، وبدأ الصراع على السلطة بين الحزبين الكبيرين، غير أن حزب العدالة حظي بتشكيل حكومتين لتفوّقه في أعداد نواب حزبه غير أن الجيش قد كره الحرية الزائدة التي ادّعى حزب العدالة أنه قد منحها للمواطنين، والتي أدّت إلى تحرّكاتٍ سياسيةٍ مُضادةٍ فأُقيل سليمان ديميريل من الحكم عن طريق الجيش، غير أن قوة حزبه قد حفظت له مركزه، ولم يكن لبقية الأحزاب أو لرئيس الجمهورية أن يتجاهل هذا الحزب فتشكّلت حكومة ائتلافية ضمّت حزب

العدالة، والشعب الجمهوري، والديمقراطي برئاسة رجلٍ مستقلٍ هو نهاد إيريم، وأراد حزب العدالة أن يُبيّن للشعب مكانته فانسحب من الحكم فسقطت الوزارة، واضطرّ نهاد إيريم إلى إعادة تشكيل الوزارة دون دخول حزب العدالة فيها.

وضعف حزب الشعب الجمهوري بالانشقاق الذي حدث فيه إذ انشقّ تورهان فيضي أوغلو عنه، وألّف حزب الثقة الجمهوري، وانضم إليه فريد ملان الذي تسلّم منصب رئاسة الوزراء، أما حزب العدالة خصمه فقد شعر بقوته، وأراد منافسة الجيش في رئاسة الجمهورية غير أنه قد فشل ونجح فخري ثابت كورتورك مرشح الجيش.

كانت المنافسة سياسيةً والصراع حزبياً دون خلافٍ فكري فالجميع تجمعهم العلمانية، ويدّعون أنهم يسيرون على نهج مصطفى كمال، والجيش حامي هذا الخط وحائل دون الحيدان عنه، غير أنه في هذه الأثناء وجد حزب السلامة الوطني الذي يدعو إلى نهجٍ إسلاميٍ فأصبح هو المنافس الفكري للأحزاب الأخرى التي وقفت في وجهه وعملت على القضاء عليه، ولكنها في الوقت نفسه لم تستطع التخلّي عن الصراع على السلطة فيما بينها فكانت تضطر للتعاون معه في سبيل الحصول على الثقة النيابية للحكومة التي يُشكّلها أحد الحزبين الكبيرين إذ كان حزب السلامة الوطني الحزب الثالث من حيث عدد المقاعد النيابية. لقد اشترك مع حزب الشعب الجمهوري في حكومة ائتلافيةٍ رأسها بولاند أجاويد زعيم حزب الشعب، وفي عهد هذه الوزارة حدث الإنزال التركي في قبرص فكان تأييد الشارع لها كبيراً، وحصل حزب السلامة الوطني وزعيمه نجم الدين أربكان على تأييدٍ شعبيٍ كبيرٍ نتيجة ذلك الإنزال وعلى دعايةٍ واسعةٍ لأنه كان المحرّك الأساسي لدعم المسلمين في قبرص، وقد نافسه على ذلك شريكه في الحكم، حتى حدث صراع بين الطرفين وكل يدّعي أنه هو السبب في ذلك العمل المشرّف، وأن لاحظ الشارع أن نجم الدين أربكان هو صاحب الفضل بعد

الله في تلك العملية. وانفصمت عرا الائتلاف الوزاري بعمليةٍ مقصودةٍ من زعيم حزب الشعب الجمهوري، تخلّصاً من شريكه ومُنافسه.

كما اشترك حزب العدالة مع حزب السلامة الوطني في حكومةٍ ائتلافيةٍ وإن كان نجم الدين أربكان أضعف مما كان عليه في حكومة بولاند أجاويد حيث لم يحصل في الانتخابات على ما حصل عليه من قبل، وإن كان قد بذل جهداً في الحكم مرةً ثانيةً بدا في الجانب الاقتصادي. وكرّر الحزبان الائتلاف في حكومةٍ ثانيةٍ.

وانشق الحزب الديمقراطي على نفسه ففريق قليل من انضمّ إلى حزب السلامة الوطني وهو الذي عند أفراده عاطفة دينية، وأكثره انضمّ إلى حزب الشعب الجمهوري، وبذا خرج هذا الحزب من الميدان، وزال نهائياً وانتهى الصراع معه.

ونشأ حزب الحركة الملية[1] الذي يرأسه ألب أرسلان توركيش، وكان ذا نشاطٍ ودخل في صراعٍ مع بقية الأحزاب وخاصةً الشيوعية منها والتي كان له معها جولات، وقد كثرت الفئات الشيوعية وتعدّدت تجمّعاتها، وكانت تعمل في السرّ، ولم يكن مرخصاً إلا لواحدٍ منها وهو الحزب الاشتراكي العمالي الذي ظهر حديثاً، أما الأخرى فكان منها حزب العمل التركي الذي يدعو إلى الإصلاح الزراعي، وانسحاب تركيا من الأحلاف السياسية والعسكرية، وإعطاء الأكراد، والأرمن استقلالهم الذاتي، وعلى رأس هذا الحزب بهيجة بوران، وقد قوي هذا الحزب حتى استطاع الحصول على خمسة عشر مقعداً في المجلس النيابي. ومنها حزب الشباب الإصلاحي الذي له جناح عسكري يُعرف باسم جيش التحرير الشعبي التركي، وقد قام بمظاهرات ضدّ الأسطول الأمريكي عام ١٣٨٨ هـ، وقد أحرق المتظاهرون من رجاله السفارة الأمريكية في أنقرة مرتين، وكان

---

(١) تعني الملية: الوطنية.

من هذه التجمّعات الحزب الشيوعي الذي له خلايا سرّية، ومركز في تراقيا أي في الجزء الأوربي من تركيا، ويعمل هذا الحزب بصورةٍ سريةٍ منذ عام ١٣٤٤ هـ. وعلى الرغم من أن حزب الحركة الملية كان يعمل بالدرجة الأولى ضدّ التنظيمات الشيوعية التي تُعارض الأنظمة الرأسمالية وتُعادي الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنه لم يكن في هذا رضا عن هذا الحزب من قبل الدوائر الاستعمارية وذلك لأنه لا يدور في فلكها، ولا يعمل بتوجيهها، ويملك تنظيماً شبه عسكريٍ فهو حسب نظرها إن كان يعمل الآن بما يتّفق وخطّها إلا أنه لا يوجد ما يمنع من أن يأتي يوم يعمل فيه ضدّها وهذا أمر طبيعي لذا كانت النظرة إليه نظرة العداوة والرغبة في إزالته من الساحة السياسية.

ويوم قام الانقلاب العسكري الثاني في ٣ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ (١٢ ايلول ١٩٨٠ م) كانت الأحزاب المُتصارعة في تركيا هي:

١ ـ حزب الشعب الجمهوري:

وشعاره ستة أسهم، ويعني كل سهمٍ فكرةً مما يلي: (وطنيون ـ علمانيون ـ جمهوريون ـ ثوريون ـ تقدميون ـ شعبيون)، ويرأسه آنذاك بولاند أجاويد، ويعدّ مصطفى كمال المؤسّس الأول له، ثم خلفه في رئاسة الحزب عصمت إينونو، وقد ألغي هذا الحزب مدةً في أواخر حكم الحزب الديمقراطي، وتُوفّي عصمت إينونو عام ١٣٩٣ هـ، وأصبح زعيم الحزب بولاند أجاويد وإن وقع خلاف بينه وبين عصمت إينونو من قبل. ويعدّ هذا الحزب أكثر الأحزاب التي آل إليها حكم البلاد.

٢ ـ حزب العدالة:

ويرأسه سليمان ديميريل، وشعاره الحصان الأبيض، وقد تأسّس هذا الحزب عقب الانقلاب العسكري الأول عام ١٣٧٩ هـ، وقام على أنقاض

الحزب الديمقراطي، ومن أعضاء هذا الحزب تاكين أريبون الذي رشّحه الحزب لرئاسة الجمهورية بعد انتهاء رئاسة جودت صوناي.

٣ - الحزب الديمقراطي:

وقد انتهى قبل مدةٍ، وزال عن المسرح السياسي، وقد أسّسه محمود جلال بايار، وحكم تركيا عشر سنوات ١٣٦٩ - ١٣٧٩ هـ، وشعاره كفّ ممدودة، وتعني حسب اصطلاح أعضائه أن الكلام كله للشعب. وقد قضى عليه جمال غورسيل قائد الانقلاب العسكري الأول، وأُعيد تأسيسه بعد انشقاقٍ في حزب العدالة، إذ تولّى المنشقون هذا التأسيس لأن حزب العدالة إنما قام بالأساس على بقايا الحزب الديمقراطي، وكانت رئاسة الحزب الديمقراطي قبل انحلاله تتألف من:

أ - فروح بوزبابلي: كان من حزب العدالة، وتسلّم رئاسة المجلس النيابي.

ب - يوكسيت مندريس: نجل عدنان مندريس.

جـ - نوليفر غورسوي: ابنة محمود جلال بايار.

د - فاروق سوكان: كان من حزب العدالة، وتسلم وزارة الداخلية.

هـ - سعد الدين بيلجق: كان من حزب العدالة، وتسلم وزارة المواصلات.

و - محمد تورغوت: كان من حزب العدالة، وتسلم وزارة الصناعة.

ثم انسحب هؤلاء الذين كانوا في حزب العدالة، وبقي فروح بوزبابلي زعيم الحزب الديمقراطي. وكان هذا الحزب يعد الحزب الرابع قبل زواله.

٤ - حزب السلامة الوطني:

ويرأسه نجم الدين أربكان، وتأسّس عام ١٣٩٢ هـ، وشعاره سبابة متجهة إلى الأعلى، وتعني عندهم (الله واحد)، وقد شارك في الحكم في ثلاث وزاراتٍ ائتلافيةٍ إحداها مع حزب الشعب الجمهوري، واثنتان مع حزب العدالة إضافةً إلى حزب الحركة الملّية، وحزب الثقة الجمهوري، ويعدّ حزب السلامة الوطني الحزب الثالث في تركيا يومذاك.

٥ - حزب الحركة الملية:

ويرأسه ألب أرسلان توركيش، وشعاره ثلاثة أهلّة.

٦ - حزب الثقة الجمهوري:

ويرأسه تورهان فيضي أوغلو، وقد انشقّ عن حزب الشعب الجمهوري.

٧ - حزب الوحدة الوطنية:

ويرأسه مصطفى تميسي، وشعاره الأسد محاطاً بنجوم، ويكثر النصيريون بين أعضائه، وهو ذو ميولٍ شيوعيةٍ.

٨ - الحزب الاشتراكي العمالي:

ورئيسه أويابيدر، ومن عنوانه تعرف ميوله.

هذه هي الأحزاب التي كانت تعمل على الساحة التركية يوم وقع الانقلاب، ومرخص لها، ولكن كانت هناك تجمّعات شيوعية وأحزاب تعمل في الظلام دون أن يكون لها رخصة بالعمل. ومنها:

أ - حزب العمل التركي:

وترأسه إمرأة هي بهيجة بوران، وللحزب ممثلون في المجلس النيابي، وقد وصل عددهم إلى خمسة عشر عضواً.

ب - حزب الشباب الإصلاحي:

وهو ذو ميولٍ شيوعيةٍ أيضاً، وله جناح عسكري يُعرف باسم جيش التحرير الشعبي التركي.

جـ - الحزب الشيوعي:

ومنطقة نفوذه القسم الأوربي التركي، وهو قديم برز منذ قيام الجمهورية وإلغاء الخلافة.

لما وقع الانقلاب العسكري الثاني تشتت أمر الأحزاب فزال الصراع فيما بينها ولكنه من ناحيةٍ ثانيةٍ انتقل إلى صراع مع العسكريين الذين ألغوا الأحزاب، وعلّقوا الدستور، وفرضوا الأحكام العرفية، وألقوا برؤساء الأحزاب في السجون، وإن كان يبدو أن الانقلاب يقصد أحزاباً دون أخرى، أو كان يشتدّ على حزبٍ أكثر من ثانٍ. وربما كان المقصود بالدرجة الأولى حزب السلامة الوطني وزعيمه نجم الدين أربكان، ويليه حزب الحركة الملّية وزعيمه ألب أرسلان توركيش، وأخيراً الفئات الشيوعية لأن هذه الأحزاب لا تسير على العلمانية ومنهج مصطفى كمال. ولكن كانت الشدّة على التجمّعات الشيوعية ذات التأييد الشعبي الضعيف الذي لا يخشى بأسه، ولمعرفة أن النظام قائم على محاربة الشيوعية ولا يُخفي زعماء الانقلاب ذلك بل يُبدونه علناً. أما الإسلام فلا يُعلن أي نظامٍ الحرب عليه في الأمصار الإسلامية مهما كان يُعاديه أو يحقد عليه، وأقلّ من ذلك الفخر بالأصول والاعتزاز بالأمجاد، ويمكن أن نُؤكّد هذا أن أحد رؤساء البلديات أعلن عندما نجح في انتخاب البلديات في شعبان عام

١٤٠٩ هـ أنه غير علماني ولا يقبل هذا الفكر، فقد أعلنت السلطة فوراً رفضه وأنه غير مؤهل ليكون رئيساً للبلدية. ونستبق الأحداث قليلاً لنبرهن على أن محاربة الإسلام هي المقصودة بالدرجة الأولى، لقد بدأ لباس الحشمة ينتشر في الجامعة فاحتجّ بعض الأعداء باستنكار هذه الظاهرة التي تدلّ حسب مفهومهم على الرجعية والتخلّف، ورفعت الجامعات الأمر الى الوزارة فأبدى تورغوت أوزال رئيس الحكومة عدم ممانعته فلكل امرىء الحرية التامة في ارتداء ما يراه مناسباً غير أن رئيس الجمهورية كنعان ايفيرين قد رفض ذلك وعدّه مخالفاً للعلمانية ولتعاليم مصطفى كمال.

قبض الانقلابيون على زعماء الأحزاب وأودعوهم السجن، وحلّوا أحزابهم، ومن بينها حزب العمل التركي ذو الميول الشيوعية حيث سحب ترخيص الحزب، وصودرت أملاكه وممتلكاته، وقُدّم أعضاء المكتب السياسي للحزب إلى محكمةٍ عسكريةٍ خاصةٍ، فسجن جميع أعضاء المكتب والرئيسة بهيجة بوران. وجرت محاكمة بقية زعماء الأحزاب: بولاند أجاويد، وسليمان ديميريل، ونجم الدين أربكان، وألب أرسلان توركيش، ويبدو أن الأخيرين استمرّا أكثر من غيرهما، وأخيراً أفرج عن الجميع.

وانتهت المرحلة الانتقالية التي حكم فيها العسكريون، وعادت الأحزاب، فظهرت أحزاب جديدة، ورُخّص للقديم بأسماء جديدة.

لقد ظهر حزب الوطن الأم لأول مرةٍ برئاسة تورغوت أوزال، ولم يلبث أن ارتقى إلى الطليعة وحصل في الانتخابات الأولى التي جرت بعد الانقلاب العسكري على أكثرية المقاعد في المجلس النيابي، وتسلّم السلطة إذ لم يكن ليُنافسه سوى حزبين ضعيفين أولهما: حزب الشعب الديمقراطي الذي أسّسه حديثاً اللواء المتقاعد تورغوت صونالب ولم يكن له أعوان كثيرون نتيجة طبيعته العسكرية، ولحداثة عهده، وقد كان يُنادي بتبنّي أفكار مصطفى كمال كلياً والسير على منهجه، ولم يلبث هذا الحزب أن

اندثر وانتهى أمره، أما الحزب الثاني فهو حزب الشعب الاشتراكي الذي أسّسه نجدت جالب، وكان كلا الحزبين قد نشأ حديثاً، غير أن حزب الوطن الأم قد استطاع من كسب المؤيدين لإمكانية زعيمه السياسية، ولسابق صلته بحزب السلامة، ولم يلبث حزب الشعب الاشتراكي أن انقسم على نفسه إلى جناحين، أحدهما كان برئاسة آيدن كون كوركان، وقد عرف باسم الحزب الشعبي الديمقراطي الاشتراكي، ثم برز فيه أردال إينونو[١] بن عصمت إينونو الذي أصبح زعيم الحزب، أما الجناح الثاني فقد عُرف باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي ورئيسه بولاند أجاويد واستمّر هذا الحزبان، ويُعدّان من الأحزاب الرئيسية في تركيا اليوم.

وبعد إجراء الانتخابات عادت الأحزاب الأولى، وإن رجعت بأسماء جديدة، فقد عاد حزب العدالة باسم حزب «الطريق الصحيح» وزعيمه هو نفسه سليمان ديميريل، وقد حافظ أعضاؤه على التماسك فيما بينهم فحافظ على مكانته بين الأحزاب الرئيسية في البلاد.

وأصبح حزب السلامة يُعرف باسم «حزب الرفاهية» ورئيسه نجم الدين أربكان، الرئيس السابق نفسه.

وكذلك فقد رجع حزب الحركة الوطنية، وأصبح يُعرف باسم «حزب العمل الملّي» وتعني كلمة الملّي «الوطني» وزعيمه ألب أرسلان توركيش.

وبدأت الصراعات الحزبية ترجع إلى سابق عهدها، وخاصةً بين هذه الأحزاب الرئيسية التي ذكرناها، وكانت المنافسة على رئاسة البلديات في

---

(١) أردال بن عصمت إينونو: ولد في أنقرة عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م)، وتخرج من كلية العلوم في جامعة أنقرة عام ١٣٦٦ هـ وعُيّن فيها معيداً في قسم الفيزياء. ثم حصل على الدكتوراه، وعين أستاذاً في الجامعة نفسها رئيساً لقسم الفيزياء ١٣٨٥ - ١٣٨٨ هـ، ثم عميداً لكلية العلوم، فمديراً لجامعة الشرق الأوسط التقنية بأنقرة. وأخيراً ترأس الحزب الاشتراكي الشعبي، وهو نائب عن ولاية إزمير.

الانتخابات التي جرت في شعبان عام ١٤٠٩ هـ. فقد أحرز حزب الشعب الديمقراطي الاشتراكي الذي يـرأسـه أردال إينـونـو ٣٣٪ مـن رئـاسـة البلديات. ونال حزب الطريق الصحيح الذي يرأسه سليمان ديميريل على ٢٦٪ من رئاسة البلديات. أما حزب الوطن الأم، وهو الذي تسلّم السلطة الآن، ويرأسه تورغوت أوزال، فلم يحصل إلا على ٢١٪ من رئاسة البلديات. ونال حزب الرفاهية برئاسة نجم الدين أربكان ٩٪ من رئاسة البلديات. وحصل الحزب الاشتراكي الديمقراطي برئاسة بولاند أجاويد على ٨٪ من رئاسة البلديات.

غير أن الصراعات الحزبية هذه لا تعدّ عنيفةً إذ أن معظم الأحزاب وباستثناء حزب الرفاهية منها تُنادي بعدم ترك أفكار مصطفى كمال العلمانية وذات العصبية القومية، والاستهتار بمبادىء الأخلاق والقيم كلها، ومعاداة الإسلام بشكلٍ ظاهرٍ ومبطّنٍ، بل إن بعض هذه التجمعات التي تدّعي العمل للإسلام تُعلن محافظتها على الفكر الكمالي مثل ما يسمى بحزب الإصلاح الديمقراطي الذي يتزعمه (آيقوت أديب عالي) والذي له أيضاً اجتهادات خاصة بالأمور الدينية لا تتفق أحياناً مع تعاليم الإسلام، وبذا نجد خوفاً من الإسلام، ورقابةً من السلطة خوفاً من التوجّه نحوه لا من الناحية الحزبية وإنما من قبل الشعب، ويُعدّ الجيش رقيباً ثانياً على هذا الموضوع فإذا ما جرى شيء من الانعطاف نحوه أسرع لتغيير الموضوع، ويُراقب الجيشَ أيضاً من بعيدٍ الدولُ الكبرى ذات النفوذ الواسع في البلاد، وهذا ما لاحظناه في كل حركةٍ عسكريةٍ، بل بدا ذلك في الآونة الأخيرة عندما ظهر لباس الحشمة في الجامعة كيف تفتحت الأنظار، وتحرّك العلمانيون، وبُحث الأمر في الوزارة، وتدخّل رئيس الدولة، وعدّوا ذلك مُخالفةً للعلمانية، ولكن لو تفشّت الخلاعة وظهر العريّ المنافي لكل مفاهيم الأخلاق، وللطبيعة البشرية لم يتكلّم أحد وعدّوا ذلك حريةً، وهم من دعاة الحرية وأنصار العلمانية، ولا شك أن في هذا منتهى الغرابة،

والخوف من الإسلام، ومن الرقابة عليه.

ورأينا ذلك أيضاً عندما قال أحد الذين نجحوا في رئاسة البلديات من حزب الرفاهية: إنه يُعادي العلمانية كيف أزيح في منصبه دون أن يجرؤ أحد أن يتكلّم في أمره أو يدافع عنه، وقد اعتذر آخر عما بدر منه من مثل هذه التصريحات فسُكت عنه إذ لم يكن من مصلحة السلطة أيضاً المعاداة الصارخة للإسلام، وإنما تكتفي بالوخزة لتُبقي عندها رصيداً لردٍّ هو أقوى فيما إذا دعت الحاجة.

وأخيراً فإن مع كل ما سبق فإن الشعب التركي متمسّك بإسلامه، ومهما حاول الأعداء وصنائعهم إبعاده عن عقيدته فإنهم سيفشلون ـ بإذن الله ـ وإنهم وإن ظنّوا أنهم قد نجحوا في مرحلةٍ مضت فإن الشعب كان فيها على جهلٍ، وقد صحا، وأخذ يتجه نحو إخوانه المسلمين، ويُطالب المسؤولين عنه بالتعاون مع أمصار العالم الإسلامي، كما أن المثقفين منهم الذين يدركون واقعهم نراهم ينضوون في صفوف الحركات الإسلامية الواعية التي يزداد أثرها يوماً بعد يوم.

المراجـــع

١ ـ أعلام الأتراك المعاصرين. الشركة التجاريـة الصنـاعيـة العـالميـة ـ استانبول ١٩٨٩ م.
٢ ـ البيانات الوزارية ١/٣. جمع نـوران دغلي وبلها أكتـورك ـ أنقـرة ١٩٨٨ م.
٣ ـ الرجل الصنم «كمال أتاتورك». ترجمة عبد الله عبد الرحمن. مؤسسـة الرسالة.

فهرس الموضوعات

التاريخ الإسلامي

- ١٨ -

التاريخ المعاصر
إيران وأفغانستان

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص . ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص . ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص . ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن منطقة إيران وأفغانستان ذات أهميةٍ خاصةٍ سواء أكان ذلك بالنسبة إلى العالم الإسلامي أم بالنسبة إلى دول العالم الكبرى.

فإيران على الخليج العربي ذي المكانة الخاصة دولياً حيث تضمّ المناطق المشرفة عليه كمياتٍ هائلةً من النفط الذي يُعدّ اليوم عماد الحياة الاقتصادية إذ تتحرّك وسائل المواصلات كلها على بعض مشتقاته، وتدور آلات المعامل جميعها على بعض أصنافه، وتُضاء المدن مما يُقدّمه من طاقةٍ، وتعمل وسائل التكييف على الكهرباء التي تُولّد من المولدات التي تتخذ النفط مصدراً لحركتها. وتعدّ إيران إحدى هذه البلدان الكبرى المنتجة للنفط، وهذا ما يعطيها تلك الأهمية التي تكلمنا عنها.

وتعيش في إيران أكثرية شيعية بل هي البلد الوحيد في العالم الإسلامي الذي تقطنه أكثرية شيعية، بل وأصبحت الدولة تقوم على أساس هذه العقيدة وخاصةً بعد أن قامت فيها حركة عرفت بالثورة الإسلامية فغدت الحكومة الإيرانية تعمل على مدّ يدها إلى الأقليات الشيعية التي تعيش في البلدان المجاورة لإيران بل، وتُحرّضهم على الحكومات التي يعيشون في ظلّها تحت اسم تصدير الثورة، بل راحت تدعو لعقيدتها في إفريقية التي لم يكن فيها أي تجمعٍ شيعيٍ وذلك عن طريق تقديم المنح الدراسية في

ربوع بلادها، وفي أي مكانٍ آخر يريده الطالب، وبذا انطلقت الشيعة من جديدٍ، وأصبح الاحتكاك بين إيـران وبين البلدان ذات الأقليات الشيعيـة سواء القديمـة منها في الأمصـار الآسيويـة أم الحديثـة منها في الأمصـار الإفريقية، وهذا الاحتكاك قد يكون إيجابياً نتيجة المساعدات، وقد يكون سلبياً بسبب الحركات التي تعمل كمعارضةٍ للنظام، وهذا ما وجّه الأنظار نحـو إيران وأعـطاها صفـة المـرجـع سـواء أكـان ذلـك للحصـول على المساعدات والمنح الدراسية أم للضغط على مُؤيّديها من أجل الخلود إلى النظام والتزام الطاعة.

ويقع هذا الإقليم (إيران وأفغانستان) على تماس مناطق النفوذ الغربي والروسي لذا فإن كلا الاستعماريين يُعير هذا الإقليم اهتماماً كبيراً، فالروس يرغبون بالوصول إلى المياه الحرّة أو الدافئة حسب اصطلاحهم للانطلاق خارج الأجزاء المحجوزين فيها، والغرب يبذل جهده للحيلولة دون ذلك، ولـذا فقد وقـع الصراع بين النفـوذين على أرض هذا الإقليم بـل وبين أعوانهما من أهل البلاد أيضاً، ومن هنا كان الاهتمام بهذه المنطقة وتسليط الأضواء عليها، وإذا كان النفوذ الغربي قد استطاع أن يُوطّد نفوذه في إيران حتى قيام الثورة الإسلامية، ولكنه لم يبذل جهده في منطقة أفغانستان كما بذله في إيران، ولعلّ ذلك يرجع إلى التفاهم بين سـدنة النـظامين على تقسيم مناطق النفوذ بينهما، فترك الغرب أفغانستان لتقع فريسةً بين براثن الروس، فهي بعيدة عن البحار إذ أنها منطقة داخلية، وفي الوقت نفسـه ليس فيها ثروات نفطية يخشى عليها، كما هي الحال في منطقـة إيران، والغرب في هذا التفـاهم يضمن سكوت الـروس عن تحرّكـاته الصليبيـة الاستعمـارية في كثيـرٍ من مناطق العـالم الأخرى وخـاصـةً في الأمصـار الإسلامية حيث يكون التفاهم تاماً بين سدنة النظامين ما دام ضدّ الإسلام، ويكون التحرّك في اتجاهٍ واحدٍ بدافعٍ صليبيٍ وإن كـان الإلحاد عنـوان أحـدهما والعلمـانية عنـوان الآخر غيـر أنهما يحمـلان حقداً كبيـراً ضـدّ الإسلام، ويغلي في نفوس سدنتهما حتى لا يستطيعون أن يروا تقدّماً لأبناء

الإسلام مهما كان قليلاً، بل حتى ولو كانوا مُسجّلين مُسلمين تسجيلاً أو ينتمون إليه انتماءً دون أن يكون لهم أيّ رصيدٍ من الإيمان، أما إن كانوا أصحاب عقيدةٍ، أو عاطفةٍ على الأقلّ فإن أركان الصليبية تهتزّ، وتثور ثائرة السدنة، ويمور عندهم كل شيءٍ حتى يقضوا على ما يريدون القضاء عليه، وكان لهذا ردّ فعلٍ لدى المسلمين في المنطقة بالذات فقامت حركات إسلامية في كلا المنطقتين، وإن كانت حسب عقيدة الأكثرية. وكان لهذه الحركات الإسلامية أثر كبير في المنطقة الإسلامية إذ أن بعض الأمصار قد اتخذ من هذه الحركات موقفاً إيجابياً كما اتخذ بعضها الآخر موقفاً سلبياً وذلك حسب النظام القائم في ذلك المصر، أو حسب التوجّه السياسي الدولي أو المحلي الذي يتخذه كل مصر، أما الدول الصليبية فكان موقفها واحداً وهو العداء الصريح والصارخ، وإن تجلّى بمواقف مُتباينةٍ، ولكنها كلها تتسم بالمكر والخديعة، والمراوغة والخبث، وتُبدي المرونة والتأنّي، وتُخفي الصليبية والحقد. وهذا ما سلّط الأضواء على هذا الإقليم أيضاً، وأعطاه الأهمية.

ولهذا الإقليم أهمية بالنسبة إلى المسلمين وذلك أنه يجاور إخوانهم الذين يقعون تحت سيطرة الروس، إذ يجاور أربع جمهوريات إسلامية وهي أذربيجان، وبلاد التركمان، وبلاد الأوزبك، وبلاد الطاجيك، وتزيد الحدود مع هذه الجمهوريات على ألفين وخمسمائة كيلومتر، ولما كان الروس يحرصون على إذابة الشخصية الإسلامية في البلدان التي يسيطرون عليها، ويعملون على نشر الإلحاد، وإلغاء كل ما يمتّ إلى الإسلام بصلةٍ لذا فإن للمسلمين في إيران وأفغانستان دوراً كبيراً وفعّالاً في إقامة الصلة مع المسلمين وراء الستار الحديدي الذي يقيمه الروس، وخاصةً في هذه المرحلة الراهنة التي سقطت فيها الشيوعية، وأخذت أشعة من الحرية تصل إلى تلك الجهات التي كان الناس فيها يعيشون داخل سجنٍ كبيرٍ، وإن كان قد بدا هذا واضحاً عندما غزا الروس أفغانستان في سبيل قمع الحركة الإسلامية ودعم الحكم الشيوعي القائم فيها، إذ امتنع المسلمون الذين

أجبروا على السير مع هذا الغزو من قتال إخوانهم المسلمين في بلاد الأفغان، وربما كان من دوافع هذا الغزو تلك الصلات التي وجدت بين السكان على طرفي الحدود حيث خشي الروس أن تدبّ الصحوة الإسلامية في نفوس تلك الشعوب التي تُسيطر عليها بالقوة، وتُخضعها بالسيف، وتفرض عليها الإلحاد، وتجبرها على ترك العقيدة، فلو قُدّر للمجاهدين الأفغان النصر، وإقامة حكمٍ إسلاميٍ، والصدق والإخلاص لأمكن التحرّك داخل المناطق الإسلامية التي يُسيطر عليها الروس، وخاصةً بعد أن أفلست الشيوعية، وشُغل الروس بأنفسهم، ومن هنا تأتي أهمية بلاد إيران وأفغانستان. ولو قدّر الإله النجاح لهذا التحرّك لـرُفد العالم الإسلامي بإمكاناتٍ بشريةٍ وطاقاتٍ هائلةٍ، وموارد ضخمةٍ من البلدان التي تخضع حالياً للسيطرة الروسية.

والله نسأل التوفيق في إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن تاريخ هذا الإقليم، وعمّا يُشجّع أهله للسير في خطٍ سليمٍ، والقارىء لأخذ الدروس والعبر، والفكر الصحيح. والله من وراء القصد، فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباب الأول

إيران

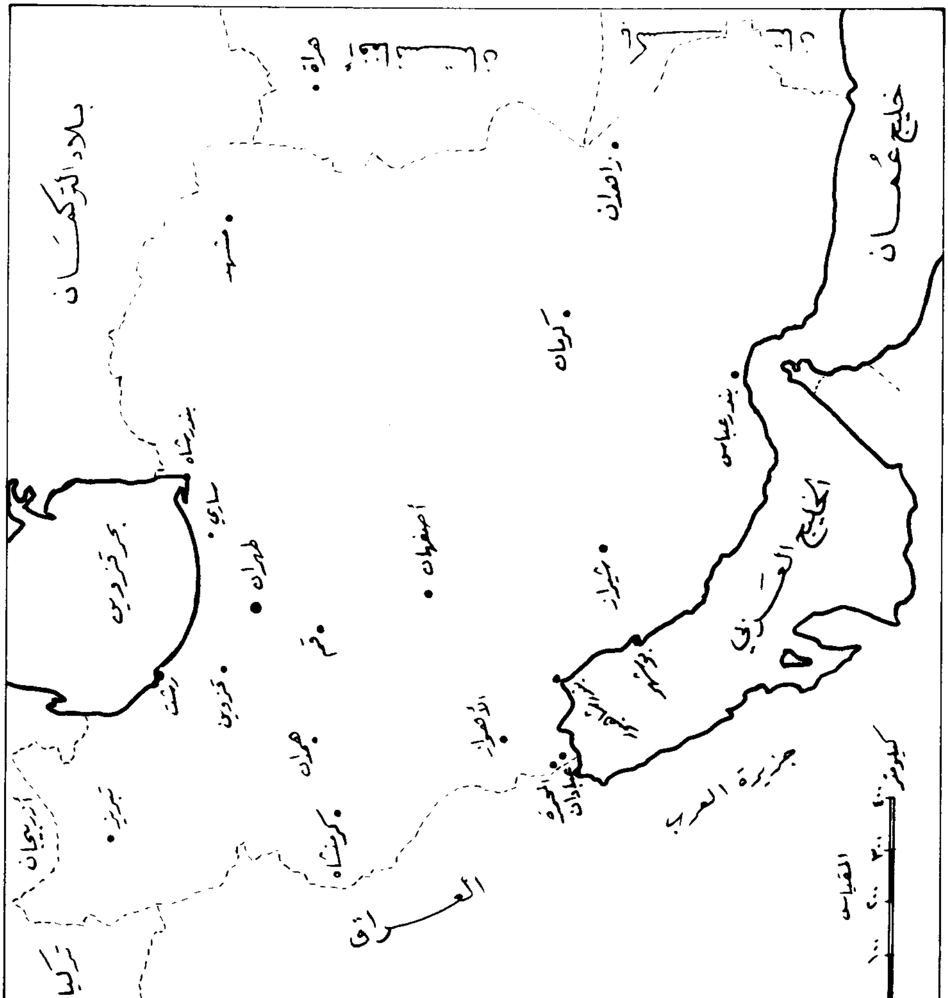
بلاد التركمان
تركيا
أذربيجان
بحر قزوين
تبريز
رشت
بندرشاه
ساري
قزوين
طهران
مشهد
همدان
قم
كرمنشاه
هراة
أفغانستان
العراق
أصفهان
الأهواز
المحمرة
عبادان
بندر شاهبور
بوشهر
كرمان
شيراز
زاهدان
بلوشستان
جزيرة العرب
بندر عباس
الخليج العربي
المقياس
كيلومتر
خليج عمان

لمحة عن فارس قبل إلغاء الخلافة

سقطت الدولة العباسية بيد المغول عام ٦٥٦ هـ، ودخل هولاكو عاصمتها بغداد، وارتكب أبشع الجرائم، وأسّس الدولة الإيلخانية التي حكمت المنطقة، والتي كانت تعرف باسم «فارس» ما يزيد على نصف قرن (٦٥٦ - ٧١٣ هـ) وتوالى على الحكم سبعة حكامٍ وهم:

١ ـ **هولاكو: ٦٥٦ - ٦٦٤ هـ**: الطاغية المعروف، الحاقد على الإسلام، وزاد من حقده تحريض الصليبيين له.

٢ ـ **أبا قاخان: ٦٦٤ - ٦٨٠ هـ**: ابن هولاكو، تزوّج ابنة إمبراطور القسطنطينية بتخطيطٍ صليبيٍ، فزاد حقده على الإسلام، ودفعته زوجه للسير في ضرب المسلمين وإبادتهم.

٣ ـ **تكودار: ٦٨٠ - ٦٨٣ هـ**: ابن هولاكو، اعتنق الإسلام، وسمّى نفسه «أحمد»، وأعطى المسلمين بعض المناصب، تمرّد عليه ابن أخيه، وقتله، وتسلّم الأمر.

٤ ـ **أرغون: ٦٨٣ - ٦٩١ هـ**: ابن أبا قاخان، اضطهد المسلمين، وتحالف مع الأرمن بل مع كل صليبيٍ ضدّ المسلمين، وضدّ أبناء عمومته المغول من القبيلة الذهبية التي استقرّت في بلاد الروس، وعرفت باسم مغول الشمال، واعتنقت الإسلام، وتحالفت مع المماليك ضدّ الدولة الإيلخانية المغولية.

٥ ـ **كيخاتو: ٦٩١ - ٦٩٥ هـ**: ابن أبا قاخان.

٦ ــ **غازان: ٦٩٥ ـ ٧٠٤ هـ**: ابن أرغون، شبّ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام، وسمّى نفسه «محمود»، ومع إسلامه إلا أنه بقي يقاتل المماليك المسلمين، وهو الذي التقى مع ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وفاوضه.

٧ ــ **أولجاتيو: ٧٠٤ ـ ٧١٣ هـ**: ابن أرغون، شبّ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، واتبع مذهب الرفض، لذا فقد عمل على نشر هذا المذهب في الأجزاء التي كانت تخضع له، وعُرف باسم محمد خدابنده، وإن كان قد أطلق عليه بعضهم «محمد خرابنده».

لم تكن منطقة فارس قبل هذا الوقت لتكثر فيها الشيعة، وإن وجدت بعض تجمّعات أخذت هذا المذهب لا إيماناً بما جاء فيه من أفكار، وإنما في سبيل ضرب الإسلام حقداً على أبنائه، وتعصّباً للفرس، فبذروا بذور الرفض، وألقوا فكرة التصوّف والتواكل تحت اسم الزهد، ليتوانى الناس عن العمل، ويسود الكسل، وتضعف الدولة، ويتمكّن أعداؤها من إخضاعها والسيطرة عليها، والتحكّم في أهلها، ونشر ما يريدون نشره بينهم من أفكارٍ تهدّم العقيدة، ويسيرون بعدها بالناس حسبما يرغبون، وجاء الحاكم محمد خرابنده وعمل على ترسيخ هذه الأفكار، وأصبح بعدها مبدأ التشيع هو مذهب حكام الدولة الإيلخانية، والتي لم تلبث أن تجزّأت بعد وفاة محمد خرابنده عام ٧١٣ هـ، وحكمت المنطقة عدة أسرٍ حتى اجتاحها تيمورلنك عام ٧٨٤ هـ، ودانت لحكمه حتى عام ٨٠٧ هـ. ثم توزّعت بين أبنائه وأحفاده، ووقع الصراع بينهم وبين التركمان على المنطقة، واستمرّ هذا النزاع حتى ظهر الصفويون على المسرح في مطلع القرن العاشر الهجري.

نشأ تيمورلنك على المذهب الشيعي، واتبعه أبناؤه وأحفاده على ذلك، وهذا ما رسّخ جذور هذا المذهب في المنطقة، وقد اعتاد السكان على دراسة التاريخ من خلال النظرة الرافضة المقررة والمفروضة على

السكان، وخاصةً أن هذه المرحلة كانت مرحلة تأخّرٍ وضعفٍ، وأُميّةٍ، فلا يعرف الناس إلا ما يسمعون وما يُقرّر عليهم.

الصفـويـون:

استطاع إسماعيل بن حيدر أن يجمع حوله الأتباع، وأن ينتصر على أسرة (الآق قيلوني) عام ٩٠٧ هـ، في أذربيجان وفي العراق، ثم انتقل إلى (تبريز) وجعلها قاعدةً له، وأخضع الولاة التيموريين، واتخذ المذهب الشيعي عقيدةً له، واستفاد من حماسة الأقلية الشيعية في قتاله ضد خصومه في ميادين القتال الكثيرة، والتي امتدت على أرجاء واسعةٍ من المنطقة.

وهكذا مرّ على المنطقة ما يقرب من مائتي سنة والحكام من الشيعة، وكان الناس من أصحاب المصالح يتقربون إليهم، ومن جهةٍ ثانيةٍ يُحاولون نشر هذه الأفكار بين الشعب، وهذا ما جعل الجذور الشيعية تتعمّق في أرض المنطقة. وأحسّ الحكام وأتباعهم من الشيعة أنهم يختلفون مع الوسط الذي يعيشون فيه، وهذا ما جرّهم إلى حربٍ مع الدول الثانية، وربما أحبّ الحكام هذا الصراع ليُنمّي العاطفة الشيعية، وليُعمّق جذورها أكثر فأكثر.

لقد حارب الصفويون الدولة العثمانية، غير أنهم هزموا أمامها في معركة «جالديران» عام ٩٢٠ هـ، كما قاتلوا الأوزبك في الشرق، واستمر هذا الصراع طويلاً، بل إن الصفويين قد دعموا كل عدوٍّ للمسلمين إذ اتفقوا مع البرتغاليين طلائع المستعمرين الصليبيين، وعاونوهم على الدخول إلى الخليج العربي ما داموا ضد العثمانيين، ثم تعاونوا مع الإنكليز عندما وجدوا ضعف البرتغاليين. بقي حكم الصفويين ما يزيد على مائتين وأربعين سنة (٩٠٧ ـ ١١٤٨ هـ)، وتوالى على الحكم أحد عشر حاكماً، ويحمل كل واحدٍ اسم «شاه».

١ ـ إسماعيل بن حيدر ٩٠٧ ـ ٩٣٠ هـ: أسّس الدولة، اتفق مع

البرتغاليين الصليبيين، وحارب العثمانيين، وهُزم أمامهم، وحارب الأوزبك، وانتصر عليهم في بداية الأمر، وكانوا يدعونه للعودة إلى الإسلام، وتفاهم مع ظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، غير أن تعصّبه الشيعي قد جعل ظهير الدين يترك ذلك التفاهم.

٢" ـ **طهماسب بن إسماعيل ٩٣٠ ـ ٩٨٤ هـ**: تولى الأمر صغيراً، وهو في العاشرة من عمره، فتولّى الوصاية عليه زعماء الشيعة، حتى بلغ سن الرشد. انتصر على الأوزبك، ولكنه لم يلبث أن هُزم، ودخل بغداد حتى جاءت جيوش العثمانيين فطردت الصفويين منها.

٣" ـ **إسماعيل (الثاني) بن طهماسب ٩٨٤ ـ ٩٨٥ هـ**، واختلف مع إخوته، وقُتل.

٤" ـ **محمد خدانبك بن طهماسب ٩٨٥ ـ ٩٩٥ هـ**.

٥" ـ **عباس بن طهماسب ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ**، عقد معاهدةً مع العثمانيين عام ٩٩٨ هـ بعد أن تنازل لهم عن بعض الأجزاء من أملاكه، ومنها لورستان، وبلاد الكرج، وتبريز، وبلاد داغستان، وشروان، واتجه بعد ذلك إلى الأوزبك فانتصر عليهم، وانتزع جزءاً من بلادهم. والتفت بعدها إلى العثمانيين فهاجمهم بعد أن هدأت الجبهة معهم مدة خمس عشرة سنةً، وكان الصراع على العراق. واتفق عباس مع الإنكليز ضدّ البرتغاليين، واتفق معهم على تدريب جيوشه، وجعل عاصمته أصفهان.

٦" ـ **صفي بن صفي مرزا بن عباس ١٠٣٧ ـ ١٠٥٢ هـ**، هُزم أمام العثمانيين الذين أخذوا العراق وعقدت معاهدة بين الطرفين عام ١٠٤٩ هـ.

٧" ـ **عباس الثاني بن صفي ١٠٥٢ ـ ١٠٧٧ هـ**، ولم يلتفت إلى شؤون الدولة.

٨" ـ **صفي الثاني بن عباس الثاني ١٠٧٧ ـ ١١٠٥ هـ**، وعُرف كذلك باسم سليمان الأول، وفي عهده، استولى الهولنديون على جزيرة «قشم» في مضيق هرمز، وأخذ الأوزبك خراسان. وأغار اليعاربة حكام عُمان على ميناء «بندر عباس».

٩" ـ **حسين الأول بن عباس الثاني ١١٠٥ ـ ١١٣٥ هـ**: بدأ في عهده الصراع مع الأفغان.

١٠" ـ **طهماسب الثاني بن صفي الثاني ١١٣٥ ـ ١١٤٤ هـ**: استمر الصراع مع الأفغان، وأيّده نادر خان، وخرج الأفعان.

١١" ـ **عبّاس الثالث بن طهماسب الثاني ١١٤٤ ـ ١١٤٨ هـ.**

الأفشار:

وقد أسّس دولتهم نارد خان بن إمام قلي، ودامت دولتهم اثنتين وخمسين سنة (١١٤٨ ـ ١٢١٠ هـ)، وتوالى على الحكم أربعة حكام وهم:

١" ـ **نادر خان ١١٤٨ ـ ١١٦٠ هـ**، وكان أول أمره من قُطّاع الطرق، ومن أصحاب الطموح، برز اسمه في مرحلة الفوضى، فجمع رجاله، ورأى من مصلحته العمل باسم الشاه الصفوي طهماسب الثاني، وسيطر على (هراة) و(مشهد)، وانتصر على جند الأفغان عام ١١٤١ هـ، ولاحقهم فاعتصم سلطانهم في مدينة (أصفهان) فحاصره نادر خان، واستطاع سلطان الأفغان (أشرف) أن ينسحب نحو (شيراز)، ولكنه قُتل قبل أن ينسحب الشاه الصفوي حسين الذي كان بيده أسيراً. ودخل طهماسب الثاني (أصفهان)، وتابع نادر خان الأفغان حتى أخرجهم من منطقة فارس اليوم عام ١١٤٢ هـ بعد أن بقوا فيها سبع سنوات (١١٣٥ ـ ١١٤٢ هـ). وانتصر نادر خان على العثمانيين، ولكن طهماسب هزم أمامهم، واضطر أن يعقد معهم معاهدةً تنازل فيها عن جزءٍ من أملاكه. وانتقد نادر خان هذه المعاهدة، وقبض على الشاه طهماسب الثاني، ونصّب مكانه ابنه عباس

الثالث الطفل، وجعل نفسه وصياً عليه عام ١١٤٥ هـ، وانتصر على العثمانيين، وعقد معاهدةً مع والي بغداد العثماني استرجع بموجبها ما أخذه العثمانيون في معاهدة عام ١١٤٤ هـ. ولم يرض الخليفة العثماني على ما أبرمه واليه على بغداد، وكان نادر خان قد ثبت وضعه في فارس، فسار إلى العثمانيين وانتصر عليهم، واضطر الخليفة أن يقرّ ما جرى بين واليه على بغداد ونادر خان.

واستردّ نادر خان ما تنازل عنه إلى الروس في معاهدة (رشت) عام ١١٤٥ هـ، وهدّد الروس بالتحالف مع العثمانيين.

وتوفّي الشاه عباس الثالث الطفل، فأصبح نادر خان سيد البلاد، وحارب الأفغان، واستولى على (قُندهار) و(بلخ)، وقاتل الأوزبك، وانتصر عليهم، ثم دخل (كابل) و(بيشاور)، و(دهلي) عام ١١٥١ هـ، وكذلك اجتاح عُمان.

ثم احتلّ (بخارى) عام ١١٥٢ هـ واتبعها بخوارزم. وأخذ العثمانيون يُغيرون على فارس، ولكن نادر خان انتصر عليهم عام ١١٥٩ هـ.

ثار على نادر خان عمه في (سيستان) وأعلن نفسه شاهاً، وثار الأكراد، فسار إليهم ولكنه قُتل عام ١١٦٠ هـ.

أراد نادر خان أن يُؤسّس أسطولاً فلم ينجح، وحاول أن يُعيد مذهب السنة إلى فارس فأخفق، فعمل على جعل مذهب الإمام جعفر الصادق مذهباً خامساً فوافق الشيعة على كراهية.

٢″ ـ **علي بن إبراهيم ١١٦٠ ـ ١١٦١ هـ**: وهو ابن أخي نادر خان، وعرف باسم (عادل شاه) وقضى على أسرة عمه كلها سوى حفيده (شاه رخ). واختلف قادة نادر خان بعضهم مع بعض، وبرز بينهم أحمد خان الدوراني الذي كان يقود الأفغان والأوزبك في جيش نادر خان، وقد تقاتل أحمد خان مع بقية القادة وهُزم، فانسحب إلى (قُندهار) وأسّس فيها مملكةً واحتلّ

(هراة) و (ومشهد)، وكشمير، وغزا الهند ودخل (دهلي) مدةً قصيرةً.

٣" ـ إبراهيم بن إبراهيم ١١٦١ ـ ١١٦١ هـ: ثار على أخيه علي وخلعه، ولكنه لم يلبث أن قُتل، كما قُتل أخوه عليّ.

٤" ـ شاه رخ بن رضا قلي بن نادر بن خان ١١٦١ هـ ١٢١٠ هـ، وأمه بنت الشاه الصفوي حسين. ثار عليه مرزا سيد محمد، وأعلن أن شاه رخ شيعي، وقاتله، وتمكّن منه، وقبض عليه، ونصّب نفسه شاهاً باسم الشاه سليمان. وتحرّك يوسف عليّ قائد جيش (شاه رخ)، فقبض على الشاه سليمان وقتله وأولاده، وأعاد (شاه رخ) إلى الحكم، وعيّن نفسه وصياً عليه بصفته كفيف وصغير.

وقام قائدان آخران وهما: علم خان الذي يقود فرقةً عربيةً، وجعفر خان الذي يقود فرقةً كرديةً، وقد قبضا على (يوسف عليّ) وقتلاه، وأعادا شاه رخ إلى السجن. ثم وقع الخلاف بين هذين القائدين، واقتتلا فانتصر علم خان.

وحارب أحمد خان الدوراني ملك الأفغان علم خان وانتصر عليه، وقتله. وبقي شاه رخ في السجن، وانتهى حكم الأفشار.

الزنديون:

وبرز على الساحة في هذه الأثناء من أواخر عهد الأفشار كريم خان الزندي الكردي الذي كان في جيش نادر خان، وتحالف مع زعيم البختيار علي مردان ثم اختلف معه وقتله.

انتصر كريم خان على القاجار.

وهاجم كريم خان أسد خان الأفغاني الذي اعتصم في قزوين، ولكنه هُزم أمامه، وتراجع إلى (بوشهر)، ولكنه عاد إلى القوة، ورجع إلى (شيراز)، وحكم المنطقة ما يقرب من ثلاثين سنة، استقرّت فيها الأوضاع، وعمّ الرخاء إذ نشطت التجارة.

تعاون مع الإنكليز، واستفاد من أسطولهم في إخضاع (مير مهنا) المتمركز في منطقة (بندر رق) ودخل البصرة، وولّى عليها أخاه صادقاً عام ١١٨٩ هـ، وبقي فيها حتى توفي كريم خان.

انقض على الحكم بعد وفاة كريم خان أخوه من أمه (زكي خان)، ولكن وقف في وجهه ابن أخيه (أبو الفتح بن كريم خان)، وأعلن نفسه شاهاً في شيراز. ولكن لجأ (زكي خان) إلى الحيلة، وأعلن أنه من أتباع أبي الفتح، فلما تمكّن أخذ يحصد في خصومه، وساعده في شيراز ابن أخته (مراد خان).

قام في وجه (زكي خان) (صادق خان) أخو (كريم خان) الذي أوصاه أخوه كريم خان بالوصاية على أبنائه من بعده، ولكن زكي خان هدّد بإبادة أسرة كل من يتعاون مع صادق خان فخاف الناس، وانفضّوا عن صادق خان.

وقام في وجه زكي خان القاجار بقيادة آغا محمد، فبعث إليهم جيشاً إلى أصفهان بقيادة علي مراد خان الذي لم يلبث أن انقلب ضدّه، واغتيل زكي خان عام ١١٩٥ هـ. وبذا خلا الجو لأبي الفتح بن كريم خان فقبض على أكبر خان بن زكي خان وسجنه، وسجن أخاه محمد علي خان زوج ابنة زكي خان، غير أن عمّه صادق خان قد ظهر وفرض نفسه عليه، ثم أقصاه، وانفرد بالسلطة، ولكن تمرّد عليه علي مراد خان، واستولى على أصفهان عام ١١٩٦ هـ، ثم استولى على شيراز حيث يُرابط صادق خان الذي استسلم له، فقتله وأسرته جميعها باستثناء جعفر خان.

اتجه علي مراد خان نحو مازندران حيث يُرابط القاجار، وما أن سار حتى ثار عليه جعفر خان في (زنجان)، فعاد مسرعاً علي مراد خان ليخمد الثورة فمات بالطريق.

انطلق القاجار بقيادة زعيمهم آغا محمد، وانتصروا على جعفر خان،

ودخلوا أصفهان، غير أنهم هُزموا أمام البختيار، فأسرع جعفر خان، ودخل أصفهـان، وظهرت قـوته، ولكن ثـار عليه ابن عمـه إسماعيـل خـان في (همدان)، ومات جعفر خان مسموماً عـام ١٢٠٣ هـ، وقام ابنـه لطف الله خان من بعده لكنه هُزم أمام القاجار، وأخذ يفرّ من مكانٍ إلى آخر، وحاول التفاهم مع تيمور شاه الدوراني في قندهار، غير أنه لم يسعد، إذ توفي تيمور شـاه، فما كـان من لطف الله خـان إلا أن استسلم للقاجـار، فقتلوه عام ١٢٠٩ هـ، وأبادوا أسرة الزندي. وهكذا انتهى الزنديون مـع انتهاء الأفشـار. وتفرّد القاجار.

القــاجــار:

ودام حكمهم مائةً وخمساً وثلاثين سنة (١٢٠٩ - ١٣٤٤ هـ)، وتوالى على البلاد سبعة حكامٍ منهم، وهم:

١ " ـ آغا محمد قاجار ١٢٠٩ - ١٢١١ هـ:

من مواليد ١١٥٥ هـ، وقع بيد الشاه علي الأفشاري (عـادل شاه)، وخُصي عام ١١٦٠ هـ، وتزوّج كريم خان الزندي أخته فأكرمه. فلما توفي كريم خان عام ١١٩٣ هـ انسحب آغا محمـد إلى الشمال، وأعلن نفسـه شاهاً، واتخذ من طهران قاعدةً لحكمه.

وقف في وجه زكي خان الزندي، وانتصر على جعفر خان، واستسلم له لطف الله خان عام ١٢٠٩ هـ، فقضى على أسرة الزندي جميعها.

سار إلى جورجيا، واحتلّ عـاصمتها (تفليس) عـام ١٢١٠ هـ، كما احتل (أريفان) عاصمة أرمينيا، وهرب أخوه (مرتضى) إلى روسيا مغاضباً له.

تقـدّم جيش روسي نحو الجنـوب، واحتل دربنت (بـاب الأبواب)، و (باكو)، ثم انسحب بعد أن هلكت القيصرة الروسية كاترين الثانية، وخلفها القيصر (بول) الذي كان مسالماً.

عاد آغا محمد عام ١٢١١ هـ لغزو جورجيا، غير أنه قُتل.

٢" ـ فتح علي شاه ١٢١١ ـ ١٢٥٠ هـ:

وهو ابن أخي آغا محمد، وثار في وجهه صادق خان، غير أنه هُزم، وثار محمد خان بن زكي خان الزندي، واحتلّ (أصفهان)، ولكنه هُزم أخيراً أمام القاجاريين.

اختلف فتح علي شاه مع أخيه حسين قولي خان، فاستغلّ هذا الخلاف سليمان خان قاجار فأعلن العصيان، وعندما اتفق الأخوان، فرّ سليمان خان، ولكن الشاه عفا عنه، وعيّنه حاكماً على أذربيجان.

وجاء من الأفغان نادر مرزا، واستولى على مشهد، فسار إليه الشاه، فاستسلم له، فعفا عنه.

وفي أيّام حكم فتح علي شاه، جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٢١٣ هـ، فخشيت إنكلترا من منافستها الاستعمارية فرنسا على طريق الهند، فأشاعت الشائعات وزعمت أن نابليون بونابرت يريد أن يُقيم دولة في المشرق تأتمر بأمر فرنسا، ويريد أن يعطي حكمها لأخيه، وأرادت التفاهم مع الشاه حفظاً على مصالحها في الهند وفي الخليج العربي، وأخذت البعثات الإنكليزية تتوالى على طهران.

وكان الشاه يطمع في ضمّ بلاد الأفغان إليه، وقد عقد معاهدةً مع إنكلترا عام ١٢١٦ هـ، لمقاومة أي غزوٍ أفغانيٍ للهند، وتعهدت إنكلترا أن تمدّ الشاه بالسلاح فيما إذا تعرّضت بلاده لغزوٍ فرنسيٍ، أو أفغانيٍ، ولكن إنكلترا لم تُوقّع على هذه المعاهدة خوفاً من أن تُؤدّي إلى تقاربٍ بين روسيا وفرنسا، إذ كانت روسيا تطمع بأرضٍ من أملاك الشاه.

ولما تمنّعت إنكلترا عن توقيع المعاهدة، وقّع الشاه اتفاقيةً مع فرنسا عام ١٢٢٢ هـ، وبعد شهرين من توقيع هذه الاتفاقية، وُقّعت معاهدة (تليست) بين فرنسا وروسيا، وتركت فرنسا بموجب هذه المعاهدة لروسيا حق التوسّع في الدولة الفارسية، وفي الدولة العثمانية.

تنازل الشاه للفرنسيين عن جزيرة (خرج) في الخليج العربي، ولكن هجوم روسيا على (أريفان) عاصمة أرمينيا التابعة للدولة الفارسية قد نبّه الشاه إلى السياسة الصليبية فنفض يده من فرنسا، وعاد فاتجه إلى إنكلترا، وعقد معها معاهدةً عام ١٢٢٣ هـ مُوجّهةً ضدّ فرنسا، غير أن إنكلترا كانت قبل قليلٍ قد عقدت معاهدةً مع الأفغان ضدّ أي غزوٍ فرنسيٍ أو فارسيٍ، وتعهّدت فيها بمدّ أمير الأفغان شجاع شاه بالأسلحة.

كان حاكم جورجيا (غورغين) قد فتح بلاده عام ١٢١٥ هـ أمام الروس الذين تقدّموا في أرض الدولة الفارسية، واضطر الشاه إلى توقيع معاهدة (كلستان) عام ١٢٢٨ هـ مع روسيا تنازل فيها عن (دربنت) و(باكو) و(شروان) و(جورجيا) و(داغستان) و(قره باخ) وجزءٍ من (تاليش)، كما وافق على ألا يكون له أسطول في بحر قزوين. وأسرعت إنكلترا وعقدت معاهدةً مع الشاه لتحصل على بعض المغانم، كما حصلت روسيا.

وشنّ الشاه حرباً على الدولة العثمانية عام ١٢٣٥ هـ، واستمرّت الحرب عدة سنوات، وكان القصد منها السيطرة على العراق، وقد استعاد الشاه في هذه الحرب بعض ما سبق له أن فقده من أملاكه، ووُقّعت بين الطرفين معاهدة (أرضروم) عام ١٢٣٨ هـ.

شنّ الروس حرباً على الدولة الفارسية عام ١٢٤١ هـ، واحتلّوا مدينة تبريز، وعقدوا معها معاهدة (تركمان جاي) عام ١٢٤٣ هـ، واعتذرت إنكلترا عن دعم الشاه بحجة أنه هو الذي بدأ بالحرب، ولكنها في الواقع الحرب الصليبية.

٣" ـ محمد شاه بن عباس مرزا بن فتح الله شاه (١٢٥٠ ـ ١٢٦٤ هـ):

وهو حفيد الشاه السابق، وثار عليه عمّه، حاكم إقليم فارس، ووقف في وجهه بعض الأمراء القاجاريين، ولكن الشاه انتصر عليهم جميعاً، وثار

أيضاً آغا خان بجماعته من الإسماعيليين في (كرمان) و (لورستان) وعندما أخفق فرّ إلى الهند، ومن هناك استمرّت غارات الإسماعيليين على الدولة الفارسية في محاولة الانتقام منها، وكانوا يتلقّون الدعم من الإنكليز سرّاً.

وبدأت الحركة البابية في عهد هذا الشاه بدعمٍ وتخطيطٍ من روسيا التي تريد أن توجد لها أتباعاً تستطيع عن طريقهم التدخّل في شؤون الدولة، وتكون في الوقت نفسه قد عملت على تهديم الإسلام بنشر مبادىء فاسدةٍ، وإيجاد صراعاتٍ في داخل الدولة، وبين صفوف المسلمين - حسب قناعتها -.

وتوغّل أمير الأفغان (دوست محمد) في إقليم (سيستان). واحتلّ الإنكليز جزيرة (خرج)، وأخذوا يُهدّدون ميناء (بوشهر) وذلك عام ١٢٥٨ هـ.

٤″ ـ ناصر الدين شاه (١٢٦٤ - ١٣١٣ هـ):

وقامت في عهده ثورة البابيين عام ١٢٦٤ هـ، وفشلت، وأُعدم الباب ميرزا علي محمد رضا الشيرازي، وقرة العين فاطمة بنت صالح القزويني، ونُفي حسين بن علي المازندراني (بهاء الله) الذي أصبح رأس الفرقة الضالة الجديدة البهائية، والتي ارتبطت بالإنكليز، بعد أن كان سيدها في أول عهده من صنائع الروس، كما نفي أخوه يحيى بن علي المازندراني (صبح الأزل).

وساعدت إنكلترا عام ١٢٧٢ هـ أمير الأفغان (دوست محمد)، وفتحت بذلك جبهةً جديدةً على الدولة الفارسية من جهة الجنوب الشرقي، وفي العام التالي (١٢٧٣ هـ) احتلّت إنكلترا ميناء (بوشهر) على الخليج العربي، وميناء (المحمرة) على شط العرب، ففتحت بذلك جبهةً أخرى على الشاه من ناحية الغرب.

اضطر الشاه أن ينسحب من مدينة (هراة)، ومن كل الأراضي التي

عرفت فيما بعد باسم (أفغانستان) بعد معاهدة باريس عام ١٢٧٤ هـ التي عقدت بين إنكلترا والأفغان.

حصلت روسيا على امتيازاتٍ واسعةٍ في شمالي الدولة الفارسية، وجاء الضباط الروس، وعلى رأسهم الجنرال (دومونتوفتش) وشكّلوا ثلاث فرقٍ من القوزاق، وتتألّف كل فرقةٍ من ستمائة جندي. أما إنكلترا فقد حصلت على امتيازاتٍ في أجزاء الدولة الجنوبية، ومن هذه الامتيازات مدّ السكك الحديدية، وخطوط البرق.

وقامت حركة ضدّ استبداد الشاه والتدخّل الإنكليزي، وكانت حركةً سلميةً قادها أحد علماء الشيعة الذي يعرف بالشيرازي الكبير، واضطر الشاه أن يرضخ لمطالب الحركة، وأن يُلغي اتفاقية (التبغ) التي سبق أن عقدها مع الإنكليز عام ١٣١٠ هـ، فرضي العلماء عن الشاه بعد ذلك، إذ حقّق لهم رغباتهم بإلغاء اتفاقية (التبغ) مع شركة (تالبوت) البريطانية.

٥″ ــ مظفر الدين شاه (١٣١٣ ـ ١٣٢٤ هـ):

وفي عهده وجد المجلس التشريعي حيث نُظِّم أول قانونٍ انتخابي في فارس في ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٢٤ هـ (١٤ آب ١٩٠٦ م). وكان هذا المجلس يضمّ نصف الأعضاء من طهران، وعشرةً يُمثّلون التجار، وعشرةً يُمثّلون الملاك، وأربعةً من العلماء، وأربعةً من الأسرة القاجارية الحاكمة. وقامت في وجهه عدة حركاتٍ، فاعتصم عشرة آلاف من المواطنين في دار السفارة البريطانية، واعتصمت أعداد كثيرة في المساجد، وخاصةً في مسجد عبدالعظيم في (الري)، وتُوفّي الشاه في شهر ذي الحجة من عام ١٣٢٤ هـ (كانون الثاني ١٩٠٧ م).

٦″ ــ محمد علي شاه (١٣٢٤ ـ ١٣٢٧ هـ):

وفي عهده زاد الترف والبذخ، واستدانت الحكومة الكثير من الأموال على شكل قروض، واتفقت إنكلترا وروسيا على اقتسام مناطق النفوذ في إيران بينهما ـ كما سنرى ـ وحاول الشاه استعادة السلطة، ودعمه الروس،

وقام العميد الروسي (لياخوف) بضرب مبنى المجلس النيابي في تاريخ ٢٤ جمادى الأولى ١٣٢٦ هـ (٢٣ حزيران ١٩٠٨ م)، وفرض نفسه حاكماً عسكرياً، وشكّل حكومةً عسكريةً، وألقى القبض على عددٍ من الزعماء، وأعدم بعضهم، وحلّ الشاه المجلس النيابي، وحدثت ثورة في البلاد عام ١٣٢٥ هـ ضدّ التدخّل الأجنبي، واستولى الثوار على مدينة (تبريز) فهاجمها الروس، وسار خمسة آلاف متظاهر من (بختيار) نحو طهران، وهزموا فرقةً من فرق القوزاق، ودخلوا طهران في جمادى الآخرة ١٣٢٧ هـ (تموز ١٩٠٩ م)، وكان الاستياء العام من الترف، واضطر الشاه إثر ذلك إلى الرضوخ، ومنح البلاد دستوراً، واجتمع المجلس النيابي في السنة نفسها، ومع ذلك فقد استمرّت الحركات، وكان يقودها (الأخوند محمد كاظم الخراساني) أحد علماء الشيعة، وأُجبر الشاه أن يترك مقرّه في طهران، وأن يلتجىء إلى السفارة الروسية، ثم انتقل إلى مدينة قزوين في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٢٧ هـ (١٦ تموز ١٩٠٩ م) ومنها هناك فرّ إلى روسيا. واجتمع المجلس النيابي الفارسي، وقرر خلع الشاه محمد علي، وعيّن ابنه الصغير مكانه، واختار عضد الملك وصياً عليه، فلما مات اختار أبا القاسم خان ناصر الملك وصيّاً، وكان مستبدّاً.

٧" ـ أحمد شاه بن محمد علي شاه (١٣٢٧ ـ ١٣٤٤ هـ):

كان صغيراً، وضع تحت الوصاية عندما آل الأمر إليه، وترك أمر البلاد لغيره من المقربين إليه، وانصرف إلى حياة اللهو، ولم يختلف الوضع عندما تسلّم السلطة بنفسه حيث لم يكن سوى شرطيٍ عند البريطانيين إذ كان يستشيرهم قبل تكليف أي سياسيٍ بتشكيل الوزارة.

كانت إنكلترا قد اتفقت مع روسيا منذ عام ١٣٢٦ هـ على تقسيم فارس إلى ثلاث مناطق:

أ ـ منطقة نفوذ لبريطانيا في الجنوب.

ب ـ منطقة نفوذ لروسيا في الشمال.

جـ ـ منطقة محايدة في الوسط على امتداد خط عرض طهران.

وتعهدت كل من روسيا وإنكلترا على ألا تنافس إحداهما الأخرى لا في الميدان السياسي ولا في الميدان التجاري، ومع ذلك فقد اعترفت كلاهما باستقلال فارس.

نقم الرأي العام الفارسي على روسيا، وكانت إنكلترا تهادن الروس على حساب مصلحة فارس خوفاً من خطر حربٍ تشنّها ألمانيا، فتريد بريطانيا أن يكون لها حلفاء أقوياء في أوروبا ضدّ الألمان. واستمرّ الضغط الروسي يتزايد في فارس حتى قامت الحرب العالمية الأولى.

وفي ٢٧ شعبان ١٣٣٢ هـ بلغ الشاه أحمد سنّ الرشد، وتُوّج ملكاً على البلاد، وغادر الوصي السابق ناصر الملك فارس، وتوجّه إلى فرنسا في ١٨ رمضان ١٣٣٢ هـ.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت فارس ميداناً للصراع بين الألمان والعثمانيين من جهةٍ وبين الإنكليز والروس من جهةٍ ثانيةٍ، فلما انتهت الحرب كانت البلاد في حالة انهيارٍ عسكريٍ وسياسيٍ.

انتهى النفوذ الروسي في فارس بعد قيام الثورة الشيوعية وتسلّمها مقاليد الحكم في روسيا في الأول من المحرم ١٣٣٦ هـ (١٧ تشرين الأول ١٩١٧ م)، واضطر الروس أن يتنازلوا عن ديونهم، وأن يُحسّنوا علاقتهم مع فارس كي لا يجد الروس البيض، والمعارضين للثورة الشيوعية، والذين سيطروا على أجزاء من روسيا، ومناطق من البلدان التي تقع تحت سيطرة الروس أي دعمٍ من البلدان المجاورة لهم، ومنها فارس.

أرادت إنكلترا أن تحلّ محلّ روسيا فلم تتمكّن، فأرادت أن تجعل من فارس سدّاً منيعاً في وجه التوسّع الشيوعي لذا أسرعت وعقدت مع فارس اتفاقية (المساعدة البريطانية من أجل تقدّم فارس ورفاهيتها) في ١٣ ذي القعدة ١٣٣٧ هـ (٩ آب ١٩١٩ م. وإذا كانت هذه الاتفاقية قد اعترفت

باستقلال فارس ظاهراً إلّا أنها قيّدتها بقيودٍ جعلتها فيها تحت الحماية البريطانية، ومما جاء في هذه الاتفاقية:

١ ـ تستخدم فارس المستشارين البريطانيين في كل مؤسسات الدولة بما في ذلك الجيش.

٢ ـ لا يُزوّد الجيش الفارسي إلا بالأسلحة البريطانية.

٣ ـ تُشرف بريطانيا على جهاز الحكم الفارسي.

٤ ـ تقوم إنكلترا بإنشاء السكك الحديدية وطرق المواصلات في فارس.

٥ ـ تعمل إنكلترا على تصحيح الحدود الفارسية في النقاط ذات الأهمية الخاصة.

٦ ـ تقدم بريطانيا قرضاً لفارس بمبلغ مليوني جنيه بفائدةٍ قدرها ٧٪.

ووقّع هذه الاتفاقية كل من رئيس وزراء فارس وثوق الدولة، والسفير البريطاني بيرسي كوكس، واستمرّت المفاوضات بين الجانبين عاماً كاملاً.

رضي الشاه أحمد بهذه الاتفاقية، ولم يبق سوى موافقة المجلس النيابي عليها. ولكن الشعب ثار على هذه الاتفاقية، حتى الموالين للسياسة البريطانية من الفرس الذين أرادوا إلغاءها لإنقاذ وضعهم الذي عُرفوا به، وآرائهم التي يُدافعون عنها، وقد أصبحت فارس حسب الرأي العام المحلي والدولي محميةً بريطانيةً.

وانتقدت الولايات المتحدة هذه الاتفاقية بل رفضت تقديم أية مساعدةٍ لفارس احتجاجاً على الاتفاقية، وكذلك انتقدتها فرنسا، وإن كان البريطانيون قد عدّوا هذا النقد من باب المنافسة دون النظر للمصالح الفارسية.

وبعد الحرب العالمية الأولى أخذت الأفكار الشيوعية تنشط في فارس، كما أخذت أجنحة متعددة من الأحزاب تتوجّه نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وتعتمد عليها في دعمها.

وبعد توقيع الاتفاقية حدثت انتفاضات في عددٍ من المناطق، وأسّست المعارضة حكومات محلية في تلك المناطق، فأسّس الشيخ محمد خياباني الحكومة الوطنية في أذربيجان في رمضان من عام ١٣٣٨ هـ (حزيران ١٩٢٠ م) وأطلق على أذربيجان بلاد الحرية (أزاديستان). وفي الوقت نفسه أسّس (مرزا كوجك خان) حكومةً محلية في إقليم جيلان، وأرسل من مدينة (رشت) برقيات إلى الحكومة المركزية في طهران، وإلى السفارات الأجنبية ينتقد فيها السياسة الإنكليزية، وكذلك تزعّم محمد تقي خان الانتفاضة في خراسان، هذا بالإضافة إلى الحركة الواسعة التي قامت في كردستان وقادها (سمكو) وكادت تقضي على الحكم القاجاري.

حكومة مشير الدولة:

قدّم وثوق الدولة استقالة حكومته في ٧ شوال ١٣٣٨ هـ (٢٣ حزيران ١٩٢٠ م) وعُهد إلى مشير الدولة بعد إذنٍ من السفير البريطاني بتشكيل الوزارة، فاجتمع بالسفير وتشاور معه في أعضاء الوزارة والذين كان من بينهم، مؤتمن الملك، ومستوفى الممالك، ومصدق السلطنة (محمد مصدق)، ومخبر السلطنة صاحب النفوذ في أذربيجان.

استأذن رئيس الوزراء السفير الإنكليزي بإرسال وفدٍ إلى موسكو لإقناع روسيا بالانسحاب من فارس، ووقف الدعاية الشيوعية. كما استأذنه بالإعلان عن إيقاف تنفيذ كل ما يتعلق بالاتفاقية موقتاً. وبإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ. وفي هذه الآونة تحسنت العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

وأخيراً قدّم مشير الدولة استقالة حكومته في ٦ جمادى الأولى ١٣٣٩ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٢١ م).

حكومة سباهدار أعظم:

بعد استقالة حكومة مشير الدولة كانت الأنظار تتجه إلى أحد الرجلين لتشكيل الحكومة الجديدة إما مستوفى الممالك وإما سباهدار أعظم،

واستشار الشاه السفير البريطاني لكنه رفض التدخّل بحجة أن هذا أمر خاص بالشاه وقضية داخلية.

كلّف الشاه بالوزارة سباهدار أعظم فشكّل حكومةً جديدةً شملت أعضاء الحكومة السابقة تقريباً، وأُضيف إليهم محتشم السلطنة الذي أُسندت إليه حقيبة وزارة الخارجية، ووحيد الملك، واقترحت الحكومة على بريطانيا عقد اتفاقيةٍ جديدةٍ تحلّ محلّ الاتفاقية السابقة التي لا يرضى عنها أحد في الداخل، كما تجد نقداً لاذعاً في المحافل الدولية.

تشكلت الحكومة الجديدة في ٨ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (١٦ شباط ١٩٢١ م)، ولكنها لم تبق في الحكم سوى عدة أيام إذ وقع انقلاب، وهو الذي عرف بانقلاب «حوت» حسب التقويم الفارسي الخاص بهم، وهو في ١٣ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (٢١ شباط ١٩٢١ م).

انقلاب حوت:

وهو انقلاب سلمي، لم يمس الشاه، وإنما تغيير في مواقع القوة إذ غدا تاريخ فارس في المرحلة القادمة مرتبطاً بشخصية رضا بهلوي[1] ومن

---

(١) رضا بهلوي: ولد في بلدة (سوادكوه) في إقليم مازندران عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م)، يُدعى أبوه عباس قلي خان، وقد توفي في ٢ ذي الحجة ١٢٩٥ هـ (٢٦ تشرين الثاني ١٨٧٨ م)، ولا يزال ابنه رضيعاً، فانتقلت به والدته إلى طهران. وأما أمه فتعود إلى أصلٍ قفقاسيٍ حيث انتقل بها أهلها إلى إيران بعد سيطرة الروس على بلاد القفقاس عام ١٢٨٢ هـ. رعى الولد خاله بعد أن تزوجت أمه، وتركت غلامها لأخواله. ثم أودعه خاله لدى أسرة الجنرال (تومان كاظم خان) صديق عائلته.

يعود رضا بهلوي إلى أسرةٍ امتهنت الجندية، وكان أبوه عباس قلي خان قد وصل إلى رتبة عقيد، وكان جده كذلك ضابطاً، وقتل في الحملة على (هراة).

منذ أن وصل رضا بهلوي إلى سنّ الخامسة عشرة التحق بالجندية، فأُتبع بفرق القوزاق، وتزوّج، وأنجبت له زوجته ابنةً ولكنها اختفت معها في ظروف غامضة عام ١٣٣٣ هـ. =

يتعاون معهم، وكان أولهم ضياء الدين الطباطبائي(1).

= تزوّج ثانيةً ابنة القائد العسكري (تيمور خان ميربنج)، وأنجبت له ولي العهد عام ١٣٣٧ هـ.
اشترك عام ١٣٢١ هـ في قتالٍ ضدّ حركاتٍ معاديةٍ للسلطة المركزية، فأبدى شجاعةً، وكان رئيس عرفاء فرقّي إلى رتبة ملازم.
اشترك عام ١٣٢٩ هـ في القتال ضدّ سالار الدولة شقيق الشاه المخلوع محمد علي الذي ثار على ابن أخيه، فأظهر رضا جرأةً، ومنح رتبة ملازم أول.
واشترك في القتال مع فرق القوزاق ضدّ [illegible] رسان، وكردستان، ولورستان، وأظهر قوةً ونشاطاً حتى صار يُعرف باسم رضا خان مكسيم نسبة إلى مكسيم المدفع الذي كان يعمل عليه.
وصل في الحرب العالمية الأولى إلى رتبة مقدم، وبعد عام أصبح عقيداً، خدم في مدينة (كرمنشاه) وبعدها انتقل إلى (همدان) وأخيراً انتقل إلى طهران.
بعد الثورة الشيوعية أخذ يتعاون مع الروس البيض المناهضين للبلاشفة، ومنح رتبة عميد وأعطي قيادة فرقة من القوزاق، فعمل بعض الإصلاحات فلفت نظر الضباط الصغار.
منذ عام ١٣٣٢ هـ أخذ يُواظب على قراءة جريدة (رعد) التي كان يُصدرها ضياء الدين الطباطبائي. وتأثّر بسياستها. وكان يميل إلى النزعة الفردية، وحب الاستبداد.
عهدت إليه الحكومة حماية البعثة الأمريكية، ثم السفارة الإنكليزية، ثم المصارف الروسية والبريطانية.
أُعجب بالألمان، وأصبح حسّاساً ضدّ الإنكليز، غير أنه لا يُظهر شيئاً، إذ عُرف بالكتمان والتأنّي.

(1) ضياء الدين الطباطبائي: ولد في مدينة (يزد) عام ١٣٠٦ هـ، ودرس في باريس عام ١٣٢٩ هـ لمدة سنتين، كان مولعاً بالأدب، وعمل بالصحافة، وأصدر بعد الحرب العالمية الأولى جريدة (رعد)، واعياً لواقعه السياسي والقضايا الدولية، مُتأثّراً وميّالاً للسياسة الإنكليزية، عنده حب المغامرة. أيّد الاتفاقية مع بريطانيا في الوقت الذي رفضتها مختلف أوساط الشعب. وأيّد حكومة الثورة الروسية المانشفية المؤقتة، ووقف ضد ثورة البلاشفة في الأول من المحرم ١٣٣٦ هـ (١٧ تشرين الأول ١٩١٧ م). وأيّد حكومة وثوق الدولة.
عُيّن سفيراً فوق العادة لدى حكومات ما وراء القفقاس أرمينيا، وجورجيا، وأذربيجان، وذلك عام ١٣٣٨ هـ.
=

كان رضا خان يرى العمل لاتحاد الضباط الفرس في فرق القوزاق في طهران وقزوين، والعمل لطرد الأجانب وسحق عملائهم، غير أنه كان شديد الكتمان لما يسمع، وما يُخطّط له، متأنّياً فيما يتحدّث به. وشعر الإنكليز أنه يُعادي الحرية السياسية، ويميل إلى الاستبداد، وحاز على إعجابهم، وتوقّعوا أنه الرجل المناسب للتغيير في فارس، فركّزوا عليه. وبعث السفير الإنكليزي في طهران (هرمن نورمن) برسالة إلى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن بتاريخ ٤ رجب ١٣٣٩ هـ (١٣ آذار ١٩٢١ م) بهذا المعنى.

كان رضا خان مُستاءً من الفوضى والاضطرابات في البلاد وكذلك كل ضباط القوزاق، ويرون ضرورة العمل لوجود حكومةٍ مركزيةٍ قويةٍ تستطيع الوقوف في وجه التخلّف والانتفاضات والحركات الثورية. وعندهم حماسة لاستقلال البلاد.

رأى الضباط الفرس في فرق القوزاق في ضياء الدين الطباطبائي ومؤيديه عناصر سياسية يمكن العمل معهم والتفاهم، كما رأى ضياء الدين في هؤلاء الضباط قوةً يمكن الاعتماد عليهم، وجرت اتصالات بين الطرفين.

وفي ٥ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (١٣ شباط ١٩٢١ م) جرى لقاء في مدينة قزوين بين ضياء الدين الطباطبائي ورضا خان، وتمّ التفاهم بين الجانبين على العمل معاً، وتسلّم السلطة، بل تفاهما على اقتسام المراكز حيث يتسلّم ضياء الدين رئاسة الحكومة على حين يصبح رضا خان قائداً لفرق القوزاق، ويبدو أن رضا خان كان يفُكّر بأبعد من ذلك بكثيرٍ، واقتنع بنفسه أن القوة هي وسيلته الوحيدة للوصول إلى ما يطمح عليه، وأن هذه المرحلة تكفيه بما يُحقّقه من الحصول على بداية القوة، وهي أول الطريق.

= وعشيّة انقلاب (حوت) غيّر ثوبه، وظهر بمظهر الإخلاص، ووسّع صلته بالعناصر الوطنية، وإن كان المعدن لا يتغيّر حيث بقيت صلته السرية بالبريطانيين.

قررت الحكومة تغيير قطعات القوزاق الموجودة في العاصمة واستبدالها بالقطعات المرابطة في مدينة قزوين، فرأى رضا خان الفرصة مناسبةً جداً لتنفيذ الخطة ما دام سيتحرّك مع تلك القطعات تلقائياً إلى طهران، وأخبر ضياء الدين الطباطبائي بذلك فوافقه على البدء.

بدأت قطعات القوزاق في قزوين تتحرك من قزوين نحو طهران في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (١٨ شباط ١٩٢١ م)، وتقدر بـ ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ جندي، ومعها ستة وعشرون مدفعاً، وقبل الوصول إلى طهران أسرع ضياء الدين وخرج لاستقبالهم، فالتقى قرب مطار (مهر أباد) بهم، واجتمع هناك برضا خان ومعه العقيد كاظم خان سياح، والنقيب مسعود خان كيهان، وأمير أحمدي، وأقسم ضياء الدين الطباطبائي على كتاب الله بأن يخدم الشعب والبلاد، وأن يقف في وجه الشيوعية، وأن يكون في خدمة الشاه، وكذلك أقسم الضباط.

اجتمع مجلس الوزراء بصورةٍ متواصلةٍ يومي ١١ و١٢ جمادى الآخرة، ثم أرسل وفداً يُمثّل الشاه، والحكومة، والسفارة البريطانية ليُقنع العسكريين بعدم دخول طهران.

رفض العسكريون مطالب الحكومة، وطالبوا بتشكيل حكومةٍ قويةٍ والوقوف في وجه الشيوعية.

وفي ١٣ جمادى الآخرة طلب السفير البريطاني من الشاه الموافقة على طلب العسكريين، وطمأنه على حياته. أما رئيس الوزراء فأعطى أوامره بعدم المقاومة التي لم تكن ممكنةً بالأصل. وأذاع الشاه بياناً كأنه يُؤيّد هذه الحركة بل كأنه كان من ورائها.

دخل العسكريون العاصمة، وسيطروا على المرافق الحيوية جميعها، وأطلقوا سراح المعتقلين، وكانت إنكلترا راضيةً عما حدث ومقتنعةً به كأسلوبٍ لإنقاذ إيران من الحركة الثورية. وكلّف الشاه ضياء الدين

الطباطبائي برئاسة الحكومة، فأعلنها، وتسلّم رضا خان قيادة فرق القوزاق، وكان يُشارك في اجتماعات الحكومة وإن لم يكن عضواً فيها.

اجتمع رئيس الوزراء الجديد بالسفير الإنكليزي وأعلمه أن الحكومة لا يمكنها أن تُباشر أعمالها دون إلغاء الاتفاقية الإنكلو- إيرانية. وكان ذلك الاجتماع في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (٢٥ شباط عام ١٩٢١ م)، وهو أول اجتماعٍ تمّ بين السفير ورئيس الحكومة الجديد.

كتب السفير البريطاني لوزير خارجية حكومته في اليوم نفسه يشرح له ما دار في اللقاء فيقول: «أخبرني سيد ضياء الدين طباطبائي - ل.م.) سراً بما يلي عن سياسته: يجب إلغاء الاتفاقية الإنكلو- إيرانية، فمن دون ذلك لا يمكن للحكومة الجديدة أن تباشر أعمالها... تتخذ الخطوات مباشرةً لاستخدام عددٍ من الضباط والمستشارين البريطانيين في المؤسسات العسكرية والمالية بموجب عقودٍ فرديةٍ دون إظهار أي نوع من الاتفاق بين الحكومتين، كما يجب عدم جلب الأنظار إلى نشاط هؤلاء قدر المستطاع، بينما يعلن للملأ أن الحكومة الفارسية تنوي جلب المستشارين من مختلف الدول الأوربية، فيُدعى الفرنسيون والأمريكان وربما الروس أيضاً فيما بعد لإشغال مراكز في وزاراتٍ أقل أهمية. وتهدف الفكرة إلى إرضاء الدول الأجنبية الأخرى قدر الإمكان وإلى ذر الرماد في عيون البلاشفة والمتذمّرين المحليين في وقتٍ توضع فيه إدارتان أساسيتان بيد البريطانيين، يُؤلّف جيش ويحلّ محلّ قواتنا في الجبهة البلشفية... صدرت التعليمات لرئيس الشرطة السويدي لرفع كفاءة قواته وإضافة خمسمائة رجل إليها لحماية السفارات شكلياً ولكن في الواقع لمراقبة الممثّل السوفيتي حال وصوله ولمراقبة النشاط البلشفي عموماً... إنه أشار إلى أن كلاً من مستقبل فارس ومستقبل بريطانيا العظمى في فارس يعتمد على فرصة عدة أشهر تُمنح للحكومة الجديدة لتتخذ الإجراءات الدفاعية الضرورية (لصد الحركات الوطنية - ك.م.) والتي كان إهمالها جرماً ارتكبه من سبقه.... ومن أجل

التخلص من معاداة حكومة روسيا السوفيتية. من المهم جداً إخفاء ميل الإدارة الحالية نحو بريطانيا إلى أقصى حدٍّ ممكن في الوقت الحاضر. وفي الختام قال: إذا كانت بريطانيا العظمى ترغب في إنقاذ موقعها هنا فعليها أن تُضحّي بالظلّ من أجل الجوهر، وتبقى في الخلف تساعد فارس بنشاطٍ ولكن بعيداً عن الأنظار. إنه متأكد من أن سياسةً كهذه ستُحقّق في النهاية لبريطانيا العظمى فوائد أكبر من تلك التي تتوقّعها من اتفاقيةٍ يتعذّر تطبيقها»[1].

ظهر رئيس الحكومة ضياء الدين الطباطبائي على حقيقته، وعجز عن حلّ كثيرٍ من المشكلات، وبرزت الحركة الوطنية، ووقعت الحكومة في ضائقةٍ ماليةٍ نتيجة الإنفاق بسخاءٍ على فرق القوزاق لإرضائهم، ولم يستطع الحصول على قرضٍ من بريطانيا لمعالجة الضائقة المالية، وكذلك فشل في كسب الرأي العام إليه، ورأى الإنكليز أنه لا بدّ من رجلٍ أقوى لهم.

كان رضا خان يحضر اجتماعات مجلس الوزراء كلها رغم أنه لم يكن وزيراً، وكان يتدخّل في كل قضيةٍ، ويُبدي رأيه، ويُصرّ عليه، ويُؤكّد على تنفيذه. وألحّ على ربط الشرطة بوزارة الحربية، وحُقّق ذلك، على حين كان رئيس الحكومة يرى ربطها بوزارة الداخلية، ولم يستطع تنفيذ رأيه. ووقع الخلاف بين الطرفين أو بين قطبي الانقلاب.

حاول رئيس الحكومة عن طريق البريطانيين إقناع رضا خان بعدم تخطيه حدوده فلم يفلح، وعمل على إبعاده عن قيادة القوزاق فلم ينجح، حيث أنه لا يستطيع أن يتخذ أي قرارٍ بحقه ما دام على رأس العسكريين القوزاق، ومن أجل هذا سلّمه منصب وزير الحربية فتسلّمه دون أن يترك قيادة القوزاق.

استطاع رضا خان أن يقنع الشاه بإزاحة ضياء الدين الطباطبائي عن

---

(١) دراسات في تاريخ إيران ـ كمال مظهر أحمد ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

رئاسة الحكومة فأصدر الشاه مرسوماً في ١٨ رمضان ١٣٣٩ هـ (٢٥ أيار ١٩٢١ م) بإقالة حكومة ضياء الدين الطباطبائي الذي قرّر الفرار من البلاد، فعرضت عليه الولايات المتحدة اللجوء السياسي إليها، وكذلك عرضت عليه روسيا غير أنه رفض كلا العرضين. واتجه إلى العراق، ومنها سافر إلى أوربا فعاش في سويسرا وألمانيا، ثم رجع واستقرّ في الشام في منطقة فلسطين حتى وافته المنية عام ١٣٨٩ هـ.

كان رضا خان ينوي اعتقال خصمه صديق الأمس غير أن البريطانيين قد حالوا دون ذلك، كما أن السفير الروسي قد نصحه بعدم الإقدام على الاعتقال.

حكومة أحمد قوام السلطنة:

كان البريطانيون يرغبون في استلام رضا خان للحكومة غير أن الشاه اعترض على ذلك، ورشح مشير الدولة لكنه اعتذر، وعهد إلى مستوفى الممالك فاعتذر أيضاً، فوقع الاختيار بعدئذٍ على أحمد قوام السلطنة شقيق وثوق الدولة، فعهد إليه الشاه بتشكيل الوزارة فامتثل وقام بالمهمة، وألّف الحكومة في ٢٨ رمضان ١٣٣٩ هـ (٤ حزيران ١٩٢١ م). وبقي رضا خان في وزارة الحربية، وقد ضمّت هذه الحكومة كثيراً من الذين تعاونوا مع الألمان في الحرب العالمية الأولى[1].

كانت مهمة الحكومة الأساسية القضاء على حركتي (خراسان) و(جيلان)، وحاولت التقرّب من الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على قروضٍ، ولمنح الشركات الأمريكية حق امتياز التنقيب عن النفط.

---

(١) كان من أعضاء هذه الحكومة:

١ ـ محتشم السلطنة: وزيراً للمعارف.
٢ ـ رضا بهلوي: وزيراً للحربية.
٣ ـ مشاور السلطنة: وزيراً للبرق والبريد.
٤ ـ عميد السلطنة: وزيراً للعدل.
٥ ـ أديب السلطنة: للفوائد العامة والتجارة والفلاحة.
٦ ـ حكيم الدولة: وزيراً للصحة.
٧ ـ مستشار الدولة: وزيراً مشاوراً.

وكانت السياسة البريطانية في فارس تعمل على مقاومة الشيوعية، وحماية العراق والهند منها، والعمل على القضاء على الحركات الوطنية. وتغيّرت سياسة اللين التي كانت تحرص عليها بريطانيا، وبدأت سياسة الضغط، والمطالبة بالديون، وتشجيع الحركات الانفصالية، وظهر حزب النجمة البختيارية في منطقة بختيار. كذلك تغيّر السفير البريطاني إذ ارتحل (هرمن نورمن) وجاء (بيرسي لورين).

عزل وزير الحربية حكام بعض المناطق مثل: محمد مصدق حاكم أذربيجان، واقتدار الدولة حاكم مازندران، وعيّن مكانهم حكاماً عسكريين، وكأنه هو المتصرّف الوحيد بالدولة. بل كان ما يقرب من نصف ميزانية الدولة (٤٩٪) يتصرّف به وزير الحربية باسم الإنفاق على القوات المسلحة وذلك لكسب الجيش إلى جانبه، فكان للضباط ميزات خاصة، على حين لم يكن نصيب التعليم من الميزانية ليزيد على ١٪ فقط. وهذا ما أربك الميزانية وأوقعها في عجزٍ.

عُيّن محمد مُصدّق وزيراً للمالية في سبيل إنقاذ المالية، ولكنه لم يستطع فعل شيء أمام غطرسة رضا خان، وسيطرته على أجهزة الدولة.

وفي النصف الأول من عام ١٣٤٠ هـ تشكلت الكتلة الوطنية من الحزب الاشتراكي الديمقراطي بزعامة سليمان مرزا إسكندري، والاشتراكيين المستقلين، ووقفت الكتلة ضدّ حكومة أحمد قوام السلطنة.

وزاد الخلاف بين رئيس الحكومة وبين وزير حربيته رضا خان حتى اضطر رئيس الحكومة إلى تقديم استقالة وزارته في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٢٢ م).

حكومة مشير الدولة:

شكّل الحكومة في ٢٤ جمادى الأولى، واتبعت حكومته سياسة

التقارب من الولايات المتحدة الأمريكية التي طلبت ضماناً لمصالحها. ولجأت إنكلترا إلى إثارة القبائل كردّ فعلٍ على سياسة الحكومة.

أخذ وزير الحربية رضا خان يتقرّب من الكتلة الوطنية ليكون له دعم سياسي إضافةً إلى الدعم العسكري وذلك قبل الخلاف مع رئيس حكومته إذ كان يعمل على إفشال رؤساء الحكومات المتعاقبين ليبقى وحده في الساحة وليُجبر الشاه على تكليفه بالحكومة بعد فشل الآخرين.

بدأ الخلاف بين رئيس الحكومة ووزير حربيته الذي ركّز وضعه واستعدّ للمنازلة والخلاف. فاعتقل وزير الحربية رضا خان من نفسه عدداً من الصحفيين، وأغلق عدداً من الجرائد ومنها: (نجمة فارس) و(نجمة الشرق) و(خلاص فارس)، ثم طلب من رئيس الوزراء وكأنه موظف عنده أن يُغلق جريدة (الحقيقة) فرفض رئيس الحكومة لأن الطلب جاءه كأمرٍ، ولو فعل لتسلّط عليه وزير حربيته ثم بسط نفوذه على البلاد. ولما رفض هدّده الوزير بالاعتقال فما كان من رئيس الوزراء إلا أن قدّم استقالة حكومته في أواخر رمضان من عام ١٣٤٠ هـ.

حكومة أحمد قوام السلطنة للمرة الثانية:

شكّل حكومته الثانية في الأسبوع الثاني من عيد الفطر ٨ شوال ١٣٤٠ هـ (٣ حزيران ١٩٢٢ م)، وعملت في هذه الأثناء لندن على التفاهم مع واشنطون، واتفقت شركة ستاندر أويل الأمريكية مع شركة النفط الإنكلو - فارسية على استثمار نفط الشمال، وهذا ما يُخالف المعاهدة الفارسية - الروسية التي عقدت في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (٢٦ شباط ١٩٢١ م) والتي تعطي حق التنقيب عن النفط في الشمال للروس، ولهذا فقد شنّت روسيا حملةً عنيفةً على الحكومة الفارسية، كما أن الصحافة الفارسية قد هاجمت العمالة لأمريكا، واقتسام الشركات الإنكليزية والأمريكية للثروة الفارسية. فقامت الحكومة في مطلع عام ١٣٤١ هـ (٢٢ آب ١٩٢٢ م) وأغلقت الصحف كلها. فأضرب عمال المطابع في ١٧

محرم ١٣٤١ هـ (٨ أيلول ١٩٢٢ م) إذ توقّفوا عن العمل، وانقطع مورد رزقهم، وتبـع ذلـك إضـراب المعلمين، وشـدّدت الكتلة الـوطنيـة من معارضتها، واضطرت الحكومة إلى تقديم استقالتها في ٨ جمادى الآخرة ١٣٤١ هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٢٣ م).

حكومة مستوفى الممالك:

شكل الوزارة في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٤١ هـ (١٤ شباط ١٩٢٣ م) وهو من قادة الكتلة الوطنية، وسمح للصحف بالصدور، فعاد عمال المطابع إلى عملهم تلقائياً. وتحسّنت العلاقة مع موسكو، فخشيت إنكلترا من زيادة التقارب بين فارس وروسيا فأنزلت ثمانمـائة جنـدي بريـطاني في موانىء الجنوب في الثالث من شعبان ١٣٤١ هـ (٢٠ آذار ١٩٢٣ م).

بدأت تقع اغتيالات في قادة الكتلة الوطنية، وربما كان رضـا خان خلفها لتثور حمية رئيس الحكومة على أنه من قادة الكتلة، ويستنجد بوزير الحربية لردع المجرمين، وليفسح المجال لنفسه بالتدخّل على أنه مسؤول كوزير للحربية وتتبع له قوى الأمن الداخليـة، ولصلته أيضـاً بقادة الكتلة الذين يتوقّعون منه كل مساعدةٍ، وهذا ما يُهيّىء له الظهور والبروز.

اضطرت الحكومة إلى تقديم استقالتها في ٢ ذي القعدة ١٣٤١ هـ (١٥ حزيران ١٩٢٣ م).

حكومة مشير الدولة:

شكّل مشير الدولة حكـومته في اليـوم التالي لاستقـالة سلفـه، ولم تستطع تقديم شيءٍ فقامت المظاهرات، واضطر رئيس الوزارة إلى تقديم الاستقـالـة في ١٢ ربيـع الأول ١٣٤٢ هـ (٢٢ تشـرين الأول ١٩٢٣ م)، ولم يجد الشاه بُدّاً من أن يعهد إلى رضا خان برئاسة الحكومة.

حكومة رضا خان:

شكّل الحكومة في ١٩ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣ م)، واحتفظ لنفسه بوزارة الحربية، كما سلّم وزارة الداخلية، ووزارة البرق والبريد إلى عسكريين. وكان من كبار وزرائه سليمان مرزا الذي أسندت إليه وزارة المعارف، ومحمد مصدق، وذكاء الملك، وصور إسرافيل.

فارس بعد إلغاء الخلافة

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) ولا تزال السلطة الاسمية بيد القاجاريين، وكان الشاه هو أحمد، ولكن السلطة الفعلية كانت بيد رضا بهلوي.

أُلغيت الخلافة وكان الناس في هذه الأقاليم قد ملّوا من الصراعات التي لا تنقطع بين القبائل، والحروب التي لا تنفكّ بين الأسر، بل إن أفراد الأسرة الواحدة ليثور بعضهم على بعضٍ، ويُقاتل بعضهم بعضاً، وقد رأينا كيف كان الأخ يتمرّد على أخيه، والعمّ على ابن أخيه، والقائد على رئيسه، وكثيراً ما تدفع الأطماع أصحابها فيتحرك حاكم إقليمٍ ليضمّ إقليماً آخر إلى سلطانه، وقد أُبيدت أُسر كاملة غُلب على أمرها بيد أسرٍ علا شأنها. وربما استعان أهل إقليمٍ بعدوٍّ مشتركٍ ضدّ أهل إقليمٍ ثانٍ، إذ كانت إنكلترا، وكانت روسيا، وفرنسا مدةً تحت طلب المتخاصمين تدعم هذا ضدّ ذلك، وتمدّ بالسلاح إقليماً ضدّ آخر، وأُسرةً ضدّ ثانيةٍ وقصدها أن يُفني بعضهم بعضاً بدافعٍ صليبيٍ أولاً، ولتحصل على بعض النفوذ ثانياً. وكانت النتيجة أن كره الناس القتال لما وقع في بلادهم، وتمنّوا الخلاص من الحروب على أيّة صورةٍ، وفي الوقت نفسه كرهوا حكامهم لما جرّوه عليهم، وفقدوا الثقة بهم لما حملوهم عليه، ولعدم اهتمامهم بهم.

وعندما يستعين شاه بعدوٍّ يُزيّن لشعبه صفات ذلك العدوّ، وأنه لا أطماع له، وإنما يُريد من وراء دعمه معاداة خصمه المستعمر المُنافس له، وهذا ما خفّف من كراهية الصليبيين عند المسلمين وقلّل من الحماسة

لقتالهم، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن المسلمين أصبحوا يرون الدول الصليبية متفاهمةً شعوبها غير مختلفةٍ فيما بينها على عكس ما يحدث بين المسلمين، ومنصرفةً كلها إلى العمل لمصالحها خارج حدودها، وإن كنا نُسمّي ذلك استعماراً إلا أنه في صالح شعوبها، ولم يكن المسلمون يومذاك ـ مع الأسف ـ ليلتفتوا إلى الحقد الصليبي الذي كان يُحرّك تلك الدول النصرانية، وإنما يعدّونه استعماراً من أجل الاقتصاد واستغلال ثروات الشعوب الثانية. كما أن المسلمين لم يكونوا لينتبهوا إلى أن ما يُصيب المسلمين من ظلمٍ وحرب إبادةٍ من قبل المستعمرين يزيد أضعافاً مُضاعفةً على ما يُصيب بقية الشعوب فالحرب إنما مُوجّهة ضدّ المسلمين بالدرجة الأولى وهي صليبية اقتصادية بالنسبة لهم، واقتصادية فقط بالنسبة لغيرهم، ولكن تعليم النشء ومناهج التعليم في بلدان المسلمين كلها ـ مع الأسف ـ لا يعير الجانب الصليبي اهتماماً.

وكان سكان هذا الإقليم يرون ما يُصيبهم من إخوانهم المسلمين في بقية الأمصار يفوق ما ينالهم من أعدائهم الصليبيين فالحروب ما تنقطع بين الدولتين العثمانية والفارسية، والقتال بين الأفغانيين وجيرانهم لا ينتهي على حين لم تقع حروب بشدتها مع الفرنسيين، وكانت الحروب مع الإنكليز أخفّ شدّة وأقلّ هولاً، أما الحروب مع الروس وإن كانت طاحنةً إلا أنها تنطلق من المناطق الإسلامية التي سيطروا عليها واستعمروها، والتي أخذ المسلمون ـ مع الأسف ـ بنسيانها، كما لم ينتبه المسلمون إلى ما يُثيره المستعمرون الصليبيون من إحنٍ بين الأقاليم الإسلامية بعضها ضدّ بعضٍ، وربما لم تقع حروب بين المسلمين إلا وكان خلفها النصارى.

وعلى الرغم من أن قادة هذه الأقاليم قد شعروا بالأثر الصليبي، ولعبة الدول النصرانية إلّا أن أطماعهم كانت تُنسيهم هذا سريعاً، ويُخطّطون للاستعانة بهذه الدولة الكبرى أو بتلك. في سبيل تحقيق بعض ما في نفوسهم، غير أن هذه الاستعانة كثيراً ما كانت تُعطي فكرةً طيبةً عن

المساعدين بصفتهم أعوان للمقاتلين، ويُحاربون عدوّاً واحداً على حين أن الأمر يقتضي أن يبقى المسلمون حذرين من أعدائهم إذ لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمّةً ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾[1].

وكانت الوفود النصرانية التي تأتي إلى الأمصار الإسلامية والبعثات التي تصل إلى العواصم الإسلامية تقوم بعمل الدعاية لدولها، والمراحل العلمية التي قطعها العالم النصراني، وتُشكّك في إمكانات المسلمين، وقبولهم للحضارة، وحُكّامهم ووقوفهم في وجه التطوّر، وكذلك يُكلّفون إخوانهم بالعقيدة الذين يعيشون في ظلّ الحكومات الإسلامية بمتابعة مُهمّة الدعاية نفسها، فأدّوها تأديةً كاملةً بل وأضافوا إليها حقداً لم يُطفئه ما وجدوه من عناية المسلمين بهم طيلة العهد الإسلامي، ولم يُخفّف منه شيئاً الجوار والمعاملات التي استمرّت قروناً والتي يسمّونها الوطنية. وسرت هذه الشائعات في المجتمع الإسلامي لجهل المسلمين الذين أخذ يُخيّم عليهم، وللسذاجة التي أخذت تنتشر في بيئتهم.

وأخذت المستجدات العلمية تظهر فبهرت أنظار بعض المسلمين، وغدوا يرحلون إلى البلدان النصرانية، فيرون الجوانب الإيجابية، وتعمى عيونهم عن السلبيات إما لاهتمامهم بما ذهبوا إليه وإما لتمرّغهم مع أهل تلك البلاد في السلبيات التي راقت لهم فلوّثوا أنفسهم بها، واستمرؤوا تلك الحياة ورغبوا فيها وعندما رجعوا أصبحوا يميلون إلى نشر تلك السلبيات في

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٧ ـ ١٠.

مجتمعهم وباسم التقدمية، والارتقاء، والحضارة والأسماء التي استعاروها من هنا وهناك.

ومن كل ما سبق قلّت كراهية أعداء الله من نفوس المسلمين، ولم تعدّ غريبة في أوساط المستغربين فكرة التقارب، والتعاون، والاستنجاد بهم، ولو ضدّ مسلمين آخرين، وهكذا اهتزّ الكيان الإسلامي بل لم يعد غريباً أن يكون في بعض الجيوش الإسلامية جنوداً ليسوا بمسلمين.

الفصل الأول

نهاية القاجاريين

ذكرنا أنه قد أُلغيت الخلافة ولا تزال الحكومة الاسمية بيد الأسرة القاجارية وأحمد شاه هو الحاكم الرمزي للبلاد.

وكانت قد تغيّرت السياسة الصليبية الاستعمارية حيث رأت الدول النصرانية أنها قد تمكّنت، وفرضت سيطرتها على كثيرٍ من أجزاء العالم، ولم تعد دولة قادرةً على الوقوف في وجه الصليبية العالمية، والعالم الإسلامي الذي كان يُخشى جانبه قد جُزّيء، وجثم على صدر كثيرٍ من أقاليمه الصليبيون، وإذا كانت هناك أمصار لم يدخلها الجنود النصارى إلا أنها غالباً ما تأتمر بأمر الدول الكبرى ذات النفوذ الواسع، لذا لم تعد الدول الصليبية الاستعمارية لتقبل مُساندة حاكمٍ له مكانته وموقعه تُساعده من باب النّد للنّد، وإنما ترغب في دعم من يُسير في فلكها من غير مُناقشةٍ، ويتلقّى أوامرها من غير تردّدٍ، وفي الحالة التي لا يقبل فيها حاكم هذا التصرّف يُزاح من مكانه، ويُؤتى بآخر تتوفّر فيه هذه المواصفات، وطيّعاً ومُروّضاً مُعدّاً للركوب، سهل الانقياد.

كما أن بعض الدول الكبرى وخاصةً إنكلترا لم تعد ترى من الجدوى حكم مستعمراتها أو مناطق نفوذها بجنودٍ إنكليزٍ، فهذا إضافةً إلى التكاليف الباهظة، وإن كانت غالباً ما تُؤخذ هذه المصروفات من المستعمرات إلا أنها تدفع الكثير، وإن أولياء أمور الجنود وذويهم كثيراً ما يضجوّن لبعد أبنائهم عنهم حيث أنهم لا يعرفون عنهم شيئاً، ولم تكن المواصلات والاتصالات بالصورة التي نراها اليوم رغم تقدّمها وتطوّرها النسبي في تلك

الأيّـام . ومن ناحيـةٍ ثانيـةٍ فإن وجـود قواتٍ أجنبيـةٍ على أرض بلدٍ ما يجعـل أهلها يلتفّون حول هـدفٍ واحدٍ هـو إخراج هـذه القوات، ويلتقي بعضهم مـع بعضٍ، وينسون ما بينهم من خلافاتٍ، لذا رأت الدول الصليبية المستعمرة أنه من الأفضل إليهم الخروج من مستعمراتهم عسكرياً بعد تهيئة من يقوم مقامهم من أبناء البلاد، وتوجيههم التوجيه الخاص، وتكليفهم بما يريدون فعله هم، ويُمنّونهم ويعدونهم، ويعتمدون أكثر من جهةٍ ويجعلون المنافسة بينهم، فمن كان أكثر طواعيةً لهم، وأقدر على تسيير الأمور أُخذ، وإذا ما تعثّر واحد استُبدل بمنافسه، وإذا ما ذلّ تبـدّلت الوجـوه، ويدعمـون من يعتمدون، ثم يثيرون الأضغان والأحقاد بين الفئات، وبين الطوائف، وبين الطبقات، وبين. . . ورأوا أنه من المصلحة أن يكون الحاكم مُستبدّاً طاغيةً لا يستطيع أحد أن ينتقد، أو يرفع رأسه، فإذا ما رفعه أُطيح فليس هناك من يُنبّه الشعب إلى الطريق التي يجب أن يسلكوها، ولا يُبيّن لهم الدرب التي يأخذهم بهـا المسؤول، وإنما يوجـد من يُضلّهم، ويُـوجّههم إلى أهداف المستعمر من حيث لا يدرون، يُزيّن لهم النظرة المادية، والتحلّل من قيود الشريعة، والانفتاح نحو الحياة البهيمية وإيجـابيات ذلـك، ويُزخـرف لهم الانطلاق نحو المتعة، وفي حالة الابتعاد عن ذلك تكون الحياة الرجعية وما فيها من كبتٍ، وعقدٍ تلازم الإنسانية. وعندما لا يتوفّـر المستبدّ صـاحب الإمكانات لا يوجد أفضل من الحكم العسكري، الذي امتازت به الدول المتخلّفة أو التي أُطلق عليها اسم النامية تقديراً لمشـاعر أهلهـا ـ حسب زعمهم ـ.

لم تكن الأمصار الإسلامية بحدودها اليوم قائمةً كما هي، وإنما كانت هناك أقاليم معروفةً، وعلى كل إقليمٍ أمير يتبع مركز الخلافة ويرتبط به، يتلقّى منه التوجيهات، ويُنفّذ الأوامر. وعندما ضعفت الخلافـة، ونشـأت الولايات والإمارات المنفصلة أصبح الحاكم يُسيـطر على ما يسـتطيع من أرضٍ، ويعدّها ضمن ولايته، وغالباً ما تُعرف تلك الدويلات باسم مُؤسّسها الأول أو أسرته، فيقال: الدولة الطاهرية، والصفّارية، والسامانية، والغزنوية

و. . . . ربما في أحيانٍ قليلةٍ كانت تأخذ اسم المنطقة فيقال: دولة خُوارزم، وخيوة، وغزنة و. . . .

وجاءت مرحلة الصراع بين المتنفّذين، إذ يضمّ كل مُتنفّذٍ ما يستطيع أن يضمّه إليه، فتجد هذا الإقليم تارةً بيد الأفغان، وأخرى بيد الأوزبك، وثالثة بيد الفرس، وهكذا حتى ظهرت الدول الحديثة في المرحلة الأخيرة، وثبتت حدودها حسب الأقاليم التي كانت تُسيطر عليها. فشملت إيران الأقاليم المعروفة بأسماء: فارس، والأهواز، وهمدان، وجزءاً من كردستان، وأذربيجان، وجزءاً من موقان، وجيلان، وبلاد الجبل، وطبرستان، وقومس، وجزءاً من جرجان، وجزءاً من خراسان، وقوهستان، والمفازة الكبرى، وكرمان، وجزءاً من مكران، وليس سكان هذه الأقاليم كلهم من الفرس بل هناك العرب، والكرد، والترك، والبالوخ، وكذلك فهي لا تشمل الفرس جميعاً إذ أن هناك أعداداً منهم في بلاد الأفغان، وبلاد الطاجيك، وأقليات صغيرة متناثرة في البلدان المجاورة، ومع ذلك فقد كانت هذه الأقاليم تنضوي تحت فارس حتى سيطر رضا خان وأعطاها اسم (إيران).

كان أحمد شاه من الأسرة القاجارية ملك البلاد عندما أُلغيت الخلافة، وكان منصرفاً إلى اللهو، أما المتصرّف بشؤون البلاد فهو رئيس الوزراء رضا بهلوي، ويتلاعب بالكتل النيابية كما سنرى في فصل الصراع الحزبي، ويبقى هو المهيمن على الوضع، واستمرّ ذلك حتى شهر ربيع الأول من عام ١٣٤٤ هـ (تشرين الأول ١٩٢٥ م)، حيث اختارته الجمعية التأسيسية ملكاً على البلاد، وأزاحت أحمد شاه، وتمّ تتويج رضا بهلوي ملكاً على البلاد في ١٣ شوال ١٣٤٤ هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٦ م)، وبذا زال القاجاريون، ودالت دولتهم، وجاءت الأسرة البهلوية.

حكومة رضا خان:

سبق أن ذكرنا أن الشاه لم يجد بدّاً من أن يعهد برئاسة الحكومة إلى

رضا خان فشكّل وزارته في ١٩ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣ م)، وأخذ يبسِط نفوذه على البلاد تدريجياً، ويستبدّ بشؤونها، فلا يترك صوتاً يُسمع سوى صوته.

أصدر بياناً في ٣ ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ م) حذّر فيه من الاتصال بالأجانب. ثم أجبر الشاه على السفر إلى أوربا، وأخذ من ولي العهد تعهداً بعدم التدخّل بشؤون الدولة فخلا له الجو، وأخذ بتنفيذ كل ما يُخطّط ويحلو له.

في ٢٧ شعبان ١٣٤٢ هـ (٢ نيسان ١٩٢٤ م) بدأت الانتخابات للمجلس النيابي الخامس، وباشرت الحكومة الضغط والتزوير حتى فاز أعوان رضا خان، وبدأ الإنفاق بسخاءٍ على الصحافة في طهران لترفع من شأن المستبدّ الجديد، وتجعل مكانه فوق مكان أي مخلوقٍ، فهو القائد الملهم، والرجل الوحيد في البلاد.

انشقت الكتلة الوطنية إلى قسمين فكان جناح اليمين بزعامة محمد تدين، وقد عُرف بحزب التجديد. وكان جناح اليسار برئاسة سليمان مرزا، وعُرف بحزب الاشتراكيين، ويمثّل المدرس جناحاً خاصاً. أما حزب التجديد فقد أصبح حزب رضا خان، وفاز بثلاثة وأربعين مقعداً في الانتخابات، على حين فاز الاشتراكيون بأربعة عشر مقعداً، وحصلت جماعة المدرس على عشرين مقعداً.

أخذت الصحافة تُهاجم الشاه ونظامه، وتفضح استهتاره، ولهوه، وخلاعته، ومجونه، وتقليده للأوربيين، وتُوجّه الأنظار نحو النظام الجمهوري وإيجابياته، ونظام الشاه وسلبياته.

بدأ الصراع الحزبي داخل المجلس النيابي حسب المخطط الذي رسمه رئيس الحكومة رضا خان، فكان حزب التجديد يُعدّ حزب الحكومة على حين يقف في صف المعارضة الاشتراكيون وجماعة المدرس.

وقف علماء الشيعة ضد النظام الجمهوري، وسيّروا مظاهراتٍ أبدت سخطها على النظام الجمهوري، وهتفت ضدّ رضا خان. وأحسّ رئيس الحكومة بضعف حزبه (التجديد) أمام قوة علماء الشيعة لذا رأى أنه لا بدّ من مسايرتهم ومساومتهم، وإظهار عطفه عليهم، وتوجّهه نحو الدين، فأنزل عقوبةً بإحدى الصحف التي تعرّضت لأحد العلماء، وأعلن أن العقوبة ليست سوى جزاءٍ أوليٍ، وتنبيه للآخرين ممن يُفكّرون بالتعرض لرجال الأمة الذين هم علماؤها فقط. كما فرض عقوبةً أخرى على صحيفةٍ دعت المرأة إلى السفور، والتحرّر من تلك العادات الرجعية والتي يُسمّيها بعضهم قيماً. وانتقل هو إلى مدينة (قم)، والتقى بالعلماء هناك، وأبدى احترامه لهم، وصار بعدها يتحدّث بالإسلام، وراحت الصحف حسب توجيهاته تهاجم النظام الجمهوري إرضاءً للعلماء.

أبدى رئيس الحكومة عزوفه عن الحكم، وأنه يرغب في تركه، والحياة بقية عمره في (النجف) أو (كربلاء)، ولكن أعوانه أقنعوه بالعدول عن هذه الفكرة، وعدم الخروج من البلاد فإنّها بأشدّ الحاجة إليه، ومن واجبه خدمتها بعد أن قدّم الكثير من أجلها، وضحّى بالكثير في سبيلها، وأن عمله هذا لا يقلّ عن الجهاد.

أظهر رئيس الحكومة أنه امتثل لرأي المخلصين، وأنه لن يغادر إيران لحاجتها لخدماته، ولكنه سيستقر في قريةٍ على مقربةٍ من طهران.

عقد المجلس النيابي اجتماعاً فوصلت إليه برقية من الشاه أحمد يعلمه أنه قد سحب ثقته من رئيس الحكومة رضا خان، فردّ المجلس عليه ببرقيةٍ تشعره أن ثقة المجلس التامة يمنحها لرئيس الحكومة وبصورة مطلقةٍ، وهذا ما جعل الشقاق يتسع بين الطرفين فالشاه يريد أن يتخلّص من رضا خان بأية وسيلةٍ، ورضا خان يعمل بخُطاً سريعةٍ لإنهاء الحكم القاجاري.

تشكّل وفد من المجلس النيابي لمقابلة رئيس الحكومة وإقناعه

بضرورة العودة إلى مقر عمله، فأعلم رضا خان الوفد أنه يعلم ضرورة وجوده للبلاد، وأنها بأمسّ الحاجة إلى خدماته وخاصةً في هذه المرحلة التي تمرّ بها، وفي النهاية رجع إلى مقر رئاسة الحكومة، وأعاد تشكيل الوزارة من جديدٍ.

حكومة رضا خان الثانية:

أدخل في هذه الوزارة عناصر جديدة مثل: مشاور الدولة، ومستشار الدولة، ومحمد علي فروغي، ومعتضد السلطنة، وأبعد عنها محمد مصدق، وسليمان مرزا.

أبعد رضا خان عن الشرطة والقضاء العناصر غير الموالية له.

كان قد عقد اتفاقيةً مع شركة (سنكلر) الأمريكية، ومنح هذه الشركة بموجب هذه الاتفاقية حقّ استغلال نفط الشمال، وأبدى رغبته بالتخلص من السيطرة الاقتصادية الروسية والبريطانية وذلك عن طريق التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية. ومنح عدة شركاتٍ أمريكيةٍ عدداً من الامتيازات مثل مدّ السكك الحديدية، وطرق السيارات.

وقفت شركة الإنكلو- إيرانية وستاندرد أويل الأمريكية في وجه هذه الاتفاقية، وعدتها غير قانونية لأنهما كانتا قد أخذتا حق استغلال نفط الشمال.

ثارت قبائل الغرب والجنوب ضدّ الحكومة.

قُتل وكيل السفير الأمريكي في ١٦ ذي القعدة ١٣٤٢ هـ (١٨ حزيران ١٩٢٤ م)، فاتهم رئيس الوزارة القاجاريين بأنهم وراء هذه الجريمة، كما اتهم البريطانيين.

وفتح الباب أمام المصالح الألمانية، فاستطاعت ألمانيا بسرعة أن تحتل مواقعها التي كانت تحتلّها قبل الحرب العالمية الأولى.

وزارة رضا خان الثالثة:

عاد رئيس الحكومة ليرتمي مرةً ثانيةً في أحضان بريطانيا فأجرى تعديلاً وزارياً على حكومته، حيث أدخل في الوزارة نصرت الدولة أحد رجال المعارضة والذي سبق له أن تسلّم وزارة الخارجية في عهد وزارة وثوق الدولة عام ١٣٣٧ هـ. وأسند حقيبة وزارة الداخلية إلى أحمد قوام الدولة وكلا الرجلين من مُؤيّدي السياسة البريطانية، وكان هذا التعديل في مطلع عام ١٣٤٤ هـ (آب ١٩٢٥ م).

وسّع رئيس الحكومة أعمال الشركة الأنكلو- إيرانية في الجنوب. ومنح شركة طيران الإمبراطورية البريطانية حق استخدام الأجواء الإيرانية فكانت الرحلات تتخذ طريق لندن - القاهرة - طهران - كراتشي. وأخذت العلاقة تفتر مع روسيا التي أعلنت أنها لا ترغب التدخّل في الشؤون الإيرانية. أما بريطانيا فإنها تخلّت مقابل ذلك عن حليفها الشيخ خزعل المستقل في منطقة عربستان (الأهواز) وهذا ما جعل رضا خان يتمكن من الانتصار على الشيخ خزعل ويدخل منطقته، كما انتصر على الحركة في كردستان التي يتزعمها (سمكو).

قام رئيس الوزارة بزيارة للنجف وكربلاء وعندما عاد أعلن أمام المجلس النيابي بتاريخ ١٥ رجب ١٣٤٣ هـ (٨ شباط ١٩٢٥ م) عن عدم إمكانية استمراره في العمل مع القاجاريين، وأعطى المجلس النيابي مهلة أربعة أيام للنظر في الموضوع، وربما اضطر بعدها إلى ترك الأمر للشعب ليحكم، وليُعطي رأيه في هذا الموضوع. وقبيل انتهاء المدة أي في ١٩ رجب أصدر المجلس النيابي قراراً يتألف من مادةٍ واحدةٍ، وهي: حصر القيادة العليا لجميع قوى الدفاع بيد رضا خان ومنحه الصلاحيات الكاملة لإنجاز واجباته في حدود الدستور وقوانين الدولة المرعية، ولا يجوز سحب هذه الصلاحيات منه دون موافقة المجلس. وذلك لأن رضا خان كان قد قرّر

في نفسه إنهاء الحكم القاجاري، وأخذ يُذلّل الصعاب أمامه للسير في هذا الدرب.

وفي ٢٤ رجب أمر بتأليف لجنةٍ من المجلس النيابي تضمّ اثني عشر عضواً لمساعدته في شؤون الحكم.

وفي ١٠ شوال ١٣٤٣ هـ (٣ أيار ١٩٢٥ م) أمر جميع مؤسسات الدولة بمخاطبته في المراسلات الرسمية باللقب الجديد الذي اختاره لنفسه وهو «بهلوي» أي صاحب الجلالة.

وقام في ١٧ ذي القعدة ١٣٤٣ م (٨ حزيران ١٩٢٥ م) بزيارة أذربيجان لضمان تأييده ومعرفة وضع السكان عن قرب.

ولما رأى الوضع لصالحه أخذ يُهاجم الأسرة القاجارية وخاصةً الشاه، وولي عهده، ولكن لم يلبث أن تلقّى في ٢٨ صفر ١٣٤٤ هـ (١٦ أيلول ١٩٢٥ م) برقيةً من الشاه تفيد بقرب عودته إلى بلده العزيز. فأجابه بشيءٍ فيه الترحيب ويتضمن الكثير من السخرية، وأنه بانتظاره في الميناء الحدودي الذي يُحدّده ليُرحّب به.

وجاءت سنة عجفاء فكان الموسم رديئاً فنقص إنتاج القمح، ولم يتوفّر الخبز في الأسواق، وأخذ الناس يموتون جوعاً، فاستغلّ خصومه من القاجاريين ومؤيديهم هذا الوضع، وسيّروا المظاهرات التي كانت تهتف الشاه والخبز. ووجدها رضا بهلوي فرصةً سانحةً له للتخلص من مُعارضيه، فأمر باعتقال كبار قادة المظاهرات فتمّ اعتقال ثمانمائة شخصٍ، وأعاد منصب الحاكم العسكري وكان قد ألغاه منذ مدةٍ وجيزةٍ. وأوعز لأعوانه بالمناداة به قائداً للبلاد، وخلع الشاه، واستلامه مكانه، وانضمّ إلى هؤلاء المؤيدين الزرداشت، والأرمن، واليهود.

خشي رضا بهلوي أن تكون بريطانيا وراء الشاه، وهي التي تُحرّضه للعودة إلى البلاد، وأن تدعمه ليتخلص من خصمه رضا بهلوي، وفي

الـوقت تتخلّص هي من تلك الألاعيب التي يمارسهـا رئيس الـوزارة، فاستدعى وزير الخارجية الإيراني مرزا حسن مشاور السفير البريطاني وفاتحه بـالموضـوع، وطلب منه الاستفسـار من حكومتـه، وأن يعلمهـا أن رئيس الحكومة المتسلّم للسلطة في إيران لا يمكنه أن يخرج عن رأي حكومـة صاحبة الجلالة فإن رأت تركه للحكومة، تركها فوراً سعيداً، وأقـام حيث تريد. وجاء الجواب بأن بريطانيا لا ترغب بالتدخـل في شـؤون الـدول الصديقة، فاطمأن رضا بهلوي على نفسه، وتابع سيره في دربه.

وفي ١٢ ربيع الثاني ١٣٤٤ م (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥ م) قدّم نائب رئيس المجلس النيابي محمد تدين زعيم حزب التجديد نداءً مُوقّعاً من ستةٍ وسبعين نائباً جاء فيه: نظراً لاستياء الشعب من الأسرة القاجارية فإنه يعلن باسم الشعب خلع تلك الأسرة، ويعهد بإدارة البلاد إلى رضا خان بهلوي في إطار الدستور والقوانين المرعية.

وفي ١٤ ربيـع الثاني ١٣٤٤ م (٣١ تشرين الأول ١٩٢٥ م) جـرى التصويت على هذا الاقتراح فحصل على ٨٠ صوتاً مقابل خمسة أصوات، وقد ترك المدرس القاعة، وطالب تقي الـدين زادة بتأليف لجنـةٍ لدراسـة الاقتراح، أما محمد مصدق فقد عارض الاقتراح بجرأةٍ.

وقرر المجلس إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ كردٍّ على الاقتراح، واستفتاء لرأي الشعب، وفي الوقت نفسه أُلزم ولي العهد مع عددٍ من أفراد الأسرة القاجارية على السفر، ونُقلوا إلى الحدود العراقية، وأعلن رئيس الحكومة عن عطلة الدولة لمدة ثلاثة أيامٍ، وأمر بتخفيض سعر الخبـز، ومنع بيـع المسكرات لإرضاء أهل العلم، وجعلهم يقفون بجانبه ضدّ الشاه.

حكومة محمد علي فروغي الأولى:

كلّف رضا خان بهلوي وزير ماليته محمد علي فروغي في ١٧ ربيع الثاني ١٣٤٤ م (٣ تشرين الثاني ١٩٢٥ م) بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ للإشراف

على الانتخابات، وأصبح هو فوق رئاسة الوزارة أو في طريقه لاستلام الدولة رسمياً.

وفي ٢١ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ افتتح رضا خان بهلوي المجلس النيابي الجديد.

وفي ٢٧ جمادى الأولى قرّر المجلس إنهاء حكم الأسرة القاجارية، وانتخاب رضا خان بهلوي شاهاً جديداً، وجرت عملية التصويت ففاز القرار بمائتين وسبعةٍ وخمسين صوتاً مقابل ثلاثة أصوات من الاشتراكيين.

وفي ٣٠ جمادى الأولى أقسم رضا خان بهلوي اليمين الدستورية كشاهٍ للبلاد، وفي اليوم التالي دخل قصر «كلستان» كملك.

ودالت دولة القاجاريين بعد حكمٍ دام مائةً وأربعةً وثلاثين عاماً، وأربعة أشهرٍ وعدةَ أيامٍ.

الفصل الثاني

الأسـرة البَهْـلويّة

١ ـ رضا بهلوي

(١٣٤٤ ـ ١٣٦٠ هـ) (١٩٢٥ ـ ١٩٤١ م)

لم يحكم من الأسرة البهلوية سوى اثنين: رضا بهلوي وابنه محمد رضا، ودام عهدهما ما يقرب من ستةٍ وخمسين عاماً ١٣٤٤ ـ ١٣٩٩ هـ.

انتخب رضا بهلوي شاهاً من قبل مجلسه النيابي في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ، وبعد ثلاثة أيامٍ أقسم اليمين الدستورية، ودخل قصر «كلستان» في اليوم التالي. ولبس التاج في ١٣ شوال ١٣٤٤ هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٦ م).

اعترفت بريطانيا مباشرةً بالعهد الجديد، وفي اليوم الثاني اعترفت روسيا، ورفعت التمثيل بينهما إلى درجة سفارة، وكانت إيران قد اشترت كمياتٍ من القمح الروسي في الموسم المنصرف نتيجة الموسم السيىء الذي تعرّضت له إيران، وبعد يومٍ واحدٍ من اعتراف روسيا بنظام رضا بهلوي اعترفت به كل من: الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، والدولة الوحيدة التي تأخّر اعترافها نسبياً هي فرنسا.

لم يجر رضا بهلوي تغييراتٍ واسعةً في نظام حكمه، فمعظم القاجاريين بقوا في الداخل، واستمروا في خدمة البلاد في ظلّ العهد الجديد، وربما ارتفعت مكانة بعضهم، وإن بقيت مكانة الكثيرين منهم كما هي.

كانت الأضواء تُسلّط على رضا بهلوي أنه مُحرّر من كل القيم، فلا تُقيّده رواسب وخلفيات من الماضي كتلك التي يعتقد بها الرجعيون، وأنه علماني، مرتبط بسلك مع الحضارة العالمية الغربية، ولم يقتصر هذا على الصحافة الإيرانية المضطرة أحياناً إلى ذلك بل تعدّى هـذا إلى الصحافة الأجنبية صاحبة العلاقة وإلى الصحافة العربية والإسلامية حيث كان سادة كثيرٍ من تلك البلدان يسير في الفلك نفسه، وعلى المنهج ذاته.

حكومة محمد علي فروغي:

كلّف الشاه الجديـد وزيره محمـد فروغي في ١٤ جمـادى الآخرة ١٣٤٤ م (١٩ كانون الأول ١٩٢٥ م) بتشكيل أول حكومةٍ في عهد الأسرة البهلوية.

ولكن بقي رضا خان هو المسيطر على الـوضع، المستبـد بالبـلاد، ويربط جميع الأمور بيده مباشرةً، وليس هناك من يسأله، ولا يمكن لأي فرد في المجلس أن يُعارض الأمور التي يبدي رضا خان رأيه فيها، أو القضايا الجوهرية، وإنما يمكنه مناقشة الأمور الثانوية التي ليست بذات أهمية وهذه هي الحدود المرسومة عُرفاً للمجلس النيابي.

كان طاغيةً لا يبالي بأحدٍ، يذهب إلى الوزارة فيرتعد الوزير أمامه، ويأمر فتُنفّذ أوامره مباشرةً، وينهي فلا يخالف، وغالباً ما يستعمل يده بالضرب فيما إذا شعر بتوانٍ في تنفيذ طلباته أو أي تلكؤٍ.

أمر الشاه رضا بهلوي بالتخلّي عن اللباس الإيراني التقليدي وارتداء الزي الإفرنجي، وأبدى التحلّل من الدين، وظهرت نساؤه الثلاث سافراتٍ عام ١٣٤٦ هـ، بل أمر الشرطة بنزع الحجاب عن وجوه النساء، كإظهارٍ لفكره ومنهجه إرضاءً للدول الأجنبية صاحبة السيادة، وتحقيقاً لما تصبو إليه نفسه أيضاً. واضطر علماء الشيعة الإذعان إلا والد الخميني الذي كان يُقيم في مدينة (قم) فذهب إليه الشاه الجديد بنفسه، وضربه حتى أسكته.

تنازل سرّاً كل من رئيس الوزراء (موزوجي) ورئيس مجلس النواب (اصفندياري) عن منصبيهما، كما أعلن الشاه التنازل عن ملكه، وكانوا حتى هذا اليوم يصرّون على مناصبهم، ويعدّون رضا خان معتدياً لا بدّ من ردعه عن غيّه، وإعادته إلى رشده، ورجوع كل صاحب منصبٍ إلى منصبه.

أعمال رضا خان:

اعتمد رضا خان على الجيش لذلك أولاه اهتمامه الخاص، وقام بـ:

١" ـ طبق التجنيد الإلزامي.

٢" ـ أسّس كلية الأركان.

٣" ـ أرسل الضباط إلى فرنسا للتخصص.

٤" ـ خصّص الأموال الكثيرة لشراء الأسلحة والعتاد.

واتبع سياسة الإرهاب فاستطاع أن يقضي على المعارضة كلها.

مهّد الطرق، وفتح الشوارع، ومدّ الخط الحديدي من (بندر شاه) على بحر قزوين إلى (بندر شابور) على الخليج العربي بطول ١٤٠٠ كيلومتر.

افتتح جامعة طهران عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م).

دعا إلى إلغاء الحجاب.

اعتمد على القانون الفرنسي.

عمل على الحدّ من نفوذ رجال العلم.

اهتم بالجانب الاقتصادي، فزاد عدد الشركات الصناعية فغدا في عام ١٣٥١ هـ عدد الشركات تسعمائة وثلاثين شركةً، ووصل عام ١٣٦١ هـ إلى ألف وتسعمائة واثنتين شركة، وفي الوقت نفسه زاد رأسمال الشركات العاملة في القطاع الاقتصادي.

وأسّس المصرف الوطني عام ١٣٤٧ هـ، وجعل له فرعاً زراعياً عام ١٣٤٩ هـ، ثم أنشأ المصرف الزراعي الحكومي عام ١٣٥٠ هـ.

وبدأ إنتاج النسيج يتزايد وخاصةً في أصفهان، وشيـراز، والأهواز، ومشهد، وكاشان، ويزد، وطهران.

وأسّس ثمانية معامل للسكر.

واهتمّ بالتعليم، ولكن لم يكن ذلك الاهتمام بالمستوى المطلوب. كما بذل جهداً على تحضير البـدو. وأعطى البـريطانيين امتيـازاتٍ واسعةً للتنقيب عن النفط في البلاد.

ومع كل هذا بقي الفقر، والجهل، والاضطهاد سمة عهد رضا خان.

السياسة الخارجية:

وقعت أحداث دولية مهمـة أثرت على سيـاسة إيران الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى ومنها:

١" ـ سقوط نظام الحكم الروسي القيصري إبان الحرب العالمية الأولى، وقد كانت لذاك النظام امتيازات واسعة في إيران، وقام مكانه نظام يُخالف نظام الحكم في إيران اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، كما زاد الخلاف العقيدي القائم من قبل، وقد زاد توتراً بدخـول عنصر الإلحاد الذي يفوق العنصر الصليبي إن لم يكن حاقداً.

٢" ـ اختفاء الدولة العثمانية فزالت الأطماع بالامتداد والتوسّع نحو الشرق وخاصةً في منطقة عربستان في الجنوب، وفي منطقة أذربيجان في الشمال.

٣" ـ هزيمة الألمان الذين أخذ نفوذهم يـدخل إلى إيـران قبل الحـرب العالمية الأولى.

٤" ـ ظهور الولايات المتحدة كدولةٍ قويةٍ، يمكنها دخول الساحة السياسية والاقتصـادية ومنـافسة الـدولة الأوربيـة ذات النفوذ في إيـران وهي بريطانيا.

كان رضا خان ينظر إلى السياسة الدولية ويحاول السير في ظلال الدولة الصاعدة من غير أن يترك الدولة التي كان على وئامٍ معها أو ذات النفوذ السابق.

أولاً: مع بريطانيا:

عقدت إيران معاهدةً مع بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى وذلك في ١٣ ذي القعدة ١٣٣٧ هـ (٩ آب ١٩١٩ م)، وقد حققت هذه المعاهدة لبريطانيا حق الهيمنة الفعلية على أهم مرافق الحياة في إيران، ومن أهمها المؤسسات المالية والعسكرية. وقد نقم السكان على الشاه من أجل هذه المعاهدة، وكانت انتقادات واسعة لها، وحركات وطنية كان لها دور في دخول رضا خان دائرة الساحة السياسية. كما اعترضت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا على هذه المعاهدة.

فلما جاء رضا خان إلى السلطة كان متأثراً بـ:

١" ـ أثر بريطانيا في وصوله إلى السلطة.
٢" ـ نفوذ بريطانيا في البلدان المجاورة.
٣" ـ صلة بريطانيا برجال القبائل الإيرانية.

ولذا كان يعمل دائماً على إرضائها، مع العلم أنه كان هناك تيار معادٍ للبريطانيين، لذا كان على رضا خان أن يخفي قدر إمكاناته توجهه السياسي الصحيح إضافةً إلى الضغوط التي يُمارسها ضدّ المعارضين للنفوذ البريطاني.

اتخذ رضا خان قراراً عام ١٣٤٧ هـ يقضي بإلغاء الامتيازات الأجنبية، ولكن بقيت مصالح بريطانيا النفطية في مأمنٍ. وعاد فعقد في العام التالي اتفاقيةً جديدةً مع بريطانيا سوّت الخلافات القائمة بين الدولتين، ومنحت البريطانيين ضماناتٍ لحقوقهم وتعويضاً عن امتيازاتهم السابقة.

وأعقب ذلك أيضاً اتفاق جديد منح طائرات الخطوط البريطانية حق

الهبوط على الشواطىء الشرقية للخليج العربي، ومع هذه التنازلات الإيرانية إلا أنه بقيت نقطتا خلافٍ بين الطرفين وهما:

١" ـ البحرين التي كانت إيران تُطالب بها بريطانيا، وتـدّعي أنها جزء منها، وتريد أن تسلخها من أصلها العربي، وتزعم أنها الإقليم الإيراني الرابع عشر. وقد رفضت بريطانيا مسايرتها حرصاً على مصالحها مع البلدان العربية.

٢" ـ امتيازات النفط: أخذت انكلترا تناور لتقليص عائدات إيران من النفط حتى بقيت عـام ١٣٥٠ هـ (٣٠٧,٠٠٠ جنيـه فقط) على حين كانت عام ١٣٤٩ هـ أي قبل عام واحد فقط (١,٢٢٠,٠٠٠ جنيه) لذا فقد أعلن رضا خان في شهر رجب ١٣٥١ هـ (تشرين الثـاني ١٩٣٢ م) فسخ امتياز شركة النفط الإنكلو- إيرانية فاضطرت الشركة إلى التراجع، والدخول في مفاوضاتٍ مباشرةٍ مع الحكومة الإيرانية، ولكن تعثّرت هذه المفاوضات، فعرض رضا خان الموضوع على عصبة الأمم، ثم توصّل الطرفان إلى اتفاقٍ جديدٍ بتاريخ الخامس من محرم ١٣٥٢ هـ (٢٩ نيسان ١٩٣٣ م)، ورغم الضجة التي أثارها الحكم الإيراني على الشركة فإن الاتفاق الجديد قد جاء لمصلحة شركة النفط، إذ كان امتيازها قديماً ينتهي (عام ١٩٦١ م) فأصبح انتهـاؤه عام ١٩٩٣ م) حسب الاتفـاق الجديـد، كما كـان للشركـة الحق بالإشراف على إذاعةٍ خاصةٍ، وتأسيس المدارس الخاصة بموظفيهـا، وفي إنشاء جهاز شرطةٍ خاص بها، وهذه حقوق احتفظت بها من السابق، ولكن استفادت بهذا الاتفاق إعفاءها من ضريبة الدخل الحكومية. وحصلت إيران مقابل ذلك على زيادةٍ جزئيةٍ من دخل مواردها النفطية.

جـرى بعض النقد لهـذا الاتفاق الجـديد، وتم تـوضيـح المستفيـد الحقيقي منه فكانت النتيجة أن أُلقي القبض على (تيمور تاش) وزير البلاط السابق، وعلى (أسد البختياري) وزير الحربية الأسبق، ولقيا حتفهما في السجن، ولم يجرؤ أحد غيرهما على النقد.

وأعلن رضا خان في المجلس النيابي أن العلاقات مع بريطانيا في تحسّنٍ دائمٍ.

وفي ٢٥ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ (٤ تموز ١٩٣٧ م) جرى اتفاق مع العراق تنازل فيه العراق عن جزءٍ من شط العرب قرب عبادان، وتقدر هذه المسافة بـ ٧٧٥٠ متراً.

وفي ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ (٨ تموز ١٩٣٧ م) وقع اتفاق (سعد أباد) لمدة خمس سنوات بين كلٍ من: تركيا، والعراق، وإيران، وأفغانستان، وشمل هذا الاتفاق عشرة بنودٍ، تُؤكّد على المحافظة على الصداقة بين هذه الدول، وأهم بنود هذا الميثاق:

المادة الأولى: الامتناع المطلق عن أي تدخّلٍ في الشؤون الداخلية بين الفرقاء المتعاقدين.

المادة الثانية: مراعاة حرمة الحدود المشتركة.

المادة الثالثة: ضرورة التشاور فيما يخص كل الاختلافات التي لها صبغة دولية، ولها علاقة بمصالحهم المشتركة.

المادة الرابعة: عدم اللجوء إلى أي تعدٍّ موجّه إلى أحدٍ منهم.

المادة الخامسة: الاستعانة بمجلس عصبة الأمم لحلّ مشكلاتهم المستعصية.

المادة السابعة: التعاون لضرب الحركات المعادية في المناطق الحدودية.

ووقّعت الدول الأعضاء في الميثاق على اتفاقٍ ينصّ على تأليف مجلسٍ مشتركٍ يضمّ وزراء خارجية الدول المؤتلفة، على أن يجتمع مرةً واحدةً على الأقل في السنة. وقد اجتمع المجلس للمرة الأولى والأخيرة أيام عقد الميثاق.

ثانياً: مع روسيا:

بعد أن قامت الثورة الشيوعية في روسيا في الأول من المحرم عام ١٣٣٦ هـ (١٧ تشرين الأول عام ١٩١٧ م) تنازل العهد الجديد عن كل الامتيازات التي كانت لروسيا خلال العهد القيصري الذي زال، وكان هذا التنازل كي لا تقف إيران إلى جانب الحركات المضادة التي قامت ضدّ الشيوعية والتي سيطرت على مناطق واسعةٍ من روسيا والمناطق الخاضعة لها، والتي كان منها ما يجاور الحدود الإيرانية.

عادت العلاقات إلى التوتر بين إيران وروسيا بعد توقيع المعاهدة بين إيران وبريطانيا في ١٣ ذي القعدة ١٣٣٧ هـ (٩ آب ١٩١٩ م)، وذلك أن روسيا قد شعرت أن إيران تنازلت كثيراً لبريطانيا، وأن روسيا قد غدت بعيدةً عن كل أثرٍ في الدولة المجاورة للمناطق التابعة لها من جهة الجنوب، على حين تقدّم النفوذ البريطاني نحو الشمال باتجاه روسيا.

ثم وقّعت معاهدة صداقةٍ بين الطرفين في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (٢٦ شباط ١٩٢١ م) تنازلت فيها روسيا لإيران عن جميع امتيازاتها بما في ذلك القروض، والمواصلات، كما تعهدت بعدم التدخل في شؤون إيران الداخلية، والتزمت كذلك بسحب القوات الروسية المتبقية كلها في إيران، وأنها ستعود إلى مواقعها فيما إذا تعرّضت إيران لغزوٍ خارجي ولم تستطع صدّه.

ولكن لم تلبث أن عادت العلاقات للتوتر مرةً ثانيةً، وذلك لأن إيران منحت شركة (ستاندرد أويل) الأمريكية حق استغلال النفط في المناطق الشمالية، وهي (أذربيجان ـ مازندران ـ جيلان ـ استراباد ـ خراسان) احتجّت روسيا على هذا الامتياز، وقالت إن البند الثالث عشر من معاهدة الصداقة الإيرانية ـ الروسية يحول دون هذا المنح، واضطرت إيران إلى سحب ذلك الامتياز الذي منحته لشركة النفط المذكورة.

وفشلت الجهود من أجل عقد اتفاقيةٍ تجاريةٍ عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) بين إيران وروسيا. ولكن عُقدت معاهدة جديدة عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) تشبه إلى حدٍ كبيرٍ معاهدة الصداقة التي عقدت بين الجانبين في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (٢٦ شباط ١٩٢١ م)، وأخذت التجارة تنمو بين الدولتين. غير أن مدّ الخط الحديدي بين (بندر شاه) على بحر قزوين وبين (بندر شابور) على الخليج العربي قد جعل روسيا تسيء الظنّ بالسياسة الإيرانية إذ عدّت أن مهمة هذا الخط تسهيل صادرات الشمال عن طريق الخليج العربي بدلاً من تصديرها إلى روسيا والمناطق الخاضعة لها، وفي الوقت نفسه يُسهّل نقل الإمدادات العسكرية الغربية إلى حدودها.

وفي ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ (٢٧ آب ١٩٣٥ م) وقعت إيران معاهدةً تجاريةً مع روسيا لمدة ثلاث سنواتٍ، وأصبحت العلاقات وديةً بين الجانبين في هذه المرحلة. ولما انتهت مدة المعاهدة رفض رضا خان تجديدها، فعُدّت مُلغاةً.

وفي نهاية عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) أغلقت روسيا قنصلياتها في إيران، ولم يبق لها سوى قنصليةٍ واحدةٍ في (بهلوي)، وفي الوقت نفسه طلبت من إيران إغلاق قنصلياتها في المدن الروسية.

وفي مطلع عام ١٣٥٨ هـ (شهر آذار ١٩٣٩ م) منحت إيران شركة (شل) الهولندية - البريطانية امتيازاً لاستغلال النفط في أقاليم الشمال، واندلعت نار الحرب العالمية الثانية والعلاقات غير طبيعةٍ بين إيران وروسيا.

ثالثا: مع ألمانيا:

تغلغل النفوذ الألماني في إيران بسرعةٍ قبل الحرب العالمية الأولى، وأصبح لشركة (ونكهاوس) الألمانية فروعاً في (بندر عباس) (وبوشهر). ولما وقّعت ألمانيا وروسيا بينهما معاهدة (بوتسدام) في (بطرسبرغ) في ٢٤ شعبان ١٣٢٩ هـ (١٩ آب ١٩١١ م) اعترفت ألمانيا فيها بمنطقة نفوذ روسيا

في إيران، واعترفت روسيا بحقوق مصرف (الرايخ) في امتياز مشروع سكة حديد بغداد.

وازداد النفوذ الألماني خلال الحرب العالمية الأولى، ولكن هزيمتها في تلك الحرب قد أوقف النشاط الاقتصادي الألماني في كل مكان، ومن بينها إيران.

وفي عام ١٣٣٨ هـ استأنفت شركة (ونكهاوس) الألمانية نشاطها في إيران. كما دخلت المسرح شركة (اندوتج) الألمانية أيضاً.

وفي عام ١٣٤٠ هـ أخذت الصلات الثقافية دورها، وفي العام التالي جاء الدور العسكري حيث استعانت إيران بعددٍ من الضباط الألمان للإشراف على محلات الإصلاح الآلي في كل من (طهران و(بوشهر).

وفي عام ١٣٤٢ هـ اشترت إيران من ألمانيا باخرةً حربيةً مع معداتها، وهي التي أُطلق عليها فيما بعد اسم (بهلوي). وتعهدت ألمانيا في العام التالي بتلبية تزويد إيران بكل ما تطلبه من خبراء واختصاصيين.

وانتهت عام ١٣٤٥ هـ مهمة الخبير المالي الأمريكي (أرثر مليسبو)، فسافر، وعُيّن مكانه خبير ألماني. ومُنحت في العام نفسه شركة الطيران الألمانية (يونكر) حق استخدام الأجواء والمطارات الإيرانية.

وفي عام ١٣٤٧ هـ عُقدت معاهدة تجارية بين إيران وألمانيا، فتحت إيران بموجبها أبوابها أمام البضائع الألمانية.

وفي ٣ شعبان ١٣٥٤ هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٣٥ م) تمّ التوقيع على اتفاقيةٍ تجاريةٍ بين طهران وبرلين، ونتيجة العلاقات التجارية المتزايدة بين البلدين أصبحت حصة ألمانيا من التجارة الخارجية الإيرانية تعادل ٢١٪ من مجموع التجارة الإيرانية على حين لم تزد نسبة بريطانيا على ٨٪ من مجموع التجارة.

وفي عام ١٣٥٦ هـ كان عـدد الشركـات الأجنبية في إيـران حسب الجنسيات كما يأتي:

٣٥١ شركة ألمانية.	١٧٧ شركة أمريكية.
٢٨٥ شركة بريطانية.	١٤٣ شركة روسية.
١١٨ شركة فرنسية.	

وفي ١٤ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ (٤ كانون الثاني ١٩٣٩ م) حصلت شركة الطيران الألمانية (لوفتهانزا) على فتح طـريق جوي بـرلين ـ بغداد ـ طهران ـ كابول. وحقّ استخدام الأجواء الإيرانية في رحلاتها إلى (بانكوك).

وفي الوقت نفسه أخذت الدولتان تتبادلان زيـارات الوفـود العلمية، والمالية، والسياسية.

وهكذا كان النفوذ الألماني يتزايد في إيران مع بروز قوة ألمانيا في أوربا خاصةً، وتلك هي السياسـة التي كان يسير عليها رضا خان.

الحرب العالمية الثانية:

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨ هـ (الأول من أيلول ١٩٣٩ م)، وقد أعلن الشاه رضا خان سياسة الحيـاد التام، ورفض تنسيق الجهود مع أعضاء ميثاق سعد أباد، بـل ورفـض اقتـراحـاً أفغانيـاً يقضي بدعوة الأعضاء للاجتماع للتباحث في إقرار سياسةٍ واحدةٍ فيما إذا داهمهم خطر.

وفي ١٤ رمضان ١٣٥٨ هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٣٩ م) جمع الشاه المجلس النيابي، وأعلن أمامه أن علاقة إيران عـلاقة مـودةٍ واحترامٍ مـع الدول كافةً وخاصةً الدول المجاورة. وقد احترمت الحكومات كلها هـذا الحياد، وكانت الصحـافة المحليـة تنشر البـلاغات الحـربية الصـادرة من

جبهات القتال عن كلا الجانبين دون إظهار أي ميلٍ لأحد الطرفين المتخاصمين.

ولكن الانتصارات الألمانية السريعة والخاطفة التي تمت في أوربا قد أطمعت الشاه فأخذت كفة التوجّه نحو ألمانيا ترجح، إذ اعتقد أن النصر سيكون لصالح ألمانيا لذا فقد انحاز إليها، وأراد الإفادة من الصراع الدولي لصالحه، بالضغط على النفوذ البريطاني في إيران، ومحاولة أخذ منطقة القفقاس من روسيا دون أن ينظر إلى معاهدة عدم الاعتداء القائمة بين إيران وروسيا.

كان الألمان يعدّون منطقة الشرق الأوسط مجالهم الحيوي، ومنها التوسّع في بلاد القفقاس وإيران لأنها ستكون بقعةً مهمةً في حالة نشوب حرب مع الروس. وقد زاد عدد العاملين الألمان في إيران، وخاصةً رجال المخابرات الذين زاد عددهم على ثلاثة آلاف رجلٍ، منهم ثلاثمائةٍ يعملون في دوائر الدولة المختلفة، وقد ركّزوا جهودهم في العاصمة طهران، وفي المناطق الشمالية على حدود المناطق الخاضعة للسيطرة الروسية، وفي المناطق القريبة من الخليج العربي.

وفي **٢٤** شعبان **١٣٥٨** هـ (٨ تشرين الأول **١٩٣٩** م) أي بعد اندلاع الحرب بأقل من أربعين يوماً جرى اتفاق سري بين إيران وألمانيا، تعهدت فيه إيران بتصدير اثنين وعشرين ألف طنٍ من القطن، وستة آلاف طنٍ من الصوف، وعشرين ألف طن من القمح، وعشرة آلاف طن من الشعير، وعشرين ألف طن من الرز إلى ألمانيا. وكانت إيران المصدر الوحيد للمواد الخام إلى ألمانيا. وكذلك فإن الألمان كان يحصلون على المطاط، والقصدير من منتجات جنوب شرقي آسيا عن طريق تجارٍ من إيران، وأصبحت نسبة ألمانيا من التجارة الخارجية الإيرانية تُشكّل **٤٢,٩**٪ على حين لم تكن عشية الحرب لتزيد على **٢٥** و **٢٠**٪. ولما كان الأسطول البريطاني يحاصر الشواطىء الألمانية لذا لم يكن هناك من طريقٍ للتجارة

بين ألمانيا وإيران سوى الأراضي الروسية والبلدان التي تخضع لسيطرة الروس. وقد استفاد الروس من هذه التجارة كثيراً، وخاصةً أن الحرب لم تكن قد اشتعلت بعد بين الألمان والروس، وقد ساعدهم على ذلك تلك المعاهدات التجارية التي وُقِّعت في تلك المرحلة، إذ وقّعت ألمانيا معاهدةً مع روسيا في ٣ محرم ١٣٥٩ هـ (١١ شباط ١٩٤٠ م)، ووقّعت روسيا معاهدةً مع إيران في ١٦ صفر ١٣٥٩ هـ (٢٥ آذار ١٩٤٠ م) وبذا ارتبطت وتكاملت العلاقات التجارية.

وإضافةً إلى الأمور التجارية كانت الصلات الثقافية بين إيران وألمانيا تتوسّع، حتى أن ألمانيا أصبحت تطبع الدعايات الألمانية باللغة الفارسية لتوزّعها في إيران. وكانت هناك أعداد من الألمان يعملون في التدريس، وفي الجامعات، وخاصةً في الزراعة، والطب البيطري. واتخذ الشاه رضا بهلوي قراراً في شهر جمادى الآخرة ١٣٥٨ هـ (آب ١٩٣٩ م) يقضي بإغلاق المدارس الأجنبية، وإبعاد المشرفين على شؤون التعليم والكليات الجامعية، ولكن لم يُطبّق على الألمان، ولم ينلهم.

وكان للخبراء العسكريين الألمان دور في إيران، والتي وصلت إليهم أسلحة ألمانية وعتاد، وعندما قطع العراق علاقاته السياسية مع ألمانيا كانت إيران تُمثّل المصالح الألمانية في العراق.

وفي بداية الحرب ضلّت ثمان سفنٍ ألمانيةٍ وإيطاليةٍ طريقها في منطقة الخليج فلجأت إلى ميناء (بندر شابور)، وكانت تحمل مواداً متفجرةً، وعملت بريطانيا مع إيران كثيراً لإبعاد هذه السفن عن الميناء، أو محاولة تعطيل محركاتها كي لا تستطيع القيام بشيءٍ يُهدّد المصالح البريطانية، فلم توافق إيران.

وعملت بريطانيا على بثّ دعايةٍ مُضادّةٍ للألمان، وربما استندت هذه الدعاية على التقارب الألماني الروسي، وللروس أطماع ومصالح في إيران فكيف يمكن التقارب مع أصدقائهم الذين يعملون بالواقع لمصلحة الروس؟

كما أن بريطانيا قد قدّمت احتجاجاتٍ كثيرةً لدى إيران لكثرة الألمان العاملين على الأرض الإيرانية، وهم يعملون دائبين ضدّ انكلترا ومصالحها.

إن زيادة العلاقات التجارية بين إيران وألمانيا لن تكون إلا على حساب بريطانيا والدول الكبرى الثانية التي كانت لها مع إيران علاقات تجارية قوية. كما أن روسيا قد استفادت من تطور العلاقات الإيرانية الألمانية لأن أراضيها كانت طريق المرور لتلك البضائع كلها الصادرة والواردة. ولم تكن تلك المعاهدة التجارية التي ألمحنا عنها بين إيران وروسيا في **١٦** صفر **١٣٥٩** هـ (**٢٥** آذار **١٩٤٠** م) إلا من أجل مرور البضائع الإيرانية ضمن الأراضي الروسية، وهذا ما رفع حصة روسيا من تجارة إيران الخارجية إلى **١١٪** عام **١٣٥٩** هـ (**١٩٤٠** هـ) بعد أن كانت أقل من **١٪** قبل عامٍ واحدٍ فقط. وقد أثار هذا كله غضب بريطانيا وقد خشيت أن تسير الدول المجاورة لإيران في الطريق نفسها التي مشت فيها إيران.

وكانت إيران من ناحيةٍ أخرى تسعى إلى تطوير علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية، وترغب بالحصول على قرض منها. وقد ظهرت على المسرح النفطي شركة (ستاندرد أويل أوف نيوجرسي) الأمريكية.

كان الفرقاء المتخاصمون غير راضين عن الوضع في إيران، فالحلفاء يرون الألمان يمرحون على أرض إيران، ويرون الميل واضحاً إلى ألمانيا، ولا يريدون لهذا برهاناً، ولا يمكنهم أن يصدقوا غير ذلك، مهما ادعى الشاه من وقوفٍ على الحياد، إذ يرون الحقيقة رأي العين لذا يودّون تغيير الحكم في إيران، وفي الوقت نفسه فإن الألمان لم يعجبهم الموقف الإيراني رغم هذا كله، وإنما يريدون الانحياز إليهم صراحةً، فإن التردّد الذي يسير عليه الشاه يجعله جباناً في بعض المواقف بل يتصرّف ضدّهم نتيجة الخوف، وربما جاء وقت كان فيه التصرّف قاتلاً لهم لذا كانوا يعملون على تغيير الوضع أيضاً إذا رأوا:

١ ـ موقف الشاه من حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، حيث أخبره بعدم تأييده لخطواته التي خطاها، ويجدها سابقةً لأوانها، وقد تُؤدّي إلى هزّةٍ عنيفةٍ في المنطقة.

٢ ـ رفضت إيران عودة السفير الألماني (غروبا) إلى بغداد عن طريق أراضيها، وكان قد أُبعد عن العراق في بداية الحرب عندما قطعت العراق علاقتها السياسية مع ألمانيا.

٣ ـ رفضت إيران تزويد الطائرات التي أرسلتها ألمانيا إلى العراق بالوقود.

٤ ـ رفضت إيران مرور الأسلحة الألمانية إلى العراق عبر أراضيها.

٥ ـ أكدّت إيران على سفاراتها في الخارج ضرورة التزام الحياد التام.

لذا فإن ألمانيا نقمت على الشاه وأخذت تذيع بيانات ضدّه. وقد تحمّل الشاه هذا، وحاول إيجاد توازنٍ بين الأطراف. فهو يميل إلى الألمان، ويرغب بالتعاون مع الأمريكان، ويريد إبقاء الصلة مع البريطانيين. وبقي متأرجحاً فهو يخشى من الارتماء في أحضان الحلفاء، ولم يجد ضالته في الأمريكان، ويخشى إعادة تجربة العراق، فيحلّ به ما حلّ برشيد عالي الكيلاني.

والواقع أن غروره، وسيطرته الظاهرة القوية على الوضع الداخلي، واعتماده على الجيش، وظنّه بطاعة الجميع له، كل هذا عزله عن القوى الوطنية في الداخل، وعاش في غفلةٍ قاتلةٍ أنسته الوضع الداخلي، كما أن الإنفاق الكثير على الشرطة السرية، والجيش قد زاد في غروره، وظنّه الخاطىء، كما أن ذلك قد أفقر البلاد، وارتفعت أعداد العاطلين إلى درجةٍ مخيفةٍ، وأخذ النقد الخفي، والحقد على الحكم يلعبان دورهما.

ولم يكن وضع الشاه ليُرضي الحلفاء، ولا ليقبله الألمان، وقد حسم الموقف الهجوم الألماني المفاجىء على روسيا في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٦٠ هـ (٢٢ حزيران ١٩٤١ م)، وغدت إيران أساسيةً بالنسبة إلى

الحلفاء، فإمداد روسيا لا يكون إلا عبر أراضيها، وليس لهم طريق سواها، كما خشي الروس من فتح جبهةٍ جديدةٍ عليهم من الجنوب فيما إذا انحازت إيران إلى دول المحور، وفي الوقت نفسه تخاف روسيا من أن تمتد أيدي الألمان إلى مكامن النفط في (باكو) في جمهورية (أذربيجان). والإنكليز أصبحوا يخافون أيضاً على مصالحهم النفطية في الجنوب على مشارف الخليج العربي. وكذلك أصبحت إيران بالنسبة إلى الألمان أكثر أهميةً من ذي قبل، إذ تحتاج إلى المواد الخام منها، وقد انقطع تصديرها بعد الهجوم على روسيا، ومن إيران يمكن ضرب روسيا من الجنوب حتى تركع على ركبتيها، وبعدها يتفرّغون إلى بقية الحلفاء، وفي إيران الثروة النفطية الضرورية لهم، وحرمان البريطانيين منها ضربة لهم في الصميم، وكذلك يمكن بضرب آبار نفط باكو الإسراع في إخضاع روسيا.

وفي ٢ جمادى الآخرة ١٣٦٠ هـ (٢٦ حزيران ١٩٤١ م) أي بعد أربعة أيام فقط من الهجوم الألماني على روسيا أكّد الشاه حياد بلاده، وأصرّ على موقفه، ولكن نشاط الألمان في إيران واضح للحلفاء، لذا فقد قدّم سفيرا بريطانيا وروسيا في طهران مذكرةً مشتركةً إلى الحكومة الإيرانية في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦٠ هـ (١٩ تموز ١٩٤١ م) يُبيّنان خطر وجود الألمان في إيران، ويطلبان ترحيل كل من لا تدعو الحاجة الملحة إلى بقائه، غير أن إيران رفضت وعدّت ذلك خرقاً لسياسة الحياد التي تنتهجها. وهذا ما سرّ الساسة الألمان. أما بالنسبة إلى الحلفاء فقد عدّوا هذا التصرّف انحيازاً لجانب الألمان، وخاصةً أن الشاه قد رفض تسليم رجال حركة رشيد عالي الكيلاني الذين فرّوا من بغداد إلى طهران إثر فشل تلك الحركة إلى البريطانيين، وكانوا في طهران على صلةٍ بالسفارة الألمانية رغم تشديد الحراسة عليها، وكذلك فإن نشاط رجال المخابرات الألمانية قد زاد في الآونة الأخيرة على حدود إيران الشمالية وعلى مقربة من المناطق التي تقع تحت السيطرة الروسية. وكذلك فإنه وصل إلى طهران (كناريس) أحد كبار

رجال المخابرات الألمانية، ومعه أحد ضباط (الغستابو)، **ويبدو أن هذا القدوم** كان يخفي وراءه تدبير انقلابٍ في إيران، وقد نبّه الروس الحكومة الإيرانية إلى ذلك، ولكن الشاه لم يُصدّق، على حين كان يصدق كل ما كان يشاع عن الحلفاء وخاصةً الإنكليز الذين بلغه عنهم أنهم يريدون التدخل في شؤون إيران الداخلية.

وفي ٢٤ رجب ١٣٦٠ هـ (١٦ آب ١٩٤١ م) قدّمت الحكومتان البريطانية والروسية مذكرتين أخريين تطالبان فيهما إبعاد الألمان عن إيران، وتحتجّان على موقف الشاه السلبي دائماً على مذكراتهما، ولكن الحكومة الإيرانية لم تُعر هاتين المذكرتين أي اهتمام.

أصدر الشاه أمره للجيش ليكون على أهبة الاستعداد، وعزّز القوات على الحدود الشمالية، وأمر بإلغاء إجازات العسكريين، ودعا الاحتياطي، وطلب سوق الشباب للخدمة الإلزامية لخمس سنواتٍ متواليةٍ.

هدّد الألمان إيران بقطع العلاقات السياسية فيما إذا استجابت لمطالب الحلفاء، وشجّعوها على الثبات على الموقف والجرأة على الانحياز لجانبهم، وأنهم سيحتلّون بلاد القفقاس خلال عدة أسابيع فقط، وسيدخلون إلى إيران من الشمال. وهذا ما قوّى من عزيمة الشاه فأكّد أن الصداقة الإيرانية ـ الألمانية ثابتة لا تتزعزع.

فشل الهجوم الألماني على روسيا في تحقيق أهدافه العسكرية، وهذا ما أربك الشاه وأحرج موقفه، وأخذ يتراجع أمام الحلفاء، ويُبدي موافقته على تنفيذ مطالبهم، لقد وافق على إبعاد الألمان في إيران عن البلاد، ولكن على مراحل، غير أن الحلفاء أصرّوا على السرعة، وتعنتوا في مطالبهم، ورأوا ضعف الشاه، وتبدّل موقفه، وتوقّف الهجوم الألماني، فأرادوا تغيير الوضع في إيران.

وجّه الحلفاء إنذاراً للشاه في ٣ شعبان ١٣٦٠ هـ (٢٥ آب

١٩٤١ م)، وتقدّم الروس من الشمال، وتوغّلوا في أزربيجان، واحتلّوا تبريز، واقتحم عشرة آلاف جندي من القوات البريطانية والهندية الحدود من الغرب قادمين من (خانقين) في العراق باتجاه (كرمنشاه)، وتقدّمت القوات البحرية البريطانية من الجنوب باتجاه المحمرة (خرمشهر) وأُغرقت السفن الراسية في الميناء، ولم تصمد القوات الإيرانية، ولم يبد الجيش الإيراني حماسةً في القتال، ولم يظهر الشعب تجاوباً للدفاع.

وفي ٥ شعبان قدّم رئيس الوزراء الإيراني علي منصور استقالة حكومته، فكلّف الشاه في اليوم نفسه محمد علي فروغي لتشكيل حكومةٍ جديدةٍ، وأعطى رئيس الحكومة الجديد أوامره للجيش بوقف إطلاق النار على الجبهات الثلاث، وتم تعيين أحمد أمير أحمدي حاكماً عسكرياً لطهران، ثم أُعلنت الأحكام العرفية.

طلب الحلفاء من الحكومة الإيرانية:

١" ـ انسحاب القوات الإيرانية إلى خارج المناطق التي ترابط فيها القوات الروسية في الشمال.
٢" ـ إبعاد الألمان عن إيران خلال أسبوع.
٣" ـ فتح الطرق البرية والجوية الإيرانية أمام الحلفاء.
٤" ـ حياد إيران التام.

وتعهد الحلفاء للحكومة الإيرانية بـ:

١" ـ وقف الزحف نحو طهران.
٢" ـ دفع مساعداتٍ اقتصاديةٍ لإيران.
٣" ـ استمرار شركة النفط الأنكلو ـ إيرانية بدفع عائدات النفط للحكومة الإيرانية.

ثم غيّرت إنكلترا رأيها وطالبت إيران بتسليم الألمان الموجودين في إيران لها باستثناء أعضاء البعثة السياسية المعتمدين.

أما إيران فقط طالبت الحلفاء بما يأتي:

١" ـ انسحاب قوات الحلفاء من بعض المناطق في الشمال، وفي الجنوب.

٢" ـ تعويضها عما فقدته أثناء القتال، وتقدّم القوات الروسية والبريطانية.

٣" ـ عدم اتصال الجنود والضباط الحلفاء بالسكان الإيرانيين.

٤" ـ إجراء مفاوضاتٍ ثنائيةٍ بينها وبين روسيا، منها الاتفاق على نفط الشمال.

وفي ١٥ شعبان ١٣٦٠ هـ (٦ أيلول ١٩٤١ م) عاد الحلفاء فطالبوا إيران بطرد البعثات السياسية لدول المحور. وبعد يومين وقّعت إيران أو أُلزمت على التوقيع على اتفاقيةٍ وافقت بموجبها على بقاء القوات الروسية والبريطانية على أراضيها، وطرد البعثات السياسية لدول المحور، وحجز الرعايا الألمان. ولكن ألمانيا هدّدت إيران فيما إذا انقادت لأوامر الحلفاء وأخذت بتنفيذ بنود هذه الاتفاقية، ولكن الإيرانيين انصاعوا للحلفاء، ولم يستمعوا إلى التهديد الألماني، وقاموا بتسليم مائتين وخمسين ألمانياً إلى انكلترا فوضعوا في معسكرات الاعتقال، كما سلموا خمسين ألمانياً إلى روسيا فنقلتهم إلى مدينة قزوين حيث احتجزتهم هناك.

وفي ٢٣ شعبان ١٣٦٠ هـ (١٤ أيلول ١٩٤١ م) طلبت بريطانيا وروسيا من الشاه رضا بهلوي التنازل عن العرش لولي عهده محمد رضا، وإعلان الحرب على ألمانيا وبقية دول المحور، فرفض فأجبره الحلفاء. وفي ٢٥ شعبان تنازل الشاه لابنه، وقرأ محمد علي فروغي رئيس الوزراء وثيقة التنازل للمجلس، وترك الشاه طهران إلى أصفهان حيث مكث فيها شهراً، ومنها انتقل إلى بندر عباس، ومن هناك نقلته باخرة الشحن الإنكليزية (باندرا) إلى (بومباي) في الهند، ورفضت السلطات البريطانية إنزاله لوجود قلاقل في بومباي، ولم يُسمح له بالانتقال إلى اليابان، وحُمل إلى جزيرة (موريشيوس) حيث فُرضت عليه الإقامة الجبرية هناك، ثم نُقل

إلى مدينة (جوهانسبرغ) في اتحاد جنوبي إفريقية، وبقي هناك حتى توفي في ٥ رجب ١٣٦٣ هـ (٢٥ حزيران ١٩٤٤ م) وبعد عدة سنواتٍ نقل رفاته إلى طهران في ١٦ رجب ١٣٦٩ هـ (٣ أيار ١٩٥٠ م).

أما في إيران فقد نصب ولي عهده ابنه محمد رضا شاهاً على البلاد.

٢ ـ محمد رضا بهلوي(١)

(١٣٦٠ ـ ١٣٩٩ هـ) (١٩٤١ ـ ١٩٧٩ م)

تُوِّج شاهاً على إيران يوم أُعلن تنازل والده عن الحكم في ٢٥ شعبان ١٣٦٠ هـ (١٦ أيلول ١٩٤١ م)، وتأخّر سفيرا بريطانيا وروسيا عن حفل التتويج، كما تأخّر اعتراف دولتيهما بالوضع الجديد مدة ثلاثة أيامٍ. وأدّى اليمين الدستورية أمام المجلس، وتعهّد أمامه أن يحفظ سيادة إيران، ويصون حقوق الشعب، ويحترم الدين الإسلامي الحنيف، ويراعي الدستور والقوانين المرعية في البلاد. كما أنه أكّد ضرورة تعاون حكومته مع دولتي بريطانيا وروسيا. وعهد إلى رئيس الوزراء محمد علي فروغي (ذكاء الملك) بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ.

أُعلن تشكيل الوزارة في ٣٠ شعبان ١٣٦٠ هـ (٢١ أيلول ١٩٤١ م)،

---

(١) ولد محمد رضا في طهران في ٢ صفر ١٣٣٨ هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩١٩ م)، من زوجة والده الثانية (تاج الملوك) وأنهى تعليمه الثانوي في سويسرا (١٣٥٠ ـ ١٣٥٥ هـ) مع أخيه الأصغر علي، في مدرسةٍ داخليةٍ.
عاد إلى إيران عام ١٣٥٥ هـ، والتحق بالكلية العسكرية، وتخصّص بسلاح المدفعية.
تخرّج بعد سنتين بمرتبة ملازم، وعُيِّن مفتشاً بالجيش. وكان مغرماً بالنساء، والخيل، وسباق السيارات.
تزوج من فوزية بنت ملك مصر فؤاد الأول بعد ترددٍ من والدها، وفي ١٣ محرم ١٣٥٧ هـ (١٤ آذار ١٩٣٨ م) هبطت طائرتان في مطار طهران على متن إحداها فوزية ووصيفاتها، وعلى متن الأخرى الأثاث، وكان عمره يومذاك تسع عشرة سنة بينما كان عمر فوزية سبع عشرة سنة، وفي عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) وضعت **فوزية ابنتها (شاهيناز).**

وأطلق سراح السجناء السياسيين، ويبلغ عددهم ما يقرب من ألف ومائتين وخمسين رجلاً، وسُمح للمنفيين والذين خرجوا من البلاد فراراً بالعودة، ومعظم هؤلاء وأولئك من خصوم الشاه السابق، وأعداء الألمان، وأعوان الحلفاء، وهذا ما عمل له البريطانيون والروس، وشعروا بالسرور بما تمّ. وكان الشاه قد تعوّد على حياة اللهو والترف التي كان يحياها، وأحاط نفسه بالشرطة السرية التي وصل عددها في آخر عهده إلى خمسين ألفاً.

وعُقدت معاهدة ثلاثية بين إيران وبريطانية وروسيا في ١٢ محرم ١٣٦١ هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٢ م)، اعترفت بريطانيا وروسيا فيها بوحدة الأراضي الإيرانية، واستقلالها، وسيادتها، وتعهدت الدولتان بالدفاع عن إيران ضد أي اعتداءٍ، كما احتفظتا بما تراه ضرورياً من قوات بريةٍ وبحريةٍ وجويةٍ على أرض إيران، وتعهدتا بسحب قواتهما خلال ستة أشهرٍ بعد انتهاء الحرب مع ألمانيا. وفي الواقع فإن هذه المعاهدة قد أطلقت يد الدولتين في شؤون إيران.

عاد نشاط المخابرات الألمانية سرّاً، وكان قد اختفى عدد من رجالهم أثناء سيطرة الحلفاء على إيران، وقاموا الآن يُحرّضون ضدّ الحلفاء، وجرت بعض القلاقل في (أرومية)، وحاول الألمان إيجاد تنظيم بين أعوانهم أطلق عليه (حركة قوميي إيران)، غير أن هزيمة الألمان في (ستالينغراد) و(العلمين) قد جعل بعضهم يُغيّر موقفه حيث خاب أملهم بقدوم الألمان ووصولهم إلى إيران، بل إن بعضهم أسرع إلى الحلفاء، وسلّمهم أسماء أعوان الألمان الذين يعرفهم، وما لديه من وثائق سريةٍ. وسلّمت القبائل القشقائية جميع أعوان ألمانيا الذين كانوا تحت حمايتها، ومن بينهم (شولتز).

أعلنت حكومة الشاه في ١٠ رمضان ١٣٦٢ هـ (٩ أيلول ١٩٤٣ م) الحرب على دول المحور، وكان ذلك شكلياً، وإن كان الشاه يرغب أن يكون ذلك فعلياً، وأن يرسل قواتٍ للاشتراك في القتال.

أعطت الحكومة الإيرانية الحرية السياسية فتشكّل خمسة عشر حزباً، من بينها حزب (توده) الشيوعي، والذي أصبح له عدة فروع في مختلف المدن، ووصل عدد أعضائه إلى مائتي ألف، وتمكن من السيطرة على الشارع.

وكان من الذين رجعوا إلى البلاد ضياء الدين طباطبائي، وقد عاد في رمضان ١٣٦٢ هـ (أيلول ١٩٤٣ م) فأسّس تجمعاً أطلق عليه اسم الوطن، ودُعم من أجل الوقوف في وجه حزب (توده).

وفي أواخر عام ١٩٤٤ م أُلغيت الحريات، وضُربت الحركات (الديمقراطية)، وأُعلنت الأحكام العرفية في بعض المدن.

بريطانيا: رجع النشاط السياسي البريطاني إلى سابق عهده.

الولايات المتحدة: دخل النفوذ الأمريكي إلى إيران أثناء الحرب العالمية الثانية، واستخدم الأمريكيون أرض إيران ممراً لنقل الإمدادات إلى روسيا. وعندما أعلنت الولايات المتحدة رسمياً الحرب على ألمانيا نقلت فرقةً من قواتها، عدد أفرادها ثلاثون ألفاً إلى إيران، وتبع ذلك البعثات العسكرية.

وكان هناك تنسيق بين الولايات المتحدة وبريطانيا عندما أعلنت الولايات المتحدة وقوفها رسمياً إلى جانب بريطانيا في شوال ١٣٦١ هـ (تشرين الأول ١٩٤٢ م). كما جرى اتفاق بين الدولتين في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦١ هـ (٤ كانون الأول ١٩٤٢ م) لسدّ عجز إيران من القمح. ولم تعترض إنكلترا على سيطرة الولايات المتحدة على مينائي (بندر شابور) و (المحمرة) وعلى القاطع الجنوبي من الخط الحديدي الواصل بين مدينة قزوين في الشمال على بحر قزوين وبين منطقة الخليج العربي بحجة الإشراف على الإمدادات المتجهة إلى روسيا.

وجرى تعاون نفطي بين شركة (رويال دوتش شل) البريطانية وبين

الشركتين الأمريكيتين (ستاندرد أويل) و(سنكلر) للتنقيب **عن النفط في منطقة** (بالوخستان).

وأخذت أفواج الخبراء الأمريكيين تتوالى على إيران، وكان رئيس الحكومة الإيرانية قوام السلطنة يميل إلى إحلال الخبراء الأمريكيين محلّ الخبراء الألمان، وقد هيمنوا على وزارات الدفاع، والداخلية، والصحة، ومختلف المؤسسات الاقتصادية، بل عاد الخبير المالي الأمريكي (أرثر مليسبو) إلى إيران، بعد غياب سنوات، وقد رجع في محرم ١٣٦٢ هـ (كانون الثاني ١٩٤٣ م). ودامت حكومة قوام السلطنة من ٢٧ رجب عام ١٣٦١ هـ (٩ آب ١٩٤٢ م) إلى ٨ صفر ١٣٦٢ م (١٣ شباط ١٩٤٣ م).

وفي ٣ ربيع الثاني ١٣٦٢ هـ (٨ نيسان ١٩٤٣ م) عقدت إيران معاهدةً تجاريةً مع الولايات المتحدة، فتحت إيران بعدها أبوابها أمام البضائع الأمريكية.

روسيا: دعم الروس إيران بالدقيق في العام الثالث للحرب بعد أزمة الخبز التي أنهكت الشعب الإيراني. ثم فترت العلاقات بين الدولتين لما أُشيع في أواخر عام ١٣٦٢ هـ (أواخر عام ١٩٤٣ م) عن منح إيران امتياز نفط الشمال لشركات بريطانية وأمريكية. ثم زار وفد روسي طهران والتقى برئيس الوزراء محمد سعيد، والشاه نفسه وذلك في رمضان ١٣٦٣ هـ (أيلول ١٩٤٤ م) من أجل مَنع إعطاء امتياز نفط الشمال لطرفٍ ثالثٍ دون موافقة روسيا، ولكن الحكومة الإيرانية قد أعلنت بتحريضٍ من البريطانيين والأمريكان بأنها ترفض البحث في أي امتيازٍ نفطيٍ جديدٍ قبل انتهاء الحرب. وقد قام حزب (توده) بمظاهراتٍ واسعةٍ.

وفي ١ ذي الحجة ١٣٦٢ هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٣ م) عقد مؤتمر طهران لمدة ثلاثة أيامٍ، وحضره كل من الرئيس الأمريكي روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل، والرئيس الروسي ستالين، وأعلنوا فيه **وقوفهم إلى** جانب إيران، وأخذ الشاه تأكيداتٍ من روزفلت لضمان **استقلال**

إيران، كما أخذ من ستالين تأكيداتٍ بتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية.

كان الروس ينقلون الحاصلات الزراعية من شمالي إيران إلى بلادهم، ويحتج الشاه إلى لندن، ويحتج إلى موسكو، ولكن لا أحد يسمع منه، ولم يردّ عليه أحد. وتثير روسيا الاضطرابات في منطقة نفوذها ليكون لها مجال للتدخّل في شؤون إيران.

وأشاع الروس والبريطانيون أنهم يعملون لإعادة الحكم إلى القاجاريين حتى يرتمي الشاه في أحضانهم بشكلٍ أكبر، وعملوا على دعوة وريث الملك القاجاري إلى حفلةٍ رسميةٍ في السفارة البريطانية، وعُزف له النشيد الوطني الإيراني، فانخلع لذلك قلب الشاه الشاب، فما كان منه إلا أن اتجه إلى الولايات المتحدة ليحمي نفسه، فأصدر الرئيس الأمريكي «روزفلت» قراراً جاء فيه أنه لن يسمح أبداً بتقيسم إيران، وأن ذلك ضرورة للوقوف أمام أطماع الروس، وأمام تراجع الإمبراطورية البريطانية، وعمل الشاه على توازنٍ بين النفوذين الروسي والبريطاني.

الحركات الداخلية أثناء الحرب:

كانت الشعوب غير الفارسية ناقمةً على حكامها للضغط عليها، ولإهمالها بشكل يلفت النظر بالنسبة إلى الشعب الفارسي، وإن تغيير اسم البلاد الذي أقدم عليه الشاه رضا خان من الدولة الفارسية إلى دولة إيران لإبعاد فكرة السيطرة الفارسية والعصبية إلى العرق لم يفد شيئاً لأنه تغيير للاسم دون أي تبديلٍ في المضمون، إذ بقيت السيطرة الفارسية قائمةً، والضغط موجوداً، والإهمال مستمراً، وإن الإسلام الذي يجمع بين هذه الشعوب كلها، ويُؤلّف بين السكان جميعاً لا يلتفت إليه أبداً إلا في المناسبات أو في الأوقات التي يحتاج الحكام إلى استرضاء أهله، وإذا غاب الإسلام عن الساحة فليس هناك من رابطٍ يُوحّد المسلمين ويشّد بعضهم إلى بعض، ومن هنا تحرّكت الشعوب غير الفارسية عندما وجدت

الحكومة المركزية في أزمةٍ، تتخبط على جنباتها، ولا تعرف على أي جنب تستقر، وعلى أي قوةٍ أجنبيةٍ ـ مع الأسف ـ تستند.

وكانت في الوقت نفسه الدول الأجنبية صاحبة العلاقة وهي إنكلترا وروسيا خاصةً تُثير هذه الشعوب غير الفارسية، وتُثير جانب العصبية، كي تتدخّل في شؤون البلاد، وتبقى صاحبة الكلمة والنفوذ، ولتبعد رابط العقيدة بينها، وتحلّ محله رابط العصبية الذي يمكن إثارته في كل وقتٍ تشاء هذه الدول الأجنبية، ولأن العصبية لا تشريع فيها، ولا مفاهيم ولا قيم تنبع منها، وهذا ما يجعلها تلجأ إلى القوانين والأفكار والمفاهيم الأجنبية فتلتقي بذلك مع أهل تلك القوانين والأفكار والمفاهيم، وتكون تابعةً لهم، وتنأى عن الإسلام الذي تخشاه تلك الدول، تخافه على مصالحها، وتخشاه على أفكارها، إذ يقوم على تشريع، وتنبع فيه مفاهيم وقيم، ولأتباعه الأفكار الخاصة بهم والشخصية التي تميزهم عن غيرهم.

ثارت قبيلة كعب (الدبيس) منذ بداية الحرب بقيادة زعيمها حيدر، وانتصرت على القوات الحكومية في أول الأمر، ودامت حركتها ما يزيد على أربعة أشهرٍ، ثم هُزمت أمام العدد والأسلحة الحديثة، وعندما أخمدت الحركة أُلقي القبض على حيدر وأعدم مع كبار أعوانه.

وثار جاسب بن خزعل بن جابر، وسبّبت حركته مصاعب كثيرةً للحكومة في طهران، وعرفت ثورته باسم الثورة الفجرية نسبةً إلى الحي الذي اندلعت منه نار الثورة.

وثار بنو طرف في منطقة (الحويزة) فهجّرت الحكومة منهم ما يزيد على ألف وأربعمائة رجلٍ إلى مناطق نائيةٍ عن موطنهم سيراً على الأقدام، حفاةً مع منتهى الإذلال، والعذاب، والإهانة.

وقرب نهاية الحرب عقد مشايخ القبائل العربية لقاءً في مدينة (المحمرة)، ووضعوا ميثاقاً مؤلفاً من تسعة بنودٍ، غير أنهم لم يستطيعوا تحقيق شيءٍ منها.

وفي بداية الحرب تحرّكت قبيلة (قشقائي) التركمانية ضدّ النفوذ الإنكليزي، والتصرف الفارسي، وعندما سيطر الحلفاء على إيران، حمى رجال هذه القبيلة كثيراً من الألمان، حتى إذا يئسوا من انتصار الألمان، واقتنعوا بعودة البريطانيين عندها سلّموا رجال الألمان الذين كانوا تحت حمايتهم.

ولم تكن أوضاع أذربيجان وكردستان بأفضل حالٍ مما هي عليه أوضاع عربستان.

بعد الحرب العالمية الثانية:

بعد انتهاء الحرب انقسم العالم إلى معسكرين: المعسكر الرأسمالي وتتزعمه الولايات المتحدة التي ترى أنه من الضروري أن يحلّ نفوذها محل الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة من حليفاتها وهي بالدرجة الأولى إنكلترا وفرنسا وفي ذلك زيادة في قوة المعسكر الرأسمالي الذي يخضع لموجّهٍ واحدٍ، والمعسكر الشيوعي وتتزعمه روسيا من غير منازعٍ بل إن الدول الأخرى الحليفة لها ليست سوى توابع تدور في فلكها. وكانت إيران بعد الحرب مجالاً للتنافس بين المعسكرين، فبريطانيا تريد أن تستعيد نفوذها، وتزيح روسيا تدريجياً عن الساحة، والولايات المتحدة تخطط للوقوف في وجه روسيا وتدعم بريطانيا في هذا الجانب إلا أنها في الوقت نفسه تدبر الأمور لتهيمن على إيران، ويكون لها النفوذ مكان النفوذ البريطاني.

وأما روسيا فتريد لنفسها ما تعمل له إنكلترا لمصلحتها، وقد أخذت تضغط على الحكومة الإيرانية للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في المناطق الشمالية، ولكن الوضع الداخلي لم يكن ليساعدها، إذ وقفت الحركات السياسية في وجه هذه المطالبات، وربما كان لتحريض الولايات المتحدة وبريطانيا دوره في هذا التصدّي الذي قاده محمد مصدق. وأما مجال روسيا الثاني للتدخّل في شؤون إيران ومدّ نفوذها فقد كان عن طريق حكومة أزربيجان المحلية الاشتراكية برئاسة جعفر بيشوري. كانت حكومة

طهران المركزية تريد أن تُنهي وضع أزربيجان، وتعيدها تحت جناحها. وقد أرسل الشاه أخته (أشرف) إلى موسكو للتفاهم حول هذه القضية، وكان إرسال شقيقته إيذاناً بعلمانيته وعدم عداوته للاشتراكية التي تتبنّاها روسيا، وفي الوقت نفسه إعلاماً لبريطانيا التي من ورائه وللولايات المتحدة التي تدعم ذلك أنه متحرّر وغير معادٍ للأفكار التي تحملها الدول الغربية، ولم يكن هذا الأسلوب مألوف لدى المسلمين، غير أنه لم يبال فعلاً بالمجتمع الذي هو مسؤول عنه، ولا بآراء أهل الدين، ولم تُجد المفاوضات التي أجرتها أخته (أشرف) في موسكو. لكن الولايات المتحدة أرسلت إنذاراً إلى روسيا فتراجعت عن دعم حكومة أزربيجان الاشتراكية، وأرسلت الحكومة الإيرانية قواتها إلى المنطقة بحجة الإشراف على الانتخابات، وسقطت حكومة جعفر بيشوري الذي فرّ إلى الجزء الآخر من أزربيجان والذي يخضع للسيطرة الروسية.

قضية فلسطين:

عملت إنكلترا على تثبيت دعائم اليهود في فلسطين، وكانت قد وعدتهم بذلك، ودعمتها سائر الدول الصليبية شرقيها وغربيها، واتخذت هذه الدول الأمم المتحدة مسرحاً لتنفيذ لعبتها ووسيلةً للوصول إلى أهدافها، وإن لم يكن ذلك إلا لإعطائها الصفة الرسمية أو الشرعية ـ حسب اصطلاحهم ـ مع أنه بالإمكان تنفيذ هذا كله بالقوة ودون الرجوع إلى الأمم المتحدة أو غيرها، وللظهور أمام الشعوب أن الوسيلة شريفة، ولا شك أنهم يخشون إثارة العاطفة الإسلامية وقيام المسلمين تحت راية الجهاد ضد الحملة الصليبية السافرة.

اقترحت الأمم المتحدة التي تخضع لتأثير الدول الكبرى، وهي دول صليبية، تقسيم فلسطين بين المسلمين (العرب) واليهود، وجرى التصويت على ذلك، وصوتت الدول الكبرى ـ طبعاً ـ إلى جانب القرار، ووقفت الدول الإسلامية ضدّه باستثناء إيران وتركيا إرضاء لبريطانيا أولاً صاحبة

الفكرة،والملاحقة لها بكل طاقاتها وإمكاناتها، وهاتان الدولتان **(إيران وتركيا)** كانتا ضمن دائرة النفوذ البريطاني، ثم كان هذا الموقف إرضاء للدول الصليبية الكبرى الأخرى وإظهاراً إلى أنها لا ارتباط لها بالإسلام، وإنما تدور في فلك التحرّر والعلمانية، وكان ذلك في ١٦ محرم ١٣٦٧ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ م).

وأعلن اليهود قيام دولة لهم في فلسطين في ٧ رجب ١٣٦٧ هـ (١٥ أيار ١٩٤٨ م)، واعترفت بها مباشرةً إنكلترا، وروسيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا والدول الصليبية كلها، كما اعترفت بذلك كل من إيران وتركيا للأسباب نفسها، وبقي ذلك قائماً من جانب التمثيل السياسي، والمبادلات التجارية، والعلاقات العامة.

الزواج والطلاق:

شغلت إيران بأحداث طلاق امرأة الشاه فوزية التي طلبت طلاقها من الشاه في ١٨ محرم ١٣٦٨ هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٤٨ م) بتهمة خيانة الشاه الزوجية، وادّعى هو أنه يرغب في الزواج وترك امرأته التي لم تنجب له غلاماً ولياً للعهد، وقد مضى على زواجهما أكثر من عشر سنوات. وتمّ الطلاق، ورجع الشاه يُمارس هواياته في معاشرة النساء والتنقل بينهن، وفي سباق الخيل.

ومع انصراف الشاه إلى حياة اللهو والمجون فقد عنّ على باله الزواج مرةً أخرى، وكان يولع بكل فتاةٍ يراها مماثلةً له في مجونه، وكان يبحث عن الجمال عند هذا الصنف من الفتيات، ولم يخطر على باله البحث عن المطلوب في بيوت العفة والستر. وفي إحدى زياراته لأمريكا تعرّف على فتاةٍ تدعى (روث ستيفنس) فأولع بها، وهام، وأرادها لنفسه، ولقي عندها القبول، وأصرّ عليها، وحاولت أخته (أشرف) ردّه عنها، فلم يستمع، **وحاول** آخرون فلم يردّ على كلامهم، وأخيراً استطاع أخوه غلام رضا **أن**

يثنيه عن عزمه، وأن يحول دون عودته إلى إيران معها، حيث كانا قد اتفقا على العودة معاً.

وأعجبته ثريا بنت أصفندياري، وكان أبوها رئيساً لمجلس النواب في أول عهد أبيه، فعارضه، وقدّم استقالته من منصبه، فنفاه رضا بهلوي إلى برلين، فتزوج (أصفنـدياري) هنـاك من خادمـةٍ تعمـل في مقهى، تدعى (إيڤـاكارل)، فأنجبت له ثريا هذه، ووافقت (أشرف) أخت الشاه على هذه الفتاة.

وصلت ثريا مع والدها إلى طهران في ٢٤ ذي الحجة ١٣٦٩ هـ (٦ تشرين الأول ١٩٥٠ م)، وعمرها ثماني عشـرة سنة وتـأجّل الـزفاف لإصـابتها بـالحمى، وأخيـراً تمّ في ١٥ جمـادى الأولى ١٣٧٠ هـ (٢١ شبـاط ١٩٥١ م).

وعاد الشاه فطلق امرأته (ثريا) بحجة أنها لم تنجب له من يخلفه، وقد ضاقت هي من طرفها منه ذرعاً لمجونه ولهوه، وتزوّج للمرة الثالثة من (فرح ديبا) في ١٩ ربيع الأول ١٣٧٩ هـ (٢١ أيلول ١٩٥٩ م).

محاولة اغتيال الشاه:

جرى احتفال في طهران يوم الجمعة ٦ ربيع الثـاني ١٣٦٨ هـ (٤ شباط ١٩٤٩ م) بمناسبة تأسيس الجامعة الإيرانية قبل أربعة عشـر عاماً، فأُطلق أثناء الاحتفال على الشاه ست طلقاتٍ ناريةٍ من قبل رجـلٍ يدعى (فخري آراي) أحد أعضاء حزب (تودة)، فجاءت ثلاث منها في قبعته، وأصابت الرابعة كتفه، وجرحت الخامسة شفته، وذهبت السادسة طائشةً في الهواء، وقتل المعتدي مباشرةً، مع أن الشاه طلبه من حرسه حيّاً لتُعرف دوافعه الحقيقية بـالتحقيق معه، ولينـال عقوبتـه أمام النـاس ليكون عبـرةً للآخرين.

واستغلت الحكومة هذه الحادثة فقامت باعتقالاتٍ واسعةٍ في صفوف

المعارضة، واعتقل (آية الله كاشاني) أحد علماء الشيعة البارزين، وعدد آخر من رجال العلم، وصدر أمر بحلّ حزب (تودة) وملاحقة أعضائه.

مقتل رازمارا:

طلب الشاه من رئيس وزرائه (رازمارا) أن ينوب عنه بحضور صلاة الجمعة، في مسجد (سلطاني) في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٧٠ هـ (٦ آذار ١٩٥٠ م)، وحاول (رازمارا) الاعتذار، غير أن إصرار الشاه ألزمه الحضور، فاغتيل قبل دخول المسجد، وتنفّس الشعب الصعداء، وشعر بالراحة بذهاب الوطأة عنه، وهتف الناس أثناء تشييع الجنازة بسقوط الشاه، والاستعمار البريطاني، وعودة النفط للشعب، وتسليم محمد مصدق الحكومة، وحدثت اضطرابات، وعمّت الفوضى، واضطر الشاه إلى تكليف محمد مصدق رئيس الجبهة الشعبية بتشكيل الوزارة في ١٣ رجب ١٣٧٠ هـ (١٩ نيسان ١٩٥١ م).

محمد مصدق[1] وتأميم النفط:

بقي محمد مصدق في الحكم سبعةً وعشرين شهراً عمل خلالها على تأميم النفط، والعمل على تطبيق الاشتراكية، والوقوف في وجه النفوذ

---

(١) ولد محمد مصدق في طهران عام ١٢٩٨ هـ، ودرس الثانوية في مدينته طهران، والتحق بعدها بجامعة (لوزان) بسويسرا حيث درس الحقوق ونال درجة الدكتوراه فيها، ورجع بعدها إلى بلاده.
عُيّن حاكماً لمقاطعة فارس مدة خمس سنواتٍ ١٣٣٣ - ١٣٣٨ هـ. وشغل منصب وزير المالية، ثم وزير الخارجية. وانتخب نائباً في مجلس النواب عام ١٣٤١ هـ.
وعندما انتهى عهد الأسرة القاجارية، وجاء رضا خان إلى السلطة وأصبحت مقاليد الحكم كلها بيده، دعا محمد مصدق إلى الحكم الجمهوري، ولكن علماء الشيعة رفضوا هذا النظام، واختير رضا خان شاهاً للبلاد، انسحب محمد مصدق عندها من الحياة السياسية مدة تسع عشرة سنة ١٣٤٢ - ١٣٦٣ هـ. ثم عاد يمارس السياسة، وانتخب عضواً في مجلس النواب عام ١٣٦٣ هـ.
أخذت روسيا بعد الحرب العالمية الثانية تضغط على إيران للحصول على حق =

الأجنبي، وأيّده علماء الشيعة في محاربة النفوذ الأجنبي، ودعمه الشعب في ذلك، وأيّده الشيوعيون في خطواته ضد الاستعمار.

وأعلن مصادرة أملاك البريطانيين، وأخذ امتيازات النفط منهم، وطلب أثناء المفاوضات معهم دفع مائة وأربعين مليون دولار كتعويضٍ لإيران فانسحب المفاوضون البريطانيون، ورفضوا الطلب، فترك المهندسون والفنيون أماكن التنقيب، وفرضت بريطانيا حظراً على النفط الإيراني، فوقعت البلاد في عجزٍ ماليٍ. وأيّد محمد مصدق في خطواته التي سار عليها العالم الشيعي آية الله كاشاني، أما الشاه فمنصرف إلى لهوه، ومجونه، وحفلاته.

وفي ٩ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ (١٩ آب ١٩٥٣ م) وصل إلى منزل محمد مصدق ضابط من الحرس الإمبراطوري هو العقيد نصيري الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجهاز السافاك، وسلّم رئيس الحكومة أمراً يقضي بإقالة وزارته. رفض محمد مصدق الأمر، وأعطى الجواب بأن الحكم للشارع.

عقد آية الله كاشاني مؤتمراً صحفياً في (البازار) وألقى كلمةً فيه فقامت المظاهرات تُطالب بإسقاط الشاه وإعلان النظام الجمهوري، واصطدم الجيش مع المتظاهرين، وأعلن محمد مصدق نفسه رئيساً

= امتياز التنقيب عن النفط في المناطق الشمالية، فقاد الحملة ضد ذلك محمد مصدق فلمع وبرز شعبياً. وكذلك أخذ يدعو إلى تأميم شركة النفط الأنكلو-إيرانية. وأقر المجلس النيابي قانوناً في جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ (آذار ١٩٥١ م) يقضي بتأميم الشركة المذكورة.

عُيّن رئيساً للحكومة في ١٣ رجب ١٣٧٠ هـ، واستمر بالحكم حتى أُقيل في ٩ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ (١٩ آب ١٩٥٣ م).

اعتقل، وقدّم للمحاكمة، وحكم عليه بثلاث سنوات سجناً، وبعد أن قضاها، فرضت عليه الإقامة الجبرية حتى توفي في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٦ هـ (٥ آذار ١٩٦٧ م).

للوزراء، ووزيراً للحربية، وعيّن آية الله كاشاني رئيساً لمجلس الشعب، وأبعد كبار الضباط الذين عيّنهم الشاه عن الجيش، ونفى أقرباء الشاه، وفرض رقابةً على مكالمات القصر الهاتفية.

أما رئيس الوزراء الذي عيّنه الشاه وهو (جافام سلطاني) فلم يكن له أي نفوذ، ولم يلتفت إليه أحد، وأما الشاه فقد سبقته زوجته (ثريا) إلى أوربا، ومن إيطاليا طلبت من زوجها اللحاق بها، فسافر إلى روما، وبعد ثلاثة أيامٍ عاد بتمثيليةٍ.

كثرت الفوضى، ومحمد مصدق لم يتصرّف بشيءٍ تجاه الشاه فبقي له نفوذه، وكان المفروض أن يُغيّر النظام، ويعلن سقوط الشاه وتنحيته عن السلطة ليفقد مكانته، وهذا خطأ ارتكبه محمد مصدق، وتخلّى الشيوعيون عن رئيس الحكومة لأنه لم يسر في ركابهم، ولم يدر بالفلك الروسي. وتخلّى عنه أيضاً علماء الشيعة لأنه نادى بالاشتراكية، ولم يقف في وجه الفساد، فبقيت جبهته (الجبهة الوطنية) ضعيفةً.

وخشي الأمريكان من سيطرة علماء الدين على البلاد الإيرانية وكانوا دعامةً لمحمد مصدق. أو سيطرة الروس حيث وقفت الفئات الشيوعية والاشتراكية إلى جانبه. فوصل إلى طهران (كيرميت روزفلت) ابن الرئيس الأمريكي السابق روزفلت، واستقبله في مطار طهران (أردشير زاهيدي) نجل اللواء فضل الله زاهيدي وزير داخلية محمد مصدق في الوزارة المُقالة، وأخذه إلى أبيه، وأمّن له وقوف خمسين من الضباط إلى جانبه، ووزّع مبلغ مليون دولار، وقام اللواء فضل الله زاهيدي بحركةٍ مضادةٍ، ونجح في السيطرة على الموقف، ورجع الشاه من روما.

أُلقي القبض على محمد مصدق، وقدّم للمحاكمة، وأثناء الجلسة وصف الشاه بالحمار، وصدر الحكم عليه بالإعدام بعد ثلاثةٍ وأربعين يوماً من سجنه، ولكن الشاه عفى عنه، على حين صدّق الأحكام على الذين تعاونوا مع محمد مصدق، ومنها أحكام الإعدام، ونُفّذ فيهم، واكتفي

بالحكم على محمد مصدق بالسجن ثلاث سنوات.

وفي شهر المحرم ١٣٧٤ هـ (أيلول ١٩٥٤ م) عقد الشاه معاهدةً مع إنكلترا حصلت فيها إيران على ٤٠٪ من النفط باسم الشركة الإيرانية ـ الإنكليزية للنفط، وعلى كل منشآت التنقيب والامتيازات.

وعمل الشاه بعدها على حصر نشاطات أهل العلم الديني، واستولت وزارة التعليم على جميع المدارس التي يشرف عليها أهل الدين، كما استولت الدولة على الأوقاف.

وأخذ النفوذ الأمريكي يسيطر، ويقوى على النفوذ البريطاني حتى حلّ محلّه مع الزمن. ولكن انضمت إيران إلى حلف بغداد في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٥ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٥٥ م).

وبدأت المعارضة إلى الظهور مرةً ثانيةً، ففي ٢٧ محرم ١٣٨٠ هـ (٢١ تموز ١٩٦٠ م) دعا (حسن نزيه) أحد أعضاء الجبهة الشعبية إلى اجتماع في دار (فيروزأبادي)، وطالب المجتمعون بـ:

١ ـ حلّ جهاز الأمن السري (السافاك).
٢ ـ إطلاق الحريات العامة.
٣ ـ إعادة الدستور.
٤ ـ عدم تدخل الشاه في شؤون الحكم.

أخذ الأمريكان يفدون إلى إيران، يشرفون على الجيش، وعلى المشروعات الحيوية، وعلى تسيير دفة الحكم، وأرادت أمريكا أن تجعل من الجيش الإيراني أقوى جيشٍ في المنطقة لتستخدمه في الجهة التي تريد، فالسلطة في إيران ضدّ الشيوعية، فيجب أن تكون قوتها كبيرةً لدرجةٍ تستطيع الثبات أمام الروس. وهي ثانياً ضد المحيط الذي تقع فيه، إذ أن غالبية سكانها من الشيعة، ويختلفون كلياً عمن حولهم من المسلمين، بل يحقدون عليهم، ويمكن استخدام القوات الإيرانية المسلحة إلى جانب

المسلمين إن احتاجت إليها في ذلك، وإن احتاجت إليها ضدّهم فهي ضدّهم، وهي من ناحيةٍ ثالثةٍ لا تعادي دولة اليهود في فلسطين (إسرائيل) ابنة الولايات المتحدة الصغيرة، فلا يخشى أن يكون هذا الجيش ضدّ اليهود، ومن هنا كانت عناية أمريكا الفائقة بالجيش الإيراني، إضافةً إلى أنها كانت ترغب أن تستخدمه في ضرب مراكز النفوذ البريطاني التي لا تزال أمامها وخاصةً العراق.

تقدّم رئيس الوزراء حسن علي منصور[1] باقتراح يقضي بإعطاء الأمريكان في إيران الحصانة التامة غير أن رئيس الحكومة قد لقي مصرعه في ١٩ رمضان ١٣٨٤ هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٦٥ م) بسبب اقتراحه هذا فالشعب لا يرتاح إلى الأمريكان ولا إلى غيرهم من الصليبيين الذين لا همّ لهم سوى ضرب الإسلام وامتصاص دم أبنائه.

وقام الشاه بحركة أطلق عليها اسم (الثورة البيضاء)، وتهدف إلى إخضاع رجال العلم الشرعي إليه، وأخذ جزءٍ مما يملكونه، ورفض فكرة تعدد الزوجات، فعارض الخميني هذه المقترحات المستنكرة، وأعلن عن مخالفتها للدين، فألقت الحكومة القبض عليه وهو يخطب.

عاد النفوذ الإنكليزي إلى العراق مع عودة حزب البعث إلى الحكم في ٦ جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ (٣١ تموز ١٩٦٨ م) وأخذ الصراع البارد والخفي بين إيران والعراق أو بالأحرى بين النفوذين الأمريكي والبريطاني، وتجلى الخلاف بين الدولتين الجارتين على شط العرب، وعلى الحدود البرية، وأخذت إيران تحرّك الأكراد المتمردين على العراق وتحرضهم على الثورة، وتمدهم، وتفتح لهم حدودها إن اضطروا إلى الفرار من وجه القوات العراقية.

---

(١) حسن علي منصور: رئيس وزراء إيران من ٣ شوال ١٣٨٣ - ١٩ رمضان ١٣٨٤ هـ (٧ آذار ١٩٦٤ - ٢١ كانون الثاني ١٩٦٥ م).

وعُقد مؤتمر الـدول المصدرة للنفط (أوبـك) في الجزائـر، **وحضره** نـائب الـرئيس العـراقي صـدام حسين التكـريتي، وبمبـادرةٍ من الـرئيس الجزائري هواري بومدين وُقِّعت اتفاقية بين العراق والجزائر في **٢٣** صفر **١٣٩٥** هـ (٦ آذار **١٩٧٥** م) تم فيهـا التفـاهم بين الـدولتين حـول شط العـرب، وقد وقـع الاتفاقيـة كل من وزيـري خارجيـة البلدين: سعـدون حمـادي، وعباس علي خلعتبـري، وبالتفـاهم بين الجارتين انهـار التمرّد الكـردي الذي كـانت تدعمـه إيـران، وانتقـل مصـطفى البـرازاني، زعيم المتمردين إلى طهران، وبعد توقيع الاتفاقية بأسبوع توقّف إطـلاق النار، وتوالى صدور قرارات العفو عن الذين فرّوا من الأكراد إلى إيران، **ولكن هذا لم يستمر طويلاً**.

الفصل الثالث

الثّـورَة

كانت كل الأوضاع في إيران تدعو إلى النقمة: الأوضاع الاقتصادية متدهورة رغم الإمكانات الكبيرة التي تملكها البلاد، ومنها الثروة النفطية الضخمة، والأوضاع الاجتماعية مُفككة فالحذر من كل الناس، والخوف من كل كلامٍ، إذ العيون مبثوثة في كل مكانٍ، وأي خبرٍ يكفي لاحتجاب صاحبه في السجون أو غيابه في القبور، والأوضاع السياسية سيئة، فالاستبداد قائم، والظلم مستحكم، والمتزلّفون كثر، وأعضاء حزب الشاه والمقرّبون يتحكّمون بالناس، ويحتكرون البضائع والمنتجات، ويقودون الرذيلة، ويُقدّمون الشباب إليها.

مقدمات الثورة:

وتكثر الأخبار عن هذا، وتزداد الشائعات، ويتحرّق الناس غضباً، ويكادون يتميزون من الغيظ، غير أنهم يضطرون للسكوت، فأنفاسهم مكتومة ومكتوبة، والسيف مُصلت، إنهم ينتظرون الفرصة كي يثوروا، ويتحيّنون الوقت ليُعبّروا عمّا في نفوسهم.

أخذت تشيع أخبار الفساد، والاستهتار بالدين والقيم، والتبذير الذي لا يكاد يُصدّقه العقل، وأخذ الناس يُردّدون هذه الأنباء بصمتٍ وخوفٍ، وأخذت الألسنَ تتناقل هذه الروايات، وربما تزيد فيها حتى عمّت وانتشرت، ولم يبق إلا من تكون عنده الجرأة، ويقتحم الموج لتتبعه الرعية، وتُمزّق حجاب الخوف.

١ ــ الفســاد:

شاع بين الناس جميعاً أن الشاه مولع بالنساء شغوف بالمرأة، محبّ

للهو، مغرم بالشرب، ودؤوب على القمار، مفتتن بالجنس، وأنه متزوّج سراً من فتاةٍ إيرانيةٍ تُدعى «جليدا» طويلة شقراء، تُرافقه في المناسبات، وتحضر معه كثيراً من الاحتفالات.

وأن الشاه عندما يعود من رحلاته الكثيرة من خارج البلاد يعود وروائح الرذيلة تنطلق من جسمه وشخصه، وآثار الجريمة تُلاحقه، وما أن يصل حتى تبدأ الأخبار المشينة بالوصول تباعاً، وغالباً ما تنتشر من بطانة السوء التي تُرافقه وتحلّ معه حيث حلّ.

وتشيع أخبار جزيرة «كيش» التي أعدّها، وبذل الكثير من أجل أن تكون مقرّاً للهو، ومكاناً للخلاعة، ويعدّ الأول من نوعه في العالم تجهيزاً وبضاعةً. وأصبح يطلق عليها «مونت كارلو الشرق» في حين أن «مونت كارلو» لا تعدّ جناحاً منها. وشاركه في الإعداد زوجه المصون الإمبراطورة «فرح ديبا» التي كانت أحياناً تُشرف بنفسها على بعض الجوانب، وتقترح ما تحلم به.

وتروج أنباء ما يجري داخل القصور الأميرة أشرف توأم الشاه، وما تقترفه من آثام، ونتائج تلك الأحداث، ومصير من اختارته ليشاركها في تلك الجرائم.

وينتشر الفساد في المجتمع كتقليد لما يجري في القصور، وتطبيقٍ لما يدور، وتنفيذٍ لما يُسمع، وما يُتحدّث عنه في مختلف الأوساط، ولا شك أن ما يُسمّى عند الشيعة بزواج المتعة يُؤدّي دوره في انتشار الفساد، وهو مخالف لتعاليم الإسلام، وقد حُرّم في خيبر بعد فتحها، وأُكّد تحريمه بعد فتح مكة. ومما ساعد على انتشار الفساد تلك الزيارات التي تنطلق إلى مدينة مشهد حيث يقوم هناك ضريح علي الرضا بن موسى الكاظم إمام الشيعة الثامن المتوفى عام (٢٠٣ هـ)، ويسود الاعتقاد لدى النساء أن العاقر منهن تنجب بعد تلك الزيارة، وأن من لم يأتها زوج، يُقدّر لها الزواج بعدها، وهناك تحدث حوادث ليست طيبةً نتيجة الاختلاط، والمقاصد التي تتمّ من أجلها الزيارة، وكل ذلك أباطيل وخرافات. وما أشدّ ما يحدث الفساد مع الجهل وشيوع الخرافة.

كانت الأميرة أشرف تلهو وتختار من يعجبها ثم تقضي الليالي معه والأيام رغم أن لها زوجاً وأولاداً.

٢ ـ الإسـراف:

وتنتشر أخبار التبذير والإسراف الذي لا يكاد يقبله عقل لكثرته. فالاحتفالات التي تُقام في القصور وما يتخلّلها، وحفل تتويج «فرح ديبا» إمبراطورةً على إيران، وما أنفق في ذلك الحفل، على الثياب، والهدايا، والدعوات، والحفل يكاد يعدّ من الأساطير.

وما أنفق على إعداد وتجهيز جزيرة «كيش» لتكون مقراً للهو والفجور لا يكاد يُصدّق، وما يدفع للواتي يُجلبن من كل جهات العالم يعجز المرء عن وصفه.

وما تكلّف رحلات الشاه إلى الخارج مع إمبراطورته يُرهق ميزانية الدولة، طائرة تنقل الجياد، وأخـرى تحمل السيارات الخاصة، وثالثة عليها ثياب الإمبراطورة، ورابعة مخصصة لسلاح رجال «السافاك»، وخامسة لأفرادهم، وتأتي الأخيرة وعلى متنها الشاه والإمبراطورة ويظهران بعد أن تقف الطائرة بلباس الرياضة، أو بثياب الزفاف، وربما بالزي العسكري.

وما أنفق على احتفال إيران بمرور ألفين وخمسمائة عام على إنشاء الدولة الفارسية التي بناها (داريوس) عام خمسمائة وثلاثين قبل الميلاد، وذلك عام ١٩٧١ م.

وفوق كل هذا فعائلة الشاه تتصرّف بالخزينة كما يحلو لها، بل وبالرواتب أحياناً، فقد أوقفت ثريا مرةً رواتب الموظفين والضباط، وكانت تتدخّل في كل شيءٍ. وتحتكر الأسرة زراعة المادة التي تريدها، وصناعة البضاعة التي تراها، وتجارة السلع التي ترغبها. فقد كان الأمير محمود رضا يحتكر زراعة الخشخاش الذي تُصنّع منه المخدرات.

٣ ـ المروق:

يشيع بين الناس أن الشاه لم يذهب مرةً واحدةً إلى الصلاة. وأنه أقرب إلى الديانة الزرادشتية منه إلى الإسلام، وتُروّج أخبار أحياناً أنه ينتمي إلى فرقة البهائية الكافرة، وتنتشر أنباء أنه أراد تحويل الحج من مكة المكرمة إلى مدينة مشهد، وقد بنى تمثالاً للفردوسي هناك.

ولا شك أن الفجور، واللهو، والإسراف من علامات البعد عن الدين، وكان يستهتر بالقيم، ويزدري رجال العلم حيث لم يقدر قوتهم وتأثيرهم على الرعية رغم انتشار الجهل والفساد في مختلف الأوساط الشعبية، لأن بطانة السوء التي تلتفّ حوله مشغولة عن معرفة الواقع بما هو مشغول به سيّدها إذ همّها همّه، وتزيد عليه بمحاولة إتقان التزلّف، وإظهار التبعية، وتقمّص شخصية الموالين، وتمثيل دور المحبّين للشاه المضحّين بأنفسهم في سبيل العرش والنظام القائم.

شكّل هذا التصرّف من قبل الشاه وأسرته وبطانته، ونقد الرعية له قاعدةً عريضةً تكره الاستبداد وتعمل بالخفاء ضدّ المتسلطين والنظام، وهذا ما أخاف الشاه على نفسه، وأخاف الأسرة جميعاً على أنفسهم، وأراد اتقاء ذلك فجعل حوله سوراً من الجند والأحراس.

٤ ـ الظلم:

أوجد الشاه نظاماً خاصاً سرياً لحماية نفسه أُطلق عليه اسم «السافاك»، ويُقال أن عدد أفراده بلغ خمسين ألفاً، وأعطاهم صلاحياتٍ واسعةً، كما منحهم امتيازاتٍ خاصة، ولما كانوا يعلمون مُهمّتهم وأنها التضحية والإلقاء بالنفس، ويرون أن من حقهم أن يأخذوا مقابل ذلك، وأنه باستطاعتهم التصرّف والأخذ من ذاتهم، ووظيفتهم تخولهم ذلك، لذا كانوا يشتطّون في الأخذ، ويُغالون في السلب، ومن اعترض سبيلهم ألقوا به في السجن، أو قضوا عليه، وحاكوا له تُهمةً تُبرّر لهم عملهم، ولا يمكن لأحدٍ الوقوف في وجههم، وبذا فقد انتشر الظلم، وطغيان بعض الناس على بعضٍ، وخمسون ألفاً مُوزّعون في أنحاء

البلاد يُسيئون كثيراً إضافةً إلى من يدعمونهم قرابةً، أو معرفةً، أو لمصلحةٍ من مصالحهم.

وشعر أفراد أسرة الشاه أنهم محميّون، وأن أخبار ما يجري داخل البلاد يصل إليهم تماماً، وأن ما يحدث في السرّ لا يخفى عليهم لأن عيونهم مبثوثة في كل مكانٍ لـذا فقد تمادوا في ظلمهم، وساروا في غيّهم دون مُبالاةٍ، لا يهمّهم سوى لهوهم، وتأمين شهواتهم، وتحقيق مصالحهم، وهم يمشون في ذاك، والأيام تُسرع في هلاكهم.

ورأى الشاه أن يكون له خلف ذلك جيش يحميه وأسرته خوفاً من تعدي الجوار، وأطماع الطامعين في ثروة البلاد وغناها، فأخذ في بناء جيش وإعداده ليكون أكبر جيشٍ في المنطقة، ولم يكن هذا الجيش للدفاع عن البلاد بمقدار ما هو للدفاع عن النظام، وشخصيـة الشاه.

٥ ــ الارتبـاط:

إن الجهاز الخاص يحتاج إلى سلاحٍ، والجيش يحتاج إلى سلاحٍ، والسلاح الحديث الفعّال، لا يُعطى إلا بثمنٍ، ولا تُزوّد به بلاد إلاّ باتفاقاتٍ غالباً ما تكون مُجحفةً بحقّ البلاد المستوردة، ولا يُقدّم إلاّ بأسعارٍ باهظةٍ ما دام الذي يشتريه بحاجةٍ ماسةٍ إليه، وهو لا ينتج صناعته، ولا يعرفُ فنّه، ولا يتقن سر إنتاجه، وربما لا يُفكّر في هذا، فهو بلد متخلّف ويستطيع تأمين السلاح بالتنازل عن حقّه في أرضه، وعن شيءٍ من سلطانه، وعن تأمين تنفيذ مخططات خصمه، فهو حسب ظنّه لا يخسر شيئاً ما دام يحمي نفسه، وهذا كلّ مُهمّته في الحياة، ومن هنا يكون الارتباط.

وورث الشاه الحكم وبلاده محتلّة من الروس والإنكليز أو من الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ولا يمكنه إخراجهم إلا باتفاقٍ أو تنازلٍ أو ارتباطٍ، وهذا ما كان فاستقلّت البلاد ظاهراً، وارتبطت حقيقةً. وإن لم يكن ارتباط بتلقيّ كل أمرٍ، فهو لحاجة كل شيءٍ، وللهزيمة النفسية، والشعور بالنقص.

ووجدت الأحلاف، وانقسم العالم إلى معسكرين، وليحمي نفسه من معسكرٍ لا بدّ له من إلقاء نفسه في المعسكر الآخر أو أمامه. ولما كانت أرضه على تخوم المعسكر الشرقي، ويخشى من توسعه الذي ليس له حدود، وأطماعه التي لا تنتهي، لذا فخوفه من هذا الجانب، كما أن الجانب الآخر يزيد من تخوّفه، ويُلقي في نفسه الروع لينضمّ إليه، أو ليأتيه صاغراً، فهذا ما كان، إذا غدا بجانب المعسكر الغربي، ومن بين أعضائه، فيتصرف الشاه بتوجيهات سدنة ذلك النظام، وحسب مصلحة ذلك الحلف، وفي فلكه، ووفق مخططاته ولو كانت ضدّ بلاده، وضدّ أمته، وضدّ عقيدته. ولعلّنا سنذكر ـ إن شاء الله ـ جوابه لأحد أعوانه عندما اقترح عليه أن يستعمل سلاح الجو ضدّ الثورة لحماية نفسه أجابه أن الفكرة رائعة ولكن سلاح الجو لا يتلقّى التعليمات مني وإنما يتلقّاها من واشنطون.

وكل هذه الأخبار تشيع بين الناس، وتعمل عملها، فتثير الغيظ، وتملأ النفوس حقداً، وتجعلهم يتحرّقون للعمل، ويتحرّكون للانتهاء من الشاه ونظامه.

بداية الانقسام:

كان المتدينون أكثر الناس حقداً على نظام الشاه لمروقه من الدين، وإشاعته الفساد، وانسلاخه من القيم والأخلاق، وارتباطه بالأعداء من اليهود والصليبيين، واستبداده، وظلمه، وتبذيره وسفهه، وتبديد أموال الأمة، وهذه كلها مخالفة للدين، وتوجب الخروج عليه، وبرز من بين العلماء الشيعة آية الله الخميني الذي أسّس الاتحاد الإسلامي في بداية العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجري فكان يرفض كل ما يأمر به الشاه، كما يرفض كل ما يسنّه المجلس النيابي من قوانين أو ما يُصادق عليه لأنه يصدر عن هيئةٍ غير مخولةٍ، ولا تنطبق عليها الصفة الشرعية.

وسخط الخميني على الشاه عندما أعطى الحصانة السياسية للخبراء والمستشارين الأمريكيين، وقام يهاجمه، وينتقد الوضع، وكان نتيجة ذلك

أن اغتيل رئيس الوزراء حسن علي منصور في ١٩ رمضان ١٣٨٤ هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٦٥ م) لأنه صاحب مشروع تلك الحصانة.

وعمل الشاه على ما أطلق عليه اسم «الثورة البيضاء» التي تهدف إخضاع رجال الدين، وأخذ جزءٍ مما يملكونه، ورفض تعدد الزوجات، فعارض الخميني هذه المقترحات المستنكرة، وأعلن مُخالفتها للدين، فأُلقي القبض عليه، وهو يخطب، فقامت المظاهرات التي تستنكر اعتقال الخميني، ووقعت مصادمات ذهب ضحيتها آلاف القتلى، واضطر الشاه إلى الأمر بإطلاق سراح الخميني خوفاً من استمرار المظاهرات، وذهاب المزيد من الضحايا. ولكن ما أن هدأت الأحوال حتى جاء الأمر باعتقال الخميني ثانيةً، وذلك بعد عدة أسابيع من الاعتقال الأول، وهي المدة التي انقضت لهدوء الأوضاع. ثم أمر بنفيه خارج البلاد، فانتقل إلى تركيا، وعاش فيها ما يقرب من أحد عشر شهراً، وبعدها سافر إلى العراق، وعاش في مدينة «النجف»، وأخذ بإلقاء الخطب، ويتحدّث عن الأحوال في إيران، وكانت خطبه مُؤثّرةً يتداولها الناس، وتدخل إلى إيران، ويتناقلها أتباعه ومريدوه، ومنهم تنتقل إلى أوساط الشعب حيث تجد تجاوباً في النفوس. ولما كان هناك خلاف بين العراق وإيران فإن العراق كانت تسكت عما يقوم به الخميني وربما كانت تُشجّعه، فلما تمّ التفاهم بينهما بعد اتفاقية الجزائر الموقّعة في ٢٣ صفر ١٣٩٥ هـ (٦ آذار ١٩٧٥ م)، وأعطت العراق حقّ المرور في شط العرب لإيران التي تعهدت في الوقت نفسه عدم دعم الأكراد المُتمرِّدين في العراق. وعندها طلبت العراق من الخميني السكوت إن أراد البقاء في النجف، وإلا فما عليه إلاّ الرحيل، وسكت الخميني.

وفي نهاية عام ١٣٩٧ هـ مات في النجف مصطفى الخميني ابن عم آية الله الخميني، وعمره تسع وأربعون سنةً، وعدّ أعداء الشاه أن مصطفى الخميني قد ذهب اغتيالاً بأيدي النظام السري الإيراني (السافاك)، وقامت المظاهرات، وحدثت مصادمات، وذهب ضحيتها سبعون قتيلاً. وأُجبر

آية الله الخميني على مُغادرة العراق، ورفضت الكويت استقباله فسافر إلى فرنسا.

وبرز الخميني بعد هذه الأحداث، وأخذت المعارضة تُلقي قيادها له، فقد صرح مهدي بازركان أحد قادة الجبهة الوطنية (جبهت ملي) أن أغلبية الشعب في إيران قد اختارت الخميني ليكون قائداً لها.

بدأ الخميني نشاطه السياسي في فرنسا، وكانت كلماته تُسجّل وتُرسل إلى إيران فتعمل عملها في المجتمع، وتُحرّكه ضدّ نظام الشاه في الوقت الذي كان فيه الشاه سادراً في غيّه، لم يُعط المعارضة قدرها، وبطانته لم تُبلغه وزن الحركة الصحيح لأنهم نيام مشغولون بمصالحهم، ويظنّون أن الأمر سهل، ويمكن القضاء على المقاومة بيُسرٍ لقوة الجيش، وقدرة النظام السري الخاص «السافاك».

بدأت أعمال العنف في مدينة «قُم» في نهاية الشهر الأول من عام ١٣٩٨ هـ (٨ كانون الثاني ١٩٧٨ م)، وبعد أربعين يوماً انتقلت إلى مدينة «تبريز»، ثم اجتاحت المدن الأخرى.

وجاء شهر رمضان، وقامت المظاهرات في المدن تُطالب بإغلاق المطاعم، ودور الصور المتحركة، والمصارف الربوية خلال شهر رمضان، وحذّرت المخالفين من أعمال العنف التي ستتخذ ضدّهم. فأعلنت نقابة دار الصور المتحركة (السينما) أنها ستُنفّذ ما طلب منها ما لم تتخذ إجراءات أمنٍ لحمايتهم، وصرّح رئيس الوزراء جعفر شريف إمامي أنه على صلةٍ بالقيادات الدينية، وأن الحريات السياسية الموجودة قد استغلّت ضدّ الشعب.

وفي يوم الجمعة ٦ شوال ١٣٩٨ هـ (٨ أيلول ١٩٧٨ م) قامت المظاهرات، ووقعت الصدامات بين الشرطة والمتظاهرين سقط فيها أكثر من أربعة آلاف قتيلٍ، حتى سُمّي ذلك اليوم يوم الجمعة الدامي.

ومع الأحزان التي عمّت البلاد ذلك اليوم فإن القصر قد ازدان، وعمر بالأفراح والحفلات، فبدأ النقد، غير أن الشاه قد شعر بما أقدم عليه فقام مع الإمبراطورة بزيارة إلى مدينة «مشهد» كردّ فعل بإظهار التمسّك ببعض مظاهر الأخذ بالعادات الشيعية.

أعلن رئيس الوزراء الأحكام العرفية في ٩ شوال ١٣٩٨ هـ (١١ أيلول ١٩٧٨ م)، فقامت المظاهرات في مدينة «قُم» في ١٥ شوال مُتحدّيةً حظر التجوّل، وحصلت صدامات ذهب ضحيتها ألفان وأربعمائة وخمسون قتيلاً. وأعلن الشاه أنه لا يعتزم التنازل عن العرش ردّاً على الشائعات التي انطلقت تتحدّث عن رغبة الشاه في ترك الحكم، أما علماء الشيعة فقد أعلنوا الحداد على ما حدث وامتنعوا عن إلقاء الخطب. وفي هذا الجو المشحون أقام الشاه حفلةً غالى فيها بتبديد أموال الدولة، وبالغ في إظهار المفاسد والمجاهرة بالمنكرات. وفي هذه الحفلة صفع الشاه رئيس الوزراء الذي ترك الاحتفال، وفي اليوم التالي غادر البلاد، فكان أول المغادرين.

وأُشيع أن الشاه مصاب بسرطان الدم، ويأتي كل أسبوعٍ طبيب إسرائيلي، ويقوم بتغييرٍ شاملٍ له للدم، كإعطاء بارقة أملٍ للخلاص من هذا الطاغية وكنقدٍ وتجريح على أنه يتعامل مع إسرائيل، وأنه على صلةٍ وثيقة بأبنائها، وعلى ثقةٍ بهم، وهم الذين اغتصبوا فلسطين من ديار الشام، وشرّدوا أهلها، وانتهكوا حرمة المسجد الأقصى.

وفي ٩ ذي القعدة ١٣٩٨ هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٧٨ م) أعلن الخميني من مقرّ إقامته في ضاحية باريس أن الحكومة الإيرانية قد دعته ليكفّ عن نشاطه السياسي، كإعلام أن الحكومة في أشد الأوضاع حرجاً، وأنها وشيكة الانهيار.

وفي ١٠ ذي القعدة امتد لهيب المظاهرات إلى أربعين مدينة من بينها كبريات المدن الإيرانية كطهران، وتبريز، وأصفهان، وشيراز، ومشهد، والأهواز. وقاطع الطلاب ابتداء العام الدراسي. واستقالت حكومة جعفر

شريف إمامي(١)، وكُلّف رئيس الأركان غلام رضا أزهري(٢) بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ في ٧ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ م).

دعا الشاه علماء الشيعة للتعاون معه في سبيل إعادة النظام فلم يجد إذناً صاغيةً من كبارهم، وإن وعد بعضهم فذلك في سبيل التهرّب، وعدم إدانة نفسه. ومن أبدى منهم استعداداً فإن الشاه لا يريدهم لأنهم ليسوا على المستوى المطلوب، ومن يعرض شخصه يهن نفسه.

أعلن الحاكم العسكري لمدينة طهران الجنرال غلام علي أوفيسي الأحكام العرفية، وصرّح أنها ستُطبّق بمنتهى الصرامة، وأمر بإغلاق المدارس مدة أسبوعٍ. واحتلّ الجيش مباني الصحف، والإذاعة، والتلفزيون، وأُلقي القبضُ على عشرين من السياسيين والصحفيين.

واقترح حاكم طهران العسكري الجنرال غلام أوفيسي على الشاه

---

(١) جعفر شريف إمامي: ولد في طهران عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م)، ودرس في طهران، وتابع دراسته في ألمانيا فتخرج مهندساً، وانتقل إلى السويد، وأكمل دراسته الفنية، ورجع إلى إيران، وترقى في المناصب، وأصبح عضواً في مجلس الشيوخ ١٣٧٥ هـ، ثم تسلّم منصب وزير الصناعة والمعادن في وزارة منوچهر إقبال عام ١٣٧٧ هـ، حتى استقالت الوزارة، فعهد إليه بتشكيل الحكومة الجديدة واستقالت حكومته ١٣٨١ هـ، فعمل بعدها رئيساً لمجلس الشيوخ مدة خمسة عشر عاماً. وعهد إليه ثانية بتشكيل الحكومة في ٢٥ رمضان ١٣٩٨ هـ (٢٨ آب ١٩٧٨ م) حتى ٥ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ أي أقل من شهرين ونصف، وفرّ بعدها إلى أوربا.

(٢) غلام رضا أزهري: ولد في شيراز ١٣٣٥ هـ، وتلقى علومه العسكرية في إيران والولايات المتحدة، وهو من البهائيين، وعندما رجع ترقى في الرتب العسكرية، وأصبح مديراً للكلية العسكرية ١٣٨٠ هـ، وقائد القوات البرية ١٣٨٣ هـ، وممثل إيران العسكري في منظمة المعاهدة المركزية (حلف بغداد)، ثم رئيساً للأركان ١٣٩١ هـ، وقائداً للحرس الإمبراطوري حتى ٢٤ شعبان ١٣٩٨ هـ، ثم رئيساً لهيئة الأركان العامة المشتركة، وأخيراً عهد إليه بتأليف الحكومة في ٦ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ، ثم استقال في ٦ صفر ١٣٩٩ هـ، وفرّ إلى أوربا.

تدمير مدينة «قُم» فسأله الشاه عن تقديره لعدد الضحايا، فأجاب مليون قتيل، فلم يُوافق الشاه، فطلب الجنرال من الشاه السماح له بمغادرة البلاد، فسمح له، فسافر إلى باريس، وهناك كانت نهايته إذ وجد مذبوحاً بعد خمس سنوات.

أما الخميني فقد اجتمع في باريس مع قادة المعارضة في سبيل التنسيق للحركة. وزادت المظاهرات نشاطاً، وكانت كلها تهتف ضدّ الأسرة البهلوية، وضدّ الشاه بالذات.

وفي الثالث من أيام العيد الأضحى ١٣٩٨ هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٧٨ م) أُلقي القبض على كريم سنجابي زعيم الجبهة الوطنية. وأخذت رجال «السافاك» تتفنّن في أعمال التعذيب للسجناء السياسيين.

وبدأ تهريب الأموال فقد خرج من البلاد في هذه الآونة ألفان وأربعمائة مليون دولار، هُرِّبت لأقرباء الشاه، ومنهم الإمبراطورة فرح ديبا، وأبناء الأميرة أشرف أخت الشاه.

الثورة:

جاء يوم عاشوراء بدء حداد الرافضة، وسير المواكب الشيعية التي تتخللها حوادث اللطم، والندب، والضرب، وتلك الخرافات، فأصدرت الحكومة أمراً بحظر المواكب الشيعية، ولكن زعماء المعارضة طالبوا الحكومة بسحب القوات العسكرية من الشوارع من أجل تلك المواكب حيث قرروا السير فيها.

وفي اليوم التالي لعاشوراء تدفّق مليونا متظاهر يهتفون «الله أكبر» ويلبسون ثياب الحداد التي اعتاد الرافضة أن يلبسوها في مثل هذه الأيام، وقد نظموا أنفسهم في ثمانية مواكب، وكان على رأس إحداها آية الله ثلجاني أحد مساعدي الخميني.

كان الجيش على استعدادٍ، والطائرات العامودية تحلّق في الجو،

وتُراقب الموقف فوق المتظاهرين، وجاءت الطائرات الأمريكية لتنقل رعايا الولايات المتحدة من البلاد، أو لتُؤدّي دوراً مُكلّفةً به. وقامت مظاهرات أخرى في «قم» و «مشهد» و «تبريز» و «أصفهان»، ووقعت صدامات بين الجيش والمتظاهرين إذ رشق الذين يسيرون في المواكب الجيش بالحجارة، وقاموا بإحراق السيارات. وهدّد رئيس الوزراء بوقف رواتب الموظفين المؤيدين للمعارضة. وتكتل أنصار الحكم.

دعا آية الله الخميني الشعب إلى الجهاد... واشتعلت نار الثورة بعد أن كانت مُظاهرات تُبدي المعارضة، أو تعمل مُتحدّيةً للسلطة فإذا بها الآن تُطالب بإسقاط النظام واستلام السلطة.

وفي ٢٦ محرم ١٣٩٩ هـ (٢٦ كانون الأول ١٩٧٨ م) حاول المتظاهرون اقتحام السفارة الأمريكية في طهران، فقذفهم رجال المشاة البحرية الأمريكية بالقنابل المسيلة للدموع، فقام المتظاهرون بقذف السفارة والقوات المدافعة عنها بالحجارة.

لقد قويت الثورة، وأصبح الشاه والسلطة يُحاولان استرضاء علماء الشيعة، ويطلبان رضا الشعب، وقام الشاه ببعض الأعمال مُحاولاً كسب الشعب إلى صفّه، وامتصاص النقمة وربح الوقت. لقد أمر باعتقال أمير عباس هويدا رئيس الوزراء الأسبق المفضل لديه، والذي بقي في السلطة ما يقرب من اثنتي عشرة سنة ونصف مُتهماً إياه بالاستغلال والفساد. واستدعى كذلك سفيره في باكستان الجنرال نصيري، وكان من قبل رئيساً لنظام السافاك، ولما وصل إلى طهران أمر باعتقاله أيضاً مع أمير عباس هويدا متهماً إياه بالتهمة نفسها، ومسؤولية خراب البلاد ودمارها.

وفي الأول من شهر صفر عام ١٣٩٩ هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٧٨ م) أقال ثلاثمائة وأربعين رجلاً من قيادة الشرطة السرية (السافاك) إرضاءً للمعارضة.

وتحدّث إلى الشعب في التلفزيون فخاطبهم (لقد سمعت نداءكم

وها أنذا مُعتذراً إليكم، سأفعل ما تأمرون، وها أنا أمـدّ يدي إلى رجـال الدين العظام ليساعدوني في حلّ مشكلات البلاد). لقد كان هذا الخطاب انتحاراً للشاه وإيذاناً بنهاية نظامه إذ بدا بمـظهر الضعيف المسكين الـذي يستدر عطف الشعب إليه، ويستجدي الرضـا من خصومـه علماء الشيعـة الذين وصفهم في خطابٍ عامٍ بالكلاب النابحة التي لا ترى ضوء القمر، وذلك قبل ثلاثة أشهرٍ فقط من الآن.

وطلب من شابور بختيار أحد قادة الجبهة الـوطنية تشكيـل حكومـةٍ جديدةٍ بعد أن أقال رئيس الوزراء الجنرال غلام رضا أزهري. وكان شابور بختيار قد قضى عدة سنواتٍ في سجن الشاه، كما أن الشاه رضا بهلوي والد الشاه محمد رضا بهلوي قد قتل والد شابور بختيار في السجن خشية نفوذه وسلطانه. وقبل شابور بختيار التكليف فـطردته الجبهـة الوطنيـة من عضويتها. وافق شابور بختيار على تشكيل الوزارة بشرطين: الأول: حلّ جهاز السافاك. الثاني: مُغادرة الشاه لإيران لمدةٍ طويلةٍ يحلّ محلّه أثناءها مجلس الوصاية ليكون حراً في اتخاذ القرارات. لكن الجبهة رفضت من أحد قادتها هذه الموافقة لتشكيل الوزارة ومُحاولة إنقاذ الوضع المنهار على يديها، وهي التي عملت طويلاً لإسقاطه، وأصرّت على طرده من عضويتها.

شكّل شابور بختيار الوزارة في ٧ صفر ١٣٩٩ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٧٩ م)، وهي حكومة مدنية ويبدو عليها الضعف، وصرّح رئيس الوزراء أن الشاه سيُغادر طهران قبل يوم الخميس في إجازةٍ، وأنه سيزور إحدى دول الشرق الأدنى، أو دولةً أوروبيةً قبل التـوّجه إلى الـولايات المتحـدة الأمريكية، أما أحد رجال القصر فقد صرّح أن الشاه لن يُغادر البلاد قبل حصول حكومة شابور بختيار على الثقة. وصرّح الشاه للعسكريين أنه يُفضّل مغادرة البلاد على أن يقوموا بانقلابٍ عسكـريٍ عند غيـابه. وشكّل الشاه **مجلس وصايةٍ دليل** عزمه على الرحيل.

أعلن الخميني أن مجلس الوصاية غير شرعيٍ، وأنه يتوقّع إقامة حكومةٍ إسلاميةٍ.

وفي ٨ صفر ١٣٩٩ هـ (٧ كانون الثاني ١٩٧٩ م) صرّح آية الله حسين منتظري، وقد عاد من مقابلة الخميني، رفض أية حكومةٍ طالما بقي الشاه، ولن تقبل سوى سقوط الشاه لإقامة جمهوريةٍ إسلاميةٍ.

أعلنت الولايات المتحدة عن سفر الشاه في ١٢ صفر على حين أنه كان لا يزال في طهران، ولم يُحدد بعد يوم سفره وهذا يدلّ على رغبتها في التخلّص منه إذ انتهى دوره معها، وتفتش عن بديلٍ لها يخلفه، وبعد خمسة أيامٍ غادرت العائلة المالكة البلاد، وأعلن (كارتر) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يوم ١٨ صفر أن الشاه الآن في القاهرة، وهو في طريقه إلينا.

وفي ٢٠ صفر ١٢٩٩ هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٧٩ م) أخذت المظاهرات بالازدياد، وفي اليوم التالي أعلن الخميني أنه لن يتولّى رئاسة البلاد، ولن يقبل هذا المنصب، وأن إيران ستقطع علاقاتها مع إسرائيل الدولة التي لوّثت أرض فلسطين من الشام، وقامت على الاغتصاب.

وفي ٢٥ صفر ١٣٩٩ هـ أصدر رئيس الوزراء الإيراني شابور بختيار أوامره بإغلاق المطار، وأصرّ على إنهاء المهندسين والفنيين بالمطار إضرابهم المستمرّ من أسبوع. وذلك خوفاً من إرسال طائرةٍ إيرانيةٍ لإحضار الخميني. وكان الجيش يُحاصر المطارات.

وحدث صراع قرب السفارة الأمريكية بين أنصار الخميني وأعوان الشاه.

وأعلن الخميني أنه سيصل إلى طهران قبل يوم الجمعة، وصرّح محمد يزدي أن الخميني سيأتي ولن يستطيع رئيس الحكومة أن يحول دون هبوط طائرته في مطار طهران. وكان يُرافق الخميني كل من: أبو الحسن بني صدر الذي تولّى الرئيس الأول للجمهورية، وصادق قطب زاده الذي تسلّم منصب وزارة الخارجية، وإبراهيم يزدي الذي درس في أمريكا، وعمل طبيباً

هناك، وتزّوج من أمريكيةٍ، وحصل على الجنسية الأمريكية.

اقتحم المتظاهرون قصر الأميرة أشرف أخت الشاه، ووجدوا فيه ما يذهل من وسائل الفساد، ومظاهر الترف، وتبديد الأموال. وأخذت فضائح القصر تنتشر، وتُعرف يوماً بعد يومٍ، وتشيع بسرعةٍ، ويتناقلها الناس، وربما سرت أخبار مبالغ فيها لما يضمرونه من كرهٍ للشاه وأهله.

وصل الخميني إلى طهران ٤ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (الأول من شباط ١٩٧٩ م)، وكان الوقت ظهراً واتجه إلى الصلاة، وأعلن أن رحيل الشاه نهاية المطاف، فالأهم من ذلك إنهاء التسلّط الأجنبي. ونقل التلفزيون الإيراني وقائع استقبال الشعب للخميني.

وحاول رئيس الوزراء شابور بختيار القيام بحركةٍ ولكن لم يجد تجاوباً من الضباط، وكان الخميني قد صرّح بأنه لن يتحدّث مع شابور بختيار إلا إذا قدّم استقالة حكومته.

وهكذا استمرت الثورة سنةً كاملةً ذهب ضحيتها ٧٦,٣١١ قتيلاً، وعشرات الآلاف من الجرحى والمشوّهين، وحدثت اشتباكات بين القوات الجوية والحرس الجمهوري، كما جرى انقسام الجيش على نفسه بين ١٢ - ١٥ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (٩ - ١٢ شباط ١٩٧٩ م) وأدّى إلى سقوط حكومة شابور بختيار.

منذ أن وصل الخميني إلى طهران كان في استقباله في مطار (مهرأباد) الدولي ما يقرب من ستة ملايين إنسان، وأعلن الخميني عدم شرعية حكومة شابور بختيار، وعيّن مهدي بازركان رئيساً للوزراء[1]، وكانت

(١) شكل مهدي بازركان حكومته على النحو الآتي:
١ – مهدي بازركان: رئيساً للوزراء.
٢ – كريم سنجابي: وزيراً للخارجية.
٣ – صدر حاج سيد جوادي: وزيراً للداخلية.
٤ – علي أردلان: وزيراً للمالية والاقتصاد.
٥ – اللواء طاقي رياحي: وزيراً للدفاع.
٦ – علي شريعتمداري: وزيراً للثقافة

حالة الفوضى، إذا وُجدت وزارتان، ولا بدّ من أن تطغى إحداهما على الأخرى.

أعلنت حكومة شابور بختيار الحكم العسكري في ١٧ ربيع **الأول،** وفرضت منع التجوّل، وأعلن الخميني العصيان، وانطلقت ملايين الناس إلى الشوارع، واتجهت نحو الثكنات العسكرية، وإلى مقرّ السلاح الجوي، وإلى مركز جهاز السافاك، وإلى قيادة قوات الصاعقة التي يقودها قائد حرس الشاه، وحصلت بعض الصدامات، ووقع بعض القتلى، واستولى الناس على كمياتٍ من الأسلحة.

جاء القائد الأعلى للقوات المسلحة الجنرال قرباغي إلى الخميني، وأعلن استسلامه، وحياد الجيش في المواجهة التي تحدث في المدن بين مؤيدي النظامين. وعادت القطعات العسكرية إلى مواقعها بناءً على أوامر الجنرال قرباغي، وأعلن الخميني قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

ألقى المتظاهرون القبض على شابور بختيار رئيس حكومة الشاه ونقلوه إلى مقر رئيس الوزراء الجمهوري مهدي بازركان، الذي هيّأ له وسيلة الهرب وفاءً للزمالة، وفرّ إلى فرنسا.

= والتعليم العالي.

٧ ـ غلام حسين شوكوهي: وزيراً للتعليم.

٨ ـ حسان إسلامي: وزيراً للاتصالات.

٩ ـ مصطفى كاتيرائي: وزيراً للإسكان والتنمية.

١٠ ـ يوسف طاهري غزواني: وزيراً للطرق والتجارة.

١١ ـ داريوش فوروهار: وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية.

١٢ ـ محمود أحمد زادة: وزيراً للصناعة والمعادن.

١٣ ـ علي أكبر موانيفار: وزير دولة.

١٤ ـ يد الله سحابي: وزير دولة للموضوعات الحركية.

١٥ ـ عباس تاج: وزيراً للطاقة.

١٦ ـ علي محمد إيزادي: وزيراً للزراعة.

١٧ ـ ريزا صدر: وزيراً للتجارة.

١٨ ـ ناصر ميناشي: وزيراً للدعاية والإعلام.

١٩ ـ هاشم صباغيان: نائباً لرئيس الوزراء.

٢٠ ـ أمير انتظام: نائباً لرئيس الوزراء للعلاقات السياسة.

٢١ ـ إبراهيم يزدي: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الحركية.

٢٢ ـ كاظم سامي: نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للصحة.

كانت (روزالين) امرأة الرئيس الأمريكي (كارتر) تطمئن الإمبراطورة الإيرانية (فرح ديبا)، وينتظر الشاه من الولايات المتحدة أن تُطفىء النار في إيران، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح ضمن دائرة اللعبة الدولية.

واقتُرح على الشاه أن يُقلع سلاح الطيران الإيراني من قواعده، ويهبط في بلدٍ صديقٍ لعلّ الشاه يستخدمه مرةً أخرى فيما إذا واتته الظروف، فأجاب الشاه: الفكرة رائعة ولكن يصعب تنفيذها لأنه لا يستطيع إصدار أمرٍ واحدٍ إلى سلاح الطيران إذ يتلقّى أوامره من (واشنطون).

وكان قد جاء الجنرال الإمريكي (هويزر) إلى طهران قبل عدة أيام من خروج الشاه من إيران، ويعدّ هذا الجنرال الرجل الثاني في سلاح طيران حلف شمالي الأطلسي، وقد قابل مع السفير الأمريكي الشاه، وهو الذي دفعه إلى الخروج من إيران.

كان الأمريكيون يرون أن الشاه لم يعد موضع ثقتهم بعد أن زلزلت الأرض تحت أقدامه، وظنّوا أنه بالإمكان إقامة حكومةٍ مدنيةٍ تستطيع الوقوف في وجه الثورة فيما إذا دعمتها الولايات المتحدة بشكلٍ كافٍ، واعتقدوا أن أعوان محمد مصدق هم الذين يمكنهم القيام بهذه المهمة، ويكونوا في الوقت نفسه قد جزّأوا أعوان الثورة فيما إذا تمكنوا من سحب أعوان مصدّق إلى جانبهم، ومن هذا المنطلق اختير شابور بختيار رئيساً للوزارة فلم يُؤدّ الغرض المناط به.

ورأى الأمريكيون أن يبلغوا الشاه أنه يمكنهم الاحتفاظ بقوةٍ كبيرةٍ من القوات الأمريكية على مقربةٍ من السواحل الإيرانية لردع أي تدخّلٍ أجنبيٍ ليكون للشاه الاختيار في الدفاع عن نفسه أو الهرب من البلاد، وهذا كل ما بإمكانية الولايات المتحدة أن تفعله لمصلحته، ولكن السفير الأمريكي (سوليفان) لا يمكنه أن يبلغ ذلك للشاه عن طريق الهاتف، لذا فقد أرسل الرئيس الأمريكي (كارتر) مبعوثاً خاصاً، هو (روبرت بيرد) زعيم الأغلبية في

مجلس الشيوخ الأمريكي، وهو زوج ابنة أحد الإيرانيين[1]. ثم أردفه بالجنرال (هويزر).

أمر (هويزر) كبار الضباط الإيرانيين أن يكونوا وراء (شابور بختيار)، لكن العلاقات لم تكن حسنةً بين الطرفين، لذا فقد قدّموا له تقارير غير صحيحةٍ عن الوضع على الساحة الإيرانية، ومن هؤلاء الضباط: رئيس جهاز السافاك (جهاز الأمن السري)، وقائد قوات المظليين (خسروداد)، وقائد القوات البرية (أوفيسي).

وعندما وصل الجنرال الأمريكي (هويزر) إلى طهران في ٤ صفر ١٣٩٩ هـ (٣ كانون الثاني ١٩٧٩ م) استاء السفير الأمريكي (سوليفان) الذي كان يرى أنه من الضرورة إبقاء العسكريين بعيدين عن المسرح السياسي.

كان مهدي بازركان، وآية الله سانجاني قد قادا الحركة ضدّ الحكومة، فأُلقي القبض عليهما، ثم توسّط لهما رئيس جهاز السافاك فأُفرج عنهما.

وفي ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٧٩ م) غادر الشاه إيران[2]، وقد اعترف بخطئه وهو أنه جعل إيران الدولة الفارسية الآسيوية أوربيةً غربيةً، كما اعترف بأنه كان مخطئاً عندما اعتمد على الأمريكان حيث تخلّوا عنه عندما سقطت أسهمه في بلده، وتركوه يُصارع وحده أمواج التيارات على ضعفه[3].

---

(١) هكذا وصلت المهانة بالمسلمين لمخالفتهم شرع الله فيزوّجوا بناتهم للنصارى، وهو محرّم عليهم ذلك، وهذه التجاوزات والابتعاد عن الدين قد أوصلهم إلى ما هم عليه الآن. فيجب عليهم الانتباه.

(٢) رفضت الولايات المتحدة استضافة الشاه. ولم تقبل ذلك سوى الأردن ومصر لكنه لم يرغب ذلك، وسافر إلى جزر (الباهاما)، ثم دُعي إلى المكسيك فانتقل إليها في شهر رجب ١٣٩٩ هـ (حزيران ١٩٧٩ م)، ثم رجع إلى مصر حيث مات في ١٥ رمضان ١٤٠٠ هـ (٢٧ تموز ١٩٨٠ م).

(٣) هذه هي السياسة الاستعمارية، وهل يتوقّع منها غير ذلك؟ كما هل يتوقّع للذي باع نفسه ووضعها في يد عدوه الكافر غير ذلك؟.

رفعت الثورة الإسلامية في إيران الشعارات التي يمكن أن يسير الشعب وراءها، وأن يقبلها دون مناقشةٍ ليس في إيران فحسب بل في الأمصار الإسلامية كلها، ويبدو أن هذه الشعارات لم تكن إلا لكسب التأييد والحصول على الدعم ريثما تمسك بزمام الأمور، لقد طرحت:

١ ـ العمل بالإسلام دون إعلان الانتساب الشيعي المرفوض في العالم الإسلامي بل حتى من أعدادٍ ممن ينتمي إلى هذا المذهب. . .

إذ يحملون على فكرة زواج المتعة التي تساهم في نشر الفساد، وعلى الطعن بالصحابة الذي يُسبّب الطعن بالإسلام فهؤلاء هم أبناء الدعوة، والجيل القدوة، وعلى تفضيل الأئمة على الأنبياء الذي يخالف المبدأ الإسلامي، ولكن يقبلون تفضيل آل البيت كنوع من التكريم والحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

طرحت الثورة الإسلام ومن أجل التأكيد على أنه ليس الفكر الشيعي وإنما الإسلام فقد أبرزوا بعض القادة المسلمين أمثال سيد قطب ـ رحمه الله ـ وأثنوا على فكره، ودعوا إلى منهجه.

صدّق المسلمون هذه الادعاءات، وهم الظامئون إلى الإسلام، وهم المضطهدون لحملهم الفكر الإسلامي، وهم المعذّبون، والمشردون، والذين يئنون من وطأة ما ينالهم نفسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، ودولياً، بل زاد الأمر على ذلك حتى رأى بعضهم أن فكرة أخذ العلماء لخمس الأموال كما يفعل العلماء الشيعة، أو كما يقوم عليه الفكر الشيعي لهو الأمر الصحيح كي لا يكون العلماء تحت رحمة السلطة، أو ينظروا إلى ما في أيدي الآخرين، كما هي حال وضع بعض الذين تضعف نفوسهم، ولكن بقي هذا الموضوع مدةً بسيطة، وإذا بقادة الثورة الإسلامية يُغيّرون ما كانوا يُبدون، وتضطر الفئات الإسلامية والشعب المسلم أن ينفضّوا عنهم.

٢ ـ معاداة الصليبية: وهي نوع من العمل بالإسلام. فالصليبيون يحقدون على الإسلام حقداً عظيماً، ومن هذا الحقد ما ظهر أيام الحروب

الصليبية الأولى، ومنه ما بدا في الحروب الصليبية الحالية التي حملت اسم الاستعمار، وقد ذاق المسلمون من جراء سيطرة الصليبيين عليهم وعلى بلادهم منتهى أنواع الذلّ والإهانة وتعرّضوا لحروب الإبادة، وتحكّم فيهم أراذلهم، ومن لا يرعى فيهم عهداً ولا ذمّة، ولا شك أن سكان كل مصرٍ قد ذاقوا ممن سيطر عليهم فكان كرههم منصباً عليه بالدرجة الأولى. وإن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي كانت مسيطرةً على إيران فالشعب هناك يحمل الكره لمن يسيطر عليه. ومن هنا فإن الثورة طرحت عداوتها لأمريكا بالدرجة الأولى، وحصلت على تأييد الرعية ولكن لم يلبث أن بدا غير ذلك.

٣ ـ **تأييد القضية الفلسطينية**: كان الحكم الإيراني السابق ممن أيّد تقسيم فلسطين واعترف بدولة اليهود، وجرى تمثيل سياسي معها، والرعية لا ترضى عن هذا ففلسطين جزء من بلاد الشام التي هي مصر إسلامي، ومنطقة مباركة، وتشدّ الرحال إلى المسجد الأقصى فيها، والاعتداء عليها اعتداء على المسلمين كافةً. فكان تأييد الحكم السابق للمغتصبين اليهود المعتدين القادمين من خارج المنطقة إن هو إلا اعتداء على المسلمين ووقوف في الخندق المقابل لهم، وبعد عن الإسلام.

ومن هنا فقد أعلنت الثورة الإسلامية أنها ستعمل على تخليص أرض الشام ممن دنّسها، وصرّح الخميني في ٢١ صفر ١٣٩٩ هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٧٩ م) أن إيران ستقطع علاقاتها مع إسرائيل التي لوّثت أرض فلسطين من بلاد الشام، وقامت على الاغتصاب.

وعندما حققت الثورة مبتغاها، وتسلّمت مقاليد الحكم ظهر غير ذلك.
ويمكن أن نعدّ معاداة الصليبية وتأييد القضية الفلسطينية موضوعاً واحداً. فالصليبيون هم الذين أتوا باليهود إلى فلسطين، وهم الذين دعموهم ووعدوهم بإقامة دولةٍ لهم. وكانت إنكلترا في بداية الأمر هي التي تتحرّك على الساحة بصفتها صاحبة النفوذ وأيدها الصليبيون كافة، ثم خلفها النفوذ

الأمريكي فكانت الولايات المتحدة تتحرك على الساحة بصفتها صاحبة النفوذ الحالي، وغدت إسرائيل ابنةً مدللةً للولايات المتحدة.

بقي على الدولتين (إيران والولايات المتحدة) إخفاء الواقع، وإظهار صحة دعوى رجال الثورة، بتمثيليات تعرض على الساحة الإسلامية. أبدت أمريكا معاداتها لما يجري على الساحة الإيرانية، وأعلنت إيران عداوتها للولايات المتحدة، وحدث هجوم إيراني على السفارة الأمريكية في ٢٥ رمضان ١٣٩٩ هـ (١٨ آب ١٩٧٩ م) إيذاناً بحدوث هجومات متتالية، واحتلال السفارة لإخفاء السياسة الحقيقية للنظام الجديد. وفي ١٤ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (٤ تشرين الثاني ١٩٧٩ م) احتلت قوات حراس الثورة السفارة الأمريكية، وأخذت عدداً من العاملين فيها، ووضعوا كرهائن، وعددهم اثنان وخمسون. وجاء الأمين العام للأمم المتحدة (كورت فالدهايم) للتوسط للإفراج عن الرهائن، ولكن دون جدوى لأن اللعبة يجب أن تتكامل أدوارها.

جمّد الرئيس الأمريكي (كارتر) الأرصدة الإيرانية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعادل ثمانية مليارات دولار، وهذا غير أموال الشاه الخاصة.

واشترط الخميني لإطلاق سراح الرهائن عدم التدخّل في شؤون إيران، وتحرير الأرصدة الإيرانية في الولايات المتحدة، ورفع الحظر عن أموال الشاه، وأصرّ على ضرورة إعادة الشاه إلى طهران لتقديمه إلى المحاكمة. غير أن الشاه لم يكن في الولايات المتحدة، ولا تحت قبضتها، بل لم تقبل أساساً استضافته لهذا الأمر. وهكذا بدا الخلاف شديداً بين إيران وبين الولايات المتحدة، غير أن الواقع ينفي ذلك.

اللعبة:

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تخضع العراق لنفوذها، وتحلّ محلّ بريطانيا، وتسيطر على العالم الإسلامي نهائياً سيطرة لا أمل في

نهوضه بعدها، وتخطط للقضاء على الإسلام بعدها ـ حسب تقدير أساطين ساستها ـ ورسمت لذلك طريقاً بأن ينطلق الشيعة ويتوسّعون في كل جهة، ويكون البدء من ناحية العراق حيث تخضع للنفوذ الأمريكي بلعبة، ثم نحو بلاد الشام، وكذلك نحو المشرق باتجاه بلاد الأفغان وباكستان، فيتوزّع العالم الإسلامي ويدور الصراع بين المسلمين (السنة) والشيعة، وتشعل الحرب بينهما الصليبية، وكلما خمدت زادوها سعيراً. ولا بد لهذا من تأييد للشيعة من بعض أهل السنة، وهذا يقتضي عدم إعلان السير بالمنهج والأفكار الشيعية التي تنفّر منها.

وانطلق السير بالمخطط وزال الشاه وحكمه الذي لم يستطع أن يؤدي هذا الدور لما عُرف من بُعدٍ عن الإسلام، ومحاربة لأهله، وجاء من عُرف عنه أنه حامل للواء الشيعة، ومظهر الإسلام، وسارت المرحلة الأولى، وحصلت الثورة على التأييد الإسلامي. غير أن هوى الخميني قد قاده إلى إعلان العقيدة الشيعية فخفّ التأييد، ثم انعدم، وعُرفت النوايا فانحصرت الثورة وتقوقعت داخل إطارها إلا ما كانت تنفثه من بعض المنافذ خارج دائرة ساحة عمل المخطط الذي تعثّر وتوقّف.

وعملت الولايات المتحدة الأمريكية على تغيير المخطط بعد فشله بمدّ نفوذها إلى العراق مكان النفوذ البريطاني وفشل هذا المخطط أيضاً الذي بدا بالحرب العراقية ـ الإيرانية، فرُسم مخطط آخر، وكانت فتنة صدام حسين التي بدأت بخلافٍ شديدٍ بين العراق وأمريكا وانتهت بالارتماء في أحضانها بعد أن خشي صدام على مركزه فانتشلته أمريكا من سقطته فتبعها، وكانت قد جعلت بريطانيا تحرّضه على احتلال الكويت، وأعطتهما الضوء الأخضر من قبلها، فلما تمّ الاحتلال تصدّت له، وجعلته يخضع على ركبتيه، وهكذا كان دخول النفوذ الأمريكي إلى العراق.

ومن المعلوم أن أمريكا التي أخرجت الشاه من بلده ـ كما مر معنا ـ فلما خرج رفضت استضافته بل لم تعد تعترف عليه، وكان من قبل العبد

المطيع، فلما انتهى دوره واقتضت مصلحتها ألقته على الدمن من غير مبالاةٍ أو تقديرٍ لماضٍ. وجاءت بما ادعت عداوتهم لتنفذ بهم مخططها بعلمهم أو من غير علمهم نتيجة جهلهم وغفلتهم رغم ذكاء الواجهة.

الحرب العراقية ـ الإيرانية:

عملت الولايات المتحدة الأمريكية على الوقيعة بين العراق وإيران وإثارة نار الفتنة بين الطرفين، وإشعال الحرب وذلك في سبيل طلب العراق للتدخّل الأمريكي وبذا يمتد نفوذ الولايات المتحدة إلى العراق الذي يأخذ تدريجياً بالدوران في فلكها، وفي الوقت نفسه تزداد إيران ارتماءً أمام المطالب الأمريكية، وتكثر طلباتها للنجدة والدعم. والعراق التي تقوم على أساسٍ قومي لا يمكنها أن تقبل قيام دولةٍ إلى جانبها على أساسٍ فكري قد يؤثر عليها، وعلى هذا يمكن دفعها وإثارتها للتحرك.

عادت الصدامات على الحدود العراقية ـ الإيرانية. وأخذت العراق تطالب إيران باسترجاع شط العرب، والتخلّي عن جزيرتي (أبي موسى) و (طنب) اللتين احتلتهما في ٣٠ ذي القعدة ١٣٩١ هـ، وهما في الخليج العربي، بين دولة الإمارات العربية وإيران، وحتى لا يمكن التسوية أخذت تطالب بمنطقة (عربستان) التي هي المنطقة النفطية الرئيسية في إيران، وتعدّها العراق جزءاً منها من الناحية الجغرافية والسكانية.

بدأت الحرب بين الدولتين في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠ م) باندفاع القوات العراقية داخل الحدود الإيرانية، وكانت المعارك سجالاً بين الطرفين بادىء ذي بدء. وقامت إيران بهجومٍ معاكسٍ في جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (آذار ١٩٨٢ م)، وأخذت العراق بالهجوم على ناقلات النفط في شوال ١٤٠٢ هـ (آب ١٩٨٢ م)، وأعلنت الدولتان الكبريان (الولايات المتحدة وروسيا) الحياد، ويبدو أنهما تدخلتا في مساعدة كلا الطرفين لإنهاكهما لمصلحة اليهود.

أعلنت روسيا أنه بإمكانها أن تزّج ثلاثاً وعشرين فرقةً حربيةً آليةً.

فهددت أمريكا روسيا باستخدام الأسلحة الذرية فيما إذا تدخّلت في الحرب لصالح العراق. كما هدّدت بالدخول بالحرب فيما إذا احتلّ العراق منطقة (عربستان)، كما صرحت أنها لا ترى فائدةً أو دليلاً لإغلاق إيران مضيق هرمز، هذه التصريحات في الوقت الذي كان الخلاف ـ حسب الظاهر ـ على أشدّه بين الولايات المتحدة وإيران، وكل منهما يكيل الاتهامات للآخر في خطةٍ لإخفاء الواقع فتتهم إيران الولايات المتحدة بتزويد العراق بالأسلحة، على حين تُعلن الولايات المتحدة أن العراق دولة غازية وعليها الانسحاب من الأراضي الإيرانية.

أصدر الرئيس الأمريكي كارتر عام ١٣٩٩ هـ مرسوماً بحظر الأسلحة عن إيران، ووافق على هذا المرسوم خليفته الرئيس ريغان، ولكنه سمح ببيع الأسلحة بشكلٍ سري، وعندما شاع خبر تهريب الأسلحة أنكر ذلك بحديثٍ تلفزيوني لـه بتاريخ ١٢ ربيع الأول عـام ١٤٠٧ هـ (١٤ تشرين الثـاني ١٩٨٦ م) غير أنه عاد واعترف في مؤتمرٍ صحفي عقده في ١٧ ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (١٩ كانون الأول ١٩٨٦)، ونقض ما سبق أن أذاعه، وقال: إن الأسلحة التي بيعت باثنين وأربعين مليون دولار لم تكن قيمتها الفعلية سوى اثني عشر مليوناً من الدولارات، والفرق إنما كان لصالح ثوار (الكونترا) في نيكاراغوا. وقد أنكر دور إسرائيل في الموضوع، لكنه عاد فـاعترف بعـد تصريح مستشار الأمن القومي (روبرت مكيفارلن) بوجود وسيطٍ في بيع هذه الأسلحة.

وكذلك جرى تعاون بين الـولايات المتحـدة وإيران عـام ١٤٠٣ هـ عندما أعطت المخابرات الأمريكية نظيرتها الإيرانية أسمـاء الشيوعيين في حزب (توده) وأعوانهم، وقد تم إعدام مائتي شيوعي إيراني يومذاك.

تشعر أمريكا بالأسى من تراجع الإيرانيين، وتركهم الأسلحة الأمريكية دون تدمير، فيأخذها العراقيون، ويعرفون أسرارها، وكانت أمريكا قد زوّدت الشاه بكميات كبيـرةٍ منها. والـولايات المتحـدة لا تريـد أن ترى هـزيمة

أسلحتها في إيران أمام العراقيين، ولا في فلسطين المحتلة أمام العرب. ولكنها تريد أن تقول أمام هزيمة إيران: إن الثورة الإيرانية هي سبب الفوضى، وعدم معرفة رجالها لاستخدام السلاح، ولو كان هذا السلاح بيد غيرهم لأحرز النصر، فهي تقصد أن رجال الإسلام ليسوا أهلاً لأي عمل، أي تريد أن توجّه بذلك الضربة إلى الإسلام.

قامت إيران بهجومٍ على الجبهة الشمالية، واحتلت ما يقرب من سبعمائة كيلو متر مربع. وزادت العراق من الهجمات الصاروخية والغارات الجوية ضد المدن والمنشآت النفطية في جزيرة (خرج)، حتى صعُب تصدير النفط الإيراني، وهددّت إيران بإغلاق مضيق (هرمز).

عملت العراق على التفاهم مع الأكراد لتتفرغ لقتال إيران، وجرت مباحثات مع جلال الطالباني في ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (كانون الأول ١٩٨٣ م)، وتنازلت العراق للأكراد عن كثير من مطالبهم، إذ وعدتهم أن تضم منطقة الحكم الذاتي للأكراد منطقة (كركوك)، وأن يُعطى الأكراد نسبةً ثابتةً من عائدات النفط تتراوح ٢٠ - ٣٠ ٪.

جرت مناقشات في مجلس الأمن في رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م) حول الصراع الدائر بين العراق وإيران، وبحث موضوع وقف إطلاق النار، وصدر القرار رقم ٥٩٨ القاضي بوقف إطلاق النار بين الفريقين المتخاصمين، وكانت إيران تشترط لموافقتها على هذا القرار اعتراف العراق أنها هي التي بدأت بالقتال أما العراق فقد كان يرفض القرار.

أعلن وزير خارجية إيران في ١٢ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ أن إيران مستعدة لمراعاة وقف إطلاق النار فيما إذا نص قرار مجلس الأمن أن العراق هي البادئة بالعدوان.

أخذت إيران تتراجع في ساحات القتال لصالح العراق منذ بداية عام ١٤٠٨ هـ، **وما انتصف العام** حتى كانت العراق قد **استعادت ما سبق لها**

أن فقدته، وزاد موقفها تحسناً أن جيش التحرير الوطني، وهو الجناح العسكري للمقاومة الإيرانية من مجاهدي خلق، والذي تدعمه العراق قد بدأ أعماله في رجب من عام ١٤٠٨ هـ.

دخلت العراق وإيران في مفاوضات لإنهاء الحرب في أواخر ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (آب ١٩٨٨ م)، وقد توقف إطلاق النار في ٨ محرم ١٤٠٩ هـ (٢٠ آب ١٩٨٨ م)، ووضع ثلاثمائة وخمسون ضابطاً من الأمم المتحدة على الحدود بين البلدين للإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار.

وفي ٢٨ محرم ١٤٠٩ هـ (٩ أيلول ١٩٨٨ م) أقر مجلس الشيوخ الأمريكي فرض عقوباتٍ اقتصاديةٍ على العراق، وامتنعت أمريكا عن استيراد النفط العراقي.

وفي ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) وافقت الدولتان على تبادل الأسرى بينهما.

وهكذا استمرت الحرب بين العراق وإيران ما يقرب من ثمان سنوات، ولم تستطع الولايات المتحدة فرض نفوذها على العراق، ولم تتمكن من إخراجها من دائرة النفوذ البريطاني لتدور في فلكها، وفي النهاية فرضت أمريكا على العراق عقوبات اقتصادية، وامتنعت عن استيراد النفط.

وأثناء هذه الحرب تبيّن أن أمريكا كانت تدعم إيران بالأسلحة، وظهرت الفضيحة التي عرفت باسم بوابة إيران، كما دعمتها دولة اليهود (إسرائيل)، وحلفاء أمريكا في المنطقة، وليس غريباً أن تكون بعض دول المنطقة تمدّ العراق بالمال، وتهرب إلى إيران الأسلحة بمعرفة أمريكا ودفعها، وبقيت الرهائن وسيلةً لتغطية الموقف، أمريكا تطالب بهم، وتعدّهم سبباً في تأزّم الخلاف بين الدولتين، وإيران تُسوّف بالأمر، وتضع الشروط، ويبدو الصراع للمشاهد على أشدّه، والممثلون وراء الستر يرسمون الأدوار، والرهائن وذويهم كبش الفداء. بل إن الرهائن قد غدوا وسيلةً للدعاية السياسية في الانتخابات الأمريكية زيادةً في التعمية. كما أن مبعوثي الثورة

الإيـرانية إلى مـوسم الحج ارتكبـوا جرائم في غـاية البشـاعة في الأرض الطاهرة في البلد الحرام، في الشهر الحرام في سبيلِ شحن الشيعة حقداً على المسلمين وإفراغ بعض هذه الشحنـات وإظهاراً أنـه ليس هناك من تفاهم.

وهكـذا سقطت الشعـارات التي طرحتهـا الثورة فـالتنسيق قائم مـع الولايات المتحدة الأمريكية، والتعاون موجود مع دولة اليهود (إسرائيـل)، والحقد الشيعي على المسلمين على أوجه.

الأوضاع الداخلية:

كانت الثورة الإيرانية تضمّ مختلف العناصر الناقمة على الحكم على اختلاف مشاربها، وتباين آرائها، وتباعد مناهجها في الحياة.

كان هناك المسلمون الملتزمون سواء أكانوا من المسلمين (من أهل السنة) أم من الشيعة، ويقودهم علماء الفـريقين، ويحملون على الحكم ارتبـاطه بـدائـرة الصليبيين، وسيـره في فلكهم، وتقليـدهم في منـاهجهم وأسلوب حياتهم، ويأخذون عليه انتشار الفساد بمختلف أنواعه. وسير كبار القوم على طريق الفساد، وتقليد العامة والصغار لهم، كما أخـذ العلماء على الحكم شيـوع المجون، واللهـو، والرشـوة، والفوضى، والبعـد عن شرع الله.

وكان هناك الشيـوعيون وأعـوانهم من الاشتراكيين ومختلف عنـاصر الإلحاد، ويعارضون الحكم في سياسته المرتبطة بالغرب، ويطالبونه بالتوجّه نحو الإمبراطورية الروسية الجارة الكبرى التي يمكن الاعتماد عليها بالدفاع لقوتها وجوارها، كما يطالبون النظام بتطبيق المنهج الاشتراكي الذي فيـه العدل والمساواة ـ حسب زعمهم ـ وبالاختصار يـريدون من الحكم تغييـر مواقعه من استعمارٍ إلى استعمارٍ ومن كفرٍ إلى إلحادٍ.

وكان هناك من يُسمّون بالـوطنيين أي الذين يـريدون اتبـاع سياسـةٍ

مستقلة لا ارتباط لها بالغرب أو الشرق، والعمل على رفع مستوى **البلاد** على مختلف الأصعدة بغض النظر عن القيم والمبادىء والإسلام، والحلّ والحرمة.

ثم هناك المتحررون من كل القيود، والذين يرون التخلّص من كل القيم وأولها الإسلامية منها، وذلك بالقضاء على العلماء والملتزمين وإبادتهم، أو الموافقة على السير في التيار العلماني المتحرر من القيم، وأن يشاركوا في ذلك الركب، ويُوافق هؤلاء كل الفئات السابقة، وإن كان بعض هؤلاء وأولئك من رجال السلطة الذين ينتفعون من الحكومة، ولكنهم يعارضونها بالواقع، كمن يأكل من مائدة السلطان ويدعو عليه بالهلاك وعلى ملكه بالزوال، وهؤلاء من المنتفعين وأصحاب المصالح.

وأخيراً هناك الذين يرغبون بالتغيير محبةً به، أو أملاً بالحصول على بعض المنافع والمراكز، لذا فهم يحاولون تصدّر المعارضة في الوقت المناسب.

هؤلاء جميعاً أعطوا قيادهم لآية الله الخميني على أنه أقوى المعارضة لما يملكه من رصيدٍ شعبيٍ بصفته رجل علمٍ، وأثر الدين بيّن في الشعوب، وأكثر ما يكون وضوحاً عند المسلمين، ولكن لكل تجمعٍ أمله، ولكل فئةٍ حلمها في إمكانية الوثوب إلى السلطة عندما يتغير الوضع، ويزول أثر كابوس جهاز الأمن السري (السافاك)، وهيبة الشاه، وقوة رجال الأمن.

فلما نجحت الثورة، وتركزت القوة بيد علماء الشيعة أخذت ملامح السلطة تصبغ بصبغة الدين فبدأت المنظمات ذات الصبغة الاشتراكية تنفصل عن التجمع بعد أن كانت قد أيدت الثورة من قبل بحماسةٍ. وكذلك أخذ أصحاب المصالح كعادتهم في كل مكان يبدون عواطف متزايدة نحو الثورة لينالوا بعض مآربهم، أو يتخلّون عن مواقفهم ومواقعهم السابقة، وقد رأينا كيف تخلّى (شابور بختيار)[1] عن موقعه في الجبهة الوطنية، وعن كل

---

(١) **شابور بختيار**: تكونت الجبهة الوطنية الثالثة برئاسة كريم سنجابي، وضمت مختلف =

مواقفه السابقة عندما ظنّ أن رئاسة الحكومة مغنماً كبيراً له أو صيداً ثميناً، ولم يدر أنه كان هو تلك الفريسة التي رماها الشاه بسهامه فصادها، فابتعد عن أصحابه، وفصلوه عن تنظيماتهم، ولم يلبث أن وجد نفسه صريعاً، وأُلقي به خارج الحدود.

وأبدى الشيعة تعصّبهم لمذهبهم، وأعلنوا أن المسلمين السنة ليسوا سوى أقليةٍ يسري عليهم ما يسري على بقية الأقليات من اليهود والنصارى والزرادشتيين، وبدأ الضغط على المسلمين في سبيل إذابتهم في المجتمع الشيعي أو هجرتهم أو إبادتهم، ووضعت خطة للقضاء عليهم خلال خمسين سنةً، وهذا ما جعل المسلمين (السنة) يتخلّون عن الثورة وتأييدها، ويقفون في الصف المعارض لها، وإن كانت معارضةً خاصةً متميزةً عن بقية الجماعات المعارضة.

وفي ٥ جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ (٢ آيار ١٩٧٩ م) اغتيل آية الله مطهري رئيس مجلس الثورة الإسلامي السري.

اختار الإمام الخميني (أبو الحسن بني صدر)[1] رئيساً لجمهورية إيران

= الأحزاب سوى الشيوعيين، في ١٣٩٨ هـ، وكان شابور بختيار أحد أعضاء الهيئة التنفيذية، وفي الوقت نفسه كان الأمين العام لحزب إيران، ولكنه طرد من الجبهة الوطنية حين عهد إليه الشاه بتشكيل حكومة مدنية في ٧ صفر ١٣٩٩ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٧٩ م) ولم تستمر سوى خمسة وعشرين يوماً، وفرّ بعدها، وتضاربت الأقوال عن مكان وجوده ثم ظهر في فرنسا في ١٠ رمضان ١٣٩٩ هـ. وقد فرّ من إيران بمعرفة بهشتي والخميني، ويعمل الآن في المعارضة من الخارج، وهو مواليد ١٣٣٤ هـ. [قُتل في منزله في فرنسا بتاريخ ٨/ ٨/ ١٩٩١ م].

(١) أبو الحسن بني صدر: ولد في مدينة همدان في ١٦ ذي القعدة ١٣٥٠ هـ (٢٣ آذار ١٩٣٢ م) حصل من جامعة طهران على الإجازة في العلوم الاجتماعية ثم في الحقوق والاقتصاد، ثم انتقل إلى فرنسا وتابع دراسته عام ١٣٨٢ هـ وحصل على الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية.
كان رئيس اتحاد الطلاب في جامعة طهران، وعضواً مؤسساً للاتحاد العالمي للطلاب الإيرانيين. وأصدر في فرنسا صحيفة باللغة الفارسية تسمى (إيران أزاد) =

الإسلامية، فرشح نفسه يوم ٨ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ فحصل على نسبةٍ عاليةٍ من الأصوات فكان أول رئيس جمهورية في إيران. وبقي هو المشرف على شؤون الدولة والموّجه لإدارتها وللرعية، وكلمته هي المسموعة، ورأيه هو النافذ، ولا سلطة لأحدً عليه، وبيده القوة الحقيقية إذ الجميع يأتمرون بأمره. وكذلك أعطى الخميني رئيس جمهوريته (أبو الحسن بني صدر) منصب القائد العام للقوات المسلحة.

كان أبو الحسن بني صدر يعتمد في قوته على مجاهدي خلق، وعلى جريدته التي تنطق باسمه «الثورة الإسلامية» وعلى بعض ضباط الجيش.

استقالت حكومة مهدي بازركان[1] في ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٧٩ م)، فعهد إلى محمد علي رجائي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ بإشارةٍ من الخميني.

أخذ أبو الحسن بني صدر ينتقد حكومة محمد علي رجائي بأنها قد نزعت منه كافة صلاحياته، فأُقصي عن منصب القائد العام للقوات المسلحة، وعُيّن مكانه رئيس الأركان اللواء ولي الله فلاحي. وفي ٥ شعبان

= أي إيران الحرة، وكان ينتقد فيها حكم الشاه. نزل الخميني في بيته عندما وصل إلى فرنسا في (٦ تشرين الأول ١٩٧٨ م). وأصبح المستشار الاقتصادي لمجلس الثورة الإيراني، ثم مديراً للإذاعة والتلفزيون.
نجح نائباً عن طهران في انتخابات ١٠ رمضان ١٣٩٩ هـ، وتولّى منصب وزارة الخارجية في ٢٨ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ إلى جانب إشرافه على وزارتي المالية والاقتصاد.

(١) مهدي بازركان: ولد عام ١٣٢٣ هـ، ودرس العلوم الهندسية، وتولى عام ١٣٧٢ هـ في عهد حكومة محمد مصدق رئاسة اللجنة التنفيذية لتأميم النفط. انضم بعد الانقلاب على محمد مصدق إلى حركة المقاومة الوطنية السرية التي أسسها جماعة من أعضاء الجبهة الوطنية بزعامة آية الله حاج سيد رضا زنجاني. وشكل عام ١٣٨٠ هـ حزب حركة تحرير إيران، وسجن عام ١٣٨٣ هـ، وشكل أول حكومة في عهد الجمهورية، ثم استقال، وأخذ في المعارضة، فاتهموه بالخيانة، فخرج من البلاد.

١٤٠١ هـ (٧ حزيران ١٩٨١ م) أصدرت محكمة الثورة قراراً بإغلاق صحيفة «الثورة الإسلامية» صحيفة رئيس الجمهورية (أبو الحسن بني صدر)، وصحيفة «الميزان» الناطقة باسم «مهدي بازركان». وقامت مظاهرات ضد بني صدر، ولافتات عليها (الموت لمن يعادي بهشتي)، وآية الله بهشتي وهو زعيم حزب الجمهورية الإسلامية. ولم تكن الهتافات باسم رئيس الجمهورية صراحةً، وإنما معروف أنه هو المقصود. وانتقد أبو الحسن بني صدر قرار تعطيل صحيفته، ووقعت مصادمات بين مؤديه ومعارضيه، وكان قد اختفى عن العيون منذ أن أُقصي عن منصب القائد العام للقوات المسلحة.

ظهر أبو الحسن بني صدر في ١٢ شعبان ١٤٠١ هـ (١٤ حزيران ١٩٨١ م) في المجلس النيابي، وألقى بياناً أمام المجلس دعا فيه إلى مقاومة الطغيان، وتوارى بعدها، وعاد إلى الاختفاء. فدعاه الخميني بوسائل الإعلام للذهاب إلى الإذاعة والتلفزيون وإعلان توبته لتعود الأمور إلى حالتها الطبيعية والقصد من وراء ذلك الخروج لإلقاء القبض عليه، ولكن (أبو الحسن بني صدر) أصبح يعرف أساليب الخميني فلم يستجب.

صدر أمر بمنع رئيس الجمهورية بالخروج من البلاد، وأصبحت تلصق به كل التهم التي يُدّعى أنها كانت سبب ما حدث في البلاد من مشكلات، وما وقع من حوادث، وخاصة عدم استعداد الجيش الكافي وهذا ما جعله يعجز عن مقاومة العراق والانتصار عليها.

وفي ١٩ شعبان ١٤٠١ هـ (٢١ حزيران ١٩٨١ م) قرر المجلس النيابي بموافقة ١٧٧ صوتاً ضد صوتٍ واحد، وامتناع ١٢ صوتاً عن التصويت عدم صلاحية (أبو الحسن بني صدر) لرئاسة الدولة، وفي اليوم التالي صادق الخميني على قرار المجلس بعزل بني صدر، وتشكّل مجلس رئاسي مؤقت من ثلاثة أعضاء هم: رئيس المجلس النيابي هاشم رافسنجاني، ورئيس الحكومة محمد علي رجائي، ووزير العدل آية الله

بهشتي[1]. ولكن تفجّر مقر حزب الجمهورية الإسلامية، **الحزب الحاكم، في** ٢٦ شعبان ١٤٠١ هـ فقُتل ثلاثة وسبعون عضواً من بينهم رئيس الحزب آية الله بهشتي.

وفي ٣ رمضان ١٤٠١ هـ (٤ تموز ١٩٨١ م) جرت الانتخابات الرئاسية، وفاز بالرئاسة محمد علي رجائي[2] رئيس الحكومة. وعُهد إلى محمد جواد باهونار[3] برئاسة الحكومة الإيرانية.

وتمكّن أبو الحسن بني صدر، ومسعود رجوي[4] من الهرب من البلاد

---

(١) آية الله بهشتي: محمد حسين بهشتي: ولد في أصفهان عام ١٣٤٧ هـ، درس في فرنسا، ونال درجة الدكتوراه في العلوم الدينية ودرس الفقه في جامعة طهران. ثم افتتح مدرسة للفقه في مدينة (قم). تزعم الجمعيات الإسلامية المؤتلفة التي دبرت اغتيال رئيس الوزراء حسن علي منصور في ١٩ رمضان ١٣٨٤ هـ لاتجاهه الأمريكي الصارخ. وانتقل إلى ألمانيا ومثل الشيعة في مدينة هامبورغ عام ١٣٨٤ هـ وبقي فيها حتى عام ١٣٨٩ هـ. ووضع قواعد حزب الجمهورية الإسلامية، وكان أحد قادة المجلس الثوري، ورئيساً للمحكمة العليا. يجيد الألمانية والإنكليزية والفرنسية إضافةً إلى الفارسية.

(٢) محمد علي رجائي: ولد في مدينة قزوين عام ١٣٥١ هـ، وعمل بالتدريس في المدارس الثانوية، وانضمّ عام ١٣٨٣ هـ إلى حركة تحرير إيران التي تزعمها مهدي بازركان، وانضم عام ١٣٩٨ هـ إلى حركة المعلمين المسلمين. وتسلم وزارة المعارف في أول حكومةٍ في عهد الجمهورية.

(٣) محمد جواد باهونار: ولد عام ١٣٥٢ هـ، وهو من أبناء إقليم كرمان، درس أصول الدين في كرمان، وفي معهد العلوم الدينية في مدينة (قم)، ونال درجة الدكتوراه في أصول الدين من جامعة طهران. وأخذ في إلقاء المواعظ، شارك في المظاهرات، وعيّنه الخميني عضواً في مجلس الثورة، وتسلّم منصب وزير التعليم، ومقرراً للجنة المركزية لحزب الجمهورية الإسلامية.

(٤) مسعود رجوي: زعيم منظمة مجاهدي الشعب الإيراني (سازمان مجاهدين خلق إيران) التي تعدّ آية الله محمود طالقاني زعيمها وحاولت ترشيحه في عام ١٤٠١ هـ لرئاسة الجمهورية، غير أنه رفض ذلك. وقف مسعود رجوي موقف المعارضة من الحكم، ثم فرّ سراً إلى فرنسا، ويتخذ موقف المعارضة في المنفى.

على متن طائرةٍ عسكريةٍ إيرانية، ووصلا إلى باريس **في ٢٨ رمضان** ١٤٠١ هـ (٢٩ تموز ١٩٨١ م)، وأخذا هناك بمعارضة الحكم الإيراني القائم وسُمّي أبو الحسن بني صدر رئيساً موقتاً للدولة، كما سُمّي مسعود رجوي رئيساً للحكومة في المنفى، وهو رئيس منظمة (مجاهدي خلق).

وفي الأول من ذي القعدة ١٤٠١ هـ (٣٠ آب ١٩٨١ م) قُتل رئيس الجمهورية محمد علي رجائي، ورئيس الحكومة محمد جواد باهونار بحادث انفجار قنبلة.

بعد خلو رئاسة الجمهورية بمصرع محمد علي رجائي جرت الانتخابات لملء المنصب في ٤ ذي الحجة ١٤٠١ هـ (٢ تشرين الأول ١٩٨١ م) ففاز بها علي خامنئي[1]. وأقسم اليمين الدستورية بعد عطلة العيد الأضحى مباشرةً في ١٥ ذي الحجة ١٤٠١ هـ. واستمرّ في منصبه حتى انتهت مدته في ١٥ ذي الحجة ١٤٠٩ هـ.

كان الخميني قد عيّن في البداية خليفةً له آية الله منتظري، ثم عاد فعدل عن ذلك قبل وفاته بمدةٍ وجيزة، فلما مات في ٢٩ شوال ١٤٠٩ هـ (٣ حزيران ١٩٨٩ م) اجتمع العلماء في اليوم التالي مباشرةً وانتخبوا **علي خامنئي** حاكماً مدة شهرين ريثما يتمّ إدخال تعديلات على الدستور، وتنتهي المآتم التي تحدث في عاشوراء أي أن مدة علي خامنئي قد أضيف إليها شهر.

جرت الانتخابات الرئاسية، وفاز بها علي أكبر هاشمي رافسنجاني[2]

---

(١) علي خامنئي: أحد المقربين من الخميني، ومن مؤسسي حزب الجمهورية الإسلامية. تولّى إمام الجمعة في طهران بعد حسين علي منتظري. وعين معاوناً لوزير الدفاع مصطفى جمران في وزارة مهدي بازركان. وكان عضواً في مجلس الدفاع الأعلى الإيراني في بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية. وأصبح أمين عام حزب الجمهورية الإسلامية بعد مصرع بهشتي. وتعرّض للاغتيال قبل اغتيال بهشتي بيومين أي في ٢٤ شعبان ١٤٠١ هـ (٢٧ حزيران ١٩٨١ م).

(٢) **علي أكبر هاشمي** رافسنجاني: ولد في قرية (نوج) من قرى **إقليم كرمان عام** =

الذي أقسم اليمين الدستورية في ١٥ محرم ١٤٠٩ هـ (١٧ آب ١٩٨٩ م).

لم يكن في حياة الخميني ليبرز أي رجل في الدولة حتى رئيس الجمهورية، لذا لم يُعرف عن حياة الرؤوساء الإيرانيين إذ كانوا يعيشون في ظله، وحسب توجيهاته، ولا يستطيع أحد منهم أن يرفع رأسه فلما مات أخذ دور علي أكبر هاشمي رافسنجاني يظهر نسبياً، وقد برز نسبياً أيام حرب الخليج.

وفي حرب الخليج التي قامت بسبب احتلال صدام حسين حاكم العراق للكويت، حاولت إيران أن تقف على الحياد، وقد هبطت على مطاراتها وفي أرضها طائرات عراقية فأعلنت أنها لن تعيد أية طائرةٍ تهبط على أرضها مهما كانت هويتها ولأحد الطرفين المتنازعين حتى تضع الحرب أوزارها، ولذا فلم تسمح بعودة الطائرات العراقية التي سقطت على أرضها أو هبطت في مطاراتها. وربما فعلت العراق ذلك لحماية طائراتها من الهجمات العنيفة التي شنّتها القوات المتحالفة عليها، ولا قدرة لها لمقاومتها.

وإذا كانت الثورة الإيرانية قد نجحت واستقرت إلا أنه لا تزال هناك معارضة سواء في الداخل، ولكنها صامتة، أم في الخارج، وهي تتحرّك ببطءٍ، وتتمثّل هذه المعارضة في عدة فئات:

١″ ـ **معارضة المسلمين (السنة)**، لما ينالهم من أذى، ولما يُخطط

= ١٣٥٢ هـ، وسافر إلى مدينة (قم) عام ١٣٦٧ هـ وألقي القبض عليه عام ١٣٨٣ هـ.

انضمّ عام ١٣٨٥ هـ إلى منظمة مجاهدي الشعب (مجاهدين خلق)، وكان أحد مؤسسي حزب الجمهورية الإسلامية، واعتقل عدة مرات عام ١٣٩٨ هـ، ثم أفرج عنه بأمر من الشاه، تعرض للاغتيال قبل يومٍ واحدٍ من تعرّض علي خامنئي للقتل أي في ٢٣ شعبان ١٤٠١ هـ، إذا اقتحم اثنانِ عليه المنزل، وأطلقا عليه النار، فجرح وعافاه الله. تولى رئاسة مجلس الشورى، وعين عضواً في مجلس الدفاع الأعلى، وعضو مجلس الرئاسة، والقائد العام للقوات المسلحة بالنيابة.

لهم من صهرٍ في المجتمع الشيعي، أو التهجير، أو الإبادة، ولما تحويه مناهج التعليم، ولما تبثّه وسائل الإعلام من إثارةٍ، ومن مخالفات للإسلام، وطعن في صحابة رسول الله ﷺ وهم الرعيل الأول الذين تربوا على أيدي رسول الله ﷺ والطعن بهم طعن بمن ربّاهم، وتأكيد بأنه ليس أهلاً للتربية، ثم تقديس لما يُسمّونهم بالأئمة، ونشر للفساد بإباحة زواج المتعة. وقد وجدت منظمة الفرقان التي تضمّ المسلمين الذين يعارضون الحكم.

٢" ـ **جماعة الحكم البائد**: وتتمثّل في الامبراطورة فرح ديبا[١]، وما تدفع من مال، وابنها رضا بن محمد رضا بهلوي[٢]، والأميرة أزهادة ابنة

---

(١) فرح ديبا: ابنة سهراب ديبا الذي كان ضابطاً في الجيش الإيراني بعد تخرجه من فرنسا في الدراسات الحربية.
ولدت في ٢٠ شعبان ١٣٥٧ هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٣٨ م)، توفي والدها وهي في الثامنة من عمرها. تعلمت دراستها الابتدائية في مدرسة (جان دارك) بطهران، والمرحلة الثانوية في مدرسة (الرازي) بطهران أيضاً، وبعدها سافرت إلى فرنسا لمتابعة دراستها في الهندسة المعمارية في كلية (كول) بباريس، وأمضت سنتين، ثم تزوجت بالشاه محمد رضا في ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٥٩ م)، وقد أنجبت أربعة أطفال هم:
رضا عام ١٣٨٠ هـ، وفرحناز ١٣٨٣ هـ، وعلي رضا ١٣٨٦ هـ، وليلى ١٣٩٠ هـ.
وتوجت أمبراطورة على إيران ١٣٨٧ هـ، وعمرها تسع وعشرون سنة أما زوجها فكان في الثامنة والأربعين.
خرجت مع زوجها وأولادها إلى مصر واستقروا هناك، فلما مات زوجها بقوا في رعاية السادات فلما صرع انتقلوا إلى الولايات المتحدة.

(٢) رضا بن محمد رضا بهلوي: ولد في ١١ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٦٠ م)، وبعد شهر صدر مرسوم بتعيينه وليا للعهد، وبعد سنتين عينت أمه وصية عليه في حالة وفاة أبيه، وصدر مرسوم بذلك.
ارتحل مع أمه وإخوته إلى الولايات المتحدة بعد هلاك أنور السادات في مصر، وكان قد درس هناك قيادة الطائرات من قبل في قاعدة (لوبوك) بولاية تكساس.
أعلن نفسه أمبراطوراً على إيران في ٢٢ ذي الحجة ١٤٠٠ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٨٠) وتسمى باسم «الإمبراطور رضا شاه الثاني».

أخت الأميرة أشرف[1]، وكان زوج أزهادة قد قتل في طهران في ١٨ محرم عام ١٤٠٠ هـ (٧ كانـون الأول ١٩٧٩ م)، وتشجع الأميـرة أزهادة عـدداً من الضباط، وتقوم بنشاطٍ في أوروبا، وتُصـدر مجلة (إيران الحـرة)، وتطلق على مجموعة الضباط الذين تمدهم بالمال اسم (الضباط الأحرار). وكان من بين المعارضة الجنرال (أوفيسي) قائـد القوات البـرية الـذي قتل في باريس عام ١٤٠٤ هـ.

٣" ـ **التجار**: بعد تأميم الثورة للتجارة الخارجية.

٤" ـ **فدائـيو الشعب (فدائيي خلق)**.

٥" ـ **مجاهدو الشعب (مجاهدي خلق)**، ويرأس هذا الحزب مسعود رجوي.

٦" ـ حزب (توده) الشيوعي.

٧" ـ حجـة الإسـلام حسّـاني زعيم الحـزب الإسـلامي (آيـة الله شريعتمداري)[2]

---

(١) أشرف بهلوي بنت رضا بهلوي: توأم الشاه محمد رضا، ولدت وإياه يوم ٢ صفر ١٣٣٨ هـ (٢٦ تشرين الأول ١٩١٩ م.
وأمهما تاج الملوك. تزوجت أشرف من (علي قوام) وأنجبت له ابنها (شهرام)، ثم طلقت بعدست سنوات من الزواج. ثم تزوجت من أحمد شفيق من مصر، وأنجبت له ابنها شهريار الذي اغتيل في بـاريس في شهر محـرم ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م). وتزوجت للمرة الثالثة من المحامي الإيراني مهـدي بوشهـري الذي التقت به في فرنسا.
كـانت الأميرة أشـرف مغرمـة بالمـلاهي الليلية ونـوادي القمار. ولهـا مجال في السياسة، فقد اتصلت بالمخابرات الإنكليزية التي شاركت المخابرات الأمريكيـة بالتخطيط للقضـاء على حركة محمد مصدق. وزارت روسيا واستقبلهـا ستالين، وتولّت منصب مندوب إيران في الأمم المتحدة، ولها علاقات كثيرة مع السياسيين الأمريكان والأوربيين.
غادرت إيران عام ١٣٩٨ هـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تعيش مع أمها تاج الملوك.

(٢) آية شريعتمداري: من أصل أذربيجاني، يعدّ من كبار علماء الشيعة، تولّى رئاسة =

٨" ـ المجموعات غير الفارسية: نتيجة التعصب الإيراني للفرس، وهذا ما أثار نزعة العصبية القـومية لـدى تلك المجموعـات، ومن أبرزهم الأكراد.

وربما تقلّ أهمية المعارضة بعد وفاة الخميني[1] للاعتدال، **وقد تشتدّ حيث تزداد آمالها، وتتوقّع النجاح بعد ذهاب تلك الداهية.**

= الحوزة العلمية في مدينة (قم)، شكل حزب جمهورية مسلمي إيـران الإسلامية (جمهوري إسلامي خلق مسلمان إيران) الذي أعلن عن تأسيسه في ٢٧ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (٢٤ شباط ١٩٧٩ م)، ومن أهدافه إقامة جمهورية اتحادية.
تعرّض لضغطٍ شديدٍ، واتهم أنه يريد تجـزئة إيـران، فأذاع بيـاناً في ٢٧ صفـر ١٤٠٠ هـ (١٥ كـانون الثـاني ١٩٨٠ م) تنصّل فيـه من الحزب، وانـزوى هو معتـزلاً السياسية، ويُقيم في مدينة (قم)، ثم قام الحزب بحلّ نفسه.

(١) آية الله الخميني: ولد في بلدة (خمين) في ٢٩ جمادى الآخرة عام ١٣٢٠ هـ، وعندما بلغ التاسعة عشرة من العمر، عـام (١٣٣٩ هـ)، سافـر إلى بلدة (عرق) ودرس على يد عبدالكريم حيارى، ثم أتم دراسته في مدينة (قم)، وانتقد رضا شاه، وبعد وفاة الشاه كتب الخميني كتابه (كشف الأسرار)، وتوفي الخميني عام ١٤٠٩ هـ، وبذا يكون قد عاش تسعةً وثمانين سنةً.

الفصل الرابع

الصّراعات الدّاخليّة

تبلغ مساحة إيران مليوناً وستمائة وخمسين ألف كيلومتراً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٤١١ هـ بما يزيد على خمسةٍ وأربعين مليوناً.

وتُقسم إيران إلى أربعة عشر إقليماً، يُعرف بالفارسية باسم «أوستان»، ويضمّ الإقليم عدداً من المحافظات، وتُعرف باسم «شهرستان»، وتشمل المحافظة عدداً من الأجزاء الإدارية التي هي أصغر منها، والأقاليم هي:

١ ـ الإقليم المركزي، ومركزه طهران.
٢ ـ إقليم جيلان، ومركزه رشت.
٣ ـ إقليم مازندران، ومركزه ساري.
٤ ـ إقليم أذربيجان الشرقية، ومركزه تبريز.
٥ ـ إقليم أذربيجان الغربية، ومركزه رضاية (أرومية).
٦ ـ إقليم كردستان، سنندج.
٧ ـ إقليم همدان، ومركزه كرمنشاه، ويشمل إقليم كرمنشاه أيضاً.
٨ ـ إقليم خوزستان، ومركزه الأهواز.
٩ ـ إقليم أصفهان، ومركزه أصفهان ويشمل يزد.
١٠ ـ إقليم فارس، ومركزه شيراز.
١١ ـ إقليم خراسان، ومركزه مشهد.
١٢ ـ إقليم كرمان، ومركزه كرمان.
١٣ ـ إقليم وجزر الخليج العربي، ومركزه بوشهر.
١٤ ـ إقليم وجزر خليج عمان، ومركزه بندر عباس.

وهناك أقاليم صغرى تتبع غيرها، وهي:

١ ـ إقليم كرمنشاه الذي يتبع همدان، ومقره كرمنشاه.
٢ ـ إقليم بلوخستان وسيستان ومركزه زهيدان.
٣ ـ إقليم سيمنان ويقع شرق الإقليم المركزي.
٤ ـ لارستان جنوب همدان وشمال خوزستان.
٥ ـ إقليم عيلام بين الحدود العراقية ولارستان.
٦ ـ إقليم بختياري شرق خوزستان.
٧ ـ إقليم أحميدي شرق خوزستان.

وتختلف الأقاليم بعضها عن بعض بعدد سكانها:

١″ ـ الإقليم المركزي، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٩,٢٢٤,٧٠٠	إنساناً.
٢″ ـ إقليم جيلان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٣,٠٢٦,٤٠٠	إنساناً.
٣″ ـ إقليم مازندران، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٣,٣٦٩,٧٨٠	إنساناً.
٤″ ـ إقليم أذربيجان الشرقية، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٧٧٣,٨١٢	إنساناً.
٥″ ـ إقليم أذربيجان الغربية، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٠٨٧,٠٥٢	إنساناً.
٦″ ـ إقليم كردستان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٩٥٦,٥٦٠	إنساناً.
٧″ ـ إقليم همدان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	١,٤٥٥,٠٠٠	إنساناً.
٨″ ـ إقليم خوزستان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٩٥٦,٥٦٠	إنساناً.
٩″ ـ إقليم أصفهان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٨٤٠,٢٦٠	إنساناً.
١٠″ ـ إقليم فارس، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢,٦٤٢,٢٨٠	إنساناً.
١١″ ـ إقليم خراسان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٤,٥٥٧,٠٦٠	إنساناً.
١٢″ ـ إقليم كرمان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	١,٣١٨,٨١٢	إنساناً.
١٣″ ـ الأقاليم الجنوبية، ويُقدّر عدد سكانه بـ	١,٣٢٨,١٢٤	إنساناً.
	٤٠,٤٣٦,٤٠٠	إنساناً.

أذربيجان
تبريز
أذربيجان الشرقية
بحر الخزر
بلاد التركمان
رشت
جيلان
أرومية
ساري
مازندران
مشهد
كردستان
سنندج
طهران
سيمنان
همدان
المقاطعة المركزية
كرمنشاه
خراسان
لارستان
أصفهان
أفغانستان
العراق
خوزستان
بختياري
يزد
الأهواز
أحميدي
كرمان
شيراز
زاهيدان
فارس
بوشهر
بلوخستان
و
سيستان
بندرعباس
الخليج العربي
مقاطعات إيران
خليج عمان

أما الأقاليم الصغرى:

١٤″ ـ إقليم كرمنشاه، ويُقدّر عدد سكانه بـ	١,٥٧١,٤٠٠	إنساناً.
١٥″ ـ إقليم بلوخستان وسيستان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٨٦٤,٨٥٢	إنساناً.
١٦″ ـ إقليم سيمنان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٣٣٧,٥٦٠	إنساناً.
١٧″ ـ إقليم عيلام، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٣٣٧,٥٦٠	إنساناً.
١٨″ ـ إقليم لارستان، ويُقدّر عدد سكانه بـ	١,١٦٤,٠٠٠	إنساناً.
١٩″ ـ إقليم بختياري، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٥١٢,١٦٠	إنساناً.
٢٠″ ـ إقليم أحميدي، ويُقدّر عدد سكانه بـ	٢٧٩,٣٦٠	إنساناً.
	٤٥,٥٠٣,١٧٢	إنساناً.

ويختلف السكان حسب الشعوب، إذ تضمّ إيران عدداً من الشعوب، ويسيطر الفرس عليها جميعاً، ولذلك يسمون دولتهم «امبراطورية» التي تعني سيطرة شعبٍ على شعوبٍ أخرى. ويكثر الفرس في المناطق الوسطى من الشمال إلى الجنوب، أما الشعوب الأخرى فتقيم على الأطراف.

ويُقيم الأتراك في الشمال الغربي في أذربيجان وفي الشمال الشرقي في خراسان.

ويُقيم الأكراد في المناطق الغربية في كردستان ولارستان، وهناك مجموعات مُتبعثرة في أنحاء من البلاد، في طهران، وكرمان، وجيلان، وهمدان.

ويُقيم العرب في إقليم خوزستان، وكان يعرف بالأهواز، ويُسمّيه العرب اليوم «عربستان» كما يُقيمون في الأجزاء الجنوبية الغربية.

ويُقيم البالوخ في الجنوب الشرقي على حدود باكستان.

وهناك المغول والتركمان في المناطق الغربية أيضاً.

وتختلف نسبة أعداد هذه الشعوب بعضها عن بعضٍ بالنسبة إلى الإيرانيين، إذ يُشكّل:

الإيرانيون :	٦١٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٢٧,٨٠٠,٠٠٠
ويُشكّل الأتراك :	٢٠٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٩,١٠٠,٠٠٠
ويُشكّل العرب :	٧٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٣,١٨٣,٠٠٠
ويُشكّل الأكراد :	٨٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٣,٦٢٠,٠٠٠
ويُشكّل البالوخ :	٢٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٩٠٠,٠٠٠
ويُشكّل مجموعات أخرى :	٢٪	بالنسبة إلى السكان كافة ، ويُقدّر عددهم بـ	٩٠٠,٠٠٠
			٤٥,٥٠٣,٠٠٠

أما من حيث العقيدة فإن غالبية السكان يدينون بالشيعة، وهم فرقة منحرفة عن الإسلام، وإن كانوا يدّعونه، ويضاف إلى ذلك ما يزيد على ثلث السكان من المسلمين (السنة) أما ما بقي من السكان وهم قلة لا يزيدون على ٢٪ فهم من النصارى الأرمن والنساطرة، ومن اليهود والبهائيين، والزرادشتيين.

وينشأ عن هذه الاختلافات صراعات سواء أكانت عنصريةً أم عقيديةً، مع ما يحدث من الصراعات الحزبية.

١" ـ الصراع العنصري

لما كان الشعب الفارسي يُسيطر على عدّة شعوبٍ أخرى، فلا بـدّ لهذه الشعوب من أن تتحرّك ضدّ الشعب المسيطر باستمرارٍ، ويدفعها إلى ذلك:

١ ـ أن الشعب الفارسي لا يحكم هذه الشعوب باسم العقيدة التي تجمع بين هذه الشعوب، وإنما يتخذ لنفسه ميزاتٍ على هذه الشعوب، إذ لا يهتمّ بها كاهتمامه ببني جلدته، حيث نجد الفقر، والجهل، والمرض ينتابها على حين أن أبناء الشعب الفارسي أحسن حالاً، ولو كان نسبياً. كما أنه يفرض لغته عليها، ولا ميزة لهذه اللغة، فلو فرض على الجميع العربية لقبل بها الآخرون على أنها لغة الإسلام، وهم من أتباع هذا الدين.

٢ ـ أن غالبية الشعب الفارسي تتخذ من الرفض عقيدةً لها، على حينٍ أن بقية الشعوب تدين بالإسلام (السنة)، ولو أن أكثر أفكار أهل السنة قد أُشربت بأفكار الشيعة نتيجة المناهج المدرسية، والتوجيه الدائم، والبيئة الشيعية المحيطة، ولا يمكننا أن نتجاهل أثر ذلك أبداً، غير أن العاطفـة يبقى لها دورها، كما يبقى للانتماء أثره، وللتعصّب مفعوله، وكل ذلك يُثير الناس أو يكون دافعاً من دوافع التحرّك ضدّ الشعب المسيطر.

٣ ـ يتحرّك الشعب ضدّ الآخر المسيطر عليه فتقع صدامات، وتُورث أحقاداً، أو يُخضع المسيطرون الثائرين بقسوةٍ، ويقع الظلم، فتتولّد الرغبة في ردّ الفعل والانتقام والثأر، ويستمرّ الصراع بين الطرفين.

٤ ـ لما كان الحاكم هو الذي يملك القوة الأكبر، والسلاح الفعّال ذا

الإمكانات الكبيرة، وهذا لا تملكه الحركات، ولذا فإن الغلبة عادةً للسلطة المركزية الأمر الذي يجعل رجال الحركات يفرّون إلى بلادٍ أخرى، ويطلبون منها المساعدة أو يستنجدون بها من الأساس، وهم لا يزالون على أرضهم التي يتحرّكون عليها، ومما يُساعد على ذلك وجود أرض هذه الشعوب على أطراف الدولة الإيرانية.

يقوم الفرس بإشاعة أن رجال الحركات هم على صلةٍ بالأعداء، وخصوم البلاد هم الذين يدفعونهم للحركة، ويمدّونهم بالسلاح في سبيل مصالحهم، ومن أجل تهديم العقيدة، وذلك حتى لا يلقوا تأييداً من أفراد الشعب العاديين، ولا يتعاطف معهم بقية أبناء الأمة.

وربما يحدث نتيجة الدعم الخارجي والمساعدة المستمرة قبول لأفكار المساعدين مع الزمن، أو أن هذه المساعدات ما كانت لتتم لولا الرغبة في نشر تلك الأفكار، إذ أن النفس البشرية تحاول دائماً الدفاع عن أفكار من يحسن إليها، وتجد المبررات لتصرفه، وبالتالي يتمّ مع الزمن، ومع الدفاع، ومع المحبة نتيجة المساعدة يتولّد قبول لأفكار وآراء من أحسن إلى شعبنا وأبنائنا. ومن هنا نرى انتشار الأفكار الاشتراكية في المناطق الشمالية المجاورة لتلك البلدان التي تحمل هذه الأفكار على حين تزداد نسبة الأفكار الرأسمالية في الجهات الجنوبية القريبة من مناطق انتشار تلك الأفكار.

ومع اختلاف الأفكار تزداد أسباب الصراع.

أما رجال الحركات الذين يفرّون فيتهمون المسيطرين بالظلم، والتعصّب، والاستبداد، وهذا ما أجبر المخلصين على التحرّك، وأثار فيهم العزة والكرامة ورفض الذلّ. وربما قبض المسيطرون على أعدادٍ من أبناء الشعوب الثائرة وألقوا بهم في السجون، وهذا ما يحرّك ذويهم في سبيل إنقاذهم، فتبقى حالة التوتر بين الطرفين، وتستمر الضغائن وخاصةً إن وجد من يحركها باستمرار.

٥ ـ أن الأعداء يجدون في الاختلاف العنصري أو التباين اللغوي، والتباعد العقيدي أو المذهبي مجالاً لإثارة الصراع كي تضعف الأمة ويتسنّى لهم السيطرة وفرض النفوذ، بل ونشر الأفكار وتنفيذ المخططات. وهذا ما يحدث ـ مع الأسف ـ على الساحة الإيرانية وفي مختلف الأمصار الإسلامية.

١ ـ الصراع الإيراني ـ التركي:

سبق أن قلنا أن الأتراك ترتفع نسبتهم في الجهة الشمالية الغربية في إقليم أذربيجان، وفي الجهة الشمالية الشرقية في إقليم خراسان، ولكن هذا الصراع يختلف بين الإقليمين:

أ ـ الصراع في أذربيجان:

تبلغ مساحة إقليم أذربيجان ١٨٦,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهو الآن قسمان، قسم تحت السيطرة الروسية، وتبلغ مساحته ٨٦,٦٠٠ كيلومتر مربع، ويُشكّل جمهوريةً اتحاديةً من جمهوريات الإمبراطورية الروسية البالغ عددها أربع عشرة جمهوريةً اتحادية، ولا شك فإن نظام الحكم السائد فيها هو النظام الشيوعي، أما القسم الآخر فهو يتبع إيران، وتبلغ مساحته ٩٩,٤٠٠ كيلومتر مربع، وهو إقليمان: أذربيجان الغربية ومركزها أرومية (رضاية)، وأذربيجان الشرقية ومركزها تبريز.

كانت تعيش عدّة مجموعاتٍ في إقليم أذربيجان، وتتكلّم عدة لغاتٍ إذ كان لكل مجموعةٍ لغتها الخاصة بها، وإن كانت متأثرةً باللغة العربية إلى حدٍّ كبير لأنها تدين بالإسلام، ومنذ القرن الخامس الهجري أخذت تفد إلى المنطقة كثير من القبائل التركية حيث سيطر السلاجقة على الدولة العباسية، ثم أخذوا يتوسّعون في الأناضول على حساب دولة الروم، واستقرّ الأتراك في ذلك الإقليم، وتفاعلت لغتهم مع اللغات المحلية فنشأت اللغة المعروفة الآن بالأذرية، والسائدة في إقليم أذربيجان.

قامت الدولة الصفوية الرافضية على أرض أذربيجان، واتخذت من مدينة تبريز عاصمةً لها. وفي عام ١٠٠٧ هـ نقل الشاه الصفوي عباس الأول عاصمته من تبريز إلى أصفهان، وفرض اللغة الفارسية على كل المناطق التي تخضع له، وبذلك حلّت اللغة الفارسية محل اللغة الأذرية رسمياً، ولكن الشعب بقي يتكلم لغته الخاصة به.

وكما فرض الصفويون اللغة الفارسية على أذربيجان، فقد فرضوا المذهب الرافضي، وقاموا بالتوجيه إليه، وغرس مبادئه في نفوس الناشئة حتى قبلت به نسبة من السكان، وهذا ما خفّف من عنف الحركة الأذربيجانية ضدّ التعصّب الفارسي، والتعصّب الرافضي.

قام الأذربيجانيون بحركات ضدّ الصفويين عام ١٠٧٩ هـ، وسيطروا على تبريز لمدة عامين، ثم هُزموا أمام الصفويين، وعادوا يتبعونهم.

ونتيجة الظلم الإيراني فإن أذربيجان عادت إليها الفوضى، وسادت الاضطرابات، وقامت حركات التمرّد، وخوفاً من الانتقام فإن قادة الحركة قد طلبوا من روسيا حمايتهم عام ١٢١١ - ١٢١٣ هـ.

وفي ١٥ صفر ١٢٢٠ هـ (١٤ أيار ١٨٠٥ م) خضعت منطقة (قره باخ) للحماية الروسية، وبدأت الحروب بين الروس والإيرانيين (١٢١٩ - ١٢٢٨ هـ)، وهدأت مدةً، ثم اندلعت من جديد (١٢٤١ - ١٢٤٣ هـ) ونتيجة تلك الحروب سيطر الروس على شمالي أذربيجان، فانقسم الإقليم الواحد إلى إقليمين، خضع أحدهما وهو الشمالي للروس، وباقي أذربيجان وهو الجزء الجنوبي بقي مع إيران. وأخذت مجموعات تفرّ من الجزء الجنوبي الإيراني إلى الجزء الشمالي الخاضع للروس، ليس حباً بالروس وإنما خوفاً من بطش الفرس.

ونشأ الحزب الاجتماعي الشعبي (اجتماعيون عاميون) في أذربيجان بتأثيرِ الاشتراكيين الروس، وأخذ على عاتقه تنظيم الشعب للمقاومة.

وشارك الأذربيجانيون في إضراب عام ١٣٠٩ هـ الذي قام ضدّ اتفاقية التبغ، وكان ولي العهد هو حاكم أذربيجان، ولم يستطع ممثلو شركة «تالبوت» البريطانية من الوصول إلى مدينة تبريز.

وشاركت أذربيجان أيضاً في الثورة الدستورية (١٣٢٣ - ١٣٢٩ هـ)، وظهرت على الساحة الجمعيات السرية الأذربيجانية التي عُرف أعضاؤها باسم «المجاهدين» ولجؤوا إلى وسيلة الاغتيال، وإن لم تكن وسيلةً سليمةً إلا أنهم قد اضطروا إليها تحت ظروف الضغط والبطش، وقُتل يومها رئيس الوزراء أتابك أعظم في ٢٣ رجب ١٣٢٥ هـ (٣١ آب ١٩٠٧ م)، وحاولوا قتل الشاه محمد علي في مطلع عام ١٣٢٦ هـ (شباط ١٩٠٨ م) بإلقاء قنبلةٍ على عربته.

وتأسّس المجلس الشعبي في تبريز، وظهر من قادة الحركة (ستار خان) و (باقر خان)، وتمكّن الثوار من الاستيلاء على مخازن الأسلحة في تبريز في رمضان ١٣٢٦ هـ (تشرين الأول ١٩٠٨ م)، ولم ينته العام حتى سيطروا على الأجهزة الإدارية في المدينة كافةً.

استطاع الإيرانيون بمساعدة الإنكليز والروس من إخضاع الحركة الأذربيجانية في ربيع الأول ١٣٢٧ هـ (نيسان ١٩٠٩ م)، ولكن الروس احتلّوا المنطقة، فثار السكان ضدّهم، وألزموهم على الخروج من تبريز، ولكن جاءت قوات روسية ضخمة، وتمكّنت من دخول تبريز مرةً ثانيةً في ١٥ ذي الحجة ١٣٢٧ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٠٩ م). وأخذ الثوار الأذربيجانيون يُهاجمون الروس ويُغيرون على مواقعهم التي تحصّنوا فيها، ذلك أن الروس كانوا يخططون للسيطرة على الجزء الإيراني من أذربيجان، ويُشجّعون على شراء الأراضي، وبقي الوضع كذلك حتى اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وكانت أذربيجان يومها شبه محميةٍ روسيةٍ.

أثناء الحرب العالمية الأولى كانت أذربيجان مجالاً للصراع بين العثمانيين والألمان من جهةٍ وبين الروس من جهةٍ ثانيةٍ، وكان شجاع الدولة

حاكم الإقليم يميل إلى الروس، ويُشجّعهم. ونشأ حزب مجاهدي أذربيجان، فدعا إلى التعاون مع العثمانيين ضدّ الروس الصليبيين. وعندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا في الأول من المحرم ١٣٣٦ هـ (١٧ تشرين أول ١٩١٧ م) اضطرت روسيا إلى ترك أذربيجان الإيرانية، وكذلك فإن الجزء الشمالي الذي كان تحت سيطرة الروس قد ثار على الروس وشكّل حكومةً محليّةً مناهضةً للشيوعية دعت إلى انضمام جزأي أذربيجان بعضهما إلى بعض، وجعل مدينة تبريز عاصمةً للدولة الجديدة.

نجح الشيوعيون في شهر جمادى الأولى من عام ١٣٣٦ هـ من السيطرة على (باكو) بمساعدة الاشتراكيين، والأرمن، وحزب همة، وقامت حكومة (باكو) الشيوعية التي قتلت من المسلمين ثمانية عشر ألفاً، وفرّ قادة حزب المساواة إلى مدينة (غاندكا) وشكّلوا حكومةً معارضةً باسم مجلس أذربيجان الوطني. ثم اختلف الرفاق بعضهم مع بعض، وجاءت القوات العثمانية كدعمٍ للمسلمين، وقضي على الحكومة الشيوعية في ٧ ذي الحجة ١٣٣٦ هـ (١٥ أيلول ١٩١٨ م). اضطر نوري باشا قائد العثمانيين (شقيق أنور باشا) أن ينسحب من (باكو) للهجوم الإنكليزي القادم من إيران، ولأن الدولة العثمانية خسرت الحرب، واضطرت إلى الانسحاب منها، ومن المواقع التي دخلتها بل من كل المناطق الخارجة عن المنطقة المعروفة باسم تركيا، ولكن بقيت حكومة مجلس أذربيجان الوطني قائمةً في باكو، وهي التي دعت إلى الوحدة بين جزأي أذربيجان، ولكن الشيوعيين استطاعوا القضاء على حكومة مجلس أذربيجان الوطني في ١٠ شعبان ١٣٣٨ هـ (٢٧ نيسان ١٩٢٠ م)، وتمكّنوا من فرض سيطرتهم على إقليم أذربيجان الشمالي، وأسّسوا جمهورية أذربيجان السوفيتية.

كما تشكّلت في أذربيجان الجنوبية الإيرانية جمعية نشر المعارف أثناء الحرب، واختلفت آراء قادتها حول الوقوف على الحياد أم بجانب العثمانيين أم إعلان الثورة على الحكومة الإيرانية والنفوذ الأجنبي فيها

الإنكليزي والروسي، وبرز من القادة (محمد علي خان) و(مرزا رضا خان) و(محمد غني زاده)، وسافروا إلى برلين، والتقوا هناك مع حسن تقي زاده.

كما تأسّست جمعية عُرفت باسم (كاوه)، وأصدرت جريدةً بالاسم نفسه، ولكنها اختفت مع انتهاء الحرب، حيث برزت نتيجة الظروف.

وظهر على الساحة الأذربيجانية بشكلٍ بارز الشيخ محمد بن الحاج عبدالحميد الذي اشتهر باسم الشيخ (محمد خياباني)، وهو من مواليد عام ١٢٩٨ هـ في بلدة خامنئي قرب تبريز، يجيد العربية، والتركية، والأذرية، والفارسية والفرنسية. اشترك في انتفاضة تبريز، وفي الثورة الدستورية (١٣٢٣ - ١٣٢٩ هـ)، وانتخب عضواً في المجلس النيابي عام ١٣٢٧ هـ. ووقف ضدّ الإنذار الروسي عام ١٣٢٩ هـ، وعندما نجح الروس في تهديداتهم خاف ففرّ سراً إلى بلاد داغستان، وعندما اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى رجع إلى منطقته، ولما احتلّ العثمانيون مدينة تبريز عام ١٣٣٥ هـ قبضوا عليه ونقلوه إلى مدينة (قارص) شرقي الأناضول، ثم أفرجوا عنه فرجع إلى إقليمه وأسّس جريدة (تجدد) في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٣٥ هـ) (٩ نيسان ١٩١٧ م)، ثم أسّس الحزب الديمقراطي في ١٠ ذي القعدة ١٣٣٥ هـ (أواخر آب ١٩١٧ م).

انسحب الروس من أذربيجان نتيجة الثورة الشيوعية في بلادهم، فأخذ محمد خياباني الجانب الاشتراكي ورجع العثمانيون إلى تبريز، فألقوا القبض عليه ثانيةً، ونقلوه إلى (أرومية) مع عددٍ من أعوانه، ولكن لم تلبث الدولة العثمانية أن هُزمت في الحرب العالمية الأولى، وانسحبت من الحرب، وخرجت من تبريز فعاد إليها محمد خياباني.

وقامت انتفاضة عنيفة في أذربيجان بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك أن وزارة وثوق الدولة أخذت تتعاون مع بريطانيا لدرجةٍ كبيرةٍ، ووقّعت معها معاهدةً أصبحت إيران نتيجتها أشبه بمحميةٍ بريطانيةٍ، كما تردّت الأوضاع الاقتصادية لدرجةٍ لم يعد بالإمكان السكوت عنها، فأعلن

محمد خياباني في ٢١ رجب ١٣٣٨ هـ (٩ نيسان ١٩٢٠ م) عن استقلاله. في أذربيجان، وقطع صلاته مع الحكومة المركزية في طهـران، وسمّـى بلاده بلاد الحرية (أزادستان) وركّز هجومه على الاتفاقية الأنكلو- إيرانية. وعملت بريطانيا جهدها على القضاء على هذه الحركة، وأخذت تُشجّـع الحكومة المركزية على سحق حركة أذربيجان.

عيّنت الحكـومة المـركزيـة (مخبر السلطنـة هـدايت) حـاكمـاً على أذربيجان، ودعمته بقواتٍ من القوزاق، وأخذ المبادرة بـإجراء مفـاوضاتٍ، وبينما كانت حكومة أذربيجان منصرفـةً إلى المفاوضـات ومطمئنـةً إلى ما يجري، فُوجئت بهجومٍ قويٍ من فرق القوزاق وذلك في ٢٩ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ (١٢ أيلول ١٩٢٠ م)، واستولى المهاجمون على مراكز الدولة، وقُتـل محمـد خيـابـاني في اليــوم الأول من عـام ١٣٣٩ هـ (١٤ أيلول ١٩٢٠ م)، وسكنت أذربيجان بعدها.

وفي عام ١٣٤٤ هـ حدث تمرّد في ديلمان (شاهبور)، وفي معمـل (الشخّاط) في مدينة تبريز.

وفي الحرب العالمية الثانية تدخّل الروس في أذربيجان، ولما أبعد الشاه رضا بهلوي في ٢٥ شعبان ١٣٦٠ هـ (١٦ أيلول ١٩٤١ م)، وتسلّم ولي العهد الأمر فقدت طهران سيطرتها تماماً على أذربيجان التي أصبحت خاضعةً للروس. ولكن عادوا فانسحبوا منها بعد انتهاء الحرب بضغطٍ من الغرب.

وفي الانتخابات التي جرت عام ١٣٦٢ هـ حصل على أكثر الأصوات في أذربيجان جعفر بيشوري الذي أسّس الحزب الديمقراطي الأذربيجاني عام ١٣٦٤ هـ، وقد افتتح المجلس الشعبي الذي يضمّ ٧٤٤ عضواً في ١٥ ذي الحجة ١٣٦٤ هـ (٢٠ تشرين الثـاني ١٩٤٥ م)، ورفـع شعار الحكم الذاتي في أذربيجان، وشكّل لجنةً مؤلّفةً من ٣٩ عضواً لإدارة البلاد، وفي ٨ المحرم ١٣٦٥ هـ (١٢ كانون الأول ١٩٤٥ م) جرى انتخاب المجلس

الوطني الذي ضمّ ١٠١ عضواً، وتسلّم جعفر بيشوري رئاسة الحكومة الأذربيجانية، وقد اعترفت بالحكومة المركزية.

وفي ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥ هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦ م) أرسلت حكومة طهران التي كانت برئاسة أحمد قوام السلطنة قواتٍ إلى أذربيجان تحت اسم الإشراف على الانتخابات ولضمان حريتها، ولكن حكومة أذربيجان رفضت ذلك فدخلت قوات طهران بالقوة، وفرّ جعفر بيشوري إلى جمهورية أذربيجان السوفيتية التي تحت سيطرة الروس، وهرب معه الكثيرون، وهدأت بعدها أحوال أذربيجان نسبياً.

ب ـ الصراع في خراسان:

خراسان منطقة واسعة، قسم منها يقع في إيران، وآخر في أفغانستان، والثالث تحت نير الاستعمار الروسي. والجزء الإيراني حاضرته مشهد، وأكثرية سكانه من الترك الذين يُعرفون هناك بالتركمان، وهو الاسم الذي أطلق في بداية الأمر على الترك الذين اعتنقوا الإسلام، وهم امتداد لسكان جمهورية تركمانستان الشيوعية الخاضعة للاستعمار الروسي.

ومما يلاحظ أن الحركات في خراسان قليلة جداً إذا قارناها مع منطقة أذربيجان، ويعود ذلك إلى قلّة الذين يُشجّعونها أو يدعمونها. فالتركمان الذين يعيشون في الأراضي التي يُسيطر عليها الروس لا توجد صلة بينهم وبين الحكومة الإيرانية لأنهم يدينون بالإسلام (السنة) على حين تأخذ إيران بالمذهب الشيعي وتتعصّب له، لذا لا يتوقّعون أي مساعدةٍ منها أو دعمٍ، بل كأنه لا رابط بينهما، وبالتالي فهي لا تهتمّ بهم، ولا تُعيرهم أي بالٍ، ومع أن إخوانهم من التركمان الذين يعيشون في خراسان الإيرانية يدينون بالإسلام مثلهم إلا أنهم لا يملكون من الأمر شيئاً فالأمر للحكومة التي بيدها الإمكانات وتستطيع التصرّف على حين أن سكان القسم الأذربيجاني الذي يخضع للروس يجد سكانه كل عطفٍ من إيران لأن أكثريتهم من الشيعة، وهذا ما يُشجّعهم على الحركة، وهم بالتالي على

صلةٍ بأبناء جلدتهم وعقيدتهم في إيران فإن ثار إخوانهم وفشلوا انتقلوا إليهم، ووجدوا المأوى والأمان. ومع ذلك فقد انتفض التركمان على الروس في انتفاضة تركستان العامة في المرة الأولى ١٣٣٥ - ١٣٤٠ هـ، وفي المرة الثانية ١٣٤٠ - ١٣٥٠ هـ.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الروس لم يهتموا بمنطقة خراسان الإيرانية لأن توسّعهم نحو الهند والمحيط الهندي إنما يكون عن طريق أفغانستان، ومن البلدان الإسلامية التي يسيطرون عليها أساساً وهي: تركمانستان، وأوزبكستان، وطادجكستان. كما أن الروس يتحاشون سكان خراسان حتى لا تكون هناك صلة بينهم وبين إخوانهم الذين يخضعون للسيطرة الشيوعية، وهم على عقيدتهم ومن أبناء جلدتهم، على حين أن الروس يهتمّون بموضوع أذربيجان لأنه المجال الطبيعي لهم للتوسّع نحو الخليج العربي.

٢ ـ الصراع الإيراني - الكردي:

تبلغ مساحة منطقة كردستان في إيران ما يزيد على ١٢٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويقيم فيها ما يزيد أيضاً على ثلاثة ملايين إنسان، غير أن عدد الأكراد في دولة إيران كلها يقرب من أربعة ملايين إنسان، حيث يُقيم عدد منهم في طهران، وجيلان، وأذربيجان، وكرمان، وهمدان، وشمالي خراسان، وفارس. ومن أشهر مدنهم: كرمنشاه، وسنندج، ومهاباد.

في العهد الصفوي حلّت المصائب بالأكراد، ونزلت بهم الفواجع نتيجة الحقد المذهبي الذي يحمله الصفويون، وهذا ما جعل الأكراد يميلون إلى الدولة العثمانية. فهجّر الصفويون خمسة عشر ألف أسرةٍ كرديةٍ إلى خراسان، وبرز من زعماء الأكراد هولوخان زعيم الأردلان، وخان أحمد خان.

وفي عهد الأفشار فعل نادر خان الأعاجيب بالأكراد، ومع أنه كان من أهل السنة، وأراد إعادة الإسلام إلى الحكم - حسب مفهومه - إلا أنه كان يميل إلى القسوة.

أما الزنديون **فكانوا من الأكراد**، ورغم أن كريم خان كان متسامحاً، ويُعدّ عهده أكثر العهود حريةً وتسامحاً ولكنه لم ينج من تعصّب الآخرين، ورغبتهم في الانتقام.

وفي أيام القاجاريين بدأ مُؤسّس دولتهم آغا محمد خان بضرب الزنديين والبطش بهم، كما قسا على شيوخ القبائل الكردية ووجهائها، حتى الذين أيّدوه إذ خشي منهم، وهذا ما دعا الشيخ عبيدالله بن طه الشمزيني إلى الانتفاض على القاجاريين في عام ١٢٩٨ هـ، وسيطر على أجزاء واسعةٍ من كردستان، واقترب من تبريز مقرّ ولي العهد حاكم أذربيجان، فخاف الشاه ناصرالدين من هذه الحركة، واستنجد بالبريطانيين والروس، وأسرعت القوات الروسية إلى الحدود الإيرانية غير أن العثمانيين قد أمروا جيوشهم بالاستعداد والمرابطة على الحدود، ومنع الروس من دخول الأرض الإيرانية، فلم يُحرّك الروس ساكناً، وأخيراً جنّد الإيرانيون عشرين ألفاً، وساقوهم إلى كردستان بدعمٍ من الأجانب، وتمكّنوا من هزيمة الكرد، وفرّ الشيخ عبيدالله إلى أراضي الدولة العثمانية، لكن الإيرانيين اتخذوا طريقة إرهاب السكان من قتلٍ، وسجنٍ، ونهبٍ، واعتداءاتٍ مختلفةٍ. ونقل الشيخ عبيدالله إلى إستانبول في شهر شعبان ١٢٩٨ هـ (تموز ١٨٨١ م) بضغطٍ من الدول النصرانية، غير أنه فرّ بحيلةٍ في يوم عيد الفطر ١٢٩٩ هـ (١٥ آب ١٨٨٢ م) بحجة أنه معتكف في العشر الأخير في رمضان، وانتقل إلى ميناء (بوتي) على الساحل الشرقي للبحر الأسود، ومن هناك انتقل إلى كردستان، ولكن أُلقي عليه القبض ثانيةً، وبناءً على طلب الشاه ناصرالدين أمر السلطان عبدالحميد بنقله إلى مكة المكرمة، وهناك وافته منيته في شهر ذي الحجة من عام ١٣٠٠ هـ (تشرين الأول ١٨٨٣ م).

وثارت عشيرة (دشت) الكردية على سوء تصرّف حاكم (أرومية) الأمير جيهان سوز مرزا، وكانت بقيادة ولدي الشيخ حسن الذي مات في السجن، **وهما**: حسو، وبدر، وامتدّ لهيب الثورة إلى مدينة (مهاباد)، واستمرت

الثورة حتى عام ١٣٠٥ هـ، واضطرت حكومة طهران إلى الاستجابة إلى بعض مطالب الكرد، حيث عزلت الأمير جيهان سوز مرزا عن أرومية وعيّنت مكانه أحد أبناء المنطقة من الأكراد، وأبعدت عزة الله خان حاكم سردشت، وعينت مكانه أحمد المكري.

وقام الأكراد بحركةٍ أثناء الثورة الدستورية ١٣٢٣ - ١٣٢٩ هـ.

ووقف قسم من الأكراد بجانب الأمير (سالار) عندما ثار ضدّ ابن أخيه شاه إيران محمد علي، وكان وقوفهم هذا بسبب حقدهم على أعمال الحكومة، ومنها فرض ضريبة الملح، ومن هذا يتبيّن أنهم كانوا هم المقصودون من هذه الضريبة لا سواهم.

وفي الحرب العالمية الأولى حاولت كل الأطراف المتقاتلة استغلالهم، الإنكليز، والروس، والألمان، ولكنهم وقفوا بجانب العثمانيين حلفاء الألمان بدافعٍ ديني، وضدّ التعصّب المذهبي الإيراني، وانتفض آل قاضي في مهاباد. كما ثار (باب الغوث أبادي) وحاول الاتصال بالروس.

وشارك الأكراد بعد الحرب العالمية الأولى في حركة (جيلان) التي قادها (مرزا كوجك خان) والتي عرفت باسم حركة (الجنكليين) حيث انضمّ إليها متطوّعون من أذربيجان، وكردستان، وطهران. وشكّلت لجنة (اتحاد إسلام)، وقاتلت المحتلّين من الروس والإنكليز. وجاء إلى الأكراد دعم من الدولة العثمانية بقيادة المقدّم حسين التبريزي، إذ أن العثمانيين قد دعموا هذه الحركة وأيّدوها. وقامت الجمهورية في (جيلان) عام ١٣٣٨ هـ، فأرسلت إليها حكومة طهران قوةً من فرق القوزاق، لكن هذه القوة قد هُزمت، واقترب خطر حكومة جيلان من طهران، ولكن القوات البريطانية المتمركزة في قزوين حالت دون تقدّم (الجنكليين) نحو طهران، وتحرّكت لقتالهم، وتمكّنت من القضاء على حركتهم في شهر صفر من عام ١٣٤٠ هـ (تشرين الأول ١٩٢١ م) وقُتل (مرزا كوجك خان).

وساهم الأكراد بالوقوف في وجه حكومة (وثوق الدولة) التي تشكّلت في شهر شوال من عام ١٣٣٤ هـ (آب ١٩١٦ م) لما عُرفت من موالاةٍ للبريطانيين، وكان الهدف من تلك الحركة إجبار الحكومة على إجراء انتخابات، وتشكيل المجلس النيابي.

وعاد الأمير (سالار الدولة) للقيام بثورة ضدّ ولد ابن أخيه شاه إيران أحمد، ولكن الأكراد لم يدعموه بقوةٍ، وإن كان بعضهم قد وقف معه، فهُزم، وفرّ إلى العراق، وبعدها انتقل إلى حيفا في الشام.

وثار (سردار رشيد) في منطقة أردلان، وأقام صلات مع الأمير (سالار الدولة)، وعمل على الاتصال مع الروس، وامتدّ نفوذه إلى بقية جهات كردستان وخاصةً مدن كرمنشاه، وسنندج، ولكن الحكومة المركزية في طهران قد تمكّنت من إلقاء القبض عليه في جمادى الأولى ١٣٣٨ هـ (شباط ١٩٢٠ م) بحيلةٍ دبّرها حاكم (سنندج) شريف الدولة.

وثار إسماعيل شكّاك الذي عُرف باسم (سمكو)، وكان أخوه الأكبر جعفر قد قُتل عام ١٣٢٣ هـ لصلته مع الثوار الأكراد. بدأ (سمكو) ثورته في مدينة أرومية (رضاية) مع انتهاء عيد الفطر من عام ١٣٣٩ هـ، ودخل مدينة (مهاباد) في ٥ صفر ١٣٤٠ هـ (٧ تشرين الأول ١٩٢١ م)، كما دخل عدداً من المدن الأخرى، وأصدر جريدة أسماها (نهار الكرد ليل العجم). ولجأ رضا خان بهلوي إلى السياسة فاتصل بعددٍ من المتنفّذين الأكراد، ومنّاهم، وأرسل قوةً استطاعت دخول مدينة (مهاباد) غير أن (سمكو) لم يلبث أن استعادها، لكن قوته أخذت تضعف، وأخيرا هُزم أمام الإيرانيين، واحتلّوا مقرّه في (جهريق) في شهر ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (تموز ١٩٢٢ م) فانتقل إلى تركيا، ومنها إلى العراق، واتصل بالإنكليز، فمنّوه، وأسكتوه، وهدّدوه حيث لا يمكنهم التخلّي عن أصدقائهم ما داموا يسيرون كما يُريدون، ويُنفّذون مخططاتهم، ولا يقومون بأي عملٍ دون أوامرٍ من السادة. وتمكّن (سمكو) من العودة إلى كردستان عام ١٣٤٢ هـ، وبعد أشهرٍ اضطر للفرار

مرةً أخرى. وبعد مرور سنواتٍ رجع إلى موطنه، وثار **الأكراد في مطلع شهر** رجب من عام ١٣٤٨ هـ لأن إيران أرادت أن تُجبر الأكراد على ارتداء اللباس الفرنجي، وابتدأت ثورتهم قرب مدينة (مهاباد)، فأرسل لهم الشاه رضا بهلوي قوةً كبيرةً أخضعتهم، واضطر قادتهم إلى الهروب، ودخلوا العراق، ودُبّرت مؤامرة في مدينة (أشنو) في ١٩ صفر ١٣٤٩ هـ (١٥ تموز ١٩٣٠ م)، وقُتل فيها (سمكو).

وخفّت بعد ذلك الحركات إذ عانى الأكراد الكثير من ثوراتهم، ومن ظلم الإيرانيين، ومن تأخّر الأوضاع الاقتصادية في منطقتهم بسبب ظروف التمرّد المستمر، والقتال الدائم.

قام جعفر سلطان بحركةٍ، وفشل، واضطر إلى الالتجاء إلى العراق في ٧ رمضان ١٣٥٠ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٣٢ م).

سنّ الشاه رضا بهلوي سياسةً أسماها (تخته قابو) أي سياسة استقرار القبائل حيث كان يريد القضاء على حياة الانتقال لما لها من أثرٍ على الفوضى والتمرّد، وصعوبة ضبط الأمور، غير أن هذه السياسة قد أثارت القبائل وخاصةً الكردية منها فقامت بعدة حركاتٍ من ١٣٥٥ - ١٣٥٨ هـ.

ولا شكّ فإن سياسة الاستبداد التي سارت عليها حكومات إيران المتعاقبة تجاه الأكراد هي التي كانت تُولّد عندهم روح التمرّد والانتفاضات هذا إضافةً إلى طبيعة بلادهم الجبلية التي تُساعد على ذلك، وحياتهم القبلية التي تُسهّل عليهم الانتقال، ونفوسهم التي تكره الاستبداد، وتأنف الذلّ، ويمكن أن نقول أيضاً: إن إهمال بلادهم من قبل الإيرانيين كان له دور فعّال في ذلك. فالحالة الصحية في كردستان كانت سيئةً للغاية تفوق بكثير سوء ما كانت عليه في بقية المناطق، لقد مرّت ستون سنةً، ولم تتغيّر فيها الحالة الصحية بل لم تكن توجد وزارة صحة في إيران، وإنما كانت مديريةً مُلحقةً بوزارة الداخلية.

ودأب الشاه رضا بهلوي على تهجير القبائل الكردية من مواطنها إلى مناطق أخرى بعيدةً عن منازلها الأصلية، ونائيةٍ عن بلاد الكرد، لقد هجّر قبائل (جلالي) و(بيران) و(كلباغي) إلى (سلطان أباد) و(شيراز) و(كرمان).

وعملت الحكومات الإيرانية المتعاقبة على منع استخدام اللغة الكردية كوسيلةٍ للتخاطب، وعلى تغيير الزي الكردي، ومحاولة إجبار الأكراد على ارتداء اللباس الفرنجي. وعملت كذلك على تغيير أسماء المدن الكردية إلى فارسية، فكان هذا كله عاملاً لانتفاض الأكراد والدفاع عن كرامتهم وحقوقهم.

وتشكّل حزب كردي صغير في بداية الحرب العالمية الثانية، وهو حزب التحرّر الكردي بزعامة (عزيز زندي) في منطقة (مهاباد)، وفي ٣ شعبان ١٣٦٠ هـ (٢٥ آب ١٩٤١ م) دخلت القوات الروسية من الشمال، والقوات البريطانية من الجنوب والغرب، فاستقالت حكومة علي منصور الموالية لألمانيا الهتلرية في ٥ شعبان ١٣٦٠ هـ (٢٧ آب ١٩٤١ م)، واضطر بعدها الشاه محمد رضا بهلوي للتنازل عن العرش لابنه في ٢٥ شعبان ١٣٦٠ هـ (١٦ أيلول ١٩٤١ م).

وتأسّست جمعية (بعث الكرد)، وزاولت نشاطها في جمادى الأولى ١٣٦٢ هـ (أيار ١٩٤٣ م)، وانضمّ إليها قاضي محمد، وكان ذا مواهب وإمكاناتٍ فزاد نشاطها. وفي ٨ رمضان ١٣٦٤ هـ (١٦ آب ١٩٤٥ م) رفع بياناً، وفيه توقيع ستةٍ وسبعين رجلاً من شيوخ وأعيان الأكراد، يُعلن عن تأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران. وعقد الحزب أول اجتماعٍ له في مدينة (مهاباد) بتاريخ ١٩ ذي القعدة ١٣٦٤ هـ (٢٥ تشرين الأول ١٩٤٥ م)، ودام الاجتماع مدة ثلاثة أيامٍ، وأصدر هذا الحزب جريدته التي تحمل اسم (كردستان) في ٨ صفر ١٣٦٥ هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٦ م)، وكان جعفر بيشوري قد أعلن في تبريز، وقبل شهر أي في ٨

محرم ١٣٦٥ هـ (١٢ كانون الأول ١٩٤٥ م) عن تأسيس جمهورية أذربيجان الديمقراطية ذات الحكم الذاتي. وأعلن قاضي محمد في ١٩ صفر ١٣٦٥ هـ (٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ م) في مهاباد عن تأسيس جمهورية كردستان الديمقراطية ذات الحكم الذاتي، وأبان أنه لا ينوي الانفصال عن طهران، ولكن يُطالب حكامها بوضع حدٍّ للمظالم الإيرانية، وعرفت هذه الجمهورية باسم «جمهورية مهاباد».

وفي ٢٢ جمادى الأولى ١٣٦٥ هـ (٢٣ نيسان ١٩٤٦ م) حدث تفاهم بين جمهوريتي أذربيجان وكردستان الديمقراطيتين، ووُقّعت اتفاقية تعاونٍ بينهما، ولكن حاولت حكومة أحمد قوام السلطنة في طهران بذر الشقاق بينهما.

أرسلت حكومة طهران قواتٍ لاقتحام أذربيجان وكردستان بحجة أن هذه القوات إنما أُرسلت بمهمة الإشراف على الانتخابات المزمع إجراؤها، فعقد القاضي محمد اجتماعاً في مطلع عام ١٣٦٦ هـ (أوائل كانون الأول ١٩٤٦ م)، واحتجّ على إرسال هذه القوات، وأعلن الاستعداد للمقاومة. أما في تبريز فقد أُذيع بيان سُمح فيه لقوات طهران بدخول أراضي أذربيجان، وفي اليوم التالي احتجّ قاضي محمد على هذا البيان وشجبه.

تقدّمت قوات طهران نحو كردستان من أربع جهاتٍ، وتمكّنت من اجتياحها بعد أن قُتل ما يزيد على خمسة عشر ألف كردي، وأُلقي القبض على قاضي محمد وبعض الأفراد الذين كانوا دعامةً له، وقُدّموا للمحاكمة التي قضت بإعدامهم، وفي ٨ جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ (٣٠ آذار ١٩٤٧ م) ونُفّذ حكم الإعدام بقاضي محمد، وأخيه صدر، وابن عمه سيف.

وعلى الرغم من أن إيران أصبحت دولةً غنيةً بعد تدفّق النفط في أراضيها إلا أن منطقة كردستان بقيت تُعاني من الفقر حيث لم يطرأ عليها تغيّر يُذكر.

وفي ٦ ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ (٤ شباط ١٩٤٩ م) جرت محاولة

لاغتيال الشاه محمد رضا بهلوي في جامعة طهران، وقد استغلّت السلطات الإيرانية هذه الحادثة، ومع موجة الاعتقالات التي تمّت في البلاد وجّهت ضربةً عنيفةً إلى كردستان واعتقلت الكثير من أبنائها.

وفي انتخابات ١٣٧٢ هـ حصل مرشح الحزب الديمقراطي الكردستاني على فوزٍ ساحقٍ في مدينة (مهاباد)، غير أن حكومة طهران قد ألغت تلك الانتخابات وعيّنت شخصاً من لدنها.

وفي العام نفسه انتفض فلاحو منطقة (مهاباد) فبطشت بهم الحكومة الإيرانية.

وساند الأكراد حكومة محمد مصدق.

وعندما جرى استفتاء حول تحديد صلاحيات الشاه في ٢٣ ذي القعدة ١٣٧٢ هـ (٣ آب من عام ١٩٥٣ م) وقف الأكراد بجانب القرار الذي يُحدّد صلاحيات الشاه.

وثارت كردستان ضدّ حلف بغداد، وطالبت بانسحاب إيران منه، وتكلم زعماؤها عن أهداف هذا الحلف الحقيقية، وأهداف من يقف خلفه من الدول النصرانية.

جرى هجوم إيراني كاسح على منطقة كردستان في ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ (٤ شباط ١٩٥٦ م).

ولما قامت حركة في العراق، وقضت على النظام الملكي، وأعلنت النظام الجمهوري في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ (١٤ تموز ١٩٥٨ م) خُصّصَت محطة في إذاعة القاهرة مُوجّهة إلى الأكراد في إيران، وبدأت تبثّ أخبارهم، وما يُعانون من قسوةٍ في ظلّ حكم الشاه.

وانفجرت ثورة في منطقة كردستان عام ١٣٨٧ هـ، ولم تستطع طهران من القضاء عليها إلا بعد مرور ثمانية عشر شهراً من اندلاعها.

٣ ـ الصراع العربي - الإيراني:

يعيش العرب في إيران في عربستان (الأهواز) وعلى سواحل الخليج العربي، وخليج عُمان، وإن كان تجمعهم الرئيسي في عربستان.

وعربستان هي المنطقة الواقعة إلى الشرق من شطّ العرب، وتُعدّ تتمةً لمنطقة السواد في العراق، وتصل إلى سفوح جبال زاغروس والتي تحيط بها من الشمال والشرق، وتعيش في شمالها قبائل (بختيار) و (اللور)، والتي تنتقل بين المرتفعات صيفاً، والسفوح والتلال شتاء بل تصل إلى سهل عربستان، يروي المنطقة نهرا (قارون) و (الكرخة) وروافدهما، وتبلغ مساحة المنطقة ما يزيد على ١٨٥ ألف كيلومتر مربع، ويسكنها ما يزيد على ثلاثة ملايين إنسان.

كانت قبيلة (كعب) العربية هي المهيمنة على المنطقة منذ القرن الثاني عشر الهجري، وحتى بداية القرن الثالث عشر، وفي منتصف هذا القرن أخذت تضعف، وتتفرق بطونها بعضها عن بعضٍ، ونمت من بين هذه البطون عشيرة (المحيسن) التي فرضت سيطرتها على البطون كلها، وكانت لها الهيمنة بزعامة رئيسها الشيخ جابر والذي توفي عام ١٢٩٩ هـ. وكان قد طلب من بريطانيا معاهدةً لحمايته من الفرس الذين يُشرفون على المنطقة أو هم في صراعٍ دائمٍ مع العثمانيين عليها. وتعمل إنكلترا جاهدةً على الاحتفاظ بنفوذها في منطقة الخليج وما يجاورها من نقاطٍ هامةٍ باسم حماية الهند، غير أن الحرب الفارسية ـ البريطانية ١٢٧٣ هـ قد عرقلت هذه الجهود، ولكن بريطانيا بعدها قد استطاعت تشديد قبضتها على جنوبي فارس، ورغبت أن تبقى علاقتها حسنةً مع الشاه، لذا رفضت توقيع معاهدة مع الشيخ جابر يستطيع بموجبها أن يحمي نفسه من الشاه، وإن كانت قد شكرت للشيخ جابر حسن ظنّه ببريطانيا وصداقته لها.

تولّى مشيخة المنطقة بعد جابر ولده (مزعل)، وقد جعل المنطقة **تحت إشراف** بريطانيا، التي تعرفت على مجرى نهر (قارون) بشكلٍ تامٍ،

وكان صديق (مزعل) الوكيل السياسي البريطاني في البصرة (روبرتسون)، وتأسّست قنصلية بريطانية في (المحمرة) التي غدت قاعدة المنطقة بعد أن كانت (الفلاحية)، وبدأت المنافسة التجارية في نهر (قارون) بين بريطانيا والشيخ (مزعل) الذي يملك سفينةً تجاريةً تعمل في ذلك النهر، وهذا ما أضعف الصلة بين الطرفين، واغتيل الشيخ (مزعل) في الثاني من محرم عام ١٣١٥ هـ (٢ حزيران ١٨٩٧ م) وكانت إشارات الاتهام تتجه إلى أخيه الشيخ (خزعل) بدعمٍ من بريطانيا.

تسلّم مشيخة المنطقة الشيخ (خزعل) بعد اغتيال أخيه الشيخ (مزعل)، وكان يميل إلى بريطانيا ويرغب في تقوية الصلة معها، والحصول على حمايتها خوفاً من هجومٍ عثمانيٍ، مرتقبٍ أو أي هجومٍ من خصمٍ وربما كان الفرس أشدّ هؤلاء الخصوم، إذ لهم الإشراف الاسمي على أملاك الشيخ (خزعل)، ولهم حاكم يُقيم في (المحمرة)، وتخضع له المنطقة اسمياً. وطلب الشيخ (خزعل) من بريطانيا دعمه للقيام باحتلال البصرة، وسلخها من العثمانيين، وضمّها إلى أملاكها، وأن يكون هو موظفاً بريطانياً في (عربستان) ليتخلّص من حكم الفرس.

أخذت روسيا تهتمّ بالمنطقة وبالشيخ (خزعل)، وهذا ما جعل بريطانيا تسرع في تنفيذ طلبات (خزعل) ليبقى في يدها، وتحت نفوذها، ولكن شُغلت روسيا في الحرب مع اليابان عام ١٣٢٢ هـ، فعملت بريطانيا أثناء ذلك على تثبيت مركزها في (عربستان).

أخذت آثار السياسة الدولية تطرق أبواب المنطقة إذ حدث تقارب بين بريطانيا، وفرنسا، واتجهت بريطانيا إلى تحسين علاقاتها مع روسيا التي كانت قد عقدت معاهدةً مع فرنسا، وترغب بريطانيا في التفاهم مع تلكما الدولتين خوفاً من توسّع السياسة العثمانية في منطقة الخليج وتوجّه الألمان إليها أيضاً عن طريق العثمانيين، إضافةً إلى خوف بريطانيا من نمو القوة

الألمانية المتزايدة في القارة الأوروبية. كما أرادت بريطانيا أيضاً العمل على التفاهم مع (خزعل) و(البختياريين).

اندلعت الثورة في فارس ضدّ الشاه من أجل وضع دستورٍ للبلاد، وذلك في شوال ١٣٢٣ هـ (كانون الأول ١٩٠٥ م). وفي ٧ ذي الحجة ١٣٢٦ هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٠٨ م) افتتح أول مجلسٍ نيابي، ولكن مات الشاه مظفر الدين في ٢٤ ذي القعدة ١٣٢٤ هـ (٨ كانون الثاني ١٩٠٧ م)، وخلفه ابنه محمد علي، وكان يُماطل بفكرة الانتخابات، والمجلس النيابي. وكانت الثورة أو ما عُرف باسم (الحركة الدستورية) ضدّ روسيا صاحبة النفوذ في شمالي إيران، على حين كانت عداوتهم للغرب أقلّ بكثيرٍ.

أخذت حكومة حزب الأحرار البريطانية تتقرّب من روسيا، والحركة الدستورية في إيران تُعادي روسيا، لذا فقد حدث تفاهم بين روسيا وبريطانيا ونتج عنه توقيع الاتفاقية بينهما بشأن إيران وذلك في رجب ١٣٢٥ هـ (آب ١٩٠٧ م)، وقُسّمت إيران بموجب تلك الاتفاقية إلى:

١" ـ منطقة نفوذٍ بريطانية في الجنوب وتقع جنوب خط يبدأ من حدود بلاد الأفغان إلى كرمان ـ بندر عباس إلى رأس الخليج العربي. وبذا تخرج منطقة عربستان عن دائرة النفوذ البريطاني.

٢" ـ منطقة نفوذٍ روسية في الشمال، وتقع شمال خط يبدأ من (قصر شيرين) على الحدود العراقية ـ أصفهان ـ يزد ـ الحدود الفارسية ـ الأفغانية ـ التركمانية.

٣" ـ منطقة محايدة بين المنطقتين السابقتين، ومن ضمنها عربستان.

عدّ قادة الحركة الدستورية أن بريطانيا قد خانتهم فتفاهمت مع روسيا. ويبدو من هذه الاتفاقية أن إنكلترا قد تخلّت عن نفوذها في (عربستان)، ولكن هذا لم يحدث بل أخذت تزيد من قوة نفوذها هناك، وتمدّه إلى منطقة البختياريين، وكأن الاتفاق مع روسيا لم يتمّ.

كان الشيخ خزعل يرغب في تنفيذ بريطانيا لمشروع ريّ على نهر (قارون) ليحصل على تأييدٍ سياسيٍ بريطانيٍ ليكون أكثر استقلاليةً عن إيران، غير أن بريطانيا كانت تتمنع وتُناور في سبيل ارتماءٍ أكثر من قبل الشيخ خزعل بين يديها، فكانت النتيجة أن سقط المشروع وضاع، ولكن بريطانيا كانت إذا شمّت رائحة مشروع روسي أو ألماني أحيت الفكرة وأبدت إمكانية العمل في المشروع، ولكن لا تلبث أن تتخلّى عنه.

وتخوّفت إنكلترا من المشروع الألماني (سكة حديد بغداد) الذي كان من المفروض أن ينتهي بأحد الموانىء على الخليج العربي كالكويت مثلاً، لكن الكويت كانت مغلقةً تماماً في وجه هذا المشروع بعد اتفاقية بريطانيا مع أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح عام ١٣١٦ هـ، ولذا كان يمكن أن ينتهي هذا الخط في خور موسى في عربستان أي يتبع الأمر للشيخ خزعل، ويقع بذلك في المنطقة المحايدة حسب الاتفاقية البريطانية ـ الروسية أي يمكن لأية دولةٍ أن تقوم بمثل هذا المشروع، ومن هنا زاد اهتمام ألمانيا بالمنطقة وشيخها، وهذا ما جعل إنكلترا تتخوّف من الأمر.

ورأت إنكلترا مدّ خطٍ حديديٍ من (خرم أباد) في منطقة لورستان إلى المحمرة، ولكن خشي الشيخ خزعل من هذا المشروع حيث رأى فيه زيادةً لتقوية التدخّل الفارسي في منطقته عن طريق هذا الخط. ولكن إنكلترا كانت تخشى النفوذ الألماني، والنفوذ الروسي.

حصل المقاول البريطاني (وليم نوكس دارسي) على امتياز التنقيب عن النفط، واستثماره، وتصديره في الشهر الأول من عام ١٣١٩ هـ (أيار ١٩٠١ م)، ووُفّق في اكتشافه في شهر شوال ١٣٢١ هـ (كانون الثاني ١٩٠٤ م).

وتدفّق النفط من البئر الأولى في عربستان في (مسجد سليمان) في تاريخ ٢٥ ربيع الثاني ١٣٢٦ هـ (٢٦ أيار ١٩٠٨ م)، وبدأت المفاوضات بين الشيخ خزعل والحكومة البريطانية في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٢٧ هـ (١٨

أيار ١٩٠٩ م)، وقد وضع الشيخ خزعل شروطاً لمصلحته، ووقّعت الاتفاقية بين الطرفين في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٢٧ هـ (١٦ تموز ١٩٠٩ م)، غير أن التكاليف قد ارتفعت بسبب الأنابيب، والتكرير، واضطرت الشركة إلى ممولٍ جديدٍ فأخذت الحكومة البريطانية ٥٠٪ من أسهم الشركة.

الحرب العالمية الأولى:

وصلت الحملة البريطانية إلى الخليج في ذي الحجة ١٣٣٢ هـ (تشرين الثاني ١٩١٤ م)، وكان العثمانيون يفكرون بالإفادة من خزعل بن جابر، كما كان البريطانيون يعتقدون ذلك، والواقع أنه كان إلى جانب الإنكليز بكل ثقله، وكامل تفكيره، إذ كانت هيبتهم في المنطقة أكبر من هيبة خصومهم العثمانيين كجانب من جوانب النقص التي تملأ ذهن الضعيف، إضافةً إلى الخبث الذي عُرف به الصليبيون، ولعبهم الدائم على الحبال، كما أن إيران التي يتبعها خزعل بن جابر مرتبطة منذ مدةٍ ببريطانيا وروسيا، وأن قوة بريطانيا البحرية في الخليج العربي كان لها دورها الكبير على ساحة الأحداث وعلى الناحية النفسية للسكان.

انضمّ خزعل بن جابر إلى بريطانيا أو أعلن ذلك صراحةً، فهو بجانبهم من قبل، واتخذ هذا القرار منذ تسلّم السلطة، وكان على صلةٍ بأمير الكويت، وسلطان نجد، وطالب النقيب أحد أعيان البصرة.

ولما كان مركز تكرير النفط في مدينة عبادان إحدى مدن عربستان، وتتبع إمارة خزعل بن جابر فلا بدّ من أن يتجه العثمانيون بتفكيرهم إلى مهاجمة ذلك المركز ذي الأهمية الحيوية، وبالتالي لا بدّ القيام بحملةٍ واسعةٍ على عربستان لتحقيق ذلك الهدف ولضرب المصالح البريطانية على تلك الجبهة. وسواء أحصلوا على مساعدة الفرس، أم خزعل، أم العراقيين أم لم يحصلوا، وهذا يقضي حرب خزعل بن جابر، وإصدار قرارٍ بعزله عن تلك الإمارة إذ تدعي الدولة العثمانية أنها صاحبة السيادة عليه وعلى أملاكه.

وكانت إنكلترا حريصةً على المحافظة على مكانتها في الخليج، وعلى حماية مصادر النفط لذا لا بُدّ لها من أن تُفكّر في أن يكون أمراء تلك المنطقة إلى جانبها، وقد كانوا، إلا طالب النقيب الذي طالب أن يكون أميراً على البصرة تحت الحماية البريطانية، فلم يُوافق على طلبه حيث ادّعت بريطانيا أن طلبه غير معقولٍ إذ ليس له ما يهيىء له هذا من وجهاء البصرة وشيوخ القبائل المجاورة للبصرة.

عندما بدأت الحرب طلب العثمانيون من خزعل السماح لجنودهم بارتقاء سطوح المنازل في مدينة عبادان، والمطلة على الميناء لضرب السفينة الإنكليزية الراسية هناك، والتي سبق للعثمانيين أن طلبوا منها مغادرة شطّ العرب غير أن الطلب قد رفض يومذاك. ولم يكتف خزعل بردّ طلب العثمانيين بإعلان الحياد، بل قام بإبلاغ البريطانيين ذلك.

وطلبت بريطانيا من خزعل، ومبارك الصباح، وطالب النقيب وبقية أمراء المنطقة القيام باحتلال مدينة البصرة وطرد العثمانيين منها قبل وصول الحملة الإنكليزية، وقدّمت لخزعل بن جابر ثلاثة آلاف بندقية ومليون طلقة.

وفي ٢٢ ذي الحجة ١٣٣٢ هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩١٤ م) سرى نبأ عزم العثمانيين على القيام بهجومٍ، فما كان من خزعل بن جابر إلا أن أخبر البريطانيين بذلك، تأكيداً لمناصرته لهم وانضمامه إليهم.

دعا العلماء في عربستان وغيرها الشعب للانضمام إلى حركة الجهاد ضدّ الحلفاء، ومؤازرة القوات العثمانية التي كانت بقيادة محمد فاضل الداغستاني، ولكن خزعل بن جابر أظهر الحياد، كما أعلنت إيران ذلك، وفي الواقع فإن خزعل قد ساعد البريطانيين في احتلال البصرة.

ثار الشيخ غضبان من بني لام على خزعل في منطقة (الحويزة)، وانضمّ إليهم بنو طرف، وعملوا معاً لصالح العثمانيين، وكذلك قامت أعمال العصيان في الأهواز، كما رفض البختياريون دعم خزعل.

حدث خلاف بين العرب والأتراك إذ انساق الطرفان في طريق العصبية ففرّقتهما، وتركوا سبيل الإسلام فضعف أمرهما، فانتصر الصليبيون على الترك، ولعبوا على العرب، وجزّأوا بلادهم، وتقاسموها، وجعلوهم تبعاً لهم، أو إن ترك العرب سبيل الإسلام قد جعلوا من أنفسهم مطيةً لأعدائهم، وهُزم الترك، وانسحبوا، ولم يُفكّروا بعدها بالهجوم على عربستان.

وفي الوقت نفسه تفككت القبائل المعارضة لخزعل بن جابر، فصفح عنهم، وتراجع بنو طرف بعد أن دمّر البريطانيون بلدتهم الرئيسية (الخفاجية)، وانتهت الحركات ضد خزعل. ولكن إذا كان الوضع قد هدأ في عربستان غير أنه انفجر في بقية أجزاء إيران، حيث قامت حركات ضدّ بريطانيا، وطُرد معتمدوها في كلٍ من: شيراز، ويزد، وكرمان، وحوصرت الحامية البريطانية في (بو شهر). وظهر أن القوة السويدية المرابطة في إيران تُؤيّد الألمان الذين أصبحوا يلقون استحساناً لدى الفرس، وتوقّعت بريطانيا صراعاً مع إيران لذا عادت تسترضي خزعل، وتتوقّع أن تقدّمها نحو بغداد سيُمكّن لها الوضع في إيران وفي منطقة الخليج كافةً، ولكنها اندحرت فكان لتلك الهزيمة وقعها السيء في نفوس أعوانها وقادتها.

كان خزعل بن جابر يطمع بملك العراق أو على الأقل إمرة البصرة على أن يكون مستقلاً فيها، ولكن لم تنظر إنكلترا إلى طموحاته، واكتفت بتزويده بالأسلحة لمواجهة القبائل التابعة له والمسلحة بشكلٍ جيدٍ. وأخيراً اضطرت إنكلترا إلى أن تسحب قواتها من إيران كي تسحب روسيا بالمقابل جيوشها من أراضي الدولة الفارسية، ثم رشّحت إنكلترا فيصل بن الحسين بن علي لملك العراق بعد أن طُرد من الشام، وجاء إلى العراق، وتسلّم منصبه كملك للعراق، وهذا ما خيّب آمال خزعل.

كان لحادثة استسلام حامية (الكوت) البريطانية أثر سيء لدى البريطانيين وأعوانهم في ربيع عام ١٣٣٤ هـ حيث استسلم ثلاثة عشر ألف

جنديٍ بريطانيٍ للقوات العثمانية، وهذا ما أضعف حكومة الهند، فأُلغيت، وسُلّمت العراق لوزارة المستعمرات البريطانية. وكذلك فقدت ألمانيا بعد الحرب مكانتها ولم يعد لها دور كمخيفٍ في منطقة الخليج، بل لم تعد إنكلترا لتهتم بها، وكذلك لم تعد إنكلترا بحاجةً إلى التفاهم مع روسيا التي أصبحت خصماً لها إذ سلكت طريق الشيوعية على حين تنهج بريطانيا سبيل الرأسمالية، ومن هذا كله فقد أظهر البريطانيون أنهم لم يعودوا بحاجةٍ إلى خزعل بن جابر.

عقدت بريطانيا معاهدةً مع إيران في جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ (شباط ١٩٢١ م)، ولما كانت ترى ضرورة تنفيذ بنود المعاهدة، كما تريد بقاء صلتها مع إيران بشكلٍ طيبٍ، لذا لم تر بقاء المحافظة على استقلال خزعل بن جابر في عربستان، وخاصةً أنها لم تعد بحاجةٍ إليه.

رغبت إيران في السير في سياسةٍ استقلاليةٍ، وهذا ما يجعلها تبتعد عن بريطانيا خوفاً من روسيا التي ستتدخل في شؤونها إن رأت نفوذ بريطانيا لا يزال قائماً، وحتى تجد بديلاً عن إنكلترا اتجهت نحو الولايات المتحدة الأمريكية في سبيل الحصول على مساعداتٍ ماليةٍ، وهذا ما جعل بريطانيا تتجه ثانيةً إلى دعم خزعل بن جابر كي يبقى على استقلاله الذاتي لعل إيران تعود إلى رشدها ـ حسب رأي بريطانيا.

قررت حكومة إيران (قوام السلطنة) في جمادى الآخرة ١٣٤٠ هـ (شباط ١٩٢٢ م) استعادة نفوذها في عربستان، ورأت إرسال قوةٍ لتنفيذ ما قررته، فلجأ خزعل بن جابر إلى بريطانيا، غير أنها رأت ليس من مصلحتها التدخّل في الأمر، فما كان من خزعل إلا أن أذعن لمطالب الحكومة المركزية، وأخذ يدفع ما عليه من إيرادات إلى طهران، ولكنه في الوقت نفسه عمل على الحصول على السلاح، والتفاهم مع البختياريين، والاتفاق مع جمعيةٍ إسلاميةٍ في مدينة (النجف) تدعو إلى الوحدة الإسلامية لكسب التأييد وعطف الرعية عليه.

وفي ٢٤ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ (١٨ تموز ١٩٢٢ م) أعلنت حكومة طهران عن تسيير خمسمائة جنديٍ مع المدفعية المرافقة إلى عربستان. حاولت بريطانيا التدخّل من بعيدٍ أو الوساطة فطلبت وقف تحرّك القطعات المتجهة إلى عربستان غير أن وزير الحرب الإيراني رضا خان رفض ذلك إلا بأمرٍ من رئيس الوزراء الذي وافق على وقف الحركة موقّتاً ولمدة شهرين فقط.

وفي ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ أي في الوقت نفسه الذي وافق رئيس الوزراء على تأجيل الحركة سيّر مائتي جندي للإقامة في (شوشتر)، بحجة أنهم لن يدخلوا الأراضي التي تقع تحت نفوذ خزعل بن جابر. وعندها رأت إنكلترا أن حكومة طهران تُخاتل، وهذا ما جعلها تتدخّل من بعيدٍ فاستدعت اثنين من البختياريين، وأبانت لهم الخطر الذي يكمن وراء إرسال قوةٍ من طهران إلى المنطقة، وأن مصالح بريطانيا، وخزعل، وبختيار تسير في خطوطٍ متوازيةٍ ولا تقاطع فيها. غير أنها لم تلبث أن فوجئت بنصب كمينٍ والهجوم على قوةٍ من الفرس مؤلفةٍ من أربعمائة جندي في أصفهان، وتجريدهم من السلاح وقتل أربعين رجلاً منهم، واتجهت أصابع الاتهام من الحكومة المركزية إلى اللوريين، ثم اتجهت إلى أحد زعماء البختياريين وهو الأمير مجاهد صديق خزعل بن جابر.

وفي ١٠ صفر ١٣٤٢ هـ (٢١ أيلول ١٩٢٣ م) غادر أصفهان مائتا جنديٍ إيرانيٍ متوجّهين إلى عربستان في سبيل تنفيذ خطة وضع ألف جنديٍ في (بهبهان) بحجة حماية حقول النفط من هجوم القبائل، وكان وزير الحرب الإيراني رضا خان قد نصّب نفسه رئيساً للوزارة مع الاحتفاظ بحقيبة وزارة الحرب لنفسه. وعمل الإنكليز على إقناع خزعل بن جابر على الرضا بمرابطة جنود إيرانيين على حدود إمارته.

وفي الثاني من ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٢٣ م) جاء وفد من طهران إلى عربستان للمفاوضات بشأن إيرادات عربستان،

واستحقاقات الحكومة المركزية، وطريقة تسديدها، ولما وصلت المفاوضات إلى طريقٍ مسدودٍ لجأ خزعل إلى بريطانيا، وهدّد الوفد الإيراني باحتلال عربستان، وأسرع الإنكليز إلى المستشار المالي الأمريكي الذي حاول التسوية، وأعلن عن اتفاقية بين الطرفين في ١٧ ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٢٣ م)، وتقضي هذه الاتفاقية بأن يدفع أمير عربستان مبلغ خمسمائة ألف تومان، وأن يكون إلى جانبه معتمد مالي من قبل الحكومة المركزية.

ضعف مركز خزعل بن جابر، وأصبحت طهران تُشرف على البريد والبرق في المحمرة، وعمل رئيس الوزارة الإيرانية على الوقيعة بين القبائل البختيارية، واللورية، وأمير عربستان، وأخذت إنكلترا تميل إلى الحكومة المركزية الإيرانية التي يرأسها رضا خان كي تستطيع هذه الحكومة أن تقف في وجه الأطماع الروسية، ولذا عملت على استسلام خزعل إلى طهران بعد أن نجحت في إبعاد خانات البختياريين الكبار عنه، ولكن الصغار منهم بقوا إلى جانبه. وأعلنت إنكلترا أنها لا تُؤيّد انسحاب الجند الإيرانيين من عربستان وعن حدودها، كما لا تُؤيّد موقف خزعل من الإيرادات وعدم تسديد حكومة طهران نصيبها منها، وتطلب منه الذهاب إلى طهران والاجتماع برئيس الوزراء رضا خان والتفاهم معه، وبالمقابل فإنها ستحصل له على عفوٍ من رضا خان له ولحلفائه وأعوانه.

اقتنع خزعل أن بريطانيا قد تخلّت عنه، وصرّح بأنه لن يذهب إلى طهران لأنه ربما يُقتل هناك، وعلى إنكلترا أن تحول دون تحرّك الجنود الإيرانيين في عربستان، وإلا فإن عربه سيهاجمون قوات الحكومة المركزية في (بهبهان).

عادت إنكلترا فأعلنت أنها لن تُؤيّد موقف خزعل، وأنه لن يجد منها أي تعاونٍ أو دعمٍ. أما روسيا فقد كانت تُثير دائماً حكومة طهران على أمير المحمرة، وتذكر مخالفاته، وتعدّه من صنائع الإنكليز مهما كانت الصورة الظاهرية.

شكّل خزعل حزب السعادة، وهو حزب الأحرار من أجل إطلاق الحرية السياسية في إيران كلها، وهدّد بالانسحاب من عربستان والتوجّه إلى العراق، وهو يعلم أن هذا لا يمكن أن تُوافق عليه بريطانيا لأن هذا يعني أنها تتخلّى دائماً عن أصدقائها، وخاصةً بعد أن تخلّت عن الشريف حسين بن علي الذي نصرها في أشدّ الأوقات عليها فلما أن تمّ لها ما أرادت رمته، ويُهدّد خزعل بالإشارة بأنه إذا ما ترك مقرّ إمارته فإن رجال قبائله سيُغيرون باستمرارٍ على منابع النفط، وسيهاجمون المصالح البريطانية هناك، وإذا ما التجأ إلى العراق فإن الشعب هناك سيلتفّون حوله، ويمكنه وقتذاك إثارة السكان على بريطانيا ثأراً لتخلّيها عنه.

اقترحت بريطانيا على رئيس الوزارة الإيرانية رضا خان الموافقة على الاجتماع بأمير عربستان خزعل في (أصفهان) أو (بوشهر) فيما إذا وافق على طرد المتآمرين معه، وإذا سرّح رجاله من العربان. وقد وافق رضا خان على اللقاء بخزعل فيما إذا أظهر الطاعة، واعتذر عما بدر منه.

وافق خزعل على الاجتماع برئيس الحكومة المركزية رضا خان، وقام بتسريح رجاله، غير أن ذلك لم يفده شيئاً، إذا لم تهدأ الحركات ضدّه بل زادت فقد تمرّد بنو طرف، وأصدر علماء الشيعة في النجف وكربلاء بياناً بالتخلّي عن خزعل والوقوف ضده.

وفي ٢٧ ربيع الثاني ١٣٤٣ هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٤ م) أرسل خزعل برقية خضوعٍ إلى رئيس الحكومة المركزية رضا خان، وأتبعها بثانيةٍ، وفي ١٠ جمادى أولى ١٣٤٣ هـ (٦ كانون الأول ١٩٢٤ م) التقى به في مدينة الأهواز، وجاءت بعدها في الشهر التالي قوات الحكومة المركزية، وعسكرت في مراكز القبائل العربية، وبذا فقد أمير عربستان سلطته على القبائل، وشُلّت حركتها وإمكانية قيامها بعملٍ، كما فقد خزعل إمكانية جمع الإيرادات.

نصّب رئيس الحكومة المركزية في طهران أميراً على الفلاحية من

قبله، وهو المنافس العربي لخزعل، وطلب من أمير عربستان السابق خزعل بن جابر زيارة طهران فخاف مغبة هذه الزيارة، فأرسل عائلته إلى البصرة، وفي ٢٦ رمضان ١٣٤٣ هـ (١٩ نيسان ١٩٢٥ م) نزل جنود يتبعون الحكومة المركزية من زورقٍ وألقوا القبض على خزعل، ونقل وابنه عبدالحميد إلى طهران، وهناك استقبله رضا خان بحرارةٍ، ووعده بحلّ مشكلاته كلها، وجاء ممثل بريطاني ليزور خزعل فمُنع من ذلك. وأصبحت أملاك خزعل تتبع الشاه، وبقي خزعل في طهران حتى توفي في ١١ ربيع الثاني ١٣٥٥ هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٦ م).

وهكذا انتهى الصراع بين الحكم الإيراني وخزعل، ولم يكن يحمل الصبغة العصبية القومية، وإنما كان يحمل الأطماع الشخصية والمصلحة الفردية، ومن ذلك نرى ارتماءه في أحضان البريطانيين ورغبته الدائمة في ذلك بل يُطالبهم بأكثر من الواقع الذي هو فيه، غير أن خزعل بن جابر قد استغل أفراد قبيلته ذات الأصل العربي، ولذا فقد صنفنا حركته ضمن الصراع التعصبي.

وهدأت أحوال عربستان بعد خزعل، ولم تحرص إنكلترا على إثارة هذا النزاع بين الدولتين المتجاورتين لأن نفوذها قائم في كليهما، وللسبب نفسه لم يحرّك الجانب العراقي العرب في ذلك الإقليم، ولكن إذا حدث خلاف بين الدولتين فإنما هو على مجرى شط العرب فقط، وينظر فيه إلى الاتفاقات والمعاهدات السابقة والأحداث الجارية في المنطقة، وهذا الذي وقع، واندلعت الحرب بين الجارتين.

وقامت عدة حركات في منطقة عربستان أثناء الحرب العالمية الثانية، وألمحنا إليها في حينها.

ولكن وإن لم تُطالب العراق بتسوية الحدود على أساس العصبية رغم حملها لهذه الفكرة ومناداتها بها إلا أن السكان هناك قد قاموا بتنظيم

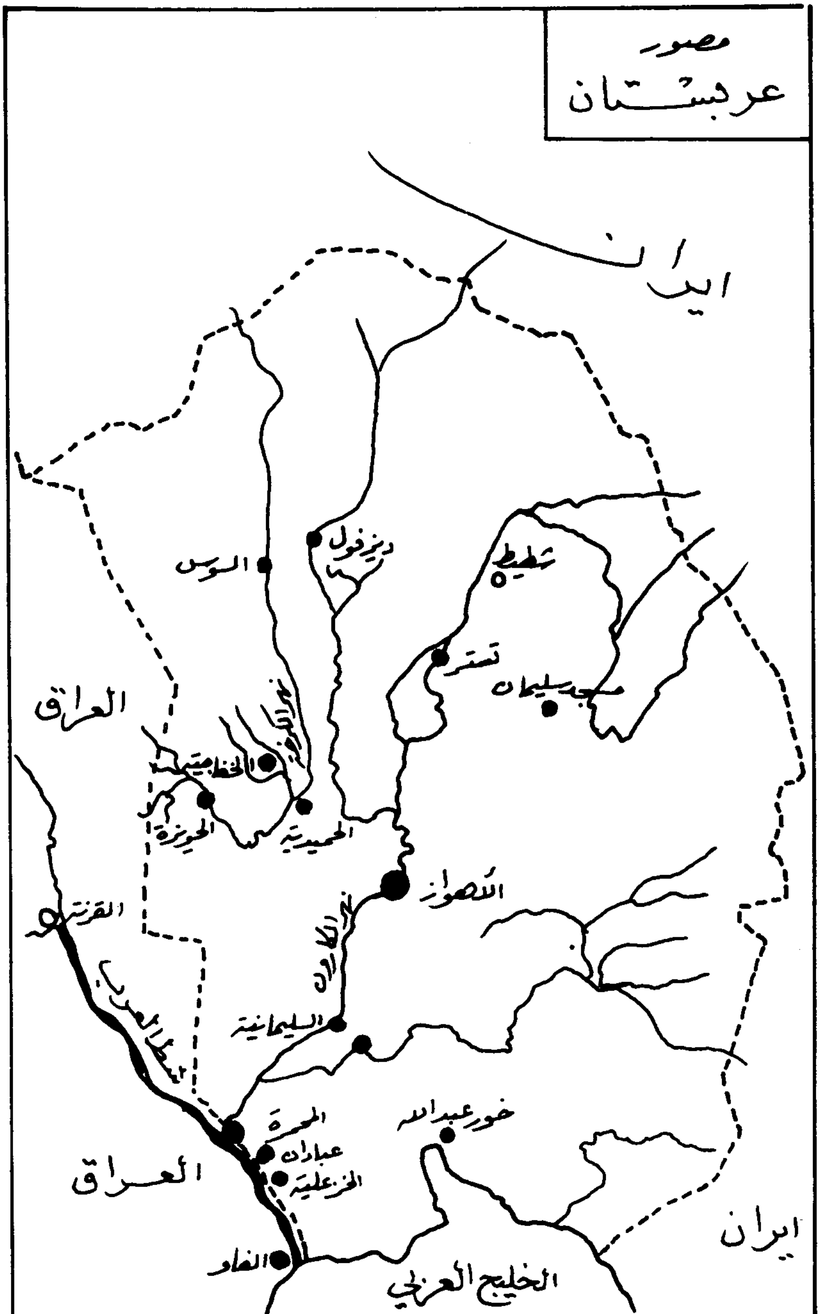
مصور
عربستان
ايران
العراق
السوس
ديزفول
شطيط
تستر
مسجد سليمان
الخفاجية
الحويزة
الحميدية
الأهواز
القرنة
نهر الكارون
السليمانية
شط العرب
المحمرة
عبادان
الزعلية
خور عبد الله
العراق
ايران
الفاو
الخليج العربي

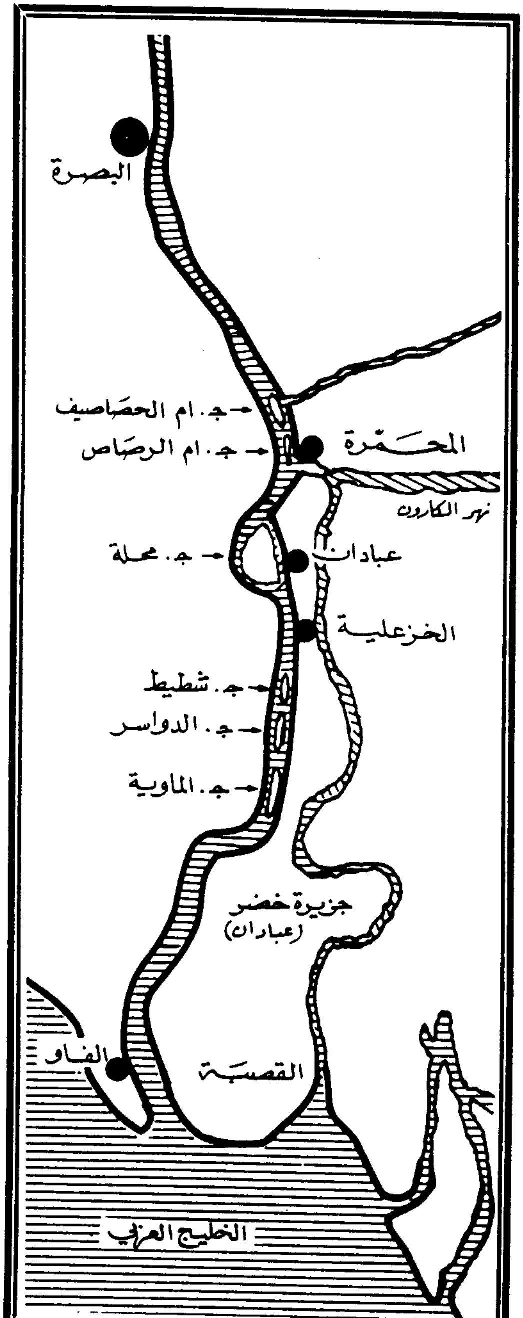
البصرة
ج. ام الحصاصيف
ج. ام الرصاص
المحمّرة
نهر الكارون
ج. محلة
عبادان
الخزعلية
ج. شطيط
ج. الدواسر
ج. الماوية
جزيرة خضر
(عبادان)
الفاو
القصبة
الخليج العربي

شط العرب

الأحزاب والتجمعات السياسية بهذا القصد، وهذا ما سنجده ـ إن شاء الله ـ في موضوع الصراع الحزبي.

ونتيجة مرور الزمن ودراسة التاريخ من وجهة النظر الشيعية، والتوجيه الدائم من خلال وسائل الإعلام كلها، فقد تأثّر بعض السكان بهذا وأصبحوا شيعةً على حين بقي آخرون على مذهب أهل السنة والجماعة مع بعض التأثير، وهذا ما خفّف الصراع، وخاصةً أننا نعلم أن نسبةً كبيرةً من الشيعة تقطن جنوبي العراق، وتقوم هناك أماكن مقدسة لدى الشيعة جميعاً في (النجف) و(كربلاء)، وهذا ما يُقلّل الصراع، ويخشى من نتائجه فيما إذا اندلع.

٤ ـ الصراع ـ البالوخي ـ الإيراني:

يسكن البالوخ جنوبي شرقي إيران على حدود باكستان، وتمتدّ منازلهم داخل الأراضي الباكستانية، ولا نستطيع أن نقول: إن هناك صراعاً واضحاً بين البالوخ والحكم الإيراني وذلك لقلة عدد السكان الذين يعودون إلى أصلٍ بالوخي في إيران حيث لا يصل عددهم إلى نصف مليون هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن البالوخ في باكستان هم أنفسهم أقلية صغيرة، وليس لهم شأن، وكذا الحال في أفغانستان. ولكن هناك أيد غريبة تلعب في الخفاء، وتحرّك البالوخ لإقامةٍ دولةٍ مستقلةٍ لهم تضمّ كل العناصر ذات الأصل الواحد. وذلك في سبيل زيادة تقسيم بلاد المسلمين وإضعاف شأنهم، وإفادة أعدائهم من ذلك، وكان للشيوعية دور كبير في ذلك، وأخذت العصبية بعضهم فقاموا يُطالبون بذلك، وأنستهم الغفلة واقعهم وحقيقة الأعداء.

٥ ـ الصراع المغولي ـ الإيراني:

لا يزال يعيش في إيران بعض بقايا من المغول، ويسكن أكثرهم في أصفهان ومنطقة (بختياري)، ولا تزال لهم مكانة، ويحمل كبارهم اسم (خان)، ولما كانت أعدادهم قليلةً لذا فإنهم لا يمكنهم الصراع أو دخول ساحته وحدهم، ولكن ينزلون إليه مع غيرهم حسب مصالحهم، ولما كانت منطقتهم منطقة الأقليات لذا نراهم تارةً مع هذه الأقلية، وتارةً مع تلك، ومرةً ثالثةً مع الحكومة المركزية. وقد رأينا دعم كبارهم في بعض الأحيان لخزعل بن جابر، كما كان لهم شأن في الحكومة المركزية إثر الحركة الدستورية. وما داموا تجمّعاً على أساسٍ تعصبيٍ فإن تحرّكهم نعدّه صراعاً، وإن كانوا أحياناً إلى جانب الحكم، إذ يتحرّكون حسب مصالحهم.

٦ ـ الصراع التركماني ـ الإيراني:

ويمكن أن نضيف تحرك قبيلة (قشقائي) التركمانية الدائم ضد الحكومة المركزية، ووقوفها إلى جانب المعارضين لطهران.

٢" ـ الصراع العقيدي

تبلغ نسبة المسلمين في إيران ٩٨٪، ومع هذه النسبة المرتفعة، وانخفاض نسبة المجموعات العقيدية الثانية أو الأقليات حتى لتعدّ بحكم المعدومة نرى أن الصراع العقيدي على أشدّه إذ ليس هو بين أصحاب الديانات المختلفة، ذلك لأن الديانات الأخرى لا تسمح لها أعدادها الضئيلة بالدخول في صراعاتٍ مع المسلمين، وإنما الصراع هو بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة التي هي الأكثرية في إيران، بل إن إيران هي المصر الوحيد في العالم الإسلامي الذي تزيد فيه نسبة الشيعة، وإنهم يُشكّلون أكثرية شيعة العالم.

قلنا أن عدد سكان إيران يزيد اليوم على خمسة وأربعين مليوناً، ويشكّل المسلمون بينهم ٩٨٪، أما الباقي وهو ٢٪ فيتوزّع بين عدد من أصحاب الديانات الأخرى.

المسلمون:		٩٨٪		٤٤,١٠٠,٠٠٠	
	الشيعة السنة		٦٣٪ ٣٥٪		٢٨,٣٥٠,٠٠٠ ١٥,٧٥٠,٠٠٠
النصارى:		١٪		٤١٠,٠٠٠	
	الأرمن النساطرة				٣٢٨,٠٠٠ ٨٢,٠٠٠

اليهود:				٧٣,٠٠٠	٧٣,٠٠٠
الزرادشت:				٢٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠
البهائيون:		٪١		٣٩٧,٠٠٠	٣٩٧,٠٠٠
		٪١٠٠		٤٥,٠٠٠,٠٠٠	٤٥,٠٠٠,٠٠٠

وإذا كانت الأقليات العقيدية في إيران صغيرة الحجم، قليلة العدد لا يمكنها الدخول في صراعاتٍ مع المسلمين إلا أنها تقف دائماً في الصف المعادي للإسلام فهي مع الإلحاد، ومع الفساد، ومع كل ما يُهدّم في الإسلام، أو يُبعد عنه، وهي مع الشيوعية، ومع الرأسمالية، ومع الفوضى الاقتصادية المهمّ ضدّ النظام الإسلامي أو كل من يدعو إليه أو يُنادي به. الشيوعيون في إيران وفي كل مكانٍ أقرب إلى الرأسمالية، ويمكنهم التعاون معها، ويستطيعون مهادنتها بل يتفاهمون معها ضدّ الإسلام. والرأسماليون في إيران وفي كل مكانٍ على استعدادٍ للتعاون مع الشيوعية، ولا يجدون فيها خطراً عليهم، ولكن الخطر كل الخطر إنما هو في الإسلام، ويمكنهم التعاون معها لضرب الإسلام. وقد علمتنا الأحداث أنه ما من مرةٍ يلتقي سدنة الشيوعية مع سدنة الرأسمالية إلا ويتمّ التفاهم بينهما على ضرب الإسلام، أو يكون هو الموضوع الرئيسي والأساسي في ذلك اللقاء. بل إن الاجتماع لم يكن ليتمّ لولا داعٍ له وغالباً ما يكون تقدماً إسلامياً أو انتصاراً أحرزه المسلمون، أو أن هناك مشكلةً يُخشى أن يستفيد منها المسلمون.

وتتخذ هذه الأقليات كل الوسائل من جنسٍ، واقتصادٍ، ومؤسساتٍ ربويةٍ، ومراكز إفسادٍ و... لإبعاد المسلمين عن دينهم ولا شك أن اليهود لهم موقعهم المالي، وإن قلّ عددهم، ولهم إشراف على كثيرٍ من مراكز الدعارة، ولا يقلّ الأرمن عنهم في تعصّبهم، ويعادل البهائيون اليهود في موضوع الجنس. والنساطرة والزرادشت لهم دورهم في كل هذا.

أما الصراع العنيف فهو ما يحدث بين المسلمين (السنة) وبين الشيعة إذ أن الشيعة يتصوّرون كل مسلمٍ قد تخلّى عن عليٍّ، رضي الله عنه، وأيّد معاوية، رضي الله عنه، وشارك في قتل الحسين، رضي الله عنه، والآن عليهم أن يثأروا من خصوم عليّ، رضي الله عنه، وقتلة الحسين، رضي الله عنه، لذا فهم يتعصّبون ضدّ المسلمين السنة، ويتحزّبون للشيعة. أما أهل السنة فلا يحقدون أبداً على الشيعة ويعدّونهم إخواناً لهم، ولكن يسخرون من بعض أقوالهم وأفعالهم.

إنهم يسخرون من زواج المتعة، ولا يقبلونه أبداً، ويعتقدون بحرمته، وحتى الجاهل منهم الذي لا يعرف أن رسول الله ﷺ، قد نهى عنه، وحرّمه يوم خيبر، ثم أكّد ذلك يوم الفتح، هذا الجاهل لا يقبل عقلاً زواج المتعة، وينفر منه، ويعدّه والزنا شيئاً واحداً.

إنهم يسخرون من صلاتهم على القرص، وادعائهم أن هذا من تربة كربلاء التي تخضبت بدم الحسين، رضي الله عنه، ورغم أن السادة منهم ينكرون هذا، ويدّعون أن السجود على تراب هو الأصل، وهو واجب لأن السجاد لا يطهر بالدباغة ـ حسب فقههم ـ، ولكن رأي السادة هذا لا ينظر إليه أحد، والعامة من الشيعة كلهم يدّعون أن القرص من تربة كربلاء، وهذا ما يقوله لهم أيضاً أولئك الذين يبيعون هذه الأقراص.

إنهم يعجبون جداً من رفضهم الاقتداء بالمسلمين في الصلاة رغم ادعائهم الإسلام، وعدم صلاتهم الجمعة ما دام الإمام غائباً، وبقي ذلك حتى ظهر نائب الإمام حسب دعواهم، وهو الخميني.

إنهم يسخرون من أقوالهم إن الإمام محمد المهدي مكبل في السرداب، مُقيّد في سجنه، لن يخرج حتى يكثر الفساد فإذا خرج أعاد الحق إلى نصابه وسيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويعلم المسلمون أنه لا يوجد رجل يدعى محمد المهدي فليس هو سوى أسطورةٍ أضلهم بها محمد بن نصير حاجب الحسن العسكري.

إنهم يتأثرون جداً من تفضيلهم الأئمة على الأنبيـاء، ويعدّون هـذا خروجاً عن الدين، وبُعداً عن الفهم الإسلامي الصحيح.

إن المسلمين يتأثّرون كثيراً من طعن الشيعة بالصحابة، وإذا كانت الشيعة قد استطاعت نتيجة التوجيه الدائم، وتدوين التاريخ الإسلامي حسب أفكارها وآرائها أن تجعل المسلمين ـ مـع الأسف ـ يقبلون الطعن ببعض الصحابة أمثال عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وأبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً، إلا أنها لم تستطع أبداً أن تجعلهم يقبلون الـطعن بالصحـابة الآخـرين أمثـال أبي بكـر الصـديق، وعمـر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، رضي الله عنهم جميعاً. وهذا ما يجعل المسلمين ينظرون بعين الكـراهية لمن يتبنّى هـذا، ويقوم بترديده ونشره. ومن هذا كله نشأت كراهية المسلمين لأولئك الشيعة الذين جعلوا ديدنهم الشتم والطعن بالصحابة، ولكن هذه الكراهية أبداً لم تصل إلى المرحلة التي وصل إليها الشيعة من التعصّب، وفكرة الثأر، واستئصال شـأفة المسلمين ـ إن استـطاعوا ـ. ولهـذا وقف المسلمون (السنـة) دائماً بجانب الشيعة في مقارعة الظلم والاستبداد، ومقاومة الاستعمار، ومحاولة الإصلاح.

وهذا الذي ذكرناه هو ما يلاحظه العامة من أهل السنة دون الخوض في موضوع العقيدة، من عقيدتهم بعلي بن أبي طـالب، رضي الله عنه، وبالوحي، وتمام القرآن الكريم. وهذا ما يختص به العلماء عادةً، ولكن العامة ينظرون إلى ما يرونه أمامهم، ويُفكّرون فيما يسمعون دون الخوض بأبعد من ذلك، ولو جالوا في ذاك الميدان لابتعدت الشقة، ولأخرج طرف الآخر من الملّة.

لقد أيّد المسلمون الثورة الإسلامية في بداية الأمر على أنها تقـوم على الإسـلام، وساروا مـع قادتهـا، فلما رأوا التعصّب الشيعي، وطـرح الأفكار الشيعية المخالفة للعقيدة من تقديم الأئمة على الأنبياء، وطرح فكرة

الإمام المنتظر، والـدعوة لـه بالخـروج والتخلّص من قيوده، وكـانت هذه الطروحات من الآيـات وليست من العامـة، لما رأوا ذلـك انزووا، وبـدأ الخلاف يبدو واضحاً.

لقد سارت إيـران حديثاً على أنها حـامية للشيعـة في كل مكـانٍ، وأخذت تمدّ لهم يد العون، وتقدّم لهم التوجيه وكل وسـائله بل أخـذت تغري الآخرين بالمنح الدراسية، وبعدها بالكتب الموجّهة فأقبلوا نحوها، وهم المحرومون، واندفعوا إليها وهم الفقراء، ولم يسبق لأحدٍ قبل ذلك أن مدّ لهم يد العون، ودخلت الشيعة إلى إفريقية، ولم يكن قبل ذلك أحد في تلك القارة ينتمي إلى هذه الفئة، وبذا ستزداد نسبة الشيعة في العالم بعد أن كانت لا تزيد على ٦,٤٪ من مجموع المسلمين، أو سيحـدث، كما حدث في إيران نفسها، فقبل المغول ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لم يكن فيها من هذه الفئة سوى تجمعاتٍ صغيرةٍ، فلما جاء المغول، وفرض آخر حكام الدولة الإيلخانية هذا المذهب وصلت نسبة الشيعة إلى ١٠٪ وهي النسبة التي كانت عليها إيران عندما جاء الصفـويون، ونتيجـة الضغط، والإغراء والتوجيه، ومـع الزمن وصلت النسبـة إلى ما هي عليـه الآن وهو ٦٣٪، وستزداد مع الـزمن نتيجة تسلّم السلطة، وامتـلاك الوسـائل، إضـافةً إلى المظهر الذي يسير عليـه اليوم حُكّـام إيران من لبـاسٍ، ولحىً للرجال، واحتشامٍ وتسترٍ للنساء، وهو أمر واجب وطيب، ومن نشر للمذهب باتخاذ كـل الوسـائـل، وتسخيـر أجهـزة الـدولـة لـذلـك، وهـو عمـل ضـروري ومطلوب.... لكن العقيدة مع الأسف ـ فاسدة ـ وكم نتمنّى لو صُحّحت. وأما المسلمون في إيران من أهل السنة فليس لهم من راعٍ، ولا مهتم فيهم، ويُضيّق عليهم ولا مسعف.

هذا مع العلم أن أهـل السنة في إيـران إنما يُقيمـون على أطراف البلاد، في كردستان، وعربستان، وبالوخستان، وخراسان، وفي أجزاء من أذربيجان، وهذه المناطق كلها على الأطراف فيمكن الاتصال بهم، ودعمهم

والتحرّك نحوهم، كما أن هناك بعض التجمّعات لهم في المدن الكبرى، وبعض الجهات، وربما لو كان أهل السنة في الداخل لاحتجّ بعض الناس بصعوبة الاتصال بهم.

كان أول ما وقع الانفصام بين المسلمين (السنة) وبين الشيعة بعد الثورة عندما دُوّن الدستور فقد نصت المادة (١٢) منه على: «إن الدين الرسمي هو الإسلام، والمذهب الجعفري هو الاثنا عشري، وهذه المادة غير قابلة إلى التغيير إلى الأبد».

وظهر التعصّب الفارسي في الدستور أيضاً عندما نص على أن رئيس الدولة يجب أن يكون فارسياً. أي لا يكفي أن يكون شيعياً، وسمحت الدولة للزرادشت بإحياء أعيادهم، وعاداتهم، فشعر المسلمون ارتباط ذلك بالفرس ولا علاقة لذلك بالإسلام فانزووا وأدركوا أنهم خُدعوا وأصبحوا يتخلّون عن الثورة بعد أن كانوا من الدعاة لها بل ومن أشدّ المتحمسين لها. وقد وجدوا أنفسهم أنهم أقلية كالنصارى واليهود، إذ نصت المادة (١٣) على «إن الأقليات المذهبية (غير الشيعية) لهم حرية في إجراء مراسمهم المذهبية فقط تحت نظام الحكومة».

أسّس أحمد مفتي زاده من كردستان (مجلس الشورى المركزي لأهل السنة) ودعا علماء المسلمين إليه، فالتقوا فكانت النتيجة قتل من قُتل وسجن من سُجن، وتبعثر العلماء وأخذت التهديدات تظهر على لسان زعماء الثورة، وهوجمت قرى السنة وأُبيد الكثير من أهلها. ومن تصريحات المسؤولين الخاصة والسرية أنهم يعملون للقضاء على المسلمين في إيران خلال خمسين سنة تشيّعاً وتهجيراً وإبادةً.

وكان للمسلمين (السنة) عدة منظمات خاصة بهم فانتهت على أيدي ما يُسمّى بالثورة بعد تلفيق اتهامات للقائمين عليها، وافتراءات يحبكها (حرس الثورة)، ومن هذه المنظمات:

١" ــ منظمة شباب أهل السنة في مدينة (سروان) ويـرأسها إمـام مسجد النور، وتصدر مجلةً شهريةً هي (نهضة جوانان).

٢" ــ منظمة (سازمان محمدي) في مدينـة زهدان، ويـرأسها عبـدالملك زادة، ولها جريدة شهرية (انتشارات سازمان محمدي).

٣" ــ جمعية (وحدة إسلامي بلوشستان) في مدينة (إيران شهر)، ويرأسها (محمد إبراهيم وامتي).

٤" ــ منظمة (إسلامي دانش آموزان ومصلحين بلوج) في مـدينة (إيـران شهر) أيضاً.

وأصبحت هذه المنظمات في خبر كان.

ومـا حدث للمنـظمات والجمعيـات حـدث للمـدارس الإسـلاميـة، كالمدرسة الإسلامية في (بندر لكنه، والمدرسة العربية في (بندر خير).

وهذا ما تم لبعض المسـاجد الكبيـرة التي هدّمت لأسبـابٍ ملفقةٍ، ولحق بها أئمتها، وخطباؤها، وعلماء البلدة، إن كانوا من البـارزين، أو عرفوا بعلمهم وقوة حجتهم.

ووقعت صدامات عنيفة بين الطرفين بعد أحداث مفتعلة، وإثـارات مصطنعة في أكثر المناطق التي يكثر فيها المسلمون (السنة).

٣" ـ الصراع الحزبي

أيام القاجاريين:

لم تُعرف الحياة الحزبية في الدولة الفارسية قبل عام ١٣٢٤ هـ إثر إعلان الدستور في جمادى الآخرة ١٣٢٤ هـ (آب ١٩٠٦ م) حيث نشأ حزبان هما:

١" ـ الحزب الدستوري (مشروطه خواه).

٢" ـ حزب الحكم المطلق (مستبد).

ولم تكن الحياة الحزبية ذات مفهومٍ واضحٍ حيث لم تقم على أفكارٍ ومبادىء، وإنما كانت تجمّعات تُراعي المصلحة، وتعتمد على تحقيق المنفعة، لذا لم يلبث الحزبان أن انتهيا بتغير الوضع.

وعندما تشكّل المجلس النيابي الثاني في رجب ١٣٢٧ هـ، وتمّ افتتاح الدورة الثانية في الثاني من شهر ذي القعدة ١٣٢٧ هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩ م) وُجد حزبان جديدان هما:

١" ـ الحزب الثوري (انقلابي).

٢" ـ الحزب المعتدل (اعتدالي).

ولكن عندما مارسا نشاطهما والتأمت دورة المجلس النيابي برزا باسمين جديدين هما:

١" ـ **حزب العموم الديمقراطي**: (ديمكرات عاميون)، ويُمثّل الأقلية في المجلس النيابي حيث كان يتبعه ثمانية وعشرون نائباً، وكان برئاسة سيد

تقي حسن زادة، ومن أشهر رجاله: حسين قلي خان نواب، وسليمان مرزا، وسيد محمد رضا مساوات، ووحيد الملك. وكان من أهدافه التي يُنادي بها:

أ ـ فصل الدين عن الدولة وعن السياسة.

ب ـ فرض الجندية الإلزامية.

جـ ـ توزيع الأرض على الفلاحين.

د ـ منع الاحتكار.

هـ ـ التعليم الإلزامي.

و ـ إنشاء مصرف زراعي لمساعدة الفلاحين.

ز ـ إلغاء مجلس الأعيان.

ح ـ زيادة الضرائب غير المباشرة.

ط ـ زيادة العلاقات السياسية مع دول العالم كافةً.

وقد أصدر عدة صحف وهي:

أ ـ إيران نور: في طهران، وشفق في تبريز، ونوبار في خراسان.

٢" ـ حزب اجتماعيون اعتداليون (الاجتماعي المعتدل)، ويُمثّل الأكثرية في المجلس النيابي حيث كان يتبعه ستة وثلاثون نائباً إضافةً إلى تأييد سبعةٍ من المستقلين، وأربعةٍ من حزب الاتفاق والترقي، ومن زعمائه: ميرزا محمد صادق طباطبائي، وميرزا علي أكبر خان دهخدا، وميرزا علي محمد دولت أبادي، وآغا بزرك شيرازي، وشكر الله خان قوام الدولة.

ويُعدّ هذا الحزب محافظاً، وأكثر أعضائه من الأثرياء، وكبار رجال الدولة. وبلغ الصراع أشدّه بين هذين الحزبين الكبيرين، فكان حزب العموم الديمقراطي يتهم خصمه بالرجعية، والسعي وراء المصلحة، على حين كان حزب اجتماعيون اعتداليون يتهم منافسه بالمروق من الدين، والزندقة. وربما كان كلاهما متهماً بالصلة مع دولةٍ أجنبيةٍ حيث كان حزب العموم الديمقراطي على صلةٍ مع بريطانيا بينما كان حزب اجتماعيون اعتداليون على صلةٍ مع روسيا. وقُتل سيد عبدالله بهبائي، واتُّهم الديمقراطيون بقتله، واضطر زعيمهم سيد تقي حسن زادة أن يفرّ خارج البلاد، ولم يستطع العودة حتى تغيّر الوضع.

وجرت الانتخابات النيابية عندما تسلّم أحمد شاه السلطة بعد أن بلغ سنّ الرشد، فنجح حزب العموم الديمقراطي وفاز بواحد وثلاثين مقعداً، بينما فاز حزب (اجتماعيون اعتداليون) بتسعة وعشرين مقعداً، وفازت الهيئة العامة بأربعة عشر مقعداً، وحصل المستقلون على عشرين مقعداً.

وجرى ائتلاف بين حزب العموم الديمقراطي والمستقلين، وعاد الحكم الدستوري إلى البلاد، وزاد النشاط الصحفي، ومن أهم الصحف التي ظهرت يومذاك.

صحيفة نوبهار: وتتبع حزب العموم الديمقراطي.
ستارة إيران: وتتبع حزب العموم الديمقراطي.
صحيفة شورى: وتتبع حزب (اجتماعيون اعتداليون).
صحيفة رعد: مستقلة، ولكنها تُؤيّد الحلفاء.
مجلة عصر جديد: أسبوعية، وتُؤيّد الحلفاء.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى مال حزب العموم الديمقراطي إلى الألمان، وشكّل لجنة الدفاع الوطني (كميتة دفاع ملي)، وقدم إلى إيران أحد الألمان وهو (شونمان)، وعمل على تنظيم الدفاع عن البلاد ضد الغزاة الروس، الذين تقدّموا من ناحية القفقاس، غير أن الإيرانيين بقيادة سليمان ميرزا قد هُزموا عند خانقين، وبعد الهزيمة عقد زعماء الحزبين اجتماعاً، وقرّروا حلّ حزبيهما. وبعد زوال آثار الحرب، عادت الحياة الحزبية من جديدٍ، فظهر على الساحة:

١" ـ الحزب الاشتراكي (سوسياليست): وأسّسته جماعة من قادة الحزبين السابقين، وكان يميل إلى الحزب الشيوعي الروسي الذي تسلّم السلطة في روسيا بعد الثورة الشيوعية التي اندلعت أثناء الحرب العالمية الأولى في الأول من المحرم ١٣٣٦ هـ (١٧ تشرين الأول ١٩١٧ م)، ويُمثّل الأقليّة في المجلس النيابي الرابع. ورشّح هذا الحزب لرئاسة الوزارة ميرزا حسن مستوفي الممالك.

٢″ ـ حزب إصلاح طالبان (المطالبون بالإصلاح): وتشكّل أيضاً من قادة الحزبين السابقين، ورشّح هـذا الحزب لـرئاسـة الوزارة أحمـد قوام السلطنة، وحسن بيرنيا (مشير الدولة)، ويُمثّل الأكثرية في المجلس النيابي.

ولا نستطيع أن نقول: إن هناك صراعات إذ كثيراً ما يترك عدد من النواب هذا الحزب لينضموا إلى ذاك فيصبح أكثريـةً بعد أن كـان أقليةً، وتسقط الحكومة السابقة وتخلفها وزارة جديدة، ثم يرجع من ترك حزبه إليه مرةً أخرى فيعود أكثريةً، ويعود إلى السلطة، وهكذا، ويُثير الخلاف ويُحرّك اللعبة رضا بهلوي.

٣″ ـ حـزب مؤتمـر المستبـدين (انجمـان مستبـدين): ويُعـارض الدستور، ويرى الحكم المطلق، وقد أنشأه أعوان الأسرة القاجارية أمثال: مفاخر الملك، شيخ فضل الله، هاشم أجود أنباشي، صنيع حضرت. وكان الشاه محمد علي يدعم هذا الحـزب بالمـال، ويُؤيده، ويُقـرّب زعماءه، ويسمـع منهم، فلما سقط، وفـرّ إلى روسيا قُبض على زعمـاء الحزب، وأُعدموا جميعاً.

٤″ ـ حزب داشناكسوتيون (الاتحـاد الثوري)، وهـو حزب خـاص بالأرمن، ويُمثّله في المجلس النيابي النواب الأرمن الذين يُمثّلون طائفتهم. وانتهى الحزب بسقوط الشاه محمد علي، وفراره إلى روسيا، وقُـدّم قادة الحزب إلى المحاكمة، فحُكم عليهم بالإعدام، ونُفّذ بهم الحكم.

أيام الأسرة البهلوية:

عرفنا أنه تعاقب على حكم إيران اثنان فقط من هذه الأسرة، وهما رضـا بهلوي، وابنه محمـد رضا الـذي أطاحت بـه (الثورة الإسـلامية)، وأُعلنت الجمهورية.

أ ـ عهد رضا بهلوي:

لم يظهر في عهده أي تنظيمٍ سياسيٍ سواء أكان حزباً أم جميعةً،

ولكن وجدت فعلاً تنظيمات سياسيةٍ سرية، اتخذت السرية وسيلةً لها لكتمان أمرها، بل بالغت في الكتمان، حتى أطلقت على نفسها رمزاً معيناً، من غير أن تُطلق على تنظيمها اسماً واضحاً، وما ذلك إلا بسبب الخوف من الحكومة التي سارت على النهج الاستبدادي. ومن هذه التنظيمات:

١″ ـ حزب أو (هو): ولم يعرف مؤسسه، ولا يُعلم أحد من قادته، وإنما كانت إشاعات تُطلق عن مُؤسّسه، أو يُتّهم أحد بالانتماء إليه انتماءً من غير بيّنةٍ، وأُشيع أن علي دشتي هو مُؤسس هذا الحزب، غير أنه أنكر ذلك، كما أُشيع أن (سپهر) مؤرخ الدولة هو الذي أسسه، لكنه كذّب ذلك وتبرّأ من هذا الاتهام.

٢″ ـ **كروه پولاد (جماعة الفولاذ)**: ويبدو أن مُؤسسي هذه الجماعة فئة من الجيش، وذكروا منهم: محمود خان پولادين، وأحمد خان پولادين، ونصر الله خان، وروح الله خان. كما أنضمّ إليهم، ممثل اليهود في المجلس النيابي «حاييم»، وأعداد من موظفي الدولة والتجار. وقد انكشف أمر هذه الجماعة، فأمر رئيسها محمود خان پولادين بإتلاف الوثائق، وهذا ما جعل أخبارها وأعلامها مجهولةً، وألقي القبض على من عُرف من أعضائها وقُدّموا لمحاكمةٍ سريةٍ، فأُعدم خمسة من زعمائها، وأُلقي الآخرون في السجن في ١١ شعبان ١٣٤٥ هـ (١٣ شباط ١٩٢٧ م).

٣″ ـ حزب ض ـ أ: والاسم ليس سوى رمز، وبقي الحزب سرّياً، وكل ما عُرف عنه أنه ظهر في أواخر عهد رضا بهلوي. وأُشيع أن مُؤسّسه هو أحد الوزراء، واتجهت الأنظار إلى وزير المالية ميرزا علي أكبر خان الذي كان يدعو إلى الوقوف في وجه الأجانب، وضرورة العمل المشترك لهذا الهدف.

ب ـ عهد محمد رضا بهلوي:

حدث افتتان بالغرب والطريقة السياسية التي يسير عليها، وهذا ما

جعل الشاه الجديد يفسح المجال لقيام أحزاب وتجمّعات سياسيةٍ، غير أن النزعة الفردية القائمة، وعدم المفهوم الحزبي الصحيح، واختلاف طبيعة المجتمع كل هذا قد جعل الأحزاب تزداد لدرجةٍ يختلّ معها الوضع السياسي، وتعمّ الفوضى. ولعلّ أهم الأحزاب التي وجدت على الساحة الإيرانية، والتي كان لها دور في الحياة السياسية.

١ ـ حزب توده: وقد أُعلن عن قيامه في الثلاثين من رمضان ١٣٦٠ هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٤١ م)، وكان من أبرز مؤسسيه خليل ملكي، إحسان طبري، وتقي أراني. فعندما ترك رضا بهلوي البلاد، ودخل الحلفاء إيران استغلّ الحزب الشيوعي وجود القوات الروسية في شمالي البلاد لحمايته، واستفاد من النقمة التي كانت قائمة على النظام الاستبدادي الذي كان مسيطراً على البلاد، ومن الأزمة التي فرضتها ظروف الحرب، وأعلن عن تشكيل لجنةٍ مُؤقتةٍ مُؤلفةٍ من خمسة عشر عضواً برئاسة سليمان ميرزا اسكندري. وقد انبثق هذا الحزب من:

أ ـ الحزب الشيوعي: الذي نشأ أصلاً من جماعة عدالة والتي تكوّنت ١٣٣٦ هـ بعد نجاح الشيوعيين بالسيطرة على الحكم في روسيا في الأول من المحرم ١٣٣٦ هـ، وعقد هذا الحزب أول اجتماعٍ له في ميناء (أنزلي) الذي عُرف فيما بعد باسم (بندر بهلوي) على بحر الخزر وذلك بتاريخ السادس من شهر شوال ١٣٣٨! هـ (٢٢ حزيران ١٩٢٠ م).

ب ـ جماعة تقي أراني: الذي كان في ألمانيا، وتأثّر بالأفكار الاشتراكية، والتقى بأعدادٍ من الإيرانيين هناك وعاد إلى طهران عام ١٣٥١ هـ ليشغل منصب رئيس جامعة طهران، فشكّل مجموعةً نُسبت إليه، وأصدرت مجلة (دنيا).

ومن اندماج هاتين المجموعتين نشأ حزب توده.

شارك في حكومة أحمد قوام الدولة بعد الحرب العالمية الثانية، وتسلّم ثلاث حقائب وزارية هي: التربية الوطنية، والصحة، والصناعة.

وأيّد إقامة حكومةٍ شيوعيةٍ في أذربيجان بعد أن سيطر عليها (جعفر بيشه وري) بمساعدة القوات الروسية. وكان (جعفر بيشه وري) قد أسسّ الحزب الديمقراطي الأذربيجاني في ٢٦ رمضان ١٣٦٤ هـ (٣ أيلول عام ١٩٤٥ م)، واندمج معه فرع حزب (توده) في أذربيجان، ورغب بالحصول على الاستقلال الذاتي، ولكن طهران رفضت ذلك، فأعلن الاستقلال بمساعدة القوات الروسية. فأحيل الموضوع إلى الأمم المتحدة، ووقفت بجانب إيران، واضطرت روسيا إلى سحب قواتها، ففرّ (جعفر بيشه وري) إلى روسيا

وعندما جرت محاولة اغتيال الشاه يوم الجمعة ٦ ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ (٤ شباط ١٩٤٩ م)، حُلّ الحزب، وطورد أعضاؤه.

وعاد إلى النشاط أيام حكم محمد مصدق وأيّده، ثم اختلف معه، وكان له جناح عسكري، فعندما تمّ الانقلاب على محمد مصدق في ٩ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ (١٩ آب١٩٥٣ م) أُلغي الحزب، وأُبيد عدد من أعضائه، واعتقل خمسمائة ضابطٍ من جناحه العسكري، وأُعدم سبعة وعشرون منهم.

ورجع الأمين السر الأول لحزب توده إلى طهران (نور الدين كيانوري) في ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (١٣ نيسان ١٩٧٩ م)، واقترح تشكيل جبهةٍ شعبيةٍ متحدة (جبهة متحدة خلق)، وجعل من أهدافها.

١ ـ تأييد الخميني.

٢ ـ التخلص من التسلّط الاستعماري الاقتصادي (الإمبريالي).

٣ ـ تأميم المؤسسات الصناعية والزراعية.

٤ ـ تأميم المصارف.

وقد انبثقت من حزب توده جماعة خوفاً من البطش بها، وحظر الحزب، وقد عُرفت هذه الجماعة باسم منظمة المتطوعين الفدائية الشعبية. ولكنها عادت إلى أصلها الحزبي فاندمجت في حزب توده عندما رجع إلى النشاط.

٢ ـ **حزب القوة الثالثة (نيروي سوم)**: انشق ثلاثة وخمسون عضواً

برئاسة خليل ملكي عن حزب توده، وانضمّوا إلى حزب (كادحي الأمة الإيرانية). ثم وقع الخلاف بين الزعماء، فأسّس خليل ملكي بمجموعته حزباً جديداً أطلق عليه اسم حزب القوة الثالثة، غير أنه قد انتهى بانتهاء حكومة محمد مصدق التي أيّدها. أما مظفر بقائي كرماني الذي كان زعيم حراس الحرية فقد تزعّم حزب العمال، وعارض محمد مصدق.

٣ ــ **التجمّع الاشتراكي**: فقد أسّسه مظفر بقائي كرماني، وضمّ حراس الحرية، التجمعات الطلابية الاشتراكيين في جامعة طهران، والاشتراكيين المستقلين.

٤ ــ **الجبهة الوطنية (جبهت ملي)**: برئاسة محمد مصدق، وقد برزت على الساحة السياسية منذ نهاية عام ١٣٦٨ هـ، وكانت تدعو إلى تأميم النفط، وعدم تدخّل الحكومة في الانتخابات النيابية. وهذا ما دعا محمد مصدق للسير إلى القصر في ٢٢ ذي الحجة ١٣٦٨ هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٤٩ م) على رأس وفدٍ يضمّ مائةً وثمانين عضواً من السياسيين وأساتذة الجامعة والصحفيين، ولكنهم لم يستطيعوا مقابلة الشاه، فاختاروا تسعة عشر منهم بقوا معتصمين بالقصر حتى تستجاب مطالبهم، وكان من أبرزهم: محمد مصدق، حسين فاطمي، كريم سنجابي، مظفر بقائي كرماني، وحُدّدت المطالب بالانتخابات:

١ ــ إلغاء الانتخابات التي تمّت.

٢ ــ تشكيل حكومةٍ محايدةٍ للإشراف على انتخاباتٍ جديدةٍ.

ولكن الشاه رفض هذه المطالب.

وفي ١٣ محرم ١٣٦٩ هـ (٤ تشرين الثاني ١٩٤٩ م) قُتل وزير البلاط عبدالحسين هجير بيد أحد رجال فدائيان إسلام لتدخّل الوزير بالانتخابات، وأحسّت الحكومة بسخونة الوضع، وأصدر المجلس الأعلى قراراً بعدم شرعية الانتخابات، وبذا أصبحت مُلغاةً، ويجب إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ، وهذا ما تُطالب به الجبهة الوطنية.

جرت الانتخابات الجديدة في ٢ صفر ١٣٧٠ هـ (١٢ تشرين الثاني ١٩٥٠ م)، وفازت فيها الجبهة الوطنية، وعُهد إلى محمد مصدق بتشكيل الحكومة في ١٣ رجب ١٣٧٠ هـ (١٩ نيسان ١٩٥١ م)، وبقي في الحكم مدة سبعةٍ وعشرين شهراً حيث جرى انقلاب عليه قاده الجنرال زاهدي في ٩ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ (١٩ آب ١٩٥٣ م) وحُلّت الجبهة، وشُرّد أعضاؤها، وأُلقي بعضهم في السجن، وأُعدم بعضهم الآخر.

عادت الجبهة إلى الظهور ثانية بعد احتجاب سبع سنوات، حيث دعا حسن نزيه إلى اجتماعٍ في دار فيروز أبادي بتاريخ ٢٧ المحرم ١٣٨٠ هـ (٢١ تموز ١٩٦٠ م)، وشملت التنظيمات السياسية كافةً باستثناء الشيوعيين، وأخذت تُطالب بـ:

١" ـ حل جهاز الأمن السري (السافاك).
٢" ـ إطلاق الحريات العامة.
٣" ـ إعادة الدستور.
٤" ـ عدم تدخّل الشاه في شؤون الحكم.

ولكن لم تلبث أن انقسمت إلى فئتين: أولاهما ترى استعمال القوة لإسقاط النظام على حين ترى الأخرى عدم استعمال السلاح، وإنما اتباع السياسة والإعلام لإسقاط الحكم القائم، وتسلّم السلطة. وهذا ما جعلها تتفكّك، ويتجه بعض قادتها لتشكيل أحزابٍ جديدةٍ.

ولكنها عادت إلى الظهور ثانية عام ١٣٩٨ هـ، وشملت أيضاً التنظيمات السياسية كلها باستثناء الشيوعيين الذي ترتبط مصالحهم بمصالح الشيوعية العالمية، ولا يتحرّكون إلا حسب توجيهاتها. وكان من قادتها: كريم سنجابي، شابور بختيار، مهدي بازركان، داريوش فروهر، حسن نزيه، وإبراهيم يزدي، وكاظم حسيبي.

وشكّل مهدي بازركان أول حكومةٍ في ظلّ الثورة، والتي ضمت بعض رجال الجبهة، ومنهم كريم سنجابي الذي تسلّم وزراة الخارجية

وذلك في ١٦ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (١٣ شباط ١٩٧٩ م)، وبعد شهرين قدم وزير الخارجية كريم سنجابي استقالته، ولم يمض أكثر من تسعة أشهرٍ حتى استقالت حكومة مهدي بازركان في ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٩ هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٧٩ م)، وضمّت الجبهة:

أ ــ حزب الأمة الإيراني (ملّت إيراني).

ب ــ حزب إيران.

ج ــ جماعة إيران المعاصرة السياسية (كروه سياسي إيران أمروز).

د ــ حركة تحرير إيران (نهضت أزادي إيران).

هـ ــ حركة مسلمي إيران الثورية (جنبش انقلابي مردم مسلمان إيران)، وتختصر بكلمة «جاما».

ولهذه الأحزاب شخصيتها الاعتبارية لأنها ذات ماضٍ حزبيٍ وتاريخٍ في النشاط.

٥ ــ **حزب الأمة الإيراني** (حزب ملّت إيران): ويرأسه داريوش فروهر، وأيّد حكم محمد مصدق.

٦ ــ **حزب إيران**: وظهر أثناء الحرب العالمية الثانية برئاسة (الله يار صالح)، وقد شارك في حكومة أحمد قوام الدولة إثر الحرب، تلك الحكومة التي شارك فيها حزب توده، وكذلك شارك في حكومة محمد مصدق، ومن أعضائه شابور بختيار، وكاظم حسيبي، ورحيم شريفي، وأبو الفضل قاسمي، وعبدالحسين ثنائي، وعبدالحسين دانشبور.

٧ ــ **حركة تحرير إيران** (نهضت أزادي إيران): وتشكّل هذا الحزب إثر سقوط حكومة محمد مصدق، حيث مالت الجماعات الوطنية إلى العمل السري. وقام الفريق المتدين بزعامة آية الله زنجابي (حاج سيد رضا) وشكّل حزب حركة المقاومة الوطنية (نهضت مقاومت ملّي)، ثم انضمّ إليهم مهدي بازركان في ١١ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ (٢١ آب ١٩٥٣ م)، ولكنه لم يلبث أن أُلقي القبض على آية الله زنجابي، وأُبعد عن منطقة

نشأته، وأُعدم حسين فاطمي، وقد كشف أوراق منظمة توده العسكرية فأُعدموا.

وعاد الحزب فظهر من جديدٍ عام ١٣٨٠ هـ، وكان مؤسّسوه آية الله سيد محمود الطالقاني، ومهدي بازركان، وحسن نزيه، ومنصور عطائي، يدالله سحابي، ورحيم عطائي، وعباس سميعي. فأُلقي القبض على مهدي بازركان في ١٣ المحرم ١٣٨٣ هـ (٥ حزيران ١٩٦٣ م)، ثم أعقبه القبض على آية الله الطالقاني. وعطف العلماء والتجار على هذا الحزب.

٨ ـ **جماعة إيران المعاصرة السياسية** (كروه سياسي إيران أمروز)، وكان يرأسه سعيد فاطمي.

٩ ـ **حركة مسلمي إيران الثورية** (جنبش انقلابي مردم مسلمان إيران)، ويرأسها آية الله شريعتمداري.

١٠ ـ **الحزب القومي الإيراني** (حزب ناسيونال ليست إيران): نشأ بعد الانقلاب على محمد مصدق، وتكوّن من عدة جماعات منشقة من عدة أحزاب.

١١ ـ **فدائيان إسلام**: وأسسه مجتبى نواب صفوي إثر الحرب العالمية الثانية، وقد عمل على قتل الذين يقفون في وجه الإسلام بأية صورة من الصور. فقام حسين إمامي وقتل علي كسروي، ثم قتل وزير البلاط عبدالحسين هجير بتهمة التدخّل في الانتخابات وذلك في ١٣ محرم ١٣٦٩ هـ (٤ تشرين الثاني من عام ١٩٤٩ م). وقتل خليل طهماسبي رئيس الوزراء (علي رازمارا) بتهمة عمالته لأمريكا. وأطلق عبد خدائي النار على وزير الخارجية حسين فاطمي عندما وقع الخلاف بين الحزب وبين حكومة محمد مصدق.

وأطلق ذو القدر النار على رئيس الوزراء حسين علائي. وضاقت الحكومة ذرعاً بالحزب فألقت القبض على زعيمه مجتبى نواب صفوي، وأعدمته مع مساعديه، وانتهى أمره.

عاد الحزب إلى النشاط في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ (٢٥ أيار ١٩٧٩ م)، وسمّى أتباعه أنفسهم حراس الثورة، ووضعوا أنفسهم تحت تصرّف آية الله الخميني، واختاروا صادق خلخالي رئيس المحاكم الثورية الإيرانية رئيساً لهم.

١٢ ـ حزب ملّيون (حزب الوطنيين): حدث فراغ سياسي في إيران بعد سقوط محمد مصدق واختفاء الجبهة الوطنية فوجد الشاه أن تقوم أحزاب مُؤيّدة لنظام حكمه، وأخرى معارضة له ظاهرياً تحت سمعه وبصره وتوجيهه، وباختياره نفسه لقادة تلك الأحزاب المؤيدة والمعارضة على حدٍّ سواء. وكان يهدف من ذلك ملء الفراغ السياسي الذي وُجد بعد سقوط نظام محمد مصدق، وتمزّق الجبهة الوطنية، هذا بالإضافة إلى السيطرة التامة على الشعب ودفع الشيوعيين والوطنيين إلى الخلف، وإنزال أتباعه مكانهم. ولم يكن لهذه الأحزاب من آراء تنادي بها أو أفكارٍ تطرحها، وإنما كانت أعواناً للشاه تأتمر بأمره، وتتلقّى التوجيهات منه.

كلّف الشاه أحد أعوانه وهو منوچهر إقبال بتأليف حزب الوطنيين (ملّيون) كحزبٍ مُؤيّد، فقام بالعمل، وأوكل مهمة الأمين العام فيه إلى نصرت الله الكاظمي، وذلك عام ١٣٧٦ هـ، ودعم الحزب بمساعدات ماليةٍ كافيةٍ، فأصدر صحيفة تحمل اسم الحزب (ملّيون)، ثم عهد إلى زعيم الحزب منوچهر إقبال بتشكيل الوزارة في ٥ رمضان ١٣٧٦ هـ (٤ نيسان ١٩٥٧ م).

ولم يطل عمر هذا الحزب حيث وُجّهت انتقادات واسعة لزعيمه حتى من مُؤسّسيه، وبدأوا يتخلّون عنه، وترك رئيسه الحكم فتفكّك الحزب، وانتهى.

١٣ ـ حزب مردم (حزب الشعب): وقد كلّف الشاه أحد أصدقائه، وهو أسد الله علم، ليؤلف حزباً يأخذ موقف المعارضة، فشكّل حزب الشعب، وكانت الحكومة مسؤولة عن نفقاته، وقد أصدر الحزب صحيفةً تحمل اسم «طريق الشعب» (راه مردم)، ومجلةً أسبوعيةً تحمل اسم «مهر

إيران» (شمس إيران). ونشأ الحزب مع سابقه في وقتٍ واحدٍ، وانتهى بعد بـاندمـاجه في حـزب بعث الأمة الإيـرانية (رستـا خيز ملت إيـران) عـام ١٣٩٥ هـ. ونادى هذا الحزب بالإصلاح الزراعي، وتحديد الملكية كنوعٍ من أنواع التضليل.

١٤ ــ حـزب إيران نـوين (حزب إيـران الحديثـة): وتـأسس عـام ١٣٨٤ هـ، وهدفه حماية ما أطلق عليه الشاه اسم الثورة البيضـاء، وكان أمينه العام حسن علي منصور، الذي عُهد إليه باستلام السلطة، وقد اغتيل على باب المجلس النيابي، حيث عُدّ المسؤول عن منح الضباط الأمريكيين والمستشارين الحصانة القانونية، وعُهد بالحكم من بعده لوزير ماليته أمير عبّاس هويدا، والذي حكم البلاد أكثر من اثنتي عشرة سنةً ونصف.

١٥ ــ حزب بان ـ إيرانيست: ونشأ بعد الحرب العالمية الثانية تحت اسم (معركة إيران)، وضمّ العناصر المعادية للإنكليز والتي زاد عددها بعد احتلال الحلفاء لإيـران، وأصبحت تميل لـلألمان نتيجـة عدائهـا للروس والإنكليـز الذين احتلّوا البـلاد. وبرزت فكـرة الصلة بين العـرقين الآري والجـرماني. لم يلبث أن وقـع الخلاف بين قـادة الحزب حـول. شخصية الشاه، والجيش فاتجهوا فريقين:

أ ــ فريق بزعامة محسن پزشكپور، وأعلن إخـلاصه غيـر المشروط للشاه، بل تعاون مع المخابرات الخاصة. وأسّس حزب بان إيـرانيست، وهو ذو نزعة عنصرية استبدادية. وقد انضمّ عام ١٣٩٥ هـ إلى حزب بعث الأمة الإيرانية (رستا خيز ملّت إيران)، فلما بدأ الانشقاق في هذا الحزب أعلن محسن پزشكپور إعادة تشكيل حزبه بان ـ إيرانيست من جديد. ويعدّ هذا الحزب مُعادياً للعرب، ويعتبر البحرين جزءاً من إيران، ويدعـو إلى التوسّع.

ب ــ فريق بزعامة داريوش فروهر الذي اتخذ موقفـاً شبه معـارض للقصر، وأيّد محمد مصدق. وأسّس حزب الأمة الإيرانية.

١٦ ــ حزب إيرانيان (الإيرانيين): انفصل فضل الله صدر عن حزب بان إيرانيست، وشكل حزباً خاصاً به أطلق عليه حزب إيرانيان، ولا يختلف في أفكاره عن أصله، ثم انضمّ إلى حزب بعث الأمة الإيرانية (رستا خيز ملّت إيران) عام ١٣٩٥ هـ، فلما أخذ بالانشقاق، رجع حزب إيرانيان من جديدٍ يقوم بنشاطه في ظل حكومة الثورة.

١٧ ــ حزب رستا خيز ملّت إيران (حزب بعث الأمة الإيرانية): أنشأه الشاه في ١٩ صفر ١٣٩٥ هـ (٢ آذار عام ١٩٧٥ م)، وأعلن أنه سيكون حزب إيران الوحيد، لذا فقد أعلنت الأحزاب التي تُؤيد الشاه انضمامها إلى هذا الحزب بعد أن أعلنت حلّها، وضمّت أموالها وممتلكاتها إلى مالية الحزب، وهذه الأحزاب هي: حزب مردم (الشعب)، وحزب إيران نوين (إيران الحديثة)، وحزب بان إيرانيست، وحزب إيرانيان (الإيرانيين)، وتعهدت الدولة أن تخصص جزءاً من ميزانيتها للحزب كي يستطيع النمو والانتشار بين أفراد الشعب. أما الأحزاب التي رفضت الاندماج في هذا الحزب فقد مُنعت من ممارسة نشاطها.

وكلّف الشاه رئيس الوزراء أمير عباس هويدا ليتولّى منصب الأمين العام لهذا الحزب. ولكن أخذ الحزب بالتفكك مع بداية الأحداث، ورجع كل حزبٍ ليشكل نفسه من جديدٍ وليقوم بنشاطه الخاص، واستمرّ ذلك بعد قيام الثورة.

١٨ ــ الأحزاب في منطقة عربستان (الأهواز): وقامت أحزاب محلية أهدافها حلّ مُشكلة إقليمٍ من الأقاليم أو انفصالها عن الامبراطورية والتحاقها بالشعب الذي تنتمي إليه، أو استقلالها، ولعل إقليم عربستان (الأهواز) كان أهم الأقاليم التي تعدّدت فيه تلك الأحزاب المحلية، وكانت تعمل على الانفصال عن إيران والالتحاق بالمنطقة العربية التي تجاور إيران على أساس أن سكان إقليم عربستان أكثرهم من العرب.

ولكن تعدد هذه الأحزاب، وعدم شمولية الحزب الواحد للإقليم كله، واقتصارها على مدينةٍ واحدةٍ، الأمر الذي جعل الأثـر محدوداً، والضعف عاماً، فلا تلبث أن تنتهي تلقائيـاً أو تتمكن السلطة الإيرانيـة من القضاء عليها، ثم تبرز بعد مدةٍ من جديدٍ، ولكن لا تلبث أن تزول وهكذا، ولعلّ أشهر هذه الأحزاب:

أ ــ حزب السعادة الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية، وتعاونت السلطة الإيرانية مع القوات الإنكليزية للقضاء عليه، وقامت الفتنة بين هذا الحزب، وفرع حزب توده في مدينة عبادان حتى قضي عليه.

ب ــ جمعية الدفاع عن عربستان، وأعطى المؤسسون أنفسهم أسماء حركية حملت أسماء الصحابة والقادة في صدر الإسلام.

ج ــ جبهة تحرير عربستـان: وظهرت بعـد سقوط محمـد مصدق، واستمرّت أكثر من سبع سنوات، وكان لها جناح مدني، وآخر عسكري، وأخيراً تسللّت المخابرات الإيرانية بين صفوفها، وعرفت أسرارها، وكشفت اجتماعات القادة في عبادان، فألقت القبض عليهم في ٩ رجب ١٣٨٣ هـ (٢٥ تشـرين الثاني ١٩٦٣ م)، وقُـدِّموا إلى المحكمـة بتـاريـخ ٣ صفـر ١٣٨٤ هـ (١٣ حزيران ١٩٦٤ م) وحُكم على بعضهم بالإعدام.

د ــ الجبهة الوطنية لتحرير عربستان، وتُعدّ امتداداً للجبهة السابقة، وكان التنظيم في مدينة المحمرة، واغتيل قائد الجبهة بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٣٨٨ هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٦٩ م).

هـ ــ الجبهـة القوميـة لتحريـر عربستـان: وبدأ التنـظيم في منطقـة الخفاجية عام ١٣٨٠ هـ، ثم وصل إلى مدن عبادان، والمحمرة، والأهواز، وطلبت الدعم من العراق، فلم تحصـل عليه، فـأُصيب قادتهـا بالهـزيمة النفسية، وغيّروا اسم جبهتهم إلى الجيش الشعبي العربستاني.

و ــ الجبهة القومية لتحرير عربستان: ونشأت ١٣٨٧ هـ بعد اختفاء

سابقتها، وحملت اسمها، وقامت في منطة المحمرة، ولكنها بدّلت اسمها بعد عامين إلى جبهة تحرير الأهواز.

ز ـ الحركة الثورية لتحرير عربستان: بدأت عام ١٣٨٨ هـ، وأصدرت نشرة تحمل اسم «أصداء الثورة» ولكن لم يطل عمرها.

ح ـ الجبهة الشعبية لتحرير الأهواز: ونشأت عام ١٣٨٨ هـ، وعدّت العمل المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافها، وأصدرت صحيفةً لها، تحمل اسم «الأهواز» وقامت بعددٍ من العمليات التخريبية، ومنها ضرب مراكز النفط، وإحراق ميناء المحمرة، ونسف محطة البثّ التلفزيوني، ومراكز الشرطة، والإغارة على المراكز العسكرية التابعة للسلطة الإيرانية. وأخيراً انتهت عام ١٣٩٥ هـ.

وفي المرحلة الأخيرة من حكم الشاه محمد رضا بهلوي، وخاصةً بعد تأزّم الوضع، وضعف الحكم زادت الأحزاب زيادةً واضحةً، وهذا يدلّ على وجود النزعة الفردية لدى القادة، ووجود أهداف غير ظاهرة تختفي تحت أسماء أحزاب وجمعيات تبدو ضعيفة، وربما هدفها معارضة الحكم والعمل على زيادة إرباكه.

بعد تفكّك حزب رستا خيز ملت إيران (بعث الأمة الإيرانية) عادت الأحزاب التي تألف منها إلى الظهور وهي:

١ ـ حزب الشعب (مردم).

٢ ـ حزب الإيرانيين (إيرانيان).

٣ ـ حزب إيران الحديثة (إيران نوين).

٤ ـ حزب بان إيرانيست.

وانقلبت لجنتان أسسهما الحزب إلى حزبين وهي:

٥ ـ الحزب القومي الإيراني (ناسيوناليست إيران) برئاسة علاء الدين زرين بور، ونشأ هذا الحزب من لجنة البحث في المشكلات الداخلية والقومية (كروه بروسي مسائل داخلي وملي).

٦ ـ حزب الوطني الإيراني: ونشأ من لجنة البحث في المشكلات الإيرانية برئاسة وزير التعليم العالي هوشنك نهاوندي، ووزير التربية والتعليم فروغي، ووزير العمل والشؤون الاجتماعية كاظم وديعي.

ووجد كذلك من الأحزاب والجمعيات الآتية:

٧ ـ الجبهة الوطنية (جبهت ملي) برئاسة كريم سنجابي.

٨ ـ النهضة الوطنية (نهضت ملي) برئاسة رحمه الله مقدم مراغة آي.

٩ ـ حركة التحرير (نهضت أزادي) برئاسة مهدي بازركان.

١٠ ـ كادحو الأمة الإيرانية (زحمتكشان ملّت إيران) برئاسة مظفر بقائي كرماني.

١١ ـ مجتمع المعلمين (جامعت معلمين) برئاسة محمد درخيش.

١٢ ـ الحزب الليبرالي الإسلامي (ليبرال إسلاميك) برئاسة سيف الدين نبوي.

١٣ ـ الحزب الاشتراكي الديمقراطي (سوسيال دموكرات) بزعامة أحمد بني أحمد.

١٤ ـ الحركة (جنبش) برئاسة علي أصغر حاج سيدي جوادي.

١٥ ـ المسلم الحر (مسلم أزاد) برئاسة مصطفى رهنما روحاني.

١٦ ـ الحزب الديمقراطي الإيراني (دموكرات إيران) برئاسة علامير دللور.

١٧ ـ الحزب الاشتراكي الآري (سوسياليست آريا) برئاسة هادي سپهر.

١٨ ـ جمعية حراس الدستور (جمعيت باسدران قانون أساسي) برئاسة سيد مهدي بيراسته.

١٩ ـ اللجنة الإيرانية للدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان وتطبيقها في إيران حسن نزيه.

٢٠ ـ جمعية المحامين الإيرانيين برئاسة حسن نزيه أيضاً.

٢١ ـ جمعية الحقوقيين الإيرانيين، والأمين العام لها عبدالكريم لاهجي.

٢٢ ـ جمعية الدفاع عن حقوق السجناء السياسيين.

ولا شك أن كثرة الأحزاب والجمعيات سيزيد من الآراء، والأفكار،

ووجهات النظر، وسيساعد على صعوبة التفاهم، وبالتالي عموم الفوضى.

ونستطيع أن نلخص الصراع الحزبي أيام الشاه محمد رضا بهلوي، بما يأتي:

أ ــ بدأ النشاط الحزبي بعد الحرب العالمية الثانية بظهور حزب توده والأفكار الاشتراكية، وكانت تجد دعماً من دولة روسيا والشيوعية العالمية، وتعمل لنشر أفكارها، وضدّ الدول الغربية لمصلحة الروس، وضدّ السلطة الحاكمة لارتباطها بالغرب، وتستغل الفقر، والجهل، واستبداد الحكم، وترف وتبذير الشاه.

ب ــ ظهور الجبهة الوطنية برئاسة محمد مُصدّق، والصراع من أجل تأميم النفط، والتدخل الأجنبي، والاستبداد، وتصرّف الأسرة المتسلطة.

ج ــ ظهور أحزاب مُؤيدة للشاه، تعمل بتوجيهه، ونفقاتها من الحكومة، واختفاء الأحزاب المعارضة. فكان الصراع تحت الرماد.

د ــ كثرة الأحزاب واختلاط الأمر في المعارضة والتأييد.

أيام الثورة:

أخذت تظهر الأحزاب الإسلامية مع بقاء عددٍ من الأحزاب التي كانت قائمةً قبل الثورة على اختلاف اتجاهاتها سواء أكانت وطنيةً حسب ما اصطلح تسميتها أم اشتراكيةً ورأسماليةً، وإن كانت كلها تخالف الاتجاه الإسلامي وتأخذ بمفهوم العلمانية.

ومن الغريب الإبقاء على نشاط هذه الأحزاب مع العلم أنه لا توجد أحزاب وتجمّعات في ظل الدولة الإسلامية، لأن الأمة تكون كلها ذات أهدافٍ واحدةٍ، وتنطلق كلها وراء تحقيق تلك الأهداف، والدولة هي التي تُهيء المُناخ المُلائم، وتقود الرعية لتسعى وراء أهدافها، وتحول دون تشتيت الآراء، وتفتيت القوى، وبعثرة الجهود، وبلبلة الأفكار، وإثارة قضايا

ومنازعات. أما عندما لا توجد دولة تحكم بالإسلام فلا بدّ من تنظيم المسلمين لأنفسهم حتى يقيموا تلك الدولة.

ولسنا ندري فيما إذا كان القصد من وراء الإبقاء على تلك الأحزاب هو إظهار عُوار أفكارها ومبادئها بعد تطبيق الإسلام أم تركها لتذوب تلقائياً بعد أن فقدت فائدة وجودها بتحقيق ما كانت تتشدّق به، أم هو المحافظة على فكرة الحرية التي يتسابق الناس لإظهارها والمطالبة بها، فيكون رغبةً في إسكات المتاجرة، أم هو الخطأ السياسي لعدم الوضوح في الرؤية، أم هي هذه الأمور مجتمعة كلها لست أدري!!! وربما كانت السلطة تدفع بعض مؤيديها لتشكيل أحزاب ومنظمات تظهر المعارضة لتشجع الآخرين المخالفين فعلاً وحقيقةً لتأسيس الأحزاب فتصيدهم السلطة ولا يمكن أن تصيدهم بغير هذا التصرّف ـ والله أعلم ـ.

١ ـ **حزب الجمهورية الإسلامية** (جمهوري إسلامي): ويعدّ حزب السلطة الحاكمة، وقد أُسس بتوجيهٍ من الخميني، وأُعلن عن إنشائه في **٢١** ربيع الأول **١٣٩٩** هـ (١٨ شباط **١٩٧٩** م)، وذلك بعد سقوط قصر نافران الملكي بأسبوعٍ واحدٍ، ووقّع البيان الأول له كل من:

١ ـ محمد جواد باهنر. ٢ ـ سيد محمد بهشتي.

٣ ـ سيد علي خامنئي. ٤ ـ سيد عبدالكريم موسوي.

٥ ـ أكبر هاشم رفسنجاني.

واحتوى حزب (فدائيان إسلام).

٢ ـ **حزب جمهورية مسلمي إيران الإسلامية** (جمهوري إسلامي خلق مسلمان إيران). وأُعلن عن إنشائه في **٢٧** ربيع الأول **١٣٩٩** هـ (**٢٤** شباط **١٩٧٩** م) أي بعد ستة أيامٍ من تشكيل حزب الخميني. وأصدر صحيفة «خلق مسلمان» أي الشعب المسلم. ووقعت صدامات بينه وبين حزب السلطة، وأعنفها ما وقع بتاريخ **٢١** محرم **١٤٠٠** هـ (١٠ كانون الأول **١٩٧٩** م) حيث قتل اثنا عشر رجلاً، وجرح أكثر من مائة، واعتقل أكثر من

عشرين من ضباط القوة الجوية، وأعدم أربعة منهم رمياً بالرصاص بتهمة تزويد حزب جمهورية مسلـمي إيران بالأسلحة.

ويدين هذا الحزب بالولاء لآية الله كاظم شريعتمداري الذي خضع لضغطٍ فوجّه نقداً بالإذاعة لتصرّفات حزبه.

٣ ـ **حركة المعلمين المسلمين** (جنبش معلمين مسلمان): وتأسست في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (٢٠ نيسان عام ١٩٧٩ م)، وترى تعديل مناهج التعليم على أساس إيماني، وتصفية العناصر غير الصالحة من المعلمين.

٤ ـ **منظمة المعلمين المسلمين** (سازمان معلمان مسلمان): وأنشئت في ٤ جمادى الأول ١٣٩٩ هـ (١ نيسان عام ١٩٧٩ م).

٥ ـ **منظمة الموحدين** (سازمان موحدين): وهي منظمة سرية عسكرية، مستقلة أو تتبع أحد الأحزاب، وقامت ببعض حوادث الاغتيالات، ثم تمكّنت منها الحكومة، وقضت عليها.

٦ ـ **حزب الاتحاد من أجل الحرية** (اتحاد براي أزادي): ونشأ في ١٨ جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (١٥ نيسان ١٩٧٩ م) برئاسة أحمد بني أحمد الذي يُعدّ الأمين العام للحزب. وكان بالأصل جمعيةً تحمل الاسم نفسه، وجدت كتجمعٍ سياسيٍ في مجلس النواب عندما أخذ حزب بعث الأمة الإيرانية يتفكّك، ووقف كتجمّعٍ مُعارضٍ لحكومات شريف إمامي، وغلام أزهري. وأصدر هذا الحزب صحيفةً أسبوعيةً تحمل اسم «العصر الجديد» (عصر نوين).

٧ ـ **حزب جمهورية اتحاد شعوب إيران** (جمهوري فدارتيو خلقهاي إيران): وأعلن عن قيامه في ٢٠ ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ (١٩ آذار ١٩٧٩ م)، ويرى إقامة جمهوريةٍ اتحاديةٍ، وتحديد الملكية، وتأميم المصارف.

٨ ـ **الحزب القومي الديمقراطي الإيراني (ناسيونال دموكرات إيران)**: وأعلن عن قيامه في ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (١١ آذار ١٩٧٩ م)، ويرى الفكر القومي أساساً للمنطلق الإيراني، وتوزيع الثروة واحترام الأقليات، وضرورة وجود جيشٍ شعبيٍ.

٩ ـ **جماعة بشارة السياسية** (كروه سياسي بشارت): وبرزت في ٥ شعبان ١٣٩٩ هـ (٣٠ حزيران عام ١٩٧٩ م)، وظهر من أعضائها محيي الدين نبوي، ومنوچهر فرهنك، وتُنادي بمقاومة الإلحاد والفساد.

١٠ ـ **حزب الرسالة الإنسانية لشعب إيران** (رسالت إنساني مردم إيران)، واختصاراً (راما)، وهو الاسم الذي اشتهر به، ونشأ في ٢٥ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (٢٢ شباط ١٩٧٩ م).

١١ ـ **حزب الوطنيين الإيراني (ميهن دوستان إيراني)**:

١٢ ـ **الحزب الديمقراطي الوطني** (دموكرات ملي): ونشأ في الثاني من ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (٢٨ شباط عام ١٩٧٩ م).

١٣ ـ **حزب الجمهوريين** (جمهور يخواه): وأسّسه عبدالحسين بقائي كرماني، وأصدر صحيفة تحمل اسمه.

١٤ ـ **منظمة متطوعي إيران القومية** (سازمان چريك هاي ناسيوناليست إيران): وأعلنت المنظمة عن قيامها بتاريخ ١٧ رجب ١٣٩٩ هـ (١٢ حزيران ١٩٧٩ م).

١٥ ـ **المنظمة الثورية** (سازمان انقلابي): وتنادي بانسحاب إيران من حلف شمالي الأطلسي، وإلغاء المعاهدات المعقودة بين إيران وبين الدول الكبرى الغربية وروسيا، كما ترى تأميم المصارف.

١٦ ـ **الجمعية الوطنية للثورة الإيرانية** (جمعيت ملي انقلاب إيران).

١٧ ـ **حزب العمال الاشتراكي** (كاركران سوسياليست): وكان أمينه العام

الأول هرمز رحيميان، ثم انتخب مكانه بابك زهرائي، وممن برز من رجاله جواد صديق، وهوشنك سپهري، وعرف من نسائه پروين نجفي.

١٨ ـ **الحزب الشيوعي الإيراني**: (كمونيست إيران): ونشأ في مطلع ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (٢٦ شباط ١٩٧٩ م).

١٩ ـ **حزب الأحرار** (حزب أزادكان): وأعلن عن قيامه في ١٤ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (١١ آذار ١٩٧٩ م).

٢٠ ـ **حزب المساواة الإسلامي**: (حزب مساوات إسلامي) برئاسة أحمد مفتي زاده، وهو من الأكراد. ويدعو إلى المساواة بين السنة والشيعة في الحقوق. وإعطاء حق تقرير المصير لكردستان، وتقسيم دخل النفط على الأقاليم حسب عدد السكان.

٢١ ـ **الحزب الديمقراطي الكردستاني** (دموكرات كردستان)، وهو خاص بالمنطقة الكردية، ويتزعمه عبدالرحمن قاسملو الذي يتوّلى منصب الأمين العام، وللحزب جناح عسكري يقوده مسعود بن الملا مصطفى البارزاني، ومع أن الحزب قائم منذ السنوات الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية، إلا أنه برز بعد الثورة وأعلن (صارم الدين صادق وزيري) في طهران في يوم الخميس ١١ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (٨ آذار ١٩٧٩ م) مبادىء الحزب التي تتلخص في:

أ ـ إقامة جمهوريةٍ ديمقراطيةٍ في إيران.

ب ـ إعطاء حق تقرير المصير للشعب الكردي في كردستان، وللشعوب الإيرانية الأخرى.

ج ـ وجوب مشاركة نواب عن الشعوب الإيرانية في الجمعية التأسيسية التي ستضع الدستور الجديد.

وجرى قتال بين قوات الحكومة وقوات الحزب التي تُسمّى (تيشه ماركة)، وأعلن الخميني في شهر شوال من عام ١٣٩٩ هـ حلّ هذا الحزب.

٢٢ ـ المنظمة السياسية للشعب العربي المسلم: (سازمان سياسي خلق عرب مسلمان): وتتداخل آراء هذه المنظمة بين العروبة والإسلام والإيرانية والمطالبة بالحكم الذاتي لعربستان.

٢٣ ـ منظمة مجاهدي الشعب العربي (سازمان مجاهدي خلق عرب) ومقرها في المحمرة، وهي منظمة عسكرية، تسعى لتحرير عربستان من النفوذ الفارسي، وتعمل بسريةٍ تامةٍ، والمعروف منها: شاكر شكوري.

٢٤ ـ المنظمة السياسية للشعب العربي الخوزستاني (سازمان سياسي خلق عرب خوزستان): وكانت قائمةً قبل الثورة، ومغضوباً عليها، ثم أعلنت عن نفسها بعد الثورة.

٢٥ ـ الجبهة العربية لتحرير الأهواز: ومن أعضائها البارزين فاخر مجيد الزرقاني نائب الأمين العام، ومحمود حسين مشاري أمين السر، وعقد قادتها مؤتمراً صحفياً في ٧ ذي الحجة عام ١٤٠١ هـ (٥ تشرين الأول ١٩٨١ م) أبانوا فيه آراءهم، وأنهم يتبنّون فكرة القومية العربية، والكفاح المسلح، والتعاون بين الشعوب الإيرانية، والسعي لدى البلدان العربية لتدريس إقليم الأهواز.

٢٦ ـ مجتمع البختياريين (جامعت بختياريها): وقد شارك في أحداث مقدمة الثورة، ويهدف إلى الدفاع عن حقوق البختياريين.

هذه الأحزاب والتجمّعات السياسية التي برزت بعد نجاح الثورة على حين كانت أخرى قبل نجاح الثورة، واستمرت بعدها تُمارس نشاطها، ومنها:

٢٧ ـ جمعية معلمي إيران (جامعت معلمان إيران)، وقد ظهرت مع نهاية الحرب العالمية الثانية برئاسة محمد درخشش، وقد أصدرت صحيفة (مهركان) السياسية والثقافية، ومجلةٍ أخرى تحمل الاسم نفسه غير أنها طلابية، وأنشأت نادياً يحمل الاسم نفسه أيضاً، وأيّدت حكومة محمد

مصدّق. وقامت بإضراب أجبرت حكومة جعفر شريف إمامي على الاستقالة، وعيّنت الحكومة الجديدة رئيس الجمعية محمد درخشش في منصب وزير التربية والتعليم.

وشاركت الجمعية بالإطاحة بنظام الشاه، وبعد نجاح الثورة عُطّلت صحيفة الجمعية، وأُغلق ناديها، وتقوم الآن بدور المعارضة للنظام القائم.

٢٨ ـ منظمة مجاهدي الشعب الإيراني (سازمان مجاهدي خلق إيران): وتأسست عام ١٣٨٥ هـ برئاسة مسعود رجوي، وهي منظمة عسكرية سرية، وكانت تعدّ محمود الطالقاني زعيمها السياسي والديني، وبعد نجاح الثورة دعت أعضاءها للتدريب على استعمال السلاح، وأصدرت صحيفة باسم «رسالة الشعب» وأنشأت لها فروعاً منها: منظمة الشباب المجاهد (سازمان جوانان مجاهد)، ومنها الجناح السياسي الذي يعرف بالحركة الوطنية لمجاهدي شعب إيران (جنبش ملي مجاهدي خلق إيران)، وقد أعلن عن قيام تضامن بين منظمة مجاهدي خلق والحركة الثورية لشعب إيران المسلم (جاما)، وإعلان التضامن أيضاً بين مجاهدي خلق والجبهة الديمقراطية الوطنية الإيرانية (جبهت دموكراتيك ملي إيران).

وتأخذ هذه المنظمة موقف المعارضة، وقد أُلقي القبض على أحد زعمائها وهو محمد رضا سعادتي وفر رئيس المنظمة مسعود رجوي إلى فرنسا مع (أبو الحسن بني صدر) يوم ١٢ شعبان ١٤٠١ هـ (١٤ حزيران عام ١٩٨١ م)، وعدّ نفسه رئيس حكومة في المنفى، كما عدّ (أبو الحسن بني صدر) رئيس الدولة الموقت. وتعد حكومة المنفى الأكراد بالاستقلال الذاتي، وكذا بقية الأقليات، والقيام بالإصلاح الزراعي، وتصفية النظام القائم.

٢٩ ـ جماعة إيران المعاصرة السياسية (كروه سياسي إيران أمروز): برئاسة سعيد فاطمي، ومن أعضائه البارزين جواد صادقي الضابط الذي دافع عن

منزل محمد مصدق حتى اللحظة الأخيرة، وعلي زندي، وعلي زرين، وعلي رضا شهبازي، ومحمد روحي.

ومع هذه الجماعة يوجد «التجمع السياسي للشرق المعاصر» (كروه سياسي باختر أمروز) الذي يرأسه أيضاً سعيد فاطمي.

٣٠ ـ حركة المقاومة الوطنية الإيرانية: (نهضت مقاومت ملي إيران): ويُمثلها شابور بختيار الذي كان رئيس الحكومة الأخيرة للشاه، والتي سقطت بنجاح الثورة، وفر شابور بختيار إلى فرنسا، وأخذ في معارضة الحكم القائم في إيران.

٣١ ـ منظمة المتطوعين الفدائية الشعبية الإيرانية (سازمان چريكهاي فدائي خلق إيران): ساهمت في القضاء على نظام الشاه، ويبدو أنها تعمل بسريةٍ تامةٍ، وقادتها غير معروفين، وهناك تعاون بينها وبين حزب توده، بل انشقّ منها فريق، سمّى نفسه «المتطوعون المنشقون» (چريكهاي منشعب) وانضمّ إلى حزب توده. ولهاجناح عمالي يصدر صحيفة تُسمّى «العمل» (كار).

٣٢ ـ جماعة الوطنيين (كروه ميهن پرستان): وكانت تعمل على تطبيق الدستور، وهذا ما ألزمها للوقوف بجانب نظام الشاه، مما أدّى إلى افتراق أعضائها.

٣٣ ـ منظمة الأحرار (سازمان أزادكان) بزعامة الجنرال بهرام آريانا رئيس أركان الجيش الإيراني في عهد الشاه، وتعمل ضد نظام الحكم الجمهوري القائم، وانضمت أخيراً إلى حركة المقاومة الوطنية التي يتزعمها شابور بختيار.

٣٤ ـ الحركة الثورية الديمقراطية لتحرير عربستان (جنبش انقلابي دموكراتيك براي آزادي عربستان): ونشأت عام ١٣٩٣ هـ، وتُصدر مجلة في ليبيا تُسمّى «قارون»، وتجعل مساحة عربستان مائتين وخمسين ألف كيلو متر مربع، حيث تمتد لتشمل سواحل الخليج العربي.

٣٥ ــ الحركة الوطنية لمجاهدي قزوين (جنبش ملي مجاهدي قزوين).

كما لا تزال تنظيمات وأحزاب كانت تعمل من قديم مثل:

٣٦ ــ حزب توده:

٣٧ ــ الاتحاد الثوري الأرمني (حزب داشناكسوتيون):

٣٨ ــ جميعة الزرادشتيين في إيران (كميته) زرتشتيان إيران): وتصدر صحيفة باسم «علم الحرية».

٣٩ ــ جمعية المثقفين اليهودية الإيرانية (جامعت روشنفكران يهودي إيران): وقد أعلنت تأييدها للجمهورية، وتدّعي أنها تناضل ضدّ الصهيونية. وتُطالب بإيجاد منظمات للمجتمع اليهودي في إيران.

وهناك جمعيات يبدو عليها الطابع المهني أو الاجتماعي غير أنها في الواقع ذات أهدافٍ سياسيةٍ ومنها:

٤٠ ــ الجمعية الثقافية للشعب العربي المسلم في إيران.

٤١ ــ جمعية معلمي الأهواز المستقلة.

٤٢ ــ مؤتمر الطلاب المسلمين بجامعة طهران.

٤٣ ــ المنتدى الإسلامي للثقافة والفن.

٤٤ ــ الجمعية الإيرانية للتعاون مع فلسطين.

٤٥ ــ جمعية تحرير المرأة.

وتصل أعداد هذه الأحزاب والتجمعات السياسية إلى أكثر من خمسين منظمةٍ وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على كثرة انتشار النزعة الفردية في المجتمع، وعلى تباين الآراء، والذي يُؤدّي بدوره إلى زيادة الاختلاف والبلبلة في الأفكار، وبالتالي الفوضى، وبعثرة الصفوف، وإيجاد منافذ وقنوات يمكن اختراقها والتسلّل عبرها إلى الداخل والعبث والتهديم.

المَـرَاجِـع

١ ـ الأحزاب والتجمعات السياسية في إيران، محمد وصفي أبـو مغلي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة.

٢ ـ إيران في سنوات الحرب العالمية الثانية، عبد الهادي كريم سلمان، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ١٩٨٦.

٣ ـ التاج الإيراني، أسيمة جانو، مكتبة مدبولي.

٤ ـ الثورة البائسة، موسى الموسوي.

٥ ـ حكم الشيخ خزعل واحتلال إمارة عربستـان، وليم تيودور سترنك، ترجمة عبدالجبار ناجي، منشورات مـركز دراسـات الخليج، جـامعة البصرة ١٩٨٣ م.

٦ ـ دراسات في تاريخ إيران، كمال مظهر أحمد، بغداد ـ ١٩٨٥ م.

٧ ـ دليـل الشخصيات الإيـرانية المعـاصـرة، محمـد وصفي أبـو مغلي، منشورات مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة ١٩٨٣ م.

٨ ـ ماذا يجري لأهل السنة في إيران؟ سلسلة منشورات مجلس علمـاء باكستان. ١٤٠٦ هـ.

البَابُ الثَاني

أفْغانِسْتَان

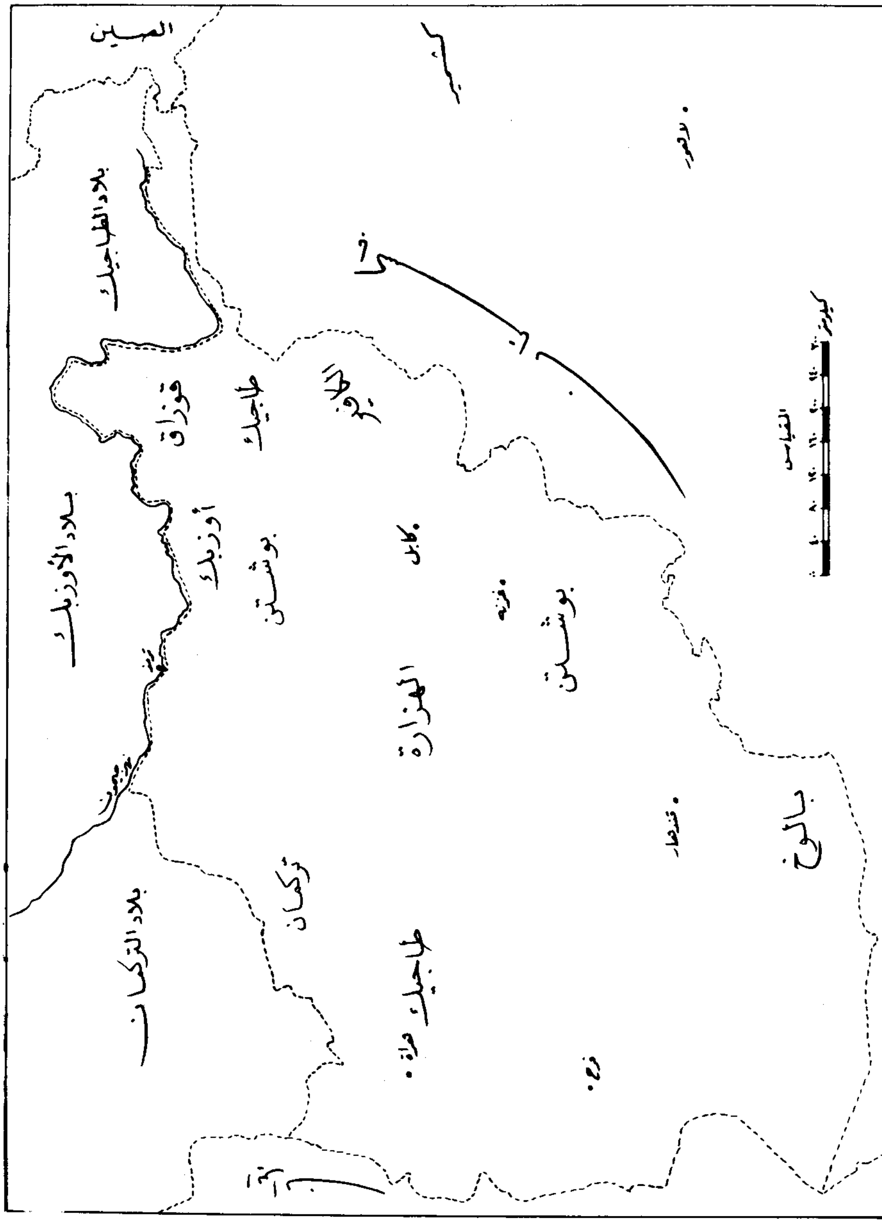

بلاد الأوزبك
بلاد الطاجيك
بلاد التركمان
قوزاق
أوزبك
طاجيك
بوشتن
تركمان
الكافر
كابل
الهزارة
طاجيك
هراة
غزنه
بوشتن
فرح
قندهار
بالوخ
كشمير
لاهور
المقياس
كيلومتر

لم تكن بلاد الأفغان بمفهومها الآن قائمةً كإقليمٍ خاصٍ قبل نهاية القرن الثالث عشر الهجري، وإنما كانت أجزاء منها ما تخضع للفرس، وأخرى للهند، وإذا ما قوي طرف طغى وامتد سلطانه على أقسامٍ أُخرى، وإذا ما ضعف تراجع وانسحب مما توسّع فيه بل وربما مما كانَ يستولي عليه من قبل، وقد يكون أكثر من ذلك، من أجزاء نعدّها اليوم من بلاده، وكانت تدخل أحياناً قبائل الأوزبك على أراض مما نعرفه اليوم من بلاد الأفغان.

خضعت بلاد الأفغان لحكم التيموريين في نهاية القرن الثامن الهجري، فلما انقسمت دولتهم، وضعف أمرها بعد وفاة مؤسّسها انقسمت إلى إمارات فكانت (هراة) تتبع خراسان التي يسيطر عليها حسين ببغرا التيموري، على حين تمكّن محمد بابر شاه ظهير الدين أن يُخضع (كابل) و (غزنة) إلى سلطانه، وبقي في (كابل) حتى عام ٩٣٢ هـ، ثم انتقل إلى الهند عندما استدعاه أمراء اللوديين الذين اختلفوا مع ملكهم، وبقيت كابل، وغزنة تتبعانه، وتوفي عام ٩٣٧ هـ.

خلفه ابنه نصر الدين همايون شاه، فتمّرد عليه (شيرشاه) وهزمه، وفرّ همايون شاه إلى دولة الصفويين حيث أقام ضيفاً على الشاه طهماسب حتى عام ٩٤٧ هـ، ثم عاد إلى الهند، ودخل كابل وقُنْدُهار عام ٩٥٢ هـ.

استولى الصفويون على قُنْدُهار، وخلفهم عليها الأوزبك، فالمغول في الهند عام ١٠٢١ هـ، وهم الذين سلّموها إلى الصفويين عام

١٠٣٨ هـ، وقد شمل سلطانهم بعد ذلك أكثر الأجزاء التي تُعرف اليوم باسم أفغانستان.

قُنْدُهار:

قام مير أويس عام ١١٢٠ هـ في قندهار ضد الحاكم الجورجي الذي عيّنه عليها الصفويون، وانتصر عليه، وطرده من البلاد، وتسلّم السلطة، وتوفي مير أويس عام ١١٢٧ هـ، وأصبحت قُنْدُهار إمارةً خاصةً، حكمها محمود بن مير أويس، وكان صغيراً، فخرج عليه عمه عبدالله مستعيناً بالفرس، وعندما شبّ محمود تمرّد على عمّه وقتله، وأخذ الحكم.

هراة:

إن ما حدث في قندهار قد شجّع قبائل الدورانية (العبدلية) في هراة على التحرّك، فقام أسد الله ضدّ الفرس متفاهماً مع الأوزبك، وأسّس أسرةً حاكمةً في هراة متفاهمةً مع إمارة قندهار، وكلاهما ضدّ الفرس.

انتصر مير محمود على الصفويين، ودخل عاصمتهم أصفهان عام ١١٣٥ هـ، ولم تبق للصفويين سوى رقعةٍ صغيرةٍ من الأرض في الشمال فاستنجدوا بالروس فأمدوهم، فتراجع مير محمود، وهدّد العثمانيون الروس، ثم اتفقوا معهم على اقتسام الدولة الفارسية. وضعف مير محمود عقلياً فأقام الأفغان ابن عمّه أشرف بن عبدالعزيز الذي حارب العثمانيين لأنهم اتفقوا مع النصارى الروس ضدّ المسلمين. وأخيراً قامت حركات تمرّد ضدّ أشرف في كثيرٍ من الجهات.

قام نادرخان يدعم الصفويين، وانتصر على الأفغان، وطردهم من (مشهد) و (هراة)، ثم دخل أصفهان، وخرج منها أشرف بن عبدالعزيز أمير الأفغان، واتجه نحو (قُنْدُهار) ولكنه قُتل في الطريق عام ١١٤٢ هـ، وتابع نادرخان زحفه فدخل قُنْدُهار، ثم احتلّ (غزنة) و (كابل) وأخذهما من ملوك

الهند، وفي الوقت نفسه تسلّم جيشه مدينة (بلْخ)، وهكذا أصبحت بلاد الأفغان تحت حكم نادرخان.

قُتل نادرخان عام ١١٦٠ هـ، في بلاد (شروان)، وعندما رجعت الفرقة الأفغانية التي كانت معه إلى بلادها، واستقرّت في (قندهار)، ونادت بقائدها أحمد شاه العبدلي، وهو من الأسرة الدورانية، وعُرفت إمارته باسم الدولة الأفغانية.

الأسرة الدورانية:

توسّع أحمد شاه فضمّ إليه (الملتان) و(لاهور) و(كشمير)، وقاتل السيخ، وعاد إلى قاعدة ملكه حيث توفي عام ١١٨٧ هـ، تولّى بعد أحمد شاه ابنه تيمور شاه الذي كان يوم وفاة والده في (هراة)، فنافسه أخوه سليمان في (قندهار)، فتمكّن من احتلال العاصمة (قندهار)، وقتل أخيه، ونقل عاصمته إلى (كابل). دخل السيخ (الملتان) فاستردّها منهم عام ١١٩٦ هـ، وقام أمراء السند بحركات لمدة أربع سنوات، فاستقلوا ذاتياً، وانتصر على أمير بخارى (معصوم) الذي دخل (مرو)، وأخمد حركةً قامت في كشمير، وتوفي عام ١٢٠٧ هـ، بعد أن شجّع الإنكليز السيخ في الهند على حربه، والقاجاريين في فارس على قتاله.

خلف تيمور شاه ابنه زمان شاه الذي حكم حتى عام ١٢١٥ هـ ثم تغلّب عليه أخوه محمود، فوضعه في السجن، وحكم مكانه، ولكن أخاهما الثالث شجاع الملك قد نافس محموداً، وأعلن نفسه ملكاً في (بيشاور) ثم اتجه إلى كابل، وخلع أخاه محموداً، وأخرج أخاه زمان شاه من السجن كفيفاً.

بقيت قُنْدُهار بيد قمران بن محمود ويُؤيده عمّه فتح خان. تصالح الأخوان، ثم عادا فاختلفا. كان شجاع الملك يُقاتل في بلاد الهند، وفتح خان يخطط. وأخيراً هُزم شجاع الملك وفرّ إلى الهند عام ١٢٢٤ هـ ورجع محمود إلى السلطة ثانيةً.

اعتمد محمود على أخيه فتح خان، واعتمد فتح خان على أخيه الرابع دوست محمد الذي برز، واشتهر، وقوي أمره فقاتل أخاه محموداً، وهزمه عام ١٢٣٥ هـ. وكان محمود قد قتل أخاه فتح خان، وقام دوست محمد يثأر لأخيه فتح خان، فدخل كابل، وسمّى نفسه أمير كابل. وأخذ الفرس مدينة (هراة) من قمران بن محمود عام ١٢٥٨ هـ، وأخذ السيخ المقاطعات الهندية. وقامت أسرة محمد زائي تنافس الأسرة الدورانية، وهي فرع منها، وتمكّن محمد زائي من السيطرة على الوضع عام ١٢٥٠ هـ.

استنجد شجاع الملك بالإنكليز، فأرسلوا له جيشاً دخل (كابل) عام ١٢٥٥ هـ، ونصّب شجاع الملك حاكماً عليها، وفرّ (دوست محمد) إلى بخارى، وأراد مهاجمة الأفغان، غير أنه فشل في غاراته، وجاء إلى كابل، وسلّم نفسه للإنكليز، فنقلوه إلى البنغال.

انسحب الجيش الإنكليزي من كابل عام ١٢٥٧ هـ، وأثناء انسحابه هاجمه محمد زائي ومعه أكبر خان بن دوست محمد وكاد يُبيده، وقُتل شجاع الملك أثناء القتال بين الطرفين، وكان إلى جانب حلفائه الإنكليز، ومُنيت إنكلترا بخسائر كبيرةٍ، واضطرت أن تُعيد (دوست محمد) إلى بلاد الأفغان، وأن تعترف بحكمه.

عقد (دوست محمد) معاهدة صداقةٍ مع إنكلترا، وصالح روسيا، وأعاد إخوته وأبناءه إلى الإمارات، ولكن الخلاف بينهم لم ينته. وقامت الثورة في بلاد الهند ضدّ الإنكليز ولم يُساعد أمير الأفغان الإنكليز، وهذا ما أغضبهم، فأخذوا يرّوجون الشائعات ضدّه بأنه يعمل لصالح روسيا، حيث كانت المنافسة قائمةً بين إنكلترا وروسيا، وزحف الجيش الإنكليزي نحو بلاد الأفغان، غير أنه لم يستطع التقدم إذ فشل أمام المقاومة العنيفة التي أبداها الأفغان وهذا ما اضطره أن يتراجع، واضطرت إنكلترا إلى الاعتراف بالحكم الأفغاني، وتوفي دوست محمد عام ١٢٨٠ هـ.

قام بعد دوست محمد ابنه (شير علي)، وعادت إنكلترا إلى التدخل

في شؤون الأفغان، تارةً بحجة ردّ غارات القبائل الأفغانية عن بلاد الهند، وأخرى بحجة الوقوف في وجه النفوذ الروسي الذي ابتلع بلاد المسلمين في وسط آسيا، ويريد التقدّم نحو الجنوب، وتعمل إنكلترا للدفاع عن الهند. ولكثرة التدخّل الإنكليزي في شؤون الأفغان اضطر شير علي للاستعانة بالروس ضدّ إنكلترا، ورحّب بالبعثة الروسية، ورفض قبول الوفد الإنكليزي، فأسرعت إنكلترا، واحتّلت بلاد الأفغان عام ١٢٩٥ هـ، وإن كانت قد خسرت خسائر جسيمةً في هذا الاحتلال، وتوفي شير علي عام ١٢٩٦ هـ، وخلفه ابنه يعقوب الذي اضطر بعد ثلاث سنوات أن يعفي نفسه من الإمارة بعد أن هاجم رجاله الوزير الإنكليزي المقيم في مدينة كابول، وقطّعوه. وكان قد رفض الأفغانيون حكم يعقوب بن شير علي لأن ميوله كانت إلى جانب إنكلترا، وبدأت الحركات تقوم في وجه المحتلين حتى اضطرت إنكلترا للانسحاب من بلاد الأفغان، وعُقدت معاهدة بين الطرفين اعترفت فيها إنكلترا باستقلال بلاد الأفغان، ولكن بقيت السياسة الخارجية الأفغانية بيد إنكلترا.

تسلّم حكم بلاد الأفغان عبدالرحمن بن أفضل بن دوست محمد. وهاجمت روسيا مدينة (هراة) عام ١٣٠٢ هـ، وأسرعت إنكلترا للدفاع عنها حرصاً على مصالحها، وعُقدت معاهدة بين إنكلترا وروسيا عام ١٣٠٥ هـ في بطرسبرغ (لينينغراد)، واكتفى الروس فيها بما أخذوه من خراسان. ولكن عادت روسيا مرةً أخرى للتحرش في بلاد الأفغان من جهة الشمال الشرقي، وغدت منطقة (باداخشان) مثاراً للنزاع بين الطرفين، وعُقدت معاهدة أخرى عام ١٣١٣ هـ اعترفت فيها روسيا أن منطقة (باداخشان) جزء من بلاد الأفغان، ورُسمت الحدود بين بلاد الأفغان وبين المناطق الإسلامية التي يُسيطر عليها الروس في وسط آسيا، وكان أيوب ابن عم شير علي قد هرب إلى إيران وجمع رجاله، ودخل قندهار عنوةً فخرج إليه عبدالرحمن وألزمه على الرجوع إلى إيران وبقي فيها حتى مات عام ١٣٠٦ هـ.

وكذلك ثار عليه ابن عمه إسحاق خان الذي كان والياً على المناطق الشمالية، واقترب من كابول فخرج إليه عبدالرحمن وهزمه، ففر إلى سمرقند، وأقام برعاية الروس حتى وفاته.

وتوفي عبدالرحمن عام ١٣١٩ هـ، وخلفه ابنه الكبير حبيب الله خان.

ازداد النفوذ الإنكليزي في عهد حبيب الله خان، وعُقدت معاهدة بين إنكلترا وروسيا عام ١٣٢٥ هـ اعترفت فيها كلا الدولتين باستقلال بلاد الأفغان. وحاول العثمانيون جرّ حبيب الله خان إلى جانبهم في الحرب العالمية الأولى، وإعلان الجهاد ضدّ الإنكليز، ولكنهم فشلوا لإصراره على تأييد الإنكليز، وهذا ما أزعج الأفغانيين فاغتالوا أميرهم عام ١٣٣٨ هـ.

تسلّم السلطة بعد حبيب الله خان ابنه الثالث أمان الله خان، وتسمّى باسم ملك، وحاول التخلّص من النفوذ الإنكليزي، فساءت العلاقات بين الطرفين، وجرى القتال، وتمكّن الأفغان بقيادة محمد نادر شاه من الانتصار على الإنكليز في عددٍ من المعارك المتتابعة، كما استردّ المناطق التي يسيطر عليها الإنكليز، وأجبر إنكلترا على الاعتراف باستقلال بلاد الأفغان التام. وحسّن الملك أمان الله خان صلاته مع كل من: إيران، وتركيا، وروسيا. وانصرف بعدها إلى حياة اللهو والترف، والرحلة الدائمة إلى أوروبا في وقتٍ كانت تئن فيه خزينة الدولة من العجز. ثم أبعد القائد محمد نادر شاه عن البلاد.

الأسرة الدورانية:

١١٦٣ - ١٣٤٨ هـ.

[١] أحمد شاه ١١٦٣ - ١١٨٧ هـ.

[٢] تيمور شاه ١١٨٧ - ١٢٠٧ هـ.

سليمان ثار على أخيه وقُتل.

[٣] زمان شاه
١٢٠٧ - ١٢١٥ هـ.

[٤] محمود
١ – ١٢١٥ - ١٢٢٠ هـ.
٢ – ١٢٢٤ - ١٢٣٥ هـ.

قمران

[٦] شجاع الملك
١٢٥٥ - ١٢٥٧ هـ.

فتح خان.

[٥] دوست محمد
١ – ١٢٣٥ - ١٢٥٠ هـ.
٢ – ١٢٥٨ - ١٢٨٠ هـ.

أفضل

عبدالرحمن
[٩]١٢٩٩ - ١٣١٩ هـ.

[١٠] حبيب الله خان
١٣١٩ - ١٣٣٨ هـ.

[١١] أمان الله خان
١٣٣٨ - ١٣٤٨ هـ.

[١٢] عناية الله
١٣٤٨ - ١٣٤٨ هـ.

[٧] شير علي
١٢٨٠ - ١٢٩٦ هـ.

[٨] يعقوب
١٢٩٦ - ١٢٩٩ هـ.

محمد زائي: ١٢٥٠ - ١٢٥٥ هـ.

وهو من عشيرة الباركزائي إحدى عشائر الأسرة الدورانية.

الفصل الأول

الأسرة الدورانيَّة

ألغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) والأسرة الدورانية تحكم بلاد الأفغان، والملك هو أمان الله خان الذي تسلّم السلطة عام ١٣٣٨ هـ إثر اغتيال والده.

أمان الله خـان:

اتخذ لنفسه لقب «ملك»، وفي عهده انتصرت أفغانستان بقيادة محمد نادر خان على إنكلترا التي اضطرت على الاعتراف باستقلال أفغانستان. وغرّ الملك أمان الله أبهة السلطان، فترك الحكم، ولم يعد هناك أمامه من يهدده ما دامت إنكلترا قد هُزمت، كما لم يُنازعه أحد في الداخل، وانصرف إلى الصيد، وركوب الخيل. وكذلك بهرته الحضارة المادية الأوروبية فأراد أن يسير بنفسه على خطاها، وتعالى على رعيته، وازدرى شعبه، فهو من أسرةٍ حاكمةٍ ورثت المجد كابراً عن كابر- حسب زعمه- على حين أن أفراد شعبه بسطاء فقراء لا يرتفعون إلى مستواه، ولا يدنون منه. ورأى في أوربا ضالته المنشودة التي انسجمت حياتها مع ما في نفسه فأخذ يُقلّد مجونها وأعجبه الاختلاط والسفور، أو وجد هوى في نفسه، فسار فيه، وألزم أهله متابعته، وارتاح إلى الزي الغربي فقلّده، وكان ينظر إلى زي الأفغانيين نظرة ازدراء، وأصبحت هوة سحيقة بينه وبين رعيته. وعمل على تنفيذ ما أراده لكن هذا يتطلب مالاً كثيراً ففرض الضرائب، فأثقل كاهل شعبه، فزادت الهوة اتساعاً بينه وبين السكان.

رغب في تحقيق ما أرتأه فقرّر القيام برحلةٍ طويلةٍ إلى أوربا لِيُمارس

ما أعجبه، وقد أمن الداخل، ولكن خشي أمراً واحداً، هو القائد محمد نادر خان الذي كان له جهد في الانتصار على البريطانيين، وهو من أسرته أيضاً، إذ كان هذا القائد موضع تقدير الرعية لشجاعته واتزانه، وتقديره للأهالي، وهذا ما وطّد الصلة بينه وبين الشعب، فخاف الملك منه، وأراد أن يتخلص منه، فعيّنه سفيراً له في باريس في سبيل إبعاده عن البلاد.

سافر الملك أمان الله إلى أوربا عام ١٣٤٧ هـ، وخرجت نساؤه سافرات بالزي الأوربي، وكذا ظهرت نساء حاشيته، وكانت زوجته «ثريا» تتقدّم موكب النساء سافرةً متبذّلةً، وشاع الخبر في أفغانستان، وعملت إنكلترا على ذيوعه لتُحقّق ما تُخطّط له، فزادت نقمة الأفغانيين على ملكهم إذ شعروا أنه غريب عنهم، ما دام يحمل فكراً غير فكرهم. أما القائد محمد نادر خان السفير في باريس فقد ساءه ما سار عليه مليكه فقدّم استقالته من منصبه، ورجع إلى بلده.

عاد الملك إلى موطنه، وشعر بالنقد الذي وجه إليه، وعرفه من الاستقبال الفاتر الذي استقبله الشعب به، بل سمعه بأذنه، فأغضبه ذلك، وأخذته العزة بالإثم، وصمم على متابعة خطّه، وإلزام الشعب على السير معه، فأصدر أمراً بترك اللباس الأفغاني، واتخاذ اللباس الأوربي زيّاً عاماً، كما شجّع على السفور، وأرسل عدداً من البنات دون محرمٍ للدراسة في استانبول من باب تحدّي الرعية. وهذا ما جعل النقمة تصل إلى القمة وانتفض الشعب ضدّ هذه المخالفات الشرعية، وضدّ الملك الذي يجب أن يكون أميناً على عقيدة الأمة محافظاً على عاداتها وتقاليدها النابعة من دينها، وشُده الملك من هذه الحركة حيث كان يظنّ أن الشعب فقير لا يمكنه الحركة، بائساً يسعى وراء لقمة العيش، ولم يدرك أن العقيدة إن انتهكت دبّت الحياة في الرعية، وانتفضت لتُدافع عن عقيدتها، وتذبّ عن دينها. وعمّت الفوضى البلاد.

استغلّ هذه الفوضى التي أربكت أوضاع أفغانستان أحد الرجالات

الطامعين فجمع حوله بعض الرجال من ذوي المصالح، وقطاع الطرق، وسيطر على كابول، ذلك هو باجي السقا (ابن السقا)، واضطر الملك أمان الله إلى الفرار إلى مدينة «قُنْدُهار»، وهناك تنازل لأخيه الأكبر منه «عناية الله». أما هو فقد انتقل إلى بريطانيا ليعيش هناك حسبما يهوى، وحسب المفاهيم التي تبنّاها.

عنايـة الله:

لم يستطع عناية الله مقاومة ابن السقا الذي أعلن نفسه ملكاً باسم حبيب الله غازي، وبقي تسعة أشهرٍ يعيث في أفغانستان فساداً حيث يريد تعويض نقصه بما يفرضه من أوامر على الشعب، وتعمل عصابته على إرواء نهمها بما كانت تُعاني من جوعٍ، وخوفٍ نتيجة ما يقوم به من تصرّفٍ. وتدخّل في الأمر القائد السابق محمد نادر خان، وخاصةً أنه من أفراد الأسرة الحاكمة، وله ماضٍ في الدفاع عن البلاد وتحقيق النصر - بإذن الله - ضد الصليبيين من الإنكليز، والتفّ حوله الذين ضاقوا ذرعاً بتصرفات ابن السقا، وتمكّن محمد نادر خان من فرض سيطرته على البلاد في نهاية عام **١٣٤٨** هـ.

محمد نادر خان:

ألقى القبض على ابن السقا، وأعدمه شنقاً. وتسلّم أعباء الحكم، وقدّم خدماتٍ واسعةً للبلاد، وسار بالناس سيرةً حميدةً فقضى على الرشوة والفساد، إذ صرف من الخدمة في الدوائر عدداً من الذين عُرفوا بسوء الإدارة وممارسة الرشوة، فاغتيل محمد نادر خان عام **١٣٥٢** هـ على يد أحد أبناء الذين شملهم الإعفاء من المناصب انتقاماً لأبيه، وحقداً على من قضى على أخذ الأموال بصورةٍ غير شرعيةٍ. وتسلّم الحكم بعد محمد نادر خان ولده محمد ظاهر شاه.

محمد ظاهر شاه:

كان شاباً لا يزيد عمره على التاسعة عشرة عندما آل إليه الأمر، ولا يزال في طيش الشباب، تسلّم السلطة من غير كدٍ، وتربّى على الدلال في بيت العزّ فلم يحسّ بشيء من المسؤولية، ولكن أحاط به رجال أبيه فرعوه، وكان يشعر بالحاجة إليهم، فسارت البلاد بشكلٍ جيدٍ مدة خمسة عشر عاماً، وأحسّ بعدها محمد ظاهر شاه أنه ليس بحاجةٍ إلى أحدٍ، ولا إلى استشارة رجلٍ، فترك من كان حوله وسار وحده، وقد غرّته السلطة فسار في طريق الانحراف الذي أخذ انفراج زاويته يزداد مع الزمن.

كانت السياسة الخارجية تسير في فلك السياسة البريطانية، وقد تمّ توقيع ميثاق سعد أباد الذي شمل تركيا، والعراق، وإيران، وتدور هذه كلها يومذاك في اتجاهٍ واحدٍ، وكان الميثاق يهدف إلى الوقوف في وجه السياسة الروسية أو في وجه الأطماع السوفيتية حسب الاصطلاح الغربي. وتنحصر معرفة هذه السياسة بالرجال القائمين على الحكم أو بعضهم، وقد تمّ توقيع هذا الميثاق عام ١٣٥٦ هـ. أما جلّ الرعية فكانت بسيطةً لا تعرف شيئاً عن السياسة الخارجية، غير أنها تمقت الأجانب (الأوربيين) وتكتفي بحياتها البسيطة التي تعيش عليها.

وجاءت الحرب العالمية الثانية وكانت إنكلترا وروسيا ضمن دول الحلفاء، وهذا ما جعل التنافس بين هاتين الدولتين يزول في هذه الأثناء. وعاد التنافس بين المعسكرين بعد الحرب. ولكن لم يحدث شيء من هذا في أفغانستان ويبدو أنه قد تم التفاهم بين أقطاب المعسكرين على توزيع مناطق النفوذ بينهما، وكانت أفغانستان من نصيب روسيا، ويمكن ملاحظة ذلك من:

١ ــ عندما قام حلف بغداد في ٣ رجب ١٣٧٤ هـ (٢٤ شباط ١٩٥٥ م) لم تعمل الدول الغربية على ضمّ أفغانستان إليه على الرغم من

أنها كانت لا تزال تدور في فلك السياسة الغربية، ولإنكلترا نفوذ كبير في الحكم الأفغاني.

٢ ـ كانت المساعدات الروسية تحتلّ المرتبة الأولى بين المساعدات الخارجية لأفغانستان، لقد كانت تشكل ٦٥ ٪ من مجموع تلك المساعدات على حين لم تكن المساعدات الأمريكية لتزيد على ٢٣ ٪ من مجموع المساعدات، وكل ذلك تحت سمع ونظر الغرب، وبرضا دوله. وكذلك احتلت الصين الميدان، واتفقت مع روسيا على شقّ الطرق داخل أفغانستان، ولم يحرّك الغرب ساكناً. وربما كانت تلك الطرق لتسهيل عملية الاجتياح المرتقب، ولجعل البلاد سهلة الاتصال بعضها مع بعضٍ، وعدم إبقاء مواقع منيعة يمكن أن يتحصّن بها المجاهدون.

٣ ـ وقف الغربيون موقف المتفرّج عندما أخذت الجيوش الروسية تتدفّق إلى داخل أفغانستان وكأنه لا توجد هناك صراعات دولية، ولا تنافس بين المعسكرين، ولا خلاف بين الأنظمة الشيوعية والرأسمالية.

وكان كذلك تفاهم بين سدنة المعسكرين على العمل معاً لنشر الفساد في أفغانستان في سبيل إبعاد الأفغانيين عن دينهم، وهذا ما يُسهّل احتلال بلادهم، ويجعلهم يقبلون الأفكار العلمانية، ويميت عندهم روح الجهاد وفكرة مقاومة الأعداء باسم قتال الصليبيين، وهذا يفيد سدنة كلا المعسكرين سواء أكان للاحتلال أم لمدّ النفوذ.

وبدأت الشعارات العلمانية تُطرح عن طريق المتنفذين من العلمانيين أو من السلطة مباشرة والذين رضوا بهذه السبيل من قبل. فكان يُقال: العمل على إخراج أفغانستان من عزلتها. وسلوك سبيل العلم للنهوض بالبلاد، وأخذ طريق الحضارة، والتقليد لأوربا في سبيل النهضة وما إلى ذلك من طروحات سمتها العلم وحقيقتها البعد عن العقيدة وتعاليم الدين.

صدر منشور ملكي عام ١٣٧٩ هـ سمح للنساء بالخروج سافراتٍ،

ولم يُفرض ذلك عليهن فرضاً. وأسرعت نساء الرجال الذين اندفعوا وراء المادية الأوربية فألقين الحجاب عنهن، فظهر السفور، وتباهت المتحرّرات من القيود بما فعلن فقلّدهن الضعيفات من نساء المخنّثين. . . وانفتحت أفغانستان أمام الدول النصرانية الكبرى، وكان الملك راعي هذا الانفتاح ويسير في مقدمته.

سمح الغرب للروس بمدّ نفوذه إلى أفغانستان، فسلّحت روسيا القوات الأفغانية، ودعمت مشروعات الريّ بالمساعدات الفنية والمادية، وأخذ الروس يتغلغلون إلى الأوساط الأفغانية. أما الملك والسلطة الحاكمة فلا يفتؤون يتحدّثون عن سياسة الحياد وعدم الانحياز، وتُردّد معهم ذلك الأوساط العالمية لتغطية اللعبة ولو بغطاءٍ شفّاف.

مع امتداد النفوذ الشيوعي امتدت إليه أيدي الطامعين الذين يريدون الارتقاء بأي مصعدٍ، ويتسلّقون على أية حبالٍ، فأصبح للنفوذ أعوان، ووجد الأعوان مُتزلّفين لهم، ولا شكّ سيكون من بين هؤلاء بعض أفراد الأسرة الحاكمين الذين يريدون لأنفسهم، ولا مانع من ارتقائهم ولو كان ذلك على جثث أقربائهم، وعلى حساب سادة نعمهم، وكان من هؤلاء السردار محمد داود[1]

كان محمد داود يميل إلى الروس ويتعاطف معهم لينال عطفهم، ويحصل على تأييدهم في تحقيق أطماعه باستلام السلطة، وتنفيذ مشروعه

(١) السردار محمد داود: ابن عم الملك محمد ظاهر شاه، وزوج شقيقته، ضابط في الجيش الأفغاني، درس في مدينة كابول، وأتمّ دراسته العسكرية في فرنسا. عُيّن عام ١٣٥٠ هـ أيام محمد نادر خان حاكماً على مقاطعة قُنْدُهار، وبعد خمس سنواتٍ عُيّن قائداً لقوات المنطقة الوسطى، ومديراً للكلية الحربية، وعُهد إليه برئاسة الوزارة عام ١٣٧٣ هـ فاحتفظ لنفسه بحقيبتي وزارتي الداخلية والدفاع إضافةً إلى رئاسة الحكومة، فحكم البلاد مدة عشر سنواتٍ، ولما عُرف بميوله تجاه الروس وأطماعه بالحكم نُحّي عن رئاسة الحكومة عام ١٣٨٣ هـ، ثم قاد الانقلاب عام ١٣٩٣ هـ.

في أخذ الأمر لنفسه، وفعلاً عهد إليه ابن عمه الملك محمد ظاهر شاه برئاسة الحكومة عام ١٣٧٣ هـ، وحصل على التأييد التام من قبل الروس الذين أظهروا رضاهم عن حكمه. وفي الوقت نفسه وصل إلى الحكم في الإمبراطورية الروسية «خروتشوف»، وأخذ يعمل على مد النفوذ الشيوعي في البلدان المجاورة وكل جهات العالم، ووجد متكأً له في أفغانستان هو رئيس الحكومة محمد داود، ووجد مدخلاً لنفوذ الشيوعية الحكومة نفسها التي يرأسها محمد داود، فبدأ النفوذ الشيوعي يتسلّل إلى تلك البلاد التي لا تعرف إلا الإسلام عقيدةً، وتكره الفجور والفسق والعصيان، وتمقت الإلحاد والكفر.

وتعاونت روسيا مع الصين للعمل معاً في سبيل مدّ النفوذ الشيوعي إلى أفغانستان حيث كان التفاهم لا يزال قائماً بين تلكما الدولتين، ولا تزال الفكرة الشيوعية واحدةً، ولم تنقسم بعد بين روسيا وسياستها والصين وفكرتها بالعمل. فقدّمت الدولتان الشيوعيتان المساعدات لتمهيد الطرق، وتسوية الدروب، ومدّ المواصلات للمصلحة العسكرية. وأنشأ الروس مطار كابول، وسلّحوا القوات الأفغانية وخاصةً القوات الجوية منها.

وأحسّ الملك الأفغاني محمد ظاهر شاه باتجاه ابن عمه فنحّاه عن الحكم عام ١٣٨٣ هـ، وعيّن محمد يوسف رئيساً للوزراء، وهو أول رئيس للوزارة من خارج نطاق الأسرة المالكة، فوقع الجفاء بينهما، وكان هذا دافعاً ومُبرراً لمحمد داود للعمل ضدّ ابن عمه في الخفاء في سبيل تحقيق أطماعه والوصول إلى أهدافه، وكانت روسيا من ورائه تدعمه لتحقيق مصالحها عن طريقه، ولضرب ابن عمه الملك محمد ظاهر شاه الذي لا يزال على وضعه السابق يسير في فلك الغرب، ويُعدّ من بقايا مخلّفات الاستعمار الصليبي.

ولكن إن أُبعد محمد داود عن الساحة السياسية غير أن أثره لا يزال قائماً فالاتفاقيات التي وقّعها مع الروس لا يزال معمول بها، والحكومة التي ورثت وزارته ملزمة بتنفيذ تلك الاتفاقات. ففي الخطة الخمسية ١٩٦٢/ ١٩٦٧ م تلقّت أفغانستان من روسيا ٦٣٢ مليون دولاراً، وهو ما يُشكّل

٦٥٪ من مجموع المساعدات التي تدفّقت على البلاد، على حين شكّلت المعونة الأمريكية ٢٣٪ فقط تلك المساعدات.

وقّعت أفغانستان معاهدةً مع الصين عام ١٣٨٥ هـ لمدة عشر سنواتٍ. كما أنها ترتبط مع كلٍ من إنكلترا والهند بمعاهدة صداقة.

وعملت الولايات المتحدة الأمريكية لمدّ نفوذها إلى أفغانستان من باب العمل لإفساد طبيعة الشعب الأفغاني المسلم، وهذا لإثبات وجودها، ولإمكانية العمل إن دعت الضرورة لذلك، أو اقتضت ظروف اللعبة ذلك، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن كل اهتزازٍ يُصيب المسلمين أو يُلحق بعقيدتهم أذىً إنما هو نجاح للصليبيين وفوز لدولهم سواء أكانت غربيةً أم شرقيةً، حاولت أمريكا مدّ نفوذها عن طريق الإرساليات التنصيرية غير أنها فشلت فشلاً ذريعاً إذ رفضها المسلمون الذين يُشكّلون ٩٩٪ من سكان أفغانستان وفي الوقت نفسه عندهم تمسّك بالإسلام، وكره لأعدائه، وتُعدّ الصليبية في رأس قائمة الأعداء، ولما فشلت الإرساليات التنصيرية في دخول البلاد وتأدية دورها، مدّت أمريكا أصابعها باسم مؤسسةٍ إنسانيةٍ لرعاية المكفوفين، وابتدأ العمل التعليمي فيها، ولكن لم يلبث أن أُقيم بجانب معهد الرعاية بناء جديد ظهر أنه كنيسة، فثار الشعب وانتفض، وطالب الحكومة بهدمها، واضطرت تحت الضغط إلى طلب إزالتها، وتمّ ذلك، وبعدها توقّفت المساعدات التي كانت قد وعدت بها الولايات المتحدة أفغانستان تقديمها لشؤون الصحة والتعليم، وكان لهذا دوره في تفاقم الدعاية الشيوعية.

ونتيجة الفقر والجهل في أفغانستان وعدم وجود التوجيه لم يكن من يتحرّك على الساحة السياسية سوى الشيوعيين الذين يعملون تحت جناح الحزب الديمقراطي الذي تأسس منذ أيام محمد نادر خان إذ كانت روسيا تمدّ أعوانها بالمال وتبعث إليهم بالنشرات السرية والتوجيهات السياسية والفكرية التي تنطلق من مبادئها الإلحادية فيستطيعون بذلك جذب وشراء أعوانٍ جددٍ لهم، وبذا كانوا يتزايدون باستمرار، على حين لا يتوفّر هذا

لغيرهم، ومع هذا فقد كانوا يعملون في الظلام، إذ لم تكن الحكومة لتسمح لهم بالظهور والانطلاق، وقد رأت كيف ابتلع الروس المناطق الإسلامية المجاورة لها.

ولما تسلّم محمد داود السلطة عام **١٣٧٣** هـ أعطى الحرية السياسة، وفي الواقع لم يستفد من هذه الحرية سوى الشيوعيين الذين كانوا منظّمين، ويتحرّكون بتوجيهٍ دقيقٍ من روسيا، فأفادوا من هذه الحرية، وأصبحوا قوةً يخشى بأسها.

بدأ يظهر الوعي الإسلامي وربما كان للأعداء الدور الإيجابي في هذا الوعي، وذلك أن المسلمين كان يرون تصرف الأجانب في أفغانستان فيصعب عليهم الأمر فكان يدفعهم للتحرّك، ومحاولة تنبيه الأهالي، وخاصةً الخبراء الروس الذين يعملون في مشروعات الري، ويعملون على تهريب الأسلحة عبر الحدود، وتسليمها لأعوانهم، ويُحاولون نشر الفساد من خمرٍ ونساء واصطياد الشباب الأفغانيين عن طريق هذه القنوات... كل هذا دفع المسلمين للعمل والتداول في أمر البلاد، وشؤون المسلمين، وتعاون بعضهم مع بعضٍ، وتشكّلت أول نواةٍ حركيةٍ إسلاميةٍ عام ١٣٨٧ هـ، ومع ازدياد تصرّف الأجانب المسموم والهادف يزداد ردّ الفعل والنشاط والوعي. وتعاون المسلمون مع مدير مجلة (الفجر) الأسبوعية (منهاج الدين جاهز) والتي كانت تصدر في كابول، فكان ينشر لهم بعض المقالات، وتُحذّر المجلة من المخططات الاستعمارية، وتعمل على تنبيه السكان من الأجانب... فكان يزداد الوعي. ولكن هذا الوعي الإسلامي، والتفاف الناس حول قادته أثار غيظ الأعداء فأرادوا الوقوف في وجهه، وخططوا لجرّ هذه المجموعة الناشئة إلى معركةٍ غير متكافئةٍ تُخرج الموّجهين المسلمين خارج دائرة العمل، وتُلقي الرعب في نفوس الآخرين. وكان الصدام بين الفريقين: مجموعة ناشئة صغيرة لا سند لها إلا الله ثم دعم إخوانهم المسلمين العاديين من سكان أفغانستان البسطاء، وفئة كبيرة ذات إمكاناتٍ

كبيرةٍ تدعمها الدولة، وتسندها الشيوعية العالمية، ومعسكر حلف (وارسو)، وتردف ذلك الإرساليات التنصرية العالمية، وحلف شمالي الأطلسي إذ أن همّ الجميع القضاء على الإسلام ودفن أهله. ومع هذا التباين الكبير فقد نصر الله المسلمين على أعدائهم الذين كادوا أن يتميزوا من الغيظ، فتأهّبوا لمعركةٍ ثانيةٍ، فجمعوا كيدهم، وتسلّحوا، وأتوا صفاً واحداً، وأعلموا قادتهم والمسؤولين ليكونوا ردءاً لهم ليتدخلوا لدى السلطة فيما إذا كانوا مهزومين، وجاءوا يوم ٢٦ ربيع الثاني ١٣٩٠ هـ (٣٠ حزيران ١٩٧٠ م) ليباغتوا هذه الفئة المؤمنة ويقضوا عليها، غير أن الشعب الأفغاني تعاطف مع أبنائه فنزلت الهزيمة بالملحدين ـ بإذن الله ـ ووقع منهم مائة وسبعون جريحاً، وفرّوا من المعركة التي خطّطوا لها، واختاروا مكانها وزمانها.

وهُرع الشيوعيون الصينيون لدعم رفاقهم رغم خلافهم معهم، ولكن الإلحاد الذي يجمع بينهم يدفعهم لنصرتهم، ولكنهم لقوا المصير نفسه بل أشدّ نكراً، لأنهم أقلّ عدداً، وأضعف جنداً، ولا كفاءة لديهم ولا خبرة، وجاءوا مسرعين دون استعدادٍ، أغراهم عددهم، وعلمهم بأن الأفغانيين ضعفاء ليس لديهم قدرة على المقاومة فخاب الظنّ، ووقعوا صرعى.

وأسرعت وسائل الغرب تُؤيّد خصومها الظاهريين، وأعوانها في محاربة الإسلام، فوُصفت الفئة المؤمنة بالرجعية، والهمجية، واستعمالها وسائل القوة، وادّعت أن الأصوليين يُعادون الحضارة ويعملون على تهديمها بالمعاول.

وتلت تلك حادثة طارت بصواب أعداء الإسلام جميعاً من شيوعيين ورأسماليين ومتفرنجين يدّعون التقدمية تلك هي انتخابات مجلس طلبة جامعة كابول إذ حصل المسلمون على أربعةٍ وأربعين مقعداً من أصل أربعةٍ وخمسين مقعداً. وكان لهذا أثره من ناحيتين:

١ ـ تجمّع المسلمون ضمن تنظيمات كان منها: تجمع الشباب المسلم في جامعة كابول، وجمعية العلماء المحمدية، وجمعية خدام

الفرقان. وأخذت هذه التجمعات تعمل على توعية أعضائها، وتستعدّ بالأخذ بالأسباب للوصول إلى أهدافها.

٢ ـ أخذ المتفرنجون التقدّميون يُحمّلون الحكومة الأفغانية وزر ما يحدث على الساحة السياسية، رغم أنهم هم السبب، ورغم أن الحكومة الأفغانية كانت تقف إلى جانبهم دائماً، تُشدّد الرقابة على المسلمين، وتحمي مظاهرات التقدّميين المتفرنجين، وتمنع الاعتداءات عليهم، والمظاهرات ضدّهم، على حين تسكت عن جرائمهم التي يرتكبونها وما أكثرها وأبشعها. لقد اغتيل (منهاج الدين جاهز) مدير تحرير جريدة (الفجر) وابنه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره يوم ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٩٢ هـ (٨ آب ١٩٧٢ م)، وكان وراء الجريمة السفير الروسي في أفغانستان والملحق العسكري، وقد غادرا البلاد فجأةً مساء الحادث، وقد طوت الحكومة الأفغانية الملف، وكأنه لم تقع جريمة قذرة على أرضها.

رأى الشيوعيون المخططون أن الحكومة المدنية لا تُناسبهم فالقضايا تحتاج إلى تحقيقٍ، وتطبيق قانون، وتساؤلاتٍ و. . . وهذا ما يكشف مخططهم، ويحول دون تنفيذ جرائمهم حيث تنفضح وينجلي الأمر، أما الحكم العسكري فيسكت عما يرتكبون، ويغضّ عينه عما يتصّرفون، ويُخرس كل من يريد أن يتفوّه بغير ما يريده الحكم. ومن هنا كانت ضرورة تغيير الحكم المدني بعسكري في أفغانستان.

وإن التفاهم بين موسكو وواشنطون على مناطق النفوذ قد جعل الساحة في أفغانستان خاليةً للروس حيث يمكنهم العمل بحريةٍ دون تخوّف من منافسةٍ أو تهديدات أو إعاقة تحرّكٍ. كما أن ذاك التفاهم قد ألقى تبعة القضاء على الحركة الإسلامية في أفغانستان على عاتق الروس، كل هذا أعطاهم فرصة التخطيط والتصرّف بما تهوى أنفسهم.

فتش الشيوعيون عن المرشح لزعامة التغيير فوجدوا مبتغاهم دون كبير عناءٍ إنه محمد داود فهو من الأسرة الحاكمة، وابن عم الملك، وزوج

شقيقته، وناقم عليه بعد تنحيته عن الحكومة، ورئيس وزراءٍ سابق، ومتعاطف مع الروس، وله تاريخه بالعمل معهم، وفوق ذلك فهو طامع بالأمر، ويسعى له، ولديه الإمكانات الكافية، والمؤهلات الضرورية، ويُعدّ خصماً للعمل الإسلامي.

محمد داود:

أُعطي الشيوعيون الأفغان تعليمات موسكو بتقوية الصلات مع محمد داود، والتعاون معه، وتنفيذ رغباته، وأُعطي هو الضوء الأخضر للعمل، وأُبلغ أنه سيحصل على الدعم المطلوب، فأخذ محمد داود يستعدّ ويقوم بنشاطٍ واسعٍ، وإن اتسم بالسرية، حتى تكاملت الاستعدادات.

وفي صباح الثلاثاء ١٧ جمادى الآخرة **١٣٩٣** هـ (**١٧** تموز **١٩٧٣** م) وقع الانقلاب، ونجح، وإن كان قد لقي مقاومةً عنيفةً من أعوان النظام عند حصار القصر الملكي، بينما كان الملك ظاهر شاه في إيطاليا وقد أعلن قائد الانقلاب محمد داود عن سياسته الخارجية في بيانه الأول الذي أذاعه، فقال: «إن أفغانستان تقف موقف عدم الانحياز، ولن تدخل أي حلفٍ عسكري، وإنها تحرص كل الحرص على العلاقات الطيبة التي تربطها مع دول العالم، أما فيما يتعلق بباكستان فإن نزاعاً سياسياً يقوم بيننا وبين ذلك البلد، وهو البلد الوحيد الذي لم ننجح في حلّ مشكلةٍ معه»[1]. وأعلن زعيم الانقلاب أن الذي دفعه

---

(١) يبدو أن اللعبة الدولية كانت تقضي بأن تجزأ باكستان مرة أخرى، وكانت هناك مظاهرات في ذلك الوقت في منطقة «بلوخستان» في باكستان، تدعو إلى الانفصال والاستقلال عن باكستان، ويوجد كما نعلم عدد من البالوخ يقيمون في أفغانستان، يريدون الانضمام إلى إخوانهم، وهذا ما يوجد مشكلةً بين الجارتين، كما توجد مشكلة أخرى، وهي وجود قبائل البشتو في تلكما الدولتين، والحدود التي تقيم على جانبيها تلك القبائل طويلة، وتعرف هذه القبائل في باكستان باسم «الباتان»، هذه هي اللعبة الدولية غير أن الأطماع الاستعمارية متباينة فالأمريكان لا يريدون أبداً التفاهم بين باكستان وأفغانستان حتى لا يمتدّ النفوذ الشيوعي وبالتالي الروسي نحو مياه المحيط الهندي، على حين يبغي الروس هذا التفاهم مرحلياً، ولكن لا يظهرونه حتى لا تُغيّر أمريكا موقفها تجاه حرية عمل الروس في أفغانستان.

للقيام بحركته إنما هو كثرة الفساد في الإدارة، وسوء استخدام السلطة، وتفشّي الرشوة، وقُدّم رئيس الوزراء الأفغاني السابق موسى شفيق إلى المحاكمة بتهمة قبض مبالغ طائلة من إيران. وألغى قائد الانقلاب النظام الملكي، وأعلن النظام الجمهوري، ونصّب نفسه رئيساً للجمهورية.

لقد كانت أول محطةٍ نقلت نبأ الانقلاب هي إذاعة الهند، واعترفت بالوضع الجديد مباشرةً، إذ يُحقّق لها بعض مصالحها ضدّ باكستان، وقد تكون على معرفةٍ ببعض خيوط اللعبة الدولية، وتلا ذلك إذاعة الخبر من روسيا وذلك بعد أربع ساعات فقط من وقوع الانقلاب، ورحّبت به، وأعلنت اعترافها بالوضع الجديد، مع العلم أن روسيا عادةً تتمهل بمثل هذه الحالة بالاعتراف حتى تتأكّد من الهوية السياسية للحكم المنتظر، ولكن الآن تعرف ما يجري على الساحة، وقد نسجت بعض خيوط الحركة بيدها، وعملت على إخراجها ودفعها. وكانت السياسة الروسية يومذاك تسير وسياسة الهند بخط متوازٍ، وتقف الولايات المتحدة مشرفةً على التنسيق والإخراج، فالهند يُهمّها بالدرجة الأولى تفتيت باكستان وقوتها، ويمكنها تحقيق هذا الهدف عن طريق أفغانستان التي يمكنها أن تضمّ إليها منطقة (بلوخستان) ومنطقة الحدود الشمالية الغربية حيث تُقيم قبائل «الباتان»، وبذا يضعف شأن باكستان، ولكن ذلك يقضي تفاهم الدولتين الكبريين الولايات المتحدة وروسيا أولاً، ثم إثارة قبائل منطقة النزاع ودعمها، وإشغال باكستان بالتحرّك على حدودها الشرقية والجنوبية، وبإمكان الهند أن تتولّى هذه المهمة.

كان هدف محمد داود الوصول إلى السلطة، وقد تمّ له ذلك، ومن سياسته للمحافظة على السلطة، التقرّب من روسيا، وطلب المساعدة منها، وخنق الحركة الإسلامية. أما هدف روسيا فكان يختلف عن ذلك إذ ترى أن حكم محمد داود لم يكن سوى مرحلة لتضع الشيوعية يدها على أفغانستان. فالحاكم الجديد محمد داود رفيق مرحلي ما دام ليس شيوعياً، ويمكن رميه كجثةٍ قذرةٍ بعد تحقيق أغراضها منه ومن هذه الأغراض، خنق

الحركة الإسلامية على يديه، والتمكين للشيوعيين بالسلطة ما دام لا يوجد غيرهم دعامةً له. فبداية العمل متفق عليها الطرفان، وقد أخذ التنفيذ مجراه.

بدأ محمد داود بتنفيذ مخططه الذي هو المخطط المرحلي للروس، فأخذ بالضغط على الحركة الإسلامية، وملاحقة قادتها، واتخذ وسائل الإعلام كلها وسيلةً له، ودوائر الدولة مطيةً لهدفه، واستفاد من الوظائف وإيجاد العمل للضغط على الإسلاميين، ومجالاً لكسب الشباب إليه وإلى رفاقه الشيوعيين. وسُرّ الروس من هذا السير إذ قوي أعوانهم، وضعف خصومهم، وسارت وسائل الإعلام والمناهج حسب هواهم.

أحسّ محمد داود أن كفة الشيوعيين قد رجحت، وأنه أصبح تابعاً لهم، وسيكون بعد مدةٍ، إن استمرّ في سياسته، خاضعاً لموسكو بل خاضعاً لعملائها الأفغان، فقرّر تغيير خطّه، فهو ليس شيوعياً، ويرفض التبعية التامة، حيث كان يظنّ أن روسيا تقبل التعاون فقط، والبعد عن السياسة الاستعمارية الغربية، ولكنه رأى نفسه أنه كان مخطئاً، وظنّه كان خائباً، لذا لجأ إلى العودة إلى الوراء ومحاولة إيجاد توازنٍ بين القوى المتصارعة.

قام محمد داود بزيارة بعض الدول الإسلامية في سبيل إظهار حسن النية للمسلمين في بلاده وفي خارجها، فزار باكستان، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، ورجع وفي نيته السير في خطٍ جديدٍ. وشعر الشيوعيون بما يُفكّر فيه، فخافوا على وضعهم، وخشوا أن تحلّ بهم نكبة كما يحدث دائماً في كثيرٍ من البلدان عندما تُعرف حقيقتهم، لذا أرادوا التخلّص منه، كما أراد التخلّص منهم فانعدمت الثقة بين الطرفين، وكل منهما أراد السبق بالوصول إلى هدفه وضرب خصمه قبل أن يُؤكل من قبله.

انعقدت الـ (لويا جيرغاه وهي جمعية وطنية قبلية عليا تضمّ كبار الوجهاء القبليين المسنّين الذين عيّنهم حكام الأقاليم، وقد أقرّت في شهر محرم ١٣٩٧ هـ (كانون الثاني ١٩٧٧ م) دستوراً جديداً يتيح تشكيل حكومةٍ

رئاسية، وإقامة دولة الحزب الواحد، وتمّ تجديد رئاسة الرئيس محمد داود لمدة ست سنواتٍ، ثمّ حلّت هذه الجمعيّة.

وفي ربيع الأول ١٣٩٧ هـ (آذار ١٩٧٧ م) شكّل الرئيس محمد داود حكومةً مدنيةً أعلنت نهاية الحكم العسكري، غير أن هذا لم يكن سوى إعلان، وليس له أي رصيدٍ من التنفيذ.

أخذ السخط يتزايد على الرئيس محمد داود وخاصةً بين أفراد القوات المسلحة.

الفصل الثاني

الحكم الشيوعي

قلنا إن الثقة قد زُعزعت بين رئيس الجمهورية محمد داود وبين الشيوعيين الذين كان يدعمهم، وكانوا يُؤيّدونه، ثم انعدمت تماماً، وأصبحت الاتهامات ضمنيةً وواضحةً بين الطرفين، ويسعى كل فريقٍ للانقضاض على خصمه، ويهتبل كل فرصةٍ لينال من الآخر.

وفي ١٩ جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ (٢٦ نيسان ١٩٧٨ م) اغتيل أحد زعماء حزب برشام (الراية) الشيوعي، وهو (مير أكبر خيبر)، وربما كان منافسوه الشيوعيون[1] من حزب خلق (الشعب) هم الذين قضوا عليه

---

(١) بدأ تجمع أصحاب الفكر الشيوعي والاشتراكي في أفغانستان منذ عام ١٣٦٦ هـ تحت اسم (ويش ذلميان) أي حركة يقظة الشباب، وكان من أعضائها نور محمد تراقي، وبابرك كارمل. . . وكانت جريدة (أنجاد البرلمان) تنشر آراءهم، وتُهاجم الإسلام، ثم أُلغيت عام ١٣٩٣ هـ.
ونما هذا التجمّع في عهد وزارة محمد داود التي استمرت عشر سنوات ١٣٧٣ - ١٣٨٣ هـ. ثم أصدر نور محمد تراقي جريدة خلق، وقد نشرت في ٢٨ شعبان ١٣٨٤ هـ (الأول من كانون الثاني عام ١٩٦٥ م) ميلاد جزب (ديمقراتيك خلقي أفغانستان) أي حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وعقد أول اجتماع له في بيت نور محمد تراقي، وحضره سبعة وعشرون عضواً، ويُمثّلون سبعةً وسبعين مُؤيّداً، وانتخب في ذلك اللقاء نور محمد تراقي رئيساً للجنة المركزية التي ضمّت تسعة أعضاء، واختير بابرك كارمل نائباً له، وكان من أعضاء اللجنة حفيظ الله أمين، وشاه ولي كريم، وطاهر بدخشي، ومير أكبر خيبر.
دخل الحزب الانتخابات عام ١٣٨٥ هـ، وفاز بثلاثة مقاعد، اثنين عن كابل، =

لتحقيق مُخططٍ لهم، ولإثارة الشيوعيين ضدّ الحكم بحجة أنه قُتل أحد زعمائهم، وأن السلطة تنوي الفتك بهم، فإذا ما قاموا ضدّها، وانقلبوا عليها، وتسلّموا السلطة منها فإنما يدافعون عن أنفسهم، وفي الوقت نفسه اغتيل وزير المشروعات أمام باب وزارته، وأعقبه قتل أحد الضباط الطيارين الأفغان الذين لم يُسايروا الشيوعيين في نشاطهم والعمل على تنفيذ مخططاتهم.

تبين أن عمليات القتل هذه كانت مؤامرةً شيوعيةً هدفها:

١" ـ لفت النظر إلى البلاد بأنها تعيش بحالة فوضى، وأن الحكم لا يستطيع السيطرة على الشؤون الداخلية، وبذلك تنخفض أسهم رئيس الجمهورية داخل أفغانستان، وفي البلدان الإسلامية الأخرى، وخاصةً التي زارها مؤخّراً، فإذا ما حدث تغيير في مراكز السلطة فإنما هو متوقّع.

٢" ـ إثارة الشيوعيين كافةً للنهوض ومقاومة الحكم فإذا لم يُسرعوا فلينتظروا الإبادة.

= ومثّلهما بابرك كارمل، وأناهيتا راتب زادة التي كانت وسيلة الرفاهية والإغراء للشيوعيين، والمقعد الثالث عن قندهار واحتّله نور أحمد نور.

أخذت صحيفة (خلق) الشيوعية، تدعو صراحةً لمبادئها الإلحادية، وتنطق باسمها، فتعالت الصيحات ضدّها، فأُغلقت بعد ستة أسابيع من صدورها بتهمة العمل ضدّ الإسلام، والهجوم عليه.

وفي عام ١٣٨٧ هـ حدث انشقاق في الحزب على أساسٍ قبيلي إذ كان نور محمد تراقي من قبيلة (البشتو)، فقرّب إليه شيوعيي هذه القبيلة أمثال حفيظ الله أمين، وعبدالرشيد آرين، وصالح محمد وزيري، ومحمد أسلم وطنجار، أما بابرك كارمل فهو من قبيلة (الطاجيك) وقرّب إليه شيوعيي هذه القبيلة أيضاً مثل محمد بريالي، وهو صهره، ونجم الدين أفكر، وكارایاني، وسلطان علي كشتمند، ونعمة الله بزوال، ومحمد رفيع... وظهر هذا الانقسام على الواقع بعد أن أثنى بابرك كارمل في المجلس النيابي على الملك محمد ظاهر شاه فهاجمه الشيوعيون هجوماً مرّاً، فانشقّ مع جماعته، وأسّس حزب برشام (الراية)، وأصدر صحيفة تحمل الاسم نفسه، وأنشأ نور محمد تراقي حزب خلق (الشعب) مع أعوانه، وشجّعت روسيا هذا الانقسام لإذكاء روح التنافس بينهما.

٣" ـ سيطرة حزب خلق على مقاليد الحكم في حالة حدوث انقلاب، وإبعاد حزب برشام (الراية) عن أية سلطةٍ، وذلك بإضعافه والتخلّص من زعمائه البارزين.

٤" ـ لفت نظر روسيا للتأهب لدعم رفاقها، ولإعطائها حق التدخّل في شؤون أفغانستان الداخلية للقضاء على الفوضى المستعرة وحماية أرواح أعوانها.

ولما أحسّ رئيس الجمهورية محمد داود أن المؤامرة شيوعية علم أنهم قد بدؤوا في تنفيذ مخططاتهم، فلا بدّ له إذن من السرعة وتفادي الخطر الداهم نحوه، لذا فقد أسرع وألقى القبض على زعماء الشيوعية في أفغانستان، ومنهم: نور محمد تراقي، وحفيظ الله أمين، وبابرك كارمل، وأودعهم السجن. ولكن قبل أن يُتابع ضرباته حدث الانقلاب ضدّه.

وفي ٢٢ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ (٢٩ نيسان ١٩٧٨ م) قام محمد غلاب زي أحد قادة جناح (خلق) والعميد الشيوعي عبدالقادر[١] بحركته ضدّ حكم الرئيس محمد داود، وألقى القبض عليه، وسلّم السلطة إلى زعيم حزب خلق نور محمد تراقي[٢] الذي كان سجيناً. وقد عرفت هذه الحركة في أفغانستان باسم «ثورة ساور» أي ثورة نيسان.

---

(١) العميد عبدالقادر: هو الذي قاد الانقلاب ضد الملك محمد ظاهر شاه، وسلّم السلطة إلى محمد داود، ثم قاد الانقلاب ضد الرئيس محمد داود، وسلّم الحكم إلى نور محمد تراقي.

(٢) نور محمد تراقي: ولد عام ١٣٣٥ هـ في قرية (ميدو) في ولاية غزنة، وسافر إلى الهند عام ١٣٥٣ هـ، وبقي في بومباي أربع سنواتٍ، وهناك اعتنق الفكر الشيوعي. وعندما رجع إلى بلاده عمل في مؤسسة السكر التجارية بوزارة المالية، والتحق أيضاً بجامعة كابل.
ابتعث عام ١٣٧٣ هـ إلى أمريكا كملحقٍ ثقافي، وبقي هناك مدة أربع سنواتٍ، ثم عاد إلى أفغانستان، وأسّس عام ١٣٨٥ هـ أول نواة للحزب الشيوعي الأفغاني، وكان اللقاء الأول في بيته، وانتخب أميناً عاماً للحزب بالإجماع، وفشل في الانتخابات العامة التي جرت. وتسلم الحكم نتيجة انقلابٍ على الرئيس محمد =

١ ـ نور محمد تراقي:

تسلّم رئاسة الجمهورية يوم ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ (٣٠ نيسان ١٩٧٨ م)، واحتفظ لنفسه برئاسة الحكومة أيضاً، واشتدّت في عهده أعمال العنف في البلاد، وجرت الدماء، وساد الإرهاب، وخاف الناس، وصدّقوا ما كانوا يسمعون عن جرائم الشيوعيين، ولم يكونوا مصدقين ذلك من قبل، ولم تقبل عقولهم أن ما يسمعونه يمكن أن يقوم به بشر فيه قلب، وقد وقع خمسة عشر ألف قتيل خلال أربع وعشرين ساعة في اليوم الأول من الانقلاب. أمر نور محمد تراقي بإخراج محمد داود من السجن، وقتل أبنائه التسعة والعشرين أمامه، الواحد بعد الآخر أمام عينيه، ثم قتله وباقي أفراد أسرته، ورئيس الجمهورية الجديد نور محمد تراقي ينظر، ويشعر بنشوة الظفر على خصمه، ويتلذّذ بمنظر الدماء، وامتعاض محمد داود من منظر قتل أبنائه، وعرف ساعتئذٍ أن هذا جزاء من يتعاون مع الشيوعيين، ولكن ساعة لا ينفع الندم إذ ذاق كأس الموت وأبناؤه وأسرته على أيدي رفاقه. وكان يُقدّر عدد الخبراء الروس في أفغانستان بثلاثمائة وخمسين خبيراً.

وقتل نور محمد تراقي أيضاً المئات من قادة المسلمين، وعشرات الآلاف من عامتهم، وأودع الآلاف منهم في السجون، وشرّد أمثالهم. وعيّن حفيظ الله أمين وزيراً للخارجية، والعميد عبدالقادر وزيراً للدفاع، وسلطان علي كشتمند وزيراً للتخطيط.

وأخلد المسلمون إلى بيوتهم خوفاً، وقد أذهلهم ما رأوا، وقطّع

= داود، وقُتل بيد صديقه ورفيقه حفيظ الله أمين إثر عودته من (هافانا) عاصمة كوبا في ٢٢ شوال ١٣٩٩ هـ، وأعلن عن مقتله في ١٨ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ (٩ تشرين الأول ١٩٧٩ م). يتقن لغة الأوردو، واللغة الإنكليزية إضافةً إلى لغته (البشتو)، ألف عدداً من الكتب منها: (البقرة الصفراء) و (تعالوا لنبدأ العمل) و (اللحم المجفف)، وكلها استهزاء بالإسلام. وينتمي هو إلى قبيلة البشتو. وقتل في عهده أكثر من خمسين ألف مسلم.

قلوبهم، فظن نور محمد تراقي أن الأمر قد استقر له، وأن العدو الأول، وهم المسلمون قد خرجوا من الدائرة السياسية، ولن تقوم لهم قائمة بعدما أوقع بهم وبقادتهم، لذا عليه أن يلتفت إلى رفاقه الشيوعيين المناوئين له من حزب (برشام) فأصدر أمراً بتعيين زعمائهم سفراء لبلادهم في الدول الأجنبية، ومنهم نائبه بابرك كارمل الذي عيّنه سفيراً في تشيكوسلوفاكيا، ولكن بعد ثلاثة أشهرٍ عاد فغيّر رأيه إذ رأى أن وجودهم في الخارج يجعلهم يتحرّكون أحراراً، ووجودهم في الدول الشرقية يجعلهم يتصلون بمن شاءوا من الشيوعيين، ويُعطونهم صورةً عن أفغانستان من وجهة نظرهم الخاصة، بل سيحرّضون الروس خاصةً والشيوعيين عامةً على الحكم، حيث كان نور محمد تراقي يعمل للشيوعية ضمن الدائرة المحلية، وكذا يعمل حزبه حزب خلق، على حين يرى منافسة حزب (برشام) الارتباط بموسكو، والمناداة بالشيوعية العالمية، والمركزية الشيوعية، ومن هنا قرّر رئيس جمهورية أفغانستان الشيوعي نور محمد تراقي عزل السفراء الذين سبق له أن عيّنهم، واستدعاءهم إلى كابل ليكونوا تحت رقابته، غير أنهم رفضوا العودة وبقوا في أوربا الشرقية، على صلةٍ بالروس الذين يُوجّهونهم.

حاول نور محمد تراقي التوفيق بين أعوانه الذين يرون تطبيق الشيوعية في بلادهم مع عدم الارتباط بموسكو وبين معارضيه الذين لا يرون حلاً ولا وسيلةً سوى الانصهار في بوتقة الشيوعية العالمية، والالتحاق بالإمبراطورية الروسية. ولم يقبل المعارضون التوفيق، وتمسّكوا بموقفهم، ولم يتزحزحوا عنه، وأرادوا إحراج رئيس الجمهورية للرجوع إلى موسكو لحّل الخلاف القائم بين الفريقين.

وقامت حركة مقاومة في شرقي البلاد في مقاطعة (نورستان)، واضطر نور محمد تراقي للسفر إلى روسيا في ٥ محرم ١٣٩٩ هـ (٥ كانون الأول ١٩٧٨ م) ليحصل على دعمٍ ماديٍ، ولعله يستطيع العمل على أن يضغط سدنة النظام الشيوعي على رفاقهم الأفغان ليتوقّفوا عن معارضة الحكم

القائم خوفاً من أن يُطاح بهم جميعاً، وذلك فيما إذا قدّم بعض التنازلات لروسيا، وهناك عقد معاهدةً مع موسكو، فتح بموجبها أبواب أفغانستان أمام الجيوش الروسية ليحمي نظامه بها ضدّ المعارضة، والمقاومة في الداخل، ووصل عدد الخبراء الروس إلى ألف خبير في أفغانستان.

أصبح النظام الشيوعي القائم في أفغانستان مشلول الحركة، عاجزاً عن القيام بشيءٍ، فالمقاومة الإسلامية الداخلية تُهدّده، والروس يتسلّطون عليه، وغدا رئيس الجمهورية نور محمد تراقي الذي هو في الوقت نفسه رئيساً للوزارة لا يعرف التصرّف، وهذا ما ألزم حزب خلق على فصل رئاسة الدولة عن رئاسة الوزارة، فبقي نور محمد تراقي رئيساً للدولة، وعهد إلى حفيظ الله أمين برئاسة الوزارة التي ضمّت ثمانية عشر وزيراً، وتشكّلت في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (٢٨ آذار ١٩٧٩ م)، ولكن اشتدّت المقاومة الإسلامية، وبرز على الساحة السياسية الحزب الإسلامي برئاسة قلب الدين حكمتيار، وأحزاب أخرى، وفي ٢٠ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ (١٩ آذار ١٩٧٩ م) وقعت انتفاضة في معسكرات (هراة)، كما حدث تمرّد عسكري في الجيش، فأرسل الروس في شعبان أول وحدةٍ هجوميةٍ إلى أفغانستان، وهي عبارة عن كتيبةٍ محمولةٍ جواً قوامها أربعمائة رجل، واستقرت في موقع (بغرام) على بُعد ثلاثين كيلومتراً من العاصمة كابل، فقامت نتيجة ذلك ثورة في العاصمة نفسها في ١٢ رمضان ١٣٩٩ هـ (٥ آب ١٩٧٩ م) وقامت الحكومة بعمليات قمعٍ بشعةٍ، وجرائم قذرةٍ كثيرة. ووقع الخلاف بين رئيس الجمهورية نور محمد تراقي وبين رئيس وزرائه حفيظ الله أمين حول الحكم، وفي أوائل أيلول ١٩٧٩ م، انعقد مؤتمر عدم الانحياز في (هافانا) عاصمة كوبا ومرّ محمد نور تراقي بموسكو، فطلب منه بريجينيف أن يأخذ بابرك كارمل معه، فاعتذر تراقي بأن حفيظ الله أمين لا يقبله. فطلب الروس قتل حفيظ الله أمين، ودبّروا مؤامرةً لذلك، فأخبره أحد الضباط المرافقين لتراقي وهو (داود تارون).

وكانت المؤامرة تقضي بأن يقتل حفيظ الله أمين في المطار عند خروجه لاستقبال تراقي أثناء عودته.

أوكل حفيظ الله أمين لمدير الأمن العام (علي شاه بيمان) ضبط المطار أثناء الاستقبال، وجاء تراقي، ونجا أمين.

اجتمع السفير الروسي مع محمد نور تراقي في كابل وأرسلا وراء حفيظ الله أمين ليقتلوه، وأطلق كل منهما النار على الآخر، ولكن نجا كلاهما من سهم الثاني. وفي **٢٢** شوال **١٣٩٩ هـ** (**١٤** أيلول **١٩٧٩ م**) اعتقل نور محمد تراقي، وتسلّم رئيس الحكومة حفيظ الله أمين رئاسة الجمهورية إضافةً إلى رئاسة الوزارة، وقد حمّل سلفه مسؤولية الأخطاء التي وقعت بها حكومة حزب خلق. ولكن لم يُعلن عن وفاة نور محمد تراقي إلا بعد ما يقرب من شهر في ١٨ ذي القعدة **١٣٩٩ هـ** (**٩ تشرين الأول ١٩٧٩ م**).

٢ ـ حفيظ الله أمين[١]:

بعد أن استلم الدولة أراد أن يظهر بمظهر المحايد فأعلن العفو عن جميع الذين غادروا البلاد، وعمل على تحسين علاقته مع الدول المجاورة وخاصةً إيران وباكستان، وعمل على إصلاح المساجد التي هدّمها الشيوعيون.

---

(١) حفيظ الله أمين: ولد في مديرية بغمان عام **١٣٤٦ هـ**، ودرس هناك المرحلة الابتدائية، وأتم المرحلة الثانوية في كابل في مدرسة ابن سينا، وأكمل المرحلة الجامعية في جامعة كابل. وعمل بعدها في التعليم فدرّس في المعهد العالي للمعلمين، ثم عُيّن مديراً لثانوية ابن سينا، وابتعث إلى جامعة كولومبيا في نيويورك فنال درجة الماجستير في الفيزياء، ترأس اتحاد الطلاب اليساريين. وفاز في انتخابات **١٣٨٧ هـ** الأولى والثانية عن مديرية بغمان، بقي في الحكم ثلاثة أشهر، يتقن اللغتين الروسية والإنكليزية إضافةً إلى لغته.

أخذ الشيوعيون يُوجّهون النقد الدائم لحزب خلق، وهذا ما أضعفه، وجعل أنظار كافة الشيوعيين ورفاقهم تتجه نحو حزب (برشام) الحزب الشيوعي الآخر، وفي الوقت نفسه زادت المقاومة الداخلية التي تشمل الأحزاب والفئات والعناصر الإسلامية، وبدأ الصراع.

كان أسد الله أمين ابن أخي رئيس الجمهورية رئيساً لمكتب المخابرات فجرى هجوم عنيف عليه في الأول من شهر صفر ١٤٠٠ هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٧٩ م)، وقد أُصيب بجروحٍ بليغةٍ، وفي اليوم نفسه جرى هجوم على القصر الجمهوري، ووقع عدد من الضحايا، ولكن رئيس الجمهورية لم يُصب بأذىً. ونتيجة هذه الأحداث تسلّم الروس إدارة العاصمة وتسيير الشؤون فيها، غير أن الأمر قد صعب على الضباط الأفغانيين فحاولوا مقاومة ذلك، ووقعت صدامات بينهم وبين الروس في الخامس من صفر عام ١٤٠٠ هـ.

كان الروس غير راضين عن سياسة حزب خلق رغم شيوعيته إذ لا يرغبون بشيوعية تخرج عن دائرة فلكهم قيد أنملةٍ، ولكن يجب أن تكون رهن إشارتهم، وطوع أمرهم، ولم يكن نور محمد تراقي ولا حفيظ الله أمين سوى رجالٍ من هذا، وإن كانوا أقلّ بقليل، لذا لم يكن على روسيا ـ حسب سياستها ـ سوى الإطاحة بهم، وإعطاء السلطة لآخرين يدورون في فلكها، ويعدّون أنفسهم من أتباع موسكو كليةً، وكان حزب (برشام) الحزب الشيوعي الآخر من هذا النوع تقريباً، وكان زعيمه (بابرك كارمل)[1] لا يزال

---

(١) بابرك كارمل: ابن الجنرال محمد حسن أحد المقربين إلى الملك محمد ظاهر شاه، ولد في مديرية (بغرامي) من ولاية كابل عام ١٣٤٧ هـ، من أسرةٍ غنيةٍ كانت على صلةٍ بالأسرة الحاكمة، درس في المدرسة الأمانية، وحصل منها على الشهادة الثانوية عام ١٣٦٧ هـ، وسجن ثلاث سنواتٍ لنشاطاته المعادية لقانون الصحافة، وتخرّج من كلية الآداب في جامعة كابل عام ١٣٨٠ هـ، وعمل مترجماً للغة الألمانية بوزارة التربية، كما درس الحقوق، وعمل في وزارة التخطيط من ١٣٧٧ ـ ١٣٨٥هـ. =

يعيش في (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا كلاجئٍ سياسيٍ، أي تحت يد الروس. وقد هُيء هذا الحزب لاستلام السلطة في أفغانستان بعد ضعف حزب (خلق)، وعدم إعطاء الثقة التامة له من موسكو.

وفي يوم ٦ صفر ١٤٠٠ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٧٩ م) حدث هجوم على القصر الجمهوري، برئاسة وزير الدفاع محمد أسلم وطنجار، واعتقل رئيس الجمهورية حفيظ الله أمين، وفي اليوم التالي لقي حتفه، وعيّن (بابرك كارمل) رئيساً للجمهورية، وهو لا يزال في العاصمة التشيكية (براغ)، حيث تحرّك منها نحو كابل عن طريق موسكو، وألقى بياناً وهو في العاصمة الروسية[1] بصفته رئيساً لجمهورية أفغانستان، وأذيع البيان من موسكو على

= انتخب نائباً لحزب الشعب الديمقراطي عن ولاية كابل عام ١٣٨٥ هـ.
وأسّس حزب (برشام) التقدّمي الشيوعي، عندما انشق حزب الشعب الديمقراطي، ويعلن الانتماء لموسكو والارتباط بها، وذلك عام ١٣٨٧ هـ، وفي الوقت نفسه أسّس نور محمد تراقي حزب خلق، كما انشقّت يومها مجموعة أخرى، وأصدرت صحيفة أسبوعية تحمل اسم شعلة جاويد أي الشعلة الأبدية وتسير على النهج الصيني وكانت برئاسة طاهر بدخشي، وعرفت باسم (ستم مللي)، وكان انشقاقها عام ١٣٨٨ هـ، أيّد حزب برشام الإطاحة بالملك الأفغاني محمد ظاهر شاه عام ١٣٩٣ هـ، وألغيت الأحزاب عام ١٣٩٧ هـ، واندمج بعدها الحزبان الشيوعيان (برشام) و (خلق). ثم اعتقل قادة الأحزاب الشيوعية عام ١٣٩٨ هـ، ولكن لم يلبث أن قام الانقلاب الشيوعي، وعُيّن بابرك كارمل نائباً لرئيس مجلس الثورة، ورئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة نور محمد تراقي. وفي عام ١٣٩٩ هـ عاد الانشقاق بين جناحي الحزب الشيوعي، وأبعد بابراك عن بلاده، وعين سفيراً لبلاده في تشيكوسلوفاكيا، وبعد ثلاثة أشهر استدعي، واعتقل، وحوكم بتهمة خيانة ثورة نيسان، وأخرجه الروس، وحصل على حق اللجوء السياسي في براغ نتيجة التدخّل الروسي. وعندما نصّب نجيب الله نفسه رئيساً للدولة في رمضان ١٤٠٦ هـ، فرّ إلى السفارة الصينية، ومنها إلى السفارة الروسية، ثم انتقل إلى طاشقند، ويعيش الآن في موسكو.

(١) وقيل إن البيان ألقي من مدينة (ترمذ) على نهر جيحون عند الحدود الأفغانية، والمهم أنه ألقي من داخل الأمبراطورية الروسية.

أنه من كابل، وأعلن أن سلفه حفيظ الله أمين كان عميلاً أمريكياً، هذا مع العلم أن روسيا قد ادّعت قبل يومين أن حفيظ الله أمين رئيس جمهورية أفغانستان قد طلب تدخّل الجيش الروسي لمساعدته بالقضاء على الثورة في داخل بلاده. ولما دخل الجيش الروسي أفغانستان ادّعت روسيا أن جيشها لم يدخل أفغانستان إلا بناءً على طلب رئيس الجمهورية الأفغانية، ومع هذا فقد ادّعى صنيعتها الجديد أن سلفه كان عميلاً أمريكياً.

٣ ـ بابرك كارمل:

وصل إلى كابل فوجد الروس قد سبقوه إليها، إذ عندما كان يذيع البيان كانت جيوشهم التي تزيد على ثمانين ألفاً تجتاز نهر جيحون، وأخذوا يُمارسون الإرهاب بكل صوره وأشكاله، وهذا ما أثار السكان ضدّ الروس، وضدّ أعوانهم الذين يتسلّمون السلطة في البلاد.

دخل بابرك كارمل في دبابةٍ روسيةٍ أنموذج تي ٧٢.

بدأ النقل الجوي العسكري الضخم، وكانت تستعمل أكثر من ثلاثمائة طائرة نقلٍ ضخمةٍ لنقل الجنود والمعدات، والمؤن إلى كابل، وهاجمت القوات الروسية المحمولة جواً قصر الأمان، ومحطة الإذاعة، كما جرّدت هذه القوات وحدات الجيش الأفغاني من سلاحها.

وتلا ذلك إرسال أربعين ألف جندي روسي، توزّعوا على العواصم الإقليمية. وبحث موضوع التدخّل الروسي في أفغانستان في الأمم المتحدة، واتخذ قرار يدعو إلى الانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات الأجنبية، من أفغانستان، وكان التصويت ١٠٤ مقابل ١٨، ولكن هذا القرار غير جدي لذلك لم يكن شيء من نتائجه، وكذلك قرر وزراء خارجية الدول الإسلامية المجتمعين في إسلام أباد في باكستان: إن الغزو الروسي لأفغانستان يُشكّلُ مخالفةً صارخةً للقانون الدولي، غير أن هذا الكلام لم يسمعه سوى الذين صاغوه، لأنهم لا يملكون قوةً، ولو ملكوها ما استطاعوا استخدامها.

وكذلك تبنّت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة اقتراحاً قدّمته باكستان يستنكر التدخل الروسي في أفغانستان، ولكن ليس هناك من مجيبٍ فالقضية تتعلق بالمسلمين، والأمم المتحدة تقع تحت وطأة الصليبية، فالقضايا تُسمع ويستجاب لها إن كانت ضدّ المسلمين وضدّ مصالحهم، وتُنفّذ ولو اضطر الأمر إلى استخدام القوة، وربما اجتمعت قوة العالم على ذلك، وقد تكون بينها قوات إسلامية نتيجة الارتباطات والمحاور والدوران بالأفلاك.

وتزايدت القوات الروسية في أفغانستان فوصل عددها إلى خمسة وسبعين ألفاً، وأخذت تستعمل الغازات السامة ضدّ المجاهدين، وضدّ السكان الآمنين أيضاً، وأعلنت الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها استنكارها كلامياً، ولكن لم تحرّك ساكناً، ولم يكن بإمكان السكان إلا الهرب من الجحيم الذي يعيشون فيه، هذا إن تمكّنوا من الفرار. فبلغ عدد اللاجئين الأفغان في باكستان في شوال ١٤٠٠ هـ (آب ١٩٨٠ م) أكثر من مليون، ونقص عدد القوات الأفغانية إلى النصف خلال سنةٍ واحدةٍ فبعد أن كان ثمانين ألفاً عام ١٣٩٩ هـ نقص إلى أربعين ألفاً عام ١٤٠٠ هـ.

الناس يفرّون من بلدهم خوفاً من الظلم وكرهاً من استبداد المعتدين الدخلاء، موظفو السلك السياسي في السفارات الأفغانية يطلبون اللجوء السياسي، موظفو شركة الطيران الأفغانية (أريانا) يهربون، ولاعبو كرة القدم يفرّون عندما يخرجون لمباراةٍ دوليةٍ خارج حدود بلادهم، الوفود السياسية تأبى العودة و. . .

وعاد الموضوع إلى الأمم المتحدة مع بداية عام ١٤٠١ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٠ م)، وصدر قرار يدعو إلى انسحاب القوى الأجنبية الشامل من أفغانستان (بأكثرية ١١١ صوتاً مقابل ٢٢ صوتاً وامتناع ١٢ صوتاً) ولكن كلام في كلام. وكان الانتقاد الإعلامي للمخالفات الروسية في استعمال المتفجرات المفخخة، والقصف العشوائي، ولكن من غير جدوى. وعاد

الموضوع بعد عامٍ للأمم المتحدة، ولكن كالسابق من غير فائدةٍ سوى التصويت.

فوج من الجيش الأفغاني يفرّ من المعركة بصورةٍ جماعيةٍ أمام المجاهدين في (شاريكار) شمال كابل، وتتمرّد قطعات من الجيش في موقع (نضرشاه ـ كوت) في مقاطعة (باكتيا الجنوبية الشرقية) ثم تفرّ إلى باكستان. وهرب مئات من الجنود الأفغانيين من الفرقة الخامسة والعشرين إلى باكستان بعد أن تمرّدوا على قادتهم وقتلوا ضباطاً روساً وأفغانيين، وانضمام أعداد من الجنود الأفغان إلى المجاهدين.

وما جاء عام ١٤٠٠ هـ إلا وقد قتل مليون مسلمٍ على يد القوات الروسية، وقوات عملائها، وبلغ عدد القوات الروسية في أفغانستان عام ١٤٠٢ هـ ما يزيد على مائة وخمسة آلاف جندي.

وفي ٧ رمضان ١٤٠٢ هـ (٢٨ حزيران ١٩٨٢ م) تمّ عقد اتفاقية بين موسكو وكابل لمدة خمس سنوات تعهدت فيها موسكو تأمين الخبراء والمعدات والتدريب لكابل، وبعد شهر قدمت موسكو هديةً للأفغان ١٥٠٠ دبابة ومستشفى يضمّ مائتي سرير.

وكان الروس يتهمون باكستان بإثارة المجاهدين الأفغان على نظام كابل العميل للروس، وبدأت المحادثات تجري في جنيف بين باكستان وبين النظام الأفغاني الخاضع للروس، وقد بدأت هذه المحادثات في ٢٨ رمضان ١٤٠٢ هـ (١٩ تموز ١٩٨٢ م) واستمرت حتى وقعت الاتفاقية بين الطرفين في ٢٧ شعبان عام ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م).

٤ ـ نجيب الله محمد[1]:

كان رئيس الاستخبارات الأفغانية ـ خاد ـ في عهد بابرك كارمل فمكّن

(١) نجيب الله محمد: ولد في (مراد خانة) إحدى ضواحي العاصمة وذلك عام ١٣٦٦ هـ، وأصله من ولاية (بكتيا). =

لنفسه، وهو صاحب أطماع، ويجيد المناورة، والظهور بمظهر المسالمة، ومحبة الوصول إلى نتيجة مع المحاور كلها.

وفي رجب ١٤٠٥ هـ (نيسان ١٩٨٥ م) دعت الحكومة إلى انعقاد الجمعية الوطنية (لويا جيرغاه) التي صادقت على دستورٍ جديدٍ لأفغانستان، وعُيّن عضو من خارج حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني رئيساً لجبهة (وطن الأجداد الوطنية)، وجرت الانتخابات لاختيار أعضاء الحكومات المحلية الجدد (وزعمت الحكومة أن ٦٠٪ ممن تم انتخابهم لم يكونوا حزبيين)، كما عُيّن عدة أعضاء غير حزبيين في مناصب حكومية رفيعة، وذلك في محاولةٍ لتوسعة قاعدة الحكم.

وأصبح نجيب الله محمد أميناً عاماً لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، واحتفظ بابرك كارمل برئاسة المجلس الثوري، وإن كان منصباً أدنى من منصب نجيب الله محمد.

أعلن نجيب الله محمد عن تشكيل قيادةٍ جماعية تضمّ كلاًّ: نجيب الله محمد، وبابرك كارمل، وسلطان علي كشتمند.

أُعفي بابرك كارمل من مناصبه الحزبية والحكومية كلها، وأصبح محمد تشامكاني نائب رئيس المجلس الثوري، وهو من خارج حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وكان ذلك المنصب محدداً بإعلان دستورٍ جديدٍ، وتشكيل هيئةٍ تشريعيةٍ دائمةٍ.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ (كانون الأول ١٩٨٦ م) صادقت اللجنة المركزية لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني في جلستها المكتملة على اتباع سياسة مصالحةٍ وطنيةٍ تضمّنت إجراء مفاوضات مع جماعات المعارضة، وتشكيل حكومة وحدةٍ وطنيةٍ ائتلافيةٍ.

وفي أوائل جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (أوائل كانون الثاني ١٩٨٧ م)

تشكلت هيئة استثنائية عليا للمصالحة الوطنية برئاسة عبد الرشيد هاتف، وهو رئيس اللجنة الوطنية لجبهة وطن الأجداد الوطنية، لإجراء المفاوضات. وأُعيدت تسمية جبهة وطن الأجداد الوطنية فأصبحت «الجبهة الوطنية»، وغدت تنظيماً مستقلاً عن حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وأحرزت سياسة المصالحة الجديدة بعض الدعم من خصوم سابقين كانوا ضمن المعارضة، ولكن تحالف أحزاب المجاهدين السبعة المعروف باسم «الاتحاد الإسلامي للمجاهدين الأفغان» رفض التقيد بوقف إطلاق النار، والمشاركة في المفاوضات في الوقت الذي استمر فيه بالمطالبة بانسحاب الروس الكامل وغير المشروط.

وأعلن في ذي القعدة ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) عن إجراء تطورات مهمة وذلك كنوعٍ من الدعاية وكسب التأييد، والحرب الإعلامية إذ أُذيع أنه جزء من عمليةِ المصالحة الوطنية، فأعلن عن السماح بتشكيل أحزاب سياسية أخرى لكن ضمن شروط معينة. كما أعلن الرئيس نجيب الله محمد عن استعداد حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني لاقتسام السلطة مع ممثلي جماعات المعارضة في حالة تشكيل حكومة وحدة وطنيةٍ ائتلافيةٍ.

وتمت المصادقة على مسودة دستورٍ جديدٍ من قبل اللجنة التنفيذية الدائمة للمجلس الثوري. ومن بين الأفكار الرئيسية الحديثة التي تضمّنتها مسودة الدستور: تشكيل نظام سياسي متعدد الأحزاب برعاية الجبهة الوطنية، وتشكيل هيئة تشريعية تتألف من مجلسين تشريعيين، وتسمى ملي شورى (مجلس الشورى) أي أن الجمعية الوطنية تتألف من مجلسي الشيوخ والنواب. ومنح حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني وضعا دستورياً دائماً، ومنح رئيس الجمهورية الذي تستمر مدة رئاسته سبع سنوات سلطات لا حدود لها، وتعديل اسم الدولة من جمهورية أفغانستان الديمقراطية إلى جمهورية أفغانستان، وأقرّت الجمعية الوطنية الدستور الجديد في ربيع الأول عام ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م).

جرت انتخابات محلية في أنحاء البلاد في مطلع عام ١٤٠٨ هـ (آب ١٩٨٧ م)، وانتخب عدد ليسوا أتباعاً لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني.

وفي ١٠ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٨٧ م) تمّ انتخاب نجيب الله محمد بالإجماع رئيساً للمجلس الثوري، كما انتخب محمد تشامكاني نائباً للرئيس. وحتى يتمكن الرئيس من تقوية مركزه أقصى جميع مؤيدي الرئيس السابق بابراك كارمل الباقيين في اللجنة المركزية والمكتب السياسي (اللجنة التنفيذية) لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني. وبعد شهر انتخبت الجمعية الوطنية بالإجماع نجيب الله محمد رئيساً للجمهورية.

وفي شعبان عام ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) جرت انتخابات جمعية وطنية جديدة بمجلسي الشيوخ والنواب، وحلّت محلّ المجلس الثوري غير أن المجاهدين قد قاطعوا هذه الانتخابات لعلمهم أنها ليست سوى محاولة لتضليل الأمة. وقد تركت الحكومة خمسين مقعداً شاغراً في مجلس النواب من أصل ٢٣٤ مقعداً، كما أبقت عدداً قليلاً من مقاعد مجلس الشيوخ أملاً في أن يتخلّى المجاهدون عن موقفهم. وقد حصل حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني على ٤٦ مقعداً فقط في مجلس النواب، وحصلت الجبهة الوطنية على خمسة وأربعين مقعداً، وهي تؤيد حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني. كما حصلت أحزاب يسارية مؤيدة على ٢٤ مقعداً.

وفي رمضان ١٤٠٨ هـ (أيار ١٩٨٨ م) أصبح محمد حسن شرق رئيساً للوزراء محل سلطان علي كشتمند، ومحمد حسن شرق ليس من أعضاء حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني ومع ذلك فقد كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء منذ عشرة أشهر. وبعد شهرين أي في ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م) عُيّنت وزارة جديدة.

وفي ١٣ رجب ١٤٠٩ هـ (١٨ شباط ١٩٨٩ م) أي بعد انسحاب الروس من أفغانستان بثلاثة أيام أجرى الرئيس نجيب الله محمد تعديلاً وزارياً على الحكومة استبدل فيه الوزراء غير الشيوعيين بوزراء موالين من حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وفي اليوم نفسه استقال رئيس الوزراء محمد حسن شرق الذي يعدّ أحد دعائم فكرة المصالحة الوطنية، وحلّ مكانه سلطان علي كشتمند رئيس الوزراء السابق.

وبعد إعلان الرئيس عن حالة الطوارئ ادعى أن ذلك كان بسبب الانتهاكات المتكررة لاتفاقية جنيف بين باكستان والولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ١٤ رجب ١٤٠٩ هـ (١٩ شباط ١٩٨٩ م) أعلن تشكيل مجلس أعلى للدفاع عن أرض الوطن، ويتألف من عشرين عضواً، ويهيمن عليه حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وبرئاسة الرئيس نجيب الله محمد، ويضمّ الوزراء، وأعضاء المكتب السياسي (اللجنة التنفيذية)، والشخصيات العسكرية الرفيعة، وأنيطت بهذا المجلس المسؤولية الكاملة عن سياسة البلاد الاقتصادية والسياسية والعسكرية (رغم استمرار مجلس الوزراء بعمله).

وفي ٢٥ شعبان ١٤٠٦ هـ (٤ أيار ١٩٨٦ م) نصّب نجيب الله محمد نفسه رئيساً للدولة بمساعدة رئيس الوزارة سلطان علي كشتمند على حين فرّ سلفه بابرك كارمل إلى السفارة الصينية، ومنها إلى السفارة الروسية، وخرج بتدبير من الروس إلى (طاشقند)، ثم انتقل إلى موسكو حيث عاش في بيت فخمٍ.

وفي عهد الرئيس نجيب الله محمد ـ كما ذكرنا ـ تمّ التوقيع على اتفاقية جنيف، وقد جاءت كما يلي:

اتفاق ثنائي

بين جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية حول مبادىء العلاقات لاسيما بشأن عدم التدخل أو المداخلة. إن جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية، المشار إليهما أدناه بأنهما الطرفان السّاميان. رغبةً منهما في تطبيع العلاقات وتعزيز حسن الجوار والتعاون، وكذلك دعم السلم والأمن العالميين في المنطقة، وإذ تريان أن التقيد التام بمبدأ عدم التدخّل في الشؤون الداخلية والخارجية للدول يتسم بأكبر الأهمية في صيانة السلم والأمن الدوليين وفي أعمال مقاصد ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة، وإذا تُؤكّدان الحقوق غير القابلة للتصرّف للدول في الاختيار الحرّ لنظمها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وفقاً لما ترغب فيه شعوبها، دون تدخّلٍ خارجيٍ أو تخريبٍ أو قسرٍ أو تهديدٍ بأي شكل من الأشكال، وإذ تضعان في اعتبارهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة وكذلك القرارات التي اعتمدتها الأمم المتحدة بشأن مبدأ عدم التدخّل ولا سيما إعلان مبادىء القانون الدولي المتعلقة بالعلاقات الودية والتعاون فيما بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة المؤرخ في ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٠ وكذلك إعلان عدم قبول التدخّل في الشؤون الداخلية للدول المؤرخ في كانون الأول ١٩٨١ اتفقنا على ما يلي:

= درس المرحلة الثانوية في مدرسة (حبيبة)، والتحق بكلية الطب في جامعة كابل عام ١٣٨٤ هـ، وتخرج منها عام ١٣٩٥ هـ، وقد رسب ثلاث سنواتٍ، وتعلّم بعض مراحل دراسته في باكستان عندما كان أبوه ملحقاً تجارياً في القنصلية الأفغانية في مدينة (بيشاور).

انضم إلى الحزب الشعبي الديمقراطي منذ بداية تأسيسه عام ١٣٨٥ هـ، وعُيّن سفيراً لبلاده في طهران، وسُحبت منه الجنسية الأفغانية فلجأ إلى تشيكوسلوفاكيا بجواز سفرٍ مُزوّرٍ، ومنها انتقل إلى موسكو، ومن هناك نقل إلى كابل على متن طائرةٍ روسيةٍ ليلة تدخّل الروس في أفغانستان في ٨ صفر عام ١٤٠٠ هـ (٢٧ كانون أول ١٩٧٩ م)، وعُيّن رئيساً لجهاز الاستخبارات ـ خاد ـ أيام بابرك كارمل. وهو من قبائل البشتو.

المادة الأولى

تنشأ العلاقات بين الطرفين المتعاقدين السّاميين في كنف التقيد التام بمبادىء عدم تدخّل الدول في شؤون غيرها من الدول الأخرى.

المادة الثانية

تنفيذاً لمبدأ عدم التدخّل يتعهد كل طرفٍ سامٍ بالتقيد بالالتزامات التالية:

١" ـ احترام السيادة والاستقلال السياسي والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية للطرف السامي المتعاقد الآخر وأمنه وعدم انحيازه، وكذلك الهوية الوطنية لشعبه وثقافته وتراثه.

٢" ـ احترام الحق السيادي وغير القابل للتصرف للطرف المتعاقد السامي الآخر في أن يختار بحريةٍ نظمه السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وفي تنمية علاقاته الدولية وممارسته السيادة الدائمة على موارده الوطنية وفقاً لرغبة شعبه ودون تدخّل خارجيٍ ولا تخريبٍ أو إكراه أو تهديد بأي شكلٍ من الأشكال.

٣" ـ الامتناع عن استخدام أو التهديد باستخدام القوة بأي شكلٍ من الأشكال حتى لا يخترق أي منهما حدود الآخر أو يُعطّل النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي للطرف المتعاقد السامي الآخر، ولا يقلب أو يُغيّر النظام السياسي للطرف المتعاقد السامي الآخر ولا حكومته ولكي لا يتسبّب في توتر بين الطرفين المتعاقدين الساميين.

٤" ـ ضمان كون إقليمه لا يستخدم بأي طريقة من الطرق من شأنها انتهاك سيادة الطرف المتعاقد السامي الآخر أو استقلاله السياسي أو سلامته

الإقليمية أو وحدته الوطنية أو يعطل استقراره السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

٥" ـ الامتناع عن التدّخل المسلح والتخريب والاحتلال العسكري أو أي شيء من أشكال التدخل المكشوف أو المقنع الذي يستهدف الطرف المتعاقد السامي الآخر، أو أي من أعمال التدخل العسكري أو السياسي أو الاقتصادي في الشؤون الداخلية للطرف المتعاقد السامي الآخر، بما في ذلك أعمال رد الفعل التي تنطوي على استخدام القوة.

٦" ـ الامتناع عن أي عملٍ أو محاولةٍ بأي شكلٍ من الأشكال أو بأي عذرٍ من الأعذار ترمي إلى زعزعة أو تقويض استقرار الطرف المتعاقد السامي الآخر أو أي من مؤسساته.

٧" ـ الامتناع عن تشجيع أو تأييد أنشطة التمرّد أو الانفصال المباشرة أو غير المباشرة الموجهة ضد الطرف المتعاقد السامي الآخر بأي عذرٍ من الأعذار أو أي عملٍ آخر يرمي إلى تفتيت الوحدة أو تقويض أو هدم النظام السياسي للطرف السامي المتعاقد الآخر.

٨" ـ الامتناع عن القيام في حدوده الإقليمية بتدريب أو تجهيز أو تمويل أو استئجار مرتزقة أياً كان منشؤهم لغرض القيام بأنشطةٍ عدائيةٍ ضدّ الطرف المتعاقد السامي الآخر أو إرسال أولئك المرتزقة إلى إقليم الطرف المتعاقد السامي الآخر والإحجام تبعاً لذلك عن منح تسهيلات بما فيها التسهيلات المالية والتدريبية والتجهيزية وتسهيلات العبور لأولئك المرتزقة.

٩" ـ الامتناع عن إبرام أية اتفاقات أو ترتيبات مع دولٍ أخرى تستهدف التدخل في الشؤون الداخلية أو الخارجية للطرف المتعاقد السامي الآخر.

١٠" ـ الإحجام عن القيام بحملات سلبٍ وطعنٍ أو دعايةٍ مغرضةٍ لغرض التدخّل في الشؤون الداخلية للطرف المتعاقد السامي الآخر.

١١" ـ منع أي مساعدة إلى المجموعات الإرهابية أو المخربين أو العناصر الهدامة ضد الطرف المتعاقد السامي الآخر وعدم استخدام هؤلاء وعدم السكوت عنهم.

١٢" ـ عدم قيام الطرف المتعاقد السامي بأن يمنح في إقليمه حضور وإيواء أي أفرادٍ أو مجموعاتٍ سياسيةٍ أو غيرها من مخيمات أو قواعد والامتناع عن تنظيم وتدريب وتمويل وتجهيز وتسليح هؤلاء الأفراد والمجموعات لغرض إحداث الاضطراب والفوضى في إقليم الطرف المتعاقد السامي الآخر والقيام تبعاً لذلك بمنع استخدام الإعلام الجماهيري وعن نقل الأسلحة والذخائر والأجهزة من قبل هؤلاء الأفراد والمجموعات.

١٣" ـ عدم اللجوء إلى أي إجراء من شأنه أن يعتبر تدخلاً وعدم السماح به.

المادة الثالثة

يبدأ نفاذ هذا الاتفاق في ١٥ أيار ١٩٨٨ م.

المادة الرابعة

إن أية خطوات قد تلزم بغية تمكين الأطراف المتعاقدة السامية من التقيد بأحكام المادة ٢ من هذا الاتفاق يجب استكمالها في التاريخ الذي يبدأ فيه نفاذ هذا الاتفاق.

المادة الخامسة

وضع هذا الاتفاق باللغات الإنكليزية والباشتو والأوردو وجميع النصوص متساوية في الحجية.

وفي حالة حدوث اختلاف في التفسير يسود النص الإنكليزي.

حُرِّر من ٥ نسخ في جنيف في الرابع عشر من نيسان ١٩٨٨ م.

(التوقيع أفغانستان وباكستان).

إعلان بشأن الضمانات الدولية

إن حكومتي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والولايات المتحدة الأمريكية إذ تُعبّران عن تأييدهما لقيام جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية بإبرام تسويةٍ سياسيةٍ متفاوض عليها تستهدف تطبيع العلاقات وتعزيز حسن الجوار بين البلدين وحرصاً منهما على دعم السلم والأمن العالميين في المنطقة. ورغبةً منهما في المساهمة في تحقيق الأهداف التي رسمتها جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية وبغية تأمين احترام سيادتهما واستقلالهما وسلامتهما الإقليمية وعدم انحيازهما.

تتعهدان بالامتناع الصارم عن التدخّل بأي شكلٍ من الأشكال في الشؤون الداخلية لجمهورية أفغانستان ولجمهورية باكستان الإسلامية وباحترام الالتزامات التي يتضمّنها الاتفاق الثنائي المبرم بين جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية المتعلّق بمبادىء العلاقات الثنائية ولاسيما بشأن عدم التدخّل.

تحثان كافة الدول على أن تحذو حذوهما.

يبدأ نفاذ هذا الإعلان في ١٥ أيار ١٩٨٨ م.

حُرِّر في جنيف، في اليوم الرابع عشر من نيسان ١٩٨٨ م من خمس نسخٍ باللغتين الإنكليزية والروسية وكلا النصين يتساويان في الحجية.

(اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والولايات المتحدة الأمريكية).

اتفاق ثنائي

بين جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية بشأن العودة الطوعية للاجئين.

إن جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان المشار إليهما أدناه على أنهما الطرفان المتعاقدان الساميان رغبةً منهما في تطبيع العلاقات وتعزيز حسن الجوار والتعاون وكذلك تقوية السلم والأمن الدوليين في المنطقة، واقتناعاً منهما بأن العودة الطوعية إلى الوطن والتي لا يقف في طريقها حاجز تُشكّل أهم حلٍ لمشكلة اللاجئين الأفغانيين المتواجدين في جمهورية باكستان الإسلامية وقد تأكّدتا من أن الترتيبات المتعلقة بعودة اللاجئين الأفغان مرضية بالنسبة لهما.

اتفقتا على ما يلي:

المادة الأولى

تتاح لكافة اللاجئين الأفغان المتواجدين مؤقتاً في إقليم جمهورية باكستان الإسلامية فرصةً للعودة الطوعية إلى ديارهم وفقاً للترتيبات والشروط المنصوص عليها في هذا الاتفاق.

المادة الثانية

تقوم حكومة جمهورية أفغانستان باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لتأمين الظروف التالية للعودة الطوعية للاجئين الأفغان إلى ديارهم:

أ ــ يسمح لكافة اللاجئين بالعودة بحرية إلى ديارهم.

ب ــ يتمتع جميع العائدين بالاختيار الحر لمكان إقامتهم وبحرية الحركة داخل جمهورية أفغانستان.

ج ــ يتمتع جميع العائدين بحق العمل وبظروف معيشةٍ ملائمةٍ وبنصيبٍ من رعاية الدولة.

د ــ يتمتع جميع العـائدين بحق المشـاركة على قـدم المساواة في الشؤون المدنية لجمهورية أفغانستان. وتؤمن لهم مزايا متساوية نتيجة لحل المسألة المتعلّقة بالأراضي بالاستناد إلى إصلاح الأراضي والمياه.

هـ ــ يتمتع جميع العائدين بنفس الحقوق والامتيازات بما في ذلك حرية الدين وعليهم نفس الالتزامات والواجبات التي على أي مواطنٍ آخر في جمهورية أفغانستان دون تمييزٍ.

تتعهد حكومة جمهورية أفغانستان بتنفيذ هذه التدابير وبتوفيـر كافـة شروط المساعدة في عملية إعادة التوطين وذلك في حدود إمكاناتها.

المادة الثالثة

تقوم حكومة جمهورية باكستـان الإسلاميـة بتسهيل العـودة الطوعيـة والمنظمة وفي كنف السلم لجميـع اللاجئين الأفغـان الباقين في إقليمهـا وتتعهد بتوفير المساعدة اللازمة لعملية التوطين وذلك في حدود إمكاناتها.

المادة الرابعة

لغرض تنظيم وتنسيق ورصد العمليات التي ستيسـر العودة الـطوعية والمنـظمة وفي كنف السلم لـلاجئين الأفغان ستنشـأ لجان مختلطـة وفقـاً للممارسة الدولية المعمول بها.

يكون أعضاء هـذه اللجان والموظفون المكونـون لها متمتعين، في أدائهم لوظائفهم، بالتسهيلات اللازمة وتيسر لهم سبل الوصول إلى المناطق المعنية داخل إقليمي الطرفين المتعاقدين الساميين.

المادة الخامسة

بغية تيسير الحركة المنظمة للعائدين تقوم اللجان بتحديد نقاط عبور حدودية وبإنشاء مراكز العبور اللازمة. كما تقوم بإنشاء كافة الطرائق الأخرى

اللازمة للعودة التدريجية للاجئين بما في ذلك تسجيل أسماء اللاجئين الذين أعربوا عن الرغبة في العودة وإبلاغ تلك الأسماء إلى بلد العودة.

المادة السادسة

بناء على طلب الحكومتين المعنيتين يقوم مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين بتوفير التعاون والمساعدة في عملية العودة الطوعية للاجئين وفقاً لهذا الاتفاق ويمكن أن تبرم اتفاقات خاصة لهذا الغرض بين مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين والطرفين المتعاقدين الساميين.

المادة السابعة

يبدأ نفاذ هذا الاتفاق في ١٥ أيار ١٩٨٨ م. وفي تلك الأثناء تنشأ اللجان المختلطة المنصوص عليها في المادة الرابعة وتبدأ العمليات الرامية إلى العودة الطوعية للاجئين بموجب هذا الاتفاق.

تبقى الترتيبات المنصوص عليها في المادتين الرابعة والخامسة أعلاه نافذة لمدة ثمانية عشر شهراً. وبعد تلك الفترة يقوم الطرفان المتعاقدان الساميان باستعراض نتائج إعادة التوطين وينظران، عند اللزوم، في أية ترتيباتٍ إضافيةٍ قد يلزم اتخاذها.

المادة الثامنة

وضع هذا الاتفاق باللغات الإنكليزية، والباشتو، والأوردو وجميع النصوص متساوية في الحجية. وفي حالة اختلاف في التفسير يسود النص الإنكليزي.

حُرِّر في خمس نسخٍ أصلية في جنيف في اليوم الرابع عشر من نيسان ١٩٨٨ م.

(توقيع أفغانستان وباكستان)

اتفاق بشأن
نواحي الترابط لتسوية الحالة المتصلة بأفغانستان

١ ــ إن المساعي الدبلوماسية التي اضطلع بها الأمين العام للأمم المتحدة بتأييد من جميع الحكومات المعنية والتي هدفها تحقيق تسوية سياسية من خلال المفاوضات للحالة المتصلة بأفغانستان قد كللت بالنجاح.

٢ ــ وحيث قبلنا العمل من أجل تسوية شاملة تستهدف حل مختلف القضايا المعنية ووضع إطار يكفل حسن الجوار والتعاون فإن حكومة جمهورية أفغانستان وحكومة جمهورية باكستان الإسلامية شرعتا في مفاوضات من خلال وساطة الممثل الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة في جنيف في الفترة من ١٦ إلى ٢٤ حزيران ١٩٨٢ م. وفي أعقاب المشاورات التي أجراها الممثل الشخصي في استنبول وكابول وطهران في الفترة من ٢١ كانون الثاني إلى ٧ شباط ١٩٨٣ م تواصلت المفاوضات في جنيف من ١١ إلى ٢٢ نيسان ومن ١٢ إلى ٢٤ حزيران ١٩٨٣ م. وزار الممثل الشخصي المنطقة لإجراء مناقشات عالية المستوى من ٣ إلى ١٥ نيسان ١٩٨٤ م. وقد تمّ الاتفاق وقتئذٍ على تغيير إطار المفاوضات وعملاً بذلك جرت مفاوضات غير مباشرة من خلال الممثل الشخصي في جنيف في الفترة من ٢٤ إلى ٣٠ آب ١٩٨٤ م. وقام الممثل الشخصي بزيارةٍ أخرى للمنطقة في الفترة من ٢٥ إلى ٣١ أيار ١٩٨٥ م سبقتها جولات إضافية من المحادثات غير المباشرة المعقودة في جنيف في الفترة من ٢٠ إلى ٢٥ حزيران ومن ٢٧ إلى ٣٠ آب ومن ١٦ إلى ١٩ كانون الثاني ١٩٨٦ م لإجراء مشاورات. وبدأت جولة نهائية من المفاوضات بوصفها محادثات غير مباشرة في جنيف في ٥ أيار ١٩٨٦ م، وعلقت في ٢٣ أيار ١٩٨٦ م، ثم استؤنفت في الفترة من ٣١ تموز إلى ٨ آب ١٩٨٦ م. وزار الممثل الشخصي المنطقة في الفترة من ٢٠ تشرين الثاني إلى ٣ كانون الأول ١٩٨٦ م لإجراء مفاوضات إضافية

واستؤنفت المحادثات في جنيف من جديد في الفترة من ٢٥ شباط إلى ٩ آذار ١٩٨٧ م ومن ٧ إلى ١١ أيلول ١٩٨٧ م وزار الممثل الشخصي المنطقة من جديد في الفترة من ٢ آذار إلى ٨ نيسان ١٩٨٨ م.

وتم تغيير إطار المفاوضات من جديد في ١٤ نيسان ١٩٨٨ م حينما وضعت الصكوك المنطوية على التسوية في شكلها النهائي وتبعاً لذلك جرت محادثات مباشرة في تلك المرحلة.

وقد أبقت حكومة جمهورية باكستان الإسلامية حكومة إيران على علمٍ بتقدم المفاوضات خلال المساعي الدبلوماسية.

- واشتركت حكومة جمهورية أفغانستان وحكومة جمهورية باكستان الإسلامية في المفاوضات بناءً على الاقتناع الصريح بأنهما تعملان وفقاً لحقوقهما والتزاماتهما بموجب ميثاق الأمم المتحدة واتفقتا على وجوب أن تستند التسوية السلمية إلى مبادىء القانون الدولي التالية:

المبدأ القائل بوجوب امتناع الدول في علاقاتها الدولية عن استخدام أو التهديد باستخدام القوة ضد السلامة الإقليمية والاستقلال السياسي لأي دولةٍ أو بأي شكلٍ من الأشكال التي تنافي مقاصد الأمم المتحدة.

المبدأ القائل بوجوب أن تقوم الدول، في علاقاتها الدولية، بتسوية النزاعات بالوسائل السلمية بطريقة لا تعرض السلم والأمن الدوليين والعدالة للخطر.

واجب عدم التدخل في المسائل الداخلة في الولاية المحلية لأية دولة وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

واجب الدول أن تتعاون بعضها مع بعض وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

مبدأ تساوي الشعوب في الحقوق السيادية وتقرير المصير.

مبدأ مساواة الدول في السيادة.

مبدأ قيام الدول بأن تُنفَّذ عن حسن نية الالتزامات المأخوذة على عاتقها وفقاً لميثاق الأمم المتحدة. وأكدت الحكومتان كذلك حق اللاجئين الأفغان في العودة إلى ديارهم بطريقةٍ اختياريةٍ دون مواجهة أي عراقيل.

٤ ـ وأبرمت الصكوك التالية في هذا التاريخ بوصفها مقومات للتسوية السياسية:

ـ اتفاق ثنائي بين جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية حول مبادىء العلاقات المتبادلة ولاسيما بشأن عدم التدخل.

إعلان بشأن الضمانات الدولية من جانب الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية.

ـ اتفاق ثنائي بين جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية حول العودة الطوعية للاجئين.

هذا الاتفاق المتعلق بنواحي الترابط فيما يتعلق بتسوية الحالة المتصلة بأفغانستان.

٥ ـ يبدأ نفاذ الاتفاق النهائي حول مبادىء العلاقات المتبادلة لاسيما بشأن عدم التدخل، والإعلان المتعلق بالضمانات الدولية، والاتفاق الثنائي بشأن العودة الطوعية للاجئين وهذا الاتفاق المتعلق بنواحي الترابط من أجل تسوية الحالة المتصلة بأفغانستان، في ١٥ أيار ١٩٨٨ م.

وطبقاً للجدول الزمني المتفق عليه بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وجمهورية أفغانستان سيكون هناك انسحاب مرحلي للقوات الأجنبية يبدأ في تاريخ بدء النفاذ المشار إليه أعلاه. تسحب نصف القوات بحلول ١٥ آب ١٩٨٨ م وتسحب بقية القوات بالكامل في غضون تسعة أشهر.

٦ ــ إن نواحي الترابط الواردة في الفقرة ٥ أعلاه تم الاتفاق عليها بغية التحقيق الفعّال لغرض التسوية السياسية المتمثل في أنه اعتباراً من ١ أيار ١٩٨٨ م لن يكون هناك تدخل بأي شكل من الأشكال في شؤون الطرفين. وستنفذ الضمانات الدولية وستبدأ العودة الطوعية للاجئين إلى ديارهم وتنتهي في غضون الجدول الزمني المحدد في الاتفاق بشأن العودة الطوعية للاجئين ويبدأ الانسحاب المرحلي للقوات الأجنبية وينتهي في غضون الجدول الزمني المتوخّى في الفقرة ٥. ولذلك فإن من الأساسي أن تستوفى كافة الالتزامات المتولدة عن الصكوك المبرمة بوصفها مقومات التسوية وأن تتخذ كافة الخطوات اللازمة لتأمين التقيد الكامل بجميع أحكام الصكوك عن حسن نية.

٧ ــ وللنظر في الانتهاكات المزعومة وإيجاد الحلول العاجلة والمقبولة للطرفين للمسائل التي قد تنشأ نتيجةً لتنفيذ الصكوك التي تتألف منها التسوية، يعقد ممثلو جمهورية أفغانستان وجمهورية باكستان الإسلامية اجتماعات في أي وقتٍ يلزم.

ويقوم ممثل للأمين العام للأمم المتحدة ببذل مساعيه الحميدة لدى الطرفين ويساعد في هذا السياق، على عقد اجتماعات ويشارك فيها. ويجوز له أن يقدم للطرفين اقتراحات وتوصيات للنظر فيها والموافقة عليها وذلك من أجل التقيد السريع والأمين والكامل بأحكام الصكوك المذكورة. ولمساعدة ممثل الأمين العام على أداء مهامه، يعين ما يراه مناسباً من الموظفين لمعاونته ويخضعون لسلطته. ويقوم هؤلاء الموظفون، بناءً على مبادرة من الممثل أو طلب من أي طرفٍ، بتقصي أي انتهاكات يمكن أن تكون قد حدثت لأيٍ من أحكام الصكوك ويُعدّون تقريراً عن ذلك. ولهذا الغرض، يقدم التعاون اللازم للممثل ولموظفيه من الطرفين، بما في ذلك حرية التنقل داخل إقليم كل منهما لغرض التقصي الفعال. وأي تقرير يقدم

من الممثل إلى كلتا الحكومتين يجري النظر فيه في اجتماعٍ يعقده الطرفان في أجلٍ لا يتجاوز ثمان وأربعين ساعة من تقديم التقرير.

وتوضع طرائق عمل الممثل والموظفين التابعين له والترتيبات اللوجستية لذلك على النحو المتفق عليه مع الطرفين في مذكرة التفاهم المرفقة بهذا الاتفاق والتي هي جزء منه.

٨ ـ يسجل هذا الصك لدى الأمين العام للأمم المتحدة وقد تم فحصه من قبل ممثلي الطرفين في الاتفاقات الثنائية وممثلي الدولتين الضامنتين الذين أبدوا موافقتهم على أحكامه. وقد قام ممثلو الطرفين المخولون حسب الأصول من قبل حكومتيهما، بالتوقيع أدناه. وقد كان الأمين العام للأمم المتحدة حاضراً.

حررت، في جنيف، في الرابع عشر من نيسان ١٩٨٨ م من خمس نسخٍ باللغة الإنكليزية والباشتو والفارسية وجميع اللغات متساوية في الحجية. وفي حالة الاختلاف في التفسير يسود النص الإنكليزي.

(التوقيع من أفغانستان وباكستان).

وإثباتاً لذلك، قام ممثلا الدولتين الضامنين بالتوقيع أدناه.

(التوقيع من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة).

مرفق
مذكرة تفاهم

أولاً: متطلبات أساسية:

أ ـ يقوم الطرفان بتقديم التأييد الكامل والتعاون لممثل الأمين العام ولكافة الموظفين المكلفين بمساعدته.

ب ـ يمنح ممثل الأمين العام والموظفون التابعون له التسهيلات اللازمة والمساعدة السريعة والفعالة بما في ذلك حرية التنقل والاتصالات

والنقل والمواصلات وغير ذلك من التسجيلات التي قد تكون لازمة الوفاء بمهامهم. وتتعهد كل من أفغانستان وباكستان بمنح هذا الممثل والموظفين التابعين له كافة الامتيازات والحصانات التي تنص عليها الاتفاقية المتعلقة بامتيازات وحصانات الأمم المتحدة.

ج ـ تكون أفغانستان وباكستان مسؤولتين عن أمن ممثل الأمين العام والموظفين التابعين له عند قيامهم بمهامهم في كلٍ من البلدين.

د ـ يتصرف ممثل الأمين العام والموظفون التابعون له في أدائهم لوظائفهم، بتجرد كامل. ويجب على ممثل الأمين العام والموظفين التابعين له عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل من أفغانستان وباكستان وفي هذا السياق لا يمكن الاستعانة بهم لتحقيق امتيازات بالنسبة لأي من الطرفين المعنيين.

ثانياً: الولاية:

إن الولاية المتعلقة بترتيبات التنفيذ ـ المساعدة ـ المتوخاة في الفقرة ٧، مستقاة من الصكوك التي تتألف منها التسوية. وجميع الموظفين المكلفين بمعاونة ممثل الأمين العام سيحاطون، تبعاً لذلك، علماً بالأحكام ذات الصلة التي تتضمنها هذه الصكوك وبالإجراءات التي تستخدم للتأكد من أي انتهاك تتعرض له.

ثالثاً: طريقة التنفيذ وتنظيم الموظفين:

يقوم الأمين العام بتعيين موظف عسكري عالي الرتبة بوصفه وكيلاً لممثله يعين في المنطقة بوصفه رئيساً لوحدتين صغيرتين تؤلفان في المقر إحداهما في كابول والأخرىٰ في إسلام أباد تتألف كل وحدة منهما من خمسة ضباط عسكريين ينتدبون من الضباط العاملين حالياً تحت راية الأمم المتحدة إلى جانب مجموعة ثانوية من الموظفين المدنيين.

يتصرف وكيل ممثل الأمين العام بوصفه نائباً للممثل، ويكون على اتصال بالأطراف من خلال ضابط اتصال يُعيّنه كل طرفٍ لهذا الغرض.

يتم تنظيم وحدتي المقر باعتبارهما فريقي تفتيش للتأكد على عين المكان من أي انتهاك للوثائق التي تتألف منها التسوية. ويتم، في أي وقتٍ يرى فيه ممثل الأمين العام أو وكيله أن من الضرورة بمكان تعيين ما يصل إلى ٤٠ ضابطاً عسكرياً إضافياً (حوالي ١٠ مجموعات تفتيش إضافية) وينتدبون من الضباط العاملين حالياً تحت راية الأمم المتحدة في أقصر وقتٍ ممكن (لا يتجاوز عادة ٤٨ ساعة).

تحدّد جنسيات الضباط بالتشاور مع الطرفين.

كما يقوم ممثل الأمين العام الذي سيقوم بصفة دورية بزيارة المنطقة بالتشاور مع الطرفين ولاستعراض عمل الموظفين التابعين له، وعندما يرى ضرورة ذلك، بتعيين الموظفين التابعين لمكتبه وغيرهم من الموظفين المدنيين من أمانة الأمم المتحدة إلى العمل في المنطقة حسب ما تدعو إليه الضرورة. ويقوم وكيله بالتنقل بين وحدتي المقر ويبقى كامل الوقت على اتصال وثيق به.

رابعاً: الإجراءات:

أ ــ التفتيشات التي تجري بناء على طلب الطرفين:

١ ــ الشكوى المتعلقة بانتهاك وثائق التسوية والمقدمة من أي من الطرفين ينبغي أن تقدم كتابياً باللغة الإنكليزية إلى وحدتي المقر المعنيتين، وينبغي أن تتضمن كافة المعلومات والتفاصيل ذات الصلة.

٢ ــ يقوم وكيل ممثل الأمين العام، عند تسلّمه الشكوى، بإبلاغ الطرف الآخر فوراً بالشكوى ويضطلع بالتحقيق بإجراء تفتيشات موقعية للحصول على شهادات ويستخدم أي إجراء آخر يراه ضرورياً لإجراء التحقيق في الانتهاك المزعوم.

ويجري مثل هذا التحقيق باستخدام الموظفين التابعين للمقر كما هو مشار إليه أعلاه ما لم يرى وكيل ممثل الأمين العام أن مجموعات إضافية تلزم لهذا الغرض وفي هذه الحالة يقوم الأطراف بموجب مبدأ حرية التنقل العام بالسماح للموظفين الإضافيين بالوصول الفوري إلى الأقاليم المعنية.

٣ ــ يتم إعداد التقارير المتعلقة بالتحقيقات باللغة الإنكليزية وتقدم من جانب وكيل ممثل الأمين العام إلى الحكومتين في كنف السرية. (وتقدم نسخة ثالثة من التقرير في نفس الوقت على أساس سري إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك وذلك لإطلاع الأمين العام وممثله لا غير) وطبقاً للفقرة ٧ ينبغي أن ينظر في التقرير المتعلق بالتحقيق في اجتماع يعقده الطرفان في أجلٍ لا يتأخر عن ٤٨ ساعة من تقديمه. ويقوم وكيل ممثل الأمين العام، في غياب الممثل، ببذل مساعيه الحميدة لدى الأطراف وفي هذا السياق يساعد في تنظيم الاجتماعات ويشترك فيها.

وفي سياق تلك الاجتماعات يجوز لوكيل ممثل الأمين العام أن يقدم إلى الطرفين اقتراحات وتوصيات لينظر فيها ويوافق عليها بسرعةٍ وأمانةٍ وفي كنف التقيد التام بأحكام الصكوك (ويجب بطبيعة الحال أن يجيز ممثل الأمين العام مثل الاقتراحات والتوصيات التي يجري إعدادها بالتشاور معه).

ب ــ التفتيشات التي تجري بناءً على مبادرة وكيل ممثل الأمين العام:

بالإضافة إلى التفتيشات التي يطلب الأطراف إجراءها يجوز لوكيل ممثل الأمين العام أن يضطلع، بناءً على مبادرة منه وبالتشاور مع الممثل، بتفتيشات يرى وجوب إجرائها لغرض تنفيذ الفقرة ٧. وإذا رئي أن الاستنتاجات التي تم التوصل إليها أثناء التحقيق تبرر إعداد تقرير إلى الطرفين يستخدم نفس الإجراء المتبع في تقديم التقارير فيما يتصل بالتفتيشات التي تجري بناءً على طلب الطرفين.

مستوى المشاركة في الاجتماعات:

يقوم وكيل ممثل الأمين العام، كما هو مبين أعلاه، بالاشتراك في الاجتماعات التي يعقدها الطرفان لغرض النظر في التقارير المتعلقة بالانتهاكات، وإذا ما قرر الأطراف الاجتماع للغرض المبين في الفقرة ٧، على مستوى سياسي عال يحضر ممثل الأمين العام مثل هذه الاجتماعات.

خامساً: المدة:

يتم تعيين وكيل ممثل الأمين العام والموظفين الآخرين التابعين له في المنطقة في أجلٍ لا يتجاوز ٢٠ يوماً قبل بدء نفاذ هذه الصكوك. وتنتهي الترتيبات في غضون شهرين تاليين لاستكمال كافة الأطر المتوخاة لتنفيذ الصكوك.

سادساً: التمويل:

تتحمل الحكومتان المعنيتان تكلفة كافة التسهيلات والخدمات الواجب تقديمها من الطرفين. أما مرتبات وتكاليف سفر الموظفين من المنطقة وإليها وكذلك تكاليف الموظفين المحليين الذين كلفوا بمهام في وحدات المقر فستتحملها الأمم المتحدة.

ولكن المجاهدين رفضوا هذه الاتفاقية إذ لم يحضروها رغم أنهم العنصر الأساسي فيها، بل لم يفكّروا بها، ولم تُكرّس الأمم المتحدة لها هذا الوقت، ولم تشغل بال الدولتين الكبريين يومذاك لولا وجودهم. وكانت روسيا قد وضعت لانسحاب قواتها مدة خمسةٍ وأربعين شهراً. ثم تراجعت أولاً وثانياً حتى بقيت المدة تسعة أشهرٍ تنتهي في ١٠ رجب ١٤٠٩ هـ (١٥ شباط ١٩٨٩ م) وعندها ينتهي انسحاب القوات الروسية من أفغانستان. وبدأ الانسحاب فعلاً في ٢٩ رمضان ١٤٠٨ هـ (١٥ أيار ١٩٨٨ م) وأول الانسحاب كان من مدينة (جلال أباد).

سياسة الحكم الشيوعي:

عمل الشيوعيون في أفغانستان على نقل مجموعاتٍ من السكان من الشمال وخاصةً من ولاية (بغمان) إلى وادي (هلمند) في الجنوب، بدعوى أنهم قد منحوهم أرضاً هناك، والواقع لمنع حركتهم واتصالهم بالمجاهدين.

وكان عملاء المخابرات الأفغانية الخاصة ـ خاد ـ ينتقلون إلى مخيمات اللاجئين، ويدّعون أنهم من التجار، أو أهل الدين، أو المجاهدين، ويعملون على إثارة الخلافات بين اللاجئين في باكستان، أو بينهم وبين الباكستانيين، ويلجؤون أحياناً إلى تقديم الرشوة لشراء المخدرات، والخمور، والأحجار الكريمة وتهريبها إلى داخل باكستان لإثارة الشبهة، وحمل الباكستانيين على كرههم، وعدم التعاون معهم، وحمل الحكومة على طردهم وعدم مساعدتهم.

وألغى الشيوعيون التعليم الديني في أفغانستان، ووضعوا مناهج تتفق ومبادئهم من إلحادٍ، وأخوةٍ مع الروس، وفرضوا تعليم اللغة الروسية، وحالوا دون تعليم العربية، وكانوا يرسلون الناشئة إلى روسيا للتدريب الحزبي، ولإفسادهم، وتغيير أفكارهم، وتنشئتهم على الإلحاد وحب الروس والشيوعية.

وكان نجيب الله محمد الرئيس الأفغاني يدعو إلى السلام في سبيل تخفيف الضغط عن نظامه، فتارةً يُطالب بتشكيل جبهةً ائتلافيةً تضمّ مختلف الفئات السياسية، وتارةً أخرى يُنادي بعودة الملك السابق محمد ظاهر شاه لمشاركته في وزارةٍ انتقاليةٍ، وهو يعرف أن بعض الجبهات الجهادية، والمجموعات الشيعية تُؤيّد ذلك فيريد استغلال هذه الدعوة وبخاصةٍ أن الروس والأمريكان يفضّلون عودة الملك السابق. وفي كل مرةٍ يشعر أن العمل مع حزبه «حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني» غير مرغوب فيه، إذ أن الشعب يمقت هذا الحزب الأمر الذي جعله يلجأ إلى تغيير هذا الاسم،

فشكّل حزباً جديداً أطلق عليه «حزب الوطن» ولكن بعناصر شيوعيةٍ من حزبه السابق نفسه «الشعب الديمقراطي» بجناحيه (خلق) و (برشام)، وبالحقيقة غيّر اسم الحزب في سبيل امتصاص نقمة الشعب على الحزب، ومن العناصر التي وضعها واجهة لهذا الحزب:

من جناح (برشام) الجناح الذي ينتمي إليه الرئيس الأفغاني نفسه، وإضافةً إليه، نائبه (فريد أحمد مزدك)، و (نجم الدين كاوياني)، و (سليمان لائق)، و (سلطان علي كشتمند) رئيس الوزراء، و (عبدالوكيل) وزير الخارجية، و (محمود بريالي) شقيق الرئيس الأفغاني السابق بابرك كارمل، والجنرال (محمد رفيع)، والجنرال (غلام فاروق يعقوبي) و (سيد إكرام باي كير) و (فضل حق خالقيار) رئيس الوزراء الجديد، و (سرور منجل) نائب رئيس الوزراء.

ومن جناح خلق: (نظر محمد) و (راز محمد باكتين) والجنرال (محمد أسلم وطنجار)، و (عبدالقدوس غوربندي) و (عبدالقيوم نورزي) نائب رئيس الوزراء.

كذلك دعا الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد إلى تشكيل جبهة السلام، وهذا كله في سبيل فكّ العزلة عن حزبه وحكمه، وكانت هذه الألاعيب معروفةً للجميع لذا لم تجد أذناً صاغيةً ولا اهتماماً لدى السياسيين.

وأصدر نجيب الله محمد عام ١٤٠٧ هـ دستوراً للبلاد بقصد المصالحة الوطنية، وعمل على تشكيل جبهةٍ وطنيةٍ لجمهورية أفغانستان تكون هيئةً سياسيةً واجتماعيةً عليا للأحزاب السياسية، ولكن رفضت الجماعات والأحزاب في داخل أفغانستان من خارج الحزب الشيوعي الانضمام إليها.

ورغم انسحاب الروس فقد بقي النظام القائم في أفغانستان يتلقّى

الدعم الروسي، المادي، والعسكري، ويُوفّر له الروس الخبراء والمعدات والحماية، إذ كثيراً ما قصف الطيران الروسي مواقع المجاهـدين لصالـح الحكم الشيوعي، إضافةً إلى تبادل المعلومات الدائمة بين الطرفين.

وفي ٥ رمضان ١٤١٠ هـ (٣١ آذار ١٩٩٠ م) أصدر الرئيس الأفغاني مرسوماً بإعادة جميع الممتلكات التي استولت عليهـا الحكومـة فيما سبق لأصحابها كتشجيعٍ لعودة اللاجئين ليكونـوا تحت سلطانه لا تحت قيـادة المجاهدين، ولكن لم يضحّ أحد بالعودة إذ لا يأمن الناس للشيوعيين ولا يثقون بكلامهم.

ورغم كـل ما فعله الـرئيس الأفغاني من دعـوة للمصالحـة وتقـديم التنازلات ـ حسب زعمه ـ لكن لم يُرض أحداً بل إن الجناح الثـاني من حزبه، وهو جناح خلق قد عمل على الإطاحة به ثلاث مراتٍ خلال تسعة أشهر.

١" ـ جرت محاولة انقلاب في ٢٨ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (١ تموز ١٩٨٩ م).

٢" ـ جرت محاولة انقلاب في ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (١٨ كانون أول ١٩٨٩ م).

٣" ـ جـرت محـاولـة انقـلاب في ٩ شعبـان ١٤١٠ هـ (٦ آذار ١٩٩٠ م). بقيادة الجنرال (شاه نواز تاناي)(١) الذي تسلّم وزارة الدفاع بعد

---

(١) الجنرال شاه نواز تاناي: ولد في مديرية تانـاي في ولاية بكتيـا عام ١٣٧٠ هـ، ودرس في بلده المرحلة الابتدائية، والتحق بعد إنهـاء الدراسـة الثانـوية بـالكلية العسكرية في العاصمة كابل، وأصبح عام ١٣٩٨ هـ يحمل رتبة مقدم، ولعب دوراً في الانقلاب الشيوعي على الرئيس محمد داود، وابتعث بعدها إلى أكاديمية لينينغراد العسكرية، وعندما عاد عُيّن قائداً للفيلق المركزي في العاصمة كابل، وترقّى إلى رتبة جنرال عندما كان (نظر محمد) وزيراً للدفاع أيام حكم بابرك كارمل، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عام ١٤٠٥ هـ، ترأس جناح (خلق) =

الانسحاب الروسي، وشاركه أيضاً الجنرال (عبدالقادر)[1]، وهو الذي قاد عملية الهجوم على القصر الجمهوري في العاصمة كابل. وكان مع الانقلابيين أيضاً الجنرال (شاه ولي) قائد الدفاع الجوي، والجنرال (نجيب أحمد) أحد قادة الحرس الخاص بمنطقة القصر الجمهوري، والجنرال (شيرباز) رئيس قسم الشيفرة بوزارة أمن الدولة، وكلهم من جناح (خلق).

وأعلن الحاكم الأفغاني بأن المؤامرة ضدّه قد دُبّرت بالاتفاق بين الجنرال (شاه نواز تاناي) وبين قلب الدين حكمتيار أمير الحزب الإسلامي، وفي الوقت نفسه عقد قلب الدين حكمتيار مؤتمراً صحفياً في العاصمة الباكستانية إسلام أباد أيّد فيه الانقلابيين وناشد المجاهدين التعاون معهم. وصدر قرار جمهوري يقضي بتعيين الجنرال (محمد أسلم وطنجار)[2] وزيراً

= بعد إقصاء محمد غلاب زوي الذي كان منافساً لنجيب الله محمد. رفض المحاولات السلمية. دبّر مجزرة (هراة) التي ذهب ضحيتها ثمانية وعشرون ألف مسلم في يومٍ واحد، وقاد معركة (خوست) ضد المجاهدين.

(١) الجنرال عبدالقادر: ولد في ولاية (غور) ١٣٦١ هـ، وهو من الطاجيك، وتسلّم قيادة القوات الجوية أيام حكم الرئيس محمد داود، وهو الذي أوصله إلى سدّة الرئاسة، ثم عمل على تنحيته وقتله بعد سجنه للشيوعيين. وتسلّم ثلاثة أشهر وزارة الدفاع، وأرسل سفيراً لبلاده في بولندا، ورجع وتسلّم وزارة الدفاع مدة ثلاث سنوات، وكان عضواً في المجلس الثوري، واللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وعضواً احتياطياً في المكتب السياسي.

(٢) الجنرال محمد أسلم وطنجار: ولد في ولاية بكتيا عام ١٣٦٥ هـ، وحصل على الإجازة في العلوم العسكرية عام ١٣٨٨ هـ، وسافر عام ١٣٩٠ هـ إلى روسيا. وهو من قبائل البشتو من عشيرة (زرمتي)، يرتبط ولاؤه بموسكو رغم ما يُشاع أنه من جناح خلق، شارك في انقلاب ١٣٩٣ هـ، وانقلاب عام ١٣٩٨ هـ، وحاصر القصر الجمهوري بالدبابات، تسلّم منصب وزارة المواصلات عام ١٣٩٨ هـ، ووزارة الداخلية في العام نفسه، ثم رئاسة أركان الجيش عام ١٣٩٩ هـ، ووزارة الدفاع في العام نفسه، ووزارة المواصلات عام ١٤٠٠ هـ، وهو عضو في المجلس العسكري، وفي اللجنة المركزية للحزب، وفي المكتب السياسي.

للدفاع و (زار محمد بكتين) وزيراً للداخلية، وفرض منع التجول في كابل. وتمكّنت الحكومة من السيطرة على قاعدة (بغرام) مقرّ قيادة الانقلاب بمساعدة الطيران الروسي، وأعلنت إثرها أنها تمكّنت من القضاء على الحركة الانقلابية.

وأعلن قلب الدين حكمتيار في مؤتمرٍ صحفيٍ قصيرٍ في مدينة بيشاور في اليوم الثاني للحركة أن الانقلابيين إذا نجحوا في استلام السلطة فسيشكلون مجلساً ثورياً بالاشتراك مع القادة الميدانيين حول كابل لإجراء انتخابات بالحكومة الموّقتة.

أما حكومة المجاهدين الموقتة فقد أعلن رئيسها عبد الرب الرسول سياف باسمها أنها ترفض التعاون مع قائد الانقلاب الجنرال (شاه نواز تاناي)، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على عدم تفاهم المجاهدين على سياسةٍ واحدةٍ.

ويبدو أن هذا الانقلاب كان نتيجة خوف الجنرال (تاناي) على نفسه بعد أن اشترك في محاولة الانقلاب التي حدثت في ٢٨ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (١ تموز ١٩٨٩ م)، وسُجن ورُوقب، ثم فرار عددٍ من أعضاء جناح (خلق) إثر المحاولة التي جرت في ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (١٨ كانون الأول ١٩٨٩ م) ووصولهم إلى باكستان وانضمامهم إلى الحزب الإسلامي بصفتهم من البشتو، وهذا كله دفع الجنرال (تاناي) إلى اللقاء مع قلب الدين حكمتيار عندما كان داخل أفغانستان والتخطيط للحركة، كما يبدو أن باكستان كانت تُشجع ذلك إما للخلاص من الحكم الشيوعي في أفغانستان فقط وإما رغبةً أيضاً في السعي لانضمام أفغانستان إلى باكستان حيث أن البشتو لهم إخوة في باكستان هم قبائل (الباتان) في الشمال الغربي من البلاد.

وفرّ السفير الأفغاني في (أولان باتور) عاصمة منغوليا أسد الله سروري إلى الهند بعد اتصاله بأحد قادة الحركة الانقلابية (قل باتشاوفدار).

وفي اليوم التالي لمحاولة الانقلاب أي في ١٠ شعبان ١٤١٠ هـ شكل الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد محكمةً خاصةً لمحاكمة الانقلابيين، وقضت عليهم الحكم بالإعدام مع وقف التنفيذ، وقد زاد عدد المعتقلين على مائة ضابطٍ.

وفي ١٩ شعبان ١٤١٠ هـ اعتقل ستة عشر ضابطاً بينهم اثنان من مساعدي الجنرال (تاناي)، وفصل من الخدمة ثلاثمائة ضابطٍ آخرين، كما تمّ ترقية أربعةٍ وعشرين عضواً من اللجنة المركزية.

وفي ٢١ شعبان طُرد أربعة وعشرون عضواً منهم الجنرال تاناي، ومحمد غلاب زي، ودوست محمد، وصالح زيري، وكروال، ونياز مهمند، ونزار محمد... وفي الوقت نفسه تمّ تعيين أربعة نواب جدد لوزير الدفاع محمد أسلم وطنجار هم: الفريق محمد طاهر شولامال، ومحمد أكرم، وعلاء الدين، وجل محمد وجميعهم من جناح (برشام) وذلك من أجل إمكانية السيطرة التامة على الجيش وضبط الأمور.

وقام الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد بفصل سبعة أعضاء من المكتب السياسي للحزب الشيوعي.

وفي ١١ شوال ١٤١٠ هـ قرر الرئيس الأفغاني تعيين سلطان علي كشتمند نائباً أول لرئيس الجمهورية على أن يحلّ محله في رئاسة الوزارة (حسن شرق) غير أنه في اليوم التالي قد غيّر رأيه وعهد إلى (فضل حق خالقيار) برئاسة الوزارة فشكلها من ستةٍ وثلاثين وزيراً، بينهم ستة وعشرون وزيراً ليسوا من الحزب الشيوعي في سبيل إبداء عدم التسلّط الحزبي لعلّ في ذلك تقريب للشعب من الحكم، غير أن هؤلاء الوزراء الجدد يُؤيدون الحزب وسياسته، وغالباً ما يكونون أكثر تطرّفاً في سبيل المزاودة لاستمرارية الحصول على المنفعة والبقاء في السلطة.

ولعلّ من أسباب فشل هذا الانقلاب:

١ ـ انتشار خبر اللقاء الذي تمّ بين قلب الدين حكمتيار والجنرال شاه نواز تاناي، فأخذت السلطة حذرها، وخاصةً أنه جرت قبل ذلك محاولتان للانقلاب، وتُشيران إلى تورّط الجنرال تاناي فيهما، ثم هناك تصريحات حكمتيار التي يُشمّ منها الرائحة.

٢ ـ قوة حرس الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد والتي تزيد على عشرين ألف جندي.

٣ ـ تعيين الجنرال محمد نبي عظيمي قائداً لحامية كابل إضافةً إلى منصبه كنائب أول لوزير الدفاع الجنرال (تاناي).

٤ ـ إضافة عناصر إلى المجلس الأعلى للدفاع والقطاعات الميدانية من الموالين للرئيس الأفغاني نجيب الله محمد من أمثال الجنرال (علومي) والجنرال آصف (ديلاوار) لتطويق وزير الدفاع الجنرال (تاناي).

٥ ـ محاولة محمد غلاب زي رئيس جناح خلق السابق بعد حفيظ الله أمين التسلّل من روسيا إلى داخل أفغانستان.

٦ ـ مشاركة أسد الله سروري في محاولة الانقلاب، وهو رجل مكروه من الشعب، ويُطلق الناس عليه لقب جزّار كابل إذ قتل اثني عشر ألف إنسانٍ في يومٍ واحدٍ في عهد نور محمد تراقي.

٧ ـ هرب قائد الانقلاب الجنرال تاناي إلى باكستان في اليوم الثاني للحركة ولا يزال القتال مُستعراً بين قوات الفريقين حول كابل وخوست.

٨ ـ إعادة الرئيس الأفغاني لعددٍ من جناح خلق إلى الخدمة، وتعيين الجنرال محمد أسلم وطنجار وزيراً للدفاع، وزار محمد بكتين وزيراً للداخلية وهما من جناح خلق وبذا استطاع الحكم من تفتيت هذا الجناح من الحزب الشيوعي، وهو الجناح القائم بالحركة.

٩ ــ ضعف تقدير قائد الحركة لقوة الحرس الخاص.

١٠ ــ عدم استجابة قوات الأمن الداخلي (السراندوي) وحاميات المدن لنداءات رجال الحركة كما كان يتوقّع الانقلابيون، وقد خطّطوا بناءً على ذلك.

١١ ــ عدم استفادة المجاهدين من الحركة وتأييدها والعمل على الإجهاز على حكم نجيب الله محمد.

١٢ ــ الدعم الروسي الواسع وخاصةً الطيران.

١٣ ــ الحرب الدعائية الواسعة التي بثّها جهاز الحكم، وكانت ناجحةً.

١٤ ــ فشل الضربة الجوية الأولى للقصر الجمهوري، وهذا ما جعل الحكم يقوم بهجومٍ معاكس على مقّر الحركة الانقلابية في وزارة الدفاع، فاضطر الانقلابيون إلى أن ينقلوا مقرهم إلى قاعدة (بغرام) شمال كابل بثلاثين كيلومتراً، والتي هاجمها الطيران الأفغاني الموالي للسلطة فانقطعت الاتصالات بين قادة الحركة والقطعات الموالية لها.

وبعد هزيمة الانقلابيين قام الرئيس نجيب الله محمد بعملية تصفية في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وقادة الجيش. وقرر العودة بسرعة إلى شكلٍ ما من أشكال الحكومة المدنية الدستورية.

وفي ٢٥ شوال ١٤١٠ هـ (٢٠ أيار ١٩٩٠ م) رُفعت حالة الطوارئ، وحُلّ المجلس الأعلى للدفاع عن أرض الوطن. وبنهاية الشهر انعقدت الجمعية الوطنية (لويا جيرغاه) في كابول حيث أقرّت تعديلاتٍ دستوريةً في امتصاص بعض النقمة على الحكم، حيث قلّلت هذه التعديلات من توجُّه أفغانستان نحو الاشتراكية، وأنهت احتكار حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني والجبهة الوطنية للسلطة التنفيذية، ومهّدت الطريق لإجراء انتخابات يقبلها ـ حسب زعم الحكومة ـ الأفغانيون جميعاً، وأدخلت مزيداً من الحرية السياسية والصحفية، وشجّعت تنمية القطاع الخاص، والاستثمارات

الأجنبية، وقلصت دور الدولة، وأتاحت فرصةً لظهور الإسلاميين. وعلى كل حالٍ فقد بقي الاحتفاظ بالسلطات الواسعة لرئاسة الجمهورية.

وغُيّر اسم حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني إلى «حزب الوطن» في أواخر ذي القعدة من عام ١٤١٠ هـ (أواخر حزيران ١٩٩٠ م)، وحلّ المكتب السياسي (اللجنة التنفيذية) واللجنة المركزية، وحلّ محلهما المجلس المركزي والهيئة التنفيذية.

وتبنّى حزب الوطن خطاً جديداً أبرز سماته معاداة العقيدة. واختير الرئيس نجيب الله محمد بالإجماع رئيساً لحزب الوطن.

وقرر الرئيس الاستمرار بعملية المصالحة الوطنية وتوسعتها، وذلك لأن مشكلات الإمبراطورية الروسية الداخلية قد جعلت الإدارة الروسية غير راغبةٍ في عبء ودعم تصدير الأسلحة والبضائع مدةً أطول وهو ما ساعد على بقاء نظام الحكم الشيوعي في كابول.

وفي ربيع الأول ١٤١١ هـ (تشرين الأول ١٩٩٠ م) انتهى التحالف غير الرسمي بين مختلف الأحزاب اليسارية في البلاد، ووافق حزب الوطن في الشهر التالي على التعاون مع حزب الله الأفغاني الإسلامي. وفي الوقت نفسه اندمجت الجبهة الوطنية مع جبهة السلام الأفغانية التي تشكلت حديثاً. أما التنظيمات الاشتراكية اليسارية التي كانت منضمةً إلى الجبهة الوطنية فقد أعادت تشكيل نفسها هي الأخرى، وتخلّت عن توجُّهها الفكري.

وفي ٤ صفر ١٤١١ هـ (٢٨ من شهر آب ١٩٩٠ م م) تمّ إطلاق صواريخ على وزارة الدفاع في كابل، وكان وراء العملية (محمود بريا لاي) شقيق بابرك كارمل الأصغر الذي أُبعد إلى تشيكلوسلوفاكيا مع الجنرال (عارف).

وفي ٢١ جمادى الآخرة ١٤١١ هـ (٧ كانون الثاني ١٩٩١ م) عيّن الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد نائباً له عبدالواحد سرابي[1].

---

(١) عبد الواحد سرابي: من قبائل الهزارة، لا ينتمي إلى الحزب الشيوعي، ولد عام =

وعيّن الرئيس الأفغاني نجيب الله محمد نائباً لرئيس الوزراء محمد بريالي صهر بابرك كارمل، وأناهيتا راتب زادة مستشارة في رئاسة الوزارة، بغية توحيد جهود جناح (برشام) على الأقلّ.

= ١٣٤٨ هـ، وتخرج من مدرسة «نجات» الثانوية بكابل عام ١٣٦٧ هـ، وعيّن مدرساً في العام التالي في المدرسة التجارية، ثم ذهب إلى النمسا لإتمام الدراسة فتخرج عام ١٣٧٤ هـ، وبعد عامين نال شهادة الدكتوراة في الاقتصاد، ورجع إلى بلاده، وعُيّن أستاذاً للاقتصاد بجامعة كابل، ثم عميداً للكلية، ثم نائباً لمدير الجامعة، فعميداً لكلية التجارة، ثم تسلّم وزارة التخطيط عام ١٣٨٧ هـ، فوزارة الدراسات العليا، فوزيراً للري، فنائباً لرئيس الجمعية الوطنية، فمستشاراً في أواخر عهد بابرك كارمل.

الفصل الثالث

الثّـورَة

عاش السكان الأفغان حياةً هادئةً لا يعرفون الحزبية، وصلاتهم الاجتماعية بسيطة تقوم على الجوانب الإسلامية حسب مفهوماتهم، ويُحاول رجال العلم الذين درسوا الإسلام سواء أكان ذلك داخل البلاد أم خرجوا إلى أمصارٍ أخرى يتلقّون مزيداً من العلم كالأزهر يُحاولون الأخذ بيد الشعب في سبيل السير على منهجٍ إسلاميٍ واضحٍ ولكن كان تأثيرهم قليلاً لبساطة الأهالي، ولشغلهم في حياتهم المعاشية، ولم تكن هناك دوافع تحرّكهم، غير أن التدخّل الأجنبي في بلادهم كان يُثيرهم فينتفضون ضدّ الغزاة وغالباً ما ينالون من المعتدين لما نشأوا عليه من قسوةٍ نتيجة طبيعة بلادهم الجبلية، وحياتهم الشاقة، ولإيمانهم وكراهيتهم للكفّار.

ولكن بدأوا يتحرّكون عندما بدأ ملكهم أمان الله يُحاكي الأجانب، وتخرج نساؤه سافرات، فكان ذلك محرّضاً لهم للقيام بالثورة ضدّه، وهدأوا بعدها قليلاً حتى أتى عهد محمد ظاهر شاه فأثارهم تصرّفه، ولكن لم يروا ضرورةً للتنظيم، وإنما كان النصح هو الغالب، والحديث عنه كنوعٍ من التأليب عليه.

وتأثر الذين خرجوا من أفغانستان بالعمل الإسلامي، وعرفوا التنظيم، وانضمّ بعضهم إليه، ومن هذه المنظمات التي تأثروا بها: الجماعة الإسلامية في باكستان نتيجة القرب والارتحال، والإخوان المسلمون في مصر والشام عندما كانوا حركةً فعّالة مُؤثّرة، فلما رجع الذين ذهبوا للدراسة، وعادوا مدرسين في الثانويات أو أساتذةً في الجامعات أخذوا بالتوجيه والحركة، ولكن لم يبدأ التنظيم وإنما كان النشاط علنياً والدعوة صراحةً فهم يدعون إلى الإسلام،

والسكان جميعهم من المسلمين فلا داعي للسرية ولا حاجة للتنظيم الدقيق وإنما دعوة واضحة.

ولما تسلّم رئاسة الوزراة محمد داود مدة عشر سنوات ١٣٧٣ - ١٣٨٣ هـ، وأخذ الشيوعيون ينشطون واندفع يُشجّعهم ليستفيد منهم حسب مخططه الذي يرسمه لنفسه، وبدأ الروس يمدّون أتباعهم ويُوجّهونهم عندها وجد الأساتذة الملتزمون أنه لا بدّ من التنظيم فالعمل العشوائي لا يثمر، والتنظيم لا بدّ له ما يقابله، لذا اتجهوا نحو التهيئة غير أن حكومة محمد داود كانت ضدّ الإسلام، وتُراقب تحرّك دعاته، وهذا ما جعل العاملين ينصرفون إلى العمل السري، وبرز على الساحة منذ عام ١٣٨٠ هـ غلام محمد نيازي.

وأُزيح محمد داود عن رئاسة الحكومة، وظهر النشاط الحزبي، وبرز الحزب الشيوعي «حزب الشعب الديمقراطي» في ٢٨ شعبان ١٣٨٤ هـ (١ كانون الثاني ١٩٦٥ م)، وأخذ المسلمون يلتفّون حول بعض العلماء والدعاة البارزين الذين كان منهم يومذاك محمد يونس خالص، وعبدالرزاق باريس، والملابن وزير، وخدايا نورا، وتشكلت أول نواةٍ حركيةٍ عام ١٣٨٧ هـ، وظهر التنظيم علناً، وبدأ الصدام بين الإسلاميين والشيوعيين وحدثت عدة لقاءاتٍ قتاليةٍ عام ١٣٩٠ هـ، وغالباً ما يكون النصر إلى جانب المسلمين وهذا ما يُشجّعهم، ويرون الشعب يدعمهم فيزدادون اندفاعاً، إذ كان الناس يُقارنون بين الفئتين، فلا يجدون مقارنةً: فئة مستقيمة ملتزمة، وأخرى منحرفة مستهترة. وظهرت جريدة الفجر تدعم المسلمين وتُؤيّدهم، ويعمل صاحبها (منهاج الدين جاهز) إلى جانبهم حتى قضى نحبه بأيدي الفئة المجرمة.

وتصدّر العمل الإسلامي الجامعة في كابل، واكتسح حملته الانتخابات التي جرت عام ١٣٩٣ هـ لاختيار مجلس الطلبة، فكان للشباب الجامعي تجمّعهم إضافةً إلى الجمعيات الإسلامية الأخرى كجمعية العلماء المحمدية، وجمعية خدام الفرقان.

وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ (١٧ تموز ١٩٧٣ م) قام محمد داود

بالانقلاب، وأخذ الضغط على الحركة الإسلامية، فانحلّت الجماعة، وأُعدم مؤسسها غلام محمد نيازي، وسُجن الكثير من رجالها مثل عبد رب الرسول سيّاف، وانقسمت الحركة إلى مجموعتين أولاهما عرف باسم الجمعية الإسلامية ويقودها برهان الدين رباني، والثانية برئاسة قاضي محمد أمين وقاد ويساعده قلب الدين حكمتيار، وذلك عام ١٣٩٤ هـ. ثم شكل قاضي محمد أمين وقاد حزب «داعية الاتحاد الإسلامي»، وأصبح قلب الدين حكمتيار يعاون برهان الدين رباني في رئاسة الجمعية وذلك عام ١٣٩٥ هـ.

وبعد محاولات توفيقٍ ومصالحاتٍ اتفق رجال الحركة الإسلامية على أن يكون فائز مسؤولاً عنهم، ولكن لم يلبثوا أن اختلفوا بعد ثلاثة أشهر من بداية اتفاقهم عام ١٣٩٨ هـ. ثم وجدوا الشيخ محمد نبي محمدي فالتفوا حوله، وكان معروفاً، إذ كان نائباً أيام الملك محمد ظاهر شاه، وإماماً في أحد مساجد مدينة «كويتا»، فأصبح أميراً للحركة الإسلامية.

لم يقبل محمد يونس خالص بهذا الاتحاد، وبقي مع جماعةٍ حملت اسم، الحزب الإسلامي، وسار معه قلب الدين حكمتيار.

وجاء صبغة الله مجددي من الدانمارك، ومرّ على مكة المكرمة، والتقى هناك ببعض الدعاة العاملين، فأسّسوا الجبهة الوطنية لإنقاذ أفغانستان، ولكن لم يمض أكثر من ستة أشهرٍ حتى ذهب كل في طريقه، وتفرّق الجمع.

الثـورة:

كان النصح واجباً، وإعلان الحق فرضاً، ومحاربة الظلم والباطل محتمةً في العودة إلى الطريق الصحيحة، فلما قام الانقلاب الشيوعي، وظهر الكفر بُواحاً أصبح الخروج على السلطة واجباً فالشيوعيون يُجاهرون بالإلحاد، ويُصرّحون بالكفر، ويُعلنون ارتباطهم بالأعداء، ويقطعون كل آصرةٍ لهم مع المسلمين، ومن هذا المنطلق اشتعلت الثورة، وأصبح واجب كل مسلمٍ الانضمام إليها، فالتحق بها الواعون المدركون لحقيقة الأمر،

والعارفون واقع الإسلام، والفقه، وفكرة الجهاد، وأيّدهم الشعب الذي يثق بعلمائه، ويتجاوب مع الدعوة إلى الجهاد، ورفع راية الإسلام، فتحرّك الناس في كل مكانٍ.

وفي أواسط عام ١٣٩٩ هـ التقت خمسة أحزابٍ إسلاميةٍ، ووضعت فيما بينها ميثاق الاتحاد الإسلامي لأفغانستان، ولكن ـ مع الأسف ـ لم يطل عمره أكثر من سنةٍ ونصف، إذ تمزّق الشمل مرةً أخرى في نهاية عام ١٤٠٠ هـ، وكان عبد رب الرسول سياف قد خرج من السجن، وانضمّ إلى الاتحاد، واختير رئيساً له، وشارك في هذا الاتحاد كل المنظمات باستثناء الحزب الإسلامي. فلما انفرط عقد الاتحاد عام ١٤٠٢ هـ بقي عبد رب الرسول سياف رئيساً لمن بقي معه، وبقي تنظيمهم يحمل اسم «الاتحاد الإسلامي». وجرت محاولة تفاهمٍ لمدة خمس سنوات ريثما يمكن القضاء على الشيوعيين وعلى الغزاة الشيوعيين ولكن دون جدوى.

وبعد الاحتلال الروسي لأفغانستان في ٨ صفر ١٤٠٠ هـ (٢٧ كانون أول ١٩٧٩ م) برزت منظمة تحرير شعب أفغانستان (ساما) بقيادة ماجد كلاكاني. كما ظهرت جبهة التحرير الوطنية بقيادة صبغة الله مجددي، والجبهة الإسلامية الوطنية برئاسة أحمد الجيلاني.

وفي ١٠ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٨٠ م) تشكلت جبهة المقاومة الجديدة من ست مجموعاتٍ وهي:

١ ــ الاتحاد الإسلامي
٢ ــ الجبهة الإسلامية الوطنية
٣ ــ الجمعية الإسلامية
٤ ــ الحزب الإسلامي «خالص»
٥ ــ جبهة التحرير الوطنية.
٦ ــ حركة الانقلاب الإسلامي.

وقد قاطع الحزب الإسلامي برئاسة قلب الدين حكمتيار هذه الإجراءات.

واستمرّ الخلاف والاتفاق بين مدٍّ وجزرٍ، وذلك لأن المنظمات الشيعية

متعددة وتتركز في طهران، وتأخذ منحى يختلف عن المنحى الذي تسير عليه منظمات الجهاد، وتسير حسب سياسة الحكومة الإيرانية. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن ثلاث منظمات رئيسية وهي: الجبهة الإسلامية الوطنية، وجبهة التحرير الوطنية، وحركة الانقلاب الإسلامي تسير في خطٍ أقرب إلى الوطنية منه إلى الإسلام إذ ترى التفاهم مع الملك السابق محمد ظاهر شاه رغم أنه سبب المشكلة بتساهله وانحرافه وتفلّته من الإسلام والقيم، وهذه المنظمات وإن كانت رئيسية إلا أنها ليست القوية كما أنها ليست بذات الشعبية الواسعة، وترى الانتخابات على أسسٍ عامة لا فرق بين المسلم والكافر، والمخلص والعميل. أما باقي المنظماتٌ الكبرى وهي: الحزب الإسلامي «حكمتيار»، والحزب الإسلامي «خالص» والاتحاد الإسلامي، والجمعية الإسلامية فهي: ذات قوةٍ، وتأييدٍ شعبيٍ كبيرٍ، وخطٍ إسلاميٍ أقرب إلى السلامة - والله أعلم - ومع ذلك فإن خلافاً واسعاً بين الحزب الإسلامي «حكمتيار» والجمعية الإسلامية لا يكاد ينتهي ويُغطّي على كل الخلافات والانقسامات، وما يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد، ويقع القتال بين الطرفين، ويذهب ضحيته المئات إن لم نقل الآلاف من المسلمين المجاهدين، وقد أعيت الحيلة المصلحين، ولا نستطيع اتهام أحدهما إذ نظن بهما خيراً، ولكن في هذا ضعف إيمانٍ وبُعداً عن الإسلام، وتقويةً للأعداء، وإضعافاً للمجاهدين، وإبعاداً عن تحقيق النصر، ويعود هذا الخلاف في جذوره إلى قضايا شخصيةٍ بين الزعيمين قلب الدين حكمتيار، وبرهان الدين ربّاني، وإلى أصولٍ عصبيةٍ بين البشتو والطاجيك، وإلى موضوعات تتعلق بالرجال حول الشخصين، وإلى الرغبة في إظهار القوة، وتحقيق النصر على الطرف الآخر، وتولي الزعامة، وكسب الموقف وهذا كله بُعد عن الإسلام وخرق لتعاليمه - مع الأسف -. أما باقي المنظمات فهي أقلّ قوةً، ويدخل بعضها في صراعات مع بعض أيضاً ومع الآخرين ربما كان بسبب بعض الاجتهادات.

هذه الخلافات والصراعات القاتلة، وقوة الحكم الأفغاني بما يناله من دعمٍ ومساعداتٍ وتأييد روسيٍ وقت الحاجة، وخاصةً من ناحية السلاح والذخائر والمعدات، ثم الاحتلال الروسي للبلاد مدةً تزيد على الثمان سنوات، وتواني المسلمين في بقية الأمصار عن هذه المعركة المصيرية وعن الواجب الإسلامي، بل وموقف بعض الأمصار موقف العداء من حركة الجهاد الأفغاني، كل هذه الموضوعات كانت سبباً في تأخير النصر من عند الله وخاصةً وهو أولها عدم تقيّد المجاهدين التام بتعاليم الإسلام. ويجب ألا نغفل عن الموقف الدولي المعادي للمجاهدين، والذي تحرّكه الصليبية العالمية بحقدها الظاهر والدفين، ويرفدها دول الإلحاد، وما يسير في فلك الطرفين من دول العالم، وربما كان من بينها بعض الأمصار الإسلامية ـ مع الأسف ـ. وتحظر هذه الدول عن المجاهدين السلاح والمساعدات الحيوية، أي أنها تقف إلى جانب الروس الغزاة وعملائهم، وإن كانت تدّعي أحياناً غير ذلك، فتزعم أنها تقف علىٰ الحياد، ويشيع عملاؤها أن الولايات المتحدة تقف إلى جانب المجاهدين، وتدعمهم معاداة للروس، وانتقاماً من حرب فيتنام التي دعم فيها الروس الثوار الفيتناميين ضد أمريكا، وهذه افتراءات لا أساس لها من الصحة، فالغرب والشرق على اتفاقٍ ضدّ الإسلام وإن كانا على صراعٍ على مناطق النفوذ في العالم، وفي الحرب الباردة.

أما المجاهدون فيما عدا ذلك فالروح المعنوية عندهم عالية، ويُقاتلون بصدقٍ، ولكن منهم من يريد الحياة الدنيا في قتالهم، ومنهم من يريد الآخرة. والشعب يُؤيّدهم بغالبيته وإن كان بعضهم لا يجرؤ إبداء ذلك أبداً خوفاً من السلطة التي نكّلت بالرعية من غير هوادةٍ، وارتكبت أبشع الجرائم من غير خشيةٍ، وأقدمت على حرب الإبادة الجماعية دون حذرٍ، حتى أرهبت الناس الذين في قلوبهم مرض فخنعوا وسايروهم حتى في استقدام الكافرين لضرب إخوانهم في العقيدة، ورضوا بالذلّ والهوان.

وطبيعة الأرض الأفغانية جبلية مناسبة للقتال والثورات، وأهلهـا أدرى بها من غُزاتها، وهذا ما سهّل للمجاهدين أن يُكبّدوا المعتدين خسائر كبيرةً، وأن يعزلوا السلطات الحاكمة في مناطق محصورةٍ، وكانوا يعتمدون في قتالهم على ما يربحونه من أسلحةٍ في قتالهم مع خصومهم، وعلى ما يغنمونه من ذخائر، غير أن هذا محدود لا يتناسب مـع المعركـة الضاريـة والجبهات الواسعة وأمـام سيل الأسلحـة الذي يمـدّ المعتدين وأعـوانهم من الحكام الشيوعيين والآتي ليس من روسيا ومعاملها فحسب، وإنما من دول حلف (وارسو) أيضاً، وكان يصل إلى المجـاهدين بعض إخـوانهم من الأمصار الإسلامية الأخرى، ولكن من غير تدريبٍ ولا سلاحٍ ، وهذا لا يتناسب أبداً مع القوات الروسية الغازية والتي زاد عـددها على المـائة ألف والمـدرّبة أحسن تدريبٍ، والتي كثيراً ما كان أفرادها يُقاتلون من وراء الدروع، ومن داخل المصفحات، وخلف الآليات، ويدعمهم الطيران الـروسي بأحـدث مقاتلاته، مع استعمال الغازات السامة، وأسلحة الدمار الشاملة.

لم تستطع روسيا أن تُحقّـق ما كانت تأمله إذ كانت تتوقّع كما تتوقّع الدنيا المادية أن تسحق روسيا المجاهدين سحقاً في أيام معدوداتٍ إذ أن قوتها عاتية، وأسلحتها فتّاكة، ووسائلها مُتطوّرة ولا غـرابة في ذلـك فهي إحدى الدولتين الكبريـن، والمجاهدون قوة صغيرة ضعيفة أسلحتها معطوبة أو معدومة، ووسائلها أيديها وأقدامها، ولكن نسيت روسيا كما نسيت الدنيا المادية كلها أنها تُقاتل مسلمين فلو صدقوا فلم يختلفوا، وأخذوا بالأسباب ولم يعتمـدوا على غيرالله لانتصـروا ولتمكّنوا من مـوسكو أيضـاً فـإن في المعادلتين قوة الله التي لا تقهر، وهي سبـب النصر، والمانح له.

فشلت روسيا في تحقيق أهدافها بل خسرت خسائر فادحةً لقد فقدت خمسين ألف جندي منهم ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة قتيلٍ ، وخمسة وثلاثين ألف جريح إضافة إلى المليارات من الدولارات. حيث كان المجاهـدون ينصبون الكمائن للقوات الروسية أثناء تحرّكها، ويُغيرون على معسكراتها،

ويُنازلونها أحياناً، فيقتلون، ويأسرون، ويغنمون، ويأتي الطيران الروسي لملاحقتهم فيختفوا في الكهوف ومنعطفات الأودية، فإنهم لو دخلوا المدن والقرى لقصفت فكان المجاهدون يتجنّبون ذلك حرصاً على السكان الآمنين، غير أن الروس كثيراً ما كانوا يعملون على إبادة القرى كاملةً فيما إذا خرج منها المجاهدون أو رجعوا إليها أو كانت قريبةً من مناطق تجمّعاتهم، وتكون الإبادة بالغازات السامة أو الأسلحة الفتّاكة. وربما اندحر الروس وحدهم أو مع أعوانهم حكام كابل أمام المجاهدين فشعروا بالخزي والعار، وقد يطلبون عقد هدنةٍ من المجاهدين الذين يأبون أو يُوافقون حسب مخططاتهم القتالية أو مصالحهم الدفاعية لا حسب رأي الروس، وحسب تخطيطهم بصفتهم أصحاب القوة العملاقة.

رفض أحمد مسعود شاه أحد قادة الجمعية الإسلامية في وادي (بانجشير) في شمال شرقي أفغانستان التفاوض مع نظام الحكم الشيوعي القائم في كابل غير أنه اتفق مع الغزاة الروس على وقف إطلاق النار في صيف عام ١٤٠٣ هـ إذ اقتضت مصلحة السكان أن يُعيد تموين الوادي، فأعاد التموين، وانتهت مدة وقف إطلاق النار فطلب الروس تجديدها فأبى ذلك في جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ (آذار ١٩٨٤ م) فحشد الروس إمكاناتهم كلها لاحتلال الوادي، وتمكّنوا من ذلك بعد معارك رهيبة دامت ثلاثة أسابيع، وقد وجّه كل من قلب الدين حكمتيار وعبد رب الرسول سياف قواتٍ من فصائلهما للقتال إلى جانب مجاهدي الوادي، وأخيراً اضطر الروس إلى الانسحاب من الوادي صاغرين.

شعرت روسيا بالندم بإقحام نفسها في موضوع أفغانستان فهي عاجزة عن تحقيق النصر على المجاهدين بل تقدِّم خسائر كبيرة، ويبدو عليها التراجع رغم استخدام وسائل الحرب المحرّمة دولياً، وفي الوقت نفسه لا تستطيع الانسحاب إذ تفقد مكانتها الدولية، وتبدو ضعيفةً أمام دول الغرب، وهذا ما جعلها تلجأ إلى حرب الشائعات فتدّعي أن أمريكا تُساعد

المجاهدين ليُقال إنها تُقاتل الولايات المتحدة لا تُحارب المجاهدين ولكنها في الوقت نفسه تعمل جاهدةً لتوقيع معاهدة السلام في جنيف بين دولتي أفغانستان وباكستان كي تنسحب بشرفٍ ـ حسب زعمها ـ نتيجة اتفاقٍ دوليٍ. ومع التساهل الدولي الذي تُبديه تجاه المجاهدين حيث وافقت على حضور وفدٍ منهم إلى الأمم المتحدة[1] كانت تقوم بضغطٍ عسكريٍ رهيب لإجبار المجاهدين على الخضوع وتنفيذ المطالب الروسية كي تنسحب مع الاحتفاظ بماء الوجه، غير أن المجاهدين بقوا صامدين في خنادقهم صامدين على آرائهم متمسكين بمواقفهم ولذا فقد طالت موضوعات المفاوضات وتعثّرت حتى تمّ التوقيع عليها في ٢٧ شعبان ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م). وبدأ الانسحاب الروسي في ٢٩ رمضان ١٤٠٨ هـ (١٥ أيار ١٩٨٨ م) وانتهى في ١٠ رجب ١٤٠٩ هـ (١٥ شباط ١٩٨٩ م).

الخطة الروسية:

سحبت روسيا جيوشها من أفغانستان رسمياً وظهرت أمام العالم جادةً فعلاً في الدعوة إلى السلام، وفي الوقت نفسه أنقذت جندها من القتل، وأمنت عدم انتقال الثورة إلى الأجزاء الإسلامية التي تخضع لسيطرتها في أواسط آسيا، وضمنت عدم انضمام المسلمين في جندها إلى المجاهدين

(١) سافر الوفد بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (٢٢ كانون الأول ١٩٨٥ م) برئاسة قلب الدين حكمتيار أمير الحزب الإسلامي، ويضمّ إضافةً إلى ذلك ستة أعضاء يُمثلون باقي المنظمات الأساسية، وهؤلاء الأعضاء هم:
١ ــ مهندس عبدالرحيم: ويمثل الجمعية الإسلامية.
٢ ــ عزيز الله لودين: ويمثل حركة الانقلاب الإسلامي.
٣ ــ محمد ياسر: ويمثل الاتحاد الإسلامي.
٤ ــ دين محمد: ويمثل الحزب الإسلامي «خالص».
٥ ــ محمد صديق سلجوقي: ويمثل الجبهة الإسلامية الوطنية.
٦ ــ ذبيح الله: ويمثل جبهة التحرير الوطنية الأفغانية.

وقطعت عن المسلمين الأفغان مورداً مهماً للسلاح كانوا يحصلون عليه من الغنائم ومن انضمام بعض الجنود الروس إليهم سواء أكانوا من المسلمين المضطهدين الناقمين على الروس أم من غير المسلمين الحاقدين على الشيوعيين المتسلّطين عليهم، وبقي مورد وحيد للمجاهدين من السلاح وهو ما يغنمونه من أتباع موسكو الذين يحكمون الأفغان.

ولكن إن انسحبت القوات الروسية من أرض أفغانستان وحقّقت لها دعايةً دوليةً وفائدةً عسكريةً إلا أنها بقيت تُراقب الأحداث من أراضيها وتتدخّل في الوقت المناسب لتدعم أعوانها ضدّ المجاهدين وخاصةً بالقوات الجوية التي طالما قصفت مواقع المسلمين، وأمدّت أعداءهم، وطالما كذلك دعمت القوات الروسية البرية الشيوعيين الأفغان في المناطق الحدودية هذا بالإضافة إلى المعاهدات والاتفاقات المستمرة بين موسكو وكابل وتقديم المساعدات الحربية نتيجة تلك الاتفاقات وأحياناً على شكل هدايا، وعندما جرت محاولة الانقلاب ضد الحكم الشيوعي الأفغاني في ٩ شعبان ١٤١٠ هـ (٦ آذار ١٩٩٠ م) تدخّل الروس مباشرةً وعمل سلاح الطيران بشكلٍ مكثفٍ في ضرب قواعد المتمرّدين وأماكن تجمّعهم، ومواقع قياداتهم، والقوات التابعة لهم، حتى انهارت وفشل الانقلاب. ولم تكن اتفاقية جنيف التي عُقدت ٢٧ شعبان عام ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م) بين حكومتي أفغانستان وباكستان لتنصّ على عدم دعم الروس للحكم الشيوعي.

فالانسحاب كان خطةً مدروسةً لصالح الروس إذ حموا أنفسهم من الخروج القسري والهزيمة على أيدي جماعةٍ قليلةٍ ضعيفةٍ، وكسبوا دعايةً، وفي الوقت نفسه استمرّوا في دعمهم لعملائهم، والعمل على تثبيتهم في مراكز السلطة.

الهجـرة:

هجر قسم كبير من سكـان أفغانستـان ديارهم، ويـزيد عـدد هؤلاء المهاجرين على نصف السكان عامةً، وذلك نتيجة وحشية الغزو الروسي، وجـرائم الحكم الأفغاني الشيـوعي، وهذا مـا أجبـر النـاس على مغـادرة مناطقهم بسبب الخوف على الأنفس والأعراض، كما أن الحكومة الشيوعية في كابل قد أجبرت سكـان بعض الأقاليم على تـرك أقاليمهم خـوفاً من انضمـامهم إلى المجاهـدين أو دعمهم، وألزمتهم على الهجـرة إلى أقاليم أخرى تُعدّ هادئةً تحت شعـار منحهم أراضي هناك في سبيـل إعمارهـا، والنهوض بالبلاد اقتصادياً، كما أن بعض الأهالي قد وجدوا من المصلحة الارتحال من المناطق الساخنة نتيجة القتال إلى بقاعٍ هادئةٍ نسبياً، وبذا فإن هناك هجرةً داخليةً، وأخرى خارجية.

الهجرة الداخلية:

وهي الانتقال داخل الأرض الأفغانية ويكاد يبلغ عدد الذين هجروا مناطقهم إلى مناطق داخلية أخرى نصف المهاجرين، وهو خمسة ملايين، ومعظمهم انتقل من الأجـزاء الأفغانيـة الشماليـة المجاورة لـلأراضي التي يُسيطر عليها الروس، واتجهوا نحو الأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية حيث البعد عن مناطق الغزو الوحشية.

الهجرة الخارجية:

ويُقـدّر عدد الـذين تركـوا بلادهم بمـا يزيـد على خمسة مـلايين، وأكثرهم من الولايات الشرقية وقد هـاجروا إلى بـاكستان، ومن الـولايات الغربية حيث انتقلوا إلى إيران، كما أن أكثر الذين هاجروا من قبائل الهزّارة قد رحلوا إلى إيران بصفتهم من الشيعة، وهناك الكثير الذي هـاجر إلى الغرب، وإلى جزيرة العرب، وإلى تركيا للعمل، ويتوزّع هؤلاء على النحو الآتي:

٣٥٠٠٠٠٠	إلى باكستان، وقسم كبير منهم من أسر المجاهدين.
٢٠٠٠٠٠٠	إلى إيران
١٥٠٠٠٠	إلى الغرب
٥٠٠٠٠	إلى جزيرة العرب
١٠٠٠٠	إلى تركيا.

وزارة المجاهدين الموقتة الأولى:

بعد أن انسحبت الجيوش الروسية من أفغانستان شكّل المجاهدون وزارةً موقتةً برئاسة أحمد شاه أحمد زي. وقد ضمّت وزيراً من الشيعة تسلّم حقيبة وزارة الصحة غير أن حكومة إيران لم ترض عن ذلك، لذا لم يحضر هذا الوزير أي لقاءٍ حكوميٍ، وسافر سرّاً إلى أستراليا كي لا يقوم بأي نشاطٍ وزاريٍ، أو يُتابع شؤون ما حمل أمانته، ووزارة الصحة ذات أهميةٍ خاصة في وقت يستعر فيه الجهاد أو لا يكاد يتوقّف.

وقد ضمّت الوزارة خمسة عشر عضواً، وتشكلت على النحو الآتي:

١" ـ أحمد شاه أحمد زي[١]: رئيساً للوزارة.

٢" ـ ذبيح الله صبغة الله مجددي[٢]: نائباً أول للرئيس.

٣" ـ محمد شاه فضلي[٣]: نائباً ثانياً للرئيس.

٤" ـ قاضي نجي الله[٤]: وزيراً للخارجية.

---

(١) أحمد شاه أحمد زي: ولد عام ١٣٦٣ هـ، يحمل ماجستير في الهندسة المدنية. من تنظيم الاتحاد الإسلامي.

(٢) ذبيح الله صبغة الله مجددي: من كابل يحمل دكتوراه في الهندسة المدنية. وينتمي إلى جبهة التحرير الوطنية الأفغانية.

(٣) محمد شاه فضلي: من ولاية بكتيا، ولد ١٣٥٥ هـ، من علماء أفغانستان. ينتمي إلى حركة الانقلاب الإسلامي.

(٤) قاضي نجي الله: من ولاية غزنة، يحمل إجازةً في الشريعة من جامعة كابل. ينتمي للحزب الإسلامي «حكمتيار».

٥" ـ حاجي دين محمد[١]: وزيراً للدفاع.

٦" ـ سيد نور الله عماد[٢]: وزيراً للداخلية.

٧" ـ محمد ياسر[٣]: وزيراً للثقافة والإعلام.

٨" ـ محمد إسماعيل صديقي[٤]: وزيراً للمالية.

٩" ـ مير حمزة[٥]: وزيراً للتربية.

١٠" ـ مطيع الله مطيع[٦]: وزيراً للزراعة والثروة الحيوانية.

١١" ـ فاروق أعظم[٧]: وزيراً للإسكان والتعمير.

١٢" ـ علي أنصاري[٨]: وزيراً للعدل.

١٣" ـ واثق واعظ زادة[٩]: وزيراً للصحة.

---

(١) حاجي دين محمد: من ولاية ننجرهار، يحمل إجازةً في الآداب من جامعة كابل، ينتمي للحزب الإسلامي «خالص».

(٢) سيد نور الله عماد: من ولاية هراة، يحمل شهادةً من كلية المعلمين في كابل. ينتمي إلى الجمعية الإسلامية.

(٣) محمد ياسر: من ولاية وردك، مواليد ١٣٦٢ هـ، يحمل إجازةً في الشريعة من المدينة المنورة، وينتمي إلى الاتحاد الإسلامي.

(٤) محمد إسماعيل صديقي: من ولاية زابل، مواليد ١٣٤٣ هـ، يحمل إجازةً في الاقتصاد، ينتمي إلى حركة الانقلاب الإسلامي.

(٥) مير حمزة: من ولاية بروان، مواليد ١٣٦٩ هـ، يجمل إجازة في الشريعة من كابل، ينتمي إلى الجمعية الإسلامية.

(٦) مطيع الله مطيع: من ولاية بكتيا، يحمل شهادة من المعهد العلمي العالي في بكتيا، ينتمي إلى الحزب الإسلامي «خالص».

(٧) فاروق أعظم: من ولاية قندهار، يحمل دكتوراه في الاقتصاد، ينتمي إلى الجبهة الإسلامية الوطنية.

(٨) علي أنصاري: من ولاية لوغار ومن مواليد ١٣٦٧ هـ، يحمل إجازة في الحقوق من جامعة كابل، وينتمي إلى الحزب الإسلامي حكمتيار.

(٩) واثق واعظ زادة: شيعي.

١٤" ـ دين محمد جران[١] : وزيراً للبحث العلمي.

١٥" ـ عبدالعزيز فيروغ[٢] : وزيراً للتخطيط.

وزارة المجاهدين الموقتة الثانية:

بعد مرور عامٍ على تشكيل الوزارة الموقتة الأولى انعقد مجلس الشورى الأفغاني في مدينة «روالبندي» الباكستانية في مدينة الحجاج في المدة الواقعة بين ٥ رجب ١٤٠٩ هـ و ١٨ منه من العام نفسه (١٠ - ٢٣ شباط ١٩٨٩ م)، وقد ضمّ المجلس ٣٩٩ عضواً من مختلف الولايات.

وقد مثّل الجمعية الإسلامية	٦٠ عضواً.
وقد مثّل الحزب الإسلامي «حكمتيار»	٦٠ عضواً.
وقد مثّل جبهة التحرير الوطنية الأفغانية	٥٩ عضواً.
وقد مثّل الحزب الإسلامي «خالص».	٥٨ عضواً.
وقد مثل الاتحاد الإسلامي	٥٦ عضواً.
وقد مثل الجبهة الإسلامية الأفغانية	٥٥ عضواً.
وقد مثّل حركة الانقلاب الإسلامي	٥١ عضواً.
	٣٩٩ عضواً.

وجرت الانتخابات، وأسفرت عن حصول زعماء هذه المنظمات على الأصوات الآتية:

١٧٤	صبغة الله مجددي	رئيس جبهة التحرير الوطنية الأفغانية
١٧٣	عبد رب الرسول سيّاف	رئيس منظمة الاتحاد الإسلامي.
١٣٩	محمد نبي محمدي	رئيس حركة الانقلاب الإسلامي.

---

(١) دين محمد جران: من ولاية بكتيا يحمل ماجستير في الشريعة من الأزهر. وينتمي إلى جبهة التحرير الوطنية الأفغانية.

(٢) عبدالعزيز فروغ: من ولاية قندهار، يحمل ماجستير في الاقتصاد. وينتمي إلى الجبهة الإسلامية الوطنية.

١٢٦ قلب الدين حكمتيار رئيس الحزب الإسلامي «حكمتيار».
١٠٢ محمد يونس خالص رئيس الحزب الإسلامي «خالص».
٩٩ برهان الدين رباني رئيس الجمعية الإسلامية الأفغانية
٨٦ أحمد جيلاني رئيس الجبهة الإسلامية الوطنية.

فأسندت رئاسة الدولة إلى صبغة الله مجددي، ورئاسة الحكومة إلى عبد رب الرسول سياف، وتوزّعت الحقائب الوزارية كالآتي:

١ ـ عبد رب الرسول سيّاف: رئيساً للحكومة.
٢ ـ محمد نبي محمدي: وزيراً للدفاع.
٣ ـ قلب الدين حكمتيار: وزيراً للخارجية.
٤ ـ محمد يونس خالص: وزيراً للداخلية.
٥ ـ برهان الدين رباني: وزيراً للإعمار.
٦ ـ أحمد جيلاني: رئيساً للقضاة.
٧ ـ نجيب الله الفرائي: وزيراً للإعلام والدعوة والإرشاد
٨ ـ أحمد شاه أحمد زي: وزيراً للاتصالات.
٩ ـ فاروق أعظم: وزيراً للتربية والتعليم.
١٠ ـ حاجي دين محمد: وزيراً للأمن الوطني.
١١ ـ محمد إسلام: وزيراً للزراعة.
١٢ ـ سيد محمد نادر: وزيراً للصحة.
١٣ ـ محمد شاه فضلي: وزيراً للبحث العلمي.
١٤ ـ هداية الله أمين أرسلان[1]: وزيراً للمالية.
١٥ ـ قاضي نجي الله: وزيراً للعدل.

---

(١) هداية الله أمين أرسلان: ولد عام ١٣٦٠ هـ، في ولاية كابل، يحمل دكتوراه في الاقتصاد، وينتمي إلى الاتحاد الإسلامي.

١٦ ـ شيخ عبدالرزاق[١]: وزيراً للحج والأقاف.

١٧ ـ إيشان جان عريف[٢]: وزيراً للمعادن والصناعة.

وتختلف الوزارة الثانية للمجاهدين عن الأولى في أنها تضم قادة المنظمات السبعة على حين لا تضم الأولى أي قائد، كما شملت إلى جانب القائد وزيراً أو وزيرين[٣].

وحجزت أربع وزارات للشيعة الذين رفضوا الاشتراك بالوزارة إذ كانوا يطالبون بخمس حقائب وزارية وهي ما يمثل ثلث الوزارة على حين أن نسبتهم العددية لا تزيد على ٥ ٪ من مجموع السكان.

وبعد مدة اقترح قلب الدين حكمتيار إجراء انتخابات عامة في البلاد، وهو شاب مؤمن، عنده حماسة الشباب، متأثّر بكثرة أفراد حزبه، وزيادة أبناء قبيلته، ثم هدّد بترك الوزارة إن لم تجر الانتخابات خلال ستة أشهر،

---

(١) شيخ عبدالرزاق: من ولاية قندهار، أحد العلماء البارزين، وينتمي إلى الحزب الإسلامي «خالص».

(٢) إيشان جان عريف: يحمل ماجستير في الهندسة، وينتمي إلى الجمعية الإسلامية.

(٣) كان الاتفاق من البداية أن يكون توزيع الوزارات حسب نتائج الانتخابات حيث يكون من نصيب:

الأولى: رئاسة الدولة + وزارة الصحة.

الثانية: رئاسة الوزراة + وزارة الاتصالات.

الثالثة: وزارة الدفاع + وزارة البحث العلمي + وزارة الزراعة.

الرابعة: وزارة الخارجية + وزارة الحدود + وزارة العدل.

الخامسة: وزارة الداخلية + الحج والأوقاف + وزارة أمن الدولة.

السادسة: وزارة التعمير + وزارة الدعوة + المناجم والصناعة.

السابعة: وزارة القضاء + وزراة المالية + وزارة التربية.

وعُيّن محمد ياسر مستشاراً سياسياً لرئاسة الوزراة، وهو من التنظيم نفسه الذي ينتمي إليه رئيس الوزارة عبدرب الرسول سيّاف، وهو الاتحاد الإسلامي.

وعُيّن سيدنور الله عماد نائباً لوزير الاتصالات أحمد شاه أحمد زي وهما من تنظيم واحدٍ، وهو الاتحاد الإسلامي أيضاً.

ولكن من الصعب أن تتمّ في مثل هذه الظروف، كما أن بقية القادة لا يوافقونه على رأيه. وهذا ما جعله يترك الوزارة أو يُعلّق عضويته فيها.

جهود الثورة:

استطاع المجاهدون الأفغان تحرير ست ولايات وهي: طخار، وباميان، وبادغيس، ونورستان، وكونار، وبكتيكا.

ولا يزال الوضع السياسي والعسكري كما هو، فالحكم في كابل شيوعي، ومحاصر في العاصمة، وفي المعسكرات، وعواصم الولايات غير المحررة، وانتقال القوات من مكانٍ إلى آخر يحسب له مائة حساب، ويجب أن يُحمى بالطيران والمدرعات، وهذان السلاحان يفتقدهما المجاهدون.

ويحاصر المجاهدون قوات النظام، والعاصمة، وبعض المعسكرات ويقصفها بالصواريخ والمدافع من غير جدوى، ويرجع ذلك إلى الدعم الروسي للنظام الشيوعي الأفغاني، ومع أن الشيوعية قد انهارت، وقد يتوقّف هذا الدعم، ولكن لن يكون لذلك الأثر الكبير نتيجة الخلافات القائمة بين المنظمات الإسلامية الأساسية، ثم توقّف الإمداد بالأسلحة بعد حرب الخليج التي أثارها الحاكم العراقي صدام حسين إثر احتلال الكويت، والسيطرة الأمريكية على العالم بعد انهيار الشيوعية العالمية، وبداية تفكك الإمبراطورية الروسية، حيث لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية تخشى من منافسة الروس، ولا تُبالي بالنظام الأفغاني أياً كان نوعه إذ هي تحارب الإسلام ولا يُهمّها أبداً انتصار المجاهدين، فهي تتركهم ليدّب اليأس وتنكمش المنظمات الإسلامية تلقائياً، كما تترك النظام الشيوعي لينتهي تدريجياً... ومع الزمن سيملّ الناس هذا الموقف الجامد فيتحّركون ويقوم نظام ترضى عنه الولايات المتحدة، ويتوقّف نشاط المجاهدين مع الحركات الإسلامية الأخرى في بقية الأمصار نتيجة الحرب الصليبية وما يرفدها من صهاينة وأتباع، وهذا ما تسعى إليه الولايات المتحدة وتخطط له.

كما أن نشاط المجاهدين قد خفّ بعد حرب الخليج بسبب توقّف الدعم الصحي، والدعم المالي الذي كان يأتي من بعض دول الخليج وخاصةً من السعودية والكويت، حيث توقّف هذا نتيجة احتلال حاكم العراق للكويت، فالركود هو السمة العامة الآن للثورة الإسلامية في أفغانستان، ويحتاج الأمر إلى تفاهم جهود المجاهدين ووحدتهم قبل ضياع الفرصة.

استمر القتال رغم اتفاقية جنيف وذلك لأن الأسلحة استمرت تتدفق إلى الحكومة الأفغانية الشيوعية وأعوانها. وقد ظهرت قوة المجاهدين بانسحاب القوات الروسية، وفي شهر ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (نهاية تشرين الثاني ١٩٨٨ م) جرت محادثات جانبية في محاولةٍ لتفرقة صفوف المجاهدين فقد أجرى روس رسميون محادثات مباشرة مع ممثلي بعض منظمات المجاهدين في بيشاور بباكستان، وعقدت مباحثات عالية المستوى بالمملكة العربية السعودية في جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (أواخر كانون الأول ١٩٨٨ م) بين برهان رباني رئيس الجمعية الإسلامية ويولي ڤورنتشوف الذي كان قد عُيّن مؤخراً سفيراً للإمبراطورية الروسية في أفغانستان (في الوقت الذي احتفظ به بمنصبه وكيلاً أول للخارجية الروسية. ولكن انهارت هذه المباحثات على كل حال عندما كرر قادة المجاهدين مطالبتهم بعدم مشاركة أي عضوٍ من نظام الرئيس نجيب الله محمد في أية حكومةٍ أفغانيةٍ مقبلةٍ على حين أصرّ الروس على وجود دورٍ بارزٍ لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني في الحكومة.

ورغم عنف القتال فإن الروس قد سحبوا قواتهم جميعها من أفغانستان في ١٠ رجب ١٤٠٩ هـ (١٥ شباط ١٩٨٩ م) تحت الضغط، ولمصلحة روسيا الداخلية، وحسب اتفاقية جنيف.

زاد المجاهدون من نشاطاتهم العسكرية، وحاصروا عدة مدن، دون أن يتمكّنوا من دخول واحدةٍ منها، وبقيت سيطرتهم مقتصرةً على المناطق

الريفية وعدة عواصم إقليميةٍ صغيرةٍ. كما فشلت المحادثات بين الاتحاد الإسلامي للمجاهدين الأفغان وبين حزب الوحدة الإسلامية الذي يتخذ من إيران قاعدةً له، وهو تحالف بين ثماني مجموعات شيعية أفغانية وكانت ترمي تلك المحادثات إلى الاتفاق حول تشكيل حكومةٍ انتقاليةٍ موسّعةٍ.

واجتمع مجلس الشورى الأفغاني في رجب ١٤٠٩ في روالبندي في باكستان وتمّ اختيار حكومة انتقالية في المنفى، عُرفت باسم الحكومة الأفغانية الانتقالية، ولكن لم تعترف بها سوى أربع حكومات فقط، إلا أنها منحت عضوية منظمة المؤتمر الإسلامي، وبالإضافة إلى ذلك فقد عيّنت الحكومة الأمريكية مبعوثاً خاصاً لدى المجاهدين بمرتبة سفير شخصي.

وفي شهر ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (حزيران ١٩٨٩ م) أخذت قوة المجاهدين تضعف نتيجة الصراع والقتال بين المنظمات الإسلامية.

وفي مطلع عام ١٤١٠ هـ (آب ١٩٨٩ م) علّق الحزب الإسلامي (حكمتيار) عضويته في الحكومة الأفغانية الانتقالية.

بدأ دعم المجاهدين يقلّ بناءً على مرئيات الولايات المتحدة، فانخفض ما يصل إليهم من باكستان وجزيرة العرب، بحجة التقليل من حدة الصراعات بينهم.

وفي أوائل جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (مطلع عام ١٩٩٠ م) جرت محاولات من جانب الحكومة الأفغانية الانتقالية لتشكيل مجلس شورى بهدف تأليف حكومةٍ جديدةٍ وموسّعة تكون بديلاً لنظام الحكم في كابول الغارق في الخصومات الطائفية.

وفي ذي القعدة ١٤١١ هـ (أيار ١٩٩١ م) بعد مفاوضات مستفيضة مع القوى الإقليمية ذات العلاقة بالأزمة أصدر الأمين العام للأمم المتحدة إعلاناً يتألف من خمسة مبادئ لإجراء تسوية، ومن أهم النقاط التي تضمنها الإعلان:

١ ــ الاعتراف بالسيادة الوطنية لأفغانستان.
٢ ــ حق الشعب الأفغاني في اختيار حكومته والنظام السياسي الذي يريد ممارسته.
٣ ــ إنشاء جهاز للإشراف على انتخاباتٍ حرةٍ ونزيهةٍ لتشكيل حكومةٍ موسعة.
٤ ــ وقف إطلاق النار بإشراف الأمم المتحدة.
٥ ــ الدعم المالي الكافي لعودة اللاجئين، وإعادة الإعمار.

وقد وافقت حكومتا باكستان وأفغانستان على الإعلان غير أن حكومة الأفغان الانتقالية قد رفضته.

واستمرّت حكومة كابول في طرح فكرة المصالحة الوطنية، وجرت لقاءات مع بعض منظمات المجاهدين وقد طرحت فكرة إعادة الملك السابق محمد ظاهر شاه الذي أعادت له حكومة كابول الجنسية الأفغانية في ربيع الأول ١٤١٢ هـ (أيلول ١٩٩١ م)، ويبدو أن بعض المنظمات قد وافقت على هذه الفكرة.

انخفض الدعم للمجاهدين في محاولةٍ للتأثير عليهم، ولكنهم تمكّنوا من الاستيلاء على مدينة «خوست» في رمضان عام ١٤١١ هـ (نهاية آذار ١٩٩١ م)، وقاموا بهجمات على عدة مدن كبرى مثل: جلال أباد، وغزنة، وقندهار، وهراة، وغارديز، وتعطلت المواصلات.

وفي ربيع الأول ١٤١٢ هـ (منتصف أيلول ١٩٩١ م) أعلنت الولايات المتحدة والإمبراطورية الروسية وقف إمدادات السلاح إلى الأطراف المتحاربة، وطُلب كذلك من باكستان وإيران والسعودية، أن تقوم بالعمل نفسه في ٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٩٢ م) وقد تمت الموافقة على ذلك.

ورغم الترحيب بوقف إطلاق النار من الأطراف كافةً غير أنه لم يحدث

بل زاد القتال ضراوةً وخاصةً حول العاصمة كابول. وحثّت باكستان المجاهدين على قبول إعلان الأمم المتحدة.

زادت الانقسامات القبلية في القوات الحكومية، وتمرّدت القوات غير النظامية من جماعة الأوزبك بقيادة رشيد دوستم، فاستولى المجاهدون على مدينة نزار شريف في أواخر رمضان ١٤١٢ هـ (آذار ١٩٩٢ م).

استولى المجاهدون من أتباع الجمعية الإسلامية بقيادة أحمد شاه مسعود على قاعدة «بغرام» ذات الموقع الحسّاس، وعلى المدينة المجاورة لها «تشاريكار» فأصبح موقف نظام كابول في حرج فضغط حزب الوطن على رئيسه نجيب الله محمد فقدّم استقالته في ١٤ شوال ١٤١٢ هـ (١٦ نيسان ١٩٩٢ م)، وأصبح يعيش متخفياً على العاصمة تحت حماية الأمم المتحدة، وقام بالأمر مكانه أحد مساعدي نواب الرئيس وهو عبد الرحيم هاتف فشغل منصب رئيس الجمهورية بالنيابة.

وخلال أيام من سقوط الرئيس نجيب الله محمد أصبحت مدن أفغانستان الرئيسية تحت سيطرة مختلف تحالف جماعات المجاهدين. وصدرت أوامر أحمد شاه مسعود في بيشار للاستيلاء على كابول بالتعاون مع قادة المجاهدين الآخرين.

وفي ٢٣ شوال ١٤١٢ هـ (٢٥ نيسان ١٩٩٢ م) دخلت قوات أحمد مسعود، وقوات قلب الدين حكمتيار التي كانت محتشدة جنوب العاصمة كابول، وسلّم الجيش مواقعه الرئيسية. كما سلّم المجلس العسكري ـ الذي حلّ منذ بضعة أيام محلّ الحكومة ـ السلطة للمجاهدين بعد أن نبذ قادة المجاهدين في بيشاور اقتراح الأمم المتحدة بتشكيل هيئة محايدة، وعملوا على إنشاء مجلس جهاد إسلامي موقت يضمّ واحداً وخمسين عضواً، وكان من المقرر أن يتسلّم صبغة الله مجددي قائد جبهة التحرير الوطنية الأفغانية مدة شهرين، ويتشكل بعد تلك المدة مجلس مؤلف من عشرة أعضاء من قادة

المجاهدين وبرئاسة أمير الجمعية الإسلامية برهان الدين رباني لمدة أربعة أشهر، وأثناء الشهور الستة كان من المقرر أن يجتمع مجلس خاص لتعيين إدارة انتقالية تتولى السلطة لمدة سنة ريثما يتم إجراء انتخابات.

وصل صبغة الله مجددي إلى كابول ٢٦ شوال ١٤١٢ هـ (٢٨ نيسان ١٩٩٢ م) بصفته رئيس الإدارة الانتقالية الجديدة. ولكن لم يجتمع مجلس الجهاد الإسلامي لمعارضة قلب الدين حكمتيار، ولم تمض سوى بضعة أيام حتى فقدت قوات حكمتيار سيطرتها على معاقلها التي كانت ترابط فيها وسط العاصمة.

وخلال أسابيع قليلة حصلت حكومة دولة أفغانستان الإسلامية المعلنة حديثاً على اعتراف سياسي عالمي تقريباً.

وفي أوائل ذي القعدة ١٤١٢ هـ (أوائل أيار١٩٩٢ م) اجتمع نصف أعضاء مجلس الجهاد الإسلامي، وتشكل مجلس وزراء بالنيابة، وأعطي فيه أحمد شاه مسعود حقيبة وزارة الدفاع، وترك منصب رئاسة الوزراء إلى عبد الصبور فريد من الحزب الإسلامي (حكمتيار) إلا أنه من قبائل الطاجيك، وقد رفض قلب الدين حكمتيار هذا المصنب.

وأخذت تظهر السمات الإسلامية الأساسية إذ منعت الخمور والمخدرات، وظهرت النساء المحجبات. ولكن الصراع استمرّ بين فصائل المجاهدين، وكان حكمتيار ينتقد بشدّةٍ وجود قوات الأوزبك غير النظامية بقيادة رشيد دوستم في العاصمة لذا أخذ بقصف كابول بالمدفعية.

وقبل موسم الحج وقّع قلب الدين حكمتيار وأحمد شاه مسعود اتفاقية سلام بينهما، ولكن لم تكن تلك إلا لمرحلةٍ بسيطة، إذ عاد القتال وساهمت فيه قوات الرافضة التي تدعمها إيران.

وفي ٢٨ ذي الحجة ١٤١٢ هـ (٢٨ حزيران ١٩٩٢ م) سلّم صبغة الله مجددي السلطة إلى مجلس القيادة الذي قدّم منصب رئاسة الدولة فورا إلى

برهان الدين رباني مع المسؤولية المقترنة بمجلس وزراء انتقالي لمدة أربعة أشهر حسب اتفاقية بيشاور، وفي أول يومٍ من عام ١٤١٣ هـ (الأول من تموز ١٩٩٢ م) تسلّم عبد الصبور فريد وهو صديق حميم لقلب الدين حكمتيار منصب رئاسة الوزراء.

أعلن برهان الدين رباني عند توليه رئاسة البلاد تبنّي علم جديد للبلاد، وإنشاء مجلسٍ اقتصادي لمعالجة مشكلات البلاد الاقتصادية الحادة، وتعيين لجنة لصياغةٍ دستور جديد.

وفي أوائل صفر ١٤١٣ هـ (أوائل آب ١٩٩٢ م) انسحب أعضاء جماعة الحزب الإسلامي (خالص) من مجلس القيادة فحدثت تصدّعات خطيرة داخل الحكومة. كما استمرّ العنف بين المجاهدين في العاصمة، وقامت قوات حكمتيار بهجوم عنيف على كابول، وأغلقت المطار، فما كان من الرئيس برهان الدين رباني إلا أن أعلن فصل قلب الدين حكمتيار من مجلس القيادة وطرد عبد الصبور فريد من منصب رئاسة الوزراء. وطالب حكمتيار إخراج خمسة وسبعون ألفاً قوات الأوزبك غير النظامية وقائدها رشيد دوستم من العاصمة لصلته بالنظام الشيوعي البائد، وعدّ حكمتيار هذا الطلب شرطاً مسبقاً للمحادثات والاتفاق على وقف إطلاق النار.

وفي نهاية شهر صفر ١٤١٣ هـ تمّ الاتفاق بين رباني وحكمتيار على وقف إطلاق النار، وبعد بضعة أيام تمّ فتح مطار كابول. واستمرّ القتال بين جماعة حكمتيار وجماعة الأوزبك في العاصمة وبعض الأقاليم.

وفي أوائل ربيع الأول ١٤١٣ هـ (أوائل أيلول ١٩٩٢ م) عملت وزارة الدفاع على إخلاء العاصمة من العناصر المسلحة.

وفي أواخر ربيع الثاني ١٤١٣ هـ (نهاية تشرين الأول ١٩٩٢ م) وافق مجلس القيادة على تجديد مدة رئاسة برهان الدين رباني شهرين آخرين.

وفي ٦ رجب ١٤١٣ هـ (٣٠ كانون الأول ١٩٩٢ م) تشكل مجلس

استشاري خاص عُرف باسم «مجلس أهل الحل والعقد» ويضم **١٣٣٥** عضواً من مشايخ القبائل، وقد عقد في كابول، واختار المجلس برهان الدين رباني المرشح الوحيد رئيساً للدولة لمدة سنتين أخريين، وبعد بضعة أيام تمّ اختيار مائتي عضو للمجلس الاستشاري الذي سيكون بمثابة هيئة تشريعية للبلاد.

أثار تأسيس المجلس الاستشاري، وإعادة انتخاب الرئيس برهان الدين رباني مزيداً من القتال في كابول وأقاليم أخرى في أوائل شهر رجب **١٤١٣** هـ (مطلع عام **١٩٩٣** م) لأن قلب الدين حكمتيار لم يكن راضياً عن هذا كله. وبسبب العنف الذي ازداد سوءاً غادرت البعثات السياسية الغربية كابول في نهاية شهر رجب **١٤١٣** هـ (أواخر كانون الثاني **١٩٩٣** م).

في أوائل شهر رمضان **١٤١٣** هـ (أوائل آذار **١٩٩٣** م) عقد الرئيس برهان الدين رباني، وقلب الدين حكمتيار، وصبغة الله مجددي وقادة جماعات المجاهدين الرئيسية الأخرى في مفاوضات في العاصمة الباكستانية إسلام أباد انتهت بتوقيع اتفاقية سلام. وبموجب بنود الاتفاقية تتألف حكومة انتقالية تتسلّم السلطة مدة ثمانية عشر شهراً، ويبقى برهان الدين رباني في منصب رئاسة الدولة، ويتولّى قلب الدين حكمتيار أو من يختاره رئاسة الوزراء الانتقالية ويسرى وقف إطلاق النار فوراً، وتجرى انتخابات تشريعية خلال ستة أشهر، وتُشكل لجنة للدفاع تضم ستة عشر عضواً تكون مسؤولةً عن إنشاء جيش وطني، وجمع الأسلحة من الفئات المتصارعة كلها في سبيل استعادة النظام والأمن، وتمّت المصادقة رسمياً على اتفاقية السلام، ووقعت عليها حكومات باكستان، والمملكة العربية السعودية، وإيران.

وفي مواجهة المهمة الصعبة المتمثّلة في تلبية مطالب مجموعات المجاهدين كلها لم يتمكّن قلب الدين حكمتيار من تقديم مجلس وزراء جديد حتى أوائل ذي الحجة **١٤١٣** هـ (أواخر أيار **١٩٩٣** م)[1]، وقد منح

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي:

١ ـ قلب الدين حكمتيار: رئيس الوزراء.

=

كل تنظيم من تنظيمات المجاهدين منصبين وزاريين، وتُركت حقائب أخرى شاغرة لممثلين آخرين، ومنح لممثلي مجموعة رشيد دوستم حقيبتين في محرم ١٤١٤ هـ (تموز ١٩٩٣ م). ومما يمكن ملاحظته أن حكمتيار قد أبعد أقوى خصومه وهو أحمد شاه مسعود عن وزارة الدفاع. وقد وعد رئيس الوزراء الجديد إجراء انتخابات في ربيع الثاني ١٤١٤ هـ (تشرين الأول)،

= ٢ ـ قطب الدين هلال: نائب أول لرئيس الوزراء.
٣ ـ محمد أرسالا رحماني: نائب رئيس الوزراء، ووزير التوجيه الديني والأوقاف.
٤ ـ هداية أمين أرسالا: وزير الخارجية.
٥ ـ سيد عمر منيب: وزير التعليم العالي والمهني.
٦ ـ أحمد شاه أحمد زاي: وزير الإسكان وإعمار المدن.
٧ ـ محمد أيوب: وزير المياه والطاقة.
٨ ـ محمد أيوب فاطمي: وزير الصحة العامة.
٩ ـ محمد علي جاويد: وزير التخطيط.
١٠ ـ قاضي محمد أمين وقّاد: وزير الاتصالات.
١١ ـ جليل الله مولوي زاده: وزير التربية والتعليم.
١٢ ـ محمد فاروق عزام: وزير إعادة توطين اللاجئين.
١٣ ـ سيد محمد: وزير الإنشاء والإعمار.
١٤ ـ حياة الله بلاغي: وزير التجارة.
١٥ ـ سيد حسين أنوري: وزير العمل والشؤون الاجتماعية.
١٦ ـ عبد الكريم خليلي: وزير المالية.
١٧ ـ نور الله عماد: وزير الزراعة.
١٨ ـ محمد خليل زُهاد: وزير النقل.
١٩ ـ والجان واثق: وزير الإعلام والثقافة.
٢٠ ـ إسحاق جوهري: وزير التنمية الريفية.
٢١ ـ سليمان جيلاني: وزير الشؤون الحدودية.
٢٢ ـ حميد الله طرزي: وزير مستشار الشؤون الاقتصادية.
٢٣ ـ ملاوي عبد الرحيم: وكيل وزارة العدل.
وبالإضافة إلى ذلك أنشئت هيئتان خاصتان كلّفتا بمسؤوليات وزارتي الدفاع والداخلية.

وكان مقر الحكومة الموقتة في «تشاراسياب» وهي قاعدة حكمتيار العسكرية، وتقع على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً جنوب كابول.

وعلى الرغم من توقيع اتفاقية السلام في إسلام أباد في شهر رمضان ١٤١٣ هـ (آذار ١٩٩٣ م) إلا أن الصراع بين مختلف مجموعات المجاهدين لم يتوقّف. وذُكر أنه تمّ إعداد مسودة دستورٍ جديدٍ، عُرف باسم «القانون الأساسي»، وأن لجنةً قد صادقت عليها استعداداً لإجراء الانتخابات العامة.

عاد الخلاف يظهر من جديد بين رئيس الدولة برهان الدين رباني ورئيس الوزراء قلب الدين حكمتيار، بل لم يختف إلا موقتاً، ولا يزول إذ يعتمد على العصبية القبيلية، وتحرّكه الدوافع الشخصية، ويزيد من أواره ماضي الخلافات. واشتد الصراع، ولم تستطع النزعات الإيمانية عند الطرفين أن تكبحه، فاستغلّ رشيد دوستم هذا الصراع، وانضمّ إلى أحد الفريقين في سبيل إضعاف الطرفين ثم ضربهما معاً، وقطف الثمرة لنفسه فانحاز إلى الرئيس برهان الدين رباني، فوجد حكمتيار ذلك فرصة للهجوم على خصمه باتهامه بالتعاون مع الشيوعيين في سبيل مصلحته، وحبّه للمنصب، إضافةً إلى اتهامه بالارتباط مع الدوائر الاستعمارية، وشدّد في اتهاماته وفي هجومه على خصمه. وفرض الحصار على كابول.

ووجد رشيد دوستم فرصةً أخرى لضرب الطرفين حيث ترك برهان الدين رباني وانحاز إلى خصمه حكمتيار في سبيل إظهار بطلان كلام حكمتيار، وكشف القناع عن حقيقته بأنه صاحب مصلحة إذ رضي بالتعاون مع من كان يعدّه سبب الفساد، وموطن السوء، وبؤرة العفن والإلحاد بشيوعيته، والموافقة على التعاون معه معناه أن الغاية عند حكمتيار تبرر الوسيلة التي تتخذ للوصول إلى الغاية. كما أن دوستم قد شعر أن الوقوف بجانب حكمتيار قد يكون أقرب له للوصول إلى هدفه إذ أن حكمتيار أكثر قوة، وأعزّ نفراً.

أدار دوستم ظهر المجن إلى رباني، وانقلب عليه، وحاصر كابول إلى

جانب حكمتيار، وأخذ في قصف العاصمة. ولما بدأ اللوم يُوجّه إلى حكمتيار بتعاونه مع دوستم والسير في طريقٍ كان ينتقدها أشدّ النقد، أخذ يدّعي أنه لا يتعاون مع دوستم، فكل منهما يحاصر كابول من جهةٍ، ولا يشترك معه في قصف العاصمة، بل كل منهما يقوم بالهجوم الذي يراه دون أي تنسيق بينهما، ولم يكن هذا الكلام سوى محاولة لتبرير موقفه، وهو مرفوض إسلامياً، وعسكرياً. ونتيجة هذه الصراعات أصبح دوستم هو الأقوى، وكل يرغب بالتنسيق معه لضرب خصمه.

ضاق سكان كابول ذرعاً بهذا الوضع الذي يدعي قادته أنهم يجاهدون، وأنهم يعملون في سبيل الله، ويرمون إلى تطبيق الإسلام، غير أن الأهالي لم يروا من هذا سوى البؤس، والدمار، وقتل الأبرياء فهذا الوضع والحكم الشيوعي سواء. ولم يرعو أحد الطرفين، ولم يفكر بالإسلام، ولم يمنعه إيمانه من هذا السلوك، وكذا كانت نظرة المسلمين في كل بقعة من العالم نظرة طيبة إلى هذين الفريقين، بل إن أعداء الإسلام قد اتخذوا من هذا التصرّف وسيلة للهجوم على الإسلام، وفكرة الجهاد التي يحملها هؤلاء المتنازعون على السلطة. وطال الأمر على أهل أفغانستان، واشتدّ الكرب.

كانت الدوائر الصليبية ومن يأتمر بأمرها تُثير نار الفتنة سراً بين الطرفين، وتُحرّك الشرّ بين الفريقين، وتمدّ بالخفاء الجانبين بالسلاح في سبيل زيادة القتل من الخصمين ما داموا من المسلمين كسياسةٍ صليبيةٍ عامة وفي الوقت نفسه لإظهار أن المسلمين ليسوا أهلاً للحكم، وأن الإسلام ليس بمنهجٍ للحياة بصفة أن هؤلاء المتنازعين من المسلمين الملتزمين بل من المتشددين، وقد نهضوا مجاهدين ونادوا بذلك.

أصبح المسلمون عامةً والأفغان خاصةً يتمنّون الخلاص مما هم عليه لما يعانون، ويحرصون على الحلّ بأي شكلٍ، وتظهر فجأةً في رمضان ١٤١٥ هـ (شباط ١٩٩٥ م) حركة تُطلق على نفسها اسم «طالبان»، وتبدأ بالاستيلاء على جزءٍ بعد آخر بسرعةٍ وتأييد، ولم تُعرف هويتها بعد، غير أن

سوء الوضع قد جعلها تلقى التأييد، ولم ندر بعد ما النتيجة؟ غير أن الزعماء خارج دائرة الخصمين العنيفين أخذوا بتأييد حركة «طالبان».

القضية الطاجيكية:

توترت العلاقات بين أفغانستان وطاجيكستان بسبب العجز الواضح وعدم الرغبة من جانب الحكومة الأفغانية في منع مقاتلي المجاهدين الأفغان وإرسال الأسلحة عبر الحدود إلى طاجيكستان.

وفي مطلع عام ١٤١٣ هـ (تموز ١٩٩٢ م) قام رئيس الجمعية التشريعية الطاجيكية «اكبارشو إسكندروف» بزيارة أفغانستان، طالباً من الحكومة الأفغانية منع وصول مزيد من الأسلحة إلى قوات المعارضة «التحالف الديمقراطي الإسلامي»، وكان الظنّ أن الحزب الإسلامي (حكمتيار) هو المصدر الرئيسي للأسلحة، وأنه قد أقام معسكرات تدريبية داخل أفغانستان لمقاتلي الطاجيك الإسلاميين. وقد نفى مسؤولو الحزب الإسلامي هذه الادعاءات.

وزادت العلاقات سوءاً بين الحكومتين انتخاب حكومة طاجيكية جديدة مؤيدة للشيوعية في منتصف عام ١٤١٣ هـ (أواخر عام ١٩٩٢ م). وفي شهر شوال ١٤١٣ هـ (نيسان ١٩٩٣ م) احتجت الحكومة الطاجيكية لدى السلطات الأفغانية لقيام غارات عبر الحدود في سبيل مساعدة ثوار التحالف الديمقراطي الإسلامي. وبالمقابل فقد أعلنت الحكومة الأفغانية أن القوات الروسية في طاجيكستان قد هاجمت بعض القرى الأفغانية في أقاليم «باداخشان» و «طخار» و «قندوز» وقتلت عدداً من السكان. وأكّدت الحكومة الأفغانية ثانية أنها لم تتورط بأي شكلٍ في الصراع الطاجيكي الداخلي، وطالبت بسحب القوات الروسية من المنطقة الحدودية.

وفي شهر صفر ١٤١٤ هـ (آب ١٩٩٣ م) قام وزير الخارجية الأفغاني هداية أمين أرسالا بزيارة العاصمة الطاجيكية (دوشنبي) لعقد محادثات مع

الحكومة الطاجيكية، ونتيجةً لهذه المحادثات أعلن الوزير الأفغاني أنه يرغب بالقيام بدور الوسيط بين السلطات الطاجيكية والثوار المسلمين الذين كانوا يهاجمون قوات الحكومة الطاجيكية من قواعد لهم في شمالي أفغانستان.

وقُدِّر عدد اللاجئين الطاجيك في أفغانستان في مطلع عام ١٤١٤ هـ (تموز ١٩٩٣ م) بتسعين ألف لاجئ.

الفصل الرابع

الصّراعات الدّاخليّة

تبلغ مساحة أفغانستان ستمائة وخمسون ألف كيلومتر مربع، ويبلغ عدد السكان ما يقرب من عشرين مليون، وهو عدد قليل بالنسبة إلى المساحة حيث لا تزيد الكثافة على ٣٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد بسبب كثرة المرتفعات التي تشغل ٨٠ ٪ من المساحة العامة للبلاد، إضافةً إلى المناطق الأخرى شبه الصحراوية التي تُشكّل مساحاتٍ واسعةً أيضاً، وهذا ما يجعل ٤٠ ٪ من السكان يمتهنون الرعي. ويرجع السكان في أصولهم إلى عدة مجموعاتٍ جنسيةٍ وهي:

١ ــ **البشتو**: ويشكلون ٥٠٪ من سكان البلاد، ويعيشون شمال جبال هندكوش، وإلى الجنوب منها، وهم مزيج من العناصر التركية والفارسية، ويعرف الفرع الجنوبي من هذه القبائل باسم (الغلزة) وتنتشر هذه القبائل أيضاً في شمال غربي باكستان في مناطق الحدود، ويعرفون هناك باسم (الباتان).

٢ ــ **الطاجيك**: ويشكلون ٣٠ ٪ من مجموع السكان، وهم عناصر فارسية يعيشون في الأودية العليا من إقليم (باداخشان)، ويمتّدون حتى الغرب.

٣ ــ **الأتراك**: ويُقيمون في الشمال تتمةً للسكان الذين يعيشون في المناطق التي يُسيطر عليها الروس، في بلاد الأوزبك، وبلاد التركمان،

ويشكل الأوزبك ٥ ٪ من مجموع السكان، بينما لا تزيد نسبة التركمان على ٢ ٪ من مجموع السكان، وبذا فالأتراك يشكلون ٧ ٪ من مجموع السكان.

٤ ــ **البالوخ**: ويشكلون ٢ ٪ من مجموع السكان، ويُقيمون في الجنوب في مناطق الحدود الجنوبية مع باكستان، وتمتدّ هذه القبائل داخل باكستان حيث تعيش أكثريتها هناك.

٥ ــ **الكافير**: مجموعة قليلة العدد تعيش في الشمال الشرقي، ويعرفون باسم (النوريون) بعد أن تحوّلوا إلى الإسلام في بداية القرن الماضي، وكانوا من قبل يتبعون البوذية.

٦ ــ **الهزّارة**: ويعودون إلى أصولٍ مغوليةٍ، ولا يصل عددهم إلى المليون، ويتبعون المذهب الشيعي على حين أن المجموعات السابقة كلها من المسلمين (السنة). ويُقيم الهزّارة في المرتفعات الوسطى.

وهناك مجموعات قليلة من العرب، والهنود، والصينيين ولا شك أن العرب مسلمون بينما الهنود والصينيون بعضهم من المسلمين وبعضهم الآخر من غير المسلمين.

العقيدة:

يدين ٩٩ ٪ من سكان أفغانستان بالإسلام، إن لم نقل جمعيهم لأن هناك قلّةً من الهندوس، والبوذيين من الهنود والصينيين، ولا تصل نسبتهم أبداً إلى ١ ٪، ويشكل المسلمون (السنة) ٨٨ ٪ من مجموع السكان، والباقي وهو ١٠ ٪ فقط من الشيعة، وهم الهزّارة، وبعض الفرس الذين يُقيمون على مقربةٍ من حدود إيران، وخاصةً في مدينة (هراة) وما حولها.

الصراع العنصري:

لم تحدث صراعات في أفغانستان على أساسٍ عنصريٍ لأنه لا توجد عصبيات عرقية، إذ أن معظم السكان يعودون إلى أصولٍ فارسيةٍ أو

تركيةٍ أو مزيجٍ من هذين الأصلين، والمجموعات الأخرى من بالوخ وغيرها ليست بالحساب لتُصارع غيرها، وإذا حدثت اختلافات أو وقعت غارات فإنما هي بين القبائل أو على المدن، وسكان الوديان في سبيل النهب.

الصراع العقيدي:

لما كان السكان جميعهم تقريباً أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ لذا لم تقع خلافات تعود إلى أصلٍ عقيدي. حتى الشيعة كانوا يعدون من المسلمين ما داموا يقولون ذلك، ويُؤدّون العبادات شأنهم في ذلك شأن الآخرين من السكان المسلمين، فالناس معظمهم من العامة لا يبحثون بالعقائد، بل ليست في ساحة تفكيرهم وإنما يكتفون بالظاهر وحسبهم ذلك، فلما قامت في إيران ما عُرف بالثورة الإسلامية، وأخذت تتحرّك باسم الرافضة، وتحاول أن تمدّ يدها تحت هذه المظلّة إلى أفغانستان، بدأت التفرّقة، وأخذ الدعم يصل إلى الشيعة فقط، وصار الحديث باسمهم، وغدت إيران الناطق الرسمي باسمهم، فتفتّحت العيون، وظهر الانقسام، ولكن قلّة الشيعة لا تسمح لهم بدخول الصراع غير أن الدعم والتحريض قد جعل لهم شأناً من الجانب السياسي والإعلامي فقط، وربما حدث صراع في المستقبل إن استمرت الأمور تمشي في هذه الطريق، وأصبح الدعم يُشكّل من القلّة قوةً يمكنها دخول ميدان الصراع مع الكثرة الساحقة التي لا بواكي لها.

وهذا الانتماء إلى عقيدةٍ واحدةٍ قد جعل السكان يهبّون جميعاً في وجه المستعمرين الصليبيين ويُحرزون النصر عليهم رغم التباين في القوة المادية. لقد انتصر المسلمون في أفغانستان على الإنكليز في الحرب (١٢٥٥ - ١٢٥٨ هـ) وفي الحرب (١٢٩٥ - ١٢٩٦ هـ)، وأُبيد الجيش الإنكليزي في أولى هاتين الحربين، كما انتصر المسلمون الأفغان على الغزاة الروس الذين دنّسوا البلاد عندما دخلوها عام ١٤٠٠ هـ، ثم أُجبروا على الانسحاب. لقد عدّ الأفغان هذه الحروب حروباً عقيديةً فاندفعوا

يذودون عن دينهم. وليس في البلاد من ينتمي إلى عقيدة الصليبيين ليُساعدوهم وليقفوا إلى جانبهم، ولينقلوا إليهم أخبار المسلمين، كما حدث في أمصار إسلاميةٍ أخرى. غير أنه وجد ـ مع الأسف ـ في هذه الآونة الأخيرة من أبناء البلاد من يرتبط مع الغزاة الروس برابط الإلحاد والحزبية، ومع المستعمرين الصليبيين الغربيين برابط العلمانية والفكر المادي، وهذا ما جعل صفوفنا مخترقةً وحصوننا مهددةً من داخلها بأعوان الصليبيين.

الصراع الحزبي:

لم تكن هناك أحزاب في بلاد الأفغان، ولم يكن الناس ليهتمّوا بأمور السياسة والمشكلات الدولية، وموضوع الحكم، وإنما كانوا منصرفين إلى تأمين حياتهم المعاشية، وجلّ ما يعرفون أن الصليبيين يدخلون في صراعاتٍ فيما بينهم للسيطرة على بلاد غيرهم في سبيل استغلال الأرض واستعباد العباد، وأنهم يُعادون المسلمين، وهمّهم إبادة المسلمين أو إخراجهم من دينهم لذا فهم على استعدادٍ للجهاد في سبيل الله ضدّهم فيما إذ اقتربوا منهم، وهم يعلمون علم اليقين أن مجيء الصليبيين إن جاءوا لم يكن إلا للنيل من الإسلام.

ورأى الأفغان الصراع بين الدول النصرانية فظنّوا من باب الغفلة أو الجهل أن ذاك الخلاف في سبيل السيطرة، والسباق على امتلاك مصادر الثروة، ومدّ النفوذ، ولكنهم لم يلبثوا أن توصّلوا إلى حقيقة وهي أن الصراع بين الدول الصليبية وأحلافها ومعسكراتها لم يكن إلا خلافاً ظاهرياً وسياسياً بالدرجة الأولى فإذا ظهرت انطلاقة إسلامية، أو وُجدت صحوة، أو حصل المسلمون على نصرٍ، أو أصابهم خير إذا بالصليبيين يُسرعون إلى اللقاء ويزول كل خلافٍ بين المعسكرات، وينتهي كل صراع بين الأحلاف، ويقف الجميع في وجه المسلمين ليردعوهم، ثم تحدث تصفية الحساب وتوزيع الغنائم، وتعود بعدها الحرب الباردة التي كانت من قبل

وكان الأفغان ينظرون إلى صلة حكومتهم مع هذا الخصم الصليبي أو ذاك على أنها نوع من التعاون الدولي، وتسيير المصالح، وتبادل المنافع الاقتصادية من التجارة والسلاح وغير ذلك، ويُفسّرها بعضهم على أنها السياسة، ولا يعرفون للسياسة غير هذا المعنى لذا فهم يكرهونها... ويصبّون عليهم كلمات البغض والكراهية.

وبعد الحرب العالمية الثانية عادت الحرب الباردة بين الرأسماليين والشيوعيين، وبدأت محاولات التسلّل ومدّ النفوذ إلى البلدان المجاورة، والمناطق الغنية، والبقاع ذات الأهمية الخاصة. وكان الروس قد وطّدوا أمرهم في مستعمراتهم في بلاد القفقاس وآسيا الوسطى تلك المناطق القريبة لبلاد الأفغان والتي تجاور بعضها بعضاً، بعد أن أصابها ما أصابها أثناء الحرب العالمية الثانية إذ اهتزّت الأرض تحت أقدام الروس في بعض الأجزاء، كما زلزلت في أجزاء أخرى مثل جمهوريات الشاشان، والقبرطاي، والقرم، فلما استقرّ وضع الروس أخذوا بالتحرّك نحو الجنوب.

منذ أن آل الأمر إلى (خروتشوف) في الإمبراطورية الروسية بدأ نوع من التعاون الودّي بين روسيا وأفغانستان كمقدمةٍ لمدّ النفوذ الشيوعي، ووسيلةٍ للتغلغل الروسي، فإضافة إلى غنى أفغانستان هي طريق للوصول إلى جنوب شرقي آسيا حيث نباتات البلاد الحارة وخاصةً المطاط، وهو ما تسعى روسيا إليه بكل جهودها، وترسم المخططات في سبيل ذلك، وكذا فإن أفغانستان على حدود شبه القارة الهندية ذات الإمكانات الضخمة، وذات القصة الأسطورية بالنسبة إلى انكلترا التي تحرص دائماً على المحافظة عليها، وتضع كل إمكاناتها في سبيل ذلك، وتعمل على تمهيد الطريق للوصول إليها وتُزيل كل عقبةٍ يمكن أن تعترض دربها، وتُذلّل كل عثرةٍ قد تُنغّص عليها سيرها، وتُعلن ذلك صراحةً وأمام دول العالم جميعها، وترسم سياستها على هذا الأساس، وتعمل المخططات لتنفيذ هذه السياسة.

فأفغانستان ذات أهميةٍ بالنسبة إلى المُخطّطات التي ترسمها روسيا، وبالنسبة إلى الأحلام التي تحلم بها، وتعمل على تحقيقها، وبالنسبة إلى السياسة التي يضعها الروس نصب أعينهم، ويطمعون بالوصول إليها.

أخذت الأموال الروسية تتدفّق إلى أفغانستان باسم مُساعداتٍ، وأخذت الدعاية تُرافقها، بإعلان تلك المساعدات، وحسن الجوار، وحبّ التعاون، والرغبة في السلام، وتلك الكلمات البرّاقة التي تُخفي تحتها الأطماع. وجاءت معونات من الصين الشيوعية كذلك من باب التفاهم بين الدولتين الشيوعيتين الكبريين. وإن كانت الدولة الأفغانية تحرص بالوقوف على الحياد، وتعمل على أخذ المساعدات من كل الأطراف، غير أن المساعدات الروسية فاقت غيرها كثيراً ووصلت إلى ما يعادل ثلثي مجموع المساعدات التي حصلت عليها أفغانستان كما أن رئيس الوزراء الأفغاني آنذاك وهو محمد داود كان يظهر تعاطفاً نحو الروس: مُدَّت المواصلات في بلاد الأفغان ومهدت الطرق وأنشىء مطار كابول وسُلحت القوات الأفغانية وخاصة الجوية منها بالمساعدات الروسية، وغدت كلمة (روس) محببةً لدى الناس بعد أن كانت ممقوتةً ممجوجة تظهر منها رائحة الكراهية والبغض. وجاءت المساعدات الفنية لمشروعات الريّ، فكان الفنيون الروس خبراء بالدعاية الشيوعية، وعلى معرفةٍ كبيرةٍ بالفكر الشيوعي والنظريات المادية، وأخذوا بالاتصال بالأفراد والرجال الذين عندهم استعداد للفتنة، والتبعية، والعبودية للهوى فقدّم لهم الخبراء الجنس، والمال، وعملوا على إبرازهم فوقعوا في الشراك، وانطلقوا وراء الروس أو وراء الهوى، وكانت بداية التنظيم الشيوعي في أفغانستان.

وعملت الولايات المتحدة الأمريكية على منافسة روسيا، ورغبت أن تدخل عن طريق المؤسسات والإرساليات التنصيرية غير أنه لم يسمح لها بدخول أفغانستان التي جميع سكانها مسلمون، فلجأت إلى طريق التحايل، واستظلت بظلّ مؤسسةٍ أمريكيةٍ لرعاية المكفوفين، وأقيمت الأبنية اللازمة،

وبدأ التعليم، وأخذ طريق الرعاية مجراه، ولكن تبيّن أن أحد الأبنية كان كنيسةً فثار الشعب، واضطرت الحكومة أن تطلب من المؤسسة صاحبة العلاقة هدم الكنيسة، واضطرت المؤسسة إلى الرضوخ إلى الأمر وهدم الكنيسة خوفاً من إحراج الحكومة أمام الشعب الذي لا يمكن أن يهدأ إلا إذا رأى الهدم يتمّ أمام عينه، وفشلت الولايات المتحدة في منافستها لروسيا، ووجدت الولايات المتحدة أن السبيل الوحيدة التي يمكن أن تلجأ إليها وهي قطع المساعدات الأمريكية لأفغانستان، مع العلم أنها كانت قد وعدت بتقديم المساعدات لتطوير الشؤون الصحية والتعليمية، فسحبت وعدها، وتخلّت عن تقديم أية مساعدةٍ، ولكن الولايات المتحدة كانت قد كسبت إلى جانبها بعض العناصر الأفغانية، وتمكّنت من إغراء بعض العناصر الثانية، وسار هؤلاء وأولئك تحت مظلّةٍ واحدةٍ بشكلٍ هادىءٍ ريثما تسمح لهم الفرص، للحركة والعمل للدعوة إلى المناهج والأفكار التي حملوها رغبة في تحقيق مصالحهم وتأمين شهواتهم.

وهكذا وُجدت فئتان من الأفغان المرتبطين إحداهما بروسيا وهي الأقوى دعايةً والأكثر عدداً، وثانيهما بالولايات المتحدة دون أن تكون واضحة التنظيم، وكان الصراع بين هاتين الفئتين، وكانت المنافسة، وهذا ما حرّك المسلمين ونبّههم، فالخلاف يقع على أرضهم لصالح غيرهم، ويحدث بين أبنائهم بدافعٍ خارجيٍ، وهم لا يدرون، ويأخذ الأعداء منهم أفرادهم على غير علمٍ منهم، ويُبعدونهم عن عقيدتهم ليصبحوا حرباً عليهم يا للمصيبة!!!!

لا يمكن أن يكون التحرّك إلا حسب اتجاهٍ إسلاميٍ ما دام السكان قد اقتنعوا أن مناورات الاستعمار كلها لم تكن إلا صليبيةً، ولم يكن هدفها إلا ضرب الإسلام، وما دام لا يوجد بين السكان إلا مسلمون فالشكل الطبيعي أن يكون التحرّك إسلامياً، وليس القصد الانتماء الإسلامي فالشعب كله ينتمي إلى الإسلام، حتى أولئك الذين ارتبطوا مع الأعداء إنما ينتمون إلى الإسلام، غير أنهم لا يلتزمون به، ولا يأخذون بتعاليمه، ولا يُبالون

به، لا تُهمّهم عقيدة، ولا يُفكّرون إلا بمصلحة، ولو التزموا به لما تصّرفوا تصرّفهم الذي سلكوه، وإنما القصد بالاتجاه الإسلامي الالتزام به سلوكاً وعبادةً ومنهجاً، وليس عاطفةً وادعاءً.

وما دام الموضوع موضوع التزامٍ واتباعٍ فلا بدّ من أن يكون العلماء هم المحرّكون للرعية، وهم قادة الأمة أصلاً يُوجّهونها إلى المنهج وإلى ما يجب أن يسلكوه، وهذا أمر واجب اتباعه، وذاك أمر محرّم لا يصحّ اقترابه، في معاملة الأعداء، والسلوك مع الأصدقاء، والتعاون مع الدول، وفي سياسة الرعية، وممارسة الاقتصاد، وعلاقة الأفراد بعضهم مع بعضٍ، وإذا كانت هذه الصورة قد اختفت من الواقع فذلك يعود للجهل بالإسلام لدى الرعية، وعجز العلماء أمام الطغاة، وضغط المتحكّمين، وظلم المستبدين، ومُحاربة العالم للإسلام، وتنشئة الأجيال على غير هذه الصورة بل على صورةٍ مُقابلةٍ لها تماماً وتسخير وسائل الإعلام كلها لأفكارهم وصحة معتقداتهم، وحشو المناهج التعليمية بما يريدون، ورسم المخططات لتحقيق ما يعملون له، وغدا المسلمون ضعفاء لا ناصر لهم إلا الله، ولن ينصرهم إذا تخلّوا عنه، حسب ما وعدهم، وأبان لهم فيما أنزل إليهم، وعلى لسان من أرسل إليهم.

والتحرّك لا يكون إلا بالتنظيم، فالفوضى تُربك ولاتُثمر، بل لا تكون بها إلا بعثرة الجهود، ووأد العمل، والهزيمة أمام الخصم. والعمل الفردي لا يُؤديّ إلى نتيجة، ويُسحق تحت أقدام الركب، ويلحق به كل من اتبع رأيه، وسار على قوله، فكم من حقٍّ ضاع في غياهب الباطل لأنه لم يأخذ بالأسباب، وكم من عدلٍ صُرع لأنه لم يسلك طريق الاستعداد. ومن الأخذ بالأسباب وسلوك طريق تنظيم الجهود، ورسم المخططات، وتهيئة الظروف، ومعرفة العوامل وإلا لما وجدت القيادات، ولا رُتّبت الجيوش، ولا أُسّست الهيئات، ولا قامت الحكومات.

ووجد المسلمون الشيوعيين يُنظّمون أنفسهم ضمن حزب الشعب

الديمقراطي الذي وجد منذ أيام محمد نادر خان، فهل يُقابلون التنظيم بالفوضى؟ إذن لا بدّ لهم من أن يُنظّموا أنفسهم، ومن هنا بدأ العمل.

أخذ الشباب المسلم يتعاون بعضه مع بعضٍ، ويلتقي بالعلماء، وتشكّلت النواة الإسلامية الأولى، وكان أفرادها على صلة بالعلماء أمثال: محمد يونس خالص، وعبدالرزاق باريس، والملا بن وزير، وخدايانورا، وكان الهدف في البداية جعل الإسلام أساساً للتربية والتعليم، ثم الوقوف في وجه العملاء سواء أكانوا أعواناً للروس أم أتباعاً للإنكليز والأمريكان.

كان أفراد الشباب المسلم ينقلون آراءهم إلى الشعب ويبثّون أفكارهم إلى أترابهم عن طريق الكتابة باليد وكذلك نسخ صورٍ عن الأصل إذ أن إمكاناتهم ضعيفةً، فقوي أمرهم، وخاف الشيوعيون من نشاطهم فعملوا على جرّهم إلى معركةٍ في سبيل القضاء عليهم، وإخافة الآخرين كي لا يسلك سلوكهم أحد، ولا يُفكّر إنسان بالوقوف في وجه الشيوعيين. ولكن المعركة كانت خاسرةً بالنسبة إلى الشيوعيين، وانتصر الشباب الإسلامي نصراً مُبيناً - بإذن الله -، وهذا ما شجّعهم وقوّى من عزيمتهم، فخاف الشيوعيون حقّاً فجمعوا كيدهم، وتسلّحوا، وأتوا صفاً واحداً يوم ٢٦ ربيع الثاني عام ١٣٩٠ هـ (٣٠ حزيران ١٩٧٠ م)، فتعاطف الشعب مع الشباب المسلمين لمعرفتهم بإلحاد خصومهم، وإخلاص هؤلاء الشباب وصدقهم، وأخلاقهم، وكانت معركة بين الطرفين هُزم فيها الشيوعيون، وفرّوا من الساحة بعد أن تركوا على أرضهم مائةً وسبعين جريحاً.

وتقدّم إلى الساحة الشيوعيون من أتباع الصين نجدةً لرفاقهم وإسعافاً، وإظهاراً للقوة، ومحاولةً للقضاء على الحركة الإسلامية قبل أن يشتدّ ساعدها فلقوا ما لقي رفاقهم، وهذا ما زاد من نشاط الإسلاميين ودفعهم للعمل، وبرز نشاطهم في جامعة كابول، ودخلوا انتخابات مجلس الطلاب في الجامعة فحصلوا على أربعة وأربعين مقعداً من أصل أربعة وخمسين وهذا ما أخاف خصومهم أعداء الدين من شيوعيين ورأسماليين فوحّدوا

صفوفهم، فأخذت تتميز في الجامعة وفي المجالات الأخرى فئتان أولاهما ملتزمة بـالإسلام والأخـرى متفلتة من القيم والأخـلاق وكل مـا يمتّ إلى العقيدة بصلةٍ.

تجمّع الشباب المسلمون الملتزمون في جمعيات كان منها:

١ ـ تجمّع الشباب المسلم في جامعة كابول.

٢ ـ جمعية العلماء المحمدية.

٣ ـ جمعية خدام الفرقان.

وأخذ الدعم من قبل الشعب يرفد المسلمين الملتزمين، كمـا أخذ الصحفيون الملتزمون ـ إن وجدوا وأصحاب العاطفة الإسلامية يتعاطفون مع الحركة الإسلامية، وينحازون إليها، وهذا ما جعلها تبرز في الأوساط كلها. ولم يجد الشيوعيون وسيلةً لإخضاع خصومهم سوى الإبادة، وهي طريقتهم العادية، وخاصةً إن كانت السلطة بأيديهم، وإن لم تكن بأيديهم أقدمـوا على الطريقة نفسها بالسرّ وتحت الظلام، وقد رأينا فيما سبق كيف اغتالوا صاحب جريدة الفجر (منهاج الدين جاهز) وابنـه الصغير في ٢٨ جمـادى الآخـرة ١٣٩٢ هـ (٨ آب ١٩٧٢ م)، وعنـدمـا تصبـح السلطة بـأيـديهم يُجاهرون بجرائمهم، ويتباهون بالأعمال المنكرة التي يفعلونها، وقد تسلّموا السلطة أخيراً في أفغانستان، فلا بدّ من المواجهة، وهذا ما حدث، ولا بدّ من مقابلة التنظيم بالتنظيم، والاستعداد بالاستعداد.

غير أن المفهوم التنظيمي غير واضحٍ ـ مع الأسف ـ لدى الأفغانيين سواء عند المسلمين الملتزمين أم عند غيرهم من العلمانيين والملحدين، لذا نرى الانقسامات الحزبية دائمةً في صفوف الجماعة الواحدة. ولعلّ أهم التجمّعات على أرض أفغانستان:

١ ـ حزب الشعب الديمقراطي:

وهو شيوعي، ووجد كتجمعٍ منذ أيام محمد نادر خان، نتيجة الدعاية

الشيوعية، والإغراءات المادية، وإعطاء الأماني والأحلام العريضة بالمناصب والمراكز، وتلبية الشهوات، وتحقيق الأهواء، أو بالأحرى نتيجة البعد عن الإسلام والقيم الأخلاقية. وقد انقسم عام ١٣٨٧ هـ إلى فرعين رئيسيين.

أ ـ حزب خلق: ويرى العمل إلى الشيوعية المحلية، وليس من الضروري الارتباط موسكو، فزعماؤه أكثر طموحاً من الآخرين، إذ لا يرغبون بتلقّي التوجيه من مراكز أعلى، أو لا يريدون أن يكونوا تبعاً لغيرهم يدورون في أفلاك سواهم، ومن زعماء هذا الحزب: محمد تراقي، وحفيظ الله أمين.

ب ـ حزب برشام: ويرى العمل ضمن فلك الشيوعية العالمية، وضرورة تلقي التوجيهات من مصدرٍ واحد، وهو موسكو، ومن زعمائه هذا الجناح بابراك كارمل.

جـ ـ الحزب الشيوعي الصيني: وقد انفصل عن حزب الشيوعي الرئيسي (حزب الشعب الديمقراطي) عام ١٣٨٨ هـ برئاسة طاهر بدخشي.

٢ ـ الحركة الإسلامية:

تأسّست بتوجيهٍ من غلام محمد نيازي، وكان من اعضائها البارزين برهان الدين ربّاني، وعبد رب الرسول سيّاف، قلب الدين حكمتيار، وعبد الرحيم نيازي، وحبيب الرحمن، ثم تفككت، وتشكّلت عدة أحزابٍ وجمعيات إسلامية، بعضها انفصل عنها، وبعضها تأسس من البداية مستقلاً وحده، ودون أن يكون له ارتباط سابق مع غيره، ومن هذه الأحزاب:

أ ـ **الحزب الإسلامي**: وتأسّس عام ١٣٩٨ هـ، وأوسع مجالات عمله في ولايات: ننغرهار، وباكتيا، وقُندهار، ويرأسه محمد يونس

خالص[1]. وقد انفصل بجماعته عن جماعة قلب الدين حكمتيار، وإن بقيت كل جماعةٍ تحمل اسم الحزب نفسه «الحزب الإسلامي».

ب ـ **الحزب الإسلامي**: ورئيسه قلب الدين حكمتيار[2]، وهو من قبيلة البشتو، وانشق الحزب عن سابقه، وبقي كلاهما يحمل الاسم نفسه.

جـ ـ **الجمعية الإسلامية**: ورئيسها برهان الدين ربّاني[3]، ومعظم أعضاء الجمعية من المناطق الشمالية، من العناصر الفارسية (الطاجيك) والعناصر التركية (الأوزبك) و (التركمان). تأسّست الجمعية عام ١٣٩٥ هـ.

د ـ **الاتحاد الإسلامي**: ورئيسه عبد رب الرسول سياف[4]، وتأسس عام ١٤٠١ هـ، ويعدّ أكثر الجمعيات والأحزاب الأفغانية صلةً بالحركة الإسلامية في البلدان العربية.

---

(١) محمد يونس خالص: من مواليد ١٣٣٨ هـ، وأسرته أهل علم، ودرس على والده، وخاله، وأصبح عام ١٣٧٠ هـ مدرساً وخطيباً، ثم عمل في وزارة الإعلام فكانت له برامج في تفسير القرآن الكريم في إذاعة كابول.

(٢) قلب الدين حكمتيار: من ولاية قندوز، ولد عام ١٣٦٨ هـ، ودرس الهندسة في جامعة كابول، وشغل منصب وزير الخارجية في حكومة المجاهدين الانتقالية الثانية، ثم علّق عضويته في الحكومة الموّقته في شهر صفر من عام ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م)، واشترط العودة إلى الوزارة الشروع في الانتخابات العامة. استشهد أبوه، وأخواه، وأعمامه الثلاثة، ويعيش في بيشاور مع أمه وأولاده الأربعة.

(٣) برهان الدين رباني: ولد عام ١٣٦٠ هـ، ودرس الشريعة في جامعة كابل. وتابع دراسته العليا في مصر، ونال الدكتوراه، ورجع للتدريس في جامعة كابول في كلية الشريعة، وساهم مع غلام محمد نيازي عميد كلية الشريعة في تأسيس حركة الشباب المسلم في الجامعة. ويشغل الآن منصب وزير الإعمار في حكومة المجاهدين الموّقتة الثانية.

(٤) عبد رب الرسول سياف: ولد عام ١٣٦٥ هـ، درس في جامعة كابول، وأكمل دراسته العليا في القاهرة، ورجع ليدرس في جامعة كابول، وسجن ست سنوات في عهد محمد داود، ومحمد تراقي، ثم هرب من السجن، والتحق بصفوف المجاهدين، وترأس اتحاد المجاهدين مرتين، ثم أسّس الاتحاد الإسلامي عام ١٤٠١ هـ. وهو الآن يشغل منصب رئيس حكومة المجاهدين الموقتة الثانية.

وتعدّ هذه الأحزاب الأربعة ذات فكرٍ متقاربٍ، وتوجّهٍ أقرب إلى الإسلام. ومع ذلك فإن أعنف الخلافات تقع بين هذه الجماعات.

ثم هناك ثلاثة أحزابٍ أخرى تُشكّل مع سابقتها مجلس الائتلاف السباعي، وهذه الأحزاب الثلاثة تظهر عليها ملامح الفكر القومي، وهي:

هـ ـ **الجبهة الإسلامية الوطنية**: ويرأسها أحمد الجيلاني، الذي هو من مواليد ١٣٥١ هـ، وكان أبوه صوفياً، ودرس أحمد الجيلاني في كلية الشريعة في القاهرة، وتخرّج منها. ويُؤيّد عودة الملك السابق محمد ظاهر شاه. وتضمّ الجبهة كثيراً من الرجال من ذوي الاتجاه غير الإسلامي. وتُعرف هذه الجبهة محلياً باسم «جبهة محاز محلي».

و ـ **جبهة التحرير الوطنية الأفغانية**: وتعرف محلياً باسم «جبهة نجاة ملي»، ويرأس الجبهة صبغة الله المجددي[1]، وقد تأسست عام ١٣٩٨ هـ، وساحة نشاطها في المناطق الشرقية.

ز ـ **حركة الانقلاب الإسلامي**: وتأسست عام ١٣٩٨ هـ، ويرأسها محمد نبي المحمدي[2].

وتشكل هذه الأحزاب والجمعيات السابقة مجلس الائتلاف السباعي

---

(١) صبغة الله المجددي: ولد عام ١٣٤٣ هـ، وينتمي إلى أسرة تتسلّم مشيخة الطريقة النقشبندية الصوفية، تعلّم بالأزهر في مصر. وغدا عالماً معروفاً في أفغانستان، وسجن عدة مراتٍ في العهد الملكي، ومع ذلك فليس عنده من مانعٍ في عودة الملك السابق محمد ظاهر شاه. له صلة بالمؤسسات الغربية العاملة في نشاط الإغاثة، وخاصةً السويدية منها، ويتسلّم رئاسة الدولة باسم المجاهدين.

(٢) محمد نبي المحمدي: ولد عام ١٣٤٤ هـ، درس الشريعة والفلسفة وتخرج عام ١٣٦٦ هـ، عيّنه علماء (لوغر) وكيلاً لمجلس الشعب عام ١٣٩٠ هـ، عمل إماماً لمسجدٍ في (كويتا)، ويُؤيّد عودة الملك السابق، وهو من أتباع الطريقة الصوفية النقشبندية.

للمجاهدين الأفغان، غير أنه توجد مجموعات أخرى على الساحة خارج الائتلاف، وتُعدّ جماعات من الدرجة الثانية وهي:

أ ـ مجموعة جميل الرحمن: ويدعو أميرها إلى تطبيق القرآن والسنة، ويقول بالدعوة السلفية، وتعدّ منطقة «كونار» أوسع ساحات عمل هذه الجماعة.

ب ـ مجموعة نصر الله منصور.

جـ ـ مجموعة قاضي محمد أمين: وكان قائد هذه المجموعة من قادة الحزب الإسلامي، ثم انفصل بجماعته عنه، وله صلة مع المنظمات الشيعية.

المنظمات الشيعية:

توجد ثمان منظمات شيعية في بلاد الأفغان رغم أن نسبة الشيعة لا تزيد على ١٠ ٪ ـ كما مر معنا ـ وتعود كثرة عدد هذه المنظمات لإيهام الناس بارتفاع نسبة الشيعة في أفغانستان، ولمشاركتهم في السلطة فيما إذا وفق الله المجاهدين، وتسلّموا الأمر وانتصروا على أعداء الأمة. وهذه المنظمات صغيرة، وليس لها دور في الجهاد، وهي:

١ ـ حركة باسدران جهاد: ويُمثّلها آية الله عقفي إحساني.
٢ ـ جبهة متحدة: ويُمثّلها آية الله عالمي.
٣ ـ حزب حركة إسلامي: ويمثله محمد آصف محسني.
٤ ـ نيروري إسلامي أفغانستان: ويمثلها سيد آغاي هاشم.
٥ ـ حزب سازمان نصر: ويمثله عبدالكريم خليلي.
٦ ـ دعوة اتحاد إسلامي: ويمثّلها آية الله محمد حسين غزنوي.
٧ ـ حزب النهضة: ويمثله آية الله افتخاري أخلاقي دكي.
٨ ـ حزب الله: ويمثله قاري أحمد.

وأفراد هذه المنظمات من قبائل الهزارة، وقليل منها من الطاجيك

والبشتو. وتتخذ سبع منظمات طهران مقراً لها، أما الثامنة وهي: حزب حركة إسلامي، وأكثر أعضائه من قبيلة البشتو من الشيعة فيتخذ من مدينة بيشاور في باكستان مقراً له. وقد اندمجت هذه الأحزاب الشيعية بعضها مع بعض عام ١٤١٠ هـ في حزبٍ واحدٍ هو حزب «الوحدة الإسلامية».

يقوم صراع بين المسلمين الملتزمين وبين غيرهم من أهل الزيغ والهوى الذين ساروا وراء النصارى من الروس والإنكليز والأمريكان وغيرهم، وقد دعم الروس أعوانهم فغزوا البلاد ودخلوها، وقاموا بقتل خصومهم، والعمل على إبادتهم واستعملوا وسائل القتل الجماعي المحرّمة دولياً، كما ارتكبوا مختلف الجرائم من سلبٍ ونهبٍ واغتصابٍ وهتكٍ للأعراض، ووقف الآخرون ساكتين يتفرّجون ما يحلّ بالمسلمين، وقد وجد أعوان الغرب وأتباع الشرق راحةً لما يجري مع أنه يجري قتل أبناء وطنهم بل وأبناء قبائلهم، وجيرانهم وأقربائهم فالصراع عقيدي بين الإيمان والكفر على مختلف عناوينه.

ويقوم صراع بين المسلمين (السنة) مع الشيعة فالمسلمون يُجاهدون، والشيعة لا يُشاركون مشاركةً فعّالةً غير أنهم يدّعون ذلك، ويعملون على المشاركة بالغنم إن تمّ ـ بإذن الله ـ وهؤلاء يُقيمون في بشاور في باكستان وأولئك يُقيمون في طهران في إيران، فالصراع عقيدي وسياسي.

ويجري صراع بين المسلمين الملتزمين تماماً وبين المسلمين أصحاب العاطفة الإسلامية الذين عندهم مرونة في التطبيق وسياسة الحكم، فمحمد ظاهر شاه لا يُقبل إسلامياً لاستلام الأمر وله ماضٍ غير سليم ولم يُعلن توبته وتبرؤه مما سبق له أن فعل، وهذا ما يحدث بين أطراف ائتلاف المجاهدين السباعي إذ تُؤيّد فئة محمد ظاهر شاه وعودته إلى سدة الرئاسة وترفض فئة أخرى، وهي على حقّ، فالصراع عقيدي فكري.

ويدور صراع بين المسلمين الملتزمين أنفسهم على السيادة

والمصلحة، وتقع معارك بين الطرفين ـ مع الأسف ـ ولم يحصلوا على النصر بعد. ولكن السلاح بأيديهم، ولا شك أن هناك أيد خفية تعمل في الظلام، ولكن هذا لا يبرر ما يجري على الساحة من قتالٍ. فنرجو من الله أن يلهمهم الصبر والاستعانة بالله، والرجوع إلى الحق، والإخلاص، والنظر إلى مصلحة الأمة.

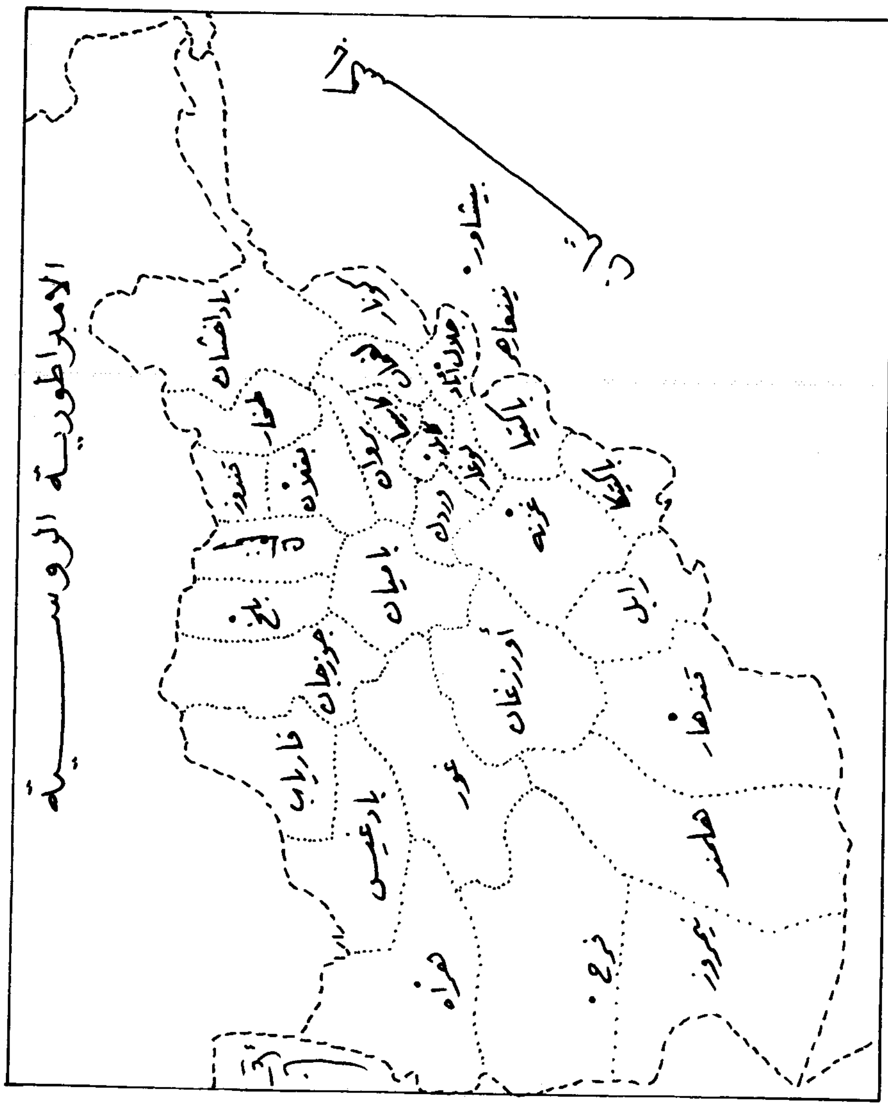
الإمبراطورية الروسية
بدخشان
تخار
قندوز
بغلان
بلخ
جوزجان
فارياب
بادغيس
هراة
غور
أورزجان
باميان
غزنة
زابل
قندهار
هلمند
نيمروز
فراه
بكتيا
ننجرهار
بيشاور
وردك

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

أفغانستان

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

التاريخ الإسلامي

١ ـ قبل البعثة.
٢ ـ السيرة.
٣ ـ الخلفاء الراشدون.
٤ ـ العهد الأموي.
٥ ـ الدولة العباسية (١).
٦ ـ الدولة العباسية (٢).
٧ ـ العهد المملوكي.
٨ ـ العهد العثماني.
٩ ـ مفاهيم حول الحكم الإسلامي.

* * *

التاريخ الإسلامي المعاصر:

١٠ ـ بلاد الشام.
١١ ـ بلاد العراق.
١٢ ـ جزيرة العرب.
١٣ ـ وادي النيل.
١٤ ـ بلاد المغرب.
١٥ ـ غربي إفريقية.
١٦ ـ وسط وشرقي إفريقية.
١٧ ـ تركيا.
١٨ ـ إيران وأفغانستان.
١٩ ـ بلاد الهند.
٢٠ ـ جنوب شرقي آسيا.
٢١ ـ المسلمون في الإمبراطورية الروسية.
٢٢ ـ الأقليات المسلمة في العالم.

* * *

سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية

(في آسيا)

١ ـ تركستان الغربية.

٢ ـ تركستان الشرقية.

٣ ـ قفقاسيا.

٤ ـ باكستان.

٥ ـ أندونيسيا.

٦ ـ اتحاد ماليزيا.

٧ ـ فطاني.

٨ ـ المسلمون في قبرص.

٩ ـ المسلمون في الفيليبين ودولة مورو.

١٠ ـ جزر المالديف.

١١ ـ أفغانستان.

١٢ ـ تركية.

١٣ ـ إيران.

١٤ ـ شبه جزيرة العرب.

- عسير.
- نجد.
- الحجاز.
- البحرين والإحساء والكويت وقطر.

١٥ ـ المسلمون في الهند الصينية.

١٦ ـ خراسان.

(في إفريقية)

١ ـ غينيا.

٢ ـ نيجيريا.

٣ ـ الصومال.

٤ ـ موريتانيا.

٥ ـ أريترية والحبشة.

٦ ـ تشاد.

٧ ـ تانزانيا.

٨ ـ السنغال.

٩ ـ أوغندة.

١٠ ـ ليبيا.

١١ ـ السودان.

١٢ ـ جزائر القُمُر.

١٣ ـ المسلمون في بورندي.

١٤ ـ مالي.

١٥ ـ سيراليون.

بُناة دولة الإسلام ١ ـ ٦:

المجموعة الأولى: (١ ـ ١٠)

١ ـ أبو سُبرة ابن أبي رُهْم.
٢ ـ أبو سلمة عبد الله المخزومي.
٣ ـ عبد الله بن جحش.
٤ ـ الزبير بن العوام.
٥ ـ زهير ابن أبي أمية.
٦ ـ سهيل بن عمرو.
٧ ـ سعد بن معاذ.
٨ ـ عباد بن بشر.
٩ ـ محمد بن مسلمة.
١٠ ـ أسيد بن الحضير.

المجموعة الثانية: (١١ ـ ٢٠)

١١ ـ الفضل بن العباس.
١٢ ـ جعفر ابن أبي طالب.
١٣ ـ عبد الله بن الزبير.
١٤ ـ عبد الله بن حذافة.
١٥ ـ المقداد بن عمرو.
١٦ ـ عقيل ابن أبي طالب.
١٧ ـ صخر بن حرب.
١٨ ـ زيد بن حارثة.
١٩ ـ أبو العاص ابن ربيع.
٢٠ ـ ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة: (٢١ ـ ٣٠)

٢١ ـ العباس بن عبد المطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبد الله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حذيفة ابن عتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة ابن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

المجموعة الرابعة: (٣١ ـ ٤٠)

٣١ ـ مصعب بن عمير.
٣٢ ـ كعب بن مالك.
٣٣ ـ أبو أيوب الأنصاري.
٣٤ ـ سعد ابن أبي وقاص.
٣٥ ـ حمزة بن عبد المطلب.
٣٦ ـ عاصم بن ثابت.
٣٧ ـ عبد الله بن عبد الله.
٣٨ ـ طلحة بن عبيد الله.
٣٩ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.
٤٠ ـ أبو دجانة سماك بن خرشة.

المجموعة الخامسة: (٤١ ـ ٥٠)

٤١ ـ عمرو بن العاص.

٤٢ ـ عكرمة بن عمرو بن هشام.

٤٣ ـ شرحبيل بن حسنة.

٤٤ ـ أبو موسى الأشعري.

٤٥ ـ عياض بن غنم.

٤٦ ـ جرير بن عبد الله البجلي.

٤٧ ـ المثنى بن حارثة الشيباني.

٤٨ ـ خالد بن الوليد المخزومي.

٤٩ ـ عدي بن حاتم الطائي.

٥٠ ـ ثمامة بن أثال.

المجموعة السادسة: (٥١ ـ ٦٠)

٥١ ـ خبّاب بن الأرتّ.

٥٢ ـ صُهيب بن سنان.

٥٣ ـ بلال بن رباح.

٥٤ ـ عمار بن ياسر.

٥٥ ـ عامر بن فُهيرة.

٥٦ ـ مرثد ابن أبي مرثد.

٥٧ ـ سلمان الفارسي.

٥٨ ـ أبو ذر الغفاري.

٥٩ ـ عبد الله بن مسعود.

٦٠ ـ عبد الرحمن بن عوف.

* * *

المجموعة السابعة: (٦١ ـ ٧٠)

٦١ ـ أنس بن مالك.

٦٢ ـ البراء بن مالك.

٦٣ ـ جابر بن عبد الله.

٦٤ ـ الطُّفيل بن عمرو الدّوسي.

٦٥ ـ أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر.

٦٦ ـ أبو أُمامة أسعد بن زُرارة.

٦٧ ـ عُتبة بن غزوان.

٦٨ ـ معاذ بن جبل.

٦٩ ـ زيد بن ثابت.

٧٠ ـ أُبي بن كعب.

التاريخ الإسلامي

- ١٩ -

التاريخ المعاصر

القارة الهندية

١٣٤٢ - ١٤١١ هـ

١٩٢٤ - ١٩٩١ م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

-١٩-

التاريخ المعاصر

القارة الهندية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين محمد بن عبدالله، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين *أما بعد* :

فإن أرض الهند تلك الأرض الواسعة المحصورة بين خليج البنغال في الشرق، وبحر العرب في الغرب، والمحيط الهندي في الجنوب، وجبال هيمالايا في الشمال، والمرتفعات الجبلية في الشمال الشرقي، وجبال سليمان وامتداداتها في الشمال الغربي. هذا إضافةً إلى ما يتبعها من جزر، وهي: جزر لكاديف، والمالديف في الغرب، واندمان، ونيكوبار في الشرق، وجزيرة سرنديب «سيلان» في الجنوب.

ولاتساع هذه البلاد فإنه يُطلق عليها اسم «شبه القارة الهندية» إذ تزيد مساحتها على أربعة ملايين وثلاثمائةٍ وستين ألف كيلومتر مربع. وهي شبه جزيرة، إذ يلفّها اليمّ من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية. هذه هي الهند بالاصطلاح الجغرافي، وبالمفهوم العلمي، وبالمعنى الذي عرفه المسلمون عندما كانوا يتحدّثون عنها، وعندما انطلقوا لفتحها. وهذا هو الاسم الشائع حتى قبل تقسيمها ٢٨ رمضان ١٣٦٦ هـ (١٥ آب ١٩٤٧ م). أما بعد هذا التاريخ فإن كلمة «الهند» أصبحت تدلّ على دولةٍ سياسيةٍ بقيت تحمل الاسم الذي كان يُطلق على البلاد كلها قبل التقسيم.

ورغم أن التقسيم قد تمّ، وانفصلت المناطق ذات الأكثرية المسلمة، وشكّلت دولة باكستان، ثم تجزأت باكستان إلى بنغالديش وباكستان، كما استقلت جزر المالديف وسكانها جميعاً من المسلمين، ومع هذا فقد أبقينا «الهند» عنواناً لهذا الكتاب وذلك لـ:

١″ ـ إذا كانت الدول الإسلامية قد انفصلت عن الهند سياسياً إلا أنها بقيت جغرافياً ضمن هذا الاسم. فالتقسيم السياسي لم يخرج هذه الدول عن الدائرة الجغرافية والموقع الفلكي.

٢″ ـ أن الدول الإسلامية الواقعة ضمن هذه التسمية لم ينفصل بعضها عن بعض إلا بعد مرور أكثر من ثلاثٍ وعشرين سنة من المرحلة التي نُورّخ لها... أي بقيت تحت اسم الهند من ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ حتى ٢٨ رمضان ١٣٦٦ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ حتى ١٥ آب ١٩٤٧ م).

٣″ ـ أن كثيراً من العلماء لم يرضوا عن هذا التقسيم، ورأوا فيه ضرراً كبيراً على المسلمين وعلى مستقبل الدعوة.

٤″ ـ أن عدداً كبيراً من المسلمين قد بقي ضمن الجزء الذي حمل اسم «الهند» وتصل نسبتهم إلى ١٢٪ من مجموع السكان، فيزيدون في هذا اليوم على الثمانين مليوناً. وسندرس الأقليات التي بقيت خارج حدود الدول الإسلامية التي نشأت عن تجزئة شبه القارة الهندية في الجزء الثاني والعشرين من هذا الكتاب ـ إن شاء الله ـ.

إن عنوان هذا الكتاب إذن عنوان جغرافي مدة ثلاثٍ وعشرين سنةً من هذه المرحلة، وعنوان سياسي باقي المدة التي تشمل الزمن الذي استمرّ من التقسيم حتى ساعة تدوين هذا الكتاب.

لم تكن بعد التقسيم سوى دولة إسلاميةٍ واحدة هي باكستان، إذ لم تكن سيلان ترتبط بالهند سياسياً رغم أنها ضمن الإطار الهندي الجغرافي الذي تحدّثنا عنه، وكانت جزر المالديف ترتبط سياسياً مع سيلان، ولم يجر

تقسيم الهند حتى تبعه استقلال جزر المالديف عن سيلان فغدت دولتان إسلاميتان مستقلتان ضمن إطار جغرافية الهند.

وبعد مؤامرةٍ دوليةٍ كانت دولة الهند رأس الحربة فيه تجزأت باكستان فانفصل القسم الشرقي فيها عن القسم الغربي، وحمل اسم «بنغالديش» على حين بقي القسم الغربي يحمل اسم «باكستان»، وهكذا أصبحت دول ثلاث مسلمة ضمن إطار جغرافية الهند، وهي: باكستان، وبنغالديش، وجزر المالديف. وعلى هذا ستكون دراستنا على النحو الآتي:

الباب الأول: الهند: **١٣٤٢ ـ ١٣٦٦ هـ (١٩٢٤ ـ ١٩٤٧ م).**

الباب الثاني: ولاية كشمير.

الباب الثالث: باكستان الكبرى: **١٣٦٦ ـ ١٣٩١ هـ (١٩٤٧ ـ ١٩٧٢ م).**

الباب الرابع: باكستان: **١٣٩١ ـ ١٤١٢ هـ (١٩٧٢ ـ ١٩٩٢ م).**

الباب الخامس: بنغالديش: **١٣٩١ ـ ١٤١٢ هـ (١٩٧٢ ـ ١٩٩٢ م).**

الباب السادس: جزر المالديف: **١٣٤٢ ـ ١٤١٢ ـ (١٩٢٤ ـ ١٩٩٢ م).**

فنرجو من الله أن نُوفّق في إعطاء صورةٍ صحيحةٍ عن تاريخ هذه المنطقة من خلال مفهومٍ إسلاميٍ سليمٍ، بعيدين كل البعد عن التفسيرات المغرضة التي تروّجها وسائل الإعلام الأجنبية لإنجاح مخططاتها التي منها قتل الروح المعنوية الإسلامية، وإبعاد الناس عن عقيدتهم، وعن مفهوم الأخوة بين أبناء الأمة الواحدة. والله نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

لمحة عن الهند
قبل إلغاء الخلافة

كان العرب في الجاهلية على صلةٍ مع الهنود، وكانت العلاقة بينهما علاقةً تجاريةً بحتةً لا تتعداها، ومع معرفة العرب للنظام الاجتماعي في الهند[1]، وما فيه من فروقٍ واضحةٍ وتباينٍ غريبٍ إلا أن هذا لم يكن ليهمّهم، أو ليُبالون به، إذ هم على جاهليةٍ، ولكلٍ شأنه في هذه الحياة.

فلما أكرم الله العرب بالإسلام، ووصل إلى الجهات التي كانوا يتعاملون فيها مع الهند، رأوا من واجبهم التوجّه إليهم لإنقاذهم مما هم عليه من الظلم والظلمات فهذه مُهمّة المسلمين في الحياة، وهكذا فرض عليهم الإسلام، فكّروا بهذا ولم تنته بعد الحروب مع فارس والروم، ولم

(١) يقول أبو الحسن علي الحسني الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: أما نظام الطبقات فلم يُعرف في تاريخ أمةٍ من الأمم نظام طبقي أشدّ قسوةً وأعظم فصلاً بين طبقةٍ وطبقةٍ وأشدّ استهانةً بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلّة ونجابتها، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرونٍ ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وأُلّف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد، وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر».

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقاتٍ ممتازةٍ وهي: (١) البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين. (٢) شتري: رجال الحرب. (٣) ويش: رجال الزراعة =

= والتجارة. (٤) شودر: رجال الخدمة. ويقول (منو) مؤلف هذا القانون: (إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم، البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزّع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم (ويد)، أو تقديم النذور للآلهة، وتعاطي الصدقات، وعلى الشتري حراسة الناس، والتصدّق، وتقديم النذور، ودراسة (ويد) والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة (ويد) والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث.

امتيازات طبقة البراهمة: وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وإن ما في العالم هو ملك لهم فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر ـ من غير جريرةٍ ـ ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده. وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاث بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشدّ ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جبايةً أو يأخذ منهم إتاوةً، ولا يصحّ لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشتري فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش وشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير، فيقول «منو»: إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده.

المنبوذون الأشقياء: أما شودر «المنبوذون» فكانوا في المجتمع الهندي ـ بنص هذا القانون المدني الديني ـ أحطّ من البهائم وأذلّ من الكلاب، فيُصرّح القانون بأن «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك» وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدّخروا كنزاً فإن ذلك يُؤذي البراهمة، وإذا مدّ أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فُدعت رجله، وإذا همّ أحد من المنبوذين أن يُجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد، وأما إذا مسّه بيدٍ أو سبّه فيقتلع لسانه، وإذا ادّعى أنه يعلمه سُقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

مركز المرأة في المجتمع الهندي: وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواجٍ فإذا مات زوجها صارت كالموؤودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، =

= وكانت أمة بيت زوجها المتوفَّى وخادم الأحماء، وقد تحرّق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا ـ وكان ذلك تقليداً محترماً فاشياً في الطبقات الشريفة، والمجتمعات الأرستقراطية يعرف بـ «ستي» وكان دليلاً على وفاء الزوجة للزوج وشرفها، وقد قلّ عدد المنتحرات بتأثير الحكومات الإسلامية، وتدخّل الحكام المسلمين، كما صرّح بذلك الرحالة الفرنسي الدكتور «برنير»، حتى ألغاه الإنكليز في العهد الأخير إلغاءً تاماً.

ويقول أبو الحسن علي الحسني الندوي في رسالته «منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء»: إذا سافرتم في القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدّثان ويتلاطفان، فإذا حضر الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب، وهذا وجهه إلى الشرق، بدأ يأكل هذا، وبدأ يأكل ذلك، كأنه لا لقاء بينهما.

ويقول أيضاً أبو الحسن علي الحسني الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن شذوذ ديانة الهند القديمة تحت عنوان «الشهوة الجنسية الجامحة»:

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، فلعلّ المواد الجنسية والمهيّجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلادٍ مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية، وقد تناقلت الكتب الهندية، وتحدّثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله، وعن وقوع الحوادث العظيمة، وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة، وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستكّ منها المسامع ويتندّى لها الجبين حياءً، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المردّدين لهذه الحكايات في إيمانٍ وحماسةٍ دينيةٍ وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر «مهاديو»، وتصويرها في صورةٍ بشعةٍ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وبناتٍ، زد إليه كذلك ما يُحدّث به بعض المؤرخين من أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة، وكان كهنة المعابد الخونة والفسّاق كانوا يرزؤون الراهبات والزائرات في أعزّ ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصّد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارىء ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟ فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكرٍ وركوب كل فاحشةٍ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادةٍ وسيدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة، فتوارى الأدب وتبرقع الحياة...

هكذا أخذت البلاد موجة من الشهوات الجنسية والخلاعة، وأسفّت أخلاق الجنسين إسفافاً كبيراً.

تسّاقط هاتان الدولتان، ويأتي الخوف على المسلمين منهما، إذ أنهما أقوى دولتين في العالم يومذاك، ولطالما عملتا ضدً المسلمين فحرضتا المرتدّين، وجهّزتا الجيوش لمواجهة المجاهدين إذ كانت تخشى زوال سلطانيهما، وذهاب استعباد حكامهما وسدنة معابد ديانتيها للعباد، وخشيةً على الحدّ من إرواء غرائز المتسلّطين عليهما.

وإذا كان الخليفة ورجال الشورى وقادة الفتح منصرفين بكل طاقاتهم وإمكاناتهم لحرب الظلم والاستبداد في الدولتين الكبريين فارس والروم، والعمل على تسهيل نشر الدعوة ومنع الوقوف في وجه الدعاة فإن ولاة المناطق التي كانت تتعامل مع الهند لم يمنعهم مانع من العمل على نشر الإسلام في الهند ورفع الظلم عن أهلها. وكانوا يتوقّعون أن هذا لا يُكلّفهم كثيراً، ولا يُشكّل على الدولة عبئاً يُعرقل عليها القيام بمُهمّتها في نشر الدعوة، ومحاربة المستبدّين الذين يحولون دون ذلك، وكانوا يتصوّرون أنه ما أن تصل إلى مسامع الهنود أنباء الدين الجديد، وما فيه من خيرٍ للبشر، ومن مُساواة حتى يُهرع إليه أبناء الطبقات كلها دون البراهمة الذين قد يقاومون الإسلام حرصاً على نفوذهم ومصالحهم.

أيام الراشدين:

تولّى عثمان بن أبي العاص الثقفي عام ١٥ للهجرة أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أمر البحرين وعُمان، فوجّه أخاه الحكم إلى البحرين، وسار هو إلى عُمان، ولم يلبث أن وجّه أخاه الحكم في جيشٍ إلى(تانه) شمال مدينة بومباي.

وأعاد عثمان بن أبي العاص الثقفي أخاه الحكم مرةً ثانية بجيش إلى (بروص) في مقاطعة (كوجرات) شمال (سورت)، فلقي الحكم العدو، وانتصر عليه. و(بروص) ميناء قديم فقد أهميته مع الزمن.

ووجّه عثمان بن أبي العاص الثقفي أخاه الآخر (المغيرة) إلى (الديبل) على مقربةٍ من مدينة كراتشي اليوم.

وسار كذلك الحكم بن عمرو التغلبي بجيشٍ إلى (مكران) من بلاد فارس ففتحها، وفرّ أهلها حتى وصل بعضهم إلى وادي نهر السند، وكان في هذا الجيش عبدالله بن عبدالله بن عتبان الأنصاري، وسهيل بن عدي بن مالك الأنصاري، وشهاب بن المخارق. وبعث الحكم بن أبي العاص الثقفي بشارة الفتح إلى الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وبعث إليه بالأخماس مع صحارٍ العبدي.

وفي عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بعث والي العراق عبدالله بن عامر بن كريز إلى الهند حكيم بن جبلة العبدي فظفر، وكانت دولة فارس قد انهارت وانتهت، ودولة الروم قد هُزمت، وقبعت تترقّب. فلما رجع حكيم بن جبلة العبدي من الغزو أرسله والي العراق عبد الله بن عامر بن كريز إلى الخليفة، فلما وصل إليه طلب منه أن يصف له الهند، فقال: ماؤها وشل[1]، وثمارها دقل[2]، ولصّها بطل، إن قلّ فيها الجيش ضاعوا، وإن كثروا جاعوا و. . . فطلب الخليفة من ولاته على المشرق عدم غزو الهند بعدها.

وأرسل الخليفة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، إلى بلاد السند (تاغر بن دعر) عام ٣٨ هـ، فوصل إلى بلاد القيقان، وبعث، رضي الله عنه، في إثره الحارث بن مرة العبدي فظفر وأصاب مغنماً، وذلك في أواخر عام ٣٨ هـ وأوائل العام الذي تلاه، ولكنه قُتل فيما بعد وأكثر من معه عام ٤٢ هـ أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

أيام الدولة الأموية:

استعمل والي العراق عبدالله بن عامر أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، على ثغر الهند عبدالله بن سوار العبدي ففتح بلاد

---

(١) وشل: قليل.
(٢) دقل: رديء.

القيقان، وعاد بعد أن استخلف على الثغر كراز بن أبي كرز العبدي.

وتولّى أمر الثغر راشد بن عمرو فاستشهد عام ٤٢ هـ، فعاد إلى الولاية عبد الله بن سوار العبدي فاستشهد عام ٤٧ هـ، فبعث والي العراق زياد بن أبيه مكانه سنان بن سلمة الهذلي للمرة الثانية ثم تولّى الثغر المنذر بن الجارود العبدي.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ وصل إلى الهند عبّاد بن زياد بن أبيه والي سجستان، وأحرز نصراً. وكذلك أرسل والي خراسان الحكم بن عمرو الغفاري إلى الهند عام ٤٤ هـ المهلب بن أبي صفرة فنال شيئاً من النجاح، وبشكل عام فإن هذه الغزوات كانت على نطاق ضيقٍ نتيجة الظروف التي كانت تعيشها الخلافة الإسلامية في دمشق.

واستقرّت أوضاع الدولة في الشام وتولّى الخلافة عبدالملك بن مروان، فأرسل والي العراق الحجّاج بن يوسف الثقفي الحملة تلو الحملة إلى الهند غير أنها فشلت في بداية الأمر، ثم تكلّلت أخيراً بالنجاح. لقد بعث في البداية سعيد بن أسلم بن زرعة عاملاً له على ثغر السند، غير أنه قُتل، وفرّ قاتلاه وهما: معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي بعد أن غلبا على المنطقة والتجآ إلى ملك السند داهر. ثم أرسل مجاعة بن سُعر التميمي فغلب على الثغر، وفتح بعض المناطق، ووافاه الأجل قبل مرور عام، وخلفه محمد بن هارون بن ذراع النمري، وفي هذه الأثناء اختطف القراصنة الهنود بعض النساء المسلمات، فطلب الحجاج بن يوسف من ملك السند داهر تسليم هذه النساء، فأجاب: أن يده لا تصل إلى القراصنة، فأرسل الحجاج بعض المقاتلين وعلى رأسهم عبيد الله بن نبهان فقُتل، فأرسل آخر، وهو: بُديل بن طهفة البجلي، ولكن الموت وافاه، فرغب الحجاج والي العراق إرسال جيش بإمرة أبي الأسود، فألحّ محمد بن القاسم الثقفي علي الحجاج أن يتولّى هو هذه القيادة، فوافق الحجاج، وعقد له، فسار على رأس ستة آلافٍ، ففتح الديبل (على مقربة من

كراتشي اليوم) عام ٨٩ هـ بعد أن وصل الأسطول الإسلامي وشارك في حصار المدينة، وحطّم محمد بن القاسم الأصنام التي كانت قائمةً ليُدرك أهلها أنها لا تضرّ ولا تنفع، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها، ثم توجّه إلى بيرون (حيدر أباد السند اليوم)، فدخلها، وسار إلى (الملتان) عاصمة الإقليم، ففتحها وقتل الملك داهر عام ٩٦ هـ. ولكن (صيتا) ابنة الملك داهر أرادت الثأر لأبيها، فادّعت أن محمد بن القاسم قد اغتصبها، فعُزل حتى يجري التحقيق معه، وتولّى أمر السند يزيد بن أبي كبشة، ولكنه لم يلبث في الإمرة سوى ثمانية عشر يوماً. ونقل محمد بن القاسم إلى واسط، حيث سُجن هناك، وقُتل على يد أحد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبدالرحمن الذي اتصل بـ (صيتا) حيث كانت في دمشق في دار الشيخ صفوان منذ أن أرسلها محمد بن القاسم أسيرةً. وأخيراً أنّب (صيتا) ضميرها فاعترفت للخليفة سليمان بن عبدالملك أنها افترت على محمد بن القاسم، وأن ما سبق أن ادعته لم يكن إلّا كذباً، فأمر بقتلها لأنها كانت سبب قتل القائد محمد بن القاسم.

اضطرب حبل الأمن في السند منذ أن تركها محمد بن القاسم، وتوفّي يزيد بن أبي كبشة، واستعاد أبناء الملك داهر بعض المدن من أيدي المسلمين.

وفي أيام الخليفة عمر بن عبدالعزيز، رحمه الله، تولّى أمر السند عمرو بن مسلم الباهلي، أخو قتيبة فاتح بلاد ما وراء النهر، فقوي أمر المسلمين، ودعا الخليفة أمراء الهند إلى الإسلام، ووعدهم بأن يبقوا في مراكزهم، فأسلموا، ومنهم أبناء الملك داهر.

كان ملوك الهند وحكام المقاطعات يخافون على مراكزهم، وكان البراهمة يخشون على امتيازاتهم لذا كان هؤلاء وأولئك يدفعون الطبقات الأخرى القائمة في مجتمعهم، والموجودة حسب قوانينهم وتعاليمهم الدينية لقتال المسلمين مُطلقين الشائعات ضدّ المجاهدين والدعاة، وفي الوقت

نفسه كانوا يحولون دون إطلاع أفـراد الشعب من مختلف الطبقـات على الإسلام وتعاليمه خوفاً من التوجّه نحوه، والدخول فيه، وخاصةً إذا عرفوا المساواة والحرية والتعاون والأخوة التي هي من تعاليم الإسلام ومبادئـه. وهذا ما أخّر انتشار الإسلام، هذا بالإضافة إلى الظروف التي كانت تمرّ بها الدولة الإسلامية.

أيام الدولة العباسية:

انتشرت في السند بعض الأفكار الهدّامة أيام الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، حتى كان الوالي عمرو بن حفص أحمد حملة هـذه الأفكار، لذا فقد عُزل ووُلّيّ مكانه هشام بن عمرو التغلبي، ففتح الملتان وكشمير.

وفي أيام المهدي انتشرت العصبية القبلية أو انتقلت إلى السند من مركز الدولة فـاختلفت القبائـل العربيـة بعضها مـع بعضٍ، فضعف شأن المسلمين هنـاك، واستغلّ الهنـود هـذا الضعف فـاحتلّوا بعض الأجـزاء، وتفككت الولاية، وظهرت الإمارات المستقلّة، شأنها في ذلك شأن الخلافة التي تجـزأت إلى دويلات، وكـان من هذه الإمـارات في السنـد: إمـارة المنصورة، وإمارة الملتان. ثم قامت إمارة (إسماعيلية)، وبقيت حتى قضى عليها محمود الغزنوي وطارد حاكمها أبا الفتـح داود القرمـطي في القرن الخامس الهجري. وحكمت عدة دولٍ إسلاميةٍ في الهند، وهي:

الدولة الغزنويـة:

قلنا أن الدولـة العباسيـة قد تجـزّأت، وقامت عـدة دولٍ رغم بقاء الخلافة في بغداد، وكانت هذه الدول أو الإمارات تعدّ نفسها تابعةً اسمياً للدولة العباسية، ومن هذه الدول: الدولـة السامـانية التي ورثتهـا الدولـة الغزنوية في غزنة التي أعطت الدولة اسمها.

أسّس الدولة الغزنوية سبكتكين، وخلفه ابنه الأصغر إسماعيل، غير أن ابنه الأكبر محمود قد انتزع الحكم من أخيه عام ٣٨٨ هـ، ونذر نفسه

للجهاد في سبيل الله. فدخل الهند عن طريق ممرّ خيبر، وفتح (قنوج) و (كوجرات)، وهدم معبد (سومنات) بعد فتحها، وكان الهنود يعدّون هذا المعبد مكان تناسخ الأرواح، وأن مدّ البحر وجزره صلاةً له. ويعود الفضل في انتشار الإسلام في تلك الأصقاع بعد الله إلى محمود الغزنوي.

خلف محموداً ابنه مسعود ففتح مدينة (بنارس) على نهر الغانج، وبعده ساد الاختلاف، واستمرّ حكم الغزنويين حتى عام ٥٥٥ هـ.

الدولة الغورية:

خلفت الغزنوية، ووصلت إلى البنغال، ولم يحكم من ملوكها سوى شهاب الدين محمد الغوري، ودخل مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي، وجعلها مقرّ حكمه، وعيّن نائباً له على ما وراء نهر الغانج محمد بن بختيار الخلجي فأخذ بيهار، واتخذ مدينة «رانغبور» قاعدة له، ثم استولى على البنغال.

أعتق شهاب الدين محمد الغوري مملوكه قطب الدين أيبك. ومات الغوري عام ٦٠٢ هـ، فورثه قطب الدين أيبك إذ لم يكن للغوري وريث.

دولة قطب الدين أيبك:

اتخذ أيبك مدينة «لاهور» قاعدةً لمملكته، ولم يلبث أن توفي عام ٦٠٧ هـ فخلفه ابنه «آرام شاه»، غير أن ولاته قد استقلّوا بما تحت أيديهم.

دولة إيلتمش:

كان شمس الدين إيلتمش مملوكاً لقطب الدين أيبك، فلما تولّى حكم «لاهور» آرام بن قطب الدين أيبك استقل إيلتمش في مدينة دهلي، وأسّس أسرةً حاكمةً استمرّت في حكمها في مدينة دهلي حتى عام ٦٦٤ هـ، وكان الخلجيون قد استقلّوا في البنغال، ولكن إيلتمش انتزعها منهم.

في العهد المملوكي:

سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ بيد هولاكو قائد المغول، وفرّ أحد أبناء العباسيين إلى مصر حيث التجأ إلى المماليك الذين نصّبوه خليفة اسماً، وحكموا من خلفه بأسماء سلاطين. وقد عُرف ذلك العصر بالعهد المملوكي، وقد استمرّ حتى عام ٩٢٣ هـ عندما دخل العثمانيون مصر، وأخذوا الخلافة لأنفسهم من الخليفة العباسي الذي لم يكن له سوى الاسم.

لقد قامت في الهند في هذا العهد دول ضعيفة، وممالك متعددة في أرجاء الهند ومنها:

١ً ـ في دهلي حكمت:

أ ـ أسرة بلبن (٦٦٤ ـ ٦٨٩ هـ): قامت بعد أسرة إيلتمش التي استمرّت مدة سبعٍ وخمسين سنةً، وكان آخرها ناصر الدين محمود إيلتمش (٦٤٤ ـ ٦٦٤ هـ)، وبعد وفاته خلفه نائبه غياث الدين بلبن، ودام حكمه اثنتين وعشرين سنةً، ولكن لم يحكم حفيده أكثر من سنتين حيث خلع طاعته نائبه جلال الدين فيروز الخلجي.

ب ـ الخلجيون (٦٨٩ ـ ٧٢٠ هـ): وحكموا مدة إحدى وثلاثين سنة، وبدأ ملكهم بجلال الدين فيروز الذي قتله ابن أخيه وزوج ابنته علاء الدين محمد شاه، وتولّى السلطة، وكانت له وقائع مع المغول، ودخل كوجرات، والدكن، وكيرالا في أقصى جنوبي الهند.

وبعد وفاة علاء الدين تولّى دهلي ولده شهاب الدين، وكان صغيراً فاستأثر بالسلطة نائب أبيه على دهلي الذي سجن أولاد سيده أبا بكر، وشادياً وسمل عيونهما، كما سجن أخوهما الثالث مباركاً ثم لم يلبث أن قُتل النائب، وتسلّم الحكم مبارك باسم قطب الدين مبارك شاه الخلجي، وسجن أخاه شهاب الدين الملك السابق مع بقية إخوته، وأرسل جيوشه إلى غربي الدكن عام ٧١٨ هـ، وإلى كيرالا، وضواحي الهند. واتفق الأمراء

على خلع قطب الدين وتولية ابن أخيه خضر، وكان غلاماً لم يتجاوز العاشرة من عمره، فأسرع قطب الدين وقتل الغلام، كما قتل إخوته ومنهم أبو الغلام.

خاف كبير أمراء قطب الدين وهو ناصرالدين خسروخان على نفسه فأسرع وقتل سيده قطب الدين، وتسلّم السلطة، ولكن المسلمين كرهوه لأنه كان يميل إلى الهندوك، وتمنّوا الخلاص منه. ولما بايعه القادة، رفض غياث الدين تغلق في السند الطاعة، وسار إلى دهلي ودخلها مع أمير الملتان، واستلم الحكم، وهرب ناصر الدين خسروخان

ج ـ **آل تغلق: (٧٢٠ ـ ٨١٥ هـ)**: وحكموا خمسةً وتسعين عاماً، وتوالى على السلطة منهم ثمانية ملوكٍ بدءاً بغياث الدين، وابنه محمد الذي عُرف بأبي مُجاهد، وكان يقتل تارك الصلاة، وقد فتح كيرالا، وأرسل قوةً إلى بلاد الصين فهلك أفرادها في جبال هيمالايا.

وجاء بعده ابن عمه فيروز شاه الذي كان من خيار السلاطين، فبنى المساجد، والمدارس، والحصون، وخلفه حفيده تغلق شاه ولقب نفسه غياث الدين.

اختلفت الأسرة بعدئذ على الحكم، وتباينت أهواء القادة حتى دخل تيمورلنك دهلي عام ٨٠١ هـ، وبقي خمسة عشر يوماً فيها ثم رجع إليها آخر ملوك آل تغلق حتى توفي عام ٨١٥ هـ.

د ـ **آل خضر (٨١٥ ـ ٨٥٥ هـ)**: كان خضر من رجال تيمورلنك في دهلي أثناء مدة وجوده فيها، وهي خمسة عشر يوماً، وقويت شوكته في العاصمة حتى بعد خروج تيمورلنك، وأراد محمود شاه آخر ملوك آل تغلق أن يقضي عليه فلم يستطع لضعفه، فلما مات محمود شاه تربّع خضر على سدّة الحكم، وبقي حتى عام ٨٢٤ هـ.

وخلفه ابنه مبارك شاه، وكان صالحاً، وقُتل بيد أحد الكفرة عام ٨٣٧ هـ، فتسلّم السلطة بعده ابن أخيه محمد شاه بن فريد الذي توفي عام

٨٤٧ هـ، وخلفه ابنه علاء الدين الذي خرج عليه أحد كبار القادة، وهو حاكم (ديبالبور) بهلول اللودي، فلما استعدَّ علاء الدين، وخرج من دهلي إلى (بدايون) لملاقاته دخل بهلول اللودي دهلي، وتسلّم السلطة، وبقي علاء الدين في بدايون حتى توفي عام ٨٥٥ هـ.

هـ ـ اللوديون (٨٥٥ ـ ٩٣٢ هـ): وحكم منهم ثلاثة ملوك أولهم بهلول اللودي، وكان صالحاً محباً للخير، حكم ثمان وثلاثين سنةً، وخلفه ابنه نظام خان، وكان كأبيه خيّراً، وتوفي عام ٩٢٣ هـ، وخلفه ابنه إبراهيم وتغيّرت نفسيته بعد أن آل إليه الأمر، فاتصل القادة والأمراء ببابر شاه التيموري فدخل البلاد، وتسلّم زمام الأمر عام ٩٣٢ هـ، وكان العهد المملوكي قد انتهى في ٩٢٣ هـ.

٢″ ـ في كشمير:

أسس شمس الدين شاه مرزا أسرةً حكمت كشمير مدة قرنين وربع ٧٤٤ ـ ٩٧٠ هـ، وأصله من خراسان، جاء وخدم ملك كشمير الوثني، وأصبح وزير ابن الملك عندما آل إليه الحكم، وزوج امرأة الملك الذي تُوفّي، وأرادت المرأة أن تغدر به فسجنها واستلم السلطة.

٣″ ـ في السند:

تبع الولاة في السند مركز الخلافة الإسلامية في دمشق، ثم في بغداد حتى منتصف القرن الثالث الهجري، ثم تمكّنت أسرة (سومرة) من السيطرة على السند مدة قرنٍ من الزمن، ثم جاءت بعدها أسرة (سمّة) التي كان حكامها يخضعون لملوك دهلي، وقد يستقلّون عنهم أحياناً.

ثم حكمت السند أسرة (ستمكان) التي بقيت في الملك حتى عام ٩٢٧ هـ، وجاءت بعدها أسرة (شاه بيك القندهاري حتى عام ٩٩٥ هـ).

٤″ ـ في الملتان:

كانت البنجاب تتبع ملوك دهلي، فلما ضعف الحكم في دهلي بعد فيروز شاه من آل تغلق، بدأت حملات التتار على البنجاب، فولّى السكان

عليهم الشيخ يوسف عام ٨٤٧ هـ، غير أن كبير الجند رفض هذا، وقبض على الشيخ يوسف وسجنه، واستلم الأمر، ولقّب نفسه (قطب الدين لنكاه) وحكم أبناؤه من بعده حتى دخل بابر شاه التيموري الهند فضمّ الملتان إلى بلاد السند.

٥" ـ في كوجرات:

كانت كوجرات تتبع ملوك دهلي، ثم استقلّ حكامها في أواخر حكم آل تغلق عام ٨١٠ هـ. وكان أول حكامها المستقلين ظفر خان بن وجيه الدهلوي، وخلفه ابنه أحمد الذي أسّس مدينة أحمد أباد كبرى مدن كوجرات اليوم، وتوارث الأبناء الملك، واصطدموا مع المستعمرين البرتغاليين، وقتل أحدهم عام ٩٤٣ هـ، واستمرت السلطة بأيديهم حتى عام ٩٩٥ هـ.

٦" ـ في جانبور:

كانت جانبور تتبع دهلي، ثم استقلّ فيها خواجه جهان سرور عام ٧٩٦ هـ في أيام محمود شاه آخر ملوك آل تغلق، وكان استقلاله ذاتياً، وتوفي عام ٨٠٢ هـ، وخلفه مولاه (قرنفل) بناءً على عهدٍ من خواجه جهان سرور، ولقّب قرنفل نفسه مبارك شاه، وقطع الخطبة عن آل تغلق، وتوفي ٨٠٤ هـ، وخلفه أخوه إبراهيم، وكان صاحب دينٍ وخلقٍ، واصطدم مع حكام دهلي، وتوفي عام ٨٤٤ هـ، وورثه أبناؤه، وانتهى حكم الأسرة عام ٨٨١ هـ.

٧" ـ في البنغال:

فتحت البنغال عام ٥٩٩ هـ، وحكمها الخلجيون، واستقلّوا فيها، ولكن وقع الخلاف بينهم وبين ملوك دهلي، فعادت تتبع دهلي عام ٦٢٤ هـ.

وجاء التتار إلى البنغال عن طريق التبت عام ٦٤٦ هـ، فأخرجهم منها حكام دهلي. وعادت البنغال في تبعيتها إلى دهلي حتى عام ٦٦٤ هـ حيث

خلع حاكمها طغرل طاعة ملك دهلي غياث الدين بلبن، وتوالى عليها الحكام، وأخيراً تجزّأت، وحكمها حسين بن أشرف الحسيني وأبناؤه من بعده حتى عام ٩٤٥ هـ، ثم شيرشاه السوري.

وعادت إلى الوحدة على يد الحاج إلياس الذي تلقّب باسم شمس الدين، واصطدم مع ملوك دهلي، وورثه أبناؤه من بعده حتى عام ٧٨٥ هـ، إذ كان آخرهم شمس الدين أيضاً ضعيفاً فغلب عليه أحد أمرائه من الوثنيين مدة سنتين، وتولى بعده ابنه الذي أعلن إسلامه وتسمى باسم جلال الدين. وتعدّد الملوك على البنغال، وكل من أصلٍ يختلف عن أصل سابقه وعن أسرته.

٨" ـ في الدكن:

الدكن هضبة وسط الهند تشغل أكثره، وولّى الأمراء الذين وصلوا إلى المنطقة عليهم إسماعيل الفتح الأفغاني، وجرت حروب بينهم وبين محمد شاه تغلق، فانتصروا عليه، وقادهم في تلك الحرب علاء الدين البهمني الذي كان قد أقطعه محمد شاه تغلق بعض القرى في الدكن.

استولى علاء الدين على كل ما فتحه المسلمون في الدكن، وقاتل كيرالا، ويعدّ أول من استعمل الوثنيين في الأمور المالية، وتوارث أبناؤه الحكم من بعده حتى ٩٣٤ هـ. وكان في الدكن عدة ممالك، ومنها:

أ ـ ملوك خانديس: استقل أحمد بن محمد العمري عن دهلي، وكان قد حصل على بعض الإقطاعات من فيروز شاه من آل تغلق ملك دهلي وذلك عام ٧٨٤ هـ، وأسّس أسرةً حكمت المنطقة حتى عام ١٠٠٩ هـ.

ب ـ ملوك مالوه: كان إقليم (مالوه) يتبع دهلي حتى عام ٧٩٦ هـ، أيّام محمد شاه بن فيروز آل تغلق، حيث أعطي هذا الإقليم إلى حسين الغوري، ولقبه دولارخان، فلما ضعف الحكم في دهلي استقلّ دولارخان

في إقليم (مالوه)، وأسّس أسرةً حكمت الإقليم مدة خمسٍ وثلاثين سنة من ٨٠٤ - ٨٣٩ هـ، وتوالى عليها ثلاثة ملوكٍ.

وكان آخر ملوك أسرة حسين الغوري هو محمد شاه، وقد جعل الأمر لمحمود بن المغيث الخلجي، وانصرف هو إلى اللهو، فقُتل الغوري، وتسلّم الأمر الخلجي، وتوارث أبناؤه الحكم حتى تبع الإقليم إلى كوجرات عام ٩٢١ هـ.

ج - ملوك بيجابور: استقلّ عادل شاه عن الدكن عام ٨٩٥ هـ، ويقال إنه من بني عثمان الذين يحكمون الأناضول ونشر المذهب الشيعي، وبقيت أسرته تحكم الإقليم حتى عام ١٠٩٧ هـ، ولكن أحد ملوكها وهو إبراهيم بن إسماعيل، قد ترك الشيعة ورجع إلى الإسلام.

د - ملوك أحمد نكر: أسلم أحد البراهميين، وحسن إسلامه، فأطلق عليه الملك اسم نظام الملك، وأقطع ابنه أحمد الإقطاعات، وقُتل نظام الملك، واستقل ابنه أحمد بما تحت يده، وأسّس مدينة نكر، وجعلها قاعدة حكمه عام ٩٠٠ هـ، واعتنق ابنه برهان الشيعة، واستمرّت هذه المملكة حتى عام ١٠٤٢ هـ.

هـ - ملوك كلكندة وحيدر أباد: ولّى ملك الدكن محمد شاه البهمني (٧٥٩ - ٧٧٦ هـ) أحد غلمانه التركي الأصل منطقة (تلنكانه)، ولقبه قطب الدين، فقاتل البراهميين، وفتح المناطق، وأحسن صنعاً، ثم استقلّ بما تحت يده، وجعل (كلكنده) مقرّ حكمه عام ٩١٨ هـ، وأسّس حفيده حيدرأباد، ونقل مقرّه إليها عام ٩٨٩ هـ، وبقيت هذه الأسرة حتى عام ١٠٩٦ هـ.

و - ملوك برار: استقلّ في برار (عمادالملك) عام ٨٩٢ هـ، وتوالى أبناؤها في حكمها حتى نهاية القرن العاشر.

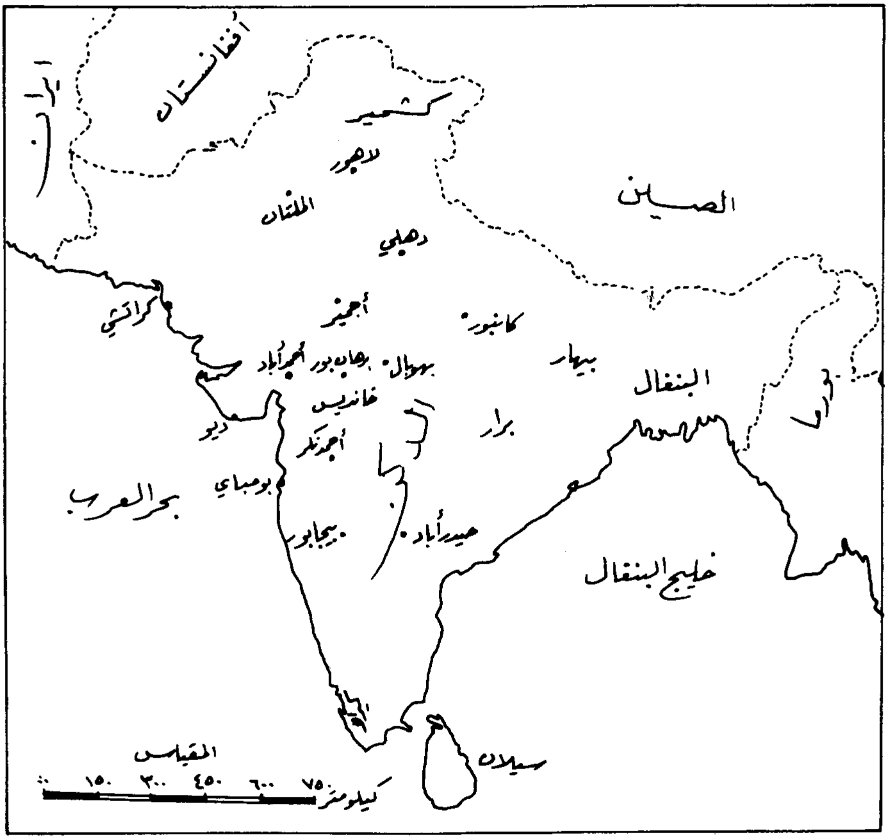
أفغانستان
إيران
كشمير
لاهور
الملتان
دهلي
الصين
أجمير
كراتشي
كانبور
بيهار
البنغال
بهوبال
أحمدآباد
خانديس
ديو
أحمدنكر
برار
بومباي
بحر العرب
بيجابور
حيدرآباد
خليج البنغال
سيلان
المقياس
٠ ١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ ٦٠٠ ٧٥٠ كيلومتر

في العهد العثماني:

عُرف التاريخ الإسلامي بالعهد العثماني منذ أن فتح السلطان العثماني مصر، وتنازل له الخليفة العباسي فيها عن الخلافة عام ٩٢٣ هـ، وحتى إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٣٤٢ هـ. وفي هذا العهد أربع نقاطٍ بارزة في تاريخ الهند، وهي: ١" ـ دخول الأسرة التيمورية واستلامها الأمر. ٢" ـ الاستعمار. ٣" ـ الثورة الإسلامية. ٤" ـ الصراع بين المسلمين والهنادك.

١" ـ الأسرة التيمورية:

كان أحد أحفاد تيمورلنك وهو محمد بابر شاه يحكم غزنة في بلاد الأفغان، بينما كانت الأسرة اللودية تحكم دهلي، وكان أفراد منها بعضهم على خلافٍ مع بعض، وتمكّن أحدهم وهو إبراهيم أن ينتصر على منافسيه، فأظهروا له الطاعة، واتصلوا مع محمد بابر شاه (ظهير الدين)، وطلبوا منه السير إلى الهند، فلبّى الطلب، ودخل لاهور عام ٩٣٠ هـ، واشتبك مع قوات إبراهيم اللودي التي يقودها بنفسه في معركةٍ طاحنةٍ قُتل إبراهيم فيها، وتقدّم ظهيرالدين، وجعل مقرّ حكمه مدينة (أغره) وذلك عام ٩٣٢ هـ.

وقف في وجه ظهيرالدين محمد بابر شاه الراجبوت وأمراء اللوديين، وأعلن محمود خان أخو إبراهيم نفسه سلطاناً، وشكّلوا حلفاً ضدّ ظهيرالدين، فأعلن الجهاد ضد الكفرة من براهميين وغيرهم ومن يتعاون معهم، وبدأ بنفسه فأعلن التوبة من المعاصي، فأطاعه الناس، وحارب خصومه وانتصر عليهم، وبعدها أعلن التسامح الديني كي يتمكّن من فرض السيطرة، وتوالى أبناؤه في الحكم من بعده، وأخذ حفيده محمود جلال الدين (أكبر شاه) السلطة وحاول أن يوجد ديناً جديداً مزيجاً من الإسلام والبراهمية والبوذية والزرداشتية ليتمكّن من حكم الهند، ورأى أن يكون الدين كاللغة التي انتشرت أيام المغول، وهي لغة الأردو، التي هي مزيج من التركية، والفارسية، والعربية، وبعض الكلمات الأجنبية، وذلك عام ٩٨٦ هـ، بل

وظنّ البرتغاليون النصارى أنه بإمكانهم تحويله إلى الديانة النصرانية، غير أنهم لم يستطيعوا ذلك، وكان قد وضع معلماً منهم لولده سليم. وقد أمر بمنع ذبح الأبقار، والسماح بالزواج من البراهميات وزواج البراهميين من المسلمات. ولما تولّى السلطة (محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير) عام ١٠٦٩ هـ عمل على تدوين الفقه، وأبطل ما ابتدعه (أكبر شاه)، ووسّع ملكه، وكان صالحاً، غير أن ابنه من بعده (قطب الدين محمد معظم بهادورشاه) قد اتخذ الشيعة مذهباً له، وعظمت قوة السيخ والهندوك في عهده، وأخذت الدولة تميل نحو الضعف، ثم أخذت تستقلّ المقاطعات، إذ استقلّت الدكن، وسيطر السيخ على البنجاب، وغلب المهراتا على كوجرات، واستقلّت (أوده) بين بيهار وقنوج، وانفصلت البنغال.

وكان آخر ملوك الأسرة التيمورية (بهادور شاه) ويُكنّى أبا ظفر، وفي أيامه حدثت الثورة عام ١٢٧٣ هـ.

٢ʺ ـ الاستعمار:

في الوقت الذي كانت الدولة التيمورية تُسيطر على الهند كان المستعمرون الصليبيون يصلون إلى السواحل الهندية. لقد وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند الغربية، وأقاموا بعض المراكز فيها، وانتصروا على الأمراء المسلمين وعلى حلفائهم من المماليك الذين استنجدوا بهم، ولكن أمراء المسلمين عادوا فاستنجدوا بالعثمانيين الذين حلّوا محلّ المماليك في حكم مصر، وسواحل البحر الأحمر، وانتصر العثمانيون على البرتغاليين غير أن أمراء المسلمين في الهند كانوا على خلافٍ بعضهم مع بعضٍ، فاستعان جانب منهم بالبرتغاليين ضدّ الجانب الآخر، كما ظنّ بعض أولئك الأمراء سوءاً بالعثمانيين، ومنعوا عنهم المؤن فاضطروا إلى المغادرة. وسيطر البرتغاليون على بعض المراكز، ثم فرضوا سيطرتهم على المحيط كله، وأصبحت التجارة بأيديهم.

وجاء الهولنديون أيضاً إلى المنطقة ورفعوا أسعار التوابل، وتبعهم

الإنكليز منافسين لهم، وأسّسوا شركةً تجاريةً تتعامل مع الهند مباشرةً، وحملت أسماء متعددةً في البداية، ثم عُرفت باسم «شركة الهند الشرقية»، وتغلّب الإنكليز على منافسيهم البرتغاليين والهولنديين الذين كانوا يمنعونهم من الولوج إلى الداخل، فلما انتصروا نزلوا في مدينة (مدراس) وتوغّلوا إلى داخل الهند.

وجاء بعدئذٍ الفرنسيون، وساروا على منوال من سبقهم من الصليبيين، وأسّسوا شركةً تجاريةً فرنسيةً، وعملت الشركات الاستعمارية كلها على شراء الأراضي وبناء الحصون إذ كانت المنافسة بينها قويةً، وأخيراً تمكّن الإنكليز من الغلبة والسيطرة على الهند، ولكن بقي للهنادك مملكتان مستقلّتان في الشمال، في سفوح جبال هيمالايا، هما: نيبال، وبوتان.

وبقيت ثلاثة مراكز للبرتغاليين على الساحل الغربي هي: داماn شمال بومباي، وجزيرة ديو، وغوا، ومساحتها كلها ١٨٠٠ كيلومتر مربع.

وبقيت للفرنسيين أربعة مراكز، وهي: بونديشيري، و(غندرنكر) قرب كلكتا، ونياوان، وكاريكال قرب الرأس الجنوبي.

أما المسلمون فلهم السلطة الاسمية حيث يوجد لهم عدد من الممالك والإمارات، وأبرزها المملكة المغولية في دهلي، وممالك كوجرات، والدكن، والبنغال.

٣" ـ السياسة الاستعمارية:

أخذت شركة الهند الشرقية تنقل البضائع من الهند إلى أوروبا، فلما تمّ الانقلاب الصناعي، في أوربا صارت تنقل الصناعات من أوربا إلى الهند، وهذا ما دعاها إلى فتح أسواقٍ جديدةٍ لها في الداخل، وفي الوقت نفسه كانت تفرض سيطرتها على السواحل وتتقاضى على سفن غيرها ضرائب معيّنةً، وانقلبت التجارة إلى استعمار. وتبدّلت ملكية الشركة من أفراد إلى الدولة البريطانية، وتبعت الهند إلى الحكومة مباشرةً.

وجدت إنكلترا أن المسلمين هم حكام الهند ولممالكهم قوة، ولإماراتهم جيوش وحتى يمكنها السيطرة التامة على الهند فلا بدّ من محاربة الحكام، أو لا بدّ لهم من محاربتها إذا أخذت تتصرّف دون الاهتمام بهم، لذا أخذت تتعامل مع البراهميين وتُقرّبهم إليها وتتقرّب منهم، وتدعمهم، وتمدّهم، وترفع من الروح المعنوية لديهم، وخاصةً أن هناك عامل لقاء بين الإنكليز والبراهميين فكلاهما يحقد على المسلمين، الإنكليز يحقدون حقداً صليبياً، ويريدون انتزاع حكم الهند منهم، والبراهميون يحقدون حقداً دينياً ويريدون أخذ السلطة منهم.

أخذ الإنكليز بما لديهم من قوةٍ عسكريةٍ، ومن قوةٍ ماديةٍ يضغطون على المسلمين، وشعر المسلمون بالخطر وأرادوا الوقوف في وجه هذه السياسة، وحصل القتال بين الطرفين في جهاتٍ كثيرةٍ، وجنّد الإنكليز الهنادك ضمن قواتهم. وقع قتال بين حاكم البنغال سراج الدولة وبين القوات الإنكليزية، فانتصر في بداية الأمر سراج الدولة، ودعمه الفرنسيون منافسةً للإنكليز الذين لجأوا إلى الحيلة وشراء النفوس فانتصروا أخيراً مع أن ملك دهلي قد سند سراج الدولة، وتمّت سيطرة الإنكليز على البنغال، وأوريسا، وبيهار.

وجرى قتال بين السلطان «تيبو» ملك (ميسور)، وبين القوات الإنكليزية، فهُزم «تيبو» وخسر كثيراً من أملاكه، وأعادا الكرة فانتصر، ولجأ الإنكليز إلى الحيلة فانتصروا. وهناك ثورة أحمد عرفان الشهيد في البنجاب عام ١٢٤٢ هـ واستمرت حتى استشهد عام ١٢٤٦ هـ.

وأخذ الإنكليز السواحل الشرقية (كروماندل) بالدهاء والشراء، وسيطروا على الهند جزءاً بعد آخر بوسيلةٍ من الوسائل. ولما تمّت سيطرتهم أخذوا يتبعون سياسةً خاصةً إذا استولوا على أوقاف المسلمين التي كانت المصدر الوحيد لتمويل الكتاتيب، فتعطّلت الكتاتيب، فانتشر الجهل، وفي الوقت نفسه سعى الإنكليز في تعليم الهندوس ليسدّوا بهم بعض المراكز

الإداريـة، وليتقـووا بهم على المسلمين، أو ليضـربـوا المسلمين بهم، واستولوا على أحسن أراضي المسلمين بشتى الـوسائـل فانتشـر الفقر بين المسلمين بعدها. وعمّت الإرساليات التنصيرية في سبيل تعليم الهندوس، وتنصيرهم، ليكون النصارى الجدد وسيلة حكم المستعمرين، والأداة لتنفيذ المخططات الصليبية.

ونتيجة انتشار الجهـل والفقر فقـد انخرط أعـداد من المسلمين في صفـوف القوات الإنكليـزية، وكـانوا ضبـاطهم من البريـطانيين يهينونهم، ويُذلّونهم، ويسخرون منهم.

وأحسّ المسلمون بما يُـدبّـر لهم فقـامـوا بـالثـورة عـام **١٢٧٣ هـ** (**١٨٥٧ م**).

٤ʺ ــ الثـورة:

رفض بعض الجنود تنفيذ أوامر الضباط باستخدام الشحم المأخوذ من الخنزير لصيانة البنـادق حيث أشاع الإنكليـز أن هذا من بـاب التحدّي، فأُخذوا إلى السجن فتألم إخوانهم، وعملوا على فكـاكهم، وهجموا على الضبـاط الإنكليز، وقتلوا أحـدهم، وفـرّوا بـاتجـاه دهلي إلى دار الملك المغولي سراج الدين أبي ظفر بهادورشاه، وكان قد تجـاوز التسعين من العمر، وعدّوه ملك البلاد الحقيقي، وانتقلت أخبار هذه الحادثة إلى البلاد كلهـا، فاشتعلت الثـورة، وأشعلها في شمـال دهلي (إمداد الله)، فـطلب الإنكليز النجدات فجاءتهم، وسارت الجيوش إلى دهلي، وحاصرتها عدة أشهـرٍ ثم دخلتها، وقبضت على آخر ملكٍ مغوليٍ، وهو سراج الدين أبو ظفر بها دورشاه، وعلى أسرته، وقتلت أبناءه أمـامه، وعملت لـه وجبات طعام من لحومهم إعلاناً عن التشفّي والحقد الصليبي، وحملته إلى عاصمة بورما (رانغون) حيث بقي هناك حتى توفي عام ١٢٧٨ هـ، **وأُلغيت الدولة المغولية**.

انتهت الثـورة عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م)، وأعلنت إنكلترا انتهـاء

حكم شركة الهند الشرقية، وعدّت بلاد الهند من أملاك التاج البريطاني، يتصرّف بها كيف يشاء. وعد الإنكليز المسلمين سبب الثورة والمخططين لها لذا فقد صبّوا غضبهم عليهم، فصادروا أملاكهم، وهدّموا مساجدهم، أو جعلوها ثكنات للجيش، وشرّدوا الناس، ورحّب الهندوس بهذه الجرائم بل شاركوا فيها، وعدّوها ثأراً من المسلمين، وتسلّموا الوظائف، واشتروا الأراضي، وحصلوا على الثروة، وكان السياسة البريطانية بالأصل تعمل على تقريب الهندوس وإبعاد المسلمين، وقد جاء الآن صراحةً بعد أن كان ضمناً

بعد الثورة:

أصبحت الهند كلها تحت السيطرة الإنكليزية ومع ذلك فقد بقيت بعض الإمارات تحت سلطان المسلمين أو الهندوس، ولم يكن الأمير سوى مفوّضٍ بتسيير الشؤون الداخلية، أما شؤون الدفاع، والمالية، والشؤون العامة، ومناهج التعليم، والقضايا الخارجية فكلها بيد السلطات الإنكليزية. وبقي بعض هذه الإمارات على هذه الصورة حتى تمّ التقسيم عام ١٣٦٦ هـ. ومن هذه الإمارات «حيدر أباد» في الدكن، و«بهوبال» في الدكن أيضاً، و«جوناكدا» في كوجرات.

وقام بعض المسلمين يريدون سدّ الثغرة التي حصلت وأدّت إلى تأخرّ المسلمين فدعوا إلى التعليم، وحاول بعضهم تقليد الغرب والتقّرب من الإنكليز لينالوا عندهم الحظوة مثل أحمد خان الذي أنشأ جامعة (عليكره) وأسّس جريدة (تهذيب الأخلاق)، وعمل آخرون بمقتضى الإسلام، دون تأثّرٍ بالظروف التي يحيونها، وقد تأسّست ندوة العلماء، ودار العلوم التابعة لها عام ١٣١١ هـ في مدينة (لكنو).

وقامت بعض الحركات التي رفعت لواء الإسلام مثل ثورة جعفر ويحيى عام ١٢٨٠ هـ، وثورة شيخ الهند محمود الحسن عام ١٣٣٨ هـ، وقد دعا إلى مقاطعة جامعة عليكره، ومقاطعة الإنكليز. وقد عمل الإنكليز لتهديم الإسلام في اتجاهين:

الأول: نشر الفكرة القومية المخالفة للإسلام وذلك كي يضيع المسلمون بين الهنود. وقد حمل هذه الفكرة متقاعد إنكليزي مُقيم في الهند يدعى (آلن هيوم) حيث دعا إلى إنشاء جمعيةٍ وطنيةٍ يحمل أبناؤها مطالب الهند إلى الحكومة البريطانية لبحثها، وتبنّى هذا الموضوع نائب الملك في الهند اللورد (دوفرين)، وعمل على إخراجها لتكون في يد الحكومة وذلك أفضل من أن تنبثق من خلال الشعب، وبدأت أول اجتماع لها في مدينة بومباي عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)، وحرص الإنكليز أن يكونَ فيها بعض قادة المسلمين. وتأسّس حزب المؤتمر الوطني الهندي، ودخله الهنود، كما دخله المسلمون بل إن بعض الهيئات الإسلامية قد اندمجت فيه مثل جمعية العلماء، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومؤتمر الشيعة، وأبدى الحزب في أول الأمر احترام شعور المسلمين، ولكنه أظهر فيما بعد عكس ذلك حيث أخذ يُنادي بإخراج الغرباء من الهند، ويعدّ المسلمين غرباء كالإنكليز. ولم تكن المناداة بإخراج الإنكليز إلا لإظهار الوطنية كي يلقى التأييد الشعبي، وإبراز التحرّر من الوصاية الإنكليزيّة.

ولما رأى الهندوس أن المسلمين ضعفاء بسبب السياسة الإنكليزية بدأ التطرّف عندهم حتى أخذ غُلاتهم يدعون إلى قتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يُحاول مُسايرتهم من الهندوس. وهذا ما جعل المسلمين ينكمشون عن الهندوس ويلتفّ بعضهم حول بعضٍ، وظهر تجمع خاص لهم، أو هكذا رأت إنكلترا أن يكون تنظيمان في البلاد يتنافسان، وتستفيد هي من كلا التيارين، إذ ينقسم المسلمون فيما بينهم فبعضهم يبقى داخل حزب المؤتمر الهندي، وآخر يُخالفه وينتقده أشدّ الانتقاد، وترى الدولة المستعمرة من ناحيةٍ أن المسلمين لا بدّ من أن يتجمّعوا فالأفضل أن يلتقوا تحت قيادةٍ غير ملتزمةٍ إسلامياً، وإنما تكتفي بالعاطفة وحرصاً على المصلحة والقيادة من أن تجتمع حول علماء يدعون إلى التربية، ويُعلنون الجهاد، ويُقاتلون المستعمرين بضراوةٍ، ويُؤثّرون على الهندوس فيشدّونهم

نحو الإسلام، وعلى هذا عملت إنكلترا، وأخذت تجرّ المسلمين نحو هذا الخطّ، وتعمل على إبراز غير الملتزمين منهم.

قسّمت إنكلترا مقاطعة البنغال إلى قسمين غربي وشرقي عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) على أساسٍ ديني.

وعارض الهندوس هذا التقسيم إذ فقدوا حسب رأيهم السيطرة على ولايةٍ مهمةٍ، وعمّ الحزن دورهم، وتعاهدوا بعدم الطبخ في منازلهم دلالة على غضبهم، واجتمع خمسون ألفاً منهم عند صنم (كالي) إله التدمير - حسب عقليتهم - وتعاهدوا على مقاطعة البضائع الإنكليزية.

وفي عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) طالب المسلمون بإجراء انتخابات منفصلة، وترك الانتخابات المشتركة، وذهب وفد منهم لمقابلة نائب الملك في مقره الصيفي في (سيملا). وقد سُرّ المسلمون بتقسيم البنغال.

وفي عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) أُلغي تقسيم البنغال على لسان الملك جورج في حفلة تتويجه امبراطوراً في مدينة دلهي. فعيّد الهندوس.

عقد المسلمون اجتماعاً في مدينة (دكا) في البنغال الشرقية عام ١٣٢٤ هـ برئاسة (النواب فخار الملك) ونتيجة هذا الاجتماع تشكّل حزب «الرابطة الإسلامية» وبدأ الخلاف بين الحزبين، حزب المؤتمر الوطني الهندي، وحزب الرابطة الإسلامية. واختلف المسلمون بعضهم مع بعضٍ إذ أصدرت جامعة (عليكره) فتاوى بحرمة الانضمام إلى حزب المؤتمر، وأصدر (عبدالقادر اللدهيانوي) فتوى بعدم حرمة الانتساب إلى حزب المؤتمر، ووقّع على هذه الفتوى بعض العلماء. وبقي بعض أعيان المسلمين في حزب المؤتمر أمثال محيي الدين أحمد (أبو الكلام أزاد)، وأنشأ مجلتي الهلال، والبلاغ، وذاكر حسين، كما كان فيه محمد علي جناح.

الثاني: العمل على إنشاء فرقٍ ضالةٍ تدّعي الإسلام في سبيل تهديم العقيدة. لقد شجّعت إنكلترا مرزا غلام أحمد القادياني على إحياء ما دعا

إليه الملك المغولي (أكبر شاه)، فأنشأ القاديانية، وكتب البراهين الأحمدية، وادّعى عام ١٣٢٢ هـ أنه المهدي المنتظر، وأعلن أن الأنكليز هم أولو الأمر فيجب طاعتهم، ولا يصحّ الخروج عليهم، كما لا يصحّ الجهاد ضدّهم، وعمل على التوفيق بين الأديان، فادّعى أنه يتقمّص روح السيد المسيح عليه السلام، وروح الإله (كرشنا) رب الخير عند الهندوس، وتوفي مرزا غلام أحمد عام ١٣٢٦ هـ، وانقسمت جماعته من بعده إلى قسمين:

١" ـ الأحمدية: وتدّعي أنه كان رجلاً مصلحاً.

٢" ـ القاديانية وتقول بنبوته، وكلاهما كاذب، ودعمه الإنكليز بكل إمكاناتهم، ولا يزالون يدعمون أتباعه في كل مكان.

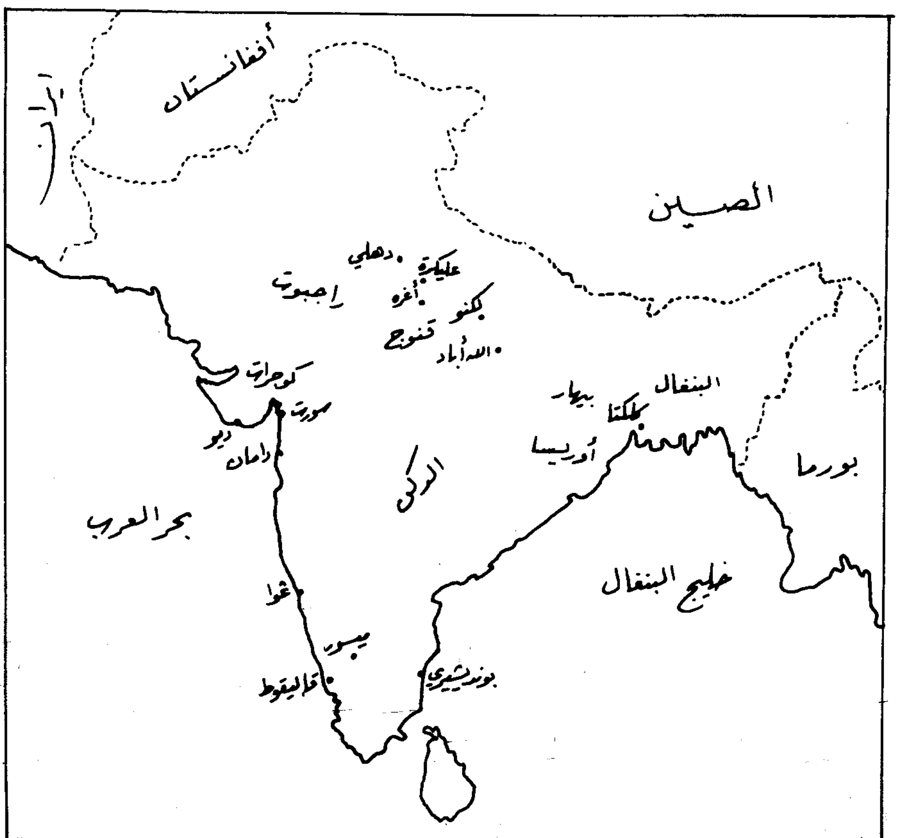

الباب الأوّل

الهند

من إلغاء الخلافة حتى التقسيم
١٣٤٢ - ١٣٦٦ هـ
١٩٢٤ - ١٩٤٧ م

لعل المشكلة الرئيسية فيما أصاب المسلمين في الهند في الماضي وما يصيبهم في الحاضر إنما يرجع إلى نقطةٍ رئيسيةٍ وجوهريةٍ ألا وهي عدم تطبيق الإسلام.

يقضي الإسلام ألا يترك أتباعه في البلدان التي يحكمونها من الناس مُشـركين يعبدون غيـر الله سبحانـه وتعالى، وينـدرج تحت اسم مشركين: الوثنيون جميعاً الذين يعبدون المخلوقات من البشر أو الحيوان أو الجماد، ومن هؤلاء لا شكّ الهندوس الذين يعبدون براهما، والبوذيون الذين يعبدون بوذا، وما تفرّع من هاتين الديانتين وما شابههما، أي لا يسمح بالإقامة في دار الإسلام إلا للمسلمين وأهل الكتاب وما يتبعهم من مجوسٍ، وهذا من نجده في جميع البلدان التي فتحوها، ودانت لهم في الحكم في الفتوحات الأولى التي تمّت في صدر الإسلام أيام الخلفاء الراشدين، وفي عهد بني أمية. أما بعد ذلك فقد ضعفت الدولة الإسلامية، ومع ضعفها ضعف تطبيق الشريعة، وتساهل الناس في الأحكام، وعملوا على تسيير شؤون الدولـة حسبما تقتضي مصالحهم. ونلاحظ ما حدث في الهند:

١ ـ لم يستقر العرب في الهند أيام الغزوات الأولى، ويوم فُتحت السند على يد محمد بن القاسم الثقفي، كما لم يستقر أولئك الذين فهموا الإسلام فهماً جيداً، وإنما حكموا الهند، وضاع أولئك الذين أقاموا هناك موقتاً لمصلحة رعاية شؤون الدولـة، وكانـوا قلّة أمام الأعـداد الكبيرة من

الهنود سكان السند، فضاعوا بينهم، غير أن استمرار الغزو، وقدوم الكثير من المسلمين إلى الثغر، ومجاورة الأجزاء التي يحكمها المسلمون قد جعل انتشار الإسلام يعمّ معظم السند والبنجاب، أو ما يعرف اليوم باسم باكستان.

٢ ـ أن معظم المسلمين الذين استقرّوا في الهند كانوا من حديثي العهد بالإسلام، فلم يعرفوا دينهم حقّ المعرفة، ولم يعملوا على تطبيقه، بل لم يكن الأمر بأيديهم.

٣ ـ أن الهنود الذين دخلوا في الإسلام لم يُربوا تربيةً إسلاميةً صحيحةً من قبل الأشخاص الذين يعرفون الإسلام جيداً، فبقوا على كثير من عاداتهم وتقاليدهم الوثنية.

٤ ـ أن الحكومات الإسلامية التي حكمت الهند لم تكن لتستند على الشريعة، ولا لتحكم بما أنزل الله، وإنما همّها الحكم والسيطرة، ولما كانت أكثرية الرعية من الهندوس لذا فإن أكثر الحكام كانوا يعملون على إرضائهم ومسايرتهم، بل نلاحظ أن بعضهم قد عمل على إيجاد دينٍ مختلطٍ من الإسلام والهندوسية، فحرّم ذبح البقرة وسمح للمسلمين بالزواج من الهندوسيات، وللهندوس بالزواج من المسلمات، كما أباح الخمرة.. كل ذلك في سبيل إرضاء أكثرية الرعية التي هي من الهندوس وذلك كي يستقرّ له الوضع، وتبقى له السيطرة، وذلك كما فعل الحاكم المغولي (أكبر شاه) وغيره من حكام المقاطعات، بل إن ديانات وجدت من هذا النوع كالسيخ في منطقة البنجاب، والقاديانية، التي قامت تحت تأثير الحكام الإنكليز، وبإشرافهم وغيرها ولا تزال هذه الديانات قائمةً إلى اليوم، ولا يزال الإنكليز يرعون أتباع القاديانية داخل الهند وخارجها.

٥ ـ أن كثيراً من العلماء الذين جاءوا إلى الهند من علماء ومشايخ بلاد ما وراء النهر وبلدان شرقي الخلافة كانوا مولعين بفلسفة اليونان وعلومهم أكثر من اهتمامهم بدراسة القرآن وعلومه، والسنة.

٦ ـ أن الذين دخلوا الهند من المتصوفة الذين يقولون بالحلول ووحدة الوجود كانوا كثيرين، وهم على شبهٍ من متصوفة الهندوس الذين يقولون بالحلول، وهذا ما دعا قبول هذه الفكرة لدى الهندوس والإقبال عليها فدخلوا بالإسلام وتسمّوا مسلمين على هذا النوع من الإسلام الاسمي، والكفر الحقيقي، وهذا قد ساعد على انتشار الفرق الضالة أيضاً كالإسماعيلية والرافضة، بل إن بعض الحكام قد اعتنق الرفض وسعى على نشره، فكثرت نسبة أتباعه.

٧ ـ جهل أكثر الناس اللغة العربية بسبب أصولهم غير العربية من تركٍ، ومغولٍ، وفرسٍ، وأهم من ذلك عدم تمسّكهم بالإسلام الذي يحثّهم على تعلّم العربية التي هي لغة القرآن والسنة. وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في الهند، فكانت ألفاظ القرآن تترجم، والترجمة لا تُعطي في كثير من الأحيان الغاية المرجوة، ولا تُؤدّي الهدف المقصود.

٨ ـ بلغ من اشتغال الحكام بالحروب أنهم لم يستطيعوا في الغالب أن يحفلوا بالعمل لنشر الدعوة وتطبيق الإسلام، وإنما كان جلّ تفكيرهم ينصرف إلى فرض الضرائب، وإرضاء الرعية، وعدم إثارة مشاعرها الدينية الهندوسية.

٩ ـ كان المسلمون يفتحون المناطق، ويتركون الشعب حرّاً في معتقده دون تبيان الحقيقة، وإظهار مقاصد الشريعة، والمساواة، ولم يعمل المسؤولون على نشر الإسلام.

١٠ ـ دخول الناس بالإسلام كان يتمّ وراء منفعةٍ أو بالإكراه، كما كان يحدث في بعض الأوقات على أيدي بعض الحكام، ولعل السلطان «تيبو» هو أحد الحكام المسلمين الذين أخذوا على أنفسهم مُهمّة تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة، وهؤلاء الحكام قلّة، وهو أحدهم. ففي سنة ١٢٠٣ هـ أذاع السلطان «تيبو» المنشور التالي على أهالي (مليبار): «بعد انقضاء أربع وعشرين سنةً على غزو بلادكم، لا تزالون على عصيانكم

وتمرّدكم، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب، وفي الحروب التي نشبت في خلال فصلكم الممطر، كنتم أنتم السبب في استشهاد كثيرٍ من جنودنا، وليكن هذا، فإن ما فات مات، وإني مستعد لأن أتناسى الماضي، وقد حان الوقت الذي يجب أن تعدلوا عن خطتكم، وتلزموا السكينة والهدوء، وتُؤدوا ما عليكم من ضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار، وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجلٍ واحدٍ، بل تُعاشر عشرة رجالٍ، وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن في حمأة الرذيلة، فإن جميع الناس يولدون من سفاحٍ، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحةً من الوحوش الضارية لذلك أرى لزاماً عليّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر. وإذا عصيتم أمري، وخالفتم عن نصحي، فقد أقسمت قسماً حقاً غير حانثٍ فيه ولا آثم أن أحملكم على الصراط المستقيم وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظمائكم كبيركم وصغيركم».

وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة في (مليبار). ففي مستهل عام ١٢٠٤ هـ أعدّ «تيبو» جيشاً جراراً يتألف من عشرين ألف مقاتلٍ لتنفيذ هذا المنشور بالقوة. وأصدر أوامر عامة: بأن كل شخصٍ في هذه المقاطعة يجب أن يتشرّف بالدخول في الإسلام من غير تمييزٍ، وأن دور الذين يفرّون تخلّصاً من هذا الشرف يجب أن يحرقوا وأن يقتفى أثرهم حتى يصلوا إلى مكامنهم، يجب أن تستعمل وأن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق، والقوة أو الخداع في حملهم جميعاً على تغيير دينهم» وعلى أثر ذلك اختتن آلاف الهندوكيين، وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر. على أن الجيوش الإنكليزية لم تلبث أن قضت على ما بقي من قوة للسلطان «تيبو» عام ١٢٠٥ هـ، واستشهد هذا الحاكم في مستهل عام ١٢١٤ هـ على أيدي الإنكليز الذين تمكّنوا من السيطرة على البلاد بعد ذلك. وأنكر معظم البراهمة والنيار الدين الإسلامي ورفضوه، وعادوا إلى دينهم القديم[1].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

ومن المعلوم عدم فائدة تحويل الناس إلى الإسلام عن طريق الإكراه إذ لا يلبث الناس أن يعودوا إلى دينهم القديم بعد زوال السبب كما رأينا أيام السلطان تيبو، ولعلّ هذا السلطان قد اتخذ هذه السبيل عندما وجد المستعمرين الصليبيين يتدخلون في شؤون البلاد، ويتخذون من الهندوس مطيةً لقتال المسلمين، فأراد أن يقطع الطريق عليهم، ويقضي على كل من يحتمل أن يكـون عميلاً لهم.

١١ ـ لا يعني هذا أبداً أنه لم يكن هناك علمـاء أجلّاء، ورجـال بررة، ومُربّون صادقون، ودعاة مخلصون من الهنود المسلمين وغيرهم. . . . لقد كان هناك كثيرون عملوا في الدعوة ونشر الإسلام، وخدموا العلم بما قدّموا من بحوثٍ ودراسةٍ، ونصحوا الحكام. وكان هناك كثيرون عملوا في الدعوة ونشر الإسلام، وخدموا العلم بما قدّموا وبذلوا جهدهم، وأخلصوا لله غير أن القلة تضيع في ذلك الموج الزاخر من السكان. . . . ومن المعلوم أن عدد الهنود اليوم يزيـد أكثر من أربـع مرات ونصف المـرة على عدد العرب جميعاً. . . لذا فإن المسلمين كانوا قلّةً وسط ذلك المحيط الهندي.

كان على المسلمين أن يفتحوا منطقةً إثر منطقةٍ، فإذا هيّأوا أمورهم في الأولى، وطبّقـوا الإسلام حتى لم يبق من سكـانهـا إلا من يجب أن يبقى ـ كما ذكرنا ـ من مسلمين وغيرهم من أهل الكتاب والمجـوس ـ إن وجدوا ـ وكان المسلمـون أخوةً، وكتلةً واحـدةً، واعين للإسـلام، عارفين لمهمتهم في الحياة انطلقوا إلى منطقةٍ ثانيةٍ حتى ينتهوا من الهند، فلو فعلوا ذلك لعم الإسلام الهند من ذلك اليوم، ولاختفت تلك الديانات الوثنية الدنيئة التي يُصّور بعض مظاهرها منشور السلطان «تيبو» لو حدث ذلك لما عانى المسلمون اليوم ما يُعانون من أصحاب تلك الديانات.

وهذا شأن كـل البلدان التي دخلها المسلمـون وقت الضعف، في ماليزيا، وأندونيسيا، والفيليبين، وبلدان إفريقية غير العـربية، حيث دخلوا قلّةً، أو انتشـر الإسلام تـدريجياً، ولم يكن الحكم بـالإسلام، ولـم تكن

لتطبّق أحكامه، ولو تمّ الحكم باسم الإسلام لما أمكن تطبيقه لضعف السلطة، وعدم التطبيق في أي مصرٍ حتى تُعرف روح الإسلام، وصلاحيته بصورةٍ صحيحةٍ واقعيةٍ. فالمسلمون في هذه المناطق يعيشون بين وثنياتٍ كثيرةٍ، وتجد أنواعاً من الشرك غريبةً، حتى ليتأثّر أحياناً المسلمون ببعض هذه المظاهر ويرونها عاديةً، بل غدا بعضهم يُفسّرون الآية الكريمة ﴿لا إكراه في الدين﴾ تفسيراً بعيداً عن معناها، ويُبرّرون من هذا المعنى وجود هذه الوثنيات، والواقع أن هذا لم يكن لو لم يكن الضعف قائماً، حيث لا نجد مثل هذه الوثنيات في البلدان التي دخلها المسلمون في عصر الفتوحات الأولى أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية، أما عندما ضعفت الدولة الإسلامية، ودخل المسلمون في تلك الأيام منطقةً لم يستطيعوا إلزام أهلها على ترك وثنياتهم وشركهم نتيجة الضعف، وعدم وجود سندٍ لهم قوي، فالخلافة الإسلامية إن كانوا يرتبطون بها ضعيفة، وإن لم يكونوا على ارتباطٍ بها فحكومتهم أكثر ضعفاً وأقلّ جنداً. وهنا نرجع إلى قول حكيم بن جبلة العبدي الذي قال لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، عندما طلب منه وصف الهند «إن قلّ فيها الجيش ضاعوا وإن كثروا جاعوا. . .».

أما الآية الكريمة ﴿لا إكراه في الدين﴾ فهي محصورة في المسلمين وديانات أهل الكتاب وما يتبعهم من المجوس، أي في طريقة عبادة الله الواحد الأحد، واتباع أحد أنبياء الله. هذا مع إقرارنا وإيماننا بأن ديانات أهل الكتاب قد حُرّفت ودخلها الكثير من الوثنيات والضلالات. أما لا إكراه في اتباع الشرك والضلال فهذا غير وارد أبداً، ولو ورد على الذهن لم تكن هناك من مُهمّةٍ للمسلمين في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولما فُرض الجهاد، ولما وُجدت الدعوة، وإنما ترك الأمر كيفما يُريد الطغاة والكفار. وهذا ينافي الفكر الإسلامي.

الفصل الأول

الصراع في الهند

لمـا أحسّ الهنـدوس بضعف المسلمين بعـد أن زالت سلطتهم، وأصبحت القوة بيد المستعمرين الصليبيين من الإنكليز الذين يحقدون على المسلمين، ويعملون على إضعـافهم، ويقرّبـون الهندوس في سبيـل هذه الغاية عندها أعلن الهندوس حربهم على المسلمين، فقد قام حزب سياسي إسلامي في مدينة (لكنو) عـام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) فقاومه الهنود فانتهى، وتمثّلت هذه العداوة وخطوطها الرئيسية فيما نشره أحد الثوريين الهندوس المدعو (هارديال) في جريدة (بارتاب) التي كـانت تصدر في لاهـور أيام الحكم البريطاني، وقال (هارديال): إن مستقبل الجنس الهندي وهندستان وبنجاب يقوم على أربع دعائم وهي:

١" ـ سانكاثان: أي الوحدة.

٢" ـ الراجا: أي الإله الهندي «رام راجا» ومعناه وحدة العقيدة وإجبـار السكان كلهم عليها.

٣" ـ شوذي: أي إرجاع المسلمين الهنود إلى عقيدة الهندوس.

٤" ـ دخول أفغانستان ومناطق الحدود وردّ أهلها عن الإسلام.

وتابع (هارديال) يقول: وما لم يقم الهندوس بتحقيق هذه الاعتبارات الأربعة فسيجابه أولادنا وأحفادنا خطراً دائماً، ولن تكـون سلامـة الجنس الهندي مضمونةً.

وأخذ غلاة الهندوس يُثيرون أبناء عقيدتهم على المسلمين، غير أن

بعض قادتهم ومنهم غاندي[1] كانوا يخشون من المسلمين لما يعرفونه عنهم من قوةٍ وشجاعةٍ وتضحيةٍ لارتفاع معنوياتهم وإيمانهم العميق بالإسلام، وأن قتل الفرد منهم نصر وحيازة على أمرٍ عظيمٍ وهو الشهادة في سبيل الله، وهي أول عوامل دخول الجنة، وهي الفوز الحقيقي، لذا كان غاندي يظهر بالمظهر المعتدل، ويُبدي أنه مُؤيّد لبعض مطالب المسلمين ليكسب بعض عناصرهم، وليحصل على تأييدهم، ويكون مركزه على شيءٍ من القوة، وعمل الإنكليز على إعلاء مكانته بالدعاية له، ورفع منزلته، ونتيجة هذا ولبعض مواقفه الظاهرية إلى جانب المسلمين، فقد صدّق بعض المسلمين المغفّلين ما يُقال عنه، وانطلقوا يُردّدون ذلك جهلاً وغفلةً، هذا إضافةً إلى موقف العلمانيين بين المسلمين الذين يريدون كسب موقفٍ لهم بأن الدين ليس له من قيمةٍ كبيرةٍ ـ حسب زعمهم ـ فهذا غاندي يقف إلى جانب المسلمين أنه هندوسي، والهندوس في صراعٍ مع المسلمين. ولهذا غدت

---

(١) غاندي: موهانداس كارامشامد غاندي ولد في ٢٦ جمادى الآخرة ١٢٨٦ هـ (٢ تشرين الأول ١٨٦٩ م) ببلدة (بورمندار) كان أبوه من رجال الإدارة، أوفده إلى إنكلترا حيث درس القانون بجامعة لندن، ورجع إلى الهند عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) وبعد عامين انتقل إلى جنوبي إفريقية، واشتغل بالمحاماة في مدينة جوهانسبرغ، ثم عمل ضدّ التفرقة العنصرية، وأثناء حرب البوير نظم فرقة من الهنود هناك للعمل مع الصليب الأحمر، وفي عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) نظم مظاهرات ضد القوانين التعسفية، وسافر إلى لندن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، حيث نظم وحدة إسعاف هندية. ولكن رجع إلى الهند ١٣٣٣ هـ (١٩١٥ م)، وبعد الحرب قام بحركة عدم التعاون وسيّر المظاهرات، ثم مقاطعة البضائع وإحراقها في بومباي، ثم تنظيم العصيان المدني، وحكم عليه ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) بالسجن في أحمد أباد مدة ست سنوات، وفي عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) قاد مظاهرة كبرى إلى البحر لمعارضة قانون احتكار الملح، فسجن عاماً في (بوما)، وخرج ليشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م)، ثم قاد العصيان المدني فسجن مدة سنتين، ثم أخذ يوجه سياسة حزب المؤتمر. واغتاله أحد غلاة الهندوس في دلهي في ١٩ ربيع الأول ١٣٦٧ هـ (٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨ م).

لغاندي مكانة دولية لا يستحقّها أبداً إذ كان مُغالياً في هندوسيته، متمسّكاً بها أشدّ التمسّك، حاقداً على الإسلام عكس ما أُشيع عنه.

ونتيجة ما أُشيع عن غاندي فقد أمكن إيجاد تفاهمٍ أحياناً بين الطرفين، وقد حاول محمد علي جناح[1] التوفيق بين حزبي الرابطة

---

(١) محمد علي جناح: ولد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) في مدينة كراتشي من أسرة هندوسية اعتنقت مذهب الإسماعيلية، وتزوّج بمجوسية، ودرس القانون في إنكلترا، انتسب إلى حزب الرابطة الإسلامية بعد تأسيسها بسبع سنوات، رأس البعثة الهندية التي قصدت لندن لشرح القضية الهندية عام ١٣٣٣ هـ، كما رأس اللجنة التي شكلتها الرابطة بالاشتراك مع حزب المؤتمر للمطالبة بالحكم الذاتي للهند عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، وشارك في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م). وتولّى رئاسة حزب الرابطة الإسلامية ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) حتى تولّى رئاسة دولة باكستان. وتوفي في ٨ ذي القعدة ١٣٦٧ هـ (١١ أيلول ١٩٤٨ م).

كان أبوه تاجراً في مدينة كراتشي، وأصل أسرته من مدينة (كتهيوار) في ولاية كوجرات.

أتمّ الدراسة الثانوية عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م).

أفلس أبوه، وتوفيت أمه، وتوفيت زوجته.

عمل سنةً واحدةً في المحاماة في مدينة كراتشي.

انتقل إلى بومباي، وعمل في المحاماة، ورفض منصب قاضٍ.

ذهب إلى لندن، وعمل في المحاماة، وأصبح محامياً مشهوراً، ورجع عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م).

كان من أعضاء حزب المؤتمر البارزين، وذهب عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) مندوباً عن المؤتمر إلى لندن للدفاع عن فكرة الحكم الذاتي.

صار أمين سر حزب المؤتمر (دادا بهائي ناوروجي) عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦ م).

أصبح نائباً في المجلس التشريعي الإمبراطوري عن مدينة بومباي عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م).

عيّنه نائب الملك عضواً في المجلس التشريعي لمدة ثلاث سنوات ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م).

أصبح عضواً في الرابطة.

كان عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) عضواً في حزب المؤتمر ورئيساً للرابطة الإسلامية.

انفصل عن حزب المؤتمر عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م).

الإسلامية والمؤتمر الوطني الهندي، إذ دعا إلى عقد مؤتمر الرابطة السنوي عام **١٣٣٥** هـ في مدينة «لكنو» حيث عُقد حزب المؤتمر الوطني الهندي مؤتمره السنوي.

كان محمد علي جناح في حزب المؤتمر، وبقي فيه مدةً بعد تأسيس حزب الرابطة ثم اقتضت المصلحة انتقاله وتغيير موقعه، فبدّل وترك حزب المؤتمر وانضمّ إلى الرابطة، وتولّى زعامتها، ولم يكن ملتزماً بالإسلام، وإن كان ينتمي إليه، وهنا تكمن المصلحة إذ من الضرورة بمكان عند الإنكليز أن يتولّى أمر الرابطة مسلم غير ملتزمٍ خوفاً من أن تسير في طريقٍ صحيحةٍ فتدبّ الحياة من جديدٍ في المسلمين وترفع راية الجهاد، وعندها لا بدّ للإنكليز من أن يشدوا رحالهم للفرار ومغادرة البلاد إلا إذا رغبوا في دفن جنودهم هناك وجعل الهند مقبرةً لهم، كما أن إنكلترا ترغب في استلام محمد علي لرئاسة الرابطة لتبقى خيوط اللعبة كلها في أيديها.

أخذت الدعايات توجّه لصالح محمد علي حتى أصبح على مستوىً قريبٍ من غاندي أو يتناسب مع النسبة العددية من السكان التي يمثّلها، فكانت وسائل الإعلام تسمّيه سفير الوحدة الهندية، وتكرّر أن حزب المؤتمر عرض عليه أن يختاره رئيساً دائماً للمؤتمر فأجاب: (إنهم إن قبلوا آراءه التي يُخالفونه فيها ويُخالفهم، فهو سعيد بأن يبقى عضواً كغيره من مئات الأعضاء). وتذكر: أنه مرّ في طريقٍ مرةً فهتف له الناس بصفة سيد باكستان، فأوقف سيارته، ووبّخ القائلين له بهذا اللقب، وقال لهم: (إن خير ما يرجوه أن يكون خادم باكستان لا سيّدها). هذه الدعاية جعلته أهلاً لأن يكون رئيساً لحزب الرابطة الإسلامية، وقد استمرت هذه الدعاية بعد نجاح الرابطة، وانقسام الهند، وظهور دولة باكستان، فتُردّد وسائل الإعلام أنهم عرضوا عليه أن يولّوه رئاسة دولة باكستان مدى الحياة فأنكر هذا المبدأ، وقال: (بأنها ستكون قاعدةً لمن يليه).

وإذا كان الهندوس أكثر عدداً من المسلمين إلا أن خوفهم من

المسلمين شديد لصلتهم بالعالم الإسلامي الذي يُؤيّدهم، إذ كان التعاطف بين المسلمين كبيراً رغم سيادة الجهل والفقر بينهم. وكانت أصوات المسلمين من أي مكانٍ يسمع صداها في الهند، ويُردّدها المسلمون الهنود، وهذا الذي كانت تخشاه إنكلترا والهندوس ويمكن ملاحظة بعض النقاط.

١ ـ إن المسلمين الهنود يعدّون العرب عنواناً لهم، ويُحاولون تقليدهم في كل أمورهم.

٢ ـ كان للدعوات التي قامت في البلدان العربية أثرها في الهند بغض النظر عن سلامتها أو غير ذلك. فدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، ودعوة المهدي في السودان كان لهما الأثر في الهند، وسار على نهجهما كثير من المسلمين.

٣ ـ كلما ألمّت نازلة في الأمصار الإسلامية بات الهنود المسلمون يعيشون معها ويتقصّون أخبارها، فعندما نفى الإنكليز أحمد عرابي من مصر إلى جزيرة سرنديب (سيلان) هرع المسلمون الهنود إلى منفاه يسألونه عن مصر وأوضاعها، وعن المهدية وأوضاع السودان.

٤ ـ قام المسلمون بمظاهرات عنيفة عام ١٣٣٠ هـ يندّدون بموقف إيطاليا، واحتلالها لليبيا، وجمعوا التبرعات رغم فقرهم، وأرسلوا البعثات الطبية، وبدأت دعوة التطّوع للذهاب إلى ليبيا لمجاهدة الطليان.

٥ ـ اتخذ حزب الرابطة الإسلامية قراراً يُعلن فيه استياء المسلمين من موقف بريطانيا ضدّ الدولة العثمانية في حرب البلقان.

٦ ـ احتجّ حزب الرابطة الإسلامية والمسلمون الهنود عامةً على معاملة هولندا الوحشية للمسلمين في أندونيسيا.

٧ ـ أعلن حزب الرابطة الإسلامية باسم المسلمين الهنود للحاكم الإنكليزي في الهند أن معاونة المسلمين متوقفة على ضمان فلسطين من

بلاد الشام ضمن إطارها العام العربي والإسلامي، ورفض فكرة الوطن اليهودي، والسماح لليهود بالانتقال إليها.

٨ ـ قامت مظاهرات في أرجاء الهند كلها احتجاجاً على نقض بريطانيا لعهودها التي قطعتها للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى.

٩ ـ وقامت مظاهرات أشدّ عنفاً عندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، ومن الذين قادوا تلك الحركات محمد إقبال الشاعر المعروف[١]، وأبو الكلام أزاد[٢]، ومحمد علي جناح. وتشكل حزب الخلافة الذي عمل على إقناع الأتراك بالإبقاء على الخلافة، وحث الإنكليز للتوقّف عن دعم اليونان الذين كانوا قد استولوا على مدينة أزمير وما حولها، وعدم تقسيم تركيا، وإيقاظ المسلمين، وتوقف الحزب بإلغاء الخلافة.

---

(١) محمد إقبال: شاعر وفيلسوف ولد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م)، واندفع بحماسة للإسلام في الحرب العالمية الأولى، وقد عرض على لجنة نهرو فكرة دمج البنجاب، وإقليم الحدود الشمالية الغربية، وبالوشستان، والسند في إقليمٍ واحدٍ، ولكن فكرته رفضت، واشترك في مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) في لندن، وعرضت عليه منصب نائب الملك في جنوبي إفريقية فرفض ذلك، لأن حرم نائب الملك سافرة، وتستقبل الضيوف، وأجاب «ما دام هذا شرطاً فلا أقبله لأنه إهانة لديني، ومساومة لكرامتي» وتوفي عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م).

(٢) أبو الكلام أزاد: خير الدين أسعد، ولد عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) في أسرةٍ قاومت الاستعمار البريطاني، واشترك أبوه في ثورة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م)، وبعد فشلها هرب إلى الحجاز، وتزوج من سيدةٍ عربية، وهناك ولد محمد إقبال الذي انتقل إلى القاهرة، ودرس في الأزهر، ورجع عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) إلى الهند، واشترك في حزب المؤتمر الهندي، وكان يطالب بالاستقلال التام للهند المتحدة عن بريطانيا، وقد أنشأ مجلة «الهلال»، واشترك في تأسيس كلية «ديوبند» الإسلامية، وتولّى منصب وزارة المعارف، وانتخب نائباً لرئيس حزب المؤتمر، فرئيساً، وبقي في ذلك المنصب حتى توفي في ٣ شعبان ١٣٧٧ هـ (٢٢ شباط ١٩٥٨ م). وانتخب كذلك رئيساً للاجتماع التاسع لهيئة اليونسكو.

كانت هذه المظاهرات وهذه الأحداث تزيد الهندوس تماسكاً، وفي الوقت نفسه تزيدهم كرهاً للمسلمين الهنود، بل إن هذا الكره لتتسع دائرته حتى تشمل المسلمين جميعاً إذ يحسّ الهندوس أن المسلمين في كل أرجاء الأرض يدعمون المسلمين الهنود، ويُقوّونهم على الهندوس، ودلالةً على هذا تفاعل المسلمين الهنود مع إخوانهم المسلمين في كل مكانٍ، حيث يردّون لهم جميلهم.

وكذلك فإن هذه المظاهرات وهذه الأحداث كانت تشدّ من عضد المسلمين، وتُقويّهم، وتجعلهم يشعرون أنهم جزء من الأمة الإسلامية ذات المجد والحضارة، وأن أمم الأرض اليوم تتكالب عليها، وأن ما يُصيبهم اليوم لا يتعدّى أنهم جزء من هذه الأمة. غير أن المسلمين مع هذا كله لم يكونوا قلباً واحداً حيث كانوا فرقاً، وإن كانوا ينضوون تحت اسمٍ عام هو «مسلمون» غير أن بعضهم بعيدون عن ذلك إذ إضافةً إلى المسلمين (السنة) كان هناك الشيعة الرافضة، وكان هناك الإسماعيليون من الفرق الباطنية الضالة، وهناك القاديانية الديانة الجديدة البعيدة كل البعد عن الإسلام، وفوق هذه الفرق المتباينة كانت هناك الخلافات في التوجّهات السياسية حيث وجد:

١" ـ **المسلمون الذين يرون الدعوة إلى الوحدة الوطنية والوقوف في** وجه المستعمرين الدخلاء من الإنكليز، وتأسيس دولةٍ واحدةٍ تضمّ الهندوس والمسلمين، وقد رأى هؤلاء أنه من المصلحة الانضمام إلى حزب المؤتمر الوطني لتوحيد الجهود وبذل المساعي لنيل الاستقلال والخلاص من المستعمرين، وأن المتطرفين الهندوس قلّة يجب ألا يُعبأ بهم، ولا يُنظر إليهم، ومن أشهر هؤلاء جمعية العلماء، ومؤتمر الشيعة، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومن الزعماء حسين ذاكر[1] الذي تسلّم فيما بعد رئاسة الجمهورية،

---

(١) حسين ذاكر: ولد في حيدر أباد الدكن عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م)، وتخرج من الكلية الإسلامية في (عليكرة)، وتابع دراسته في برلين حيث حصل على شهادة الدكتوراة عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م)، وعُيّن حاكماً لولاية (بيهار) عام ١٣٧٧ هـ =

وأبو الكلام أزاد الذي تسلّم حقيبة وزارة المعارف بعد الاستقلال مباشرةً. وغفل هؤلاء عن دور إنكلترا في تقوية الهندوس على المسلمين، وأن عاملاً مشتركاً يجمع بين الإنكليز والهندوس ضد المسلمين وهو الحقد الصليبي والوثني.

٢" ـ المسلمون الذين يرون ضرورة الانفصال عن الهندوس، وتأسيس دولة واحدة من المقاطعات التي يشكل فيها المسلمون أكثريةً، وعرفت هذه الدولة باسم «باكستان»[1]، وأول من دعا إلى ذلك الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، ونادى بها الطلاب المسلمون الذين يدرسون في إنكلترا.

وانقسم أصحاب هذا الرأي إلى اتجاهين:

أ ـ أحدهما يرى الاستقلال ضمن باكستان والارتباط مع العالم الإسلامي، على اعتبار أن باكستان جزء من الأمة الإسلامية. وذلك في ظلّ الخلافة الإسلامية، ويُمثّل هذا الجناح محمد إقبال.

ب ـ ثانيهما ويرى الاستقلال ضمن باكستان، والدعوة إلى إسلاميةٍ باكستانيةٍ محليةٍ، وقد قوي هذا الاتجاه بعد أن أقدم مصطفى كمال أتاتورك ـ قبحه الله ـ على إلغاء الخلافة الإسلامية.

وقد خفّ ضغط الإنكليز عن المسلمين عندما بدأوا ينادون بالعصبية الإسلامية المحليّة، ويبتعدون عن قضية الخلافة والوحدة الإسلامية، ولعلّ من أبرز من يمثل هذا الجناح محمد علي جناح.

= (١٩٥٧ م)، ثم نائباً لرئيس جمهورية الهند (راد كريشنان)، ثم خلفه في الرئاسة بعد وفاته في ٣٠ المحرم ١٣٨٧ هـ (٩ أيار ١٩٦٧ م)، وتوفي حسين ذاكر في ١٦ صفر ١٣٨٩ هـ (٣ أيار ١٩٦٩ م).

(١) باكستان: يقال إن «باك» تعني الأطهار، وتدلّ «ستان» على بلاد، فأصبح المقصود من الكلمة بلاد الأطهار. ويقال: إن باكستان قد اشتقت من الأحرف الأولى من المقاطعات التي تضمّ أكثريةً مسلمةً وهي: بنغال، بنجاب، بلوجستان، كشمير، كوجرات، السند، مقاطعات الحدود.

٣" ـ المسلمون الذين يرون بقاء المسلمين والهندوس ضمن دولةٍ واحدةٍ مع ضرورة تشكيل جمعية إسلامية قويةٍ تعمل على نشر الإسلام بين الهندوس، كما تعمل للحكم حسب الشريعة الإسلامية، وقد كان الخوف على مستقبل المسلمين في الهند، وعلى عدم تطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان، ولعلّ من أبرز أصحاب هذا الرأي أبا الأعلى المودودي[1] الذي وقف أمام نقاط وتساؤلات:

أ ـ إذا لم تنجح الرابطة فسيُمنى المسلمون بالفشل.

ب ـ إذا نجحت الرابطة، هل سيُطبِّق زعماؤها الإسلام؟

ج ـ كيف يكون وضع المسلمين الذين سيبقون داخل الهند بعد التقسيم أمام حقد الهندوس؟

د ـ ألا يتهم الهندوس المسلمين في الهند بعد التقسيم أنهم أنصار إخوانهم في باكستان فيضطهدونهم ويزيد الحقد حقداً؟

هـ ـ هل يمكن أن تقوم دعوة لنشر الإسلام بعد التقسيم، والحرب الإعلامية الدائمة، والحرب الباردة بين القسمين؟

و ـ ألا يمكن أن تنشب حرب بين القسمين، ويشعل نارها الصليبيون الإنكليز، ويدعمون الهندوس، ويحصد المسلمون شرّاً عظيماً؟

---

(١) ولد أبو الأعلى المودودي في بلدة (أورانغ أباد) في حيدر أباد الدكن عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)، وهو من أسرة تقول أنها تنتسب إلى مودود أحد رواة الحديث النبوي، ويقال: إنه جاء إلى الهند مع جيش محمد بن القاسم الثقفي.

عمل المودودي صحفياً في (جبل بور) و(دلهي) و(حيدر أباد)، وفي شهر ذي القعدة ١٣٥٦ هـ (كانون الثاني ١٩٣٨ م) انتقل إلى البنجاب بدعوةٍ من محمد إقبال، واستقرّ في منطقة (جورداسبور)، ثم انتقل بعد ذلك إلى (لاهور)، وفي رجب ١٣٦٠ هـ (آب ١٩٤١ م) اجتمع خمسة وسبعون شخصاً من مختلف الاختصاصات، وشكلوا الجماعة الإسلامية، وانتخبوا أبا الأعلى المودودي كأول أمير لها.

ووضع عدداً من الكتب ذات الفكر الإسلامي، أثرى بها المكتبة، وكان له أثر كبير في فكر الشباب وأهل العلم، وتوفي في الأول من ذي القعدة ١٣٩٩ هـ (٢٢ أيلول ١٩٧٩ م).

طالب المسلمون أن تكون لهم السيادة في المقاطعات ذات الأكثرية المسلمة فرفض حزب المؤتمر ذلك رفضاً بشعاً، وتكلم غاندي وأتباعه كلاماً غير مقبول، وأصدر حزب المؤتمر قراراً يقضي بترك لغة «الأوردو» التي هي لغة المسلمين، واللغة الرسمية في البلاد، وجعل اللغة الهندوسية لغةً رسميةً على حين أن أكثرية السكان لا يفهمونها، بل إن الهندوس الذين أخذوا يُهاجمون لغة «الأوردو» لم يكن لديهم من لغةٍ يُهاجمونها بها، وأسلحةٍ يُشهرونها في وجهها إلا لغة «الأوردو» ذاتها، ولم يكن اتخاذ ذلك القرار إلا عداوةً للمسلمين.

ولما رأى المسلمون حرب الهندوس لهم صراحةً، ويعرفون كذلك حقدهم، وما تُخفي نفوسهم أكبر عندها قرّروا العودة إلى فكرة باكستان وتقسيم بلاد الهند. وطالبوا الحكومة الإنكليزية بالبقاء في الهند حتى يتمّ التقسيم كي لا يستأثر الهندوس بالحكم، ويُطبّقوا ما يريدون. والغريب أن المسلمين كأنهم قد غفلوا عن موقف الإنكليز منهم، ووقوفهم إلى جانب الهندوس علناً. وهذا ما ظهر أثناء التقسيم بكل وضوحٍ.

وكان من أشدّ الناس محاربةً لفكرة التقسيم «نهرو»[1] تلميذ غاندي، والمتعصّب لهندوسيته، ويريد إبقاء المسلمين تحت نفوذ الهندوس لإمكانية

---

(١) نهرو: جواهر لال نهرو، ابن موتى لال نهرو، الزعيم السياسي، اشترك مع غاندي، أسس صحيفة (أندبندنت) أي المستقل، انتخب رئيساً لحزب المؤتمر الهندي عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م)، اشترك مع (داس) في تأسيس حزب (سواراج) أي الاستقلال ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) وتوفي ١٣٤٩ هـ (١٩٣١ م)، ولد ابنه جواهر لال نهرو في مدينة (الله أباد) عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)، ودرس في إنكلترا وحصل على الحقوق، ورجع إلى الهند عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) واشتغل بالمحاماة، وانضم إلى حزب المؤتمر عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م)، وسجن تسع مرات، تولّى رئاسة حزب المؤتمر ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، وتسلم وزارة الخارجية في الحكومة الموقتة بعد الحرب العالمية الثانية، وتولى رئاسة الوزارة بعد الاستقلال، وبقي في هذا المنصب حتى هلك ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م). وله عدة مؤلفات.

التحكّم بهم، وإذلالهم واستعبادهم، وكان يُخالف أستاذه «غاندي» في مجاملة المسلمين أحياناً، وعارضه في موقفه من تأييد حركة الخلافة مع أن ذلك الموقف لم يكن سوى التقية بإظهار غير ما يُبطن.

وطالب المنبوذون بالاستقلال، وعددهم مائة مليون، وهدّدوا باعتناق الإسلام، فأغراهم غاندي، وطلب منهم السكوت في هذه الظروف، وأن لهم ما يريدون في المستقبل.

وشكّل الهندوس سبع وزارات فأساءوا للمسلمين كثيراً.

الفصل الثاني

التقسيم

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨ هـ (الأول من أيلول ١٩٣٩ م) ودخلت حكومة الهند الحرب دون أخذ رأي وزارة حزب المؤتمر التي تحكم الهند محلياً، وهذا ما دعا إلى أن تستقيل وزارة الحزب. وأخذ الوضع يزداد حرجاً في الهند نتيجة أحداث الحرب، وخاصةً عندما دخلت اليابان الحرب، واحتلّت أندونيسيا، والهند الصينية، وبورما، واقتربت من حدود الهند، فأعلنت انكلترا أنها ستعطي الهند الاستقلال بعد الحرب مباشرةً، ورحّب حزب المؤتمر بهذا الإعلان، وطالب باستلام الحكم.

قطع المسلمون كل أملٍ بإمكانية الاتحاد مع الهندوس في دولةٍ واحدةٍ، وأنه لا ضمان لهم على لغتهم، وثقافتهم، ودينهم، بل وحتى على حقوقهم الأولية إن بقي الحكم بيد الهندوس، وأن الإنكليز لن ينصفوهم أبداً، بل سيكونون ضدّهم وسيقفون بجانب الهنوس لذا لا بدّ من الانفصال عنهم، وكان هذا رأي حزب الرابطة الإسلامية، وكثير من أعيان الهند وعامتهم، على حين رأى بعض العلماء ضرورة البقاء مع الهندوس في إطارٍ واحدٍ لمصلحة الدعوة، والأقلية المسلمة التي ستبقى تحت حكم الهندوس، وذلك كما مرّ معنا.

وقد كثرت الاقتراحات حول مستقبل المسلمين في الهند، وكثرت المشروعات المتقدمة، ويكاد لا يوجد زعيم مسلم لم يُقدّم اقتراحاً، ولا

منظمة أو مؤسسة علمية إلا وأبدت رأياً، محمد إقبال، ومحمد علي جناح، وتشودري رحمة علي، وعبدالله هارون، وتشودري خليق الزمان وعبدالرحمٰن صديقي، واسكندر حيات خان، كلهم قدّموا مشروعات، وجامعة عليكرة، واتحاد الطلاب المسلمين في النبجاب قدّما مشروعين، وأبدى أبو الأعلى المودودي اقتراحات، وكلها تدور حول الاتحاد أو الانفصال التام، ويكاد يكون عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) هو عام هذه الاقتراحات والمشروعات، وإبداء الآراء وخاصة النصف الثاني منه بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية[1]. وكان بعض هذه المشروعات والاقتراحات يقتصر على انفصال المقاطعات التي يتألف سكانها من أكثريةٍ مسلمة على حين أن بعضها الآخر يضيف إليها شريطاً على نهر الغانج ليتصل غربي الهند بالبنغال في الشرق.

مؤتمر لاهور:

كان محمد إقبال قد دعا إلى تشكيل دولة باكستان والانفصال عن الهندوس، وذلك في رسالته إلى محمد علي جناح والمؤرخة في ١٨ ربيع الأول ١٣٥٦ هـ (٢٨ أيار ١٩٣٧ م)، وتُوفي محمد إقبال في ٢١ صفر ١٣٥٧ هـ (٢١ نيسان ١٩٣٨ م)، وعُقد مؤتمر السند الإقليمي للرابطة الإسلامية في كراتشي برئاسة محمد علي جناح وقرّر في ١٦ شعبان ١٣٥٧ هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٣٨ م) القرار الآتي:

«إن مؤتمر السند الإقليمي للرابطة الإسلامية يعتبر أن من الضروري كليةً من أجل سلامٍ دائمٍ في القارة الهندية الشاسعة، ومن أجل تطوّرٍ ثقافي ليس له ما يعوقه، ومن أجل الرقي الاقتصادي والاجتماعي وتقرير المصير السياسي للأمتين المعروفتين باسمي الهندوس والمسلمين، أن تُقسّم

---

(١) انظر هذه المشروعات والاقتراحات في «نشأة باكستان» شريف الدين بيرزاده، ترجمة عادل الصلاحي.

الهند إلى اتحادين، على أن يكون ثمة اتحاد للدول الإسلامية، واتحاد للدول غير الإسلامية.

وعلى هذا فإن المؤتمر يتقدم بتوصيةٍ إلى الرابطة الإسلامية لعموم الهند أن تعدّ مشروع دستور يمكن بموجبه للأقاليم ذات الأغلبية الإسلامية، وللدول الإسلامية الوطنية، وللمناطق التي تقطنها أغلبية إسلامية، أن تحصل على الاستقلال الكامل في صورة اتحادٍ قاصرٍ عليها مع إمكانية انضمام أية دولة إسلامية خارج حدود الهند إلى هذا الاتحاد. وأن يكفل الدستور ضمانات للأقليات غير المسلمة مماثلة للضمانات التي يُقرّ بها للأقليات الإسلامية في الاتحاد الهندي غير الإسلامي»[1].

دعا حزب الرابطة إلى عقد مؤتمر في مدينة «لاهور» وقد عُقد المؤتمر، ولقد أقرّت اللجنة العاملة للرابطة الإسلامية لعموم الهند في اجتماعها الذي عقدته في **٥** صفر **١٣٥٨** هـ (**٢٦** آذار **١٩٣٩** م) في قلعة مصطفى، في ميروت القرار الآتي:

«بما أن الرابطة الإسلامية لعموم الهند تُعارض مشروع الاتحاد الذي تضمنه قرار حكومة الهند لعام (**١٩٣٥** م)، ونظراً لأن الجزء الإقليمي من الدستور قد أوجد مخاوف كبيرة لدى المسلمين والأقليات الأخرى فيما يتعلق بمستقبلهم، حيث أن المشروع الإقليمي قد قصر كليةً عن ضمان أدنى الحقوق المبدئية للأقليات الإسلامية في الأقاليم المختلفة، وبما أن رئيس الرابطة الإسلامية لعموم الهند قد فوّض بقرار اتخذ في دورة «باتنا» في (كانون الأول **١٩٣٨** م) باتخاذ الإجراءات الضرورية من أجل تمحيص إمكانية إيجاد بديل مناسب يحفظ مصالح المسلمين والأقليات الأخرى فإن رئيس الرابطة يُعيّن بالاتفاق مع اللجنة العاملة لجنةً مُؤلّفةً من السادة الواردة أسماؤهم أدناه للنظر في المشروعات المختلفة التي عرضها أشخاص ذوي

---

(١) نشأة باكستان. شريف الدين بيرزاده.

معرفةٍ كاملةٍ بالتطورات الدستورية في الهند والبلاد الأخرى، والمشروعات التي يمكن أن تُقدّم للرئيس فيها، ثم تقدّم تقريراً للجنة العاملة عن نتائج عملها في وقت مبكر:

١ ــ محمد علي جناح رئيساً
٢ ــ اسكندر حيات خان
٣ ــ نواب محمد إسماعيل خان صاحب
٤ ــ عبدالعزيز صاحب
٥ ــ عبدالله هارون
٦ ــ خ. نظيم الدين
٧ ــ عبدالمتين تشودري صاحب
٨ ــ أورا نغزيب صاحب
٩ ــ نواب زاده ليقات علي خان صاحب

وتأكّد ذلك في الاجتماع الذي عقده مجلس الرابطة الإسلامية لعموم الهند في دهلي الجديدة في ١٨ صفر ١٣٥٨ هـ (٨ نيسان ١٩٣٩ م) وكذلك في اجتماع المجلس الذي عقد في ١٢ رجب ١٣٥٨ هـ (٢٧ آب ١٩٣٩ م) واجتماع اللجنة العاملة الذي عُقد في ٣، ٤ شعبان ١٣٥٨ هـ (١٧، ١٨ أيلول ١٩٣٩ م) وفي ٩ رمضان ١٣٥٨ هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٣٩ م) مع إعلان صارم بأن الهند المسلمة: «تُعارض معارضةً مطلقةً لا يمكن الرجوع عنها أي «هدف اتحادي» يُؤدّي بالضرورة إلى حكم طائفة الأغلبية تحت قناع من الديمقراطية، ونظام حكم نيابي. فمثل هذا الدستور لا يناسب إطلاقاً سجية شعوب هذه البلاد التي تتألف من قوميات متعددة، ولا تُشكّل دولةً قوميةً».

وعقدت اجتماعات في مطلع عام ١٣٥٩ هـ (شباط ١٩٤٠ م) للجنة العاملة ولمجلس الرابطة لعموم الهند في دهلي وجرت دراسة جادة لمسألة تخصيص موطن منفصل للمسلمين، وتقرر اقتراح ذلك رسمياً في الدورة المفتوحة المقرر عقدها في صفر ١٣٥٩ هـ (آذار ١٩٤٠ م).

تمّ في الاجتماع الذي عقدته اللجنة العاملة في ١٢ صفر ١٣٥٩ هـ (٢١ آذار ١٩٤٠ م) تعيين لجنة خاصة لصياغة مشروع القرار الشهير بقرار لاهور، وكان من أعضائها محمد علي جناح، واسكندر حيات خان.

«أعدت اللجنة مشروع قرار حول المستقبل الدستوري في الهند لتقديمه إلى لجنة الموضوعات» وبعد مناقشات وبحوث طويلة تبنّت لجنة الموضوعات مشروع القرار، وقد أعلن محمد علي جناح المسوّغات له في خطابه، ومما جاء فيه:

أ ـ «إن مشكلة الهند ليست مشكلة جاليات وطوائف، ولكن من الواضح أنها مشكلة أمم ومن الواجب معالجتها على هذا الأساس».

ب ـ «إن الهندوس والمسلمين قومان ينتسبان إلى فلسفتين دينيتين مختلفتين، وإن لهما أدب وعادات اجتماعية متباينة. وإن ربط مثل هاتين الأمتين معاً في دولةٍ واحدة حيث تكون إحداهما من حيث العدد أقلية، وتكون الأخرى غالبية سيُؤدّي حتماً إلى سخطٍ متزايدٍ، ويُؤدّي في النهاية إلى تحطيم أية صورةٍ تبنى على هذه الشاكلة لحكومة هذه الدولة».

ج ـ «إن المسلمين ليسوا أقليةً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة أو الذي يفهم منها عامةً».

د ـ «إن المسلمين أمة وحدهم حسب أي تعريفٍ للأمة، ولا بدّ من أن يكون لهم موطنهم، وأراضيهم ودولتهم».

وفي ١٤ صفر ١٣٥٩ هـ (٢٣ آذار ١٩٤٠ م) طرح القرار التالي في الدورة المفتوحة للرابطة الإسلامية لعموم الهند:

«تصديقاً وتأكيداً لما اتخذه كل من مجلس الرابطة الإسلامية لعموم الهند ولجنتها العاملة من إجراءات موضحة في قراراتها المؤرخة في ١٢ رجب ١٣٥٨ هـ (٢٧ آب ١٩٣٩ م) وفي ٣، ٤ شعبان ١٣٥٨ هـ (١٧، ١٨ أيلول ١٩٣٩ م) وفي ٩ رمضان ١٣٥٨ هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٣٩ م) وفي ٢٤ ذي الحجة ١٣٥٨ هـ (٣ شباط ١٩٤٠ م) حول قضية الدستور، فإن هذه الدورة للرابطة الإسلامية لعموم الهند تعود فتؤكد تأكيداً جازماً أن مشروع الاتحاد الذي تضمنه قرار حكومة الهند لعام (١٩٣٥ م) لا يتفق

إطلاقاً مع أوضاع الهند الخاصة، ولا يمكن تطبيقه فيها، وهو غير مقبول قط لدى الهند المسلمة.

«وهي تُسجّل رأيها القاطع كذلك بأنه على الرغم من أن التصريح الذي أعلنه نائب الملك بالنيابة عن حُكومة صاحب الجلالة في ٥ رمضان ١٣٥٨ هـ (١٨ تشرين الأول ١٩٣٩ م) مطمئن لكونه يعلن أنه سيعاد النظر في السياسة والخطة التي بني عليهما قرار حكومة الهند لعام (١٩٣٥ م)، وذلك بالتشاور مع الأحزاب والمصالح المختلفة في الهند، فإن الهند المسلمة لن ترضى إلا بإعادة النظر من جديد في الخطة الدستورية كلها، وأن المسلمين لن يقبلوا بأية خطّةٍ مُعدّلةٍ إلا إذا تمّ وضعها بموافقتهم وإقرارهم ابتداءً.

تقرر أن الرأي العام لهذه الدورة للرابطة الإسلامية لعموم الهند هو أنه ما من خطةٍ دستوريةٍ يمكن أن تُطبّق في هذه البلاد، أو يمكن للمسلمين أن يقبلوها إلا إذا أعدت وفق المبادىء الجوهرية التالية: إن الوحدات المتصلة جغرافياً يجب أن تحدد ضمن أقاليم تشكل بعد إدخال التعديلات الضرورية في حدودها بحيث تجمع المناطق ذات الأغلبية العددية الإسلامية كأقاليم شمال غربي وشرقي الهند لتكون «دولاً مستقلةً» تتمتع الوحدات المكونة لها بحكم ذاتي وسيادة.

يجب أن يتضمّن الدستور ضمانات كافية وفعالة ومفوض بها، وذلك من أجل الأقليات الموجودة في هذه الوحدات والأقاليم، ولحماية حقوقها ومصالحها الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية والإدارية وما إليها، وذلك بالتشاور مع هذه الأقليات. أما في بقية مناطق الهند حيث يكون المسلمون أقليةً فيجب أن نُحدّد في الدستور ضمانات كافية وفعالة ومفوض بها، وذلك من أجل المسلمين والأقليات الأخرى، ولحماية حقوقهم ومصالحهم الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية والإدارية وما إليها، وذلك بالتشاور معهم.

إن هذه الدورة تُفوّض اللجنة العاملة كذلك بصياغة مشروع دستورٍ

وفق هذه المبادىء الجوهرية، يقضي بأن يتسلّم كل إقليمٍ في النهاية جميع السلطات كالدفاع والخارجية والمواصلات والجمارك وبقية الأمور الضرورية الأخرى»[1].

وهذا القرار يُعرف بـ «قرار لاهور» أو «قرار باكستان»، ولَمّا طرحه في (٢٣ آذار) لـذا يُعدّ هذا اليوم العيد الوطني في باكستان، ويحتفل به كل عام.

مقترحات كريبس[2]:

دخـل اليابـانيون «سنغـافورة» في ٢٩ محـرم ١٣٦١ هـ (١٥ شبـاط ١٩٤٢ م)، وأخذوا بالتقدم في جنوب شرقي آسيا نحو الغرب، فتساقطت أمامهم البلدان بسرعة إذ احتلّوا «رانغون» عـاصمة بـورما في (١٩ صفـر ١٣٦١ هـ (٧ آذار ١٩٤٢ م)، فذعر البريطانيـون، وأعلن تشرشـل في ٤ ربيع الأول ١٣٦١ هـ (٢١ آذار ١٩٤٢ م) أن كريبس سيسـافر فـوراً إلى الهند، ووصل فعلاً إلى دهلي بعد يومين أي في (٢٣ آذار) في الذكرى الثانية لقرار لاهور، فصرح:

«إن حكومة صاحب الجلالة تتقدم بالتصريحات الآتية:

١ ـ تتخذ مجرد أن تتوقّف الحرب، الخطوات اللازمة لكي تقام في الهند، على النمط المشروع فيما بعد، هيئة منتخبة تُكلّف بمهمة صياغة دستورٍ جديدٍ للهند.

---

(١) قرارات الرابطة الإسلامية ص ٤٧.

(٢) كريبس: هو ريتشارد ستافورد كريبس: قسيس سياسي لعب دوراً كبيراً في تشكيل حركة العمال الاشتراكية البريطانية. شغل منصب سفير بريطانيا في موسكو، وتسلّم منصب وزير المالية في وزارة الحرب التي كانت برئـاسة تشـرشل أثنـاء الحرب العالمية الثانية، وزار الهند والتقى بمحمد علي جناح، وغاندي، وأصبح بعـدها حامل الأختام الملكية، ورئيس مجلس العموم.

ب ـ تتخذ ـ حسب ما هو مشروح أدناه ـ الخطوات اللازمة لاشتراك الدول الهندية في الهيئة واضعة الدستور.

ج ـ تتعهد حكومة صاحب الجلالة بقبول وتنفيذ الدستور الموضوع بهذه الطريقة فوراً، واضعة الشروط الآتية فحسب:

١" ـ يحق لكل إقليمٍ من أقاليم الهند البريطانية غير مستعد لقبول الدستور الجديد بالاحتفاظ بوضعه الدستوري الحالي، على أن يُنَصّ على إمكانية التحاقه بالاتحاد فيما بعد، إن أراد ذلك.

في حالة وجود أقاليم لا تنضمّ للاتحاد فإن حكومة صاحب الجلالة مستعدة للموافقة على دستور جديدٍ يعطيها الوضعية الكاملة نفسها التي للاتحاد الهندي، ويتوصّل إلى وضعه بطريقةٍ مماثلةٍ للطريقة، الواردة هنا، هذا في حالة إبداء هذه الأقاليم رغبتها في هذا الأمر.

٢" ـ توقيع معاهدة تتفاوض بشأنها حكومة صاحب الجلالة مع الهيئة المكلفة بوضع الدستور، على أن تُغطّي هذه المعاهدة كافة الأمور الضرورية التي تنجم عن النقل الكامل للمسؤولية من يد بريطانيا إلى أيدٍ هنديةٍ. وسوف تنصّ هذه المعاهدة على حماية الأقليات الدينية والعنصرية حسب التعهدات التي قطعتها حكومة صاحب الجلالة، إلا أنها لن تفرض أية قيود على حق الاتحاد الهندي في أن يقرر في المستقبل نوع العلاقة التي تربطه بالدول الأخرى الأعضاء في رابطة الشعوب البريطانية.

٣" ـ سواء أقررت أية من الدول الهندية أن تلتزم بالدستور أم لا فإنه من الضرورة المفاوضة من أجل إعادة النظر في ترتيبات معاهدتها بالدرجة التي يقتضيها الوضع الجديد.

د ـ تشكل الهيئة التي تضع الدستور على الشكل التالي إلا إذا ما اتفق قادة الرأي الهندي في الجاليات والطوائف الرئيسية على طريقةٍ أخرى قبل انتهاء الحرب.

مجرد إعلان نتائج الانتخابات النيابية التي يجب أن تجري عند نهاية الحرب، فإن جميع أعضاء المجالس الدنيا للهيئات التشريعية الإقليمية تنتقل بوصفها هيئةً انتخابيةً واحدةً لانتخاب الهيئة التي تضع الدستور بطريقة التمثيل النسبي، وسوف تعادل هذه الهيئة من حيث العدد عشر عدد أعضاء الهيئة الانتخابية.

تدعى الدول الهندية لتعيين ممثليها بنسبة عدد سكانها على أن تكون هذه النسبة مثل نسبة ممثلي الهند البريطانية عامة، ويكون لممثلي الدول الهندية الصلاحيات نفسها التي للأعضاء الممثلين للهند البريطانية.

هـ ـ في المرحلة الحرجة التي تواجه الهند الآن وإلى أن يمكن وضع الدستور الجديد فإنه من الحتمي على حكومة صاحب الجلالة أن تتحمل مسؤولية إدارة وتوجيه الدفاع الهندي، وتحتفظ بها كجزء من جهودها في الحرب العالمية، إلا أن مسؤولية تنظيم ثروات الهند العسكرية والمادية والأدبية تنظيماً كاملاً تقع على عاتق حكومة الهند متعاونةً في ذلك مع الشعوب الهندية، إن حكومة صاحب الجلالة تدعو زعماء القطاعات الرئيسية من الشعب الهندي سواء في مجالس بلادهم أو في رابطة الشعوب البريطانية، أو الأمم المتحدة للمشاركة مشاركةً فوريةً وفعّالةً، وبذلك يستطيعون أن يقدموا معونةً إيجابيةً وبناءةً في أداء واجبٍ حيويٍ وضروري من أجل حرية الهند في المستقبل وفي اليوم التالي شرح كريبس هذه المقترحات بالإذاعة.

أعلنت اللجنة العاملة للرابطة الإسلامية لعموم الهند بقرارها الذي اتخذته في **٢٥** ربيع الأول **١٣٦١** هـ (**١١** نيسان **١٩٤٢** م)، أن الرابطة لا تقبل هذه المقترحات بالصورة التي وردت بها، ولكنها في الوقت نفسه عبرت عن «امتنانها للاعتراف بإمكانية قيام باكستان ضمناً وذلك بالنص على إمكانية قيام اتحادين أو أكثر في الهند».

فكرة آرسي[1]:

رفض في البداية قرار لاهور في تقسيم الهند، وقال عنه: «إن هذا القرار يقسم الوليد إلى نصفين» ثم عاد وأيّده، وألقى كلمةً في دورة لجنة حـزب المؤتمـر لعمـوم الهنـد، وألـحّ على الاعتـراف بحق المسلمين بالانفصال، وطرح رأيه على التصويت في ١٦ ربيع الثاني ١٣٦١ هـ (٢ أيار ١٩٤٢ م) فرفض المؤتمر القرار بأغلبية ١٢٠ صوتاً ضد ١٥ صوتـاً. وقام (جاگات ناراين لال) بطرح قرار مناقض تمّ إقراره بأغلبية ٩٢ صوتاً ضد ١٧ صوتاً، ويعلن هذا القرار: «أن أي اقتراح يهدف إلى تجزئة الهند بطريقة إعطاء الحرية للدول أو الوحدات الإقليمية التي تشكلها بالانفصال عن الاتحاد الهندي يشكل خطراً كبيراً على خير مصالح الشعب في الدول والأقاليم المختلفة، وفي البلاد عامة، ولذلك فإن حزب المؤتمر لا يمكن أن يوافق على مثل هذا الاقتراح».

استقال آرسي من حزب المؤتمر، وتبعه سبعة من زملائه وذلك في اجتماع أفراد الهيئة التشريعية الإقليمية من أعضاء حزب المؤتمر الذي عقد في ٢ رجب ١٣٦١ هـ (١٥ تمـوز ١٩٤٢ م) وذلك ليـواصل مسعـاه في التقسيم، واتصـل آرسي بغانـدي، وهـو في السجن، وحصـل منـه على الموافقة على هذه الفكرة وفيما يلي نص هذه الفكرة:

«أساساً لقواعد التسوية بين حزب المؤتمر الهندي، والرابطة الإسلامية لعموم الهند، يوافق عليها كل من غاندي، ومحمد علي جناح، ويسعيان للحصول على موافقة كل من المؤتمر والرابطة عليها».

١" ـ تؤيد الرابطة الإسلامية المطلب الهنـدي في الاستقلال بعـد

---

(١) آرسي: لقب لـ (تشاكر أفارتي راجاجو بلا تشاري) عضو اللجنة العاملة لعموم الهند في حزب المؤتمر، له علاقة وثيقة بغاندي، وابنته زوج ابن غاندي، أحد قادة حزب المؤتمر، رئيس وزراء مدراس، وحاكم عام الهند بعد لورد مانتباتن.

ضمان الشروط الواردة أدناه والمتعلقة بدستور الهند الحرة، وتتعاون مع حزب المؤتمر في تشكيل حكومة موقتة للمرحلة الانتقالية.

٢" ـ تعيّن بعد نهاية الحرب لجنة من أجل تخطيط المناطق المتجاورة في شمال غربي الهند وفي شرقيها، والتي يُشكل المواطنون المسلمون أغلبيةً مطلقةً، ثم يجري في المناطق التي تخطط بهذا الشكل استفتاء للمواطنين على أساس تصويت البالغين أو أي امتياز عملي آخر تتقرر بموجبه قضية الانفصال عن هندستان. وإذا ما صوتت الأغلبية إلى جانب إقامة دولة ذات سيادة منفصلة عن هندستان، فإن هذا القرار سيُطبّق من دون إجحاف بحق المناطق الواقعة على الحدود في الاختيار بالانضمام إلى أي من الدولتين.

٣" ـ يعطى جميع الفرقاء الحق بالدفاع عن وجهات نظرهم قبل إجراء الاستفتاء.

٤" ـ في حالة الانفصال تعقد اتفاقيات متبادلة من أجل ضمان الدفاع والتجارة والمواصلات والأغراض الضرورية الأخرى.

٥" ـ إن أي تبادلٍ في السكان يجب أن يتمّ على أساسٍ واحدٍ فقط وهو الاختيار الشخصي البحت.

٦" ـ لا يلتزم بهذه الشروط إلا في حالة نقل بريطانيا كافة السلطات والمسؤوليات لحكم الهند إلى أهلها.

فكرة غاندي:

كان غاندي ضد فكرة التقسيم، ورغبته أن يبقى المسلمون تحت سيطرة الهندوس، ولكن عندما اشتدت حماسة المسلمين بالمطالبة بالانفصال عن الهندوس والاستقلال أظهر غاندي شيئاً من اللين لعله يركب الموجة ثم ينحرف بركاب السفينة.

جرت لقاءات بين محمد علي جناح وغاندي استمرت ثمانية عشر

يوماً من ١٢ رمضان ١٣٦٣ - ٣٠ رمضان ١٣٦٣ هـ (٩ أيلول ١٩٤٤ - ٢٧ أيلول ١٩٤٤ م)، وقد تَمّ خلال هذه المدة أربعة عشر لقاءً، وقد اقترح غاندي يوم ٢٧ رمضان ما يأتي:

«تقوم بتخطيط هذه المناطق لجنة يوافق عليها كل من حزب المؤتمر والرابطة الإسلامية، ويجب التحقق من رغبات مواطني هذه المناطق المخططة بواسطة تصويت البالغين من أهاليها أو بوسيلةٍ مماثلةٍ.

إذا كان التصويت بجانب الانفصال، فيتمّ الاتفاق على أن تشكل هذه المناطق دولةً منفصلةً في أقرب وقتٍ ممكن بعد أن تصبح الهند حرة من الحكم الأجنبي، ويصبح من الممكن على هذا أن تقسم إلى دولتين مستقلتين ذواتي سيادة.

تعقد معاهدة انفصال تنصّ على قيام إدارةٍ نشيطةٍ ووافيةٍ لشؤون الخارجية، والدفاع، والمواصلات الداخلية، والجمارك، والتجارة، وما إليها من أمورٍ ستظلّ حتماً ذات مصلحة عامة للفريقين المتعاهدين، وتتضمن المعاهدة كذلك نصوصاً من أجل حماية حقوق الأقليات في كلتا الدولتين.

تتفق الرابطة والمؤتمر مجرد قبولهما هذه الاتفاقية على خطة عملٍ مشتركة لتحقيق استقلال الهند.

يظلّ من حقّ الرابطة - على أية حال - أن تبقى بعيدةً عن أي عمل مباشر يلجأ إليه المؤتمر، ولا يكون للرابطة رغبة في المشاركة فيه[1].

ولكن غاندي لم يكن موافقاً على التقسيم ورغبته بالسيطرة ماثلة أمام عينيه، وعندما قابله أبو الكلام أزاد في ٩ جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ (٣١ آذار ١٩٤٧ م) وسأله عن رأيه في التقسيم، أجاب، وهو يعلم أن أبا الكلام أزاد ضد التقسيم: لئن أراد حزب المؤتمر أن يقبل بالتقسيم فإن قبوله لن يكون إلا على جثتي، وإنني لن أقبل بتقسيم الهند ما دمت حياً، وإنني لم

(١) محادثات جناح - غاندي ص ٨٧.

أسمح للمؤتمر بقبوله ما وجدت إلى ذلك سبيلاً»[1]. وفي المجلس العام لحزب المؤتمر لعموم الهند الذي عقد في رجب ١٣٦٦ هـ وقرّر تقسيم الهند أيّد غاندي ذلك بحماسة.

البعثة الوزارية:

أخفق كريبس في مقترحاته عام ١٣٦١ هـ (١٩٤١ م)، وفشل محمد علي جناح وغاندي في محادثاتهما ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م)، وقابل نائب الملك اللورد وافيل زعماء الهند فلم ينجح في مهمته، فاستدعي إلى لندن فسافر إليها في ٩ ربيع الثاني ١٣٦٤ هـ (٢٣ آذار ١٩٤٥ م)، وأعلن وزير الدولة لشؤون الهند في مجلس العموم البريطاني أن الغرض من مقترحات كريبس ما زال قائماً. وجرت مراسلات بين نائب الملك وزعماء الهند، ثم عقد مؤتمر الزعماء في (سيملا) في رجب ١٣٦٤ هـ (حزيران ١٩٤٥ م) حضره واحد وعشرون عضواً، ولم يتخلف سوى غاندي. وأعلن في ٤ شعبان ١٣٦٤ هـ (١٤ تموز ١٩٤٥ م) فشل المؤتمر رسمياً، إذ رفض حزب المؤتمر الاشتراك في وزارة ائتلافية، ووافقت الرابطة، فشكل نائب الملك حكومة من الموظفين.

أعلن نائب الملك اللورد وافيل في ١٣ رمضان ١٣٦٤ هـ (٢١ آب ١٩٤٥ م) أنه قرر إجراء انتخابات عامة للجمعيات الوطنية الإقليمية والمركزية في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وذلك بعد مشاورات أجراها مع حكومة صاحب الجلالة ومع الحكومات الإقليمية. كما أعلن بنفسه عن سفره إلى لندن لمقابلة الحكومة العمالية الجديدة بناءً على رغبتها. وسافر، ورجع في ١٢ شوال ١٣٦٤ هـ (١٩ أيلول ١٩٤٥ م) وصدق موضوع الانتخابات، وأنه سيتشاور مع الممثلين الجمعيات الوطنية.

جرت الانتخابات العامة وأُعلنت نتائجها في ٢٨ محرم ١٣٦٥ هـ (الأول

(١) الهند تفوز بحريتها ص ١٨٦.

من كانون الثاني ١٩٤٦ م) وقد فازت الرابطة فوزاً ساحقاً في المناطق الإسلامية إذ حصلت على ٥٠٢ مقعد من أصل ٥٦٠ مقعداً، وهي المقاعد المخصصة للمسلمين، ومعنى ذلك أن المسلمين يصرّون على إقامة دولة باكستان.

وفي ١٨ ربيع الأول ١٣٦٥ هـ (١٩ شباط ١٩٤٦ م) أعلن عن تشكيل لجنة وزارية تتألف من:

١ ـ بثيك لورنس: وزير الدولة لشؤون الهند.
٢ ـ ستافورد كريبس: رئيس مجلس التجارة.
٣ ـ ألبرت ألكسندر: القائد الأعلى للبحرية.

ومهمة هذه اللجنة السفر إلى الهند وإجراء مباحثات مع الزعماء الهنود.

وصلت اللجنة إلى «كراتشي» في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٦٥ هـ (٢٣ آذار ١٩٤٦ م)، وقد أجرت محادثات استطلاعية مع نائب الملك، ومع أعضاء المجلس التنفيذي، ومع الزعماء الهنود.

رأت اللجنة ضرورة وضع دستور الهند المقبل، وإقامة حكومة موقتة لتقوم على إدارة الهند حتى يقرّ الدستور، وادعت أن الشعب باستثناء الرابطة الإسلامية يرغب في وحدة الهند، وقالت: إن خوف المسلمين من ضياعهم في الأكثرية جعلنا نبحث موضوع استقلال باكستان، وأنها ستشمل منطقتين: إحداهما في الشمال الغربي، وتتألّف من أقاليم البنجاب، والسند، والحدد الشمالية الغربية، وبالوشستان، والثانية في الشمال الشرقي وتتألف من إقليمي البنغال وأسام. وأبدت نظرها في إمكانية تعديل الحدود.

ونشرت اللجنة نسبة المسلمين في الأقاليم الستة، وجاءت كما يلي:

الإقليم	عدد السكان	عدد المسلمين	عدد غير المسلمين	نسبة المسلمين٪
البنجاب	٢٨,٤١٨,٨١٩	١٦,٢١٧,٢٤٢	١٢,٢٠١,٥٧٧	٥٧,٠٦
السند	٤,٥٣٥,٠٠٨	٣,٢٠٨,٣٢٥	١,٣٢٦,٦٨٣	٧٠,٧٤
الشمالية الغربية	٣,٠٣٨,٠٦٧	٢,٧٨٨,٧٩٧	٢٤٩,٢٧٠	٩١,٧٩
بالوشستان	٥٠١,٦٣١	٤٣٨,٩٣٠	٦٢,٧٠١	٨٧,٥٠
المجموع	٣٦,٤٩٣,٥٢٥	٢٢,٦٥٣,٢٩٤[1]	١٣,٨٤٠,٢٣١	٦٢,٠٧
البنغال	٦٠,٣٠٦,٥٢٥	٣٣,٠٠٥,٤٣٤	٢٧,٣٠١,٠٩١	٥٤,٧٢
أسام	١٠,٢٠٤,٧٣٣	٣,٤٤٢,٤٧٩	٦,٧٦٢,٢٥٤	٣٣,٧٣
المجموع	٧٠,٥١١,٢٥٨	٣٦,٤٤٧,٩١٣	٣٤,٠٦٣,٣٤٥	٥١,٦٩

أما بقية الأقليات المسلمة في بقية أنحاء الهند البريطانية فيعدون حوالي عشرين مليوناً متفرقين بين بقية المواطنين الذين يبلغ عددهم الكلي ١٨٨ مليوناً.

إن هذه تبيّن أن إقامة دولة باكستان منفصلةً وذات سيادةٍ على الأسس التي تطالب بها الرابطة الإسلامية لن تحلّ مشكلة الأقليات. ولسنا نرى ثمة ما يبرر أن تضمّ دولة باكستان ذات السيادة على تلك المناطق من البنجاب والبنغال وأسام حيث تكون أغلبية السكان من غير المسلمين. إن أية حجة يمكن استخدامها من أجلٍ قيام باكستان يمكن - في رأينا - أن تستخدم كذلك، وبالقوة نفسها، من أجل فصل المناطق غير الإسلامية عن باكستان. وإن هذه النقطة تُؤثّر بشكل خاص على وضع السيخ.

لهذا بحثت اللجنة إمكانية قيام باكستان على نطاقٍ أصغر، حيث يخرج منها: إقليم أسام كله باستثناء منطقة (سيلهت)، والبنغال الغربية

(١) يزيد عدد المسلمين على هذا الرقم حيث كان الرقم قريباً من ٢٥ مليوناً، حيث أن نسبتهم تزيد على ١٢٪ بينما حسب هذا الإحصاء تبلغ ١٠,٦٢٪.

وتضم مدينة كلكتا حيث لا تزيد نسبة المسلمين فيها على ٢٣,٦٪ من مجموع السكان. وقطاعي (أمبالا) و(جولوندور) في البنجاب، وهذا الأمر لا توافق عليه الرابطة الإسلامية.

هذا إضافةً إلى وجود اعتبارات إدارية واقتصادية وعسكرية لها وزنها. مع ملاحظة وجود مسافة بين جزئي باكستان تزيد على سبعمائة ميل، وقد أوصت اللجنة بأن يتخذ الدستور الصورة الأساسية الآتية:

أولاً: يجب أن يُقام اتحاد هندي يضم الهند البريطانية والدول كذلك، ويضطلع بالموضوعات الآتية: الشؤون الخارجية، الدفاع، المواصلات، وتكون له الصلاحيات الضرورية لجمع الموارد المالية التي تتطلبها هذه الموضوعات.

ثانياً: يكون للاتحاد هيئة تنفيذية وأخرى تشريعية تتألف من ممثلين للهند البريطانية والدول كذلك. وإن أية مسألة تثير قضية طائفة كبيرة في الهيئة التشريعية تتطلب لاتخاذ قرار بشأنها أغلبية الممثلين الحاضرين، وتصويت كلا الجاليتين الرئيسيتين على هذه، كما تتطلب أغلبية الأعضاء الحاضرين والمصوتين.

ثالثاً: تبقى جميع الموضوعات غير موضوعات الاتحاد، وجميع السلطات والصلاحيات المتبقية عنه في أيدي الأقاليم.

رابعاً: تحتفظ الدول بالموضوعات والسلطات والصلاحيات كافةً غير تلك التي تتخلّى عنها للاتحاد.

خامساً: تبقى الأقاليم حرةً في تكوين مجموعات ذات هيئات تنفيذية وتشريعية، وتستطيع كل مجموعة أن تحدد الموضوعات الإقليمية التي ستشترك فيها معاً.

سادساً: يجب أن ينص دستور الاتحاد ودساتير المجموعات على أن من حق كل إقليم باتفاق أغلبية أعضاء جمعيته الوطنية التشريعية أن يدعو

إلى إعادة النظر في نصوص الدستور وذلك بعد مدة مبدئية قدرها عشر سنوات، وبعد كل عشر سنوات تالية.

وذكرت اللجنة أن ليس من هدفها إقامة دستور وإنما إقامة الجهاز الذي يضع دستوراً جديداً يقوم بوضعه الهنود من أجل الهنود...

والمجموعتان الرئيسيتان لا يمكن أن تشتركا في جهاز لوضع الدستور، والدستور يجب وضعه بسرعة، والانتخابات هي الوسيلة الصحيحة لوضع دستور مقبولٍ، والانتخابات تحتاج إلى مدة، والطريقة العملية هي اللجوء إلى الجمعيات الوطنية التي انتخبت حديثاً، ولكنها لم تمثل تمثيلاً صحيحاً وأعطت اللجنة أمثلةً لذلك أن عدد أعضاء الجمعية الوطنية لإقليم (أسام) هو ١٠٨ أعضاء وأن سكان هذا الإقليم هو عشرة ملايين، على حين أن عدد سكان البنغال هو ستة أضعاف سكان (أسام) أي ستين مليوناً بينما عدد أعضاء جمعيتها الوطنية هو ٢٥٠ عضواً أي ضعفين وثلث عدد أعضاء جمعية أسام. وكذلك الوزن الذي أُعطي للأقليات، وهو يختلف بين جهةٍ وأخرى حسبما أُعطيت الطائفة فقد أعطي المسلمون مثلاً ٤٨٪ من الجمعية الوطنية البنغالية على حين يُشكّلون ٥٥٪ من مجموع سكان الإقليم، ولذلك اقترحت اللجنة ما يأتي:

أ ــ يعطى كل إقليم عدداً كلياً من المقاعد يتناسب مع عدد سكانه، بنسبة مئوية قدرها مقعد واحد لكل مليون مواطن، كأقرب بديل للتمثيل بطريقة تصويت البالغين.

ب ــ تقسيم هذا العدد من المقاعد المخصصة للأقاليم بين الجاليات الرئيسية فيه بنسبة عدد أبنائها.

ج ــ النص على أن ينتخب ممثلو كل جالية في الإقليم من أعضاء تلك الجالية في الجمعية الوطنية التشريعية وحدهم.

ورأت كذلك أن يكتفى بثلاث طوائف رئيسية في الهند، وهي:

الهندوس (العامة)، والمسلمون، والسيخ، على أن تشمل الطائفة العامة كل من كان غير مسلم، وغير سيخ. وتُمثّل الأقليات الصغيرة في المسائل ذات الأهمية الخاصة للأقليات.

أولاً: اقترحت اللجنة أن تقوم كل جمعية وطنية تشريعية إقليمية بانتخاب العدد الوارد أدناه من الممثلين، على أن ينتخب كل قسم من الجمعية الوطنية (العام - المسلم - السيخ) ممثليه الخاصين بطريقة التمثيل النسبي، على أساس صوت واحد قابل للتحويل.

القسم (أ)	الإقليم	العام	المسلمون	السيخ	المجموع
	مدراس	٤٥	٤	–	٤٩
	بومباي	١٩	٢	-	٢١
	الأقاليم المتحدة	٤٧	٨	–	٥٥
	بيهار	٣١	٥	–	٣٦
	الأقاليم المركزية	١٦	١	–	١٧
	أوريسا	٩	–	–	٩
القسم (ب)	البنجاب	٨	١٦	٤	٢٨
	الشمال الغربي	–	٣	–	٣
	السند	١	٣	–	٤
القسم (ج)	البنغال	٢٧	٣٣	–	٦٠
	أسام	٧	٣	–	١٠
		٢١٠	٧٨	٤	٢٩٢
ثانياً:	ممثلو الدول الهندية				٩٣
					٣٨٥

ملاحظة: من أجل تمثيل الأقاليم التابعة للمفوض العام يضاف إلى:

القسم (أ) العضو الممثل لدلهي في الجمعية الوطنية التشريعية	١
العضو الممثل لأجمر ـ مروارا	١
العضو الممثل لكورج	١
القسم (ب) العضو الممثل عن بالوشستان	١
	٣٨٩

ثالثاً: يجتمع الممثلون المختارون بهذه الطريقة في دلهي الجديدة في أول فرصةٍ ممكنةٍ.

رابعاً: ويعقد اجتماع تمهيـدي يتقـرر فيه النظام العام لسير العمل، وينتخب فيه رئيس المجلس وبقية موظفيه، كما يتم تشكيل لجنة استشارية خاصة بحقوق المواطنين والأقليات والمناطق القبليـة والمناطق المستثنـاة. وبعد هذا ينقسم الممثلون الإقليميون إلى الأقسام الثلاثة المبينة سابقاً.

خامساً: تقوم هذه الأقسـام بتقرير الدساتير الإقليميـة التي يتضمنها كل قسم، وتقرر كذلك ما إذا كان سيوضع دستور جماعي لمجموعة هذه الأقاليم، كما تقرر في حالة وضع مثل هذا الـدستور المـوضوعـات التي ستكون من اختصاص المجموعة، ويجب أن تتمتع الأقاليم بحقّ الانفصال عن المجموعة وذلك بمقتضى النصوص الواردة في الثامنة أدناه.

سادساً: يجتمع ممثلـو الأقسام الثلاثة بعد ذلك ومعهم ممثلـو الدول الهندية من أجل وضع دستور الاتحاد.

سابعاً: أي قرارٍ يرد في المجلس التأسيسي الاتحادي، من شأنه أن يغير المطالب الرئيسية أو يثير أية قضيةٍ طائفيةٍ كبيرةٍ يتطلب موافقة أغلب النواب الحاضرين، وتصويت الجاليتين الرئيسيتين كلاً على حدة.

يبتّ رئيس المجلس التأسيسي في أي من القرارات يثير قضيةً طائفيةً كبيرةً، كما يقوم بناءً على طلب من أغلبية نواب أي من الجاليتين الرئيسيتين باستشارة المحكمة الاتحادية قبل أن يبتّ برأيه في الموضوع.

ثامناً: بعد أن توضع الترتيبات الدستورية الجديدة موضع التنفيذ يصبح من حق كل إقليم أن يقرر الخروج من المجموعة التي وضع فيها. ويمكن اتخاذ هذا القرار بواسطة الجمعية التشريعية الخاصة بالإقليم بعد إجراء الانتخابات العامة الأولى في ظلّ الدستور الجديد.

يقوم سعادة نائب الملك بالطلب من الهيئات التشريعية الإقليمية أن تباشر بانتخاب ممثليها، كما يطلب من الدول أن تعين اللجنة المفاوضة.

ومن الضروري المفاوضة لإقرار معاهدة بين المجلس التأسيسي الاتحادي والمملكة المتحدة وذلك لتقرير بعض الأمور التي تنشأ من تحويل السلطة.

وفي المرحلة التي يجري فيها وضع الدستور لا بدّ من أن تستمر إدارة البلاد، ولذلك فإننا نُعلّق أكبر درجة من الأهمية على أن تُشكّل مباشرةً حكومة موقتة تتمتع بتأييد الأحزاب السياسية الرئيسية.

لكن حزب الرابطة الإسلامية قد أصدر بياناً في ٢١ جمادى الآخرة ١٣٦٥ هـ (٢٢ أيار ١٩٤٦ م) وانتقد فيه خطة البعثة الوزارية، وكذلك أصدرت اللجنة العاملة لحزب المؤتمر قرار في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥ هـ (٢٤ أيار ١٩٤٦ م) اعترضت فيه على خطة البعثة الوزارية.

فأصدرت البعثة الوزارية في ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٥ هـ (٢٥ أيار ١٩٤٦ م) بياناً إضافياً ردّت فيه على بيان الرابطة، وعلى قرار حزب المؤتمر.

ولكن في هذه الأثناء كان المسلمون يمشون في طريقهم، يُؤكّدون إصرارهم على الانفصال، وتأسيس دولة باكستان إذ أنهم لا يستطيعون البقاء مع الهندوس في دولةٍ واحدةٍ لأنهم لا يمكنهم أن يقبلوا بالذلّ، ولا أن يسلّموا أعناقهم للهندوس يتصرفون بهم كما يشأون بصفتهم أكثرية.

مؤتمـر دهلـي:

لقد كان قرار لاهور الحجر الأساسي في تأسيس دولة باكستان بعد أن يئس المسلمون من إيجاد حلٍّ معقولٍ للتعايش مع الهندوس.

وبعد الحرب العالمية الثانية اجتمع المسلمون في دهلي في جلسةٍ تشريعيةٍ وأبانوا فيه أسباب دعوتهم لاستقلالهم عن الهندوس، رغم المساعي التي بذلها زعماء الهندوس ليعدل المسلمون عن مطالبهم، وكان المؤتمر في دهلي قد عقد في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٥ هـ (٨ نيسان ١٩٤٦ م)، وكان قرار هذا المؤتمر مبنياً على مؤتمر لاهور السابق الذي عُقد قبل ست سنوات. وقد جاء نص القرار كالآتي:

بما أنه يوجد في شبه القارة الهندية الواسعة مائتا مليون مسلمٍ ينتمون إلى عقيـدةٍ تُنظِّم كـل ناحيـةٍ من نواحي حيـاتهم (الثقـافيـة والاجتمـاعيـة والاقتصـادية والسيـاسية) ولا تقف عنـد حدود الأمـور الروحيـة والعقـديـة والمناسك مما يختلف اختلافاً كلياً وجذرياً مع تعاليم الـديانـة الهندوسيـة وفلسفتها التي ما زالت منذ آلاف السنين تُغذّي وتدعم نظاماً طبقياً قاسياً أدّى إلى إنزال ستين مليون إنسان إلى منزلة المنبوذين، وجعل حواجز غير طبيعيةٍ بين إنسانٍ وآخر، وامتيازاتٍ اجتمـاعية واقتصـادية، كمـا أدّى إلى حرمان فريقٍ كبيرٍ من أبنـاء هذه البلاد من العـدالة، وهـو يُهدّد المسلمين النصارى وغيرهم من الأقليات بتردٍّ اجتماعي واقتصادي لا يمكن النهوض منه.

ولما كان نظام الطبقية الهندوسية يتنافى صراحةً مع الوطنية والعدالة والديمقراطية ومع جميع المثل النبيلة التي يقوم عليها الإسلام.

وبما أن الماضي التاريخي لكل من الفريقين: المسلمين والهندوس، وما لكل منهما من عادات وثقافات ونظمٍ اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ، قد جعل من المستحيل دمجهما في وحدةٍ وطنيةٍ مستوحاةٍ من آمالٍ ومثلٍ مشتركةٍ.

وبما أنهما ما زالا بعد مرور قرونٍ على وجودهما معاً شعبين مختلفين.

وبما أنه بعد أن أدخل البريطانيون إلى الهند نظام الأكثرية السياسي على غرار الديمقراطية، الغربية القائمة على حكم الأكثرية بمعنى أن الأكثرية في قوم ما، أو في جماعةٍ ما تستطيع أن تفرض إرادتها على أكثريةٍ من قوم آخر أو جماعة أخرى على الرغم من معارضة هذه الفئة، كما حدث خلال سنتين ونصف من حكم حكومات المؤتمر الهندوكي التي تشكلت في العهد البريطاني في الولايات التي أكثرية أهلها هندوسية، حيث خضع المسلمون فيها إلى ما لا يوصف من مضايقاتٍ وضغوطٍ، مما أدّى إلى قناعة المسلمين ببطلان هذا النظام وعدم جدوى ما سُميّ بالحماية الدستورية، وما جاء في التعليمات المعطاة إلى الحكام، وانتهى بهم الأمر إلى النتيجة الحتمية، وهي أنه إذ أقيم اتحاد (فيدرالي) في الهند فإن المسلمين، حتى ولو كانوا أكثريةً في بعض الولايات، لن يكونوا أحسن حظاً مع الهندوس، وأن حقوقهم لن تصان قطّ مع وجود أكثريةٍ هندوكيةٍ دائمةٍ في الحكومة المركزية.

وبما أن المسلمين مقتنعون بأن إنقاذ مسلمي الهند من السيطرة الهندوكية وإعطاءهم الإمكانية الكاملة لتطوير أنفسهم على قدر عبقريتهم لا تتمّ إلا بإنشاء دولةٍ مستقلةٍ ذات سيادة تضمّ البنغال وآسام في الشمال الشرقي، وتضمّ البنجاب وولاية الحدود الشمالية والسند وبلوجستان في الشمال الغربي. لهذا يصرّح المؤتمر الإسلامي لجميع الهند، مركزاً وملحقات، في جلسته التشريعية، بعد أن أخذ بعين الاعتبار كل الأمور، بأن الأمة الإسلامية لن تخضع قط لأي دستورٍ يقضي بوحدةٍ هندية، ولن تشترك بأية هيئةٍ دستوريةٍ ترمي إلى هذه الغاية، وأن أي حلٍّ تفرضه الحكومة البريطانية لتحويل السلطة من الإدارة البريطانية إلى الشعب الهندي لا يتفق مع المبادىء التالية العادلة المدروسة لحفظ السلام الداخلي وهدوء البلاد لن يساهم في حلّ القضية الهندية. والحلّ هو:

١″ ـ أن تتشكّل في المناطق المشتملة على البنغال وآسام في الشمال الشرقي ومن البنجاب ومنطقة الحدود الشمالية الغربية وولايتي السند وبلوجستان في الشمال الغربي من الهند (أي مناطق باكستان) حيث يُشكّل المسلمون الأكثرية الساحقة، دولة مستقلة ذات سيادةٍ وأن تتخذ التدابير الحاسمة لإقامة هذه الدولة دون تأخير.

٢″ ـ أن يسنّ كل من شعبي باكستان وهندستان دستوراً لنفسه منفصلاً عن الآخر يتفق مع مبادئه.

٣″ ـ أن تتمتع الأقليات في باكستان وهندستان بالحماية التي نصّ عليها قرار المؤتمر الإسلامي لجميع الهند الصادر في ٢٣ آذار ١٩٤٠ م (١٤ صفر ١٣٥٩ هـ) في لاهور.

٤″ ـ إن قبول طلب المؤتمر الإسلامي بإقامة باكستان من غير تأخير هو شرط أساسي لتعاون المؤتمر في تشكيل الحكومة الانتقالية المركزية واشتراكه بها.

إن هذا القرار يعني بصراحة أن أية محاولةٍ لفرض دستور لهندٍ موحدةٍ أو اللجوء إلى أية تسويةٍ موقتةٍ، في المركز، خلافاً لطلب المؤتمر الإسلامي يجعل المسلمين أمام أمرٍ واحدٍ وهو المقاومة لمثل هذا الغرض بكل الوسائل الممكنة لضمان بقائهم العضوي.

وفي نهاية المؤتمر ردّد الجميع هذا الإعلان:

«إني أعلن بصراحةٍ، في هذا المقام، عن اعتقادي الجازم بأن أمن وسلامة ومستقبل المسلمين في شبه القارة الهندية منوط بقيام باكستان، وهو الحلّ الوحيد العادل للقضية الدستورية، وهو الذي يجلب السلام والحرية والرخاء لجميع الشعوب والجماعات الموجودة في شبه القارة الهندية العظيمة.

وأرى من واجبي أن أؤكد بصراحةٍ بأني سأُنفّذ بطيبة خاطر ودون تلكؤٍ

كل التوجيهات والتعليمات التي تصدر عن المؤتمر الإسلامي لعموم الهند لتحقيق أية حركةٍ يتبنّاها لبلوغ الهدف الوطني العزيز لباكستان.

وبما أني أؤمن بعدالة قضيتي وصدقها فإني أتعهد بأن أواجه أي خطرٍ، وأن أُقدّم أية تضحيةٍ يُطلب مني تقديمها»[1].

ردّ مقترحات البعثة الوزارية:

اجتمع مجلس الرابطة في ٦ و٧ رجب ١٣٦٥ هـ (٥ و٦ حزيران ١٩٤٦ م) واحتج على الانتقادات التي وردت في بيان البعثة الوزارية لفكرة باكستان، وأكّد أن دولة باكستان ذات السيادة هو هدف الرابطة الإسلامية الذي لا يمكن تغييره بحالٍ من الأحوال.

ورفض غاندي الاقتراح، ورفض التقسيم وذلك في ١١ شعبان ١٣٦٥ هـ (١٠ تموز ١٩٤٦ م) إذ رأى أن السيخ أعداء المسلمين الذين يكثرون في شرقي البنجاب سيكونون أقليةً في القسم (ب) الذي يضمّ أكثريةً مسلمةً، فلا يمكن أن يُستفاد من عداوتهم للمسلمين. وصرّح غاندي قائلاً: إن حزب المؤتمر يودّ أن يكون مُطلق الحرية والتصرّف فيما يُقرّره، وإنا لن نتنازل عن أي أمرٍ من أمورنا لأحدٍ.

---

(١) يلاحظ أن البارزين في المؤتمر كانوا أصحاب عواطف إسلامية، وأهل مصالح وسياسة، ركبوا الموجة، وبرزوا، ولم يكونوا أصحاب فكرٍ وعقيدةٍ، وهذا أصلاً خط القائمين على حزب الرابطة الإسلامية، وأما العامة فتندفع أيضاً بالعاطفة، لذا لم يرد ذكر تطبيق الشريعة الإسلامية في دستور باكستان الذي سيوضع، ولم يبحث هذا الموضع. كما يلاحظ أنه لم يرد اسم ولاية كشمير التي تضم أكثرية مسلمةً، فهل لأن حاكمها غير مسلم؟ وإذا كان كذلك فلماذا لم يرد ذكر الولايات التي يحكمها مسلمون مثل حيدر أباد وجوناكاد. كما يلاحظ أن ولاية أسام، والبنجاب الشرقية، والبنغال الغربية لم تدخل فيما بعد في الولايات التي شكلت باكستان، أخذاً باقتراحات البعثة الوزارية.

الوزارة المقترحة:

أكّد نائب الملك وبعثة الحكومة في ١٧ رجب ١٣٦٥ هـ (١٦ حزيران ١٩٤٦ م) في بيان لهم ضرورة تشكيل حكومةٍ هنديةٍ مُمثّلةٍ للشعب بأقلّ تأخيرٍ ممكنٍ. وفي الوقت نفسه وجّه نائب الملك دعوة إلى أربعة عشر رجلاً من الأعيان للاشتراك في الحكومة المقترحة، وأنها ستضمّ خمسةً من المسلمين ومثلهم من الهندوس وواحداً من النصارى، وواحداً من السيخ، وواحداً من المجوس (البارسي) وآخر من المنبوذين. وقد وافقت الرابطة على الاشتراك في هذه الحكومة على حين رفض حزب المؤتمر.

دعا نائب الملك نهرو لتشكيل حكومة موقتة فقبل نهرو الذي رفض شروط الرابطة للاشتراك بالحكومة، فامتنع محمد علي جناح من المشاركة بالحكومة.

احتجت الرابطة الإسلامية، واحتجّ المسلمون في ١٩ رمضان ١٣٦٥ هـ (١٦ آب ١٩٤٦ م) وقامت مظاهرات في مدينة (كلكتا)، واصطدموا مع الهندوس، ووقع مائة قتيل من الطرفين، وسمع المسلمون في مدينة (بومباي) فخرجوا بمظاهرات، وخشي نائب الملك مغبة ذلك، فطلب مشاركة الرابطة، وتوسّط أمير بهوبال، وفشلت الوساطة.

تدخل نائب الملك، وطلب من محمد علي جناح ترشيح خمسة أسماء. ثم اختلفوا على توزيع الوزارات، فأراد حزب المؤتمر الهندي وزارات الداخلية، والخارجية، والمالية، والتجارة، ولكن تدخّل نائب الملك، وأعطى حزب الرابطة وزارتي المالية والتجارة، وقدّم محمد علي جناح لهاتين الوزارتين (آصف علي) وزوجته هندوسية، وأحد المنبوذين.

وامتدت الفتنة إلى الهند كلها، وخاصةً ولاية (بيهار) حيث اشتدّ القتال، فعمل الهندوس على قتل كل من ينتسب إلى حزب المؤتمر من المسلمين، فنكب أكثر من خمسة ملايين مسلم. كما أخذ الهندوس يفتكون

بالتجار القادمين من دلهي للبيع في مناطق أعياد الهندوس، ولم يستمع أحد لنداءات الهدوء.

دعا رئيس الوزراء البريطانية إلى لندن محمد علي جناح ولياقت علي خان عن المسلمين، ونهرو وبتيل عن الهندوس، وبالديف سنغ زعيم السيخ، للمشاورة.

رفض نائب الملك والبعثة تشكيل الحكومة وعادت البعثة في ٣٠ رجب ١٣٦٥ هـ (٢٩ حزيران ١٩٤٦ م) إلى أوربا.

وكانت قد عقدت اللجنة العاملة للرابطة الإسلامية ومجلسها اجتماعاً في مدينة بومباي في الأول من رمضان ١٣٦٥ هـ (٢٩ تموز ١٩٤٦ م) حيث سحب المجلس موافقته السابقة على مقترحات بعثة الحكومة، وندد في بيان آخر أصدره أيضاً بالحكومة البريطانية وبحزب المؤتمر، وأعلن أن الوقت قد حان للعمل المباشر لتحقيق هدف إنشاء باكستان.

وفي ١٥ رمضان ١٣٦٥ هـ (١٢ آب ١٩٤٦ م) دعا نائب الملك الزعيم الهندي بانديت نهرو ليبحث معه تشكيل حكومة موقتة فوراً، وتألّفت الحكومة مباشرة برئاسة نهرو، وضمّت اثني عشر عضواً بينهم ثلاثة من المسلمين، وأقسمت اليمين الدستورية في ٥ شوال ١٣٦٥ هـ (الأول من أيلول ١٩٤٦ م)، ونتيجة موقف حزب المؤتمر فقد اندلعت الاضطرابات وحوادث العنف في أنحاء الهند جميعها.

وفي ٢ محرم ١٣٦٦ هـ (٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٦ م) طلبت حكومة صاحب الجلالة من نائب الملك أن يسافر إلى لندن بالطائرة مع ممثلين عن حزب الرابطة، والمؤتمر، وطائفة السيخ للمشاورة فسافر بعد أربعة أيام ومعه محمد علي جناح، ولياقت علي خان، ونهرو، وبالديف سنغ، وجرت المناقشات حول مقاطعة الرابطة الإسلامية للمجلس التأسيسي.

استمر النزاع بين الرابطة وحزب المؤتمر، ووجدت بريطانيا أنه لا

فائدة من استمرار المفاوضات مع المسلمين والهندوس فأعلن رئيس الوزارة البريطانية (كلمينت أتلي) في ٢٩ ربيع الأول ١٣٦٦ هـ (٢٠ شباط ١٩٤٧ م) أن الحكومة البريطانية قررت تسليم السلطة إلى الهنود في تاريخ لا يتجاوز (شهر حزيران من عام ١٩٤٨ م) شعبان ١٣٦٧ هـ.

استدعي نائب الملك اللورد (ويفل) وعُيّن مكانه اللورد (مونتباتن)، وقد غادر (ويفل) الهند في الأول من جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ (٢٣ آذار ١٩٤٧ م).

جاء (مونتباتن) إلى الهند للإشراف على تنفيذ هذه القضية ومعه التعليمات الكافية لإنشاء حكومة مُوحّدة. وعندما وصل إلى الهند أعلن أنه من أنصار فكرة وحدة الهند، وحاول إقناع زعماء الهندوس بطريقته فلم ينجح، وحصل على عكس رغبته، ثم ذهب إلى لندن في ١٠ رجب ١٣٦٦ هـ (٣٠ أيار ١٩٤٧ م). لبحث خطةٍ جديدةٍ بديلة.

الخطة الجديدة: أعلن رئيس وزراء بريطانيا في (١٤ رجب ١٣٦٦ هـ ـ ٣ حزيران ١٩٤٧ م)، أكّد فيها أنه ليس للحكومة البريطانية أي نية لوضع دستورٍ نهائي للهند، فهذا أمر من شأن الهنود أنفسهم، كما أنه ليس في الخطة شيء يحول دون إجراء مفاوضات بين الجاليات من أجل توحيد الهند. كما أنه ليس في نية الحكومة قطع أعمال المجلس التأسيسي.

ومن المعلوم أن الرابطة الإسلامية لم تشارك في أعمال المجلس التأسيسي، وترى الحكومة البريطانية أن هذه الخطة قد تدفعها للمساهمة وإرسال مبعوثيها.

وفي الخطة تقسيم البنغال، وأخذ إقليم سيلهت من أسام وضمه إلى البنغال الشرقية، وكذلك تقسيم البنجاب.

وترى الخطة السرعة ونقل السلطة فوراً، على أساس أن الموعد المضروب غداً قريباً وهو شعبان ١٣٦٧ هـ (حزيران ١٩٤٨ م).

اجتمع مجلس الرابطة الإسلامية في مدينة دلهي في ٢١ رجب ١٣٦٦ هـ (١٠ حزيران ١٩٤٧ م)، وأعرب عن ارتياحه لإيقاف العمل بخطة البعثة الوزارية، ولكنه لم يستطع أن يقرّ تقسيم البنجاب، والبنغال كما جاء في الخطة الجديدة، غير أنه أعطى الصلاحيات لمحمد علي جناح بالتصرّف وقبول المبادىء الجوهرية الواردة في الخطة.

اجتمعت لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في ٢٥ رجب ١٣٦٦ هـ (١٤ حزيران ١٩٤٧ م) وقرر الموافقة على هذه الخطة.

وصوتت كل من البنغال الشرقية، والبنجاب الغربية، والسند، وبلوشستان، وإقليم الحدود الشمالية الغربية إلى جانب باكستان.

وفي ٢٥ شعبان ١٣٦٦ هـ (١٤ تموز ١٩٤٧ م) قُدّم إلى المجلس النيابي البريطاني قرار استقلال الهند مؤلفاً من عشرين مادة وثلاثة جداول. وقد أقرّ مجلس العموم القرار في اليوم التالي، وأقرّه مجلس اللوردات بعد يومٍ أيضاً، وحاز القرار على التصديق الملكي في ٢٩ شعبان ١٣٦٦ هـ (١٨ تموز ١٩٤٧ م)، وقد جاء فيه: «تنشأ اعتباراً من ٢٧ رمضان ١٣٦٦ هـ (١٤ آب ١٩٤٧ م) دولتان مستقلتان من طراز (الدومنيونات)[1] في الهند، تَعرف إحداهما بـ(الهند) وثانيتهما (باكستان)، وسيكون في كل دولةٍ حاكم عام يدير الدومنيون يتم تعيينه من قبل صاحب الجلالة». أما المقاطعات الأخرى والإمارات فلم يكن للهند رأي واحد، وإنما عدة آراء حسبما تقتضي مصلحتها، فترى في بعض المقاطعات أن ينظر إلى رأي السكان وذلك حينما يكون الحاكم غير هندوكي، أو عندما تكون أغلبية

(١) الدومنيونات: مستعمرات لها نظام حكم ذاتي، حيث يكون للمستعمرة استقلالها الداخلي، وحكومتها الخاصة، ومجلسها النيابي مع بقاء ارتباطها بالتاج البريطاني، وخضوعها لإشراف الحاكم العام الذي تعيّنه بريطانيا، وهذا النظام أوجدته إنكلترا، وهو خاص بمستعمراتها.

السكان من الهندوس، على حين ترى في مقاطعاتٍ ثانيةٍ أن ينظر إلى رأي الحاكم وذلك عندما يكون الحاكم هندوسياً متعاطفاً مع أبناء عقيدته أو عندما لا تكون الأكثرية للهندوس. أما نائب الملك (مونتباتن) فكان يرى أن تلتحق هذه المقاطعات والإمارات بإحدى الدولتين، كما يمكنها أن تبقى مستقلةً، وقد نشأ خلاف حول وضع بعض المقاطعات، وهي:

١ ـ جوناكاد:

وهي مقاطعة ساحلية في غربي الهند، في شبه جزيرة كوجرات، تبلغ مساحتها حوالي ثمانية آلاف كيلو متر مربع، يحكمها أحد المسلمين، وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٪ من مجموع سكان المقاطعة البالغ عددهم ثلاثة ملايين.

وقد رأى الحاكم أن ينضم إلى باكستان، غير أن الهند عارضت ذلك، فاقترح إجراء استفتاء، فعارضت الهند ذلك أيضاً، وأرسلت إلى المقاطعة قوةً كبيرةً اكتسحت أرضها، وضمتها إليها، وطردت الحاكم المسلم، ورضيت إنكلترا بهذا، وسكتت عنه ثم باركته.

٢ ـ حيدر أباد:

وتقع في هضبة الدكن، وسط الهند، تبلغ، مساحتها ثلاثمائة وخمسين ألف كيلو متر مربع، أي أكبر من مساحة بلاد الشام، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة عشر مليوناً، يحكمها رجل مسلم، وقد رأى في بداية الأمر أن يلتحق بباكستان، ثم قدّر بُعد بلاده عنها، فرأى أن يبقى مستقلاً، ولكن الهند رفضت هذا الرأي، فاقترح الاستفتاء مع أن نسبة المسلمين في حيدر أباد لا تزيد على ١٠٪ من مجموع سكان المقاطعة فرفضت أيضاً هذا الرأي، ورفضت استفتاءً تقوم به الأمم المتحدة، وادّعت الهند حججاً واهيةً، ثم قامت بهجومٍ كاسحٍ على مقاطعة حيدر أباد في ١٢ شوال ١٣٦٧ هـ، واحتلتها بعد مقاومةٍ ضئيلةٍ، بعد وفاة محمد علي جناح

بيومين. ورضيت إنكلترا، وسكتت الأمم المتحدة، وهل كان بالإمكان أن يحدث هذا فيما لو احتلّت باكستان إحدى هاتين المقاطعتين أو إحداهما؟.

٣ ـ كشمير:

سنفرد لها الفصل التالي ـ إن شاء الله ـ لما لها من أهميةٍ، ولاستمرارها مشكلةً قائمةً، وتقع الخلافات والصراعات بل والحروب بين هند وباكستان بسببها.

٤ ـ نيبال، وبوتان، وسيلان، وسكيم:

هذه مقاطعات لم تدخل ضمن التقسيم، وإنما شكلت دولاً مستقلةً، وتضمّ نسبةً من المسلمين، ويمكن الرجوع إليها في الجزء [٢٢] من هذا الكتاب، وهو الجزء المخصص للأقليات المسلمة في العالم، ولكن انضمت «سيكم» إلى الهند عام ١٣٩٦ هـ.

٥ ـ غوا:

احتفظ البرتغاليون بهذا الميناء على الساحل الغربي، وهو من المستعمرات الأولى التي أنشأها المستعمرون الصليبيون البرتغاليون.

٦ ـ بونديشيري:

احتفظ الفرنسيون بهذا الميناء الواقع على ساحل الهند الشرقي، وهو من المراكز الرئيسية التي أسّسها الفرنسيون في بلاد الهند.

ويمكن أن نُوضّح ببعض الجداول آثار التقسيم الذي تمّ:

مساحة الهند قبل التقسيم	٤,٣٦٠,٠٠٠ كيلو متر مربع.
عدد سكان الهند قبل التقسيم	٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ مليون نسمة.

وقد قسمت على الشكل الآتي:

الدولة	المساحة	السكان
جمهورية هندستان	٣,٢٦٢,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠,٠٠٠
جمهورية باكستان	٩٤٣,٠٠٠	٨٠,٣٠٠,٠٠٠
ولاية كشمير	١٥٥,٠٠٠	٣,٧٠٠,٠٠٠
	٤,٣٦٠,٠٠٠	٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠

وقد بقيت أقليات في كلتا الدولتين اللتين نشأتا عن هذا التقسيم وهي أقليات ذات نسبةٍ عدديةٍ يحسب لها حساب.

١" ـ **في هندستان**: كانت المجموعات العقيدية في جمهورية هندستان إثر التقسيم كما يأتي:

الهندوس	٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٨٤٪
المسلمون	٤٢,٧٣١,٩٩٦	١٢٪
النصارى[١]	٥,٥٩٢,٤١٩	١,٥٪
السيخ[٢]	٤,١١٤,٧٤١	١,١٪

(١) تنتشر النصرانية بشكلٍ خاصٍ على السواحل، وفي دهلي، ويقيم أكثر أتباعها في ولاية (ترافنكور) في جنوبي الهند، حيث يُشكّلون ثلث السكان، ثم في مدراس، وقد نشطت الإرساليات التنصيرية أثناء الاستعمار الصليبي.

(٢) السيخ: أسّس عقيدة هذه الفرقة الضالة (غورو) أي المعلم متأثراً بالهندوسية والإسلام، في أواخر القرن العاشر الهجري، وقد منحه السلطان (أكبر) عام ٩٨٦ هـ (١٥٧٧ م) قطعةً من الأرض بنيت عليها مدينة (أمريتسار)، وهي مكان مقدس عند السيخ، ويزيد عددهم على عشرة ملايين، ويحرّمون قصّ الشعر وخاصةً الشارب واللحى. ولد مؤسس هذه العقيدة بالقرب من مدينة (لاهور)، ويدّعي أتباعه أنه ذهب إلى مكة حاجاً، وقرأ القرآن، وهناك عرف أنه إله. وأقام =

الجينيون[1]	٢,٠٠٠,٠٠٠	٠,٦٪
الراجبوت[2]	٣,٢٢٤,٠٠٠	٠,٨٪
البوذيون[3]	٢١٠,٨٠٠	
البارسيون[4]	١٢٦,٠٠٠	
اليهود	٤٤	
	٣٥٦,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠٪

٢" ـ في باكستان:

المسلمون[5]	٧٣,١٢٣,٠٠٠	٨٨,١٪
الهندوس[6]	٨,٩٦٤,٠٠٠	١٠,٨٪

= لهم (رانجيت سنغ) دولةً في البنجاب عام ١٢٢٤ هـ، وتوثّقت العلاقة بينهم وبين الإنكليز، واشتركوا معهم في الحرب ضدّ الأفغان، وانتهت هـذه الدولـة بموت مؤسّسها (رانجيت سنغ) عام ١٢٥٥ هـ.

(١) الجينيون: يعدّون أصغر الحشرات وأحقرها وكل ما في الطبيعة من ذي الروح أن فيه صفة الألوهية لذا فهم يقدسونه ويمنعون عنه الأذى.

(٢) الراجبوت: ويعيشون في المنطقة المسماة باسمهم، ويعتقدون أنهم منحدرون من النار، وربما ادعى بعضهم أنه مسلم، وادعى آخر أنه بوذي.

(٣) البوذيون: وهم قلة يعيشون في شمالي البلاد، في سفوح جبال هيمالايا، يحرّمون القتل، غير أنهم يأكلون اللحم.

(٤) البارسيون: أو الفرس، وهم من أتباع زرداشت، ويعرفون بـالمجوس، وهم من عبدة النار ويقيم معظمهم في مدينة (بومباي) وما حولها.

(٥) تختلف نسبة المسلمين بين جناحي باكستان إذ تبلغ ٨٠,٤٪ في الجناح الشرقي بينما هي ٩٧,٢٪ في الجنـاح الغـربي، ولكن تسجـل بينهم ـ مـع الأسف ـ طـائفـة الإسماعيلية التي تتركّز في مدينة كراتشي، وهي بالأصـل ليست من المسلمين، وكذا فرقة القاديانية التي تتركّز في مدينة لاهور، وهي جماعة كافرة لا تمتّ إلى الإسلام بصلةٍ. ومعظم الشيعة يتركزون في الجناح الغربي.

(٦) الهنـدوس: ويتجمّعون في الجنـاح الشرقي من بـاكستان، وتصـل نسبتهم هنـاك إلى =

النصارى [1]	٦٦٤,٠٠٠	٠,٨٪
البوذيون [2]	٢٤٩,٠٠٠	٠,٢٩٩٪
المجوس [3]	٥,٠٠٠	٠,٠٠٦٪
	٨٣,٠٠٥,٠٠٠	١٠٠٪

لم يتمّ التقسيم بسهولة فقد عمل الهنادك على تفريغ شحنات من حقدهم في الوقت قبل أن يفلت المسلمون من أيديهم، وتقام الحدود كحواجز تمنعهم من الوصول إلى أهدافهم. فقد وقعت مذابح أشد من المذابح التي وقعت قبل التقسيم حيث أحرق الهندوس والسيخ القطارات التي تنقل المسلمين من المناطق التي ستخضع للحكومة الهندية إلى المناطق التي ستحمل اسم باكستان. وقامت الفتنة في البنجاب الشرقية التي معظم سكانها من الهندوس والسيخ، وقد فُصلت عن باقي البنجاب التي عُرفت باسم البنجاب الغربية والتي أصبحت ضمن دولة باكستان، واستمرّت الفتن حتى خرج المسلمون جميعاً من هذه المقاطعة «بنجاب الشرقية» وتعرّض المسلمون أثناء ذلك للقتل والحرق وسبي النساء في المدن والقرى ومحطات السكك الحديدية، وربما يصعب تفصيل هذه الأحداث لكثرتها ولما فيها من مآسي تقشعر لها الأبدان، ويندى لها جبين الإنسانية، وعمّت هذه الحوادث أكثر المناطق، وخاصة دهلي، وفي بنجاب الشرقية حيث قتل مائتا ألف مسلم خلال يومي ١٤ و١٥ شوال ١٣٦٦ هـ في مدينة أمريتسار.

= ١٨,٤٪ من مجموع سكان ذلك الجناح، بينما يشكلون ١,٦٪ في الجناح الغربي.

(١) النصارى: ويتركّزون في باكستان الغربية ثم أخذوا بالازدياد في باكستان الشرقية.

(٢) البوذيون: ويتجمّعون في الجناح الشرقي.

(٣) المجوس: وجلّهم في الغربية في مدينة كراتشي.

الباب الثاني

ولاية كشمير

كشمير

تعـريـف:

إن لكشمير أهميةً خاصةً في هذه الظروف فهي بالإضافة إلى كونها منطقة نزاعٍ بين دولتين من كبريات دول آسيا، وهما باكستان والهند، ويمكن أن ينفجر الصراع بينهما في كل وقتٍ، وتقع الحرب بسبب كشمير بصورةٍ مفاجئةٍ كما حدث عام ١٣٨٥ هـ. فهي تقع أيضاً في منطقةٍ تتاخم دولاً من أكبر دول العالم وهي: الإمبراطورية الروسية، والصين، ولكلٍ منهما رأي في النزاع الباكستاني ـ الهندي ومصالح تقتضي بأن يُساعد كل منهما طرفاً دون الآخر، وربما جرّ هذا الوضع هذه الدول إلى حربٍ عالميةٍ. هـذا بالإضافة إلى المذابح التي تحدث فيها بين المدة والأخرى، والتي تهزّ العالم بوحشيتها، ويتطلّع الناس لمعرفة أسبابها وأبعادها.

كشمير منطقة جبلية تقع بين الصين شرقاً، وباكستان غرباً، وبين باكستان والهند جنوباً، والصين وأفغانستان شمالاً، تنتصب في شرقها جبال (قره قورم) التي ترتفع قممها إلى أكثر من ثمانية آلاف متر، كما ترتفع جبال (لداخ) و(زسكار) في الجنوب الشرقي إلى ستة آلاف متر، وجبال (هيمالايا) التي ترتفع في هذه المنطقة إلى خمسة آلاف متر، وتمتدّ في الشمال الغربي جبال (هندكوش)، وفي الغرب يوجد وادي (كشمير) في الشمال، ووادي (جمو) في الجنوب، وبينهما جبال (بانجال)، ويعدّ هذان الواديان تتمةً لسهول باكستان.

والمناخ بارد جداً في فصل الشتاء لطبيعة البلاد الجبلية، إذ تغطي الثلوج الجبال أكثر أيام العام، أما الصيف فمعتدل في الجبال حار في الأودية.

وتجري الأنهار في هذه المنطقة، وإن كانت الأمطار غير ثابتة الغزارة، فقد تهطل بكثرةٍ وتفيض الأنهار، أو تشحّ في سنوات أخرى، وينخفض منسوب المياه، وأشهر هذه الأنهار نهر (السند) الذي يخترق منطقة (لداخ) و(زسكار)، ويتجه نحو الشمال الغربي فيرفده نهر (جلجت) ثم يدخل باكستان، ويتجه نحو الجنوب الغربي. ونهر (جهلم) الذي يمرّ في وادي (كشمير)، ويدخل باكستان، ويرفد نهر (السند). ونهر (شناب) الذي يمرّ في وادي (جمو)، ويدخل باكستان، ويرفد نهر (السند) أيضاً.

تعدّ بلاد كشمير زراعيةً بالدرجة الأولى حيث تقوم المزروعات في الأودية، وعلى سفوح الجبال. ومن الزراعات ما هو مروي، ومنها ما يعتمد على ماء المطر، وأشهر المزروعات: (الرز وهو الغذاء الرئيسي للسكان، وتعدّ كشمير، والبنغال، والسند أهم مناطق زراعة الرز في شبه القارة الهندية، ثم هناك القمح، والشعير، والذرة، والقطن، والتوت الذي تربّى عليه دودة القزّ لإنتاج الحرير، والزعفران، والتبغ، وتقوم زراعة مختلف أنواع الفاكهة التي تحتاج إلى منطقةٍ باردةٍ كالتفاح، والدراق، والخوخ، وتعدّ باكستان سوقاً لفاكهة كشمير.

وتُغطّي الغابات مساحاتٍ لا بأس بها من البلاد، وتُقدّم ٢١٪ من مجموع واردات كشمير، إذ تُصدّر ٩٠٪ من أخشابها، وتستهلك ١٠٪ فقط، وتُرسل الفائض بواسطة الأنهار إلى غربي البنجاب.

وتقوم في البلاد الصناعة اليدوية، وأشهرها الحياكة، والنقش على الخشب، وصناعة الفضة، ولها في ذلك شهرة عالمية. ونسج الحرير، ويوجد في العاصمة (سرنغر) معمل للحرير من أكبر مصانع العالم.

ويتكلم السكان لغةً جبليةً خاصةً، تشبه لغة البنجاب إلى حدٍّ ما، وهي من أصل سنسكريتي، ونرى فيها أثراً واضحاً من اللغة الفارسية.

يلبس الرجال عمامات حمراء، وسراويـل ضيقة على الأرجـل، أما النساء فيساعدن الرجال في أعمال الزراعة، ويلبسن جلابيب فضفاضـة، ويضعن على رؤوسهن قلنسوة، تُسمّى «قصّابة»، وملاءة تربط بالقلنسوة. أما حديثاً فأصبح الرجال والنساء يلبسون الأزياء العصريـة، أو يلبس الرجـال «الشيرواني» أي زي مسلمي باكستـان، أما النساء فيلبسن الزي الهنـدي للنساء المعروف بـ «الساري».

ويحمل السكان في الشتاء معهم المدافىء، من شدّة البرد، وتستعمل هذه المدافىء في البيوت، وتصنع من الطوب، ويُحاط بها كساء خشبي من الخارج.

ولون بشرة السكان الأبيض، وهم أذكياء بالفطرة، ضخام الأجسام، وأشهر قبائلهم: الشيخ، السيد، المغول، الباتان، وهذه قبائل إسلامية، أما قبائل الهنادك فأشهرها: الBانديت، وريشـي، وقبائل البانديت متعصّبون جداً للبراهمية.

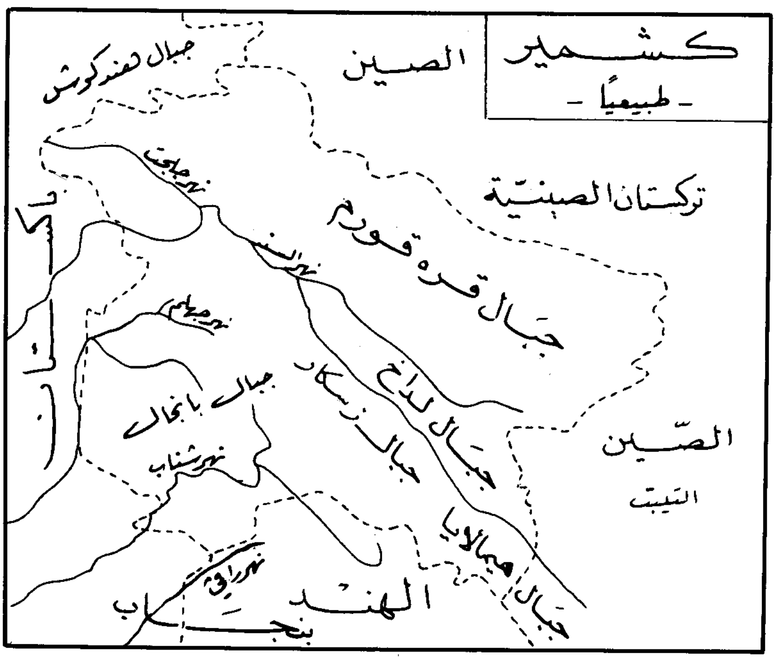

لمحة تاريخية:

وصل المسلمون إلى شمالي بلاد الهند منذ القرن الثاني للهجرة، وفتحوا أكثر المناطق الشمالية باستثناء كشمير لمناعتها الجبلية، واستمر الهنادك يحكمونها، وتنتشر فيها البوذية تارةً، وينسحب أفرادها نحو الصين تارةً أخرى حتى أيام التتار، وفي هذه الأثناء حاول محمود الغزنوي فتحها، فلم يُقدّر له. وفي أواخر القرن الثامن الهجري اعتنق ملكها البوذي (رينغن شا) الإسلام على يد الداعية (بلبل شاه)، وسمّى نفسه (صدرالدين)، وكان هو الحاكم المسلم الأول على كشمير، وأسلم معه عدد غير قليلٍ من الرجال الكبار في مجالات الحياة المختلفة، كما أسلم عدد كبير من سكان الولاية، وابتدأ الإسلام ينتشر في تلك الأرجاء، وابتدأ معه تاريخ كشمير يدخل مرحلةً جديدةً، حيث تخلّص السكان من اضطهاد الهنادك، واستمرّ الحكم الإسلامي فيها حتى عام ١٢٣٤ هـ حيث استولى عليها السيخ.

عندما دخل تيمور الهند عام ٨٠١ هـ كان يحكم كشمير الملك (إسكندر) منذ عام ٧٩٣ هـ (١٣٩٠ م) فلم يغزها تيمور، وإنما أرسل إلى حاكمها الملك إسكندر فيلين هديةً منه لما سمعه من حسن معاملته لرعيته. ولما حكم الملك (أكبر) الهند (٩٦٣ ـ ١٠١٤هـ) بسط نفوذه على كشمير عام ٩٦٣هـ (١٥٥٧م)، وأصبحت مدينة «سرينغر» عاصمة كشمير مقرّاً لنائب الملك، واستمرّ حكم المغول لكشمير حتى عام ١١٦٤هـ (١٧٥٢م)، وشهدت البلاد خلال هذه المرحلة أفضل أيّام تاريخها.

وجاء الأفغان بعد أن ضعف الحكم المغولي، وسيطروا على كشمير، واستمرّ حكمهم لها مدة تسعٍ وستين سنة (١١٦٤ ـ ١٢٣٤ هـ) حيث ضعف حكمهم للتدخّل الإنكليزي في شؤون الأفغان، وتمكّنت مجموعة السيخ من فرض سيطرتها على كشمير.

حكم السيخ كشمير مدة ثمان وعشرين سنة (١٢٣٤ ـ ١٢٦٢ هـ)،

وكان عهداً أسـود على البلاد حيث انتشـر الظلم وسـوء المعاملة، وكـان التعصّب قوياً ضد المسلمين، فأهرقت الدماء ظلماً، وأُحرقت المساجد، واستعمل بعضها اصطبلاً للخيول، وقام المسلمون بعدة ثوراتٍ ضدّ السيخ، ثم جاء الإنكليز وأخذوا كشمير من السيخ عام ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م).

باع الإنكليز كشمير بمبلغ سبعة ملايين ونصف المليون روبيـة إلى أسرة (الدوغرا)[١] لمدة مائة سنةٍ ميلاديةٍ (١٨٤٦ ـ ١٩٤٦ م) بموجب اتفاقيةٍ عرفت باسم (اتفاقية أمريتسار) إذ وقعت الاتفاقية في مدينة أمر يتسار قاعدة السيخ. وكان من الطبيعي أن يدبّ الفـزع في قلوب الشعب الكشميري الذي يُشكّل المسلمون معظمه، لذا وجد الإنكليز أنه من الضروري ـ مكراً وخداعاً ـ أن يحصلوا على تعهدٍ من (الدوغرا) بأن يحكموا رعيتهم المسلمة بالعدل، وكان كل حاكمٍ من هذه الأسرة يتولّى الأمر يأخذ على نفسه هذا التعهد، غير أنه لم يكن سوى كلامٍ مكتوبٍ على الورق، على حين كان الظلم هو السائد.

وظلّ المسلمون طيلة قرنٍ كاملٍ مكبّلين بأغـلال العبوديـة في بلاد استحوذ عليها حكامها من أسرة (الدوغرا) عن طريق الشراء، وعدّوها ضيعةً خاصةً، ولم يكن وجود الحكومة إلا خدمةً لأغراض (المهراجا)[٢] وأطماعه، ومن أجل ذلك فُرضت الضرائب الفادحة على أبناء الشعب، واستُنزفت ثمار كدّهم، وأقوات يومهم، ولم يكن ليستثنى من ذلك أي شخصٍ مهما كان فقيراً أو معدماً أو ضعيفاً بائساً. فإن أسرة (الدوغرا) دفعت الثمن لتحصل على أضعافه دون أية نظرةٍ إنسانيةٍ، ولتستبدّ بالسكان دون أية عـاطفةٍ أو رحمةٍ، ومن غير النظر إلى أية قيمةٍ من القيم الأخلاقية أو الإنسانية إذ كان

(١) الدوغرا: فرع من قبيلة الراجبوت، كانوا يقطنون مقاطعة (جمو)، وتـوصّل أحـد رجالهم إلى حكمها، وعمل أكثر أفرادها بالجندية ارتزاقاً.

(٢) المهراجا: لقب هندوكي يُطلق على الحاكم.

الحكام يتصرّفون بالناس كأنهم عبيد عندهم، وُجدوا لخدمتهم وتحقيق رغباتهم وشهواتهم.

ولقي المسلمون أشد أنواع الاضطهاد والتنكيل، فهم ليسوا على عقيدة (المهراجا) ولا من جنسه، لذلك حُرموا من الوظائف الإدارية كبيرها وصغيرها. وبينما كان الهنادك أحراراً في حمل السلاح كان على المسلم أن يُواجه عراقيل كثيرةً ومصاعب جمةً للحصول على رخصة حمل سلاحٍ. وإذا ما أسلم الهندوكي فقد أملاك آبائه، وإذا ما ارتدّ المسلم أُتيحت له فرص المعيشة على أحسن وجهٍ، وكان هناك قيود مفروضة على كثيرٍ من شعائر دينه فمثلًا كان ذبح البقرة لأكلها أو لتقديمها أضحية في العيد الأضحى يُعدّ جريمةً كبرى يُحكم على مرتكبها بالإعدام، وبقي هذا الحكم حتى عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) حيث خفض إلى السجن عشر سنواتٍ من الأشغال الشاقة. وهكذا عاش ٨٠٪ من الشعب الذي يحكمه (المهراجا) في بؤسٍ وشقاءٍ وفقرٍ مدقعٍ، وساد الولاية الإرهاب والظلم[1]، وأُريقت الدموع والدماء مدراراً، واضطر آلاف السكان إلى الهجرة من مواطنهم إلى ولاية البنجاب حيث وجدوا الازدهار والنعيم بالنسبة إلى ما كانوا عليه. وكان (المهراجا) يمنع صدور الصحف، ويُعطّل بعضها. وأهانت حكومة (المهراجا) شعور المسلمين، وأجبرت بعضهم على السجود للأصنام قسراً، فقامت ثورة عام ١٣٥٠ هـ، وجاء المتطوّعون إلى كشمير، ولم تهدأ الثورة إلا بنزول الجيش الإنكليزي الذي نزل ليُساعد الظلم ويحميه، ويثني على جهوده، ويعمل على إخراس المظلوم ومنعه من طلب الإنصاف، وليقول له: إن المسلم لا حق له في هذه الحياة فإن أرادها فهو ليس سوى عبدٍ ما بقي على عقيدته.

---

(١) توالى ثمانية وعشرون رئيس وزارة على كشمير خلال قرن من الزمن هو مدة حكم أسرة (الدوغرا) لم يكن بينهم مسلم واحد. وأن الجيش كان مؤلفاً من ثلاثة عشر فوجاً، ولا يضمّ سوى فوجٍ ونصف من المسلمين رغم أن نسبتهم ٨٠٪ من مجموع سكان الولاية.

وعندما أسس محمد علي جمعية الخلافة نشأت لها فروع في ولايات الهند كلها، وكان (ميرواعظ يوسف شاه) من أشهر علماء كشمير من بين الذين ساهموا في ظهور تلك الجمعية، وهذا ما ساعد على نمو شيءٍ من الوعي السياسي، إضافةً إلى ما وقع من أحداثٍ متلاحقةٍ، إذ هدّم الهنادك مسجداً في بلدة (رياسي)، ومنعوا جمعاً من المسلمين في بلدة (كوتلي) من إقامة الصلاة، وفي (جمو) دنّس ضابط أمنٍ هندوكي المصحف الشريف، واعتقل في مدينة (سرينغر) مسلم يُدعى عبدالقدير لانتقاده السياسة الدينية غير المنصفة، كل ذلك أثار حمية المسلمين فعقدوا عدة اجتماعاتٍ لبحث مشكلاتهم.

الفصل الأول

بعد إلغاء الخلافة:

نشأ من اجتماعات المسلمين تشكيل المؤتمر الوطني الإسلامي برئاسة الشيخ محمد عبدالله، ورغم هذا العنوان الإسلامي الواضح إلا أنه ضمّ عدداً من الهنادك، وحضر الجلسة الأولى التي كانت عام ١٣٥١ هـ أربعون ألف رجلٍ، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على نقمة الشعب على (المهراجا) وسياسته وحكومته. ولكن بعد مدة انتبه المسلمون إلى أن مؤتمرهم كأنه فرع من حزب المؤتمر الهندي، وأن الشيخ محمد عبدالله ليس سوى منفّذٍ لتعليمات الزعيم الهندي (جواهر لال نهرو) لذا رجعوا إلى أنفسهم وشكّلوا المؤتمر الإسلامي الكشميري الذي انبثقت عنه (جبهة تحرير جمو وكشمير) أو أنها كانت الجناح العسكري له، واختير (شودري غلام عباس) رئيساً للمؤتمر الإسلامي، والذي دعا من أول يومٍ إلى إنقاذ هذه الولاية من براثن الملك الهندوسي (هري سنغ)، وانضمامها إلى دولة باكستان التي قدّم فكرة إنشائها الشاعر محمد إقبال في مؤتمر الرابطة الإسلامية في مدينة (إله أباد) عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م)، وأعلن رئيس المؤتمر الإسلامي أن هذا هو هدف حركته. ومع أن الحركة كانت إسلاميةً واضحةً في عنوانها وأهدافها إلا أن رعايتها كانت تشمل جميع أبناء الشعب الكشميري إذ كانت تُقدّم المساعدات للطلبة الكشميريين المستحقّين من المسلمين ومن غير المسلمين على حدٍّ سواء.

ولما رأى الهندوس النجاح الكبير الـذي حقّقه المؤتمـر الإسلامي، والتجاوب السكاني الواسع معـه عملوا على تأسيس فرع لحزب المؤتمـر الهندي في كشمير، وذلك بالتفاهم بين الحاكم الهنـدوسي (هري سنغ) وحزب المؤتمر الهندي المركزي الذي كان برئاسـة (جواهـر لال نهرو)، وكان ذلك عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)، وكان هدف هذا الحزب الهندي ضمّ ولاية كشمير إلى الهند منذ الآن، والسعي لتكون إلى جانب هندستان فيما إذا انفصلت باكستان واستقلّت. والواقع أن هذا الحزب الجديد لم يكن سوى المؤتمر الوطني برئاسة الشيخ محمد عبدالله برز صراحةً بـأهدافـه، وجعل شعاره «اخرجوا من كشمير»، ويقصد بها أسرة (الدوغرا) على غرار شعار حزب المؤتمر الهندي «اخرجوا من الهند» ويعني الإنكليز.

وكان في عـام ١٣٦٣ هـ حزبان رئيسيان في ولاية كشمير.

١ ـ حزب المؤتمر الإسلامي برئاسة (شودري غلام عباس)، وهو على صلة مع حزب الرابطة الإسلامية.

٢ ـ حزب المؤتمر الوطني برئاسة الشيخ (محمد عبدالله) ويأتمر بأوامر حزب المؤتمر الهندي، أو هو فرع منه.

وفي عـام ١٣٦٣ هـ زار محمد علي جناح كشمير، والتقى بأعضاء الحزبين، وحاول التوفيق بينهما، والعمل على ضمّ حزب المؤتمر الوطني إلى حزب المؤتمر الإسلامي فرفض الشيخ محمد عبدالله ذلك.

وفي عـام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٤ م) قامت الثـورة، وقـاطـع الحـزبـان المهراجا، وحكم على الشيخ محمد عبدالله بالسجن مدة ثلاث سنوات، وأرسل (نهرو) محامياً من حزب المؤتمر الهندي هو (آصف علي) ليُدافع عن الشيخ محمد عبدالله.

وكان في كشمير عالمان هما: (ميرواعظ محمد يوسف شاه) الذي أسّس جمعية (نصرة الإسلام)، وهي أكبر جمعيةٍ تعليميةٍ، وكان هذا العالم معروفاً بكراهيته لفرقة القاديانية الضالة، والمتعاونة سياسياً مع المستعمرين

الصليبيين الإنكليز. أما العالم الثاني فهو (ميرواعظ همداني)، فهو وإن كان على علمٍ غير أنه مغفل، واستغلّ المستغلّون غفلته، وأعطوه معلوماتٍ خاطئةٍ عن القاديانية، فكان يعطف على أتباعها، وكانوا على صلةٍ حسنةٍ به، وكان الشيخ محمد عبدالله رئيس حزب المؤتمر الوطني يُؤيّد واعظ همداني، ويستغلّ غفلته، ويقدّمه أحياناً فيستطيع أن يخدع بعض الناس بوجود عالمٍ إلى جانبه، وسيره إلى جانب أهل العلم، وهذا ما يقع - مع الأسف - في كثير من الجهات، حيث تستغلّ غفلة العلماء أو جهلهم، فيُسيّرون في كل اتجاهٍ.

الاحتلال الهندوسي:

عندما تقرّر تقسيم الهند، وتمّ الاتفاق على ذلك، وافق الهندوس ظاهراً على هذه الاتفاقية، ولم يرضوا عنها ضمناً، وانتظروا الظروف والأحداث لنقضها، والتحكّم بالمسلمين - حسب قناعتهم - وقد صرّح بهذا (جواهر لال نهرو) لسياسيٍ بريطانيٍ في حديثٍ معه عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) حيث قال: «سنقوم بالموافقة على مطالبة محمد علي جناح لإقامة دولة باكستان المستقلّة، ولكن سنقوم فيما بعد بإيجاد السبل التي ستجعل قادة هذه الدولة يأتون إلينا ويطالبون بالانضمام إلى الهند»[(١)].

وفي تلك الأيام قرّر المؤتمر الإسلامي الذي كان يُمثّل الشعب في ولاية كشمير في الأول من رمضان ١٣٦٦ هـ (١٩ تموز ١٩٤٧ م) انضمام الولاية إلى باكستان. وكذلك قرّر الشبان المسلمون في الولاية أن يقوموا بالجهاد لتحرير الولاية وضمّها إلى باكستان.

وجاء وقت الاستقلال والانفصال ٢٧ رمضان ١٣٦٦ هـ (١٤ آب ١٩٤٧ م) فأسرع ملك الولاية الهندوسي من باب الخديعة والمكر وعقد

---

(١) كشمير المسلمة تناديكم فهل من مجيب؟ أليف الدين الترابي - الجماعة الإسلامية بولاية جامو وكشمير.

اتفاقيةً مع باكستان بأن يبقى الوضع على ما هو عليه من التعاون بين الولاية (كشمير) والدولة الناشئة (باكستان)، وبذلك أصبحت باكستان مسؤولةً عن الدفاع عن كشمير، وعن شؤونها الخارجية، وعن المواصلات وذلك لأن ولاية كشمير كانت قبل التقسيم تتبع السلطات المحلية الموجودة في مدينة لاهور، وهي مدينة بقيت ضمن الأراضي الباكستانية بعد التقسيم، وكان من المفروض أن تكون هذه الاتفاقية توطئةً للانضمام التام.

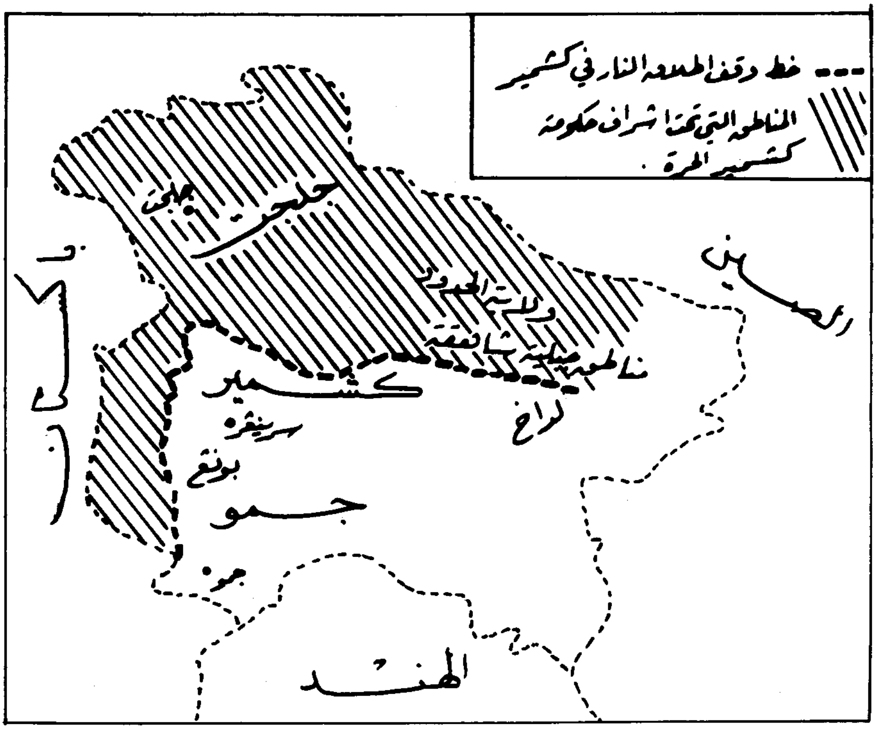

أخرج (المهراجا) من السجن الشيخ محمد عبدالله إظهاراً لحسن النية وخديعةً، وهو ليس عنه ببعيدٍ، ولكنه في الوقت نفسه ألّف عصاباتٍ قتاليةً من الهنادك الكشميريين، ومن الذين جاءوا من الهند لهذا الغرض، وهاجمت هذه العصابات المسلمين، وقتلت منهم مائتين وسبعةً وثلاثين

ألفاً، وقامت مظاهرةً من المسلمين كردّ فعلٍ قادها (جودري حميدالله خان) في ١٩ شوال ١٣٦٦ هـ (٥ أيلول ١٩٤٧ م) فأطلقت الشرطة النـار على المتظاهرين الذين كانوا يُطالبون بانضمام كشمير إلى باكستان، وقبضت على أعدادٍ منهم فألقوا في غياهب السجـون. وفي غرة ذي القعـدة ١٣٦٦ هـ (١٦ أيلول ١٩٤٧ م) طالب مؤتمر الفـلاحين في كشمير بـانضمام الـولاية إلى باكستان، لكن (المهراجا) رفض هذا الطلب. وقام بتوزيع الأسلحـة على الهنادك، فقامت الثورة، وتدفّق المجاهدون لمساعدة المسلمين في كشمير، ولما رأى الشيخ عبدالله محمد ذلك خشي أن يفلت الأمر من يده، فأعلن وقوفه بجانب (المهراجا)، وتسلّم رئاسة حكومته، وقتل يومها من المسلمين اثنين وستين ألف مسلم[1]، ثم فرّ (المهراجا) هري سنغ إلى دهلي.

استطاع المجاهدون في كشمير تحرير جـزءٍ من الولايـة، وتشكّلت حكومة كشمير الحرة (أزاد كشمير) في ٩ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٤٧ م).

عقد (المهراجـا) هري سنـغ في دهلي حيث يُقيم بعد أن فـرّ من عاصمته في كشمير اتفاقيةً مع الحكومة الهندية تتضمن ضمّ الـولاية إلى الهند وذلك في ١٢ ذي الحجـة ١٣٦٦ هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٤٧ م)، غير أن هذه الاتفاقية غير صحيحة قانونياً لـ:

أولاً: كانت هذه الاتفاقية تتنافى مع قرار تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين مستقلتين: الهند وباكستان، وهذا القرار وافقت عليه الدولتان.

ثانياً: كانت هذه الاتفاقية تتعارض مع رغبات أغلبية سكان الولاية أي

---

(١) لا يريد الشيخ محمد عبدالله أن تذوب كشمير ضمن الاتحاد الهندي، كما لا يريد التحالف مع الهند وإنما يريد زعامة كشمير واستقلالها عن غيرها، فلو اتفق مع باكستان لضاعت زعامته لكثرة المسلمين، والصلة كبيرة مع بـاكستان، والحـدود طويلة، على حين أن هذه الحدود بين كشمير والهند لا تزيد على ستين كيلومتراً.

المسلمين الذين اتخذوا قرار انضمام الولاية إلى باكستان، وكانوا يجتهدون لأجل ذلك.

ثالثاً: إن الملك الهندوسي (هري سنغ) الذي وقّع هذه الاتفاقية لم يكن حاكماً شرعياً للولاية، وذلك لأن اتفاقية (١٨٤٦ م) التي قد أصبحت أساساً للسيطرة الغاشمة لهذه العائلة على الولاية لم تكن اتفاقيةً شرعيةً على الإطلاق[١].

رابعاً: وقبل هذه الاتفاقية قد وقّع الملك نفسه اتفاقيةً لإبقاء الوضع كما كان مع دولة باكستان، فلهذا لم يكن له أن يُوقّع أية اتفاقيةٍ مع أية دولةٍ أخرى في هذه الصدد قبل إعلان إلغاء تلك الاتفاقية. هذا من ناحيةٍ ومن الناحية الثانية قد وقّع الملك هذه الاتفاقية بعد أن كان قد فقد السلطة على الولاية لفراره من العاصمة الكشميرية فلذا لم تكن لديه أية صلاحيةٍ شرعيةٍ لتوقيع هذه الاتفاقية.

فنظراً لهذه الوجوه والأوضاع يمكننا أن نقول بكل صراحةٍ أن هـذه الاتفاقية بشأن انضمام ولاية جمو وكشمير المسلمة إلى الاستعمار الهندوسي لم تكن لها أية قيمةٍ من النواحي الدستورية والقانـونية والخلقيـة، وحتى الاستعمار الهندوسي نفسه أيضاً كان يعرف هذه الحقيقة جيداً، لهذا نراه قد وعد الشعب الكشميري المسلم بأنه سيقوم بإجراء الاستفتاء لتقرير مصير الولاية، وإليكم نص ما كتبه الحـاكم العام للهنـد إلى الملك الهندوسي للولاية حين توقيـع اتفاقيـة ١٢ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (٢٧ تشـرين الأول ١٩٤٧ م): «وفقاً لسياستنا إذ أصبحت مسألة انضمام ولايةٍ ما من المسائل الخلافية يرجع فيها إلى رأي الشعب، فإن حكومتنا بشأن انضمام ولاية جمو وكشمير إلى إحدى الدولتين تريد أن تُحلّ بالرجوع إلى الرأي العـام فور إعادة الأمن والاستقرار إلى الولاية».

---

(١) كما أن اتفاقية (أمريتسار) عام ١٨٤٦ م قد انتهى العمل بها بانتهـاء مدتهـا عام ١٩٤٦ م إذ كانت لمدةٍ مائةٍ سنة.

ثم أكّد جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند ذلك الوعد في برقيته التي بعث بها إلى رئيس وزراء باكستان لياقت علي خان في ١٦ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٤٧ م) قائلاً: «إننا تعهّدنا أن نسحب قواتنا العسكرية من كشمير بعد عودة السلام إليها على الفور، وأن نترك مواطنيها ليُمارسوا حقّهم في تقرير مصيرهم بأنفسهم، وهذا التعهّد لا نُعلنه أمام حكومتكم فحسب بل نُعلنه أمام أهالي كشمير وأمام العالم كله»[١].

ومع الأسف الشديد فإن هذه الاتفاقية الماكرة قد اتخذها الاستعمار الهندوسي الغاشم وسيلةً لإرسال جيشه للسيطرة على الولاية، والتحق هذا الجيش مع جيش الملك الهندوسي في الولاية ليشترك معه في مهمة قتل المسلمين وهتك أعراضهم. كما أعلنت الحكومة الهندوسية بأن الذين يرغبون بالهجرة إلى باكستان ستقوم الحكومة بمساعدتهم لتسهيل سفرهم إلى باكستان وتزويدهم بالسيارات الحكومية، فلهذا عليهم أن يجتمعوا في مكانٍ واحدٍ. ولكنهم عندما اجتمعوا في المكان المحدّد أطلقت عليهم النار فاستشهد حوالي نصف مليون من المسلمين، كما أن الذين تمكّنوا من الوصول إلى باكستان يصل عددهم إلى حوالي نصف مليون أيضاً. وجدير بالذكر أنه قبل بداية إطلاق النار تمّ القبض على الآلاف من النساء المسلمات الشابات لهتك أعراضهن، وكان من ضمن هؤلاء الشابات المسلمات ابنة القائد المؤسس لحركة تحرير كشمير (شودري غلام عباس)[٢].

في اليوم الذي أعلن فيه الملك الهندوسي (هري سنغ) اتفاقية ضمّ ولاية كشمير إلى الهند مع الحكومة الهندية في ١٢ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ

---

(١) لقد كرّر جواهر لال نهرو مثل البرقيات، وصرح مرات تزيد على العشرين بالمعنى ولكن كان كل ذلك خداعاً وزوراً.

(٢) كشمير المسلمة تناديكم فهل من مجيب؟ أليف الدين الترابي ـ الجماعة الإسلامية بولاية جمو وكشمير الحرة.

(٢٧ تشرين الأول ١٩٤٧ م) أعلنت الإذاعة في دهلي عن إرسال قوةٍ لحماية كشمير من الاعتداء، ولم تكن هناك طريق تسير عليه القوة فهبطت جواً ذلك أن البنجاب كانت لا تزال ولايةً واحدةً، وكانت في التقسيم ضمن دولة باكستان، وتفصل هذه الولاية بين الهند وكشمير، ولكن الهند بعدها رشت بمبالغ طائلة «روكلف» رئيس اللجنة المكلفة بالتقسيم فعمل على تقسيم ولاية البنجاب إلى جزأين: البنجاب الغربية وتتبع باكستان، والبنجاب الشرقية وتتبع الهند على أساس أن نسبة الهندوس فيها كبيرة إضافةً إلى نسبة السيخ إذ تعدّ هذه المنطقة مركزهم الرئيسي.

ومع وصول القوة الهندية وانضمامها إلى قوات الملك الهندوسي ابتدأ القتل والإبادة، وفي ٢١ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٤٧ م) دقّ الطبل في (جمو)، وأعلن عن وجوب خروج المسلمين إلى باكستان التي تطلبهم، فاجتمع المسلمون فكانوا يركبون في السيارات، فإذا وصلت بهم إلى خارج القرى والمدن تعرّضت لها القوات الهندوسية، وأخذت الفتيات الشابات من المسلمين وقتلت الباقي، واستمرّ القتل والوحشية بأبشع الصور مدةً طويلةً. ولنأخذ أمثلةً من قتل بعض القوافل المتجهة إلى باكستان:

خرج من منطقة (بندور) ألفان من المسلمين، ولم يصل منهم إلى باكستان سوى مائةٍ وخمسين رجلاً.

وخرجت قافلة من بلدة (جهني روديان)، وكان عدد أفرادها سبعة آلاف، وصل منهم إلى باكستان خمسمائة رجلٍ، بينهم ثلاثمائةٍ من الجرحى.

وخرجت مجموعة من بلدة (كوهته) عددها خمسمائة مسلمٍ، قتلوا جميعهم عدا الفتيات الشابات فقد اختطفن.

وخرج من بلدة (بدهي وتالاب موله) ثلاثة آلاف مسلمٍ، وصل منهم إلى باكستان سبعة أفرادٍ فقط.

وخرج من بلدة (نجري ورنب وجهته) ستة آلاف مسلمٍ لم يصل منهم إلى مأمنهم سوى ثلاثة رجالٍ.

وخرج ثمانية آلاف مسلمٍ من منطقة (سلني وهيرانجو وجاندي) بعد أن وعدوا بالمساعدة على الهجرة فجرّدوا من أمتعتهم وكل ما يملكون، ولم يصل منهم إلى باكستان سوى ألفين أكثرهم جرحى.

وخرج من منطقة (راج بوره، وكجودال) ألفان من المسلمين لم ينج منهم سوى مائة إنسان.

واجتمع في منطقة (السانبة) حوالي عشرة آلاف مسلمٍ من كل أنحائها، ولم يبق منهم سوى خمسةٍ وثلاثين فرداً، ورأى هؤلاء بأعينهم كيف اختطفت فتيات القافلة، واعتدي عليهن، ثم قتلت أسرهم أطفالاً وشباباً وشيوخاً بعد أن رأوا ما حلّ ببناتهم.

وكان المسلمون قد نظّموا المناطق التي تمكّن المجاهدون من بسط نفوذهم عليها، وألّف محمد إبراهيم حكومة كشمير الحرة (أزاد كشمير) في ١٩ ذي القعدة ١٣٦٦ هـ (٤ تشرين الأول ١٩٤٧ م)، وتألّف الجيش الكشميري، وما أن وصلت القوات الهندية حتى انضمّت إلى قوات الملك الهندوسي وبدأ القتال، ومع أن المجاهدين كانوا يحملون أسلحةً عاديةً أو كانوا من غير سلاح غير أنهم استطاعوا ـ بإذن الله ـ من المحافظة على أرض حكومة كشمير الحرة في حين كان الهندوس مُزوّدين بالأسلحة الآلية، وبقي قسم من الولاية تحت سيطرة الهند.

إن الهند منذ أن أعلنت عن إرسال قوةٍ لحماية كشمير بدأت بحشد قواتها في الولاية عن طريق الجو، وعند الانتهاء من الاستعداد قامت بهجومٍ واسع النطاق ممّا عرّض باكستان نفسها للخطر فتقدّم القائد العام للجيش الباكستاني حينئذٍ بتحذيرٍ للحكومة الباكستانية مفاده أن باكستان إذا رغبت أن تتجنّب مواجهة سيلٍ آخر ضخمٍ من اللاجئين، وإذا أرادت ألا

تكون الهند في وضعٍ تستطيع معه أن تُهدّد باكستان وجناحها، وأن تغـزو باكستان متى عزمت، فلا مندوحة من وقف زحف الجيش الهندي عند خطٍ معينٍ، فـأرسلت بـاكستــان ولأول مـرةٍ في شهــر رجب ١٣٦٧ هـ (أيـار ١٩٤٨ م) عدداً محدوداً من جيشها إلى كشمير لاتخاذ مواقف دفاعية.

الفصل الثاني

سياسة الاستعمار الهندوسي في كشمير

بعد القتال الذي نشب في كشمير بين المسلمين من جهةٍ، ويُمثّلهم الجيش الكشميري الذي يتبع حكومة كشمير الحرة (أزاد كشمير)، والمجاهدون، والجيش الباكستاني الذي هبّ عندما أحسّ بالخطر يحدق بالمسلمين وبتدفّق المشرّدين من مسلمي كشمير، وباقتراب النار المشتعلة من باكستان، وببين الهندوس ويُمثّلهم جيش الملك الهندوسي، وقوات الهند الغازية، ولم تستطع قوة من إحراز النصر، وضمّ كشمير إلى إحدى الدولتين.

ولما كانت الهند تتوقّع أن تكون الحرب التي تخوضها قواتها في كشمير وبمساعدة جيش الملك الهندوسي سهلةً، ولا تزيد على جولةٍ غير أنها صُدمت بقوات المجاهدين، ولم تستطع التقدّم فعرضت الأمر على الأمم المتحدة، وتوقّعت أن تقف الأمم المتحدة بجانبها ما دامت ضدّ المسلمين، وقد عُرفت الأمم المتحدة دائماً بمثل هذه المواقف إذ تُحرّكها الصليبية، ولكن الأمر هنا مكشوف ومفضوح، ولا تريد أن تدين نفسها، ثم إن الهند لم تستطع حسم الموقف، وضمّ كشمير بالقوة، ولو تمكّنت لدعمتها الأمم المتحدة وطوت الملفّ بسرعةٍ، كما حدث في ضم (جوناكاد) و (حيدر أباد)، فلو حسمت الهند الموقف لسوّت الأمم المتحدة الموضوع، غير أن القتال دائر، والحرب سجال، والانحياز بالأمر لا يؤدّي إلى نتيجة.

رُفعت القضية الكشميرية إلى الأمم المتحدة في ١٨ صفر

١٣٦٧ هـ (٣١ كانون الأول ١٩٤٧ م) وفي اليوم التالي أبدت الهند وجهة نظرها، وادعت أن باكستان هي المسؤولة عن قيام الاضطرابات في الولاية، وطلبت إلى مجلس الأمن أن يُوعز إلى باكستان بسحب رجال القبائل الذين دخلوا الولاية (المجاهدون) غير أن مجلس الأمن لم يقبل هذا الطلب، واكتفى بالسكوت كنوعٍ من الرضا عما ينال المسلمين من إبادةٍ وأذىً. وبعد مناقشاتٍ طويلةٍ وإضاعةٍ للوقت في سبيل إعطاء الفرصة للهند كي تحسم الموقف بما تملك من قوةٍ، وبإرهاب السكان بما تقوم به من جرائم وحشيةٍ، وبعد أن طال الزمن دون نتيجة صدرت قرارات لجنة الأمم المتحدة في ١٢ صفر ١٣٦٨ هـ (٥ كانون الثاني ١٩٤٩ م) وتنص على:

١ ـ وقف القتال وتحديد خط وقف النار.
٢ ـ تجريد ولاية جمو وكشمير من القوات العسكرية.
٣ ـ إجراء استفتاءٍ محايدٍ تحت إشراف الأمم المتحدة لتقرير مسألة انضمام كشمير إلى الهند أو باكستان.

أبدت الهند موافقتها على هذه القرارات كلامياً، ولكن بقيت مُتشبثةً في المنطقة التي دخلتها من كشمير.

وأعادت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار نفسه في ٦ ربيع الثاني هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٥٢ م)، وأعادت الهند موافقتها على القرار، وأكّدت ذلك، ولكن نظرياً أيضاً، وبقيت في مواقعها، ورجع (نهرو) في ١٢ شوال ١٣٧١ هـ (٤ تموز ١٩٥٢ م) ليُؤكّد التزام بلاده بقرار الأمم المتحدة، حيث قال: (مهما يكن من الأمر، فإن حكومة الهند قرّرت منذ البداية التزامها بالمبدأ الذي يفيد بأن القرار النهائي ضمن أن انضمام ولاية جمو وكشمير إلى إحدى الدولتين لن يتمّ أبداً إلا حسب الرأي العام لشعب الولاية، وهذا العهد لن تنقضه مهما كانت الأوضاع، ونظراً لهذه الحقيقة فإن حكومة الهند قد وافقت على انضمام الولاية بصورةٍ موقتةٍ عام

١٩٤٧ م، وإن القرار النهائي لمصير الولاية سيتمّ حسب رغبة الرأي العام للشعب الكشميري).

وبقيت الهند تُؤكّد التزامها بقرارات الأمم المتحدة ما يقرب من عشر سنواتٍ تأكيداً كلامياً دون إظهار أية بوادرٍ للتنفيذ، ولكنها منذ عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) أخذت تتملّص تدريجياً من التطبيق، وأخيراً رفضت وجود قضية اسمها كشمير.

كانت الهند قد سيطرت على أكثر أقاليم (جمو) و (بونغ) و (كشمير)، ولم يبق تحت نفوذ حكومة كشمير الحرة سوى مناطق ضيقةٍ تُساير الحدود الباكستانية، كما بسطت الهند سيطرتها على إقليم (لداخ) كله، وأما حكومة أزاد الحرة فتتبعها مناطق (ولاية الحدود) و (جلجت واستور). وكان سكان الولاية يتوزّعون على أقاليمها عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) على النحو الآتي:

الإقليم	مجموع السكان	المسلمون	نسبة المسلمين	غير المسلمين
جمو	١,٩٨١,٤٣٣	١,٢١٥,٦٧٦	٪٦١,٣	٧٦٥,٧٥٧
بونغ	٤٢١,٨١٨	٣٨٢,٧٢٢	٪٩٠,٧	٣٩,١٠٦
كشمير	٧٢٨,٧٠٥	٦١٥,٤٧٨	٪٩٣,٤	١١٣,٢٢٧
مناطق الحدود	٣١١,٤٧٨	٢٧٠,٠٩٣	٪٨٨,٩	٤١,٣٨٥
لداخ	١٩٥,٤٣١	١٥٤,٤٩٢	٪٧٩,٠	٤٠,٩٣٩
جلجت واستور	١١٦,٠٤٧	١١٥,٦٠١	٪٩٩,٦	٤٤٦
	٣,٧٥٤,٩٢٢	٢,٧٥٤,٠٦٢	٪٧٣,١٤	١,٠٠٠,٨٦٠

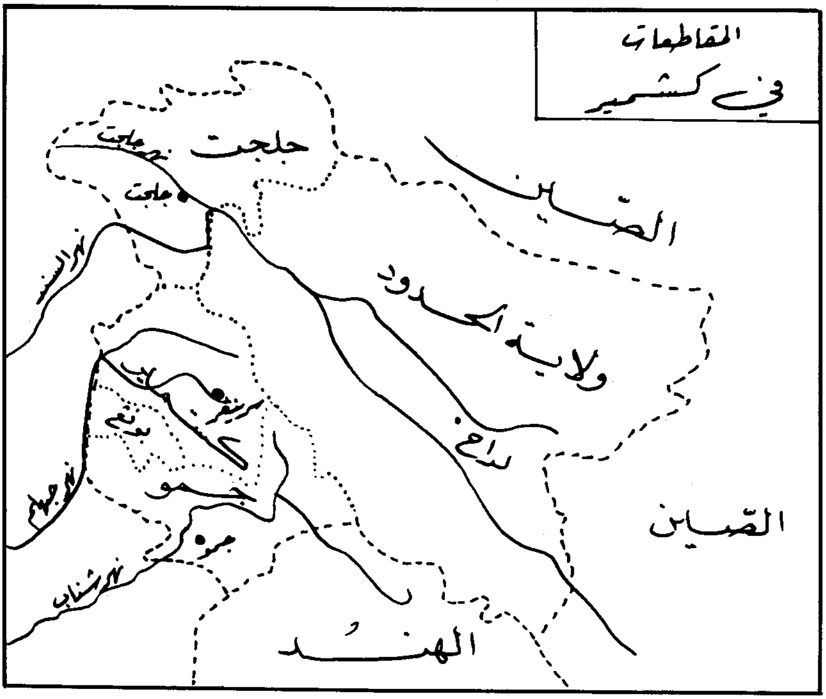

أما الروابط بين باكستان وكشمير فترجع إلى جوانب الحياة جميعها.

العقيدة: تدين أكثرية سكان باكستان وكشمير بالإسلام، والعقيدة أهم جوانب الحياة، ومنها تنبع مختلف الروابط، وعلى أساسها قام تقسيم شبه القارة الهندية.

الأصل: يعود سكان باكستان وكشمير إلى أصلٍ واحد، وهو العرق الأبيض.

الجغرافية: تُعدّ أودية جمـو وكشمير تتمةً للسهول الباكستانية، وإن أنهار (السند) و(جهلم) و(شناب) و(رافي) تنبع من ولاية كشمير، وهي الأنهار الرئيسية في باكستان.

الاقتصاد: ينقل الكشميريون أخشابهم بواسطة الأنهار لتُباع في أسواق في بلدتي (جهلم) و(وزير أباد) فالأنهار (وسيلة النقل) باكستانية، والأسواق باكستانية، وتُشكّل الأخشاب ٢١٪ من صادرات ولاية كشمير. وكذلك تُباع

الفاكهة الكشميرية في مدن باكستان الرئيسية (راولبندي) و(كراتشي)، وهي سلعة هامة من الصادرات.

والطرق في كشمير تُساير مجاري الأنهار، وتصل إلى باكستان، وليس هناك من أية طريقٍ تصلها بالهند، سوى طريقٍ جديدةٍ فتحت لأغراضٍ عسكريةٍ فتحها الجيش الهندي.

وكل واردات كشمير من الملح، والقمح، والصوف، والزيوت إنما تستورده من باكستان، هذا بالإضافة إلى النفط الذي يصل إليها من حقول نفط (أتوك) الباكستانية.

وتعدّ (كراتشي) الميناء الباكستاني أقرب الموانىء إلى ولاية كشمير، وعن طريقه يمكن الاتصال مع الخارج وأخيراً يجد العمال الكشميريون مجال عملهم في فصل الشتاء البارد في باكستان الغربية.

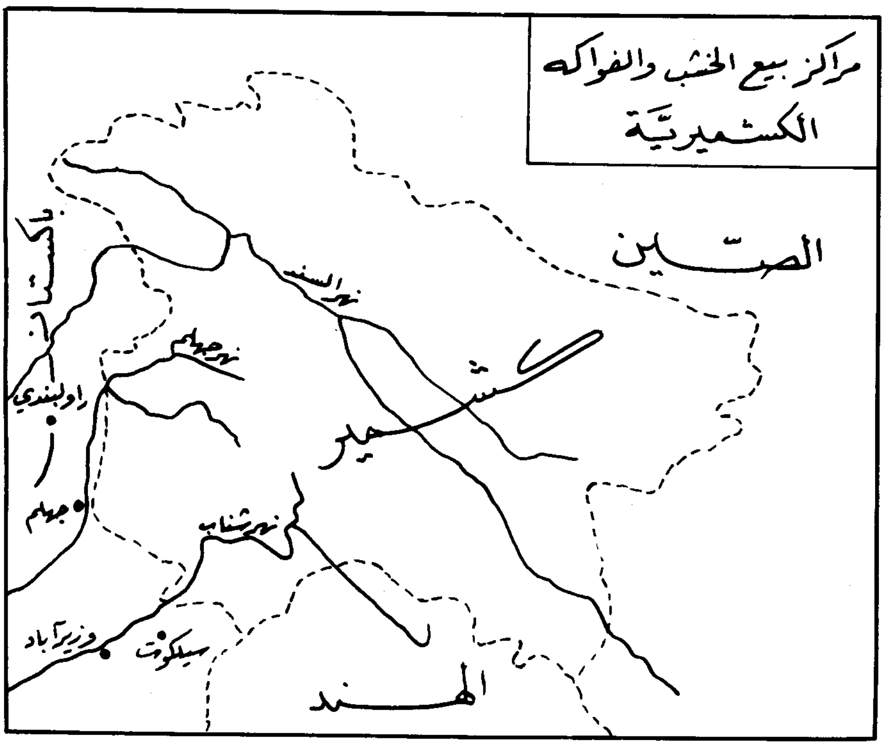

كل هذه الروابط تجعل من حقّ كشمير ومن مصلحتها الانضمام إلى باكستان، وكذلك من حقّ باكستان أن تُطالب بكشمير، وتُدافع عن هـذا الحقّ بكل إمكاناتها، وإلا عدّت مقصّرةً بحقّ شعبها، ومُفرطةً بالأسـاس والفكرة التي قامت عليها.

الجهـــاد:

لمـا اشتدّ الضغط الهنـدي على السكان، وارتكب الهنـدوس أبشع الجرائم وأقذر الأعمال وجد المسلمون أنه لا بدّ من الجهاد ضـدّ الظلم الـواقع عليهم، وقـاموا ببـطولاتٍ رائعةٍ وأعمـالٍ فـدائيـةٍ، فـاهتـزّ وضـع المستعمرين وكاد الأمر يفلت من أيديهم فشنّت الهند حرباً واسعة النطاق على بـاكستان، واستمـرّت تلك الحرب مـدة أسبـوعين فقط، وانتصـرت باكستان، فلجأت الهند إلى الأمم المتحدة لتحفظ لها ماء وجهها، ورفعت القضية إليها، وعرضت الامبراطورية الروسية الـوساطـة، وتمّ عقد مؤتمـر طاشقند الذي لم يكن في صالح باكستان.

وبعد وقف إطلاق النار قام الهندوس باعتداءاتٍ وحشيةٍ غدراً وحقداً فقتلوا الأبـرياء، وهتكـوا أعراض الحـرائر، وقتلوا الأطفـال أمام الأمهـات والآبـاء، وقطّعـوا أثداء النسـاء أمام ذويهم، وارتكبـوا كل أعمـال الخسّة والدناءة.

الغـزو الفكـري:

أدركت الهند أنها لا تستطيع السيطرة على ما تحت أيديها من كشمير بالقوة والإرهاب باستخدام الوحشية والإبادة والتمثيل بالأحياء والقذارة وهتك الأعراض فقط حيث كانت هذه الأعمال تُثير المسلمين، وتُوحّد صفوفهم، وتُثير عواطفهم، وروح الجهاد عندهم، لذا قرّرت الهند اتباع وسائل أخرى مع استمرار القيام بالأعمال السابقة، فقد أرسلوا أحد رجال المخابرات إلى إسبانيا ليتقصّى ما فعله الإسبان ضدّ مسلمي الأندلس للخلاص منهم، وقد رجع رجل المخابرات وفي جعبته أفكار يحملها، ثم أرسلته حكومته سفيراً

لها في موسكو ليُتابع مُهمّته في الوسائل التي اتخذها الروس ضد المسلمين، ونتيجة ما حصل عليه من معلوماتٍ من هنا من موسكو ومن هناك من مدريد، وبعد دراسة النتائج قررت الحكومة اتخاذ ما يأتي:

١" ـ تغيير مناهج التعليم في ولاية كشمير، حيث يُعمّم المنهج التعليمي الهندوسي الذي يشمل على المعتقدات الوثنية الهندوسية، والأساطير والخرافات، وفلسفة وحدة الأديان.

٢" ـ جعل التعليم مختلطاً، ومحاولة نشر الفساد بتعليم الرقص والغناء في المدارس.

٣" ـ تشجيع الزواج بين المسلمين والهندوس لمُخالفة العقيدة الإسلامية، ومُحاولة التأثير عن طريق العائلة.

٤" ـ مُحاولة تغيير اللغة لفصل الحاضر عن الماضي.

٥" ـ إباحة الخمر وتوزيعه مجاناً على حساب الدولة.

٦" ـ إثارة الخلافات القبلية والإقليمية والطائفية.

٧" ـ بث فكرة القومية الهندية، واستخدام وسائل الإعلام لنشر الإباحية والفاحشة.

٨" ـ الدعاية لفكرة تحديد النسل بين المسلمين بغرض وقف زيادة المسلمين.

٩" ـ تشويه التاريخ الإسلامي.

١٠" ـ الحرص على إيجاد قيادةٍ كشميريةٍ مسلمةٍ عميلةٍ تأتمر بأوامر الحكومة الهندية وتتلقّى التوجيهات منها.

وقامت الحركة الإسلامية بردّ فعلٍ لإبطال مفعول سياسة الاستعمار الهندوسي الفكرية ولجأت إلى بعض الأساليب الفعّالة ومنها:

١" ـ إنشاء مدارس إسلاميةٍ أهليةٍ لا علاقة للحكومة بها.

٢" ـ تأسيس قرى إسلاميةٍ أنموذجيةٍ.

٣" ـ القيام بنشر الدعوة والتوعية والعمل على توحيد المسلمين حيث تأسّست الجبهة الإسلامية التي ضمّت أكثر من عشرة أحزابٍ سياسيةٍ

وجمعياتٍ دينيةٍ.

٤" ــ المناداة بإجراء استفتاءٍ عام لتقرير المصير.

ونتيجة السياسة التي لجأت إليها الحركة الإسلامية نشأ جيل مسلم واعٍ، تخرّجوا من المدارس الإسلامية في الوقت الذي انطلق الجهاد في بلادِ الأفغان، واشتدّ عوده مع هزائم الجيوش الروسية على أرض الأفغان حتى اضطرّت موسكو على الموافقة لسحب جيوشها لتحفظ ماء وجهها قبل أن ينسكب. وقامت أكثر من خمس عشرة منظمة جهاد ضمت أكثر من خمسين ألف مجاهد، واتحدت أخيراً باسم «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي كشمير» كما اتحدت عشر منظمات سياسية باسم «حركة تحرير كشمير» وترأسها علي الجيلاني.

وبدأت حركة الجهاد، واستهدفت مراكز الجيش الهندوسي، وحانات الخمر، وأماكن الفاحشة، وقرّر أصحاب بعضها إغلاقها، وأعلنت بعض وسائل الإعلام قطع علاقتها بحزب المؤتمر الهندي، والحكومة الهندية، وكذلك قرّرت النساء المسلمات الالتزام باللباس الإسلامي، وذلك كله ولم ينتصف عام ١٤١٠ هـ (قبل نهاية عام ١٩٨٩ م)، وارتفعت أصوات المطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة الداعية إلى إجراء استفتاء في الولاية لتقرير المصير.

وقام الاستعمار الهندوسي برد فعلٍ غاشمٍ إذ أعلن منع التجول في أكثر من عشرين مدينة، وزاد من وحشيته في الإبادة، والقتل، والسجن، وهتك الأعراض، وحرق الناس أحياءً، وخلال أربعة أشهر (جمادى الآخرة وحتى نهاية رمضان ١٤١٠ هـ (الأول من كانون الثاني وحتى نيسان ١٩٩٠ م) ارتكب الهندوس الأعمال الوحشية الآتية.

١ ــ قتل ٢١,٤٩٠ شهيداً.

٢ ــ جرح ٢٠,٠٠٠ إنسان.

٣ ــ إحراق ٦١٨ إنساناً وهم أحياء.

٤ ــ تشريد ٢٠,٠٠٠ إنسان لجؤوا إلى كشمير الحرة.

٥ ـ قتل ٣٥٧ امرأة بعد هتك أعراضهن والتمثيل بهن.
٦ ـ إلقاء القبض على ٥٠,٠٠٠ إنسان وإيداعهم السجن.
٧ ـ هتك أعراض عشرات الآلاف من النساء، ولم يفتضح أمرهن، في سبيل المحافظة على الشرف.
٨ ـ عزل الآلاف من الوظائف الحكومية.

هذا بالإضافة إلى تدمير آلاف المحلات وإتلاف المزارع، وإحراق البيوت، وهدم المدارس والمستشفيات، وأعمال النهب، وقتل الحيوانات.

ووقف العالم يتفرّج على ما يجري دون حركةٍ، وسكتت الأمم المتحدة، وارتاحت الصليبية، وسُرّ أتباعها، ولم يتحرك أولئك الذين يعدّون أنفسهم أوصياء على العالم، وعلى الحرية والسلام العالمي... ما دامت القضية تنال المسلمين، أما المسلمون فهم وراء الذين يسيرون في فلكهم، أو في غفلتهم سادرون، ووراء قضاياهم يلهثون، أو لا يدرون ماذا يجري لجهلهم، وسذاجة علمائهم، أما قيادات العمل الإسلامي فبين سجينٍ، ومضطهدٍ، وشريد، وربما لفّت التيارات بعضهم.

وأما الهند فمستمّرة في بطشها وغيّها تدّعي أن قضية كشمير قضية داخلية، ولا يحقّ لأحدٍ أن يتدخّل في شؤونها، فالولاية جزء لا يتجزأ من الهند، وقد انضمت إليها منذ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وأنها لا تُوافق على الاستفتاء لأن معنى ذلك السماح بتجزئة الهند، وأنها دولة علمانية، يعيش فيها من مائة مليون مسلم. وأن ما يحدث الآن في داخل كشمير لم يكن ليحدث لولا التدخل الخارجي من بعض أمصار العالم الإسلامي، وما إلى ذلك من مغالطات، فالواقع أن كشمير ليست ولايةً هنديةً، والقضية ليست داخليةً، وإنما لا تزال في الأمم المتحدة لم يُبتّ بها، وأن تقسيم شبه القارة الهندية كان على أساسٍ دينيٍ، ومعنى ذلك أن كشمير بأكثريتها المسلمة يجب أن تكون ضمن الأرض الباكستانية، وأن الهند ليست دولةً علمانيةً، وإنما التعصّب الهندوسي هو البارز، وما ينال المسلمين من

اضطهادٍ بين الآونة والأخرى لأكبر دليلٍ على التعصّب للهندوسية. وأنه ليس هناك من تدخّلٍ خارجيٍ، ولكن الضغط يُسبّب الثورة والظلم يُثير الناس، والحقد على الإسلام يُجبر الناس على الدعوة إلى الجهاد.

ونتيجة تفاقم هذه الأحداث دعت الجماعات الإسلامية والسياسية في كشمير الحرة، وفي باكستان إلى عقد مؤتمرٍ إسلاميٍ لبحث ما يستجدّ على الساحة الكشميرية، وعقد المؤتمر في مدينة (مظفر أباد) عاصمة كشمير الحرة في ٢٢ شوال عام ١٤١٠ هـ (١٧ أيار ١٩٩٠ م) وحضره ممثلون عن كل من الدول الإسلامية: المملكة العربية السعودية ـ الكويت ـ الإمارات العربية المتحدة ـ مصر ـ تركيا ـ بنغالديش إضافةً إلى ممثلي الجماعات الإسلامية والسياسية في باكستان، وكشمير الحرة، وكشمير المحتلّة. وقد صدر بيان في نهاية المؤتمر استنكر فيه الأعمال الوحشية التي يقوم بها الهندوس، ودعا الحكومة الهندية إلى إجراء استفتاءٍ في الولاية لتقرير مصيرها، وهو ما وعدت به كثيراً، وذكرها بتلك الوعود، وأعلن التضامن التام مع الحركات الجهادية في كشمير وبقية المناطق الإسلامية مثل: فلسطين، وأفغانستان، وأريتريا، والفيليبين و... انتهى المؤتمر بهذا الاستنكار والكلام ـ كالعادة ـ.

ومن المؤسف أن بعض الحكومات الإسلامية تُعلن دائماً عن صداقتها مع الحكومة الهندوسية وتأييدها. وإن كانت هذه الحكومات من التي تدور في أفلاك الدول الكبرى، وتتبع مناهجها ردّاً لجميل تثبيت مراكزها، واعتمادها، ودعمها، بغضّ النظر عن الإسلام، والرحمة الإنسانية.

الفصل الثالث

الصراع الداخلي

تبلغ مساحة ولاية كشمير ٢٢٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، تشرف حكـومة كشميـر الحرة «أزاد كشميـر» على أكثر من ثـلاثة أربـاع هـذه المسـاحـة (١٧٨,٠٠٠ كم٢)، ولكن هذه المساحة قليلة السكان لأن أكثرها جبليـة، وتشمل هذه المنـطقة جـزءاً من إقليم (جمو) وآخـر من إقليم (كشمير) وجـزءاً من إقليم (بـونغ)، وإقليم (جلجت واستـور) كامـلاً، وإقليم منـاطق الحـدود بحدوده جميعها، وتحتلّ الهند القسم الأعظم من أقاليم (جمو) و(كشمير) و(بونغ) ومنطقة (لداخ) كلها، وتبلغ مساحة هذه الأجزاء ٤٤,٠٠٠ كيلومتر مربع فقط، ولكن هذه المساحة هي المهمة، ويتجمّع فيها أكثر السكان.

كان عدد سكـان كشمير عـام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) أربعة مـلايين، ويتوزعون على النحو الآتي:

المسلمون	٣,٠٧٥,٠٠٠	ويُشكّلون	٧٧٪
الهندوس	٨٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٢٠٪
السيخ	٨٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٢٪
البوذيون	٤٥,٠٠٠	ويُشكّلون	١٪
	٤,٠٠٠,٠٠٠		١٠٠٪

وأصبح عدد السكان عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) أربعة ملايين وخمسمائة وثلاثة وستون ألفاً، ويتوزّعون على النحو الآتي:

المسلمون	٣,٠٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٦٥,٧٣٪
الهندوس	١,٤٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٣٠,٧٠٪
السيخ	١٠٥,٠٠٠	ويُشكّلون	٢,٣٠٪
البوذيون	٥٨,٠٠٠	ويُشكّلون	١,٢٧٪
	٤,٥٦٣,٠٠٠		١٠٠,٠٠٪

ويلاحظ أن عدد المسلمين قد تناقص بسبب القتل، والهرب، والهجرة، وانخفضت نسبتهم من ٧٧٪ إلى ٦٥,٧٣٪ نتيجة ذلك، أما الهندوس فقد زاد عددهم بنسبة ٧٥٪، فأصبحوا ١,٤٠٠,٠٠٠ بعد أن كانوا ٨٠٠,٠٠٠، وزادت نسبتهم العددية بين السكان من ٢٠٪ إلى ٣٠,٧٪ وذلك بسبب انتقال أعداد من الهندوس، ليحلّوا محلّ المسلمين الهاربين من القتل، ولترتفع النسبة العامة كي يستطيعوا مقاومة المسلمين، وليكونوا مخابرات الهند، كما أن أعداداً منهم كانوا من أفراد الجيش الهندي، وربما كان بعضهم جيشاً سرياً. أما السيخ والبوذيون فقد تزايدوا بشكلٍ طبيعي، وارتفعت نسبة كل فريقٍ على نسبته العامة بالنسبة إلى مجموع عدد سكان ولاية كشمير كلها نسبةً بسيطة.

ويُقدّر عدد سكان كشمير عام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) بخمسة ملايين، ويتوزّعون على النحو الآتي:

المسلمون	٣,٢٧٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٦٦,٠٠٪
الهندوس	١,٥٥٢,٠٠٠	ويُشكّلون	٣٠,٤٠٪
السيخ	١١٥,٠٠٠	ويُشكّلون	٢,٣٣٪
البوذيون	٦٣,٠٠٠	ويُشكّلون	١,٢٧٪
	٥,٠٠٠,٠٠٠		١٠٠,٠٠٪

لم تكن هذه الزيادة الطفيفة في نسبة المسلمين، وانخفاضها النسبي بين الهندوس لتدلّ على تحسّن الوضع، وإنما يعود ذلك إلى زيادة الولادات لدى المسلمين بالنسبة إلى غيرهم.

الصراع الدولي:

حكومة كشمير الحرة (أزادكشمير) ضعيفة الإمكانات لذا فهي تتبع إلى إشراف حكومة باكستان، وتعمل على ضمّ ولاية كشمير إلى باكستان بعد إخراج الهند من الأجزاء التي تحتلّها.

وباكستان أصلاً تعمل على ضمّ كشمير إليها، وتعدّها جزءاً منها، وترى أن تقسيم الهند إنما كان على أساس عقيديٍ، وولاية كشمير أكثر سكانها من المسلمين لذا يجب أن تتبع باكستان، كما أن أهلها يرغبون هذا، ويعملون لذلك، وتتمنّى باكستان إجراء استفتاء للسكان لمعرفة رغبتهم في تقرير مصيرهم، وتُطالب الأمم المتحدة بذلك، وتُذكّر أن الهند طالما وافقت على ذلك، ولكنها لم تُنفّذ، وعندما تطالب بذلك تتمنّع، وتتهرّب، ثم أصبحت ترفض الفكرة.

وأما الهند فإن احتلّت ما احتلّته من كشمير، ثم وافقت على إجراء استفتاء دعايةً، وكرّرت ذلك، وأخيراً أعلنت أن كشمير جزء منها، وأن ما يخضع لحكومة كشمير الحرة، إنما هو خضوع لباكستان، فباكستان هي المعتدية، وجرت حروب بين الدولتين، ولا تزال القضية مُعلّقة، والاتهامات قائمة.

الصـراع العقيـدي:

إن المسلمين كلهم تـربطهم العقيـدة مع بـاكستان، وهم يـرغبـون الانضمام إليها، ويزيد على ذلك أن مصالحهم تقتضي الالتحاق بباكستان، وهم يسعون إلى ذلك. ولكن لما كانوا يُشكّلون أكثرية السكان فهم ليسوا كتلةً واحدةً، ويضاف إلى الجهل الذي يبعد بعضهم عن بعض، ويسير كل في طريق، ويزيد على ذلك أصحاب المصالح الذين يـرغبون في كسب تأييد غير المسلمين لهم، من هندوس، وبوذيين، وسيخ فيظهرون الرغبة في العصبية الوطنية، ووحدة الصف، وهذه الكلمات التي وضعت لتحلّ محل الرابطة العقيدية، وربما وجد أصحاب المصالح القوة إلى جـانب الهند، فـأظهروا مـوافقتهم لها، والسيـر بجانبهـا، أو رأوا أن الكلمة المسمـوعة لإنكلترا فتقرّبوا من أعوانها القاديانيين، وبذا تتوزّع كلمة المسلمين، وتفرّق صفهم.

ويقف بالمقابل المسلمون الملتزمون الذين يعرفون واقعهم، ويدركون أمر دينهم، فلا يداهنون أحداً، ولا يسيرون إلا وفق ما تأمرهم به عقيدتهم، فيقفون في وجه المسلمين من أصحاب المصالح، وبقية الفئات من غير المسلمين، في الوقت الذي يريدون لهم فيه الخير، فيعملون على دعوتهم وهدايتهم، ويطلبون لهم الصلاح.

أما الهندوس فيرتبطون بالهند كلياً، من باب العقيدة، ويعلنون ذلك ولا يخفون، ويعترفون أنها حاميتهم، وإذا ما حدثت حادثة استنجدوا بها مباشرة، ولذلك فهـم في صراعٍ مع المسلمين الملتزمين، يتهمونهم أنهم أنصار لباكستان، وأنهم متعصّبون للإسلام في الوقت الذي ترك فيه الناس الدين، وأنهم متطرّفون، وإرهابيـون، وأخيراً أخـذوا يطلقـون عليهم هذه الأوصاف التي حملها الصليبيون، (الأصوليون) و(الإرهابيون).

وأما البوذيون والسيخ فهم أعداء للهند وأعداء لباكستان، وإن كانوا أقرب إلى الهند، أو أن حقدهم عليها أقل، لذلك فهم يعملون على إثارة

الفتن، ويعملون لإشعال نار الحرب بين الفريقين، وإذا سنحت لهم الفرصة عملوا على قتل من يستطيعون من المسلمين سراً وفي الخفاء.

الصراع الحزبي:

حاول المسلمون تنظيم أنفسهم، وقد انضم بعضهم إلى جمعية الخلافة وكان (ميرواعظ يوسف شاه) أحد الذين ساهموا في إنشاء تلك الجمعية.

وشكّل المسلمون المؤتمر الوطني الإسلامي برئاسة الشيخ محمد عبدالله، وانضمّ إليه عدد من الهندوس، ثم ظهر أن رئيسه يتلقّى التعليمات من حزب المؤتمر، وأن هذا التجمّع الإسلامي كأنه فرع لحزب المؤتمر.

شكّل المسلمون نتيجة ما حدث المؤتمر الإسلامي الكشميري برئاسة (شودري غلام عباس)، ووجد له جناح عسكري، هو جبهة تحرير جمو وكشمير، وكان يطالب بالانضمام إلى باكستان.

وفي عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) افتتح فرع لحزب المؤتمر الهندي.

وفي عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٢ م) زار محمد علي جناح كشمير، وحاول التوفيق بين المؤتمر الإسلامي والمؤتمر الوطني فلم يقبل الشيخ محمد عبدالله، وأصرّ على زعامته الوحيدة.

وعندما اندلعت الثورة في كشمير ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وحكم على الشيخ محمد عبدالله بالسجن ثلاث سنوات، أرسل (نهرو) محامياً، هو (آصف علي) ليدافع عنه، وعندما خرج من السجن تسلّم رئاسة حكومة كشمير التي تخضع للهند، ووقف بجانب المهراجا.

وهكذا وجد صراع حزبي بين المؤتمر الإسلامي الكشميري الذي يعمل للانضمام إلى باكستان وبين حزب المؤتمر الوطني الذي يسعى رئيسه وراء مصالحه.

ووجد صراع آخر بين العلماء إذ كان (ميرواعظ يوسف شاه) قد أسّس

جمعية نصرة الإسلام التعليمية، ويعمل على محاربة القاديانية الفرقة الضالة التي تدعّي الإسلام، وذلك خشيةً من إضلال الناس، وبالمقابل وجد (ميرواعظ همداني) الذي كان يعطف على القاديانية غفلةً، ومصلحةً، ويُؤيّده في ذلك الشيخ محمد عبدالله رئيس المؤتمر الوطني الإسلامي، وكان صراع بين الفريقين.

فالصراع الحزبي في كشمير يقوم على أسسٍ عقيديةٍ، فحزب المؤتمر الهندي يضم الهندوس، ويتبع سياسة الحكومة الهندية، ويدافع عنها، ويهاجم خصومها. والقاديانيون يُؤيدون ذلك ضمناً.

والجماعة الإسلامية تدعو إلى الإسلام، وتريد الخير للجميع لذا تعمل على هدايتهم، وتريد أن يكونوا مثلها، ومن يرضى لغيره ما يرتضيه لنفسه فقد بلغ ذروة الإخلاص والصدق، والمحبة للآخرين.

ولما كان المسلمون هم الغالبية لذا فهم حسب إيمانهم وحسب مصالحهم. فأصحاب المصالح انضموا إلى حزب المؤتمر الوطني الذي يرأسه الشيخ محمد عبدالله، وتؤمن لهم الهند مصالحهم.

والمخلصون والذين عندهم وعي سياسي انضموا إلى حزب المؤتمر الإسلامي الكشميري، ويرون الجهاد، والعمل للانضمام إلى باكستان، وشكّل الذين يحبون الزعامة أحزاباً وجمعياتٍ سياسية كثيرة، ولكنها جميعها تتفق في نقطتين الوقوف في وجه الهند، والرغبة بالانضمام إلى باكستان، ومن هؤلاء تشكلت الجبهة الإسلامية والتي ضمّت عشرة أحزاب وتجمعات دينية، وتشكل الاتحاد الإسلامي لمجاهدي كشمير وضمّ خمس عشرة منظمة، كما ترأس علي الجيلاني حركة تحرير كشمير التي شملت على عشر منظمات سياسية. ومن هؤلاء أيضاً تشكلت حكومة كشمير الحرّة (أزاد كشمير) برئاسة محمد إبراهيم. وكلها لا تخرج عن النقطتين الأساسيتين اللتين تجمع بين المسلمين ـ كما ذكرنا ـ وهما: الوقوف في وجه الهند، والعمل على الانضمام لباكستان لأنه حسب عقيدتهم، وفيه مصلحة لهم.

الباب الثالث

باكستان الكبرى

الفصل الأول

باكستان إحدى دول الدمنيون

ظهرت دولة باكستان كدولةٍ شبه مستقلةٍ ذات سيادةٍ في ٢٧ رمضان ١٣٦٦ هـ ـ ١٤ آب ١٩٤٧ م) ظهرت كإحدى دول الدومنيون، وهي دول كانت تحت الاستعمار البريطاني، أُعطيت شبه استقلالٍ، وبقيت مرتبطةً ببريطانيا، ويجمعها رابط واحد، ويجتمع حكامها الذين تعيّنهم بريطانيا كل مدةٍ، ويكون لقاؤهم برئاسة رئيس الوزراء البريطاني.

عينت إنكلترا على باكستان محمد علي جناح حاكماً عاماً، على حين سُلّم لياقت علي خان رئاسة الوزراء. وتوالى على باكستان في هذا العهد الذي امتدّ تسع سنواتٍ ثلاثة حكامٍ، وكذلك تعاقب ثلاثة رؤساء للوزارة.

١" ـ محمد علي جناح:

وامتدّ حكمه من ٢٨ رمضان ١٣٦٦ هـ (١٥ آب ١٩٤٧ م) حتى توفي في ٨ ذي القعدة ١٣٦٧ هـ (١١ أيلول ١٩٤٨ م)، وقد عانت الحكومة الباكستانية الأولى معاناةً كبيرةً وذلك لـ:

أ ـ الوضع الجغرافي:

تألّفت دولة باكستان يوم تأسّست من جناحين: الجناح الغربي ويشمل ولايات السند، والنبجاب الغربية، وبلوشستان، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية، ويعرف هذا الجناح باسم «باكستان الغربية»، أما الجناح الشرقي فيضمّ البنغال الشرقية، ومقاطعة سيهلت، ويعرف باسم «باكستان الشرقية»،

وبين الجناحين مسافات بعيدة تزيد على ألف وخمسمائة كيلومتر، تشغلها دولة الهند، التي كانت وستبقى خصم دولة باكستان الأول، أُعلن ذلك أم لم يعلن، فلا يمكن الاتصال بين الجناحين إلا عن طريق الجو، ومما يزيد الأمر صعوبةً أن الجناحين مختلفين في طبيعتهما الجغرافية التي ينشأ اختلاف في الإنتاج، وكل جناح بحاجةٍ ماسةٍ إلى الجناح الآخر لتصريف بضائعه فيه، واستيراد ما يحتاج إليه منه، وعلى الحكومة أن تتخطّى هذه العقبة الكأداء وتجد لها حلاً لإمكانية السير، غير أن طاقات الدولة محدودة جداً لما تُعاني من مُشكلات أخرى.

ب ـ المهاجرون:

كان على الحكومة مواجهة مشكلة تسعة ملايين مسلمٍ مهاجرين من الهند إلى باكستان أو فارين من الظلم الهندوسي من غير مأوى إضافةً إلى مُعالجة أُسر مليون آخرين قتلوا أثناء سيرهم إلى باكستان، ثم مواجهة مشكلة كشمير واللاجئين منها ويزيدون على المليون، والمهم توجد مشكلة تأمين المأوى والطعام لخمسة عشر مليوناً زيادةً على معاناتهم وما ينجم عنها من مشكلات.

ج ـ الاقتصاد:

لم يكن التقسيم عادلاً بالنسبة إلى الموارد الاقتصادية، إذ تمّ على الشكل الآتي: كان نصيب الهند من الأراضي الزراعية ٦٨٪ من أراضي شبه القارة الهندية على حين كان نصيب باكستان ٣٢٪ فقط، وإن كانت أراضي باكستان أكثر خصوبةً وأوفر ماءً.

أما منابع القدرة فإن معظمها كان من نصيب الهند، إذ أنتجت الهند بعد التقسيم مباشرةً ثلاثين مليون طن من الفحم الحجري. بينما لم تنتج باكستان أكثر من ثلاثمائة ألف طن لهذا كانت تستورد سنوياً من ٢ ـ ٣ مليون طن لسدّ حاجات السكك الحديدية.

أما بالنسبة إلى الصناعة فنلاحظ أن أكثر المعامل كان من نصيب

الهند، إذ نرى أيضاً أن باكستان تنتج ٨٠٪ من الجوت في العالم إلا أن مصانعه كلها كانت من نصيب الهند، وكذلك مناسج القطن ومغازله حيث أخذت الهند ٣٨٠ معملاً بينما لم تظفر باكستان بأكثر من ١٤ معملاً حيث تتركز الصناعة القطنية في مدن (بومباي) و (كلكتا) و (مدراس).

وكان نصيب الهند من السكك الحديدية ٨٣٪ وباكستان ١٧٪ فقط.

وكان في شبه القارة الهندية ٨٧ مدرسةً فنيةً قبل التقسيم، فلما تمّ الاستقلال، وجرى التقسيم كان في المقاطعات الإسلامية ست مدارس فقط وأساتذتها من الهندوس، بينما كانت واحدة وثمانون مدرسةً في المناطق الهندوسية.

وأُعطي للموظفين من مدنيين وعسكريين حرية العمل في أية دولةٍ من دول شبه القارة الهندية.

كما نجد أن الأثاث الحكومي لم تُعط منه باكستان شيئاً، وكان أكثره موجوداً في (دلهي) و (كلكتا) و (بومباي)، وهذا لا شك يُكلّف الكثير.

ويضاف إلى هذا أن الهندوس الذين كانوا يخرجون من باكستان يخرجون بأموالهم وأثاثهم، بينما المسلمون الذين يخرجون من الهند نحو باكستان يفرّون فراراً بأيديهم مذعورين من غير أموالٍ ودون أثاثٍ، وأحياناً حفاةً، يقطعون الطرق الطويلة مشياً خائفين، وكثيراً ما كانوا يضلّون الدروب حيث يهربون من الطرق الرئيسية خشية القتل، ومن يسافر بالسيارات أو القطارات فلا يصل أغلبهم، حيث تتعرّض السيارات والقطارات لهجوم السيخ والهندوس، وتصل وسائل النقل هذه إلى باكستان فارغةً أو ملأى بالجثث.

وكان العسكريون من أصحاب الرتب الكبيرة قليلين في باكستان نتيجة السياسة الاستعمارية البريطانية التي كانت تقوم على تقريب الهندوس، والعمل على إذلال المسلمين والحقد عليهم فتبعدهم عن الكليات العسكرية.

ولم تدفع الهند لباكستان نصيبها من المعدات حتى نستطيع أن نقول: إن إذاعة باكستان كانت في هذه المرحلة مؤلفةً من مجموعة خيامٍ.

وبالنتيجة كان على باكستان أن تقوم بالتصنيع بنفسها دون أن تهمل القطاع الزراعي الذي يعيش منه معظم السكان، ويتوقّف على دوام ازدهاره نجاحها في تأسيس ما يلزمه من معامل، وقد حالفها التوفيق في المحافظة على التوازن بين هذين القطاعين من النشاط البشري، وأصبح لديها عدد كبير من المصانع الحديثة.

د ــ المـال:

رفضت الهند أن تدفع لباكستان نصيبها من المال المضروب، وهو خمسمائة وخمسون مليون روبية والمقرّر دفعه، والمقصد من ذلك الرفض أن تعجز باكستان عن دفع رواتب موظفيها فتعمّ الفوضى، ولا تستطيع باكستان الاستمرار في البقاء، وتعود إلى الهند، ويرجع المسلمون تحت سيطرة الهندوس فيتحكّمون بهم.

هـ ــ العقيدة:

وهو أهم الجوانب التي عانى منها المسلمون في باكستان من أول الأمر. لقد قامت باكستان على أساس الإسلام، وانفصلت عن الهند، ورغبة السكان المسلمين أن تعمل حكومتهم بمقتضى المنهج الإسلامي فتُطبّق الشريعة على مختلف جوانب الحياة.

غير أن زعماء باكستان الذين تولّوا أمرهم لم يكن هذا تفكيرهم أبداً بل لم يخطر على بالهم المنهج الإسلامي، إذ كانت غالبيتهم تنتمي إلى الإسلام انتماءً، وليس له أي نسبةٍ في سلوكهم، أو في منهج حياتهم، بل إن عدداً منهم كان من الفرق الضالة التي تُحارب الإسلام وأهله، ولم يكن ليجمع شملهم، ويُسيّرهم في الدعوة إلى وحدة المسلمين وانفصالهم عن الهندوس سوى ارتقاء زعامة المسلمين، وتحقيق مصالحهم، بل هذا ما عملت له السياسة الإنكليزية إذ رغبت أن يتولّى قيادة المسلمين العلمانيون

منهم، ورجال الفرق الضالة من قاديانيين وإسماعيليين وهم الذين تستطيع أن تتفاهم معهم ما داموا يلتقون معها على محاربة الإسلام. وخوفاً من أن يقود المسلمين العلماء والقادة المخلصون فيعملون بمنهج الإسلام، ويخلصونَ في إعزاز أهله، ورفعِ مكانتهم، والأخذ بأيديهم نحو الرقي، وإعلاء راية الجهاد فيكونون سدّاً في وجه المستعمرين الصليبيين يحولون دون تنفيذ مخططاتهم، ويمنعونهم من استغلال الآخرين، ومن استعمار أراضيهم، وهذا ما يُؤثّر على حياة الصليبيين جميعاً، وعلى مكانتهم التي وصلوا إليها بتسخير الناس واستعبادهم، أما العلمانيون فهم كالهندوس تهمّهم مصالحهم ويمكن أن يعملوا من أجلها كل ما يُرضي المستعمرين الصليبيين.

اندفع المسلمون في الهند وراء الزعماء الذين تسلّموا القيادة من السياسة البريطانية التي أبرزتهم، وعملت على رفع مكانتهم، ونتيجة جهل المسلمين وبساطتهم ساروا وراء هؤلاء الزعماء، وهم يظنّون أنهم يعملون لصالحهم وللدعوة إلى الإسلام، فنادوا بالانفصال كما يريد القادة، ودعوا إلى تأسيس باكستان، واجتماع المسلمين بها، كما يرغب الزعماء، فلما ظهرت باكستان على أساس الإسلام شعر المسلمون بخيبة الأمل إذ لم يتغير عليهم شيء حيث بقيت القوانين الوضعية هي السائدة، والعمل بغير ما أنزل الله هو الشائع، إذن ما الفائدة التي جناها المسلمون من تضحياتهم التي قدّموها؟ صحيح أنه قد وقف تسلّط الهندوس على المسلمين في المقاطعات الإسلامية حيث كانوا هم أصحاب السلطة رغم أن المسلمين يُشكّلون أكثرية سكان تلك المقاطعات ولكنه في الوقت نفسه.

١" ـ بقي المسلمون في بقية المقاطعات التي أصبحت ضمن دولة الهند تحت تسلّط الهندوس الذين زاد حقدهم، بل أصبحوا يعدّون المسلمين في كل أرجاء الهند أعداءً لهم، أصدقاء لباكستان بل عملاء لها، أي خونة لوطنهم لذا كانت تحلّ بهم النكبات بين المدة والأخرى تحت هذا العنوان، وربما من غير عنوانٍ، ودون سببٍ، وتوضع الدراسات

والمخـطـطات للخلاص من المسلمين بـإبـادتهم، أو إجبـارهم على وقف النسل بالعقم الصناعي و. . .

٢″ ـ قتـل من المسلمين بسبب التقسيم عـدة مـلايين، وشُـرّد أضعافهم، وحلّ بكشمير ما حلّ، وأصبح المسلمون كالمنبوذين في الهند.

٣″ ـ أخذت الفرق الضالة في باكستان تتسلط وتتحّكم بالمسلمين باسم حزب الرابطة الإسلامية، وباسم الانتماء للإسلام دون أن يكون أي مدلولٍ أو مؤشر لهذا الإسلام.

أخذ المسلمون يصحون من رقدتهم ويشعرون أنهم لم يفعلوا شيئاً، ولم يتقدّموا خطوةً واحدةً نحو الإسلام بل بقوا في مكانهم في بُعدهم عن الدين، لذا أخذوا يُطالبون بتطبيق الإسلام ما دامت باكستان قد قامت على هذا الأساس، وأخذ العلماء يُطالبون أيضـاً، وينشطون بـالدعـوة. وبدأت الجماعة الإسلامية تُطالب بإعلان إسلام الدولة. وأعلن أبو الأعلى المودودي في كلية الحقوق في لاهور في شهر ربيع الأول ١٣٦٧ هـ ـ شباط ١٩٤٨ م ولأول مرة:

١″ ـ أن الحاكمية في باكستان لله العلي الأحد، وما لحكومة باكستان من الأمر من شيء غير إنجاز أمر مالكها الحقيقي في أرضه.

٢″ ـ أن الشريعة الإسلامية هي القانون الأساسي لباكستان.

٣″ ـ أن كل ما يُعارض الشريعة الإسلامية من قوانين البلاد الجارية يُلغى ويُبطل، وأنه لا يُنفّذ بعد ذلك قانون يُخالف الشريعة.

٤″ ـ أن حكومة باكستان لا تتصرّف في شؤون الملك إلا ضمن الحدود التي رسمتها الشريعة.

٢″ ـ الخوجا نظام الدين[1]:

تـوفي محمد علي جنـاح في ٨ ذي القعـدة ١٣٦٧ هـ (١١ أيلول

---

(١) الخوجا نظام الدين: ولد عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م)، درس القانون، اشتـرك في =

١٩٤٨ م) فعُيّن الخوجا نظام الدين ١١ ذي القعدة ١٣٦٧ هـ (١٤ أيلول ١٩٤٨ م) حاكماً عاماً لباكستان، وبقي لياقت علي خان[1] رئيساً للوزارة.

استمرّ أبو الأعلى المودودي بدعوته لتطبيق الشريعة في باكستان، فقُبض عليه مع بعض إخوانه، ومنهم طفيل محمد، وحسن إصلاحي وأُودعوا السجن في الأول من ذي الحجة ١٣٦٧ هـ (٤ تشرين الأول ١٩٤٨ م) وعُطّلت جرائد ومجلات الجماعة الإسلامية، ولكن بقيت المطالبة بإسلام الدولة لأن ذلك من مطالب المسلمين جميعاً وليس الجماعة الإسلامية وحدها، لنعدّ ذلك دعوةً أو مطلباً حزبياً، واضطرت الدولة أن تُعلن إسلام الدولة في ١٣ جمادى الأولى ١٣٦٨ هـ (١٢ آذار ١٩٤٩ م).

أخذت الأمور تسير بشكلٍ طبيعي في باكستان، وبدأت الأوضاع تتحسّن، وصارت الدولة تُشارك في الأحداث الدولية، وفي اللقاءات الإسلامية فعقد المؤتمر الإسلامي في مدينة كراتشي في باكستان، وافتتحه رئيس الوزراء لياقت علي خان في جمادى الأولى ١٣٧٠ هـ (شباط ١٩٥١ م).

= الحركة الوطنية، انضم إلى حزب الرابطة الإسلامية، تولى رئاسة حكومة البنغال قبل التقسيم. تزعم عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) مجلس المستشارين للرابطة، وهو جبهة معارضة داخل الحزب، وتوفي في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٨٤ هـ (٢٢ تشرين الأول ١٩٦٤ م).

(١) لياقت علي خان: ولد في ١٢ ربيع الثاني ١٣١٣ هـ (الأول من تشرين أول ١٨٩٥ م)، وتعلم بجامعة عليكرة بالهند، ثم درس الحقوق بجامعة أكسفورد، وبعد عودته إلى الهند اشتغل بالمحاماة، وانظم إلى حزب الرابطة الإسلامية، واللجنة المركزية للحزب، ومنذ ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) تولّى أمانة سر الحزب، وانتخب عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) عضواً في المجلس التشريعي المركزي للهند، كما عُيّن بعد الحرب العالمية الثانية وزيراً للمالية في الوزارة الائتلافية، واشترك في لجنة تقسيم الهند، وتولّى أول رئاسة وزارة في باكستان، واغتيل في ١٦ محرم ١٣٧١ هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٥١ م) بيد أحد الأفغان.

٣" ـ غلام محمد:

اغتيل رئيس الوزراء لياقت علي خان في ١٦ محرم ١٣٧١ هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٥١ م) فعُيّن غلام محمد حاكماً عاماً على باكستان، وكان من قبل يشغل منصب وزير المالية، وكلف الحاكم السابق الخوجا نظام الدين برئاسة الوزارة.

وبدأ الخلاف بين الحاكم العام الذي هو من إقليم البنجاب من جناح باكستان الغربي وبين رئيس وزرائه الخوجا نظام الدين الذي هو من البنغال، وأخذ هذا الصراع شكلاً بين جناحي باكستان. فالبنغاليون يشعرون أن الجناح الغربي قد سيطر على الجيش، وخاصةً أهل البنجاب منهم، كما سيطر هذا الجناح أيضاً على المؤسسات المدنية، ولم يحصل البنغاليون على التمثيل النسبي الصحيح في المؤسسات الإدارية على الرغم من أنهم كانوا يُشكّلون ٥٣٪ من مجموع السكان.

أخذ رئيس الوزراء يحمل فكرة أهل البنغال بالمطالبة بأن تكون اللغة البنغالية إحدى اللغتين الرسميتين في البلاد، بينما يرى أهل باكستان الغربية بأن تكون لغةً رسميةً واحدةً للبلاد هي لغة (الأردو) التي يعرفها أكثرية السكان في الجناحين إضافةً إلى سكان الهند، وذلك خوفاً من تعدد اللغة، وإبعاد الشقة بين جناحي البلاد.

بدأت مشكلات اللغة، كما برز الخلاف الديني في الجناح الغربي أثناء إعداد مسودة الدستور.

وفي ٣ شعبان ١٣٧٢ هـ (١٧ نيسان ١٩٥٣ م) أقيل الخوجا نظام الدين من رئاسة الوزارة، واختير مكانه محمد علي بوغرا، وهو من الجناح الشرقي أيضاً.

وفي ١١ شعبان ١٣٧٥ هـ (٢٣ آذار ١٩٥٦ م) أجريت الانتخابات العامة، وتألفت جمعية تأسيسية لوضع الدستور، وكان أهم عملٍ لها أن وحّدت باكستان الغربية بعد أن كانت عدداً من المقاطعات.

كان غلام محمد يُعاني شللاً أفقده القدرة على العمل فترك منصبه في ١٧ ذي الحجة ١٣٧٤ هـ (٥ آب ١٩٥٥ م) وقبض على السلطة الجنرال إسكندر مرزا بيدٍ من حديد.

الفصل الثاني

الاستقلال

بعد أن ترك غلام محمد المنصب في ١٧ ذي الحجة ١٣٧٤ هـ (٥ آب ١٩٥٥ م) تسلّم السلطة الجنرال إسكندر مرزا[١]، وشدّد قبضته عليها.

وجرت في عهده الانتخابات، ووضع الدستور، وجرت انتخابات الرئاسة، وانتخب في ٢٣ رجب ١٣٧٥ هـ (٥ آذار ١٩٥٦ م) إسكندر مرزا رئيساً للجمهورية.

وفي ١١ شعبان ١٣٧٥ هـ (٢٣ آذار ١٩٥٦ م) أعلن الدستور، وقام النظام الجمهوري، وانتهى نظام الدومنيون، وشكّل شودري محمد علي[٢] الوزارة، وأصبح اسم البلاد حسبما نصّ الدستور الأول «جمهورية باكستان الإسلامية». كما نصّ الدستور على أن تكون الدولة جمهورية اتحادية تكون

---

(١) إسكندر مرزا: ولد عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) كان أبوه من أصحاب الأملاك الزراعية، تخرج من جامعة بومباي، وأكمل دراسته العسكرية في كلية (ساندهرست) البريطانية، وتدرج في الرتب العسكرية حتى وصل إلى رتبة لواء، انتخب عضواً في الجمعية التأسيسية عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م)، وهو أول رئيس لجمهورية باكستان.

(٢) شودري محمد علي: ولد في البنجاب عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) من أسرةٍ فلاحية تنتسب إلى قبيلة «شودري»، درس الكيمياء، وتخرج عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م)، ثم انصرف إلى الشؤون المالية والاقتصادية، اشترك في لجنة تقسيم الهند، وتولى وزارة المالية في باكستان، وأشرف على خطة التصنيع، ثم شكّل الوزارة حتى استقال في ٦ ربيع الأول ١٣٧٦ هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٥٦ م).

فيها الوحدات مستقلةً في حدودها ضمن السلطات المخولة لها، وكذلك نصّ على أن الدولة ترمي إلى توطيد المبادىء الإسلامية، وخاصةً العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الجميع، ويجب مراعاة تعاليم الإسلام.

وتوالى على هذا العهد ثلاثة رؤساء للجمهورية وهم:

١ ــ اسكندر مرزا:

تسلّم السلطة بعد أن تنحّى غلام محمد في ١٧ ذي الحجة ١٣٧٤ هـ (٥ آب ١٩٥٥ م).

انتخب رئيساً للجمهورية في ٢٣ رجب ١٣٧٥ هـ (٥ آذار ١٩٥٦ م).

تسلم رئاسة الجمهورية في ١١ شعبان ١٣٧٥ هـ (٢٣ آذار ١٩٥٦ م).

وقد اضطربت الأمور، واختلت الأوضاع الاقتصادية، فاتجه الشعب نحو البلدان العربية.

وفي ٢٧ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ (٧ تشرين الأول ١٩٥٨ م) ألغى الرئيس اسكندر مرزا الدستور، وحلّ المجلس النيابي، وفرض الأحكام العرفية، وحلّ الحكومة المركزية، والحكومات الإقليمية، والأحزاب كافةً، وعيّن أيوب خان القائد العام للجيش والقوات المسلحة حاكماً عاماً في الرابع من ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ (١٧ تشرين الأول ١٩٥٨ م). وبعد عشرة أيام غادر الرئيس اسكندر مرزا البلاد، وتسلّم أيوب خان السلطة مكانه. ولا شك أن الدول الأجنبية التي لها مصالح في باكستان كانت ترغب في أن يكون الحكم عسكرياً فلا يرتفع صوت يعارض السياسة، ولا يطالب داعٍ بالوقوف في وجه المصالح الاستعمارية.

٢ ــ أيوب خان:

[٤ ربيع الثاني ١٣٧٨ ـ ٧ محرم ١٣٨٩ هـ (١٧ تشرين الأول ١٩٥٨ ـ ٢٥ آذار ١٩٦٩ م)].

بعد ثلاثة أيام من استلام أيوب خان منصب الحاكم العام صدر مرسوم في ٧ ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ يتضمن تغيير اسم البلاد من «جمهورية باكستان الإسلامية» إلى «الجمهورية الباكستانية» وإن لم يُنفّذ حتى صدر الدستور الجديد في ٦ محرم ١٣٨٢ هـ (٨ حزيران ١٩٦٢ م).

أكد أيوب خان سلطانه في استفتاء جرى في شعبان ١٣٧٩ هـ (شباط ١٩٦٠ م)، وحصل على (٧٥,٢٨٣) صوتاً من (٧٨,٧٢٠) صوتاً من أصحاب الحق في التصويت طبقاً للأسس التي وضعت آنذاك.

أعلن أيوب خان تحديد الملكية، ونقل العاصمة الاتحادية من «كراتشي» إلى «روالبندي» بحجة أن العاصمة يجب أن تكون قريبة من منطقة العمليات المتوقّعة في «كشمير».

وجرت اتفاقية بين باكستان والهند حول مياه نهر السند في ٢٨ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (١٩ أيلول ١٩٦٠ م) حيث أخذت باكستان مياه أنهار: السند، وجيهلم، وشناب، على حين أخذت الهند مياه أنهار: ستلج، وبياس، ورافي. وكان الخلاف يحدث كثيراً بين الدولتين على مياه الأنهار، إذ أن معظمها يأتي من المناطق التي تسيطر عليها الهند في كشمير، وتجري نحو باكستان، ففي الوقت الذي تقطع فيه المياه عن باكستان تعيش تلك المناطق ظمأى، وقد قطعت الهند المياه عن مدينة «لاهور» عدة أسابيع في جمادى الآخرة ١٣٦٧ هـ (نيسان ١٩٤٨ م).

وصدر دستور جديد للبلاد في ٦ محرم ١٣٨٢ هـ (٨ حزيران ١٩٦٢ م). وقسمت كل من باكستان الغربية والشرقية إلى أربعين ألف دائرة انتخابية، وكل دائرة تضمّ حوالي ألف ناخب، وتنتخب ممثلاً عنها. ويُمثّل هؤلاء المنتخبون (الثمانون ألفاً) هيئة الناخبين. وتنضمّ كل عشر دوائر انتخابية وتشكل المجلس الاتحادي. ويُشكّل رؤساء المجالس الاتحادية ولجان المدن مجلساً ثانياً.

واشترط الدستور أن يكون الرئيس مسلماً، ويُختار لمدة خمس

سنوات، ويجوز إعادة انتخابه، وإذا استمر في منصبه فلا يحقّ لـه إعادة ترشيح نفسـه، مـا لم تـوافق على تـرشيحـه أغلبيـة الجمعيـة الـوطنيـة، والجمعيتين النيابيتين، والرئيس هو القائد الأعلى للدفاع، وفيه تتركز السلطة التنفيذية العليا.

ويختار أعضاء مجلس الوزراء من خارج الجمعية الوطنية. ويصدر ما يراه ضرورياً من المراسيم في حالة غياب الجمعية الوطنية. وله أن يحلّ الجمعية الوطنية قبل أن تنتهي مدتها، وهو في هذه الحـالة يعـد مستقيلاً وعليه أن يعيد ترشيح نفسه.

ولا تكون القوانين نافذة المفعول إلا إذا حصلت على موافقة ثلثي أعضاء الجمعية الوطنية.

ويحق لثلثي أعضاء الجمعية الوطنية الطلب من رئيس الجمعية إعفاء الرئيس من منصبه في حالة اقتناعهم بحدوث مخالفة دستورية ارتكبها الرئيس، فإذا وافق على هذا الطلب ثلاثة أرباع أعضاء الجمعية يُعفى الرئيس، فإذا وافق النصف فقط يعد هذا النصف قد فقد مقعده في الجمعية الوطنية.

ويمارس السلطة التنفيذية في كل إقليم حاكم ذلك الإقليم.

وتتألف الجمعية الوطنية من مائة وخمسين عضو في كل إقليم إضافة إلى ست مقاعد خصصت للنساء.

وفي عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) جرى اتفاق مع الصين بشأن الحدود المشتركة بين الدولتين في «كشمير الحرة» ورسمت تلك الحدود.

وفي شهـر رمضـان من عـام ١٣٨٤ هـ (كـانـون الثـاني ١٩٦٤ م) صدرت أوامر بحلّ الجماعة الإسلامية، ومصادرة أموالها، وكانت الحكومة من قبل شهر قد صادرت مجلة «ترجمان القرآن» التي كان يصـدرها أبـو الأعلى المودودي، وزجّت به مع أعضاء جمـاعته البـارزين في السجون. وتوقّع المراقبون السياسيون قرب نشوب حربٍ تشترك فيها باكستان، حيث

لم يسبق أن وقعت حرب بين دولة إسلامية وبعض أعدائها، وكانت في تلك الدولة حركة إسلامية نشطة، إلا وسبق هذه الحرب اعتقال أعضاء هذه الحركة الإسلامية واضطهاد أفرادها.

وأكّد الرئيس أيوب خان سلطته مرةً أخرى باستفتاء جرى على رئاسة الجمهورية في رمضان ١٣٨٤ هـ (كانون الثاني ١٩٦٥ م)، وقد حصل على (٤٩,٦٤٧) صوتاً ضدّ (٢٨,٣٤٣) صوتاً حصلت عليها منافسته فاطمة جناح شقيقة محمد علي جناح.

وفي عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) وقعت الحرب بين باكستان والهند بشأن كشمير، إذ رأينا حركة الجهاد الكشميرية قد نشطت، وأحرزت انتصارات كثيرة على حكومة الهند المسيطرة على كشمير بالقوة، فرأت الهند أن توسّع نطاق الحرب على باكستان لتكون حرباً نظامية، فتحفظ ماء وجهها بهزيمتها أمام المجاهدين الكشميريين ، وكان الجيش الهندي مندفعاً نحو الحرب في باكستان، لينزع عن نفسه المهانة التي مُني بها في قتاله مع الجيش الصيني عام (١٣٨٢ هـ)، وفي ظن قادته أنهم سيحرزون نصراً حاسماً على باكستان.

اخترق الجيش الهندي خط وقف إطلاق النار في كشمير، واحتلّ أربعة مراكز في دولة كشمير الحرة، وأعلن وزير الدفاع الهندي النبأ أمام المجلس النيابي، فصفّق له النواب واقفين، وأحسّت دلهي بنشوة الظفر. وأعلنت الهند أنها ردّت على تحركات من أسمتهم بالمتسللين الباكستانيين إلى كشمير، وتوقّع بعض المراقبين السياسيين بأن العملية الهندية لن تتعدّى أن تكون أكثر من مناوشات على الحدود ـ كما تفعل عادةً ـ، ولم يكن لباكستان أن تسكت، فإن سكتت فستتمادى الهند كثيراً، وإن سكوت باكستان أول مرة سيشجع الهند على التمادي في الإغارة والهجوم، وستضعف معنويات الجيش الباكستاني، كما أن هذا سينعكس على

المسلمين الذين يعيشون داخل الهند حيث سيتجرأ عليهم الهندوس، إضافةً إلى أن قضية كشمير ستضيع.

قامت باكستان مباشرة بردّ فعلٍ مفاجىءٍ بجنوبي كشمير التي تحتلّها الهند، فانهارت المقاومة الهندية، وساد الذعر الشديد في صفوف الجيش الهندي لشدّة الضربة وعنصر المفاجأة، وأشاع الهنود من شدة الخوف أن باكستان تريد القيام بحركة التفافٍ واسعةٍ بقصد السيطرة على إقليم (جمو) الكشميري.

قامت الهند بهجومٍ على الحدود الباكستانية في منطقة (لاهور) من ثلاث نقاطٍ على جبهةٍ واسعةٍ بطول مائة كيلومتر بالإضافة إلى قصف المدن الباكستانية بالقنابل عن طريق الجو، وكان الهجوم الهندي بكل إمكاناتها ليكون رادعاً لباكستان، ولتنهار مقاومتها، ولتركع على ركبتيها ـ حسب ظنّ الهند ـ وهكذا انتقلت الحرب من كشمير إلى الأرض الباكستانية.

كانت خطوط الدفاع الباكستانية قويةً، والروح المعنوية لدى جنودها مرتفعةً فصمدت وردّت الهجوم الهندي، وهذا ما خيّب أمل الحكومة الهندية في إمكانية إحراز النصر بسهولةٍ حسبما كانت تُفكّر.

وفتحت الهند جبهةً رابعةً في جنوبي باكستان على محور كراتشي التي تُعدّ مكشوفة نسبياً لبعدها عن ساحة العمليات، وتظنّ الهند أن القوات الباكستانية ستسرع إلى الجنوب للدفاع عن كراتشي ميناء باكستان الأول، وخوفاً من عزلها في الداخل فيما إذا تمكّنت الهند من دخول كراتشي، واختراق خطوط الدفاع الباكستانية والسيطرة بالتالي على الساحل. ولكن خاب ظنّ الهند على هذا المحور أيضاً، وردّ الباكستانيون ذلك الهجوم، وظهر تماسكهم في القتال على حين كان الهنود لا يصمدون، وربما لو استمرّت الحرب لانتصرت باكستان ولانتهت قضية كشمير غير أن مجلس الأمن قد أصدر قرار وقف إطلاق النار في ٢٩ شعبان ١٣٨٥ هـ (٢٢ كانون الأول ١٩٦٥ م) فتوقّفت الحرب. ولننظر إلى قوات الطرفين:

	الهنـد	باكستان
القوات البرية	٦٦٠,٠٠٠ جندي وضابط	٣٠٠,٠٠٠ جندي وضابط
فرقة مشاة	١٩	٦
فرقة مدرعة	١	٢
لواء مشاة	٨	—
جماعة مشاة	٢	—
لواء مدرع	١	—
لواء مظلي	١	—
المدفعية:	٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ مدفع	٧٠٠ مدفع
القوات الجوية	٥٠٠ ـ ٦٠٠ طائرة مقاتلة	٣٠ طائرة مقاتلة
	٦ أسراب هليوكوبتر	٣٠ طائرة هليوكوبتر
	—	سرب استطلاع
	—	٣ طائرات نقل
القوات البحرية:		
وحدة	٤١	—
طراد	٢	١
حاملة طائرات	١	—
مدمرة	٦	١١
كاسحة	٦	٨
غواصة	—	١
فرقاطة	٨	—
سفن مراقبة	٩	١٠
سفن معاونة	—	٥

كانت القوات الهندية موزعةً بـاتجاه بـاكستان فقط، وكـأن المناطق الهندية لا تحتاج إلى حمايةٍ، أو أن الفكرة قـائمة مسبقـاً لقتال بـاكستان

والقضاء عليها، وإعادتها تحت سيطرة الهند، وإعادة سكانها كذلك إلى الوثنية الهندوسية، وليس باكستان فقط بل وأفغانستان، وهذا ما مرّ معنا في نداءات غلاة الهندوس.

كانت القوات البرية الهندية موزعةً على الشكل التالي ٨ فرق مشاة، و ٥ ألوية مشاة أيضاً مع الفرقة المدرعة على حدود باكستان الغربية، ومعدّة ضمن فيلقين أحدهما يُرابط في البنجاب والآخر في كشمير.

أما القوات الجوية فإن ٧٥٪ منها موجه إلى باكستان الغربية، وسلاح الجو يُشكّل ثلاثة عشر سرباً، سبعة منها في الغربية، وأربعة في الشرقية، واثنان في الوسطى.

أما القوات الباكستانية البرية فكلها في الغربية باستثناء الفرقة ١٤ مشاة فهي في الشرقية.

والأسلحة الهندية منوعة منها الأمريكي، ومنها البريطاني، ومنها الروسي، وحتى سلاح الطيران كذلك، حيث كان يضمّ بعض الطائرات الروسية (ميغ ٢١)، على حين أن الأسلحة الباكستانية تكاد تكون كلها من النوع الأمريكي.

ظهر في هذه الحرب أن الجيش الباكستاني كان أكثر تدريباً، وأكثر انسجاماً، وروحه المعنوية أكثر ارتفاعاً، ولا غرابة في ذلك فنظام الطبقات في الديانة الهندوسية تجعل الجيش مُفكّكاً، على حين أن الإسلام يجعل من مقاتليه كتلةً واحدةً. كما أن نظام الطبقات يجعل الجند لا يبالون بالنصر كثيراً، لذا تكون الحماسة عندهم ضعيفةً والاندفاع قليلاً، والتضحية معدومةً، بينما المسلمون يسعون وراء النصر ويطلبون الشهادة في سبيل الله، لذا فالحماسة قوية، والروح المعنوية عالية، والتضحية واجبة، والاندفاع عظيم، وقد أبدى الباكستانيون فعلاً في هذه الحرب أنواعاً من الفداء والتضحية كبيرة. وكذلك كان الهنود يستهينون بالباكستانيين لقلّتهم النسبية، ويحسبون أن النصر آتٍ لا محالة لذلك لم يبذلوا الجهد المطلوب، ولم

يستعدّوا الاستعداد الكافي، ولم يهتموا بخصومهم، وبالمقابل كان الباكستانيون يحسبون حساباً كبيراً للهنود لمعرفتهم بأعدادهم الكبيرة، ولعلمهم بأحقادهم الدفينة، وانتظارهم الفرصة لإعمال سلاحهم بالمسلمين لذا فقد استعدّوا، واندفعوا، وشجّع بعضهم بعضاً وكان لهم النصر ـ بإذن الله ـ.

وإضافةً إلى ذلك يجب ألا ننسى أن السلاح الباكستاني موحد، وكله أمريكي، على حين أن السلاح الهندي منوع منه الأمريكي، والروسي، والبريطاني، ولهذا دوره في التخطيط وفي القتال.

مؤتمر طاشقند:

لم يكن يتوقّع أحد أن يُسمح للروس بالتدخّل في شبه القارة الهندية التي كانت إنكلترا تعدّها أثمن درةٍ في التاج البريطاني لذا يجب حمايتها، والحفاظ عليها، وعدم السماح لأحدٍ بالاقتراب منها، ولكن ماذا حدث الآن؟ وكيف يسمح للروس بالولوج إلى داخلها، والوساطة بين أبنائها، والروس هم الذين يُخشى منهم قبل غيرهم، والإنكليز والأمريكان يتفرّجون؟ إنها السياسة واللعبة الدولية، ولننظر إلى بعض منطلقات اللعبة الظاهرة:

١" ـ إن باكستان والهند معاً تدوران في فلك السياسة الغربية، ولا يريد سدنة هذه السياسة أن ينحازوا لطرفٍ دون الآخر فيدفعوا من تخلّوا عنه للتحرّك نحو المعسكر الآخر، لذا أرادوا أن يظهروا على الحياد، والارتباط بالطرفين، ويُعطوا زمام المبادرة لغيرهم، فقدّموها للروس.

٢" ـ إن كفّة باكستان أخذت بالرجحان، وظهر التفوّق الباكستاني على الهند، ولهذا أسرع مجلس الأمن وأعلن وقف إطلاق النار قبل أن تحلّ الهزيمة بالهند.

٣" ـ إن الغرب يميل ضمناً إلى الهند فهي دولة هندوسية وثنية لا منهج لها يُخيف، ولا نظام يُخشى بأسه وإنما تأخذ المنهج والنظام الغربي دون معارضةٍ ما دامت لا تملك شيئاً. أما باكستان فهي دولة مسلمة،

والحركة الإسلامية فيها نشيطة، والإسلام له منهجه الخاص، ونظامه الخاص، وكلاهما يختلف ويتعارض مع النظام الرأسمالي بل والشيوعي وكل الأنظمة الوضعية، كما أن للمسلمين شخصيتهم المتميزة، ولهم تطلّعاتهم المستقبلية في الدعوة ونشر الإسلام، ومحاربة الظلم، والوقوف في وجه الاستبداد واستغلال الآخرين التي منها الاستعمار. وإذا كان حكام باكستان اليوم يسيرون في فلك السياسة الغربية لكن هذا غير مضمون في المستقبل وخاصةً إذا ما نجح الإسلاميون وآلت إليهم الأمور، وعندها سيلقون كل دخيلٍ ومستغلٍ خارج الحدود، ومن هنا كان تفضيل الغربيين للهند، ورغبتهم بأن تكون الحرب لصالحها.

٤″ـ إن الروس يميلون إلى الهند أيضاً، فإضافةً إلى ما ذكرنا في الفقرة السابقة فإن الهند على خلافٍ مع الصين، وقد جرى بينهما قتال قبل ثلاثة أعوامٍ أي في عام ١٣٨٢ هـ، واندحرت الهند، ولا تزال تحقد على الصين، والروس على خلافٍ مع الصين من حيث الفكر الشيوعي والتطبيق الماركسي، وعدوّ عدوّك صديقك، فالروس أصدقاء للهند، ويريدون لها النصر، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الروس يخشون انتصار باكستان الذي قد يُثير المسلمين الذين يسيطر الروس على بلادهم، كما أن انتصار باكستان قد يجعلها قويةً، وتتجه نحو أفغانستان، وتندمج معها، وخاصة أن قبائل الشمال الغربي الباكستاني (الباتان) لهم تتمة في أفغانستان ويُشكّلون ٦٠٪ من سكانها. فإذا ما اندمجت باكستان مع أفغانستان كانت دولةً قويةً على حدود الأمبراطورية الروسية. ومن هنا تكون روسيا قد أُصيبت بنكبتين: أولاهما وجود دولةٍ قويةٍ معاديةٍ لها ولسياستها، وفكرها، ومنهجها، ومعنى ذلك أنها ستكون في صراعٍ دائمٍ معها، وثانيتهما: أن الدولة الجديدة (باكستان+ أفغانستان) دولة مسلمة، وروسيا تسيطر على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي بل إن بعض الجمهوريات الإسلامية في تركستان والتي يسيطر عليها الروس، وتُسمّى بأسماء القبائل الرئيسية فيها (طاجيكستان، أوزبكستان، تركمانستان) تمتدّ هذه القبائل إلى داخل أراضي الدولة

الجديدة، ومعنى هذا أن المسلمين سينتفضون على الروس، وسيجدون الدعم، وستتفكك الإمبراطورية الروسية.

٥" ـ إن أفغانستان قد تركها الغرب ضمن دائرة النفوذ الروسي عندما جرى اقتسام مناطق النفوذ فيما بينهما، أو توزيع الغنائم، لذا تريد روسيا أن لا يمسّ أحد أفغانستان، وألا تكون دولة قوية على حدودها، وخاصةً باكستان التي تشترك مع أفغانستان بالعقيدة ووحدة القبيلة. ومن هنا كانت روسيا لا تريد لباكستان القوة، ولا تريد لها النصر بل تريد ذلك للهند وتقف إلى جانبها.

٦" ـ إن العلاقات توطّدت بين باكستان والصين، وخاصةً في الآونة الأخيرة بعد القتال الذي جرى بين الصين والهند، ولما كانت الصين على خلافٍ مع روسيا لذا فإن باكستان تقف ضدّ روسيا وفي الخندق الذي تقف فيه الصين.

ومن هنا كانت روسيا تلتقي مع الغرب في الرغبة في انتصار الهند على باكستان، ولذا فإن الغرب قد أراح نفسه من هذه التبعية حيث لا يريد الانحياز إلى أحد طرفي النزاع فكلاهما من أعوانه الذين يسيرون في فلكه، وألقى المهمة على روسيا، ويعرف أنها ستصل بالموضوع إلى الهدف نفسه الذي يريده، ومن ناحية أخرى لا يخشى على الهند من روسيا لبعدها عنها، ولتركيز وضعه في الهند، كما يرغب أن يقع الشقاق بين باكستان وروسيا على نطاقٍ أوسع مما هو عليه، حيث لروسيا أطماع في باكستان إذ تكون طريقها إلى المحيط الهندي بعد السيطرة المرتقبة على أفغانستان، ولها علاقات معها قبلية، كما أن الحدود ستكون طويلةً، وفيها مشكلة، وهي الحدود القائمة الآن بين باكستان وأفغانستان.

دعا الرئيس الروسي ألكسي كوسيغين رئيسي طرفي النزاع إلى عقد مؤتمر قمةٍ في مدينة طاشقند قاعدة جمهورية أوزبكستان الإسلامية التي تخضع للسيطرة الروسية كنوعٍ من الإغراء لباكستان، والرئيس الروسي

مسرور بهذه المهمة إذ لأول مرة يتوسّط روسي في قضيةٍ تتعلّق بـالهند، وبريطانيا بل والغرب يتفرّج.

عقد المؤتمر في ١٤ رمضان ١٣٨٥ هـ (٥ كانون الثاني ١٩٦٦ م)، وقد حضره لال بهادور شاستري رئيس وزراء الهند ممثلاً لحكومته، ورئيس جمهورية باكستان أيوب خان، وكـان الرئيس الـروسي مدة المؤتمـر كلها موجوداً في طاشقند للتسوية بين الطرفين فيما إذا حدث اختلاف في وجهات النظر. وصدر إعلان طاشقند، وجاء فيه: يتضمن التزام الدولتين بالمبادىء الآتية:

- تصميم البلدين على إعادة العلاقات السلمية بينهما، وتدعيم العلاقات الودية بين الشعبين.
- التزام ميثاق الأمم المتحدة، وحلّ الخـلافات بـالطرق السلميـة لذلـك نوقشت مشكلة كشمير وتبادل الطرفان وجهات النظر بخصوصها.
- يلتزم البلدان بسحب قواتهما المسلحة في موعدٍ لا يتجاوز (٢٥ شباط ١٩٦٦ م) إلى المـواقع التي كـانت عليها قبـل الخامس من آب عـام ١٩٦٥ م، ويُراقب كل من الطرفين وقف إطلاق النار.
- تقوم العلاقات على أساس مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية.
- يلتزم كل من البلدين بوقف الدعاية المعادية للآخر، وتشجيع الدعـاية التي تدعم العلاقـات الودية بينهما.
- عودة العلاقـات السياسيـة والاقتصاديـة والتجاريـة بين البلدين، وتبادل الأسـرى، وبحث المشكلات الخـاصة بـاللاجئين، وإعـادة الممتلكات والودائع التي استولى عليها كل جانب أثناء القتال.
- استمرار عقد الاجتماعات على مستوى القمة وعلى المستويات الأخرى في الأمور المشتركة، وإنشاء أجهزة هندية ـ باكستانية تخبـر حكومـاتها بالخطوات التي يجب اتخاذها مستقبلاً.

وفي ١ شـوال ١٣٨٥ هـ (٢٢ كانـون الثاني ١٩٦٦ م) اجتمـع في دلهي كل من رئيسي القوات الهندية والبـاكستانيـة. وبدأت في ٤ شـوال

١٣٨٥ هـ (٢٥ كانون الثاني ١٩٦٦ م) عمليات انسحاب القوات، وتبادل الأسرى، وتحليق الطائرات الباكستانية فوق الهند في طريقها بين شطري باكستان، كما عادت علاقات التجارة والاقتصاد، والنقل، والتبادل الثقافي، وتشكلت في دلهي رابطة الصداقة الهندية ـ الباكستانية.

وهكذا ضاع انتصار باكستان وجهودها بل انقلب إلى شبه هزيمةٍ، إذ لم يعد لها الحق أن تتدخل في شؤون كشمير ما دامت الهند تعدّها جزءاً منها، والبحث في قضايا المسلمين فيها إنما هو تدخل في شؤون الهند الداخلية. وعدّت الهند هذه الاتفاقية نصراً كبيراً، ولقيت تأييداً كبيراً، أما في باكستان فقد لقيت هذه الاتفاقية معارضةً قويةً، وعُدّت فشلاً سياسياً إذ ذهب هدراً جهد الجيش الباكستاني.

ولكن نستطيع أن نقول: إن الهند التي عرفت قوة باكستان على الساحة وإمكانية جيشها لا بدّ لها من أن تعمل على إضعاف باكستان، ولعلّ أول ما يلفت النظر في وسيلة إضعافها هو تجزئتها بفصل شطريها بعضهما عن بعض، وقد بدأ العمل والتخطيط لذلك.

انفراد أيوب خان بالسلطة:

وضع أيوب خان دستوراً جديداً قام على أساس النظام الرئاسي، وعُرف بدستور (١٩٦٢ م) ١٣٨٢ هـ. على حين أن دستور ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) كان يقوم على أساس النظام النيابي، إذ كانت الانتخابات تتّم في الدستور السابق على مرحلتين، تختار في المرحلة الأولى «هيئة الناخبين» التي تتألف من ثمانين ألف عضو، تختار بالتساوي من إقليمي باكستان: الإقليم الشرقي، والإقليم الغربي، لمدة خمس سنواتٍ، وهي التي تنتخب الجمعية الوطنية ورئيس الجمهورية، وتتألف الجمعية الوطنية من ثلاثمائة وعشرة أعضاء، ورئيس الجمهورية يجب أن يكون مسلماً، ويجوز انتخابه مرتين، وإذا تجاوز حكمه الثمان سنوات لا يستطيع أن يُرشّح نفسه مرةً أخرى.

أما الدستور الذي وضعه أيوب خان عام ١٣٨٢ هـ فقد حظر نشاط الأحزاب السياسية، وجعل رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للدفاع، وهو الذي يختار الوزراء من خارج الجمعية الوطنية، كما يحقّ له أن يحلّ الجمعية الوطنية، ويمكنه أن يُصدر المراسيم في حال غياب الجمعية الوطنية، ولا يصدر أي مشروعٍ حتى يُوافق عليه الرئيس، وربما يُوافق على مشروع إذا أجازه ثلثا أعضاء الجمعية الوطنية، وقد يُقرّه بعد إجراء استفتاءٍ عليه. وجعل هذا الدستور الجمعية الوطنية ١٥٦ عضواً مناصفةً بين إقليمي باكستان، ويتمّ انتخاب مائة وخمسين عضواً منهم والست الباقية فقد خصصت للنساء بحيث يكون ثلاث نسوة من كل إقليم. أما الهيئة النيابية فتتألف من مائة وخمسين عضواً في كل إقليم ويضاف خمس نساءٍ للهيئة في كل إقليم. أما السلطة التنفيذية في كل إقليمٍ فهي بيد حاكمٍ يُعيّنه الرئيس، ويختار الوزراء. ويعني هذا أن كل شيء أصبح بيد رئيس الجمهورية. ونصّ الدستور على إقامة محكمةٍ دستوريةً عليا، ويجب ألاّ يصدر أي تشريعٍ يتعارض مع القرآن أو السنة. كما أن القوانين النافذة يجب أن تُراجع على هذا الأساس، ولذلك فقد أُقيم:

١ ـ مجلس البحوث الإسلامية.

٢ ـ المجلس الاستشاري للفكر الإسلامي.

المعارضة:

تلقّت الهند مساعداتٍ عسكريةٍ ضخمةٍ عام ١٣٨٢ هـ من الولايات المتحدة الأمريكية للخلاف القائم بين الهند والصين، والقتال الذي دار بينهما، وهُزمت فيه الهند، وكانت هذه المساعدات باسم دعم الهند غير أنها في الواقع قد أثارت الباكستانيين الذين عدّوا ذلك انحيازاً للهند ضدّهم، وغدَوا بحاجةٍ إلى من يقودهم خوفاً من قوة الهند وتطاولها عليهم وتهديدهم.

وبرز أيوب خان وتسلّم رئاسة حزب باكستان الإسلامي الذي أُسس

في مدينة كراتشي في شهر ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (أيلول ١٩٦٣ م)، وساعده في ظهور زعامته موت زعيم الهند (جواهر لال نهرو) في مطلع عام ١٣٨٤ هـ (أيار ١٩٦٤ م)، البارز في الهند، فخلى الجو لأيوب خان في ظهوره كزعيم في شبه القارة الهندية. واقترح أيوب خان عقد حلف استانبول في ربيع الأول ١٣٨٤ هـ فكسب تأييد مسلمي باكستان الذين شعروا بضرورة عقد هذا الحلف للوقوف في وجه الهند التي حصلت على تأييد الولايات المتحدة لها.

ومع هذه الدعاية التي حصل عليها أيوب خان إلا أن معارضةً أخذت تقف في وجهه، وحمل لواءها في بداية الأمر الخوجا نظام الدين الذي كان حاكم باكستان ثم رئيس وزرائها وذلك في العهد السابق. وتوحّدت جهود المعارضة في ١٢ ربيع الأول ١٣٨٤ هـ (٢١ تموز ١٩٦٤ م) حيث ائتلفت خمسة أحزابٍ، فيما سُمّي حزب المعارضة المتحد، وأمكن التوصّل إلى إعلانٍ من تسع نقاطٍ اتخذ كبرنامج انتخابي، وهذه النقاط هي:

١ ــ وضع دستور (ديمقراطي).
٢ ــ الانتخاب الشعبي المباشر للجمعية الوطنية، والهيئتين النيابيتين في إقليمي باكستان.
٣ ــ إعطاء هذه الجمعيات سلطاتٍ تشريعيةً كاملةً في الأمور المالية وشؤون الميزانية.
٤ ــ إقامة نظامٍ نيابيٍ اتحاديٍ يحفظ لإقليمي باكستان استقلالهما الذاتي على أن يُمثّل الإقليمان تمثيلاً مُتكافئاً في الحكومة المركزية.
٥ ــ تقييد سلطات رئيس الجمهورية.
٦ ــ فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية.
٧ ــ إعطاء المحاكم العليا الاختصاص المتعلّق بمراجعة دستورية القوانين.
٨ ــ الإفراج عن المعتقلين السياسيين جميعاً.
٩ ــ إلغاء كل قوانين القمع.

أما الأحزاب فهي:

١ ـ الرابطة الإسلامية التي برئاسة الخوجا نظام الدين.

٢ ـ الجماعة الإسلامية برئاسة أبو الأعلى المودودي.

٣ ـ حزب نظام الإسلام برئاسة شودري محمد علي، الذي كان رئيساً للوزراء قبل تسلّم أيوب خان السلطة.

٤ ـ حزب عوامي الوطني برئاسة عبدالحميد خان بها شاني.

٥ ـ عصبة عوامي برئاسة نواب زاده نصر وأمانة سر مجيب الرحمن.

وطالبت المعارضة بتشكيل حكومةٍ انتقاليةٍ تُشرف على الانتخابات، وأن يُعطى مرشح المعارضة ما يُعطاه مرشح الحزب الحاكم، ولكن لم يأبه الحكم بمطالب المعارضة.

وكانت الحكومة وحزب باكستان الإسلامي الحاكم يُشيعون أن الهند تُشجّع المعارضة في الإقليم الشرقي، على حين تُشجّع الولايات المتحدة المعارضة في الإقليم الغربي. وأن هناك مؤامرةً تُحاك ضدّ باكستان تهدف إلى فصل إقليميها بعضهما عن بعضٍ، ولهذا نجد في المعارضة حزب عوامي بجناحيه، ومعروف عن هذا الحزب دعوته لتقسيم باكستان، وفصل الإقليم الشرقي عن الغربي، وكيف تتفق الجماعة الإسلامية والإسلام يدعو إلى الوحدة، مع هذا الحزب الانفصالي الذي يدعو إلى التجزئة.

اقترب موعد الانتخابات وأخذت المعارضة تبحث عن مرشحٍ للرئاسة، واستمرّ البحث شهرين، ولم تعثر على منافسٍ لأيوب خان، وفي ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٤ هـ (١٩ أيلول ١٩٦٤ م) استقرّ الرأي على ترشيح فاطمة جناح شقيقة محمد علي جناح بعد تمنّعٍ وتردّدٍ، والغريب في ذلك تأييد الجماعة على هذا الترشيح على حين لا يصحّ ذلك شرعاً، وأبو الأعلى المودودي أهل علمٍ، وفي الجماعة كثير من هؤلاء، ومن هنا كان النقد، نقد الترشيح، ونقد الجماعة الإسلامية إحدى فئات المعارضة.

وأعلنت المحاكم إثر ذلك أن حظر الجماعة الإسلامية من قبل الحكومة لم يكن قانونياً.

انتهت المرحلة الأولى من الانتخابات في رجب ١٣٨٤ هـ (تشرين الثاني ١٩٦٤ م)، وجاءت المرحلة الثانية في رمضان ١٣٨٤ هـ (مع بداية عام ١٩٦٥ م) بالاقتراع على رئيس الجمهورية، وقد فاز أيوب خان على منافسته فاطمة جناح فوزاً ساحقاً إذ حصل على ٦٣٪ من مجموع الأصوات حيث نال ٤٩,٦٤٧ ألف صوت. على حين لم تحصل هي إلا على ٣٦٪ من مجموع الأصوات، وبدت المعارضة ضعيفةً، حيث نالت ٤٨,٣٤٣ ألف صوت.

وجاءت الحرب بين الباكستان والهند فانصرف الناس إليها، وسكتت المعارضة في تلك الظروف، غير أنها قد اشتدتّ المعارضة بعد الحرب حيث شكلت الجماعة الإسلامية مع بعض الأحزاب والجماعات ما عُرف باسم «حركة باكستان الديمقراطية»، وانتقد وزير الخارجية ذو الفقار علي بوتو اتفاقية طاشقند، وأُقيل من الوزارة، وشكّل حزب الشعب عام ١٣٨٧ هـ، وأخذ يُلقي تصريحات ضدّ الهند، وينتقد اتفاقية طاشقند، ويدعو إلى تحرير كشمير، ويُنادي بتطبيق منهجٍ اشتراكيٍ، فاكتسب شعبيةً وإن أحجم الكثير عن تأييده لدعوته إلى المنهج الاشتراكي رغم قبوله بكل ما سوى ذلك، ثم أخذ ذوالفقار علي بوتُو يُهاجم حكم أيوب خان، وقامت المظاهرات في ١٧ شعبان ١٣٨٨ هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٦٨ م) وبعد خمسة أيام اعتقل ذو الفقار علي بوتو، وزعماء حزب عوامي في الإقليم الغربي بتهمة التحريض على الفوضى، ولكن استمرّت المظاهرات التي كانت تقودها الجماعة الإسلامية. وأعلن أيوب خان في ٤ ذي الحجة ١٣٨٨ هـ (٢١ شباط ١٩٦٩ م) أنه لن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية هذه المرة.

انضمّ إلى المعارضة الجنرال أصغر خان وكان من قبل من أعوان

أيوب خان، وشكّل حزب العدالة في شهر ذي الحجة ١٣٨٨ هـ (آذار ١٩٦٩ م) كما مشى في المعارضة الجنرال عزام خان، والقاضي مرشد الذي كان رئيس قضاة باكستان الشرقية، وهكذا اتسع نطاق المعارضة، واشتدّت.

عزم أيوب خان على زيارة باكستان الشرقية في رمضان عام ١٣٨٨ هـ (أواخر عام ١٩٦٨ م)، وكانت باكستان الشرقية حتى هذه المرحلة بعيدةً عن المظاهرات، وخاصةً بعد اعتقال مجيب الرحمن وزعماء حزب عصبة عوامي في عام ١٣٨٦ هـ، وقيام الحرب الباكستانية ـ الهندية والتي ولدت لدى سكان جناح باكستان الشرقي شعوراً بالعجز العسكري من جانب الحكومة المركزية، وخاصةً بالنسبة لإقليمهم. وقد وضع مجيب الرحمن الذي آلت إليه زعامة حزب عصبة عوامي ست نقاطٍ في سبيل استقلال الإقليم الشرقي، ومعاملة إقليمي باكستان كوحدتين اقتصاديتين، وهذه النقاط هي:

١ ـ وضع دستورٍ جديدٍ لباكستان، وأن يُقيم هذا الدستور اتحاداً حقيقياً من الإقليمين، وأن يتمّ التحوّل بباكستان إلى نظامٍ نيابيٍ يتأكّد فيه تفوق السلطة التشريعية التي يتمّ انتخابها انتخاباً شعبياً مباشراً.

٢ ـ حصر وتركيز مسؤولية الحكومة الاتحادية في ناحيتي الدفاع والسياسة الخارجية، وما عدا ذلك من أمورٍ فيجب أن تدخل ضمن السلطة الكاملة للولايات التي يتكوّن منها هذا الاتحاد.

٣ ـ إيجاد نظامين مستقلين ومنفصلين للنقد في باكستان، وجعل النقد في كلٍ منهما قابلاً للتحويل الحرّ. وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فليس هناك ما يمنع من اتباع نظام نقدي مُوحّد لباكستان كلها، شريطة أن يتمّ إيقاف التدفّقات النقدية ورؤوس الأموال من باكستان الشرقية إلى الغربية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يجب أن تكون هناك سياسة مالية ونقدية مستقلة لباكستان الشرقية.

٤ ـ نقل سلطة فرض الضرائب وجمع الإيرادات من الحكومة الاتحادية إلى حكومات أقاليم الاتحاد، على أن تُخصّص نسبة من حصيلة هذه الضرائب والدخول لمقابلة نفقات الحكومة الاتحادية.

٥ ـ إيجاد نظامين منفصلين للحسابات الخاصة بالدخل المتحصّل من المبادلات الخارجية لإقليمي باكستان، ويكون الوفاء بمتطلبات الحكومة الاتحادية من النقد الأجنبي مسؤولية إقليمي باكستان إما على أساس المساواة وإما وفقاً لمعادلات يتمّ تحديدها، وتكون حركة البضائع بين إقليمي باكستان حرةً دون قيودٍ أو عوائق جمركية، كما يجب أن يمنح الدستور إقليمي الاتحاد حقّ إقامة روابط تجارية مع الدول الخارجية.

٦ ـ الإقرار لباكستان الشرقية بحق إقامة تنظيماتٍ عسكرية خارج إطار القوات المسلحة النظامية.

ولما قام أيوب خان بزيارة باكستان الشرقية أخذت المظاهرات تعمّ مدن ذلك الإقليم، واشترك فيها أصحاب مشارب شتّى منهم الذين يريدون الانفصال، ومنهم العمال الذين يرغبون في تحسين الأجور، ومنهم الذين يريدون إصلاح الوضع النيابي، وقد لفّ الجميع القيام بالمظاهرات وقد يكون كثير ممن شارك في تلك الحركات قد انساق مع الجموع سوقاً حتى غدت الفكرة الغالبة أن النقمة عارمة، وتُمثّل أكثرية السكان. وهذا ما منع الحكومة من اتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ، وتضرب ضربةً حاسمةً، وأخذ الوضع يتدهور، وفقدت الدوولة سيطرتها على الموقف، فاضطر أيوب خان أن يلجأ إلى الجانب السياسي، فوجّه الدعوة إلى زعماء المعارضة لعقد اجتماعٍ سياسيٍ لمناقشة مسألة الاصلاحات الدستورية. ويبدو أن العسكريين بقواً بعيدين عن الساحة، ولم يروا ضرورةً في الانسياق وراء الرئيس أيوب خان إذ فقد سيطرته، كما لم يرغبوا في فصم الارتباط بين الجيش والشعب هذا بالإضافة إلى أن بعض كبار العسكريين قد أصبحوا ضمن صفوف المعارضة مثل الجنرال أصغر خان، والجنرال عزام خان و. . .

تأجّلت الاجتماعات لوجود بعض الزعماء السياسيين في السجن مثل: ذو الفقار علي بوتو زعيم حزب الشعب، ومجيب الرحمن زعيم حزب عصبة عوامي وغيرهما، وقد تمّ الإفـراج عنهم بعد طلب مُمثّليهم ليحضـروا المؤتمر.

عُقدت الجولة الأولى من المحادثات في مؤتمر المائدة المستديرة في مدينة راولبندي ، وحضره قادة حركة باكستان الديمقراطية، ولجنـة العمل الـديمقراطيـة التي تشكّلت في شوال ١٣٨٧ هـ (مـطلع عـام ١٩٦٨ م)، وكذلك الزعماء المستقلون أمثال الجنرال أصغر خان.

ظهرت خلافات في صفوف المعـارضة إذ أن مجيب الـرحمن كان يُطالب بالاستقلال الذاتي الكامل لباكستان الشرقية، وتمثيلها في المجلس النيابي الاتحادي على أنها تُمثّل أغلبية السكان، ونقل العاصمة الاتحادية إلى الجناح الشرقي، ولكن هذه المطالب قد وجدت معارضةً شديدةً وذلك أن أهم مشكلة تُعاني منها باكستان إنما هي قضية كشمير، وهي موجودة في الجناح الغربي، كما أن ازدحام السكان الكبير في الجناح الشرقي لا يُناسب معه نقل العاصمة إذ تصبح الحياة صعبةً مُعقّدة لكثافة السكـان الضخمة والتي ستزداد ضخامةٍ بنقل العاصمة إلى هناك. واستغلّ أيوب خان هـذه الخلافات، وفضّ المحادثات غير أنه وعد المعارضـة بالـرجوع إلى مبـدأ الانتخاب الشعبي المباشر، والتحوّل من النظام الرئـاسي إلى النظام النيـابي. ولكنـه لم ينظر إلى مـطالب مجيب الرحمن بـاستقلال بـاكستان الشـرقيـة الذاتي، وهذا ما جعل مجيب الرحمن يمتلىء حنقاً ويُصمّم على مُتـابعة مطالبه بل على العمل على تنفيذها.

لم تهدأ الاضطرابات بل زادت تفاقماً إذ لم تأبه المعارضة كثيراً بتلك اللقاءات، وساعد على ذلك أيضاً أن بعض زعماء المعارضة لم يحضروا مؤتمر المائـدة المستديـرة في راولبندي، ومنهم ذو الفقـار علي بوتـو من الجناح الغربي، وعبدالحميد بها شاني من الجنـاح الشرقي، حيث أصـرّ هذان الزعيمان على إسقاط الحكم بالوقوف في وجهه والقيام بمظاهـراتٍ

ضدّه، وانضمّ الفلاحون في باكستان الشرقية إلى المظاهرات وتفاقم الأمر، ولم يجد أيوب خان بداً من اعتزال الحكم فتركه في ٧ محرم ١٣٨٩ هـ (٢٥ آذار ١٩٦٩ م)، وسلمه إلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش الباكستاني الجنرال يحيى خان، وقد جاء في الخطاب الذي أعلن فيه هذا القرار: «هذه هي المرة الأخيرة التي أخاطبكم فيها بصفتي رئيساً للجمهورية، إن الموقف في باكستان يتدهور بسرعةٍ، وباستثناء الدور الذي يمكن أن تقوم به القوات المسلحة، فإنه ليست هناك طريقة دستورية أو عملية لمجابهة الموقف الراهن. إن الأمة كلها تطلب من الجنرال يحيى خان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الباكستاني أن يُمارس صلاحياته الدستورية. إنّ أمن وسلامة بلدنا يتطلبان ألا يكون هناك عائق في طريق القوات المسلحة التي يجب أن تُمكّن بكل الطرق من ممارسة واجباتها الشرعية وبالنظر إلى ذلك فقد قررت اليوم اعتزال منصبي كرئيس للجمهورية لأساعد إخوتكم في القوات المسلحة بكل ما أستطيع تمكيناً للنظام وحكم القانون». وهكذا اعتزل أيوب خان وتسلّم السلطة يحيى خان.

كان أبو الأعلى المودودي قد حذّر أيوب خان من الاستقالة واعتزال الأمر، وتسليم السلطة ليحيى خان رئيس هيئة أركان حرب الجيش، فإن مؤامرةً تحاكُ ضدّ باكستان، ولكن أيوب خان لم يستمع إلى ذلك النصح، فحدث الذي كان مخططاً له.

٣″ ـ محمد يحيى خان:

[٧ محرم ١٣٨٩ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (٢٥ آذار ١٩٦٩ ـ ٢٠ كانون الثاني ١٩٧١ م)]:

منذ أن تسلّم يحيى خان السلطة شكّل حكومةً عسكريةً، وفرض الأحكام العرفية على باكستان كلها، وحلّ الهيئات النيابية في إقليمي باكستان، ومنع الإضرابات، والمظاهرات، والاجتماعات، وأعطى العسكريين سلطاتٍ استثنائية، وهذا ما أعاد الهدوء غير أنه مشوب بحذرٍ

فافتتحت المدارس، ودارت آلات المعامل، وعادت الحياة في البلاد شبه طبيعيةٍ.

أخذ يحيى خان يجري حواراً ومناقشات مع السياسيين، فأبدوا آراءهم صراحةً، وأظهروا الشدّة في العمل على تنفيذها. وأعلن هو أن باكستان الشرقية لم تحصل في الماضي على حظّها العادل من الرعاية الحكومية، فأخذ لذلك يزيد من استثمارات الحكومة فيها، ويُعطي تسهيلات في الضرائب للمستثمرين، وهذا العمل شّجع أهل ذلك الإقليم على المطالبة بما يُحقّق العدالة، ويُصرّحون بأن ما كان يقوله بعض السياسيين صحيحاً، ولم يكن تضليلاً كما كانوا يظنّون، حيث لم تكن أقوال السياسيين لتُصدّق من قبل.

ومنع الاحتكارات فاستاء التجار الذين يستغلّون البضائع ويحتكرون.

أخذ سكان المقاطعات في باكستان الغربية يُطالبون بإعادة التقسيم على أساس أربع مناطق كما كان سائداً من قبل، وهذه المقاطعات هي: السند، والبنجاب، وبلوشستان، ومنطقة الحدود الشمالية الغربية. وفي الوقت نفسه أخذ سكان باكستان الشرقية يُطالبون بالانفصال، وخاصةً بعد تصريحات الرئيس يحيى خان نفسه.

بدأ يحيى خان يتقرّب من السياسيين، وقرّر توزيع القادة العسكريين الذين اشتركوا في الحكومة العسكرية التي شكلها إثر تسلّمه السلطة على المناطق وتعيينهم حكاماً عليها، ومنهم (مارشال الجو نورخان، وأميرال البحار سيد محمد حسن، والفريق عبدالحميد خان) ليحلّ محلهم في الحكومة عناصر جديدة من السياسيين المستقلين الذين يرضى عنهم، ويُبدون تجاوباً معه. ولكن هذا كله لم يرض الشعب في الإقليمين.

أخذت الاضطرابات الطلابية تعمّ الجناح الشرقي من باكستان، وتبع ذلك العمال وفي ٤ شعبان ١٣٨٩ هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٦٩ م) أضرب سبعين ألف عامل من عمال النسيج، وانتقل الإضراب إلى الجناح الغربي من مدن: (كراتشي) و(لاهور) و(الملتان)، وأخذ شغب اللاجئين في

مدينة (دكـا) في ٢١ شعبان ١٣٨٩ هـ (أوائـل تشرين الثـاني ١٩٦٩ م)، وبدأت مقاومة المظاهرات بالاعتقالات، وإطلاق النار على المتظاهـرين. أعلن يحيى خان في ٢٠ رمضان ١٣٨٩ هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٩ م) عن إجـراء انتخابـاتٍ عامـةٍ في البلاد كلهـا في ٢ شعبـان ١٣٩٠ هـ (٢ تشرين الأول ١٩٧٠ م)، وأن باكستـان الغربيـة ستُقسّم إلى عدة منـاطق، وأن الانتخابات ستكون مباشرةٍ، وهذا يعني إعطاء باكستان الشرقية الأغلبية في الجمعية الوطنية. وأن الجمعية الوطنية التي ستنتخب ستُعطى أربعة أشهرٍ، لتضع دستوراً جديداً، وسيكون النظام نيابياً، وسيترك النظام الرئاسي الذي كـان معمولاً بـه، وأن النشاطـات السياسيـة سيُسمح بهـا في ٢٣ شـوال ١٣٨٩ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٧٠ م).

كان من المقرر أن تجري الانتخابـات في ٢ شعبان ١٣٩٠ هـ (٢ تشـرين الأول ١٩٧٠ م)، ولكن أُجّلت إلى شـوال من العـام نفسـه، أي مـدة شهرين بسبب الفيضانات والأعاصير التي اجتاحت باكستان الشرقية، والتي ذهب ضحيتها ما يقرب من مليون إنسان.

جرت الانتخابات العامة وتكشفت في أجوائها الحقائق الآتية:

١ ″ ـ أوعـزت الهند إلى أعـوانها الهنـدوس في باكستـان الشرقيـة وعددهم عشرة ملايين ليقفـوا إلى جانب مجيب الرحمن، وقد دُعم بالمال، والأعوان.

إن مجيب الرحمن يدعو إلى فصل الجناح الشرقي من باكستان عن الجناح الغربي، ويصـرّ على ذلك فـإذا نجح تمّ الانفصـال، وهذا أكبـر ما تتمنّـاه الهند، إذ تكون باكستان قد ضعُفت كثيراً وهي خصم الهند الأول، والتي انتصـرت عليها قبـل عـدة سنـواتٍ في الحـرب التي جـرت بينهمـا عـام ١٣٨٥ هـ. ولهذا دعمت الهند مجيب الـرحمن وبذلت الكثيـر في سبيل ذلك، هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخـر فإن نسبـة الهندوس ستـرتفع في باكستان الشـرقية عنـدما تنفصـل عن باكستـان الغربيـة، وذلك لأن نسبـة

الهندوس في الجناح الغربي ضعيفة. بينما تصل في باكستان الشرقية إلى ١٨,٤٪ من مجموع سكان ذلك الجناح.

٢" ـ أيّد الشيعة ذو الفقار علي بوتو، وقد أوعز لهم رئيس الدولة يحيى خان بذلك، وهو منهم، وإن انفصال باكستان إنما هو لمصلحتهم حيث ترتفع نسبتهم إذ تصل إلى ٨٪ في الجناح الغربي حيث يتركّزون فيه، على حين لا يوجد شيعة في الجناح الشرقي. لذا فنسبتهم في باكستان كلها (الشرقية والغربية) هي ٣,٤٪، فإذا انفصلت باكستان الشرقية ارتفعت نسبتهم في الغربية إلى ٨٪.

٣" ـ أيّد القاديانيون ذو الفقار علي بوتو، وقد أظهروا في البداية العمل ضده، ثم تحولوا إلى جانبه ويبدو أن هذا التحول كان بإيحاء من الإنكليز، والقاديانيون مُنظّمون في الجيش، وأجهزة الدولة المختلفة. كان همّ الإنكليز اضعاف باكستان كدولةٍ مسلمةٍ، ولن يكون إضعافها إلا بانقسامها وتجزئتها. وكذلك فإن القاديانيين إنما يتجمّعون في باكستان الغربية، وتكاد تخلو منهم باكستان الشرقية، فإذا تمّ الانفصال كان مركزهم أقوى.

٤" ـ عمل أصحاب المصالح من الأثرياء في باكستان الغربية لصالح ذو الفقار علي بوتو.

٥" ـ قدّمت الولايات المتحدة الأمريكية مائة مليون روبية لكل من مجيب الرحمن، وذوالفقار علي بوتو، وقد نقل هذا الخبر وزير الإعلام الباكستاني السابق حيث ذكر بأن السفارة الأمريكية قد سحبت أربعةً وثمانين مليون روبية بمعدل أربعة عشر مليوناً شهرياً ولمدة ستة أشهر من البنك المركزي لصالح مجيب الرحمن، وعلي بوتو، كما انخفض سعر الدولار بمقدار الخمس نتيجة تدفّقه بواسطة السفارة الأمريكية، وهذا ما صرّح به رئيس الدولة يحيى خان نفسه، حيث أشار إلى الأموال التي تدفّقت من الخارج، ولكن لم يفصح أكثر من ذلك. وقد طلبت منه الجماعة الإسلامية أن يذكر الأحزاب التي تلقّت المعونة، ولكنه صمت.

وتريد أمريكا من وراء هذا الموقف إضعاف باكستان أمام الهند، وإقلاعها عن التفكير بالبحث النووي، والمفاعل الذري، والقنبلة النووية، وانصرافها إلى شؤونها الخاصة، ومشكلاتها التي تنتج عن هذا الموقف من انقسامٍ وتجزئةٍ وضعفٍ، ثم الوقوف في وجه التيار الإسلامي الصاعد ومحاولة خنقه، وتقوية التيار العلماني المعادي للإسلام والملحد أيضاً.

٦" ـ وقفت جهات كثيرة ضدّ الجماعة الإسلامية وعملت على إخفاقها، بل كانت تحرص على الإيقاع بها والبطش بقادتها، ومن هذه الجهات الهند، والصين، وروسيا، وإنكلترا وكلها كان لها دور في هذه الانتخابات، ودعم وتشجيع لأطرافٍ دون أخرى، ومحاربة لفئاتٍ أشدّ وأعنف من فئاتٍ ثانيةٍ.

٧" ـ إن سكان باكستان الشرقية يسهل التأثير عليهم بسبب الفقر، والمجاهدة المستمرة لطبيعة البلاد، فالمجاعات تحدث باستمرارٍ بسبب تأخّر الأمطار الموسمية، والفيضانات التي تتعرّض لها البلاد دائماً نتيجة غزارة الأمطار وعدم ميل الأرض، والأعاصير التي تقف في وجه التيار المائي في الأنهار قبل انصبابها في البحر، كل هذا يجعل المآسي تتكرر، والنكبات تحلّ، والفقر يعمّ، والفقير عادةً لا يهتم بأكثر من تأمين عيشه، وقوت يومه، وكفاحه من أجل رزقه، لذا فأكثر السكان ينساقون وراء كل من يُلوّح لهم بتحسين وسائل العيش، ويُقدّم لهم بعض المناهج لذلك مهما كانت بسيطةً أو نظريةً. ويُضاف إلى ذلك أن أكثر سكان باكستان الشرقية من أصلٍ هنديٍ اعتنقوا الإسلام، وقد عُرف أكثر الهنود بالخمول والكسل، وخاصةً أن هؤلاء كانوا ينتمون بالأصل إلى مجموعاتٍ متواضعةٍ حسب تقسيم المجتمع الهندي الطبقي، فهم يقنعون بالقليل، ويقبلون البسيط، وكان أثر الإسلام فيهم ضعيفاً لبعدهم، وقلة العلماء، والفقر، والجهل، ووصول الإسلام إلى بلادهم في وقت التراجع وأيام الضعف. وكانت الهند تُدرك هذا، وتعرف إمكانية التأثير على سكان باكستان الشرقية، وهذا ما أعطاها

الأمل الكبير في إنجاح مُهمّتها بالتأثير على السكان، وفوز مجيب الرحمن، وتجزئة باكستان كمرحلةٍ أولى، ثم ضمّ ذلك الجناح الشرقي إليها كمرحلةٍ ثانيةٍ، ثم التحكّم بالمسلمين، والعمل على ارتدادهم عن الإسلام، وإعادتهم إلى الهندوسية في المستقبل وهذه هي أمنيتها، وما تهدف إليه، وتضع المخططات في سبيله.

وهناك نقطة لا بدّ من الانتباه إليها حتى نُدرك أبعاد هذه المرحلة، والأسباب التي تجعل دول العالم الكبرى تتدّخل في هذه الانتخابات، وتركّز جهودها عليها، وتُعوّل الكثير على نتائجها وهي أن باكستان كانت تقف دائماً الموقف المعارض والمعادي لدولة اليهود وأطماعها في المنطقة العربية، ومعنى هذا أنها تقف في الموقف الخصم للصليبية المتمثّلة في الدول الكبرى، وهي التي أقامت لليهود دولتهم، وهي التي تحتضنها، تدعمها وتُؤيّدها، وتتبنّى قضاياها كلها، وتسعى وراءها نيابةً عنها، ولذا لا بدّ من إضعافها وتحطيمها، وكان واضحاً لليهودية أن دولة باكستان تُشكّل خطراً جسيماً عليها، ولا بدّ من تصفية حسابها معها، وخاصةً أن الصناعات المحلية الباكستانية قد قويت فيها، ونمت إلى درجةٍ تجعلها تقترب من الاكتفاء الذاتي، وهذا يعني أنها ستستغني عن استيراد البضائع من الدول النصرانية، ولهذا قيمته الكبيرة في حسابات الاستعمار، كما أن اليهود يحلمون في التوسّع في الصناعة، وجعل الشرق سوقاً لهم ولبضائعهم بعد التمكّن من عقد معاهدة سلامٍ مع البلدان العربية بجهود الدول الكبرى وضغطها على حلفائها من الدول وعلى أعوانها، لذا فإن التقدّم الصناعي الباكستاني سيكون عقبةً مباشرةً أمام أحلام اليهود، ويجب ضربه من الآن، ومن وسائل تحطيمه إضعاف باكستان بتجزئتها. هذا على الرغم من أن بعض الدول العربية كانت تُؤيّد الهند في عدوانها على كشمير، وتقف في الصف المعادي لباكستان، وفي الخندق المقابل للمسلمين.

الانتخابات العامة:

جرت الانتخابات العامة في الموعد الذي حُدّد لها في شوال ١٣٩٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٠ م)، واشترك فيها أكثر من خمسةٍ وعشرين حزباً، وتنظيماً سياسياً، وقد عملت الحكومة علناً لصالح ذو الفقار علي بوتو، وضدّ الجماعة الإسلامية، حتى استبدلت بعض الصناديق الانتخابية، وقُدّمت الطعون في ذلك من غير فائدةٍ، وانتهت الانتخابات وفاز حزب عصبة عوامي الذي يرأسه مجيب الرحمن بأكثرية مقاعد باكستان الشرقية، والتأم جناحاه تقريباً، وكذلك فاز حزب الشعب الذي يرأسه ذو الفقار علي بوتو، وتفوّق على بقية الأحزاب والجماعات في باكستان الغربية، ولكنه كان مُهدّداً بالتصدّع قريباً حيث كان يضمّ في صفوفه الشيوعيين، والرأسماليين، وأصحاب المصالح، وقد اتفقت آراؤهم في الانتخابات، والتقت مصالحهم، ثم عادوا إلى أفكارهم المتباينة، واتجاهاتهم المتضاربة بعد الانتخابات، وكانوا قد تركوها أو نسوها أثناءها.

أما الصف الإسلامي فكان مُفرّقاً قبل الانتخابات وظهر تصدّعه أثناءها حيث بذلت الأحزاب والحكومة والدول الكبرى (الولايات المتحدة الأمريكية - روسيا - الصين - الهند - إنكلترا) المال ومارست الضغط للوقوف في وجه مرشحي الجماعة الإسلامية، وتأييد أصحاب الاتجاه العلماني، وبرز أثناء الانتخابات رجال كثيرون ادّعوا العلم، وأُعطوا صفة أهل الفتوى، وانطلقوا وراء هذا الزعيم، وخلف ذلك الحزب العلماني، ومع ذلك الاتجاه، وحصلوا على بعض المنافع لقاء تعريضهم بالمرشحين الإسلاميين وخاصةً أعضاء الجماعة الإسلامية.

برز مجيب الرحمن في باكستان الشرقية بل ظهر كزعيم لها، وبرز ذو الفقار علي بوتو في باكستان الغربية، ومعنى ذلك أن الجمعية الوطنية ستكون بيد هذين الرجلين، وأن الصراع سيكون إقليمياً، وتمسّك مجيب الرحمن ببرنامجه ذي النقاط الست، وعارضه ذو الفقار علي بوتو. ثم طالب

زعيم باكستان الغربية باللقاء بمجيب الرحمن الذي تشدّد في طرح برنامجه، وظهرت مشكلات على ساحة اللقاء، ومنها:

١ ـ مشكلة مدى السلطات التي ستُمنح لرئيس الدولة.

٢ ـ مشكلة تقسيم السلطات، وتوزيع الحكومة المركزية بين إقليمي باكستان.

٣ ـ المدى الذي سيتمّ فيه إدخال مبادىء الشريعة الإسلامية.

كان مجيب الرحمن يريد الانفصال بالإقليم الشرقي. وذو الفقار علي بوتو يريد تقويم علاقات باكستان مع الدول الخارجية على أساس موقفها من قضية كشمير، فهو من هذا المنطلق أقرب إلى الصين منه إلى الولايات المتحدة، وهذا ما أعطاه تأييداً واسعاً في منطقة البنجاب، وكذلك أخذ يدعو إلى صنع القنبلة النووية، ويدعو إلى إعلان الحرب مع الهند مدة ألف عام. ولكن كلا الزعيمين كان يدعو إلى تطبيق النظام الاشتراكي، هذا لوضع شعبه البائس ليغريه ويجرّه وراءه، وذاك لإخفاء ارتباطاته والفلك الذي يدور فيه. والشعب المسلم لا يعرف الصدق من الكذب، ومدى إخلاص قادته.

والأمر الذي لا بدّ من التأكيد عليه هو أن على باكستان أن تقف بعد خروجها من محنتها الحالية فتُحدّد طريقها بوضوح لتجعل من الفكرة التي تولّدت عنها واقعاً تعيشه، إن باكستان ما كانت لتوجد لولا هذه الفكرة.

وبينما كانت المهاترات تدور حول الوضع وإذ ببعض الشباب يختطفون طائرةً هنديةً من كشمير إلى مدينة (لاهور) قاعدة منطقة البنجاب في باكستان الغربية، وبعد انتظار دام ثلاثة أيامٍ أُحرقت الطائرة، مما شجع الهند على قطع طريق الجو الذي يصل بين جزئي باكستان الغربي والشرقي، وكان ذلك حافزاً شجّع مجيب الرحمن على التصميم بالمطالبة بالانفصال حيث لا توجد سوى فرقتين من الجيش الباكستاني في الجناح الشرقي، وكانت الظروف ملائمةً لضرب باكستان وتحطيمها.

اضطرت السلطات المركزية الباكستانية إلى تحويل كافة المواصلات إلى شرقي باكستان حول الهند، والالتفاف حول شبه القارة كلها، ولكن ذلك كان يتطلّب من الطائرات التوقّف في مطار (كولومبو) عاصمة سيلان، وعندما رأت الهند استمرار المواصلات الجوية وجّهت ضغطاً سياسياً وتهديداً عن طريق الدول الغربية وروسيا لرئيسة وزراء سيرالانكا (باندرانايكا) لمنع الطائرات الباكستانية من التزوّد بالوقود في مطار (كولومبو)، ولكن سيرالانكا فضّلت الحياد، وإذ بمحاولة انقلابٍ فيها تقوم، وتعمل على فرض السيطرة على العاصمة كإنذارٍ أوليٍ. فاضطرت الحكومة السيرلانكية إلى الخضوع ومنع الطائرات الباكستانية من الهبوط في مطار (كولومبو). وهذا الانقطاع في المواصلات بين جزئي باكستان كأنه انفصال حدث قبل قيامه.

حاول ذوالفقار علي بوتو أن يقتسم السلطة بينه وبين مجيب الرحمن، ولكن لم يحصل التفاهم بينهما، إذ كان مجيب الرحمن يتشدّد في نقاطه الستّ، وفي نيته التأكيد على الانفصال، ولذا كان يطالب بعقد جلسات المجلس النيابي بأقرب فرصةٍ ليتمكّن من إقرار دستورٍ يرتضيه بناءً على أغلبيته المطلقة في المجلس، بينما يرى ذو الفقار علي بوتو تأجيل موعد انعقاد المجلس النيابي إلى أن يتمّ التفاهم مع مجيب الرحمن حول توزيع السلطة، وهكذا وقعت البلاد بين شقي الرحى.

وأثناء هذا الصراع حدّد الرئيس يحيى خان اليوم السادس من محرم عام ١٣٩١ هـ (٣ آذار ١٩٧١ م) موعداً لعقد جلسة المجلس النيابي، بيد أن ذو الفقار علي بوتو بادر إلى عقد اجتماعٍ واسعٍ في ٤ محرم ١٣٩١ هـ (٢٨ شباط ١٩٧٠ م) وأعلن فيه رفضه لحضور الجلسة رفضاً باتاً، وأعلن أن أي واحدٍ من أعضاء المجلس الذين ينتمون لحزبه إذا ذهب لحضور الجلسة فسوف تُكسر رجلاه ويُشجّ رأسه، وهدّد الأعضاء من غير حزبه بأنهم لن يعودوا إذا ذهبوا لحضور الجلسة، وهذا ما أجبر يحيى خان على تأجيل موعد الجلسة، وصدر إعلان التأجيل يوم ٤ محرم

١٣٩١ هـ (الأول من آذار ١٩٧١ م)، وبصدور هذا التأجيل انفجر العصيان المُسلّح في باكستان الشرقية، وارتكبت أشنع الجرائم، وهُتكت الأعراض، وسُلبت المحلات التجارية، ووقعت حوادث حرق والناس أحياء. وأمام هذه الأعمال الشيوعية سافر يحيى خان إلى (داكا) قاعدة باكستان الشرقية، والتقى بمجيب الرحمن وبقي هناك عشرة أيام من ١٨ محرم إلى ٢٨ منه (١٥ آذار لغاية ٢٥ منه)، بغية التفاهم معه، وبذل جهده في سبيل ذلك، ولكن دون جدوى. وحدثت في هذه الأثناء محاولات اعتداء على الجيش الباكستاني المرابط هناك، والعمل على منع وصول المواد التموينية إليه، وهذا ما أجبره على التدخّل في اليوم الثاني لمغادرة يحيى خان المنطقة، واعتقل مجيب الرحمن.

وقبل أن نتعرض للأحداث أرى من الضروري إعطاء فكرة عن جناحي باكستان وعن موقف الدول الكبرى والهند من المطالب التي يحملها مجيب الرحمن بالنسبة إلى التقسيم.

باكستان الشرقية:

تبلغ مساحتها ١٤٣ ألف كيلومتر مربع، وهو ما يُعادل أقل من ١٦٪ من مساحة عموم باكستان، وتتألف من القسم الشرقي من مقاطعة البنغال التي جزئت إثر التقسيم، ومنطقة (سيلهت) التي أخذت من منطقة (أسام) وضُمّت إلى البنغال الشرقية لتشكل الجناح الشرقي لباكستان، وكان عدد سكانها يوم الاستقلال أربعين مليوناً، ثم هاجر إليها حوالي أحد عشر مليوناً من مسلمي البنغال الغربية، ثم تزايد السكان حتى بلغوا ثمانين مليوناً، وهو ما يعادل أكثر من ٥٣٪ من مجموع سكان باكستان كلها. وتكون الكثافة فيها أكثر من خمسمائة شخصٍ في الكيلومتر المربع الواحد، وهي من أكبر الكثافات في العالم، فالأرض تضيق بالسكان الأمر الذي يجعل الفقر ينتشر، إضافةً إلى أنه تصعب إقامة المصانع على أرضها لكثرة الفيضانات والأعاصير التي تتعرّض لها البلاد، وتُهدّم المباني والمنشآت، وهذا ما

يجعل أصحاب رؤوس الأموال يخشون من توظيف أموالهم في المشروعات الصناعية حيث نجد أن الجوت مثلاً يزرع بشكلٍ رئيسي فيها وينقل خاماً إلى باكستان الغربية ليُصنَّع هناك، وكان ينقل إلى الهند قبل التقسيم، وهذا ما يُسبِّب انتشار البطالة، هذا بالإضافة إلى تأخّر الأمطار الموسمية في السنوات العجاف التي تُسبِّب المجاعات، وطبيعة السكان الذين يعودون إلى أصلٍ هنديٍ يغلب عليه الخمول.

باكستان الغربية:

وتبلغ مساحتها ثمانمائة ألف كيلومتر مربع، وهذا ما يعادل أكثر من ٨٤٪ من مساحة البلاد، وتتألف من أربع مقاطعات هي: السند، والبنجاب الغربية، وبلوشستان، ومنطقة الحدود الشمالية الغربية، ويبلغ عدد سكانها سبعين مليوناً، وهو يقلّ عن ٤٧٪ من مجموع سكان باكستان، فتقرب الكثافة من ستين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد. فالأرض واسعة، ويبذل الجهد لإقامة المشروعات الحيوية للحاجة إلى الماء، فتتقدّم الزراعة، وتتحسّن الأوضاع المعاشيّة، وتتوفّر الإمكانات لقيام الصناعة، ولا تتعرّض المنطقة للفياضانات ولا للأعاصير، ويعود السكان إلى أصول مختلفةٍ من عربٍ، وفرسٍ، وتركٍ، ومغولٍ، وأفغانٍ، وهنودٍ، ويُساعد المناخ على النشاط، لذا نجد التجار والصناع يلعبون دوراً رئيسياً في الحياة الاقتصادية، ويطمح الشباب للعُلا، فيتقدّمون إلى المعاهد العالية، والكليات العسكرية حيث نجد ٩٠٪ من ضباط الجيش الباكستاني من منطقة البنجاب، وكذلك فقد حصرت الصناعة والتجارة في باكستان الغربية، وتضمّ الكليات العسكرية أكثر أفرادها. وتعمّ لغة(الأوردو) باكستان الغربية على حين تسود اللغة (السنسكريتية) باكستان الشرقية.

ولا يربط جناحي باكستان بعضهما إلى بعضٍ سوى العقيدة، وهي الأساس التي قام عليه تقسيم شبه القارة الهندية. ومن ذاق الضغط والظلم والاضطهاد الهندوسي لا يُفكّر بانفصال الجزأين بعضهما عن بعضٍ، غير

أن الفقر والتلاعب بالعواطف قد يُثير بعض السكان دون إدراك النتائج. وهذا ما كان يفعله الشيوعيون مُستغلّين فقر السكان وجهلهم، وحاولوا القيام بانقلابٍ عام ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م)، ثم ضمّهم حزب عوامي مع من ضمّ من الانتهازيين وأصحاب المصالح، وكانت للحزب صحفه ومجلاته، ثم انقسم مع انقسام الشيوعية فسار فريق مع الصين واتجاهها، وانطلق آخرون مع روسيا وسياستها.

تنقل باكستان الغربية إلى الشرقية المواد الغذائية، وتمتنع عن تصديرها إلى الخارج والحصول على العملة الصعبة، وتستهلك موادها الخام كلها. على حين تُصدّر باكستان الشرقية موادها الخام إلى الخارج.

كان دخل الحكومة المركزية الباكستانية من ١٣٨٠ إلى ١٣٩٠ هـ يُقدّر بـ ٣٠,٢٣٠,٩٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

أعطت باكستان الغربية منها ٧٣,٦٪ يُقدّر بـ ٢٢,٣٢٨,٨٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

وقدّمت باكستان الشرقية منها ٢٦,٤٪ يُقدّر بـ ٧,٩٠٢,١٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

ولكن وزّع الدخل على الشكل الآتي:

أُعطيت باكستان الغربية ٥١,٣٪ يُقدّر بـ ٣,٩٠٠,٣٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

وأُعطيت باكستان الشرقية ٤٨,٧٪ يُقدّر بـ ٣,٦٧٠,٨٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

واستوردت باكستان الشرقية من الغربية بمبلغ يُقدّر بـ ١٠,٦٨٤,٧٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

بينما استوردت باكستان الغربية من الشرقية بمبلغ يُقدّر بـ ٦,١٥٧,٩٠٠,٠٠٠ روبية باكستانية.

موقف الدول:

إن الدول الكبرى والهند مهما كانت مُتباينةً في وجهات النظر السياسية ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا إلا أنها كلها متفقة ضدّ باكستان، وتقف في صف تجزئتها، وتُؤيّد السياسة الهندية، سواء اتفقت معها في بقية الجوانب السياسية والفكرية والاقتصادية أم اختلفت.

وأما مجيب الرحمن، وذو الفقار علي بوتو فهما رجلان انتهازيان يُؤيّدان السياسة الأمريكية ويسيران في فلكها، وإن كانا يُناديان بالنهج الاشتراكي، فهذه طريقة استغلالية وغالباً ما يلجأ إليها السياسيون الانتهازيون إذ يدعون إلى حلّ المشكلات التي يُعاني منها الشعب، وآراءٍ نظريةٍ، وخداعٍ، نتيجة الجهل السائد لدى الناس الذين يقبلون هذا ممن يدعون إليه، وإن كان المنادون لا يؤمنون بما يدعون إليه، وإنما يتخذونه شعاراتٍ يكسبون الأتباع من خلالها، وقد انخدع الناس وغشّوا في مرحلة من الزمن بالآراء الشيوعية فساروا وراءها لغفلتهم فاستغلّ ذلك الانتهازيون وقادوا حملها وإن لم يؤمنوا بها، ومن هؤلاء مجيب الرحمن، وذو الفقار علي بوتو.

وقد تبيّن للناس بعد مدةٍ سوء ما ظنوا به خيراً، وعرفوا جهلهم فانطلقوا يلقون عن أنفسهم ما أثقل كواهلهم، وأمات إنسانيتهم، وزاد بؤسهم، وقاموا يتخفّفون من تلك الأعباء وطرحوا الشيوعية، وشيّعوا جنازتها.

وقد حاولت الدول أن تستفيد من إمكانية مجيب الرحمن وذوالفقار علي بوتو والقوة التي حصلا عليها من سيرهما في طريق الانتهازية، فعملت على تأمين مصالحهما لتستفيد منهما في تنفيذ مخططاتها وسيتبعان أوامرها ما دامت تُحقّق لهما المكاسب.

١" ــ الهند:

وتحرص على تجزئة باكستان، وترى في مجيب الرحمن رجلاً يخدم

مصالحها، إذ يدعو إلى الانفصال، فهي تدعمه للعمل على التجزئة، التي تضعف باكستان حيث ظهرت قويةً في الحرب التي خاضتها معها عام ١٣٨٥ هـ، وفي إضعافها يمكن ضمّ كشمير، وإبقاء باكستان دولةً مجاورةً ليست بذات شأنٍ.

وتريد الهند كذلك إظهار ضعف الرابطة الدينية لتغيير رأي المسلمين الذين يقطنون الهند، وقد يقول قائل: إن انفصال باكستان الشرقية والغربية قد يُعرّض الهند ذاتها لحركات مماثلة، ولكن الهند في الواقع تعدّ انفصال باكستان الشرقية مرحلةً تعقبها مرحلة ثانية، وهي ابتلاعها وضمّها إليها.

ويضاف إلى ذلك أن الصين كانت قد هدّدت الهند بالحرب فيما إذا قامت بهجومٍ على باكستان الشرقية عام ١٣٨٥ هـ أثناء القتال الذي دار بين الهند وباكستان، لذلك لم تتجرّأ الهند على الهجوم على باكستان الشرقية، والصين تُؤيّد وحدة باكستان بينما زعيم حزب عوامي عبدالحميد بهاشاني الذي يتلقّى الدعم منها يدعو إلى تقسيم باكستان.

كما تريد الهند ضرب الحركة الإسلامية بتشجيع خصومها، ونقد فكرة الرابطة الدينية، والعمل على إظهارها بأنها رابطة ضعيفة الأثر، واهية الفكر.

وترغب الهند أيضاً بزجّ الشيوعيين في مقاطعة البنغال الغربية بحربٍ في باكستان الشرقية لتشتيت شملهم وخاصةً بعد نجاحهم في انتخابات الهند، وتشكيل حكومة في تلك المقاطعة مع العناصر الموالية لهم.

ولهذا كلّه فقد دعمت الهند وشجّعت مجيب الرحمن، وتعاطفت مع حزب عوامي، وسمحت بإقامة حكومةٍ بنغاليةٍ في المنفى ضمن أراضيها.

٢" ــ الصين:

ترى الصين ضرورة المحافظة على وحدة باكستان للوقوف في وجه الهند التي تسير في فلك المعسكر الغربي أو على الأقل لضرورة المحافظة

على توازن القوى لأن باكستان أيضاً تسير في المنحى الذي تسلكه الهند، ولهذا كانت تُؤيّد أيوب خان، ووقفت بجانب باكستان في حربها مع الهند عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م)، كما هدّدت الهند فيما لو هاجمت باكستان الشرقية. وقبل ذلك نشبت حرب عام ١٣٨٢ هـ بين الصين والهند. ومع هذا الموقف الذي تقفه فإن الجناح الذي يتزعمه عبدالحميد بها شاني من حزب عوامي يُنادي بتقسيم باكستان وانفصال الشطر الشرقي منها مرحلياً وانتهازيةً. ولكن الصين لا تريد أن تندفع أكثر من هذا لأنها غير مستعدةٍ لدخول حربٍ مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما تريد الهند جرّها إليه.ا

وترى الصين أن مجيب الرحمن لا يريد التفاهم معها لذلك فهي تُؤيّد ذوالفقار علي بوتو، وتودّ أن يتسلّم رئاسة الدولة أو الحكومة على الأقل ليزداد التعاون بينهما، فهو يرغب في المحافظة على وحدة باكستان، وهذا ما يتفق مع سياستها الحالية، وهي تعرف الانتهازية التي يسلكها، فيمكنها نتيجة ذلك تأمين بعض مصالحها عن طريقه على الرغم من أنها تعلم أنه غير شيوعي.

وكذلك تفضّل الصين ذوالفقار علي بوتو على مجيب الرحمن لأنه أكثر جرأةً ووقاحةً في محاربة العناصر الإسلامية عامةً، والجماعة الإسلامية بشكلٍ خاصٍ، وهذا ما تسعى وراءه في تهديم كل العوامل والارتباطات الدينية، وكان مجيب الرحمن قد ذكر بأن الدستور الذي سيوافق عليه لن يُخالف القرآن والسنة، ومن هنا سيكون تأييد الصين لذي الفقار علي بوتو أوضح.

وتريد الصين حسب خطها الذي تنتهجه فشل الجماعة الإسلامية، وكل الهيئات الأخرى التي تأخذ الدين أساساً لسياستها، وهذه الجماعات في باكستان الغربية أقوى منها في باكستان الشرقية، وتأييد ذوالفقار علي بوتو في باكستان الغربي إضعاف لتلك الجماعات.

٣" ـ روسيا:

وترى ضرورة القضاء على باكستان لأن مبرر وجودها هو الدين،

وروسيا عدوة الدين الإسلامي، أو ترى على الأقل ضرورة المحافظة على توازن القوى، وضرب طرفٍ بآخر من الهند وباكستان فيما إذا اتجه أحدهما نحو المعسكر الغربي بقوة حيث يعدّ الطرف الآخر هذا التوجه ضدّه، وانحياز من قبل الغرب لخصمه فيتحرّك. وترى تأييد ذوالفقار علي بوتو الذي يدعو إلى وحدة باكستان، ويقف في وجه الدعاة والتنظيمات الإسلامية. ولكن روسيا تختلف عن الصين في عداوتها للهند حيث لم تدخل معها في الحرب كالصين، كما أنها ليست على تماسٍ مباشرٍ معها.

٤" ــ الولايات المتحدة الأمريكية:

وترى العمل على تقسيم باكستان ودعم من يسعى لذلك أو يُنادي بهذا في سبيل إضعاف باكستان، كما تعمل على تقوية الهند لتكون مركز ثقلٍ بالنسبة إلى سياستها في المنطقة، وعندما تقوم بدعم باكستان إنما هو من أجل تحريض الهند وإبقائها على الخط، وتحذيرها من أن تسلك منهجاً آخر، فالعدوّ يتربص على الحدود، ولهذا نلاحظ أن الهند تُساير السياسة الأمريكية. كما تخشى الولايات المتحدة نجاح حركةٍ إسلاميةٍ قويةٍ تُغيّر سياسة باكستان رأساً على عقبٍ، وخاصة حصول الجماعة الإسلامية على تأييدٍ واسعٍ، ولهذا تُؤيّد ذوالفقار علي بوتو الذي يقف بعنفٍ في وجه التيار الإسلامي، كما تخشى الولايات المتحدة تغلغل النفوذ الشيوعي في باكستان الشرقية بشكلٍ واسعٍ نظراً لما تُعاني من خطر الفيضانات والأعاصير، وما يُلاقي السكان من الفقر والجهل. وترغب في تجزئة باكستان حيث تبقى باكستان الشرقية ضعيفةً، وتحتاج إلى المساعدة، ولا تستطيع روسيا تقديم تلك المساعدة لبعدها، ولتجنب الصدام مع الولايات المتحدة، كما لا تستطيع الصين ذلك حيث أن الهند تقف في وجهها، وتريد جرّها إلى معركة مع الولايات المتحدة، وهنا تجد أمريكا المجال مفسوحاً أمامها فتتقدم بالدعم، وتنمّي الأُسس الرأسمالية وتقف في وجه المد الشيوعي بالسعي على إخفاقه عملياً، وتكون باكستان الشرقية بعدها ضمن النفوذ الأمريكي.

وتخشى الولايات المتحدة نمو فكرة الرابطة الدينية التي تؤدّي إلى فكرة ديار الإسلام، لذلك فهي تشن حملة تشهيرٍ ضد حكومة باكستان التي قد تضرب على هذا الوتر أحياناً لتمرير بعض قراراتها أو لتحصل على تأييد وكسب الشعب نحوها. وقد قررت الولايات المتحدة وقف شحنات القمح التي وعدت بها باكستان بعد كارثة الإعصار عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م)، وكذلك فإن البنك الدولي الذي تسيطر عليه كان قد قرّر إعادة النظر في منح باكستان قرضاً قدره (١٧٥) مليون دولار، كل ذلك في سبيل زيادة الأزمة الاقتصادية، وخاصةً في باكستان الشرقية لتزيد المطالبة بالانفصال. كما أن الولايات المتحدة قد أوقفت شحن الذخيرة والأسلحة إلى باكستان، ويعدّ هذا من أقوى الضغوط لأن الأسلحة الباكستانية أمريكية، وإذا فقدت الذخيرة أصبحت الأسلحة عديمة الفائدة. وإذا شعرت باكستان بالضعف فلن تتصدّى للهند التي تسعى لتقسيم باكستان، وتخطط لذلك، وتُهيء الظروف.

٥" ـ إنكلترا:

تسعى إنكلترا لتجزئة باكستان لإضعاف الحركة الإسلامية، وإضعاف باكستان خوفاً من استلام الجماعة الإسلامية السلطة في البلاد، ولإظهار التفكّك الإسلامي، وعدم إمكانية قيام دولةٍ على أساس دينيٍ، وقد قامت باكستان على هذا الأساس، وها هي تتجزّأ، وينفصل بعضها عن بعضٍ. ثم تبذل جهدها لتقوية أعوانها من الإسماعيليين، وأتباعها من القاديانيين، وإعادة اعتبارهم، ومحاولة حملهم إلى مركز الصدارة، وخاصةً أن أمرهم قد فُضح بعد أن عراهم أبو الأعلى المودودي في مقالاته التي كان يُسطّرها ضدّها، فظهروا على حقيقتهم، ولما كانت كلتا الطائفتين تتركّزان في باكستان الغربية فإن انفصال باكستان الشرقية ذات السكان الأكثر عدداً سيرفع من نسبتيهما في الجناح الغربي، ويكون لهما المركز القوي، وخاصةً إذ دعمتهما الرافضة التي تدّعي الإسماعيلية أنها جزء منها، أو أنها تعود بالأصل إليه، وهو غير صحيحٍ. لذلك كله كانت إنكلترا تشنّ حملات تشهير ضدّ باكستان.

ويمكن من كل ما تقدم التأكد من أن الدول الكبرى والهند تتفق في عدائها للإسلام وعُدوانها على أهله، وتعمل بكل إمكاناتها للحدّ من نشاطه سواء أكانت هذه الدول شرقيةً أم غربيةً، شيوعيةً أم رأسماليةً، وتتآمر وتُوحّد جهودها ضدّ التنظيمات الإسلامية، بل قد تتفق مع اختلافها في وضع مخططٍ واحدٍ لهذا الغرض.

وأخيراً فإن باكستان عضو في حلف جنوب شرقي آسيا، وقد انضمت إليه في مطلع عام ١٣٧٤ هـ (٥ أيلول ١٩٥٤ م). وعضو في الحلف المركزي (بغداد سابقاً) منذ عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م)، وهي إحدى الدول الخمس التي تؤلف كتلة (كولومبو) والتي تشكّلت عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)، وجميع هذه الأحلاف تلقى الدعم من المعسكر الغربي، ولكن السياسة اليوم هي اللفّ والدوران وعدم الاستقرار على خطٍ واحدٍ، وعدم معرفة الاتجاه الصحيح، واللعب على عدة حبالٍ.

وعلاقة باكستان قوية مع الدول الإسلامية، وهي إحدى الدول التي تقف ضدّ دولة اليهود دون تحفّظٍ، وتُساند الدول العربية في مُواجهتها لليهود، غير أن الدول الإسلامية لا مكان لها ـ مع الأسف ـ على ساحة السياسة الدولية حيث أنها تبع لغيرها وتدور في أفلاكها، أكثر مسؤوليها على ارتباطٍ بسواهم، وشعوبها إما مُغرّر بهم، وإما على جهلٍ بما يجري، أو فقراء يسعون وراء قوتهم، أو احتوى بعض قادتهم الساسة أو سادتهم، على حين أن لليهود تأثير على السياسة الدولية عن طريق أصحاب النفوذ فيهم، وعن طريق الدول النصرانية الكبرى التي تتبنّاهم والتي تُهيمن على مؤسسات الأمم المتحدة، وبيدها السياسة الدولية، والمخططات واللعب السياسية.

الأحداث:

قلنا إن العصيان قد انفجر في باكستان الشرقية يوم ٤ محرم ١٣٩١ هـ (الأول من آذار ١٩٧١ م) نتيجة إعلان تأجيل اجتماع المجلس

النيابي، واضطر الرئيس يحيى خان للسفر إلى الجناح الشرقي من باكستان، واعتقل مجيب الرحمن يوم ٢٩ محرم ١٣٩١ هـ (٢٦ آذار ١٩٧١ م).

ومع وصول الموسميات الصيفية انهمرت الأمطار بغزارةٍ أدّت إلى حدوث فيضاناتٍ في باكستان الشرقية نتج عنها مقتل ما يقرب من مائتي شخصٍ، وأُصيبت الممتلكات والمزروعات بأذىً شديدٍ قُدّر بحوالي ثلاثمائة مليون روبية، حيث تهدّم ثلاثمائة وخمسون ألف منزلٍ، وشُرّد ثلاثمائة ألف إنسانٍ، وأصبحوا دون مأوى. وقد نشأت الكارثة عن فيضان خمسة أنهرٍ رئيسيةٍ في باكستان الشرقية.

وقد زادت هذه الفيضانات من خطر حدوث مجاعةٍ في المنطقة التي هزّتها الأحداث الأخيرة عقب الانتخابات.

ونتيجة للأحداث المتلاحقة والمخططات المرسومة بدأت العناصر الانفصالية، وأغلبها من الهندوس بمغادرة مناطقها والتوجّه نحو الهند، وقد وصل عدد هؤلاء المغادرين إلى أكثر من تسعة ملايين إنسانٍ، وقد قرروا العمل من داخل الهند ضدّ باكستان. وكان يدّعي أكثرهم أن ضغط الجيش الباكستاني والأهالي المؤيّدين له هو الذي ألزمهم على الخروج، وذلك من أجل إثارة النقمة، والعمل ضدّ الباكستانيين.

ابتدأ العمل السياسي، فأرسل هؤلاء الهاربون وفوداً إلى كل الدول التي تُعادي باكستان لطلب المساعدة، فوصل إلى دولة اليهود في منتصف رجب من عام ١٣٩١ هـ (أوائل أيلول ١٩٧١ م) محمود قاسم باسم «مندوب بنغالديش» ليطلب العتاد الحربي، وقد لقي تجاوباً لدى المسؤولين اليهود بشرط موافقة الهند، وكان طلبه يشمل مليوني قذيفةٍ من مختلف العيارات، ومدافع ميدان، ومدافع مضادة للطائرات، ومدافع رشاشة، وصواريخ أرض أرض لتدمير الطائرات الباكستانية على أراضي المطارات،

وقال هذا المندوب: إننا لا نريد طائرات لأننا لا نملك لها مطارات. وذكر وزير خارجية دولة اليهود بأن بلاده تُؤيّد كفاح بنغالديش ضدّ باكستان المؤيّدة للعرب.

ولكن هذه الوفود إن وجدت الدعم والتأييد من دولة اليهود لكنها لم تجد مثل ذلك من بقية الدول التي ذهبت إليها، لأنها وإن كان بعضها يقف ضدّ باكستان غير أنه لا يريد أن يُورّط نفسه، فاللعبة يجب أن تكون محكمةً وخيوطها كلها بأيدي الدول الكبرى المشرفة على إخراج اللعبة وتنفيذها.

إن التحرك العسكري يجب أن يكون عن طريق الهند، وقد طلب اللاجئون إليها المساعدة منها، فلبّت الطلب، واستجابت مباشرةً، واتخذت من وجود اللاجئين في أرضها حجةً للضغط على باكستان بقبول واقع أمر (بنغالديش)، ولتبرير موقفها، ولكسب الرأي العام العالمي إلى جانبها. وقبل القيام بالعدوان على باكستان أعلنت أنها لا تستطيع احتواء هذه العناصر اللاجئة إليها.

الحرب:

أعلنت الهند أن ثوار (بنغالديش) قد شنّوا هجوماً على باكستان الشرقية، وقد أسّسوا دولةً لهم، ولكن الهند هي التي قامت بالهجوم فعلاً وبقوتها كلها باسم اللاجئين إليها من سكان باكستان الشرقية. ولما تضايقت باكستان من هذا الاعتداء السافر، والذي يفوق حجمه ستة أضعاف حجم قواتها اضطرت إلى أن تتحرّك في باكستان الغربية لتُخفّف ضغط ووطأة الهجوم الهندي على باكستان الشرقية، ولأنها لا تستطيع أن تتحرّك في جناحها الشرقي لقلّة قواتها هناك، ولأن الهند تحيط بها هناك من جهاتها الثلاث، أما الجهة الرابعة فهي بحرية، ولا تستطيع القطع البحرية الباكستانية إمداد الشرق منها للطريق الطويلة، وسيطرة الهند عليها حيث

توازي سواحلها، إضافةً إلى أن الأسطول الهندي قد يكون أكثر استعداداً في هذه الظروف، وأما الطريق الجوية فطويلة وتزيد على ١٥٠٠ كيلومتر، وكلها ضمن الأجواء الهندية، وأما الالتفاف حول الهند فلا يمكن للطائرات أن تقطع هذه المسافات الطويلة دون تـزوّدٍ بالوقود، وليس بها من مطاراتٍ يمكن أن تهبط فيها، وقد سبق أن ذكرنا ما حدث في (سيرالانكا) عندما أُخذت الطائرات الباكستانية تهبط في مطار (كولومبو) للتزوّد بالـوقود أثنـاء بداية الأزمة، وقد مُنعت، وعندما تساهلت رئيسة الوزراء (باندرانايكا) قامت محـاولة لـلانقلاب في البـلاد كمؤشّرٍ للتهـديد فيمـا إذا استمرّت بالسماح للطائرات الباكستانية بالهبوط في المطارات السيرالانكية.

بدأت الحرب بين الباكستان والهند على طول الجبهات في الشرق والغرب على حدٍّ سواء، وكان على الهند أن ترمي بثقلها كله على الجبهة الشرقية، وتنتهي من باكستان الشرقية، بينما تقوم بدور المدافع على طول الحدود الغربية.

وكانت الهند قد عقدت حلفـاً عسكريـاً مع روسيـا في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ (٩ آب ١٩٧١ م) لتضمن مواجهة الصين بقوى عظمى إذا هي تدخلت في صراعها مع جارتها باكستان.

وفي ٢٥ جمـادى الآخـرة ١٣٩١ هـ (١٧ آب ١٩٧١ م) تقـدمت باكستان بشكوى إلى الأمم المتحدة لإيقـاف تدخـل الهند في مشكـلاتها الداخلية، وكررت هذه الشكوى في ١٥ شعبان ١٣٩١ هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧١ م).

وصـرحت رئيسة وزراء الهنـد انديـرا غانـدي في المجلس النيـابي الهنـدي في ١٥ رمضان ١٣٩١ هـ (٣ تشـرين الثاني ١٩٧١ م) إن على

جيش باكستان أن يرحل من باكستان الشرقية لأن وجوده فيها يشكل خطراً على أمن الهند وسلامتها.

وفي ٢ شوال ١٣٩١ هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٧١ م) بمناسبة عيد الفطر عند المسلمين بعث الرئيس الباكستاني يحيى خان تحية للهند، وجاء فيها «إنه يمد يد الصداقة للهند، وهو يرجو أن تشدّ عليها لبدء عهدٍ جديدٍ من العلاقات الطيبة وحسن الجوار...» ولكن الهند في ٤ شوال أي بعد يومين فقط من تلك الرسالة دفعت الهند باثنتي عشرة فرقة من المشاة، وعدة ألوية من المدرعات لتقتحم حدود باكستان الشرقية[1].

كان عدد الجنود الهنود الذين اقتحموا حدود باكستان الشرقية يربو على ٢٤٠ ألف مقاتل، مزودين بدباباتٍ روسيةٍ، ذات مدافع ميدانية ثقيلة من عيار (١٣٠ ملم)، وبطائرات روسية من نوع (ميغ ٢٣).

١ ـ الجبهة الشرقية:

تقدّمت الهند على محاور ثلاثةٍ من ثلاث جهاتٍ لتطويق باكستان الشرقية، وسدّت منافذ البحر أيضاً. تقدّمت على محور (جيسور) في الغرب، ومحور (سيلهت) في الشمال، ومحور (كوميلا) في الشرق حيث تقترب الحدود الشرقية من العاصمة (دكا) ولا تبعد عنها أكثر من ستين كيلومتراً. وكان عدد أفراد الجيش الباكستاني المدافع في الشرق ما يقرب من ثمانين ألفاً تنقصه القوة الجوية التي تحميه من الجو، كما يفتقد إلى القوة البحرية الداعمة لتصدّ عنه الهجوم والقصف من جهة البحر هذا

---

(١) لا شك أن المساعدات الأمريكية لا تقدّم أسبوعياً أو شهرياً، وعندما أعلنت أنها قد قطعتها، فهو إعلان لمدةٍ موقتةٍ هي لا تقدّم بالأساس في هذه المدة شيئاً، ولم يكن هذا التصريح سوى مناورةٍ سياسيةٍ، فلا تأييداً لباكستان، ولا شجباً للعدوان الهندي.

بالإضافة إلى انقطاعه عن العالم، أما الجيش الهندي فكان يُقدّر بنصف مليون، مزوّد بالإمكانات كلها، وله السيطرة الجوية الكاملة، وخاصةً بعد تدمير الطائـرات القليلة الباكستـانية التي كـانت قواعـدها هنـاك، كما أن الأسطول الهندي كان يدكّ السواحل دون مقاومةٍ تذكر، ويُضاف إلى هذا كله العناصر المؤيّدة للانفصال، والتي تدعمها الهند، والعناصر التي تستأسد عند نهاية كل وضعٍ لتحتل مركزاً في العهد الجديد، وأصحاب المصالح الذين تشرئب أعناقهم ليبرزوا وليسعوا وراء مصالحهم.

ورغم المعنويات العالية التي قاتل بها الباكستـانيون إلا أن التفـوّق الهندي الكبير، ووضع باكستان الشرقية المحاط بالهند من كل جهةٍ، وعدم إمكانية وصول الإمدادات، وعدم وجود الطيران، وسيطرة الهند على جـوّ المعركة، واعتبار باكستان الشرقيـة محاصـرة من كل جهـةٍ مما يُؤدّي إلى الخوف من المستقبل الغامض، وتواطؤ الروس والأمريكان، وتخاذل الصين وخوفها، كل هذا أدّى إلى انـدحار الباكستانيين في الشـرق، وإن تأخّـر الاستسلام بسبب الروح المعنوية المرتفعة لدى المقاتلين الباكستانيين حسب اعتراف الهنود بالذات، ولعدم إمكانيـة عمل المـدرعات الهنـدية بشكـلٍ واسعٍ بسبب طبيعة الأرض الترابية، وكثرة المجاري المائية. وقد تمكّنت أمريكا بسياستها أن تجعل الصين خارج دائرة الصراع، حيث أعلنت أمريكا أنها قطعت المساعدات عن الهند أثناء الحرب[1]، ثم أشاعت أن أسطولها السابع في المحيط الهادي بدأ يتحرّك نحو نقطةٍ مجهولةٍ، وفسّر عملاؤها المندسّون في كـل مكانٍ أن هـذا التحرّك نحـو خليج البنغـال لمساعـدة باكستان، وهذا لإشاعة أن باكستان عميلة لأمريكا فيتغيّر الرأي العام العالمي عنها ويتجه نحو الهند. ثم ثبت أن الأسطول لم يتحرّك من مكانه، وأن القصد من هذه المناورة انتظار العالم لشيءٍ جديدٍ يحدث، ونتيجـة لهذا

---

(١) قسمات العالم الإسلامي المعاصر ـ مصطفى مؤمن.

غلب على ظنّ بعضهم أن أمريكا تقف بجانب باكستان، وبهذه الدعايةِ خشيت الصين أن تظهر في موقف يساير الموقف الأمريكي فتفسح المجال للهجوم الإعلامي الروسي عليها، وهي التي تتهم الروس بالتواطؤ مع أمريكا، فتفقد أعوانها داخل الأحزاب الشيوعية في العالم والذين أصمت آذانهم الدعاية الروسية، وهذا ما جعل الصين تقف موقفها المحايد والذي وصف بالمخادع، والحقيقة أنها لا تجرؤ على الصدام مع أمريكا.

استسلمت باكستان الشرقية، وبدأت الإبادة والقتل الجماعي حيث قُتل مائتان من العلماء، وتبع ذلك مذابح رهيبة رافق أثناءها القتل بالمقاصل والتمثيل بالجثث، وسيطرت شريعة الغاب، أما العالم فوقف موقف المستمع المتفرّج، وكأن شيئاً لم يقع، فالإبادة لا تُصيب سوى المسلمين، وقتلهم أمر مرغوب فيه، لأنهم انتصروا على الروم بالماضي، ولم يفسحوا للصليبيين المجال للبقاء في بلادهم يفسدون، ووقفوا كذلك في وجه الاستعمار الصليبي، ويكفيهم هذا جرماً ليحلّ قتلهم، ويضاف إلى الجرائم السابقة أنهم لا يستمعون إلى الإرساليات التنصيرية، ولا يقبلون الارتداد عن الإسلام، ويدعون فوق كل هذا إلى الفضيلة إذ يأبون الزنا ويرفضون شرب الخمر، ويُحرّمون الربا، ويمنعون الاختلاط، ويحاربون السفور والتكشّف والتحلّل، وهذا ما يعيق ركب الحضارة ألا يكفيهم هذا كي يُبادوا.

أُعلن عن قيام دولة بنغالديش فاستلم رئاسة الدولة نصر الإسلام، وتسلّم رئاسة الحكومة تاج الدين أحمد. واستولت الحكومة على مزارع الشاي الواسعة، والمؤسسات الصناعية، وعدّت الجيش الباكستاني في الجناح الباكستاني الشرقي كله أسيراً، ووقّع قائده الجنرال (نيازي) وثيقة الاستسلام، وأعلن مندوب بنغالديش في بيروت (جلال الدين أحمد) أن دولته ستقوم على أساسٍ علماني.

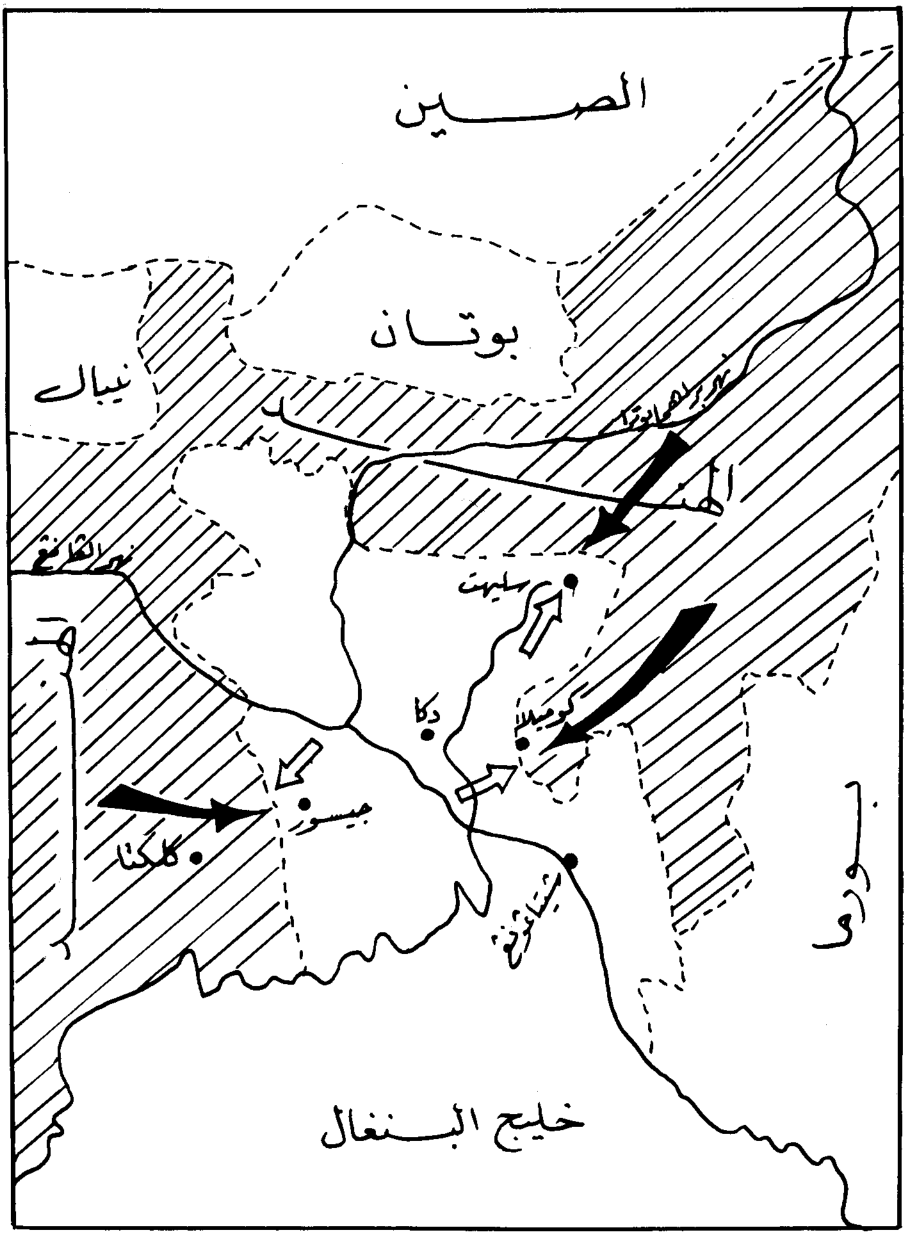

الجبهة الشرقية

الدفاع :

الهجوم :

٢ ـ الجبهة الغربية:

كان على باكستان أن تحشد قوتها كاملةً، وأن تتقدّم على حدود كشمير، وتُنهي وضعها بحربٍ خاطفةٍ، وظهر تفوّق الجيش الباكستاني في الأيام الأولى من الحرب على هذا المحور، وهو محور وادي شناب (سيالكوت ـ جمو) ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تُحقّق الوصول إلى أهدافها، فلم تتمكّن من احتلال كشمير كما حُدّد للجيش من أهدافٍ. ولما رأت الهند التفوّق الباكستاني على هذه الجبهة، عادت فتحرّكت قواتها على ثلاثة محاور على طول الجبهة الغربية، ودفعت بثقلها كله، وزجّت بكل إمكاناتها العسكرية في سبيل كسر شوكة التفوّق الباكستاني في قطاع كشمير، ولإضعاف الروح المعنوية المرتفعة التي يُقاتل بها الباكستانيون.

أ ـ تقدمت القوات الهندية في الجنوب من منطقة (كوتش)، وهي منطقة مختلف فيها على الحدود حتى الآن بين الدولتين، وهي في قطاعٍ قريبٍ من ميناء (كراتشي) المرفأ الأول في باكستان، وهذا ما يُخيف السكان، ويجعل الجيش الباكستاني يُسرع ليسدّ هذه الثغرة، ويُوقّف تقدّمه في كشمير.

ب ـ وتقدّمت القوات الهندية في منطقة (راجستان)، وهي منطقة صحراوية غير مُعزّزةٍ، وتتقدّم فيها الحدود الهندية داخل باكستان، ويظهر من أي نصرٍ يُحرزه الهنود الخوف من فصل باكستان إلى قسمين: جنوبي وشمالي، ويُقابل هذا التقدّم مدينة (سوكور) التي لا تبعد عن الحدود أكثر من ثمانين كيلومتراً، ويقوم على نهر السند هناك سدّ ذو أهميةٍ كبيرةٍ.

ج ـ وتقدّمت القوات الهندية على محور أمريتسار ـ لاهور، مستفيدةً من كثرة السكان هنا حيث الرعب، وتدبّ الفوضى مجرد أي انتصارٍ تحرزه الهند، كما تستفيد القوات الهندية هنا من وجود عناصر جماعة السيخ، وهم أشدّ حقداً وفتكاً بالمسلمين من أية جماعةٍ أخرى هناك.

ولكن الهند لم تستطع أن تُحرز التقدم السريع على هذه الجبهات إذ

كانت القوات الباكستانية تصدّ الهجمات الهندية ببسالةٍ، إلا أن الهجوم الباكستاني على كشمير قد خفّت حدّته، واستمرّت الجبهة الغربية على هذا الوضع حتى انتهاء الحرب، إذ لم تستطع قوة أن تُحرز نصراً بيّناً.

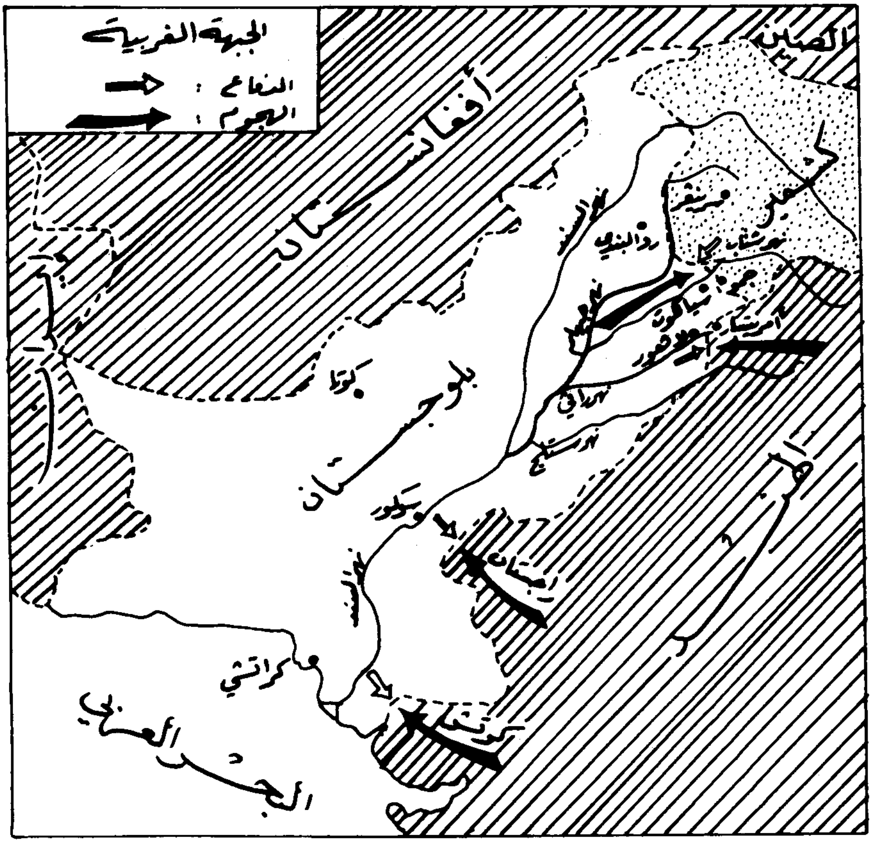

وقف القتال:

اجتمع مجلس الأمن وفشلت كل الاقتراحات المقدمة إليه بسبب مُعارضة الروس الذين كانوا يستعملون حقّ النقض (الفيتو)، ثم أُحيل الموضوع إلى الجمعية العمومية فاتخذت قراراً بوقف إطلاق النار، وانسحاب جيوش كلا الدولتين من أراضي الدولة الأخرى، غير أن الهند

استمرّت في عُدوانها رغم مُوافقة باكستان على هذا القرار. ثم وقف القتال في ٢٩ شوال ١٣٩١ هـ (١٧ كانون الأول ١٩٧١ م).

أما الدول التي ترتبط بأحلافٍ مع باكستان سواء دول حلف المعاهدة المركزية أم دول حلف جنوب شرقي آسيا، فلم تُحرّك ساكناً، لأنها لا تستطيع أن تتحرّك دون رأي إنكلترا أو أمريكا حسب فلك السياسة التي تدور فيها، وهاتان الدولتان راغبتان في الوصول إلى نتيجة كالتي حدثت رغم ما تدعيانه وتُشيعانه.

ولكن الروس اشتركوا بالحرب مباشرةً ونصروا أتباعهم، وساعدوا على انفصال شطرٍ من دولة، وكانوا يدّعون أنهم يُحاربون كل انفصالٍ، وقد سحقوا حركةً في المجر، وأخرى في تشيكوسلوفاكيا تحت شعار عدم الانفصال عن حلف (وارسو)، وكان اشتراكهم في الحرب ضدّ باكستان بقيادة خبرائهم ومدربيهم في الجيش الهندي للطائرات الروسية التي تملكها الهند، والتي زوّدت روسيا بها الهند وخاصةً بعد المعاهدية الهندية - الروسية التي سبق توقيعها قبل المعركة بمدةٍ قصيرةٍ.

وكذلك اشتركت دولة اليهود في هذه الحرب ضدّ باكستان عن طريق ضباط دخلوا ساحة المعركة، وتسلّموا قيادات فيها مثل: العقيد (جاكوب) الذي كان معاون قائد القوات الهندية التي اجتاحت باكستان الشرقية، وقد رفع التمثيل السياسي بين الهند ودولة اليهود بعد هذه الحرب مباشرةً إلى درجة سفارة بعد أن كان على درجة قنصلية.

وإذا كانت باكستان الشرقية قد استسلمت، ووقعت فيها مجازر رهيبة جداً وخاصةً ما تمّ منها على أيدي ما عُرف باسم ثوار «موكتي بهيني». إلا أنه في باكستان الغربية قد ابتدأت المظاهرات بعد وقف إطلاق النار، وكانت تُطالب باستمرار القتال، والعمل على إحراز النصر، فإن الهزيمة في باكستان الشرقية ليس معناها نهاية الحرب وخسارتها، وهذا يدلّ على ارتفاع معنويات الباكستانيين، وخاصةً بعد الانتصارات التي حقّقوها على الهند في

المعارك الطاحنة التي دارت رحاها عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م)، كما تدلّ هذه المظاهرات على استعداد الباكستانيين للتضحية. كذلك كان المتظاهرون يُطالبون بمحاكمة يحيى خان، واعتباره مسؤولاً عن الهزيمة التي لحقت بالبلاد، إذ لم يقم بالدور السياسي المطلوب، ولم يستفد من العواطف الإسلامية الكامنة، ولم يتحرّك سياسياً فيتصل بالدول التي ترتبط بمعاهداتٍ مع بلاده، أو بروابط أخرى، إضافةً إلى التقصير بالاستعداد الذي كان يلزم المعركة.

سقوط يحيى خان:

استدعى الرئيس يحيى خان من نيويورك ذوالفقار علي بوتو الذي كان قد سافر قبل مدةٍ إلى الأمم المتحدة ليعرض وضع بلاده عليها، وما أن وصل إلى باكستان حتى سلّمه يحيى خان أمر البلاد، وغادرها متوجّهاً إلى طهران، بصفته من فرقة الشيعة، ثم عاد بعد مدةٍ لتُفرض عليه الإقامة الإجبارية في المنزل، وكانت قد شُكّلت لجنة من أجل النظر في إمكانية تقديم يحيى خان إلى المحاكمة غير أن ذلك لم يكن إلا في سبيل امتصاص نقمة الشعب عليه.

الفصل الثالث

الصراع الداخلي

لم يكن أحد ليتوقّع أن يحدث صراع داخلي في باكستان بهذه السرعة، فالصراع مع الهندوس لم تنته آثاره بعد، ولم تدمل جراحه ففي كل بيتٍ لا تزال أنّة، وفي كل دارٍ غصّة، لم يغسل الناس آثار دماء ذويهم، ولم تجفّ دموعهم عليهم، والقبور شواهد، ناهيك عن العذارى الداميات، والحرائر المفجوعات، وأهليهم الحيارى الصابرين. والاستقلال بالعقيدة لم تمض فرحته، والخلاص من الاضطهاد والظلم لم يقض على الزفرات، ولم يُنه الأنين. ولكن أعداء الإسلام لم يتركوا هؤلاء ولا أولئك إذ صعب عليهم أن يروا دولة تقوم على أساس العقيدة الإسلامية فجنّ جنونهم، وطاش صوابهم، وانطلقوا يحرّكون خفايا النفوس، وكوامن الأفئدة، ولا يخلو مجتمع من أصحاب أهواء، وذوي مصالح، هذا مع العلم أن قادة هذه الدولة الجديدة باكستان لا يلتزمون بأحكام الإسلام، وإن كانوا ينتمون إلى أهله، وينتسبون إليه، فلو كانوا من الملتزمين لارتجّت أرض الصليبيين بتحرّك أهلها لمقاومة المتطرفين ـ حسب اصطلاحهم الصليبي ـ وهذا ما رأيناه عندما انقشع نور أمل لوصول فئةٍ إسلاميةٍ إلى حكم. . . ، إذ ضجت المحافل الصليبية وتداعى له أتباعها من الذين ينتمون إلى الإسلام، ويتسلّطون على أهله، وربما في مقدمتهم الذين يدّعون العمل بأحكامه، ويتاجرون بذلك، ويصدُّقهم المغفلون من رعاياهم ومن الظامئين إلى حكم الإسلام.

هبّ أعداء الإسلام يحرّكون التعصّب الإقليمي، ويثيرون الطامعين إلى المناصب، ويتصلون بأصحاب الأهواء، وبرز الذين يريدون الزعامة ورفعوا بعض الشعارات التي تُؤدّي إلى وقوع الصراع، وكانت الخلافات.

الصراع الإقليمي:

بعد أن نزل الخوجا نظام الدين من منصب الحاكم العام إلى منصب رئاسة الوزراء تحرّكت في نفسه نزعة الزعامة والرغبة بالرئاسة الأولى، ودفعه الأعداء، وشُحن بالعصبية الإقليمية، فادّعى بسيطرة الجناح الغربي على الشرقي رغبةً في زعامته، وحمل نقاطاً معينة وأخذ يطرحها.

ادّعى أن أكثرية الجيش من البنجاب مع أنه ليس هناك مانع من إقبال أهل البنغال إلى الجيش، وامتهانهم العسكرية، ولكنهم هم لا يرغبون ذلك، وأهل البنجاب يقبلون فهل نمنعهم.

وطالب أن تكون اللغة البنغالية لغةً رسميةً ثانيةً في الجناح الشرقي، ولكن وجود لغتين في دولةٍ واحدةٍ إشارةً إلى بداية ظهور الفرقة، وبدءاً لعلامة الانقسام، وحملاً لبقية الأقاليم لتطالب بلغاتها المحلية لتكون رسمية، وبعدها تكون التجزئةُ حيث لا توجد دولة في الدنيا كلها لها خمس لغات رسمية.

ونادى بنقل العاصمة من الجناح الغربي إلى الجناح الشرقي ما دام أكثر سكاناً، وهذا أمر غريب، فباكستان الشرقية تغصّ بالسكان، وقاعدتها لا تتسع لأي جديد. فإذا أصبحت عاصمةً مركزية صعب تأمين المرافق الرئيسية، والدول عادةً تؤسس عاصمة جديدةً بعيدةً عن مناطق الازدحام.

ومع هذه الطلبات الغريبة إلا أنها لقيت آذاناً صاغيةً نتيجة التعصّب الإقليمي ونتيجة الجهل بالدرجة الأولى. وأقيل الخوجا نظام الدين فزادت حماسته لمطالبه، وكانت بذرة الانشقاق، إذ حملها أصحاب المصالح،

والراغبون في الزعامات، والانفصاليون، ودعمهم أعداء الإسلام من مختلف الفئات لضرب باكستان، والفكرة التي قامت عليها حتى كان الانفصال كما رأينا.

ومما ساعد على ذلك النظام الاتحادي الـذي قامت عليـه الدولـة، والقوانين التي كانت تصدر، وترسّخ فكرة الإقليمية في سبيل إرضاء أهل تلك الأقـاليم ممن قويت عنـدهم النزعـة الإقليمية نتيجـة الجهل ونتيجـة دعايات أصحاب الأطماع والزعامات.

وإذا كانت الأقاليم في الجناح الغربي أقل حدّةً في النزعة الإقليمية لضعفها الاقتصادي إلا أنها قد وجدت. وإذا كان الدستور الذي أعلن في **١١** شعبان **١٣٧٥** هـ (**٢٣** آذار **١٩٥٦** م) قد وحّد أقاليم الجناح الغربي. ولكنها عادت مرةً أخرى إلى الظهور. وربما كان الصراع مع الهند قد خفّف من حدة تلك النزعة. غير أن انفصال باكستان الشرقية عاد فأحيا الإقليمية في الجناح الغربي، وبرزت خاصةً في إقليمي السند، وبالوشستان.

ولا شك أن أعداء الإسلام، وأعداء باكستان، والفكـرة التي قامت عليها باكستان كانوا وراء تلك النزعة، ومن الذين يثيرونها، لحقدهم على الإسلام، وليصبح لهم مجالاً للتدخّل نتيجة الضعف الذي تكون عليه تلك الأقاليم عندما تنفصل عن الأم، ونتيجة الجهل سار بعض الناس وراء هذه الشعارات بل انساق بعض المسلمين الملتزمين عصبيةً ـ مع الأسف ـ وعدّوا ذلك خدمةً للإسلام، إذ يجدون مجالاً لتطبيقة، وما ذلك إلا جهلاً، أو ظنوا أن ذلك يوصلهم إلى الزعامة فأعمى ذلك أبصارهم.

الصراع العقيدي:

إن المسلمين هم الأكثرية الساحقة في الدولة، بل إن باكستـان لم تنشأ إلا على أساس جمع المسلمين في الهند بدولةٍ واحدةٍ. فليس هناك صراع عقيدي واضح، وإنما يقف ضدّ المسلمين كل الأقليات الأخرى.

فالهندوس قلوبهم مع الهند، ولهم دور في الجناح الشرقي، وكانوا عاملاً أساسياً في الانقسام حيث تستفيد الهند من وراء ذلك، فتفكر في ابتلاع باكستان الشرقية بعد انفصالها نتيجة ضعفها وكثرة الهندوس النسبية فيها.

والبوذيون والسيخ يضعون العراقيل في وجه الحكومة، ويثيرون الفوضى حقداً على الإسلام، ويعملون على قتل من يستطيعون قتله خفيةً.

والإسماعيليون والقاديانيون يرتبطون بإنكلترا، ويحقدون على الإسلام، ويعملون على إثارة الفرقة بين أبنائه، وعلى تشويه تعاليمه وأفكاره وقيمه، وعلى بث الفساد بين أفراده.

والشيعة لا يعجبهم شيء إلا إذا كان منسجماً مع مبادئهم رغم ادعائهم الإسلام، وهم دائماً ضدّ السلطة، ويعارضون أي قانون يتفق مع المبدأ الإسلامي ما دام لا يحمل فقههم، وتتجه أنظارهم باستمرار نحو إيران.

والمسلمون منقسمون فالملتزمون فئة تدعو إلى تطبيق الإسلام، والعمل بأحكامه، والدولة لم تقم إلا على هذا الأساس. ويحرصون على بثّ الوعي بين السكان، والدعوة إلى الالتزام. أما غير الملتزمين فهم من أصحاب المصالح، والأهواء، والمناصب، والمرتبطين، والجهلة. وهم يرفضون الالتزام لأن ذلك يحول دون ما يرغبون فيه. ولذا فإنهم يقفون في وجه الملتزمين ويردّدون الشائعات التي يبثّها أعداء الإسلام، ويكونون بوقاً لها، وغير الملتزمين عادة من الملحدين والعلمانيين والجهلة، وهم بالأصل الذين يحملون أفكاراً رأسمالية واشتراكيةً، ويدورون في فلك الدول الكبرى، وهم أيضاً أصحاب المصالح والأهواء وطلبة المناصب.

الصراع الحزبي:

كان حزب الرابطة الإسلامية هو الحزب السياسي الوحيد، وهو الذي قام بدور رئيسي في سبيل قيام باكستان. وهو الحزب الذي استلم السلطة،

ومع أن الدولة قامت على أساس الإسلام إلا أن قادة هذا الحزب لم يكونوا ملتزمين بأحكام الإسلام وتعاليمه، فكان منهم المسلم، والقادياني، والإسماعيلي، والمتزوج بهندوسية، والمقترن بمجوسية، ومن هنا جاء دعمهم والسكوت عنهم من قبل الدول الكبرى خوفاً من أن يأتي مسلمون ملتزمون يُطبّقون الإسلام، ويحولون دون تدخّل المستعمرين الصليبيين، ويقفون في وجههم أمام استغلال المسلمين وبلادهم، وأمام تنفيذ المخططات الأجنبية. ومن هنا فلم تُطبّق أحكام الإسلام، وبقيت هذه الدولة التي قامت على الإسلام كأي دولةٍ علمانيةٍ أخرى، بل برز فيها القاديانيون، والإسماعيليون، وأكثر الفرق الضالة نتيجة تنظيمهم ومخططاتهم كأقليات.

ثم ضعف حزب الرابطة الإسلامية أمام ظهور النزعة الإقليمية. وظهرت مجموعة منه في الإقليم الشرقي برئاسة الخوجا نظام الدين، وجماعة تعارضه في الجناح نفسه برئاسة محمد علي بوغرا، وظهر حزب الرابطة في الإقليم الغربي معارضاً للأفكار التي يحملها أتباعه في الجناح الشرقي، ومع ذلك فقد بقي الحزب قوياً لأن السلطة بيده، والانتهازيون، وأصحاب المصالح، والذين يريدون العمل، والمتزلفون للحاكم كثيرون في كل مجتمع، وهم بجانب الحاكم، لذا بقي الحزب تبدو له شعبية ومؤيدون، وإن كانت شعبيةً ظاهريةً فالمنتفعون والمتزلفون ينفضون عنه مجرد تركه السلطة، ويلتفّون حول الحاكم الجديد.

وفي هذه الحالة لا بدّ من أن تنشط الجماعة الإسلامية التي تأسست منذ عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)، وتدعو إلى تطبيق الإسلام، وتذكر الناس والحكام أن الدولة قامت على أساس ديني، فإن لم يُطبّق كان العمل السابق كذباً على الأمة، والمجتمع مسلم، ويُطالب بإقامة أحكام عقيدته، وزاد نشاط الجماعة مع رؤية التأييد الذي وجدته في صفوف الشعب. غير أن السلطة قد وقفت في وجهها، ومنعت نشاطها، وألقت أميرها (أبو الأعلى المودودي) وكبار قادة الجماعة في السجن، وحلّت التنظيم وصادرت أملاكه،

وصحفه. ومن باب التضليل على الشعب العادي أو الجاهل ادعت الفئة المتسلّطة عليه أن الإسلام لا علاقة له بالسياسة، ولا علاقة للمسجد إلا بأداء الصلاة، ثم تغلق المساجد بعد العبادة، فلا دعوة ولا عمل، وأما ما كان يفعله رسول الله ﷺ، وما سار عليه الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من أن الخليفة هو الإمام والخطيب في المسجد، وأنه القائد للجيوش في الحروب، وأنه المتكلّم باسم الدولة والمفاوض أثناء إبرام الصلح، وعقد العهود، وأن خطبه لم تكن قاصرة على النصح والتوجيه وإبانة الأحكام، وإنما كانت تتناول وتهتم بشؤون المسلمين في كل مكان، وبحث مشكلاتهم، وما يُعانون، وإمكانيةِ مساعدتهم، وخطط الأعداء ضدّهم إن كانوا أقليةً يعيشون بين ظهراني غير المسلمين، ملزمين على ذلك ومجبرين. ويدّعي المتسلّطون أن تلك عهود قد مضت ـ وكأن الإسلام إنما جاء لمرحلة معينة ـ والآن نخشى من إثارة الدول الكبرى، وإساءة العلاقات معها، إن قلنا أو دعونا لتطبيق الإسلام.

ومع النشاط الإسلامي، ونتيجة الفكرة التي قامت عليها باكستان، وبسبب الكره للأعمال الوحشية والإجرامية التي قام بها الهندوس بقيت الأحزاب تحمل العنوان الإسلامي، وإن كانت فارغة المضمون. إذ بقي حزب الرابطة الإسلامية وكان برئاسة الخوجا نظام الدين، ونشأ حزب نظام الإسلام برئاسة شودري محمد علي الذي كان رئيساً للوزراء. وظهر حزب باكستان الإسلامي في ربيع الثاني **١٣٨٣** هـ (أيلول عام **١٩٦٣** م).

ونتيجة الحظر الذي فرض على الجماعة الإسلامية نشط العلماء ليسدّوا الفراغ، ولكن لم يبحثوا بالأمور السياسية إلا بالمقدار الذي تسمح به السلطة، وكانت جمعية علماء الإسلام برئاسة مفتي محمود، وجمعية علماء باكستان برئاسة شاه أحمد نوراني، وعبدالستار نيازي، وجمعية أهل الحديث. برئاسة الشيخ محمد عبدالله، وأمانة سر ساجد مير.

وبدأت الدول الكبرى تمدّ يدها، وتدفع بطلاب الزعامة، ونتيجة

الجهل، وتفشي العنصرية ظهر في باكستان الشرقية حزب عوامي الوطني برئاسة عبدالحميد خان بها شاني، وحزب عصبة عوامي برئاسة نواب زاده نصر، وأمانة سر مجيب الرحمن، وكلاهما يحمل نهجاً اشتراكياً، تدعمه روسيا وتتخذ منهما مطيةً، وتدفع أحدهما لمنافسة الآخر، ليبقى لها شرف الهيمنة، وحتى إذا عثر أحدهما امتطت الآخر، أو جمح واحد، طاردته بالثاني، وهي لعبة الجياد الدولية المعروفة. ولما انقسمت الشيوعية بين روسيا والصين سار أحدهما وهو عبدالحميد خان بها شاني وحزبه عوامي الوطني مع الصين، ومشى نواب زاده ومجيب الرحمن وحزبهما عصبة عوامي مع روسيا.

ومع الخلاف الشديد بين هذه الأحزاب والتباين الفكري الواضح بينها، والشقة الواسعة في ارتباط بعضها فقد شكلت جبهة معارضةٍ واحدةٍ ضدّ أيوب خان عندما استبد بالسلطة، وأطلق يده فيها.

ومع السياسة الأمريكية التي أخذت تتبنّى أحزاباً سياسيةً تنهج نهجاً اشتراكياً في سبيل إجهاض الحركة الشيوعية، وإفراغ المعنى الاشتراكي من مضمونه تماماً فقد نشأ حزب الشعب برئاسة ذوالفقار علي بوتو عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، وهو حزب ديمقراطي اشتراكي، يشير نحو اليسار ويتجه نحو اليمين.

وظهر حزب باكستان الوطني عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م).

وأسّس الجنرال أصغر خان حزب العدالة في شهر ذي الحجة ١٣٨٨ هـ (آذار ١٩٦٩ م).

هذه أهم التجمعات السياسية في باكستان الكبرى، وهناك تنظيمات كثيرة، فكلما أراد طامع الزعامة شكل حزباً، ووجد له أعواناً ومؤيدين نتيجة الجهل مهما كانت الأفكار التي يدعو حتى أن المسلمين الذين خرجوا من الهند واتجهوا نحو باكستان عندما جرى التقسيم شكّلوا حركةً قويةً عرفت باسم «حركة مهاجر قوامي».

كان الصراع شديداً بين التجمّعات الإسلامية والأحزاب العلمانية وإن حملت عناوين إسلامية ويدور الصراع حول الأفكار، وصلاحية الإسلام، ومقارنة بين الإسلام والنظم الوضعية، وبين النظام الإسلامي الاقتصادي، والمـذاهب الاقتصـاديـة المعـاصـرة، وحـول النـظم الاجتمـاعيـة، والقيم الإسلامية.

ويقع الصراع بين التجمعات الإسلامية نفسها حول كسب العناصر، والاجتهادات الفرعية، والتصرّفات الشخصية، وهذا ما يكون له أكبر الأثر ـ مع الأسف ـ في تفكّك الصف الإسلامي.

ويتهم الحزبيون العلمانيون الجماعات والأفراد الإسلاميين بالجمود، والرجعية وعدم فتح العيون على معطيات العصر العلمية والتقنية، ويحاولون التفريق بين الجماعات الإسلاميـة فيعزون التـطرّف إلى أقواهـا، وأكثرهـا التزاماً، فيعلنون الحرب عليها، ويصفون غيرها بالاعتدال، فإذا زالت من طريقهم وجّهوا سهـامهم على سواهـا الأقوى فـالأقوى حتى تحتـوى، أو تخضع أو تسقط، وهكذا حتى النهاية حسب مخططهم.

وينعت المسلمـون الملتـزمـون العلمـانيين بـالإلحـاد، والانحـراف، والتفلّت من القيم، والبعد عن الأخلاق الإسلامية، والسير وراء الشهوات البهيمية، والسعي وراء المصالح، وتقليد الأعداء، والجريان في فلك الدول الكبرى.

أما غير الإسلاميين فيقع الصراع بينهم حسب المذهب الاقتصـادي الذي ينادون به، وحسب الدولة الكبرى التي تتبنّى ذلك المنهج، وبالتالي حسب الفلك الذي يجري فيه ذلك الحزب، ثم الصراع على المصالح، والمنافع، والإفادة من السلطة.

الباب الرابع

باكِسْتَان

تجزّأت باكستان إلى قسمين فحملت باكستان الشرقية اسماً جديداً هو «بنغالديش»، بينما بقي الجناح الغربي، وهو باكستان الغربية يحمل اسم «باكستان»، وغدت دولةً وحدها، وقد توالى على حكمها منذ انفصال الجناح الشرقي منها عنها حتى الآن ثلاثة رؤساء.

١" ـ ذوالفقار علي بوتو:

تسلّم السلطة في باكستان بتكليفٍ من يحيى خان في ٣ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (٢٠ كانون الأول ١٩٧١ م) ولكن استمرّت المطالبة بالقتال، ومحاكمة يحيى خان، فوعد ذوالفقار علي بوتو بالبدء بتنفيذ مشروعاته كلها، ومن جملتها ما يُطالبون به، بل وما يطلبونه وحتى مستقبلياً.

غيّر الرئيس الجديد القادة العسكريين، وعدّ بعضهم مسؤولين عن الهزيمة، كما بدّل المحافظين، ثم أسكت المطالبة بالحرب بمناورةٍ سياسيةٍ ماكرةٍ، وأمّم بعض المرافق الحيوية، كل هذا رغم أن البلاد لا تزال تنزف جروحها فهي بحاجةٍ إلى إسعافٍ قبل هذه المشروعات غير أنه أراد إشغال الناس بأمورٍ داخليةٍ لإبعادهم عن أهدافهم الأساسية.

قامت بعض المظاهرات أمام الإجراءات التي قام بها رئيس الجمهورية الجديد، وكان أعنفها ما حدث في منطقة «بلوشستان» حيث عاشت عاصمتها «كوتا» بحالة حربٍ مدة هذه الاضطرابات.

أعلن ذوالفقار علي بوتو عن إعطاء المقاطعات الباكستانية استقلالاً ذاتياً ضمن جمهورية باكستان، وربما كان ذلك لكسب ودّ سكان باكستان الشرقية التي انفصلت وسارت في دربها الخاص، غير أن بوتو لم يقطع الأمل بإعادتها، بإعطائها بعض مطالبها ضمن الاتحاد الباكستاني الجديد، ولكن لهذا القرار أثره الخطير، إذ كان لكل ولايةٍ لغتها الخاصة، ويمكن بذلك أن يُؤدّي هذا الاستقلال بعد مدةٍ إلى تباعدٍ بين هذه المقاطعات، ثم قيام عددٍ من الدول مكان الدولة الواحدة في باكستان، وهذا ما تريده الدول التي ترغب في تمزيق باكستان وإضعافها من أجل إماتة الفكرة التي قامت عليها يوم نشوئها عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ألا وهي الفكرة الإسلامية. فالأصل صهر هذه المقاطعات في بوتقةٍ واحدةٍ، وليس فصل بعضها عن بعضٍ مهما كانت الأغراض والدوافع السياسية.

بدأ ذوالفقار علي بوتو مباحثاته مع (مجيب الرحمن) الذي أُخرج من السجن، وفرضت عليه الإقامة الجبرية، وحاول (بوتو) أن يشترك معه بالحكم في سبيل المحافظة على باكستان الشرقية ضمن دولة باكستان الموحّدة، ولكن لم يحصل على الموافقة المرجوة، ثم أمر بنقل مجيب الرحمن إلى منزله، وأخيراً أطلق سراحه في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٧٢ م)[١] فغادر مجيب الرحمن باكستان متوجّهاً إلى لندن حيث عقد هناك مؤتمراً صحفياً دعا فيه إلى الاعتراف بحكومة بنغالديش، كما أجرى مباحثاتٍ مع رئيس الوزارة البريطانية، ولم يمكث في لندن سوى يومٍ واحدٍ غادرها بعد ذلك متوجّهاً إلى (دلهي) حيث كانت الهند قد أرسلت له طائرةً خاصةً أقلّته إلى عاصمتها، حيث استقبل هناك استقبالاً رسمياً، وبعد ذلك توجّه إلى (دكا) عاصمة بنغالديش الدولة الجديدة.

---

(١) اعتقل مجيب الرحمن في باكستان في ٢٩ محرم ١٣٩١ هـ (٢٦ آذار ١٩٧١ م)، وابتدأت محاكمته في ١٩ جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ (١١ آب ١٩٧١ م) بتهمة إثارة الحرب ضد باكستان، وذلك أمام محكمة عسكرية، وسمح له بالدفاع عن نفسه، وتكليف المحامين الذين يختارهم للدفاع عنه.

وكان في هذه المدة قد زار وزير الخارجية الروسية (غروميكو) الهند في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ (٩ آب ١٩٧١ م)، وعقد معاهدةً معها لمدة عشرين عاماً.

اتفاقية سيملا:

في ١٧ جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ (٢٨ حزيران ١٩٧٢ م) بدأت محادثات القمة بين الرئيس الباكستاني ذوالفقار علي بوتو ورئيسة وزراء الهند (انديرا غاندي) في مدينة سيملا الهندية التي تقع عند سفوح جبال هيمالايا على بعد ٢٢٠ كيلومتراً إلى الشمال من العاصمة الهندية (دلهي) في محاولةٍ للتوصّل إلى تسويات المشكلات المُعلّقة والناجمة عن حرب شوال ١٣٩١ هـ (كانون الأول ١٩٧١ م)، وعن تقسيم باكستان، وقيام دولة بنغالديش. ومن الجدير بالذكر أن مدينة سيملا هذه هي التي تقرّر فيها تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م)، بعد جهودٍ مضنيةٍ دامت خمسة أيامٍ، تمّ بعدها على الاتفاق الذي أذيعت بنوده في ٤ شعبان ١٣٦٥ هـ (٣ تموز ١٩٤٦ م).

وأهم بنود هذا الاتفاق الذي تمّ التوصل إليها بين الرئيس الباكستاني ذوالفقار علي بوتو ورئيسة وزراء الهند (انديرا غاندي)، والتي أذيعت في ٢١ جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ (٢ تموز ١٩٧٢ م) كانت كما يأتي:

أولاً: استعادة باكستان لكل الأقاليم التي فقدتها في حرب كانون الأول مع الهند باستثناء المناطق الواقعة على طول خط وقف إطلاق النار بينهما في إقليم كشمير، وتُقدّر مساحة هذه الأراضي التي كانت قد احتلتها الهند بـ /٨٦٢٠/ كيلومتراً مربعاً، معظمها في المناطق الصحراوية من إقليم السند، ومنطقة مراعي (كوتشي)، وقطاع البنجاب.

ثانياً: انسحاب القوات الهندية إلى مواقعها قبل الحرب في السند، وكوتشي، والبنجاب لتستعيد باكستان أراضي تبلغ مساحتها /٨٢٢٠/

كيلومتراً مربعاً، وتستمر الهند في احتلال المساحة المتبقية، وهي تقع في كشمير وتبلغ مساحتها أربعمائة كيلومتر مربع.

ثالثاً: أن تُعيد باكستان إلى الهند الأراضي التي احتلتّها في قطاع البنجاب، وصحراء راجستان، وتبلغ مساحتها حوالي ستمائة كيلومتر مربع.

رابعاً: اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئناف الاتصالات السلكية واللاسلكية والبريدية البحرية والبرية ـ بما فيها مراكز الحدود ـ والجوية بما فيها تحليق طائرات، كل منها في أجواء الأخرى، وتسهيل سفر مواطني البلدين.

خامساً: استئناف التجارة والتعاون في المجالات الاقتصادية والتبادل في المجالات العلمية والثقافية.

سادساً: ترك مسألة إعادة العلاقات بين البلدين لأحوالها الطبيعية لمزيدٍ من المحادثات بين مُمثّلي البلدين.

وكذلك أوضح الاتفاق أن يبدأ انسحاب قوات الطرفين إلى الحدود الدولية للدولتين بمجرد أن يصبح ساري المفعول بعد التصديق عليه من السلطة التشريعية في البلدين، وأن يتمّ هذا الانسحاب خلال ثلاثين يوماً من بدايته. كما اشتمل الاتفاق على المبادىء العامة لحسن الجوار بين الدول، ومنها نبذ استخدام القوة لتسوية المنازعات بين البلدين، ومراعاة تطبيق مبادىء ميثاق الأمم المتحدة في العلاقات بينهما، واللجوء للوسائل السلمية في حلّ خلافاتهما، واحترام كل منها لسلامة ووحدة أراضي الآخر، وعدم التدخل في شؤونه الداخلية[1].

أصدر ذوالفقار علي بوتو قرارات ما عُرف بالإصلاحات الزراعية في الشهر الأول من عام ١٣٩٢ هـ (آذار عام ١٩٧٢ م)، وقد خفّضت هذه

(١) اتفاقية سيملا والمصالحة الهندية ـ الباكستانية. نازلي معوض أحمد ـ السياسة الدولية عدد ٣٠ تشرين الأول ١٩٧٢ م.

القرارات الحد الأقصى لملكية الأراضي الزراعية من ٥٠٠ إلى ١٥٠ أكراً من المروية، ومن ١٠٠٠ إلى ٣٠٠ أكر من الأراضي غير المروية، وتتولّى الدولة توزيع الزائد من أراضي كبار الملّاك على صغار الفلاحين.

وقام بتأميم شركات التأمين والمصارف المالية الباكستانية وهي خمسة عشر مصرفاً، برأسمالٍ قدره خمسة وعشرين مليون جنيه استرليني، كما أمّم أربعين صناعةً أساسيةً، وزاد في نصيب العمال من الأرباح.

ثم ألغى القانون العسكري في شهر صفر من عام ١٣٩٢ هـ (نيسان ١٩٧٢ م) قبل أربعة أشهرٍ من التاريخ المحدّد لإلغائه، واتخذ دستوراً مُوقّتاً.

وفي ٨ ربيع الأول ١٣٩٣ هـ (١٠ نيسان ١٩٧٣ م) وافقت الجمعية الوطنية على دستورٍ جديدٍ للدولة، وهو أساس أقام من البلاد نظام اتحادياً بعد الوحدة التي كانت قائمةً، وجعل هذا الدستور رئيس الدولة رأساً دستورياً، فقط، أما رأس السلطة التنفيذية فهو رئيس الوزارة. وعيّن فاضل إلهي شودري رئيساً للجمهورية، وتسلّم ذوالفقار علي بوتو رئاسة الوزارة، وكانت البلاد بيده، أما رئيس الجمهورية فيعيش في الظلّ.

وتتألف الجمعية الوطنية من مجلسي الشيوخ والنواب، حيث يشمل مجلس الشيوخ ٦٣ عضواً ويضم مجلس النواب ٢١٠ أعضاء بينهم عشر نساء.

وفي عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) قامت حركة تمرّدٍ في ولاية (بالوشستان) بزعامة حزب عوامي الوطني، وتهدف هذه الحركة إلى انفصال بالوشستان عن باكستان، وتأسيس دولةٍ خاصةٍ على أساس القومية البالوشستية، وضمّ المناطق الأفغانية التي يُقيم فيها البالوش إليها، وكان الشيوعيون هم وراء هذه الحركة، ويعملون بالخفاء لتجزئة الأمصار الإسلامية في سبيل إضعافها وخاصةً تلك التي تجاور الإمبراطورية الروسية،

ثم تطبيق المنهج العلماني، وأخيراً يأتي دور ابتلاعها من قبل الروس بعدما يكون قد حلَّ فيها من الضعف ما حل، وما ساد فيها من المفهوم الاشتراكي لانتشار الفقر، فعمّت الدعاية للروس، وعملهم لمحاربة الأغنياء ودعم الفقراء.

وفي عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) اعترفت باكستان بالدولة البنغالية وانفصالها عن باكستان.

اشتداد المعارضة:

أعلن ذوالفقار علي بوتو عن إجراء انتخابات في ١٧ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ (٧ آذار ١٩٧٧ م) وأعلنت الأحزاب أنها ستشارك فيها، وقدّمت المرشحين. وقد رشّحت الجماعة الإسلامية نائب أميرها، وهو (جان محمد العباسي) ضدّ ذوالفقار علي بوتو، ولكن لم يلبث أن صدر الأمر بإلقاء القبض عليه قبل تقديم أوراق ترشيحه بيومٍ واحدٍ، وهكذا فاز ذوالفقار علي بوتو بالتزكية.

وفي ٢٠ محرم ١٣٩٧ هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٧٧ م) شكلت المعارضة تحالفاً ضدّ حزب الشعب الذي يتزعّمه ذوالفقار علي بوتو، وهو الحزب الحاكم، وكان هذا التحالف برئاسة مفتي محمود، أمير جماعة علماء الإسلام، وضمّ تسعة أحزابٍ وجماعاتٍ سياسيةٍ، ومنها:

١ ـ حزب طريق الاستقلال برئاسة الجنرال أصغر خان.

٢ ـ حزب باكستان الديمقراطي.

٣ ـ حزب عوامي الوطني.

٤ ـ حزب رابطة باكستان الإسلامية.

٥ ـ جماعة علماء الإسلام.

٦ ـ الجماعة الإسلامية.

٧ ـ جماعة علماء باكستان.

٨ ـ الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة خان عبدالولي خان.

٩ ـ الحزب الوطني الاشتراكي برئاسة غوث بخش بزنجو.

غير أن الحكومة قد تدخّلت بشؤون الانتخابات، فقد كانت النتائج تُعلن بالإذاعة قبل انتهاء عملية فرز الأصوات، ونتيجة ذلك حصل حزب الشعب على مائةٍ وخمسةٍ وخمسين مقعداً من أصل مائتي مقعدٍ، ولكن التحالف الوطني لم يعترف بهذه النتائج، ووقعت أزمة بعد إعلان نتائج الانتخابات ذهب ضحيتها مقتل ثلاثمائةٍ وخمسين إنساناً، وألقي في السجون عشرات الألوف من الشباب.

وقد جعل التحالف الوطني أهدافه:

١ ـ إبعاد ذوالفقار علي بوتو عن الحكم.

٢ ـ إعادة الانتخابات النيابية العامة.

٣ ـ تطبيق الشريعة الإسلامية.

ومع اشتداد المعارضة بدأ فعلاً حزب الشعب بالتصدّع فقد استقال منه أمينه العام مُباشر حسن، كما استقال سفير باكستان في إسبانيا اللواء الجوي عبدالرحيم خان.

وأخذ ذوالفقار علي بوتو يجري المباحثات مع التحالف الوطني، وما أن أعلن عن فشل هذه المباحثات حتى وقع الانقلاب ضدّ نظام حكم حزب الشعب برئاسة ذوالفقار علي بوتو.

□ □ □

٢" ـ ضياء الحق:

[١٨ جمادى الآخرة ١٣٩٧ ـ ٦ محرم ١٤٠٩ هـ (٥ حزيران ١٩٧٧ ـ ١٨ آب ١٩٨٨ م)].

---

(١) ضياء الحق: ولد في ٢٢ محرم ١٣٤٣ هـ (١٢ آب ١٩٢٤ م) في بلدة (جولاندار) في مقاطعة البنجاب، وتعلّم في مدينة (دلهي) عاصمة الهند في كلية (سانت ستيفنز) الإنكليزية، وخدم بالجيش الإنكليزي، وأصبح ضابطاً عام ١٣٦٤ هـ في سلاح الفرسان، فلما تمَّ تقسيم الهند انتقل مع أسرته إلى مدينة (كراتشي) في =

أعلن قائد الجيش عن القيام بحركة ضدّ ذوالفقار علي بوتو لوضع حدٍّ لموجة العنف السياسي التي أدّت إلى مصرع أكثر من ثلاثمائةٍ وخمسين مواطناً، وإصابة الآلاف، وتدهور الوضع السياسي، والعجز عن الوصول إلى حلّ الأزمة، وخوفاً من قيام أعمال عنفٍ جديدةٍ، وخشيةً من إقحام ذوالفقار علي بوتو للجيش بالسياسة واستخدامه في عمليات القمع كما سبق أن فعل.

= باكستان، والتحق بالجيش الباكستاني، وكان منضبطاً، محباً لمهنته، مرتبطاً، وعلى صلةٍ وثيقةٍ بزملائه الضباط، ومحبوباً من قبل مرؤوسيه. والتحق بكلية الأركان، وتخرج منها عام ١٣٧٥ هـ، وبعدها عمل مدرساً فيها.

شارك في الحرب التي جرت بين الهند وباكستان عام ١٣٨٥ هـ، وسافر إلى الأردن من بلاد الشام عام ١٣٨٩ هـ، وكان مستشاراً عسكرياً هناك، وشهد ما دار من أحداث يومذاك في تلك المنطقة.

وساهم في الحرب التي جرت بين الهند وباكستان عام ١٣٩١ هـ، والتي انتهت بتجزئة البلاد، وقيام دولة بنغالديش. ورقي إلى رتبة جنرال عام ١٣٩٦ هـ، وعيّن قائداً عاماً للجيش رغم وجود ضباطٍ أقدم منه رتبةً.

وفي عام ١٣٩٧ هـ زادت المعارضة ضد الرئيس الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، ووقفت في وجهه الجماعات الإسلامية، فحدثت فوضى واضطرابات في البلاد، فقاد ضياء الحق انقلاباً أطاح بنظام الحكم القائم برئاسة ذوالفقار علي بوتو ١٨ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ (٥ حزيران ١٩٧٧ م)، وقدّم ذوالفقار علي بوتو إلى المحكمة بتهمة تدبير جريمة قتل لأحد رجال المعارضة، ونُفّذ حكم الإعدام به.

وشكّل ضياء الحق وزارةً شاركت فيها الجماعات الإسلامية، وعندما قامت الثورة الإسلامية في أفغانستان، وقف إلى جانبها، ودعم المجاهدين، وفتح باكستان أمام تحركاتهم، وأقام لهم المعسكرات، والمستشفيات داخل باكستان، وهذا ما شدّ من عزائمهم، وشجّعهم على القتال ومتابعة الجهاد.

وتحسنت علاقته مع الولايات المتحدة بعد انقطاع بسبب المفاعل النووي الباكستاني. وساهم في لجنة المصالحة التي شكلها مؤتمر القمة الإسلامي لحل الخلاف بين العراق وإيران، ولم تنجح هذه اللجنة في مهمتها.

وفي ٥ محرم ١٤٠٩ هـ (١٧ آب ١٩٨٨ م) قُتل بحادثة طائرةٍ في طريقها من مطار (باوالبور) إلى مطار (راولبندي) وله ولدان وثلاث بنات.

فـرض ضيـاء الحق الأحكـام العـرفيـة، وحـلّ الجمعيـة الـوطنيـة، والمجالس التشريعية الإقليمية، وأقـال حكومـات الأقاليم، وشكّـل مجلساً عسكرياً من قادة الأسلحة الثلاثة: البرية، والبحرية، والجوية تحت رئاسته، وألّف وزارة من المـدنيين تُعاونـه في إدارة البلاد، كمـا أصدر عـدداً من القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية، فأقام الحدود، وفرض عقوباتٍ صارمةً على شاربي الخمر، وألغى الربا من المصارف.

كما اعتقل زعماء التحالف الـوطني كي لا تكون الحركة موجّهةً ضدّ جماعةٍ معينةٍ ـ على ما يبدو ـ ولكن هذه الاعتقالات لم تطل، إذ أخـرج الجميع من السجون.

وطالب ضياء الحق زعماء التحالف الوطني بالتعاون، وقد خـاطبهم بأني قد نفّذت هدفكم الأول بإبعاد ذوالفقار علي بوتو عن الحكم، وألغيت كذلك الانتخابات الماضية، وأزلت كل نتائجها وآثارها، وهذا من هدفكم الثاني الذي سأُتمّمه بإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ، وقد وعد بأنها ستكون بعد ثلاثة أشهرٍ، أما أنتم فعليكم مساعدتي بتطبيق الشريعة الإسلامية التي هي المـطلب الثالث لكم، وبـذا تتحقّق جميـع أهـدافكم التي كنتم تعملون جاهدين في سبيل تنفيذها.

وعد ضياء الحق بعودة الحكم المدني، وأبقى فاضل إلهي شودري رئيساً للدولة. وقد أيّد الإسلاميون ضياء الحق في أول الأمر، وأُسند إلى بعضهم المناصب الوزاريـة، فتسلّم وزارة الإعلام أحـد أعضاء الجمـاعة الإسلامية. وكان طفيل محمد أمير الجماعة الإسلامية خال ضياء الحق، وعلى صلة وثيقة به، ومع ذلك فقد وقفت الجماعة منه موقف المعارض لاستمراره في الحكم العسكري.

وفي شـوال ١٣٩٨ هـ (أيلول ١٩٧٨ م) ترك فـاضل إلهي شـودري رئاسة الدولة فضم ضياء الحق رئاسة الحكومة إلى رئاسة الدولة وتسلمهما.

قُدّم ذوالفقار علي بوتو إلى المحكمة بتهمة الأمر بقتل أحد معارضيه،

وقد ثبتت التهمة عليه، ونُفّذ فيه حكم الإعدام بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (٤ نيسان ١٩٧٩ م).

وفي ذي القعدة من عام ١٣٩٩ هـ (تشرين الأول ١٩٧٩ م) أجّل الانتخابات إلى أجلٍ غير مُسمّى التي كان قد سبق أن وعد بها. ولكنه في الوقت نفسه طالب بتطبيق الإسلام.

سياسة ضياء الحق:

سار ضياء الحق في سياسته في اتجاهين يكادان يكونان متضادين متنافرين إذ هما متباينين أشدّ التباين، وهذا ما وجّه إليه معارضة من خصمي كلا الاتجاهين، لقد سار في:

أ ـ اتجاه أمريكي:

إذ تقرّب من الولايات المتحدة الأمريكية وهو يهدف إلى:

١" ـ الحصول على السلاح.

٢" ـ إبعاد أمريكا عن الهند، ومحاولة عدم حصول الهند على السلاح من أمريكا لإضعاف الهند، قلةً في السلاح، وتنوّعاً في مصادره ولهذا أثره في التخطيط، مكانةً في السياسة الدولية.

٣" ـ التأمين على استمرار حكمه.

وقد لقي تجاوباً من طرف الولايات المتحدة، وسكتت مرحلياً عن اتجاهه الثاني، فهي تريد من نظامه:

١" ـ إذلال روسيا في بلاد الأفغان، كما سبق لروسيا أن أذلّت الولايات المتحدة في حرب فيتنام. ولكن لهذا حدّاً يجب أن يقف عنده، فلا يحقّ له أن يعمل على تمكين المجاهدين الأفغان من استلام السلطة، وإقامة حكومة إسلامية. وإنما إذلال روسيا فقط، ثم إقامة حكم علماني في بلاد الأفغان، وإسكات الإسلاميين والشيوعيين بعدها.

٢″ ـ إبقاء باكستان في فلك النظام الرأسمالي، وعدم توجّهها نحو الصين، إذ توطّدت العلاقات بينهما بعد الحروب الباكستانية الهندية عام ١٣٨٥ هـ و ١٣٩٠ هـ.

ب ـ اتجاه إسلامي:

ضياء الحق حسبما يبدو صاحب اتجاهٍ إسلامي، ويريد تطبيق الشريعة، وإقامة علاقاتٍ وثيقةٍ مع كافة الأمصار الإسلامية بل لا مانع عنده من الوحدة الإسلامية، غير أنه يخشى:

١″ ـ التفاهم مع الحركات الإسلامية في باكستان لأن الدول الكبرى لا ترضى عن ذلك وخاصةً الجماعة الإسلامية التي أسّسها أبو الأعلى المودودي عام ١٣٦٠ هـ، وهي الآن برئاسة طفيل محمد خال ضياء الحق. ولقد بدأ ضياء الحق عهده بالتقرّب من الحركات الإسلامية الباكستانية، وحصل على تأييدها، وشاركت معه في الوزارة الأولى التي شكّلها، وتحمّلت معه تبعات الحكم، ثم أحسّ بالخطر يقترب منه نتيجة هذه السياسة، فابتعد عن الحركات الإسلامية، غير أنه لم يستطع أن يتخلّى عن خطّه، فانزوى قليلاً، فأخذت تلك الحركات تُعارض خطّ سيره العسكري الأمريكي.

٢″ ـ عملت الدول الكبرى ضدّه صليبيةً إذ هي ضدّ العمل الإسلامي، وخاصة صاحب الفكر الواعي منه مثل بعض التنظيمات الإسلامية التي قامت تدعو إلى الوحدة الإسلامية، وتطبيق الشريعة، والحقيقة ليست الدول الكبرى وحدها في هذه القضية، وإنما الدول كلها إذ لا تعدو أي دولةٍ أن تكون صليبيةً أو يهوديةً، أو ملحدةً، أو علمانيةً، أو وثنيةً، وكلها ضدّ الإسلام مباشرةً وعلى طول الخط، بل ويُضاف إليها الطغاة من كل صنفٍ وربما كان بعضهم من بين المسلمين وإن...

٣″ ـ الأعداء في داخل باكستان من الأصناف كلها، فهم يتربّصون الدوائر به، مخالفةً صريحةً بالمنهج، وطمعاً في استلام السلطة، فأصحاب

النظام الشيوعي يجدون في ضياءً عدوّاً في العقيدة بإسلامه، وفي السياسة لمحاربته الشيوعيين في أفغانستان، ولاتجاهه الأمريكي، وأصحاب النظام الأمريكي يرون فيه عدوّاً بإسلامه، ومن الناحية السياسية فقد انتهى دوره عندهم.

ولهذا بدا ضياء الحق مُتبايناً في سياسته، مختلفاً في منهجه، لا يكاد يُعرف له خط، يسير مترنّحاً متخوّفاً.

غير أن الخطّ الذي استطاع أن يُوفّق فيه بين الاتجاهين دعم المجاهدين الأفغان، فهو في هذا الجانب يُحقّق خطه الأصيل في دعم المجاهدين، ويُرضي في الوقت نفسه أمريكا التي تريد إذلال روسيا فتسكت عن سياسته بحذرٍ، وتمدّ بتروٍّ. واستمرّ هذا حتى وُقّعت الاتفاقية بين الحكومة الباكستانية والحكومة الأفغانية في ٢٧ شعبان ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م).

شعرت أمريكا بعد توقيع تلك الاتفاقية أنها قد أذلّت روسيا فخرجت من أفغانستان ذليلةً كليلةً، وبذا فإن دور ضياء الحق قد انتهى ويجب أن يتوقّف دعم المجاهدين الأفغان، ولا يصحّ أن يستمرّ أكثر من ذلك، إذ يُؤدي استمرار الدعم إلى تمكّن المجاهدين، وتمكينهم من استلام السلطة، وبذا أرادت أمريكا أن تتخلّص منه، وأخذت تُخطّط لذلك.

المعارضة الخارجية:

قلنا إن الدول كلها تقف ضدّ حكم ضياء الحق للمنهج الذي يسير عليه، وكذلك الطغاة في مختلف الأرض للسبب نفسه، ولكن يهمنا لفت الانتباه إلى بعض الدول الرئيسية وهي:

أمريكا: كانت تُؤيّده وتدعمه في المرحلة الأولى في سبيل الوقوف ضد روسيا في أفغانستان، فلما تمّ لها ما تريد، ووُقّعت الاتفاقية بين الحكومتين الأفغانية والباكستانية في ٢٧ شعبان ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م)، وانسحبت روسيا، وانتهت بذلك مهمّة ضياء الحق.

روسيا: تقف صراحةً ضدّ ضياء الحق لأنه يقف في وجهها في أفغانستان، ويدعم المجاهدين ضدّها، وضدّ أتباعها الذين يحكمون «كابول»، ولمخالفته لها في العقيدة، فهي عدوّة الإسلام، وهو مسلم، وإن نجاحه في منهجه، وانتصار الأفغان، وتشكيل دولةٍ مسلمةٍ قويةٍ على حدودها ليُؤثّر عليها أشدّ الأثر، فلربما وهو الأغلب أن يُثير ذلك المسلمين الذين يخضعون للسيطرة الروسية، وهذا معناه تفكّك الإمبراطورية الروسية، وإضعافها، وتراجعها إلى دولةٍ من الدرجة الثانية أو الثالثة، بل ربما خضعت للمسلمين الذين يكون قد قوي شأنهم، وتخلّصوا من ربقة الذلّ التي فرضتها عليهم روسيا، وهذا ما تضعه نصب أعينها، ولا يغيب عنها أبداً نتيجة الظلم الذي تُمارسه، وهي تعلم أن شدّة الضغط يولّد الانفجار، فكيف إذا كان من يدعمه، وخاصةً إذا كان ينطلق من العقيدة الإسلامية، وتبنّي فكرة الجهاد.

هذا إضافةً إلى أنها تُعادي باكستان لصلتها الوثيقة مع الصين المنافسة الشيوعية لروسيا والتي تُوجّه إليها اللوم والاتهام في كل قضيةٍ دوليةٍ، أو لعبةٍ كان للروس فيها دور.

وأخيراً فإن روسيا مصلحتها مع الهند عدّوة باكستان، فكلا الخصمين لباكستان يريد القضاء على باكستان وزوالها من الخريطة عقيدةً وحقداً.

الهند: تنازع باكستان على كشمير، وتُضارّها على الولايات المتحدة الأمريكية، وتخشى من الإسلام، وعودة أهله لحكم الهند، وخاصةً أن في الهند أكثر من ثمانين مليون مسلم، واشتبكت معها في حربين، وتُعدّان خصمين دائمين أو عدوّين لدودين.

إنكلترا: تسير في السياسة نفسها التي تسير عليها الولايات المتحدة الأمريكية، وتحقد على باكستان إسلاميتها، وعلى ضياء الحق توجّهه الإسلامي، فتريد زواله.

الصين: ترغب في قوة باكستان لتنتصر على الهند التي تختلف مع الصين، ولتذلّ روسيا التي بينها وبين الصين بينونة صغرى.

أفغانستان: حكومة أفغانستان شيوعية تدعمها روسيا التي جيوشها بجانبها، وضياء الحق يُؤيّد المجاهدين الذين يُحاربون الحكومة الشيوعية العملية، فالخلاف بين باكستان وحكومة أفغانستان مستحكم، وبقاء طرف مرهون بزوال الطرف الآخر.

المعارضة الداخلية:

تتمثّل المعارضة الداخلية في عددٍ من الأحزاب والجماعات والمنظمات، وإن كانت هذه المعارضة تختلف في عنفها بين حزب وآخر، حسب منهجه الذي يسير عليه وسياسته التي يتبعها، ومن هذه التجمعات:

١" ـ **حزب الشعب**: ويتزعّم هذا الحزب نصرت بوتو[1] زوجة ذوالفقار علي بوتو الذي أُعدم بالمحاكمة لإعطائه الأمر بقتل أحد معارضيه، وذلك بعد أن قام ضياء الحق بانقلابه ضدّ حكم بوتو. ويُعارض هذا الحزب نظام الحكم ثأراً، وحقداً، وطمعاً في استلام السلطة، هذا بالإضافة إلى النهج الاشتراكي الذي يعمل له، وسياسته نحو الشرق حسبما يزعم على حين يسير باتجاه الغرب، وبخطٍ موازٍ للسياسة الغربية تماماً وفي فلك السياسة الأمريكية.

وإذا كان ضياء الحق قد استقطب بعض زعماء هذا الحزب، وهذا أمر طبيعي ما داموا من الانتهازيين فهم مع كل حاكم، ورغم أن عدداً من قادته قد تخلّوا عن الحزب إلا أنه لا يزال قوياً.

٢" ـ **الحزب الوطني الديمقراطي**: ويتزعمه خان عبدالولي خان، ويدعو إلى إقامة وطنٍ خاصٍ بقبائل «الباتان» المقيمة في الشمال الغربي

---

(١) إعطاء لقب الزوج للزوجة على طريقة الكفار.

من البلاد، وتتكلم هذه القبائل لغة «البشتو» التي تسود في بلاد الأفغان، وهذا الحزب، يسير تحت جناحه أعداد من الشيوعيين.

٣" ـ **الحزب الوطني الاشتراكي**: ويتزعمه غوث بخش بزنجو، ويدعو إلى إقامة وطنٍ خاصٍ بقبائل البالوش وينحو منحى الاشتراكية.

٤" ـ **حزب عوامي الوطني: وينهج خطاً اشتراكياً.**

هذه الأحزاب الأربعة لا ترى دعم المجاهدين الأفغان بدعوى مصلحة باكستان وحرصاً على اقتصادها، وتنتقد في الوقت نفسه محاربة النظام الشيوعي القائم في كابول والذي تدعمه روسيا. وتُهاجم أيضاً السير في ركاب أمريكا. ولكنها لا تعمل على الاصطدام مع الحكم إذ تعتقد أن النظام قوي، ومُركّز، ومُؤيّد من الجيش.

٥" ـ **المنظمات النسائية**: وغالباً ما تتزعّم هذه المنظمات النسوة اللاتي تحلّلن من القيم، وتحرّرن من الدين، وتأثرن بالأفكار المخالفة للشرع، وليس لديهن أي خلفيةٍ دينيةٍ لذلك يدّعين أن الإسلام يجور على المرأة ولا يعطيها حقها، على حين أن النظم الأخرى من شيوعيةٍ ورأسماليةٍ تُعطي المرأة كامل حقها، ولا يعرفن من هذه الحقوق سوى التحرّر من كل القيم، والسير كما يحلو لهن، والتصرّف كما ترغب الواحدة منهن.

هذا النوع يرى في الإسلام عدوّاً له لذا فهو يقف في وجه كل من يدعو له أو ينادي به، ومن هنا وقوفهنّ ضد نظام ضياء الحق.

٦" ـ **الشيعة**: وهذه الطائفة أمرها غريب جداً، فعلى الرغم من ادعائها الإسلام والانتساب له إلا أنها لا توافق على أي مشروعٍ إسلاميٍ إلا إذا كان على المذهب الشيعي، هكذا تدّعي، والواقع أنها لا تُعارض إسلامياً، وإنما تُعارض سياسةً فلا تقبل نظام الحكم القائم، وإنما تريد التبعية لإيران التي أصبح لها مكانة في نفوس الشيعة في بقية جهات العالم، وكان عارف الحسيني رئيس حركة تنفيذ الفقه الجعفري، والزعيم

الشيعي جعفر حسين يُعارضان دائماً الحكم، ويدعون أن عددهم عشرون مليوناً، والواقع أنه لا يزيد على سبعة ملايين، وإذا ضممنا إليهم الإسماعيلية وصل العدد إلى ثمانية ملايين فتكون نسبتهم ١٠٪ من مجموع سكان باكستان. وجرت لقاءات بين ضياء الحق ووزير الشؤون الدينية من جهة وبين الشيعة من جهةٍ أخرى، ووصلوا إلى بعض التفاهم بعد جهود مضنية ولم يكن لذلك أي أثر.

٧" ــ **الإسماعيلية**: وهم لا علاقة لهم بالشيعة، وهم أصحاب نفوذ وثراء، ويسيرون في فلك السياسة الإنكليزية، ويعملون ضدّ الإسلام، وإن ادّعوا أنهم أصل الإسلام وهذا ما يعلنون لكن ما يضمرون لا يبعد عن العمل ضدّ الإسلام، والهدم فيه بمختلف المعاول.

٨" ــ **القاديانيون**: ومع أن هؤلاء قلّة، ونقصت أهميتهم بعد أن أصدرت المحاكم الشرعية أنهم فرقة ليست مسلمةً إلا أن عناصرهم ذات مراكز حساسة، ويُخفون عقيدتهم في أغلب الأحيان. ومع ذلك فهم يتحرّكون تبعاً للسياسة الإنكليزية.

هذه الفئات الثمانية كانت عدوّةً لنظام ضياء الحق، ومعارضةً له، ولكن كانت معارضةً مخفيةً لا تظهر إلا نادراً، وإن كانت معروفةً صراحةً في مُخالفتها للنظام القائم. وكانت هناك معارضة صريحة وإن كانت أخفّ ضراوةً وأقلّ عنفاً، ومن هذه المجموعات.

أ" ــ **الجماعة الإسلامية**: وكانت تحمل على ضياء الحق اتجاهه نحو أمريكا، وحكمه العسكري، وعدم تطبيق الشريعة بشكلٍ جديٍ، وتساهله مع الشيعة، وسكوته عن بعض الذين يسيئون، وكان خورشيد أحمد نائب أمير الجماعة يُصرّح دائماً برفضه للحكم العسكري الذي ينطوي تحته الاستبداد، وكذلك أمير الجماعة القاضي حسين أحمد.

٢" ــ **أهل الحديث**: الذين كانوا يُطالبون بتشكيل مجلسٍ للعلماء

ليكون المرجع لتطبيق الشريعة، ونتيجة عدم القيام بتلبية هـذا المطلب، كانوا يحملون عليه.

٣" ـ **العسكريون**: الذين كانوا يريدون السيطرة، وقد مارسوها مدةً من الزمن منذ أيام أيوب خان، ويحيى خان، وحتى بوتو، ورغم أن الحكم عسكري إلا أنه لم تكن للقادة تلك الصلاحيات الواسعة، والممارسات الغريبة التي تعرفها الأنظمة العسكرية الأخرى.

فالمعارضة إذن ذات قواعد عريضةٍ غير أنها خامدة، وربما كانت تبرز أحياناً أما الحكم فكان يرتكز على كبار الضباط الذين هم دعامة الرئيس ضياء الحق، وبعض الزعماء المدنيين من السياسيين، ثم العامة وهم غالبية الشعب، وهؤلاء يُؤثّر فيهم الإعلام، وربما تستطيع المعارضات كسب أعدادٍ منهم بالتأثير والدعاية.

أجرى ضياء الحق استفتاءً عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) وحصل على ثقة الشعب نتيجة هذا الاستفتاء، واستمرّت الأحكام العرفية معمول بها منذ قيام الانقلاب عام ١٣٩٧ هـ حتى عام ١٤٠٥ هـ، وبعدها وعد بإجراء انتخاباتٍ، ووضع قوانين لها، ومنها:

أ ـ عدم الاختلاط: حيث ينتخب المسلمون وحدهم ولهم ممثليهم، وينتخب غير المسلمين وحدهم ولهم ممثليهم.

ب ـ التمثيل النسبي: فتكون الأصوات للأحزاب وليس للأشخاص، ويُعطى الحزب من المقاعد بنسبة ما نال من الأصوات. والأحزاب التي لا تحصل على نسبة ٥٪ من مجموع الأصوات لا تُمثّل في الجمعية الوطنية .

ج ـ تقديم حسابات الحزب: إن الحزب الذي يُريد أن يُشارك في الانتخابات عليه تقديم حساباته المالية، ونظامه الأساسي للدولة.

ولكن التحالف الوطني قد عارض هذه القوانين، وعدّها غير دستوريةٍ،

والانتخابات يجب أن تكون حرةً، وغير مشروطة، وغير خاضعة لقوانين خاصة يصوغها كل حاكمٍ وفق هواه.

ولكن أجريت انتخابات البلدية على حين ألغيت الانتخابات النيابية.

انقلاب جديد:

بعد أن وُقّعت الاتفاقية بين باكستان وحكومة أفغانستان في سويسرا في ٢٧ شعبان ١٤٠٨ هـ (١٤ نيسان ١٩٨٨ م)، وانسحبت روسيا من بلاد الأفغان عسكرياً أحسّ ضياء الحق أن وضعه في بلاده قد اختلّ، فأسرع يبحث عن الأسباب، ويفتش عن مخرج، فوجد.

أن المجاهدين الأفغان قد شعروا أنهم قد خُذلوا من باكستان، ولم يكن هذا توقّعهم، وهم قد رفضوا تلك الاتفاقية إذ لم يكونوا طرفاً فيها رغم أنها كانت بسببهم ومن أجلهم. وضياء الحق لا يريد خذلان المجاهدين، بل كان يقف إلى جانبهم حسب إمكاناته المادية، وطاقاته السياسية حيث هناك حدّ معين يمكن أن يقوم به، ولا يمكنه أن يتعدّاه.

وشعر أن خلافاً بينه وبين رئيس حكومته محمد خان چوينچو الذي كان يتسلّم حقيبة وزارة الدفاع إضافةً إلى رئاسته للحكومة، وكان ضياء الحق هو القائد الأعلى للجيش والقوات المسلّحة، وبحكم منصب الرجلين يحدث احتكاك لكن لم يصل إلى درجة الصدام. وأحسّ هنا ضياء الحق أن رئيس حكومته كان ضمن اللعبة حيث كان يرى أن المجاهدين يُشكّلون عبئاً على باكستان في الوقت الذي كانت تعاني فيه ضائقةً اقتصاديةً، لذا يجب طردهم من أراضي باكستان، والتفاهم مع الروس. وهذا ما جعل ضياء الحق يلجأ إلى انقلابٍ جديدٍ في بلاده بصورةٍ سلميةٍ.

ففي ١٤ شوال ١٤٠٨ هـ (٣٠ أيار ١٩٨٨ م) ألقى خطاباً بالتلفزيون أعلن فيه حلّ الجمعية الوطنية، وإقالة الحكومة برئاسة محمد خان چوينچو لأنها فشلت في وضع حدٍّ للفساد، ولكنه لم يُعلن الأحكام العرفية، ولم

يُعلّق الدستور، ولم يحظر نشاط الأحزاب، ووعد بإجراء انتخاباتٍ خلال ثلاثة أشهرٍ، وألغى زيارته للصين التي كانت مقررةً أن تكون في هذا اليوم. وغيّر المواقع في مسؤولي وسائلِ الإعلام، وعزل المفاوضين في جنيف من مناصبهم بعد توقيع الاتفاقية.

وعيّن رحيم الدين، وهو جنرال متقاعد، حاكماً لإقليم السند.

وفي ٢٤ شوال ١٤٠٨ هـ (٩ حزيران ١٩٨٨ م) شكّل وزارةً برئاسته، ضمّت أعضاء متبايني المشارب، فكان منهم صاحب زاده يعقوب خان الذي تسلّم حقيبة وزارة الخارجية، وقد كان يشغلها من قبل، وهو ضابط من أصدقائه، وهو الذي تولّى شأن مفاوضات جنيف مع ممثلي حكومة الأفغان الشيوعية.

وحبيب الحق وتسلّم منصب وزير المالية.

ومير هزار خان بجراني من أعضاء حزب الشعب البارزين سابقاً، ومن أعضاء الوزارة المُقالة.

ومير أفضل خان، وهو أيضاً من أعضاء الوزارة المُقالة، ومن قادة حزب الشعب سابقاً.

وكان تشكيل هذه الوزارة بعد لقاءٍ طويلٍ تمّ بينه وبين الشيخ حردان شاه الذي كان مستشاراً دينياً لرئيس الوزراء السابق محمد خان چوينچو.

وفي الأول من ذي القعدة ١٤٠٨ هـ (١٥ حزيران ١٩٨٨ م) عاد فألقى كلمةً دافع فيها عما سبق أن اتخذه من إجراءاتٍ سابقةٍ، ووعد بأن تتغيّر قريباً الأوضاع الاقتصادية في باكستان كما ستتغيّر القوانين ـ إن شاء الله ـ.

وفي ١١ ذي القعدة أي بعد عشرة أيامٍ من إلقاء كلمته الأخيرة ألقى كلمةً جديدةً تساءل فيها عما سيكون جوابه فيما إذا سئل يوم القيامة لِمَ لم يحكم بالشريعة الإسلامية!!!

ويبدو كأنه أحسّ بما يُدبّر له، وشعر باللعبة الدولية ضدّه، وتوقّع أن

أيامه قد اقتربت على الانتهاء، فرأى ضرورة التزامه بخطه الإسلامي دون التفكير بالخوف من أمريكا، ولا حاجة لطلب رضاها، والأمر بيد الله، والآجال، والأرزاق بيده سبحانه وتعالى، وأخذ يفكر بالانطلاق من هذا المبدأ، وقرّر إجراء استفتاء عام (١٩٩٠ م) في الوقت الذي تنتهي فيه مدة رئاسته، إن بقي حياً، ليعرف ثقة الشعب وتجاوبه مع سياسته.

مقتل ضياء الحق:

أخذ ضياء الحق يقوم بأعماله بمنتهى السرية التامة من باب اتخاذ الأسباب، ويتوقّع حدوث ضربةٍ قاصمةٍ في البلاد، وإن لم يُعيّن مصدرها، غير أنه يتوقّعها من أمريكا التي كان يعمل على مسايرتها، ويُظهر السير في فلكها، وعلى منهجها.

وانتهت مهمة ضياء الحق عند أمريكا، فقد خرجت روسيا من أفغانستان مكرهةً، ولم يعد يصلح ضياء الحق عندها لحكم باكستان، إذ لم تعد تريد دعم المجاهدين الأفغان، ولم ترغب أن يصلوا إلى مرحلةٍ أكثر من التي وصلوا إليها بل تريد أن يتراجعوا، وليس أمام الشيوعيين، وإنما أن يبقى الطرفان على الوضع الذي هما فيه، حتى ييأس الشعب، وينفض يده من كلا الطرفين، ويأتي نظام علماني ترضى عنه، كأن يعود الملك السابق محمد ظاهر شاه.

وكانت أمريكا تعلم أن ضياء الحق حاكم باكستان كان يُجاملها، ويُظهر ما لا يُضمر، فهو يُعلن مُوافقته على السير في خطّها ليحصل على السلاح، وقد حصل، بل وبدأ العمل لإنتاج قنبلةٍ ذريةٍ باكستانيةٍ، وهذا ما أثار الهند، ودولة اليهود في فلسطين، وكان يُسايرها ليستمرّ حكمه، وقد تمّ ذلك، فقد حكم أكثر من أحد عشر عاماً.

ولكن أمريكا لا ترضى أن يستمرّ حكمه، لأنها لا ترغب في أن يستمرّ دعم المجاهدين الأفغان، وأن تستمر قوتهم. وكذلك فلا ترضى أن

تُستغلّ، ويستغلّ نظام ما حاجتها إليه، ويتقوّى، ويتسلّح، ويعمل على إنتاج قنبلةٍ ذريةٍ، فمن الأساس لا تقبل أمريكا أن تملك باكستان مثل تلك القنبلة، ولكن اقتضت الظروف أن تسكت عن هذا موقّتاً ما دامت بحاجةٍ مرحليةٍ إلى هذا الوضع، أما وقد انتهت الحاجة، ووصلت أمريكا إلى هدفها، فلتُطح بالنظام وبفكرة القنبلة أو بالأحرى تزول هذه الفكرة مع زوال النظام، ودفن صاحبه، وأخذت أمريكا تدبّر لإنهاء الوضع.

عرضت أمريكا على ضياء الحق شراء بعض الدبابات الأمريكية، وقد أحضرت بعضها إلى باكستان لرؤيتها ومعرفة مزاياها التعبوية، وتحدّد موعد لرؤية تلك المزايا على الطبيعة، وخرج ضياء الحق، ومعه رئيس أركان الجيش الباكستاني أخطر عبدالرحمن، وتسعة من كبار الضباط الذين يعتمد عليهم، والسفير الأمريكي في باكستان (أرنولد رافيل) والجنرال (هربرت واسوم) الملحق الأمريكي لشؤون الدفاع والخبير بسلاح الصواريخ والمدفعية التي يستخدمها المجاهدون الأفغان. ولم يخطر ببال ضياء الحق أي سوءٍ ما دام معه بعض المسؤولين الأمريكان، وكأنه نسي أنهم يُضحّون بكل شيءٍ في سبيل الوصول إلى أهدافهم المهمّة. وكانت الرحلة في منتهى السرية، وبعد رؤية المزايا التعبوية للدبابات المعروضة على الطبيعة انتقل الحضور إلى مطار (بهاوالبور) لينتقلوا منه إلى مطار (راولبندي)، وكانت الرحلة سريةً أيضاً لا يعلم بها إلا أصحابها، واستقلّوا طائرةً في

---

(١) أرنولد رافيل: من ولاية نيويورك، ولد في مدينة (تروى) عام (١٩٤٣ م) ١٣٦٢ هـ، وانخرط في السلك السياسي عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، وعُيّن في إيران في مدينة أصفهان، ثم انتقل إلى مدينة طهران، وأصبح عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) مساعداً خاصاً لوكيل وزارة الخارجية، وفي عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) المسؤول السياسي في السفارة الأمريكية في إسلام أباد، ثم مساعداً خاصاً لوزير الخارجية، ثم النائب الأول لوزير الخارجية الأمريكية ريتشارد مورفي، وفي عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) سفيراً لأمريكا في إسلام أباد، ويعدّ خبيراً بشؤون العالم الإسلامي.

اتجاههم إلى مطار (راولبندي)، وما أن أقلعت الطائرة حتى سقطت محترقةً بسبب انفجار قنبلةٍ فيها، وتناثرت قطعها على الأرض، وقد قُتل جميع من فيها، وذهبوا قتلى محترقين لا يُعرف أحدهم من الآخر وذلك في ٥ محرم ١٤٠٩ هـ (١٧ آب ١٩٨٨ م).

الاتهــام:

ذهب المحلّلون السياسيون مذاهب شتّى في الدوافع التي وراء عملية القتل هذه، ومن هذه الأقوال:

١″ ـ **أن الروس والهنود والأفغان** الشيوعيين وراء هذه الحادثة لحقد الروس وشيوعيي الأفغان على ضياء الحق شخصياً إذ قوّى المجاهدين الأفغان عليهم حتى أذلّهم. وأما الهند فلإضعاف باكستان وخوفها من أن تمتلك جارتها باكستان القنبلة الذرية، وأن تتحسّن علاقتها مع أمريكا أكثر مما هي عليه. وأن يتسلّم المجاهدون الأفغان السلطة في بلادهم ويتفاهموا مع باكستان، وتقوم وحدة بين الطرفين تُهدِّد الهند. هذا بالإضافة إلى بغض ضياء الحق شخصياً بسبب اتجاهه الإسلامي.

وذكر المعلّقون أن المخابرات الباكستانية كانت مُخترقةً من عدة جهاتٍ، فلم تُغن سرية الرحلة التي قام بها ضياء الحق. واختراق المخابرات الباكستانية ينطبق على رأي أصحاب القول وعلى غيرهم.

٢″ ـ **إيران**: كانت إيران على خلافٍ مع باكستان بسبب المفهوم الإسلامي (الإسلام أو الشيعة)، وكان الشيعة في باكستان يريدون أن يحملوا ضياء الحق على مسايرتهم، وتطبيق مفهومهم الخاص بالإسلام حسب المنهج الرافضي، والسير في ركاب السياسة الإيرانية، وجرت لقاءات وحوار...

وقُتل عارف حسين الحسيني (رئيس حركة تنفيذ الفقه الجعفري) في باكستان، وكان مقتله يوم ٢٢ ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (٥ آب ١٩٨٨ م)،

واتهم أنصاره الحكومة بالعمل على قتله. فقامت إيران بردّ الفعل وقتل من اتهمته بقتل أحد أعوانها الأساسيين في باكستان.

٣" ـ **دولة اليهود**: ويرى المحلّلون أن إقدام اليهود على هذا العمل ردّاً على مواقف باكستان الدائمة ضدّ دولتهم في فلسطين، واتخاذ مواقعها دائماً بجانب المسلمين، وخوفاً من القنبلة الذرية الباكستانية التي لن تكون لباكستان فقط، وإنما حسب اتجاه ضياء الحق للمسلمين جميعاً أي ضدّ دولة اليهود، فعملوا لإجهاض تلك القوة قبل تكاملها.

٤" ـ **الباكستانيون**: ومنهم العسكريون الذين يريدون السلطة، أو المدنيون من أصحاب الثأر كحزب الشعب، أو أصحاب المصالح أو أصحاب مناهج مُباينة لمنهج ضياء الحق وخاصةً الشيوعيين الذين قضّ مضجعهم دعم المجاهدين الأفغان، ومحاربة الحكم الشيوعي في كابل، وإذلال روسيا وإجبارها على الانسحاب من بلاد الأفغان. وقد حالت سلطات الأمن الباكستانية من وصول لجان التحقيق إلى مكان الحادث.

٥" ـ **أمريكا**: وهو الظنّ الراجح لما قد سبق وبيّناه. ولكن أبعد التهمة عنها قليلاً وجود أمريكيين معه وهم ذو مكانةٍ، ولكن نسي هؤلاء أن أمريكا لا تُبالي ببعض الضحايا مقابل تنفيذ مخططٍ، بل ربما تتخذ من رجالها طعماً لذلك، دون أن تُعلن.

وحسب الدستور الباكستاني يتسلّم منصب الرئاسة إذا مات أو قُتل رئيس البلاد فجأةً رئيس الجمعية الوطنية، وهكذا أصبح رئيس باكستان غلام إسحاق خان.

□ □ □

٣" ـ غلام إسحاق خان[1]:

[٦ محرم ١٤٠٩ هـ ـ . . . . (١٨ آب ١٩٨٨ م ـ. . . .)].

تسلّم غلام إسحاق خان السلطة في اليوم الثاني لمقتل ضياء الحق، فشكّل مجلس طوارىء ضمّ كلاً من وزراء الداخلية، والدفاع، والخارجية، والعدل، ورؤساء أركان القوات البرية، والبحرية، والجوية، ومُهمّة هذا المجلس حفظ النظام، والأمن، والإشراف على الانتخابات العامة التي ستجري في ٧ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٨٨ م)، وهو المجلس الأعلى في البلاد.

وأعلن أن الانتخابات ستكون على أساسٍ حزبيٍ. وأما عن الشريعة الإسلامية فأبدى أن ما في الدستور من قوانين إنما هي موافقة للشريعة، وهذا يعني (لا حاجة للعمل على تطبيق الشريعة، فالأمر منتهٍ)، وأما عن تأييد المجاهدين الأفغان، فقال: إنهم طلبوا الحماية، وقد وُفّرت لهم، وأن اتفاقية جنيف قد تمّ توقيعها ونحن ملزمون بتنفيذها، وسنحاول إقناع المجاهدين بقبولها.

---

(١) **غلام إسحاق خان ولد عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م)**، وهو من الإقليم الشمالي الغربي أي من قبائل الباتان، وقد عمل في بداية حياته جابياً للدخل، وبعد انتهائه من متابعة الدراسة عُيّن محافظاً لمصرف باكستان المركزي.
كان موضع ثقة ذوالفقار علي بوتو، وتسلّم في عهده وزارة المالية، ثم وزارة الدفاع، فلما آل الأمر إلى ضياء الحق مال إليه، وشغل منصب وزارة المالية مدة الأحكام العرفية ١٣٩٧ ـ ١٤٠٥ هـ.
وفي عام ١٤٠٥ هـ انتخب نائباً عن الإقليم الشمالي الغربي، واختير رئيساً لمجلس الشيوخ، وكان مرشح ضياء الحق في هذا الاختيار.
التحق بحزب الرابطة الإسلامية عندما قوي أمرها أيام وزارة محمد خان چوينچو، ثم تركها ليلة إقالتها عند حركة ضياء الحق البيضاء، كما تخلّى من قبل عن حزب الشعب. وكان أحد أركان الحكم الثلاثة وهم: ضياء الحق القائد الأعلى للجيش، وغلام جيلاني رئيس المخابرات العامة، وغلام إسحاق خان رئيس جهاز الخدمة المدنية.

ومن هذه الأقوال تبدو السياسة التي سيتبعها، وأنها مخالفة كلياً للسياسة التي كان عليها ضياء الحق، كما تعط هذه الكلمات دلائل لسبب انتهاء نظام الحكم السابق، ومقتل ضياء الحق، والأيدي التي كانت وراءه.

ولم يعلن عن نتائج التحقيق في مقتل ضياء الحق، ويبدو أن الأمر كان مُسوّىً من قبل ومتفق عليه. وتمّ تعيين الجنرال مرزا إسلام بك[1] قائداً عاماً للجيش.

ما أن انتهت البلاد من آثار مصرع رئيسها ضياء الحق حتى أخذ النشاط الحزبي يظهر بشكلٍ واضحٍ، وخاصةً حزب الشعب الذي كان برئاسة نصرت بوتو زوجة ذوالفقار علي بوتو، وكانت ترى في السياسة الأمريكية الخداع والمكر والتخلّي عن الأصدقاء وقت الضيق والشدة، أو أنها بالأحرى هي التي تتركهم لتجد آخرين تمتطيهم، وتنفّذ من ورائهم مخططاتها وأهدافها، فإذا زلّت بهم قدم دفعتهم إلى الخلف أو ألقت بهم في القمامات وتعهدت غيرهم، وقد ألقت بزوجها ذوالفقار علي بوتو، وتركته يذبح أمام ناظري ساستها، وهم يرقصون على ساحات ضياء الحق، لذا كانت ضد السياسة الأمريكية، وهذا ما جعلها تبعد، وتعيش خارج البلاد في منأى عن الساحة السياسية الباكستانية أما ابنتها بنازير بوتو[2] فقد

---

(١) مرزا إسلام بك، ولد في دكا، ونشأ في قرية (أعظم قره) في البنجاب، كان رئيساً لمجموعة الطلبة المسلمين ١٣٦٤ هـ - ١٣٦٦ هـ، وانضم للكلية العسكرية في (كاكول) ١٣٦٨ هـ، ثم التحق بفوج البالوش بالجيش الباكستاني ١٣٧٢ هـ، ثم بفريق القوات الخاصة ١٣٧٧ - ١٣٨١ هـ. وعين رائداً في كويتا ١٣٨٣ - ١٣٨٦ هـ، وأصبح برتبة مقدم ١٣٨٩ هـ فعين رئيس كتيبة مشاة، وأصبح قائد فرقة في جبهة لاهور عام ١٣٩١ هـ، وقائد لواء ١٣٩٤ هـ، ورئيس فرقة مشاة ١٣٩٨ هـ، وقائد فيلق للجيش، ثم نائباً لرئيس الأركان عام ١٤٠٧ هـ.

(٢) بنازير بوتو: ولدت في كراتشي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م)، وتلقّت دراستها باللغة الإنكليزية في مدرسة القواعد في مدينة كراتشي، ثم التحقت بكلية (كليف) في الولايات المتحدة، وكانت رئيسة اتحاد الطلبة الباكستانيين في الجامعة، وبعدها انتقلت إلى جامعة (أكسفورد) في بريطانيا، وكانت أنموذجاً للطالبة غير المستقيمة، =

تبنّت السياسة الأمريكية لذا أخذت تظهر، وتبرز، وتتحدّث عنها وسائل الإعلام، وتُلمّع بشكلٍ قويٍ وخاصةً في الفتنة التي وقعت في كراتشي في شهر ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) والتي سبقت الانتخابات بقليلٍ، وملخصها أن سلطات مكافحة المخدرات في (سوهراب جوت) عثرت على ثلاثمائة كيلوغرام هيروين، وستة آلاف كيلوغرام من الماريغوانا، وكمياتٍ من الحشيش والأفيون، وثمنها أكثر من نصف مليار دولار، وحدث بين المهاجرين وهم المسلمون الهنود الذين لجأوا من الهند إلى باكستان، ويتكلّمون لغة الأردو، وبين الذين يتكلمون لغة البشتو قتال ذهب ضحيته مائة وثمانون شخصاً، وجرح ما يزيد على سبعمائة شخصٍ، والقصد من هذه الفتنة أن الذين يتكلّمون البشتو، وبعضهم من الأفغان قد اتهموا المهاجرين بأنهم كانوا السبب في إلقاء القبض على رجال العصابة، ومصادرة تلك الكميات من المخدرات، وقد استمرّت الفتنة عدة أيامٍ حتى تمكّنت السلطة من إخمادها ورحّلت ما يزيد على خمسةٍ وعشرين ألفاً من اللاجئين الأفغان عن كراتشي، واتهموا أنهم كانوا يُزوّدون المجاهدين الأفغان بالأسلحة، والمهم أن تُشوّه صورة المجاهدين.

حاولت بنازير بوتو استغلال هذه الفتنة، فبدأت تُصدر التصريحات، وتُهاجم قطاع الطرق، وتجار المخدرات، وتغمز من المجاهدين، ودعت إلى قيام المظاهرات لشجب أعمال اللصوصية وقطع الطرق وتقصد المجاهدين، ولكن لم تجد تجاوباً معها من قبل الشعب.

= وكانت مرافقةً لأبيها. سُجنت بعد اعتقال أبيها، ونفيت إلى بريطانيا عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م)، ولما ألغيت الأحكام العرفية عادت إلى باكستان عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م)، ورحّب بها الكثير، واستقبلت الزوار، وتزوجت شاباً باكستانياً من منطقة السند. وكانت في القنصلية الأمريكية في كراتشي بعد ساعات من مقتل ضياء الحق. عارضها الجناح اليساري في حزب الشعب لأنها سارت في فلك السياسة الأمريكية، واستغلّت النسب الشيعي فتقرّبت من أبناء هذه الطائفة.

أخذت بنازير بوتو تنشط بالدعاية، وتقرّبت من الشيعة بصفتها أحد بنات الطائفة، وأظهرت إيمانها بمعتقداتهم، وهي لا تؤمن بشيء، ونشط حزب الشعب بالدعاية أيضاً، وجاء موعد الانتخابات، وحصل الحزب على الأكثرية وكلّف رئيس الدولة غلام إسحاق خان بتشكيل الوزارة بنازير بوتو بصفتها زعيمة حزب الشعب الذي حصل على الأكثرية بالانتخابات.

وعزلت بنازير بوتو عندما استلمت الحكومة رئيس المخابرات الجنرال حميد غول، وعينت مكانه الجنرال شمس الرحمن كالو.

وفي يوم الاثنين ١٥ محرم ١٤١١ هـ (٦ آب ١٩٩٠ م) أقال الرئيس إسحاق خان حكومة بنازير بوتو، وعيّن غلام مصطفى جاتوي زعيم الائتلاف المعارض لحكم بنازير بوتو، وكانت الوزارة الجديدة حكومةً موقتةً، كما حلّ الرئيس الباكستاني الجمعية الوطنية، والجمعيات الإقليمية الأربعة، وحكام الأقاليم الأربع، بما فيهم حاكم البنجاب نواز شريف الخصم الرئيسي السياسي لبنازير بوتو.

وأعلن الرئيس الباكستاني عن إجراء انتخابات عامة جديدة في ٥ ربيع الثاني ١٤١١ هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٩٠ م) وأعلنت فوراً كل من نصرت بوتو، وابنتها بنازير بوتو عن ترشيح نفسيهما للانتخابات، وكذلك (زرداري) زوج بنازير بوتو.

وصرّح الرئيس الباكستاني أنه اضطر إلى هذا الإجراء اضطراراً، حيث أن الحكومة أصبحت في نظره غير قادرةٍ على الاضطلاع بأعباء الأمور وفقاً للدستور، وكان لا بدّ من الرجوع إلى القاعدة الانتخابية، واتهم الرئيس حكومة بنازير بوتو بالفساد، وانتهاك الدستور، ومحاباة أولي القربى.

وأنشئت محاكم خاصة، وتقرّر أن تُحال أسرة بنازير بوتو وطائفة من

المقربين إليها إلى تلك المحاكم. وأعلن القائد الأعلى للقوات المسلحة الجنرال «أسلم باغ» أن الجيش لا دخل له في السياسة، ولم ينو في وقت من الأوقات، ولم يزمع الاشتراك فيها أبداً.

واتهمت بنازير بوتو الجيش والمخابرات السرية بأنهما لعبا دوراً في إقالة حكومتها، ووصفت الإجراء الذي اتخذ بحقها أنه غير قانوني.

الفصل الثاني

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة باكستان ثمانمائة ألف كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على مائة وعشرة ملايين حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) وبذا تزيد الكثافة على مائة وسبعة وثلاثين إنساناً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة عالية نسبياً، وإن كانت تختلف بين منطقة وأخرى، فهي مرتفعة في مقاطعة البنجاب، ومتوسطة في السند، وقليلة في منطقة الحدود الشمالية الغربية، وضعيفة في بالوشستان. يبلغ طول حدود باكستان ٦٧٧٤ كيلومتر، منها مع أفغانستان ٢٤٣٠ كم، ومع الصين ٥٢٣ كم، ومع إيران ٩٠٩ كم ومع الهند ٢٩١٢ كم.

الصراع الإقليمي:

كانت البلاد وحدة، فلما جاء ذوالفقار علي بوتو إلى السلطة، أعاد إلى البلاد النظام الاتحادي، ووضع دستوراً جديداً وافقت عليه الجمعية الوطنية في ٨ ربيع الأول ١٣٩٣ هـ (١٠ نيسان ١٩٧٣ م)، ونصّ هذا الدستور على قيام النظام الاتحادي، فأخذت البلاد تتعرّض لهزّات، وتسير في طريق التفكك، وخاصةً أن الجناح الشرقي من باكستان كان قد انفصل قبل أكثر من عامٍ قليلاً.

تحرّك أصحاب المصالح، والذين يريدون الزعامة، وأخذوا ينادون بالانفصال، كي يتزعّموا ويسودوا في أقاليمهم، وقد غدت لهم أحزاب،

وأصبحوا رؤساء لها، أما إن كانت البلاد واحدة فلا دور لهم ولا شأن. ويساعدهم على ذلك أن لكل إقليم لغته الخاصة التي تسود فيه، وإن كان معظمهم يعرف لغة الأوردو، وهي التي تجمع بينهم. وكان يُحرّكهم، ويدفعهم، ويدعمهم أولئك الذين يحقدون على باكستان، ويريدون تجزئتها، إما حقداً وكرهاً، وإما لإضعافها ومدّ نفوذهم، كالهندوس، والروس، وكل أعداء الإسلام، وفي التجزئة والضعف، يمكن كسب فئة من الفئات. ويدّعي هؤلاء المحبون للزعامة أن إقليماً يُسيطر على باقي الأقاليم لكثرة أبنائه وتعدادهم، فالقطعات العسكرية أكثر أفرادها من البنجابيين، ويعطون دليلاً لدعواهم بانفصال الجناح الشرقي من باكستان، وتشكيل دولة بنغالديش. وينسى هؤلاء أن أقاليمهم لو انفصلت لما استطاعت البقاء لفقرها وضعفها، فهي ستطلب الحماية، وستضطر عندها للسير في فلك غيرها، وستطلب المساعدة، وستجبر على أن تكون تابعةً لغيرها..

قامت حركة تمرّد في بالوشستان في عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) بزعامة حزب عوامي الوطني، وتهدف إلى فصل هذا الإقليم عن الأم، وكان الشيوعيون وراء هذه الحركة تبعاً لمصالحهم، وقد حُظر هذا الحزب بعد انقلاب ضياء الحق، ثم رجع إلى نشاطه بعد مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق، وقد حصل على ثلاثة مقاعد في الجمعية الوطنية التي تشكلت بعد ذلك. وكذلك ظهر الحزب الوطني الاشتراكي برئاسة (غوث بخش بزنجو)، ويعمل كالحزب السابق لفصل بالوشستان.

وقامت حركة في إقليم السند تدعو أيضاً إلى هذا الانفصال، وتعدّ أن بقية أقاليم باكستان تعيش على حساب السند، ولا شك أن وراء هذه الحركة كبار التجار، وطائفة الإسماعيلية ذات الإمكانات التجارية، وأصحاب المصالح، والشيعة الذين يكثرون في منطقة حيدر أباد السند، إذ يريدون الارتباط بإيران، وكذلك المجوس الذين لهم الهدف نفسه، ومن وراء ذلك كله إنكلترا التي تريد أن تمكّن نفوذها في السند عن طريق

أعوانها، وتضعف بذلك الأقاليم الأخرى التي تصبح داخلية فتمدّ نفوذها إليها، وتتحكّم بالمنطقة كلها. ويعمل لهذا أيضاً كل أعداء الإسلام إلى تؤدّي التجزئة الباكستانية إلى إضعاف فكرة الرابطة الدينية.

ويوجد أيضاً الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة خان عبدالولي خان، ويدعو إلى استقلال قبائل الباتان في إقليم الحدود الشمالية الغربية.

ويحتجّ الانفصاليون جميعاً بسيطرة البنجابيين على باكستان وضياع بقية الأقاليم، ويدلّلون على قولهم بالقوات العسكرية التي ينتمي أكثر أفرادها إلى البنجاب. وينسون أن فكرة قيام باكستان إنما كانت الرابطة الإسلامية، ودعوتهم إلى التجزئة والانفصال إنما هي محاربة لتلك الفكرة، وإماتة لها، ولكن أكثر أصحاب هذه الدعوة إنما هم من أصحاب مناهج أخرى معادية للإسلام، وهذا أساس دعوتهم، وقد يوجد بينهم قلة من المسلمين الملتزمين غير أن العصبية العنصرية قد أعمتهم، أو أن الادعاءات وتزيين الشعارات قد أصمّ آذانهم عن سماع الحق. ويجب ألا ينسى هؤلاء أن التجزئة هي إضعاف لكل إقليم، وجعله يطلب المساعدة والحماية، ويضطر للسير في فلك الأعداء، وهذا ما يخططون له.

الصراع العقيدي:

قلنا: إن عدد سكان باكستان قد وصل إلى مائة وعشرة ملايين عام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م)، ويتوزّعون حسب العقائد على الشكل الآتي:

المسلمون: السنة الشيعة	 ١٠٣,٠٠٠,٠٠٠ ١,٥٠٠,٠٠٠	١٠٤,٥٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون ٩٥,٠٥٥٪

الإسماعيليون: النزاريون المستعليون	 ١,٠٠٠,٠٠٠ ٣٠٠,٠٠٠	١,٣٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون ١,٢٤٩٪
القاديانيون:		١٠٦,٧٠٠	ويُشكّلون ٠,٠٠١٪
الهندوس:		١,٧٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون ١,٦٠٠٪
النصارى:		١,٧٣٠,٠٠٠	ويُشكّلون ١,٧٠٠٪
السيخ:		٢٥٢,٣٠٠	ويُشكّلون ٠,٠٠٢٪
المجوس:		٦,٣٠٠	ويُشكّلون ٠,٠٠٠
البوذيون:		٣٠٤,٧٠٠	ويُشكّلون ٠,٠٠٣٪
		١٠٩,٨٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون ١٠٠,٠٠٠٪

فالعناصر غير الإسلامية كلها تقف في وجه المسلمين وتعمل ضدّهم، وترتبط بجهاتٍ أجنبيةٍ نتيجة العقيدة أو سعياً وراء المصلحة. فالهندوس يسيرون وفق السياسة الهندية، ويتجهون حسب ما اتجهت، يُحاربون المسلمين عقيدةً، وحقداً، ويُحاربون باكستان عقيدة وسياسة، فهم دائماً في الصف المعادي للحركة الإسلامية، وفي الجهة المقابلة للسياسة الباكستانية، وما داموا فئةً قليلةً فهم يقومون بعمل التخريب، وبثّ الإشاعات، ونقل المعلومات للهند، ويُعينون العملاء ضدّ الدولة، وأصحاب المصالح على الحركة الإسلامية، ويتفقون مع الفرق الأخرى ضدّ المسلمين، ويساعدون على نشر الفساد.

ويقوم السيخ والبوذيون بعمل مشابه للهندوس غير أنهم لا يُؤيّدون السياسة الهندية، ولا ينقلون إليها المعلومات، وتعدّ الحدود البنجابية مع الهند أكثر أمكنة السيخ، بينما يتوزّع البوذيون في المناطق القريبة من الهند في السند وبنجاب.

وأما القاديانيون والإسماعيليون فهم أعوان السياسة الإنكليزية، وحيثما تجد لإنكلترا نفوذاً في أية جهةٍ من جهات العالم تجد دعماً لهاتين الفئتين إن وجدتا هناك. ويتجمّع الإسماعيليون في كراتشي، وللقاديانيين نفوذ منذ أيام الاستعمار الإنكليزي، وإن كانوا يتكاثرون في البنجاب أكثر من بقية المناطق.

وأما النصارى فهم مع الدول الأوربية الصليبية وخاصةً إنكلترا، عقيدةً، وفكراً، وارتباطاً، وسياسةً، وتوجّهاً، حياتهم في باكستان، وقلوبهم وعقولهم في الدول الصليبية وكذلك وضعهم في كل بلدٍ يعيشون فيه أقليةً.

والمجوس رغم أنهم أصحاب دينٍ بالٍ، لا وجود له في أية بقعةٍ أخرى، ولا توجد دولة تدعي الإقرار به، إلا أنهم يتّجهون نحو إيران بدافع العصبية العنصرية حتى إنهم ليُسمّون البارسيين أي (الفرس).

والشيعة رغم أنهم يعلنون إسلامهم لكنهم يقفون أمام الحركات الإسلامية ويقومون بصراعٍ معها، ويكرهون علماء المسلمين والملتزمين بالإسلام، وإذا أرادت الحكومة أن تتوجّه نحو الإسلام، أبدوا مخالفتهم، فهم لا يريدون الإسلام إلا حسب مفاهيمهم، وعقيدتهم التي يرونها في الأئمة والنبوة، وقناعتهم في الصحابة، ومحاربتهم لكبار صحابة رسول الله ﷺ، هذا من حيث العقيدة، أما من حيث السياسة فلا يرون أيّ توجّه صحيح إلا إذا كان يُوافق هوى السياسة الإيرانية، وترضى عنه الحكومة الإيرانية، وهي لا تقبل إلا ما كان موافقاً للمبدأ الشيعي، وترفض كل ما سواه. ومن هنا فالشيعة في صراعٍ مع المسلمين الذين يعدّون أنفسهم منهم، وصراع مع بقية الأقليات كالمسلمين.

وأما المسلمون فهم في صراعٍ فيما بينهم أيضاً، إذ منهم المؤمنون ومنهم غير ذلك، فالمؤمنون إما يعيشون ضمن حركاتٍ، وجماعاتٍ، وتجمّعاتٍ، وهم غالباً على شيءٍ من الوعي والالتزام، ويعملون لدينهم، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم، حسب الاجتهادات، وتفسير الأحداث،

وربما أحياناً تعصّباً للتنظيمات، وفي محاولة النشاط وكسب الأنصار. وغير المؤمنين فقد يكونون أصحاب عواطف ولكن غير ملتزمين، ويغلب عليهم الجهل، فيلعب بهم أصحاب المصالح، والأطماع، والدعوة إلى العصبيات، ومن هؤلاء تكسب الأحزاب العلمانية والملحدة كثيراً من عناصرها. ويكون من غير المؤمنين حملة الأفكار الملحدة، والمرتبطون بالسياسات الخارجية، والمتفرنجون الذين يرغبون بالتفلّت من القيم، والتحلّل من المبادىء فيسيرون حسب طريقة الكفار. ويقف هؤلاء في وجه التيار الإسلامي ويعملون على الحدّ من نشاطه بكل إمكاناتهم وطاقاتهم.

الصراع الحزبي:

رغم الخلاف الذي ذكرناه بين الأحزاب الباكستانية فقد اتفقت فيما بينها، وشكّلت جبهة معارضة ضدّ ذوالفقار علي بوتو، وحزبه «حزب الشعب» الحاكم، وكانت هذه المعارضة برئاسة مفتي محمود رئيس جماعة علماء الإسلام. وكان أن تصدّع حزب الشعب نتيجة قوة المعارضة.

وقام حزب عوامي الوطني بحركة تمرد في سبيل فصل إقليم بالوشستان عن باكستان، وقد فشلت هذه الحركة، وكانت بقية الأحزاب ضدّ هذه الحركة رغم أن هذا الحزب ضمن صفوف المعارضة.

ومع أن المعارضة كانت جبهةً واحدةً إلا أن الصراعات بين أحزابها لم تنته بل بقيت وإن كانت على نطاق أخفّ نسبياً.

وحملت المعارضة اسم «التحالف الوطني»، وفشلت المفاوضات بينها وبين الحكم ممثلاً في حزب الشعب، وقام الانقلاب، وجاء ضياء الحق.

حاول ضياء الحق مع التعاون مع التحالف الوطني، ولكن لم يسر خطوات طويلة، وحظر حزب عوامي الوطني، والحزب الشيوعي الباكستاني، ولكن نشأ غيرهما إذ تأسّس الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة خان عبدالمولى خان، ورفع شعار استقلال قبائل «الباتان». كما ظهر

الحزب الوطني الاشتراكي برئاسة غوث بخش بزنچو، ويرفع شعار استقلال إقليم بالوشستان.

وحظرت الأحزاب كلها في رجب ١٣٩٧ هـ (تموز ١٩٧٧ م) ولكن عاد ففسح ضياء الحق لها المجال للاشتراك بالانتخابات، وممارسة النشاط الحزبي.

ولكن المعارضة رغم أنها تُمثّل قواعد عريضة إلا أنها ضعفت نتيجة السياسة التي اتبعها ضياء الحق، وهي سياسة ازدواجية، وأن الذين اعتمد عليهم لا يُمثّلون اتجاهات فكرية مثل محمد خان چوينچو الذي يعدّ من بقايا حزب الرابطة الإسلامية.

وبعد مقتل ضياء الحق عاد النشاط الحزبي قوياً، وجرت الانتخابات العامة، وظهر الصراع، وكانت نتائج الانتخابات كالآتي:

حزب الشعب الباكستاني الذي تتزعمه بنازير بوتو ابنة ذوالفقار علي بوتو	٩٣ مقعداً
التحالف الديمقراطي الإسلامي	٥٤ مقعداً.
جمعية علماء الإسلام	٨ مقاعد.
حركة مهاجر قوامي	١٣ مقعداً.
اتحاد عوامي الباكستاني	٣ مقاعد.
الحركة الوطنية البالوشية	٢ مقعد.
حزب الشعب الوطني	١ مقعد.
الحزب الديمقراطي الباكستاني	١ مقعد.
المستقلون	٢٧ مقعداً.
اتحاد عوامي الباكستاني	٣ مقاعد.
	٢٠٥

وكان قد توفي مفتي محمود رئيس جمعية علماء الإسلام، فخلفه ابنه فضل الرحمن، ولكن نافسه آخرون ومنهم دار خوستي.

وكذلك برز الحافظ محمد يحيى مكان الشيخ محمد عبدالله في جماعة أهل الحديث.

وكانت المعارضة لحكومة بنازير بوتو برئاسة غلام مصطفى جاتوي الذي كان من حزب الشعب الذي أسسه ذوالفقار علي بوتو، واستلم منصب حاكم السند، ثم ترك الحزب بعد إعدام بوتو، واختلف مع ابنته بنازير التي تولّت زعامة الحزب، فأسس حزباً جديداً هو حزب الشعب الوطني. ولما أقال الرئيس إسحاق خان حكومة بنازير بوتو كلّف غلام مصطفى جاتوي رئيساً للوزارة.

وجرت الانتخابات وفاز حزب الرابطة الإسلامية برئاسة نواز شريف، وشكل الحكومة.

الباب الخامس

بنغالديش

سبق أن قلنا أن العصيان قد انفجر في باكستان الشرقية نتيجة إعلان تأجيل اجتماع المجلس النيابي في ٤ محرم ١٣٩١هـ - (الأول من آذار ١٩٧١ م)، واضطر الرئيس يحيى خان أن يسافر إلى الجناح الشرقي من باكستان، واعتقل مجيب الرحمن[1] لأنه أعلن قيام دولة بنغالديش في ٢٩ محرم ١٣٩١ هـ (٢٦ آذار ١٩٧١ م).

واستسلم الجيش الباكستاني في الجناح الشرقي للمهاجمين الهنود، وأعلن عن قيام دولة بنغالديش، وتسلّم رئاستها نصر الإسلام، أما الحكومة فقد تسلّمها تاج الدين أحمد، وعدّ الجيش الباكستاني كله أسيراً، ووقّع قائده الجنرال (نيازي) وثيقة الاستسلام.

أخرج مجيب الرحمن من السجن في باكستان الغربية، وأخذ ذوالفقار علي بوتو يفاوضه لاقتسام السلطة معه، فلم ينجح، وفُرضت على

(١) مجيب الرحمن: ولد في بلدة (تونجيبارا) في البنغال، في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٣٨ هـ (١٧ آذار ١٩٢٠ م)، ودرس وتربّى في مدارس الإرساليات التنصيرية، ثم التحق بجامعة كلكتا، ثم بجامعة دكا، وقد درس القانون، وقام بنشاط سياسي فأدخل السجن بعد طرده من الجامعة، وكان مُؤيّداً لقيام دولة باكستان، ولمحمد علي جناح، وتسلّم أمانة سر حزب رابطة عوامي الذي أخذ يدعو إلى استقلال باكستان الشرقية الذاتي، وانتخب عضواً في الهيئة النيابية الإقليمية عام ١٣٧٤ هـ، وتسلّم عدة مناصب وزارية في باكستان الشرقية، وعارض حكم أيوب خان العسكري، وألقي القبض عليه عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) وأدخل السجن.

مجيب الرحمن الإقامة الجبرية، وقُدّم للمحاكمة بتهمة إثارة الحرب على باكستان.

اعترفت الهند بدولة بنغالديش في ١٨ شوال ١٣٩١ هـ (٦ كانون الأول ١٩٧١ م).

وأطلق سراح مجيب الرحمن في ٢٠ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٧٢ م) فسافر فوراً إلى لندن، وعقد هناك مؤتمراً صحفياً دعا فيه إلى الاعتراف بدولته، وأجرى مباحثات مع رئيس وزراء بريطانيا، وأمضى يوماً واحداً في لندن، وانتقل إلى دلهي على متن طائرةٍ هنديةٍ خُصّصت له، فاستقبل استقبال الفاتحين. وانتقل من دلهي إلى (دكا) قاعدة بنغالديش الدولة الجديدة في ٢٦ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٧٢ م)، وقرّر أن يتولّى رئاسة الوزارة بنفسه، وأن يترك رئاسة الجمهورية بيد أبي سعيد شودري الذي كان رئيس وفد بلاده إلى الأمم المتحدة.

قطع مجيب الرحمن كل علاقة لبلاده مع باكستان مجرد عودته إلى (دكا) في ٢٦ ذي القعدة ١٣٩١ هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٧٢ م)، وعرض عليه ذو الفقار علي بوتو التنازل له عن السلطة في سبيل المحافظة على وحدة باكستان، غير أنه أصرّ على الانفصال، ولم يقبل عنه بديلاً، فلم تعترف باكستان بدولته، ولا بنظام حكمه مدة ثلاث سنوات.

أصدر مجيب الرحمن دستوراً موقّتاً ركّز سلطات الحكم فيه بيد رئيس الوزارة، وجعل من رئيس الجمهورية صورة، فكان منصب رئاسة الجمهورية مجرد منصب شرفي لا أكثر.

نصّ هذا الدستور الموقّت على إقامة جمعيةٍ تأسيسيةٍ مُهمّتها وضع دستورٍ دائمٍ، وتتألف هذه الجمعية من الأعضاء الذين تم انتخابهم في الانتخابات العامة التي جرت في شوال ١٣٩٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٠ م).

تولّى مجيب الرحمن وزارات الدفاع، والداخلية، والإعلام، وشؤون مجلس الوزراء، وأصدرت الحكومة مباشرةً قراراً بالاستيلاء على ٧٠٪ من

محالج القطن الكبرى، والجوت، وعلى مزارع الشاي، وعملت على إدارة كل شركات التصدير.

وفي ١١ صفر ١٣٩٢ هـ (٢٦ آذار ١٩٧٢ م) في الذكرى الأولى لإعلان استقلال بنغالديش أعلن مجيب الرحمن تأميم المصارف، ومصانع الجوت، والنسيج، والسكر، والجزء الأعظم من المصايد الوطنية. أما مزارع الشاي، وحقول النفط التي تستثمر برؤوس أموالٍ أجنبيةٍ فلم تقترب منها الحكومة.

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بدولة بنغالديش وبنظام الحكم في ٢٠ صفر ١٣٩٢ هـ (٤ نيسان ١٩٧٢ م)، ولكن الصين لم تعترف.

تلقّت بنغالديش مساعدةً عاجلةً من روسيا، وتلتها مساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية.

انضمّت بنغالديش إلى رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) في صفر ١٣٩٢ هـ (نيسان ١٩٧٢ م) بينما كانت باكستان قد انسحبت من تلك الرابطة في ذي القعدة ١٣٩١ هـ (كانون الثاني ١٩٧٢ م).

بعد وصول مجيب الرحمن إلى بنغالديش دعت زعامات حزب عوامي الوطني لجنة حزب رابطة عوامي إلى تشكيل حكومةٍ وطنيةٍ كل الجماعات التي ناضلت من أجل الانفصال، كما طالبت المعارضة قيام ائتلاف وطنيٍ، وإجراء انتخاباتٍ جديدة، غير أن رئيس حكومة بنغالديش الأولى تاج الدين أحمد قد رفض ذلك، وأبى إلا أن تتشكل الحكومة الجديدة من أعضاء حزب رابطة عوامي الذين تمّ انتخابهم في شوال ١٣٩٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٠ م)..

وفي صفر ١٣٩٢ هـ (نيسان ١٩٧٢ م) قامت مظاهرات من المعارضة، وقُدّر عدد الذين اشتركوا فيها بخمسةٍ وعشرين ألفاً، وخطب بالمتظاهرين عبدالحميد بهاشاني رئيس حزب عوامي الوطني، ودعا في

خطبته إلى إعادة اللاجئين البنغاليين من الهند، والذين يُقدّر عددهم بعشرة ملايين لاجىء.

حلّ مجيب الرحمن المنظمات العسكرية غير الرسمية حيث أصدر لها قراراً بحلّ نفسها، وتسليم أسلحتها للسلطات الحكومية، وتمّ تنفيذ ذلك، ولكن بقيت في الشمال بعض المنظمات المسلّحة، وتتبع مجيب الرحمن حزب عوامي الوطني الموالي للصين.

جرت الانتخابات الأولى في صفر ١٣٩٣ هـ (آذار ١٩٧٣ م) وحصل حزب رابطة عوامي على ٧٣٪ من مجموع الأصوات، وكسب ٢٩٢ مقعداً من أصل ٣٠٥ مقاعد للجمعية التشريعية المنتخبة مباشرةً، وتشكل المجلس النيابي الذي يعرف بـ (جانيفا سانغ ساد).

وبقيت مشكلات أساسية في بنغالديش، ومنها:

١" ـ لم تعترف باكستان ببنغالديش، وطالبت بإطلاق سراح الأسرى الباكستانيين (الذين تمّ احتجازهم، والجيش)، ولكن مجيب الرحمن، وأنديرا غاندي رفضا ذلك حتى يتمّ اعتراف باكستان ببنغالديش.

٢" ـ مشكلة البيهاريين الذين كانوا في بنغالديش قبل الأزمة، حيث كانوا يعملون هناك، ويُقدّر عددهم بمليوني إنسان، وقد ساعدوا الباكستانيين، ودافعوا عنهم، ووقفوا في وجه المنظّمات المسلّحة البنغالية، وقد كان هناك من البنغاليين المتشدّدين الذين يطالبون بإعدام البيهاريين جميعاً، بل وإعدام الباكستانيين، وقادة الجيش، وكان للبيهاريين منظمة مسلّحة تُدعى «الزرافة».

٣" ـ مشكلة البنغاليين الذين يعيشون في باكستان ويُقدّر عددهم بنصف مليون.

وأخيراً اعترفت باكستان بدولة بنغالديش وبنظام الحكم القائم في محرم ١٣٩٤ هـ (شباط ١٩٧٤ م).

وفي ٢٢ ذي الحجة ١٣٩٣ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٧٤ م) انتخب مجيب الرحمن رئيساً للجمهورية، أو نصّب نفسه.

١" ـ مجيب الرحمن:

يعدّ مجيب الرحمن الرئيس البنغالي الثالث بعد نصر الإسلام، وأبي سعيد شودري اللذين كانا رئيسين صورةً، أما الرئيس الفعلي الذي بيده السلطة فهو مجيب الرحمن.

أطلق مجيب الرحمن على نفسه لقب «البانچاباندهو» أي أبو الأمة، واستبدّ بالحكم، فحلّ التنظيمات السياسية كلها سوى حزب رابطة عوامي، فكان الحزب الواحد، وهو الحاكم، وأوقف الحريات العامة، وكانت الأوضاع الاقتصادية سيئةً في البلاد، ولم تكن الأحوال الاجتماعية بأفضل منها، إذ كان الجهل عاماً، والفقر منتشراً، وتزايد السكان كبيراً، هذا بالإضافة إلى الفساد الإداري، والأزمات الطبيعية التي تحلّ بالبلاد، فتزيد من سوء الأوضاع الداخلية، فالفيضانات التي تغمر الأراضي الزراعية، وتُهدّم البيوت، وتُسبّب الضحايا، وتعقبها سنوات عجاف، فتتأثّر المزروعات، ويعيش الناس بضيقٍ شديدٍ، ويصبرون، والأعاصير التي تجتاح البلاد، وتُسبّب الدمار والموت. وإن الفيضان في صيف هذا العام أدّى إلى مجاعةٍ عارمةٍ، كما انتشر مرض الكوليرا، وضرب الاقتصاد الذي كان متأثّراً مسبقاً بالحرب.

ولم يكن العسكريون ليرضون عن السياسة العامة التي جعلت بنغالديش تحت الوصاية الهندية، ولم يكن مجيب الرحمن في منأى عن أفكار العسكريين فإن له أعواناً يندسّون في كل مكانٍ، لذا فقد أخذ يخشاهم. كما كان يُهدّد الاستقرار وجود مجموعات معارضة تلجأ إلى الإرهاب والذي شمل كلاً من نقيضي الأطراف السياسية. لذا فقد فرض حالة الطوارىء في ذي الحجة ١٣٩٤ هـ (كانون الأول ١٩٧٤ م)، وجمّد الحقوق الدستورية، وفي مطلع عام ١٣٩٥ هـ (كانون الثاني ١٩٧٥ م)

استبدل الحكومة النيابية بصورةٍ من الحكومة الرئاسية، وأصبح مجيب الرحمن رئيساً بيده السلطة كلها، وله الصلاحية المطلقة، وأنشأ ما يُسمّى بحزب عوامي لمزارعي وعمال بنغالديش، وفي صفر ١٣٩٥ هـ (شباط ١٩٧٥ م) أصبحت بنغالديش تحكم بنظام الحزب الواحد. وخوفاً من العسكريين فقد نظّم لحمايته جيشاً سرياً هو (واكي باهيتي) وسلّح ذلك الجيش الخفي ودرّبه.

وفي ٢٨ رجب ١٣٩٥ هـ (١٥ آب ١٩٧٥ م) قام انقلاب بقيادة الرائد «داليم» ضدّ مجيب الرحمن فأطاح به، وبنائبه، ورئيس وزرائه، والنظام القائم كله، وبأسرته أيضاً، ونصّب وزير التجارة السابق خاندكار مشتاق أحمد رئيساً للدولة.

٢″ ـ مشتاق أحمد:

٢٨ رجب ١٣٩٥ ـ ٢٩ شوال ١٣٩٥ هـ (١٥ آب ١٩٧٥ ـ ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ م)].

كان مشتاق أحمد رجلاً متديناً، ضدّ الشيوعية، ويرى في النظام الغربي أخفّ الضررين، ولم يكن راضياً عن المساعدة الروسية التي قُدّمت لبنغالديش عند انفصالها عن باكستان، ولا عن التدخّل الهندي في شؤون بنغالديش، كان مسؤولاً عن الشؤون الخارجية في الحكومة الموقتة التي شُكّلت برئاسة تاج الدين أحمد، غير أن مجيب الرحمن قد فقد ثقته به، لذا أوكل إليه حقائب وزارية أقلّ أهمية حيث أسندت إليه وزارة العدل، ثم وزارة الري، وأخيراً وزارة التجارة.

فكان أول ما قام به تغيير الاسم الرسمي للدولة من «بنغالديش» إلى «جمهورية بنغالديش الإسلامية». وحاول الوصول إلى مفاوضات مع باكستان ليكون بينهما صلات وروابط متينة، وقبل الانفصال كان يسعى لمقاومة الانفصال والإبقاء على الصلة مع باكستان ضمن اتحاد غير أن

مجيب الـرحمن كان صـاحب الكلمة الأولى، ولا يستـطيع أحـد أن يقف أمامه.

وعمل على الابتعاد عن الهند بأسلوب مقبول. وقد أيّدت الولايات المتحدة هذا الانقلاب رغم أنه لا يسير في فلكها، ولكنه ابتعد عن روسيا التي لم تكن راضيةً عما حدث، وتشعر كأنه موجه ضد نفوذها وأعوانها، أما الصين فكانت ترى في هذا الانقلاب فشل لمحاولـة روسيا في محـاصرة الصين من جهة الجنوب عن طريق الهند، وبنغالديش، وفيتنام...

وعيّن ضياء الرحمن رئيساً للأركـان، ولكن الجيش أصبح مُفكّكـاً، فالقادة الكبار غير راضين عن الـوضع لأن الـذين دونهم من الضباط قـد أصبحت السلطة بأيديهم، أما الشباب من أصحاب الرتب الصغيرة فهم وإن كثر عددهم إلا أنه لا خبرة لهم في السياسة، ولا علم لهم بالإدارة.

وفي ٢٩ شوال ١٣٩٥ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ م) قام انقـلاب مضاد قاده العميد خالد مشرف الذي أُحضر من الهند، وكان قائداً سابقاً لحامية (دكا)، ويُوالي الهند، وقد عُيّن رئيساً لهيئة الأركان.

٣" ـ خالـد مشـرف:

تـولّى السلطة مـدة أربعـة أيـام من ٢٩ شـوال إلى ٤ ذي القعـدة ١٣٩٥ هـ (٣ - ٧ تشرين الثاني ١٩٧٥ م) حيث قام انقلاب آخر، وأقصى خالد مشرف، واستولى على السلطة ثلاثة من رؤساء هيئة الأركان، وولّوا عليهم رجلاً غير سياسي هو «عبدالستار محمد صايم» رئيس قضاة المحكمة العليا.

٤" ـ عبدالستار محمد صايم:

تشكّلت حكومة حيادية لا تنتمي إلى أي حزب، وأُعيد الفريـق أول ضياء الرحمن رئيساً لهيئة أركان الجيش.

سُمح للأحـزاب السياسية بالنشاط في شهر رجب ١٣٩٦ هـ (تمـوز

١٩٧٦ م)، وتمّ الوعد بعودة الحياة النيابية، ولكنه في ذي القعدة ١٣٩٦ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٦ م) أُجّلت الانتخابات إلى أجلٍ غير مُسمّى، وأخذ الفريق أول ضياء الرحمن يستولي على سلطات الرئيس الإدارية من الرئيس عبدالستار محمد صايم تبعاً للأحكام العسكرية، وأخيراً استلم كامل السلطة، وأعلن نفسه رئيساً للبلاد في ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ (نيسان ١٩٧٧ م).

٥" ــ ضياء الرحمن:

منذ أن تسلّم السلطة عمل على إبعاد قادة انقلاب ٢٨ رجب ١٣٩٥ هـ (١٥ آب ١٩٧٥ م) عن البلاد، رغم أنهم هم الذين سلّموه رئاسة الأركان وأعطوه مكانةً. أما قادة انقلاب ٢٩ شوال ١٣٩٥ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ م) فقد عاملهم بوحشيةٍ تامةٍ إذ أعدم العقيد طاهر شنقاً، وحكم على الآخرين بالسجن مدى الحياة، واختلف مع رئيس القضاة عبدالستار محمد صايم.

عدّل الدستور، وجعل الإسلام نظام الدولة الأساسي بدلاً من العلمانية في سبيل إرضاء الشعب، حيث يعرف أن ماضيه لم يكن طيباً.

وقام بإجراء استفتاء في جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ (أيار ١٩٧٧ م) فأعطى ٩٩٪ من الشعب ثقتهم لضياء الرحمن، وسياسته، ونظامه، وهذا أمر طبيعي إذ هذه نتيجة لكل استفتاء، الذي هو لعبة سياسية لكسب الصفة الشرعية للحكم.

كان ضياء الرحمن أثناء انفصال بنغالديش عن باكستان رائداً في الجيش، وقام بتصرّفاتٍ سيئةٍ، حيث كان وراء ذبح الكثيرين من الضباط الباكستانيين، والمئات من الجنود مع عائلاتهم في (شيتا غُونغ) ولا يزال المئات من الناس في السجون، وجريمتهم أنهم اتهموا بالتعاون مع الباكستانيين.

تضايق العسكريون من الأحكام التي فُرضت بحق زملائهم، وهم الذين رفعوه، واستاءوا من تصرّفاته إذ كان يدخل أعوانه في الجيش، وبرتبٍ عسكريةٍ دون أن يكون لهم دراية أو أقلّ خبرة بالشؤون العسكرية.

أخذ وضع الجيش يتدهور منذ مطلع عام ١٣٩٧ هـ (مطلع عام ١٩٧٧ م) إذ أخذ ضياء الرحمن يعيد تنظيم القوات المسلّحة، ويضع أعوانه في المراكز الحساسة، فقيادة وحدة المدفعية في الفرقة التاسعة المتمركزة في (دكا) قد تغيّرت خلال عامٍ واحدٍ ستّ مراتٍ مع أن قائد الفرقة التاسعة هذه الجنرال شوكت يُعدّ من أكثر العسكريين إخلاصاً لضياء الرحمن، وهو الذي وضع في يده كل شيءٍ منذ شهر صفر من عام ١٣٩٧ هـ (شباط ١٩٧٧ م).

التقى كبار الضباط على اختلاف أهوائهم بعضهم مع بعض، وطالبوا ضياء الرحمن بالتخلّي عن منصب رئاسة الأركان التي يشغلها، ويمارس مهماتها بنفسه، فوافق، ووضع نور السلام أحمد في هذا المنصب بعد أن رقّاه إلى رتبة جنرال، وهو أحد أعوانه المخلصين.

ومما زاد في تذمّر العكسريين الذي بدا واضحاً بعد ٢ شوال ١٣٩٧ هـ (١٥ أيلول ١٩٧٧ م) إثر توقيع اتفاقُية سد (فراكا) مع الهند، ولم تكن هذه الاتفاقية في صالح بنغالديش، وهذا ما زاد من الشعور بالغضب، والنقمة على ضياء الرحمن من عسكريين ومدنيين، وتشكلت جبهة معارضة ضمّت مختلف المشارب، وكانت أكبر مراكز قوتها في (دكا) و(بوغرا) و(جيسور).

رأى ضياء الرحمن تشتيت شمل المعارضة قبل كل شيءٍ، ثم التفرّد بكل جبهةٍ وحدها، وتصفية الحساب معها، فدسّ أعوانه بين المعارضة، وعمل على جرّهم إلى معركةٍ قبل تركيز أمورهم، وتوحيد صفوفهم، وتعيين أهدافهم وخططهم، فنجح أعوانه، وقامت المعارضة باندفاعٍ. ووجدت وصول طائرةٍ يابانيةٍ مخطوفةٍ إلى مطار (دكا) فرصةً لها، وتحرّكت في

(جيسـور) و (بوغـرا) قبل الأوان ففشلت الحـركة، وتمكّنت منهـا القوات المساندة لضياء الرحمن، فأعدم أحد عشر ضابطاً من كبار ضباط الطيران، كما أمر بقتل الكثيرين من غير الطيارين، هذا رغم وصول قوات الحركة الانقلابية إلى (دكا)، وسيطرتهم على الإذاعة مدة ساعةٍ كاملةٍ، وقد زاد عدد القتلى على خمسمائة قتيل، وفرّ من البلاد أكثر من ألفي عسكري.

وحظر النشاط على ثلاثة أحزاب، وهي: حزب الرابطة الديمقراطي الموالي للرئيس السابق مشتاق أحمد وحزب بنغالديش الشيوعي، وحـزب (ج، س، د) الموالي للهند.

وفي شهر رجب ١٣٩٨ هـ (حزيران ١٩٧٨ م) جرت أول انتخابات رئاسية مباشرة في البلاد، وقد أعطت فوزاً ظاهراً لضياء الرحمن. فشكّـل مجلس الوزراء ليحل مكان مجلس المستشارين الخاص به.

وفي ربيـع الأول ١٣٩٩ هـ (شبـاط ١٩٧٩ م) جـرت الانتخـابـات النيابية العامة، وفي محاولة من الرئيس ضياء الرحمن لإقناع وحثّ أحزاب المعارضة للمشاركة بالانتخابات قام بتلبية بعض مطالبهم حيث ألغى كـل البنود غير (الديمقراطيـة) من دستور (١٩٧٤ م)، وأطلق سـراح المعتقلين السيـاسيين، وسحب الحظر عن الصحـافة، ونتيجـةً لذلـك شـارك تسعة وعشرون حزباً في تلك الانتخابات، وحصل حزب بنغالديش الوطني، وهو حزب ضياء الرحمن على ٤٩٪ من مجموع الأصوات، وفاز بمائتين وسبعة مقـاعد في المجلس النيـابي من أصل ثـلاثمائـة مقعد وذلـك بالانتخـاب المبـاشر. واجتمـع المجلس في شهـر جمـادى الأولى ١٣٩٩ هـ (نيسـان ١٩٧٩ م)، وتمّ تعيين رئيس مجلس وزراء جديد، وألغي قانون الأحكـام العرفية، ورفعت حالة الـطوارىء في شهر ذي الحجـة ١٣٩٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٧٩ م). وهكذا عادت الحرية إلى الحياة في بنغالديش بعد غيابٍ دام خمس سنوات.

اغتيل الرئيس ضياء الرحمن في محاولة انقلاب عسكريٍ يُعتقد أن

قائده الفريق محمد عبدالمنصور، وهو قائد وحدة عسكرية، وذلك في ٢٧ رجب ١٤٠١ هـ (٣٠ أيار ١٩٨١ م)، كما قُتل الفريق محمد عبدالمنصور لاحقاً في ظروفٍ مضطربةٍ، وتولّى الرئاسة القاضي عبدالستار محمد صايم، نائب الرئيس ضياء الرحمن.

٦ʺ ـ عبدالستار محمد صايم:

عادت الفوضى السياسية إلى البلاد، حيث أخذت المظاهرات تعمّ المدن الكبرى احتجاجاً على إعدام الضباط الذين ساهموا في محاولة الانقلاب، كما كانت المعارضة تطالب بتقديم موعد إجراء الانتخابات الرئاسية.

جرت انتخابات الرئاسة في مطلع عام ١٤٠٢ هـ (تشرين الثاني ١٩٨١ م)، وقد فاز فيها فوزاً ظاهراً الرئيس عبدالستار محمد صايم مرشح حزب بنغالديش الوطني.

أعلن الرئيس عبدالستار أن سياسته تتمة لسياسة الرئيس السابق ضياء الرحمن، ولكنه وجد صعوبة بالغةً في إمكانية السيطرة على الوضع بالحكومة المدنية، لذلك شكل في ربيع الأول ١٤٠٢ هـ (كانون الثاني ١٩٨٢ م) مجلساً وطنياً للأمن ضمّ عدداً من العسكريين برئاسة الفريق حسين محمد إرشاد رئيس هيئة أركان الجيش. وفي ٢٩ جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (٢٤ آذار ١٩٨٢ م) استولى الفريق محمد إرشاد على السلطة بانقلاب أبيض، مدعياً أن الفساد السياسي، وسوء الإدارة الاقتصادية قد أصبح غير محتمل.

٧ʺ ـ حسين محمد إرشاد:

أعلن الأحكام العرفية، ولقّب نفسه «الرئيس الإداري لقانون الأحكام العرفية»، ثم غيّر هذا اللقب إلى رئيس الوزراء في ذي الحجة ١٤٠٢ هـ (تشرين الأول ١٩٨٢ م)، ويساعده بصفةٍ رئيسيةٍ مجلس عسكري. وعين القاضي المتقاعد عبدالجواد حوري رئيساً.

منع النشاط الحزبي، وقدّم عدداً من الوزراء السابقين إلى المحكمة، وأودعوا السجن بتهمة الفساد. وعلى الرغم من أن سياسة الحكومة الاقتصادية قد لقيت بعض النجاح وكسبت قدراً من التأييد، إلا أنه زادت المطالبة بالعودة إلى الحرية والحياة النيابية، وظهرت على الساحة السياسية مجموعتان رئيسيتان:

١" ـ تحالف خمسة عشر حزباً برئاسة جناح من حزب رابطة عوامي بزعامة الشيخة حسينة واجد ابنة مجيب الرحمن.

٢" ـ تحالف لسبعة أحزاب برئاسة جناح من الحزب الوطني البنغالي بزعامة الرئيس السابق عبدالستار محمد صايم، وخالدة ضياء أرملة ضياء الرحمن. وتوفي الرئيس عبدالستار في شهر صفر من عام ١٤٠٦ هـ (تشرين الأول ١٩٨٥ م) فبقيت الزعامة لخالدة ضياء.

وفي أواخر عام ١٤٠٣ هـ (أيلول ١٩٨٣ م) شكّلت المجموعتان ائتلافاً عُرف باسم «الحركة نحو استعادة الديمقراطية»، وقد أصدرت هذه الحركة مطالبها التي منها:
١" ـ إلغاء الأحكام العرفية.
٢" ـ إطلاق سراح السجناء السياسيين.
٣" ـ إجراء الانتخابات النيابية.

وفي أوائل عام ١٤٠٤ هـ سُمح بالنشاط الحزبي، ووعدت الحكومة بإجراء سلسلة من الانتخابات المحلية تستمر طيلة فصل الشتاء، وستكون هذه الانتخابات مقدمة لانتخابات الرئاسة، وانتخابات المجلس النيابي والتي ستتم في العام نفسه.

وفي مطلع العام تأسّس حزب الشعب ليساند حسين محمد إرشاد في الوصول إلى الرئاسة، حيث سيكون مرشحه لهذا المنصب. وقد بنى الحزب سياسته على خطة مؤلفة من ثمانية عشر بنداً سبق للرئيس حسين

محمد إرشاد أن كشفها في وقتٍ سابقٍ، وتشمل تشجيع الاكتفاء الذاتي للزراعة، وعمومية الوظائف، واللامركزية في الإدارة، والدور المتواصل للقوات المسلحة في الحكومة.

قامت المظاهرات تُطالب بالعودة إلى الحكم المدني، فمنع النشاط السياسي مرة أخرى في الأول من ربيع الأول من عام ١٤٠٤ هـ (٥ كانون الأول ١٩٨٣ م) بعد مضي أسبوعين فقط على السماح به، وتمّ إلقاء القبض على القيادات الحزبية، وشمل ذلك موقتاً الشيخة حسنية واجد، وخالدة ضياء.

وفي ٧ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (١١ كانون الأول ١٩٨٣ م) أعلن حسين محمد إرشاد تنصيب نفسه رئيساً.

بقيت الأوضاع في البلاد غير مستقرّةٍ عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) إذ كانت الاضطرابات مستمرةً، والمظاهرات السياسية تقوم بين المدة والأخرى، وهذا ما جعل انتخابات المجالس المحلية تتأجّل بعد أن كان مقرراً لها أن تتم في جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ (آذار ١٩٨٤ م) بسبب اعتراض أحزاب المعارضة لأنها ستتم قبل انتخابات الرئاسة وانتخابات المجلس النيابي، وتدّعي المعارضة أن الرئيس حسين محمد إرشاد يريد تثبيت قواعد سلطته.

وتأجّلت كذلك انتخابات الرئاسة والمجلس النيابي والتي كان مقرراً لها أن تقوم في شعبان ١٤٠٤ هـ (أيار ١٩٨٤ م) تأجّلت إلى ١٥ ربيع الأول ١٤٠٥ هـ (٨ كانون الأول ١٩٨٤ م) بسبب مطالبة المعارضة الملحة على إلغاء الأحكام العرفية، وتشكيل حكومة انتقالية محايدة لتُشرف على انتخاباتٍ حرةٍ ونزيهةٍ.

وفي مطلع عام ١٤٠٥ هـ (تشرين الأول ١٩٨٤ م) وافق الرئيس حسين محمد إرشاد على إجراء الانتخابات على ثلاث مراحل في شهري صفر وربيع الأول (تشرين الثاني وكانون الأول) فيما إذا كانت المعارضة توافق على الاشتراك في الانتخابات، فكان ردّ الفعل من قبل المعارضة القيام

بحملةٍ تدعو إلى العصيان المدني، فما كان من الرئيس إلا أن أجل الانتخابات إلى وقتٍ غير مُسمّى.

وفي ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ (كانون الثاني ١٩٨٥ م) أعلن الرئيس أن الانتخابات ستجري في ١٦ رجب ١٤٠٥ هـ (٦ نيسان ١٩٨٥ م) على أن يسبق ذلك رفع الأحكام العرفية في بعض النواحي، وعلى أن يجري تطبيق الدستور بشكلٍ كاملٍ بعد الانتخابات. وتبع ذلك تشكيل حكومة جديدة ضمّت كبار الضباط، فكانت عسكريةً بجميع أعضائها، ولم يدخلها أحد من أعضاء حزب الشعب الذي يُعدّ حزب الرئيس، وذلك استجابةً لمطالب المعارضة التي كانت تُطالب بقيام حكومةٍ محايدةٍ.

عادت المعارضة تُهدّد بمقاطعة الانتخابات لأنه يبدو على الرئيس أنه لا يريد أن يتخلّى عن السلطة لحكومةٍ محايدةٍ، لأن الحكومة العسكرية ليست حيادية وإنما هي تعمل بوحي من الرئيس أكثر من حكومةٍ مدنية تضمّ زعماء حزب الشعب نفسه، ولهذا عاد حسين محمد إرشاد إلى حظر النشاط السياسي مرةً ثانيةً. وأعقب ذلك بإجراء استفتاءٍ على الرئاسة فحصل على ٩٤٪ من مجموع الأصوات، وذلك في جمادى الآخرة من عام ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م). وتبع ذلك في شهر شعبان (أيار) انتخابات للمجالس المحلية، في المناطق الريفية دون مشاركة أحزاب المعارضة فحصل على ٨٥٪ من مجموع رؤساء المجالس إذ كانوا من مؤيديه، وإن لم يكونوا من حزبه (حزب الشعب). واجتمع مجلس الوزراء.

وفي مطلع عام ١٤٠٦ هـ (أيلول ١٩٨٥ م) نشأ اتحاد سياسي جديد، أطلق عليه «الجبهة الوطنية» وقد ضمّ خمسة أحزاب هي: حزب الشعب، حزب الشعب المتحد، ورابطة مسلمي بنغالديش، والجناح المنشق من حزب بنغالديش الوطني. وحزب «القونوتانترك». وتدعم هذه الجبهة السياسة الحكومية.

لم يكن من السهل رفع الحظر السياسي قبل اجتماع منظمة جنوبي

آسيا للتعاون والمقرر أن يكون اجتماعها في مدينة (دكا) في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م) حيث يخشى أن تقوم المعارضة ببعض حوادث الشغب.

وقبل منتصف عام ١٤٠٦ هـ (كانون الثاني ١٩٨٦ م) رفع الحظر عن النشاط السياسي، وبقي ذلك مدة عشرة أشهر، وبقيت خلالها الجبهة الوطنية تُساند الحكومة. أما المعارضة فقد قامت بإضرابات، ونظّمت مظاهرات طالبت فيها بإلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء الانتخابات الرئاسية والنيابية.

أعلن الرئيس حسين محمد إرشاد في أوائل شهر رجب ١٤٠٦ هـ (آذار ١٩٨٦ م) أن الانتخابات ستجري في النصف الثاني من شعبان ١٤٠٦ هـ (قبل نهاية نيسان ١٩٨٦ م) في ظلّ الأحكام العرفية، وإن كان بالواقع قد خفّف كثيراً من تلك الأحكام إذ أبعد قادة الجيش عن الوظائف المدنية، وألغى أكثر من مائةٍ وخمسين محكمةً عسكريةً، ومكتباً للأحكام العرفية. وبهذه الوسيلة شارك مرشحون من ثمانية أحزاب من اتحاد رابطة عوامي، وشملت المشاركة الشيخة حسينة واجد نفسها، وحزب جاميت الإسلامي، وأحزاب أخرى صغيرة. وجرت الانتخابات في ٢٨ شعبان ١٤٠٦ هـ (٧ أيار ١٩٨٦ م) بعد أن تأجّلت من ١٧ شعبان ١٤٠٦ هـ (٢٦ نيسان ١٩٨٦ م). ولكن اتحاد حزب بنغالديش الوطني بزعامة خالدة ضياء قاطع الانتخابات، ووصف سيرها بالغش، والتزوير، والعنف، والتهديد، وقد فاز حزب الشعب بـ١٥٣ مقعداً من أصل ٣٠٠ مقعد بالانتخاب المباشر، إضافةً إلى ذلك فإن ٣٠ مقعداً مخصصة للنساء في الجمعية التشريعية قد أخذت بالتعيين من حزب الشعب.

وفي شوال ١٤٠٦ هـ (حزيران ١٩٨٦ م) طالب تحالف رابطة عوامي مرةً ثانيةً بإلغاء قانون الأحكام العرفية، واستقالة الرئيس حسين محمد إرشاد، واستعادة النظام النيابي كاملاً، وتطبيق الدستور الذي ما زال معطلاً.

وفي ذي القعدة ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) أعلن الرئيس حسين محمد إرشاد أن قانون الأحكام العرفية سوف يُلغى ولكن بعد إجراء انتخابات الرئاسة. ومع أن أعضاء تحالف رابطة عوامي قد أقسموا اليمين القانونية كنواب في المجلس النيابي غير أنهم رفضوا حضور حفلة افتتاح المجلس. وفي أواخر شهر ذي القعدة من عام ١٤٠٦ هـ (أواخر تموز ١٩٨٦ م) عُلِّقت جلسات المجلس النيابي إلى أجلٍ غير معلوم. وتشكلت وزارة جديدة مدنية برئاسة ميزانور رحمن جواهري أمين السرّ العام السابق لحزب الشعب، وأدّت الوزارة اليمين الدستورية.

وكي يستطيع حسين محمد إرشاد ترشيح نفسه للرئاسة في الانتخابات التي ستجري في صفر من عام ١٤٠٧ هـ (تشرين الأول ١٩٨٦ م) منح نفسه التقاعد من منصبه رئيس هيئة أركان الجيش في ذي الحجة ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٧ م) وعيّن الفريق أول م. عتيق الرحمن مكانه بينما احتفظ بمنصبه كرئيس إداري لقانون الأحكام العرفية وقائداً أعلى للقوات المسلحة.

وفي محرم ١٤٠٧ هـ (أيلول ١٩٨٦ م) انضمّ إلى حزب الشعب، وانتخب رئيساً له، واختير مرشحاً للحزب لمنصب الرئاسة، وعند الانتخابات في ١١ صفر ١٤٠٧ هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٨٦ م) فاز فوزاً ساحقاً على منافسيه الأحد عشر حيث حصل على ٢٢ مليون صوت حسب النتائج الرسمية، ولكن قاطع هذه الانتخابات كل من حزب بنغالديش الوطني وحزب رابطة عوامي.

وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٧ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦ م) دعا الرئيس حسين محمد إرشاد المجلس النيابي للانعقاد، الذي أقرّ تشريعات العفو العام، وأخذت تخفّ هيمنة النظام العسكري الذي فُرض على البلاد قبل أكثر من أربع سنوات، ثم ألغى قانون الأحكام العرفية، واستعاد دستور عام (١٩٧٢ م).

أخذ تحالف المعارضة ينتقد القانون العام، ويشنّ حملةً على الحكومة في سبيل إسقاط النظام، ويطالب بحلّ المجلس النيابي، وفي سبيل إفشال خطة المعارضة، تشكّلت وزارة جديدة شملت أربعة وزراء من حزب رابطة عوامي، وعُيّن وزير العدل القاضي «نور الإسلام» نائباً للرئيس.

استمرّت المعارضة في تنظيم الإضرابات والمظاهرات المعادية للحكومة، وتُؤيّدها نقابات العمال ومجموعات من الطلاب، ويُطالبون الحكومة بالاستقالة، ويطالبون الرئيس بتشكيل حكومةٍ انتقاليةٍ محايدةٍ للإشراف على انتخاباتٍ جديدةٍ.

وفي شهر ذي القعدة من عام ١٤٠٧ هـ (تموز ١٩٨٧ م) أقرّ المجلس النيابي تعديل قانون المجالس المحلية، حيث أصبح بإمكانية القوات المسلحة أن تشارك في أربعةٍ وستين مجلساً شأنها في ذلك شأن الممثلين المنتخبين، وهذا ما أدّى إلى زيادة حدّة الإضرابات والمظاهرات، وأصبح بعضها يتسم بالعنف، وتدّعي المعارضة أن مثل هذا القانون يجعل الجيش مشاركاً بالحكم بصورةٍ مستمرةٍ، مع أن قانون الأحكام العرفية منذ تسعة أشهرٍ، ويهدف الرئيس من هذا المشروع تثبيت وضعه حيث يعتمد في حكمه على العسكريين. ولما زادت المعارضة اضطر إلى سحب القانون بعد شهرٍ من إقرار المجلس النيابي له، حيث أعاده إلى المجلس لإعادة النظر فيه. وتبع ذلك تعديل أساسي في الحكومة.

غير أن أضرار الفيضانات التي اجتاحت البلاد، ولم تعرف لها مثيلاً منذ أربعين سنة إذ نجم عنها خراب كبير للغاية فحجب ذلك الأحداث السياسية، وطغى عليها.

وفي ربيع الأول من عام ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) تجمّعت قوى المعارضة، ونظّمت احتجاجات، فقامت الحكومة بإلقاء القبض على الآلاف من الحزبيين النشيطين، وكان من بينهم الشيخة حسينة واجد، وخالدة ضياء، ولكن المظاهرات استمرّت، ووقعت صدامات بين

رجال الشرطة والمتظاهرين. وبعد ستة عشر يوماً من المظاهرات العنيفة فرض رئيس شرطة (دكا) حظراً على المظاهرات والمسيرات في العاصمة لمدة شهرٍ كاملٍ. وقد أدّت هذه الأعمال إلى خللٍ اقتصادي.

وفي ٦ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٧ م) أعلن الرئيس البنغالي حسين محمد إرشاد حالة الطوارىء، وذلك خوفاً من إضرابٍ عامٍ كانت تنوي المعارضة القيام به، فتوقّفت بذلك النشاطات السياسية كلها، وحُدّدت حالة الطوارىء مبدئياً بأربعة أشهرٍ. ورغم ذلك فقد قامت بعض المظاهرات ووقعت بعض الإضرابات لإجبار الرئيس على الاستقالة.

وفي ١٠ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (الأول من كانون الأول ١٩٨٧ م) كان عدد الذين تمّ احتجازهم نتيجة الإضرابات والمظاهرات ما يزيد على ستة آلاف مواطن، وقد أعلنت أحزاب المعارضة أن ممثليها في المجلس النيابي سوف يتخلّون عن مقاعدهم النيابية. وقد استقال فعلاً اثنا عشر نائباً من المعارضة، وأبدى ثلاثة وسبعون من رابطة عوامي استعدادهم للاستقالة، فقام الرئيس البنغالي في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ (٦ كانون الأول ١٩٨٧ م) بحلّ المجلس النيابي. وفي الوقت نفسه أطلق سراح الشيخة حسينة واجد، وخالدة ضياء ولكن فرض عليهما الإقامة الجبرية في المنزل لمدة أربعة أسابيع.

حاول الرئيس إجراء مفاوضات سلمية مع خالدة ضياء ومع الشيخة حسينة واجد لكنهما رفضتا ذلك، وأصرّتا على المعارضة، والقيام بحملة مقاومةٍ واسعةٍ لإجباره على الاستقالة.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الثاني ١٩٨٨ م) أعلن الرئيس أن الانتخابات العامة للمجلس النيابي سوف تجري في ١١ رجب ١٤٠٨ هـ (٢٨ شباط ١٩٨٨ م)، ولكن زعماء الأحزاب الرئيسية للمعارضة أعلنوا مباشرةً عزمهم على مقاطعة الانتخابات طالما بقي حسين محمد

إرشاد رئيساً للبلاد. ونتيجةً لهذه المقاطعة فقد تأجّل موعد إجراء الانتخابات العامة.

تشكّل تحالف سياسي من ستةٍ وسبعين حزباً سياسياً صغيراً، وشكّلوا مجموعةً معارضةً، في شهر جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ (آذار ١٩٨٥ م).

وتشكل تحالف معارض للحكومة، وكان هذا التحالف بزعماء أ. س. م عبد الرب، وكان القصد من هذا التحالف المنافسة في الانتخابات العامة.

اتسمت انتخابات المجالس المحلية التي لم تقاطعها المعارضة بالعنف، واتصفت بالغشّ والتزوير، الأمر الذي جعل المعارضة تشنّ حملةً بالمقاطعة، وقد نجحت في مسعاها، وكان معدل المشاركة الفعلي للناخبين أقلّ بكثيرٍ من تقديرات الحكومة التي قدّرتها بـ ٥٠٪، وقد فاز حزب الشعب بأغلبيةٍ كبيرةٍ من المقاعد.

وفي أواخر شعبان ١٤٠٨ هـ (أواخر آذار ١٩٨٨ م) تشكّلت حكومة جديدة برئاسة «مودود أحمد» الذي كان يشغل نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للتجارة في الحكومة السابقة. كما اضطر الرئيس إرشاد إلى إلغاء حالة الطوارىء في الشهر التالي (رمضان) نتيجة حملة المعارضة القوية.

وأقرّ المجلس النيابي تعديلات أساسية في الدستور وبأغلبيةٍ مطلقةٍ في شهر ذي الحجة ١٤٠٨ هـ (تموز ١٩٨٨ م)، وأصبح الإسلام دين الدولة.

وأخذ موقف المعارضة يتراجع بعد عطلة عيد الأضحى من عام ١٤٠٨ هـ (٢٩ تموز ١٩٨٨ م) وذلك بسبب خلافات وقعت في الصفوف حيث فُصل أمين السر العام لحزب بنغالديش الوطني أ. ك. م عبيدالرحمن مع عددٍ من أعضاء الحزب البارزين، ونشأ جناح منافس داخل الحزب لخالدة ضياء.

وجاء موسم الفيضانات، وكانت كارثة كبيرة، إذ اتضح أنها كانت من أعنف ما سجل في تاريخ المنطقة، وأعقب ذلك إعصار عنيف فحدثت

فيضانات لاحقة، وسبّب الإعصار وفاة ثلاثة آلاف إنسان، فطغت تلك المصائب على الأحداث السياسية.

وعيّن حسين محمد إرشاد نائباً له مودود أحمد على حين تسلّم رئاسة الوزراء ظفر أحمد.

سارت بنغالديش على سياسة (عدم الانحياز) حسب الاصطلاح الشائع، وإن كانت دول هذه السياسة لا يوجد بينها غير منحاز، وإنما هو اسم أطلق، وتحت عنوانه لعبة سياسية.

وتحسّنت العلاقات مع دولة باكستان منذ عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) أي بعد أن اضطرت باكستان إلى الاعتراف بدولة بنغالديش، ونظام الحكم القائم فيها، وخاصةً أنه كان قد أطيح بنظام مجيب الرحمن، وقُتل وأسرته، وكان هو عامل الانفصال، والذي شحن البنغاليين بشحناتٍ إضافيةٍ من الحقد والكراهية ضدّ الباكستانيين، وعمل على التوتر النفسي بين سكان الإقليمين. وتمّ تبادل السفراء بين البلدين، وأُعيدت التجارة، والبريد، والمواصلات السلكية واللاسلكية.

ولكن باكستان رغم كل ما تمّ من تحسين العلاقات إلا أنها رفضت قبول ثلاثمائة ألف من البيهاريين المسلمين الذين وقفوا بجانب الباكستانيين أثناء حرب الانفصال عام (١٩٧٢ م)، والذين كانوا لا يزالون محتجزين في بنغالديش في معسكرات اللاجئين.

ورسمت الحدود بين بنغالديش وبورما عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، ويبلغ طول هذه الحدود مائةً وثلاثة وتسعين كيلومتراً، في أقصى الجنوب الشرقي من البلاد.

ولكن ما أن استقرّت الأوضاع الخارجية في بنغالديش حتى أخذت تتوتّر العلاقات مع الهند بسبب الإرهاب عبر الحدود، وخاصةً عبر مضائق (شيتا غُونغ) والحدود بين الدولتين طويلة تزيد على ٤,٠٥٣ كيلومتر، فالهند تحيط

ببنغالديش من كل ناحيةٍ باستثناء الساحل الذي يبلغ طوله ٥٨٠ كيلومتر، والحدود مع بورما وهي قصيرة، وقلنا أنها لا تتجاوز مائةً وثـلاثةً وتسعين كيلومتر. وكذلك كان التـوتّر بين الـدولتين بسبب الثوار البـوذيين (شانتي باهيني)، والذين يقومون بحرب عصاباتٍ ضدّ شرطة البنغال ويعملون على الهرب إلى الهند بعد قيامهم بعمليات الإرهاب، وكذلك بسبب السدّ الذي أقامته الهند على نهر الغانج، فحرمت البنغال من كثيرٍ من مياه الري، كما تأثّرت بذلك حركة النقل المائي في النهر، وخاصةً في سنوات الجفاف، كما حدث في صيف عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).

وبنغالديش عضو في منظمة جنوبي آسيـا للتعاون الإقليمي، وتضم سبعـة دولٍ، هي دول القارة الهنـدية وتشمـل: بـاكستـان، بنغـالـديش، المالديف، سيرلانكا، الهند، نيبال، بوتان.

ويضم المجلس النيابي البنغالي ثـلاثمائـة عضو ينتخبـون انتخابـاً، ويضاف إليهم ثلاثون امرأة يُعيّنون تعييناً، ومدة المجلس خمس سنوات.

واللغة الرسمية هي البنغالية وإن كانت الإنكليزية هي الشائعة والتي يتحدث بها الناس، ويتفاهم بعضهم مع بعضٍ إن وجد بعض الـذين لا يجيدون البنغالية.

الفصل الثاني

الصراع الداخلي

تبلغ مساحة بنغالديش ١٤٤ ألف كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاء ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م) ١١٤,٧٠٠,٠٠٠ شخص، وبذا تقارب الكثافة الثمانمائة شخص في الكيلو المتر المربع الواحد (٧٩٦ شخص) وهي من أكبر الكثافات في العالم. هذه الكثافة مع الفيضانات التي تتعرّض لها البلاد في كل سنةٍ تهطل فيها الأمطار الموسمية في وقت مبكرٍ، وكثيراً ما تتكرّر كل عدة سنواتٍ، ومع المجاعات التي تتوالى على المنطقة في كل سنةٍ تتأخر فيها الأمطار الموسمية عن موعدها، وغالباً ما تأتي كل عدة سنواتٍ، أي إما فيضان، وإما مجاعة وقلما تكون سنوات عادية. ومع الأعاصير التي تجتاح البلاد، وتُسبّب الدمار والخراب، كما تكون عاملاً في الفيضان إذ تحول دون انصباب مياه الأنهار في البحر بشكل طبيعي، فيرتفع مستوى مياه الأنهار، والروافد، ويحدث الفيضان. ومع كثرة المساحات التي تغطيها مجاري الأنهار، ومياه الفيضان، والمستنقعات مما يُقلّل ضيق المساحة الصالحة للزراعة، وفي الوقت نفسه يصعب إقامة المعامل، ولهذا كله ينتشر الفقر، ومع انتشار الفقر يعمّ الجهل، ومع سيادة الفقر والجهل، يكثر أصحاب المصالح، ويمكن اللعب بأفكار السكان، وتكثر الصراعات الداخلية. فكل موضوع يمكن أن يُثير خلافاً، وكل رأيٍ يمكن أن يجد له أعواناً، وتلتفّ حوله جماعة، وتحمله وتُصارع غيرها، وكل من يطرح فكرةً يصبح زعيماً، ويُشكّل حزباً، ويبدأ يسعى وراء

زعامته، ويركض وراء مصالحه، ومنها الرئاسة، ولذا نجد في بنغالديش أحزاباً كثيرةً لا نرى لها مثيلاً في بقية دول العالم، وإن كان بعضها لا يصل مؤيدوه إلى المائة.

الصراع الإقليمي:

منذ أن قامت باكستان في ٢٧ رمضان ١٣٦٦ هـ (١٤ آب ١٩٤٧ م) بدأ الصراع بين شطريها، للاختلاف بطبيعة الأرض، وبكثافة السكان، وكثرة أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين، وطبيعة نشاط السكان، واختلاف أصولهم، وتفاوت لغاتهم، وتباين رغباتهم بالتوجّه إلى الالتحاق بحياة الجندية. وكان الأصل أن يبقى التماسك بين الشطرين ما دام هناك عدوّ مشترك، وخصم يتربص على الحدود، ولم تنته بعد المشكلات مع الهند التي كانا وإياها ضمن دولةٍ واحدةٍ، ولم يزل فيها أكثر من اثنين وأربعين مليوناً من المسلمين، والدماء لم تجفّ بعد، وقد أراقها الهندوس تعصّباً وحقداً على المسلمين، والجراح لم تضمد بعد، والانفصال إنما تمّ على أساسٍ عقيديٍ، وجناحا باكستان قاما على هذا الأساس، فالعقيدة تجمع بينهما وتوحّد بل هي الرابط الصحيح بين الناس، والوشيجة المتينة بين الخلق.

طرحت فكرة اللغة في بداية الأمر، فاللغة السائدة في الجناح الشرقي من باكستان هي البنغالية، وهي فرع من السنسكريتية، ولكنها لغة محلية لا يكاد يعرفها إلا القليل خارج حدود منطقتها، وأما في الجناح الغربي فلكل إقليم لغته المحلية الخاصة به، فالبنجابية في البنجاب، والسندية في السند، والبالوشية في إقليم بالوشستان، والبشتو عند قبائل الباتان في إقليم الحدود الشمالية الغربية، غير أن لغة «الأوردو» تجمع بينهم، فمعظم السكان يعرفها في الجناح الغربي، وكذلك فإن أكثر أهالي الجناح الشرقي يُجيد النطق بها، بل إنها معروفة في كثيرٍ من أرجاء دولة الهند. ولهذا رأى قادة باكستان أن تكون لغة «الأوردو» هي اللغة الرسمية، فهي لغة المسلمين في القارة

الهندية، وقامت باكستان على أساس الإسلام فالأمر الطبيعي أن تكون لغة الأوردو هي اللغة الرسمية، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن وجود لغةٍ واحدةٍ في جناحي البلاد يُعدّ عاملاً قوياً لترسيخ الوحدة بينهما، وعامل دعم لتوحيد الأفكار والمفاهيم، وتبادل الموظفين، وتكون لغة العسكريين الذين هم ضمن جيشٍ واحدٍ، غير أن العصبية ذرت قرنها وأخذ سكان الجناح الشرقي يُطالبون أن تكون اللغة البنغالية اللغة الرسمية الثانية، واستغلّ هذا الخوجا نظام الدين لمصلحته الخاصة ليعود حاكماً للبلاد بعد أن نزل إلى رئاسة الوزارة، ولقي تأييداً في البنغال، وأخيراً أُقيل أيضاً من رئاسة الوزارة. واستمرّ الصراع تحت شعار اللغة، حتى تمّ ما يريد البنغاليون.

وأثار البنغاليون فكرة سيطرة أهل البنجاب على الجيش فكان الجواب ليس هناك من مانع يحول دون انتساب البنغاليين إلى الكليات العسكرية، وكل من يتقدّم يؤخذ، ولكن لا يوجد من يتقدّم فهل نجبر الناس على الالتحاق بالجندية، وهذا شأن أقاليم أخرى فالبالوش، والباتان لا يرغبون بالجيش كثيراً، وأقل من ذلك قليلاً أهل السند، غير أن البنجابيين يفضلون العمل العسكري على غيره، فهل نحول بينهم وبين الجيش؟ ومن أين نأتي بالعسكريين إن حُلْنا بين البنجابيين وما يريدون؟ وإننا نشجع سكان بقية الأقاليم للالتحاق بالكليات فلا نجد عندهم الرغبة، فما العمل؟. ولكن البنغاليين لا يريدون هذه المناقشة ولكن لا يريدون إثارة العصبية، ويعملون على الصراع الإقليمي.

وأثار البنغاليون أيضاً موضوع المعامل، والموظفين، ونقل العاصمة و. . . . وحجتهم دائماً أنهم الأكثر عدداً. واستمرّ هذا الموضوع حتى انتهى الصراع بين الإقليمين، وحدث الانفصال، وأصبح كل جناح دولةً خاصةً، ولم يعد البنغاليون يدّعون أن باكستان الغربية تستعمر الشرقية، ولكن بقوا ينسبون بعض التخلّف والتأخّر إلى الاستعمار الباكستاني، ويثيرون حقداً ضدّ الباكستانيين، وتحمل لواءه الفئات العنصرية والأقليات الدينية.

الصـراع العنصـري:

يعود معظم سكان بنغالديش إلى أصلٍ واحدٍ تقريباً، أو هم جميعاً من أصولٍ هنديةٍ على اختلاف أصولها التي لا تظهر والتي لا يبحث بها. ولكن نتيجة الخلاف العقيـدي في الهند، ومـا جرى من أحـداث أثناء التقسيم دخلت عناصر من إقليمٍ إلى إقليمٍ كما خرجت مجموعات أخرى من جزء إلى آخر، لقد انتقل من إقليم بيهار الذي يقع إلى الغـرب من البنغال، وعلى نهـر الغـانـج أعـداد من المسلمين، بسبب الاضـطهـاد الهنـدوسي للمسلمين، والحقد الديني الموجود لدى أبناء هذه الطائفة البراهمية ضدّ المسلمين بادعاء أنهم دخلوا بلادهم، واحتلّوها، وحكموها، وقبلوا أعداداً من أبنـائهـا فغـدوا مسلمين فـانفصلوا بـذلـك عن أبنـاء جلدتهم. وجـاء المستعمرون الإنكليز فشحنوا هذا الحقد بعنفٍ، وأثاروا، وقرّبوا الهندوس، وأبعدوا المسلمين، وأوقدوا أوار الحرب بين الطرفين.

انتقل نتيجة ذلـك أعداد من المسلمين البيهـاريين بصفتهم قلّة في إقليمهم وهاجروا إلى البنغال لأن المسلمين كثرة، وذلك كي يتخلّصوا من ذلك الاضطهـاد الهندوسي، وجـاء التقسيم، وأصبحت البنغال جـزءاً من باكستان التي ضمّت المسلمين فزادت هجرة البيهاريين حتى بلغ عددهم مليوني إنسان في البنغال.

فلما بدأت الأحداث الدامية في البنغال، وأخذت العناصـر صاحبـة المصلحة تدعو إلى تجزئة باكستان، وفصل الجناحين بعضهما عن بعضٍ. رأى البيهاريون ـ بواقع الفطرة ـ أن هذا العمل ليس في مصلحة المسلمين إذ فيه إضعاف لهم، وتشتيت لشملهم، ولن يخـدم هذا المخـطط سوى الهندوس، ويرون بأنفسهم اندفاع الهندوس في البنغال وراءه، وإذا ضعف أمر المسلمين، وقوي الهندوس فماذا يكون مصيرهم هم وأقصد البيهاريين؟ وإلى أين يذهبون وقد فارقوا بيهار مخالفين لأهلها من الهندوس؟ كما لا يمكننا أن ننكر أثر الإيمان الذي يجعلهم يقفون ضدّ هذا المخطط ما داموا

قـد اقتنعوا أنـه في غير صـالح المسلمين، وأنـه يهـدف إلى الكيـد لهم وإبادتهم، ومن هنا وقفوا بجانب الباكستانيين ليحولوا دون تنفيذ المخطط.

ولما نجح المخطط وتمّ الانفصال بدأ البنغاليون بتصفية حسابهم مع البيهاريين، فقتلوا من قتلوا، وأخرجوا من أخرجوا مع ارتكاب أبشع الجرائم بحقّهم، ووضعوا بعضهم في معسكرات للاجئيـن، ويزيد عدد هؤلاء على المائة ألف، وذلك ليبادلوا به بعض أسراهم. وبعد أن اعترفت باكستـان بالوضع في بنغالديش، عُرض عليها تسلّم هؤلاء البيهاريين ما داموا قد كانوا بجانبهم، لكن باكستان رفضت ذلك.

شحن قادة البنغال الجـدد سكان منـطقتهم بالحقـد والكراهيـة ضدّ البيهاريين بأن كانوا ضدّهم، وقد جاءوا إلى بلدهم ينافسون أهلها على موارد رزقهم، وأنهم عملاء لقادة باكستان الذين هم أعداء للبنغال وقبـل الناس ـ مع الأسف ـ لجهلهم هذا الدعايات وكـان الصراع بين البنغـاليين والبيهاريين، بل كثيراً ما كـان بعض البنغاليين يـطالبون بقتـل البيهاريين، وحتى الذين بين أيديهم من المحتجزين في معسكرات اللاجئين. هذا رغم أن البنغاليين والبيهاريين مسلمون، وهم إخوة، وكان يناضل بعضهم بجانب بعضٍ لانفصـال المسلمين عن الهندوس. والآن قـد طغت الـدعـايـات، وتمكّن الهنـدوس من بثّ الشائعـات بين المسلمين، واختراق صفـوفهم، وإغراء جانبٍ وتحريضه ضدّ الآخرين حتى تمّ لهم ما يريدون من إضعافٍ وتجزئةٍ.

ولما كانت بنغالديش جزءاً من باكستان فلا شك أن فيها عدداً من الموظفين، وآخر من المواطنين، إضافةً إلى القطعات العسكرية، فلما تمّ الانفصال بقوا فيها، فكانت تشنّ عليهم حرباً لا هوادة فيها من الهندوس البنغاليين، ومن أصحاب المصالح، وممن شُحن حقداً من دعايات أولئك الـذين يرغبـون بالانفصـال، بل إن بعضهم قـد أخذ يـطالب بقتل هؤلاء الباكستانيين جميعاً. وبقيت آثار تلك الدعايات إلى ما بعد صفاء الجو بين

الدولتين، واعتراف باكستان ببنغالديش، ولا يزال بعضها قائماً يغذيه الهندوس.

الصراع العقيدي:

تختلف نسبة المجموعات السكانية بعد مدةٍ وأخرى، وذلك حسب اختلاف نسبة الولادات بين تلك المجموعات، والمسلمون أكثر هذه المجموعات تزايداً لكثرة الولادات عندهم، وبينما نسبة المسلمين عند التقسيم ٨٠,٤ نجد أنها اليوم ٨٦,٦٪.

وأما المجموعة الثانية فهي الهندوس، ويشكّلون ١٢,١٪ بينما كانت نسبتهم عند التقسيم ١٨,٤٪، وباقي السكان فهم من البوذيين والنصارى، وتبلغ نسبتهما معاً ١,٣٪. وبذا يتوزّع السكان على الشكل الآتي:

المسلمون	٩٩,٣٣٠,٢٠٠	ويشكلون	٨٦,٦٪
الهندوس	١٣,٨٧٨,٧٠٠	ويشكلون	١٢,١٪
البوذيون	٧٩١,١٠٠	ويشكلون	٠,٧٪
النصارى	٧٠٠,٠٠٠	ويشكلون	٠,٦٪
	١١٤,٧٠٠,٠٠٠		١٠٠,٠٪

أما المسلمون فلا يحسّون بأي عصبية، ولا يُفكّرون بالصراع مع أية مجموعةٍ أخرى ما داموا هم الأكثرية، وربما كان الأمر على العكس إذ يحاولون إظهار التقرّب من بقية الفئات لتوحيد الجهود باسم العصبية الوطنية، وكي لا يتهموا بالعصبية، ويقودهم إلى هذا الزعماء من أصحاب المصالح، والعصبيات الوطنية، الذين يريدون أن يكسبوا المجموعات من غير المسلمين إلى جانبهم، ولا شك لبعدهم عن الإسلام إما قناعةً، وإما

خوفاً على مصالحهم وشهواتهم التي يحول الإسلام بينهم وبين ممارستها. ولا شك أن هناك مجموعات إسلامية واعية لإسلامها، عارفة به، مدركة لواقعها، تنظر إلى هؤلاء بعين الشفقة، وتريد لهم الخير، وتتمنّى لهم السعادة. لذا فهي تعمل على دعوتهم إلى الإسلام، ومن ناحيةٍ تقف في وجههم لأنهم على ارتباط بدولٍ أخرى تُعادي الإسلام، وتضمر لأهله السوء، وتعمل على الإضرار بالدولة في سبيل ابتلاعها. وهذه الجماعة الإسلامية تقف من هؤلاء كما تقف من الذين ينتمون إلى الإسلام انتماء، ويعملون على شاكلة أولئك، فموقفها إذن ليس موقف العصبية، وإنما موقف الخير والدفاع عن البلاد.

أما الهندوس فقد كانوا يحقدون على المسلمين منذ أن كانت الهند دولةً واحدةً، وقد كانوا هم الأكثرية، وأصحاب السلطة، فلما تمّ التقسيم، وأصبحوا أقليةً وسط مجتمعٍ إسلاميٍ في بنغالديش زاد حقدهم على الإسلام، وبقوا على ارتباطٍ مع أبناء عقيدتهم في الهند. ولما كانوا أقليةً فقد زاد تماسكهم بعضهم مع بعضٍ، وغدوا قوة يُرهب جانبها. فهم من ناحيةٍ اجتماعيةٍ يُشكّلون مجموعةً خاصةً منعزلةً حاقدةً، ومن ناحيةٍ دوليةٍ فهم خونة، أعداء لبلادهم لأنهم على صلةٍ بدولةٍ أجنبيةٍ تعمل على هدم دولتهم، وتخطط لإزالتها، ولما كانوا أقليةً كبيرةً، وشبه منظمةٍ لذا كان الزعماء من أصحاب المصالح يسعون جاهدين لكسبهم إلى صفهم، والإفادة من قوتهم، وقد لعبوا دوراً كبيراً في حرب الانفصال التي أدت إلى تقسيم باكستان إلى شطرين، وخدموا مصالح الهند في ذلك خدمات جلّى. ولا يزالون على صلة بالهند، وإذا ما توثّقت العلاقات بين بنغالديش والهند برزوا، وإذا ما فترت أو توتّرت أخفوا رؤوسهم وعملوا في الظلّ. ويعدّون أنفسهم أعداء للحركات الإسلامية، ويعملون على الوشاية بأفرادها، والتحريض عليها، ومحاولة ضربها، كما أنهم ضدّ كل مسلمٍ ملتزمٍ، ويظهرون له العداوة، ويكيدون له، ويعدّون أنفسهم في صراع مع المسلمين، ولصراعٍ عنيف مستقبلاً.

وأما البوذيون فشأنهم شأن الهندوس في حقدهم على الإسلام وكرههم للمسلمين، ولكنهم أقل عدداً، وأضعف هيبةً، وصلتهم بالهند قليلة الأهمية لأنها تتعصّب للهندوس، ولكن صلتهم قوية مع دولة «بوتان» التي تقع إلى الشمال من بنغالديش، ولا يفصل بينهما سوى أراضٍ هنديةٍ ضيقة المسافة، حيث لا يزيد عرضها على خمسةٍ وعشرين كيلومتراً، و«بوتان» دولة بوذية، ومن هنا كانت الصلة قائمةً بين هذه الدولة وبين البوذيين في بنغالديش، غير أن هذه الدولة قليلة الأهمية، ضعيفة الإمكانات، صغيرة المساحة، ضئيلة السكان، حيث تقبع في سفوح جبال هيمالايا إذ لا تزيد مساحتها على ٤١,٢٨٠ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها على المليون، يعيش بينهم ٥٪ من المسلمين. ومن هنا كانت إمكانية البوذيين في بنغالديش على دخول ساحة الصراع قليلة، ويعملون على معاداة المسلمين ومحاولة تفتيت دولة بحرب عصابات في الداخل ضدّ الشرطة البنغالية، كما يقومون بشنّ غارات سرية على الحدود الهندية كي تقع الحرب بين الدولتين، وتجتاح الهند منطقة البنغال، وعندها يكون البوذيون قد حقّقوا بعض أهدافهم إذ نالوا من المسلمين، وأصبحوا على مقربة من دولة بوتان البوذية وعلى تماسٍ مباشرٍ معها، يمكنهم التسلّل إليها، وتلقّي بعض الدعم منها رغم فقرها.

وأما النصارى فعددهم قليل يصعب عليهم دخول ساحة الصراع، ولكن كان لهم شأنهم أيام الحكم الإنكليزي بل إن وجودهم في الهند أصلاً مرتبط بالاستعمار إما أنهم قد جاءوا معه أو أخذوا عقيدته تحت تأثيره، فلما ارتحل قلّ وزنهم. ولكن بقيت الإرساليات التنصيرية تقوم بدورها، وكان المستعمرون الصليبيون قد فتحوا لها الأبواب، وفسحوا لها المجال، وأمدّوها بالإمكانات كلها، فلما انسحب الصليبيون بقيت هي تؤدّي دورها، وظهر فقر البنغاليين واضحاً بعد انقسام الهند إذ انحصروا في منطقتهم، وإن بقيت الحالة مقبولةً نسبياً، فلما تجزّأت باكستان بدا الفقر جلياً، وغدت حاجةً السكان مُلحّةً، وخاصةً بعد حرب الانفصال التي أثقلت كاهل

الشعب، وجاءت إثرها الأعاصير والدمار، والفيضانات والخراب، وظهرت الحاجة إلى المساعدات فتداعت الإرساليات التنصيرية إلى التوجّه إلى بنغالديش إذ صار المجال خصباً، فلربما يضطر الناس لقبول النصرانية نتيجة الحاجة.

أخذ رجال الإرساليات التنصيرية يتوافدون على البلاد بل ونساؤها لأن لكلٍ دوره، ويتخذ وسيلته، ومعهم الإمكانات الضخمة التي تزيد على المطلوب، ولم يكن مجيئهم من جانبٍ إنساني فهذا أمر لا يعرفونه رغم أنهم يحملون شعاره، فما حدث أن ساعدوا أحداً على مدى تاريخ عملهم من غير عقيدتهم إلا إذا قبل النصرانية أو أظهر ميلاً نحوها. وبدأ عملهم، وأخذوا يبذلون الجهد، ويؤسّسون المشافي، وينشئون المدارس، ويفتحون أبوابها لأبناء عقيدتهم، ويقبلون فيها من يأتي إليهم في سبيل توجيههم، وتلقينهم المبادىء النصرانية، ويثيرون الشبهات حول الإسلام، ويطعنون فيه، وهذا كله أمام الصغار الذين لا يعرفون شيئاً بعد، وإنما يُتلقّون ما يُعطى بالنسبة إلى المدارس، وأمام الفقراء الذين يدفعون عن أنفسهم الموت أمام المرض الهاجم ـ حسب تصوّرهم الساذج ـ وليس لديهم من مال يقدّمونه للمستشفيات الجشعة بالنسبة إلى المشافي، وهؤلاء الصغار الفقراء، وأولئك المساكين الجهلة لا يعرفون شيئاً ومع ذلك إن لم يجد المشرفون على المدارس والمشافي تجاوباً وميلاً نحو النصرانية من الذين قُبلوا فيها يطردون مباشرة. وكذا يكون تقديم المساعدات، ونتيجة الجهل والفقر، والبعد عن الإسلام، ومتاجرة أصحاب المصالح فليس هناك من يقف في وجه الإرساليات التنصيرية سوى الحركات الإسلامية، وأهل العلم الذين يضطرون إلى تنبيه الشعب والعمل على نشر الوعي بين السكان، وهذا ما يُعرّضهم للإشاعات التي يبثّها رجال الإرساليات التنصيرية، والاتهامات التي يُلقونها، والأراجيف التي يُروّجونها، إضافةً إلى الحرب التي يجدونها من الدول الكبرى، ومن أعوانها المتسلّطين على البلاد. وهذا بين الحركات الإسلامية وبين تأدية دورها وبين الدعاة وأداء مهمتهم في

التوعية وإنقاذ الناس من براثن تلك الجماعات. فالصراع بين النصارى الممثّلين بالإرساليات التنصيرية بإمكاناتها الضخمة رغم قلة النصارى وبين الحركات الإسلامية والدعاة من أهل العلم مع مكانتهم، ومع إسلامية الشعب.

الصراع الحزبي:

برز حزب رابطة عوامي عندما ظهرت دولة بنغالديش، وآلت إليه السلطة، فاستبدّ بالحكم، وأخذ يضرب خصومه، ولم يلغ النشاط الحزبي في البلاد، وإنما أبقاه ليعرف خصومه، وقادتهم، ولكن وجّه ضربته الأولى على الجماعة الإسلامية بصفتها أنشط الحركات الإسلامية، ولخصومته وعداوته هو وحزبه للإسلام.

ظهرت المعارضة من رفاق الحزب السابقين الذين يتفقون معه بالنهج الشيوعي، وقاد هذه المعارضة عبدالحميد خان بها شاني الشيوعي الموالي للصين وزعيم حزب عوامي الوطني، فطالب الحكم بتشكيل ائتلاف وطني يضم أصحاب الفكر الماركسي، وقيام حكومةٍ وطنيةٍ تشمل أحزاب الائتلاف، وإجراء انتخابات جديدة غير أن مجيب الرحمن رفض كلياً، وأصرّ على أن الحكومة يجب أن تخصّ أعضاء حزب رابطة عوامي الذين تمّ انتخابهم في شوال ١٣٩٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٠ م). فقامت المعارضة بمظاهرات قادها عبدالحميد خان بها شاني. وعندها أخذ مجيب الرحمن يصفي رفاقه.

قام الانقلاب على حزب رابطة عوامي، ولم تعلم أمريكا بالانقلاب، وعمل قادته على الابتعاد عن روسيا والهند. وتشكّل حزب الرابطة الديمقراطية ليوالي الحكم القائم والرئيس مشتاق أحمد.

قام انقلاب ليدعم الموالاة للهند، ولكن لم يلبث سوى أربعة أيام، حيث قام انقلاب مضاد، وسمح للأحزاب بالنشاط، ولم يلبث أن استبد ضياء الرحمن بالسلطة، وشكل حزب بنغالديش الوطني ليدعمه بالحكم، وكان كلما اشتدت عليه المعارضة حظر النشاط الحزبي، فإذا شعر بضعف المعارضة سمح للأحزاب بمزاولة نشاطها. وكانت المعارضة تتمثّل في

حزب الرابطة الديمقراطية، وحزب بنغالّديش الشيوعي، والحزب الموالي للهند.

أطيح بحكم ضياء الرحمن وقتل، فتولّت زعامة حزب بنغالديش الوطني أرملته خالدة ضياء بعد وفاة الرئيس عبدالستار محمد صايم. واستبد حسين محمد إرشاد بالحكم، وأخذت المعارضة تقوى، وتمثّلت في:

أ ـ تحالف ضم خمسة عشر حزباً برئاسة جناح من حزب رابطة عوامي بزعامة حسينة واجد ابنة مجيب الرحمن.

ب ـ تحالف ضم سبعة أحزاب برئاسة جناح من حزب بنغالديش الوطني بزعامة خالدة ضياء أرملة ضياء الرحمن.

ثم شكّل التحالفان جبهةً مؤتلفةً واحدةً للمعارضة عُرفت باسم: «الحركة نحو استعادة الديمقراطية». أما الرئيس حسين محمد إرشاد فقد أسّس حزب الشعب ليسانده بالحكم، وكان الصراع عنيفاً بين الطرفين. وزادت المعارضة حتى شملت الأحزاب الصغيرة، والتنظيمات الاجتماعية، والثقافية وبلغ عدد التنظيمات المشاركة بالمعارضة ستة وسبعين تنظيماً.

وبالمقابل فقد شكل الرئيس حسين محمد إرشاد تحالفاً ضمّ خمسة أحزاب وهي: حزب الشعب، حزب الشعب المتحد، رابطة مسلمي بنغالديش، والجناح المنشق من حزب بنغالديش الوطني برئاسة عبيد الرحمن، وحزب «القونوتانترك»، وعرف هذا التحالف باسم «الجبهة الوطنية»، وكانت هذه الجبهة تساند الحكم.

وكانت المعارضة تقوم بمظاهرات، وتتقدم بمطالب، وأما الحكومة فتتخذ وسائل حظر النشاط على الأحزاب، أو تراوغ بتنفيذ بعض المطالب، أو تعد الوعود، ولا تنجز الموعود.

وكانت هناك أحزاب أخرى تلعب دوراً في السياسة العامة مثل: الحزب الاشتراكي الوطني (ساماجتانتريك)، وحزب بنغالديش الشيوعي، وحزب (ج، س، د) الموالي للهند.

وأما التنظيمات الإسلامية فأهمها: الجماعة الإسلامية التي تزاول نشاطها تحت إشراف وزارة الشؤون الدينية البنغالية، وتصدر الجماعة جريدةً يوميةً تحمل اسم «الجهاد» ومجلةً أسبوعيةً، وأخرى شهريةً تحمل الاسم نفسه، وتشرف كذلك على المركز الإسلامي الذي تلقى فيه محاضرات، وتدار فيه المناقشات.

وهناك المؤسسة الإسلامية، وأهل الحديث، وجماعة التبليغ..

وبدأت الإرساليات التنصيرية تلعب دوراً كبيراً نتيجة الجهل، والفقر، ونتيجة الإمكانات الضخمة التي تملكها الإرساليات، والدعم الكبير الذي تلقاه من الدول الكبرى، فتكون عوناً صليبياً استعمارياً لتلك الدول، وحربةً لها لضرب الإسلام، ومحاولة تنصير أبنائه، أو إفسادهم على الأقل.

الباب السادس

جُمهُوريّة المالديف

لمحة عن تاريخ المالديف
قبل إلغاء الخلافة

وصل الإسلام إلى جزر المالديف عن طريق التجارة وذلك حوالي عام ١٨٩ هـ، وانطلق الدعاة إليها حتى عمّ فيها، وفي عام ٥٤٨ هـ أسلم السلطان، واعتنق السكان كافةً الديانة الإسلامية.

وجاء الاستعمار الصليبي فعرف البرتغاليون جزر المالديف عام ٩١٣ هـ، وأغاروا عليها عام ٩٦١ هـ، وبعد أن احتلّوها اتخذوا منها قاعدةً، وربطوها بمستعمرة «غوا» في غربي الهند.

زال الاستعمار الصليبي البرتغالي عن المالديف عام ٩٨١ هـ، كما زال عن كثيرٍ من المناطق التي سيطر عليها بسبب قلة عدد البرتغاليين مع سعة البقاع التي استعمروها، وللسياسة التي اتبعتها دولتهم في امتصاص دماء الشعوب التي سيطروا عليها، ولأنهم كانوا يكتفون باحتلال مراكز لهم على السواحل لتأمين سيطرتهم وضمان أخذ خيرات البلاد، وأخيراً زالت دولتهم باحتلال إسبانيا لأرضهم مما قضى على امبراطوريتهم التي أسّسوها. كما أن ظهور مستعمرين صليبيين آخرين منافسين لهم كان له دور كبير في زوال سلطانهم، واندحارهم أمام المنافسة. وفي هذه المدة من الحكم البرتغالي كانت الجزر تدفع ضريبةً سنويةً إلى مستعمرة «غوا».

وسيطر الهولنديون في القرن الحادي عشر الهجري (١٠٦٩ هـ) على جزيرة سيلان، وحلّوا محل البرتغاليين، فعقدوا معاهدةً مع سلطان

المالديف، وصارت الضريبة تدفع لحكام سيلان الهولنديين حيث كانت الجزر تحت حمايتهم.

ضعفت السلطة الاستعمارية الهولندية، وخرجت كثير من المناطق من قبضتهم، وأخذت تستقلّ عنهم، ومن هذه البلاد جزر المالديف. ولكن جاءتها غزوة قادمة من مليبار (ساحل الهند الغربي) فأخضعوها لحكمهم عام ١١٦٦ هـ، غير أن حكم المليباريين لها لم يزد على السبع سنوات حيث خرجوا منها، وعاد إليها استقلالها.

حلّ الإنكليز محلّ الهولنديين في سيلان، فكانوا على مقربةٍ منها، فاستغلّوا وجود بعض القلاقل فيها عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) فتدخلّوا بالأمر، وفرضوا على السلطان معاهدةً اعترف فيها بسيادة بريطانيا، وتعهّد بعدم الدخول في مفاوضاتٍ أو معاهداتٍ مع أي دولةٍ أجنبيةٍ أخرى إلا عن طريق حاكم سيلان البريطاني، ووافقت الحكومة البريطانية على حماية هذه الجزر من أي اعتداءٍ خارجيٍ، ولكنها تعهّدت في الوقت نفسه ألا تتدخّل في شؤون المالديف الداخلية.

استمرّت انكلترا صاحبة النفوذ في المالديف. وألغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) وإنكلترا تتحكّم في شؤون تلك الجزر الضعيفة اقتصادياً لقلّة مواردها، والضعيفة عسكرياً لقلّة سكانها، ولبعدها عن إخوانها في العالم الإسلامي، وهذا ما يُلزمها على التبعية والخضوع لأية قوةٍ تُهدّدها، أو لأي استعمارٍ يريد أن يعتدي عليها، ويجعل من أراضيها قواعد له يستخدمها لمصالحه، ومن خيراتها منفعةً له، ومن سكانها سوقاً استهلاكيةً لمنتجاته.

المالديف بعد إلغاء الخلافة

بقيت المالديف بعد إلغاء الخلافة تدور في فلك السياسة البريطانية صاحبة النفوذ فيها، ولا يمكنها غير ذلك لضعفها، ولجهل المسلمين الذين لا يكادون يعرفون شيئاً عنها.

أقامت الحكومة البريطانية قاعدةً جويةً لها في جزيرة (جان) أثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب حصلت المالديف على استقلالها الذاتي، وذلك أنها كانت ترتبط بجزيرة سيلان التي حصلت على استقلالها عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وعندها تمّ عقد اتفاقٍ جديدٍ بين الحكومة البريطانية وبين جزر المالديف، ظلّت بموجبه جزر المالديف تحت الحماية البريطانية، وتعهدت إنكلترا بتسيير شؤون المالديف الخارجية، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية، وأُعطيت القوات الإنكليزية تسهيلات في الجزر من أجل الدفاع عنها أو عن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، ثم جُدّد هذا الاتفاق عام ١٣٧٣ هـ.

أعلنت الجمهورية في المالديف في ربيع الثاني ١٣٧٢ هـ (كانون الثاني ١٩٥٣ م) بعد أن أُلغيت السلطنة في العام نفسه، وانتخب محمد أمين ديدي أول رئيس للجمهورية.

طُرح موضوع رئاسة الجمهورية على الجمعية الوطنية التي صوتت إلى جانب إعادة السلطنة، ولم ينصرم العام بعد، ونُصّب محمد فريد ديدي سلطاناً على المالديف في جمادى الآخرة ١٣٧٣ هـ (شباط ١٩٥٤ م)،

وهو ابن عم رئيس الجمهورية محمد أمين ديدي، وتسلّم رئاسة الوزارة إبراهيم ناصر.

حدثت معارضة شديدة بين جموع المسلمين على الاتفاق الذي وُقّع بين حكومة المالديف والحكومة البريطانية والذي يقضي بالسماح لبريطانيا بإعادة بناء قاعدتها الجوية في جزيرة (جان) في أقصى مجموعةٍ للجزر الجنوبية التي هي مجموعة «أدو» غير أن البريطانيين قد حرّضوا سكان الجنوب على إعلان استقلالهم عن حكومة المالديف المركزية وذلك عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م).

قامت عام ١٣٨٠ هـ حركة تمرّدٍ في الجزر الجنوبية، غير أن قوات الحكومة المركزية قد استطاعت القضاء على حركة التمرد بسهولةٍ. واضطرت الحكومة أن تنحني، وتُساير السياسة البريطانية، وتُجدّد الاتفاقية معها.

استقلت جزر المالديف في ٢٨ ربيع الأول ١٣٨٥ هـ (٢٦ تموز ١٩٦٥ م)، وخرجت أيضاً من عضوية رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

بقيت المالديف خاضعةً للحماية البريطانية مدة ٧٨ عاماً، ولكن كانت هذه الحماية من نوعٍ خاص متميزٍ عن أنواع الحماية المعروفة، حيث لم يكن لبريطانيا في يومٍ من الأيام حاكم، ولا مندوب سامٍ، ولا أي مسؤول آخر من يمارس السلطة الفعلية، وإنما كان على رأس السلطة رسمياً سلطان منتخب، وهو صاحب الأمر والنهي، فالحماية لم تكن إلا نوعاً من التبعية القانونية التي حدّت من تعاملها مع الدول الأخرى.

وكانت جزر المالديف عضواً في حلف كولومبو منذ عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).

الاستقلال

تقع جمهورية المالديف على بعد ٦٥٠ كيلومتراً من الشاطىء الغربي لسيلان، وتشغل في المحيط الهندي مساحة طولها ثمانمائة كيلومتر، وعرضها في أوسع الأماكن مائة وخمسة عشر كيلومتراً. وتتألف من ١٠٨٧ جزيرة منها مائتا جزيرة مأهولة بالسكان، وبقية الجزر خالية، يستغلّ بعضها في إنتاج المحاصيل الزراعية والأخشاب، وبعضها في السياحة، وهذه الجزر رملية مرجانية لا توجد فيها جبال، ولا أنهار، إلا بحيرات عذبة في بعض الجزر، والجزر صغيرة بصفة عامة فأكبرها لا يزيد طوله على اثني عشر كيلومتراً، ولا يتجاوز عرضها خمسة كيلومترات.

وتنقسم جمهورية المالديف طبيعياً إلى ثلاث عشرة مجموعة تفصل بينها بحار، وتنقسم الجمهورية إدارياً إلى تسع عشرة مجموعة، وعلى رأس كل مجموعة حاكم أو محافظ، مُعيّن من قبل الحكومة، يُدير شؤونها.

وعاصمة جمهورية المالديف جزيرة أو مدينة «مالي»، ويقع أمامها الميناء الرئيسي، ولكن المطار يقع على جزيرة «هولولي» التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن جزيرة «مالي».

والمناخ استوائي، رطب، معتدل.

ويبلغ عدد السكان ما يزيد على مائة وخمسين ألف إنسان، وجميعهم من المسلمين، وعلى مذهب الإمام الشافعي. ويعودون في أصولهم إلى

مـزيجٍ من الشعـوب، وإن كان هنـاك تشابـه بينهم وبين سكان سيـلان، واختلطَ سكان جزر الشمال مع سكان جنوب غربي الهند، واختلط سكان الجزر الوسطى مع العرب القادمين من جزيرة العرب، ومن شرقي إفريقية، وخاصةً من جزيرة «زنجبار»، أما سكان الجزر الجنـوبية فكـان اختلاطهم قليلاً لذلك فهم أقرب ما يكون الشبه بينهم وبين سكان جزيرة سيلان.

واللغة هي المالديفية، وترجع في أصولها إلى السنسكريتية والباليية، غير أنها الآن خاصة، وقد تأثّرت بلغة «الأوردو»، و «السيلانية» و «العربية» و «الفارسية».

استقلت جزر المالـديف في ٢٨ ربيع الأول ١٣٨٥ هـ (٢٦ تمـوز ١٩٦٥ م)، وانضمّت إلى الأمم المتحـدة بعـد شهـرين من استقـلالهـا، وأصبحت العضو رقم ١١٧ فيها.

تبلغ مساحة جمهورية المالديف ١٩٨ كيلومتراً مربعاً فقط أي ما يزيد قليلاً على نصف مساحة دولة البحرين، فتكون الكثافة ٣٥٠ شخصـاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة مرتفعـة نسبياً يمكن مقـارنتها مـع الكثافة في منطقة آسيا الموسمية، بل تعد هذه الجزر جزءاً منها، ويزيد السكان في كل عام حوالي ألفين وثلاثمائة شخص.

وسمح لبريطانيا بتجديد قاعدتها الجوية في جزيرة (جان).

جرى استفتاء شعبي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال فوافق الشعب على إقامة النظام الجمهوري في الحكم، كبديل لنظام السلطنة التي كان قـائماً، وأعلن النـظام الجمهوري في ٢٠ شعبـان ١٣٨٨ هـ (١١ تشرين الثاني عام ١٩٦٨ م)، وتسلّم إبراهيم ناصر رئاسة الجمهوريـة، وكان من قبل يشغل منصب رئاسة الوزراء منذ عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م).

كانت البلاد تعرف من قبل باسم جزر المالديف، واستمر ذلك حتى مطلع عام ١٣٨٩ هـ (نيسان ١٩٦٩ م) حيث أُطلق عليها اسم «جمهورية المالديف».

١″ ـ إبراهيم ناصر:

انتهى حكم الملك «محمد فريد الأول» بعد حكمٍ دام أربعة عشر عاماً، ولكن مع الاحتفاظ بمكانته. وتسلّم إبراهيم ناصر منصب رئاسة الجمهورية.

وتتركز السلطات في يد مجلس الوزراء الذي يضع السياسة العامة للدولة، ويُباشر تنفيذها، ويرأس هذا المجلس رئيس الجمهورية، ومجلس الوزراء مسؤول أمام مجلس الشعب، الذي يتولّى السلطة التشريعية، ويتألّف هذا المجلس من خمسين عضواً يتمّ انتخابهم لمدة خمس سنوات.

وفي عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) قررت الحكومة البريطانية إقفال قاعدة (جان) الجوية، وجلاء القوات من جمهورية المالديف، وهذا ما أدّى إلى وجود مشكلة اقتصادية، وانشقاق في القوات العسكرية.

وفي شوال ١٣٩٧ هـ (تشرين الأول ١٩٧٧ م) عرضت روسيا استئجار جزيرة (جان) بمليون دولار سنوياً، ولكن الرئيس إبراهيم ناصر رفض ذلك، وقال: إنه لا يؤجّر الجزيرة لأغراضٍ عسكريةٍ أو لقوةٍ كبيرةٍ.

كان الرئيس المالديفي إبراهيم ناصر قد عزل رئيس الوزراء أحمد زكي، وألغى منصب رئاسة الوزراء عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، وأعلن أنه لن يرشح نفسه لإعادة انتخابه في نهاية مدته الثانية عام (١٩٧٨ م).

وفي ٢١ شعبان ١٣٩٨ هـ (٢٦ تموز ١٩٧٨ م) جرى الانتخاب ولم يرشح الرئيس إبراهيم ناصر نفسه فعلاً، واختار المجلس وزير المواصلات مأمون عبدالقيوم لمنصب رئاسة الجمهورية.

٢″ ـ مأمون عبدالقيوم:

تسلّم مهمة منصب الرئاسة بانتهاء مدة الرئيس السابق إبراهيم ناصر في ١١ ذي الحجة عام ١٣٩٨ هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٧٨ م)، وأعلن

أن مهمته الرئيسية سوف تكون تطوير المناطق الريفية الفقيرة، وسيستمر في سياسته الخارجية على السياسة القائمة بعدم الانحياز.

وفي شهر صفر من عام ١٤٠٠ هـ (مطلع عام ١٩٨٠ م) جرت محاولة انقلاب وتقوم على اغتيال رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته، واتهم فيها الرئيس السابق إبراهيم ناصر الذي كان قد غادر في اليوم الذي انتهت فيه مدة رئاسته، واتجه إلى سنغافورة حيث أقام هناك، واستدعي من قبل المسؤولين في جمهورية المالديف للحضور إلى بلاده للإجابة حول بعض التساؤلات التي تتعلق باختلاس موارد الدولة، فأبى، وطلب من حكومة سنغافورة اعتباره لاجئاً سياسياً فوافقت على طلبه، وبقي يعيش هناك، فلما جرت محاولة الانقلاب هذه، واتهم فيها أنكر ذلك، وامتنع عن القدوم أيضاً، وبعد سنةٍ من المحاكمات، وفي جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ (نيسان ١٩٨١ م) صدر الحكم على أحمد نسيم نسيب الرئيس السابق إبراهيم ناصر، ووزير الأسماك السابق بالسجن المؤبد بتهمة التآمر للإطاحة بنظام الحكم القائم، وأعلن إبراهيم ناصر أنه ليس له أي دخلٍ في تلك المؤامرة. ومن طرفٍ آخر جرت محاولة للاعتداء عليه لإخراجه من سنغافورة ولكنها فشلت.

وجرت محاولة ثانية للإطاحة بالرئيس مأمون عبدالقيوم عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) ولكنها فشلت، وكانت أصابع الاتهام أيضاً تشير إلى الرئيس السابق.

وجرى استفتاء شعبي على الرئاسة في شهر ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (أيلول ١٩٨٣ م) فنجح مأمون عبد القيوم، وحصل على ٩٥,٦٪ من الأصوات، فاستمرّت رئاسته.

وجرى استفتاء شعبي آخر على إعادة انتخابه للمرة الثالثة لمدة خمسة سنوات جديدة في مطلع عام ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م) وحصل على ٩٦,٤٪ من الأصوات، وتجدّدت بذلك رئاسته الثالثة، ولكن لم يلبث أن

جرت محاولة انقلاب أيضاً وذلك في ٢٤ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٨٨ م) حيث نزلت قوة بحرية من المرتزقة مؤلفةٍ من مائةٍ وخمسين من عناصر التاميل السيريلانكيين بإمرة أحد رجال الأعمال المالديفيين المدعو «عبدالله لطفي»، وقد نزلوا في جزيرة «مالي» العاصمة وحاولوا الاستيلاء على الدوائر الحكومية المهمة. فطلب الرئيس مأمون عبدالقيوم من الحكومة الهندية مساعدته فأرسلت ألف وستمائة رجل من فرقة الطوارىء، وقضت على محاولة الإطاحة بالحكومة، وذهب ضحية ذلك عشرون قتيلاً. وقد أشارت عدة مصادر على وجود صلةٍ بين رأس المحاولة «عبدالله لطفي» وبين الرئيس المالديفي السابق إبراهيم ناصر الذي أنكر بشدة صلته بتلك المحاولة الفاشلة. وأعلنت الحكومة المالديفية أن القوة الهندية ستبقى في البلاد حتى يتمّ إلقاء القبض على جميع الذين اشتركوا بمحاولة الانقلاب.

وفي شهر صفر من عام ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) أمر الرئيس المالديفي بالحكم المؤبد على اثني عشر رجلاً من سيريلانكا وأربعة من المالديف من ذلك اشتركوا بمحاولة الانقلاب.

وفي الثاني من شهر ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٨٩ م) سحبت الحكومة الهندية مائة وستين من قوة الطوارىء الموجودة في المالديف.

وفي جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ (كانون الثاني ١٩٩٠ م) عقدت اللجنة الهندية ـ المالديفية اجتماعات في سبيل التعاون الاقتصادي والتقني، وأهم نقطة بحث كانت في تلك اللقاءات إمكانية إلغاء تأشيرة الدخول بين البلدين.

وأصبحت المالديف عضواً في رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) في رمضان من عام ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م).

وهي كذلك عضو مؤسس في منظمة جنوبي آسيا للتعاون الإقليمي (سارك) في ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (كانون الأول ١٩٨٥ م).

المراجع

- تقويم البلدان الإسلامية: الأمانة العامة لمؤتمر العالم الإسلامي. باكستان ـ كراتشي ١٩٦٤ م.
- تقويم العالم الإسلامي: جمعية الدراسات الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٠ م.
- قسمات العالم الإسلامي: مصطفى مؤمن ـ دار الفتح ـ بيروت ١٩٧٤ م.
- القاموس السياسي: أحمد عطية الله. دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م.
- كشمير المسلمة تناديكم: أليف الدين الترابي. الجماعة الإسلامية في كشمير ١٩٩١ م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن علي الحسني الندوي. إدارة إحياء التراث الإسلامي ـ قطر.
- محمد علي جناح: إحسان حقي. دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٧ هـ.
- باكستان: شريف الدين بيرزاده. ترجمة عادل الصلاحي. الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة ١٩٦٩ م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

-٢٠-

التاريخ المعاصر

جنوب شرقي آسيا

ماليزيا وأندونيسيا

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد بن عبدالله إمام المتقين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين *أما بعد*:

فإن جنوب شرقي آسيا هو المنطقة الأنموذجية التي انتشر فيها الإسلام حتى عمّ، ولم تنطلق إليها سرية، ولم ترتفع نحوها راية للجهاد، ولم تسر إليها كتيبة، ولم يتقدّم إليها جيش فتحٍ، وإنما انتشر الإسلام عن طريق التجارة أو في الحقيقة عن طريق حسن المعاملة، ومكارم الأخلاق، واحترام المبادىء، وتقدير القيم، وأدب التصرّف. لقد أُعجب السكان بهذه القيم فتمثّلوها، وبهرتهم الأفكار فقبلوها، فوجدوا أنفسهم مسلمين.

لقد فتح سكان جنوب شرقي آسيا صدورهم للإسلام قبل أن يفتحوا أذرعتهم إليه، ورحّبت به قلوبهم قبل أن تُرحّب به ألسنتهم، واستقبلته أنفسهم قبل أن تستقبله أجسامهم، لقد ترنّموا برؤية الحرية تُنفّذ، وطربوا لمشاهدة المساواة تُطبّق، وتعشّقوا العدل فوجدوه أمامهم، وتغنّوا بالنظام فرأوه مُتمثّلاً بهؤلاء القادمين من التجار، وحلموا بالمحبة بين الناس فشاهدوها حيّةً بين الوافدين إليهم حيث يحبّ بعضهم بعضاً، ويحبّون الآخرين لذلك يدعونهم لهذه المبادىء، ويتمنّون لهم الخير، ويرغبون أن يكونوا مثلهم، وهذا غاية الكمال أن تريد للآخرين ما تريده لنفسك، فتدعوهم ليكونوا مثلك، وهل يرغب المرء لنفسه إلا أن يكون في القمة،

رغب أهالي سكان جنوب شرقي آسيا هذا كله، ورأوه، فأقبلوا عليه فوجدوا أنفسهم مسلمين.

لقد صار أهل تلك المناطق مسلمين أو أصبحوا أرقى وأرفع مما كانوا، كانوا يطلبون الحرية فلا يجدونها وإنما يجدون قوياً يستبدّ، وطاغيةً يتسلّط، وعزيزاً يتصرّف، وليس من أحدٍ يستطيع أن يقول كلمةً يُدافع فيها عن ماله، أو عرضه، أو شخصه، وأحسّوا الآن أنهم قد وُلدوا من جديدٍ، ليسوا بحاجةٍ إلى دفاعٍ بل إلى قولٍ، فالمالُ مُؤمّن، والعرض مُصان، والشخص مُكرّم، فلا مجال لسخطٍ فاندفعوا نحو العمل فكان الإنتاج، وكانت الحضارة.

كانوا يرغبون بالمساواة ولكن أنّى لهم بها، وقد كان هناك سادة فلا يُساويهم أحد، وكان هناك كهنة فلا يصل لمستواهم فرد، وهؤلاء وأولئك يرعون سائمين في أعراض الآدميين، ويتصرّفون في الأمّة مُبذّرين، ويعبثون في أجساد الآخرين لاعبين فمن يُعادلهم، وهم من غير طينة البشر، إنهم الرؤوس وغيرهم الأقدام، وشعر السكان الآن أنهم في عالمٍ آخر: الناس كلهم سواء كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربيٍ على أعجميٍ، ولا لأبيض على أسود، ولا لغنيٍ على فقيرٍ ولا لرئيسٍ على مرؤوسٍ إلا بالتقوى، والتقوى هي طاعة الله، والخوف منه، وتكون بتطبيق أوامره، واجتناب نواهيه، ومن أوامره إعمار الأرض ومحبّة الآخرين، وتقديم الخير للناس، فكان إعمار الأرض، وكان الإنتاج، وكانت محبّة الآخرين، وكان التعاون، وكان الإخلاص فكانت الوفرة، وكان الخير، وكانت الحضارة.

كانوا يرغبون بالعدل ولا يحسّون به فالرأس من طبقةٍ ولا يُحكم عليه، والسيد من أسرةٍ ولا يُؤاخذ، والغني من فئةٍ ولا يُعامل كالآخرين، والمزارع من طبقةٍ ومحكوم، وابن الصانع من أسرةٍ ومُؤاخذ مباشرةً، والغني يستخدم غيره ويأمر، والفقير من فئةٍ ومستخدم ومأمور، أما الآن وقد أصبحوا مسلمين، واقتدوا بمن رأوا فقد أصبحوا في وضعٍ آخر، ابن رأس

السلطة وابن الخادم عنده في مستوىً واحدٍ، يُحكم لـه وعليه، والسيـد والعبد في وضع واحدٍ يُؤخذ له ومنه، والغني والفقير المعدم على صعيدٍ واحدٍ، كل في عمله مأمور، ووزنه فيما يُحسن «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتم أحراراً». وكان الشعور بالمسؤولية، وكان الإحساس بالمكانة وكان الإقدام على العمل، وكان العطاء، وكانت الحضارة.

كانوا يحبّون النظام، ولكن لا يمكنهم تـطبيقه، فـالكبير يتجـاوزه، والصغير يُطبّق عليه، الرئيس يخترقه، والمرؤوس يُطبّق عليه، الغني لا يهتمّ به، والفقير مُكلّف بالحفاظ عليه، فأصبح كل يتهرّب منه، ويعمـل على تجاوزه حتى عمّت الفوضى، واختلّ كل أمـرٍ، وجاء الإسـلام، واختلف الأمر، وتباين الوضع، فالناس كلهم ضمن النظام لا يخترقه إلا شاذّ، ولا يتجاوزه مُكلّف، تبدو معالمه في صفوف الصلاة، والاقتداء بإمـام واحدٍ، والركوع والسجود معاً، لا يُسابق الإمام أحد، ولا يتأخّر عنه فـرد، وتبدو معالمه في الصيام في الإفطار بلحظةٍ واحدةٍ، والإمساك كذلك، والامتناع عن كل شيءٍ يدخل إلى الجوف، وتبدو معالمه في الزكاة، ومضي الحول على المال، والنسبة التي يؤدّيها المسلم، وتبدو معـالمه في الحـج، في الإحرام، والطواف، والسعي، والرمي لا تجد مُخالفةً في اتجاه سيرٍ، ولا نقصاً في عدد الأشواط، أو الجمرات، بل وفي كل حركةٍ. وهذا شأن كل مكلّفٍ بغضّ النظـر عن الأنساب، والغنى، والمنصب، والمكانة، وطـول الأجسام، واختلاف الألوان، وتباين الأجناس، وبالأساس لا توجد طبقات في المجتمع المسلم. هذا النظام الذي ساد قضى على الفوضى، وحثّ على الإتقان، والدقة، والتقيّد بالموعد، الذي هو أيضاً من صفات المسلم، وكان العمل المتقن، والإنتاج الدقيق، وكان الإبداع، وكانت الحضارة.

كان سكان جنوب شرقي آسيا يحبّون أن تعمّ المودة والمحبّة بينهم وأن يسود الوئام بين أفرادهم، ولكن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، فالقوي يأكل الضعيف فيكون الحقد من المأكول، وصاحب المكانـة يدوس على

البسيط، وتكون الضغائن عند المُداس، والغني يريد أن يستعبد الفقير، وتكون الحسرة عند من لا مال له، ورأس السلطة وحاشيته، والكهنة وأتباعهم فوق بقية الشعب يُسخّرونهم، ويتخذونهم مطيةً، ويريدون أن يتصرّفوا بهم حسب أهوائهم ووفق شهواتهم، وهكذا يشعر المرء أنه يعيش بين ذئابٍ تنهشه وأنيابٍ تريد أن تُمزّقه، وتكون الإحن، ويتولّد الحقد، وتُشحن النفوس بالضغائن، فلما عمّ الإسلام انتهى هذا كله، وأقبل الناس يُطبّقون هذه التعاليم الجديدة بكل سرورٍ وبهجةٍ، كالإنسان الذي حصل على أمنيةٍ كان يحلم بها دائماً ويتمنّاها، ويشعر أن فيها سعادته، وفيها راحته، فعمّت المحبّة، وساد الوئام والألفة، وطُبّق النظام، وشاع العدل، وعُرفت المساواة، وانتشرت الحرية، وكانت الحضارة.

أحسّ سكان جنوب شرقي آسيا بعد انتشار الإسلام أنهم يعيشون في كنف الإنسانية، وبدأوا يشعرون بآدميتهم، فقد انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الهمجية إلى الإنسانية، ومن البدائية إلى الرقي والحضارة، وأن هذه النقلة العظيمة إنما كانت نتيجة العقيدة الجديدة التي آمنوا بها، واتبعوا مبادئها.

هذا ما قدّمه الإسلام لسكان هذه المنطقة، ولغيرها ممن اتبعه، وهذه هي الحضارة: حرية، ومُساواة، وعدل، ونظام، ومحبّة، إنها مبادىء عظيمة وأمور معنوية ترقى بالنفس البشرية فتدفعها للعمل والإنتاج، وتسمو بها فتحملها للتفكير والإبداع، وترتفع بها فتجعلها تحسّ بواجب الأخوة والانتماء للأمة الإسلامية، والحبّ لكل فردٍ منها كما يحبّ المرء لنفسه «لا يُؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»، وهذه هي الحضارة والارتقاء، وهذه هي بذرة السمو، وغرسة الاختراع.

فالحضارة اصطلاح معنوي تنمو وتترعرع بمقومات العدل، والمساواة، والحرية، والمحبّة، والنظام، وتُورق، وتتفرّع أغصانها، وتُزهر، وتُثمر أشياء ماديةً، وإذا تعهدناها بالفكر، ورعيناها بالعلم والتجربة أنتجت،

وأعطت الابتكارات، ومختلف الاختراعات، ومع استمرار الرعاية والتعهّد يستمرّ العطاء، ويكون التطوّر العلمي، وتقدّم التجربة والابتكار.

وقبل أن يشتدّ عود حضارة الإسلام في جنوب شرقي آسيا، ويبدأ خيرها المعطاء جاءها سيل جارف من البحر دفعته أوربا إليها، وإن لم يستطع اقتلاع جذورها إلا أنه كسّر أغصانها بالقهر، ومنع عنها السقاية بالظلم فجفّت أوراقها وذبلت، ثم أخذت تتساقط، وحاول اجتثاثها بالقوة فلم يتمكّن، فكلّف المزارعين والمشرفين على البستنة باستمرار اتباع سياسة الظمأ حتى تموت الجذور، وبقي يتابع أولئك المزارعين والمشرفين فإذا تساهل أحدهم باتباع تلك السياسة أو أخذته الشفقة على زرعه والرحمة على شجره طُرد من حقله، أو دُفن في أرضه.

وهكذا يبقى الزرع جافاً ذابلاً، والشجر أصفر تتساقط أوراقه وتموت أغصانه، ويطلب السقاية والرعاية، ويحتاج إلى الماء لتعود إليه الحياة من جديدٍ فجذوره ضاربة في الأرض حيّة، وسوقه باسقة فيها آثار رطوبةٍ، ودلائل نُضرةٍ، ولكن يحول المزارعون دون الريّ، والحرّاس من أعلى يمسكون العصا يهشّون بها، ويخيفون من يُفكّر بالريّ.

ويشيع الحرّاس أن هذا الذبول من الإسلام، فإذا أردتم النضرة، ودعوة الخضرة فعليكم بترك ما كان سبب الجفاف وتراجع النمو، وإننا نحرص ونستعمل كافة الأسباب من أسمدةٍ ومُنشّطاتٍ ولكن دون فائدة لوجود الإسلام. لقد استعملوا الروث الحيواني كسمادٍ دون السماح بالريّ فأثاروا الشهوة الحيوانية لدى فريقٍ فادعوا النمو والتطوّر، وأعلنوا أن هذا حضارةً ومن الحضارة.

وأخذ الحرّاس ينجرون من الأغصان اليابسة أسلحةً يضعونها بأيدي المزارعين ليحموا بساتينهم من أهلها، وليضربوا بها أي مزارعٍ إن شذّ،

وليستعملها المزارعون بعضهم ضدّ بعضٍ لتأديب من جمح، وإعادته إلى حظيرته أو استبداله بآخر، وأثناء عملية النجارة ظهرت معهم بقايا الأخشاب فاستعملت للتدفئة والإنارة، وهكـذا كان من النجـارة وسائـل بناء وإفـادة ووسائل ضرب وتدمير وعدّوا كليهما حضارةً.

وشغل الحرّاس الأهالي بالقفز والرقص والغنـاء وسموه فنّاً، وبالتفلّت والعري ونعتوه تقدّماً، وبـالفساد والعهـر ووصفوه حـريةً وحقـاً، وألهوهـم باللعب وقذف الطابة وسمّوه تطوّراً، وعلّموهم الكذب في وسائل الإعلام، وتغيير الحقائق، والتجسّس وقالوا عنه ذكاءً وبراعةً، وأعطوا هذا كله اسم حضارة. واتخذوا هذا جميعاً ليُبعدوا الناس عن التفكير بماضيهم المشرق والحضارة الحقيقية التي كانوا يعيشون في ظلّها، وعرفوا آثارها ونتائجها.

ليست الحضارة قفزاً ورقصاً، ولا قذفاً ولعباً، ولا وسائل إبادة الخلق وتدمير البشرية، ولا تجسّساً وكذباً، وتشويهاً للحقائق وإنما الحضارة شعور النفس بالراحة، والإحساس بالطمأنينة، ويتمّ هـذا بالحـرية، والمسـاواة، والعدل، والنظام، والمحبّة، وتأمين ضرورات الحياة براحةٍ، وإذا ما شعرت النفس بهذا انطلقت نحو الإنتاج، والعلم، والإبداع، والابتكار، والاختراع. وأمر طبيعي ألا تستطيع نفس أن تعيش في ظلّ التفرقة، والفوضى، والكراهية، ويُمارس عليها كل أنواع الضغط، وأشكـال الظلم، وأصنـاف الجور، ثم يطلب منها الإنتاج، والاختراع.

لقد عمل الذين جاءوا بالسيل الصليبي الاستعماري والذين كانوا معه كل وسائل الظلم، والإفقار، وجميع أسباب المرض والجهـل حتى ضاق الناس ذرعاً بالحياة، ونسوا الماضي، وجهلوا الحقيقة، ولم تعد معرفتهم تتعدّى وسيلتهم لتأمين لقمة العيش، والهرب من القسوة، وطريقة العزلة.

وترك الصليبيون المستعمرون المنطقة بعد أن اطمأنوا على ما فعلوه، وبعد أن وجدوا من الأعوان من يسدّ مسدّهم إن غابوا، ويُنفّذ مخططهم إن

رحلوا، ويقبل توجيهاتهم وإن بعُدوا، ويأخذ بـإرشادهم وهم في بـلادهم فخفّفوا بذلك عن أنفسهم مغبة نقمة الأهالي، والصدام معهم، إذ تركـوا الناس يُقاتل بعضهم بعضاً، ويتجهم ويتهم بعضهم بعضـاً وهم في منأى يضحكون، مصالحهم تُؤمّن، ومخططاتهم تُنفّذ، وأعداؤهم يقتتلون، وقسم من هؤلاء الأعداء يُدافع عنهم، ويكفيهم مؤونة الصراع.

وطالت الأيام والحالة تسير على هذه الصورة، ولم يعد أهل العصر يعرفون إلا الواقع، ويسمعـون شائعـات الصليبيين الاستعماريين أن هـذا التخلّف بسبب الإسلام، ويُردّد هذا المشرفـون على البساتين من أعـوان الحراس، ومن ينتمون نسباً إلى الإسلام، لا عقيدةً وفكراً، وإنما يدعونه ادعاءً، وأنهم من أهله، وقد يُصـدرون الفتاوى، ويُقـدّمون الفقـه حسب تحليلاتهم الإعلامية، وتعليقاتهم السياسية. ويقوم التخبّط السياسي، وتعمّ الفوضى الاجتماعية.

ونحن نريد أن نلقي ضوءاً على تاريخ هذه المنطقة نبيّن فيه، الواقع المعاصر، وأسباب هذا الواقع المرّ ليتعرّف الناس على الحقيقة، وعندها يمكنهم معرفة العلاج اللازم والدواء الشافي.

وتضم هذه المنطقة ثلاث دولٍ إسلاميةٍ هي: ماليزيا، وأندونيسيـا، وبروني.

ونرجو من الله أن نُوفّق في هذه المهمّة، وأن نُلهم الحقّ، وأن تسدّد الخطا، فهو نعم المـولى ونعم النصير ولا حـول ولا قوة إلا بـالله العلي العظيم.

٣ شعبان ١٤١٢ هـ
٦شباط ١٩٩٢ م

الباب الأول

ماليزيا

لمحة عن ماليزيا قبل إلغاء الخلافة

وصل الإسلام إلى ماليزيا في القرن السابع الهجري، وإن كنا لا نستطيع أن نُحدّد بالضبط السنة التي انتشر فيها لأن وصول أفرادٍ قلائل، وتشكيل جماعاتٍ صغيرةٍ لا تأثير لها على المجتمع لا يُسجّلها التاريخ، بل لا يعرفها، وخاصة أنه كان تاريخ ممالك لا شعوب، وسجلّ دولٍ لا دعوات، إذ لا يمكن أن يكون بداية وصول الإسلام هو قيام دولته وامتداد سلطانه.

من المعروف أن علاقة شبه جزيرة الملايو كانت قويةً مع الهند وخاصةً مع سواحلها الغربية التي انتشر فيها الإسلام في وقتٍ مبكرٍ نتيجة التجارة، وانتقال المراكب المستمر بينها وبين أطراف شبه جزيرة العرب التي انطلق منها الإسلام.

وكانت روابط شبه جزيرة الملايو متينةً مع جزيرة سومطرة المواجهة من ناحية الغرب، والتي وصل إليها الإسلام أيضاً لأن أطرافها الشمالية أقرب إلى الغرب حيث كانت تمخر السفن الإسلامية، وتتحكّم تلك السفن في طرق المحيط الهندي البحرية، وفي موانئه، وقواعده، ومراكزه، وبحاره، وينتقل المسلمون التجار والدعاة على سواحله يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية التي تتلاءم والفطرة البشرية، وتُعطي معاملتهم وسلوكهم وأخلاقهم صفةً تختلف عما يتصف به بقية التجار، بل كان كل

تصرّفٍ ينبع من تلك العقيدة. وكثيراً ما كان الدعاة يتخذون التجارة وسيلةً ليتصلوا مع السكان وليدعوهم إلى الإسلام.

لقد وصل الإسلام إلى جزيرة سومطرة في القرن السابع الهجري، وعندما زار الرحالة الإيطالي (ماركو بولو) المنطقة عام ٦٩٢ هـ وجد التجار المسلمين في ميناء (برلاك) على الساحل الشمالي للجزيرة ذات الصلة الوثيقة بالملايو، ومن سومطرة انتقل الإسلام إلى الملايو.

وتقول إحدى الروايات: إن ميناء (مالاقا) الواقع على الطرف الغربي من بلاد الملايو قد وصل إليه الإسلام قبل هذه المدة، فتروي أن سفينةً عربيةً قادمةً من (جدة) يقودها (سيدي عبدالعزيز) قد رست في ميناء (مالاقا) عام ٦٧٦ هـ، واستطاع ركابها أن يُؤثّروا على ملك (مالاقا)، فيعتنق الإسلام، وأطلقوا عليه اسم (محمد شاه)، وتبعه شعبه في اعتناق الإسلام، وبذا قامت أول دولةٍ إسلاميةٍ تعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من البلدان، وفي غضون نصف قرنٍ أصبحت مدينة (مالاقا) مركزاً يشعّ الإسلام على المناطق المجاورة، فأسلمت (باهانغ)، وجنوبي الملايو.

ويُقال: إن حاكم مدينة (مالاقا) قد اعتنق الإسلام ليحصل على تأييد التجار المسلمين الذين حلّوا محلّ الهنادكة في الزعامة التجارية، إذ كان الحكام يُحاولون إرضاء التجار المسلمين لتوسعة الحركة التجارية في موانئهم بسبب غناهم، وقد كانت أموال المسلمين أكبر موردٍ لتلك الإمارات بسبب التجارة الواسعة التي تقوم فيها.

ويروى أن الإسلام قد انتقل من مدينة (باساي) في شمالي سومطرة إلى مدينة (مالاقا) بعد أن أسلم حاكمها ليتزوج أميرةً مسلمةً من (باساي) ذلك لأن المسلمة لا يسمح لها دينها بالزواج من غير مسلمٍ، وكان ذلك حوالي عام ٨٠٣ هـ، ثم اعتنق الشعب في (مالاقا) الإسلام بعد أن أسلم حاكمه.

وتذكر بعض الروايات أنه في القرن السابع الهجري قامت مملكة (تيماسيك) في سنغافورة، وفي أوائل القرن الثامن الهجري قامت في جزيرة (جاوه) إمبراطورية (ماجاباهيت) الهندوسية القوية التي استطاعت القضاء على مملكة (تيماسيك) ـ وكان الإسلام قد وطد دعائمه في أجزاء من شبه جزيرة الملايو ـ واستطاع ملك (تيماسيك) أن يُغادر سنغافورة مركز حكمه السابق، وأن ينتقل إلى مدينة (مالاقا) مع ألف وخمسمائةٍ من أفراد عائلته، وأن يُؤسّس هناك حكومةً، وقد اعتنق الإسلام بتأثير من اعتنقه من قبل سكان (مالاقا)، وقد أطلق على نفسه اسم (اسكندر شاه)، وكان ذلك في بداية القرن التاسع الهجري عام ٨١٧ هـ.

والخلاصة أن التجارة قد لعبت الدور الرئيسي في انتشار الإسلام في الملايو، ولم تكن التجارة هي الهدف الأساسي بل كانت الدعوة تسير إلى جانب التجارة، وإن وجد تجار همّهم الأول الربح، والدعوة ثانوية عندهم، أو يقتصرون في عملهم على ما يُحقّقون من أرباحٍ، ولكن كان هناك أيضاً دعاة تفرّغوا للعمل في سبيل الله، وهم إما من الذين كانت أحوالهم المادية تساعدهم، أو من الذين كانوا يكتفون بالقليل يحصلون عليه من بعض الأعمال التجارية على نطاقٍ ضيقٍ.

وقد كان ميناء (سري فيجايا) في شبه جزيرة الملايو أكبر مرفأ تصل إليه السفن الإسلامية في توجّهها نحو الشرق، وخاصةً بعد القرن الرابع الهجري عندما أُغلق ميناء (كانتون) الصيني بوجه التجار الأجانب نتيجة اضطراباتٍ وقعت في مملكة (تانغ) الصينية، وفي ذلك الوقت أصبحت مدينة (سري فيجابا) أبعد نقطة تصل إليها السفن الإسلامية شرقاً آنذاك، ورغم ما حدث في العالم الإسلامي من أحداثٍ جسيمةٍ في غزو المغول، وتدمير بغداد على يد (هولاكو) عام ٦٥٦ هـ، وسقوط الخلافة العباسية، والذي أدّى إلى تمزّقٍ سياسيٍ كبيرٍ في عالم الإسلام إلا أن المسلمين قد بقوا سادة التجارة في المحيط الهندي.

ومن المحتمل أن يكون تجار جنوبي الهند هم الذين كان لهم الأثر الواضح في إسلام الشعب في شبه جزيرة الملايو، إذ أن المسلمين هناك يتبعون مذهب الإمام الشافعي، وهو المذهب المنتشر في جنوبي الهند، بينما كان أثر الكوجراتيين أقلّ حيث يتبعون مذهب الإمام أبي حنيفة الذي لم ينتشر في الملايو. كما أن الصوفية قد انتشرت هناك من جنوبي الهند، وليس من شبه جزيرة العرب، وقد يكون تجار غربي الهند وجنوبيها قد لعبوا دورهم معاً في الدعوة، وهذا لا ينفي أثر الدعاة العرب الذين ما انفكوا يفدون إلى البلاد بعد أن توقّفت الفتوحات الكبرى، وانصرف المسلمون إثر ذلك إلى نشر الدعوة عن طريق التجارة، والتنقّل لهذه الغاية.

وعندما سقطت مدينة (مالاقا) بأيدي المستعمرين الصليبيين من البرتغاليين عام ٩١٧ هـ، اختير مركز (آتشيه) في شمالي سومطرة ليكون مقراً للدعاة، وهكذا عاد لجزيرة سومطرة مركزها التجاري والإسلامي بعد أن فقدته مدة قرنين من الزمن وهما: الثامن والتاسع الهجريين لمصلحة مدينة (مالاقا).

وعن طريق التجارة تحدث العلاقات الحسنة، والصداقة، والاحتكاك مع السكان، ويكون إقناع الشعب للدخول في الإسلام، إضافة إلى الزواج الذي يتمّ بين التجار المسلمين وبين بعض الأسر وغالباً ما تكون الفتيات من العائلات المرموقة فتدخل الفتاة بالدين الإسلامي، وعن طريقها يعتنق أهلها وقومها عقيدتها لما يرون من معاملةٍ كريمةٍ وخلقٍ رفيعٍ، كما أن هؤلاء التجار كثيراً ما كانوا يتخذون عبيداً يساعدوهم في شؤونهم التجارية وخدمتهم فيُسلمون ويعتقونهم بعد إسلامهم، فيجدّون بالعمل ويخلصون، فتزيد مكانتهم في المجتمع. وإن اتصال التجار المسلمين غالباً ما يكون مع الأثرياء ومع الحكام، وهذا ما يُعطيهم مركزاً رفيعاً، ويُقدّم التجار للحكام خدمات، ويقابلهم الحكام بأحسن منها ردّاً للجميل، والحاكم يريد أن يظهر بموقع الأعلى، ويعطي حسب مكانته، كما يهدفون إلى زيادة نشاط

التجار، إذ أن أكثر موارد الإمارات كان يأتي عن طريق التجارة. ويتكلم الحاكم لغة التجار ليتمّ التفاهم بينهم، وليكونوا أقرب إلى نفوسهم، حيث تُقرّب اللغة بين الغرباء، كما يراعون تقاليدهم حتى يغدو بعض سلوكهم إسلامياً، وهذه المنزلة التي يصل إليها التجار تجعلهم يستطيعون معها التأثير على السكان، وجذبهم إلى الإسلام.

وقد كان انتشار الإسلام في الملايو وفي كل مناطق الشرق الأقصى سلمياً على عكس الطريقة التي سار عليها المستعمرون الصليبيون. وقد كانت الخلافة الإسلامية في هذه المرحلة في فترة غيابٍ عن الساحة، وكانت التجزئة والخلافات هي السائدة في أكثر أمصارها، وكان الدعاة المسلمون من أقاليم شتى، لذا لم يفكر المسلمون الذين حكموا تلك الأرجاء أن يربطوها بمركزٍ معين خارج المنطقة، وهذا عكس ما فعله الأوربيون الذين ربطوا المناطق التي سيطروا عليها ببلادهم الأصلية مباشرةً، وهذا ما أبعد عن المسلمين فكرة السيطرة وحبّ التسلّط فأقبل السكان نحوهم، على حين ابتعدوا عن الأوربيين، وقد يكون تصرّف المسلمين هذا نتيجةً للأوضاع السيئة التي سادت الدولة الإسلامية في مركزها لذلك كانت دعوتهم إلى إقامة إماراتٍ إسلاميةٍ مستقلةٍ يُطَبّق فيها حكم الإسلام، بل ربما أصبحت فكرة دار الإسلام نظريةً في رأي الكثيرين منهم، ولم تعد فكرة إقامة دولةٍ مركزيةٍ قويةٍ وتتبعها كل الإمارات الإسلامية على شكل ولاياتٍ، وتُحدّد حدود كل إمارةٍ حسب أصول السكان ولغاتهم، أو حسب الأرض وطبيعتها، لم تعد هذه الفكرة تخامر أذهان أمراء تلك الدول التي قامت آنذاك، واكتفى الحكام والأمراء من فكرة «دار الإسلام» معاملة المسلمين معاملةً حسنةً في إماراتهم بغضّ النظر عن مكان مولدهم، ومناطق تنقّلهم حيث إن جنسية المسلم هي عقيدته، ويعدّونهم من رعاياهم أينما كانوا.

ومما ساعد على انتشار الإسلام في الملايو بشكلٍ كبيرٍ ردّ الفعل

لقدوم المستعمرين الصليبيين، ومعاملتهم السكان معاملةً سيئةً، فانحاز الشعب إلى جانب المسلمين الذين وقفوا معهم موقفاً واحداً ضدّ أولئك المستعمرين الصليبيين الأوربيين، واشتبكوا معهم في حربٍ طاحنةٍ في معظم جهات العالم من الأندلس حتى الشرق الأقصى.

لم تكن تلك الإمارات الإسلامية التي قامت في تلك المنطقة مستقلةً تماماً فهي لا تشمل إلا رقعةً صغيرة المساحة نسبياً، قليلة السكان بالمقارنة مع الدول الكبيرة، ولا مكانة للدول الصغيرة فلا بدّ لها من أن تجري في فلك غيرها أو تكون طعماً للغزاة، ومن هنا كان المسلمون أمةً واحدةً كي لا يطمع فيهم طامع، ولا يكونوا تبعاً لغيرهم، وكان على المسلمين أن يتجمّعوا بعضهم مع بعضٍ، ولكن أقاليمهم متباعدة، وديارهم نائية، وكان عليهم أن يرتبطوا مع دولة الإسلام غير أنها في غيابٍ عن الساحة، لذا فإن كلّ إمارةٍ كانت منعزلةً عن الأخرى، وتتبع مملكةً واسعةً، وهي مستقلة استقلالاً ذاتياً.

كانت إمارة (مالاقا) الإسلامية في أول عهدها تخضع لمملكة تايلاند، وتُؤدّي لها أتاوةً ذهباً مقابل استقلالها الذاتي، وتطبيق ما تشاء من قوانين ونظمٍ على أفرادها، غير أنه في عام ٨٠٨ هـ زار هذه الإمارة الإسلامية الأمير الصيني المسلم المعروف باسم (تشتغ)، ووعد حاكمها بأن يوفّر له حماية امبراطور الصين من تهديدات تايلاند، وفيما إذا حاولت التعرض لها بسوءٍ، فأعلن الحاكم عندها استقلال إمارته، وتميّزت دولته بشخصيتها الفكرية والسياسية، وأصبح يُجهّز السرايا، ويعدّ الجيوش للفتح ونشر الإسلام، واستطاعت إمارة (مالاقا) ضمّ المناطق المجاورة إليها، واحتواء منطقة (باهانغ)، واستمرت هذه الإمارة تُؤدّي دورها حتى ابتليت بالاستعمار الصليبي.

تعاقب على حكم (مالاقا) سبعة حكامٍ كان أبرزهم (منصور باشا) الذي دام حكمه تسعة عشر عاماً (٨٦٣ - ٨٨٢ هـ) وقد انطلقت جيوشه في

شبه جزيرة الملايو كاملةً، وحتى حدود بورما، وإلى أواسط سومطرة، وقد حمى العلماء، واعتنق في أيامه الإسلام معظم الشعب الملايوي، واستعملت الحروف العربية في الكتابة، وأصبح الإسلام قانون بلاده، ويمكن أن ندرك مدى التأثّر النفسي والارتباط بالمسلمين خارج المنطقة من اتخاذ لقب تركي (باشا) حيث كانت الدولة العثمانية قد أخذت تبرز وكان السلطان محمد الفاتح - رحمه الله - قد فتح القسطنطينية قبل ست سنواتٍ فقط من تسلّم (منصور باشا) الحكم وذلك في عام ٨٥٧ هـ، كما أنه لم يتخذ لقب سلطان تقديراً للعثمانيين، واعترافاً بالتبعية الضمنية.

وقد قامت عدة إماراتٍ في شبه جزيرة الملايو في هذه المرحلة ومنها: قدح، بيرق، باهانغ، جوهور.

ووصل تأثير الإسلام إلى جزية (بورنيو) حيث ساد دولة (بروني) القوية نتيجة العلاقة التجارية مع الصين من جهةٍ ومع العالم الإسلامي في ناحية الغرب من جهةٍ ثانيةٍ. وعندما وصل الإسبان إلى شمالي جزيرة (بورنيو) عام ٩٢٧ هـ وجدوا حاكم (بروني) مسلماً.

الاستعمار:

لم تكن ما أطلق عليها بـ (الاكتشافات الجغرافية)، كما لم يكن الاستعمار إلا حرباً صليبية قامت بها أوربا ضد المسلمين، إذ قامت تلاحقهم بعد أن طردتهم من الأندلس لتحيط بهم، وتحاول القضاء عليهم.

وإذا كانت الاكتشافات والاستعمار قد حملا بعض الجوانب الاقتصادية إلا أنهما بالواقع كانا يتستران به، وقد أعلن ذلك الأوربيون ودوّنوه، ولما كانوا قد أصبحوا أصحاب القوة والنفوذ والسيطرة والهيمنة فقد فرضوا ذلك على الناس، ووضعوه ضمن المناهج، ودرّسوه، واقتنع به الضعفاء والمستضعفون حتى غدا شبه حقيقة، فالغالب يفرض عادةً ما يُريد والمهزوم يقبل ما يُعطى له إن لم يكن موجّه يُنبّهه، أو محرّك يُوقظه، وكان

المسؤولون عن المسلمين ـ مع الأسف ـ هم الذين يتولّون مناهج الأوربيين أكثر من المستعمرين الصليبيين أنفسهم عوضاً من أن يُوجهّوا شعوبهم، لذا ليس غريباً أن نصل إلى ما وصلنا إليه، والواقع أن رائحة الصليبية كانت تملأ جو تلك المراكب التي انطلقت عليها طلائع الصليبية والذين أسموهم بالمكتشفين، كما كانت تخيم على حملات المستعمرين وشركاتهم الاستعمارية.

الاستعمار البرتغالي:

انطلق المستعمرون الصليبيون البرتغاليون من قاعدتهم «غوا» على سواحل الهند الغربية، ووصلوا إلى مالاقا عام ٩١٥ هـ، وقاموا بهجومٍ عليها، ولكنه فشل، وبعد عامين أعاد الصليبيون البرتغاليون الكرّة، وقاموا بهجومهم الثاني، وقبل الهجوم ألقى قائدهم «البوكرك» خطاباً جاء فيه: (الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنُقدّمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونُخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هده النتيجة، فإذا استطعنا الوصول إليها فسيترك المسلمون الهند كلها لنا، إن غالبية المسلمين ـ وربما كلهم ـ يعيشون على تجارة هذه البلاد، ولقد اغتنوا، وأصبحوا أصحاب ثرواتٍ ضخمةٍ، و(مالاقا) هي مركزهم الرئيسي، فمنها ينقلون كل عامٍ التوابل والأدوية إلى بلادهم دون أن نستطيع منعهم، فإذا تمكّنا من حرمانهم من هذه السوق القديمة لا يبقى لهم ميناء واحد أو محطة واحدة مناسبة في كل هذه المنطقة ليستمروا في تجارتهم، وأؤكد لكم أنه إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة، وبعدها تنهار مكة نهائياً، وعلى البندقية (ڤينيسيا) بعد ذلك أن ترسل تجارها إلى البرتغال، إذا أرادات شراء التوابل).

وكانت أوربا الصليبية تنتظر نتيجة الهجوم على (مالاقا)، وسقطت (مالاقا) عام ٩١٧ هـ بيد البرتغاليين، وكان لهذا السقوط أثر كبير في أوربا

حتى استدعى الأمر إلى إقامة «قداس شكر» في روما عام ٩٢١ هـ، وذكر (كاميلو بورتيون) في الخطبة التي ألقاها أمام (ليو العاشر) أن هذه المعركة ستُسهّل استعادة القدس، وفسّر كيف أن الصليب قد وصل إلى أماكن بعيدةٍ، واتهم حاكم (مالاقا) بأنه مسلم متعصّب يكره النصارى، ونادى بحربٍ صليبيةٍ جديدةٍ لاحتلال القدس.

وكتب «بيرس» لملك البرتغال «عمانويل» بهذه المناسبة يقول: (إن البوكرك يُقاتل ضد محمد، ومن الواضح أن قوة الرب تساعده، لأن الربّ يرغب أن تترسّخ جذور النصرانية في سائر مملكتك. ويقول: وبقدر ما لـ (مالاق) من فائدةٍ دنيويةٍ فإن لها الفائدة الدينية نفسها فإن محمداً محاصر، ولا يستطيع أن يتوسّع بعد الآن بل سيهرب بأسرع ما يمكن).

عمد الصليبيون البرتغاليون إلى استعمال القسوة الوحشية ضدّ المسلمين، دون أن يكون لهم أي رادعٍ، وصاحب سيطرتهم على (مالاقا) نشاط تنصيري مُركّز، وهذا ما دفع المسلمين للقيام بردّ فعلٍ والنشاط بالدعوة إلى الإسلام.

وكان أول عملٍ قام به البرتغاليون الصليبيون بعد استيلائهم على (مالاقا) بناء حصنٍ بحجارةٍ انتزعوها من قبور المسلمين، ثم قاموا بإعدام دفعات متتالية من الأهالي. وقام زعيم البحرية مع بحارته بأعمال القرصنة في المحيط الهندي فانقلب الأمن فيه إلى خوفٍ. كل هذا جعل الثورات تقوم ضدّ الاستعمار الصليبي البرتغالي الأمر الذي أضعفه، وخاصةً أن سكان البرتغال قليلو العدد حيث لا يستطيعون مع هذه القلّة وضع جيشٍ كبيرٍ في كل منطقةٍ من المناطق الواسعة التي سيطروا عليها في إفريقية وآسيا. ومما زاد في ضعف البرتغاليين أن إسبانيا كانت قد احتلت أراضيه عام ٩٨٩ هـ، للخلافات الناشبة بين الدولتين فأصبحت المستعمرات البرتغالية كلها تتبع إسبانيا، وإن كان الجنود الذين يحمونها برتغاليين.

الاستعمار الإسباني:

وتمكّن الإسبان من اجتياز المحيطين الأطلسي والهادي والوصول إلى إمارة راجا سليمان (الفيليبين) بإمرة (ماجلان) الذي أعلن صليبيته، وأراد تنصير السكان فقتلوه، وتابع نائبه (دل كانو) السير فوصل إلى جزيرة (بورنيو)، وجزر (المولوك) ورجع بعدها إلى إسبانيا عن الطريق التي عرفها البرتغاليون وسيطروا عليها، وأخذت الحملات الإسبانية تتوالى على الفيليبين للانتقام والسيطرة.

وعند وصول الإسبان إلى المشرق كان التجار المسلمون من جزيرة (بورنيو) يقومون بتجارةٍ نشطةٍ رائجةٍ مع بقية الجزر، وربما كانوا المسيطرين الوحيدين على التجارة الخارجية لتلك الجزيرة، كما أن الدعاة إلى الإسلام كانوا يبذلون جهوداً واسعةً للدعوة، وللتوعية عن أهداف المستعمرين الصليبيين، وعملهم ضدّ الإسلام، وحقدهم الشديد، كما إن إمارة (بروني) قد أطلقت صيحة الدعوة لإسلام جاراتها.

وكان مسلمو (بورنيو) يمدّون يد المساعدة للمسلمين في القسم الجنوبي من الفيليبين بعد أن توقّف التوسّع الإسلامي في الجزر الشمالية نتيجة احتلال الإسبان لمدينة (مانيلا)، وعندما وصلت هذه المعلومات لحاكم الفيليبين الإسباني (فرنسيسكو دي سندي) كتب إلى سلطان (بورنيو) (سيف الرجال) يطلب منه التوقّف عن إرسال الدعاة إلى (الفيليبين) وأواسط (بورنيو)، وأن يقبل منصّرين كاثوليك في (بورنيو)، ولكن هذا الطلب قد رفض بحزمٍ، وكان ذلك عام ٩٨٧ هـ. ولم تستطع إسبانيا أن تقوم بردّ فعلٍ لعدم الإمكانات لديها آنذاك.

واحتلت إسبانيا البرتغال، ولكنها لم تستطع أن تحلّ في المستعمرات محلّها لأن الأسطول الإسباني قد تحطّم في معركةٍ شهيرةٍ مع إنكلترا عام ٩٩٧ هـ، وهذا ما هيأ الجو لدولٍ أخرى أن تتقدّم نحو الساحة، وقد خلت

تقريباً، أو إن ما فيها من قوةٍ لم تعد مخيفةً، كما أن الطريق هناك لم تعد سرّاً، وخشيت أوربا الصليبية أن تفقد ما حصلت عليه، وأن يقوم سكان المستعمرات البرتغالية والإسبانية بردة فعلٍ يلقون فيها المستعمرين الصليبيين بالبحر، بل وتنطلق حركة جهادٍ ضدّ أوربا تدعم ما يقوم به العثمانيون من تقدّمٍ في أوربا الشرقية، لذا أسرعت دول أوربا البحرية لتسدّ ذلك الفراغ، وإن كان قد حصل بينها نزاع على الاستغلال وعلى الاستئثار ببسط النفوذ، وهذا ما جعل الناس يظنون ـ خطأً ـ أن أهداف الاستعمار لم تتعدّ النواحي الاقتصادية، لما حدث بين أولئك المستعمرين من منافسات.

الاستعمار الهولندي:

كانت هولندا في أوربا في حربٍ مع الإسبان ساداتها وحكامها السابقين، ولكن لم تعد تخشى أسطولهم الذي تحطّم في حربهم مع الإنكليز، فأصبحت السفن الهولندية بعدها تنتقل في تلك البحار دون خوفٍ من منازعٍ قويٍ.

اتجهت أربع سفنٍ هولنديةٍ نحو الهند عام ١٠٠٤ هـ، وبعد عامٍ وصلت إلى سومطرة وجاوة لأول مرةٍ، وحدث بينهم وبين الأهالي معارك، كما حدث مع البرتغاليين من قبل، وحاول البرتغاليون مقاومة الأسطول الهولندي فأمروا بواخرهم بالتحرّك من (مالاقا) و(جاوه) لهذا الغرض، وعدّوا كل سفينة لا تتبعهم غنيمةً لهم يأخذونها، ومنها السفن الأندونيسية، فاصطدم البرتغاليون مع الأندونيسيين، وعجز الأسطول البرتغالي عن تحقيق غايته، وفي الوقت نفسه عدّ الأندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضدّ البرتغاليين، وهكذا بدأت البرتغال تتزحزح عن مواقعها في تلك الجزر، وإن احتفظت بمركز (مالاقا) مدة أربعين سنةً أخرى إلا أنها بقيت ضعيفةً لا يهتم بها أحد.

بدأت هولندا تشدّد قبضتها على المنطقة، وأسّست شركة الهند

الشرقية الهولندية عام ١٠١١ هـ على غرار شركة الهند الشرقية الإنكليزية التي تأسّست عام ١٠٠٨ هـ، ولكن الشركة الهولندية كانت أقوى، وأكثر نفوذاً لأنها ذات مال أوفر، وتنظيم أكبر، ووجدت الفرصة مناسبة لها للعمل لانشغال إنكلترا في حروبها مع الإسبان آنذاك، كما أن هولندا قد اتجهت إلى تلك المنطقة بكليتها بعد أن انهارت تجارتها مع الهند بسبب منافسة إنكلترا وفرنسا لها، وقد أحسّت بالثراء وضرورة الاستمرار بالاستعمار.

ظهرت المنافسة بين هولندا وإنكلترا في المنطقة، وكانت النتيجة أن اضطرت هولندا إلى إلغاء كل احتكاراتها في تلك الجهات، ولكنها كانت قد احتلّت (مالاقا) عام ١٠٥٢هـ، مع أن أمرها قد بدأ بالضعف بسبب التوسّع الإسلامي. وأخيراً احتلّت فرنسا الأرض الهولندية في أوربا عام ١٢١٠ هـ، فضعف أمر هولندا نهائياً وزالت، واستسلمت (مالاقا) للإنكليز.

انتهت الحرب بين هولندا وإنكلترا أيام حروب نابليون، وبعد هزيمة نابليون رجعت هولندا دولةً من جديد، فعادت حكومتها واستولت على ممتلكات الشركة الهولندية سابقاً، ولكن لم تعد إلى مركز (مالاقا) إلا في مناسبتين لمدةٍ محدودةٍ في كل مرةٍ، ثم تنازلت عنها نهائياً عام ١٢٤٠ هـ مقابل إعطائها مركزاً في غربي جزيرة سومطرة.

الاستعمار البريطاني:

بدأت المصالح البريطانية في بلاد الملايو من الناحية التجارية كما بدأت المصالح البرتغالية والهولندية من قبل، ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري كانت شركة الهند الشرقية البريطانية بحاجةٍ إلى مركزٍ لتجارتها مع الصين، وكانت أول محاولةٍ لإقامة هذا المركز في شمالي جزيرة (بورنيو)، وكان هذا الجزء يتبع لسلطان (صولو)، وصولو مجموعة جزر في جنوبي الفيليبين، وكان هذا السلطان قد وقع في أسر البريطانيين

عندما استولوا على مدينة (مانيلا)، وقد أطلقوا سراحه، وتنازل للشركة عن منطقة في شمالي جزيرة (بورنيو) لتُقيم عليها مركزاً لتجارتها، ولكن هذا المركز كان خاسراً فلم يعوّض تكاليف إقامته.

وعملت الشركة بعدئذٍ لإقامة قاعدةٍ لها في شبه جزيرة الملايو، وقد تمكنت من ذلك بسهولةٍ إذ تملّك (فرنسيس لايت) باسم الشركة جزيرة (بينانغ) التي تخصّ إمارة (قدح) وذلك عام ١٢٠١ هـ، وبعد خمسة أعوام حاولت إمارة (قدح) استعادة الجزيرة، فوافقت الشركة على أن تدفع لسلطان إمارة (قدح) وخلفائه من بعده مبلغ عشرة آلاف دولار ماليزي سنوياً مقابل اقتطاع جزيرة (بينانغ)، وكذلك فإن الشركة تمكّنت من شراء ميناء سنغافورة عام ١٢٣٤ هـ.

وهكذا صار لشركة الهند الشرقية البريطانية ثلاثة مراكز تجارية في جنوب شرقي آسيا وهي: مالاقا، وبينانغ، وسنغافورة فوحّدتها بعضها مع بعض عام ١٢٤١ هـ، وألّفت منها مستعمرةً للأفواج القادمة من بريطانيا إلى جنوب شرقي آسيا بقصد الإقامة لأهدافٍ صليبيةٍ واقتصاديةٍ، وأصبحت هذه المستعمرة تُدار من قبل حكومة الهند. وفي عام ١٢٨٤ هـ سُلّمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية.

اتخذ البريطانيون طريق المكر في الإدارة فلم تتدخل أول الأمر في شؤون الحكومات الملايوية المحلية خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري لا شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت لها السيطرة في بداية الأمر ولا الحكومات المتعاقبة على السلطة في بريطانيا بعد أن سلّمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية، غير أن السياسة قد تغيّرت بعد أن استقرّ الوضع للبريطانيين، وغدوا دون منافسين.

أخذ الاستعمار البريطاني منذ عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٣ م) يتوسّع في شبه جزيرة الملايو، وقد تكرّس على شكل معاهدات مع سلاطين الولايات

أو الدويلات في شبه الجزيرة كلها حيث غدوا حكاماً محليين يرتبطون بالنفوذ البريطاني ويخضعون له. وفي عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٦ م) جرت مفاوضات بين البريطانيين وبين حكام ولاية (بيرق) وعقدت معاهدة بين الطرفين كان الهدف منها أن يأخذ سلطان (بيرق) برأي المقيم العام البريطاني، ويعمل بموجبه في كل الأمور خلا ما يمسّ الإسلام والعادات الملايوية، على أن العادات غالباً ما تنبع من العقيدة. وفي العام نفسه دخل سلطان (سلانغور) في معاهدةٍ مشابهةٍ، وقبل بالمقيم البريطاني في ولايته، وكذلك اتخذت ترتيبات مشابهة فيما بعد مع سلاطين (نيغري سمبلان) و(باهانغ).

ثم راحت بريطانيا تجمع هذه الإمارات وتُقسّمها كما تشاء، وكما يحلو لها وتقتضيه مصلحتها الاستعمارية، ففي عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) شكّلت اتحاداً من كلٍ من (بيرق) و(سلانغور) و(نيغري سمبلان) و(باهانغ)، وأصبحت هناك الولايات الأربع ذات مقيمٍ عامٍ بريطانيٍ واحدٍ، وحكومةٍ مركزيةٍ واحدةٍ.

وقبلت ولاية (جوهور) الحماية البريطانية عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م). وبموجب معاهدة (بانكوك) عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) سلّمت (تايلاند) كل حقوق السيادة، والإدارة، والحماية، والسيطرة على الدول الشمالية الأربع وهي: (كيلانتون) و(ترينغانو) و(بيرليس) و(قدح) إلى البريطانيين. وعلى الرغم من أن شروط المعاهدة المعقودة مع سلاطين هذه الدول كانت مشابهة تماماً لشروط المعاهدات السابقة في ولايات شبه جزيرة الملايو الأخرى فإن هذه الدول قد بقيت خارج الاتحاد السابق، وإن شكّلت فيما بينها اتحاداً عرف باسم (اتحاد الملايو). وقبلت كل دولةٍ منها في الوقت نفسه مستشاراً بريطانياً لديها. ولم تصبح أية ولايةٍ من هذه الولايات الملايوية مستعمرةً بريطانيةً بل بقيت السيادة في كلٍ منها إلى سلطانها رغم

وجود رباطٍ إداريٍ بين الولايات والجاليات البريطانية المقيمة فيها، حيث كان المفوض السامي لدول الملايو حاكماً لهؤلاء المقيمين.

وكانت هناك مجموعة ثالثة من دول الملايو سمتها بريطانيا (مستوطنات المضيق)، وتشمل: (بينانغ) و(مالاقا) و(ويلسلي).

وأما بقية الولايات الملايوية وهي (جوهور) فقد عقدت بريطانيا عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) معها معاهدةً جديدةً قبل بموجبها السلطان مستشاراً عاماً بريطانياً.

وفي شمالي جزيرة (بورنيو) كانت سلطنة (بروني) قويةً، ولكن لم يبتدىء القرن الحادي عشر الهجري حتى تقلّصت سلطتها إذ أقام الهولنديون مراكز تجارية لهم على أرضها، ثم اقتصرت هذه المراكز على (ساراواك) وأجزاء من (بورنيو الشمالية)، ومع ذلك فقد بقيت السلطنة قويةً حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وكان سلطانها يشمل: أرض دولة (بروني) الحالية، و(بورنيو الشمالية) وبعض أراضي (ساراواك).

تدخّل المغامر البريطاني (جيمس بروك) عام ١٢٥٩ هـ في خلاف نشب بين نائب السلطان في (بروني) والثوار الملايويين وملاك الأراضي فكافأه السلطان على جهوده وإمكانيته في تهدئة الوضع بأن عيّنه حاكماً على (ساراواك) عام ١٢٦٩ هـ، ثم عيّن البريطانيون قنصلاً لديه. ثم تنازل سلطان بروني للبريطانيين عن مراكز لهم في شمال شرقي (بورنيو) نتيجةً للأعمال التي قاموا بها. كما تنازل سلطان (صولو) عن مراكز أخرى لهم عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م). ثم تأسست شركة (شمالي بورنيو) البريطانية عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)، وأخيراً توطّد سلطان البريطانيين على الجزيرة كافةً عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م) عندما أصبحت (بورنيو الشمالية) و(بروني) و(ساراواك) مشمولة بالحماية البريطانية، ومقسّمة إلى أجزاء حسبما تقتضيه مصلحة بريطانيا الاستعمارية الصليبية.

وهكذا خضعت ماليزيا للاستعمار البريطاني بسبب ضعف السلاطين، وتفرّق كلمة المسلمين، وعدم وعيهم لأساليب المستعمرين الصليبيين، وقوة الأعداء المادية، وأخذت الحياة الإسلامية تنسحب تدريجياً من المجتمع أمام طغيان الجاهلية التي ملكت رصيداً قوياً من التفوّق العسكري، والعلمي، والمادي، والتي أذلّت المسلمين، وعملت على إضعافهم، فلم يستطع المسلمون الذين أذلّهم تفوّق الجاهلية المادي أن يقفوا طويلاً أمام طوفانها فأخذت تتحكم في البلاد، وتنشر الفساد، ويزداد أثرها يوماً بعد يوم مع انحسار الإسلام من المجتمع وتحكّم المادة، فانصرف أكثر الناس إلى تأمين المكاسب والأرباح، وقد يستمرّ هذا الوضع إن لم ينتشر الوعي، ويعرف الناس واقعهم الحقيقي وأساليب المستعمرين الصليبيين وأهدافهم التي يرمون إليها، ويحاول الأعداء أن تستمر هذه الحال لتبقى لهم السيطرة، ويبقى لهم النفوذ. ولكن سيزول هذا ـ بإذن الله ـ بوعي المسلمين، وتمسّكهم بعقيدتهم، وقد يعودون إلى ذلك بعد الخواء الفكري والتعب النفسي الذي بدأوا يحسّون به بسبب بُعدهم عن الدين، فليست المادة كل شيءٍ في الحياة، وقد بدأت تظهر بعض الحركات تُنفّس عن الكرب، ولكنها لا تلبث أن تفشل بسبب ضعفها، وعدم الاستعداد الكافي مادياً ومعنوياً، وبسبب تكالب الدنيا على المسلمين، من أصحاب الأنظمة الوضعية، وأصحاب الأهواء والشهوات، وأصحاب الأطماع، ومن المتزلّفين والمنتفعين، من أصحاب الأفكار والمبادىء الأخرى، وممن ينتمي إلى الإسلام، ولا يلتزم به، من الذين يجرون في فلك غيرهم من الدول الكبرى، ومن وضعته مكانها ليُؤدّي دورها محلّها، ويُنفّذ مخططها، ويُطبّق منهجها، وقد يُعلن مع ذلك عداوته لها، والحرب عليها، ويدعي صدّق ادّعائه، وصحة انتمائه، ودعوته لذلك.

الفصل الأول

ماليزيا من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة بتاريخ ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) فزال الرابط المعنوي الذي كان يجمع المسلمين، وانتهى آخر خيطٍ كان يصل بين الأمصار الإسلامية، فاتجه كل مصرٍ نحو مُشكلاته الخاصة يُحاول العمل على حلّها. وكانت بريطانيا قد فرضت سيطرتها التامة على الولايات الماليزية كلها سواء أكان ذلك في شبه جزيرة الملايو أم في جزيرة بورنيو، وبسطت حمايتها عليها، وجزّأتها بالشكل الذي يحلو لها وحسبما تقتضيه المصلحة الاستعمارية الصليبية. وقد كانت تلك الولايات مُقسّمةً ومجتمعةً على النحو الآتي:

١" ـ اتحاد يضمّ الولايات الأربع الآتية: بيرق، سالانغور، نيغري سمبلان، باهانغ، وقد قام هذا الاتحاد منذ عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م)، ولهذا الاتحاد حكومة مركزية، ويُشرف عليها مقيم بريطاني واحد.

٢" ـ اتحاد الملايو: ويضمّ الولايات الأربع الشمالية وهي: بيرليس، قدح، كيلانتون، ترينغانو، وقد قام هذا الاتحاد حسب معاهدة بانكوك عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)، وفي كل ولايةٍ مستشار بريطاني، وتعد الولاية ذات سيادةٍ، وتخضع لسلطانها. أما الجالية البريطانية فتتبع للمفوض السامي.

"٣ ـ مستوطنات المضيق وتشمل: بينانغ، مالاقا، ويلسلي.

"٤ ـ محمية جوهور: وقد قبل سلطانها بجانبه مستشاراً بريطانياً بعد عقد معاهدةٍ معه عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م).

"٥ ـ محمية ساراواك: وتخضع للحماية البريطانية منذ عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م).

"٦ ـ محمية بورنيو الشمالية: وتخضع للحماية البريطانية منذ عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م).

وأخذت بريطانيا تُطبّق سياستها الاستعمارية الصليبية، فتقرّب غير المسلمين من هندوسٍ، وبوذيين، وهم ذو نسبةٍ كبيرةً نسبياً، وتُقصي المسلمين عن أعمال الدولة، وتضع غيرهم مكانهم، وتستولي على أملاكهم، وتضغط عليهم، وتفسح المجال على نطاقٍ واسعٍ للإرساليات التنصيرية، وتُقدّم لهذه الإرساليات كل ما تحتاج إليه، والمسلمون فقراء، ضعفاء، جهلة لا يستطيعون أن يقوموا بأي ردّ فعلٍ، أو يقفوا في وجه أي قرارٍ أو مخططٍ، فكانوا أقرب إلى الاستسلام، واستمرّ ذلك حتى الحرب العالمية الثانية.

الحرب العالمية الثانية:

دخلت اليابان الحرب إلى جانب دول المحور، واستطاعت القيام بحربٍ خاطفةٍ باحتلال جنوب شرقي آسيا، وكان من بين ما احتلته جزيرة بورنيو، وشبه جزيرة الملايو بعد حملةٍ دامت أكثر من شهرين من الزمن وذلك في ٢٠ ذي القعدة ١٣٦٠ هـ (٨ كانون الأول ١٩٤١ م)، كما استولت اليابان على سنغافورة معقل القوات البريطانية في المنطقة في ٢٩ محرم ١٣٦١ هـ (١٥ شباط ١٩٤٢ م). وقد قضى هذا الاحتلال الياباني على فكرة تفوّق الرجل الأبيض التي حاول المستعمرون الصليبيون ترويجها بين سكان المناطق المستضعفة وقد قبلها أولئك الذين أُصيبوا بالهزيمة النفسية،

كما حطّم هذا الاحتلال الضغط الذي كان الحكم البريطاني الاستعماري الصليبي يُمارسه، وشعرت بريطانيا بالخزي أمام السكان إذ كانت تُهدّد المنطقة كلها بقوتها المزعومة، وادعاءاتها الواسعة أمام الشعوب المغلوب على أمرها.

وضعت البلاد تحت الإدارة العسكرية اليابانية فعيّنت هذه الإدارة رؤساء يابانيين لمختلف دوائر الدولة غير أن مهمتهم لم تكن أكثر من الإشراف، حيث كان الموظفون الملايويون يقومون بأعمال الإدارة المحلية الفعلية، وبهذا فقد تمرّس السكان على القيام بالإدارة، وبرهنوا على مقدرتهم في إشغال المراكز التي كان يشغلها البريطانيون من قبل، وشعروا بالثقة بالنفس، وأنهم في غنىً عن الدخلاء الذي يجب طردهم، وأن ما كانوا يشعرون به لم يكن سوى ضعفٍ، ونتيجة الدعاية والتصرّف الاستعماري الذي قتل الروح المعنوية في نفوس السكان.

ولم يكن اليابانيون أرحم من غيرهم من المستعمرين، فالاستعمار هو الاستعمار، وعدوّه الأول هو الإسلام، ولا يختصّ بلونٍ أو جنسٍ، وإنما النفس البشرية قد جبلت على الغطرسة والسيطرة إن وُجدت في وضعٍ يُمكّنها من ذلك، ولم يكن لديها رادع يردعها أو وازع يمنعها، لذا كان الدين يُهذّب النفس البشرية، ويجعلها تشعر بشكلٍ مستمرٍ بمراقبة الله لها، حيث يطلع على ما تخفي وما تُعلن، وهذا ما يزرعه الإسلام في نفوس أبنائه، ولهذا خلت الفتوحات الإسلامية من أية صفةٍ امتاز بها المستعمرون سواء أكانوا صليبيين كالأوربيين أم وثنيين كاليابانيين إذ أنهم جميعاً متسلّطون مستبدّون أعداء للإسلام، وإن كانت العداوة تختلف نسبياً بين استعمارٍ واستعمارٍ إذ أن بعضهم يحمل حقداً دفيناً، ويرمي إلى أهدافٍ يريد تنفيذها، ويضع المخططات لتحقيق ذلك، وآخر يُعادي دون حقدٍ ومن غير مخططاتٍ عدائيةٍ.

وانتهت الحرب العالمية الثانية وهُزمت اليابان مع دول المحور، واضطرت للانسحاب من المناطق التي دخلتها، ومن بينها دول الملايو، ورجعت إنكلترا إلى قواعدها السابقة، ولتحلّ محلّ اليابانيين الذين غادروا المنطقة.

عودة بريطانيا:

عادت بريطانيا إلى الملايو بعد هزيمة اليابان، ومع أنها تحمل الخزي حيث لم تستطع الدفاع عن مستعمراتها رغم أنها كانت تتبجح بالقوة أمام الشعوب المستضعفة، وعادت كذلك متكبرةً فإنها قد انتصرت مع حلفائها على أعدائها، ومنهم اليابانيون الذي احتلّوا بلاد الملايو، ولكي تخفّف من ذلّ ما لحقها من عار الخروج والهرب من المنطقة أمام اليابانيين جاءت تعرض قيام وحدةٍ ملايويةٍ مركزيةٍ محلّ النظام الذي كان سائداً قبل الحرب والذي كان يتألف من دولٍ اتحاديةٍ كاتحاد دول الشمال، واتحاد الملايو، ومن دولٍ غير اتحاديةٍ كمحمية جوهور، وكان من المفروض حسب هذا المشروع فإن مالاقا، وبينانغ، وويلسلي أي مستوطنات المضيق وبقية المحميات يجب أن تكون ضمن هذا الاتحاد، ولكن بريطانيا لم تفعل ذلك، إذ قصدت بالاتحاد فقط دول اتحاد الشمال (بيرق، سالانغور، نيغري سمبلان، باهانغ)، ودول اتحاد الملايو (بيرليس، قدح، كيلانتون، ترينغانو)، ومحمية جوهور.

أما مستوطنات المضيق فقد عدّتها أرضاً بريطانيةً، مع الوعد بإجراء انتخاباتٍ متى سمحت الأوضاع، وكانت الظروف مواتيةً، وهذا اصطلاح مرن يحتاج إلى مدةٍ غير محددةٍ.

وأما سنغافورة فقد أصبحت مستعمرةً منفصلةً بحجة وجود المخازن والمستودعات القائمة فيها، وبسبب اقتصادها الخاص الذي يُعدّ حراً.

وأما ساراواك فقد رجع حاكمها إليها، واستأنف حكمه فيها بعد زوال الاحتلال الياباني، وقد قبل أن تدخل محميته السابقة تحت سلطان التاج البريطاني، وهكذا تحوّلت ساراواك إلى مستعمرةٍ بعد أن كانت محميةً، بعد أن وافق مجلس المحمية على ذلك.

وفي الوقت نفسه حوّلت بورنيو الشمالية إلى مستعمرةٍ بعد انتهاء حكم الإدارة العسكرية البريطانية. وبذا اقتصر مشروع الاتحاد على دول شبه جزيرة الملايو دون الجزر المحيطة بها مثل بينانغ، وسنغافورة، ودون المواقع ذات الأهمية الخاصة مثل مالاقا.

في ٢٦ رمضان ١٣٦٤ هـ (٣ أيلول ١٩٤٥ م) أعطت الخزانة البريطانية موافقتها على سياسة اتحاد الملايو بعد عودتها إليها بعد الحرب، كما وافقت على إرسال بعثة (ماك ميشيل).

وفي ١٧ محرم ١٣٦٥ هـ (٢١ كانون الأول ١٩٤٥ م) أذعن كل السلاطين للشروط الجديدة التي فرضتها عليهم بريطانيا، وإن كان بعضهم قد أبدى بعض التحفّظات غير أنهم كانوا راغبين بإظهار الإخلاص التام للبريطانيين. وأُلغيت كل المعاهدات التي كانت عبر السنوات التي مضت، والتي كان فيها البريطانيون يعترفون بها بحقوق السلاطين، وأصبح الآن دور البريطانيين فقط مساعدة السلاطين لحكم بلادهم، وإن كان الواقع يُشير إلى تلقّي التوجيه، وطلب تنفيذ ما تراه الدولة التي كانت صاحبة السيادة، وتعدّ نفسها أنها هي التي مكّنت لهم، وسلّمتهم المناصب التي يشغلونها الآن، وربما كانوا يُقرّون بذلك ويعترفون.

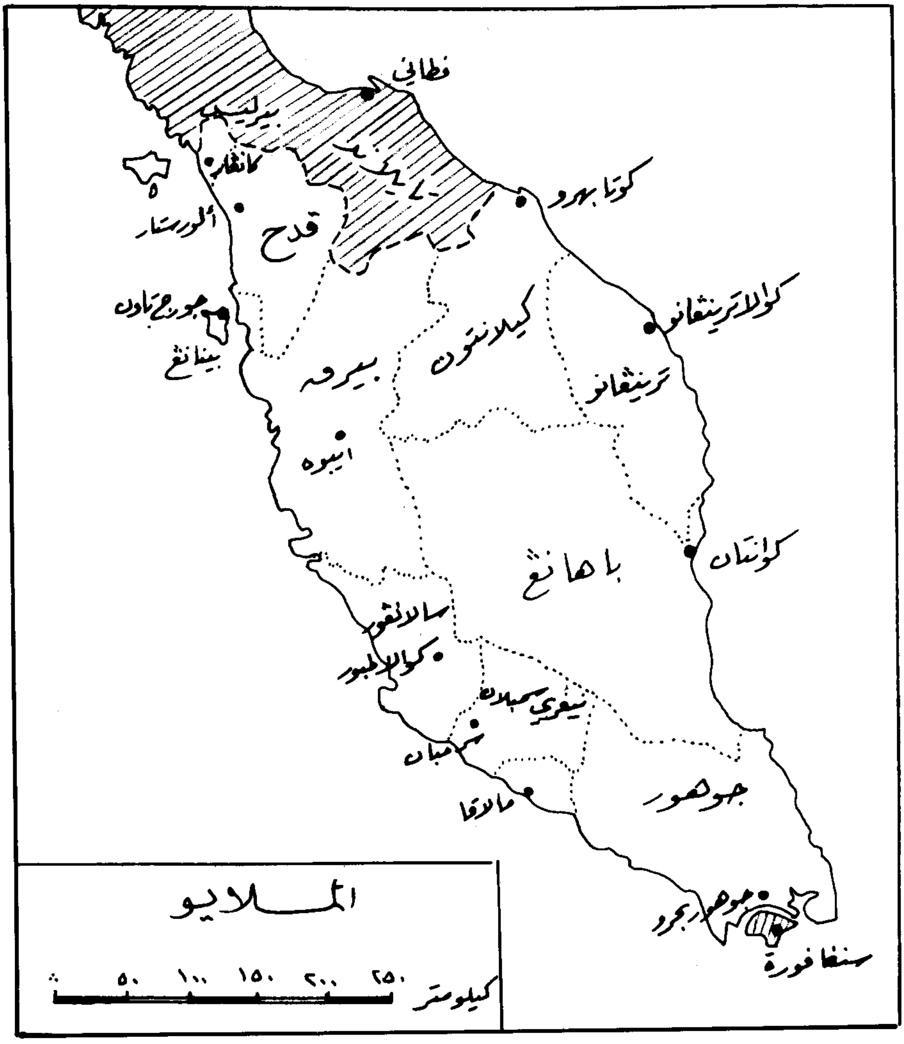
فطاني
بيرليس
كانغار
كوتا بهرو
ألورستار
قدح
جورج تاون
بينانغ
كيلانتون
كوالاترينغانو
ترينغانو
بيرقه
ايبوه
كوانتان
باهانغ
سالانغور
كوالالمبور
نيغري سمبيلان
سرمبان
مالاقا
جوهور
جوهوربحرو
سنغافورة
الملايو
٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [١]

ولكن مشروع الاتحاد هذا لم يوضع موضع التنفيذ نتيجة المقاومة العنيفة التي أبداها السكان ضدّه، حيث لم يُوافقوا على الاقتراح أبداً، وخاصةً ما نصّ منه على نقل السلطة من الحكام الملايويين، كما خاف أهل الملايو من موضوع الجنسية إذ خشوا أن يُعطى الصينيون القادمون إلى البلاد جنسية البلاد، وتُصبح لهم السيطرة حيث كانت بريطانيا تنوي هذا لإضعاف شأن المسلمين ونسبتهم، ونتيجة تلك المقاومة فقد سحب مشروع الاتحاد المقترح واستبدل بآخر.

قضى المشروع البديل الذي طُرح عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) أن تتمتع الدول والمقاطعات الملايوية المشار إليها بالمشروع السابق بشخصيتها ضمن اتحادٍ تُديره حكومة قوية، وبقي الحكام يتمتعون بسلطتهم ضمن الاتحاد المزمع قيامه، وأخذت وسائل التنفيذ طريقها.

وضع دستور جديد للملايو عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥م) حيث حُوّلت أكثر مسؤوليات الحكومة الاتحادية إلى المجلس التمثيلي للشعب، وجرت الانتخابات العامة ففاز حزب التحالف برئاسة تنكو عبدالرحمن حيث حصل على ٥١ مقعداً من أصل ٥٢ مقعداً.

وفي النصف الثاني من عام ١٣٧٥ هـ عقد اجتماع في لندن كان الهدف منه دراسة الطرق المؤدّية لقيام حكومةٍ محليةٍ. ونتيجة الاجتماع تمّ التوقيع على اتفاقٍ مُنح بموجبه اتحاد الملايو حق تأليف حكومةٍ وطنيةٍ، وضرورة اتخاذ الترتيبات للوصول إلى الاستقلال قبل نهاية شهر محرم ١٣٧٧هـ (آخر آب ١٩٥٧ م).

وافق المجلس التشريعي على مشروع الدستور الذي وُضع بعد التشاور بين الحكومة المحلية مُمثّلةً لأحزابها وبين الحكومة البريطانية. ووُقّع الاتفاق لقيام اتحاد الملايو من قبل حكام الولايات، ونيابةً عن ملكة بريطانيا وذلك في محرم ١٣٧٧ هـ (آب ١٩٥٧ م). وفي نهاية الشهر أُعلن

استقلال البلاد ٥ صفر ١٣٧٧ هـ (٣١ آب ١٩٥٧ م) وكان دستور الدولة الجديد واحداً، إذ أصبح الاتحاد مملكةً دستوريةً، وملكها هو «يانك دي بارتوان»، وقد انتخب من قبل حكام الولايات لمدة خمس سنوات، وأصبح الإسلام ديناً للدولة، وقبلت عضواً في الأمم المتحدة في صفر ١٣٧٧ هـ (أيلول ١٩٥٧ م).

وبقي شكل الحكم اتحادياً مع تشريع ازدواجي، وأصبحت الملايو ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

أما شمالي جزيرة بورنيو فبعد مدةٍ قصيرةٍ من الحكم العسكري البريطاني الذي جاء عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعودة البريطانيين إلى المنطقة إثر هزيمة اليابان، وانسحابها من المناطق التي سبق لها أن احتلّتها أصبحت مقاطعة شمالي بورنيو وجزيرة لابوان مستعمرةً يحكمها بريطاني يُساعده مجلس استشاري، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) حيث وضع دستور، وانتهى المجلس الاستشاري، وأُقيم مجلس تشريعي، وآخر تنفيذي. وكان الحاكم البريطاني يحكم المستعمرة بمساعدة المجلس التنفيذي الذي يُسمّى (المجلس الأعلى)، والمجلس التشريعي الذي يُعرف باسم (مجلس الولاية).

وأما مقاطعة ساراواك فقد أصبحت مستعمرةً عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) عندما تنازل الحاكم عن سلطته على الولاية إلى التاج البريطاني.

وكذلك فإن سنغافورة قد أصبحت مستعمرةً عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) حتى عام ١٣٧٧ هـ حيث وضع دستور ينصّ على قيام حكومةٍ محليةٍ ذات استقلالٍ ذاتيٍ مع إبقاء مسؤوليات الدفاع والسياسة الخارجية من مهمات الحكومة البريطانية، وأُجريت انتخابات على أساس هذا الدستور

عـام ١٣٧٩ هـ، وهي أول انتخابـاتٍ جرت في سنغـافورة، وبـذا تكون سنغافورة قد حصلت على الاستقلال الذاتي.

حكم الطوارىء:

بـدأ الإرهاب الشيـوعي بشنّ حملةٍ من الغـارات على المؤسسـات الاقتصـادية، وقتـل الناس، في سبيـل نشر الـذعر، وشـلّ حـركـة البنـاء الاقتصادي في البلاد، فأعلنت الحكومة حالة الطوارىء، وفرضت الأحكام العـرفية، واستمـرّ ذلك مـدة اثنتي عشرة سنـة، وقامت الحكـومة تُـلاحق الشيوعيين، وتُكافح وسائلهم حتى تمكّنت من القضاء على الإرهاب في ٧ صفر ١٣٨٠ هـ (٣١تموز ١٩٦٠ م)، وعندها رفعت حالة الطوارىء.

شمالي بورنيو:

أخذت نسبة الأعضاء غير الموظفين الرسميين تـزداد في المجلسين التشريعي والتنفيذي لولاية شمـالي بورنيـو حتى غدوا الأغلبيـة، وأُجريت الانتخابات لأعضاء السلطة التشريعية للدولة في شهر ذي القعدة ١٣٨٢ هـ (نيسان ١٩٦٣ م).

وفي شهر ربيع الأول ١٣٨٣ هـ (آب ١٩٦٣ م) وقبل أن تنضمّ إلى اتحاد ماليزيا تشكلت حكـومة بـرئاسـة رئيس للوزراء عـوضاً عن الحـاكم البريطاني. كما أن السلطة التشريعية كان غالبية أعضائها قـد وصلوا إلى منصبهم بطريق الانتخاب، وهكذا وصلت إلى مرحلة الحكم الذاتي.

ساراواك:

وضع دستور جديـد لولاية ساراواك في مطلع عـام ١٣٧٦ هـ (آب ١٩٥٦ م)، وتمّ بموجبه انتخاب الأعضاء بالأغلبية، وبعد ثلاثة أعوامٍ أصبح

أعضاء الأقسام والمجالس الاستشارية يقومون باختيار أعضاء مجلس الولاية فيما بينهم.

وفي شهر شوال ١٣٨٢ هـ (آذار ١٩٦٣ م) قام مجلس الولاية بتعديل الدستور من أجل تحقيق الحكم الذاتي الشامل.

وأُجريت الانتخابات في ٢٥ ربيع الأول ١٣٨٣ هـ (١٥ آب ١٩٦٣ م)، ونجح حزب التحالف المؤيد لإقامة دولة اتحاد ماليزيا، وكان نجاحه كبيراً.

وهكذا أصبح اتحاد الملايو مستقلاً، وتتمتع كل من سنغافورة، وشمالي بورنيو، وساراواك بالاستقلال الذاي، وأصبح من الممكن طرح فكرة الاتحاد الماليزي العام.

وأظهرت بريطانيا أنها لا ترضى عن قيام أحزابٍ طائفيةٍ، وخصّت الإسلامية - حسب مصطلحها - ولا عن قيام أحزابٍ اشتراكيةٍ ما دامت تنظر إلى أمةٍ ملايويةٍ واحدةٍ.

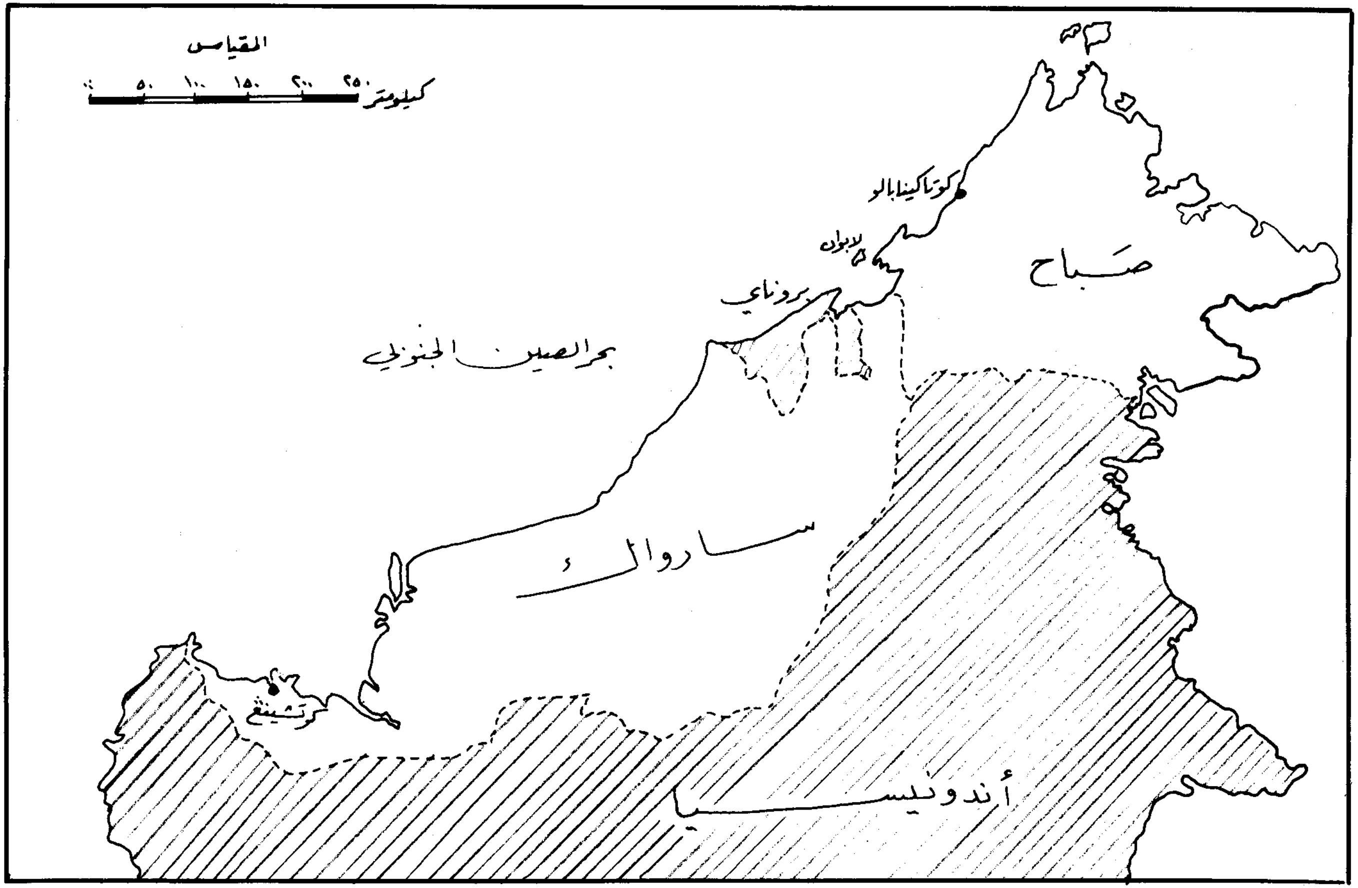
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ كيلومتر
كوتاكينابالو
لابوان
بروناي
صباح
بحر الصين الجنوبي
ساراواك
أندونيسيا

مصور رقم [٢]

الفصل الثاني

الاستقلال

اقترح رئيس وزراء الملايو تانكو عبدالرحمن في ١٠ شوال ١٣٨٠ هـ (٢٧ آذار١٩٦١ م) العمل على توصّل الملايو مع بريطانيا، وشعوب بلاد سنغافورة، وبورنيو الشمالية، وبروناي، وساراواك إلى اتفاقٍ لوضع مخططٍ يهدف إلى إيجاد تعاونٍ سياسيٍ واقتصاديٍ بين هذه البلدان يُؤدّي إلى وحدتها ما دامت كلها تعود إلى أصلٍ واحدٍ. ولقد تجاوب الزعماء في كلٍ من سنغافورة، وبورنيو الشمالية، وساراواك مع هذا الاقتراح، وتبع ذلك محادثات بين الحكومات والممثلين الشعبيين، وأُعلن الاتحاد بموجب استفتاء جرى في ربيع الثاني ١٣٨٢ هـ (أيلول ١٩٦٢ م)، ولقد أيّدت هذا المشروع المجالس التشريعية في بورنيو الشمالية وساراواك، ولكن حكومة بروناي لم تُقرّر الدخول في هذا الاتحاد.

عقد أخيراً اتفاق ماليزيا بين اتحاد الملايو، وسنغافورة، وساراواك، وبورنيو الشمالية وبين الحكومة البريطانية بتاريخ ١٧ صفر ١٣٨٣ هـ (٩ تموز ١٩٦٣ م)، وقد نصّ هذا الاتفاق على انتقال السيادة في بورنيو الشمالية التي أصبح يُطلق عليها اسم (صباح) وفي ساراواك، وسنغافورة من يد البريطانيين إلى حكومة ماليزيا بتاريخ ١١ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (٣١ آب ١٩٦٣ م)، كما وضّح الاتفاق العلاقات بين سنغافورة والاتحاد الجديد.

ولكن سنغافورة عادت فانسحبت من الاتحاد، ولم يمض عامان على قيامه.

وكانت كل من أندونيسيا والفيليبين تُعارض الاتحاد، فأندونيسيا ترى أن جزيرة بورنيو كلها أندونيسية، ولذا فهي لا تسمح بأن تنتزع منها أجزاؤها الشمالية، وتُمانع في ضمّ تلك الأجزاء إلى ماليزيا أو أية دولةٍ أخرى، وأما دولة الفيليبين فلها أطماع في شمالي جزيرة بورنيو، وخاصة بروناي حيث يتوفّر النفط، لذا فهي تُعارض في ضمّ تلك الأجزاء إلى ماليزيا، أو إلى أندونيسيا، أو استقلالها وإبعادها عنها.

وبعد اجتماعاتٍ متكررةٍ أعلنت أندونيسيا والفيليبين أنهما تُوافقان على قيام اتحاد ماليزيا فيما إذا وافق شعبا صباح وساراواك على قيامه، حيث لا تعارضان رغبات الشعوب، ولكن تشترطان على الإبقاء على الحكم الذاتي فيهما، إذ تأمل كلتاهما بفرض عقد الاتحاد بعد مدةٍ أو ترغبان بالإبقاء على جزءٍ من الأمل للمستقبل.

وحتى يحصل الاتحاد على موافقة أندونيسيا والفيليبين بقيامه وافق على تحقيق رغبات كلتا الدولتين، وطلب من الأمين العام للأمم المتحدة التأكدّ من رغبات شعبي صباح وساراواك في قيام الاتحاد، وحمل الأمين العام المسؤولية على عاتقه، وقام بالمهمة، وفي ٢٤ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (١٣ أيلول ١٩٦٣ م) رفع الأمين العام إلى الأمم المتحدة تقريراً يُؤكّد فيه دعم شعبي صباح وساراواك لاتحاد ماليزيا الذي أصبح واقعياً في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (١٦ أيلول ١٩٦٣ م).

ولكن أندونيسيا بالواقع لم ترض عن قيام اتحاد ماليزيا، وقد أعلن أحمد سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا آنذاك عن مجابهة ماليزيا، وتدخّلت الأمم المتحدة في ذلك، وشكّل سوكارنو فرقاً شبه عسكرية لسحق ماليزيا، غير أن هذه الفرق قد استغلّتها العناصر الشيوعية في تدريبها

وتسليحها، وأسرعت في إعلان ثورتها عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م)، ولكن هذه الثورة قد فشلت، ونُحّي سوكارنو إثرها عن الحكم حيث اتهم بدعم تلك الثورة. وبعد سقوط سوكارنو أُلغيت فكرة المجابهة، وحدث الاتفاق بين ماليزيا وأندونيسيا، وعادت أندونيسيا للأمم المتحدة، وكانت قد تركتها بسبب انتخاب ماليزيا عضواً في مجلس الأمن.

لم تكن حكومة الملايو تخشى انضمام سنغافورة إليها خوفاً من طغيان العنصر الصيني الموجود في سنغافورة إضافةً إلى ما هو موجود في الملايو، ولا من سيطرة الشيوعية إذ أن الأمن كان لا يزال من مهمة بريطانيا، ولكن تانكو عبدالرحمن رئيس الحكومة الملايوية كان يتوقّع أن استقلال سنغافورة إذا تمّ فسيسيطر عليها الشيوعيون، وستتخذ قاعدةً للهجوم على الملايو، لذا فأفضل حلٍّ هو دمجها مع الاتحاد الملايوي.

وكانت حكومة الملايو ترى من وجهة نظرٍ ثانيةٍ أن انضمام شمالي جزيرة بورنيو (صباح، ساراواك، بروناي) سيُعيد توازن العنصر العرقي بسبب العنصر الملايوي هناك.

وفي رمضان ١٣٨١ هـ (أوائل عام ١٩٦٢ م) صوّتت الفيليبين ضدّ اتحاد ماليزيا، إذ كان رئيس الفيليبين (ماكابغال) يعدّ شمالي جزيرة بورنيو جزءاً من الفيليبين، ويدّعي أن ذلك الجزء كان عام (١٨٧٨ م) يتبع جزر صولو التي هي جزء من الفيليبين، وأن انفصال شمالي بورنيو عن صولو إنما كان على صورة استئجارٍ لا على أساس بيعٍ، وكانت الشركة البريطانية تدفع دفعاتٍ نظاميةً سنويةً.

وفي شهري صفر وربيع الأول ١٣٨٢ هـ (تموز وآب ١٩٦٢ م) جرت لقاءات بين رؤساء أندونيسيا والملايو والفيليبين في مانيلا من أجل الوصول إلى صيغةٍ من التسوية، ولكن من غير فائدة.

وفي ٢٧ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (١٦ أيلول١٩٦٣ م) أُعلن الاتحاد الماليزي، وقطعت كل من أندونيسيا والفيليبين علاقتها مع دولة الاتحاد التي نشأت، وجرت اشتباكات وغارات على الحدود في بورنيو.

وفي أوائل عام ١٣٨٥ هـ (أواسط عام ١٩٦٥ م) انتخب (ماركوس) رئيساً للفيليبين، وسقط (ماكابغال) وتبدّلت السياسة العامة، وتحسّنت العلاقات مع ماليزيا بعد جمادى الأولى ١٣٨٥ هـ (أيلول ١٩٦٥ م) وفي شهر صفر ١٣٨٦ هـ (حزيران ١٩٦٦ م) اعترفت الفيليبين باتحاد ماليزيا، وفي ربيع الثاني ١٣٨٦ هـ (آب ١٩٦٦ م) وقعت اتفاقية سلامٍ بين الطرفين.

سنغافورة:

كان حزب العمل الشعبي هو صاحب النفوذ في سنغافورة، وكان رئيسه المحامي (لي كوان يو)، وفي الانتخابات التي جرت هناك عام (١٩٦٣ م) حصل الحزب على سبعة وثلاثين مقعداً من أصل واحدٍ وخمسين مقعداً في المجلس التشريعي السنغافوري.

وحصل خلاف بين هذا الحزب وبين حزب التحالف الملايوي في انتخابات شبه جزيرة الملايو، وقد نجح حزب التحالف، وحصل على تسعةٍ وثمانين مقعداً من أصل مائةٍ وتسعةٍ وخمسين مقعداً في المجلس التشريعي في شبه جزيرة الملايو.

وجرت محاولة للتفاهم بين الحزبين في جمادى الأول ١٣٨٤ هـ (أيلول ١٩٦٤ م) ولكن من غير فائدة، فقرر بعدها حزب العمل الشعبي مخاصمة حزب التحالف أي الحكومة الماليزية. وشكّل حزب العمل الشعبي حلفاً ضمّ عدداً من أحزاب المعارضة، وكان أكثر هذه التركيبة من العنصر الصيني، وهذا ما جعل الصراع عرقياً، ورأت ماليزيا أن انسحاب سنغافورة من الاتحاد إنما هو في مصلحته.

وفي ١٢ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ (٩ آب ١٩٦٥ م) استطاع ممثلو البيت الماليزي (ديوان راكات) إقرار لائحة تعديل دستوري يمكن فيها لسنغافورة الانسحاب من الحزب.

شمالي جزيرة بورنيو:

منح حزب التحالف الملايوي مدة أطول لمقاطعات شمالي بورنيو لتتمشّى مع سياسة الملايو، ومنح قطعتين من الأرض لإمارة بروناي تشجيعاً لدخولها في الاتحاد، ووعد قادتها بإعطائهم حكماً ذاتياً أكثر مرونة من صلاحياتهم.

خشي رئيس وزراء الاتحاد تانكو عبدالرحمن من عمل رئيس وزراء ولاية صباح على الانفصال وهو (دونالد ستيفنز) فأبعده عن منصبه وعيّن مكانه داتو مصطفى.

وكان رئيس وزراء ولاية ساراواك (ستيفن كالونغ) يعدّ مجموعة (الأبان) من أكبر المجموعات في الاتحاد، لذا عُزل، وعُيّن مكانه (أبان تاوي سلي) الذي يخضع لرأي كوالالمبور بصورةٍ أفضل.

اتحاد دول جنوب شرقي آسيا:

تمّ تشكيل اتحاد دول جنوب شرقي آسيا في جمادى الأولى ١٣٨٧ هـ (آب ١٩٦٧ م)، وقد ضمّ كلًّا من: أندونيسيا، ماليزيا، سنغافورة، الفيليبين، تايلاند، ومن أهدافه المدوّنة تعضيد التعاون بين دول هذه المنطقة من أجل تحقيق التقدّم الاجتماعي والاقتصادي.

الدستور:

ماليزيا اتحاد يتألف من دول الملايو التسع: جوهور، قدح، كيلانتون، ترينغانو، بيرق، باهانغ، نيغري سمبلان، سلانغور، بيرليس،

ومن المحميات البريطانية السابقة: مالاقا، بينانغ، ومن المستعمرات البريطانية السابقة: صباح، ساراواك.

وعلى الرغم من أن دساتير هذه الدول الأعضاء في الاتحاد تختلف بعضها عن بعض في بعض التفصيلات، فإن أسسها واحدة، وهي المحافظة على نظام الحكم الملكي الذي يعتمد على الحياة النيابية، وينتخب الرئيس الأعلى لماليزيا، وهو الملك، من قبل مجلس الحكام لمدة خمس سنوات.

ويتألف المجلس النيابي الاتحادي لماليزيا من مجلسين: مجلس الشيوخ، ومجلس الممثلين.

يتألف مجلس الشيوخ من ٦٨ عضواً منهم ٢٦ عضواً منتخباً، عضوين عن كل دولةٍ عضوٍ في الاتحاد، ومن ٤٢ عضواً معينين من قبل الملك.

أما المجلس التمثيلي فيتألف من ١١٤ عضواً من دول اتحاد الملايو الإحدى عشرة، نصفها ينتخب من قبل الشعب، والآخر يُعيّنه الملك، ومن ٢٤ عضواً من ساراواك، و١٦ عضواً من صباح، وبذا يكون مجموع أعضاء المجلس التمثيلي ١٥٤ عضواً[1].

ويُعيّن الملك رئيس مجلس الوزراء الذي يختار الوزراء الذين يجب أن يكونوا أعضاء في المجلس التمثيلي، ويوافق عليهم الملك.

ويكون رئيس الوزراء هو الرئيس التنفيذي للحكومة الاتحادية. وقد

(١) ثم عدّل هذا، وأصبح يتألف من ١٣٢ عضواً من شبه جزيرة الملايو، و٢٤ عضواً من ساراواك و٢١ عضواً من صباح، يكون العدد الكلي هو ١٧٧ عضواً، وفي الانتخابات القادمة سيرتفع عدد أعضاء ممثلي ساراواك إلى ٢٧ عضواً ليكون العدد الإجمالي هو ١٨٠ ممثلاً.

اختير أول رئيس للوزراء تانكو عبدالرحمن، أما الملك الأول فكان اليانغ دي برتوان أغونغ، وهو ابن سيد حسن جمال الليل.

وتتمّ الانتخابات كل خمس سنواتٍ، وتجري من الاستقلال إلى الآن بشكلٍ رتيبٍ. والسلطة بيد تحالفٍ يشمل معظم الأحزاب في البلاد باستثناء الحزب الإسلامي وحزب العمل الديمقراطي.

الاضطرابات:

بعد الانتخابات الثالثة التي جرت منذ الاستقلال أي عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) حدثت اضطرابات عنصرية داخلية، واضطرت الحكومة إلى إعلان حالة الطوارىء، وتشكيل مجلس وطني للعمليات لإدارة البلاد، وللسيطرة على الأوضاع. وقد عُرفت تلك الاضطرابات بحوادث (١٣ آيار). وتنازل إثرها تانكو عبدالرحمن عن رئاسة الوزارة، كما ضمّ إليه حزب التحالف بعض عناصر المعارضة، وعرف بعد ذلك باسم الجبهة الوطنية، ولا تزال هي الحزب الحاكم إلى اليوم.

وبعد عامٍ عادت المشاغبات الداخلية العرقية التي نشأت عن رفض ماليزيا لسيطرة العنصر الصيني على اقتصادها، ورفضها نتائج الانتخابات التي تُؤيّد ذلك العنصر، مما عجّل باستقالة تانكو عبدالرحمن من رئاسة وزراء الملايو، ثم من رئاسة وزراء الاتحاد.

تون عبدالرزاق:

خلف تانكو عبدالرحمن، وامتص نقمة المعارضة، وجذبها إلى حزب التحالف، فشكّل الجبهة الوطنية من عشرة أحزاب، وتوفي في ١٣ محرم ١٣٩٦ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٧٦ م).

حسين بن عون بن جعفر:

خلف تون عبدالرزاق في رئاسة الوزارة. وكان الأمن في ماليزيا مُهدّدا دائماً من قبل الحركة الشيوعية، واستفاد المسؤولون أيضاً من هذا التهديد، فكل خصم لهم اتهموه بالشيوعية، وقاتلوه تحت هذا العنوان، وأبعدوا عنه الأتباع تحت هذا الشعار، وأشاع المستعمرون الصليبيون عن المسلمين أنهم من الشيوعيين، ووضعوا حركاتهم تحت هذا الصنف.

كان المسلمون في فطاني، وهي المنطقة الملايوية التي تقع في قبضة الاستعمار التايلندي البوذي، يثورون على مستعمريهم، ويتلقّون بعض المساعدات من إخوانهم الماليزيين، وإذا ما اشتدّ الضغط عليهم لجؤوا إلى أراضي ماليزيا أيضاً، وخاصةً إلى ولاية كيلانتون التي تجاور أرضها ديارهم، والحزب الإسلامي هو القوي فيها، وهو الحاكم في هذه الولاية، ومن هنا كان الدعم، وكانت المساعدات، ومن هنا أيضاً كانت الاتهامات، وكانت النقمة. ومن سوء حظ الشعب المسلم في فطاني أن شرذمةً صغيرةً من الحزب الشيوعي الملايوي الصيني قد لجأت إلى الغابات على الحدود بين فطاني وماليزيا، ليستظل بمظلّة المجاهدين المسلمين في فطاني. وكانت الحكومة الماليزية تطالب حكومة تايلند بإلقاء القبض على المتمردين الشيوعيين، فتقوم السلطات التايلندية بمطاردة وسحق المجاهدين المسلمين باسم ملاحقة الشيوعيين. وبدأت أعمال المجاهدين منذ عام **١٣٨٩ هـ** (**١٩٦٩ م**)، وكان المجاهدون الفطانيون يتهمون رئيس وزراء ماليزيا تانكو عبدالرحمن بممالأة التايلنديين لأن أمه منهم، وعندما انتهى سلطانه، وجاء تون عبدالرزاق توسّموا به خيراً، إلا أنهم صدموا عندما أعلن أنه سيقمع كل حركةٍ يقوم بها المجاهدون في تايلند بكل شدّةٍ وعنفٍ.

ولما كانت حكومة ماليزيا غير قادرةٍ على وقف عمليات الإرهاب الشيوعي لذا لجأت إلى التعاون مع حكومة تايلند، وهذا ما خفّف تدريجياً

من نشاط المجاهدين في تايلند، والمتمردين الشيوعيين في ماليزيا وخاصةً في مناطق الحدود المشتركة بينهما.

وفي عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) صدر عفو عام من قبل حكومة تايلند عن كل متمردي الحزب الشيوعي الملايوي الـذين استسلموا للسلطات، وفي جمادى الأولى ١٤١٠هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) وبعد عام من المفاوضات مع حكومة تايلند وافق ١١٨٨ عضواً من أعضاء الحزب الشيوعي الملايوي الباقين على إيقاف كل عمليات الإرهاب، وأدّت معاهدة السلام التي وقعّها زعيم الحزب الشيوعي المعارض وممثلون عن حكومتي ماليزيا وتايلند إلى عودة المتمردين الشيوعيين إلى ماليزيا، واشتراكهم في النشاطات السياسية بصورةٍ شرعيةٍ.

ولكن الأمر سهل بالنسبة إلى الشيوعيين حيث يمكن التفاهم، ويمكن التعاون، ويمكن اللقاء على كل الموائد، أما الأمر الذي لا يمكن السكوت عنه، ولا يمكن التساهل عنه فهم المسلمون حيث الأحقاد منصبة عليهم، والنقمة قائمة ولا يجلسون على مائدة، وقد عملت تايلند على سحقهم من طرفها. وفي ماليزيا طرد الوزير الأول في ولاية كيلانتون من منصبه، وهو من الحزب الإسلامي المـلايوي (P.M.I.P) وذلـك في شهر ذي القعـدة ١٣٩٧هـ (تشرين الأول ١٩٧٧ م)، وأدّى ذلك إلى قيام اضطرابات أعلنت في إثرها حالة الطوارىء من قبل الحكومة المركزية، ثم طُرد الحزب الإسلامي من الجبهة الوطنية في مطلع عام ١٣٩٨ هـ (كانون الأول ١٩٧٧ م).

وأثناء الانتخابـات الاتحاديـة عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) قـام حسين عون رئيس الوزراء بإصلاحاتٍ في وضع الجبهـة الوطنيـة إلا أن الحزب الإسلامي بقي يُعاني من إهمالٍ حادٍ، وعدم اعتبار.

ورفضت الحكومة الاتحادية في هذا العام إقامة جامعةٍ صينيةٍ فعادت الخلافات العنصرية تظهر من جديد.

سري محاذير محمد:

كان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء الاتحادي منذ عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م)، وفي شهر رمضان من عام ١٤٠١ هـ (تموز ١٩٨١ م) أصبح رئيساً للوزراء خلفاً لحسين عون.

جرت الانتخابات النيابية في جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ (نيسان ١٩٨٢ م) وفازت الجبهة الوطنية بأكثر الأصوات في الولايات كلها مما زاد من قوتها السياسية، غير أن الحكومة قد أصبحت في وضعٍ حرجٍ في العام التالي إذ تورّط بعض الوزراء في فضائح مصرفيةٍ مخزيةٍ، وكان مصرف بيمبوترا (Pumputra) وهو من أكبر مصارف ماليزيا ظهر أنه قد أعطى قروضاً كبيرةً بطريقةٍ غير مشروعة لإحدى شركات (هونغ كونغ).

وأُعيد انتخاب الدكتور سري محاذير محمد رئيساً للوزراء دون منافس في شعبان ١٤٠٤ هـ (أيار ١٩٨٤ م).

وفي انتخابات ولاية صباح التي جرت في رجب ١٤٠٥ هـ (نيسان ١٩٨٥ م) حصل حزب صباح الاتحادي (P.B.S) على أكثر من نصف الأصوات، وبهذا أصبحت ولاية صباح هي الولاية الوحيدة التي لا تحكمها الجبهة الوطنية، واعترض المسلمون على شرعية حكومة حزب صباح الاتحادي مما أدّى إلى الدعوة إلى انتخاباتٍ جديدةٍ في جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (شباط ١٩٨٦ م) ففاز الحزب الحاكم بأغلبية الأصوات أيضاً. وفي ذي القعدة من عام ١٤٠٦ هـ (تموز ١٩٨٦ م) وافقت الجبهة الوطنية على ضمّ حزب صباح الاتحادي إلى وحدتها الحاكمة. كما ضمت أيضاً المنظمة الوطنية لاتحاد صباح والتي كانت قد أُخرجت من الجبهة قبل عامين.

الخلاف في الحكومة:

اهّتزت الحكومة الاتحادية برئاسة سري محاذير محمد وكذلك

المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو وذلك نتيجة استقالة نائب رئيس الوزارة موسى هيتام من منصبه بسبب خلافات جذرية مع رئيس الوزراء. وعلى الرغم من أن موسى هيتام قد عاد إلى منصبه إلا أن مؤيديه قد زادوا من انتقاداتهم لرئيس الوزراء مما وسّع الفجوة بين الفريقين.

وفي الانتخابات العامة التي جرت في ذي الحجة عام ١٤٠٦ هـ (آب ١٩٨٦ م) قبل موعدها الرسمي بتسعة شهور حازت الجبهة الوطنية على ١٤٨ مقعداً من أصل ١٧٧ مقعداً. حصلت منها المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو على ٨٣ مقعداً، والمنظمة الصينية الملايوية على ١٧ مقعداً، وأما حزب الحركة الديمقراطية، وهو من الأحزاب المعارضة فقد حصل على ٢٤ مقعداً. وفي انتخابات الولايات التي جرت في الوقت نفسه بقيت سلطة الجبهة الوطنية على الولايات كلها، وبعد الانتخابات العامة أُبعد كل الوزراء الذين دعموا موسى هيتام.

وفي انتخابات المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو واجه رئيس الوزراء محاذير محمد تحدّياً شديداً من تانكو رازالي حمزة وزير التجارة والصناعة، ورغم ذلك فقد تمّ انتخاب محاذير محمد رئيساً للمنظمة للمرة الثالثة، وبهذا بقي في منصبه رئيساً للجبهة الوطنية وبالتالي رئيساً للوزراء، وإن كانت شعبيته قد ضعفت، وكذلك انتخب عبدالغفار بابا نائباً لرئيس المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو، المنصب الذي كان يشغله موسى هيتام. وبعد مدة أعلن رئيس وزراء الحكومة الاتحادية الدكتور محاذير محمد استقالة رازالي حمزة ووزير الخارجية ريس ياتم، وعدد من الوزراء الذين دعموا رازالي حمزة.

استمرّ النقد ضدّ سلطة محاذير محمد موجّهاً من المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو نفسها، ومن مجموعاتٍ سياسيةٍ أخرى، وفي الوقت نفسه برزت من جديد العصبيات العنصرية، واشتدّ الخلاف حول تدريس اللغة الصينية، والدين. وحدثت انقسامات في الجبهة الوطنية (الحزب الحاكم)، وتشكل في ولاية ساراواك حزبٌ سياسيٌ مستقلٌ في رجب ١٤٠٧ هـ (آذار

١٩٨٧ م)، إلا أن سلطة الجبهة الوطنية ما لبثت أن عادت ثانيةً إلى السلطة في الانتخابات التي جرت في شعبان ١٤٠٧ هـ (نيسان ١٩٨٧ م)، ولكن بعددٍ أقلّ من الأصوات.

وفي شهر صفر من عام ١٤٠٨ هـ (تشرين الأول ١٩٨٧ م) حجزت الحكومة أكثر من مائةٍ وستة أشخاص، ووضعوا تحت الرقابة لمنع عمليات الشغب والعنف بين الملايويين والصينيين بسبب بعض الخلافات الدينية. وينتمي المحتجزون إلى الأحزاب السياسية جميعها تقريباً، ومنهم زعيم المعارضة (ليم كيت سيانغ) هذا بالإضافة إلى عددٍ من المحامين والصحفيين، وعُطّلت ثلاث صحفٍ، ومُنعت التجمّعات السياسية.

وفي شهر ربيع الأول ١٤٠٨ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٧ م) صدر قانون يقضي بإنزال أشدّ العقوبات على الناشرين والصحفيين الذين ينشرون أخباراً كاذبةً، وصدر قانون آخر أعطى وزير الإعلام الصلاحية في مراقبة البثّ الإذاعي والتلفزيوني، وصلاحية سحب رخصة أي شركة بث لا تلتزم بالقيم الماليزية - حسب تسمية القرار - وفي جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م) أُطلق سراح جميع المحتجزين باستثناء (ليم كيت سيانغ) زعيم المعارضة، وابنه فقد بقيا حتى رمضان ١٤٠٩ هـ (نهاية نيسان ١٩٨٩ م).

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م) توصّلت المحكمة العليا إلى أن انتخابات المنظمة لاتحاد الملايو التي جرت عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) لم تكن شرعية، ولهذا أعلنت المحكمة أن هذه المنظمة غير قانونية لأن ما حدث لم يكن انتخاباً أبداً، فأعلن رئيس المنظمة محاذير محمد، رئيس الوزارة الاتحادية، أن قرار المحكمة العليا لم يكن ليؤثّر على شرعية الحكومة، ولا على رئيسها، وأيّده في ذلك تانكو محمود اسكندر. وأعلن محاذير محمد عن تشكيل منظمةٍ جديدةٍ لاتحاد الملايو، عُرفت باسم (u.m.n.o. Brau) وقال: إن على أعضاء المنظمة القديمة أن يُعيدوا

انتسابهم فيما إذا أرادوا الانضمام إلى المنظمة الجديدة. ثم أعلن أن رازالي حمزة ومُؤيّديه ليسوا أعضاءً في المنظمة الجديدة، وبعد المقاضاة نقلت كل موجودات المنظمة القديمة وأثاثها إلى المنظمة الجديدة.

وفي رجب ١٤٠٨ هـ (آذار ١٩٨٨ م) احتدم الخلاف بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية بسبب موافقة المجلس النيابي على الحدّ من صلاحيات السلطة القضائية والحيلولة دون إصدار قوانين من نفسها، ولهذا كتب رئيس المحكمة العليا تون محمود صالح بن عباس لرئيس الدولة يشتكي له من محاولات الحكومة للحدّ من صلاحيات السلطة القضائية.

وفي رمضان ١٤٠٨ هـ (أيار ١٩٨٨ م) مُنع محمود صالح بن عباس عن ممارسة صلاحياته ومنصبه انتظاراً لقرار المحكمة العليا التي عُيِّن لرئاستها تون سري عبدالحميد عمر.

وفي مطلع عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) صدر قرار المحكمة، وعُزل محمود صالح بن عباس من منصبه. وهنا طالب أعضاء القنصلية الماليزية باستقالة عبدالحميد عمر، ألا أن رئاسته للمحكمة العليا قد ثبتت في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م).

وفي رمضان عام ١٤٠٩ هـ (نيسان ١٩٨٩ م) رفضت المحكمة العليا التوقيع على طلب من القنصلية الماليزية نظراً لموقف القنصلية من عبدالحميد عمر. وفي ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) عملت على الحدّ من السلطة القضائية بشكلٍ أوسع فأصدرت قانوناً أمنياً يحول دون التجاء الأشخاص الذين سبق لهم أن احتجزوا إلى القضاء.

وفي محرم ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) كانت نتيجة الانتخابات التي جرت في عاصمة ولاية جوهور في غير صالح محاذير محمد وفي صالح معارضيه، ولكن التي جرت في جهاتٍ أخرى انتهت بفوز المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو التي يرأسها محاذير محمد. وفي شهر صفر ١٤٠٩ هـ

(أواخر أيلول ١٩٨٨ م) ترك ثلاثة عشر عضواً الجبهة الوطنية، وانضمّوا إلى المعارضة التي يقودها موسى هيتام، ورازالي حمزة.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (كانون الأول ١٩٨٨ م) قام موسى هيتام ومُؤيّدوه بوضع ستة شروط للموافقة على الانضمام إلى المنظمة الوطنية الجديدة، وأهم هذه الشروط:

١ ـ الموافقة الفورية على قبول أعضاء المنظمة القديمة أو الأصلية.

٢ ـ إعادة المناصب إلى الأفراد التي حازوا عليها في انتخابات (١٩٨٧ م).

٣ ـ العمل على إعادة المنظمة الأصلية.

وقد وافقت المنظمة الجديدة على هذه الشروط في جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ (كانون الثاني ١٩٨٩ م)، والتزمت بها في ولاية جوهور.

كانت جمعية الصينيين الملايوية (M.C.A) قد فقدت الكثير من مُؤيّديها منذ عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) بسبب المشكلات الداخلية، وبسبب عجز الحكومة عن الوفاء بوعودها للجمعية إلا أن دعم المنظمة الوطنية الجديدة لتلك الجمعية جعلتها تتمكّن من الوقوف على أرجلها، وتتغلّب على معارضيها.

ولما أُعلن أن موسى هيتام عضو في المنظمة الوطنية الجديدة شجّع هذا الإعلان ثمانية أعضاء من المنشقّين للانضمام إلى المنظمة في ولاية جوهور.

وفي شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) أقامت الحكومة التي أسّسها رازالي حمزة حلفاً مع معارضها الأساسي «الحزب الإسلامي الماليزي» والذي كان عضواً في الجبهة الوطنية حتى أُخرج منها بجهود رازالي حمزة عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

وفي شوال ١٤٠٩ هـ (أيار ١٩٨٩ م) أسّس رازالي حمزة حزباً أسماه (روح الـ «٤٦») إشارةً إلى عام (١٩٤٦ م) الذي تأسّست فيه (المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو الأصلية).

وافقت الحركة الديمقراطية على التعاون مع روح الـ (٤٦) ومع الحزب الإسلامي الماليزي، وفي ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) انّضمت الجماعة الإسلامية الماليزية إلى روح الـ (٤٦)، وتركت الجبهة الوطنية، ثم شكّلت هذه الجماعات كلها حركة الاتحاد الإسلامي (A.P.U)، وفازت هذه الحركة بالانتخابات، ولكن عادت للجبهة الوطنية قوتها، وفازت بالانتخابات عدّة مراتٍ.

ولاية صباح:

استقال نائب رئيس وزراء صباح (كودينغ) من منصبه في حزب اتحاد صباح، وانضمّ إلى حزب (A.K.A.R) الذي حاول الانضمام إلى الجبهة الوطنية على المستوى الاتحادي رغم أن ولاية صباح مستقلة.

المجتمع الهندي في ماليزيا:

في شهر ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) استطاع سامي قالو أن يبرز بين الهنود في ماليزيا، وأن يُدافع بحماسةٍ لرئاسته لذلك المجتمع، ويُعلن عن أهمية هذا المجتمع، إذ يُعدّ العضو الثالث في الجبهة الوطنية، وكانت المنافسة قويةً بين سامي قالو وبين النائب سوبرمانيان، ويبدو أن تفوّق سامي قالو قد بدا في أول الأمر بتأييد الأمين العام لحزب المؤتمر الهندي فيجاندران، غير أن الأمر لم يلبث أن تبدّل عندما وقع فيجاندران في عدة فضائح أخلاقية ألزمته إلى ترك مناصبه السياسية الأمر الذي أضعف من شأن سامي قالو.

وفي جمادى الأولى ١٤١٠ هـ (كانون الأول ١٩٨٩ م) عقد محاذير محمد ورازالي حمزة عدة لقاءات في سبيل رأب الصدع الذي حدث في المجتمع الملايوي، إلا أن ذلك لم يّؤدّ إلى نتائج حميدة، وفي نهاية الشهر نفسه أعلن محاذير محمد عن تعيين عبدالغفار بابا نائباً له.

مشكلة فيتنام:

منذ عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) وماليزيا تستقبل اللاجئين الفيتناميين، وتنتظر إعادتهم إلى الغرب حسب أقوال وادعاءات الدول التي كانت تتبنّى مساعدتهم، ثم تبيّن بوضوح في شهر شعبان ١٤٠٩ هـ (آذار ١٩٨٩ م) أن هذه الدول لا تريد استقدامهم إليها، كما أنها لا تعمل بجديةٍ في سبيل إعادتهم، وهذا ما دعا منظمة دول جنوب شرقي آسيا إلى العمل على فرز هؤلاء اللاجئين إليها لمعرفة اللاجئين حقيقةً من الهاربين في سبيل البحث عن وضعٍ اقتصادي أفضل، وقد وافق مجلس الأمم المتحدة على هذا القرار. وقد منعت ماليزيا في ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩ م) دخول سفينتين تحملان أكثر من ألفي لاجىء من الرسو في موانئها أو دخول أي لاجىءٍ إلى بلادها.

وفي رجب ١٤١٠ هـ (شباط ١٩٩٠ م) جرت مباحثات في هانوي عاصمة فيتنام بين ماليزيين رسميين وفيتناميين لمناقشة اللاجئين الفيتنام، وقضايا أخرى تجارية واقتصادية.

وهكذا يتبيّن أن أكثر أحداث اتحاد ماليزيا إنما هي داخلية، وأن الأحداث الخارجية التي تعيشها تعدّ قليلةً.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تبلغ مساحة اتحاد ماليزيا ٣٣٠,٤٣٤ كيلومتر مربعاً، وهذه المساحة في منطقتين تفصل بينهما مسافة ٧٥٠ كيلومتر، المنطقة الأولى شبه جزيرة الملايو، وتبلغ مساحتها ١٣١,٥٨٧ كيلومتراً مربعـاً، وتضمّ إحدى عشـرة ولايـةً، وشمالي جـزيرة بـورنيو حيث يـوجد ولايتـان تبلغ مساحتهمـا معاً ١٩٨,٨٤٧ كيلومتراً مربعاً، إذ تبلغ مساحة ولاية صبـاح ٧٤,٣٩٨ كم[٢]، بينما تبلغ مساحة ولاية ساراواك ١٢٤,٤٤٩ كم[٢].

شبه جزيرة الملايو	١٣١,٥٨٧	كيلومتراً مربعاً
شمالي جزيرة بورنيو	١٩٨,٨٤٧	كيلومتراً مربعاً
المجموع	٣٣٠,٤٣٤	كيلومتراً مربعاً

وهذا يعني أن الجزء الماليزي الذي يقع في شمالي جزيرة بورنيو هو أكبر مساحةً بمرة ونصف من مساحة شبه جزيـرة الملايـو التي هي أصل الاتحاد الذي يحمل اسمها أيضاً.

ويبلغ عدد السكان ١٦,٧٠٠,٠٠٠ شخص حسب تقديرات عام ١٤١٢ هـ (١٩٩١ م)، ولكن سكان شبه جزيرة الملايو يشكلون ٨٢٪ من مجموع السكان، ولا يزيد سكان قطاع شمالي جزيرة بورنيو على ١٨٪ من المجموع العام، فيكون توزّع السكان كالآتي:

شبه جزيرة الملايو	١٣،٦٩٤,٠٠٠	شخص
شمالي جزيرة بورنيو	٣,٠٠٦,٠٠٠	شخص
المجموع	١٦,٧٠٠,٠٠٠	شخص

أ ـ الولايات فهي:

١" ـ في شبه جزيرة الملايو:

	مساحتها كم٢	عدد سكانها	عاصمتها
١ ـ بيرليس	٧٩٥	١٨٩,٣٥٨	كانغار
٢ ـ قدح	٩,٤٢٥	١,٤١٠,٠٠٠	ألورستار
٣ ـ بينانغ	١,٠٠٣	١,٢٦٦,٨٣٠	جورج تاون
٤ ـ بيرق	٢١,٠٠٥	٢,٢٥٦,٣٤٨	ايبوه
٥ ـ كيلانتون	٩,٤٢٥	١,١٢٣,٢٩٦	كوتابهرو
٦ ـ ترينغانو	١٢,٩٥٥	٦٩٤,١١٨	كوالا ترينغانو
٧ ـ باهانغ	٣٥,٩٦٥	٩٨٦,٤٢٤	كوانتان
٨ ـ سالانغور	٨,٢٠٠	١,٨٧٨,٥٢٤	شاه علام

٩ ــ نيغري سمبلان	٦,٦٤٣	٧٢١,٨٦٢	سرمبان
١٠ ــ مالاقا	١,٦٥٠	٥٨٠,٠٣٥	مالاقا
١١ ــ جوهور	١٨,٩٨٥	١,٣٥٨,٧٢٥	جوهور بحرو
العاصمة الاتحادية كوالالمبور	٢٤٤	١,٢٠٠,٤٨٠	كوالالمبور
المجموع	١٣١,٥٧٨	١٣,٦٩٤,٠٠٠	

٢ ــ في شمالي جزيرة بورنيو:

١٢ ــ صباح	٧٤,٣٩٨	١,٦٧٣,٠٠٠	كوتاكينابالو
١٣ ــ ساراواك	١٢٤,٤٤٩	١,٣٣٣,٠٠٠	كوتشينغ

ويبلغ طول سواحل البلاد ٤٨٣٠ كيلومتراً.

الصراع العنصري:

يتألف الشعب الماليزي من مجموعات متعددة، وأهمها:

الملايو	ويُشكّلون ٥٦ ٪	من مجموع السكان
الصينيون	ويُشكّلون ٣٢ ٪	من مجموع السكان
الهنود	ويُشكّلون ١٠ ٪	من مجموع السكان
مجموعات محلية	ويُشكّلون ٢ ٪	من مجموع السكان

وإن كانت هذه النسب تختلف قليلاً بين شطري البلاد.

ولما جاء الاستعمار الصليبي قرّب الصينيين، وشجّع هجرة الكثيرين منهم من الصين إلى ماليزيا، وسلّمهم بعض الأعمال، وأوكل إليهم بعض المناصب فتحسّنت أوضاعهم المعاشية فأخذت موجات منهم تفد إلى البلاد حتى ارتفعت نسبتهم إلى ما هي عليه الآن. كما نشّط المستعمرون الصليبيون تجارة الهنود، وساعدوهم على بناء المخازن والمستودعات، وذلك في سبيل زيادة أعدادهم حتى وصلت نسبتهم إلى هذا الرقم، وكل هذا في سبيل إضعاف نسبة المسلمين وإفقارهم، وعدم الحاجة إليهم. هذا بالإضافة إلى عمل الإرساليات التنصيرية.

وفي سبيل نجاح هذه المهمّة فقد نُظّم المستعمرون الصينيون والهنود ضمن تنظيمات وأحزاب كي يتمكّنوا من مساعدة بعضهم بعضاً، وحتى يتجه المسلمون نحوهم، ويُشاركوهم في بعض الأعمال فيسهل إفسادهم، وإبعادهم عن دينهم بعد أن عجزت الإرساليات التنصيرية على أن تقوم بدورها مادام المسلمون متمسكين بعقيدتهم. وهكذا يبدو الصراع عنصرياً غير أنه في الواقع عقيدياً.

أما اللغة فهي الملايوية رسمياً، مع وجود بعض الاختلاف بالنسبة إلى شطري الدولة. ففي شبه جزيرة الملايو تكون اللغة الملايوية هي الرسمية، ولكن تستعمل الإنكليزية على نطاقٍ واسعٍ. ولكن في شمالي جزيرة بورنيو تكون اللغة الرسمية هي الإنكليزية، واللغة الملايوية معروفة، ويتكلم بها عامة الشعب.

ويتكلم الصينيون اللغة الصينية غير أن اللهجات فيها كثيرة منها: الهوكيانية، الكنتونية، الهاكية، التوتشية، الهاينانية.

ويتكلّم الهنود لغاتٍ هندية كثيرة حسب المكان الذي قدموا منه، فهناك لغات: التاميلية، التلوجية، والأردو، والكوجراتية، والبنجابية، والهندستانية.

ويسعى المسلمون لتعلّم اللغة العربية، ولكن تقف أمامهم صعوبات منها: عدم وجود المعلمين، ومحاربة المستعمرين الصليبيين، وبقية العناصر من هنودٍ وصينيين إضافةً إلى العلمانيين من الملايويين إذ يدّعون أن اللغة العربية غير عالميةٍ، ولا فائدة من تعلّمها، وأن ارتباطها بالعقيدة أمر رجعي، كما أن الأمصار الإسلامية العربية لا تهتمّ بهذا، بل إن بعضها أخذ يتخلّى عن لغته ـ مع الأسف ـ.

الصراع العقيدي:

تتعدد الديانات في ماليزيا، وإن كان المسلمون يُشكّلون الأكثرية إلا أنها أكثرية نسبية، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى بقية الديانات، وغالباً ما ترتبط الديانات بعناصر السكان، فالملايويون غالباً مسلمون، والصينيون بوذيون، والهنود هنادك، وإن كان بعض الصينيين والهنود مسلمين غير أن نسبة المسلمين بينهم قليلة جداً، وكذلك فإن بعض الملايويين غير مسلمين سواء أكانوا بوذيين أم هنادك أم عبدة أرواح، وهم أهل الغابات.

تبلغ نسبة المسلمين في ماليزيا	٥٢ ٪	فيكون عددهم	٨,٦٨٤,٠٠٠
وتبلغ نسبة البوذيين في ماليزيا	٢٧ ٪	فيكون عددهم	٤,٣٢٢,٠٠٠
وتبلغ نسبة الهندوك في ماليزيا	٨ ٪	فيكون عددهم	١,٢٣١,٠٠٠
وتبلغ نسبة النصارى في ماليزيا	٨ ٪	فيكون عددهم	١,٢٣٠,٠٠٠
وتبلغ نسبة عبدة الأرواح في ماليزيا	٢ ٪	فيكون عددهم	١,٣٣٣,٠٠٠

١٦,٧٠٠,٠٠٠

ولكن هذه النسبة تختلف بين شطري ماليزيا إذ نلاحظ ارتفاع نسبة

المسلمين قليلاً في شبه جزيرة الملايو على حين ترتفع نسبة النصارى قليلاً في ولايتي صباح، وساراواك، ويكون الاختلاف كالآتي:

	نسبة المسلمين	نسبة البوذيين	نسبة الهندوس	نسبة النصارى	نسبة عبدة الأرواح
١ ــ جزيرة الملايو	٥٥ ٪	٣٠ ٪	١٠ ٪	٣ ٪	٢ ٪
٢ ــ ولاية صباح	٣٨ ٪	٧ ٪	٣ ٪	١٧ ٪	٣٥ ٪
٣ ــ ولاية ساراواك	٢٢ ٪	٢٤ ٪	٥ ٪	١٦ ٪	٣٣ ٪

إن مختلف أصحاب الديانات من غير المسلمين يعملون جهدهم ضدّ المسلمين، ويُخطّطون لذلك، ويتولّى النصارى وإرسالياتهم هذا الأمر من تخطيطٍ وتنفيذٍ، ويتخذون الآخرين مطيةً بالعمل لإفساد المسلمين، وتشكيكهم في عقيدتهم، وإبعادهم عن دينهم، ومزاحمتهم بالأعمال، وشحنهم بالأحقاد ضدّ الإسلام. وتمكّنوا من الحصول على بعض النجاح، نتيجة العمل الدائب، ومناهج التعليم التي تركّز الهجوم على المسلمين وعقيدتهم، واتخاذ المشافي، والحاجة إلى العمل، وإلى الدواء، وإلى التعليم، ونتيجة فقر المسلمين المدقع في كثير من الأحيان، واتخاذ الجنس والمخدرات... وهذه كلها وسائل لإفساد الشباب المسلم، إضافةً إلى الدعايات ضدّ الفئات والتنظيمات الإسلامية، وإشاعة الشائعات وافتراء الكذب عليها، وعلى كل من يُؤيّدها ويُناصرها.

هذا مع العلم أن الدستور ينصّ على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة. ولكن هذا لم يمنع من سيطرة الجاهلية حيث نرى انتشار الربا والفساد، حتى الأعياد تنتشر فيها جاهليات إذ إضافةً إلى الأعياد الإسلامية التي هي عيدا

الفطر والأضحى قد اتخذوا أعياداً كثيرةً منها عيد المولد النبوي تقليداً لعيد الميلاد عند النصارى. واتخذوا من يوم الاستقلال عيداً وطنياً، وهو (٣١ آب)، وكذلك عيد ميلاد الملك. وكذلك تحتفل البلاد مسايرةً للبوذيين برأس السنة القمرية حسب التقويم الصيني، وعيد كعكة القمر، وهو بمنتصف الشهر الثامن حسب التقويم الصيني، وعيد ويساك، ويكون في شهر أيار، وهو عيد بوذا إله البوذيين ـ حسب اعتقادهم ـ.

ويحتفلون مسايرةً للهندوس بعيد ديبا فالي، ويكون في الخريف، ويُسمّونها احتفالات النور، وهي بمناسبة انتصار الإله كريشنا إله الهندوس ـ حسب اعتقادهم ـ على ملك الجنّ. وبعيد تايبوسام، ويكون في آخر فصل الشتاء، وهو ذكرى للإله سوبرا مانيام حسب عقيدة الهندوس.

ويحتفلون مسايرةً للنصارى بعيد الميلاد، وعيد رأس السنة النصرانية (الأول من كانون الثاني).

ويحتفلون مسايرةً للوثنيين، جماعة (دياق) بعيد بداية موسم زراعة الأرز (جاواي باتو)، وعيد التخلّص من نذير السوء (جاواي بورونغ)، وعيد الحصاد (دواي برسيمبان)، وعيد ذكرى الموتى (جاواي أنتو)، وعيد البطولة (جاواي كينالانغ)، وعيد الأول من تموز.

ويحتفلون مسايرةً للوثنيين، جماعة (الكادزان) بعيد الحصاد.

وهناك عيد (تاموبسار) حيث تقوم المهرجانات، والاحتفالات، والألعاب.

وتعطل الدوائر بمناسبة أعياد ميلاد حكام الولايات.

الصراع الإقليمي:

لما كان هناك اختلاف في بناء السكان وعقيدتهم بين شطري ماليزيا، وخاصةً بالنسبة إلى زيادة أعداد الوثنيين في الجناح الشرقي الأمر الذي

يجعل مجال الإرساليات التنصيرية واسعاً، لهذا فإن المستعمرين الصليبيين يركزّون على هذا الجناح، وهذا ما جعل نسبة النصارى ترتفع فيه، على حين أن مجالها محدود في الجناح الغربي لارتفاع نسبة المسلمين.

ولما كانت نسبة النصارى تتزايد في شمالي جزيرة بورنيو لذلك يكون السعي كبيراً لتمتدّ يد العمران نحو تلك الجهات على نطاقٍ أوسع بحجة أن المناطق هناك لا تزال مُتخلّفةً، وبحاجةٍ إلى جهودٍ كبيرةٍ لإعمارها، وهذا بطبيعة الحال يقتضي تخصيص نفقاتٍ من الميزانية لإعمار شمالي جزيرة بورنيو.

وإن الأحـزاب القائمـة في الجناح الشـرقي والمؤسسات النصـرانيـة تُطالب بهذا، وتُثير حماسة السكان للمطالبة بذلك، وتكون هذه المطالب ضمن قائمة الدعايات الانتخابية، وهذا ما أدّى إلى وجود صراعٍ ضمني بين الشطرين، حتى وصلت المطالبة إلى نقل العاصمة الاتحادية ودوائر الدولة إلى القسم الشرقي مادام الأكبر مساحةً.

وأما أهل الجناح الغربي فيرون أن تجمّع السكان إنما هو في شبه جزيرة الملايو، والأصل أن تكون العاصمة في هذا الشطر، وإن انتقـالها يكلّف الكثير، والدولـة بحاجـةٍ إلى ضغط النفقات، وإنهم يـرون العمل الحثيث لإعمار شمالي بورنيو، ولكن ليس على حساب الجزء الآخر، وإنما يجب الإسهام في إعمار الشطرين على حدٍّ سواء، والبذل لرفع المستوى في أنحاء البلاد كـافةً، وأن التمييـز سيجعل نـزعةً إقليميـةً بين السكان، وسينشأ عنه صراع في المستقبل، والبلاد في غنىً عن ذلك.

ويرى المسلمون أن من أسباب التخلّف في الجناح الشرقي إنما يعود إلى العقائد الوثنية البدائية المنتشرة هناك، ومن الضروري العمل على رفع المستوى الفكري والعقيدي بنشر الأفكار والعقائد السماوية وتهيئة الإمكانات لأصحابها لبثّ الدعوة، ونشر الحضارة، وإذا كان هذا مهيأً للنصرانية فقط

بما تملك من إمكاناتٍ ضخمةٍ وطاقاتٍ هائلةٍ، ولكن المسلمين لم يُهيّأ لهم شيء إذ ليس لديهم الإمكانات المادية ولا الوسائل الكفيلة بالحركة بل توضع في وجههم العراقيل، ويُحال بينهم وبين دخول هذا المجال، وبذا تبقى طاقاتهم مُعطّلةً، وإمكاناتهم مُبدّدةً، وحيويتهم مهدورةً. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن رجال النصرانية والإرساليات التنصيرية لم تستطع النجاح في مسعاها إلا بمستوى قليلٍ لعدم انسجام ما يدعون إليه مع الفطرة البشرية، وإذا لم تنجح لأي سببٍ من الأسباب فليفسح المجال أمام رجال الإسلام والحركات الإسلامية، وليسلك كل طريقه، وليُدلي كل بدلوه إن كان كلا الجانبين يعمل على رفع مستوى السكان الفكري والعقيدي، أو ليتعاون الجميع للوصول إلى هذا الهدف. ولكن المسؤولين يجيبون على هذا أننا لا نريد قيام صراعٍ عقيديٍ في مجال العمل، ومعنى هذا العمل على فسح المجال أمام طرفٍ واحدٍ، وهو رجال النصرانية والإرساليات التنصيرية، وإقفال الباب أمام رجال الإسلام والحركات الإسلامية، وهذا الواقع القائم، وهو ما يُسبّب الصراع العقيدي نتيجة التمييز الصارخ، والصراع الإقليمي نتيجة التفرقة الواضحة. وسيبقى الوضع ثابتاً لا يتزحزح فالسكان يرفضون النصرانية لارتباطها بالاستعمار الصليبي، وعلاقاتها بالأجانب فالإرساليات التنصيرية جميع رجالها من الغرباء، إضافةً إلى عدم انسجام النصرانية المحرّفة مع الفطرة البشرية، فما دامت تقوم على عبادة أحد المخلوقات فإنها تبقى على مستوى الوثنيات، وما فيها من فلسفةٍ، وجمع ثلاثةٍ في واحدٍ فيصعب على المرء العالم حلّ ذلك اللغز فكيف برجل الغابة البدائي، كما أن الرهبانية لا تتفق والنفس الإنسانية، ويلاحظ البدائيون ما يجري بالخفاء وراء تلك الطهارة المدعاة. وإذا كانت النصرانية قد عجزت عن دورها أفلا يسمح للمسلمين أن يُؤدّوا دورهم، دون أن يغلق الباب أمام النصرانية؟ الجواب: لا. لأنه لو فُسح المجال أمام المسلمين لتقدّم الإسلام وانتشر، وتوقّف المدّ النصراني نهائياً وهذا ما لا يريده المستعمرون الصليبيون، ولا ممثّلوهم من أصحاب السلطة، ولا الإرساليات التنصيرية،

ولا اتحاد الكنائس العالمي، ولا الملحدون، ولا العلمانيون، ولا أصحاب الأهواء والشهوات. ومعنى ذلك فسح المجال لعمل النصرانية فقط، وسدّ الباب بإحكام أمام المسلمين، وإيجاد الصراع العقيدي والإقليمي، والإبقاء على التخلّف رغم الادّعاء بالعمل على إزالته وإعمار الأرض.

الصراع الحزبي:

رغم ظهور التنظيم المبكر في ماليزيا إلا أنه لم يكن ذلك التنظيم العقيدي الواضح، وإنما كان تجمعاً يهدف ظاهراً إلى مقاومة الاستعمار، وفي الوقت نفسه يعمل للزعامة واستلام السلطة، أو لمدّ نفوذ وسيطرة جماعته العنصرية التي ينتمي إليها. وكان أهم هذه التنظيمات:

١ ــ الحزب الوطني الملاوي الذي قام إثر إلغاء الخلافة، وضمّ بعض الأمراء والمتعلّمين، وأخذ يُطالب بالاستقلال، ولكن لم تكن له تلك القواعد القوية التي يستطيع أن يتحرّك بها بشكلٍ واضحٍ بسبب فكرته الهشة التي لا تقومِ على عقيدةٍ، وبسبب عدم إدراك الشعب لأهمية التنظيم، ولفقر السكان الذي يجعلهم مشغولين بتأمين أسباب حياتهم المعاشية.

٢ ــ اللجنة الثورية الملاوية، وتأسّست عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م)، ورغم أنها تحمل اسم «الملاوية» إلا أن معظم أعضائها من الصينيين، ولكنها لم تلبث أن انقسمت على نفسها للاختلاف الذي وقع في الصين عام ١٣٤٦ هـ، لأن أوضاع الصين ظلّت تنعكس على الصينيين الذين يعيشون خارجها، ومنهم الذين يعيشون في الملايو.

٣ ــ تأسس الحزب الشيوعي في سنغافورة عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م)، وامتدّ نفوذه إلى الملايو، وكان أكثر أعضائه من الصينيين، وأخذ أمينه العام (لاي تك) يدعو إلى تشكيل جبهةٍ ضدّ الاستعمار، كي يستفيد من العناصر

الأخرى غير الشيوعية، وربما يُؤثّر عليها، ولينفتح على الجماعات الثانية غير الصينية ليبتعد عن الفكرة العنصرية، ويتمكّن من التغلغل في أوساطها، غير أنه لم ينجح وبقي حزباً صينياً. وقد شكّل جبهةً مُعادية لليابان أثناء الاحتلال الياباني. كما أنشأ جيش الشعب المعادي للمستعمر الجديد. وقد تعاون مع بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ما دامت روسيا وبريطانيا حليفتين. وبعد الحرب حلّ جيش الشعب نفسه، وأخذ كل فردٍ من أعضائه مكافأةً.

ثم شكّل الأمين العام (لاي تك) جمعية الرفاق المقاتلين السابقين، وهي وإن كانت تحمل اسماً يدلّ على الخط الشيوعي إلا أن الاتجاه العام كان يسير في فلك الرأسمالية بل السياسة الإنكليزية بالذات. وبعد مدةٍ نُحّي (لاي تك) عن منصبه الحزبي، ثم زال من الوجود بظروفٍ غامضةٍ حسب الطريقة الشيوعية المعروفة. وتسلّم الأمانة العامة للحزب (تشن بينغ) فادعى أن الأمين العام السابق للحزب الشيوعي (لاي تك) عميل بريطاني، زُرع في الحزب الشيوعي، وهذه طريقة شيوعية، كل زعيمٍ جديد يدّعي أن سلفه كان يمينياً، وهذا ما أدّى إلى تنحيته.

شكل الحزب الشيوعي «جيش الشعب» من جديد، وأعلن أنه يُعادي الاستعمار، ويُحارب بريطانيا، ثم عاد فغيّر الاسم إلى «جيش التحرير للشعوب الملاوية» عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)، وانتقل يُقاتل في الغابة، وبدأت الاغتيالات، وكانت تدعمه منظمة «حركة الشعب».

٤ ــ المنظمة الوطنية الملاوية، وتشكّلت برئاسة داتو «عون بن جعفر» عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م)، وكان قد برز بعد الحرب العالمية الثانية كزعيمٍ بين الملايويين، وتأسّست فروع لهذه المنظمة في كثيرٍ من المناطق، ومعظم عناصرها من شعب الملايو، وتسلّم زعامتها في ٢٤ ذي القعدة ١٣٧٠ هـ (٢٦ آب ١٩٥١ م) «تانكو عبدالرحمن» بعد داتو «عون بن جعفر» الذي ترك المنظمة، وانفصل عنها.

٥ ــ حزب استقلال الملايو، وأسّسه داتو «عون بن جعفر» عام ١٣٧١ هـ بعد أن انفصل عن المنظمة الوطنية الملاوية، وأراد أن ينفتح على بقية المجموعات التي يتألف منها الشعب الملايوي.

٦ ــ جمعية الصينيين الملاوية، وتضمّ العناصر الصينية التي تُخالف الشيوعية. وكانت مهمة الجمعية الصينية الملاوية الحفاظ على الانسجام العرقي أثناء التعايش مع المجموعات العرقية الأخرى، وشعرت أن وجودها داخل الحكومة سيُؤمّن لها بعض متطلبات المجموعة الصينية، كما تظهر بمظهر المدافع عن حقوق الصينيين، وحرصت على كسب تأييد المؤسّسات الصينية مثل اتحاد التجار وغيرها... نجح في انتخابات ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)كرئيسٍ للجمعية (ليم تشونغ) ضدّ منافسة (تان تشونغ لوك)، وأكّد (ليم تشونغ) لتانكو عبدالرحمن أن استمرار التعاون سيبقى مع حزب التحالف.

٧ ــ حزب المؤتمر الهندي ـ الملاوي: وأكثر أعضائه من أصلٍ هندي، ويحمل الاسم نفسه الذي يحمله الحزب الحاكم في الهند.

٨ ــ حزب الشعب التقدّمي، وجميع أعضائه من الهنود والصينيين غير المسلمين أي أن الحزب يحمل عدواةً للإسلام وإن لم يُعلن ذلك.

وهكذا فإن الأحزاب تحمل أكثريتها الصفة العنصرية، وخاصةً الصينية منها. وإن كانت العنصرية مرتبطةً بالعقيدة لذا نلاحظ أنها تحمل الفكرة عقيدةً وإن لم تُعلن ذلك، كما أن الهندية تحمل الهندوسية وإن لم تُظهر، وهذا ما تُغذّيه الصليبية، وأما الملايويين الذين يفترض أنهم يحملون العقيدة الإسلامية فإننا نلاحظ أنهم يبتعدون عنها، وهذا ما أنشأهم عليه المستعمرون النصارى، فهم يُعلنون إبعاد الإسلام ومنهجه عن الحياة تحت شعار الوطنية الملايوية.

ولما أراد داتو «عون بن جعفر» الانفتاح على الهنود والصينيين إشارةً إلى البعد عن الجانب العقيدي، وأسّس حزب استقلال الملايو عام ١٣٧٠ هـ، عندها أسرع منافسه تانكو عبدالرحمن، وأعلن عن قيام تحالفٍ بين الأحزاب الملاوية، والصينية، والهندية.

٩ ـ حزب التحالف: وتألف من اندماج المنظمة الوطنية الملاوية المتحدة، وجمعية الصينيين الملاوية، وحزب المؤتمر الهندي الملاوي، أي ضمّ المجموعات العنصرية الثلاث التي يتكوّن منها الشعب الملايوي وهي: الملايوية، والصينية، والهندية، وهذا يدلّ على أن التحالف لم يقم على أي مبدأ أو فكرةٍ سوى استلام السلطة واقتسامها فيما بينهم، ولو كان هناك أي معنى لعقيدة الشعب لما أقبل على التحالف البوذيون والهندوس، وقد وجدناهم يُلبّون أول نداءٍ يُوجّهه إليهم تانكو عبدالرحمن الذي كان أمير ولاية قدح فيما سبق، حيث يعرفون اتجاه المنظمة الوطنية الملاوية ورئيسها تانكو عبدالرحمن.

١٠ ـ الحزب الإسلامي: وكان برئاسة برهان الدين الحلمي، وكان يلقى مقاومةً عنيفةً من حزب التحالف أو بالأحرى من الطوائف كلها، ومن العلمانيين الذين ينتمون إلى الإسلام.

كما أن المشروعات التي يتقدّم بها كانت تُجهض من قبل الحكومة المركزية، وكان قد نجح هذا الحزب في ولايتي «كيلانتون» و«ترينغّانو»، وتسلّم حكومتيهما، ولكن لم يستطع تطبيق برنامجه لموقف الحكومة الاتحادية منه.

١١ ـ الجبهة الوطنية: وتشكّلت عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) حيث شملت حزب التحالف والأحزاب المعارضة في سبيل البقاء بالحكم وإعطاء المعارضة نصيبها. فالمعارضة لم تكن إذن سوى جماعات مصالح دون أن

يكون لهم مبدأ يعملون له أو فكر ينادون به، فلما أعطوا شيئاً من السلطة إذا بهم يخضعون ويُؤيِّدون ما كانوا بالأمس يُخالفونه وينتقدونه.

وتضمّ هذه الجبهة أربعة عشر حزباً سياسياً تهيمن عليه المنظمة الوطنية الملاوية المتحدة، وجمعية الصينيين الملاوية، وحزب المؤتمر الهندي ـ الملاوي، وجيركان راكيات ماليزيا.

وأما المعارضة فتتمثّل بالحزب الإسلامي الماليزي، ويُعدّ ضعيفاً لأن جميع الأحزاب، والتنظيمات، والديانات غير الإسلام تقف في وجهه مع العلمانيين وأصحاب المصالح من المسلمين. إضافةً إلى الحكومة الاتحادية التي تجهض كل مشروعاته ـ كما ذكرنا ـ ليظهر ضعفه أمام الناخبين فيصوتون ضدّه.

وهناك حزب العمل الديمقراطي أيضاً، ويعمل أيضاً ضدّ الحزب الإسلامي لاختلافه معه في المنهج والوسائل.

والحكم منذ عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) أي من قبل الاستقلال بيد حزب التحالف الذي يرأسه تانكو عبدالرحمن، وهو الذي يتولّى رئاسة الوزارة، ولكن حدثت بعض الاضطرابات الداخلية عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م)، وعرفت بأحداث (١٣ أيار) فأعلنت الحكومة حالة الطوارىء. وتنازل بعدها تانكو عبدالرحمن بوترا عن رئاسة الوزارة إلى تون عبدالرزاق الذي يعدّ ثاني رئيسٍ للوزراء.

وخلفت الجبهة الوطنية في الحكم حزب التحالف، وقد تشكّلت في ٦ شعبان ١٣٩٤ هـ (٢٤ آب ١٩٧٤ م)، وهي ليست سوى تتمةٍ له، ومن صياغته. واستمرّت الجبهة بالحكم إلى الآن. ولكن كان قد توفي رئيس الوزراء تون عبدالرزاق في ١٣ محرم ١٣٩٦ هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٧٦ م)، وخلفه داتوك حسين عون. وأحيل إلى المعاش، فتقلّد منصب

رئاسة الوزراء داتوك سري د. محاذير محمد في ١٥ رمضان ١٤٠١ هـ (١٦ تموز ١٩٨١ م).

وهذا يعني أنه لا توجد منافسات أو صراعات حزبية بالمعنى الصحيح الذي يوجد في البلدان التي تُسمّي نفسها بالديمقراطية، فالمعارضة غير موجودة، وإن وجدت فلمصلحة، فإذا ما أحسّت السلطة بشأن المعارضة أرضت قادتها ببعض المنافع، وضمّتهم إلى التحالف، وانتهى الأمر، ولهذا وجدنا أن التحالف يشمل أربعة عشر حزباً سياسياً يحكمون البلاد. أما المعارضة المتمثّلة بالحزب الإسلامي فالجميع يُوجّهون سهامهم إليه، وإذا حصل على نجاحٍ في بعض الولايات أحبطت الحكومة المركزية مشروعاته فكأنه لم يكن. ومعارضة حزب العمل الديمقراطي ضعيفة لأنه ليس له قاعدة عريضة بين أفراد الشعب.

هذا في شبه جزيرة الملايو، ولا يختلف الوضع عنه في شمالي جزيرة بورنيو حيث يحكم تحالف جبهة ساراواك الوطني الذي يتألف من أربعة أحزاب وهي:

١ ــ حزب بيساكا وبوميباترا بيرساتو ساراواك.

٢ ــ حزب ساراواك الاتحادي الشعبي.

٣ ــ حزب ساراواك الوطني.

٤ ــ بانسا ساراواك.

وليس للمعارضة وزن كبير لضعف نسبة المسلمين هناك، وتركهم شؤون السياسة والتنظيم نتيجة الفقر، والضغط. ويوجد في ولاية صباح حزب صباح الاتحادي (P.B.S) والمنظمة الوطنية لاتحاد صباح وحزب بيرجايا.

ميادين الصراع:

لما كانت أكثر الأحزاب تقوم على أسسٍ عنصريةٍ، وكذلك ترتبط العقيدة بالعنصرية لذا فإن الصراعات تبدو في كل الميادين عقيديةً، عنصريةً، حزبيةً، ولعل أبرز هذه الميادين:

١ ـ اللغة:

عند إعلان دستور (١٩٥٧ م) تقرّر أن تكون اللغة الملايوية هي الرسمية الوحيدة بعد عشر سنوات، ويجب على الولايات التي تنضمّ للاتحاد أن تُنفّذ هذا الشرط بعد عشر سنواتٍ من دخولها الاتحاد.

وفعلاً، فإن ولاية صباح قد جعلت اللغة الملايوية اللغة الرسمية، وذلك في شعبان ١٣٩٣ هـ (أيلول ١٩٧٣ م)، وتُدعى الآن اللغة الماليزية (باهاسا ماليزيا) أو اللغة الوطنية (باهاسا كيبانجاسان).

وقررت ولاية ساراواك في صفر ١٣٩٤ هـ (آذار ١٩٧٤ م) استخدام اللغتين الماليزية والإنكليزية رسمياً حتى عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) حيث أصبحت بعدها اللغة الماليزية هي الرسمية فقط.

أما في شبه جزيرة الملايو فقد غدت اللغة الملايوية هي الرسمية في ٢٢ ذي القعدة ١٣٨٦ هـ (٣ آذار ١٩٦٧ م)، وبعد مشاغبات ٢٦ صفر ١٣٨٩ هـ (١٣ آيار ١٩٦٩ م) فقد أصبح استخدام اللغة الملايوية واسع الانتشار في شؤون الدولة، والمحاكم، والمجلس النيابي.

وفي الوقت نفسه كان يسمح بتعليم لغات أخرى، ولكن عدّت العناصر غير الملايوية هذا القرار بأنه لا يهدف سوى إذابة غير الملايويين في المجتمع.

٢ ـ التعليم:

سيطرت الحكومة عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) على المدارس كلها، وهذا

ما أثار الصينيين، وأحسّوا أن القصد هو التخلّص من أثرهم بإذابة أبنائهم في مجتمعهم الذي يحيون معه، فعمل بعض زعماء العناصر الصينية على إعادة تشكيل حزب العمل الديمقراطي (D.A.P) الذي كان في سنغافورة، وذلك عندما رأوا عدم ارتياح المجتمع الصيني من حزب الجمعية الصينية الملايوية (M.C.A)التي هي أحد أركان التحالف (U.M.N.O) الحزب الحاكم، وهي بالتالي أحد أركان الحكومة، وإعلان تشكيله رسمياً ليتمكّن من دخول الانتخابات في سبيل إنهاء الميزات التي حصل عليها الملايويون، وإيجاد مساواةٍ حقيقيةٍ في التعليم في المنهج حيث تصبح اللغات الملايوية، والصينية، والهندية، والإنكليزية رسميةً، وفي مستوىً واحد.

ووافق حزب الشعب التقدّمي (P.P.P) القوي في عاصمة ولاية بيرق مدينة (ايبوه) حزب العمل الديمقراطي وعملا معاً حسب خطٍ واحدٍ. وكانت الانتخابات عام (١٩٦٩ م) عامل إظهار قوةٍ للمجموعات العرقية، ولمصلحتها حيث تراجع حزب التحالف عما كان عليه سابقاً حيث حصل على ٦٦ مقعداً فقط، ونال ٤٨,٥ ٪ من مجموع الأصوات، على حين كان قد حصل في الانتخابات السابقة على ٨٩ مقعداً، ونال ٥٨,٤ ٪ من مجموع الأصوات، وحصل حزبا حركة الشعب الماليزية (جيراجان راكايات ماليزيا) والشعب التقدمي على ٢٥ مقعداً، وحصل الحزب الإسلامي (P.A.S) على ١٢ مقعداً وبذا حُرم حزب التحالف من الحصول على الأغلبية وهي ثلثا الأعضاء، ولم يعد بإمكانه إجراء تعديلاتٍ دستوريةٍ دون موافقة أعضاء آخرين في المجلس.

وفي ٢٦ صفر ١٣٨٩ هـ (١٣ أيار ١٩٦٩ م) نزل مُؤيّدو الأحزاب إلى الشوارع، وحصلت أعمال شغب، ووقعت صدامات، واشتباكات عنيفة، وأعلنت حالة الطوارىء. وبناءً على المادة ١٥٠ من الدستور أُعطيت جميع الصلاحيات لمجلس العمليات الذي يرأسه نائب رئيس مجلس الوزراء تون

عبدالرزاق، واستطاع المجلس بعد أربعة أيامٍ من الأعمال الدامية من السيطرة على الوضع الأمني في المدينة، وإن استمرت المشاغبات شهرين، وهددت الحكومة باتخاذ الإجراءات الصارمة بحقّ المجموعات الملايوية المسلحة التي أخذت تُطالب باستقالة تانكو عبدالرحمن. وأعلنت القيادات الملايوية في حزب التحالف أن أعمال الملايويين لم تكن سوى ردّ فعلٍ لتصرفات المعارضة التي وصفتها بالطيش.

وفي جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ (تموز ١٩٦٩ م) أعلنت إدارة التحالف الوطني عن طرح صيغةٍ جديدةٍ للفكرة الوطنية لدمج مختلف المجموعات العرقية في بوتقة الوطنية الماليزية.

وفي ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٩٠ هـ (٣١ آب ١٩٧٠ م)، وهو يوم الاستقلال الوطني أعلنت الفكرة الوطنية الجديدة تحت شعار بنود الإيمان للولاء (روكان إيجارا)، وكان قد تشكل المجلس الاستشاري الوطني (N.C.C) منذ شهر ذي القعدة ١٣٨٩ هـ (كانون الثاني ١٩٧٠ م) لإيجاد خطوط عريضة للتعاون العرقي، وقد ضمّ هذا المجلس ممثلين عن الحكومة الماليزية، وحكومة الولاية، والأحزاب، والعلماء، والمدرسين، واتحاد التجار، والحرفيين، والصحافة، والمؤسسات، والأقليات.

٣ ـ الاقتصاد:

كان المستعمرون الصليبيون قد وجّهوا الملايويين نحو إنتاج الغذاء بالعمل الزراعي، والصينيين نحو العمل باستخراج القصدير وصناعته، والهنود نحو العمل بإنتاج المطاط وصناعته، وتحسّنت أوضاع الذين يعملون بالصناعة، ويسكنون المدن على حين لم تتحسّن أوضاع الملايويين الذي يُشكّلون أكثرية أهل الريف، فقررت الحكومة تحسين أوضاع الريف، ووضعت خطةً لمدة عشرين عاماً، وتبدأ من عام ١٣٩١ ـ ١٤١٠ هـ (١٩٧١ ـ ١٩٩٠ م) فعدّت العناصر غير الملايويين أن الموضوع عرقي بشكلٍ غير مباشرٍ. وضاقت أوضاع أهل الريف، فأقبلوا نحو المدن، وأخذوا يحتلّون البيوت والعقارات

عنوةً، ووصل عدد هؤلاء القادمين عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) إلى مائةٍ وثلاثة وخمسين ألفـاً يحتلّون أملاكاً وذلك في مدينة كوالالمبور وحدها، ونحا نحو أهل الريف الكثير من الصينيين والهنود، وكانت النسبة تتوزّع في العاصمة بين المحتلّين كالآتي: ٤٥ ٪ من الصينيين، و٤١ ٪ من الملايويين، و ٤ ٪ من الهنود، و ١٠ ٪ مختلطون، وعملت الحكومة على طرد المحتلين، ثم اتجهت النية نحو توطينهم بدفع مبالغ رمزية غير أن هؤلاء القادمين من الريف يصعب عليهم دفع أي مبلغٍ مهما كان ضئيلاً، ورفضت الحكومة إعطاء رخص احتلالٍ موقتةٍ خوفاً من أن يُشجّع ذلك الآخرين على القيام بأعمال احتلال جديدة.

٤ ـ الـوظائـف:

كان من أهداف السياسة الاقتصادية الجديدة (N.E.P) توزيع الوظائف بين المجموعات السكانية حسب نسبهم المئوية العامة والتي كانت عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) كالآتي:

الملايويون	٪ ٥٣,٢
الصينيون	٪ ٣٥,٣
الهنود	٪ ١٠,٧
آخرون	٪ ٠,٨

غير أن المجموعة الصينية قد رفضت هذه النسبة، وعدّت الحكومة منحازةً للملايويين، وتعمل ضد المجموعات الصينية خاصةً.

٤ ـ رأس المــال:

كانت نسبة رأس المال المساهم في القطاعين التجاري والصناعي موزّعـةً بين المجموعات السكانية عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م) كالآتي:

الملايويون	٣٠ ٪
الصينيون	٤٠ ٪
أجانب	٣٠ ٪

ولما كانت نسبة الملايويين ضعيفةً مقارنةً بنسبتهم العددية لذا عملت على إقامة مؤسساتٍ عامةٍ لمساهمة الملايويين، ولكن التنفيذ لم يكن جيداً إذ كثيراً ما كانت تُحجز الأسهم باسمهم من قبل الأجانب، وقام الصينيون بردّ فعلٍ، وأنشأوا مؤسّسات أضخم من مؤسّسات الحكومة، وانتقدوا الدولة وعدّوها متحيزةً لصالح الملايويين، وكذلك قام الهنود بإنشاء مؤسّسات فاقت الصينية أيضاً.

ويرى الصينيون أن اتجاه الحكومة لإنعاش الملايويين لن يكون إلا على حسابهم وخاصةً أن الحكومة لا ترغب في إنقاص مساهمة المؤسسات الأجنبية، ولكن الحكومة تُعلن أنها ترغب في أن يحصل الملايويون على ٣١ ٪، ولن يكون ذلك إلا على حساب المؤسّسات الأجنبية.

٥ ـ الأرض الحكومية:

يُطالب الصينيون بامتلاك بعض أراضي الدولة، ولكن الحكومة ترفض ذلك، وتُعلن أنها لا تريد أن تثير مشكلة امتلاك الأرض. فالذين يعملون بالأرض، ويشتغلون بإنتاج الغذاء، وهم فقراء، ويعيشون في الريف لا تُعطيهم

الدولة الأرض المشاع، فكيف تقدّمها لمن لا يعمل فيها، ويعمل في غير عمل الفلاحة، ويعيش في المدينة، وحالته المادية أفضل حالًا إن لم نقل جيدة؟ ثم تُعطيهم الأرض بناءً على طلبهم، فهذا أمر غير مقبول، ولا هو بالعدل، ثم إن الذي لا يجيد الفلاحة سيهمل الأرض إن امتلكها وخاصة إن كان الامتلاك من غير تعب.

٦ ـ الأمـــن:

إن أكثر الذي يعملون في قوى الأمن هم من الملايويين. وأخذ الصينيون يُطالبون بتجنيدهم في قوى الأمن، ولكن الحكومة لا تستمع لهذا الطلب لأنها لا تريد هيمنة غير الملايويين على قوات الأمن إذ تفقد قبضتها بذلك على العنصر الملايوي القوي.

٧ ـ الجامعات والمعاهد الفنية:

يُطالب الصينيون بالحصول على نسبةٍ في الجامعات والمعاهد الفنية تتناسب مع نسبتهم العددية في البلد، ولم يرضهم أبداً ما يحصلون عليه ويعدّونه قليلاً جداً، ولكن الحكومة ترى أن نجاح سياستها الاقتصادية إنما يعتمد على دخول الملايويين في المعاهد العليا وخاصةً الفنية منها.

ولم يُشارك الهنود في هذا الصراع الذي يدور تقريباً بين المجموعتين الرئيسيتين: الملايوية والصينية وذلك نتيجة قلّة أعداد الهنود، لذلك كانت أصوات قادتهم في حزب المؤتمر الهندي مسموعةً بل دخلوا كوسطاء بين المجموعتين الآخرين. ولكن في السياسة الاقتصادية الجديدة كانوا يريـدون لفت نظر الحكومة إلى ارتفاع نسبة البطالة بين الهنود والتي تفوق أية نسبةٍ بين المجموعات العرقية الأخرى. وكذلك فإن هجرة القرويين إلى المدن سيشكل ضغطاً على الموارد، وسيصيبهم خسارةً أكثر من غيرهم.

٨ ـ السلـطـة:

يدّعي الصينيون أن دستور ماليزيا قد احتفظ للمجموعة الملايوية بأحقية

المواطنة، واحتفظ كذلك بنسبة تمثيل أكبر للقرويين في الانتخابات، وأكثر القرويين من الملايويين.

بعد الانتخابات التي جرت في شهر صفر ١٣٨٩ هـ (أيار ١٩٦٩ م) ذكر وزير الداخلية تون إسماعيل أنه من الأفضل حلّ حزب التحالف إن بقيت الجمعية الصينية الملاوية وحزب المؤتمر الهندي اللذان هما عضوان رئيسيان في حزب التحالف كما هما عليه الآن ليسوا هم من الأحياء فيستفاد منهم، وليسوا من الأموات فينتهى منهم. ورداً من المجموعة الصينية على هذا التحذير تشكّلت حركة الوحدة الصينية بجهود (تون تان سوسين) وبعض الضباط من العناصر الصينية.

وعدّت الحكومة والجمعية الصينية الملاوية أن هذه الحركة خطيرة مادامت لم تُسجّل وقد أُلقي القبض على عضويين من مؤسسيها بتهمة إثارة الفتن، ولكن بعض زعماء هذه الحركة قرروا الانتساب إلى الجمعية الصينية، والعمل من داخلها فيزيد ذلك من نشاطها ومن مكانتها، ويكون عملهم بصفةٍ قانونيةٍ.

وجرت معركة بين الطرفين داخل الجمعية نفسها للسيطرة عليها بين الأعضاء القدامى والأعضاء الجدد، وانتصرت القيادة القديمة، ولكن نجح (تون تان سوسين) في تسلّم الزعامة. وقد أضعف القتال الجمعية.

وسّع تون عبدالرزاق حزب التحالف بضم بعض العناصر المعارضة إليه وبعض الشباب وتأسست الجبهة الوطنية التي تضمّ أربعة عشر حزباً بما فيها الحزب الإسلامي.

ولكن أخبر تون عبدالرزاق الجمعية الصينية الملاوية أنها لم تعد الجهة الوحيدة التي تمثّل المجموعة الصينية وتتكلم باسمها.

وأصبح حزب المؤتمر الهندي أكثر طواعيةً للجبهة الوطنية وخاصةً عندما تدخّل تون عبدالرزاق، وحلّ قيادته، وأعلن تقاعد زعيمه (سامبان ثان)، وتسلّم

نائبه (مانيكا ڤاساجام) الزعامة الجديدة في جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ (حزيران ١٩٧٣ م).

وفي الانتخابات التي جرت في شهر رجب ١٣٩٤ هـ (آب ١٩٧٤ م) أضيفت عشرة مقاعد لولايات شبه جزيرة الملايو فغدت ١١٤ مقعداً، حصلت الجبهة الوطنية على ١٠٤ مقاعد منها نال حزب التحالف منها على ٦٢ مقعداً، وكان حزب العمل الديمقراطي هو المعارض. وبدأ العمل لإيجاد وحدةٍ وطنيةٍ ماليزيةٍ.

وفي ٢١ ذي الحجة ١٣٩٣ هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٧٦ م) مات تون عبدالرزاق رئيس الوزراء، وخلفه في منصبه داتوك حسين بن عون (ابن مؤسس حزب التحالف عون بن جعفر)، وبدأت المجابهات مع رؤساء وزراء الولايات ومنهم: داتوك هارون إدريس رئيس وزراء ولاية سالانغور الذي اتهم بالفساد، وطُرد من حزب التحالف، وسُجن، وخرج من السجن، وله قوته في الولاية، وداخل السلطة، حتى نجح عضواً في المجلس الأعلى لحزب التحالف.

ورئيس وزراء ولاية صباح تون مصطفى الذي نصّبته حكومة كوالالمبور، وقد وجد أنه من الواجب عليه مساعدة الحركة الإسلامية في جنوبي الفيليبين، فأشاعت الحكومة المركزية أنه يريد الانفصال عن ماليزيا وتشكيل دولة تضمّ صباح، ومقاطعات جنوبي الفيليبين وهي: ميندناو، وصولو، وبالاوان، وادعاء الانفصال لإيجاد نقمة ضده، وأظهرت الحكومة المركزية أن إمكانات تون مصطفى ضخمة لما تملكه الولاية من ثروات خشبيةٍ ضخمةٍ. ونتيجة عزمه على مساعدة الحركة الإسلامية أثار أحقاد الصليبية فقامت تعمل ضدّه، وتشيع الشائعات، وتدعو لقتاله، وطرده، والتخلّص منه.

عيّن رئيس وزراه الحكومة المركزية تون عبدالرزاق رئيساً لشرطة ولاية

صباح من قبله، كما عيّن رئيساً للقوات المسلحة في سبيل الاستعداد للإطاحة برئيس وزراء صباح تون مصطفى، وأيّدت الحكومة المركزية الحزب المعارض في ولاية صباح، وهو حزب (بيرجايا)، وضمّته إلى الجبهة الوطنية وذلك عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م). واستقال تون مصطفى من منصبه كرئيسٍ للوزراء، لكنه بقي مسيطراً على سياسة ولاية صباح كقائد لمنظمة صباح المتحدة الوطنية.

وفي انتخابات ربيع الثاني ١٣٩٤ هـ (نيسان ١٩٧٦ م) فاز حزب (بيرجايا) المعارض لحزب تون مصطفى ففقد تون مصطفى سلطته.

تولّى رئاسة وزراء ولاية صباح تون محمد فؤاد، وكان يُسمّى قبل أن يُسلم (دونالد ستيفنز) لكنه قتل مع عددٍ من أعضاء حكومته في حادث طائرةٍ. وعيّن رئيساً للوزراء مكانه داتوك حارث صالح.

كانت جماعة (كادازان) في صباح، وجماعة (أبان) في ساراواك تنظران في بداية الأمر إلى البعد عن العاصمة المركزية كوالالمبور نظرةً إيجابيةً وذلك لأن تطور شبه جزيرة الملايو كان يفوق كثيراً تطور شمالي جزيرة بورنيو (صباح، ساراواك، بروناي)، ومع أن الوضع في التطور لم يتغير إلا أن النظرة قد تغيّرت، وأصبح البعد يشكل حجر عثرة، وذلك نتيجة الدعاية والسياسة التي تسير عليها الشخصيات ذات النفوذ هناك، وهي التي كانت أيام الاستعمار الإنكليزي، ولم تتبدّل، وبقي لها نفوذها، ولها مكانتها، وتريد التفرقة، وإيجاد الخلاف.

وفي انتخابات جمادى الأولى ١٤٠١ هـ (آذار ١٩٨١ م)التي جرت في صباح قاد رئيس الوزراء حارث صالح حزبه (بيرجايا) في تلك الانتخابات وفاز فيها فوزاً ساحقاً حيث حصل على ٦٠٪ من مجموع الأصوات، وحصل على ٤٧ مقعداً من مجلس الولاية البالغ ٥١ مقعداً أي خسر أربعة مقاعد فقط، وإن هذا الحزب متعدد العرقيات.

وفي ولاية ساراواك بقي داتوك باتنجي ثان سري عبدالرحمن يعقوب عشر سنوات في رئاسة وزراء الولاية، وكان من قبل وزيراً للتعليم، وقد ضعف جسمه، فتقاعد بسبب تردّي أوضاعه الصحية، وخلفه ابن أخيه داتوك عمار الطيب محمد الذي كان وزيراً اتحادياً في كوالالمبور.

وكان رئيس الوزراء السابق في ساراواك قد عيّن ديبرتوان حاكماً على ولاية ساراواك دون أخذ موافقة الحكومة الاتحادية.

وفي الانتخابات التي جرت في شعبان ١٣٩٨ هـ (تموز ١٩٧٨ م) حصلت الجبهة الوطنية في ولايات شبه جزيرة الملايو على ١٣١ مقعداً من أصل ١٥٤ مقعداً. وكان الحزب الإسلامي قد انسحب من الجبهة منذ عام تقريباً. وفي ولاية كيلانتون مركز قوة الحزب الإسلامي نجح منافسه حزب (بيرجاسا) الذي هو عضو في الجبهة الوطنية[1].

---

(١) A history of Malaysia ' Barbara Waston Andaya and Leonardy. Andaya. 1991.

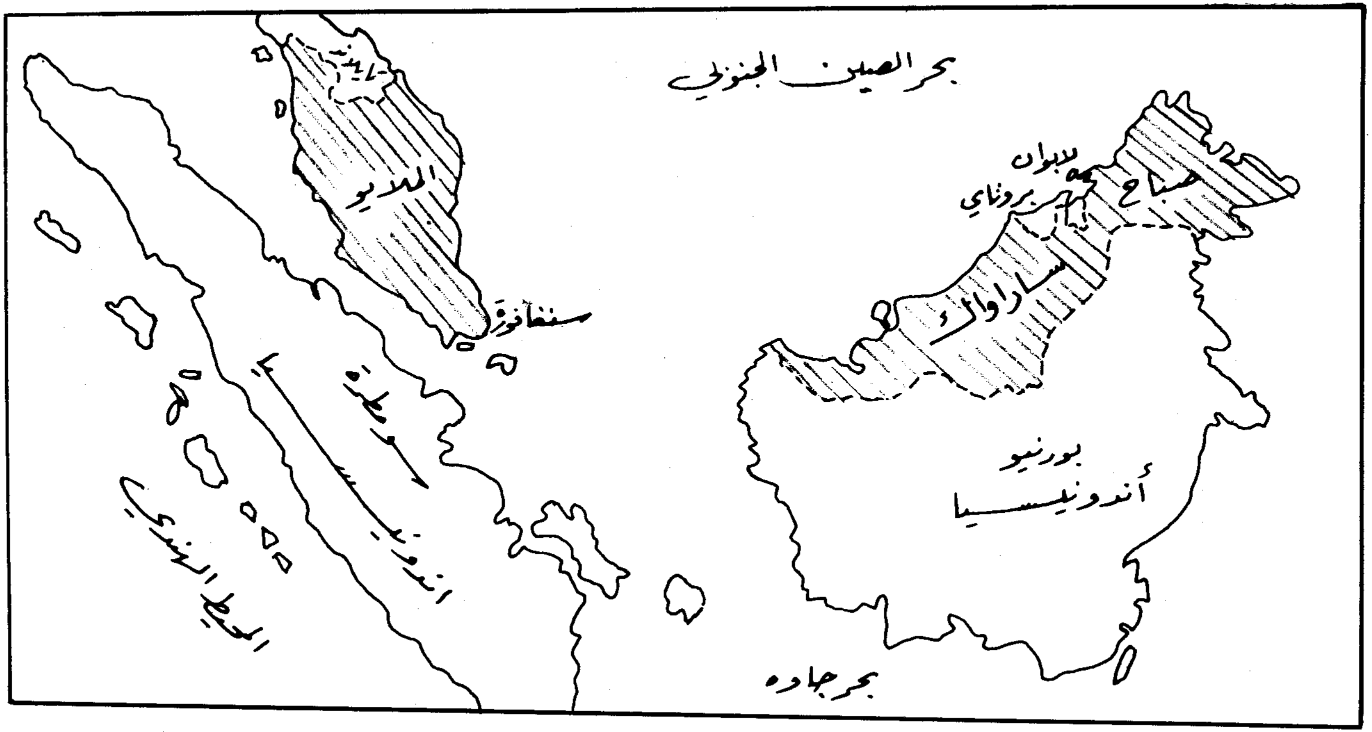
بحر الصين الجنوبي
لابوان
صباح
بروناي
ساراواك
بورنيو
أندونيسيا
الملايو
سنغافورة
سومطرة
أندونيسيا
المحيط الهندي
بحر جاوه

مصور رقم [٣]

الباب الثاني

أندونيسيا

لمحة عن تاريخ أندونيسيا قبل إلغاء الخلافة

لما كانت الجزر الأندونيسية تنتشر على مناطق واسعةٍ، وينفصل بعضها عن بعضٍ باليمّ بسبب وضعها الجزري، لذا فقد نشأت فيها عدة ممالك منذ قبيل الإسلام وحتى مجيء الاستعمار، ومن هذه الممالك ما كان سلطانها يمتدّ على رقعةٍ صغيرةٍ من الأرض قد لا تزيد على مساحة الجزيرة التي تقوم عليها، بل على جزءٍ منها، ومنها ما يتعدّى ذلك حتى يشمل الجزر كلها، بل يمتدّ ليشمل جزراً أخرى غير الجزر الأندونيسية، وقد يضمّ جزءاً من البر الآسيوي كأن تكون شبه جزيرة الملايو، أو غيرها. ومن هذه الممالك:

١ ـ امبراطورية سري فيجابا: وتأسّست جنوبي سومطرة في أوائل القرن السابق للبعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وازدهرت هذه الامبراطورية، ونشرت سلطانها على أكثر الجزر الأندونيسية، وعلى شبه جزيرة الملايو، ووصل نفوذها إلى الفيليبين شمالاً، وإلى جزيرة سيلان في الغرب، والتي خضعت وتبعت هذه الامبراطورية، وبقيت هذه الدولة حتى انتشر الإسلام بين أهلها في القرن السابع الهجري.

٢ ـ مملكة تاروماناغارا: وتأسّست في غربي جزيرة جاوة في القرن الثاني قبل الهجرة النبوية، وبقيت حتى القرن الخامس الهجري.

٣ ــ مملكة سوندا: وقامت عام ٤٢١ هـ، وحلّت محلّ سابقتها في غربي جاوة.

٤ ــ مملكة جاوه الوسطى: واستمرّت حتى أواخر القرن الثالث الهجري.

٥ ــ مملكة ماتارام: وقامت في جاوه الوسطى، في أواخر القرن الثالث الهجري، فهي قد حلّت محلّ سابقتها، وبقيت حتى أخذ الإسلام ينتشر بين أبنائها. وقد تنقّلت مراكزها الإدارية عدة مرات.

٦ ــ مملكة جاوه الشرقية.

٧ ــ امبراطورية ماغافاهيت: وقامت في أواخر القرن السابع الهجري، واستمرّت حتى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (٦٩٣ - ٨٨٣ هـ) وبسطت سلطانها على الجزر الأندونيسية كلها إضافةً إلى الفيليبين وشبه جزيرة الملايو، وجزءٍ من الهند الصينية. وبدأ الضعف ينخر فيها بعد موت آخر أباطرتها الكبار (هايم ووروق)، حيث أخذت الأوضاع الإدارية تتردّى مما أدّى إلى قيام حركات انفصالٍ عنها في بعض البلدان التي كانت تابعةً لها، وحدثت اضطرابات، وحروب بين المقاطعات بعضها ضدّ بعضٍ، وتأخّرت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وأقبل الناس نحو الإسلام إيماناً منهم بأنه دين الحق، ولذلك فإنه سينقذهم مما يُعانون. وقد انفصلت بعض الممالك عن هذه الامبراطورية ومنها:

أ ــ مملكة مينكابو: في سومطره الوسطى.

ب ــ مملكة آتشيه: في شمالي سومطرة، وانتشر فيها الإسلام، وكانت أقوى الممالك الأندونيسية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وبقيت حتى عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)، وكان لها دور كبير في قتال الهولنديين.

وليست هذه كل الممالك التي قامت في الجزر الأندونيسية، بل قامت ممالك ثانية ذات أهمية في الجزر الأخرى مثل: مملكة بروني، وساراواك في شمالي جزيرة بورنيو، ومملكة بانغر في جنوبها، وممالك أخرى في جزيرة سيلبيس، وجزر الصوند الصغرى. ولكن امبراطورية ماغافاهيت قد وحّدت هذه الجزر جميعها، وضمّت هذه الممالك كلها.

وتعرّضت أندونيسيا للغزو الصيني، واحتلّ الصينيون جزيرة جاوه عام ٦٨٢ هـ أيام قبلاي خان حفيد جنكيزخان.

انتشار الإسلام:

من الصعب أن نُحدّد الزمن الذي وصل الإسلام فيه إلى تلك الجزر، وإن كان بعضهم يُؤكّد وصوله منذ المرحلة الأولى التي شعّ فيها نور الإسلام في أرض العرب، حيث انتقل منها بواسطة التجار الذين ما انقطعت سفنهم تمخر عباب البحر قادمةً وذاهبةً تحمل البضائع بين أندونيسيا وبلاد العرب، وإذا كان التاريخ قد انتقل مع المجاهدين إلى ساحة المعارك ليدوّن الفتح، ويُسجّل انتصار الحق وهزيمة الباطل، وينسى ما عدا ذلك فرحةً بزهوق الباطل وغبطةً بارتفاع راية الحق، ولكن التجارة بالواقع لم تتوقّف وانتقال الأخبار لم ينقطع غير أنها عاشت تحت غطاء حركة الفتح التي طغت على كل ما سواها. ولكن يذهب بعض المؤرخين الآخرين إلى أن القرن السابع الهجري هو أول وقتٍ وصل فيه الإسلام إلى تلك الجهات، ويستندون في ذلك إلى ما كتبه الرحالة الأوربي (ماركوبولو) عن زيارته إلى جزيرة سومطرة عام ٦٩٢ هـ حيث قضى خمسة أشهرٍ فيها فيقول: «إن جميع سكان البلاد عبدة أوثانٍ اللهم إلا في مملكة (برلاك) الصغيرة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين. أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون، أو متوحّشون يأكلون لحوم البشر». بينما تذكر كتب تاريخ الملايو: أن أول ملكٍ مسلمٍ حكم مملكة (آتشيه) هو (جيهان

شاه) وكان ذلك عام ٦٠٢ هـ وإنه لم يكن من سكان البلاد، وإنما تزوج منهم فقبلوه ملكاً.

ونعتقد أن الإسلام قد بدأ يطرق أبواب تلك المنطقة منذ أن توقفت موجة الفتوحات، حيث انصرف الناس بعدها إلى مختلف نواحي الحياة يعملون في الزراعة، ويُمارسون الصناعة، ويتنقلون بالتجارة، وازداد إقلاع السفن من سواحل جزيرة العرب ومن فارس مُيممةً وجهتها نحو المشرق تحمل معها البضائع، وإلى جانبها أخلاق التجار المسلمين التي تنبع من العقيدة، إلى جانب الدعاة الذين عملوا على نشر الدعوة والعمل في سبيل الله دون أي عملٍ آخر معتمداً في رزقه على ما كان قد جمعه، وكثيراً ما كان التجار يتخذون بضاعتهم وسيلةً للاتصال بالناس والعمل على هدايتهم.

وتروي كتب التاريخ أن بعض التجار الأندونيسيين قد وصلوا إلى بغداد أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد، وعندما قفلوا راجعين كانوا يحملون بين جوانحهم عقيدة الإسلام، وعندما وصلوا إلى بلادهم قاموا بدعوةٍ واسعة النطاق لها، وبدأ الإسلام ينتشر بين السكان ولكن على شكل أفرادٍ وجماعاتٍ بسيطة، وأخيراً استطاعوا أن يُؤسّسوا لهم تلك المملكة الصغيرة (برلاك) التي يتحدّث عنها الرحالة الأوربي (ماركوبولو). ولكن لم تكن لتخلو بقية المدن والجزر الأخرى من أفرادٍ مسلمين وأسرٍ كاملةٍ، ولكن لم يشعر بهم الغريب ما دام ليس لهم أثر واضح على حياة السكان لقلّتهم، وإلا هل يمكن أن ينتشر الإسلام دفعةً واحدةً في تلك المدة البسيطة التي تلت زيارة (ماركو بولو) لجزيرة سومطرة، حيث قام بزيارتها بعد أقلّ من نصف قرن الرحالة المسلم (ابن بطوطة) فوجد الحكم الإسلامي، وأكثرية الشعب تعتقد العقيدة الإسلامية، فقد كانت زيارته للجهة نفسها عام ٧٤٦ هـ، ويقول عن هذه المشاهدات: «وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك، شافعي المذهب، محبّ للفقهاء، يحضرون مجلسه للقراءة

والمذاكرة، وهو كثير الغزو والجهاد، ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه، وأهل بلاده شافعية، مُحبّون للجهاد، يخرجون معه تطوّعاً، وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يُعطون الجزية على الصلح». وربما كان (ماركو بولو) يهوّن من شأن المسلمين من باب الحقد الصليبي.

وما إن بدأ التجار المسلمون يفدون إلى تلك السواحل، ويرحل عنها أبناؤها ليعودوا بعقيدةٍ جديدةٍ حتى بدأت البذور الأولى للدعوة تثبت جذورها في تلك الأرض، واتخذت الوسائل جميعها لهداية لناس، وأخذهم إلى طريق الإسلام، فالمسلم يحبّ الخير للناس جميعاً، ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، فيرغب لنفسه الأجر بهداية الآخرين، وكذلك يحبّ لهم الأجر بعد الهدى، وأكبر شيءٍ يمكن أن يُقدّمه للناس هو دعوتهم للإسلام فيحصل على أكبر أجرٍ، ويحصلون على أكبر خيرٍ إن تمكّن، ومن هذه الوسائل معاملة السكان كي يتعرّفوا على الخلق الإسلامي لإقبال الناس على هذا الدين، ولهذا اتخذ بعض الدعاة التجارة لتكون وسيلةً لهم للصلة مع السكان والتعامل معهم، ويشترون العبيد ويعتقونهم ليرفعوا من مكانتهم الاجتماعية، ويدعونهم إلى الإسلام، فيُسلمون غالباً، ويتزوّجون من سكان البلاد فتدخل المرأة في دين زوجها بعد أن تتعرّف على حقيقة الإسلام عن قربٍ، وتتبيّن المعاملة الإسلامية بالممارسة، ثم لا يلبث أن يتبعها بذلك أهلها وأقرباؤها، ويحرص السكان على تعلّم اللغة العربية على أنها لغة المسلمين التجار الأرقى، ولغة المصلحة بالنسبة لهم، والإنسان أقرب ما يكون إلى من يتفاهم معه مباشرةً دون وسيطٍ فيسمع الفرد الكلمة من المسلم فيعرف معناها، ويتأثّر، وصار كل من يتكلّم العربية يُسمّى مسلماً، وقبل بعضهم هذا الاسم، وأقبل على الإسلام.

وكان أهالي البلاد يحترمون التجار المسلمين والدعاة، ويكرمونهم لأخلاقهم الرفيعة التي تنبع من عقيدتهم ولغربتهم من ناحيةٍ ثانيةٍ، ولشعور

السكان أن هؤلاء الغرباء المسلمين أعلى منهم مستوىً، والغريب محبب مكرم، وإكرام الضيف معروف عند أكثر الشعوب، كما أن هذا الاحترام قد يكون ناشئاً عن الثروة التي يملكها هؤلاء التجار، والتي تجعل لهم مكانةً مرموقةً، ومركزاً ممتازاً في المجتمع، بل يتقرّب الناس منهم، وكذلك فإن الحكام بحاجةٍ إليهم لزيادة النشاط التجاري في بلادهم، ولزيادة دخل البلاد من عائدات التجارة، ومضاهاة الإمارات الأخرى بذلك النشاط، والثراء، والتطّور الذي يتمّ نتيجة كثرة التجارة، وكذلك يجب ألا ننسى الهدايا التي يحصل عليها المسؤولون من التجار، كل هذا يجعل للتجار المسلمين مكانةً عند حكام الإمارات الأندونيسية فيلتقون بهم، وغالباً ما يؤثرون بهم لثقافتهم، وعلمهم، ولكونهم دعاةً يعرفون أسلوب الدعوة وطريق الحوار، فإذا ما أسلم أحد الحكام توسّع انتشار الإسلام لأن الشعب غالباً ما يحرص على تقليد أمرائه. وكذلك تعتنق القبائل الإسلام مجرد اعتناق أحد كبارها له، وكانت تلك المناطق لا تزال تزخر بالحياة القبلية.

كما أن السكان قد تأثّروا بوضوح العقيدة الإسلامية ويُسرها، وبما فيها من المساواة بين الناس، وهذا على خلاف ما يعرفونه من فروقٍ قائمةٍ بين الناس في الديانات التي كانت تسود أندونيسيا، وكان الشعب يُعاني الكثير من ذلك، ويريد الخلاص مما هو فيه، ووجد الإسلام مُنقذاً له.

وقد يكون التأثّر بسبب تفوّق المسلمين بالحضارة، ومن المعروف تأثّر الناس بالذين يعتقدون أنهم أعلى مستوىً منهم، كما أن إقبال المسلمين على المؤاخاة بين أهل البلاد، وبُعدهم عن الغايات والأطماع التي يعرفونها من الغرباء غيرهم، كل ذلك قد أوجد عند الأندونيسيين تقبّلاً للانتساب إلى الإسلام وفخراً، وخاصةً أنهم وجدوا في الدعاة مثلاً أعلى وأنموذجاً رائعاً في الإنسان الكامل من حيث الأخلاق، والتواضع، والبعد عن الجشع رغم عملهم المادي الذي يُمارسونه. وحتى وجدوا من الأمراء الأندونيسيين الذين اعتنقوا الإسلام تغيّراً واضحاً في السلوك والأخلاق، ولم يتخذوا سيفاً، ولم

يرفعوا سوطاً لتحويل أتباعهم إلى عقيدتهم كما يفعل الأمراء غير المسلمين، أو كما فعل هؤلاء أنفسهم قبل أن يُسلموا، ولم يستعمل السيف إلا لإحقاق الحق، أو ردع باطلٍ، أو ضرب من يقف في وجه الدعوة، ويحول دون انتشارها.

وبعد مجيء الاستعمار وقدوم الإرساليات التنصيرية ازداد إقبال الناس نحو الإسلام مخالفةً للإرساليات التنصيرية وضدّها لما يرون من أعمال تلك الإرساليات غير الإنسانية، فقد حدث أن تنصّرت قريتان، ثم تركتا النصرانية واعتنق سكانهما جميعاً الإسلام لما شاهدوا وعرفوا من حقيقة تلك الإرساليات النصرانية.

ولم يدّع المسلمون القادمون أنهم من جنسٍ أسمى، أو عرقٍ أفضل، أو شعب أرقى، أو أنهم أكثر مدنيةً، أو أعلى مكانةً، كما يدّعي المستعمرون الصليبيون، فهذا أمر يعرفه الآخرون، ويُقرّون به، لا يدّعيه صاحب العلاقة نفسه.

كل هذا إضافةً إلى حاجة الإنسان إلى التدين التي جعلت السكان يُفكّرون تماماً في قضية العقيدة، ولما كانت الديانات الموجودة آنذاك في أندونيسيا لا تُحقّق شيئاً من رغبات الإنسان الفطرية، لذا فقد أقبل السكان على الإسلام بشكلٍ واسعٍ لا نظير له، إذ اعتنق الإسلام في أندونيسيا عشرات الملايين في مدةٍ لا تتجاوز القرن من الزمن، وكانت المناطق الداخلية أكثر إسراعاً للدخول بالإسلام من المناطق الساحلية التي كانت أشدّ اتصالاً بالمؤثّرات الأجنبية. وكانت المناطق الساحلية أكثر تقبّلاً للإسلام لكثرة التجار المسلمين، وأخذها الدين الذي يتلاءم والفطرة البشرية من بين المؤثّرات الكثيرة التي ترد إليها من التجار الذين يمثّلون مختلف الأمم والعقائد. ولم يبق بعيداً عن الإسلام في أندونيسيا إلا تلك القبائل المعزولة في الغابة التي لم تختلط بغيرها، وتنزوي على نفسها،

ولم يكن بالإمكان الاتصال بها. ولا تخلو جزيرة إلى الآن من أمثال هذه القبائل المنكفئة على نفسها في الأحراش وقلل الجبال.

ولما دخل الكثير من السكان في الإسلام ومن مختلف الفئات وحّدوا صفوفهم، وقاموا بحركة الانفصال عن امبراطورية (ماغافاهيت) بقيادة الزعيم (أونس) الذي عُرف باسم يونس، واستطاع أن ينتصر على ملوك تلك الامبراطورية، فإن المسلم لا يصحّ أن يبقى تحت حكم الجاهلية إن كان بإمكانه إقامة حكمٍ إسلاميٍ، وإن لم يستطع فعليه أن يرحل إلى دار الإسلام حيث يُقام حكم الله. وبذلك بدأت تتأسّس ممالك إسلامية في أندونيسيا.

هذا في الجزيرتين الغربيتين اللتين تمرّ منهما الطرق التجارية، أما بقية الجزر فقد جاءهما الإسلام من الجزيرتين السابقتين، ففي جزيرة (بورنيو) كان الإسلام أول ما دخل في صفوف شعب (بنغرماسين) الذي كانت له مملكة في جنوب غربي الجزيرة.

وفي شمالي الجزيرة كانت مملكة (بروني) التي انتشر فيها الإسلام أيضاً في وقتٍ مبكرٍ، ولما وصل الإسبان إلى الجزيرة عام ٩٢٨ هـ وجدوا ملك (بروني) مسلماً.

وفي غربي الجزيرة قامت مملكة (سوكدنة)، وقد عمّ الإسلام فيها عام ٩٥٧ هـ.

وهكذا عمّ الإسلام أكثر الساحل بينما بقي الداخل على الوثنية. وفي القرن الثاني عشر الهجري بدأ الإسلام ينتشر في قبيلة (إيدان) التي تقطن الداخل.

وأما جزيرة (سيلبيس) فقد انتشر الإسلام على الساحل أيضاً، ومنه انتقل إلى الداخل، وتعدّ قبيلتا (ماكاسّار) و(البوجي) أهم قبائل سكان

الساحل، بل وأغلب سكانه ينتمون إلى إحدى هاتين القبيلتين. أما سكان الداخل فهم من (الألفور) الذين ينتشرون في القسم الشرقي أيضاً، وقد بدأ الإسلام يشقّ طريقه إليهم، وقد زار البرتغاليون الجزيرة عام ٩٤٧ هـ، ولم يجدوا فيها إلا قليلاً من المسلمين في قاعدة (جوا) حاضرة مملكة (ماكاسّار) - على زعم البرتغاليين - ولكن ما جاء القرن الحادي عشر الهجري إلا وكثر المسلمون، وطلبوا العلماء من مملكة (آتشيه) في شمالي سومطرة، فلُبّي الطلب مباشرةً، وجاء العلماء، وذلك عام ١٠١٢ هـ. ودخل شعب (بوني) في الإسلام على يد شعب (ماكاسار)، واتخذ الهولنديون المستعمرون الصليبيون كل الوسائل، وبذلوا جهدهم كافةً لإثارة شعب (بوني) على قبيلة (ماكاسار). كما استطاع الدعاة في قبيلة (البوجي) أن يُحوّلوا قبيلة (السسك) التي تسكن في جزيرة (لمبوك) إلى الإسلام، كما عملوا على نشر الإسلام في جزيرة (سومباوا).

ويرتبط وصول الإسلام إلى جزر (المولوك) بتجارة القرنفل ففي القرن الخامس الهجري أذعن ملك (بيدور) الوثني للدخول في الإسلام على يد الشيخ منصور، ولقّب نفسه (جمال الدين)، وبعدها اعتنق كثير من رعاياه الإسلام. وقد استقبل البعثة الإسبانية عام ٩٢٨ هـ، وأكرم رجالها، ويقول الإسبان: إن عمره كان خمسةً وخمسين عاماً، وأنه لم يمض على قدوم الإسلام إلى هذه الجزيرة أكثر من خمسين سنةً. كما استقرّ الإسلام في جزيرة (ترنات) قبل ذلك بوقتٍ قصيرٍ.

وحاول الإسبان والبرتغاليون نشر النصرانية وبذلوا إمكاناتٍ ضخمةً في سبيل ذلك، ولكن السكان عندما أرادوا التخلّص من المستعمرين الصليبيين قاموا باضطهاد النصارى على أنهم من غراس المستعمرين، وتربطهم بهم صلة العقيدة، وسيبقون على هذا الأساس تبعاً لهم، وفي الوقت نفسه عملوا على نشاط الدعاة المسلمين.

وأخرج الهولنديون البرتغاليين والإسبان من الجزر الأنـدونيسية على أنهم من الكاثوليك، ومن بقي من آثارهم انتقل إلى جزر الفيليبين.

وقد أسّس المسلمون عدة ممالك في الجزر الأندونيسية ومنها:

١ ـ مملكة برلاك في سومطرة، وهي التي زارها الرحالة ابن بطوطة.

٢ ـ مملكة بنتام في غربي جاوه: وقد أسّسها السلطان (حسن الدين) عام ٩٧٦ هـ.

وكان البرتغاليون قـد احتلّوا (مالاقـا) عام ٩١٧ هـ، وسيـطروا على شمالي جزيرة سومطرة عام ٩٢٨ هـ، وأصبح مضيق (مالاقا) تحت نفوذهم وسلطانهم، لذلك اتخذ المسلمون طريقاً جديدةً لتجارتهم تمرّ من مضيق (الصوند) بين جزيرتي (جاوه) و(سومطرة) عوضاً عن مضيق (مالاقـا) بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة، وبهذا الانتقال توسّع انتشار الإسلام في غربي جزيرة جاوه، وقويت شوكة أتباعـه، فأسّسـوا مملكة (بنتـام) هذه، وتخلّصوا من حكم مملكة (فاغاغاران) الوثنية التي كانت تحكم المنطقة، كما استطاع المسلمون مـن إحـراز النصر على البرتغاليين الذين جاءوا إلى المنطقة لمساعدة الملك الوثني.

٣ ـ مملكـة ديماك في وسط جـاوه: أسّسها رمضـان فـاطمي عـام ٨٣٢ هـ.

٤ ـ مملكة متارام في شرقي جاوه: كانت (متارام) مملكةً قائمـةً، وكان ملوكها على الوثنية، وفي عام ٩٩١ هـ تولّى أمرها رجل مسلم اسمه (سنافاتي) وعمل على نشر الإسـلام، ووحدة جـزيرة (جـاوه) كلها تحت حكمه، وكاد أن يتمّ له الأمر لولا أن اتخذ سياسة إبقاء الممالك الصغيرة ذات استقلالٍ ذاتيٍ، وتخضع لسلطانه، فكان حكامها يظهرون له الطاعة، ويضمـرون الغـدر، فمـا أن وافتـه منيتـه حتى أعلنـوا العصيـان على المملكـة،

واندلعت الحروب بين هذه الممالك، وانتهى أمر مملكة (متارام) الإسلامية.

٥ ــ مملكة آتشيه في شمالي سومطرة: كانت هذه المملكة أولى الممالك الأندونيسية القديمة التي انتشر فيها الإسلام، وتوطّد، وتشجّع السكان لدينهم، ولكن قلّ جهادهم في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين لسيطرة البرتغاليين التجارية، وانتقال الطريق التجارية من مضيق (مالاقا) إلى مضيق الصوند، إضافةً إلى النزاع الذي حدث بين العلماء الذين يرفضون النفوذ الأجنبي وبين الحكام الذين لا يدعون إلى الجهاد، ولكن عادت لهذه المملكة قوتها في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، وبدأت تقاوم المستعمرين الصليبيين حتى القرن الرابع عشر الهجري.

٦ ــ مملكة بالمبانغ في جنوبي سومطرة: وقد أسّسها السلطان عبدالرحيم عام ١٠٥٨ هـ، وكانت أول مملكةٍ في تلك الجهة رغم انتشار الإسلام منذ القرن السادس الهجري.

وبالقضاء على امبراطورية (ماغافاهيت) انتهى حكم الهندوس في تاريخ أندونيسيا باستثناء جزيرة (بالي) حيث تجمّع فيها الهندوس، والذين يُقدّر عددهم بأكثر من مليون.

الاستعمار:

في الوقت الذي بدأ المسلمون فيه يثبّتون أقدامهم في أندونيسيا كان المستعمرون الصليبيون من ناحيةٍ أخرى يغرزون مخالبهم في الأرض لتجد لأصحابها مركزاً ثابتاً تستقرّ فيه لتحقيق الأهداف التي يسعون لها.

احتلّ البرتغاليون (مالاقا) عام ٩١٧ هـ، واتخذوا منها قاعدةً لشنّ الحملات على الجزر الأندونيسية وخاصة جزر (الملوك)، وهي الجزر

التي يعرفونها باسم جزر (التوابل)، وقد تمكّنوا من السيطرة على شمالي سومطرة عام ٩٢٨ هـ، ووصلوا إلى جزيرة (سيلبيس) عام ٩٤٧هـ.

كما أن الإسبان قد وصلوا إلى جزيرة (بورنيو) وإلى جزر (المولوك) عام ٩٢٨هـ في طريق عودتهم، بعد مقتل قائدهم (ماجلان) في جزر (الفيليبين) بعد أن أظهر صليبيته علناً، وأراد فرضها على السكان. وإذا كانت البرتغال قد استطاعت أن تُثبّت أقدامها في الجزر الأندونيسية إلا أن إسبانيا قد عجزت عن ذلك إلا في جزر (المولوك).

قامت الثورات ضدّ البرتغاليين لتعصّبهم الصليبي، ولظلمهم، وقامت معها حركات ضدّ النصرانية التي عدّها السكان تتمةً للاستعمار الصليبي إذ هو الذي جاء بها، وهو الذي أغرى بها بعض الفقراء المغفّلين، وأصحاب المصالح الطامعين. وزادت هذه الحركات بعد أن قتل غدراً سلطان جزيرة (ترنات) عام ٩٧٨ هـ، ويُدعى (هارون)، وكانت تمتدّ سلطته حتى جزر الفيليبين.

وضعفت البرتغال بعد أن احتلّت إسبانيا أراضيها عام ٩٨٨ هـ، ثم إن إسبانيا لم تلبث أن ضعف أمرها بعد أن هُزمت أمام إنكلترا، وتحطّم أسطولها في معركة (الأرمادا) عام ٩٩٧ هـ، وهذا ما هيّأ الجو لدولٍ طامعةٍ عندها رغبة في الاستعمار، وعندها رغبة في الثراء، بعد أن كانت تسمع عن ثروات الشرق وغنى أهله، وعندها رغبة في أن تُساهم في قتال المسلمين، ولديها حلم في المنافسة لدولٍ تجول في تلك الأصقاع البعيدة، وانطلقت هولندا التي كانت في حربٍ مع الإسبان، وتخلّصت من سيطرتهم حيث كانت تخضع لهم، فخرجت تُنافسهم، وتُقاتلهم، وتُحاول أن تحلّ محلهم في مستعمراتهم التي احتلّوها، والتي ورثوها عن البرتغاليين أيضاً.

الاستعمار الهولندي:

وصل الأسطول الهولندي إلى سومطرة، وجاوه عام ١٠٠٥هـ لأول مرةً، وحدث بينهم وبين السكان معارك، وحاول البرتغاليون الوقوف في وجه الهولنديين فأمروا بواخرهم في (غوا) على ساحل الهند الغربي، وبواخرهم التي في (مالاقا) في شبه جزيرة الملايو بالتحرّك نحو أندونيسيا لمقاومة الهولنديين، وعدّوا كل سفينةٍ ليست لهم غنيمةً يأخذونها ومنها السفن الأندونيسية فاصطدم البرتغاليون مع الأندونيسيين وعجز الأسطول البرتغالي عن تحقيق غايته، وفي الوقت نفسه عدّ الأندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضدّ البرتغاليين، وهكذا بدأت البرتغال تتزحزح عن مراكزها في تلك الجزر، وإن احتفظت بمركز (مالاقا) مدة أربعين سنةً أخرى، كما احتفظت بجزءٍ من جزيرة (تيمور)، ومراكز صغيرة أخرى، ولكنها بقيت ضعيفةً لا يُهتمّ بها.

لم تُراع هولندا التحالف الذي تمّ ضمناً بينها وبين الأندونيسيين، فما أن خرجت البرتغال من الساحة القتالية حتى انقضّ الهولنديون على الجزر الأندونيسية وعلى السكان يعملون سلباً، ونهباً، وقتلاً، وتشفّياً، فما كان الذئب الجائع ليرعى حرمة الحمل، والهولنديون جاءوا طامعين بالثراء، يريدون العزة بعد الذلّ، حاقدين على الإسلام وأهله، وقد واتتهم الفرصة فانقضّوا كالذئاب الكاسرة الجائعة التي أثارتها غريزة جوعها نحو شياهٍ أمامها وحال بينهما حائل ثم زال ذلك الحائل فانقضّت تنهش غريزياً من غير وعيٍ.

بدأت هولندا تُشدّد قبضتها على الجزر، وأسّست شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٠١١ هـ، ووجدت الفرصة مناسبةً لها لانشغال إنكلترا وإسبانيا في حروبٍ فيما بينهما، وبدأت المعارك بين الهولنديين وبين الممالك الإسلامية وخاصةً مملكة (متارام)، وشعر ملوك جزيرة (جاوه) بعد هذه المعارك بقوة مركز هولندا، التي بدأت توسّع سلطتها تدريجياً، وتُقيم

القلاع والحصون التي أصبح من أشهرها (بتافيا)، وهو الاسم الذي أطلقوه على مدينة (جاكرتا)، إذ أعطوها اسم إحدى القبائل الهولندية (بتافيا)، وأخذت هولندا تتجه كلياً نحو أندونيسيا، وترمي بثقلها هناك بعد أن انهارت تجارتها في الهند بسبب منافسة كلٍّ من فرنسا وإنكلترا لها.

أخذت المنافسة بين إنكلترا وهولندا تظهر في أندونيسيا منذ عام ١٠٢٧ هـ، وإن كانت هناك معارك جانبية من قبل، وإن بقيت المنافسة هناك وفي مناطق أخرى إلا أن الحرب قد انتهت بين الطرفين على إرغام هولندا على إلغاء احتكاراتها التجارية في الهند وفي أندونيسيا، وهذا ما سبّب زيادةً في خسائر شركة الهند الشرقية الهولندية والتي بلغت ستةً وتسعين ألف روبية عام ١٠٢٦ هـ.

احتلّت فرنسا أراضي هولندا عام ١٢١٠ هـ، وكانت إنكلترا وفرنسا في حروبٍ دائمةٍ فيما بينهما، ومنافسةٍ لا تنقطع، وباحتلال فرنسا لهولندا وضمّها إليها، وعدّها جزءاً منها أصبحت ممتلكات هولندا في الشرق فرنسيةً لذا أسرعت إنكلترا واحتلّت مخازن الشركة الهولندية في الهند، وفي سومطرة دون مقاومةٍ تُذكر، وانتهى أمر الشركة عام ١٢١٤ هـ.

وبعد انتهاء الحرب بين إنكلترا وهولندا أيام حروب نابليون بونابرت عادت الحكومة الهولندية فاستولت على ممتلكات الشركة السابقة من جديدٍ، وبدأت في استعمار أندونيسيا. وبعد هزيمة نابليون، واستقلال هولندا تمّ توقيع اتفاقية بين هولندا وإنكلترا، تركت هولندا بموجبها جزيرة سيلان، والكاب في أقصى جنوبي إفريقية، وجزائر الهند الغربية في أمريكا إلى إنكترا، وبالمقابل تخلّت إنكلترا عن أندونيسيا لهولندا، وكانت انكلترا قد احتلّت جزءاً من أندونيسيا، وفي عام ١٢٣٢ هـ رفع الهولنديون رايتهم من جديد فوق (بتافيا)، ولكن لم يدخل الهولنديون البلاد دون مقاومةٍ، فقد قامت عدة حروبٍ بين السكان وبين الدخلاء، كان من أشهرها:

١ ــ حروب (ديبو نيغورو) الأمير المسلم: واستمرّت خمسة أعوام، وانتهت عام ١٢٤٦ هـ.

٢ ــ حروب (بدري): وبدري جمعية دينية تأسّست قبل وصول الهولنديين بقليلٍ، وتعني البيضاء، رمزاً لطهارة القلوب، وصفةً للملابس البيضاء التي لبسوها، وبدأوا بالدعوة للإسلام، وعندما نزل الهولنديون في أندونيسيا أعلنت جماعة (بدري) الجهاد، واستطاعت إحراز النصر، وأقامت حكماً برئاسة مجلسٍ يضمّ ثمانية علماء، وبرز من أبطال الجهاد الشيخ مصطفى سحاب.

أشعلت هولندا الحرب الأهلية بين السكان بينما انصرفت هي لقتال جماعة (بدري)، واستمرّت الحرب خمس عشرة سنةً (١٢٣٧ - ١٢٥٣ هـ).

وكان الهولنديون ينتصرون على الملوك المحليين بالخديعة والمكر والغدر، لا بالقوة العسكرية، وإن كان النصر يتمّ أحياناً على بعض الملوك بالقوة وأفضلية السلاح.

وبعد أن سيطرت هولندا على جزيرة (جاوه) إثر حروب الأمير (ديبو نيغورو) اتجهت إلى الممالك الأندونيسية الأخرى تخضعها مملكةً مملكةً حتى استطاعت أن تتغلّب على الممالك جميعها في بداية القرن الرابع عشر الهجري، ولعلّ أشهر هذه الحروب التي جرت خارج جزيرة (جاوه) هي:

٣ ــ حرب (آتشيه) في شمالي سومطرة: وقد استمرّت هذه الحرب إحدى وثلاثين سنة (١٢٩٠ - ١٣٢٢ هـ) وقد أعلن سكان مملكة (آتشيه) الجهاد ضد الهولنديين الذين أرادوا أن يبسطوا نفوذهم على المسلمين، وكان السلطان آنذاك يدعى (إبراهيم منصور شاه)، وظهر من الأبطال في هذه الحرب (تنكو عمر)، ولكن إن انتهت الحرب عام ١٣٢٢ هـ فإن

الاضطرابات استمرت عشر سنوات أخرى أي حتى عام ١٣٣٢ هـ قبيل الحرب العالمية الأولى.

قامت الحرب العالمية الأولى، وقد استقرّت أقدام الهولنديين في أندونيسيا تقريباً، ولكن هذه الحرب لم تغيّر شيئاً من الأوضاع السياسية، وبعد انتهاء الحرب بدأت هولندا بتطبيق سياستها الاستعمارية الصليبية، ومنها العمل على إبادة المسلمين، وإفسادهم، وإبعادهم عن دينهم، ونهب ثروات البلاد بما يرضي نهمها، وبما يجعل السكان فقراء الأمر الذي يُلزمهم الحاجة والتوجّه نحو النصرانية ـ حسب التصور الصليبي ـ.

اتجه الأندونيسيون نحو توحيد الصفوف، وتأسيس الجمعيات، وتنظيم الأحزاب، ولعب المسلمون الملتزمون الدور الكبير فيها، ومن هذه التنظيمات:

١ ـ الجمعية الخيرية في جاكرتا، وتأسّست عام ١٣١٩ هـ.

٢ ـ جمية مكارم الأخلاق الخيرية في (سورابايا) في شرقي جاوه.

٣ ـ شركة إسلام في (صولو)، وأسّسها الحاج (سمنهودي)، وكان يُسانده في الحركة (عمر سعيد شكرو أمينوتو) الذي صار فيما بعد زعيم هذه الهيئة، والتي انقلبت عام ١٣٣٠ هـ إلى حزبٍ سياسيٍ عُرف باسم حزب (شركة إسلام)، وعمل هذا الحزب على توحيد جهود الأندونيسيين، ورفع مستوى المعيشة للسكان، وابتدأ في كفاحه ضدّ الهولنديين، وتطورت المجابهة من سياسةٍ اقتصاديةٍ إلى جهادٍ مستمرٍ، وظلّ دعامةً من دعائم الاستقلال. وقد بدأ بمقاطعة الحكومة عام ١٣٤٢ هـ، إذ خرج أعضاؤه من المجلس النيابي.

٤ ـ الجمعية المحمدية: وأسّسها محمد دحلان عام ١٣٣١ هـ، وقد ركّزت جهودها على التعليم، ونشر مبادىء الإسلام، فافتتحت المدارس،

وأقامت جامعةً، كما أنشأت المساجد، والمستشفيات، وتعدّ أكبر جمعيةٍ تعليميةٍ في العالم، إذ تُشرف على ألفٍ وخمسمائة مدرسةٍ ثانويةٍ، وسبعمائة مستشفىً، وثلاثمائة دارٍ للأيتام.

٥ ــ جمعية الإرشاد في (سورابايا)، وأسّسها أحمد السكرتي، وهو ذو أصل سوداني، وتُركّز اهتمامها على التعليم، ولا تُدرّس إلا باللغة العربية، وأنشئت عام ١٣٣١ هـ.

٦ ــ الجمعية العائشية التي تأسست عام ١٣٣٥ هـ، وهي خاصة بالسيدات، ومركزها مدينة (ميدان) في جزيرة سومطرة.

٧ ــ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الهولندي بأندونيسيا وهو فرع للحزب الاشتراكي الهولندي بهولندة. وذلك أن هولندا كانت تعدّ أندونيسيا جزءاً منها على حين أن مساحة أندونيسيا تفوق مساحة هولندا بـ (٦٨) مرةً، ورضي هذا الحزب بهذا الاعتبار ورُضي به، وعدّ نفسه فرعاً للحزب الذي مركزه هولندا، وعندما انكشف أمر هذا الحزب عدّ نفسه مستقلاً وذلك عام ١٣٣٨ هـ، وبعد عامٍ واحدٍ أُعلن عن تأسيس الحزب الشيوعي، والتحق بالمنظمة الشيوعية العالمية (كومنترن)، وكان هذا الحزب يلقى كل تأييدٍ من السلطات الهولندية.

وقامت ثورة واسعة في البلاد لم تستطع القوات الاستعمارية الصليبية من إطفاء نارها إلا عام ١٣٤٦ هـ، وهذه الثورة، وهذا الوعي الذي تمثّل في تأسيس الجمعيات، وتنظيم الأحزاب لم يزد هولندا إلا حقداً على السكان المسلمين، وتصميماً على سلب خيرات البلاد كلها، وضرب السكان ضربةً رادعةً، وأعدّت الخطة اللازمة لذلك، واستمرّت في تنفيذها حتى اندلاع نار الحرب العالمية الثانية.

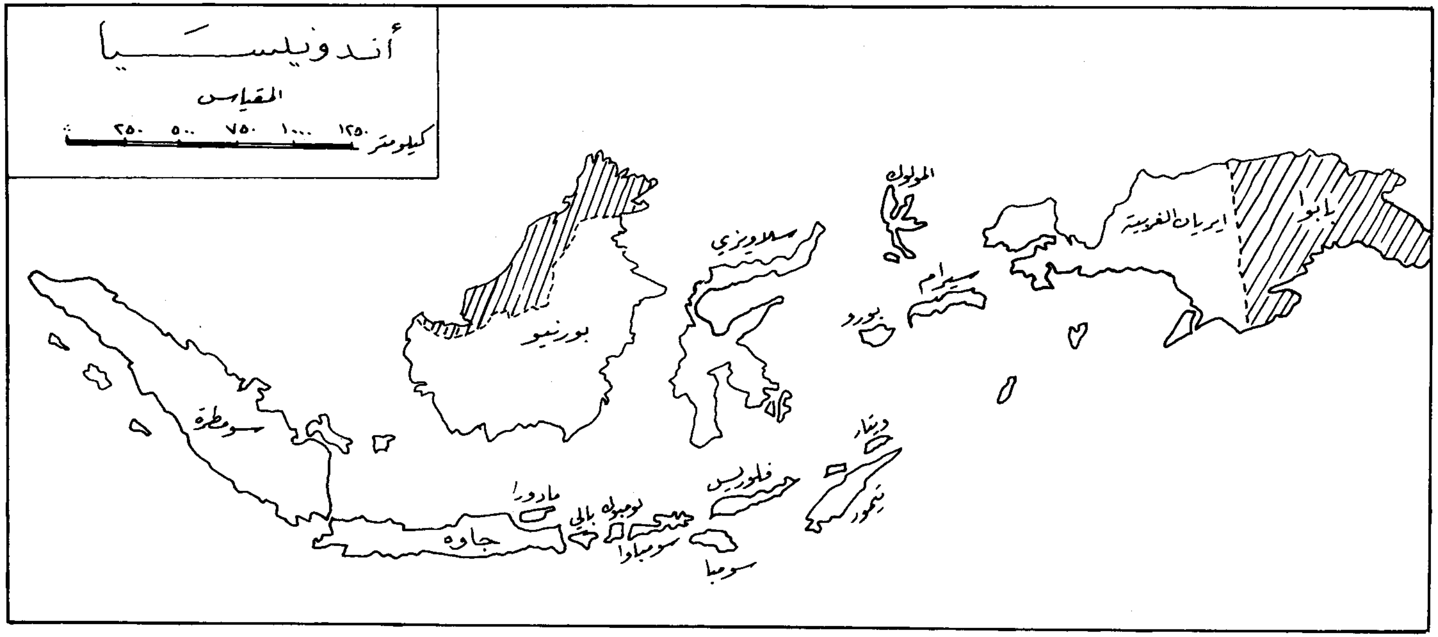
أندونيسيا
المقياس
كيلومتر ١٢٥٠ ١٠٠٠ ٧٥٠ ٥٠٠ ٢٥٠ ٠
سومطرة
جاوه
مادورا
بورنيو
بالي
لومبوك
سومباوا
سومبا
فلوريس
تيمور
ويتار
سلاويزي
الملوك
بورو
سيرام
إيريان الغربية
بابوا

مصور رقم [٤]

الفصل الأول

أندونيسيا من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م) وهولندا تعمل على تطبيق سياسةٍ استعماريةٍ، صليبيةٍ حاقدةٍ، والسكان في ضيقٍ شديدٍ يوقدون نار الثورة ببطءٍ، ويتحرّكون بترنّحٍ مما يُعانون من الظلم، والفقر، والجهل، والمرض، والذلّ نتيجة تلك السياسة الغاشمة.

واستمرّ تأسيس الجمعيات وتنظيم الأحزاب، ومن أشهر هذه التنظيمات في هذه المرحلة:

١ ـ جمعية نهضة العلماء، وأسّسها هاشم أشعري عام ١٣٤٥ هـ، وصارت من أكبر الأحزاب السياسية، وللحزب قسم نسوي يُسمّى «مسلمات النهضة»، كما أقام فيما بعد عام ١٣٨٦ هـ، جامعة المسلمات الأندونيسية، فهو حزب سياسي تعليمي.

٢ ـ حزب اتحاد الشعب الأندونيسي الذي أسّسه (سوتومو) عام ١٣٤٩هـ، وقد اتخذ أخيراً اسم (حزب أندونيسيا العظيم).

٣ ـ حزب الأمراء ويرى التعاون مع الحكومة الهولندية لإمكانية الحصول على الاستقلال.

٤ ـ حزب جاوه الفتاة.

٥ ـ الجمعية الوصلية.

٦ ـ جمعية الإصلاح الإسلامي في جزيرة (مادورا)، وغيرها من الجمعيات التي بلغ عددها سبعاً وخمسين جمعيةً.

٧ ـ الحزب الوطني وأسّسه أحمد سوكارنو عام ١٣٤٧ هـ.

٨ ـ الحزب الإسلامي الأندونيسي انفصل عام ١٣٥٤ هـ، بقيادة (سوكيمان) عن حزب شركة إسلام.

٩ ـ جمعية الشبان المسلمين.

١٠ ـ حزب التنوير الإسلامي.

وعدّت هولندا الحركة الإسلامية في الجزر الأندونيسية خطراً شديد الأهمية فهي تتعدّى حدودها الإقليمية الضيّقة لتُؤثّر وتستقطب دعم العالم الإسلامي، لذلك امتنعت السلطات الهولندية عن قمع الحركة الإسلامية بالقوة العسكرية في بادىء الأمر خوفاً من المضاعفات التي قد يُسبّبها مثل هذا الإجراء، وأخذ المسؤولون يُفكّرون في سبلٍ جديدةٍ تُمكّنهم من القضاء على خطر المقاومة الإسلامية، وأخيراً رأوا أن أفضل السبل إنما هو تشجيع الحركات الإلحادية، ونشر الفساد بالسفور، والاختلاط، ونشر ما يسمى بالفنّ، وتقديم المساعدات لأصحابه، وإيجاد تيارين رئيسيين في البلاد وهما: التيار الماركسي، والتيار القومي، وتلك آراء (سنوك هورو غونغي) المستشرق الهولندي المعروف والمكلّف بالقيام بهذه الدراسة، ويرى أن القومية يمكن أن تكون عامل إضعافٍ للحركة الإسلامية وضمان أمنٍ ضدّ قيام صلات بين الحركات التحررية في أندونيسيا وبين بقية أمصار العالم الإسلامي. وأما التيار الشيوعي الماركسي فهو كفيل ببثّ الإلحاد في صفوف الأهالي ونشر الفساد بينهم، وهو الأمر الذي سيدعو المسلمين إلى مقاومته بضراوةٍ، والاتجاه إلى محاربته، والانشغال به عن مقاومة الاستعمار الهولندي ومؤسساته المختلفة، إضافةً إلى أن المسلمين إذ انتشر بينهم الإلحاد، وعمّ الفساد، فقدوا الروح المعنوية، وضاع مفهوم الجهاد، وانصرفوا إلى دنياهم لا يُبالون بشيءٍ آخر، وأضحت أكبر همّهم، ومبلغ

علمهم، وانطلقوا وراء شهواتهم يغبّون منها ما شاء لهم هواهم، ووجدت القوات الاستعمارية الصليبية الجو أمامها هادئاً والطريق ممهدةً للاستغلال ولبثّ النصرانية. وإن هذا التيار سيتلقى مساعداتٍ واسعةً من كل الشيوعيين في العالم، وسيكون قوياً يمكنه أن يثبت أمام ضربات المسلمين.

ثم وجدت هولندا أمراً خطيراً آخر تُشغل به المسلمين، وتُفتّت قُواهم، ذاك هو فتح الباب للقاديانية التي أوجدها الاستعمار الإنكليزي في شبه القارة الهندية، وتُعدّ من ألدّ أعداء الإسلام، وتعمل باسمه للمستعمرين، وهيّأت هولندا لها أفضل الظروف التي يمكن أن تُؤمّنها سلطة حاكمة، وافتتح مركز للقاديانية في البلاد، واندفع المسلمون يُقاومون القاديانية، ويذودون عن دينهم ضدّ التحريف والتضليل، فمن ناحيةٍ شُغل المسلمون في مجادلاتٍ فانصرفوا عن مقاومة الهولنديين، وهذا ما تبغيه السلطة الاستعمارية، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ اتجه الشيوعيون ودعاة العصبية القومية إلى بثّ آرائهم والدعاية لأنفسهم، وإظهار الاهتمام بقضايا الشعب البائس الذي يعيش في مستوى معاشي منخفض، فكانوا يمنّونه بمستقبل أفضل، ويعدونه بالحصول عليه والوصول إلى حياةٍ سعيدةٍ إن سار وراءهم، فصدّق الشعب الجاهل هذه الدعايات ومشى و.. وحصلت هذه الفئات الضالة والمنتفعة على مكاسب، وعلى تأييدٍ شعبيٍ على حين أدار الشعب ظهره للمسلمين بالنسبة إلى ما كان عليه سابقاً، ولم يعد زعماء الحركات الإسلامية قادرين على قيادة الأمة وهذا أمل الهولنديين الكبير حيث يمكنهم التفاهم مع أية حركةٍ سوى الحركات الإسلامية لأن الحركات القومية والاشتراكية لا تهتم بالقيم، ويهمّها الحصول على المنافع والوصول إلى السلطة.

بدأت حركة تقارب بين الجمعيات والأحزاب الإسلامية، وتشكّل منها بين الحربين شبه اتحاد باسم (المجلس الإسلامي الأعلى)، وشُغل بعقد مؤتمراتٍ إسلاميةٍ عامةٍ، كما شُغل بمسألة الخلافة، وشكّل جمعية الخلافة في الهند الشرقية، وهي فرع لجمعية الخلافة في الهند.

الاستعمار الياباني:

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، ووقفت اليابان إلى جانب دول المحور ضدّ الحلفاء، وأشعلت حرباً خاطفةً في الشرق، واتجهت نحو أندونيسيا فاستسلمت هولندا مباشرةً عام ١٣٦١ هـ، بعد مقاومةٍ قصيرةٍ، وسلّمت أندونيسيا لليابان، وكانت اليابان قد أصمت بدعاياتها آذان الشرق الأقصى بأن آسيا للآسيويين، ويجب طرد الرجل الأبيض من الشرق، وإذا كانت هذه الدعاية قد استمع لها أولئك الذين ذاقوا مرارة الاستعمار من غير المسلمين الملتزمين، والذين يسيرون وراء مصالحهم، ولم يبق لهم مكان أيام الاستعمار الهولندي إلا أن هؤلاء وأولئك قد وجدوا أنفسهم بعد دخول اليابان البلاد أنهم قد خرجوا من براثن الاستعمار الهولندي الصليبي الأوربي ليقعوا بين مخالب الاستعمار الياباني الوثني الآسيوي.

اتبعت اليابان سياسة الاكتفاء الذاتي في كل البلدان التي وقعت تحت سيطرتها، ومعنى هذا أن كل منطقة ستضطر إلى إنتاج ما تحتاج إليه من الحبوب، والمواد الغذائية، والأولية اللازمة، وتعطّل بذلك كثير من الرجال عن العمل فاستطاعت السلطة إيجاد عملٍ لهم في القطاع الحربي، وبهذا أصبح توزيع ضرورات الحياة مختلاً جداً لأن المنتجات الفائضة في منطقة لا يمكن تصريفها، وفي الوقت نفسه لا يمكن جلب الضروري لها، وأكثر المناطق الأندونيسية تنتج الفائض عنها، فتتكدّس المواد الفائضة ولا سبيل للحصول على الضروري ولا للحصول على المال.

ولم يمض شهر على الاحتلال الياباني حتى صدر مرسوم بحلّ الأحزاب السياسية جميعها بل والمنظمات الأخرى، ومنعها من الاستمرار في نشاطها، وقد درّب اليابانيون الناس تدريباً عسكرياً. وألّفوا منهم فرقاً للدفاع الوطني، وأرادوا أن تكون هذه الفرق ضدّ الحلفاء، ليتمكّنوا من البقاء في أندونيسيا، وكان قائد هذه الفرق الجنرال (سوديرمان) وهو من العلماء، وأكثر ضباطه من جمعية المحمدية، وكان الهدف التدريب، ولم

يرض المسلمون عن هذه الفرق فأسّسوا حزب الله برئاسة (زين العارفين) من جمعية نهضة العلماء، وقد تدرّبوا أيضاً على يد اليابانيين، ليخفوا تنظيمهم الذي كان على غايةٍ من السرية.

قام الأندونيسيون بحركات داخل بلادهم ضدّ الاحتلال الياباني، وكانوا ينتظرون غزو الحلفاء لبلادهم، ومساعدتهم على طرد اليابانيين، وكلهم أمل أنهم سيحصلون على الاستقلال مجرد جلاء اليابانيين عن البلاد، وذلك حسب وعود الحلفاء المتكررة وتصريحاتهم المتوالية، ولقاء نضالهم ضدّ المستعمرين الجدد.

واستسلمت اليابان بعد إلقاء القنبلة الذرية في ٧ رمضان ١٣٦٤ هـ (١٥ آب ١٩٤٥ م) وبعد يومين فقط أُعلن عن قيام حكومة أندونيسية برئاسة أحمد سوكارنو [١] ونائبه محمد حتا[٢]، وعملت لتحول دون عودة الهولنديين

---

(١) أحمد سوكارنو: ولد في ١٩ صفر ١٣١٩ هـ (٦ حزيران ١٩٠١ م) في بلدة (بليتار) في شرقي جزيرة جاوه، وكان أبوه معلماً، أما أمه فهندوسية من جزيرة (بالي)، وينتمي إلى جماعة (أبنجان) الدينية، وهي في عقائدها أقرب إلى الهندوسية والبوذية الديانتين اللتين كانتا سائدتين قبل الإسلام، وتنتشر هذه العقيدة في شرقي جاوه، ولكن يدّعي أتباعها الإسلام ظاهراً.
درس أحمد سوكارنو المرحلة الابتدائية في بلدته (بليتار)، ثم انتقل إلى (سورابايا) ليلتحق بالمرحلة الثانوية، وهناك انضمّ إلى جماعة (جاوه الفتاة)، وكان يكتب في جريدة (رسول أندونيسيا)، والتحق عام ١٣٨٨ هـ (١٩٢٠ م) بكلية الهندسة في جاكرتا وتخرج منها عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م)، وعمل بإحدى الشركات الهولندية، ثم حصل على الدكتوراه من الجامعات الهولندية.
بدأ أحمد سوكارنو عمله السياسي عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م)، وبعد عام اعتقل، وأطلق سراحه بعد عامين، ثم لم يلبث أن اعتقل ونُفي إلى جزيرة (فلوريس) إحدى جزر مجموعة الصوند الصغرى، وبعدها نقل إلى (بنكولن) في جزيرة سومطرة، وأطلق سراحه عندما أفرج اليابانيون عن المعتقلين السياسيين، وتسلّم رئاسة الجمهورية، وكان يميل إلى الشيوعية، وتوفي في مستشفى جاكرتا في ١٧ ربيع الثاني ١٣٩٠ هـ (٢١ حزيران ١٩٧٠ م).

(٢) محمد حتا: ولد في جزيرة سومطرة في ٨ جمادى الأولى ١٣٢٠ هـ (١٢ آب ١٩٠٢ م)، درس الاقتصاد في جامعة (روتردام) في هولندا، واشترك في الجمعية =

إلى البلاد بعد انسحاب اليابانيين، وتحرَّك الأندونيسيون لنزع السلاح من أيدي اليابانيين، وصارت فرق الدفاع نواة الجيش، بينما أسّس حزب الله حكومةً وسط جزيرة جاوه في بقعةٍ جبليةٍ عُرفت باسم (دار الإسلام)، وأطلقوا على عاصمتها اسم (المدينة المنورة)، وجعلوا لغتها الرسمية اللغة العربية، وعملوا على تطبيق الشريعة في الحكم، برئاسة زين العارفين.

ولكن القيادة العليا للحلفاء أصدرت أوامرها للقوات اليابانية المستسلمة بأن تُحافظ على الأمن، وتحتفظ بأسلحتها، وتنتظر وصول قوات الحلفاء لاستلام الأمر منها، ولم تُدرك الحكومة الأندونيسية سرّ وخطر هذا الأمر. وجاء الجنود البريطانيون، ولم يتألّم السكان من مجيئهم في بداية الأمر، ولكن لم يلبث أن أخذ الجنود الهولنديون يدخلون أندونيسيا تحت مظلّة وحماية البريطانيين، وطلب الهولنديون اعتقال الزعماء الأندونيسيين، وأخذوا يُحاولون إقناع حلفائهم بأن حركة الاستقلال هذه إن هي إلا مؤامرة يابانية، وادّعى الحلفاء أنهم جاءوا لحفظ الأمن والنظام، وعندما اتضح للسكان الهدف الحقيقي من وراء نزول الحلفاء نشب القتال بينهم وبين القوات الهولندية والبريطانية. وقد رفضت القوات الهندية المسلمة الموجودة في صفوف القوات البريطانية قتال إخوانهم المسلمين الأندونيسيين، إذ رفضوا الأوامر، وأعلنوا العصيان، وكانت الهند لا تزال دولةً واحدةً، لم تنفصل بعد إلى هند وباكستان، وكانت لا تزال تحت السيطرة البريطانية.

تداعى المسلمون من مختلف أرجاء أندونيسيا لعقد اجتماعٍ بعد أن وجدوا أن الحركات الاستعمارية الصليبية، والشيوعية الإلحادية، والمحلية العلمانية ومن يسير وراء هؤلاء جميعاً لمصلحةٍ له، كلهم يتفقون ضدّ

= الأندونيسية بهولندا، وفي المؤتمر الدولي لمناهضة الاستعمار العالمي في بروكسل في بلجيكا، ووزار اليابان، وتولّى رئاسة تحرير جريدة (نداء الشعب)، واعتقل عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) حتى أطلق اليابانيون سراحه عندما دخلوا أندونيسيا بعد سجن دام سبع سنوات، ثم أصبح نائباً لرئيس الجمهورية، ثم اعتقل في جزيرة (بانكا) وكان صاحب دين وخلق.

المسلمين، ويعملون لإبعادهم بعد أن رأوا مكانتهم وقيادتهم للأمة، وعُقد هذا اللقاء في مدينة جاكرتا في الثاني من شهر ذي الحجة ١٣٦٤ هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٤٥ م)، وكان ذلك أكبر مؤتمرٍ إسلاميٍ، وتمّ الاتفاق على الانضواء في تنظيم إسلاميٍ واحدٍ، سمي (مجلس شورى مسلمي أندونيسيا) وعرف باسم «ماشومي»، ولم يُعارض أحد من الحضور ولم يتخلّف أحد، بل كان إجماع على ذلك، وهذا ما أخاف المستعمرين الصليبيين ففضّلوا التفاهم مع العلمانيين المحليين من شيوعيين، وقوميين، ومن عُرفوا باسم الوطنيين، وأسرعوا إلى عقد لقاءٍ بين ممثلي هولندا وممثلي الجمهورية الأندونيسية برئاسة الوسيط البريطاني اللورد (كيليرن)، ونتج عن اللقاء توقيع اتفاق (لنيجار دجاتي) الذي اعترفت هولندا بموجبه بسلطة الحكومة القائمة الفعلية على جزر (جاوه، سومطرة، مادورا) فقط، ولم يدم هذا الاتفاق طويلاً إذ أخذ الهولنديون يقومون بأعمال عسكرية ضدّ الحكومة الأندونيسية والأراضي التي تسيطر عليها. وتدخّلت الأمم المتحدة وألزمت هولندا على وقف إطلاق النار، وتبع ذلك عقد هدنة موقتة، وبعد جهودٍ توصّل الطرفان إلى اتفاق (رانفيل)، و(رانفيل) اسم الباخرة الأمريكية التي عقدت عليها المفاوضات في شهر صفر ١٣٦٧ هـ (كانون الثاني ١٩٤٨ م)، ولكن بعد أن انتقصت أراضي الجمهورية الأندونيسية، واقتصرت على قسمٍ من جزيرة جاوة، وقطعةٍ صغيرةٍ من سومطرة، وكانت عاصمة الجمهورية مدينة جوكجاكرتا، أما الهولنديون فقد بقوا في بتافيا (جاكرتا) ولكن لم ينته العام حتى قامت هولندا مجدداً بأعمالٍ عسكريةٍ، واحتلّت العاصمة جوكجاكرتا، واعتقلت الزعماء الأندونيسيين ومنهم: أحمد سوكارنو، ومحمد حتا، وعجوز سالم[١]، وسوتان شاهرير[٢]، إضافةً إلى عددٍ من الوزراء

---

(١) عجوز سالم: شغل منصب وزير الخارجية عدة مرات، وكان مسلماً تقياً، توفي عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م).

(٢) سوتان شاهرير: تسلّم رئاسة الوزراء عدة مرات، وكان في الوفد الذي فاوض هولندا للحصول على الاستقلال.

وكبار الموظفين وذلك في ١٧ صفر ١٣٦٨ هـ (١٨ كانون الأول من عام ١٩٤٨ م) فاستلم (سڤافردوين) أحد زعماء حزب ماشومي السلطة مع عددٍ من زعماء الحزب الوطني، ونقلوا مقرهم من العاصمة (جوكجاكرتا) إلى مكانٍ داخل جزيرة سومطرة وتابعوا قتال الهولنديين، وقام الجيش الأندونيسي والشعب بحرب عصاباتٍ أنهكت قوات المستعمرين الصليبيين الذين وجدوا أنهم لا طاقة لهم باستمرار المقاومة، كما أن الرأي العام ضدّهم، ويخضعون لضغطٍ خارجيٍ، ولذا فقد اضطروا إلى الموافقة على عقد مؤتمر المائدة المستديرة في (لاهاي) في شوال ١٣٦٨ هـ (آب ١٩٤٩ م) للمفاوضة على نقل السلطات كاملةً إلى الحكومة الأندونيسية ودون قيدٍ أو شرطٍ، وفي ٧ ربيع الأول ١٣٦٩ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ م) تمّ نقل السلطات في احتفالٍ في مدينة (لاهاي)، وكان يُمثّل أندونيسا محمد حتا.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد عمل أعداء المسلمين جهدهم لتصديع حزب ماشومي الذي يُمثّل وحدة المسلمين، وكان أول انفصالٍ حدث في هذا التنظيم عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) عندما انفضّت جماعة من حزب (شركة إسلام) من التنظيم، وأعلنت عن إعادة قيام حزبهم، كحزبٍ مستقلٍ، ويعود ذلك إلى معارضة حزب ماشومي لحكومة عامر شرف الدين الشيوعية. ثم انشق عنه حزب التربية والاستقلال برئاسة سراج الدين عباس عام ١٣٦٨ هـ. وبعد خمسة أعوام حدث انفصال آخر عندما أعاد حزب نهضة العلماء قيام حزبه من جديد، واعتباره حزباً منفصلاً عن حزب ماشومي، بل أصبح يقف في الصف المعارض لحزب ماشومي على الحق وعلى الباطل، ومع ذلك بقي للحزب مكانته ويُمثّل الأغلبية الإسلامية[1].

---

(١) انعقد بعدئذٍ مؤتمر عام ضمّ الفئات الإسلامية كلها، وعُدّ حزب (ماشومي) أصلاً، وكل الأحزاب والمنظمات الإسلامية الأخرى فروعاً له.

ومن ناحيةٍ ثالثةٍ عمل أعداء المسلمين على مختلف أسمائهم على تقوية الشيوعيين للوقوف في وجه التيار الإسلامي، فقد أوكل رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو إلى عامر شرف الدين الشيوعي رئاسة الحكومة في ١٤ شعبان ١٣٦٦ هـ (٣ تموز ١٩٤٧ م) فاحتفظ لنفسه إضافة إلى رئاسة الوزراء بمنصب وزير الدفاع ليتمكّن من الإشراف على القوات المسلحة، ويستطيع اللعب بتصفية العناصر الإسلامية من الجيش وخاصة الضباط أصحاب الرتب العليا، وإحلال ضباط شيوعيين مكانهم، غير أن هذا العمل لقي معارضةً عنيفةً من الشعب، والصحافة، والمجلس النيابي، وأمام هذا الضغط الشعبي اضطر محمد حتا نائب رئيس الجمهورية أن يستخدم سلطته فأصدر مرسوماً جمهورياً بتاريخ ٥ ربيع الأول ١٣٦٧ هـ (١٦ كانون الثاني ١٩٤٨ م) يقضي بإقالة حكومة عامر شرف الدين، وتولّى بنفسه مهمة تشكيل وزارةٍ جديدةٍ فثارت ثائرة الشيوعيين، وابتدأ هجومهم العنيف.

الثورة الشيوعية الأولى:

ألّف الحزب الشيوعي الأندونيسي مجلساً للثورة وقيادةً عليا، وقدّم أحدهم، وهو (عيديد) مذكرةً إلى الحكومة يُطالب فيها بالتبادل السياسي مع الدول الشيوعية، وبالتأميم، ومصادرة الأملاك، وإقالة الحكومة القائمة التي يرأسها محمد حتا. وفي ١٩ شوال ١٣٦٧ هـ (٣ أيلول ١٩٤٨ م) دعت صحيفة العمال الشيوعية الحكومة إلى الانضام إلى المعسكر الشيوعي تحت لواء (الكرملين)، والسير مع الدول الماركسية.

وفي ١٥ ذي القعدة ١٣٦٧ هـ (١٨ أيلول ١٩٤٨ م) بدأت الحركة الشيوعية باختطاف ضباطٍ من الجيش، وقامت بأعمال الإرهاب في كل مكانٍ، وتدخّلت الحكومة، فأنزلت قوات الجيش إلى الشوارع، وأنذرت المختطفين بالإفراج عمن اختطفوهم، فلم يستجب أحد للأوامر، بل زادت الحوادث عنفاً، واختطف الشيوعيون بعض القادة المسلمين، وكان منهم

الدكتور (ماوردي) وثلاثة من زملائه، وقتلوهم مباشرةً، ومثّلوا بجثثهم، وهاجموا مراكز الشرطة.

وفي ١٦ ذي القعدة ١٣٦٧ هـ (١٩ أيلول ١٩٤٨ م) أعلنت إذاعة (ماديون) عن قيام جمهورية أندونيسيا السوفيتية، وتولّى رئاسة الحكومة فيها عامر شرف الدين الذي ألقى بياناً من الإذاعة. وهكذا أصبح في أندونيسيا حكومتان، أولاهما وهي الشرعية برئاسة محمد حتا وعاصمتها (جوكجاكرتا)، وثانيتهما سوفيتية برئاسة عامر شرف الدين، وعاصمتها (ماديون).

أعلن المسلمون الجهاد، ودوّت كلمة (الله أكبر) في كل مكانٍ، وتحرّك الجيش الأندونيسي بقيادة (عبدالحارث ناسوتيون)[1] فاستطاع القضاء على الشيوعيين. وكان نتيجة الثورة قتل ألف وخمسمائة من العلماء وأساتذة المدارس الإسلامية، وإحراق جثثهم بعد إعدامهم، وكُويت أعين عددٍ كبيرٍ من الأطفال تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة بالحديد المحمّى.

وسيق زعماء الشيوعيين إلى السجون والمعتقلات، وقدّموا للمحاكمة، فحكم على عددٍ منهم بالإعدام، ونُفّذ بهم رمياً بالرصاص في ١٨ صفر ١٣٦٨ هـ (١٩ كانون الأول ١٩٤٨ م) في مدينة (كارانغ أنغار) في مقاطعة (سوراكارتا) جزاءً بما اقترفت أيديهم، وفي مقدمتهم رئيس الحكومة عامر

---

(١) عبدالحارث ناسوتيون ولد عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) في جزيرة سومطرة، كان أبوه من رجال العلم، تعلم بإحدى المدارس الهولندية، وعمل مدةً بالتدريس، ثم التحق بالكلية العسكرية الهولندية في (باندونغ) وتخرّج عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)، والتحق بجيش جزر الهند الشرقية، اشترك في حرب العصابات أثناء الاحتلال الياباني، ووقع في الأسر.
تولّى رئاسة الأركان بعد الاستقلال حتى ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م)، ثم تولّى منصب وزير الدفاع، أحبط الانقلاب الشيوعي في ٥ جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (٣٠ أيلول ١٩٦٥ م)، أُعفي من منصبه، وتولّى مكانه سوهارتو.

شرف الدين إضافةً إلى تسعةٍ من رفاقه، وكان هذا بأوامر رئيس الحكومة، نائب رئيس الجمهورية محمد حتا على حين بقي أحمد سوكارنو صامتاً في هذه المدة كلها.

ولكن الحزب الشيوعي الهولندي الذي حرّك الثورة كان على نيةٍ أو على اتفاقٍ لإعادة الكرة من قبل هولندا على أندونيسيا، لذلك ما أن قُضي على الثورة الشيوعية حتى شعرت هولندا أن الوقت مناسب لها لتتحرك من جديدٍ فإن وضع البلاد لا يسمح لها بالدفاع عن أرضها. وفي الوقت نفسه يجب ألا تسمح للمسلمين باستلام السلطة، وهذا ما تؤيّدها فيه الدول الاستعمارية كلها وبالتالي الأمم المتحدة التي تتحرّك أساساً حسب إشارة ورأي تلك الدول الكبرى الاستعمارية الصليبية، فأسرعت هولندا وأرسلت قواتها التي احتلت العاصمة (جوكجاكرتا)، واعتقلت الزعماء في ١٧ صفر ١٣٦٨ هـ (١٨ كانون الأول ١٩٤٨ م) كما سبق أن رأينا، وكان اعتقال أحمد سوكارنو للتعمية، وللاحتفاظ به على رأس القائمة التي يُطلقون عليها اسم «الوطنية».

الفصل الثاني

الاستقلال

حصلت أندونيسيا على استقلالها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في ٧ ربيع الأول ١٣٦٩ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ م) وكانت مُؤلفةً من جمهورية أندونيسيا والدويلات التي أقامتها هولندا، فهي دولة اتحادية، واستمرّ ذلك النظام حتى ٤ ذي القعدة ١٣٦٩ هـ (١٧ آب ١٩٥٠ م).

عندما سُلّمت السلطات السياسية رسمياً إلى جمهورية أندونيسيا قامت اضطرابات خطيرة في مناطق الدويلات، وساد فيها العنف، وبدت بوادر حربٍ أهليةٍ، فتقدّم محمد ناصر أحد زعماء حزب ماشومي في المجلس النيابي باقتراحٍ عُرف فيما بعد بـ (اقتراح محمد ناصر الوحدوي)، ويقضي بأن تقوم كل دولةٍ من دول الاتحاد بما في ذلك جمهورية أندونيسيا (جمهورية جوكجاكرتا) بحلّ نفسها، ثم تقوم على أنقاض الجميع دولة جمهورية أندونيسيا، وقد حصلت الموافقة على هذا الاقتراح بالإجماع، وتمّ ذلك، وابتعد شبح الحرب الأهلية الذي كان مخيماً على البلاد، وينتظره المستعمرون الصليبيون الهولنديون.

عهد إلى محمد ناصر بتشكيل أول حكومةٍ في جمهورية أندونيسيا الموحدة في ٤ ذي القعدة ١٣٦٩ هـ (١٧ آب ١٩٥٠ م). وبقيت هذه

الـوزارة في الحكم حتى ربيع الأول ١٣٧١ هـ (كـانون الأول ١٩٥١ م) حيث تعاون الشيوعيون مع رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو للوقوف في وجهها.

كلّف رئيس الجمهـورية زعيمـاً آخر من قـادة حزب مـاشـومي هـو (سويكيمان) لتشكيل الوزارة، واستمـرّت ما يقـرب من عامٍ في السلطة، وتقرّر إجراء انتخاباتٍ في مطلع عام ١٣٧٥ هـ (أيلول ١٩٥٥ م)، لتشكيل المجلسِ التأسيسي لوضع دستورٍ دائمٍ للبـلاد، ثم اعتباره مجلساً نيابيـاً، وتقـرّر أن يضمّ المجلس مـائتين وثـلاثـةً وسبعين عضـواً، وعهـد إلى برهان الدين هاراهـاب أحد قـادة حزب مـاشومي لتشكيـل الحكومـة التي ستشـرف على الانتخابـات، وأجريت الانتخـابـات، واشتـرك فيهـا سبعـة وعشرون حزباً، وأظهرت الانتخابات تقدّم أربعة أحزاب، وكانت النتـائج كالآتي:

حزب ماشومي	وحصل على ٥٧ مقعداً وظهرت شعبيته خارج جزيرة جاوه، ونال أقل الأصوات في شرقي جزيرة جاوه.
الحزب الوطني	وحصل على ٥٧ مقعداً، ونال أكثر الأصوات في جزيرة جاوة.
نهضة العلماء	وحصل على ٤٥ مقعداً.
الحزب الشيوعي الأنـدونيسي	وحصل على ٣٩ مقعداً.
الحزب النصراني البروتستانتي	وحصل على ٨ مقاعد.
الحزب النصراني الكاثوليكي	وحصل على ٦ مقاعد.
شركة إسلام	وحصل على ٥ مقاعد.
التربية الإسلامية	وحصل على ٤ مقاعد.

عهد رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو إلى رئيس الحزب الوطني (علي ساستروا ميغويو) بتشكيل الوزارة، فألّف حكومةً ائتلافيةً، كانت أميل إلى الشيوعية، ووقف حزب ماشومي موقف المعارضة، وكان قد قرر ألا يتعاون مع الشيوعيين أو مع من يعطف على الشيوعيين أو مع من يعطف عليه الشيوعيون، وعُرفت هذه السياسة بالمبدأ المجنّح، لهذا كانت معارضته عنيفةً، وبالتالي كان الحقد عليه شديداً.

قام الرئيس أحمد سوكارنو عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) بزيارة للامبراطورية الروسية، تلتها زيارة إلى الصين، وعندما رجع إلى بلاده أعلن أن الطريق الوحيدة للتقدّم هو السير في خط «الديمقراطية الموجّهة»، وتقضي أن يُعيّن رئيس الجمهورية نصف أعضاء المجلس النيابي، فرفض المجلس النيابي هذه النظرية، فحُلّ بموجب مرسومٍ جمهوريٍ بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٣٧٨ هـ (٥ تموز ١٩٥٩ م)، ثم أُلغي كذلك المجلس النيابي الذي تلاه، ودعي المجلس النيابي الذي أُلغي عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م)، ثم صدر مرسوم جديد بتاريخ ١٦ رمضان ١٣٧٩ هـ (١٣ آذار ١٩٦٠ م) ألغاه ليحلّ محلّه مجلس نيابي جديد يقبل نظرية «الديمقراطية الموجّهة»، ولقد رفض حزب ماشومي، والحزب الاشتراكي هذه النظرية، وأيّدها كل من الحزب الوطني، وحزب نهضة العلماء، والحزب الشيوعي وأعطى المجلس النيابي الجديد رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو لقب «القائد العظيم للثورة»، مما جعله فوق الدستور، ثم انتخبه عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) رئيساً مدى الحياة.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ كان نائب رئيس الجمهورية محمد حتا قد قدّم استقالته من منصبه احتجاجاً على هذه السياسة، وعلى النفوذ الواسع الذي أصبح للشيوعيين الذين أصبحوا يستخدمون اسم الرئيس أحمد سوكارنو، ويتحركون من خلفه إضافةً إلى استخدام الحزب الوطني لهذا الاسم أيضاً، وأخذ محمد حتا يُؤيّد حزب ماشومي، وكل من يقف في وجه هذه

السياسة. وكانت حكومة الحزب الوطني الائتلافية التي يرأسها (علي ساستروا ميغويو) ضعيفةً، فأخذ الاستغلال الشيوعي يُسيطر على سياسة أندونيسيا الداخلية. وارتفعت الأصوات تُطالب بتحسين الأوضاع والاهتمام بالمناطق التي خارج جزيرة جاوة إذ كانت مهملةً، ونتيجةً لهذا الوضع حدث انقلاب في جزيرة سومطرة التي كانت تُعدّ مركزاً قوياً لحزب ماشومي، وقد حصل على ٩٠٪ من أصوات الناخبين فيها، وبسبب السياسة العامة استقال وزراء حزب ماشومي من حكومة سومطرة المحلية، وبدا التوتّر، وظهر عدم ارتياح السكان عامةً، ويُفاجأ الشعب بانقلابٍ في الجزيرة عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) يقوده العميد أحمد حسين المعروف باسم «نمر سومطرة» لجهاده الطويل ضدّ الهولنديين في معركة الاستقلال، ومن زعماء الثورة أيضاً مدير الجامعة، ومحافظ بنك أندونيسيا كما اشتعلت الثورة في جزيرة سيليبس (سلاويزي). ولكن فشلت هذه الثورة بعد أن استمرّت مدةً من الزمن، وبعد خمودها استمرّ أفرادها يُقاتلون كحرب عصاباتٍ. واقترح رئيس الجمهورية تقسيم سومطرة إلى ثلاث مناطق بعد ثورتها في سبيل التجزئة، وارتفعت الأصواتٍ تطالب باستقالة الحكومة، وتتجه الأنظار إلى محمد حتا ليتسلّم السلطة، ولكن الحكومة قرّرت البقاء في استلام السلطة، وأصرّ عليها الرئيس أحمد سوكارنو. وما كان من حزب ماشومي إلا أن سحب وزراءه منها، وتبعه حزب نهضة العلماء، فاضطرت الوزارة عندها إلى الاستقالة، وأعلن الرئيس أحمد سوكارنو حالة الطوارىء، وتطبيق الأحكام العرفية في سائر البلاد، وذهبت محاولات الرئيس في تشكيل وزارةٍ مع إبقاء حزب ماشومي بعيداً عنها سدى إذ أصرّ حزب نهضة العلماء على عدم الاشتراك في حكومةٍ لا يُشارك فيها حزب ماشومي، فشكّل الرئيس بنفسه وزارةً نصف أعضائها من المجلس النيابي دون استشارة الأحزاب.

وقُضي على الثورة تماماً عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، واعتقل بعد ذلك

محمد ناصر، وشرف الدين براويرا نيغارا، وبرهان الدين هاراهاب، وعدد آخر من قادة حزب ماشومي، وقادة حركة الشبان المسلمين الأندونيسيين، رغم أن الحكومة قد أصدرت عفواً عاماً عن كل من شارك في الثورة، وذلك في سبيل تهدئة الأوضاع.

محاولات اغتيال أحمد سوكارنو:

في هذه المدة جرت عدة محاولات لاغتيال الرئيس أحمد سوكارنو بسبب النقمة عليه نتيجة سياسته التعسفية، وتوجّهه نحو الشيوعية، ففي عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) هوجم بعد حفلةٍ مدرسيةٍ بقنبلةٍ يدويةٍ، ولكنه نجا، وجُرح غيره، وتمّ إلقاء القبض على الجناة، فأُعدموا رمياً بالرصاص.

وهاجمت طائرة مقاتلة القصر الجمهوري بجاكرتا، وضربت مكتب الرئيس بالصواريخ، ولكنه كان غائباً عنه، وهرب قائد الطائرة، ولكن أُلقي القبض عليه وأُعدم.

وجرت ثمان محاولاتٍ لاغتياله، ولكن كان ينجو في كل مرةٍ ليزداد عتواً وفساداً، ولتكون عاقبته وخيمةً أكثر ـ والله أعلم.

مشكلة غينيا الجديدة:

جزيرة غينيا الجديدة أكبر جزر أندونيسيا، وثاني أكبر جزر العالم مساحةً بعد (غروئنلندا)، تبلغ مساحتها ٧٨٥ ألف كيلو متر مربع، وتقع شمال استراليا، ويفصلها عنها مضيق (توريس)، وتنقسم إلى قسمين:

١ ـ القسم الغربي، ويعرف باسم «إيريان الغربية»، وتبلغ مساحته ٤١٣ ألف كيلومتر مربع، ولم تستطع الدولتان أندونيسيا وهولندا الاتفاق عليه في معاهدة ٧ ربيع الأول ١٣٦٩ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ م) فبقي تحت السيطرة الهولندية.

وافقت هولندا تحت الضغط العسكري على إجراء استفتاءٍ عام بين السكان عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، فتحوّل هذا الإقليم إلى إشراف الأمم المتحدة في جمادى الأولى ١٣٨٢ هـ (تشرين الأول ١٩٦٢ م)، وأخيراً انتهى الأمر إلى أن ضُمّ إلى أندونيسيا في شهر ذي الحجة ١٣٨٢ هـ (أيار ١٩٦٣ م)، ثم جرى استفتاء في ربيع الأول ١٣٨٩ هـ (حزيران ١٩٦٩ م) فأعطت غالبية السكان أصواتهم إلى جانب البقاء تحت الحكم الأندونيسي. وعاصمة هذا القسم مدينة (كوتابارو) وتسمى الآن (سوكارنابورا).

٢ ـ القسم الشرقي: وكان يتبع ألمانيا، ولكنه وضع تحت الانتداب الاسترالي إثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وبقي تابعاً لها، وتبلغ مساحة هذا القسم ٣٧٢ ألف كيلومتر مربع.

ولا يزيد عدد سكان الجزيرة كثيراً على المليون، فالكثافة قليلة لا تكاد تصل إلى ١,٥ شخص في الكيلومتر المربع الواحد. ويعيش السكان فيها حياةً بدائيةً على شكل قبائل تنتقل بين الغابات.

وغينيا الجديدة غنية بالثروات المعدنية والطبيعية، ولا تزال بكراً، وتُغطّي المياه والمستنقعات الأجزاء المنخفضة منها.

الخلاف مع ماليزيا:

أعلن عن قيام اتحادٍ بين كلٍ من اتحاد الملايو، وسنغافورة، وبورنيو الشمالية، وساراواك، بناءً على استفتاء أجري في ربيع الثاني ١٣٨٢ هـ (أيلول ١٩٦٢ م)، وأيّدت هذا المشروع المجالس التشريعية في (ساراواك) و(بورنيو الشمالية)، ولكن حكومة (بروني) لم تُقرّر الدخول في هذا الاتحاد. ثم بناءً على اتفاق ماليزيا الذي جرى بين (اتحاد الملايو) و(سنغافورة) و(ساراواك) و(بورنيو الشمالية) وبين الحكومة البريطانية بتاريخ ١٧ صفر ١٣٨٣ هـ (٩ تموز ١٩٦٣ م)، وقد نصّ هذا الاتفاق على انتقال السيادة في (بورنيو الشمالية) التي أصبح يُطلق عليها اسم (صباح)،

و(ساراواك) و(سنغافورة) من يد الحكومة البريطانية إلى يد الحكومة الماليزية بتاريخ ١١ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (٣١ آب ١٩٦٣ م).

ولكن أندونيسيا والفيليبين كانتا تُعارضان هذا الاتحاد. إذ ترى أندونيسيا أن جزيرة بورنيو كلها جزيرة أندونيسية، وقرّر الرئيس أحمد سوكارنو مجابهة ماليزيا، وتدخّلت الأمم المتحدة، وشكّلت الحكومة الأندونيسية فرقاً لسحق ماليزيا استغلّها الشيوعيون لتدريبهم وتسليحهم، وقد تكون شُكّلت خاصةً لهذا الغرض، وربما كان الشيوعيون هم أصحاب الفكرة، وهم الذين تبنّوها، وهم الذين شكّلوها، واستمرت المجابهة حتى سقوط سوكارنو، ثم حدث الاتفاق بين الطرفين.

القضاء على دار الإسلام:

سبق أن قلنا أن (زين العابدين) كان من حزب نهضة العلماء، ثم انفصل عنهم، وأسّس (حزب الله)، وقد أخفى تنظيمه بالتدريب على أيدي اليابانيين عندما كانوا محتلّين البلاد، فعندما قامت الحركات ضدّ اليابانيين، ثم انصرفوا لقتال الهولنديين، اتجهت جماعة زين العارفين إلى منطقةٍ جبليةٍ وسط جزيرة جاوه، وأسّست حكومةً خاصةً، وطبّقت المنهج الإسلامي على المناطق التي تُسيطر عليها، لذا عُرفت باسم «دار الإسلام» وأسمت عاصمتها «المدينة المنورة»، وجعلت العربية لغةً رسميةً لها. فعندما أخذ أحمد سوكارنو يخطط لإقامة حكمٍ استبداديٍ يعتمد على نظرية «الديمقراطية الموجّهة»، ويستند على الشيوعيين، ويُبعد الإسلاميين، ولما شعر أن الجو أصبح مناسباً له، أصدر أوامره للقيام بهجومٍ على دار الإسلام، فأزالها، وقتل قادتها، ونكّل بأهلها ليكونوا عبرةً لغيرهم.

وأصدر أمراً بتاريخ ٢٤ صفر ١٣٨٠ هـ (١٧ آب ١٩٦٠ م) بحلّ حزب ماشومي، والحزب الاشتراكي واعتقال قادتهما، فكان اعتقال محمد ناصر و(شرف الدين براويرا نيغارا) و(برهان الدين هاراهاب) من قادة حزب

ماشومي. وتخلّص من المجلس النيابي، كما رأينا. وهكذا قضى على «دار الإسلام»، ومحمد حتا، والأحزاب الرئيسية، والقادة المرموقين، والمجلس النيابي، ولم يبق في الساحة سوى أفراد الحزب الوطني حزب أحمد سوكارنو، وبيدهم السلطة، ويتكلمون باسم الرئيس، ويسيئون التصرّف، والشيوعيين الذي يستغلّون الوضع، فيظهرون تأييد أحمد سوكارنو، ويستبدّون بالناس، ويُطمعون آخرين حتى أصبح الوضع بأيديهم.

الثورة الشيوعية الثانية ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م):

نظّم الحزب الشيوعي نفسه من جديد عام ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) بعد فشل ثورته التي قام بها عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، وابتدأ يتقوّى بأسلوبه المعروف بالالتواء، والتقرب من الشعب، وبمساعدة ضخمةٍ من رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو، ووزير الخارجية (سوبندريو)[1]، وأصحاب

(١) سوباندريو: ولد عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) ببلدة (كيبانغان) في جاوه الشرقية من أسرةٍ ثريةٍ، ودرس الطب بجامعة جاكرتا، وتخرج طبيباً عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)، وعمل طبيباً جراحاً أيام الاحتلال الياباني، ثم اعتزل الطب عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م)، وأخذ الادعاء بالعمل لتحرير البلاد، وبالواقع فإنه كان يعمل لنفسه، إذ انتسب إلى الحزب الاشتراكي، وكان من رجالاته البارزين، ثم انتقل إلى الحزب الوطني عندما شعر بقوته، وعندما قوي حزب نهضة العلماء تقدّم بطلب للانتساب إليه، غير أن طلبه قد رفض، فسارع للانضمام للحزب الشيوعي فقُبل طلبه بشرط أن يبقى ضمن الحزب الوطني لخدمة الحزب الشيوعي.
أوفد إلى لندن عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ليعمل للحركة الوطنية، ثم حصلت البلاد على الاستقلال فتولّى منصب أول سفيرٍ للدولةِ الجديدة في لندن، ثم نقل سفيراً إلى موسكو عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)، ثم استُدعي بعد سنتين إلى جاكرتا ليتولى منصب وزارة الخارجية، ثم تولّى منصب نائب أول لرئيس الوزراء عندما جمع سوكارنو بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة. اتصل نشاطه بحل مشكلة إيريان الغربية، وتصفية الديون اليابانية.
عمل في قسم الاستعلامات، وقويت صلته مع (شو أن لاي) رئيس وزراء الصين، ومع (شين يي) نائب رئيس الوزراء، وعمل رئيساً لقلم الاستخبارات، وكان يشغل هذه المناصب كلها يوم اعتقاله، أعدم عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

المصالح الآخرين، وبما يتلقّاه من أموال ضخمةٍ من المعسكر الشيوعي، وبما حصل عليه من تدريبٍ، وسيطرةٍ على فرق (سحق ماليزيا).

استمرّ الاستعداد، والتخطيط، والتدريب عدة سنوات، وأخذ يزيح العراقيل من طريقه، فقد أزاح محمد حتا باستقالته، وأزال دار الإسلام بالقضاء عليها، وانتهى من الأحزاب المعارضة له بحلّها، وتخلّص من المجلس النيابي بإبداله بمجلسٍ يكون حسب رأيه. واعتقد أن الجو أصبح مهيّأً له عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) بعد أن مهّد لذلك، فأعلن بأنه سيكون الحزب الوحيد، وأنه سيحوّل البلاد إلى دولةٍ تسير حسب المنهج الشيوعي، ولا يصحّ أن تبقى بهذه الفوضى، وأن أندونيسيا دولة لا تُناسبها إلا الشيوعية.

ابتدأت أعمال الشيوعيين الإرهابية في سبيل إخافة الناس، والتوجّه نحو الشيوعية في سبيل حماية أنفسهم، أخذ الشيوعيون بالهجوم على المدارس الإسلامية، والشخصيات البارزة منذ عام ١٣٨٤ هـ، وتكرّرت هذه الأحداث في عدة مدنٍ.

عقدت القيادة الشيوعية اجتماعاً في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٨٥ هـ (١٥ أيلول ١٩٦٥ م)، وبحثوا موعد إعلان الثورة، وقرّروا أن يكون في ٥ جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (**٣٠ أيلول ١٩٦٥ م**)، وبرّروا إعلان ثورتهم بـ:

١ ـ مرض الرئيس أحمد سوكارنو الذي قد يُؤدّي به إلى الموت، فإذا لم يُسرعوا باستلام السلطة فستعم الفوضى، وربما يستغلّ الوضع الانتهازيون، ويقفزون إلى الحكم.

٢ ـ عدم مبالاة القوات المسلحة بهذا الأمر، وترك الوضع للظروف، وليكون مشاعاً للانتهازيين.

٣ ـ عدم أهلية مجلس الجنرالات الذي شكلته القوات المسلحة.

٤ ـ رغبة مجلس الجنرالات بالاستيلاء على السلطة.

٥ ـ الأخطار التي تُهدّد البلاد من الرجعية والامبريالية والتي تتلقّى الدعم، لذا يجب اتخاذ الخطوات السريعة لإنقاذ البلاد، ولن يكون هذا إلا باستلام السلطة.

وقد رفعت قرارات هذه الجلسة إلى الرئيس سوكارنو بصورةٍ سريةٍ، فوافق عليها، وأطلع عليها وزير الخارجية سوباندريو، وبعض أعوان الشيوعيين المرموقين.

وعقد اجتماع آخر ليلة تنفيذ المؤامرة، تقرّر فيه المباشرة بالتنفيذ حسب الخطة المرسومة ما دامت الاستعدادات قد تكاملت، ونُفّذت المرحلة حسب المخطط المطلوب.

وفي صباح يوم الخامس من جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (٣٠ أيلول ١٩٦٥ م) أمر رئيس الحرس الجمهوري اللواء (أنتونغ) اختطاف كبار الضباط الآتية أسماؤهم:

عبدالحارث ناسوتيون: وزير الدفاع
أحمد ياني: قائد الجيش البري
سوبرابتو
بارمان: المساعد الأول لقائد الجيش البري
هاريونو
باغاتيان
سوتويو

وكُلّف الضابط عبدالله عارف بتنفيذ المهمة، فقام بها، ولكن قُتل أكثر الضباط أثناء محاولة اعتقالهم، ومُثّل بجثثهم، ونجا منهم عبدالحارث ناسوتيون وزير الدفاع.

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثاني للحركة ٦ جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (الأول من تشرين الأول) أذاعت محطات الإذاعة بعد الاستيلاء عليها أول بيانات الشيوعيين.

أعطى وزير الدفاع عبدالحارث ناسوتيون أوامره للواء سوهارتو[1] نائب اللواء أحمد ياني بتنفيذ الأوامر اللازمة للقضاء على الثورة الشيوعية، وانتفض الشعب يُلاحق الشيوعيين، وبدأت محطة إذاعة (باندونغ) تُذيع بأمر القوات المسلحة بيانات ضدّ الثوار الشيوعيين، ولم تمض ساعات حتى فشل الشيوعيون، وسيطرت القوات المسلحة على الوضع، وبدأ الصراع بين الرئيس أحمد سوكارنو من جهة وبين قادة الجيش من جهةٍ ثانيةٍ.

وفي بداية شهر رمضان ١٣٨٥ هـ (أوائل عام ١٩٦٦ م) أراد سوكارنو إعادة وضع الشيوعية على ما كانت عليه، فحلّ الوزارة، وشكّل حكومةً جديدةً أدخل فيها العناصر الشيوعية، وأبعد العناصر المناوئة لهم، وفي

---

(١) سوهارتو: ولد عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) انتسب إلى الجيش أبان الاستعمار الهولندي عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) أي (جيش جزر الهند الشرقية)، ثم عمل في الجيش الوطني الذي نظمه اليابانيون أثناء احتلالهم أندونيسيا، واشترك في حرب التحرير عندما أعلن الاستقلال من جانبٍ واحدٍ، وبعدها عمل قائداً لمنطقة جوكجاكرتا في جزيرة جاوه الوسطى. وعمل في إخماد جزيرة سيلبيس (سلاويزي) عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م)، وفي غزو إيريان الغربية ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، وتسلّم عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) منصب نائب رئيس الأركان، ثم قائداً لقوات (الكوستراد) الاحتياطية لإحباط حركة الانقلاب الشيوعي ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م). ثم عُيّن قائداً عاماً للجيش البري بعد اغتيال أحمد ياني.
وتسلم سوهارتو وزارة الدفاع بعد إعفاء عبدالحارث ناسوتيون منها في شوال ١٣٨٥ هـ (شباط ١٩٦٦ م)، ثم تولّى رئاسة الوزارة في صفر ١٣٨٦ هـ (حزيران ١٩٦٦ م). وأصبح الحاكم الفعلي لأندونيسيا بعد أن تنازل سوكارنو عن سلطاته التنفيذية في ١٣ ذو القعدة ١٣٨٦ هـ (٢٢ شباط ١٩٦٧ م)، ثم انتخب رئيساً للجمهورية مع رئاسة الوزراء مع وزارة الدفاع في شهر ذي الحجة ١٣٨٧ هـ (آذار ١٩٦٨ م). وأعيد انتخابه عدة مرات، ولا يزال إلى الآن.

مقدّمتهم وزير الدفاع عبدالحارث ناسوتيون، فأدّى ذلك إلى قيام مظاهراتٍ استمرّت شهراً ونصف الشهر اضطر بعدها أن يحوّل كل صلاحياته إلى وزير الدفاع الجديد سوهارتو، وصادق المجلس الاستشاري الأعلى على ذلك، وأن يستمرّ مفعول هذا المرسوم حتى الانتخابات العامة. وبقي سوكارنو في منصبه، ولكن اشتدّت المظاهرات الطلابية والشعبية ضدّه وضدّ الشيوعيين، وكانت تُحاول اقتحام القصر فيمنعها الحرس.

أعلنت الأحزاب السياسية في جاوه الغربية مطالبتها المجلس الاستشاري الأعلى بالنظر في أمر تنحية سوكارنو، وأعلنت رابطة القضاة والمحامين وجوب تقديمه للمحاكمة بصفته المسؤول الأول عن الثورة الشيوعية الثانية.

اتخذ المجلس الاستشاري الأعلى قراراً بإلغاء رئاسة سوكارنو مدى الحياة، وحدّدها بإجراء الانتخابات التي يجب أن تتمّ خلال عامين. وفي ١٣ ذي القعدة ١٣٨٦ هـ (٢٢ شباط ١٩٦٧ م) وقّع سوكارنو على وثيقة يتنازل فيها عن السلطة، ويعطي الصلاحيات جميعها إلى سوهارتو، الذي سمّي رئيساً متصرفاً بالأعمال، ثم أصبح رئيساً للوزراء في شهر رجب ١٣٨٧ هـ (تشرين الأول ١٩٦٧ م) وفي ٨ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ (٧ آذار ١٩٦٨ م) اجتمع المجلس الاستشاري الأعلى برئاسة عبد الحارث ناسوتيون لينظر في أمر محاكمة سوكارنو، ثم اتخذ قراراً بتنحيته، وتعيين سوهارتو رئيساً للجمهورية بالوكالة، وفي ١٣ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ (١٢ آذار ١٩٦٨ م) أقسم سوهارتو اليمين الدستورية أمام المجلس.

سوهارتو:

لا يختلف سوهارتو عن سلفه أحمد سوكارنو بالنسبة إلى معاداة الإسلام، فكلاهما في منطقة شرقي جاوه حيث يكثر أعداء الإسلام، وكلاهما من جماعة «أبنجان» الضالة التي تحاول أن تجمع بين الهندوسية

والإسلام، وإن كانا يختلفان من حيث المنهج، فأحمد سوكارنو يميل إلى الديمقراطية الموجّهة، وسوهارتو يأخذ بمبدأ الديمقراطية الحرة. وعداوة سوهارتو للإسلام هي التي أوصلته إلى سدة الرئاسة. وإن كان في بداية أمره يظهر العبادة كي لا يكون في الصف المقابل للاتجاه الإسلامي صاحب النفوذ الواسع، كما أن الدول الكبرى قد أعطته بعض الصفات الإسلامية ليكون مقبولاً في منصب الرئاسة، ولا يجد مُعارضةً قويةً من الحركات الإسلامية صاحبة الكلمة الكبيرة، وهو ذاته أخذ ينتقد سلفه أحمد سوكارنو ليحصل على رضا الشعب الذي كان يمقت سوكارنو، وذلك بتوجيهٍ من أصحاب النفوذ الصليبي. ولكن عندما آلت إليه الرئاسة بدت عداوته الصريحة للإسلام، وكلما تمكّن ظهرت أكثر ضمن السياسة العامة التي تسير عليها السياسة الاستعمارية الصليبية الهادئة بمحاربة الإسلام ببرودٍ، حيث يبدو المنهج في اتجاه والسير باتجاه آخر(1).

حلّ سوهارتو الوزارة الأندونيسية القديمة، وشكّل حكومةً جديدةً برئاسته، وقرّر المجلس الاستشاري تعيينه رئيساً للجمهورية حتى موعد الانتخابات العامة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)، واعترفت الحكومة بالحزب الإسلامي الجديد (الحزب الإسلامي الأندونيسي)، وأصبح عدد الأحزاب في أندونيسيا عشرة وهي:

١ ـ حزب نهضة العلماء: ويرأس الهيئة التنفيذية أحمد شيخو.

---

(1) تأخذ السياسة الأندونيسية الاتجاه نفسه الذي تسير عليه الدول الإسلامية فلا تعارض أي موقفٍ حتى لا تتجه الأنظار نحوها، وتنتقد الخط الذي عليه، وفي الوقت نفسه لا تتبنّى أي مشروع، ولا تبرز في أي موضوع، وإنما تُظهر الرضا بصمتٍ، والمسايرة بهدوءٍ، والموافقة ببرودٍ، ولكنها لا تقوم بعملٍ إيجابيٍ، ولا تُبدي حماسةً لرأيٍ، ولا تظهر فتوراً لاقتراحٍ. وتخطو خطواتٍ واسعةً لضرب العمل الإسلامي، بفتح المجال الواسع للإرساليات التنصيرية، وتضع القوانين للحدّ من النشاط الإسلامي، بل وتعمل للقضاء على الإسلام بمساعدة المنصّرين لتنصير المسلمين.

٢ ــ حزب شركة إسلام: ويتسلّم نيابة الرئيس محمد خليل إبراهيم.
٣ ــ الحزب الإسلامي الأندونيسي: برئاسة «مينتارغا».
٤ ــ الحزب الوطني الأندونيسي: «محمد اسنين».
٥ ــ الحزب الكاثوليكي: ويتسلّم الأمانة العامة «هارتشيهان».
٦ ــ الحزب البروتستانتي: ويحتلّ منصب أمين سر الرئاسة «سوغيب».
٧ ــ حزب ايبكي: والأمين العام «جيليس طاهر»، ويعني الحزب «مؤيدو حرية أندونيسيا».
٨ ــ حزب موربا الاشتراكي: ورئيسه «سوكرني كرتوديوريو» الذي لم يلبث أن تُوفي.
٩ ــ برتي الإسلامي: ورئيسه «رسلي خليل».
١٠ ــ الفئة العاملة: ويُمثّلها «سوكواتي».

وتقرّر أن تجري الانتخابات العامة في ١٠ جمادى الأولى ١٣٩١ هـ (٣ تموز ١٩٧١ م) وقد انتهت الحملة الانتخابية في منتصف ليلة الثاني من جمادى الأولى (٢٥ حزيران) بعد أن استمرّت شهرين، وأُعطيت الحرية التامة لكل حزبٍ في تبيان برنامجه، كما أُعطي كل حزب ساعةً كاملةً في الإذاعة والتلفزيون. وكانت حكومة سوهارتو قد ضمنت لنفسها حق ترشيح مائة عضوٍ في المجلس النيابي، وحاولت فصل معظم زعماء الأحزاب أصحاب الرأي المستقل، ورمت بثقلها خلف حزب الفئة العاملة (جولكار) الذي هو عبارة عن أمانة سر مشتركة لمنظماتٍ عاملةٍ، وأصبحت بالواقع حزباً حكومياً يُدير الجيش، ونتيجة تأييد الحكومة الواسع حصل هذا الحزب على نجاحٍ كبيرٍ. وكانت نتائج الانتخابات كما يأتي:

الحزب	عدد الأصوات	المقاعد النيابية
الفئة العاملة	٣٤,٣٤٨,٦٧٣	٢٢٧
نهضة العلماء	١٠,٢١٣,٦٥٠	٥٨
الحزب الإسلامي	٢,٩٣٠,٧٤٦	٢٤
شركة إسلام	١,٣٠٨,٢٣٧	١٠
الوطني الأندونيسي	٢,٧٩٣,٢٦٦	٢٠
النصراني البروتستانتي	٧٣٣,٣٥٩	٧
النصراني الكاثوليكي	٦٠٣,٧٤٠	٣
برتي الإسلامي	٣٨١,٣٠٩	٢
موربا الاشتراكي	٤٨,١٢٦	-
حزب أيبكي	٣٣٨,٤٠٣	-
		٣٥١
ويضاف إليهم ممثلو إقليم إيريان الغربية.		٩
		٣٦٠ مقعداً.

وبعد الانتخابات خفّ الضغط على الشعب ثم لم تلبث الحكومة أن أذاعت أن الترف السياسي القائم لا يمكن تحمّله ثم اتخذت قرارا بحرمان الأحزاب والمنظمات التابعة لها من حق ممارسة نشاطها في القرى. وردت على انتقادات الطلبة الداعية إلى الحدّ من التسلّط العسكري والفساد القائم بأن عملهم من الترف السياسي.

وبعد فشل الشيوعية الأكيد عاد التنصير إلى أندونيسيا بقوةٍ. والتنصير

والشيوعية حليفان ضدّ الإسلام ومتنافسان عند وجود مصالح لدولهما. وجاء الآن التنصير ليحلّ محل الشيوعية، وقد خابت، وليتسلّم منها دفة تسيير القافلة في طريق الإبعاد عن الإسلام، وهو بهذا يخدم مصالحه، ويكوّن مادةً خاماً لها، وقاعدةً أساسيةً ترتكز عليها فيما إذا آل الأمر إليها مرةً ثانيةً، أو كان على عاتقها العبء. وفتحت الدولة الباب أمام التنصير فهو يخفّف من معارضة الاتجاه الإسلامي، ويضعف حركاته.

دعت الحكومة الأندونيسية إلى عقد مؤتمرٍ للأديان في جاكرتا عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، فلبّى الدعوة من وُجّهت إليهم، وعقد المؤتمر في دار المجلس الاستشاري الأعلى، ووجه فيه الرئيس سوهارتو نداءً إلى أتباع الأديان كي يركز كل منهم اهتمامه التام على مهمة تصعيد مستوى الوعي الديني في أبناء طائفتهم، وأن يحرصوا على الحيلولة دون أن تحسّ طائفة من الطوائف أنها معرضة لدعايات طائفةٍ أخرى، ومستهدفة لنشاطها.

لقد قدّم الجانب الإسلامي في المؤتمر أسلوباً للتراضي صيغ في مشروع ميثاقٍ بين الأديان مُلبياً نداء الرئيس سوهارتو، ولكن الجانب النصراني سواء أكان الكاثوليكي أم البروتستانتي قد قابل ذلك المشروع بالرفض التام على الرغم من أن النصارى أقلية، وقد سُوّوا بالأكثرية المطلقة فالشكل الطبيعي أن تكون موافقتهم أكيدة.

وقد رصدت هيئة المعونات النصرانية العالمية مبلغ مائةٍ وخمسين ألف دولار، ورصد مجلس الكنائس العالمي مبلغ ثلاثمائة ألف دولار لعام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م)، وهذا مبلغ كبير في أندونيسيا، وهو للعمل التنصيري المحلي. أما المنظمات الإسلامية ففقيرة لا تستطيع العمل بينما كل الإمكانات متاحة أمام النصارى في المدارس، والجامعات والمستشفيات مفتوحة، وتستطيع فتح صدرها لأولئك الناس الفقراء.

وفي المناطق خارج جاوه مثل محافظات: نوساتنغارا، وكليمنتان يملك التنصير أحدث وسائل المواصلات مثل الطائرات العامودية، وطائرات

التشيسنا، والأجهزة اللاسلكية وغيرها، وهذا قد لا تملكه الحكومة.

وتحظى المؤسسات التنصيرية والإرساليات بالترخيصات اللازمة لإنشاء مطاراتٍ خاصة بها، وينال موظفو الحكومة المركزيون والمحليون على خدمات مؤسسات الطيران التنصيرية تسهيلات لتنقلاتهم حيث لا توجد خدمات نقل حكومية، وكذلك إدارة البريد لنقل البريد كالذي يحدث على خطوط التنصير الجوية بين (تيمور كوبانغ) و(انيفابو) حيث تتم رحلتان في الأسبوع.

وكذلك في أعماق إيريان الغربية حيث تتمتع هيئات التنصير والإرساليات فيها منذ أيام الاستعمار الهولندي بتسهيلاتٍ كبيرةٍ.

وليس العمل التنصيري بالأمر الذي يُستهان به، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون حق المعرفة، فالمدارس والمشافي والمستوصفات والمساعدات المادية، وهذا يعقبه حضور دروس أساتذة إخصائيين في التنصير، ولا بد من أن يكون لذلك أثره الواضح في مجتمعٍ بسيطٍ يغلب عليه الفقر، والبؤس، والجهل، وليس له من موجهٍ يقوده إلى شاطىء الأمان، ويقيه زوابع هؤلاء الغرباء من المنصّرين.

وإذا سلم الأمر من المنصّرين فإن هناك أمراً خطيراً هو ناحية استخدام الجنس، وهو ما يعجز عن استخدامه المسلمون بسبب تعاليم دينهم الحنيف. إذ تقوم الفتيات النصارى بإغراء الشبان المسلمين، وإيقاعهم في حبائلهن لإدخالهم إلى النصرانية.

وقد بلغ تساهل الحكومة في أمر الإرساليات التنصيرية، وإطماع رجالها، ومعاداة المسلمين لدرجةٍ أنه قد يعتقل المسؤولون النصارى بعض معلمي الديانة الإسلامية بتحريضٍ من الطلاب النصارى، وذلك بسبب تفسير بعض الآيات الكريمة بشكلٍ لا يروق للنصارى، أو مجرد تلاوتها مثل:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وربما يقوم الطلاب النصارى باعتقال هؤلاء الأساتذة، وتسليمهم إلى موظفي الحكومة. كما تتعرّض بيوت المسلمين إلى زيارة هؤلاء المنصّرين لإسماع أهل البيت أو المنطقة لأقوالهم بالإكراه.

كما أن مخططات فئة الحرفيين (الجولكار)، وهي الفئة الحاكمة اليوم، تحظر على المؤسسات الإسلامية، وعلى الدعاة العمل في المدن والقرى من عواصم (الكاوادانان) فما دون أي المراكز والقرى. وهذا ما يجعل المجال فسيحاً أمام نشاط مجلس الكنائس العالمي أو الأندونيسي للمشاركة في أعمال التنمية ليصول ويجول رجال تنصيرها في القرى والأرياف بكل حرية باسم «التنمية والإنماء». ولا شك أن العمل في الأوساط الريفية سهل نتيجة الحاجة بسبب الفقر، ونتيجة انتشار الأمراض، وبسبب عدم المعرفة، وعدم وجود من يُنبّه ويُرشد، بل لا يوجد من يُوجّه، ولا من ينصح، فالدعاة محظور عليهم الدخول، والمنطقة مُتخلّفة، وهي مسرح لرجال الإرساليات التنصيرية.

استمرّ سوهارتو رئيساً للجمهورية حتى اليوم، وفي كل خمس سنواتٍ يُجدّد انتخابه دون منازعٍ في شهر آذار، فقد جُدّد انتخابه في الأعوام (١٩٧٣ م) و (١٩٧٨ م) و(١٩٨٣ م) و (١٩٨٨ م) ورغم ذلك فإن المؤشّرات كلها تدلّ على عدم رضا الشعب عنه، إذ جرت عدة محاولاتٍ لاغتياله ولكنها أُحبطت، كما جرت محاولة انفصالية في جزيرة إيريان

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٢ ـ ٧٣.

الغربية. ويُقدّر عدد المعتقلين السياسيين عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) بخمسة وخمسين ألف رجل.

وانتُزعت السلطات التشريعيـة من المجلس النيابي أيـام سوهـارتو، وسُلّمت لـزمرةٍ من العسكـريين، ولجهاز الأمن الأسـاسي «كوبكـامتيب»، وضغط على الحركات اليسارية، واتبعت سياسة حرة في الاقتصاد.

النظام السياسي:

أندونيسيا جمهورية يرأسها اليوم سوهارتو. ويُمارس رئيس الجمهورية السلطات التنفيذية ويُعـاونه في الحكم مجلس وزراء مسؤول أمـام رئيس الجمهورية، وهو الذي يُعيّن أعضاءه.

أما السلطة العليا في البلاد فتُمارسها «جمعية الشعب الاستشارية»، وهي التي تنتخب رئيس الجمهـوريـة لمـدة خمس سنـواتٍ، وتضمّ هـذه الجمعية:

٤٦٠ عضـواً من الهيئة التشريعية، التي تشمل ٣٦٠ عضواً منتخباً، و ١٠٠ عضوٍ مُعيّنٍ.

٤٦٠ عضـواً من الحكـومـة، والمبعـوثين، والجمعيـات الإقليميـة، وممثّلي الأحزاب والفئات.

والأحزاب القائمة في أندونيسيا هي

١ ـ الحـزب الـديمقـراطي الأنـدونيسي ويشمـل: الأحـزاب النصـرانيـة، والعلمانية.

٢ ـ اتحاد حزب التطور ويشمل الأحزاب الإسلامية.

٣ ـ أمانة سر المجموعات الفعالة (اتحاد مجموعات حكومية).

وتجري الانتخابات كل خمس سنواتٍ، وقد جرت عام (١٩٧١ م) و

(١٩٧٧ م) و(١٩٨٢ م) و (١٩٨٧ م)، وفي كل مرةٍ الفئة العاملة هي التي تفوز بأكثرية أعضاء الهيئة التشريعية، نتيجة تأييد الحكومة لها. كما كان فوزها غالباً ما يشمل المقاطعات كلها.

وكانت المعارضة تبرز بين الآونة والأخرى بشكلٍ من الأشكال، فقد تقدّم عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) خمسون رجلاً من كبار الشخصيات في أندونيسيا بعريضةٍ ينتقدون فيها السلطة ويُطالبون بالإصلاح.

وتقدّم سوهارتو بتشريعٍ يُطالب فيه جميع المنظمات السياسية لتتبنّى ما عُرف بـ (بانكاسيلا) التي توضّح فلسفة الدولة التي تدعو إلى اتفاق الرأي العام على نقاطٍ محددةٍ، والتسامح الديني، إذ أحسّت الحكومة بوجود أفكارٍ معارضةٍ، وتهدف في الحقيقة من وراء ذلك إلى سكوت المسلمين عما يجري من سياسةٍ تنصيريةٍ وعن الهجمة الصليبية الواضحة من عنوان التسامح الديني.

وحدثت أعمال شغبٍ ضدّ السلطة إذ وقعت تفجيرات، وأحداث تخريبٍ في العاصمة وما حولها، واتهمت الدولة المعارضة للبانكاسيلا بهذه الأحداث، وفي طليعتهم المسلمين الملتزمين، فألقت القبض على أعدادٍ منهم.

وفي شهر رمضان ١٤٠٥ هـ (حزيران ١٩٨٥ م) بدأ تنفيذ (البانكاسيلا)، وبعدها اضطرت الأحزاب على الموافقة عليها. ولكن اشتدت المعارضة في السنتين التاليتين لحكومة سوهارتو في داخل البلاد وخارجها. وقامت الحكومة بردّ فعلٍ فألقت القبض في جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ (شباط ١٩٨٧ م) على تسعةٍ من أعضاء حزب (ايبكي) مؤيدي حرية أندونيسيا بتهمة تورّطهم في محاولة الانقلاب الشيوعي عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) وأودعتهم السجن، ورفضت السماح للمحامين بالدفاع عنهم، بل وحتى المحامين الدوليين. كما صدر في جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ

(شباط ١٩٨٨ م) تشريع يُؤكّد دور جهاز الأمن والمجموعات الفعّالة في الحكم.

أقال الرئيس سوهارتو الجنرال (مرداني) قائد جهاز الأمن، وعيّن مكانه الجنرال (تراي سوتريزنو) مكانه، وكان لهذا التغيير دور في توتّر الوضع في البلاد.

ورشّح الرئيس سوهارتو لمنصب الرئيس زعيم الفئة العاملة (جولكار) وهو (سودارمونو)، أما المسلمون فقد رشّحوا أمير اتحاد حزب التطوّر (جيلاني نارو)، وأبدى الرئيس حياده في هذا الموضوع فرجحت كفة مرشحٍ المسلمين، فاضطر الرئيس عندها إلى وقوفه بجانب (سودارمونو) صراحةً، وأجبر (جيلاني نارو) على سحب ترشيحه فنجح (سودارمونو) دون منازعٍ. وأبدى عضو مجلس الشعب (إبراهيم سالم) رأيه، وأعلن أن الترشيح غير عادلٍ، فمنع في المجلس من متابعة إلقاء خطابه، كما فقد عضويته في المجلس.

أعلن اتحاد حزب التطور عدم رضاه عن تعيين نائب الرئيس (سودارمونو)، وكان قد ازداد نفوذ هذا الحزب في صفر من عام ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م)، لاستبدال جهاز الأمن (كوبكا متيب) الخاضع للجنرال (مرداني)، وبدا هذا النفوذ، وخاصةً عندما ظهرت حملة ضدّ الشيوعيين، إذ نُفي ثلاثة من كبار أعضاء الفئة العاملة (جولكار)، وأُعدم ضابطان من القوات المسلحة سبق لهم أن أُدينوا في محاكمات عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) لتورّطهم في محاولة الانقلاب الشيوعي عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).

وفي منتصف عام ١٤٠٩ هـ (أوائل عام ١٩٨٩ م) وقعت صدامات بين القوات المسلحة وبين السكان بسبب مصادرة الحكومة للأرض دون تعويضٍ مناسبٍ، وقد وقعت في عدة مناطق من جزيرة جاوه، وفي جزيرة

(سومباوا)، ولكن أعنفها ما وقع في جنوبي سومطرة إذ وقع ما يقرب من مائة قتيل بالصدامات التي حدثت هناك.

كانت مهمة جهاز الأمن (كوبكامتيب) إخماد حركات الجناح اليساري. أما مهمة هيئة التنسيق لتطوير الاستقرار الوطني (باكوستاناس) مكافحة الفساد، وتضم ممثلين عن الدولة، ودوائر الحكومة غير العسكرية.

وعندما عُيّن (سودارمونو) نائباً للرئيس استقال من زعامة الفئة العاملة (جولكار)، وتولّى مكانه الجنرال (واهونو) الذي كان مقبولاً من الأحزاب الأخرى.

وأندونيسيا عضو في اتحاد دول جنوب شرقي آسيا، وفي الدول المصدرة للنفط (أوبك).

غينيا الجديدة:

سبق أن قلنا: إنّ جزيرة غينيا الجديدة هي أكبر جزر أندونيسيا، وثاني جزر العالم مساحةً بعد غروئنلندة، حيث تبلغ مساحتها ٧٨٥ ألف كيلومتر مربع، وتقع شمال استراليا، ويفصلها عنها مضيق (توريس)، وتنقسم إلى قسمين:

١" ــ **القسم الغربي**: ويُسمّى إيريان الغربية، وتبلغ مساحته ٤١٣ ألف كيلومتر مربع، وكانت تتبع لهولندا كبقية الجزر الأندونيسية، فلما استقلّت أندونيسيا إثر معاهدة ٧ ربيع الأول ١٣٦٩ هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ م) لم تستطع الاتفاق مع هولندا على هذا الجزء، وبقي يتبع السيطرة الهولندية.

وافقت هولندا على إجراء استفتاء في إيريان الغربية عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، وبقيت حتى ٣ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٦٢ م) تحت السيطرة الهولندية، ووضعت مدةً وجيزةً تحت إشراف الأمم

المتحدة وذلك حتى ذي الحجة ١٣٨٢ هـ (أيار ١٩٦٣ م)، وحُوّلت بعدها إلى أندونيسيا.

٢" ـ القسم الشرقي:

وكان تابعاً لألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى، فلما هُزمت ألمانيا وضع هذا الجزء تحت انتداب استراليا، وبقي تابعاً لها، وتبلغ مساحته ٣٧٢ ألف كيلومتر مربع، ويُعرف هذا الجزء باسم (بابوا).

يبلغ عدد سكان إيريان الغربية مليون وربع (١,٢٥٠,٠٠٠)، وعاصمتها جاجارابورا (سوكارنابورا). وفي جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ (أيار ١٩٧٧ م) قام تمرّد في إيريان الغربية، ويُقال إن منظمة (بابوا الحرة) كانت من ورائه، وتعمل للاتحاد مع (بابوا) الجزء الشرقي من غينيا الجديدة، وتُعرف هذه المنظمة باسم (أورغانيسيا بابوا ميرويكا)، واستمرّ القتال حتى شهر صفر عام ١٤٠٠ هـ (كانون الأول ١٩٧٩ م) حيث وقعت اتفاقية بين أندونيسيا وبابوا لإدارة وتنظيم الحدود بينهما، ولكن بقيت حوادث تقع على الحدود بين الآونة والأخرى.

وفي ربيع الثاني من عام ١٤٠٤ هـ (أوائل عام ١٩٨٤ م) انفجر القتال في عاصمة إيريان الغربية، ونتيجة ذلك انتقل حوالي عشرة آلاف لاجيءٍ إلى (بابوا)، وفي الشهر الأول من عام ١٤٠٥ هـ (تشرين الأول ١٩٨٤ م) وقعت اتفاقية بين أندونيسيا و(بابوا) لمدة خمس سنواتٍ، وأُنشئت لجنة أمنٍ للحدود مشتركة من الدولتين. ولكن استمرّ انتقال الأفراد من إيريان الغربية إلى بابوا طيلة عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م)، وإن كان قد رجع في العام التالي عدد قليل منهم.

كان القلق يسود سكان إيريان الغربية بسبب الشائعات التي يُطلقها المغرضون بأن الحكومة الأندونيسية تنوي إسكان خمسةٍ وستين مليوناً من أهل جاوه في إيريان الغربية على مدى عشرين سنة، ويُصدّق سكان أيريان

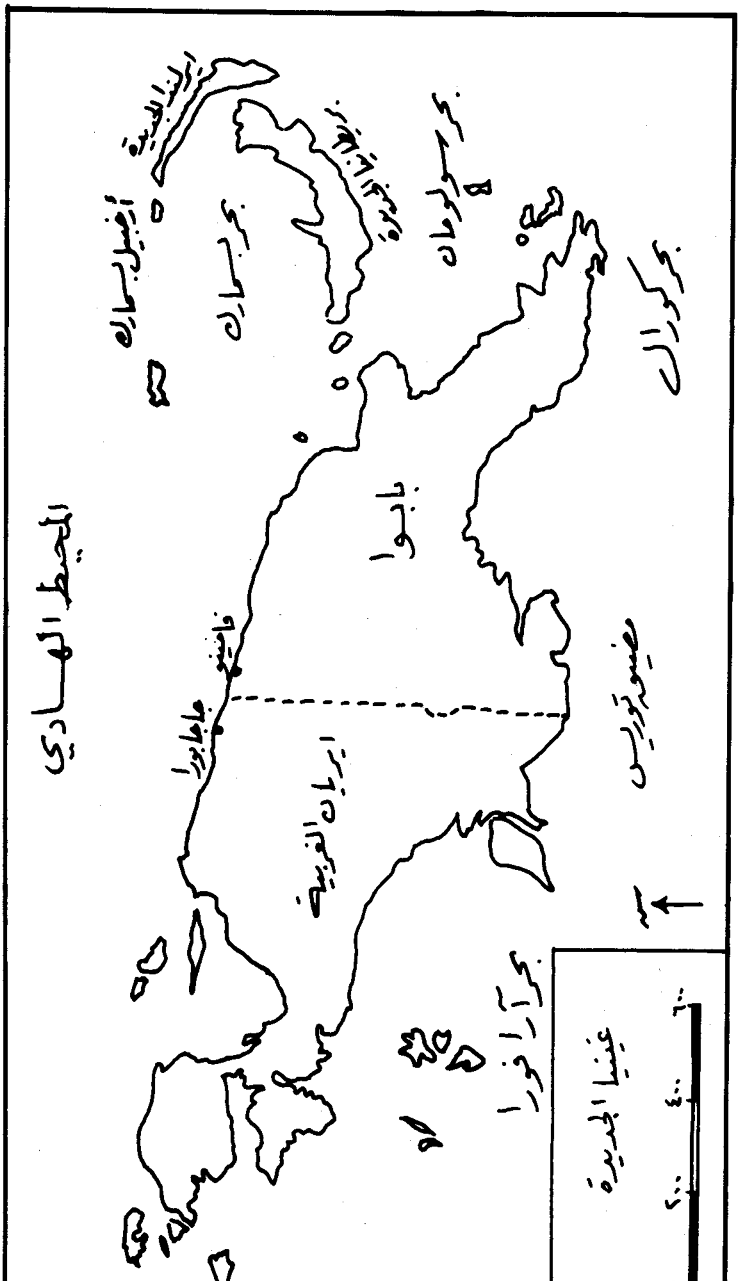
المحيط الهادي
بابوا
إريان الغربية
غينيا الجديدة
بحر آرافورا
مضيق توريس
بحر كورال

مصور رقم [٥]

الغربية هذه الشائعات نتيجة انتقال أفرادٍ من جاوه إلى منطقتهم، فكانت الاحتجاجات والتي تُعلن أن سياسة أندونيسيا تقوم على خفض نسبة السكان الميلانيزيين في سبيل سيطرة الجاويين وأن هذا الأمر يتعدّى أيضاً إلى التدخّل في شؤون سكان جاوه وإلزامهم على الهجرة، وكذلك صدرت احتجاجات من لجنة حقوق الإنسان. ورغم هذا كله فإن ستمائة وخمسين ألف عائلةٍ جاويةٍ قد وُطّنت في إيريان الغربية في ذي الحجة ١٤٠٧ هـ (آب ١٩٨٧ م).

تحسّنت العلاقات بعد زيارة رئيس الوزراء (باياس وينغتي) للرئيس سوهارتو في جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ (كانون الثاني ١٩٨٨ م)، ولكن جرت غارات من قبل القوات المسلحة الأندونيسية خلال شهري ربيع الأول والثاني من عام ١٤٠٩ هـ (تشرين الأول والثاني من عام ١٩٨٨ م) في محاولاتٍ لاختطاف الزعماء الانفصاليين من الميلانيزيين، وهذا ما أدّى إلى إعادة التوتّر على الحدود.

وأخيراً جرت محادثات بين الطرفين من أجل الوضع على الحدود وذلك في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) وتقرّر إقامة قنصليةٍ لـ (بابوا) في (سكارنابورا) عاصمة إيريان الغربية، وفي الوقت نفسه تقوم قنصلية في مدينة (فامينو) الحدودية في (بابوا).

تيمور الشرقية:

عندما حلّ الهولنديون محلّ البرتغاليين في استعمار أندونيسيا بقيت للبرتغاليين بعض القواعد، وأهمها في جزيرة تيمور، إذ بقي لهم الجزء الشرقي منها، ومنطقة (أوكسي إمبينو) في الجزء الشمال الغربي، وعاصمة هذه القاعدة البرتغالية مدينة (ديلي) التي تقع على الساحل الشمالي للجزيرة.

تبلغ مساحة الجزء البرتغالي في جزيرة (تيمور) ١٤,٨٧٤ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها اليوم ٦٨٥,٠٠٠ شخص. ومع طول مدة

الاستعمار البرتغالي نشأت جماعة من السكان تختلف في ثقافتها ومفاهيمها عن بقية سكان أندونيسيا، فكانت هذه الجماعة ترى بقاءها مستقلةً عن بقية الجزر، وقد نظّمت نفسها.

انسحبت البـرتغـال من تيمـور عـام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، غيـر أن العاصمة (ديلي) كانت تحت سيطرة الذين يرون استقلال تيمور الشرقية. فنشبت حرب أهلية في شعبان ١٣٩٥ هـ (آب ١٩٧٥ م)، وقامت الحكومة الأنـدونيسية بمسـاعدة بعض الفئـات المؤيّـدة لـلانضمـام إليهـا ودعمتهـا بالسلاح، ثم عادت الحكومة الأندونيسية مباشرةً في ذي الحجة ١٣٩٥ هـ (كانون الأول ١٩٧٥ م)، وأنشـأت حكومـةً إقليميةً. وأعلن مجلس ممثلي الشعب في تيمور الذي شُكّـل آنذاك في جمـادى الأولى ١٣٩٦ هـ (أيار ١٩٧٦ م) الانضمام إلى أندونيسيا وأعلنت الحكومة الأندونيسيـة الموافقـة على ذلك، وأصبحت تيمور الشرقية الولاية السابعة والعشرين.

استمرّت المقاومة ضدّ أندونيسيا عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م)، واستنكر مجلس الأمن الدولي تدخّل أندونيسيا في تيمور، ولم يُؤيّد ذلك الانضمام، وادّعت منظمة حقوق الإنسان أن مائتي ألف من سكان تيمور البالغ عددهم آنذاك ٦٥٠ ألفاً قد قُتلوا أثناء قيام حكومة أندونيسيا بعملية ضمّ تيمور إليها.

وفي جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ (شباط ١٩٨٣ م) زارت بعثة من الأمم المتحدة تمثّل لجنة حقوق الإنسان، وتبنّت قرارا مؤكّدةً حق تيمور الشرقية في الاستقلال، وفي تقريـر المصير. وجـرى وقف إطلاق النـار وفي ذي الحجة ١٤٠٣ هـ (أيلول ١٩٨٣ م) جرت مفاوضات بين ممثلي الحكـومة الأندونيسية وفريق من سكان تيمور الشرقية الذين يدعون إلى استقـلال منطقتهم.

ولكن لم تلبث أن عـادت المعـارك في العـام التـالي بين القـوات المسلحـة الأندونيسيـة وبين المتمردين، فقلّت المـوارد، وانتشر الجـوع، والأمراض بين المواطنين، وعمّ اليأس بالوصول إلى حلّ بين الطرفين.

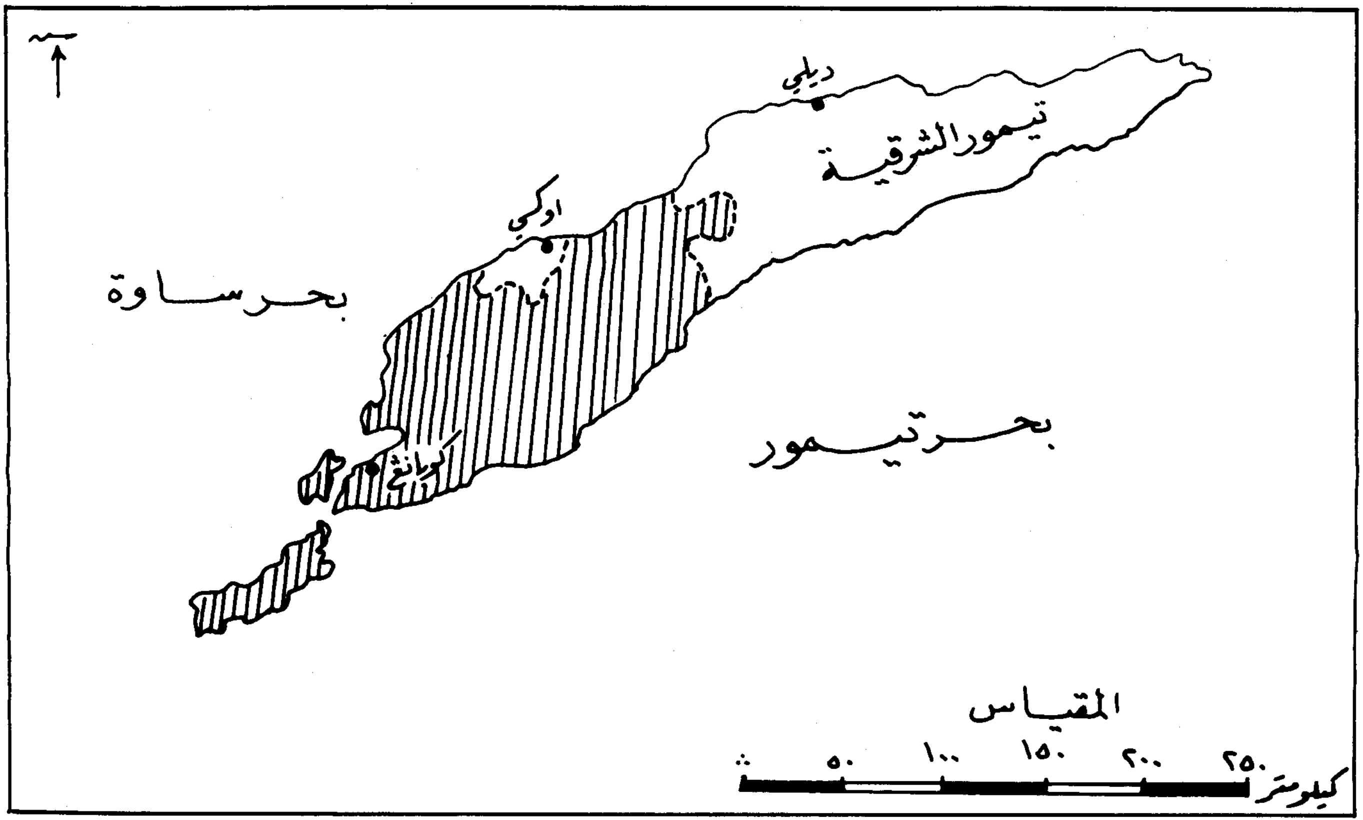
ش
ديلي
تيمور الشرقية
اوكي
بحر ساوة
بحر تيمور
كوبانغ
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٦]

وصوتت استراليا ضد ضمّ أندونيسيا لتيمور الشرقيـة في ذي القعدة ١٤٠٥ هـ (آب ١٩٨٥ م)، وكان لهذا أثره الكبير في المنطقة، حيث أدّى إلى توتّر الوضع ثانيةً.

وقام الرئيس سـوهارتـو بزيـارةٍ إلى تيمور الشـرقية في ربيـع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) وأعلن أن قيود السفر من وإلى تيمور يجب أن تُلغى، وكانت هذه القيود قد فُـرضت منذ أن ضمّت أنـدونيسيا تيمور الشرقية إليها عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

وامتنعت الأمم المتحدة عام ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) عن التصويت لضمّ أندونيسيا لتيمور الشرقية.

وقام البابا بزيارة تيمور الشرقية في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) خلال الزيارة التي قام بها لأندونيسيا.

السياسة الأندونيسية:

تتبع أندونيسيا سياسة عدم الانحياز على الرغم من علاقاتها الوثيقة مع المعسكر الغربي، ولا غرابة في ذلك فأكثر دول هذه المجموعة هذا شأنها، فليس المهم ما تُعلنه الدولة وإنما المهم الخط الذي تنتهجـه، وفي عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) تحسّنت العلاقة بين أندونيسيا والامبراطورية الروسية، وقام وزير الخارجية الروسي بزيارةٍ إلى أندونيسيا في جولةٍ في جنوب شرقي آسيا لمناقشة مشكلة كامبوديا. وفي شهر صفر من عـام ١٤١٠ هـ (أيلول ١٩٨٩ م) زار الرئيس الأندونيسي سوهارتو الامبراطورية الروسية، وأجـرى مباحثاتٍ مع الرئيس الروسي غورباتشوف.

وعارضت منظمة جنوب شرقي آسيا التي تعدّ أندونيسيا أحد أعضائها البارزين الوجود العسكري الفيتنامي في كامبوديا.

ووقّعت أنـــدونيسيـا والصين الشعبيـــة في شــوال ١٤٠٥ هـ (تمــوز

١٩٨٥ م) ميثاق التفاهم فيما يخصّ استئناف العلاقات التجارية المباشرة والتي عُلّقت منذ عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، وأعلنت الحكومة الأندونيسية في شعبان ١٤٠٨ هـ (نيسان ١٩٨٨ م) عن استعدادها لإعادة العلاقات السياسية مع الصين الشعبية بشرطٍ وتأكيدٍ من الصين ألا تتدخّل في شؤون أندونيسيا الداخلية. وكان الرئيس الأندونيسي سوهارتو قد أصرّ حتى تعود العلاقات السياسية بين الطرفين اعتراف الصين بالتورّط في محاولة الانقلاب الشيوعية الفاشلة في أندونيسيا عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م). والتقى الرئيس الأندونيسي سوهارتو في طوكيو مع وزير الخارجية الصيني، وأعلن فيما بعد بأن اتفاقية تطبيع العلاقات قد تمّت. وأن محادثات أخرى قد جرت بين وزراء خارجية البلدين في نطاق الأمم المتحدة في شهر صفر ١٤٠٩ هـ (أيلول ١٩٨٨ م).

وفي شهر صفر ١٤٠٩ هـ (١٩٨٨ م) أغلقت أندونيسيا مضائق الصوند ولومبوك لمدةٍ محدودةٍ أمام الملاحة البحرية بسبب المناورات بالذخيرة الحية فأعربت كل من الولايات المتحدة، وألمانيا الاتحادية، واستراليا قلقها أمام خرق القانون البحري للملاحة علماً بأن السفن الأجنبية المسالمة منها قد سُمح لها بالعبور من تلك المضائق، وبعد شهر قام وزير الخارجية والتجارة الاسترالي بزيارة جاكرتا رغم وجود التوتر بين البلدين بسبب إغلاق المضائق، وتدخّل أندونيسيا في (بابوا)، وأكد على التعاون بين البلدين في منطقة خليج تيمور، وزاد الأمر تحسّناً عندما زار وزير الداخلية الأندونيسي استراليا في ذي الحجة عام ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م) ثم تكرّرت الزيارة بعد شهرين.

وعندما أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية عن قيام حكومةٍ لها في ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (تشرين الثاني ١٩٨٨ م) اعترفت أندونيسيا بها، وافتتحت حكومة فلسطين سفارةً لها في جاكرتا في ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م).

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

تعدّ أندونيسيا أكبر مجموعة جزرٍ في العالم، وتقع هذه الجزر في الجنوب الشرقي من قارة آسيا، بينها وبين قارة أوقيانوسيا من جهةٍ، وبين المحيطين الهندي والهادي من جهةٍ أخرى، ويزيد عدد هذه الجزر على [١٣٦٧٧] جزيرة منها [٦٠٤٤] جزيرة مأهولة بالسكان، والباقي منها لا يُقيم عليه البشر، بعضها كبير معروف، وبعضها صغير مجهول لا يكاد يعرف أسماءها إلا أهل تلك الجهات، منها ما هو غاصّ بالسكان حتى ليعدّ أكثر أرجاء الأرض ازدحاماً، ومنها ما هو قليل العمران حتى ليُعدّ من أقل بقاع الدنيا سكناً. وتنتشر هذه الجزر على مساحةٍ واسعةٍ تزيد على اثني عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة بين برٍّ وبحرٍ، وتمتدّ على طولٍ يزيد على ستة آلاف كيلومتر بين الغرب والشرق، وعلى طولٍ يزيد على ألفي ومائة كيلومتر بين الشمال والجنوب، وتبلغ مساحة اليابس منها ٢,٣٧١,٤١٩ كيلومتراً مربعاً، أي أكبر من الدولة الأوربية التي كانت تستعمرها بثمان وستين مرةً.

تشمل هذه الجزر أربع مجموعات يختلف بعضها عن بعضٍ من حيث النبات، والحيوان، والأرض، والسكان، والمستوى الحضاري، وهذه المجموعات هي:

١ ـ جزر الصوند الكبرى أو الغربية: وتضمّ: سومطرة، جاوه، بورنيو، وما حول هذه الجزر من جزر صغيرة. وتُحيط بهذه الجزر بحار قليلة مما يدلّ على أنها كانت على صلةٍ بالبر الآسيوي، وكثير من أراضيها تُغطيها المستنقعات.

٢ ـ جزر الصوند الصغرى: وهي سلسلة من الجزر الصغيرة تمتدّ من شرق جاوه نحو استراليا، وأشهرها: بالي، لومبوك، سومباوا، سومبا، فلوريس، تيمور. وتتألّف هذه الجزر من قمم الجبال الوعرة جداً التي ترتفع من أغوار البحار الشديدة العمق، الحديثة العهد.

٣ ـ الجزر الشرقية: وتضمّ جزر: سيلبيس (سلاويزي)، مولوك التي تمتدّ حتى الفيليبين.

٤ ـ غينيا الجديدة: وتملك استراليا القسم الشرقي منها، على حين يتبع القسم الغربي منها أندونيسيا ويعرف باسم «ايريان الغربية».

وقد حملت هذه الجزر عدة أسماء على مدار التاريخ، فقد أطلق عليها قديماً اسم «نوسنتارا» ويُقصد بهذا اللفظ الجزر الواقعة بين المحيطين، وهما: الهندي والهادي، أو بين القارتين، وهما: آسيا وأوقيانوسيا، إذ أن لفظ «نوسا» يعني (الجزائر) أو (وطن)، ويعني لفظ «انتارا» (بين). كما أطلق عليها اسم: جزائر الهند، وجزائر الملايو. وسمّاها الهولنديون جزائر الهند الشرقية الهولندية. أما المسلمون فقد كانوا يعطون اسم (جاوه) لكل تلك الجزر حيث تضمّ أكثر السكان، فأطلقوا اسم الجزء على الكل. ومنذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري حملت اسم «أندونيسيا»، ولكن لم تعترف هولندا بهذا الاسم إلا بعد الاستقلال. وهذا الاسم نفسه يدلّ على معنى جزائر الهند، ويشمل بالأصل مجموعات من الجزر خارج حدود دولة أندونيسيا كتلك المجموعات من الجزر التي يُطلق عليها اسم «ميلانيزيا» و «ميكرونيزيا»، كما تشمل أيضاً بالأصل جزر الفيليبين.

وتُعدّ جزر الصوند الغربية قوام أندونيسيا، فجزيرة **جاوه** وحدها تضمّ ٦٠٪ من مجموع سكان أندونيسيا، ويزيد عدد سكانها اليوم على مائة مليون، على حين أن مساحتها لا تزيد على **١٣٢** ألف كيلومتر مربع، وبذلك تزيد الكثافة على ثمانمائةٍ شخص في الكيلومتر المربع الواحد، فتكون بذلك من أكثر بلاد العالم ازدحاماً بالسكان، وتُقيم فيها أكثر الجاليات الأجنبية، فيعيش فيها أربعة أخماس الأوروبيين، ومعظم الصينيين، وستون ألفاً من العرب الحضارمة. وفيها كذلك ثلاثة أرباع شبكة السكك الحديدية التي في أندونيسيا. [انظر مصور [٧]].

وتُعدّ جزيرة **سومطره** ثاني جزر أندونيسيا أهميةً، وتبلغ مساحتها **٤٢٠** ألف كيلومتر مربع، وهي ثالث جزيرة مساحةً في أندونيسيا، والسادسة في العالم بعد غروئنلنده، وغينيا الجديدة، وبورنيو، وبافن، ومدغشقر. ويُعدّ مضيق (مالاقا) الذي يفصلها عن شبه جزيرة الملايو ذا أهميةٍ كبيرةٍ، وهو الممر الوحيد نحو الشرق الأقصى، ويزيد عدد سكانها على الثلاثين مليوناً، فهي ثاني جزيرة في أندونيسيا سكاناً بعد جاوه، ولكن الكثافة لا تزيد فيها كثيراً على سبعين شخصاً في الكيلو متر المربع الواحد. وسومطره أكبر مصدرٍ للنفط في أندونيسيا، كما أن الجزر القريبة منها، وهي: بانكا، وبيللتون، وسنكب تصدر كمياتٍ كبيرةً من القصدير، وفي جزيرة سومطره ربع شبكة الخطوط في أندونيسيا. [انظر مصور [٨]].

وثاني جزر أندونيسيا مساحة هي **بورنيو**، وتبلغ مساحتها **٧٣٤** ألف كيلومتر مربع، وتُعدّ ثالث جزر العالم مساحة بعد غروئنلنده، وغينيا الجديدة، ويُسمّيها الأندونيسيون «كيليمنتان» وأندونيسيا لا تمتلك الجزيرة كلها، ففي القسم الشمالي منها: تقع دولة بروني، كما تمتلك ماليزيا مقاطعتي صباح، وساراواك. ويوجد في الجزيرة النفط والمطاط، ولا يزيد عدد سكانها على ستة ملايين، لذا فإن الكثافة قليلة لا تزيد على ثمانية أشخاصٍ في الكيلو المتر المربع الواحد. [انظر مصور [٩]].

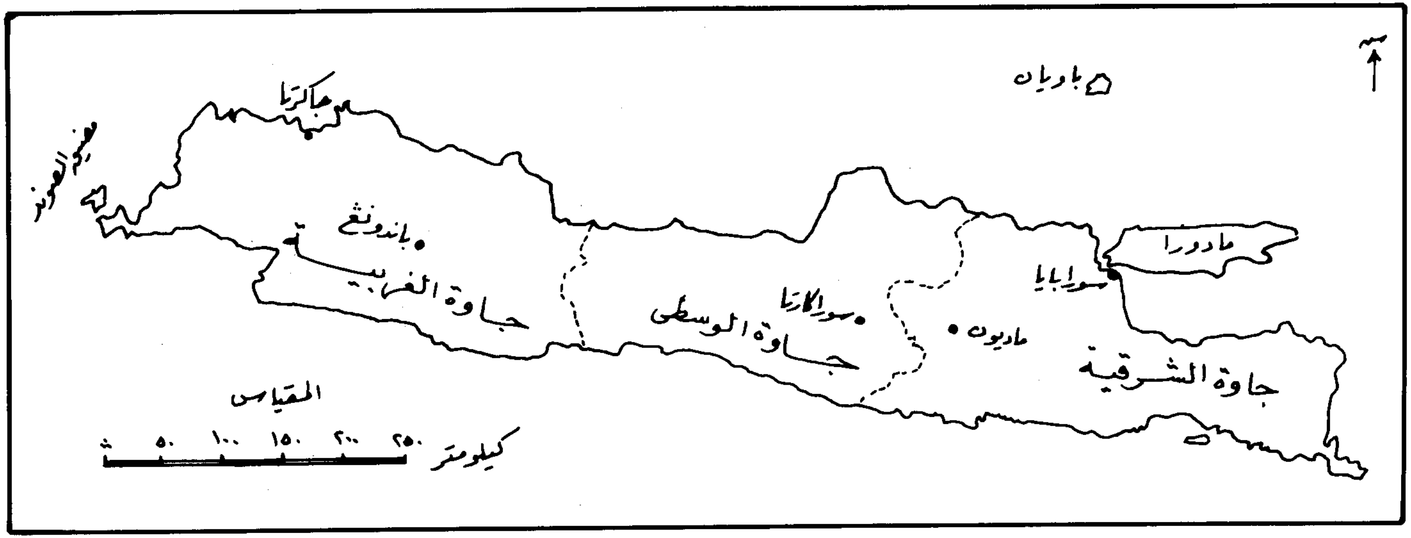
باويان
جاكرتا
مضيق الصوند
باندونغ
جاوة الغربية
سواكارتا
جاوة الوسطى
ماديون
سورابايا
مادورا
جاوة الشرقية
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ كيلومتر

مصور رقم [٧]

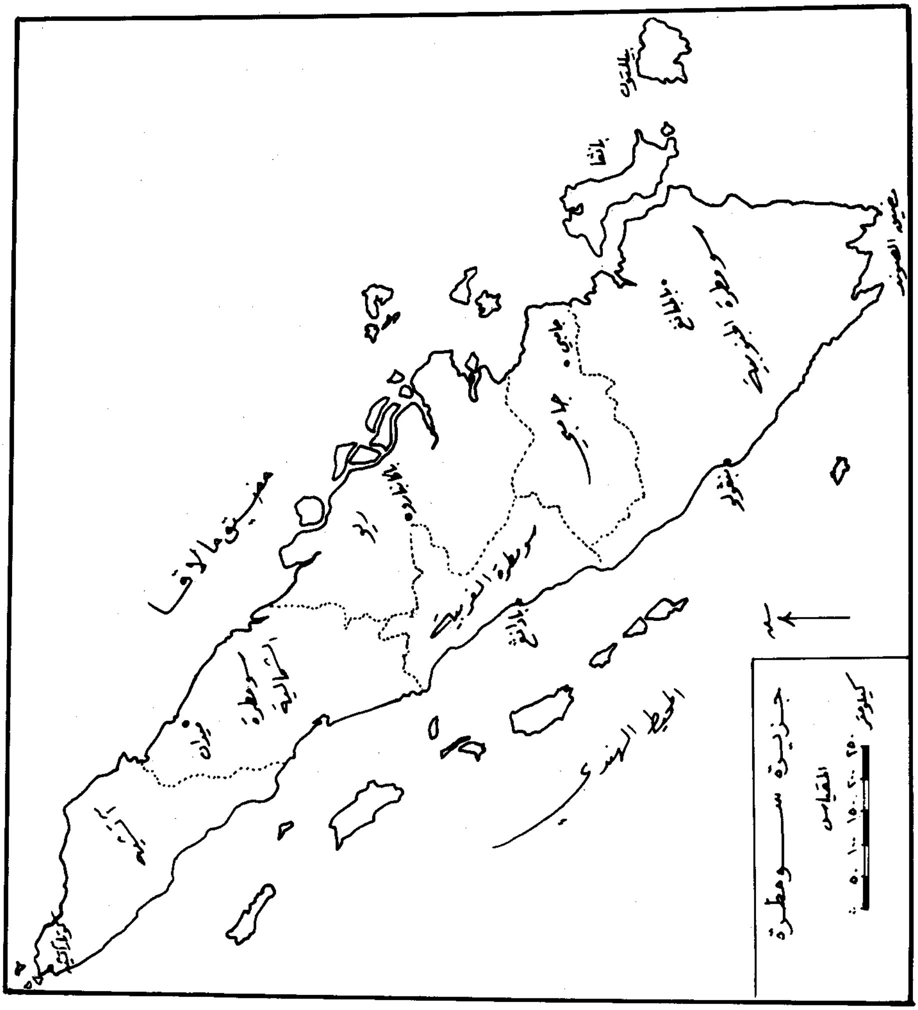

مصور رقم [٨]

جزيرة بورنيو
المقياس
كيلومتر
بحر الصين الجنوبي
صباح
"ماليزيا"
ساراواك
"ماليزيا"
بورنيو الشرقية
بورنيو الغربية
بورنيو الوسطى
بحر جاوه

مصور رقم [٩]

وجـزيرة سيليبس التي يُسمّيهـا الأنـدونيسيـون «سـلاويـزي»، وتعـدّ رابع جزر أندونيسيا مساحةً، وتبلغ مساحتها **١٧٩** ألف كيلو متر مربع، غير أن سكانها لا يزيدون على ثمانية مـلايين، وبذا تكـون الكثافـة فيها **٤٢** شخصـاً في الكيلومتر المربع الواحد، وتُعدّ أهم مركز في أندونيسيا بإنتاج الحرير. [انظر مصور [١٠]].

وجَزر **المولوك**، وهي مجموعة جزرٍ كانت تُعرف باسم جزر التوابل، وأهمها جزيرة هالماهيرا، ثم هناك جزيرة ترنات، وسيرام، وأمبون، وبورو، وقاعدة الجزر مدينة أمبون. [انظر مصور [١١]].

وجزر **الصوند الصغرى** وتمتـدّ شرق جـاوه، ويُسميها الأنـدونيسيون «نوساتنغارا»، وأول هذه الجزر جزيرة «**بالي**» التي لا يزال يُقيم فيها أتباع الديانـة الهندوسيـة، والنساء فيهـا شبه عـارياتٍ، ويقضي السكـان أوقات فراغهم بالرقص، ويحرقون موتاهم على منصات زاهية الألوان، ولا تزال عبادة الإله (سيوه) هي السائدة، ويزيد عدد سكان الجزيـرة على الثلاثـة ملايين والنصف. [انظر مصور [١٢]].

وتليها جزيرة **لومبوك وسمباوا**، **وسومبا**، **وفلوريس**، **وتيمور**، **وجزر تانيمبار**، وأخيراً جزيرة **غينيا الجديدة**.

تبلغ مسـاحة أنـدونيسيا **١,٩١٩,٤٤٣** كيلومتـر مربـع، ويبلغ عـدد سكانها حسب تقديرات عام **١٤١٢ هـ ١٨٨** مليوناً، وبذا تكون الكثافة ما يقرب من **٩٢** شخصـاً في الكيلومتر المربع الواحد، ولكن هذا لا يدلّ على توزّع السكان بشكلٍ صحيحٍ حيث يختلف من منطقة إلى أخرى، وهذا

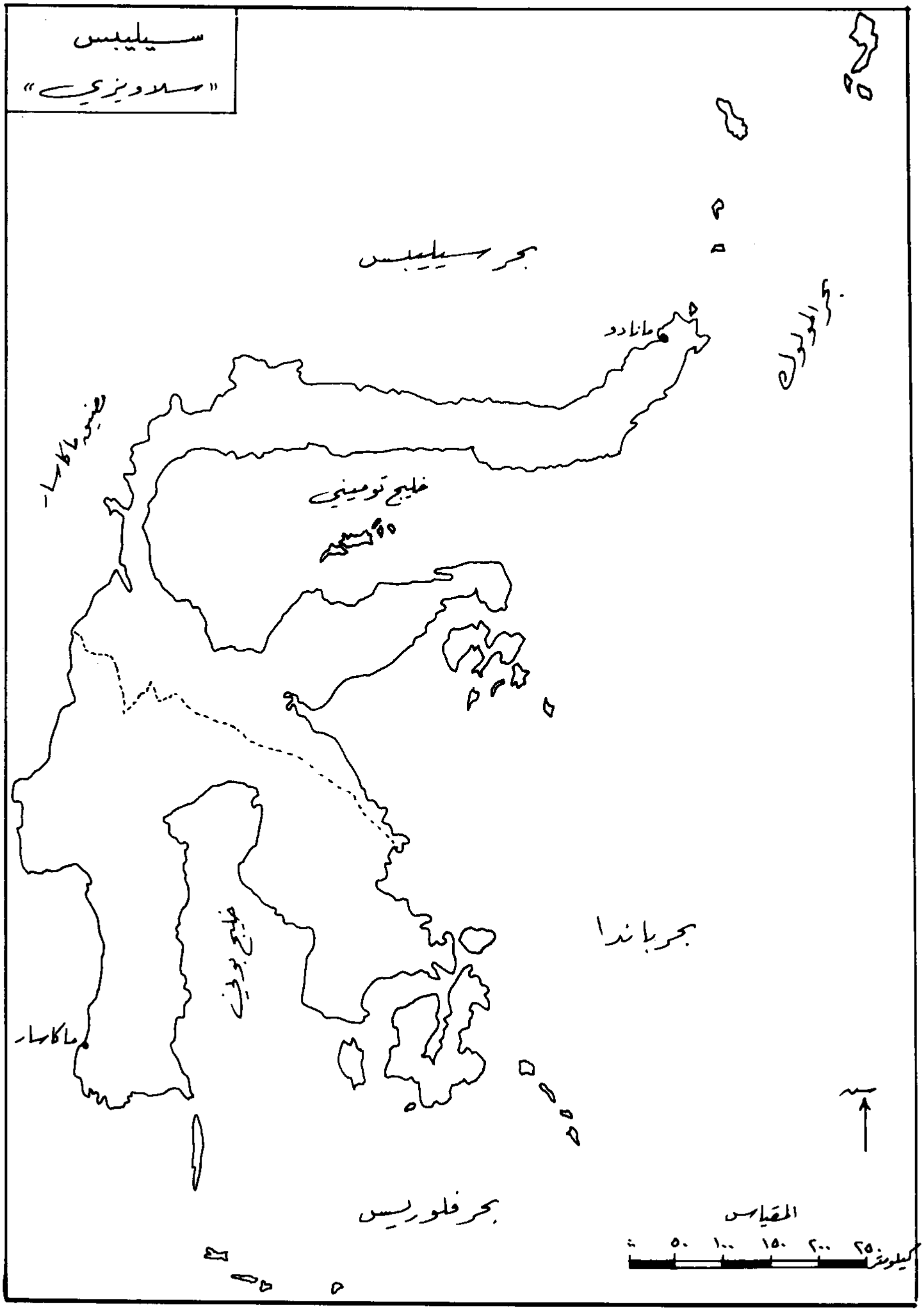

سيليبس
"سلاويزي"
بحر سيليبس
مانادو
بحر الملوك
مضيق ماكاسار
خليج توميني
بحر باندا
خليج بوني
ماكاسار
بحر فلوريس
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [١٠]

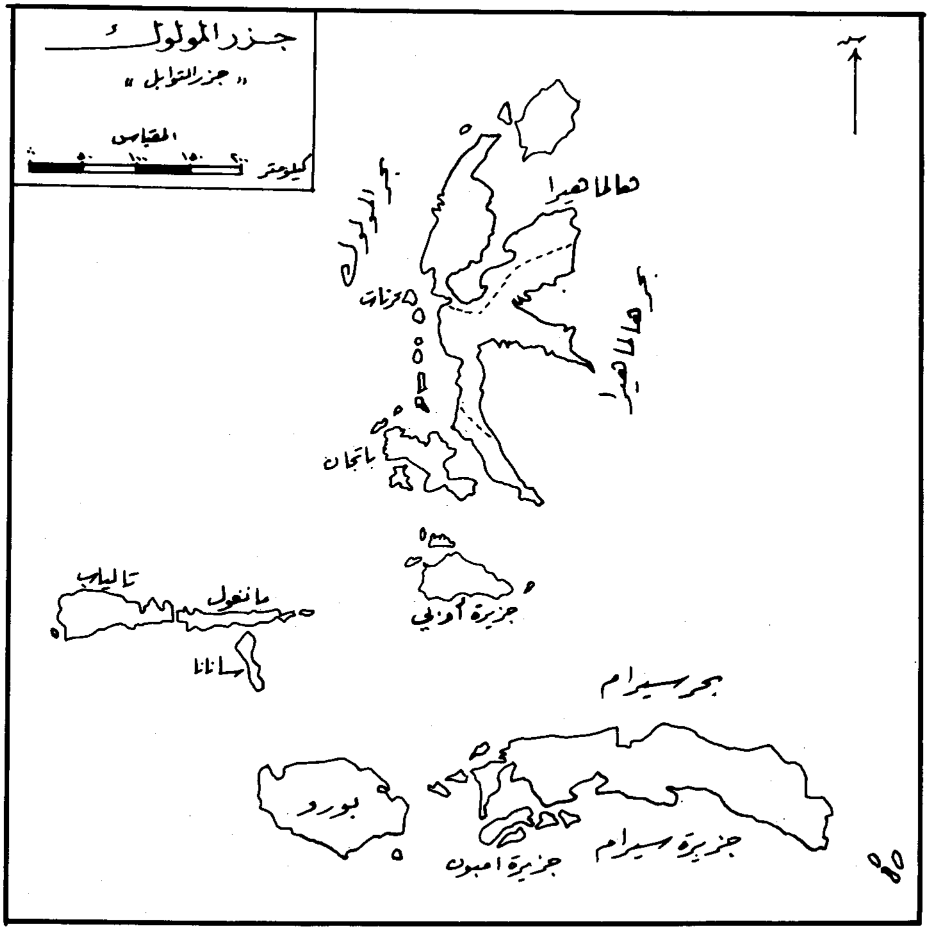
جزر الملوك
« جزر التوابل »
المقياس
كيلومتر
هالماهيرا
باتجان
تالياب
مانغول
سانانا
جزيرة أوبي
بحر سيرام
بورو
جزيرة سيرام
جزيرة امبون

مصور رقم [١١]

بحر بالي
بالي
بالي
لومبوك
ماتارام
نوسا تنغارا الغربية
سومباوا
بحر فلوريس
نوسا تنغارا الشرقية
فلوريس
سولور
ألور
سومبا
جزر الصوند الصغرى
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ كيلومتر

مصور رقم [١٢]

العدد في نموٍ مستمرٍ إذ يزيد ١,٩ ٪ سنوياً، وإذا قارنا هذا العدد مع سكان بقية المناطق الواقعة على خط الاستواء لوجدناه كبيراً جداً، وذلك بسبب اعتدال المُناخ، وخصوبة التربة، وهذا ما لا يتوفر في بقية المناطق التي تقع على خطوط العرض نفسها حيث تغطي الغابات مساحاتٍ واسعةً من الأرض، وتكون الأيدي العاملة قليلةً لا تستطيع استثمار البلاد، إضافةً إلى المستوى الحضاري المتأخّر، وانتشار الزراعة البدائية، وهذا ما نجده نفسه أيضاً في بعض الجزر الأندونيسية القليلة السكان، كجزيرة بورنيو، وسيليبس، وغينيا الجديدة، وغيرها. وتعود أكثرية السكان إلى جزيرة جاوه حيث تزيد الكثافة على ثمانمائة شخصٍ في الكيلو متر المربع الواحد فتُعدّ من المناطق المزدحمة بالسكان في العالم، وهذه الكثافة أدّت إلى قطع الغابة، وتحويل الأرض إلى مساحاتٍ مزروعةٍ، واستثمار المعادن، ومدّ السكك الحديدية، وإقامة المباني، وأنه كلما ازداد السكان اضطروا إلى زيادة العمل والاستثمار ليُؤمّنوا أنفسهم، ويسدّوا حاجتهم. ولكن السكان في أندونيسيا غير موزّعين بصورةٍ عادلةٍ في الجزر كلها، فإن بعضها يُعاني نقصاً كبيراً في اليد العاملة، ولا تزال الزراعة البدائية منتشرةً في أكثر المناطق، والغابات تُغطّي مساحاتٍ واسعةً من الجزر، وتنتشر المستنقعات على أراضي شاسعةٍ، والسكك الحديدية معدومة في الجزر كلها عدا جزيرتي جاوه وسومطرة.

وتقسم أندونيسيا إدارياً إلى :

المنطقة	المساحة	عدد السكان	العاصمة
جاوه الغربية	٤٦,٣٠٠	٣٥,٥٠٠,٠٠٠	باندونغ
جاوه الوسطى	٣٤,٢٠٦	٣٢,٥٠٠,٠٠٠	سمارانغ
جاوه الشرقية	٤٧,٩٢٢	٣٥,٥٠٠,٠٠٠	سورابايا
سومطرة الشمالية	٧٠,٧٠٧	١٢,٥١٥,٠٠٠	ميدان
سومطرة الغربية	٤٩,٧٧٨	٦,٥٠٠,٠٠٠	بوكيت تنغي
سومطرة الجنوبية	١٠٣,٦٨٨	٨,٥٠٠,٠٠٠	بالمبانغ
كيليمنتان الغربية	١٤٦,٧٦٠	٣,٥٠٠,٠٠٠	بونتياناك
كيليمنتان الجنوبية	٣٧,٦٦٠	٣,٦٠٠,٠٠٠	بانغرداسين
كيليمنتان الوسطى	١٥٢,٦٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠	توكونغ
كيليمنتان الشرقية	٢٠٢,٤٤٠	١,٥٠٠,٠٠٠	ساماريندا
سلاويزي الجنوبية	٧٢,٧٨١	٦,٧٥٠,٠٠٠	ماكاسار
سلاويزي الوسطى	٦٩,٧٢٦	١,٥٠٠,٠٠٠	
سلاويزي تنغارا	٢٧,٦٨٦	١,٢٠٠,٠٠٠	
سلاويزي الشمالية	١٩,٠٢٣	٢,٦٠٠,٠٠٠	مانادو
نوساتنغارا الغربية	٢٠,١٧٧	٣,٢٢٥,٠٠٠	ماتارام بـ (لومبول)
نوساتنغارا الشرقية	٤٧,٨٧٦	٣,٢٢٥,٠٠٠	كوبانغ بـ (تيمور)
تيمور الشرقية	١٤,٨٧٤	٦٨٥,٠٠٠	ديلي

بالي	٥,٥٦١	٣,٥٠٠,٠٠٠	دينباسار
إيريان الغربية	٤٢١,٦٨١	١,٢٥٠,٠٠٠	جاجابورا
جامبي (سومطرة)	٤٤,٩٢٤	١,٧٥٠,٠٠٠	جامبي
ريو (سومطرة)	٩٤,٥٦٢	٢,٧٠٠,٠٠٠	باكانبارو
مولوك	٧٤,٥٠٥	٣,٣٠٠,٠٠٠	سواسيو
بنغولو	٢١,١٦٨	١,٥٠٠,٠٠٠	بنغولو
لامبونغ	٣٣,٣٠٧	٥,٨٠٠,٠٠٠	
آتشيه (سومطرة)	٥٥,٣٩٢	٣,٦٥٠,٠٠٠	كوتار آتشيه
يوغياكارتا	٣,١٦٩	٣,٥٥٠,٠٠٠	
	١,٩١٩,٤٤٣	١٨٨,٠٠٠,٠٠٠	

الصراع العنصري:

ينتمي سكان أندونيسيا إلى جنس الملايو، وهم بالأصل من العنصر المغولي، أي من العرق الأصفر، هاجروا قبل الميلاد بمدةٍ طويلةٍ من جنوب شرقي البر الآسيوي أي من المنطقة المعروفة اليوم باسم «الهند الصينية». وحدثت تلك الهجرة عقب نزوح جماعةٍ كبيرةٍ من الصين ومنغوليا، إذ ضغطوا على السكان السابقين لهم، وأجبروهم على ترك مناطقهم والتوجّه نحو الشواطىء، وحلّوا محلّهم، واضطروا ثانيةً إلى مُغادرة المناطق الساحلية تدريجياً تحت ضغط وزيادة القادمين الجدد من الصين ومنغوليا، وأخذوا يرتحلون من الشواطىء جماعاتٍ وقبائل، يركبون البحر، ويتّجهون نحو الجزائر القريبة منهم، والمبعثرة في ذلك اليمّ الواسع، وينتشرون فيها حتى عمروها كلها.

وكان يُقيم في الجزائر الأندونيسية قبل قدوم عنصر الملايو الزنوج الذين يُعدّون أول من سكن البلاد، وبشرتهم سوداء، وقامتهم قصيرة، فلما جاءهم عنصر الملايو، تقوقعوا على أنفسهم، وتجمّعوا في الداخل، وأقاموا في الغابات منعزلين عن القادمين الجدد، يعيشون عيشةً بدائيةً، ولا تزال هكذا حياتهم، ديانتهم وثنية، يمتهنون صيد الحيوانات، ويلتقطون الثمار، ويبنون بيوتهم من أغصان الأشجار، ويسترون عوراتهم بأوراقها، وقد تختلف القبائل المجاورة بعضها مع بعضٍ، وربما يصل الأمر إلى الصدام.

ثم جاءت مجموعات أخرى كتجارٍ من الهند، ومن الصين، ومن العرب، ومع مجيء الاستعمار جاءت مجموعات من الأوربيين، واستقرّ بعض أفرادها في البلاد، وأثناء الحرب العالمية الثانية دخل اليابانيون مع احتلال دولتهم لأندونيسيا، واستقرّ بعضهم حيث أقاموا، غير أن هذه المجموعات كلها ذات أعدادٍ قليلةٍ نسبياً فلا تساوي مجموعها ٦ ٪ من مجموع سكان البلاد، أي لا يصل عددها أبداً إلى عشرة ملايين، وإن كانت كل مجموعةٍ قد عملت على نقل عقيدة أبنائها إلى أندونيسيا، وإذا كانت أعداد من الهنود قد دانوا بالإسلام، وكذلك قلّة من الصينيين إلا أن الهندوسية، والبوذية، والكونفوشية، لا تزال دليلا على وصول تلك المجموعات، كما أن النصرانية لا تزال أثراً على قدوم المستعمرين الأوربيين، والشنتوية إشارةً على احتلال اليابانيين. ويصل عدد العرب إلى مائةٍ وستين ألفاً، غير أنهم أكثر المجموعات الأخرى احتراماً عند السكان للروابط العقيدية بين الطرفين، ويعدّ الأندونيسيون العرب مثلهم الأعلى لحملهم رسالة الإسلام ونقلها إليهم، وللعرب جمعيات خاصة بهم، تعمل للحفاظ على لغة أبنائها، وصلة بعضهم مع بعضٍ، وتنمي عندهم الصلة مع أصولهم.

ونتيجة غلبة عنصر الملايو على البلاد فليس هناك من صراعٍ مع بقية العناصر التي تعدّ ضعيفةً لقلّتها، وتبقى لهذا العنصر الهيمنة والسيادة، هذا

بالإضافة إلى الأثر الإسلامي الراسخ في النفوس والذي لا يقر النظرة العنصرية ولا يعترف عليها أبداً، ويعدّها عصبية نتنةً فوجود الشعوب والقبائل للتعارف لا للتمايز، والتمايز إنما هو بالتقوى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

وإن تعدّد اللغات في أندونيسيا لا يعود إلى اختلاف العناصر، فاللغات كلها تنضوي تحت مجموعة اللغة الملايوية الأم، وإنما يعود إلى تبلبل الألسنة نتيجة ترامي أطراف البلاد، وتباعد أقسامها، وصعوبة الانتقال بين أجزائها. ويتكلّم السكان أكثر من ثلاثين لغةً، ومائتين وخمسين لهجةً مختلفةً. وأهم هذه اللغات:

١ ــ اللغة الجاوية: ويتكلم بها خمسة وسبعون مليوناً في جاوه الغربية والشرقية.

٢ ــ اللغة الصوندية: ويتكلّم بها عشرون مليوناً في وسط جزيرة جاوه.

٣ ــ اللغة المادورية: ويتكلم بها عشرة ملايين في جزيرة مادورا.

وإن انتشار التجارة، وتنقّل التجار بين الموانىء الأندونيسية المختلفة قد جعل اللغة الملايوية تعمّ مناطق واسعةً على الرغم من بقاء اللغات الأخرى واللهجات المحلية، وتعرف اللغة الملايوية الأندونيسية بـ (لغة هاسا)، وكانت تكتب بالحرف العربي، وحاولت هولنده إلغاء هذا الحرف ولكن لم تجرؤ على ذلك لصلة هذا الحرف بالعقيدة الإسلامية، وكانت محاولة هولنده لإبعاد الصلة بين الأندونيسيين وبقية أمصار العالم الإسلامي، وخاصةً البلدان العربية، ولكن عندما أُلغيت الخلافة، واستبدل مصطفى كمال الحرف العربي باللاتيني، تجرّأت هولنده على ذلك واستعملت الحرف اللاتيني لكتابة لغة (هاسا) الأندونيسية وذلك عام ١٣٤٦ هـ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(١٩٢٧ م)، وقد عمّت هذه الكتابة في الصحف، والمجلات، والدوائر الرسمية حتى شاعت. ونجد الكثير من الكلمات العربية في لغة (هاسا). وكانت اللغة الهولندية هي الرسمية أيام الاستعمار الصليبي الهولندي، وتُدرّس في المعاهد والمدارس، ثم حلّت اللغة الإنكليزية محلّها بعد زوال الاستعمار الهولندي، لأنها معروفة عالمياً، على حين أن اللغة الأندونيسية لا تعرف خارج البلاد، وهذا ما يُسبّب صعوبةً بالغةً للسكان، ولنضرب مثلاً من تلك الصعوبة، رجل من جزيرة مادورا، فهو يتحدث باللغة المادورية في بيته على أنها اللغة المحلية، ويتحدّث باللغة الأندونيسية (هاسا) في وظيفته على أنها اللغة الرسمية، ويعرف الهولندية منذ أيام الاستعمار الهولندي، ويلمّ بشيءٍ من اليابانية منذ عهد الاحتلال الياباني، ويتكلم بعض العربية من القرآن الكريم بصفته مسلماً. ويُفضّل السكان اللغة العربية، ويتمنّون تعلّمها لارتباطها بعقيدتهم، وتوجد عدة مدارس لا تُدرّس إلا اللغة العربية، ورأينا كيف كانت الجمعيات الإسلامية تحرص وتعمل على تدريس اللغة العربية.

الصراع الإقليمي:

رغم تعّدد الأقاليم بتعّدد الجزر، ورغم تنّوع اللغات باختلاف الأجزاء إلا أننا لا نلاحظ صراعاً بين الأقاليم، وذلك لأن جزيرة جاوه تطغى على بقية الجزر بكثرة السكان إذ يُقيم فيها وحدها كما رأينا ٦٠ ٪ من مجموع سكان أندونيسيا كلها. وبقية الجزر تُعدّ بالنسبة لها قليلة الأهمية لقلّة عدد سكانها، فأكثرها سكاناً بعد جزيرة جاوه هي جزيرة سومطرة ولكن لا يصل عدد سكانها إلى ثلث عدد سكان جاوه، أما الجزر الأخرى فلا تقارن بالسكان مع جزيرة جاوه أبداً، ومع ذلك يمكن أن نجد بعض الملاحظات.

أولاً: نجد صراعاً في جزيرة جاوه نفسها بين أقسامها الغربية حيث السكان مسلمون وبين الأجزاء الشرقية حيث تنتشر الفرقة الضالة «ابنجان»

التي تقوم مبادئها على محاولة التوفيق بين الإسلام والهندوسية، وتعمل هذه الطائفة لبثّ أفكارها بمختلف الوسائل ومحاولة إبعاد الناس عن عقيدتهم.

ونجد أن الدعم الاستعماري الصليبي كان للجزء الشرقي قوياً مادياً ومعنوياً، حتى انتشر الإلحاد وعمّ الفساد، وقد قام الشيوعيون بحركتين معتمدين على هذه المنطقة. وإن الرئيسين اللذين تولّيا أمر البلاد منذ الاستقلال حتى الآن وهما: أحمد سوكارنو ومحمد سوهارتو إنما ينتميان إلى طائفة «ابنجان» هذه.

ثانياً: إن جزيرة سومطرة هي الجزيرة الثانية في أندونيسيا بعد جاوه، وقد يكون صراعاً بينهما، ويحمل جانباً عقيدياً أساسياً، فسكان سومطرة على ما يبدو تزيد بينهم نسبة الملتزمين بأحكام الإسلام، وتكثر عندهم العاطفة الدينية، ونلاحظ أن المسلمين فيها قد تحرّكوا مرتين، وهبّوا على شكل ثوراتٍ ضدّ التسلّط العلماني والإلحادي، كما أن المستعمرين الهولنديين عندما رجعوا إلى البلاد بعد الحرب العالمية الثانية، وقضوا على الجمهورية الناشئة، تشكلت حكومة موقتة في سومطرة لقتال المستعمرين الصليبيين، ومتابعة طريق الاستقلال.

وأن القضاء على الثورتين الشيوعيتين كان على أيدي رجال من سومطرة على رأسهم عبدالحارث ناسوتيون. كما كان محمد حتا، وهو من سومطرة أيضاً، حجر العثرة في وجه الشيوعيين والعلمانيين.

وأن جزيرة سومطرة كانت معقل حزب ماشومي، وقد حصل في الانتخابات على ٩٠ ٪ من الأصوات فيها، على حين كان الحزب الوطني، والشيوعي يعتمدان على أصوات السكان في جزيرة جاوه، وخاصةً الجزء الشرقي منها.

ثالثاً: إن جزيرة بالي صغيرة لا تزيد مساحتها كثيراً على خمسة آلاف وخمسمائة كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين إنسان غير

أنها كانت موضع اهتمامٍ كبيرٍ أيام المستعمرين الصليبيين، ثم أيام الذين خلفوهم في السلطة وذلك لأن أكثرية سكانها من أتباع الديانة الهندوسية القديمة التي لا تقيم للقيم كبير وزنٍ، فنساؤها يخرجن شبه عاريات، فيتخذن وسيلةً للإفساد، وتُتخذ الجزيرة مركزاً للسياحة لتلك الغاية، وتوجّه العناية إليها على أنها واجهة البلاد، ويُنفق الكثير من الأموال في سبيل ذلك، ويعيش أهلها برفاهيةٍ على حساب سكان أندونيسيا، وترتفع مكانة طلاب الزعامة مروراً منها.

الصراع الحزبي:

منذ أن وطأت أقدام المستعمرين الصليبيين أرض أندونيسيا بل أي أرضٍ إسلاميةٍ أخذوا يعملون جاهدين لإبعاد المسلمين عن عقيدتهم، وحاول السكان الوقوف في وجههم، ومقاومة ذلك غير أنهم لم يتمكّنوا لأسبابٍ كثيرةٍ منها:

١ ـ الضعف المادي الذي كان عليه المسلمون أمام المستعمرين الصليبيين سواء أكان ذلك من ناحية السلاح أم من ناحية المال والتنظيم، حيث كان المسلمون لا يزالون يعتمدون في قتالهم على الأسلحة اليدوية المعروفة آنذاك على حين كانت الأسلحة الآلية قد بدأت تأخذ طريقها في تسليح الجيوش الأوربية الاستعمارية، وكان المسلمون فقراء على حين كانت هناك إمكانات ضخمة وراء المستعمرين ووراء الإرساليات التنصيرية.

٢ ـ الضعف الذي كانت عليه أمصار العالم الإسلامي حيث لم يجد الأندونيسيون من يدعمهم أو يستندون عليه، أو يُوجّههم ويُنبّههم من خطر هؤلاء المستعمرين الصليبيين، إذ كان المسلمون عامةً على مستوىً متدنٍ من الوعي، ويغطّون في نومٍ عميقٍ.

٣ ـ لم تترسّخ مبادىء الإسلام بعد في نفوس الأندونيسيين بشكلٍ

جيدٍ، فدخولهم بالإسلام لا يزال حديثاً، ووصل إليهم في وقت ضعف المسلمين، ولو أن العاطفة كانت قويةً.

٤ ـ الجهل الذي كان عليه الأندونيسيون.

٥ ـ كانت المقاومة تعتمد على العاطفة التي ينقصها أيضاً التنظيم والتخطيط.

لهذا كله تمكّن المستعمرون الصليبيون من السيطرة على أندونيسيا، كما سيطروا في الوقت نفسه على كثيرٍ من الأمصار الإسلامية ولجأوا إلى المخططات نفسها، ولم تُجد مقاومة أهل البلاد.

ومع مرور الزمن أخذ المسلمون يُدركون خطر هؤلاء الدخلاء على عقيدتهم، ويشعرون من تصرّفاتهم، ومن مُمارستهم السياسة الاستعمارية والصليبية، الخطر الذي سيحيق بهم، وبمستقبل أبنائهم من بعدهم، فأخذوا يُحاولون تنظيم أنفسهم، وبدأت تظهر الجميعات، ورغم أنها كانت خطوةً متطوّرةً إلا أنها:

أ ـ قد جاءت متأخّرةً، حيث ظهرت في مطلع القرن الرابع عشر الهجري أي أنه قد مضى على مجيء الصليبيين ما يقرب من أربعة قرونٍ، فكان الصليبيون قد ثبّتوا أقدامهم، ورسّخوا بعض أفكارهم، وكسبوا بعض عناصر لهم مستغلّين فقر السكان، وحاجتهم، وجهلهم، وضعفهم. كما كان الصليبيون قد طبّقوا سياستهم الاستعمارية في امتلاك الأرض، وعملوا بالتجارة، ونهبوا الأملاك الأمر الذي زاد من فقر الأندونيسيين، وحاجتهم وجهلهم.

ب ـ لم تكن هذه التنظيمات عامةً بين المسلمين، حيث كان بعضهم منعزلاً على نفسه يسعى وراء عيشه، يخشى بطش المستعمرين، ومكرهم، ويرى بعضهم الآخر أن هذه التنظيمات كانت تفرقةً للمسلمين

أكثر من أن تكون جامعةً لهم، وموحّدةً لهم، ورافعةً من شأنهم، هذا رغم أن بعضها ـ كما رأينا ـ يُعدّ أكبر الجمعيات التعليمية في العالم.

ج ـ لم تكن لتعمل على تثبيت العقيدة بالشكل المطلوب، وإنما كانت تعتمد على العاطفة، وجمع الأشخاص، وتنظيمهم من غير بناءٍ سليمٍ يقوم على ركائز ثابتةٍ، وهذا ما كان يُثير الخلافات في الرأي، ويدعو إلى الانشقاق والتمزّق، وشنّ الهجوم الكلامي، والابتعاد عن الجماعة، وربما العودة بعد مدةٍ.

د ـ تخضع لمكر الأعداء الذين كانوا يُحاولون الإيقاع بين العناصر، والفئات، والجمعيات، ونتيجة الجهل، والغفلة أحياناً، وضعف الدعائم التي تقوم عليها فكان يتمّ الاستماع إلى كلام الصليبيين الذين بيدهم السلطة، ويمنّون أصحاب التطلّعات الفوقية. هذا إضافةً إلى استعمال المستعمرين للوسائل الأخرى كافةً، من مناصب، وأموال، وتقديم شهوات و. . . وما أكثر هؤلاء الضعفاء في المجتمعات الفقيرة، الجاهلة، والتي لا تستند على ثوابت إيمانية فينحرفون.

وانتبه المسلمون إلى بعض واقعهم الذي هم فيه، فالتقوا واجتمعوا في شبه اتحاد باسم (المجلس الإسلامي الأعلى) لكنهم شُغلوا بعقد المؤتمرات ومسألة الخلافة، وأسّسوا جمعية الخلافة في الهند الشرقية، وهي فرع لجمعية الخلافة في الهند.

وعندما احتلّت اليابان أندونيسيا أثناء الحرب العالمية الثانية، ودعت السكان إلى التدريب العسكري كي يُقاوموا المستعمرين الأوربيين أسرع المسلمون، وانخرطوا في صفوف تلك الفرق، التي عرفت باسم «فرق الدفاع الوطني» والتي شُكّلت لتلك الغاية، إذ نظر المسلمون إلى المستعمرين الصليبيين الذين كانوا يعملون على تنصير السكان، ويفتحون الأبواب أمام الإرساليات التنصيرية، ويقفون في وجه المسلمين، ويعملون

على مُحاربتهم، وقد وجدوا الفرصة الآن للتقوية، وللوقوف في وجه المتنصرين من أبناء البلاد، ولمقاومة العلمانيين والمُلحدين الذين يلقون الدعم أيضاً من المستعمرين الصليبيين، وقاد هذه الفرق أحد العلماء، وهو (سوديرمان)، وكان كثير من الضباط أعضاء في الجمعية المحمدية، وإن كانت اليابان قد حلّت كل الأحزاب والتنظيمات، ومنعتها من ممارسة نشاطها. وإذا كان المسلمون قد نظروا إلى اليابانيين نظرتهم إلى المستعمرين الصليبيين ما داموا مثلهم ضدّ الإسلام، ورأوا إقامة تنظيمٍ لحماية المسلمين من الانجراف في التيارات الهدامة، ولكنهم لم يجدوا بداً من الانخراط في فرق الدفاع الوطني التي يُشرف عليها اليابانيون، وذلك لإخفاء تنظيمهم السري للغاية، وحماية أفرادهم، وتدريب أنفسهم، وكان قائد هذا الحزب «زين العارفين» أحد أعضاء جمعية العلماء سابقاً. وعندما أخذت اليابان تتراجع كانت فرق الدفاع الوطني نواة الجيش الأندونيسي، وهذا ما جعل للمسلمين قوة في الجيش استطاعت أن تحبط ثورتين شيوعيتين.

أما بالنسبة إلى المسلمين غير الملتزمين فقد كان لهم أحزاب منها الحزب الوطني، وحزب اتحاد الشعب الأندونيسي، والحزب الاشتراكي الديمقراطي الهولندي، والحزب الشيوعي وغيرها من أحزابٍ صغيرةٍ. وإذا كانت هذه الأحزاب المتباينة تنظيماً، المختلفة منهجاً كانت تلتقي على محاربة الإسلام، والعمل على الإيقاع بين الجمعيات والحركات الإسلامية، وقد كانت الشيوعية أكبر دعمٍ للحزب الوطني. وكان هدف الثورة الشيوعية الرئيسي رجالات المسلمين البارزين، وإذا كان ذلك كله إلا أن المسلمين لم ينتبهوا إلى هذا لغفلتهم، وفقرهم، وضعفهم.

وعاد المسلمون إلى الفرقة بعد الاستقلال، فانشقّت الأحزاب بعضها عن بعضٍ، وتفرّقت عن ماشومي، حيث عاد حزب شركة إسلام إلى استقلاليته، وتبعه حزب التربية والاستقلال. وكان حزب نهضة العلماء يقف

موقف المعارض لحزب ماشومي دائماً. وإذا جرت محاولات لضمّ الجماعات الإسلامية ثانيةً إلى حزب ماشومي الذي عُدّ أصلاً وبقية التنظيمات فروعاً له إلا أن الأمر كان نظرياً، وذلك لعدم الوعي، وعدم معرفة الواقع الذي يعيشون فيه رغم مشاهدة ما تفعله الأحزاب العلمانية والإلحادية، ولا شك فإن لإسلام غالبية السكان دوراً في ذلك. إذ كل يدّعي الإسلام ولو لم يكن يعترف عليه.

وفي بداية أيام سوهارتو برز الحزب الإسلامي الأندونيسي كحزبٍ جديدٍ. وهكذا أصبحت أربعة أحزاب إسلامية هي: نهضة العلماء، وحزب مسلمي أندونيسيا، وشركة إسلام، وبرتي الإسلامي. وحزبان نصرانيان، هما: النصراني البروتستانتي، والنصراني الكاثوليكي، وحزب اشتراكي واحد، هو حزب موربا الاشتراكي، وحزبان علمانيان هما: الحزب الوطني الأندونيسي، وحزب مؤيدي حرية أندونيسيا (ايبكي) وحزب يضم الفئات العاملة وتدعمه الحكومة وهو حزب الفئة العاملة، وله الأكثرية في المجلس النيابي.

وفي رمضان ١٣٨٥ هـ (كانون الثاني ١٩٦٦ م) صدر مرسوم يُخوّل رئيس الجمهورية حلّ أي حزبٍ سياسيٍ إذا لم يبلغ عدد أعضائه حداً معيناً، أو إذا تعارضت سياسة الحزب مع أهداف الدولة. ثم عادت الحكومة فطلبت من الأحزاب المتقاربة الأهداف التجمّع بعضها مع بعضٍ لتقليل العدد مع إلغاء الأسماء التي تدلّ على العقيدة في سبيل الوحدة الوطنية، وعدم إثارة النعرات الدينية ـ حسب زعم الدولة ـ والواقع من أجل إبعاد الشعب ذي العاطفة الإسلامية عن الأحزاب التي تتبنّى الإسلام، وبذا بقيت ثلاث مجموعات حزبية هي: الفئة العاملة، وهو حزب الحكومة، والحزب الديمقراطي الأندونيسي، ويضم خمسة أحزاب غير إسلامية، وهي: الحزب الوطني الأندونيسي، والنصراني البروتستانتي، والكاثوليكي، وموربا، وايبكي، واتحاد حزب التطور (الأحزاب الإسلامية).

الصراع العقيدي:

يتوزّع السكان في أندونيسيا حسب العقيدة إلى ما يلي:

السكان	عددهم	نسبتهم من مجموع السكان
المسلمون	١٧١,٠٨٠,٠٠٠	٩١٪
هندوس وبوذيون	٧,٥٢٠,٠٠٠	٤٪
نصارى	٥,٦٤٠,٠٠٠	٣٪
وثنيون	٣,٧٦٠,٠٠٠	٢٪
	١٨٨,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠٪

يكثر المسلمون في كل مكانٍ تقريباً في الجزر الأندونيسية، وإن كانت نسبتهم تنخفض في جزيرة بالي، وتكاد تنعدم في وسط الغابات، حيث يقلّ السكان هناك، وتعيش قبائل بدائية وثنية، وخاصةً في غينيا الجديدة، وبورنيو، وبعض غابات سومطرة، وجاوه. والمسلمون جميعاً من أهل السنة، وعلى المذهب الشافعي، وأما طائفة «الأبنجان»، وهي فرقة ضالة، وتعدّ على المسلمين، وليست منهم، وتتركّز في شرقي جاوه، وإن كانت قليلة الأعداد إلا أنها كثيرة النفوذ، وتلقى التأييد والدعم الأجنبي، ومنها كما ذكرنا رئيسا أندونيسيا اللذان تواليا على الحكم حتى الآن، وهما: سوكارنو، وسوهارتو.

أما الهندوس والبوذيون فيتركّزون في جزيرة بالي، والمدن الكبرى، وقد جاءوا إلى هذه البلاد قبل الإسلام على شكل تجارٍ، ونشروا وثنيتهم، والتي تقلّصت مع دخول الإسلام إذ اعتنق كثير من أتباعها الإسلام لما رأوا

ما يتفق مع فطرتهم، ووجدوا الفروق الكبيرة بين ما كانوا عليه وبين الإسلام. وتجمّعت بقاياهم في جزيرة بالي، وجاء الاستعمار الصليبي يدعمهم ليقفوا في وجه المدّ الإسلامي.

ويعيش النصارى في جزيرتي جاوه وسومطرة وخاصةً حيث الحياة المتطوّرة نسبياً، كما توجد تجمّعات أخرى في بعض المدن الكبرى. وهؤلاء النصارى من الأوروبيين الذين بقوا في أندونيسيا بعد جلاء المستعمرين الصليبيين، وكانوا قد حصلوا على امتيازاتٍ واسعةٍ وأراضٍ خصبةٍ فبقوا يستغلونها، كما يعملون في التجارة، ثم هناك الذين تنصّروا من أبناء البلاد سواء قديماً على أيدي المستعمرين الصليبيين والإرساليات التنصرية أم حديثاً لم يُقبلوا على النصرانية إلا نتيجة الحاجة كي يحصلوا على المساعدات المادية، أو ليتمكّنوا من التعليم أو الدواء ودخول المشافي، وربما كان بعضهم يعمل للحصول على المنصب، هذا بالإضافة إلى الجهل الذي يعيشون في ظلّه ويضغط عليهم ضغطاً عنيفاً، وإن كان أكثرهم ممن كان على الوثنية، وتحصل الإرساليات التنصيرية الآن على بعض النجاح داخل الغابات حيث يعيش الوثنيون، وفي المناطق الفقيرة حيث يقطن أناس بأشدّ الحاجة إلى تقديم يد المعونة، وهذه المناطق وتلك مُحرّمة على المسلمين للعمل فيها، ويجب ألا ننسى أبداً قلة الإمكانات الإسلامية عامةً على حين يملك المنصّرون على اختلاف مُسمّياتهم إمكاناتٍ ضخمةٍ. والنصارى نوعان منهم الكاثوليك الذين اعتنقوا النصرانية على يد البرتغاليين والإسبان، والبروتستانت الذين أخذوا ديانتهم على يد الهولنديين والإنكليز، ولكلا الطرفين إرساليات تنصيرية خاصة به عملت قديماً، وتعمل الآن، كما لكل فريقٍ كنائسه ومؤسساته، بل وحزبه الخاص به، ويُقدّر عدد البروتستانت بأكثر من ضعف عدد الكاثوليك.

أما الصينيون الذين يدينون بالكونفوشية فقد جاءوا تجاراً، ويعيشون في المدن الكبرى، ولا وزن لهم، وينصرفون غالباً إلى شؤونهم المعاشية، وأعدادهم محدودة.

والوثنيون الآخـرون من عُبّاد المخلوقـات، وهم البدائيـون فيعيشون داخل الغابات منعزلين، وإن أخذت تغزوهم الإرساليات التنصيرية، وتكسب أعداداً منهم سنوياً لذلك فهم في تناقصٍ مستمرٍ.

وإن الوثنيات من هندوسيةٍ، وبوذيةٍ، وكونفوشيةٍ، وطوطميةٍ ليست لها دعاة لديانتها لبدائيتها، وبُعدها عن الفطرة، وعدم موافقتها للنفس الإنسانية، لذا فهي لا تتزايد بالتوسع، وإنما بالولادات فقط، بل إنها تتناقص باستمرارٍ إذ يعتنق بعض أفـرادها الإسـلام، ويذهب بعضهم إلى النصـرانيـة. وفي الماضي كان أكثر تناقصها يذهب لحساب الإسلام، أما الآن فإنـه يذهب لحساب النصرانية إذ منع المسلمون من الدخول إلى مناطق الغابات حيث تعيش تلك الوثنيات، وفُتح الباب للنصـرانية فقط، وفُسـح لها المجـال، وأُعطيت لها حرية التنصير فدخلت بإمكاناتها الضخمة، وحصلت لذلك على بعض النجاح، ولكن وجد الوثنيون على بدائيتهم أن النصرانية ليست سوى وثنيةٍ مادامت تقوم على عبادة مخلوقٍ، غير أنه إنسان لكنه مخلوق، وهم يعبدون مخلوقات أخرى سواء أكـانت حيوانيـةً أو نباتيـةً أم من الجماد، فالفروق بسيطة، وإن ما فيها من مبادىء لا يتفق كذلك والفطرة البشرية، ولهذا كان الإقبال على النصرانية قليلاً، يتفق مع ما يُقدّم للوثنيين وغيرهم أحياناً من منافع مـاديةٍ، وأصـول ديانتهم أسـاساً في نفـوسهم ضعيف لا يعرفون شيئاً عنها إن كانوا غير وثنيين، وإن كانوا من الوثنيين فالأمر أبسط بكثيرٍ. إذن لم يكن هناك صراع بين المسلمين والوثنيين. وإنمـا الصراع مستحكم بين المسلمين والنصارى، وهو قائم منذ أن وصل المستعمرون الصليبيون إلى تلك الجهات، ولم يكن النزاع على الوثنيين كل يريد جرهم نحو ديانته أبداً، فأهل البلاد اتجهوا نحو الإسلام أصلاً، اتجهوا رغبةً، إذ لم يكن للمسلمين قوة، ولم يُجرّدوا سيفاً، وإنما ذهبوا تجاراً غير أن أهل البلاد وجدوا في الإسلام ما يتفق مع الفطرة البشرية، ووجدوا فيه ما ينسجم مع تطلّعاتهم الروحية ومع رغباتهم فأقبلـوا نحوه ودانوا به، وخضعوا للحكام

المسلمين ليس رهبةً وإنما محبةً، حتّى عم الإسلام.

وعندما جاء المستعمرون الصليبيون وقف أهل البلاد ممن أسلم وممن لم يسلم ضدّ هؤلاء القادمين الغزاة، وحاولوا منعهم من الدخول ولكنهم عجزوا لقوة الأسلحة وفعّاليتها وحسن التنظيم. ولو كان المسلمون قد دخلوا بالقوة وفرضوا دينهم بالسيف لانحاز سكان البلاد إلى المستعمرين الصليبيين لطرد المسلمين كما كانوا يفعلون مع المستعمرين الجدد ضدّ المستعمرين الذين سبقوهم، إذ عدّ الأندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضدّ البرتغاليين، ورأوا في الإنكليز أعواناً لهم على الهولنديين، ووجدوا في اليابانيين خطراً أقلّ عليهم من الهولنديين والإنكليز.

كل هذا مع أن المستعمرين الصليبيين كانوا يتقرّبون من الوثنيين ومن أصحاب الديانات الأخرى من هندوسيةٍ، وبوذيةٍ، وكونفوشيةٍ، ويُقدّمونهم، ويدعمونهم، ويُعطونهم المساعدات لكسبهم إلى جانبهم، ضدّ المسلمين، بل يُولّونهم المناصب ليسدّوا الفراغ الذي وُجد بإبعاد المسلمين، ومع كل هذا لم يحصل الصليبيون إلا على نتائج ضعيفةٍ جداً، لا تكاد تُوضع في الحساب. وكان هذا تصّرف المستعمرين جميعاً من برتغاليين، وإسبان، وهولنديين، وبريطانيين، كلهم يحملون أحقاداً، وجاءوا بروحٍ صليبيةٍ، وأخذوا يُنفذّون ما أتوا به في جعبتهم لا يختلف مستعمر عن آخر في سياسته ضد المسلمين، وإن تباينوا في المذهب بين كاثوليك وبروتستانت، وافترقوا في نشاط إرسالياتهم التنصيرية، إذ يفسح كل مستعمرٍ المجال لإرسالياته بشكل أوسع، ويقدّم لها الإمكانات الأكبر، وإن كان لا يقف في وجه إرساليات المستعمر الآخر.

ولم يكن الافتراق بالمنهج ليُشكّل حاجزاً بين المستعمرين، فلم تكن الرأسمالية لتستغني عن الشيوعية في دعمها لمحاربة الإسلام، ولم يكن الإلحاد ليقف في الصف المعادي للتنصير مادام كلاهما يعمل لهدم الإسلام، ولم يكن المعسكر الغربي ليناهض المعسكر الشرقي في هذه السياسة

المعادية للإسلام مادام هدفهما واحداً وهو ضرب عقيدة سكان أندونيسيا، فقد دعمت هولندا المستعمرة الصليبية الرأسمالية التي تسير في فلك المعسكر الغربي وإرسالياتها التنصيرية البروتستانتية الحزب الشيوعي بالإمكانات كافةً ليُؤدّي دوره في نشر الإلحاد، وبثّ الفساد، وضرب الإسلام، والشيوعية معروفة بإلحادها، ونظامها المخالف للرأسمالية، وارتباطها بروسيا قائدة المعسكر الشرقي، ونصرانيتها الأرثوذكسية، حتى إذا اشتدّ عود الحزب الشيوعي قام بثورته، وحركته لاستلام السلطة، وكان المستعمرون يشعرون بالراحة ما دام سيخلفهم عدوّ للإسلام ظاهر العداوة، ولما فشل الحزب في حركته رجعت هولندا إلى البلاد بهجمةٍ وحشيةٍ لتتسلم راية محاربة الإسلام.

وكان الاستعمار الصليبي منذ أن وطأ أرض أندونيسيا أو غيرها من أمصار الإسلام يعدّ العدّة لتربية رجال مُعادين للإسلام فيما إذا اضطر الصليبيون إلى الخروج من البلاد، وقد أعطوا رجالهم المعتمدين لديهم المخطط الذي يهدف إلى التعاون مع كل شيطانٍ في سبيل ضرب الإسلام، ونشأ هؤلاء الرجال، وتلقّوا التربية اللازمة، وبرز أحمد سوكارنو، ولما آل الأمر إليه أخذ في تنفيذ ما رُسم له، وظهر عجزه وحده ومع حزبه، فأخذ بالتعاون مع الشيوعيين، فظهروا على الساحة ثانيةً، وأعادوا الكرة بالقيام بحركةٍ عندما وجدوا أنها أقوى من الأولى فخسروا الجولة مرةً أخرى، وأطاحت بهم وبرفيقهم سوكارنو، غير أنه مع الأسف قد ظهر، رجل آخر من فرقة سوكارنو الضالة نفسها وهي طائفة الأبنجان، وإن كان يختلف عنه بأنه يُعادي الشيوعية، ويسير في ركب الرأسمالية، وكلاهما واحد في موقفهما من الإسلام بل صديقان حميمان في هذا المجال، يتفقان في المخطط الواحد، ويتعاونان معاً، لما كان يُبدي ارتباطه بالصلاة ليسهل وصوله إلى القمة وربما هكذا أشاعت وسائل الإعلام التي تُعادي الإسلام كي يطفو على السطح، وقد كان ذلك، وتسلّم الأمر، ذلك هو «سوهارتو».

ولما تمكّن سوهارتو وغدا صاحب الكلمة الأولى، وتسلّم بيده السلطة أظهر ما كان يُخفيه، وأبدى ما كان يستره، فجمع الأفراد من الاشتراكيين، والجماعات من العمال غير الملتزمين بعقيدتهم، وكل الفئات البعيدة عن الإسلام، وشكّل منها حزباً عدّه حزب الدولة، وأطلق عليه اسم الفئات العاملة «جولكار»، وتضمّ أمانات سّرٍ مشتركة لمنظماتٍ عاملةٍ. ودُعمت هذه الفئة بمائة عضوٍ في المجلس النيابي، وهم الذين يحقّ للحكومة ترشيحهم، وبالقرارات والتعليمات التي تصدر لمصلحتها، وبالمساعدات التي تُقدّمها، وبالتبنّي لها رسمياً.

وقفت الحكومة موقفاً معادياً بصراحةٍ للإسلام، ومُؤيّداً بوضوح للنصرانية وللإرساليات التنصيرية، إذ أصدرت تعليماتٍ تحول دون خروج الدعاة المسلمين إلى القرى وما دون ذلك من مناطق الريف والغابة، وقصرت عملهم على المدن والمراكز الحضارية الكبرى، على حين تركت المجال للنصارى كي يعملوا حيثما شاءوا وأمدتهم بوسائل الوصول إلى الغابة والجهات البعيدة كلها، ومن المعلوم أن المدن تضمّ الذين عندهم وعي بشكل عام أكثر من غيرهم، واختاروا عقيدتهم عن قناعةٍ ولا مجال للعمل معهم، على حين أن القبائل البدائية في الغابة ومناطق الريف ينقصهم الوعي، وهم إما وثنيون أي لا عقيدة لهم أو أنهم أصحاب ديانةٍ ولكنهم على جهلٍ بها، ولا تُشكّل شيئاً في حياتهم فيمكن التأثير عليهم وأخذهم إلى ديانةٍ أخرى، وإضافةً إلى ذلك فإنهم فقراء يسعون وراء حاجتهم فيمكن كسبهم إلى عقيدة من يقدّم لهم المساعدة المادية أو الدواء، والإرساليات النصرانية، واتحاد الكنائس يملكون هذا كله. . . ولهذا فقد نجحوا نوعاً ما في جهودهم، فضاعفوا من تلك الجهود، وزادوا من إمكاناتهم، وبذلوا من طاقاتهم، وتكاثرت إرسالياتهم وكان الغزو التنصيري الواسع في أندونيسيا.

ومع كل هذا فإن نجاح النصارى كان ضئيلاً في المدن والمراكز الحضارية، لأن الناس أكثر وعياً، ووجد المنصّرون، كما وجدت الحكومة

أن سكـان أندونيسيـا رغم فقرهم، وعـدم معرفتهم، وقلّة وعيهم، فـإنهم يتعاطفون مع كل شيءٍ يحمل اسم الإسلام، وينفرون من كل ما يحمل اسم النصرانية، ومن هنا كانت تحصل الأحزاب الإسلامية على تأييد العامة على حين لا تنال الأحزاب النصرانية أي عطفٍ من الشعب، ولا تحصل على أي تجاوبٍ، لذا أصدرت الحكومة الأندونيسية تعليماتٍ تقضي بعدم حمل أي حزبٍ أو تنظيمٍ أي اسمٍ أو شعارٍ يـدلّ على عقيـدةٍ معينةٍ أو ديانةٍ، حتى لا تكون هناك أيّة عصبياتٍ، أو إثارات طائفية ـ حسب زعم المسؤولين ـ.

والواقع أن الأمر خطير جداً في أندونيسيا ويجب تداركه، فالهجمة الصليبية شرسة، وتآمر المسؤولين معها واضح رغم ادّعائهـم الإسلام، أو إظهارهم الحياد، وأن حرية الأديان مصونة، والواقع أن المسلمين لا حرية لهم ولا حقّ لهم بالنسبة لأصحـاب الديـانات الأخـرى مع أنهم الغـالبية المطلقة.

ولاحظنا أن الصراعات الإقليمية، والعنصرية، والحزبية تحمل جميعها المعنى العقيدي، فالصراع بين الإسلام والنصرانية شديد في أندونيسيا، غير أنه صراع غير متكافىء، إذ تملك النصرانية الإمكانات الضخمة، والدعم الدولي، ومساعدة الحكومة، وتأييد كبار المسؤولين ممن ينتمي إلى الإسلام اسماً، ولا يملك الإسلام أي شيءٍ بل إن أتباعه لا يملكون الـوعي ولا المعرفة، ولا المخططات المهيّأة ضدّهم، وهم هدف الصليبية العالميـة، ومكـان رمي سهام الفـرقة الضـالة الحـاكمة «أبنجـان»، والـذين ارتبـطت مصالحهم مع الدول الكبرى النصرانية.

الباب الثالث

بروناي

لمحة عن بروناي قبل إلغاء الخلافة

كانت بروناي في الماضي دولةً ذات شأنٍ يمتدّ سلطانها على مناطق واسعةٍ من جزيرة بورنيو بما في ذلك المناطق الساحلية لشمال الجزيرة وهي ولايتي (صباح) و(ساراواك) حالياً، واللتان أصبحتا فيما بعد ولايتين تتبعان ماليزيا.

أخذ الإسلام ينتشر في جنوب شرقي آسيا منذ نهاية القرن السابع الهجري، وأخذ يتوسّع نفوذ المسلمين عن طريق التجارة، وغدا مع الزمن لهم عدة سلطنات في تلك المنطقة، وفي عام ٨٢٨ هـ زار سلطان بروناي (أوانغ ألاك بتاتار) سلطان مالاقا المسلم محمد شاه (باراميسورا)، واعتنق الإسلام، ورجع إلى بلاده مسلماً فدعا شعبه، فاستمع إليه من استمع، وأخذ الإسلام ينتشر في بروناي بسرعةٍ متزايدةٍ.

وفي القرن العاشر الهجري كان نفوذ سلطنة بروناي قد وصل إلى الأوج حيث شمل أكثر أراضي جزيرة بورنيو كما شمل جزر صولو في جنوبي الفيليبين اليوم، وجزءاً من بقية الجزر الأخرى.

في هذا الوقت كان الاستعمار الصليبي الأوربي قد وصل إلى المنطقة، وأخذ يتدخّل في شؤونها، ويحتلّ أراضيها، وقد وصل المستعمرون الصليبيون الإسبان إلى بروناي عام ٩٢٧ هـ، وكان التجار المسلمون يجوبون سواحل جزر المنطقة كلها، ويقومون بأعمالٍ نشطةٍ،

وكانت تجارتهم رائجةً على نطاقٍ واسعٍ، ولم يكن الدعاة أقلّ نشاطاً من التجار، بل إن التجار أنفسهم كانوا دعاةً.

واحتلّ الإسبان الجزر الشمالية مما يُعرف اليوم باسم الفيليبين، ودخلوا مدينة مانيلا، فتوقّف نتيجة ذلك المدّ الإسلامي في تلك الجهات، وأخذ الصراع بين الإسبان النصارى في الشمال وبين المسلمين في الجزر الجنوبية يشتدّ في محاولةٍ من الإسبان لمدّ نفوذهم على الجزر الجنوبية وإخضاعها لسيطرتهم الصليبية، فكان سلطان بروناي يمدّ المسلمين، ويدعمهم بكل إمكاناته، فما كان من الحاكم الإسباني للجزر الشمالية إلا أن كتب إلى السلطان يطلب منه التوقّف عن هذا الدعم، والامتناع عن إرسال دعاةٍ من قبله إلى الجزر الجنوبية وإلى أواسط جزيرة بورنيو بل وإلى قبول مُنصّرين كاثوليك في جزيرة بورنيو، غير أن السلطان قد رفض هذا الطلب بحزمٍ، ونقل مقرّه من بروناي إلى جزر صولو ليكون أقرب إلى الإسبان للمواجهة من باب التحدّي والرغبة بالمنازلة، ولم تستطع إسبانيا أن تقوم بردّ فعلٍ لضعفها آنذاك وعدم توفّر الإمكانات لديها، وذلك عام ٩٨٧ هـ.

ونتيجة ضعف إسبانيا والبرتغال لسيطرتهم على أجزاء واسعةٍ لا إمكانية لهم بالسيطرة عليها بشكلٍ قويٍ لذا فقد تقدّمت دول صليبية أوربية أخرى لسدّ هذا الفراغ ودعم النصرانية بقوةٍ، هذا إضافةً إلى الصراع القائم بين هذه الدول في أوربا، ورغبةً من هذه الدول في منافسة إسبانيا والبرتغال للحصول على خيرات المستعمرات واستغلال موارد البلاد التي وصلت إليها هاتان الدولتان أو كنوعٍ من نقل الصراع إلى هذه المناطق وتتمةً له.

دخلت هذا الصراع أو هذه المنافسة هولندا، وفرنسا، وانكلترا، وأسّست كل منها شركةً للاستغلال واستثمار ما تضع يدها عليه. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري كانت شركة الهند الشرقية البريطانية بحاجةٍ إلى مركزٍ لتجارتها مع الصين. وكانت أول محاولةٍ لإقامة

هـذا المركـز في شمالي جـزيرة بـورنيو، وكـان هذا الجـزء يتبع سلطان (صولو)، وكان هذا السلطان قد وقع في أسر البريطانيين عندما استولوا على مدينة مانيلا، وقد أطلقوا سراحه، فتنازل لشركة الهند الشرقية البريطانية عن منطقةٍ في شمالي جزيرة بورنيو لتُقيم عليها مركزاً لتجـارتها كفـداء لفكاك أسره.

وكان الهولنديون كذلك قد أقاموا مراكز تجاريةً لهم في سلطنة بروناي منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري، ثم اقتصرت هـذه المراكـز على (ساراواك) وأجزاء من برونيو الشمالية.

وفي عـام ١٢٥٩ هـ تدخّـل المغامـر البريـطاني (جيمس بروك) في خلافٍ نشب بين نائب السلطان في بروني وبين الثوار الملايويين ومـلاك الأراضي فكافأه السلطان على جهوده وإمكانيته على تهدئة الوضع بأن عيّنه حاكماً على (ساراواك) عام ١٢٦٩ هـ.

وفي عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ م) دخل سلطان بروناي في اتفاقيةٍ مع بريطانيا لمقاومة القرصنة وتطوير العلاقات التجارية.

عيّن البـريطانيـون قنصلاً لهم لـدى سلطان بـرونـاي، وتنـازل لهم السلطان عن مراكز في شمال شرقي جزيرة بورنيو نتيجةً للأعمال التي قاموا بهـا، كما تنـازل سلطان (صولـو) عن مراكـز أخرى لهم عـام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م). ثم تأسّست شركة (شمالي بورنيو) البـريطانيـة عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)، وأخذ نفوذ بريطانيا يتوسّع، ونفوذ سلطان بروناي يتقلّص حتى وصل إلى ما هي عليه الآن من ضيقٍ في المساحة، وضعفٍ في النفوذ. وأخيراً توطّدت سيطرة البريطانيين على جزيرة بورنيو كلهـا، وقُسّمت إلى أجزاء حسبما تقتضيه مصلحة بريطانيا الاستعمارية الصليبية.

وفي عـام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) وُضعت بـرونـاي تحت الحمـايـة البريطانية، وكذلك وضعت بورنيو الشمالية (صباح) و(ساراواك).

وفي عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) وقّع البريطانيـون اتفاقيـةً مع سلطان بروناي قضت بوضع مقيمٍ بريطانيٍ في حاشية السلطان كمستشارٍ للأمور الإدارية، وانبثق نتيجة ذلك شكل حكومةٍ شملت مجلس شورى استشاري.
ومنذ أن اتسع النفوذ البريطاني وبروناي مسرحاً لنشاط الإرسـاليات التنصيـرية المدعومة بقوة المستعمر ومدّه بالإمكانات الضخمة.

الفصل الأول

بروناي من إلغاء الخلافة حتى الاستقلال

أُلغيت الخلافة الإسلامية في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ (٣ آذار ١٩٢٤ م)، وبروناي محمية بريطانية، السلطان صورة رمزية، وأصحاب النفوذ هم البريطانيون، يستغلّون خيراتها، ويتصرّفون بشؤونها باسم الدفاع عنها، ويجعلون أرضها مرتعاً لإرسالياتهم التنصيرية.

احتلّ اليابانيون بروناي في الحرب العالمية الثانية في شهر ذي القعدة ١٣٦٠ هـ (كانون الأول ١٩٤١ م) ولكن لم تلبث اليابان أن انسحبت من بروناي كما انسحبت من غيرها إذ هُزمت في تلك الحرب، ولم يمض على بدء الاحتلال أربعة أعوامٍ.

وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) عيّن البريطانيون حاكم (ساراواك) مندوباً سامياً لبريطانيا في بروناي، واستمرّ هذا المنصب حتى ربيع الأول ١٣٧٩ هـ (أيلول ١٩٥٩ م) حيث دُوّن الدستور لبروناي، وقد أعلنه السلطان في ٢٧ ربيع الأول ١٣٧٩ هـ (٢٩ أيلول ١٩٥٩ م)، ونصّ على قيام مجلسٍ خاصٍ للسلطان، ومجلسٍ تنفيذي، وآخر تشريعي، وأُلغي عندها منصب المندوب السامي، وقامت في البلاد إدارة منفصلة بناءً على اتفاقيةٍ وُقّعت بين السلطنة والحكومة البريطانية.

وقام الاتحاد الماليزي ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، ولكن حكومة بروناي لم

تُقرّر الدخول فيه، ثم اندلع تمرّد في بروناي، وبورنيو الشمالية (صباح)، وأجزاء من ساراواك في شهر رجب ١٣٨٢ هـ (كانون الأول ١٩٦٢ م) تبنّاه جيش التحرير في شمالي بورنيو، وقاده أحمد محمد الزهاري، والهدف منه معارضة الانضمام إلى الاتحاد الماليزي، وأعلن المتمرّدون عن قيام دولة «كاليمنتان الثورية» غير أن التمرّد قد أُخمد بعد عشرة أيامٍ من اندلاعه بمساعدة قواتٍ بريطانيةٍ حُملت من سنغافورة. وأُعلنت حالة الطوارىء في البلاد، وحظر نشاط حزب الشعب، ونفي أحمد محمد الزهاري إلى الملايو. وأخيراً عقد اتفاق ماليزيا بين كل من (اتحاد الملايو) و (سنغافورة) و (ساراواك) و (بورنيو الشمالية) وبين الحكومة البريطانية بتاريخ ١٧ صفر ١٣٨٣ هـ (٩ تموز ١٩٦٣ م)، وقد نصّ هذا الاتفاق على انتقال السيادة في (بورنيو الشمالية) التي حملت اسم (صباح)، و(ساراواك)، و(سنغافورة) من يد البريطانيين إلى حكومة ماليزيا بتاريخ ١١ ربيع الثاني ١٣٨٣ هـ (٣١ آب ١٩٦٣ م)، كما وضّح هذا الاتفاق العلاقات بين سنغافورة والاتحاد الجديد. وقرّر سلطان بروناي عدم الانضمام إلى هذا الاتحاد، كما عارضته الحكومتان الأندونيسية، والفيليبينية. وهكذا بقيت سلطنة بروناي وحدها، منفصلةً عن اتحاد ماليزيا الذي يشمل الأراضي المحيطة بها، وبعيدة عن أندونيسيا التي تملك باقي أجزاء جزيرة بورنيو، وهي القسم الأعظم منها، والتي تعدّ دولة بروناي جزءاً صغيراً على سواحلها الشمالية لا يكاد يُعادل ٧٩٪ أي أقل من ١٪، ويملك اتحاد ماليزيا ما يقرب من ثلث الجزيرة، والباقي من نصيب أندونيسيا.

وطُبّق الدستور الذي أصدره السلطان منذ عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، ولكن بقيت الأحكام العرفية معمولاً بها بدءاً من حوادث التمرّد التي قامت في البلاد.

وعُدّل الدستور في ٤ رمضان ١٣٨٤ هـ (٦ كانون الثاني ١٩٦٥ م)

ليكون المجلس التشريعي عن طريق الانتخاب، فالمجلس التنفيذي (مجلس الوزراء) يرأسه السلطان.

أما المجلس التشريعي فيضمّ واحداً وعشرين عضواً يُؤخذ عشرة منهم بالانتخاب، وخمسة بالتعيين، وستة يدخلون المجلس بحكم وظائفهم الرسمية. ومندوب السلطان ويُسمّى (منتري بيسار) أي الوزير الأكبر فيُمارس السلطة التنفيذية نيابةً عن السلطان، ويحضر جلسات المجلس التشريعي باسمه.

وفي ٢ رجب ١٣٨٧ هـ (٥ تشرين الأول ١٩٦٧ م) تنازل السلطان سيف الدين عمر علي الذي كان بيده الحكم منذ عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) عن السلطة إلى ابنه حسن البلقياح الذي لا يزيد عمره على الواحدة والعشرين سنةً، وتمّ تتويجه في ٧ جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ (الأول من آب ١٩٦٨ م) باسم (معز الدين ودود الله)، وهو السلطان التاسع والعشرون.

وفي رمضان ١٣٩١ هـ (تشرين الثاني ١٩٧١ م) منحت بريطانيا الحكم الذاتي لسلطنة بروناي.

وفي ذي الحجة ١٣٩٥ هـ (كانون الأول ١٩٧٥ م) أصدر مجلس الأمم المتحدة قراراً دعا فيه بريطانيا بالانسحاب من بروناي، وعودة المنفيين السياسيين، وإجراء انتخابات عامة.

تمت مفاوضات بين سلطنة بروناي وبين بريطانيا عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م)، وأعقبتها تأكيدات من أندونيسيا وماليزيا على احترام استقلال سلطنة بروناي، ووُقّعت اتفاقية بعد ذلك بين الطرفين في شهر صفر ١٣٩٩ هـ (كانون الثاني ١٨٧٩ م) قضت بأن تصبح بروناي دولةً مستقلةً خلال خمس سنواتٍ، وفي ٢٨ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٨٤ م) أي حسب الوقت الذي نصّت عليه الاتفاقية أُعلن استقلال

دولة بروناي. وشغل السلطان حسن إضافةً إلى منصب السلطان رئاسة الوزراء، ووزارة المالية، والداخلية، وضمّ مجلس الوزراء ستةً آخرين بينهم والده السلطان السابق، وأخوان للسلطان حسن.

الفصل الثاني

الاستقلال

حصلت بروناي على الاستقلال في ٢٨ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٨٤ م)، غير أنها دولة صغيرة لا تستطيع الدفـاع عن نفسها، وهي محطّ أنظار الكثير من الدول، وكل منها يريد السيطرة عليها لغناها بالنفط، وفي الوقت نفسه فهي بحاجةٍ إلى الكثير من البضائع من مختلف الصناعات إذ ليس لديها أية صناعةٍ، وإن إعطاء إنكلترا الاستقلال لها يبقيها بحاجةٍ إليهـا للدفاع عنهـا على الأقلّ وردّ الأطمـاع التي تتجه نحوها، فالاستقلال معناه اسمي أولاً، وهذه الغـاية من تقسيمـات الدول الاستعمارية الصليبية للدول الإسلامية ففي الوقت الذي نجد الدول تضمّ مساحاتٍ واسعةً، وفيها أعداد كبيرة من السكان، وتملك إمكانات ضخمة للدفاع عن نفسها بل وعن غيرها، وبإمكانها أيضاً اكتساح مناطق غيرها نجد بعض القطع من الأراضي الإسلامية أشبه بدمىً، وتُسمّى دولاً، إذ لا تشمل الواحدة منها سوى رقعةٍ صغيرةٍ لا تزيد أحياناً على مساحة مدينةٍ واحدةٍ، وربما لا تصل إلى مساحة بعض المدن، وسكان عددٍ منها قد لا يصل إلى عدد سكان مدينةٍ متوسطةٍ أو دون ذلك، وهذه ما تريده الدول الاستعمارية الصليبية إذ تبقى هذه الدويلات بحاجةٍ للدفاع عن نفسها، ولا تجد طلب ذلـك إلا من الـدول التي كـانت تستعمـرهـا، وأوصلت المسؤولين إلى السلطة. وإذا كانت هذه الدويلات غنيـةً عاش أهلهـا في بحبوحـةٍ ورفاهٍ

زائدٍ، وربما أبطرتهم النعمة فأبعدتهم عن الفطرة فأسرفوا وبذّروا بشكلٍ لا يقبله العقل فكانوا مثلاً سيئاً عن المسلمين وهذا ما تدّعيه الدول الصليبية أن هؤلاء يُمثّلون المسلمين، ويصل بهم الأمر إلى أن يشمخوا بأنوفهم على إخوانهم في العقيدة، وتكون التفرقة. وقد يبطر الغني ولا يجد جاره الفقير ما يسدّ رمقه، ويكون الحقد في أبناء البلد الواحد، وهذا ما تسعى إليه الدول الصليبية المستعمرة. وبريطانيا قد أعطت بروناي الاستقلال، ولكن بقيت مسؤولةً عن الدفاع عنها. حتى أن بريطانيا قد أعطت الاستقلال وربما استعملت عبارة «منحت» كأنها صاحبة حقٍ في هذه السيطرة، ومنحت الدولة الضعيفة استقلالها.

وعادت العلاقات فتحسّنت بين بروناي وبريطانيا بعد أن ساءت قليلاً عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) عندما أسّست بروناي مؤسسةً ماليةً لإصدار أوراق النقد الخاص بها بعد أن كانت مرتبطةً بمؤسسةٍ بريطانيةٍ. فأظهرت بريطانيا غضبها من ذلك لأن بروناي أقدمت على هذا العمل دون علمها، وحتى لا تقوم بعد ذلك بأي عملٍ دون استشارة بريطانيا. ورجعت العلاقات إلى حالتها الطبيعية عندما وافقت الحكومة البريطانية على إبقاء أفواج من قواتها (جورفا) التي كانت متمركزةً في بروناي منذ عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)، ويجب أن تبقى في بروناي بعد الاستقلال على حساب السلطنة لحماية حقول النفط والغاز. وكان هذا مجرد تهديدٍ من بريطانيا لبروناي حيث لم تُؤكّد مصير هذه القوات بعد عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) عندما تعود (هونغ كونغ) إلى الصين، وهي موقع القاعدة الرئيسية لهذه القوات.

وتطورت علاقات بروناي إلى شكلٍ جيدٍ مع دول جنوب شرقي آسيا، وخاصةً مع سنغافورة. وتمّت زيارات ملكية إلى تايلاند وأندونيسيا عام ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م)، وفي الوقت نفسه أُنشئت علاقات سياسية مع اليابان.

انضمّت بروناي إلى الأمم المتحدة، وإلى السوق الأوربية المشتركة،

ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة دول جنوب شرقي آسيا، وعُقد مؤتمر وزراء خارجيتها في عاصمة بروناي في شهر ذي الحجة من عام ١٤٠٩ هـ (تموز ١٩٨٩ م).

وفي مطلع عام ١٤٠٧ هـ (أيلول ١٩٨٦ م) تُوفّي والد السلطان، وهو السلطان السابق سيف الدين محمد عمر علي. ووسّع السلطان المجلس التنفيذي، وأصبح يضمّ أحد عشر عضواً، وذلك عندما أعاد تنظيم الحكومة. وكذلك منح الأعيان أوراقاً تجاريةً كانت خاصةً بأفراد الأسرة الحاكمة.

وأظهرت بروناي رغبةً في إقامة علاقاتٍ وثيقةٍ مع الولايات المتحدة الأمريكية، وانكلترا، وأندونيسيا، وماليزيا، وفي مطلع عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) دفع السلطان مساعدةً لثوار «الكونترا» في نيكارغوا على حين كان الكونغرس الأمريكي قد حظر أي مساعدةٍ لهم، وقد اكتشف أمر ذلك لأن المساعدة قد أودعت بشكلٍ خاطىءٍ في حساب بنك رجل الأعمال السويسري في شهر رجب من عام ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م).

وفي هذا الوقت بالذات رجب ١٤٠٧ هـ (آذار ١٩٨٧ م) أبدت بروناي اهتمامها للانضمام إلى اتفاقية الدفاع للدول الخمس المرتبطة ببريطانيا، وهي: ماليزيا، وسنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلاندا. وتحسّنت العلاقات مع ماليزيا بشكلٍ واضحٍ عندما عرضت ماليزيا في رجب ١٤٠٧ هـ مساعدة بروناي على إنشاء جيشٍ بقواتٍ احتياطيةٍ، وعندما زار رئيس الوزراء الماليزي بروناي للقيام بمحادثاتٍ. وفي مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) أعلن البلدان إمكانية إقامة تعاونٍ مستقبليٍ بانتاج الأجهزة الدفاعية.

كما تحسّنت العلاقات مع أندونيسيا، وقد منح السلطان في مطلع عام ١٤٠٨ هـ (أيلول ١٩٨٧ م) أندونيسيا قرضاً بمبلغ مائة مليون دولار دون

فائدةٍ لإقامة مشروعاتٍ صناعيةٍ ومواصلاتٍ، وتُدفع على مدى خمسٍ وعشرين سنة.

وتوطّدت العلاقات كذلك مع الفيليبين، وقامت رئيسة الفيليبين كورازين أكينو بزيارةٍ لبروناي في الأول من عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م)، وعرض السلطان مبدئياً المساهمة في المجموعة الدولية لتمويل خطط تطوير الاقتصاد الفيليبيني. وهكذا تحسّنت علاقات بروناي مع دول المنطقة المجاورة، والتي كانت تقف في وجه استقلال بروناي، وكلها تطمع في ضمّها إلى أراضيها لغناها، وما تحسّنت العلاقات أيضاً إلا بتقديم المساعدات أيضاً، وعرض المال.

ولم تقتصر أموال هذه الدولة المسلمة على الأمصار والبلدان المجاورة، وإنما كانت تستفيد منها بريطانيا أيضاً، حيث كانت تُسيطر عليها في الماضي، وتُدافع عنها في الوقت الحاضر، وترتبط معها بعلاقاتٍ وثيقةٍ. ففي ربيع الأول ١٤١٠ هـ (تشرين الأول ١٩٨٩ م) وقّعت بروناي مع بريطانيا اتفاقية تفاهمٍ لشراء طائراتٍ مُقاتلةٍ، وسفن دورياتٍ، ومعداتٍ عسكرية أخرى بما تُعادل قيمتها مائتين وخمسين مليون جنيه استرليني، والخبير المدقّق في هذه الصفقة يجد أن هذه المعدات ليست من الأسلحة المتطورة، وإنما على العكس من الأسلحة التي تريد بريطانيا أن تنسّقها من قواتها إذ لم تعد مناسبةً، هكذا جرت عادة الدول الاستعمارية الصليبية فيما عُرف باسم «تسليح الدول النامية». والأصل المسلمة منها.

وفي مطلع عام ١٤٠٩ هـ (آب ١٩٨٨ م) جرت مناورات مشتركة بين قواتٍ من بروناي وأخرى بريطانيةٍ.

وأُلغيت حالة الطوارىء بعد مرور ستٍ وعشرين سنةً على تطبيقها، وعقد السلطان العزم على إجراء انتخاباتٍ عامةٍ.

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية

بروناي دولة صغيرة تبلغ مساحتها ٥٧٦٥ كيلومتراً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها حسب تقديرات عـام ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) بمائتين وثمـانين ألفاً، وتكون الكثافة ما يقرب من ثمانين شخصاً في الكيلوالمتر المربع الواحد. ويبلغ طول سواحلها مائة وستين كيلومتراً.

يعتمد اقتصادها على النفط والغاز الطبيعي، وتوجد خمس آبار في الداخل، وبئران على الساحل، ويُقدّر إنتاجها من النفط بسبعة ملايين طن، وما يقرب من (٧١٨,٠٠٠) طن من مشتقات النفط، أما الغاز الطبيعي فيُقدّر إنتاجها منه بـ(٨٦٥٤) متراً مكعباً. ويعمل في هذا الميدان ٥,٧٪ من اليد العاملة. ويُشكّل النفط والغاز ٩٢٪ من الدخل الوطني.

ويعمل ٥٪ من اليد العاملة في الزراعة، والغابة، وصيد الأسماك، وأشهر زراعتها الرز، والموز، والأناناس. ويُقدّر صيد السمك بـ(٢٦٥٢) طناً سنوياً، ويُقدّم ٦٥٪ من الاستهلاك المحلي، ويأتي هذا الصيد من مياه المحيط، والمياه العذبة الداخلية، ومن نهر بـروني الكبير، ولا شـك أن معظمه من مياه المحيط الهادي. وتُقدّم الزراعة وما يتبعها ١,٣٪ فقط من إجمالي الدخل الوطني.

ويُعدّ دخل الفرد في بروناي من المعدلات المـرتفعة إذ يصـل إلى

(١٥٣٩٠) دولاراً أمريكياً سنوياً. وأكثر العمال من خارج بروناي إنما هم من ماليزيا، ومن ولاية ساراواك بشكلٍ خاصٍ.

إن الدستور الذي أعلنه السلطان في ٢٧ ربيع الأول ١٣٧٩ هـ (٢٩ أيلول ١٩٥٩ م) قد أعطى السلطان السلطة التنفيذية المطلقة، ويُعاونه، ويعمل تحت استشارته أربعة مجالس، وهي: المجلس الديني، والشورى، ومجلس رئاسة الوزراء، ومجلس الوراثة. وعندما اندفع تمرّد رجب ١٣٨٢ هـ (كانون الأول ١٩٦٢ م) عُلّقت بعض أحكام الدستور، وكان الحكم يصدر بمرسوم ملكي.

المجلس الديني:

ويضمّ أعضاء يتمّ تعيينهم من قبل السلطان، ويعرض المجلس جميع المسائل الإسلامية التي تُعرض عليه على السلطان بصفته رئيساً للدين الإسلامي في بروناي.

مجلس رئاسة الوزراء:

ويرأسه السلطان، ومن اختصاصه النظر في جميع المسائل التنفيذية.

مجلس الشورى:

ويرأسه السلطان، ومن اختصاصه الإشارة على السلطان في المسائل التي تتعلّق بحقّ امتياز الرحمة الملكية، وتعديل الدستور، والترقية، ومنح ألقاب الشرف.

مجلس الوراثة:

ويخضع للدستور، ويُقرّر من يتولّى العرش فيما إذا دعت الحاجة إلى ذلك بغياب السلطان فجأةً.

والدولة مُقسّمة إلى أربع مناطق إدارية، وعلى كل منطقةٍ ضابط ملايوي مسؤول أمام رئيس الوزراء وأمام وزير الشؤون الداخلية.

الصـراع العنصـري:

يشكل أهل الملايو ٧١٪ من مجموع السكان، وإضافةً إليهم يعيش في بروناي أعـداد من الصينيين يُشكّلون ١٩٪ من سكان البـلاد، وهناك مجموعات أخرى من الفيليبين، والأندونيسيين، والتايلانديين، واليابانيين، والأوربيين يُشكّلون جميعاً ١٠٪ من السكان، وبذا يكون التوزع على النحو الآتي:

المجموعة	العدد	النسبة
الملايو	١٩٨,٨٠٠	٧١٪.
الصينيون	٥٣,٢٠٠	١٩٪.
مجموعات أخرى	٢٨,٠٠٠	١٠٪.
	٢٨٠,٠٠٠	١٠٠٪.

ولما كانت أكثرية السكان يعودون إلى أصل الملايو لذلك لا نجد صراعاً عنصرياً قوياً، وخاصةً أن المجموعات الأخرى إنما تعود إلى أصولٍ متعددةٍ وجنسياتٍ كثيـرةٍ. ويمكن أن يقوم الصينيـون فقط ببعض التمرّد، والحديث عن المشاركة بالسلطة غير أنهم ضعاف، وإن كـانوا يتجمّعـون بعضهم مع بعضٍ.

وفي أيـام السيطرة الإنكليـزية كـانت بريـطانيا تتعهـد الأقليات غيـر المسلمة كلها في محاولةٍ منهـا لإضعافٍ المسلمين والإقـلال من شأنهم، وتقوية الآخرين عليهم، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ في محاولةٍ لكسب هذه الأقليات إلى صفها كمرحلةٍ أولى ثم شدّهـم إلى عقيدتها ما داموا على عقيدةٍ هشّةٍ لا تقوم على فكرٍ، ولا تنسجم مع أقلّ متطلبات الفطرة. وبهذه المعـاملة فقد

سيطر الصينيون على قطاع التجارة الخاص في بروناي، ونشطوا نشاطاً واسعاً، فلما بدأت فكرة الاستقلال، وأعلن السلطان عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) أن بروناي ستصبح دولةً إسلاميةً مستقلةً بدأ الصينيون يتذمّرون، وأعلنوا أنهم أصبحوا مُهدّدين، وأنهم سيصبحون من غير ولايةٍ لهم، أي أن بريطانيا كانت ولية أمرهم، فإن أكثرية السكان ملايويين، ويعرفون باسم «باميبيبوتراس» أي أولاد التربة، وأصبح الكلام يكثر من الغرباء من الصينيين، ومن تايلاند، ومن هونغ كونغ، ومن غيرهم أنهم سيُعاملون معاملةً غير عادلةٍ مع الملايويين، وهذا بدفعٍ وتحريضٍ من الصليبيين في محاولةٍ لإبعاد شعار الإسلام على حين أن الصليبيين وغيرهم من أهل الكتاب يعلمون علم اليقين أنهما عاشوا في ظلّ الإسلام في أمنٍ وسلامٍ على مدة قرونٍ، على حين لم يجد المسلمون راحةً أبداً في بلادهم أنفسهم عندما سيطر عليها المستعمرون الصليبيون، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى فإن رفع هذا الشعار الإسلامي ليس إلا اسماً، فلو كان حقيقةً لما ترك في البلد وثنيون أبداً على اختلاف ما يدينون من بوذيةٍ، أو كونفوشيةٍ، أو طوطميةٍ أو عبادةٍ للأرواح، فديار الإسلام هي التي يُطبق فيها المنهج الإسلامي، ولا يسكنها إلا المسلمون والذمّيون من أهل الكتاب النصارى واليهود، وما يلحقهم من المجوس. ومن عدا ذلك فعليه الرحيل أو اعتناق الإسلام أو إحدى ديانات أهل الكتاب، أو المجوسية.

ويتكلّم السكان اللغة الملايوية، وهي الرسمية والشعبية، وإن كانت المراسلات كافة لا تتمّ إلا باللغة الإنكليزية، والتي تعدّ شائعةً، كما أن الصينيين يُحافظون على لغتهم فيُعلّمونها في مدارسهم، ويتكلّمونها فيما بينهم وإن كانوا يعرفون الملايوية، ويفهم أكثرهم الإنكليزية، وكذا المجموعات الأخرى من بقية الجنسيات.

الصراع الحزبي:

تأخّر التنظيم في بروناي، وإن كان المسلمون من السكان ينظرون

إلى المستعمرين الصليبيين أنهم مغتصبون بالقوة التي يملكونها، ويعدّونهم أعداء، ويستعلون عليهم ما داموا أبناء البلاد، وأنهم على الدين الحق، وعلى أن النصرانية تقوم على عبادة مخلوقٍ، وإن كان عبداً من عباد الله الصالحين، وأحد أنبياء الله ورسله، فهم لا يختلفون عن الديانات التي يرون أهلها بجوارهم (عبدة الأرواح، والبوذيون، والكونفوشيون، والشنتويون، والهندوس) فكلهم يُقدّسون مخلوقات، وإن تباينت هذه المخلوقات بتكريمها من خالقها. والمسلمون أكثرية.

فلما أخذ التفكير بموضوع الاتحاد الماليزي خشي بعض المسلمين من الانضمام إليه، وهم يرون أن ماليزيا مرتبطة ببريطانيا بشكلٍ أوثق، وأن نسبة المسلمين فيها ضعيفة نسبياً لا تتجاوز ٥٥٪ فلم يرغب بعضهم بهذا الانضمام، وكانوا أقرب إلى أندونيسيا حيث غالبية السكان من المسلمين (٩١٪) من مجموع السكان، كما أن النشاط الإسلامي كان واسعاً، وحزب ماشومي نشطاً. فتجمّع بعض المسلمين وشكّلوا حزب الرايات البرنوي، وكذلك قام حزب الشعب الذي كان له دور فعّال، وقد عملا على مقاومة هذا الانضمام، وحدثت حركة التمرّد عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)، ولكن أخمدت خلال عشرة أيامٍ، ونفي أعضاء حزب الرايات البروني كلهم، ومُنع حزب الشعب من مزاولة النشاط.

وفي عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) تشكّل الحزب الوطني الديمقراطي البروني (B. N. D. P) وهيكله رجال الأعمال الذين لهم ولاء للسلطان، وركّزوا سياستهم تحت شعار الإسلام، وشكّلوا مجموعةً وطنيةً حرّةً، غير أن السلطان قد حرّم على موظفي الدولة من الانضمام لهذا الحزب، وهم يشكلون ٤٠٪ من اليد العاملة، وهذا ما قلّل من القاعدة التي يعتمد عليها، ومن مجال نشاطه، كما استبعد الحزب أيضاً من انضمام الصينيين إليه والجنسيات الأخرى غير الملايوية وبالتالي غير المسلمين، لذا بقي محدود العدد، ومع ذلك فقد ظهرت فيه تشعّبات بالآراء، واختلاف على الزعامة،

وتشكلت أجنحة، وحدث انشقاق، وفي عام ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م) نشأ حزب جديد، هو حزب بروناي الوطني المتحد.

لقي حزب بروناي الوطني المتحد موافقة السلطان، وركّز جهده على التعاون مع الحكومة، وانفتح على المسلمين وغير المسلمين، وبعد عامين من تأسيسه صدر أمر ملكي بحلّه وذلك في شهر جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ (شباط ١٩٨٨ م) بعد أن أعطى السلطان صفة رئاسة الحكومة فقط دون ذكر رئاسة الدولة، غير أن الحكومة اتهمته بالاتصال بمؤسساتٍ أجنبيةٍ، وألقت القبض على بعض قادته، ومنهم عبداللطيف حامد، وعبداللطيف شوشو، وألقتهم في السجن لغاية ١٤١٠ هـ (١٩٨٩ م).

وهناك جبهة استقلال الشعب، ولكن لم يعد لها دور أيضاً.

الصراع العقيدي:

يشكل المسلمون أكثرية السكان إذ تبلغ نسبتهم ٧٦٪ من مجموع أهل بروناي، ويلي ذلك أتباع الديانة البوذية، وتختلط البوذية بالكونفوشية عند كثيرٍ من الصينيين، وتبلغ أتباعها ١٦٪، وأصبحت نسبة النصارى ٤٪، ومثل ذلك نسبة عبدة الأرواح.

الجماعة	العدد	النسبة
المسلمون	٢١٢,٨٠٠	٧٦٪.
البوذيون	٤٤,٨٠٠	١٦٪.
النصارى	١١,٢٠٠	٤٪.
عبدة الأرواح	١١,٢٠٠	٤٪.
	٢٨٠,٠٠٠	١٠٠٪.

لا يوجد تكافؤ في الأعداد كي يقع صراع بين أصحاب الديانات، غير أن قوة الاستعمار الصليبي قد أوجدت مجموعةً نصرانيةً أولاً وجعلتها تستطيع الصراع، والتغلّب بما يملك أهلها من السيطرة، والإمكانات الضخمة، واتخاذ أساليب المكر، والتخطيط السياسي.

ما أن انتشر الإسلام في تلك الربوع وعمّ حتى جاء الاستعمار الصليبي. لقد أتى النصارى بقوةٍ لم يكن المسلمون يملكونها. ووصل الصليبيون بمكرٍ وتخطيطٍ لم يكن المسلمون يعرفونهما. وجاء المستعمرون بدعمٍ من أوربا والصليبية العالمية، ولم يكن هناك من يدعم المسلمين في جنوب شرقي آسيا لأن أوضاع المسلمين العالمية في وضعٍ لا يُساعدهم على تقديم أي مساعدةٍ، وفي حالةٍ لا يعرفون معها شيئاً عن إخوانهم. وقدم النصارى وقد تمكّنت المبادىء عندهم، وترسّخت الأفكار لديهم، ولو أنها لا تنسجم مع الفطرة على حين كان المسلمون في بداية عهدهم بالإسلام لم يتعمّق في النفوس وخاصةً أنهم أقبلوا عليه وليس هناك من مرشدٍ واعٍ، ولغتهم غير لغة الإسلام ولكن قبلوه لأنه يتفق مع تطلّعاتهم، وينسجم مع الفطرة البشرية.

لقد جاء المستعمرون بحقدٍ صليبيٍ عارمٍ، ولم يلجؤوا إلى الإبادة خوفاً من تجمّع المسلمين فوراً، ونهوضهم نهضة رجلٍ واحدٍ، وإعلان الجهاد، وبالواقع أنهم جاءوا وفي نفوسهم خوف شديد من المسلمين حيث لهم وقائع معهم، ويعرفون حروبهم، وفي الوقت نفسه فقد طمعوا بتنصير هؤلاء لمعرفتهم بحداثة عهدهم بالإسلام غير أنهم لم يستطيعوا إحراز أي نجاحٍ يذكر في تنصير المسلمين رغم ما حشدوا له، وما ذلك إلا لأن الديانة النصرانية محرّفة عما نزلت عليه، فأصبحت لا تنسجم مع الفطرة البشرية، فلم يجد فيها الناس أي دافعٍ دينيٍ لاعتناقها، ولا أي مُشجّع لإرواء الجانب الروحي عند الإنسان السوي، فهي أشبه بطقوس الوثنية، وتتفق معها في عبادة المخلوقات، وتكريم القديسين، وتقديس الصور

و. . . ولكن إن لم ينجح المنصّرون في محاولاتهم الجادة والعنيفة لتنصير المسلمين لكنهم أحرزوا طرقاً من نجاحٍ في كسب بعض العناصر الوثنية إلى عقيدتهم بالإغراءات.

ولما لم ينجح المنصّرون في مهمّتهم الأساسية، ولم يجدوا أملاً بالنجاح في المستقبل عندها عمدوا إلى محاولة إفساد المسلمين في سبيل إبعادهم عن عقيدتهم، كما أنهم اتخذوا المكر والوسائل الأخرى لإضعاف المسلمين وجعلهم بحاجةٍ إلى المنصّرين، وبحاجةٍ إلى أن يسعوا وراءهم، وراء حاجياتهم الأساسية.

قرّب المستعمرون الأقليّات غير الإسلامية، ورفعوها فوق المسلمين، وأعطوها المناصب، وفسحوا لها المجال بالنشاط، وقد لاحظنا أن الصراع العنصري كان يحمل في جنباته الصراع العقيدي.

وعمل المستعمرون الصليبيون على إفقار المسلمين بالاستيلاء على أملاكهم، وأخذ أموالهم، وإبعادهم عن المناصب فشعر المسلمون بالضعف وأحسّوا بالحاجة.

ولجأ الدخلاء إلى الحيلولة دون تعليم المسلمين بإغلاق المدارس الإسلامية، ومنع الكتاتيب من مزاولة نشاطها، ومنع الدروس في المساجد بادّعاءاتٍ لا أساس لها من الصحة، فانتشر الجهل بين المسلمين، وشعروا بالنقص المادي والعلمي عند الآخرين، وانتشرت مدارس الإرساليات النصرانية وامتنع المسلمون من الإقبال عليها في بداية الأمر، ثم أخذوا يتسلّلون إليها تدريجياً، فأدّت دورها بإفساد العقيدة، واستهوت الطريقة الغربية من سقط. ثم لجأ الدخلاء إلى طريقة الجنس وسخّروا بنات الجماعات الأخرى رديفةً لبناتهم فأغرت الشهوة الكثير، وأضلّت من أضلّت.

وكانت السلطة بعيدةً عن هذا منصرفةً إلى تحقيق رغباتها وشهواتها،

فكانت الهزيمة النفسية لدى الشعب عامةً، وأخذ يلهث الساقطون منه وراء التقليد وتأمين الرغبات وأهواء النفس، وهكذا نجح المستعمرون الصليبيون في تأدية دورهم.

وعندما استقلت البلاد أحسّ السلطان والمسؤولون بما حدث، ورأوا أن البلاد بحاجةٍ إلى الإعمار، والإعمار بحاجة إلى سكانٍ أصحاب إمكاناتٍ، والبلاد يمكنها توفير ذلك بما لديها من إمكاناتٍ وثرواتٍ نفطيةٍ، ودخل الفرد المرتفع يمكن أن يُغري الكثيرين من خارج البلاد بالإقبال نحوها، واتخاذها وطناً، ومجالاً للعمل والنشاط، ورأى السلطان تشجيع المسلمين للقدوم إلى بلاده، وبين المسلمين أصحاب الإمكانات العلمية والعملية، وبينهم المشرّدون الكثيرون الذين يفتشون عن مكانٍ يأوون إليه، فاتجهت أنظارهم نحو بروناي، وأسرعوا يقدّمون الطلبات، غير أن التقديم كان إلى السفارات البريطانية، إذ لم تكن سفارات بروناي قد تكاملت حتى تستطيع تغطية هذه الخطوة. فأجهضت بريطانيا هذا المشروع بحقدٍ صليبيٍ. وانتهى الأمر. وسكتت بروناي. فالصراع العقيدي يتمثّل في كلّ جانبٍ من جوانب الحياة. وتغلّبت الصليبية عالمياً، وضعف المسلمون دولياً، وأخذ النصارى يتحكّمون بالمسلمين تحت أسماء متعددة منها النظام الدولي الجديد، والديمقراطية، والمصلحة الوطنية و.... ويُفسّر كل اصطلاحٍ حسب ما تريده الصليبية فتُنتهك الديمقراطية وتُداس للمحافظة على النظام الديمقراطي، ويُفتك بالمسلمين حرصاً على السلام... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهنا لا بدّ من أن نذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

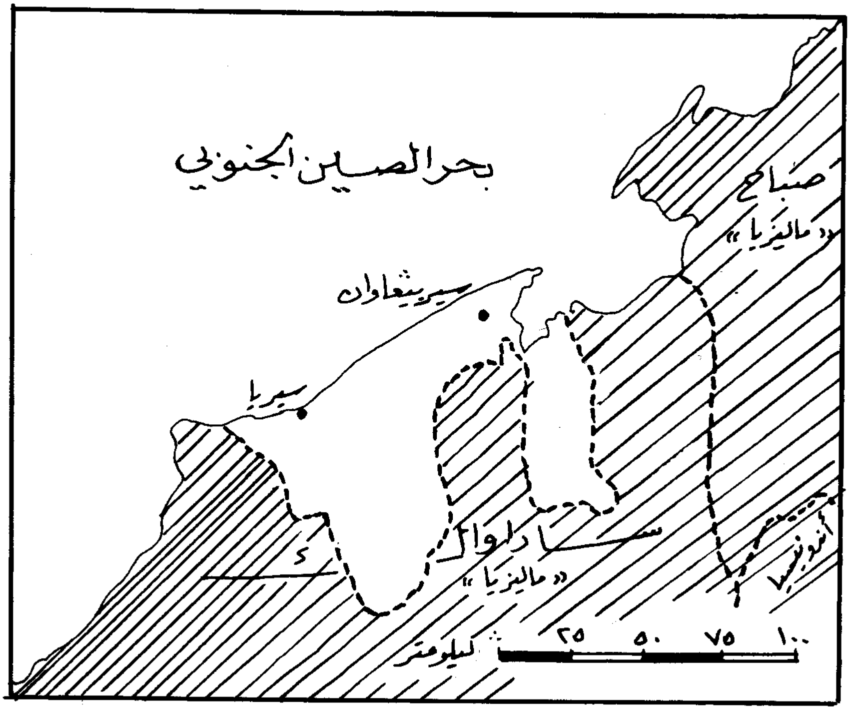
بحر الصين الجنوبي
صباح
« ماليزيا »
سيريبغاوان
سيريا
ساراواك
« ماليزيا »
أندونيسيا
١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥
كيلومتر

مصور رقم [١٣]

الخاتمة

إن منطقة جنوب شرقي آسيا منطقة مُهمّة بالنسبة إلى المسلمين، وقد ركّزت النصرانية عليها اهتمامها الآن. ويبدو أن الاستعمار الصليبي سيلجأ في عملية التنصير الجديدة حسب المخطط الذي سار عليه في الاستعمار، إذ بدأ من هامش العالم الإسلامي، وأخذ يتقدّم تدريجياً حتى وصل إلى القلب على المدى البطيء وخلال عدة قرونٍ.

لقد وصل الاستعمار إلى قلب العالم الإسلامي إثر الحرب العالمية الأولى، وعمل عن طريق أعوانه على إلغاء الخلافة فانفرط عقد الجامعة الإسلامية، وإن كان ضعيفاً مهلهلاً من قبل، لكنه كان صورةً على الأقلّ، وله أثره النفسي والمعنوي، وقد زال الآن. وأخذ المستعمرون الصليبيون بعدها يُطبّقون سياستهم في إضعاف المسلمين، وإفقارهم، وتجهيلهم حتى أُصيب بعضهم بعقدة النقص، واتخذ الدخلاء طريقة الغزو الفكري، وإبعاد اللغة العربية عن العلم والتعليم، ومحاولة إدخال كلمات فيها لإمكانية تغييرها، ووضع اللغة الإنكليزية بجانبها في كل شيءٍ للغرض نفسه، وأخيراً شعرت الدول الكبرى بهيمنتها التامة.

ويبدو أن المخطط التنصيري يسير على خطا المخطط الاستعماري وحسب مراحله، وقد بدأ بهامش العالم الإسلامي بشكلٍ مكثّفٍ، وهذا ما نراه في أندونيسيا خاصةً ثم في بقية دول جنوب شرقي آسيا، وإن كان هذا لا يمنع من تمهيدٍ في قلب العالم الإسلامي لتسهيل المهمّة في المستقبل

إذ نجد إبراز الصلبان في المسلسلات التلفزيونية وغيرها، وحتى وُجِّهت الشركات والمؤسسات لهذا الجانب وربما لم تُوجّه وإنما بدافعٍ ذاتيٍ مما تحمل من الصليبية، فأصبح عدد من شركات إنتاج السيارات يضع الصليب بصورةٍ واضحةٍ من الخلف والأمام، وبشكلٍ بارز ليتعوّد الناس على رؤيته، ولم يكن هذا من قبل. والمسلمون نيام يتركون الأمر لأعوان أعدائهم.

يجب على المسلمين أن ينتبهوا من رقدتهم، ويتعرّفوا على مجريات الأمور في واقعهم قبل أن يستفحل الأمر، فالوضع جد خطير، وهجمة الصليبية شرسة وقذرة، وقد ركّزت جهدها على جنوب شرقي آسيا دون إهمال بقية المناطق. ويجب نشر الوعي، والمعرفة، والتنبيه على ما يقع.

والله ولي التوفيق. ولنضع نصب أعيننا قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨).

الفهرس

التاريخ الإسلامي

- ٢١ -

التاريخ المعاصر

المسلمون في الأمبراطورية الروسية

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين فارج الهمّ، وكاشف الغمّ، ومُبدّد الظلمات، والهادي إلى سواء السبيل، والصلاة والسلام على قائدنا وسيدنا محمد بن عبدالله، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، رافع راية القوة والجهاد، والداعي إلى الحق وصراطٍ مستقيم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الجزء والمسلمون في الامبراطورية الروسية يرسفون في قيود الذلّ، ويحيون حياة القهر، ويعيشون عيشة البؤس وقد طال عليهم عهد الضغط والتمييز والسحق من قبل الأعداء المتسلّطين عليهم، المستبدين بهم، وزادت عليهم العتمة والظلام إذ حيل بينهم وبين إخوانهم، وحُرموا من ممارسة شعائر عقيدتهم، ومن الاطلاع على مصادرها، ومعرفة منابعها حتى نسوا أكثر ما يجب عليهم علمه، وفُرض عليهم مناهج تُخالف مبادئهم، وأُجبر أبناؤهم وأحفادهم على الإلحاد واتباع ما يجب الابتعاد عنه، ولم يروا إلا بصيصاً من نورٍ من خلال ثقوبٍ لا يرى منها شيء، وامتدّ عليهم الزمن...، ولكن لم تلبث أن نفدت الطبعة الأولى.

وصدرت الطبعة الثانية وكانت القيود قد كُسّرت، والحدود قد حُطّمت، والسجون قد هُدّمت، وفتحت الأبواب والمنافذ، ودخل النور شديداً فعشيت عيون المسلمين داخل الامبراطورية المفككة فخرجوا يتلمسون الطريق

لا يعرفون أين يسيرون، يريدون من يهديهم، من يرشدهم إلى الطريق، من يأخذ بأيديهم نحو سبيل الرشاد، من يصلهم بالماضي الذي يرتبطون به، وقد أضاعوه، ويعرفون أنه كان سبب عزّهم، وقد حوربوا من أجله، وأُبعدوا عنه ليُنال منهم، ولإمكانية إذلالهم حيث لا يمكن إخضاعهم ما تمسّكوا به. وهو الآن أملهم ينظرون إليه بالأفق بعيداً ويريدون الإسراع إليه لالتقاطه، فلكم حلموا به وتمنّوا الوصول إليه.

وأسرعت أقوام إلى تلك الشعوب بكل منها يريد أن يسير بها حسب هواه، سارت بإمكاناتها المتاحة لها لتمسك بيد ذلك الأعشى وتأخذ به إلى ما تريد، وهو لا يمكنه التمنّع حيث لا يعرف دربه، ولا يملك بالأساس المقاومة لأنه صفر اليدين، ويتقبّل كل دعايةٍ ويُصدّق ما يقال له. أسرعت إيران، ومدّت يدها لتلقي العلم وتتلقّى طلبته، وحتى البهائيون قدّموا أنفسهم، وعجّلت الدول النصرانية في محاولة منها لإبقاء الأعشى على ضلالته، وخطا خطواتٍ واسعةً بعض من ينتمي إلى الإسلام، ولكن يريده على الطريقة الغربية، ليُعطي الأعشى صورةً غير صحيحةٍ عن الإسلام. أما المسلمون فجهلهم كبير بإخوانهم الذين خرجوا من وراء الستار الحديدي، وإمكاناتهم ضعيفة، لا رعاة لهم، ولا سراة، فإذا تحرّكوا فبالفراغ، وإذا تكلموا فمن غير وضوحٍ في الرؤية، ولكن نرجو من الله أن تتغيّر الحال بسرعة بعد أن أخذ المسلمون في اليقظة حيث رأوا العالم والرعاة عليهم، والسهام كلها موجهة الى صدورهم، وهم هدف الأرض التي تريد أن تُفرغ شحنات حقدها عليهم بعد أن تمكّنت من السيطرة، ونثرت الرعاة من كنانتها فما منهم إلا لها تابع.

وقد أبقيت مادة هذا الجزء من الكتاب كما هي رغم كل ما حدث فما ذلك إلا مرحلة من التاريخ وما أنا إلا مدوّن له.

نرجو من الله التوفيق، وسداد الخطا، والعناية والرعاية منه فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيِّد المرسلين، وخاتم النَّبيِّين، وإمام المتقين مُحمَّد بن عبدالله، وعلى بقية أنبياء الله، وصحابة رسول الله، ومن اتّبع هُداه إلى يوم الدِّين *أما بعد*،

فإنّ كلمة «إمبراطورية» كلمة أجنبيّة وتعني سيطرة شعبٍ على شعوبٍ أخرى، وتسخير هذه الشعوب، وخيرات بلادها كلِّها لمصلحة الشَّعب المسيطر وأهله، وفي هذه الإمبراطورية يُسيطر الرُّوس على شعوبٍ كثيرةٍ منها التتار، والترك، وشعوب القفقاس، وهذه كلُّها شعوب إسلامية إضافةً إلى شعوبٍ ثانيةٍ تخضع مثلها للروس. وقبل الثورة الشيوعية في ١ محرم ١٣٣٦ هـ كان يُطلق على هذه الدولة اسم «الإمبراطورية الروسية» فلمّا قامت الثورة تغيّر نظام الحكم، وتبدّلت مراكز القوة، وساد نظام اقتصادي غير الذي كان من قبل، أمّا سيطرة الروس على بقية الشعوب فقد استمرّت، واستمرّ معها الروس يستغلّون خيرات أراضي الشعوب لمصلحتهم، فَنَعِمَ الرُّوس بالسيطرة وبالرفاهية على حساب تلك الشعوب المُستضعفة، ولم يكن مع ما حدث ضرورة لتغيير اسم الدولة.

أما الرُّوس فقد رغبوا أن يُخفوا استغلالهم لأنّهم يدّعون تحريم الاستغلال فكيف يُحاربونه ويُمارسونه في الوقت نفسه؟ لهذا غيّروا اسم دولتهم، وأطلقوا

عليها اسم « الاتحاد السوفيتي » إخفاءً لاستغلالهم، وتمويهاً على بقية الشعوب، بأن الاتحاد يضمّ مجموعة شعوبٍ اختارت عن رضىً منها اتحاد بعضها مع بعض، وأصبح بناءً على ذلك الاسم العالمي لهذه الدولة « الاتحاد السوفيتي » وبناء على اختيار القائمين على رأس هذه الدولة. أمّا الواقع فهو غير ذلك، ولمّا كان الاسم يُخفي تحته معنى كبيرًا يُخالف الحقيقة لذا أردت أن أكشف عن هذه الحقيقة وأُعطي التسمية التي تـدلّ عليهـا، وهـي « الإمبراطـوريـة الروسية » وهو الاسم الذي كان سـائـداً فيا مضى، وهـو اسم يصـف الواقـع ويرمز له، مع اعترافي بأن كلمة « الاتحاد السوفيتي » قد أصبحت علماً تدلّ على منطقةٍ معيّنةٍ من الأراضي الشاسعة، وقد غدا هذا الاسم عالمياً، ومُتعارفاً عليه بين الدول، يُكتب على الخرائط، والمصورات، والاطـالس، والكتـب، وتتناقله وكالات الأنباء ووسائل الإعلام المختلفة. إنه لم يتغيّر شيء على أوضاع السياسة الداخلية، وأساليـب السيطـرة، وطـرق الاضطهـاد، وأعمال القسر والظلم والوحشية بل ربما زاد الأمر مع تطوّر وسائل التعذيب وفنون الإبادة. فالشعب الرُّوسي هو المسيطر على شعوبٍ كثيرةٍ، ولا يقبل من هـذه الشعوب إلا أن تُغيّر عقيدتها، وتصبح نصرانيـةً على المذهب الأرثوذكسي فقط، وتذوب في المجتمع الروسي وتفقد شخصيتها حتى تحصل على بعض المساواة مع الروس وتتمّ عندها الوحدة الوطنية ـ حسب رأي الروس ـ وتعيش هذه الشعوب المستعمَرة التابعة للروس بفقرٍ وبؤسٍ لتبقى بحاجةٍ إلى الروس يمنّون عليها بفضلاتهم، ولتعيش ضعيفةً يُمكن للروس أن يضمنوا استمراريـة بقائهم مُستعمرين لها، ولتوفِّر لسادتها الروس كل ما هم بحاجةٍ إليه من خيرات بلادها وثروات قُطعانها.

والاتحاد هو الاتفاق بين دولتين أو أكثر عن رضىً واختيارٍ وقناعةٍ لانضمام بعضها إلى بعض لتأسيس دولةٍ واحدةٍ، شعوبها مُتكافئة في الأهلية والعمل، مُتساوية في الحقوق والواجبات، لا يستغلّ بعضها بعضًا، وهذا مـا لا يوجد في الإمبراطورية الروسية، إذ لاحظنا أن الروس يستعمرون غيرهم من

الشعوب، ويفرضون سيطرتهم عليهم. إذن لا يصحّ أن نقول: الاتحاد السوفيتي، وإنما نقول: الامبراطورية الروسية، وإن كنّا نستعمل هذا الاصطلاح دولياً وفي وسائل إعلامنا، إذ أنه اسم يدلّ على شيءٍ مُجرّدٍ لا على حقيقةٍ علميةٍ أو سياسةٍ واقعيةٍ. وإذا كان نظام الحكم الشيوعي الواحد هو الذي يجمع بين هذه الشعوب ويجعل منها دولةً واحدةً فإن هذا النظام قد فرضه الروس أيضاً على هذه الشعوب وحملوها عليه بالسيف، وقد ذهب ملايين البشر عند تطبيقه لأنهم رفضوه وأبوْا تنفيذه، كما أُتلفت الزروع، وأُبيدت القطعان، ولا يزال السيف مُصلتاً على من يرفع رأسه أو يُعلن أيّ تذمُّرٍ أو سُخطٍ. فكما فُرض بالقوة لا تزال القوة هي المُبقية عليه، الحاملة له، المُدافعة عنه، وفي الوقت الذي تتخلّى عنه القوة تتخلّى عنه الشعوب ويسقط إلى الأبد.

ومن هذا المنطلق لا يصحّ أن نستعمل اصطلاح «الامبراطورية العربية الإسلامية» وهو الذي اعتاد بعض الكُتّاب أن يستعملوه جهلاً أو نقلاً عن المستشرقين الذي يريدون تشبيه الحكم الإسلامي بحكوماتهم المستعمرة ليصلوا من ذلك إلى أن الدولة الإسلامية كانت مستعمرةً استغلّ فيها العرب الإسلام ليُسيطروا على الشعوب الثانية. والواقع أن العرب لم يكونوا شعباً سيطر على بقية الشعوب الإسلامية، وإنما قد حمل إليها الإسلام، واعتنقته عن قناعةٍ وإيمانٍ، وقد كوّنت مع الشعب العربي أُمّةً واحدةً هي الأُمّة الإسلامية، وشكّلت لها دولةً واحدةً هي دولة الخلافة التي امتدّ ظلّها الوارف على كل الشعوب الإسلامية والدليل أن هذه الشعوب قد تمسّكت بالإسلام وحافظت عليه وعملت على الدعوة إليه بكل إمكاناتها، وربما شملت شعوباً أخرى غير الإسلامية ولكنها قبلت دفع الجزية لتعيش في نعيمٍ، وعاهدت المسلمين فكان لها الحقّ بأن تنعم بما ينعم به المسلمون من رخاءٍ وطمأنينةٍ وسعادةٍ. وكانت خيرات كل إقليمٍ ينعم به أهله إلا إذا فاضت عنهم فإنها تُنقل حينئذٍ إلى أقاليم ثانيةٍ، وإذا حدثت مجاعة في مكانٍ أسهم أهل بقية الأقاليم في دعمه

أخوةً وإحساناً، لا يختلف في ذلك إقليم عربي عن غيره من الأقاليم الإسلامية الثانية، ولم يكن للشعب العربي من فضل سوى حمل رسالة الإسلام، والشعوب الإسلامية كلها في نظر الإسلام واحدة، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (١).

ويستعمل المستشرقون اصطلاح «الامبراطورية العربية الإسلامية» خُبثاً وتفريقاً بين المسلمين إذ يُريدون أن يقولوا: إن الشعب العربي كان مُسيطراً على الشعوب الإسلامية الأخرى، ويُصرّون على هذا الاصطلاح كي تنقم الشعوب الإسلامية من غير العرب على العرب.... وذلك مكراً وخديعةً فيجب أن ننتبه إلى ذلك عند الكتابة والقراءة.

وإذا كانت أعداد الروس كبيرةً حيث تطغى على أعداد الشعوب الأخرى التي يُسيطرون عليها، ويُعدّون ثلاثة أمثالها إلا أن بلادهم الأصلية ضيّقة جداً بالنسبة إلى أعدادهم، وصغيرة جداً بالنسبة إلى الأراضي التي يستعمرونها ويفرضون سيطرتهم عليها حيث لا تُعادل مواطن الروس أكثر من ١/١٥ من مساحة دولة الامبراطورية الروسية.

هذه الأعداد الكبيرة من الرُّوس وانتشارها في الأراضي التي تخضع لسلطانها جعل كثيراً من الناس يُطلقون على البلاد كلها اسم «روسيا» وبالتالي يُسمّون سكانها «روساً» جهلاً وعدم معرفةٍ بالحقيقة وعلى الرغم من أن نسبة الروس خارج مواطنهم لا تصل إلى ٢٥٪ في أحسن الأحوال، إضافةً إلى الهزيمة النفسية التي يعيشها قسم من المسلمين، والتبعية الفكرية والعلمية التي نحياها اليوم إذ نتلقّى كل شيءٍ من أعداء الإسلام عامةً ومن الغرب خاصةً، نتعلّم، ننقل، نُترجم، نُعجب بما يكتبون وبما يُحرّرون، وبما

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣

يبحثون، وهم يُريدون طمس كل أثرٍ إسلاميٍ لهذا فهم لا يعتنون ببلدان المسلمين التي تحت السيطرة الروسية خاصةً وتحت نير الإلحاد الشيوعي عامةً، وإن كانوا يختلفون معهم سياسياً، وفكرياً، وفي النظام الاقتصادي، ولكن لا يُريدون التنبيه إليها، ولا إعطاءها الصفة الاستقلالية، فهم أقـرب إلى الروس مهما اختلفوا معهم، ومهما تباينت الأنظمة، ومهما باعدت بينهم المذاهب وهي أمور مُفرّقة بين الطرفين ومع ذلك فإنّ بعضهما أقرب إلى بعض من أيٍّ منهما إلى الإسلام الذي يعدّونه العـدو المشترك لهما، وتتقـارب مصـالـح الطـرفين وتتباعد تبعاً لوجود العنصر الإسلامي في أيّ موضوعٍ من الموضوعات.

وإضافةً إلى ذلك يجب ألّا ننسى جهل الناس للمنطقة الصغيرة التي تقع داخل دولةٍ كبيرةٍ، فالمعرفة العامة والدراسة الإجمالية تضيع معها البقاع الصغيرة، والمعرفة في البلدان الإسلامية لا تتجاوز ذلك عن الامبراطورية الروسية كما لا تتعدّى الدراسة ذلك. كما علينا ألا نغفل حقيقةَ جهلنا، وواقع تخلّفنا، وعدم اهتمام الباحثين منا في ذلك، لأن التربية في أكثر بلدان العالم الإسلامي لا تُعير الدراسات الواجبة علينا اهتماماً يتّفق وعقيدة السكان التي تجعل منهم إخوةً لنا، ومن هذه الدراسات، التاريخ الإسلامي المُنقّى ممّا اعتراه من افتراءات المُغرضين وعمل أصحاب الأهواء وفعل المستشرقين، ومن بينها أيضاً دراسة الأقليات المسلمة، والبلدان والمناطق الإسلامية التي تخضع للسيطرة الأجنبية سواء أكانت سيطرةً شيوعيةً أم رأسماليةً فإن ما يقع فيها من أحداثٍ لا يصل إلينا، وإن حصل فلا نُبالي كأنه يحدث على كوكبٍ آخر، كما لا تُنبّه الدراسات إلى توضيح مُخطّطات أعداء الإسلام كالذي تُخطّطه الإرساليات التنصيرية في أندونيسيا وغيرها.

وربما طُرحت تساؤلات في هـذا الميـدان، هـل بقـي المسلمـون الذيـن يخضعون لنير السيطرة الإلحادية كواقعهم في الامبراطورية الروسية وغيرها على شيءٍ من عقيدتهم أم انحرفوا عنها تماماً واتّبعوا ما تمليه عليهمُ الشيوعية

بآرائها وأفكارها وحربها للإسلام خاصةً؟ والواقع أن الجواب أمر صعب إذ الحكم على عقيدة أُناسٍ يُصلت السيف على رقابهم لترك هذه العقيدة لا يُمكن أن يكون دقيقاً، وإن كانت هناك مُؤشّرات تنفي ذلك الانحراف عن جماعاتٍ وتُؤيّده على أخرى، وهذا أمر طبيعي ففي كل مجتمعٍ أُناس صالحون وآخرون طالحون، بعضهم متمسك بعقيدته وآخر أهمل شيئاً منها، وثالث انحرف عنها نهائياً. ولكن الحكم يكون صحيحاً عندما يزول عنهمُ الطغيان، وتُعطى لهمُ الحرية الدينية، ومن خلال أحداث التاريخ المعاصر كانت الوقائع كلها إيجابيةً عندما مُنحوا شيئاً من الحرية الدينية في سبيل استغلال الوقت، وكسب المسلمين إلى جانب المُتسلّطين، أو ظنّاً من الطّغاة أن أثر الدين الإسلامي قد زال من نفوس الذين يتسلّطون عليهم، وما كان من نتائج إيجابيةٍ لمصلحة الإسلام قد أذهلت الطّغاة الأمر الذي يجعلهم في كل مرةٍ ينقضون ما أعطوه ويزيدون من شدّة بغيهم، وظلمهم، وضغطهم، والتنكيل بمن يُشمّ منه رائحة التديُّن والعمل للإسلام أو الدعوة إلى الترابُط على أساس العقيدة.

وقد رأيت من واجبي أن أُوضّح كل هذا، وإذا كنت من أوائل الذين نبّهوا إلى دارسة المسلمين الذين قد أغفلهم إخوانهم، وهم الذين يخضعون للسيطرة الروسية، ويعيشون وراء الستار الحديدي، وأصدرت كتابي «تركستان الغربية» عام ١٣٩٠ هـ، ثم اتبعته بكتاب «قفقاسيا» عام ١٣٩١ هـ، وكتاب «المسلمون تحت السيطرة الشيوعية» عام ١٣٩٤ هـ، وكلها قد تكرّرت طبعاتها وتعددت ولم أكتف بهذا بل قدّمت ما هو ضروري في هذا المجال في كتاب «العالم الاسلامي» وكتاب «التاريخ الإسلامي» في جزأيه السابع والثامن، كما تناولت ذلك في الكتاب الذي أصدره المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عُقد في مدينة الرياض عام ١٣٩٩ هـ وهو «البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر» وقد وضع بالاشتراك مع الأخوين الكريمين الدكتور محمد السيد غلاب والدكتور

حسن عبد القادر صالح. وأعطيت فكرةً عن ذلك ليست قليلة في كتاب « تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر » والذي وضع بالاشتراك مع الأخ الكريم الدكتور اسماعيل ياغي، وقامت بنشرة مكتبة دار المريخ بالرياض.

ودعت دولة الإمبراطورية الروسية علماء لزيارة بلدها وأرتهم ما تُريد أن يزوروه، وفي أوقاتٍ أعدَّت فيها ما يُخفي الحقيقة، فأقامت مؤتمر سمرقند عام ١٣٩٤ هـ بمناسبة مرور ١٢٠٠ عام على ولادة الإمام البخاري، كما حضر بعضهم مؤتمر طاشقند الذي عُقد في شهر شعبان عام ١٣٩٩ هـ بمناسبة مرور عشر سنواتٍ على إصدار مجلة « المسلمون في الشرق السوفيتي ». وعندما عاد هؤلاء وأولئك كتب بعضهم عما رأى، وما رأى إلا ما أُريد له أن يرى. كما كتب آخرون في الموضوع من خلال ما كُتب، وما نُشر، وما صدر عن وسائل الإعلام الروسية، ولعلّه من المفيد أن نذكر أشهر ما كُتب.

صدر عن دار الفكر الجديد في بيروت عام ١٤٠٠ هـ كتاب « صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات » بقلم الشيخ طه الولي.

وصدر عن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٣٩٥ كتاب « المسلمون في المعسكر الشيوعي ». للدكتور علي المنتصر الكتاني. كما صدر عن رابطة العالم الإسلامي أيضاً « المسلمون في الاتحاد السوفيتي » عام ١٤٠٠ بقلم محمد صفوت السقا الذي حضر مؤتمر سمرقند عام ١٣٩٤ مندوباً عن الرابطة.

وترجم إحسان حقي كتاب « المسلمون في الاتحاد السوفيتي » لمؤلفيه « شانتال لمربيه كلكجي » و « الكسندر بينيغسن » الفرنسيين، ونشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام ١٣٩٧ هـ.

وصدر عن دار الشروق بجدة عام ١٤٠٣ « المسلمون في الاتحاد السوفياتي للدكتور محمد علي البار ».

وترجمت مجلة الأسبوع العربي في عددٍ من أعدادها « المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي » عن الفرنسية والذي وضعه (بينيغسن) و (لومرسييه) .

وقد رأيت أن أُسجِّل بشكلٍ موجزٍ شيئاً عن المسلمين في الإمبراطورية الروسية مُوضّحاً حقيقـة الأجـزاء التي تخصّ الروس وقبـائلهـم، ثم حـربهم للمسلمين، وسيطرتهم على أمصارٍ إسلاميةٍ واسعةٍ واستعمارهم لها ، وبقاء هذا الاستعمار حتّى اليوم مع حربٍ دائمةٍ للإسلام وأهله ، وما يُعانيه المسلمون اليوم هناك ، وما هي بلدانهم وحالتهم فيها في الوقت الحاضر ؟ وذلك كي يتبيّن القارىء حقيقة الأمر ، ويُقارن بين الواقع وبين ما كتبه الناس دعايةً أو خداعاً أو جهلاً .

ونسأل الله التوفيق، وسداد الخطا ، والعون في هذه المُهمّة ، وأن يجعل أعمالنا خالصةً لله ، وأن يتقبّلها منا ، وآخر دعوانا أن الحمـد لله رب العـالمين .

الرياض : غرة شهر ربيع الأول من عام ١٤٠٧ هـ

محمود شاكر

الباب الأوّل

قبلَ الاستعمار الرّوسي

الفصل الأوّل

مواطن الرّوس وعاداتهم

أول ما عُرف الروس في القرون الإسلامية الأولى، وكانوا يعيشون في شرقي أوربا على شكل قبائل تنتقل في أراضٍ تزيد مساحتها على مليون كيلومتر مربع، وأشهر فروعها: الروس الكبار وهم الذي يعيشون حول موسكو في أحواض المجاري العليا لأنهار الفولغا، والدون، والدوينا، والدينيبّر، ويعدّون أصحاب السلطة الرسمية على بقية الروس، وربما من هنا جاءت تسميتهم بالكبار. والروس الصغار، وهم الأوكرانيون، ويقطنون حول مدينة «كييف» حول المجرى الأوسط لنهر الدينيبّر. والروس البيض ويُقيمون حول مدينة «منسك» عند المجرى الأعلى لنهر الدينيبّر وفروعه. ويُجاور هذه القبائل الروسية من الغرب قبائل بولونية. ومن الجنوب الغربي قبائل رومانية، ومن الجنوب قبائل من القوزاق قليلة الأعداد، وتُشكّل ديارهم السابقة الأجزاء الجنوبية من أوكرانيا اليوم، وأما الشرق والجنوب الشرقي فكانت تمتدّ أراض جرداء مُخلخلة السكان، وإن كانت تظهر تجمّعات البُلغار في الشرق عند المجرى الأعلى لنهر «الفولغا» وفروعه حول مدينة قازان، والتي كانت تُعرف باسم «بُلغار» أو تقع على مقربةٍ منها. وفي الجنوب الشرقي حول المجرى الأدنى لنهر «الفولغا» وإلى الشرق منه توجد قبائل «الخزر». وأما الشمال فتكاد تكون المنطقة خاليةً من السكان لبرودتها وجفافها النسبي.

وعُرفت القبائل الروسية بكثرة أعدادها وتزايدها السريع، وكثيرًا ما كان تجار الرقيق يُغيرون عليها ويختطفون الأبناء، وينقلونهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم هناك، وأحياناً أخرى ليست قليلة تعمد الأُسر لبيع أولادٍ من أسر ثانيةٍ اغتصاباً أو اختطافاً، كما أن القتال بين القبائل الروسية الكبيرة كثيراً ما ينتج عنه بيع الأسرى من كلا الطرفين، وهؤلاء الأرقاء هم الذين عُرفوا في أسواق الرقيق أو في التاريخ باسم «الصقالبة» بل إنّ هذا الاسم قد أُطلق على القبائل الروسية، وإن الرقيق الذي هو من أصل روسي لم يُطلق عليه صقلبي إلّا لأنّه يعود إلى الصقالبة الذين هُمُ الروس، وإن كان هذا يُطلق أحيانًا على من يُشبههم في اللون وهو الأبيض المائل إلى الحمرة[1]. ونتيجةً لهذا كان يُقال أحياناً: الصقالبة الروس، والصقالبة البُلغار وهكذا فالروس جزء من الصقالبة، إذ كانوا يعدّون الروس الكبار الذين حول موسكو وحدهم هم الروس، وقد جاء في معجم البلدان: الروس: أُمّة من الأُمم، بلادهم متاخمة للصقالبة والترك، ولهم لغة برأسها ودين وشريعة لا يُشاركهم فيها أحد، قال المقدسي: هم في جزيرة وبئة يُحيط بها بحيرة[2] وهي حصن لهم ممّن أرادهم، وجملتهم على التقدير مائة ألف إنسان[3]، وليس لهم زرع ولا ضرع[4]، والصقالبة[5] يُغيرون عليهم ويأخذون أموالهم، وإذا وُلد لأحدهم مولود ألقى إليه سيفاً وقال له: ليس لك إلا ما تكسبه بسيفك، وإذا حكم

(١) صَقْلَب: بالفتح ثم السكون، وفتح اللام، وآخره باء موحدة. قال ابن الأعرابي: الصقلاب: الرجل الأبيض، وقال أبو عمرو: الصقلاب: الرجل الأحمر. قال أبو منصور: الصقالبة: جيل حُمْرُ الألوان، صُهْبُ الشعور يُتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم. وقيل للرجل الأحمر صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة. وقال غيره: الصقالبة: بلاد بين بُلغار وقسطنطينية. «معجم البلدان».

(٢) محاطة منطقتهم بالأنهار وروافدها من كل جهة تقريباً، فكأنها جزيرة وسط بحيرة.

(٣) هذا التقدير لا يستند على شيء، والعدد أكبر من هذا بكثير ـ والله أعلم ـ.

(٤) هكذا كانوا يتصورون أنه لا زراعة ولا مرعى في تلك الجهات لشدة البرد.

(٥) الصقالبة: يشبهون الروس في شكلهم، فسُمُّوا باسمهم نتيجة صفتهم، وهم جيرانهم.

ملكهم بين خصمين بشيءٍ ولم يرضيا به قال لهم: تحاكما بسيفيكما، فأيّ السيفين كان أحدّ كانت الغلبة له.

كما وصفهم ابن فضلان في رسالته وصفاً مطولاً يُعطي صورةً عن طباعهم وسلوكهم وبعض عقيدتهم قال: ورأيت الروسية وقد وافوا بتجارتهم فنزلوا على نهر إتل[1] فلم أر أتمّ أبداناً منهم كأنّهم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق[2] ولا الخفاتين[3]، ولكن يلبس الرجل منهم كساءً يشتمل به على أحد شقّيه ويُخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحدٍ منهم سيف وسكين وفأس لا تُفارقه، وسيوفهم صفائح مُشطّبة أفرنجية، ومن حدّ ظُفُر الواحد منهم إلى عنقه محفر شجرٍ وصور وغير ذلك، وكل امرأةٍ منهم على ثديها حُقّة مشدودة إمّا من حديدٍ وإمّا من نُحاسٍ وإمّا من فِضّةٍ وإمّا من ذهبٍ على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حُقّةٍ حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً، وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً وإن ملك عشرين ألفاً صاغ طوقين وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر، فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجلّ الحليّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السُّفن يُبالغون فيه ويشترون الخرزة منه بدرهم وينظمونه عقداً لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائطٍ ولا يغتسلون من جنابةٍ كأنهم الحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيُرسون سفنهم بـ (إتل)، وهو نهر كبير، ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحدٍ منهم سرير يجلس عليه ومعه

---

(١) نهر إتل: نهر الفولغا.

(٢) القراطق: جمع قُرطق: قميص او معطف قصير يصل الى منتصف الجسم.

(٣) الخفاتين: جمع خفتان: وهو صدرية تحت الثياب.

جواريه الرّوقة للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جاريةً فيُصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه. ولا بدّ لهم في كل يومٍ بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتُقدّمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه، فيغسله ويسرّحه بالمشط في القصعة ثم يمتخط ويبصُق فيها ولا يدع شيئًا من القذر إلّا فعله في ذلك الماء فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه فيفعل مثل ما فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحدٍ إلى واحدٍ حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحدٍ يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها. وساعة موافاة سفنهم إلى هذا المرسي يخرج كل واحدٍ منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ حتى يوافي خشبةً طويلةً منصوبةً لها وجه يُشبه وجه الإنسان وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال قد نُصبت في الأرض فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: يا رب قد جئت من بُعْدٍ ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً ومن السمّور كذا وكذا جلداً، حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول: وقد جئتك بهذه الهدية، ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول: أُريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم فيشتري مني كل ما أُريد ولا يُخالفني في جميع ما أقول، ثم ينصرف، فإن تعسّر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهديةٍ أُخرى ثانيةً وثالثةً، فإنّ تعذّر عليه ما يُريد حمل إلى صورةٍ من تلك الصور الصغار هديةً وسألها الشفاعة وقال: هؤلاء نساء ربنا وبناته، ولا يزال من صورةٍ إلى صورةٍ يسألها ويستشفع بها ويتضرّع بين يديها فربما تَسهَّل له البيع فباع فيقول: قد قضى ربي حاجتي واحتاج أن أُكافئه، فيعمد إلى عدّةٍ من البقر والغنم على ذلك ويقتلها ويتصدّق ببعض اللحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ويعلّق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض، فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك فيقول الذي فعله: قد

رضي عني ربي وأكل هديتي. وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمةً نـائيـة عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يُكلّمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيامه لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً، فإن برىء وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير، وإذا أصابوا سارقاً أو لصّاً جاؤوا به إلى شجرةٍ طويلةٍ غليظةٍ وشدّوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلّقوه فيها ويبقى مُعلّقاً حتى ينقطع من المكث إما بالرياح أو الأمطار، وكان يُقال لي، إنهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلّها الحرق، فكنت أحبّ أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجلٍ منهم جليل فجعلوه في قبره وسقّفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينةً صغيرةً ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاثٍ: فثلث لاهله، وثلث يقطعون لـه بـه ثيـابـاً، وثلـث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تَقْتُلُ جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها، وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: أنا، فإذا قال ذلك وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما تُرك، وأكثر ما يفعل هذا الجواري. فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره، قالوا لجواريه: من يموت معه؟ قالت إحداهُنّ: أنا، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت حتى إنهما ربما غسّلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج إليه، والجارية في كل يوم تشرب وتُغنّي فارحةً مُستبشرةً، فلمّا كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية حضر إلى النهر الذي فيه سفينته فإذا هي قد أُخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخلنج وغيره وجعل حولها أيضاً مثل الأناس الكبار من الخشب ثم مُدّت حتى جُعلت على ذلك الخشب وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلّمون بكلامٍ لا أفهمه وهو بعد في قبره لم يخرجوه ثم

جاؤوا بسريرٍ فجعلوه على السفينة وغشّوه بـالمضرّبـات[1] الديبـاج الرومـي والمساند الديباج الرومي ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه، وهي وُلّيت خيـاطتـه وإصلاحـه، وهـي تقتـل الجواري، ورأيتها حواء نيّرة ضخمة مُكفهرّة، فلما وافوا قبره نحّوا التراب عن الخشب ونحّوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه فرأيته قد اسودّ لـبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطنبوراً فأخرجوا جميع ذلك وإذا هو لم يتغيّر منه شيء غير لونه، فألبسوه سراويل وراناً وخفًّا وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة من ديباج سمور، وحملوه حتى أدخلوه القُبّة التي على السفينة، وأجلسوه على المضرّبة، وأسندوه بالمساند وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه، وجاؤوا بخبزٍ ولحمٍ وبصلٍ فطرحوه بين يديه، وجاؤوا بكلبٍ فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطّعوهما بالسيوف، وألقوا لحمهما في السفينة، ثم جاؤوا ببقرتين فقطّعوهما أيضاً، وألقوهما في السفينة، ثم أحضروا ديكاً ودجاجةً فقتلوهما وطرحوهما فيها، والجارية التي ستُقتل ذاهبةً وجائيةً تدخل قُبّةً قبّةً من قبابهم فيُجامعها واحد واحد، وكل واحد يقول لها: قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيءٍ عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجلها على أكفّ الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلامٍ لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانيةً ففعلت كفعلها في المرة الأولى ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثةً ففعلت فعلها في المرتين ثم دفعوا لها دجاجةً فقطعت رأسها ورمت به فأخذوا الدجاجة وألقوا بها في السفينة، فسألت الترجمان عن فعلها فقال: قالت في المرة الأولى: هوذا أرى أبي وأمي، وقالت في المرة الثانية: هوذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً،

(١) المضرّبات: نوع من المساند.

وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى مولاي قاعداً في الجنّة والجنّة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه، فمرّوا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا معها فدفعتهما إلى المرأة العجوز التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجارتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يُدخلوها إلى القُبّة، وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً من نبيذٍ فغنّت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: إنها تُودِّع صواحباتها بذلك، ثم دُفع إليها قدح آخر فأخذته وطوّلت الغناء والعجوز تستحثّها على شربه والدخول إلى القُبّة التي فيها مولاها، فرأيتها وقد تبلّدت وأرادت الدخول إلى القبّة فأدخلت رأسها بين القُبّة والسفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القُبّة ودخلت معها العجوز وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت، وأمسك اثنان رجليها، واثنان يديها وجعلت العجوز التي تُسمّى ملك الموت في عنقها حبلاً مُخالفاً، ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل فأقبلت تُدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتُخرجه، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت، ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبةً فأشعلها بالنار، ثم مشى القهقري نحو قفاه إلى السفينة، والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على استه، وهو عريان، حتى أحرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها، ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحدٍ خشبة وقد ألهب رأسها فيُلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب، ثم في السفينة، ثم في القبة، والرجل والجارية وجميع ما فيها، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتدّ لهب النار واضطرم تسعُّرها، وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يُكلّم الترجمان الذي معي، فسألته عما قال له، فقال: إنه يقول أنتم معشر العرب

حمقى لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته، ثم ضحك ضحكاً مُفرطاً وقال: من محبّة ربّه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً رِمْدِداً، ثم بنوا على موضع السفينة، وكانوا أخرجوها من النهر، شبيهاً بالتل المدوّر ونصبوا في وسطه خشبةً كبيرةً، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا.

قال: ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويُقتلون دونه، ومع كل واحدٍ منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مُرصّع بنفيس الجواهر، ويجلس معه على السرير أربعون جاريةً لفراشه، وربما وطىء الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا، ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدّموا دابته إلى سريره فركبها منه، وإذا أراد النزول قدّم دابته حتى يكون نزوله عليه، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته[1].

هذه العادات السيئة والخرافات التي كانت سائدةً يومذاك عند الروس، وربما لا يزال أثرها عند بعضهم حتى الآن إذ لا يخجل أحدهم من وطء المرأة أمام أقرانه.

---

(١) رسالة ابن فضلان.

الفصل الثاني

اعتناق الرّوس للنصْرانيّة

كانت القبائل الروسية كلها على الوثنية في بداية أمرها، وقد انتشرت الديانات الأخرى في المناطق المجاورة لها. فقد كان الروم في القسطنطينية نصارى أرثوذكس، واعتنق الخزر الديانة اليهودية عند المجرى الأسفل لنهر الفولغا، كما انتشر الإسلام في بلاد البُلغار من جهة الشرق، وكان الإسلام قد وصل إلى تلك الجهات عن طريق تُجّار الفِراء الذين كانوا يرحلون إلى تلك الأصقاع الشمالية.

وليس كل سكان منطقة الخزر من اليهود بل هم أقلّهم والمسلمون والنصارى بين السكان أكثر من الخزر اليهود، وكذلك الوثنيون، كما أن البُلغار ليسوا جميعهم من المسلمين، وإنّما هم أقلية، والحاكم منهم، والأكثرية لا يزالون على الوثنية، وقد مرّ ابن فضلان برحلته إلى كلتا الدارين، فذكر شيئاً عن أوضاعها، وفي الأصل هو مبتعث من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البُلغار. ولما كانت المنطقتان اليوم من الأجزاء التي يُسيطر عليها الروس فأرى من الفائدة ذكر بعض وصفه لتلك الجهات.

قال ابن فضلان عن بلاد الخزر، الخزر اسم إقليم من قصبة تُسمّى « إتِل » و « إتِل » اسم لنهرٍ يجري إلى الخزر من الروس وبُلغار، وإتِل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والإتل قطعتان: قطعة على غربي هذا النهر المسمى

إتل وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيه، والملك يسكن الغربي منهما، ويُسمّى الملك بلسانهم «يَلك» ويُسمّى أيضاً «باك»، وهذه القطعة الغربية مقدارها في الطول نحو فرسخ، ويُحيط بها سور إلّا أنه مُفترش البناء، وأبنيتهم خركاهات لبود إلّا شيء يسير بني من طين، ولهم أسواق وحمّامات، وفيها خلق كثير من المسلمين يقال: إنهم يزيدون على عشرة آلاف مُسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجداً، وقصر الملك بعيد من شطّ النهر، وقصره من آجُرّ وليس لأحدٍ بناء من آجُرّ غيره، ولا يُمكّن الملك أن يبني بالآجر غيره، ولهذا السور أربعة أبواب: أحدها يلي النهر وآخرها يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة، وملكهم يهوديّ، ويُقال: إنّ له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجلٍ، والخزر[1] مسلمون، ونصارى، وفيهم عبدة الأوثان، وأقلّ الفِرق هناك اليهود على أن الملك منهم، وأكثرهم المسلمون والنصارى إلّا أن الملك وخاصته يهود، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثـان، يسجـد بعضهـم لبعـض عنـد التعظيم، وأحكام مصرهم على رسومٍ مخالفةٍ للمسلمين واليهود والنصارى، وجريدة جيش الملك اثنا عشر ألف رجل، فإذا مات منهم رجل أُقيم غيره مقامه، فلا تنقص هـذه العـدّة أبـداً، وليسـت لهم جـرايـة دائـرة إلا شيء نزريسير يصل إليهم في المدة البعيدة إذا كان لهم حرب أو حَزَبَهم أمر عظيم يجمعون له. وأما أبواب أموال صلات الخزر فمن الأرصاد وعشور التجارات على رسومٍ لهم من كل طريقٍ وبحرٍ ونهرٍ، ولهم وظائف على أهل المحالّ والنواحي من كل صنفٍ مما يُحتاج إليه من طعامٍ وشرابٍ وغير ذلك، وللملك تسعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنّما يصل إليه هؤلاء الحُكّام، وبين هؤلاء الحُكّام وبين الملك يوم القضاء سفير يُراسلونه فيما يجري من الأمور يُنهون إليه ويردّ عليهم أمره ويمضونه.

---

(١) يقصد سكان منطقة الخزر.

وليس لهذه المدينة قرى إلّا أن مزارعهم مفترشة، يخرجون في الصيف إلى المزارع نحواً من عشرين فرسخاً فيزرعون ويجمعون إذا أدرك بعضه إلى النهر وبعضه إلى الصحاري فيحملونه على العجل والنهر، والغالب على قوتهم الأرُزّ والسمك وعدا ذلك مما يوجد عندهم يحمل إليهم من الروس وبُلغار وكويابه، والنصف الشرقي من مدينة الخزر فيه معظم التّجار، والمسلمون، والمتاجر، ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ولا يُشاركه لسان فريق من الأمم، والخزر لا يُشبهون الأتراك، وهم سود الشعور، وهم صنفان: صنف يسمى قراخوز، وهم سمر يضربون لشدّة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الجمال والحسن، والذي يقع من رقيق الخزر وهم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض، فأمّا اليهود والنصارى فإنهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم لبعض مثل المسلمين.

وبلد الخزر لا يُجلب منه إلى البلاد شيء، وكل ما يرتفع منه إنما هو مجلوب إليه مثل الدقيق والعسل والشمع والخزّ والأوبار[1]. وأما ملك الخزر فاسمه خاقان، وإنه لا يظهر إلّا في كلّ أربعة أشهرٍ مُتنزهاً، ويُقال له خاقان الكبير ويُقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويُدبّر أمر المملكة ويقوم بها، ويظهر ويغزو وتُذعن له الملوك الذين يُصاقبونه، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة، ولا يدخل عليه إلّا حافياً وبيده حطب، فإذا سلّم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يُقال له «كندرخاقان» ويخلف هذا أيضاً رجل يُقال له «جاويشغر»، ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يُكلّمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا. والولايات في الحلّ والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به،

(١) معجم البلدان: ويبدو أن ياقوت قد أخذ هذا من الاصطخري ٢٢٠ - ٢٢٤ ومن ابن حوقل ٣٨٩/٢ ولم يرد هذا في رسالة ابن فضلان التي بين أيدينا.

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يُبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً، ويُحفر له في كل بيت منها قبر وتُكسّر الحجارة حتى تصير مثل الكُحل وتُفرش فيه وتُطرح النورة [1] فوق ذلك، وتحت الدار نهر والنهر نهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان، ولا إنسان، ولا دود ولا هوام، وإذا دُفن ضُربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يُدرى أين قبره من تلك البيوت، ويُسمّى قبره الجنّة، ويقولون: قد دخل الجنّة، وتُفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب.

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأةً، كل امرأةٍ منهن ابنة ملكٍ من الملوك الذين يُحاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً، وله من الجواري السراري لفراشه ستون، ما منهن إلّا فائقة الجمال، وكل واحدةٍ من الحرائر والسراري في قصرٍ مُفردٍ لها قُبّة مُغشّاة بالساج، وحول كل قُبّةٍ مضرب، ولكل واحدةٍ منهن خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ويقف الخادم على باب قُبّة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظةً واحدةً. وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب معه سائر الجيوش لركوبه، ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيته إلّا خرَّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسه حتى يجوزه، ومدة ملكهم أربعون سنةً، إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصّته وقالوا: هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه. وإذا بعث سريةً لم تولّ الدُّبُرَ بوجهٍ ولا بسببٍ، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم، وهم ينظرون، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودُورهم، وربما قطّع كل واحدٍ منهم قطعتين

---

(١) النورة: حجر الكلس.

وصلبهم، وربما علّقهم بأعناقهم في الشجر، وربما جعلهم - إذا أحسن إليهم - ساسةً.

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر «إتِل»، وهي جانبان: في أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يُقال له خزّ، وهو مسلم، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم، ولا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره، وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يُصلّون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع، وفيه منارة عالية وعدّة مُؤذّنين، فلما اتصل بملك الخزر في سنة ٣١٠ أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج أمر بالمنارة فهُدَمت وقتل المؤذنين وقال: لولا أني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلّا هُدّمت لهدمت المسجد. والخزر وملكهم كلهم يهود، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته، ويُخاطبهم بالعبودية، ويدينون له بالطاعة، وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج ومأجوج هم الخزر[١].

وقد انتشر الإسلام في منطقة الخزر عن طريق إمارة طارقي الشامية في شمال بلاد داغستان والتي أسسها القوموق أشهر القبائل الداغستانية في القرن الأول الهجري. وشكل طبيعي أن ينتشر الإسلام بسرعةٍ نتيجة موافقته للفطرة البشرية ونتيجة انتشار هذه الخرافات والأساطير والظلم التي رأينا جانباً منها عند تلك الأمم من غير المسلمين.

أما البُلغار فهم مجموعة قبائل تعرف مدينتهم باسمهم ويُشبهون الصقالبة من حيث اللون، وقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي ما يلي: بُلغار[٢]: بالضمّ، والغين معجمة: مدينة الصقالبة، ضاربة في الشمال، شديدة البرد لا

(١) رسالة ابن فضلان ومعجم البلدان.

(٢) بلغار: موقع مدينة قازان اليوم.

يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفاً ولا شتاءً وقلّ ما يرى أهلها أرضاً ناشفةً، وبناؤهم بالخشب وحده، وهو أن يركبوا عوداً فوق عودٍ ويُسمّروها بأوتادٍ من خشبٍ أيضاً محكمة، والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب، بين إتل مدينة الخزر وبُلغار عن طريق المفاوز نحو شهر، ويُصعد إليها في نهر إتل نحو شهرين وفي الحدور نحو عشرين يوماً، ومن بُلغار إلى أول حدّ الروم نحو عشر مراحل، ومنها إلى كُويابة[1] مدينة الروس عشرون يوماً، ومن بُلغار إلى بَشْجِرد[2] خمس وعشرون مرحلة، وكان ملك بُلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله وأرسلوا إلى بغداد رسولًا يُعرّفون المقتدر[3] ذلك ويسألونه إنفاذ من يُعلّمهم الصلوات والشرائع، لكن لم أقف على السبب في إسلامهم[4].

ويقول ابن فضلان: لما وصل كتاب (ألمس بن شلكي بلطوار) ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيه أن يبعث إليه من يُفقّهه في الدين ويُعرّفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليُقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ويسأله بناء حصنٍ يتحصّن فيه من الملوك المُخالفين له، فأُجيب إلى ذلك، وكان السفير له نذير الحزمي[5]، فبدأت

(١) كويابة: يبدو أنها موقع موسكو اليوم.

(٢) بشجرد: الباشغرد قبيلة تقيم شرق بلغار، ومدينتهم اليوم (أوفا).

(٣) المقتدر: المقتدر بالله الخليفة العباسي جعفر بن أحمد المعتضد تولّى الخلافة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ.

(٤) يبدو أن سبب إسلام بُلغار التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجهات للتجارة بالفرو، وأثناء دخولهم على الملك عرفّوه ديانتهم فأُعجب بها، ووجد الفرق كبيراً بينها وبين الخرافات التي تسود مجتمعه، وكيف لا يكون فرق والإسلام من عندالله خالق البشر، وما يسود المجتمع البُلغاري خرافات صاغتها أهواء البشر؟.

(٥) نذير الحزمي: يبدو أنه كان أحد كبار التجار المسلمين الذين وفدوا على ملك البلغار وحدثوه في شأن الإسلام، وكان الملك قد سُرّ بحديثه وأُعجب ببيانه فأرسله إلى الخليفة العباسي كسفير له رغم أنه من المسلمين ومن رعايا العباسيين.

أنا بقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أُهدي إليه والأشراف من الفقهاء والمعلّمين، وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي(١) مولى نذير الحزمي، قال: فرحلنا من مدينة السلام(٢) لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩، ثم ذكر ما مرّ له في الطريق إلى خُوارزم ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه، ثم قال: فلما كُنّا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يديه وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاوَرْس، وساروا معنا، فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه فلما رآنا نزل فخرّ ساجداً شكراً لله، وكان في كُمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قبابًا فنزلناها، وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٠. وكانت المسافة من الجرجانية، وهي مدينة خُوارزم، سبعين يوماً، فأقمنا إلى يوم الأربعاء بالقباب التي ضربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصّه ليسمعوا قراءة الكتاب، فلمّا كان يوم الخميس نشرنا المِطردَين(٣) اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجّه إليه، وألبسناه السواد وعمّمناه وأخرجت كتاب الخليفة فقرأته وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائم أيضاً، وكان بديناً، فنثر أصحابه علينا الدراهم، وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه، ثم خلعنا على امرأته وكانت جالسةً إلى جانبه، وهذه سنتهم ودأبهم، ثم وجّه إلينا فحضرنا قبّته وعنده الملوك عن يمينه وأمرنا أن نجلس على يساره، وأولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مُغشّى بالديباج الرومي،

---

(١) سوسن الرسي: يبدو أنه كان رئيس الوفد العباسي إلى ملك البلغار على الرغم من أن المصادر تُشير كلها إلى ابن فضلان، ويبدو أن ذلك كان بسبب رسالة ابن فضلان التي خلّفها لنا وبسبب مكانة ابن فضلان، فهو القائد العباسي المشهور الذي أعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية وقضى على الطولونيين فيها.

(٢) مدينة السلام: بغداد.

(٣) المطردين: مثنى مطرد وهو اللواء.

فدعا بالمائدة فقُدّمت إليه وعليها لحم مشوي، فابتدأ الملك وأخذ سكيناً وقطع لقمةً فأكلها وثانيةً وثالثةً ثم قطع قطعةً فدفعها إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجُعلت بين يديه، وكذلك رسمهم لا يمُدُّ أحد يده إلى أكلٍ حتى يُناوله الملك فإذا تناولها جاءته مائدة، ثم قطع قطعةً وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قُدّم إلى كل واحدٍ من الذين بين يديه مائدة، وأكل كل واحدٍ منا من مائدةٍ لا يُشاركه أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الأكل حمل كل واحدٍ منا ما بقي من مائدته إلى منزله. فلمّا فرغنا دعا بشراب العسل، وهم يُسمّونه «السجو» فشرب وشربنا. وقد كان يُخطب له قبل قدومنا: اللهم أصلح الملك بلطوار ملك بُلغار، فقلت له: إن الله هو الملك ولا يجوز أن يُخطب بهذا لأحد سيما على المنابر، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد وصّى لنفسه أن يُقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، فقال: كيف يجوز أن يُقال؟ فقلت: يُذكر اسمك واسم أبيك، فقال: إن أبي كان كافراً وأنا أيضاً ما أحبّ أن يذكر اسمي إذ كان الذي سمّاني به كافراً، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت: جعفر، قال: فيجوز أن أتسمّى باسمه؟ قلت: نعم، فقال: قد جعلت اسمي جعفراً واسم أبي عبدالله، وتقدّم إلى الخطيب بذلك، فكان يخطب: اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير بُلغار مولى أمير المؤمنين؛ قال: ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرةً، من ذلك أن أول ليلةٍ بتناها في بلدة رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أُفق السماء وقد احمرّ احمراراً شديداً وسمعت في الجو أصواتاً عاليةً وهمهمة فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه وإذا فيه أمثال الناس والدواب وإذا في أيدي الأشباح التي فيه قِسيّ ورماح وسيوف، وأتبيّنها وأتخيّلها وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها رجالاً أيضاً وسلاحاً ودوابّ، فأقبلت هذه القطعة على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة،

ففزعنا من هذه وأقبلنا على التضرُّع والدعاء، وأهل البلد يضحكون منا ويتعجّبون من فعلنا، قال: وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعاً ساعة ثم تفترقان، فما زال الأمر كذلك إلى قطعةٍ من الليل ثم غابتا، فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمني الجنّ وكفّارهم يقتتلون كل عشيةٍ، وأنهم ما عدموا هذا منذ كانوا في كل ليلةٍ[1].

ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتي لنتحدّث، فتحدّثنا بمقدار ما يقرّ الإنسان نصف ساعةٍ ونحن ننتظر أذان العشاء، فإذا بالأذان فخرجنا بالقبة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن: أي شيءٍ أذّنت؟ قال: الفجر: قلت: فعشاء الأخيرة؟ قال نُصلّيها مع المغرب، قلت: فالليل؟ قال: كما ترى وقد كان أقصر من هذا وقد أخذ الآن في الطول، وذكر أنه منذ شهر ما نام الليل خوفاً من أن تفوته صلاة الصبح، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار ثم يصلّي الغداة وما آن لها أن تنضج، ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً، وإذا أنه يطول عندهم مرّةً من السنة، ويقصُر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، فلما كانت الليلة الثانية جلست فلم أر فيها من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنّها فوق الخمسة عشر كوكباً متفرقةً، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتةً، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم، والقمر إنما يطلع في أرجاء السماء ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر. وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوماً يقال لهم: (وِيسو) الليل عندهم أقل من ساعة. ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال، وكل شيءٍ ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبّد

---

(١) هذه ظلال الغيوم المختلفة الكثافة لاختلاف كمية بخار الماء فيها، وتظهر بين الأشعة كأنها تتحرّك بسرعة وتتموج، وتلتقي بغيوم أخرى مختلفة الشحنة الكهربائية فتحدث الأصوات التي هي نوع من الرعد، وهذا لا يوجد مثله في المناطق ذات العروض الدنيا، لذا فقد وجدوا فيها عجباً وبسبب الشفق تبدو حمراء.

السماء[1] . وعرّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى نهر يُقال له « إتل » بيننا وبينه أقل من مسافة فرسخ وقت الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء، ورأيتهم يتبّركون بعواء الكلب جداً ويقولون: تأتي عليهم سنة خصبٍ وبركةٍ وسلامةٍ[2] .

كانت توجد إذن ثلاث مناطق في تلك الجهات وهي:

١ً ـ منطقة الخزر ويحكمها اليهود، ويعيش بينهم مسلمون، ونصارى، ووثنيون، وكل فرقةٍ أكثر من اليهود عدداً ولكنهم جميعاً يدينون لليهود الخزر بالطاعة.

٢ً ـ منطقة بُلغار ويحكمها مسلمون اعتنقوا الإسلام حديثاً، وبقي عدد منهم على الديانة الوثنية.

٣ً ـ منطقة الروس وسكانها من الروس ولا يزالون جميعهم على الوثنية.

كان الروس الوثنيون مجالاً للصراع لكسبهم إلى إحدى الديانتين اللتين يدين بهما حكام الخزر وهم اليهود وحكام بلغار وهم المسلمون، وكما فشل البلغار في كسب الروس إلى الإسلام كذلك فشل اليهود في إدخالهم في دينهم، كما أن النصرانية من جهات الرومان قد أدلت بدلوها مع ملك الروس (فلاديمير)، وأمام هذا الصراع جمع فلاديمير وجهاء قومه،

---

(١) تقع بلغار على خط عرض ٥٦ شمالاً، أي في العروض العليا. ومن المعلوم أنه كلما ابتعدنا عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً يزداد الاختلاف بين طول النهار والليل، بينما يكادان يتساويان في المنطقة الاستوائية. وفي نصف الكرة الشمالي يزداد طول النهار صيفاً ويقصر طول الليل حتى لا يزيد الليل على ساعة واحدة في الدائرة القطبية وبعدها في القطب يصبح النهار ستة أشهر والليل مثله. أما في خط عرض بلغار فيكاد الليل لا يزيد طوله على ست ساعات ولكن يبقى النور واضحاً والشفق دائماً، كما ذكر ابن فضلان تقريباً.

(٢) هذا اختصار لما جاء في رسالة ابن فضلان ويكاد يتفق مع ما أخذه ياقوت عنه.

واستنصحهم في هذه التيارات الدينية، فأجابوه: أيها الأمير إن كل امرىء يمتدح ديانته فإذا أردت أن تختار أحسنها فابعث برجالٍ عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أيّة أُمّةٍ من الأمم تُعظّم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى.

اختار (فلاديمير) لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالرأي والحكمة، فوجدوا أن بلاد البُلغار لا تزال فيها أماكن حقيرة المظهر حيث لا يزال الإسلام فيهم حديث العهد، ولم يُطبّق النظام الإسلامي بعد بصورةٍ كاملةٍ. (والإسلام ليس مجرد عبادةٍ وشعائر تُؤدّى وإنما هو نظام يشمل جوانب الحياة كلها يبدأ بالنظافة ويصل إلى الحكم) وكذلك لم يُسرّ رجال الروس في بلاد الخزر فالمستنقعات والبيئة القذرة وروائح بقايا الأسماك و... ولكنهم سُرّوا بالقسطنطينية، وما بها من فخامة البناء وعظمة الإشادة في كنيسة (أيا صوفيا) وملابس رجال الدين الجميلة المتميزة، وروائح البخور المنبعثة من داخل الكنيسة، ولم يعرفواهم هذا من قبل إذ لم يرتقوا بعد في سلم الحضارة، ولم يفهموا معنى العبادة والإخلاص فيها والتوحيد، فنقلوا انطباعاتهم إلى ملكهم (فلاديمير)، فتحوّل إلى النصرانية وجهر بها عام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ديانةً له، وتبعه قومه، وهكذا أصبحت النصرانية على المذهب الأرثوذكسي عقيدة الروس، وبدأت تترسّخ في النفوس، على حين بقيت القبائل غير الروسية وثنيةً تتنَّقل في شرق مواطن الروس وتخضع للقبائل التي أصبحت نصرانيةً أرثوذكسيةً.

وبعد مدةٍ ضعُفت دولة الخزر وقلّ شأن سكانها.. كما أن دولة البُلغار قد هاجر كثير من قبائلها، واتجهوا نحو الجنوب الغربي ويمّموا شطرهم نحو جنوب شرقي أوربا، فاستقرّ البلغار في الموضع الذي تقوم فيه دولة بلغاريا اليوم، واستوطن البوشناق في غربي يوغوسلافيا، في بلاد البوسنة. وأقامت قبائل الكومان في ترانسلفانيا (جهات رومانيا) حيث أقام البوشناق أول

أمرهم قبل أن يرتحلوا إلى البوسنة، وأقامت بعـض قبـائـل (البـاشغـرد) في المجر. وقد بقيت قبائل من الباشغرد في مواطنها في حوض نهر الفولغا، وهي التي تعرف اليوم باسم (الباشكير) أو الباشغرد وعاصمتهم مدينة (أُوفا) المعروفة، وبصورةٍ عامةٍ ضعُفت دولة بُلغار، وإن كان هذا الانتقال قد بدأ منذ السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م).

وهكذا أصبح شرقي أوربا منطقةً قليلة السكان أو شبه فارغةٍ على حين تزدحم المواطن الروسية بأهلها، وأصبح شرقي أوربا مجالاً للاستيطان، حيث يأتي التتار ويستقرّون فيه، بعد انتصارهم على أهله ودُولهم الضعيفة.

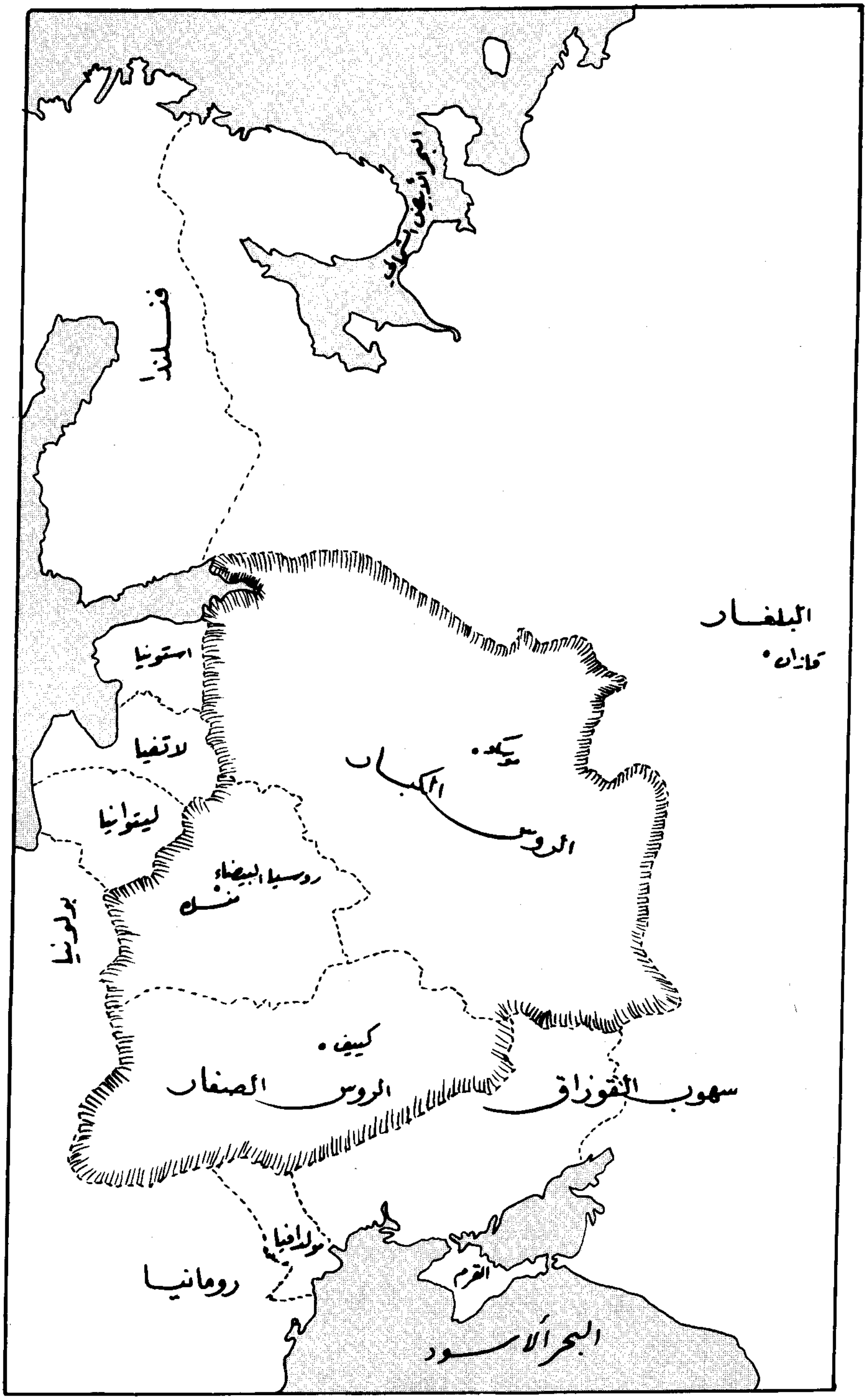
فنلندا
البلغار
قازان
موسكو
الروس الكبار
استونيا
لاتفيا
ليتوانيا
روسيا البيضاء
منسك
بولونيا
كييف
الروس الصغار
سهوب القوزاق
مولدافيا
رومانيا
القرم
البحر الأسود

الفصل الثالث

التتار في شرقي أوروبا

قوي أمر قبائل التتار في شرق ديار الإسلام في مطلع القرن السابع الهجري، إذ بدأت هذه القبائل تجمع نفسها وتتحرّك يميناً ويساراً، وبدت إمكاناتها القتالية الكبيرة، إذ كانت قدرتها على الحركة عظيمةً، وأفرادها من البدو الذين لا يعرفون الخوف، ويندفعون وراء معيشتهم. في هذا الوقت كانت آخر فلول الصليبيين ترحل عن بلاد الشام من ديار الإسلام، وقد خشي الصليبيون أن يُسلم التتار باحتكاكهم مع المسلمين كما سبق أن أسلم بعض أبناء أرومتهم من الترك، من تركمانٍ وغزٍّ وسلاجقةٍ. وإذا حدث هذا فإن الحيوية ستعود إلى القوة الإسلامية ولن تؤول في النهاية إلّا على النصارى، كما حدث عندما أسلم السلاجقة واصطدموا مع النصارى البيزنطيين عام ٤٦٣ فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملاذكرت والتي كان الجيش النصراني يزيد على مائتي ألف مُقاتل على حين كان الجيش المسلم لا يزيد على عشرين ألف مُحارب، وقد أُسر الأمبراطور البيزنطي نفسه وأكثر قواده وبطارقته، وقد فدى السلطان أسيره الامبراطور (ديوجنيس رومانوس) واطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه وقواده بشرط أن يُطلق سراح كل أسيرٍ مسلمٍ بيد الروم، وأن يُرسل إليه عساكر الروم وقت طلبها. ويخشى الصليبيون على أوربا نفسها إذا ما أسلم التتار، لذا كان على الصليبيين أن يعملوا دون إسلام التتار بالدرجة الأولى، وبعدئذٍ يعملون لدى التتار ليشنّوا

حرباً على المسلمين، فيقع المسلمون آنئذٍ بين نارين نار التتار في الشرق ونار الصليبيين التي تُسعر من جديد من الغرب. ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل للتتار، وأغروهم بديار الإسلام وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها، كما أُدخلت النساء النصرانيات إلى بيوت التتار لتُؤدّي دورها في هذه المهمة، فكانت على شكل حليلاتٍ أو خليلاتٍ، وتقوم بما يقوم به الرسل النصارى بشكلٍ مُستمرٍّ. وكان للصليبيين ما أرادوا فقد اقتنع التتار بالفكرة، ولم يبق إلا وجود المبرر للقيام بهذا العمل أو مُحرّض له دوافعه المباشرة. وقد وُجد المبرر عندما وقع الخلاف بين جنكيزخان قائد التتار المغول وبين خوارزمشاه محمد تكش.

انطلق التتار نحو الغرب واجتاحوا ما اجتاحوه بوحشيةٍ لا تكاد تُوصف، وفي عام ٦٢٠ دخلوا بقيادة جوجي بن جنكيزخان باب الأبواب (دربند) وانطلقوا إلى بلاد القفقاس، فقاتلوا قبائل اللان والجراكسة وانتصروا عليهم، ثم اقتحموا شرقي أوربا فدخلوها ونهبوها، وقاتلهم البُلغار فانتصروا عليهم، وقُتل كثير من التتار ومن بقي منهم عاد إلى جنكيزخان وخلت أراضي شرقي أوربا وبلاد القفقاس من التتار.

توفي جوجي بن جنكيزخان قبل أبيه بمدةٍ قصيرةٍ. وقبل أن يموت الأب قسّم ما أخضع من بلدانٍ بين أولاده الأربعة. فأعطى ابنه الكبير «جوجي» بلاد القفجاق، وداغستان، وخُوارزم، وبُلغار، وروسيا، ولما كان جوجي قد مات قبل أبيه فإن نصيبه كان لابنه باتو بن جوجي.

وأعطى ابنه الثاني «جغطاي» بلاد الأويغور، وتركستان وما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر إخوته مُحافظةً على تعاليم أبيه المصورة فيما عُرف باسم «اليساق».

وأعطى ابنه الثالث «تولوي» بلاد خراسان، وفارس، وما يُؤمّل أخذه من ديار بكر والعراقين، وما يتبع تلك الجهات.

وأما ابنه الرابع « أوغطاي » فقد أعطاه بلاد المغول، والصين، والخطا، إلى منتهى المعمورة من ناحية المشرق، وجعله الخان الأعظم من بعده، ويرجع إليه المغول جميعاً وأولاده البقية في أمورهم كافةً، ويقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من مغانم وأسلاب.

توفي جنكيزخان عام ٦٢٤ وذهب كل من أبنائه الأربعة إلى ما حصل عليه. ولم تنقد هذه الأسرة لحكم الخان الأعظم « أوغطاي » أي منذ بداية الأمر وبعد وفاة جنكيزخان مباشرةً. فلم يكن « باتو بن جوجي » راضياً عن تسلّم عمه « أوغطاي » مركز الخان الأعظم، وفي الوقت نفسه كان باتو مُميزاً بين أبناء عمومته إذ كان على المغول أن يُرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم، وذلك بسبب أن منصب الخان الأعظم كان يجب أن يكون حسب تعاليم المغول من حقّ أبيه « جوجي » وهو من بعد أبيه أيضاً، وكذلك كان لباتو مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلافٍ مع الخان الأعظم ويُنافسه.

وجّه الخان الأعظم « أوغطاي » عام ٦٣٣ جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً ووجهته إلى شرقي أوربا بقيادة باتو بن جوجي ويعمل تحت إمرته أبناء عمومته الثلاثة كيوك بن أوغطاي، ومانغو بن تولوي، وبايدار بن جغطاي، فقضى باتو على دولة الخزر، ودخل بُلغار، ثم احتلّ موسكو، واتجه بعدها إلى « كييف » وكانت آنذاك أكبر مدن الروس فأبادها التتار. وانقسم جيش باتو بعد ذلك إلى قسمين: قسم سار بإمرته إلى بلاد المجر فانتصر على المجر وذبح كامل أفراد جيشها، وسار الثاني بإمرة « بايدار » نحو بولندا، وقد أحرق ما استطاع عليه من المدن.

توفي الخان الأعظم « أوغطاي » عام ٦٤٤، فاستُدعي ابن أخيه باتو للرجوع إلى بلاد المغول، وعُيّن « كيوك » بن « أوغطاي » خاناً أعظم، وقد توفي عام ٦٤٦، وخلفه ابن عمه « مانغو بن تولوي » بعد اضطراباتٍ حول

الملك في عاصمة المغول « قره قورم »[1] فوجّه أخاه الأول « كـوبيلاي » إلى الصين فاتخذ بكين عاصمةً له. ووجّه أخاه الآخر « هولاكو » إلى جهة الغرب نحو بغداد. وتوفي « مانغو » عام ٦٥٥، فخلفه أخوه « كوبيلاي » الذي أخضع الصين، وأصبحت عاصمته بكين حاضرة المغول بدلاً من « قره قورم ». كل هذا زاد من عدم رضا باتو عن عمومه وأبنائهم وأسّس أسرةً خاصةً عُرفت باسم « مغول الشمال » أو « القبيلة الذهبية » وحكمت المنطقة التي كانت من نصيب والده في تركة جده جنكيزخان. واستقرّ التتار الذين مع باتو في تلك المنطقة من شرقي أوربا القليلة السكان، واتّخذوا من مدينة « سراي »[2] على نهر الفولغا قاعدةً لهم على مجرى النهر الأوسط، وقد أكمل بناءها بركة خان عام ٦٥٣ عندما تسلّم أمر الخانية، وهو الخان الثالث لمغول الشمال، وكان قد بُدئ في بنائها عام ٦٤٠.

وتعدّ قبيلة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية أول قبائل المغول في اعتناق الإسلام، وقد كان باتو يعطف على المسلمين، ويكره ابن عمه « كيوك » الخان الأعظم الذي تنصّر. وعندما توفي باتو عام ٦٥٠ خلفه ابنه (حرتق) ولكنه لم يلبث أن توفي فشغل منصب الخانية عمه بركة خان[3] الذي كان قـد أسلم منذ حوالي عام ٦٥٠، وعندما تسلّم خانية مغول الشمال أظهر تضامنه مع المسلمين، فراسل السلطان ظاهـر بيبرس حـاكم الدولـة المملـوكيـة في مصر والشام، وتحالف معه ضدّ ابن عمه هولاكو الذي يقود التتار المغول في قتال المسلمين ويتّجه نحو بغداد، وقد تمكّن من الانتصار على هولاكو في بعض المعارك التي جرت بينهما. واستمرّت الصلة بين مغول الشمال ودولة المماليك كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في فـارس

(١) يقوم مكانها اليوم مدينة أولان باتور عاصمة منغوليا الخارجية.
(٢) تقوم مكانها اليوم مدينة ساراتوف.
(٣) أبو المعالي ناصر الدين بركة خان.

وما حولها من بلاد الجبل والعراق، وإن كان هذا الخلاف يضعف أحياناً عندما يُسلم أحد حكام الدولة الإيلخانية ويتفهّم موضوع الإسلام وبالتالي تقلّ الصلة بين مغول الشمال والمماليك إذ لم تعد هناك ضرورة للاتصال الدائم والتفاهم المستمر، وبقي ذلك حتى اكتسح تيمورلنك المنطقة، كما أن دولة مغول الشمال كانت قد ضعُفت.

توفي بركة خان عام ٦٦٥ واستمرّ الصراع مع الدولة المغولية الإيلخانية، وكان يدخل هذا الصراع البيزنطيون أحياناً ويقفون بجانب الدولة الإيلخانية على حين يقف المماليك ومغول الشمال في الصف الآخر، وممن اشتهر بين خانات مغول الشمال محمد أوزبك (٧١٢ - ٧٤٢) الذي زار المنطقة في أيامه ابن بطوطه الرحالة المعروف، وتوقتاميش (٧٦٢ - ٧٩٨) الذي اشتهر في حروبه ضدّ تيمورلنك.

كانت دولة مغول الشمال واسعةً تمتدّ من أواسط بولندا في الغرب حتى وسط سيبيريا في الشرق، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتى أذربيجان وجنوب خُوارزم، ويتميز بين سكانها عنصران رئيسيان هما: التتار في شرقي أوربا وغربي سيبيريا والروس في الأجزاء الغربية من الدولة هذا بالإضافة إلى عناصر ثانيةٍ من الأتراك في خُوارزم، والأذربيجانيون في أذربيجان، وشعوب بلاد القفقاس وغيرهم، وكل هذه الجهات تتبع مدينة سراي.

بدأ الضعف يدبّ في الدولة بعد عصر القوة الذي زاد على ١٢٠ سنة، فعندما توفي محمودجاني ابن محمد اوزبك عام ٧٥٨ خلفه ابنه محمد بردي بك وكان ظالماً، قتل الكثير من أقربائه ليصفو له الحكم، وليُرهب الناس، وبالغ في فرض الضرائب فكرهه الشعب وتوفي عام ٧٦٢، وخلفه ابنه توقتاميش وكان صغيراً فاستقلّت بعض نواحي دولته إذ قامت خانية خاصته في سيبيريا الغربية قاعدتها مدينة «سيبير» وقد أسسها الحاج محمدخان. واستقل الحاج شركس في استراخان، كما استقلّ «ماماي» صهر محمدجاني بك في القرم،

كما استقلّت منطقة خُوارزم إذ كان تيمورلنك قد استولى عليها. وهكذا أصبحت الدولة الواحدة خمس دولٍ.

وزاد الضعف إذ جاء تيمورلنك واكتسح المنطقة، واحتلّ مدينة سراي في مطلع القرن التاسع، ولم يُوحّد بين التتار، وإنما زاد في فرقتهم، وعاد فانسحب من المنطقة ليُتابع أعماله العسكرية في جهاتٍ أُخرى، وكان لدخول تيمورلنك مدينة (سراي) أثره الكبير إذ بدأ الروس يظهرون على الساحة فقد هاجموا مدينة قازان وخرّبوها، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ أضعف تيمورلنك قبضة خانات سراي على أطراف دولتهم فاستقلت قازان عام ٨٤١، وأصبحت خانيةً خاصةً، وهذا ما شجّع الروس للوقوف في وجه التتار الذين ظهر ضعفهم واضحاً للعيان.

ومن المفيد أن نعلم أن الإمارات التتارية التي انفصلت عن مدينة « سراي » وهي: القرم، واستراخان، وخُوارزم، وسيبيريا الغربية، وقازان لم تكن يداً واحدةً تقف في وجه الروس، وإنما كان بعضها يدعم الروس ضدّ خانيات التتار الأخرى التي ذكرناها، أو يقف أحياناً بجانبهم ضدّ إخوانه المسلمين وأشقائه التتار.

الفصل الرابع

الصّراع بين التتار والرّوس

تحرّك الروس ضدّ التتار منذ أن شعروا بضعف الدولة غير أن (توقتاميش) عندما رجع إلى قاعدة ملكه (سراي)، ودان له التتار بمساعدة تيمورلنك، تمكّن أن يُعيد الروس إلى الطاعة وأن يدخل موسكو عام ٧٨٣.

عاد الخلاف بين توقتاميش وتيمورلنك، ووقع القتال بينهما عام ٧٨٨، واستمرّ حتى عام ٧٩٧ حيث هُزم توقتاميش في الحرب، وفرّ من البلاد، واختفى، ولم يُعلم له مكان، ودخل تيمورلنك مدينة سراي، وعيّن عليها أميراً من قبله، وانسحب من البلاد، ووقعت الحرب بين التتار والليتوانيين، وانتصر التتار.

وعاد الروس الى حركتهم بعد أن رأوا ضعف التتار، وقام القتال بين الطرفين عام ٨١١، ثم اتفق الطرفان على قتال الليتوانيين، وانتصر بعض أمراء التتار لليتوانيين. وأصبح أمراء التتار في خانياتهم المتعددة بعضهم يُحالف الروس وبعضهم يتعاون مع ليتوانيا، كما يُقاتل بعضهم بعضاً الأمر الذي أضعف من قوتهم، وشجّع الروس عليهم.

وظهرت الدولة العثمانية كقوةٍ مُسلمةٍ في الجنوب، وتمكّن محمد الفاتح عام ٨٥٧ من فتح مدينة القسطنطينية، وتغيير اسمها إلى استانبول (دار الإسلام)، وجعلها قاعدة الدولة العثمانية، وبهذا الإجراء انتهى دور

القسطنطينية في قيادة مذهب الأرثوذكس الذي يدين به البيزنطيون ويعتنقه الروس، وانتقلت قاعدته إلى موسكو. فغدت موسكو خليفة القسطنطينية ويجب أن تُؤدّي الدور الذي كانت تُؤدّيه القسطنطينية من قبل، كما على الروس أن يقوموا بالمهمة التي كان يقوم بها البيزنطيون بصفة أن كلاهما حامٍ للمذهب الأرثوذكسي، البيزنطيون من قبل، والروس من بعد، ومن هذا المنطلق فقد أثار المسؤولون الروس الروح الصليبية لدى مواطنيهم، وعدّوا التتار والعثمانيين شيئاً واحداً، فالتتار مسلمون يحكمون الروس، والعثمانيون مسلمون قضوا على النصارى الأرثوذكس المُتمثّلين في الدولة البيزنطية، كما أن التتار والعثمانيين يعودون إلى أرومةٍ واحدةٍ هي التترية وإلى عرقٍ واحدٍ هو العرق الأصفر، وهذا ما وحّد الروس فالتفّوا حول أمير موسكو عام ٨٨٦، وعدّوا أنفسهم دولةً منفصلةً عن الدولة المغولية، ولها استقلاليتها وشخصيتها.

وفي الوقت الذي وحّد فيه الروس جهودهم وقواتهم وإماراتهم لم يُبال التتار بهذا كله وإنما بقوا على تفرقتهم وخصوماتهم فيما بينهم بل يستعين بعضهم بالروس ضد بعض، وهذا ما زاد الأمر خطورةً وفداحةً، وكذلك لم يكن شأن العثمانيين بأفضل من ذلك بل كانت هذه المرحلة مرحلة خلافاتٍ داخليةٍ نشأت بعد انحسار موجة المدّ التتاري بقيادة هولاكو، وعندما عادت للعثمانيين الوحدة والقوة أيام السلطان سليم توجّه الاهتمام نحو قتال الفرس الشيعة والخصام مع المماليك حكام الشام ومصر، وإذا كان لهذا ما يُبرره وهو ظهور الصليبيين مُتمثّلين بالبرتغاليين في جنوبي بلاد العرب وشرقي إفريقية وعلى سواحل الخليج العربي، ولم يستطع المماليك أن يُدافعوا عن ديار الإسلام وفي الوقت نفسه لم يسمحوا للعثمانيين بمنازلة الصليبيين مرورًا بأرضهم لذا فقد قرّر العثمانيون القضاء على دولة المماليك بعد التخلّص من الصفويين الشيعة الذين كانوا على شبه صلةٍ مع الصليبيين نتيجة الكراهية بينهم وبين العثمانيين والمماليك أو لخلافهم مع المسلمين (أهل السنة). وقد قام العثمانيون بهذا الدور المحمود لهم والمسجّل لصالحهم فقد دوّخوا دولة الصفويين،

وأزالوا دولة المماليك وتسلّموا خلافة المسلمين. وعندما قام سليمان القانوني بالأمر بعد أبيه السلطان سليم تعرّض لحركات ضدّه في بداية الأمر ثم انشغل بأمرٍ آخر هو التقدّم العسكري في أوربا (التقدّم العسكري أقصد أنه لم يكن الهدف من الحرب العثمانية في أوربا والفتوحات التي تمت يومذاك نشر الإسلام ـ على ما يبدو ـ إذ لم يتبع السبيل الصحيح إلى ذلك، وإنما كان الهدف عسكرياً بالدرجة الأولى ولا علاقة بخلافات الدول النصرانية الأوربية بعضها مع بعض) كما اهتمّ في موضوع إعادة الملاحة والحيوية إلى البحر المتوسط بعد أن أصبحت السفن الأوربية تلتفّ حول إفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الشرق مباشرةً، لذا فقد عقد المعاهدات مع بعض الدول الأوربية ذات العلاقة مثل الإمارات الإيطالية، وفرنسا، وانكلترا، ولكن لم يصل إلى نتيجة لأن هذه الدول كانت تحرّكها الصليبية أكثر مما تحرّكها المنافع الاقتصادية إذ كانت تعقد المعاهدات مع السلطان سليمان القانوني ولكنها تتحرّك وراء صليبيتها وتُساعد البرتغال وتنتقل سفنها عن طريق الرجاء الصالح، ومن المنطلق نفسه فقد أعطى السلطان سليمان القانوني صلاحياتٍ واسعةً لقنصليات الدول النصرانية الأوربية وجعل لها حقّ محاكمة رعاياها في داخلها بل لا يحقّ للدولة العثمانية النظر في خصومات رعايا دول أوربا في بلادها ثم تجاوز ذلك أحياناً فوصل إلى رعايا الدولة العثمانية من النصارى الذين نالوا حظاً لم ينله غيرهم من سكان الدولة جميعاً من المسلمين. وإذا كانت هذه أمور جديرة بالاهتمام ودواعيها تقتضي أن يلتفت السلطان إليها ويُعطيها الكثير من وقته غير أن معالجتها جاءت في غير صالح العثمانيين وهي مُسجّلة عليهم، ولم يكن السلطان ليشعر بخطرها ما دامت القوة بيده يُحرّكُها على الوجهة التي يُريدها، ويُوقفها في مكانها في الوقت الذي يشاء، ولكن عندما فقدت الدولة قوتها غدت تلك القوانين التي عُرف بها السلطان سليمان فسُمّي بالقانوني ذات مفعول للأوربيين، كما أصبحت تلك الامتيازات التي مُنحت للنصارى سواء أكانوا من رعايا الدولة

أم من رعايا الدول النصرانية والمقيمين في أرض الدولة من أكبر الخطر على الدولة والذي يُهدّدها ومن أكبر المشكلات التي تحدث في الدولة وتُسبّب لها أخطر المزالق.

ويبدو أن العثمانيين لم يكونوا ليهتمّوا بالروس إما ازدراءً بقوتهم واحتقاراً وإما لانشغالهم بما هو أكبر من ذلك ـ حسب رأيهم ـ وظهر بعدئذ خطأ السياسة العثمانية فإن الاهتمام الذي أولته للروس والذي لم يكد يذكر في بداية الأمر، قد جعلهم يتقوّون لدرجةٍ كبيرةٍ، وتتّسع دولتهم، ويُنازلون العثمانيين بعد ذاك، ولمّا أحسّت الدولة العثمانية بقوّة الروس فجأةً أرادت أن تَتدارك الماضي ولكن الأمر قد فات فعانت من الروس أمرّ المصائب، وتلقّت على أيديهم ضربات كادت تُودي بها، ولولا اختلاف المصالح بين الدول النصرانية لكانت نهاية الدولة العثمانية على أيدي الروس. ولو أنها انتبهت إليهم وأولتهم قليلاً من الاهتمام في بداية الأمر بدعم التتار، والعمل على وحدتهم، والضغط على الروس لبقوا على حجمهم الطبيعي تحت سيطرة التتار، ولكان الوضع غير ما أضحى عليه ـ والله أعلم وهو المُقدّر لكل شيء ـ.

ويظهر أن الروس كانوا أكثر إدراكًا لمُهمّتهم، وأكثر وعياً لما يُحيط بهم، وأكثر تخطيطاً لما هم قادمون عليه، فقد حرصوا على أن يكون ابتلاعهم لإمارةٍ بعد أخرى مع مُحاولة إيقاع الخلاف بين الإمارات التتارية ومُحاولة عدم التفاهم فيما بينها الذي ربما يقع بسبب وحدة العقيدة وقرابة خانات أكثر من إمارةٍ بعضهم مع بعض وقد تصل أحياناً هذه القرابة إلى درجة الأخوة. كما عملوا على الاتجاه نحو الشرق حيث إمارة قازان وعدم التوجه نحو الجنوب حيث إمارة القرم لأن التحرك ناحية الجنوب ربما جعل العثمانيين يُحسّون بالخطر المرتقب الأمر الذي يُلزمهم بالنزول إلى الميدان ومُقارعة الروس بثقلهم كاملاً، وهذا أمر لا يُمكن للروس أن يطيقوه في تلك المرحلة. لذا نُلاحظ

أن الخصومة كانت على أشدّها مع إمارة قازان أو أن اهتمام الروس بإمارة قازان كان كبيراً حيث يبدو للمتتبّع للأحداث أنهم يُريدون ابتلاعها من غير مُواربة. وفي الوقت نفسه فإن التفاهم مع إمارة القرم كان يمتدّ على مدةٍ من الزمن ليست قصيرةً، وعندما يقع الخلاف بسبب اتفاق القرم مع قازان لقرابة بين خاني الإمارتين أو لحدوث شيء من الوعي الذي لا يُمكن أن نحذفه أبداً يضبط الروس أعصابهم لدرجةٍ كبيرةٍ وإذا وقع القتال الذي لا يُمكن أن يتحاشاه المرء مهما عمل لأنه ليس مُرتبطاً به فقط فإن القرم تكون هي الإمارة المعتدية أو هي البادئة في هجومها على الروس، وذلك لمنع إمكانية تدخُّل العثمانيين، وإبقائهم على تفكيرهم السابق بضعف الروس، وإمكانية قيام التتار وحدهم بالوقوف في وجههم. وربما شعر العثمانيون في بعض الأوقات بخطر الروس غير أن ما هم فيه كان يُشغلهم عن ذلك أو كانوا يعدّون أمر الروس ثانوياً بالنسبة إلى المشكلات التي تُواجههم باستمرار. وعندما كانت رسل التتار ووفودهم تنطلق إلى السلطان سليمان القانوني كان يحرص على إلقاء النصح عليهم ودعوتهم إلى الوحدة والوقوف صفّاً واحداً في وجه الروس.

وعندما ابتلع الروس إمارات قازان، واستراخان، وسيبيريا الغربية، واتّجهوا بعدها نحو إمارة القرم أحسّ العثمانيون بسخونة الموقف ونزلوا عندها إلى الميدان ولكن الأوان قد فات، فالروس قد زادت قوتهم، واتّسعت دولتهم، وكبُرت إمكاناتهم في الوقت الذي ضعُفت فيه الدولة العثمانية، وبدأت تتراجع، وتكالبت عليها أمم الأرض، وعمّت المشكلات الداخلية، لذا فقد كان الصراع بين العثمانيين والروس في غالب الأحيان لصالح الروس، وإن كُنّا لا نعدم رؤية أيامٍ تتجلّى فيها الروح المعنوية العالية لدى العثمانيين فيُحرزون النصر ويُحققّون التقدّم، ويبرز بينهم قادة وأبطال يصلون إلى مصاف أعلى القادة.

الباب الثاني

الاستعمارُ الرّوسيّ

الفصل الأول
استعمار بلاد التتار

أثار الروس الروح الصليبية بين مواطنيهم، فادّعوا أن المسلمين، وهم التتار قد احتلّوا أراضيهم في شرقي أوربا، ثم إن العثمانيين قد قضوا على الدولة البيزنطية حامية المذهب الأرثوذكسي والنصرانية، ودخلوا القسطنطينية قاعدة ذلك المذهب وجعلوها مدينةً إسلاميةً وحاضرة الدولة العثمانية المسلمة، وبذلك فقد دنّسوا عقيدة الروس، والروس خلفاء البيزنطيين وورثتهم الشرعيين، فعليهم مهمة كبيرة وشاقّة هي قتال المسلمين، ولنبدأ حسب إمكاناتنا الحالية بالتتار ويجب ألا نعتمد على أحدٍ وإنما علينا أن نستغلّ الظروف ونهتبل الفرص. وفي الوقت نفسه فقد أعلنوا للملأ أن أراضيهم التي يُقيمون عليها قد غصّت بهم، وازدحمت بأهلها على حين أن المناطق الشرقية تكاد تكون فارغةً فعليهم أن يتوجّهوا إليها يُحيونها ويُعمرونها فإنه أفضل من بقائها مُهملةً لا خير منها يُجبى، ولا إنتاج يُؤخذ.

وتوجّه الروس باهتمامهم نحو الشرق، وركّزوا جهودهم نحو إمارة قازان.

١ ـ إمارة قازان: كانت قازان مقرّ البُلغار، وخضعت للتتار، تعدّ على أطراف بلاد المسلمين بعد إسلام التتار، وقد هدّمها الروس عام ٨٠٢ هـ، ثم عادت إلى الظهور ثانيةً عندما اختلف محمد أولوغ مع أخيه ففرّ إليها، وطلب من البلغار، والجوفاش، والتتار المقيمين حولها السكن فيها فأطاعوه،

وبدأت الحياة تدبّ فيها من جديد ، فأسس فيها إمارة عام ٨٤٢ لم تلبث أن قويت .

هاجم محمد أولوغ موسكو لأن أهلها قد رفضوا حمايته ، وطلبوا منه مغادرة بلدهم عندما التجأ إليهم فاراً من أخيه ، وانتصر عليهم ، واكتفى بجمع الغنائم ، ثم كرّر الهجوم ، وانتصر ، وعاود الغزو عام ٨٥٠ فأسر بطريق موسكو ، ثم أطلق سراحه .

اختلف محمد أولوغ مع ابنه محمود ، وقُتل الأب ، وسيطر الولد ، ففرّ إخوته إلى موسكو خوفاً من أخيهم ، واستمرّ محمود في خلافٍ مع موسكو حتى عام ٨٧٢ حيث خلفه ابنه إبراهيم الذي تعرّض لهجمات عمه قاسم من موسكو وبجندٍ من الروس .

وتوفي إبراهيم خان عام ٨٨٣ وخلفه ابنه إلهام خان غير أن الابن الثاني وهو محمد أمين قد فرّ إلى موسكو مغاضباً لأخيه ومُنازعاً له ، ودعمه الروس بجيشٍ كثيف تمكّن به من احتلال قازان واستلام خانيتها ، وأسر أخيه إلهام خان وحمله إلى موسكو ليُسجن هناك ، وبقي في مُعتقله حتى تُوفي .

وكره أهل قازان محمد أمين وطلبوا أحد أبناء التتار ليولّوه عليهم ، ولكنهم فشلوا في خطتهم إذ دعم الروس محمد أمين بجيش انتصر به على خصومه عام ٩٠٢ ، ولكن جاء بعد مدة ماموق خان ودخل قازان وفرّ محمد أمين مع أهله إلى موسكو .

كره أهل قازان ماموق خان فكتبوا إلى الأمير الروسي ايڤان الثالث يُعلمونه برغبتهم وهي عدم رضاهم عن محمد أمين وعن ماموق خان وإنما يرغبون في تولية عبد اللطيف أخي محمد أمين خاناً عليهم ، وقد نصّبوه عليهم فعلاً وسار ماموق خان إلى بلاد النوغاي .

ورجع محمد أمين خاناً على قازان عام ٩٠٨ بعد أن انتصر على أخيه

عبد اللطيف الذي حُمل أسيراً إلى موسكو ، ووقع الخلاف بين قازان وموسكو واستمـرّ حتى عـام ٩٢٥ حيـث تُـوفي محمد أمين ، كما تُـوفي قبلـه أخـوه عبد اللطيف ، ولم يكن لهما عقبٌ فعيَّن الروس أحد أمراء التتار خاناً على قازان وهو شيخ علي ، ولكن لم يحبه أهل قازان فاتفقوا مع خان القرم على إرسال أخيه صاحب كراي ليكون خاناً عليهم ، فسار إليهم والتجأ شيخ علي إلى موسكو ، وصفا الجو بين القرم وقازان . فأرسل الروس جيشاً بقيادة شيخ علي عام ٩٣٠ و ٩٣١ فارتكب أبشع الجرائم في المرتين .

عرض صاحب كراي على السلطان العثماني سليمان القانوني أن تتبع قازان الدولة العثمانية فرفض الروس ذلك ، وسيّروا جيشاً إلى قازان بإمرة شيخ علي ، ولم يحدث قتال ، ولكن فرّ صاحب كراي من المدينة بحجة الذهاب إلى السلطان ، وخلّف ابن أخيه صفا كراي نائباً عنه .

أنهكت الحرب أهل قازان فسار بعض الأمراء إلى موسكو وعرضوا الصلح وطلبوا تعيين خان من قبل موسكو عليهم فعيّنت عام ٩٣٩ جان علي في الوقت الذي سار فيه صفا كراي إلى القرم ، وبقي العداء بين القرم وموسكو وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠ .

قتل أمراء قازان جان علي عام ٩٤٢ بعد خلعه من الخانية ، ورجع صفا كراي إلى قازان وهاجم بلاد الروس عام ٩٤٣ ، ثم وقع صلح بين الطرفين ، وتجدّد القتال عام ٩٤٦ ، وهاجم الروس مدينة قازان عام ٩٥٣ ، وفرّ صفا كراي منها وتسلم أمر الخانية شيخ علي ولم تمضِ سوى مدة وجيزةٍ حتى غادرها ورجع صفا كراي الذي تُوفي عام ٩٥٦ ، وبقيت قازان دون خانٍ ، فاستغلّ الفرصة أمير موسكو وهاجمها بجيشٍ كثيفٍ ومعه شيخ علي وذلك عام ٩٥٧ ولكن لم يتمكّن من احتلال المدينة ، ونصّب الروس عليها شيخ علي للمرة الثالثة .

رفض أمراء قازان خانية شيخ علي فخرج من مدينتهم عام ٩٥٨ ، وجاء محمد خان مع خمسمائة فارس من النوغاي إلى قازان وأصبح خاناً عليها ، وسار الروس مع شيخ علي إلى قازان واحتلّوها بعد قتالٍ مريرٍ ، ودخلوها يـوم ٢٤ شوال عام ٩٥٩ ، فأزالوا هذه الإمارة التي بقيت مدة مائة وثماني عشرة سنة (٨٤١ ـ ٩٥٩). ثم اتجهوا إلى المناطق المحيطة بها ، والتي تقوم فيها بعض الإمارات ، وحاول العثمانيون توحيد صفوف التتار للوقوف في وجه الروس فأطاعهم خان القرم ، وخان استرخان ، وأمير النوغاي ، غير أن سقوط قـازان أطاح بالاتفاق ونشأت أحداث جديدة بدّلت كل شيء .

٢ ـ **الباشغرد** : بعد أن سقطت قازان أعلن بعض الباشغـرد في (أوفـا) الطاعة للروس على خوفٍ منهم ، فأقبل الروس ودخلوا بلاد الباشغرد ، وضمّوها إليهم.

٣ ـ **بلاد النوغاي**: بعد أن سقطت قازان قام المرزا إسماعيل في بلاد النوغاي على أخيه الأمير المرزا يوسف وقتله ، وتسلّم الإمرة مكانه ، وراسل أمير الروس ايڤان الرهيب ، وأعلن الخضوع له ، وساعده في دخول استراخان .

٤ ـ **استراخان**: كان يحكم استراخان منذ عام ٩٤٨ الخان (آق بـاك) ، وأحس بخطر الروس ، فوافق على تفاهم التتار بعضهم مع بعض ، ولكن لم يقو على مواجهة الروس عندما تقدّموا إلى بلاده بعد أن احتلّوا قازان وخاصة أن المرزا إسماعيل أمير بلاد النوغاي الجديد قد قدم مع الروس فاستسلمت استراخان ودانت للروس عام ٩٦١ م .

٥ ـ **سيبيريا الغربية**: أعطى باتو بن جوجي بن جنكيزخان أخاه شوبان شرق جبال الأورال ، وذلك حوالي عام ٦٤٠ ، فأسّس شوبان قلعةً ومدينةً على نهر صغير يُسمّى سيبيركا ، وحكم المنطقة ، وبقيت أسرته من بعده يتوالى أفرادها في إمرة المنطقة ، وتُعرف بالأسرة « الشيبانية » وتتبع في أمورها مدينة

سراي قاعدة حكم مغول الشمال. وبعد مُدَّةٍ أسلم أبناء هذه الأسرة كبقية أفراد القبيلة الذهبية، وتمكَّن الحاج محمد خان أحد حكّام هذه الإمارة أن يمتلك نواحي نهر أوبي ورافده أرتيش وأقام خانيةً خاصة انفصلت عن مدينة سراي في الوقت الذي بدأت تنفصل عنها الخانيات الأخرى مثل قازان، واستراخان.

وتوالى خانات هذه المنطقة حتى أيام كوتشم خان حيث رفض الاتفاق الذي يقضي بأن تكون سيبيريا خاضعةً للروس، وبدأ حوالي عام ٩٧٧ يُقوّي أمر دولته، وصاهر النوغاي، وغدا يُغير على مواقع الروس القائمة على نهر (كاما)، وشجّع قبائل القوزاق في جنوبي أوكرانيا بعصيان الروس، وكان هجومه على الروس قوياً عام ٩٨١ .

شجّع الروس أحد أشقياء القوزاق الذين يُقيمون على ضفاف نهر الدون والذي يلتفّ حوله عدد من قطاع الطرق، ويُدعى «يرمق» وأمدّوه بقوةٍ من الروس، وأغروه بكوتشم خان، فسار نحو التتار الذين يعيشون في مدينة (سرايجق) التي أسسوها عام ٩٠٧ على نهر أورال بعد أن فرّوا من مدينة سراي يوم خرابها في ذلك العام، فسار «يرمق» عام ٨٩٥ نحو «سرايجق» فانتصر على التتار، وهدّم مدينتهم، واتجه بعدها نحو مدينة (سيبير)، ودخلها عام ٩٨٩ ، وفي عام ١٠٠٣ باعها إلى الروس، أما خانها فقد فرّ إلى بلاد الباشغرد، واختفى فيها، وبقي حتى تُوفي.

وقام علي بن كوتشم خان في مدينة سيبير ثانيةً، وبايعه أهلها خاناً عليهم، ولكنه عجز من إنقاذ بلاده، وتبعه أخوه ايشم خان عام ١٠١٧ ، وفشل أيضًا، كما فشل ابنه كراي خان في حركته عام ١٠٧٨ هـ. وهكذا تبع التتار في سيبيريا الغربية إلى الروس.

غدت بلاد التتار كلها تحت استعمار الروس باستثناء بلاد القرم التي أجلّها

الروس خوفاً من الصدام مع العثمانيين، وريثما يقوى أمرهم وليتمكّنوا بعدها من منازلة القرميين والذين يُحاولون أن يقفوا وراءهم.

وأعلن الروس أن كل الجهات التي تقع إلى الشرق من (سيبير) حتى مياه المحيط الهادي تتبعها، وبـذا فقـد أصبحـت في حـوزتهم وتحت تصرّفهـم، وأطلقوا عليها اسم (سيبيريا) نسبةً إلى (سيبير) عاصمة التتار في شرق الأورال.

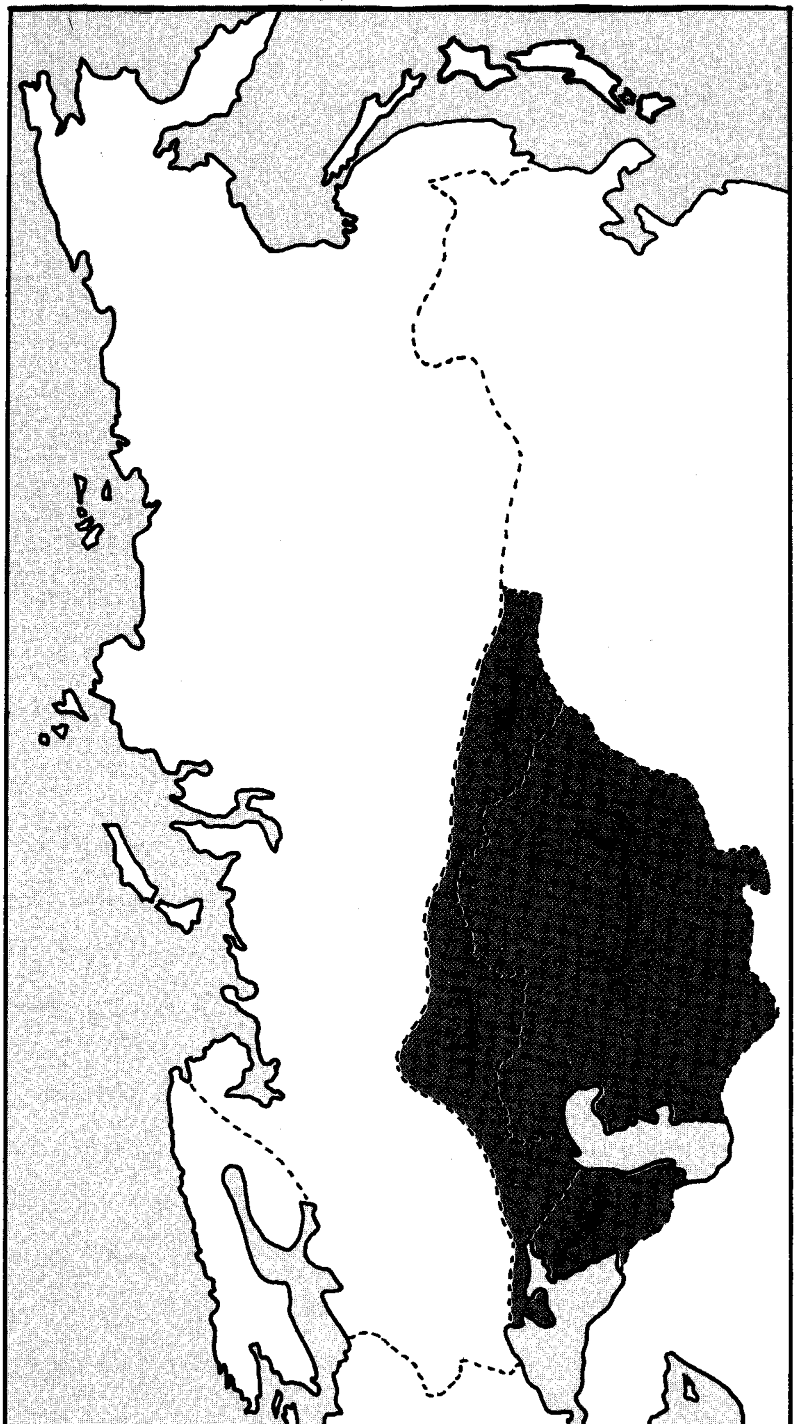

الفصل الثاني
استعمار القرم والصدام مع العثمانيين

كانت القرم قد استقلّت عن سراي منذ عام ٨٣٩ ، وحكمها حاجي كراي حتى عام ٨٧١ فخلفه ابنه منكلي كراي فاختلف مع أخيه حيدر فانتصر الثاني ، وفرّ منكلي كراي إلى مدينة (أكفا) حيث التجأ إلى الجَنَويِّين الذين كانت (أكفا) إحدى مراكزهم. وعندما انتصر السلطان محمد الفاتح العثماني على الجَنَويِّين ودخل مدينة (أكفا) ، حمل معه منكلي كراي إلى استانبول أسيراً ، ثم أعاده خاناً على القرم.

قام أحمد خان حاكم سراي بهجومٍ على القرم وانتصر على منكلي كراي ، واحتلّ القرم عام ٨٩٢ ، فعيّن جاني بك خاناً على القرم ، بينما اختفى منكلي كراي قرب مدينة (باغجه سراي) ، وبعد مدةٍ خرج من مخبئه وانتصر على جاني بك الذي فرّ إلى روسيا.

تحالف أحمد خان مع الليتوانيين ضدّ تحالف منكلي كراي مع الروس ، ووقعت الحرب ، وانتصر منكلي كراي على مرتضى خان خليفة أحمد خان ، وأخذه أسيراً عام ٨٩٠ ، وفي العام التالي هاجم أهل سراي القرم فجأة وأحرزوا النصر ، وتمكّنوا من فكّ أسر خانهم أحمد خان ، كما حملوا عدداً من القرم أسرى. وهاجم في السنة التالية منكلي كراي مدينة سراي بمساعدة الروس ، وانتصر وفكّ أسرى القرم.

وهاجم منكلي كراي ليتوانيا بتحريضٍ من الروس وكاد يقضي عليها لولا تدخّل حاكم سراي. وبناءً على ذلك فقد هاجم منكلي كراي عام ٩٠٧ مدينة سراي وهدّمها. واستمرت العلاقة طيبةً بين القرم والروس حتى عام ٩١٨ عندما هاجم ولدا منكلي كراي بلاد الروس بالتفاهم مع الليتوانيين.

توفي منكلي كراي عام ٩١٩ وخلفه ابنه محمد كراي الذي أرسل أخاه صاحب كراي إلى قازان ونصّبه خاناً عليها، كما استولى على استراخان، وهكذا توحّد التتار تقريباً فخاف الروس من ذلك، وهاجموا قازان فاضطرّ خانها صاحب كراي أن يُغادرها بعد أن خلّف عليها ابن أخيه صفا كراي لكن لم يلبث أن غادر قازان بعد أن تصالح أهلها مع الروس عام ٩٣٩، غير أن أوضاع قازان كانت تتغيّر باستمرار، وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وعاد صفا كراي مرتين إلى قازان حتى توفي عام ٩٥٦.

تولى حكم القرم سعادة كراي بعد أبيه محمد كراي واستمرّت مدة خانيته (٩٣٠-٩٥٢) وخلفه عمه صاحب كراي حتى ٩٥٨ عندما جاء ابن أخيه دولت كراي من استانبول وقتله وتسلّم الخانية مكانه.

في هذا الوقت بدأ الروس يُسيطرون على بلاد التتار إمارةً بعد أُخرى، ولم يتركوا إلا خانية القرم خوفاً من الصدام مع العثمانيين الذين يحسّون أن إمارة القرم تجاورهم، وما انتهى الروس من بلاد التتار إلا واتّجهوا نحو القرم، ويومها شعر العثمانيون بخطورة الموقف غير أن هذا الشعور قد جاء متأخراً، فالدولة العثمانية قد ضعف أمرها ولم يعد بإمكانها القتال على عدة جبهات في آنٍ واحدٍ، والروس قد اشتدّ ساعدهم ولم يعد بالإمكان مقاومتهم بسهولةٍ، والتتار الذين يمكن الإفادة منهم قد خضعوا للروس، وفي الوقت نفسه فقدت القرم أعوانها من التتار الذين يمكن أن ينصروها إذا حَزَب الأمر.

وحدث أمر خطير يجب الانتباه إليه وهو أن الشاه الصفوي طهماسب قد كاتب الأمير الروسي ايڤان الرهيب عام ٩٧٨ وعرض عليه الاتفاق معه لمحاربة الخلافة العثمانية ففتحت هذه المراسلة أعيُن حكّام الروس إلى المنطقة التي بينهم وبين الدولة الصفوية، وهي بلاد القفقاس، فرأوا أن تكون تحت حوزتهم، وأنها ستكون ساحة الصدام بينهم وبين العثمانيين هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ شعر الأمير الروسي أن هناك خلافاً مُستحكماً بين الصفويين الشيعة وبين العثمانيين المسلمين (السنة) فيجب الإفادة منه على نطاقٍ واسعٍ، ومن هذه الإفادة يجب السيطرة على منطقة القفقاس، وهذه السيطرة هي التي ستُمكّن من الانتصار على العثمانيين، ودون ذلك لا يُمكنه إحراز النصر، لأنها هي المنطقة البرية التي سيحدث على أرضها الصراع، وهي المنطقة المنيعة، وسكانها أهل قوّةٍ يُرجّحون كفّة الذين يكونون بجانبه، فمن ضمّهم إليه تمكن من تحقيق الهزيمة لخصمه. أمّا إذا التقى العثمانيون بالروس بحراً على مياه البحر الأسود فسيكون النصر بجانب العثمانيين ـ والله أعلم ـ لأن الروس لا يملكون بعد قوةً بحريةً تُعادل وتُكافىء قوة العثمانيين الذين مضى عليهم مدةً طويلةً يخوضون معارك بحريةً، لذا يجب أن يكون القتال برياً في بداية الأمر، ولكن لا يصحّ الانسياح في أرض القفقاس قبل الانتهاء مما بقي للتتار من إمارات، وهي خانية القرم. ومن المعلوم أن الروس لم ينتصروا بقوّتهم وشجاعتهم وإنما انتصروا بضعفنا وتفرّقنا وإغفالنا لديننا الذي يدعو إلى الوحدة ويرفع معنوياتنا عالياً، ويحثّ على الجهاد.

لمّا أحسّ العثمانيون بمُخطّط الروس حاولوا أن يتداركوا شيئاً من الخطأ الذي وقعوا فيه، أو يتلافوا ما حدث من تقصيرٍ وإن كان الأمر قد فات، فبدأوا يعملون بتخطيطٍ في هذه الجبهة أكثر من غيرها، فتأخر تنفيذ المخطط الروسي بعض الوقت، وأطال من عمر إمارة القرم بعض الزمن، وأبعد سقوط بلاد القفقاس بيد الروس مدةً وجيزةً.

دعم العثمانيون التتار، ووضعوا بولونيا تحت حمايتهم عام ٩٨٣، واعترفت

النمسا بذلك، وأغار التتار على بولونيا عام ٩٨٤ ، فاستنجدت بالخليفة العثماني مراد الثالث (٩٨٢ ـ ١٠٠٣) فأعلن حمايتها بمعاهدةٍ رسميةٍ.

وتوفي الشاه الصفوي طهماسب عام ٩٨٤ ، وخلفه ابنه حيدر فقُتل بعد عدة ساعاتٍ، ودُفن مع أبيه، وتولّى أخوه محمد خدابنده، واختلف الناس عليه، فاستغلّ العثمانيون هذه الفرصة، وأرسلوا جيشاً احتلّ بلاد الكرج، ودخل عاصمتها تفليس عام ٩٨٥ ، وفي العام التالي وبعد انقضاء فصل الشتاء، دخل العثمانيون شروان (أذربيجان الشمالية)، وفي عام ٩٩١ استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا على بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد بجنده إلى بلاد القرم عبر جبال القفقاس لتأديب خان القرم محمد كراي الثاني الذي رفض إرسال مددٍ للعثمانيين لمحاربة الصفويين، ولكنه أنهكه التعب وغارات الروس غير أنه قد وصل إلى القرم ودخل بمساعدة إسلام كراي أخي خان القرم الذي قتل أخاه، وانضمّ إلى العثمانيين عام ٩٩٢ ، وأصبح بعدها خانات القرم ولاةً عثمانيين.

وجد الروس أن العثمانيين قد انتبهوا إلى أمرهم، وأن أملهم بالتوسّع قد ضَعُف إذ أن العثمانيين قد عدّوا إمارة القرم جزءاً من بلادهم، وان بولونيا قد أصبحت محميةً لهم، ومكّنوا لأنفسهم في بلاد القفقاس، وأكبر من هذا أن التتار يتحرّكون بأمرهم ويُغيرون على الروس، وعندما قام القوزاق باحتلال مدينة آزاق (آزوف) التي تعدّ من بلاد القرم أرسل لهم الخليفة العثماني إبراهيم الأول (١٠٤٩ ـ ١٠٥٨) جيشاً استردّها عام ١٠٥٢ هـ . وأمام هذه الأحداث، وانتعاش الدولة العثمانية نسبياً أخّر الروس ما كانوا يفكرون القيام به من ضمّ القرم، ومحاولة السيطرة على بلاد القفقاس، ولم تحدث بين العثمانيين والروس حروب عنيفة في هذه الآونة، ولكن وقعت بعض المعارك القليلة الأهمية كما حدث عام ١٠٨٨ عندما استنجد القوزاق بالروس ضد العثمانيين فوقع قتال استمرّ حتى عام ١٠٩٢ . وكان الروس ينتظرون زيادة ضعف الدولة العثمانية، وزيادة حروب الدول الأخرى لها كي يبدأوا بالهجوم.

شعر الروس أن الدولة العثمانية قد ضعُفت، وأنه يمكن العودة إلى طريق الهجوم واقتطاع جزءٍ بعد آخر منها، وتسلّم السلطة بطرس الأكبر (١١٠١ - ١١٣٨) وهو صاحب أطماعٍ واسعةٍ، وصليبيةٍ واضحةٍ، وتهوّرٍ كبيرٍ، وكان ذلك إيذاناً ببدء العداء السافر، والحروب التي لا تكاد تنقطع بين الطرفين.

سار بطرس الأكبر قيصر روسيا نحو مدينة آزاق (آزوف) وضرب عليها الحصار، ولكنه أُجبر على فكه عام ١١٠٧ أمام هجمات الخليفة مصطفى الثاني (١١٠٦ - ١١١٥) الذي يقود العثمانيين بنفسه. غير أنّ الروس قد عادوا في العام التالي ١١٠٨ ودخلوا مدينة آزوف إذ استغلّ قيصرهم اشتباك العثمانيين مع النمسا والبندقية في معاركٍ عنيفةٍ. وأعلن بطلجي محمد باشا الصدر الأعظم أيام الخليفة أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٩) الحرب على روسيا، وحاصر قيصر روسيا بطرس وخليلته كاترين الأولى، ونجا الجيش الروسي من الإبادة، والقيصر وعشيقته من الأسر بإغراء كاترين الأولى للصدر الأعظم بلطجي محمد باشا غير أن الروس قد تنازلوا عن ميناء آزوف، وتعهّدوا بعدم التدخّل بشؤون القوزاق، وبعد عزل الصدر الأعظم الخائن، عقدت معاهدة مع الروس لمدة خمس وعشرين سنةً، غير أن الروس لم يلتزموا بالعهود، وتجدّد القتال، ولكن تدخّلت الدول، وعقدت معاهدة أدرنة من جديد عام ١١٢٥، تنازلت فيها روسيا عن كل ما سبق أن احتلته على سواحل البحر الأسود، وكما تخلّت عن كل ما كانت تدفعه لخانات القرم من جزيةٍ، وهذه أوّل مرّةٍ ينتهي أثر حكم التتار للروس نهائياً.

وضعُفت الدولة الصفوية فرأى قيصر روسيا أن يُعدّل خطّه حيث يجب أن يكون العمل في بلاد القفقاس والقرم معاً. وعندما احتلّ العثمانيون أرمينيا وبلاد الكرج احتلّ الروس بلاد الداغستان وأصبح الطرفان وجهاً لوجهٍ، وكاد الاشتباك يحدث لولا تدخّل فرنسا بطلبٍ من روسيا التي خشيت من مغبّة الصدام.

احتلّت روسيا بولونيا وأصبحت على جبهةٍ ثانيةٍ مع العثمانيين من جهة الغرب، كما احتلّت آزوف، ولكنها تعهّدت في معاهدة بلغراد عام ١١٥٢ بعدم بناء سفن في البحر الأسود، وهدم ما بنته من قلاعٍ في مدينة آزوف. وأخطأ العثمانيون بتسليم حكم الأفلاق والبغدان (رومانيا) إلى نصارى من الروم الأرثوذكس، فعملوا ضمن مخطّطٍ رهيبٍ إذ بدأوا بالإساءة إلى السكان ومحاولة إذلالهم واستعبادهم فَكَرِهَ السكان العثمانيين نتيجة ذلك وبدأوا يميلون إلى الروس.

حرّضت الدولة العثمانية خان القرم (كريم خان) عام ١١٨٢ فقام بغارةٍ على الروس فخرّب بعض القُرى، وحمل عدداً من الأسرى، وفشل العثمانيون في حروبهم مع الروس الذين احتلّوا اقليمي الأفلاق والبغدان (رومانيا) عام ١١٨٣. وبدأ الروس يُحرّضون النصارى الأرثوذكس الذين يعيشون في أراضي الدولة العثمانية للقيام بحركاتٍ ضدّ دولتهم، فقاموا بحركةٍ في جزيرة القرم.

بدأ مخطط الروس الهجومي، إذ هاجموا الميناء العثماني على البحر الأسود (طرابزون) واقتحموا القرم، ودخلوها عام ١١٨٥، وفصلوها عن الدولة العثمانية وجعلوها تحت الحماية الروسية، وعيّنوا عليها (جاهين كراي) خاناً لها من قبل الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١). وحرّضوا الثوّار على الدولة العثمانية مثل علي بك والي مصر وغيره، وكانوا يطلبون من أجل عقد معاهدةٍ للصلح: استقلال القرم، وحُرّية ملاحة الروس في البحر الأسود، وحماية روسيا للنصارى الأرثوذكس في الدولة العثمانية، فلم يحدث الاتفاق. ثم انتصر العثمانيون نصراً جانبياً. وثأر الروس بحصار الصدر الأعظم وجيشه في بلغاريا فاضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قينارجة عام ١١٨٧ اعترفت فيها بِـ:

١ - استقلال القرم، وإقليم قوبان (شمال غربي بلاد القفقاس)،

وبسارابيا (جزء من رومانيا على ساحل البحر الأسود).

٢ ـ حرية الملاحة الروسيّة في البحر الأسود.

٣ ـ حماية الروس للنصارى الأرثوذكس في الدولة العثمانية.

٤ ـ دفع غرامةٍ حربيةٍ قدرها خمسة عشر ألف كيس تُدفع على أقساط على مدّة ثلاث سنواتٍ.

وأصبح على الروس أن يشنّوا الحرب إثر الحرب على العثمانيين ليقتطعوا بعد كل حربٍ جزءاً من أراضي الدولة العثمانية، وقد بدأوا بإشعال الفتن داخل بلاد القرم فثار السكان على الخان (دولت كراي) وعزلوه ونصبوا مكانه (جاهين كراي) المُؤيَّد من قِبل روسيا، وانقسم الناس فريقين، وكادت تشتعل نار الفتنة الأهلية فأسرع الروس واحتلّوا القرم وقامت الإمبراطورة كاترين الثانية بزيارة ذلك الإقليم بعد استعداداتٍ واسعةٍ لتلك الزيارة. وكانت روسيا تُريد الحرب من جديدٍ لتحصل على أراضٍ من جديد. وعلمت الدولة العثمانية تلك الرغبة فأرادت أن تبدأ هي بالقتال قبل استعداد الروس. وطلبت من حكومة القيصرة:

١ ـ تسليم حاكم الأفلاق والبغدان الذي أعلن العصيان، وفرّ إلى روسيا.

٢ ـ التنازل عن حماية الكرج لأنّها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣ ـ عزل القناصل الذين يُثيرون السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانىء البحر الأسود.

٤ ـ أن يكون للدولة العثمانية الحقّ في تفتيش المراكب التجارية الروسية خوفاً من نقل الأسلحة.

رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠، وخاف القائد الروسي من القتال فطلب من القيصرة الأمر

بالانسحاب من بلاد القرم فرفضت وأمرته بالتقدّم، فامتثل، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية تضامناً مع الروس بدافع صليبي، وهُزِم العثمانيون. وانسحبت النمسا من الحرب وتابعت روسيا القتال، وارتكبت أبشع الجرائم لإلقاء الذعر بين السكان الآمنين، وتدخّلت الدول وتمّ الصلح، وعُقدت معاهدة «ياسي» عام ١٢٠٦ أخذت روسيا بموجبها القرم، وجزءاً من بلاد الشراكسة، وبسارابيا، ومناطق أخرى، وهكذا انتهى أمر التتار، وزالت خانية القرم، وضمّتها روسيا إليها مُبتلعةً لها ومستعمرةً، وكان الصدام بين العثمانيين والروس، وسيستمر مرحلةً طويلةً.

الفصل الثالث

استعمار بلاد القفقاس

بلاد القفقاس هي البلاد الواقعة بين بحر الخزر في الشرق والبحر الأسود في الغرب، وبين نهر (ترك) ونهر (قوبان) في الشمال، ونهري (كورا) و (ريفون) في الجنوب، وتشكل جبال القوقاز العمود الفقري وتتجه من الجنوب الشرقي عند مدينة (باكو) أو شبه جزيرة (أبشيرون) إلى الشمال الغربي عند مضيق (كرش) بين بحري الأسود وآزوف، وتمتدّ هذه الجبال على طول ١٢٠٠ كم. وتكون صعبة الاجتياز، قليلة الممرات، كثيرة الارتفاع إذ يصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٠ في قمة (البروز)، وتُغطّي الثلوج الدائمة مواقع منها مثل ثلاجة (ماروخ). وتُعرف الأجزاء التي في شمالها باسم (دشت القفجاق) أي صحراء القفقاس، أما الأجزاء التي تقع في جنوبها بينها وبين أذربيجان وأرمينيا فتُعرف باسم ما وراء القوقاز. واسم (قبج) و (قفج) و (قبجاق) و (قفجاق) و (قفقاس) و (قوقاز) تدلّ كلها على مُسمّىً واحدٍ.

تبلغ مساحة المنطقة ما يقرب من نصف مليون كيلومتر مربع، وإن كانت صحراء القفقاس الشمالية تشغل أكثر من ثلث هذه المساحة، وهي مرتبطة سياسياً الآن بالأجزاء الشمالية من المنطقة والتي لا تُعدّ من بلاد القفقاس، أمّا التقسيمات الإدارية فيها فلا تزيد مساحتها على ٣٢٤,٢٠٠ كيلو متر مربع، وتُشكّل الأجزاء الواقعة إلى شمال خط ذرا جبال القوقاز ما يقرب من ثلث

هذه المساحة (١١١,٨٠٠ كم٢) بينما تشغل الأجزاء الجنوبية ما يقرب من الثلثين (٢١٢,٤٠٠ كم٢)، الأجزاء الشمالية يدين معظم أهلها بالإسلام، أما الأجزاء الجنوبية فالأقسام الشرقية منها (أذربيجان) والأقسام الغربية (آجاريا وأبخازيا) مسلمة، أما الجهات الوسطى فأكثرية سكانها من النصارى (الكرج والأرمن). يُعدّ الإسلام في الأجزاء الشمالية منها حديث العهد إذ انتشر أيام العثمانيين باستثناء المناطق الشرقية (داغستان) التي عمّها الإسلام منذ أيام الراشدين. وأما الأجزاء الجنوبية فالمناطق الشرقية منها (أذربيجان) انتشر فيها الإسلام منذ أيام الراشدين، وكذا حالة المسلمين الذين يعيشون بين النصارى في المناطق الوسطى على حين أن الجهات الغربية تعدّ تابعةً للأجزاء الشمالية انتشر فيها الإسلام أيام العثمانيين.

إن طبيعة البلاد الجبلية قد جعلتها موطناً لكثيرٍ من الشعوب المختلفة، إذ أقام بعضها بقصد الغلبة على المنطقة وما حولها، واستقرّت فيها جماعات رغبةً في التجارة لأنها إحدى الطرق الرئيسية بين الشمال والجنوب، وممراتها مُحدّدة تضطر القوافل إلى أن تسلكها، والتجأت إليها أقوام فراراً من جيرانها وتحصّنت في مواقعها المنيعة، وكثيراً ما كانت شعوبها تمتنع عن غيرها من الدول القوية التي تقوم بالقرب منها، أما في أرضها فلم تنشأ حكومات كبيرة لطبيعة أرضها المُجزّأة وشعوبها المُفرّقة. وهذا ما أطمع فيها، فقد غزاها الآشوريون، والكلدان، والمصريون القدماء، وخضعت لبيزنطة فانتشرت النصرانية في جنوبها. وأكثر مناطقها تعرّضاً للغزو ما كان في الجنوب لأن أكثر المناطق المعمورة يومذاك كانت في الجنوب والجنوب الغربي، وفيها قامت الدول القوية والإمبراطوريات، فقد امتلكت الصين أقسامها الجنوبية، وهي نفسها كانت موضع النزاع بين الفرس والرومان.

ولما كانت مناطقها منعزلةً بعضها عن بعض بسبب الجبال المنفصلة بعضها عن بعض بالأودية لذا فقد كثرت شعوبها وتعدّدت قبائلها إذ استقلّت كل

جماعةٍ في بقعةٍ جبليةٍ، وانعزلت عن غيرها، ولهذا فقد احتفظت كل مجموعةٍ بلغتها وعاداتها وبقيت محافظةً عليها ولا تزال إلى الآن، وتعود هذه الجماعات إلى أصول مختلفةٍ وترجع اللغات إلى أرومات متباينةٍ.

أضحت الأجزاء الجنوبية والشرقية جزءاً من ديار الإسلام منذ عهد الفتوحات الأولى، إذ فتح سراقة بن عمرو أذربيجان، واتّجه نحو الشمال، وكان على مقدمة جيشه عبد الرحمن بن ربيعة الذي سار نحو باب الأبواب، أما على ميسرته فقد كان حبيب بن مسلمة فدخل بلاد الكرج وأرمينيا حوالي عام ٢٢ هـ، في أواخر أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأوائل أيام الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وإذا كانت الأجزاء الشرقية قد تمكّن فيها الإسلام ودخلته قبائل منها، مثل القوموق، وداغستان إلا أن المناطق الجنوبية قد كان انتشاره فيها بطيئاً، لتمكّن النصرانية، وطبيعة البلاد الجبلية إذ اعتصم عدد من السكان في مواقع منيعةٍ، ولأن الروم كان يُحرّضونهم باستمرارٍ ضدّ المسلمين، ويدعونهم إلى المقاومة، ويمدّونهم بكل مُتطلباتها من سلاحٍ وغذاءٍ، ومُقاتلين أحياناً، وفي الوقت نفسه يجب ألّا ننسى ما كانت تُعاني الدولة الإسلامية يومذاك من خلافاتٍ وفتنٍ أقضّت مضاجع أبنائها، وحدّت من انتشار عقيدتها، فكان سكان جنوب بلاد القفقاس (الكرج والأرمن) كلما أُسْعِرت نار الخلافات في الدولة الإسلامية خلعوا الطاعة، وأعلنوا العصيان، وأظهروا التبعية للروم، وكلّما هدأت حدّة الخلافات اتّجه المسلمون نحو الفتح، وبدت قوتهم خنع سكان جنوبي القفقاس وأبدوا الطاعة، وطلبوا العفو ـ ومع الأسف ـ كثيراً ماعاد هذا العفو على المسلمين بالضرر والوبال! تغلب عليهم الرحمة ويُصدّقون خصمهم ويعطون الأمان، ثم يتكرّر العصيان وطلب العفو وهذا كله جعل انتشار الإسلام في المناطق الجنوبية قليلاً. أما الأجزاء الشمالية فقد بقيت بعيدةً عن أيدي الفاتحين مدةً طويلةً من الزمن لتوقّف الفتوحات وضعف الدولة الإسلامية وانقسامها، ولذا بقي السكان على وثنيتهم.

حكم بنو ساج الأجزاء الجنوبية الشرقية منذ عام ٢٧٧ بعد أن انقسمت الدولة الإسلامية وذهب ريحها. ثم تقدّم البيزنطيون إليها عام ٣٢٩. وبعدها أعلن الكرج الانفصال ودخلوا مدينة «تفليس» عام ٤١٧، وهم من أتباع الديانة النصرانية، واستمر ذلك حتى جاء السلاجقة عام ٤٥٧ وفتحوا المنطقة، ودخل ألب أرسلان بلاد الكرج عام ٤٦٥.

جاء جنكيزخان قائد المغول فسيطر على المنطقة كلها، وعندما قسّم دولته، كانت بلاد القفقاس من نصيب أسرة ولده الكبير جوجي، وكانوا على الوثنية فلم يتبدّل شيء، فلما أسلم مغول الشمال دخلوا في صراعٍ مع أبناء عمومتهم مغول الدولة الإيلخانية الوثنية فلم يكن هناك مجال لانتشار الإسلام وخاصةً لأن مغول الشمال لا يزالون في بداية إسلامهم، ولا يملكون الحماسة اللازمة للدعوة كما ليس لديهم الفقه المطلوب للعمل. ثم لم يلبث أمرهم أن ضعُف، وتجزّأت دولتهم، ثم احتلّ تيمورلنك المنطقة، وإن كان ينتمي إلى الإسلام إلّا أنه لا يعرف منه سوى التبعية، وكان طاغيةً جبّاراً لا يروي ظمأه سوى رؤية الجُثث المُبعثرة في العراء أو كومات الجماجم المُلقاة أمام فسطاطه ولا يمكن لمثل هذا أن يكون فيه أيٌّ خير لدينه، بل يُعدّ مُنفّراً، ويكفي سلوكه وسلوك قادته أن يكون وسيلة كرهٍ للإسلام وأهله، وتُبعد أكثر مما تُقرّب، وتجعل الوثنيين في منأى عن الإسلام.

وعاد الضعف إلى دولة مغول الشمال، وزاد انقسامها وتفرّقها، وقام الروس يُحاربونها حتى إذا سيطروا على بلاد التتار الشرقية وجّهوا جهودهم نحو القرم فأحسّ عندها العثمانيون بخطورة الموقف فنزلوا إلى بلاد القرم وعدّوها جزءاً من دولتهم، ثم بدؤوا العمل في بلاد القفقاس، فاحتلّوا بلاد الكرج عام ٩٨٥، وبلاد شروان، ومنها انتقلوا إلى بلاد داغستان فاحتلّوها عام ٩٩١، واستمرّ توسّعهم حتى عام ١٠٤٩ حتى شمل بلاد القفقاس كلها، وإن كان هذا التوسّع بين مدٍّ وجزرٍ بين العثمانيين والصفويين، ومع نزول

العثمانيين في تلك الجهات بدأ الإسلام ينتشر بين السكان وكان لهذا أثره الواسع لصالح العثمانيين إذ وقف السكان المسلمون بجانبهم ضدّ الصفويين الشيعة وضدّ الروس النصارى. وفي الوقت نفسه فقد استفاد الروس من الصراع بين العثمانيين والصفويين فتدخّلوا بين السكان، وساعدهم على ذلك الكرج الذين كانوا على ديانتهم.

ابتدأ نفوذ الروس يدخل إلى المنطقة منذ التوجّه إلى القرم والانتهاء من بلاد التتار الشرقية، ومراسلة الشاه الصفوي طهماسب للقيصر الروسي إيڤان الرهيب ومحاولة التفاهم معه حيث شعر القيصر بأهمية بلاد القفقاس لـه، إذ بعد دخول استراخان عام ٩٦١ تقدّم الروس في صحراء شمال القفقاس (دشت القفجاق)، وأصبحوا على حدود بلاد القوموق، والشاشان، والبلكار، والأديغة.

وعندما ضُعف أمر الصفويين، وكان العثمانيون قد ضعُفوا أيضاً وكلاهما يدخل في صراعٍ مع الآخر عندها تقدّم بطرس الأكبر قيصر روسيا، واحتلّ بلاد داغستان، وسواحل بحر الخزر الغربية، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدّم العثمانيون ودخلوا أرمينيا، وبلاد الكرج، غير أن حاكم منطقة «رشت» الصفوي استنجد بالقيصر الروسي بطرس الأكبر ضدّ العثمانيين فأسرع لنجدته وتنازل الشاه الصفوي طهماسب الثاني للروس عن داغستان، وشروان بل وعن «جيلان» و «مازندران».

استقلّت بلاد «قبرطاي» عام ١١٥٢ إثر معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين، وبهذا الاستقلال عن العثمانيين بدأ الوهن يتسرّب إلى النفوس والضعف يدخل المنطقة، وبعد مدةٍ سيطر الروس على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس. ثم إن القيصر الروسي الجديد بول الذي خلف القيصرة كاترين الثانية رأى أن يخرج من بلاد الكرج إذ لا فائدة من مساعدتهم، ثم عدل عن رأيه، وهاجم المنطقة وضمّها إليه، وهذا ما أجبر القائد الداغستاني عمر خان

على مُهاجمة الروس في بلاد الكرج، ودعمه العثمانيون، كما ساعده الشاشان، ولكنه فشل في هذا الهجوم، فابتلع الروس بلاد الكرج عام ١٢١٥ وعدّوها جزءاً من أراضيهم. ولم يلبثوا أن تقدّموا في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨، وكانوا إثر كل انتصارٍ يُحقّقونه على العثمانيين أو على الفرس يضمّون جزءاً من بلاد القفقاس فهم في توسّع دائمٍ وزيادةٍ مستمرةٍ في قوتهم، والمسلمون في تأخُّرٍ وضعفٍ.

وجد مسلمو بلاد القفقاس أنفسهم وحيدين في هذا الميدان لأن العثمانيين والفرس يتراجعون باستمرارٍ، ولهذا فإنه يجب الاعتماد على النفس، ومن هذا المنطلق بدؤوا يُهيّئون أوضاعهم الداخلية حتى إذا تمّ ما أرادوا ألّفوا حكومة عام ١٢٤١ في بلاد الداغستان على رأسها العلماء، وبرز بينهم الشيخ شامل الذي أرسل العلماء إلى المناطق الأخرى لاستنهاض الهمم. وبدأ القتال عام ١٢٥٦ بين الشيخ شامل وبين الروس، بدأ الشيخ شامل خطته بالهجوم على الروس واستمرّ عشر سنوات في هجومه مستفيداً من انشغال الروس بحرب القرم، فاضطروا أن ينسحبوا من عدة مناطق، فلما انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ حشدت روسيا جيشاً لا قبل له به إذ يزيد على ثلاثمائة ألف مقاتلٍ، وبدأت الهجوم على بلاد الشراكسة واكتسحت البلاد جزءاً بعد آخر وقامت بأبشع الأعمال الوحشية لتخيف السكان فيُتركوا ديارهم، ويصل الرعب إلى المناطق الأخرى فيدبّ الذعر وتضعف المعنويات وبدأت أفواج الشركس، والشاشان، والداغستان تُغادر ديارها نتيجة الوحشية الروسية، وتتجه نحو البلاد العثمانية. فنقلتهم الدولة إلى أوربا إلى خطّ النار ليُؤدّوا دورهم لما عُرف عنهم من شجاعةٍ وتضحيةٍ، غير أن الدول الأوربية النصرانية قد أدركت دور هؤلاء القفقاسيين فألزمت الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ على نقلهم ثانيةً من جبهات القتال، فأخذتهم الدولة من ميدان المعارك ووزّعتهم على هامش الصحارى والبوادي ليردّوا غارات البدو عن المدن والحضر في بلاد الشام والعراق.

وأُسر الشيخ شامل عام ١٢٨١، وتفرّقت الجيوش القفقاسية، ودخلت روسيا المنطقة وابتلعتها وبدأت تُمارس أنواع الاضطهاد والانتقام من كل الجماعات التي نالت على أيديها من الهزائم ما نالت، لذا تكرّرت هجرات السكان إثر هذه السياسة الروسية الحاقدة.

وصل الروس بعد السيطرة على هذه المناطق إلى جهاتٍ جبليةٍ تصعب فيها العمليات العسكرية، ويصعب فيها التقدّم، وخاصةً أن سكانها من المسلمين الذين يُمكنهم أن يُدافعوا عن بلادهم بشكلٍ عنيفٍ، إضافةً إلى اقتراب الروس من قلب العالم الإسلامي، وهذا لا يُهمّهم الآن أو لا يُريدون الدخول مع أهله في حربٍ صليبيةٍ طويلة الأمد ربما تكون في غير صالحهم أو على الأقل لا يدرون نتائجها. وإنما يُريدون قبل هذا تقوية دولتهم في التوسّع، واحتلال المراكز الحسّاسة، وإيجاد المواقع التي يُمكنهم الدفاع عنها، لذا كان عليهم أن يتوجّهوا إلى ناحيتين اثنتين أولاهما نحو تركستان والشرق، والثانية العمل للسيطرة على المضائق العثمانية (البوسفور والدردنيل) ما داموا قد وصلوا إلى بقاعٍ جبليةٍ حصينةٍ يُمكنهم أن يثبتوا فيها أمام خصومهم إذا ما داهموهم (العثمانيون أو الفرس).

كان يُمكن للروس أن يتوقفوا عند ذرا جبال القوقاز فهي أقوى الموانع الطبيعية بالنسبة لهم، ويُمكنهم أن يُقيموا عليها القلاع التي تقيهم شرّ الجوار، وربما كان هذا تفكير بعض قياصرتهم وقادتهم فقد وصلوا إليها، واحتلّوا البقاع المفتوحة قبلها والتي لم تكن صالحةً لإقامة حدودٍ دفاعيةٍ فيها تذود عن الروس خطر الخصوم صحراء القفجاق، وسهول القوموق، وسهول بلاد الأنغوش، وبلاد الأديغة إذ هي على اتصالٍ مباشرٍ بسهول بلاد التتار (حوض نهر الفولغا)، والسهول الروسية، وسهول أوكرانيا، وسهول القوزاق. غير أن الذي جعلهم يتقدّمون خُطوةً أُخرى أو يُغيّرون مُخطّطاتهم، في خط الدفاع إنما وجود النصارى الكرج والأرمن فهم من

رعاياهم حسب اعتقادهم وخوفاً من أن ينتقم منهم الذين يحكمونهم سواء أكانوا عثمانيين أم فُرساً فيما إذا اضطهد الروس المسلمين الذين يعيشون تحت سيطرتهم وهذا ما هو مقرّر لديهم مُسبقاً إذ أنّ الحقد يغلي في نفوسهم بشكلٍ عنيفٍ.

وإضافةً إلى ذلك فإن الروس قد رغبوا في أن يكون الكرج والأرمن ضمن حدود دولتهم لأنهم مُقاتلون أشداء لطبيعة بلادهم الجبلية فهم يُشبهون السكان الذين يُجاورنهم، فهم من ناحيةٍ يسكنون مناطق الحدود التي يُمكن أن تتعرّض لغارات أو غزو سكان المناطق الجبلية الذين يعيشون بالقرب منهم، ومن ناحيةٍ أخرى يخشى مسلمو شمال القفقاس على هذه الحالة من القيام بحركاتٍ لأنهم بين نارين نصرانيين نار الروس من الشمال ونار الأرمن والكرج من الجنوب. وكذلك لو كان مسلمو شمال القفقاس هم سكان الحدود لأمكنهم أن يكونوا على صلةٍ قويةٍ ومتينةٍ بالمسلمين في البلدان المجاورة (الدولة العثمانية والدولة الفارسية)، وربما اتّخذت حكومات تلك البلدان من مسلمي شمال القفقاس عيوناً لها، ولهذا السبب نتوقّع أن يكون القيصر الروسي بول الأول (١٢١١ - ١٢١٥) قد غيّر خطته في دعم الكرج ومساندتهم.

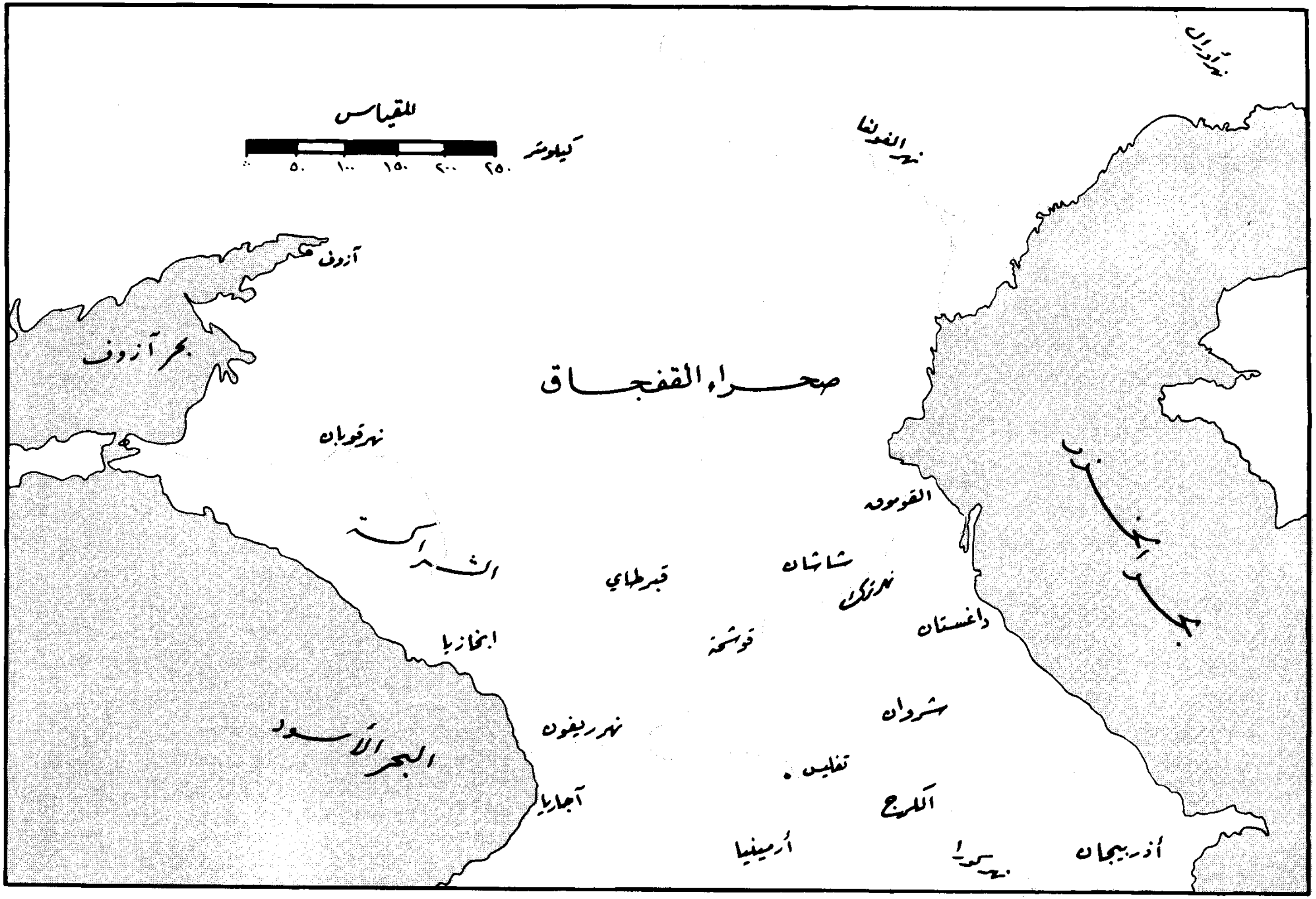
للقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
بحر آزوف
آزوف
صحراء القفجاق
نهر الفولغا
نهر قوبان
الشراكسة
قبرطاي
شاشان
نهر ترك
داغستان
ابخازيا
شروان
نهر ريغون
تفليس
الكرج
آجاريا
أرمينيا
نهر كورا
أذربيجان
البحر الأسود

الفصل الرابع
استعمار تركستان

بعد أن تمكّن الاستعمار الروسي في بلاد القفقاس بدأ يُفكّر في الجبهة التي يفتحها من جديدٍ على المسلمين إذ لم ير المتابعة من حيث وصل فليس من مصلحته كما خطّط سدنته أن يدخلوا قلب بلاد المسلمين قبل أن يُخضعوا أطرافه، ويُقوّوا أنفسهم لدرجةٍ يُمكنهم بعدها أن يخترقوا الحواجز التي بينهم وبين وسط بلاد المسلمين، ووجدوا أن منطقة تركستان هي الجبهة الجديدة التي عليهم أن يفتحوها فهي منطقة ضعفٍ بسبب الخلاف القائم بين دولها المتفرّقة، ولا يخضع لهذه الدول سوى مساحاتٍ ضيّقةٍ من الأرض، كما لا تضمّ سوى أعدادٍ قليلةٍ من السكان لا يُمكن مُقارنتها مع جموع الروس الهائلة. وربّما كان دخولهم لمنطقة تركستان خطةً يتقدّمون منها بعدئذٍ نحو الجنوب لتهشيم الجناح الشرقي من بلدان المسلمين ثم تطويق المسلمين بعدها، إذ يكون نصارى أوربا قد أحاطوا بالمسلمين من الغرب وكسروا ذلك الجناح أيضاً. وهذا لا يمنع من دخول الروس مياه المحيط الهندي من تلك الجهات ومنازلة الاستعمار الغربي هناك إن لم يخضع لمطالب الروس ومقاسمتهم المغانم في المستعمرات.

وتعني كلمة «تركستان» بلاد الترك، وهي وسط آسيا حيث تنتقل قبائل كثيرة يعود معظمها في أرومته إلى العنصر التركي، وتشمل اليوم بلاد التركمان، وخُوارزم، وبلاد ما وراء النهر، وسهوب قبائل القازاق الممتدة إلى

الشمال من المناطق السابقة. وإذا كانت منطقة تركستان اليوم جُزأين يُسيطر الروس على الجزء الغربي منها على حين يخضع الجزء الشرقي منها للسيطرة الصينية، وإن بحثنا في هذا الكتاب يقتصر على الجزء الأول الذي يقع ضمن البلاد التي تشملها الإمبراطورية الروسية، إذ هو الموضوع الأساسي له.

وصل المسلمون إلى المنطقة في أيام الفتوحات الأولى، ودخل الأحنف بن قيس مدينة مرو، وفي أيام الفتوحات الثانية تمكّن قتيبة بن مسلم الباهلي من عبور نهر جيحون، ودخول مدينة بخارى، وبقية المدن، واستقرّ الإسلام في تلك الجهات بعد أن شقّ أهلها عصا الطاعة عدة مراتٍ، عاش بعدها السكان آمنين في ظلّ دولة الإسلام، وإذا كانت المنطقة قد أنجبت عدداً من القادة لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية فإنها كذلك قد أخرجت عدداً من العلماء كان لهم دور كبير في العلم، وخلّدهم المجد على مدى التاريخ، وربّما لا يذكر المسلم المنطقة إلّا ويتداعى إلى ذهنه البخاري المتوفّى (٢٥٦)، والترمذي المتوفّى سنة (٢٧٩)، والنسائي المتوفّى سنة (٣٠٣)، والطبري المتوفّى سنة (٣١٠) والنسفي المتوفّى سنة (٧١٠)، والخُوارزمي المتوفّى سنة (٢٣٢).

كانت القبائل التركية القاطنة في شرق المنطقة لا تزال على الوثنية، وما أن تدخل المنطقة في تحرّكها وراء الماء والكلأ حتى تعتنق الإسلام، وقد لعب بعضها دوراً كبيراً في الحياة السياسية كالسلاجقة الذين كان لهم الدور الأول في الدولة من ٤٤٧ حتى ٦٥٦، وكانت حروبهم الواسعة ضد أعداء الإسلام من الروم والصليبيين.

وضعفت الدولة العباسية، وقامت الإمارات والدول المنفصلة في شرقي بلاد الخلافة، ومنها هذه المنطقة، وكان آخر هذه الدول «الخُوارزمية» التي قضى عليها جنكيزخان عام ٦٢٢ هـ. وحكم المغول بعدها المنطقة، وكانت من نصيب أسرة جغطاي. ووقع الخلاف بين أبناء المغول، واعتنق الإسلام

خان أسرة جغطاي « طرماشيرين » (٧٢٢ ـ ٧٣٥) وأسلم معه أكثر أفراد أسرته، وانقسمت المنطقة إلى عددٍ من الإمارات الصغيرة في النصف الثاني من القرن الثامن، وهذا ما مهّد لقيام تيمورلنك الذي سيطر على المنطقة، والذي قام بحروبه المشهورة في غربي آسيا وشرقي أوربا، وفي الصين، واستمرّت قبضته على المنطقة حتى توفي عام ٨٠٨، ولكن ما أن وافته المنية قد تجزّأت دولته بين أحفاده.

وجاء الشيبانيون من سيبيريا ويعودون في أصلهم إلى مغول الشمال (شوبان بن جوجي بن جنكيزخان) وهم الذين يعرفون بالأوزبك وحكموا بلاد ما وراء النهر من ٩٠٦ حتى عام ١٠٠٧، وتبعهم (الجانيون)، وهم أنسباء الشيبانيين، ويعودون في أصولهم إلى خانات استراخان قبل أن يحتلّها الروس، واستمرّوا حتى عام ١٢٠٠.

وقامت على أنقاض دولة الجانيين عدة خانيات منها:

١ً ـ **خانية بُخارى** التي تعرّضت للهجوم الروسي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩ حيث اقتطعوا أجزاء منها، واستمرّت حتى عام ١٣٢٨ حيث تولّى أمرها سيدمير عليم، وقد أعلن استقلال خانيته عن حماية الروس عندما قامت الثورة الشيوعية، ولكن لم تلبث أن داهمته جيوش الشيوعيين عام ١٣٣٨ ففرّ من البلاد، وخضعت بلاده للاستعمار الشيوعي.

٢ً ـ **خانية خُوارزم:** كانت تتبع مغول الشمال ثم استقلّ فيها الشيبانيون أو الأوزبك عام ٩٢١، وأسّسوا خانيةً مستقلةً، واصطدموا مع خانات بُخارى، واستمرّ حكمهم حتى عام ١٢١٩، ثم تسلّم وزراؤهم منهم الحكم حتى عام ١٢٨٩ حيث ألحقت بالإمبراطورية الروسية، ودخل محمد سيد محمد رحيم في طاعة الروس عام ١٢٩٠، ومع هذا فقد كان الحُكّام يعدّون أنفسهم مُستقلّين، وانسحب الروس عندما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، ولكن

رجعوا إليها وأخضعوها لاستعمارهم في رمضان عام ١٣٣٧ ، وسقط حكم آخرخان. وأقام الروس فيها حكومةً عُرفت باسم « جمهورية خراسان السوڤيتية ».

٣ ـ خانية خوقند أو فرغانة: تشكّلت عام ١١١٢ ، واستولى عالم خان على طاشقند عام ١٢١٥ ، وتسمّى باسم « خان » لأول مرة، ووقعت الحروب بينها وبين خانية بخارى، واستمرّت حتى عام ١٢٩٣ عندما جاءها الاستعمار الروسي، وكان آخر خاناتها ناصر الدين خان.

كما قامت بعض الإمارات المستقلة في طاشقند وبعض المدن الأخرى.

بعد أن سيطر الروس على منطقة سيبيريا الغربية نهائياً عام ١٠٧٨ بدؤوا بالتوسع شرقاً، وعدّوا الأقسام الشرقية كلها تابعةً لها، وأطلقوا عليها اسم « سيبيريا » نسبةً إلى عاصمة التتار في تلك المنطقة « سيبير »، ولما كانت المنطقة قليلة السكان تتنقل في أجزائها الشمالية قبائل بدائية تعود إلى أصول مغوليةٍ أيضاً، أو على الأقل إلى العرق الأصفر، وتلك الجهات باردة جداً تُعدّ جزءاً من البقاع الصحراوية الباردة الأمر الذي يجعل قاطنيها لا يتزايدون بكثرة نتيجة الظروف الطبيعية القاسية. أما الأقسام الجنوبية فإن الغابة الصنوبرية أو المخروطية تغطيها بشكلٍ عامٍ وأحياناً الغابة المختلطة وخاصةً في الجهات الشرقية، وهذه البقاع تكاد تخلو من السكان لهذا كان تقدّم الروس فيها سريعاً ولم يحتاجوا إلى أيّة مشقةٍ بل لم يصطدموا بأيّة قوةٍ تُعرقل سيرهم، وبذا أصبحت سيبيريا كلها تابعةً للاستعمار الروسي، وتزيد مساحتها على ١٣ مليون كليو متر مربع أيّ أكبر من مساحة أوربا كلها وتُعادل مرةً وثلث المرة من مساحتها، ووصلت الإمبراطورية الروسية من ناحية الشرق إلى المحيط الهادي، وحدود الصين.

بعد أن سيطر الروس على منطقة سيبيريا الغربية نهائياً عام ١٠٧٨ أصبحت تركستان تحدّهم من جهة الجنوب حيث تمتدّ سهوب القازاق

الواسعة والتي تُعدّ قليلة السكان الأمر الذي أغراهم بهـا، وما أن انتهوا من بلاد القفقاس حتى توجّهوا إلى تركستان فسيطروا على سواحل بحر الخزر الشمالية الشرقية عام ١٢٤٩، وتقدّموا نحو نهر سيحون، واحتلّوا طاشقند، وسمرقند ووصلوا حتى نهر جيحون (أي فصلوا بين الأراضي التابعة لخانية خوقند والأراضي التابعة لخانية بُخارى) وتوقّفوا عند نهر جيحون ولا يزال الحدّ الفاصل بين الإمبراطورية الروسية وبلاد أفغانستان وذلك في المدة (١٢٧٠ - ١٢٨٦)، ثم توسّعوا نحو الجنوب على سواحل بحر الخزر الشرقية ليحيطوا بخانية خوارزم من جهة الغرب.

لم يبـق أمـام الاستعمار الروسي إلّا هـذه الخانيـات الثلاث خـوقنـد، وبُخارى، وخُوارزم إضافةً إلى بلاد الطاجيك، وبلاد التركمان. لقد بدؤوا بخانية خوقند التي أصبحت منعزلةً عن الخانيتين الأخريين ففرضوا سيطرتهم عليها عام ١٢٩٣.

اتّجه الروس بعد خوقند إلى خانية بُخارى ففرضوا سيطرتهم عليها عام ١٣٠٢ وتابعوا سيرهم إلى بلاد التركمان فدخلوها بعد مقاومةٍ عنيفةٍ في العام نفسه وبعد أن صمد التركمان في وجه الاستعمار ودافعوا عن عاصمتهم «مرو» دفاعاً مجيداً، ووصل الروس إلى سواحل بحر الخزر الشرقية عام ١٣٠٤، وأصبحوا على تماسٍ مباشرٍ مع إيران.

انعزلت خانية خُوارزم وبقيت وسط البلاد الخاضعة أو المحمية للروس فدخلوها عام ١٣٠٦، وتوجّهوا بعدها إلى بلاد الطاجيك فأخضعوها عام ١٣١١، وهي أساساً لا يُمكنها أن تُقاوم لضعف إمكاناتها، وقلة أبنائها، وعدم إمكانية دعمها إذ بقيت منطقةً منعزلةً، هذا رغم طبيعتها الجبلية المساعدة للمقاومة.

لم يقنع الروس بما حصلوا عليه، بل لا يمكن أن يقنعوا فإن حقدهم الصليبي ورغبتهم في التشفّي من المسلمين يجعلهم يطلبون المزيد، وأرادوا

التوجّه نحو الجنوب ومُتابعة ضمّ الأراضي حبًّا في الاستعمار، ورغبةً في الوصول إلى مياه المحيط الهندي الحرّة (الدافئة)، وطلباً لزيادة القوة، وهدفًا في زيادة إذلال المسلمين، وإجباراً للدولة الأوربية الغربية لمقاسمة الروس نصيبهم في المستعمرات غير أن الاستعمار الإنكليزي كان هو الآخر يتوسّع من جهة الجنوب من الهند نحو الشمال فاصطدم الاستعماران (الروسي والإنكليزي) فتارةً كانا يتّفقان على تقاسم مغانم الاستعمار وتارةً كانا يختلفان، وهذا ما أوقف كل منهما في الحدود التي وصل إليها، وهو في الوقت نفسه الذي حفظ لأفغانستان وإيران استقلالهما. وقد كان كلا الطرفين (الروس والانكليز) لا يتركان فرصة لزحزحة حدودهما ومحاولة بسط نفوذهما، حتى مرّت مرحلة كان الاتفاق بينهما على أن يكون نفوذ روسيا في شمالي إيران ونفوذ انكلترا في الجزء الجنوبي.

قامت قبائل الاوزبك بحركةٍ ضدّ الروس عام ١٣٢٢ عُرفت بحركة الجهاد، ولكنها فشلت، ولما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦ قام الأوزبك أيضاً بحركةٍ واسعةٍ ضدّ الاستعمار الروسي، وأعلنوا استقلال بلادهم، وشكّلوا حكومة تركستان التي كان مقرّها مدينة خوقند، فلما قوي أمر الشيوعيين داهموا حكومة تركستان بوحشيةٍ كبيرةٍ ذُعر منها كل إنسانٍ حتى ظنّ المراقبون جميعاً أنه لا يمكن أن تقوم بعدها حركة، ومع كل هذا فإن الظلم قد أدّى لقيام حركاتٍ أُخرى كانت دون سابقتها. وهكذا رزحت تركستان تحت الاستعمار الروسي.

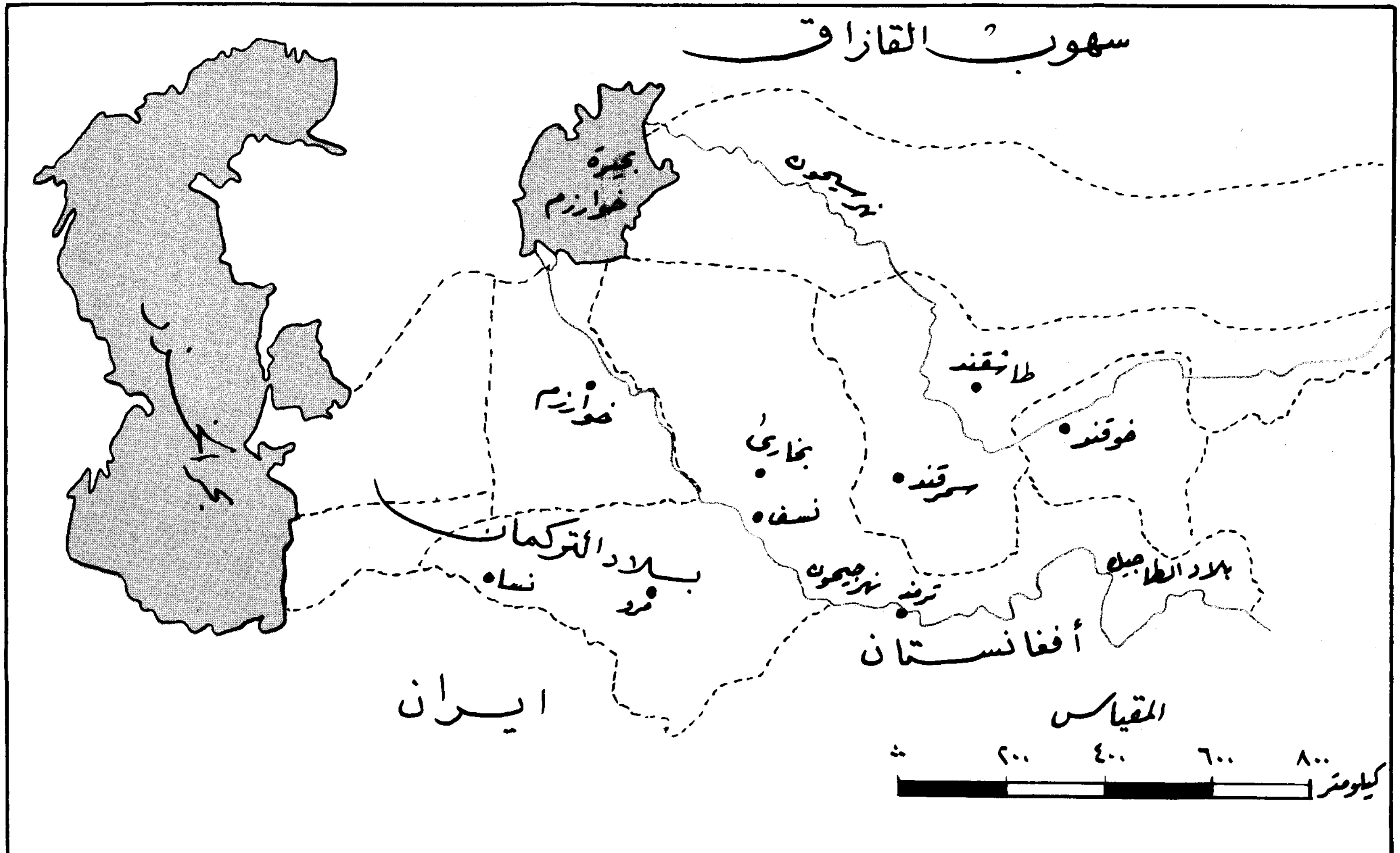
سهوب القازاق
بحيرة خوارزم
نهر سيحون
طاشقند
خوقند
خوارزم
بخارى
سمرقند
نسف
نهر جيحون
ترمذ
بلاد الطاجيك
بلاد التركمان
نساء
مرو
أفغانستان
ايران
بحر الخزر
المقياس
كيلومتر
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠

الفصل الخامس

المياهُ الدافِئَة (الحُرّة)

تفجّر الحقد الصليبي الروسي بقوةٍ عندما فتح العثمانيون القسطنطينية عام ٨٥٧، وجعلوها قاعدة دولتهم، وأطلقوا عليها اسم «استانبول» فعدّ الروس أنفسهم خلفاء البيزنطيين، ونقلوا إلى عاصمتهم «موسكو» مركز الكنيسة الأرثوذكسية، وأخذوا على عاتقهم استعادة القسطنطينية وطرد العثمانيين منها، وإرجاعها حاضرة المذهب الأرثوذكسي، ومنطلق قتال المسلمين في كل بقعةٍ، واسترجاع بلاد الشام ومصر وكل ميدانٍ أخذوه من الروم.

ونشأت إمارة موسكو عام ٨٨٥، واستقطبت الروس المفرّقين، فقاموا يُقاتلون حُكّامهم التتار بدافعٍ صليبيٍ ما دام التتار مُسلمين، والذين احتلّوا القسطنطينية مسلمون ويزيد الأمر ارتباطاً أن العثمانيين والتتار يرجعون إلى أرومةٍ واحدةٍ. ولكن العثمانيين على بُعدٍ منهم، فلا يُمكن أن يصلوا إليهم، وعلى درجةٍ من القوّة فلا يُمكن أن ينالوا منهم لذا فإن حقدهم قد أفرغوه على التتار، فأثاروا العاطفة النصرانية لدى الروس وأذكوا الروح الصليبية ضدّ المسلمين التتار، والذين يُمكنهم الآن أن يدخلوا معهم في صراعٍ، هذا ما أُثير داخلياً وسط المجتمعات الروسية أما الذي أُعلن فهو الرغبة في التوسّع شرقاً لإيجاد المجال الحيوي للروس الذين يزدحمون في مناطق صغيرةٍ نسبياً وتضيق بهم على حين أن البلاد الشرقية «بلاد التتار» مناطق مخلخلة السكان قليلة الكثافة، ولم يُخفوا التصريح أن المنطقة كلّها روسية وإنما جاء التتار

مُحتلّين فدخلوا البلاد وأعمروها، بل وحكموا الشعب الروسي، وهم عنه غرباء، وأن على الروس أن يتحرّروا من نير الحكم التتاري أولًا، ثم يطردون عدوّهم من البلاد التي احتلّها أو أن تعود ملكيتها على الأقل إلى أصحابها الأصليين، وهم الروس ـ على حدّزعمهم ـ وبهذا اتّفقت الجوانب الدينية والوطنية والسياسية حسب المفهوم الروسي، وقد بذل الروس إمكاناتهم كلّها في سبيل تحقيق ما خطّطوا له، وقد تمّ لهم ما أرادوا، وساعدهم على ذلك ضعف دولة التتار وانقسامها إلى عدة خانياتٍ، فاحتلّ الروس المنطقة وأتبعوها ببلاد القرم، وبلاد القفقاس، ووصلت دولتهم إلى مياه المحيط الهادي في الشرق، واشتدّ ساعدهم، وكثُرت إمكاناتهم، واتّسعت دولتهم.

التفت الروس بكل ثقلهم إلى العثمانيين، وكانوا من قبل يحرصون ألا يصطدموا معهم وإنما يُحاربون أنصارهم القرم أو القوازق أو الشراكسة وسائر سكان بلاد القفقاس وذلك لأن الروس كانوا يخشون قوة العثمانيين، وفي الوقت نفسه فإن العثمانيين لم يكونوا ليُبالوا بالروس ـ مع الأسف ـ فتركوهم حتى قوي أمرهم فلما أصبحوا أصحاب شدّةٍ لم يعُد باستطاعتهم أن يُقاتلوهم فاختلّ ميزان القوى وأصبح في مصلحة الروس إذ ضعُف شأن العثمانيين لضعف خُلفائهم، وقيام الحركات الداخلية في وجههم، وتكالب الدول النصرانية الأوربية عليهم، وتحريضهم النصارى من رعايا الدولة العثمانية، ووجود الامتيازات الكثيرة التي حصل عليها الأوربيون في أراضي الدولة العثمانية حتى أصبحوا بإمكانهم التدخُّل في شؤون الدولة الداخلية هذا في الوقت الذي أصبحت الدولة الروسية على درجةٍ من القوّة يصعبُ التغلُّب عليها، إذن إن الذي شجّع الروس على منازلة الدولة العثمانية إنما هو ضعفها واختلاف كلمة أبنائها قبل أن تكون قوة الروس الذاتية.

لم يُعلن الروس أنهم يُريدون احتلال استانبول وإعادة اسمها القسطنطينية، وارجاعها قاعدة المذهب الأرثوذكسي، ومنطلق قتال المسلمين، وإنما أخفوا

ذلك، كما أخفى المستعمرون الآخرون حقيقة صليبيتهم، وكتموا واقع حقدهم الدفين، وأظهروا أنهم يُريدون إعمار الأرض، واستثمار خيراتها، والأخذ بأيدي أبنائها، ونشر الحضارة التي هي حضارة عالمية لمصلحة البشر جميعاً، وكذلك أعلن الروس أنهم يُريدون الوصول إلى الدافئة الحرّة، فإن بلادهم محصورة في الداخل لا يستطيع شعبهم التحرّك والمتاجرة، ولا تتمكّن حكومتهم من المساهمة في نشر الحضارة فإن البحار التي تُشرف عليها إنما هي مُتجمّدة لا تصلح للملاحة أكثر أيام العام، فالمحيط المتجمد الشمالي لا يتحرّر من الجليد إلا أياماً قليلة، وخليج (بوثني) الذي هو الجزء الشمالي من بحر البلطيق لا يقلّ تجمّده عن ثمانية أشهر، وهو بالأصل لا تُشرف عليه، ولا يُعدّ من بحارها، أما خليج فنلندة الذي تُشرف عليه، وهو فرع من بحر البلطيق أيضاً، فإنه يتجمّد ما لا يقلّ عن نصف العام، وفي الوقت نفسه فإن مفاتيح بحر البلطيق ليس بيدها وإنما هي بيد الدول الاسكندنيافية (السويد، والنرويج، والدانمارك)، وإذا ذهبنا شرقاً فإن بحر بهرنغ، وبحر أو خليج أُخوتسك يتجمّدان أكثر من نصف العام أيضاً، أما بحر اليابان الذي يكون حرًّا من الجليد فإن لها ميناءً عليه هو ميناء (فلاديفستوك) غير أنه لا يُستفاد منه إلّا قليلاً وذلك لأن البحر لا تملك مفاتحه أيضاً، والناحية الثانية وهي الأكثر أهمية أن المناطق الشرقية قليلة السكان، غير منتجةٍ فليس هناك ما يُجلب إليها ولا ما يُصدّر منها، والميناء بعيد كل البعد عن المناطق ذات الإمكانات الضخمة، وذات الأعداد الكبيرة من السكان، وإن هذه المسافة لتزيد على ستة آلاف كيلومتر. والبحر الوحيد الحرّ والقريب من مناطق الإنتاج، والكثافة السكانية، هو البحر الأسود، فالموانىء يجب أن تقوم عليه، والصادرات يجب أن تنطلق منه، والواردات يجب ان تتّجه إليه، ولا تقلّ الجوانب العسكرية فيه عن الجوانب التجارية ومع كل هذا فإن مفاتحه بيد الدولة العثمانية ولا يمكن أن تكون منه أيّة فائدةٍ عسكريةٍ أو اقتصاديةٍ إن لم تسمح بذلك الدولة العثمانية، وهي العدو الأول للروس، وهي الدولة التي

تُسيطر على المضائق (البوسفور والدردنيل) وتملك حركة هذا البحر، وبـذا يُعدّ بحراً مغلقاً لا فائدة منه، والميناء الذي يُشرف على المضيق الرئيسي وهو (البوسفور) هي ميناء استانبول (القسطنطينية)، وهو ما تُريد أن تملكه روسيا، وإذا سيطرت عليه فـإنما تكـون قـد حقّقـت أهـدافهـا الصليبيـة والعسكرية والتجارية ووصلت إلى المياه الدافئة (الحرة)، ولذا فإن كلمة المياه الدافئة إنما تعني استانبول أو (البوسفور والدردنيل) ومعنى الوصول إلى المياه الدافئة السيطرة على استانبول، لذا كانت دعوة روسيا العلنية إنما هو الوصول إلى المياه الدافئة دون أن تُفسّر ما تعني هذه العبارة، وإذا كان هذا الاصطلاح معروفاً لدى الساسة إلا أنه يبقى مُضمراً لدى الآخرين.

كان ساسة الدول الأوربية الغربية يعرفون ما تعني كلمة الوصول إلى المياه الدافئة، ويخشون أطماع روسيا ويعرفون أنها إذا سيطرت على استانبول، ووضعت المضائق تحت قبضتهـا، فـإنها ستتفـوق عليهـم، وستُنـافسهـم في المستعمرات، وربُّما حلّت محلّهم، ورجعوا إلى حجمهم الطبيعي، بل ربُّما أصبحوا تحت رحمتها أو على الأقل لا يريدون مُنافساً لهم قوياً فهم في غنى عن الصراعات، وما هم فيه من الاختلاف فيما بينهم يزيد عنهم. لذا لم يكونوا ليُوافقوا أبداً على سيطرتها على استانبول وتسلّم المضائق العثمانية خوفاً منها، لا حُبًّا في العثمانيين، ولا حرصاً على المسلمين، ولو لم يكن الخوف قائماً من الروس، لا نتهى العهد العثماني قبل عدة قرون ـ والله أعلم ـ ولتقاسم الصليبيون أجزاء الدولة، وفرضوا سيطرتهم على المسلمين وأذلّوهم، وهذه أهداف الدول النصرانية كلهـا. فـالخلاف بين الدول النصرانيـة الأوربيـة، والحرص على مصالحها، والطمع في مزيدٍ من المستعمرات هو الذي أطال أمد العثمانيين. لذا كانت روسيا أحياناً تُلوّح لشعوب الدول الأوربية الغربية بالجانب النصراني، فتضطر الحكومات مسايرة شعوبها، والاتفاق مع الروس لمرحلةٍ وجيزةٍ تُحقق فيه بعض المصالح، وتُحرز فيه بعض الانتصارات لكن ضمن حدودٍ لا تسمح فيها للروس بتجاوز بعض الأطراف أو لدرجةٍ تجعلها

تفرض سيطرتها على المضائق وتنزل إلى المياه الدافئة.

إنّ السياسة الروسية لا تزال كما هي من عدة قرونٍ أو منذ نشأتها تُخطّط للسيطرة على استانبول، وإعادة مدينة القسطنطينية، ونقل مقرّ المذهب الأرثوذكسي إليها من موسكو، وجعلها منطلق قتال المسلمين كما كانت أيام البيزنطيين، وجعل المضائق (البوسفور والدردنيل) في قبضتها، وتحصينها في وجه دول أوربا الغربية، والنزول إلى المياه الدافئة، وفرض نفوذها، وفكرها، وهيمنتها على العالم عن هذه الطريق. وسيبقى هذا محور السياسة الروسية ما دامت توجد دولة روسية سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية أم أي نظام آخر، فالعقلية الروسية هكذا، ونشأ الروس على هذا، وتربّوا عليه، حتى طُبعوا عليه، وغدا من جبلتهم، وجُزءاً من تفكيرهم وحياتهم. وإن الصراع بين المعسكرين اليوم هو الذي يُبقي لتركيا كيانها وفي الوقت الذي يُمكن لروسيا أن تتفوّق على خصومها ستُنفّذ سياستها مباشرةً. والواقع أن الأمم تكون لها أهدافها ووسائلها وغاياتها ولن تتغيّر هذه أبداً ما دامت الأمة قائمة. وتنبع هذه الأهداف من عقيدة الأمّة. وليست الأمّة المسلمة في منأى عن هذا بل لها مُهمّتها في الحياة لا تتخلّى عنها أبداً وهي الدعوة إلى الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، والقضاء على الشرك والظلم، وعبادة العبيد، وتمكين منهج الله في الأرض. وإذا كُنّا نرى تغيير السياسات في بعض الأمكنة بتغيّر الرجال أو الأنظمة فهذا أمر شاذ لا يُمثّل المُهمّة المُلقاة على عاتق الأمّة، أو في أجزاء من الأرض لا تُمثّل الأمّة وحقيقة أهدافها، وإنما هي أهداف أنظمة ورجال وأوضاع تنطلق من مصالح ذاتيةٍ وأهواء نفسيةٍ تتعلّق بحبّ السيطرة أو الشهرة وإرواء رغبات النفس في الزعامة وقد تصل أحياناً إلى الشهوات وغرائز النفس.

الباب الثالث

المُسْلمُون تحتَ نير الاسْتعمَار الرّوسي

الفصل الأول

تباين أوضاع المُسْلمين

أُخضع قسم من المسلمين لنير الاستعمار الروسي خلال مرحلةٍ طويلةٍ تزيد على ثلاثة قرونٍ ونصف القرن (٩٥٩-١٣٣٨)، وقد ذاقوا من ويلات هذا الاستعمار ما لم يحدث في التاريخ إلّا في أوقاتٍ قصيرةٍ جداً وقليلةٍ جداً، حيث طُبِّقتْ عليهم أعمال الوحشية كلِّها، وأنواع الظلم والطغيان والبغي جميعها، وأُهينت كرامتهم، وهُدِّمت مساجدهم ودور علمهم، ومُنعوا من تأدية عبادتهم، وحُرموا من حريتهم الدينية، وشُرِّدَ قسم منهم من بلادهم، ونُفي آخرون، ولا يزال جزء منهم في منفاهم إلى الآن، كما لا يزالون جميعاً يخضعون لضغطٍ ثقيلٍ يسحقهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى أقلّ مستوى من الحياة الكريمة وأول فكرة الحرية.

ويتباين هؤلاء المسلمون في عقيدتهم إذ أن أكثرهم ينتمي إلى الإسلام، وبعضهم يدَّعيه وليس منه، وبعضهم يُحسب عليه وهو منه براء، كما أن الذين ينتمون إلى الإسلام يختلفون في فهمه له، وتطبيق أوامره واجتناب نواهيه، ولما كان الحقد الصليبي هو المحرِّك الأول للروس لذا فإنَّ إفراغ الحقد إنما ينصبُّ على المسلمين، وعلى قدر تمسُّكهم بعقيدتهم ينالهم الأذى الذي كثيرًاما يصل إلى مرحلة التصفية الجسدية بصورةٍ من الصور.

ويختلف المسلمون في أصولهم وإن كان أكثر الذين يعيشون في جحيم الحكم الروسي إنما يعودون إلى أصولٍ تركيةٍ وتتاريةٍ وهم أساساً يرجعون إلى أرومةٍ

واحدةٍ، وينصبّ عليهم لظى من الحقد الروسي لا نظير له. فالترك العثمانيون قد فتحوا القسطنطينية، وحوّلوها من مدينةٍ نصرانيةٍ أرثوذكسيةٍ إلى مدينةٍ إسلاميةٍ (استانبول)، وكانت بعد ذلك موسكو وريثة القسطنطينية ومُكلَّفةً بالانتقام لها والأخذ بثأرها ـ على رأيهم ـ وكان التتار يحكمون الروس، ووقف الروس على أقدامهم، وكان حقدهم منبعثاً من الأعماق ومريراً، وما أشدَّ ظلمُ الذليل إذا عزَّ، وأشدُّ من ذلك وطأةً على العزيز إذ ذلّ يوماً وتحكّم فيه الذليل.

ويفترق المسلمون الذين يكتوون بنار الحكم الروسي حسب طبيعة الأرض التي يسكنون عليها، فهناك سكان السهول، وهناك أهل الجبال. وقد انتقلت أفواج من الروس نحو سهول البلدان الإسلامية التي استعمروها واستولوا عليها، واغتصبوها من أهلها، واستثمروها لمصلحتهم واستقرُّوا فيها، حتى غدا المسلمون قلّةً وقد كاثرهم الروس، فنشأ كره شديد نتيجة ذلك من المسلمين على الروس، وقابل الروس المسلمين بكرهٍ مماثلٍ أدّى إلى الرغبة في قتلهم والتنكيل بهم وتحريض السلطة عليهم باستمرار للضغط عليهم، وادعاء ما لم يكن، والقول بما لم يحدث. أمّا سكان الجبال فلم يخضعوا لمكاثرة الروس لهم إذ ليس في أماكنهم ما يُشجّع أهل الريف الروسي للتحرُّك نحوها، فبقي سكان الجبال في معزلٍ عن جموع الروس المستعمرة فلم يحسُّوا بوطأة الاستعمار كما أحسّ سكان السهول. وبقي أهل الجبال يشعرون بشيء من العزّة والأنفة، وأنهم أصحاب الحل والعقد في بلادهم، فالروس ليسوا إلّا في قلاعهم، وحصونهم، ونقاط أمنهم، وثكناتهم يُشرفون إشرافًا عاماً. ولذا كان الكره الروسي لسكان الجبال كبيراً والحقد عليهم عنيفاً لما بقي عندهم من عزَّةٍ وقوةٍ. ويجب ألّا ننسى أن سكان السهول ألينُ عريكةً وأقلُّ شجاعةً، وبلادُهم سهلة الاجتياز يسهُلُ اقتحامها ويصعُبُ الدفاعُ عنها لذلك كانت مقاومتهم أقلّ. أما سكان الجبال فأعنف طبعاً وأكثر شجاعةً، وأكثر صبراً على منازلة الأعداء، ومناطقهم وعرة، صعبة الاقتحام يسهُلُ الدفاعُ عنها والتحصُّنُ فيها

لذلك كانت مُقاومتهم عنيفةً، وإخضاعهم شاقاً، وقد لقي الروس على أيديهم الهزائم، واندحروا أمامهم في عددٍ من الوقائع ولهذا أيضاً كان الحقد عليهم شديداً. وفي نقطة الافتراق بين سكان الجبال وسكان السهول جانبان: جانب اختلاف الأرض، وجانب اختلاف الطباع.

ويتمايز المسلمون حسب نمط حياتهم الاجتماعية فهناك أهل المدن حيث يكثر السكان، وينتشر العلم، ويزداد الوعي فيعرف الناس ما يحيط بهم، وما ينالهم من الاستعمار، لذا فهم أكثر مقاومةً، وأكثر تحرُّكاً ضدّ الأعداء، ومن هذا كان نصيبهم من بلاد الاستعمار يفوق نصيب إخوانهم أهل الريف، وقبائل البادية، غير أن الريف قد اشتدَّ غيظ الروس عليهم لأخذ أراضيهم، كما سبق أن بينّا، أما البداة فهم لبعدهم عن الحياة العامة وحركة المجتمع لم يصبهم في بداية الأمر إلا القليل من الضغط بل على العكس فقد حاول الروس تثقيف بعضهم والإفادة منهم بالوقوف في وجه التتار والترك، وسكان المدن وأهل الريف، وأبناء الجبال ومن يحلّ في السهول.

ويفترق المسلمون الذين يعيشون تحت السيطرة الروسية في العذاب الذي صُبَّ عليهم من قبل المُتسلّطين عليهم حسب المراحل التي تمَّ استعمارهم فيها، ففي الأيام الأولى للاستعمار الروسي كان الحقد على المسلمين على أشدّه والكره لهم في عنفوانه والرغبة في الانتقام منهم في أوجها لذى فقد صبَّ الروس جام غضبهم كله على أول المدن التي دخلوها وهي مدينة قازان، وتلاها في ذلك بقية مدن التتار في حوض نهر الفولغا ثم بلاد القرم فشمالي القفقاس، وإن كان يجب أن نلاحظ أحداث الظلم والبغي والاضطهاد التي تقع إثر الحركات والانتفاضات ضدّ الروس إذ تتجاوز في وحشيتها كل ما سواها لذا يجب أن نضعها خارج الإطار العام الذي نتحدّث عنه. ولعلّ أكثر المراحل ظلماً للمسلمين في التاريخ الروسي الحكام الأوائل من أمراء موسكو أو قياصرة روسيا، ثم خفّ الظلم قليلًا في عهد القياصرة الثلاثة الأول من

أسرة رومانوف، ثم اشتدّ أيام بطرس الأكبر ومن تلاه من القياصرة حتى عهد كاترين الثانية، وأخيراً وصل السيل إلى أعلى مستوى له في العهد الشيوعي عامّة وفي مبتداه خاصّةً.

ويختلف الظلم الذي وقع على المسلمين من المستعمرين الروس حسب قرب المناطق الإسلامية من بلاد الروس وبُعدها عنها، أو يمكن أن تلحق هذه النقطة بالتي سبقتها فالمناطق القريبة هي التي كان استعمارها قبل غيرها، فقد ابتدأ الاستعمار ببلاد التتار فالقرم فبلاد القفقاس فتركستان.

وهكذا فالظلم لم يستثن أحداً من المسلمين بل لحق الجميع إما لعقيدةٍ، أو لجنسيةٍ، أو لسكنٍ، أو لشجاعةٍ، أو للحياة في الجبل، أو لامتلاك السهل، أو للقرب، أو لتفريغ الحقد في البدء. وربما إذا أردنا البحث والتفتيش نجد أن بعض الذين تجاوز عنهم الظلم وهم المنحلّون الذين لا يهتمّون بعقيدة ولا بسواها، أو الذين يتزلّفون سعياً وراء مصالحهم، أو البداة في أول عهد الاستعمار، وهؤلاء قلّة بالنسبة إلى السكان عامة.

وربما كان من المفيد أن نرى توزيع المسلمين حسب النقاط التي اختلف وقوع الظلم والبغي على المسلمين بموجبها وهي:

١ ـ **السكان:** لا يمكن الركونُ إلى الإحصاءات الروسية فيما يتعلّق بالمسلمين أبداً وذلك لأن الروس عملوا منذ سيطرتهم على بلاد المسلمين على الإقلال من عددهم لإضعاف شأنهم، وقد كانت إحصاءاتهم الرسمية تذكر أن تزايد نسبة المسلمين أكبر من غيرهم بكثير بسبب زيادة عدد الولادات، وفي الوقت نفسه هي ذاتها تُعطي أرقاماً متناقصةً لأعدادهم خلال سنوات من الزمن مُتتالية، فهذا التناقص يُؤكِّد ويُبيِّن بوضوحٍ أهداف الروس وتلاعبهم بالإحصاءات التي تتعلّق بالمسلمين.

وإن عدداً من المسلمين يرفض أن يُسجّل نفسه ضمن أعدادهم خوفاً من

السيف المصلّت فوق رقابهم فخشيةً من أن يناله شيءٌ يُسجّل نفسه بين أعـداد مجموعاتٍ أُخرى، وأكثر ما يكون ضمن مجموعات الوثنيين، هذا عند التتار في المناطق الشمالية حيث يجاورهم وثنيون.

وكذلك فإن أعداداً أُخرى تُريد أن تُبعد عن نفسها الرقابة كي تستطيع أن تقوم بتأدية عبادتها سرّاً دون أن يطّلع عليها أحد وبعيدةً عن أعين المراقبين، وترى أفضل طريقٍ لذلك إنما هو تسجيل نفسها خارج قوائمهم. وبصورةٍ عامةٍ نستطيع أن نقول: إن الذيـن يُسجّلـون أنفسهـم هـم الذيـن يتحدّون السلطة وحـدهـم، ويُصرُّون على الاعتراف بـإسلامهـم والتمسُّك بعقيدتهم، ولذا كانت أعـداد المسلمين في الإحصـاءات الروسيـة تتنـاقـص باستمرار.

ويجب ألا ننسى الأوقات التي كان فيها تحريم اعتناق الإسلام والدعوة له، وتصل العقوبة في كثيرٍ من الأحيان إلى الموت، ثم إن الذين يتنصَّرون من المسلمين يُعفون من الضرائب ومن الخدمة العسكرية وكان على المسلمين الذين حافظوا على عقيدتهم أن يُؤدُّوا ذلك عنهم، فأكثر المسلمين قد تحمّل هذا وصبر على ذلك في سبيل دينه، أما من يأتي ليرمي نفسه من جديدٍ في هذا الأذى والظلم ودفع المال وهو الفقير الضعيف، لذا لم يُعلن أحد عن إسلامه خوفاً إذ لو نجا من الموت وتخطّته عُقوبة الإعدام، لن ينجو غالباً من دفع الضرائب والقيام بالخدمة العسكرية المضاعفة أو أكثر من المضاعفة، ومن هذا المنطلق فلن يعتنق الإسلام أحد من جديد علناً، وإنما يُضمر ذلك خوفاً مما قد يُصيبه، وهذا ما لوحظ عندما أُعطيت الحرية الدينية لأسبابٍ اضطراريةٍ مرتين أو ثلاث مراتٍ فصدّق بعض الذين يُضمرون إسلامهم ويُخفون إيمانهم فأعلنوا ذلك وجاهروا به، وللسبب نفسه يعتقد المراقبون أنه لم يبق وثنيون في المناطق الشمالية وإنما قد دانوا جميعاً بالإسلام تحت تأثير التتار والمنفيين من بلادهم، ولكن يكتمون ذلك خوفاً من أن تنالهم المطرقة الروسية أو يحصدهم المنجل.

كما يجب ألا ننسى الحرب المعلنة باستمرار من قبل نظام الحكم على الدين عامَّةً حسب تصريحات وسائل الإعلام الروسية المختلفة، وعلى الإسلام خاصَّةً، وما يختلف أحد مع الآخرين أن القصد من هذه الحرب إنما هو الإسلام، فمن هو الذي يُريد أن يُعرّض نفسه لحرب الدولة، أو يرمي بشخصه ليكون هدفاً لسهام نظام الحكم المسمومة.

ونُلاحظ أن الجماعات السكانية الكبيرة كالتتار والأتراك أو العنيدة كسكان شمالي القفقاس كثير ما يصرُّ أبناء هذه الجماعات على تسجيل أنفسهم مسلمين مع عدم طلب ذلك منهم تحدّياً وتمسُّكاً بما يعتقدون، وربما كان بعضهم لا يعرف من أمور دينه سوى انتمائه للإسلام. ونُلاحظ أحياناً أُخرى أن تسجيل كلمة القوم تكفي للدلالة على الإسلام ومنها: التتار، الترك، داغستان، شركس، شاشان، ونرى أنَّ بعضهم يُصرّ عليها بفخرٍ واعتزازٍ لا عصبيةً وإنما لدلالتها على الإسلام. أما الجماعات الصغيرة ـ وما أكثرها ـ فهي التي يخشى أبناؤها الاعتزاز لقلّتها، ويكون ضياعهم أحياناً، فلا يُسجّلون ديانتهم، ولا يهتمُّون كثيراً بتدوين اسم قومهم لتُعرف عقيدتهم فيضيعون، ثم يضيع أحفادهم مع الزمن.

ومع هذا كلِّه فإن الإحصاءات الروسية قد أعطت عدداً للمسلمين عام ١٣٩٩ هـ هو ستة وأربعون مليون مسلم، وإذا كان هؤلاء المسلمون يختلفون بدرجات إيمانهم وهذا أمر طبيعي نجده في كل مجتمع، وإذا كانوا يختلفون أيضاً بدرجات إهمالهم لدينهم حتى وصل بعضهم إلى درجة الإلحاد بسبب نظام الحكم الذي يقوم على ذلك، فإن هذا أمر طبيعي أيضاً وإن كان لا يُؤخذ مقياساً ما دام سيف الإلحاد هو المصلت على الإيمان، وإنما يُؤخذ المقياس عندما تُعطى الحرية الدينية، ولكن هؤلاء يختلفون حسب العقيدة، وإذا كان أكثرهم ينتمي إلى أصحاب العقيدة الإسلامية الصافية فإن بعضهم يُعدُّون أحياناً بين المسلمين، ولكنهم يُنكرون ذلك في قرارة نفوسهم، ويأبون،

وأحياناً أُخرى هم يدّعون أنهم من أتباع الإسلام، وإذا عددتهم بين المسلمين فليس ذلك إيماناً مني بأنهم مسلمون، ولا اعترافاً بأن عقائدهم تمتّ إلى الإسلام بصلة، ولكن لأنهم يدّعون أحياناً الإسلام، ويُصنّفون بناءً على هذه الدعوى الموقّتة مع المسلمين.

ولذا فأعتقد أن الاحصاءات الروسية غير صحيحةٍ، وأن عدد المسلمين أكبر من هذا الرقم بكثير، ولا أكون مُبالغاً إذا قلت: إنه قد يصل إلى الضعف، ولكن مع هذا كله أراني مُضطراً للبحث على أساس الإحصاءات الروسية لأنها المصدر الوحيد لذلك.

الأجناس: ينضوي تحت هذا الرقم [٤٦ مليون مسلم] ثلاثة وسبعون شعباً أو جنساً، وتختلف هذه الشعوب بعضها عن بعض، فمنها الشعب الكبير الذي يضمّ عدة ملايين من أبنائه وبعضها الصغير الذي لا ينتسب إليه إلا عشرات الألوف.

وأكبر هذه الشعوب الشعب التركي، ويتجمَّع أكثر أفراده في منطقة آسيا الوسطى، حتى نُسبت إليه، فيقال لها: تركستان أي بلاد الترك، ولكن ينضوي تحت هذا الاسم «الشعب التركي» مجموعات كثيرة، يُقال عنها كلها شعوب، وإن كانت تعود إلى أرومة واحدةٍ، ففي آسيا الوسطى يوجد الأوزبك، والتركمان، والقيرغيز، والقازاق، ونجد في بلاد القفقاس القراتشاي، والبلكار، والقوموق، والنوغاي.

ويلي الشعبَ التركي الشعبُ التتاري الذي يتجمّع أكثر أفراده في حوض نهر الفولغا، في جمهورية تتاريا، وفي شبه جزيرة القرم، وسيبيريا، وهناك تجمُّعات من التتار في بلاد القفقاس، وفي آسيا الوسطى، كما أنّ كلّ التجمُّعات الإسلامية في الجزء الأوربي من الامبراطورية الروسية إنما هي من التتار، ويُقدَّر عدد التتار في الامبراطورية الروسية بأربعة ملايين، وتسعمائةٍ

وثمانيةٍ وستين ألفاً. بل إن التتار والترك أيضاً إنما يعودون إلى أصلٍ واحدٍ، وإذا أردنا أن نتحدّث عن العروق فالفرعان ينتميان للعرق الأصفر. وقد يختلطان أيضاً فالأوزبك مثلاً: تتار وترك.

ثم شعب الباشكير الذي نستطيع أن نحصر معظم أفراده في حوض نهر الفولغا بل في الجمهورية التي تحمل اسم «جمهورية باشكيريا» والجمهوريات المجاورة لها، وخاصّةً تتاريا. ويُقدَّر عدد أفراد هذا الشعب حسب احصاءات ١٣٩٩ هـ بمليونٍ وثلاثمائةٍ وواحدٍ وسبعين ألفاً.

وهناك شعوب القفقاس، وهذه الشعوب قليلة الأعداد نسبياً، ورقعة الأرض التي تُقيم عليها ضيقة، وانفصال الأرض بعضها عن بعض بالأودية السحيقة والأنهار ذات المجرى العميق هو الذي عدّدها وأوجد الفروق بينها، وكل شعب ينضوي تحت اسمه عدد من القبائل أو الشعوب، وأشهرها:

١ً - الداغستان: ويضمّ القوموق، والنوغاي وهما من أصل تركي - كما مرّ - واللزكي، واللان، والعفر، ومن العفر مجموعة قبائل الآندي، وهذه كلها من أصول قفقاسيةٍ.

٢ً - الشاشان: وهم من أصولٍ قفقاسيةٍ، ويبلغ عدد أفراد هذا الشعب في الامبراطورية الروسية حسب احصاءات عام ١٣٩٩ هـ سبعمائةٍ وخمسةٍ وخمسين ألفاً وثمانمائة شخص.

٣ً - الأنغوش: ولا يزيد عددهم على مائةٍ وسبعة وخمسين ألفاً في الامبراطورية الروسية كلها، وهم وإخوانهم أكثر ما يتجمّعون في جمهوريتيهما التي تحمل اسميهما معاً.

٤ً - الشراكسة أو الجراكسة، ويُطلقون هم على أنفسهم اسم «الأديغة»، وهم مجموعة قبائل أو شعوب منها: القوشحة، والقبرطاي، والأبخاز، والأبزاخ، والأبازين، والشابسيغ، والبزادوغ، والحاتوقواي، وهذه كلّها تُعدُّ من شعوب شمالي القفقاس.

وفي جنوبي بلاد القفقاس أيضاً الأذربيجانيون ـ والأكراد، والأرمن، والكرج، والتاليش، والآجار.

وفي آسيا الوسطى يوجد إلى جانب الترك عدد من الأجناس أهمها:

١ً ـ الطاجيك: الذين يعودون إلى أصل فارسي، ويتجمّع أكثرهم في الجمهورية التي تحمل اسمهم.

٢ً ـ القره قالبك: الذين يتجمعون في الجمهورية التي تحمل اسمهم وهي ذات استقلالٍ ذاتي، وتتبع جمهورية أوزبكستان الاتحادية.

٣ً ـ الأويْغور: الذين يوجد عدد منهم في جمهورية قازاقستان، رغم أن هؤلاء يعودون في أصولهم إلى التتار.

ويوجد في حوض الفولغا أيضاً الأدمورت، والموردوف، والجوفاش، والماري، وغير هذه الشعوب التي ذكرنا كثير ممن هو أصغر منها. ولكن الكبيرة هي التي نالت من الروس أشدّ أنواع الظلم وأكثرها التتار وشعوب شمالي القفقاس.

العقائد: المسلمون فرقة أو جماعة واحدة، وليس هناك من فرقٍ، فالمرء إما مسلم وإما غير ذلك، صحيح أنه قد توجد بعض الخلافات في الاجتهاد ولكن لا تُخرج عن الملّة ولكن ضمن العقائد الأساسية في الإسلام، ولذا لن نعدّ كل من يُصنَّف ضمن قائمة المسلمين من الإسلام، لأنّه تصنيف رجالٍ غالباً ما يعملون بالعاطفة لتكثير سواد المسلمين، أو يأخذون بادّعاءات أصحاب الفرق التي يقولون بها تقيَّةً أو مصلحةً، ويقولون: لنا الظاهر والله يتولّى السرائر، وإذا كان هذا الكلام صحيح ولكن ليس على الإطلاق، لأنّه من واجبنا أن ننظر إلى الأعمال من عباداتٍ وإقامة الشعائر، إذ لا يمكن قبول ادعاء جماعةٍ أنهم من المسلمين ولا توجد في بلادهم كلها مسجد، ولا يُؤذَّن للصلاة، ولا تُؤدّى عندهم فريضة.

ونقول: إن معظم الذين يُصنَّفون عادةً ضمن المسلمين هم فعلاً من المسلمين من أهل السنة والجماعة ويُشكِّلون ٩١ ٪ من المسلمين، ويمكن أن نجد الفرق التالية حسب التصنيفات المتّبعة عادة:

١ً ـ المسلمون: وهم الأكثرية في كل المناطق باستثناء أذربيجان وطاجيكستان حيث يكثر الشيعة، ويأخذ هؤلاء المسلمين بمذهب الإمام أبي حنيفة باستثناء داغستان حيث يسود مذهب الإمام الشافعي.

٢ً ـ الشيعة: ويُشكّلون ٩ ٪، وهم في أذربيجان، وطاجيكستان، كما توجد أقلية في بلاد الأوزبك، ومثلها في بلاد التركمان.

٣ً ـ الفرق الضالة: يوجد مائة ألف اسماعيلي من الفرقة النزارية في إقليم باداخشان في جمهورية طاجيكستان. ويعيش ٣٥ ألفا من عبدة الشيطان في جمهورية أرمينيا وأكثرهم من الشعب الكردي، وعدة آلاف في جمهورية جورجيا. كما يوجد العدد نفسه من البهائيين يتوزّعون في عشق آباد حاضرة بلاد التركمان، وباكو عاصمة أذربيجان، ومدينة كوبا في أذربيجان أيضاً، وفي مدينة استراخان عند مصب نهر الفولغا في بحر الخزر.

ولا يعيش المسلمون وحدهم في المناطق التي يكثرون فيها، وإنما يسكن معهم المستعمرون الذين يدينون بالنصرانية وغالباً على المذهب الأرثوذكسي مذهب الروس، وتختلف نسبة النصارى أو المستعمرين من منطقة إلى أُخرى، وغالباً ما ترتفع في بلدان حوض نهر الفولغا، والقرم، وشمالي القفقاس، وتنخفض نسبياً في بلدان وسط آسيا.

وتوجد أقليات يهودية في القرم (٢٣ ألفاً)، وفي أذربيجان (٣٥ ألفاً)، وفي داغستان (٤ آلاف)، وفي بلاد الأوزبك (١٠٠ ألف)، وفي بلاد الطاجيك (١٥ ألفاً).

ولا شكَّ فإن المسلمين هم الذين ينالهم النصيب الأوفى من الظلم الروسي

والاضطهاد والأعمال الوحشية، وإن محاربة الدين إنما يقصد به الإسلام، ولم يكن المسلمون على درجةٍ واحدةٍ من ظلم الروس لهم بل لقد حاول المستعمرون استمالة بعض مشايخ السوء وأهل التصوّف الذين يدعون إلى الزهد في الدنيا ويُثبطون الهمم، وينفرون من الجهاد وذلك للوقوف في وجه العلماء العاملين المُدركين لحقيقة الاستعمار وأهدافه الصليبية. ورغبتهم ردّ المسلمين عن دينهم إن استطاعوا، ومحاولة إذلالهم.

طبيعة الأرض: تُعدُّ أرض بلدان حوض نهر الفولغا سهليةً رغم وجود بعض التلال، وكذا سيبيريا رغم وجود جبال الأورال القليلة الارتفاع الكثيرة الممرات، ورغم وجود السفوح الشمالية لجبال (آلتاي) الشاهقة لكنها تُعدُّ محدودة الرقعة بالنسبة إلى سهول سيبيريا الفسيحة. وكذا القرم رغم امتداد جبال القرم في الأجزاء الجنوبية منها، لكنها قليلة الارتفاع، كثيرة الأمطار الأمر الذي يُغيّر من الفكرة الجبلية الجرداء المنعزلة.

وتُعدُّ بلدان منطقة القفقاس جبلية رغم امتداد السهول في شمالي بلاد داغستان، وامتداد سهول أذربيجان حول نهر كورا، وسهول الكرج حول نهر كورا أيضاً وريفون، ورغم وجود بعض السهول الساحلية. وتُعدُّ كذلك بلاد الطاجيك، وبلاد القيرغيز جبليةً.

وتُعدُّ بلدان القازاق، والأوزبك، والتركمان سهوبيةً رغم وجود بعض السفوح الجبلية فيها جميعها ووجود هضبة (كاراغندا) في بلاد القازاق.

وقد أفرغ الاستعمار الروسي ظلمه على سكان السهول كي يستولي على أجزاء منها ويُقدِّمها لأبنائه الذين أصبحوا يُكاثرون السكان الأصليين في ديارهم، كما أفرغ حقده على سكان الجبال، وخاصّةً شمالي القفقاس للمقاومة التي أبدوها والشجاعة التي أظهروها، والدفاع عن أرضهم، والاستبسال في سبيل عقيدتهم. أما سكان السهوب فكان الظلم عليهم أخفّ وإن كان الأمر

نسبياً، وعلى وجه العموم، أما الحالات الخاصة والمحلية والفردية فلها وضعها الذي لا يُعمَّم.

نمط الحياة: على الرغم من أن أكثر المسلمين الذين يعيشون في الإمبراطورية الروسية يحيون حياةً تُوصف على أنها قبلية للروابط، والصلة، واللهجة، والديار غير أنها ليست بدويةً متنقلةً كما يتبادر إلى الذهن، فأكثرهم مستقرّون متحضّرون يسكنون المدن والأرياف، ويعملون في الزراعة والتجارة، والتجارة معروفة بينهم من القديم، كما يمتهن بعضهم الصناعة، وقليل أولئك الذين يعملون في الرعي، ويمكن أن نحصرهم في سهوب القازاق حيث لا تزال بعض القبائل تزاول مهنة الرعي، وتنتقل وراء قطعان الأغنام، ومثلها في بلاد الأوزبك، والتركمان، والنوغاي في شمالي داغستان، وهناك بعض قبائل القيرغيز التي تعمل في بلادها في رعي الخيول، وبعض القبائل في الجبال حيث تنتقل بين الأودية والمرتفعات في الشتاء والصيف.

وقد صبّ المستعمرون الروس حقدهم على أهل المدن الذين هم أكثر إدراكاً من غيرهم لنوايا الاستعمار وأهدافه التي يُريد أن يحقِّقها، وعلى أهل الأرياف لسلب أراضيهم، أما البدو والقبائل المتنقلة عامة فهي أقل درايةً من غيرها، وأسهل للوقوع في الشَرَك، واصطياداً بالفخّ، أو لتكون طُعماً لإيقاع غيرها، وقد حقَّق الروس بعض أغراضهم عن طريق هذه القبائل وخاصّةً قبائل القازاق في بداية الأمر حتى تنبّه بعضهم لما يُخطَّط لهم، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

مراحل الاستعمار: بدأ الاستعمار الروسي بابتلاع المناطق الإسلامية القريبة منه الأقرب فالأقرب حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى كان قد سيطر على ما هو مسيطر عليه الآن، ويمكن أن نضع بصورةٍ تقريبيةٍ المراحل التي تمتّ له فيها السيطرة على المناطق.

من عام ٩٥٩ حتى ٩٦٨ هـ سيطر الروس على حوض الفولغا.
من عام ١٠٠٣ حتى ١٠٧٨ هـ سيطر الروس على سيبيريا الغربية.
من عام ١١٨٨ حتى ١٢٠٦ هـ سيطر الروس على جزيرة القرم.
من عام ١١٩٨ حتى ١٢٧٨ هـ سيطر الروس على شمالي القفقاس.
من عام ١٢٠١ حتى ١٢٢٨ هـ سيطر الروس على أذربيجان.
من عام ١٢٢٨ حتى ١٢٥٨ هـ سيطر الروس على قازاقستان.
من عام ١٢٧٠ حتى ١٣٣٨ هـ سيطر الروس على آسيا الوسطى.

وإن حقد الروس قد صُبّ على المناطق الأولى التي بدؤوا باستعمارها، ومع الزمن كان يخفّ هذا الحقد نسبياً، وإن كان يعود للغليان إثر كل حركة مقاومةٍ تبدو من المسلمين، أو الوقوف بصلابةٍ في وجه تقدّم المستعمرين الروس أو أمام تحقيق أهدافهم، غير أن الخط العريض كان خفّة الحقد مع الزمن، فأشدّه إذن ما كان في بلاد حوض الفولغا إذ بها ابتدأ الاستعمار، وهي أرض سهلة خصبة غنية يجب انتزاعها من أيدي أصحابها، وأعنفه في هذه المنطقة ما كان على قازان التي قاومت المستعمرين الروس بعنادٍ، كما أن أهلها من التتار الذين كانوا يحكمون الروس فيما مضى، ولا بدّ من إذلالهم، لهذا كله أفرغ الروس معظم ما يحملونه من شحنات الحقد الصليبي والسياسي والاستعماري. وأقلّه ما كان في بلدان آسيا الوسطى إذا استثنينا وقت حركات المقاومة وأيام الدفاع عن البلاد، وجماعة المجاهدين.

قرب المنطقة من البلاد الروسية: كلّما كانت المنطقة أقرب إلى مركز البلاد الروسية أو عاصمتها موسكو كلّما اشتدَّ عليها الأذى والضغط أكثر، لكره الجوار بعضهم إلى بعض والرغبة في امتلاك الأرض القريبة قبل غيرها، ولما كانت مراحل الاستعمار قد بدأت من المناطق القريبة لذا فإن هذه النقطة مرتبطة بسابقتها ونالت بلاد التتار في حوض نهر الفولغا أكبر شحنةٍ من حقد المستعمرين الروس.

ويجب ملاحظة طبيعة الحكّام إذ أن بعضهم أكثر رغبةً من بعض في الظلم والاضطهاد ، وبعضهم أشدّ حقداً من بعضٍ على المسلمين ، وبعضهم أكثر ميلاً إلى الضغط وسفك الدماء من بعض ، وربما كان ايڤان الرهيب ، وبطرس الأكبر ، والشيوعيون عامةً هم الذي يميلون إلى العنف ، ويمتلئون حقداً على المسلمين ، ويرغبون في فرض الرهبة أو طُبعوا على الظلم واستعمال القسوة .

وإن الحركات المحلية غير المُنظّمة، والمختلفة في التوقيت ، والمتباينة في الأهداف ، والتي لم تعمّ المنطقة قد كتبت على نفسها الفشل ، وسبّبت مضاعفة حقد المستعمرين الروس ، وزيادة عدد النكبات وتكرارها على المسلمين ، وأخافت المؤمنين من إبداء شعائرهم ، وإخفاء عقيدتهم التي كادت تضيع مع الزمن بالكبت والإخفاء والخوف والتهاون .

الفصل الثاني
الاستعمارُ أيّام الحُكم القَيْصَري

اندفع الروس من بلادهم في الغرب نحو بلاد التتار في حوض نهر الفولغا، فدخلوا مدينة قازان أول عقبةٍ في وجههم ثم سيطروا على الشعوب والمناطق المجاورة لها، وانحدروا مع مجرى نهر الفولغا وقد احتلّوا الحوض كلّه مع مدنه وحواضره. واستمرّوا في متابعة التتار حتى ضمّوا سيبيريا الغربية إليهم وقضوا على إمارة التتار فيها، واندفعوا نحو الشرق في الأرض شبه الخالية من السكان والتي تُغطيها الغابة المخروطية والمختلطة، وتشغل الصحارى الباردة شمالها، والتي تنتقل فيها قبائل بدائية لا تزال على الوثنية، وهي ذات أعدادٍ قليلةٍ.

وإذا توقّفوا قليلًا في تقدّمهم في بلاد القرم ليصفّوا حسابهم مع تتار قازان، أو ينتهوا من إفراغ شحناتٍ من حقدهم عليهم، ولدعم الدولة العثمانية لأهل القرم إلّا أنّهم قد استولوا عليها في النهاية، وأرادوا الالتفاف على عاصمة العثمانيين والمضائق من جهة الشرق إذ لم تكن لديهم بعد الأساطيل البحرية الكافية والتي يُمكنهم مُنازلة العثمانين بها إلّا أنّهم وجدوا مُقاومة عنيفةً في بلاد القفقاس وخاصّةً في أجزائها الشمالية، وعندما تخطّوا العقبات التي وقفت في وجههم، وأرادوا مُتابعة سيرهم نحو المضائق العثمانية واستانبول وجدوا الدول الصليبية الغربية تحول دون تقدّمهم وترغب في المحافظة على الدولة العثمانية والإبقاء عليها لا حُبّاً فيها ولا حمايةً للمسلمين فإن ما في نفوس الدول الغربية لا يختلف عمّا في نفس الروس من حقدٍ

صليبي وكرهٍ للمسلمين، وإنما خوفاً من توسّع الروس الذي لن يكون إلا على حساب الصليبية الغربية التي لا تستطيع الوقوف أمام الصليبية الشرقية إلا قليلًا، إذ ستحلّ محلّها في المستعمرات وتُنافسها في سلب الخيرات واحتلال أراضٍ جديدة.

لذا اتّجه الروس نحو الشرق بعد وقوف دول أوربا الغربية في وجه تحرّكهم نحو المضائق واستانبول، وساروا نحو نقطة الضعف التي وجدوها في آسيا الوسطى في بلاد تركستان، ولعلّهم بعد السيطرة عليها يُفتح لهم المجال بالتغلغل نحو الجنوب للوصول إلى مياه المحيط الهندي الدافئة غير أنهم قد اصطدموا بالاستعمار المتقدّم من الجنوب نحو الشمال فتوقّف كل منهما عند حدّه بعد مرور أزمات بينهما كانت تنتهي بالوفاق أحياناً وبالخلاف أحياناً أخرى ولكن دون الوصول إلى قيام حربٍ شاملةٍ بين الاستعماريين لأنّها قد تُؤدّي إلى مصلحة العدو المشترك الذي هو الإسلام، والخلاف والوفاق ليس إلا على أرض المسلمين، فليكن التفاهم وليكن التقاسم، وإن لم يكن العدل في القسمة إلّا أن الإجحاف لن يضرّ أحد الطرفين، وما دامت الفائدة لا تكون للمسلمين في كلتا الحالتين حتى ولا بأيّة حالةٍ فالأمر يسير.

الظلم في بلاد التتار: بعد أن سيطر المستعمرون الروس على بلاد التتار في حوض مجرى نهر الفولغا وعلى الشعوب المجاورة لهم كالباشغرد (الباشكير) وغيرهم، وانتهت المقاومة تماماً، التفت المستعمرون يُفرغون ما حملوه من حقدٍ عبر القرون الماضية، وما شُحنوا به من ضغنٍ على المسلمين، فأخذوا بالاستيلاء على الأراضي الخصبة الموجودة على طول مجاري الأنهار وتقديمها إلى النبلاء الروس، كما توافدت أفواج من الروس للسكن في المناطق الإسلامية والعمل فيها بعد أن تمّ الاستيلاء على الأرض، وهدّموا المساجد، ومراكز التعليم الديني، وشيّدوا القلاع الخاصّة بهم خوفاً من الحركات التي توقّعوا قيامها ضدّهم. وحاولوا تنصير المسلمين بحجة تحويلهم إلى سلاف،

وقد رفض المسلمون هذه الإجراءات مع استثناءاتٍ قليلة. وحتى نتابع تسلسل الأحداث أيام القياصرة الروس أرى من المفيد تحديد أسماء هؤلاء القياصرة ومدة حكمهم:

أولًا: أمراء موسكو (الروس الكبار):

١ ـ إيڤان الثالث (الكبير) : ٨٦٧ ـ ٩١١ هـ.
٢ ـ بازيل الثالث : ٩١١ ـ ٩٤٠ هـ.
٣ ـ إيڤان الرابع (الرهيب) : ٩٤٠ ـ ٩٥٤ هـ.

ثمّ ضمّ إيڤان الرابع إليه أوكرانيا (الروس الصغار) وأصبح قيصراً على روسيا.

ثانياً: قياصرة روسيا:

١ ـ إيڤان الرابع (الرهيب) : ٩٥٤ ـ ٩٩٢ هـ.
٢ ـ تيودور الأول : ٩٩٢ ـ ١٠٠٧ هـ.
٣ ـ بوريس كودرنوف : ١٠٠٧ ـ ١٠١٤ هـ.

قامت مرحلة من الفوضى والاضطرابات دامت من ١٠١٤ حتى ١٠٢٢ حيث تمكّنت أسرة رومانوف من استلام السلطة.

ثالثاً: أسرة رومانوف:

١ ـ ميخائيل : ١٠٢٢ ـ ١٠٥٥ هـ.
٢ ـ الكسيس : ١٠٥٥ ـ ١٠٨٧ هـ.
٣ ـ تيودور الثاني : ١٠٨٧ ـ ١٠٩٤ هـ.
٤ ـ إيڤان الخامس : ١٠٩٤ ـ ١١٠١ هـ.
وحكم معه بطرس الأكبر مدةً من الزمن.
٥ ـ بطرس الأكبر : ١١٠١ ـ ١١٣٨ هـ.
٦ ـ كاترين الأولى : ١١٣٨ ـ ١١٤٠ هـ.

٧ ـ بطرس الثاني : ١١٤٠ ـ ١١٥١ هـ.
٨ ـ الإمبراطورة حنّة : ١١٥١ ـ ١١٦٩ هـ.
٩ ـ ايڤان السادس : ١١٦٩ ـ ١١٧٠ هـ.
١٠ ـ إليزابيت : ١١٧٠ ـ ١١٧٦ هـ.
١١ ـ بطرس الثالث : ١١٧٦ ـ ١١٧٦ هـ.
١٢ ـ كاترين الثانية : ١١٧٦ ـ ١٢١١ هـ.
١٣ ـ بول الأول : ١٢١١ ـ ١٢١٥ هـ.
١٤ ـ إسكندر الأول : ١٢١٥ ـ ١٢٤١ هـ.
١٥ ـ نيقولا الأول : ١٢٤١ ـ ١٢٧٢ هـ.
١٦ ـ إسكندر الثاني : ١٢٧٢ ـ ١٢٩٨ هـ.
١٧ ـ نيقولا الثاني : ١٢٩٨ ـ ١٣٣٦ هـ.
قتله الشيوعيون في مدينة بطرسبرغ.

ولكثرة ما قتل القيصر الأول (ايڤان الرابع) من المسلمين، ولشدّة ما ظلم فقد أُطلق عليه لقب (الرهيب)، ومع ما وقع على المسلمين من اضطهادٍ وبغيٍ فقد صبروا وتحمّلوا كل أذى، ولما رأى المستعمرون الروس إصرار المسلمين على المقاومة بدأوا بتشريدهم عن ديارهم. غير أن الضغط والإرهاب على الذين بقوا في منازلهم، وعلى الذين شُرِّدوا من ديارهم، والنظرة الخاصّة لهم من قبل المستعمرين الروس، والمصائب المشتركة التي حلّت بهم، إذ ليس هناك من أُسرة لم تحلّ بها فاجعة أو لم تنزل بها نكبة، كل ذلك قد فرض عليهم نوعاً من التعاون والمحبة والألفة، إذ كان يساعد بعضهم بعضاً في كثيرٍ من النواحي المادية، ويتعاونون على الحياة ليتخطّوا العقبات التي تعترضهم مما أوجد الثقة بينهم إضافة إلى نظرة الاستعلاء التي لدى المسلم إذ يشعر على الرغم من الوضع الذي هو فيه أنه هو الأعلى ما دام مسلماً، وهو أرفع ثقافةً وأكثر إنسانيةً وفهماً للحياة من النصراني بل ومن أيّ صاحب عقيدةٍ أُخرى غير الإسلام، وأن عليه مهمة في الحياة هي هداية الناس وإخراجهم ممّا هم

فيه، كما عليه تبعة أخرى هي إنقاذ مجتمعه مما يُعاني من البؤس والشقاء والظلم والجهل، ومُقابل ذلك فعليه أن يتحمّل المشقّة والصعاب، ويذوق مرّ العذاب، وأجره في صبره، وثوابه في شكره مهما لقي. هذه المودة التي سادت بين المسلمين، والألفة التي عمّت أفرادهم، والمحبة التي تجلّت على أبنائهم سواء أكانوا من الظاعنين أم من المُشرّدين قد جعل عطفاً عليهم من الذين يأتون إلى مدنهم وقُراهم وأماكن إقامتهم ومن الذين يمرّون عليهم وهم راحلون في طريقهم إلى منفاهم، وجعل الناظرين يتساءلون عن هذه الأخوة القائمة بينهم، والمحبة الماثلة عليهم، والعزيمة الواضحة فيهم فيأتي الجواب يعزو ذلك كله إلى عقيدتهم الإسلامية فهذا حبّب المشاهدين بالإسلام فما وجدوا أنفسهم إلا وقد أصبحوا مسلمين.

كما أن هؤلاء المسلمين كانوا يدعون إلى اعتناق دينهم الذي فيه الخير والصلاح للناس جميعاً، يدعون على الرغم من معرفتهم بما يُحيط بهم من قسوةٍ، وما يُحدق بهم من عنتٍ، يدعون وهم يعرفون النتيجة ويتحمّلون المسؤولية، وإن كان الحذر والأناة يأخذان سبيلها، وإضافةً إلى هذا فإن المسلمين كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم حُكّام البلاد الشرعيون، وأنّ الروس مغتصبون، ولا يصلحون للأمر ما داموا لا يدينون بدين الحق الذي يجعلهم يهتمّون بالرعية، وينظرون إلى الأفراد جميعهم نظرة العطف، والدليل على ما يجدونه هم من ظلمٍ من الحكام الطغاة الغاصبين.

وأصدرت القيصرية أمراً يجعل اعتناق أيّ دينٍ يُخالف الكنيسة الأرثوذكسية أمراً مُحرّماً، وفسحت المجال للنشاط التنصيري على مصراعيه وأمدّته بالدعم كلّه. وأمام الضغط الشديد، وفي سبيل الوصول إلى بعض الحقوق الرئيسية، ومن أجل تأمين بعض المصالح اليومية أو استلام بعض الأعمال الضرورية بل ومن أجل الحصول على لقمة العيش في كثيرٍ من الأحيان، ومن الوصول إلى حقّ الانتساب إلى المدارس كانت جماعات من

المسلمين تُوافق البعثات التنصيرية، وتقبل الانتساب إلى النصرانية على مذهبها الأرثوذكسي ظاهراً، وتتمّ عملية التعميد، وتُسجّل في عداد النصارى، إذ لم يكن باستطاعة المسلمين بأن يتمتعوا بالمساواة مع الروس إلّا إذا تركوا دينهم واعتنقوا النصرانية الأرثوذكسية، وربما تتمّ المساواة وقد لا تتمّ وهو الغالب بل إنّ الثقة بالمسلمين المتنصرين لا يمكن أن يقبل بها روسي نصراني بسبب ما يحمل بين جوانحه من حقدٍ على هذا الدين.

نجحت سياسة التنصير نسبياً بعد أن استولت الحكومة القيصرية على أوقاف المسلمين، وأغلقت كلّ المدارس القرآنية، وفتحت مكانها مدارس خاصّةً بأبناء المرتدّين من المسلمين، وأعفت هؤلاء المرتدّين من دفع الضرائب ومن الخدمة العسكرية، وألزمت الذين تمسّكوا بدينهم بتأدية ذلك عنهم، وعدّت اعتناق الدين الإسلامي جريمةً يُعاقب فاعلها بالإعدام، وتكوّنت نتيجة ذلك جماعة من المرتدّين وسط المجتمع الإسلامي، وعندما عمل المستعمرون الروس على طرد المسلمين إلى أماكن نائيةٍ قدّمت أملاكهم للمرتدّين وإلى النبلاء الروس. وقد عُرف هؤلاء المُرتدّون من التتار باسم (كرياشن). وأعلن عن ارتداد ما يقرب من ثلاثمائة ألف من المسلمين، والوثنيين مع العلم أن جلّهم من الوثنيين ولكن يُجمعوا معاً للإيهام، وكان لهذا أثره الكبير إذ هاجرت أعداد كبيرة من بلاد التتار، واتّجهت إلى بلاد الباشكير، وإلى سهوب القازاق، وتركستان، ونشأت كراهية للروس من قبل التتار لا تمحى.

تطوّر مراحل الظلم: كانت هذه السياسة الروسية على أوجها أيام إيفان الرابع (الرهيب) واستمرّت في خلفائه، حتى هدأت نسبياً عندما تسلّمت أُسرة رومانوف الحكم، ولكن لم تلبث أن عادت سياسة الاضطهاد والتنصير إلى سابق عهدها أيّام بطرس الأكبر الذي يُعدّ القيصر الخامس من أسرة رومانوف ولكن كان مُشارِكًا لسلفه إيفان الخامس في السلطة، ويُعدّ بطرس

الأكبر من الأعداء الألداء للمسلمين وقد رجع بروسيا إلى سياسة القمع بالنسبة إلى المسلمين ومحاولة تنصيرهم.

تابع خلفاء بطرس الأكبر سياسته تجاه المسلمين، وتُعدُّ الامبراطورة حنّة (١١٥١ - ١١٦٩) أكثر ظلماً وتعسُّفاً إذ قامت بالدور نفسه الذي قام به القيصر إيڤان الرهيب، إذ أقفلت المساجد القائمة في حوض مجرى الفولغا الأوسط كلها، وصادرت الأوقاف، وهي التي أصدرت أمراً بإعفاء المسلمين المرتدّين من الضرائب ومن الخدمة العسكرية التي فرضها بطرس الأكبر، ومعاملتهم معاملةً حسنةً كي تشجّع غيرهم للسير على خُطاهم، كما أمرت بأن يُكلّف المسلمون المتمسّكون بعقيدتهم بأحطّ الأعمال، وأن يُجبروا بتأدية ما رفع عن المرتدّين من ضرائب وخدمةٍ عسكريةٍ، ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية، وإغلاق مدارسهم ومساجدهم كلها، ومصادرة الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس الدينية، وإنشاء مدارس تنصيرية على طول مجرى نهر الفولغا من قازان حتى استراخان، واختطاف أبنائهم ووضعهم فيها إن لم يُقبلوا بأنفسهم على تسجيل أطفالهم فيها. أما عقوبة الذي يدعو إلى الإسلام فهي الموت. وبعد الامبراطورة حنّة تراخت قبضة القياصرة نسبياً عن المسلمين.

وتولّت أمر الامبراطورية الروسية القيصرة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١) فأظهرت ليناً تجاه المسلمين إذ أمرت بمنع التنصير بالقوة، والسماح بفتح المساجد والمدارس التي سبق لها أن أُغلقت، ومنع اختطاف الأطفال المسلمين وفصلهم عن أهليهم ووضعهم في مدارس تنصيريةٍ، كما سمحت بتعليم المسلمين أبناءهم في مدارس خاصّة بهم، وأعلنت عن السماح للتتار الذين شُرّدوا من بلادهم بالعودة إلى ديارهم إن رغبوا، هذه المعاملة اللينة، ولو في ظاهرها، قد مهّدت لعودة التتار الذين نُصّروا بالقوة في عهد إيڤان الرهيب ومن تلاه بالعودة إلى الإسلام. وربما كانت رغبة كاترين الثانية كسب عطف

المسلمين نحوها، والتخفيف من مُقاومـة المسلمين للاستعمار الروسي في القـرم وبلاد القفقاس إذ كانت الحروب قائمةً، واستبسال المسلمين في الدفـاع عـن دينهم، وعن ديارهم، وخوفاً مما يرونه بما يحلّ بإخوانهم في بلاد حوض نهر الفولغا وخاصّةً التتار، فكانت ترى في تخفيف سياسة البطش تخفيفاً في المقاومة الإسلامية وتسهيلًا لتقدّم جيوشها في القرم والقفقاس. ولكن هذه السياسة لم تحل دون إجراءاتٍ أُخرى من الظلم والتعدّي، فقد أمرت بوضع اليـد على أخصب الأراضي، وأقطعتها لنبلاء الروس، كما حدثت اعتداءات كثيرة على الأوقاف الاسلامية سواء أكانت أموالاً أم أراضي، وقـد كثرت هـذه الاعتداءات في القرم إذ بدأ التشفّي من سكان القرم بعد احتلال أراضيهم، التشفّي بإفراغ الحقد الذي يحمله الروس ضدّ القرميين لإسلامهم ولوقـوفهـم ببسالةٍ في وجه المستعمرين الروس.

ثمّ تجددت حملة الظلم أيام القيصر اسكندر الثاني (١٢٧٢ ـ ١٢٩٨)، وكانت حملة التنصير بشكلٍ فيها شيء غير قليلٍ من المكر، وذلك أنه أنشأ داراً للمعلمين خاصّةً بالتتار المرتدّين، وتُدرّس العلوم باللغة التتارية، فنشأ نتيجة ذلك جيل من المرتدّين الذي أخذوا بالثقافة النصرانية المادية مع المحافظة على لغتهم التي يُمكنهم بواسطتها التعامل مع قومهم التتار ودعوتهم إلى ترك الإسلام وأخذ النصرانية عقيدةً لهم. كما قام المُنصّرون بمساعدة مُنظّماتٍ أرثوذكسيةٍ بتجديد الحملة ضدّ الإسلام، وقد تمكّنوا من كسب ما يقرب مائة ألفٍ إلى ديانتهم غير أن أكثريتهم إنما هي من الوثنيين، ومع الأسف فإن هذه الأرقام التي تُعْطَى تضمّ المسلمين والوثنيين معاً، وربما تصوّر القارىء أنّها تضمّ المسلمين فقط أو مع بعض الوثنيين مع العلم أن المسلمين لا يُشكّلون فيها أكثر من ٢ ٪ والباقي من الوثنيين وفي ذلك إيهام كبير، ولإعطاء نتائج مُثمرةٍ لجهود المُنصّريـن فيُشجّعـونهم على الاستمرار والنشـاط، وكـي يجد المسلمون أمراً عادياً في ارتدادهم إذا ما فكّروا فيه حيث سبقتهم أفواج كثيرة من قومهم.

ونتيجة الضغط على التتار في حوض نهر الفولغا ومحاولة صهرهم في بوتقة المجتمع الروسي وهذا لن يتمّ إلا بارتدادهم وتخلّيهم عن الإسلام واعتناقهم النصرانية على المذهب الأرثوذكسي بالذات ودون سواه لذا فقد ارتبطت عندهم الفكرة الدينية بالعصبية القومية، فكانت كلمة تتار تعني إسلام، وعندما يعتزّ المرء منهم بقوله تتاري فإنما هو اعتزاز بإسلامه.

الظلم في بلاد القرم: لم ينل التتار في شبه جزيرة القرم ما ناله إخوانهم في حوض نهر الفولغا من ضغطٍ وظلمٍ وخاصّةً فيما يتعلق بسياسة التنصير التي سار عليها القياصرة الروس، أو بالأحرى الحاقدون المستعمرون، وذلك لأن الروس عندما استولوا على شبه جزيرة القرم كانوا قد أفرغوا شيئاً من حقدهم، ومضى على تسلّطهم مدة من الزمن تراخت خلالها قبضتهم قليلًا نتيجة شدّة الضغط التي مارستها فتراخت العضلات نسبياً. ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد حرص المستعمرون الروس ألّا يشتدّوا كثيراً على تتار القرم خوفاً من تسرّب القوة العثمانية لهم، والتجسّس لها. وإذا كانت قد حدثت اعتداءات على أوقاف المسلمين فلم تكن على تلك الصورة التي وقعت في بلاد الفولغا، وإنما يُتلافى أمرها بعد مدة، وإذا كانت السلطة الاستعمارية قد اغتصبت السهول الساحلية لما وجدت فيها من مياه حُرّةٍ لم تعرفها في بقية مناطقها التي تُشرف على البحار، وشاهدت السواحل الدافئة التي هي محرومة منها في أرجائها الواسعة، وسُرّت بالسفوح الجبلية ذات المناظر الخلّابة والتي تُشرف منها على البحار ذات الحركة الدائمة والتي لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً، فالسفن في ذهابٍ وإيابٍ دائبين، غير أن سكان القرم لم يكونوا يهتمّوا بتلك السهول كثيراً حيث كانت مُعرّضةً لأعمال القرصنة وخاصة من قبل أهل جَنَوَه الذين كانوا يدخلون إلى البحر الأسود، يطرقون تلك السواحل حتى لقد أضحت لهم مراكز فيها. وبصورةٍ عامةٍ فقد كانت وطأة الروس على تتار القرم أخفّ بكثير من وطأتهم على تتار الفولغا.

الاستعمار في سهوب القازاق: بعد أن احتلّ الروس سهوب القازاق وجدوا فيه مُجتمعاً بدوياً، معرفته بالإسلام معرفة سطحية، ولم يجدوا فيه تلك العزيمة القوية للدفاع عن عقيدته بالقتال وتحمّل النكبات والصبر على الأذى، لذلك فكّر الروس باتخاذ القازاق قوةً تساعدهم على الوقوف في وجه التتار والترك على حدٍّ سواء. فعمل الروس على نشر ثقافةٍ نصرانيةٍ ماديةٍ بين القازاق فنشأت جماعة ذات ثقافةٍ تختلف عن ثقافة القازاق القديمة وعن ثقافة التتار والأتراك المتأثّرة بالإسلام، فنشأ بينهم مُتعلّمون عملوا على بثّ الحضارة الغربية بين أبناء قومهم، ويرون أنه لولا الروس لبقي القازاق على درجةٍ من التخلّف لذا يجب التعاون غير المحدود مع الروس وتخليص ثقافة القازاق مما لحقها من آثار الإسلام. وقامت السلطة الاستعمارية بدعم هؤلاء ومدّهم باحتياجاتهم لإظهار أفكارهم ومشروعاتهم إلى الواقع فأقامت مدارس قازاقية روسية عام ١٢٥٧ هـ، وفي العام نفسه أنشأت مدرستين عسكريتين لأبناء القازاق في كل من «أومسك» و«أورنبرغ»، وبذلت جهودًا كبيرة لبثّ الثقافة النصرانية المادية الحديثة بلغة أهل القازاق. ويبدو أن كل ذلك كان طُعماً فلم يأت عام ١٣١٠ حتى بدأت تتدفّق أفواج الروس نحو سهوب القازاق وتستولي على أحسن الأراضي فيها، وما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ إلا وكان مليون روسي في بلاد القازاق، وقد تملكوا أفضل أراضيها، فقلّت المساحات الرعوية في المنطقة، وتناقصت معها أعداد القطعان، ونتج عن ذلك انخفاض في المستوى المعاشي للقازاق، فأحسّ القازاق بما كان يُدبّر لهم، وشعروا أن هذا الاستعمار الروسي إنما يُهدّد حياتهم بل وجودهم في ديارهم لذا نشأ نزاع دائم بين القازاق والمستعمر.

الاستعمار في شمالي القفقاس: لم يجد الروس مجالًا للاستيلاء على الأراضي في شمالي القفقاس والاستثمار الريفي كي تتدفّق إليها سيول الفلاحين الروس إذ أن الأرض جبلية والمساحات الزراعية محدودة، إضافةً إلى قوة

السكان وشجاعتهم، وتحصين بلادهم، وإمكانية الاتصال بالدولة العثمانية، لذا وجد الروس من الأفضل عندما سيطروا على المنطقة ألا يُثيروا السكان، ويكتفوا بإنشاء مراكز عسكريةٍ ونقاط حمايةٍ وتركوا الشأن كلّه بيد المتنفّذين، وهم العلماء الذين أعلنوا عداءهم الصريح للروس، ومع أن المستعمرين قد تحاشوا الصدام معهم لما لمسوه من قوة أبناء المنطقة، ولم يُحاولوا الدمج الثقافي، أو التنصير سواء أكان إجبارياً أم بالإغراء والعمل إلى ردّة السكان عن دينهم غير أن حروباً طاحنةً استمرّت بين السكان الذين قادهم العلماء وبين المستعمرين الروس الذين اتَّخذوا كل وسائل الوحشية ليدبّ الذعر في النفوس، وليهجر السكان بلادهم فيدخلها المستعمرون، وقد حدث هذا، وخاصّةً بعد أن ضعف أمر الشيخ محمد شامل ووقع أسيراً بيد الروس عام ١٢٨١ هـ، ثم حدثت موجات أخرى من الظلم والاضطهاد ألجأت السكان إلى انتفاضاتٍ اتّخذتها السلطات الاستعمارية حجةً لعمليات سحقٍ وإبادةٍ ففرّت جماعات إثر جماعاتٍ على شكل موجاتٍ متكرّرةٍ.

الاستعمار فيما وراء القفقاس: إن هذه المنطقة تختلف عما سواها من المناطق الإسلامية التي سيطر عليها المستعمرون الروس وذلك بسبب كثرة الصراعات القائمة فيها، حيث هناك أولاً صراع بين المسلمين وبين النصارى من الأرمن، ويكاد لا ينتهي هذا الخلاف.

ولما كان أكثر سكان المنطقة من الشيعة لذا فإن نزاعاً فكرياً قائماً، يُضاف إليه أن المتمسّكين بالشيعة يرون الاتجاه نحو إيران بسبب العاطفة الدينية، غير أن الشباب المثقّفين الذين يميلون دائماً إلى القوة لا يرون هذا الرأي فإن الاتجاه نحو إيران لا يُشكّل قوةً، فالشيعة نسبة قليلة في العالم الإسلامي لا تزيد على ٧ ٪ من المسلمين فيه، لذا من الأفضل الاتجاه نحو الدولة العثمانية صاحبة النفوذ بين المسلمين وأن أهل السنة يُمثّلون ٩٣ ٪ من المسلمين. وإذا كانت الدولة العثمانية قد أخذت طريقها نحو الضعف وأوشكت على الانهيار

إلّا أنه من الأهمية بمكان العمل على عودة القوة إليها وهو أمر ليس فيه استحالة. فلما دخل الروس مستعمرين للمنطقة لم يشعر السكان بوطأةٍ شديدةٍ عليهم نتيجة النزاعات القائمة بينهم، كما أن الروس قد أدركوا ذلك فلم يعملوا على دمج السكان بالمجتمع الروسي، ولم يلجأوا إلى سياسة التنصير فإنهم لو فعلوا ذلك لبرز العداء ضدّهم، ولوحّد هذا التصرّف السكان للوقوف في وجه المعتدين، غير أن الروس قد عملوا على مكافحة الاتجاه نحو الدولة العثمانية لما فيه من خطرٍ عليهم إن لم يكن عاجلًا فهو واقع في المستقبل لا محالة، وكان ضغطهم على الشيعة، وعلى الذين يرون الاتجاه نحو إيران أخفّ من ضغطهم على المسلمين، كما أن المعاملة لم تكن واحدةً لأفراد الفريقين.

الاستعمار في تركستان: سيطر الروس على تركستان، ولم يُحاولوا دمجها في المجتمع الروسي، ولم يُحاولوا تنصير أهلها بالقوة، وفوق كل هذا فقد أبقوا فيها محميّتين هما بُخارى، وخيوه (خُوارزم)، وتُحكمان تحت إشراف المستعمرين الروس، ولم تنفلت نحوها أفواج المستعمرين حيث تكثر فيها المساحات الصحراوية والسهبية، ويعيش السكان في واحات على طول مجاري الأنهار أو في الداخل وهذه الواحات لا تساعد على قدوم ريفيين جدد إضافةً إلى سكانها الذين تكاد تغصّ بهم، وباقي الأرض لا يصلح كذلك للاستثمار. لذا فإن العمال والمزارعين الروس الذين قدموا إلى تركستان كانوا قلّةً، أما الموظفون الذين جاءوا لإدارة شؤون البلاد، والجنود الذين قدموا لتثبيت أقدام المستعمرين وللحماية فقد أقاموا لهم مستوطناتٍ خاصّةً بهم مُهمّتها الإشراف العام.

لم يتدخّل الروس في الشؤون الدينية والتعليمية بشكلٍ مباشرٍ، وإنما بطريقةٍ ماكرةٍ فمن الجانب الديني شجّعوا الطرق الصوفية، والدعوة إلى التواكل، والاكتفاء بالقليل، والزهد بالدنيا، وقبول الخرافات، ومقت فكرة

الدين للدنيا والآخرة، وأن العمل مطلوب والجهاد واجب، ودعم الروس هؤلاء للوقوف في وجه العلماء الذي عرفوا حقيقة دينهم، وعلموا مُهمّتهم في الدنيا فحاولوا القيام بها والدعوة إلى النهوض بالعبء الملقى على عاتق المسلمين.

ومن الجانب التعليمي فقد حرص المستعمرون على الإبقاء على الأسلوب القديم في التعليم، ولم يُحاولوا إدخال أيّ تطوّرٍ في هذا المجال، لذا فقد استمرّ الجهل، وسادت الخرافة، وتأخرّت البلاد.

وقد عمل القلّة من المستعمرين الذين جاءوا على شكل عمالٍ وريفيين في استثمار القطن، والإشراف على السكان للعمل في هذه الزراعة، وتشجيع ذلك، وغدت تركستان مستوطنةً استثماريةً، ويُعدّ القطن الثروة الوحيدة، كما استفاد المستعمرون من القطعان الكثيرة التي ترعى في السهوب الواسعة.

ونلاحظ أن اضطهاد المستعمرين الروس للمسلمين قد اختلف بين جزءٍ وآخر، وأن أشدّه كان على سكّان حوض نهر الفولغا، وخاصّةً التتار منهم، كما اختلف الأمر بين قيصرٍ وآخر، كما أن ردود فعل المسلمين قد تباينت بين منطقةٍ ومنطقةٍ، وكان تطوّر المسلمين مُتمايزاً بين إقليمٍ وثانٍ.

الحرية الدينية: لم يتذوّق المسلمون في الإمبراطورية الروسية طعم الحرية أبداً منذ وطأت أقدام المستعمرين الروس أرضهم بل لم يعرفوا إلّا الظلم والاضطهاد حتى ألفوه وأصبح كل فردٍ وكل أسرةٍ منهم ينظر إلى الجزّارين وينتظر دوره في الذبح بسببٍ أو من غير سببٍ، كما تنظر الخراف إلى القصّاب في المسلخ وتحسّ أن دورها قادم لا محالة من غير أن تعرف ما الذي يدعوه إلى ذلك لصحّتها أم لهُزالها، لقوّتها أم لضعفها، لطعامها أم لتكون طعاماً لا تدري فهي عجماء. والمسلمون يشعرون أن النكبة نازلة بهم لا مناص إما لأرضهم الخصبة التي حباهم الله إياها ويُريد الروس أن يغتصبوها منهم، أو لأنّ بلادهم جبلية فقيرة، ولكنّها حصينة يخشى الظالمون أن يتحصّن بها

أهلوها، أو أنها صحراوية ولكن فيها مراعٍ . فهم بحاجةٍ إلى قطعانها، أو أنها سهبية فهم بحاجة إلى قُطنها فبأي أرضٍ يسكن المسلمون حتى يأمنوا المستعمرين الروس؟ وهؤلاء كان آباؤهم حُكّاماً يجب الانتقام منهم، وأولئك ضعفاء يُخشى عليهم من الآخرين فيجب استعمارهم قبل وقوعهم بيد غيرهم، بعضهم مُتمسّك بعقيدته فيجب إذلالهُ وردّه عن دينه، وذاك مهمل لشؤون عقيدته لا بدّ له من أن يتديّن في يوم فلا بدّ من القضاء عليه. فبأي حالٍ يجب أن يقع الظلم على المسلمين ولا ذنب لهم إلّا الحقد من الصليبيين. هذه هي الحرية العامة العادية فالأولى أن يكون الضغط على الحرية الدينية أكثر لأن أساس الظلم إنما هو قائم على التشفّي من أصحاب العقيدة الإسلامية لانتمائهم إليها والتمسُّك بها، لذا فلم يعرف المسلمون أيضاً للحرية الدينية طعماً.

أحسّ المسلمون بشيءٍ من الحرية الدينية أيام الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦ ـ ١٢١١) إذ رأت أن الضغط على المسلمين في المناطق التي تخضع لها إنما يُجبرهم ذلك على التحرُّك لمصلحة الدولة العثمانية التي هي معها في حربٍ، وتُريد انتزاع أجزاء منها واقتطاع بعض أراضيها، لذا كان من الضرورة بمكانٍ تخفيف الضغط عن مسلمي مناطق نفوذها لذا فقد أعلنت التساهل الديني عام ١١٧٨، وسمحت عام ١١٨١ للتتار بالعودة إلى قازان بعد أن كانوا قد طُردوا منها، ورفعت الحظر عن عملهم في التجارة بعد أن كانوا قد مُنعوا منها، ونادت بالحرية الدينية عام ١١٨٧، وأعطت المسلمين الحقّ في بناء المساجد، وتأسيس المدارس القرآنية، ووافقت على تأسيس المجلس الإسلامي في أُورنبرغ عام ١١٩٧، فنشط عندها التتار بالدعوة إلى الإسلام حتى تمكّنوا من نشره في إقليم باشكيريا الذي كانت لا تزال فيه بعض الجزر الوثنية، كما عملوا على نشره في سيبيريا الغربية، وفي سهوب القوزاق.

لكن ذلك لم تكن إلّا مدة قصيرة وانقضت، وعاد الظلم يحيق بالمسلمين

من كل جانب، وخاصةً أولئك التتار الذين عملوا على نشر الإسلام في أول فرصةٍ سمحت لهم رغم قصرها، ولسببٍ، فكيف بهم لو كانت لهم حرية تامة؟ واشتدّ الضغط واشتدّ، وعظُم البلاء على المسلمين، واكفهرّ الجوّ عليهم، وخيّم الظلم، وصبروا، وبلغ من ذلك الصبر أن كتم كثير منهم إيمانه عدة قرونٍ من الزمن، فكان ينتقل الكتمان خلال هذه المدة من الأب إلى الابن فالحفيد.. حتى يأذن الله.

وظنّ الروس بعد هذه المدّة من الشدّة وهذا الوقت الطويل من البلاء أن الإسلام قد انتهى أمره في مُستعمراتهم أو على الأقلّ لم ينتشر بعد هذا، بل هو في اضمحلالٍ وضمورٍ، وسيُؤدّي مع الزمن إلى أُفوله نهائياً لذا لا مانع من التراخي في حقّ أهله فإن الشدّة تُطيل في أجله، وإن الاضطهاد الدائم يُؤلّف بين أبنائه، ويُوحّد بين أقاليمه. ولا شكّ أنّ هذا الزمن من الضغط قد أضعف عضلات الأيدي فتراخت القبضة الضاغطة وقلّ العزم فيها وخفّت القوة منها. وفي الوقت نفسه فإن الحياة النيابية قد دخلت روسيا بعد عناءٍ ثقيلٍ ومحاولاتٍ يائسةٍ للتمسّك بالتسلّط وقهر الشعوب، وقرر المجلس النيابي (الدوما) الروسي عام ١٣٢٣ هـ إعطاء الحرية الدينية الكاملة، ويا للفاجعة لدى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ولدى الحكم القيصري والنصارى عامةً.

لقد عاد إلى الإسلام التتار الذين فُرضت عليهمُ النصرانية في القرن العاشر في عهد القيصر الأول إيفان الرهيب، لقد كتموا إسلامهم ما يقرب من أربعة قرونٍ، وهؤلاء الذين عرفوا باسم (ستارو كرياشين) أي المرتدّون القدماء.

وعاد إلى الإسلام التتار الذين أُجبروا على النصرانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين في عهد الامبراطورة حنّة، والقيصر إسكندر الثاني، أيّ لقد كتموا إيمانهم بين ربع القرن والقرنين وهم الذين عرفوا باسم (نوفو كرياشين) أي المرتدّون الجدد.

ودخل الإسلام إحدى وتسعون أسرةً عام ١٣٢٤ ، وفي العام نفسه اعتنقه أيضاً ثلاثة وخمسون ألفاً ، وهؤلاء جميعاً قد انتسبوا إلى الإسلام من جديد .

وإن قبيلة (الفوتياك) من الفنلنديين الشرقيين الذين يُقيمون شمال مدينة قازان قد انتشر الإسلام بين أبنائها على الرغم من أن مُعظمهم كان قد عُمّد ، أي دخل في النصرانية .

وإن قبيلة (الشريمس) وهي من الفنِّ أيضاً مثل قبيلة (الفوتياك) قد أسلم القسم الأعظم منها على الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا نصارى اسماً ، وقد دخلت قراهم جميعها بالإسلام نتيجة اتصالهم بالتتار والباشكير الذين كانت عاداتهم مُتشابهة إلى حدٍّ ما ، وذلك على الرغم من الضغط الذي كان عليهم والحرب النفسية التي يلقونها إذ كانا قاسيين حيث كان الروس يُطلقون عليهم اسم (الكلاب المختونون) لأنهم يختنون أبناءهم إلا أنهم قد تحمّلوا هذا بصبرٍ وجلدٍ . وكانوا تحت هذه الظروف القاسية التي يعيشونها يتركون قراهم ويُؤسّسون قرىً خاصةً بهم على بعد عدّة أميالٍ ، وكانوا في سجلّات الدولة وثنيين ، فلم يستطيعوا بناء مساجد لهم ، فما أن أعطيت الحرية الدينية حتى قامت المساجد وارتفعت المآذن .

وإن قبائل (الجوفاش) الذين بلغ عددهم المليون آنذاك وكانوا قد عُمّدوا جمبعاً فإن الإسلام قد انتشر بينهم حتى عمّ ، وارتفعت المآذن في قرى هذه القبائل ، وأُقيمت المساجد ، وأقبل الناس عليها مُعلنين إسلامهم ، وإن كثيرًا من القبائل الوثنية ما كان دخولها في النصرانية إلا تغطيةً لاعتناقها الإسلام .

أمام هذا التحوّل السريع نحو الإسلام خافت الحكومة الروسية على أتباعها من الذين كانت تُريد أن تُدخلهم في عقيدتها ، ورهبت أن ترى أمامها قوةً تحسب لها حساباً في الحالات العادية فكيف بعد أن أذاقتها مرّ العذاب ، وكوتها بنار الظلم والاضطهاد ، واختطفت أبناءها من بين أيدي أهليهم ،

وأنشأتهم على النصرانية، وبسبب هذا الخوف فقد أقامت الجمعيات الدينية لحماية عقيدتها، وفرضت اللغة الروسية، ولكن هذا لم يفدها شيئاً، إذ قام التتار في هذه المدة بنشاطٍ كبيرٍ للدعوة إلى دينهم سواء أكان في منطقة الأورال أم في شبه جزيرة القرم، وعادت روسيا فألغت الحرية الدينية، ولم تلبث أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها قامت الثورة الشيوعية.

الفصل الثالث

المقاومة الإسلاميَّة

لا نستطيع أن نُحدّد المقاومة الإسلامية كردٍّ فعلٍ للظلم الذي نالهم من الروس، فقد يُولّد الضغط انفجاراً، وربُّما ينتج عنه خنوع، وقد تُسبِّب سياسة اللين هدوءاً ورغبةً في التعاون، وربّما تُؤدّي إلى الثورة، لذا فإن ما حدث في المناطق الإسلامية التي هي تحت سيطرة الاستعمار الروسي من حركاتٍ ومقاومةٍ لم تكن بسبب عاملٍ واحدٍ وانما نتيجة عدة عواملٍ مجتمعةً وإن كانت تلتقي كلها تحت عنوانٍ واحدٍ هو مقاومة الاستعمار الروسي الغاشم.

في حوض نهر الفولغا: إنَّ عنف الصدمة التي أصابت المسلمين في حوض نهر الفولغا من وحشية الروس في ظلمهم واضطهادهم قد أذهلت الناس فأصمّت آذانهم وكمّت أفواههم بعد الذي أصابهم فما من أسرةٍ إلّا ونُكبت، وما من عائلةٍ إلا وحلّت بها مُصيبة، وما من فردٍ إلّا وأصابه شيء، فخنع السكان وسكتوا. فلمّا كانت أيام الإمبراطورة كاترين الثانية ورُفع شيء من الضغط عنهم شعروا بنزول قسطٍ من الهمّ عن كاهلهم واستنشقوا شيئاً من الحرية، وصحْوا قليلًا فقام الباشكير بحركة مقاومةٍ عام ١١٨٧ غير أنها قد قُمعت بعنفٍ وسُحق القائمون بها بصورةٍ أخافت الآخرين فسكتوا مُكرهين.

وعندما أُعطيت الحرية عام ١٣٢٣ هـ لاحظنا عودة الذين فُتنوا عن

دينهم بالقوة إلى إسلامهم وقام التتار خاصةً بنشاطٍ واسعٍ في مجال الدعوة، واعتنق كثيرون الإسلام من جديد.

وأصرّ السكان على بقاء الحرف العربي في كتاباتهم رغم اختلاف اللغات، وحاول الروس تغيير هذا الحرف جاهدين ولكنهم عجزوا عن ذلك، وكانت اللغات السائدة بين مسلمي حوض الفولغا هي العربية، والفارسية، ولغة أهل قازان التتارية. وقد طُرحت فكرة الكتابة باللغة المحلية لكن لم يلبث أن انتبه المسلمون إلى ما في ذلك من خطرٍ في ظهور اللغات الإقليمية إذ تُشكّل تهديم وحدة الثقافة الإسلامية التي تضمّ المسلمين جميعاً، وبرزت محاولة للتقريب بين اللغات المحلية واللهجات.

وفي العام الذي أُعطيت فيه الحرية عُقد مؤتمر سري في غوركي (نيجني نوفوغورد) حضره ما يقرب من مائة مندوبٍ من التتار، طالبوا بالحقوق المدنية الشخصية، وبالمساواة مع الروس كحقٍّ من حقوق الوطنية. وبعد عامٍ عُقد مؤتمر ثانٍ سري في مدينة (بطرسبرغ) حضره مائة مندوب من مختلف المناطق الاسلامية، وفي العام نفسه أُعلن عن عقد مؤتمر في (نيجني نوفوغورد) حضره مائتا مندوبٍ من مختلف المناطق الإسلامية أيضاً، ومن مقرارته المطالبة بالحرية الدينية، وحرية التعليم، كما تقرّر إنشاء حزبٍ سياسي للمسلمين جميعاً الذين يعيشون في الامبراطورية الروسية.

قام هذا الحزب أو الاتفاق الإسلامي وعرض التعاون مع الأحزاب الحرّة التي كان يمثّلها حزب الدستوريين الديمقراطيين غير أن الحقد الصليبي جعل النصارى يرفضون هذا التعاون، وقطع قادة هذا الاتفاق الأمل من التفاهم مع الحكام أو مع الأحزاب أو مع أيّة مجموعاتٍ أو تجمّعاتٍ، الأمر الذي جعل الشباب الإسلامي بل وحتى القادة منهم يترك الإمبراطورية الروسية مُهاجراً إلى إحدى المناطق الإسلامية ليتخلّص مما يجد أو ينضمّ إلى الأحزاب والمُنظّمات التي تعمل لإسقاط النظام كالاشتراكية والشيوعية والتي عملت

أيضاً على خداع المسلمين وإخفاء حقيقتها، وانتهى حزب (الاتفاق الإسلامي)، وتشكّل بعد ذلك عدة أحزاب في بلاد حوض نهر الفولغا ومنها:

١ً ـ حزب برك (الوحدة): تأسّس في قازان عام ١٣٢٤ هـ، وأكثر قادته من العلماء (المُلّا)، كما دخل فيه عدد من الذين فُتنوا بالأفكار التي قامت تُعادي الإمبراطورية وتنزع إلى التغيير، لذا كانت الوجهات مُتباينةً فيه حتى تصل إلى حدّ التضارب، وكان يهدف إلى إقامة دولةٍ إسلاميةٍ مع منهجٍ اقتصاديٍ يعتمد على أُسسٍ اشتراكيةٍ في مجال الزراعة والعمل، ولم يعمُر أكثر من عدة أشهر إذ قضت عليه الدولة وألقت بقادته في السجن.

٢ً ـ حزب تانغتشيلار (محاربو نجمة الصبح): وتأسّس في قازان أيضاً في العام نفسه الذي قام فيه حزب الوحدة السابق، وكان الموجّهون فيه مُتأثّرين بالأفكار الاشتراكية، ويُركّزون اهتمامهم على الفلاحين الذين يرون أنهم مظلومون لدرجةٍ كبيرةٍ دون تحديد الجهة التي يأتي منها الظلم وهو الاستعمار الذي اغتصب منهم أراضيهم، واستعبدهم بعد ذلك. وقامت الدولة بالقضاء عليه كسابقه قبل أن ينصرم العام الأول على تأسيسه.

٣ً ـ حزب أورال تشيلار (محاربو الأورال)، وتأسّس هذا الحزب في مدينة أوربنورغ عام ١٣٢٥، وقد تبنّى رجاله الأفكار الشيوعية مع احترام وتقدير الإسلام، وهذا ناتج عن الجهل بالإسلام أولًا، ثم عن الهزيمة النفسية وسيطرة الأفكار الاشتراكية والشيوعية، وخداع الناس بها، ثم وقوع الظلم على البائسين الذي يُمثّلون أكثرية أهل الريف وجموعٍ كبيرةٍ من أهل المدن، والجميع يُريدون استغلالهم مع وجود عطفٍ عليهم، ولم تمض أكثر من أربعة أشهرٍ على قيامه حتى قُضي عليه.

وهذا يدلّ على مراقبة الدولة للناس مراقبةً شديدةً، ووجود البؤساء بأعدادٍ كبيرةٍ، وانتشار الأفكار المناهضة للسلطة، وكثرة النقد للنظام،

وشعور الحكومة بقرب الانهيار وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهذا ما شجّع على المجاهرة بالعداء، وانقياد المسلمين مع التيار المعادي للحكم دون التميّز بمعاداة الروس الذين هم بالأساس سبب ما نزل بالمسلمين من بلاءٍ وما أوصلهم إلى الصورة التي هم فيها من بؤسٍ وشقاءٍ، وأن تغيير الحكم لن يُبدّل شيئاً ما دامت السلطة بيد الروس، وهذا ما حدث فلم يحصد المسلمون سوى الشوك الذي ثقّب أجسادهم.

عقد المسلمون مؤتمراً كبيراً في مدينة موسكو شهده تسعمائة مندوبٍ من الأقاليم الإسلامية كافةً والتي تقع تحت دائرة نفوذ الإمبراطورية الروسية وكان ذلك في شهر رجب من عام ١٣٣٥ هـ، وبرزت في المؤتمر أفكار تحاول التوفيق بين الإسلام والاشتراكية نتيجة الجهل القائم على الرغم من السمة البارزة في المؤتمر في التركيز على الإسلام والارتباط فيه والتعظيم له، والتعاون مع أمصار الأمّة الإسلامية في أيّ مكانٍ كان موقعها على الأرض، وظهر على الساحة فريقان، فالتتار يرون استقلال المسلمين الذاتي ضمن دولةٍ روسيةٍ، ويُخالفهم أهل تركستان وأذربيجان الذين يرون اتحاد المسلمين وانفصالهم عن الروس. ولا نستطيع أن نقول: إن التتار كانوا أقلّ حماسةً من إخوانهم المسلمين من أهل تركستان وأذربيجان أبداً، وإنما كثرة الروس الذين عاشوا بجانبهم مُستعمرين، وطول الزمن الذي قضوا معهم وهو أربعة قرونٍ كان له أثر، مع أن رؤية المستعمرين الظالمين لهم على الدوام بالقرب منهم يُؤدّي إلى الكراهية لهم والحقد عليهم إلّا أن هذا يزيدهم استعلاءً عليهم بالإيمان لا حقداً ويريدون منهم أن يروا منهم أخلاقهم الإسلامية عندما يكونون حُكّاماً، أو على الأقل مُساوين لهم في شؤون السلطة. ومع وجود فريقين أو اتجاهين بين المسلمين في مؤتمر موسكو، فقد كان هناك اتفاق على بعض النقاط الأساسية، وصدر عن المؤتمر القرارات الآتية:

١ً ـ تشكيل إدارةٍ مركزيةٍ لتنسيق شؤون الملّة الإسلامية.

٢ً ـ تشكيل مجلسٍ إسلاميٍ مركزيٍ (ملي شورى).
٣ً ـ تشكيل لجنةٍ إسلاميةٍ تنفيذيةٍ.

وفي شهر رمضان من العام نفسه أي بعد شهرين من مؤتمر موسكو عُقد مؤتمر في قازان حضره مسلمون حوض نهر الفولغا والقرم وشمالي القفقاس فقط، وتقرّر فيه العمل على فكرة اتحاد المسلمين في الامبراطورية الروسية، وأعلن عن وحدتهم ثقافياً وسياسياً، وعُزّزت الإدارة الإسلامية المركزية بإنشاء مجلسٍ حزبيٍ (حزبي شورى) مقرّه قازان، وكان شديد الحرص على وحدة المسلمين.

بدأ المجلس الإسلامي بتجنيد المسلمين تحت قيادة ضباط من التتار والباشكير. وأنشأ المجلس إدارةً دينيةً مركزها مدينة (أوفا) كُلّفت بالإعداد لعقد مجلسٍ ملّي في (أوفا) في ٤ صفر من عام ١٣٣٦ هـ لبحث مصير المسلمين في الإمبراطورية الروسية، غير أن الثورة الشيوعية قد قامت في مطلع العام أي حوالي الشهر قبل عقد المؤتمر فحالت دون إنجازه.

وإذا كانت الحركات الإسلامية المحلية قد اختلفت في أهدافها إلّا أن هناك نقاط اتفاقٍ تلتقي فيها جميعاً وتعمل لها بحرصٍ شديدٍ، وهي الحرية الجماعية، والمحافظة على الأساس الديني للمجتمع الإسلامي، وافترقت بين الانفصال عن الروس أو الاستقلال الذاتي ثقافياً وسياسياً داخل دولةٍ روسيةٍ اتحاديةٍ اشتراكيةٍ ليبراليةٍ. وكان الداغستانيون يرون أن يكون الإسلام أساساً للعمل، ويرى التركستانيون أن يكون التحرّك بمرونة على حين أن هناك من يرى العلمانية دون الرغبة في هدم الكيان الإسلامي ـ حسب قناعتهم ـ مع أنهم يعملون على هدمه دون علمٍ ومن غير درايةٍ، فإن العلمانية تعني اللادين أي لا إسلام.

في بلاد القرم: لم يلق التتار في شبه جزيرة القرم في هذه المرحلة ما لقيه إخوانهم التتار وغيرهم من المسلمين في حوض نهر الفولغا، إذ أعطتهم

الإمبراطورة كاترين الثانية التي ضمّت بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية الحرية الدينية، وممارسة الشعائر كما أبقت الدعاء للخليفة العثماني أيّام الجمع، وإن لم يستمرّ هذا الأمر طويلًا، حيث صادرت أفضل الأراضي على شواطىء شبه الجزيرة، وعلى كلٍ فإن سياسة اللين هي التي كانت غالبة على السياسة الروسية، وهذا ما أوجد محاولاتٍ من السكان لمسايرة الروس والتعاون معهم، وإن كان هذا لدى فئاتٍ قليلةٍ غير أن هذه الفئات كانت ذات نفوذٍ في الأوساط وقد وُجدت نتيجة الخلاف بين الزعماء فلما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والروس، وكانت شبه جزيرة القرم في مرحلةٍ من الزمن أحد مسارح هذا الصراع لذا فقد نشأ بين المُتنفّذين من يعمل للتعاون مع الروس مُنافسةً للذين يتعاملون مع العثمانيين وبخاصةٍ في الوقت الذي ظهرت فيه قوة الروس وبدا ضعف العثمانيين أو في الأيام التي مالت فيه كفّة القتال لصالح الروس الأمر الذي شجّع وجود عناصر مُؤيّدةٍ لهم أو حرّك ذلك ما في نفوس أصحاب الأطماع دون النظر إلى عواقب الأمور، ومصالح الأمّة الإسلامية والأخوة في العقيدة.

ودعا اسماعيل غسبرالي إلى استعمال اللغة التركية وكتابتها بأحرفٍ (كيريلية) روسيةٍ، وأسّس جريدة الترجمان التي استمرّت في الصدور ما يقرب من ثلث قرن (١٣٠١ ـ ١٣٣٢) في مدينة (باغجة سراي) قاعدة بلاد القرم، وكان صدورها بهذه اللغة التي اقترحها.

ووجد حزب (ملّي فرقة) أي الجماعة الإسلامية عام ١٣٣٥، وعندما حلّت الفوضى في الإمبراطورية الروسية بسبب الهجوم الألماني، والقضاء على الحكم القيصري شكّل المسلمون في القرم حكومةً إسلاميةً تتاريةً في مدينة (سمفروبول) بزعامة حزب (ملّي فرقة) فأعلنت استقلال البلاد، وأجرت الانتخابات العامّة، واجتمع المؤتمر الوطني المنتخب، ووضع دستوراً للبلاد، ولكن قُضي على هذه الحكومة بهجوم مُفاجىء من مدينة (سيباستيبول) بعد

ثلاثة أشهرٍ فقط من قيام الحكومة، وكان هذا الهجوم من قبل الحكومة الروسية.

وبعد ثلاثة أشهر أخرى احتلّ الألمان المنطقة، وشكّلوا حكومةً تتاريةً بإشرافهم من أعضاء حزب (ملّي فرقة)، وبقيت حتى جاء الروس البيض (المانشفيك) أو ما يدعون بالليبراليين، واحتلّوا القرم، وحلّوا حزب (ملّي فرقة)، واستمرّوا بالحكم حتى ورثهم الشيوعيون ثانيةً.

في شمالي القفقاس: جابه سكان شمالي القفقاس الروس بمقاومةٍ عنيفةٍ عام ١١٩٨ هـ قادها منصور أشرمه، ومع ذلك فلم يسمح الروس لأنفسهم بعد السيطرة على المنطقة التدخّل في شؤون البلاد وإنما تركوا للسكان قيادة حكم بلادهم، وهذا ما سبّب تشجيعاً من بعض المتنفذين للولاء إلى المستعمرين الروس، على حين وقف علماء الدين الإسلامي موقفاً عدائياً واضحاً للمستعمرين الأمر الذي جعل المقاومة تأخذ صفة الجهاد أي الطابع الديني. وقاد هؤلاء العلماء القتال ضدّ الروس حتى هُزموا أخيراً، ودخل المستعمرون البلاد بقسوةٍ ووحشيةٍ ذُعر منها السكان ففرّت جماعات من وجههم ورحلوا خارج البلاد، ثم قام الداغستان بحركةٍ أيضاً عام ١٢٩٦، ويبدو أن الداغستانيين كانوا هم المحرّكون الرئيسيون في بلاد شمالي القفقاس كلها. ونتيجة الضغط الذي استمرّ فقد فرّت جماعات جديدة من المنطقة كما أن جماعاتٍ أخرى خافت على نفسها فبدأت تحاول في أن تجد من تعتمد عليه لتحمي نفسها وأُسرها، فتعاون بعض الشباب مع الاشتراكيين، وانضمّ آخرون للشيوعيين، وتعاونت جماعة مع حكومة (بتروغراد) عندما قامت، غير أن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم ذلك النفوذ الواسع، وإنما كان هذا للعلماء الذين كانوا يُقدّرون الوضع أكثر من غيرهم، ويعرفون ما يتّفق مع إسلامهم ومَن أولئك الذين يُعاودنه، لذا فلم يتعاونوا مع حكومة بتروغراد، ولا مع الاشتراكيين، ولا مع الشيوعيين، ولا مع المسلمين الذين اتّخذوا إحدى هذه الجماعات دعامةً لهم، أو سُلّماً يرتقون

عليه، أو وسيلةً لتحقيق مصالحهم، ولم يكونوا في الواقع سوى جماعاتٍ تستند عليها تلك الفئات لتأمين السيطرة على الحكم ثم الضغط على المسلمين، والنصر على مُنافسيها.

ولما كان العلماء هم أصحاب الكلمة المسموعة لذا فلم تنشأ أحزاب سياسية في داخل البلاد ذات أطماعٍ اجتماعيةٍ أو أهدافٍ مُعيّنةٍ لتحقيق بعض مصالح أعضائها، ويظهر أن القاعدة الصلبة في شمالي القفقاس إنما كانت مُركّزة في بلاد داغستان وقوامها العلماء، وقد أعدّوا ما استطاعوا لهم من قوةٍ وتنظيم لإعلان الجهاد، وما أن بدأت أحداث الفوضى في البلاد حتى سيطروا عليها وضبطوا أمرها دون التعاون مع جهةٍ أو المفاوضة مع تنظيم.

في أذربيجان: على الرغم من دخول أذربيجان تحت سيطرة الاستعمار الروسي إلّا أنّ النفوذ الديني كان للعثمانيين والإيرانيين إذ لم يُحاول الروس العمل على تحويل السكان إلى سلاف، كما أن التنصير الإجباري والضغط لم يكن على مستوى ما كان عليه في منطقة حوض نهر الفولغا، وهذه السياسة اللينة نسبياً قد أبقت نفوذاً سياسياً وثقافياً للدولة العثمانية وللإيرانية.

تأسّس في مدينة باكو عام ١٣٢٢ حزب همّة (الإرادة)، وكان شيوعياً، وبرز عام ١٣٢٤، ثم عمل سرًّا حوالي عشر سنوات (١٣٢٥ - ١٣٣٥).

تأسّس في مدينة غاندكا (كيروفوباد) حزب المساواة عام ١٣٢٩، ثم نقل مقرّه إلى مدينة باكو، وأصبح يتكلّم باسم العنصرية الأذربيجانية.

وتأسّس في مدينة باكو أيضاً حزب العدالة وكان جلّ أعضائه من الإيرانيين، وهو الذي أصبح فيما بعد الحزب الشيوعي الإيراني.

ويبدو من أسماء الأحزاب أن الفكر الاشتراكي هو الذي كان سائداً في أوساط المثقفين والسياسيين، وربما كان هذا استغلالاً للفئات الفقيرة البائسة التي وجدت نتيجة الاستعمار الروسي.

في قازاقستان: لم يتدخّل الروس المستعمرون في شؤون القازاق، بل تركوهم على عاداتهم وحياتهم البدوية، كما أعفوهم من الخدمة العسكرية، ولم يسمحوا بالهجرة للريفيين الروس من أجل الاستيطان هناك، واستمرّ الأمر كذلك حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وفي عام ١٣٠٩ صدر الأمر بالسماح للروس والأوكران بالاستيطان في بلاد القازاق فتدفّقت الجموع الكثيرة والتي وصل عددها قبيل الحرب العالمية الأولى إلى مليون مستوطن من الأوكران والروس في بلاد القازاق، وهذا ما دعا القازاق إلى القيام بردّ فعلٍ لمناهضة الاستعمار والانضمام إلى خصوم الحكم سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

تشكّل في قازاقستان عام ١٣٣٠ حزب (ألاش أوردا)، وهو غير مبالٍ بالإسلام لا إيجاباً ولا سلباً، ويعمل للوحدة التركية، ويُطالب بإيقاف التدفّق الاستعماري الروسي للمنطقة.

كما تأسّس حزب القبائل الثلاث (أوش جوز) ويدعو إلى الوحدة الإسلامية، ويُعادي الروس، ويُنافس حزب (ألاش أوردا)، وأخذ يتّجه نحو العمل إلى التغيّرات الجذرية، ويُناهض التتار، ونتيجةً للكراهية القائمة للحكم الروسي المُتسلّط فقد اتّجه قادة هذا الحزب إلى الشيوعيين.

وفي عام ١٣٣٤ انفجرت ثورة القبائل القازاقية ضدّ تصرّفات المستوطنين الروس وتجاوزاتهم، ولكن أُخمدت هذه الثورة بوحشيةٍ فأُبيدت قبائل كاملة، وفرّت قبائل أخرى إلى الصين. واضطر حزب (ألاش أوردا) الذي كان يعطف على الروس نسبياً ويُطالب بإيقاف تدفّق الأفواج الروسية نحو بلاد القازاق اضطر أن يُغيّر هذا الخط وأن يتبنّى فكرة طرد الروس من البلاد.

وفي ربيع عام ١٣٣٥ اندلعت حركة من جديد، وقامت جمهورية قازاقستان ذات الاستقلال الذاتي، وأوكل أمر هذه الجمهورية إلى حزب

(ألاش أوردا) الذي تولّى إدارة المنطقتين الوسطى والشرقية من **قازاقستان**، واستمرّت هذه الحكومة حتى جاء الشيوعيون.

في تركستان: بعد احتلال الاستعمار الروسي لتركستان ووضعها تحت إشراف إدارةٍ عسكريةٍ تخضع لها حكومة عموم تركستان، بقيت إمارتان هما: بُخارى، وخُوارزم (خيوه) كمحميتين وتتمتعان بالاستقلال الذاتي، وأُعفي السكان من الخدمة العسكرية، وتُركوا لقوانينهم وتقاليدهم، وعُزلوا عن التتار وسكان حوض الفولغا عامةً، كما لم يُحاولوا صهرهم بالمجتمع الروسي أو تنصيرهم، غير أن التمييز كان واضحاً بينهم وبين مستعمريهم. واستعمارهم واستغلالهم كان بيّناً أيضاً، ومن هنا كان الكره للروس المستعمرين جليًّا، وتمسُّكهم بالإسلام غير خافٍ.

تشكّل في إمارة بُخارى حزب الشباب البخاري الذي يدعو إلى الإسلام، ويُحرّض على الانفصال عن الامبراطورية الروسية، ويُظهر تحامله على أمير بُخارى الذي يرضى بحماية الروس، وقد نشأ هذا الحزب عام ١٣٢٧، واستمرّ في نشاطه.

وتأسّس عام ١٣٣٥ هـ في مدينة طاشقند حزب الشورى الإسلامية، وقد كان يتبنّى الإسلام، ويعمل على الانفصال عن الامبراطورية الروسية.

ويمكن أن نُعطي صورةً عن المسلمين في الإمبراطورية الروسية في هذه المرحلة وهي أنهم كانوا أصحاب عاطفةٍ إسلاميةٍ يعتزّون بدينهم ويفخرون بعقيدتهم، ويُؤدّون شعائرهم غير أنهم كانوا على جهلٍ تامٍ بالإسلام ففي الوقت الذي كانوا يدعون فيه إلى الإسلام ويستعلون بإيمانهم لم يكن عندهم مانع من الدعوة إلى تطبيق منهجٍ اجتماعيٍ أو اقتصاديٍ مُغايرٍ للإسلام، بل كانت هذه الدعوة هي الشاملة لأكثر السكان، والعامة في مختلف الأوساط، وربما يجد المسلمون غرابةً شديدةً في هذا الأمر، ولكن قد تقلّ هذه الغرابة

عندما يعرفون الجهل الذي كان سائداً إذ لم يكن مفهومهم عن الإسلام ليتجاوز أنه مجموعة من العبادات على المسلم أن يُؤدّيها أما أنه منهج حياةٍ يشمل جميع جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن هذا ليخطر ببال الكثير منهم، إذ لم يروا تناقضاً في تطبيق مناهج معاديةٍ للإسلام، وعلى هذا يكونون قد جزّؤوا الإسلام أجزاء عديدةً أخذوا جانباً واحداً منها وهو جانب العبادات، وعدّوه هو الإسلام، وتمسّكوا به ودعوا إليه وأهملوا الجوانب الأخرى وحسبوها خارجةً عن دائرة الإسلام.

وإضافةً إلى هذا الجهل الذي كان ـ مع الأسف ـ يسود الأمة الإسلامية كلها، يجب أن نلاحظ الأوضاع الاجتماعية التي كانت تسود مناطقهم إذ أن الفقر والبؤس هو الصفة الغالبة للمجتمع المسلم، وأن الظلم والاضطهاد هو الذي كان يُلاحقهم من مُستعمريهم، وأن حالة الروس أفضل وضعاً وأحسن حالاً، وأنهم مع ذلك يدعون إلى نظمٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ لتتحسّن أحوالهم ويصفون ما يدعون إليه أنه يُحقّق العدالة الاجتماعية، ويُوفّر حياةً ماديةً أفضل فتأثّر بذلك المسلمون وقاموا يدعون إلى ما يدعو إليه غيرهم، أو يُردّدون ما يسمعون وكل ظنّهم أن الوصول إلى ذلك يُؤمّن لهم سعادةً.

وأخيراً فإن الكره الشديد الذي تولّد لدى المسلمين ضدّ الروس لما قاموا به من ظلمٍ وأعمالٍ وحشيةٍ قد جعلهم ينضوون تحت لواء كل حركةٍ تُعادي نظام الحكم الروسي الاستعماري بغضّ النظر عمّا تحمل هذه الحركات من دعواتٍ باطلةٍ في نظر الإسلام، فإن المهم عندهم هو إسقاط نظام الحكم أو إذلال سدنته. لذا فقد تبنّى بعضهم أفكاراً تُخالف ما يدعون إليه من إسلام.

وإلى جانب الجهل وعدم الوعي لمفهوم الإسلام والكره الشديد للروس توجد سذاجة واضحة لدى المسلمين فما أسرعهم تصديقاً لأقوال تُجّار السياسة وما أكثرهم وقوعاً في حبائل الانتهازيين إذ كانت تنطلي عليهم الحيل

السياسية فيسير بعضهم في ركاب الاشتراكية وبعضهم في ركاب الشيوعية، وينتمي آخرون لتنظيمات المتنفذين، فقد اتّخذهم خصومهم مطيةً ووصلوا إلى أهدافهم عن طريقهم وهم لا يدرون، وساروا في تكتلات خصومهم وهم يظنّون أنهم يخدمون دينهم، وصدّقوا أعداءهم في ادّعاءاتهم بعدم محاربة الإسلام بل بالعمل لإعطاء المسلمين حقوقهم، فانطلت عليهم مثل هذه الحيل وصدّقوا خداع الشيوعيين فوقعوا فريسةً لهم، وكانوا الهدف الأول لهم والذي وجّهوا إليه سهامهم فأصابوهم في مقاتلهم، وذاقوا مرارة الظلم، وفي النهاية عرفوا كذب المخادعين..... ولكن هل أفادتهم التجارب يا تُرى....؟ وهل يصحون للمستقبل....؟.

وكانت تنظيماتهم السياسية ضعيفةً تبدو على قادتها السذاجة مع تمسّكهم بالإسلام، ويظهر عليها تبديل الوجهة التي أرادوها بعد مناورات السياسيين الآخرين..... وهذا ما جرّهم إلى الهاوية، إذ لم يدركوا أبعاد المرحلة التي كانوا يجتازونها.

الفصل الرابع

مرحلة الفوضى والاضطراب

لكل أجلٍ كتاب، قامت دولة الروس، وتوسّعت، واستعمرت، وارتكبت أبشع الأعمال وأوحشها، وتسلّطت عليها أُسرةٌ فبغت وطغت، وتجبّر قياصرتها وتمادوا في الباطل حتى جاء أمر الله فسقطوا بعد أن أفسدوا، ثم ذاقوا مرارة ظلمهم فقُتل آخرهم، ولم تُسكب عليه دمعة.

مرّت على الامبراطورية الروسية في أواخر أيام قياصرتها مرحلة من الفوضى والاضطراب دامت ما يقرب من ربع قرن (١٣٢٣ ـ ١٣٤٧ هـ) (١٩٠٥ ـ ١٩٢٨ م)، وقد حكم هذه المرحلة ثلاث أنواع من الحكومات وهي: الحكم القيصري (١٣٢٣ ـ ١٣٣٥)، وحكومة موقتة لم تلبث إلا قليلاً (١٣٣٥ ـ ١٣٣٦) وكانت أقرب ما تكون إلى الجمهورية، والحكم الشيوعي وهو حكم الفرد أو الطبقة أو كلاهما معاً، وإذا كانت الأوضاع قد هدأت في أواخر عهد لينين إذ كمّ السيف كل فمٍّ وأخرس كل صوت، إلا أنه قد حدث بعده خلاف على التركة وظهر النزاع السياسي بين كلٍ من ستالين، وتروتسكي، وزينوفيف، وكامينيف حتى ظفر ستالين بخصومه وخرج من المعركة رابحاً، فتفرّد بالسلطة وسحق كل معارضةٍ وكتم أي نفسٍ وبدا الهدوء.

هذه المرحلة من الفوضى بدت للمسلمين خيراً في أولها فتحرّكوا ثم لم

يلبثوا أن رأوا أن الروس على اختلاف نزعاتهم ومهما بلغ ما بينهم من صدامٍ يبقى بعضهم أقرب إلى بعضٍ من المسلمين مهما تقرّبوا إليهم، وانضووا في صفوفهم وقاتلوا تحت لوائهم، وحملوا أفكارهم، بل وإنّ أيّ نصراني من أيةِ بقعةٍ من بقاع الأرض مهما نأت، وإلى أيّ مذهبٍ انتمى هو أقرب إليهم من المسلمين جميعاً حتى ولو تبنّوا آراءهم ودافعوا عنها، وما توا في سبيلها.

وكان المسلمون في هذه المرحلة على درجةٍ من السذاجة والغباء لا تُوصف، فقد استُغلّوا بأبسط الشعارات، وخُدعوا بأقلّ الكلمات، ومع تمسُّكهم بدينهم وكرههم للروس فقد انجرفوا معهم، وساروا مع هذه المجموعة من الأحرار، ومع تلك من الاشتراكيين، ومع أخرى من البيض، ومع رابعة من الثوريين، ومع البورجوازيين حتى سيطرت أبغضها إليهم وارتقت على أكتافهم فلما تمكّنت نكست بما عاهدت عليه وكانت أولى جرائمها وأخسّها وأوحشها ما وجهته إلى المسلمين الذي لا يزالون تُصيبهم النكبات فما ينهضون من نازلةٍ حتى تحلّ بهم أُخرى، وما يخرجون من حُفرةٍ حُفرت لهم إلا ليسقطوا في هوة أعدّت لهم.

ثورة عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥): قامت حركة عنفٍ بسبب تردّي الأوضاع وسوء تصرّف المسؤولين، وقد دامت عدة أشهرٍ ونتج عنها أن أعطيت الحرية الدينية، ووافق القيصر على النظام النيابي عام ١٣٢٤، وقد انتخب المجلس (الدوما)، وكان يضمّ خمسةً وعشرين عضواً من المسلمين.

ونتيجة قيام المجلس النيابي فقد حدث عدة أزماتٍ وزاريةٍ بين ١٣٢٤ - ١٣٣٢ بسبب الخلاف بين المجلس النيابي والحكومة. وتكوّنت معارضة ممن أطلقوا على أنفسهم اسم الأحرار، وتألّفت منهم كتلة ضمّت أنصار النظام النيابي. وبدؤوا يُطالبون بتشكيل وزارةٍ تنال ثقة المجلس النيابي، غير أن الإمبراطور كان يرفض دائماً هذا المطلب.

أما المعارضة الاشتراكية فقد كانت تتمثّل في فئاتٍ ثلاثٍ وهي :

١ ـ الاشتراكية الثورية : وهي أكثر الفئات الثلاث اعتدالاً .

٢ ـ المانشفيك : وهي مجموعة ماركسية ، ولكنها لا ترى انتزاع السلطة بالقوة .

٣ ـ البلشفيك : وهي مجموعة ماركسية أيضاً ، وتعمل على استلام السلطة بالقوة ، ويرأسها لينين .

وإضافةً إلى المعارضة السياسية والنيابية هناك الرأي العام الذي كان مُستاءً لدرجةٍ كبيرةٍ من القيصر خاصّةً ومن القصر عامّةً ، وربما كان (راسبوتين) وأثره الكبير على القصر أهمّ أسباب الاستياء ، حتى إن مجلس الأعيان الذي كان يعدّه القيصر أكبر دعامةٍ له ، وينظر الشعب إليه أنه ركيزة الأُسرة المالكة ونظام الحكم ، قد صوّت هذا المجلس لصالح النظام النيابي ، وحتى طالب أعضاء الأُسرة المالكة القيصر بوجوب تعديل طريقة الحكم .

وإن هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) قد شجّع الحركات المناوئة للسلطة الروسية ، وبعد أن كانت تبدو في أعين المعارضة قويةً إذا بها تنهار في نظرهم ، بل إن الغرب كله قد بدا هزيلاً ، بعد أن كان يظهر كالشبح في نظر الشرقيين ، وأصبح التفكير يتّجه نحو إمكانية إحراز النصر من الشرق على الغرب . ومع الطغيان ، وكثرة المفاسد فقد تحرّكت ثورة ١٣٢٣ هـ ، واشترك فيها بعض المسلمين في بعض الأقاليم سواء أكان ذلك عفوياً أم عن سابق تصميمٍ ، وخاصّةً في قازان (حوض الفولغا) ، وفي باكو (أذربيجان) .

أنشأ طلاب المدرسة المحمدية في قازان عام ١٣٢٢ هـ الحركة الإصلاحية التي كانت تدعو إلى المطالبة بالحرية السياسية غير أن مطالبهم قد تحوّلت بسرعةٍ إلى إضراباتٍ ثوريةٍ ضدّ الروس . غير أن المؤتمر الإسلامي الذي عُقد

في بطرسبورغ عام ١٣٢٤ قد رأى تأييد الحزب الديمقراطي الدستوري الروسي قد يُفيد منه المسلمون لذا دعا إلى دعمه.

وانتشرت الأفكار الاشتراكية في أذربيجان أكثر من غيرها من المناطق، وقد تأسّست عام ١٣٢٢ هـ نقابة عمال الطباعة المسلمين، وتأسّس الاتحاد الوطني لموظفي التجارة التتار، وكانت وجهات نظرهم تتفق مع الاشتراكية الديمقراطية.

واستمرّت الفوضى في الحكم، واندلعت نار الحرب العالمية الأولى، والوضع غير مُستقرٍّ، ومُعارضة الحكم والقيصر والقصر على أشدّها، وباشتراك روسيا في الحرب زاد الطين بلّةً.

ثورة ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م): غادر العمال المعامل في بتروغراد يوم ١٥ جمادى الأولى عام ١٣٣٥ هـ (٨ آذار ١٩١٧ م) وتظاهروا في الشوارع نتيجة المفاسد القائمة فاصطدموا مع الشرطة، وأخرجوا السجناء من المعتقلات، فاستدعت الحكومة الجيش فرفض قادته التدخّل إذ ادّعوا أنهم في شغلٍ بالحرب عما سواها فقدّمت الحكومة استقالتها، وأعطى القيصر نيقولا الثاني بصفته القائد الأعلى للجيوش الأمر لجنوده بالزحف على بتروغراد يوم ٢٠ جمادى الأولى (١٣ آذار) فأبوا وكان هو يُرابط في رئاسة الأركان بسبب ظروف الحرب.

تشكلّت حكومة مُوقتة يوم ٢١ جمادى الأولى برئاسة الاشتراكي كيرنيسكي، واشترك فيها الاشتراكيون والحزب الديمقراطي الدستوري. وتنازل القيصر عن العرش لأخيه الأكبر ميخائيل يوم ٢٣ جمادى الأولى (١٦ آذار) فجاء ميخائيل إلى بتروغراد فوجد أن الاحتفاظ بالحكم أمر مستحيل فتنازل عنه يوم ٢٤ جمادى، وخوّل الحكومة الموقتة تسيير شؤون البلاد، وأعلن أن اختيار نوع نظام الحكم في روسيا إنما يعود إلى الجمعية التأسيسية، وريثما تتكوّن فإن السلطات كافةً إنما تتولّاها الحكومة الموقتة.

كانت الحكومة الموقتة ضعيفةً بسبب الخلاف في الرأي بين الديمقراطيين الدستوريين وبين الاشتراكيين وخاصةً فيما يتعلّق بالحرب. ولأن الديمقراطيين الذين وقف المسلمون بجانبهم قد كانوا يعملون ضدّهم ـ وليس هم وحدهم وإنما الروس كلهم ـ إذا كانوا يُطالبون بتخفيض عدد المسلمين في المجلس النيابي إلى خمسة أعضاء فقط، ونُلاحظ أن عدد الأعضاء المسلمين في المجلس الأول كانوا خمسةً وعشرين، وفي المجلس الثاني خمسةً وثلاثين عضواً، وفي المجلس الثالث كانوا عشرة أعضاء، وفي المجلس الرابع بقوا سبعة أعضاء.

ولم يكن الرأي العام ليهتمّ بالحرب وإنما شُغل بأحداث الإمبراطورية الداخلية ولعلّ منها توزيع الأراضي، حتى إن الجنود على الجبهة كان توزيع الأراضي يشغلهم إذ ستُوزّع وليس لهم من نصيب ما داموا بعيدين عن القسمة، ويرون أن من حقّهم أن يُعطوا ويعفوا من حضورهم ما داموا على الجبهة يذودون عن البلاد، ولكن هذا لن يحدث لذا كان كثير منهم يترك الجبهة وينطلق إلى منطقته ليأخذ نصيبه. ووجد (ميليوكوف) وزير الخارجية في الحكومة الموقتة وهو عضو في حزب الديمقراطيين الدستوريين أن يستقيل من منصبه لعدم اهتمام الرأي العام بشؤون البلاد العامّة والحرب، فلعلّ استقالته تلفت النظر، فترك منصبه في ١١ رجب ١٣٣٥ (بداية أيار ١٩١٧).

ولم يجد المسلمون لأنفسهم نصيراً بين الروس. وقد حضر بعضهم من التتار والقفقاس والقيرغيز مُؤتمر الأقلّيات الذي عُقد في لوزان في شعبان ورمضان ١٣٣٤ هـ (حزيران وتموز ١٩١٦) دون كبير اهتمام. وأسّس جماعة من اللاجئين التتار في ألمانيا صحيفة الجهاد برئاسة عبد الرشيد إبراهيم، وتُوجّه بصورةٍ خاصةٍ إلى أسرى الحرب المسلمين الذين أُخذوا من الجيوش الروسية، ولكن لم يلفت هذا أيضاً الانتباه.

عاد لينين إلى روسيا في جمادى الأولى ١٣٣٥ (آذار ١٩١٧) بعد أن

سمحت له ألمانيا بالمرور من أراضيها على الرغم أنه من بلادٍ مُعـاديـة والحرب قائمة بين الطرفين وكان يُقيم في سويسرا، وأخذ يُنادي بمبدأ تقرير المصير للأقلّيات، وهذا ما جعل بعض المسلمين ينضمّون إلى البلشفيك على أن هذه المناداة وعد منهم إذا ما تسلّموا السلطة فأصبح كثير من المسلمين يتمنّون أن ينجح البلشفيك في مُهمّتهم لينال المسلمون حقوقهم، فاتّجه المسلمون بذلك نحو الاشتراكية بدافع كره الروس، والنظام القائم، ورغبةً في أن يُحقق ذلك مصالـح للمسلمين، وهـذا مـا تّم في مُعظـم الأقـاليم الإسلاميـة عـدا بلاد داغستان، كما اعتمد البلشفيك في دعايتهم على إنهاء الحرب مُباشرةً وإجراء الصلـح، وتقسيم الأراضي بين الفلاحين، وتسليم السلطـــات لمجلس العمال والجنود الذي تشكّل بصورةٍ عفويةٍ في بتروغـراد (سـوفيـت بتروغـراد)، وهكذا بدأ البلشفيك يقوى مركزهم إذا أخذ العمال والفقراء والمسلمون يتّجهون نحوهم أملاً بالفرج ومن غير علمٍ بما يكون، وفي الوقت نفسه كانت الحكومة الموقتة يزداد موقفها ضعفاً، وتزيد أحداث القتال الناس خوفاً من المستقبل.

اتّحد الزعماء المسلمون الذين يُؤيّدون الاشتراكيين الثوريين و الديمقراطيين الدستوريين وشكّلوا اللجنة الإسلامية التي نشأت عنها الجبهة الوطنية التتارية، ونظّمت لجان العمال التي انضمّ بعضها إلى بعض تحت اسم اللجان الاشتراكية الإسلامية، فلم تلبث أن أصبحت تسير بخط البلاشفة، وأصدرت صحيفة قيزيل بيرق (العلم الأحمر) رغم بعدها عن الشيوعية، وليس هناك من صلاتٍ بين الطرفين، وإنما تتفق معهم على موضوع إنهاء الحرب، وتقسيم الأرض وتحويل السلطة إلى السوڤييت (مجلس العمال).

وعقد الأعضاء المسلمون في المجلس النيابي (الدوما) الرابع مُؤتمراً في بيتروغراد، ودعوا أُناساً من غير النواب، وقرّروا إنشاء مكتبٍ مُوقتٍ للمسلمين في الإمبراطورية الروسية، وتولّى إدارته أحمد تساليكوف القفقاسي

المنشفيكي، كما قرّروا عدم التعاون مع الأحزاب الروسية، وفي طليعتها الحزب الديمقراطي الدستوري لخيانته المسلمين. وبجهود هذا المؤتمر تمّ عقد مؤتمر موسكو في ٨ رجب ١٣٣٥ (١ أيار ١٩١٧).

انعقد مؤتمر موسكو، وعمل على التوفيق بين الإسلام والاشتراكية، ولم يقاطع المؤتمر من المسلمين سوى بعض البلاشفة، وطالب الحكومة الموقتة بالمساواة في الحقوق المدنية مع الروس، والاستقلال بالأمور الدينية، وأن يكون المفتي مُنتخباً من قبل المسلمين ليس مُعيّناً من قبل الحكومة، وإنهاء الاستعمار الريفي، وحصر الأراضي بالسكان الأصليين، ولم يُطالب بالاستقلال الذاتي عن روسيا بل لم يقترح أحد من الحضور ذلك. كما كان من جملة مقرراته، أن يكون أسبوع العمل ٤٨ ساعة أي ٨ ساعات يومياً، وإلغاء الملكية الخاصّة، ومُصادرة أملاك الدولة وأديرة الكنائس، ومساواة المرأة بالرجل، ومنع تعدد الزوجات، وإنشاء مديرية للشؤون الإسلامية في (أوفا)، والمحافظة على الوحدة التركية، والوحدة الإسلامية. وانقسم المؤتمرون فريقين يرى أحدهما الاتحاد مع روسيا على حين يرى الآخر الاستقلال عنها. كما تقرّر إنشاء المجلس الوطني المركزي الإسلامي (ملّي شورى) ويكون مقرّه موسكو، وتُمثّله لجنة تنفيذية في بتروغراد، ولكن لم يكن لهذه المجالس أيّة سلطاتٍ، وكان المسلمون في كل إقليمٍ يُواجهون أعداءهم الروس، ويُواجهون المشكلات، وكل إقليمٍ يحلّ مشكلته بنفسه. وكان الجميع يتكلّمون بلهجةٍ تتاريةٍ. وعلى كل فقد كان النصر بشكلٍ عامٍ للمنشفيك.

وعقد مؤتمر في قازان في شهر رمضان ١٣٣٥ (تموز ١٩١٧) وحضره تتار الفولغا، وتتار القرم، ومندوبون عن شمالي القفقاس، ورفض التركستانيون والأذربيجانيون الحضور، وانبثق عنه مؤتمر ديني وآخر عسكري. وكان من قرارات المؤتمر الوقوف في الانتخابات إلى جانب

الاشتراكيين الروس، وإنشاء الوحدات العسكرية (الشورى الحربية)، وبـدأوا بتشكيل الكتائب العسكرية. ثم اجتمع المؤتمر بفروعه الثلاثة في مطلع شهر شوال عام ١٣٣٥ (٢٢ تموز ١٩١٧)، وتنازلوا عن الأفكار الاتحادية مع الروس، وأعلنوا الاستقلال الثقافي لأتراك روسيا وسيبيريا وأنشأوا مديريةً وطنيةً للشؤون الإسلامية (ملّي إدارة) في أوفا.

ثورة ١٣٣٦ (١٩١٧ م): إن المشكلة في تأريخ الأحداث وجود أكثر من تقويم الأمر الذي يجعل الاختلاف بيّناً لدى القرّاء فالتقويم الروسي ينقص عن التقويم الشمسي المتعارف عليه (١٣) يوماً في هذا القرن، ويزيد يوماً آخر في كل قرنٍ، لذا ففي تقويمهم هي في تشرين الأول وهو الشائع والمتعارف عليه على حين أنها في الواقع في مطلع شهر تشرين الثاني، وقد أحببت التنبيه إلى هذا الخطأ.

أعطى لينين أوامره بصراحةٍ وبالهاتف لجماعته البلاشفة فتسلّموا السلطة دون مُقاومة، ولم يدعم الحكومة سوى الطلاب الضباط في الكلية الحربية والذين قُتلوا جميعاً، وفي اليوم الثاني تشكّلت حكومة جديدة برئاسة لينين، وفرّ رئيس الحكومة الموقتة كيرينسكي.

وفي اليوم الثاني لتشكيل الحكومة البلشفية تمّ تأميم الأراضي التابعة للكنيسة وللأغنياء، وتمّ طلب الصلح مُباشرةً، وعندما رفض رئيس الأركان السفر لإجراء المفاوضات مع الألمان، كُلّف مُلازم ثان للقيام بهذه المهمة، وبعد خمسة أيامٍ، وُضعت المعامل تحت رقابة العمال. ثم انعقدت الجمعية التأسيسية فكان أكثرية أعضائها بجانب الاشتراكيين الثوريين أنصار كيرينسكي فصدر قرار بحلّها يوم ٥ ربيع الثاني ١٣٣٦ (١٩ كانون الثاني ١٩١٨). ثم صدر قرار في ٧ جمادى الأولى ١٣٣٦ (١٩ شباط ١٩١٨) بتأميم الأراضي جميعها وإلغاء الملكية الخاصة. وفي مطلع شهر رمضان من العام نفسه (١٠ تموز ١٩١٨) حصر حق الانتخاب في السوفييت.

المقاومة الروسية: وفي منتصف عام ١٣٣٨ (ربيع ١٩١٩) بدأت المقاومة الروسية للبلاشفة، وأحاطت ببلاد الروس تقريباً فمن جهة الجنوب قام الجنرال (الكسيف) الذي كان القائد الأعلى للجيش الروسي أيّام الحكم القيصري، وكان يساعده الجنرال (كورنيلوف) الذي عيّنه رئيس الحكومة الموقتة (كيرينسكي) قائداً عاماً للجيش ثم اختلف معه فأقاله، فحاول في عام ١٣٣٥ القيام بمحاولة انقلابٍ على حكومة كيرينسكي ولكنه فشل، كما كان يساعده الجنرال (دينيكين) الذي أصبح القائد العام لجيوش روسيا البيضاء.

ومن جهة الشرق في حوض نهر الفولغا قامت حكومة برئاسة لوبيديف الاشتراكي الديمقراطي. وكذلك قامت في سيبيريا حكومة مناوئة للبلشفيك، وتسلّم الأميرال (كولتشاك) وزارة الحربية فيها، ثم تفرّد بالأمر، وطرد زملاءه، وركّز السلطات في يده.

ومن ناحية الغرب قامت حركته في المناطق المُطّلة على بحر البلطيق.

المناطق الإسلامية: لما حدث الانقلاب الشيوعي في مطلع عام ١٣٣٦ هـ كانت الحركة الإسلامية نشيطةً غير أنها لم تكن مُنظّمةً، ولم تتوضّح طريقها بعد، ولم تُحدّد أهدافها، إضافةً إلى ذلك لم تكن لها أجهزة عسكرية تُمكّنها من حفظ أقاليمها، والسيطرة عليها، وفي الوقت نفسه لم تكن لها أجهزة مدنية تستطيع بواسطتها أن تُواجه الأزمات والمشكلات التي تكاد تستجدّ يومياً. كما أن الأفكار عند المسلمين كانت متداخلةً بعضها مع بعض ففي الوقت الذي يتمسّكون فيه بإسلامهم ويعملون له، ويدعون إلى الوحدة الإسلامية كانت الأفكار الاشتراكية المعادية للإسلام مقبولةً لديهم بل ربما يرون فيها الطريق السليمة ولا يجدون فيها تعارضاً مع عقيدتهم أبداً، وأنها ليست سوى منهجٍ اقتصاديٍ فيه حلّ ما يُعانون من مُشكلاتٍ حسب تصوّراتهم، ولعلّ ذلك دخلهم من معارضة الفكر الاشتراكي لنظام الحكم الروسي الذي لا يرون سواه خصماً لما قاسوا من ظلمه وما ذاقوا من مرارته لذا كانوا بجانب

الاشتراكيين يُؤيّدونهم دون أن يروا منهم مساعدة بل كانوا عليهم أيضاً حرباً فهم من الروس، غير أن مُعارضة نظام الحكم كانت تُغطّي سيئاتهم عند المسلمين، ومن ناحية أُخرى فإن الوضع البئيس الذي كانوا يعيشون فيه جعلهم يرون في الاشتراكية مُنقذاً، وأخيراً فالجهل هو سبب كل بلاءٍ، فقد كان جهلهم بالإسلام يزيد على جهلهم بالاشتراكية التي لا يعرفون منها ولا عنها شيئاً.

ولما قام الانقلاب الشيوعي في روسيا قام في الوقت ذاته انقلاب في المناطق الإسلامية على الحكومات القائمة فيها، ولكن لم يستهدف سوى الروس الذين كان الصراع فيما بينهم. أما المسلمون فقد وقفوا على الحياد، أو موقف المتفرّج إذ سرّهم أن يروا الروس يُقاتل بعضهم بعضاً وقد كانوا من قبل كتلةً واحدةً يفتكون بالمسلمين.

بعد أن تسلّم البلاشفة السلطة سعوا إلى كسب ودّ المسلمين فوجهوا نداءً إلى العمال المسلمين في أنحاء الامبراطورية كلها، ووقّع هذا النداء لينين رئيس الحكومة وستالين مفوض الشعب لشؤون القوميات وقد جاء في هذا النداء: يا مسلمي روسيا من تتار الفولغا والقرم، وقيرغيز وسكان سيبيريا وتركستان، وترك وتتار ما وراء القفقاس، وتشاشان وجبلي القفقاس الذين هدّم قياصرة روسيا المستبدّون مساجدهم وبيوت عباداتهم، والذين أُهينت مُعتقداتهم وعاداتهم. اعلموا أن معتقداتكم وعاداتكم ومعاهدكم الوطنية والثقافية ستكون بعد الآن حرةً محترمةً. نظّموا حياتكم الوطنية بحريةٍ تامةٍ من غير معارضةٍ من أحدٍ، فهذا حقّكم، واعلموا بأن الثورة كلها وبكامل مُنظّماتها، من منظمة اتحاد المندوبين إلى منظمة العمال إلى منظمة الجنود إلى منظمة الفلاحين تحمي حقوقكم، كما تحمى حقوق كل شعوب روسيا. فانصروا إذن هذه الثورة.

ثم بدأ زعماء البلاشفة يتصلون برجالات المسلمين ويطلبون منهم التعاون وجلب المسلمين إلى صفوف الثورة كي لا تتعرّض الحركة الانقلابية لحركةٍ

ثوريةٍ مُضادّةٍ يعود فيها القياصرة إلى التسلّط، ويكون نصيب المسلمين من الاضطهاد كبيراً، ولا شك فإن الاستجابة لزعماء البلاشفة وتحقيق رغباتهم كان يتفاوت من مكانٍ إلى آخر، ومن زعيمٍ إسلاميٍ إلى ثانٍ، كما أن ردود الفعل الإسلامية كانت مُتباينةً بين إقليمٍ وإقليمٍ.

أ ـ **حوض نهر الفولغا:** عندما نشب القتال بين البلاشفة من المسلمين سوى بعض أعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، وعددٍ قليلٍ من العمال، وسريةٍ أو سريتين من حامية المدينة من التتار، والطريقة الصوفية الفيزوقية التي تُسمّي نفسها جيش الله الفيزوقي إذ كانت تعدّ قتالها بجانب البلاشفة جهاداً في سبيل الله، وربما كان هذا التصرّف ناتج عمّا لقيه المسلمون من الحكم الروسي، وللجهل المُخيّم عليها وعلى أعضائها حيث لم يكن أحدهم يعرف حقيقة الانقلابيين أو القادمين للحكم، بل ولم يعرف شيئاً عن الإسلام.

إن اللجنة الثورية الأولى التي تشكّلت في قازان يوم ١٠ محرم ١٣٣٦ لم يكن فيها أحد من المسلمين أبداً بل كانت تضمّ عشرين عضواً كلّهم من الروس. وإن مجلس مفوضي الشعب الذي أُنشىء في شهر صفر من العام نفسه كان يشمل عشرةً من الروس وتتارياً واحداً. غير أنه بعد عام بدأ بعض المسلمين ينضمّون للحزب الشيوعي بشكل فرديٍ لمصالح خاصة وجلّهم من أصحاب المنافع وأراذل الناس. إذ ظلّت السلطة الجديدة تعتمد على الروس أيضاً، وفي الوقت نفسه فإن المُنظّمات الإسلامية بقيت قائمةً ورفضت التعاون. وعندما طلب ستالين من رئيس (ملّي شورى) في بيتروغراد أحمد تساليكوف التعاون مع السلطة الجديدة بشروط لمصلحة المسلمين، عرض أحمد تساليكوف اقتراح ستالين على المجلس الملّي في أوفا فرفض الاقتراح. ولكن ستالين وجد ضالته في رئيس لجنة قازان الاشتراكية الإسلامية منلا نور وحيدوف الذي قبل العرض بصفته الشخصية. وفي ربيع الثاني أُحدثت مفوضية مركزية للشؤون الإسلامية وكُلّفت ببلشفة المسلمين.

بقيت المنطقة تعيش في فوضى خلال عدة أشهرٍ من تسلّم البلاشفة السلطة إذ ظلّت المنظّمات الإسلامية قائمةً مثل منظمة (ملّي شورى) و (ملّي إدارة) وتعملان في البلاد التتارية وتُمارس مسؤولياتها إلى جانب النظام البلشفي، وكذلك كانت منظمة (حربي شورى) تسيطر على الوحدات العسكرية الإسلامية على حين كان جنود الجيش الأحمر ـ وكلّهم من المرتزقة ـ يُسيطرون على الوحدات غير الإسلامية، ومعنى ذلك أنه كانت ازدواجية في السلطة. غير أن الروس لم يلبثوا أن قرروا وضع حدٍّ لاستقلال المنظمات الوطنية الإسلامية وتصفيتها بمنتهى العنف وبشكلٍ سريعٍ.

عُقد في قازان المؤتمر الثاني العسكري لمسلمي الامبراطورية الروسية يوم ٢٥ ربيع الثاني ١٣٣٦ (٨ شباط ١٩١٨)، وحضره مائة وخمسون مندوباً يُمثّلون الجيوش الإسلامية، والعلماء، والمُنظّمات السياسية الباشكيرية والتتارية، كما حضره مُمثّلون عن مُنظّمة (ملّي شورى) في بيتروغراد، وعن مُنظّمة (ملّي إدارة) في أُوفا. كانت أكثرية الحضور يُمثّلون المعتدلين ممن يُطلق عليهم (اشتراكيون ثوريون ومنشفيك) وبجانبهم أقلية من البلاشفية وأنصارهم. وقد هنّأ المؤتمر مجلس مفوضي الشعب على حلّ الجمعية التأسيسية إذا لم يكن يريد قطع العلاقة مع حكومة موسكو. بشكلٍ صارمٍ، ولما وافق المجلس على قرارٍ يقضي بإحداث دولةٍ وطنيةٍ تتارية ـ باشكيرية باسم (ايديل أورال) ثارت ثائرة الأقلية واتّهمت الأكثرية بخلق الفتنة، وانسحبت من المؤتمر ٤ جمادى الأولى ١٣٣٦ (١٧ شباط ١٩١٨) احتجاجاً على هذا القرار فاستغلّ مجلس سوفييت قازان ما حدث واتّخذ ذلك ذريعة للتدخل، وفي ١٣ جمادى الأولى (٢٦ شباط) أعلن حالة الطوارىء، وألقى القبض على زعماء مُنظّمة (حربي شورى)، فهرب بقية الزعماء إلى ضاحية مدينة قازان والواقعة بعد نهر بولاق، وأعادوا تأليف حكومتهم هناك وعُرفت باسم جمهورية ما وراء بولاق (ترانس بولاق)، ولكن لم تلبث أن جاءتها قوة كبيرة قضت عليها. وهذه التجربة الوحيدة التي قام بها التتار للاستقلال عن الروس.

وصدر في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٣٦ (١١ آذار ١٩١٨) قرار بإلغاء فرقة الحرس الإسلامي في مدينة بتروغراد، وكذلك فقد صدر في ١١ جمادى الآخرة ١٣٣٦ (٢٦ آذار ١٩١٨) قرار بإلغاء منظمة (حربي شورى) المركزية مع جميع فروعها الإقليمية، وأُلغيت في ١٨ جمادى الآخرة (٢ نيسان) كل الصحف غير البلشفية، وبعد عشرة أيامٍ صدر قرار يقضي رسمياً على وجود منظمات (ملّي شورى) و (ملّي إدارة).

أُعطيت المفوضية المركزية للشؤون الإسلامية صلاحياتٍ واسعةً حيث كانت تعتني بشؤون المسلمين كلّها، وأُنشئت الكلية المركزية العسكرية في ١٧ رمضان ١٣٣٦ (٢٩ حزيران ١٩١٨) وتسلّم سلطان غالييف رئاستها، وأُلحقت هذه الكلية بالمفوضية المركزية.

ويبدو أن الذين تعاونوا مع النظام البلشفي لم تنسخ من أذهانهم فكرة العمل لتأسيس دولةٍ مسلمةٍ داخل دولةٍ روسيةٍ على أساسٍ اتحاديٍ، بل بقوا يعلمون ضمن هذا المخطط ويهدفون إلى إنشاء حزبٍ شيوعيٍ مستقلٍ وبإدارةٍ إسلاميةٍ، ولذا فقد نشأت مفوضيات إسلامية إقليمية ترتبط بالمفوضية المركزية، وأُطلق على هذه المفوضيات اسم «موسكومس»، وقد شجّع هؤلاء المتعاونون وعلى رأسهم ملانور وحيدوف، وسلطان غالييف على الاستقلال التنظيمي للشيوعية الإسلامية لعدم ثقتهم بالروس، وقد دعيا هذان الزعيمان إلى عقد مؤتمرٍ للعمال المسلمين في موسكو يوم ٢٣ جمادى الأولى ١٣٣٦ (٨ آذار ١٩١٨)، ودُعي إليه الشيوعيون ومُؤيّدوهم، وأسفر عن تشكيل حزبٍ اشتراكيٍ شيوعيٍ إسلاميٍ. ثم دعا ملانور وحيدوف وسلطان غالييف إلى أول مؤتمرٍ شيوعيٍ إسلاميٍ يُعقد في قازان في ٥ رمضان ١٣٣٦ (١٧ حزيران ١٩١٨) وتقرّر في هذا المؤتمر الذي تمّ عقده في الموعد والمكان المحدَّدين له تسمية الحزب المزمع إنشاؤه الحزب الروسي للشيوعيين المسلمين، وأُخذ دستوره من الحزب الشيوعي الروسي لكنه ظلّ مستقلاً عنه.

وعمل سلطان غالييف مدير الكلية المركزية العسكرية على جمع الوحدات الإسلامية العسكرية التي وجدت والتي بلغ عدد أفرادها خمسين ألفاً في جيشٍ أحمر مسلمٍ واحدٍ يعمل على ترسيخ الثورة الاشتراكية في المناطق الإسلامية الخاضعة لروسيا أولًا ثم في بقية أرجاء العالم الإسلامي، غير أن أمله قد خاب إذ خاف الروس من إحياء فكرة الاستقلال الذاتي ضمن الدولة الروسية لذا فقد أسرعوا ووضعوا الكتائب الإسلامية تحت القيادة العامة للجيش الأحمر الروسي، ودمجوها مع أفواج رفاقهم الروس.

كان هدف الزعماء المسلمين الاشتراكيين إقامة دولةٍ شيوعيةٍ إسلاميةٍ تكون نموذجاً للعمل والفكر، ومنها تنطلق الاشتراكية إلى كل جهات العالم، ووقع اختيارهم على منطقة الفولغا التي تمتدّ من قازان إلى تشيليابنسك أي منطقة التتار والباشكير أو بالأحرى دولة (ايديل ـ أورال)، ولكن هذا لم يكن ليحظى على موافقة الروس بل لا يمكن أن يسمعوا به، غير أن الرغبة في عدم مواجهة المسلمين في هذه الظروف الحرجة قد ألجأتهم إلى الوعد بإنشاء الجمهورية التتارية ـ البشكيرية، وصدر مرسوم بذلك في ٨ جمادى الآخرة ١٣٣٦ (٢٣ آذار ١٩١٨). ولكن لم تلبث أن قامت الحرب الأهلية فعصفت بالمرسوم والوعد معاً.

ب ـ منطقة الأورال: شكل احمد زكي وليد حكومةً باشكيريةً في أورنبرغ في ربيع الأول ١٣٣٦ (كانون الأول ١٩١٧)، وقد وقفت هذه الحكومة على الحياد أمام الصراع القائم بين قوزاق أورنبرغ وبين المرتزقة من الجيش الأحمر، ثم عهد ستالين إلى شريف موناتوف الذي رضي أن يتعاون مع البلاشفة الروس بنيابة رئاسة مفوضية الشعب الإسلامي، فدبّ الخلاف بين أحمد زكي وليد وبين شريف موناتوف، واستطاع الثاني بدعم البلاشفة من إحراز النصر، وقبض الجيش الأحمر على أكثر أعضاء الحكومة الباشكيرية، وفرّ الباقون ومنهم أحمد زكي وليد إلى الجبال وذلك في أواخر شهر ربيع الثاني من العام نفسه.

جـ ـ منطقة القرم: عقد التتار في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣٥ (٢٣ آذار ١٩١٧) مؤتمراً وطنياً في مدينة سيمفيربول، وانتخبوا خلاله لجنةً مسلمةً تنفيذيةً كانت نواة الحكومة الوطنية التي قامت في صفر ١٣٣٦ (تشرين الثاني ١٩١٧) وقد دامت ما يقرب من ثلاثة أشهر إذ هاجمها البلاشفة في (سيبا ستيبول) وقضوا عليها في بداية جمادى الأولى ١٣٣٦ (١٣ شباط ١٩١٨)، وكان أعضاء حزب (ملّي فرقة) أي الحزب الوطني قد تأثّروا بالاشتراكية وبدأوا يُنادون بتأميم أملاك الأوقاف، والملكيات الواسعة، والنضال ضدّ علماء الدين، والتعاون مع الاشتراكية.

د ـ شمالي القفقاس: دعا بعض الزعماء إلى عقد مؤتمرٍ وهدفهم تأييد الحكومة الموقتة الروسية، ونتج عنه تنظيم اتحاد الجبليين، وقد حاولـوا عقـد مؤتمرٍ آخر في بلاد داغستان، ولكن فشلوا حيث النفوذ للعلماء المسلمين كما كان للطريقة النقشبندية دورها.

أعلن اتحاد الجبليين أن بلاد القفقاس جزء من روسيا، على حين أن الداغستان والتشاشان قد انتخبوا نجم الدين غوتسنسكي إماماً لهم، وأوزون حاجي مساعداً له، وأعلنوا عن قيام حكومةٍ مستقلةٍ. وحدثت في داغستان بعض الحركات الدموية لذا أسرع الإمام نجم الدين وأنصاره من الجبال للاستيلاء على السهول التي سبق للروس أن اغتصبوها من أصحابها، ولم يلبث أن قام الشيوعيون بانقلابهم، غير أن المسلمين قد بقوا بعيدين في داغستان عن الآثار المباشرة لذلك الانقلاب. أما بقية أجزاء شمالي القفقاس وهي بلاد الشراكسة فقد خضعت للروس البيض.

هـ ـ أذربيجان: تعطلّت الأحـزاب بسبـب الحرب، ولكـن استعـادت نشاطها بعد القضاء على النظام القيصري وقيام الحكومة الموقتة، وقد لقيت هذه الحكومة تأييداً في بادىء الأمر ثم تخلّى عنها المسلمون في أذربيجان،

ووقفوا على الحياد، وإن كان الجميع يرغبون هزيمة روسيا، وكان حزب المساواة يُطالب بأن تتولّى اللجنة الإسلامية إدارة البلاد، ويضمُّ هذا الحزب الاشتراكيين، والذين يميلون إلى الدولة العثمانية، ومن يُنادي بالاستقلال الذاتي، غير أن الخط قد سار بعدئذٍ نحو الاستقلال التام والانفصال عن الإمبراطورية الروسية، واتجهوا نحو العثمانيين، وأسّسوا الحزب (الاتحاد التركي - المساواة) برئاسة محمد أمين رسول زاده، وانضمّ إليهم حزب الأحرار الزراعي، وحزب الاتحاد. وكان حزب همّة يُمثّل الاشتراكية الديمقراطية، ويبدو أن المسلمين قد بقوا متحدين لوجود عدوٍ لهم قريبٍ منهم وهم الأرمن الذين تمرّسوا على القتال وأحسنوا فنّه.

وتأخّر الصدام بين السكان والبلاشفة لبُعد الشقة بين أذربيجان وقلب بلاد الروس، ولقرب أذربيجان من الدولة العثمانية التي لا تزال قائمةً ومن إيران. ثم بدأ الصدام في ٥ جمادى الآخرة ١٣٣٧ (٢٠ نيسان ١٩١٨) بين المسلمين وبين البلاشفة الذين دعمهم الاشتراكيون الثوريون وحزب الطاشناق الأرمني (الوطني الاشتراكي)، ومجموعات من حزب همّة، وجرت مذابح ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف مسلمٍ، واستولى البلاشفة إثر ذلك على السلطة، وأسّسوا حكومةً في ضاحية باكو. أما زعماء المسلمين فقد فرّوا إلى غاندكا (كيروفآباد) وأنشأوا هناك مجلس أذربيجان الوطني في شهر رجب وتمكّن أن يُقاوم مدة شهرٍ تقريباً.

و - تركستان: عندما قُضي على الحكم القيصري، وجاءت الحكومة الموقتة رفض اشتراكيو طاشقند الاعتراف بها، كما رفضت لجنة تركستان الاعتراف أيضاً. وبعد الانقلاب البلشفي بشهرٍ أعلن مجلس الشعب الإسلامي في مدينة خوقند استقلال تركستان الذاتي فسار إليها سوفييت طاشقند في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٦ (٥ شباط ١٩١٨) فاقتحموا المدينة، ونهبوها، واستمرّت أعمال السلب والذبح ثلاثة أيّامٍ، ثم هُدّمت المدينة وأُضرمت فيها النار،

فذهب أكثر من مائة ألفٍ من أهل خوقند قتلاً، وكان عدد سكانها حوالي مائةً وعشرين ألفاً، والتحق من نجا من أعضاء الحكومة بفرق المجاهدين [1].

ز ـ **بلاد القازاق:** تقدّم الجيش الأحمر في سهوب القوزاق، وقضـوا على حكومة حزب (ألاش أوردا) المستقلّة استقلالاً ذاتياً، وسقطت بأيديهم المدن الواحدة تلو الأخرى، وقد تمكّنوا من دخول مدينة أورنبرغ في الرابع من شهر ربيع الثاني.

وهكذا لم يبق للمسلمين من نفوذ وسلطة إلّا في أربعة مراكز هي: ١ً ـ داغستان وتشاشان حيث إمامة نجم الدين غوتسنسكي. ٢ً ـ حكومة غاندكا في أذربيجان. ٣ً ـ إمارة بُخارى. ٤ً ـ إمارة خُوارزم.

الثورة الأهلية: ثار الأسرى التشيكوسلوفاكيون الذين كانوا على طول خط حديد سيبيريا، ويستعدّون لترحيلهم وكانت حركتهم يوم ١٢ شعبان ١٣٣٦ (٢٥ أيار ١٩١٨) واستغلّت هذه الحركة كل العناصر المعادية للسطلة الجديدة البلشفية. وقف قـوازق الأورال ضـدّ سلطـة السـوڤييـت، وكذلك فعل قوزاق أورنبرغ، وشكّل خصوم البلاشفة حكومة (كوموتش) وبدأت تتجمّع عندهم العناصر المعارضة، وبدأ هجـومهـم فـاستـولـوا على الأورال، ودخل ديتوف زعيم قوزاق أورنبرغ مدينة أورنبرغ يوم ٢٢ شعبان ١٣٣٦ (٤ تموز ١٩١٨)، واضطر الجيش الأحمر من إخلاء مدينة (أوفا) يوم ٢٤ شعبان.

---

(١) يُطلق الروس على فرقة المجاهدين اسم قُطّاع الطرق (البصمجية)، وقد شـاع هـذا الاسم ـ مع الأسف ـ حتى عمّ كتب التاريخ الذي يُسجّل عادةً بأقلام المنتصرين، ولأن المؤرّخين، وهم من الصليبيين، يُسجّلون الأحداث عادةً من خلال نظرتهم وحقدهم، ولما كانت حكوماتهم أصحاب القوة والعلم المادي، وكان المسلمون في مرحلة من التأخّر والتخلّف المادي والعلمي لذا فإن المسلمين يأخذون عنهم ـ مع الأسف ـ ويعدّون ذلك علماً مُحقّقاً.

ونزل أحمد زكي وليد وزعماء الباشكير من الجبال التي التجأوا إليها، ودخلوا أورنبرغ وأقاموا فيها حكومةً باشكيريةً استطاعت بمدةٍ قصيرةٍ أن تُسيطر على كل منطقة الباشكير وكان المتطوّعون قوامة قوتها.

وهبّ القوزاق فشكّل حزب (ألاش أوردا) حكومتين إحداهما في قازاقستان الشرقية والثانية في الغربية، وإن بقيت بعض المدن بيد البلاشفة.

وقامت حكومة في سيبيريا الغربية في مدينة أومسك وكان الأميرال كولتشاك وزيراً للحربية فيها ثم سيطر على الوضع وتفرّد بالسلطة.

ودخل الألمان شبه جزيرة القرم وطردوا الفوج الأول السوفييتي التابع للجنة مدينة سيباستيبول، وعهدوا بالإدارة في شبه الجزيرة إلى رجلٍ مسلمٍ تتاريٍ من ليتوانيا ويُساعده جماعة من حزب (ملّي فرقة)، وعندما جلا الألمان، تشكّلت حكومة برئاسة سالم كريم وهو نائب سابق من الحزب الديمقراطي الدستوري في أولِ مجلسٍ نيابيٍ، وقد أيّده جماعة من حزب (ملّي فرقة) وعارضته جماعة أخرى برئاسة ولي إبراهيم الذي تعاون مع المنظّمات البلشفية السرية.

وفي أذربيجان تقدّم الجيش العثماني نحو مدينة باكو فحدث انقلاب تسلّم إثره السلطة الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك المتحالفون مع حزب الطاشناق الأرمني، وفرّ كبار السوفييت بحراً مُتّجهين نحو استراخان فأُلقي القبض على سفينتهم، ونقلوا إلى بلاد التركمان حيث أُعدموا. ثم جاءت قوات إنكليزية من إيران، ودخلت مدينة باكو، ولما رحلت حلّت مكانها قوات عثمانية فشكّلت مع سكان البلاد حكومةً في مدينة غاندكا، ولما خرجت الدولة العثمانية من الحرب سحبت قواتها من أذربيجان، وحلّت محلّها قوات إنكليزية اشتركت مع الحكومة بإدارة البلاد، ثم جلا الإنكليز وبقيت الحكومة الوطنية فيها.

وسيطر المجاهدون على وادي فرغانة عام ١٣٣٨، وأعلن الروس المسالمة فحدث هدوء ثم عاد القتال وتوسّع نطاق عملياتهم حتى كان لهم دورهم في كل أنحاء المنطقة بما فيها إمارة بُخارى، وقد وصل إليهم أنور باشا وزير خارجية الدولة العثمانية ـ سابقاً، وأحمد زكي وليد رئيس حكومة باشكيريا سابقاً واستمرّت المعارك حتى عام ١٣٤٧ هـ، وقُتل فيها أنور باشا.

ودخلت القوات الإنكليزية بلاد التركمان، واحتلّت عاصمتهم مدينة (عشق أباد)، غير أن أمير بُخارى قد وقف في وجه هذه القوات المستعمرة وصدّهم، وانتصر عليهم.

وهكذا لم يبق للبلاشقة في المناطق الإسلامية سوى مدينة طاشقند وما حولها حيث يسيطر عليها سوڤييت طاشقند ويدعمهم مرتزقة الجيش الأحمر.

القضاء على الثورة: أمام هذا المأزق الحرج الذي وقع فيه البلاشفة لم يجدوا لديهم سلاحاً أفضل مما يُعيدونه من إعطاء المسلمين وباقي القوميات حقوقهم، وقد أصدروا أوامرهم للمُنظّمات البلشفية يُجبرونها فيها على اتخاذ مواقف أكثر مرونةً وأحسن معاملةً وأقرب مُسالمةً للمسلمين، وأمام هذا التصرّف اتجه عدد من زعماء المسلمين إلى إعادة النظر في مواقفهم السياسية تجاه البلاشفة على الرغم من أن أوامر الشيوعيين إلى منظماتهم كانت غير واضحةٍ تماماً بل فيها كثير من المرونة إضافةً إلى أن البلاشفة لا عهد لهم ولا ذمّة وإنما يتخذون المواقف المرحلية من خلال مصالحهم وما تقتضي عليهم الظروف فربما سالموا اليوم ألدّ أعدائهم، وأظهروا الصداقة لأعنف خصومهم، ولا مانع عندهم أن ينقضوا في الغد ما أبرموا اليوم، ويُعلّقوا أصدقاء الأمس على حبال المشانق، ويسحقوا الذين سبق لهم أن عاهدوهم، بل وأن يُبيدوا رفاقهم الحقيقيين إن اختلفوا معهم في نقطةٍ، أو اقتضت مصلحتهم ذلك، أو خافوا منهم أن يسبقوهم في عملية القتل، فإن لم يتّخذوا الموقف الحاسم بسرعةٍ سُحقوا.

وقد ساعد زعماء المسلمين على تغيير مواقفهم أن الأميرال كولتشاك وزير حربية الحكومة السيبيرية عندما قام بانقلاب على حكومته وتفرّد بالسلطة في شهر صفر ١٣٣٧ (تشرين ثاني ١٩١٨) أعلن وأكّد أنه لن يبالي بمطالب المسلمين في موضوع الاستقلال الذاتي بل لا يُعير قضاياهم اهتماماً. وكذلك فإن الجنرال دينيكين في منطقة أوكرانيا كان يُظهر عداءً للمسلمين أكثر من كولتشاك، إذ قضى على كثيرين من تتار القرم، وأغلق كل الصحف الإسلامية، وحظر على حزب (ملّي فرقة) النشاط في ٢٣ ذي القعدة عام ١٣٣٧ (٢٣ آب ١٩١٩)، فكان هذا أن التجأ حزب (ملّي فرقة) إلى العمل السري والتعاون مع البلاشفة. وإذا كان قد انتهى عهد دينيكين وجاء محلّه الجنرال رانجل الذي أراد أن يُصلح ما أفسد سلفه بوعود إلى المسلمين بالاستقلال الذاتي إلا أن الوقت قد فات.

ومما ساعد البلاشفة على تحقيق النصر انقسام خصومهم، وعمل كل جهةٍ وحدها، بل أكثر من ذلك. إذ كان البيض نفسهم في صراع بعضهم مع بعض، والحكومة الواحدة يتنافس زعماؤها فيما بينهم على السلطة، ويتفرّد أحدهم حتى يتقوّى أحد أعوانه، وربما كان الأميرال كولتشاك والجنرال دينيكين أنموذجين على ذلك. ويجب أن لا ننسى أبداً مخاصمة البيض للمسلمين في الوقت الذين كانوا هم فيه بأشدّ الحاجة إلى دعمهم ومُساعدتهم، وفي الوقت الذي نسي فيه البيض هذه الناحية أو قوة المسلمين فطن لها الشيوعيون، فمنّوا المسلمين بمعسول الكلام، وطيب الأماني ضمن مُخطّطٍ مرحليٍ، حتى إذا تمكّنوا طبّقوا سياستهم التي أضمروها للمسلمين.

أ ـ **في الأورال:** اجتمع أحمد زكي وليد وإخوانه اجتماعاً سرياً في جبال الأورال في مطلع شهر ربيع الأول ١٣٣٧ (٦ كانون الأول ١٩١٨) وقرّروا في ذلك الاجتماع ترك البيض مرحلياً والالتحاق بالروس الحمر، وفي ٢٠ ربيع الأول (٢٥ كانون الأول) أمر الأميرال كولتشاك بحلّ الوحدات

البشكيرية التي تُقاتل بجانبه. وفي ٢٥ ربيع الأول التقى الزعماء الباشكيريون مع السوڤييت في قريةٍ وراء خطوط الروس الحمر، وبحثوا في كيفية انضمام الوحدات الباشكيرية إلى السوڤييت. وفي ٣ جمادى الأولى (٦ شباط ١٩١٩) أعلن مجلس مفوضي الشعب العفو العام عن البشكيريين الذين يتركون قوات الأميرال كولتشاك. وفي ١٥ جمادى الأولى اجتاز خطوط النار ألفا مقاتلٍ من الباشكيرية بإمرة قادتهم. وفي اليوم التالي وقّع أحمد زكي وليد اتفاقيةً مع حكومة موسكو تقضي بتأسيس حكومةٍ باشكيريةٍ موقتةٍ تُديرها لجنة ثورية يشترك فيها سوڤييت وباشكيريون وطنيون. وهكذا خضعت منطقة الأورال للسوڤييت.

ب ـ **في منطقة القرم:** هاجم الجيش الأحمر منطقة القرم، وخرج أعضاء حزب (ملّي فرقة) يستقبلون المهاجين وينضمّون إلى صفوفهم، ويُقاتلون الروس البيض الذين زادوا من ضغطهم على سكان القرم الأمر الذي جعلهم يتجهون إلى الروس الحمر، وتمكّن السوڤييت من احتلال القرم في ربيع الأول ١٣٣٩ (تشرين الثاني ١٩٢٠ م).

جـ ـ **شمالي القفقاس:** دخل الجنرال دينيكين بقواته شمالي القفقاس في شهر شعبان ١٣٣٧ (أيار ١٩١٩)، غير أنها اصطدمت بالسكان، وقد رفض الجنرال دينيكين مطالب المسلمين كلها الأمر جعل المسلمين يُقاتلونه في الوقت الذي يحتاج فيه إلى توجيه قواته إلى وجهةٍ واحدةٍ، إذ كان يستعدّ للقيام بهجومٍ صاعقٍ على حكومة موسكو، وكان الشيخ أوزون حاجي والإمام علي أكوشا هما اللذان يقودان القوات المسلمة والتي انضمّ إليها الاشتراكيون والدستوريون الديمقراطيون.

واصطدم الجيش الروسي الأحمر مع القوات الروسية البيضاء، وانتصر الجيش الأحمر، واتّجه نحو شمالي القفقاس فوجد له رفاقاً هناك انضمّوا إليه

لا حبًّا بالسوڤييت ولكن كُرهاً بالروس البيض، ولا عن عقيدةٍ ولا قناعةٍ وإنما عن كراهيةٍ، ورضىً بالأمر الواقع. واقتحم الجيش الأحمر داغستان واحتلّها أيضاً.

د ـ أذربيجان: كانت حكومة باكو تُسالم السوڤييت خوفاً من جيوش الروس البيض التي كانت تُهدّدهم بقيادة الجنرال دينيكين، ومنذ شهر صفر ١٣٣٧ (تشرين الثاني ١٩١٨) بدأ الشيوعيون الذين فرّوا من المنطقة يعودون إليها بتأييد من حزبي (همة) و (عدالة) حيث يضمّ أولها أتراكاً أذربيجانيين، ويضمّ الثاني إيرانيين، وفي مطلع شهر جمادي الأخرة ١٣٣٨ (شباط ١٩٢٠) اندمج الحزبان السابقان مع الخلايا السرية الروسية الشيوعية في أذربيجان وشكّلوا الحزب الشيوعي الأذربيجاني، وبذا فقد قوي موقف الشيوعيين إذ أصبح عدد أعضاء هذا الحزب الجديد أربعة آلاف عضو، وهذا ما جعل الجيش الأحمر المرابط في داغستان يقتحم أذربيجان يوم ٦ شعبان عام ١٣٣٨ (٢٧ نيسان ١٩٢٠) ويحتلّها، ويجعلها تحت سلطانه، وقد وجد منظمةً شيوعيةً من أبناء البلاد يتعاون معها، ويُمكنه بدعمها قمع كل حركةٍ، وتحمّل أعباء الحكم.

هـ ـ بلاد القازاق: بعد أن تفاهم الباشكيريون مع السوڤييت سار القازاق على طريقهم إذ التقى زعماء حزب (ألاش أوردا) بزعماء سوڤييت بمدينة أومسك في شهر جمادى الآخرة ١٣٣٧ (آذار ١٩١٩)، وانسحبت الوحدات العسكرية الباشكيرية التابعة لحزب (ألاش أوردا)، وبعد شهرين أي في شهر شعبان اعترف القازاق بسلطة السوڤييت على بلادهم، وفي شهر رمضان سافر أحمد بايترسون إلى موسكو حيث وقّع مع لينين وستالين اتفاقيةً تقضي بإقامة حكومةٍ يشترك فيها الوطنيون القازاق والسوفييت، ودخل الجيش الأحمر بلاد القازاق وهزم قوات الأميرال كولتشاك.

و ـ تركستان: قامت حركة المجاهدين تُقاتل بسبب الظلم الذي لحق

السكان من سوڤييت طاشقند، وقوي أمر هذه الحركة وقد أتاها عدد من الباشكيريين فارين من ديارهم مع أحمد زكي وليد، ووالدي طوقان، كما فرّ إليهم أنور باشا، وبلغت حركة المجاهدين من القوة حتى حسب كثير من الناس أن الإمبراطورية الروسية قد أفل نجمها على الأقلّ من منطقة تركستان، ولكن منذ أن استطاعت الجيوش الحمراء شقّ طريقها إلى طاشقند في ربيع الأول ١٣٣٨ (تشرين الثاني ١٩١٩) دعماً لسوڤييت طاشقند بدأت الكفّة ترجح لصالح السوڤييت، ويضعف أمر حركة المجاهدين، وقد أرسل لينين لجنةً إلى طاشقند عرفت باسم (لجنة تركستان)، وأغدقت الوعود للمسلمين، وجرى تعديل على اللجنة السياسية القائمة لصالح المسلمين، فصدّقت بعض النفوس وقبلت وعود السوڤييت، ولم تكن هناك وسائل إعلامية لدى المسلمين توضّح الحقائق، بل لم يكن المسلمون على تلك الدرجة من الوعي الأمر الذي أضعف حركة المجاهدين، وإن استمرّت حتى عام ١٣٤٧، إلّا أن السوڤييت قد تمكّنوا في المنطقة، إذ انضمّ إليهم عدد من أبناء البلاد.

ورغم أن لجنة تركستان قد أعطت السكان وعداً باستقلال المنطقة استقلالاً ذاتياً، والإبقاء على مراكزهم الثقافية والتعليمية والدينية، إلّا أن هذه الوعود كانت مرحليةً، فما أن قوى أمر الروس الحمر في تركستان حتى اتّجهوا بقيادة فرونزي نحو إمارة بُخارى وخُوارزم واستولوا عليهما، وغدت تركستان كلها تحت سلطان الروس، وإن أبقوا لبُخارى وخوارزم شيئاً من الاستقلال تحت إشراف الشيوعية.

كما كان الروس الحمر قد احتلّوا سيبيريا ودخلوا مدينة (إيركوتسك)، ووقع الأميرال كولتشاك أسيراً بأيديهم في أواخر شهر ربيع الأول ١٣٣٨ (كانون الأول ١٩١٩).

وانتهت روسيا كذلك من حربها الهامشية التي خاضتها مع بولونيا عام ١٣٣٩.

وما جاء شهر ربيع الثاني من عام ١٣٣٩ (نهاية عام ١٩٢٠) حتى انتهت الحرب الأهلية، وألقى الناس السلاح من وجه الشيوعيين الذي صفا لهم الجو وتفرّغوا لتنفيذ مُخطّطاتهم، غير أن أكثر بلاد المسلمين قد غدت خربةً وخاصةً منطقة حوض نهر الفولغا (بلاد التتار والباشكير) إذ كانت ميدان الصراع بين الروس الحمر والبيض، ومسرح العمليات ضدّ قوات الأميرال كولتشاك والأسرى التشيكوسلوفاكيين فأُبيدت أكثر الوحدات العسكرية الإسلامية، وانتهت المُنظّمات التعليمية والثقافية والدينية إذ أن جميع المتخاصمين أعداء للمسلمين، وتمتلىء قلوبهم حقداً عليهم فكلما انتصر فريق منهم أبدى قوته على المسلمين، وأرهب الناس بقتل المسلمين وارتكابه الأعمال الوحشية وكل فاحشةٍ. ولما استولى التشيكوسلوفاكيون على قازان في شهر ذي القعدة ١٣٣٧ (آب ١٩١٩) قبضوا على ملانور وحيد وقتلوه مباشرةً رمياً بالرصاص.

وعندما اطمأنّ الشيوعيون من خنوع الناس وانهيار القوة الإسلامية حيث لا يمكنها أن تقوم بحركة ردّ فعلٍ، عُقد مؤتمر في موسكو فاقترح ستالين إصدار قرارٍ بإجبار المسلمين على دمج الحزب الشيوعي الإسلامي بالحزب الشيوعي الروسي، وقد صدر القرار وتمّ الدمج، ولم يعد للمسلمين أية قوةٍ مُستقلةٍ، وإذا كان المرء يضحك من وجود حزبٍ شيوعيٍ إسلاميٍ إلّا أن هذا يدلّ على خطأ في تفكير المسلمين يومذاك وفي كل يوم يُفكرون فيه بالتنازل عن شيء من عقيدتهم أو الالتقاء بمنتصف الطريق مع خصومهم حسب اصطلاح السياسيين، كما يدلّ على عدم وجود ثقةٍ من الروس (بالمسلمين) ولو كانوا على عقيدتهم ما داموا يرجعون في أصولهم إلى الإسلام. والقصد هنا بالمسلمين الذي ينتمون إلى الإسلام بالوراثة. أما المسلم فلا يمكن أن يكون شيوعياً.

وبعد هذا النصر الذي أحرزه الشيوعيون بدأت التنظيمات والأفراد في

المناطق الإسلامية تتجه إلى الحزب الشيوعي وتنضمّ إليه خوفاً وتستّراً ومصلحةً وهوىً و ..... لقد قبِل الشيوعيون في صفوفهم الجناح اليساري في حزب (ملّي فرقة) الذي يتزعّمه ولي إبراهيم في القرم، وحزب (ألاش أوردا) القازاقي، وحزب (همّة) الأذربيجاني، وتجمّع شباب بُخارى التركستاني، وتجمّع شباب خيوه التركستاني أيضاً، وحزب (جديد) التركستاني كذلك، وكل العناصر التي تُسمّي نفسها ثوريةً، أو تدّعي ذلك وهي لا تعرف ما تعني هذه الكلمة، وتكفي هذه الدعوى الشيوعيين إذ تعني أن العنصر مستعد للسير بالشكل الذي يُراد له، وبالعقيدة التي تُطلب منه، وبالمخطط الذي يُرسم له مُقابل الانضمام الذي يهدف من ورائه إلى.... ولم يكن هناك من مانعٍ لدى سدنة الشيوعيين حيث يعلمون أن أكثرية المنضمّين إليهم لا يُؤمنون بمبادئهم ولا يقبلون أفكارهم وإنما سعوا إليهم خوفاً وتزلّفاً لأطماع ومكاسب، ولكنهم في الوقت نفسه هم يُريدون مُقاتلين يطعنون بهم خصومهم ويرمونهم في نحور أعدائهم حتى حين (مرحلياً) ثم يلتفتون إليهم يسحقونهم. إن الروس البيض أعداء الشيوعية ولكنهم أقرب إليها من المسلمين، فاستعملت الشيوعية المسلمين أداةً لضرب خصومها السياسيين، ثم سحقت هذه الأداة عدوتها اللدودة عقيدةً وفكرًا.

الفصل الخامس

الاستعمار الشيوعي

هُزم المسلمون وليس غريباً أن يُهزموا بعد أن سلكوا طريقاً ليست مستقيمةً، لقد غُلبوا وكان عاقبة أمرهم خُسراً إذ لم تكن لهم شخصيتهم المتميّزة لقد أيّدوا الحزب الدستوري الديمقراطي فخذلهم، وساروا مع الاشتراكيين الثوريين فأذلّوهم، ودعموا الروس البيض فلحقهم الهوان منهم. وحاولوا إدخال الاشتراكية إلى أفكارهم فلفظهم أتباعها، وعملوا على التوفيق بين إسلامهم وما ساد مجتمعهم من آراء ومبادىء، فأبى الإسلام عليهم، ورفض المجتمع منهم بعد أن رآهم قد هان عليهم أمر دينهم، وارتموا في أحضان الشيوعية ضدّ النظام القيصري الذي أمعن في ظلمهم، وضدّ خصومهم الذين خذلوهم فذاقوا المرّ، ثم سُحقوا، وسار عليهم جُهّالهم، وحكمهم أراذلهم، فعزّ الذليل، وذلّ العزيز، وتسلّط الطغاة، وكُمّت الأفواه، وكان الضياع، مع الحديث عن الإسلام عاطفةً، والتمسّك بالانتماء إليه كلاماً. وكان ذلك عبرةً لكل مسلم في المستقبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

عقد الشيوعيون المؤتمرات لنشر الشيوعية في الشرق، وعملوا على استعمال اصطلاح الشرق على أنها آسيا بصفة أن روسيا تستعمر جزءاً كبيراً من آسيا يصل إلى أكثر من ثلث مساحتها، فعندما نقول الشرق، ليقف أهل الشرق ضدّ الغرب وهو بقية دول أوربا المُعادية أو المُنافسة لروسيا. غير أن هذه

المؤتمرات قد مُنيت بالفشل الذريع، إذ حُرّم الحزب الشيوعي في تركيا، وفي بلدانٍ ثانيةٍ، فجاءت الأوامر للشيوعيين بالتعاون مع الأحزاب الأخرى غير أن هذه السياسة لم تنجح أيضاً، لأن بعضهم قد ذاب في التنظيمات التي اشترك معها، أو نُبذ واضطهد، ووقع هذا الخلاف على أشدّه في الصين إذ ذُبح العمال الشيوعيون في مدينة شانغهاي وفي كانتون، ونتيجةً لذلك الفشل تغيّرت السياسة إذ جاءت تعليمات موسكو بترك التعاون مع الاحزاب، ونشر الدعاية ضدّها واتهامها بالارتماء في أحضان الدول الرأسمالية الاستعمارية ولم يكتب النجاح لهذه السياسة أيضاً.

وغيّر الشيوعيون سياستهم إذ وجهوا اهتمامهم بعد عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) إلى الصراع مع الأنظمة الفردية الجديدة التي برزت على السلطة في كلٍ من إيطاليا وألمانيا، فبدأت الدعاية ضدّها وتُركت مرحلياً العمل ضدّ الرأسمالية الفرنسية والإنكليزية.

السياسة الشيوعية: من المعلوم أن الشيوعية عدوّة للدين غير أن هذه العداوة كانت منصبةً على الإسلام، ولا يمكن أبداً المقارنة بين ما اتخذته الشيوعية من أساليب وقراراتٍ في عداوتها للإسلام مع ما اتخذته ضدّ النصرانية واليهودية ولا غرابة في ذلك فديانة سدنة الشيوعية هي النصرانية واليهودية، واليهود هم أصحاب الفكر الشيوعي، والذين يسيطرون على الحزب والذين يتولّون مهمة التوجيه فيه ويرسمون سياسته إنما هم من النصارى واليهود، وإذا تسلّق أحد الذين كانوا ينتمون إلى الإسلام على حبال الحزب وكانت عنده إمكانات ضخمة وطاقات هائلة إلا أن الجميع لا يثقون به ولا يدعونه يتصرّف، ولا بدّ من التخلّص منه، أو مراقبته والتحذير منه حتى يخشاه الأعضاء وينفرون منه، أو يُذلّونه بالقبض عليه ولو موقّتاً حتى يضعف شأنه ويقلّ وزنه عند الأفراد جميعاً، كما فعلوا بسلطان غالييف الذي سُجن مرتين رغم خدماته لهم.

وهناك ملاحظة أُخرى يجب أن ننتبه إليها وهي أن السياسة الشيوعية كانت على الأقلّ في هذه المرحلة تتخبط في قراراتها وتوجيهاتها، وهذا أمر طبيعي أيضاً وذلك لأنها تتبنّى سياسةً مرحليةً فهي بناءً على ذلك تتغيّر تبعاً للمرحلة التي تمرّ فيها، فنجد انها تُصادر الأوقاف ثم تعود فتسمح بها حسب الضغط الذي تتعرّض له أو المقاومة التي تصطدم معها.

ويمكن أن نرى بعض التقلّبات التي طرأت على السياسة الشيوعية فيما يتعلق بالمسلمين، وأسباب تلك التغيّرات بخطوطٍ عريضةٍ.

بعد الحرب الأهلية، وشعور الشيوعيين أن الأمر قد استقرّ لهم والوضع قد استتبّ أعلنوا حرباً عنيفةً على المؤسّسات الإسلامية والتي تتمثّل في الأوقاف والمحاكم الشرعية ومراكز التعليم الديني. كان الحكم القيصري قد ألغى الأوقاف في منطقة الفولغا، ويُنفق دخل هذه الأوقاف عادةً على رواتب العلماء والذين يقومون بخدمة المؤسّسات الدينية كالمساجد وغيرها، وعلى المشافي، ومراكز التعليم الديني وطرق الخير الكثيرة فلما تملّكت الدولة هذه الأوقاف ارتبط العلماء وموظفو المساجد، والمشافي، ومراكز التعليم بالسلطة، وأصبحوا تبعاً لها، ومنعت طرق الخير، وهذا ما تبغيه الدولة بأن يكون كل شيءٍ في يدها، وإذا كانت قد أُلغيت في منطقة الفولغا غير أنها قد بقيت في بلاد القرم، والقفقاس، وتركستان، غير أن سوڤييت طاشقند قد استولوا عليها في تركستان. ثم صدر مرسومان في ٢٥ شوال ١٣٤٠ (٢٠ حزيران ١٩٢٢) و ٥ جمادى الأولى ١٣٤٠ (٢٨ كانون أول ١٩٢٢) يقضيان بإعادة الأوقاف في تركستان، أما المدارس القرآنية فقد خضعت لإشراف لجنةٍ مختلطةٍ من العلماء والسوڤييت، ثم أُلحقت بإدارة التعليم. وربما كان هذا التراجع يعود إلى سببين اثنين:

أً - حركة المجاهدين لا تزال قائمةً، ويُريد الشيوعيون أن يُظهروا التسامح مع المسلمين كي لا ينفر الناس ويلتحقوا بحركة المجاهدين، أما

التساهل فربما يُؤدّي إلى السكوت، وعدم تأييد المجاهدين.

٢ً ـ نصيحة سلطان غالييف التي قدّمها للشيوعيين بإعادة امتيازات المؤسسات الإسلامية التي أُلغيت استرضاءً للشعب الذي رأى قسوةً من الشيوعيين أكثر مما رأى من القياصرة.

كما أن دستوري محميتي بُخارى وخُوارزم اللذين صدرا عام ١٣٤١ قد أعطيا الحرية الدينية والحقّ في ممارسة الشعائر والعبادات بشرط ألا تمسّ حرية الآخرين. كما أن دستور محمية بُخارى لا يمنع علماء الدين من حق التصويت، على حين أن دستور خُوارزم لا يمنع أحداً من حقّ التصويت سوى علماء الدين. ويُشبه دستور أذربيجان في هذه الناحية دستور بُخارى إذ يسمح بتصويت علماء الدين في الانتخابات. مع العلم أن رجال الدين النصارى لا يملكون هذا الحقّ. كما أُلغيت المحاكم الشرعية، ثم سمح بها للأسباب نفسها.

ولكن عاد الشيوعيون فصفّوا الأوقاف نهائياً عام ١٣٤٤، وفي هذا العام تأسّس اتحاد الجماعة الإلحادية التي لا دين لها برئاسة أميليان ياروسلافيسكي وبدأت تقوم بنشاطها، وكانت تُسمّي نفسها (اتحاد من لا إله لهم).

وبعد أن قُضي على حركة المجاهدين وصفا الجو للشيوعيين قاموا بحركةٍ مُكثّفةٍ ضدّ الإسلام إذ مُنع المسلمون من أداء فريضة الحج، ومن تأدية الزكاة، وقامت كافة وسائل الإعلام بالهجوم على الصلاة والصيام وإلقاء التّهم على أصحابها والسخرية منهم. وكان في هذا الوقت قد تفرّد ستالين بالسلطة وتخلّص من رفاقه المنافسين له.

وأُلقي القبض على سلطان غالييف نصير الشيوعيين أول مرةٍ عام ١٣٤٢ والثانية عام ١٣٤٧، واشتدّ الضغط على المسلمين حتى انصرفوا إلى العمل السري وتشكيل مُنظّمات تعمل سرّاً وتدعو إلى القومية الإسلامية أي ارتبط

الإسلام بالقومية، والقومية دعوة عصبية عاطفية لا منهج لها، ولا فكر تعمل به. واستمرّ الضغط حتى قبيل الحرب العالمية الثانية.

ويُمكن إعطاء فكرة عن هذا الهجوم ببعض الأمثلة: كان يوجد في الامبراطورية الروسية عام ١٣٣٠ (١٩١٢ م) (٢٦٢٧٩) ستة وعشرون ألفاً ومائتان وتسعة وسبعون مسجداً سوى مساجد بُخارى وخُوارزم، أي بمعدل مسجدٍ لكل (٧٠٠ - ١٠٠٠ مسلم)، وقد بقي من هذه المساجد عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢) ألف وثلاثمائة وإثنا عشر مسجداً أي هُدّم وأُزيل ما يقرب من خمسةٍ وعشرين ألف مسجد خلال إحدى وثلاثين سنة.

عادت الأمور فتغيّرت بعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية إذ عادت الدولة تسترضي المسلمين فقد سمحت بإقامة أربعة مراكز دينية عام ١٣٦٠ أولها في أُوفا للإشراف على الشؤون الدينية في حوض الفولغا والمسلمين الموزّعين في كافة أنحاء المنطقة الأوربية، والثاني في محج قلعة عاصمة بلاد الداغستان للإشراف على شؤون المسلمين في بلاد القفقاس، والثالث في باكو وهو شيعي ويتبعه المسلمون في أذربيجان، وأرمينيا وجورجيا، والرابع في طاشقند ويتبع له المسلمون في آسيا الوسطى كلها.

كما سمحت بإقامة مؤتمر لزعماء المسلمين في مدينة أُوفا عام ١٣٦١، وقد تكلّم فيه الحضور عن ضرورة دعم الدولة الروسية ضدّ أعدائها، ولكن هذا كله أثناء الحرب وللضرورة لذا لا يمكن الركون على قرارات الحكومة، وفي الواقع ما انتهت الحرب حتى اتّهمت الدولة شعوباً كاملةً بالخيانة والعمالة للألمان، وقد قتلت من قتلت منهم، وأودعت الكثير السجن، وارتكبت المظالم والوحشية ونفت شعوب التشاشان، والبلكار، وتتار القرم. ولما انتهت مرحلة ما بعد الحرب وهلك ستالين ادعى سدنة الشيوعية أن ستالين قد أخطأ بذلك التصرّف وأن غروره هو أدّى به إلى القيام بهذا العمل، لذا فقد بُرّئت ساحة

التشاشان والبلكار وأُعيدوا إلى أوطانهم، وأُعيدت إليهم جمهورياتهم، وأما تتار القرم فلا يزالون في منفاهم هائمين على وجوههم في مجاهل سيبيريا.

والأمر الذي أصبح شائعاً في الإمبراطورية الروسية أنه كلما جاء زعيم جديد للشيوعية انتقد سلفه ليبرز فادعى أن سابقه قد اشتدّ على المسلمين، وأنه حاد عن المنهج الشيوعي في تساهله الذي أدّى أو كاد يُؤدّي إلى ظهور بورجوازيةٍ جديدةٍ، وقوميات وطنيةٍ فيبدأ يكيل الضربات التي يكون للمسلمين النصيب الأوفى فيها. لذا فاضطهاد المسلمين مُستمرّ ومُتزايد مع الزمن هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر فإنه في أقلّ الأيام اضطهاداً عندما تبرز مشكلة فإن الوضع لا يختلف عما كان عليه أيام الحكم القيصري بل يزيد عليه كثيراً حسب الوسائل الحديثة، لذا فوضع المسلمين في تدهورٍ دائمٍ.

وإذا أردنا أن نتحدّث عن تفاصيل الاضطهاد فإننا نحتاج إلى عددٍ من الكتب ولذا فإننا سنقتصر على بعض الجوانب، ونأخذ أمثلةً محدودةً توضّح خطّ السياسة العامة.

إن مكافحة الإسلام والعناية بنشر الإلحاد يقعان من حيث المبدأ على عاتق كل مُنظّمات الحزب وعلى الكومسومول (اتحاد الطلاب)، وكذلك على الفروع الإقليمية لمؤسّسة ماركس ـ أنجل ـ لينين، وعلى كل وزارات الثقافة في جميع الجمهوريات. وأما عملياً فهناك مُنظّمة تُعرف باسم «جمعية نشر المعلومات السياسية» أنشئت إثر الحرب، وصلاحياتها شبيهة بصلاحيات (اتحاد من لا إله لهم)، وهي التي تقوم بحملات الدعاية ضدّ الإسلام، والمركز الرئيسي لهذه المنظمة هو موسكو، ولها فروع في كل الجمهوريات، وهذه الفروع تُشرف على نشاط المُنظّمات الإقليمية وما دونها من مُنظّماتٍ مُقامةٍ في المدن والقرى. وكل الوسائل مُجنّدة في نظر الشيوعيين للتأثير في الجماعات التي ما زالت على حد تعبيرهم (تحت تأثير الأفكار الدينية المسبقة): الأحاديث بالإذاعة، الأفلام السينمائية المعادية للدين، المتاحف، المعارض

الثابتة والمعارض المتحركة وخاصةً المحاضرات والصحافة. ويبدو أن الجهود الذي بذلتها المنظمة في هذا الصدد كانت جهوداً عظيمةً جداً ولا سيما ما كان منها في ميدان المحاضرات العامة. ومثال على ذلك أن الفرع القازاقي الذي كان يُشرف سنة ١٩٤٨ م (١٣٦٧ هـ) على نشاط خمسة عشر فرعاً إقليمياً، وتسعةٍ ومائتي فرع في المدن والقرى، وخمسة عشر وثمانمائة مكتبٍ للدعاية نظّم خلال ثلاث سنوات ١٩٤٦ - ١٩٤٨ م (١٣٦٥ - ١٣٦٧).

٣٠,٥٢٨ محاضرة عامة، منها ٢٣,٠٠٠ محاضرة ضدّ الإسلام[١].

وألقت المُنظّمة في أوزبكستان سنة ١٩٥١ م. (١٣٧١ هـ) أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضدّ الإسلام[٢] وأخيراً وفي سنة ١٩٦٣ م (١٣٨٣ هـ) ألقت المنظمة ذاتها في تركمانستان أكثر من ٥,٠٠٠ محاضرة ضدّ الإسلام. يُضاف إلى كل هذه الجهود العامة جهود خاصّة إذ يقصد العاملون ضدّ الدين منازل المسلمين ويجبرون أهلها على الاستماع إلى أقوالهم.

ويبدو أن الجهود المبذولة لمكافحة الإسلام عن طريق النشر هي أعظم بكثيرٍ من الجهود الكلامية، إذ بصرف النظر عن المقالات، التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتي تنشر في الصحف ضدّ الإسلام، فقد طبعت المُنظّمة ما بين ١ كانون الثاني ١٩٥٥ م وبين ١ آب ١٩٥٧ (أي مدة سنتين ونصف)، أربعةً وثمانين كتاباً في ثمانين ألف نسخة وزّعتها في المناطق الإسلامية من الامبراطورية الروسية، وصدرت هذه الكتب على الشكل التالي:

٢٠ كتاباً عن أوزبكستان.
١٠ كتب عن بلاد التتار.
٩ كتب عن داغستان.

---

(١) جريدة قازاقستان ـ برافدا. ألما آضا في ١/٣/١٩٥٢.
(٢) جريدة قيزيل أوزبكستان. طاشقند في ١٨/٣/١٩٥٢.

٨ كتب عن قازاقستان
٧ كتب عن طاجيكستان
٦ كتب عن بلاد الباشكير.
٣ كتب عن القبرطاي.
٢ كتاباً عن قره قالبق.
١ كتاباً عن منطقة الأديغة.
١ كتاباً عن أوستين الشمالية
٦ كتب عن القيرغيز
٤ كتب عن أذربيجان.
٤ كتب عن تركمانستان.
٣ كتب عن منطقة قراتشاي الشركسية.

وبعد موت ستالين اشتدّت الحملة على الإسلام إذ ظهر في الإمبراطورية الروسية خلال سنوات، أي ما بين (١ كانون الثاني ١٩٦٢ وإلى ٣١ كانون أول ١٩٦٤) ٢١٩ كتابا ونشرةً ضدّ الإسلام خاصةً أو موجهةً إلى المسلمين، ومن هذه الكتب:

٤٧ كتاباً بلغات داغستانية مختلفة.
٢٦ كتاباً باللغة الأوزبكية.
١٥ كتاباً باللغة القازاقية.
١٤ كتاباً باللغة الأزرية.
١٢ كتاباً باللغة الطاجيكية.
٦ كتب باللغة التتارية القازانية.
٨ كتب باللغة القيرغيزية.
٧ كتب باللغة الباشكيرية.
٢ كتاباً بلغة القبرطاي.

٢ كتاباً باللغة التشاشانية.
١ كتاباً بلغة الأبخاز.
١ كتاباً بلغة القره قالبك.
١ كتاباً بلغة الأنغوش.
١ كتاباً بلغة قراتشاي.
٦٠ كتاباً باللغة الروسية موجّهة إلى المسلمين.
٢٧ كتاباً نشرت في داغستان[١].

أين محاربة النصرانية واليهودية من محاربة الإسلام؟ على حين أن المفروض أن تكون الكتب الموجهة ضدّ النصرانية تُعادل ٤ مرات ما كتب ضدّ الإسلام بالنسبة إلى أتباع الديانتين. والواقع أن الكتب التي توجّه ضد الدين عامة إنما يُقصد بها الإسلام.

إضافةً إلى هذا يجب ملاحظة منع تأدية الزكاة، ومنع السفر إلى الحج، وعندما سمح لعشرين شخصاً بأداء فريضة الحج عام ١٣٦٤، مُنعوا من الاختلاط بالمسلمين والتقيّد برفقة بعضهم لبعض (حيث يوجد بينهم مراقبون سياسيون)، وعدم الجرأة في تأدية الصلاة في المسجد لأن هذا يُعرِّض إلى السؤال والتعذيب أقلّ احتمال وربما يصل الأمر إلى الاختفاء. وزيادة ساعات العمل في رمضان، وتكليف المسلمين بالأعمال الشاقّة في هذا الشهر كي يمتنعوا عن الصيام إن أرادوا، وإلزام الفتيات المسلمات على السفور، والقضاء على صاحب أية كلمة نقدٍ مهما كانت، والسخرية من أهل الدين باستمرار و.....

أما بالنسبة إلى الاضطهاد والقتل فيكفي أن نأخذ مثالاً واحداً أيضاً من

(١) انظر كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» تعريب إحسان حقي، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية صفحة ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

خلال أقوال صحفهم ومسؤوليهم:

بعد أن نجح الشيوعيون في ضمّ المناطق التي استقلّت عنهم اتجهوا نحو بلاد القرم، ولكن القرميين قاوموا الغزو الشيوعي ببسالةٍ فائقةٍ، ولما عجزوا عن ردّ العدوان لكثرة جيوشه وجوعه وضخامة إمكاناته اعتصموا بالجبال يُغيرون على المعتدين، ويقومون بالهجمات الناجحة على قطعاته، وكان الشعب جميعه يمدّهم بالمواد التموينية وينقل لهم الأخبار، فلما رأى الشيوعيون أن حبل المقاومة طويل لجأوا إلى حرب التجويع، فنقلوا ما كان في الجزيرة المقاومة من أقواتٍ، الأمر الذي عرّض السكان للهلاك، وقد نشرت جريدة «الازفستيا» في عددها الصادر في ٢٥ تموز تقريراً للرفيق كالينين عن مجاعة القرم جاء فيه ما يلي: (بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر كانون الثاني ٣٠٢,٠٠٠ مات منهم ١٤,٤١٣، وارتفع عددهم في شهر آذار إلى ٣٧٩,٠٠٠ مات منهم ١٩,٩٠٢ نسمة، وبلغ في شهر نيسان ٣٧٧,٠٠٠ مات منهم ١٢,٧٥٤، وفي شهر حزيران ٣٩٢,٠٧٢ ولم يذكر عدد الموتى، إلا أنه قال: «إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يُستغرب لها أو تبدو عجيبةً في بابها»). وكان الشيوعيون قد قتلوا مائة ألفٍ قبل عامٍ أي أثناء دخولهم بلاد القرم، كما أنهم هجّروا خمسين ألفاً آخرين. ونصّبوا رئيساً لجمهورية القرم الإسلامية الشيوعي الهنغاري (بالاكون)، وأعدموا رئيس الجمهورية السابق (جلبي نعمان جهان) وألقوا جثته في البحر.

واستمرّ هذا الضغط وذلك الارهاب حتى جرّدوا المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات، وشرعوا بتهديم المساجد والمعاهد الدينية حتى لم يبق من ١٥٥٨ مسجداً كانت موجودة بالقرم إلا آحاداً قليلة، أما جمهرتها الكبرى فقد تحوّلت إلى أنديةٍ، وقهواتٍ، ودور لهوٍ، واصطبلات للخيل، وحظائر للمواشي، وبدأ عدد السكان البالغ خمسة ملايين عند قيام الانقلاب الشيوعي يتناقص تدريجياً.

وفي عام ١٣٣٨ أعلنت موسكو عن قيام جمهورية القرم ذات الاستقلال الذاتي، وعيّنوا عليها رئيساً شيوعياً هو (ولي إبراهيم)، ثم قتلوه عام ١٣٤٨ مع جميع وزرائه، لأنه اعترض على فكرة ستالين بإقامة دولةٍ يهوديةٍ في القرم، وبالتالي تدفّقت الهجرة اليهودية نحو القرم. وفي عام ١٣٤٩ نُفي أربعون ألف قرمي إلى سيبيريا للعمل في معسكرات العمل الإجباري فمات الكثير منهم من شدّة البرد والجوع وقسوة العمل، وفي العام نفسه قتل الشيوعيون رئيس الجمهورية الجديد (محمد قوباي) مع وزرائه لأنه اعترض على سياسة التجويع في بلاده، حيث استولت حكومة موسكو على منتجات القرم الزراعية وعملت على بيعها في الخارج. ثم كرّروا الحادثة عام ١٣٥٦ مع رئيس الجمهورية (الياس طرخان) إذ استدعوه إلى موسكو وقتلوه مع وزرائه رمياً بالرصاص. هذا مع العلم من أن الشيوعيين هم الذين كانوا يوافقون على تعيين هؤلاء الرؤساء للجمهورية، ولا يتسلّم وزير منصبه إلّا بعد صدور الموافقة من موسكو. هذا مع الوزراء ورؤساء الجمهوريات فما بالك في قتل الأفراد؟.

الواقع أن الكثير من عمليات السحق والإبادة الجماعية والفردية تتمّ في الإمبراطورية الروسية دون أن يعلم بها أحد، وإذا صدف ووصل الخبر إلى صحفي أو آخرين هل يستطيع إنسان أن يتفوّه بكلمة؟ لا يستطيع أي امرىء حتى ولو كان أقرب الناس إلى القتلى أو من شاهد الحادث أن يبوح بأي خبرٍ ولو صدف وتحدّث عُدّ كأنه لم يكن.

ولا شكّ فإن فرض اللغة الروسية على المسلمين هو أحد عوامل الاستعمار وسمة من سماته، وأصبحت اللغة الروسية تعدّ اللغة الأولى أو الثانية في كل الأقاليم الإسلامية الخاضعة لهذا الاستعمار، كما أن حرفها قد فرض على كثيرٍ من اللغات التي لم يكن لها حرف أو كانت تكتب باللغة العربية، وربما لم يبق من تلك الآثار إلا القليل وتُمثّلها مدرسة (ميري عرب) التي فتحت عام ٩٤١ هـ، ولكنها أُغلقت عندما حدث الانقلاب الشيوعي. ولكن أُعيد

فتحها عام ١٣٧٢ هـ، وهي تُخرّج الأئمة والذين يتولّون أمور بعض التعليم، ولكنّها لا تستطيع أن تسدّ الحاجة المطلوبة أبداً مع أختها في طاشقند، بل إن الفراغ قائم ولا يمكن ملؤه، بل لا يُفكّر أحد بإنشاء ما يمكن أن يسدّ الفراغ القائم فربما كان الاقتراح وحده يُؤدّي إلى الهلاك. وهناك المركز الإسلامي في داغستان في مدينة (محج قلعة) الذي لا يزال يستعمل اللغة العربية. والغاية من فرض اللغة الروسية إنما هو إزالة الشخصية الإسلامية، وإبعادها عن مصادر عقيدتها الرئيسيّة، وفصلها عن ماضيها، ودمجها في المجتمع الروسي بعد سلخها من عقيدتها.

ويحرص المستعمرون حرصاً شديداً على التعليم المختلط لأن فيه إبعاد عن العقيدة وإفساد للأخلاق، وتنشئة غير صالحة، ورغم كل ما فعلته روسيا فلا تزال تجد عقباتٍ في تطبيق هذا النظام في بلاد الداغستان وآسيا الوسطى وخاصةً في الأرياف فيها إذ لا يزال السكان يُصرّون على رفض الاختلاط، ويُطالبون بفصل الطلاب عن الطالبات.

ونتيجة الاضطهاد الواسع الذي تُمارسه السلطة الاستعمارية فإن عدد المسلمين قد تناقص على الرغم من أن زيادة الولادات لدى المسلمين تفوق غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى بكثير غير أن القتل هو سبب هذا النقصان، ويقال: إن عدد المسلمين الذين لاقوا حتفهم أيام ستالين يفوق على أحد عشر مليوناً، وإضافةً إلى القتل فإن المستعمرين يرغبون في إنقاص عدد المسلمين لتقليل أهميتهم لذا فإن الاحصاءات الروسية لا يُوثق بها أبداً في تعداد المسلمين، ويجب أن نعلم أن العدد الحقيقي يزيد على ما تعطيه المعلومات الروسية كثيراً.

ومما تستعمله السلطات الروسية الاستعمارية في تفتيت قوة المسلمين تقسيم أقاليمهم إلى وحداتٍ صغيرةٍ ورغم صغرها تضمّ مجموعاتٍ متنافرةً، ليسهل عليها التسلّط، ويسهل عليها فرض ما تشاء، ويمكن دمجها في المجتمع الروسي وهذا ما نراه في الباب القادم ـ إن شاء الله ـ.

الباب الرابع

التقسيمات السياسية

إذا ضُمّت إلى الإمبراطورية الروسية مُستعمراتها ما دامت على صلةٍ مُباشرةٍ بها فإنها تكون أكبر اتحادٍ سياسي في العالم إذ تقرُب مساحتها من تسعة ملايين من الأميال المربّعة [1]، فليس غريباً أن تُقسم إلى عددٍ من الوحدات السياسية، غير أن التقسيم في الإمبراطورية الروسية معقّد جداً فليست مُقسمة إلى مناطق منفصلةٍ بعضها عن بعضٍ ويضمّها اتحاد كالمملكة المتحدة (انكلترا) أو كالهند، أو تتألف من جمهوريات يجمعها رابط متين كالولايات المتحدة الإمريكية وكثيرٍ من الدول في العالم، ولكنها تتكوّن من مجموعةٍ من الجمهوريات ذات نوعٍ فريدٍ وغريبٍ في نسقه إذ يكون شكلًا هرمياً يُوجد في ذروته جمهوريات اتحادية يبلغ عددها خمس عشرة جمهوريةً لها استقلاليتها النظرية، وفي الواقع تتحرّك من العاصمة الاتحادية موسكو، فمن هناك تتلقّى الأوامر، وإلى هناك تُرفع الاستشارات، ومن هناك يُؤخذ الإذن والموافقة على كل موضوع، وهذه الجمهوريات هي:

أ - جمهورية روسيا الاتحادية: وعاصمتها موسكو، ويتبعها كثير من المستعمرات وأكبرها سيبيريا، وتبلغ مساحتها ٦,٥٩٣,٨٥٠ ميلًا مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ١٤٠ مليوناً.

---

(١) تبلغ مساحة الإمبراطورية الروسية مع مستعمراتها ٨,٥٩٩,٣٤١ ميلًا مربّعاً.

٢ً - جمهورية أوكرانيا: وعاصمتها كييف، وهي جمهورية روسية، وتبلغ مساحتها ٢٣١,٩٩٠ ميلًا مربّعاً، ويبلغ عدد سكانها ٥٠ مليوناً.

٣ً - جمهورية روسيا البيضاء: وعاصمتها منسك، وهي جمهورية روسية، وتبلغ مساحتها ٨٠,١٥٠ ميلًا مربّعاً، ويُقدّر عدد سكّانها بحوالي تسعة ملايين ونصف المليون.

٤ً - جمهورية ليتوانيا: وعاصمتها ڤيلنيوس، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ٢٥,١٧٠ ميلًا مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف المليون.

٥ً - جمهورية لاتفيا: وعاصمتها ريغا، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ٢٥,٥٩٠ ميلًا مربّعاً، ويُقدّر عدد سكانها بـ(٢,٧٥٠,٠٠٠).

٦ً - جمهورية استونيا: وعاصمتها تالّين، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ١٧,١٤٠ أميال مربّعة، ويزيد عدد سكانها قليلاً على المليون ونصف.

٧ً - جمهورية مولدافيا: وعاصمتها كيشينيف، وتقع على حدود رومانيا، وتبلغ مساحتها ١٣,٠٥٠ ميلًا مربّعاً، ويسكنها أربعة ملايين نسمة.

٨ً - جمهورية جورجيا: وعاصمتها تفليس، وتقع فيما وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ٢٦,٩٠٠ ميلًا مربّعاً، ويسكنها خمسة ملايين.

٩ً - جمهورية أرمينيا: وعاصمتها يريفان، وتقع فيما وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ١١,٤٦٠ ميلًا مربّعاً، ويُقدّر عدد سكانها بـ(٣,٢٥٠,٠٠٠).

١٠ً - جمهورية أذربيجان: وعاصمتها باكو، وهي جمهورية إسلامية، تقع فيما

وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ٣٣,٤٣٠ ميلاً مربّعاً، ويُقيم فيها خمسة ملايين ونصف المليون.

١١ً ـ جمهورية قازاقستان: وعاصمتها ألما آضا، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١,٠٤٨,٠٣٠ ميلًا مربّعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون.

١٢ً ـ جمهورية أوزبكستان: وعاصمتها طاشقند، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١٧٣,٥٤٦ ميلًا مربّعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً.

١٣ً ـ جمهورية تركمانستان: وعاصمتها عشق آباد، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١٨٨,٤٠٠ ميل مربع، ويقدر عدد سكانها بحوالي المليونين ونصف المليون.

١٤ً ـ جمهورية قيرغيزيا: وعاصمتها فرونزى، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ٧٦,٧٠٠ ميل مربّع، وعدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف.

١٥ً ـ جمهورية طاجيكستان: وعاصمتها دوشنبه، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ٥٥,٤٠٠ ميلًا مربّعاً، وعدد سكانها (٣,٢٥٠,٠٠٠).

والأمر طبيعي ألّا تكون هذه الجمهوريات متساويةً من حيث المساحة، ومن الأمور العادية أيضاً أن تكون المساحات متقاربةً أو شبيهةً بذلك، إلّا أن تكون هناك مناطق صحراوية قاحلة أو غابية قليلة السكان، غير أننا نجد هنا في الإمبراطورية الروسية فروقاً غريبةً فجمهورية روسيا الاتحادية تزيد مساحتها على ١٣ مليون كيلومتر مربع على حين لا تزيد مساحة جمهورية أرمينيا على ثلاثين ألفاً من الكيلومترات المربعة. أي أن الجمهورية الاتحادية

تُعادل ٤٣٣ جمهوريةً مثل جمهورية أرمينيا وهذا أمر غير عادي، وما ذلك إلّا لأن المستعمرات إنما ترتبط بموسكو عاصمة روسيا الاتحادية، إذ لا يثق الروس أن ترتبط المستعمرات بغير موسكو وهذا دليل على الاستعمار، فإذا قيل أن هذا الأمر عادي فإن المستعمرات الفرنسية لم تكن لترتبط إلّا بباريس، والإنكليزية لا يُمكن أن ترتبط إلّا بـ (لندن) فإن هذا ما نريد أن نصل إليه، فإن انكلترا وفرنسا دولتان مستعمرتان ولا تختلف عنهما روسيا. وكذلك الحال والسبب نفسه بالنسبة إلى السكان فإن جمهورية روسيا الاتحادية يزيد عدد سكانها على ١٤٠ مليوناً، على حين لا يزيد عدد سكان جمهورية استونيا على مليون ونصف.

ويأتي في المرتبة الثانية بعد الجمهوريات الاتحادية جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتيٍ، ويُطلق عليها اسم جمهوريات وليس لها إلا الاسم، وتُعطى صفة الاستقلالية الذاتية وليس لها من مضمونه شيء، وإنما ذلك إيهام الشعوب التي تحمل هذه الجمهوريات عادةً اسمها لتظنّ بنفسها الاستقلالية. ويزيد عدد هذه الجمهوريات على العشرين جمهوريةً يقع معظمها في الأقاليم الإسلامية بل إن هذا النوع من التقسيم إنما كان الهدف منه تجزئة المناطق الإسلامية، لذا فإن أكثر من خمس عشرة جمهوريةً إنما هي جمهوريات إسلامية، وأكثر من عشرٍ منها إنما يتبع أو يرتبط بموسكو مُباشرةً، والباقي يرتبط بجمهورية اتحادية أُخرى ويُفضّل أن تكون نصرانيةً، أما إن حال دون ذلك حائل وهو وجود جمهورياتٍ اتحاديةٍ تفصل بين هذه الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي وبين جمهورية روسيا الاتحادية، أو بين هذه الجمهوريات وجمهورية اتحاديةٍ نصرانيةٍ فعندها يكون لا بدّ من ربطها بجمهوريةٍ اتحاديةٍ ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. وتتجمّع أكثر هذه الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي وذات الأكثرية المسلمة في منطقتين اثنتين هما: حوض الفولغا، وشمالي القفقاس.

وتأتي في قاعدة الهرم أو في المرتبة الثالثة من التقسيمات السياسية في

الإمبراطورية الروسية المقاطعات ذات الاستقلال الذاتي، وتحمل الاسم أيضاً خالياً من مضمونه، إذ ليس لها شيء من الاستقلالية فقد تتبع إقليماً أو جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتيٍ، وكلاهما يكون مرتبطاً بجمهوريةٍ اتحاديةٍ وغالباً ما تكون موسكو، ويُوجد عدد من هذه المقاطعات ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. قسم منها يرتبط بموسكو، وآخر يرتبط بأوكرانيا، وقسم منها يلحق جمهورياتٍ ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. وربما تقضي السياسة الروسية أن تُغيّر جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتيٍ إلى مقاطعةٍ ذات استقلالٍ ذاتي أو العكس، وفي الوقت نفسه يمكن تغيير ارتباطها من جمهوريةٍ إلى ثانيةٍ، كما حدث لشبه جزيرة القرم إذ كانت جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتيٍ، وترتبط بجمهورية روسيا الاتحادية، ثم تغيّر الوضع فأصبحت مُقاطعةً ذات استقلالٍ ذاتيٍ وترتبط بجمهورية أُوكرانيا الاتحادية.

وليس التمييز قائماً بين الجمهوريات فقط، فهي ليست سوى مساحات من الأرض، أما التمييز فإنما هو بين سكان هذه الجمهوريات. فالجمهوريات الروسية هي التي تأتي في الطليعة، وتليها في الترتيب الجمهوريات النصرانية إن كان سكانها من الأرثوذكس، أما إن كانوا من بقية المذاهب فتأتي بعد ذلك... أما الجمهوريات ذات الأكثرية المسلمة فهي في نهاية الجدول دون ترقيم... وبعد هذا كله تدّعي الدولة أنها لا تُقيم للأديـان وزنـاً، ولا تعترف بدينٍ، والدين هو أفيون الشعوب.

ويعيش في الإمبراطورية الروسية أكثر من تسعين شعباً، ولكنها ليست كلها على درجةٍ واحدةٍ في الحقوق والمستوى إذ يأتي في رأس القائمة الشعب الروسي الذي يدين بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسي، ويُشكّل المنتسبون إليه الأكثرية العظمى إذ يزيدون على مائتي مليون، والشعوب الأخرى لخدمته ولرفاهيته، فخيراتها إليه، ومُنتجـاتها لأبنـائـه، وهـو الحاكم، والمُسيطـر، والمتسلّط، يأمر وينهى، ويُراقب هؤلاء وأولئك، ويعيش في بلدانهم على

حسابهم، ويستولي على أحسن الأراضي، ويُشرف على إدارة المصانع وإنتاج المزارع، ويتفقّد سير الحكم، وتطبيق مبادىء النظام، ويُعطي شهادات حسن السلوك، ويحرم المواطنة من يشاء. ثم تأتي الشعوب النصرانية الثانية مثل الكَرْج، والأرمن، وشعوب بحر البلطيق ويتقدّمها من ينتمي إلى المذهب الأرثوذكسي وتليها أصحاب المذهب الكاثوليكي ولا وزن للمسلمين أبدًا وبعد هذا فالدولة الروسية لا تُفرّق بين الأديان.

أما اليهود، وإن لم يكن لهم دور بارز إذ أنهم مكروهون بين شعوب العالم جميعاً لتصرّفاتهم وأعمالهم في الفتن ومحاولة الابتزاز، غير أن مركزهم كبيرٌ في المناصب العلمية والحزبية إذ من المعلوم أن الفكر الشيوعي إنما يعود في نشأته وتطبيقه إلى الفكر اليهودي والتخطيط اليهودي. والزواج السياسي أو التخطيطي بين اليهود والروس كثير.

أما الشعوب المسلمة فتأتي في المُؤخّرة من غير ترتيبٍ ليس لها حق في الحرية، ولا في المساواة، ولا في إقامة الشعائر، ولا أداء العبادات، ومن ينتمي منها إلى الحزب الشيوعي وهو الحزب الوحيد والمتسلّط في البلاد والعباد، فإن الثقة فيه مفقودة بالنسبة إلى العمل الذي يُؤدّيه أو المنصب الذي يشغله، ومهما تسلّق، وتزلّف، وزاود فالأمر واحد، الثقة مفقودة، وخاضع للمراقبة.

أما وقد رأينا التمييز في الإمبراطورية الروسية فهل يمكن أن نعدّها دولةً عنصريةً، إن الدراسة والبحث العلمي والموضوعية كل هذا يُصنّف حكومة الإمبراطورية الروسية ضمن الحكومات العنصرية والاستعمارية، غير أن الجهل بالواقع، والهجوم المبني على المخالفة، والصراع السياسي العالمي، والنزاع الاقتصادي كل هذا أيضاً يُبعد عن الدراسة المتأنّية والمعرفة الصحيحة بالواقع.

لم يكن هذا التقسيم قائماً على أسسٍ واقعيةٍ إذ لا يقوم على وحداتٍ

طبيعيةٍ كما يتوقّع بعضهم، ولا على عوامل تاريخيةٍ كما هو واقع في بعض الدول الاتحادية، ولا على أساسٍ لغويٍ كما يتبادر إلى ذهن بعضهم كما هي الحال في سويسرا، ولا على أُسسٍ دينيةٍ كما يخطر على البال، ولا على أُسسٍ اقتصاديةٍ كما يتداعى إلى الفكر أحياناً بسبب العامل الاقتصادي الذي تُعيره الدولة كبير أهمية، ولا على أسسٍ قوميةٍ كما تدّعي الدولة وتُنادي بهذا، وإنما كان التقسيم بناءً على مصلحة الحزب الذي يُهمّه بالدرجة الأولى إمكانية السيطرة على البلاد، إذن كان التقسيم يقوم على منطلق تفتيت مراكز القوة، وتفرقة أماكن التجمّع، وتجزئة الذين يُمكن أن يتوحّدوا، وضرب عوامل الوحدة التي يُمكن أن تُؤدّي إلى ربط جماعةٍ بأُخرى خارج نطاق الفكر الشيوعي، وبشكل صريحٍ وواضحٍ توزيع المسلمين وتقسيم مناطقهم إلى أقسامٍ صغيرةٍ يُمكن السيطرة عليها بسهولةٍ، وتُخفّف مراقبتهم خوفاً من وحدتهم، وإمكانية إيجاد النزاع بينهم في كل وقتٍ إذ تضمّ كل دويلةٍ مجموعاتٍ مُختلفةً في الأصل، مُتباينةً في اللغة، وإن وجد افتراق في العقيدة فهو الأمر الأفضل.

كان من الممكن أن تُقسّم الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية إلى ثلاث مناطق إداريةٍ، هي:

١ً - بلاد التتار والباشكير: وتضمّ حوض نهر الفولغا، ومنطقة الأورال وسيبيريا الغربية، وشبه جزيرة القرم.

٢ً - بلاد القفقاس: وتشمل اجزاءها وأقسامها كلها.

٣ً - بلاد تركستان: وتجمع كل جمهورياتها ومقاطعاتها.

ولو تمّ الأمر كذلك لكان التقسيم طبيعياً ومنطقياً بل وصحيح من الناحية العلمية، غير أن التقسيم الحالي يزيد على ثلاثين قسماً، بمختلف التسميات والمستويات، ويخصّ هذا التقسيم الأقاليم ذات الأكثرية المسلمة، ويجعل منها

رقعاً صغيرة المساحة تُسمّى جمهوريات، لا يصل سكان بعضها إلى المليون، وهي في منطقة جبلية ضعيفة الإمكانات، قليلة الواردات، لا يُمكنها الحياة وحدها، فلا بدّ من رعايتها، وعوضًا من أن تعيش مـع أخـواتها في الجوار، وشقيقاتها في العقيدة، تُؤلّف إقليماً واحداً مُتكاملًا فإنها تلجأ إلى البعيد تطلب منه الحماية والإسعاف، وبذا تبقى ضعيفةً بحاجة إلى المساعدة، ولا تقوى على الخروج عمّا يفرضه الاستعمار، ومن هذا المنطلق تدور السياسة الروسية.

الفصل الأول
حوض الفولغا - الأورال

كان المسلمون في حوض نهر الفولغا ومنطقة الأورال يُفكّرون بإنشاء دولةٍ تضمّ شعوب هذه المنطقة، وتسود فيها لغة تتارية واحدة هي لهجة أهل قازان حتى تندمج بعضها مع بعض في ثقافةٍ واحدةٍ، وتكون ذات لغةٍ واحدةٍ، وعمل المسلمون لهذه الفكرة كثيراً، وطالبوا بها مراتٍ ومراتٍ، واضطر الروس أن يعدوا المسلمين بذلك، مع أنهم غير مُستعدين لتنفيذها، لأنهم لا يرون فيها مصلحةً لهم، إذن لا يُمكن تحقيقها مهما سعى المسلمون لذلك، وفجأةً أعلن الروس عن تشكيل دولة باشكيريا في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧ هـ (٢٣ آذار ١٩١٩) المستقلّة ذاتياً، ثم اتبعوا ذلك بإعلان تشكيل دولةٍ تتريةٍ في ٢٨ شعبان ١٣٣٨ (١٧ أيار ١٩٢٠)، وقد ضرب الروس بكل الوعود التي قطعوها على أنفسهم، وإن عملهم هذا قد استهدفوا منه:

١ً ـ تجزئة المنطقة إلى عددٍ من الدول، إذ قامت جمهوريات أُخرى ذات استقلالٍ ذاتيٍ في الإقليم نفسه، إذ لم يقتصر الأمر على دولتي باشكيريا، وتتاريا.

٢ً ـ إبعاد منطقة الأورال الغنية بالثروة المعدنية عن هذه الجمهوريات إذ نلاحظ أن منطقة (تشيليابينيسك) ومنطقة (ماغنيتوكورسك) قد بقيتا بعيدتين عن جمهورية باشكيريا وإن كانتا تقعان قرب الحدود تماماً، هذا بالإضافة إلى مناعة منطقة الأورال العسكرية.

٣ً ـ إبعاد الجمهوريات المتعددة عن لغة التتار في قازان التي كانت يمكن أن تعمّ الإقليم كله وتُوحدّه ثقافياً. وأوجد الروس بديلًا لهذا عام ١٣٤٢ لغةً باشكيريةً خاصة تعتمد على لغة تتارية قديمة، وإن لم تنم هذه اللغة بسرعةٍ بسبب مقاومة التتار والباشكير لها على حدٍّ سواء، إلا أن نموها البطيء سيجعلها تظهر مع الزمن، ويتفرّق الشعب الواحد إلى شعبين بل إلى عدة شعوب. كما أحيوا كل لهجةٍ محليةٍ وجعلوها لغة لمن يتكلم بها، وجعلوا أهلها جمهوريةً خاصةً أو مقاطعةً مستقلةً.

٤ً ـ إبقاء المنطقة التي جنوب تتاريا حتى بحر الخزر (قزوين) خارج نطاق الإقليم، وهي حوض نهر الفولغا الأدنى، وتُوجد في هذه المنطقة قواعد إسلامية مُهمّة وهي: السرا (ساراتوف) قاعدة دولة التتار الأولى والرئيسيّة أو عاصمة مغول الشمال، و (استراخان) عند مصبّ نهر الفولغا في بحر الخزر، وهي عاصمة إمارةٍ تتاريةٍ أيضاً.. ولما كانت المنطقة المحيطة بحوض نهر الفولغا الأدنى قليلة السكان لذا فقد ملأها الروس بإقطاعها لأبناء جلدتهم، وهي المنطقة المحدودة بأنهار الفولغا ـ الدون ـ قوبان ـ تِرْك، والمعروفة بـ (دشت القفجاق) والتي كانت تنتقل فيها قبائل النوغاي.

٥ً ـ إبقاء تتار القرم بعيدين عن إخوانهم تتار حوض نهر الفولغا الأوسط، أو بالواقع تجزئة التتار.

٦ً ـ فصل مسلمي القفقاس عن مسلمي حوض نهر الفولغا لإبعاد المسلمين بعضهم عن بعض.

وأما الجمهوريات التي قامت في حوض نهر الفولغا الأوسط فهي.

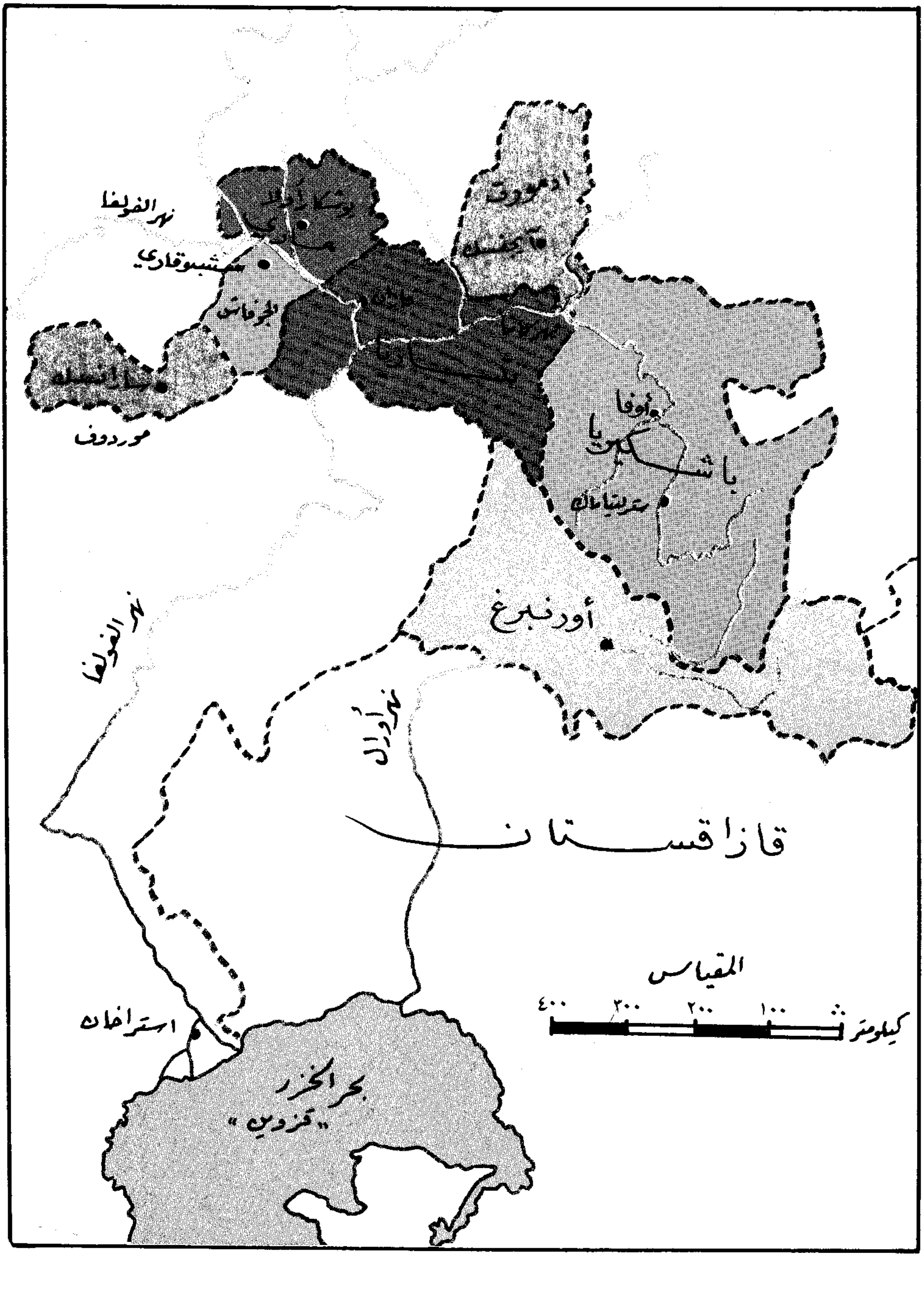

نهر الفولغا
تشبوقاري
الجوفاش
موردوف
باشكيريا
أوفا
أورنبرغ
نهر الفولغا
نهر أورال
قازاقستان
المقياس
كيلومتر
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠
استراخان
بحر الخزر
"قزوين"

أ - جمهورية باشكيريا: وأعلن تشكيلها في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧ (٢٣ آذار ١٩١٩)، وكانت عاصمتها مدينة (سترليتاماك) لأن مدينة أوفا قد بقيت بيد الروس البيض حتى شهر ذي القعدة من العام نفسه، وتقع مدينة (سترليتاماك) على النهر المار من أوفا، وهو أحد روافد نهر الفولغا، وإلى الجنوب من أوفا وعلى بُعد ١٢٥ كيلومتراً منها.

تبلغ مساحة باشكيريا ١٤٣,٥٠٠ كيلومتر مربع، وتتألّف من الأجزاء الجنوبية من جبال أورال فهي منطقة جبلية، ولارتفاعها تتلقّى كميةً من الأمطار تفوق المناطق المجاورة لها. وتتجمّع مياه الأمطار في أنهار تُخدّد المنطقة، وتجري هذه الأنهار في أودية متوازيةٍ تقريباً وكثيرة التعرّجات، ويلتقي عدد منها في وسط البلاد حيث تقوم مدينة أوفا عاصمة الجمهورية، وبعد تجمُّعها تشكل نهر بيلايا الذي يرفد نهر كاما الذي يسير بدوره حتى يرفد نهر الفولغا جنوب مدينة قازان. أما مياه المنطقة الجنوبية الشرقية فإنها تُشكّل نهر أورال الذي يصبّ في بحر قزوين. وعلى أطراف الأودية تقع أهمّ السهول حيث يتجمّع السكان، وأوسعها ما كان حول مدينة أوفا إذ تكون هناك مجمع الأنهار.

يبلغ عدد سكان الجمهورية الباشكيرية حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ ما يقرب من أربعة ملايين (٣,٩٢٤,٠٠٠)، ويتوزّعون على المجموعات التالية:

٩٣٦,٠٠٠	باشكير	ويُشكّلون ٢٤,٣ ٪	من السكان
٩٤٠,٠٠٠	تتار	ويُشكّلون ٢٤,٤ ٪	من السكان
١٢٢,٠٠٠	جوفاش	ويُشكّلون ٣,٢ ٪	من السكان
١٠٧,٠٠٠	ماري	ويُشكّلون ٢,٨ ٪	من السكان
١٢٠,٠٠٠	مجموعات مُتفرّقة	ويُشكّلون ٣,٠ ٪	من السكان
٢,٢٢٦,٠٠٠		٥٧,٧ ٪	

وهذه هي نسبة المسلمين في جمهورية باشكيريا .

أما باقي السكان فهم من المستعمرين الروس وهم :

١,٦٢٣,٠٠٠	روس	ويُشكّلون ٤٠,٣ ٪	من السكان
٧٥,٠٠٠	أوكران	ويُشكّلون ٢,٠ ٪	من السكان
١,٦٩٨,٠٠٠		٤٢,٣ ٪	

وهي نسبة النصارى في جمهورية باشكيريا .

ويبلغ عدد أفراد جماعة الباشكير (الباشغرد) في الإمبراطورية الروسية ١,٣٧١,٠٠٠ ، منهم ٧٢ ٪ يتجمّعون في هذه الجمهورية ، ويتوزّع الباقي ، وأكثرهم في جمهورية تتاريا المجاورة ، ويسكن الباشكير الريف عادةً . وهم من أصلٍ تتاريٍ ، ويتكلّمون لغةً تختلف اختلافاً بسيطاً عن لغة تتار قازان ، ومدينة أوفا هي مركز الإدارة الإسلامية لجميع المسلمين في المنطقة الأوربية من الإمبراطورية الروسية وسيبيريا . وارتدّت جماعة من الباشكير عن دينها في القرن الثاني عشر ، لكنهم بدأوا يعودون إلى الإسلام ، ولم يبق منهم عام ١٣٤٥ هـ سوى أربعة عشر ألفاً ، ولم يبق منهم الآن أحد إلّا وقد عاد إلى الإسلام ، فاليوم كلهم مسلمون .

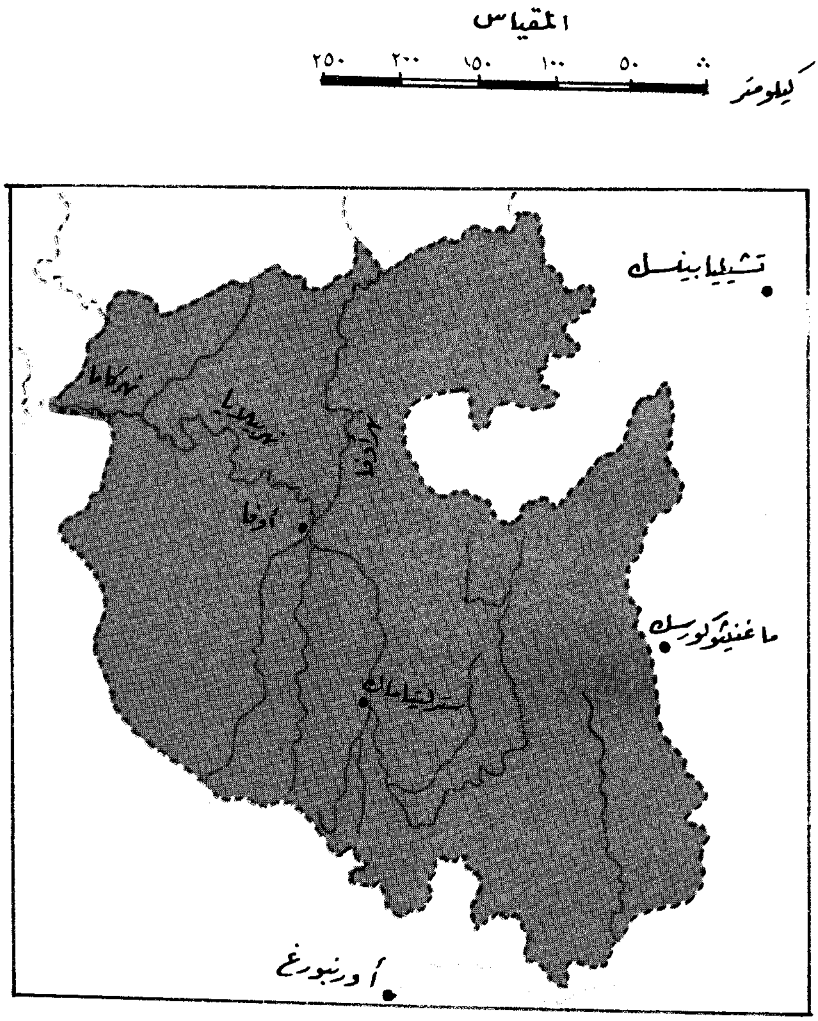
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
كيلومتر
تشيليابنسك
ن. كاما
ن. بيلايا
ن. أوفا
أوفا
ماغنيتوغورسك
ستيرليتاماك
أورنبورغ

٢ً - **جمهورية تتاريا**: تشكّلت جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي في ٢٨ شعبان ١٣٣٨ (١٧ أيار ١٩٢٠)، وتبلغ مساحتها ثمانية وستين ألف كيلومتر مربع. وتتألّف أكثر أرضها من سهولٍ فسيحةٍ تتخلّلها بعض الهضاب والتلال، ويجتمع فيها نهر الفولغا القادم من الغرب مع أكبر روافده وهو نهر كاما القادم من الشرق فيلتقيان جنوب العاصمة قازان، غير أن تنظيم مجرى نهر الفولغا بإقامة السدود عليه، جعل المياه تتجمّع خلف السدود التي أُقيمت عليه فتشكّل بعض البحيرات الواسعة على طول مجراه، ومنها البحيرة التي تمتدّ في أرض جمهورية تتاريا. فتكون بطول خمسين ومائة كيلومتر على مجرى نهر كاما أي من الحدود مع جمهورية أدمورت تقريباً حتى التقائه مع نهر الفولغا، وتكون على طول مائة كيلومترٍ على نهر الفولغا قبل التقائه بنهر كاما أي حتى الحدود مع جمهوريتي الجوفاش، وماري بل وتستمرّ مع مجرى النهر بين الجمهوريتين السابقتي الذكر، وكذلك تكون على طول خمسين كيلومتراً بعد التقاء نهر الفولغا مع رافده الكاما بل وتستمر بعد الانتهاء من حدود تتاريا الجنوبية. وبذا تقع مدينة قازان عاصمة الجمهورية على بحيرةٍ واسعةٍ، وتتحرّك السفن منها وإليها ذاهبةً وآيبةً. وعندما دخل الشيوعيون قازان هدّموا أكثر مساجدها، وحوّلوا مدارس القرآن إلى مدارس لتلقين الفكر الشيوعي، وأحرقوا المطبعة التي كانت تطبع القرآن الكريم والكتب الدينية، كما استولوا على جامعتها التي كانت تضمّ سبعة آلاف طالبٍ.

يبلغ عدد سكان جمهورية تتاريا حسب الاحصاء الروسي عام ١٣٩٩ ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف (٣,٤٣٦,٠٠٠)، ويزيد عدد سكان العاصمة قازان على المليون ساكن.

يُؤلّف التتار والباشكير ٤٧،٦ ٪ من سكان جمهورية تتاريا ويُقدّر عددهم بـ(١,٦٤١,٦٠٠) نسمة، بينما مُعظم الباقي من الروس والأوكران، ويُحاول الروس ترويس هذه الجمهورية بإكثار زيادتهم فيها بالهجرة إليها لذا فإن

نسبة المسلمين قد انخفضت فيها بعد توافد أفواج الروس إليها ، فلا تزيد نسبة المسلمين اليوم في جمهورية تتاريا على ٥٥ ٪ والباقي من النصارى المستعمرين .

وقد حاول الروس منذ أن استعمروا البلاد عام ٩٥٩ هـ دمج التتار بالمجتمع الروسي ، وتحويلهم إلى سلافٍ بتغيير عقيدتهم ، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبيرة ، فلم يفلحوا ، وحافظ التتار على إسلامهم وتمسّكوا به وبعنصرهم حتى ارتبط عندهم مفهوم الدين بمفهوم العنصرية . وإذا كانت قد ارتدّت جماعة منهم عن دينها في نهاية القرن العاشر الهجري تحت الضغط والإرهاب ، وارتدّت جماعة أخرى في نهاية القرن الثاني عشر للسبب نفسه إلّا أنهم قد عادوا إلى دينهم جميعاً عندما أُعطيت الحرية الدينية عام ١٣٢٣ ، وهذا يدلّ على أنهم لم يرتدّوا وإنما كتموا إيمانهم هذه المدة الطويلة لما لحقهم من أذىً وظلمٍ .

يُقدّر عدد التتار في الإمبراطورية الروسية حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ بـ (٤,٩٦٨,٠٠٠) ويعيش أكثر من ربعهم في جمهورية تتاريا ، وقريب من خمسهم في جمهورية باشكيريا ، والباقي مُوزّعون في حوض نهر الفولغا وخاصةً في مدينتي ساراتوف ، واستراخان ، وبعضهم في جبال الأورال وخاصةً في مدينة تشيليابينسك وبعضهم في مدينة أُورنبرغ ، ويعيش ما يقرُب من مليون تتاري في جمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان ويُقيم في سيبيريا ما يزيد على مائتي ألف ، كما أن معظم المسلمين في روسيا وجمهوريات الإمبراطورية الواقعة في أوربا إنما هم من التتار ففي موسكو يعيش مائة وخمسون ألفاً ، وفي لينتغراد ستون ألفاً ، ومجموعات أخرى في ليتوانيا ، وأوكرانيا ، إضافةً إلى تتار بلاد القرم سواء الذين يُقيمون في بلادهم أم الذين لا يزالون في منفاهم .

ويُطلق على بعض التتار الذين يُقيمون في بلاد الباشكير اسم (التبتيار) وهم الذين فرّوا من قازان يوم احتلّ الروس بلادهم عام ٩٥٩ هـ .

وانطلقت جماعة من التتار إلى خارج حدود الإمبراطورية الروسية بسبب الضغط والإرهاب الذي لحقهم، واستقرّت جماعة منهم في أميركا الشمالية وخاصةً في نيويورك.

٣ ـ جمهورية جوفاشيا: وتبلغ مساحتها ١٨,٣٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة سهلية، يمرّ نهر الفولغا في جزئها الشمالي. ويسكنها مليون ونصف المليون من البشر. ويتكلّم الجوفاش لغةً ليست من أصلٍ تركيٍ. وارتدّ كثير من الجوفاش، وعُمّدوا جميعاً أثناء موجة الإرهاب الروسي، ولما أُعطيت الحرية الدينية عادوا إلى الإسلام، وعمّ ذلك منطقتهم الأمر الذي سبّب الضغط عليهم، وليكونوا بعيدين عن أثر التتار. تأسّست لهم جمهورية خاصة بهم عام ١٣٤٤، وعاصمتها مدينة (شبوقساري) التي تقع في الشمال على الضفة اليمنى لنهر الفولغا. وتبلغ نسبة المسلمين في هذه الجمهورية ٥٨ ٪.

٤ ـ جمهورية موردوف: وتمتدّ إلى جهة الغرب باتجاه بلاد الروس أكثر من بقية الجمهوريات، وتبلغ مساحتها ٢٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتشغل هضبة بينزا جزءاً من أرضها، وتخرج منها نهيرات ترفد نهر الفولغا، ويُقيم على أرضها أكثر من مليون وربع من السكان، يُشكّل المسلمون فيهم ٥٥ ٪، والباقي من النصارى المستعمرين الروس والأوكرانيين، ويتكلّم الموردوف لغةً خاصةً بهم لا تعود إلى أصلٍ تركيٍ. وعاصمتها مدينة سارانسك.

٥ ـ جمهورية أدمورت: أكثر الجمهوريات في حوض نهر الفولغا امتداداً نحو الشمال إذ تتجاوز خط العرض الشمالي ٥٨°. وتُؤلّف الهضاب أقسامها الشمالية على حين تتسع السهول في أجزائها الجنوبية. تبلغ مساحتها ٤٢,١٠٠ كيلومتر مربع، ويعيش على أرضها ما يقرب من مليون من السكان، وعاصمتها مدينة أيجفسك. ويتكلّم الأدمورت لغةً خاصةً بهم لا تمتّ إلى التركية بصلةٍ. وتعيش بينهم بعض قبائل (الفن) مثل (الفوتياك) و (الشريمس)، وقد أسلمت هاتان القبيلتان بسبب احتكاكها بالتتار

والباشكير على الرغم من أن أفرادهما كانوا نصارى اسماً، وقد عُمّدوا جميعاً، كما كان بعضهم وثنياً، ويُعدّون وثنيين حسب سجلات الدولة الاستعمارية التي لم تسمح لهم بإقامة المساجد، بل لو أعلنوا إسلامهم لأبيدوا حسب القانون الروسي التقدّمي الذي صدر يومذاك، ولكنهم كانوا يختنون أطفالهم لذا أطلق عليهم الروس اسم (الكلاب المختونون) تحقيراً لهم، وتحقيراً لمن يفعل هذا ويقصدون بذلك المسلمين إبعاداً عنهم، ووضع الكراهية في نفوسهم للمسلمين خوفاً من أن يُسلموا، لذا فقد هجرت هذه القبائل مُجتمعاتها، وأقاموا في قرىً خاصّةٍ بنوها بعيدةً عن المجتمع. فلما أُعلنت الحرية الدينية أعلنوا إسلامهم، وظهرت أن قراهم كانت إسلاميةً، لذا عملت القيصرية الروسية على فصلهم من المسلمين الآخرين من التتار والباشكير كي تبقى معلوماتهم عن الإسلام ضعيفةً حيث يمكن التأثير عليهم وفتنتهم عن دينهم، ولكن المستعمرين القياصرة قد فشلوا في مُهمّتهم، فلما جاءت الشيوعية تمكّنت من تحقيق ما خطّطت له القيصرية إذ أن الضغط والإرهاب قد مكّن لها ما تبغي، فأنشأت جمهوريةً خاصةً من الأدمورت عام ١٣٥٣ هـ، وعملت أيضاً على إبعاد أثرهم عن الذين بقوا على النصرانية أو الوثنية، وكان عملها قائماً على التهديد، وعلى الدعاية ضدّ الإسلام، غير أن المستعمرين عندما تساهلوا في الحرية الدينية قليلًا أثناء الحرب العالمية الثانية بسبب الظروف التي كانت تُلم بالإمبراطورية وحاجتهم الماسّة إلى حماسة المسلمين، فأعلن من لم يُسلم سابقاً إسلامه، فوجد المستعمرون أن كل الأدمورت والفِنّ مُسلمين، فاشتدّ حنقهم عليهم، وزاد ظلمهم، وبدأ كتائب الروس تفد إلى بلادهم تستولي على أحسن الأراضي وتحرَم أصحابها من حقّهم فيها، وتتصرّف مع السكان تصرّف المستعمر الغاشم..... ووصل عدد المستعمرين إلى ما يقرُب من عدد السكان، إذ غدت نسبتهم ٤٨ ٪ بينما يُشكّل السكان المسلمون ٥٢ ٪.

٦ً - جمهورية ماريا: وتبلغ مساحتها ٢٣,٨٠٠ كيلومتر مربع، وتشغل السهول

أكثر أراضيها، ويمرّ نهر الفولغا في جزئها الجنوبي، واحتلّ الروس هذه المنطقة عام ٩٦٠ ومنذ ذلك الوقت ويلقى هذا الشعب الإهمال والاضطهاد، لذا لم تتطوّر بلادهم بالصورة التي تطوّرت بلدان أخرى، ويُقدّر عدد سكانها بثلاثة أرباع المليون، ويتكلّمون لغةً خاصةً لا تعود إلى أصلٍ تركيٍ. وقد ازدحم الروس في هذه الجمهورية وكاثروا سكانها وغدت نسبتهم ٤٨ ٪ من السكان وهي نسبة النصارى، أما السكان الأصليون فهم من المسلمين ويُشكّلون ٥٢ ٪.

ويُلاحظ في حوض نهر الفولغا والأورال أو في هذه الجمهوريات الست التي ذكرناها أن التتار والباشكير يعودون ولغتهم إلى اصلٍ تركي، وهما العنصران الفعّالان في النشاط الإسلامي وأن بقية الشعوب من أدمورت، وماري، وجوفاش، وموردوف شعوب خاصة، وكل منها يتكلّم لغةً خاصّةً به، ولا تمتّ إلى التركية بصلةٍ، وقد دخلوا الإسلام تحت تأثير التتار والباشكير. وقد قسّمهم المستعمرون الروس إلى هذه الأقسام لإحياء روح العصبية والعنصرية عند كل شعبٍ، ولتجزئة المسلمين عامّة، ولتطوّر كل شعبٍ حسب مفهومٍ خاصٍ لعلّ ذلك يُسهّل إبعادهم عن الإسلام، وبعضهم عن بعض.

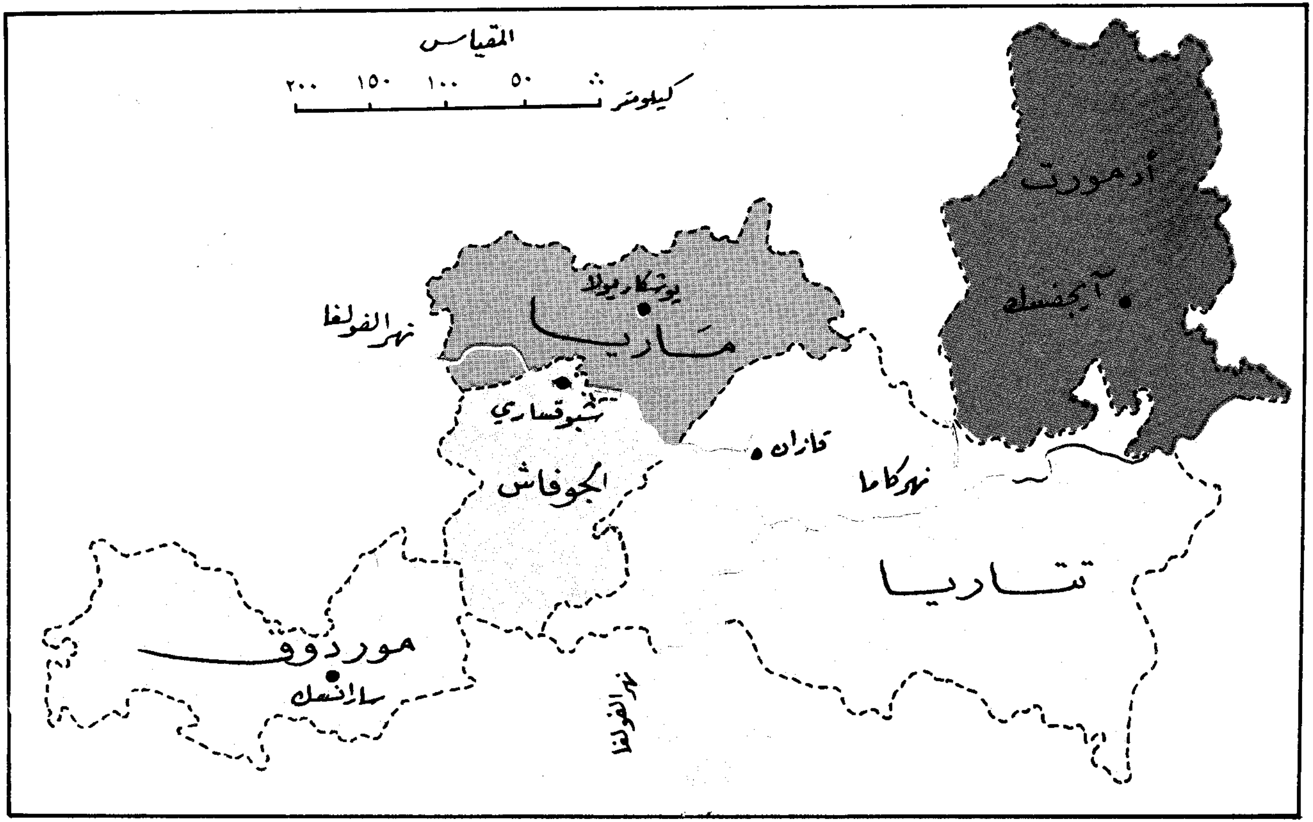
المقياس
كيلومتر ٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
أدمورت
آيجفسك
يوشكار يولا
ماري
نهر الفولغا
تشبوقساري
قازان
الجوفاش
نهر كاما
تتاريا
موردوف
سارانسك
نهر الفولغا

٧ ـ إقليم أورنبرغ: وهو إقليم خاص أو مقاطعة ذات استقلالٍ ذاتيٍ، تبلغ مساحته ١١٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، تتألّف أجزاؤه الشرقية من السفوح الجنوبية لجبال أورال، وتنحدر منها المياه المكوّنة لنهر أورال، أما الأقسام الغربية فتمتدّ سهول نهر أورال، وروافده التي تُشكّل بينها هضاباً. وبقي هذا الإقليم كحدٍ فاصلٍ بين مسلمي حوض الفولغا ـ أورال وبين مسلمي آسيا الوسطى.

يتألّف السكان الذين يُقارب عددهم المليونين من الباشكير، والقازاق، والتتار، ويُشكّلون ٥٠٪ من السكان، أما البقية فهم من النصارى المستعمرين الروس والأوكرانيين. ومدينة أورنبرغ أهم مدن الإقليم، وهي عاصمته، وقد غيّر الروس اسمها إلى (شكالوف) ليُنسى الاسم التاريخي الإسلامي ذي الأهمية الكبيرة، وتقع على نهر أورال، وكذلك مدينة (أورسك) التي تقع على النهر نفسه.

الفصل الثاني

بلادُ القرم

إن حقد الروس على بلاد القرم كبير، والروس سواء أكانوا قياصرةً أم شيوعيين فالأمر واحد، ونشأة هذا الحقد أن أهل القرم مسلمون قبل كل شيءٍ فهو حقد صليبي دفين، وزاد هذا الحقد لأن أهل القرم قد تعاونوا مع العثمانيين لصدّ عدوان الروس عنهم، ولم يجد الروس فرصةً ليشفوا غليلهم من تتار القرم، ولما احتلّوا القرم كظموا غيظهم خوفاً من الارتماء ثانيةً إلى العثمانيين ارتحالاً ونقلاً للأخبار ودعماً فيما إذا اقتربوا من شبه الجزيرة، كل هذا جعل الروس يسكتون موقتاً عن تتار القرم، رغم أنهم قد قتلوا خمسين وثلاثمائة ألفٍ عام ١١٨٥ قبل احتلالهم القرم الذي تمّ عام ١١٩٨ هـ.

وزاد الحقد عندما أُعطيت الحرية الدينية إذ بدأ العمل للإسلام، وفتح أهل القرم ذراعهم لإخوانهم تتار حوض الفولغا الذين نشطوا في الدعوة والعمل للإسلام. ولم يتمكّن الروس من تفريغ أي شحنةٍ مما تحمله قلوبهم من الحقد إذ اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وعاشت البلاد في وقتٍ حرجٍ.

وتأجّج الحقد في نفوس الروس أيضاً عندما شكّل أهل القرم حكومةً خاصةً بهم في مدينة (سيمفروبول) قبل الانقلاب الشيوعي، مذ قامت الحكومة الموقتة في البلاد الروسية، فلما حدث الانقلاب الشيوعي تحرّكت قواتهم فوراً من ميناء (سيباستيبول) واتّجهت إلى (سيمفروبول) وقضت على

الحكومة التتارية فيها غير أنها كانت على خوفٍ من الأحداث العامة لذا لم تتمكّن من الانتقام من أهل القرم بالشكل الذي يتناسب مع الحقد عليهم أو مع ما هو مزمع عليه. وفي الواقع لم يطُل مُقام الشيوعيين في القرم سوى ثلاثة أشهرٍ إذ احتلّها الألمان، وشكّلوا حكومةً بإشرافهم من حزب (ملّي فرقة)، ثم انسحب الألمان من المنطقة بعد مدةٍ. ولكن حقد الشيوعيون خاصةً على التتار قد جعلهم يعدّون ذلك تعاوناً مع الألمان، وعظم حقدهم على حزب (ملّي فرقة) الذي يعدّونه أقرب الفئات إليهم.

وسيطر على بلاد القرم بعد الألمان المانشفيك أعداء الشيوعيين، ولم يقلّ حقدهم كثيراً عن الشيوعيين بالنسبة إلى التتار عامةً وإلى حزب (ملّي فرقة) خاصةً، فحلّوا هذا الحزب وبدؤوا بتطبيق سياسة الانتقام، لكنهم لم يلبثوا أن هُزموا أمام الشيوعيين. وأحسّ التتار أن ساعة الانتقام قد جاءت مع مجيء الشيوعيين لذا فما عليهم إلا الدفاع عن بلادهم ببسالةٍ وإعلان الجهاد، ولكن ذلك لم يُغنهم شيئاً إذ أن القوة المهاجمة لا حصر لها فاضطروا إلى الانسحاب والاعتصام في الجبال الواقعة في جنوبي الجزيرة حيث بدأت المقاومة الجبلية، أو بدأت حرب العصابات حيث كانوا يُغيرون باستمرارٍ غاراتٍ مُوفقةً على المستعمرين، وكان الشعب جميعاً يدعمهم ويمدّهم بما يحتاجونه من مُؤنٍ وذخائر ومعلوماتٍ عن الإعداء إلا إذا استثنينا الشيوعيين أو الجناح اليساري من حزب (ملّي فرقة) الذين استقبلوا الشيوعيين الغُزاة وانضمّوا إليهم وساعدوهم في دخول الجزيرة، فهم أولاً من رفاقهم حسب مفهوم الشيوعيين التتار لا حسب مفهوم الشيوعيين المستعمرين الروس حيث هناك فرق كبير في المفهوم إذ أن فكرة سيدٍ ومسود قائمة ولو لم يعلن عنها أتباعها، ومن ناحيةٍ أُخرى ظنّ هؤلاء المُغفّلون من التتار أن هذه المساعدة وهذا الانضمام إليهم سيحميهم من حقد الروس الذين يتوقّعونه بين آونةٍ وأُخرى. وفعلاً فإن الروس قد أظهروا الرضا عن هؤلاء المغفّلين وقدّموهم على غيرهم ليتسفيدوا منهم، وليُحققوا منهم أغراضهم ثم يكون الحساب، ففرح هؤلاء المُغفّلون بما

نالوا من حظوةٍ عند أسيادهم وركنوا إليهم.

ورأى الشيوعيون أن حبل المقاومة طويل في الجزيرة لذا فقد لجؤوا إلى حرب التجويع إذ نقلوا الأقوات من الجزيرة، فنال الجوع الناس جميعاً بما فيهم المغفّلون الذي حسبوا أن هذا موقت اضطر المستعمرون إلى اللجوء إليه، وبدأ الناس يموتون جوعاً، وكان معدل الموت ثلاثمائة إنسانٍ يومياً، أما الذين تُصيبهم محنة الجوع فيقدّرون بعشرة آلافٍ يومياً مع زيادةٍ قليلةٍ في بعض الأيام أو نقصانٍ في بعض الأيام الثانية، ولم يكن غريباً أكل لحم الإنسان الميت، وأكل لحوم الحمير الأهلية والخيل بل هو من نوع الرفاهية إن حصلوا عليه، وأكل لحم القطط والكلاب (يُرجع إلى حديث الرفيق كالينين عن هذه المجاعة في بحث الاستعمار الروسي للقرم فيما سبق من هذا الكتاب) وعند هذه التصرّفات استسلم المجاهدون ونـزلـوا مـن حصـونهم في الجبـال، وفضّلـوا لأنفسهم الموت من أن يُصيب الناس ما أصابهم من بلاءٍ بسبب اعتصام هؤلاء المجاهدين ومُقاومتهم.

وجاءت ساعة الانتقام وإفراغ الحقد الصليبي، فوُلّي أمر القرم الشيوعي الهنغاري (بالاكون) وأعطي الصلاحيات الواسعة للانتقام بل أعطي حق التصرّف بالقرم على أنها مزرعة له، وأهلها سوائم يرعون فيها، وبدأ الانتقام بصبّ الحقد على العدو الأول وهو الإسلام وذلك بإزالة كل مظهرٍ من مظاهره فابتدأ هدم المساجد فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً كان في الجزيرة سوى آحادٍ قليلةٍ أبقوا عليها إما أنها كانت في بعض ضواحي المدن وإما للخديعة وإظهار الكذب وقت الحاجة إلى ذلك، أما جمهرتها فقد أُزيلـت وأُقيم مبـانٍ مكانها أو تحوّلت إلى أنديةٍ، ومقاهٍ، ودور لهوٍ، واصطبلاتٍ للخيل، وحظائر للماشية، وحاناتٍ للخمر. ثم انتقل الانتقام إلى المعاهد العلمية الدينية حيث انتهى أمرها نهائياً وكأنها لم تكن، بل إن شدّة الحقد لم تجعلهم يُفكّرون بالإفادة من بنائها في مجالاتٍ ثانيةٍ بل أسرعوا في تهديمها وتقويضها على الرغم

من أن بعضها جدير بالإبقاء على بنائه لحداثته، وحسن هندسته، وإتقان الفنّ فيه. أما السكان فبدا عليهم التناقص إذ لا نستطيع أن نقول: إن الإبادة قلّت عن خمسمائة ألف إنسان، ومنهم رئيس الجمهورية السابق (جلبي نعمان جهان) الذي مُثّل بجثته ثم أُلقيت في البحر.

وظنّ المغفّلون من شيوعي التتار أنهم في منأى عن الحقد الذي يخصّ المُتديّنين منهم فقط، فزادوا في تزلفهم وتقرّبهم من الشيوعيين، ومن إظهارهم الشيوعية والتعصّب لها أكثر من الروس، وفي مشاركتهم في قتل المسلمين. وبعد خمس سنوات من الظلم الرهيب الذي تدمى له القلوب والذي أتحاشى ذكره لما يُصيب النفوس من هلعٍ ولما فيه من فحشٍ ووحشيةٍ خفّ الضغط ونال المغفّلون مقعدهم وأخذوا جزاءهم فنُصّب ولي إبراهيم رئيساً للجمهورية، وحسب أنه فاز بالفردوس الذي وعده به رفاقه، ونسي أنه ينتمي إلى الإسلام، وقد أدّى دوره بالإفادة منه، فلم ير نفسه إلا وهو في ساحة الإعدام مع جميع وزرائه فلقوا جزاءهم العاجل في الدنيا ولعذاب الآخرة اشدّ وأنكى. ونصّب الشيوعيون محمد قوباي مكانه رئيساً للجمهورية عام ١٣٤٧ هـ، وقد أوهموه أن ولي إبراهيم قد خان الشيوعية ولية نعمته، فخاف محمد قوباي في نفسه وزاود على الروس أنفسهم فلما كان عام ١٣٤٩ وجد نفسه ووزراءه معه في ساحة الإعدام، في المكان الذي أُعدم فيه سلفه ولي إبراهيم فلقي المصير نفسه، ونُصّب إلياس طرخان رئيساً للجمهورية فاستدعي إلى موسكو مع وزرائه جميعاً ونُفّذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص بعيداً عن بلدهم، في المكان الذي ربطوا أنفسهم فيه، وتعلّقوا به، ومنّوا أنفسهم منه.

وأيقن تتار القرم جميعاً أن الشيوعية سراب، وأن اتخاذ العامل الاقتصادي رابط بين الناس وهم، وأن الثقة بالروس غباء، وأن الحقد الصليبي لا يزول. ونجم عن هذه التصرّفات الشيوعية الاستعمارية حقد لدى التتار على الروس جميعاً بغضّ النظر عن أفكارهم، أو قابلوا الحقد الصليبي بحقدٍ مُماثلٍ، ولما

كان الحقد الصليبي لا يُفرّق بين المسلمين وأفكارهم وإن كان على أهل الدين أعظم وأشدّ فإن حقد التتار على الروس لم يعد يفرّق بين الروس وأفكارهم وإن كان على الشيوعيين أقوى وأعنف.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وانساح الألمان في الأرض الروسية، واحتدمت معارك عنيفة على أبواب القرم بين الروس والألمان، وكان بين المدافعين فيلق من أهل القرم قوامه ثمانية عشر ألف مُقاتل، وظنّوا أن الوقت قد حان للانتقام من الروس، وتوقّعوا ـ جهلاً ـ أن الألمان أخفّ وطأةً من الروس، أو أقلّ حقداً وظُلماً، ورُبّما حسبوا أن الدائرة قد دارت على الروس وأن الوضع سيكون لمصلحة الألمان لذا قرّروا الاستسلام للغزاة الجدد انتقاماً من الروس وتخلّصاً منهم وقد أذاقوهم الويلات وأنزلوا بهم النكبات، ولم يَدْرُ في خلدهم أن الكفر ملة واحدة، وأن عداوة النصارى إنما هي موجّهة للإسلام والمسلمين قبل كل شيء، وما أن علم الألمان أن المستسلمين من المسلمين حتى نزعوا منهم السلاح، وساقوهم حفاةً مسافة خمسين ومائة كيلومتر سيراً على الأقدام، ودون طعامٍ فسقط بعضهم على الطريق من شدّة الإعياء ثم سجنوهم في قلعةٍ قديمةٍ لا يدخلها النور، ومنعوا عنهم الطعام بحجة النقص في المواد التموينية عند الألمان فأخذوا يتساقطون موتى من الجوع، ثم تناقص عدد الموتى إذ بدأ الأحياء يأكلون لحم إخوانهم الموتى فأدرك الألمان ذلك، فأخرجوهم من السجن تحت الحراسة المشدّدة وأبادوهم رمياً بالرصاص.

وهُزمت ألمانيا، وعاد المستعمرون الشيوعيون إلى القرم أو عاد الأعداء القدامى، وأحسّ التتار من أهل القرم أن الموت يُلاحقهم من كل جهةٍ، فباتوا ينتظرون طريقةً جديدةً للقضاء عليهم، وحيلةً مستحدثةً يتذرّع بها الروس لهلاكهم، وإذ بالشيوعيين يُعلنون أن تتار القرم من عملاء الألمان ـ رغم ما حلّ بهم ـ لذا يجب محاكمتهم، فدخلوا العاصمة (باغجه سراي) وطمسوا معالم الإسلام فيها حتى دكّوا المساجد الأثرية مثل (جامع خان)، و (جامع

بازار) و (جامع أصماقويو) وغيرها كثير ، وجمعوا المصاحف وأحرقـوهـا في الميادين العامة ، وهذه محاكمة المباني قبل محاكمة السكان ، وكأنها كانت هي العميلة ، والحقّ أنها كانت عملية ضدّ الإسلام إذ انصبّ غضبهم وحقدهم على المؤسسات الإسلامية قبل التوجُّه إلى السكان ، ثم جاء دور الأهالي فانطلق الشيوعيون الروس المسلحون في المدن والقرى يفتحون نيران أسلحتهم على الناس دون تمييزٍ ، ويقتحمون الدور ، ويُذبّحون قاطنيها واستمرّ ذلك عدّة أيام حتى هدأت موجة الحقد ، وخرجت روائح الجثث فانتبهوا إلى ذلك ، وأخذوا يجمعونها ليلقوها في حُفرٍ أُعدّت لها فكان عدد القتلى يزيد على ربع مليون إنسان ، إذ نجا الذين فرّوا إلى الجبال واختفوا في المغارات والكهوف ، والذين لجؤوا إلى المزارع واختبؤوا في المجاري وتحت أكوام القشّ ، والذين ضاعوا بين أثاث المنازل وتحت الأنقاض ، وكان مجموع الذين نجوا ما يقرب من ٢٣٨،٠٠٠ ، فلما خرجوا من مخابئهم تبيّن أن عدداً أيضاً قد مات خوفاً ، أو جوعاً ، أو إرهاقاً ، ثم جاء الأمر من المستعمرين الشيوعيين الرحماء بنفي هؤلاء جميعاً إلى مجاهل سيبيريا ليعملوا هناك بـالأشغـال الشـاقّـة ، فبـدأت الجموع تتحرّك نحو سيبيريا وبقيت البلاد خاويةً من أهلها ، ليس فيها سوى خمسة عشر ألفاً كانوا من المتزلّفين أو المزاودين ، أو الذين أبقتهم السلطات الشيوعية لتستفيد منهم في مهمّةٍ خاصّةٍ قد تأتي في المستقبل أو تضطرهم الحاجة إليهم ، وتدفّقت جماعات المستعمرين من الروس والأوكرانيين فحلّت محلّ السكان الأصليين ، وحلّت السلطات الشيوعيـة جمهـوريـة بلاد القـرم ، وجعلتها مقاطعةً خاصةً ذات استقلالٍ ذاتي ، وألحقتها بأوكرانيا ، ويُقدّر عدد سكانها حسب إحصاء ١٣٩٩ بحوالي ٢,١٣٥,٩١٦ ويتوزّعون على الشكل التالي :

١,٤٦٠,٩٨٠	روسي .	٢٢,٥٩٧	يهودي .
٥٤٧,٠٠٠	روسي أوكراني .	١٥,٠٧٨	تتاري .
٤٣,٠٠٠	روسي أبيض .	١,١٥١	مجموعات ثانية .

ولا يزال تتار القرم يهيمون على وجوههم في مناطق متفرقةٍ من مجاهل سيبيريا يعملون بالأشغال الشاقّة، ويُطالبون إعادتهم إلى وطنهم، وإعادة جمهوريتهم على الرغم من أنهم يعرفون أنها ستكون ألعوبةً بيد الروس، ولكنهم على الأقلّ يجتمعون، وتخفّ عنهم الأشغال الشاقّة، ويذكرون أيامهم الخوالي في وطنهم وذكرياتهم فيه وذكريات آبائهم الذين قتلتهم أيدي المستعمرين الآثمة.

وفي عام ١٣٩٦ شعر الروس أو علموا من أعوانهم الذين أبقوهم لهذه الساعة أن بعض المنفيين من تتار القرم قد بدؤوا يعودون إلى بلادهم دون إذنٍ من السلطات الاستعمارية، فأرسل الروس ثلةً من رجال الأمن يخربون البيوت التي قطنها هؤلاء العائدون فوق رؤوس ساكنيها، ويقتادون الذين ينجون من الموت إلى السجن ليذوقوا طعمه بلونٍ آخر، ورفض المستعمرون عودة تتار القرم إلى وطنهم.

تقع شبه جزيرة القرم في شمال البحر الأسود، وتقترب من جهة الشرق من البر مكونةً شبه جزيرة (كرتش) التي تُؤلّف باقترابها من البر مضيق (كرتش) الذي يصل بين البحر الأسود وبحر آزوف، وتُشكّل الجبال القسم الجنوبي من شبه الجزيرة بينما تمتدّ في الشمال سهول فسيحة تضيق في النهاية فلا تتصل بالبر الأوربي إلّا ببرزخٍ ضيق جداً لا يزيد عرضه على عشرة كيلومترات. وتبلغ مساحة شبه جزيرة القرم ٢٦,١٥٠ كيلومتراً مربعاً أي قريباً من مساحة فلسطين، أما المنطقة التي كانت تخضع لنفوذها فتبلغ أضعاف هذه المساحة، وينتشر فيها التتار، ثم انتشر فيها القوزاق حتى تخوم أوكرانيا، ثم تقلّصت مع الزمن حتى انحصرت في شبه الجزيرة هذه.

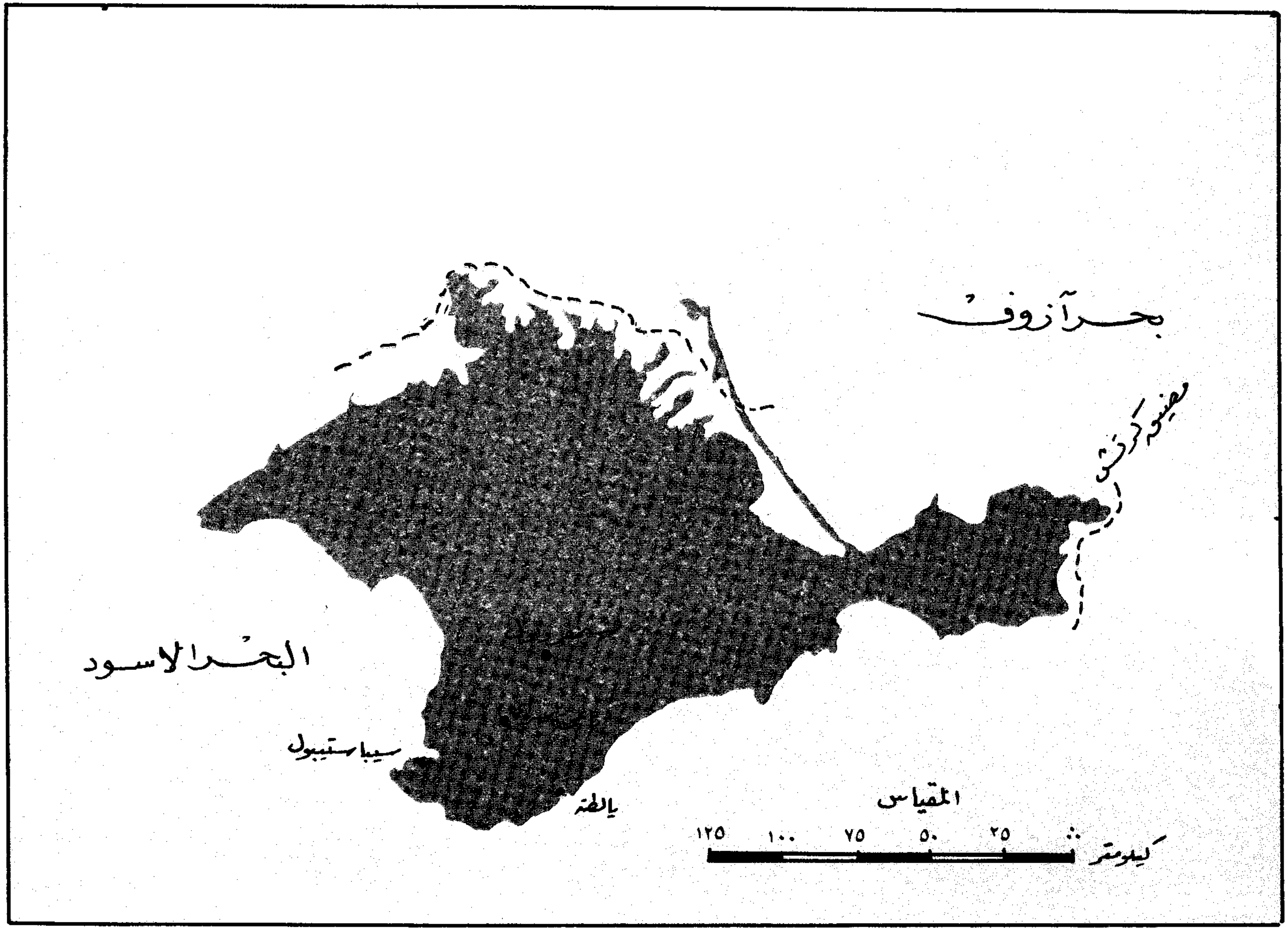

بحر آزوف
مضيق كرتش
البحر الاسود
سيباستبول
يالطة
المقياس
١٢٥ ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ ٠
كيلومتر

الفصل الثالث

بــلادُ القفـْقَاس

نُميّز في بلاد القفقاس منطقتين رئيسيتين هما: شمالي القفقاس، وسكانها جميعهم من المسلمين، وإذا كان إسلام القسم الشرقي قديماً يرجع إلى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى، وهو بلاد داغستان، فإن إسلام القسم الغربي حديث يعود إلى أيام العهد العثماني، ويشمل بلاد الشاشان، والأنغوش، والبلكار، والشراكسة. وتقوم في هذا الجزء أربع جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتيٍ وهي: ١ً ـ داغستان. ٢ً ـ شاشان أنغوشيا. ٣ً ـ أوستينا الشمالية. ٤ً ـ قبارديا ـ بلكارديا، كما يشمل هذا الجزء مقاطعتين ذواتي استقلالٍ ذاتٍ، وهما: أً ـ قراتشاي الشركسيّة. ٢ً ـ بلاد الأديغة، وكل هذه الأجزاء ترتبـط بموسكو مباشرةً.

أما المنطقة الرئيسية الثانية فهي الواقعة جنوب ذرا جبال القفقاس، وهي التي تُعرف فيما وراء القفقاس، وتضمّ ثلاث جمهورياتٍ اتحاديةٍ، إحداها ذات أكثريـةٍ مُسلمـةٍ وهـي أذربيجـان، واثنتين ذواتي أكثريـةٍ نصرانيـةٍ، وهما: جورجيا وأرمينيا، هذا بالإضافة إلى أربع جمهورياتٍ ذات استقلالٍ ذاتيٍ، إحداها نصرانية، وهي أوستينا الجنوبيـة، وتـرتبـط بجمهـوريـة جـورجيـا الاتحادية، وثلاث جمهورياتٍ ذات أكثريةٍ مسلمةٍ، وهي: أبخازيا، وآجاريا وترتبطان بجمهورية جورجيا الاتحادية، وناختيشيفيان وتـرتبـط بجمهـوريـة أذربيجان الاتحادية، كما توجد مقاطعة ذات استقلالٍ ذاتيٍ، وهي مقاطعة

قره باخ وترتبط بجمهورية أذربيجان الاتحادية أيضاً. ويُلاحظ في هذه المنطقة أن إسلام القسم الشرقي قديم يعود إلى عهد الفتوحات الأولى في العهد الراشدي، وهو أذربيجان أما القسم الغربي فالإسلام فيه حديث يرجع إلى العهد العثماني، وأما الوسط فهو جزيرة نصرانية تشمل أرمينيا وجورجيا وتضمّان أقليةً مسلِمةً لا تصل نسبتها إلى ٢٠ ٪ من السكان.

تبلغ مساحة بلاد القفقاس كلها ٣٢٤,٢٠٠ كيلو متر مربع أي ما يقرب من مساحة بلاد الشام، ورغم صغر هذه المساحة فإنها تُقسّم إلى هذه الأقسام الكثيرة التي رأيت، هذا بالإضافة إلى القسم الشمالي الشرقي الذي يُسمّى بصحراء القفقاس «دشت القفجاق» والذي كانت تتنقل في أرجائه قبائل النوغاي المسلِمة، وقد ضمّه الروس إليهم وابتلعوه، وطردوا منه أكثر قبائل النوغاي، وأسكنوا مكانها بعض الروس، وكانت هذه خطةً لفصل مسلمي حوض الفولغا ـ أورال عن مسلمي القفقاس.

يفصل شمالي القفقاس عن منطقة ما وراء القفقاس جبال القفقاس التي تمتدّ من الشمال الغربي من سواحل البحر الأسود إلى الجنوب الشرقي على بحر قزوين، ويبلغ طول هذا الامتداد أكثر من ١٢٠٠ كيلومتر، وهي جبال شاهقة يصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٣ م في قمة «البروز» الواقعة في الوسط تقريباً، وبذا تعدّ أعلى جبال أوربا، وتسدّ هذه الجبال ما بين البحرين تماماً فلا يمكن اجتيازها إلّا من الجانبين على شاطىء البحرين كما يوجد في وسطها ممردريال الذي يجري فيه ـ نهر (ترْك)، ولارتفاعها الشاهق فإنها تكون باردةً جداً، وتكون فيها مناطق ذات ثلوجٍ دائمة، ومن أشهر تلك المناطق ثلاجة «ماروخ»، كما أن ذلك الارتفاع يجعلها تتلقّى كمياتٍ كبيرةً من الأمطار التي تنساب على كلا السفحين فيها وتتشكّل منها ومن ذوبان الثلوج بعض الأنهار ذات الأهمية المحلية، وأشهرها: نهر تِرْك في الشمال الشرقي، ونهر قوبان في الشمال الغربي، ونهر كورا في الجنوب الشرقي، ونهر ريفون في

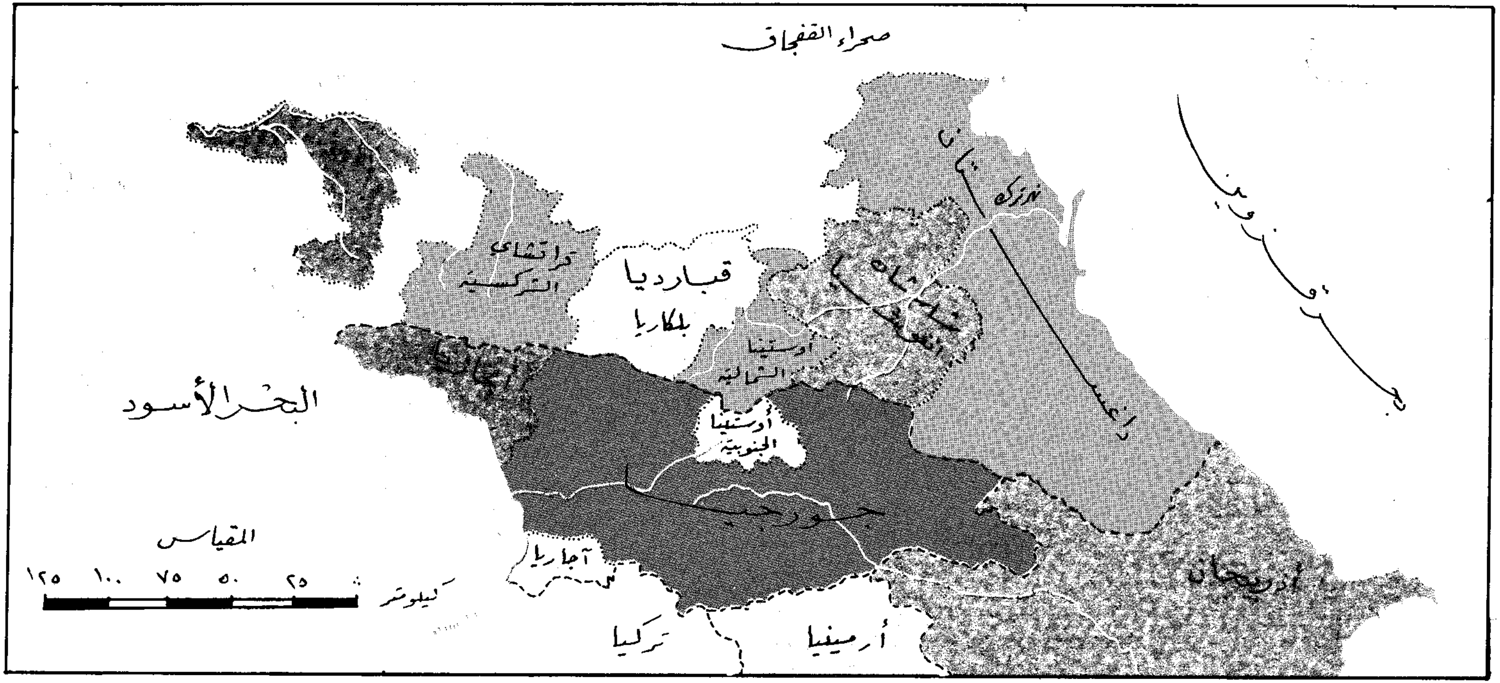
صحراء القفجاق
قراتشاي الشركسية
قبارديا بلكاريا
أوستينيا الشمالية
أوستينيا الجنوبية
جورجيا
البحر الأسود
المقياس
١٢٥ ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ ٠
كيلومتر
آجاريا
تركيا
أرمينيا
أذربيجان

الجنوب الغربي، وأكثر الأنهار والنهيرات الأخرى إنما تتجمّع مياهها بعضها مع بعض وترفد أحد هذه الأنهار الأربعة. وتُعدّ جبال القفقاس الحدّ الفاصل بين آسيا وأوربا، وبذا تكون منطقة شمالي القفقاس ضمن القارة الأوربية، ومنطقة ما وراء القفقاس ضمن القارة الآسيوية، وإن هذه التقسيمات ليست إلّا اصطلاحات.

أ ـ منطقة شمالي القفقاس: وتقع إلى الشمال من الذرا الجبلية أو خط توزيع المياه وتضمّ الجمهوريات الآتية:

١ً ـ داغستان: وهي لفظ تركي يعني بلاد الجبل، إذ أنها تتألّف من مقطعين « داغ » وتعني جبل بالتركية و« ستان » وتعني بلاد بالفارسية. وتبلغ مساحتها ٥٠,٣٠٠ كيلومتر مربع أي ما يُقارب ضعف مساحة فلسطين. ويُمكن أن نُلاحظ فيها منطقتين مُتباينتين، الأولى في الشمال وهي منطقة سهلية يجري في جزئها الجنوبي نهر صولاق ونهر ترك حيث يتّجهان نحو بحر قزوين ليصبّا فيه، وإلى الشمال من مجرى نهر ترك تمتدّ رقعة شبه صحراوية هي بداية صحراء القفجاق. أما المنطقة الثانية فتقع في الجنوب، وهي جبلية تمتدّ من ذرا جبال القفقاس وتنحدر نحو بحر قزوين حتى تصل إلى الساحل، وقد تصل إليه مباشرةً فلا تترك مجالاً للسهل الساحلي، ويكون ممرّ ضيق حيث تقع مدينة باب الأبواب « دربنت »، واسمها يدل على ذلك، وقد يتسع السهل الساحلي قليلاً وبصورةٍ عامةٍ فهو لا يزيد على خمسة عشر كيلومتراً، ولكن يبدأ بالاتساع من العاصمة « محج قلعة » إلى الشمال حيث تنفتح السهول الشمالية الواسعة، وتجري على الجبال أنهار تتجه نحو البحر وتكون قصيرة المجرى، سيليةً في بدايتها، ذات مجارٍ عميقةٍ، ويقلّ انحدارها في السهل الساحلي.

تأسّست جمهورية داغستان في شهر ربيع الأول من عام ١٣٣٩، ويُقدّر عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٣٩٩ بحوالي ١,٦٢٧,٠٠٠، وعاصمتها

مدينة (محج قلعة)، وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٨٥,٣٪ من السكان وهم من:

الداغستان	وعددهم	١,٢٦٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٧٨,٠٪.
الأذربيجان	وعددهم	٦٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٤,٠ ٪.
الشاشان	وعددهم	٤٩,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٣,٠ ٪.
الطاط	وعددهم	٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٢ ٪.
التتار	وعددهم	٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,١ ٪.

٨٥,٣٪ وهي نسبة
المسلمين

ويُشكّل النصاري ١٤,٧٪ وهم من المستعمرين:

الروس	وعددهم	١٩٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١١,٦٪.
الأوكرانيون	وعددهم	٥٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٣,١٪.

١٤,٧٪ وهي نسبة
النصارى

ويُوجد عدد قليل من اليهود في الجبل لا يزيد عددهم على أربعة آلاف، ويُعرفون باسم «داغ تشوفوت» أي يهود الجبل، وقد جاءوا إلى المنطقة منذ أيام الدولة السامانية.

ويُقيم أكثر الداغستانيين في الريف، ويعملون في الفلاحة وتربية الحيوانات، بينما يُقيم أكثر المستعمرين في المدن، ويُشرفون على الحكم واستثمار النفط، والصناعة، إضافةً إلى المُهمّة الرئيسية وهي مُراقبة حركات السكان.

وتضمّ كلمة الداغستان عشر مجموعاتٍ قبليةٍ منها القوموق، والنوغاي وهما في الشمال، ويعودون إلى أصلٍ تركيٍ. ومنها اللزكي واللان والعفر وهم في الجبال، ومن العفر قبائل الآندي التي كان لها دور في مُقاومة الاستعمار الروسي. وهؤلاء كلهم من المسلمين، ويعودون إلى أصولٍ قوقازيةٍ.

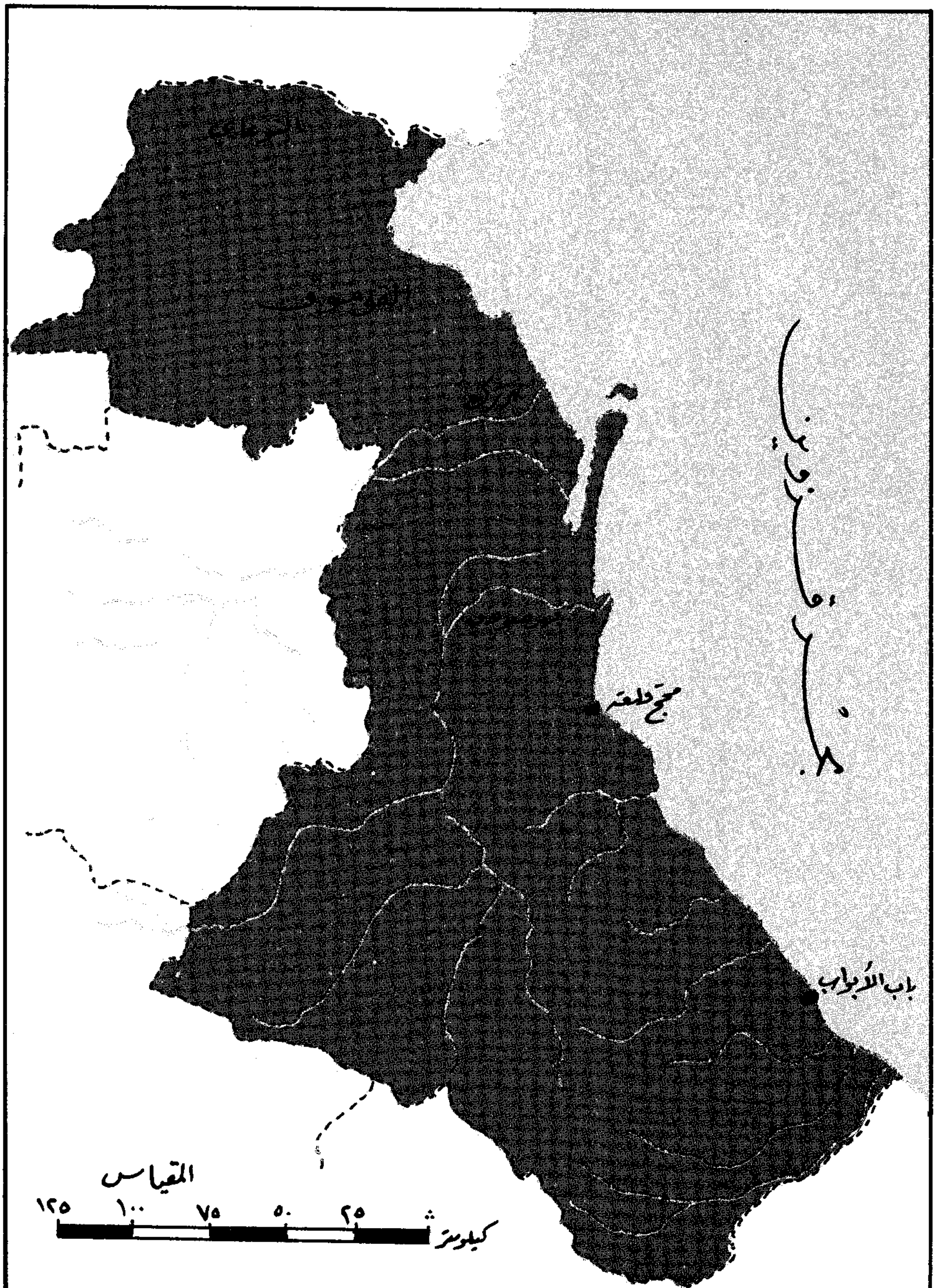

بحر قزوين
محج قلعة
باب الأبواب
المقياس
١٢٥ ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ ٠
كيلومتر

كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة، وهي لغة التخاطب حتى عام ١٣٤٦ ، كما كانت تستعمل أحياناً اللغة التركية الأزرية. وحُظرت الكتابة باللغة العربية كلغةٍ أدبيةٍ منذ عام ١٣٤٠ .

وتُعّد العاصمة (محج قلعة) المركز الإداري الإسلامي لداغستان ومنطقة شمالي القفقاس كلها، ولغة المركز الرئيسية هي اللغة العربية.

٢ ـ جمهورية شاشان ـ أنغوشيا: وتبلغ مساحتها ١٩,٣٠٠ كيلومتر مربع أي ما يقرب من ضعف مساحة لبنان، وهي جبلية في الجنوب تُشكّل ذرا جبال القفقاس حدودها الجنوبية، وتمتدّ السهول في شمالها على مجرى نهر ترك وبعض روافده، كما تشمل على بعض أجزاء من صحراء القفجاق في شمال تلك السهول. وتجري الأنهار الصغيرة والنهيرات ويلتقي بعضها مع بعض لترفد نهر ترك قبل أن يصل إلى حدود جمهورية داغستان المجاورة لها من جهة الشرق.

وتُسمّى هذه الجمهورية باسم المجموعتين الرئيسيتين اللتين يتألّف منهما السكان، وهما: الشاشان والأنغوش. ويبلغ عدد سكان هذه الجمهورية ١,١٥٥,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويُقيم منهم ٣٧٥ ألفاً في العاصمة (غروزني) التي تقع على أحد روافد نهر ترك، وأغلب المقيمين فيها من المستعمرين الروس. ويتوزّع السكان المسلمون حسب المجموعات البشرية على النحو الآتي:

الشاشان	وعددهم	٦١١,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٥٢,٩٪
الأنغوش	وعددهم	١٣٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١١,٦٪
الداغستان	وعددهم	٢٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢,٠ ٪
		٧٦٨,٠٠٠	٦٦,٥٪ وهي نسبة المسلمين

أما بقية السكان فهم من المستعمرين النصارى الروس، ويبلغ عددهم ٣٨٧,٠٠٠ وتبلغ نسبتهم ٣٣,٥٪ ومُهمّتهم الإشراف على البلاد، وعلى استخراج النفط.

فالشاشان هم المجموعة الرئيسية ويبلغ عددهم في الإمبراطورية الروسية ٧٥٥,٨٠٠ يُقيم منهم ٨١ ٪ في جمهوريتهم، وهو كما ذكرنا ٦١١,٠٠٠ نسمة والباقي وهو ١٤٤,٨٠٠ أي ١٩٪ مُوزّعون في داغستان، وأوستينا الشمالية، وآسيا الوسطى. كما تُوجد أعداد منهم قد هاجرت من بلادها نتيجة الأعمال الوحشية التي قام بها الروس واستوطنت في تركيا، والعراق، وبلاد الشام، وأشهر مناطقهم في بلاد الشام رأس العين والقنيطرة في سوريا، وفي الزرقاء، وصويلح، وأزرق الشاشان، والسخنة في الأردن.

أما الأنغوش فيبلغ عددهم في الإمبراطورية الروسية ١٥٧,٠٠٠ نسمة يُقيم في جمهوريتهم منهم ١٣٥,٠٠٠ أي ٧٢٪ من عددهم الإجمالي، والباقي وهو ٢٢,٠٠٠ أي ٢٨٪ مُوزّعون في أنحاء الإمبراطورية.

ويتكلّم الشعبان لغتين مُتقاربتين تنتميان إلى أصلٍ قفقاسي، وليس لهاتين اللغتين المحليتين أبجدية، وقد عمل الشعب على كتابتها بالحرف العربي، غير أن الروس وقفوا في وجه هذا المشروع فكُتبتا بالحرف اللاتيني، ثم أصبحتا تكتبان بالحرف الروسي.

وقد قاتل الشاشان مع الشيخ محمد شامل قتالاً عنيفاً، وكانت بلادهم القلعة التي وقفت في وجه الروس، وكذلك اشتركوا في انتفاضة الداغستان عام ١٣٣٩ بينما لم يشترك إخوانهم الأنغوش في كلا الحربين. وهذا ما زاد من حقد الروس عليهم، وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية، واقترب الألمان من المنطقة صدرت إشاعات لا أساس لها من الصحة أن الشاشان يتعاونون مع الألمان، فما أن انتهت الحرب حتى عُدّ الشاشان عملاء، ونفوا جميعاً إلى مجاهل سيبيريا، وبقيت جمهوريتهم تحمل اسم جمهورية أنغوشيا، وبعد موت

ستالين أعيد النظر في الاتهام الذي وُجّه إليهم، فبُرّئوا منه، وأعيدوا إلى بلادهم عام ١٣٧٧، وأعيدت إليهم جمهوريتهم، ورجعت تحمل اسمهم.

وإسلام الشاشان الحديث يعود إلى العهد العثماني، ولا يزيد كثيراً على القرنين من الزمن، وقد ثبت بشكلٍ جيدٍ أيام حروبهم مع الشيخ محمد شامل ضدّ الروس، إذ كان لاندفاعهم وجهادهم أثر في تمكين الإيمان في نفوسهم.

٣ - جمهورية أُوستينا الشمالية: تبلغ مساحتها ٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية باستثناء الجزء الشمالي حيث تمتدّ السهول حول نهر ترك عندما يعود ثانيةً إلى أرضها متجهاً نحو الشرق. ويجري نهر ترك في أرضها عندما يكون جبلياً، وترفده كثير من الأنهار، ثم يدخل أراضي جمهورية قبارديا - بلكاريا، ويرسم فيها قوساً في زاويتها الشمالية الشرقية، ويعود إلى أراضي أُوستينا الشمالية. ولهذا النهر أهمية كبيرة في هذه المنطقة، وهو النهر الوحيد الذي يبدأ في جريانه من جنوب ذرا جبال القفقاس، إذ ينبع من جورجيا وتجتاز مياهه خطّ الذرا فيُشكّل ممرّ دريال وهو الممرّ الوحيد الذي يخترق هذه الجبال من وسطها.

والأوستين من العناصر الشركسية، ويُطلق عليهم اسم القوشحة، كما يُسمّون بالآيرون، وإن كان هذا الاسم غالباً ما يُطلق على النصارى منهم، وإذا كان الإسلام قد انتشر في الأجزاء التي تقع شمال ذرا القفقاس عن طريق الدعاة فإن الأوستين الذي يسكنون في جنوب تلك الذرا قد بقوا على نصرانيتهم، وهذا ما جعل الروس يفصلون القسمين بعضهما عن بعض، حتى لا يتأثّر الجنوب بالشمال ويدخل أهله في الإسلام، وربطوا القسم الجنوبي « أوستينا الجنوبية » بجمهورية جورجيا الاتحادية النصرانية.

يبلغ عدد سكان عدد الجمهورية ٥٩٧,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ بينهم ٢٩٩,٠٠٠ من الأوستين، وتقع عاصمتها « أردجو نيكيرزي » على نهر (تِرْك) في مجراه الأعلى. وكانت هذه الجمهورية في بداية أمرها عندما

تشكلّت عام ١٣٤٣ هـ مقاطعةً ذات استقلالٍ ذاتي ، ثم غدت بعد عامين (١٣٤٥) جمهورية ذات استقلالٍ ذاتي وترتبط مباشرةً بموسكو.

٤ - جمهورية قبارديا - بُلكاريا: تبلغ مساحتها ١٢,٥٠٠ كيلومتر مربع. وهي منطقة جبلية تُؤلّف حدودها الجنوبية ذرا جبال القفقاس وتميل نحو الشمال الشرقي، حيث تنحدر الأنهار الكثيرة ليلتقي بعضها مع بعض ويرفد نهر (تِرْك)، أما الأنهار في المنطقة الشمالية الغربية، فتؤول إلى صحراء القفجاق حيث تغيض فيها أو تنتهي بالري بعد أن استصلحت الأرض، لذا فإن بعض السهول تمتدّ في حوض نهر (تِرْك) في أقصى الشمال الشرقي.

تقع هذه الجمهورية بين أُوستينا الشمالية وقراتشاي الشركسية، وتُسمّى باسم العنصرين اللذين يُشكّلان معظم السكان، وهما: القبرطاي الذين هم من أصولٍ شركسيةٍ، ويتكلّمون اللغة الشركسية بلهجةٍ خاصةٍ، والبُلكار الذين يعودون إلى أصولٍ تركيةٍ ويتكلّمون لغةً تعود لأصلٍ تركيٍ أيضاً.

تبلغ نسبة المسلمين ٥٥٪ من السكان البالغ عددهم ٦٧٥,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، أي أن عدد المسلمين يُقدّر بـ(٣٧٣,٠٠٠)، أما الباقي و ٤٥٪ منهم من المستعمرين الروس ويُقدّرون بـ(٣٠٢,٠٠٠) أي تصل نسبتهم إلى ٤٥٪، ويُقيم أكثرهم في العاصمة (نالتشيك) التي تقع في وسط البلاد على هضبة جميلةٍ، ويصل عدد سكانها إلى ٢٠٧,٠٠٠ نسمة.

وفي الحرب العالمية الثانية اتّهم ستالين البلكار بالتعاون مع الألمان، لذا فقد نُفوا إثر الحرب إلى مجاهل سيبيريا، وبقيت الجمهورية تحمل اسم إخوانهم القبرطاي، فيُقال عنها جمهورية «قبارديا»، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٨٨ حيث بُرّىء البلكار من العمالة للألمان، وأُعيدوا إلى وطنهم وعادت الجمهورية تحمل اسمها الذي هو الآن.

ويعتني القبرطاي بتربية الخيل ويشتهرون بركوبها، وقد هاجر قسم منهم

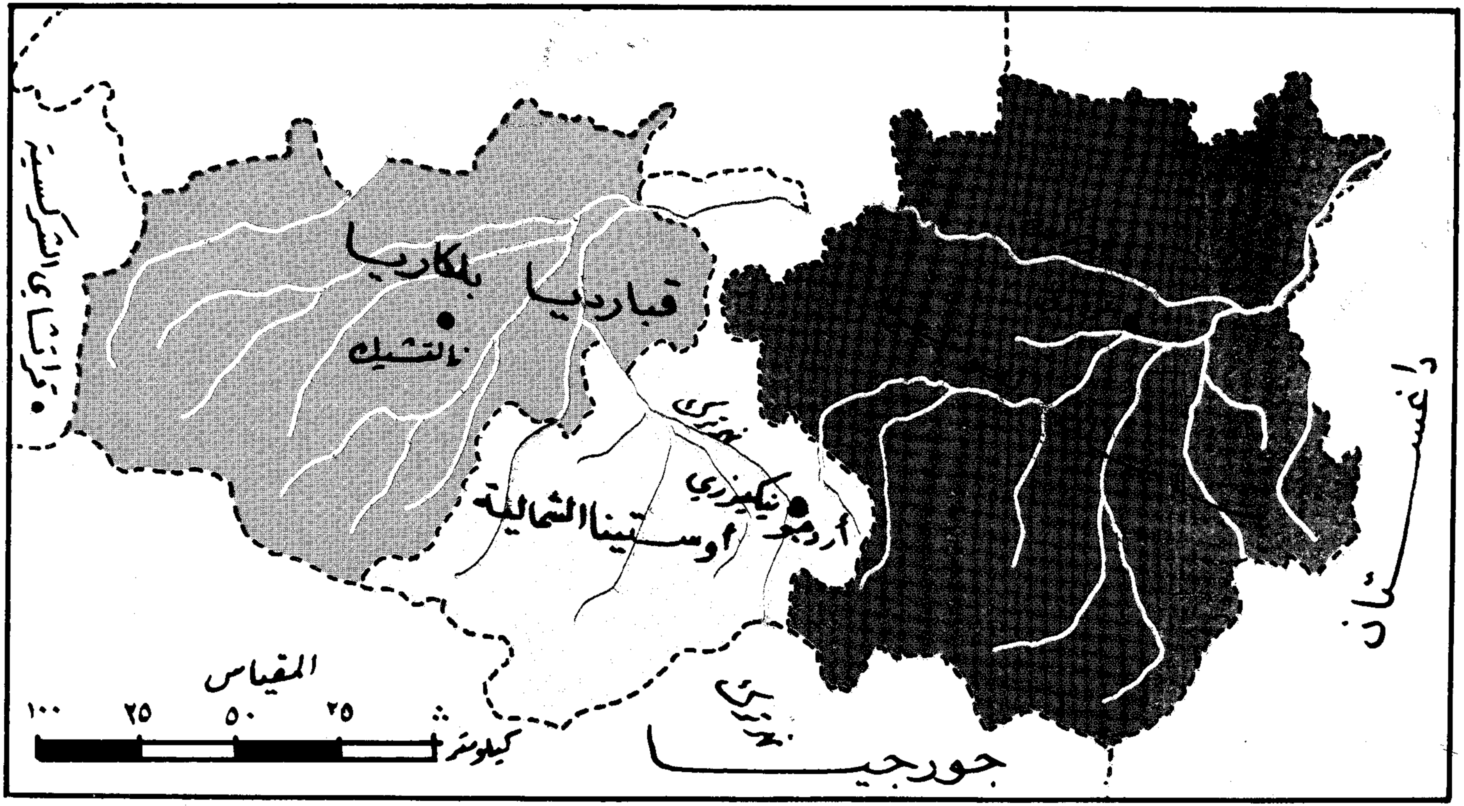
قباردیا بلكاريا
نالتشيك
أوسيتينا الشمالية
أردجو نيكيدزي
داغستان
جورجيا
المقياس
كيلومتر
١٠٠ ٢٥ ٥٠ ٢٥ ٠

مع من هاجر من الشراكسة أثناء دخول الروس بلادهم وارتكاب الأعمال الوحشية بعد حروب الشيخ محمد شامل، وتُقيم نسبة من المهاجرين في بلدة خناصر جنوب حلب من بلاد الشام.

أما المقاطعات ذات الاستقلال الذاتي فهي:

أً ـ مقاطعة قراتشاي الشركسية: تبلغ مساحتها ١٤,١٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية تُشكّل ذرا جبال القفقاس حدودها الجنوبية وتفصلها عن جمهورية أبخازيا، بينما تحدّها من الشرق جمهورية قبارديا ـ بلكاريا. ومن الشمال الشرقي إقليم ستافروبول، والتي تُعدَ جزءًا منه، ومن الغرب إقليم كراسنودار.

تتجمّع المياه المنحدرة على سفوح جبال القفقاس الشمالية، ويجتمع بعضها مع بعض لترفد نهر قوبان الذي يتكوّن من اجتماع الروافد الشرقية، والذي تقع عليه عاصمة المقاطعة «شركسك».

يبلغ عدد سكان المقاطعة ٣٦٩,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، وينتمي السكان إلى مجموعتين رئيسيتين هما: القراتشاي وهم من أصولٍ تركيةٍ، وكذلك لغتهم التي يتكلّمونها، والشركس واسمهم يدل عليهم ولغتهم الشركسية. وقد خضعت المنطقة للروس بعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، وهاجرت جماعات منهم مع من هاجر، وأكثر من يُقيم منهم في بلاد الشام يسكن في قريتي البويضان، وبلي في سوريا.

واتّهم ستالين القراتشاي أثناء الحرب العالمية الثانية أنهم عملاء للألمان فهُجّروا من منطقتهم عام ١٣٦٣، وبعد مُضي مدةٍ زال هذا الاتهام ورجعوا إلى مقاطعتهم عام ١٣٧٧ هـ.

أُنشئت هذه المقاطعة في ١١ جمادى الأولى عام ١٣٤٠ (١٢ كانون الثاني ١٩٢٢)، لكن لم يلبث الروس أن عادوا فقسّموها إلى منطقتين هما: مقاطعة

قراتشاي ذات الحكم الذاتي، ومقاطعة الشركس وذلك عام ١٣٤٢ هـ، ثم عادوا ثانيةً بعد عامين آخرين فجمعوهما، ولما هُجّر القراتشاي بقيت المقاطعة تحمل اسم مقاطعة الشركس ذات الحكم الذاتي، وعندما رجع المنفيون عاد الاسم إلى ما كان عليه يحمل اسم المجموعتين.

تدّفق كثير من المستعمرين الروس إلى هذه المنطقة حتى بقي السكان الأصليون يُشكلّون ٤٣٪ من مجموع السكان، غير أن نسبة زيادة المسلمين قد رفعت من هذه النسبة فهي عام ١٣٩٩ هـ تُعادل ٥٠٪. ويُقدّر عدد القراتشاي حسب الإحصاء المذكور بـ (١٣١,٠٧٤)، وأما الشركس فيقرب عددهم من مائتي ألف ويُضاف إلى هذا مجموعات ثانية أشهرها: الأباظة، وعددهم أربعة وعشرون ألفاً، والباقي وهو ١٣,٩٢٦ فهو مجموعات صغيرة من عناصر مختلفة.

ولا يوجد في المقاطعة الآن سوى أربعة مساجد مفتوحةٍ للعبادة.

٢ ـ **مقاطعة الأديغة:** وتبلغ مساحتها ٧,٦٠٠ كيلومتر مربع، وقد تأسّست عام ١٣٤١ (١٩٢٢)، وكانت تُعرف باسم (منطقة الأديغة ـ الشركس) مع العلم أن كلمة (الأديغة) هو الاسم الذي يُطلقونه على أنفسهم، ولذا فهو يُرادف لفظ (شركس) وبعد عام ١٣٥٥ اقتصر الاسم على (مقاطعة الأديغة) ذات الاستقلال الذاتي. وتُشكّل جزءًا من إقليم (كراسنودار)، وهي مقاطعة داخلية، غريبة الشكل، كثيرة التعرّجات في حدودها، ويُعدّ الجزء الجنوبي منها منطقةً جبليةً يجري فيه بعض الروافد لنهر قوبان، على حين يكون الجزء الشمالي سهلياً إذ تجري المجاري السفلى لنهر قوبان، وبعض روافده، وتكون حدودها الشرقية مسايرة لمجرى بعض الروافد، على حين يشكّل نهر قوبان الحدود الشمالية لها.

يبلغ عدد سكان هذه المقاطعة ٤٠٤,٠٠٠ ساكن حسب إحصاء عام

١٣٩٩ هـ. وعاصمتها مدينة (مايكوب) الشهيرة. وسكان المقاطعة مجموعة من القبائل أشهرها: الأبزاخ، البزادوغ، الحاتوقواي، والشابسيغ و... وإن القبرطاي، والأبخاز، والشركس والأوستين من المجموعة نفسها وإن كانوا في جمهوريات ومقاطعاتٍ ثانية، وربما تختلف لغة الأبخاز قليلاً، والأصحّ لهجتهم، وقد كانت لغتهم تُكتب بالحرف العربي ثم غيّر المستعمرون الروس طريقة الكتابة إلى الحرف اللاتيني ثم الروسي عام ١٣٥٥ هـ.

وقد هاجر قسم منهم بعد سيطرة الروس النهائية على بلادهم إثر حروب الشيخ محمد شامل، ويُقيم الآن عدد منهم في بلاد الشام في حلب، ومنبج، وعندان، والرقة، وبعض قرى حمص، وفي دمشق، ومرج السلطان، ومنطقة القنيطرة، وعمان وغيرها.

وقد تكاثر الروس في هذه المقاطعة حتى لم يعدّ أهلها يُشكّلون سوى ٥٠٪ والباقي من الروس سواء أكانوا روساً أم من الأوكرانيين أم من روسيا البيضاء ومن الأرمن كذلك.

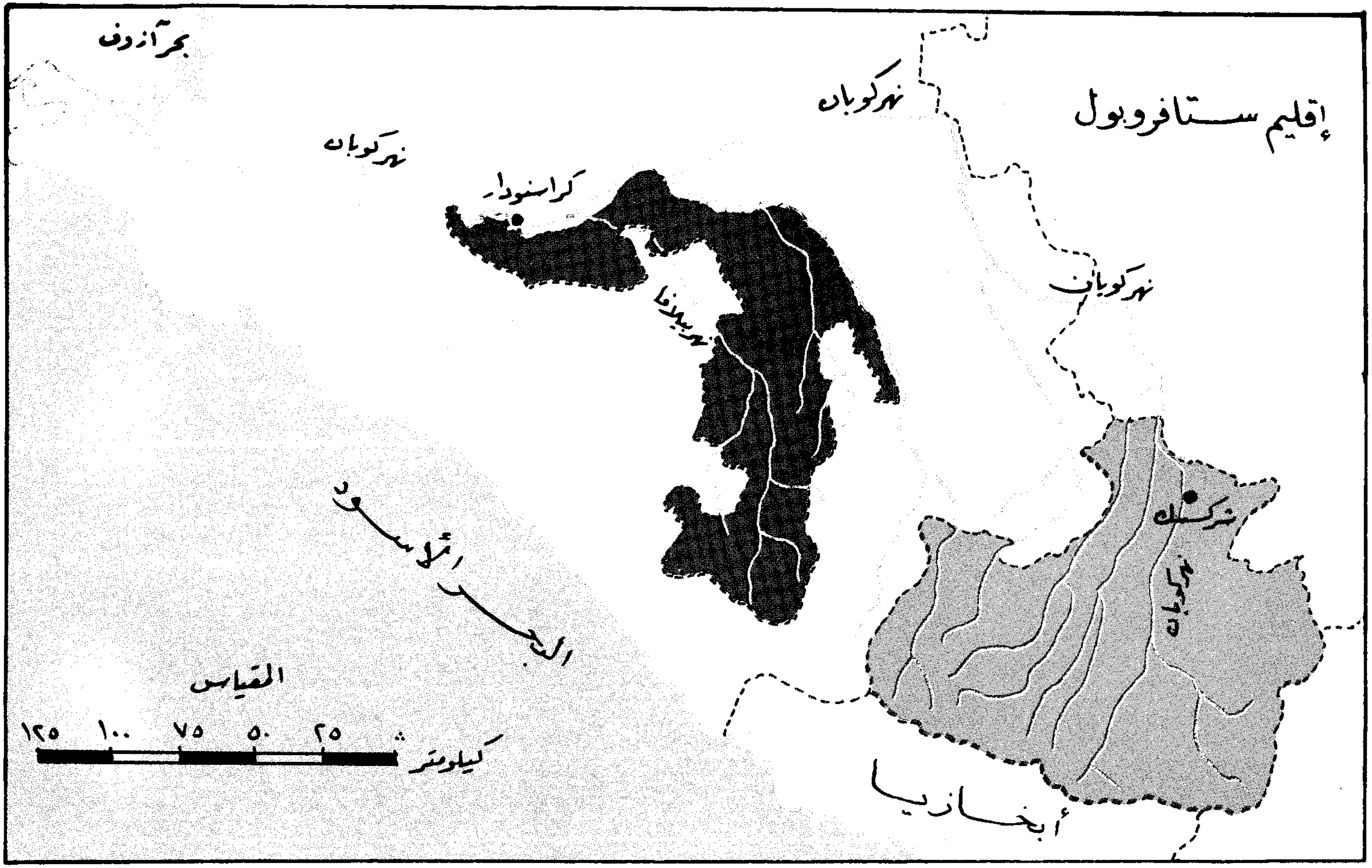
بحر آزوف
نهر كوبان
نهر كوبان
إقليم ستافروبول
كراسنودار
نهر بيلايا
نهر كوبان
نهر كوبان
شركسك
البحر الأسود
أبخازيا
المقياس
٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥
كيلومتر

ب ـ ما وراء القفقاس: وهي المنطقة القفقاسية التي تقع خلف ذراجبال القفقاس. وتقوم فيها ـ رغم صغر رقعتها ـ إذ لا تزيد مساحتها على ٢١٢,٠٠٠ كيلومتر مربع ـ ثلاث جمهورياتٍ اتحاديةٍ، وثلاث جمهورياتٍ ذات استقلالٍ ذاتي، ومقاطعتان ذواتا استقلالٍ ذاتي. وإن قيام ثلاث جمهورياتٍ اتحاديةٍ في تلك الرقعة المحدودة إنما الغاية منه تثبيت الوضع للروس خلف ذلك الحاجز الجبلي الشاهق، وإبعاد صورة النزاع التي كانت قائمةً في المنطقة لاختلاف العقائد، إذ وجدت جمهورية لأبناء كل عقيدةٍ، مع الحرص على إبقاء مجموعاتٍ من المسلمين تحت سيطرة النصارى خوفاً من اتفاق المسلمين وتشكيل حلف فيما بينهم ضدّ النصارى، ولإثارة الشحناء لو تمّ اتفاق ضدّ الروس، وفي الوقت نفسه تكون دعاية للروس في تلك الجهات النائية عنهم إذ تعتمد هذه الدعاية على الأدّعاء بأن الروس ليسوا مستعمرين، حيث تُؤلّف هذه المناطق جمهورياتٍ تحكم نفسها بنفسها، وقد ارتضت لنفسها أن تكون على صلةٍ قويةٍ مع الروس، وأن تُشكّل معهم اتحاداً. ولسكان المنطقة صلات مع الأمصار الإسلامية القريبة منها صلة في العقيدة، وصلة في القرابة، وصلة في الجوار، وصلة في الموطن، ولهذا أثره، وربما يتأثّر المفضّلون الذين لا ينظرون إلى حقائق الأمور، وإنما يُؤخدون بالدعاية. والجمهوريات الاتحادية هي:

أ ـ أذربيجان: وتبلغ مساحتها ٨٦,٦٠٠ كيلومتر مربع. وتتألّف من سهلٍ ساحليٍ على شكل مثلثٍ تُشكّل قاعدته ساحل البحر، ويمتدّ رأسه مع مجرى نهر (كورا) باتجاه الشمال الغربي، ويجري في وسطه نهر كورا الذي يصبّ في بحر قزوين مُشكّلاً امتداداً بسيطاً ناشئاً من رواسب النهر في البحر.

وتمتد في الشمال جبال القفقاس التي تُشكّل ذراها الحدّ الفاصل بين داغستان وأذربيجان، غير أن الحدود بين هاتين الجمهورتين تتجه نحو الشمال الشرقي باتجاه البحر بينما يستمرّ خطّ الذرا حسب اتجاهه العام نحو الجنوب

الشرقي، ويبدأ بالانخفاض تدريجياً حتى ينتهي في البحر مُشكّلاً شبه جزيرة (أبشيرون) التي تقوم فيها عاصمة البلاد (باكو). ومن جبال القفقاس تنحدر المياه بالاتجاهين، ومن المعلوم أن خطّ الذرا هو خط تقسيم المياه، فالمياه التي تتجه نحو الشمال الشرقي تُشكّل أنهاراً قصيرة تصبّ في بحر قزوين، والتي تنحدر نحو الجنوب تُشكّل أنهاراً تصبّ في نهر كورا الذي يُعدّ المستوى الأساسي لها، وإن كان بعضها وخاصةً الشرقي منها يذهب في ريّ السهل قبل أن يصل إلى نهر كورا.

وفي الغرب تمتدّ هضبة أرمينيا التي تنحدر منها المياه، فعلى سفوحها الشمالية تتشكّل أنهار تجري لتصبّ في نهر كورا، ومن السفوح الشرقية تتشكّل أنهار تتجه نحو الشرق والشمال الشرقي نحو نهر كورا غير أنها تذهب في ريّ السهل قبل أن تصل إلى النهر. ومن السفوح الجنوبية تنحدر المياه لتشكّل أنهاراً تتجه نحو نهر أراكس (الرس) الذي يجري بين هضبة أرمينيا وجبال أذربيجان، ويُعدّ هذا النهر الحدّ الفاصل بين جمهوريتي أرمينيا وأذربيجان من جهةٍ وبين ايران من جهةٍ ثانيةٍ.

وتمتدّ جبال أذربيجان الإيرانية في الجنوب، وتنحدر من سفوحها الشمالية المياه نحو نهر أراكس ومن سفوحها الشرقية تتجه الأنهار نحو البحر، ومنها ما يصل إليه، ومنها ما يذهب في ريّ السهل قبل أن يبلغ البحر.

نجح الشيوعيون في شهر جُمادى الأولى من عام ١٣٣٦ من السيطرة على باكو بمساعدة الاشتراكيين الثوريين، والفرق العسكرية الأرمنية لحزب الطاشناق، ومقاتلي حزب همّة، وتألّفت كومونة باكو السوفيتية، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الدامية قتل خلالها ثمانية عشر ألفاً من المسلمين، وفرّ إثرها قادة حزب المساواة إلى مدينة غاندكا (كيروفأباد)، وشكّلوا هناك حكومةً معارضةً لحكومة كومونة باكو السوفيتية، وأُطلق عليها اسم (مجلس أذربيجان الوطني). وفي شهر شوال من العام نفسه اختلف الرفاق فيما بينهم إذ تخلّى

عنهم الاشتراكيون الثوريون، وحزب الطاشناق فسقطت الحكومة، ووقف المسلمون على الحياد فلم يتدخّلوا في النزاع القائم، ولا في شؤون الحكم.

قُضي على الحركة الشيوعية في ٧ ذي الحجة عام ١٣٣٦ (١٥ أيلول ١٩١٨) بمساعدة القوات العثمانية التي كان يقودها نوري باشا، والتي دخلت مدينة باكو، وتبعتها قوات حكومة مجلس أذربيجان الوطني في (غاندكا)، وحدثت مجازر في صفوف الأرمن، ولكن لم تلبث أن انسحبت القوات العثمانية من باكو إذ شنّت عليها القوات الإنكليزية هجوماً من جهة إيران، وخسرت الدولة العثمانية الحرب وانسحبت قواتها من ميادين القتال جميعها، وبقيت حكومة مجلس أذربيجان الوطني في السلطة. وعادت القوات الإنكليزية فانسحبت من أذربيجان، واستمرّت حكومة مجلس أذربيجان الوطني تُمارس مسؤولياتها في الحكم حتى ١٠ شعبان ١٣٣٨ (٢٧ نيسان ١٩٢٠) إذ داهمتها قوات الجيش الأحمر التي تمكّنت من السيطرة على البلاد، وقُضي على حكومة مجلس أذربيجان الوطني بعد أن حكمت الإقليم ما يقرب من سنتين (٧ ذي الحجة ١٣٣٦ حتى ١٠ شعبان ١٣٣٨)، وتأسّست بمجيء الشيوعيين جمهورية أذربيجان السوفيتية.

يبلغ عدد سكان جمهورية أذربيجان الاتحادية ٦,٠٢٨,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ بينهم ٥,٠١٧,٠٠٠ مسلم، وبذا تكون نسبة المسلمين ٨٣,٣٪ من السكان ويتألّفون من المجموعات التالية:

الأذربيجان	وعددهم ٤,٧٠٧,٨٦٨	ويُشكّلون نسبة ٧٨,١٪
الداغستان	وعددهم ٢٠٤,٩٥٢	ويُشكّلون نسبة ٣,٤٪
التاليش	وعددهم ٦٠,٢٨٠	ويُشكّلون نسبة ١,٠٪
التتار	وعددهم ٣٠,٩٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٥٪
مجموعات أخرى	وعددهم ١٦,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٣٪
	٥,٠١٧,٠٠٠	مجموع المسلمين ٨٣,٣٪

أما النصارى فيبلغ عددهم ٩٧٦,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ١٦,٢٪ من السكان ويتوزّعون حسب المجموعات الآتية:

الروس	وعددهم ٤٧٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٧,٩٪ من السكان
الأرمن	وعددهم ٤٧٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٧,٩٪ من السكان
الأوكرانيون	وعددهم ٢٦,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٤٪ من السكان
	٩٧٦,٠٠٠	١٦,٢٪

ويوجد عدد من اليهود، ويُقدّر عددهم بخمسةٍ وثلاثين ألفاً، فتكون نسبتهم حوالي ٠,٥٪.

يُمثّل الشيعة ٧٠٪ من المسلمين وأكثرهم يسكن الجنوب، ويُمثّل أهل السنة ٣٠٪ ومعظمهم يقطن الشمال، ويوجد عدد من البهائيين في كلٍ من مدن باكو، وكوبا. كما يعيش عدد من عبدة الشيطان (اليزيديون).

ويتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية جمهورية (ناختشيفيان) ذات الاستقلال الذاتي، وتقع بين تركيا، وأرمينيا أي توجد أراضٍ أرمينية تفصل بين أذربيجان وناختشيفيان، تبلغ مساحة هذه الجمهورية ٥,٥٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٢٤٠,٤٥٩ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتوزّع السكان على المجموعات الآتية:

الأذربيجانيون	وعددهم ٢٢٩,٩٦٨	ويُشكّلون نسبة ٩٥,٦٪ من السكان وأكثرهم من الشيعة.
الروس	وعددهم ٣,٨٠٧	ويُشكّلون نسبة ١,٦٪ من السكان وهم نصارى.
الأرمن	وعددهم ٣,٤٠٦	ويُشكّلون نسبة ١,٤٪ من السكان وهم نصارى.

مجموعات ثانية وعددهم ٢,٢٧٨ ويُشكّلون نسبة ١,٤٪ من السكان
وهم من المسلمين
والنصارى.

٢٤٠,٤٥٩ ١٠٠٪

كما تتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية منطقة قره باخ ذات الاستقلال الذاتي، وتقع وسط جمهورية أذربيجان إذ تُحيط بها الأراضي الأذربيجانية من كل جهةٍ، تبلغ مساحة هذه المقاطعة ٤,٤٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٦٢,١٨١ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ، ويتوزّع السكان على المجموعات الآتية:

الأذربيجانيون ويبلغ عددهم ٣٧,٢٦٤ ويُشكّلون نسبة ٢٣,٠٪ من السكان.
الروس ويبلغ عددهم ١,٢٦٥ ويُشكّلون نسبة ٠,٨ ٪ من السكان.
الأرمن ويبلغ عددهم ١٢٣,٠٧٦ ويُشكّلون نسبة ٧٥,٩٪ من السكان
مجموعات ثانية ويبلغ عددهم ٥٧٦ ويُشكلون نسبة ٠,٣٪ من السكان

ومن هؤلاء السكان يعيش عشرون ألفاً ممن يؤلّهون علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وتُعدّ مدينة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان الاتحادية من كبريات مدن الإمبراطورية الروسية وقد وصل عدد سكانها إلى ١,٥٥٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ.

ويتكلّم السكان اللغة الأزرية التي تعود إلى أصلٍ تركيٍ.

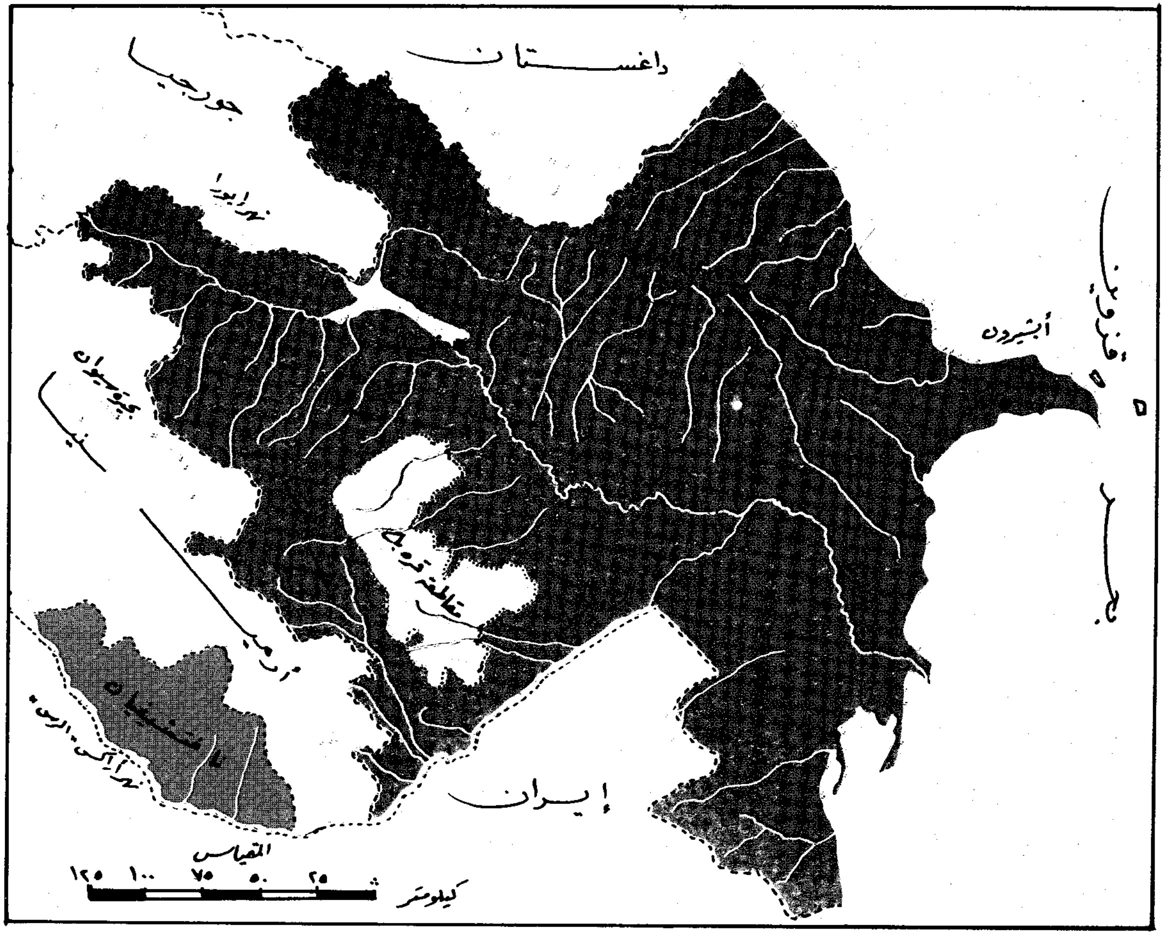
داغستان
جورجيا
بحر قزوين
أبشيرون
إيران
أرمينيا
ناغورنو قره باغ
ناختشيفان
المقياس
كيلومتر
٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥

٢ - جورجيا (بلاد الكرج) : وتبلغ مساحتها ٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، وتقع بين جبال القفقاس وهضبة أرمينيا ، ونلاحظ أن جمهوريات شمالي القفقاس ومقاطعاته تحدّها من الشمال، أما من الجنوب، فنجد تركيا وجمهورية أرمينيا الاتحادية، ومن الغرب البحر الأسود ، ومن الشرق جمهورية أذربيجان الاتحادية. وتقع في وسطها هضبة قليلة الارتفاع، وتكون مركز توزّع المياه بين الشرق والغرب، فالمياه المنحدرة من جبال القفقاس تنحدر في الغرب في جمهورية أبخازيا نحو البحر، وفي جورجيا نحو نهر (ريفون) لترفده، أما في الشرق فتنحدر نحو نهر كورا وروافده، وكذا الأنهار المنحدرة من هضبة أرمينيا، وبين نهري كورا في الشرق وريفون في الغرب ترتفع الهضبة التي في وسط جورجيا، أو نستطيع أن نقول: إن جورجيا تتألّف من السفوح الجنوبية لجبال القفقاس والسفوح الشمالية لهضبة أرمينيا وفي نقاط التقاء السفحين يجري نهر كورا في الشرق ونهر ريفون في الغرب وبين النهرين مرتفع بسيط. ولما كانت السفوح الجنوبية لجبال القفقاس معرضةً للشمس التي تُعدّ قليلة السطوع في بلاد روسيا لذا قامت هنا أفضل المشافي.

ورغم أن جورجيا قد دخلها المسلمون أيام الفتوحات الأولى إلا أن رحمة المسلمين وعطفهم على أهل الذّمة، والأحداث التي قامت يومذاك في الدولة الإسلامية، ودعم الروم لأهل الكرج، ومناعة البلاد كل ذلك قد أبقى النصرانية منتشرة في جورجيا.

يبلغ عدد سكان جورجيا اليوم حوالي ٤,٥٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ ، ويعيش بينهم أقلية من المسلمين لا يزيد عددها على ٨٣٥,٠٠٠ أي ما يعادل ١٩ ٪ من السكان، ويعيش قسم منها في مدينة تفليس عاصمة جمهورية جورجيا والتي تقع على مجرى نهر كورا.

ويتبع جمهورية جورجيا الاتحادية بصفتها ذات أكثرية نصرانيةٍ جمهوريتان ذواتا أكثريةٍ مسلمةٍ وهما: أبخازيا وآجاريا، ومقاطعة ذات أكثريةٍ نصرانيةٍ

وهي أُوستينا الجنوبية.

١ً - **جمهورية أبخازيا:** وتبلغ مساحتها ٨,٦٠٠ كيلومتر مربع أي أصغر من مساحة لبنان بقليل، وتقع على ساحل البحر الأسود، وعاصمتها مدينة (سوخوم)، والأبخاز مجموعة من العناصر الشركسية انفصلت عنهم بجبال القوقاز، وقد كان كثير منهم يعتنق النصرانية فلما صدر المرسوم بالتسامح الديني عام ١٣٢٣ دخل قسم كبير منهم بالإسلام، يبلغ عدد سكان جمهورية أبخازيا ٤٨٦,٩٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويُقدّر عدد الأبخاز بحوالي ٩١,٠٠٠ أي ٢٠ ٪ من السكان.

كانت تقوم حكومة (ايمارتي) في هذه المنطقة، فقضت عليها الإمبراطورية الروسية عام ١٢٤٥، وألحقتها بها، وبعد أن قام الحكم الشيوعي عام ١٣٣٦، وبدأ بتقسيم المنطقة أسس عام ١٣٤٩ جمهورية أبخازيا هذه وألحقها بجمهورية جورجيا الاتحادية.

٢ً - **جمهورية آجاريا:** تبلغ مساحتها ٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، بين جورجيا وتركيا، وتطلّ على البحر الأسود من جهة الغرب، وقاعدتها مدينة باطوم. لقد ضمّت روسيا إليها حكومة (غوريا) التي كانت قائمةً في المنطقة، وذلك بعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، واضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف بذلك، ثم تأسّست جمهورية آجاريا عام ١٣٤٠ هـ، وأُلحقت بجمهورية جورجيا الاتحادية. ويسكن هذه الجمهورية ٣٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ.

٣ً - **مقاطعة أُوستينا الجنوبية:** وتبلغ مساحتها ٣,٩٠٠ كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على ١٢٥,٠٠٠ نسمة، والأُوستين - كما مرّ معنا - من العناصر الشركسية، ويُعرفون باسم القوشحة، وأغلبهم من النصارى. لقد ضمّ الروس إليهم المنطقة إثر مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ هـ. ولما كان الإسلام قد انتشر بالأجزاء الشمالية من بلاد الأُوستين لذا أسرع الروس وفصلوا بين الشمال

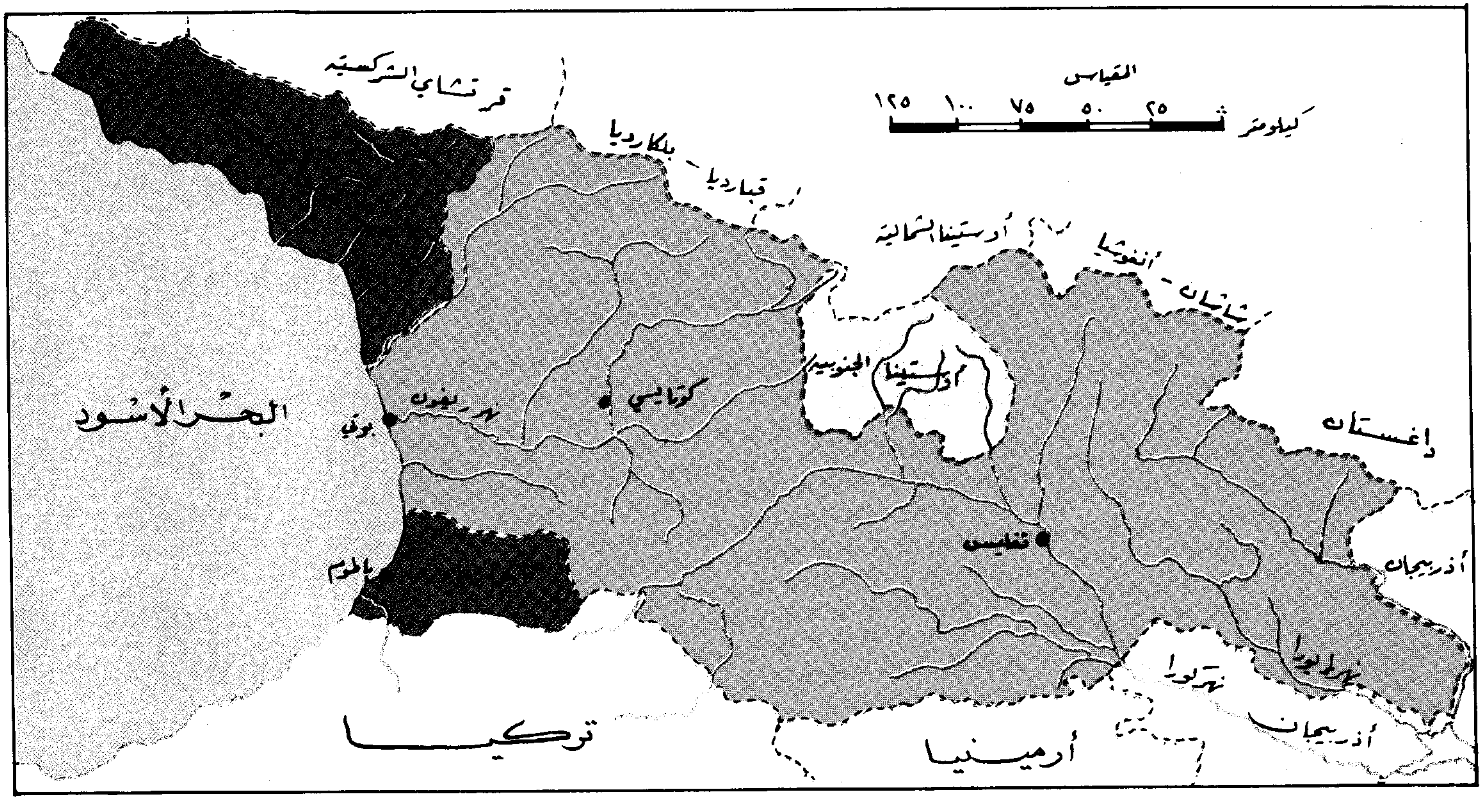
القياس
كيلومتر ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥
قرتشاي الشركسية
قباردیا - بلكاردیا
أوستينا الشمالية
شاشان - انغوشيا
داغستان
أذربيجان
أوستينا الجنوبية
كوتايسي
نهر ريفون
بوتي
باطوم
تفليس
نهر كورا
نهر ايورا
البحر الأسود
تركيا
أرمينيا

والجنوب في محاولةٍ لوقف انتشار الإسلام. وأسّسوا مقاطعة أوستينا الجنوبية عام ١٣٤١ هـ. أما الكرج فإنهم يُطلقون على الأوستين اسم « توالتا ».

٣ً - جمهورية أرمينيا الاتحادية: وتبلغ مساحتها ٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع أي ما يقرب من ثلاثة أمثال مساحة لبنان. وهي منطقة جبلية تنحدر المياه من سفوحها الشمالية نحو نهر (كورا)، ومن سفوحها الجنوبية نحو نهر (أراكس) الذي يلتقي بالنهاية مع نهر كورا ليصبّان في بحر قزوين. ويُشكّل نهر أراكس الحدود بينها وبين كلٍ من إيران وتركيا. وفي وسط الهضبة توجد بحيرة (وان) التي تقع على ارتفاع ١٩٠٢م. وعاصمة أرمينيا هي مدينة (يريفان).

ويبلغ عدد سكان جمهورية أرمينيا ما يزيد على مليوني نسمة بينهم ١٢ ٪ من المسلمين أي ما يُعادل ٣٤٠,٠٠٠ مسلم، كما يُقيم ٣٥,٠٠٠ من عبدة الشيطان، وأكثرهم من الأكراد.

دخل المسلمون أرمينيا أيام الفتوحات الأولى في العهد الراشدي غير أن حكمهم لم يستقرّ فيها لذا بقيت نسبة المسلمين ضعيفةً بين السكان، فوضعها يُشبه وضع جمهورية جورجيا الاتحادية.

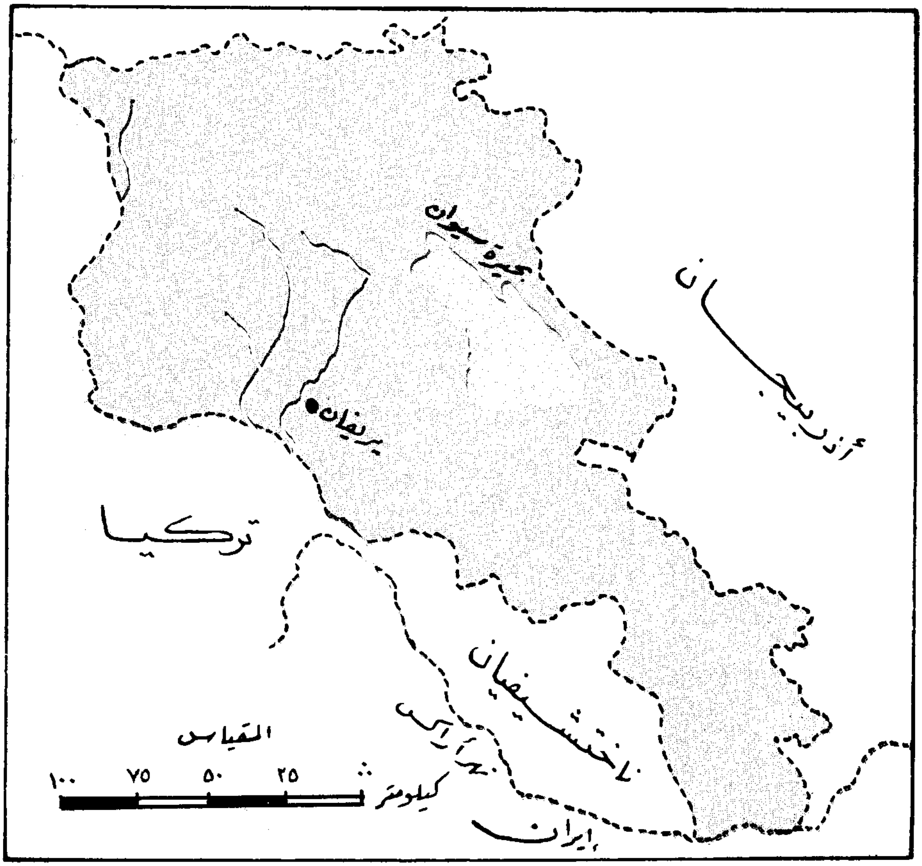
بحيرة سيفان
أذربيجان
يريفان
تركيا
ناختشيفيان
نهر أراكس
إيران
المقياس
١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ ٠
كيلومتر

الفصل الرابع

تُركستان

تعني تُركستان بلاد الترك، ولكن عندما نُطلق هذا اللفظ فإنما نعني به بلاد الترك في أواسط آسيا فقط إذ أصبح علماً على هذه المنطقة، وهي منطقة واسعة الأرجاء، فإضافةً إلى تُركستان التي تخضع للاستعمار الروسي، وهي المنطقة التي نحن بصدد البحث عنها، وتُعرف أحياناً باسم تركستان الغربية تمييزاً عن المنطقة التي تخضع للاستعمار الصيني والتي تُسمى تُركستان الشرقية، وإن كان الصينيون يُسمّونها « سينكيانغ » ويعني هذا اللفظ باللغة الصينية « المقاطعة الجديدة ».

لا يحبّ الروس إطلاق لفظ « تُركستان » على هذه المنطقة خوفاً من إثارة الفكرة العنصرية أو العصبية لدى سكان المنطقة جميعاً والدعوة إلى وحدتهم على أساسها، وهم مجموعا ت كثيرة ويعيشون على رقعة شاسعة من الأرض تزيد على مساحات تركستان وتركيا و .... ما داموا لا يستطيعون الدعوة إلى الفكرة الإسلامية التي تجمع بعضهم مع بعض بل تعدّهم جزءاً من الأمة الإسلامية، فلفظ « تُركستان » يُنمّي عند السكان روح الوحدة، وإنما يحبّ المستعمرون الروس إطلاق لفظ وسط آسيا إذ هو اصطلاح عام يدخل ضمنه مجموعات قد تتمايز بالعقيدة، وربّما تتباين بالعنصرية، وقد تختلف باللغة، ومن الممكن ان تفترق الجماعات.

ويرغب الاستعمار الروسي تجزئة العنصر التركي الشامل للمنطقة إلى مجموعاته القبلية إذ عدّ كل مجموعةٍ عنصراً خاصاً، وأقام جمهورية تحمل اسمه، لذا فإننا نُلاحظ خمس جمهورياتٍ في هذه المنطقة هي: ١ً - قازاقستان (بلاد القازاق)، ٢ً - أوزبكستان (بلاد الأوزبك)، ٣ً - تُركمانستان (بلاد التركمان)، ٤ً - قيرغيزستان (بلاد القيرغيز)، ٥ً - طاجكستان (بلاد الطاجيك)، رغم أن العنصر التركي يضمّها جميعها. كما فصل بعض المقاطعات وأعطاها استقلالاً ذاتياً عن هذه الجمهوريات زيادةً في التفرق. وإذا كان قسم من الطاجيك يعود العنصر الفارسي غير أن بقية السكان في بلاد الطاجيك إنما يرجعون إلى أصلٍ تركي. كما يحرص هذا الاستعمار على إيهام القازاق بأنهم عنصر خاص مستقل لا يمتّ إلى الترك بصلةٍ غير أن هذه السياسة الاستعمارية قد غدت معروفةً للناس جميعاً.

وأما كلمة بلاد ما وراء النهر المعروفة في التاريخ الإسلامي فإنها لا تشمل أجزاء تركستان كلها وإنما تضمّ أكثر أجزاء بلاد الأُوزبك فقط، والنهر المقصود إنما هو جيحون. فبلاد التُركمان تقع إلى الغرب منه، وكانت تُشكِّل جزءاً من خراسان، وحاضرة خراسان يومذاك هي مدينة «مرو» وهي في الوقت نفسه قاعدة بلاد التركمان، وبلاد القازاق بعيدة عن النهر، وبلاد الطاجيك وبلاد القيرغيز إنما تشغل أجزاء جبلية ويعدّ قسم منها من بلاد الخُطا التي كانت قائمة يومذاك.

وتشغل الصحارى والبوادي والسهوب القسم الأكبر من تركستان وخاصةً الأجزاء الوسطى والغربية ولا أثر لبحر قزوين اذ هو بحر مُغلق، يقع في منطقةٍ صحراويةٍ، وتمتدّ الأراضي التي حوله في ظلّ جبال القفقاس التي تحول دون وصول الآثار البحرية الى الجهات الشرقية، وكذا فإن بحر آرال (بحيرة خُوارزم) ضيّق ومُغلق أيضاً، على حين أن الأجزاء الشرقية تشغلها الجبال، ولما كانت هذه الجبال شاهقة الارتفاع فإنها تتلقى كمياتٍ لا بأس بها المطر،

وتتساقط عليها الثلوج ونتيجة ذلك تتشكّل فيها نهيرات يتجمّع بعضها مع بعض وتُؤلّف نهري سيحون وجيحون اللذين يتمكّنان بما يتلقيان من تغذيةٍ كافيةٍ من المياه أن يقطعا السهوب والصحارى وأن يصلا إلى بحيرة خُوارزم ليصبّا فيها، ويُكوّنان شريطاً من الخضرة يمتدّ على طـول مجريها، أو واحـةً متصلةً. كما تنساب من الجبال الجنوبية مجارٍ مائية أو سيول تغيض أو تنتهي في الرمال فتُشكّل عند نهايتها واحات، وليست مرو، وسرخس، وتادزهن، ونسا، وعشق أباد سوى واحاتٍ تقع عند نهاية بعض المجاري المائية، وإن اختلفت هذه المجاري في اتساعها ومدة جريانها.

تبلغ مساحة منطقة تركستان ما يقرب من أربعة ملايين كيلومتر مـربـع (٣,٩١٠,٣٠٠ كيلومتر مربع) أي أكثر من سدس مساحة الامبراطورية الروسية الواسعة الأرجاء وتضمّ الجمهوريات الاتحادية الآتية:

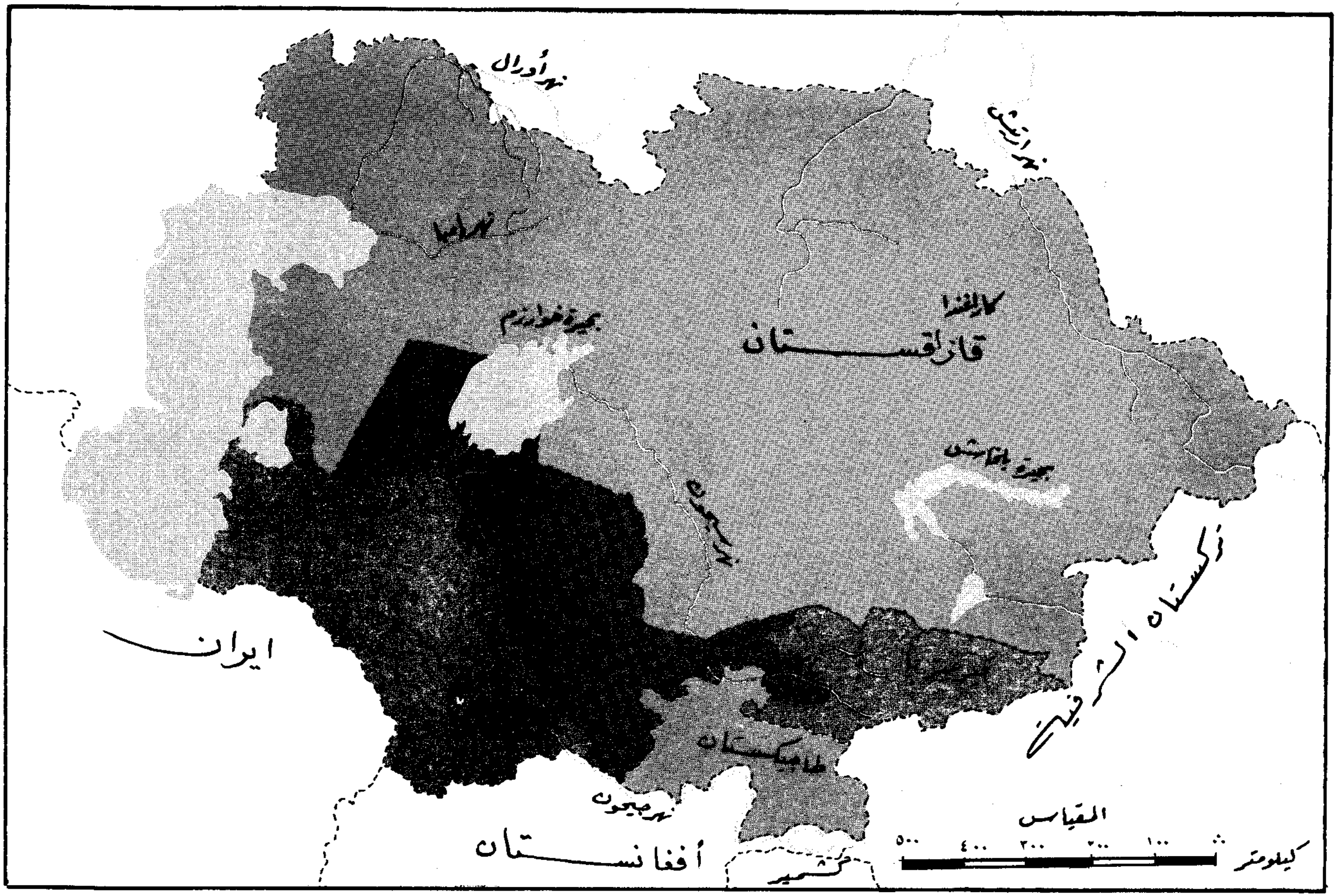
نهر أورال
نهر ارتيش
نهر امبا
كاراغندا
قازاقستان
بحيرة خوارزم
بحيرة بلخاش
نهر سيحون
تركستان الشرقية
ايران
طاجيكستان
نهر جيحون
أفغانستان
كشمير
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

أ ـ **قازاقستان:** وتبلغ مساحتها ٢,٧١٧,٣٠٠ كيلومتر مربع، وبذا تُعدّ ثاني الجمهوريات في الإمبراطورية الروسية مساحةً بعد جمهورية روسيا الاتحادية. وتمتدّ في الغرب السفوح الجنوبية لجبال أُورال، وتنحدر منها المياه نحو نهر أُورال أو نحو المنخفض الأوسط حيث تنتهي في بحيرات مستنقعية أو تغيض في الرمال، وفي الشرق تمتدّ نجود قازاقستان بين الغرب والشرق، وتبدأ من الغرب بالمنخفض الذي يفصلها عن جبال أورال وتتصل في الشرق بجبال آسيا الوسطى الشاهقة الارتفاع وذلك عند الحدود حيث تفصلها عن تركستان الشرقية باستثناء فجاج تمرّ منها الأنهار ولعلّ بوابة (زونغارية) أشهر تلك الفجاج، وتنحدر المياه من هذه النجود نحو الشمال حيث سهول سيبيريا الغربية، وتشغل قازاقستان طرفاً منها، كما تنحدر بعض تلك المياه نحو الجنوب لتؤول إلى بحيرة (بالخاش)، وربما اتجه بعضها نحو نهر سيحون دون أن يبلغه إذ يغيض في الرمال، أو يُستفاد منه في الري.

في منتصف عام ١٣٣٨ انسحب القازاق من القتال بجانب الروس البيض لأن الأميرال كولتشاك قد تسلّم أمر الروس البيض وهو عدو للعناصر كلها عدا الروس، وقد أخذ يدعو إلى وحدة الروس، وانحاز القازاق بعدها للقوة البلشفية، واعترفوا بالحكم السوفيتي بعد هزيمة الأميرال كولتشاك، وتشكّلت لجنة ثورية قازاقية تسلّمت السلطة في منطقة القازاق، وكان نصف أعضائها من حزب (الأش أُوردا) والنصف الآخر من مندوبي السوفييت، وانضمّ أعضاء حزب ألاش أُوردا الذين هم في السلطة إلى الحزب الشيوعي واستمّروا في الحكم مدة عشر سنوات، ثم طُردوا إذ انتهى دورهم في الاستغلال، وتفرّد الشيوعيون في شؤون الدولة، وتسلّطوا على الشعب، وقد اتبعوا سياسة أسموها « سياسة التحضير » قضت على نصف أبناء القازاق.

تشكّلت جمهورية قازاقستان ليلة عيد الأضحى من عام ١٣٣٨ هـ، وكانت مدينة قزيل أُوردا هي العاصمة، وتقع على مقربة من مجرى نهر

سيحون، واستمرّ ذلك حتى طُرد أعضاء حزب ألاش أُوردا من الحزب عام ١٣٤٨ هـ، وعندها نُقلت العاصمة إلى مدينة (ألماأضا) أي مدينة التفاح، ويبلغ عدد سكان جمهورية قازاقستان الاتحادية ١٤,٦٨٤,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتوزّع هؤلاء السكان على المجموعات التالية:

القازاق	ويبلغ عددهم	٥,٢٨٩,٠٠٠	ويُشكّلون	٤٠,٠٪ من السكان.
التتار	ويبلغ عددهم	٣١٣,٠٠٠	ويُشكّلون	٢,١٪ من السكان
الأُوزبك	ويبلغ عددهم	٢٦٣,٠٠٠	ويُشكّلون	١,٨٪ من السكان
الأُويغور	ويبلغ عددهم	١٤٨,٠٠٠	ويُشكّلون	١,٠٪ من السكان
الأذربيجانيون	ويبلغ عددهم	٧٣,٠٠٠	ويُشكّلون	٠,٥٪ من السكان
		٦,٠٨٦,٠٠٠		٤٥,٤٪ وهي نسبة المسلمين

وهؤلاء جميعهم من المسلمين، وغالباً ما يسكنون الريف، وأما النصارى فإنهم من المستعمرين الروس، وأغلبهم يسكن المدن، وقد بلغ عدد السكان العاصمة ٩١٤,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ لكثرة ما أقام فيها من المستعمرين، ويتوزّع هؤلاء المستعمرون حسب المجموعات التالية:

الروس	ويبلغ عددهم	٥,٩٩١,٠٠٠	ويُشكّلون	٤٣,٨٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	٨٩٨,٠٠٠	ويُشكّلون	٩,١٪ من السكان
من روسيا البيضاء	ويبلغ عددهم	١٨١,٠٠٠	ويُشكّلون	١,١٪ من السكان
كوريون	ويبلغ عددهم	٩٢,٠٠٠	ويُشكّلون	٠,٦٪ من السكان
		٧,١٦٢,٠٠٠		٥٤,٦٪ من السكان

ويتكلّم القازاق لغةً تُعرف بالقازاقية تعود في أصولها إلى المجموعة التركية.

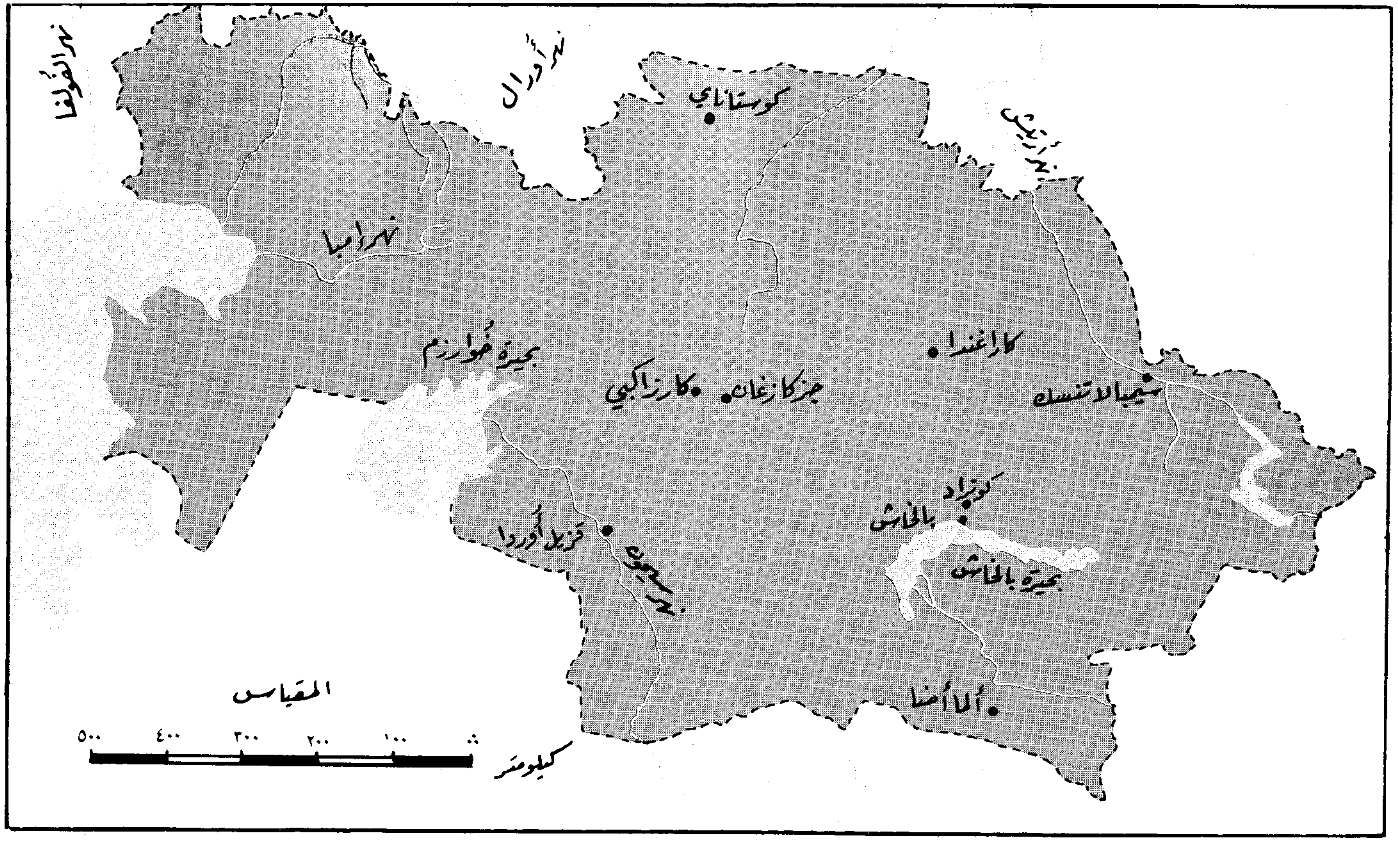

نهر الفولغا
نهر أورال
نهر إرتيش
كوستاناي
نهر إمبا
بحيرة خوارزم
كارزاكبي
جزكازغان
كاراغندا
سيميبالاتنسك
كوزراد
بالخاش
بحيرة بالخاش
قزيل أوردا
ألماآتا
المقياس
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومتر

٢ً - **أوزبكستان:** تبلغ مساحتها ٤٠٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتتألّف من منطقتين: الأولى بادية وسهوب تقع في الغرب وتحيط ببحيرة خُوارزم (بحر آرال)، ولولا المياه التي تُحمل إلى هذه البحيرة بواسطة نهري جيحون وسيحون لجفّت واندثرت، والثانية في الشرق وهي منطقة جبلية تنحدر منها المياه لغزارة أمطارها النسبية بسبب ارتفاعها، ومن هذه المياه تتشكّل أنهار سيحون وجيحون إضافةً إلى النهر الذي ينتهي في مدينة بُخارى، وهو نهر زرافشان وهكذا يتجمّع السكان في مناطق ثلاث في أوزبكستان:

أ - حول مجرى نهر جيحون حيث تتشكّل واحة على طول المجرى كما يتفرّع ويُشكّل دلتا قبل مصبّه في بحيرة خُوارزم، وتقوم بعض المدن على هذا المجرى مثل: ترمذ، ونسف، وآمُل، وخيوه، ونُوخوس.

٢ً - حول مجرى نهر بخارى (زرافشان) حيث تقوم مدينتان من أشهر مدن أُوربكستان وهما: سمرقند، وبُخارى.

٣ً - حول المجرى الأعلى لنهر سيحون حيث يمتدّ وادي فرغانة وتقوم عدة مدنٍ أشهرها مدينة خوقند، وكذلك وضع روافده حيث تقوم مدينة طاشقند عاصمة الجهورية، ورابع مدن الإمبراطورية الروسية سكاناً بعد موسكو، ولينينغراد، وكييف، إذ يقرب عدد سكانها من المليونين (١,٧٨٥,٠٠٠) حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. وتقوم أكثر المدن الباقية عند أقدام الجبال حيث تجري بعض المياه، أما المنطقة الغربية الصحراوية فلا توجد فيها سوى بعض الواحات الصغيرة.

بعد أن دخل الشيوعيون المنطقة فرضوا حمايتهم على خانيتي بُخارى وخُوارزم اللتين كانتا قائمتين، ثم عقدوا معهما معاهدتين: أولاهما مع أمير بُخارى في ٦ رجب ١٣٣٩ (١٤ آذار ١٩٢٠) والثانية مع أمير خُوارزم (خيوه) في (١٠ محرم ١٣٤٠ (١٣ ايلول ١٩٢٠) واعترفوا فيهما باستقلال

هاتين الإمارتين، ولكن يبدو أن الروس قد غيّروا رأيهم بعد مدةٍ وجيزةٍ إذ كتب القنصل العام لجمهورية روسيا السوفيتية الرفيق كوغورنوف إلى رئيس جمهورية بُخارى الشعبية السيد عثمان خوجا يطلب منه وضع الوحدات العسكرية التابعة للحكومة البُخارية تحت سيطرة الحامية الروسية، وبعد يومين قام بزيارته، وفي هذه الزيارة أعلن علي رضا وزير الحربية في حكومة بُخارى «أن موجة جديدةً من الثورة قد ظهرت في جمهورية بخارى، وقد انتشرت في جميع أرجاء تركستان، وقضت على السيطرة الروسية فيها، لذا فقد رفض نقل السيطرة على قوات بُخارى المسلحة إلى عهدة الحامية السوفيتية، وأصرّ على ضرورة تخلّي السوفييت عن الحاميات التي يُسيطرون عليها، إذ جاءت قوات عسكرية تركية بقيادة أنور باشا وزير حربية الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وأحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقّي البارزين، واحتلّ بعض المناطق في بُخارى كمساعدةٍ لحكومة بُخارى التركية، وقد بدأت الحركة فعلاً غير أن قواتٍ روسيةٍ ضخمةٍ قد توجّهت إلى المنطقة واستمرّ الصراع ما يقرب من عامين، وقُتل أنور باشا ودخل المستعمرون الروس بُخارى وخُوارزم.

تأسست جمهورية أُوزبكستان الاتحادية من مطلع شهر ربيع الأول من عام ١٣٤٣ بدمج إمارتي بُخارى وخُوارزم بعضهما مع بعض، وأُخذت أجزاء منهما وتشكّلت جمهوريتا طاجيكستان وتركمانستان، كما ضُمّت جمهورية قره قالباق إليها.

يبلغ عدد سكان جمهورية أُوزبكستان الاتحادية ١٥,٣٩١,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتألف السكان من المجموعات الآتية:

الأُوزبك	ويبلغ عددهم ١٠,٥٦٩,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٦٨,٧٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم ٦٤٩,٠٠٠	ويُشكلون نسبة ٤,٢ ٪ من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم ٦٢٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٤,٠ ٪ من السكان

الطاجيك	ويبلغ عددهم ٥٩٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٣,٩ ٪ من السكان
القره قالباق	ويبلغ عددهم ٢٩٨,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١,٩ ٪ من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم ١٤٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٩ ٪ من السكان
التُركمان	ويبلغ عددهم ٩٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٦ ٪ من السكان
مجموعات أخرى	ويبلغ عددهم ٣٨١,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢,٦ ٪ من السكان
	١٣,٣٧٤,٠٠٠	٨٦,٨٪ من السكان

وهذه المجموعات كلها من المسلمين من أهل السنة والجماعة بينها مائة ألف من الشيعة التي يعيش معظم أتباعها في مدن طاشقند، وسمرقند، وبُخارى. ويتركّز الأُوزبك في الريف أما المستعمرون فأكثرهم يقطن المدن، وهم من النصارى ويتوزّعون على المجموعات الآتية:

الروس	ويبلغ عددهم ١,٦٦٦,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١٠,٨٪ من السكان
الأُوكرانيون	ويبلغ عددهم ١٦٣,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١,١ ٪ من السكان
الكوريون	ويبلغ عددهم ١١٤,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٧ ٪ من السكان
	١,٩٤٣,٠٠٠	١٢,٦٪ من السكان

كما يوجد عدد من اليهود يُقدّر عددهم بمائة ألف ويُشلكون نسبة ٠,٦٪ من السكان.

يتكلّم الأُوزبك اللغة الأُوزبكية، وهي من المجموعة التركية، وقد كانت تكتب بالحرف العربي، ثم استبدل به الحرف اللاتيني عام ١٣٤٦ هـ. ويتبع جمهورية أُوزبكستان الاتحادية جمهورية قره قالباق ذات الاستقلال الذاتي كما تعدّ فرغانة التي قاعدتها خوقند مقاطعةً خاصةً، والعاصمة طاشقند مقاطعة خاصّة أيضاً.

أ - **جمهورية قره قالباق:** وتبلغ مساحتها ١٦٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتضمّ الأجزاء الجنوبية المحيطة ببحيرة خُوارزم، فهي منطقة صحراوية سوى

دلتا نهر جيحون وقد ضُمّت الى جمهورية أُوزبكستان عام ١٣٥٥ هـ. ويُقدّر عـدد سكـانها بحوالي ٩٠٥,٠٠٠ حسـب إحصـاء عـام ١٣٩٩ هـ، ويُشكّل المسلمون بينهـم ٩٥ ٪ بينما يُشكـل المستعمـرون الروس النصـارى ٢,٣ ٪، وعاصمتها مدينة (نوخوس) التي تقع على مجرى نهر جيحون عند بداية تفرّعه إلى ثلاثة فروعٍ رئيسية تكون دلتاه.

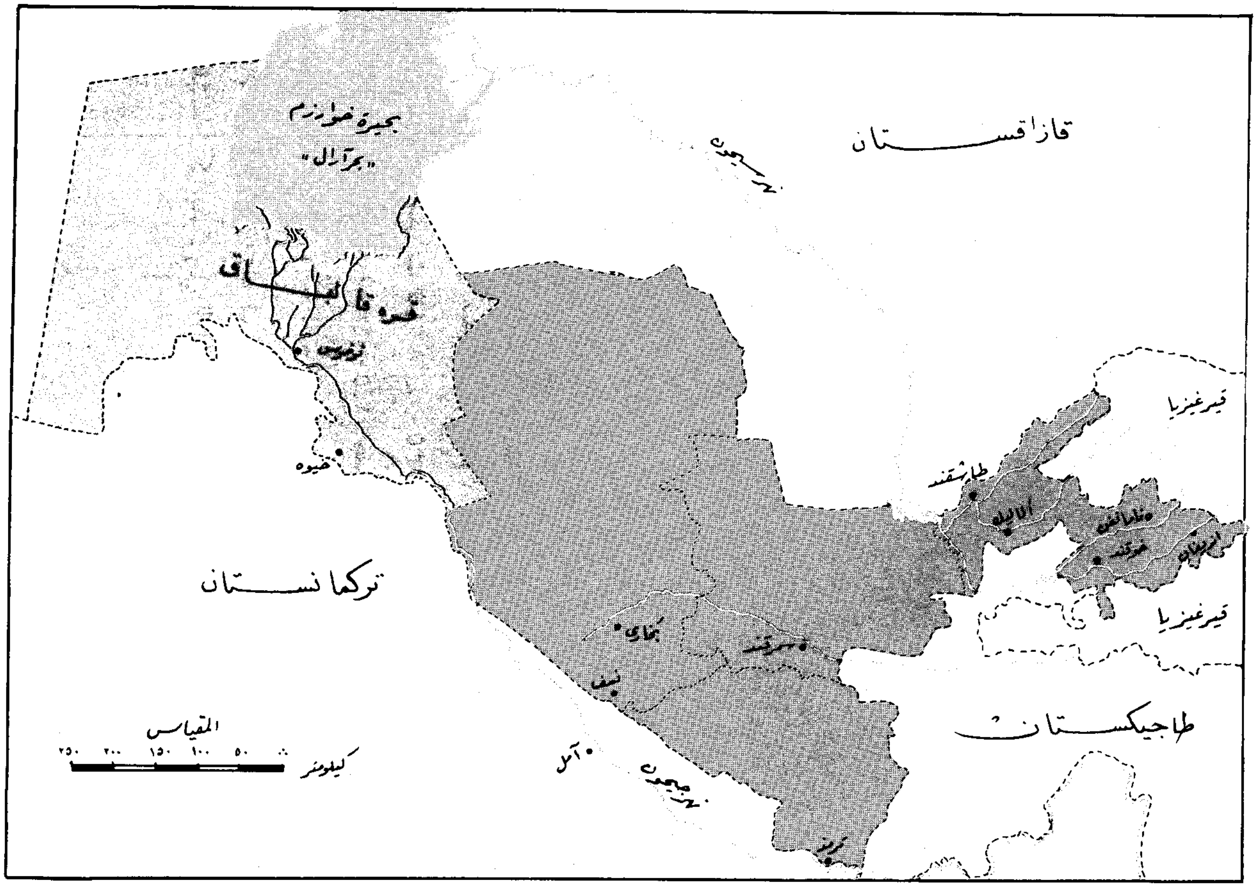

قازاقستان
نهر سيحون
بحيرة خوارزم
"بحر آرال"
قره قالپاق
نوكوس
خيوه
تركمانستان
قيرغيزيا
طاشقند
أنديجان
خوقند
قيرغيزيا
بخارى
سمرقند
نسف
طاجيكستان
آمل
نهر جيحون
ترمذ
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
كيلومتر

٣ - تُركمانستان: وتبلغ مساحتها ٤٤٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، أي ما يقرب من مساحة العراق، وهي منطقة صحراوية تقوم الحياة فيها في الأجزاء الجنوبية منها حيث تأتيها المياه من مرتفعات شمالي أفغانستان مثل نهر مورغاب الذي ينتهي عند مدينة (مرو)، ونهر تادزهن الذي يحمل اسم هاري في أفغانستان، والذي يُشكّل الحدود بين بلاد التركمان وبين إيران والذي ينتهي عند مدينة تادزهن حيث يتفرّع إلى عدة فروع تنتهي كلها في الري، وتقع عليه مدينة سرخس المعروفة، وإما أن تأتي المياه من شمال إيران كتلك الجدوال الصغيرة التي تسبّب قيام المدن عند نهايتها مثل عاصمة البلاد (عشق أباد)، ومدينة (نسا) وهناك نهر أتراك الذي يصبّ في بحر قزوين ويُشكّل الحدود بين بلاد التركمان وإيران، ثم على مجرى نهر جيحون في الشرق، وتقوم بعض المدن على ساحل بحر قزوين، وما عدا ذلك فواحات صغيرة مبعثرة في أنحاء البلاد...

استولى الروس على القسم الأكبر من بلاد التُركمان إثر الحرب التركمانية ١٢٩٧ - ١٢٩٨، وقد دمّر التركمان الجيش الروسي عام ١٢٩٧ في قلعة تيب، وبعد هزيمتهم تعرّضوا لمذابح رهيبة عام ١٢٩٩. واشترك التركمان مع المجاهدين التركستانيين ضدّ الروس ١٣٣٥ - ١٣٤٠، كما قاموا بانتفاضةٍ استمرّت خمس سنوات ١٣٤٥ - ١٣٥٠، ويبلغ عدد سكان جمهورية تركمانستان الاتحادية ١,٥٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. بينهم تسعمائة ألف تركماني، أما بقية السكان فهم من المستعمرين الروس، وأما بقية التُركمان فإنهم مُشرّدون في أنحاء مختلفة، وبين السكان المسلمين ثلاثون ألفاً من الشيعة. كما يعيش في العاصمة عشق أباد بعض البهائيين.

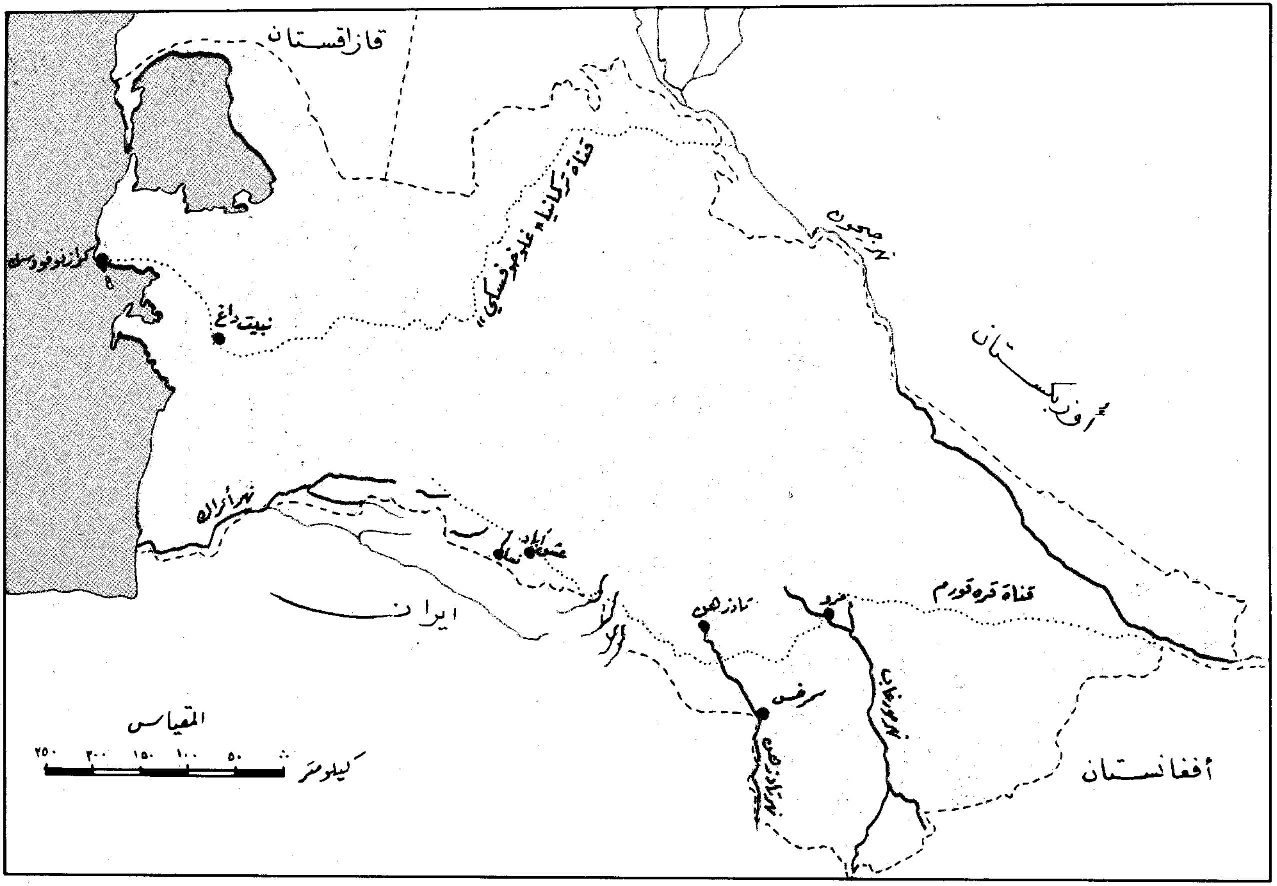

قازاقستان
أوزبكستان
أفغانستان
ايران
نهر جيحون
نهر أتراك
نهر مورغاب
نهر تاجن
قناة قره قوم
نبيت داغ
مرو
تاجن
سرخس
المقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠

٤ً - **جمهورية قيرغيزيا**: تبلغ مساحتها ١٩٨,٥٠٠ كيلومتر مربع أي أكبر من مساحة سوريا بقليل، وهي منطقة جبلية شاهقة الارتفاع، تفصلها جبال آسيا الوسطى عن قازاقستان وطاجيكستان، وتفصلها عن تركستان الشرقية التي تخضع لسيطرة الصين جبال تيان شان التي يصل ارتفاعها في أقصى شرقي قيرغيزيا إلى ٧٤٣٩ متر عن سطح البحر غير أن هناك ممرات تصل بين المنطقتين وأشهرها طريق الحرير.

وتجري في هذه الممرات أودية تنحدر مياهها نحو الغرب باتجاه نهر سيحون، أو نحو الشرق باتجاه نهر تاريم في تركستان الشرقية، وتنساب بعض الأودية في الشمال لتنتهي في سهوب القازاق. وتوجد بحيرة ايسك كول في شمال شرقي قيرغيزيا، وتنساح إليها مياه بعض المرتفعات المحيطة بها.

بعد أن سيطر القائد الروسي فرونزي على المنطقة أُلحقت أراضي قيرغيزيا بجمهورية روسيا الاتحادية أي بموسكو، وبعد مدةٍ أصبحت مقاطعةً ذات استقلالٍ ذاتي، وفي عام ١٣٥٥ أصبحت جمهوريةً اتحادية، كما أُطلق على العاصمة اسم القائد الروسي الذي فرض الاستعمار على قيرغيزيا بالقوة وهو ميخائيل فرونزي.

بدأت أفواج الروس تتدفّق على قيرغيزيا فأسّس المستعمرون عشرين قريةً روسيةً معظمها في المنطقة الشمالية المتاخمة لحدود قازاقستان وذلك عام ١٢٨٤، ثم زاد تدفّق المستعمرين والتوسّع نحو الجنوب فأُقيمت أكثر من ستين قريةً روسيةً في المدة ١٣٢٦ - ١٣٣٤ كان أكثر من خمسين منها في وادي فرغانة، واستمرّ تقدُّم الاستعمار نحو الجنوب حتى غطّى المنطقة.

وتناقص عدد القيرغيز إبان الاستعمار الروسي بسبب حرب الإبادة والموت جوعاً والهرب من البلاد. إذ قامت حركة في البلاد عام ١٣٣٥ قُتل خلالها مائة وخمسون ألفاً من القيرغيز. وماتت أعداد كبيرة جوعاً أثناء هربها

باتجاه الصين، وأُبيد سكان القسم الشمالي جميعاً، فكان النقص أكثر من ثلث السكان.

واستمرّ تناقص السكان بعد الحكم الشيوعي نتيجة القتل والإبادة وفي الوقت نفسه زاد تدفّق المستعمرين الروس إلى البلاد حتى أصبح عدد القيرغيز في منقطتهم عام ١٣٤٥ دون عدد المستعمرين الروس. واتّخذ المستعمرون سياسة توطين القبائل المتنقلة كي تسهل مراقبتها، لذا فقد صادروا الحيوانات غير أن السكان قاموا بذبح حيواناتهم ولم يُسلّموها فأثّر هذا على ضعف مستواهم المعاشي وفقرهم وتعرضهم للجوع، فلما طالب بعض زعماء القيرغيز المشاركين في الحزب الشيوعي والعاملين فيه الروس بالعمل على تحسين الأوضاع المعاشية طُردوا من الحزب، واتّهموا بالخيانة لمبادىء النظام، واختفى بعضهم، ومنهم رئيس وزراء قيرغيزيا يوسف عبدالرحمن (يوسوب عبد الرحمانوف) إذ طالب بعدم تصدير الخبز قبل شبع القيرغيز فعُدّ خائناً، فأُقيل من منصبه، وطُرد من الحزب، واختفى، وكذلك رزفيلوف الذي اختفى عام ١٣٥٦ بعد أن كان نائب ستالين في منصب زعيم القوميات وذلك عام ١٣٤١، ثم نائب رئيس وزراء جمهورية روسيا الاتحادية، كما قُضي على عبدالكريم صديق (صديقوف) حيث اتّهم بإفساد المزارع الجماعية. وعلى هذا نرى أنه بالإمكان أن يصل بعض المسلمين إلى مناصب عليا في الإمبراطورية الروسية ولكن لا يُوثق بهم، ويبقون تحت المراقبة، وليس بيدهم سلطة إنما يُؤدّون أعمالاً، ويقومون بواجباتهم تجاه ساداتهم الروس، فإذا بدا للسادة أن يقصوهم فعلوا ذلك مُجرّد إشارة، أو يقضوا عليهم استطاعوا ذلك مُجرّد كلمة.

ويُشجّع الروس العداء بين القيرغيز وسكان الصين، وقد وُضعت ملحمة تُسمّى «ألماناس» وتدور فصولها على قتالٍ دائمٍ بين القيرغيز وأهل الصين، وتُعطي عبارات التمجيد على الأبطال الذين ظهروا خلال قتالهم لسكان الصين. وقد أصبحت هذه الملحمة أكثر الكتب شعبيةً ورواجاً نتيجة التشجيع

الدائم من قبل المسؤولين الروس، وربما كان هذا بسبب البعد بين موسكو وقيرغيزيا الذي يجعل الروس يهدفون منه الى إبعاد القيرغيز عن الصين وخاصةً أن القيرغيز كانوا يقومون بحركاتٍ في بلادهم ويفرّون إلى الصين. كما أن السيطرة على قيرغيزيا أمر صعب لطبيعة بلادها الجبلية وسكانها الرعاة.

يبلغ عدد سكان جمهورية قيرغيزيا الاتحادية ٣,٥٢٩,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويتألّف السكان من المجموعات التالية:

القيرغيز	ويبلغ عددهم ١,٦٨٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٤٧,٩٪	من السكان
الأُوزبك	ويبلغ عددهم ٩١٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢٥,٩٪	من السكان
التتار	ويبلغ عددهم ٧٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢,٠ ٪	من السكان
الأُويغور	ويبلغ عددهم ٣٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٨ ٪	من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم ٢٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٧ ٪	من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم ٢٣,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٧ ٪	من السكان
	٢,٧٢٨,٠٠٠	٧٧,٤٪	من السكان

وهؤلاء جميعهم من المسلمين. أما النصارى فهم من المستعمرين الدخلاء، والأصل ألا يدخلوا في الإحصاءات والنسب ولكن نضطر أن نضعهم لأنهم أصبحوا مستوطنين، ولن يرحلوا إلا إذا حدث حادث فإنهم وقتئذٍ سيفرّون خوفاً من السيف، وهم من:

الروس	ويبلغ عددهم ٧١٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢٠,٣٪	من السكان
الأُوكرانيين	ويبلغ عددهم ٨٩,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٢,٣ ٪	من السكان
	٨٠١,٠٠٠	٢٢,٦٪	من السكان

٥ً - **جمهورية طاجيكستان:** تبلغ مساحتها ١٤٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية شاهقة الارتفاع باستثناء المنطقة الجنوبية التي تقع جنوب

العاصمة (دوشنبه) حيث تكثر الأنهار التي تتجه نحو الجنوب لترفد نهر جيحون لذا تتشكّل بعض السهول، وتمتدّ الهضاب. كما تتجه أنهار نحو الشمال لترفد نهر سيحون، وتضمّ طاجيكستان جزءاً من مجرى ذلك النهر حيث توجد بعض السهول أيضاً.

تأسّست جمهورية طاجيكستان في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٤٣، ثم أُضيف إليها إقليم غورنو باداخشان ذو الحكم الذاتي، ويضمّ هضبة بامير والتي تُدعى سقف العالم لارتفاعها وتوزُّع الجبال منها، ويصل ارتفاعها إلى ٧٤٩٥ متراً. وقد جرى صراع عليه بين الأفغان والمستعمرين الروس، ثم بين الاستعماريين الانكليزي والروسي.

يبلغ عدد سكان جمهورية طاجيكستان الاتحادية ٣,٨٠٦,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويتوزّع السكان حسب المجموعات الآتية:

الطاجيك	ويبلغ عددهم	٢,٢٣٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٥٨,٩٠٪ من السكان
الأُوزبك	ويبلغ عددهم	٨٧٣,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢٣,٠٠٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٨٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢,٣٠ ٪ من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم	٤٨,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	١,٢٠ ٪ من السكان
التُركمان	ويبلغ عددهم	١٤,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٠,٣٠ ٪ من السكان
		٣,٢٥٢,٠٠٠		٨٥,٧٠٪ من السكان

والطاجيك يعودون إلى أصل فارسي، ويتكلّمون لغة الطاجيك التي تعود أيضاً إلى أصلٍ فارسي، وكانت تكتب بالحرف العربي حتى عام ١٣٥٨، ثم أُلزم أهلها على كتابتها بالحرف الكيريلي (الروسي)، وأما بقية العناصر فإنها تعود إلى أصل تركي، وكذلك لغاتهم. ويتكلّم سكان هضبة البامير لغةً إيرانيةً.

وأما من حيث العقيدة فإن الطاجيك نصفهم من المسلمين (أهل السنة

والجماعة) ويتبع النصف الآخر الشيعة، ويوجد من الإسماعلية مائة وعشرون ألفاً، وهم من أتباع آغاخان ويسكنون إقليم غورنو باداخشان.

ويستوطن بعض المستعمرين الروس طاجيكستان وهم من النصارى الأرثوذكس وهم من:

الروس	ويبلغ عددهم ٣٩٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١٠,٥٪	من السكان
الأوكرانيين	ويبلغ عددهم ٣٦,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١,٠ ٪	من السكان
	٤٣١,٠٠٠	١١,٥٪	من السكان

ويوجد عدد من اليهود ويبلغ عددهم ١٥,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ٠,٤٪ من السكان.

أ - إقليم باداخشان: وتبلغ مساحته ٦٣,٧٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنه ١٢٧,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. وهم يتوزعون على النحو الآتي: (١١٥,٠٠٠) من الطاجيك، و (٨,٥٠٠) من القيرغيز، و (١٧٨٠) من الروس، وفيه الإسماعيليون الذين ذكرناهم.

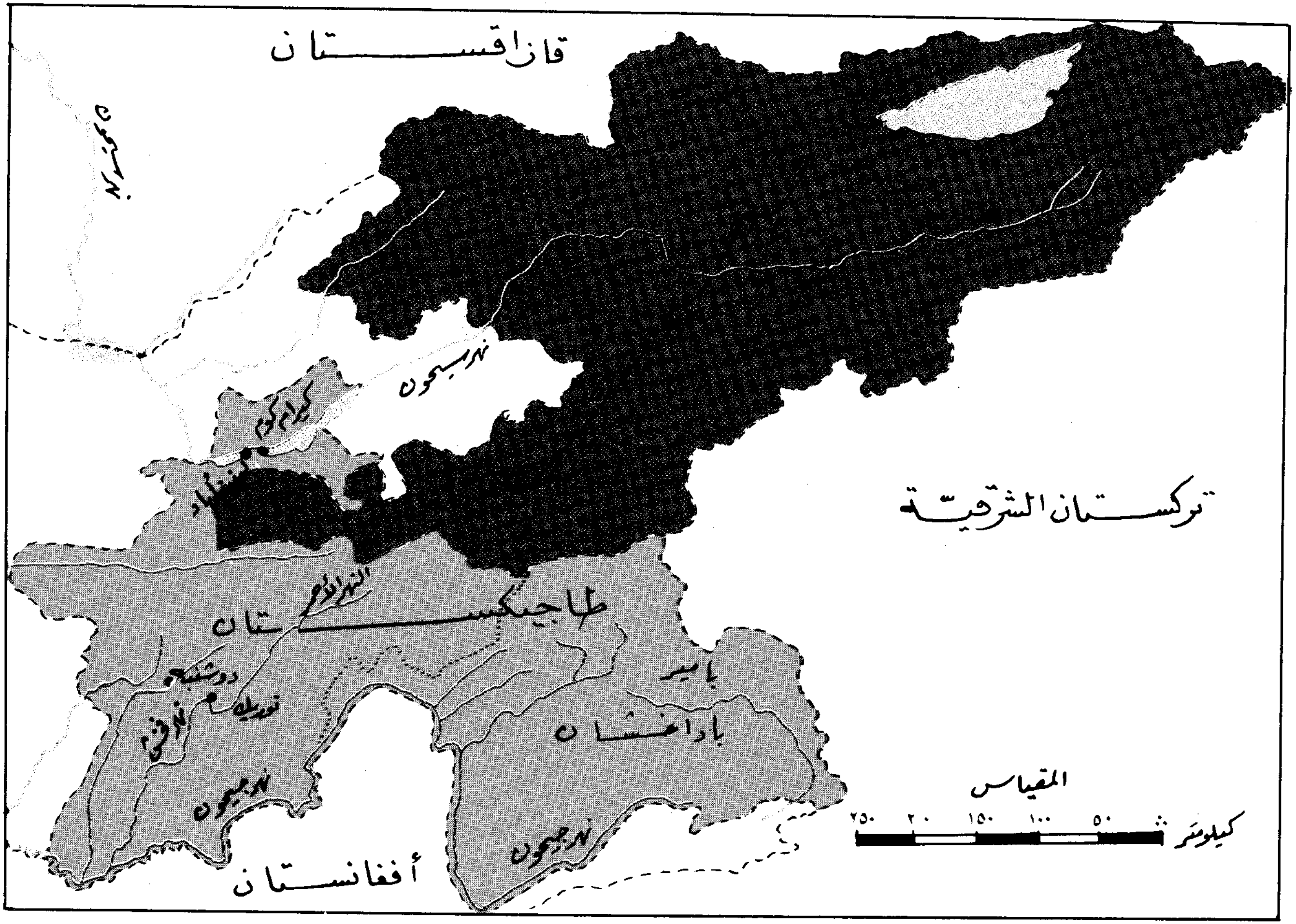

قازاقستان
تركستان الشرقية
طاجيكستان
أفغانستان
باداخشان
بامير
نهر سيحون
نهر جيحون
دوشنبه
المقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠ ٢٥٠

الفصل الخامس

سيبيريا

يُطلق اسم سيبيريا على الأراضي الواسعة الممتدّة شمالي قارة آسيا والواقعة بين جبال أُورال غرباً والمحيط الهادي شرقاً، وبين تُركستان وجبال أواسط آسيا جنوباً والمحيط المتجمد الشمالي شمالاً، وتشمل مساحاتٍ واسعةً تقرب مساحتها من أربعة عشر مليوناً من الكليومترات المُربعة أي ما يقرب من ثلث مساحة القارة الآسيوية أكبر قارات العالم وأوسعها.

نُلاحظ في سيبيريا ثلاث مناطق مُتميّزة بين الغرب والشرق وهي:
١ً ـ منطقة سهلية في الغرب تمتدّ من جبال أُورال في الغرب حتى منطقة الهضاب في الشرق ويجري فيها نهر أُوبي وروافده، ونهر ينيسي وما يصب فيه، وتتجه هذه الأنهار من الجنوب من مرتفعات قازاقستان وجبال آسيا الوسطى إلى الشمال، وتتجمّد في فصل الشتاء القارس فإذا جاء الربيع فاضت مياهها وخرجت من مجاريها وشكلّت كثيراً من المستنقعات. ٢ً ـ منطقة هضابية في الوسط بين مجرى نهر ينيسي ومجرى نهر لينا. ٣ً ـ منطقة جبلية في الشرق تنتهي عند ساحل المحيط الهادي وتُشكّل جُزراً وأشباه جزر.

كما نُلاحظ في سيبيريا ثلاث مناطق متميّزة بين الجنوب والشمال.
١ً ـ منطقة سهبية في الجنوب تميل إلى الدفء، وتنحصر في الغرب لانخفاض المنطقة على حين تكون باردة في الوسط والشرق لامتداد الهضاب والجبال،

وهذه المنطقة السهبية هي القابلة للنشاط البشري. ٢ً ـ منطقة غابية في الوسط تشغلها الغابات المخروطية والمختلطة. ٣ً ـ منطقة صحراوية باردة في الشمال تنتقل فيها مجموعات قليلة العدد، تعود في أصولها الى العرق الأصفر، وتعيش على أساليب بدائيةٍ.

وقد رأينا أن مغول الشمال (القبيلة الذهبية) قد دخلوا جنوب غربي سيبيريا واستوطنوا فيها، وهي المنطقة القابلة للنشاط البشري ـ كما ذكرنا ـ وأقاموا فيها إمارةً محليةً، واتخذوا قاعدةً لهم بنوها على مجرى نهر أرتيش رافد نهر أُوبي، وأطلقوا عليها اسم «سيبير»، ولما ضعُف أمرهم في أواخر القرن العاشر على حين قوي أمر الروس، تقدّم الروس إلى إمارتهم وأخضعوها كما أخضعوا أخواتها الإمارات التتارية في حوض نهر الفولغا ـ والأُورال، وهي بالأساس ليست سوى جزء منها. وأراضيها ليست إلا امتداداً وتتمّة لأراضيهم وإماراتهم. وعدّ الروس أنفسهم مُلاّك هذه المناطق، وعدّوها مستعمراتٍ لهم. وعدّوا المناطق الشرقية لها والشمالية منها كلها تابعةً لها وبالتالي مُلكاً لهم، وأطلقوا اسم العاصمة «سيبير» على تلك الأجزاء كلها ومنذ ذلك الحين أصبح يُطلق عليها اسم سيبيريا، وعدّوها كلها تتبع موسكو وترتبط بها، وقد استثمروا ما أمكن استثماره من الأرض واستغلّوا العباد واستعبدوهم وأذاقوهم مرّ العذاب، واستمرّت هذه المنطقة تتبع روسيا وتعدّ مستعمرةً لها حتى هذا اليوم، وترتبط بموسكو.

ولا يمكننا أن نقتصر أبداً على المنطقة الجنوبية الغربية من سيبيريا ونقول: إن التتار المسلمين يعيشون في هذا الجزء من سيبيريا ونغفل باقي الأجزاء. فالروس هم الذين ألحقوا بقية أنحاء سيبيريا بهذا القسم، وأطلقوا عليها اسم قاعدته. كما علينا ان نُلاحظ المشرّدين من بلادهم الذين ينتقلون في تلك الجهات يعملون في قطع الغابة والأشغال الشاقة، كما يجب ألا نُهمل أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بدعوة من المُشرّدين الذين يلتقون أثناء نفيهم بالذين

ينتقلون هناك من رعاةٍ وجماعاتٍ بدائيةٍ ويحدّثونهم عن ظُلم الروس فيُقبلون على الإسلام، وإن كثيراً من المراقبين السياسيين ليقولون إن الجماعات البدائية كلها والتي تعيش في شمالي سيبيريا قد تحوّلت إلى الاسلام ولكن لا تستطيع أن تُعلن ذلك أو تظهر وبالتالي لا تستطيع أن تُؤدّي شعائرها وإنما يُعرف ذلك من بداية امتناعهم عن تناول لحم الخنزير، وعدم تعاطيهم الخمر، وختن أطفالهم، فإذا صحّ ذلك فإن أكثر سكان سيبيريا إنما هم من المسلمين الذين يخفون إيمانهم ولا يستطيعون الجهر به، ولجهلهم وخوفهم من بطش المستعمرين فإنهم لا يُؤدّون شعائره.

ومن المعلوم أن المنفيين لا تخلو منهم تلك المجاهل وإذا كنا نعلم الآن وجود تتار القرم هناك من خمسة وأربعين عاماً، ومن قبل كان الشاشان، وكان البلكار، وهؤلاء لهم صفة الشعب المنفي كاملاً، أما المجموعات الصغيرة والأفراد فلا يخلو منها وقت ولا يدري بها أحد. ونحن نعلم أن الإنسان المشرّد المظلوم يكون أكثر جُرأةً في الحديث، وأكثر تأثيراً على الآخرين لما يُبديه من وجهة نظره، ولو كانت من طرفٍ واحدٍ، وأكثر حُرقةً في كلامه، وأن الذي يحسّ بالظلم الدائم يتجاوب معه الآخرون ويستجيبون له، ويُستمع منه، ويُسايره الناس عطفاً عليه وإنسانيةً فما يرى المستمعون أنفسهم إلاّ وقد غدوا مُسلمين.

وإذا كانت أكثر التجمّعات الإسلامية تتجمّع وتتركّز في الجنوب الغربي من سيبيريا إلاّ أنه لا تخلو منها مدينة ولا تفتقدها تلك المجاهل، بل إن المجاهل قد تكون مقتصرةً على المسلمين الذين يقضون عقوباتٍ فرضها عليهم الروس، وهناك يعيشون في شبه خلوةٍ بعيدين عن أعين السلطة الشيوعية المستعمرة فيُؤدّون عبادتهم ويعودون ـ إن قدر الله لهم العودة ـ إلى أماكنهم وقد ازدادوا حماسةً لدينهم ورغبةً في الدعوة إليه بعد أن استهانوا النفي وعاشوا في المجاهل يقومون بالأشغال الشاقة.

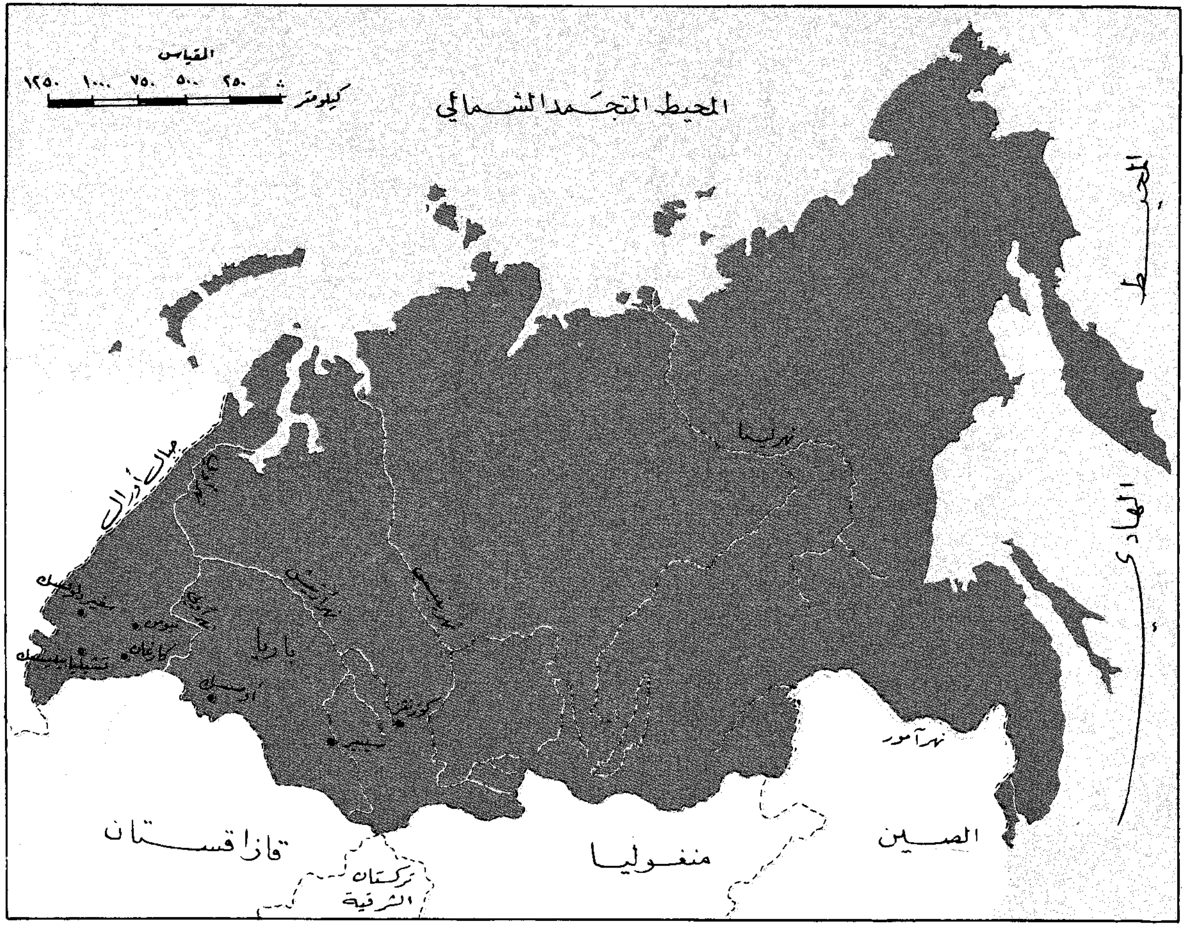
المقياس
٠ ٢٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠ ١٢٥٠
كيلومتر
المحيط المتجمد الشمالي
المحيط الهادي
جبال أورال
نهر لينا
نهر آمور
كازان
قازاقستان
تركستان الشرقية
منغوليا
الصين

ويعيش عدة ملايين من المسلمين في سيبيريا الغربية، ولعلّ أكبر تجمعاتهم في:

تشيليابينسك	وفيها	٢٢٠,٠٠٠	نوفوسيبيرسك	٣٠,٠٠٠
سفردلوفسك	وفيها	١٨٠,٠٠٠	كورغان	٢٥,٠٠٠
تيومن	وفيها	١٤٠,٠٠٠	منطقة باريا	١٠٠,٠٠٠
أومسك	وفيها	٥٠,٠٠٠		

ويقطن سيبيريا عامة ما يزيد على اثني عشر مليوناً ويُقدّر عدد المسلمين بينهم بثلاثة ملايين أي يُشكّلون ما يعادل ٢٥ ٪ من عدد السكانّ، والغالبية من المستعمرين الروس.

ونتيجة تأسيس الإمبراطورية الروسية على هذا النحو، فإن أعداداً من المسلمين يُقيمون في المدن الروسية للعمل وغيره، كما يجب ألا ننسى أن التتار كانوا يحكمون الأجزاء الروسية الأصلية، ومنطقة بحر البلطيق ولهذين السببين نرى بعض التجمّعات الإسلامية في بلاد الروس منها:

يعيش في	موسكو	١٥٠,٠٠٠	مسلم.
	لينينغراد	٦٠,٠٠٠	مسلم.
	استراخان	١٠٠,٠٠٠	مسلم، والأصل فيها منطقة إسلامية وحاضرة إمارة تتاريةٍ مسلمةٍ.
	كيروف	١٠٠,٠٠٠	مسلم.
	ساراتوف	٥٠,٠٠٠	مسلم. والأصل فيها منطقة إسلامية وحاضرة الدولة التتارية المسلمة.
	بنزا	٨٠,٠٠٠	مسلم.
	كويبيشيف	١٦٠,٠٠٠	مسلم. والأصل فيها أنها ضمن المنطقة الإسلامية في حوض نهر الفُولغا.

غوركي	٧٠,٠٠٠	مسلم.
اليانوفسك	١٣٥,٠٠٠	مسلم.
أركانجلسك	٦,٠٠٠	مسلم.
مولدافيا	٢٥٠,٠٠٠	مسلم.
في حوض الدونتز	٩٠,٠٠٠	مسلم.
ليتوانيا	٦,٠٠٠	مسلم.

وهذه الأرقام حسب الإحصاءات الروسية لعام ١٣٩٩ هـ، ولا يوثق بها فالأعداد أكبر من هذا ـ والله أعلم ـ.

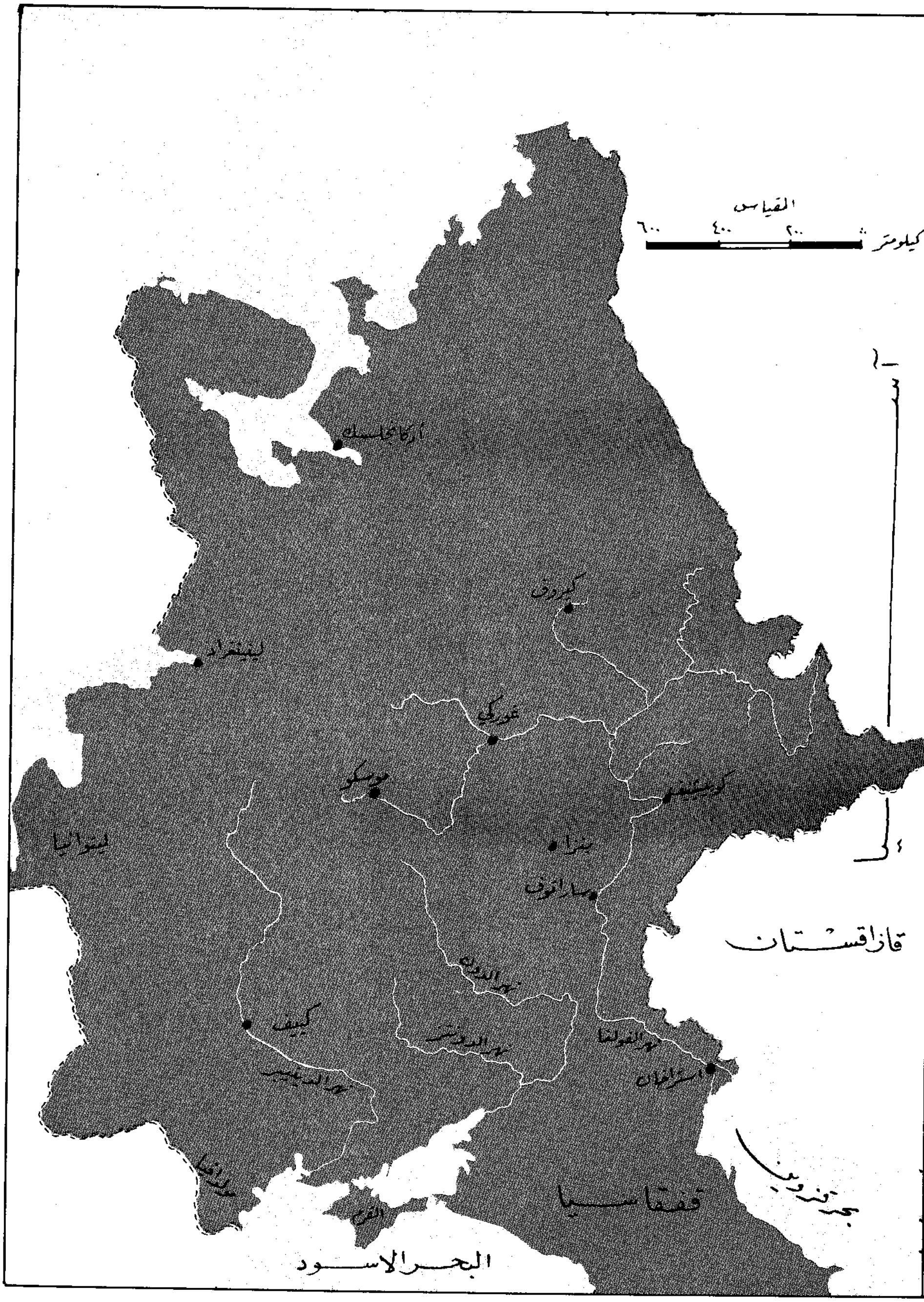

المقياس
كيلومتر ٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠
أركانجلسك
كيروف
لينينغراد
غوركي
موسكو
كويبيشيف
بنزا
ساراتوف
ليتوانيا
قازاقستان
نهر الدون
كييف
نهر الدونتز
نهر الفولغا
استراخان
نهر الدنيبر
مولدافيا
القرم
قفقاسيا
بحر قزوين
البحر الاسود

الباب الخامس

اقتصاديّات الأقاليم الإسلاميّة في الأمبراطوريّة الرّوسيّة

لا أُريد هنا أن أبحث في اقتصاديات الأقاليم الإسلامية الخاضعة للاستعمار الروسي بشكلٍ مُفصّل فليس هنا موضع هذا البحث، وإنما أُريد أن أُبين أهمية هذه الأقاليم الاقتصادية إذ هي تُضيف عاملاً من عوامل تمسُّك الروس بها والعمل على إبقائها في حوزتهم وتحت سلطانهم، إذ تُعدّ شرياناً من شرايين حياتهم التي تمدّهم بالتغذية اللازمة لهم كي تسري فيهم الروح وتنبض فيهم الحيوية لإمكانية التطاول على بقية الأمم ومنافسة من يتصدّى لهم أو ينازعهم على زعامة العالم.

إن إمداد هذه الأقاليم الإسلامية للروس بعنصر الحياة لا يأتي من جانبٍ واحدٍ وإنما من جوانب الاقتصاد كافةً، للموقع دوره، وللرعي شأنه، وللزراعة أهميتها، وللطاقة أثرها الكبير، وللثروة المعدنية واستثمارها الخطر البيّن، وهذا أساس حياة الدول، ومنه تستمدّ قوتها، وبه تُصارع خصومها، وتتنافس الأمم لتأمينه والحصول عليه.

وقد وقعت هذه الأقاليم في قبضة الروس، فعدّوا ذلك فرصةً سانحةً للاحتفاظ بها، وعملوا جهدهم للإبقاء عليها فإلى جانب ممارسة الضغط واصطناع الرفاق قبضوا على شرايين الحياة بأيديهم ولم يسمحوا لها بإمداد سكان هذه الأقاليم بوسائل الحياة إلا بمقدار ما يحول بينهم وبين الموت ليبقوا

ساكنين، تُؤخذ خيرات بلادهم دون إمكانية الدفاع عنها، وتُسلب حرياتهم من غير سبيل للمطالبة بها، ويقومون بالأعمال النافعة لمغتصبيهم مُكرهين، وفي الوقت نفسه لا يُمكنهم الاستغاثة أو الاسترحام أو طلب يد الرحمة من أحدٍ من العالمين فهم بيد خُصومٍ مُجرمين والعالم بعد ذلك، إما طُغاة حاقدون يدعمون المجرمين وإما إخوة نائمون توزّعتهم أفكار الأعداء فهم بين مُشرق ومُغرّب ومن رحم الله يغطّ في نومه لم تُوقظه آهات البائسين ولا تمرّد الطغاة المستعمرين، وهو ينتظر تغيُّر ما في النفوس وإيقاظ الهمم ومجيء نصر الله بعدئذٍ.

الفصل الأول

المَوقــع

تقع بلاد الروس الأصلية في المناطق الشمالية شمال خط العرض ٤٨ شمالاً أي في المنطقة الباردة فهي لا تُنتج إلا محصولات منطقةٍ معينةٍ هي الباردة، وتُحرم من منتجات كثيرٍ مما تُقدمّه جهات ثانية وخاصّة تلك الثمار والفواكه التي تأخذ حلاوة مذاقها من أشعة الشمس الدافئة وهذا ما لا تعرفه بلاد الروس.

ومما يزيد في برودتها أو بتعبيرٍ أدق في قاريتها موقعها في شرقي القارة بعيدة عن التيارات الدافئة التي تصل إلى سواحل غربي القارة وتُساير شواطئها فتنشر الدفء هناك أو تضفي الجو اللطيف على تلك الأجزاء، وتحول دون تجمّد المياه في الخلجان والسواحل التي تصل إليها حتى ولو كانت على عروض أعلى من العروض التي تقع عليها بعض الشواطىء التي تشرف عليها الأرض الروسية مثل بحر البلطيق وخليج فنلندا. ولذا كانت بلاد الروس حبيسةً تُشرف على بحارٍ تتجمّد أكثر أيام العام فلا يُمكنها التحرّك في بحار العالم كبقية دول الأرض، ولا يستطيع أهلها التجوال عبر المحيطات كسائر الأمم، ولا تتمكّن أساطيلها الانتقال في المياه كغيرها من الأساطيل بل لا تملك أساساً أسطولاً، فأين المرافىء الحرّة التي يُبنى فيها؟ وأين المياه الدافئة التي يمخرها؟ لذا فأول ما فكّر فيه الروس عندما قوي أمرهم التوجّه نحو الجنوب للوصول الى المياه الدافئة ليتحرّروا من الموقع الذي قيّدهم، وليتفلّتوا من البقعة التي حبستهم،

وليتخلّصوا من عقدة النقص التي أورثهم إياها مكـان أرضهـم، وليستعمروا كما استعمر غيرهم، وفي الوقت نفسه يكونون قد حقّقوا هدفهم في السيطرة على المضائق العثمانية ووضعوا يدهم على استانبول، وانتصروا على المسلمين، وأفرغوا شيئاً من حقدهم الصليبي غير أن ذلك لم يتحقّق لوقوف بقية المستعمريـن الصليبيين في وجههـم حـرصـاً على مصـالحهـم وخـوفـاً على مستعمراتهم، ولا يزال هذا هدفاً سامياً عندهم يسعون إليه، رغم انفلاتهم من عدة جهاتٍ في المحيطات، وبناء الأساطيل والسفن الكبيرة وتحرّكها في البحار كافةً لحرية التجارة والملاحة البحرية.

ولما حال المستعمرون الغربيون بين الروس وبين وصولهم إلى المياه الدافئة عن طريق البحر الأسود اتَّجه الروس نحو استعمار المناطق الشرقية فوقعت سيبيريا في قبضتهم، وظفروا في تركستان، وأخذوا بلاد القفقاس، وإذا كانوا قد حصلوا على زاويةٍ بحريةٍ في أقصى الجنوب الشرقي من سيبيريا تُشرف على المياه الحرّة في بحر اليابان، وأقاموا لهم ميناء (فلاديفستوك) إلا أن هذا لم يكن ليكفيهم لبُعد ذلك الميناء، وطول الطريق بينه وبين بلاد الروس الأصلية أو المناطق ذات الإنتاج الصناعي، وذات الاستهلاك، ومع أنهم قد مدَّوا السكك الحديدية بين مناطق الإنتاج في الغرب وبين ذلك الميناء في الشرق رغم طول المسافة وصعوبة العمل غير أن ذلك لم يكن ليعوّضهم عن المياه الحرّة الدافئة في الغرب أو الجنوب لذا كانوا يُحاولون الوصول إليها في الغرب عن طريق الالتفاف حول تركيا وشجّعهم على ذلك استعمارهم لبلاد القفقاس، وهذا ما جعل للعراق وسوريا أهميةً خاصةً لتحقيق هذا الهدف الذي ما فتئوا يسعون وراءه ويلهثون خلفه لتحقيقه، ويغتنمون كل فرصةٍ لمدّ رأسهم في تلك الجهة أو للتقدّم ولو خطوةً صغيرةً في هذا الاتجاه.

وفي الوقت نفسه كان الروس يُحاولون التقدّم نحو الجنوب بعد أن استعمروا تركستان وعن طريقها للوصول إلى مياه المحيط الهندي غير أنهم قد

اصطدموا بالاستعمار الانكليزي وتمّ الصدام بينهما أحياناً بالمناوشة وأحياناً بالمناورة والمراوغة وقد تكون بالسياسة والمنافسة، وذلك عبر أراضي إيران أو في بلاد أفغانستان وفشل الروس في تحقيق هدفهم عن هذا الطريق أو أن كلاهما قد فشل، هذا في تقدّمه نحو الجنوب، وذاك في تحرّكه نحو الشمال لوقوف كل منهما في وجه الآخر، غير أن الروس لم يتخلّوا عن وجهتهم هذا واستمّروا يسعون وراء تحقيق هدفهم عن هذه الجهة كلما بدت لهم بارقة أملٍ في تنفيذ مآربهم، وما دخولهم أفغانستان عام ١٣٩٩ إلا محاولةً من هذه المحاولات ولكن طرح فكرة الجهاد لدى شعب أفغانستان المسلم قد خيّب آمالهم أو سيُخيّبها ـ إن شاء الله ـ.

ومما يزيد الأرض الروسية قاريةً بُعدها إلى الداخل الأمر الذي يحول دون وصول الرياح الطيبة البحرية الغربية الدافئة التي تحمل معها الدفء والغيث وهذا ما يزيد في بردها، ويُخفّف من غزارة مطرها، ويُقلّل من شأن زراعتها الأمر الذي يجعلها بحاجةٍ إلى الكثير غير أن الطرق مغلقة في وجهها، وتُحاول أن تجد حاجتها في منتجاتها فلا تُسعفها الظروف المُناخية، وتجد في الأقاليم الإسلامية الدافئة التي تُسيطر عليها ما يسدّ بعض احتياجاتها أو أكثرها لذا فهي تتمسّك بها وتحاول استنباتها أكثر الأنواع التي هي بحاجةٍ إليها أو ما يُشبهها.

الفصل الثاني
الرّعي والثروة الحيوانيّة

إن الأرض الروسية الأصلية تضيق بسكانها لكثرتهم لذا فإن استثمار الأرض واستغلالها يكون حثيثاً حيث لا توجد مناطق شاسعة دون استثمار ترعى فيها الحيوانات أو مخصصة للرعي إلا في مساحاتٍ محدودةٍ، وإذا أضفنا إلى ذلك المناطق الشمالية الشديدة البرد التي لا تصلح أيضاً لتربية الحيوانات، لهذا كله كان الروس بحاجةٍ إلى ثروة حيوانيةٍ لاستهلاكهم على الأقلّ وهو غير مُتوفّر لهم، وبحاجةٍ قبل ذلك إلى مراعٍ لتربية تلك الحيوانات وهذا غير مُؤمّن أيضاً، ولكنه مُتوفّر على نطاقٍ واسعٍ في الأقاليم الإسلامية التي تخضع لاستعمار الروس، وهذا بالاصل ما كان من عوامل اندفاع الروس نحو تلك الأقاليم وإخضاعها لسيطرتهم واستعمارها.

إن الأقاليم الإسلامية الخاضعة للاستعمار الروسي ذات مساحاتٍ واسعةٍ تزيد على ثلث مساحة الإمبراطورية الروسية. وهي قليلة السكان الأمر الذي يُساعد على إمكانية وجود مراعٍ كافيةٍ، وهي ذات سهوبٍ واسعةٍ صالحةٍ للرعي، إذ أن قازاقستان أكثرها سهبية، وتقرب مساحتها من مساحة جزيرة العرب إذ تبلغ (٢,٧١٧,٣٠٠ كيلومتر مربع) كما أن أكبر مساحات كل من أوزبكستان (٤٠٨,٠٠٠ كيلومتر مربع) وتركمانستان (٤٤٥,٠٠٠ كيلومتر مربع) إنما هي سهوب، هذا بالإضافة إلى صحراء القفجاق (شمالي القفقاس)، وأطراف حوض نهر الفولغا تُعدّ كلها سهوبيةً، مع سهول سيبيريا

الغربية، وهذا ما يصلح لتربية الأغنام كما أن الواحات سواء أكانت المنفردة أم المستمرة المُتشكّلة على طول مجاري الأنهار تصلح لتربية الأبقار.

وهناك الأراضي الجبلية في الأورال، وطاجيكستان، وقيرغيزيا، وضهرة قازاقستان، وبلاد القفقاس حيث نجد المراعي الصالحة لتربية الأغنام على السفوح إضافةً إلى الماعز، ومما يُلاحظ أن القيرغيز يُربّون الخيل على شكل قطعان وينتقلون وراءها، ويستفيدون من لحمها، كما أن المجموعات الشركسية تشتهر أيضاً بتربية الخيل ولكن من أجل الركوب وأعمال الفروسية.

لذا ليس غريباً إذا قلنا: إن معظم الثروة الحيوانية في الإمبراطورية إنما هو من الأقاليم الإسلامية فيها، وفي طليعتها قازاقستان التي تقدّم وحدها ثلاثين مليون رأس من الأغنام وهو ما يزيد على ربع أغنام الإمبراطورية ويُعادل $\frac{١}{١٨}$ من الأغنام في العالم. كما تُربي قازاقستان ٦ ملايين رأس من الأبقار ويمكن ملاحظة الجدول الآتي:

قازاقستان	٣٠,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
أوزبكستان	٩,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
قيرغيزيا	٧,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
طاجيكستان	٢,٣٥٠,٠٠٠	رأس غنم.
تركمانستان	٢,١٠٠,٠٠٠	رأس غنم.

أما الأبقار فتُربّى في:

قازاقستان	٦,٠٠٠,٠٠٠	رأس بقر.
أوزبكستان	٢,٤٠٠,٠٠٠	رأس بقر.

وتشتهر تُركمانستان بتربية الماعز إذ نجد فيها ٤,٠٠٠,٠٠٠ رأس منه.

وتشتهر كل من باشكيريا وداغستان بتربية الأغنام والماعز والأبقار، كما لا تخلو بقية الأقاليم من العناية بالحيوانات عامةً.

ولكثرة الظلم الذي مارسه الروس ولشدّة الضغط التي عاملوا بها المسلمين قام المسلمون بحركاتٍ ضدّ المستعمرين، ووجد الروس صعوبةً في القضاء على هذه الحركات، كما لاقوا عناءً في مراقبة السكان بسبب انتقال القبائل فاقتنعوا أن أفضل طريقةٍ لمراقبة القبائل وتحرّك رجالها إنما يكون بفرض الاستقرار عليها، فادّعوا أنهم سيتَّبعون سياسة التحضير التي يُقصد منها خدمة الأهالي والأخذ بأيديهم نحو الحضارة غير أن الشعب كان يرفض كل ما يأتي عن طريق الروس لأنه قد خبرهم حيث أصبح يعرف أنهم لا يمكنهم ان يتّبعوا سياسة أو طريقاً إلا وفيه إذلال المسلمين والتمكّن منهم لذا فقد قابل السكان هذه السياسة الجديدة بالمقاومة فقرّرت السلطات الاستعمارية مصادرة حيوانات القبائل لتُجبرهم على الاستقرار، فذبحت القبائل ما تملك من حيوانات وفضّلت ذلك على تسليمها للمستعمرين فكان أن قلّ عدد الحيوانات، وانخفض المستوى المعاشي للسكان الذين اعتادوا الارتحال. وبعد مدةٍ عادت تربية الحيوانات إلى سابق عهدها وبدأت تزداد أعدادها لأن السكان لا يمكنهم الاستغناء عنها.

الفصل الثالث

المـوارد الزراعيّـة

قلنا إن الأرض الروسية الأصلية باردة فهي لا تُنتج إلا أصنافاً محدودةً فيحتاج أهلها أنواعاً كثيرةً مما تُنبته البلدان الدافئة والحارة والمعتدلة فلما استعمر الروس الأقاليم الإسلامية حاولوا استغلالها واستعباد أهلها بكل ما أُوتوا من وسيلةٍ، وكانت هـذه الوسـائـل تتطـوّر مـع الزمـن، وقـد بـذل المستعمرون جهوداً كبيرةً من زراعة هذه الأقاليم وإنتاجها والحصول على خيراتها، وأقاموا مشروعاتٍ ضخمةٍ في سبيل الحصول على هذه الغاية أولاً.

لقد أقاموا كثيراً من السدود على الأنهار من أجل الريّ وتوسيع الرقعة الزراعية، ووصلوا الأنهار بعضها مع بعضٍ بقنواتٍ للغاية نفسها، ومدّوا شبكـات الريّ، وأصلحـوا الأرض إذ جفّفـوا المستنقعـات، ولعـلّ مـن المشروعات البارزة: السدود التي أُقيمت على نهر الفولغا ورافده نهر كاما حيث تشكّلت بحيرات واسعة، والسدود التي أُقيمت على نهر سيحون. وقناة تركمانيا المعروفة بقناة « غلوخوفسكي » التي فُتحت عام ١٣٧٠، ويبلغ طولها ما يقرب من ألف كيلومتر (٩٦٥ كيلومتر) وتصل بين نهر جيحون الأدنـى وبين بحر قزوين عند ميناء « كرازنوفودسك »، ويُستفاد منها في الريّ وفي توليد الطاقة الكهربائية، وقناة « قره قورم » في بلاد التركمان أيضاً، وتصل بين نهر جيحون ونهري « مورغـاب » و « تـادزهـن »، ثم تستمـر لتصـل إلى نهايـة النهيرات المنسابة على مرتفعات شمالي إيران والواقع أن هناك مشروعات

ضخمةً كثيرةً، ولسنا الآن في مجال بحثها وإنما إلى الإشارة إليها.

ويجب أن نعرف أن الفائدة من هذه المشروعات كلها لا تعود أبداً إلى السكان المسلمين أهل البلاد الأصليين وإنما إلى المستعمرين الروس، إذ مرّ معنا أن أحسن الأراضي قد استولى عليها الروس، وأن المشروعات قد قامت لخدمة هؤلاء ولمصلحتهم وخاصةً في حوض نهر الفولغا، وقازاقستان، ومنطقة طاشقند، وانه عندما يتمّ استصلاح الأرض إنما تُعطى بادىء ذي بدء إلى الروس، وعندما تُفتح القنوات أو قبل ذلك عندما تبدأ دراسة المشروع تأخذ أفواج المستعمرين بالتدفّق نحو أرض المشروع لتأخذ نصيبها، فيأتي المشرفون والمسؤولون ويُوزّعون قطع الأراضي المستصلحة والتي تستفيد من القنوات على الروس، وأبناء البلاد ينظرون وقلوبهم تتفطّر دون أن ينالهم شيء. ويُضاف إلى هذا أن جميع الذين يعملون بالمشروع من ناحية الإشراف والإدارة إنما هم من الروس، ولهم وظيفة أُخرى هي مراقبة السكان، أما الذين يقومون بأعمال الحفر والجهد بل والأشغال الشاقة والحقيرة إنما هم من أبناء البلد الأصليين.

ونستطيع أن نقول: إن أكثر المحصولات الزراعية في الإمبراطورية الروسية إنما تأتي من الأقاليم الإسلامية الخاضعة لها، ولعلّه من المفيد ذكر بعض هذه المحصولات.

١ً - **القمح**: وتُنتج الأقاليم الإسلامية ما يقرب من نصف الإنتاج في الإمبراطورية الروسية، وأهم مناطقه:

قازاقستان	وتُعطي	١٢,٥٠٠,٠٠٠ طن
قيرغيزيا	وتُعطي	٣٥٠,٠٠٠ طن
أُوزبكستان	وتُعطي	٣٠٠,٠٠٠ طن
طاجيكستان	وتُعطي	١٤٦,٠٠٠ طن
تُركمانستان	وتُعطي	٧٠,٠٠٠ طن

أذربيجان	وتُعطي	٥٠٠,٠٠٠ طن
		١٣,٨٦٦,٠٠٠ طن

وهذا ما تُنتجه الجمهوريات الاتحادية، أما الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتي فيُعطى إنتاجها ضمن إنتاج الجمهورية الاتحادية التي تتبعها ولكن نعرف أن إنتاج سيبيريا الغربية يكاد يقترب من إنتاج قازاقستان هذا إضافةً إلى حوض نهر الفولغا وبلاد القفقاس، ويكون عموم إنتاج الأقاليم الإسلامية أكثر من ثلاثين مليون طن على حين أن إنتاج الإمبراطورية الروسية لا يزيد في هذه الأيام على ستين مليون طن.

إن إنتاج الإمبراطورية الروسية من القمح لا يسدّ إلاّ جزءاً من الاستهلاك لذا فهي تضطر إلى الاستيراد وتأخذ كمياتٍ من الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها، مع العلم أن الإمبراطورية الروسية كانت تُصدّر القمح أيام الحكم القيصري فماذا حدث؟ إن النظام الشيوعي ومصادرة الأرض وجعل أصحابها عمالاً فيها قد قلّل من الإنتاج لأن الذي يعمل لنفسه غير الذي يعمل إلى سواه في الجهد والعطاء لذا فقد انخفض الإنتاج رغم زيادة مساحات الأرض التي أصبحت تزرع قمحاً، وتطوّر وسائل وأساليب الإنتاج، وتطبيق العلم على العمل، واستعمال كل الأسمدة والـمُخصّبات إلاّ أن ذلك لم يفد شيئاً، وحاول الروس التشجيع وتنازلوا عن بعض مبادئهم في السماح بتملُّك مساحاتٍ صغيرةٍ فلم يغنهم ذلك فالقضية نفسية وليست عضلية.

٢ً ـ **الذرة**: وتقدم الأقاليم الإسلامية كميات كبيرة من الذرة وأهم مناطقها:

قيرغيزيا	وتعطي	٢٥٠,٠٠٠ طن
أذربيجان	وتُعطي	١٢٠,٠٠٠ طن

طاجيكستان	وتُعطي	٥٠,٠٠٠ طن
تُركمانستان	وتُعطي	٣٠,٠٠٠ طن
أُوزبكستان	وتُعطي	٢٥٠,٠٠٠ طن
		٧٠٠,٠٠٠ طن

وهو إنتاج الجمهوريات الاتحادية الإسلامية. ولا إحصاء لبقية الأقاليم إذ انها مُدمجة مع إنتاج الإمبراطورية الروسية الذي يُقدّر بعشرين مليون طن، وتحتلّ المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية التي تُقدّم تسعين مليون طن.

٣ً ـ **الشوندر السكري:** وتحتلّ الامبراطورية الروسية المرتبة الأولى في العالم بهذا المحصول بإنتاج يُقدّر بخمسة وسبعين مليون طن، وتُقدّم الأقاليم الإسلامية كمياتٍ كبيرةً منها، وأشهر مناطق الإنتاج.

قازاقستان	وتعطي	٢,٠٠٠,٠٠٠ طن
قيرغيزيا	وتعطي	١,٩٥٠,٠٠٠ طن

٤ً ـ **القطن:** وتحتلّ الامبراطورية الروسية المرتبة الأولى في العالم بإنتاج القطن، والذي يأتي كلّه تقريباً من الأقاليم الإسلامية، وأهم مناطقه:

أُوزبكستان	٣,٠٠٠,٠٠٠ طن.
تُركمانستان	٥٤٠,٠٠٠ طن.
طاجيكستان	٥٠٠,٠٠٠ طن.
قيرغيزيا	٢٨٠,٠٠٠ طن.
أذربيجان	٢٨٠,٠٠٠ طن.
	٤,٦٠٠,٠٠٠ طن

وهو إنتاج الجمهوريات الاتحادية ذات الأكثرية المسلمة دون بقية الأقاليم. مع العلم أن إنتاج كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية والصين لا يزيد على

ثلاثة ملايين طن من القطن، أي ما يُعادل إنتاج أُوزبكستان وحدها.

هذه نماذج من منتجات الأقاليم الإسلامية، ويمكن أن نضيف لها الفواكه في شبه جزيرة القرم، وبلاد القفقاس، وجنـوبي تـركستـان، وقيرغيـزيـا، وباشكيريا.

ولما كانت منتجات البلاد الحارة لا تُنتج في كل أراضي الإمبراطورية الروسية لذا فإن المسؤولين يعملون لاستنبات بعضها في الأقاليم الإسلامية للاكتفاء المحلي على الأقلّ، وكمثال على ذلك، شجيرات الشاي التي أصبحت تزرع على سفوح جبال القفقاس المتجهة نحو البحر الأسود، ونبات الساغيز الذي يُستخرج منه بعض أنواع المطاط الذي يُزرع في جنوبي تركستان.

ولا بدّ أخيراً من التنبيه إلى أهمية الغابة المخروطية والمختلطة في سيبيريا وما تُقدّمه من كمياتٍ كبيرةٍ من الأخشاب.

الفصل الرابع
الطَّاقَة

ليست الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية بأقلّ شأناً في الطاقة منها في الموارد الزراعية، إذ نُلاحظ أن معظم الإنتاج الروسي من النفط إنما يأتي من الأقاليم الإسلامية، وتُعدّ منطقة بحر قزوين ثاني منطقةٍ في العالم باحتياطي النفط بعد منطقة الخليج العربي، ولعلّ أشهر هذه المناطق:

١ً - حوض باكو في شبه جزيرة أبشيرون في جمهورية أذربيجان الاتحادية، وقد حفر أول بئر هناك عام ١٢٨٨ هـ، وتُرسل كميات كبيرة من هذا الحوض إلى مدينة استراخان على نهر الفولغا قبيل مصبه في البحر وذلك عبر مياه بحر قزوين. كما يمتدّ خطّان من باكو إلى باطوم على البحر الأسود لنقل النفط.

٢ً - حوض بنيت داغ في جمهورية تُركمانستان الاتحادية على الطرف الثاني من بحر قزوين.

٣ً - حوض شمالي داغستان قرب مدينة محج قلعة عاصمة جمهورية داغستان ذات الاستقلال الذاتي.

٤ً - حوض شمالي شاشان - أنغوشيا وأشهر مكامنه قرب غروزني عاصمة جمهورية شاشان - أنغوشيا ذات الاستقلال الذاتي، ويُعدّ هذا الحوض تتمةً لسابقه.

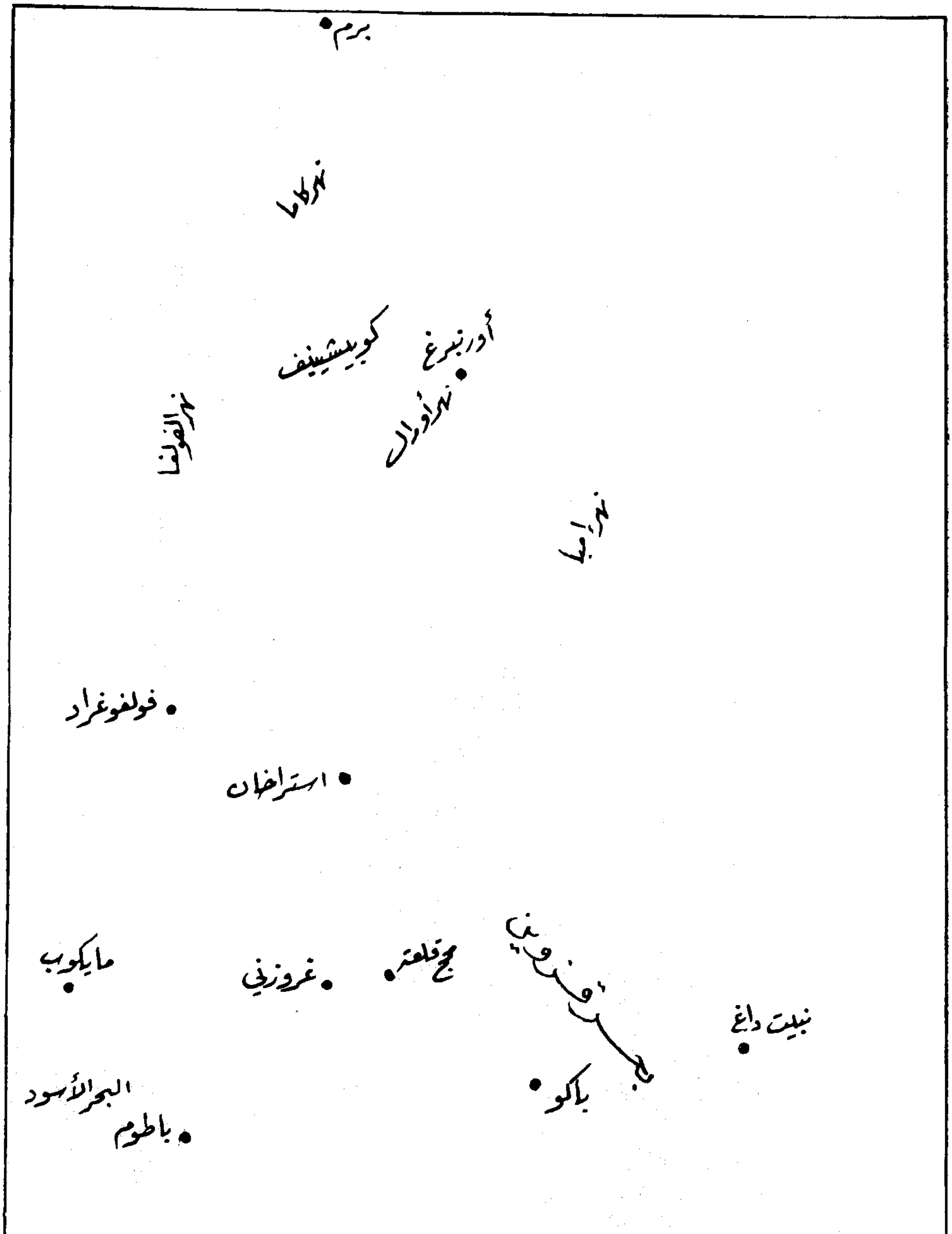

برم
نهر كاما
كوبيشيف
أورنبرغ
نهر الفولغا
نهر أورال
نهر أمبا
فولغوغراد
استراخان
بحر قزوين
مايكوب
غروزني
محج قلعة
نبليت داغ
باكو
البحر الأسود
باطوم
المقياس
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
٠
كيلومتر

٥ً ـ حوض مايكوب عاصمة مقاطعة الأديغة ذات الاستقلال الذاتي، وهو تتمة الحوضين السابقين إذ تقع كلها شمال جبال القفقاس، كما يتمم حوض مايكوب في الغرب حوض شبه جزيرة كيرتش في شبه جزيرة القرم.

٦ً ـ حوض نهر (إمبا) في شمال شرقي بحر قزوين، ويصبّ هذا النهر في بحر قزوين، ويجري في أراضي جمهورية قازاقستان الاتحادية.

ويُضاف إلى هذه الأحواض حوض نهركاما الذي يرفد نهر الفولغا، ويقع في جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي وتمتدّ هنا الأحواض التي تُعرف باسم أحواض الأورال ـ الفولغا من برم (مولوتوف) في الشمال حتى أورنبرغ (شكالوف) في الجنوب، ومن غرب نهر كاما حتى مدينة كوبيشينيف في الجنوب على نهر الفولغا، بل وتستمرّ نحو الجنوب على ضفة النهر اليمنى حتى مدينة فولغوغراد (ستالينغراد).

ولما كان أكثر إنتاج الإمبراطورية الروسية من النفط إنما يأتي من الأقاليم الإسلامية لذا فإن التنقيب عنه قد لعب دوره، ودُرست الأرض جيولوجياً بشكلٍ جيدٍ وأدّى ذلك إلى معرفة ثرواتها الدفينة، ولم تترك ضمن الاحتياطي، وبسبب هذا الإنتاج فقد ارتفعت مرتبة الإمبراطورية الروسية من إنتاج النفط واحتلّت المرتبة الأولى في العالم إذ تفوّقت على الولايات المتحدة بإنتاج قدره ٥٧٠ مليون طن عام ١٩٧٨ م (١٣٩٨ هـ).

وإذا كان الفحم الحجري لم يبلغ المستوى الذي وصل إليه النفط في الأقاليم الإسلامية، إلاّ أنّ إنتاجها لا يُعدّ قليلاً، وتُقدّم هذه الأقاليم كمياتٍ لا بأس بها من عددٍ من المناطق ولعلّ أهمها:

١ً ـ قازاقستان: وتنتج أربعين مليون طن، ويُعَدُّ حوض كاراغندة أهم أحواضها، وقد جُهّز بأحدث الآلات، ويبلغ عدد العروق الفحمية فيه الثلاثين عرقاً، ويتراوح سمك الطبقة الواحدة بين ٨ ـ ١٠ أمتار.

ويُعدّ فحم هذا الحوض أساس الصناعة في قازاقستان. ويُنقل الفحم منه إلى جنوبي الأُورال. كما توجد بعض الأحواض الصغيرة على بحيرة « بالخاش ».

٢ً ـ أُوزبكستان: وتوجد أحواض الفحم بالقرب من العاصمة طاشقند، ويُقدّر الإنتاج بسبعة ملايين طن.

٣ً ـ قيرغيزيا: وتُقدّم ما يزيد على ستة ملايين طن، وربما تطوّر الإنتاج بشكلٍ سريعٍ.

٤ً ـ طاجيكستان: وتُقدّم ما يزيد على مليوني طن.

٥ً ـ باشكيريا: وتشتهر مناطق الأورال بالفحم كما تشتهر بالثروة المعدنية الهائلة وبالنفط، وتُعطي جمهورية باشكيريا ذات الاستقلال الذاتي ما يربو على أربعة ملايين طن.

٦ً ـ سيبيريا: ونُلاحظ أن الجزء الغربي منها إنما هو من بلاد المسلمين، ويقع حوض الكوزباس الشهير على أطرافها الشرقية، وهو معروف بضخامـة احتياطيه وتنوّع خاماته وجودتها، ويُقدم ما يزيد على ١٥٠ مليون طن من الفحم سنوياً غير أن ذخره يُمكن أن يُعطي أرقاماً كبيرة إذا ما وُجّهت العناية إليه.

وتولّد الطاقة الكهربائية من النفط ومن الفحم، كما تُؤخذ من المياه حيث نجد سدوداً ضخمة مثل:

١ً ـ سد منجيشار: في أذربيجان على نهر كورا، ويبلغ ارتفاعه سبعين متراً، ويُزوّد منطقة باكو بالكهرباء، وتبلغ طاقة المحطة الكهربائية ٣٦٠ مليون كيلوواط، وقد تحوّلت المنطقة إلى منطقة صناعية لوجود هذه الطاقة.

٢ً ـ سد كيرام كوم: في طاجيكستان على نهر سيحون، ويقع إلى الشرق من مدينة لينينأباد، وقد بُدىء بالعمل به عام ١٣٧٧ هـ، ويُشكّل

السد خلفه بحيرةً واسعةً، ويُستفـاد مـن هـذا المشروع في جمهـوريتي طاجيكستان وأُوزبكستان.

٣ً ـ سد نوريك: في طاجيكستان أيضاً على نهر الأحمر (فخش) جنوب شرقي العاصمة (دوشنبة) ويحجز السد خلفه بحيرة تستوعب كمية عشرة ملايين كيلومتر مكعب من الماء، وتقدر طاقة المحطة الكهربائية ٣,٧ مليون كيلو واط، ويستفاد من هذا المشروع في كل من جمهوريتي طاجيكستان وأوزبكستان.

٤ً ـ وهناك مشروعات فرغانة في أوزبكستان.

٥ً وبُنيت محطات كبيرة للكهرباء في جبال تيان شان الوسطى، وعلى شواطىء بحيرة (إيزيك كول) في جمهورية قيرغيزيا.

٦ً ـ وهناك سدود ضخمة على نهر الفولغا وفي بلاد القفقاس على نهر قوبان وغيره.

الفصل الخامس
الثروة المعدنيّة والصّناعة

إن الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية غنية بالثروة المعدنية غناها في الطاقة، بل تُعدّ جبال الأورال من أولى مناطق العالم الشهيرة بثروتها المعدنية. ومن أشهر المعادن في هذه الأقاليم هي:

الحديد: وتنتج الحديد كل من جمهورية

قازاقستان الاتحادية وتعطي	١٥,٠٠٠,٠٠٠ طن.
وجمهورية أُوزبكستان الاتحادية وتعطي	١,٥٠٠,٠٠٠ طن.
وجمهورية أذربيجان الاتحادية وتعطي	١,٥٠٠,٠٠٠ طن.

كما يقدّم إقليم الأُورال ـ الفولغا، وبلاد القفقاس، وشبه جزيرة القرم كمياتٍ وفيرةً من هذا المعدن.

النحاس: وتنتج الأقاليم الإسلامية كميات من النحاس وأهم مراكز الإنتاج:

١ً ـ **قازاقستان** وتنتج وحدها ٥٠٠,٠٠٠ طن من النحاس، وأشهر المناجم فيها:

أ ـ كونراد: ويقع شمال بحيرة (بالخاش)، وقد اكتشف عام ١٣٤٧ هـ.

ب ـ كارزاك باي: في سهل الجوع، وهو أهم مناجم هذه الجمهورية، ويُقدّر ذخره بستة ملايين طن.

حـ ـ جزكازغان: بين بحيرتي خُوارزم وبالخاش.

٢ً ـ **أُوزبكستان:** وأشهر المناجم في هذه الجمهورية مناجم (ألماليك) التي تقع جنوب العاصمة طاشقند بثمانين كيلومتر، ويُقدّر إنتاجها بمائة ألف طن.

٣ً ـ كما يُستخرج النحاس من **أذربيجان** قرب حدود أرمينيا.

المنغنيز: يُؤخذ المنغنيز من **قفقاسيا** بكميات كبيرة تزيد على المليون طن، كما يستخرج من شرقي جمهورية قازاقستان، ومن جبال الأُورال.

الكروم: وتنتج الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية كثيراً من معدن الكروم وأهم هذه الأقاليم:

١ً ـ **قازاقستان:** وتنتج ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ طن سنوياً، ويُؤخذ من مناجم (كوستاناي) شمالي البلاد، وتقع إلى الشرق من مدينة (ماغنيتوكورسك)، ومن مناجم (سيمبالاتنسك) الواقعة على مجرى نهر (أريتش) الأعلى.

٢ً ـ **باشكيريا:** وتنتج ٢٠٠,٠٠٠ طن سنوياً حيث تعدّ جبال الأُورال ذات ذخرٍ كبير بالمعادن.

الألمنيوم: وأهم الأقاليم المنتجة له:

١ً ـ **أذربيجان:** ويُقدّر انتاجها بأربعة ملايين طن من فلزات البوكسيت (أوكسيد الألمنيوم) فهي بذلك تأتي في المرتبة الثانية في العالم بإنتاج الألمنيوم بعد الصين، وتُؤخذ الفلزات من مناجم (زاغليك) قرب الحدود الأرمينية.

٣ً ـ **قازاقستان:** وتُنتج ما يقرب من مليون طن، وأهم مناجمها (أكمولينسك) في القسم الشمالي من هذه الجمهورية. وأخيراً لا بد من القول: إن جميع المعادن تتوفّر بكمياتٍ ضخمةٍ في الأقاليم الإسلامية الخاضعة للسيطرة الروسية، وإن ما ذكرته لم يكن إلاّ كأمثلةٍ على ذلك.

الصناعة: إن توفّر الطاقة والمواد الخام يُؤدّي إلى قيام صناعةٍ، غير أن المستعمرين الروس قد حرصوا على نقل كل إنتاجٍ إلى بلادهم لتعمر أراضيهم، ولتتطوّر منشآتهم، وتتحسّن أوضاعهم ولتبقى مستعمراتهم وأهلها في إهمالٍ وتخلّفٍ وبحاجةٍ إلى الروس الذين يُمكنهم بالتالي السيطرة على السكان والاحتفاظ بالأراضي المستعمرة. غير أنه لا بُدّ من قيام مراكز صناعيةٍ بسيطةٍ في أماكن إنتاج الطاقة وقرب مراكز استثمار الثروات المعدنية أو بجانب تجمُّع القوى العاملة الرخيصة لهذا نشأت بعض المناطق الصناعية حول مدينة باكو، ومدينة طاشقند، وكاراغندا، وغروزني، ومايكوب إلاّ أن أكثر المُشرفين على الصناعة، والمُدبّرين أمرها والعمال الرئيسسين فيها إنما هم من الروس المستعمرين، وبذا فإن فائدة السكان الأصليين من هذه الصناعة محدودة ولا تُشكّل إلا نسبةً ضئيلةً منها هذا رغم قلّتها ونقل معظم الإنتاج إلى بلاد الروس.

وفي الحرب العالمية الثانية ظهر خطأ هذه السياسة الروسية إذ أن تجمّع الصناعة في بلاد روسيا، وحشد العمال فيها، وتركّز المنشآت الضخمة هناك قد جعلها عُرضةً لخطر الحرب، وأُصيبت الصناعة بصدمةٍ عنيفةٍ فاقت الصدمة العسكرية بمراحل واسعةٍ الأمر الذي جعل الروس يُفكّرون بنقل كثيرٍ من المعامل إلى الأقاليم الإسلامية وسيبيريا اتقاءً لخطر الحرب بإبعادها عن منطقة الجبهة وميدان المعارك، في الوقت الذي هم بأشدّ الحاجة للوقت لمواجهة الأعداء وبأشدّ الحاجة من الوقاية، وكان النقل تحت قصف الطيران

وضرب المدفعية واشتداد الخوف، وبقيت هذه المعامل بعد الحرب في أماكنها الجديدة التي نُقلت إليها، وغيّرت روسيا سياستها الأُولى التي ظهر خطؤها بتجميع المؤسسات الصناعية في مكانٍ واحدٍ وعلى مقربةٍ من الأماكن التي يُحتمل أن يحدث فيها قتال.

وإن السياسة الصناعية الجديدة التي خطتها روسيا في بناء معامل في مستعمراتها ـ وإن كان بنسبةٍ محدودةٍ ـ كانت حكيمةً، بل هي ما يجب أن تُتّبع من البداية فإن قرب منابع الطاقة ومراكز استثمار الثروات يُوفّر الكثير من عمليات النقل في الوقت وفي الكلفة إضافةً إلى توفّر اليد العاملة وإن كان لا يُفكّر في موضوع اليد العاملة الرخيصة لأن النظام الشيوعي لا يُعير هذا الجانب اهتماماً إذ أن العمال جميعهم ملك للدولة يعملون لحسابها مقابل الطعام وتأمين الخدمات التي تُقدّمها عادةً الدول.

كما أفادت روسيا من هذه السياسة من جانب آخر إذ سمحت لها هذه السياسة بنقل أعدادٍ كبيرةٍ من الروس المستعمرين لإدارة هذا المعامل والمؤسسات الجديدة منهم إضافةً إلى عملهم الرسمي بالإشراف على المعامل يقومون بمراقبة السكان، ويُقللون نسبتهم، وبالتالي يحكمون البلد مباشرةً دون أهلها.

هذا إضافةً إلى ما دخل الأقاليم الإسلامية من لاجئين روس اثناء الحرب حيث تعرّضت بلادهم للخطر الألماني، حيث دخل جمهورية أُوزبكستان كمثال على ذلك أكثر من مليوني لاجىء روسي.

ومن المعلوم أن نظام الحكم سوفيتي أي عُمّالي، والقادمون من روسيا كلهم يعملون تحت هذا الاسم «عُمّال» أو «مُزارعون» لذا فجميعهم لهم حقّ الانتخاب وحقّ التمثيل وهذا الذي نجده أن أكثر الممثلين للإقاليم الإسلامية إنما هم من الروس رغم غُربتهم. عن هذه الأقاليم، وهذا أشدّ

أنواع الاستعمار وأكرهه، ولنأخذ بعض الأمثلة التي تُعدّ أقلّ الأقاليم في تدني نسبة الروس فيها :

أُوزبكستان: كان مجلس الشعب يضمّ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

٢٤٩ نائباً من الأُوزبك.
٨٣ نائباً من الروس.
٣٢ نائباً من التُركمان.
٣٦ نائباً من القازاق والطاجيك وقره قالبق.

٤٠٠ نائب.

تُركمانستان: كان مجلس الشعب يضمّ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

٦٦ ٪ من النواب تُركماناً.
٣٤ ٪ من النواب رُوساً (روس وأوكرانيون).

٪١٠٠

وإن أكثر الوافدين الروس يعيشون في المدن لإضفاء الصفة الروسية عليها، ولتقليل خطر السكان على الحكم، ولإضعاف نسبة المسلمين فيها فالمدن عادةً مركز الثقافة والفكر ومُنطلق الحركات، ولنعطي مثالاً على ذلك مدينة طاشقند أوسع المدن الإسلامية وأكبرها وأشهرها. لقد كان مجلس المدينة عام ١٣٧٠ هـ. (١٩٥٠ م) يتألّف من :

٪٥١,٣ من الأُوزبك.
٪٣٧,٢ من الروس.
٪١١,٥ من جنسيات أخرى أهمها الأوكرانيون وهم أيضاً من الروس، ولكن للإيهام.

٪١٠٠,٠

وفي الوقت نفسه يعمل الروس لتقليل نسبة المسلمين في الأقاليم الإسلامية بنقل العمال المسلمين للعمل في روسيا حيث يضيعون هناك في خضمّ المجتمع الروسي الكثير العـدد، ويحلّ محلّهـم في الأقـاليم الإسلاميـة عمال في الروس يحكمون البلد، ويرفعون نسبة المستعمرين ويُقلّلون نسبة المسلمين، وإن هذه السياسة أيضاً ستُشجّع الكثير من الضعاف وأصحاب الأطماع والمصالح إلى الانضمام إلى جانب الروس وحملهم أفكارهم وقبولهم بالدنيّة في سبيل وصولهم إلى مراكز أعلى، فإنهم مهما تبنّوا الأفكار الروسية لن يكونوا إلاّ تبعاً للروس وأداةً طيعةً بأيديهم لأنه لا يُوثق بهم ما داموا ينتمون إلى الإسلام أو إلى أصولٍ إسلاميةٍ إذا عددنا أنهم انتهوا من الإسلام، ولو تنكّروا إلى أصولهم فلن يُقبل هذا منهم، فقد سبق لهم أن مُسحت عنهم المغفرة الروسية.

ومن المعلوم أن مجلس العمال (السوفييت) أو ما يُسمّى بمجلس الشعب إنّما يضمّ أكثريةً عماليةً وفلاحيةً أي يُساقون، وتُفرض عليهم الأفكار فيتبنّونها، وتُعرض عليهم الآراء فيُصادقون عليها، إذ لا يعرفون الردّ عليها لأنهم لا يحملون أفكاراً، ولا يجرؤون المخالفة لأنهم مُستعَمرون، ولا يملكون حرية التصرّف لأنهم قد سُلبت منهم الحرية، منهم عبيد أذلاء للفكر الشيوعي الذي يمنع الحرية وللاستعمار الروسي الذي يكبت الحرية.

الخاتمة

لا بدّ قبل أن نختم البحث من أن نقلي ضوءاً على السياسة الروسية الشيوعية في الوقت الحاضر، وأن نعرف أوضاع المسلمين في الإمبراطورية الروسية ومدى تجاوبهم مع سياسة مستعمريهم، وتفكيرهم في انفصالهم، وفي إسلامهم، وفي نظرتهم إلى الروس وإلى الشيوعية..

أما الروس فقد اتخذوا بعد الحرب العالمية الثانية سياسةً ازدواجيةً إذ تختلف السياسة ضدّ الإسلام في داخل الإمبراطورية عما هي عليه في خارجها. إذ كان المسؤولون الروس قد أعلنوا عن تساهلهم في الحرية الدينية إبان الحرب فما أن انتهت حتى شُنّت على الإسلام، فاتَهم ستالين من اتَّهم من الشعوب الإسلامية، ونفى شعوباً كاملةً إلى مجاهل سيبيريا منها تتار القرم، والشاشان، والبلكار و... وأُبيدت جماعات، وزالتَ قبائل، وانتهى زعماء، وقُضي على أفرادٍ، وغاب أُناس في السجون و... هذا إضافةً إلى الدعاية ضدّ الإسلام، والحرب النفسية، والإبعاد عن المراكز.

ومات ستالين عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م)، وتغيّرت السياسة بعده، وشُنّ الهجوم على حكمه، وعلى تسلّطه وعلى مركزيته، وزاد الهجوم على الإسلام بعد ركودٍ طفيفٍ رغم أنه كان فيما انتُقد به ستالين تصرّفاته الرعناء ضدّ المسلمين فأُعيدت بعض الشعوب إلى أوطانها من منفاها وهي الشاشان، والبلكار، وبقي تتار القرم حتى الآن يهيمون على وجوههم في غابات سيبيريا

وصحاريها الباردة، وكان الهجوم على الإسلام من أعلى السلطة من خروتشوف ومروراً بمن تولّوا السلطة بعده حتى غورباتشوف الذي شنّ هجوماً كاسحاً على الإسلام في خطابه الأخير (ربيع الثاني ١٤٠٧) في طاشقند.

أما بالنسبة إلى السياسة الخارجية فقد رغبت الحكومة السوفيتية أن تدخل إلى الأوساط الشعبية في الأمصار الإسلامية لكسب الأعوان لها ونشر المبادىء وحتى يتمّ لها ذلك لا بدّ من إزالة الفكرة التي يعرفها المسلمون بحقٍّ وهي معاداة الشيوعية للإسلام، لذا فقد بدأت الحكومة الشيوعية تدعو بعض العناصر البسطاء من المشايخ وغيرهم لزيارة الأقاليم الإسلامية وبعض أجزاء من بلادها، وكانت تذهب بهم إلى ما قد هيئته لهم من آثار المساجد، ويحضر بعض الذين لهم الصفة الدينية وبعض عناصرها المخصّصين لمثل هذه الغاية، وعندما يعود هؤلاء يذكرون في بلدانهم أنهم لم يروا إلا خيراً، فكان هذا بدء الدعاية لها ثم عملت على دعوة أعضاء من مجالس نيابية، ومنظمات وأخيراً أصبحت تعقد المؤتمرات وتدعو لها بعض الشخصيات الإسلامية والمؤسسات، ولا يستطيع أيّ وفدٍ أن يتحرّك إلا بما رُسم لأعضائه. لقد عُقد مؤتمر في سمرقند عام ١٣٩٤ بمناسبة مرور ألفٍ ومائتي عامٍ على ولادة الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ بإشراف الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وكان رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الشيخ ضياء الدين خان ايشان باباخان مفتي المسلمين في الإمبراطورية الروسية، وقد دُعيت إليه رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ولبّت الدعوة، كما حضرها ممثلون عن كلٍ من: أفغانستان، وأندونيسيا، والأردن، وباكستان، وبنغالديش، وبلغاريا، وتانزانيا، وتونس، والتوغو، وتشاد، وسريلانكا، والسودان، والصومال، والعراق، والكويت، ولبنان، وليبيا، وماليزيا، ومصر، والمغرب، ونيجيريا، واليمن الشمالية، وكان الحضور يُمثّلون مؤسساتٍ دينيةٍ وعلميةٍ كالإفتاء عادةً وكليات الشريعة.

وعُقد مؤتمر في طاشقند في شهر شعبان من عام ١٣٩٩ هـ (تموز ١٩٧٩ م) بمناسبة مرور عشر سنواتٍ على إصدار مجلة « المسلمون في الشرق السوفيتي » وقد حضره مندوبون من الأردن، وبلغاريا، وتركيا، وتونس، والحبشة، ولبنان، واليابان.

ولم تفد الشيوعية من هذه المؤتمرات ما كانت تبغيه إذ أن ما يحدث في الداخل كان يصل إلى الخارج وإن كان المسؤولون يظنّون أن ما يتمّ وراء الستار الحديدي لا يتعدّاه، إضافةً إلى الظنّ بأن الشعوب الإسلامية أغلبها لا يقرأ، وأن من يقرأ هو بعيد عن الإسلام. كما أن أكثر المسلمين قد أصبحوا على وعيٍ، ويعلمون أن الشيوعية ضدّ الأديان عامةً وتحقد على الإسلام بشكلٍ خاصٍ، لهذا لم تُثمر هذه المؤتمرات حسبما أراد لها مُنظّموها.

أما الشيوعيون فقد غدا تعصّبهم للروس أكثر من تعصّبهم لأفكارهم ومبادئهم التي يُنادون بها ومن هذا المنطلق فإنهم قد أصبحوا يُدافعون عن تصرُّفات الحكم القيصري ويُمجّدون الأعمال التي قام بها ضدّ المسلمين الذين يُسمّونهم أنصار الأفكار الدينية البالية.

وأمّا المسلمون فبعد أن هُزموا، واشتدّ الضغط عليهم، ولاحقهم الظلم في كل مكانٍ اظهروا الخنوع والاستسلام، وسارت جموع منهم في ركب الشيوعية، واتبعت مبدأ الإلحاد، وأهملت العقيدة نهائياً، ولكن هل كان هذا عن إيمانٍ كاملٍ وعقيدةٍ راسخةٍ أم خوفاً من السيف أو حرصاً على المصلحة بل ومن أجل لقمة العيش؟، والواقع أن الحكم على هذا أو ذاك أمر صعب لكن يكفي أن نُعطي بعض الخطوط العريضة وربما كان في ذلك مصلحة ألا نخوض في أكثر مما نطرحه.

إن النظرة العامة تدلّ على أن الناس جميعاً في الإمبراطورية الروسية قد أهملوا العقيدة نهائياً وتخلّوا عنها تماماً، ولم يبق من يتمسّك بها سوى قلةٍ ممن بلغوا من العمر عتياً يرتادون المساجد الباقية للدعاية، يرتادونها إما إيماناً وإما

وظيفةً ينتظرون ضيوف دعاية الحكومة، وكذا الأمر بالنسبة إلى المراكز الإسلامية القائمة في طاشقند، وباكو، ومحج قلعة، وأوفا.

غير أن هذه النظرة تمحي عندما نُلاحظ أن الاندماج بين المسلمين والروس لم يحدث، ويكاد يكون الزواج بين الطرفين نادراً، وأن الختان عام بين المسلمين لا يكاد يتخلّى عنه فرد واحد، وكذلك طريقة عقد الزواج، والطلاق، وعملية الدفن كلها تأخذ الصفة الشرعية.

وإذا انتقلنا إلى جانب اللغة نُلاحظ أن اللغة الروسية قد أصبحت رسميةً، ويعرفها المثقفون جميعاً، إلا أن الحديث خارج العمل لا يكون إلاّ باللغة الأصلية للإقليم، وتأخذ القصص الشعبية والملاحم التي تعتزّ بالأمجاد وتفخر بالانتصارات التي أحرزها الآباء دورها بين المواطنين وكلها مدونة باللغة المحلية للإقليم ولهذا قام الروس بحملةٍ واسعةٍ وهجومٍ عنيفٍ ضدّ هذه الملاحم في أذربيجان، وتُركمانستان، وبلاد القيرغيز، وعدّوا هذه الملاحم دعوةً للوحدة الدينية، وحرباً على لغة الروس غير أن هذه الحملة وهذا الهجوم لم ينجم عنه سوى ردّ فعلٍ ضدّ الروس، وربما نُلاحظ ما حدث في بلاد القيرغيز إثر تلك الحملة المسعورة ضدّ الملاحم الشعبية والتي كانت (١٣٧١-١٣٧٤ هـ)، فقد هاجمت صحيفة سوفيتسكايا التي تصدر في فرنزوي عاصمة قيرغيزيا باللغة الروسية وتنطق باسم الحزب هذه الملاحم فتصدّت لها صحيفة (قيزيل قيرغيزستان) التي تصدر باللغة القيرغيزية في العاصمة نفسها، وحدث خلاف عنيف بين الصحيفتين حتى تدخّلت السلطات، ولكن حدث ردّ فعلٍ بالنسبة إلى السكان ووقفوا بجانب (قيزيل قيرغيزستان).

كما حاول الداغستان إحياء أمجاد الشيخ محمد شامل وحروبه ضدّ القيصرية الروسية غير أن الشيوعيين قد تعصّبوا للروس وعدّوا هذا الإحياء ليس إلا إثارةً للعصبية الدينية لذا فقد وقفوا ضدّها، وأمام هذا التعصّب الروسي

فقد نما الشعور برابط الإسلام رغم اللامبالاة بالعقيدة حسبما يظهر ـ والله أعلم ـ.

بل إن التفسير التاريخي لكثير من الأحداث لا يزال مختلفاً بين الروس الشيوعيين وبين المسلمين حتى الشيوعيين منهم إذ يرى المسلمون أن الغزوات القيصرية لبلاد المسلمين هي غزوات استعمارية وأن مُقاومة أجدادهم لهذه الغزوات هي صفحات وضّاءة في تاريخ الوطنية على حين يرى الروس أن هذه الغزوات إنما كانت لإنقاذ أصحاب الأقاليم الإسلامية من الوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ومن هذه المقاومة حركة الشيخ محمد شامل حتى اضطر الروس لدعوة عددٍ من الشيوعيين من كلا الطرفين للنظر في هذه الحركة هل كانت حركةً رجعيةً أم تقدميةً؟ ويبدو من هذه التعريضات الأساسية أنه لا تزال نقاط اختلافٍ قائمةً فيها رغم المنطلق الشيوعي الواحد، وبذا يظهر التفاوت واضحاً بين الفريقين.

ويبدو أن المسلمين يُخفون شيئاً وينتظرون الوقت المناسب، وهذا يظهر من استقبالهم للضيوف المسلمين، والإعلان أمامهم بقوةٍ وإصرارٍ أنهم مسلمون، وطلب نسخٍ من كتاب الله « القرآن الكريم » بصورةٍ سريةٍ، والتعاطف فيما بينهم أمام الروس، ومحاولة التقرّب من المسلمين الذين يدرسون هناك؟ وانضمام بعض الذين كانوا في الجيش الذي غزا أفغانستان إلى جانب إخوانهم المسلمين، واللقاءات السرية التي تتمّ لدراسة الأوضاع أو للقراءة في كتاب الله، ويحسّ الروس ببعض هذا. فقد روت صحيفة « كومسو مولسكايا برافدا » إن وفاة طالبٍ ثانوي في الصف التاسع كشف النقاب عن وجود مدارس دينيةٍ إسلاميةٍ سريةٍ في آسيا الوسطى. فقد تُوفي « دوليه أصلانوف » أخيراً بمرض في جمهورية طاجيكستان، بعد أن رفض مساعدة الطبيب قائلاً: (لا أُريد مساعدةً من مُلحدٍ، فكل شيءٍ بيد الله) ثم تُوفي وهو يشتم غير المؤمنين. ومضت الصحيفة تقول: إن الشيوعيين صُدموا أمام هذا الموقف خصوصاً أن الشاب عضو في « الكومسومول » أي رابطة الطلاب

الشيوعي. ثم قالت الصحيفة: ثم تبيّن أن أصلانوف العضو في الكومسومول منذ بضع سنواتٍ كان يحضر الدروس في المدرس الثانوية الحكومية، ثم يحضر دروساً أخرى في مدرسة دينية إسلاميةٍ حيث كان يُعدّ من أفضل الطلاب. وقد توجّه أحد الـمُحققين لجلاء قضية المدرسة السرية، فانتهى إلى مقهى لتقديم الشاي في مزرعة « جدانوف » التعاونية حيث تُوجد أربعة صفوفٍ من المراهقين، يتعلّمون هناك اللغة العربية والآيات القرآنية، ولكـن حين اقترب الـمُحقّق من المكان سمع صفيراً خفيفاً، فلما دخل المحقق وجد الطلاب يشربون الشاي، وقد اختفت من بين أيديهم الكتب الدينية وأجزاء القرآن، وقالت الصحيفة: إن أولاد المزرعة التي معظم سكانها من المسلمين كانوا يقضون عدة ساعاتٍ يومياً في تعلّم القرآن. وختمت الصحيفة مقالها بما يلي: وهكذا فإن الأيدي القذرة لهؤلاء المشايخ تتولّى تكوين طباع الأطفال[1].

فالمسلمون ينتظرون ساعة الخلاص رغم كل ما يظهر عليهم من موافقةٍ للفكر الشيوعي أو خضوعٍ للسلطة الروسية حتى كبار الشيوعيين منهم يرون تعصّباً من الروس يُخرجهم عن مبادىء الحزب والفكرة فيُضمرون ما لا يُظهرون. وأما الروس فلا يمكنهم التخلّي عن الأقاليم الإسلامية إلاّ بالقوة وذلك صليبيةً، واستعماراً، ولغنى الأقاليم، ولأنهم أصبحوا يعدّونها جزءاً من أملاكهم، كما يرون في التخلّي عنها إضعافاً لدولة روسيا العظمى، وذهاباً لهيبتها، وما غزوهم أفغانستان إلا خوفاً من ذهاب الهيبة الذي يُؤدّي إلى تمرُّد المسلمين حسب رأيهم وانفصالهم، ومع ذلك فقد وجدت في أفغانستان ما كانت تخشاه والذي غزت من أجله، وتخشى من الانسحاب أيضاً بعد أن ذُلّت قوتها خوفاً من نتائج وخيمةٍ ترقّبها.

ويتطلّب الأمر الاهتمام بالمسلمين الذين يخضعون للسيطرة الاستعمارية

---

(١) جريدة الحياة العدد ٥٦٧٦ تاريخ السبت ١٠ تشرين أول سنة ١٩٦٤ م.

الروسية، ومحاولة الاتصال بهم، ونشر الوعي بينهم عن طريق توجيه إذاعاتٍ لهم بلغاتهم المحلية، والتذكير بما فعله الروس من غزو بلادهم وإبادة جماعاتٍ كاملةٍ، وقتل الأجداد، وأخذ الخيرات، واستعباد الناس، وبقاء هذا مُستمّراً، والتمييز بين الروس النصارى الارتوذكس وبين المسلمين رغم المناداة بعكس ذلك مما يدلّ على كذب الأفكار الشيوعية والمبادىء التي يحملونها. هذا إضافة إلى إبراز ازدراء الروس لحركات المقاومة الإسلامية التي قامت دفاعاً عن العقيدة، وسيكون لهذا نتائجه بإذن الله، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَجاءَتِ النَتائج وَكان الإنفِجَار

إن طبيعة النظام الذي يقوم على إذابة الفرد في المجتمع. وفقدان الحافز الشخصي بربط الفرد بالسلطة، وتقديم كل شيءٍ لها، واعتباره أجيراً عند الحكومة التي تملك كل شيءٍ، وهو لا يملك شيئاً، كل ذلك قد أضعف الإنتاج الذي أخذ يتناقص تـدريجيـاً، وأخـذ المجتمـع يشعـر بـالضـائقـة الاقتصادية، لذا حاولت السلطة تفادي هذا العجز بالضغط على السكان لزيادة الإنتاج وتلافي ما حدث من نقص، غير أن الضغط لا يمكن أن يُقدّم عطاءً، وخاصة أن الضغط قائم وقد وصل إلى الذروة ولم يبق سوى الانفجار. والقضية نفسية، ولا يمكن للإنسان أن يعمل كالآلة فإن هناك شعوراً ودوافع وحوافز تلعب دورها، وتُحرّك جوارحه، وإن كان الضغط في بداية الأمر قد أعطى شيئـاً مـن الإيجابيـات كتغييرٍ للخـط السـابـق، ثم لم يلبث أن عاد النقص يظهر، وبشكلٍ أكثر فداحةً من السابق، وهذا ما دعا المسؤولين إلى تغيير شيء في النظام إذ سُمـح بتملّك ألف مترٍ مربعٍ كحديقةٍ بجانب المنزل، غير أن هذا لم يكن كافياً، وإن أعطى بعض التقدّم في ارتفاع الإنتاج.

ولما جاء خروتشوف إلى السلطة عاد إلى سياسة القهر، وطريقة الضغط، وزيادة محاربة الأديان أو بالأحرى صبّ العدوان على الإسلام فرجع الإنتاج إلى التقهقر، والمجتمع إلى الشعـور بـالضـائقـة، والأفـراد إلى الإحسـاس

بالاختناق، بل ليس هناك من داعٍ لزيادة إعلان الحرب على الدين إذ لا يوجد من يفكر - حسب الظاهر - بهذا الجانب، فكان أن أدّى الأمر إلى ردّ فعلٍ واضحٍ، فإن إعلان الحرب على الإسلام قد حرّك كوامن النفس فبدت رغبة للتدين، وأبرزت بعض ما كان كامناً، وهذا ما زاد من الحرب، وزيادة الحرب لا تزيد إلا التحدّي، وإن كان لا يمكن إظهاره إلا أن النفوس قد شُحنت به، فالعقيدة لا تحارب بالضغط وإنما بالمحاورة والإقناع، وإظهار السلبيات وإيجاد البدائل. وكل هذا قد أوجد شعوراً بخرقٍ واسعٍ بين الشعوب المسحوقة والحكومة المتسلّطة، وهذا الخرق يصعب رتقه، وهذا يُؤجّج الضائقة النفسية من كبت الحريات، وخنق الفكر، والحرب على العقيدة، والضائقة الاقتصادية من نقص المواد، ورداءة النوعية، مع إلزامٍ على العمل دون جدوى.

سباق التسلّح: وكان السباق إلى التسلّح بين الشرق والغرب، وكلّ يلقي بطاقاته ويسخّر إمكاناته ليسبق الآخر، ويحصل على التفوّق، ويخيف خصمه، ووضع المعسكر الشرقي موارده كافةً لخدمة التسلّح، وألزم شعوبه على العمل في هذه السبيل. فذهب كل شيءٍ في طريق التسلّح، وحُرم الناس من كل شيءٍ في سبيل التفوّق، واستمرّ التسابق، وازدادت الضائقة على الرعية، ولم يعد الأمر يحتمل أكثر من وخزةٍ حتى ينفجر.

وأخذ التقدّم العلمي يُسرع الخطا. التلفزيون الغربي يبثّ برامجه خلال الأقمار الصناعية، والشعب في الامبراطورية الروسية متقوقع على نفسه لا يدري شيئاً عن الآخرين. الهاتف: يُكلّم الناس بعضهم بعضاً من أول المعمورة إلى آخرها باستثناء السكّان في الامبراطورية الروسية. (الفاكس) يراسل الأفراد بعضهم بعضاً، والمؤسسات يُعامل بعضها بعضاً خلاله، ويطلع بعضهم على آراء بعض بثوانٍ، وينقلون صفحات بخط الكاتب، غير أن البائسين في الامبراطورية الروسية لا يعرفون شيئاً من هذا، ولا يتصوّرونه، ويرتحل

السواح من بلدٍ إلى بلدٍ في أرض الله الواسعة، ويطلع الواحد منهم على ما في الدنيا كلها إلا الذين يعيشون في الامبراطورية الروسية إذ يصعب عليهم الارتحال حيث يُحرم عليهم الخروج، كما يُحرم على غيرهم الدخول إلى بلادهم اللهم إلا من اشتراه حكامهم لمصلحتهم فيأتي للتدريب والتلقين، أو من ينتمي إلى دولةٍ ارتبطت مع أصحاب السلطة عندهم فيأتي بعض أبنائها ليدرسون، أو ليُغرّر بهم، وقد تأتي وفود رسمية تتحرّك بمخططٍ، وتنتقل حسب توجيه، فلا ترى إلا ما يُراد لها أن تراه، ولا تعرف إلا ما يعطى لها لتعرفه، ولكن يخرج من ذلك السجن الكبير أصحاب النفوذ باسم السياسة، وشعار خدمة الحركة الشيوعية، وعنوان مصلحة الحزب فيمرحون على حساب التعساء، ويرتعون ليزداد الفقراء شقاوةً. وأخذت الشائعات تصل إلى الآذان أن الأموال التي يجنيها البؤساء في الامبراطورية الروسية يسطو عليها الكبار باسم مصلحة المجتمع، ويضعونها في مصارف أوربا الغربية التي هي محرمة في بلادهم، كما هو محرم عليهم تملك المال، وبدأت هذه الشائعات تضرب على الأوتار حتى غدت شبه مُؤكّدة لدى الشعب، فازداد الورم الخبيث، وزاد الانتفاخ إلى درجةٍ لا يمكن معه إلا الانفجار.

الخيارات المطروحة: وصل غورباتشوف إلى السلطة، وكان قد سبق له أن شغل منصب المسؤول عن المخابرات، ويعرف ماذا يجري داخل المجتمع، وما يُفكّر به الناس في أرجاء الامبراطورية الروسية، وكان أمام خيارين، إما أن يسير على نهج سلفه، وينفجر الوضع في البلاد عامةً، ولا يعرف النتيجة التي تؤول إليها الامبراطورية، وسيُعزى إليه سبب هذا الانفجار، ويُنعت بالفاشل، ويُوصف بالضعيف، وإما أن يسعى إلى التغيير، واختار الموقف الثاني.

كان على غورباتشوف أن يُفكّر من أين يبدأ بالتغيير ما دام قد اختار الموقف الثاني، حيث كان يخشى إن بدأ بإعطاء شيءٍ من الحرية أن يفلت زمام الأمر من يده، ويبدأ المعسكر الغربي بالتدخّل، ودعم الثائرين،

وانقلاب الوضع رأساً على عقب، حيث يعرف تماماً الحال التي تعيشها الشعوب في بلاده إذ لا تحتاج إلى أكثر من وخزةٍ بسيطةٍ حتى يحدث الانفجار.

رأى أن يبدأ بالاتصال بالغرب تحت مظلة الحدّ من استخدام الأسلحة النووية والتخفيف من التسابق إلى التسلّح، وتمّ اللقاء وأحسّ الغربيون المفاوضون بما يجيش في أفكار القادة الروس، فعرض الغربيون إعطاء دول أوربا الشرقية حرية اختيار النظام الذي تراه أو حسب الاصطلاح الأوربي - الحرية الديمقراطية - وهم يعلمون أن هذا وحده كفيل بتفتيت المعسكر الشرقي. وتساءل غورباتشوف من الذي يستطيع أن يتحمّل تبعات هذا التحوّل ونفقاته، وأبدى بصراحةٍ أن الامبراطورية الروسية عاجزة عن تقديم أي شيء إذ أنها في وضع من الارتباك لا تُحسد عليه، ولا يختلف وضعها كثيراً عما تُعانيه دول أوربا الشرقية، وكانت هذه العبارة وحدها كافية لكشف أوراق غورباتشوف، وما يجول في خاطره.

الدول البالطية: بقي وضع الدول البالطية نقطة غامضة لدى الطرفين، وكل جانبٍ يضعها في إطار تفكيره، إذ أن الغرب يعدّها دولاً من مجموعة دول أوربا الشرقية حيث ضمّتها روسيا إليها بعد الحرب العالمية الثانية، على حين أن القادة الروس يعدّونها جزءاً من امبراطوريتهم لا يتجزأ، ولهذا أخذت المشكلة الليتوانية شيئاً من الإطالة مع المرونة عندما طرح كل طرفٍ وجهة نظره، ولم يكن غورباتشوف قد طرحها أثناء اللقاء وعدّها أمراً طبيعياً حسب وجهة نظره.

وأخذت الدول البالطية تنفصل عن جسم الامبراطورية الروسية البالي.

انتشار اللهب: وتساءل غورباتشوف ثانيةً وإذا امتدّ لهيب الحريات إلى باقي جمهورية الامبراطورية الروسية وسط آسيا، وأجاب على نفسه: إننا بصراحةٍ تامةٍ لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي عن أية حركةٍ مهما كان

نوعها، وفي أي مكانٍ وقعت لأننا بأشدّ الحاجة إلى أية بقعةٍ، وفي الوقت نفسه لا نريد أن يحدث أي احتكاكٍ بين الشرق والغرب، لأن العاقبة ستكون وخيمة، وسينال الطرفان من جراء ذلك مصائب عنيفةً، وإن كنت على يقينٍ أن ما ينال الغرب أضعاف ما يصيب الشرق، ويعرف الغرب هذا تماماً - أراد غورباتشوف أن يستعمل أسلوب إبراز العضلات ليغطي السقطات التي وقع فيها ليعيد إلى نفسه شيئاً من المعنوية -.

أعلن الغربيون أنهم لن يتدخّلوا في هذا الأمر أبداً، وعلى الروس أن يحسموا الأمر بمنتهى القسوة، كما أعلنوا أنهم لا يريدون إنشاء خلافةٍ إسلاميةٍ من جديدٍ، بل علينا أن نتعاون معاً وبكل صدقٍ في خنق كل فكرةٍ تحمل هذا المعنى، وسحق كل حركةٍ تعمل لهذه الدعوة.

وتساءل غورباتشوف مرةً أخرى، وهل كان سكان أفغانستان من غير المسلمين؟ وهل يتصرّف معنا الأصدقاء الأمريكان في جمهوريات وسط آسيا السوفيتية مثل تصرفهم في أفغانستان؟ أجاب الرئيس الأمريكي جورج بوش: إن الأمريكان لم يتدخّلوا في شؤون أفغانستان أبداً، ولم يعملوا على ضمّها إلى أي حلفٍ تدعمه الولايات المتحدة، وهم قادرون على ذلك، وقد تركوا الأمر لأصدقائهم الروس الذين توانوا بالأمر فلما أقدموا تراخوا وتهاونوا، ولم يحسموا الأمر بسرعةٍ فتعالت صيحات الاحتجاج والمطالبة بالعمل الإنساني فاضطررنا إلى التدخّل. فعلّق الروس على ذلك: لتظهروا أمام العالم بالمنقذين. وفهم الروس أنه من المفروض حسم الموضوع بشكل سريع ولو كان فيه العنف والوحشية.

وقامت حركة في أذربيجان تريد الحرية أو أن ضغط التحمّل قد زاد فانفجر الوضع فأسرع الروس ودخلوا أذربيجان بسرعةٍ وقوةٍ، وحسموا الأمر بعنفٍ.

وارتأى المفاوضون أن أفضل طريقٍ لإضعاف المسلمين وإذلالهم هو تقوية

اليهود وتسليطهم عليهم واغتصاب منطقةٍ بعد أخرى من أراضيهم، ولا يكون هذا إلا بجمع أكبر عددٍ من اليهود في فلسطين، وعندها تزداد الكثافة فيها، ويضطرون إلى التوسعة في الأرض المجاورة لفلسطين، وهي أرض للمسلمين، فيقع الصراع بين الفريقين، ويدعم الأصدقاء اليهود فينتصرون ويتوسّعون، ويُذلّ المسلمون، ويتّجهون إلى المنطقة التي هي فلسطين وما حولها دون سواها، وينسون قضية المسلمين في الامبراطورية الروسية الذين لا يجدون أي دعمٍ، بل ولا أي تفكير بهم فيخنعون، ويضطرون إلى الانصياع والبقاء على أوضاعهم الراهنة. وتمّ قبول الرأي، ولذا كان من باكورة الأحداث التي تَمّت بعد لقاء العملاقين هجرة اليهود من الامبراطورية الروسية إلى فلسطين.

كما اقترح المتفاوضون إجراء صلح بين المسلمين واليهود ليتمكن اليهود من التوسّع بصورة سلمية نتيجة التفوق العلمي والمادي، ونتيجة الدعم والمد بالسلاح لإمكانية نجاح الاتفاق، وتنفيذ المخطط الذي تمّ رسمه. وكانت النتائج:

١ - تفتيت المعسكر الشرقي، وانتهاء المنافسة بين المعسكرين.

٢ - إرضاء اليهود في الولايات المتحدة لما تمّ من نتائج لصالح إخوانهم.

٣ - العمل ضدّ المسلمين، وإشغالهم بقضايا كبيرة في مناطقهم، وخوفاً من القيام بردود فعل منهم يجب تشتيت آراء الشعب.

٤ - حماية الامبراطورية الروسية من الانفجار - ظاهرياً وحسب ظنّ الروس -.

الانفجار: إن ما حدث لا يمكن أن يستمرّ طويلاً.

فاليهود الذين يُثيرون الحروب، ويمتصون الدماء بالمتاجرة بالسلاح قد انتهى دورهم بانتهاء المنافسة بين العملاقين، وخروج المعسكر الشرقي من الساحة. فلا بدّ لهم إذن من إيجاد بديل للحصول على المال، والطريق الأفضل هو إقامة النظام الرأسمالي مكان النظام الشيوعي للإفادة من الربا، والاحتكار،

والمتاجرة بالجنس، والأمر لديهم سهل فهم سدنة النظامين، والشيوعية من صنع أيديهم، ومن رسم أفكارهم، فتحرّك أعوانهم في هذا الخط.

والصليبية تريد إنهاء المنافسة تماماً للسيطرة الكلية على العالم، وإقامة نظامٍ دولي واحد فيه، والتحكّم به، وتنفيذ ما كانت تحلم به سابقاً ما دامت قد أصبحت سيدة العالم، وهذا كله يقضي الانتهاء من عملاقية الامبراطورية الروسية، وتحرّك أعوانها في هذا الاتجاه.

والقادة الروس الذين باتوا يتوقّعون انهيار امبراطوريتهم، وزوال نظامهم غدا من الأفضل لهم التقرّب من المعسكر الغربي ليبقوا في قيادتهم، وليرتقوا في مناصبهم خوفاً من محوهم فيما إذا استمروا على ما كانوا عليه فاتجهوا نحو الغرب يعملون ضمن مخططه وحسب التوجيه لحماية أنفسهم.

وهكذا تضافرت الجهود، واتّحد الهدف، وسار الجمع في هذه الطريق.

وإن النفس لم تعد تتحمّل الظلم أكثر مما تحمّلت.

وإن الفقر والحاجة ليدعوان إلى الوثوب.

وإن التسلّط لم يعد يطاق.

وإن ما حدث في أوربا الشرقية قد أعطى الأمل ومهّد الطريق.

توثّبت النفوس، وزاد الضغط قليلاً، فتمّ الانفجار، وتجزّأت الامبراطورية، وتناثرت الشظايا، وأخذت كل مجموعةٍ، واتجه كل شعب يفتش عن الماضي، وينظر إلى المستقبل، ويطلب مدّ اليد إليه ليعرف الطريق، وامتدّت الأيدي المغرضة، وليس للمسلمين راعٍ ولا موجه، ولا إمكانات ليُدلوا بدلوهم، فالبلاد مُجزّأة، والأمصار مُوزّعة، والأفكار مشتتة، والآراء مبلبلة.

نرجو من الله أن تتجمّع الجداول بعضها مع بعضٍ لتُشكّل نهراً غزيراً يستطيع أن يُزيل العقبات التي تعترض سيره.

المراجع

الكتاب	المؤلف	النشر
• اقتصاديات العالم الإسلامي	محمود شاكر	مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٤٠٤
• التاريخ الإسلامي	محمود شاكر	المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الأجزاء السادس والسابع والثامن.
• تاريخ القرن العشرين	بييررونوڤن ـ تعريب نور الدين حاطوم	دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ.
• الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ـ وعبد المجيد عابدين ـ واسماعيل السخراوي	مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٠ هـ
• رحلة ابن بطوطة	محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة	مؤسسة الرسالة تحقيق علي المنتصر الكتاني الطبعة الرابعة عام ١٤٠٥ هـ
• رسالة ابن فضلان	أحمد بن فضلان بن العباس	مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق تحقيق سامي الدهان عام ١٣٧٩ هـ
• حاضر العالم الإسلامي	لوتروب ستودارد ـ ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان	دار الفكر ـ بيروت

• صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات	الشيخ طه الولي	دار الفكر الجديد ـ بيروت ١٤٠٠ هـ
• المسلمون في الاتحاد السوفيتي	محمد علي البار	دار الشروق ـ جدة ١٤٠٣ هـ الطبعة الأولى
• المسلمون في الاتحاد السوفيتي	محمد صفوت السقا	رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠
• المسلمون في الاتحاد السوفيتي	تعريب: إحسان حقي	مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ
• المسلمون تحت السيطرة الشيوعية	محمود شاكر	المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ
• المسلمون في المعسكر الشيوعي	علي المنتصر الكتاني	رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة. عام ١٣٩٣
• المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي	بنغيسين لومرسييه	ترجمة مجلة الأسبوع العربي في أعدادها ١١٦٥ ـ ١١٩٤
• معجم البلدان	ياقوت بن عبدالله الحموي	دار بيروت للطباعة والنشر

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة

التاريخ الإسلامي

٢٢

التاريخ المعاصر
الأقليات الإسلامية

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

التاريخ الإسلامي

- ٢٢ -

التاريخ المعاصر

الأقليات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين مُحمّد بن عبدالله، وعلى إخوانه الأنبياء أجمعين، وعلى آله وأصحابه الكرام، ومن سار على دربه إلى يوم الدّين أمابعد :

فإن هذا هو الجزء الأخير من موسوعة التاريخ الإسلامي ـ وقد انتهى بإذن الله ـ وموضوعه الأقليات المسلمة ما دامت جزءاً من كياننا.

إنّ المسلم عضو أساسي في الأُمّة الإسلامية أينما عاش سواء أكان ذلك في دار الإسلام أم بعيداً عنها، وله حقّ المسلم على إخوانه مهما نأت دياره أو بعُد موطنه، له حقّ الرّعاية وهو في مكانه، وحق المواطنة إن جاء إلى بلاد الإسلام. وتشمل الرّعاية الاهتمام به، ومعرفة أوضاعه، والعناية بشؤونه، والمطالبة بإنصافه إن ظُلم، وإجبار حُكّامه على العدل معه، وإلزامهم عدم الجور، والاعتراف بماله من حقوق، وإعطاءه حريته في ممارسة شعائره ونشاطه. ومع ضعف الأمة الإسلامية ضعُفت هذه المفاهيم في نفوس أبنائها، بل وغدت باهتةً عند الذين نتوقّع ألاّ تضعُف عندهم لما يحملون من مسؤوليةٍ أو ما يتمتّعون به من معرفةٍ. وغدا التفكير ينحصر في الذات عند أصحاب الأنانيات، وعند الذين يُلاحقهم الحيف أينما ساروا لما يحملون من فكرٍ وما يستقرّ

في نفوسهم من قيم ومبادىء فيضيقون ذرعاً بمن حولهم، أو ينحصر التفكير في المحيط الذي يعيش فيه المرء حتى نشأت العصبيات والعنصريات عند أصحاب الإقليمية الضيّقة والمحلّيّة، وقد يتعدّى التفكير ذلك فيصل إلى أصحاب العصبيات القومية، فإن تجاوز الأمر ذلك كان الناس أصنافاً، صنف فتنتهم الحياة المادية، وأصابتهم الهزيمة النفسية فانطلق بعضهم مُغرّباً وسار الآخر مُشرّقاً، وكلاهما يتّجه بتفكيره وراء ما يُملى عليه، وما يتلقّاه أو بما يُفسّره لنفسه من خلال المُعطيات الأساسية عنده ولا يصل أبداً إلى ما يجري في البلدان الأُخرى المستضعفة والتي تحلّ بها النكبات، إلا بمقدار ما يُريد به أن يُدافع عن وجهة نظره، وصنف همّ بعضهم الاختصاص ـ حسب زعمهم ـ وكأنه لم يُبق لفكره وعقيدته واتجاهه شيئاً، وهمّ بعضهم الآخر الرغيف فيلهث وراءه دون أن يحصل عليه، وربما شغل بعضهم نفسه لهواً أو هوى، وصنف يبحث أو يُريد أن يبحث عن أحوال إخوانه ولكن لن يجد عنده المادة التي يتطلّع إليها، أو لن يجد حسب رأيه الوقت للتعرُّف على هذا الموضوع، وإن كان هذا الأمر يصعب تعميمه ولكن لا يُستثنى منه إلاّ العدد القليل، وإذا كان بعض هذا الصنف قد احتواه الطُّغاة في أماكن كثيرةٍ أو سار برأي المستبدّين في عددٍ من البقاع إلاّ أنه ما زال يحمل أفكاره ويدعو لها، ويعمل لها نظرياً إذ أصبحت فارغة المعنى لأنها تُمثّل دعاةً يدعون: ما لا يعلمون، وعلى هذا بقي الواجب على هذا الصنف من المسلمين سواء أكان من الصالحين أم ممن هم دون ذلك، ومع هذا فلم يُؤدّ الدور المطلوب في دراسة أوضاع إخوانه الذين يعيشون حياة بئيسة سواء أكانوا أقلياتٍ أم في ديار الإسلام، ولم يُعط العناية الكافية بهم بل لم ينالوا جزءاً منها.

ومن جانبٍ آخر فإنّ هذه الأقلّيّات التي لم تجد الصلة، ولم تجد الرعاية، ولم تُسعفها ظروفها للوقوف وحدها بقوةٍ بقيت بعيدةً عن إخوانها المسلمين في ديارهم بل أصبحت في مهبّ الريح، أشعرتها العزلة بضعفها وعدم وجود السند، وتفاعلها مع المجتمع الذي تُقيم معه جعلها تتأثّر به، وتأخذ منه بعض

المفاهيم المادية، وفي الوقت نفسه تتخلّى عن بعض مفاهيمها، ومع مرور الزمن أفقدها بُعدها عن إخوانها رابط العقيدة معهم، ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد نسيت أو أهملت بعض الأخلاق والصفات والتعاليم الإسلامية بل وبعض الشعائر وبصورةٍ عامةٍ فإن زاوية الانحراف قد ازداد انفراجها مع الزمن، وغدت تتقارب عاداتها مع عادات المجتمع الذي تعيش فيه وتتباعد عن عاداتها الإسلامية حتى لم يبق سوى رابط الانتماء إلى العقيدة مع بعض العواطف الباهتة وبعض التصرفات التي تعدّها أساسيةً ـ حسب زعمها ـ وما هي كذلك كالختان، وحضور أهل العلم أو المشايخ لكتابة عقود النكاح أو حضور الجنائز ودفن الموتى، على حين تُهمل كثيراً من الأسس الدينية إن لم نقل كلها.

ويجب ألا ننسى المناهج المقررة التي لا تعير هذا الموضوع أي جانبٍ من العناية. إن وضع التخلّف الذي نعيش فيه، ونسخ مناهج الغرب أو الشرق وإقرارها لأبنائنا في بيئةٍ مختلفةٍ عن البيئة التي وضعت فيها ولمجتمعٍ يتباين مع المجتمع التي وُجدت من أجله يتباين معه في العقيدة، وفي الفكر، وفي الأهداف التي يسعى إليها كل منهما.

وإن الهزيمة النفسية التي نحياها وتقليدنا للغرب أو للشرق في كل شيء أمر خطير، وإن أخذنا منهما دون دراسةٍ عمل قاتل، وإن المحافظة على التلمذة لهذا أو لذاك مشكلة، إذ نقلّدهما في كل شيء، ومن درس على أيديهما يبقى مُقلّداً ومُطيعاً وناقلاً، إن هذا التصرُّف لا يمكن أن يُعيد للأُمّة نهضتها وستبقى مُخدّرة... وبحاجةٍ إلى إنعاش بالتميُّز والتحرُّر من القيود التي فرضت عليها، والأفكار التي حُقنت بها، والضغوط التي طُبّقت عليها، ولا بدّ من تخليصها من الهزيمة النفسية التي أصابتها، وربّما كان في دراسة الأقليات إحساس لأبنائنا بما يُصيبنا مما يُصيب هذه الأقليات من إخواننا.

هذه الأقليات لا بدّ من التعرُّف عليها ودراسة أوضاعها ومُشكلاتها

وإمكانية مساعدتها للنهوض بها مما تُعاني والأخذ بيدها نحو الطريق السليم لتحسّ أن لها إخوةً ترتبط معهم برابط العقيدة وأنها جزء من الأُمّة المسلمة، ومن أجل هذا فالطريق الطبيعي أن يتعرّف المسلمون على هذه الأقليات لوضع يدهم على نقاط الضعف ومواضع التعب فلعلّ الدراسات تصف العلاج، وتضع الحلول لربط هذه الأقليات بأمّتها الإسلامية بشكلٍ صحيحٍ وتمثّل هذه الروابط.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطا والحمد لله رب العالمين.

توزع الأقلّيات

من الصعب جداً إعطاء أرقامٍ دقيقةٍ عن عدد الأقلّيّات المسلمة سواء أكان ذلك في العالم كله أم في قارةٍ معينةٍ أم في رقعةٍ محددةٍ لأن أكثر الاحصاءات إنما تعتمد في كثيرٍ من الجهات على التقدير، وخاصةً في كثيرٍ من البلدان التي يعيشون فيها بحجة عدم إثارة القضايا الطائفية أو لأن أكثرية السكان من المسلمين على حين أن حُكّامهم من غير المسلمين، لذا يخشون كشف الحقيقة حرصاً على مناصبهم وهو ما يُسمّونه إثارة القضايا الطائفية ولا شك أن إرساليات التنصير، والحكومات النصرانية لها دورها الكبير في هذا الشأن، يُضاف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين يخافون تسجيل عقيدتهم في سجل الاحصاءات خوفاً مما قد يلحقهم من ظلمٍ وخاصةً في البلدان التي تتحكّم فيها الشيوعية أو يسود فيها الاستبداد، وكما هو معلوم أن الحيف يلحق بالمسلمين في معظم جهات العالم، والحرب إنما تُوجّه ضدّهم في كل مكانٍ، فليست البلدان الشيوعية وحدها هي التي تُحارب الإسلام، وإنما هي التي تُعلن ذلك وتُصرّح به على حين يُخفي غيرها ذلك، ويتّخذ وسائل متنوعةً لتلك الحرب تصل إلى الإبادة أحياناً، لذا ليس غريباً أن لا يُظهر بعض المسلمين عقيدته، وربما كان أحياناً وراء تحقيق بعض المنافع يحصلون عليها من الإرساليات التنصيرية أم من المنظمات الشيوعية.

ولعلّ أكثر ما تقع الأخطاء إنما في إفريقية لعدم توفّر إحصاءاتٍ دقيقةٍ ، ولقيام عددٍ من الحكومات النصرانية تتحكّم بالأكثرية المسلمة ، ولدور الإرساليات التنصيرية الكبير ، إضافة إلى جهلٍ المسلمين.

ويقع التباين أحياناً في التقديرات للخلافات التي تقع في تحديد مفهوم الدولة الإسلامية ، وفي تحديد هذه الدول ، فالذين يعدّون بعض الدول إسلاميةً يُسقطون المسلمين فيها من الحساب فيقلّ عدد الأقليّات . والذين يعدّونها غير مسلمةٍ يحسبون من فيها من المسلمين ضمن الأقليات فيزيد عددها ، وإذا كنا نعد الدول إسلاميةً تلك التي تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠ ٪ ، غير أننا نقع في خطأ الإحصاءات أو تعمّد الخطأ الذي تقوم به دول معيّنة ، وتعمل جاهدةً لإنقاص عدد المسلمين فيها حرصاً على مصالحها وتعصباً لدينها أو لصليبيتها مثل الحبشة ، وسيراليون ، وساحل العاج ، والتوغو ، وبنين ، وإفريقية الوسطى ، والكاميرون ، وتانزانيا . ونحن نتبنّى إحصاءات المسلمين وتقديراتهم بعد مقارنتها ودراستها دراسةً موضوعيةً مع إحصاءات دولهم وتقديراتهم ، ومحاولة الخروج بنتائج صحيحةٍ.

يعيش خارج حدود العالم الإسلامي أقليات من المسلمين يصل عددهم إلى ما يقرب من /٢٦٨/ مليون مسلم ، فهم يُشكّلون ٢٤ ٪ من عدد سكان العالم الإسلامي ، ومع ذلك فهم أقليات يتوزّعون في عددٍ كبيرٍ من الدول ، منهم ٩٨ ٪ يعيشون على هامش العالم الإسلامي في البر القديم أي في القارات الثلاث آسيا وإفريقية وأوربا ، ويتوزّعون بصورةٍ غير متساويةٍ ، إذ يُقيم معظمهم في آسيا ويزيد عددهم هناك على ٢١٦ مليوناً ، ويُشكّلون أكثر من ٨٠,٣٦ ٪ على الرغم من أنه لا تُوجد نسبٌ عاليةٌ من المسلمين في البلدان التي يعيشون فيها كأقلّياتٍ ، وفي الوقت نفسه لا يزيد عدد تلك البلدان على العشرين دولة ، إلا أن تلك الدول ذات أعدادٍ كبيرةٍ من السكان الأمر الذي يجعل عدد المسلمين كبيراً ، وخاصة إذا علمنا أن ما يقرب من ٩٠ ٪ من

هذه الأقليّات يتجمّع في دولتين كبيرتين هما الصين والهند، إذ يُقدّر عدد المسلمين في الأولى بمائة مليون، وتبلغ نسبتهم ١٠٪، ويعيش في الثانية أقلّ من هذا العدد بقليلٍ، ويُقدّرون بـ ٩٤ مليوناً، وتبلغ نسبتهم ١٤٪ من السكان.

أما في إفريقية فيقطن /٣٠,٥/ مليوناً من المسلمين خارج حدود العالم الإسلامي، ويُشكّلون ما يقرب من ١١,٤٤٪ من الأقليّات التي تعيش على مقربة من الحدود الإسلامية، على الرغم من أن النسب ترتفع في عدد من الدول إلى أكثر من ٣٠٪ كما هي الحال في كينيا، وأُوغنده، ومالاوي، والغابون، وغينيا الاستوائية، وغانا، وليبيريا، كما يوجد عدد من الدول تزيد نسبة المسلمين فيها على ٢٥٪ مثل ملاغاشي، وموزامبيق، وبورندي و... ومع هذا فعدد المسلمين قليل، وذلك لأن عدد سكان تلك الدول إنما هو بالأصل قليل، ومجموع سكان إفريقية لا يزيد كثيراً على ثلث عدد سكان الصين، هذا مع العلم أن عدد الدول الإفريقية التي فيها أقلّيّات مسلمة كبير ويزيد على ٣١ وحدةٍ سياسيةٍ، وأن قارة إفريقية ذات نسبةٍ مسلمةٍ كبيرةٍ تصل إلى ٦٠٪ على حين أن نسبة المسلمين في قارة آسيا لا تصل إلى نصف هذه النسبة.

أما قارة أوربا فليس فيها سوى ١٦,٤٤٠,٠٠٠ مسلم من أبنائها، يعيشون كأقليّاتٍ، وتُساوي نسبتهم ٦,٢٪ بالنسبة إلى مجموع الأقليات المسلمـة، وأن ٤٣٪ منهم يُقيم في يُوغوسلافيا، وبلغاريا، حيث يُقيم في الأولى أربعة ملايين ونصف، وتبلغ نسبتهم بالنسبة إلى سكان البلاد ٢٠,٤٪، ويُقيم في الثانية ما يُقارب المليونين والنصف، وتبلغ نسبتهم ٢١٪ بالنسبة إلى سكان البلاد، أما بقية بلدان أوربا فإن نسبة المسلمين فيها ضعيفة باستثناء مالطة التي تبلغ نسبة المسلمين فيها ١١٪، ولكنهم لا يزيدون على الأربعين ألفاً، لأن سكان مالطة كلهم إنما هو /٣٥٠/ ألفاً فقط.

ومن المعلوم أن عدداً كبيراً من المسلمين في أوربا قد أُبيد بسبب الحقد الصليبي كما هي الحال في الأندلس وصقلية وكريت، وأن عدداً منهم قد هُجّر كما هي الحال في شرقي أوربا كما نالتهم الإبادة في ذلك الجزء من القارة، ويجب ألا ننسى الأعداد الكبيرة من المسلمين التي وفدت أوربا في الأيام المعاصرة لأسبابٍ كثيرةٍ وتبلغ عدة ملايين.

أما الأقليات المسلمة التي تعيش بعيدة عن العالم الإسلامي والتي تبلغ نسبتها ٢٪ فقط بالنسبة إلى مجموع الأقليّات المسلمة في العالم فهي تعيش في قارتي أمريكا وأُوقيانوسيا، ويصل عددها إلى أقل من خمسة ملايين، ويتجمّع معظمها في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يبلغ عدد المسلمين فيها حوالي ثلاثة ملايين، ويُشكّلون ٦٠٪ من مجموع المسلمين الذي يعيشون في العالم الجديد، والباقي يقطنون باقي دول أمريكا وأُوقيانوسيا. وبذا يكون توزّع المسلمين حسب القارات نحو النحو التالي:

آسيا	٢١٦,٠٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٨٠,٣٦٪	من مجموع الأقليات
إفريقية	٣٠,٥٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	١١,٤٤٪	من مجموع الأقليات
أوربا	١٦,٤٤٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٦,٢٠٪	من مجموع الأقليات
العالم الجديد	٥,٠٠٠,٠٠٠	ويُشكّلون	٢,٠٠٪	من مجموع الأقليات
	٢٦٧,٩٤٠,٠٠٠		١٠٠,٠٠	

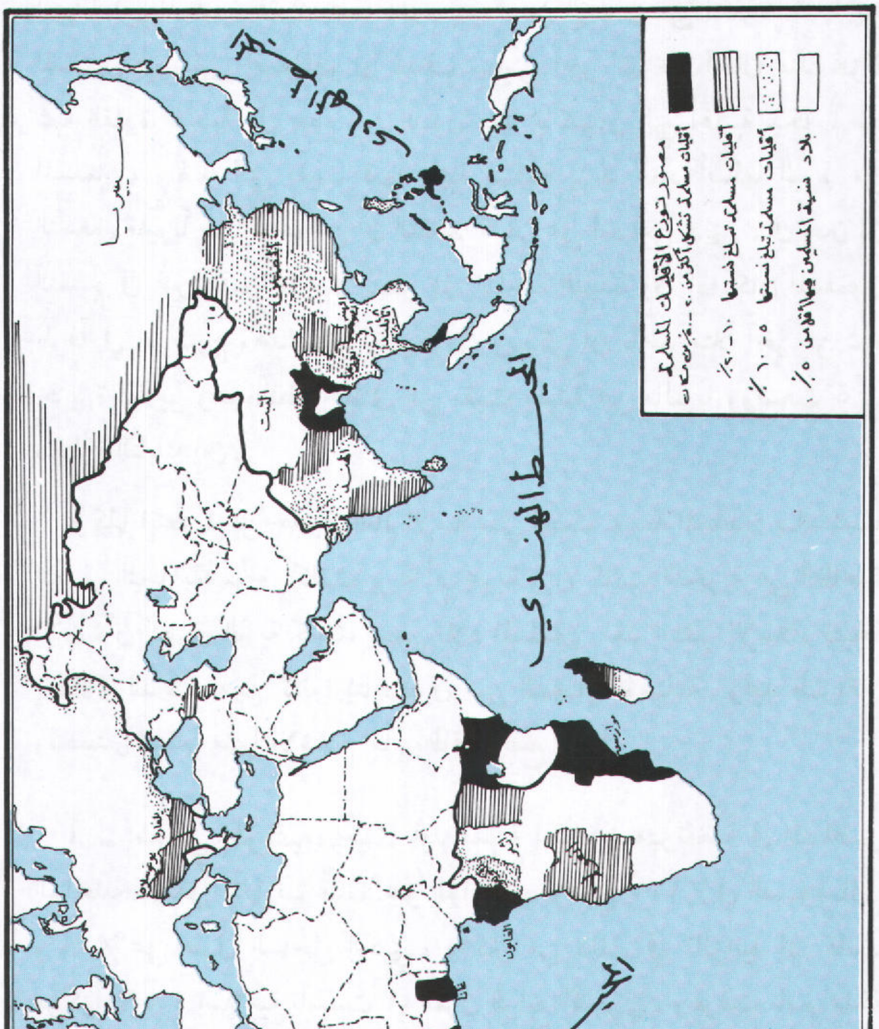
مصور توزيع الأقليات المسلمة
المحيط الهندي
المحيط الأطلسي

وإن نظرةً على مُصوّر توزّع الأقلّيات المُسلمة تُظهر لنا أن أكثر هذه الأقلّيات إنما يعيش على هامش العالم الإسلامي بسبب تأثير المسلمين على من جاورهم، وبسبب الدعوة إضافةً إلى أن تخطيط الحدود السياسية قد فصل أحياناً بين المسلمين فترك قسماً منهم بعيداً عن البلدان التي أكثر سُكانها من المسلمين في سبيل إضعافهم أو لهدفٍ سياسي آخر كما هي الحال عند تجزئة شبه القارة الهندية إلى عددٍ من الدول منها باكستان التي أغلبية سكانها من المسلمين، والهند التي بقيت فيها أقلية مسلمة يزيد عدد أبنائها اليوم على التسعين مليوناً على الرغم من أن التقسيم كان على أساسٍ دينيٍ، في حين أن التقسيم في غير هذه الحالة لا يُنظر إلى الناحية الدينية إلاّ إذا كان المسلمون طرفاً في الموضوع وهذا غالباً ما يكون، ويُمكن أن نأخذ مثلاً آخر من شبه جزيرة الملايو وهو منطقة فطاني التي بقيت بعيدةً عن ماليزيا ووضعت تحت سيطرة التايلنديين.

وكلما ابتعدنا عن حدود العالم الإسلامي قلّت نسبة المسلمين باستثناء الطرق التجارية سواء أكانت برية أم بحرية وإن كانت البحرية هي الظاهرة الآن لأنّ الطرق البرية كانت ضمن بلاد المسلمين. لقد انتشر الإسلام نتيجة إنطلاق الدعاة الذين كانوا يتخذون من التجارة وسيلةً، ونجد طريقين رئيسيتين انتشر منهما الإسلام على نطاقٍ واسعٍ وهما:

أ - شرقي إفريقية: حيث نجد نسبة المسلمين مرتفعةً في المناطق الساحلية، وتقلّ كلما توغّلنا نحو الداخل، وهي ١٠٠٪ في الصومال، و٧٠٪ على طول الساحل الكيني، وأكثر من ذلك في تانزانيا إذ كانت مركزاً لإمارةٍ إسلاميةٍ تأسّست في القرن الرابع الهجري، وعرفت باسم مملكة الزنج، وهي أيضاً ١٠٠٪ في جزيرة زنجبار، و١٠٠٪ في جزر القُمُر، و٥٠٪ على الساحل الموزمبيقي، وأكثر من ذلك على سواحل ملاغاشي الشمالية، وتختلف في الجزر المتناثرة في جزر المحيط الهندي، ومن المعلوم أن

المسلمين قد وصلوا في رحلاتهم البحرية في شرقي إفريقية إلى جنوبي موزمبيق، وكان آخر مرفأ لهم مدينة سُفالة في موزمبيق وتقع على خط عرض ٢٠° جنوباً.

ب - طريق جنوب شرقي آسيا: وقد عمّ الإسلام في أندونيسيا وماليزيا وجنوبي الفلبيين بل في كل تلك الجزر، ونلاحظ أن السواحل التي تقع على الطريق التجارية قد أصبحت فيها نسبة المسلمين أكثر من التي لا تمرّ منها السفن إذ انتشر الإسلام على سواحل الهند الغربية أكثر من الشرقية لكثرة السفن الإسلامية التي تفد إليها وتعود، أو تتخذ عليها قواعد في انتقالها نحو الشرق، وكذا فإن جنوبي السواحل الشرقية كان أكثر نسبةً في المسلمين من الشمالية منها والمقعّرة، حيث تضطر السفن إلى الرسو في المناطق الجنوبية عندما تجتاز الممرّ الذي يفصل بين شبه القارة الهندية وجزيرة سيلان، وتسير بعدها مُيمِّمةً شطر سومطرة والملايو دون مسايرة السواحل، أما ارتفاع المسلمين في البنغال فإنما يعود إلى الفتح الذي جاء عن طريق الهند وبلاد السند، وليس عن طريق التجارة البحرية والدعوة، كما سبق أن ذكرنا، وعن طريق سومطرة انتشر الإسلام في بقية الجزر الأندونيسية وبلاد الفيليبين. وكانت بعض السفن تتخذ من غربي شبه جزيرة الملايو قاعدة لها أو يكون آخر طريق لها، إذ تنتقل البضائع بعد ذلك براً عبر برزخ الملايو الضيّق، ثم تعود إلى البحر ثانية نحو بلاد الهند الصينية والصين الأمر الذي جعل نسبة المسلمين مرتفعة في منطقة فطاني، عند مرور البضائع منها أو النزول إليها والإقلاع منها. وعند سير السفن على طول سواحل قارة آسيا الشرقية نجد المسلمين يتكاثرون في المحطات التي تتوقّف عندها السفن وتظهر في المناطق الممتدة في البحر أكثر من غيرها الأمر الذي يجعل منها بالضرورة محطاتٍ للسفن التي لم تكن لتبتعد كثيراً عن الشواطىء أي ترتفع نسبة المسلمين على السواحل المحدبة وتضعف على السواحل المقعرة التي تُشكّل خلجاناً لهذا نُلاحظ قلّة

نسبة المسلمين على سواحل خليج سيام المتقعر ، على حين ترتفع النسبة في وسط سواحل فيتنام حتى قامت هناك إمارة (شامبا) الإسلامية ، واستمرّت مدةً من الزمن وحتى بداية القرن الماضي ، ثم تعود النسبة إلى الانخفاض بل إلى شبه الانعدام على سواحل خليج (طونكين) ، ثم تبرز قاعدة (كانتون) وعدداً من المدن منها (هانغ تشو) التي أطلق عليها المسلمون اسم (خانسو) ، ولكثرة سكان الصين تعددت المراكز على سواحل تلك البلاد الأمر الذي جعل نسبة المسلمين ترتفع على طول شواطىء الصين الشرقية بينما تنخفض النسبة في وسط البلاد بسبب البعد عن ديار المسلمين ، ولم يصل المسلمون شمالاً إلى أكثر من شبه جزيرة (شانتونغ) لذا فإن نسبة المسلمين تقلّ كثيراً شمال سواحل الصين حتى تكاد تنعدم . هذا ما نلاحظه في كوريا وجزر اليابان وسواحل سيبيريا الشرقية .

وقد نلاحظ مناطق تكاد تكون خاليةً من المسلمين بجانب حدود العالم الإسلامي مثل التيبت التي لم يدخل إليها المسلمون لارتفاعها وكثرة البرد فيها ، والجفاف ، إضافة إلى قلة السكان ، والمسلمون يريدون دعوة الناس ، ولا يُفكّرون في التراب واحتلال الأرض ، كما نلاحظ منطقة البنجاب الشرقية التي غادرها أهلها من المسلمين بعد تقسيم القارة الهندية إلى الهند وباكستان حيث تعرّض المسلمون هناك لأشدّ أنواع الاضطهاد ، فغادرها أهلها فارين بدينهم ، وإن لم ينج الكثير منهم من الموت عند الحدود حيث كان لهم الهنادك بالمرصاد . يدفعهم الحقد والتعصُّب . ونلاحظ انقطاعاً في انتشار الإسلام شمال إفريقية وذلك بسبب الإبادة التي لحقت بالمسلمين في الأندلس وصقلية وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكان آخرها جزيرة (كريت) التي كان فيها يوم خرج العثمانيون منها عام ١٣١٦ هـ من المسلمين ما يُقدّر بـ (تسعةٍ وثمانين) ألفاً ، ثم أُجبر قسم منهم على الهجرة من أرضهم ، واختفى قسم كبير آخر في ظل الحكم اليوناني الذي تسلّمها بعد أن دُوِّلت ، وبقي من المسلمين في الجزيرة عام ١٣٢٧ ثلاثة وثلاثون ألفاً أي زال

ثلثا عدد المسلمين في مدةٍ لا تزيد على أحد عشر عاماً، ثم استمرّ العدد في النقصان نتيجة الإبادة والتهجير حتى تكاد تخلو اليوم من أي مسلم. وكذا خضع جنوب شرقي أوربا كله للإبادة والتهجير والإجبار على الردة والتنصير حتى انخفضت نسبة المسلمين كثيراً بعد أن كانت أكبر مما هي عليه الآن بكثير على الرغم من أن زيادة تكاثر المسلمين تفوق غيرهم بكثير، ولا يزال الأمر وعلى أشدّه الآن وخاصةً في بلغاريا.

تطوّر وضع الأقلّيّات المسلمة: يُمكن ملاحظة عدة مراحل للأقلّيّات المسلمة وتوزّعها في العالم.

المرحلة الأولى: وهي التي سبقت القرن العاشر الهجري، ولا نستطيع أن نقول: إن هناك أقلّيّات مُسلمة، وإنما كان التجار الذين ينتقلون من ديار الإسلام، ويصلون إلى مناطق بعيدةٍ خارج حدود بلاد الإسلام وخاصةً إلى جنوب شرقي آسيا، وشرقي إفريقية ـ كما مرّ معنا ـ وتحدوهم الدعوة إضافةً إلى التجارة وقد يستقرّ لذلك بعضهم هناك من أجل الدعوة إن وجد ثمرةً في عمله أو أنه يُبشِّر بخير، وربّما كان لرواج تجارته أثر في استقراره، وربما كانت لبعض الأحداث السياسية أثر في البقاء أو في الهجرة من الأساس، وعلى كل حال فإن المسلم كان في أماكن استقراره الجديد يتمتّع بميزاتٍ حسنةٍ تفوق ما يتمتّع به أهل البلاد الأصليون وذلك لأسبابٍ كثيرة منها:

١ ـ السلوك الإسلامي الذي يتصرّف به التاجر المسلم أو الداعية، وهو سلوك أصيل غير متصنع.

٢ ـ التفوّق الحضاري لدى المسلمين.

٣ ـ الثراء المادي نتيجة رواج تجارة المسلمين لحسن معاملتهم.

٤ ـ الدعم الذي يتوقعه سكان البلد الأصليون والذي كان قائماً فعلاً، إذ أن الدولة الإسلامية كانت ذات مكانةٍ مرموقةٍ في العالم كلّه، وتدعم المسلمين أينما وُجدوا وترعاهم، وتُطالب الدولة التي يُقيمون على أرضها بحسن

معاملتهم، فهم سفراؤها ومن رعاياها. ويجب أن نُلاحظ نقطةً مُهمَّةً في هذا الشأن: وهي أن الدولة الإسلامية تدعم الدعاة والتجار المسلمين أيّاً كانت البلد التي انطلقوا منها سواء أكانوا من رعاياها أم من رعايا دولةٍ أُخرى، وذلك عندما تعددت الدول الإسلامية، وسواء أكانوا من أنصارها أم من خصومها السياسيين تنظر إليهم على أنهم مسلمون وهي دولة إسلامية، ولم تكن النظرة القائمة اليوم والتي لا تقوم على مفهومٍ صحيحٍ بل على مفهومٍ خاطىءٍ، وهو أنه لا علاقة لهم إلاّ إذا كانوا من رعاياها ومن أنصارها وأعوانها، إذ المفهوم اليوم يقوم على العصبية وعلى المصالح الشخصية وليس على أساسٍ إسلاميٍ. ومن هذا المنطلق ومن هذا الوضوح في الرؤية استطاع التجار والدعاة نشر الإسلام، ولم تلبث المناطق التي نمت فيها مجموعة إسلامية كأقلية أن غدت بلاداً إسلامية وربما بقي تجار ودعاة على شكل أفرادٍ ومجموعاتٍ صغيرةٍ في مناطق ثانيةٍ لكن لهم مركزهم الممتاز ولهم وضعهم الحسن، فالمسلمون جميعاً من ورائهم.

المرحلة الثانية: وتمتدّ من القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر، وفيها جاء الاستعمار، وتفوّق النصارى الصليبيون على المسلمين، واحتلّوا أكثر بلدانهم، وقسّموها إلى أجزاء سواء أكانت أقساماً فيما بينهم أم أجزاء تتبع نوعاً واحداً من الاستعمار، ونتيجة هذه التجزئة فقد نشأت الأقاليم التى تعيش فيها أقليات مسلمة، وهي التي تقع عادةً على هامش العالم الإسلامي، إذ أن المستعمرين قد اقتطعوا أقاليم من أطراف العالم الإسلامي وألحقوها بالبلدان المجاورة لها فنشأت لذلك أقليات مسلمة في تلك البلدان التي أُنشئت حديثاً، وربما كانت إفريقية أهم مجال لقيام هذا النوع من الأقليات إذ ضُمّت أطراف السافانا التي انتشر فيها الإسلام إلى المناطق الغابية الجنوبية التي لم يصل إليها الإسلام بعد، وربما كان بعض هذا النوع في آسيا إذ ضمّ المستعمرون منطقة فطاني المسلمة بعد سلخها من شبه جزيرة الملايو إلى بلاد تايلاند البوذية.

أو أن المستعمرين قد احتلّوا بلاداً فأجلوا عنها قسماً من المسلمين حتى غدوا أقليةً في مناطق وتركّزوا في مناطق ثانيةٍ، كما هي حال المسلمين في الفيليبين الذين كانوا يحكمون الجزر كلّها، ويقوم راجا سليمان بإدارة شؤون الإمارة هناك فلما جاء الاسبان بدؤوا بحروبٍ ضدّ المسلمين فجلا أكثر المسلمين عن المناطق الشمالية وتركّزوا في الجزر الجنوبية فبقيت أقلية مسلمة في الشمال، وارتفعت نسبة المسلمين في الجنوب. ثم غدا المسلمون جميعاً أقليةً.

وفي هذه المرحلة كانت الأقلّيّات المسلمة تعيش في عزلةٍ عن مجتمعها، وفي انقطاعٍ عن إخوانها للضعف الذي أصابهم والغفلة التي أصابتهم بسبب الاستعمار الذي نزل بساحتهم وسياسته التي أورثتهم الجهل.

المرحلة الثالثة: وتمتدّ من بداية القرن الثالث عشر حتى الربع الأخير من القرن الرابع عشر. وهي تتمة للمرحلة السابقة من حيث ضعف المسلمين وعُزلة الأقلّيّات المسلمة، غير أن الأقلّيّات بدأت تزداد نتيجة انتقال أعدادٍ كبيرةٍ من المسلمين إلى بلدان أخرى خارج حدود العالم الإسلامي لأسبابٍ كثيرةٍ وربّما كان أهمها انتقال المسلمين في بلادهم المستعمرة إلى بلاد المستعمر بالذات، ولعلّ من هذه الأسباب في الانتقال:

١ً ـ العمل: سواء أكان الانتقال برأي المسلمين أنفسهم أو بالإجبار من قبل مُستعمريهم لاستخدامهم في الأعمال الشاقة كمناجم الفحم، أو للخدمة وخاصةً من البلدان الكثيرة السكان مثل الهند، وأندونيسيا، ومصر، وتركيا، وبلاد المغرب نسبياً، أو للعمل في الجيش في المستعمرات النائية كالهنود، والملايويين، والأندونيسيين الذين عملوا في إفريقية، وفي انكلترا نفسها، وفي هولندا، وسكان المغرب الذين عملوا في فرنسا.

٢ً ـ الهجرة: نتيجة الأوضاع السياسية في بلدانهم كهجرة بعض التتار من الإمبراطورية الروسية نتيجة الظلم الذي لحق بهم من قبل المستعمرين الروس، أو

المجموعات القفقاسية (داغستان ـ شاشان ـ شركس) بعد استعمار الروس لبلادهم، أو البوشناق والكومان بسبب ضغط الصربيين النصارى بعد استيلائهم على أراضيهم بعد خروج العثمانيين منها، وربّما نتيجة حركاتٍ داخلية وثورات، كالأكراد الموزّعين في عدّة دولٍ والمضطهدين في كثيرٍ من الأحيان، وقد تكون لأسبابٍ محليةٍ ونزاعاتٍ قبليةٍ أو عائليةٍ.

المرحلة الرابعة: وتمتدّ من الربع الأخير من القرن الرابع عشر حتى يومنا هذا، وتمتاز عن المرحلتين السابقتين بزيادة عدد الأقليات، ويمكن ملاحظة الأسباب الآتية لكثرة الأقليات أو الجاليات الإسلامية:

١ً ـ استقلّت أكثر دول العالم الإسلامي وكان لها سفارات وقنصليات في الدول الثانية غير المسلمة فكان على موظفي السفارة الإقامة في تلك الدول، ولمّا كانوا في بيئةٍ مختلفةٍ عن بيئتهم، ومجتمع يتمايز عن مجتمعهم فقد نشأت عندهم مُشكلة تعليم أبنائهم، واحتكاكهم بالمجتمع الجديد واختلاطهم بأفراده وهذا ما أوجد التقاء المسلمين من موظفي تلك السفارات بعضهم مع بعض، وظهور جالية سياسية إسلامية أو أقليّة، ولا يقتصر هذا على العاصمة بل يتعدّى ذلك إلى المدن الكبرى حيث توجد القنصليات.

٢ً ـ اتّجه كثير من الطلاب لتلقّي العلم في تلك الدول نتيجة تطوّره وتوسّعه هناك على حين كانت البلدان الإسلامية مُتخلّفة فالطلاب إضافةً إلى من يلحق بهم من ذويهم يُشكّلون مجموعةً أخرى تُضاف إلى المجموعة السياسية، وأكثر ما تكون هذه التجمّعات في المدن التي توجد فيها جامعات.

٣ً ـ ازداد اتجاه العمال المسلمين إلى تلك الدول للعمل، وقد مرّت ضائقات اقتصادية في عددٍ من البلدان الإسلامية دعتهم للارتحال.

٤ً ـ حدثت أحداث في العالم الإسلامي ألجأت أعداداً من أبنائه للتوجّه إلى الدول غير المسلمة للإقامة فيها، ومن هذه الأحداث الانقلابات

العسكرية، والحركات السياسية، وأعمال الاستبداد، والخلافات بين المنظّمات، وربّما كان حظّ بلدان العالم الإسلامي من هذه الأحداث كبيراً يفوق بقية بلدان العالم الأُخرى.

ومن التقاء هذه المجموعات تكونت الجاليات الإسلامية، أو الأقلّيّات، ومن المعلوم أن الدول الصناعية المتطوّرة هي التي تحظى بأكبر عددٍ من الأقليات إذ هي التي تحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من العمال، ويفدها الكثير من الطلاب، وهي التي يلجأ إليها عدد من المشرّدين أملاً في وجود حمايةٍ أو وجود عمل مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وانكلترا، وفرنسا، وألمانيا الاتحادية، ثم بلجيكا وبقية دول أوربا الغربية. ويجب ألا ننسى الدول الجديدة ذات الإمكانات الكبيرة في الاستيعاب وتوفّر العمل كالولايات المتحدة الأمريكية في أول أمرها، وكندا، والأرجنتين، والبرازيل، وأستراليا، أو بالأحرى هذا شأن العالم الجديد عامّةً. وهناك الدول التي نقل المستعمرون إليها عدداً من سكان مستعمراتها أو من إفريقية لاستثمارها والحصول على خيراتها، فالزنوج في الولايات المتحدة، والإفريقيون، في شمالي أمريكا الجنوبية، والهنود و....

الأقلّيّات المُسْلِمَة
في
قارة آسيا

تتجمّع مُعظم الأقليّات في آسيا في الجنوب الشرقي منها حيث يتكاثر السكان، ولم ترتفع نسبة المسلمين كثيراً لأن الفتوحات الإسلامية لم تصل إلى تلك الجهات، كما أن بعض المناطق لم تكن على الطريق التجارية لذا فقد تأخّر انتشار الإسلام فيها في الوقت الذي كان يُعدّ وقتاً للتوسّع الإسلامي إن لم نقل عن طريق الفتح فعن طريق الدعوة، إضافةً إلى بُعد البقاع مثل كوريا، وجزر اليابان، وفورموزا ولم تصل السفن الإسلامية إلى أبعد من شبه جزيرة (شانتونغ) والخليج المقابل للعاصمة الصينية بكين، إضافة إلى انعزال أجزاء في داخل القارة الواسعة مثل منغوليا وداخل الصين، واشتداد البرد في الأجزاء الشمالية، وامتداد الغابة المخروطية والصحارى الباردة الأمر الذي يُؤدّي إلى قلة السكان وقلّة المردود في الدعوة، وتُوجد أقلّيّات صغيرة في الشمال من حدود العالم الإسلامي، ويعود ذلك إلى بُعد سيبيريا ونأيها، وقلّة سكانها آنذاك، والمعوقات الطبيعية من المُناخ والغابات، مع العلم أن الفتوحات الإسلامية قد وصلت إلى بلاد ما وراء النهر في القرن الأول الهجري ولكن لم تلبث أن توقّفت، إذ لم تكن الدعوة منظمةً ليزداد الدخول في الإسلام والإقبال عليه، كما أن أعداد التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجهات للاتجار بالفراء كان قليلاً لم يف بالغرض المطلوب، وكان تنقّلهم في مواسم معيّنة، وفي أوقاتٍ قصيرةٍ لا تتجاوز مطلع الصيف.

أما من جهة الغرب فلا تُوجد أقلّيّات لأن غربي آسيا إنما هو وسط العالم الإسلامي، إلا قبرص فهي ذات أقلّيةٍ مسلمةٍ لأن الحقد الصليبي قد ركّز عمله على جزر البحر المتوسط حتى أزال منها الإسلام، وتُعدّ جزيرة قبرص الجزء الباقي الذي لم ينته منه بعد، ولم يستطع المدّ الصليبي أن يقضي عليه حتى الآن بسبب موقف المسلمين هناك ودعم تركيا، ولا يزال يقوم بدوره.

أما الجنوب الغربي من آسيا فليس به من أقلّيات إذ أنه يقع في مركز العالم الإسلامي.

(١) الهـــند

وهي بلاد واسعة تزيد مساحتها على ٣,٢٨٠,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٥٨٥ مليون نسمة، يعيش بينهم أكثر من ٩٤ مليون مسلم، وبذا تكون نسبتهم ١٤٪ من السكان.

وصل الإسلام إلى الهند عن طريق الفتح، إذ دخل محمد بن القاسم الثقفي الجهات الشمالية الغربية عام ٩٤ هـ، وتوقّف بعدئذٍ الفتح، ثم عاد أيام الغزنويين، وفتح محمود الغزنوي (بومباي) وبعض تلك الجهات بين عامي ٣٩٢ ـ ٤١٥ هـ. ووصل المسلمون أيام الغوريين إلى البنغال، وقد فتحوا (دهلي)، و (بيهار) و (البنغال) حوالي عام ٥٩٧ هـ، وحكمت أسرة (تغلق) في (دهلي) الهند كلّها عام ٧٣٩ هـ. ثم جاء المغول وحكموا الهند كلها أيضاً في القرن العاشر فانتشر الإسلام في الداخل أيام آل تغلق ثم في عهد المغول.. وإذا كان الإسلام قد انتشر في الشمال نتيجة الفتح الذي كان طريقه من بحر العرب إلى البنغال فإن السواحل قد انتشر فيها الإسلام نتيجة التجارة والدعوة، وتعمّق في الداخل أثناء حكم المسلمين للهند وانتقال الدعاة في مناطقها المختلفة، ولولا المستعمرون الذين دخلوا البلاد مغتصبين، ووقفوا في وجه الإسلام وحاربوه بكل وسيلةٍ امتلكوها لعمّ المناطق كلّها. ولذا فإن المناطق الشمالية التي بين السند والبنغال والسواحل الغربية يجب أن تكون

نسبة المسلمين فيها أكثر من المناطق الداخلية والسواحل الشرقية، لكن توزَّعَ المسلمون في أرجاء الهند كلها عندما آل حكمها إليهم، فقلّ الفرق بين النسب المتباينة، ولما جاء الاستعمار وخضع المسلمون للاضطهاد والتفرقة اضطروا إلى التجمّع في مناطق محدودةٍ حتى يكون بعضهم قريباً من بعض من أجل التعليم، وإمكانية الحياة الاجتماعية، والوقوف في وجه خصومهم الذين تمثّلوا في الهنادك والذين كان يحرّكهم المستعمرون للانتقام من المسلمين ـ على حدّ تعبيرهم ـ.

وكذا بعد الاستقلال إذ أصابهم الضغط الشديد بسبب عقيدتهم، ولأن الهنادك يُحرّمون لحم البقر، ويعبدون البقرة، والمسلمون يأكلون لحمها، ويحرثون عليها، ولا يُبدون لها التقديس الذين يُريده الهنادك الأمر الذي تحدث معه المذابح بين الطرفين من جراء ذلك، وهذا ما جعل المسلمين يعيش بعضهم بجانب بعضٍ، لهذا كله تجمّع المسلمون مرّةً ثانيةً في مناطق محدودة، وقد زاد سوء تصرّف الهنادك بعد تقسيم البلاد إلى دولٍ على أساسٍ دينيٍ فقلّ عدد المسلمين، وقلّ شأنهم، وتصوّر الهنادك أن المسلمين غدوا خصومهم، فبدأت نفوسهم تتوثّب للانتقام والمخططات توضع للفتك بهم، واختلفت نسبتهم في البقاع التي يحتمل أن تكون كبيرة فيها ومع هذا نُلاحظ الاختلاف في نسب المسلمين حسب المقاطعات التي يعيشون فيها تبعاً لموقعها.

ففي مناطق الشمال بين السند والبنغال ترتفع النسبة فهي:

في البنغال الغربية	٣١٪
وفي أسام	٣٤٪
وفي بيهار	١٤٪
وفي اتربرادش	١٦٪
وفي دهلي	٧٪

أما انخفاض النسبة في البنجاب الشرقية فيعود إلى هجرة المسلمين منها

وانتقالهم إلى الجزء الغربي منها حيث يقع ضمن دولة باكستان التي تجمّع فيها المسلمون.

وفي السواحل الغربية ترتفع النسبة وخاصة في الشواطىء التي كانت محطات للسفن، وتبلغ هذه النسبة في:

كوجرات	٩٪
وفي مهاراشترا	٨٪
وفي ميسور	١١٪
وفي كيرالا	٢٠٪

وتصل في جزر لاكاديف إلى ٩٤٪ بسبب أنها كانت محطاتٍ للسفن جميعها سواء تلك التي كانت تُريد أن تقف على سواحل الهند الغربية ولا تتعداه أم التي كانت تُريد أن تُتابع طريقها دون التوقّف في بلاد الهند. ونُلاحظ أن النسبة ترتفع في السواحل الغربية كلما اتجهنا نحو الجنوب، حيث تضطر السفن للتوقّف بعد أن تكون قد قطعت مسافاتٍ طويلةً على حين لا تضطر للتوقّف دائماً في المناطق الشمالية لأنها لا تكون قد سارت إلا مسافةً قصيرةً بعد انطلاقها من كراتشي.

أما على السواحل الشرقية فتكون النسبة في الجنوب أكثر منها في الشمال أيضاً، وذلك بسبب تقعّر الخليج البنغالي، والسفن يمكنها الانتقال مباشرةً نحو الملايو بعد اجتيازها مضيق سيلان لهذا نلاحظ أن نسبة المسلمين تكون:

في بونديشيري	٧,١٨٪	
وفي مدارس	٥,٤١٪	
وفي اندهرابرادش	٨٪	حيث يتجمّع المسلمون في حيدر آباد
وفي أوريسا	١,٥٠٪	

المقياس
كيلومتر
١٤٠ ٢٨٠ ٤٢٠ ٥٦٠ ٧٠٠
جمو و كشمير
باكستان
البنجاب الشرقية
هريانا
دهلي
اتربراديش
لكنو
راجستان
كوجرات
دامان
ديو
مدهيابراديش
بيهار
البنغال الغربية
أسام
ميغاليا
منيبور
تريبورا
بورما
أوريسا
ماهارشترا
حيدرأباد
اندهرابراديش
ميسور
ڠوا
مدراس
بوندشيري
تاميل نادو
جزر لاكاديف
جزر أندمان
جزر نيكوبار
سيريلانكا

مصور رقم [١] .

وقد ذكرت فيما سبق أن ارتفاع نسبة المسلمين في البنغال إنما يعود إلى الفتح لا إلى الدعوة والتجارة. ويبدو كذلك أن السفن لم تكن لتتوقّف في محطات قبل مالاقا لذا فإن نسبة المسلمين في جزر (اندمان) و (نيكوبار) لم ترتفع كثيراً، وهي الآن ١١٪ لأنها لم تكن محطاتٍ دائمةً.

أما المناطق الداخلية فتُعدّ قليلة النسبة إذا قارناها مع ما حولها وحتى إلى النسبة العامة إذ تبلغ في:

مانيبور	٦,٦٪	على حين أن ما حولها لا تقلّ نسبته عن ٣٠٪
وفي تريبورا	٠,٧٪	على حين ما حولها لا تقلّ نسبته عن ٣٠٪ وهي قريبة من الأولى، وكأنها وسط بنغالديش.
وفي مدهيا برادش	٤,٤٪	
وفي هيماشل برادش	١,٥ ٪	حيث تقع في الشمال في المنطقة الجبلية بعيدة عن طريق الفتح.
وفي هريانا	٤,١ ٪	

ولا شكّ فإن ارتفاع نسبة المسلمين في بعض المقاطعات يعود لدور حكام الولايات فعندما يكونون من الراشدين يعملون للدعوة بل إن سلوكهم يجعل الهنود يُقبلون على اعتناق الإسلام. وهذا ما نلاحظه في بعض حكام منطقة الدكن، وفي كيرالا.

وتختلف نسبة المسلمين في المقاطعة الواحدة بين مكانٍ وآخر نتيجة التجمّع وعدم التجانس بين أصحاب الديانات المُختلفة.

ويُعاني المسلمون مشقّةً في حياتهم من الهنادك فلا تكاد تمرّ سنة دون أن تُصيبهم نكبة أو تحلّ بهم نازلة وغالباً ما تكون في المناطق التي ترتفع نسبة المسلمين فيها لأن الأقاليم التي لا يُشكّل فيها المسلمون سوى نسبةٍ صغيرةٍ لا

يُمكنهم التحرّك بل يبقون مُجبرين لإظهار الطاعة وإبراز الخضوع، أما المناطق التي يُشكّلون فيها نسبةً كبيرةً فيرون أنفسهم مجبرين للدفاع عن عقيدتهم ولحماية أنفسهم، ولعلّ حقد الهنادك على المسلمين إنما يعود لسببين اثنين:

١ً - **الديانة الهندوسية (البراهمية)**: وهي التي تقوم على تقسيم المجتمع إلى طبقات خمس هي:

أ - الكهنة. وهم من عقل براهما.
ب - المحاربون. وهم من كتف براهما.
ج - المزارعون. وهم من أذرع براهما.
د - الخدم. وهم من أقدام براهما.
هـ - الشودرا. وهم ليسوا طبقة من الطبقات، وهم أجناس، وليس لهم الحقّ في الاجتماع مع أية مجموعة أخرى أو الاختلاط بها بل ومسّ أتباعها، ولا يحقّ لطبقةٍ أن تتصاهر مع الثانية أو تختلط معها، ومن هذا المنطلق فإن المسلمين غرباء عن هذا المجتمع البراهمي، لذا فإنهم ينظرون إليهم نظرةً خاصةً، ويعدّونهم دخلاء حتى على بلادهم.

من جهةٍ ثانيةٍ فإن المسلمين يعدّون البقرة حيواناً سخّرها الله للإنسان للإفادة من لبنها ولحمها والحراثة عليها على حين أن البراهميين يعدّون البقرة إلههم فيُقدّسونها، ومن هذا التباين فلا بُدّ من وقوع الخلاف بين الطرفين، ومن النظرة الخاصة للبراهميين إلى المسلمين الذين يذبحون البقرة، ولا يبدون لها أي مظهر من مظاهر التقديس يقع الحقد عليهم.

هذا بالإضافة إلى ما أثاره المستعمرون الإنكليز بين البراهميين والمسلمين من حقدٍ وضغائن.

٢ً - **التسلّط الانكليزي**: لقد بدأ التعامل التجاري بين الإنكليز

والبراهميين، ثم أثرى البراهميون، وشعروا أن ارتباطهم قد أصبح مع الإنكليز الذين أثاروهم ضدّ حكامهم المسلمين.

ووقف الإنكليز ضدّ المسلمين وبجانب البراهميين بعد أن تمكّنوا من السيطرة على البلاد وإخضاع الحكام من المسلمين، فاستولوا على أوقاف المسلمين التي كانت مصدر تمويل الكتاتيب، المدارس الوحيدة، وهذا ما عطّل تلقّي العلم فانتشر الجهل، وفي الوقت نفسه فقد سعى المستعمرون في تعليم الهندوس ليسدّوا بهم المراكز، وليتقوّوا بهم على المسلمين أو ليضربوهم بهم. كما استولى الإنكليز على أحسن أراضي المسلمين، فعاش المسلمون بعدها في فقرٍ وجهلٍ. واقتنع المستعمرون أنه من الصعب تنصير المسلمين لذا فمن الأفضل أن يعملوا على تنصير الهندوس ليكونوا أعواناً لهم في المستقبل، وقاعدةً يُثّبتون عن طريقها نفوذهم، أو يحكمون الهند باسمهم، ولا شكّ أن الحقد الصليبي كان له دوره في هذا الجانب فقد برز في معاداة المسلمين ودعم الهندوس ضدّهم وشدّ أزرهم بهم، وتقويتهم عليهم، وجاءت الإرساليات التنصيرية لتُؤدّي مُهمّتها في البلاد، وسيطرت على التعليم الحكومي، وامتنع المسلمون من التعليم على يد النصارى الذين كشّروا عن أنيابهم، وأعلنوا عن سياستهم صراحةً في الرغبة في تنصير الطلاب، وأقبل الهندوس على التعليم حتى أصبح التفاوت واضحاً بين الفريقين من ناحية العلم.

إذن ضعُف المسلمون علمياً واقتصادياً وسياسياً على حين قوي أمر الهندوس وذلك كله بدعم المستعمرين. ونتيجة للفقر الذي بدأ المسلمون يعانونه فقد انخرط عدد من أبنائهم في الجيش كجنود، فأذاقهم الإنكليز منتهى الذلّ والهوان، وبسبب تصرّف المستعمرين فقد قامت حركات من قبل المسلمين، فقُضي عليهم بمنتهى الوحشية عام ١٢٧٤، ولما انتهت الثورة أعلنت انكلترا انتهاء حكم شركة الهند الشرقية، وعدّت البلاد من أملاك التاج البريطاني يتصرّف بها كيف يشاء. فصبّ المستعمرون جام غضبهم على

المسلمين فصادروا أملاكهم، وهدّموا مساجدهم، وشُرّد الناس.

وقام بعض المُفكِّرين المسلمين يعملون لسدّ الثغرة التي حصلت وأدت إلى تأخّر المسلمين فنادوا بالعمل والتعليم، وتأسّست ندوة العلماء في مدينة (لكنو)، وأُنشئت دار العلوم التابعة لها عام ١٣١١، كما فكّر بعضهم بالتقرّب إلى الانكليز لينالوا شيئاً، وتأسّست كلية عليكرة، وأنشأ أحمد خان المُشرف عليها جريدة تهذيب الأخلاق.

خشي الإنكليز من قوة هذا التيار الإسلامي سواء السليم منه أم المنحرف فالمنحرف لا بدّ من أن يُقوّم، لذا فقد شجّع المستعمر الهندوس وطرح فكرة القومية الهندية، وتشكّل حزب المؤتمر الهندي الذي قام على هذه الفكرة، وانتسب إليه الهندوس، كما انضمّ إليه بعض المسلمين الذين يرون أن الموضوع ليس سوى منافسة بين الطرفين ومحاولة الحصول على منافع أكثر، ومن هذا نلاحظ أن بعض الهيئات الاسلامية قد اندمجت فيه مثل جمعية العلماء، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومؤتمر الشيعة، وكان هذا الحزب في البداية يُظهر احترام شعور المسلمين، ولكنه أظهر فيما بعد عكس ذلك فنادى بإخراج الغرباء من الهند، وعدّ المسلمين غرباء كالإنكليز، وبدأ التطرُّف من الهنود أو ظهرت بينهم جماعة من الغُلاة الذين نادوا بقتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يحاول مسايرتهم. وكان لا بُدَّ أن يظهر تجمّع خاص من المسلمين مقابل ذلك فوجدت الرابطة الإسلامية عام ١٣٢٤ بعد اجتماع في (دكا) في البنغال برئاسة النواب فخار الملك. وبدأ الخلاف واضحاً بين حزب المؤتمر والرابطة. وظهرت دعوة المُتطرّفين الهنود ولا شكّ أن أكثر الهنود في حزب المؤتمر كانوا يُؤيّدونهم. وتتلخّص هذه الدعوة في أربع نقاطٍ:

١ ـ سانكاثان: أي الوحدة.

٢ ـ الراجا: أي الإله الهندي «رام راجا» أي وحدة العقيدة، وإجبار السكان جميعهم عليها.

٣ ـ شوذي: أي إرجاع المسلمين إلى الهندوكية.
٤ ـ فتح أفغانستان ومناطق الحدود وردّ أهلها عن الإسلام.

ويعدّون سلامة الجنس الهندي ومستقبله متوقفةً على تحقيق هذه النقاط الأربع.

ومعنى هذا لا يمكن اللقاء بين الطرفين إلا أن بعض المسلمين بقوا يرون أن بقاء وحدة الهند مهم جداً، ويرى بعضهم أن هذا مفيد للدعوة الإسلامية بين الهنود... لذا بقي بعضهم في حزب المؤتمر مدةً، ثم انسحب مثل محمد علي جناح الذي انضمّ إلى الرابطة عام ١٣٣٣، وعرض عليه الهنود أن يبقى ويُصبح رئيساً لحزب المؤتمر لكنه رفض... ومنهم من بقي أمثال أبو الكلام أزاد الذي أصبح وزيراً للمعارف في الهند بعد استقلالها مباشرةً. وعندما ألغيت الخلافة العثمانية بتأثير الإنكليز حدثت ثورة عامة شملت معظم أرجاء الهند، وعرفت باسم حركة الخلافة احتجاجاً على الإنكليز ودورهم في ذلك ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب.

ونتيجة تطرّف الهنود وردّ فعل المسلمين والخلاف العقيدي بين الطرف كان لابدّ من الانقسام وهو ما تم في النهاية.

تمّ الانقسام في ٢٨ رمضان عام ١٣٦٦ (١٥ آب ١٩٤٧)، وقامت دولتان في الهند، عُرفت أولاهما باسم الهند، وقد شملت المناطق التي أكثريتها من البراهميين، وعُرفت الثانية باسم باكستان، وشملت المناطق التي أكثريتها من المسلمين، وكانت عبارةً عن جُزأين أحدهما في الغرب، وأُطلق عليه اسم باكستان الغربية وشمل مناطق الحدود، والبنجاب الغربية، والسند، وبلوجستان، والثاني في الشرق، وشمل البنغال الشرقية وما حولها وهو الذي حمل اسم بنغالديش بعد تقسيم باكستان عام ١٣٩٠، وبين الجُزأين مسافة ١٥٠٠ كم من أراضي دولة الهند.

أما المقاطعات الثانية فقد كان الاقتراح أن يُنظر إلى رأي السكان باستفتاءٍ عامٍ أو يُؤخذ رأي حكّامها، ولكن الهند أسرعت، واحتلّت هذه المقاطعات وهي: حيدر أباد، وجوناكاد، وكشمير رغم أن الأخيرة تسكنها أكثرية مسلمة، وإذا كانت قد انتهت مشكلتا حيدرأباد، وجوناكاد إلّا أن مشكلة كشمير لا تزال قائمةً، ونتيجة لهذا التقسيم فقد نشأ.

١ - وجود أقلّيةٍ مُسلمةٍ في الهند تُعادل ١٤٪ من السكان، وتتعرّض لنكباتٍ باستمرار.

٢ - مذابح رهيبة للمسلمين يوم التقسيم بسبب محاولتهم الانتقال من أراضي الهند إلى أراضي باكستان، وقد ذُبح يومها أكثر من مليون مسلم.

٣ - هرب تسعة ملايين مسلم من أراضي الهند إلى أراضي باكستان.

٤ - خلاف وحقد دائم بين الدولتين المتجاورتين، أدّى إلى قيام قتالٍ أكثر من مرةٍ فقد حدث قتال عام ١٣٨٥ هـ، كما اشتركت الهند بصورة مباشرة أو غير مباشرة في تقسيم باكستان الذي تم عام ١٣٩٠، وكانت طرفاً في ذلك، ثم اندلع القتال عام ١٣٩١ بعد إشعال الهند نار الحرب بحجة اعادة الهندوس الذين غادروا بنغالديش إلى الهند لسوء الأوضاع الاقتصادية. ولا شك أن القتال مع دولةٍ مسلمةٍ سيُؤثّر ذلك على المسلمين الموجودين في الهند ويزيد في ذلك أن تكون الدولة التي نشب القتال معها هي باكستان والتي كانت مع الهند في دولةٍ واحدةٍ ثم افترقتا على أساسٍ دينيٍ. ويتكلّم السكان في الهند لغات مختلفة وكثيرة تزيد على مائتي لغة ولكن أهمها:

١ - الهندية	ويتكلم بها	٥٠٪	وهي أقرب اللغات إلى السنسكريتية التي تُدرّس في الجامعات.
٢ - البنغالية	ويتكلم بها	٨٪	وتسود في البنغال الغربية.

٣ ـ تلوجو	ويتكلم بها	١٠٪	وتسود في شرق الدكن .
٤ ـ تاميل	ويتكلم بها	٨٪	وتسود في مدراس وجنوبها .
٥ ـ ماراتي	ويتكلم بها	٨٪	وتسود في وسط الدكن .
٦ ـ كوجراتي	ويتكلم بها	٥٪	وتسود في شمال شرقي بومباي .
٧ ـ مالايام	ويتكلم بها	٤٪	وتسود في جنوب غربي الدكن .
٨ ـ الأُوردو	ويتكلم بها	٢٪	وتسود في البنجاب الشرقية .
٩ ـ الأسامية	ويتكلم بها	٢٪	وتسود في آسام .
١٠ ـ الكشميرية	ويتكلم بها	١٪	وتسود في كشمير .
١١ ـ لغات أخرى	ويتكلم بها	٢٪	وتسود في مناطق أخرى .
		١٠٠٪	

كان البراهميون في الهند يعدّون المسلمين المقيمين معهم في دولةٍ واحدةٍ أعداءهم الحقيقيين نتيجة النظرة الدينية التي ألمحنا إليها ، ونتيجة الحقد الذي أورثهم إياه الاستعمار الإنكليزي ، وبسبب كثرتهم العددية لذا كانت مخططاتهم محاولة القضاء عليهم بأيّة صورةٍ كانت بالحرب ، بالإبادة ، بالارتداد عن دينهم ، بإذابتهم في مجتمعهم ، ووُجد مُخطّط من هذه المخططات يقضي بالعمل على الانتهاء منهم بقطع نسلهم عن طريق إعطاء النساء حقناً تحول بينها وبين الحمل ، وقد بدأ التنفيذ وتنبّه المسلمون إلى هذا ووقعت أحداث دموية إثر ذلك . كما وقعت أحداث في البنغال نتيجة لجوء أعداد منهم إلى الهند ، كما حدث في بيهار بسبب طرد جماعات من البيهاريين من بنغالديش . وتلتها جرائم البراهميين ضدّ المسلمين في أسام ، وأحداث ، وأحداث تكاد تكون يومياً .

ولعلّ من المُفيد أن نذكر الأقلّيّات المُسلمية في الهند حسب الولايات الهندية المختلفة تبعاً لإحصاء ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) .

الولاية	المسلمون	النسبة المئوية
اندهرا براديش	٣,٥٢٠,١٦٦	٨,٠٩٪
أسام	٣,٥٩٤,٠٠٦	٣٤,٠٣٪
بيهار	٧,٥٩٤,١٧٣	١٣,٤٨٪
كوجرات	٢,٢٤٩,٠٥٥	٨,٤٢٪
هريانا	٤٠٥,٧٢٣	٤,٠٤٪
هماشل براديش	٥٠,٣٢٧	١,٤٥٪
جموو كشمير	٣,٠٤٠,١٢٩	٧٥,٨٥٪
كيرالا	٤,١٦٢,٧١٨	١٩,٥٠٪
مدهيا براديش	١,٨١٥,٦٨٥	٤,٣٦٪
ماهارشترا	٤,٢٣٣,٠٢٣	٨,٤٠٪
مَني بور	٧٠,٦٩٦	٦,٦١٪
ميغاليا	٢٦,٣٤٧	٢,٦٠٪
ناغالاند	٢,٩٦٦	٠,٥٨٪
ميسور	٣,١١٣,٢٩٨	١٠,٦٣٪
أوريسا	٣٢٦,٥٠٧	١,٤٩٪
البنجاب الشرقية	١١٤,٤٤٧	٠,٨٤٪
راجستان	١,٧٧٨,٢٢٥	٦,٩٠٪
تاميل نادو براديش	٢,١٠٣,٨٩٩	٥,٤١٪
البنغال الغربية	٩,٠٦٤,٣٣٨	٣٠,٤٦٪
تري بورا	١٠٣,٩٦٣	٠,٦٨٪
اتر براديش	١٣,٦٧٦,٥٣٢	١٥,٤٨٪
اندمان ونيكوبار	١١,٦٥٥	١٠,١٢٪
دهلي	٢٦٣,٠١٩	٦,٤٧٪

الولاية	المسلمون	النسبة المئوية
لاكاديف	٣٠,٠١٩	٩٤,٣٣ ٪
بونديشيري	٢٩,١٤٣	٧,١٨ ٪
اردوناشل	٨٤٣	٠,١٨ ٪
شندي كره	٣,٧١٠	١,٤٥ ٪
دادرا ، ناغار هاقلي	٧٤٠	١,٠٠ ٪
غوا ، داماں ، ديو	٣٢,٢٥٠	٣,٧٦ ٪
المجموع	٦١,٤١٧,٩٣٤	١١,٢١ ٪

وفي عام ١٣٩٦ ، انضمّت مقاطعة « سكيم » إلى الهند ، وهي منطقة جبلية تقع بين (نيبال) و (بوتان)، والمسلمون فيها ذو نسبةٍ ضعيفةٍ شأن تلك الجهات بسبب وعورة المنطقة، وارتفاعها، وانعزالها، ونأيها.

ورغم ما يحلّ بالمسلمين في الهند من نكباتٍ، وما يُجرّد عليهم من حرب فإن عددهم يُساعدهم للوقوف في وجه هذه التيارات، إذ يُؤسّسون المدارس والجامعات والمراكز الإسلامية الخاصة بهم التي يُربّون أبناءهم فيها حسب المناهج التي يختارونها لهم، ويُوجّهونهم الوجهة التي يُريدونها، وفي الوقت نفسه يكونون في غنىً عن الدولة بشأن تسجيل أولادهم وبشأن إيجاد وظائف للمدرسين المسلمين، وتشمل هذه المؤسسات التعليمية مختلف مراحل التعليم، وأهمّ هذه المؤسسات هي:

١ - في شمالي الهند:

أ - دار العلوم التابعة لندوة العلماء ومركزها مدينة (ديوبند) في لواء (سهار نبور) في مقاطعة (اترابراديش)، وقد افتتحت باديء ذي بدء في

مسجدٍ صغيرٍ ١٢٨٣ هـ على يد الحاج محمد عابد، ثم توسعت. وتُصدر هذه الدار مجلتين اثنتين: أحدهما باللغة الأوردية وتُسمّى بمجلة دار العلوم والثانية « دعوة الحق » وتصدر منذ عهد قريب باللغة العربية، ولهذه الدار مكتبة ودار للإقامة.

ب ـ دار العلوم في لكنو وتتبع ندوة العلماء أيضاً، وتُصدر هذه الدار ثلاث مجلات.

١ ـ الرائد: ويُصدرها النادي العربي.

٢ ـ البعث الإسلامي.

٣ ـ تعمير حيات: ويُصدرها المجمع العلمي باللغة الأوردية.

جـ ـ مدرسة الإصلاح: في (سرائمير) في لواء (أعظم ڤره) وهي تتبع ندوة العلماء.

د ـ الجامعة الرحمانية: في مونجير اقليم بيهار، وتتبع ندوة العلماء.

هـ ـ مدرسة مظاهر العلوم: وهي في لواء (سهارنبور) وتُركّز في دراستها على الحديث الشريف.

و ـ المدرسة العالية النظامية: في (لكنو) وتُدرّس القرآن الكريم، والتفسير، والحديث، والفقه، والمنطق، والنحو، والصرف، والتجويد.

ز ـ المدرسة العالية: في (رامبور) وتعتني بالفلسفة والمنطق أكثر من غيرها.

٢ ـ في غربي الهند:

١ ـ دار العلوم الأشرفية: وبُنيت في مدينة نانديز من لواء (سورت) قرب بومباي وهي أقدم المدارس العربية.

ب ـ الجامعة الحسينية: في مدينة (رانديز) لواء (سورت).

جـ ـ الجامعة العربية الإسلامية: في مدينة (دابهيل) لواء سورت.

٣ - في جنوب شرقي الهند :

أ ـ جامعة دار السلام : في مدينة (عمر آباد)، وقد تأسّست عام ١٣٤٣ هـ في مقاطعة (مدراس) وأضافت إلى برامجها اللغة الإنكليزية والعلوم العصرية.

ب ـ مدرسة الباقيات الصالحات : في مدينة (ويلور)، وتأسّست عام ١٣٠١ هـ.

جـ ـ المدرسة الجمالية : في مدينة (بيرام بور)، وأُنشئت عام ١٣١٨ هـ.

٤ - في جنوب غربي الهند (إقليم مالابار) :

أ ـ روضة العلوم.

ب ـ مدينة العلوم.

جـ ـ سلم السلام.

٥ - في جنوبي الهند :

أ ـ أسس بشير أحمد سعيد مؤسسة تعليميةً عام ١٣٧١ هـ سمّاها « الوقف التعليمي لجنوبي الهند » وقامت هذه المؤسسة بإنشاء :

١ ـ كلية للشباب المسلم عام ١٣٧١ هـ سمّاها « الكلية الجديدة ».

٢ ـ كلية للبنات، وتضمّ مسجداً، وإن ٩٠٪ من طالباتها من غير المسلمات مع أن ٩٥٪ من نفقات الإنشاء، والتعليم إنما هي من أموال المسلمين.

ب ـ الكلية العثمانية في (كرنول).

جـ ـ كلية الفاروق بالقرب من قاليقوط.

د ـ كلية جمال محمد في (ترغنابلي).

٦ - في وسط الهند (حيدرآباد) :

أ ـ الجامعة النظامية : وقد بدأت عام ١٢٩٢ كمدرسةٍ بسيطةٍ في مسجد

الجمعة في مدينة حيدر آباد، وتوسّعت حتى غدت جامعةً كبيرةً.

ب ـ الجامعة العثمانية: وقد تأسست عام ١٣٠٦ هـ، وتضم اليوم ٦١ كليةً، وفيها دار للنشر والتوزيع للعلوم الشرقية والمعروفة باسم (دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد).

٧ً ـ هذا بالإضافة إلى مدارس الشيعة التي أهمها:

١ ـ الجامعة النظامية: في لكنو، وأُنشئت عام ١٣٠٨ هـ.
٢ ـ كلية الشيعة: في (لكنو)، وتأسّست عام ١٣٣٧ هـ.
٣ ـ سلطان المدارس: وأُنشئت عام ١٣١٠ هـ.

٨ً ـ وهناك مدارس البوهرا الذين يبلغ عددهم ١٠ ملايين نسمة، ويُقيم معظمهم في بومباي، وهم أغنى طوائف الهند، وتعدّ من أهم مدارسهم: المؤسسة السيفية في مدينة (سورت)، والجامعة السيفية في المدينة نفسها، وهذه المدارس تُدرّس بالعربية.

٩ً ـ أما الجامعات العصرية التي لا تتقيّد بتدريس العربية فأهمها:

أ ـ الجامعة الإسلامية في (عليكرة) التي أسّسها أحمد خان، وأصبح يتبعها فرع يضمّ كليةً خاصةً بالبنات.

ب ـ الجامعة الملية الإسلامية في دلهي.

ويوجد في مدينة عليكرة مركز ثقافي إسلامي له أهمية كبرى.

ويمكن أن نضيف إلى هذا كله أعداداً كبيرةً من المراكز وإنما اقتصرنا على أهمها، كما ونضيف أثر جماعة التبليغ التي أسّسها الشيخ محمد الياس الكاندهلوي ١٣٦٣ هـ. وينتقل أتباع هذه الجماعة في القرى والمدن يدعون إلى الإسلام ويتصلون بالناس، وقد خلفه في رئاسة هذه الجماعة ابنه محمد يوسف الكاندهلوي.

كشمير
باكستان
سهارنبور
رامبور
دهلي «دلهي»
عليكره
اغرا
لكنو
نيبال
بوتان
أسام
بورما
باتنا
مونغير
بنغلاديش
كلكتا
سورت
بومباي
دابهول
ناندير
حيدرآباد
خليج البنغال
المحيط الهندي
مدراس
ويلور
قاليقوط
المقياس
كيلومتر
١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ ٦٠٠ ٧٥٠

مصور رقم [٢] .

ونلاحظ كذلك:

١ - كلية الأنصار العربية في مالابورام في كيرالا.
٢ - جمعية الصالحات في ماليغاون.
٣ - دائرة الدراسات العربية في مدراس.
٤ - الجمعية العربية الإسلامية في مراد أباد.
٥ - الكلية العربية العزيزية في يونيكولام.
٦ - كلية أنوار العلوم في حيدرأباد.
٧ - كلية السعدية العربية في كاسارغود في كيرالا.
٨ - هيئة الطلاب المسلمين بالهند في كالكتا.
٩ - جمعية التعليم الإسلامي لعموم الهند في قاليقوط في كيرالا.
١٠ - جمعية دعوة تبليغ الإسلام في قاليقوط في كيرالا.
١١ - جمعية أهل الحديث في جمو وكشمير.
١٢ - جمعية أهل الحديث في دهلي.
١٣ - مجلس المسلمين للمشاورات في دهلي.
١٤ - الجماعة الإسلامية بالهند في دهلي.
١٥ - مجلس التعليم الإسلامي في حيدرأباد.
١٦ - مجلس تعمير ملة عموم الهند في حيدرأباد.
١٧ - مدرسة نور تحفيظ القرآن الكريم في حيدرأباد.
١٨ - دار العلوم الرحمانية في حيدرأباد.
١٩ - كلية الإلهيات في بتروكات في كيرالا.
٢٠ - اتحاد مدارس اللغة العربية في تيرور انجادي في كيرالا.

ومئات المدارس والجمعيات.

ويُلاحظ أن المؤسسات التعليمية لم تقم في المناطق التي ترتفع فيها نسبة المسلمين مثل أسام، والبنغال الغربية، وكشمير وغيرها، وإنما تتجمّع في المناطق

التي كانت مقراً للحكم الإسلامي مثل دهلي (دلهي) أو لحكومات إسلامية مثل حيدرأباد، أو كانت محطات تجارية مثل منطقة بومباي وكيرالا. ولا شك فإن نشاط المؤسسات والأفراد له دوره في هذا المجال مثل الجماعة الإسلامية وندوة العلماء، وبشير أحمد سعيد، وهذا ما نجده في (لكنو)، ومدراس حيث ينتقل الطلاب إلى الجامعات والمؤسسات التعليمية من عدة مناطق ولو كانت بعيدة لينهلوا من العلم.

وإن لتجمّع الطوائف دوره أيضاً حيث تعمل كل طائفة لصالح أبنائها، كما هي حال الشيعة في (لكنو) وبومباي، وحال البوهرا في بومباي.

(٢) نيبَال

وهي منطقة جبلية تقع شمال الهند وكانت تُعد جُزءاً منها قبل تقسيمها على أساسٍ دينيٍ، فقامت على أساسٍ بوذيٍ، وتبنّت النظام الملكي، وتبلغ مساحتها ما يقرب من ١٤٢,٠٠٠ كم٢، ولطبيعتها الجبلية، وانعزالها فإن المسلمين لم يفتحوها، وإنما انتشر الإسلام فيها بشكلٍ بطيءٍ، ولا تزيد نسبة المسلمين فيها على ٣,٨٪ من عدد سكانها البالغ عددهم عشرة ملايين نسمة، أي يُقدّر عدد المسلمين بحوالي ٣٨٠,٠٠٠ ألفاً. ولقلّة المسلمين، وعُزلتهم، وعدم اهتمام إخوانهم بهم فإن معلوماتنا عنهم قليلة، ولا نعرف شيئاً عن مُؤسّساتهم، بل لم يرد ذكرهم على لسان أحدٍ سواء أكان ذلك من المؤسسات الاسلامية، والتي تجد دعماً من بعض الحكومات الإسلامية، ولا من المؤسّسات الشعبية أو الأفراد وأهل العلم.

وتقوم في العاصمة (كاتمندو) جمعية مسلمي نيبال، ولجنة الإصلاح لكل نيبال.

(٣) بوتـــان

منطقة جبلية صغيرة تقع شمالي الهند ، وكانت تُعدّ جُزءاً منها قبل تقسيمها على أساسٍ دينيٍ ، تبلغ مساحتها ٤١,٢٨٠ كليومتراً مربعاً ، وتُشبه نيبال من حيث الطبيعة ، وهي دولة صغيرة المساحة ، وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٥٪ من عدد سكانها البالغ عددهم مليون نسمة ، وبذا يكون عدد المسلمين خمسين ألفاً ، وما ينطبق على المسلمين في نيبال ينطبق عليهم في بوتان من حيث العزلة ، وعدم الاهتمام الأمر الذي يجعلنا نخشى عليهم الضياع من النسيان .

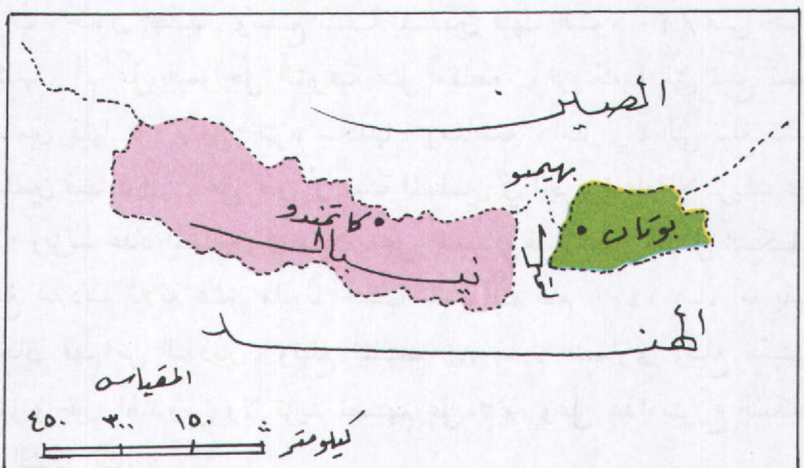

مصور رقم [٣] .

(٤) سيرلانكا

سيلان جزيرة تقع جنوب الهند ، وتُعرف دولتها باسم سيرلانكا ، وتبلغ مساحتها ٦٥,٣٦١ كيلو متراً مربعاً ، ويبلغ أقصى طول لها ٤٣٢ كيلو متراً بين الشمال والجنوب ، وأقصى عرض ٢٢٤ كيلو متراً بين الشرق والغرب .

وصل المسلمون إلى سيلان عن طريق التجارة من جنوبي جزيرة العرب ، ومن الهند ، ومن الملايو ، لذا فقد تكاثروا على السواحل سواء أكانت الشمالية الغربية مثل مقاطعة « منّار » حيث جاءها التُجّار من جنوبي جزيرة العرب وجنوبي الهند ، وتبلغ نسبة المسلمين فيها اليوم ٤٠ ٪ من مجموع سكانها ، أم على السواحل الشرقية مثل مقاطعة « ترينكو » التي تبلغ نسبة المسلمين فيها ٣٥ ٪ من مجموع سكانها ، ومقاطعة « امباري » التي تبلغ نسبة المسلمين فيها ٤٥ ٪، على حين أن نسبة المسلمين في الجزيرة عامةً لا تزيد على ٨ ٪، ويزيد عدد المسلمين في سيلان على المليون قليلاً من أصل السكان البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً حسب تقديرات عام ١٤٠٠ هـ ، أما بقية السكان فهم من البوذيين ، وتبلغ نسبتهم ٨٤ ٪، ثم النصارى وتبلغ نسبتهم ٥ ٪، وأخيراً الهندوس ولا تزيد نسبتهم على ٣ ٪، وعلى هذا يتوزّع السكان على الشكل التالي :

البوذيون	١٠,٩٣٠,٠٠٠	ونسبتهم	٨٤ ٪

المسلمون	١,٠٤٠,٠٠٠	ونسبتهم	٨٪
النصارى	٦٥٠,٠٠٠	ونسبتهم	٥٪
الهندوس	٣٩٠,٠٠٠	ونسبتهم	٣٪
المجموع	١٣,٠٠٠,٠٠٠		١٠٠٪

ومُعظم المسلمين في الجزيرة يُطلق عليهم اسم (الموروز)، وأكثرهم يعمل في فلاحة الأرض وزراعتها حيث ٥٥٪ منهم يعيش في الريف و ٤٥٪ يعيش في المدن، وإذا كان الدور الأول في انتشار الإسلام يعود للتجارة إلا أنه يجب ألا ننسى دور الدعاة الكبير، وهم قد جاءوا في أول الأمر مع التجارة وعن طريقها.

جاء الاستعمار البرتغالي عام ٩١١ هـ يحمل معه الحقد فنكّل بالمسلمين وأباد قُرىً كاملةً، وصادر أملاك المسلمين في الغرب، وقيّد حرّية المسلمين في التنقُّل داخل البلاد خوفاً من انتشار الإسلام على أيدي أولئك الذين يتنقّلون سواء أكان ذلك للعمل أم للدعوة إلى دينهم واضطر المسلمون عام ٩٣٣ أن يهجروا مواطنهم في الغرب وأن ينتقلوا إلى التلال الوسطى والسواحل الشرقية حيث كانت تلك الجهات لا تزال بأيدي السنهاليين. وقام البرتغاليون بمجزرةٍ رهيبةٍ ضدّ المسلمين عام ١٠٥٣ في مقاطعة (ماتارا) على الساحل الجنوبي، ويجب ألا ننسى أن إخراج المسلمين من الأندلس على أيديهم وأيدي الاسبان لم يمض عليه يومذاك أكثر من خمس عشرة سنة لذا فإن الحقد كبير ومحاكم التفتيش تعمل عملها.

وجاء مسلمون إلى الجزيرة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ومعظمهم من أندونيسيا والملايو جاءوا كجنودٍ أثناء الصراع الاستعماري، كما نزح إليها بعض الملايويين أثناء حكم الهولنديين لها. ويُقيم في البلاد جماعة من مسلمي الهند، وهم من رجال الأعمال والتجارة الواسعة.

وجاء الهولنديون عام ١٠٦٩ هـ فتابعوا سياسة البرتغاليين تجاه المسلمين، وأسّسوا المدارس التنصيرية للوقوف في وجه المدّ الإسلامي، وهذا ما جعل المسلمين يدخلون إلى الداخل يلتجئون إلى بعض الأمراء المحلّيين علّهم يجدون المأوى عندهم والرحمة الأمر الذي جعل الإسلام ينتشر في الداخل، وإن كانت النسبة لا تزيد على ٨٪ في أكثر المناطق اتساعاً بانتشار الإسلام في الداخل وهي مقاطعة «كاندي». وعمل الهولنديون على الضغط على المسلمين، ومنعوا الحرية الدينية، وعدّوا الإسلام ديناً غريباً يجب مقاومته، بمنع أبنائه من آداء شعائرهم.

وجاء الإنكليز عام ١٢١١ وساروا على السياسة نفسها التي سار عليها من سبقهم من النصارى. وأسّسوا المدارس التنصيرية أيضاً، وقصروا التعليم على المدارس الحكومية العلمانية، ووجهوها توجيهاً خاصاً ضدّ العقيدة الإسلامية. وأغروا المسلمين بدخولها، ولكن المسلمين عرفوا من المستعمرين النصارى الذين سبقوا الإنكليز ما نالهم، وما خططه المستعمرون لضرب العقيدة الإسلامية لذا فقد أحجموا عن انتسابهم إلى هذه المدارس الأمر الذي أبقاهم في حالة من التخلّف والجهل على حين سبقهم غيرهم لما نالوا من علمٍ على أيدي المستعمرين.

واستقلّت سيلان عام ١٣٦٧ هـ يوم استقلّت الهند إذ كانت جزءاً منها ويُلاقي المسلمون في ظلّ عهد الاستقلال الاضطهاد بين الآونة والأخرى، ولم يكن هذا الاضطهاد ليأتي مباشرةً من قبل الحكومة البوذية، وإنما من تحريض أصحاب الديانة البوذية، ودسائس النصارى غالباً.

وفي عام ١٣٩٨ كان للمسلمين ١٤٠٠ مسجد، و٤٠٠ مدرسة للقرآن الكريم، و٥٩٨ مدرسة، و ٢٥ كلية تدرس اللغة العربية والعلوم الإسلامية. وتُدار المدارس الابتدائية الإسلامية من قبل مُنظّماتٍ إسلاميةٍ، وعلى نفقتها الخاصة ومن أشهر هذه المنظمات هي:

١ ـ الجمعية التعليمية.
٢ ـ الجماعة الإسلامية: وقد تأسّست عام ١٣٥٤ هـ.
٣ ـ جماعة أنصار السنة: وقد تأسّست عام ١٣٦٧ هـ.
٤ ـ جماعة التبليغ: وقد تأسّست عام ١٣٧٣ هـ.
٥ ـ هيئة الشبان المسلمين.
٦ ـ جبهة اتحاد المسلمين.
٧ ـ جمعية الدعوى الإسلامية السلفية والإصلاح الاجتماعي.

ويوجد هناك مكتب لمنظمة التحرير الفلسطيني، ودائرة للأوقاف الإسلامية.

ومن أبرز الكليات والمدارس الإسلامية في سيرلانكا:

١ ـ كلية الزاهرة في العاصمة كولومبو، وقد تأسّست عام ١٣١٠ هـ، وكان لها خمس مدارس فرعية إلّا أن الحكومة البوذية قد وضعت يدها على المدارس الفرعية.

٢ ـ كلية السيدات المسلمات في مدينة «كيليا» الواقعة إلى الجنوب من مدينة كولومبو بخمسين كيلومتراً تقريباً. وتشمل على قسمٍ خاصٍ بالمسلمات اليتيمات.

٣ ـ مدرسة دار الأيتام لأبناء المسلمين.

٤ ـ دار الثقافة الإسلامية المورية.

وتوجد مكتبة للمسلمين تأسّست عام ١٣٥٢ هـ.
وللمسلمين ثلاث صحفٍ تصدر شهرياً، واتحاد للطلاب المسلمين.

وغالباً ما يُمثّل المسلمين بعض النواب في المجلس النيابي السيرلانكي، وربما يختار منهم بعض الوزراء. وليس لهم تجمّع واحد، وإنما يتوزّعون بين

الأحزاب في البلاد ، ويحرص المرشحون للمجلس النيابي في الحصول على أصواتهم لذا يعملون على إرضائهم أيام الانتخابات. ولكن هذا لا يحول دون نزول بعض النكبات بهم، ويرضى عن ذلك الحكم سرّاً أو في باطـن الأمـر ، وإن كان يعلن عن أسفه ، كما تظهر الأحزاب أسفها المُبطّن بالابتهاج.

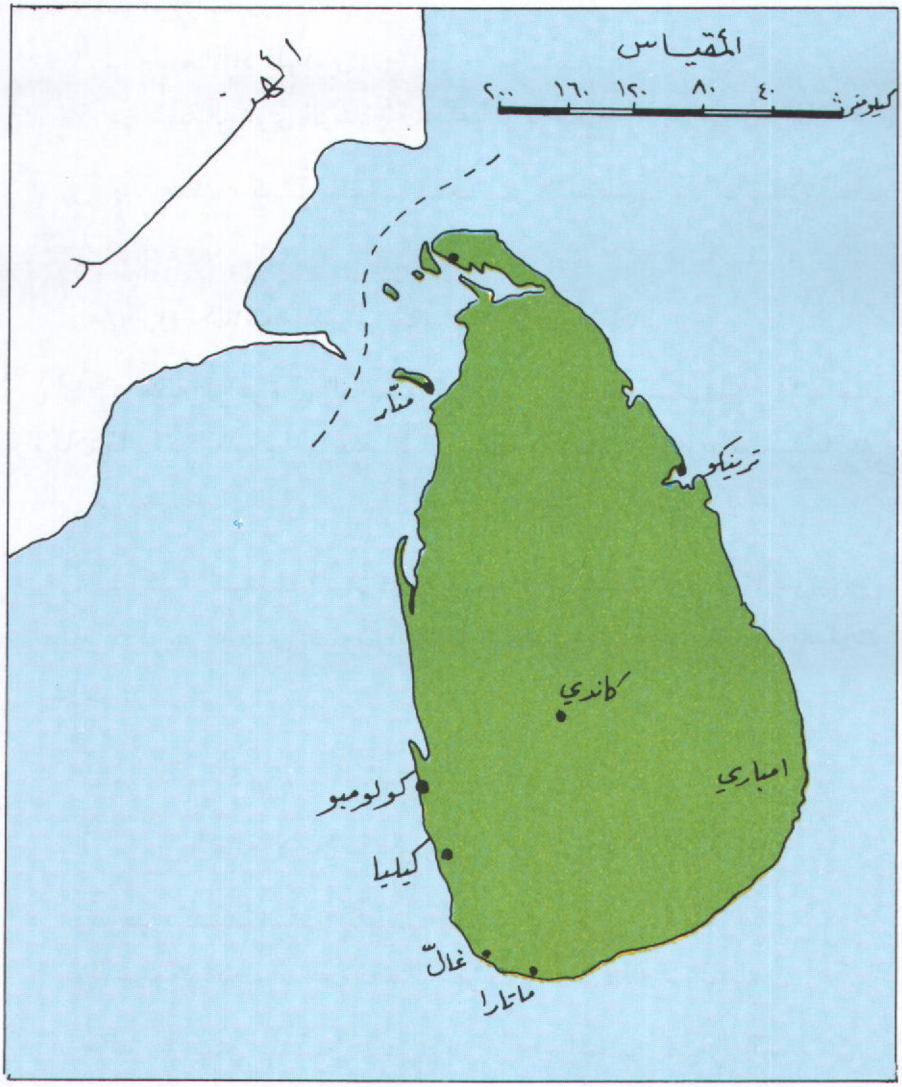

مصور رقم [٤] .

(٥) بورمـــا

تبلغ مساحة بورما ٦٨٠,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويسكنها ثلاثون مليوناً، ويدين معظمهم بالبوذية، ويعيش معهم عدد من المسلمين يتجاوز المليونين ومائة ألف مسلم أي تعادل نسبتهم ٧٪ من مجموع السكان، يقطن أكثرهم في العاصمة (رانغون)، ومدينة (ماندلي) التي تقع شمال العاصمة، وتبعد عنها ٥٩٠ كيلو متراً.

يتكلّم السكان عدداً من اللغات يزيد على العشر، وأهمها (البرمية)، وهي السائدة، ويتكلّمها أكثر السكان، أما المسلمون فيعرفونها، ولكن الكثير منهم يُتقن العربية.

وصل الإسلام إلى بورما عن طريق التجارة، إذ كان بعض التجار العرب المسلمين يحطّون رحالهم على الشواطىء.

كما انتشر الإسلام بعد عام ٦٨٦ هـ عندما غزا المسلمون التتار من الصين بورما، وخلعوا ملكها الطاغية الأمر الذي سهّل حرية الدعوة، وأعطى الناس حرية اختيار العقيدة التي يتقبّلها عقلهم، وتنسجم مع فطرتهم. وعندما حكم الهند (أورانكزيب) في القرن الحادي عشر، اختلف مع أخيه (سوجا) الذي انتقل إلى بورما ومعه عدد من أتباعه المسلمين فتوغّلوا في الداخل، وتعايشوا مع السكان، ونشروا دينهم هناك.

وبين مسلمي بورما عدد من الهنود والصينيين، وينتقل كثير من المسلمين بين (يونّان) في الصين و (ماندلي) في بورما وفقاً لما يعرض لهم من ضرورات ودوافع. والرز هو غذاء سكان بورما الرئيسي، ويزيد إنتاجها على حاجتها.

ويُعاني المسلمون الويلات من البوذيين بتحريضٍ من سدنة المعابد البوذية خوفاً من انقراض دينهم أمـام التقـدّم الإسلامـي، وليس كهنـة النصـارى والإرساليات التنصيرية، وبعثات الاستعمار، ودعاته الظاهريين والمخفيين بأقلّ تحريضاً على المسلمين من سدنة البوذية ولذا نسمع بين الآونة والأخرى عن مذابح تُصيب المسلمين دون أسبابٍ أو بادعاءاتٍ كاذبةٍ.

ويوجد المركز الإسلامي في العـاصمـة « رانغـون ». كما تـوجـد الهيئـة الإسلامية بـ (مالابار) في مدينة (مولموين).

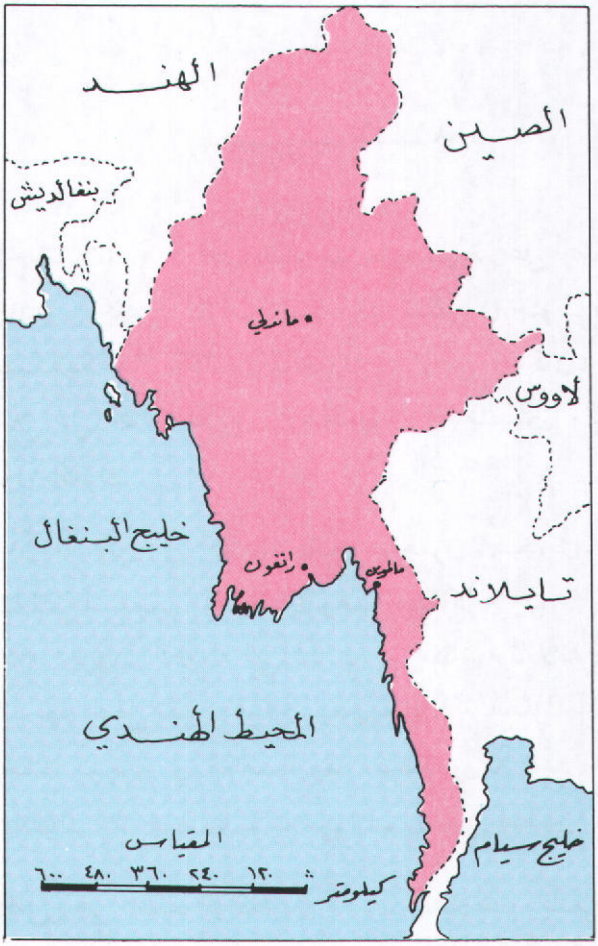
الهند
الصين
بنغالديش
ماندلي
لاووس
خليج البنغال
رنغون
مالوين
تايلاند
المحيط الهندي
المقياس
٦٠٠ ٤٨٠ ٣٦٠ ٢٤٠ ١٢٠ ٠
كيلومتر
خليج سيام

مصور رقم [٥].

(٦) تـــايـــلانـــد

تبلغ مساحة تايلاند ٥٢٠ ألف كيلو متر مربع، ويُقيم على أرضها أكثر من ستةٍ وثلاثين مليوناً، يدين أكثرهم بالبوذية التي تنتشر في جنوب شرقي آسيا، ويعيش بينهم عدد من المسلمين يُمثّلون ١٤٪ من السكان، فهم بذلك يزيدون قليلاً على خمسة ملايين، ويتجّمعون في منطقتين رئيسيتين هما: فطاني، وحول بانقوك.

والواقع أن المسلمين في كلا المنطقتين يرجعون جميعاً في أصولهم إلى فطاني، ومنها نُقل المسلمون إلى بانقوك وضواحيها كرهاً عندما كانوا يقعون في الأسر أثناء الحروب الطويلة التي نشبت بين فطاني وتايلاند، وقد قصد حكام تايلاند بهذا النقل تفتيت قوة المسلمين هناك، ثم مُحاولة إذابة المنقولين منهم في المجتمع البوذي في العاصمة وما حولها، ويبلغ عدد هؤلاء الذين يعيشون في بانقوك وما حولها ما يزيد على المليونين من المسلمين.

أ ـ **فطاني**: هي المنطقة الواقعة بين ماليزيا وتايلاند، وينتمي سكانها إلى المجموعة الملايوية، ويتكلّمون اللغة الملايوية أيضاً، ويكتبونها حتى الآن بأحرفٍ عربيةٍ، ويصرّ السكان على لغتهم وعلى الحرف العربي، على حين يُحاول الحُكّام التايلانديون نشر لغتهم لإذابة سكان فطاني في بوتقتهم، وتقوم الثورة في سبيل المحافظة على الشخصية ومحاولة الاستقلال.

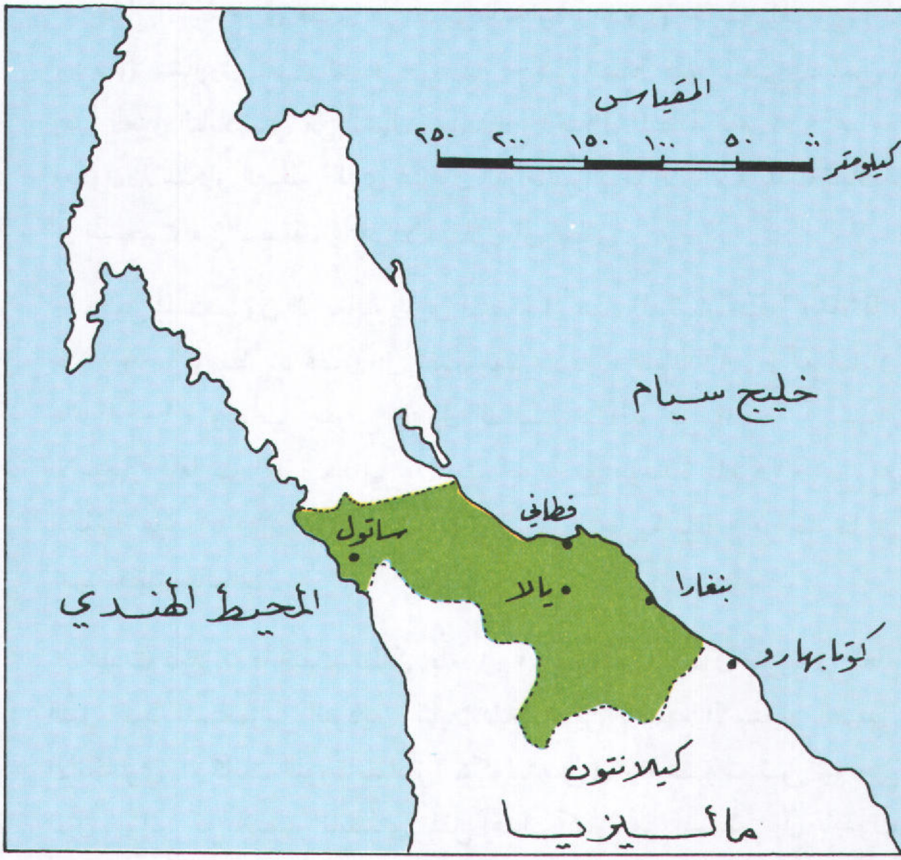
المقياس
كيلومتر
٠
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
خليج سيام
فطاني
ساتول
يالا
بنغارا
المحيط الهندي
كوتا بهارو
كيلانتون
ماليزيا

مصور رقم [٦].

يبلغ عدد سكان فطاني ثلاثة ملايين ونصف، وتزيد نسبة المسلمين بينهم على ٨٠٪، وبذا يكون عددهم ٢,٨ مليون، يُضاف لهم مليونان حول بانقوك، وأكثر من ثلاثة أرباع المليون في المناطق الباقية من شبه جزيرة الملايو والواقعة شمال منطقة فطاني وحتى ممر (كرا).

وصل الإسلام إلى فطاني عن طريق التجارة في القرن الخامس الهجري، ثم ازداد الانتشار في القرن التاسع حتى صار حكم المنطقة كلها بأيدي المسلمين، وبدأ الغزو التايلاندي من الشمال، واستطاع احتلال المنطقة عام ٩١٧ هـ مع وصول الاستعمار الصليبي الذي تمثل في البرتغاليين يومذاك، ثم لم تلبث تايلاند أن انسحبت من المنطقة، وعاد الاستقلال إلى فطاني.

وصل المستعمرون البرتغاليون إلى المنطقة في هذه المدة، واحتلّوا (مالاقا) عام ٩١٧ ، فاضطرت فطاني أن تُقيم معهم علاقات عام ٩١٩ ، ثم مع اليابان عام ١٠٠٩ ، وبدأت جيوش الدول الصليبية تتوافد على المنطقة في سبيل الاستعمار فأقامت إمارة فطاني علاقاتٍ تجاريةً مع هولندة عام ١٠١٨ ، ومع انكلترا عام ١٠٢١ ، ثم سمحت لكل الدول التجارية بإقامة مراكز لها في مدينة فطاني بالذات.

عادت تايلاند فاحتلّت فطاني عام ١٢٠١ ، وقام المسلمون بثورةٍ في العام التالي ضدّ المستعمرين البوذيين التايلانديين الذين دعمهم الاستعمار الصليبي الإنكليزي، وكانت الثورة بقيادة (تنكوليدين)، واستمرّت ثورتهم حتى الآن، وإثر كل انتصار تايلندي تُنقل أعداد كبيرة من المسلمين إلى بانقوك وضواحيها. وكان البوذيون قد قسّموا إمارة فطاني إلى سبع ولاياتٍ في سبيل إضعاف المقاومة وتجزئتها غير أن الفطانين لم يُلقوا السلاح رغم أنهم هُزموا أمام خصمهم وسيطرت تايلاند على المنطقة، ثم عادت الثورة عام ١٢٢٣ بقيادة (داتوفنكلان) الذي أعلن استقلال بلاده، وتصدّى للمستعمرين غير أنه لم ينجح، وقسّم المستعمرون فطاني إلى أجزاء أصغر. ثم قامت حركة ضدّ

التايلانديين عام ١٢٤٧ بإمرة (تنكودين)، ولكنه فشل وبدأت الوحشية التايلاندية بالنهب والتهديم واغتصاب الأرض، والقتل، ونقل الناس إلى بانقوك. وفي عام ١٣٢٠ أُلحقت فطاني بتايلند، وارتبطت ببانقوك، وغدت مديريةً تايلنديةً.

وفي عام ١٣٢١ قام الأمير تنكو عبد القادر قمر الدين يُطالب بالحرية والاستقلال فانتهى به الأمر إلى الاعتقال وحُمل إلى بانقوك، وعمّت إثر ذلك الفوضى في منطقة فطاني لضعف تايلاند لأنها كانت مهددةً من قبل فرنسا التي دخلت الهند الصينية، ثم سُوّيت الخلافات بين فرنسا وانكلترا إذ ارتبطت تايلاند مع انكلترا التي وافقت لها على ابتلاع فطاني.

وفي عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) تكتّل الفطانيون الملايويون ضدّ السلطات التايلاندية بأن أضربوا عن دفع الضرائب وايجارات الأراضي التي فَرضت عليهم ظُلماً، وفي العام نفسه نظّموا حركة تحرير ولكنها سرعان ما أُخمدت، وأُلقي القبض على عددٍ كبيرٍ من قادة الفطانيين وشعبهم، وعُذِّب عدد كبير آخر، وفريق لقي حتفه، وآخر قد لاذ بالفرار وشُرّد، وانتقل من وطنه يهيم على وجهه.

وفي عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) قام انقلاب عسكري لقلب نظام الحكم الملكي المطلق إلى نظام ملكي دستوري، ولم يكن هذا الانقلاب ليُكتب له النجاح قبل الاتفاق مع زعماء فطاني، وعندها تقدّمت فطاني بمطالبها لحكومة بانقوك الجديدة، وكانت على النحو التالي:

١ - تعيين حاكمٍ واحدٍ على المديريات الأربع (فطاني، جالا، ساتول، بنغارا)، وتكون له سلطات واسعة، وحقّ عزل وايقاف واستبدال جميع الموظفين، على أن يكون فطاني المولد، ويعود في منشئه إلى إحدى المديريات الأربع، ويختار من قبل أهل البلاد.

٢ ـ أن يدين ٨٠٪ من موظفي الحكومة بالدين الإسلامي.

٣ ـ أن تكون اللغتان الملايوية والسيامية رسميتين.

٤ ـ أن تكون اللغة الملايوية لغة التعليم في المدارس الابتدائية.

٥ ـ الاعتراف بالشريعة الإسلامية، وتطبيقها في المحاكم الشرعية على أن تكون إدارةً قائمةً بذاتها ومستقلةً تماماً عن المحاكم المدنية التي يرأسها تايلاندي.

٦ ـ تكوين مجلسٍ إسلاميٍ له جميع الصلاحيات في توجيه شؤون المسلمين، وأن يكون خاضعاً لسلطة رئيس الدولة العليا المشار اليه في الفقرة الأولى.

وفي طلبٍ لاحقٍ تقدّم به الفطانيون، وهو أن تكون الجنسية الملايوية هي الشخصية الاعتبارية في رسم السياسة العامة في المديريات الأربع.

وفي محادثاتٍ غير رسميةٍ مع مندوب بانقوك اتضح أن حكومة تايلاند مستعدة للاستجابة لمثل هذه المطالب جميعها باستثناء الطلب الأول، وبالطبع فإن فطاني تعرف كما تعرف بانقوك أن الطلب الأول هو حجر الزاوية في القضية كلها، ولهذا فقد وقع اختيار الوطنيين الفطانيين على الأمير (محمود محيي الدين) أصغر أبناء السلطان (عبد القادر قمر الدين) آخر حكام فطاني والذي كان لا يزال يعيش في منفاه في (كيلانتن)، وكان محمود محيي الدين قد عاد من لندن بعد أن أنهى دراسته هناك، قامت المعارضة وعمّت الفوضى فكانت أشبه بثورةٍ تزعّمها (محمود محيي الدين) عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م)، وكان السلطان عبد القادر في منفاه يدعم هذا، ولكنه لم يلبث أن توفي في ذلك العام.

إلاّ أن انتقال السلطة في تايلاند إلى العسكريين قد جرّ وبالاً كبيراً على الشعب المسلم في فطاني، إذ حمل هذا الانقلاب معه دعوةً جديدةً، وهي إحياء

العصبية السيامية ذات الصبغة التعصبية، وكان هذا لا بدّ من أن يصطدم مع الفطانيين الذين ينتسبون إلى عنصر آخر وهو الملايو.

إن الدعوة القومية تُسعر حرباً ضروساً لا تنتهي بين البلاد المتجاورة وتُشعل ناراً لا تنطفىء بين الشعوب المتقاربة الموطن، حيث يتعصّب كل امرىءٍ لعنصره، ويفخر بجنسه، فتصطدم الدعوات، وتتضارب الأفكار، وغالباً ما تكون على الحدود فئات تنتمي إلى جنسٍ غير جنسٍ أهل الدولة الذين هم ضمن إطارها، إنما يمتون إلى عنصر البلد الثانية، فيكونون عوناً لبني جلدتهم على أبناء مسكنهم، فيُقاسون الويل، ويُتّهمون بأنواع التُّهم وهم الذين جُرّوا إلى العنصرية جرّاً، واضطروا أن يسلكوا هذا السبيل اضطراراً.

وعندما اعتلى الفريق أول (فيبون سنقرام) السلطة في تايلاند عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) تعرّض الشعب الفطاني لضغطٍ أكثر، والحقيقة أن هدف تايلاند منذ عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) إنما هو ابتلاع الشعب الفطاني، وقد واصلت تايلاند جهودها مباشرة بعد عام ١٣٥٧ هـ لتحويل الملايويين في فطاني إلى تايلانديين وذلك بإجبارهم على التزيّ بالزيّ التايلاندي، واستعمال اللغة التايلاندية، وقبول الثقافة التايلاندية، وحتى اتخاذ أسماء تايلاندية، ولقد حرّمت استعمال اللغة الملايوية في المدارس الحكومية وجميع مصالح الدولة، وأصبح لزاماً أن تجري جميع الشؤون الحكومية باللغة التايلاندية. وبما أن البوذية هي الديانة الرسمية في تايلاند فقد حرّمت الدعوة والتبليغ لأي دينٍ آخر، ولم يُستثن الإسلام من ذلك، كما أصبح لزاماً على كل ملايوي يُريد أن يدخل مدارس الحكومة أو غيرها من مؤسسات الثقافة، أو يعمل في وظائف الدولة أن يتسمّى بأسماء تايلاندية. وأوصدت في وجه الفطانيين الملايويين وظائف الدولة العليا، والمدارس الحربية والشرطة.

وتكوّنت في عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) لجنة الثقافة الوطنية السيامية، والتي كانت من أولى واجباتها الدعوة إلى إحياء العنصرية السيامية، وكان

الشعب الفطاني ضحيتها الأولى فهو شعب مسلم وذو ثقافةٍ إسلاميةٍ على حين أن السياميين بوذيون وأصحاب ثقافةٍ بوذيةٍ، وقد أغلق السياميون المساجد والمدارس الدينية، وأجبروا المسلمين على دخول المعابد البوذية، كما كانت هناك معاملة تمييزٍ واضحةٍ كل الوضوح.

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ولم يستطع الفطانيون تنظيم أنفسهم لمقاومة هذه الاجراءات التي اتخذها التايلانديون ضدّهم، وفي ٨ كانون الأول ١٩٤١ م (ذي القعدة ١٣٦٠ هـ) نزل اليابانيون في (كيلانتن) وفطاني، وبينما كان اليابانيون يحتلّون البلاد، استطاع الانكليز أن يُهيئوا حركة مقاومةٍ أرضيةٍ لطرد اليابانيين، وقد اعتمدوا على تعاونهم مع الأمير (محمود محيي الدين) الذي اقتنع بوعود الإنكليز أن بلاده ستحصل على الاستقلال بمجرد فوز الحلفاء في الحرب.

انتهت الحرب عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) واندحرت اليابان، وانتصر الحلفاء، ولم يحصل الفطانيون على شيءٍ من الوعود التي قُطعت لهم بل وضعت اقتصاديات البلاد تحت تصرّف انكلترا.

وفي ٢٤ آب ١٩٤٨ م (١٩ شوال ١٣٦٧ هـ) تكاتف المسلمون وعلماؤهم، وقدّم أحد العلماء وهو الحاج محمد سولونغ رئيس الهيئة التنفيذية لأحكام الشريعة الإسلامية باسم الشعب الفطاني مطالبه السبعة إلى الحكومة السيامية وهي:

١ ـ أن تُعيّن الحكومة التايلاندية حاكماً عاماً مسلماً على الولايات الأربع يختاره الشعب من أبناء هذه الولايات، وأن تُمنح له كافة السلطات التي تكفل له حرية التصرّف وإدارة هذه الولايات.

٢ ـ ان لا تخرج محصولات وموارد هذه الولايات الأربع إلى أية ولايةٍ أُخرى، بل يجب أن ينتفع بها محلياً في الإصلاحات التي تحتاجها الولايات الأربع.

٣ ـ أن تفرض الحكومة دراسة اللغة الملايوية في المدارس الابتدائية في الولايات الأربع حتى السنة الرابعة.

٤ ـ أن يكون ٨٠٪ من مجموع موظفي الدولة في هذه الولايات الأربع من المسلمين والمولودين في هذه الولايات.

٥ ـ أن تكون اللغة الملايوية بجانب اللغة التايلاندية في استعمالها في الدواوين وإدارات الحكومة.

٦ ـ أن تعترف الحكومة بشرعية المجلس الديني للولايات الأربع وأحقيته في إصدار القرارات التي تتعلّق بالمسائل الدينية، وأن تكون تلك القرارات والقوانين بموافقة الحاكم المسلم الذي يختاره الشعب من أبناء هذه الولايات الأربع كما هو مذكور في المطلب الأول.

٧ ـ أن تفصل الحكومة التايلاندية القضاء الشرعي عن القضاء المدني الحكومي في هذه الولايات الأربع، وأن يكون للقضاء الشرعي الاستقلال في إصدار الأحكام التي تُوافق الشريعة الإسلامية. ويُلاحظ أن هذه المطالب لم تتبدّل منذ دخول تايلاند منطقة فطاني.

كما رفع تقرير في العام نفسه (١٣٦٧ هـ) إلى الأمم المتحدة يتضمن طلب ايجاد تحالفٍ واسعٍ للبلاد الفطانية الملايوية يتمشّى مع رغبات شعوب العالم المحبة للسلام عامةً والشعوب الكبيرة خاصةً والتي تُؤيّد الحقوق الدولية، وإن قيام دولةٍ فطانيةٍ ملايوية على صغرها أمر يدعمه الحقّ الدولي والعدل، وأن شعبها كسائر شعوب الأرض من حقه أن يعيش كما تعيش الشعوب الأخرى.

وبسبب هذه المطالب قُبض على الحاج محمد سولونغ ورفاقه الأربعة، وقُدّموا للمحاكمة، وحُكم عليهم بالسجن ثلاث سنوات إلا أنه أُفرج عنهم قبل أن يُمضوا المدة المُقرّرة، ثم أُلقي القبض عليهم مرةً أخرى، واغتيلوا

سراً في ولاية (سنغورا) في ١٤ ذي الحجة ١٣٧٣ هـ (١٣ آب ١٩٥٤ م).

وقد كان للانقلاب العسكري الذي وقع في تايلاند عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) اثره الكبير إذ طلب الوطنيون الفطانيون إجراء تحقيق في القضية الفطانية قبل الاعتراف بالوضع الجديد، ولكن بريطانيا اعترفت بالحكومة التايلاندية، وأذاعت عن رغبتها في ايجاد حلٍ عادلٍ لفطاني.

وأرسلت البرقيات الكثيرة من مُؤسّسات ومُنظّمات ورجالات فطاني للأُمم المتحدة لإرسال وفدٍ للتحقيق من قبل مجلس الأمن ليرى طرق الحكم الفاشي التايلاندي وسيطرة الطاغوت، كما طالبت البرقيات بإجراء استفتاءٍ عادلٍ تحت إشرافٍ دوليٍ ليُقرّر الشعب الفطاني بمقتضاه نوع الحكومة التي يرضاها لنفسه من ضمن الشعوب التي كانت قد غُلب على أمرها، وسُلبت حريتها. وقد جاء وفد من الأمم المتحدة ليدرس أوضاع الفطانيين ولكن حيل بينه وبين الاتصال بالشعب وذلك في عام ١٣٦٨ هـ.

كما كانت هناك حركة منظمة تُعبّر عن رغبة الملايويين الفطانيين في الاتحاد مع الملايو بدلاً من تايلاند، وقد رفعت الحركة هذه عريضةً للأمم المتحدة تحمل ٢٥٠,٠٠٠ توقيعاً مع بصمات أصابعهم، وهذا العدد يُشكّل نصف عدد السكان الملايويين البالغين في مديريات (فطاني) و(جالا) و(بنغنارا) التي وجد فيها التنظيم، وعندما اكتشفت حكومة تايلاند أمر هذه الحركة نقلت كثيراً من قادتها إلى بانقوك.

وفي عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) قام انقلاب جديد في بانقوك.

ولكن السياسة العامة لم تتبدّل في تايلاند نتيجة الانقلاب العسكري الجديد، وإنما اتبع العهد الجديد، ما سار عليه أسلافه في محاولةٍ لصهر فطاني وإذابة كيانها، على اعتبار أن التايلانديين يعدّون هذا من أول أهداف بلدهم ومصالحه. وبالمقابل فلم يُفكّر الفطانيون بتغيير شيء في خطّتهم لأنهم كانوا

يتوقّعون ما حدث، وخاصةً بعد أن جرّبوا مختلف الوسائل مع أعدائهم، وعرفوا مكر التايلانديين وخداعهم، يتقرّب منهم كل حكم جديدٍ، ويظهر النوايا السليمة وإمكانية الوصول إلى الحقّ، حتى إذا ما استقرّ وضعه، وأمكنته الفرصة أعمل الناب، وكشف اللثام عن حقيقة نواياه.

تشكّلت أول حركةٍ كبرى عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) لتوحيد المسلمين وجمع كلمتهم وتنسيق جهودهم وكان لهذه المُنظّمة الدور الكبير في كل الأحداث التي تلت ظهورها.

وفي عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) تكونت عدّة مُنظمات وأحزابٍ سياسيةٍ لمواصلة الكفاح ضدّ الحاكم السيامي، ولكن للقيادات المتعددة خطرها الكبير، وللتنظيمات الكثيرة دورها الخطير، حيث يمكن الاندساس بين الصفوف، ووجود الخلافات بين القيادات، والقتال بين الأفراد، والتنافس الدائم للظهور بالمظهر الأقوى، ولذا كانت أهم نقطةٍ يعتمد عليها الأعداء هي ايجاد الانقسام في صفوف الجماعة، ووجود الانشقاق بين الأعضاء لتعدّد القيادات، ولوجود هذه القيادات العديدة في فطاني سرعان ما كُشف سرّها على يد بعض الخونة المندسين، فألقي القبض على بعض الزعماء المخلصين أمثال الحاج (أمين) وذلك في عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).

أمام الأمر الواقع ووجود بعض الخونة في الصفوف، وأمام الموقف الاستبدادي التايلاندي اضطرت المنظمات إلى اللقاء أولاً ثم تغيّرت الخطة السلمية التي كانت تنتهجها الثورة، فتشكّلت الفرق الفدائية المُسلحة لتقوم بحرب العصابات ضد الاستعمار التايلاندي.

وبدأ القتال ولا تزال الحركة قائمةً حتى يومنا هذا غير أن الخلاف بين الحركات عاد فبزغ قرنه.

الأساليب الاستعمارية: يلجأ الاستعمار التايلاندي إلى عددٍ من الأساليب

الماكرة والمخططات المدروسة في سبيل تمكين قبضته على فطاني، وإمكانية صهر الشخصية الفطانية في البوتقة السيامية وأهم هذه الأساليب:

١ - الهجرة: إن أرض فطاني معروفة بخصوبة تُربتها وغنى بقاعها، لذا تعمل الحكومة على تشجيع التايلانديين للهجرة من الشمال إلى الجنوب، من أرض سيام إلى أرض فطاني، وهي تعمل دائبةً على إقامة المعسكرات لاستقبال وتوطين هؤلاء المهاجرين، كما أنها تفتح الأراضي الواسعة ضمن الغابات، وتستولي على أحسن وأخصب البقاع، وتعدّ المدن للوافدين الجدد من الشمال بإقامة المرافق العامة من مدارس ومصحّات، وتُقدّم كافة التسهيلات للمنتقلين التايلانديين، على حين أن القرى والمدن الموجودة في البلاد كثيرا ما تكون محرومةً من هذه المرافق. إضافة إلى هذا كله فهي تنقل الموظفين مع عائلاتهم للعمل في فطاني واستلام وظائفهم فيها، وتمنّيهم بالأماني فيما إذا استقرّوا حيث هم، وتبذل لهم العطايا السخية في سبيل ذلك، وتأمل الحكومة من هذا الأسلوب.

١ - إضعاف نسبة المسلمين في هذه المناطق الفطانية، ورفع النسبة العددية البوذية.

٢ - اتخاذ هؤلاء المهاجرين جواسيس وعيوناً لها ينقلون لها أخبار الفطانيين كاملةً.

٣ - الاستعانة بالوافدين الجدد في حالة وجود صدامٍ واشتباكاتٍ بين الطرفين.

٤ - تحقيق السيطرة الاقتصادية بسيطرة المهاجرين البوذيين على الموارد والأراضي الزراعية.

٥ - نشر الثقافة والعادات البوذية في هذه المناطق.

وقد بلغت خطورة هذه الهجرة أن بلغ عدد المهاجرين حتى عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) ٥٠,٠٠٠ نسمة وتُعادل هذه الهجرة ٨٠٠٠ عائلة.

وقد استولوا على مساحاتٍ واسعةٍ من الأراضي.

٢ ـ الاقتصاد: استولت حكومة تايلاند على أخصب أراضي المسلمين، وأعطتها للبوذيين السياميين، وبالتالي فإن حجم الإنتاج والمحصول الزراعي الذي بقي للمسلمين أصبح صغيراً جداً، كما أن رؤوس الأموال موزعة بين البوذيين والصينيين والهنود، ومن هنا نتبين ضعف دخل الفرد المسلم وانخفاض مستوى معاشه. ومع ذلك فإن البقية الباقية من المسلمين المزارعين تُفرض عليهم الضرائب العالية بخلاف المزارعين التايلانديين الذين تُقدّم لهم التسهيلات. كما أن الحكومة تتحكّم في سعر مادة الرز والتي تعدّ المحصول الأول في فطاني.

وتأمل الحكومة التايلاندية من هذا الأسلوب أن يخضع الشعب ويرضخ للأمر الواقع، ويستكين، فكما هو معروف أن الشعب الغني يصعب حكمه وإخضاعه بينما الشعب الفقير يسهل إسكاته وإجباره على قبول الأمر والواقع المفروض وهذه سياسة الاستبداديين التي يلجأ إليها الطغاة والمستعمرون، فيسعون إلى إفقار الشعب بأية وسيلةٍ من الوسائل، ويتمادون في إذلال الرعية مُتسلّحين بكافة وسائل التعسُّف.

٣ ـ التعليم: كانت المدارس والمعاهد في فطاني تُدّرس باللغة الملايوية، ويتولّى التعليم فيها أساتذة فطانيون، فقامت الحكومة التايلاندية بإنشاء مدارس يكون التعليم فيها باللغة السيامية، وأحضروا لها المدرسين السياميين، وجعلوا المناهج فيها تخدم مصالحهم، وذلك من أجل احتواء الشعب الفطاني. ثم قامت الحكومة بعد ذلك باغلاق تلك المدارس التي تُعلّم باللغة الملايوية، وعمدت إلى إغلاق أكثر الكتاتيب التي تنتشر في كثيرٍ من أرجاء المنطقة، بل وجعلت بعض هذه الكتاتيب تُعلّم باللغة التايلاندية وتحت إشراف الحكومة بالذات، وفي الوقت الذي قلّت فيه أهمية التربية الإسلامية أُدخلت البوذية. وكان على الطالب الذي يُريد الانتساب إلى مدارس الحكومة أن يُغيّر اسمه العربي أو

الملايوي إلى اسمٍ سياميٍ بوذيٍ ، وفوق هذا ضيّقت مجالات العمل أمام الذين يتخرّجون من المدارس التي تُعلّم باللغـة الملايـويـة ، إذ اشترطـت على هؤلاء الخريجين أن يُجيدوا الكتابة والقـراءة بـالتـايلانـديـة وإلا فلا قيمـة لشهاداتهم أبداً . هذا بالإضافة إلى تعيين الموظفين الذين يجهلون الإسلام في مراكز الإفتاء والقضاء وتعليم التربية الإسلامية ، وتأمل الحكومة من تطبيق هذا الأسلوب إبعاد المسلمين عن لغتهم ودينهم لإمكانية صهرهم في البوتقة السيامية . أما بالنسبة للمدارس الإسلامية في فطاني فيطلق عليها (فندق Funduk) .

وقد انتشرت في الآونة الأخيرة موجة من اختطاف المدرسين . حيث وقعت ٤ حوادث اختطاف خلال أسبوعين في بداية ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) وطالب المختطفون بفديةٍ قيمتها ١٢,٥٠٠ دولار لذا أسرعت الحكومة ، وأغلقت أكثر من ثلاثين مدرسة ابتدائية وثانوية في إقليم فطاني لأجلٍ غير مُسمّى . وإلى جانب هذه الأساليب الرئيسية توجد طرق ثانية يلجأ إليها التايلانديون منها .

أ - محاولة نشر الخلاف والخصومـات بين العلماء عـن طـريـق بـثّ الفتن وإثارة الخلافات بين المدن ، والمناطق ، والأهالي .

ب - إقامة معابد بوذيةٍ في كل القرى والمدن الإسلامية حتى يُظنّ أن هذه الولايات بوذية وليست إسلامية .

حـ - منع دخول المسلمين من خارج فطاني إليها ، وكذا الصحفيين .

د - محاولة نشر المفاسد بإقامة بيوت الدعارة الرسمية والملاهي الليلية ، وتعليم الرقص في المدارس .

هـ - تحريف آيات كتاب الله وأحاديث الرسول الكريم أثناء ترجمتها إلى اللغة التايلاندية .

و - إجبار المسلمين أثناء قصدهم بيت الله على السفر إلى بانقوك ومن

هنـاك إلى مكّـة، والمرور بهم على المعسكـرات الحربيـة والمعتقلات والسجون ومراكز التعذيب.

ز ـ استقدام عدد من المدرسين اليهود من فلسطين وذلك لبثّ كراهية العرب في النفوس، ومن ثمّ كراهية المسلمين عامةً، وبذا لا يمكن أن يتلقّى الفطانيون أيّة مساعداتٍ من العالم الإسلامي.

ولم تكن هذه السياسة وليدة الأيام الأخيرة وإنما مضى على تطبيقها أكثر من نصف قرنٍ، وكانت بعض التحليلات السياسية تصدر عن مشكلة فطاني في بعض الصحف العالمية ويمكن أن نلمح عن بعضها باقتطاف فقرات منها:

« إن تايلاند في ممارستها سياسة استيعاب الشعب الفطاني الذي يتحدّث لغة الملايو، قد أجبر على تعلّم اللغة التايلاندية، وهكذا فإن حقوقه الأساسية قد أُهدرت وسُرقت، وإن الاحتجاجـات والاضطـرابـات مستمـرة. وإن الشعب الفطاني عازم على الإبقاء على كينونته، وإن معركة التحرير مستمـرة على الرغم من جميع أساليب الكبت والإرهاب التي يُمارسها حُكّام تايلاند. وفيها يظهر عدم رضى الشعب الفطاني من السلطات التـايلانديـة لفـرضهـا الضرائب الكثيرة ولاتباعها أساليب تعليمية في المدارس لا تتمشّى مع أهداف الشعب الفطاني.

إن الزيـادة الكبيرة في الضرائـب وسـوء استعمال السلطـة وفـرض أعمال السخرة والعمل الإجباري كان يمكن أن يحتمل دون اللجوء إلى القيام بثورة، ولكن كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، ظهر الشعب الفطاني الرازح تحت وطأة الاستبداد وتحت ضغط قوانين التعليم الجديدة وهي تتلخّص في إلغاء التعليم الإسلامي حتى في المساجد وإلزام أطفال المسلمين الفطانيين بدراسة وتطبيق القوانين البوذية في المدارس التايلاندية، وكذلك سمح للأُسر التايلاندية بالاستيطان في القرى الفطـانيـة الخالصة، ومنحهـم حقـوق تملّـك الأراضي ومعاونتهم حتى يتمكّنوا من حصاد محصـولاتهم. إن (تـايلاندة) الفطـانيين

(تحويلهم إلى تايلانديين) وتدمير عقيدتهم الإسلامية كان دائماً من وراء جميع هذه الاضطهادات غير الإنسانية، فقد كان ينبغي أن يُؤخذ في الحسبان أن فطاني بلد ملايوي، وأن اللغة السيامية لا يُتحدّث بها إلاّ حيث يُوجد الموظّفون التايلانديون على طول الساحل، وفي بعض المناطق الداخلية في المدن الكبرى »[1].

وكتب بارارا وتنغهام جونز « إن الحظر الذي فُرض على التعليم الفطاني قد أثار ضجةً عارمةً، وإن القوانين المُجحفة والحظر الذي فُرض على المدارس الملايوية، والذي كان قد رُفع مباشرةً بعد زمن التحرّر عندما كانت سيام وما زالت ينظر إليها نظرة العدو، هذه القوانين قد طُبّقت الآن، وعلى طول الطريق كنت أرى المدارس الملايوية مُغلقةً ومهجورةً وحتى المدارس الإسلامية الخالصة قد طُبّقت عليها هذه القوانين.

وعلى الرغم من أن مدرسة أو مدرستين من مدارس الملايوية ما زالت باقيةً وخاصةً في (يالا) و(بنغنارا) فإن عدداً أكبر قد أُجبر على الإغلاق وذلك قبل يومٍ أو أكثر من زيارتي.

وبما أن الشعب الفطاني قد رفض أن يرسل أبناءه للمدارس التايلاندية، وظلّ يُقاوم بعنفٍ اللغة التايلاندية (طوال زيارتي لم أجد إلاّ شخصاً فطانياً مُوظّفاً سابقاً يستطيع أن يقرأ أو يكتب اللغة التايلاندية) فإن هذا الإحجام عن التعليم من شأنه أن يُعطّل تقدّم البلاد الاجتماعي والاقتصادي. وتظل الشقّة تتسع بين الشعب الفطاني والغزاة التايلانديين بينما يُهاجم المستعمرون التايلانديون الشعب الفطاني، ويتّهمونه بالجهل والتخلّف. ومن وضع الفطانيين المنبوذين من المجتمع فإنه ليس غريباً أن تتحول العناصر الأكثر ثورةً وحماسةً إلى أعداء للمجتمع وتصبح لصوصاً وقُطّاع طرقٍ وجماعات اغتصاب.

---

(١) بينانغ غازيت شباط ١٩٢٣ م.

وعلى الرغم من أن الخروج على القانون وتكوين العصابات ليس وقفاً على جنس فالتايلانديون أو الصينيون أو الملايويون يمكن أن يكونوا كذلك. وإن فساد الموظفين التايلانديين على مستوى القطر والتمييز والعنصرية يُعرّض الملايويين الفطانيين للتهديد والاضطهاد والتعب النفسي المُستمرّ. وبمجرد الاتهام بإيواء عصابات السرقة ودون أن يُقدّم المتهم للمحكمة، يقوم البوليس التايلاندي بحرق القرى الآمنة، وتخويف الطبقة المتوسطة الثروة من أصحاب الحوانيت وتهديدهم ليدفعوا له ما يُريد من المال (مال حماية)، ويدخلون بيوت الملايويين، ويضربون النساء، وينهبون الممتلكات الصغيرة المتحركة كيفما يشاءون، وكثيراً ما يُرمى الأبرياء بالرصاص أو يختفون، ولا يُسمع عنهم أبداً، وتعيش فطاني بسبب انقطاعها التام عن العالم الخارجي في حالةٍ من الذعر والاستسلام القبيح. إن أي نقد ـ مهما كانت درجته ـ للسلطة الحاكمة يعتبر «كلام ضار» عقوبته الموت. إن الشعب الفطاني لا يملك حرية التعبير، إذ لا توجد صحف، وأجهزة المذياع قليلة، ولا يوجد جهاز سياسي يُعبّرون عن طريقه.

إن ممثلي فطاني في المجلس النيابي أغلبيتهم من التايلانديين خاصةً، وإن الأعضاء الملايويين الذين سبق اختيارهم قد فقدوا شعبيتهم بين مواطنيهم لأنهم لم يستطيعوا أن يُحققوا شيئاً من شأنه التخفيف عن مواطنيهم.

إن وسيلة التعبير الوحيدة المتبقية هي المسجد، وهنا أيضاً فإن القادة المسموح لهم بالحديث هم الأئمة (الحجاج)، ومن وقت لآخر تُهرّب جريدة باللغة الملايوية عبر الحدود من الملايو. وإن الأخبار القليلة الخارجية أو حتى الأخبار الداخلية المحلّية يتداولها الناس بينهم مُشافهةً. وعلى الرغم من هذا الاضطهاد الذي دام أكثر من نصف قرن فإن الحكم التايلاندي لم يتمكّن من انتزاع جنسية الشعب الفطاني. وقد أعجبت بصفة خاصة بالمقدرة التي أبقى بها الشعب الفطاني على تقاليده.

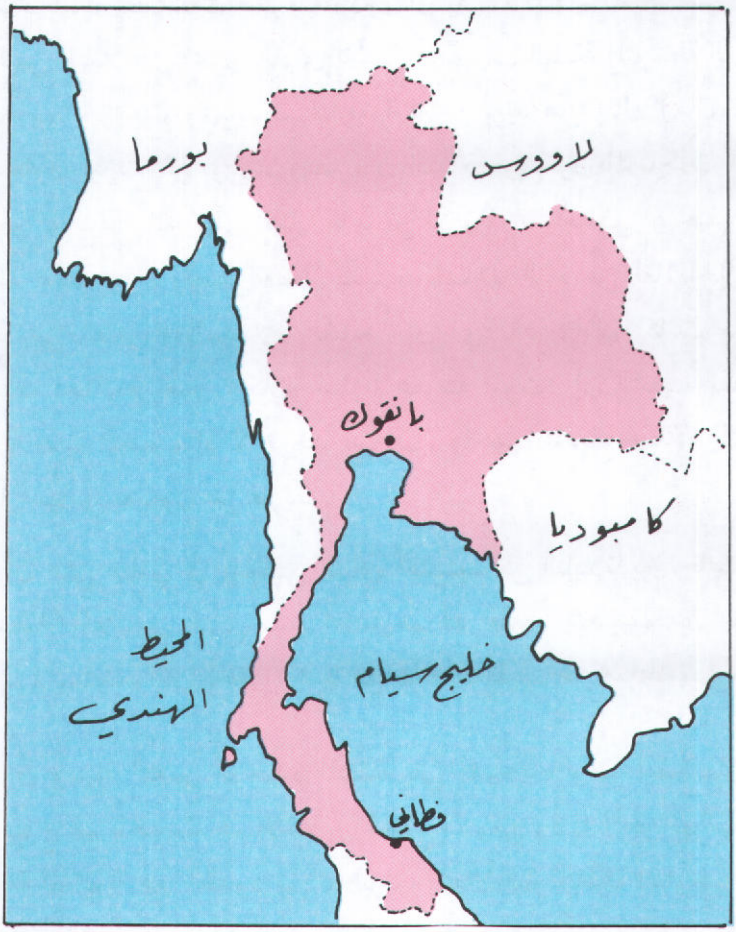

مصور رقم [٧] .

وحتى تاريخ زيارتي هذه لم يتمكّن مراقب أجنبي من زيارة فطاني قبل الحرب. وعلى الرغم من معرفة الناس باحتمالات الصدام في كل نقطةٍ توقفنا فيها، فإنهم كانوا يتجهون نحونا لعرض ظلاماتهم ومتاعبهم »[1].

وكتبت جريدة سنغافورة مقالاً بعنوان « المعركة من أجل البقاء » لصحفي اسمه (يلي بري) عام ١٩٧٠ م ومما جاء فيه: « يقولون إن التايلانديين يربطون معارضة فطاني كلها وحركتهم الوطنية بالشيوعية أو العصابات وذلك للإغراء بها، ووصمها بالعار وهذا هو السبب كما يقولون الذي يجعل البوليس التايلاندي يترك الشيوعيين يهربون إلى الجنوب حتى يجدوا من يرمون عليه اللوم على نشاط الشعب الفطاني السياسي العنيف.

إن حركة المقاومة الفطانية قد احتجّت على هذا التصرّف في خطاب أرسلوه إلى الصحافة الملايوية أخيراً يقولون فيه: إنهم قتلوا الموظفين التايلانديين ووضعوا الحواجز على الطرق لأسباب سياسية. والمتطرفون يُعارضون تسميتهم بالمسلمين التايلنديين، ويرون أن يُطلق عليهم المسلمون الفطانيون. إن نعتهم بالمسلمين التايلانديين محاولة لمسح كيانهم وإغراق جنسيتهم.

إن جهود تايلاند في إجبارهم على قبول الأسماء التايلندية والثقافة التايلاندية المقصود منها استيعابهم (تمثّلهم) في الجنسية التايلاندية، وهذا ما يرفضونه بشدّة.

إنهم يتهمون حكومة تايلاند بالعمل على تدمير لغتهم وذلك بإصرارها على استعمال اللغة التايلاندية في المدارس والمصالح الحكومية والمحاكم، وتغيير أسماء الأماكن وعلامات الطرق من اللغة الملايوية إلى التايلاندية وباختصار

---

(١) نقلاً عن « فطاني » نشر هيئة اتحاد فطاني الحرة.

مسح جميع الآثار الملايوية من الخارطة، كما أن تهجير التايلانديين من الشمال والوسط إلى فطاني جزء من خطة التدمير هذه كما يقول المتطرفون. إن الهدف هو إغراق السكان المحليين الملايويين الفطانيين بأكثريةٍ تايلانديةٍ في المديريات الأربع الفطانية وبذلك تُسيطر على المنطقة أكثرية تايلاندية.

وأسلوب آخر يُحاولونه كما يقول السكان المحليون: هو منع الاتصال بين الشعب الفطاني وماليزيا وبالعكس. وهذه المشاعر مشتركة بين الشعب الفطاني، وتدلّ على مدى الضجر والرفض الذي يملأ قلوب الفطانيين.

لقد أُلغيت وظيفة القاضي المسلم، وأُجبر المسلم الفطاني على رفع قضاياه التي كانت تحكم بها المحاكم الإسلامية إلى المحاكم التايلاندية. في عام ١٩٤٦ أعادت حكومة تايلاند امتيازات المسلمين عندما وجدت أن تطبيق القوانين أصبح مُتعذراً وفي العقد نفسه وضّح الشعب الفطاني رغبته في الاستقلال الذاتي المحلي مع بعض المطالب الأخرى. لقد طالبوا بتعيين حاكمٍ عام ليحكم المديريات الجنوبية الأربع، وأن تستخدم جميع الأموال التي تجمع من الجنوب لمصلحة المديريات الفطانية، وطالبوا أيضاً بأن تكون اللغة الملايوية لغة التعليم في المدارس، وأن يخصص ٨٠٪ من الوظائف الحكومية للفطانيين، كذلك طالبوا بتخصيص محاكم ومجالس إسلامية، وأن يكون لها الحقّ في وضع القوانين الإسلامية للمديريات الجنوبية.

إن حركة التحرير التي قامت في الملايو بعد الحرب لإجلاء البريطانيين قد امتدت إلى تايلاند. وفي عام ١٩٤٧ عندما أعاد انقلاب آخر «فيبون سنقرام» إلى الحكم ظهر قائد فطاني يدعى الحاج سولونغ إلى المُقدّمة، وعندما أُلقي القبض عليه، وحوكم بالخيانة عام ١٩٤٨ حدثت اضطرابات وتصادم بين البوليس التايلاندي والثوار الفطانيين.

وفي الملايو تكوّنت حركة التحرير الفطانية الكبرى للعمل على تسليح

الشعب الفطاني وتبليغ مطالبه للأمم المتحدة، مطالبه الخاصة بدمج إقليم فطاني في الملايو، على أن حكومة كوالالمبور كثيراً ما نفت صلتها بهذه الحركة. وفي عام ١٩٥٢، أُطلق سراح الحاج سولونغ وما لبث أن اختفى عام ١٩٦٠، وتدل جميع الوثائق المعادية لحكومة بانقوك على أنه أُغرق في (سونكلا) في عام ١٩٦٢ م[١].

إن الثوار الفطانيين ينظرون إلى تاريخ بلادهم على أنه المسوغ الرئيسي لاستقلالهم وحتى المسلمين الذين يميلون إلى بانقوك ينظرون إلى تاريخهم العظيم نظرة تفخيم وإعجاب. إن حنقهم على وضعهم الاقتصادي المُتردّي وخوفهم من تخلّف تراثهم الحضاري وثقافتهم في وسط مجتمعٍ بوذيٍ. كل هذا يجعل الشعب الفطاني مقتنعاً بأن قادة بانقوك لم يستطيعوا أن يُخفّفوا من حدّة مشكلتهم.

ولَمّا شعرت الحكومة التايلاندية بأن برامجها لتحوير مقومات الشعب الفطاني والسيطرة عليهم لم تؤت أكلها وعملت على إجراء عددٍ من التغييرات في السنوات الأخيرة لتقريب الادارة من الشعب، إلا أن استجابة تايلاند هذه كانت وما زالت عسكريةً في المقام الأول. فقد شنّت الحكومة حملةً قويةً في تشرين الثاني للقضاء على نشاط الشعب الفطاني السياسي، وبينما تنشط حركة القمع والقهر هذه في الأسابيع الأخيرة تبذل الحكومة جهداً جهيداً لكسب قلوب الشعب عن طريق بعض الإصلاحات المدنية. والملاحظ في أغلب الأحيان كما يقول الموظفون التايلانديون: إن هذه البرامج الإصلاحية كثيراً ما تعود إلى نتائج عكسيةٍ نسبيةٍ لأن الموظفين المسؤولين عن تنفيذها نوع سيء يقبلون الرشوة وإدارتهم ضعيفة. وكل فشلٍ في خطتهم يتيح الفرصة لإلهاب حركة المقاومة كحركة (باية).

---

(١) يوجد اختلاف كبير في اختفاء الحاج محمد سولونغ من الوجود.

إن حكومة تايلاند وبرامجها الإصلاحية لا تُمثّل لقائد هذه الحركة (بايه) أو (بابا إدريس) كما يسميه الشعب الفطاني سوى خداع يهدف إلى إبادة المسلمين في فطاني.

هذه الأساليب التي تقوم بها تايلاند في الداخل على حين تقوم بدعايات وأساليب خارجية لا تقلّ خطورةً عمّا تقوم به في الداخل ومن أهم الأعمال والدعاية الخارجية:

١ ـ التهمة بالشيوعية: لقد شدّدت حكومة تايلاند حملة القمع والإرهاب مُؤخّراً بحجة القضاء على المخربين والشيوعيين. ومن سوء حظّ شعب فطاني أن شرذمةً صغيرةً من الحزب الشيوعي الملايوي الصيني قد لجأت إلى الغابات على الحدود بين فطاني وماليزيا. والحكومة الماليزية تقوم بمطالبة الحكومة التايلاندية بإلقاء القبض عليهم، فتقوم السلطات بالإعلان أنها بصدد مطاردة الشيوعيين الصينيين وهي في الحقيقة تعمل على سحق روح المقاومة لدى الشعب الفطاني، ولقد أصدر مركز بحوث الشؤون الحالية في لندن دراسة في شهر كانون أول عام ١٩٦٩ عن تايلاند قال فيها بصدق: « ولكن بانقوك يبدو أنها تُراقب مقاومة الشعب الملايوي للاستيعاب باهتمام أكبر مما تُراقب حوادث الشغب على حدود ماليزيا التي يقوم بها الشيوعيون الملايويون الصينيون » ويقول: « ولعلّ التساهل النسبي الذي تبديه السلطات التايلاندية تجاه الإرهابيين الصينيين قد تأثّر بأهميتهم كقوة مساومة للتقرّب إلى بكين، ولكن استيعاب الشعب المسلم يعطي الأولوية الكبرى، إن شعب فطاني ليس شيوعياً، وإنما يُطالب بأعلى صوته بحق تقرير المصير ».

ونقول: إن المقصود من هذه التهمة منع الحركة من تلقّي أيّة مُساعداتٍ خارجيةٍ وخاصةً من ماليزيا وأندونيسيا والبلاد الإسلامية الأخرى، والدول المعادية للشيوعية، والدول الشيوعية التي تعرف الحقيقة أيضاً.

إن حكومة تايلاند قد تُظهر التأييد الشكلي لماليزيا في وقوفها ضدّ النشاط الشيوعي على الحدود الفطانية الماليزية من باب السياسة فقط، ونظراً لارتباط كلٍ من الدولتين في أحلافٍ واحدةٍ.

إن الحركة الشيوعية نشطة هي وعصاباتها في غربي فطاني حيث يكثر الصينيون في شمال غربي ماليزيا في ولاية (بيرليس)، بينما تُوجد مُنظّمة حركة تحرير فطاني على حدود فطاني مع ولاية (كيلانتن) في ماليزيا وذلك لأن الحزب الإسلامي هو الحاكم في ولاية (كيلانتن) وله قوة كبرى فيها وفي ولاية (ترينغانو) الواقعة في جنوبها. ويدعم هـذا الحزب منظمـة حـركـة تحريـر فطاني، وتلقى منه كل تأييد. وإن كثيراً من الأُسر الفطانية ما غادرت مواطنها في فطاني إلا بسبب الاضطهاد أو انشغال عمدها في القتال، وانتقلت إلى ولاية (كيلانتن) في ماليزيا وخاصةً مدينة (كوتابهارو). وإذا ما حدث الصدام بين الفريقين المتخاصمين، ولم يستطع الفطانيون الصمود التجؤوا إلى ماليزيا وغاباتها، حتى إن الحكومة الماليزية لو أرادت منع هذا الانتقال لعجزت لصعوبة مراقبة الحدود ضمن الغابات والأحراش.

والمسلمون الفطانيون يُواجهون الشيوعيين، ويتعرّضون لأذاهم ووحشيتهم كما يتعرّضون للتايلانديين.

٢ ـ التهمة بالاتصال مع أندونيسيا: تتهم حكومة تايلاند أندونيسيا بمساعدة الفطانيين وتحريضهم على الثورة ضدّ تايلاند في سبيل ضمّ فطاني وماليزيا إليها. وقد جاء هذا الاتهام في جريدة (سيام ناكورين) التي تصدر في بانقوك في عدد ٢ آذار ١٩٦٥، تحت عنوان «أندونيسيا ترغب في ضمّ فطاني (بما في ذلك ماليزيا وجميع الجزر الواقعة جنوب الفيليبين التي ينتسب سكانها للجنس نفسه، ويتحدثون اللغة الملايوية)». وإن الطلبة الفطانيين الذين يذهبون إلى أندونيسيا وماليزيا للدراسة يتعرّضون لتفتيشٍ دقيقٍ.

إن حكومة تايلاند ترى أن العناصر التي تُؤيّد حركة فطاني ينتسبون إلى ماليزيا

وأندونيسيا. وهي تهدف إلى منع الشعب الفطاني من الذهاب إلى تلك الجهات.

٣ ـ محاولة تنسيق الجهود مع حكومة الفيليبين: إن في الفلبين أقلية من المسلمين يصل عددها إلى ٦ ملايين مسلم، ويُشكّلون ١١٪ من مجموع السكان، ويعيش معظمهم في الأجزاء والجزر، الجنوبية، وتعمل حكومة الفيليبين على استيعابهم وإذابة كيانهم، ولما كانوا يرفضون هذا الاستيعاب وتلك الإذابة، لذا عملت الحكومة على اضطهادهم ومحاولة إبادتهم وتلجأ إلى الأساليب نفسها التي تلجأ إليها حكومة تايلاند. إذن تلقى كلتا الدولتين مصاعب واحدةً في سبيل الوصول إلى أهدافها، وهذا ما حدا بتايلاند إلى الاتصال بحكومة الفيليبين لتنسيق جهودهما وتبادل الخبرات، والاستفادة من التجارب.

٤ ـ اتصلت حكومة تايلاند برابطة العالم الإسلامي، وطلبت منها فتح فرع لها في بانقوك وذلك في سبيل تغطية الأعمال الاجرامية التي تقوم بها، ومن المعلوم أن في بانقوك كلية إسلامية تخضع للحكومة وإشرافها، وفي مناهجها ومدرسيها ما يدلّ على إشراف تايلاند التام عليها. كما أن المسلمين الذين يُقيمون في منطقة بانقوك قد تأقلموا بالبيئة التي عاشوا فيها منذ قرنين من الزمن، ولم تعد لهم أيّة صلةٍ بالإسلام سوى الانتساب إليه. وقد رفضت الرابطة هذا الطلب لعلمها بما يدور على أرض فطاني.

٥ ـ فتحت أبواب البلاد أمام الدعاية القاديانية التي هي بنت الاستعمار الإنكليزي وربيبته وعدوة الإسلام، ومرتدة عنه، وقد نشأت في الهند أثناء الحكم الإنكليزي لها، كما كانت تايلند تحت نفوذ الاستعمار نفسه، وذلك لإفساد عقيدة المسلمين وجعلهم يرضون بالحكم التايلاندي، ومن المعلوم أن الاستعمار الهولندي في أندونيسيا قام بهذا الدور، وهكذا فأنواع الاستعمار واحدة وإن تعددت الأسماء والأشكال ولا فرق بين الاستعمار الأوربي والآسيوي.

٦ ـ التعاون مع اسرائيل، وسنغافورة التي يرأس حكومتها يهودي، إذ تستفيد من إسرائيل التي ترسل لها المدرسين ليعلّموا في فطاني، على أنهم غرباء، كما أن إسرائيل وسنغافورة تتولّى الدعاية في الخارج ضدّ الحركة الفطانية لمصلحة تايلاند. هذا إضافةً إلى العلاقات التجارية التي تربط البلدين والتي تستفيد منه إسرائيل بشكلٍ خاصٍ بسبب المقاطعة العربية، وللحصول على منتجات البلاد الحارة حيث لا تستطيع التعامل مع أندونيسيا وماليزيا لأنهما دولتان مسلمتان ولا تعترفان باسرائيل.

القتال: بعد أن وحّد الفطانيون جهودهم، ومُنظّماتهم، وأوجدوا الفرق العسكرية، وأولوها العناية الخاصة، وكانت منظمة حركة التحرير الوطني الفطاني تشمل جانبين.

١ ـ الفرع العسكري: ويُعرف باسم جيش التحرير الوطني الفطاني، وأمين سر الشؤون العسكرية هو الحاج (غوانغ غمبول) بينما السيد (بابا إدريس) يتسلّم قيادة القوات المقاتلة.

٢ ـ الفرع المدني: ويشمل نواحي الإعلام والتنظيم ويتسلّم السيد (صالح عثمان) أمانة سر الشؤون الداخلية. ويترأس المؤتمر السيد (هاشم عبد الرحمن)، ويتسلم أمانة السر الأولى السيد (عبد الجبار الحاج يوسف).

وقد بدأت القوات الفطانية أعمالها العسكرية في شهر آب ١٩٦٩ في بعض قرى وجبال فطاني، تمكّنت هذه القوات من قتل أكثر من ٣٠٠ جندي من القوات التايلاندية حتى أواخر شهر كانون أول عام ١٩٦٩ أي في الأربعة الأشهر الأولى من بدء عملها. وعقب هذا الانتصار الذي أحرزته القوات الفطانية أعلنت الحكومة التايلاندية الأحكام العرفية في الولايات الفطانية، وأرسلت الإمدادات لقواتها حتى بلغ مجموع القوات التايلاندية المحاربة في الجنوب ١٠,٠٠٠ جندي من ضمنها ٢٠٠٠ جندي من القوات البحرية.

وفي بداية شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٠ أرسلت الحكومة التايلاندية قواتٍ إضافيةً من القوات الانتحارية التي سحبتها من قاعدة (هواهين) وذلك بسبب اشتداد المعارك في الجنوب، والهجمات العنيفة التي شنّها الفطانيون. وقامت هذه القوات الإضافية بإلقاء القبض على المواطنين المسلمين الفطانيين وزجّتهم في السجون دون محاكمة، بتهمة أنهم من رجال جيش التحرير الوطني الفطاني أو أنهم من المتعاونين مع هؤلاء المجاهدين الأبطال. ويلقى جيش التحرير الفطاني كل تأييدٍ ودعمٍ من قبل عامة الفطانيين، وهم يصبرون على ما يلقونه من أذىً واضطهادٍ، ويؤمل أن تتحقق أهدافهم، وبعضهم يُؤدّي عمله المعتاد نهاراً، وفي الليل ينخرط في صفوف المجاهدين.

ب ـ **حول بانقوك:** تعدّ منطقة فطاني ضمن العالم الإسلامي لأنها تقع على هامشه فهي تتمةٌ لأجزائه غير أن سيطرة تايلاند عليها قد جعل سكانها يُشكّلون أقليةً ضمن تايلاند.

ويعيش حول بانقوك أيضاً ما يقرب من مليوني مسلم، وإن كان أصلهم من فطاني نقلوا منها على مدار عدّة قرونٍ خلال الصراع بين الفطانيين وتايلاند، وكان الهدف من نقلهم إضعافَ قوة فطاني وإذابة قسمٍ من المسلمين في المجتمع التايلاندي، وكان النقل يتمّ إثر كل قتالٍ تنتصر فيه تايلاند فتتصرّف بالسكان المسلمين تصرّف العدو المنتصر.

وقد حقّق التايلانديون شيئاً من هدفهم في إذابة هؤلاء المسلمين المنقولين من فطاني إلى منطقة بانقوك حيث تنتشر المفاسد على نطاقٍ واسعٍ، ويعيش المسلمون فقراء كأقليةٍ وسط مجتمعٍ بوذيٍ له تقاليده وعاداته ولغته، ولا بدّ مع الزمن من أن يتخلّى المسلمون عن بعض عاداتهم ويكتسبوا عادات جديدةً كانت بالأمس غريبةً عنهم، وربما يجبرهم الفقر على ذلك، وتدعوهم الحاجة، ولا يستطيع الجهل أن يُعطيهم مناعةً، لذا فقد وقع كثير منهم فريسةً بين مخالب المفاسد وتحت وطأة الفقر ونتيجة الجهل.

غير أن الصحوة الإسلامية قد نالت عدداً منهم وبدأت تتوسّع، وأصبح المسلمون يأبون ما يرضاه البوذيون لأنفسهم، وعاد الإسلام يتقرّب من نفوس بعضهم ونرجو للخير أن تمتدّ جذوره وتتعمّق في تلك البيئة، وغدا للشباب الإسلامي بعض اللقاءات الخاصة لتدارس الإسلام وهناك بعض المؤسسات الاسلامية مثل: الكلية الإسلامية في بانقوك، والجمعية الإسلامية، ومكتبة الجمعية الإسلامية، ورابطة خريجي الجامعات المصرية، ومركز خريجي الجامعات العربية، ومؤسسة المركز الإسلامي.

ويوجد في فطاني مدرسة مهد العلوم، ومدرسة وانتاناتام الإسلامية، ومركز القادة المسلمين بجنوب تايلاند.

مشكلات فطاني: يجد الفطانيون أمام جهادهم عدّة مشكلاتٍ أهمها:

١ ـ وضع فطاني: فطاني منطقة صغيرة، لم تقم فيها دولة خاصة في هذا العصر لذا لم يسمع بها إلا القليل، ولهذا فلم تلق كثيراً من الاهتمام، إضافةً إلى الحصار الذي يفرضه عليها المستعمرون التايلانديون بمنع المسلمين وحتى الصحافيين الأجانب من الوصول إلى ساحة القتال أو منطقة الثورة، ويقع على عاتق الثورة الدعاية اللازمة لها، وخاصةً بين صفوف المسلمين الذين يجهلون كل شيءٍ عن فطاني ويجب أن يكونوا السند الحقيقي لها.

٢ ـ ماليزيا: فطاني امتداد للملايو فهي جزء منها، وترتبط معها برابط العقيدة والجنس واللغة، ومع ذلك فلا تلقى المساعدة اللازمة، ويوم كان (تانكو عبد الرحمن) رئيساً لوزراء ماليزيا كان يتوانى في مساعدة الفطانيين الذين كانوا يتهمونه بالتحيز إلى جانب التايلانديين لأن أمه منهم. وعندما انتهى حكمه في ايلول ١٩٧٠ وجاء بعده (تانكو عبد الرزاق) توسم الفطانيون فيه خيراً إلا أنهم صدموا عندما أعلن أنه سيقمع كل حركةٍ يقوم بها الانفصاليون التايلانديون بشدّةٍ. وقد قام بزيارة إلى بانقوك عاصمة

تايلاند في مطلع عام ١٩٧١ لإظهار حسن الجوار.

ولا توجد منطقة برية تفصل الفطانيين مع الخارج سوى ماليزيا.

٣ ـ الأحلاف: إن حلف جنوب شرقي آسيا يضمّ تايلاند، وماليزيا، والفيليبين، وأندونيسيا، وسنغافورة مما يجعل هذه الدول يقف بعضها بجانب بعض، وهذا ما يحول دون ان تلقى فطاني المساعدة من هذه الدول القريبة منها، وهذا بالتالي يجعل دول المعسكر الغربي كلها تدعم تايلاند، وتقف ضدّ الفطانيين وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وإن كان الخلاف الذي يحدث أحياناً بين دول المعسكر هذا للتنافس الاستعماري يجعل مشكلة فطاني تحتلّ مركزاً في بعض الصحف أو يغضّ النظر عن وصول بعض الأسلحة إليها. وكذا تدعم اسرائيل الحكومة التايلاندية.

أما المعسكر الشيوعي فهو يدعم الحركة الشيوعية التي توجد على الحدود الفطانية الماليزية من جهة الغرب.

إضافةً إلى حرب المعسكرين لمنظمة حركة تحرير فطاني الوطني لأنها تحمل بعض الجوانب الإسلامية.

٤ ـ السلاح: يجد الفطانيون صعوبةً بالغةً في الحصول على السلاح للأسباب التي ذكرناها، ويضطرون إلى دفع المبالغ الكبيرة ثمن البندقية الواحدة، فمثلاً يستعملون البنادق M. 60 الأمريكية وهي ما يستعمله التايلانديون ذاتها، ولكنهم يدفعون ثمن البندقية الواحدة ١٠٠٠ دولار في حين يحصل الفلسطينيون عليها بمبلغ ٦٥ دولار، فالفرق واضح بين الرقمين. أما الجهة التي يحصل الفطانيون على السلاح منها فلا توجد وإنما أصحاب المصالح من التايلانديين هم الذين يبيعون الأسلحة إضافةً إلى ما يأخذه المقاتلون في الاشتباكات ومن هنا يبدو واجب المسلمين كبيراً أمام الفطانيين.

(٧) فـيـتنام

تبلغ مساحة فيتنام ٣٣٦,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ما يزيد على خمسين مليوناً، يعيـش بينهم ما يقرب من مليون وربع المليون من المسلمين، وبذا يُشكّلون ٢,٥٪ من مجموع السكان، ولكن لم يسمع بهم أحد من المسلمين ـ مع الأسف ـ.

تتألّف سواحل فيتنام من قوسين أحدهما مقعر في الشمال يُشكّل خليج (طونكين) الذي يصبّ فيه النهر الأحمر، وعليه تقع العاصمة (هانوي)، والقوس الثاني مُحدّب يُساير السفوح الشرقية لسلسلة جبال (أنام)، وتتشكّل سهول ساحلية ضيقة، تتسع في الجنوب حيث تمتدّ دلتا نهر (الميكونغ)، ويُعرف الإقليم هناك باسم (كوشانشين)، ويُشرف من ناحية الغرب على خليج (سيام).

كان في منطقة فيتنام عدد من الإمارات منها: إمارة فيتنام في الشمال، ومنها إمارة تشامبا في الوسط، وكانت قد تأسست حوالي عام ٤٢٠ قبل الهجرة، أما القسم الجنوبي فكان يتبع كامبوديا.

بدأ الإسلام يصل إلى سواحل إمارة تشامبا عن طريق التجارة التي نشطت في تلك العصور، وأخذ يدخل إلى نفوس بعض الأفراد، وازداد إقبال الناس

عليه في القرن الرابع الهجري، وقامت المصاهرات بين التجار العرب المسلمين وبين السكان، وزوّج ملك تشامبا ابنته من أحد التجار العرب، ولم تلبث إمارة تشامبا أن انقلبت إلى إمارةٍ إسلاميةٍ، وتبنّى شعبها الإسلام، وبدأت هذه الدولة تتوسّع حتى بلغت أوج قوتها واتساعها عام ٨٧٥ هـ. ثم قام صراع بينها وبين إمارة فيتنام في الشمال التي أخذت تغزوها، واستمرّ هذا الغزو وهذا الصراع عدة قرونٍ ويمكن أن نُميز فيه عدة مراحل في هذه الحروب:

المرحلة الأولى: وتمتدّ من ٨٧٥ ـ ٩٤٧ هـ، وقد تمكّنت فيتنام في هذه المرحلة أن تدخل مدينة (فيجايا) عاصمة دولة تشامبا، وأن تقتل ستين ألف مسلم، وتأسر ثلاثين ألفاً آخرين، وتسوقهم إلى عاصمتها (هانوي)، وكان بينهم خمسون شخصاً من أفراد الأسرة الحاكمة في تشامبا.

المرحلة الثانية: وتمتدّ من ٩٤٧ ـ ١٠٦٠ هـ، واستطاعت فيتنام في هذه المرحلة دخول منطقة (كاوتهاوا) وهزيمة ملك تشامبا (باتهام).

المرحلة الثالثة: وتمتدّ من ١٠٦٠ ـ ١٢٣٧ هـ، وفيها فقدت تشامبا منطقة (كاوتهاوا) نهائياً، ونقلت مقرّ الحكم إلى مدينة (باندورانغا)، وغدت جموع الفيتناميين تفد إلى منطقة تشامبا، وتستقرّ فيها، وتحصل على أحسن الأراضي وأفضل الأماكن دون مُقابلٍ، تُنتزع من أيدي أصحابها التشامبيين وتُقدّم للوافدين.

المرحلة الرابعة: وكانت عام ١٢٣٨ حيث سيطرت فيتنام على أكثر أراضي تشامبا، ووزّعتها على أبنائها، وطردت منها أهلها، وعندها غادر ملك تشامبا (بوتشون) موطنه، وطلب اللجوء السياسي إلى كامبوديا فرحّب ملكها به وبمن معه، وأخذ التشامبيون المُشرّدون يتجهون إلى كامبوديا، ويستقرّون هناك، وهكذا زالت إمارة تشامبا، وضُمّت أرضها إلى فيتنام التي

أطلقت اسم دولتها على جميع المنطقة، وشُرّد أهل تشامبا في عددٍ من الجهات، وإن كان أكثرهم قد استوطن كامبوديا، ومن بقي منهم في موطنه عاش في أحضان الظلم، وفي مجتمع البؤس والشقاء.

منذ أن دخل الفيتناميون مدينة (فيجايا) عاصمة تشامبا، وهم يُمارسون أعمال الاضطهاد والتعذيب، ويقومون بالإبادة الفردية والجماعية ضدّ شعب تشامبا، وهذا ما أدّى إلى خروج كثيرٍ من أبناء تشامبا إلى الدول المجاورة لاجئين إليها فارين بدينهم وخوفاً على حياتهم ومن أن يفتنهم القوم الظالمون، كما انطلق بعضهم عبر البحر باتجاه ماليزيا وأندونيسيا، وحطّ بعضهم رحاله في ولاية (كيلانتان) في ماليزيا، وأقاموا فيها مسجداً خشبياً يتسع لأكثر من ألف مُصلٍّ، ويُعرف حتى الآن - إذ لا يزال قائماً - باسم مسجد (كامبونغ لاوت) أي مسجد قرية البحر، وقد نُقل هذا المسجد منذ بضع سنين إلى مركز الدراسات الإسلامية العالية في (كيلانتان) ويقع على بُعد سبعة أميالٍ من مدينة (كوتابهاور) عاصمة الولاية.

واستمرّ تناقص التشامبيين أو المسلمين في فيتنام بسبب الحرب، والإبادة، وعندما دخلت فرنسا مستعمرةً للمنطقة لم تقف دون عمليات القتل والاضطهاد ضدّ المسلمين، حتى خلت أكثر السهول والمدن منهم، وبقي أكبر تجمع لهم في الجبال، وقد كتب (تشارلس ليمير) أحد أفراد الجالية الفرنسية في مقاطعة (بينه دينه) أي فيجايا تقريراً جاء فيه «إن في المناطق المرتفعة ثمانين قريةً تشامبيةً تضمّ أكثر من خمسمائة ألف مسلم». وجاء في تقرير آخر له «إن التشامبيين لا يزالون موجودين حتى الآن إلا أنهم مُعرّضون لعملية الإبادة الجماعية من قبل فيتنام، ويستحقّون حمايةً مباشرةً من الحكومة الفرنسية أو يُوضعون تحت حماية منظمةٍ دوليةٍ، ولكن فرنسا لم تفعل شيئاً، فالحقد الصليبي لا يقلّ عن الحقد البوذي.

ومن الصعب جداً أن نعرف شيئاً عن المسلمين في «فيتنام» لأن الحكومة

الشيوعية هناك لا تسمح بحالٍ من الأحوال أن تخرج أيّة معلوماتٍ لا تعود بالفائدة على الحزب الحاكم، والمعلومات عن الإسلام والمسلمين من باب أولى ألا تسمح بها، وقد لا يعرف كثير من الناس حتى الآن أن في « فيتنام » مسلمين، وكل ما نعرفه أنه يوجد ما يقرب من أربعين ألف مسلم في إقليم « كوشانشين » وهو الجزء الجنوبي من فيتنام، وقد ضُمّ إليها من كامبوديا قبل أن يستولي الفيتنامون على بلاد (شامبا)، ويتـوزّعـون في منطقـة تشـادوق (ChauDoe) الواقعة على حدود كامبوديا على يمين نهر (الميكونـغ)، ومنطقـة تاي نينه (Tay Ninh) القريبة أيضاً من حدود كامبوديا، ومنطقة « سايغـون » عاصمة فيتنام الجنوبية، والتي تُسمّى اليوم (هوتشي مينه Hiocehi Minh)، كما نعلم أنه يُوجد خمسون ألفاً في إقليم (بينه تيهوان)، إلا أنهم في هذا الإقليم قد أصابهم جهل كبير بالإسلام لانقطاع الصلة به، وانقطاع الاتصال بينهم وبين إخوانهم في إقليم « كوشانشين »، وغدت مساجدهم لا تفتح إلاّ يوم الجمعة، ويُصلّي فيها الأئمة نيابةً عن الشعب، كما أنهم يصومون شهر رمضان عنهم، وعندهم بعض السور القصيرة من القرآن الكريم مكتوبة، وهذا بالنسبة الى الكبار، أما الذين تربّوا تربيةً عصريـةً فلا يظنّـون بـالـديـن ولا يعرفون عنه إلا كما يقول الأعداء إنه تقليد من تقاليد أجدادهم القدامى، وقد ارتدّ بعضهم فاعتنق النصرانية، ومنهم من سار في طريق البهائية لوصول دعاتها إليهم.

وفي عام ١٣٨١ قام بعض الأفراد المسلمين من التشامبين في « كوشانشين » وشاركهم بعض التجار الهنود بالدعوة إلى الإسلام الصحيح فوجدوا تجاوباً كبيراً، وتنبّه آلاف المسلمين فأقبلوا على تعلّم العبادات وبعض الأحكام، وبنوا المساجد في مناطقهم بشكلٍ هادىء وعلى حين غفلةٍ من الحكام، وتأسّست جمعية تُدعى الجمعية التشامبية الإسلامية الفيتنـاميـة، وتهدف إلى مساعدة المسلمين في تأدية واجباتهم الدينية في تجمّعاتهم الإسلامية التي تعيش وسط المجتمع الفيتنامي البوذي.

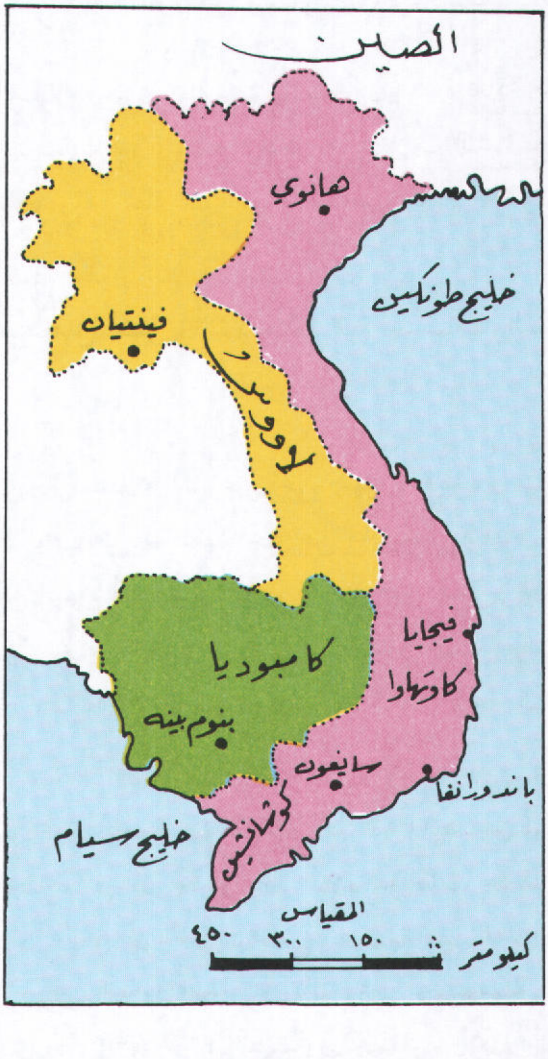

الصين
هانوي
خليج طونكين
فينتيان
لاووس
فيجايا
كاوتهاوا
كامبوديا
بنوم بينه
سايغون
باندورانقا
كوشانشين
خليج سيام
المقياس
٤٥٠
٣٠٠
١٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٨] .

أما حالتهم السياسية فقد وجد اثنان من المسؤولين من المسلمين في المدة الثانية من العهد الجمهوري أحدهما عضو في مجلس النواب والآخر عضو في مجلس الشيوخ. وكانت الحكومة الفيتنامية تُخصّص وزارةً تُدعى وزارة التنمية للشعوب الأقليـة، فتُشرف هـذه الوزارة على حيـاة التجمّعـات الإسلاميـة والقبائل المنتشرة في المناطق المرتفعة، وتختار لها وزيراً تشامبياً ـ عادةً ـ.

أما من الجانب العسكري فالمسلمون مبعدون عنه إبعاداً تاماً حيث لا يشملهم نظام التجنيد، ولا تسمح الحكومة للطلاب التشامبيين بالالتحاق بالكليات الحربية، وإذا تجاوزت أحياناً سمحت لعددٍ محدودٍ عدا الكلية الجوية.

ومع هذا استطاع المسلمون أن يُشكّلوا قوةً يحسب لها الفيتناميون ألف حساب.

الواقع الحالي: تمّ استيلاء الشيوعيين على جمهورية فيتنـام عـام ١٣٩٥ هـ فانطلق مئات الألوف من مناطقهم بحثاً عن الحرية في البلدان الأخرى من العالم، وخوفاً من انتقام الشيوعيين الذي عرفوه عند الهجوم العام على مدينة (هوى Hue) القريبة من الحدود بين دولتي فيتنام حيث أمضى الشيوعيون عشرين يوماً في دفن الآلاف من موظفي الحكومة جماعةً إثر جماعة وهم أحياء.

ولجأ الشيوعيون بعد انتصارهم الكامل عام ١٣٩٥ هـ إلى أسلوبٍ آخر إذ أقاموا سبعين سجناً ضخماً مُوزّعةً في أنحاء البلاد، وأطلقوا عليها اسم « مراكز الإصلاح والتكوين »، وزجّوا فيها بموظفي الحكومة السابقة مدنيين كانوا أم عسكريين على مستوى البلاد كلها. وقد نال كثير من هؤلاء السجناء رحمة الشيوعيين، إذ كانوا يطلقون سراح ضحيتهم بعد أن يتأكّدوا انها لن تعيش أكثر من عدّة أيام ليُهيء أهلها لها جنازتها حسب تقاليدهم المحلية.

بهذا الأسلوب يموت المسلمون وغير المسلمين في فيتنام حتى هذه اللحظة، إضافةً إلى أنه يُؤخذ بعض المعروفين من الرجال ليُقتلوا دون علم أحدٍ، فقد سيق إلى (هانوي) عبد الحميد بـن عيسى (دوحاميد) وأخوه عبد الرحيم بن عيسى (دورحيم) وكانا من كبار موظفي الحكومة السابقة، والشيخ (توكونغ توان) المعروف باسم (عبد الكريم) عضو مجلس النواب السابق، ولم يسمع عنهم حتى الآن أي خبر. وزُجّ بآلاف المسلمين في السجون، وهم يموتون فيهـا جماعةً بعد جماعةٍ، كما قُبض على أئمة المساجد بحجة أنهم رفضوا رفع صورة الزعيم الصيني (هوتشي مينه) في مساجدهم، وسيقوا إلى أماكن مجهولة ولا يُعرف عنهم حتى الآن شيء.

وأخذ الشيوعيون المساجد والمدارس التي يتعلّم فيها الأولاد تلاوة القرآن لتكون وحداتٍ صحيةً وإدارات ومقرّاً لاجتماعات عامة أو خاصة حسب أهوائهم، وأبقـوا المسجـد الجامـع الذي يقـع قـرب مبنـى مجلس الأمـة في «سايغون» العاصمة السابقة، وهو أكبر المساجد في فيتنام، وذلك ليصلي فيه رجال السياسة الذين يزورون تلك الجهات، وللدعاية بأن الحرية الدينية ممنوحة للمسلمين. ووعدوا بإبقاء هذا المسجد، كما أعادوا المسجد في هانوي ـ العاصمة ـ للمسلمين بعد أن حوّلوه إلى مصنعٍ مدةً من الزمن، وكان هذا حسب الوعد أعطوه للسفير الباكستاني أحمد خان الذي قام بزيارة المنطقة مع عددٍ من سفراء الدول الإسلامية. ولا يسمح الشيوعيون للمسلمين بأداء صلواتهم بشكلٍ عادي، فقد اشترطوا عليهم ألا تُقام صلاة الجمعة في هذا المسجد إلا بعد الحصول على التصريح بذلك من الشرطة المحلية، وتسجيل أسماء الذين سيحضرون الصلاة وعنوان كل واحدٍ منهم، وهذا التصريح يجب الحصول عليه أسبوعياً.

وبعد مضي أربع سنواتٍ على قيام الحكم الشيوعي في فيتنام الجنوبية وصل فيها المسلمون إلى حالةٍ لا يملكون فيها ما يُكفّنون به موتاهم، ففي عيد

الأضحى عام ١٣٩٨ سقط الإمام محمد داود من فوق المنبر وهو يخطب الناس، فلم يجد المسلمون ما يُكفّنون به إمامهم. ولا تجد النساء ما يسترن به عوراتهن عند الصلاة، وتُباع الأملاك بأثمانٍ بخسةٍ لا تُساوي ثمن وجبة طعام، ويُقيم كثير من المسلمين في أماكن لا تُقيم في مثلها البهائم.

وهكذا بقي من آثار المسلمين في فيتنام مسجدان أحدهما في عاصمة الشمال (هانوي) بعد أن أُعيد لهم، وآخر في (سايغون) عاصمة الجنوب، وكلاهما للدعاية وأثر من الآثار الباقية.

(٨) لاووس

تبلغ مساحة لاووس ٢٣٦,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين، وهي منطقة داخلية الأمر الذي جعل الإسلام لم يصل إليها فهي بعيدة عن مكان منشئه في الداخل، وبعيدة عن الأمكنة التي وصلت إليها فتوحاته، وبعيدة عن السواحل التي وصل إليها عن طريق التجارة، وهي بلاد جبلية قليلة السكان لم تجذب إليه الدعاة، ولم يندفع نحوها التجار.

لا يزيد عدد المسلمين في لاووس على عدة آلاف، يتجمّع معظمهم حول العاصمة (فينتيان)، ويعملون بالتجارة، ولهم جمعية معترف بها من قبل السلطات الحكومية إذ لا تُشكّل خطراً على الدولة لقلّة عدد المسلمين هناك ولانصرافها عن موضوع الدين الإسلامي.

يُحتمل أن يكون المسلمون التشامبيون قد لجؤوا إلى لاووس قبل اتجاههم نحو كامبوديا، وربما انطلق بعضهم إليها يوم شُرّدوا بشكلٍ جماعي عام ١٢٣٨ هـ، ومن سار إليها استوطن فيها، ولكن مرّ عليهم زمن طويل لم يتلقّوا فيه أمور دينهم، وكل ما تعلموه قراءة بعض سور وآيات من القرآن الكريم دون فهم معناها، وتعرّض الأبناء لحملات التنصير فتأثّر بعضهم بها، وارتدّ بعضهم عن دينه.

لقد أصبح عدد المسلمين في لاووس أقلّ من ذي قبل بسبب ما أصابهم من جهلٍ ، وارتدادٍ ، وتركٍ للعقيدة ، وإبادةٍ ، وهجرةٍ. وليس لهم أيّة هيئةٍ تُشرف على حياتهم الدينية وتُوجّههم ، فتفرّقوا حسب ظروف المعيشة بسبب الحرب ، ولا يتجاوز عددهم بضعة آلاف بما فيهم الهنود والباكستانيون ، وليس لهم من مسجدٍ يُؤدّون فيه عبادتهم ، وإنما هناك أماكن مخصصة لصلاة الجمعة فقط.

ومما يجدر ذكره أن هناك الآلاف من التجار الهنود والباكستانيين يتوزعون في أنحاء المنطقة (فيتنام ـ لاووس ـ كامبوديا) ويكثرون في فيتنام ويُشاركون إخوانهم التشامبيين ، وهم الذين أقاموا مسجد سايغون. كما يوجد آلاف من اليمنيين والحضارمة ، وقد قامت الحكومة اليمنية بعد سيطرة الشيوعيين على البلاد وبمساعدة الهيئات الدولية بنقل رعاياها وإعادتهم إلى بلادهم الأصلية.

(٩) كامبوديا

تبلغ مساحة كامبوديا ١٨٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويُقيم على أرضها أكثر من سبعة ملايين، يعيش بينهم عدد قليل من المسلمين لا يزيد على مائة وعشرين ألفاً أي ما يُساوي ٢ ٪ من مجموع السكان.

وصل الإسلام إلى السواحل ولكن بأعدادٍ قليلةٍ لأن السواحل مُتقعّرة حيث خليج (سيام) الذي تُشرف البلاد عليه، لذا تُعدّ داخليةً، إذ لم تكن هناك من محطاتٍ تجاريةٍ للسفن التي تقطع البحر ذهاباً وإياباً من وإلى الشرق الأقصى. ثم أخذ الإسلام يجد له مسالك نحو الداخل في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ولكن بنسبة ضعيفة، لذا بقيت الأعداد قليلةً، واستمرّ ذلك حتى عام ١٢٣٨ هـ عندما سقطت إمارة تشامبا بيد الفيتناميين فانتقلت جماعات من المسلمين التشامبيين إلى كامبوديا الأمر الذي زاد فيه عدد المسلمين حتى بلغوا المليون، وأصبحت نسبتهم ١٤,٧ ٪ من مجموع السكان. وظهرت قرى إسلامية في أنحاء مختلفةٍ من كامبوديا، ثم أخذت هذه القرى ترتبط بعضها مع بعض برباط العقيدة إضافةً إلى اللغة والعادات والمصير المشترك، فنشأت نتيجة هذا صلة تجمعهم تحت قيادةٍ واحدةٍ تُشرف على حياتهم الدينية ضمن الحدود التي رسمتها وزارة الدين البوذي في كامبوديا، وبذا بدوا أكثر تنظيماً من المجتمع الذي يعيشون فيه، وهذا ما أوجد حقداً

بُوذياً على المسلمين أو حقدت الدولة عليهم، ونفرّت السكان البوذيين منهم خوفاً من أن يتأثّروا بهم. وبقيت هذه القرى والمدن محافظةً على وضعها بالنسبة إلى المحيط الذي حولها إذ لم يختلط أهلها بسكان كامبوديا البوذيين.

حاولت الحكومة الكامبودية إخفاء كل ما يُمكن إخفاؤه من أحوال المسلمين فيها، وعن عددهم عن أمصار العالم الإسلامي، ومن الأساليب التي اتبعتها في ذلك تحديد عدد الحجاج في كل عامٍ بوضع الشروط والموانع في وجه الذين يُريدون أداء فريضة الحج، وعدم السماح للطلاب المسلمين بالخروج إلى الدول الإسلامية لتلقّي العلم الإسلامي وإتمام التحصيل عدا أفرادٍ محدودين، ومنها تقليل عدد المسلمين في الإحصاءات الرسمية، لذا نجد هذا الرقم مائة وخمسين ألفاً، ويصل أحياناً إلى خمسمائة ألف، وقد يرتفع إلى سبعمائة ألف، وهذا أقلّ من الواقع بكثير إذ يزيد على المليون ـ كما ذكرنا ـ.

حياة المسلمين الاجتماعية: أما حياتهم الاجتماعية فيُلاحظ التباين الواضح بين التشامبيين والكامبوديين كاختلافهم في الدين، وفي اللغة، وفي العرف وغيرها من العادات والتقاليد المحلية الأُخرى مما جعل التشامبيين يعيشون في قُرىً مستقلةٍ يُطلق عليها اسم فهوم التشام (PHuMocHaM) أي قُرى التشام.

فلكل قريةٍ أماكن معدة لصلاة الجماعة تيسيراً للساكنين في النواحي البعيدة عن مسجد القرية هذا بالنسبة إلى القرى التي فيها مساجد، أما القرى التي ليست بها مساجد وهي الكثرة فإن المسلمين يُعدّون بجانب الأماكن المُخصّصة لصلاة الجماعة مكاناً واسعاً وسط القرية ليُقيموا فيه صلاة الجمعة إذ أنه حتى الآن لا تُوجد إلا مائة واثنان وثلاثون مسجداً فقط موزعة في القرى الكبيرة.

وتحتفظ هذه القرى التشامبية بأصالتها على مدى السنين الطويلة، وتتميز بميزتها الإسلامية إذ لا مصاهرة بين التشامبيين والكامبوديين لاختلاف الدين

حيث أن نظام الزواج والطلاق والميراث في الإسلام يُطبّق في المجتمع التشامي اللهم إلا إذا أسلم الطرف الثاني وعدد هؤلاء الذين أسلموا من الكامبوديين للزواج قليل بالإضافة إلى أنهم إذا انضمّوا إلى مجموعةٍ مسلمةٍ تعلّموا لغتها ولبسوا لباسها وعملوا بتقاليدها فصاروا بذلك كالتشامبيين.

ويُشرف على كل قريةٍ تشامبيةٍ حاكم عالم[1] بأحكام الدين ومساعد له أو مساعدان، ويقوم الحاكم أو مساعده بالإشراف على المسلمين في الأحكام التي تتعلّق بالعبادات والأحوال الشخصية، ويُعيّن الإمام الذي يخطب للناس ويؤمّهم في الصلاة، والمؤذن، وذلك في يوم الجمعة، أما في الأيام الأخرى فيقدّم أحسنهم قراءةً وعلماً ليؤم الناس في الصلاة، ويقوم هؤلاء المذكورون بهذه الأعمال الدينية تطوّعاً لا يأخذون عليها أجراً لأن هذه الأعمال لا تمنعهم من ممارسة حرفهم المختلفة التي يعيشون عليها.

وتنظيم هذه القرى تحت قيادة اللجنة العليا لشؤون المسلمين التي تتكوّن من إمامٍ فقيهٍ يُطلق عليه تشيف سوبريمي (Supreme chef) ونائبين ومستشارين له، فتُدير هذه اللجنة شؤون المسلمين تحت إشرافٍ مُباشرٍ من وزارة الدين البوذي ـ في الحكومة الكامبودية.

وبعد حادث ١٣٩٠ هـ وإعلان الجمهورية ظهرت في كامبوديا جمعيتان الأولى منها الجمعية الإسلامية المركزية في كامبوديا التي تهدف إلى تثقيف المسلمين بالثقافة الإسلامية الصحيحة ومساعدتهم في تحقيق الحياة الاجتماعية على الوجه الأكمل وفقاً لتعليم الإسلام، والأخرى جمعية الشبان المسلمين في كامبوديا التي تقوم بجمع الشباب المسلمين في أنحاء البلاد وتوحيد صفوفهم وحلّ مُشكلاتهم التعليمية والاجتماعية والدينية وغير ذلك وإنشاء المساكن الداخلية للطلاب المسلمين الفقراء في العاصمة وغيرها. والواقع أن الجمعيتين

---

(١) حسب مستوى علوم الدين الإسلامي في كامبوديا فقط.

على الرغم من نشأتها في عهدٍ قريبٍ ـ قد قامتا بخدمة الإسلام والمسلمين في كامبوديا وخاصةً في أيام الحرب بشكلٍ جيد إذ أن الألوف من المسلمين في المناطق التي خضعت للسيطرة الشيوعية قد تمكّنوا من الفرار منها واللجوء إلى المناطق القريبة من العاصمة بنوم بينه (PHNOMO PENH) حيث يعيشون في حالة فقرٍ يُرثى لها فقامت اللجنة الفرعية للجمعية الإسلامية لمواجهة هذه الحالة السيئة بأعمالٍ اجتماعيةٍ وأنشطةٍ متعددةٍ بالاشتراك مع بعض المنظمات الإنسانية الأهلية والعالمية مما لم تستطع كثير من الهيئات الدينية المحلية القيام بها.

حياة المسلمين الثقافية: أما حياتهم الثقافية فإنهم كانوا ولا يزال بعضهم حتى الآن يمتنعون عن إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية خوفاً من أن يُصبحوا في المستقبل بعيدين عن الإسلام فاكتفوا بتعليمهم في المساجد والأماكن المُعدّة لصلاة الجماعة التي يحضر إليها الأولاد ذكوراً وإناثاً صباحاً ومساءً ليتعلّموا قراءة القرآن وأحكام الدين. مما يتعلّق بالعبادات والأحوال الشخصية[1].

فالنتيجة أن التعليم بقي محدوداً فنتج عن ذلك تخلّف المسلمين في المجالات الكثيرة في الحياة إلاّ أنهم يُفضّلون الجهل بالعلوم المتنوعة مع التمسُّك بالإسلام على المعرفة بالعلم التجريبي مع ترك الدين، والسبب في ذلك يرجع إلى واقع الحياة لمعظم المُتعلّمين علوماً تجريبيةً ممن تربّوا على أيدي المستعمرين التي أذهبت عنهم الأخلاق الحميدة والإحساس بالمسؤولية، والتي صوّرت لهم الحياة الإسلامية غير صالحةٍ في عصر الإنسان المتطور ـ حسب زعمهم ـ فتصرّف هؤلاء المُتعلّمون في حياتهم الواقعية على ضوء ما لقّنهم أساتذتهم المستعمرون.

---

(١) ذلك لأن التشامبيين لا يعرفون عن الإسلام غير التوحيد ثم العبادات والأحكام التي تتعلق بالأحوال الشخصية.

أمام هذه الظاهرة التي هي نتيجة التعلم في المدارس الحكومية لا يملك المسلمون ما يُدافعون به عن دينهم غير إبعاد أولادهم عن هذه المدارس.

حياة المسلمين الاقتصادية: أما حياتهم الاقتصادية فقد تأثّرت بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ بثقافتهم تأثيراً ملحوظاً، إذ أنهم لا يستطيعون ممارسة الأمور الاقتصادية المعاصرة بمستوى التعليم الذي هم عليه فتخلّفوا بذلك تخلّفاً بعيداً في هذا المجال بالنسبة إلى سكان البلاد وخاصةً الصينيين والأجناس الأخرى الذين استخدمتهم السلطات الاستعمارية في هذا المجال فمهّدت لهم الطرق التجارية والصناعية الخفيفة وسهّلت لهم السبل إليها لأغراضٍ معينةٍ.

لذا نجد المسلمين يلجؤون إلى وسائل الكسب الخفيفة كصيد الأسماك وزراعة الأرز باستخدام الحيوانات في حراثة الأرض والآلات الزراعية البسيطة، ومنهم من يعتمد على حرف الصناعة اليدوية البسيطة، وقليل منهم من يعمل في التجارة ولكن كامبوديا بلاد خصبة غنية بمواردها الطبيعية تُساعد سكان البلاد جميعاً على أن يعيشوا حياة الكفاية من غير حاجةٍ إلى بذل مجهوداتٍ كبيرةٍ.

حياة المسلمين السياسية: لا ينال المسلمون حقّهم في المجال السياسي، ففي العهد الملكي الذي انتهى عام ١٣٩٠ هـ لا نجد غير اثنين من المسلمين موظفين في الدوائر السياسية أحدهما يعمل عضواً استشارياً في شؤون المسلمين في الديوان الملكي، وثانيهما يعمل مساعداً لوزير الدين البوذي.

وقد زاد عدد المسلمين في السلك السياسي في العهد الجمهوري زيادةً قليلةً فنجد أحدهم يشغل منصب أمين السر الثالث في السفارة الكامبودية في واشنطن، وآخر يتسلّم المندوب الدائم لجمهورية كامبوديا في جنيف، وثلاثة موظفين في وزارة الخارجية في (بنوم بينه) عاصمة كامبوديا.

ويوجد في السلطة التشريعية عضو في مجلس الشيوخ وأربعة أعضاء في مجلس النواب، كما يشغل أحد المسلمين منصب وكيل الأمانة العامة لشؤون الدولة.

حياة المسلمين العسكرية: شارك المسلمون في الدفاع عن سيادة كامبوديا واستقلالها عندما بدأ الهجوم عليها من قبل فيتنام الشمالية وجماعة (الفيتكونغ) لأنها لم تسمح لفيتنام الشمالية باستخدام أراضيها لمهاجمة فيتنام الجنوبية وذلك بعد قيام النظام الجمهوري مقام النظام الملكي الذي كان يسمح بذلك. وشكّل المسلمون فرقةً تُسمّى فرقة (ه بي آي) ضمّت كتائب الجنود المُتطّوعين، واستمرّت في الدفاع عن البلاد حتى ساعة انتصار الشيوعية عام ١٣٩٥ هـ فانسحبت من كامبوديا، وانضمّت إلى جهة (فول رو) التي لا تزال تُقاتل في المناطق المرتفعة من الهند الصينية [١]. وما هذا القتال إلا لأن المسلمين هناك قد عرفوا الشيوعية حقّ المعرفة، وليس من رأى كمن سمع. إذ ذاق الناس الويلات باسم «الثورة الاجتماعية».

قام المسلمون في كامبونغ تريس (Kampongtrais) بإعلان الجهاد المُقدّس لاسترجاع حقوقهم في أداء الواجبات الدينية، وتابعهم المسلمون في كل منطقة من المناطق الخاضعة لسيطرة الشيوعيين. وشعر الشيوعيون بالفشل في إجبار المسلمين على ترك دينهم لذا فقد لجؤوا إلى القتل الجماعي والإبادة التامة لبعض القرى المسلمة، وإحراق الكتب الدينية، ومنع جميع أنواع العبادات، واتخاذ المساجد مخازن للحبوب، ومستودعات للآلات الزراعية، وحظائر للخنازير، وتكليف أئمة المساجد برعايتها وقتلهم إذا مات خنزير منها،

(١) الهند الصينية: اسم يُطلق على المنطقة التي تشمل فيتنام ولاووس وكامبوديا الآن، وكانت من قبل تشمل مناطق أوسع إذ تضمّ إضافةً إلى ما ذكرنا تايلاند وبورما، لكن الدول الأولى كانت تعرف باسم الهند الصينية الفرنسية وهي التي بقيت تحمل الاسم، والثانية يطلق عليها الهند الصينية الانكليزية والتي زال عنها الاسم عندما استقلت.

وإلقاء القبض على حُكّام القرى المسلمة والأساتذة وأئمة المساجد وتقديمهم إلى (المنظمة العليا للشيوعيين Ong Kaloeu) حيث غابوا هناك إلى الأبد.

وفي ١٤ أيار ١٩٧٢ (الأول من ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ) في الساعة الثامنة صباحاً قام المسلمون في قرية (كامبونغ تريس) بالهجوم على الحراس الشيوعيين فقتلوا أكثر من خمسين شيوعياً منهم، وفي اليوم التالي اجتمع المئات من الشيوعيين الكامبوديين ومعهم كامل أسلحتهم فهجموا على القرية المذكورة فذبحوا أكثر من ثلاثة آلاف مسلم من بينهم النساء والأطفال والشيوخ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى الإمام عبد المطلب واثنين من إخوته حيث تمكّنوا من الفرار والالتجاء إلى محافظة (كامبونغ تشام).

وفي مقاطعة (ستونغ ترانغ) أصدر الشيوعيون الحكم بالإعدام على كل من له صلة بالدين من أئمةٍ، وحُكّامٍ، ومُدرّسين، ومنعوا الباقين من تأدية الواجبات الدينية وهدّموا المساجد، وأجبروا المسلمين على أكل لحم الخنزير وارتكاب المحرمات.

وفي يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٤ م (١٢ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ) تمّ إعدام ٣٥٠٠ مسلم على أيدي الشيوعيين في محافظة (كامبونغ تشام) في مقاطعة (تبونغ كهوم).

ووقعت عدّة مظاهرات وانتفاضات للأسباب نفسها في إقليم (كوه تهوم) في ١٦ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ (٣٠ تشرين الثاني من العام نفسه) وكان من بين الضحايا الإمام ادريس سليمان.

وفي ١٣ كانون أول عام ١٩٧٤ م (٢٩ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ) قام المسلمون بهجماتٍ انتقاميةٍ على الشيوعيين، إذ كان الشيوعيون يُجبرون الفتيات المسلمات على خدمة الجيش الشيوعي في الغابات حتى إذا أصبحن حبالى ردّوهن إلى أهليهن.

وقد دمرّ الشيوعيون سبعةً وعشرين مسجدا في كامبوديا، في المرحلة

الأولى قبل عام ١٣٩٥ هـ، وقتلوا واحداً وسبعين رجلاً من قـادة المسلمين، وأبادوا قرىً كاملةً، وأبادوا الألوف إثر الألوف بصورةٍ جماعيةٍ.

أحوال المسلمين بعد الحرب: تمّ استيلاء الشيوعيين الكامبوديين على البلاد في ٦ ربيع الثاني عام ١٣٩٥ هـ (١٧ نيسان ١٩٧٥ م)، وسارعوا في تنفيذ خطة الإخراج والتفريق والتبديل إذ صدر منهم الى الشعب بعد يومين فقط من تسلّمهم الحكم أمر بخروج الناس كليةً وعلى الفور إلى حيـث يُـوجّههـم الرجـال الشيوعيون، فأخرجوا الناس من المدن والقرى بحجة أن الطائرات الأمريكية ستُغير عليهم فلا بدّ من الخروج بوجه السرعة ولا يسمح لهم بأخذ أية حاجة، وستُطلق النار على من يُحاول حمل شيء معه فخرج الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والمرضى من المستشفيات باتجاه الغابات ونتج عن ذلك موت الكثير منهم لعدم كفاية الطعام والأدوية، وفي الغابات فرّق الموجهون الشيوعيون الناس دون مراعاة وحدة الأسر فسار الرجل إلى مكانٍ، وزوجه وأولاده إلى مكان، وبناته إلى مكان... وكُلّفت كل جماعة بأعمالٍ شاقةٍ دون النظر إلى الجانب الصحي والإمكانات، وفي الوقت نفسه أُجـريـت لهم خطّـة تبـديـل الأسماء، وبذلك منعوا إمكانية قيام أيّة مقاومةٍ، واستغلّوا الطاقة البشرية.

بدأ شعب كامبوديا يعيش حياةً غريبةً فلا بيع بينهم، ولا بريد يحمل الرسائل، ولا صحف ولا مجلات تنقل الأخبار، وتُعـرّف النـاس على بعـض الموضوعات، ولا يعرف الرجل مكان أهله، ولا تعلم الأم أسماء أولادها، ولا يدري الأبناء أخواتهم، وليس من عبادة بأي شكل من الأشكال، ولا أي أمر يتعلّق بالأحوال الشخصية والقضايا الأخلاقية، فليس هناك من زواجٍ أو حلال أو حرام. والمجموعات المُكلّفة بالأعمال تشتغل بصورةٍ جماعيةٍ وتسكن بشكلٍ جماعي، ومن رفض امرأً فقد حكم على نفسه بالموت، ونُفّذ إعدامه أمام الآخرين درساً لهم وزجراً، وفي ظلّ هذه الحياة الجهنمية فكّر الناس في التخلّص منها بعدما وصلوا إلى العجز التام عن تحمّلها، فمـن استطـاع الهرب

فقد فرّ، ومن لم يستطع فإنما ينتظر مصيره المحتوم في الهلاك عـاجلاً أو آجلاً .

لقد تمكّن سكان المناطق القريبة من تايلاند من الفرار، ويوجد بينهم ألفان من المسلمين، ولقد كان عدد الفارين كبيراً إلا أن معظمهم قد قُتل أثناء عبوره الحدود إذ أطلق عليهم الحراس الشيوعيون النار .

وروى المسلمون من المنطقة الواقعة قرب مدينة (بوي يت Poioet) قصة عبورهم نهر (اوغراو) الصغير الذي يُشكّل الحدود بين محافظة (باتّامبانغ Battambang) الكامبودية و(آرانيا براتهيت Aranya Prnather) التايلندية، أنهم استطاعوا أن يتفقوا مع إخوانهم على موعد يعبرون فيه النهر، وهم مجموعة تضمّ أكثر من أربعمائة نفس، وفي ١٩ جمادى الآخرة ١٣٩٥ هـ (٢٨ حزيران ١٩٧٥ م) في وقتٍ متأخرٍ من الليل تحرّكت هذه المجموعة تحت ظلام الليل الحالك لتقطع النهر إلى أرض تايلاند ،ولكنهم لم يتمكّنوا جميعاً إذ تنبّه الحراس الشيوعيون فأطلقوا عليهم النار فقتلوا بعضهم، وهم الذين تأخّروا في الطريق لعجزهم بسبب السن أو لأنهم كانوا يحملون أطفالهم على أكتافهم.

وتتابع اللجوء، وبعض الجماعات كانت تسير من العاصمة (بنوم بينه) إلى حدود تايلاند، تكمن في النهار وتسير في الليل، وتستغرق معها المسافة أكثر من أربعين يوماً، يعيشها الأفراد على أعصابهم، وبعد ذلك منهم مـن يصـل، ومنهم من يقضي نحبه سواء أكان بالقتل أم بالإهارق. ويقول بعض من نجا وسار المسافات الطويلة: إن جميع سكان المدن في كامبوديا قد تمّ نفيهم وطردهم إلى القرى والغابات بطريقةٍ شرسةٍ، ولم يسمح لهم هناك بالاجتماع مع أسرهم من جديد، والمسلمون بينهم يُعاملون أقسى المعاملة، ويذوقـون أبشـع أنواع العذاب.

وإضافةً إلى النفي والطرد المتكرر الذي يتعرّضون له يجد هؤلاء المنفيون أنفسهم مضطرين لتغيير هوياتهم كأن يقبلوا أسماءً غير أسمائهم وألقاباً غير ألقابهم. ويقوم الشيوعيون بتلك الإجراءات علانيةً دون مراعاة النواحي

الصحية الرديئة لدى المسلمين، دافعين الكثير من الأشخاص إلى الموت وهم بأشدّ الحاجة إلى الناحية الطبية والعلاج، فكانوا يطردون الجرحى، والذين أُجريت لهم عمليات جراحية خطيرة ولم يشفوا بعد، ويطردون النساء ساعة المخاض دون شفقةٍ ولا رحمة.

ويُعدّ خائناً كل من عمل مع النظام القديم، ولم يتعاون مع الشيوعيين قبل سقوط العاصمة (بنوم بينه) سواء أكان موظفاً أم طالباً أم مزارعاً أم عاملاً، وقد تعرّض هؤلاء إلى الإبادة أو إلى الإلقاء في السجن حتى تدركه هناك منيته بطريقة أو بأُخرى.

وشتّت الشيوعيون العائلات المسلمة، ووزّعوا أفرادها مع العائلات غير المسلمة من بُوذية وغيرها، ومنعوا التقاء المسلمين بعضهم مع بعض خوفاً من أداء الواجبات الدينية.

وأجبر الشيوعيون الفتيات المسلمات على الزواج من جنودهم، وأخذوا أولاد المسلمين الصغار إلى معاهد ليُلقّنوهم الفكر الشيوعي، وساقوا القادرين من الشباب والرجال والنساء إلى الأعمال الإجبارية الشاقّة ليُؤدّوا خمس عشرة ساعة عمل مقابل تقديم قليل من الرز وكمية من الملح مما أدّى إلى سقوط عدد كبير من القتلى، وإصابة أعداد بالمرض والعجز البدني الكامل نتيجة سوء التغذية والإفراط في العمل الشاق، وبعدها يقوم الشيوعيون بقتل هؤلاء إذ لم تعد من ورائهم منفعة، وقد يكون القتل بتحطيم الرؤوس تحطيماً.

وهدّم الشيوعيون المدارس الدينية والمساجد، ونبشوا قبور المسلمين، ومُحيت معالمها. ونتيجة هذا قامت عدة انتفاضاتٍ، ولكن ماذا تعمل انتفاضة رجال معدودين لا يملكون سلاحاً أمام جيوشٍ مُقاتلةٍ مُزوّدةٍ بكامل الأسلحة. في ٢٥ كانون أول من عام ١٩٧٥ م (٢٢ ذي الحجة ١٣٩٥ هـ) ثار سكان (كروتشي تشمار) و(تشهي) وتمكنوا من قتل مائة شيوعي فكانت

النتيجة أن دُكّت البلدتان بمدفعية الأسطول البحري حتى هُدّمتا تماماً، وقُتل أكثر من ألفي مسلم. وفي ٣٠ كانون الثاني من عام ١٩٧٦ م (٢٨ محرم عام ١٣٩٦ هـ) حدثت انتفاضات في مدينتي (كامبونغ تشام) و(بوه كهنور) فحدثت في المدينتين مذابح رهيبة لا مثيل لها.

فالتشامبيون هم العنصر الإسلامي في الهند الصينية، ويزيد عددهم على المليونين وربع المليون، ويتوزّعون الآن على دول المنطقة على الشكل الآتي: مليون يعيش في كامبوديا، وهو بالأصل قد هاجر إليها. ومليون وربع قد بقي في منطقته الأصلية تشامبا التي هي جزء من فيتنام اليوم، وعدة آلاف في لاووس جاءوا إليها مهاجرين.

أما المسلمون من غير التشامبيين فيُقدّرون بربع مليون نصفهم في فيتنام ونصفهم الآخر في كامبوديا، وعدة آلاف في لاووس.

وبذا يكون مجموع المسلمين في دول الهند الصينية الثلاث أكثر من مليونين ونصف، ويُشكّلون ٤٪ من مجموع سكان المنطقة، غير أن هذه النسبة تختلف بين دولةٍ وأُخرى فهي:

١٤,٧٪ في كامبوديا.
٣ ٪ في فيتنام.
وأقلّ من ٠,٥ ٪ في لاووس.

ويتعرّضون اليوم جميعاً للإبادة والتشريد، والذي يُبكي حقاً أن فيتنام بقيت تشغل وسائل الإعلام بأحداثها عدة سنوات، ولم تذكر كلمة واحدة عن المسلمين، ولم يدر أحد من المسلمين أن فيها إخواناً له.

جبهة فول رو: اسم يُطلق على الجبهة المتحدة لتحرير الشعوب المُضطهدة، وهذه الكلمة F.U.L.R.O مختصرة من Front Unifié de

. Libératior des Races Opprimées

رغم طول المدة التي مضت على تسلّط الفيتناميين على أراضي تشامبا غير أن التشامبيين بصفتهم مسلمين، ويختلفون عن المحيط الذي يعيشون فيه لا يزالون ينظرون إلى اليوم الذي يتخلّصون فيه من أعدائهم الفيتناميين، ويستردّون فيه حقهم في بلادهم وممارسة شعائرهم وتطبيق نظامهم في الحياة، لذا حدثت اتصالات بين التجمّعات التشامبية في كل مكان من دول الهند الصينية، وظهرت قوة تشامبية في المناطق المرتفعة من فيتنام الجنوبية عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)، واتصلت بقوة أخرى في إقليم (كوشانشين) واتحدتا بجبهةٍ واحدةٍ عُرفت بهذا الاسم (فول رو) عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)، وبدعم من مملكة كامبوديا تألّفت هذا الجبهة، وتضمّ:

١ - القوة التشامبية وهي الفئة الغالبة وتتألف من المسلمين في دول الهند الصينية.

٢ - قوةً من سكان المناطق المرتفعة في تشامبا من غير المسلمين.

٣ - الكامبوديين الذين يُقيمون في إقليم (كوشانشين)، وهم بوذيون.

وبعد ثلاث سنوات استطاعت هذه الجبهة تشكيل قوة مسلحة، وأسلم عدد كبير من البراهميين والبوذيين والنصارى من جنود جبهة (فول رو) نتيجة احتكاكهم بزملائهم المسلمين، وهذا أفضل ما أثمر من جهود الجبهة. وقامت الجبهة بأعمالٍ أقضت مضاجع فيتنام لكن لم تلبث أن ضعفت بسبب الخلافات فيما بينها ومطاردة الشيوعيين لها. واعتقل قائد القوات المسلحة في عاصمة كامبوديا (بنوم بينه) وأودع السجن، حتى دخلها الشيوعيون عام ١٣٩٥ هـ حيث فرّ من السجن والتجأ إلى السفارة الفرنسية حيث قُبض عليه، وسيق إلى مكانٍ مجهولٍ، ولم يعلم مصيره، كما قُتل نائبه في باريس، ثم اختفت الجبهة عن المسرح.

وتعرّض سكان المنطقة وخاصةً المسلمون للإبادة بعد سيطرة الشيوعيين،

وبدأت الجماعات تفرّ إثر الجماعات من مناطقها وتطلب اللجوء إلى أوربا وأمريكا ، ولكن ما أن يصلوا إلى مخيمات اللاجئين في تايلند وجزر جنوب شرقي آسيا حتى تتلقّفهم الهيئات التنصيرية التي تُقدّم لهم ما يسدّون به رمقهم ويحفظون به حياتهم المهدّدة بالجوع والمرض ، وما تُقدّم إلى المسلمين شيئاً إلا في نهاية الركب وإذا قبل الواحد منهم التنصير . ومن ينقل من الأبناء إلى أوربا أو أمريكا يُؤخذ إلى المدارس النصرانية وإلى الكنائس ليُفتن عن دينه وهو لا يعلم شيئاً بعد ، يحدث هذا والمسلمون نيام يختلفون فيما بينهم ، ويتسابقـون في الخطب الكلامية ، والارتماء أمام الشرق أو الغرب ، والتطاول في البنيان ، وإلقاء المال في أحضان الغانيات .

(١٠) سنغـــافورة

جزيرة صغيرة في نهاية شبه جزيرة الملايو، تبلغ مساحتها ٥٨٤ كيلومتراً مربعاً فقط، كانت تؤلف ولاية من ولايات الملايو، وأحياناً تنفصل عنها، واليوم تؤسس دولةً يبلغ عدد سكانها ما يقرب من مليوني نسمة، يقيم بينهم ٣٤٠ ألفاً من المسلمين، وتكون نسبتهم ١٧٪ من مجموع السكان، وقد انتشر فيها الإسلام مع انتشاره في شبه جزيرة الملايو وأندونيسيا، ونتيجة لموقعها المهم كطريق للتجارة فإنها كانت ملتقى لجماعاتٍ كثيرةٍ، وعندما جاء الاستعمار إلى المنطقة جعلها قاعدة لسفنه ومركزاً لمسؤوليه الأمر الذي جعل مقاومة الإسلام فيها كبيرة مما أبقى نسبة المسلمين قليلةً.

ومن المؤسسات الإسلامية في سنغافورة:

١ً ـ جمعية الأمانة الإسلامية.

٢ً ـ جمعية التبشير الإسلامي.

٣ً ـ جبهة المسلمين بسنغافورة.

٤ً ـ هيئة حسن أوقاف المسلمين.

٥ً ـ برتو بوهان مسلمين.

٦ً ـ مدرسة الجنيد الإسلامية.

مصور رقم [٩] .

(١١) الفـيـلـيـبين

تقع جزر الفيليبين في منطقة جنوب شرقي آسيا، وتعد جزءاً من أرخبيل الملايو الذي يضم أندونيسيا، وماليـزيـا، وسنغـافـورة، والفيليبين، وتبعـد سواحل الفيليبين الشمالية عن جنوبي الصين حوالي ٨٠٠ كم، ولا تزيد المسافة بين جزر الفيليبين الشمالية الصغيرة وفورموزا على ١٧٥ كم.

يبلغ عدد جزر الفيليبين ٧١٠٠ جزيرة، بل إن عدد هذه الجزر يزيد وينقص يومياً حسب المد والجزر، وهذا ما يجعل عدداً كبيراً منها غير مأهول، وتتفاوت هذه الجزر في مساحتها تفاوتاً كبيراً، إذ تزيد مساحة جزيرة لوزون كبرى الجزر على ١٥٠ ألف كيلو متر مربع، وتبلغ مساحة ميندناو ثاني جزيرة في البلاد ١٤٠ ألف كيلو متر مربع على حين يوجد ما يقرب من خمسمائة جزيرة لا تتجاوز مساحة الواحدة منها ٢,٦ كيلو متر مربع.

تبلغ مساحة الفيليبين مـا يقـرب مـن ثلاثمائـة ألـف كيلـو متر مـربـع، (٢٩٩,٦٨١) كم٢، ويبلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب ١٨٠٠ كم. وتنقسم هذه الجزر الكثيرة إلى ثلاثة أقسام رئيسية، فتقع جزيرة لوزون في القسم الشمالي (Luzon) وهـي أكبر الجزر، وتليهـا في المسـاحـة جـزيـرة ميـنـدنـاو

(Mindanao) وتقع في القسم الجنوبي الذي يضم مجموعة أخرى من الجزر يطلق عليها أرخبيل صولو (Sulu). أما القسم الأوسط فيعرف باسم فيسايا (Visaya) ويضم مجموعة كبيرة من الجزر أهمها:

مندورو (Mindoro) وسامار (Samar) وليت (Leyte) وسيبو (Cebu) وبوهول (Bohol) ونيغروس (Negros) وباناي (Panay). وتمتد في الغرب جزيرة بالاوان مع مجموعة جزر صغير لتحيط ببحر صولو وتعد من ذلك الأرخبيل.

يبلغ امتداد جزر الفيليبين من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٨٠٠ كم.

بدأ الإسلام يصل إلى تلك الجزر في القرن الثالث الهجري عن طريق التجار والدعاة، وكثيراً ما كان التجار هم الدعاة، وما جاء القرن الخامس حتى بدأ أثر الإسلام يظهر واضحاً سواء أكان من حيث العدد أم من حيث الطابع السلوكي، وإذا كانت الجزر الجنوبية أكثر حظّاً بقدوم التجار إليها وبالتالي باعتناق الإسلام من أبنائها إلا أنه لم تلبث أن حظيت الجزر الشمالية بما نالته الجنوبية منها إذ نزل إلى جزيرة (لوزون) الشمالية شريف من الملايو مع مجموعةٍ من المسلمين نشروا الإسلام هناك، وجاء منها «رجا سليمان» الذي كان سلطاناً على تلك الجهات وقت وصول المستعمر «ماجلان» إلى تلك الجزر. ومع أن المسلمين لم يكونوا كثرة عددية، إلا أنهم سرعان ما أصبحوا العنصر الغالب، والفئة الحاكمة في البلاد لأنهم أكثر مدنية، وأكثر نشاطاً. وجاءت أفواج من التجار العرب وانتشرت في مختلف الجزر، وبدأت تدعو إلى الإسلام.

وكان في البلاد عدة سلطنات مستقلة، تبرز من بينها سلطنة إسلامية في منطقة «مانيلا» حيث تخضع لها أكثر سلطنات الشمال، وتظهر في الجنوب سلطنة صولو التي تشرف على أكثر إمارات وسلطنات الجنوب. وكان على رأس كل سلطنة أو إمارة حاكم يُدعى «داتو» ويندمج بعضها مع بعض في كيانات أكبر يحكمها «راجا»، وكان أشهر هؤلاء «راجا» حاكم مانيلا، و «راجا»

سلطان صولو.

وأخيراً وصل «ماجلان» إلى هذه الجزر عام ٩٢٧ هـ بعد رحلةٍ بحريةٍ استمرّت عاماً وسبعة أشهرٍ، استسلم في نهايتها لليأس، وظنّ أنه وصل إلى جزر التوابل، وهي جزر (المولوك) في أندونيسيا، ولكن سرعان ما تبيّن له أن الأرض التي رست سفنه على شواطئها ليست هي الجزائر التي قصدها، فأطلق عليها اسم «سانت لازار».

اتفق ماجلان مع حاكم جزيرة «سيبو» ويُدعى «هومابون» على أن يدخل الحاكم في النصرانية الكاثوليكية مُقابل أن يكون ملكاً على جميع الجزر تحت التاج الإسباني، وأخذ ماجلان يعمل على تمكين صديقه من السيطرة على بقية الجزر، وانتقل الاسبان من جزيرة «سيبو» إلى جزيرةٍ صغيرةٍ بالقرب منها، على مسافة عدة كيلومتراتٍ، وتقع إلى الشرق من مدينة «سيبو» حاضرة الجزيرة، وهي جزيرة (ماكتنان)، وكان عليها سلطان مسلم يُدعى «لابولابو»، ولما علم الإسبان بإسلام حاكم الجزيرة هذه «ماكتنان» طاردوا نساءها، وسطوا على طعام أهلها، فقاومهم الأهالي، فأضرم الإسبان النار في أكواخ السكان، وفرّوا هاربين.

رفض «لابولابو» الخضوع لماجلان، وحرّض سكان الجزر الأُخرى عليه، ورأى ماجلان الفرصة مناسبةً لإظهار قوّته، وأسلحته الحديثة حتى يخافه بقية الأمراء والسلاطين فذهب مع فرقةٍ من جنوده مُزوّدين بالأسلحة لقتال «لابولابو» وتأديبه.

طلب الصليبي «ماجلان» من «لابولابو» التسليم قائلاً: (إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد). فأجابه «لابولابو»: (إن الدين لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم)، ثم هجم على ماجلان، وقتله بيده، وشتّت شمل فرقته، ورفض تسليم جثّته للإسبان، ولا يزال قبره شاهداً على

ذلك هناك، ويُمثّل أول قدمٍ صليبيةٍ وطئت تلك الأرض.

انسحب الإسبان من تلك الجزر بعد هزيمتهم ومقتل قائدهم، وتابع « دل كانو » نائب ماجلان الطريق، فوصل إلى جزيرة « بورنيو »، ومنها إلى جزر « المولوك »، وعاد منها إلى إسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح تحت إشراف البرتغاليين سادة تلك الطرق آنذاك فوصل الى إسبانيا في شوال عام ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) على ظهر سفينةٍ واحدةٍ، وهي التي بقيت من أصل خمس سفنٍ تألّف منها أُسطول ماجلان عند بدء الرحلة، وصل ومعه ثمانية عشر راكباً من أصل ٢٦٥ راكباً انطلقوا من اشبيلية.

بعثت إسبانيا أربع حملاتٍ صليبيةٍ مُتتابعةٍ، ومن سوء حظّ هذه الحملات أنها نزلت على شواطىء جزيرة « ميندناناو » حيث يكثر المسلمون، فقُتل أفراد الحملات جميعاً لأنهم أظهروا الحقد الصليبي ضدّ المسلمين. وكان على رأس إحدى هذه الحملات « روي لوبيز » بين عامي ٩٤٩ - ٩٥٠ هـ وهو الذي أطلق اسم الفيليبين على هذه الجزر تيمُّناً باسم الأمير « فيليب » أمير النمسا، والذي أصبح ملكاً على إسبانيا فيما بعد باسم « فيليب الثاني ». ومع الوجود الإسباني توقّف أيضاً قدوم موجات الماليزيين التي بدأت منذ ٨٢٢ قبل الهجرة تقريباً وحتى مجيء الأسبان.

بعد إبادة الحملات الإسبانية المُتكرّرة، بدأ الغزو الإسباني الحقيقي عام ٩٧٣ هـ أي بعد معرفتهم الأولى لهذه الجزر بسبعٍ وأربعين سنةً، وقد أعلنوا صراحةً أنهم جاءوا لتطبيق سياسةٍ صليبيةٍ هدفها.

١ - توسعة رقعة الممتلكات الإسبانية.
٢ - تنصير سكان البلاد التي يحتلّونها.

وصلت الحملة الإسبانية الكبيرة بقيادة « ميغل لوبيز » إلى تلك الجُزُر، واستقرّت في جزيرة « سيبو » حيث شيّدت قلعةً « حصينةً » فيها لإقامة الجنود، ثم اتّخذ « لوبيز » من هذه الجزيرة قاعدةً لغزو الجُزُر الأُخرى حتى

استطاع أن يستولي على مملكة « راجا سليمان » بعد قتالٍ مريرٍ ، وأنشأ الإسبان على أنقاض قاعدة هذه المملكة مدينة « مانيلا ». وكان من عادة القوات الإسبانية أن تتحصّن في القلاع خوفاً من انقضاض سكان المستعمرات عليها ، لذلك بنوا في داخل مدينة « مانيلا » مدينة أُخرى أحاطوها بأسوارٍ ضخمةٍ ، وأطلقوا عليها اسم « انترامورس » أي المدينة المُسَوّرة ، وجعلوها مقرّاً لحكومة الاحتلال.

ومن مدينة « مانيلا » خرجت حملات أُخرى لمدّ سلطان إسبانيا على جزيرة « لوزون » وغيرها من المناطق الشمالية والجزر الوسطى. وجد الإسبان أمامهم في هذه الجزر بعض السكان من المسلمين ، وهم الحُكّام فيها أيضاً فأعطوهم اسم « المورو » ، وهو الاسم الذي كانوا يُطلقونه على المسلمين في المغرب ، فأطلقوه هم والبرتغاليون على المسلمين في كل مكانٍ وجدوهم فيه في مدغشقر ، وسيلان ، وجنوب شرقي آسيا وكل مكان[1] .

حاول الإسبان السيطرة على الجُزُر كاملةً ، وإذا كانوا قد استطاعوا أن يُخضعوا الجزر الشمالية حيث المسلمون قلّة إلا أنهم قد عجزوا عن إخضاع الجزر الجنوبية التي استعصت عليهم رغم جميع المحاولات التي بذلوها في غزوها ، إذ صمد المسلمون من سكان هذه الجُزُر صموداً قويّاً جعل معه الإسبان ييأسون نهائياً من السيطرة على المناطق الإسلامية هناك ، لذلك انصرفوا إلى المناطق الأخرى يُوطّدون بها سلطانهم ، ويدعون فيها إلى النصرانية الكاثوليكية ، ونتيجة هذا فقد انقسم سكان الجزر إلى عدة مجموعاتٍ ، واحدةٍ تتألّف من الذين غُلبوا ، وتحوّلوا إلى الكاثوليكية ، وقد أعطت زمامها إلى المدنيين الإسبان وإلى السلطات الكنسية ، ويعيش هؤلاء

---

(١) يُطلق على المسلمين في سيلان اسم « الموروز » وفي مدغشقر « المورو ». وتعني كلمة « المورو » السمر ، ويُقصد بها المسلمون.

غالباً على شكل جماعاتٍ مُستقرّةٍ في قرىً تُدعى « الباريوز »، ويعملون في زراعة الرز الرطب. والثانية مجموعة الوثنيين التي تمسّكت بمعتقداتها في الأرواح، وانعزلت في الجبال والمناطق الداخلية من البلاد في الجزر الرئيسية، أما المجموعة الثالثة من السكان فهي التي لم تهزم، وقد كان أفرادها يعيشون تحت سلطة أربع سلطناتٍ إسلاميةٍ، وكانوا يكسبون عيشهم من التجارة ومن صيد البحر.

إن الوجود الإسباني في جُزُر الفيليبين قد نتج عنه أيضاً وجود عنصرٍ خليطٍ عُرف باسم « مستيزو »، وقد نشأ من تزاوج السكان مع الإسبانيين أو الصينيين، وأصبح لهذا المزيج دور في المجتمع، وامتزجت أقليات أخرى فيما بعد شملت الهنود والأوربيين والأمريكان.

استمرّت المقاومة الإسلامية على الرغم من أن الإسبان قد ارتكبوا الجرائم والمذابح الوحشية كالتي ارتكبوها في الأندلس، ولم يستطع التفوّق العددي الإسباني، ولا قوة نظامهم الحربي، ولا أسلحتهم الحديثة أن تُحطّم مقاومة المسلمين، إذ أن الأسلحة لا تقف أمام الإيمان، والاستعداد لا يكون بالأسلحة فقط وإنما بالروح المعنوية التي لا مصدر لها إلا الايمان، ولا تُقاتل الشعوب إلا بعقيدتها، ولا تنتصر إلا بايمانها، ومن أهمل جانب الإيمان انقلبت معاركه إلى هزائم. والمسلم يرفض الخضوع للمغتصب، ولمن لا يدين بدين الحقّ، ومع هذا الرفض استعلاء بالإيمان، وهذا ما جعل المقاومة الإسلامية عنيفةً. وبقيت سلطنات المسلمين مُستقلّةً في الجنوب.

وإنه لمؤسف حقاً أن تاريخ الفيليبين المُدوّن لم ينظر إلى المقاومة الإسلامية في وجه الاستعمار الإسباني نظرة الدفاع عن الحقّ، ونظرة البطولة التاريخية لأبناء البلاد بل نظر إليها على أنها عمل من أعمال القتل والسلب أو قطع الطرقات والقرصنة، ويرجع ذلك إلى الكتب الإسبانية التي أجمعت على وصف المسلمين بالقراصنة، وهي الكتب الوحيدة المُدوّنة حيث لم يُدوِّن مسلمو

تلك الجهات تاريخ الحركة، وكذلك المسلمون الآخرون، وتبع ذلك كثير من مؤرخي الفيليبين الذين انساقوا وراء المستعمرين أو أخذوا عنهم، أو وجدوا الكتب أمامهم فنقلوا عنها دون نقدٍ وتحليلٍ، كما يرجع هذا إلى موقف العالم المتمدين من المسلمين بل ومن الإسلام، وإن هذه الكتابات لم تكن مُجرّدة بل تحمل بين طياتها العداء الصريح.

والواقع فإن الضغط الإسباني على السكان قد جعلهم يتقارب بعضهم من بعض، ويندمجون في كياناتٍ مُستقلّةٍ، إذ حكمت إسبانيا المناطق التي سيطرت عليها بالحديد والنار، وفرضت على السكان الديانة النصرانية الكاثوليكية، والثقافة واللغة الاسبانية، ونظراً إلى أن مختلف القبائل كانت تنظر إلى الاسبان كعدوٍ مشتركٍ فقد ألّفت هذه النظرة بين مختلف القبائل بغضّ النظر عن خلافاتها فيما بينها، وبغضّ النظر أيضاً عن عقائدها المتقاربة أو المتباينة، واندلعت الثورة عام ١٢٩٠ هـ، ثم عادت فتأججّت عام ١٣١٤ هـ، واضطر الحاكم العام إلى أن ينسحب إلى «هونغ كونغ» في العام نفسه، وإذا كانت القوات الإسبانية قد تمكّنت من القضاء عليها، إلا أن منظمةً سريةً بقيت تعمل في الخفاء، واتصل بها الأمريكان للمساعدة في طرد الإسبان من تلك الجُزُر ليحلّوا محلّهم، وبدأت العمليات المشتركة عام ١٣١٦ هـ، ودُمّر الأسطول الإسباني داخل خليج «مانيلا». واتفقت امريكا وإسبانيا سرّاً على أن تنسحب إسبانيا من تلك الجُزُر مقابل خمسة ملايين دولار، وانسحبت إسبانيا من الفيليبين بعد معارك تمثيليةٍ، وعاد الحاكم العام الإسباني من هونغ كونغ، وهو الجنرال «غوينالدو» فأعلن استقلال الفيليبين عن إسبانيا، وكانت قد تمت معاهدة باريس في العام نفسه وفيها تخلّت إسبانيا للولايات المتحدة عن الفيليبين، وكوبا، وبورتوريكو. وهكذا أصبحت جزر الفيليبين تتبع الولايات المتحدة التي لم تف بما وعدت به المنظمة الوطنية التي اتفقت معها ضدّ الإسبان.

رفض السكان معاهدة باريس، كما رفضوا الحكم الأمريكي إلا أن الولايات المتحدة قد تمكّنت من القضاء على الثورة عام ١٣١٩ هـ، وعدّت البلاد إحدى ولايات الولايات المتحدة.

لم يتغيّر الوضع بالنسبة للمسلمين، فالاستعمار واحد، ونظرته الصليبية إلى الإسلام واحدة، فاستمر المسلمون في مقاومتهم التي دامت مدة عشرين سنة، أصابهم خلال هذه المرحلة ما أصابهم أيّام الإسبان، حيث عُزلت المناطق الجنوبية عزلاً تاماً، وأُهملت إهمالاً واضحاً الأمر الذي أدّى إلى تأخّر المسلمين بالنسبة إلى النصارى الذين يدعمهم الاستعمار الصليبي، وكان التعليم تحت إشراف الإرساليات النصرانية، وهذا ما جعل الثقافة الإسلامية تتقهقر، والجهل يسود بين أبناء المسلمين.

حصلت الفيليبين على استقلالٍ ذاتيٍ عام ١٣٥٣ هـ، وقامت حكومة محلية تعمل على استقلال البلاد التام خلال عشر سنوات، إلا أن منصب الحاكم العام الذي يُمثّل الولايات المتحدة قد بقي قائماً، وبقيت الولايات المتحدة تتولّى شؤون الدفاع والخارجية. ومع هذا فقد انفتحت البلاد نسبياً نحو الخارج، ووصلت إليها بعض الشخصيات الإسلامية التجارية مثل «منيب الكزبري» الذي وصل إلى الفيليبين من دمشق عام ١٣٤٧ هـ، فتزوّج من هناك، وأنجب اثني عشر ولداً، وشجّع الروح الإسلامية، كما وصل إلى هناك من باكستان «عبد العليم الصديقي» الذي كان له تأثير كبير على المسلمين.

قامت الحرب العالمية الثانية، واحتلّت اليابان البلاد عام ١٣٥٨ هـ، وطردت القوات الأمريكية منها، فتكوّنت في البلاد فرق لحرب العصابات، وتمكّن الجنرال «ماك ارثر» من العودة عام ١٣٦٣ هـ، فحارب إلى جانبه أهل البلاد، حتى تمكّنوا من طرد اليابانيين في النصف الثاني من شهر رجب عام ١٣٦٤ هـ. وهُزمت اليابان أخيراً في الحرب نهائياً. وقد قاتل المسلمون

في هذه المدة قتالاً عنيفاً، واشتركوا في كل مراحل التحرير والنضال.

حصلت الفيليبين على الاستقلال في أول شهر شعبان من عام ١٣٦٥ هـ، وأصبح الحكم فيها رئاسياً يُشبه الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تتألّف السلطة التشريعية من مجلسين: مجلس الشيوخ ويتألّف من أربعةٍ وعشرين عضواً يتجدّد ثلثهم بالانتخاب المباشر كل سنتين في قائمةٍ واحدةٍ حيث ينتخب كل من يحقّ له الانتخاب ثمانية مرشحين في قائمةٍ واحدةٍ. ومدة عضوية المجلس ست سنوات، أما مجلس النواب فيتألّف من مائةٍ وعضوين، ينتخبون حسب نظام المناطق.

ويضمّ عادة مجلس النواب عضوين مسلمين، كما يضمّ مجلس الشيوخ عضواً واحداً. أما مجلس الوزراء ففيه وزير مسلم تُسند إليه عادةً حقيبة وزارة الأقليات على اعتبار أن المسلمين يُمثّلون أكبر أقليةٍ في البلاد فيتسلّمون هذه الوزارة.

وفي البلاد حزبان رئيسيان هما: الحزب الوطني، وهو الحزب الحاكم إذ يضمّ الأغلبية اليوم، والحزب المُعارض، إلا أن ماركوس رئيس الجمهورية قد أعلن الأحكام العرفية، وجمّد الأحزاب، ثم أعلن إلغاءها، حتى انتهى مطروداً من البلاد.

وتُعاني البلاد مشكلاتٍ منها: مشكلة الجريمة، والفساد الخلقي، وتزايد السكان الذي يصل إلى ٣٪ سنوياً، وتكاد تكون أكبر نسبة زيادة في العالم، ومشكلة الهوكس (الشيوعية) والبلاد تسير في فلك الرأسمالية، إلا أن الحرب الصليبية ضدّ المسلمين قد فاقت كل مُشكلةٍ حيث قامت جبهة تحرير مورو بالثورة لإنقاذ المسلمين من الإبادة، وتتعرّض المناطق الجنوبية للخراب والتدمير، ويتعرّض أهلها لأبشع أنواع القتل، وينال المسلمون في كل مكانٍ من الجزر العذاب، والعنت، والإبادة، بصفتهم «مسلمين».

وتُعدّ الفيليبين من البلاد الكثيرة السكان، ويتركز معظم أهلها في الجزر

الشمالية والوسطى على حين تعدّ جزيرة (ميندناو) وهي جزيرة واسعة، وثاني جزر البلاد بعد (بوزون) قليلة السكان. ونتيجة الزيادة الكبيرة فإن تطوّر العدد يأخذ شكلاً سريعاً، ويمكن ملاحظة الجدول الآتي:

عام ١٢١٤ كان عدد السكان ١,٥٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٠٥ كان عدد السكان ٥,٩٨٤,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٥٨ كان عدد السكان ١٦,٠٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٨٠ كان عدد السكان ٢٧,٤٥٥,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٨٥ كان عدد السكان ٣٢,١٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٨٦ كان عدد السكان ٣٢,٩١٣,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٩١ كان عدد السكان ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٣٩٤ كان عدد السكان ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٤٠١ كان عدد السكان ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ ساكن.
عام ١٤٠٧ كان عدد السكان ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ ساكن.

النهضة الإسلامية:

وبعد الاستقلال بقليلٍ وحوالي عام ١٣٧٤ هـ نشأت نهضة إسلامية، ويتركّز اهتمامها في إنشاء مدارس لتُوفّر للناشئة التعليم الديني، وهيئات تأخذ بأيدي المسلمين الضعفاء والذين أذلّهم الاستعمار في مختلف نواحي الحياة، لرفع مستواهم الاجتماعي بصفةٍ عامةٍ، ويرعى هذه النهضة «اتحاد مسلمي الفيليبين» وهي هيئة كان معترفاً بها رسمياً.

وقد نظّم الاتحاد ثلاثة مؤتمرات دولية للبحث في شؤون المسلمين في الفيليبين وذلك في سنوات ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧ هـ حضرها ممثلون عن أكثر الدول الإسلامية، وكانت النتيجة أن تقرّر إنشاء معهد إسلامي يرعى الطلاب من مرحلة التعليم الأولى حتى نهاية التعليم الجامعي، وقد شمل كليةً

للتجارة، وأُخرى للفنون، وثالثةً لتخريج المعلمين لسدّ حاجات النهضة التعليمية، وكانت الحكومة تعترف بهذه الكليات وتمنح خريجيها درجة بكالوريوس. وهناك قسم عربي خالص في لغته ومناهجه إلا أنه لم يتجاوز المستوى الابتدائي نظراً للصعوبة التي يلقاها المعهد في الحصول على المدرسين، ويُحاول إرسال الطلبة إلى البلدان العربية لسدّ هذا النقص، كما يُحاول استقدام المدرسين من البلدان العربية لهذا الغرض، ولطالما أخذ المسلمون في الفيليبين وعداً من إخوانهم العرب بإرسال المدرسين ولكن دون تنفيذ. ويُشرف على هذه المعاهد هيئة التعليم الإسلامية.

وفي عام ١٣٨١ هـ تمّ إنشاء مركزٍ إسلاميٍ يضمّ مسجداً، ومكتبةً، ومدارس، ومنازل للطلاب.

وقد بدأت المعاهد والمدارس تُخرّج أعداداً منها يلتحقون بوظائف الدولة، ويعملون في المحاماة، وينخرطون في صفوف الجيش.

ويبدو أن هذه النهضة كانت قذى في أعين الصليبيين فحرّكت حقدهم، وبدأ العمل ضد المسلمين في مُحاولةٍ لوأد نهضتهم بل لإبادتهم والاستيلاء على أراضيهم ذات الخيرات والإمكانات الضخمة.

وإذا كان يبدو على الحكومة الفيليبينية السكوت على هذه النهضة الإسلامية والرضا عليها في بعض الأحيان إلا أنها كانت في الواقع تحرّض عليها سرّاً، وتُخطّط للخلاص منها، ولم يكن التخطيط ناشئاً من داخل البلد فقط، وإنما هناك الصليبية العالمية، وعلى رأسها الإرساليات التنصيرية، إضافةً إلى حكومات الدول النصرانية ذات العلاقة مع اليهودية التي كان لها دور كبير في هذا الميدان كما يظهر من مجريات الأحداث.

ومع التطوّر الإعلامي، ومع زيادة المواصلات فإن الرحلة إلى الحج والاتصال ببعض المسلمين خارج بلاد الفيليبين قد زادت وزادت معها المعرفة

التي أدّت إلى النهضة الإسلامية، وزاد الحرص على التعليم وإرسال البعثات، وهذا ما أقضّ مضاجع المسؤولين في البلاد أولاً، ثم الإرساليـات التنصيريـة، والمؤسسات الصليبية العاملة في هذا الحقل.

عمل المسلمون جبهةً واحدةً في سبيل نهضتهم ورفع مستوى إخوانهم الذين عمل الاستعمار على تأخّرهم طيلة وجوده في أرض الفيليبين، ولكن الحُكّام الجدد من أبناء البلاد، وهم من النصارى الذين سلّمهم الاستعمار مقاليد الأمر، وعمل على رفع مستواهم مدة حكمه لم يرق لهم الوضع الإسلامي الجديد، فرغبوا في الإجهاز عليه قبل نضجه، والقضاء على معاقل المسلمين في الجنوب في جزيرة « ميندناو » وجزر « صولو » والاستيلاء على أراضيهم.

عمل هؤلاء الحكام من النصارى على شقّ صفوف المسلمين قبيل البدء بالحرب الصريحة والإبادة السافرة، كما لعب اليهود دوراً كبيراً في تشجيع النصارى بالإسراع في تنفيذ مخططاتهم، والزحف على أراضي المسلمين في الجنوب بغية طرد أهلها منها أو الفتك بهم، والاستيلاء عليها لعلّ المسلمين يتّجهون إلى الصليبيين فيقلّل ذلك من الحديث عن فلسطين والتحرّك في قضيتها، وكان لرئيس جمهورية الفيليبين مستشار يهودي يدعى « منسي » وآخر يسمى « عمانويـل اليسـالـدي جـويـز ». واختصـاص الأخير شـؤون الأقلّيات، وهو متهم بالأحداث التي أصابت المسلمين أخيراً، وإضافةً إلى كونه مستشاراً لرئيس الجمهورية، فهو ثري جداً، وله مصالح واتصالات واسعة في كل البلاد.

استطاع رئيس الجمهـوريـة « مـاركـوس » زعيم الحزب الوطني الحاكم أن يُوحي لأحد زعماء المسلمين، وهو « محمد علي ديمابورو » بإنشاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وبهذا تفرّقـت كلمـة المسلمين، إذ أصبحـت تضمّهـم مُنظّمتان بعد أن كانوا جبهةً واحدةً، فكان « أحمد دوموكو ألنتو » يُمثّل

جمعيــة الأنصــار ، و« محمد علي ديمابــورو » يُمثّــل المجلس الأعلى للشــؤون الإسلامية ، وعلى الرغم من أن هذين الزعيمين هما من أعضاء الحزب الوطني ، لكنهما يُستغلاّن كواجهاتٍ تظهر للناس أن الحكم يُحسن معاملة المسلمين ، إذ يُقلّد الزعماء منهم مناصب حيويةً في الدولة ، والواقع أنهم كانوا يُرضونهم ببعض المناصب لتعمى عنهم أخبار المسلمين ، وما يحدث لهم من اضطهادٍ ، وطردٍ من أراضيهم.

ابتدأ العمل ضدّ المسلمين بالاستيلاء على أراضيهم في الجنوب بتحريض من اليهود ، وقد تشكّل لهذه الغاية عام ١٣٩٠ هـ عصابة أسسها « ماركوس » بنفسه ، وأشرف عليها ، وادعى أنه لا علم له بها ، وأطلق عليها اسم عصابة الفئران ، وكانت سريةً ، ومُزوّدةً بأحدث الأسلحة ، واتخذت من الارهاب والوحشية وسيلةً لإرهاب المسلمين كي يُغادروا أرضهم ، كما وجدت عصابة أُخرى أطلقت على نفسها اسم « الأُخطبوط ». وهي مُدرّبة تدريباً عالياً ، وكانت تقوم بغاراتٍ على المزارع لتدبّ الفزع في نفوس أهلها فيُغادرونها.

وقبل البدء بالخطّة ونشر الفوضى أوجد النصارى بعض الأسباب التي تُؤدّي إليها ، فقد طالبوا بسيادة القانون المدني على المسلمين كي يتمكّن غير المسلمين من الزواج ببنات المسلمين ، وهو مُحرّم عليهم ، إذ لا تسمح أحكام الشريعة الإسلامية المعمول بها بين صفوف المسلمين بمثل هذا الزواج ، وينتج عن تطبيق القانون المدني عزل الشريعة عن الحياة الاجتماعية ، ومن هذا المنطلق يبــدأ الهجــوم على الإسلام والفكــر الإسلامــي ، ويقــع النــزاع ، وتحدث الصدامات ، ويفسح المجال لتنفيذ الخطّة المُبيّتة عندمــا يــرفــض المسلمــون الأخذ بهذا القانون.

إن مناطق المسلمين في الجنوب تتمثّل في جزر : تاوي تاوي ، وصــولــو ، وباسيلان ، ثم جزيرة ميندناو ، وجزيرة بالاون ، وما حول هذه المناطق من

جزرٍ صغيرةٍ أخرى.

ثورة المسلمين الأخيرة: كانت الخطة الصليبية تقضي بأن يتمّ الاستيلاء على أراضي المسلمين في البداية لجرّهم إلى القتال وهم غير مستعدّين على حين تهيّأ النصارى واستعدّوا، وذلك بأن يزحف النصارى من الشمال، ويُسجّلون الأراضي في الجنوب على أسمائهم بمساحاتٍ مُقدّرةٍ سابقاً ومُختارةٍ، ولم تكن مُسجّلةً على أسماء المسلمين أصحابها الأصليين من قبل إذ رفضت الدولة تسجيلها عندما طلب أصحابها ذلك. وتتمّ عملية التسجيل للنصارى بمساعدة السلطات، وبعدها يُطالَب أصحابها من المسلمين بمغادرتها فتحدث الصدامات، وتتدخّل الدولة لمصلحة النصارى، وقد تمّ هذا فعلاً.

ومع هذا الزحف الشمالي بدأت عمليات الشغب، وحرق المزارع، وإلقاء السموم في الآبار، وقتل الحيوانات، كما قامت حوادث الاغتيال، والخطف، وبقر البطون، ونتيجة ذلك أصبح أكثر من ستين ألف أسرةٍ مُسلمةٍ مُشرّدةً في الغابات والجبال، ومع ذلك تتعرّض للقتل، والسلب، وهتك الأعراض إضافةً إلى الجوع، والبرد، والمرض.

ولم تكن السلطات الحكومية في منأى عن هذه العمليات، فقد اختارت من كل أسرةٍ مُسلمةٍ في منطقة « كوتاباتو » شاباً بحجّة تدريبهم، وجهّزت لهم معسكراً في « كوريجيدور »، وبعد أن تمّ جمعهم عملت السلطات على إبادتهم، وكان عددهم ١٦٩ شاباً، ولم ينج منهم سوى الشاب « جيبن أرولا » الذي فرّ عندما شعر بالخطر.

وجمعت السلطات بعض المسلمين في المسجد في شهر ربيع الثاني عام ١٣٩١ هـ بحجّة عقد صلح بينهم وبين النصارى، وإنهاء قضية الأرض، وبينما كان المسلمون في المسجد إذ دخلته جماعة مسلحة من النصارى، وبدأت بإطلاق النار من المدافع الرشاشة التي بأيدي افرادها فكانت النتيجة أن قُتل

سبعون مسلماً، وجُرح خمسون آخرون بجراحاتٍ مختلفةٍ.

وفي الوقت نفسه كان اليهود ورجال السلطة يُوزّعون السلاح على القبائل الوثنية لإحداث الفتن، وهذه القبائل حسب دعواهم بعيدةً عن مجال النزاع، فكان الوثنيون يقومون بـالهجـوم على المسلمين، ويُنـزلـون بهم الضربـات، ويُثيرون الفتن والقلاقل، وينشرون الرعب والذعر.

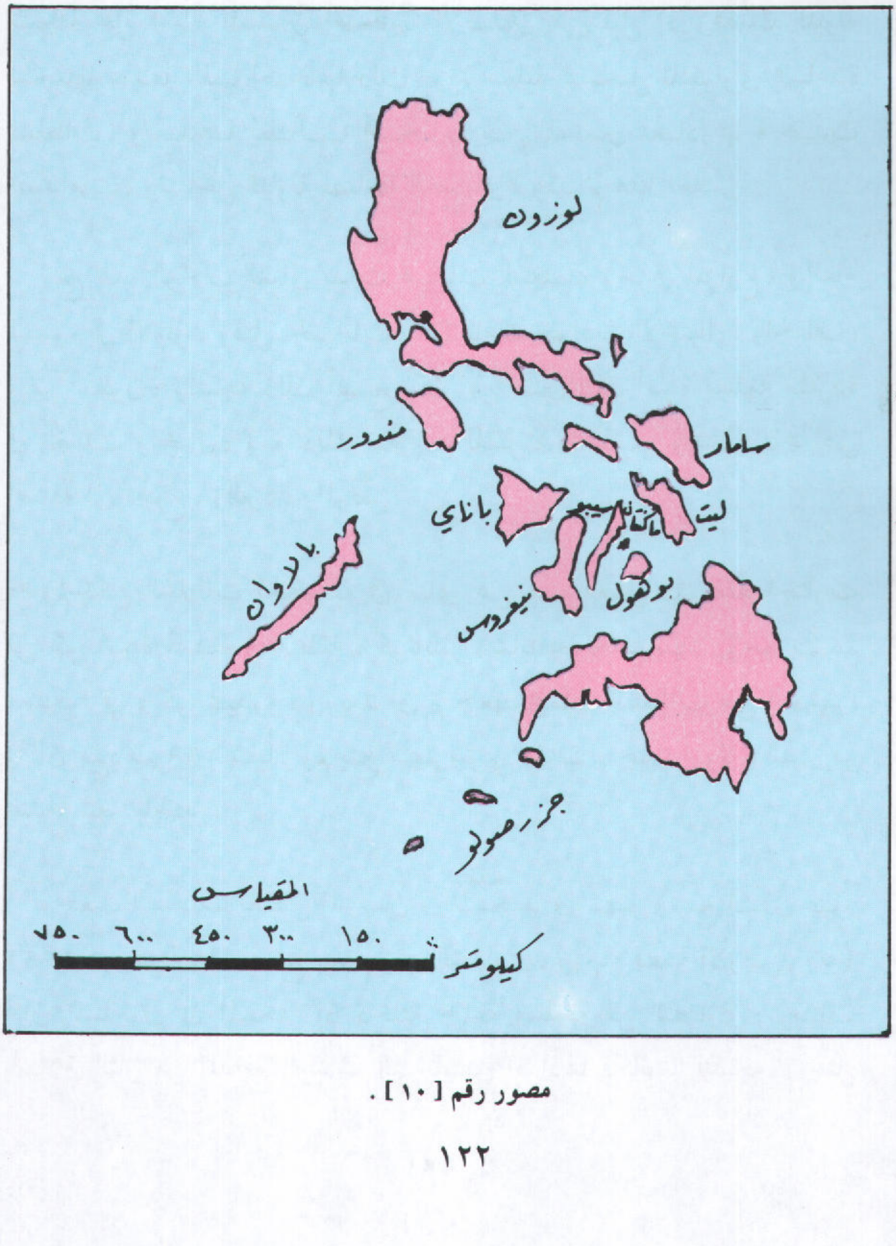

مصور رقم [١٠].

وقد بلغ عدد جيش الفئران في منطقة « كوتاباتو » قبل تدخّل الدولة رسمياً ثلاثمائة وخمسين ألف رجل، وقد أقدموا على حرق البيوت والمنازل في منطقة « واو » وذلك في شهر جمادى الأولى ١٣٩١ هـ، كما اشتركت الشرطة معهم في إحراق خمسة مساجد، وثمانيةٍ وخمسين منزلاً في بلدة « بولوان »، وقتلوا عشر نساء، وعشرة أطفال في قرية « أوبي ».

وأما مُنظّمة الأخطبوط فقد أغارت على أربع مدن في مقاطعة « كوتاباتو »، واشتركت مع الفئران في قتل ثمانية وستين مسلماً من الشيوخ، وجرحوا طفلاً واحداً، وقد دافع الشيوخ عن أنفسهم أثناء العملية فقتلوا ثلاثةً من أفراد هذه العصابة. كما ارتكب أفراد مُنظّمة الأخطبوط جرائم أخرى كثيرةً منها قتل سبعين مسلماً في مسجدٍ، وذبح سبعة أطفال في مدرسةٍ تبعد كيلومتراً واحداً عن مدينة « كوتاباتو ».

هذه نماذج من الحوادث التي وقعت في الفيليبين قبل ثورة المسلمين الأخيرة، وأمام هذه الحوادث بدأ المسلمون يُحاولون الدفاع عن أنفسهم فتسلّحوا بالمدي، والعصي، والبنادق القديمة التي بين أيديهم من أيام حرب العصابات أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي الوقت نفسه عدّت الحكومة هذا التصرّف من قبل المسلمين تمرُّداً وكان ذريعةً للقضاء عليهم بحجّة أنهم يمتلكون الأسلحة، فهم من الذين يُثيرون الفتن، طالما وُجدت بحوزتهم.

أظهر المسلمون التمرُّد والعصيان أمام هذا الطوفان من الاعتداءات عليهم فوجّه إليهم الجنرال « غارسيا » قائد الجيش في مدينة « بولوان » إنذاراً بأنهم سيتعرّضون للقتل الجماعي ما لم يُسلّموا أنفسهم في مدة أسبوعٍ واحدٍ، وسيكون الهجوم بعدها مُدمّراً، واطلق عليهم اسم أصحاب القمصان السود، ويزيد عدد القوات التي تتبع هذا الجنرال على عشرين ألف مقاتل.

وبعد هذه الأحداث وأمام هذا الواقع رفع زعماء المسلمين شعار الوحدة الإسلامية للمحافظة على أرواح المسلمين، وأصدروا بياناً وقع عليه ثلاثون

رجلاً من كبار زعمائهم، أعلنوا فيه استنكارهم للمذابح التي يتعرّض لها المسلمون مثل مذبحة « زبيدة »، ومذابح المساجد، والتفرقة في المعاملة، وعدم احترام الشعائر الدينية، وعدم معاقبة المجرمين المسؤولين عن هذه الأحداث، وتواطؤ قوات الجيش والشرطة مع مرتكبي الجرائم، ومُحاولة تصفية المسلمين من الجنوب، وهم أصحاب الأرض الأصليون.

ومن جانب آخر فإن الشباب المسلمين ـ أمام هذه الأحداث ـ قد تجمّعت أعداد كبيرة منهم، ومعهم عدد من الزعماء، وتحصّنوا في بلدة « بابا لومان »، وقد برز في هذا التجمّع « أوتوغ مالاتام » و« كاملون »، وطالبوا بفصل المناطق الإسلامية « مينداناو » و« صولو » و« بالاوان » حيث يتركّز المسلمون، وذلك لحمايتهم من المجازر التي بدأت تقع، كما طالبوا العالم الإسلامي والأمم المتحدة بحمايتهم.

اتصل الأمين العام للمؤتمر الإسلامي آنذاك، تانكو عبد الرحمن، رئيس وزراء ماليزيا سابقاً برئيس جمهورية الفيليبين ماركوس، واستفسر منه عن هذه الأحداث، وطالبه بوقف المذابح، وهذه الأعمال الوحشية، كما أرسل بلاغاً للأمم المتحدة عن هذه الأحداث التي تلحق بالمسلمين هناك، وأصبحت القضية دوليةً، فأراد ماركوس الإسراع في حلّ المشكلة بضرب المسلمين ضربةً قاصمةً قبل أن يستفحل الأمر ـ حسب زعمه ـ.

أرسلت الحكومة في شهر جمادى الآخرة من عام ١٣٩١ هـ قواتٍ ظاهرها لحلّ النزاع بين الطرفين وحقيقتها لضرب المسلمين، وفي الواقع فقد تحالفت هذه القوات مع النصارى، وهاجمت المسلمين بالدبابات والطائرات ورغم ثقل هذه القوة فقد تمكّن المسلمون من قتل عشرين جندياً من قوات الحكومة، وإسقاط طائرةٍ عاموديةٍ، وتدمير دبابةٍ واحدةٍ. وأعلن « إبراهيم اسماعيل » أحد زعماء المسلمين في الفيليبين بياناً وضّح فيه أن الصدام وقع بعد ذبح عشرة من المسلمين ذبح النعاج. وبعدئذٍ حاصرت قوات الحكومة المُزوّدة

بمدافع عيار ١٠٥ مم، وطائراتٍ عاموديةٍ ودباباتٍ حاصرت المسلمين الذين تحصّنوا في بعض الجزر.

بدأت المعارك بشكلٍ رسميٍ وسافرٍ بين قوات الحكومة والمجاهدين المسلمين منذ مطلع عام ١٣٩٢ هـ، واستمرّت بقوةٍ عدة سنواتٍ، ورغم التباين في عدد المقاتلين بين الطرفين، وقوة الأسلحة الضخمة التي تملكها قوات ماركوس بينما لا يملك المجاهدون سوى البنادق القديمة وما يحصلون عليه من غنائم من أسلحة العدوان فقد تمكّن المسلمون من الصمود والمقاومة وإنزال الضربات المتتالية بقوات الحكومة وقتل الأعداد الكبيرة منها، والحصول على الكثير من الأسلحة المختلفة غنائم من العدو وأمام انتصارات المجاهدين وافق ماركوس على إجراء المفاوضات مع جبهة تحرير مورو، وقد تمّ ذلك في مدينة طرابلس حاضرة الجمهورية العربية الليبية في أواخر عام ١٣٩٦ هـ ومطلع عام ١٣٩٧ هـ. وقد اشترك في المفاوضات حكومة جمهورية الفيليبين، وجبهة تحرير مورو الوطنية، والجمهورية العربية الليبية، والمملكة العربية السعودية، وجمهورية السنغال، وجمهورية الصومال وتمّ الاتفاق على ما يلي:

أولاً: إقامة الحكم الذاتي للمسلمين في جنوبي الفيليبين في إطار الوحدة الترابية لجمهورية الفيليبين.

ثانياً: تتكّون مناطق الحكم الذاتي للمسلمين في جنوبي الفيليبين مما يلي:

١ - باسيلان.
٢ - صولو.
٣ - تاوي تاوي.
٤ - زامبوانغا الشمالية.
٥ - زامبوانغا الجنوبية.

٦ ـ كوتاباتو الشمالية.

٧ ـ ماغونيداناو.

٨ ـ سلطان كودرات.

٩ ـ لاناو الشمالية.

١٠ ـ لاناو الجنوبية.

١١ ـ دافاو الجنوبية.

١٢ ـ كوتاباتو الجنوبية.

١٣ ـ بالاوان.

١٤ ـ جميع المدن والقرى الواقعة في المنطقة المذكورة أعلاه.

ثالثاً:

١ ـ تكون السياسة الخارجية من اختصاص الحكومة المركزية الفيليبينية.

٢ ـ تختصّ السلطة المركزية بمسائل الدفاع الوطني، على أن يُترك أمر تنظيم التحاق قوات جبهة تحرير مورو الوطنية بالقوات المسلحة الفيليبينية للبحث في وقتٍ لاحقٍ.

٣ ـ يكون للمسلمين في مناطق الحكم الذاتي الحقّ في إنشاء محاكمهم الخاصة التي تُطبّق فيها الشريعة الإسلامية، ويُمثّل المسلمون في كل المحاكم بما فيها الحكم الذاتي والمحكمة العليا، ويصدر بشأن تعيينهم قرارات من رئيس الجمهورية، ويُؤخذ في الاعتبار المؤهّلات المطلوبة بالنسبة للمُرشّحين.

٤ ـ يكون لسلطات الحكم الذاتي في جنوبي الفيليبين الحقّ في إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات على أن تترك مسائل علاقة هذه المؤسسات التربوية والعلمية بنظام التعليم العام في الدولة للتباحث فيما بعد.

٥ ـ يكون للمسلمين نظام إداري خاص بهم يتّفق وأهداف الحكم

الذاتي ومؤسساته، وتبحث العلاقة بين هذا النظام الإداري والنظام الاداري المركزي فيما بعد.

٦ - يكون لسلطات الحكم الذاتي في جنوب الفيليبين نظام مالي واقتصادي خاص بهم وتُحدّد علاقة هذا النظام بالنظام المالي والاقتصادي المركزي للدولة فيما بعد.

٧ - تتمتع سلطات الحكم الذاتي في جنوبي الفيليبين بحقوق التمثيل والمشاركة في الحكومة المركزية وكافة أجهزة الدولة الأخرى، ويتحدّد عدد الممثلين، وطرق المشاركة فيما بعد.

٨ - يُشكّل مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي في مناطق الحكم الذاتي للمسلمين على أن يتمّ تشكيل المجلس التشريعي عن طريق الانتخاب المباشر، ويتمّ تشكيل المجلس التنفيذي بالتعيين من قبل المجلس التشريعي، ويصدر قرار من رئيس الجمهورية بتشكيل كل منهما. ويتمّ فيما بعد الاتفاق على عدد أعضاء المجلس.

٩ - تختصّ الحكومة المركزية بمسائل التعدين والمناجم. وتُحدّد نسبة معقولة من مدخول المناجم والتعدين إلى مناطق الحكم الذاتي.

١٠ - تنشأ سلطات أمنٍ محليةٍ خاصةٍ في منطقة الحكم الذاتي للمسلمين في جنوبي الفيليبين وتُحدّد علاقة هذه السلطات بسلطات الأمن المركزية فيما بعد.

١١ - تشكيل لجنةٍ مختلطةٍ من مُمثّلين عن الحكومة المركزية لجمهورية الفيليبين ومُمثّلين عن جبهة تحرير مورو الوطنية تجتمع بمدينة طرابلس في الفترة من ٥ شباط ١٩٧٧ م إلى تاريخ لا يتعدّى ٣ آذار ١٩٧٧ م، وتختصّ بمناقشة تفاصيل النقاط المتروكة للبحث بقصد التوصل إلى حلولٍ من شأنها ما ينسجم وأحكام هذا الاتفاق.

١٢ - يتمّ الإعلان عن وقف إطلاق النار عقب التوقيع على هذا الاتفاق مباشرةً على أن لا يتجاوز ذلك يوم ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٧ م، ويتمّ تشكيل لجنةٍ مشتركةٍ من الطرفين ومساعدة منظمة المؤتمر الإسلامي التي تُمثّلها اللجنة الوزارية الرباعية تتولّى الإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار، كما تختصّ بالإشراف على ما يلي:

أ - إصدار عفوٍ شاملٍ في مناطق الحكم الذاتي، وإسقاط أية دعوى قضائية ناتجة عن الأحداث التي وقعت في جنوبي الفيليبين.

ب - إطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين ذوي العلاقة بالأحداث في جنوبي الفيليبين.

جـ - عودة جميع اللاجئين الذين تركوا مناطقهم في جنوبي الفيليبين.

د - ضمان حرية التنقّل والاجتماع.

١٣ - يتمّ عقد اجتماعٍ مشتركٍ في جدة في الأسبوع الأول من شهر آذار للتوقيع بالأحرف الأولى على ما توصلت إليه اللجنة المشار إليها في الفقرة رقم (١١).

١٤ - يتمّ توقيع الاتفاق النهائي بشان إقامة الحكم الذاتي المشار إليه في الفقرتين الأولى والثانية في مدينة مانيلا بجمهورية الفيليبين بين الحكومة الفيليبينية وجبهة تحرير مورو الوطنية والمؤتمر الإسلامي مُمثّلاً باللجنة الوزارية الرباعية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

١٥ - يتمّ بعد التوقيع على الاتفاق في مانيلا مباشرةً تشكيل حكومةٍ مؤقتةٍ في منطقة الحكم الذاتي يُعيّنها رئيس الجمهورية على أن تتولّى الإعداد لانتخابات المجلس التشريعي لإقليم الحكم الذاتي، وتسيير الحكم في المنطقة وفقاً لهذا الاتفاق حتى يتمّ تشكيل حكومةٍ من قبل المجلس التشريعي المنتخب.

١٦ ـ تتخذ حكومة جمهورية الفيليبين كل الاجراءات الدستورية لتنفيذ الاتفاق كاملاً.

رابعاً: يصبح هذا الاتفاق نافذ المفعول اعتباراً من تاريخ التوقيع عليه.

حُرّر بمدينة طرابلس في ٢ محرم ١٣٩٧ هـ.
الموافق ٢٣ كانون الأول ١٩٧٦ م
من ثلاث نسخ أصلية باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية جميعها متساوية في القوة القانونية.
عن حكومة جمهورية الفيليبين.
كارميلوس. ز. بارنيرو.
وكيل وزارة الدفاع الوطني.
للعلاقات المدنية.
دكتور علي عبد السلام التريكي.
وزير الدولة للشؤون الخارجية.
للجمهورية العربية الليبية.
ورئيس المفاوضات.
عن جبهة تحرير مورو الوطنية.
نور ميسواري.
رئيس الجبهة.
الدكتور أحمد كريم جاي.
الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

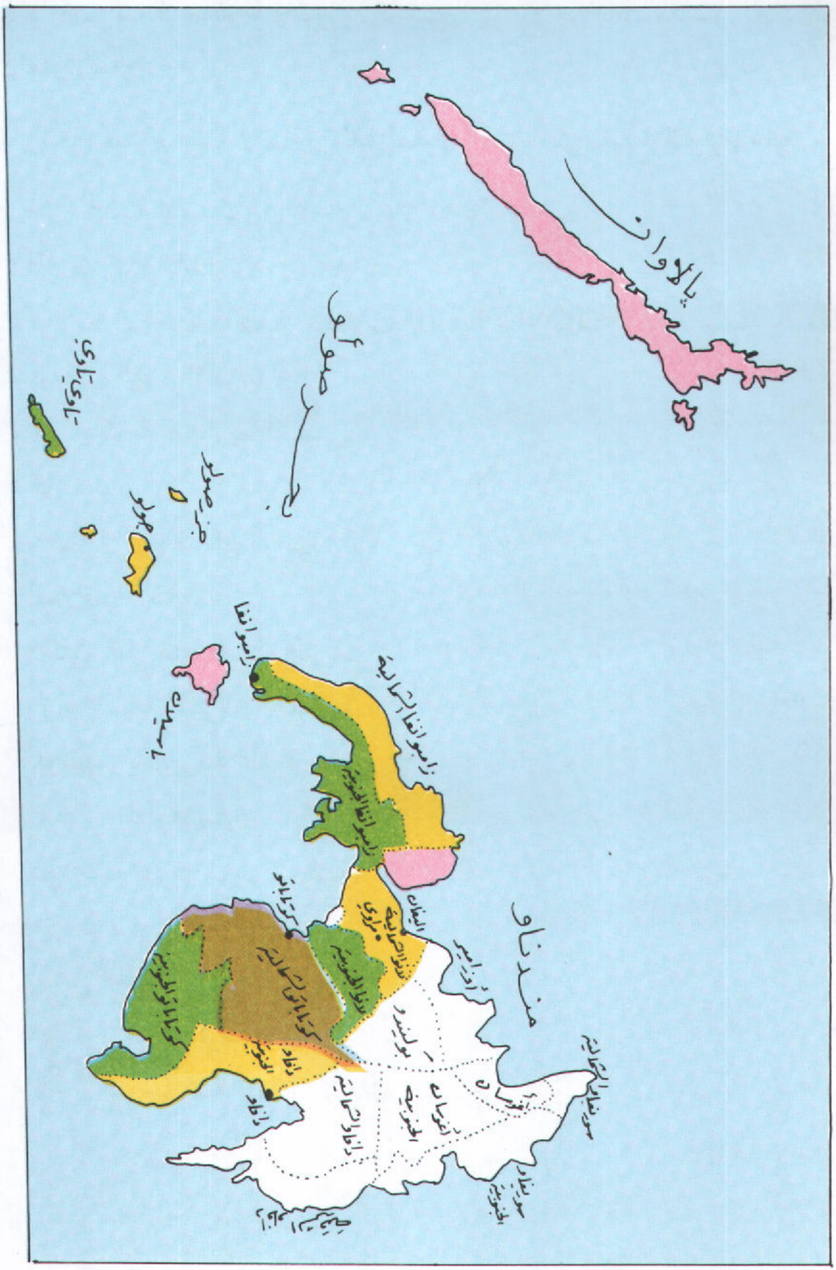

مصور رقم [١١] .

ويبدو أن هذه الاتفاقية لم تكن إلاّ لتُتيح الوقت للرئيس ماركوس لتنظيم قواته من جديد، والاستعداد للدخول ثانيةً في معركةٍ حاسمةٍ تقضي على المسلمين.

وفي الواقع فلم يمض أكثر من أربعة أشهر بقليل على توقيع الاتفاق حتى أعلنت حكومة جمهورية الفيليبين عن تخلّيها عن جميع التزاماتها السابقة، وعدم احترام ما وافقت عليه ووقعت عليه والتزمت به وبتنفيذه، وأوقفت كل الأعمال المتعلقة بتنفيذ الاتفاق. ولم يُجد تدخّل الأمين العام للمؤتمر الإسلامي واللجنة الرباعية في ذلك. بل إن قوات الحكومة لم تُوقّف عملياتها كاملةً خلال هذه المدة، بل حدثت أعمال عدوانية في منتهى الوحشية، وإن كانت على نطاقٍ محلي، وتوسّعت تدريجياً حتى إعلان التخلّي عن الاتفاق، ومن المعارك المشهورة معركة «بولوان» في جزيرة مينداناو عام ١٣٩٧ هـ، وقد نتج عنها استشهاد أكثر من ٥٠٠ مسلم، وزاد عدد الجرحى على ٣٠٠ جريح، وكان هجوماً وحشياً على المسلمين من قبل قوات ماركوس. ومعركة «كوتاباتو» التي حدثت في مطلع شهر ذي الحجة من عام ١٣٩٧ هـ، إذ هاجمت قوات ماركوس مركز قيادة جبهة تحرير مورو إلا أن المسلمين قد قاموا بهجومٍ معاكسٍ، وكبّدوا القوات المهاجمة خسائر كبيرةً، وغنموا أسلحة كثيرة، وعاد الهجوم الحكومي بعد أسبوعٍ فتضاعفت خسائر المهاجمين.

وهاجمت قوات نظام ماركوس في ١٧ شوال عام ١٣٩٧ هـ بقوةٍ كبيرةٍ من قواتها البحريةٍ قرية «سوباه بوكول» في شبه جزيرة «زامبوانغا»، وكانت هذه القوات مُعزّزةً بغطاءٍ جويٍ لحماية القوات البرية الزاحفة على القرية والتي تضمّ أكثر من أربعة آلاف جندي، وأصلت البلدة بوابلٍ من القذائف المحرقة، إضافةً إلى قذائف البوارج البحرية، وقد نتج عن ذلك أن دمّرت البلدة تدميراً كاملاً. ولم يتمكّن السكان من الهروب أو اللجوء إلى الملاجىء فسقطوا صرعى.

وبعد عشرة أيامٍ من هذا الهجوم الوحشي أعادت قوات ماركوس الكرّة فأغارت على بلدة « تيكتابول » في المقاطعة نفسها في ٢٤ شوال ١٣٩٧ هـ، وكان سكان البلدة المسلمون مجتمعين للصلاة في المسجد، فإذا بالطائرات تقصف البلدة الآمنة بيوتاً ومنازل ومساجد وأسواقاً ومدارس دون تمييزٍ.

ثم زحفت القوات الحكومية على قرية « تيك باو »، وبدأ الهجوم بقصفٍ جوي بالقنابل المُحرقة والمُحرّمة دولياً، ثم جاء دور القوات البرية فأشعلت الدبابات الأرض ناراً، وهي تُحاصر البلدة لئلا يتمكّن أحد من الخروج، واستمرّ القصف والضرب أربعة أيامٍ مع لياليها، وكانت نتائج المعركة قتل سبعمائة مسلمٍ معظمهم من أبناء الكتاتيب والشيوخ ولم يُحص عدد الجرحى، ولم يتمكّن المسلمون من نقل الجُثث ودفنها فبقي بعضها في العراء وتفسّخ. وجاءت قوات جبهة تحرير « مورو » فنشبت معركة بين الطرفين أسفرت عن تراجع القوات الحكومية إلاّ أن الطائرات قد هاجمت قرية « تاقيتي » ودمّرت عشرات البيوت، وقتلت الكثير من السكان المسلمين الآمنين. ووصلت قوات جبهة تحرير مورو الوطنية، وتصدّت لقوات الحكومة التي وصلت إليها تعزيزات كثيرة فانهزمت القوات النصرانية، وفقدت في المعركة أكثر من مائتي قتيل. والمعارك كثيرة في شبه الجزيرة هذه وتكاد لا تُعدّ لكثرتها، بل ما خلت منطقة إسلامية من هذه المعارك، ولكن نعطي أمثلةً عن بعضها فقط.

ومن جملة معارك أرخبيل صولو معركة بلدة « باتيكول Paticul » التي جرت في ٢١ شوال ١٣٩٧ هـ، إذ بينما كان المسلمون يُؤدّون صلاة الجمعة بدأت القنابل المُحرقة تتساقط على القرية فأحرقت السوق والمسجد فقتلت خمسين مُصلياً، وجُرح جميع من في المسجد. وأُحرق السوق كاملاً، وكانت الخسائر المادية كبيرةً، ثم واصل النصارى هجومهم البري لاحتلال القرية، بقيادة الجنرال « تيودلفوباتيستا » أحد قادة العسكريين الكبار. فاستشهد في هذه المعارك ما يزيد على خمسمائة مسلمٍ من المدنيين. وأسرعت قوات جبهة

تحرير مورو الوطنية بقيادة « عثمان صالح » فطوّقت قوات ماركوس واستطاعت إفناءها عن آخرها بما فيها الجنرال « باتيستا » الأمر الذي أهلع قلب ماركوس لأن باتيستا من المُقرّبين إليه، ومن الذين يعتمد عليهم، ومن كبار القادة. فاستدعى ماركوس رؤساء الأركان ووضع المخطط لإبادة المسلمين جماعياً في تلك المنطقة، وأعلن عن مكافأة وقدرها مائة ألف دولار لمن يأتي بعثمان صالح حياً أو ميتاً، وفي اليوم التالي سارت قوة برية كبيرة، تدعمها أسراب الطائرات، وأعطيت القيادة للكولونيل « بنيامين في » الذي سقط في المكان نفسه الذي سقط فيه « باتيستا » ولم يمض على ذلك سوى ٢٤ ساعة. وأذاع ماركوس أن « باتيستا » قُتل غدراً، وهو يُحاول المفاوضة للصلح.

هذه نماذج من المعارك الدائرة هناك، على أرض جنوبي الفيليبين، والمسلمون في بقية جهات العالم غافلون، بل إن كثيراً من حكومات البلدان الإسلامية ما تتعاون مع حكومة ماركوس، وتدعمها بعصب حركة القتال من النفط والوقود و... مع أن بعض الحكومات في بداية الأمر قد حرصت وقتاً ما على دعم المقاتلين ثم ما لبثت أن تناست الأمر مع مرور الزمن... واستمرّ دولاب المعارك مُتحرّكاً.

وبدت علامات المعارضة تظهر ضد حكم ماركوس المطلق، ورغبت عندها الولايات المتحدة الامريكية في تغيير الواجهة السياسية خوفاً من التغيير المفاجىء، وضياع خيوط اللعبة من يدها، وبرز بنينو اكينو على رأس المعارضة وأخذ يُوجّه النقد للحكم ويُظهر عواره، وقُتل فجأةً، واتهم ماركوس بقتله، وجاءت الانتخابات وبرزت كورازونو أكينو كزعيمة للمعارضة، وهي زوجة بنينو أكينو، وحاول الحكم توجيه الانتخابات، غير أن الأمر قد فضح، وفشل ماركوس، وبعد موجة من الصراع على السلطة والخلاف اضطر ماركوس إلى مغادرة البلاد، وتولّت كورازونو أكينو الحكم

في ١٦ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ (٢٥ شباط ١٩٨٦)، وأعلنت عن إعطـاء المسلمين الحكم الذاتي.... ولكن لم يحدث شيء حتى الآن.

ويُقدّر عدد سكان الفيليبين اليوم بحوالي ستين مليوناً وتقدر نسبة المسلمين بينهم بـ ١١ ٪من مجموع السكان أي ما يقرب من ستة ملايين ونصف، يعيش أربعة ملايين ونصف في الجنوب والباقي مُوزّع في بقية أرجاء البلاد، وإن كان أكبر تجمّعٍ لهم بعد الجنوب إنما هو حول العاصمة مانيلا.

وتوجد أعداد من البوذيين، ومجموعة من الوثنيين الذين يؤمنون بـالأرواح، وتشكل كل مجموعة من هاتين المجموعتين ما يقارب ٢ ٪من مجموع السكان، أما الباقي وهو ٨٥ ٪من النصارى.

ويتكلّم السكان أكثر من ٧٨ لغة محلية أهمها: (التالوغ) التي تنتشر بين سكان مانيلا والمحافظات المجاورة لها، والتي أصبحت تُعدّ لغةً وطنيةً، وقد انتشرت الإسبانية أيـام الاستعمار الإسبـاني، والانكليـزيـة أثنـاء الاستعمار الأمريكي. ونجد في لغات أهل البلاد ألفاظاً من اللغات العربية، والهندية، والصينية، والإسبانية، والانكليزية.

ويتكلم المسلمون لغتين من اللغات السائدة في البلاد، وهي لغة «ثاوصو» وهي قر . من الأندونيسية، ولغـة «مـراتـاو» وهـي الغـالبـة في جـزيـرة «ميندناو»، وتضمّ ألفاظاً عربيةً كثيرةً، كما تكتب بالحرف العربي.

وتُعدّ اللغة الانكليزية هي اللغة الرسمية للحكومة، وأكثر من يتكلم بها أهل المدن.

وتُعدّ مناطق جنوب شرقي آسيا من المناطق الفقيرة، وبدأت أفواج من هذه المناطق تتجه إلى دول الخليج العربي للعمل فيها. غير أن حكومة الفيليبين تحرص حرصاً شديداً على عدم ذهاب المسلمين منها إلى دول الخليج خوفاً من تأثرهم بالإسلام بشكلٍ أفضل، وكي لا تتحسّن أوضاعهم المعاشية إذ ترغـب

أن يبقوا بحالةٍ بئيسةٍ حتى تبقى إمكانية السيطرة عليهم قائمةً. لذا فإن مكاتب تأمين العمل في الفيليبين تضع العراقيل في وجه سفر المسلمين، وتدعي أنها لا تضمن إمكانية فعّاليتهم بشكلٍ جيد. كما تُطالبهم بدفع نفقات السفر حتى يصعب خروجهم من البلد. و...

وتوجد في الفيليبين بعض المؤسسات الإسلامية منها:
أنصار الإسلام في زامبوانغا.
المركز الثقافي للجماعة الإسلامية في زامبوانغا الجنوبية.
أنصار الإسلام في كوتاباتو.
معهد رانو في لانو الشمالية.
مدرسة الفلاح الإسلامية في لانو الجنوبية.
المنظمة الإسلامية المتحدة في لانو الشمالية.
أنصار الإسلام في لانو في مدينة مراوي.
جامعة الفيليبين الإسلامية في لانو في مدينة مراوي.
جمعية أجاما الإسلامية في مراوي.
معاهد مراوي الإسلامية في مراوي.
معهد الدراسات الإسلامية في مراوي.
معهد مندناو العربي في مراوي.
جمعية الهداية إلى الإسلام في مانيلا.
المركز الثقافي الإسلامي بالفيليبين في مانيلا.
الهيئة الإسلامية بالفيليبين في مانيلا.

(١٢) الصـــين

الصين دولة واسعة تزيد مساحتها على تسعة ملايين كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على ألف مليون نسمة، وبذا فهي أول دول العالم سكاناً، وثالثتها مساحةً بعد الامبراطورية الروسية، وكندا. ويسكن فيها أكثر من مائة مليون من المسلمين، وبذا تزيد نسبتهم على ١٠ ٪ من مجموع السكان.

وصل الإسلام إلى الصين عن طرق ثلاث:

١ً - طريق الفتح وهو ما يخص تركستان الشرقية التي تقع في الغرب، ومع أنها وما حولها من مقاطعات تقع ضمن العالم الإسلامي إلا أنها اليوم تخضع للصين لذا أرى نفسي مضطراً لبحثها ضمن دولة الصين وأن سكانها إنما يعيشون أقليةً في تلك الدولة الواسعة الأرجاء.

٢ً - طريق الدعوة والانتقال في المنطق الداخلية وخاصةً الجهات المجاورة لتركستان الشرقية، وربما كان العهد المغولي أكثر العهود لانتشار الإسلام في المناطق الداخلية من الصين.

٣ً - طريق الدعوة والتجارة البحرية في المناطق الساحلية.

يقسم الصينيون تاريخهم إلى سبع مراحل حسب الأسر الحاكمة أو الأنظمة القائمة وهي:

١ ـ عهد تانغ: التاريخ القديم

٢ ـ عهد سونغ: ٣٠٨ ـ ٦٧٥ هـ
(٩٢٠ ـ ١٢٧٦ م).

٣ ـ عهد يوان «العهد المغولي»: ٦٧٥ ـ ٧٦٩ هـ
(١٢٧٦ ـ ١٣٦٧ م).

٤ ـ عهد منغ: ٧٧٠ ـ ١٠٥٢ هـ
(١٣٦٨ ـ ١٦٤٢ م).

٥ ـ عهد تسونغ «العهد المانشوري»: ١٠٥٤ ـ ١٣٢٩ هـ
(١٦٤٤ ـ ١٩١١ م).

٦ ـ العهد الجمهوري: ١٣٢٩ ـ ١٣٦٩ هـ
(١٩١١ ـ ١٩٤٩ م).

٧ ـ الحكم الشيوعي: ١٣٦٩ ـ
(١٩٤٩ ـ).

أ ـ **الفتح في الغرب:** فتح قتيبة بن مسلم الباهلي تركستان الشرقية ودخل مدينة كاشغر عام ٩٦ للهجرة، وتبعت هذه المنطقة الدولة الإسلامية حتى ضعف أمر المسلمين وذهبت ريحهم، وهذا ما شجع الصين لغزو تركستان الشرقية، وتمكنت من دخولها بين عامي ١١٤٩-١١٩٩، أي في العهد المانشوري، وأُطلق عليها اسم «سينكيانغ» أي المقاطعة الجديدة. ولكن الحركات لم تهدأ فيها أبداً وكلها تُناهض الاستعمار الصيني، وتدعو إلى الاستقلال. وكانت تركستان الشرقية تتألف من منطقتين رئيسيتين هما: زونغارية في الشمال، وتعيش فيها قبائل «دونغارية»، وقاعدتها مدينة «غولدجا»، ومنطقة كاشغر في الجنوب، ويطلق على قبائلها «الكاشغرية»، وعاصمتها «كاشغر»، وتُعرف المنطقة باسم «هوي كيانغ» أي أرض المسلمين. وبين المنطقتين جبال (تيان شان) أي جبل السماء. وكانت منطقة

تركستان مُقسّمةً إلى عدد من الأقسام يحكم كل قسم أمير محلي، ومن هذه الأقسام أُوروجي، وكاشغر، وحامي، ويارقند، ويأخذ حاكم كل قسمٍ لقب «بيك» أو «شاهان»، أما أمير «أوروجي» فيُلقّب بـ«هوي هوي وانغ» أي السلطان المسلم، وهو أقوى أمراء تركستان الشرقية.

في بعض الخلافات التي قامت بين الأمراء أُخذ أحد أمراء الجنوب إلى الشمال ويُدعى «عبد الرشيد»، وبعد مدةٍ طالب بالعودة إلى الجنوب فرجع إلى (يارقند) عن طريق «حامي»، ولكن قضى نحبه في الطريق، وكان ولده محمود يحقد على قبائل الشمال من الدونغارية، وقد حاول الاستقلال في مدينة (يارقند) غير أنه فشل، وأُبعد إلى مدينة «ايلي» في تركستان الغربية.

كان لمحمود ولدان أحدهما يدعى «ببرست» ويُلقّب بالخوجا الكبير، والثاني «علي» ويُلقّب بالخوجا الصغير، وقام علي بثورة، غير أنه فشل، ففرّ إلى خوقند، ثم انتقل إلى إقليم (باداخشان) في بلاد الطاجيك.

ثورة ١٢٣٦: كان حفيد الخوجا الكبير ويُدعى (جهانكير) يُقيم في مدينة خوقند في إقليم فرغانة من بلاد تركستان الغربية، وكان المسلمون الناقمون على حكم الصين يأتون إليه، ويثيرونه ضدّ المستعمرين الصينيين حتى ثار عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م)، وتمكّن من دخول مدينة كاشغر عام ١٢٤٢ هـ، ولكنه هُزم في معركة نهر (الخون) عام ١٢٤٣ هـ، وفرّ إلى خوقند، ثم قُبض عليه غدراً، وسيق إلى بكين حيث لقي مصرعه.

ثورة يعقوب بيك[1]: كانت مدينة (كاشغر) قسمين: قديم يُقيم فيه

(١) ولد يعقوب بيك في بلدة (بيشقند) من ضواحي مدينة (خوقند) عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م)، وينتسب إلى آل تيمور من ناحية الأم. وتزوج أخت أمير (طاشقند). وقاتل المستعمرين الروس في مدينة (آقمسجد) مع أهالي خوقند عام ١٢٧٠ هـ، وأصبح المساعد الأول لحاكم (خوقند) عالم قولي.

المسلمون، وحديث يسكنه الصينيون، ويحكم المدينة أمير يُدعى صادق بيك، فدعا إلى مدينته أمير خوقند (عالم قولى) ليتولّى أمرها لكنه اعتذر، وأرسل مندوباً عنه (بزرك خان) ابن أخ (ولي خان) حاكم كاشغر سابقاً، ومعه يعقوب بيك.

ووصل خبر دخول الروس مدينة طاشقند ومصرع عالم قولي أمير خوقند في القتال الدائر مع الروس، ورفض يعقوب بيك التعاون مع حاكم خوقند الجديد (خدايارخان)، وسار مع (بزرك خان) واثنين وستين رجلاً إلى كاشغر ودخلوها دون وقوع أي حادث، وندم صادق بيك على تلك الدعوة التي وجّهها إلى حاكم خوقند، وحاول إقناع (بزرك خان) بالرجوع غير أنه رفض، وتسلّم الحكم، وأعلن نفسه حاكماً على كاشغر، وأوكل مهمة الدفاع عنها إلى يعقوب بيك.

قصد يعقوب بيك مدينة (يارقند) ودخلها، وانتصر على الصينيين، وأصبح ملكاً مطلقاً على المنطقة عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥). ثم أوفد سيّده (بزرك خان) إلى مكة المكرمة ليؤدي فريضة الحج، وفي الواقع كان ذلك إبعاداً له، وسيطر يعقوب بيك على مدينة (خوتان) بعد اغتيال أميرها (حبيب الله)، ثم استولى على مدينة (أوروجي) بعد خلافه مع سلطانها (تومين خان). وحاول الروس كما حاولت انكلترا صداقته واسترضاءه.

ووقع الخلاف بين يعقوب بيك وبين الروس، ثم صفا الجو بينهما، واعترف الروس بسيادته على منطقة تركستان الشرقية بعد توقيع اتفاقية تجارية بين الطرفين، وأرسل ممثلاً له إلى العاصمة الروسية بطرسبرغ (لينينغراد). وكان الروس ينوون المكر والخديعة به، ويستعدّون لقتاله، وجهّزوا حملةً قويةً عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) لهذا الغرض غير أن ثورةً قد قامت في منطقة خوقند حالت دون تنفيذها وسيرها.

وجاءت بعثة انكليزية إلى كاشغر، ثم أرسل يعقوب بيك مندوباً له للتفاوض مع نائب الملك الذي رفض ذلك، فلما قوي أمر يعقوب بيك أشـارت لندن على نائب الملك بالتفاوض معـه، ووُقّعـت معـاهـدة عـام ١٢٩٠ هـ اعترفت انكلترا بموجبها بسيادته على منطقـة تـركستـان الشرقيـة كلهـا. ثم اعترفت الدولة العثمانية بذلك.

بدأ القتال بين يعقوب بيك والصين، وتمكنت القوات الصينية من دخول مدينة (أورومجي) عام ١٢٩٣ هـ، ثم انتحر يعقوب بيك عام ١٢٩٤ هـ لما حلّ به وبجيشه، وقُتل ابنه خير الله أيضاً، وهو في طريقه إلى مـدينـة كـاشغـر ليواري جثّة أبيه. وتولّى أمر تركستان الشرقية (تولوي بيك) بن يعقوب بيك، وأعلن نفسه ملكاً على كاشغر، ولكن اختلف المسلمون فيما بينهم لمصالح شخصية، ودخل الصينيون مدينة كاشغر في أواخر عام ١٢٩٤ هـ، وقتلوا زوجة يعقوب بيك وثلاثةً من أبنائه وثلاثةً من أحفاده و١٢٦٦ رجلاً أُعدموا جميعاً في وقتٍ واحدٍ.

ثم قامت ثورة أخرى عام ١٣٥٠، واستمرت خمسة أعوام، أخضعت الصين إثرها المسلمين بعد أن ساعدتها روسيا.

٢ً - طريق الدعوة والتجارة البرية: ومن تركستان الشرقية بدأ المسلمون يدخلون الصين تجاراً ودعاةً، حتى وجدت جاليات إسلامية كبيرة في بعض المدن مثل مدينة (يانغ تشو)، ويعود وجود الجالية الإسلامية في هذه المدينة إلى القرن الثاني الهجري، وقد هلك عدة آلاف من المسلمين فيها عام ١٤٢ هـ عندما حدثت فيها ثورة، ونهب قائدها المدينة وقتل آلاف البشر، وكانت هذه الثورة بإمرة (تيان زين كونغ). وكذلك عاصمة الصين القديمة (تشانغ آن) المعروفة الآن باسم (سي آن) والموجودة في ولاية (شنسي) في شمال الصين، وقد أقام في هذه المدينة عدد من أفراد الجيش

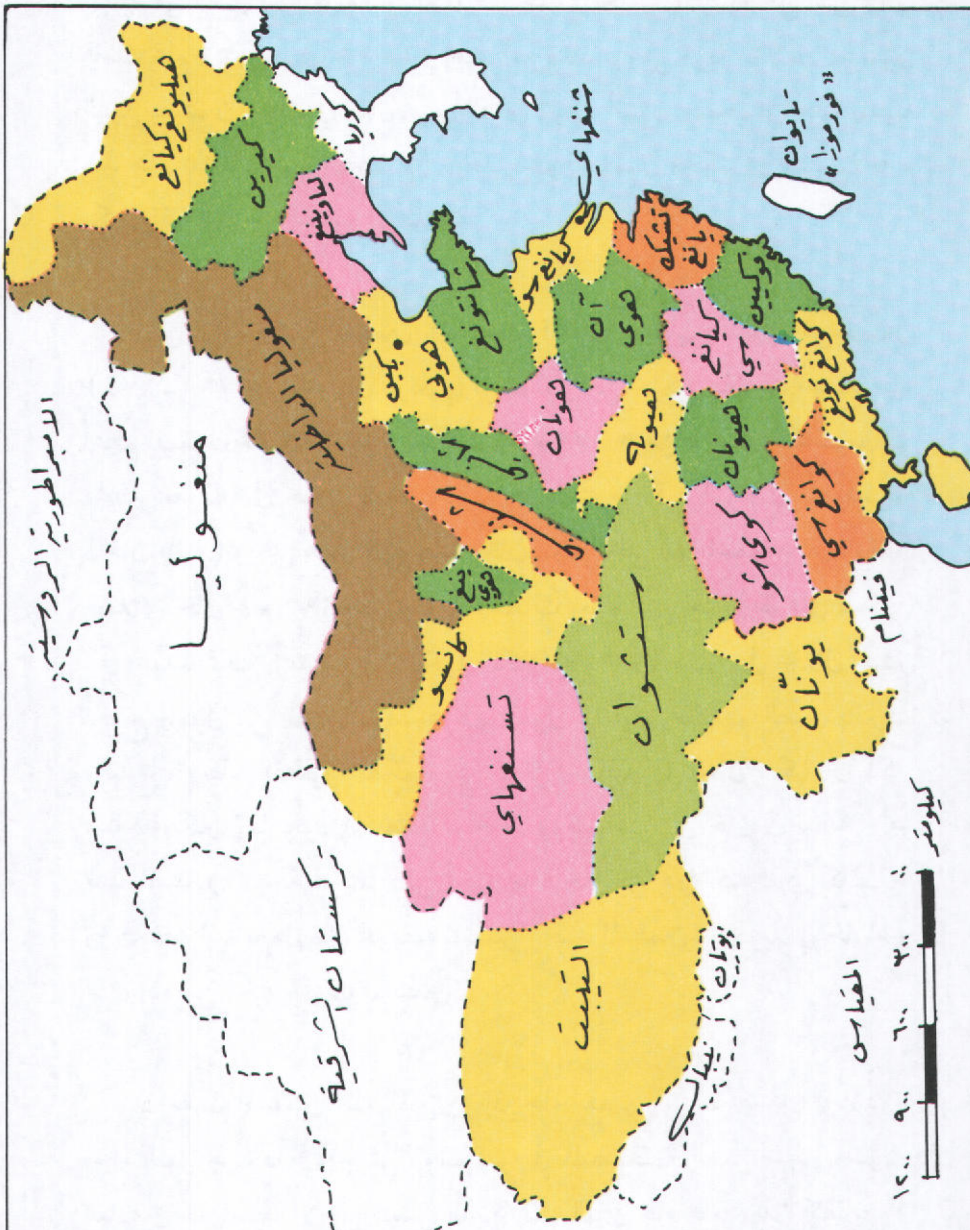

مصور رقم [١٢].

الإسلامي الذي يبلغ قوامه أربعة آلاف جندي جاءوا للقضاء على الثورة التي قامت عام ١٣٩ هـ (٧٥٦ م) في عهد أسرة تانغ ، ومن ذرية هؤلاء : المسلمون الذين يعيشون هناك في شمال غربي الصين ، وقد أنشىء مسجد في هذه المدينة منذ عام ٦٥ للهجرة (٦٨٤ م)، وقد دعم المسلمون الحكم في الصين لأنه لم يكن يقف في وجه الدعوة الإسلامية.

ولكن زاد نفوذ المسلمين في العهد المغولي «يوان» الذي استمرّ من (٦٧٥ ـ ٧٦٩ هـ). إذ أن قوبلاي بن تولوي بن جنكيزخان قد أصبح خاناً أعظم للمغول عام ٦٥٥ هـ ، وقد تمكّن عام ٦٧٩ هـ من دخول مملكة سونغ التي انحصر نفوذها في جنوبي الصين، ونقل عاصمته من قره قورم في منغوليا إلى (خان باليغ) ويعني هذا الاسم مقر الخان ، وهي التي غدا اسمها بكين ، وتوفي قوبلاي خان عام ٦٩٣ هـ ، وتوالى الخانات بعده حتى جاء (طوغان تيمور) وفي عهده تمكن أعداؤه من دخول بكين عام ٧٧٠ هـ ، وفي خلال سنتين أُخرج المغول من الصين. وقد عرف المغول في أيام حكمهم الصين بالترف والبذخ ، وبناء القصور الفخمة التي لا تزال باقية إلى الآن ، كما أن أكثر مساجد بكين إنما يعود إلى هذه المرحلة . ووقف قوبلاي خان في بداية الأمر ضدّ المسلمين نتيجة تحريض ابن أخيه أبا قاخان بن هولاكو الذي كانت له زوجة نصرانية تعمل على تحريضه باستمرار ضد المسلمين ، ثم قوبلاي خان غيّر ما أراده ابن أخيه وقرّب المسلمين.

زاد نفوذ المسلمين أيام المغول ، إذ جاء بعضهم من تركستان وبلاد ما وراء النهر جنوداً في الجيش ، وترقّوا في المنصب، ولعل أشهر هؤلاء القادمين كان سيد الأجل شمس الدين عمر الذي جاء عام ٦٥٧ كضابط في الجيش ، ثم أصبح حاكماً عسكرياً في مدينة (تاي يوان)، ثم حاكماً لمدينة (بنيانغ) ثم نقل إلى منصب القاضي إلى مدينة (ينينغ) أي بكين ثم حاكماً

عليها. ثم أصبح مديراً سياسياً في بلاط (قبلاي خان)، ثم عُيّن عام ٦٧١ هـ حاكماً على ولاية (ستشوان)، ثم حاكماً لولاية (يونّان) عام ٦٧٣ هـ، وقد أنشأ المدارس والمعاهد الدينية في هذه الولاية. وتوفي وترك خمسة أولاد كان لهم كلهم دور في الإدارة، وكانوا من كبار الموظفين في الدولة. وهذا أنموذج من أثر المسلمين في عهد المغول، إذ كان المسلمون حكام ثمان ولايات من أصل اثنتي عشرة ولاية تتألف منها دولة الصين.

ولم يتغيّر وضع المسلمين كثيراً في عهد أسرة منغ (٧٧٠-١٠٥٢ هـ)، وإن كانوا قد تأثّروا بالحياة الصينية واندمجوا فيها مع الاحتفاظ بالسمة الإسلامية الكاملة، وكان لهم دور كبير في الدولة أيضاً.

وجاءت الأسرة المانشورية إلى الحكم «تسونغ» (١٠٥٤-١٣٢٩ هـ) فتغيّر وضع المسلمين عما كان عليه سابقاً فقاموا بالحركات التي اضطروا عليها. كان المسلمون الذين جاءوا إلى الصين قد تأثّروا بعادات أهل البلاد، وقلّدوهم في كل شيء سوى شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وكان بجانبهم أيضاً المسلمون الذي اعتنقوا الإسلام.

لقد كان المسلمون بشكلٍ عام أحسن من الصينيين البوذيين أو الكونفوشيين من الناحية المادية والفكرية والثقافية وهذا ما أثار عليهم حقداً، كما أثارت عادات المسلمين وشعائرهم حسداً وكرهاً لهم من قبل الحكام الصينيين حيث يرون فيهم مجتمعاً خاصاً لا يدين لهم بالولاء، ولا يأخذ بأسلوبهم في التقدير والاحترام. هذا إضافةً إلى الحقد الذي أشعل ناره الموظفون الصينيون لمصالحهم الخاصة، ومنها تسلّم المناصب مكان المسلمين إذ كان المسلمون يتسلّمون الوظائف العليا لإمكاناتهم ومؤهلاتهم فيحسدهم الصينيون الذين هم دونهم وغير مؤهلين، وليس لديهم إمكانات، ولكنهم لا

يعترفون بذلك ويسعون لتسلّم المناصب، فيحيكون المؤمرات ويدسّون الدسائس. وحدثت اشتباكات مسلحة لم تكن في صالح المسلمين.

وأخطر ما في الأمر أن اثنين من قواد المسلمين قد وقفا بجانب (ينغان وانغ) آخر أمراء أسرة (منغ) في محاولة لاستعادة الملك، وهما (تنغ كوتونغ) و(ميراين) إذ رفعا العصيان في ولاية (كانسو) عام ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨ م) ففشلت الحركة، وقُتل خمسة آلاف مسلم. وهذا ما جعل الحكم المنشوري يشكّ في نوايا المسلمين تجاهه، فزاد حقد الحكام على المسلمين، وانتظروا الفرصة المناسبة للنيل منهم، وكره المسلمون الحكام لهذا وأساءوا الظنّ بهم، وتمنّوا الخلاص منهم، وقاموا بالحركات ضدّهم، ومن هذه الحركات:

١ - **ثورة لانتشو عام ١١٩٦ هـ:** كان الناس في (سينينغ) على رأي في قراءة القرآن الكريم، وهي القراءة بصوتٍ خفي. وقد سافر أحد علمائهم وهو محمد أمين (مامين شين) إلى مدن آسيا الوسطى مثل خوقند، وسمرقند، وبخارى ورأى الناس يقرؤون القرآن بصوت مرتفع فأخذ بذلك، وعندما عاد إلى بلده بدأ يقرأ ويدعو إلى القراءة بصوت مرتفع، وهذا ما أدّى إلى خلافٍ وقتال بين المسلمين، واستغلّت الدولة هذا الخلاف، وأرسلت جيشها عام ١١٩٦ هـ (١٧٨١ م) فحاصر المسلمين في بلدة (لانتشو)، وقتل منهم الكثير.

٢ - **ثورة شيفانبو:** وهي تتمة للثورة الأولى، إذ حاصر الجيش الصيني المسلمين في هذه المدينة، ورفض المسلمون تسليم أنفسهم للجيش... فقتل منهم الكثير.

وصدرت أوامر ملكية بمنع المسلمين من المجادلة في الأمور المذهبية والدينية.

كانت هاتان الحركتان في ولاية (نينغ هشيا) التي عاصمتها (سينينغ).

٣ - **ثورة شانسي:** حدثت خلافات بين المسلمين وغيرهم في ولاية شانسي عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) فجاء القائدان الصينيان (تولونغ أو) و(شن باو) وأخرجا المسلمين من مدينة (سي آن) عاصمة الولاية ففرّ عدد من المسلمين، وهلك قسم كبير منهم، واستنجد المسلمون في شانسي بإخوانهم في ولاية كانسو.

٤ - **ثورة كانسو:** أنجد (ماهوا لونغ) وهو خليفة الإمام محمد أمين في كانسو إخوانه في شانسي عندما طلبوا منه النجدة، كما جاءت المساعدات من مدن وولايات أخرى، وانتصر المسلمون على قوات الحكومة، فجاء القائد المانشوري (تسو تسونغ تانغ) وهو القائد الأعلى لإقرار الأمن، واتخذ مدينة (سي آن) مقراً لقيادته، واشتبك مع الثائرين بقتال استمر حتى عام ١٢٨٨ هـ، وانتهت المعارك بهزيمة المسلمين، وفرار بعضهم إلى تركستان الشرقية حيث اشتركوا في ثورتها هناك والتي سبق أن تكلمنا عنها.

٤ - **ثورة يونّان:** جاء المسلمون إلى يونّان أيام الحكم المغولي، عندما عيّن الامبراطور قبلاي خان السيد الأجل حاكماً على يونّان، فانتقل إليها مع عدد من رجال الجيش المؤلف من المسلمين حيث أنشأ المدارس والمعاهد الدينية. وكثر المسلمون في هذه الولاية. وعندما جاء حكم الأسرة المانشورية وزادت المفاسد، وعمّت الفوضى قامت الحركات في يونّان، وكانت أولى هذه الحركات عام ١٢٣٣ هـ وقد فني فيها عدد كبير من المسلمين على يد قوات الحكومة، وتبع ذلك حركةً عام ١٢٤١ هـ، واستمرّت سنتين. وحركة عام ١٢٤٩ هـ، واستمرّت ست سنوات، وقُتلت ستمائة عائلة من المسلمين في مدينة (منغ تينغ).

ثم قامت ثورة في مدينة (يونانفو) عام ١٢٧٢ هـ ، واستمرّت حتى عام ١٢٩٠ هـ أي بقيت ثماني عشر سنة ، وسببها خلاف وقع بين العمال من المسلمين وغير المسلمين ويعود ذلك إلى تفوّق العمال المسلمين الذي أدّى إلى حقد زملائهم عليهم. وكان بين قتلى المسلمين زعيم يُدعى (ماهوتشانغ) وله شقيق يدعى (ماهسيان) من ضباط المدرسة العسكرية ، فتزعّم حركة المسلمين. وجاء رئيس الأركان الصيني ليحلّ النزاع بين الطرفين غير أنه أوقع مجزرةً رهيبةً بالمسلمين إذ كان يحقد عليهم مع أن والي المقاطعة كان بجانب المسلمين ، ويرى أنهم أصحاب الحق ، وقد ذهب ضحية هذه المجزرة ثلاثمائة عائلة مسلمة في بلدة (نينغ تشو) وذلك في ١٦ رمضان من عام ١٢٧٢ هـ (١٩ أيار ١٨٥٦ م).

ومن جانب آخر قام المسلمون في منطقة العاصمة وعدّوا (ماتسه هسينغ) إماماً لهم ، واتخذوا مدينة (كوان آي) مركزاً للعمليات العسكرية التابعة لهم ، وبدؤوا في قتال الصينيين أيضاً ، وقد انتصروا في عدة معارك.

وفي ناحية ثالثة قام زعيم آخر وهو (تووين شيوي) ، وتلقّب بالسلطان سليمان ، ودعا إلى استقلال منطقة يونّان ، وجعل (تاليفو) عاصمةً له ، وكانت نداءاته باللغة العربية.

وهكذا كان (ماهسيان) الضابط في المدرسة العسكرية يسيطر على المناطق الواقعة إلى الشرق من العاصمة (يونّانفو) ، و(ماتسه هسينغ) يُحاصر العاصمة ، و(تووين شيوي) يفرض نفوذه على الجهات الواقعة إلى الغرب من العاصمة. وساعد المسلمين على ذلك أن حكومة الصين كانت مشغولةً بحرب الأفيون مع انكلترا ، وتواجه ثورة يعقوب بيك في تركستان الشرقية ، وثورة البوكسر الأمر الذي جعل حلّ مشكلة يونّان إلى الأمراء المحليين.

عرض القائد للجيش الامبراطوري طلب المفاوضة مع المسلمين لإحلال السلام فوافق بعضهم ، ثم قدّم عروضاً لزعماء المسلمين ، ومنها منح

(ماهسيان) رتبة زعيم للجيش الامبراطوري فوافق على ذلك ، وأصبح اسمه (ماجولونغ) ، وغدا أمر ولاية يونّان بيده فعين صينياً في منصب رئيس خزانة الولاية ، وبعد مدة تسلّم منصب الوالي على المقاطعة فقام بأكبر المجازر ضدّ المسلمين. وعرض القائد للجيش الامبراطوري على (ماتسه هسينغ) منصباً عالياً ولكنه رفض وقبل راتباً شهرياً قدره مائتي مثقال من الفضة . أما (تووين شيوي) فقد رفض المبدأ أساساً ، ودخل المسلمون بإمرة (ماجولونغ) العاصمة عام ١٢٧٧ (١٨٦٠ م).

وهكذا انقسم المسلمون إلى قسمين مختلفين قسم بإمرة (ماجولونغ) في العاصمة (يونّانفو) ، وقسم بإمرة (تووين شيوي) في (تاليفو) .

بدأ الصراع بين الطرفين ، ورجحت كفة (تووين شيوي) الذي استطاع أن يفرض الحصار على العاصمة (يونّانفو) قاعدة خصمه وذلك عام ١٢٨٦ هـ ، ثم دالت عليه الأيام ، وهُزم ، واضطر في النهاية أن يسلّم نفسه للوالي في ١٥ ذي القعدة من عام ١٢٨٩ هـ (١٥ كانون الثاني من عام ١٨٧٣ م) .

٣ - **طريق التجارة البحرية:** وصل المسلمون إلى الصين عن طريق البحر ، وقد اتجهوا إليها تجاراً ودعاةً بل كان التجار هم الدعاة وما كانت التجارة لديهم إلا وسيلةً للسفر والاتصال بالناس كي يدعوهم إلى عبادة الله . وكانت مدينة « كانتون » أول مكان استقرّوا فيه ، ومنها توغلّوا إلى الداخل ، فوصلوا إلى مدن (تشوان تشو) و(يانغ تشو) و(هانغ تشو) على ضفاف نهر (يانغ تسي) .

وتروي بعض الكتب أن أول مبعوث مسلم وصل إلى الصين أيام الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، عام ٣٤ هـ . ويبدو أن الروم والفرس قد حاول كل منهما الاستعانة بملك الصين ضد المسلمين وخوفوه منهم فطلب يستوضح الخبر فأرسل له الخليفة بعثة تبين له الإسلام . كما بلغ

عدد البعثات الإسلامية إلى الصين أيام الأمويين ست عشرة بعثة، وأيام العباسيين اثنتي عشرة بعثة.

كان للمسلمين في كانتون حياتهم الاجتماعية والسياسية الخاصة بهم، حيث كانت لهم محلّة خاصة غربي المدينة تُعرف باسم (فانغ فنغ) أي محلّة الأجانب، ولهم شيخ منهم يتولّى أمورهم باسم ملك الصين. وقد بنى في كانتون مسجد الذكرى في القرن الثاني الهجري، ويُعرف بجامع المنارة.

أما في مدينة (تشوان تشو) فقد وجدت فيها جالية إسلامية منذ عصر (سونغ)، وكان المسلمون يسكنون في محلّة خاصةٍ بهم، تقع على جانب النهر جنوب المدينة، ثم اتصلت بالمدينة نتيجة زيادة عدد المسلمين، وقد بنى فيها أحد التجار العرب ويُعرف باسم مجيب مظهر الدين مسجداً عام ٥١٥ هـ، ويُعرف بالجامع الطاهر، ويُعدّ اليوم من الأبنية الإسلامية الأثرية. وقد زار الرحالة ابن بطوطة المنطقة في عهد المغول، والتقى بالعلماء فيها ومنهم شرف الدين التبريزي، وبرهان الدين الكازروني.

وسكن المسلمون في مدينة (هانغ تشو) داخل باب السلام، وبنوا المساجد والمدارس هناك، وزارهم ابن بطوطة أيضاً، وسمّى (هانغ تشو) الخنساء، وذكر أنها مؤلفة من ست مدنٍ، وقال: إن الملك يقيم في المدينة السادسة، والمسلمون في الثالثة.

المسلمون في الصين: مما سبق يظهر أن المسلمين قد انتشروا في كل أرجاء الصين، ولكن تختلف نسبتهم بين منطقة وأخرى حسب الطرق التي دخل منها المسلمون.

ففي الغرب نلاحظ تركستان الشرقية وتُعدّ جزءاً من العالم الإسلامي، وقد دخلها المسلمون فاتحين واستقرّ بعضهم فيها، ونرى أن نسبة المسلمين فيها أكثر من ٩٥ ٪، وأما الباقي وهو ٥ ٪ فهم من المستعمرين سواء أكانوا من الصينيين البوذيين أم من الروس النصارى الأرثوذكس. وتبلغ مساحة

تركستان الشرقية ١,٧١٠,٧٤٥ كيلومتر مربع أي ما يُعادل مساحة ليبيا، ويقدر عدد سكانها بثمانية ملايين ونصف المليون، ويعود سكانها إلى أصول تركية منهم: الأويغور ويُمثّلون ٨٠٪ .

القازاق ٩ ٪ .

القيرغيز ٢ ٪ .

الأوزبك ١ ٪ .

المغول ٢ ٪ .

العرب (الهوي) ١ ٪ .

الصينيون والروس ٥ ٪ .

وإلى جوار تركستان مقاطعات تعدّ أيضاً تتمة للعالم الإسلامي لأن المسلمين يُشكّلون نسبة كبيرة بين السكان تزيد على ٥٠٪، وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق نتيجة المجاورة لتركستان أي القرب من المسلمين، وأسلم عدد من المغول بعد اعتناق أبناء جلدتهم الإسلام في العالم الإسلامي، كما دفعت غارات المغول في القرنين السابع والثامن أمامها جموعاً من المسلمين إلى أراضي الصين، وقد استقرّوا في تلك الديار. كما وصل الدعاة إلى هذه المناطق فكان لهم أثرهم في نشر الإسلام. ومن هذه المقاطعات: كانسو: وتبلغ مساحتها ٣٦٧ ألف كيلومتر مربع أي ضعف مساحة سوريا، ويُقدّر عدد سكانها بثلاثة عشر مليوناً إذ تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٧٩٪ من مجموع السكان، ومعظم المسلمين فيها من جماعة (الأويغور) أحفاد المغول، ويُسمّيهم الصينيون (هواي هواي)، أما هم فيؤثرون اسم (كياومن) أي أهل الدين، وقد قسم الصينيون هذه المقاطعة لإضعاف قوة المسلمين. وأما مقاطعة (نينغ هسيا) وهي تجاور مقاطعة (كانسو) بل كانت جزءاً منها، وهي منطقة صغيرة تبلغ مساحتها ٦٦,٥٠٠ كيلومتر مربع، ويُقدّر عدد سكانها بمليوني نسمة، وتُعادل نسبتهم ٧٥٪ من مجموع السكان أي أن عددهم يساوي مليون ونصف المليون.

وتقلّ نسبة المسلمين من الغرب إلى الشرق أي تقلّ كلما ابتعدنا عن العالم الإسلامي، وإذا لاحظنا منطقة ارتفعت فيها نسبة المسلمين فذلك لسببٍ من الأسباب مثل مقاطعة يونّان التي تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٣٠٪ من مجموع السكان بسبب أثر السيد الأجل شمس الدين عمر وحكمه للمقاطعة أيام المغول، ولاقترابها من الهند ثانيةً، كما أن بعض المقاطعات قد تولّى أمرها حكام مسلمون. فنجد نسبة المسلمين ٣٥٪ في مقاطعة (شنسي) التي تجاور مقاطعة (كانسو) ثم تهبط إلى ١٧٪ في مقاطعة (شانسي)، وتقلّ النسبة عن ١٪ في مقاطعة (كوانغ سي) التي تقع على حدود الصين مع فيتنام إذ لا يوجد فيها سوى أربعين ألف مسلم، على حين يبلغ عدد سكان المقاطعة أربعةً وعشرين مليوناً، ويتجمع ثلث المسلمين في العاصمة (كوين لين). وتصل نسبة المسلمين إلى ١٠٪ في مقاطعة (هيونان)، و١٢,٥٪ في مقاطعة (هيوبه)، و٦,٥٪ في (هونان)، و٥٪ في (كيانغ سي)، وأقل من ١٪ في (آن هوي)، وفي (كوي شو)، وفي (منغوليا الداخلية)، وفي (كيرين) في منشوريا، وفي (هليونغ ليانغ) في منشوريا أيضاً، وفي التيبت التي أصبحت ثلاث مقاطعات هي: (التيبت) و (شامدو) و (تسينغ هاي).

وتعود نسبة المسلمين إلى الزيادة نسبياً في المناطق الساحلية إذ نجد النسبة ٢,٥٪ في مقاطعة (كوانغ تونغ) إلا أن قسماً كبيراً من المسلمين يُقيم في عاصمة الولاية (كانتون) لذا فنسبتهم في المقاطعة قليلة، ولم يبق من مساجد هذه المدينة سوى خمسة مساجد. وتصل النسبة إلى ١١٪ في مقاطعة (فوكيين)، ويتجمّع اكثر مسلمي هذه المنطقة في مدينتي (آموي) و(تشانغ تشو) اللتين تقعان في جنوبي المقاطعة، وللمسلمين في كل من هاتين المنطقتين عدد من المساجد. وتقلّ نسبة المسلمين في مقاطعة (تشيكيانغ) فلا تزيد على ٤٪ بعد أن كانت أكثر من هذا بكثير، وتعدّ مدينة (هانغ تشو) أكبر مدينة يقطنها المسلمون اليوم في تلك المقاطعة. وقد ورد اسم هذه المدينة

كثيراً لدى الجغرافيين المسلمين، وذكر ابن بطوطة أنه لاحظ فيها محلةً إسلاميةً عظيمةً، ولم يبق منها اليوم سوى بضع مئات من الأسر الإسلامية، وأربعة مساجد. ثم تزداد نسبة المسلمين في (شانغهاي) فتصل إلى ١٣,٦٪ من مجموع سكان المقاطعة بسبب اتساع التجارة القائمة في المدينة.

ثم تنخفض نسبة المسلمين ثانية في مقاطعة (كيانغ سو) فلا تزيد على ١,٥٪ وذلك بسبب اتجاه خط الساحل نحو الداخل وقلة المرافىء التجارية الأمر الذي لا يستدعي قدوم التجار المسلمين إليها، ولا مرور السفن بالقرب من سواحلها، ولعلّ مدينة (تانغ كينغ) الداخلية أكبر المدن التي يتجمّع فيها المسلمون، حيث يقيم فيها اليوم عشرون ألفاً، ولهم خمسة وعشرون مسجداً.

ومع تقدم خط الساحل إلى الأمام، وتكوين شبه جزيرة (شانتونغ) تتقدّم التجارة حيث تضطر السفن للمرور فيها الأمر الذي يستدعي زيادة نسبة المسلمين حيث تصل إلى ٦٪ في المقاطعة كلها، على حين ترتفع إلى أكثر من ذلك في المناطق الساحلية.

ويقيم في العاصمة بكين عدد من المسلمين، وهي اليوم تُشكّل مقاطعةً خاصةً، وإن كانت ليست ساحليةً إلا أنها كانت من مقاطعةٍ ساحليةٍ تعرف باسم (تشيهلي)، وبصفتها العاصمة، ومدينة كبيرة فإن نسبة المسلمين ترتفع إلى ١٠٪، وهي نسبة المسلمين في الصين كلها، وذكرنا أنه كان يوجد في الصين أربعون مسجداً، ويعود أكثرها إلى العهد المغولي. وقد أرسل السلطان العثماني عبد الحميد بعثةً أسست في بكين مدرسةً فأقبل عليها المسلمون إقبالاً جيداً، وكان في بكين جريدة للمسلمين تعرف باسم (تشنغ تشونغ نغاي كوباو) أي الجريدة الوطنية.

أما المقاطعة المحيطة بالعاصمة بكين والتي تُعرف باسم (هوبه) فإن نسبة المسلمين فيها ٥,٥٪، ويؤلف ساحلها خطاً متراجعاً من الشاطىء الأمر الذي

يُقلّل من قدوم السفن إليها، وإن كانت ترسو السفن هناك في منطقةٍ صغيرة آخر الخليج لتُفرّغ البضائع المحمولة إلى العاصمة القريبة.

ويبدو أن سفن المسلمين قديماً كانت آخر محطاتها الخليج الذي يقترب من العاصمة بكين، وما بعد ذلك فلا يذهب إليه التجار المسلمون لذا فإن عددهم يقلّ حتى يكاد ينعدم في الشرق، وإن مقاطعة (لياونينغ) التي تُؤلّف جنوبي منشوريا تقلّ فيها نسبة المسلمين عن ٠,٥ ٪.

ولعلّ عدم ذهاب التجار المسلمين إلى مناطق أبعد من الصين إنما يعود لأسبابٍ كثيرةٍ منها: أن السكان يقلّون وترتبط التجارة مع كثرة السكان، وكثيراً ما كانت الدعوة ملازمةً للتجارة، ومنها بدء زيادة البرد، ومنها السفن الشراعية التي كانت وحدها هي المعروفة والتي يصعب عليها أن تبتعد كثيراً عن السواحل التي يكثر فيها المسلمون، وربما زيادة البعد يستدعي زيادة في الغياب عن أهل البلاد وهذا غير مفضل، وربما كان المسلمون يُفضّلون تثبيت دعائم الإسلام في منطقة قبل الانتقال إلى غيرها و...

ويبدو أن الضغط الشديد الذي مارسه الأباطرة المانشوريون ضدّ المسلمين قد جعل المسلمين يركنون إلى الهدوء، ويلجؤون إلى الجانب السلمي، كما رغب الأباطرة بالحلّ نفسه، ووافقوا على إعطاء ترخيص لإمام مسجد بكين (الياس عبد الرحمن وانغ) بإنشاء معهد إسلامي يُدرّس باللغة العربية وذلك عام ١٣٢١ هـ.

وكان السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يدعو إلى الجامعة الإسلامية، ورغب في معرفة أخبار المسلمين في الصين فأرسل أحد رجاله ويُدعى أنور باشا لهذه الغاية، ولكن المبعوث لم ينجح فيما أرسل من أجله. غير أن إمام مسجد بكين الياس عبد الرحمن وانغ قد زار استانبول، والتقى بالسلطان، واقترح عليه إرسال بعثةٍ للصين، فوافق السلطان وأرسل اثنين هما: حسن

ورضا حافظ، فأسسا مدرسةً في مسجد في بكين، وبلغ عدد طلابها مائة وعشرين طالباً. غير أن السلطة الصينية قد لاحقت هذين المبعوثين بحجة اتصالها بالمسلمين وتطوافهما في مراكز المسلمين. فالتجأ الرجلان إلى سفارة ألمانيا في بكين... وأخبرت السفارة الألمانية استانبول بذلك غير أن السلطات الصينية لم ترع حصانة للسفارة فاقتحمت السفارة، وفرّ الرجلان إلى السفارة الفرنسية فحمتهما، وأعادتهما إلى استانبول.

المسلمون في العهد الجمهوري: إن نتيجة اضطهاد الحكم المنشوري للمسلمين جعلهم يُؤيّدون قيام الحكم الجمهوري الذي قاده (سون يان سين) والذي لُقّب بأبي الجمهورية، هذا إضافةً إلى عدم الرضا عن الحكم السابق والناشيء من الاضطرابات والفوضى وعدم الاستقرار، وقد تمكّن أنصار الحكم الجمهوري من السيطرة على البلاد عام ١٣٢٩ هـ، وتأسّست الجمهورية ـ حسب أقوال أنصارها ـ على الوطنية والديمقراطية والمساواة، وعُدّ المسلمون أحد العناصر الخمسة التي تتكوّن منها الأمة الصينية ـ على رأيهم ـ وهي:

١ ـ العنصر الصيني.
٢ ـ العنصر المانشوري.
٣ ـ العنصر المغولي.
٤ ـ العنصر الإسلامي (الهوي).
٥ ـ عنصر التيبت.

ومن ثم كان العلم الصيني مؤلفاً من خمسة ألوان هي: الأحمر، والأزرق، والأصفر، والأبيض، والأسود، ويشير اللون الأبيض إلى المسلمين. واستقرّت الأوضاع بشكلٍ عام باستثناء تركستان الشرقية. وكانت بعض المؤسسات الإسلامية تُؤدّي جزءاً من دورها.

المؤسسات الإسلامية: قامت بعض المؤسسات للمسلمين في العهد الجمهوري، وكان هدفها الاهتمام بتعليم أبناء المسلمين ورعايتهم ومن أهم هذه المؤسسات.

١ - جمعية التقدّم للمسلمين: وتأسست في بكين عام ١٣٣٠ هـ أي بعد عام تقريباً من قيام الحكم الجمهوري، ونهض بها أحد وجهاء أهل بكين وهو (وانغ هاو زين)، وقد وضع مخططاً لتعليم أبناء المسلمين، وسعى لأن تكون في كل مسجد مدرسة للتعليم، واعتمد على التبرعات، وقد لقيت نجاحاً وإقبالاً من أكثر المسلمين.

٢ - جمعية الأدب الإسلامي: وقام بها الحاج هلال الدين في شنغهاي عام ١٣٤٤ هـ، وهدفها التعليم الإسلامي، وإيجاد العلاقات بين الدول الإسلامية، ودعم الأعمال الخيرية، والدعوة إلى الإسلام، وإصدار مجلة إسلامية شهرية، وغدا لها عدد من المراكز التابعة لها ومن أبرزها.

دار المعلمين (تشندا) في بكين: وقد تأسّست عام ١٣٤٤ هـ في مدينة (تشي نان) عاصمة مقاطعة (شانتونغ)، ثم نقلت إلى بكين عام ١٣٤٨، وكان لها مطبعتان إحداهما عربية والأخرى صينية، وعندما احتلّ اليابانيون شمالي الصين انتقلت عام ١٣٥٦ هـ إلى (كوين لين) عاصمة (كوانغ سي) في الجنوب على مقربة من فيتنام. وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية عادت إلى بكين، وأخيراً أصبحت فرعاً لمعهد الصين الإسلامي.

والمدرسة الإسلامية في شنغهاي.

ومدرسة (تيهوا) الثانوية في شنغهاي.

ومدرسة شمال غربي الصين لأبناء المسلمين في بكين.

وكلية النبي محمد، ﷺ، في (هانغ تشو).

ودار المعلمين (يونغ تونغ) في مدينة (نينغ هشيا).

ومدرسة الهلال للبنات في بكين.

٣ ـ اتحاد المسلمين وقد تأسس في شنغهاي عام ١٣٥٨ هـ، ويضمّ أكثر الزعماء وأصحاب النفوذ، وكان يلقى دعم اليابانيين.

٤ ـ الجمعية الاتحادية الإسلامية للصين: وتأسست عام ١٣٥٧ هـ، وكان هدفها مقاومة اليابانيين ومحاربة دعايتهم.

قضية تركستان الشرقية: قلنا إن الأوضاع قد هدأت في الصين بعد قيام الحكم الجمهوري باستثناء تركستان إذ بقيت المشكلات فيها، وما ذلك إلا بسبب تصرّف الصينيين. وسبق أن قلنا أيضاً: إن العهد الإمبراطوري المنشوري لما استولى على تركستان الشرقية ألغى نظام البكوات الذي كان قائماً، ووحد أقسام تركستان في ولايةٍ واحدةٍ جعل قاعدتها (أورومجي) إلا مدينة حامي حيث أبقى نظام البيك أو الشاه فيها فكان يسمى حاكمها (حامي وانغ) أن شاه حامي، وعندما قام النظام الجمهوري كان مسعود بيك هو حاكم منطقة حامي، وكان طاغيةً جباراً كرهه الناس، وحكم على عدد من رعاياه بالقتل، فتقدّم أهل المنطقة بكتاب استرحام إلى الحكومة بقبول رفع قضاياهم إليها دون حاكمهم، ونصحت الدولة الحاكم بالكفّ عن أسلوب حكمه، فأظهر القبول لكنه لم يلبث أن عاد وقتل من سبق أن وعد بالعفو عنهم، فثارت ثائرة السكان المسلمين، وقتلوا المفوض السياسي (آي شانغو) في مدينة (نان شان كو)، وانتخب الثائرون (تيمور) أميراً لهم، كما انضمّ إليهم أحد الزعماء وهو (خوجانياز)، وقاتلوا جيش الصين الذي جاء لحربهم بإمرة (يوان). ولكن هذا القائد قد عرض السلم والصلح، وأعطى الأمان لـ (تيمور) ولجنده، وأكّد العفو وإلحاق الثائرين بجيش الصين مع الأعطيات والرتب، كما عرض الأماني، فقبل تيمور وغادر البلاد إلى روسيا وانتهت الحركة.

ثم قامت حركة أخرى عام ١٣٤٩ هـ، وكان قد تولّى حكم حامي شاكر بيك بن مسعود بيك، وكان ضعيفاً فجاء الحاكم العام الصيني وقسّم منطقة حامي إلى ثلاثِ وحداتٍ إداريةٍ، فبدأ التذمر، ثم حدث اعتداء من رئيس الشرطة على امرأة مسلمة، فامتلأ أهلها حقداً وغيظاً وتظاهروا بإقامة حفل

على شرف رئيس الشرطة وقتلوه أثناء الحفل مع حرسه البالـغ عـددهـم اثنين وثلاثين جندياً، وثاروا على السلطة فوقـف المسلمـون بجانبهـم واعتصمـوا في المرتفعات. وطلب الحاكم العام الدعم من روسيا فأمدته بقوةٍ فلم تجد نفعاً إذ انتصر المسلمون، واستولوا على مدينة (شانشان) كما سيطروا على (طرفان)، واقتربوا من (أورومجي) قاعدة تركستان. وأرادت الحكومة تهدئـة الوضع، والسـؤال عـن الحاكم العـام، فكـان الاقتراح عـزل الحاكم العـام، غير أن المسلمين كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على (أورومجي) وطرد الحاكم العام قبل أن تعزله الدولة، وتسلّم قادة المسلمين السلطة في الولاية ووزعوا المناصب والمراكز على أنفسهم فما كان من الحكومة إلا أن رضخت للأمر الواقع واعترفت بما حدث، وأقرّت لقادة الحركة بالمراكز التي تسلّموهـا، وهـدأت الأمور.

ولما اضطربت الأمور في حامي عام ١٣٤٩ هـ بسبب اعتداء رئيس الشرطة على المرأة المسلمة حدث اضطراب بين المسلمين في كل منطقة تركستان الشرقية بل في كل مكان وصل إليه الخبر وسكانه من المسلمين فقام (تيمور) واستولى على مدينة (آقسو)، كما قام زعيم آخر اسم (أمين) واستولى على مدينة (خوتان)، ثم اتفقا واتجها نحو (كاشغر) واستوليا عليها، وكان فيها (ثابت داملا) أي الملا الكبير، فوجدها فرصة، وأعلن قيام حكومة كاشغـر الإسلامية، وكان أيضاً (خوجا نياز) قد جاء إليها للتفاوض مع الثائـريـن للصلح فوافقهم وانضمّ إليهم، وأُطلق على الحكومة الجديدة اسم «الجمهورية الإسلامية في تركستان الشرقية» وقامت يوم ٢١ رجب من عام ١٣٥٢ هـ (١٢ تشريـن الثـاني ١٩٣٣ م) على المبـادىء الإسلاميـة، وقـد اختير (خوجانياز) رئيساً للدولة، و(ثابت داملا) لرئاسة مجلس الوزراء. ولكن لم تلبث هذه الحكومة طويلاً إذ داهمها الروس والصينيون وقضوا عليها في شهر ربيع الأول من عام ١٣٥٣ هـ (حزيران عام ١٩٣٤ م) وأُعدم (خوجا نياز) و(ثابت داملا) وأعضـاء الحكـومـة جميعهـم مـع عشرة آلاف مسلم.

وكانت مساعدة الروس للصين بالأعوان، وبالأسلحة، والذخائر، والمعدات الحربية، والطائرات مع قائديها والمستشارين، وتقديم نصف مليون روبل روسي ذهبي مقابل حق الروس في التنقيب واستثمار الثروات المعدنية، والحصول على الثروات الحيوانية، واستخدام عدد من الروس في الخدمات الإدارية في تركستان، وحفظ الجيش الروسي للأمن الداخلي.

ولم تلبث أن اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، وعادت روسيا تدعم الصين لقتالها ضدّ اليابان التي احتلت شمالي الصين، وسدّدت ضرباتٍ ناجحةً في جنوب شرقي آسيا، فلما انتهت الحرب عادت روسيا لتحقيق أغراضها في الصين وتوسيع مستعمراتها بمحاولات لاقتطاع تركستان الشرقية وضمها إلى مستعمراتها.

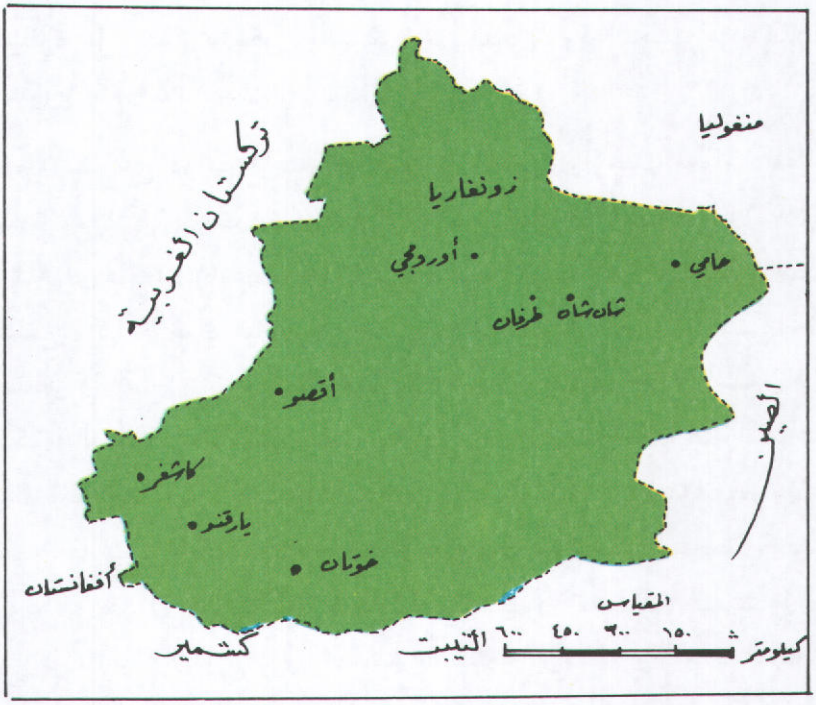

مصور رقم [١٣].

ثم قام علي خان بحركة عصيان في منطقة (ايلي) في شمالي تركستان، وأخرج الحامية الصينية، وأنشأ إدارة مستقلةً عن (أورومجي)، وربما دعمته في هذا روسيا.

وحصلت تركستان الشرقية على الاستقلال الذاتي عام ١٣٦٦ هـ، وعُيّن مسعود صبري رئيساً للحكومة، وأمين بوغره نائباً للرئيس، وعيسى يوسف أميناً عاماً للسر.

الحرب العالمية الثانية واليابانيون: بدأت اليابان بعد الحرب العالمية الأولى تفكر في السيطرة على القارة الآسيوية، ومن أجل هذا يجب أن تكون صلتها حسنة بالمسلمين لأنهم يُشكّلون ما يقرب من ٣٠٪ من مجموع سكان هذه القارة، لذا بدأت تهتمّ بهم، وفي الوقت نفسه كانت ترى أن بدء السيطرة على آسيا إنما يكون بالسيطرة على الصين، وقد تمكّنت من احتلال مانشوريا عام ١٣٥٠ هـ.

وعملت على دراسة أوضاع المسلمين في الصين، وأرسلت أعوانها للقيام بهذه المهمة، كما ادعت أنها حامية الإسلام، وصدرت مجلة (نور الإسلام) في شنغهاي عام ١٣٤٢ هـ، وحملت على الحكومة الصينية لأنها تقوم بأعمال ضدّ المسلمين. كما حرصت اليابان على كسب ود المسلمين في الصين. وتأسس اتحاد المسلمين في الصين، كما ذكرنا، عام ١٣٥١ هـ. وحاولت إثارة المسلمين على الحكومة الصينية، واستقبلت بعض الفارين من أواسط آسيا بعد نجاح الشيوعية هناك، فبدأت تظهر جالية إسلامية، وإن كانت صغيرةً إلا أنها تضمّ بعض العلماء، فدعمت الحكومة اليابانية نشاط هذه الجالية، وأُسّس مسجد في مدينة كيوتو، وآخر في كوبي. كما نظمّ التركستانيون أنفسهم، فأنشأوا لهم المدارس، ومطبعة، وأصدروا مجلةً شهريةً باللغة التركية. وقامت بعثات يابانية بزيارة بعض البلدان الإسلامية، وتاجرت بما حصل عليه التركستانيون من معاملةٍ طيبةٍ في اليابان، حتى في الصين نشرت مجلة إسلامية في بكين

وتُسمّى « تشنغ تو » أي الصراط المستقيم في عددها الصادر في تموز من عام ١٩٣٢ م (ربيع أول ١٣٥١ هـ) مقالاً جاء فيه : إن امبراطور اليابان قد أصدر أمراً بمنح الحرية للمواطنين اليابانيين في اعتناق دين الإسلام إن رغبوا في ذلك .

وتقدّمت اليابان من عام ١٣٥٢ هـ حتى عام ١٣٥٧ هـ في شمالي الصين، واحتلّت بكين، ونظمت بعثةً عام ١٣٥٧ هـ مؤلفة من خمسة صينيين من أهل بكين للسفر إلى موسم الحج وأداء فريضة الحج، والاتصال بزعماء المسلمين في الموسم والعمل للدعاية لليابان، غير أن هذه البعثة قد اصطدمت ببعض الطلاب الصينيين الذين يدرسون في مصر .

وعملت اليابان على تنظيم المسلمين في الصين في المناطق التي احتلتها، وقام اتحاد المسلمين في الصين واتخذ إحدى الجامعات في شمالي الصين مقراً له، وأصدر مجلة « الإسلام »، وأصبح له ٣٩٤ فرع في مختلف أنحاء الصين، وكان النشاط يقوم على أساس محدد لكل فرع إذ قسمت الصين إلى مناطق رئيسية للنشاط . وبشكل عام كانت الحكومة اليابانية تعامل المسلمين معاملة أفضل من معاملة العناصر غير المسلمة. وفي الوقت ذاته كان الشيوعيون يعملون على التقرب من المسلمين، ويعدون الوعود المعسولة .

وفي الوقت الذي بدأت اليابان تتقدّم نحو الجنوب انتقلت الحكومة أيضاً نحو الجنوب أمام الزحف القادم من الشمال، ونقلت مقرّها من (نانكين) إلى (تشونغ كنغ)، ولم تعد تستطع السيطرة على المقاطعات الشمالية الغربية سيطرةً تامةً، الأمر الذي مهّد للشيوعيين القيام بنشاطٍ واسعٍ، إذ كانت حكومة الصين الوطنية التي لم تعد تسيطر إلا على جزء من الصين بصورةٍ فعّالةٍ وصحيحةٍ كانت تظنّ أن المقاطعات الشمالية الغربية ستقف في وجه المدّ الشيوعي لانتماء أبنائها إلى الإسلام، ولم تعرف مدى الجهل السائد، كما أن التعاون القائم بين حكومة الصين الوطنية وبين حكومة الامبراطورية الروسية لقتال اليابانيين قد مهّد أيضاً للنشاط الشيوعي. وأمام هذا النشاط فقد غُرّر

بكثير من المسلمين فقاتلوا بجانب الشيوعيين إما بسبب الجهل الذي يجعلهم لا يعرفون شيئاً عن الشيوعية، أو بسبب الوعود المعسولة التي قدّمها لهم الشيوعيون، أو بسبب الغفلة إذ انطلقوا يُقاتلون وهم يظنون أنهم يسيرون لقتال اليابان، وبذا فقد وزّع المسلمون بين الأجنحة المتصارعة كلها فاليابان تدّعي أن المسلمين يقفون بجانبها ويُؤيّدون حكومة الصين التي يشرفون عليها، والصين الوطنية تعتقد أن المسلمين معها ضدّ اليابان، كما أن الشيوعيين قد أثّروا على بعض المسلمين.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تمكّن الشيوعيون من السيطرة على شمال غربي الصين، وتوجّهوا نحو تركستان الشرقية بعد أن هُزم الجنرال (حسين مابوفانغ) في معركة (لانتشو) في مقاطعة (كانسو) يوم ٢٩ شوال عام ١٣٦٨ هـ (٢٥ آب ١٩٤٩ م)، بعد أن فقد عشرين ألفاً من جنده، وبعد قتالٍ متواصلٍ دام عشرين يوماً، ونجا هو بنفسه، وانتقل مع عائلته بالطائرة إلى جنوبي الصين، ثم سار إلى (هونغ كونغ). كما أن جماعة علي خان قد تقدّموا نحو الجنوب من مقاطعة (ايلي) في شمالي تركستان الشرقية حيث كان قد استقلّ فيها بدعم من الروس. وقامت الدعاية الروسية فأضعفت المعنويات. وتقدّم الشيوعيون نحو (أورومجي) من جهاتٍ ثلاث، ففرّ من تركستان الشرقية زعماؤها المسلمون أمين بوغرا، وعيسى يوسف، وجلال الدين وانغ زين شان، والجنرال ماتشن هسيانغ قائد الحامية مع خمسمائة من الموظفين. وسيطر الشيوعيون على المنطقة، وفي بداية عام ١٣٦٩ هـ كانوا قد سيطروا على البر الصيني كله، وانتقلت حكومة الصين الوطنية إلى جزيرة فورموزا (تايوان) حيث استقرّت هناك، ولم يتمكن الشيوعيون من احتلال تلك الجزيرة إذ كانت الدول الغربية وخاصةً الولايات المتحدة الأمريكية تدعمها، وأصبح في الصين منذ ذلك اليوم حكومتان إحداهما شيوعية وتسيطر على البر الصيني كله باستثناء موقع (ماكاو) في الجنوب وإلى الجنوب من مرفأ (كانتون) ويخضع للسيطرة البرتغالية، وعلى الطرف المقابل له موقع

(هونغ كونغ) ويخضع للنفوذ الانكليزي ، والحكومة الثانية في تايوان وتدعى حكومة الصين الوطنية ، وتدّعي أنها الحكومة الشرعية .

وعندما سيطر الشيوعيون على الصين كان يُقدّر عدد المسلمين فيها بـأكثر من ثمانية وأربعين مليوناً ، في الوقت الذي كان عدد سكان الصين يُقدّرون بأربعمائة وثمانين مليوناً ، وهذا يعني أن المسلمين يُشكّلون ١٠ ٪ من السكان . وكان عدد المساجد في البر الصيني يزيد على اثنين وأربعين ألف مسجد . غير أن الشيوعيين قد أعطوا أرقاماً مخالفةً للواقع إذ قلّلوا من عدد المسلمين ومؤسساتهم ، ولم يصل عدد المسلمين في تقديراتهم إلى خمسة عشر مليوناً ، ولذا سأقدّم للقارىء الكريم جدولاً بالمقاطعات الصينية حسب التقسيمات التي كانت معروفةً يومذاك وعدد المسلمين في كل مقاطعة منها إضافةً إلى عدد المساجد فيها ، ودون الالتفات إلى التقديرات التي أعطاها الشيوعيون الذي يناهضون الإسلام بالدرجة الأولى .

المقاطعة	المساجد	عدد المسلمين
١ - تركستان « سينكيانغ »	٢٠٤٥	٢,٣٥٠,٩٥٠
٢ - كانسو	٣٨٩١	٣,٥١٠,٩٢٠
٣ - نينغ هسيا	٦٥٥	٧٥٣,٤٠٠
٤ - تسينغهاي	١٠٣١	١,١٨٦,٥٩٠
٥ - تشيهول	٢٤١	٢٧٨,٩٥٠
٦ - ولايات الشمال الشرقي	٦٥٧٠	٧,٥٣٣,٦٨٠
٧ - سوى يوان	٢٥٣	٣٨٤,٦٢٠
٨ - جهاهار	١٧٥	١٧٥,٠٥٠
٩ - هوبه	٢٩٤٢	٢,٣٧٩,٤١٠
١٠ - هيونان	٢٧٠٣	٣,٠٩٤,٨٠٠
١١ - شنسي	٢٦١٦	٤,٢١٩,٠٩٠

المقاطعة	المساجد	عدد المسلمين
١٢ ـ شانسي	١٩٣١	١,٥٨٩,٥٧٠
١٣ ـ شانتونغ	٢٥١٣	٢,٨٩٠,٤٣٠
١٤ ـ يونّان	٣٩٧١	٤,٥٦٨,٢٩٠
١٥ ـ كوي شو	٤٤٩	٥١٩,١٦٠
١٦ ـ ستشوان	٢٢٧٥	٢,٦١٥,٣٣٠
١٧ ـ كوانغ سي	٤٢٩	٢٨٠,١٨٠
١٨ ـ كوانغ تونغ	٢٠١	٥٥٨,٤٥٠
١٩ ـ هونان	٩٣٢	١,٣٠٢,٩٠٠
٢٠ ـ هيوبه	١١٣٤	١,٥٨٧,٠٨٠
٢١ ـ كيانغ سي	٢٠٥	٢٨٦,٥٩٠
٢٢ ـ تشيكيانغ	٢٣٩	٣٥٧,٣٠٠
٢٣ ـ آن هوي	١٥١٥	٢,٢٨٨,٥٨٠
٢٤ ـ كيانغ سو	١٣٠٢	١,٩٦٣,١٧٠
٢٥ ـ فوكيين	١٥٧	٤٧١,٥٧٠
	٤٢,٣٧١	٤٨,١٠٤,٢٤٠

الحكم الشيوعي: عندما سيطر الشيوعيون على الصين في مطلع عام ١٣٦٩ هـ انتقلت حكومة الصين الوطنية إلى تايوان، وانتقل معها عدد من المسلمين. ولكن الشيوعيين أظهروا شيئاً في التسامح الديني في بداية أمرهم كي يثبتوا أقدامهم، غير أن هذا التسامح كان مخططاً له، ومن أجل تقييد حرية المسلمين حتى لا يتصرّفوا أي تصرّف إلا برأي الحزب، وكي يعطوا معلومات للزوار تنسجم وما يريدون، وليطبعوا باسم الإسلام كتباً مُضلّلة من أجل هذا كله شكّلوا جميعةً في البر الصيني حملت اسم « الجمعية الإسلامية الشعبية » كان من أعضائها حاكم تركستان الشرقية « سينكيانغ » برهان الدين

شهيدي، وسيف الدين كبير. وقد قامت هذه الجمعية بإنشاء عددٍ من المراكز التعليمية والاجتماعية والتي حملت اسم الإسلام أيضاً. وألفت الكتب عن الإسلام حسب وجهة نظر الشيوعية، كما طبعت القرآن الكريم وبهامشه تفسير حسبما يرى رجال الحزب، وبدأت ترسل البعثات إلى الحج ممن تختارهم لا ممن يرغب، وكانت أول هـذه البعثـات عـام ١٣٧٥ هـ. وأسّسـت معهـد بكين الإسلامي في ذلك العام، والذي كان يصدر عنه مجلة «المسلمون في الصين». وكانت أيضاً تصوّر أفلاماً عن حياة المسلمين وترسلها إلى أمصار العالم الإسلامي للدعاية الشيوعية.

وتعمّقت جذور الشيوعية في الصين فترك سدنتها ما كانوا قد أظهروه من تسامح، ولقد بدؤوا بمصادرة الأوقاف الإسلامية فاحتجّ بعض المسلمين، ففرض الشيوعيون حصاراً اقتصادياً على مدينة «خوتان» في تركستان ذهب ضحيته عشرة آلاف مسلم. ورفض المسلمون إرسال بناتهم ليعشن حياةً مشتركةً مع الشباب حسب أوامر وتعليمات الشيوعيـة، فـأُبيـد ثلاثـة آلاف وخمسمائة مسلم في مدينة كاشغر في مطلع عام ١٣٧٧ هـ. وأُغلق معهد بكين الإسلامي عام ١٣٧٩ أي لم يستمر سوى اربع سنوات، ومع إغلاق توقّف صدور مجلة «المسلمون في الصين» التي كان يُصـدرهـا. وكـذلـك مُنعـت البعثات إلى الحج منذ عام ١٣٨٤ هـ. ورفض الشيوعيون إرسال بعثات للأزهر في مصر للتعليم، وكانت آخر بعثة ذهبت عام ١٣٥٦ هـ. وفرضت الحياة الجماعية في المعسكرات التي تُقام عادةً، وعُزل المسلمون في كيانات صغيرة باسم «الحكم الذاتي». وبدأ نقل أسر مسلمة كاملة من تركستان، وكانسو، وشنسي، ويونّان لتقيم في الأماكن البوذية، وكان يحلّ مكانها أسر بوذية... كان كل ذلك يدعو إلى انتفاضاتٍ محليةٍ أو انتقادات فردية يعقبها إبادة كاملة للمحلّة أو المنطقة مهما اتسعت ما دام فيها من يثير على الحكم.

وزادت الأمور صعوبة عندما بدأت الثورة الثقافية عام ١٣٨٦ هـ إذ أُغلـق

الكثير من المساجد، وأُبيد الكثير من الفئات المعارضة، والتهمت الثورة كل ما خلّف المسلمون في الصين من تراث وأتت على كثيرٍ من الآثار، بل وأطاحت بما نتج عن مرحلة التسامح الديني الذي أبداه الشيوعيون في بداية أمرهم، وشعر جميع من ينتمي إلى الإسلام حتى ولو كان ممن أضلّه الله أن الثورة الثقافية إنما كانت تهدف المسلمين قبل كل شيء، وتبغي أن تأتي عليهم وعلى كل ما يتصل بهم، وكانت السنوات العشر العجاف ١٣٨٦ ـ ١٣٩٦ هـ.

ومات ماوتسي تونغ رمز الشيوعيّة الصينية وحدثت خلافات على السلطة، ورجع الشيوعيون إلى المراقبة تحت عناوين لا تحمل تحتها أي مضمون والتوجيه وبثّ الفكر الشيوعي من خلالها، وتطبيق المبادىء والفساد بواسطتها، مات ماوتسي تونغ عام ١٣٩٦ هـ، وأُعيد فتح معهد بكين الإسلامي ليُدرّس العلوم من وجهة النظر الشيوعي، وأعيد معه إصدار مجلة «المسلمون في الصين» لتثبتّ الدعاية الشيوعية، وليُسجّل أقلامها ما يريده ساداتها، وعادت البعثات إلى الحج بدءاً من عام ١٣٩٩ هـ ليطلع رجالها على ما يدور هناك، وأعيد فتح ألف وتسعمائة مسجد في تركستان لتُؤدّي غرضاً من فتحها في استقبال الزوار والدعاية بالحرية. والضغط قائم، والحرية ممنوعة بكل أشكالها، والقتل قريب جداً ممن يُفكّر في أمر قد لا يرضى عنه الشيوعيون.

وفي الجنوب موقع هونغ كونغ الذي لا يزال تحت السيطرة الإنكليزية، منذ أن استولوا عليه عام ١٢٥٨ هـ. ويسكن في هونغ كونغ عشرة آلاف مسلم بين أربعة ملايين، وبذا تكون نسبة المسلمين أقل من نصف بالمائة.

وإلى الغرب من موقع هونغ كونغ على الطرف الثاني من الخليج موقع ماكاو الذي كان تحت سيطرة البرتغاليين، ولا يزيد عدد سكانه على نصف مليون، كما لا تزيد نسبة المسلمين فيه على نصف بالمائة.

ويزيد عدد سكان الصين الشعبية على مليار إنسان، ولما كانت نسبة

المسلمين فيها حوالي ١٠٪ لذا فإن المسلمين فيها اليوم يزيدون على المائة مليون، ويتوزعون على مختلف المقاطعات الصينية بنسبٍ مختلفة، لذا رأيت أن أُدرج هذه المقاطعات حسب التقسيمات الحالية، ومساحة كل مقاطعة مع عدد المسلمين فيها، ونسبتهم المئوية بالنسبة إلى مجموع سكانها.

المقاطعة	المساحة بالكم²	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١ - تركستان الشرقية	١,٧١٠,٤٥٠	١١,٩٠٠,٠٠٠	١١,٣٠٥,٠٠٠	٩٥٪
٢ - كانسو	٣٦٧,٠٠٠	١٨,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٣٧٨,٠٠٠	٧٩٪
٣ - نينغ هسيا	٦٦,٥٠٠	٢,٨٠٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٧٥٪
٤ - ستشوان	٥٧٢,٠٠٠	٩٨,٠٠٠,٠٠٠	٧,٨٤٠,٠٠٠	٨٪
٥ - يونّان	٤٣٧,٠٠٠	٣٢,٢٠٠,٠٠٠	٩,٦٦٠,٠٠٠	٣٠٪
٦ - شنسي	١٩٦,٠٠٠	٢٩,٤٠٠,٠٠٠	١٠,٥٨٤,٠٠٠	٣٦٪
٧ - شانسي	١٥٧,٠٠٠	٢٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,٧٨٠,٠٠٠	١٥٪
٨ - كوانغ سي	٢٢٠,٠٠٠	٣٣,٦٠٠,٠٠٠	٥٧,١٢٠	٠,١٧٪
٩ - هيونان	٢١١,٠٠٠	٥٣,٢٠٠,٠٠٠	٥,٥٨٦,٠٠٠	١٠,٥٠٪
١٠ - هونان	١٦٧,٠٠٠	٧٠,٠٠٠,٠٠٠	٤,٥٥٠,٠٠٠	٦,٥٠٪
١١ - هيوبه	١٨٨,٠٠٠	٤٤,٨٠٠,٠٠٠	٥,٦٠٠,٠٠٠	١٢,٥٠٪
١٢ - منغوليا الداخلية	١,١٨٣,٠٠٠	١٨,٢٠٠,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٠,١٠٪
١٣ - كوي شو	١٧٤,٠٠٠	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٢٨,٠٠٠	٠,١٠٪
١٤ - آن هوي	١٣٠,٠٠٠	٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٩٨,٠٠٠	٠,٢٠٪
١٥ - كيانغ سي	١٦٥,٠٠٠	٣٢,٢٠٠,٠٠٠	١,٢٨٨,٠٠٠	٤٪
١٦ - كوانغ تونغ	٢٣٤,٠٠٠	٥٦,٧٠٠,٠٠٠	١,٤١٧,٥٠٠	٢,٥٠٪
١٧ - فوكيين	١٣٤,٠٠٠	٢٥,٢٠٠,٠٠٠	٢,٥٢٠,٠٠٠	١٠٪
١٨ - تشيكيانغ	١٠٥,٠٠٠	٤٣,٤٠٠,٠٠٠	١,٧٣٦,٠٠٠	٤٪
١٩ - شنغهاي	٥,٠٠٠	١٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٤,٠٠٠	١٣,٦٠٪
٢٠ - كيانغ سو	١٠٥,٠٠٠	٦٥,٨٠٠,٠٠٠	٦٥٨,٠٠٠	١٪
٢١ - شانتونغ	١٥٦,٠٠٠	٧٩,٨٠٠,٠٠٠	٤,٧٨٨,٠٠٠	٦٪

المقاطعة	المساحة بالكلم²	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
٢٢ - بكين	٧,٠٠٠	٩,٨٠٠,٠٠٠	٩٨٠,٠٠٠	٪ ١٠
٢٣ - هوبه	٢٠٢,٠٠٠	٦٠,٢٠٠,٠٠٠	٣,٠١٠,٠٠٠	٪ ٥
٢٤ - لياونينغ	١٥٠,٠٠٠	٤٣,٤٠٠,٠٠٠	١٧٣,٠٠٠	٪ ٠,٤
٢٥ - كيرين	١٥٨,٠٠٠	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	١٤٠,٠٠٠	٪ ٠,٥
٢٦ - هيليونغ ميانغ	٤٥٥,٠٠٠	٣٥,٠٠٠,٠٠٠	—	—
٢٧ - التيبُّت	١,٢٢٧,٠٠٠	١,٤٠٠,٠٠٠	—	—
٢٨ - تسينغ هاي	٧٢٣,٠٠٠	٢,٨٠٠,٠٠٠	—	—
	٩,٤٧١,٠٠٠	١,٠١٢,٢٠٠,٠٠٠	٩٦,٠٢٠,٦٢٠	٪ ١٠

(١٣) تايوان "فورموزا"

جزيرة من الصين تبلغ مساحتها ٣٨ ألف كيلومتر مربع، انفصلت عن الصين بعد أن تسلّم الشيوعيون الحكم في البر الصيني في مطلع عام ١٣٦٩ هـ، وانتقلت الحكومة الوطنية التي كانت قائمةً في الصين إلى تايوان، كما انتقل مع الحكومة بعض المسلمين، وهكذا وجد في الصين حكومتان: إحداهما في البر الصيني، وتعرف باسم « حكومة الصين الشعبية »، والثانية في تايوان، وتُعرف باسم « حكومة الصين الوطنية ».

يبلغ عدد سكان الصين الوطنية « تايوان » ما يزيد على العشرين مليوناً، ويعيش بينهم ما يزيد على خمسة وأربعين الفاً من المسلمين، وبذا فإن نسبة المسلمين تقل عن ١٪ من مجموع السكان.

ولعلّ قلّة المسلمين في جزيرة فورموزا هي أن السفن التجارية الإسلامية لم تكن لتتجاوز شمال الجزر التي عرفت فيما بعد باسم « جزر الفيليبين » بسبب الأعاصير التي تجتاح المنطقة، وكانت السفن شراعيةً تخشى الابتعاد عن الساحل كثيراً.

وتوجد في عاصمة تايوان (تايبيه) بعض المؤسسات الإسلامية مثل: رابطة

الشباب المسلم الصيني، والهيئة الصينية الإسلامية، والمؤسسة الثقافية والتعليمية الصينية.

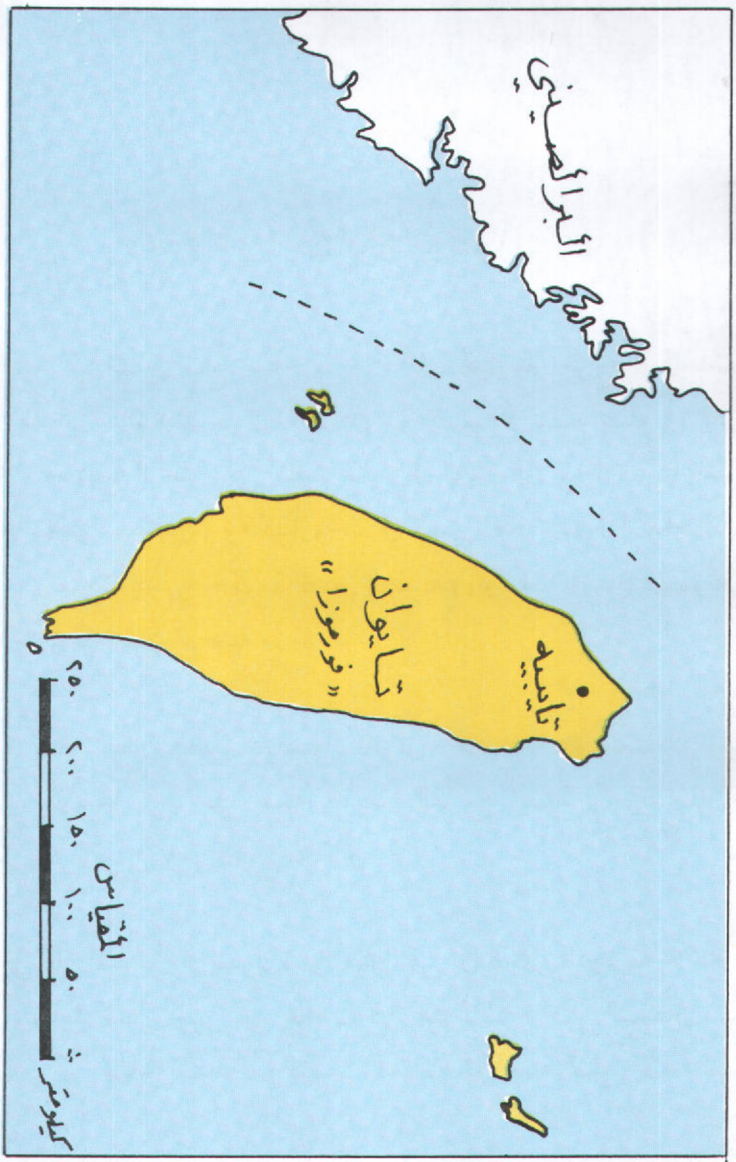

مصور رقم [١٥].

(١٤) اليَـابَـان

هي مجموعة جزرٍ تمتدّ من الشمال إلى الجنوب، أربـع منهـا كبيرة، وتبلـغ مساحة الدولة الحالية ثلاثمائة وسبعين ألف كيلومتر مربع. ولم يصل الإسلام إلى اليابان عندما وصل إلى الشرق الأقصى لأسبابٍ كثيرةٍ منها البُعد، والسفن الشراعية التي كانت يومذاك وسيلة المواصلات البحرية والتجارة، ومنها محاولة تركيز التجار المسلمين على مناطق قبل التحرّك إلى أخرى، ومنها التقوقع الياباني الذي كان معروفاً، والذي استمرّ حتى عـام ١٢٨٦ هـ حيث أُلزمت على الانفتاح والاتجار مع الأجانب وفتح بعض مرافئها لهم.

وجدت اليابان بعد صلتها مع الأجانب أنها في حالةٍ من التخلّف والتأخّر فاتجهت إلى إرسال بعض أبنائها لدراسة العلوم التجريبية فقط في دول أوربا المتطوّرة، ولم تلبث إلا مرحلة قصيرة حتى بدا عليها التطـوّر، وظهـر عليهـا التقدم في المجال العلمي والبحث التجريبي، واستطاعت أن تخوض حرباً عام ١٣٢٢ هـ مع روسيا خرجت إثرها منتصرةً، وكان لهذا الانتصار أثره الواسع في اليابان بل وفي عددٍ من الدول الآسيوية حيث ظهرت الدول الأوربية على حقيقتها، وأنه من الممكـن إحـراز النصر عليهـا إذا كـان الجد والسعي رائد الشرق. وقد أرسل السلطان العثماني عبد الحميد مندوباً عنه إلى اليابان وهو القائد العثماني برتوباشا ليهنىء الميكادو بهذا النصر.

إن الانغلاق الذي كان قائماً في اليابان حال دون وصول الإسلام إليها رغم وصوله إلى الصين القريبة منها، ورغم وجوده في الأجزاء الساحلية الصينية بنسبٍ لا بأس بها، فلما تمّ الانفتاح بدأ يصل إلى اليابان بعض التجار المسلمين، وخاصةً من الهند التي كانت تتبع انكلترا التي هي أول دولةٍ أجنبية حصلت على حقّ التجارة مع اليابان، غير أن عدد هؤلاء المسلمين لم يكن ليزيد على بضعة أفراد، لا يصل عددهم إلى الأربعين أبداً، وليس لديهم الإمكانات الكافية للعمل الإسلامي، كما لم يكن هذا همّهم الأول، وإن كنا لا نستطيع أن نُجرّدهم من فكرة العمل للإسلام لأن هذا من فطرة البشر الذين يعيشون في مجتمعٍ يختلف عنهم في العقيدة إذ يرغبون ويعملون على كسب أفرادٍ وجماعات إلى عقيدتهم وخاصةً المسلمين الذين يرون في هذا أجراً كبيراً.

وبعد الانفتاح الياباني وخاصةً بعد الانتصار على الروس عام ١٣٢٢ شعر اليابانيون جميعاً من الإمبراطور حتى الفرد العادي من الشعب أن الديانة الشنتوية اليابانية متخلّفة جداً لا يقبل العقل طقوسها، ولا ينسجم الفكر مع تعاليمها إذ لا يمكن أن يكون الإمبراطور ابناً للإلهة الشمس حسب ما تنص عليه تعاليمهم، وما الشنتوية سوى فرع من البوذية اختصّت بها اليابان، لذا اجتمع كبار رجال البلاد للبحث في هذا الموضوع الخطير، وإن كان قد سبق لهم أن رأوا فشل الجماعات التنصيرية التي قدمت إلى البلاد لهذه الغاية بل إن رجالها قد لقوا ازدراءً من الشعب الياباني وربما كان ذلك لصلة النصرانية بالدول الأوربية التي يمقتها اليابانيون ولأن تعاليم النصرانية لا تتفق أيضاً مع الفطرة البشرية بما فيها من رهبانيةٍ، وجمع ثلاثة آلهةٍ في إلهٍ واحدٍ، ورفع مركز العبد إلى مكانة الألوهية والتقديس و... فاقترح أحد رجالات اليابان النظر في كتابٍ قدم به مؤلفه إلى اليابان وهو (حسّان ينوس) أحد مسلمي الصين في العام المنصرم (١٣٢٣ هـ) إلاّ أن الميكادو وزعماء اليابان قد رأوا أن تكون الدعوة عامة لأصحاب مختلف الديانات كي يكون الأمر واضحاً،

وهو على درجة تستحق ذلك، وكي يكون ذلك حجة على أصحاب الديانات الثانية، وحتى لا يكون لهم اعتراض، ومن هذا المنطلق فقد دعيت كل من الدولة العثمانية، وايطاليا، وألمانيا، وفرنسا، وانكلترا، والولايات المتحدة لترسل من تختار للدعوة لدينها، ومما يلاحظ أن روسيا قد استبعدت لكراهيتها من قبل اليابان، ولقرب انتهاء الحرب التي وقعت بين الطرفين والتي لا تزال آثارها قائمةً. كما يظهر أن الدول النصرانية إنما تُمثّل مذهبيها الكاثوليكي والبروتستانتي، وغاب أصحاب المذهب الأرثوذكسي المذهب العالمي الثالث للنصرانية مع غياب روسيا صاحبته وحاميته. ويظهر أن هناك عطفاً على الإسلام مع وجود بعض التساؤلات لعل في طليعتها تعدد الزوجات، وقتال المسلمين من التتار والقفقاس مع الجيوش الروسية ضدّ اليابان مع العلم أنهم يعلمون العلم الأكيد أن هؤلاء ما جاءوا للقتال إلا مكرهين، فهم مغلوب على أمرهم، محكومون من قبل الروس، كما أنهم يخضعون لضغطٍ شديد من قبل مستعمريهم، لقد علموا هذا من قبل الأسرى الروس الذين في قبضة اليابانيين، وكان من بينهم ألفان من التتار المسلمين.

ولبّت الدول المختلفة الدعوة لهذا المؤتمر، وأرسلت مبعوثيها، وعُقد المؤتمر برئاسة الامبراطور الياباني الميكادو موتسوهيتو، وزاد عدد الحضور على مائة وعشرين عضواً من مختلف الدول، وتكلّم المندوبون، وردّ بعضهم على بعض في اليوم الأول، وفي اليوم التالي أعلن أن الجميع قد أبدوا وجهات نظرهم ومحاسن دياناتهم، ونحن سنترك الرأي للشعب ونعطيه حرية الاختيار للدين الذي يراه، ولكل فردٍ الحق بما يقتنع ويهوى. ولكن رأى مندوبو الدول النصرانية أن الاتجاه العام لدى اليابانيين قد انصرف نحو الإسلام وذلك من خلال ما لقيه كلام بعثة الدولة العثمانية، وقوة الحجة، وانسجام التعاليم مع الفطرة البشرية وهذا ما يسعى اليابانيون وراءه، إضافةً إلى أن مندوبي هذه الدول قد سألوا إرسالياتهم التي سبق لها أن ارتادت اليابان

وعملت في ميدان التنصير فأجاب رجال الإرساليات بأنهم لم يجدوا المُناخ المناسب ولا البيئة الملائمة بل وجدوا إعراضاً يصل في كثيرٍ من الأحيان إلى الازدراء. لذا شاع الخبر في الدول المختلفة أن امبراطور اليابان الميكادو سيعتنق الإسلام، وسيتبعه شعبه فأثار هذا الدول الصليبيـة عـامـةً والكنـائس والبابوية فعملت جميعها مُتكاتفةً لثني الامبراطور عن عزمه.

كان الامبراطور سياسياً واعياً لوضع بلده عارفاً بطبيعة شعبه وفي الوقت نفسه لم يذق حلاوة الإيمان بعد ليتمسّك بموقفه كما لم يعرف حقيقة الإسلام لذا لم يرغب أن يقف في وجه الدول الكبرى حيث لم يتمكن من معاداتها جميعها، وإنما أعطى حرية الاختيار للشعب كي يعتنق الديانة التي يراها مناسبةً له، كما أنه اتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني وطلب منه أن يبعث إلى اليابان معلمين للإسلام ومرشدين كي يقوموا بالدعوة هناك، وقد وجد أن هذه الطريق لا تُسبّب له أي إزعاج فـالحريـة معطـاة، ومُنصِّرون يأتون، وهو يعلم علم اليقين أن الشعب اليـابـاني يـرفضهـم كما يـأتي الدعاة المسلمون فليُقدّموا من نشـاطهـم مـا أمكنهـم ولنرى ثمرة جهـدهـم وعملهم.

وشاع بين الناس اتجاه امبراطـور اليـابـان نحو الإسلام، وأضحـى اعتنـاق اليابانيين للإسلام وشيكا، وروّج ذلك المُنصّرون قبل المسلمين فتحرّكت لدى النشيطين من المسلمين الرغبة في السفر إلى اليابان والعمل للدعوة، وشكّل بعضهم جمعيات لهذا الغرض، ولم تثمر النتائج برحلات، وانطلق أفراد تأخذهم الحماسة.

انطلق من مصر أحمد الفضلي وهو ضابط سبق له أن عمل في السودان، وسافر إلى اليابان، وتزوّج من سيدةٍ يابانيةٍ ورجع إلى مصر، وقد أسلمت زوجه وأمها، ثم عاد إلى اليابان، واستقرّ هناك، ورُزق بمولود ربما كان أول مسلم ياباني.

وسافر علي أحمد الجرجاني صاحب جريدة الارشاد من مصر للدعوة في اليابان، وتعرّف هناك على أحد المسلمين الهنود وهو حسين عبد المنعم، وقد أسلم على يديهما (جازينف) وقدّم داره لتكون مقرّاً للجمعية التي أزمعـوا على إنشائها، واستمرّت رحلته اثنين وثلاثين يوماً، ويقول: (أما الذين اعتنقوا الإسلام على أيدينا فبلغ عددهم نحو الاثني عشر ألف رجل)[1]، وهذا كلام غير صحيح، وربما نطق أكثر هذا الرقم بالشهادة مجاملةً على عادة اليابانيين فاعتقد أنهم قد اعتنقوا الإسلام.

واتجه نحو اليابان عبد الرشيد إبراهيم عبر سيبيريا وهو من التتار المسلمين الذين غادروا البلاد بعد أن عاد الضغط الروسي على المسلمين بعد إعطاء الحرية الدينية عام ١٣٢٥ هـ، وقد شجّعه جمال الدين الأفغاني بالرحلة إلى هناك بعد أن طلب امبراطور اليابان من السلطان عبد الحميد إرسال دعاةٍ من المسلمين ليتعرّف الشعب على الإسلام. ووصل عبد الرشيد إلى يوكوهاما في اليابان بتاريخ ٢٥ شوال عام ١٣٢٦ (٢٠ تشرين الثاني عام ١٩٠٨ م)، وتعرّف على رجل من المسلمين الهنود يحمل اسم (محمد حسن أوغاي)، ثم اتجه عبد الرشيد إلى العاصمة طوكيو، ووصل إليها بعد ثمانية أيـام مـن نـزولـه في اليابان، فاستقبل استقبالاً حسناً، وفسح له المجال للعمل فـاتصـل بكثير مـن الشخصيات، ودعي إلى عدد من الحفلات، وكانت الصحف تتابع أخباره، وتنشر كلامه، وتنقل في المدن والقرى، فوجد خمسة وعشرين من الشيعة الهنود، ويقيمون في مدينة (كوبي)، وأربعة من المسلمين في مدينة (أوزاكـا)، وثلاثة في مدينة (يوكوهاما)، وخمسة في مدينة (ناغازاكي) ويعودون جميعاً إلى الأصل الهندي. ولم يتعرف من غير الهنود إلا على أحمد فضلي الذي ألقى محاضرةً عن الإسلام يوم الاثنين في الأول من شهر ربيع الأول من عام ١٣٢٧ هـ بتشجيع من عبد الرشيد في مدينة طوكيو، وربما كانـت هـذه أول

---

(١) الرحلة اليابانية ص ١١٩.

محاضرة تلقى عن الإسلام في بلاد اليابان كلها. ورغب عبد الرشيد أن يتبيّن مدى معرفة اليابانيين عن الإسلام فوجد أنهم لا يعرفون شيئاً، وكل ما هنالك من معرفة أنه كان ألفان من المسلمين التتار بين أسرى الروس في اليابان، وقد وجدوا معاملة طيبةً وخاصةً من قبل اليابانيين، وقال له أحدهم: رأيت ثلاثة من المسلمين في اليابان، أحدهم جاء من استانبول، ويدعو إلى تعدد الزوجات، والثاني جاء من مصر ليعرض الإسلام على الميكادو فلم يُوفّق (ربما يقصد علي أحمد الجرجاني) والثالث من الهند. إضافة إلى معلوماتهم أن المسلمين التتار والقفقاس قد قاتلوا بجانب الروس في الحرب التي دارت بين اليابان وروسيا عام ١٣٢٢ هـ، ويستغربون هذا أشد الاستغراب وقد سألوا عبد الرشيد مراتٍ عن هذا الموضوع، ورغم إجابته بأن المسلمين كانوا مكرهين على القتال إلا أنهم لم يقتنعوا بذلك بسبب طبيعتهم الخاصة عن القتال، وربما قبلوا إرغام الروس للتتار على القتال، ولكنهم لم يقبلوا ذلك بالنسبة إلى سكان القفقاس. كما عرفوا بعض الطلبة المسلمين الصينيين الذين جاءوا مع أبناء قومهم من الصين للدراسة في اليابان، وكان عدد المسلمين بينهم ثمانية وثلاثين طالباً. وربما اقتنع بأن سماحة الإسلام بتعدد الزوجات قد يكون عقبة في إقبال اليابانيين على الإسلام.

اتصل عبد الرشيد برجالات من اليابان فأسلم عدد منهم ولعلّ أول من قبل الإسلام على يدي عبد الرشيد رجل يعمل في دائرة الأركان الحربية، ويدعى (أوحاره)، وقد أطلق عليه اسم «أبو بكر»، كما أسلم (أوقوما)، و(ياناكا)، و(نكوشيما)، و(نكایاما)، و(هونجي) وكلهم من رجالات اليابان البارزين، وقد شجّع هؤلاء الرجال عبد الرشيد إبراهيم على الموافقة على بناء مسجدٍ للمسلمين في طوكيو، وتأسيس جمعية للإشراف على شؤون المسجد وشؤون المسلمين في تلك الديار، ورأى نفسه مضطراً للموافقة، وقد حصلوا على الترخيص لتأسيس الجمعية في ١٨ جمادى الأولى من عام

١٣٢٧ هـ (٦ حزيران ١٩٠٩ م)، وبُدىء بإنشاء المسجد، وعُرفت الجميعة باسم (جمعية آسيا ـ غي ـ كاي) وتعني (القوة المدافعة عن آسيا).

وبينما كان عبد الرشيد إبراهيم في اليابان قام الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني في ١٠ ربيع الأول من عام ١٣٢٧ هـ (٣١ آذار ١٩٠٩ م)، وأظهر اليابانيون الأسف. وبذا انقطع الدعم عن عبد الرشيد، وكان قد استدعى عدداً من التتار المسلمين الفارين من وجه الاضطهاد الروسي. انقطع الدعم لزوال السلطان الذي كان يحمل فكرة الجامعة الإسلامية ويُنادي بها، ويعمل لها، وجاء خلفه الذين يحملون فكرة القومية، القومية الطورانية التي لا تلتفت إلى أية دولة أو جماعة خارج أبناء جلدتها... وأصبح عبد الرشيد مضطراً لمغادرة اليابان، وتركها يوم الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى من عام ١٣٢٧ هـ (١٥ حزيران ١٩٠٩ م) بعد أن أمضى فيها ما يزيد على سبعة أشهر. غادرها بعد أن ترك بعض الركائز للعمل الإسلامي. ولم يكن هناك بوادر للبناء على هذه الركائز لأن الدول الإسلامية جميعها تقريباً كانت تحت النفوذ الاستعماري الذي يحول دون الدعم لهذا الموضوع، ومن نجا من الاستعمار لم تكن أوضاعه الاجتماعية والمادية لتُساعده على ذلك، هذا بالإضافة إلى المشكلات التي كانت تقف دون السير في هذا الاتجاه، ولم يكن كذلك العمل الشعبي مُهيّأً للقيام بمثل تلك المهمة مع التخلّف ووجود الكوابح الاستعمارية، وليس العمل الفردي بأفضل حالاً لانعدام المعرفة وضعف الإمكانية، وبذا فقد توقّف انطلاق المسافرين من دعاة ومرشدين إلى تلك الجهة الظمأى القابلة للزرع.

غير أنه حدثت أمور سياسية من قبل الدولة اليابانية وإن كانت لا ترمي إلى الدعوة الإسلامية غير أنها تحمل هذا الاسم أو هذا الشعار ذلك أن اليابان بعد انتصرت على الروس فكرت بالتوسّع في القارة الآسيوية، ولما كان المسلمون يُشكّلون ما يقرب من ثلث سكان هذه القارة لذا فكرت الدولة

بالإفادة منهم حيث تجعلهم يتّجهون نحوها كمنقذةٍ لهم من الاستعمار الصليبي الغربي، الذين يقاتلونه ويلتقون في كراهيته مع اليابان، ومن هنا أظهرت اهتمامها بالإسلام ورغبتها في نشاط أهله في بلادها، أو أنها عدت نفسها حاميةً له، وبدأت الدعاية لا للإسلام ولكن للإفادة من أبنائه وعواطفهم، مثل أن الإسلام للشرق وقد انتشر بين الملل الشرقية على حين أن النصرانية لم تنتشر في الشرق إلا بين بعض أبناء الطبقات الوضيعة. ومع ما في هذا الطرح من خطأ في الأصل إذ أن الإسلام إنما جاء للناس كافةً لم يختصّ بشرقٍ أو بغربٍ إلا أن العاطفة هي التي تغلب وأكثر الناس لا يعلمون، فالجهل شائع، وعدم المعرفة أمر قائم، والاعتماد على العاطفة وليس على الفكر. وإذا كان الذي يُنادي بذلك على جهلٍ، ولكنه يُقدّمه أيضاً لأناس غلب عليهم الجهل.

وبدأت تنمو لدى اليابانيين فكرة الوحدة مع الصين التي تضمّ كتلةً هائلةً من البشر، وإذا ما تمت مثل هذه الوحدة فإنه يصبح بالإمكان الوقوف أمام العالم، والصين تضمّ أعداداً ليست قليلة من المسلمين، وتحقيقاً لفكرة الوحدة فإن اليابان قد فتحت مدارسها أمام الطلاب الصينيين الراغبين في الدراسة، وبدأ بعض الطلاب يقبلون من الصين إلى اليابان، وإن كان عددهم قليلاً نسبياً إلا أنها ظاهرة تسترعي الانتباه وبين هؤلاء الطلاب بعض المسلمين.

ومع الدعاية، ومع انتشار فكرة الوحدة مع الصين، ومع فكرة التوسع بدأ التنفيذ والتطبيق فقد ضمّت اليابان إليها كوريا عام ١٣٢٩ هـ، وليس في كوريا مسلمون، ثم بدأ العمل للتوسع في منشوريا، ولم تمض مدة حتى دخلتها، غير أن المسلمين في منشوريا لم يختلطوا مع اليابانيين، ولم يمكنهم التأثير لأنه من الأساس لا يملكون إمكانية التأثير لعدم معرفتهم الصحيحة بالإسلام، ولنظرة اليابانيين الفوقية لهم. ومع ذلك فقد رجع عدد من اليابانيين إلى بلادهم من منشوريا مسلمين. وبدأ التوسع في الصين واحتلت اليابان الجزء الشمالي من البر الصيني، وحاولت تحسين علاقاتها مع المسلمين، وأوجدت لهم تنظيم «اتحاد

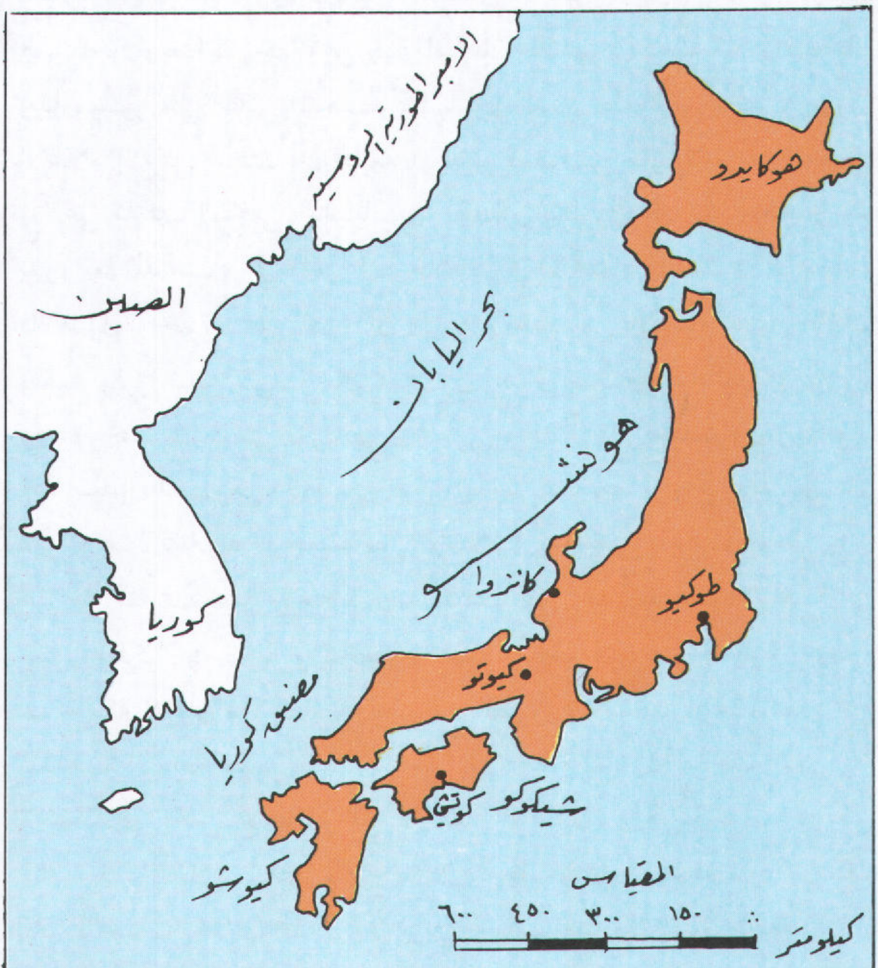

هوكايدو
الصين
بحر اليابان
هونشو
كانزوا
طوكيو
كوريا
كيوتو
مضيق كوريا
شيكوكو
كوتشي
كيوشو
المقياس
٠ ١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ ٦٠٠
كيلومتر

مصور رقم [١٦] .

المسلمين في الصين »[1] وعملت على نشاطهم ودعمهم. وجاء عدد من المسلمين من الهند ومن جاوة في اندونيسيا إلى اليابان، ولكن لم يكن لهذا كله أثر في الدعوة إلى الإسلام في اليابانيين لأن هؤلاء المسلمين لم تكن لديهم الإمكانات المطلوبة للعمل للدعوة إذ لم يكونوا مُؤهَّلين ولم تكن لديهم معرفة أو خبرة في هذا المجال، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن خلافهم فيما بينهم كان واضحاً، وكان يدور على أساس المذهب، فالمسلمون الذين جاءوا من الهند لا يرون الإسلام إلا على مذهب أبي حنيفة، والذين قدموا من جاوه لا يريدون العمل إلا على مذهب الشافعي، واليابانيون المسلمون ينظرون إلى هذا مُتعجّبين ولم يدروا ما المذاهب، ولم يعلموا أنها خلافات في الاجتهاد وليست في الأصول، فالأصول واحدة، حتى ظنّوا أن الإسلام عدد من الأقسام بينها خلاف واضح وفيها تباين بيّن، وحال هذا دون اعتناق عدد من اليابانيين الإسلام، وأرسل محمد عبد الحي قوربانعلي ومحسن جاباك أوغلي يستفسرون ويسألون محمد سلطان المعصومي الخوقندي المكي المدرس بالمسجد الحرام وذلك في عام ١٣٥٧ هـ، يسألونه ما حقيقة دين الإسلام؟ وما معنى المذهب؟ وهل يلزم على من تشرّف بدين الإسلام أن يتمذهب على أحد المذاهب الأربعة؟ أي يكون مالكياً أو حنفياً أو شافعياً أو حنبلياً أو غيرها... أو لا يلزم؟. فبين لهم حقيقة الإيمان والإسلام، وليس من الضروري التقليد لمذهب معين من المذاهب الأربعة فليس ذلك بواجب ولا مندوب، إذ المذهب ليس إلا اجتهاداً في بعض الأحكام التي لا تمسّ الأصول. ولكن الجواب لم يكن ليقطع دابر الخلاف الذي لم يوجد إلا للجهل أو عدم المعرفة فلو كان العلم قائماً لما حدث الخلاف أصلاً. ولا يزيل الجواب تعنتاً ولا يُقدّم حكمةً.

وفي الحرب العالمية الثانية أسلم عدد آخر من اليابانيين لوجودهم بين المسلمين في أندونيسيا والملايو والمناطق الأخرى التي احتلّها اليابانيون. وفرّ من الصين

(١) انظر الموضوع السابق (الصين).

عدد من المسلمين بعد سيطرة الشيوعيين عليها واتّجهوا نحو اليابان. ثم وصل عدد آخر من الدعاة من الهند وباكستان ومن جماعة التبليغ خاصة، غير أن أكبر الأثر للدعوة إلى الإسلام في اليابان إنما هو اليابانيون أنفسهم.

يُقدّر عدد المسلمين اليوم في اليابان بأكثر من عشرين ألف مسلم، ولهم بعض المؤسسات الإسلامية، وأكثرها وأشهرها في طوكيو ومنها: الجمعية الإسلامية اليابانية، الجمعية الثقافية الإسلامية، جمعية الطلاب المسلمين، المركز الإسلامي الدولي، المركز الإسلامي في اليابان، ويُصدر مجلةً شهريةً اسمها «السلام». والمؤتمر الإسلامي الياباني. ويقوم في طوكيو مسجد للمسلمين. كما افتتح في طوكيو معهد لتدريس اللغة العربية يتبع جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية. كما توجد مساجد أخرى في بعض المدن مثل: كيوتو، كانزوا، نارتو، كوتش، كوبي.

ويبدو أن عدداً من أهل العلم وأساتذة الجامعات قد أعلنوا إسلامهم وبدؤوا يعملون له، وربما كانت انطلاقة إسلامية جيدة في اليابان فيما إذا صدق المسؤولون والذين بيدهم الإمكانات، وأخلص الدعاة.

(١٥) كوريــا

ذكرنا أن سفن المسلمين التجارية لم تكن لتتجاوز الصين لأسبابٍ كثيرةٍ لعلّ منها طبيعة السفن الشراعية آنذاك، والبرد الذي يُخيّم على المناطق الشمالية، ومحاولة التركيز على مناطق حتى تزداد نسبة المسلمين فيمكن للدعوة أن تنجح بكثرة أنصارها، وتأسيس إماراتٍ إسلاميةٍ يكون لسلطانها القوة، وعدم وجود الموارد المُشْجّعة آنذاك. لهذا كله لم يصل الإسلام إلى كوريا والمناطق القريبة منها.

وعندما انقسمت كوريا إلى قسمين: كوريا الشمالية وتبلغ مساحتها ١٢٢ ألف كم٢، وكوريا الجنوبية وتبلغ مساحتها حوالي ١٠٠ ألف كم٢، وحدث خلاف في العقيدة بين الجُزأين، وقامت الحرب بينهما عام ١٣٧٥ هـ، ووصلت قوات دولية لدعم كوريا الجنوبية، كان من بين فرق هذه القوات فرقة تركية، وكان إمامها الشيخ عبد الرحمن فاستطاع أن ينشر الإسلام بين أعدادٍ قليلةٍ من السكان، ويُقدّر عدد المسلمين اليوم هناك بثلاثة آلاف وخمسمائة مسلم بين خمسة وثلاثين مليوناً من السكان، أي يوجد مسلم واحد بين كل عشرة آلاف ساكن.

ويتجمع أكثر المسلمين في مدينة (سيؤول) العاصمة، ولهم مسجد وسط المدينة، كما يُنظّمهم اتحاد المسلمين في كوريا، وتصدر لهم مجلة شهرية تحمل اسم «صوت الإسلام». ويوجد الاتحاد الإسلامي، والمنظمة الخيرية الإسلامية، وكلاهما في مدينة سيؤول العاصمة، ونشاطهما محدود لضعف الإمكانات، وعدم تأهيل القائمين بالنشاط.

أما كوريا الشمالية فتكاد تخلو من المسلمين، لما ذكرنا سابقاً ولعقيدتها التي لا تسمح باعتناق أيّ دينٍ أو اتباع أي مذهب اللهم إلا إذا استثنينا النصرانية على المذهب الارتوذكسي ديانة ومذهب الروس.

مصور رقم [١٨].

(١٦) منغوليـــا

منطقة واسعة من الصحراء وسط آسيا، كانت تتبع الصين، تزيد مساحتها على مليون ونصف من الكيلومترات المربعة، ولكن لا يزيد عدد سكانها على المليون ونصف بسبب الجفاف، ويعيش فيها أقل من ١٥ ألف مسلم. ولذا فإن نسبتهم حوالي ١٪ فقط.

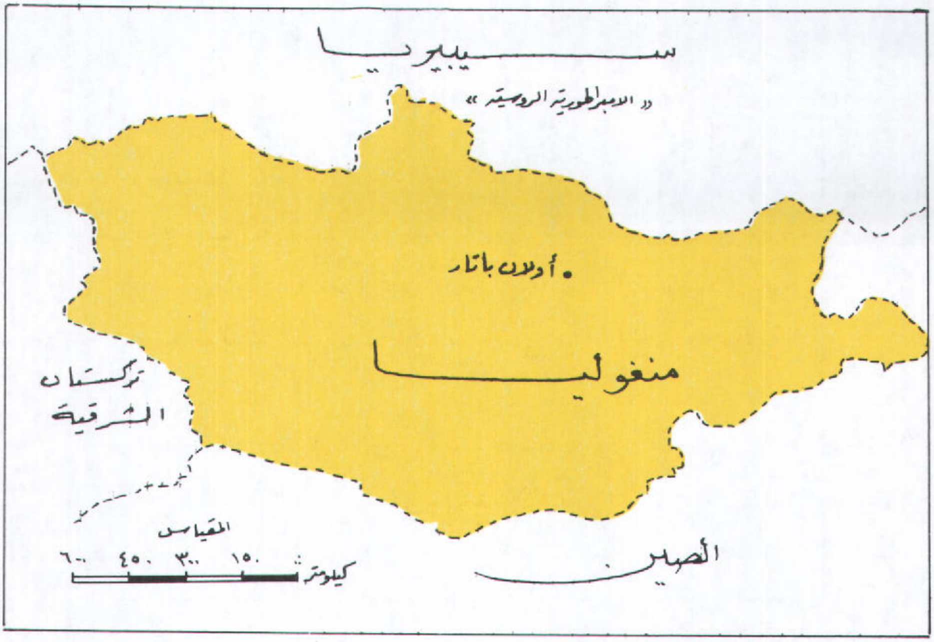

مصور رقم [١٩].

(١٧) قبرص

قبرص أكبر جزر البحر المتوسط الشرقي، وأقربها إلى ساحله الشرقي، تبعد عن السواحل التركية الجنوبية مسافة ٦٥ كيلومتراً، وعن الساحل السوري تسعين كيلومتراً، وعن الساحل المصري أربعمائة كيلومتر، وعن سواحل بلاد اليونان مسافة تسعمائة كيلومتر، فهي جزيرة آسيوية، نتيجة قربها منها وصلتها بها.

وتتألف أرض قبرص من سلسلةٍ جبليةٍ تُوازي الساحل الشمالي، وهي في امتداد وطبيعتها تتمة لجبال الأمانوس السورية ـ التركية، ومن مرتفعات في الوسط والجنوب الغربي وتُعدّ أيضاً امتداداً لجبل الأقرع في سورية، وبين هذين القسمين أودية وسهول تقوم فيها العاصمة (نيقوسيا). فالجزيرة من حيث الطبيعة والتضاريس تُعدّ آسيويةً إذ هي تتمة للأرض السورية.

ومع هذا تصرّ الدول الأوربية على تصنيفها بين الدول الأوربية والجزر الأوربية تأكيداً على نصرانيتها، ويتابع الأوربيين كتابنا الذين يكتبون في الجغرافيا والتاريخ أو السياسة والاجتماع لأنهم ليسوا سوى نقلةٍ من غير نظر ومسجلين من غير فكر. ونحن بناء على واقع الجزيرة الجغرافي نؤكد أنها آسيوية، ونؤكّد حقّ أبنائها المسلمين في أرضهم.

تبلغ مساحة جزيرة قبرص ٩٢٥١ كيلومتراً مربعاً أي تقرب مساحتها من مساحة لبنان، ويبلغ أقصى طول للجزيرة ٢٣٥ كيلومتراً، وأقصى عرض ٩٠ كيلومتراً. ويزيد سكانها قليلاً على ستمائة ألف، يُشكل النصارى بينهم ٧٩٪، والمسلمون ١٩,١٪، واليهود ١,٩٪، والنصارى هم من الارثوذكس وقليل من الموارنة.

دخلت النصرانية إلى قبرص عام ٥٧٤ قبل الهجرة (٤٨ م)، وآل الحكم فيها إلى أيدي الروم البيزنطيين حتى جاء الإسلام، وأنقذها من أيدي الظلم والطغيان الذي كان سائداً فيها.

وصول الإسلام: رأى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وهو أمير الشام يومذاك أن يُنازل الروم في البحر، وأن يحتلّ القواعد المهمة التي يتخذها البيزنطيون قواعد ينطلقون منها للإغارة على ديار الشام ومن بين هذه القواعد جزيرة قبرص، ولكن لم يكن للمسلمين يومذاك أسطولٌ بحريّ كي يواجه أساطيل الروم فاستأذن من الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في بناء أسطول، فلم يجد الخليفة أن الأمر قد حان بعد لبناء أسطول إسلامي.

فلما كان عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عاد معاوية، رضي الله عنه، للاستئذان في بناء أسطول إسلامي فوافق الخليفة واليه على الشام بل وشجّعه على ذلك، وخاصةً بعد أن تعرّضت مصر عام ٢٥ هـ لغزوٍ بحري رومي.

قام معاوية، رضي الله عنه، بالأمر واستعمل على البحر عبدالله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة، وتمكّن المسلمون من فتح جزيرة قبرص عام ٢٨ هـ على يد حملاتٍ بحريةٍ خرجت من الشام ومصر، وصالح معاوية أهل قبرص على دفع ٧٢٠٠ دينار سنوياً، ومن بين صحابة رسول الله، ﷺ، الذين اشتركوا في فتح قبرص أبو ذر الغفاري، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت الذي استصحب معه زوجه أم حرام في تلك الغزوة.

كان الأسطول الإسلامي الذي غزا قبرص يتألف من ١٧٠٠ سفينة، رغم أن هذا الغزو كان أول غزوةٍ غزاها المسلمون في البحر، وتعهّد أهل قبرص بصلحهم إبلاغ المسلمين عن أية استعدادات يقوم بها الروم ضدّهم.

حدثت فتنة ابن السوداء (عبدالله بن سبأ) اليهودي في المجتمع الإسلامي، وظنّ أهل قبرص أن أمر المسلمين قد ضعف، وأن قوة الروم البيزنطيين يمكن أن تحميهم فأخلّوا بشروط الصلح، فدعا معاوية، رضي الله عنه، للجهاد في قبرص، وغزا قبرص عام ٣٤ هـ، واحتلّ المجاهدون قسطنطينة عاصمة الجزيرة آنذاك، وسيطر المسلمون على أرجاء الجزيرة كافة، وأسكن فيها معاوية، رضي الله عنه، اثني عشر ألفاً من جند المسلمين، ودعا الناس للهجرة إليها، فانتقل إليها كثير من أهل بعلبك، ونشروا فيها الإسلام، وبنوا المساجد.

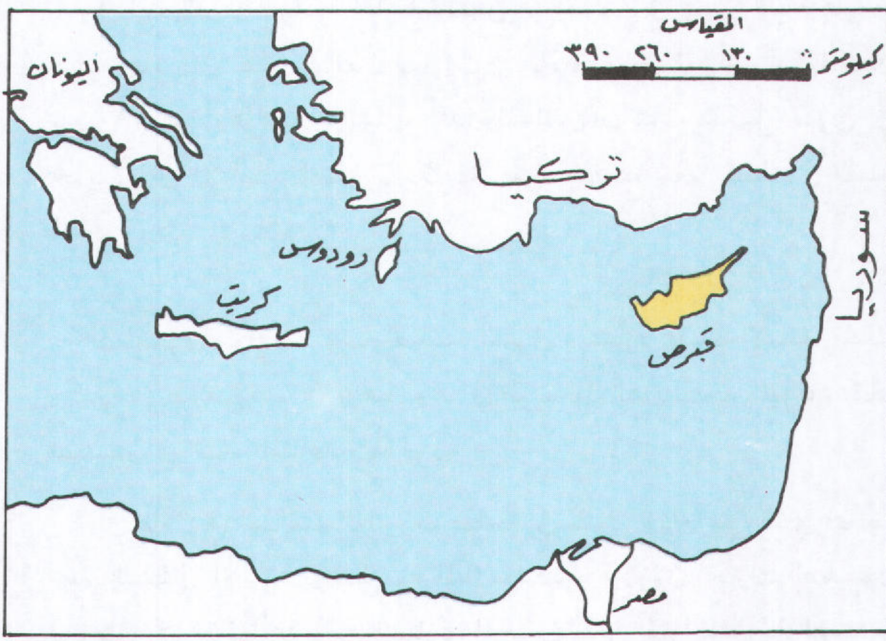

مصور رقم [٢٠] .

الصراع: وفي عام ٧٥ هـ حاول جوستنيان الإغارة على المسلمين في قبرص مستغلاً الخلاف بين الخليفة عبدالله بن الزبير في مكة المكرمة وحاكم بلاد الشام عبد الملك بن مروان غير أن أهل الجزيرة قد طردوا جوستنيان من أرضهم. ولكن الروم استطاعوا دخولها بعد مدة. وهكذا عادت الجزيرة مرة أخرى إلى أيدي البيزنطيين، بعد أن حكمها المسلمون ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

وفي عام ١٠٩ هـ أغار المسلمون على قبرص، وفرضوا على أهلها جزيةً كبيرةً، وأغار الروم على مصر عام ١١٨ هـ فقابل المسلمون هذه الغارة بغارةٍ على قبرص عام ١٢٦ هـ، وحملوا معهم عدداً كبيراً من سكان الجزيرة الى الشام واحتفظوا بهم كأسرى. وكانت مصر وقبرص هدفي الهجوم الإسلامي والرومي في شرقي البحر المتوسط.

وفي أيام الدولة العباسية أغار المسلمون على قبرص في عهد الخليفة هارون الرشيد عام ١٧٤ هـ، وتتابعت الغارات في أيام هذا الخليفة وأشهرها ما كان عام ١٩٠ هـ، وعلى هذا لم تستطع أقدام المسلمين أن تثبت بشكلٍ قويٍ في الجزيرة لأن الأوضاع العامة لم تكن مستقرّةً يستطيع معها المسلمون القيام بالدعوة ونشر الإسلام.

الصليبيون: وفي الحروب الصليبية استولى ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا على قبرص عام ٥٨٧ هـ، وهو في طريقه إلى الشام ليتخذ منها قاعدةً لمدّ الصليبيين في الشام بالمساعدات الحربية.

وفي عام ٦٩١ هـ سلّمت بيروت صلحاً إلى سنجر الشجاعي الذي فتحها باسم السلطان الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون، فترك الصليبيون بيروت، كما تركها عدد من النصارى المحليين الذين آثروا مشاركة الصليبيين مصيرهم، وتوجهوا جميعاً إلى جزيرة قبرص، ولا يزال فيها إلى اليوم طائفة

منحدرة من الموارنة الذين أفرد لهم الحكم الحالي فيها مقعداً نيابياً يشغله واحد منهم في هذه الأيام.

وبعد إجلاء الصليبيين عن الشام نهائياً عام ٦٩٢ هـ تجمّعت القوى الباقية من الصليبيين في الشرق كافةً في جزيرة قبرص، واتخذتها مقراً لها، كما أصبحت شواطئها ملجأ للقراصنة الذين يُغيرون على السفن الإسلامية التي تنتقل في البحر المتوسط مما سبب المتاعب لدولة المماليك في مصر، والتي كان لها دور كبير في طرد الصليبيين من ديار الإسلام، وغدا الصراع بين الصليبيين في قبرص والمماليك في مصر.

انطلقت حملة من قبرص بقيادة ملكها بطرس الأكبر نحو الاسكندرية، واحتلتها عام ٧٦٧ هـ، غير أن المماليك قد أجلوا الصليبيين عن الإسكندرية بعد ثلاثة أيام، وعقد صلح بين المماليك ومملكة قبرص عام ٧٧٢ هـ، ورجع التجار ينتقلون بين الدولتين من جديد.

وفي أيام السلطان المملوكي برسباي عادت الغارات على قبرص، وكانت أولى هذه الغارات عام ٨٢٨ هـ، وتتألف من خمس سفن، وقد أحرقت ميناء (ليماسول) وما فيه من سفن، وعادت إلى مصر محملةً بالأقمشة والمواد الغذائية، وكانت الثانية عام ٨٢٩ هـ وتتألف من أربعين سفينة، وعادت ومعها ألف أسير، وفي المرة الثالثة كان الهدف فتح الجزيرة وليس الغارة عليها، وانطلقت الحملة المصرية عام ٨٣٠ هـ، وانتهى القتال بأسر ملك قبرص (جيمس لوزينيان) وحمله إلى القاهرة. واضطرت قبرص أن تدفع الجزية للمسلمين وبقيت تحت حكم الصليبيين.

استطاعت جيوش البندقية أن تحتلّ قبرص عام ٨٩٥ هـ، وأن تحكمها، واستمرت حتى جاء العثمانيون، ولم يكن البنادقة ليختلفوا عن الصليبيين إلا في الاسم، فما البنادقة إلا فرع من الصليبيين.

العثمانيون: كانت في بداية الأمر هدنة بين العثمانيين بعد أن قوي أمرهم وبين البنادقة والإمارات الإيطالية كلها من أجل إعادة الملاحة إلى البحر المتوسط، فلما فشل الأمر، وظهرت صليبية أوربا كلها بما فيها الإمارات الإيطالية اقتحم عندها العثمانيون قبرص عام ٩٧٩ هـ، وطردوا البنادقة منها، كما لاحقوهم في جزيرة كريت حتى أخرجوهم منها، وبطرد البنادقة من قبرص انتهت الحروب الصليبية حقيقةً.

بقي العثمانيون في قبرص ثلاثة قرون (٩٧٩ - ١٢٩٦) عملوا من بدايتها على تطويد دعائم الإسلام في الجزيرة، فقد أسكن فيها السلطان سليم الثاني حاميةً عثمانيةً منذ أن فتحها، وقام فيها الدعاة، ولم يمض قرن من الزمن على الفتح حتى كان المسلمون ثلاثة أمثال النصارى فيها، إذ كان سكان الجزيرة عام ١٣٠٨ ثمانين ألفاً، منهم ستون ألفاً من المسلمين، والباقي من النصارى، وهكذا غدت قبرص بلاداً إسلامية وجزءاً من ديار الإسلام بأرضها وأهلها.

وضعفت الدولة العثمانية، وقويت الدول الأوربية النصرانية، ومالت كفة الدول الأوربية بعد أن كان رجحان كفة العثمانيين هو الظاهر منذ أن بدأ الصراع بين العثمانيين المسلمين وبين الأوربيين النصارى، وبدأت الدول الأوربية تقتطع جزءاً بعد آخر من أراضي المسلمين، وكانت انكلترا تنظر إلى قبرص كقاعدة مهمة لها في الطريق إلى الهند لذا عمل رئيس وزراء انكلترا اليهودي دزرائيلي على فرض معاهدة عام ١٢٩٦ مع الدولة العثمانية، وقد عرفت تلك المعاهدة باسم «التحالف الدفاعي» أكره فيها السلطان العثماني على قبول الاحتلال البريطاني لجزيرة قبرص مقابل ضمان بريطانية الدفاع عن الممتلكات العثمانية في آسيا ضدّ روسيا، كما تعهدت انكلترا بدفع مبلغ من المال سنوياً يقدر بـ (٩٢,٨٠٠) جنيه، وهو ما يفيض عن ميزانية قبرص إلى العثمانيين، وادعت انكلترا أن هذا الاحتلال موقت ريثما تعيد روسيا للعثمانيين المناطق التي احتلتها وهي أقاليم قارص، وباطوم، وأردهان. ولما

كانت انكلترا لا تستطيع أن تتصرّف وحدها دون موافقة الدول الكبرى، لذا فقد اتفقت مع فرنسا أن تطلق يدها في تونس، كما اتفقت مع روسيا أن تبقى الأقاليم التي احتلتها بيدها، وليبقى احتلال قبرص قائماً، وتُوّجت تلك الاتفاقات الثنائية بعقد مؤتمر برلين الذي تمّ عام ١٢٩٦، والذي أُبرم بعد أربعين يوماً فقط من معاهدة «التحالف الدفاعي» التي عقدت بين الدولة العثمانية وانكلترا.

احتلت انكلترا قبرص وأكثر سكانها من المسلمين فعملت قبل كل شيء على إضعاف المسلمين بتشجيع هجرة النصارى اليونان إليها، وفي الوقت نفسه الضغط على المسلمين الاتراك للهجرة منها، واستمرّت انكلترا في سياستها هذه حتى اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، وكل هذه المدة وقبرص تتبع اسمياً الدولة العثمانية وفعلاً كانت تحت السيطرة الانكليزية.

لما انحازت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أنهت انكلترا تبعية قبرص بالدولة العثمانية وضمتها مباشرةً إلى ممتلكات التاج البريطاني. ومنذ ذلك الوقت والقبارصة النصارى الذين هم من أصلٍ يوناني وإخوانهم بقية النصارى يطالبون باستقلال الجزيرة وإلحاقها باليونان وخاصة أن النصارى قد غدوا أكثريةً في الجزيرة في عهد السيطرة الانكليزية. واضطرت الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب إلى التنازل عن تبعية الجزيرة الاسمية الرسمية لها وذلك في معاهدة لوزان التي وقعتها إثر الحرب عام ١٣٤٢ هـ.

الحكم الانكليزي: عيّنت انكلترا معتمداً لها في قبرص عام ١٣٤٣ فأنشأ لجنة تنفيذية للحكم تضمّ سبعةً من الانكليز، ومجلساً تشريعياً يضمّ أربعةً وعشرين عضواً، يتمّ انتخاب خمسة عشر منهم [اثنا عشر من النصارى وثلاثة من المسلمين]، ويعين المعتمد التسعة الباقين.

وتأسست حركة (انيوسيس) وتعني الاتحاد مع اليونان، وتمثل النصارى وخاصةً اليونانيين منهم وكان أكثرهم قد هاجر إلى الجزيرة بتشجيعٍ من الإنكليز، وعلى رأس هذه الحركة الأساقفة في قبرص جميعا. وقد وقعت أحداث دامية عام ١٣٤٩ هـ ذهب ضحيتها مئات السكان من المسلمين والنصارى، وأنشأت إثر تلك الأحداث مجلساً تشريعياً ضمّ الذين يتعاونون معها ويُنفّذون سياستها.

اتخذت انكلترا قبرص أثناء الحرب العالمية الثانية قاعدةً حربيةً للحلفاء، وامتلأت الجزيرة بالمؤن، وتطوع أكثر من عشرة آلاف قبرصي في القوات البريطانية، فانتشر الثراء. كما جعل الانكليز من قبرص قاعدةً تجاريةً لنشاط اليهود وللفساد، كما غدت بعد الحرب وبعد مقاطعة العرب للبضائع اليهودية مركزاً لتهريب البضائع، ومقراً لعصابات الصهاينة. واعترفت قبرص بدولة إسرائيل، وكان بينهما تبادل قنصلي.

وأثناء الحرب العالمية الثانية زار رئيس بريطانيا تشرشل قبرص عام ١٣٦٢ هـ، وسمح بقيام الأحزاب السياسية فيها، كما دعا إلى انتخابات عامة للبلديات، وتشكّلت إثر ذلك عدة أحزاب وهي:

حزب الوطنيين Kehe.
حزب المزارعين Pek
حزب الاشتراكيين Pesp.

هذا إضافةً إلى الحزب الشيوعي Akel الذي يخضع للحزب الشيوعي اليوناني Eam الذي يسير على نهج موسكو، ويُوجّه من مدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا. وبعد فشل الحزب الشيوعي Eam في اليونان بدأ الشيوعيون في قبرص يُطالبون باستقلال جزيرتهم، وقد كانوا من قبل يُطالبون بانضمامها إلى اليونان، ويتوقّعون نجاحهم هناك، فعندما باءوا بالفشل رأوا أن يجربوا

معركتهم هنـا لذا بدؤوا يُطالبون باستقلالها. ولكن منع هذا الحزب من ممارسة نشاطه عام ١٣٧٥، إلا أنه بقي يعمل سراً، وقد اتهمته منظمة (إيوكا) التي تشكّلت آنذاك بالخيانة.

ذهب وفد قبرصي بعد الحرب إلى انكلترا للمطالبة بحق تقرير المصير، وفي عام ١٣٦٧ أضرب الشيوعيون واستمرّ إضرابهم ثلاثة شهور، وبرز في هذه الآونة على المسرح السياسي المطران مكاريوس الذي انتخب رئيساً لأساقفة قبرص، فدعا لإجراء استفتاء فوافقت الكنيسة وجرى استفتاء من طرف النصارى فقط.

حاولت اليونان عرض قضية قبرص على الأمم المتحدة غير أنها باءت بالفشل، كما حاول المطران مكاريوس ففشل أيضاً، فبدأت أعمال التخريب لتوجيه النظر العالمي إلى الجزيرة. وعرضت القضية عام ١٣٧٤ على الأمم المتحدة ولم تكن النتيجة مرضية لليونان. كما فشل المؤتمر الثلاثي في لندن عام ١٣٧٥ في التوصل إلى نتيجةٍ ترضى عنها الأطراف المعنية كلها.

لجأ اليونانيون إلى أعمال العنف ضدّ انكلترا صاحبة السلطة والتي ترفض ضمّ الجزيرة إلى اليونان، وضدّ الأتراك المسلمين الذي يخشون على أنفسهم من الوقوع تحت رحمة اليونانيين، ولهم معهم سابقة، كما لهم في مسلمي جزيرة كريت عبرة، وتدفّقت الأسلحة من اليونان إلى قبرص، والتقى المتطرفون من حركة (اينوسيس) وشكّلوا منظمة (أيوكا E. O. K. A) أي الجبهة الوطنية لتحرير قبرص، وتشمل ثلاثة أقسام: وهي القسم السياسي، وقسم التنسيق، وقسم التنفيذ ويرأس الأخير الجنرال (غريفاس)، وهو جنرال يوناني متقاعد، وصل إلى الجزيرة على شكل زائر عام ١٣٧٣ هـ.

بدأت منظمة (أيوكا) بأعمال العنف على نطاقٍ واسعٍ، واضطرت انكلترا إلى جلب امدادات عسكرية للمحافظة على النظام والأمن، وقامت في تركيا

مظاهرات ضدّ اليونان اتسمت بالعنف. فقاطعت اليونان المجلس العسكري لحلف البلقان المنعقد في انقره، وامتنعت أيضاً عن المناورة العسكرية لحلف شمالي الأطلسي، وقاطعت صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي الذي عُقد في استانبول، وهددت الغرب بالوقوف على الحياد، وذلك في سبيل لفت نظر العالم إليها، وكسب تأييد الغرب لها ضدّ انكلترا في ضم الجزيرة إلى اليونان.

اهتمت الولايات المتحدة بالأمر، واعتذرت تركيا عن أعمال العنف التي قامت على أرضها ولكن أعمال الإرهاب استمرّت في قبرص، وقامت انكلترا بنفي المطران مكاريوس مع ثلاثة من أعوانه إلى جزيرة (سيشل) عام ١٣٧٦ بغية تسليط الأضواء عليه وعلى أنصاره وإعطائهم حكم الجزيرة في المستقبل حيث ينفذون سياستها، واتخذت بريطانيا من قبرص قاعدةً للقوات البريطانية والفرنسية التي نزلت في قناة السويس عام ١٣٧٦ إبّان الاعتداء الثلاثي على مصر.

عرضت قضية قبرص على الأمم المتحدة عام ١٣٧٦ دون جدوى، ورفضت انكلترا مشروع الهند الخاص بقبرص. وتفاقمت أعمال العنف، ولكن انكلترا سمحت للمطران مكاريوس بالإقامة في أثينا ليكون قريباً من أحداث قبرص، وليُوجّه الحياة السياسية فيها، كما فرّ (غريفاس) من قبرص إلى اليونان.

ولننظر إلى مختلف الآراء ذات العلاقة في موضوع جزيرة قبرص.

١ - **اليونان:** ترى أن أكثرية سكان الجزيرة من اليونانيين الذين يريدون الانضمام إلى اليونان، وأن انكلترا تحول دون هذا الانضمام لتحتفظ بسيطرتها عليها. وكذلك تقوم تركيا بالدور نفسه لتبتلع الجزيرة في المستقبل، وأنها تُشجّع عناصرها في الجزيرة على أعمال العنف لتحول دول انضمامها إلى اليونان، وليساعدها ذلك على ضمّ قبرص لها في المستقبل.

٢ ـ تركيا: ترى أن الأكثرية النصرانية في الجزيرة ليست من أصلٍ قبرصيٍ، وإنما هاجرت إليها لهدفٍ سياسي تحت نظر وسمع الانكليز لذا فليس للعناصر الدخيلة الحق في تقرير المصير. وإنما الحق فقط لعناصر السكان الأصليين الذين كانوا قبل دخول الانكليز عام ١٢٩٦. وتبرهن على رأيها بما يلي:

كان عدد سكان قبرص عام ١٣٠٨ أي بعد دخول الإنكليز إليها باثني عشر عاماً ثمانين ألفاً ستون من المسلمين، وعشرون من النصارى، فالنصارى يشكلون ٢٥ ٪ فقط من سكان الجزيرة، على حين أصبحوا عام ١٣٨٠ أي بعد ما يقرب من سبعين سنة من السيطرة الإنكليزية:

١٠٤,١٨٣ مسلمين (أتراك).
٤٤٨,٠٤٣ نصارى (يونان).
٥٥٢,٢٢٦ المجموع.

إذ ليس من المعقول أن تكون زيادة النصارى هذه إلا عن طريق الهجرة، ومن المعلوم أن زيادة المسلمين في المواليد اكبر من زيادة النصارى، ولم يتضاعف عدد المسلمين على حين زاد النصارى بنسبة ٢٥٠٠ ٪، وهذا غير معقول إلا عن طريق دخول اليونانيين أفواجاً إلى الجزيرة بمساعدة الإنكليز.

كما أن المسلمين يخشون على أنفسهم من الانضمام إلى اليونان لأن مصيرهم سيكون مصير ٨٩ ألف مسلم كانوا في جزيرة كريت عندما انضمت إلى اليونان بعد أن خرج منها العثمانيون عام ١٣١٦ حيث أُجبر قسم على الهجرة وأُبيد الباقون تحت ظلم الحكم اليوناني، فهل يوجد إنسان عاقل في الدنيا يحكم على نفسه بالموت ويُسلّم نفسه للجزّار. لذا ترى تركيا رأي المسلمين في قبرص بأن تبقى الجزيرة مستقلة ويعيش المسلمون والنصارى بأمنٍ معاً. ويتركّز المسلمون في شمالي الجزيرة.

٣ ـ **انكلترا**: ترى من مصلحة انكلترا نفسها أن تبقى في الجزيرة، وأن في هذا البقاء مصلحة للغرب ولدول حلف شمالي الأطلسي، وكي لا تختلف تركيا واليونان اللتان في الحلف وبجانب الغرب.

وإذا كان لا بد من استقلال قبرص فيجب أن تكون فيها حكومة تتعاون معها وتُنفّذ سياستها، وتؤيّد الغرب، وقد هيّأت المطران مكاريوس وأعوانه لهذا الغرض، وسلّطت عليهم الأضواء، وعملت على تسليمهم الحكم. وفي الوقت نفسه فهي تعطف على النصارى وتكره المسلمين بدافع الحقد الصليبي. ومع هذا فإن اليونان تُعلن عن تفاهم تركيا وانكلترا ضدّ اليونان، وتحرص دولة اليونان النصرانية على ضغط الغرب على انكلترا بدافع الحقد الصليبي لتعمل لضمّ قبرص إلى اليونان.

٤ ـ **دول أوربا الغربية**: ترى رأي انكلترا في استقلال الجزيرة، وتعتقد أن في ذلك مصلحةً لها، وفي الوقت نفسه تساير اليونان بدافعٍ صليبي لتخفف من تطرّفها، وكذلك يجب دعمها كدولةٍ نصرانيةٍ، وتخشى من وقوع الحرب بين تركيا واليونان، وبعدهما عن الغرب، وعن حلف شمالي الأطلسي.

٥ ـ **دول أوربا الشرقية**: وتعمل على إبقاء أعمال العنف كي يمتدّ النفوذ الشيوعي ويبرز في هذا المناخ الملائم له، ولتُبيّن عُوار النظم الغربية بما يحدث في قبرص.

٦ ـ **الدول الإسلامية**: لا تنطلق من دافع ذاتي وسياسة خاصة، وإنما يسير أكثرها في فلك المخططات العالمية، ومع الدول الغربية بالدرجة الأولى، لذا فهي مع اليونان النصارى، وليست مع المسلمين، وتعلن أن الصراع بين تركيا واليونان، وتسلّط الأضواء على موقف تركيا من الغرب وعضويتها لحلف الأطلسي، واعترافها بإسرائيل وتنسى اليونان، وتضع اللوم على الدول

الغربية التي سببت كارثة فلسطين، ومشكلات البلدان العربية ومع أن هذه الدول تسير في فلك الدول الغربية إلا أن بعضها يعلن اتجاهه نحو الشرق لتغطية موقفه، وخداع الشعب. كما أن الدول هذه تُصرّح باستمرار أن الصراع يقوم على أساسٍ عصبيٍ لا على أساسٍ دينيٍ، وتُؤيّد اليونان صراحةً إلا بعض الدول المعتدلة، وهي قليلة. غير أن الشعوب جاهلة لا تعرف حقيقة الأمر فيسير قسم مع حكامه ويُردّد كلامه وهو من أصحاب المصالح والمنتفعين والباقي فهو مغلوب على أمره مُقيّد لا يُسمع له صوت ولا يُسمح لقلمٍ له بالكتابة.

اقترحت تركيا التقسيم إذا لم يكن التعايش ممكناً، وأصرّت اليونان على الاستفتاء، ما دامت قد أدخلت إلى الجزيرة ما يُؤمّن لها ما تبغي ويزيد.

وفي عام ١٣٧٨ اقترحت انكلترا الخطة السبعية، وتقضي بأن يبقى وضع الجزيرة لا يتغير مدة سبع سنوات، وفي أثناء هذه المدة ينتخب الشعب مجلسين أحدهما للمسلمين الأتراك والآخر للنصارى سواء أكانوا من اليونان أم موارنة أم غير ذلك. أما الإدارة العامة فتتألف من مجلس الحاكم العام الذي يضم ممثلين عن الحكومتين التركية واليونانية إلى جانب أعضاء من المجلسين. ولكن هذه الخطة قد رفضت من الأطراف كافةً. ورغم أن الخطة قد عُدّلت إلا أن نار الفتنة قد اشتعلت واستمرت حتى عام ١٣٧٩ هـ.

وأريد أن أوضح أن المسلمين ليسوا جميعاً من الاتراك، وإنما فيهم من بقايا العرب، ومن القبارصة الأصليين، وحتى من بعض اليونانيين ولكن يُطلق أحياناً على الجميع أتراكاً على صفة التغليب، وكذلك فليس النصارى جميعاً يونانيين، وإنما فيهم موارنة من أصل لبناني، وقبارصة أصليين، ولكن يطلق على الجميع يونانيين على صفة التغليب.

الاستقلال: عدّل المطران مكاريوس موقفه، وقبل الاقتراح الانكليزي بعد أن حاربه مدةً ليظهر بمظهر غير المرتبط حتى إذا أمّن لنفسه المركز عاد فوافق على استقلال الجزيرة بعد مدةٍ من الحكم الانتقالي، وهيّأت انكلترا إخراج المسرحية.

عُقد مؤتمر في مدينة (زوريخ) في سويسرا بين كل من رئيسي وزراء تركيا واليونان وهما يومذاك عدنان مندريس، وكرامنليس، بعد اجتماع وزراء خارجية الدولتين سرّاً، حيث عملت انكلترا له بعد نجاح خطتها وتأمين أعوانها، وبعد الاتفاق انتقل وزيرا خارجية الدولتين إلى لندن للالتقاء بوزير الخارجية البريطانية (سلوين لويد) وحضر اللقاء كل من المطران مكاريوس وفاضل كوتشوك ممثلين عن القبارصة المسلمين والنصارى، ثم حضر مندريس وكرامنليس، ورغم أن عدنان مندريس قد دخل المستشفى إثر حادث طائرة نجا منه إلا أن الاتفاق قد تمّ في ٨ شعبان عام ١٣٧٨ (١٩ شباط ١٩٥٩ م) وينص الاتفاق على:

١ ـ تكون قبرص جمهوريةً مستقلةً رئيسها من الجالية اليونانية، ونائبه من الجالية التركية، وينتخبان لمدة خمس سنوات، وللاثنين فقط حق الرفض لأي قانون.

٢ ـ يتألف مجلس الوزراء من عشرة أعضاء، منهم سبعة من اليونانيين وثلاثة من الأتراك، وتصدر القرارات بالأغلبية المطلقة، ويجب أن يعهد إلى وزير تركي بإحدى وزارات الدفاع أو المالية أو الخارجية.

٣ ـ ينتخب مجلس النواب (التشريعي) لمدة خمسة أعوام، وتنتخب كل جاليةٍ على انفراد، حيث يمثل اليونانيون ٧٠٪ من أعضاء المجلس، والأتراك ٣٠٪، وتكون القرارات بالأغلبية المطلقة، أما التعديل فيجب أن يكون بأغلبية الثلثين.

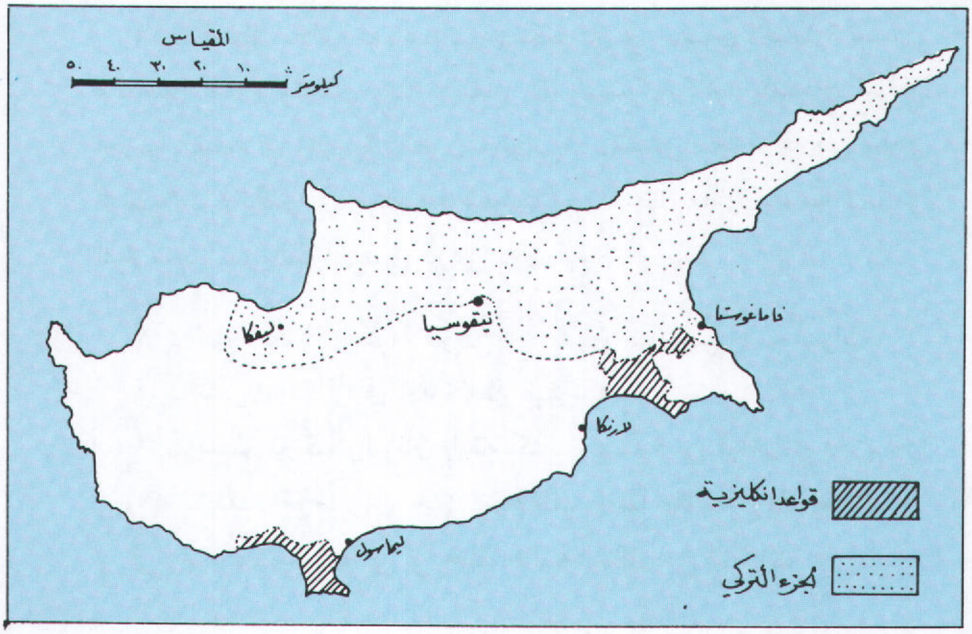
المقياس
كيلومتر
نيقوسيا
ليفكا
فاماغوستا
لارنكا
ليماسول
قواعد انكليزية
الجزء التركي

مصور رقم [٢١] .

٤ ـ يتألف الجيش من عشرين ألـف جنـدي، ٦٠٪ مـن اليـونـانيين و٤٠٪من الأتراك.

٥ ـ تضمّ قوات الأمن ألفي جندي ٧٠٪ من اليونانيين و٣٠٪ من الأتراك، ويقوم تحالف عسكري بين كل مـن تـركيـا وقبرص واليـونـان. وتستبعد فكرة اتحاد قبرص مع أية دولةٍ اخرى كلياً أو جزئياً، كما وتستبعد فكرة تقسيمها.

٦ ـ تحتفظ انكلترا بقـاعـدتين عسكـريتين في جنـوبي الجزيـرة تكـون مساحتها تسعةً وتسعين ميلاً مربعاً، كما تستمرّ انكلترا باستعمال المواقع الحربية القائمة في الجزيرة والطرق والموانىء، وتستمر حكومة قبرص بتقديم التسهيلات لانكلترا في ميناء (فاماغوستا)، واستعمال مطار نيقوسيا في زمن السلم والحرب، والطيران فوق قبرص دون قيد.

٧ ـ تمنح انكلترا حكومة قبرص ١٢ مليون جنيه مدة خمسة سنوات.

٨ ـ تشترك انكلترا في إدارة مطار نيقوسيا.

٩ ـ يسمح لتركيا واليونان بإبقاء كتائب صغيرة من قواتها في الجزيرة.

١٠ ـ تقسم قبرص إلى خمس مقاطعات، منها مقاطعة (فاماغوستا) في شرقي الجزيرة، ويحكمها تركي حيث غالبية السكان من الأتراك.

دخل مكاريوس قبرص، وأُغلقت معسكرات الاعتقال، وجمعت الأسلحة من منظمة (أيوكا)، ووافق الجنرال (غريفاس) على الاتفاق، وغادر قبرص إلى أثينا، وكان قد دخلها سراً.

وفي ٢٢ شعبان ١٣٧٨ (٥ آذار ١٩٥٩ م) تشكلت أول وزارةٍ قبرصيةٍ، ضمت أحد عشر وزيراً، سبعة منهم من اليونانيين وأربعة من الأتراك.

كان المطران مكاريوس وفـاضـل كـوتشـوك والوزراء وحـاكم الجزيـرة يشكلون اللجنة الموقتة لتنفيذ الاتفاقيات بشأن قبرص. وخفّضت القوات

البريطانية في الجزيرة من خمسة وعشرين ألفاً إلى ستة آلاف جندي. كما تمّ الاتفاق بين حكومات تركيا وقبرص واليونان على عقد حلفٍ دفاعي.

وقع الخلاف بين مكاريوس وغريفاس، ثم تم الصلح بينهما بلقاء في جزيرة رودوس في ربيع الأول عام ١٣٧٩ هـ.

وجدت منظمة سرية عرفت باسم (جبهة تحرير قبرص) حملت على المطران مكاريوس في تساهله بحق أبناء عقيدته.

شكل المطران مكاريوس حزباً عرف باسم (أدما) كما تشكل حزب معارض له باسم اتحاد قبرص الديمقراطي، وكان هذا الحزب بزعامة (جون كليرديس).

وبدأت الاجتماعات لوضع الدستور، وتوقّفت الاجتماعات بسبب تهريب أسلحة من تركيا إلى قبرص، ثم عادت الاجتماعات إذ ظهر أن التهريب كان عملاً فردياً، ووضع الدستور وجرت الانتخابات في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ (١٣ كانون أول ١٩٥٩ م)، وانتخب المطران مكاريوس رئيساً للجمهورية، وفشل خصمه (جون كليرديس) الذي أيدّه الشيوعيون، كما نجح فاضل كوتشوك نائباً للرئيس، ولم ينافسه أحد من الأتراك، وتم الاتفاق على اختصاص كل منهما اتفاقاً تاماً.

كان من المقرر أن يكون الاستقلال في ١٥ شعبان ١٣٧٩ هـ (١٦ شباط ١٩٦٠ م) ولكنه تأخّر حتى ٢٢ صفر ١٣٨٠ هـ (١٦آب ١٩٦٠ م) بسبب الخلاف بين انكلترا وحكومة قبرص على مساحة القواعد الانكليزية على الأرض القبرصية. وحسب إحصاء ١٣٨٠ هـ وجد أن السكان في قبرص يتوزّعون حسب الجنسية على الشكل التالي:

٤٤٨,٠٤٣	من اليونان. ويُشكّلون ٧٨٪ من مجموع السكان.
١٠٤,١٨٣	من الأتراك. ويُشكّلون ١٩٪ من مجموع السكان.

٢,٦٢٨	من الأرمن.	
٢,٧٠٨	من اللبنانيين.	
٢٣,١١٣	جنسيات مختلفة أغلبهم من اليهود	٣ ٪ من مجموع السكان.
٥٨٠,٦٧٥		١٠٠٪

أما حسب الأديان فكان الإحصاء كما يأتي:

النصارى	٧٩٪	وهم أرثوذكس وقليل من الموارنة.
المسلمون	١٩,١٪	
اليهود	١,٩٪	
	١٠٠٪	

وهكذا قامت الدولة القبرصية على أساسٍ ديني فعلاً، وديمقراطي شكلاً، وبدأت بمساعدة اليونان وإسرائيل، وتملك الثانية أكبر سفارة في الجزيرة.

عودة الاضطرابات: إن الأساس الذي قامت عليه الدولة القبرصية لا يمكن أن ينهي الخلاف، وقد عادت الفوضى بعد مدةٍ وجيزة إذ رجعت المعارك الدموية بين الطرفين عام ١٣٨٣، وربما كان سببها المباشر أن الجنرال غريفاس قد عهد برئاسة ما سمي بالحرس الوطني رغم أنه غريب عن قبرص، فبدأ غريفاس يتصرّف بالأمن كما يحلو له، وهذا ما جعل الأتراك يتصلّبون في مواقفهم وينكفئون على أنفسهم، ودبّ الخلاف وحدث الصدام، وتفرّد اليونانيون بالحكم، وهذا ما جعل الأمم المتحدة تتدخل في الأمر وترسل قوات للمحافظةعلى الأمن بدلاً من القوات البريطانية عام ١٣٨٤ هـ، وبعد عام هاجمت قوات الحكومة القبرصية الأحياء الإسلامية وفتكت بالمسلمين بأبشع الوسائل باسم القبارصة اليونانيين، كما قامت الطائرات بقصف المساجد ودور المسلمين.

كان المجلس النيابي القبرصي عام ١٣٨٥ يتألف من خمسين نائباً منهم ٣٥ من اليونانيين و١٥ من الأتراك، وتحتلّ الأحزاب المقاعد على النحو التالي:

حزب الجبهة البطريركي ٣٠ نائباً	ورئيسه المطران مكاريوس وأعضاؤه جميعاً من اليونانيين.
الحزب الشيوعي (اكيل)٥ نواب	ورئيسه أ - بابيونو وأعضاؤه جميعاً من اليونانيين.
حزب الأتراك الوطنيين ١٥ نائباً	ورئيسه رؤوف دنكتاش واعضاؤه جميعاً من الاتراك.
حزب الاتحاد القبرصي	وجميع الأعضاء فيه من اليونانيين، وليس لهذا الحزب مقاعد في المجلس.

عادت الأحداث الدموية إلى الجزيرة عام ١٣٨٧ هـ حيث هاجمت مجموعات من الحرس الوطني الذي يرأسه الجنرال (غريفاس) القرى والأحياء الإسلامية، ونتج عنها مقتل أربعين شخصاً مسلماً، وجرح المئات، فطالبت تركيا الحكومة اليونانية بسحب قواتها من الجزيرة والتي زاد عددها على ستة عشر ألفاً من الجنود، كما طالبت الحكومة القبرصية بطرد الجنرال غريفاس، وحلّ الحرس الوطني، فسحبت اليونان قسماً من قواتها، ورفضت الحكومة القبرصية حلّ الحرس الوطني، ولم تجد المفاوضات، ولم تنته الأحداث رغم وجود القوات الدولية في الجزيرة.

وقعت محاولة تمثيلية لاغتيال المطران مكاريوس لتقوية مركزه وتسليط الأضواء على شخصه. وإذا كنا قد لاحظنا تأييد النصارى جميعاً لليونان من يونانيين وقبارصة ولبنانيين وبغضّ النظر عن اتجاهاتهم سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية، ولكن يبدو أن الصف اليوناني قد انقسم في هذه الآونة بين مؤيدين للاستقلال وبين الراغبين بالانضمام إلى اليونان، ويتزعّم الجناح الأول المطران مكاريوس، ويدعمه المعسكر الغربي سرّاً والمعسكر الشيوعي ظاهـراً،

أما الجناح الثاني فيتزعّمه الجنرال غريفاس قائد الحرس الوطني وزعيم منظمة (أيوكا)، ويناصره المتطرفون من القبارصة النصارى وتدعم ذلك الحكـومـة اليونانية.

اشترى المطران مكاريوس صفقة أسلحة من تشيكوسلـوفـاكيـا لإظهـار التوازن بين المعسكـريـن على حـد تعبيره، وليبـدو على الحيـاد، وليُـرضي الشيوعيين غير أن هذا قد أثار عليه الحكومة اليونانية فطلبت منه:

١ - تسليم الأسلحة التي استوردها من تشيكوسلوفاكيا لتسليح أنصاره إلى جنود الأمم المتحدة في الجزيرة.

٢ - تشكيل حكومة اتحاد وطني يشترك فيها أنصار الجنرال غريفاس.

٣ - اعتراف مكاريوس بأن اليونان هي المركز السياسي الوطني للشؤون القبرصية.

وصرّحت له بأنه إذا قام بتنفيذ هذه المطالب فإن الصف اليوناني يلتئم من جديد مقابل الصف التركي. وقد وافق المطران مكاريوس على تسليم الأسلحة التشيكية إلى القوات الدولية، وعلى إجراء تعديل وزاري بسيط في وزارته مقابل إقناع الجنرال غريفاس بمغادرة قبرص.

وفي هذه الآونة سُرقت ملفّات القصر الجمهوري، ونقلت إلى اليونان، وتتعلق محتوياتها بالوعود التي قطعها المطران مكاريوس للروس أثناء زيارته موسكو.

أُشيع أن غريفاس قد غادر قبرص وبدأ يعمل في اليونان على تشكيل جماعات ضدّ مكاريوس لضمّ الجزيرة إلى اليونان. ولما لم يرضخ مكاريوس لكل ما تُريده اليونان منه حرّكت عليه عناصرها في قبرص. وطالب مجلس (السندوس الكنسي القبرصي) باستقالة مكاريوس من سلطاته الزمنية دون أن يُعطوه الخيار بين السلطة الزمنية والدينية، ويتألف هذا المجلس من ثلاثة

أساقفة اثنان منهما يعارضان الأسقف مكاريوس، ويدعوان إلى اتحاد قبرص مع اليونان من خلال النظرة الدينية، ورفض مكاريوس هذا الطلب وحرّك أعوانه في الشوارع ليقفوا ضدّ هذا المخطط الذي يرمي إلى إزاحته عن مركزه في قبرص، لكن اليونان قد أنذرت بحربٍ أهليةٍ طاحنةٍ تدور في الجزيرة إذا ما استمر مكاريوس في الحكم، وأبلغت هذا إلى قواتها المرابطة في قبرص والبالغ عددها آنذاك ثلاثة آلاف جندي، كما أبلغت ذلك إلى جماعاتها المسلحة التي تأخذ أوامرها من الجنرال غريفاس. أما المسلمون في قبرص فينظرون دائماً إلى مصير إخوانهم في جزيرة كريت فيأخذهم الخوف من مستقبلهم المجهول، وأما المسلمون في بقية العالم فبعضهم يغطّ في نوم عميق، وبعضهم لا يدري ما يجري، تخفيه عنه وسائل الإعلام العالمية والمحلية التي من واجبها توضيح ذلك، والجميع يخضعون لضغطٍ شديدٍ من الطغاة لا يجعلهم يُفكّرون في شيء إلا بما يُصيبهم هم.

وفي ربيع الأول من عام ١٣٩٢ أُقيل وزير الخارجية القبرصية من منصبه وهو سبيروس كبريانو وهو مسلم تركي بضغطٍ يوناني على المطران مكاريوس.

وبدأ غريفاس يُساند إسرائيل، ويدّعي أن مكاريوس يُؤيّد العرب الذين يجعلون سفاراتهم تحت تصرّف الفدائيين الفلسطينيين، ولم يكن يوجد سوى ثلاث سفارات عربية في قبرص. ويعتقد غريفاس أن العرب لا بدّ لهم من أن يؤيدوا الأتراك ويتعاطفوا معهم لما من أثر للرابطة الدينية، والواقع أن العرب لم يكونوا على هذه الساحة بل كانوا على صلةٍ مع مكاريوس إذ لم يكن للدين أي أثر - مع الأسف - وهذه الصلة بين بعض الدول العربية ومكاريوس قد اتخذ منها غريفاس مادة للهجوم على خصمه مكاريوس، وبنى على توقّعات لم يُفكّر بها العرب، ولو كانت تخطر على بال أحدهم لما اتصل بهم مكاريوس فهو صليبي بل أشد صليبيةً من غريفاس غير أن المتاجرة بالدعايات لتحقيق الأهداف أمر واضح سياسياً.

وفي ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٩٤ وقع انقلاب على المطران مكاريوس، وتسلّم الحكم (غلافكوس غلاريدس)، وفرّ مكاريوس إلى مالطة فانكلترا فالولايات المتحدة بعد أن أذاعت نيقوسيا نبأ موته.

استنفرت كل من تركيا واليونان قواتها، وأنزلت تركيا قوةً في قبرص في غرة شهر رجب من العام نفسه أي بعد أسبوع من وقوع الانقلاب، ثم أُعلن وقف إطلاق النار بعد مدةٍ، ثم تجدد القتال في ٢٦ رجب، واستطاعت القوات التركية دخول ميناء (فاماغوستا)، وأن تتابع سيرها نحو الغرب حتى مدينة (مورفو). أعلنت اليونان عن انسحابها من حلف شمالي الأطلسي، وفي الوقت نفسه صرّحت بأن الحرب غير واردة مع تركيا بسبب جزيرة قبرص. وأعلنت تركيا أن غايتها من الإنزال قد تحقّقت، بعد أن سيطرت على ما يقرب من ثلث الجزيرة، وهو المكان الذي يكثر فيه الأتراك الذين كانوا يستقبلون القوات التركية بالترحيب. وتوقّف إطلاق النار ثانيةً في ٢٨ رجب من عام ١٣٩٤ هـ.

وبعد مناورات تمكّن المطران مكاريوس من أن يعود إلى قبرص.

ولا يزال الوضع كما هو، لم يتغير شيء حكومة للقبارصة الأتراك في الجزء الشمالي، وأخرى للقبارصة اليونان في الجزء الجنوبي، والصراع قائم بين الإسلام والنصرانية في هذه الجزيرة، وإن كان الناس والحكومات وأجهزة الإعلام يعطونه الصفة العنصرية.

وقد جرت الانتخابات عام ١٤٠١ في القسم اليوناني، وقد حصلت الأحزاب على النسب التالية من مقاعد المجلس النيابي:

حزب التجمع الديمقراطي	٣٩,٨٪	ويرأسه غلافكوس كليريدس
الحزب الشيوعي	٣٢,٧٪	ويرأسه أزيسساش بابيونو
الحزب الديمقراطي	١٩,٥٪	ويرأسه سبيروس كبريانو

الحزب الاشتراكي ٨,٠٪ ويرأسه فاسوس ليساريدس

١٠٠٪

كما جرت الانتخابات عام ١٤٠٥ هـ والتنازع على المقاعد بين الأحزاب السابقة، وكان مجموع عدد الناخبين في هذه المرة مائة وخمسون ألف ناخب. والوضع على حالته لم يتغير شيء إذ كل طرف لا يزال يصرّ على موقفه.

ويوجد في قبرص من المؤسسات الإسلامية: الجمعية الإسلامية في قبرص، والاتحاد القبرصي التركي الإسلامي.

نحن والأقليات في آسيا

يبدو من المعلومات السابقة عن الأقليات المسلمة في قارة آسيا أن معرفتنا عنها إنما هي معرفة ضحلة رغم الصحوة الإسلامية التي نتكلّم عنها باستمرار، ورغم النهضة الإسلامية الشاملة التي نتحدّث عنها على الدوام. وإذا توفّرت لدينا بعض المعلومات شبه الكافية أحياناً فإن هذا لا يعود إلى جهودنا التي قلما نبذلها للوصول إلى معرفة أحوال إخواننا، وإنما إلى أسباب أخرى لا تتعلّق بنا بأية حال، ومنها:

١ - وصول المسلمين إلى منطقةٍ وحكمهم لها - سابقاً - فتتوفر عندها بعض المعلومات كما هي الحال في الهند، وتركستان الشرقية، والفيليبين، وإن لم يكن هذا الأمر عاماً كما سيبدو لنا.

٢ - قيام ثورة في منطقة وهذا ما يجعل الأنظار تتجه نحوها، ووسائل الإعلام تتحدّث عنها وتنقل أخبارها كما هي الحال في فطاني، وجنوبي الفيليبين، ومنها الصراع مع الصليبية في قبرص.

٣ - خروج بعض أبناء منطقةٍ من المناطق لأسبابٍ سياسيةٍ أو غيرها والكتابة عنها، كما هي الحال في الصين التي خرج منها بعض أهلها عندما سيطر عليها النظام الشيوعي فدوّنوا عن بلادهم بعض الكتب.

٤ - عدد المسلمين الكبير في منطقة يجعلهم يقومون بإنشاء مؤسسات لهم يحافظون فيها على كيانهم وذاتيتهم كما هي الحال في الهند، والصين، وغيرهما.

ويلاحظ أنه ربما يوجد أكثر من سبب في منطقة من المناطق، كالحكم الإسلامي والكثرة في الهند، والكثرة والارتحال كالصين، والحكم والثورة في الفيليبين، والكثرة، والحكم، والثورة في فطاني. وما عدا ذلك فالمعلومات ضحلة جداً، قد لا يجد المرء مجالاً ليسجل شيئاً عنها مثل: نيبال، وبوتان، وسيرلانكا، وبورما، وتايلاند، وكامبوديا، وفيتنام، ولاووس، وتايوان، ومنغوليا، وكوريا، وأرمينيا، وجورجيا، وسيبيريا وسنغافورة.

وربما وجد بعض المسلمين لأنفسهم أعذاراً وحججاً واهيةً ومنها أن أكثر هذه المناطق قد خضعت للسيطرة الشيوعية التي تجعل ستاراً حديدياً بين السكان في ذلك السجن الكبير وبين الذين يعيشون خارجه، غير أن هذا الجواب غير صحيح فإن المعلومات كثيراً ما تتسرّب من داخل السجون إلى خارجها، والمرء لا يعدم حيلة ولا يفقد الوسيلة للوصول إلى هدفه، وإذا صحّ هذا عن المسلمين تحت السيطرة الشيوعية فما هي معلوماتنا عن المسلمين الذين يعيشون في دولٍ مفتوحةٍ للعالم كله شأن سيريلانكا، ونيبال، وبوتان، وبورما، وتايلاند، وسنغافورة وغيرها، وما هذه إلاّ حجة الضعيف المتكاسل أو العاجز والذي لا يريد العمل.

الواقع أننا قد أعرضنا عن هذه البلاد المتخلّفة إذ لا يتجه إليها أحد يطلب العلم ولا يرحل إليها أحد يطلب الرحلة والنزهة والسفر والمتعة فمؤسساتنا لا تظهر إن أقمناها هناك، ومراكزنا لا تبرز إذا أسسناها هناك، ونحن نريد الدعاية والشهرة والظهور بالعمل والسمعة. وحتى السفارات الإسلامية والبعثات السياسية إلى هذه البلدان إنما هي من الدرجة الثانية. أعرضنا عن دول آسيا واتجهنا إلى أوربا وأميركا الشمالية نبني المراكز

الإسلامية ذات الفن المعماري الرائع، ونُقيم المساجد الواسعة، ونرسل البعثات، ونرحل في الصيف للراحة، وفي الشتاء للنزهة هذا مع العلم أن صراعنا مع النصرانية ليس في أوربا وأميركا الشمالية وإنما في آسيا وإفريقية، إن العالم المتقدّم قد أهمل الجانب الديني فقلّ أن يُقبل عليه وحتى على ديانته بالذات، وإن كان هذا لا يمنع من سعينا وعملنا المتواصل في سبيل إقناعه بالحق ودعوته إلى الخير، ولكن نقول: إن ما ينفق في أوربا وأميركا الشمالية لو بذل في آسيا وإفريقية لأعطى فوائد أضعافاً مضاعفة لما يمكن أن يأتي من أوربا وأمريكا الشمالية. وإن المساجد والمؤسسات الإسلامية القائمة في البلدان الآسيوية التي تعيش فيها أقليات مسلمة على حالةٍ لا تتناسب أبداً والمهمة التي أُعدّت من أجلها، كما لا تتناسب أبداً مع مؤسسات الإرساليات التنصيرية الكثيرة التي بُذل من أجلها الكثير، وأُقيمت بشكلٍ تنسجم ومعطيات العصر، وتتفق مع ما يحتاجه أبناء المنطقة من مالٍ، ودواءٍ، وعلمٍ، وغذاءٍ، وتتلاءم مع أحدث الأساليب العملية في كسب الناس وجذبهم، وكل هذا ما تُحرم منه المؤسسات الإسلامية إن وجدت ولا توجد في أغلب الأحيان لأننا قد أعرضنا عن هذه الجهات وانصرفنا إلى أمكنةٍ أخرى ليست بحاجةٍ إلى ما نفعل بل لا يُلتفت إلى ما نبني، وإنا لنقيم المراكز أحياناً في جهاتٍ يقلّ روّادها إن لم ينعدموا.

وإني لا أقول بالإهمال التام فربما نرسل الدعاة ولكن نظرةً واحدةً إلى جدول الدعاة يأخذنا العجب إذ قلما يزيد عدد الدعاة على الاثنين أو الثلاثة في البلدان التي يكثر أبناؤها فيبلغون عشرات الملايين، وقد ينقص عدد الدعاة إلى الداعية الواحد فماذا يفعل هذا أمام أفواج مُنصّري الإرساليات التي تتجاوز المئات أحياناً. وبعد فإن هذا الداعية لا يملك من الإمكانات شيئاً أمام الإمكانات الضخمة الموضوعة تحت تصرّف أفراد الإرساليات ومبعوثيها مع الدعم الكامل من مجلس اتحاد الكنائس العالمي، والدول النصرانية كلها وسفاراتها وبعثاتها السياسية هذا بالإضافة إلى عدم التأهيل

الكافي للدعاة من لغةٍ وتحصيلٍ علمي، وتربيةٍ تطبيقيةٍ في السلوك والعمل، ومعرفة في البيئة التي يذهب إليها، والمناخ الذي يعيش فيه، وهذا كله مُهيّأ لأفراد الإرساليات الذين أُعدّوا إعداداً كاملاً، وخضعوا لدورات التدريب والتحقوا بمدارس العمل للتنصير.

ومع النهضة الإسلامية التي نتحدّث عنها قامت بعض الحكومات الإسلامية ـ جزاها الله خيراً ـ بافتتاح بعض المعاهد العلمية في بعض الدول الآسيوية لتعليم اللغة العربية كهدفٍ وكوسيلة للتعريف بالإسلام وأهله، ومع ما في العمل من خيرٍ ومن نفعٍ ـ إن شاء الله ـ إلا أنها دون الحاجة بكثيرٍ إذ لم يزد عدد هذه المعاهد عن اثنين أو ثلاثة في أكثر جهات العالم سكاناً وأشدّها ازدحاماً، إضافةً إلى أن المبتعثين لإدارة هذه المعاهد والعمل فيها لم يُؤهّلوا ولم يُوجّهوا، ولم يدرسوا المناطق التي سيذهبون إليها، ولم يعرفوا شيئاً عن أهلها، وإنما كان اختيارهم عن غير دراسة، وليس لديهم الامكانات التي يمكنهم أن يجذبوا السكان عن طريقها، ولم يُوضع تحت تصرّفهم شيءٌ. ومع تقديري التام لأولئك العاملين في هذا الميدان وجزاهم الله خيراً إلاّ أني أقول: إننا بحاجة إلى من يُقدّم الإسلام للناس سلوكاً قبل أن يُقدّمه علماً، وإلى من يُعطيه عملاً قبل أن يعطيه قولاً، وإلى من يُبيّنه على الواقع قبل أن يُبيّنه نظرياً، فالإسلام إيمان بالقلب وتصديق وعمل بالجوارح، وهذا ما نُقصّر فيه في اختيار أولئك العاملين. وخاصةً أن الفكرة التي سادت لدى أولئك عن الإسلام نابعة من تصرّف بعض المنتمين إليه الذين ينطلقون إلى هناك لقضاء بعض مصالحهم أو شهواتهم.

ينطلق إلى جهات جنوب شرقي آسيا بعض أصحاب المصالح للحصول على العمال والمستخدمين والخدم ذلك أن تلك الجهات ـ كما ذكرنا ـ أكثر مناطق العالم سكاناً وأشدّها ازدحاماً، ونتيجة تخلّفها هي ذات مستوىً معاشيٍ منخفضٍ لذا فإنا أصبحنا نتجه إليها لتأمين ما نحتاج إليه من عمالٍ

للمعامل، وعاملين في حقل الطب وبعض الميادين، ومستخدمين في الدوائر، وخادمات في المنازل بعد أن ارتفع مستوى بعض دولنا المعاشي بسبب تدفّق النفط من أراضيها نعمةً من الله وعطاءً. هؤلاء الذين ينطلقون ليس لهم من همٍّ سوى الوصول إلى ما ذهبوا من أجله، وإن كانوا يختلفون في سلوكهم، فقليل منهم الصالحون وأكثرهم الفاسقون، وهم الذين اعطوا صورةً غير صحيحةٍ عن الإسلام وأهله. وأقول: إن هذا مجال للاتصال مع الأقليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا خاصةً وبالسكان عامةً وبصورةٍ إيجابيةٍ ونُقدّم عن طريقه خدماتٍ لإخوتنا هناك، وننشر ديننا بين أهل تلك المناطق فنُعطيهم الخير العميم مع العقيدة. إننا بحاجةٍ الى استقدام العمال، وإنهم بحاجةٍ إلى القدوم إلينا لتحسين أوضاعهم الاجتماعية. كان يمكن أن نستقدم المسلمين أولاً وقبل غيرهم لرفع مستواهم المعاشي، ولتعريفهم بالإسلام بصورةٍ عملية بعد أن انقطعت حياتهم عنه طويلاً لبُعدهم ووضعهم بين الكافرين، وتسلّط أعدائهم عليهم، وانخفاض مستواهم وجهلهم، ولمصلحتنا إذ نكون قد أمنا على أولادنا، وقد وضعناهم بين أيديهنّ كمربياتٍ وخدم ويكنّ أميناتٍ عليهم أكثر من الكافرات بأية صورةٍ من الصور، غير أن هذا التصرّف يقف في وجهه عائقان: أولها مكاتب العمال هناك التي تحرص أن تستبعد المسلمين من إرسالهم كي لا تتحسّن أوضاعهم المعاشية فيضعون العراقيل في وجههم ويدّعون لمكاتب الاستقدام أن المسلمين ليسوا أكفاء للعمل ولا يضمنون تصرّفاتهم، ولكنهم في الحقيقة يُؤثرون عليهم النصارى والبوذيين أبناء جلدتهم، لذا فاستقدام المسلمين قليل، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فنحن لا نبالي بالموضوع كثيراً، ولا نهتمّ به، ولذا فلا نُتابع ما نرغبه. وثانيها أن قسماً منا يرغب في استقدام النصارى إذ يرى أن الإساءة للمسلمين أمر صعب والاستهانة بأعراضهم فعل مستنكر أما غيرهم فيبيحه لنفسه ولا شك أن هذا جهل إذ الإساءة لا تصحّ للمسلم ولا لغيره، وانتهاك الأعراض حرام سواء أكان الفعل مع مسلمات أم مع غيرهن.

ويمكننا لو كنا على مستوى المسؤولية أن نفتح معاهد لتعليم العربية أو نُقيم دوراتٍ لذلك، فلا يتمّ استقدام أحد دون اتباع دورة للغة العربية أو التخرج من المعهد فمن ناحيةٍ ننشر لغتنا، ونجد مجالاً للعمل لمن يُتقنها، وفي هذا سبيل لمعرفة إعلامنا وما نريد العمل له، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ يأتي المستقدمون وهم على معرفةٍ نسبيةٍ بلغتنا وتزداد هذه المعرفة بالاختلاط، وهو أفضل من أن يأتي المستقدمون دون سابق معرفة للغة فنضطر لمخاطبتهم بلغةٍ كلها رطانة فنفسد لغة أبنائنا، وإننا لنجد أن الخادمة في البيت تُعلّم أهل المنزل جميعاً لغتها، ولا يُؤثّرون فيها بتعلّم لغة أصحاب الدار، وهذا ما يلاحظ لدى الأطفال بشكلٍ خاصٍ.

ويمكننا لو كنا على مستوى المسؤولية أن نجعل أكثر هؤلاء القادمين لا يعودون إلى بلادهم إلاّ وقد دخلوا في الإسلام وحصلوا على خير الدنيا والآخرة. نجعلهم يدخلون في الإسلام بسلوكنا ومعاملتنا لهم وتصرّفنا معهم، لكن ـ مع الأسف ـ كثيراً ما يعودون ورأيهم بالإسلام وأهله أكثر سوءاً من الوقت الذي جاءوا فيه، لما يرون منا، ولم يعلموا أن واقع الإسلام غير واقع أتباعه. وصحيح أن بعضهم يعتنق الإسلام في ديارنا وبعد قدومهم إلينا إلاّ إنّ نصف هؤلاء إنما اعتنقوه لمصلحة لهم أو لغايةٍ في نفس يعقوب. فيجب أن نُفكّر بواقعنا ونصلح حالنا التي نحن عليها.

وينطلق بعض الشباب من الدول الإسلامية إلى بلدان جنوب شرقي آسيا للحصول على المتعة حيث تتوفّر هناك بأحطّ المستويات فيتمرّغون هناك بالوحل، ولا يدرون مع طيش الشباب وسن المراهقة التي قد تصل ببعضهم إلى الستين عاقبة أمرهم وما يفعلونه من الإساءة إلى أمتهم وبلدانهم... وتتكرر الرحلات الجوية اسبوعياً إلى «بانكوك» و«مانيلا» تحمل هؤلاء الشباب. ومن هؤلاء وتصرّفاتهم تُؤخذ الصورة ـ مع الأسف ـ عن الإسلام وأهله.

هذه العلاقات والصلات بين المسلمين والأقليات في القارة الآسيوية. أما معرفة عام المسلمين عن إخوانهم هناك فتكاد تكون معدومة لأنهم لم يتلقوا أية معلومات عن ذلك في المدارس والجامعات، كما لم تتطرق وسائل الإعلام إلى ذلك، فكم استمرّت هذه الوسائل تنقل للناس جميعاً أخبار فيتنام أيام مشكلاتها، وحروب بعضها مع بعض، ولم يسمع أحد منا عن وجود مسلمين هناك. وتناقلت وسائل الإعلام العالمية والمحلية عن أخبار كامبوديا والفارين من التسلّط الشيوعي واللاجئين إلى الحدود التايلاندية، وأوضاعهم السيئة، وأسرعت الإرساليات التنصيرية، وهُرع اتحاد الكنائس العالمي، وسعت لجان المساعدة الدولية، ولم يتحرّك المسلمون أبداً لأنهم لم يعلموا أن لهم إخوةً يعيشون في تلك الجهات.

وأخيراً فإنه يعيش في القارة الآسيوية ما يقرب من ٢١٦ مليون مسلم كأقليات يعيش منهم ما يقرب من ١١٠ مليون مسلم في دولٍ ذات أنظمة رأسمالية أو حرة ـ كما يقولون ـ ويتوزّعون كما يلي:

١ ـ	الهند	ويعيش فيها ٩٣,٨٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	١٤٪	من مجموع السكان
٢ ـ	نيبال	ويعيش فيها ٣٨٠,٠٠٠	حيث يشكلون	٣,٨٪	من مجموع السكان
٣ ـ	بوتان	ويعيش فيها ٥٠,٠٠٠	حيث يشكلون	٥٪	من مجموع السكان
٤ ـ	سيريلانكا	ويعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	٨٪	من مجموع السكان
٥ ـ	بورما	ويعيش فيها ٢,١٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	٧٪	من مجموع السكان
٦ ـ	تايلاند	ويعيش فيها ٥,٠٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	١٤٪	من مجموع السكان
٧ ـ	سنغافورة	ويعيش فيها ٣٤٠,٠٠٠	حيث يشكلون	١٧٪	من مجموع السكان
٨ ـ	الفيليبين	ويعيش فيها ٦,٥٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	١١٪	من مجموع السكان
٩ ـ	تايوان	ويعيش فيها ٤٥,٠٠٠	حيث يشكلون		
			أقل من	١٪	من مجموع السكان
١٠ ـ	اليابان	ويعيش فيها ٢٠,٠٠٠	حيث يشكلون		من مجموع السكان

الدولة	العدد		النسبة	
١١ - كوريا الجنوبية	ويعيش فيها ٣,٥٠٠	حيث يشكلون		من مجموع السكان
١٢ - قبرص	ويعيش فيها ١٠٥,٠٠٠	حيث يشكلون	١٩٪	من مجموع السكان
١٣ - لاووس	ويعيش فيها ٦,٠٠٠	حيث يشكلون		من مجموع السكان
	١٠٩,٣٤٩,٠٠٠			

ويعيش منهم في دولٍ شيوعيةٍ ما يقرب من ١٠٧ مليون مسلم وإن كنا قد عددنا الجمهوريات الاتحادية في الإمبراطورية الروسية دولاً خاصة، فما كانت أكثرية سكانها من المسلمين جعلناها ضمن أمصار العالم الإسلامي ولم نتعـرّض لها هنا، وما كان فيها المسلمون أقليات صنّفناها في بحثنا هذا، وجعلنا لمنطقة سيبيريا وضعاً خاصاً ما دامت في آسيا، وربما وجد بعضهـم في ذلـك بعـض التجاوز، كما سيراه في منطقة القفقاس التي وضعناها مع العالم الإسلامي أيضاً لنسبة المسلمين المرتفعة فيها.

وتتوزّع الأقليات المسلمة في القارة الآسيوية والتي تخضع للسيطرة الشيوعية بين الدول الآتية:

الدولة	العدد		النسبة	
١ - الصين	ويعيش فيها ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠	حيث يشكلون	١٠٪	من مجموع السكان
٢ - منغوليا	ويعيش فيها ١٥,٠٠٠	حيث يّشكّلون	١٪	من مجموع السكان
٣ - فيتنام	ويعيش فيها ١,٢٥٠,٠٠٠	حيث يّشكّلون	٢,٥٪	من مجموع السكان
٤ - كامبوديا	ويعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠	حيث يّشكّلون	١٤,٧٪	من مجموع السكان
٥ - كوريا الشمالية				
٦ - أرمينيا [1]	ويعيش فيها ٣٤٠,٠٠٠	حيث يّشكّلون	١٢٪	من مجموع السكان
٧ - جورجيا [1]	ويعيش فيها ٨٥٥,٠٠٠	حيث يّشكّلون	١٩٪	من مجموع السكان
٨ - سيبيريا [1]	ويعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠	حيث يّشكّلون	٢٥٪	من مجموع السكان

(١) يرجع إلى الجزء السابق من هذه الموسوعة وهو الجزء ٢١ «المسلمون في الامبراطورية الروسية».

١٠٦,٤٦٠,٠٠٠ تحت السيطرة الشيوعية
١٠٩,٣٤٩,٠٠٠ أنظمة رأسمالية

٢١٥,٨٠٩,٠٠٠ مجموع الأقليات المسلمة في القارة الآسيوية

ويتساوى تقريباً المسلمون الذين يعيشون كأقليات في دول القارة الآسيوية بين الدول التي تتبع الأنظمة الرأسمالية والدول التي تخضع للأنظمة الشيوعية، وكلاهما مهمل من قبل أمصار العالم الإسلامي جميعها بما فيها من تناقضات في الأفكار والاتجاهات.

أما الذين يعيشون في ظل النظم الرأسمالية فقد لاحظنا أن علاقاتنا معهم علاقة سلبية من جانبنا ننظر إليهم نظرة الأدنى، ونريهم سلوكاً ومعاملةً بعيدة عن الإسلام تُبعد ولا تُقرّب.

وأما الذين يخضعون للأنظمة الشيوعية فندّعي أنهم محجوبون عنا بستارٍ حديدي يلفظون ما بقي عندهم من أفكار أو عقيدة تحت الضغط والإكراه، ويمكننا رغم حجبهم عنا أن نُوجّه لهم إذاعات بلغاتهم، وأن نهتمّ بهم بدراستنا، وتأليف الكتب المُوجّهة لأبنائنا بلغتنا ولهم بلغاتهم وإننا لن نعدم الوسيلة بإدخالها إليهم داخل سجونهم التي يحيون فيها يُقاسون ما يُقاسون، ولكننا لم نفعل إهمالاً وغفلةً.

الأقلّيّات المُسْلِمَة
في
قـَـارّة إفريقيـَـة

يقع اختلاف كبير في الدول الإسلامية في إفريقية وبالتالي في الأقليات المسلمة إذ أن بعض الكُتّاب يعدّون دولاً غير مسلمةٍ معتمدين بذلك على إحصاءات أو تقديرات حكوماتها التي تُعادي الإسلام وتُحاول الإقلال من أعداد أتباعه ومن شأنهم، كي تبقى لها شرعية الحكم حسب بعض المفاهيم السائدة، وهذا شأن أكثر الدول التي تُسيطر النصرانية على حكوماتها مثل سيراليون، وساحل العاج، والتوغو، وبنين، وفولتا العليا، وإفريقية الوسطى، والحبشة، وتانزانيا و...

والواقع أن الإحصاءات في معظم الدول الإفريقية غير دقيقةٍ ويعتمد معظمها على التقدير لذلك لا يُمكن الاعتماد عليه، وتوزيع أصحاب العقائد على أساسه، مع العلم أن الإرساليات النصرانية تلعب دورها في هذا الشأن وتزيد، وتنقص، إضافةً إلى الحكومات التي تتبعها، ومن هنا يقع الاختلاف، وإذا كان معظم الكُتّاب يعتمدون على إحصاءات الأمم المتحدة على أنها عالمية فهي بالأساس إنما تقوم على تقديرات هذه الدول، ولا تقوم الأمم المتحدة بنفسها بإجراء إحصاءات.

وقد حرصت حرصاً شديداً على تحرّي الدقّة قدر الإمكان في محاولة لتفهُّم الحقائق والنظر في التقديرات التي يتبنّاها المسلمون، والتي يتبنّاها

النصارى، والتي تذكرها الإرساليات النصرانية والتي تعتمدها الدولة وعلى هذا بنيت كتابتي.

إن عدد الأقليات المسلمة في إفريقية ضئيل فلا يزيد عددها على ٣٠,٥ مليوناً، ولا تُشكّل بالنسبة إلى الأقليات المسلمة في العالم بأكثر من ١١,٨٪، وذلك لأن الدول الإفريقية التي يعيش فيها المسلمون أقليةً ذات أعدادٍ قليلة السكان وخاصةً في المناطق الوسطى والجنوبية من القارة إلاّ إذا استثنينا اتحاد جنوبي إفريقية.

ولعلّ انتشار الإسلام كأقليةٍ في هذه المناطق يعود لأسبابٍ مختلفةٍ فقد انتشر الإسلام في المناطق الشرقية عن طريق التجارة والدعوة وإقامة الممالك والإمارات الإسلامية على الأجزاء الساحلية والجزر القريبة منها، فقد كانت السفن التجارية منذ القديم تنتقل بين جنوبي جزيرة العرب وسواحل إفريقية الشرقية، وتعدّ الأقليات المسلمة في هذا الجزء من القارة أكبر الأقليات ويبلغ عددها ١٨,٣٧٥ مليوناً وتكون نسبتها ٦١٪ من مجموع الأقليات المسلمة في إفريقية، وتتوزّع في خمس دولٍ هي: كينيا، وأوغنده، وموزامبيق، ومالاوي، ومالاغاشي وتزيد النسبة فيها جميعاً على ٢٥٪ بالنسبة إلى مجموع سكان كل دولةٍ.

أما وسط إفريقية فقد انتشر الإسلام فيه في وقتٍ قريبٍ بعد قيام دولة ماجد بن سعيد في شرقي إفريقية عام ١٢٧٣ هـ، ونقل عاصمته إلى البر الإفريقي في (دار السلام) بعد أن كانت في جزيرة (زنجبار)، وبدأ المسلمون يتوغّلون الى الداخل حيث أخذوا يُقيمون مراكز دائمةً للدعوة والتجارة بعد أن كانت مراكزهم موجودة على السواحل فقط وينتقلون إلى الداخل للتجارة أو الدعوة ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى قواعدهم على السواحل، ولكن ذلك لم يطل إذ بدأ الاستعمار يدخل أيضاً وسط إفريقية، ويقف في وجه

المسلمين الأمر الذي جعلهم ينسحبون تدريجياً أمام القوى الاستعمارية، ويبلغ عدد الأقليات المسلمة في هذا الجزء من القارة ٤,٤ مليوناً، وهو ما يُعادل ١٢,٤٪ من مجموع الأقليات المسلمة في إفريقية، وتتوزّع في أربع دول هي: بورندي، وروواندا، وزائير، والكونغو، ولكن نسبة المسلمين ضعيفة في هذه الدول، وهي ٢٥٪ في بورندي، و١٠٪ في زائير، و٦٪ في راواندا، وأقل من ٢٠٪ في الكونغو.

أما في غربي إفريقية فقد كان انتشار الإسلام فيه نتيجة الدعوة التي قامت بجهود دولة المرابطين التي قامت في المغرب في القرن الخامس الهجري وكان لها أثرها البالغ، ثم بجهود الدول التي تتابعت في المغرب والتي قامت في منطقة مالي ثم دولة عثمان دونفديو في منطقة نيجيريا، والحاج عمر في غربي إفريقية اللذين قاما في العصر الحديث وعملا على نشر الإسلام، ونتيجة الوضع القبلي والاتجاه نحو الإسلام في القبيلة إذا ما أسلم أحد أمرائها، ويجب ألا ننسى الدعاة والتجار الذين لم يخل منهم وقت. ويأتي غربي إفريقية بعد شرقيها من حيث عدد الأقليات المسلمة إذ يبلغ عددهم في الغرب ٥,٥٧ مليوناً تقريباً، وهذا ما يعادل ١٩,٣٪ من مجموع الأقليات المسلمة في إفريقية، ويتوزّعون في أربع دول هي: ليبيريا، وغانا، والغابون، وغينيا الاستوائية، وتزيد نسبة المسلمين في كل دولة من هذه الدول على ٣٠٪ من مجموع سكانها فهي ٤٥٪ في الغابون، و٣٥٪ في غينيا الاستوائية، و٣٠٪ في كل من غانا، وليبيريا.

أما جنوبي إفريقية فقد انتشر الإسلام فيه عن طريق الهجرة وخاصةً من جنوب شرقي آسيا ثم نتيجة الدعوة، إلا أن عدد المسلمين هناك لا يزال قليلاً لا يزيد على ١,٨ مليوناً، وتُعدّ نسبتهم قليلةً لا تتجاوز ٥٪ إلاّ إذا استثنينا أنغولا التي تصل نسبة المسلمين فيها إلى ١٥٪، ويتوزّع المسلمون هناك في ثمان دولٍ أو وحداتٍ مستقلةٍ وهي: أنغولا، وزامبيا، وزيمبابوي، وسوازيلند، وبتشوانا، وليسوتو، وناميبيا، واتحاد جنوبي إفريقية، ويُعادل

مجموع المسلمين في هذا الجزء من القارة ٦ ٪ من مجموع الأقليات المسلمة في إفريقية.

أما باقي المسلمين في القارة وهو ما يزيد على ٠,٤ مليوناً، ويُعادل ١,٣ ٪ من مجموع الأقليات المسلمة في إفريقية فيتوزّع في عددٍ من الجزر، ويزيد عدد الوحدات التي تضمّها هذه الأجزاء على أكثر من ثمان وحدات أهمها: كنـاريا (الخالدات)، وماديرا، وجزر الرأس الأخضر، وانوبون، والقديسة هيلانة، وموريشيوس، وريونيون، والدبرا، وسيشل، إلا أن سكان هذه الجزر قليل، كما أن نسبة المسلمين فيها قليلة فهي ٢٥ ٪ في جزيرة انوبون، و ٢١ ٪ في برنسيب وساتومي، و ٢٠ ٪ في موريشيوس، و ١١ ٪ في جـزر الرأس الأخضر، و١٠ ٪ في جزيرة ماديرا، و٧٪ في كناريا، و٥ ٪ في جزر آصور، ودون ١ ٪ فيما عدا ذلك.

ويُلاحظ مما سبق أن نسب الأقليات المسلمة في إفريقية تزداد في غربي إفريقية وشرقيها نتيجة قيام ممالك وإمارات تتبنّى الدعوة إلى الإسلام، وتقلّ هذه النسب في الوسط والجنوب حيث لم يصل المسلمون إلى تلك الجهات أيام قوة المسلمين، وقد اعتمدنا في تقسيم القارة إلى غربٍ وشرقٍ ووسطٍ وجنوبٍ حسب انتشار الإسلام فيها، وليس حسب التقسيمات الجغرافية البحتة والمتبعة عادة لدى الجغرافيين.

العالم الاسلامي
جزر آصور
جزر ماديرا
جزر كناريا
غانا
ليبيريا
غينيا الاستوائية
ساتومي
انوبون
الغابون
الكونغو
زائير
رواندا
بوروندي
اوغندة
كينيا
تانزانيا
زنجبار
كابيندا
جزر اسنسيون
انغولا
زامبيا
مالاوي
موزامبيق
جزر القمر
جزر الدبرا
مالاغاسي
موريشيوس
ريونيون
زيمبابوي
ناميبيا
بتسوانا
سوازيلند
اتحاد جنوبي افريقيا
ليسوتو
سانت هيلانه
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٢] .

أ - شرقي إفريقية

انتشر الإسلام في شرقي إفريقية عن طريق التجارة البحرية فوصل إلى (سفالة) في موزامبيق، ولهذا فإن نسبة المسلمين ترتفع على السواحل، وتقلّ في الداخل وخاصة في المناطق الواقعة جنوب خط الاستواء باستثناء تانزانيا التي تعدّ مصراً إسلامياً حيث ترتفع نسبة المسلمين فيها إلى ٦٥ ٪ إذ كانت منطقةً تتبع عُمان، ثم كانت قاعدة حكم ماجد بن سعيد في القرن الماضي، وجزر القُمر التي تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٩٩٪ إذ كانت ملاذاً لكثيرٍ من المهاجرين من أرض المسلمين بعامةٍ وشبه جزيرة العرب بخاصةٍ.

وقد أسّس عدد من المهاجرين إماراتٍ على طول سواحل إفريقية الشرقية، وأسهمت في نشر الإسلام ومنها:

١ - إمارة لامو: التي نشأت في أواخر القرن الأول الهجري على يد أحد العمانيين من آل الجلندي.

٢ - إمارة كلوة: التي أسّسها أحد الشيرازيين حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، وشملت مناطق واسعةً تمتد من (ممباسا) في الشمال وحتى جزر القُمر في الجنوب.

٣ - إمارة باتا: التي نشأت في مطلع القرن الثامن على يد سليمان بن

سليمان بن مظفر النبهاني صاحب عُمان، وقد ورث حكم مدينة (باتا) بزواجه من ابنة حاكمها، فنقل قاعدة حكمه إليها، ووسّع بلاده... هذا بالإضافة إلى المدن الكثيرة الممتدة على طول الشواطىء والمراكز التجارية ومحطات السفن.

ثم جاء البرتغاليون في مطلع القرن العاشر يدفعهم الحقد الصليبي فاحتلّوا المدن الإسلامية في شرقي إفريقية، ولما استقرّ لهم الأمر بدؤوا بضرب المسلمين واضطهادهم، وبدت وحشيتهم بشكلٍ جليٍّ، ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انحسر النفوذ البرتغالي بمقاومة أهل البلاد له تحت زعامة أهل عُمان، ودعم العثمانيين، ثم مساعدة الإنكليز الذين كانوا يُريدون أن يحلّوا محل البرتغاليين.

عاد إلى المدن الإسلامية في شرقي إفريقية نشاطها وحيويتها بعد انتهاء نفوذ البرتغاليين، وخاصةً أن اليعاربة حُكّام عُمان الذين كان لهم دور في القضاء على البرتغاليين قد امتدّت تجارتهم إلى شرقي إفريقية، وقام سيف بن سلطان بفتوحاتٍ واسعةٍ هناك أثناء ملاحقة البرتغاليين، وأصبحت السلطة هناك مُرتبطةً بعُمان.

وجاء البوسعيديون إلى حكم عُمان بعد اليعاربة عام ١١٥٤، وفي عام ١٢٤٨ نقل سلطان عُمان (سعيد بن سلطان) مقرّ حُكمه من مسقط إلى زنجبار، فارتبط شرقي إفريقية كله بزنجبار... وعندما توفي سلطان زنجبار سعيد قسّم مملكته بين ولديه (ماجد) الذي كان له شرقي إفريقية، ونقل حكمه إلى دار السلام، وبدأ يتوغّل في الداخل، و(تويني) الذي حكم عُمان وذلك عام ١٢٧٣ هـ.

وبعد موت ماجد ضعف سلطان شرقي إفريقية إذ حكمه أخوه الصغير (برغش). وتتوزّع الأقليات المسلمة في شرقي إفريقية بالدول التالية:

(١) كينيا

تبلغ مساحتها ٥٨٢,٦٠٠ كيلومتر مربع، ويخترق خط الاستواء أرضها. كان القسم الساحلي منها يتبع سلطان زنجبار، بينما كان القسم الداخلي مستعمرةً انكليزيةً، وقد دخل النفوذ الإنكليزي وراء شركة شرقي إفريقية البريطانية التي بدأت العمل مع أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وتمكّنت هذه الشركة من عقد معاهدة مع سلطان زنجبار (برغش) بن سعيد بن سلطان وذلك في عام ١٣٠٤، وتدفع الشركة البريطانية بموجب هذه المعاهدة ٢٠٪ من أرباحها إلى سلطان زنجبار.

وفي الوقت نفسه تأسست الشركة الألمانية لشرقي إفريقية، وأخذت الحكومة الألمانية تتدخل مباشرةً لحماية مصالح الشركة هناك. وفي عام ١٣٠٦ اتفقت انكلترا وألمانيا فيما بينهما على تقسيم مناطق النفوذ في هذا الجزء من إفريقية، وامتد الخط الفاصل بينهما من بلدة «ڤانغا» على ساحل المحيط الهندي إلى بلدة (شيراتي) على بحيرة فيكتوريا. كما وافق على هذا الاتفاق كل من فرنسا، وايطاليا، وحتى الحبشة الدولة النصرانية في إفريقية، إذ أخذت فرنسا منطقة جيبوتي، وايطاليا الجزء الجنوبي من الصومال الذي أخذت انكلترا منه جزءاً في الجنوب وآخر في الشمال، وأخذت الحبشة أيضاً الجزء الغربي من الصومال والذي لا يزال تحت سيطرتها، وهو ما يعرف باسم

« الأوغادين ». وجعل الإنكليز من المنطقة الساحلية محميةً تابعةً لهم مع بقائها تتبع السلطان اسمياً.

وتوفي سلطان زنجبار برغش وخلفه سيد خليفة الذي اضطر إلى التنازل عن المنطقة الساحلية التي كانت تتبعه إلى الانكليز، وتنازلت أيضاً الشركة الانكليزية في شرقي إفريقية عن أملاكها إلى حكومتها، وضمّت انكلترا بعد مدةٍ هذه المحمية مع المستعمرة الداخلية مع الجزء المقتطع من الصومال، وشكّلت منها دولة كينيا، ووضعتها تحت الاستعمار حتى نالت استقلالها عام ١٣٨٣ هـ.

أعلنت حكومة كينيا الجمهورية، ويزيد عدد سكانها اليوم على ستة عشر مليوناً، يشكل الإفريقيون الغالبية العظمى من السكان، وما بقي وهو لا يزيد كثيراً على ١٦٥ ألفاً فهم من الآسيويين والأوربيين، أما الآسيويون فإن الغالبية منهم من العرب ويعيش أكثرهم على الساحل، ومن الهنود والباكستانيين ويتوزّعون، وقد استقدموا للعمل بمدّ السكك الحديدية، ولزراعة القطن، ومن الإيرانيين. وأما الأوربيون فلا يزيد عددهم على الأربعين ألفاً.

يُشكّل المسلمون ٣٥٪ من مجموع السكان، ويشكل النصارى ١٦٪، أما ما بقي من السكان فهم لا يزالون على الوثنية وعبادة قوى الطبيعة.

الوثنيون	يُشكّلون	٤٩٪	ويبلغ عددهم	٧,٨٤٠,٠٠٠
المسلمون	يُشكّلون	٣٥٪	ويبلغ عددهم	٥,٦٠٠,٠٠٠
النصارى	يُشكّلون	١٦٪	ويبلغ عددهم	٢,٥٦٠,٠٠٠
		١٠٠٪		١٦,٠٠٠,٠٠٠

وتختلف الوثنيات حسب القبائل. وأما المسلمون فالغالبية من أهل السنة والجماعة، وتوجد أقلية من الشيعة. وتعود أصول بعض المسلمين إلى العرب

والصوماليين والهنود، وأما الشيعة فأغلبيتهم تعود إلى أصولٍ إيرانية. وتزداد نسبة المسلمين إلى مجموع السكان على طول سواحل كينيا، وفي المنطقة الصومالية، وتقلّ في الداخل عدا العاصمة «نيروبي» وبعض التجمّعات الأخرى منها ما هو على حدود الحبشة، ومنها ما هو على حدود أوغندا. وتعدّ المدن الساحلية ذات صبغةٍ إسلامية مثل: «مومباسا» و«مالندي» التي تُقيم فيها جماعة كبيرة من حضرموت، وفيها مدارس تحفيظ القرآن الكريم، و«لامو» التي تقع على جزيرة وجميع سكانها من المسلمين، و«باتا»، وكثير من المسلمين من يعمل في التجارة، ولذا فقد أفادت الدعوة الإسلامية من حركة التجار وانتقالهم.

أما النصارى فإن نسبة الكاثوليك منهم ٩٪ من مجموع السكان وبذا يكون عددهم ١,٤٤٠,٠٠٠، ونسبة البروتستانت ٧٪ من مجموع السكان وعددهم ١,١٢٠,٠٠٠.

ينتمي الإفريقيون في كينيا إلى العناصر الحامية النيلية، ومن الحامية التي من أشهرها البانتو، ويعيش السكان على شكل قبائل يزيد عددها على الأربعين قبيلة، أشهرها «الكيكويو» ويقرب عددهم من المليونين، و«الكامبا» و«الوو» و«الميرو» و«التركانا» و«النانــدي»، وتعيش قبائل «الجالا» في أقصى الشمال بالقرب من مجموعة الصوماليين و«الماساي» في أقصى الجنوب و«بورانا» و«وانغا».

واللغة الوطنية في البلاد هي السواحيلية التي اتخذت الحرف العربي حرفاً لكتابتها، أما اللغة الرسمية فهي الإنكليزية، وهناك اللغات القبلية الخاصة، كما أن اللغة العربية شائعة ومعروفة في المناطق الساحلية، وبين الكثير من المسلمين.

تعرّض المسلمون في كينيا وشرقي إفريقية عامةً إلى حربٍ صليبيةٍ مع مجيء البرتغاليين، وبعد زوالهم عاد النشاط النسبي للمسلمين، لكن لم يلبث أن جاء الاستعمار الصليبي الحديث فوقف في وجه المسلمين إضافةً إلى الجهل الذي

كان سمة هذه المرحلة التي يعيشها المسلمون آنذاك، غير أن مدّ السكك الحديدية والتوسع في زراعة القطن قد جعل عدداً من المسلمين الهنود الذين كانوا هم العمال الرئيسيين في هذين المجالين غير أن أثرهم كان محدوداً، وفي الوقت نفسه بدأ التجار يتحرّكون نحو الداخل بينما كانت مهنتهم محصورةً في الأجزاء الساحلية، وهذا ما جعل في المراكز التجارية بعض تجمّعات المسلمين مثل: «كيتوتو» و«سابي» و«ميومياس».

عندما جاء الاستعمار الصليبي الجديد لم يجد في كينيا من يستطيع أن يعهد إليهم ببعض الأمور إلا المسلمين لأن مستواهم الحضاري أعلى مستوى من غيرهم فاضطر أن يوكل إليهم بعض المهمات إذ لم يجد سواهم، وكان لهذا التصرّف أثره السيء على المسلمين أنفسهم إذ ربط سكان البلاد بين المستعمرين والموظفين بل إن العمال الذين استقدّمهم من الهند للعمل في السكك الحديدية، والمزارعين الذين جاء بهم للعمل في مزارع القطن وقصب السكر كانت نسبة منهم من المسلمين، ومن المعلوم أن الهند كانت مستعمرةً انكليزية، ويستفيد من أهلها بصورة كبيرة لكثرة السكان ولمستواهم المعاشي المتدّني فجلب هؤلاء كان على أنهم من الهند المستعمرة الانكليزية وليس لأنهم من المسلمين. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الهيئات التنصيرية قد حملت على السياسة الانكليزية حملة شعواء لأنها تتعاون مع المسلمين فعقدت عام ١٣١٨ مؤتمراً كنائسياً عمل على حث رجال السياسية الإنكليزية على الحد من نفوذ المسلمين ومحاولة إضعاف مستواهم المعاشي بإبعادهم عن أي عمل يقومون به لمصلحة الحكومة. فكان لهذا العمل في بدايته حقد من السكان على المسلمين وربطهم مع الاستعمار وفي نهايته إبعادهم عن العمل، وزيادة نفوذ الهيئات النصرانية التي نشطت وفتح المجال على مصراعية أمام مؤسساتها المختلفة من صحية وتعليمية وتنصيرية.

وتبع ذلك أن الحكومة الاستعمارية قد وضعت يدها على معظم أراضي المسلمين وأملاكهم، وجعلتها من ضمن أملاك الدولة. وعملت في الوقت

نفسه على الحدّ من نشاط المسلمين التجاري فتردّت أوضاعهم الاقتصادية وساءت أحوالهم الاجتماعية.

ودعمت السلطات الاستعمارية الفرق الضالة التي يوجد لها بعض أتباع أمثال الاسماعيلية، والقاديانية، والبهائية لمحاربة الإسلام، وتمييع مفاهيمه بطرح مفاهيم هذه الفرق التي لا يقبل بها عقل ولا يرضي عنها إنسان ولصقها بعدئذ بالإسلام، وإدعاء هذه الفرق احياناً أنها مسلمة للغرض نفسه.

ووقفت السلطات الاستعمارية أمام التعليم الإسلامي الذي كان وحده قائماً في البلاد قبل مجيء الاستعمار، ومع أنه كان يقتصر على الكتاتيب للناشئة، ولكن كانت حلقات الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة تعقد في المساجد ويحضرها الكبار ومن يريد من الناشئة، وأعطت هذه الحلقات طاقات فكرية وعلمية قلّ مثلها. فلما جاء الاستعمار أطلق العنان وفسح المجال للإرساليات التنصيرية بفتح المدارس والإشراف على المناهج ودعمها بكل الإمكانات هذا إضافةً إلى دعم اتحاد الكنائس العالمي لها. ومع أن بعض العلماء قد حاولوا تطوير التعليم الإسلامي وإدخال العلوم والوسائل الحديثة إليه إلا أن ذلك كان يحتاج إلى جهودٍ ضخمة وإمكانات كبيرة وهذا ما لا تستطيعه الجماعات الإسلامية في كينيا لذا لم يفلح كثيراً لأوضاع المسلمين السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية، وكل ناحية تحتاج إلى معالجة.. وعمل الشيخ الأمين ابن علي المازروي على بث روح العمل والنشاط من غير كبير فائدة، وكانت آراؤه ينشرها في مجلته «الإصلاح» التي أصدرها باللغتين العربية والسواحيلية. وكانت اهتماماته تنصبّ على فتح مدارس إسلامية خاصة، والتوجيه على أن المسلمين أينما كانوا إنما هم جزء من الأمة المسلمة، والمسلمون في كينيا أحد هذه الجماعات.

وبعد الحرب العالمية الثانية تأسس معهد ممباسا الإسلامي ليكون نواةً لجامعةٍ إسلاميةٍ ولكن اشترك فيه ـ مع الأسف ـ غير المسلمين فابتعد عن

الخط الذي رسم له ، فأصبح معهداً فنياً للجميع . ولم تنجح فكرة التعليم العالي في كينيا . وبعد الاستقلال أنشئت عام ١٣٨٣ المؤسسة الإسلامية في مدينة « نيروبي » العاصمة للعمل في مجال الدعوة وتأسيس المدارس الخاصة ، والمعاهد لتحفيظ القرآن الكريم .

ويزيد عدد الجمعيات الإسلامية على اثنتين وخمسين جمعية ، ويجمعها منذ عام ١٣٩٤ مجلس أعلى يُعرف باسم « المجلس الأعلى لمسلمي كينيا » ، كما توجد عدة مكتبات إسلامية عامة في مختلف أنحاء كينيا ، وأهمها مكتبة الجامع الكبير في نيروبي وتتبعها قاعة واسعة للمطالعة ، ولعل كثرة الجمعيات في كينيا من أكبر مشكلات المسلمين ، إذ لكل جالية جمعياتها الخاصة بها ومدارسها بل ومساجدها .

ونشاط الحركة الإسلامية في كينيا يبدو في نمو مدارسهم ومعاهدهم ، وأهم الجمعيات الإسلامية : الجمعية الخيرية الإسلامية ، والاتحاد الوطني لمسلمي كينيا ، وهيئة الشبان المسلمين ، والمؤسسة الإسلامية ، والهيئة الإسلامية ، والبعثة الإسلامية لكينيا ، واتحاد كوكني الإسلامي هذا في نيروبي ، والجمعية الصومالية الإسلامية ، والجماعة الإسلامية وهي فرع للجماعة الإسلامية في باكستان والهند ، ومؤسسة القرآن الكريم .

ويوجد في ممباسا البعثة الإسلامية لكينيا ، والهيئة الإسلامية ، وجمعية الدعوة الإسلامية الباكستانية ، والجمعية النسائية العربية الإفريقية .

وفي ثيكا البعثة الإسلامية لكينيا .
وفي كيسومو هيئة النساء المسلمات بكينيا .
وفي كيليفي مركز التضامن الإسلامي للدعوة الدينية والإرشاد .
وفي لامو الإصلاح الإسلامي .
وفي ماليندي الجمعية الخيرية لمسلمي كينيا .
وأهم المدارس :

مدرسة الفلاح الإسلامية في أسيولو.
ومدرسة الإنابة الإسلامية في لامو.
ومدرسة مبيا الابتدائية في ماندورا.
ومعهد النساء المسلمات في ممباسا.
ولجنة مدرسة مونغانوريانا الإسلامية في نيروبي.

وهناك مشروع تعليمي جيد باسم «مجمع تعليمي في نيروبي» يضم مدرستين إحداهما ابتدائية والأخرى ثانوية، ومعهداً دينياً ثانوياً، وجامعة، ومدرسة ثانوية للبنات، وعيادة طبية. ومعهد للمعلمين في ممباسا، وإنشاء مركز الفلاح للدعوة الإسلامية في نيروبي.

غير أن هذه المشروعات كلها تحتاج إلى دعم لتوحيد الجهود، والمساعدات المادية، والمعلمين، والاخصائيين، والتوجيه، ويقع الجزء الكبير من هذا النشاط على المسلمين ومؤسساتهم الشعبية والدولية خارج حدود كينيا، إذ أن امكانات المسلمين في كينيا لا تزال محدودة وخاصةً من ناحية الطاقات، ولا شك فإن للتوجيه أثره الكبير إذ أن الجهل منتشر لا أقول في كينيا فقط وإنما في أكثر أمصار العالم الإسلامية فنجد مثلاً في كينيا «الجمعية الإفريقية الإسلامية اليهودية» وهذا ما يعيق العمل الإسلامي. كما يجب أن ينصرف جزء من التوجيه إلى مفهوم الأمة الإسلامية إذ لاحظنا أن لكل جالية مؤسساتها سواء أكانت اجتماعية أم تعليمية أم للعبادة... وهذا ما يؤسف له.

وللمسلمين في كينيا محاكم للأحوال الشخصية يرأسها قاض مسلم.

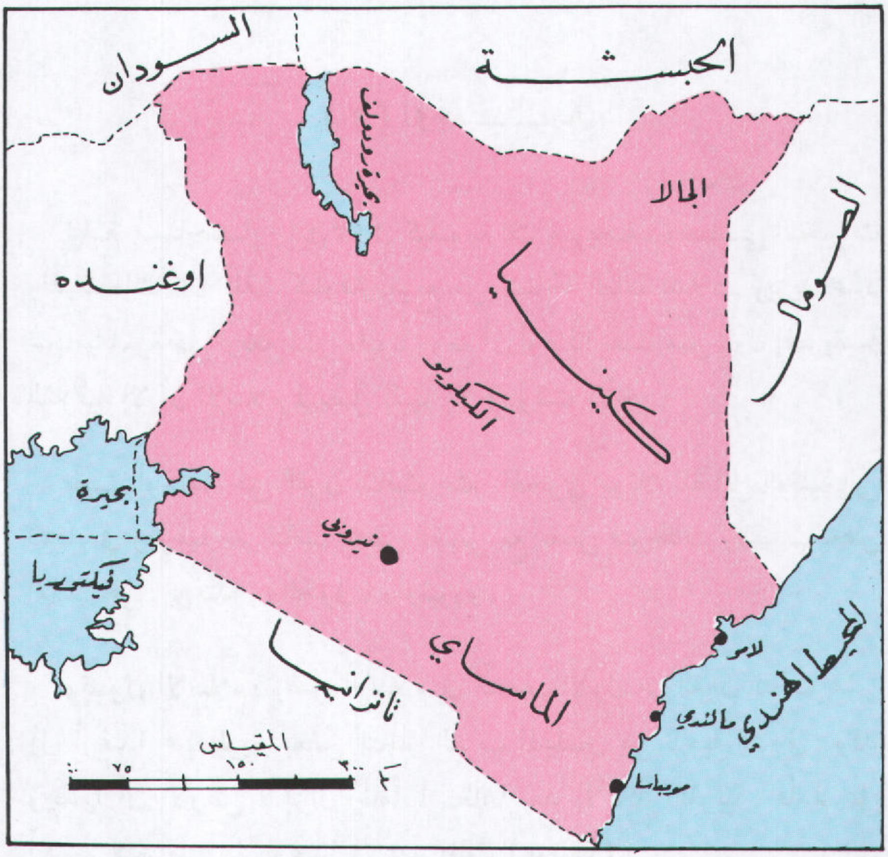

السودان
الحبشة
الصومال
اوغنده
كينيا
الجالا
الكيكويو
بحيرة
فيكتوريا
نيروبي
الماساي
تانزانيا
لامو
مالندي
مومباسا
المحيط الهندي
المقياس
٧٥
١٥٠

مصور رقم [٢٣] .

(٢) اوغـــــندا

تبلـغ مسـاحتهـا ٢٤٣,٤١٠ كيلـومترات مـربعـة، وتغطــي البحيرات والمستنقعات ٤٢ ألف كيلومتر مربع من المساحة العامة للبلاد. ويزيد عدد سكانها اليوم على أربعة عشر مليوناً. ومع أن أوغندا تُعـدّ مـن دول إفـريقيـة الشرقية إلا أن الإسلام لم يصل إليها إلا في وقت متأخر.

بقيت أوغندا حتى القرن الثالث عشر الهجري موئلاً للقبائل الوثنية التي تنتقل في ربوعها. ثم التأمت بعض القبائل مع بعض فتوحّدت وأسّست بعض الممالك هي: بوغندا، وأنكولي، وأونيورو.

وصول الإسلام: وصل الإسلام في النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى أوغندا عن طريق بعض التجار العرب المسلمين من ناحية الشرق، وقد وجدوا أن الأرض لا تزال خاماً لم تطأها بعد الأفكار الغريبة، فأسلم على أيديهم كثير من أهل بوغندا في عهد الملك (موتيسا).

كما وصل الإسلام إلى أوغندا في نهاية القرن الثالث عشر من الشمال عن طريق مصر، إذ كان قد وصل إلى حكم مصر عام ١٢٨٠ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي وكان يرغب في الشهرة والدعاية لنفسه فسار في طريق السياسة التوسعية لإشباع ما تصبو إليه نفسه، ورأى أن أفضل المناطق التي

يمكن أن يحقق فيها سياسته، البلاد التي تحدّ دولته من الجنوب حيث الإمارات والممالك ضعيفة والفراغ السياسي موجود، وكان حكمه يمتدّ حتى جنوب السودان اليوم، وأن الأرض التي تحدّه من الجنوب هي أوغندا، وتخلو من الحكم القوي فتسهل له السيطرة عليها، ومنها تتدّفق مياه نهر النيل، فيستولى على منابعه، ويضمن تلك الأصول من أن تقع بيد غيره، ويدرس مشروعات الري، ويُوحّد وادي النيل، ويُحقّق ما تتوق إليه نفسه من دعايةٍ أمام شعبه فالتفت إلى تلك المناطق بفكره كله، وأخذ يعد العدة ويرسل الرسل بعد أن تنازلت له الدولة العثمانية أيضاً عن سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل خليج عدن، وتشمل اليوم أريتريا والصومال والمنطقة التي تحت نير الاستعمار الحبشي الصليبي اليوم.

رحب ملك « أونيورو » ويدعى « كباريكا » بهذا المشروع، ورفع العلم المصري على عاصمته أمام عددٍ كبيرٍ من شعبه. كما أرسل « موتيسا » ملك « بوغندا » سفراءه لاستقبال وفود المصريين القادمين من الشمال، وبعث هداياه إلى الخديوي إسماعيل، وطلب منه أن يبسط نفوذه على أرضه، وأن يبعث باثنين من العلماء ليهتدي وشعبه عن طريقهما إلى الدين الإسلامي. وأرسل إسماعيل فعلاً العلماء ليكونوا دعاةً له لا ليعملوا للإسلام إلا عندما يرى له فيه مصلحة ككثيرٍ من الحكام عامة وهذا ما يحدث عادة عند حُكّام المصريين.

وفي عام ١٢٨٧ تم فتح قناة السويس، وكانت أكثرية أسهم شركة القناة بيد فرنسا صاحبة الفكرة والتخطيط والمشرفة على العمل والتنفيذ، والتي أصبح نفوذها يتسع تدريجياً في مصر حتى لم يعد لها منافس، فرأى كردّ فعلٍ لذلك تقوية النفوذ الإنكليزي حتى يقف في وجه النفوذ الفرنسي أو يُحقّق توازن القوى فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي اسموه « صموئيل بيكر » لتحقيق سياسته التوسعية فأعطاه مهمة فتح أراضي أوغندا أو ما أسماه

« مديرية خط الاستواء » وكلّفه بـالعمـل على تنشيـط التجـارة المشروعـة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق التي كانت انكلترا تعمل على منعها - لا إنسانية وإنما من أجل المحافظة على سياستها الاقتصادية، وخاصةً الصناعة التي كانت تخشى من منافسة البضائع الامريكية لها حيث كان الرقيق ينقل إلى أمريكا، ويعمل هناك حيث المواد الأولية رخيصة، فيجتمع رخص المادة الخام مع رخص اليد العاملة الأمر الذي يجعل الصناعة قليلة التكاليف فتنافس البضائع الانكليزية الغالية الثمن ثم تقضي عليها -. وعيّن اسماعيل هذا الضابط برتبة فريق في الجيش المصري وقد نسي إسماعيل أن بيكر لا يمكن أن يعمل إلا لمصلحة الإنكليز واليهودية ولم يفكر في خدمة العرب والإسلام. وبعد انتهاء مدة العقد مع بيكر الذي لم يؤد المهمة التي أُنيطت به - كما هو متوقع - اختار إسماعيل ضابطاً بريطانياً آخر هو الكولونيل « غوردن » الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء ليخدم المصالح البريطانية إذ منع السلطة المصرية من الوصول إلى مياه بحيرة فيكتوريا خوفاً من وصول المسلمين إلى تلك الجهات وتأثيرهم على سكان تلك المناطق، بل تركها ميداناً للتوسع الانكليزي، وأرسل بعثةً إلى (موتيسا) ملك بوغندا تحول دون دخوله في الإسلام وتدعوه إلى اعتناق النصرانية، وبعد نهاية مدة عقده كحاكم لمديرية خط الاستواء عيّنه إسماعيل حاكماً عاماً للسودان - مكافأة له - بما في ذلك مديرية خط الاستواء إضافةً إلى سواحل البحر الأحمر الغربية. فعمد (غوردن) إلى بث الفوضى، وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة حتى يشعر أهل البلاد بفساد الحكم المصري ويطلبون الانضواء تحت السيطرة الإنكليزية إضافةً إلى توسعة شقـة الخلاف بين السـودانيين والمصريين، ورغـم هذه المخططات الاستعمارية فقد رسخت أقدام المسلمين هناك وإن بقوا دون سندٍ يستندون إليه أو دعم يتقوون به ويتحركون للعمل.

وفي عام ١٢٩٣ زار (ستانلي) الرحالة المستعمر المشهور (موتيسا) ملك بوغندا، وتبع هذه الزيارة توافد الإرساليات التنصيرية إلى البلاد، فجاء

البروتستانت ثم قدم الكاثوليك، وبدأت هذه الإرساليات تتنافس لردة الملك (موتيسا) عن تأييد المسلمين وجرّ الشعب إليها. وبدأ الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك، ولم يدخل المسلمون في هذا النزاع لذا بقوا موضع احترام وتقدير.

انسحب المصريون من السودان وبالتالي من أوغندا عام ١٣٠٣ إثر الثورة المهدية، وبذا أصبح في أوغندا فراغ سياسي. ولما عاد المصريون إلى السودان بجنودٍ مصرية تحت إمرة ضباط انكليز توقف التقدّم الفعلي عند حدود أوغندا حسب خطة استعمارية ليبقى جنوب السودان بلا سلطة تحكمه فيسرع المستعمرون الصليبيون ويضعون يدهم عليه. إذ لو ضمّت أوغندا إلى مصر والسودان لم يستطع المستعمرون أن يحولوا دون دخول الإسلام إليها تحت تأثير المسلمين من الشمال.

مات الملك موتيسا عام ١٣٠٢، وخلفه ابنه (موانغا) وفي عهده قتل الأسقف (هانتغتن) رئيس الإرسالية البروتستانتية فقامت قائمة انكلترا، واضطر الملك (موانغا) للفرار والتنازل عن الحكم لأخيه (كيويوا) الذي سرعان ما أُقصي عن الحكم إثر المحاولة التي قام بها المسلمون في بوغندا لاستلام السلطة، وبدعمٍ من الملك نفسه، وعُيّن مكانه أخ له آخر يدعى (كاليما) الذي قام بطرد رجال الإرساليات النصرانية فأبعد عن الملك مباشرةً، ولكن عاد (موانغا) إلى الحكم عام ١٣٠٨ بعد مُفاوضاتٍ، وطُرد «كاليما»، وكان لهؤلاء الملوك الإخوة عمّ يُدعى (نوح) قد اعتنق الإسلام، وتولّى أمر المسلمين الذين عدّوه ملكاً لهم ١٣٠٨ ـ ١٣١٠، وهو أخو الملك (موتيسا).

وفي نهاية القرن الثالث عشر الهجري وصل إلى المنطقة التجار الهنود، والعمال الذين عملوا في زراعة قصب السكر والقطن وجميعهم يحمل الجنسية الانكليزية، وقوي مركز المسلمين بمجيء الهنود لأن أعداداً منهم تنتمي إلى الإسلام وهذا ما جعل انكلترا تتوجّس خيفةً من التقدّم الإسلامي فبدأت

تعد العدّة للإيقاع بالمسلمين.

الاستعمار: كان الصراع قائماً بين الإرساليات أتباع المستعمرين، وكانت الهزائم تتوالى على البروتستانت الذين استنجدوا بشركة شرقي إفريقية البريطانية التي أرسلت بدورها النقيب (لوغارد) على رأس قوةٍ قضت على استقلال بوغندا عام ١٣١٢، وانتقلت السلطة من يد الملك الشرعي للبلاد إلى المندوب السامي الذي بدأ يعمل كما يحلو له ضمن خطة الإنكليز الاستعمارية الصليبية، وفرض على البلاد معاهدة (مانغو) التي تمّ توقيعها عام ١٣٢٣، وكانت بوغندا مركز تجمّع المسلمين في تلك الأرجاء وكان ملكها يومذاك (نوح أبوقو).

قيّدت انكلترا الملك بعددٍ من المستشارين، وحدّت نشاطه بشيءٍ من القوانين، وجعلت البلاد محميةً بعد أن ضمّت إليها أراضي واسعةً من المناطق التي تُجاورها حيث يقلّ المسلمون ويكثر الوثنيون، وأطلقت على هذه الأجزاء كلها اسم «أوغندا».

مات الملك «موانغا» عام ١٣١٥ فخلفه ابنه «داودي شوا» وكان عمره سنةً واحدةً فقط.

كان سياسة انكلترا في هذا القسم من إفريقية تقضي بضمّ جنوبي السودان إلى أوغندا وعدّهما دولةً واحدةً، وذلك لإبعاد جنوبي السودان ذي الأكثرية الوثنية عن شماله المسلم لتحول دون تقدّم الإسلام نحو الجنوب، ولتقطع الطريق على الدعاة والتجار المسلمين، ويزيد بذلك عدد الوثنيين في هذه الدولة المقترحة، ويقلّ عدد المسلمين فيضعف شأنهم ويقلّ مركزهم. وبدأت تهيء لذلك الخطة فعدّت جنوبي السودان منطقةً مقفلةً لا يدخلها من الشمال إلا من ترضى عنه، وشقّت الطرق بين أوغنده وجنوبي السودان، وهي غير موجودة مع الشمال، كما وجّهت أهل جنوبي السودان لإتمام دراستهم الجامعية في جامعة «ماكريري» الأوغندية التي افتتحتها بدلاً من الخرطوم، ويظهر هذا جلياً مما وصفه الحاكم البريطاني العام للسودان في أواخر عام ١٣٤٧ بأن

سياسة جديدة في السودان ستتبع، تقوم على عدة أُسسٍ أهمها:

١ً - إلغاء تطبيق القوانين الحديثة واللجوء إلى العرف والتقاليد كمصدرٍ للتحكيم بين أبناء الجنوب.

٢ً - العمل على تشجيع اللهجات المحلية، وتثبيت الحياة القبلية بكل مظاهرها وعاداتها وتقاليدها.

٣ً - نشر اللغة الإنكليزية، وجعلها لغة التفاهم الرئيسية بين القبائل الجنوبية المختلفة، ومحاربة اللغة العربية وحتى الأسماء.

٤ً - محاربة العادات والتقاليد التي انتقلت من الشمال إلى الجنوب، وتشجيع العري والإبقاء عليه.

٥ً - نقل كل ضباط الإدارة المحلية والحكومة المحلية الشماليين من الجنوب، وتحدّد ١٧ جمادى الآخرة من عام ١٣٤٩ موعداً أقصى لاكتمال هجرة الشماليين من الجنوب، وصدرت بعدها التعليمات المشدّدة بعدم السماح لأي شمالي بدخول المديريات الجنوبية إلا بإذنٍ خاص.

وبعد أن تمّ طرد الشماليين من الجنوب بدأ تنفيذ المخطط البريطاني فانطلقت الحملات الإرهابية على سكان الجنوب من الذين اعتنقوا الدين الإسلامي أو تسمّوا بأسماء عربية. وبدأ فصل كل مسلم جنوبي من أي عملٍ حكومي يتولاّه. وفي الوقت نفسه عهدت السلطات البريطانية إلى رجال الإرساليات التنصيرية والكنائس بالإشراف على مهمة التعليم الذي لم يكن يزيد على العمل للديانة النصرانية وتعليم اللغة الانكليزية، ولكي يزداد نفوذ الكنائس بين رجال القبائل وسكان الجنوب عمدت الإدارة البريطانية إلى تخفيض مرتبات العاملين الجنوبيين بحجة أن متطلبات الحياة لا تستدعي أجوراً عالية، وأصبح أجر العامل اليومي لا يزيد على ثلاثة قروش، وازداد البؤس بين الجنوبيين نتيجة انخفاض دخلهم وهنا تدخّلت الكنائس وقدّمت لهم المساعدات المادية والعينية وسدّت النقص الذي نشأ عن تخفيض مرتباتهم

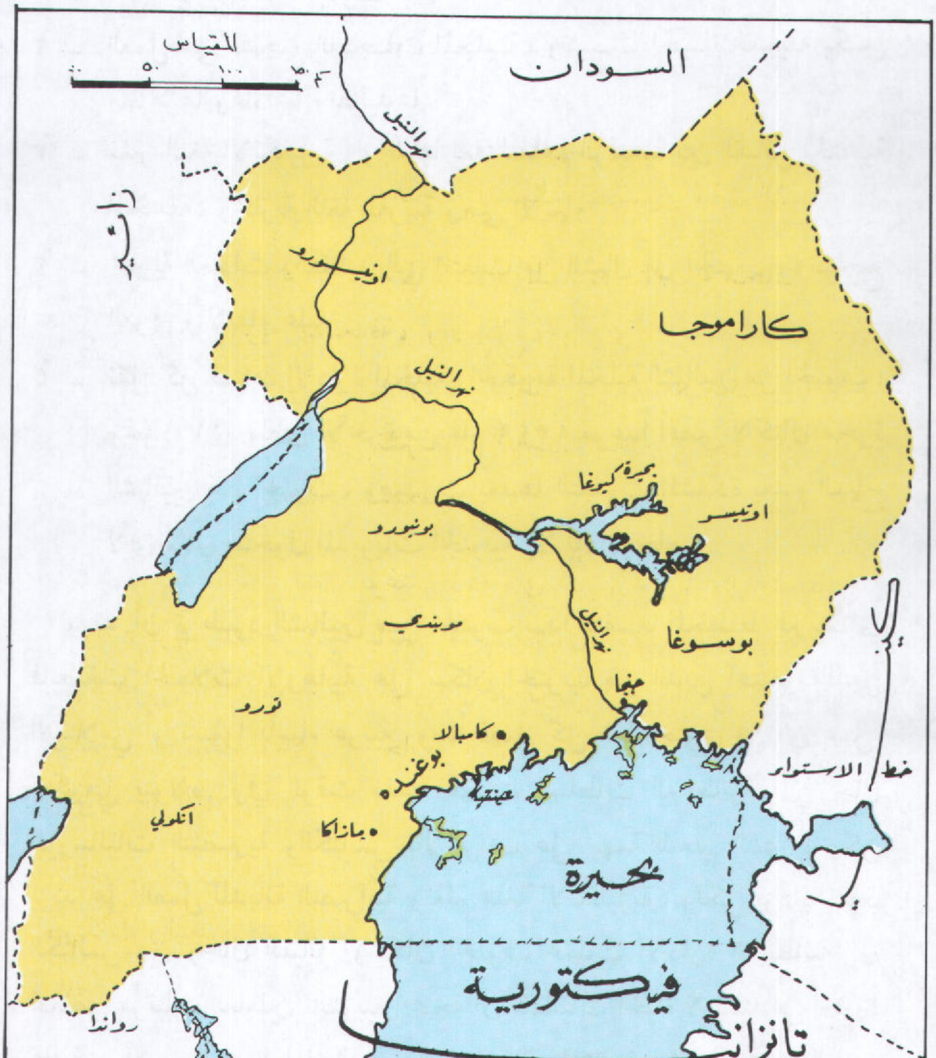
المقياس
السودان
النيل
كاراموجا
النيل
بحيرة كيوغا
اوتيسو
بونيورو
موبندي
بوسوغا
النيل
جنجا
تورو
كامبالا
خط الاستواء
بوغندا
عنتبة
ماساكا
أنكولي
بحيرة
فكتورية
رواندا
تانزانيا

مصور رقم [٢٤] .

وبذلك تمّ دعم الكنائس وسيطرتها على العاملين في القطاع الحكومي بالمدن[١] .

وفرضت انكلترا في معاهدة (مانغو) التي وقعت عام ١٣٢٣ أن يكون الملك، ورئيس الوزارة، ووزير المالية من أتباع كنيسة بريطانية، أما وزير العدل فيجب أن يكون من أتباع كنيسة الروم الكاثوليك لتضمن بذلك حرية النصارى ونشاطهم ولتقف في وجه الإسلام ودعاته. كما منحت هذه المعاهدة الكنيسة الإنجيلية مساحةً من الأرض تُقدّر باثنين وستين ميلاً مربعاً، ونتيجة وطأة هذه المعاهدة بدأ التنظيم والتجمّع للمطالبة بتحقيق رغبات الشعب.

قام حزب زعماء القبائل (الباتاكا) يُطالب بشعبية المجلس النيابي (اللوكيكو)، وحرية الصحافة، والاجتماع، والرأي. وبعد الحرب العالمية الأولى قامت حركة من شباب أوغندا تطالب بإيجاد مجلس نيابي للفلاحين (لوكيكو باكوبي) لإصدار تشريعات تُناسب الفلاحين لأن القوانين التي تصدر لا تُحقّق إلا مصلحة المستعمر.

ومات (الكاباكا) ملك بوغندا (داودي شوا) عام ١٣٥٨ فخلفه ابنه «ادوارد فريدريك موتيسا» باسم «موتيسا الثاني» ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة فعُيّن ملكاً تحت الوصاية، وكان قد درس في مدارس الإرساليات التنصيرية، وسافر بعدها إلى جامعة (كامبردج) حيث تلقّى علومه فرجع يحمل أفكار الانكليز.

انتهت الحرب العالمية الثانية وانتهت معها الأحكام العرفية فبدأت الحركات والتجمعات الحزبية، وقام عمال مدينة (كامبالا) بالإضرابات مطالبين بزيادة الأجور، وهاجموا وزير المالية (كولوبيا) وإذا كانت قد قمعت الثورة إلا أن التنظيمات الحزبية قد ظهرت.

---

(١) مجلة العربي الكويتية العدد ١٤٩ صفر ١٣٩١ هـ.

ظهرت عام ١٣٦٩ عدة أحزاب منها : حزب العمال الإفريقي ، وعصبة موظفي أوغندا ، واتحاد أوغندا الإفريقي ، وتقدّمت الأحـزاب مـع حـزب زعماء القبائل (الباتاكا) ، واتحاد فلاحي أوغندا بمذكرة إلى الحكومة تُطالبها بأمور أهمها :

١ - إقالة الحكومة .
٢ - قيام حكومة جديدة يشترك الشعب في انتخابها مع انتخاب أعضاء المجلس النيابي .
٣ - إعطاء الإفريقيين الحق في حلج أقطانهم .
٤ - إعطاء الإفريقيين الحق في التجـارة خـارج أوغنـدا مبـاشرةً دون وساطة .

قيّدت الحكومة النشاط الحزبي ، ولكنه نشأ حزب جديد يضمّ كثيراً من عناصر المنظمات السابقة وقد عُرف باسم « مؤتمر الشعب الأوغندي » ويرأسه « موسازي » ، ووقع خلاف بين الملك (موتيسا الثاني) والحاكم البريطاني عام ١٣٧٣ إذ بدأ الملك يساير الاتجاه الوطني ، فأرادت السلطات البريطانية نفيه إلى لندن إلا أن الشعب قد ثار تأييداً لملكه وضدّ الاستعمار ، واتخذت الحكومة طريق العنف فلم ينفعها ذلك واضطرت انكلترا عام ١٣٧٥ إلى إعادة الملك إلى عرشه . وتألّفت عام ١٣٧٩ « حركة الحرية في أوغندا » إلا أن الحاكم البريطاني منع نشاطها فعمل أفرادها في السر ، وقدّم المجلس النيابي مذكرة تدعو إلى إجراء انتخابات للجمعية التشريعية لوضع دستور للبلاد ، ومفاوضة انكلترا من أجل الحصول على الاستقلال . وتمّ ذلك وحصلت البلاد على الاستقلال عام ١٣٨٢ . وينص الدستور على أن تكون أوغندا جمهورية تتألف من ستة أقاليم ، وأن تكون بوغندا مملكةً ضمن هذه الجمهورية ، ويكون ملكها « موتيسا الثاني » على أن يكون ولي عهده بدر بن نوح زعيم المسلمين . وأصبح في البلاد تنظيمان سياسيان هما : الحزب الديمقراطي ، وحزب

مؤتمر الشعب الأوغندي.

الاستقلال: كان رئيس الحزب الديمقراطي رئيساً للوزراء عندما حصلت البلاد على الاستقلال عام ١٣٨٢ وهو «بنديكتو كيدانوكا» غير أن الانتخابات قد رفعت إلى الحكم حزب مؤتمر الشعب الأوغندي فشكل رئيسه «ميلتون أوبوتي» الوزارة وتسلّم الحكم.

حدث تمرّد عام ١٣٨٤ واضطر رئيس الوزارة استدعاء القوات البريطانية للمساعدة في القضاء على التمرد، وأدّى ذلك إلى عزل قائد الجيش «أوبولوت» ثم اعتقاله، وتولّى القيادة «عيدي أمين».

وأصبح «ميلتون أوبوتي» عام ١٣٨٥ رئيساً للدولة واحتفظ في الوقت نفسه برئاسة الحكومة، وأصبح يتمتع بسلطاتٍ واسعةٍ، وبناءً عليه أصدر دستوراً جديداً ألغى فيه النظام الاتحادي الذي كان قائماً بين أقاليم أوغندا، كما ألغى الوضع الخاص الذي كان يتمتع به إقليم بوغندا، وعندما حاول ملك بوغندا «موتيسا الثاني» عرض الأمر على الأمم المتحدة قام الحرس الخاص الموالي للرئيس «أوبوتي» عام ١٣٨٦ بالهجوم على القصر الملكي، واستولى عليه، وفرّ (الكاباكا) ملك بوغندا موتيسا الثاني إلى بورندي وأقام فيها، ثم انتقل إلى لندن، وأخيراً مات عام ١٣٨٩ في العاصمة البريطانية بظروفٍ غامضةٍ، اتهم فيها الرئيس «أوبوتي» بدسّ السمّ له. ولم يمض شهر حتى جرت محاولة لاغتيال «أوبوتي» وأُصيب خلالها بفمه، ودخل المستشفى، فاتخذ إجراءاتٍ حاسمةً ضدّ المعارضة حيث أُعلنت حالة الطوارىء بتصديق المجلس النيابي، وحُظر نشاط الحزب الديمقراطي المعارض والأحزاب الأخرى جميعها عدا «حزب مؤتمر الشعب الأوغندي» الحزب الحاكم، الذي أصبح مُستبداً، حسب طريقة حكم الحزب الواحد، وبدأت عملية جمع الأسلحة من السكان.

وفي عام ١٣٩٠ أعلن الرئيس « أوبوتي » عن مقرراته في :

١ً - تأميم تجارة الاستيراد والتصدير باستثناء النفط.
٢ً - امتلاك الحكومة ٦٠٪ من أسهم الشركات جميعها من زراعيةٍ وصناعيةٍ والبالغ عددها ثمان وثمانون شركة.
٣ً - تحويل جميع المصارف العاملة في أوغندا إلى شركاتٍ أوغندية.
٤ً - قصر عمل الأجانب في التجارة على مناطق معينةٍ وسلعٍ محدّدةٍ.

وفي مطلع عام ١٣٩١ أُعلن عن قيام انقلاب عسكري يتزعمه قائد الجيش « عيدي أمين » معلناً أن الرئيس « أوبوتي » كان استبدادياً في حكمه، مُتسلّطاً، رفض إجراء انتخابات، ولم يراع أوضاع البلاد الاقتصادية عندما قام بإجراءاته الأخيرة، كما كان يتحيز للإقليم الشمالي الذي ينتمي إليه، وهذا ما أدّى إلى بثّ الانقسام في صفوف الجيش الأوغندي.

وافق عيدي أمين على استلام رئاسة الجمهورية بعد قيام انقلابه بشهر واحد، فألغى الأحكام العرفية المعمول بها منذ عام ١٣٨٦، أما « أوبوتي » فقد التجأ إلى تانزانيا الدولة المجاورة والتي لم تعترف بالنظام القائم في أوغندا حتى زواله، وبقيت العلاقات متوترةً بين الدولتين وحدثت بينهما عدة اشتباكات، كما كانت العلاقات متوترةً مع السودان.

طرد عيدي أمين البعثة الإسرائيلية من أوغندا وسجن بعض أفرادها إذ كانت تتصرّف بحريةٍ كأنها على أرضها فلم يطق أن يجد في بلاده سلطتين رغم أن هذه البعثة قد سبق لها أن دعمته، وكان على صلةٍ حسنةٍ ببلدها، وبدأ الخلاف، وقامت إسرائيل بعملية فدائية وأنقذت أفراد بعثتها الموقوفين في مطار « عينتيبة »، وبدأ اليهود يعملون ضدّ عيدي أمين. كما ضايقه تصرّف الإرساليات النصرانية فحدّ من سلطتها وأعدم أحد القساوسة، فكان نتيجة

ذلك أن عمل اليهود والصليبيون ضدّه. ولم يجد دعماً له سوى المسلمين فظهر نشاطهم، ولما أُبعد من أمامهم النشاط الصليبي واليهودي ارتفعت نسبة المسلمين حتى وصلت إلى ٤٠٪ من مجموع السكان، وهذا ما أثار الصليبية واليهودية ضدّه أيضاً.

بدأت اللعبة الدولية، وأُثير الخلاف بين اوغندا وتانزانيا، ووقعت الحرب بين الدولتين، واندحر الأوغنديون بعد مقاومةٍ عنيفةٍ، وانسحب عيدي أمين نحو الشمال، ودخلت القوات التانزانية عاصمة أوغندا كامبالا، وقامت حرب إبادةٍ ضدّ المسلمين فذبح منهم ما يقرب من نصف مليوناً وشُرّد مثلهم، وسُلّم حكم أوغندا جوزيف بن عيسى مدير جامعة (ماكريري) وهو نصراني متعصب، وأُطلق عليه اسم «يوسف لولوي»، وبعد شهر قام انقلاب بزعامة وزير الدفاع، وأُخرج جوزيف بن عيسى من البلاد. وأُجريت الانتخابات، وعاد «ميلتون أوبوتي» لرئاسة الجمهورية.

السكان: ينتمي سكان أوغندا إلى الزنوج، وقبائل البانتو التي اكتسحت البلاد، واختلطت موجة كبيرة منهم مع السكان الأصليين، وشكّلوا سكان أوغندا الحاليين. وأهم قبائل البانتو هي: (الباغندا): ويشكلون ١٧٪ من السكان، ثم (الباسوغا) و(البانيورو)، وقد حدثت منافسة بين (الباغندا) والبانيورو خلال القرن الثالث عشر استطاعت (الباغندا) بعدها أن تحتلّ مركز الصدارة، ويلي قبائل البانتو النيليون الحاميون وأشهر قبائلهم: (الأوتيسو) ويعيشون شرق بحيرة (كيوغا)، و(الكاراموغا)، ثم النيليون وأشهر قبائلهم (لو) ويعيشون حول خليج (كافيروندو)، و(اللانغو) في المديرية الشمالية شمال بحيرة (كيوغا)، و(الألور) شمال بحيرة (ألبرت)، ثم هناك بعض الأقزام الذي يعيشون منعزلين في الغابة، هذا بالإضافة إلى ما جاءها من عناصر عن طريق آسيا وشمالي إفريقية.

ومعظم السكان من الإفريقيين وقليل منهم من الغرباء الذين يُشكّل الهنود

ثلاثة أرباعهم، وقد دخلوا إلى البلاد على شكل تجار، وصار لهم شأن في التجارة، كما جاء بعضهم على شكل عمال للعمل في مدّ السكك الحديدية، واستقرّ قسم منهم، وهناك بعض التجار العرب الذين جاء أكثرهم من جنوبي شبه جزيرة العرب. كما توجد قلة من الأوربيين حيث يأتون إلى أوغندا بكثرة ولكن لا يستقرّون لأنهم كانوا يعتقدون بانتشار مرض النوم في البلاد رغم أن المُناخ يناسبهم لاعتداله بسبب الارتفاع.

اللغة: يتكلم السكان اللغة السواحيلية الخاصة بأوغندا، وهي دخيلة إلى البلاد، ومزيجة من لهجات البانتو مع اللغة العربية، وتكتَب بالحرف العربي، واللغة الرسمية هي الانكليزية، ولكل قبيلةٍ أيضاً لغتها الخاصة، ويحرص المسلمون من السكان على تعلّم اللغة العربية، ولكنهم لا يجدون المجال أمامهم ميسراً حيث لا توجد إلا قلّة تتكلّمها.

العقيدة: لا تزال أكثرية سكان أوغندا على الوثنية، ولم يستطع المسلمون أن يُؤثروا على السكان بسبب الظروف التي تحيط بهم، وبسبب وقوف الاستعمار والإرساليات التنصيرية والصليبية واليهودية في وجههم وما تملك من إمكانات وطاقات ونلاحظ أن نسبتهم لا تزيد اليوم على ٣٥٪ وإن كانت قد ارتفعت أيام عيدي أمين إلى ٤٠٪ إلا أنها عادت فتناقصت لما لحقها من قتل وتشريد. وكذلك فإن النصارى لا تزيد نسبتهم على ٣٠٪ رغم الإمكانات الكبيرة والجهود التي تبذل والإرساليات التنصيرية ودعم اتحاد الكنائس العالمي، والدول النصرانية، فالسكان يتوزّعون حسب العقائد على النحو التالي:

المسلمون ويُشكّلون ٣٠٪ من مجموع السكان ويبلغ عددهم ٤,٩٠٠,٠٠٠
النصارى ويُشكّلون ٣٠٪ من مجموع السكان ويبلغ عددهم ٤,٢٠٠,٠٠٠
الوثنيون ويُشكّلون ٤٠٪ من مجموع السكان ويبلغ عددهم ٤,٩٠٠,٠٠٠
١٠٠٪ ١٤,٠٠٠,٠٠٠

المسلمون: يتجمع المسلمون:

في مقاطعة بوغندا في (مانغو) و(مازاكا).

وفي المقاطعة الغربية في إقليم (انكولي) و(تورو) و(موبندي) و(بونيورو).

وفي المقاطعة الشرقية في إقليم بوسوغا.

وفي المقاطعة الشمالية على طول مجرى نهر النيل.

وشعارهم لبس الطاقية أو الطربوش، وحالتهم المادية أحسن من غيرهم من الوثنيين بسبب نشاطهم. وقد يكون الإقبال على الدخول في الدين الإسلامي يومياً لأنه دين الفطرة مع كل ما يقف أمام المسلمين من عقبات من دعايةٍ، وإغراءاتٍ من رجال الإرساليات التنصيرية، ومن افتراءات من قبل أعداء الإسلام عامةً ومن القاديانيين خاصةً على قلّتهم.

ويُؤسّس المسلمون الجمعيات، ويفتتحون المدارس، ومن أشهر هذه الجمعيات «الجمعية الإسلامية الأوغندية» التي يرأسها زعيم المسلمين هناك بدر بن نوح الذي كان أبوه نوح قد اعتنق الإسلام أيام أخيه الملك «موتيسا الأول» وهو أخ له غير شقيق، وابن الملك سونا. وكان بدر بن نوح ولي العهد السابق لملك بوغنده وبصفته الرسمية هذه كان له الأثر الكبير، وتلقى هذه الجمعية تأييداً من معظم المسلمين في أوغندا، وتساعد هي بدورها عدداً من الجمعيات الأخرى الأقل مركزاً مثل: جمعية مساعدة المدارس الإسلامية، وجمعية التبليغ الإسلامي. ومنذ عام ١٣٨٥ أصبحت هذه الجمعية تلقى معارضةً من قبل الحكومة حينما أُلغي النظام الخاص في إقليم بوغندا، وأُزيلت الملكية، إذ فقد زعيم المسلمين بدر بن نوح صفته الرسمية، وهو المشرف الأول على هذه الجمعية.

في عام ١٣٧٩ دخل في الإسلام رجل يدعى «أكبر منجوتي» وتسلّم وزارة الزراعة في حكومة «أوبوتي»، وهو قريب له، وأسس في عام ١٣٨٦

مع وزير الصحة « شعبان انكوتو » جمعية الاتحاد الوطني لتقدّم المسلمين في أوغندا ، وهكذا انقسم المسلمون إلى قسمين :

١ً - الجمعية الإسلامية الأوغندية ، ورئيسها بدر بن نوح ، وتعدّ من المعارضين للحكومة بسبب الوضع السابق لرئيسها الأمير بدر بن نوح.

٢ً - جمعية الاتحاد الوطني لتقدّم المسلمين في أوغندا ، ويرأسها أكبر منجوتي ، وأمينها العام شعبان أنكوتو ، وتلقى التأييد الكامل من الحكومة وتقف في وجه الجمعية الأولى.

ولما كانت الجمعية الإسلامية الأوغندية تلقى تأييداً كبيراً في صفوف المسلمين ، ولها مركزها بين الشعب. وكان الحزب المعارض « الحزب الديمقراطي » يملك شعبيةً أيضاً رغم أنه محظور النشاط منذ عام ١٣٨٩ هـ ، وهذا ما أكسب معارضة الدولة قوةً كبيرةً وإن كانت كامنةً ، ولما كانت الشعوب تطمع في التغيير الدائم وهذا ما جعل الاستعمار يخشى من حدوث انقلاب مفاجىء قد لا يعرف عنه شيئاً. وأخشى ما يخشاه الاستعمار قيام حركة يكون للمسلمين فيها يد أو يكونون هم القوة المحرّكة لها لذلك عمل على تغيير الوضع الذي كان قائماً في أوغندا واستبداله بحكمٍ عسكري إذ يناسب الحكم العسكري المستعمرين حيث يمنع كل معارضة مهما كان نوعها ، ويظهر بمظهر القوة ، وحتى لا تكون معارضة المسلمين قوية فقد اختير أحد الضباط المسلمين قائداً لهذا الانقلاب ، وهو عيدي أمين الذي تولّى قيادة الجيش عام ١٣٨٤ ، وكان دعماً للرئيس « أوبوتي » في كل تصرّفاته ، وتدرّب هذا القائد في إسرائيل ، ولكن لما تسلّم السلطة لم يستطع رؤية سلطة أخرى غير سلطته فطرد الإرساليات النصرانية ورجالها ، والبعثة الإسرائيلية وأعضاءها.

وقد انضمّت أوغندا إلى منظمة المؤتمر الإسلامي أيام عيدي أمين ولكنها لم تحضر المؤتمر الإسلامي العاشر إذ تغيّرت جهة الحكومة على ما يبدو.

النصارى: لقد اعتنق عدد من السكان النصرانية تحت تأثير الإرساليات التنصيرية وإغراءاتها القائمة في الدخول إلى المدارس، والمستشفيات والمساعدات، وتحت تأثير الاستعمار وإغراءاته في الوظائف والبعثات وتسهيل المهمات ومع العلم أن التعاون قائم بين المؤسسات الاستعمارية ورجال الإرساليات. وتعمل في أوغندا إرساليات كاثوليكية فرنسية وبروتستانتية إنكليزية. ويُعدّ النصارى أحسن بقية عناصر السكان من الناحية المادية والاجتماعية ويسيطرون على كثيرٍ من أجهزة الدولة، هذا بالإضافة إلى إشرافهم على مدارس الدولة ومدارسهم الخاصة ومشافي الدولة ومشافيهم الخاصة ويتلقّون الدعم من معظم الدول النصرانية ومن اتحاد الكنائس العالمي لذا فإمكاناتهم ضخمة يستطيعون القيام بمؤسساتٍ كبيرةٍ ذات طاقات عالية.

وقد توقّف انتشار النصرانية مع زوال الاستعمار وطرد رجال الإرساليات، ثم رجع قليلاً بعد عودة الحكومة إلى التحيّز إليهم والوقوف بجانبهم.

الوثنيون: يُشكّل الوثنيون أكثرية السكان، ويعيشون على شكل قبائل لكل قبيلة معتقداتها الخاصة بها وطقوسها التي تختلف بها عن غيرها، وقد كانوا موضع الاهتمام عند المستعمرين ورجال الإرساليات النصرانية لجرّهم إلى ديانتهم ولوقوفهم مع النصارى في وجه الإسلام. كما أن نشاط المسلمين إنما يوجه بالدرجة الأولى إليهم وقد كسب المسلمون أكثر أتباعهم اليوم من بين هؤلاء الوثنيين الذين يتوقّف وجودهم على نشاط المسلمين في تلك الديار، وعلى مساعدتهم من قبل الدول الإسلامية عامةً والعربية منها خاصةً.

التعليم: إن وصول الإسلام إلى أوغندا كان حديثاً كما رأينا، وتلاه مجيء الاستعمار ودخول الإرساليات التنصيرية، وكل هذا كان في وقتٍ واحدٍ تقريباً، واتجه التجار المسلمون إلى تأسيس المدارس لكن لم يتجاوزوا في إنشائها المرحلة الابتدائية، وحاولت الإرساليات وضع التعليم كله في قبضتها،

وكانت قادرةً على ذلك لما تملك من إمكاناتٍ ماديةٍ ودعمٍ من السلطات الاستعمارية. ولم تُـؤسّس حتى عـام ١٣٥٦ سـوى عشر مـدارس إسلاميـة ابتدائية. ثم بدأت السلطات الحاكمة تعمل على فتح المدارس والتعليم ولكن تعمدّت إغفال المسلمين وتعليمهم... ونتيجة هذه السياسات فقد أُغلق عدد من المدارس الإسلامية مع قلّتها.

ففي عام ١٣٦٥ كان عدد المدارس الإسلامية الابتدائية ١٨ مدرسة أغلق منها ٦ مدارس.

وفي عام ١٣٨٠ كان عدد المدارس في أوغندا كما يلي:

المدارس النصرانية	٢٣٨٨	١٤٠٧ للكاثوليك.
		٩٨١ للبروتستانت.
المدارس الإسلامية	١٧٩	
المدارس الحكومية	١٢٩	
	٢٦٩٦	

أما المدارس الثانوية فكان على النحو التالي:

المدارس النصرانية	٢٨٢	١٥٢ للكاثوليك.
		١٣٠ للبروتستانت
المدارس الإسلامية	١٨	
المدارس الحكومية	٦١	
	٣٦١	

وتتركّز المدارس الإسلامية في بوغندا إذ أن المقاطعات الأخرى كانت شبه خالية ونلاحظ هذا من الجدول التالي:

	بوغندا	المقاطعة الشرقية	الغربية	الشمالية	المجموع
مدارس النصارى	٧٨	٦٨	٦٠	٧٦	٢٨٢
مدارس المسلمين	٨	٦	٢	٢	١٨
مدارس الحكومة	٣٤	٢٠	٢	٥	٦١

أما المدارس المهنية فكانت كما يلي:

	أولية	ثانوية	معاهد عليا
النصرانية	٢٤	٣	٣٧
الإسلامية	١	٢	١
الحكومية	٢	-	١٦

وهذا يدلّ على أن التعليم كان بيد الإرساليات التنصيرية، وهذا ما يُؤثّر على وضع المسلمين الاجتماعي، كما كان التعليم المهني كذلك بيد النصارى، وهذا ما يُؤثّر على وضع المسلمين الاقتصادي وبالتالي يتخلّف المسلمون بالنسبة إلى المجتمع الذي يؤثر فيه، ويستمرّ هذا التخلّف مع ازدياد نسبته، وخاصة أن الإمكانات النصرانية ضخمة، والدعم لهم كبير أما المسلمون فلا دعم لهم، وكل نشاطهم بإمكاناتهم المتواضعة وجهودهم الخاصة، وإخوانهم في الأمصار الإسلامية في غفلةٍ عنهم، ونسيان.

المؤسسات الإسلامية: على الرغم من الجهود الإسلامية الخاصة في أوغندا فقد نشأت بعض المؤسسات ذات المكانة ومنها:

المجلس الإسلامي الأعلى لأوغندا في كمبالا.
الجمعية الإسلامية الأوغندية.
جمعية الاتحاد الوطني لتقدّم المسلمين في أوغندا وتأسّست عام ١٣٨٦.
الجماعة الإسلامية بأوغندا.

الكلية العلمية في « كبيلي » ضاحية كمبالا .
جمعية التبليغ الإسلامي .
جمعية مساعدة المدارس الإسلامية .
ومن المدارس الإسلامية :
معهد بلال الديني في كمبالا .
مدارس التقوى الإسلامية في مدينة (مازاكا) .
مدرسة الدين والتهذيب الإسلامي في مدينة (كتومو) وفيها مسجد، ودار لإقامة الطلاب .

المعهد الديني في مدينة (جنجا) .
مدرسة الحنان في (جنجا) .
مدرسة (كويمبا) الإسلامية العليا في كمبالا .
معهد النهضة الإسلامية في (بوسمباتيا) .

وأشهر المساجد في أوغندا كلها مسجد (نكسيرو) القائم في العاصمة كمبالا ، ومسجد (كبيلي) في ضاحيتها .

ويُعاني المسلمون من قلة التعليم للغة العربية لعدم وجود أساتذة لذلك، ومن الفقر والمرض نتيجة الجهل والتخلّف، ولا توجد لديهم الإمكانات المادية، ومن ثم تحدّيات القاديانيين والبهائيين والإسماعيليين والفرق المنحرفة، وفوق هذا كله الخلافات القائمة بين الجمعيات والمؤسسات، وكيد النصارى والمستعمرين .

ومع كل هذه العراقيل والتحدّيات أمام الدعوة الإسلامية في أوغندا فإن بعثات التنصير تشير في تقاريرها إلى تزايد انتشار الإسلام على نحوٍ يُعدّ تهديداً خطيراً لها في البلاد، وتعزو ذلك إلى ما كان من نشاط التجار المسلمين والدعوة إلى الإسلام أثناء معاملاتهم، وإلى نظام الزواج في الشريعة

الإسلامية الذي يُلائم البلاد ، وإلى اعتبار كل مسلم يفد إلى البلاد أن من واجبه الدعوة إلى الإسلام . وإذا ما تزوج مسلم من نصرانيةٍ أو وثنيةٍ لا تلبث أسرتها أن تتحول إلى الإسلام جملة ، هذا في الوقت الذي ينظر أهل البلاد إلى النصرانية أنها إحدى المستحدثات أو الواردات من أوربا مع الاستعمار ، وخاصةً أنهم يجدون المسلمين القادمين أكثر اختلاطاً بهم واندماجاً معهم.

ولما رأت البعثات التنصيرية سرعة انتشار الإسلام عملت ومن يقف وراءها على إسقاط نظام الحكم ، وأُثير الخلاف بين تانزانيا وأوغندا ، ودخلت جيوش تانزانيا كمبالا ، وسقط نظام الحكم ، وهرب عيدي أمين وقُتل نصف مليون من المسلمين وشُرّد مثلهم ، وطُويت الصفحة ، وسكتت أجهزة الإعلام العالمية ووكالات الأنباء وباركت المؤسسات النصرانية والإرساليات وكبريات الدول الاستعمارية . . .

أوغندا واليهود : عرضت انكلترا على اليهود أن تكون أوغندا وطناً قومياً لهم ، وكانت قد دخلتها حديثاً وجعلتها مستعمرةً لها ، وبحث وزير المستعمرات البريطاني « تشمبرلن » مع « هرتزل » منح اليهود تلك البقعة منَ الأرض ، وعلى الرغم من موافقة المؤتمر الصهيوني على ذلك إلا أن القادة اليهود المتطرفين رأوا يومذاك رأي الدول الاستعمارية الصليبية في نقطة ارتكاز لهم في قلب المناطق الإسلامية التي ستُفصل عن مركز الخلافة الإسلامية بجهد دول أوربا الصليبية الحاقدة والتي تخشى أن يحاول المسلمون مرة أخرى ـ بعد تجزئة بلادهم ـ العودة إلى فكرة جمع الأمة المسلمة وإعلان الجهاد . هذا بالإضافة إلى الفكرة الدينية التي تُحرّك اليهود وترى في فلسطين بقعةً مقدسةً لهم.

وإذا كانت الحركة اليهودية قد قرّرت فيما بعد أن تكون فلسطين أرضاً للميعاد ـ على حد تعبيرهم ـ إلا أنها كانت تنظر في الوقت نفسه إلى إفريقية سندها في ذلك إذ هي التي ستُمكّنها من الوقوف على قدميها ، ومن

الاستمرار في البقاء في وسط ذلك الإطار الواسع القي يحيط بها والذي ينفصل عنها كل الانفصال.

ونشط اليهود في الدول الإفريقية قبل استقلالها، وساعدهم على ذلك المستعمرون لتكون لهم ركائز قبل خروجهم من البلدان المستعمرة للمحافظة على مصالحهم، واعتمدوا اليهود ليكونوا الأداة المُنّفذة لرغباتهم. وقدّم اليهود مساعدات للدول التي استقلّت، وفي عام ١٣٨٢ يوم استقلّت أوغندا لم يكن فيها سوى خبير يهودي واحد. واهتمت دولة اليهود بالقطاع النقابي بشكل خاص فأولت شؤون العمال ومشكلاتهم عنايةً فائقةً، فقد أنشأ الاتحاد الدولي لنقابات العمال الحرة معهداً نقابياً في (كمبالا) للتدريب النقابي العمالي، وقد مهد هذا لاتحاد عمال إسرائيل (الهستدروت) سبيل الاتصال والارتباط بعدد من القيادات العمالية الإفريقية.

(٣) موزامبيق

تمتدّ على الساحل الشرقي لإفريقية بطول يَزيد على ١٩٠٠ كيلومتر، وتزيد مساحتها على ٧٧١,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنها ما يزيد على اثني عشر مليوناً، تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٣٠٪، وبذا يكون عددهم ٣,٦٠٠,٠٠٠ مسلم، يكثرون في المناطق الساحليةِ، ويقلّون في الجهات الداخلية.

دخل الإسلام إلى موزامبيق عن طريق التجارة البحرية والدعوة، وأسّس المسلمون مدناً أشهرها مدينة « سفالة » التي تحدّث عنها الرحالة « ابن بطوطة »، كما دخل عن طريق إمارة الزنج التي قامت في القرن الرابع الهجري، والتي كانت عاصمتها مدينة « كلوة » التي تقع في تانزانيا اليوم، وقد امتدّ سلطان هذا الإمارة على الأجزاء الشمالية من موزامبيق، كما تمكنت هذه الإمارة عام ٥٣٥ أن تسيطر على مدينة سفالة، وأن تستثمر مناجم الذهب في بلاده « زيمبابوي » اليوم، وفي مدينة « مونيكا ».

وتأسّست في القرن العاشر نواة إمارةٍ إسلاميةٍ تُدعى « شيكانغا » بالقرب من « مونيكا » غير أن البرتغاليين قد قضوا عليها عام ٩٧٧ هـ.

ونفذ الإسلام للداخل عن طريق تجمّعات المسلمين على طول الساحل وخاصةً من « سفالة » و« كيلمين »، وشقّ طريقه نحو جنوبي « ملاوي » ويذكر

توماس أرنولد أن أسلاف قبائل « الياوو » في نياسالاند (ملاوي) قد جاءوا من قرب الساحل الشرقي ، واعتنقوا الإسلام من زمنٍ بعيدٍ ، وكانوا حلفاء العرب ، وقد انتشر الإسلام هناك بسرعة في العقد الأول من القرن العشرين (الرابع عشر الهجري).

وعندما جاء الصليبيون البرتغاليون في القرن العاشر شنّوا حرباً صليبيةً شعواء على المسلمين فخرّبوا المدن ، وقتّلوا من السكان ، وأفرغوا شحنات من حقدهم على أهالي البلاد ، وإذا كان البرتغاليون قد طُردوا من الأجزاء الشمالية إلا أنهم استطاعوا الاحتفاظ بمراكزهم في « موزامبيق » الأمر الذي جعل المسلمين يُعانون الشدائد ، ويضطرون للهجرة ومغادرة ديارهم لقسوة البرتغاليين ووحشيتهم.

حكمت البرتغال موزامبيق من مستعمرتها « غوا » في الهند ، ثم غدت مستعمرة مفردةً ، ثم عدّها البرتغاليون جزءاً من بلادهم.

التعليم: عمد البرتغاليون إلى إهمال أوضاع المسلمين وخاصةً فيما يتعلق بمؤسساتهم كالمساجد والمدارس ، فالمساجد قليلة صغيرة بسيطة وغالباً ما تتبعها المدارس التي ليست سوى كتاتيب . أما التعليم العام فقد أفسدته الإرساليات التنصيرية ، وانتشرت الأفكار المخالفة للإسلام . ووقعت البرتغال عام ١٣٥٩ معاهدة مع الفاتيكان حوّلت التعليم بموجبها في موزامبيق إلى سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، ولهذا منع فتح المدارس الإسلامية مهما كان نوعها ، وهذا ما أدّى إلى زيادة ضعف المسلمين وتخلّفهم ، كما أن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة لا تساعدهم على القيام بأي عمل إيجابي ، ولم تكن أوضاع المسلمين في الأمصار الإسلامية أفضل بكثير ، وإذا كانت قد حدثت صحوة إسلامية حسبما يقولون إلا أن الإهمال لا يزال قائماً . فالمسلمون في موزامبيق بحاجةٍ إلى جهود ضخمة لإنقاذهم مما يُعانون.

السكان: ينتمي معظم السكان إلى البانتو ومنهم « الياوو » و « الشونه » و« تسنغا »، **هذا إضافةً إلى عدد من الأوربيين ولا يزيدون على المائة ألف،** معظمهم من البرتغاليين، ويتمتعون بامتيازاتٍ واسعةٍ، كما يوجد ما يقرب من عشرين ألفاً من الآسيويين أكثرهم من الهنود وبينهم عدد من أبناء الفرقة الإسماعيلية وأكثر ما يعيش أتباعها في المنطقة الساحلية.

استقلت موزامبيق عام ١٣٩٥ بعد اضطراباتٍ عنيفة في البلاد وتغيُّر نظام الحكم في البرتغال، وفي الإحصاء الذي أُجري في موزامبيق قبيل الاستقلال تبيّن أن عدد السكان يقرب من ٩,٧٥٠,٠٠٠ إنسان وأن عدد المسلمين بينهم هو ٣,٢٠٠,٠٠٠ أي تقدر نسبتهم بـ ٣٣٪ إلا أن الهيئات الإسلامية تُقدّر المسلمين بخمسة ملايين أي ما يعادل ٥٢ ٪، أما الدوائر التنصيرية والدول الأوربية فتقول: إن نسبة المسلمين في موزامبيق هي ١٠٪ فقط.

يكثر المسلمون على الساحل وفي الولايات الأربعة الشمالية وهي: (نمبولا، وزمبزيا، ونياسا، وكابادلڤادو). وإن ٩٥ ٪ من المسلمين إنما هم إفريقيون و٥٪ من آسيا. وغالبية المسلمين من الفلاحين الفقراء، وقلّ منهم من يعمل في التجارة لذلك فهم مهملون لا يسمع عنهم أحد، ولا يتحدّث عنهم إخوانهم، ولا يمدّون لهم يد المساعدة إضافة إلى الضغط عليهم من قبل الدولة. فهم يعيشون في فقر وجهل ومرض.

المؤسسات الإسلامية: توجد منظمة رئيسية في البلاد هي منظمة « أنوار الإسلام »، أما المؤسسات الخيرية والاجتماعية، فقليلة ولا توجد أية مؤسسة

يوجد مسجدان في العاصمة « مابوتو » (لورنزوماركيز)، كما يوجد المركز الإسلامي، ويقوم مسجد في مدينة « موازمبيق »، ويوجد قاض شرعي في كل من المدينتين المذكورتين.

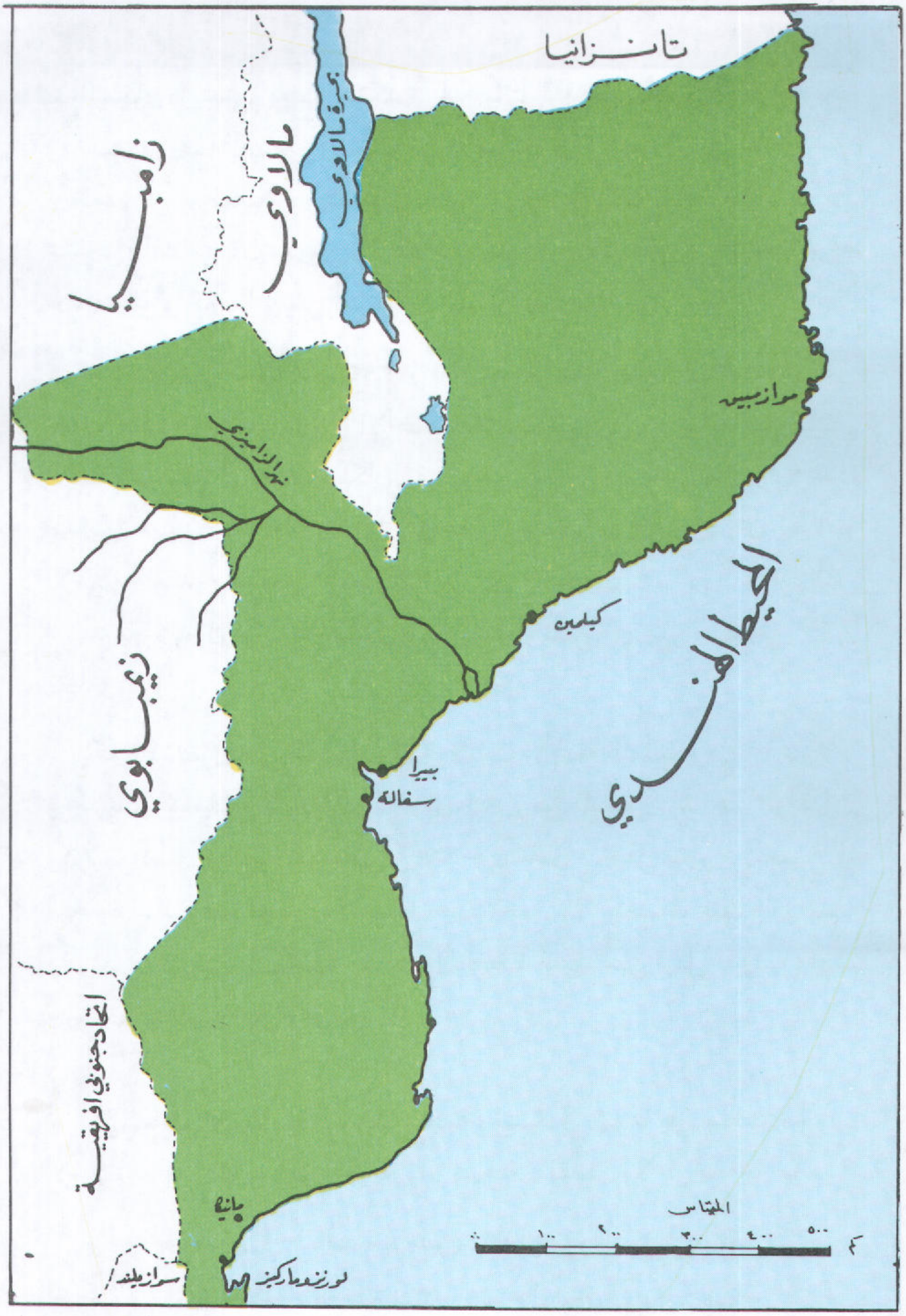
تانزانيا
بحيرة مالاوي
مالاوي
زامبيا
نهر الزامبيزي
موزمبيق
كيلمين
المحيط الهندي
بيرا
سفاله
زيمبابوي
اتحاد جنوب أفريقية
مابنيا
لورنزوماركيز
سوازيلند
المقياس
كم
٥٠٠
٤٠٠
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠

مصور رقم [٢٥] .

(٤) مَـالاوي

جمهورية صغيرة تمتدّ على ضفاف بحيرة (مالاوي) التي كانت تُعرف باسم « نياسا » كما كانت البلاد تُعرف باسم « نياسالاند »، وتبلغ مساحتها ١١٨,٤٨٤ كيلومتراً مربعاً، وعاصمتها مدينة « زومبا » الواقعة إلى الجنوب من البحيرة.

يُقدّر عدد سكان مالاوي اليوم بستة ملايين ونصف المليون، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٣٥٪ أي يبلغ عدد المسلمين ٢,٢٧٥,٠٠٠ مسلم.

ينتمي أكثر سكان مالاوي إلى قبائل البانتو، وأهم هذه القبائل هي: « التومبوكا » في الشمال، و « الشوا » في الوسط، و « النيانجا » في الجنوب، وهناك قبائل « الناخوندي » و « التونغا » كما قدمت من موزامبيق قبائل « الياوو » و « اللوموي » و « الناغوي ». وينتشر الإسلام بين قبائل « الياوو » حيث تعدّ أكثريتها من المسلمين، وبين بعض القبائل الصغيرة مثل الجومبي.

وصول الإسلام: وصل الإسلام إلى مالاوي عن طريق التجار والدعاة الذين قدموا إلى المنطقة أيام إمارة الزنج في القرن الرابع، وأيام حكم عُمان لشرقي إفريقية منذ القرن الثاني عشر الهجري، وارتحل التجار المسلمون إلى سواحل بحيرة (مالاوي)، وانتشر الإسلام، وكانت تجارة سالم جومبي تصل إلى أواسط البلاد، واستمرّت خمسين سنة.

الاستعمار: تبعت المنطقة إلى البرتغاليين، وهم يقيمون على السواحل، واستمرّ ذلك حتى عام ١٢٧٦ حيث وصل أول رحّالة نصراني هو (لفنغستون)، وتتابعت بعده الإرساليات التنصيرية، وقد وجدوا الإسلام منتشراً بين قبائل (الياوو)، ولا تكاد تخلو قرية من قراهم من مسجد، فأسّست الإرساليات مقراً لبعثةٍ لها في (ماغومورو)، بين قبائل (الياوو) وذلك عام ١٢٧٨ غير أنه قد أُغلق بعد عامين لفشله وعدم إمكانية تنصير مسلمٍ واحدٍ رغم الإغراءات العريضة والدعايات الواسعة، ولم تُحقق الإرساليات نجاحاً أبداً، فخابت.

وفي عام ١٢٩٢ أقامت البعثة التنصيرية الثانية مقراً لها بين قبائل (الياوو) أيضاً في (كيب ماكلير)، وبعد ست سنواتٍ استطاعت وبعد جهودٍ كبيرةٍ بُذلت أن تُنصّر مسلماً واحداً، والحقيقة أنه أظهر النصرانية للحصول على بعض المساعدات، فأقامت دعاياتٍ واسعةً لما حقّقته، وإن كانت تعرف الواقع، ولذا نقلت مقرها إلى بلدة (ليفغستونيا).

عندما دخل الاستعمار الانكليزي إلى المنطقة عام ١٢٧٦ وحلّ محلّ النفوذ البرتغالي كان أول عمل قام به بعد أن أبعد التجار المسلمين عن المنطقة وخاصةً الذين كانوا يتبعون تجارة سالم جومبي، وصرفت السواحليين إلى البلاد التي قدموا منها. ثم منحت الإرساليات التنصيرية حق الإشراف على التعليم. وفرض تعليم الدين النصراني في المدارس الرسمية كلها عام ١٣٤٦.

دخل النفوذ الانكليزي إلى مالاوي عام ١٢٧٦ عن طريق الشركات التجارية البريطانية، ومدّ (سيسل رودس) نفوذ السلطة إلى البلاد، وقاوم المسلمون هذا النفوذ مدة سنتين كاملتين، ثم هُزموا.

وأعلنت انكلترا حمايتها على أرض مالاوي عام ١٣٠٩، وكان أول مندوبٍ سامٍ لها (هري جنستون) فأعلن حرب إبادةٍ عامةٍ على المسلمين، فكان يصيد بعضهم كالطيور في الرحلات التي يقوم بها بين منطقةٍ وأخرى،

وكان المسلمون يومذاك أكثريةً تكاد تصل نسبتهم إلى ٦٠٪ فانخفضت هذه النسبة إلى ٢٥٪ بالإبادة والتشريد، ثم عادت إلى الارتفاع قليلاً وهي اليوم - كما ذكرنا - ٣٥٪.

استقلت مالاوي عام ١٣٨٣ وكان الحكم فيها ملكياً، ثم أعلنت فيها الجمهورية عام ١٣٨٦. ويتكلم السكان اللغة الانكليزية إلى جانب لغة (تشيشوا) إحدى لهجات قبائل البانتو.

التعليم: كان التعليم قبل خضوع مالاوي للاستعمار باللغة العربية والسواحيلية، فلما جاء الاستعمار حوّل التعليم إلى اللغة الإنكليزية أو إلى اللهجات المحلية بحروفٍ لاتينيةٍ إذ وضعت أبجدية لاتينية لأكثرية اللهجات المحلية، فكان ذلك ضربةً قوية للتعليم الإسلامي. ثم صدرت عدة قوانين عام ١٣٤٦ جعلت من الديانة النصرانية مادةً دراسيةً إجباريةً في المدارس جميعها وفي مختلف المراحل، لذا فقد رفض المسلمون إرسال أبنائهم للمدارس، فتأخّر المستوى التعليمي عندهم، وارتبط معه المستوى الاقتصادي.

عمل المسلمون على افتتاح مدارس لهم بجهودٍ خاصةٍ وإمكاناتٍ ضعيفةٍ فكان عطاؤها قليلاً يتفق مع الإمكانات التي بُذلت في سبيل تأسيسها. ثم جاء إلى ملاوي عدد من العمال الهنود (هند - باكستان - بنغالديش...) فأسّسوا جمعية التبليغ، وافتتحوا اثنتا عشرة مدرسة تسير حسب المناهج الهندية، وإن كانت قد سدّت بعض الثغرات غير أن مشكلة اللغة بقيت ثغرة قائمة.

وجاء الاستقلال فألحقت المدارس الهندية بإدارة التعليم الحكومية، ولكن قامت منظمة الشباب المسلم بتأسيس المدارس غير أن إمكاناتها محدودة لذا يوجد نقص في طباعة الكتب، وفي الأساتذة المؤهلين، وفي الإقبال على التعليم، وفي المدارس عامة، فلا توجد مدارس إسلامية إلا في مائة قرية بين خمسمائة قرية منتشرة في أرجاء البلاد.

وأما المدارس والمعاهد المهنية التي يُقبل عليها الشباب فهي لا تزال كلها بيد الإرساليات التنصيرية، وبذا فالمسلمون محرومون منها إلا الذين يُضحّـون ويقبلون الانتساب إلى مدارس الإرساليات ولا شك أنهم يخسرون الكثير... وإذا كان المسلمون قد أسسوا معهداً مهنياً حديثاً لكنه لا يصل إلى المستوى المطلوب، وإنما ليسدّ الثغرة الواسعة الموجودة في هذا الميدان.

وأخيراً توجد مدارس ابتدائية أشبه ما تكون بالكتاتيب تتبع المساجد البالغ عددها خمسمائة مسجد.

المؤسسات الإسلامية: أكثر ما يتجمع المسلمون في المناطق القريبة من بحيرة مالاوي، وخاصة في المناطق الشمالية والجنوبية منها، وفي «مولنجي» و «زومبا» و سليما» و «ددزا» و «شيراد زولو» و «ليلـونغـوى». ومعظـم المسلمين يعملون في الزراعة والرعي.

والمؤسسات الإسلامية محلية، ترتبط بالمدن والقبائل بالدرجة الأولى ومنها:

الشباب المسلم.
جمعية اليمي المسلمة.
جمعية زومبا المسلمة.
جمعية بلانتير المسلمة.
المركز الإسلامي الاجتماعي.

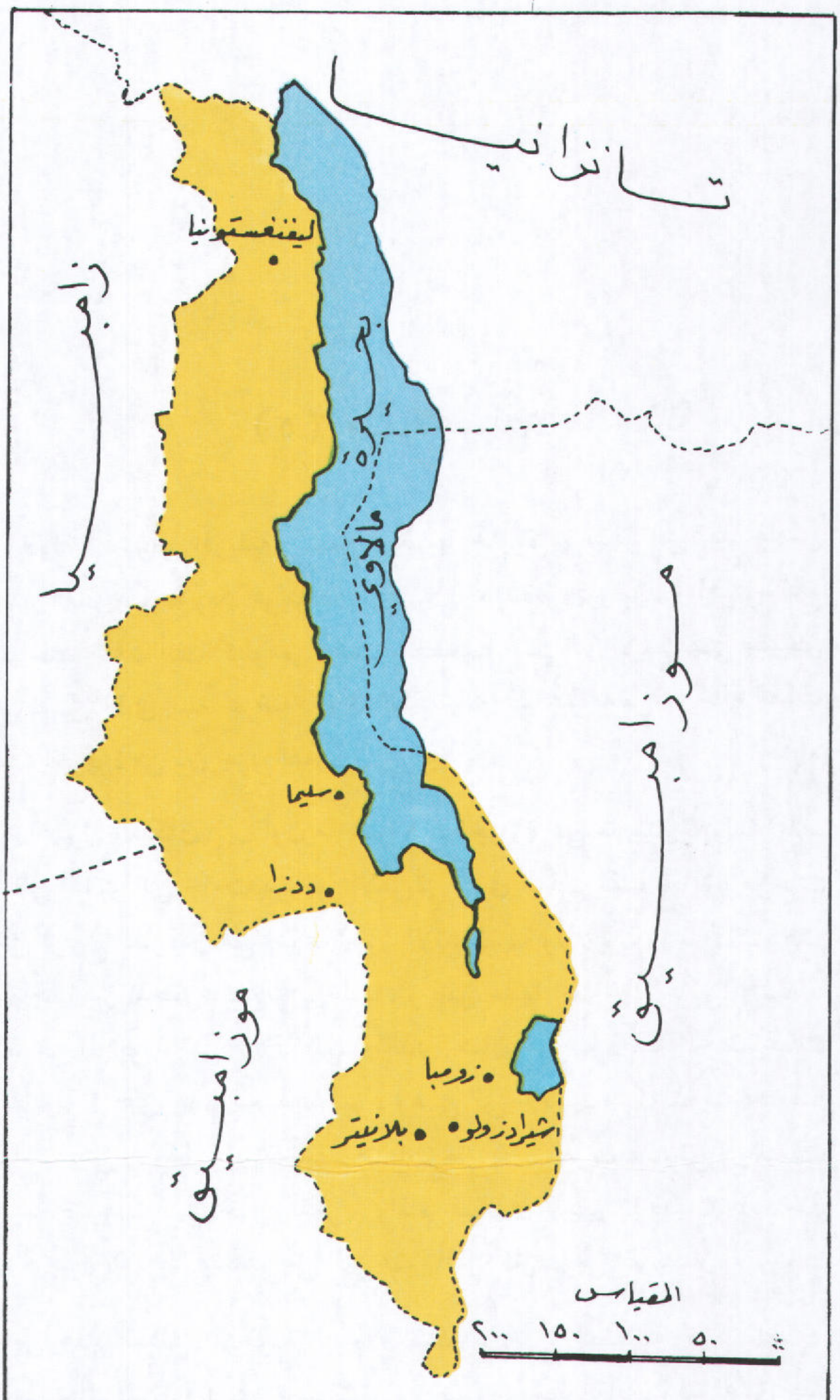
تانزانيا
ليفنغستونيا
سليما
ددزا
زومبا
شيرادزولو
بلانتير
المقياس
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠

مصور رقم [٢٦].

(٥) مـالاغـاشي

دولة في شرقي إفريقية، تشمل أراضيها جزيرة مدغشقر التي تُعدّ خامس جزر العالم مساحةً بعد غرينلندا، وغينيا الجديدة، وبورنيو، وبافن، وتبلغ مساحتها ٥٩٠ ألف كيلومتر مربع، ويفصلها عن البر الإفريقي مضيق موزامبيق الذي يبلغ عرضه ٤٠٠ كيلومتر، وقد عدّ بعض الرحّالة العرب هذه الجزيرة من بين جزر القُمُر.

أصول السكان: إن أول ما عمر هذه الجزيرة على ما يبدو ـ والله أعلم ـ قبائل البانتو التي جاءت من البر الإفريقي، وفي الوقت نفسه جاءتها موجات من الزنوج الشرقيين من مجموعة الجزر الأندونيسية والملايو، وربما كانت هذه الموجة أكبر المجموعات التي دخلتها، وأُطلق عليها اسم «مالاغاشي» اشتقاقاً إما من الملايو أو من مالاقا الميناء الذي كان ترحل منه المجموعات الملايوية في طريقها إلى مدغشقر، وهي التي جعلت اسم الدولة حالياً «مالاغاشي»، كما قدمت إليها جماعات من بلاد العرب وفارس، وانتقلت إليها مجموعات من جزر القمر، وأقام فيها في العصر الحديث عدد من الأوربيين لا يزيد عددهم على اثني عشر ألفاً أكثرهم من الفرنسيين.

ومن هذه القبائل الموجودة اليوم «السكالاف» أو الصقالبة كما أسماهم العرَب المسلمون في جزيرة مدغشقر، ويعيشون وسط الغابة، وقد اعتنق عدد

منهم الإسلام، ولا يزال قسم منهم عليه حتى الآن.

وقبائل الفلانة، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام أيضاً.

وقبائل التيمور الذين يسكنون جنوب شرقي الجزيرة، ويبدو أنهم يعودون إلى أصل عربي، ويحافظون على وحدة قبيلتهم، ولا يزال لهم ملك خاص بهم، وقد تتولى النساء أمرهم. فالآن تملكهم امرأة، اسمها «باسولا»، ويقولون: إن هذا الاسم عربي محرّف وهو «بتول بنت موسى» والله أعلم - وعاصمة هذا القبيلة مدينة «وي بن».

وقبائل «الهوفا» هي التي سبقت إلى اعتناق الإسلام، فلم يحسن إسلامها، وعاد كثير من أفرادها إلى معتقدات آبائهم الأولين، وهي تسكن جنوب شرقي مدينة «ماجونغا»، واختلطت كثيراً بالعرب، ونشأ جيل من هذا الاختلاط أُطلق عليه اسم «مورنا»، وإن كان كثيراً ما يقصد بكلمة «مورنا» قبيلة «الهوفا» بالذات أي يطلق اسم الجزء على الكل. ولعل كلمة «مورنا» مشتقة من كلمة «مورو» وهي تسمية البرتغاليين للمسلمين، لأن أكثر «الهوفا» كانوا من المسلمين. وتحافظ قبيلة «الهوفا» على وحدة أبنائها، ولا يزال لها ملك يسري حكمه على أبناء القبيلة كلهم، وبيت الملك في قبيلة «الأنكار» أو «الأزانكار» والملك اليوم هو إبراهيم موسى، ولولا كتابات الأنكار لكان تاريخ الجزيرة مظلماً، ويُعدّ ملكهم أول من علّم أبناءه اللغة العربية.

وصول الإسلام: جاء المسلمون إلى جزيرة مدغشقر من كل جهة، جاءوا تجاراً، ودعاة، وعمالاً، وللاستقرار. جاء العرب إلى جهة الشمال، ونزلوا في مدينة (ديغو)، وربما استقرّ بعضهم وأسس مدناً وقرى، وأطلق عليها اسم البلد الذي جاء منه، فنجد مثلاً مدينة «سالالا» في شمال غربي جزيرة مدغشقر، ويبدو - والله أعلم - أن اسمها قد جاء من مدينة «صلالة» العُمانية. وانتقلت جماعات إلى الساحل الشرقي ونزلت فيه.

وجاء المسلمون إلى الشمال الغربي من جزر القُمُر، ونزلوا في « ماجونغا » ومنها انتقلوا إلى أكثر جهات الجزيرة وعمروا أجزاء منها.

وجاء مسلمون من اندونيسيا والملايو وحلّوا في الساحل الشرقي واختلطوا مع العرب هناك، وهم المالاغاشيون غالباً، وانتشروا في كثير من أرجاء مدغشقر.

وجاء المسلمون من ناحية الجنوب الغربي من سفالة، وهم من العنصر الافريقي الذي اختلط مع العرب. وقد عمّ الإسلام الجزيرة، وحكمها أهله. وزار الرحّالة الأوربي (ماركوبولو) المنطقة عام ٦٨٠ وقال: إن الجزيرة يحكمها أربعة شيوخ كلهم مسلمون، وذكر أن الكتابة العربية هي السائدة.

اللغة: يتكلم السكان جميعاً اللغة المالاغاشية وهي تختلف بين منطقة وأخرى حسب لهجة القبيلة التي تتكلمها، وتعود هذه اللغة إلى أصول سواحيلية وملايوية، كما أن للغة العربية أثراً واضحاً على هذه اللغة ويعود الفضل للمسلمين الذين عليهم أن يتكلّموا بعضها لقراءتهم لكتاب الله القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وبعض أمور الفقه... إضافةً إلى الأثر العربي القادم من الجزيرة العربية مباشرةً أم من العرب الذي سبق لهم أن نزلوا على الساحل الإفريقي واختلطوا بسكانه ثم انتقلوا من زنجبار، وجزر القُمُر، وسفالة إلى جزيرة مدغشقر، وعلى هذا فقد دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة المالاغاشية سواء جاءت من اللغة العربية مباشرة أم من اللغة السواحيلية التي تضمّ أيضاً الكثير من العربية، ولا تزال بعض الكلمات العربية حتى اليوم في اللغة المالاغاشية ومنها أسماء أيام الأسبوع، وأسماء البروج، والتحية. كما كانت اللغة المالاغاشية تكتب بالحرف العربي حتى جاء الاستعمار الفرنسي عام ١٢٩٩ هـ حيث أحلّ الحروف اللاتينية محلّ الحروف العربية، ولا تزال كذلك حتى بعد خروج المستعمرين.

لقد كانت جميع الكتابات الرسمية في قصور ملوك (الهوفا) بالعربية،

وتغيّرت الأمور مع مجيء المستعمرين البرتغاليين، وإن كان المؤرخ (فلاكور) قد ذكر أن أهالي ولاية (مافيتانانا) يستعملون الحروف العربية التي كانت عندهم منذ قرنين، ولكن المدغشقريين بدّلوا صور اللفظ فجعلوا الياء زاياً، والثاء تاءً.

أما اللغة الفرنسية فهي اللغة الرسمية على أن الذين يفهمونها لا تزيد نسبتهم على ٢٠٪ من مجموع السكان.

ويحرص المسلمون على تعلّم العربية، وإن كانت هذه اللغة قد تأثرت في مدغشقر بما أصاب العقيدة من إهمالٍ لها وبُعدٍ عنها.

الاستعمار: ضعف أمر المسلمين، وأحاط البرتغاليون بإفريقية بعد معرفتهم رأس الرجاء الصالح في محاولة لهم لملاحقة المسلمين، والإحاطة بهم من كل جهةٍ بعد أن طردوهم من الأندلس عام ٨٩٨ هـ، ووصل الصليبيون البرتغاليون إلى مدغشقر عام ٩١٣ هـ فقاومهم المسلمون مقاومةً عنيفة، وحالوا دون دخولهم إلى الجزيرة غير أن (دوسان توما) أحد رجال التنصير قد استطاع أن ينزل إلى الجزيرة بعد أن أظهر للسكان السلم والوداعة، وجاءت نجدة من بلاد العرب أعانت أهل الجزيرة على البرتغاليين. وعاود البرتغاليون المحاولة في السنة الثانية، وعملوا في أهل الجزيرة قتلاً، وفي البلاد تخريباً لإخافة الناس، ولدبّ الذعر في النفوس مجرد السماع بقدوم البرتغاليين، ثم رجعوا بعد أن ارتكبوا الكثير من أعمال الوحشية إلى مقرهم في موزامبيق، وأخيراً استطاعوا دخول مدغشقر، وسيطروا عليها تماماً فنكّلوا بالمسلمين وأطلقوا عليهم اسم «المورو»، كما فعلوا في سيلان، وكما فعل الإسبان في الفيليبين، بل إن كلمة «مورو» تعني المسلمين عند سكان شبه جزيرة ايبريا (الإسبان والبرتغاليون) فحيثما وجدوا مسلمين أطلقوا عليهم هذا الاسم.

ونتيجة الضغط الاستعماري الصليبي العنيف اضطربت نفوس المسلمين،

ووجدت الخرافات طريقاً إلى عقولهم، ودخل على عقيدتهم ما ليس منها فابتعدوا عن الإسلام.

وضعف أمر البرتغاليين وطُردوا من الأجزاء الشمالية من شرقي إفريقية بجهود من حكام عُمان والدولة العثمانية ومساعدة الانكليز فتقلّص نفوذهم وضاعت هيبتهم، وبدأ نفوذ حكام عُمان يصل إلى جزيرة مدغشقر وخاصةً عندما آل أمر دولة عُمان إلى البو سعيدين عام ١١٥٤، ونقل سعيد بن سلطان مقرّ حكمه من عمان إلى شرقي إفريقية، وتـزوج مـن ملكـة مدغشقر، في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وبسط نفوذه على الجزيرة، غير أن الصليبيين من البرتغاليين لم يكونوا بعيدين عن المسرح إذ كانوا يُثبِّتون أقدامهم في موزامبيق على الطرف الثاني من المضيق ومقابل مدغشقر فكانوا يُشجّعون الإرساليات التنصيرية لدخول مـدغشقـر مُظهـريـن الحبّ والسلام، كما أن البرتغاليين أنفسهم كانوا يُغيرون على الجزيرة بين الآونة والأخرى، ويُقاتلون أهلها، كل هذا أضعف انتشار الإسلام، وعزل المسلمين عن إخوانهم في الأمصار الإسلامية.

وضعفت دولة ماجد بن سعيد العُمانية في شرقي إفريقية، ودخلت فرنسا وانكلترا إلى الساحة، وبدأ الصراع بينهما في سبيل الحصول على مناطق نفوذ، وحالت ملكة مدغشقر (رانا فالونا) دون السيطرة الاستعمارية على بلادها غير أنها قد توفيت عام ١٢٨٦ فزاد بعد موتها التنافس بين الدول الأوربية لضمّ أجزاء من شرقي إفريقية إلى مستعمراتها، وتمكّنت فرنسا من بسط نفوذها على الجزيرة عام ١٢٩٩ هـ، ثم عدّتها مستعمرةً لها عام ١٣١٤ هـ. وشجّع الفرنسيون البعثات التنصيرية الكاثوليكية في مـدغشقـر، وفـرضـوا الحصار على السكان، فانقطعت الصلة بين المسلمين في داخل الجزيرة وخارجها فزادت عزلتهم.

وقام المسلمون بعددٍ من الحركـات ضـدّ المستعمـريـن الصليبيين ولعـل

أشهرها ما كان عام ١٣٦٨ هـ في سبيل الحصول على بعض الحقوق الأساسية غير أن الحركات كانت تُقمع في منتهى الوحشية، ويزداد الضغط على المسلمين إثر كل حركة فيُشرّد من يُشرّد، وينتقل من ينتقل إلى الغابة والأماكن النائية، ويزيد الانعزال، وتقطع الصلة بين المسلمين أنفسهم داخل الجزيرة.

وأخيراً استقلّت البلاد عام ١٣٨٠ غير أن النفوذ الفرنسي بقي قوياً فيها، وأصبحت جمهوريةً وعُرفت باسم «مالاغاشي».

واستولى الجيش على الحكم عام ١٣٩٢ برئاسة الجنرال «روماسو» بتدبيرٍ من فرنسا، وبقي رئيس الجمهورية السابق في قصره حتى نهاية مدة رئاسته القانونية، وأصبح الرائد «ديدوراتسيراكا» وزيراً للخارجية. وحدثت اضطرابات عام ١٣٩٤ وقام خلاف بين وزير الخارجية ووزير الداخلية «ديدومافو» انتهت بعزل الجنرال «روماسو» وتعيين وزير الداخلية «ديدومافو» رئيساً مكانه غير أنه قُتل بعد أحد عشر يوماً، وأصبح وزير الخارجية «ديدوراتسيراكا» رئيساً مكانه.

وضع المسلمين الحالي: يبلغ عدد سكان «مالاغاشي» اليوم ما يزيد على ثمانية ملايين إنسان، نصفهم من الوثنيين، والباقي نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارى.

الوثنيون	٤,٠٠٠,٠٠٠	ويُمثّلون	٥٠٪ من مجمع السكان.
المسلمون	٢,٠٠٠,٠٠٠	ويُمثّلون	٢٥٪ من مجموع السكان.
النصارى	٢,٠٠٠,٠٠٠	ويُمثّلون	٢٥٪ من مجموع السكان.
المجموع	٨,٠٠٠,٠٠٠		١٠٠٪

والمسلمون أكثرهم من أهل السنة والجماعة، وهم الذين جاءوا من بلاد العرب ومن الساحل الإفريقي وخاصةً من جزر القُمُر، وبعض من جاء من

الهند، ومن أتى من اندونيسيا والملايو.

وينتمي بعض المسلمين إلى المذهب الأباضي وهو فرع من الخوارج في الأصل، أو أقل فِرق الخوارج تعصباً وأقربها إلى السنة، ويرفض أتباع هذا المذهب اليوم أن ينسبوا إلى الخوارج، وقد اعتدل رأيهم، وهؤلاء أصلهم من عُمان سواء أجاءوا منها مباشرةً أم من زنجبار وبعض أجزاء الساحل الإفريقي، لأن شرقي إفريقية كان يتبع عُمان، وقد نقل سعيد بن سلطان مقرّ حُكمه من عُمان إلى شرقي إفريقية في زنجبار عام ١٢٤٨، ثم نقل ابنه ماجد مقرّه من جزيرة زنجبار إلى البر الإفريقي في دار السلام ولا تزال هذه المدينة عاصمة تانزانيا إلى اليوم، وهذا ما جعل المذهب الأباضي ينتشر في شرقي إفريقية.

وينتمي بعض المسلمين إلى المذهب الشيعي وقد جاء بعض أتباعه من فارس، كما جاء بعضهم من الهند، ولهؤلاء مساجدهم الخاصة ولا يصلّون مع المسلمين.

وهناك فرقة «البهرة» التي جاءت من الهند وأتباعها قلّة، ولهم مساجدهم، وهم في الأصل من فرقة الإسماعيلية انتقلت من اليمن إلى الهند، ومعنى «البهرة» التجار، ويختلفون عن الإسماعيلية في أئمتهم وبعض عقائدهم.

كما يوجد أتباع لفرقة الإسماعيلية وهم أيضاً من الهند، ويُعرفون باسم الخواجات، وأتباع آغاخان. والإسماعيليون ليسوا من المسلمين، ولا يمتّون إليهم بصلةٍ من حيث العقيدة، وكل ما هنالك أنهم يدّعون الإسلام إن وجدوا في مجتمع مسلم أو دعتهم الظروف للانتساب إلى الإسلام، ويعملون ضدّ المسلمين، كما أن عقائدهم وتصرّفاتهم تُنفّر، لذا فالصليبيون وأعداء الإسلام عامةً يدعمونهم بكل وسيلةٍ، ويُسمّونهم بالمسلمين لغاية في نفوسهم وهي الإبعاد عن الإسلام.

وقد كانت نسبة المسلمين في الجزيرة أكبر من هذا وربما كانت تصل إلى النصف أو تزيد عليه، غير أن الانقطاع عن المسلمين والحياة وسط مجتمعٍ وثنيٍ والضغط عليهم قد أنساهم عقيدتهم وعبادتهم ولم يعد لهم أية معرفة من أمور دينهم فتحوّل بعضهم إلى الوثنية، وعُدّ من أتباعها، كما كسبت النصرانية عدداً منهم. ويعرف بعضهم هذا التحوّل فقد قالت قاضية مدينة «توليار» وتُدعى «سولانغ»: «إن أهلي الأوائل كانوا من المسلمين، وأمي مسلمة تتعبّد كما يتعبّد المسلمون، وتقرأ كتاباً لا أعرف حروفه تتعبّد بذلك»[1]. كما قالت عن فتاةٍ كانت معها: «إن أصلها عربي مسلم فهي من «ديغو» حيث العرب هناك»[1] وقد علقت الفتاة على ذلك بقولها: هذا صحيح وعمي لا يزال مسلماً يُصلّي صلاة المسلمين، أما والدي فقد أدخله الأوربيون في النصرانية، وصرت أنا نصرانية كاثوليكيةً تبعاً لذلك[1]. وقال أحد ميكانيكي الطيران «إن النصارى لم يُغيّروا فيّ إلا اسمي أما الباقي فلا [2]».

وإذا كان عدد المسلمين في مالاغاشي ليس قليلاً إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، وإنما يحتفظون بعادات أصبحت من نظمهم وتقاليدهم ومنها الختان، وعدم أكل لحم الخنزير، ودفن الموتى و....

يحدث هذا والمسلمون نائمون لا يدرون ماذا في مدغشقر؟ ولم يسمع أحدهم عن إخوانهم هناك ماذا يحلّ بهم!! يضيعون بين الوثنية، ويرتدّون تحت تأثير النصرانية.

حتى التمثيل السياسي للدول الإسلامية في «مالاغاشي» يكاد لا يوجد إذ توجد قنصليات لمصر، وليبيا، والجزائر، ويتعلّق هذا التمثيل بالأمور السياسية التي لا ارتباط لها بالدعوة أو بمعرفة المسلمين، وتتقلّب القضايا

---

(١) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين ص ١٤٧.

(٢) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين ص ١٣٣.

باستمرار، كما أن مُمثّلي هذه الدول قد لا يُمثّلون واقع الإسلام وإنما واقع المسلمين البئيس من تخلّف، ونهم في المادة، ورغبة في الجنس، وتطلّع إلى المنصب والشهرة.

وأخيراً أصبح لرابطة العالم الإسلامي في مكة مركز في العاصمة تناناريف.

ويعيش المسلمون حياة التخلّف نتيجة الحاجة، فالفقر يقصم ظهورهم، والجهل يعمي عيونهم، والمرض يصمّ آذانهم وهذا ما يدفعهم إلى عدم التفكير بمستقبلهم، ويُلقيهم في أحضان الإرساليات التنصيرية، ويرميهم في البيئة الوثنية وكل همّهم الحصول على ما يسدّ رمقهم ويستر جزءاً من عوراتهم، وإخوانهم لا يعرفون شيئاً عنهم، ولا يسمعون بهم، وفي بعض الأحيان يتلفون الأغذية، ويُبذّرون الأموال في غير طاعة الله، وفي المعصية، وفي بلاد الأجانب.

إن ما حلّ بالمسلمين في مالاغاشي لم يكن إلا نتيجة اضطهاد المستعمرين، وسلبهم أملاكهم والاستيلاء على أحسن أراضيهم، وإبعادهم عن وظائف الدولة، وجعل التعليم تحت إشراف الإرساليات التنصيرية وهذا ما يرفضه المسلمون ويجبرهم على الابتعاد عن التعليم خوفاً على عقيدتهم، وكانت النتيجة أن أضاعوها.... ولم يبقوا على علم شيء من أمور دينهم.

أما النصارى فأكثرهم من الكاثوليك وتبلغ نسبتهم ٧٠٪ من مجموع النصارى والباقي من البروتستانت

الكاثوليك	١,٤٠٠,٠٠٠	ونسبتهم	٧٠٪
البروتستانت	٦٠٠,٠٠٠	ونسبتهم	٣٠٪
مجموع النصارى	٢,٠٠٠,٠٠٠		١٠٠٪

وقد كسبهم الاستعمار ورجال الإرساليات التنصيرية من سكان البلاد

الوثنيين ومن بعض المسلمين، بما قدّموا من دعم، وإغراءات، وبما كان عليه السكان من جهل، هذا بالإضافة إلى من أقام من المستعمرين في الجزيرة سواء أكانوا من برتغاليين أم فرنسيين أم من غيرهم من الأوربيين. ويمكن أن نلاحظ بعض أحوال أصحاب العقائد في البلاد عن طريق إعطاء فكرة عامة عن المدن.

التنظيم الإداري: تقسم دولة مالاغاشي إلى ست مقاطعات إدارية تُمثّل وحداتٍ قبليةً على الرغم من تداخل القبائل بعضها مع بعض وهذه المقاطعات هي:

١ ـ مقاطعة تناناريف: وقاعدتها عاصمة البلاد «تناناريف»، وتُسمّى باسمها، وتضمّ أحد عشر مسجداً، تسعة منها لأهل جزر القُمُر، وكلهم من السنة، أما المسجدان الآخران فأحدهما لأهل السنة من الهنود والثاني للشيعة من أهل العراق وإيران. وفي العاصمة أيضاً بعثة للنجف أي الشيعة، وجمعية الخوجة الاثني عشري الشيعية أيضاً، كما يوجد مركز لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

وبالمقابل يوجد ٢٢٠ كنيسة، ١٥٠ منها للكاثوليك و ٧٠ للبروتستانت، ومن هنا تبدو إمكانات النصارى الضخمة بالنسبة إلى إمكانات المسلمين الضعيفة إن لم نقل غير الموجودة، وتظهر المقارنة في البناء، فالكنائس كلها على الروابي الخضراء وكثيراً ما تلحق بها مكتبات ومستوصفات، وحدائق على حين تكون المساجد صغيرة في المناطق المزدحمة بالسكان، ولا تكاد ترى النور، سقوفها قليلة الارتفاع، ونوافذها ضيقة، لا ساحة لها، ولا أماكن للوضوء وإن وجدت ـ وقلما توجد ـ فغير نظيفة، وفوق هذا كله فرجال الكنيسة متعلمون يحملون شهادات عليا في اللاهوت، وأما أئمة المساجد فيكاد أحدهم لا يجيد فاتحة الكتاب مع بعض سور القرآن القصيرة.

وتقع مقاطعة تناناريف وسط البلاد في منطقة مرتفعة وإلى الجنوب الغربي

منها تقع أعلى المرتفعات في الجزيرة. وقد تأسّست في تناناريف الجمعية الإسلامية بعد أن حُلَّ المجلس الإسلامي في ماجونغا .

٢ - مقاطعة ماجونغا: وهي في الشمال الغربي، وعاصمتها (ماجونغا) حيث تعرف باسمها، وفي المدينة ثلاثون مسجداً، وفيها جالية عربية من اليمن، وأخرى من الهند، وأكثر المسلمين من جزر القُمُر، وحالة المسلمين المادية حسنة، ولذا فالحقد يتزايد عليهم، وهم في تناقص.

تشكّل في ماجانغا المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٣٧٤، وكان أكثر القائمين عليه من أهالي جزر القُمُر. كما افتتح المسلمون مدرسة فيصل الإسلامية عام ١٣٧٦ .

ونزل غضب الصليبيين والحكومة على هذه المدينة فقتلوا كثيراً من المسلمين وخاصةً الذين ينتمون إلى جزر القُمُر، واضطر أن يرتحل عن المنطقة الكثير منهم عائدين إلى موطنهم الأول، وبعد أن كان عدد المسلمين يزيد على ربع سكان المدينة البالغ مائة ألف، لم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف، وذلك عام ١٣٩٧ هـ. كما يوجد في المدينة عشر مدارس إسلامية على شكل كتاتيب. وبعد الكارثة حُلَّ المجلس الإسلامي الأعلى.

ويوجد بين المسلمين مجموعة من طائفة البهرة الهنود.

ومقاطعة ماجونغا هي منطقة قبيلة (الايبوانا) التي هي فرع من قبيلة (الانتانكارانا).

٣ - مقاطعة ديغو: وتقع في الشمال، وعاصمتها مدينة (ديغو) التي تنسب إليها، وفي المدينة خمسة عشر مسجداً، وثمان مدارس إسلامية على شكل كتاتيب، ويرجع قسم كبير من المسلمين إلى جزر القُمُر، وتُعدّ (ديغو) مدينة إسلامية، وهي رابع مدن الجزيرة سكاناً.

٤ً ـ مقاطعة تاماتاف: وتقع في الشرق، وعاصمتها مدينة «تاماتاف» وهي مدينة ساحلية، تعدّ أكبر موانىء البلاد، ويكثر فيها المسلمون، كما تكثر مساجدهم.

٥ً ـ مقاطعة فيانارانتسو: وهي في الجنوب الشرقي، عاصمتها مدينة «فيانارانتسو» الداخلية التي تقع على المرتفعات، وفي هذه المقاطعة تعيش قبائل التيموريين والأنكار التي لا تزال تعد نفسها ممالك، ولها ملوك ـ كما ذكرنا ـ كما يعدّون أنفسهم من العرب.

ومن مدن هذه المقاطعة إضافةً إلى العاصمة مدينة «مانكارا» التي تقع على الساحل الشرقي، وتُعدّ ميناء، وأكثر المسلمين ضياعاً يعيشون في هذه المدينـة، وفيها مسجد صغير متواضع بناه أهالي جزر القُمُر.

ومدينة «وي بن» أو «فوهيبنو» وتقع جنبو مـدينـة «مـانكـارا» على الساحل أيضاً، وبينهما عشرون كيلومتراً فقط، وهذه المدينة هي عاصمة التيموريين، وليس فيها سوى مسجدٍ واحد صغير.

ومدينة «فورت دوفينا» ميناء على الساحـل الجنـوبي الشرقـي، ويـزيـد سكانها على الثلاثين ألفاً، و١٥٪ منهم من المسلمين، وفيها مسجد صغير لأهالي جزر القُمُر، ومسجد آخر للهنود من السنة، إذ أن الجالية الهندية في هذه المدينة منها السنة، ومنها الشيعة، ومنها البهرة. ويدّعي أكثر أهل السنة منهم أنهم من أصلٍ عربي.

٥ً ـ مقاطعة توليار: في الجنوب الغربي، وعاصمتها مدينة «توليار» التي تُعدّ ميناء تلك الجهات، ويُشكّل المسلمون ٥٠٪ من مجموع سكان المدينة، وعلى الرغم من هذه النسبة المرتفعة للمسلمين إلا أنه لا توجد مدرسة إسلامية واحدة يتلقى فيها المسلمون شيئاً من أمور دينهم، ويدّعي السكان أنهم من أصلٍ عربي. وفي المدينة «توليار» خمسة مساجد: ثلاثة منها لأهل

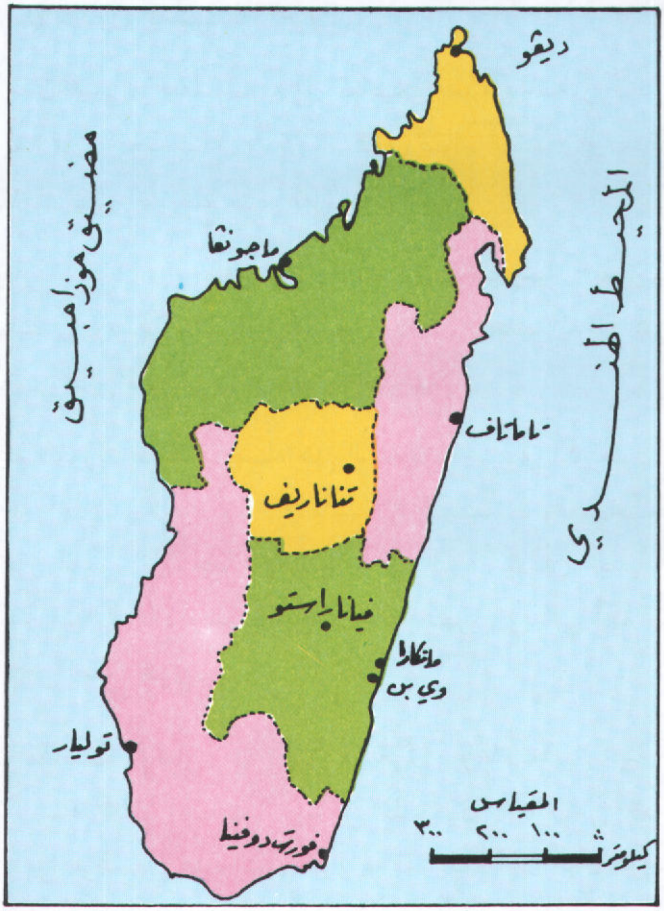

ديقو
ماجونقا
مضيق موزامبيق
المحيط الهندي
تاماتاف
تناناريف
فيانا راستو
مانكارا
وي بن
توليار
فورت دوفين
المقياس
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٢٧] .

السنة والجماعة من مسلمي جزر القُمر، وواحد للشيعة وآخر للبهرة. كما توجد مجموعة من الطائفة الإسماعيلية.

ونلاحظ أن ضياع المسلمين في جنوب مدغشقر أكثر منه في شمالها، وإن كان جميع المسلمين فيها في ضياع تام.

ويمكن أن نلخص أعداد المسلمين في دول شرقي إفريقية بما يأتي:

١ - كينيا	٥,٦٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٥٪	من مجموع السكان.
٢ - أوغندا	٤,٢٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٠٪	من مجموع السكان.
٣ - موزامبيق	٣,٦٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٠٪	من مجموع السكان.
٤ - مالاوي	٢,٢٧٥,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٥٪	من مجموع السكان.
٥ - مالاغاشي	٢,٠٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٥٪	من مجموع السكان.
	١٧,٦٧٥,٠٠٠			

ب - غربي إفريقية

لقد انتشر الإسلام في غربي إفريقية نتيجة الدعوة التي قامت بها الدول التي تأسّست هناك ولعلّ أهمها دولة المرابطين الذين أرسلوا الدعاة إلى جهاتٍ كثيرةٍ من القارة الإفريقية حتى وصلوا إلى الغابون وأقاموا رباطاً في كل مكان حلّوا به، ثم الدول التي نشأت في تلك الجهات مثل: غانة، ومالي وغيرهما، وفي العصر الحديث قامت الدعوة على نطاق واسع من قبل دول الفولاني مثل دولة عثمان دونفديو في شمالي نيجيريا وحركة الحاج عمر وغير ذلك.

ومما ساعد على انتشار الإسلام كذلك الحياة القبلية، فإسلام أحد أمراء القبائل يُشجّع كثيراً من الأفراد على اعتناق الإسلام. وإن حركة القبائل من أجل المرعى أو اندفاعها نحو الجنوب أمام ضغط من الشمال يجعل هذه الحركة على تماسٍ مع قبائل أخرى فينتشر بينها الإسلام، لذا فإن انتقال الإسلام نحو الجنوب باتجاه خليج غانة كان بسبب حركة القبائل وانتشار الدعاة، ولم يبق من هذه الدول المتعددة المشرفة على ذلك خليج غانة سوى قلّةٍ منها فيها أقليات مسلمة وما عداها فيقع ضمن العالم الإسلامي إذ تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪ من مجموع السكان، ولولا ضغط الاستعمار ووقوفه في وجه الإسلام وفسح المجال للإرساليات التنصيرية لتُشرف على التعليم وتسعى للحدّ من انتشار الإسلام عن طريق تقديم المساعدات والإغراء، لولا ذلك لعم الإسلام المنطقة كاملةً. أما الدول التي لا تزال فيها أقلية مسلمة فهي:

(١) ليبيريا

دولة صغيرة تبلغ مساحتها ١١١,٣٣٧ كيلومتراً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بثلاثة ملايين ونصف المليون، يُقيم بينهم أكثر من مليون من المسلمين الذين ينتمون إلى القبائل التي تُقيم في الداخل، وبذا تكون نسبتهم حوالي ٣٠٪ من مجموع السكان. أما الساحل فقد سكنه الامريكيون السود الذين أُعتقوا، وأقاموا عليه بين سيراليون وساحل العاج، وتأسّست مدينة منروفيا عام ١٢٣٧ هـ لسكن هؤلاء المحرّرين، وإن اسم الدولة ليدلّ على الحرية التي أُعطيت لهؤلاء الذين كانوا عبيداً يعملون في أمريكا. ثم ضمّت إلى المنطقة الساحلية أجزاء داخلية على حساب دولة الحاج عمر لتحول دون اقترابه من السواحل من أجل أن تحصره في المناطق الداخلية، وأنشأت دولة ليبيريا عام ١٢٦٣ هـ.

وإذا كانت المنطقة الساحلية مقرّاً لهؤلاء الزنوج الذين أُعتقوا من العبودية بعد أن اعتنقوا النصرانية إلا أن نسبتهم قليلة لا تزيد كثيراً على ١٪ لأن عددهم لا يصل إلى ٤٠ الفاً ومع ذلك فهم الذين يسيطرون على الحكم، وأما الداخل فإن كثرة السكان تقطن الداخل وهي: قبائل الماندي، والفانتي، والكرو، والسوليا، وجماعات قليلة من الفولاني، وإضافةً إلى جماعات الجالونكي في الساحل. وإذا كان الزنوج من النصارى فإن المسلمين ينتمون

إلى هذه القبائل.

وصول الإسلام: إن الدول المسلمة التي قامت في غربي إفريقية قامت على أسسٍ قبليةٍ بعضها ينتمي إلى الفولاني وبعضها إلى الماندي، وتحرّكت هذه القبائل نحو الجنوب وانتشر الإسلام مع حركتها واحتكاكها وتفاعلها مع القبائل الأخرى، كما جاءت جماعات من الفولاني إلى المنطقة وأثّرت على قبائل السوليما الوثنية فاعتنق كثير من أفرادها الإسلام، ووصل الفولانيون حتى الساحل ونشروا دينهم بين جماعات الجالونكي.

وبرز في مجال الدعوة إبراهيم موسى، وإبراهيم سوري اللذان أقاما في بلدة (فوغومبا) وانطلقا منها، وقد عملا على تأسيس المدارس وإقامة المساجد. ونشأ تعاون بين قبائل الفولاني وقبائل السوليما على العمل للإسلام. ويجب ألا ننسى دور تجار الهاوسا الذين يصلون إلى الساحل، ويعملون على نشر الإسلام، كما جاء الأثر من منطقة سيراليون عندما توسّع فيها النفوذ الإسلامي. ويذكر توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) عن انتشار الإسلام على الساحل الغربي من إفريقية فيقول: «وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ عن نشاط الدعوة الإسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون نجدها في التماسٍ لحلّ شركة سيراليون، أمر مجلس العموم بطبعه في الخامس والعشرين من مايو ١٨٠٢ [1]؛ وهذا نصه [منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً، استقرّت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال ما يقرب من أربعين ميلاً، سمّوها بلاد الماندينغو، وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين (الإسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد (ﷺ) وجروا على عادة المسلمين وخاصةً في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق. وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن. واستأصلوا ما كان هناك من عاداتٍ تُساعد على تخريب الساحل من

---

(١) عام ١٢١٧ هـ.

السكان. وعلى الرغم من وجود كثيرٍ من اضطراباتٍ قوميةٍ، جلبوا إلى البلاد حضارةً بلغت درجةً عظيمةً نسبياً، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة. وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادةً سريعةً، وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يُقيمون فيها. أما هؤلاء الذي تعلّموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندينغو، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة. وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يُقترن بها من احترامٍ وتوقير، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمنٍ وسلامٍ انتشاراً سلمياً، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندينغو، حاملاً معه تلك المزايا التي تتغلّب فيما يظهر دائماً على خرافات الزنوج]. كما جاء في كتاب الدعوة إلى الإسلام: ولا تقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرّغت لهذا الغرض، بل كل مسلم هناك داعية نشيط. وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجالٍ منهم، وأقل من ذلك أو أكثر، وعزموا أن يقيموا فيها مدة من الزمن سارعوا إلى بناء مسجدٍ وأخذوا ينشرون الدعوة...

التعليم: يوجد التعليم الإسلامي الأولي في المساجد على شكل كتاتيب، وهذه غالباً ما تعلّم القرآن الكريم، وبني أكثر من خمسين مدرسة تدرس مناهج الدولة إضافةً إلى التعليم الإسلامي، وتقدم لها الدولة بعض المساعدات. ويعمل المجلس الإسلامي الوطني لبناء تسع مدارس إسلامية عليا في الأجزاء الادارية التسعة، إضافةً إلى مركز لتدريب المعلمين، ومركز للدعوة الإسلامية. ومن المدارس المعروفة.

مدرسة إبراهيم شريف الإسلامية التذكارية في مونروفيا، ومدرسة الاتحاد باهن نيمباكونتي في مونروفيا، ومدرسة فوفونا في مونروفيا أيضاً. ومدرسة الرشاد الإسلامية في بونيهيل، ومدرسة سبيل الفلاح في سان، ومدرسة

زورزور في لوما.

المؤسسات الإسلامية: توجد عدة منظمات إسلامية منها:

١ً - المجلس الإسلامي الليبيري.

٢ً - المؤتمر الإسلامي في منروفيا.

٣ً - الاتحاد الإسلامي في منروفيا.

٤ً - حلف سلافيا الإسلامي.

ثم اتفقت هذه المنظمات فيما بينها عام ١٣٩٤ وشكّلت المجلس الإسلامي الوطني الليبيري.

٥ً - جميعة شباب مسلمي ليبيريا في غبانغا.

٦ً - جمعية الدعوة الإسلامية في كاكاتا.

٧ً - الجمعية الوطنية لمسلمي ليبيريا في منروفيا.

٨ً - ولرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة مركز في منروفيا.

اللغة: يتكلم السكان لغاتٍ متعددةً حسب القبائل التي ينتمون إليها، وأهم هذه اللغات «الكرو» و«الفانتي» و«الماندينغ» لغة الماندي. أما لغة الدولة الرسمية فهي الانكليزية. فالمسلمون يعرفون الانكليزية، ويتحدّث كل منهم لغة قبيلته التي ينتمي إليها، ويحرصون جميعاً على معرفة العربية، والذين يتلقون تعليماً إسلامياً لا بدّ لهم من أن يعرفوا شيئاً من لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

غينيا
سيراليون
ساحل العاج
لوما
غبانغا
يونيهميل
سان
كاكاتا
منروفيا
المقياس
٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٢٨] .

(٢) غــانــا

دولة تشرف على خليج غانة، تبلغ مساحتها ٢٣٧ ألف كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً، تعيش بينهم أقلية مسلمة تُعادل ٣٠٪ من مجموع السكان ٣,٩٠٠,٠٠٠ مسلم، وعاصمة البلاد مدينة « أكرا » التي تقع على الساحل.

السكان: مجموعات من القبائل الزنجية أشهرها « الأشانتي » في الداخل، وتتركّز حول مدينة « كوماسي »، ويكثر الإسلام بين أفرادها. و« الفانتي » على الساحل، والمسلمون بينها قلّة. و« الايوي » في الشرق، وقبائل أخرى تعيش في الشمال أصغر من الأولى منها: « وو » و« دوغامبا » و« مامباروسي » وفي الجنوب قبائل « الموسي » إضافةً إلى مجموعات صغيرة من قبائل « الهاوسا » و« الفولاني »، وبعض الأوربيين على الساحل الذين أكثرهم من الإنكليز، وجالية من بلاد الشام يصل عدد أفرادها إلى ألفي إنسان.

وصول الإسلام: اتجهت جماعات من قبائل الماندي نحو الجنوب، وأسّست إمارةً « جونغا » في أراضي شمال شرقي غانا اليوم، وذلك في نهاية القرن العاشر الهجري، وكانت أعداد كبيرة من المسلمين بين أفراد هذه القبائل، وكانوا يُؤلّفون جزءاً من حاشية مُؤسّس هذه الدولة وهو « جاكابا »، كما أنهم كانوا دعامته في حروبه ضدّ أعدائه، ويقودهم قائد

يُدعى « محمد الأبيض » ، وانقسمت هذه الدولة بعد وفاة مؤسسها بين ولديه ، فاتّخذ كل من هذين الولدين إماماً لنفسه من أبناء محمد الأبيض . ويبدو أن أثر المسلمين كان واضحاً على هذه الدولة إذ كانت كتابتهم باللغـة العـربيـة ، وهذا ما ظهر من بعض الوثائق التاريخية لهذه الدولة .

ثم جاءت جماعة أخرى من قبائل الماندي أيضاً تتحدّث لغة « الدوغامبا » وذلك في منتصف القرن الحادي عشر ، واستقرّت في شمال شرقي دولة غانا اليوم ، وأسّست مدينة « يندي » ، ونشرت الإسلام بين قبائل « الدوغامبا » ، وربما كانت بعض بطون قبائل الهاوسا معها وعاونتها على نشر الإسلام .

وفي بداية القرن الثاني عشر توغل التجار المسلمون من قبائل الهاوسا والبورنو نحو الجنوب للحصول على الكولا ، ونشروا الإسلام بين قبائل « الدوغامبا » في القرن الثالث عشر ، وغدا أكثر أفراد هذه القبائل من المسلمين ، وحرصوا على استقدام الأئمة من المناطق الشمالية . وفي الوقت نفسه أخذ الإسلام طريقه إلى قبائل « المامبروسي » ، وغدت مدينـة « غـامبـاغـا » مركزاً إسلامياً ، وكان لكل قبيلة من قبائل الشمال هذه إمارة خاصةٌ ، إذ كانت إمارة « جونغا » و « الدوغامبا » و « والمامبروسي » و « وو » وكلها في شمال دولة غانا اليوم .

أما وسط غانا فقد وصل إليه الإسلام عن طريق تجار الهاوسا ، والفولاني ، والبورنو ، وانقلبت بعض المدن إلى مراكز تجارية مثل : مدينة « سلاغا » وهذا ما جعل الحياة الاقتصادية تزدهر لدى قبائل الأشانتي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ومع بداية القرن الثالث عشر وصل الإسلام إلى مدينة « كوماسي » .

وانطلق التجار المسلمـون نحو الجنـوب عبر نهر الفـولتـا ، ووصلـوا إلى السـاحـل ، وعملـوا على نشر الدعـوة . وحتى في أيـام الاستعمار جـاء العمال المسلمون من البلدان المجاورة لغانا للعمل في مناجم الذهب واستغلال الموارد

الغذائية، كما جاء تجار الفولاني والهاوسا ونشروا الإسلام في الجنوب بين أفراد قبيلتي «الموسي» و«الكوتوكولي». وهكذا وصل الإسلام إلى كل أرجاء غانا وإن كان في الشمال أكثر منه في الجنوب.

الاستعمار: وصل المستعمرون الانكليز إلى سواحل غانا في أواخر القرن العاشر حوالي عام ٩٧٠ هـ، وبدؤوا يمارسون القرصنة والنخاسة، ويأخذون ما أمكنهم من ثروات البلاد، ويسرقون ما قدروا عليه من أبناء المنطقة، ثمّ حوّلوا الجزء الساحلي إلى مستعمرةٍ. وتقدّم المستعمرون الإنكليز من الساحل نحو الداخل عام ١٢٩١ هـ، وتمكنوا من هزيمة إمارة الاشانتي التي كانت في تلك الآونة أكبر الإمارات الداخلية ولها هيمنة على عددٍ منها، ثم فرضوا عليها الحماية عام ١٣١٤ هـ، وهكذا غدا للإنكليز مستعمرة على الساحل ومحمية في الداخل، ثم ضمّوا القسمين بعضهما إلى بعض عام ١٣١٩ هـ، وأسّسوا منهما مستعمرة ساحل الذهب. وبقي الأمر بيد الانكليز حتى نالت البلاد استقلالها عام ١٣٧٨ هـ.

التعليم: أعطى الاستعمار فرصةً واسعةً للإرساليات التنصيرية كي تشرف على التعليم وتفتح المدارس الخاصة بها وقـدّم لها الإمكـانـات والمسـاعـدات الضخمة، وربما كان هذا أكبر تحدٍّ واجه ويواجه المسلمين هناك إذ تضطر أعداد من المسلمين للانتساب إلى هذه المدارس، وإن كانت تسعى للمحافظـة على شخصيتها ولكن هذا السعي يبقى ضعيفاً أمام المغريات العريضة، كما يضطر آخرون للدخول إلى مشافي الإرساليات وقبول مساعداتها نتيجة المرض والفقر والجهل الذي يعيشه السكان.

أما التعليم الإسلامي فيقوم بالجهود الخاصة، وما هي إلاّ جهود الفقراء المرضى الجهلة!! إنها جهود بسيطة لذا نرى الكتاتيب التابعة للمساجد والتي تنتشر في الشمال والوسط بصورة خاصة. وإن كانت بعض المدارس تأخذ طريقها للظهور والنمو. كما أن هناك بعض بعثات تعليمية من البلدان العربية

كهيئة الدعوة والارشاد والافتاء والبحوث العلمية في السعودية، والأزهر في مصر وذلك من أجل تعليم قواعد الإسلام واللغة العربية وخاصة في معهد النورية في أكرا.

وتعدّ مدينة أكرا العاصمة ومدينة كوماسي في الداخل أشهر المراكز التعليمية بالنسبة للتعليم الإسلامي وتعليم اللغة العربية حيث نجد في أكرا: مدرسة إرشاد إسلام، والمدرسة الثقافية العربية الإسلامية، ومدرسة الرحمانية الإسلامية، ومدرسة الرشاد العربية، ومدرسة النورية، ومدرسة فوزية الإسلامية.

ونجد في مدينة كوماسي: المدرسة الرشادية، والمدرسة الثانوية الإسلامية، ومدرسة المقاصد الإسلامية (الانكليزية ـ العربية)، والمدرسة الانكليزية والعربية الايمان، والمدرسة الانكليزية والعربية الإمامية، والمدرسة الإسلامية الوطنية الغانية للغة العربية والانكليزية.

ونجد مدارس أخرى موزعة في المدن مثل: المدرسة العربية المتحدة في المنطقة الوسطى، ومدرسة العلوم الدينية والإسلامية في تاميل.

واللغة الرسمية هي الانكليزية. ولكل قبيلة لغتها، ويحرص المسلمون على تعلّم العربية، وبذا فهم يجيدون اللغة الانكليزية، ويتحدّثون لغة قبيلتهم، ويعرفون العربية.

المؤسسات الإسلامية: قلنا إن المؤسسات الإسلامية إنما تقوم على الجهود الخاصة بأبناء البلاد رغم الحياة الصعبة التي يحيونها والتحدّيات العنيفة التي تُواجههم، وإذا كانت هناك بعض البعثات من عددٍ من الدول الإسلامية فهي لا تسدّ الحاجة بل ولا تكفي لسدّ ثغرة لأنها على شكل أفرادٍ محدودي العدد، وإذا وجدت بعض المساعدات فهي طفيفة لا تغطي جزءاً من الطلب، وغالباً ما تكون عينية. ومن هذه المؤسسات:

في أكرا : اتحاد الطلبة المسلمين.
البعثة الإسلامية.
رابطة الشبان المسلمين.
المجلس الإسلامي الأعلى بغانا.
مركز الإصلاح والبحث العلمي.
منظمة اتحاد إسلامي.
منظمة الشبان المسلمين.
في كوماسي : جمعية نشر الإسلام.
جمعية النهضة الإسلامية.
حركة الشبان المسلمين.
في تاميل : جمعية الشبان المسلمين.
في مقاطعة برونغ أهافو : البعثة الإسلامية.

وترفع بعض الهيئات الإسلامية نسبة المسلمين إلى ٤٠٪ من مجموع السكان، على حين تنقص الهيئات الاستعمارية ورجال الإرساليات التنصيرية هذه النسبة إلى دون ٢٠٪.

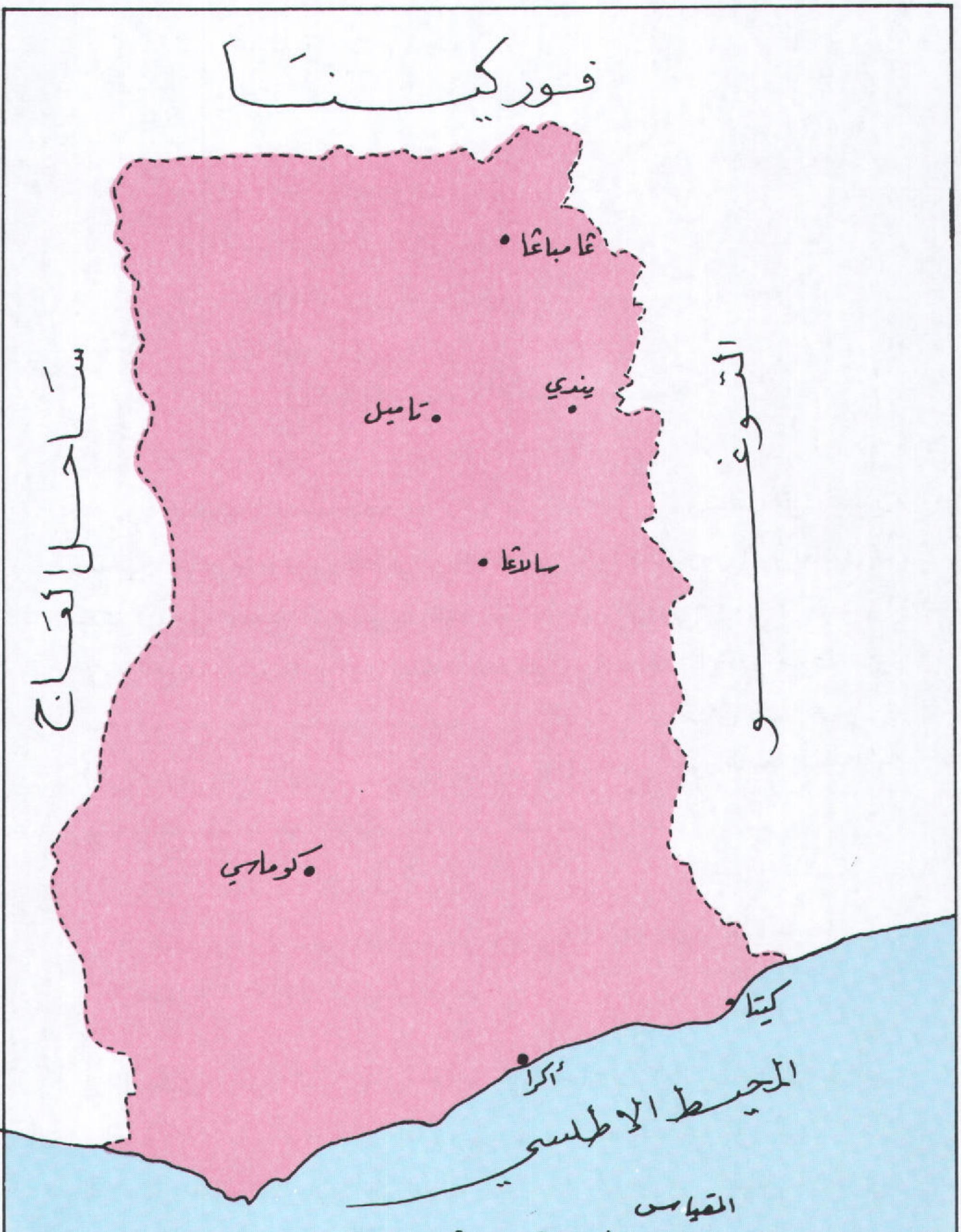
فوركينا
ساحل العاج
غامباغا
يندي
تاميل
سالاغا
كوماسي
كيتا
أكرا
المحيط الاطلسي
المقياس
كيلومتر
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠
٢٥٠

مصور رقم [٢٩].

(٣) غينيا الإستوائية

دولة صغيرة تبلغ مساحتها ٤٢,٠٧٩ كيلومتراً مربعاً، وتتألف من إقليمين رئيسيين هما: ريوموني، ويقع في البر الإفريقي بين (الكاميرون) و(الغابون)، ويشرف على المحيط الأطلسي، وتبلغ مساحة هذا الإقليم ٢٦,٠٤٥ كيلومتراً مربعاً أي ما يُعادل قريباً من مساحة فلسطين، وتتبع هذا الإقليم مجموعة جزر صغيرة، تقع مقابل ساحل الغابون الشمالي. والإقليم الثاني هو جزيرة (فرناندوبو) مع ساوتومي، وبرنسيب وأنوبون وبعض الجزر الصغيرة الملحقة بها، وتبلغ مساحة هذا الإقليم ١٦,٠٣٤ كيلومتراً مربعاً.

ريوموني ٢٦,٠٤٥ كيلومتراً مربعاً.
فرناندوبو وساوتومي وبرنسيب وأنوبون ١٦,٠٣٤ كيلو متراً مربعاً.
المجموع ٤٢,٠٧٩ كيلومتراً مربعاً.

السكان: يعود السكان في أصولهم إلى جماعات البانتو، وأشهر قبائلهم « الفانغ » التي يُقيم أفرادها في إقليم ريوموني، ويزيد عددهم على نصف سكان البلاد، وينتشر الإسلام بين أبنائها أكثر من غيرها من القبائل الأخرى، وتتكلّم لغة البانتو، بينما اللغة الرسمية هي الإسبانية. وهناك قبيلة « بوفي »، وهي القبيلة الثانية في إقليم ريوموني، ومدينة « باتا » هي مركز هذا الإقليم. أما في إقليم « فرناندوبو » وبقية الجزر فتُقيم قبيلة « بوبي » هذا بالإضافة إلى

عددٍ من المولّدين الذي نشأوا من الزواج بين المستعمرين الإسبان وبين أبناء البلاد، ويسكن البلاد عدد من الأوربيين لا يصل عددهم إلى عشرة آلاف أغلبيتهم من الإسبان الذين يصل عددهم إلى سبعة آلاف إسباني. وهاجر إلى المنطقة أيضاً عدد من العمال النيجيريين ويزيد عددهم على الأربعين ألفاً، وأكثرهم من المسلمين.

يبلغ عدد سكان البلاد أكثر من خمسمائة ألف، ويتوزّعون بشكلٍ غير متساوٍ، وإن كانوا يتناسبون تقريباً مع المساحة مع زيادةٍ قليلةٍ في إقليم « فرناندوپو » وبقية الجزر.

ريوموني	٢٢٥,٠٠٠
فرناندوبو	٧٥,٠٠٠
ساوتومي وبرنسيب وأنوبون	٢٠٠,٠٠٠
المجموع	٥٠٠,٠٠٠

وقد اهتمّ المستعمرون الإسبان بجماعة قبيلة « البوبي » في إقليم فرناندوبو وبقية الجزر وخصّهم بالتعليم، وعمل على نشر النصرانية بينهم على المذهب الكاثوليكي، وقد أثمرت جهوده معهم بعض الشيء لذا فقد زاد من عنايته بهم على حين ترك بقية السكان في إقليم ريوموني الذين انتشر الإسلام بينهم يُعانون الجوع، والفقر، والجهل، والمرض، وقدم المساعدات الكافية لأبناء عقيدته وأهمل غيرهم، وكانت إقامة أكثر أبنائه في فرناندوبو، وخاصةً في عاصمة الإقليم « سانتا إيزابيلا » عاصمة البلاد كلها، وتقع على الساحل الشمالي للجزيرة. وخصّص لسكان هذا الإقليم أيضاً مقاعد في الجمعية الوطنية بما يفوق نسبتهم إلى مجموع السكان، ولهم الحقّ في الاعتراض على أية قرارات متعلقة بتوزيع المخصصات المالية. ونتيجة هذا التمييز من السلطة الحاكمة لجماعةٍ دون أخرى أصبح سكان إقليم « فرناندوبو » يشعرون بالتميز الديني والحضاري ويُطالبون بالانفصال عن إقليم « ريوموني ».

وربما ساعدت الأرض في إقليم فرناندوبو أيضاً إلى تطوّر السكان إذ أن الجزيرة بركانية الأصل فتربتها خصبة كثيرة الإنبات، كما أن الارتفاع يُعطي شيئاً من الاعتدال يُساعد على النشاط حيث يصل ارتفاع الجبال فيها إلى ثلاثة آلاف متر.

وصـول الإسلام: وصـل الإسلام إلى البلاد في أواخـر القـرن الخامس الهجري ايام المرابطين في المغرب عندما كانوا يرسلون الدعاة إلى جهات غربي إفريقية كلها، وقد انتقل الدعاة المسلمون إلى غينيا الاستوائية عن طريق الكاميرون والغابون.

وبعد دولة المرابطين كان لدولة البورنو في شمال شرقي نيجيريا دور في نشر الإسلام في هذه الانحاء. ثم جاء الدعاة من نيجيريا أيام نشاط دولة عثمان دونفديو وخلفائه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري. وأخيراً وصل دور التجار والعمال النيجيريون الذين أسهموا إسهاماً لا بأس بـه في نشر الإسلام.

ويُلاحظ أن انتشار الإسلام في إقليم ريوموني أوسع بكثير من انتشاره في إقليم فرناندوبو وذلك للصلة البرية بين ريوموني والمناطق المجاورة له والتي كان يصل إليها الدعاة على حين كانوا لا يهتمون كثيراً بالانتقال إلى الجزيرة ولو كانت قريبة أو ربما كانوا يجدون صعوبةً في ذلك، حتى في أيام المرابطين. فلما وصل الإسلام إلى قبيلة الفانغ التي تنتشر ديارها في جنوبي الكاميرون وشمالي إقليم ريوموني أخذ طريقه بين أفراد القبيلة جميعاً سواء أكانوا في هذا القسم أم في ذاك، هذا بالإضافة إلى جهود الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية التي كثّفت جهودها في جزيـرة فـرنـانـدوبـو حيـث المسلمون قلّة.

تبلغ نسبة المسلمين في غينيا الجديدة ٣٥٪، وإن كانت هذه النسبة

موضع اختلاف إذ أن الهيئات الاستعمارية والإرساليات التنصيرية تخفض هذه النسبة إلى دون العشرين بالمائة على حين نجد أن الهيئات الإسلامية ترفعها حتى تصل الى أكثر من ٥٠٪ أحياناً. ويبدو أن المستعمرين ورجال الإرساليات التنصيرية ينظرون إلى ارتفاع نسبة النصرانية في إقليم فرناندوبو فيبنون حكمهم من خلال رؤيتهم هذه، كما أن الهيئات الإسلامية تنظر إلى نسبة المسلمين في إقليم ريوموني فيعطون حكمهم على ذلك دون النظر إلى جزر ساوتومي وبرنسيب وانوبون التي ترتبط بغينيا الاستوائية والتي لاحظنا أن عدد سكانها مائتا ألف، والتي يقلّ فيها المسلمون والنصارى على حدٍ سواء إذ لا ترتفع نسبة المسلمين في أحسن الأحوال على ٢٥٪ من مجموع السكان وتكون نسبة النصارى أقل من هذا، وتبقى نظرة الهيئات الإسلامية أقرب إلى الصواب لأن عدد سكان إقليم ريوموني يُعادل ثلاثة أمثال سكان إقليم فرناندوبو، فإذا أخذنا سكان هذين الإقليمين فقط تكون نسبة المسلمين ٥٥٪، وهذا ما تُقدّمه الهيئات الإسلامية، غير أننا إذا ضممنا جزر أنوبون وساوتومي وبرنسيب ترجع النسبة إلى ٣٥٪ وهو ما قرّرناه.

وعلى كل يتركّز المسلمون في إقليم ريوموني، ويُشكّلون غالبية سكان هذا الإقليم، وتنتشر المساجد في المدن الكبرى مثل باتا، و« افينايونغ » وأكثر مدن الداخل.

الاستعمار: حطّ الاسبان رحالهم في غينيا الاستوائية عام ١١٩٤، وعرفت بعدها باسم غينيا الإسبانية، وأخذوا في اتباع السياسة الصليبية الاستعمارية، إذ فسحوا المجال لعمل رجال الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية ودعموهم بكل إمكاناتهم وطاقاتهم وكانوا كأنهم هم السلطة الحاكمة، ولما رأوا الإسلام ينتشر في إقليم ريوموني أهملوه، وركّزوا جهدهم على سكان إقليم فرنانـدوبـو حيث سكن عدد منهم على أرضه وقدّموا المساعدات الضخمة للسكان حتى

تنصّر بعضهم وارتبطوا جميعاً بالاستعمار وتحسنت أحوالهم المادية، وتطوّرت أوضاعهم، على حين تخلّف المسلمون وبقوا يعيشون تحت وطأة الفقر، والمرض، والجوع، والجهل.

حصلت غينيا الاستوائية على الحكم الذاتي عام ١٣٨٠ هـ، ثم استقلّت عام ١٣٨٨ هـ واتحدّ إقليماها وعُرفت باسم «غينيا الاستوائية» تمييزاً لها عن بقية الأجزاء التي تحمل هذا الاسم نفسه، ولقربها من خط الاستواء.

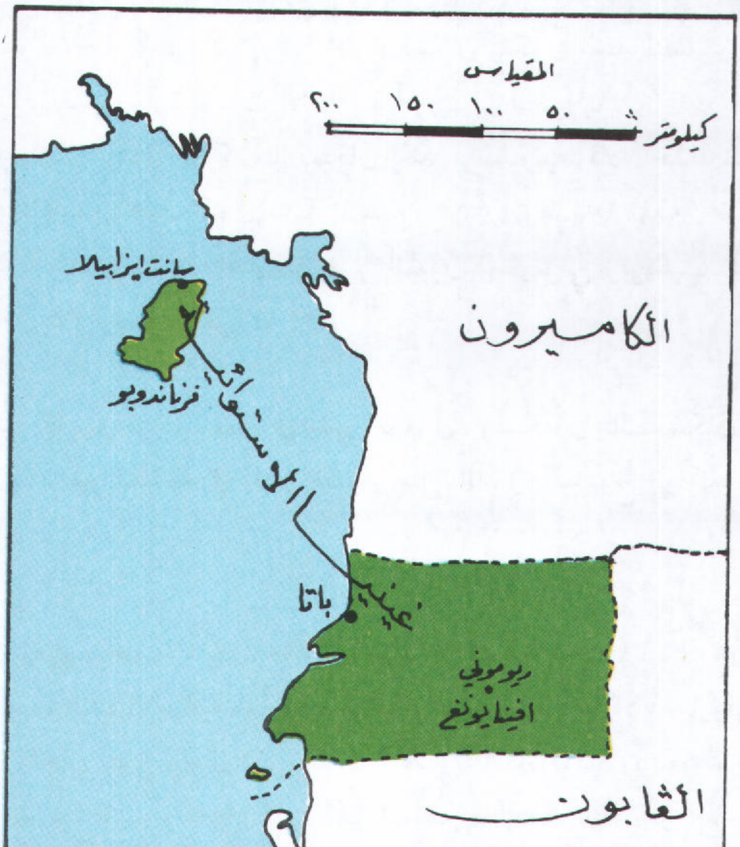

مصور رقم [٣٠].

(٤) الغـــابون

تبلغ مساحتها ٢٦٧,٦٦٧ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها الآن على ١,١٠٠,٠٠٠ إنسان، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٤٥٪ من مجموع السكان، وبذا يكون عدد المسلمين ٤٩٥,٠٠٠ مسلم.

السكان: ينتمي معظم السكان إلى أصول زنجية وحامية فتعيش في الشمال قبائل الفانغ وفي الجنوب تقيم قبائل البانتو، كما يوجد بعض الأقزام الذين لا يزالون يعيشون في الغابات، وهناك قبائل البونغو التي ينتمي إليها رئيس الجمهورية الذي دخل في الإسلام عام ١٣٩٣ هـ، وأسلمت معه أسرته جميعها، وتبعه عدد من المسؤولين وأفراد القبيلة التي ينتمي إليها. ومن بين القبائل (الباوين) و(أدونا) و(البونو) وأغلب أفراد هذه القبائل من المسلمين.

وتقدر نسبة النصارى بـ ٣٥٪ من مجموع السكان ثلاثة أرباعهم من الكاثوليك، والباقي من البروتستانت، وهناك ٢٠٪ من سكان البلاد لا يزالون على الوثنية.

واللغة الرسمية في البلاد هي الفرنسية، ولكل قبيلة لغتها الخاصة.

وأشهر المدن ليبيرفيل، وهي العاصمة وتقع على الساحل، وبورت جانتيل، وتقع على الساحل أيضاً إلى الجنوب من العاصمة، وفرنسيفيل، ومواندا، ولامبارين، وماكوكو، وكوالموتو في الداخل.

وصول الإسلام: وصل الإسلام إلى الغابون في عهد دولة المرابطين الذين امتدّ نفوذهم إلى المنطقة، وقد أرسل أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين عام ٤٩٣ هـ أحد الدعاة وهو (مولاي محمد) الى منطقة الغابون للدعوة إلى الإسلام، واستمرّ وصول الدعاة مدة أيام المرابطين وعهد الموحدين الذين جاءوا بعدهم، وعلى هذه الطريقة تابع ملوك المسلمين في الشمال إرسال الدعاة إلى تلك الجهات.

وأُقيمت زوايا ومساجد على نهر (أوغوي) وقريباً من مصب نهر (الغابون) إلاّ أن ضعف المسلمين فيما بعد قد مكّن أعداءهم الذين أخذت قوتهم في التزايد من أن يُطوّقوا السواحل، ويتمكّنوا من النزول فيها ثم السيطرة عليها، وقد عملوا في تجارة الرقيق فنقلوا من موضع مدينة ليبيرفيل ما يربو على نصف مليون نفس مقيدين بالحديد إلى الأرض الجديدة (أمريكا) بينما تناقص عدد دعاة الإسلام الوافدين إلى الغابون حتى انقطعوا تماماً.

الاستعمار: وصل إلى منطقة الغابون الأوربيون الصليبيون باسم الكشوف الجغرافية في القرن العاشر الهجري، وكان من طلائعهم البرتغالي (دي جوكام) الذي وضع أسس تجارة الرقيق بهذه الجهة، وأسس مركزاً للنخاسة في موضع مدينة (ليبيرفيل)، وشحن الجموع الكثيرة من ذلك المكان إلى الأرض الجديدة. فكان البرتغاليون روّاد الأوربيين لهذه المنطقة وفي هذه السياسة.

ثم جاء الفرنسيون ونزلت جنودهم في هذا الساحل، واشتروا قطعة وأقاموا عليها مستعمرةً عام ١٢٥٥ هـ، وبعد عشر سنوات أقاموا مركزاً لتجارة الرقيق قرب الساحل، ثم بدؤوا يتوغلّون إلى الداخل يتابعون مهمتهم في نشر الحضارة النصرانية ـ على زعمهم ـ باختطاف الناس وتقييدهم وشحنهم في السفن للعمل في أمريكا، متاجرين بهم. ثم ضمّ الفرنسيون الجهات التي

سيطروا عليها وتوغّلوا فيها إلى منطقة الكونغو. ثم فُصلت عنها، وغدت مستعمرةً خاصةً، وأصبحت بعدئذٍ جزءاً من بلادٍ واسعةٍ أطلق عليها اسم « إفريقية الاستوائية الفرنسية »، واستمرّت كذلك حتى حصلت على استقلالها عام ١٣٨٠ هـ.

وفي أيام الاستعمار الفرنسي فُتحت أبواب الغابون للإرساليات التنصيرية الكاثوليكية وحتى البروتستانتية، وأُعطيت كامل الصلاحيات بالتصرّف في معاملة السكان، كما قُدّم لها كل ما تحتاج إليه، واستطاعت أن تكسب جزءاً من وثنيي المنطقة إلى ديانتها بعد عملٍ يزيد على القرن.

ومع عدم وجود أيّة مساعداتٍ إسلاميةٍ، ومع انعدام إمكانات المسلمين في الغابون فإن الإسلام يأخذ طريقه إلى النفوس أكثر من النصرانية بكثير، وسبق أن ذكرنا أن رئيس الجمهورية (ألبرت برنارد بونغو) قد شهر إسلامه عام ١٣٩٣ هـ، واختار لنفسه اسم « عمر » دلالةً على التغيير الكامل والانسلاخ عن الماضي الجاهلي، وتبعه الكثير..

ومع اكتشاف مكامن النفط في الغابون تطوّرت البلاد، وتحسّنت أوضاعها المادية، واتّجه إليها كثير من العمال من نيجيريا، وأسهموا في نهضة البلاد والدعوة إلى الإسلام، وبدأت المساجد تنتشر في القرى والمدن، وتُؤسّس بجانبها المدارس الأولية للتعليم الإسلامي. كما تنشط في بناء المساجد مؤسسة الفلاح العاملة في هذا الحقل في أقاليم إفريقية الغربية كافة، وقد أقامت خمسة مساجد في منطقة الغابون. ومن المعلوم أن الغابون إحدى الدول المصدرة للنفط وهي إحدى أعضاء منظمة « الأوبك ».

ولما كانت لا توجد بعثات من الأمصار الإسلامية ومعرفة لأحوال المسلمين فإن الإرساليات التنصيرية تدّعي وتشيع أن نسبة المسلمين في الغابون ضئيلة جداً لا تكاد تصل إلى ١٪ من مجموع السكان.

ويمكن أن نلخّص أعداد المسلمين في غربي إفريقية بما يأتي:

١ - ليبيريا	١,٠٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٠٪ من مجموع السكان.
٢ - غانا	٣,٩٠٠,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٠٪ من مجموع السكان.
٣ - غينيا الاستوائية	١٧٥,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٣٥٪ من مجموع السكان.
٤ - الغابون	٤٩٥,٠٠٠	ونسبتهم فيها	٤٥٪ من مجموع السكان.
المجموع	٥,٥٧٠,٠٠٠		

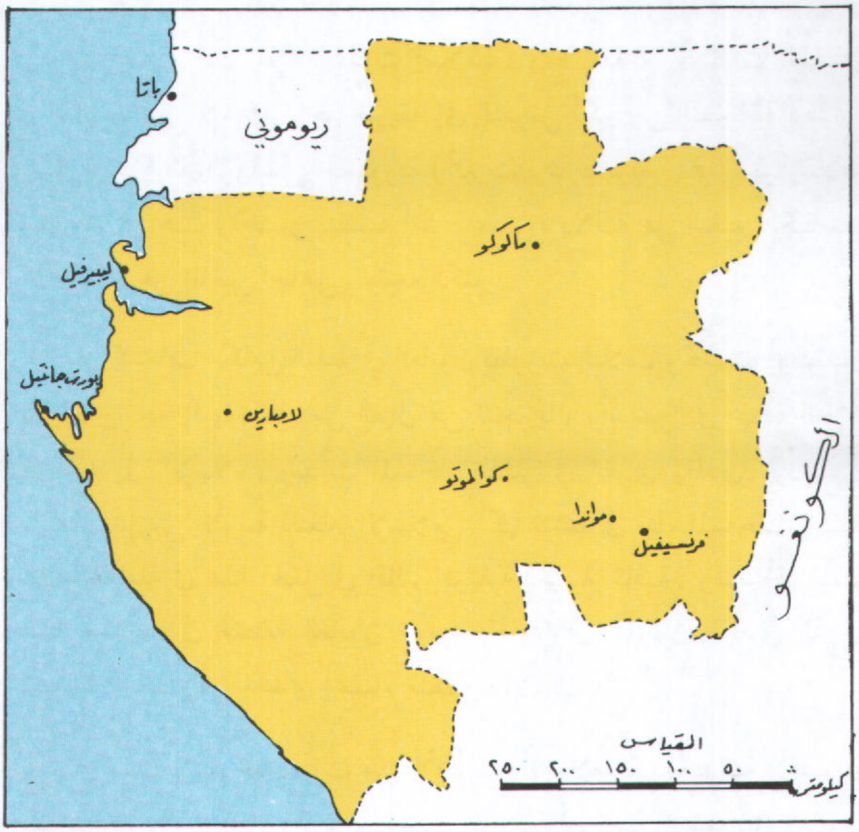

مصور رقم [٣١].

جـ ـ وسط إفريقية

تأخّر انتشار الإسلام وسط القارة الإفريقية بسبب طبيعة تلك البلاد الداخلية التي تكثر فيها الغابة، وترتفع الحرارة، وتزداد الوحوش الضارية، وبسبب قلّة السكان إذ تُعدّ تلك الجهات خاليةً تقريباً ممن يقطنها أو يتنقل في مجاهلها، وإن وجدوا فحياتهم في عزلةٍ تامةٍ داخل الغابات، ووسط تلك المناطق العذراء، وبسبب انصراف المسلمين إلى التجارة، ودعوتهم في المناطق القريبة من السواحل ولدى السكان المتحضرين وبين الناس المجتمعين، وهذا ما تفقده الجهات الداخلية حيث لا يوجد سكان وإن وجدوا فقلّة ولا يمكن الالتقاء بهم لا من أجل التجارة ولا من أجل الدعوة لما فرضوه على أنفسهم من عزلةٍ وتقوقعٍ وخوفٍ من الآخرين وسوء ظن بهم، ولتخلّفٍ اعتادوا عليه في البقاع التي وجدوا فيها، وبسبب ضعف المسلمين عامةً في الأمصار الإسلامية كلها أينما كانت وحيثما وُجدت، وتقوقع دولهم جميعها في أراضٍ محدودةٍ فُرضت عليهم بسبب الضعف أمام الدول النصرانية الناشئة وبسبب الجهل الذي يعيشونه. واستمرّ ذلك حتى خضعت المناطق الشرقية من إفريقية إلى حكم عُمان في العصر الحديث. وقد نقل سعيد بن سلطان عام ١٢٤٨ مقر حكمه من مسقط إلى زنجبار، فارتبط شرقي إفريقية بزنجبار.

وآل حكم شرقي إفريقية إلى ماجد بن سعيد عام ١٢٧٣ الذي رأى أن

تثبيت أركان دولته لا يكون إلا بمدّ نفوذها إلى الداخل إذ أن امتداد الحكم على شريطٍ ساحليٍ ضيقٍ لا يمكنه الوقوف في وجه خصمٍ طويلاً، ولا يستطيع المقاومة بل يصعب الدفاع عنه، وهذا ما حدث عندما جاء الصليبيون البرتغاليون من الجنوب فلم يستطع المسلمون الوقوف في وجههم لا لتفرّقهم فقط وإنما لامتداد أراضيهم الطويل على شكل شريطٍ ضيقٍ ليس له ظهير يسنده أبداً. وسار البرتغاليون على الطريقة نفسها التي سار عليها المسلمون من قبل إذ لم يُحاولوا التعمّق في داخل إفريقية وإعماره وإقامة السكان فيه لذا لم يقووا على الدفاع عن تلك الأراضي التي وقعت في قبضتهم وفرضوا استعمارهم عليها فتخلّوا عنها وإن احتفظوا بأجزاء منها في موزامبيق. لقد عمل ماجد بن سعيد على الدخول في البر الإفريقي فنقل عاصمته من زنجبار إلى دار السلام إشارةً إلى ذلك وعمل على إحياء بعض الأجزاء بمدّ الطرقات إليها، ومع فتح الطرق يدخل الناس، ويستثمرون الأرض، ويتحرّك التجار، وتظهر المراكز التجارية وهكذا بدأ انطلاق المسلمين إلى وسط إفريقية على محاور رئيسية هي الطرق التي فتحت والتي قامت على جوانبها المحطات التجارية، وكانت هذه المحطات مراكز للدعاة ولنشر الإسلام في كل جهة، ولكن لم يطل الأمر حتى جاء المستعمرون الصليبيون، وظهرت طلائعهم على شكل رحّالةٍ مكتشفين حتى لا يتعرضوا للخطر وحسب تقاريرهم التي يقدمونها لدولهم الاستعمارية توضع المخططات، وتُنفّذ طبقاً للقوة الموجودة، إذ ترسل قواتها لتبسط نفوذها، وتطرد المسلمين من المناطق التي وصلوا إليها، فلم يلبث أن هُزم المسلمون وطُردوا، لأنه لم تكن لديهم قوات كبيرة، إذ لم يأتوا مستعمرين، وإن ذهبوا إلاّ أن الإسلام الذي حملوه إلى تلك الجهات قد بقي. وأهم الدول التي توجد فيها أقليات إسلامية في هذا الجزء هي:

(١) بوروندي

جمهورية صغيرة تقع وسط إفريقية الإستوائية في هضبة البحيرات، تبلغ مساحتها ٢٧ ألف كيلو متر مربع، أي ما يعادل مساحة فلسطين، ويُقدّر عدد سكانها بأربعة ملايين، وبذا تكون الكثافة عالية تزيد على ١٦٠ شخص في الكيلو متر المربع الواحد، وتعود زيادة الكثافة إلى اعتدال المناخ بسبب ارتفاع الأرض، وتبلغ نسبة المسلمين ٢٥٪ من مجموع السكان أي أن عدد المسلمين يُقدّر بمليون مسلم.

السكان: تعود أصول السكان إلى العنصر الزنجي ممثلاً في قبائل (الهوتو) التي تؤلف ٦٥٪ من مجموع السكان. أما بقية القبائل فهي مزيج من الزنوج والعناصر الحامية وأشهرها قبائل (التوتسي) وتؤلف ٢٥٪ من مجموع السكان، وهناك قبائل صغيرة وغرباء من الدول الإفريقية الأخرى ويُشكّل الجميع ١٠٪ من السكان.

تصل نسبة المسلمين بين قبائل الهوتو إلى ٢٤٪، وبين قبائل التوتسي إلى ١١٪ بينما ترتفع نسبة المسلمين بين الغرباء في بوروندي إلى ٨٥٪.

يتكلّم السكان اللغة (الكيروندية) أي البوروندية، وتعدّ اللغة الوطنية، وتكتب بأحرفٍ لاتينيةٍ، كما يعرف معظم السكان اللغة السواحلية، وينظرون

إليها على أنها والعربية لغتا المسلمين. أما اللغة الرسمية فهي الفرنسية، وهناك لغات محلية للقبائل، وللغرباء لغاتهم مثل السنغالية، والماندينغ (لغة مالي)، والزائيرية حيث تعيش جماعات من هذه البلاد في بورندي.

وصول الإسلام: بعد طرد البرتغاليين من شرقي إفريقية بدأ المسلمون يدخلون إلى قلب إفريقية، ويقيمون مراكز دائمةً لهم للحكم والتجارة والدعوة، وكان على كل مركزٍ والٍ من قبل سلطان زنجبار سيد السواحل آنذاك، وكان رؤساء القبائل الإفريقية في تلك المنطقة يدفعون الجزية ويُعاهدون الولاة، وكانت الجزية ريالين عن كل شخصٍ، وكان تطبيق الحدود قائماً. ولم يعمد السلطان في تنفيذ سياسته إلاّ على ثلاثمائةٍ من جنده المسلمين بالقسي والرماح جاء بهم من جزيرة (سوقطرى)، وكانت هناك فرقة من الجنود المرتزقة من أهل البلاد تقوم بحراسة الطرق التي مُدّت في المنطقة كافةً، ووصلت إلى غربي البحيرات الكبرى بما في ذلك بورندي، كما كان من وظيفة هذه الفرقة القبض على المجرمين. ومع التوسع في المواصلات كان التقدّم في التجارة نحو الداخل وانتشار اللغة السواحيلية والعربية أحياناً.

وصل المسلمون إلى سواحل بحيرة تانجانيكا ومن تلك السواحل حيث أُقيمت المراكز للدعوة انطلق المسلمون نحو زائير، وبورندي، ورواندا تجاراً ودعاةً، وبدأ الإسلام ينتشر في تلك الجهات منذ ذلك الوقت. إذ كان المسلمون يركبون من شواطىء بحيرة تانجانيكا إلى ميناء (رومنغ) في بورندي اليوم. ونتيجة هذا التوسع والبعد عن شرقي إفريقية وقاعدة الحكم فقد نشأت إمارات محلية، بل تعدّى أمراؤها أحياناً التسمية فأطلقوا على أنفسهم اسم سلطان. وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري أرسل سلطان زنجبار والياً على تلك المناطق هو حامد بن محمد بن جمعة المرجبي، غير أنه وجد أمامه عقبة هي الأمراء المحليون فوقع في خلاف معهم، وانتصر عليهم الواحد بعد الآخر فوحّد المنطقة، وتولّى أمرها من عام ١٣٠٤ حتى عام ١٣٠٧ هـ.

الاستعمار: وصل الرحّالة ستانلي إلى المنطقة والتقى بالأمير حامد الذي قدّم له الكثير من المساعدات ولأمثاله أيضاً من الرحّالة الآخرين، وقد وجد (ستانلي) هذا أن وجود حامد على رأس إمارته سيعرقل كثيراً من المخططات الاستعمارية الصليبية فكتب ذلك إلى ملك البلجيك الذي اتفق مع الانكليز، واحتالوا على حامد ليسافر إلى شرقي إفريقية ففعل وغادر المنطقة عام ١٣١٠ هـ، فضعف أمر المنطقة بغياب أميرها، فأرسل ملك البلجيك حملات ضخمة من المرتزقة لاحتلال وسط إفريقية تحت شعار محاربة الرقيق.

اتفقت الدول الاستعمارية انكلترا، وفرنسا، وألمانيا، وأيطاليا على تقسيم منطقة شرقي إفريقية فيما بينها، وأخذت ألمانيا الجزء الجنوبي من شرقي إفريقية الذي كان يتبع سلطان زنجبار، وقد أطلق على هذا القسم اسم «تانغانيكا». ثم امتدّ النفوذ الألماني نحو الداخل حتى شمل منطقة رواندا وبوروندي غير أن الاستعمار الألماني لم يدم كثيرا بسبب اندلاع نار الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا فيها.

هُزمت ألمانيا في الحرب فانتُزعت منها مستعمراتها، ووضُعت تحت الوصاية، ثم خلفتها دول استعمارية أخرى، أو أن الدول الاستعمارية المنتصرة قد تقاسمت المستعمرات الألمانية فيما بينها، وكانت رواندا وبوروندي من نصيب بلجيكا التي تستعمر أرض زائير المجاورة، وكانت سياسة بلجيكا قاسية جداً ضدّ المسلمين حيث منعت اتصال بعضهم مع بعض، وسلبت منهم أملاكهم لبناء الكنائس وفتح المدارس التي كانت تتبع الإرساليات التنصيرية التي قصر الاستعمار البلجيكي عليها التعليم عام ١٣٤٧ هـ، وكان طبيعياً أن يرفض المسلمون إرسال أبنائهم إلى القسيسين والرهبان ليتولوا تربيتهم وتعليمهم وهذا ما جعل الجهل ينتشر بين أبناء المسلمين وفي صفوفهم.

استقلّت البلاد عام ١٣٨٢ هـ، وكان نظام الحكم فيها ملكياً ثم أصبح جمهورياً عام ١٣٨٦ هـ، وأُعطي المسلمون بعدئذٍ شيئاً من الحرية، واعترف

بالدين الإسلامي رسمياً، وعادت الجمعية الإسلامية إلى نشاطها، وأقامت بعض المساجد في (مورامفيا) و(جيتيقيا) و(نغوزي).

العقيدة: يُمثل المسلمون ٢٥٪ من مجموع السكان.
يُمثل النصارى ٦٥٪ من مجموع السكان.
يُمثل الوثنيون ١٠٪ من مجموع السكان.
المجموع ١٠٠٪

ولكن هذه النسب تختلف بين القبائل الكبيرة.

الهوتو: يُمثّل المسلمون ٢٤٪ بين أفراد هذه القبيلة.
النصارى ٦٤٪ بين أفراد هذه القبيلة.
الوثنيون ١٢٪ بين أفراد هذه القبيلة.

١٠٠٪

التوتسي: يُمثّل المسلمون ١١٪ بين أفراد هذه القبيلة.
يُمثّل النصارى ٣٧٪ بين أفراد هذه القبيلة.
يُمثّل الوثنيون ٥٢٪ بين أفراد هذه القبيلة.

١٠٠٪

الغرباء: يُمثّل المسلمون ٨٥٪ وأكثرهم من مالي، والسنغال، وغينيا، والبلدان العربية. وشبه القارة الهندية.

ويمثل النصارى ١٥٪ وأكثرهم من الأوربيين.

المسلمون: يُؤلّف أهل السنة والجماعة ٨٠٪ من المسلمين، وغالبيتهم على مذهب الإمام الشافعي.
ويؤلف الأباضيون ١٠٪ من المسلمين.
ويؤلف الشيعة ٨ ٪ من المسلمين.

٩٨٪ من المسلمين.

أما الباقي ٢ ٪ منهم من الإسماعيلية، وهم ليسوا من المسلمين، لأن عقيدتهم تتباين والإسلام، وإن كان هذا ينطبق أحياناً على غيرهم لكن لا يُصرّحون بذلك. ويلقى الإسماعيليون دعماً من غير المسلمين.

النصارى: يُشكّل الكاثوليك ٦٢ ٪ من مجموع النصارى.
يُشكّل البروتستانت ٣٨ ٪ من مجموع النصارى.
١٠٠ ٪ من مجموع النصارى.

ويبدو أن أكثرية السكان من الوثنيين، وليسوا من النصارى، كما تشير إلى ذلك الاحصاءات، غير أن سيطرة رجال الإرساليات التنصيرية والنفوذ الأوربي قد أجبر الكثير من الوثنيين على إظهار النصرانية وقبلوا التعميد حيث كانت الوظائف تُعطى للذين يظهرون النصرانية، كما كانت تيسّر لهم الخدمات التعليمية والصحية وتقدّم لهم المساعدات المادية.

المؤسسات الإسلامية: يتجمّع أكثر المسلمين في العاصمة (بوجومبورا) التي يبلغ عدد سكانها أكثر من مائتي ألف، ويسكن المسلمون في أحيائها الكبيرة، ولهم فيها سبعة مساجد، وفيها جماعة من التجار المسلمين القادمين من مالي.

أسّس المسلمون عام ١٣٦٢ هـ الجمعية الإسلامية، وقد رفضت السلطات البلجيكية الاعتراف بها. ومن الهيئات القائمة الآن: الجمعية الإفريقية للمدارس والشؤون الإسلامية (أسمابو).

الجمعية العربية الإسلامية (أمابو).
مؤتمر الدراسات الإسلامية الشرقية.
ومن أشهر المدارس:

١ ـ مدرسة التوحيد الأهلية: وهي ابتدائية للبنين والبنات، وتهتمّ بتعليم القرآن الكريم واللغة العربية.

٢ ـ مدرسة الحسين الأهلية.

٣ ـ مدرسة الإرشاد.

٤ ـ مدرسة التهذيب.

٥ ـ المدرسة السنية.

٦ ـ مدرسة الجمعية العربية الإسلامية. وتسمّى الآن المدرسة الحكومية، وقد تسلّمتها الحكومة بعد خلاف جرى بين أعضاء الجمعية.

ورغم أن هذه المدارس إسلامية إلا أنها لا تجد حاجتها من الأساتذة المسلمين، لذا فهي تأتي بالأساتذة النصارى.

(٢) روانـــدا

تقع شمال بورندي، وتماثلها في المساحة، والأرض، والمُناخ، والسكان. تبلغ مساحتها ٢٦ ألف كيلومتر مربع، ويسكنها أربعة ملايين إنسان.

السكان: يتألف السكان من قبيلتين رئيسيتين وهما: (الهوتو) التي تعود إلى أصل زنجي، و(التوتسي) التي تعود إلى أصلٍ خليطٍ من العناصر الحامية والزنجية، وهما القبيلتان الموجودتان نفسهما في بورندي. وأفراد (الهوتو) قصار نسبياً، يبلغ متوسط طول الفرد ١٥٧ سم، ويمتازون بالشفاه الغليظة، والأنف الأفطس، والرأس الضخم، والصدر العريض، والشعر المفلفل. أما أفراد قبيلة (التوتسي) فيمتازون بطول القامة، ويبلغ طول الفرد وسطياً ١٧٦ سم، ويتصفون بدماثة الخلق والذكاء، وسمرة اللون. غير أن قبيلة (الهوتو) هنا هي القبيلة الحاكمة، وهي الأقل عدداً، على حين أن قبيلة (التوتسي) هي الأكثر عدداً ولكنها هي المحكومة على عكس ما هو في بورندي، وتمكّنت (الهوتو) أن تُجبر الكثير من أفراد قبيلة (التوتسي) على الهجرة من أراضيها والانتقال إلى الدول المجاورة أوغندا، تانزانيا، زائير، بورندي.

وصول الإسلام: وصل الإسلام حديثاً إلى رواندا التي هي جزء من وسط إفريقية، وقد جاء الإسلام عن:

١ ـ طريق التجار العُمانيين وبقية أجزاء جنوبي جزيرة العرب.

٢ ـ طريق المسلمين القادمين للتجارة والعمل من غربي إفريقية وخاصةً من السنغال، وغينيا ومالي.

٣ ـ طريق بورندي.

وقد وقف الاستعمار في وجه الإسلام سواء أكان هذا الوقوف مُتمثلاً برجال المستعمرين أم برجال الإرساليات التنصيرية التي تعمل بدعمٍ من الاستعمار، وقد بقيت رواندا عشرين سنةً تخضع للسيطرة الألمانية، وضعف هذه المدة للسيطرة البلجيكية، وقد لقي المسلمون الاضطهاد من كلا الاستعمارية.

تبلغ نسبة المسلمين في رواندا ٦٪ من مجموع السكان، وبذا يبلغ عددهم ما يقرب من ٢٤٠ ألف مسلم، ويتجمّع أكثرهم في العاصمة (كيغالي)، ولهم حي خاص بهم، ولهم مسجدان بني أحدهما عام ١٣٧٣ هـ، كما يوجد مسجد في مدينة (رواماكانا) التي تبعد ٥٦ كيلومتر عن العاصمة.

ويُعاني المسلمون في رواندا عزلةً عن إخوانهم في الأمصار الإسلامية، وقلّ أن يهتمّ بهم أحد لقلّة عددهم، وتوجد لهم هيئة في العاصمة تُعرف باسم «هيئة المسلمين برواندا».

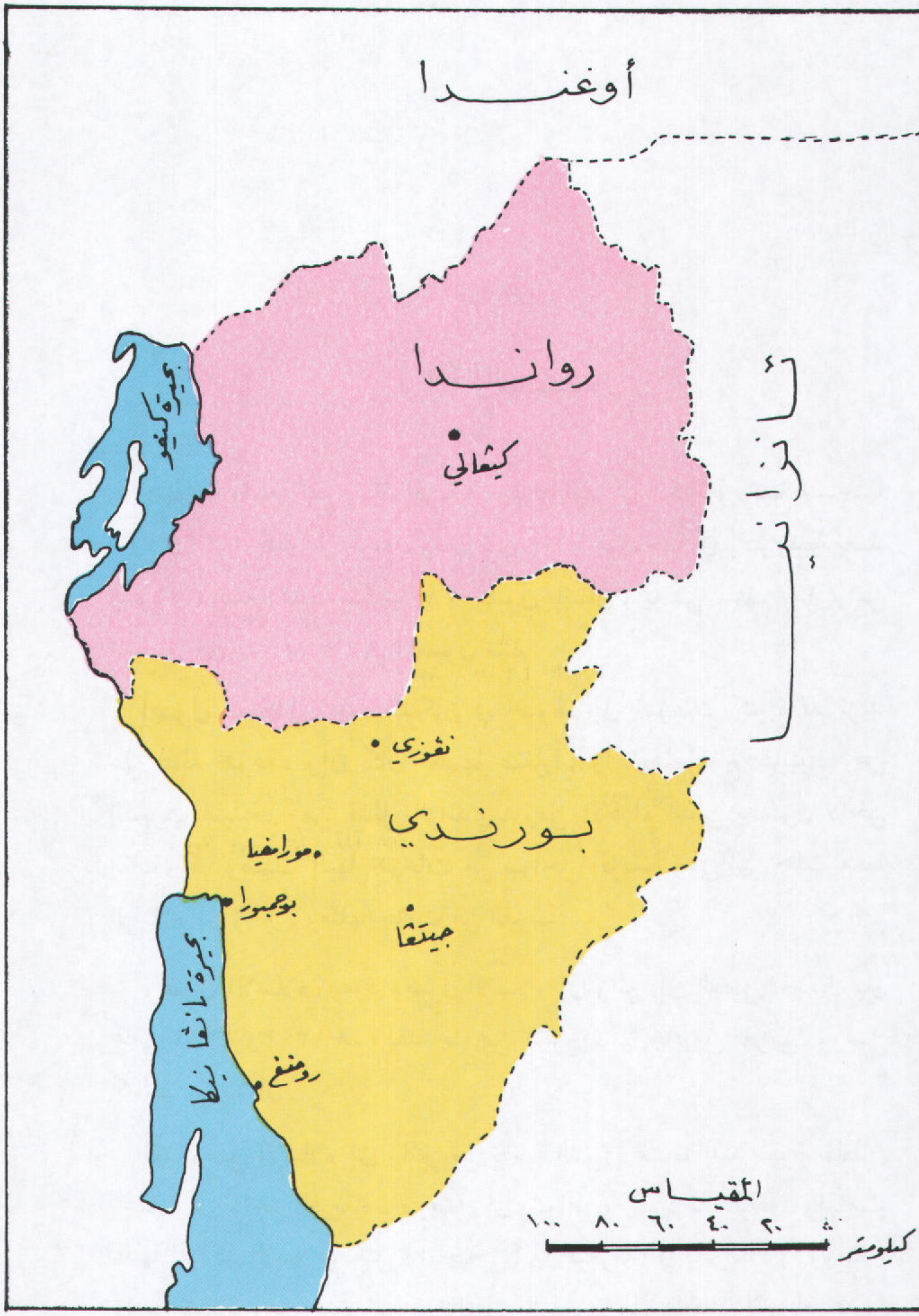

أوغندا
رواندا
كيغالي
بحيرة كيفو
نغوزي
بوروندي
موارمفيا
بوجمبورا
جيتغا
بحيرة تانغانيقا
رومنغ
المقياس
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٢].

(٣) زائير

جمهورية واسعة تقع وسط إفريقية، يجري فيها نهر الكونغو، تبلغ مساحتها ٢,٣٤٤,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتُعدّ ثاني دولة مساحةً في إفريقية بعد السودان، يبلغ عدد سكانها ٢٨ مليون إنسان، يعيش بينهم ١٠٪ من المسلمين أي ما يزيد على ٢,٨ مليون مسلم.

أصول السكان: يعود السكان في اصولهم إلى مجموعاتٍ كثيرةٍ قد تزيد على المائة مجموعة، وإن كان بعضها صغيراً، وأكثرها زنوج البانتو، ومن الشعوب النيلية، ومن قبائل الزاندي، ومن الأقزام الذين يعيشون داخل الغابة، كما وصلت إليها مجموعات من سواحل إفريقية وهي التي حملت معها الإسلام إلى زائير، ومثلها جاءت من الغرب.

وصول الإسلام: يعود وصول الإسلام إلى زائير إلى العصر الحديث بين عامي ١٢٨٢ و١٣٠٣ هـ، لقد جاء من الشرق، كما جاء من الغرب، ووصل كذلك من الشمال.

لقد وصل الإسلام إلى زائير من ناحية الشرق عندما امتدّ نفوذ سلطان زنجبار إلى داخل إفريقية، ووصل إلى شواطىء بحيرة تانغانيكا، وأُقيمت عليها المراكز الإسلامية مثل (أوجيجي) و(كيغوما) في تانزانيا، و(رومنغ) في بورندي، ومن هذه المراكز انتقل المسلمون إلى داخل زائير إذ عبروا

البحيرة من الضفة الشرقية إلى الغربية، ومن هناك توجّهوا نحو الغرب حيث وصلوا إلى مجرى نهر الكونغو فأقاموا المراكز لهم على طول مجراه، ومنها (كاسنغو)، و(بانغوي) و(نيـاقفـه) وتمتـدّ هـذه المراكـز على مجرى نهر الكونغو شمالاً حتى مدينة كيزنغاني (ستانلي فيل).

ووصل الإسلام إلى زائير من جهة الغرب عن طريق التجار من إفريقية الغربية، وخاصةً من نيجيريا، ومالي، والسنغال، وغينيا. وإن كان لهؤلاء التجار أثرهم إلا أنه دون أثر التجار الدعاة القادمين من الشرق، إضافةً إلى أن أثر التجار القادمين من إفريقية الغربية كان مُوزّعاً على حين كان أثر تجار المشرق مجتمعاً نتيجة تأسيس المراكز على نهر الكونغو.

ووصل الإسلام إلى زائير من جهة الشمال عن طريق الحملات المصرية في منطقة بحر الغزال، وإن كان هذا الأثر ضعيفاً إلا أنه لا يمكن إغفاله، وهكذا انتشر الإسلام في المنطقة الشمالية الشرقية من زائير.

حكم الإمارات الإسلامية في شرقي زائير حامد بن محمد بن جمعة المرجبي باسم سلطان زنجبار وشرقي إفريقية، ولكن عندما غادر المنطقة متجهاً إلى سلطانه في المشرق ضعف أمر المسلمين فأرسل ملك البلجيك حملاتٍ قوية استطاعت دخول المنطقة وإخضاع أمرائها حسب توصيات الرحالة الصليبي (ستانلي)، وهكذا خرج شمال شرقـي زائير مـن يـد المسلمين، وأعلـن ملـك البلجيك سيادته عليها وعدّها مستعمرةً له عام ١٣١٢ هـ. وبدأ بعد ذلك اضطهاد المسلمين حيث صدر قرار بحصر التعليم في مراكز البعثات التنصيرية، وهبّ المسلمون يطالبون بحرية التعليم، فاستغلّت الحكومة هذا الأمر، وعدّته تعصباً وإثارةً للشغب وأخـذت في القتـل والتشريـد، وقضـت على الممالـك الصغيرة التي كانت موزعةً في شرقي زائير، وهُدّمت مساجدها ومدارسها وقراها كلها حتى أصبحت أثراً بعد عين، ولا تُعرف مواقعهـا إلا مـن خلال كتابات بعض الرحالة البلجيك الذين زاروا المنطقة بعد تلك النكبات، كما

قُوّضت المراكز التجارية الفخمة التي أقامها كبار التجار مثل (عوني الحرة) و(سعيد بن عبدلي). واستمرّ هذا الاضطهاد حتى استقلال البلاد عام ١٣٨٠ هـ.

وقد زار أحد الرحالة البلجيك المنطقة في تلك الآونة، وهو (فرتيز درليندن)، فنقل لنا شكيب أرسلان بعض ما كتبه هذا الرحالة فيقول: «وإن العنصر العربي لا يزال عظيماً في جهات (كاسونغو) ولكن مجده الماضي قد زال» ويصف بلدة كاسونغو القديمة فيقول: «فهي قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة الشوارع، وهناك عرب صراح يلبسون جبباً بيضاء، ويتلفعون بكوفيات مُطرّزة تطريزاً بديعاً، سيماهم تدلّ على الكرامة والوقار، وحركاتهم وسكناتهم مقرونة بالأدب التام، والكياسة المتناهية، والرصانة الفائقة، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنجباريين العبيد القدماء، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية، بتقليدهم ساداتهم العرب في كسوتهم ورفاهيتهم.

ومرةً دعاني أحد العرب في (كاسونغو) إلى منزله قائلاً: صباح الخير تفضّل. فدخلت إلى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير [١] ومزيناً بالمتاع اللطيف، وأبواب البيت والشبابيك كلها منقوشة، وعلى أحد الأبواب كتابة عربية أظنّها آية من القرآن، فقدم لي العربي طاساً لذيذاً من القهوة، وباعني بعض الحصر، وهو يظهر أنه أسدى إليّ مكرمة.

وترى القرى على الطريق المؤدية من (كاسونغو) القديمة إلى (كاسونغو) [٢] كلها جميلة نظيفة، والمسحة العربية بادية عليها، ولكن مرض النوم فاشٍ في هذه الأنحاء، وقد نقص كثير في عدد الأهالي في جوار (كاسونغو). ولا تجد في جوار (كاسونغو) أكثر من ألف مستعرب من

---

(١) البيت المفروش بالحصير كان في تلك الجهات أمراً عظيماً لأن بيوت الزنوج والبدائيين كانت على درجةٍ من البساطة.

(٢) يقصد إلى (كاسونغو) الجديدة.

الرجال البالغين، ثلاثة أو أربعة عرب صراح وأربعة أو خمسة زنجباريون. وليس بين الأهالي جامعة يخشى من عواقبها، فنقدر أن ننظر إلى المستقبل باطمئنان.

ثم ذكر مدينة «نيان غفه» فنقل عن القائم المقام (غليروب) السويدي قوله في عام ١٨٨٦ م (١٣٠٤ هـ): «إن نيان غفه» هي مقر العرب الأصلي، وهي مقسومة إلى قسمين يفصل بينهما وادٍ عميق تكثر فيه مزارع الأرُز، فإذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طغت المياه على هذا الوادي. وقد ازدادت من عهد (ستانلي) ازدياداً عظيماً، فأهلها اليوم يبلغون عشرة آلاف. وترى على جانب الوادي أفخر المزارع والمغارس وجميع الأشجار المثمرة المجلوبة من إفريقية الشرقية، كذلك أدخل العرب فيها المواشي والحمير الفارهة للركوب».

قال (فرتيزدرليندن): «أما اليوم فقد نزلت (نيان غفه) عن درجتها هذه بسبب ثورة عام ١٨٩٣ م (١٣١١ هـ) وبمرض النوم أيضاً، ولم يبق فيها إلا ألف رجل. وتحوّلت تلك المخارف البديعة التي كانت مصطفةً بها الأشجار على ضفتي النهر إلى شعاب سطا عليها العوسج والشوك، ولم يبق في (نيان غفه) منزل يستحق الذكر سوى منزل (بيانيسنغا) هذا الزعيم العربي الذي بقي أميناً للحكومة البلجيكية، وحظي بمقابلة الملك في قصر بروكسل».

ثم ذكر في الصفحة ٢٧٤ من الكتاب نهراً يتشعّب من نهر الكونغو، ويمتدّ نحو ٣١٥ كيلومتراً بعرض يتفاوت بين ٢٠٠ و٦٠٠ م وقال: «إن على جانبيه القرى، وإن الأهالي هم من العرب والمستعربين، والطراء من أماكن بعيدة». ووصف العرب بالنظافة والاتقان في العمل، وقال: «إن المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يُشكّلون قرىً نظيفةً تُحيط بها مزارع أرز واسعة» ثم أطرى على هؤلاء شدة أنهاكهم بالتجارة.

وفي الصفحة ٢٩٠ ذكر قريةً مستعربةً مدحها بنظافتها وبيّن الفرق العظيم بينها وبين القرى الأخرى التي يسكنها غير المستعربين، وشاهد فيها سوقاً مهمةً تُقام كل يوم من الصبح إلى نحو الظهر في ساحة القرية، ووصف الدكاكين التي فيها، معروضة أمامها أصناف البضائع، وحوانيت الخياطين، وباعة الخزف والخوص وغير ذلك، وقال: إن المستعربين رحّبوا به ترحيباً ودعوه إلى منازلهم فعاجوا [١] على معلم كتّاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن.

وذكر أن سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم ألفي رجل. وقال: إنه سأل المسيو (دومولنستر) المندوب العام في الكونغو [٢] عن عدد المستعربين في الولاية الشرقية من الكونغو فقال له: لا أقدر أن أجزم بشيء، ولكني أظنّ أنهم نحو مائتي ألف. فقال له: أفلا تراهم خطراً دائماً على المستعمرة؟ فأجابه: كلا، لأنهم متفرقون، ولأننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة. ثم قال: «طالما اتّهم العرب والمستعربون تُهماً باطلةً، فلا أُنكر أنه يجب علينا مُراقبتهم وإجبارهم على طاعة القوانين، ولكن مما لا أُنكره أيضاً أنهم عنصر جيد في البلاد لأنهم قوّامون على الزراعة، مدنيون بطبعهم، وعندهم ميل إلى الجنس الأبيض، ونحن كل سنة نشتري منهم في جهات «ستانليفيل» [٣] و«بونتيارفيل» [٤] و«لوكاندو» و«كيروندو» [٥] مقداراً من الرز» [٦].

---

(١) عاجوا: مرّوا.

(٢) الكونغو: زائير اليوم، وكانت من قبل تسمى الكونغو البلجيكي تمييزاً لها عن الكونغو الفرنسي، وذلك أيام الاستعمار.

(٣) ستانليفيل: تعني مدينة ستانلي، وستانلي طليعة الرحالة الصليبيين إلى المنطقة، وتسمى اليوم «كيزانغاني».

(٤) بونتيارفيل: وتسمى اليوم «أوبوندو».

(٥) والمدن هذه كلها على نهر الكونغو الآن.

(٦) حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان.

خرج المستعمرون الصليبيون ولكن بقي التاريخ يُدرّس في المدارس أيام الاستقلال كما كان يُدرّس أيام الاستعمار على الرغم من العلاقات والصلات مع عددٍ من الدول الإسلامية وخاصةً العربية منها إلا أنه لم يهتم أحد بذلك ولم يلتفت إلى ما هو أدنى من ذلك. يصوّر هذا التاريخ المسلمين حكاماً مستعمرين يُرمز إليهم برجلٍ عربي، ويُستثار الرجل الأسود لمطاردة العربي المسلم وملاحقته وإخراجه من البلاد. وقد تعرّضت زائير عقب الاستقلال لفتنٍ وأحداثٍ داميةٍ أصاب المسلمين أذاها. وعندما استقرّت الأوضاع اعترف بالدين الإسلامي رسمياً بين عقائد الشعب.

يسكن المسلمون الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من زائير، كما يعيش عدد منهم في العاصمة (كينشاسا) حيث أقاموا هناك جمعية للمسلمين، والكلية الإسلامية. ومن المدن الأخرى التي يكثر فيها المسلمون نسبياً (كيزانغاني) في الشمال الشرقي، و(كاسونغو) و(كيفو) في الشرق.

وقد أخرجت حكومة زائير من البلاد أهالي مالي، والسنغال، وغينيا، ونيجيريا وكلهم من المسلمين.

اللغة: اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد، وإلى جانبها يوجد عدد من اللغات واللهجات ومنها:

اللينغالا في مدينة كينشاسا وحوض نهر الكونغو الأدنى.

والتشيلوبا في منطقة كاساي.

والسواحيلية في المناطق الشرقية وهضبة شابا.

ويحرص المسلمون على تعلّم اللغة العربية غير أن الإمكانات غير موجودة.

المؤسسات الإسلامية: لا توجد في زائير من المؤسسات الإسلامية سوى المجلس الإسلامي الزائيري الأعلى، والجمعية الخيرية الإسلامية في العاصمة كينشاسا.

وتنتشر المدارس الابتدائية في المناطق الإسلامية، وإن كانت كلها على مستوى متدنٍ مع الأسف، ولا يوجد غير مدرسة إسلامية عليا واحدة وهي الكلية الإسلامية في كينشاسا أيضاً، ولا يجد المشرفون على هذه المدارس الأساتذة الأكفاء، بل لم يجدوا جزءاً مما يحتاجون إليه.

وأمام هذا المستوى الضعيف لدى المسلمين يوجد عشرون ألف مدرسة تنصيرية في المرحلة الابتدائية، وخمسة عشر ألف بعثةٍ تنصيريةٍ من الولايات المتحدة، وبلجيكا، وايطاليا، وفرنسا. ويوجد في مدينة كينشاسا وحدها أربعة عشر ألفاً من القسس والرهبان. والبعثات التنصيرية تشرف على التعليم عامةً، والثانوي والجامعي خاصةً. ونفوذ البعثات التنصيرية كبير لدرجة أن أبناء المسلمين يُعمدّون عقب ولادتهم وإلا فلن يجدوا لهم أماكن في المدارس التنصيرية، ولن يُسجّلوا في السجلات المدنية.

وأمام هذه البعثات التنصيرية ماذا يوجد للأمصار الإسلامية في زائير!!!

وتوجد ترجمة مزيفة لمعاني القرآن الكريم.

ولليهود نشاط كبير في زائير، ويحاولون السيطرة على موارد البلاد وعلى الصحافة وكل وسائل الإعلام، وتغمر بضائعهم الأسواق، ويدرس عدد من أبناء زائير في إسرائيل.

(٤) الكونغـــو

تقع على الضفة اليُمنى لمجرى نهر الكـونغـو الأدنـى، تبلـغ مسـاحتهـا ٣٤٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويقرّب عدد سكانها من ١,٧٥٠,٠٠٠ إنسان. يُعـدّ نهر الكونغو ورافده نهر أوبانغي الحدّ الفاصل بين الكونغو وجارتها زائير. وكانت تُعرف باسم الكونغو الفرنسي تمييزاً لها عن الكونغو البلجيكي التي هي زائير اليوم، ثم أصبحت تنسب إلى عاصمتها فيُقال « كونغوبرازافيل » للسبب نفسه، ويُقال أيضاً « كونغو ليوبولدفيل » التي هي اسم زائير أيضاً، إذ كانت مدينة كينشاسا اليوم تُسمّى ليوبولدفيل، وتعني مدينة ليوبولد، وليوبولد هو ملك البلجيك يومذاك. أما برازا الذي تُنسب إليه عاصمة الكونغو فهو القائد الفرنسي الذي أخضع المنطقة. ولا يفصل بين عاصمتي الجارتين زائير والكونغو سوى نهر الكونغو.

السكان: يرجع أكثر السكان إلى أربع مجموعات قبلية: هي: الكونغولية، والبـاتيكـا، والمابـوشي، والسنغـا. ويُقيم عـدد مـن أهـالي الدول المجـاورة والإفريقية الأخرى مثل: غينيا، ومالي، والسنغال، ونيجيريا والكاميرون، كما يستوطن البلاد أكثر من ثلاثة آلاف من الأوربيين معظمهم من الفرنسيين. وتعدّ اللغة الفرنسية هي الرسمية، ولكل قبيلة لغتها الخاصة بها.

يزدحم السكان نسبياً في القسم الجنوبي، وخاصةً في المدن التي توجد في

هذا الجزء، ومنها برازافيل العاصمة، وميناء بوينت نوار، ويسكن المدن أكثر من ثلث السكان.

تزيد نسبة المسلمين على ٢٠٪ من السكان، وبذا يكون عددهم حوالي ٣٦٠ ألف مسلم، وأكثرهم يسكن المدن الرئيسية وفي مقدمتها العاصمة.

وصول الإسلام: وصل المسلمون إلى الكونغو من طريق الغرب على عكس زائير التي وصل إليها الإسلام من جهة الشرق. فقد وصل إلى الكونغو من جهة الغابون لذا كان انتشاره في الجزء الجنوبي الغربي هذا إضافةً إلى ما يمكن أن يكون قد وصل عن طريق التجارة البحرية.

كما وصل الإسلام إلى الكونغو من الكاميرون أي من الجهة الشمالية الغربية. ومع كل هذا يمكن أن نقول: إن انتشار الإسلام كان محدوداً في الماضي. غير أن وصول تجار الهاووسا، والفولاني والعمال من غربي إفريقية في المرحلة الثانية قد أضاف نشاطاً جديداً للدعوة وانتشار الإسلام، وبذا فقد ارتفعت نسبة المسلمين في العصر الحديث وخاصةً أيام الاستقلال بالنسبة إلى ما كانت عليه سابقاً.

الاستعمار: منذ أن دخل الفرنسيون المنطقة تدفقّت البعثات التنصيرية التي نالت حق الإشراف على التعليم، وحق المساعدة والدعم، وفي الوقت نفسه أعطيت الصلاحيات الواسعة، وكان لها النفوذ، وكانت مهمتها الوقوف في وجه المسلمين ومنعهم من فتح مدارس لتعليم أبنائهم، وأعطتهم الخيار في البقاء دون تعليم أو الانتساب إلى المدارس النصرانية. واستمرّ وضع العقبات في وجه المسلمين حتى نالت البلاد الاستقلال عام ١٣٨٠ هـ.

ثم كانت المهمة الثانية وهي العمل على تنصير السكان، وقد تمكنت أن تكسب عدداً من السكان الذين كانوا لا يزالون على الوثنية، وكان إدخالهم في النصرانية عن طريق الإغراء وتقديم المساعدات لا عن طريق القناعة

والإيمان بالديانة النصرانية، وتبلغ نسبة النصارى في الكونغواليوم ٣٨٪ من مجموع السكان وبذا أصبح السكان يتوزّعون على الشكل التالي:

الوثنيون وعددهم	٧٥٦,٠٠٠	وتبلغ نسبتهم	٤٢٪ من مجموع السكان.
النصارى وعددهم	٦٨٤,٠٠٠	وتبلغ نسبتهم	٣٨٪ من مجموع السكان.
المسلمون وعددهم	٣٦٠,٠٠٠	وتبلغ نسبتهم	٢٠٪ من مجموع السكان.
المجموع	١٧٨٠,٠٠٠		

المؤسسات الإسلامية: تقوم عدة مؤسسات إسلامية في الكونغو لكن ليس لها أية مقومات المؤسسات التي عليها مهمات أساسية، ومسؤولية عن القيام بالواجب الذي وجدت من أجله، وأهمها ما كان في العاصمة.

تقوم في مدينة برازافيل.
الجمعية الإسلامية.
اللجنة الإسلامية.
مكتب رابطة العالم الإسلامي.
مدرسة الهلال.
مدرسة المركز الإسلامي.
المدرسة الإسلامية الكونغولية.
ويوجد خمسة مساجد.

ويمكن أن نلخص أعداد المسلمين في وسط إفريقية كالآتي:

١ - بورندي:	١,٠٠٠,٠٠٠	ونسبتهم ٢٥٪ من مجموع السكان.
٢ - رواندا:	٢٤٠,٠٠٠	ونسبتهم ٦ ٪ من مجموع السكان.
٣ - زائير:	٢,٨٠٠,٠٠٠	ونسبتهم ١٠٪ من مجموع السكان.
٤ - الكونغو:	٣٦٠,٠٠٠	ونسبتهم ٢٠٪ من مجموع السكان.
المجموع	٤,٤٠٠,٠٠٠	

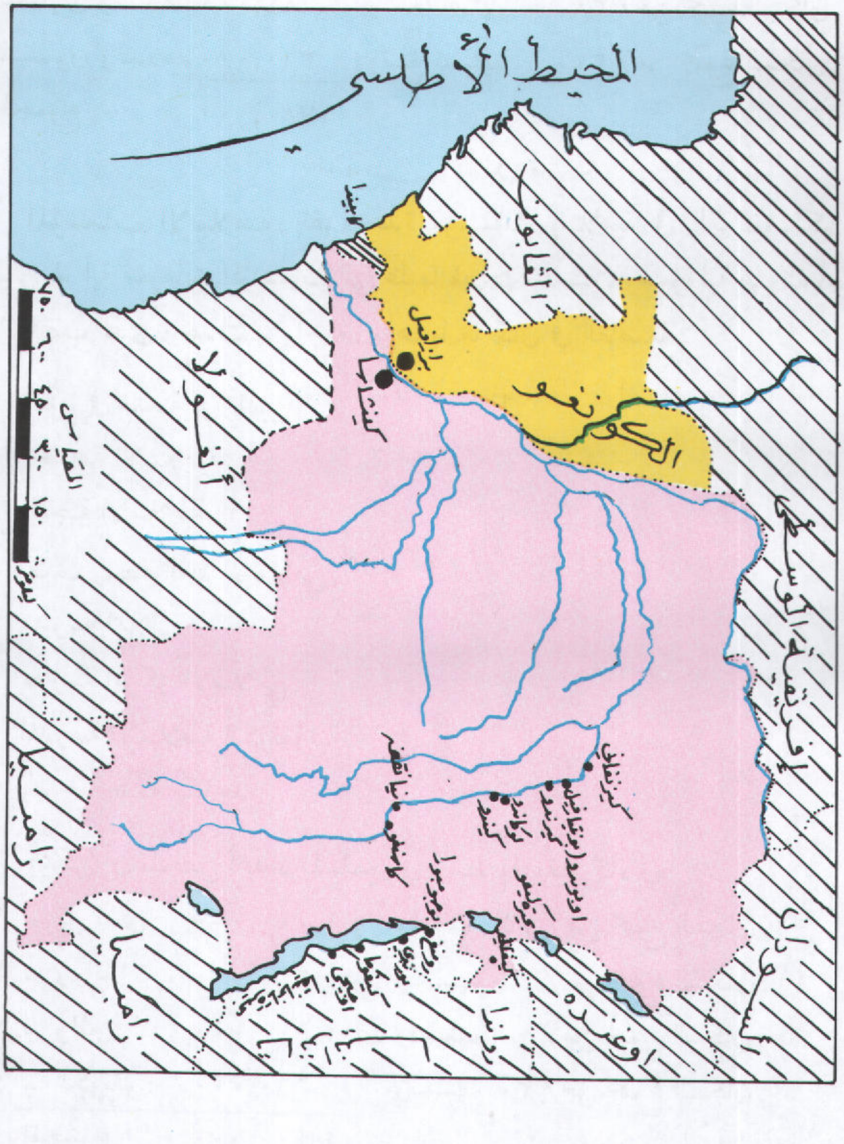

المحيط الأطلسي
الكونغو
اوغنده

د ـ جنوبي إفريقية

يقلّ عدد المسلمين كلما اتجهنا نحو الجنوب في قارة إفريقية سواء أكان ذلك من ناحية الغرب حيث تصبح المناطق صحراوية بسبب تيار (بنغويلاّ) البارد، وحيث توقّف انتشار الإسلام مع نهاية الأجزاء الغربية من القارة وقبيل الانتقال منها إلى الأجزاء الجنوبية الغربية للبعد عن مركز الدعوة الذي غالباً ما كان في غربي القارة أم كان من ناحية الشرق حيث لم تتجاوز سفن المسلمين ميناء (سُفاله) في موزامبيق اليوم إلا قليلاً ويعود ذلك لقلة السكان آنذاك في المناطق الجنوبية، وكانت السفن الإسلامية تحمل الدعاة مع التجّار أو هم أنفسهم في أغلب الأحيان، ولم يكن من مجال كبير للتجارة جنوب (سُفاله) لقلة السكان ـ كما قلنا ـ وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوا ذلك الجزء من القارة، لقد عرفوه في رحلاتٍ قليلةٍ، ولكن لم يمكثوا هناك طويلاً لقلة السكان، لذا فقد كان انتشار الإسلام محدوداً جداً.

واستعمر هذا الجزء من القارة بعد زمن من معرفة الأوربيين له، ثم عُرفت الثروات المعدنية فيه فبدأت الهجرات نحوه بتوجيه من المستعمرين كي يستفيدوا من المهاجرين في استثمار الخيرات والعمل في هذه المستعمرات، وكان بعض المسلمين بين أولئك المهاجرين، وأكثرهم ولا شك من البَلدان التي كانت تخضع لسيطرة المستعمرين الذين يتسلّطون على هذا الجزء من

إفريقية. ولما كان المستعمرون في المرحلة الأخيرة من الإنكليز بالدرجة الأولى أو أن الإنكليز كانوا يسيطرون على أكثر أجزاء هذه المنطقة لذا فإن أكثر المهاجرين كانوا من البلدان التي كانت تخضع للسيطرة الإنكليزية، وأولها شبه القارة الهندية من هنود، وباكستانيين، وبنغاليين، ومن الملايو أيضاً وبعض الأمصار الإسلامية الأخرى. ومع هذا فإن نسبة المسلمين قليلة وأعدادهم ضئيلة، ومن هذه البلدان التي تقع في هذا الجزء الجنوبي من إفريقية، وفيها نسبة ضعيفة من المسلمين لا تتجاوز في أحسن الأحوال ٤٪ باستثناء أنغولا التي تصل النسبة إلى ١٥٪ من مجموع سكانها على بعض الأقوال، ولكنهم في قمة الضياع وذروة النسيان، وهذه الدول هي:

(١) زامبيا

جمهورية واسعة تبلغ مساحتها ٧٥٢,٦١٤ كيلومتراً مربعاً أي ما يعادل مساحة بلاد الشام وبلاد العراق معاً. ويبلغ عدد سكانها ما يزيد على ستة ملايين نسمة.

السكان: يعود السكان في أصولهم إلى زنوج البانتو، ويتوزّعون على عددٍ كثيرٍ من القبائل يزيد عددها على السبعين قبيلة، أشهرها (التونغا) و(النيانغا) و(البمبا) و(اللوزي) وأكثر المسلمين إنما يعودون إلى هذه القبيلة الأخيرة (اللوزي). هذا إضافةً إلى جماعاتٍ آسيويةٍ وفدت للعمل أكثرها من شبه القارة الهندية والملايو وفيهم نسبة من المسلمين، وجماعات إفريقية من دولٍ مجاورةٍ، ولعلّ أكثرها من زائير، ومالاوي.

وصول الإسلام: وصل الإسلام إلى زامبيا عن طريق التجار الذين قدموا من الساحل الإفريقي الشرقي وتوغّلوا في الداخل، وانتشر الإسلام عن طريقهم، وإن كان على نطاقٍ ضيقٍ لقلة السكان يومذاك، ويبدو أن هذا يعود للمراحل الأولى من انتشار الإسلام، وزاد انتقال التجار من الساحل أيام مملكة الزنج التي كانت قاعدتها مدينة كلوة التي تقع اليوم في جنوبي تانزانيا، واستقرّ عدد منهم في المنطقة، ويعود بعضهم إلى أصلٍ عربي.

ومع مجيء الاستعمار الانكليزي هاجرت بعض المجموعات المسلمة من الصومال وكينيا واستقرّت في زامبيا، كما استقدمت السلطات الاستعمارية العمال من شبه القارة الهندية لمدّ الخطوط الحديدية، وكان قسم منهم من المسلمين، فظهر نشاط إسلامي، وجمعت العقيدة بين الجماعات المتعددة من الملايو، والهند، وبلاد العرب، والصومال، وكينيا، والزامبيين، وأحسّت السلطة الاستعمارية بهذا فعملت على الحدّ من نشاط الدعوة الإسلامية.

الاستعمار: أسّس (سيسل رودس) شركة جنوبي إفريقية البريطانية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وقد عقد معاهدةً مع ملك (لونيغولا) عام ١٣٠٦ هـ، وُضعت المنطقة إثرها تحت الحماية البريطانية، ونُسبت المنطقة إليه، فعُرفت باسم روديسيا وتضمّ الشمالية (زامبيا) والجنوبية (زيمبابوي)، وبدأ البريطانيون يُهاجرون إليها، وبعد عام (١٣٠٧ هـ) تنازلت الشركة (شركة جنوبي إفريقية البريطانية) عن حقوقها في المحمية إلى الحكومة الإنكليزية، وأعلنت انكلترا عن قيام مستعمرتين لها هما: روديسيا الشمالية، وروديسيا الجنوبية.

ألفت انكلترا اتحاد وسط إفريقية تحت سيطرتها عام ١٣٧٣ واستمرّ عشر سنوات، واستقلّت بعد ذلك روديسيا الشمالية عام ١٣٨٣ هـ باسم زامبيا نسبة إلى نهر الزامبيزي الذي يجري في أرضها، وبُعداً عن الاسم الاستعماري الذي عُرفت به سابقاً.

المؤسسات الإسلامية: يزيد عدد المسلمين في زامبيا على مائة ألف مسلم، وبذا تكون النسبة أقل من ١,٧٪ من مجموع السكان، وقد انقطع هؤلاء - مع الأسف - عن إخوانهم في بقية الأمصار الإسلامية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرّت على المسلمين وتمرّ بهم الآن، مع العلم أن هناك مجموعة في زامبيا كانت على الإسلام من القديم، وانقطعت عن إخوانها

فنسيت كل شيء عن عقيدتها مع الزمن ونتيجة معيشتها وسط المجتمع الوثني حتى غدت جزءاً منه، ولم نعرف ذلك إلاّ مما بقي لديها من آثار الإسلام من عدم أكل لحم الخنزير، والختان، وعدم شرب الخمر.

وتقوم الآن بعض المؤسسات الإسلامية بجهودٍ محليةٍ، وفيها خير - إن شاء الله - لإخلاصها وصدق نيتها، ومن هذه المؤسسات:

اتحاد المنظمات الإسلامية في لوزاكا.

الجمعية الإسلامية في لوزاكا.

رابطة النساء المسلمات في لوزاكا.

جمعية الشباب المسلم، وأكثر أعضائها من الهنود والباكستانيين، وهي في لوزاكا أيضاً.

المركز الثقافي الإسلامي في لوزاكا.

جمعية ندولا الإسلامية في مدينة ندولا.

ويلاحظ أن أكثر المؤسسات يتجمع في العاصمة، أما المساجد فلا بد لها من أن توجد في أماكن تجمع المسلمين، وبلغ عدد المساجد والمصليات في زامبيا سبعةً وستين بين مصلى ومسجد منها:

١١	في العاصمة لوزاكا	وفي مدينة شنغولا	٣
٦	في مدينة ندولا	وفي مدينة كيتوي	٣
٦	في مدينة لوندازي	وفي مدينة باتاكا	٣
٦	في مدينة شيباتا	وفي كوبر	٥

وتقوم جميعها بجهودٍ محليةٍ، ولذا فإنها بسيطة تنم عن مستوى أصحابها.

اللغة والتعليم: اللغة الرسمية هي اللغة الانكليزية، وتوجد لغات محلية لكل قبيلة وأشهرها (التونغا) و(البمبا) و(نيانغا) و(لوزي).

وأكثر من ٥٠٪ من أبناء المسلمين يتلقّون التعليم في مدارس الحكومة، وبعض المسلمين يرفضون إرسال أبنائهم لمدارس الدولة، وفي الوقت نفسه لا توجد مدارس خاصة لأبناء المسلمين إذ لا توجد سوى بعض الكتاتيب ولا يزيد عددها على ثلاثة كتاتيب لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم ومبادىء الإسلام. ولذا فإن الجهل ينتشر بين صفوف المسلمين إضافةً إلى ما ورثوه منذ أيام الاستعمار حيث كان التعليم تحت إشراف الإرساليات التنصرية، وأهملت السلطات الاستعمارية أبناء المسلمين عن قصد. ومع ذلك فليس هناك من اهتمام من المسلمين في الأمصار الإسلامية بإخوانهم في زامبيا.

(٢) زيمبابوي

جمهورية تبلغ مساحتها ٣٨٩,٣٦١ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ما يزيد على ثمانية ملايين نسمة، ويعيش بينهم ما يزيد على ٥٠ ألف مسلم، وبذا تكون نسبة المسلمين أقل من ١٪ من مجموع السكان.

أصول السكان: ينتمي سكان زيمبابوي إلى زنوج البانتو، وأشهر قبائلهم (الماتبل) و(الماشونا) ومن هذه القبائل (الوارمبا) التي تدّعي أنها تنحدر من أصول عربية، وهناك قبائل (المانيكا)، وتسكن القبائل التي تدّعي النسب العربي اليوم عند أطلال مدينة (زمباوي) التي تقع جنوب مدينة بورت فيكتوريا بخمسة وعشرين كيلومتراً.

ينتمي ٩٤٪ من سكان زيمبابوي إلى أصلٍ إفريقي، وبذا يبلغ عددهم حوالي ٧,٥٤٠,٠٠٠

وحوالي ٥٪ من سكان زيمبابوي من أصل أوروبي، ومن المولدين، ويبلغ عددهم حوالي ٤٠٠,٠٠٠.

وهناك ١٪ من سكان زيمبابوي من أصولٍ آسيوية، ومجموعات ثانية، ويبلغ عددهم حوالي ٦٠,٠٠٠

المجموع ٨,٠٠٠,٠٠٠

وإن هذه النسبة الضعيفة من الأوربيين هي التي كانت تتحكم بشؤون

البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويملكون أفضل الأراضي الزراعية، ويسيطرون على الشركات المستثمرة للمعادن.

وصول الإسلام: وصل الإسلام إلى زيمبابوي عن طريق المناطق الساحلية إذ انطلق التجار منها نحو الداخل، انطلقوا من مدينة (سُفالة) واختلطوا مع السكان فانتشر الإسلام عن هذه الطريق، كما انطلق التجار من مدينة (كلوه) حاضرة مملكة الزنج، واستثمر المسلمون مناجم الذهب هناك.

ويبدو أن الإسلام قد وصل إلى منطقة زيمبابوي مبكراً، فلقد عثر الدكتور (ستانلي تيمبور) على قبرٍ في أراضي زيمبابوي على مقربةٍ من نهر زامبيزي، وقد نُقش عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ هذا قبر سلام بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي العربي ﷺ». وقد استدلّ من ذلك على أن المسلمين قد وصلوا إلى تلك الأصقاع من جنوبي إفريقية، وأنهم استثمروا مناجم الذهب، كما استدل من آثارٍ عربية أخرى كُشفت في تلك البقاع على أن المسلمين قد طالت عمارتهم وإقامتهم لتلك البلاد قبل أن تطرقها طلائع الصليبيين الأوربيين من البرتغاليين.

وقد أقام المسلمون المساجد على طول الطريق التي سلكوها من الساحل إلى الداخل.

الاستعمار: جاء البرتغاليون من جنوب إفريقية بعد أن وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح والتفّوا حول القارة الإفريقية مع مطلع القرن العاشر، وتمكّنوا من السيطرة على سواحل إفريقية الشرقية فقطعوا الصلة بين المسلمين في الأجزاء الشرقية وإخوانهم المسلمين الذين يُقيمون في الداخل، ومع مرور الزمن نسي المسلمون في الداخل أمور دينهم، ولم يعودوا ليعرفوا عنها شيئاً، وخاصةً أن البرتغاليين قد بقوا في سيطرتهم على منطقة موزامبيق، بينما هم قد

طُردوا من الأجزاء الساحلية الشمالية التي هي تانزانيا وكينيا اليوم لذا فقد استمرّ هذا الانقطاع في الصلة بين المسلمين في منطقة زيمبابوي وإخوانهم في بقية جهات العالم.

وبدأ التنافس الاستعماري في السيطرة على المناطق الداخلية من إفريقية الجنوبية وكانت المنافسة على أشدّها بين الانكليز والبرتغاليين. الانكليز الذين يسيطرون على جنوبي إفريقية والبرتغاليون الذين يحتلون منطقة موزامبيق، وكان (سيسل رودس) الانكليزي أكثراً مكراً إذ أسّس شركتين استعماريتين لاستغلال المنطقة الداخلية وذلك عام ١٣٠٦، وبعد عام (١٣٠٧ هـ) عقد معاهدةً مع ملك قبائل (الماتبل) جعلت هذا الملك وقبيلته ومنازلها تحت الحماية البريطانية، ولكن لم يلبث أن تنازل (سيسل رودس) عن الشركتين للحكومة البريطانية التي أعلنت عن قيام مستعمرة روديسيا (زامبيا وزيمبابوي).

ومع السياسة الاستعمارية التي فرضها الأوربيون ضدّ المسلمين فإنهم استقدموا بعض سكان شبه القارة الهندية للعمل في روديسيا وكان في هؤلاء العمال نسبة من المسلمين، أو أن الواقع لم يخف الانكليز من المسلمين في هذا الجزء من إفريقية، إذ لم يجدوا سوى بعض آثار عن المسلمين يتمثّل في بعض التصرّفات مثل ختن أطفالهم، وعدم أكل لحم الخنزير، وعدم أكل لحم مذبوح من قبل غيرهم، ويتزوج بعضهم من بعض لا يتعدّون ذلك... أما عدا هذا فلا يُؤدّون شيئاً من شعائر بل لا يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون، ويعدّهم النصارى في صفوف الوثنيين، وإن كانت بعض أسماء أسرهم تدلّ على أصولهم الإسلامية مثل: البكري، والمصري، والشريفي وغيرها.

ومع تطوّر الإعلام في العصر الحديث، وزيادة الصلة مع العالم الخارجي أحسّ بعض المسلمين بل لم يكونوا مسلمين في واقعهم، وعرفوا ماضيهم فعادوا إلى إسلامهم أو أعلنوا إسلامهم، وقام بهذا مائتا شخص عام ١٣٨١ هـ

وأسموا بلدهم (إسلام أباد) وكان اسمها من قبل (موهيرا)، وفي عام ١٣٩٤ هـ أعلن أربعة عشر بطناً من قبيلة (الوارمبا) إسلامهم، وربما تبع ذلك الباقون من القبيلة، وهذه القبيلة التي أسلمت منها المجموعة السابقة وهي التي تدّعي أنها تنحدر من أصل عربي.

اتبع المستعمرون والقلة البيضاء التي تقيم في زيمبابوي سياسة التفرقة العنصرية فشكّل الأفارقة جبهة تحرير زيمبابوي، وحصلت على التأييد الواسع، فأعلنت انفصالها عن انكلترا واستقلالها عام ١٣٨٥ هـ.

المسلمون في الوقت الحاضر: يتجمّع أكثر المسلمين في الجزء الجنوبي الشرقي حيث تقوم أعمال التعدين، وتكثر الأعمال الزراعية، وقد شكّلوا بجهودهم الخاصة وإمكاناتهم المحلية بعض المؤسسات ومنها:

منظمة الشباب المسلم في مدينة بولاويو، ومجلس الشباب المسلم في جنوبي زيمبابوي، وجمعية الطلبة المسلمين في مدينة (قي قي)، والبعثة الإسلامية، وجماعة التبليغ.

ويبدو أن نجاح الدعوة الإسلامية سيكون واسعاً فيما لو لقي القائمون عليها دعماً ومساعدة سواء أكان ذلك مادياً أم بالدعاة والمربين أم بالمدرسين والموجهين، فإن النقص كبير والحاجة قائمة.

ويوجد في زيمبابوي ثلاثون مسجداً وعشرون مصلى، ولا توجد مدارس إسلامية يتلقّى فيها أبناء المسلمين أمور دينهم وإنما توجد بعض الكتاتيب الملحقة بالمساجد، وقد لا يتوفّر من يقوم على المسجد وإن وُجد فلا يملك الكفاءة المطلوبة، وإمكاناتها ضعيفة جداً تأتي من جمع التبرعات.

(٣) بتسوانا

جمهورية داخلية يزيد عدد سكانها على ٨٥٠ ألف نسمة، وتبلغ مساحتها ٦٠٠,٣٧٢ كيلومتراً مترىعاً، لم يصل إليها الإسلام لوقوعها في الداخل وبُعدها عن السواحل، وقربها من أقصى الجنوب، كما لم يعرفها الأوربيون حتى القرن الثالث عشر الهجري. وبقيت تعيش فيها قبائل من البانتو، وقليل من قبائل البوشمن البدائيين، ويعيش الجميع حياة بسيطة مع صراعٍ بين القبائل.

السكان: يعود معظم السكان إلى أصولٍ إفريقية، وينتمون إلى ثمان قبائل رئيسية من قبائل البانتو أهمها مجموعة (السوتو) ومجموعة (البُتسوانا)، وإلى جانب قبائل البانتو يعيش ما يقرب من عشرين ألفاً من جماعة (البوشمن) ويتناقص عددهم باستمرار، وهم من الجماعات البدائية المعروفة.

وبجانب الأفارقة يعيش ما يقرب من ثلاثين ألفاً من الآسيويين، مع عددٍ من الأوروبيين لا يزيد على الأربعة آلاف، ومعظم السكان يقيم في القسم الشرقي من البلاد.

ولما كانت فقيرةً فإن أكثر السكان يعملون في الرعي، ويغادر بعضهم البلاد من أجل العمل فيتجهون نحو اتحاد جنوبي إفريقية وزيمبابوي. ويعدّ الرعي الثروة الرئيسية.

الاستعمار: انتهز البوير الخلاف القائم بين القبائل البتسوانية، فتقدموا من جنوبي إفريقية لفرض سيطرتهم على المنطقة غير أن الخلاف بين البوير والإنكليز حمى بُتسوانا من الوقوع في أيدي المستعمرين. وفي الوقت نفسه كان البرتغاليون يبذلون جهدهم للسيطرة على بتسوانا ليصلوا بين مستعمرتيهم موزامبيق على ساحل إفريقية الشرقي وأنغولا على ساحلها الغربي.

وعملت انكلترا على فرض حمايتها على بُتسوانا عام ١٣٠٣ هـ، واستمرّت هذه الحماية حتى نالت استقلالها عام ١٣٨٦، وفي العام التالي أعلنت الجمهورية.

المسلمون: لا يزيد عدد المسلمين على ستمائة شخص، وهم من أصلٍ آسيوي يعمل معظمهم بالتجارة، وفي العاصمة (غابرون) مسجد تتبعه مدرسة يتعلم فيها أبناء المسلمين، وكذلك في مدينة (لوباتسي) مسجد وتلحق به مدرسة. ومع قلة هذا العدد فقد عقد في (بُتسوانا) المؤتمر الأول للشباب المسلم في جنوبي إفريقية، وحضرته إحدى عشرة دولة هي: كينيا ـ موزامبيق ـ رينيون ـ ليسوتو ـ مالاوي ـ زامبيا ـ زيمبابوي ـ موريشيوس ـ اتحاد جنوبي إفريقية ـ بتسوانا ـ سوازيلند، وقد نظم من قبل الاتحاد العالمي للشباب المسلم بالرياض بالاشتراك مع الشباب المسلم في اتحاد جنوبي إفريقية، وتمّ عقده في مدينة (غابرون) في عام ١٣٩٧ في منتصف شهر جمادى الآخرة.

(٤) سوازيلند

مملكة صغيرة تبلغ مساحتها ١٧,٣٤٣ كيلومتراً مربعاً، تقع في الداخل، وإن كانت قريبةً من مياه المحيط الهندي، تُحيط بها أراضي اتحاد جنوبي إفريقية من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة وهي الشمالية الشرقية فتحدّها دولة موزامبيق، وهي من دول رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

يسكنها ما يزيد على النصف مليون إنسان قليلاً، بينهم ما يقرب من ثمانية آلاف أوربي. إضافة إلى عددٍ ينتمون إلى أصولٍ آسيوية. ويعيش بينهم أيضاً ما يقرب من عشرين ألف مسلم، وبذا تكون نسبة المسلمين ٤٪ من مجموع السكان، وأغلبهم من العناصر الآسيوية.

يرجع السكان في أصولهم إلى زنوج البانتو، وتُعدّ قبائل (سوازي) أكبر المجموعات القبلية في البلاد، وعاصمتهم مدينة (مبابان).

(٥) لـــيسوتو

مملكة صغيرة تقع وسط دولة اتحاد جنـوبي إفـريقيـة، تبلـغ مسـاحتهـا ٣٠,٣٥٥ كيلومتراً مـربعـاً، وهـي مـن دول رابطـة الشعـوب البريطـانيـة (الكومنولث).

يعود سكانها إلى جماعات زنوج البانتو، وتُعدّ جماعة (ليسوتو) أكبر الجماعات التي تعيش في هذه الدولة لذا فقد أخذت اسمها. ويزيد عدد السكان على المليون والربع يعيش بينهم عدد من الأوربيين لا يتجاوزون الألفين، كما هاجر إلى المنطقة بعض الآسيويين وأكثرهم يرجع إلى سكان شبه القارة الهندية.

ويُقدّر عدد المسلمين في مملكة (ليسوتو) بخمسة وعشرين ألفاً أي أن نسبتهم حوالي ٢٪ من مجموع السكان، وأكثر المسلمين في هذه المملكة من العناصر الآسيوية.

ومدينة (مازيرو) هي عاصمة البلاد.

(٦) أنغــولا

دولة شيوعية واسعة المساحة تزيـد على ١,٢٤٦,٧٠٠ كيلـومتر مـربـع، سيطر عليها البرتغاليون أثناء التفافهم حول القارة الإفريقية في محاولة تطويق المسلمين، وذلك في مطلع القرن العاشر، واستمرّت في أيديهم بعد أن توغّلوا في الداخل حتى نهاية القرن الرابع عشر. وحرصت البرتغال على أن تصـل بين مستعمرتها أنغولا وبين مستعمرتها موزامبيق على ساحل إفريقية الشرقي غير أن انكلترا حالت دون ذلك إذ سيطرت على المناطق الداخلية وكانت هي الثانية تُريد أن تصل بين مستعمراتها في جنوب القارة ومستعمراتها في الشمال. وتمكّنت انكلترا من السيطرة على الأجـزاء الداخليـة، وبقيـت المستعمـرات البرتغالية مفصولةً بعضها عن بعض، على حين اتصلت المستعمرات الانكليزية في نهاية الأمر أو بعد الحرب العالمية الأولى عندما هُزمت المانيا وخرجت من تانغانيكا وحلّت محلّها انكلترا.

واكتشفت الثروات المعدنية في جنوبي زائير، وكان أقرب طريق لها إلى البحر عن طريق انغـولا، فـوُصـل جنـوبي زائير بخطٍ حـديـدي إلى مينـاء (لوبيتو) الانغولي، وأفادت أنغولا من هذه الطريق.

وحاولت البرتغال التمسُّك بمستعمراتها ما وسعها ذلك، وكانت أكثر دول إفريقية قد نالت استقلالها فقامت المقاومة في وجه المستعمرين البرتغاليين،

ودعم الشيوعيون أحد الأجنحة وتمكّنوا من السيطرة على السلطة بعد انسحاب البرتغاليين، وهكذا غدت أنغولا دولةً شيوعيةً.

أما وضع المسلمين فربما كان أسوأ من أي وضعٍ آخر، فقد جاء البرتغاليون في وقت مُبكرٍ، وأنزلوا غضبهم على المسلمين يدفعهم إلى ذلك الحقد الصليبي الذي ورثوه عقيدةً وشُحنوا به في الأندلس أثناء القتال الذي دار بينهم وبين المسلمين، وأثناء قيام محاكم التفتيش المشهورة، وفي الوقت نفسه كان المسلمون على درجةٍ من الضعف لم تُمكّنهم من معرفة شيء عن إخوانهم الذين ابتلُوا بالاستعمار الصليبي البرتغالي، وخضعوا لإشراف الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية، واستمرّ الضغط عليهم عدة قرون، فلما بدأ المسلمون يتيقّظون كان إخوانهم في أنغولا قد ابتُلوا بالاستعمار الشيوعي الملحد الذي يحمل أيضاً حقداً صليبياً متوارثاً، فأُقفل الباب أمام المسلمين نسبياً، أو غدا حجةً لنا ـ معشر الضعفاء اللاهين ـ لذا فوضع المسلمين غامض أكثر من غيرهم، وهم يعيشون في بحرٍ من الضياع.

لذا لا يعرف المسلمون في أمصارهم عن وضع إخوانهم شيئاً، فبينما نجد كتاب (تقويم البلدان الإسلامية) الذي أصدره المؤتمر الإسلامي في كراتشي عام ١٣٨٤ هـ يجعل نسبة المسلمين ٢٥٪ نرى بعض الكتب لا تصل بنسبتهم إلى ١٪، وربما كان الأمر مبالغاً فيه من الناحيتين وأعتقد أن نسبة الذين ينتمون أو كانوا ينتمون تصل إلى ١٥٪ من مجموع السكان، وبذا يكون عددهم ما يزيد على المليون قليلاً، إذ يزيد عدد سكان أنغولا على سبعة ملايين نسمة. ولما كنا لا نعرف شيئاً عنهم فإننا بالتالي لا نعلم إن كانت لهم مؤسسات خاصة بهم أم لا، ونحن مقصرون في كل ذلك.

(٧) نـاميبـيا

بلاد واسعة المساحة أكثرها صحـراويـة لمرور تيـار بنغـويلا البـارد على سواحلها الشمالية، ولوقوعها في المنطقة المدارية في غربي القارات إذ تُشرف على سواحد المحيط الأطلسي من ناحية الغرب.

تبلغ مساحتها ٨٢٤,٢٩٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على نصف مليون، يعيش بينهم عدد قليل من المسلمين لا يتجاوز ٢,٥٠٠ مسلم كثيراً، وبذا تكون نسبتهم حوالي ٠,٥ ٪ من مجموع السكان.

خضعت المنطقة للسيطرة الألمانية مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري. فلما هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أجبرت على التخلّي عن مستعمراتها التي وضعت تحت إشراف عصبة الأمم، والتي قـامـت بـدورهـا بتكليـف دولٍ بالوصاية على هذه المستعمرات، وكانت قد كلّفت جنوبي إفريقية بإدارة ناميبيا غير أن جنوبي إفريقية قد فـرضـت سيطـرتها، وطبّقـت سيـاستهـا العنصرية على ناميبيا ولا يزال الأمر قائماً رغم الدعايات التي تصدر بين الآونة والأخرى عن مقاومة الأمم المتحدة لهذه السيطرة، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هناك تأييداً خفياً من بعض الدول الكبرى لبقاء هذه السيطرة واستمرار هذه السياسة. ولذا فالمسلمون ضائعون بين المختلفين وليس لهم من دعم، وإخوانهم غيّهم بين الشرق والغرب، وبين الجهل واللهو.

وعاصمة ناميبيا مدينة (وندهوك) الداخلية التي لم تتفتح على الحضارة بعد لما يُعاني أهلها البسطاء.

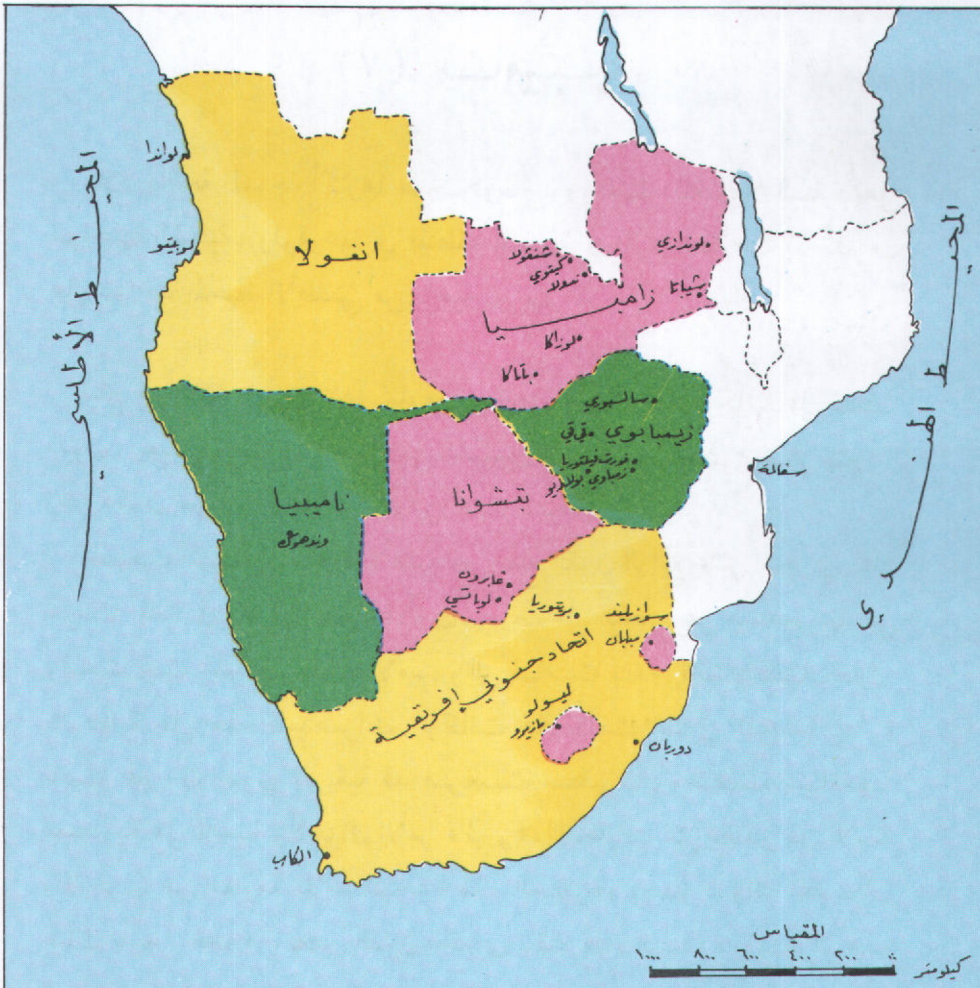

مصور رقم [٣٤].

(٨) اتحاد جنوبي افريقية

وصل البرتغاليـون إلى رأس الرجـاء الصـالـح في أقصى جنـوبي القـارة الإفريقية عام ٩٠٣ هـ، وهم في طريقهم للالتفاف حول بلاد المسلمين بعـد أن تمكّنوا من طردهم من الأندلس قبل خمس سنوات. وعندما ضعف المسلمـون، وأخذ الأوربيون بلادهم بدأت المنافسة بين دول أوربا حول مناطق النفوذ والسيطرة، وأصبح رأس الرجاء الصالح ضمن منـاطـق النفـوذ الهولنـدي. وغدت المنطقة عام ١٠٩٢ هـ مكاناً رسمياً للسجناء السيـاسيين ذوي المكـانـة الخاصة، وخاصة الأندونيسيين منهم، والذين كانت بلادهم آنذاك ضمن دائرة النفوذ الهولندي.

كان الشيخ يوسف من مدينة (ماكـاسّـار) الواقعـة في جنـوبي جـزيـرة (سيلبيس) في اندونيسيا وشقيق سلطان (بانتام) الذي خلعه الهولنديون من ملكه فقاد أخوه الشيخ يوسف المقاومة في بلاده ضدّ المستعمرين الهولنديين، ولم تستطع هولندا القضاء على هذه المقاومة إلا بعد أن أقنعت الشيخ يوسف بالاستسلام مقابل إصدار العفو العام عن الذين اشتركوا معه في القتال جميعهم وذلك عام ١٠٩٥ هـ، إلا أن المستعمرين ـ كعادتهم ـ لم يفوا بالتزاماتهم، إذ قبضوا على الشيخ يوسف نفسه وألقوه في السجن، ثم نقلوه إلى رأس الرجاء الصالح عام ١١٠٥ هـ، ومعه تسعة وأربعون من أنصاره، فكانت هذه

هي المجموعة الإسلامية الأولى التي حلّت في جنوبي إفريقية.

ووصل بعد ثلاثة أعوام (١١٠٨ هـ) أيضاً (رجاح تامبورا) سجيناً، وكان قد اتهم بإشعال الثورة في أندونيسيا ضدّ الهولنديين. وإن السبب الذي جعل الهولنديين يتخذون هذه البقعة سجناً سياسياً هو قلّة السكان بشكلٍ عام وعدم وجود مسلمين هناك الأمر الذي يجعل تأثير السجناء المسلمين محدوداً على السكان، وليس هناك من خوف على قيام حركات تأييد وتضامن أو دعم.

ثم جاء إلى المنطقة الإمام عبدالله قاضي عبدالسلام للسبب نفسه، وقد وضع أثناء سجنه كتاباً عن التشريع الإسلامي عام ١١٩٥ هـ باللغة العربية وبلغة الملايو، ولا يزال الكتاب موجوداً هناك ضمن المخطوطات الإسلامية في مكتبة (عرفان رقيب)، كما كتب هذا الإمام عدة نسخ من كتاب الله، وفي أيامه أصبح عدد الدعاة يزيد على المائة في منطقة جنوبي إفريقية، واتخذوا من سجنهم في بيوتهم أمكنة لنشر الدعوة، كما أشادوا مراكز أخرى على الرغم مما كانوا يتعرّضون له من البلاء والمراقبة الشديدة والمضايقة والعذاب الذي يودي بحياة بعضهم أحياناً.

انتهى حكم الهولنديين لرأس الرجاء الصالح، وجاء بعدهم الإنكليز عام ١٢٢١ هـ بعد حروب نابليون، وأصبحت المنطقة الداخلية مجالاً للتوسّع للمستوطنين الهولنديين والانكليز على حدٍ سواء، وتغلّبت القوات الإنكليزية على الهولنديين، وقامت حرب البوير من ١٣١٧ حتى ١٣٢٠ هـ خضع إثرها الإفريقيون للقوات الإنكليزية.

صحا السكان بعد حرب البوير، فأعطت انكلترا جنوبي إفريقية الحكم الذاتي عام ١٣٢٨ هـ، فأصبح الإفريقيون أحراراً، وشكّلوا حكومةً ذاتية، وكانت بعد الحرب العالمية الثانية ضمن دول رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، واستقدم الانكليز أثناء سيطرتهم على المنطقة العمال من الهند التي كانت ضمن مناطق نفوذهم، ولعل أكثر هؤلاء الهنود كان من ساحل

الهند الغربي (ماليبار).

جرت الانتخابات العامة في جنوبي إفـريقيـة عـام ١٣٦٧ هـ، وسـارت الحكومة بعدهـا في سيـاسـة التطـوّر المنفصـل للمجتمعـات العنصريـة التي كانت تهدف إلى فكرة سياسة البيض الدائمة على ثلثي المنطقة، أما الثلث الباقي فيقسم إلى عشر مستوطنـات للسـود بـأشكـالها الغـامضـة للاستقلال المنفصل، وانسحبت حكومة جنوبي إفريقية من رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) عام ١٣٨١ هـ بسبب سياستها العنصرية الخاصة بها.

تبلغ مساحة أراضي اتحاد جنوبي إفريقية ١,٢٢١,٠٣٧ كيلومتراً مربعاً فهي من الدول الإفريقية ذات المساحة الكبيرة، وتتألف من أربع مقاطعات هي:

١ ـ ولاية الكاب: في الجزء الجنوبي الغربي وتشرف على ساحل المحيط الأطلسي من جهة الغرب وساحل المحيط الهندي من جهة الجنوب، وقاعدتها مدينة الكاب (الرأس)، وهي أكبر المقاطعات.

٢ ـ ولاية ناتال: على ساحل المحيط الهندي أي من جهة الشرق وتعد مدينة (دوربان) قاعدتها، وهي أشهر الموانىء على الساحل الشرقي. وهي أصغر المقاطعات، وتجاور مملكتي (ليسوتو) و (سوازيلند).

٣ ـ ولاية الترانسفال: وهي منطقة داخلية، ولكنهـا أكثر المقـاطعـات سكاناً.

٤ ـ ولاية الأوارانج: وهي منطقة داخلية، وتجاور مملكة (ليسوتو).

وللدولة عاصمتان، عاصمة تشريعية هي (الكاب)، وعاصمة إدارية وهي (بريتوريا).

السكان: يبلغ عدد سكان اتحاد جنوبي إفريقية ما يزيد على ثمانية

وعشرين مليوناً، ويُصنّفون إلى مجموعات هي:

أ ـ **الإفريقيون:** ويزيد عددهم على ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ وينتمي معظمهم إلى زنوج البانتو، ومن أشهر مجموعاتهم (الزولو) و (النغوني) و (السوازي) و (السوتو) و (الفندا) و (التسونغا) ومن مجموعة (التسونغا) (الرنغا) و (التسوا)، وربما كان شعب الزولو أقوى وأكبر هذه المجموعات، هذا إضافة إلى (الهوتنتوت).

ب ـ **الملوّنون:** ويقرب عددهم من ثلاثة ملايين، وقد نشؤوا من تزاوج طلائع الأوربيين مع شعب الهوتنتوت.

جـ ـ **الآسيويون:** ويقرب عددهم من المليون، ومعظمهم من شبه القارة الهندية، ثم من الملايو، وأندونيسيا، وأغلبية الهنود من الهندوس، ويعيش ٥٠٪ منهم في إقليم ناتال على الساحل الشرقي.

وتعدّ هذه المجموعات الثلاث مجموعةً واحدةً وتُعرف بالافريقانز، ولكل مجموعةٍ لغتها الخاصة بها، بل لكل قبيلة من الإفريقيين لغتها.

د ـ **البيض:** ويزيد عددهم على أربعة ملايين ونصف المليون، وهم من أصولٍ هولنديةٍ، وإنكليزيةٍ، وألمانيةٍ، وفرنسيةٍ، ويتكلّمون لغةً خاصةً مشتقةً من الهولندية وممزوجة بالألمانية والفرنسية. وهذه المجموعة هي المُتحكّمة بشؤون البلاد والمهيمنة على السكان وتتبع سياسة التفرقة العنصرية.

تتبع الدولة سياسة التطور المنفصل الذي يقوم على التمييز العنصري، وتقسم البلاد إلى مناطق ذات أجناس، تعيش كل مجموعةٍ منها في عزلةٍ اجتماعيةٍ، وقد قُسّمت الأرض إلى:

٨٧٪ من مساحة الأرض نصيب البيض، وعرفت باسم (مناطق البيض).

١٣٪ من مساحة الأرض نصيب السود على اختلاف مجموعاتهم، وقد

جزئت إلى ثمان مستوطنات.

ويُفترض أن تحصل على استقلالها الذاتي في المستقبل، وقسّمت كل مدينةٍ بل وكل قريةٍ إلى أجزاء فرعية وإلى مناطق منفصلة احتفظ بها بشكلٍ عامٍ لتكون من أحد أقسام المجتمع الأربعة، وتعدّ جريمة إذا قام عضو من مجموعةٍ في منطقة مجموعةٍ أخرى.

المسلمون: بدأ وصول المسلمين إلى جنوبي إفريقية عام ١٠٦٢ هـ ويقرب عددهم اليوم من نصف مليون مسلم أي يُشكّلون ٢٪ من مجموع السكان، ويعود أكثرهم إلى مناطق بعيدة عن جنوبي إفريقية، فقد جاؤوا من:

١ ـ سيلان.

٢ ـ اندونيسيا.

٣ ـ البنغال.

٤ ـ الهند: وخاصة من الساحل الغربي ماليبار.

أما سبب مجيئهم فيمكن أن نُرجعه إلى أربعة أسباب:

أ ـ الجنود: وأكثرهم من جزيرة سيلان (سيريلانكا) اليوم، وكانوا في خدمة شركة الهند الهولندية الشرقية.

ب ـ المنفيون السياسيون: وكان أغلبهم من أندونيسيا.

جـ ـ العمال: وهم الذين جاءوا من الهند أيام استعمار الانكليز لها.

د ـ رجال الأعمال: وهم الذين قدموا إلى المنطقة للتجارة والاستثمار.

ولا شك فإن المسلمين كانوا على درجة من الضعف، ومن الجهل، وعدم المعرفة بحيث لا يستطيعون أن يعرفوا أبعاد الخدمة التي يُؤدّونها للمستعمرين مهما تضاءلت أهميتها في نظرهم.

ويجب أن نُضيف المسلمين من أهل البلاد الأصليين، إذ اتجهت بعض جماعات من البانتو إلى الإسلام بسبب العزلة التي فرضت عليهم والتفرقة

العنصرية التي تمارسها عليهم الجماعة البيضاء، وهي من أتباع النصرانية.

وينتمي المسلمون إلى الجماعات كلها وحتى البيضاء منها، كما يتوزّعون في الأقاليم الأربعة التي تتألف منها الدولة. وإذا كانت الإحصاءات قليلة إلاّ أنّه لدينا إحصاء يعود إلى عام ١٣٩٠ هـ يمكن أن نسترشد به رغم مرور زمن عليه، مع العلم أنه ينقص منه إحصاء إقليم الأورانج الذي لا يضمّ إلا عدداً محدوداً من المسلمين، ولم ندر ما السبب في هذا النقص؟.

	الكاب	الناتال	الترانسفال	الأورانج	المجموع
الملوّنون	١٢٧,٧٩٣	٣,٨٩١	١٢,٥٥١	٣٩	١٤٤٣٧٤
الآسيويون	٩,٨٠٨	٧٢,٩٧٢	٤٢,٦٧٧	-	١٢٥٤٥٧
البيض	٤١٢	١٣٢	٣٩٠	-	٩٣٤
	١٣٨,٠١٣	٧٦,٩٩٥	٥٥,٦١٨	٣٩	٢٧٠٧٦٥

ويلاحظ أن إقليم الكاب يضمّ ما يقرب من نصف المسلمين، ويأتي هذا العدد من زيادة المسلمين بين الملوّنين، على حين يزداد المسلمون في إقليم الناتال بين الآسيويين، وكذلك إقليم الترانسفال.

وكانت تقديرات المسلمين في جنوبي إفريقية عام ١٤٠٣ ما يزيد على ٤٣٠,٠٠٠ مسلم وتتوزع كما يلي:

الكاب:	٢٣٠,٠٠٠	مسلم.
الناتل:	١٢٠,٠٠٠	مسلم.
الترانسفال:	٨٠,٠٠٠	مسلم.
المجموع	٤٣٠,٠٠٠	مسلم.

أما اليوم فيزيد العدد على ستمائة ألف. وقد أُقيم مركز إسلامي في معزل (أواب)، وهناك مشروع لإقامة مركز في معزل (سويلو) قرب (جوهانسبرغ) في إقليم الترانسفال، وكان عدد المسلمين في المعازل عام

١٣٩٠ ما يزيد على ٥٧٤ مسلماً.

ويعمل أكثر المسلمين في البناء، والنجارة، والسباكة، ويعملون في إقليمي الناتال والترانسفال بالتجارة وإدارة الأعمال.

المؤسسات الإسلامية: أسّس المسلمون عدّة مؤسسات لهم رغم قلّة عددهم، ورغم العنت الذي يلقونه، ويُعدّ النشاط كبيراً إذا قارناه مع بقية دول إفريقية عامةً، وخاصةً مع الدول في الجزء الجنوبي من هذه القارة التي يعدّ المسلمون فيها من الضائعين.

المساجد: إن أول مسجد بني في جنوبي إفريقية كان عام ١٠٧٦ هـ، وذلك في مدينة الكاب في حي أهل الملايو. ويزيد عدد المساجد اليوم على مائتي مسجد، وتتوزّع في الأقاليم كالتالي:

إقليم الكاب:	٧٠	مسجداً.
إقليم الناتال:	٧٠	مسجداً.
إقليم الترانسفال:	٦٠	مسجداً.
المجموع	٢٠٠	

وغالباً ما تلحق في كل مسجد مدرسة لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم وأمور الدين.

معاهد العلم: بدأ الاتجاه نحو التعليم بشكلٍ مقبولٍ نسبياً، فقد وجدت أقسام للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة (دوربان) في إقليم ناتال، وفي جامعة (وسترن كاب)، وجامعة (ويست فيل).

ومعهد دراسات الشريعة الإسلامية في (كاب تاون).

ومعهد التعليم الإسلامي الشرقي في ناتال.

المعهد الإسلامي بواترفال (جوهانسبرغ).

الصحافة: يُصدر المسلمون في جنوبي إفريقية الصحف والمجلات منها اليومي، ومنها الشهري أو السنوي، ولعلّ أبرزها:

١ - مسلم نيوز تصدر يومياً.
٢ - القلم تصدر يومياً.
٣ - أخبار المسلمين تصدر منذ عام ١٣٨٠ هـ نصف شهرية.
٤ - الكلام وتُصدرها حركة الشباب المسلم شهرياً.
٥ - مسلم ديجست وتُصدرها حركة الشباب المسلم شهرياً في دوربان.
٦ - انقلاب ويصدرها اتحاد الطلاب المسلمين شهرياً.
٧ - المجلس يصدرها المجلس التشريعي الإسلامي في الكاب.

المنظمات: يوجد عدد كبير من المنظمات الإسلامية في جنوبي إفريقية.

في إقليم الكاب: المجلس الإسلامي أنشيء عام ١٣٩٥ هـ، ويمثل الهيئة الوطنية لجميع مسلمي جنوب إفريقية.

مجلس العلماء لجنوبي إفريقية في دورمرتون.

المجلس التشريعي الإسلامي.

حركة الجهاد الإسلامية الدولية.

اتحاد الطلاب المسلمين لجنوبي إفريقية.

جميعة الدعوة الإسلامية.

إقليم ناتال: المجلس الإسلامي لجنوبي إفريقية في دوربان.

مركز الدعوة الإسلامية في دوربان.

وقف التجار المسلمين الخيري في دوربان.

جمعية الثقافة الإسلامية لمنطقة ستنغر.

حركة الشباب المسلم لجنوبي إفريقية.

دار اليتامى والمساكين المسلمين في دوربان.

دائرة الدراسات العربية.

جماعة التبليغ.

دار العلم.

إقليم ترانسفال: لجنة نور الإسلام ـ ليناسا.

هيئة ليناسا الإسلامية.

بعثة العقيدة ـ ليناسا.

المركز الإسلامي.

الوقف المركزي الإسلامي.

جمعية العلماء ـ ترانسفال ـ جوهانسبرغ.

هيئة الشبان المسلمين بنوني الجنوبية (ضاحية جوهانسبرغ الشرقية) ترانسفال.

ويُعاني المسلمون العنت من الأطراف كافة، وقد اعتقل الشيخ عبدالله هارون في ربيع عام ١٣٨٩ هـ، وهو رئيس تحرير صحيفة أخبار المسلمين، واتهم بأنه يُنادي بأفكار معادية للعنصرية، وقد قتل في السجن في أوائل خريف ذلك العام. وبعد عدة أشهر خططت الحكومة العنصرية لهدم ٣٦ مسجداً من أصل ٥٥ مسجداً قائماً في مدينة (كيب تاون).

ويُعاني المسلمون في اتحاد جنوبي إفريقية الاضطهاد الذي تقوم به الحكومة العنصرية والتي تعدّ المسلمين خطراً عظيماً عليهم يفوق خطر الشيوعية والسود ـ حسب رأيهم ـ.

ويُعاني المسلمون أيضاً خطر أتباع القاديانية والبهائية الذين يدّعون أحياناً الإسلام فيُعطون بذلك فكرة سيئة عن عقيدة المسلمين وفي الوقت نفسه يعملون على تهديم المجتمع الإسلامي من داخله، هذا بالإضافة إلى الدعايات الكثيرة التي يروّجون لها أو يشيعونها هم.

ويُواجه المسلمون نقص المشافي، والمدارس، والمعاهد الفنية، ووسائل الدعاية لرسالة الإسلام، والفرق المختلفة بين صفوفهم، وعدم الصلة مع الدول الإسلامية وخاصة أن معظم الأمصار ليس لها تمثيل سياسي مع دولة جنوبي إفريقية، ويجهد المسلمون هناك للحصول على أساتذة لتدريس اللغة العربية، والقرآن الكريم، والتفسير والحديث.

ويمكن أن نلاحظ أعداد المسلمين في جنوبي إفريقية كما يلي:

١ - زامبيا:	١٠٠,٠٠٠	ونسبتهم	١,٧٪	من مجموع السكان.
٢ - زيمبابوي:	٥٠,٠٠٠	ونسبتهم أقل من	١٪	من مجموع السكان.
٣ - سوازيلند:	٢٠,٠٠٠	ونسبتهم	٤٪	من مجموع السكان.
٤ - ليسوتو:	٢٥,٠٠٠	ونسبتهم	٢٪	من مجموع السكان.
٥ - بتسوانا:	٠٠,٦٠٠	ونسبتهم	——	من مجموع السكان.
٦ - أنغولا:	١,٠٠٠,٠٠٠	ونسبتهم	١٥٪	من مجموع السكان.
٧ - ناميبيا:	٢,٥٠٠	ونسبتهم	٠,٥٪	من مجموع السكان.
٨ - جنوبي إفريقية:	٦٠٠,٠٠٠	ونسبتهم	٢٪	من مجموع السكان.
المجموع	١,٧٩٨,١٠٠			

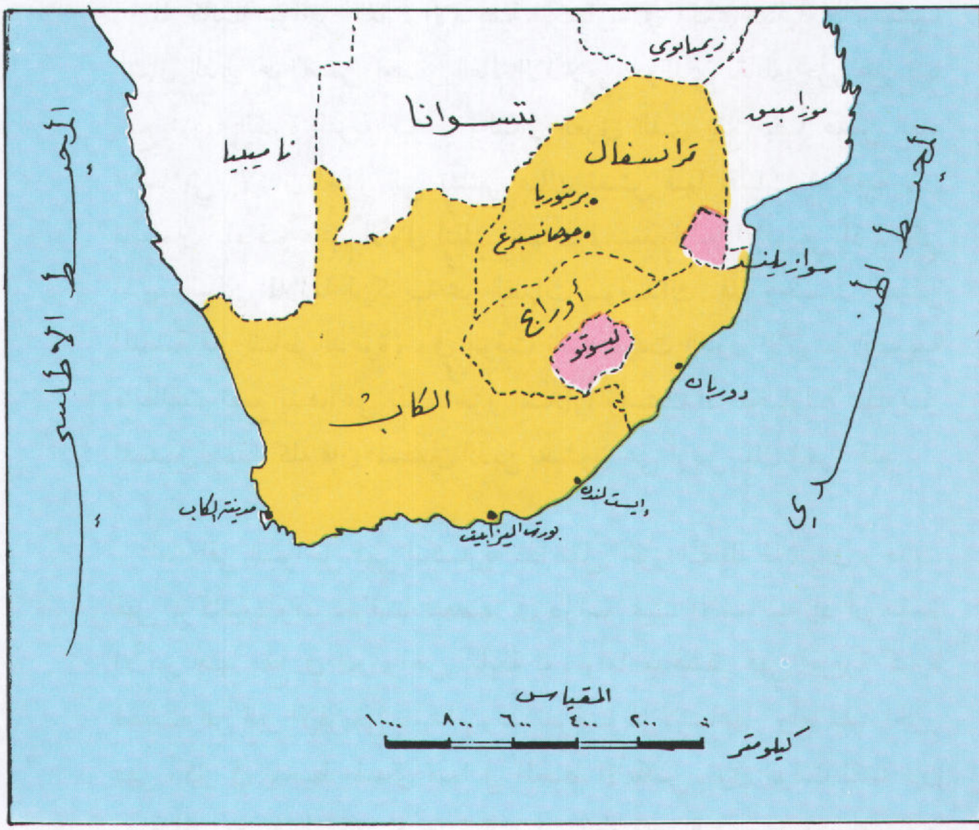
زيمبابوي
موزامبيق
بتسوانا
ناميبيا
ترانسفال
بريتوريا
جوهانسبرغ
أورانج
ليسوتو
سوازيلند
دوربان
الكاب
مدينة الكاب
المحيط الأطلسي
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٣٥] .

هـ - الجزر الافريقيّة

لما كانت سواحل القارة الإفريقية انكسارية في أكثر جهاتها إذا استثنينا الشمال الذي هو ضمن أمصار العالم الإسلامي، والذي يقابله جزر غير أنها تتبع أوربا القارة القوية اليوم، والشمال الغربي الذي يقع أيضاً ضمن العالم الإسلامي إلاّ أن الجزر التي تنتشر هناك تعيش فيها أقليات إسلامية لأن المسلمين أيام فتوحاتهم الأولى لتلك الجهات لم يتعدّوا البر الإفريقي إذ لم تكن لديهم السفن الملائمة لركوب بحر الظلمات يومذاك. فلما وجدت السفن المناسبة فتر نشاط الدعوة، وفي الوقت نفسه قويت الدول الأوربية الصليبية فانطلقت تضع يدها على تلك الجزر استعماراً واستعداداً لمحاولة تطويق المسلمين، لهذا كله فإن المسلمين الذين يعيشون على أرض تلك الجزر قلّة.

أما باقي السواحل فهي انكسارية لذا تقلّ الجزر المقابلة لها، وإن وجدت فهي بركانية، وقد تعرّضنا لبعضها في دراسة غينيا الاستوائية إذ أن القسم الأكبر منها يقع في البر والجزر تابعة له، وأما مدغشقر فهي جزيرة كبيرة فصلت عن البر الإفريقي بانهدام وقد تعرّضنا لها لاتساعها. وأما بقية الجزر فهي أكثر في المحيط الهندي منها في المحيط الأطلسي، وفي الوقت نفسه فإن نسبة المسلمين فيها أكبر للتجارة التي لم تنقطع عبر التاريخ بينها وبين بلاد العرب منطقة إشعاع الإسلام، وقد ترتفع نسبة المسلمين حتى لا تدع نسبة

أخرى لغير أتباعه، وبذا تكون ضمن أمصار العالم الإسلامي ومنها (بمبا) و(زنجبار) و(مافيا) وهي تتبع تانزانيا التي هي مصر من العالم الإسلامي، ومنها (جزر القُمُر) التي ترتفع فيها نسبة المسلمين أيضاً إلى ٩٩٪ وتُشكّل دولةً تُعدّ من أمصار العالم الإسلامي. وما عدا ذلك من الجزر فإن أقلياتٍ تُقيم على أرضها لا بدّ من إلقاء نظرةٍ عليها.

تكون أكثر هذه الجزر على شكل مجموعاتٍ صغيرةٍ، ونسبة المسلمين فيها قليلةً، ولعلّ ذلك يعود إلى قلّة سكانها، وضآلة مواردها الأمر الذي يجعل التجار لا يتجهون نحوها، إذ لا يطمعون في خيراتها، والمتاجرة مع أهلها. كما أنها ليست على طرق الملاحة فما كان في المحيط الأطلسي فإنها لا تُشكّل محطّاتٍ للسفن إذ أن التجارة مع أمريكا لم تكن قائمةً حيث لم تكن قد عُرفت القارة بعد، يوم نشاط التجارة والدعوة الإسلامية، فلما عُرفت كان نشاط العمل الإسلامي قد فتر بل ضعف. وما كان منها في المحيط الهندي فالملاحة كانت تسلك الطرق القريبة من البر حيث كانت السفن شراعية تُفضّل بقاء القرب من الشواطىء، لذا عم الإسلام الجزر القريبة ـ كما رأينا ـ أما البعيدة فلم يكن للسفن من دافع ليسوقها نحو تلك الجزر إلا في مدة بسيطة وهي وقت الاستعمار البرتغالي، ولم تكن قناة السويس قد فتحت بعد لتُغيّر خط السير العام للسفن المتجهة نحو الشرق الأقصى. وأهم هذه الجزر:

(١) جزر ماديرا

مجموعة جزر صغيرة أكبرها جزيرة (ماديرا) وهي الرئيسية فيها، ثم جزيرة (بورتوسانتو)، تقع قريبة من خط العرض ٣٢° شمالاً على العتبة القارية الإفريقية. تبعد حوالي ٦٠٠ كيلومتر عن الساحل الإفريقي، وهي تُقابل مدينة صافي المغربية. تبلغ مساحتها ما يبلغ تسعمائة كيلومتراً مربعاً. عاصمتها مدينة (فيونشال). تخضع للسيطرة البرتغالية.

يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة وخمسين ألفاً يعيش بينهم ما يقرب من خمسة وثلاثين ألفاً من المسلمين، وبذا تكون نسبتهم حوالي ١٠٪ من مجموع السكان.

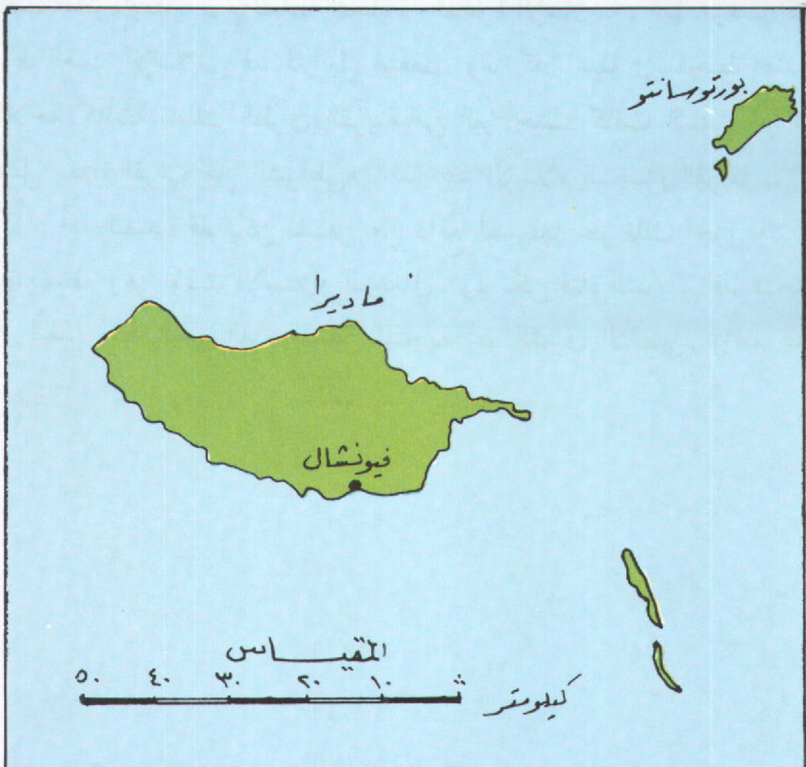

مصور رقم [٣٦].

(٢) جزر كناريا

وأطلق عليها المسلمون الجزر الخالدات، تقع على العتبة القارية، على خط عرض ٢٨° شمالاً، مقابل ساحل المغرب الجنوبي الذي لا تبعد عنه أكثر من مائةٍ وخمسةٍ وعشرين كيلومتراً، تُقابلها مدينة (طرفايا) المغربية. وتُشكّل مجموعة جزرٍ سبعة منها كبيرة هي: (هيرّو) و(لاپالما) و(قُمَرة) و(تنريف) و(قران كناريا) و(فورت اڤنتورا) و(لانزاروت) إضافةً إلى عددٍ من الجزر الصغيرة. تبلغ مساحتها ٧,٢٧٣ كيلومتراً مربعاً. وتخضع للسيطرة الإسبانية.

يبلغ عدد سكانها ما يزيد على المليون قليلاً، ويعيش بينهم سبعون ألف مسلم، وهو ما يعادل ٧٪ من مجموع السكان.

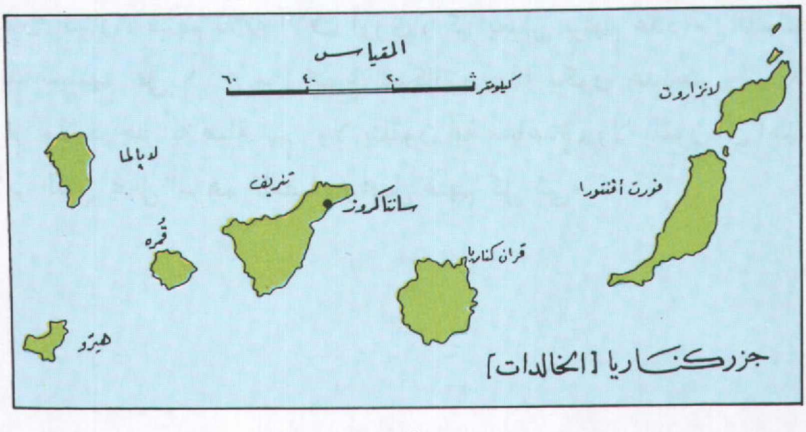

مصور رقم [٣٧].

(٣) جزر الرأس الاخضر

مجموعة جزر تقع مقابل الرأس الأخضر الذي أُقيمت عليه عاصمة السنغال مدينة دكار، وقد حملت اسم ذلك الرأس، وتبعد عنه مسافة ستمائة كيلومتر، وتظهر على العتبة القارية، وهي عشرة جزرٍ كبيرةٍ نسبياً، هي: (براڤا) و(فوغو) و(سانتياغو) و(مايو) و(بوافيستا) و(سال) و(سانت نيكولو) و(سانت لوزيا) و(وسانت فينتو) و(سانت آنتو) هذا إضافةً إلى عددٍ آخر من الجزر الصغيرة، وتبلغ مساحتها كلها ٤٠٣٣ كيلومتراً مربعاً.

تخضع هذا الجزر للسيطرة البرتغالية، عاصمتها مدينة (برايا) التي تقع في جنوبي أكبر الجزر وهي (سانتياغو)، ويبلغ عدد سكانها ما يزيد على ربع مليون إنسان، بينهم ثلاثة آلاف أوربي، كما يعيش بينهم عدد من المسلمين تزيد نسبتهم على ١١٪ من مجموع السكان، وبذا يكون عددهم ٢٨,٠٠٠ مسلم. ولا توجد أيّة صلة بهم، ولا يتلقون أية مُساعدةٍ، ولا يلقون أي اهتمامٍ الأمر الذي يجعل أمرهم غامضاً، ونجهل عنهم كل شيء.

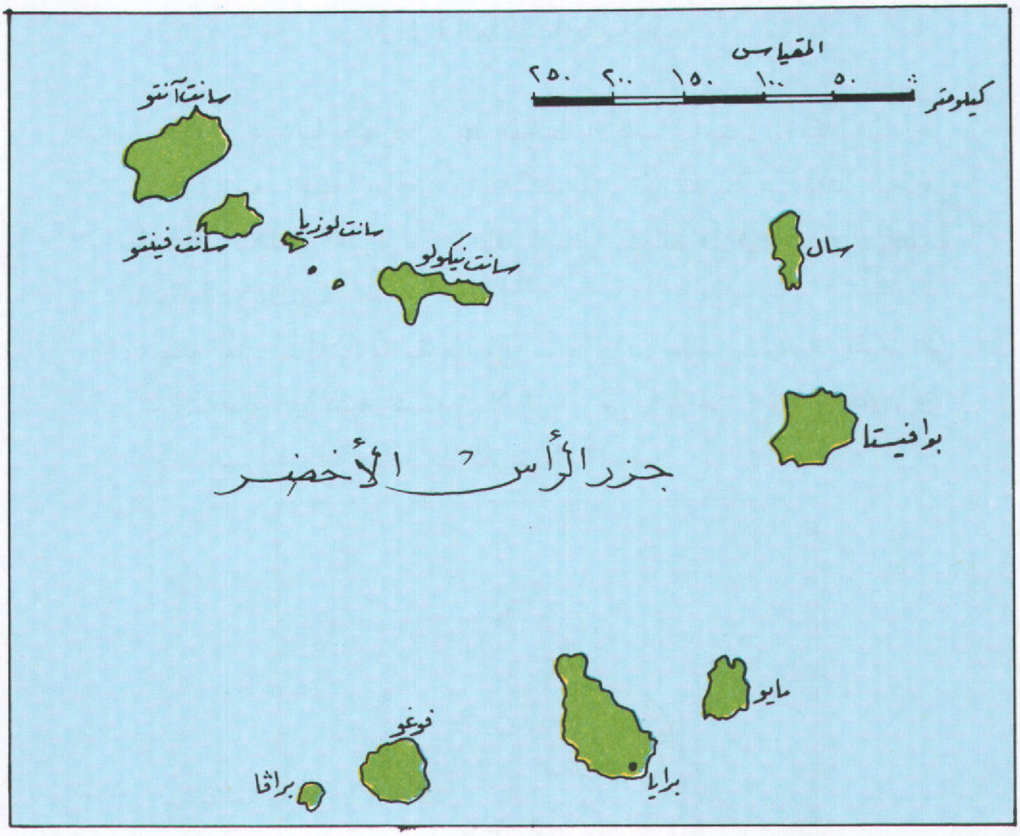
المقياس
كيلومتر
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
سانتا آنتو
سانت فينتو
سانت لوزيا
سانت نيكولو
سال
بوافيستا
جزر الرأس الأخضر
مايو
برايا
فوغو
براڤا

مصور رقم [٣٨] .

(٤) القديسة هيلانة

جزيرة بركانية منفردة وسط المحيط الأطلسي الجنوبي، مقابل سواحل أنغولا، وتبعد عنها مسافة ١٦٠٠ كيلومتر، تبرز قريبةً من العتبة الوسطى للمحيط الأطلسي الجنوبي، أو الحافة الوسطى كما تُعرف في الجغرافيا. تخضع للسيطرة الإنكليزية.

يبلغ عدد سكانها ما يقرب من سبعة آلاف يعيش بينهم ما يقرب من سبعين مسلماً أي نسبة المسلمين لا تزيد على ١٪ من مجموع السكان. ولا توجد معهم أيضاً أية صلةٍ، ولا نعرف شيئاً عنهم.

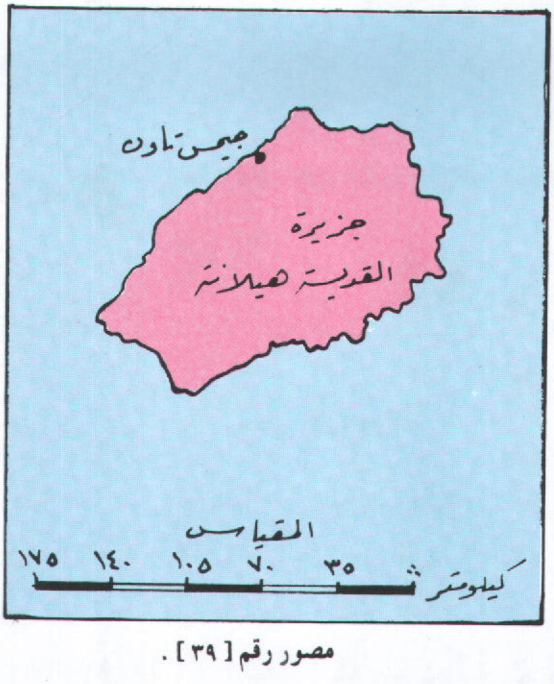

مصور رقم [٣٩].

(٥) ريـونـيون

جزيرة بركانية تبلغ مساحتها ٢٥١٠ كيلومترات مربعة تقع إلى الشرق من جزيرة مدغشقر، وتفصلها عنها مسافة ٧٥٠ كيلومتراً.

عرفها المسلمون، وحطّوا على سواحلها دون أن ينزلوا فيها إذ لم تكن مأهولةً بعد. ثم نزل فيها الفرنسيون عام ١٠٢٥ هـ، وأطلقوا عليها (بربوا) اسم أول فرنسي نزل فيها. وعندما جرى القتال بين الفرنسيين والانكليز في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري أيام حروب ناپليون بونابرت انتصر الانكليز في النهاية وجرى الصلح، وتمّ الاتفاق حيث أخذ الانكليز (موريشيوس) و(سيشل) وانسحبوا من (بربوا) حيث رجع إليها الفرنسيون وأطلق عليها اسم (ريونيون).

جلب الفرنسيون إليها العمال من جـزر القُمُـر ومـن بقيـة مستعمـراتهم الإفريقية، وإن كانت غالبية العمال من جزر القُمرُ، وذلك للعمل في مزارع قصب السكر، ثم جاء تجار من الهند وخاصة من منطقة (كوجرات)، كما جاء بعضهم من جنوبي إفريقية، وكان قد ولد هناك.

السكان: يرجع أصل السكان إلى (الكريول) الذين هم مزيج من الهنود والزنوج، كما أقام فيها بعض الأوربيين والجماعات الأخرى الصغيرة القادمة للعمل، ويبلغ عدد السكان ما يزيد على نصف مليون قليلاً.

يدين ٧٥٪ من السكان بالنصرانية، وأكثرهم من الكاثوليك.

و١٥٪ من السكان بالهندوكية، وهم من الهنود.

و١٠٪ من السكان بالإسلام، وهم من الهند، وجزر القُمر، ومجموعاتٍ ثانيةٍ أي أن عدد المسلمين هو ٥٠ ألفاً، ٢٧ ألفاً منهم من الهند، و١٨ ألفاً من جزر القمر، وخمسة آلاف من باقي الجنسيات. ويُقيم أكثر المسلمين في العاصمة سان دينز.

يوجد في جزيرة ريونيون أربعة عشر مسجداً، وقد بني أول مسجد في الجزيرة في مدينة (سان دينز) عام ١٣٤٨ هـ، ويُسمّى (خير المساجد). ويوجد مركز إسلامي، ويُصدر مجلةً دوريةً تُدعى (الإسلام)، وتلحق المركز مدرسة إسلامية.

وتوجد إحدى عشرة مدرسة تدرس الدين بلغة (الأوردو).

المدن: أهم المدن العاصمة (سان دينز) وفيها مساجد أشهرها المسجد الرئيسي (نور الإسلام)، ومسجد (خير المساجد)، وفيها المركز الإسلامي لجزر ريونيون.

سانت بيير: وهي المدينة الثانية في الجزيرة، ويبلغ عدد سكانها ٥٠ ألفاً، يعيش بينهم ١٥٠٠ مسلم، وفيها مسجد يُدعى (أطيب المساجد)، وتلحق به مدرسة، وفيها جمعية السنة الإسلامية والجماعة.

سانت بول: وسكانها خمسة عشر ألفاً بينهم ٥٠٠ مسلم، وفيها مسجد (رونق الإسلام) وتلحق به مدرسة.

وسانت لويس: وفيها مسجد صغير. **وتامبون:** ويعيش فيها مائة وخمسون مسلماً، ولهم مسجد (نور مسجد)، كما توجد مساجد في كل من سانت بنوا، وسانت اندريه.

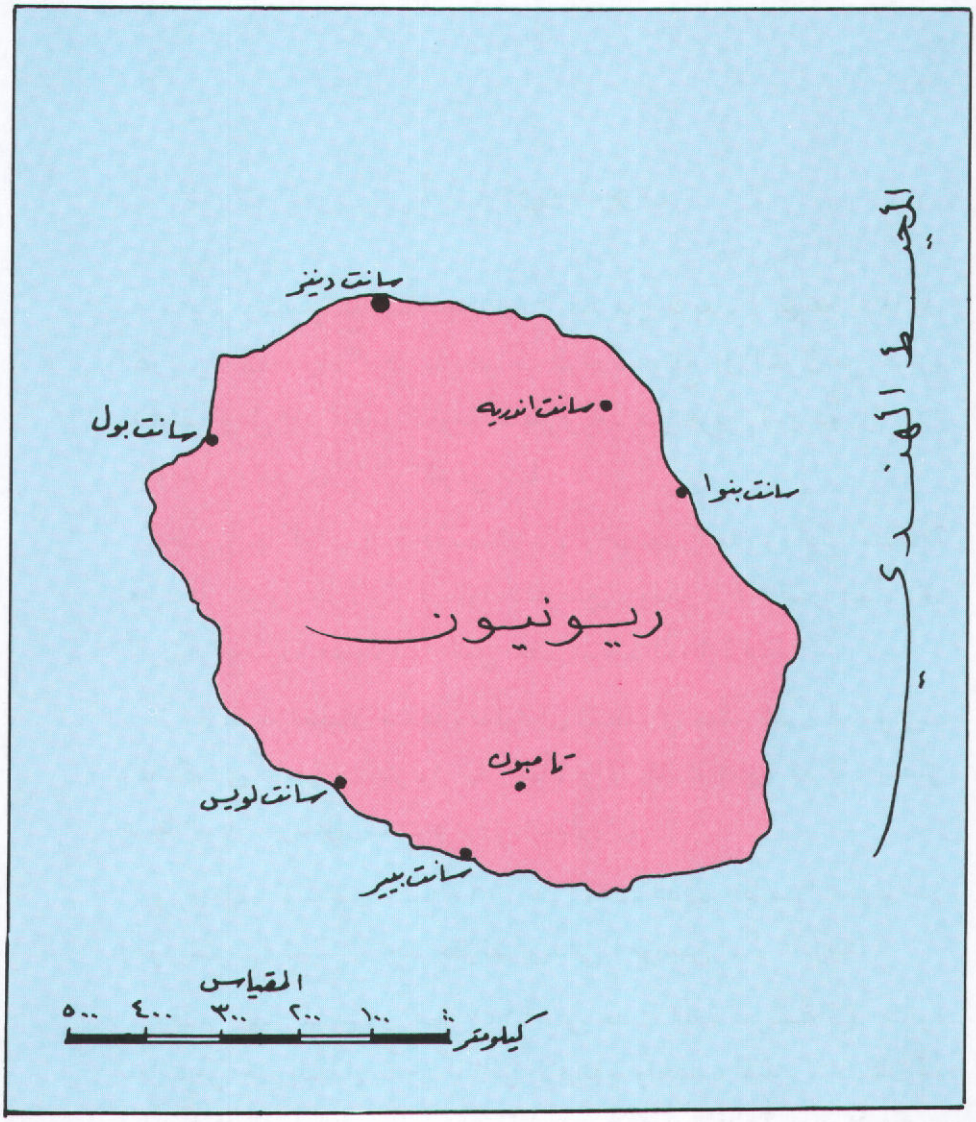

المحيط الهندي
سانت دينو
سانت اندريه
سانت بول
سانت بنوا
ريونيون
تامبون
سانت لويس
سانت بيير
المقياس
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٤٠] .

(٦) موريشيوس

جزيرة بركانية تبلغ مساحتها ٢٠٤٥ كيلومتراً مربعاً، لا ترتفع تلالها إلى أكثر من ٨٨٠ متراً، تحيط بها الحواجز المرجانية. تقع إلى الشرق من جزيرة مدغشقر وعلى بُعد ثمانمائة كيلومتر منها. وتبعد عن جزيرة (ريونيون) ٢٥٠ كيلومتراً، وتقع إلى الشمال الشرقي منها.

وصل إليها العرب، إذ دفعت الأعاصير سفنهم إليها، ولم تكن مسكونةً بعد، فلم ينزلوا بها لأنهم لم يأتوا مستوطنين، ولكثرة الأعاصير فيها، وفي القرن الرابع نزل بعضهم فيها لحمل بعض الموارد للتجارة فيها.

ثم زارها البرتغاليون عندما وصلوا إلى المنطقة في مطلع القرن العاشر أيام (فاسكودي غاما) ولم ينزلوا بها أيضاً، وإنما كانت زيارة معرفةٍ، وأطلق عليها البحار البرتغالي اسمه، وهو (داسكارين).

ونزل بها الهولنديون عام ١٠٦٠ هـ، وهم الذين أطلقوا عليها اسم (موريشيوس) نسبة إلى أحد عظمائهم ويدعى (موريس)، ثم غادروها.

وقدم إليها الفرنسيون عام ١١٢٧، ووجدت اللغة الفرنسية فيها متأثرةً بلغات من جاء إليها أيضاً من المناطق الإفريقية والجهات الهندية، إذ كان قد حلّ بها في القرن التاسع أُناسٌ من الملايو، وجماعة من إفريقية، وفئةٌ من الهند، وبقي الاستعمار الفرنسي فيها ما يقرب من قرن من الزمن

(١١٢٧ ـ ١٢٢٥ هـ). وأسسوا فيها مدينة (بورت لويس) التي غدت عاصمة الجزيرة.

وأخذها الانكليز من الفرنسيين عام ١٢٢٥، وتسلّطوا على أهلها، ولكن بقيت اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة الانكليزية.

وحصلت البلاد على الاستقلال عام ١٣٨٨ هـ.

السكان: يبلغ عدد سكان الجزيرة ما يزيد على المليون، وتعود أصول أكثرهم إلى (الكريول) الذين هم مزيج من الهنود والإفريقيين، إضافةً إلى عددٍ من الفرنسيين ومجموعة من الهنود ولا تزيد نسبة الجميع على ٦٧٪ من مجموع السكان، حيث توجد مجموعات ثانية صغيرة متفرقة وصلت إلى الجزيرة.

يتحدّث معظم الأهالي اللغة الفرنسية أو المشتقة من الفرنسية، كما أن الهنود يتحدثون لغتهم، ويحرص المسلمون من أية فئةٍ تعلّم العربية، أما اللغة الرسمية فهي الانكليزية.

يدين ٥٠٪ من السكان بالهندوسية مما يدل على كثرة السكان الهنود فيها، و٣٠٪ يدين بالنصرانية، و٢٠٪ يدين بالإسلام، وبذا يُقدّر عدد المسلمين بمائتي ألف مسلم.

كان أول قدوم المسلمين كمجموعات بعد الاستعمار أيام السيطرة الفرنسية إذ جاءت مجموعات من الهند من منطقة (كوجرات)، ومن منطقة (كوشن) وذلك حوالي عام ١١٣٤. وقد بنى المسلمون أول مسجد عام ١٢٢٠ في مدينة بورت لويس، ولما آل حكم الجزيرة إلى الانكليز استقدموا العمال من الهند أيضاً للعمل في مزارع قصب السكر، فكان بعض العمال من المسلمين.

ويُقيم أكثر المسلمين اليوم في العاصمة (بورت لويس)، وتعدّ مدينةً إسلاميةً إذ تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٦٠ ٪، وفيها خمسة عشر مسجداً.

المساجد: يوجد في الجزيرة أكثر من مائة مسجد، وأكبرها الجامع الكبير في بورت لويس، ويُعرف باسم (مركزي مسجد) أي المسجد المركزي، ومسجد المدينة المنورة (مدينة مسجد) في العاصمة أيضاً، وتلحق بكل مسجد من مساجد الجزيرة مدرسة تعلم الطلاب مبادىء الإسلام، والقرآن الكريم، ومبادىء اللغة العربية، وهي على شكل كتاتيب.

المدارس: إن أكثر طلاب المدارس من أبناء المسلمين على الرغم من قلة نسبتهم، فهم يحرصون على العلم أكثر من غيرهم، وإضافةً إلى الكتاتيب التي تحدّثنا عنها ـ يوجد للمسلمين مدارس خاصة بهم ومنها:

١ ـ كلية الثقافة الإسلامية، وتأسست عام ١٣٧٤، وتبلغ نسبة الطلاب المسلمين فيها ٩٢ ٪، وتُدرِّس الثقافة الإسلامية ساعة واحدة على مدى سنوات الدراسة كلها، وهي بمستوى الثانوي.

٢ ـ مدرسة إمداد الإسلام.

٣ ـ مدرسة الفتيات المسلمات.

٤ ـ مدرسة دارون فلال، وتأسّست عام ١٣٧٣، ولا يؤلف الطلاب المسلمون فيها سوى ٢٠ ٪ من مجموع الطلاب، وتُدرِّس اللغة العربية والشريعة الإسلامية رغم حرصها على تعلّمها، مما يؤدي عملياً إلى إهمالها لضعف نسبة المسلمين؟.

٥ ـ المدرسة الإسلامية العالية، ويَؤلّف الطلاب المسلمون ٩٥ ٪ من مجموع الطلاب وقد تأسست عام ١٣٧٥ هـ.

كما توجد للمسلمين ثلاث مدارس ابتدائية، ومدرسة متوسطة واحدة خاصة بهم. ولا تجد هذه المدارس حاجتها من مدرسي اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

الصحافة: يصدر المسلمون جريدة (ستار).

المنظمات: توجد عدّة مؤسسات للمسلمين منها:

١ - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢ - المركز الإسلامي.
٣ - حركة الطلاب المسلمين.
٤ - النادي الإسلامي الذي تأسس عام ١٣٧٦ هـ.
٥ - الإخوان المسلمون.
٦ - البعثة الإسلامية.
٧ - حركة المرأة المسلمة التي تأسّست عام ١٣٩٤ هـ.
٨ - حركة الدعوة العربية في بورت لويس.
٩ - الدائرة الإسلامية في بورت لويس.
١٠ - دار الرعاية الإسلامية.
١١ - الجمعية الخيرية والإصلاح الإسلامية في بورت لويس.
١٢ - دار الأيتام الإسلامية.
١٣ - رابطة موريشيوس الإسلامية الديمقراطية في بوباسين.
١٤ - ويوجد في العاصمة مركز لرابطة العالم الإسلامي.
١٥ - جمعية هداية الإسلام.

كما يوجد لهم شبه تنظيم سياسي يعرف باسم «العمل الإسلامي» وقد حصل على مقعدين في المجلس النيابي عام ١٣٩٤ هـ. وغالباً ما يُختار وزير من المسلمين في مجلس الوزراء، وقد قام هذا التنظيم السياسي عام ١٣٧٨ هـ.

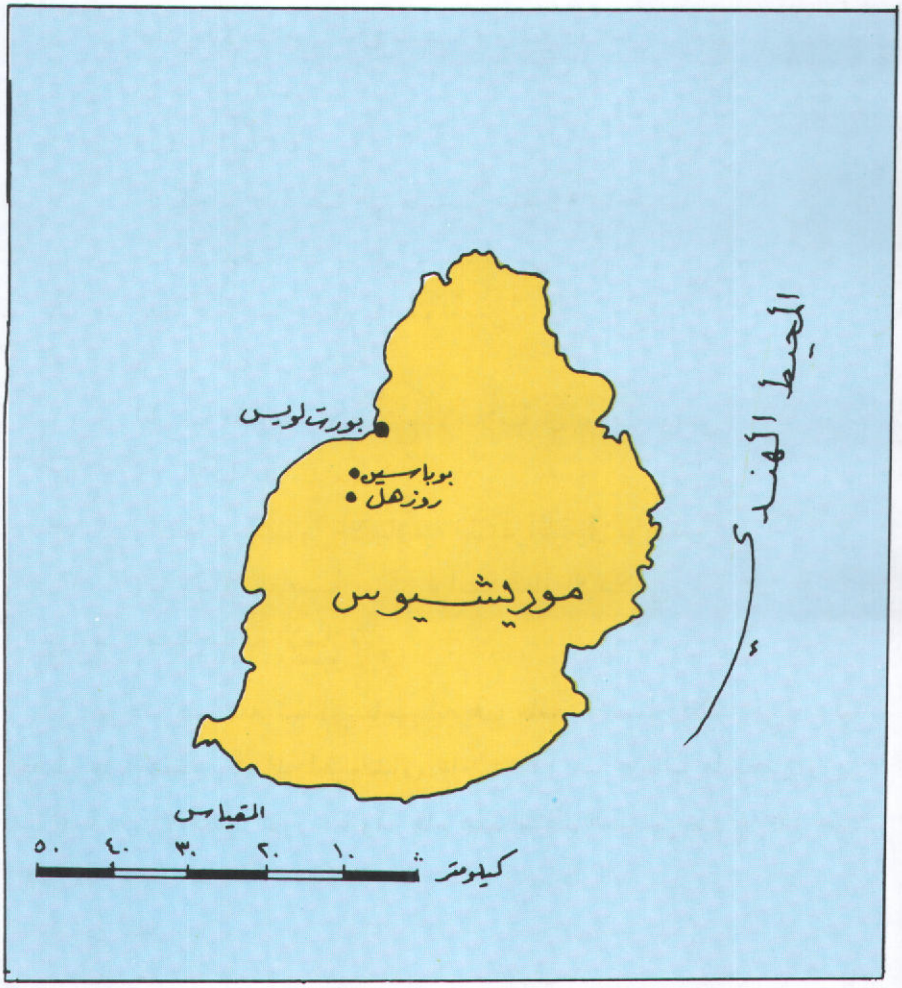

بورت لويس
بوباسين
روزهل
موريشيوس
المحيط الهندي
المقياس
٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٤١] .

(٧) جزر سيشل

مجموعة جزرٍ تبلغ مساحتها ثلاثمائة كيلومتر مربع، أكبرها جزيرة (ماهي) التي يبلغ طولها تسعة وعشرون كيلومتر، ومتوسط عرضها حوالي عشرة كيلومترات، ويُضاف إلى هذه الجزيرة اثنتان وتسعون جزيرة صغيرة، أشهرها جزيرة الطير ذات الحياة الطبيعية، وسكانها لا يزيدون على العشرات، وتبعد مائة كيلومتر عن عاصمة البلاد (فيكتوريا). وتقع البلاد شمال شرقي جزيرة مدغشقر، وتبعد عنها ١٢٠٠ كيلومتر.

يعود سكانها إلى خليط من زنوج البانتو والحاميين، ويُعرفون بالكريول التي تعني أصلاً المختلط.

الاستعمار: وصل الفرنسيون في القرن الحادي عشر الهجري إلى جزر سيشل، وقد فرضوا لغتهم التي دخلها بعض لهجات السكان الأصليين حتى عُرفت أيضاً بالكريول أي الخليط. وبقي الفرنسيون في الجزر ما يقرب من قرنين، ثم حلّ الإنكليز محلّهم بعد انتصار الانكليز على الفرنسيين في حروب نابليون، وجرت بعد ذلك اتفاقات انتهت بدخول الانكليز إلى سيشل وخروج الفرنسيين منها، ورغم مجيء الانكليز إلا أنّ اللغة الفرنسية المحرفة قد دخلتها بعض الكلمات الانكليزية، ويُسمّى السكان لغتهم بـ (سيشليانو) أي ينسبونها إلى الأرض التي يُقيمون عليها.

وبقيت جزر سيشل تحت السيطرة الانكليزية حتى نالت استقلالها عام ١٣٩٦ هـ.

المسلمون: جاءت أول جماعة من المسلمين إلى جزيرة سيشل في القرن الثالث عشر الهجري، وكانت من الملايو، وقد مات بعضهم ورجع الآخرون،وقد خلّفوا مقبرة هي القائمة الآن، والتي يدفن المسلمون فيها موتاهم اليوم.

ثم جاءت جماعة أخرى من الهند من منطقة كوجرات، واستقرّت في سيشل. ولا يزيد عدد المسلمين اليوم على عدة مئات ولم تصل نسبتهم إلى ١٪، وأكثرهم من الذين جاءوا مسلمين، وقليل منهم من أسلم من أهل البلاد.

يوجد في العاصمة (فيكتوريا) مركز إسلامي تأسّس عام ١٣٩٨، ويصدر مجلة (اقرأ) باللغة الإنكليزية. وتلحق بالمركز مدرسة صغيرة على شكل كتاتيب تُدرّس ساعةً واحدةً يومياً، وتُعلّم مبادىء الإسلام وشيئاً من العربية.

لا يوجد في البلاد أية سفارة لمصر إسلامي سوى سفارة ليبيا.

ويبلغ عدد سكان البلاد كلها سبعين ألفاً، خمسون منهم يُقيم في العاصمة (فيكتوريا) وباقي جزيرة ماهي، ويتوزّع الباقي في الجزر الأخرى.

(٨) جزر الدبـرا

مجموعة جزر تقع شمال جزيرة مدغشقر، تبعد عنها مسافة ٣٠٠ كيلومتر وتخضع للسيطرة الإنكليزية. يسكنها ما يقرب من خمسين ألفاً، ويعيش بينهم ألف مسلم، فتكون نسبة المسلمين حوالي ٢٪ من مجموع السكان. وهكذا نلاحظ أعداد المسلمين في الجزر الإفريقية كما يأتي:

١ - جزر ماديرا وعدد المسلمين فيها ٣٥,٠٠٠ ونسبتهم ١٠٪ من مجموع السكان.

٢ - جزر الخالدات وعدد المسلمين فيها ٧٠,٠٠٠ ونسبتهم ٧ ٪ من مجموع السكان.

٣ - جزر الرأس الأخضر وعدد المسلمين فيها ٢٨,٠٠٠ ونسبتهم ١١٪ من مجموع السكان.

٤ - القديسة هيلانة وعدد المسلمين فيها ٧٠ ونسبتهم ١ ٪ من مجموع السكان.

٥ - جزيرة ريونيون وعدد المسلمين فيها ٥٠,٠٠٠ ونسبتهم ١٠٪ من مجموع السكان.

٦ - جزيرة موريشيوس وعدد المسلمين فيها ٢٠٠,٠٠٠ ونسبتهم ٢٠٪ من مجموع السكان.

٧ ـ جزر سيشل وعدد المسلمين فيها ٣٥٠ ونسبتهم ٠,٥ ٪ من مجموع السكان.

٨ ـ جزر الدبرا وعدد المسلمين فيها ١,٠٠٠ ونسبتهم ٢ ٪ من مجموع السكان.

المجموع ٣٧٤,٤٢٠

ونلاحظ في دول الأقليات في القارة الافريقية عامة:

المنطقة	عدد الدول	عدد المسلمين
شرقي إفريقية	٥	١٨,٣٧٥,٠٠٠
غربي إفريقية	٤	٥,٥٧٠,٠٠٠
وسط إفريقية	٤	٤,٤٠٠,٠٠٠
جنوبي إفريقية	٨	١,٧٩٨,١٠٠
الجزر الإفريقية	٨	٣٧٤,٤٢٠
	٢٩	٣٠,٥١٧,٥٢٠

نحن والأقليات في افريقية

إن شأن الأقليات المسلمة في إفريقية شأنها في آسيا من حيث عدم معرفة إخوانهم المسلمين لهم، والإهمال الذين يلقونه بل ربما يزيد الأمر كثيراً في إفريقية، وتأتي هذه الزيادة من أن المسلمين في أيام قوتهم لم يحكموا جزءاً واحداً من هذه المناطق التي توجد فيها الأقليات، وإنما انتقل إليها الإسلام وأتباعه في مرحلة من الضعف، فعندها انتقل الضعف أيضاً إلى الإمارات التي قامت في شرقي إفريقية مثل إمارة الزنج التي كانت حاضرتها مدينة (كلوة) في جنوبي تانزانيا اليوم، والإمارات الثانية التي قامت في بعض الجزر في شرقي إفريقية. وجاء الاستعمار الصليبي البرتغالي ووجدها ضعيفةً فتمكن من بسط نفوذه عليها بل سار في طريقةٍ صليبيةٍ هي التدمير والتحطيم ومحاربة المسلمين، وإعطاء الإرساليات التنصيرية حق الإشراف على التعليم فانكفأ المسلمون على أنفسهم يحاولون تضميد جراحهم لكنها بقيت تنزف إذ لم يكن هناك إسعاف فانصرف كل لشأنه بل لا يستطيع الانصراف لأن الحراب لا تزال تعمل في جسم المسلمين فعاشوا في حالةٍ من المرض ومن الجهل حتى نسوا إخوانهم بل نسوا أنفسهم الأمر الذي جعلهم لا يعرفون شيئاً من أمور دينهم، ولا يعلمون شيئاً عن أحوال إخوانهم، بل لا يستطيعون أن يُفكّروا كيف تمرّ بهم الأيام وهم على حالةٍ بئيسةٍ فانزووا بعيدين عن المجتمع يحرصون على تأمين حياتهم بالشكل الذي يناسب البيئة الجديدة التي يعيشون فيها من جديد، دون علم،

دون معرفة، دون عقيدة.

ولما قامت قوة العُمانيين في شرقي إفريقية أيام اليعاربة وخلفائهم البوسعيديين لم يستطيعوا إحراز تقدّم علميٍ للمسلمين أو نشاطٍ كبيرٍ للدعوة، وإن حصل تقدّم سياسي وتوغّل في قلب إفريقية في النهاية، وانطلق التجار، ومع التجار تقدّمت الدعوة، أما الساحل فلم يحدث شيء سوى ما حدث في زنجبار. والسواحل المقابلة لها من انتشار المذهب الأباضي. ولم تلبث أن جاءت قوى صليبية استعمارية جديدة تمثّلت في فرنسا وانكلترا في البداية ثم تبعتهما ألمانيا وإيطاليا، وإذا كان البرتغاليون قد انتهوا فقد حلّت محلّ قوتهم أربع قوى، وبدأت المطارق تضرب فوق رؤوس المسلمين رغم ما فيهم من مرضٍ وجهلٍ. حتى يئس المسلمون ونسوا أمور دينهم فعلاً وهذا ما رأيناه في مدغشقر، وزامبيا، وزيمبابوي، وأنغولا تماماً. والمسلمون في الأمصار الإسلامية الأخرى لم تكن حالهم بأفضل كثيراً، وكل ما يمتازون به أنهم يعيشون وسط مجتمع أكثريته من المسلمين إن لم نقل غالبية أهله منهم.

هذه حالة المسلمين في شرقي إفريقية حيث الطرق البحرية مفتوحة، ولم تنقطع السفن عنها في يومٍ من الأيام فما بالك في المناطق الداخلية حيث الدروب غير مأمونة ومحفوفة بالخطر من كل جانب من الإنسان ومن الحيوان على حدٍ سواء هذا إن وجدت، وقلما توجد. ويمكن أن نقول: إن الجهل بالأقليات المسلمة يزداد كلما اتجهنا نحو الجنوب ومن ثم نحو الغرب، فتكون أكثر الأقليات نسياناً أو ضياعاً ما كان منها في أنغولا.

وعندما بدأت المواصلات تتحسّن ووسائل الإعلام تتطوّر لم يكن حظ الأقليات المسلمة في إفريقية بأحسن حالاً من إخوانهم الذين يعيشون أقليات في آسيا حيث لم يتجه المسلمون نحوهم فبلادهم ليست منهلاً للعلم كي يغدوا إليها، وليست مركز إشعاعٍ حضاريٍّ ليستنيروا منها، وليست مكان

ترفيه بكل معنى الترفيه لينطلق المترفون والأثرياء إليها ، وليست دولهم من التي تتحكّم بالشعوب أو لها نفوذ بين أمم الأرض حتى تُمثّل بسفارات من الدرجة الأولى ، فإن وجد التمثيل السياسي ، وقلما يوجد ، فهو من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وربما أكثر الدول الإسلامية ليس لها سفارات في دول الأقليات الإسلامية في إفريقية.

ومع أن الصراع بين الإسلام والنصرانية إنما هو على الشعوب المتأخرة أو النامية على اصطلاحهم وهي الموجودة في إفريقية وآسيا ولكننا تخلّينا عن الميدان، وتركناه للنصرانية وإرسالياتها تعمل عملها واتجهنا ـ لما سبق أن ذكرناه ـ إلى أوربا وأمريكا نبني المراكز الإسلامية ونرسل الدعاة وظنّي وإن كان العمل مفيداً نسبياً ومثمراً إلا أنه لا يُعادل شيئاً مما يمكن أن تجنيه المراكز والمؤسسات فيما لو أُقيمت في آسيا وإفريقية وأُنفق عليها النفقات نفسها.

ويزداد جهل المسلمين بالأقليات الإفريقية عن الآسيوية إذ أنه لا يوجد احتكاك بين المسلمين في أمصارهم وبين تلك الأقليات فقد لاحظنا في آسيا أنه قد أصبحت ترد جموع من العمال الآسيويين للعمل في بعض الأمصار وخاصة دول النفط فحدث شيء من الاحتكاك والتعرّف عن أوضاع المسلمين بل إن جماعات من غير المسلمين من هؤلاء العمال قد يدخلون في الإسلام من جديد نتيجة هذا الاحتكاك، وذلك لأن الشعوب الآسيوية أكثر خبرةً وأكثر تطوّراً ونشاطاً ، أما الإفريقيون فلا يزالون في المرحلة الأولى من التطوّر ، مع العلم أن الآسيويين ليسوا أولئك المهرة وإنما الأمور نسبية. إننا لاحظنا جموعاً من الفيليبين، وكوريا ، وتايلاند ، والهند تتجه للعمل في دول النفط من الأمصار الإسلامية، ولا نجد هذا في دول إفريقية.

ولو تعرّضنا لمجالات أخرى لوجدنا حواجز أخرى تحول دون الاحتكاك منها المُناخ، ومنها درجة التطوّر ، ومنها عدم الجهال، فليس في إفريقية المراكز

القائمة في مانيلا، وبانكوك، وسنغافورة... ومع المفاسد القائمة التي تُعطي صورة مُشوّهة عن المسلمين إلا أنه أحياناً ينشأ مجال للتوبة والعمل الصالح أو لدخول بعض الجماعات في الإسلام.

ولا أقول إنه لا توجد هناك اهتمامات بالأقليات المسلمة في إفريقية، فقد توجد، ولكن لا تُؤدّي الغرض المطلوب أو هي دون المستوى اللازم للمهمة المناطة فقد ترسل بعض الدول بعثات للدعوة أو تكون للتمثيل السياسي، ولكن مع الأسف لا تُعطي إلا صورةً مُشوّهةً عن المسلمين، فبعثات الدعوة تعمل بالسياسة ورجال السلك السياسي يقومون بأعمال دون ذلك. وبالمقابل هناك أعمال إيجابية نسبياً فرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة تعمل على إنشاء مراكز إسلامية في دول الأقليات خاصةً وفي الأمصار أيضاً في سبيل توجيه المسلمين ولكن هذه المراكز لا تملك عادة الإمكانات الكافية التي يمكن مقارنتها مع أضعف إمكانات الإرساليات التنصيرية، ومع ذلك تُؤدّي بعض الواجبات، كما تقوم دائرة الافتاء والإرشاد والبحوث الإسلامية بإرسال الدعاة وغالباً ما يكونون على درجةٍ جديدةٍ من الصلاح - هكذا نظنّ - ولكن العدد قليل جداً لا يُغطي جزءاً من العمل فما هو أثر داعية في دولةٍ واسعةٍ!! وليس لديهم أيضاً المؤهلات اللازمة للعمل المناط بهم. كما تقوم هذه الدائرة بإرسال الكتب الإسلامية ولكن من غير تخطيط ودراسةٍ منهجيةٍ للكتب المرسلة، فقد تكون مفيدةً جداً غير أنها لا تصلحُ للمبتدئين أو لأهل تلك البلدان ذات الثقافة الإسلامية المحدودة.

إن الأقليات المسلمة في إفريقية بحاجة إلى مدّهم بالأساتذة للدراسات الإسلامية والعلوم العربية، وبحاجة إلى الكتب النافعة الإسلامية والثقافية، وبحاجة إلى دُعاةٍ مؤهلين يتمثّلون الإسلام بسلوكهم وأقوالهم، وبحاجة إلى مراكز للتوجيه على أن تضمّ مكتباتٍ ومستوصفات، وبحاجةٍ إلى مساعداتٍ ماديةٍ، وتمثيلٍ سياسي مع دولهم على أن يكون رجال السلك السياسي من

أصحاب الثقافة الإسلامية... إننا إذا قمنا بهذا نستطيع أن نقف في وجه الإرساليات التنصيرية، بل ستنسحب من الميدان، وتتخلّى عنه مقهورةً أمام المدّ الإسلامي الذي سيجتاح القارة ـ بإذن الله ـ.

إن الأقليات المسلمة في إفريقية تتوزّع في تسعٍ وعشرين وحدةً، أربع وعشرون منها مستقل، ومع هذا الاستقلال فإن المسلمين في ضياع يكاد يكون تاماً، وليس بين هذه الدول سوى دولةٍ شيوعيةٍ واحدةٍ هي أنغولا، التي ربما يكون ذلك سبباً في تعليل تقصيرنا، وما هو بسبب. حتى لنستطيع أن نقول: إن المسلمين في نصف الكرة الجنوبي في القارة الإفريقية في ضياع، وإن اهتمام إخوانهم بهم ضئيل. وأما الوحدات الخمسة غير المستقلة وهي جزر، أربع منها في غربي إفريقية، وهو كناريا (الخالدات) تحت السيطرة الإسبانية، وجزر ماديرا وجزر الرأس الأخضر تحت النفوذ البرتغالي، والقديسة هيلانة تحت النفوذ الإنكليزي وهذه الأجزاء في غاية الاهمال والضياع، ويشبه وضع المسلمين فيها وضعهم في أنغولا، وربما نُعلّل هذا الضياع بسبب العنت الاستعماري والتسلط الصليبي غير أن هذا لا يعفينا من المهمة الملقاة على عاتقنا، فالصليبيون يتصرّفون من منطلق عقيدي ومصلحي، ونحن لا نعرف الانطلاق. وأما المستعمرة الخامسة وهي التي تقع في شرقي إفريقية في المحيط الهندي فهي جزر الدبرا التي تخضع للسيطرة الإنكليزية، فشأن المسلمين فيها كشأن إخوانهم في غيرها.

ونُلاحظ أن المناطق التي تقع في إفريقية شمال خط الاستواء تزيد فيها نسبة المسلمين على ٢٥٪، أما المناطق التي جنوب خط الاستواء فتنخفض مباشرة إلى ما دون عشر إذا استثنينا شرقي إفريقية بسبب التجارة التي كانت قائمة والإمارات التي نشأت في المنطقة، وبوروندي التي كانت جزءاً من تانزانيا التي تعدّ من بين أمصار العالم الإسلامي. وأما الجزر التي تقع شمال خط الاستواء في المحيط الأطلس غرب القارة الإفريقية فإن النسبة فيها منخفضة

أيضاً لانفصالها عن البر الافريقي، وعدم انتقال التجار إليها لقلة سكانها، وضعف الملاحة عند المسلمين في غربي إفريقية، كما أنه في وقت القوة الإسلامية لم تكن أمريكا قد عُرفت على نطاقٍ واسعٍ لتكون هذه الجزر محطاتٍ تجاريةً، فلما عرفت وازداد سكانها كانت قوة المسلمين قد أفلت.

وقلت: إن أمريكا لم تكن معروفةً على نطاقٍ واسعٍ لأن المسلمين كانوا قد وصلوا إليها واستقرّ بعضهم فيها، ولكن لم تكن على تلك الأهمية لقلّة السكان الذين يُقيمون فيها ممن أُطلق عليهم اسم (الهنود الحمر)[1].

من دلائل الإهمال الإسلامي للأقليات في إفريقية أن كل الدول التي تحكمها الأقلية النصرانية لا نعرف نسبة المسلمين فيها بشكلٍ صحيحٍ بل قريبٍ من الصحة، وبناءً عليه نعدها دولاً غير مسلمة ومنها: سيراليون، وساحل العام، والتوغو، وبنين، وإفريقية الوسطى، وتانزانيا، والحبشة. وتزداد عدم المعرفة فنخرج فولتا العليا، وغينيا ـ بيسارو ـ والكاميرون من دائرة أمصار العالم الإسلامي وذلك لعدم معرفتنا أي شيءٍ عن هذه الأمصار فجهلنا لها يجعلنا نستبعد أن تكون ضمن العالم الإسلامي.

ويختلف من يتعرّض لمثل هذه الموضوعات ـ وقلّما أن يُتعرّض لها ـ في تعريف المصر الإسلامي، فيرى بعضهم أنها الدول التي انضمّت إلى منظمة المؤتمر الإسلامي لذا فإنه يُدخل الغابون، وأوغندا ضمن أمصار العالم الإسلامي ويخرج من دائرة العالم الإسلامي دولاً أبعدتها السياسة ودولاً نأى بها حكامها من النصارى، وبذا يكون قد نظر إلى الحكام وأهمل الشعوب، والمستعمرون الصليبيون كثيراً ما سلّموا مناصب الحكم إلى أبناء عقيدتهم من النصارى قبل أن يخرجوا من البلاد. وبعضهم من لا يقبل إلا الاحصاءات التي تُقدّمها

(١) انظر الكشوف الجغرافية حقيقتها ودوافعها ـ للمؤلف.

الأمم المتحدة، وما هي إلا إحصاءات الدولة بالذات فيكون قد وقع في الغلط الأول، لذا فإنا نعتمد تقديرات المسلمين ونأخذ الشعوب ونُغفل الذين سلطـوا على البلاد والعبـاد. ولا تـوجـد دول مختلـف في انتمائهـا إلى العـالم الإسلامي إلا في القارة الإفريقية، مع خلافٍ أيضاً عن الأمصار التي تخضع للسيطرة الشيوعية الروسية والصينية.

الأقلّيّات المُسْلِمَة
في
قَارة أُوروبا

اتجه المسلمون نحو أوربا فاتحين في مراحل متعددةٍ من التاريخ، كما اتجهوا مهاجرين واستقرّوا فيها. لقد ساروا إليها من الجنوب الغربي، كما انطلقوا من الجنوب، ومن الجنوب الشرقي، ومن الشرق.

لقد توجّه المسلمون من الجنوب الغربي ففتحوا الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري، واستقرّوا هناك، ودعوا إلى دينهم فانتشر، وخيّمت حضارتهم على ربوع الأندلس عدّة قرون وكانت مركز إشعاع يُقبل إليها طلاب العلم من أوربا ينهلون من المعارف. ومن الأندلس اتجه المسلمون نحو فرنسا فأخذوا أكثر من نصفها الجنوبي، واستوطنوا في الجنوب أكثر من نصف قرن، وكانت مدن ذلك الجزء في تلك المرحلة من التاريخ مَعْلَماً من معالم الحضارة، وربما برز اسم مدينة «مونبليه» بين أسماء ما جاورها من المدن لكثرة من جاءها من روّاد العلم. ثم نزل المسلمون في جنوب شرقي فرنسا عام ٢٨٥ للهجرة، ووصلوا إلى شمالي ايطاليا وإلى سويسرا، واستمر كيانهم هناك حتى عام ٣٦٥ هـ.

وتوجّه المسلمون فاتحين لجنوب أوربا ففتحوا مالطة عام ٢٥٦، كما كانوا قد فتحوا (قوصرة)[1] وصقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وجزر البالئار،

---

(١) تسمى اليوم بانتيليرا.

وجنوبي ايطاليا، وجزيرة كريت، واستقرّ المسلمون في هذه المناطق مدةً من الزمن، وبلّغوا دينهم ونشروا حضارتهم حتى جاء الغزو الصليبي.

أما من جهة الجنوب الشرقي فقد غزا المسلمون القسطنطينية بإمرة يزيد ابن مُعاوية بن أبي سفيان عام ٥٠ هـ، وتأخر فتحها لأسبابٍ كثيرةٍ، وتوقّف الفتح في هذه الجهة عدة قرون حتى قامت الدولة العثمانية وتقدّمت في أوربا من ناحية الجنوب الشرقي، وامتدّت فتوحاتها هناك، واستقرّ بعض العثمانيين في تلك الجهات، كما أسلم بعض سكان المنطقة، فظهر الكيان الإسلامي من جديدٍ في أوربا بعد أن كاد يندثر، واستمّر التقدّم حتى جاء الغزو الصليبي فقضى على هذا الكيان ولم يبق منه إلا القليل.

واعتنقت الإسلام جماعات في شرقي أوربا عُرفت باسم (البُلغار) كما عرفت بذلك حاضرتها، وهي في موقع مدينة (قازان) اليوم. اعتنقت هذه الجماعات الإسلام في وقتٍ مُبكّرٍ عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يفدون إلى تلك المناطق، ويتاجرون بالفراء وكافة السلع التي يحصلون عليها من البلاد الشمالية، وقد طلب البُلغار من الخليفة العباسي المقتدر بالله أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين، فأرسل إليهم وفداً معه قائده أحمد بن عباس (ابن فضلان)، وذلك عام ٢٩٥ هـ، وقد دخلت جماعات كثيرة منهم في الإسلام، ولكن لم تمض مدة حتى تحرّكت قبائلهم نحو الغرب والجنوب الغربي، واستقرّت في جنوب شرقي أوربا منهم المسلمون، ومنهم الذين تأثّروا بالإسلام، ومنهم غير المسلمين، ومن هذه القبائل البُلغار الذين سكنوا المنطقة التي أخذت اسمهم وهي (بلغاريا)، وقبائل (الباشغرد) الذين أقاموا في المجر، وهم من المسلمين، ولا تزال جماعات منهم في مواطنهم الأصلية في حوض نهر الفولغا وجبال الأورال، ويُعرفون بالاسم نفسه (الباشغرد) أو (الباشكير)، ولهم جمهورية خاصة بهم اليوم[١]. ومنها قبائل

(١) انظر الجزء السابق من هذه الموسوعة، وهو الجزء الحادي والعشرون «المسلمون في الامبراطورية الروسية».

البوشناق (البوسنة) التي تُقيم في يوغوسلافيا اليوم، وتُعرف منطقتها باسمها (البوسنة والهرسك)، ومنها قبائل الكومان التي أقامت في منطقة ألبانيا اليوم، وكان لها تأثير كبير على النصارى حتى نشأت كنيسة خاصة عُرفت باسم كنيسة (البوجوميل) التي تحمل اسم الطائفة الخاصة بها، ويظهر على هذه الكنيسة الأثر الإسلامي واضحاً. غير أن أكثر هذه القبائل قد زال عنها الأثر الإسلامي لأنها لم تكن من قبل قد تمكنت به، ولانقطاع صلتها مع إخوانها المسلمين في بقية الأمصار.

وجاء الإسلام إلى أوربا من جهة الشرق أيضاً، فعندما دخل المغول أوربا واجتاحوا روسيا وبعض جهات أوربا الشرقية (٦٣٣ - ٦٣٥ هـ)، وجعلوا منها مقاطعةً مغولية، ولكن لم تلبث أن أسلمت هذه القبائل، فكان حوض نهر الفولغا، وجبال الأورال، وشبه جزيرة القرم والأجزاء الشمالية منها ذات أكثريةٍ مسلمةٍ إضافةً إلى تجمّعات أُخرى في المدن الكبرى أمثال موسكو وكييف وغيرها، وكانت للمغول دولة كبرى مقرها (ساراي) على نهر الفولغا هي مكان (ساراتوف) اليوم [١].

ومع الغزو الصليبي الذي قام مع نهاية القرن التاسع الهجري طُرد المسلمون من الأندلس، وقامت محاكم التفتيش، فأُبيد جميع من طالتهم أيدي الصليبيين، ونجا من تمكّن من الفرار، وهناك من أعلن اعتناق للنصرانية خوفاً وجزعاً أو تقية وانتظاراً، وبذا فقد خلا جنوب غربي أوربا من أي أثرٍ للإسلام. وكان قد سبق هذا إبادة المسلمين أيضاً في جنوب أوربا من جزر صقلية، والبالئار، وشرّدوا من جزر سردينيا وكورسيكا، وكذلك من جنوبي ايطاليا، ومن جزيرة قوصرة، وجزيرة كريت ولم يبق سوى أثر في جزيرة مالطة إن تجاوزنا بعض الشيء.

---

(١) انظر الجزء السابق من هذه الموسوعة، وهو الجزء الحادي والعشرون «المسلمون في الامبراطورية الروسية».

ومع الغزو الصليبي نفسه ومع ضعف الدولة العثمانية وتراجعها التدريجي نحو الجنوب الشرقي كان المسلمون يتراجعون، وعندما زالت الخلافة وقضي عليها لم تبق إلا أقليات في جنوب شرقي أوربا، تجمّع بعضهم فكانوا أكثريةً في دولة ألبانيا، فهي دولة مسلمة اليوم بالنسبة العددية والانتماء، وفي مقاطعة البوسنة والهرسك في يوغوسلافيا، ولا يزالون يخضعون لحرب الإبادة في بلغاريا، كما أُبيد منهم من أُبيد في جزيرة كريت، وشُرّد من شرّد، وفرّ الذي استطاع النجاة حتى خلت الجزيرة من أي أثرٍ للإسلام. وبقيت مجموعة أيضاً من المسلمين في كل من اليونان، والمجر، ورومانيا.

أما من ناحية الشرق فقد ثبت التتار رغم الضغط العنيف والحقد الصليبي الشديد، وإن كان قد أُبيد منهم الكثير، وفرّت أعداد حتى سيطر في النهاية الاستعمار الصليبي الإلحادي الروسي الشيوعي فسحق الناس وأذلّهم إلى درجةٍ كبيرةٍ من الذلّ أنستهم عقيدتهم كما أنستهم إياها التربية الإلحادية، وألجأهم إلى كتمانها وإخفائها السيف المصلت دائماً على المسلمين فكل من يتوجّه منهم نحو الإسلام يكون الموت مصيره وبأقصى سرعة.

ومع بداية القرن الرابع عشر الهجري لم يكن في أوربا من أثر للإسلام سوى التتار في أوربا الشرقية وأقليات من المسلمين في جنوب شرقي القارة في يوغوسلافيا، ورومانيا، وبلغاريا، واليونان إضافة إلى دولة ألبانيا ذات الأكثرية المسلمة.

العصر الحديث: بدأ المسلمون يرجعون إلى أوربا حديثاً ولكن ليس على الصورة التي دخلوا فيها أول مرةٍ حيث لم يأتوا في هذه المرة فاتحين، ولم يُقبلوا دُعاةً، ولم يفدوا مؤثرين، وإنما جاءوا عمالاً، وجاءوا فارين من بلدانهم تحت الضغط الذين يحيق بهم، وتحت تأثير المخططات المرسومة لهم ولبلدانهم، وجاءوا طلاباً للعلم ومُتأثّرين في أغلب الأحيان، كما أرسلوا ممثلين سياسيين لدولهم.

سيطرت انكلترا على شبه القارة الهندية عام ١٢٧٤ هـ سيطرة تامة وعدّتها جزءاً منها، أو سمتها من ممتلكات التاج البريطاني فانتقل عدد من الهند للعمل في انكلترا التي تحتاج مثل هذه الأيدي العاملة وخاصةً في الصناعة الناهضة، كما عمل عدد منهم في الجيش أو سيقوا إليه، فخدم بعضهم في انكلترا نفسها ليكون على مقربة من ميدان الأحداث التي كانت تعجّ بها أوربا يومذاك.

وسيطرت فرنسا على الجزائر عام ١٢٤٦ هـ وعدّتها جزءاً من أراضيها، ثم سيطرت على تونس في مطلع القرن الرابع عشر، وعلى المغرب في الثلث الأول من القرن نفسه، وبدأت هجرة عمالية من بلاد المغرب إلى فرنسا، وخاصةً من الجزائر.

واشتدّ الضغط الروسي على التتار ففرّ عدد منهم إلى أوربا الغربية، واستقرّوا فيها، وتبعهم أمثالهم عندما قامت الحركة الشيوعية، وتغلّب الجيش الأحمر على الأمصار الإسلامية في شرقي أوربا والتي تخضع للروس.

وبدأ المسلمون يتجهون إلى العلم فانطلقوا نحو مصدره الذي غدا في أوربا حيث سار عدد من الرجال يطلبون العلم في مختلف فروعه وخاصةً في فرنسا وانكلترا، فبدأت تظهر بعض التجمعات الإسلامية وإن كانت لا تزال على مستوى ضيق ومحدود.

وأخذت الدول الإسلامية تستقل عن المستعمرين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، فكانت تُؤسّس سفارات لها في ديار الغرب، وتبعث بالممثلين السياسيين لها فكانوا وأُسرهم يُقيمون هناك، ويزداد عددهم يوماً بعد يوم مع استقلال دول جديدة.

وبعد الحرب العالمية الثانية سقطت دول أوربا الشرقية تحت السيطرة الشيوعية فهرب كثيرون من المسلمين إلى دول أوربا وخاصةً من اليوغوسلاف والألبان.

وزادت الأزمات السياسية في البلدان الإسلامية، وكان يخرج إثر كل أزمة فوج من المسلمين، ولم يجدوا لهم مكاناً أرحب من دول أوربا ذات الحياد مثل سويسرا والنمسا أو الدول الاسكندينافية، وإن لم تخل دولة في غربي أوربا منهم، إذ هي التي تفتح أبوابها عادةً لمثل هؤلاء الهاربين بينما أبواب دول شرقي أوربا موصدة لا تفتح إلا أمام الشيوعيين والذين تحرّكوا في سبيلها، وهربوا من أجلها.

وجاءت الحكومات العسكرية إلى بعض البلدان الإسلامية، وهي معروفة بالطغيان إلا من رحم، ومعروفة بالدور الذي جاءت من أجله، ومعروفة بأن حكم العقل والمنطق غير وارد، فكثر المُشرّدون المسلمون، وكان الرُّحَّل ينتقلون باستمرار من منطقة إلى أخرى.

وازداد طلب العلم، وكثرت الحاجة إلى الخبرة، وتضاعفت الرغبة في الرحلة سواء أكانت للاطلاع أم إلى النزهة. كل هذا زاد من عدد المسلمين في أوربا، وغدوا جالية كبيرة تُشكّل في كثيرٍ من الدول المجموعة الثانية من حيث العقيدة، وغدت بحاجةٍ إلى بعض المؤسسات لتحافظ على كيانها، أو أنها وجدت نفسها بحاجة إلى هذه المؤسسات مع الزمن ما دامت مستقرّة أو مستمرّة في قدومها وإن تبدّل أعضاؤها، وهذا ما لفت نظر الأوربيين إلى هذه الظاهرة، وشغلت حيزاً من تفكيرهم فيها. وهذا الكيان الإسلامي الجديد لا بدّ من أن يكون له أثره على عقيدة سكان أوربا، حتى صار عدد منهم يُقبل على الإسلام، ومنهم رجال لهم مركزهم العلمي أو السياسي أو الاجتماعي، وبذا نستطيع أن نقول: إن الإسلام بدأ يغزو أوربا من جديد، وسنتحدث عن هذا الغزو حسب الكيانات السياسية القائمة، وإن كانت بعض الاختلافات بين دول أوربا الغربية ودول أوربا الشرقية. وسنتعرّض في كل كيان إلى لمحةٍ خاطفةٍ عن تاريخ الإسلام في هذا الجزء سواء أكان في الماضي أم في العصر الحديث.

أ- دول غربي أوربا

لا يقصد بدول غربي أوربا البلدان التي تقع في غربي تلك القارة وإنما يقصد به الدول التي تأخذ بنظام الدول الواقعة في غربي أوربا، وهو ما يُعرف بالنظام الحر، أو نظام الغرب، أو النظام الرأسمالي والذي يقابل نظام دول أوربا الشرقية أو النظام الشيوعي. لذا فإننا سنجد دولاً تقع فعلاً في غربي أوربا وأخرى في وسطها، وثالثة في الجنوب منها، ورابعة في الجنوب الشرقي.

يزداد عدد المسلمين في هذه الدول حسب المستعمرات القديمة فنجد الهنود مثلاً يكثرون في انكلترا وأقصد بالهنود سكان شبه القارة الهندية كلها (الهند ـ باكستان ـ بنغالديش ـ سيريلانكا) ويكثر سكان بلاد المغرب في فرنسا، واسبانيا، وبصورة عامة يكثر العمال المسلمون القادمون من البلاد الناطقة بالفرنسية والبلدان التي كانت مستعمراتٍ فرنسية في فرنسا، بينما يكثر العمال المسلمون القادمون من البلدان الناطقة بالإنكليزية في انكلترا.

ويزداد عدد المسلمين في هذه الدول حسب التطوّر الصناعي إذ نلاحظ أن الدول الصناعية مثل انكلترا، وفرنسا، وبلجيكا وألمانيا و... يكثر فيها العمال المسلمون، وغالباً ما يأتي هؤلاء العمال من الأمصار الإسلامية الفقيرة والكثيرة السكان وفي مقدمتها تركيا، وبلاد المغرب، وباكستان، مع قلة نسبية من أندونيسيا وأخرى من مصر إضافةً إلى الهند حيث تعيش فيها أقلية مسلمة

تزيد على الثمانين مليوناً، بينما نجد العمال المسلمين أقل من ذلك في البلدان الأقل تطوراً مثل اسبانيا، وايطاليا، وسويسرا، والنمسا، واليونان.

ويزداد المسلمون في بلدان أوربا الغربية حسب التطوّر العلمي إذ هذا يجعل الطلاب المسلمين الوافدين إليها يأخذون من معارفها التي غدت مشهورة بها مثل انكلترا، وفرنسا، وألمانيا.

ويزداد السياسيون والمصطافون في سويسرا بشكل عام، وربما كانت هذه أكثر من غيرها. ويكثر الأتراك في جنوب شرقي القارة ويعود معظمهم إلى أيام الفتوحات العثمانية حيث استقرّ عدد من الأتراك هناك. ويزداد التتار في فنلندا و...

وعلى هذا نجد أكثر المسلمين يتجمّعون في فرنسا، وانكلترا وألمانيا للتطوّر الصناعي، والعلمي، إضافةً إلى أثر الاستعمار حيث توجه سكان المستعمرات إلى بلد المستعمر للعمل والخدمة، ونجد الأتراك في اليونان. وإذا كان أكثر العمال من تركيا، والمغرب وباكستان فإن طلاب العلم من مختلف الأمصار الإسلامية، ولا يقلّ عنهم السياسيون إذ أكثر الأمصار الإسلامية قد تعرّضت لمحن ونكبات، وحكومات عسكرية، وإن كان حظ بلاد الشام أكثر من غيرها، لطبيعة أهلها الحركية وللتركيز عليها من قبل الأعداء، ودول هذا الجزء هي:

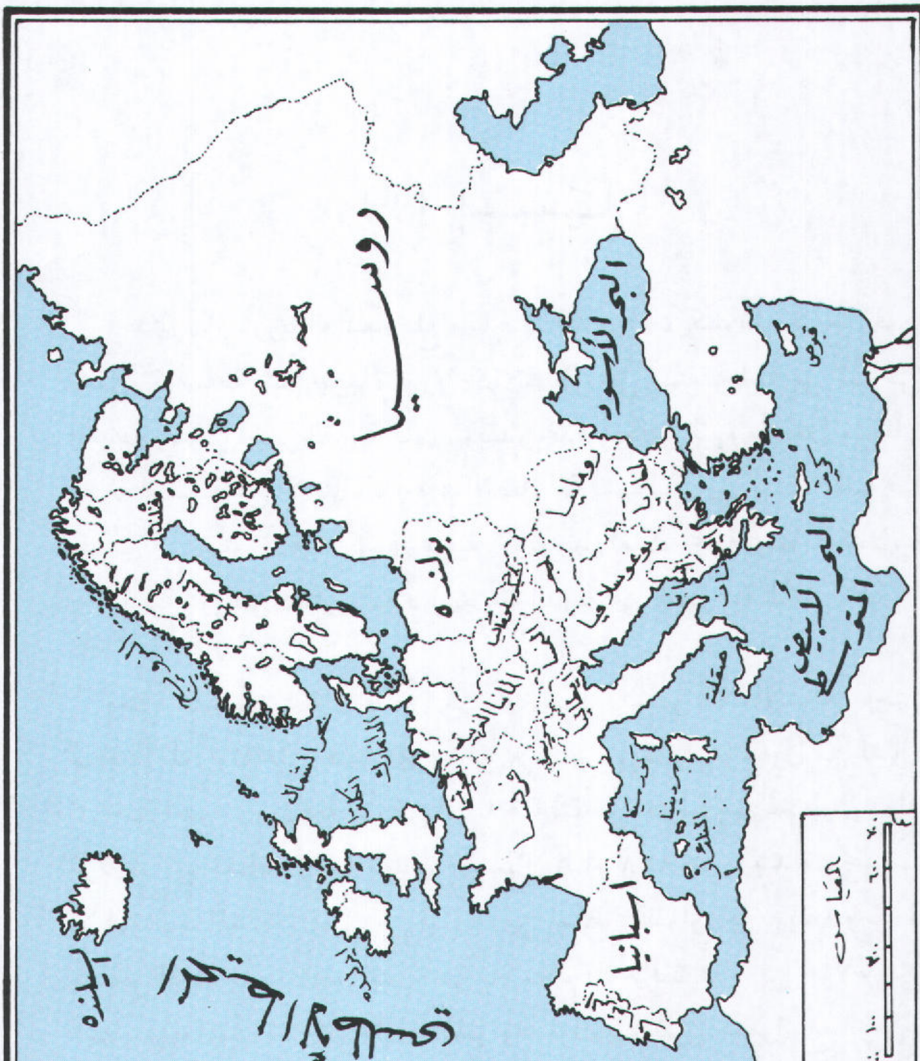

مصور رقم [٤٢] .

(١) إسـبانيـا

إحدى دول أوربا الواسعة تبلغ مساحتها ٥٠٤,٧٨٢ كيلومتراً مربعاً، فهي تشغل ٤/٥ مساحة شبه جزيرة ايبريا كما تسيطر على سبتة ومليلة من سواحل المغرب وبعض الجزر القريبة منها. ويُقدّر عدد سكانها اليوم بأربعين مليوناً، واللغة الرسمية هي الإسبانية، وهي بالأصل لغة قشتـالـة، وفي هـذه اللغـة مـا يقرب من ستة آلاف كلمة عربية، وتوجد لغات محلية منها الكتالانية والجيليقية، وينص دستور البلاد أن ديانة الدولة هي النصرانية الكاثوليكية.

دخل المسلمون البلاد فاتحين عام ٩٢ هـ، واستمرّ المدّ الإسلامي حتى ضعف أهله، وتقاعس حملته فقوي أمر الإسبان، وبدؤوا يتوسّعون من الشمال إلى جهة الجنوب، ورقعة الأرض الإسلامية تتقلّص حتى لم تبق لهم سوى دولة غرناطة التي سقطت أخيراً بأيدي الإسبـان عـام ٨٩٨ هـ. وبـدأت حـرب الإبادة ضدّ المسلمين فقتل من قُتل، ومن استطاع الفرار نجا بدينه، ومن لم يستطع النجاة أظهر النصرانية وأسرّ بالإسلام، وحافظ عدد من هؤلاء على دينهم بهذه الصورة، وإن كان التطبيق والسلوك يتناقص باستمرار مع الزمن، وربما ينتهي هذا بعد جيلين أو ثلاثة أجيالٍ على الأكثر غير أن الذي ساعدهم على المحافظة على شيء من الإسلام أنهم كانوا يُؤلّفون جمعياتٍ سرية يُعلّم بعضها بعضاً الإسلام، كما كانوا يُعلّمون أطفالهم شيئاً من أمر دينهم.

كما ألّفوا كتباً باللغة الإسبانية ولكنهم استعملوا الحرف العربي في كتابتها ، وهذه الكتب في سيرة رسول الله، ﷺ ، وتفسير بعض سور القرآن لتلقينها لأطفالهم ولاستمرار معرفتهم لها ، ولا تزال هذه الكتب في المكتبـات الإسبانية . ويحاول هؤلاء المسلمون سرّاً الهرب إلى المغرب كلما وجدوا فرصةً مناسبةً لهم. وقد سُمّي هؤلاء المسلمون سراً بـ (الموريسكيون) وتعني المسلمون الصغار .

لم يف النصارى بشروطهم التي تعهدوا بها في معاهدة تسليم غرناطة ، وتعهد بها البابا أيضاً ، وعـاد فـرناندو وإيـزابيلا بتعهـدهما في ٢١ محرم ٨٩٧ هـ ثم أكّداه ثانية عام ٨٩٨ في ربيع الأول. لكن بعد سبع سنوات عاد الملكان فأجبرا المسلمين الذين بقوا في الأندلس على التنصر عام ٩٠٤ هـ ، وأجبراهم على الانتقال من مدينة غرناطة إلى ما حولها من القرى والأرياف. ومن رفض التنصر أُبيدوا جميعاً إذ رفضت بعض القرى التنصر مثل (بَلْفِيق) و (أَنْدَرَاش) و (نجر) و (البُشَرّة) .

وكان (الموريسكيون) المسلمون سراً يـأملـون وصـول العثمانيين إليهـم وإنقاذهم غير أن آخر حملةٍ كانت لمهاجمة الأندلس عـام ٩٤٢ هـ بـإمـرة خير الدين باربروس الوالي العثماني على الجزائر. ورفض بعض المسلمين أيضاً التنصر ، وانحازوا إلى جبل (بللنقة) ، وأخذوا أموالهم وعائلاتهم ، وجاءتهم قـوة كبيرة بإمرة صاحب قرطبة فقاتلوهم وجرت بين الطرفين عدة معارك ذكرهـا بعضهم أنها وصلت إلى ثلاث وعشرين معركة انتصر المسلمون فيها جميعها ، وقتلوا من أعدائهم الكثير ومنهم صاحب قرطبة أمير الجيش النصراني ، عندئذ سمح لهم الإسبان بالانتقال إلى المغرب مع عائلاتهم وأموالهم وما يمكن حمله من السلاح .

وشعر الإسبان بكتمان الإسلام عند بعض الموريسكيين فأخرجوهم عام ١٠١٧ بعد أن أخذوا منهم أموالهم كلها ، وأبناءهم الذين تقلّ أعمارهم عن خمسة أعوام ، وخرج يومها حوالي مليـونين مـن الذيـن يكتمـون إسلامهـم

وتوزّعوا على الشواطىء المغربية والعثمانية، وغيّروا حينئذٍ أسماءهم النصرانية التي تسمّوها عندما أظهروا النصرانية، ورجعوا إلى أسمائهم الإسلامية التي سمّاهم بها آباؤهم. ومع طرد هذا العدد الكبير من الأندلس لكنه بقيت أعداد أخرى لا نعرف عددها. وكان من يظهر لمحاكم التفتيش أنه يكتم إسلامه تحرقه حيّاً.

عمل الأندلسيون الذين فرّوا إلى المغرب والذين كانوا يكتمون إسلامهم على غزو الأندلس بمساعدة الجزائريين وتأييدٍ من العثمانيين غير أن السلطان السعدي المأمون قد فضح هذا الأمر تقرّباً من النصارى للمنافسة على السلطة، وهذا ما جعل الاسبان يقضون على من بقي من الموريسكيين ـ حسب رأيهم ـ وذلك عام ١٠١٩ هـ، وهذا أيضاً ما أسقط هيبة السلطان المأمون فقُتل عام ١٠٢٢ هـ، وقويَ أمر منافسيه، وانتهت الدولة السعدية عام ١٠٧٧ هـ.

وبقي بعض الموريسكيين في الأندلس غير العدد الكبير الذي طرد، والعدد الكبير الذي أُبيد إذ ضبطت محاكم التفتيش عام ١١٨٣ هـ مسجداً سرياً في مدينة قرطاجنة أو بالطبع مكان يلتقي فيه الذين يكتمون إسلامهم ويُؤدّون صلاتهم التي تُدركهم.

وأُعطيت حرية الأديان عام ١٣٨٧ هـ حيث صدر قانون بذلك، وأعلن عدد منهم إسلامهم، أو أشهروه، أو أعلنوا أنهم رجعوا إلى الإسلام، وتسمّوا بأسماء إسلامية، ويذكر منهم المحامي خليل بن أمية، ويوسف علي الجبابري[١] و...

ويُقيم في إسبانيا اليوم أكثر من مائة ألف مسلم، أكثر من نصفهم عمال موقّتون أكثرهم من المغرب وأقلهم من الجزائر، و١٥ ألفاً إسبان، أو يحملون

(١) المسلمون في اوروبا وامريكا ـ علي المنتصر الكتاني ـ الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ المجلد الاول ص ١٨٣.

الجنسية الإسبانية، و ١٥ ألفاً من الطلاب، و ١٢ آلاف من المقيمين الأجانب ثلاثة أرباعهم من بلاد الشام.

يتوزّع المسلمون في مدن إسبانيا وأكثرهم في مدريد (مجريط) وغرناطة.

المؤسسات الإسلامية: يوجدد عدد من التنظيمات الإسلامية غير المتفقة ـ مع الأسف ـ منها:

١ ـ الجمعية الإسلامية في مدريد ولها فرع في غرناطة، وفروع أخرى في بقية المدن، وتُصدر مجلة (العروة الوثقى)، وترتبط هذه الجمعية بمركز آخن في المانيا.

٢ ـ المركز الإسلامي في غرناطة وله فرع في مدريد وفروع في بقية المدن ويرتبط بالتنظيم الدولي للإخوان المسلمين.

٣ ـ الاتحاد الإسلامي في برشلونة وسرغوسة.

٤ ـ اتحاد الطلاب المسلمين في غرناطة.

٥ ـ الهيئة الإسلامية في غرناطة.

٦ ـ المعهد الإسلامي الإسباني وقد تأسّس عام ١٣٧٤ بتوجيه من طه حسين، وهكذا أسماه، وفي واقعه معهد مصري للدراسات الأندلسية، وليس فيه شيء ما يُشير إلى الإسلام.

وتوجد أماكن للصلاة لأكثر هذه المؤسسات وغالباً ما تلحق بها مدارس للتعليم الأولي.

وفي شمال إسبانيا بينها وبين فرنسا في جبال البيرنة إمارة أندورة التي استقلت عام ١٣٧٨، ولا تزيد مساحتها على ٤٥٣ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها على ستة آلاف، تدين بالكاثوليكية، وتتكلّم اللغة الكتالانية، ولها أميران الأول منهما هو رئيس جمهورية فرنسا، والثاني أسقف إسبانيا، ويُسمّى رئيسها النقيب العام. ولا يوجد في هذه الإمارة مسلمون.

فرنسا
اندورة
كتالونيا
سرقوسة
برشلونة
قشتالة
براغه
أوبورتو
قلمرية
لشبونة
مدريد
«مجريط»
طليطلة
بلنسية
جزر البليار
منورقة
ميورقة
يابسة
قرطبة
المرية
اشبيلية
غرناطة
قرطاجنة
مالقة
المقياس
كيلومتر
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
سبتة
مليلة

مصور رقم [٤٣] .

(٢) البرتغـــال

إحدى دول شبه جزيرة إيبريـا تحيـط بها إسبـانيـا مـن الشمال والشرق وتشرف على المحيط الأطلسي من الغرب والجنوب. تبلغ مساحتها ٨٨,٤٢٩ كيلومتراً مربعاً دون جزر الآصور وماديرا التي تعدّهما من أرضها. فإذا أضفناهما إليها كانت المساحة ٩١,٥٣٠ كيلومتراً مربعاً أي ما يعادل مساحـة الأردن تقريباً.

يزيد عدد سكان البرتغال اليوم على عشرة ملايين نسمة، وتدين الغالبية بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، ويوجد بينهم خمسة وثلاثون ألفاً من النصارى البروتستانت، وألف ومائتا مسلم، وألف من اليهود.

تاريخ المسلمون: فتح المسلمون البرتغال عام ٩٢ هـ عندما دخلوا شبه جزيرة ايبريا، وكانت تعرف باسم غربي الأندلس، ولا يزال الجزء الجنوبي منها يحمل هذا الاسم. وأسلم عدد من السكان الأصليين، ولكن حدثت مجاعة عام ١٢٣ هـ في الجزء الشمالي حيث استوطنت بعض القبائل البربرية المسلمة فاضطرت إلى الرحيل عن الأمكنة التي سبق أن استقرّت فيها، فجاءت جماعات نصرانية وحلّت محلّ تلـك القبـائـل التي ارتحلـت، وأسّسـت عـام ١٣٣ هـ إمارةً نصرانيةً بدأت تتوسّع نحو الجنوب على حساب المسلمين الذين بدؤوا يميلون إلى الضعف.

دخل المنصور بن أبي عامر هذه الإمارة، ولكنه لم يقض عليها، وإنما اكتفى بأخذ الجزية منها، وكانت بلدة (أبورتو) عاصمة هذه الإمارة، ومن اسم هذه المدينة أخذت البلاد اسمها. وعندما قُضي على الدولة الأموية عام ٤٠٠ هـ استطاعت إمارة (أوبورتو) أن تستولي على (براغة)، واستمرّت على توسعها على حساب الإمارات الإسلامية التي نشأت في جنوبي البرتغال اليوم، وهي إحدى دول ملوك الطوائف، وتمكّنت عام ٤٢٩ هـ أن تستولي على مدينة (قلمرية) من ملوك بني الأفطس، وقد نقلت العاصمة إليها.

وعندما جاء المرابطون إلى الأندلس، وقضوا على ملوك الطوائف توقّف المدّ البرتغالي، واستمرّ هذا التوقف ما يزيد على مائةٍ وخمسين سنة، فلما ضعفت دولة الموحدين التي خلفت المرابطين عاد البرتغاليون للتوسّع، وضمّوا إليهم أراضي البرتغال اليوم جميعها، ونقلوا العاصمة من (قلمرية) إلى أشبونة عام ٦٤٨ هـ، وبذا بقي المسلمون في أراضي البرتغال حوالي خمسة قرون ونصف من (٩٢ ـ ٦٤٧ هـ).

وعندما قضى الإسبان على دولة غرناطة عام ٨٩٨، وبدأت حرب الإبادة ومحاكم التفتيش قامت مثلها في البرتغال حيث المسلمين جميعاً.

المسلمون اليوم: وتشكّلت جالية إسلامية قليلة العدد اليوم لا يزيد عدد أفرادها على ١٢٠٠ مسلم، وقد استسوا لهم جميعة عام ١٣٨٨ هـ، وتُصدّر مجلة شهرية باللغة البرتغالية تحمل اسم (الإسلام). وكان مركزها مقر التقاء للمسلمين، ثم بنوا مسجداً لهم في العاصمة.

(٣) جبل طارق

جبل طارق امتداد من البر الاسباني في البحر المتوسط بطول ٤,٥ كيلومتر وعرض لا يزيد على ١,٢ كيلومتر، وتكون مساحته ستة كيلومترات مربعة، ويبلغ ارتفاعه ٤٢٩ متراً.

كان يُطلق عليه قديماً اسم (أعمدة هرقل) بسبب الأعمدة التي كانت قائمةً على طرفي المضيق على شاطىء جبل طارق من الجهة الشمالية الأوربية وعلى شاطىء سبتة من جهة الجنوب على العدوة الإفريقية، وتنسب هذه الأعمدة إلى (هرقل) أحد أبطال الأساطير الإغريقية، لأن المرور منه إلى البحر المحيط الأطلسي لا يقوى عليه إلا الجبابرة.

كما أُطلق عليه اسم رأس (كالبي) بسبب الصخرة التي تربض على الرأس تشبه الكلب، ولعلّ الفينيقيين هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم، ولغتهم تلتقي مع اللغة العربية في الأصول. كما أُطلق عليه اسم (معبر الأسد) للسبب نفسه. وهناك من يقول: إن مضيق جبل طارق قد حُفر بيد البشر للوصل بين البحرين.

ومنذ الفتح الإسلامي اقترن اسمه باسم فاتحه طارق بن زياد، ولا يزال يحمل هذا الاسم. وقد حاول عبد المؤمن بن علي السلطان الموحدي أن يُطلق

عليه اسم (جبل الفتح) وذلك عام ٥٥٥ هـ، بعد أن بنى عليه مدينةً عُرفت باسم (مدينة الفتح) لتكون قاعدةً لجنده، ولكن اسم جبل الفتح قد زال بزوال دولة الموحدين.

وفي عام ٧٠٩ هـ استولى عليه النصارى، وطردوا منه جميع سكانه المسلمين، غير أن السلطان المريني قد عاد واستولى عليه عام ٧٣٢ هـ، وحاول إعادة تسميته جبل الفتح. ورجع عليه النصارى عام ٨٦٨ هـ أي قبل سقوط غرناطة بثلاثين سنة، وبقي في أيديهم.

احتلّت انكلترا جبل طارق عام ١١١٦ هـ عندما اضطرت أن تتخلّى عن مدينة (طنجة) لمصلحة المغرب، واعترفت إسبانيا بهذا الاحتلال عام ١١٢٦ هـ، وهاجر منه أكثر الإسبان، وجاء الانكليز بمهاجرين إليه من مالطة، وجنوه، وإسبانيا. ولا يزال بأيدي الانكليز، وهو منطقة حُرّة. وتُطالب به إسبانيا.

السكان: يبلغ عدد سكان منطقة جبل طارق أكثر من ثلاثين ألفاً منهم:

٢٢,٥٠٠ كاثوليك
٢,٣٠٠ بروتستانت.
٣,٢٠٠ مسلم.
٦٠٠ يهودي.
١,٤٠٠ من جنسيات أخرى.

٣٠,٠٠٠ المجموع.

ويُضاف لهذا سبعة آلاف عدد أفراد الحامية الإنكليزية. وللمسلمين مكان للصلاة فقط. واللغة الرسمية هي الانكليزية، والإسبانية لغة معروفة بين السكان.

أما مضيق جبل طارق فإن طوله يبلغ ثلاثة وأربعين كيلومتراً. وأقرب نقطة بين العدوتين هو أربعة عشر كيلومتراً، وقد تصل أحياناً إلى ٣٨ كيلومتراً، وهو أعرض نقطة بين إفريقية وأوربا.

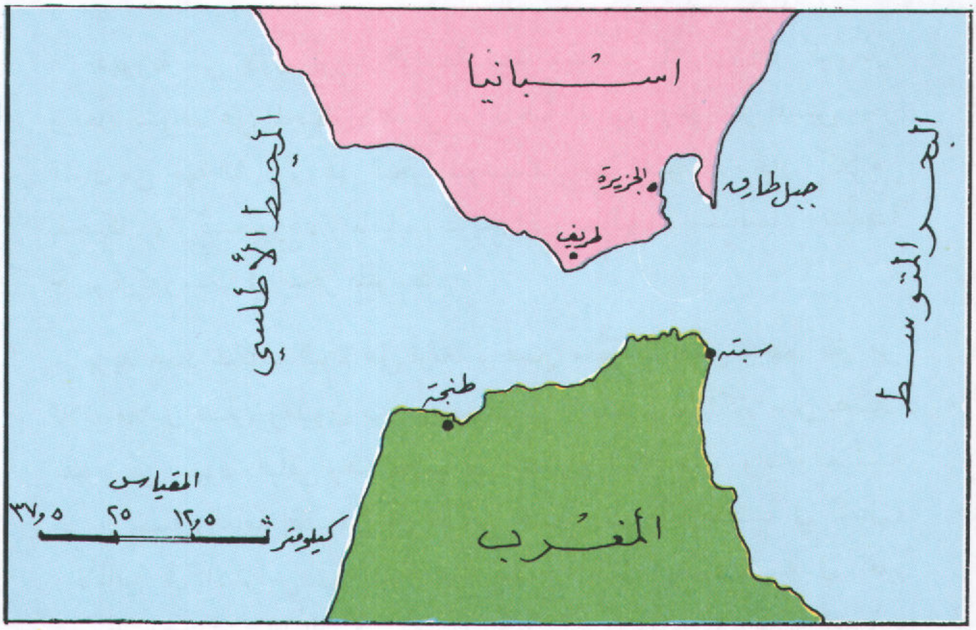

مصور رقم [٤٤].

(٤) فرنسا

جمهورية من دول أوربا الواسعة تبلغ مساحتها ٥٤٧,٠٢٦ كيلومتراً مربعاً، تشرف على المحيط الأطلسي من ناحية الغرب، وعلى بحر المانش وبحر الشمال من جهة الشمال، وعلى البحر المتوسط من جهة الجنوب، وتجاور كلاً من بلجيكا، ولوكسمبورغ، وألمانيا، وسويسرا، وايطاليا، وإسبانيا، وتتبعها جزيرة كورسيكا في البحر المتوسط.

يزيد عدد سكانها اليوم على أربعة وخمسين مليوناً، يعيش بينهم أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، ومليون من البروتستانت النصارى، وأكثر من نصف مليون من اليهود والباقي وهم الغالبية من النصارى الكاثوليك. واللغة الفرنسية هي الرسمية والعامة إضافةً إلى لغاتٍ محليةٍ مثل الفلامنكية في الشمال، والألمانية في الألزاس في الشرق مع حدود ألمانيا، والبروفانسية في إقليم البروفانس في الجنوب الشرقي على الساحل المتوسطي في جهة الشرق، والايطالية في جزيرة كورسيكا، والاسبانية والبشكنجية على الحدود مع اسبانيا، والبريتانية في الغرب في شبه جزيرة بريتاني.

المرحلة الأولى للمسلمين: تقدّم المسلمون في فرنسا بعد فتح الأندلس فقد بدأ الفتح عام ٩٥ هـ حيث دخلوا منطقة سبتمانيا وتقدّموا في وادي الرون حتى وصلوا إلى مدينة صانص على مقربةٍ من باريس من ناحية الشرق،

كما تقدّموا في حوض الغارون ففتحوا مدنه طولوز (طلوشه) وبوردو (بردال) ثم تقدّموا نحو الشمال حتى (بواتييه) حيث جرت معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ، والتي هُزموا فيها وقُتل قائدهم أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقي، واضطروا للانسحاب من حوض نهر الغارون، وحوض نهر الرون، ولكنهم احتفظوا بمقاطعة سبتمانيا (المدن السبعة) ما يقرب من تسعين سنة نشروا فيها حضارتهم، وكانت هذه المنطقة في هذه المرحلة مناراً للعلم، وأشهر مدن هذه المقاطعة (مونبليه).

وفتح الأغالبة جزيرة كورسيكا عام ١٨٨ وبقيت بأيدي المسلمين ١٢٨ سنة إذ استطاع النصارى الاستيلاء عليها عام ٣١٧ هـ.

ورست سفن بعض الأندلسيين على شواطىء إقليم بروفانس شرق مدينة مرسيليا، ونزل أهل السفن في البر عام ٢٧٧ هـ، واعتصموا بالجبال، وأسّسوا إمارةً عُرفت (دولة جبال القلال) ويُسمّيها الاوربيون (الدولة الفركسينية) وتوسّعوا في تلك الجهات فوصلوا إلى شمالي ايطاليا وإلى سويسرا، واستمرّوا هناك حتى عام ٣٦٥ حيث اضطروا أن ينسحبوا منها أمام الضغط الصليبي الذي بدأ يشتدّ.

وفي عام ٩٥٠ استطاع والي الجزائر العثماني أن يحتلّ مدينة نيس، وأن يستقرّ فيها مدة سنة.

وخلت فرنسا بعدها من المسلمين إلا من الذين كان القراصنة الفرنجة يأسرونهم من سفن المسلمين، ومن غاراتهم على شواطىء المغرب فيبيعونهم في أسواق فرنسا عبيداً. وكذلك وصل إلى فرنسا عدد من المسلمين عام ١٠١٧ هـ عندما صدر الأمر بطرد (الموريسكيين) من الأندلس، فقد كان عدد منهم يُقيمون في المناطق الشرقية في أرياف بلنسية ومرسية، فأرادوا الإبحار إلى البلدان العثمانية غير أن السفن قد قادتها الريح نحو فرنسا فألقوا مراسيهم هناك، ونزلوا حيث ذابوا مع السكان على مر السنين. واستمرّت أرض فرنسا

خاليةً من الإسلام حتى جاء العصر الحديث.

المرحلة الثانية للمسلمين في فرنسا: احتلّت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٦ هـ، ثم توسّعت فضمّت تونس، والمغرب، وموريتانيا ومناطق واسعةً من إفريقية الغربية والوسطى وغيرها... وبدأت الهجرة من هذه البلدان إلى فرنسا للعمل وخاصةً من الجزائر، ويظهر أنها بدأت بعد عام ١٢٨٨ إثر ثورتي محمد المقراني، وأولاد سيدي الشيخ، ويبدو هذا من صدور قرار عام ١٢٩٢ هـ يفرض على الراغب في الهجرة الحصول على موافقة مسبقة من السلطات الفرنسية، وتقديم كفالة مالية تضمن عودته لبلده، غير أن هذا القرار قد أُلغي عام ١٣٢٢ هـ فأخذت الهجرة في الزيادة.

بدأت هجرة الباعة الصغار والمختصين بنقل الحيوانات وكانت جهتها الشاطىء الفرنسي الجنوبي وخصوصاً مدينة مرسيليا، ثم تدفّقت اليد العاملة وخاصةً للعمل في مناجم الفحم في شمالي فرنسا. ولم تلبث المصانع الفرنسية أن أصبحت هي التي تطلب اليد العاملة الجزائرية. ثم صدر قرار في ١٥ ذي القعدة ١٣٣٤ يقضي بمصادرة الجزائريين ونقلهم إلى فرنسا للعمل هناك، وكان أكثر القادمين من منطقة (القبائل)، ثم لحق بهم العمال من تونس والمغرب حيث شملهم قرار المصادرة. ولا يدخل في قائمة هؤلاء العمال الأعداد الكبيرة من الجنود الذين دعوا لتأدية الخدمة العسكرية الإلزامية من بلاد إفريقية الشمالية.

وبعد انتهاء الحرب عاد كثير من المهاجرين إلى أوطانهم خلال عام ١٣٣٧، لكن لم تلبث الحكومة الفرنسية أن شعرت بحاجتها الشديدة إلى اليد العاملة لإعادة إعمار ما خرّبته الحرب، واستصلاح الألزاس واللورين المقاطعتين الشرقيتين اللتين استرجعتها فرنسا من ألمانيا بعد أن خسرتها في حرب عام ١٢٨٨ هـ، الأمر الذي جعل الهجرة تعود إلى فرنسا بشكلٍ كثيفٍ من غير مصادرة حكومية فقد زاد معدل الهجرة سنوياً من الجزائر إلى

فرنسا بمعدل ١٧,٥٠٠ مهاجر في الأعوام ١٣٤٠-١٣٤٢ هـ، وزاد من حدّتها سوء الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بسبب تصرّف المستعمرين الذين شعروا بنشوة الظفر، كما آثر عدد من الجنود الجزائريين الذي خدموا في أوربا العودة إلى فرنسا بعد أن سُرّحوا من الجيش مع انتهاء الحرب، وشملت هذه الهجرة مختلف المناطق الجزائرية، هذا رغم الخلاف القانوني بين الحكومة الفرنسية المركزية التي تشجع الهجرة، والسلطات الفرنسية المستعمرة في الجزائر التي تقف في وجه هذه الهجرة وتُعاكسها باستمرار.

وخفّ تيار الهجرة أيام الأزمة الاقتصادية التي بدأت عام ١٣٤٧، ولكن عاد فقوي بعدها في أعوام ١٣٥٤ و١٣٥٧، ولكن اندلاع نار الحرب العالمية الثانية أوقف الهجرة، غير أنها لم تلبث أن عادت عندما هُزمت فرنسا وتسلّمت حكومة فيشي المُؤيدة لألمانيا الحكم إذ اضطرت لأيدٍ عاملةٍ لبناء السور على شواطىء المحيط الأطلسي وذلك عام ١٣٦١ فلما أنزل الحلفاء مع حكومة فرنسا الحرة برئاسة ديغول قواتٍ على سواحل نورماندي، وأحرزت النجاح توقفت الهجرة بل انقطعت الصلة بين فرنسا وشمالي إفريقية حيث بقيت السلطة بيد أنصار حكومة فيشي، واستمر ذلك حتى استسلام ألمانيا ونهاية الحرب.

وجدت فرنسا نفسها بحاجة إلى بناء ما خرّبته الحرب فشجّعت الهجرة فتدفّقت أفواج المهاجرين، واستمرّ ذلك حتى استقلّت الجزائر فأوقفت الهجرة عام ١٣٩٣، وقامت فرنسا بالفعل نفسه عام ١٣٩٤ هـ باستثناء هجرة الأسرة للالتحاق بذويها، وبذا أصبحت هذه الجالية شبه مُستقرةٍ، وأصبحت الزيادة تأتي من الولادة أيضاً، وغدا لها مشكلات.

ولم تقتصر الهجرة على الجزائر، وإنما هناك هجرة من تونس، والمغرب، وموريتانيا. وهناك هجرة يوغوسلافية وتركية أيضاً ويمكن أن نلاحظ تطور

الهجرة من بعض البلدان المغربية:

عدد التونسيين في فرنسا عام	١٣٨٨	٦١,٠٢٨ مسلماً.
وأصبح	١٣٩٥	١٣٩,٧٣٥ مسلماً.
وأصبح	١٣٩٨	١٧٦,١٥٤ مسلماً.

ونسبة النساء بين هذه الجالية ٢٥٪ بينهن ٢٨٪ من العاملات.

أما عدد المغاربة في فرنسا فكان عام	١٣٨٨	١٤,٢٣٦ مسلماً.
وأصبح	١٣٩٥	٢٦٠,٠٢٥ مسلماً.
وأصبح	١٣٩٨	٣٧٦,٠٥٣ مسلماً.

ونسبة النساء بين أفراد هذه الجالية ٢٥٪ بينهن ٣٧٪ من العاملات.

وكان عدد المسلمين في فرنسا الآن ما يزيد على ثلاثة ملايين، يمكن أن نعطي تقديراً لهم حسب الجاليات:

الجزائرية	٨٥٠,٠٠٠
تونسية	٢٠٠,٠٠٠
مغربية	٤٠٠,٠٠٠
تركية	١٠٠,٠٠٠
يوغوسلافية	٩٠,٠٠٠
فرنسية	٨٠٠,٠٠٠
بلاد الشام	٥٥,٠٠٠
إفريقية السوداء	٩٥,٠٠٠
	٢,٥٠٠,٠٠٠

هذا إضافةً إلى الطلاب الدارسين، والبعثات السياسية والاقتصادية

واللاجئين السياسيين، والمشرّدين بسبب الأزمات في بلادهم، وهذا ما يجعل الرقم يقارب الثلاثة ملايين فإذا علمنا أن سكان فرنسا هو أربعة وخمسون مليوناً فمعنى أن نسبة المسلمين فيها تزيد على ٥,٥ ٪ من مجموع السكان [١] .

ومعظم هؤلاء المسلمين من الطبقة العاملة، وإن المسلمين الذين يحملون جنسيةً فرنسيةً، ويزيد عددهم على ثمانمائة ألف لا يتمتعون بالحقوق الدينية التي يتمتع بها النصارى إذ تتدخل الدولة في شؤونهم وتنظر إليهم نظرةً غير طيبةٍ. وقد اعتنق عدد من الفرنسيين الإسلام، ويقدر عدد الذين يعتنقونه سنوياً بألف إنسان.

ويمكن ملاحظة تطور عدد المسلمين في فرنسا بالعصر الحديث حسب الجدول الآتي:

١٣١٨	١,٠٠٠	مسلم.
١٣٣٠	٦,٠٠٠	مسلم.
١٣٤٣	١٢٠,٠٠٠	مسلم.
١٣٥٥	٧٠,٠٠٠	مسلم.
١٣٧٠	٢٣٠,٠٠٠	مسلم.
١٣٩١	٢,٠٠٠,٠٠٠	مسلم.
١٤٠٧	٣,٠٠٠,٠٠٠	مسلم.

المنظمات الإسلامية: يوجد عدة جمعيات إسلامية ومنظمات، غير أنها ضعيفة، ويزيد من ضعفها عدم اتحادها إن لم نقل اختلافها فيما بينها، وقد يُؤدّي هذا الخلاف أحياناً إلى الافتراءات بعضها على بعض، وقد يصل إلى تحريض المسؤولين على بعضها ـ مع الأسف ـ. ومن هذه التنظيمات.

---

(١) من بحث للدكتور محمد محمود هواري بعنوان «بعض مشكلات المسلمين في مجتمع الاغتراب»، وهو نائب مدير المركز الإسلامي بآخن. وقد تصرّفت بنصه.

١ ـ اتحاد الطلبة المسلمين: ومركزه باريس، ويتبع اتحاد الطلاب المسلمين الذي مركزه آخن في ألمانيا الغربية. ولهذا الاتحاد مركزان آخران أحدهما في (طولوز) والآخر في (كليرمون فران).

٢ ـ جمعية المسلمين الدولية: ومركزها باريس أيضاً، وقد انفصلت عن اتحاد الطلبة المسلمين، وتصدر مجلة (العالم الإسلامي) باللغة الفرنسية.

٣ ـ جمعية المسلمين الفرنسيين: وتصدر مجلة «الدراسات التقليدية» شهرياً.

٤ ـ أخوية المسلمين في أوربا: أسسها الجزائريون الذين يحملون الجنسية الفرنسية، وذلك عام ١٣٩٢ هـ.

٥ ـ صداقة مسلمي باريس: تأسّست عام ١٣٨٣ مهمتها التعريف بالإسلام، وبناء المساجد، وفتح المدارس، وتربية الأطفال، وتعمل الآن بترجمة الكتب، وتصدر مجلة «فرنسا الإسلام» شهرياً.

٦ ـ حركة الاعانة والدفاع عن المهاجرين المسلمين: وأسّسها جزائريون اختاروا الجنسية الفرنسية، وانتقلوا إلى فرنسا.

وهناك جمعيات ذات صبغة إقليمية «صداقة العمال المغاربة» و«صداقة جزائري فرنسا» و«صداقة العمال التونسيين».

٧ ـ الإخوان المسلمون في أوربا. باريس.

٨ ـ الهداية الإسلامية. باريس.

٩ ـ الهيئة الإسلامية للطلاب بفرنسا. باريس.

١٠ ـ الهيئة الثقافي الإسلامي في اللورين. نانسي.

١٢ ـ رابطة الطلاب المسلمين في فرنسا. باريس.

١٣ ـ الهيئة الإسلامية. باريس.

١٤ ـ مكتب رابطة العالم الإسلامي. باريس.

المساجد: يوجد عدد من المساجد في فرنسا، ومصليات كثيرة، وفي مدينة باريس يقوم جامع باريس، ومسجد الدعوة، ومسجد التبليغ، ومسجد

الرابطة، وتقام صلاة الجمعة فيها كلها، كما يوجد مسجد في ضاحية العاصمة الشرقية (آنيير)، وتقوم مساجد في مدن مرسيليا، وليون، وطولوز، وليل، وبوردو.

وتعمل جهات متعددة ضدّ المسلمين، ومنها الصليبية حيث تأسّست جمعية عام ١٣٧٧ هـ تسمى (لوڤر دي نوتردام ذي سالران) تعلن أنها تريد إعادة البربر إلى الكاثوليكية وجيرانهم من سكان البحر المتوسط، وقد تدعو الأطفال للقيام بنشاطات في الصيف لتؤدّي دورها، وقد أخذت ألفي طفل مسلم. ومنها اليهود الذين يعملون جاهدين ضدّ الإسلام.

وفي جنوب شرقي فرنسا على ساحل البحر المتوسط جنوب إقليم البروفانس بالقرب من حدود ايطاليا تقوم إمارة (موناكو) وهي مستقلة منذ أكثر من ثلاثمائة سنة، وأصبحت ملكية منذ عام ١٣٨٢ هـ، ولا تزيد مساحتها على ١,٧ كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألفاً، يعيشون على السياحة وندوات القمار، ولا يقيم فيها مسلمون بصورة دائمة، وإنما رحلات موقتة.

بحر المانش
ليل
بلجيكا
لوكسمبورغ
ألمانيا
باريس
ستراسبورغ
صانص
بواتييه
المحيط الاطلسي
سويسرا
ليون
ايطاليا
بوردو
« بردال »
طولوز
« طلوشة »
مونبلييه
سبتمانيا
ناربونة
مرسيليا
نيس
موناكو
المقياس
كيلومتر
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
اندورة
اسبانيا

مصور رقم [٤٥] .

(٥) بلجيكا

مملكة صناعية صغيرة المساحة حيث لا تزيد على ٣٠,٥١٣ كيلومتراً مربعاً. ويبلغ عدد سكانها اليوم ١٠,٤٠٠,٠٠٠ نسمة. ويتكّلم السكان لغتين هما الفرنسية في الجنوب والشرق، حيث يتكّلم بها شعب الوالون، أما الفلمنك في الشمال والغرب فيتكّلم اللغة التي تنسب إليه (الفلمنكية). وأغلبية السكان يدينون بالنصرانية الكاثوليكية ويعيش معهم:

٦٠,٠٠٠ من النصارى البروتستانت.

٤٢,٠٠٠ من اليهود.

١٨٠,٠٠٠ من المسلمين.

المسلمون: لم تطأ أقدام المسلمين أرض بلجيكا في الماضي. وإنما يعود تاريخ هجرتهم إليها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث جاءتها جماعة من الألبان، وفي مطلع عام ١٣٨٠ هـ بدأ الأتراك يصلون إليها ثم تبعتهم جموع المغاربة، ولا تزال هذه المجموعات تُشكّل أكثرية المسلمين.

١٢٠,٠٠٠ من المغاربة.

٣٠,٠٠٠ من الأتراك.

١٠,٠٠٠ من الألبان.

١٦٠,٠٠٠ المجموع.

٦,٠٠٠ من المسلمين البلجيك.
٦,٠٠٠ جنسيات أخرى.

١٧٢,٠٠٠ المجموع.

وهناك آلاف من الطلاب المسلمين الذين يدرسون في جامعاتها الأربع، إضافةً إلى التجار ورجال السلك السياسي الإسلامي.

يُشكّل المسلمون المجموعة الدينية الثانية بعد الكاثوليك، وتبلغ نسبتهم ١,٧٪ من مجموع السكان، وقد اعترفت الحكومة عام ١٣٩٤ هـ بالدين الإسلامي رسمياً. وتدفع الحكومة عادة أجور القائمين على الأديان التي تعترف بها. وبذا فقد حصل المسلمون على هذه المساعدة، ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن أبناء الأديان التي لا يُعترف بها يُلزمون على تعلّم الديانة النصرانية، وكذلك تُؤخذ منهم ضرائب لتُدفع إلى رجال الدين الذين يُعترف بدينهم.

المنظمات الإسلامية: بدأ المسلمون يجمعون أنفسهم لأداء صلاة الجمعة والعيدين، وللتعارف، وقد ساعدتهم سفارتا باكستان والسنغال فأمّنتا لهم قاعات للاجتماع عام ١٣٨١.

وتشكّل عام ١٣٨٣ (المجلس العام الإسلامي) بمساعدة سفارات بعض الدول الإسلامية، فقام عام ١٣٨٨ بتأسيس المركز الإسلامي الثقافي، واعترفت به الحكومة البلجيكية، ومنحته الشخصية المدنية.

قررت الحكومة البلجيكية الاحتفال عام ١٣٠١ بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيسها ودعت المواطنين المساهمة في هذه الذكرى الوطنية فأقام بعض التجار الذين كانوا يعيشون في مصر بناء مسجد على الطراز المعماري الإسلامي... فبقي البناء بعد الانتهاء من الاحتفالات، وقد قُدّم للمسلمين عام ١٣٨٧ وتسلّموه بعد عامين على أنه هبة لمدة ٩٩ سنة قابلة للتجديد على أن يتعهده المسلمون في بلجيكا ويقوموا على تجديده.

وفي بلجيكا أكثر من خمسة وعشرين مسجداً، إضافةً إلى أكثر من مائة مصلى.

وفي المساجد والمصليات يقوم التعليم لمبادىء الدين، والتعريف بالإسلام، كما تسمح الحكومة للمركز الإسلامي بتدريس الإسلام لأبناء المسلمين في المدارس الرسمية.

ومن أشهر المساجد أربعة في مدينة بروكسل، وأربعة مساجد أخرى في ضواحيها في سان جون مسجدان، وفي ملونبيك مسجد، وفي سكاربيك مسجد أيضاً. وثلاثة مساجد في مدينة آنفرس، ومسجد في غانت، وآخر في شارلروا، وواحد في لييج، وسبعة مساجد في منطقة ليمبورغ في الشرق.

وللمسلمين مقبرتان إحداهما في (لييج) والأخرى في (شارلروا).

ويُصدر المركز الإسلامي نشرة شهرية اسمها (رسالة المسجد).

(٦) هولنـــدا

مملكة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٣٣,٦١٢ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها اليوم خمسة عشر مليوناً. نصفهم من البروتستانت والنصف الآخر من الكاثوليك، وتدين الأسرة المالكة بالنصرانية البروتستانتية، ويعيش معهم ما يقرب من مائتي ألف مسلم، وثلاثين ألفاً من اليهود.

واللغة الرسمية هي الهولندية، وهي فرع من الألمانية، أو هي لغة جرمانية الأصل بين الألمانية والإنكليزية. وفي البلاد أكثر من ثلاث عشرة جامعة، وقد عُرفت جامعة (ليدن) بالاهتمام بطباعة الكتب الإسلامية.

المسلمون: لم يطأ المسلمون أرض هولندا في ا لماضي، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري بدأ بعض المسلمين يصلون إلى هولندا وأغلبهم من البلدان التي تسيطر عليها هولندا مثل أندونيسيا وسورينام، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦٤ لم يكن عدد المسلمين في هولندا ليزيد على أربعة آلاف مسلم، ووصل عددهم عام ١٣٧١ إلى خمسة آلاف.

ومند عام ١٣٨٨ بدأت هولندا تستقدم اليد العاملة للعمل في المصانع فجاء المسلمون من المغرب وتركيا حتى زاد عددهم عام ١٣٩٣ على مائة وخمسين ألفاً، ويصل عددهم اليوم إلى مائتي ألف ونرى أن الجماعات الكبيرة منهم تعود إلى البلدان الآتية.

تركيا ومنها	٧٠,٠٠٠
المغرب ومنها	٦٠,٠٠٠
اندونيسيا ومنها	٣٥,٠٠٠
الهند ومنها	١٥,٠٠٠
من جنسيات أخرى	١٠,٠٠٠
من هولندا	,٦٠٠
يحملون الجنسية الهولندية	٩,٤٠٠
المجموع	٢٠٠,٠٠٠

ويتجمع أكثر المسلمين في المدن الكبرى لاهاي (دن هاخ)، وأمستردام، وروتردام، وأوترخت ويُشكّل المسلمون اليوم ١,٣٥٪ من مجموع السكان. ولا يجد الهولنديون حرجاً من الذين يعتنقون الإسلام من أبنائهم كما لا يُضايقون المسلمين، وإنما يسمحون لهم بتدريس أبنائهم المنتسبين إلى المدارس الرسمية الإسلام أو نقلهم إلى المراكز والجمعيات الإسلامية إن كان معترفاً بها. وفي الوقت نفسه تُعطى هذه المؤسسات الحق في عقد الزواج للذين ينتمون إلى الإسلام.

المنظمات الإسلامية: منذ أن زاد عدد المسلمين بدؤوا ينظمون أنفسهم، وأكثر هذه المنظمات إنما قامت على أساس اللغة وأهم هذه المنظمات.

١ ـ مؤسسة الإسلام بهولندا وتأسست عام ١٣٨٩، وتضمّ أبناء الجالية الأندونيسية التي لها مدرسة لتعليم الإسلام، وتصدر مجلة (الفلاح) الشهرية باللغات الأندونيسية، والهولندية، والانكليزية. ومقرها في لاهاي ولها فروع في بعض المدن الأخرى مثل روتردام.

٢ ـ اتحاد المسلمين في هولندا: ويضمّ أكثر أبناء الجالية التركية، ومقر الاتحاد مدينة (أوترخت) وله فروع في عددٍ من المدن الأخرى، وفي المقرّ الرئيسي مسجد، ومدرسة للأطفال.

٣ ـ اتحاد الجمعيات الإسلامية: ويضم عدة فروع لأبناء المسلمين الهنود الذي هاجر أكثرهم من سورينام ويتكّلمون لغة (أوردو)، وقد تأسّس هذا الاتحاد عام ١٣٨٩.

٤ ـ اتحاد الجمعيات الإسلامية في هولندا: ويضمّ مختلف الجمعيات الإسلامية، وقد تأسس عام ١٣٩٤، وعمل هذا الاتحاد على شراء كنيسة بروتستانتية في (أوترخت) وتحويلها إلى مسجد بعد موافقة الحكومة وأبناء الحي. ويُعمل أيضاً بمساعدة سفارات بعض الدول الإسلامية على بناء مسجد ومركز إسلامي في مدينة أمستردام. ويُشرف على كثيرٍ من المصليات في المدن الكبرى. وكذلك بنى الأتراك عام ١٣٩٥ مسجداً في مدينة (ألميلو).

ويوجد في جامعة (ليدن) مركز للدراسات العربية والإسلامية.
وللمسلمين مسالخ لبيع اللحوم وذبح الحيوانات على الطريقة الشرعية.
وللمسلمين عدد من المقابر في مدن لاهاي، أوترخت، آرنم.

وتضايق المسلمين فرقة القاديانية التي لها مقر ومعبد في لاهاي، ويُشرف على المعبد هنود حصلوا على الجنسية الهولندية. وقد ترجموا معاني القرآن الكريم بشكل يسيء إلى الإسلام، هذا بالإضافة إلى أثر اليهود الذين يسيطرون على الصحافة، ولهم دور كبير في التجارة والصناعة.

(٧) لوكسمبورغ

مملكة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٥٨٦ كيلومتراً مربعاً، انفصلت عن ألمانيا عام ١٢٨٤ هـ، يقرب عدد سكانها من أربعمائة ألف أكثرهم من الكاثوليك، بينهم ثلاثون ألفاً من النصارى البروتستانت وألفان من المسلمين، وألف واحد من اليهود. وترتبط لوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا باتحادٍ اقتصاديٍ يُعرف باسم (البنيلوكس).

يتكلّم السكان لهجةً ألمانيةً خاصةً، هي اللغة اللوكسمبورغية، أما اللغة الرسمية فهي الألمانية والفرنسية. ولما كانت المنطقة صناعية لذا فإنه يسكنها مجموعات من الدول المجاورة يزيد عددها على تسعين ألفاً.

المسلمون: أكثر المسلمين من المغرب وتركيا، ومعظمهم من العمال لذا كانت إقامتهم موقتةً، وليس لهم أي تنظيم، وغالباً ما يرتبطون بإخوانهم في بلجيكا.

المقياس
١٢٠ ٨٠ ٤٠
كيلومتر
بحر الشمال
هارلم
امستردام
ليدن
لاهاي
أوترخت
أمبلو
أرنم
روتردام
أنفرس
غانت
بروكسل
ليمبورغ
لييج
شارلروا
فرنسا

مصور رقم [٤٦] .

(٨) انكلترا

مملكة اتحادية تتألف مع أربع مقاطعات ثلاث منها تقع في الجزيرة الكبرى، وهي: انكلند، وويلز، واسكوتلندا، والرابعة هي شمالي ايرلندا. تبلغ مساحتها ٢٤٠,٨١٣ كيلومتراً مربعاً.

يبلغ عدد سكانها ما يقرب من سبعة وخمسين مليوناً، يتجمّع أكثرهم في انكلند التي تضم ما يقرب من خمسين مليوناً والباقي يُقيمون في المقاطعات الثلاث.

واللغة الرسمية هي الانكليزية ويعدّها سكان المقاطعات الثلاث أنها دخيلة إذ هي مزيج من لغة السكسون الجرمان الذين غزوا الجزيرة من ألمانيا في القرن الثاني قبل الهجرة، ولغة الفرنسيين الذين غزوا انكلترا في القرن السادس والسابع الهجريين، أما اللغة الأصلية فهي الكلتية (السلتية) التي لا تزال معروفة في ويلز (بلاد الغال) وبعض جهات اسكوتلندا. وتوجد في انكلترا أربع وأربعون جامعة.

ويدين السكان بالنصرانية (المذهب الانكليكاني) في انكلند و(البريزبتري) في اسكوتلندا، والمذهبان فرعان من البروتستانت، ويعيش بينهم.

٦,٠٠٠,٠٠٠ من الكاثوليك أكثرهم في شمالي ايرلندا، وويلز، واسكوتلندا.

١,٥٠٠,٠٠٠ من المسلمين نصفهم يحمل الجنسية الانكليزية، وأكبر تجمعاتهم في انكلند.

٥٠٠,٠٠٠ من اليهود.

المسلمون: لم يصل المسلمون في الماضي إلى انكلترا ويستقرّوا فيها على شكل جماعي، وربما كان أواخر القرن الثالث عشر أول وصولهم إليها واستقرارهم فيها. فقد جاءت جماعة من عدن حوالي عام ١٢٨٨ هـ واستقرّت في كارديف بصفة أفرادها قادمين من مستعمرةٍ إنكليزيةٍ. ثم وفدت جماعة أخرى من قبرص بعد أن وضعت انكلترا يدها عليها إثر مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ هـ، وجاءت جماعة من مصر، وأخرى من الهند وبدأ المسلمون يتوافدون إليها حتى وصل عددهم قبيل الحرب العالمية الثانية إلى خمسين ألفاً.

وبعد الحرب العالمية الثانية هاجرت أفواج من ألبانيا ويوغوسلافيا فوصل عدد المسلمين إلى مائة ألف، ثم ازداد عدد القادمين إلى انكلترا من المسلمين في مطلع عام ١٣٨٠ وخاصةً من الهند وباكستان، ولم تلبث انكلترا أن أصدرت قوانين عام ١٣٨٢، و١٣٨٩ و١٣٩١ حدّدت فيها الهجرة إذ وصل عدد المسلمين عام ١٣٩١ إلى مليون مسلم حسب تقديرات الإنكليز أنفسهم، ونصفهم يحمل الجنسية الانكليزية، وبعضهم وهو بضعة آلاف اعتنقوا الإسلام من أبناء انكلترا الأصليين.

ويوجد أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من أبناء المسلمين يدرسون في الجامعات الانكليزية. ولم تعترف انكلترا بالإسلام كدين رسمي فيها، كما لا توجد مدارس إسلامية سوى أكاديمية الملك فهد التي افتتحت حديثاً.

ويُقدّر عدد المسلمين اليوم في انكلترا بمليون ونصف مسلم، وبذا تكون نسبتهم ٢,٦٣ ٪ من مجموع السكان. ويتجمّعون في المدن الكبرى مثل: لندن، وبرمنغهام، ومانشستر، وكارديف، وليفربول، وليدز، وبرادفورد، وغلاسكو، وبلاكبورن.

المنظمات الإسلامية: أقام المسلمون المهاجرون من شبه القارة الهندية عام ١٣٠٤ جمعيةً لهم في لندن وتُعدّ أقدم جمعية في دول الغرب، وأُقيم اثناء الحرب العالمية الثانية المركز الثقافي الإسلامي ويضمّ مكتبةً، ويُصدر مجلةً خاصةً. ومن هذه المنظمات:

في لندن: ١ً - البعثة الإسلامية بالمملكة المتحدة وتأسست عام ١٣٨٢، وتتبعها خمسة مراكز في غلاسكو، وبرمنغهام، وبلاكبورن، وبرادفورد، وروشديل، وأكثر الأعضاء من باكستان، وتستعمل هذه المراكز لغة (أوردو).

٢ً - اتحاد جمعيات الطلاب الإسلامية: وتأسست عام ١٣٨٤، وقد أسس له مركزاً، وتتبعه سبع وعشرون جمعية طلابية، ويصدر مجلة (المسلم) كل شهرين.

٣ً - اتحاد المنظمات الإسلامية في المملكة المتحدة وايرلندا: وقد تأسّس عام ١٣٩٠ هـ، وقد انضمّ إليه ست وستون جمعية إسلامية، ويُقيم مؤتمراً سنوياً.

٤ً - جمعية الطلاب المسلمين.

٥ً - الوقف التعليمي الإسلامي: وقد تأسّس عام ١٣٨٦، ويعمل على تعليم أطفال المسلمين، ويتبعه خمسة مساجد في كل من لندن، وبرمنغهام، ومانشستر، وبرادفورد، ولوتن.

٦ً - المجلس الإسلامي لأوربا: وقد تأسّس عام ١٣٩٣ هـ.
٧ً - وقف الطلبة المسلمين.
٨ً - المركز الثقافي الإسلامي.
٩ً - الاتحاد الإسلامي النوى: وقد تأسّس عام ١٣٩٠، ويصدر مجلة المرأة المسلمة.
١٠ً - المسجد والمركز الإسلامي في (برنت).

وتوجد مجلات:

١ً - امباكيت العالمية وتصدر مرتين في الشهر.
٢ً - مجلة الشرق الجديد.
٣ً - مجلة نيوهورايزون (الأفق الجديد).
٤ً - مجلة الغرباء.

هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه عن مجلة (المسلم) ومجلة (المرأة المسلمة). وعدد من الصحف والمجلات التي تطبع هناك.

وفي برمنغهام: ١ً - منظمة الشباب المسلم.
٢ً - وقف مسجد برمنغهام.
٣ً - وقف (بانمام إسلام).
٤ً - مجلة (بانمام إسلام) وتطبع بلغة الأوردو شهرياً.
٥ً - مجلة المسلم الصغير وتُطبع باللغة الانكليزية شهرياً.

وفي بريستول: - الجمعية الإسلامية.
وفي أكسفورد: - جمعية مسجد أكسفورد.
وفي غلاسكو: - هيئة الطلاب المسلمين بجامعة غلاسكو.
وفي ليستر: - المؤسسة الإسلامية.

وفي والسول ستاف : ـ الجمعية الخيرية الإسلامية .
وفي برادفورد : ـ الجمعية الإسلامية التوكلية .
وهناك تنظيمات إقليمية أو مذهبية أحياناً ومنها :

جمعية مسلمي الهند الغربية ، وجمعية مسلمي قبرص ، وجمعية مسلمي أندونيسيا ، وجمعية الهنود المسلمين ، وجمعية مسلمي موريشيوس ، وجمعية مسلمي نيجيريا ، وجمعية مسلمي سيلان ، وجمعية التبليغ ، وهناك عدة جمعيات باكستانية ، والدائرة الإسلامية السنية الحنفية في بريستون ، والجمعية الخيرية للجماعة العربية ، والجماعة الإسلامية لمركز الأبحاث الإسلامية والبنغالية ، والجمعية الفلسفية الإسلامية ، والجمعية الإسلامية الشيعية ، وجمعية الاثني عشرية لشرقي إفريقية ، وجمعية الشباب الصومالي في كارديف .

ومع هذا النشاط كله لا توجد مدارس إسلامية ، وإنما تقوم مدارس أولية تلحق بالمساجد ، وفي انكلترا أكثر من مائة وخمسة وعشرين مسجداً ، منها عشرة جوامع ، وتتوزع هذه المساجد في انحاء البلاد منها :

٥٥ مسجداً في لندن وضواحيها	١٧ مسجداً في منطقة ميدلاند
٢١ مسجداً في منطقة يوركشاير	٣ مساجد في مقاطعة اسوتكندا
٢٧ مسجداً في منطقة لانكشاير	٢ مسجد في مقاطعة ويلز

ويقف اليهود والقاديانيون في وجه الإسلام والمسلمين .

(٩) إيـرلـنـدا

جمهورية صغيرة تبلغ مساحتها ٧٠,٢٨٢ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين، كانت مقاطعةً انكليزيةً، أعلنت فيها الجمهورية عام ١٣٣٥ هـ، واستقلت عن انكلترا عام ١٣٦٨ هـ.

يتكلّم السكان اللغة الكلتية وهي الرسمية، ويدينون بالكاثوليكية، ويعيش بينهم مائة وثلاثون ألفاً من البروتستانت، وستة آلاف يهود، وألفا مسلم.

وتُشكّل ايرلندا خمسة أسداس الجزيرة (ايرلندا) وتحتلّ مقاطعة ايرلندا الشمالية (الانكليزية) الباقي، وتدعم الجيش الجمهوري لاستقلال ايرلندا الشمالية عن انكلترا وإلحاقها بإيرلندا حيث يعتقدان عقيدةً واحدةً هي الكاثوليكية، وتشملها جزيرة واحدة.

المسلمون: يعيش معظم المسلمين في ايرلندا في العاصمة دوبلن، وهجرتهم إليها حديثاً، ولهم جمعية دوبلن الإسلامية، ولقلّة عددهم يلتحقون عادةً بإخوانهم في انكلترا.

المقياس
كيلومتر
٠ ٤٥ ٩٠ ١٣٥ ١٨٠ ٢٢٥
المحيط الأطلسي
بحر الشمال
اسكوتلندا
غلاسكو
بلفاست
ايرلندا
دوبلن
برادفورد
بريستون
ليفربول
مانشستر
شيفيلد
ليستر
برمنغهام
كارديف
بريستول
لندن
بحر المانش

مصور رقم [٤٧] .

(١٠) إيسلندا

وتعني أرض الجليد، وهي جزيرة بركانية جبلية، تخرج فيها عيون من المياه الحارة، تقع بين خطي عرض ٦٤,٣٠ و٦٦ شمالاً في عرض المحيط الأطلسي، تبعد عن انكلترا سبعمائة كيلومتر إلى الشمال الغربي منها، وتبعد عن شبه جزيرة اسكندينافيا ١٢٠٠ كيلومتر. تبلغ مساحتها ١٠٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على ربع مليون، يُقيمون على أطرافها ويعتمدون في حياتهم على صيد السمك، وبعض الصناعات الكيمياوية، وأكثر من نصفهم يسكن العاصمة (ريكيافيك) التي تقع على الساحل الغربي.

كانت تتبع الدانمارك، وقد انفصلت عنها عام ١٣٦٠ هـ، وأُعلنت فيها الجمهورية. ويتكلّم السكان اللغة الايسلندية التي تشبه اللغات الاسكندينافية، وهي اللغة الرسمية فيها، ويعتنق الأهالي النصرانية على المذهب البروتستانتي، ويعيش بينهم ما يزيد على ألف كاثوليكي، وعشرات من السكان اعتنقوا الإسلام.

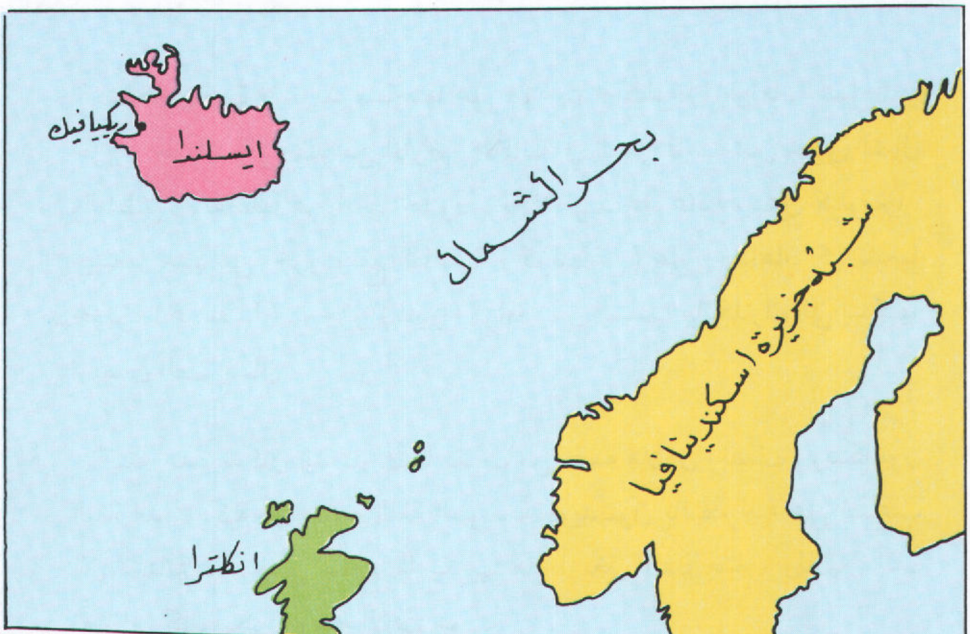
ريكيافيك
ايسلندا
بحر الشمال
شبه جزيرة اسكنديناڤيا
انكلترا

مصور رقم [٤٨] .

(١١) الدانمارك

مملكة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٣,٠٦٩ كيلومتراً مربعاً، تشمل شبه جزيرة جوتلند التي تمتدّ من الأرض الألمانية في البحر فاصلةً بين بحري الشمال والبلطيق، وتفصلها عن ألمانيا حدود برية لا تزيد على ثمانيةٍ وستين كيلومتراً. ويتبعها عدد من الجزر وتقع العاصمة (كوبنهاغن) على إحداها، كما تتبعها جزيرة (غرينلندا)، وجزر (فارو) الواقعة بين ايسلندا وانكلترا والتي يسكنها أربعون ألف إنسان.

يبلغ عدد سكان الدانمارك ما يقرب من خمسة ملايين ونصف، ويتكلّمون اللغة الدانماركية التي تشبه اللغة السويدية، ويدينون بالنصرانية على المذهب البروتستانتي، ويعيش بينهم ما يقرب من أربعين ألف مسلم، وثلاثين ألف نصراني كاثوليكي، وستة آلاف يهودي.

المسلمون: بدأ القاديانيون نشاطهم منذ عام ١٣٧٥ هـ، ولم يكن المسلمون قد وصلوا بعد إلى الدانمارك للاستقرار فيها، وكان القاديانيون يدّعون أنهم من المسلمين، وكان المجال مفتوحاً وليس هناك من ينافسهم، أو ينقض زعمهم أنهم مسلمون. ورغم أن عددهم كان لا يزيد على الستين إنساناً إلا أنهم بنوا معبد (نصرة جهان).

وأخذ المسلمون يتجهون نحو الدانمارك منذ عام ١٣٨٠، وبقوا حتى عام ١٣٨٨ ولم يتجاوز عددهم بضعة مئات، ثم جاءت جماعات من تركيا، ويوغوسلافيا، وباكستان فوصل عددهم إلى ستة عشر ألفاً عام ١٣٩١، وكانت مجموعاتهم من:

تركيا	٢,٠٠٠	
باكستان	٥,٠٠٠	
يوغوسلافيا وألبانيا	٣,٠٠٠	
البلدان العربية	٢,٠٠٠	
الدانمارك	٣,٠٠٠	٣٠٠ من أصل دانماركي اعتنقوا الإسلام، والباقون حصلوا على الجنسية.
جنسيات أخرى	١,٠٠٠	
	١٦,٠٠٠	

ووصل عدد المسلمين في الدانمارك إلى ١٨,٠٠٠ عام ١٣٩٣، ويُقدر عددهم اليوم بأربعين ألفاً.

كان المسلمون حتى عام ١٣٩٠ يستأجرون قاعةً لتأدية صلاة العيد. أما الصلاة الدائمة فقد استأجروا لها غرفةً أطلقوا عليها (مسجد التابعين).

وفي عام ١٣٩١ سمحت بلدية مدينة (كوبنهاغن) بإقامة صلاة عيد الأضحى، فحضر الصلاة ستة آلاف مسلم. وفي العام نفسه شكّلوا لجنة تأسيسية لبناء مسجد ومركز إسلامي، واحتفظوا باسم مسجد التابعين.

وفي عام ١٣٩٤ تمّ افتتاح فرع لرابطة العالم الإسلامي في كوبنهاغن، وفيها تقوم مدرسة الفيصل، ومدرسة الأقصى. كما أنشئت مدرسة عراقية، وأخرى عرفت باسم (الصفا) وثالثة باسم (الصامد).

وتم شراء مكان للمركز الثقافي الإسلامي، وصدرت مجلة (أخبار المسلمين) ثم احتجبت بعد عامين. وافتتحت فروع للمركز الثقافي الإسلامي حيث يدرس القرآن الكريم. وأنشئت المكتبة الإسلامية منذ عام ١٣٩٣ هـ.

وقامت جمعية الشباب المسلم عام ١٣٩٦ وأخذت تصدر مجلة (الصراط) ثم احتجبت لأسبابٍ ماديةٍ، وتُشرف هذه الجمعية على (الروضة العربية) وعلى (المدرسة العربية الإسلامية).

وتعدّ الجالية التركية أنشط الجاليات الإسلامية إذ لها عدة مساجد، وزاد عدد المساجد في الدانمارك أخيراً على عشرة مساجد.

وبنى المغاربة مركزاً إسلامياً في مدينة (أورهوس) التي تُعدّ ثاني مدينة في البلاد من حيث عدد السكان.

وأنشأ الباكستانيون (دار المطالعة) لإعارة الكتب بلغة الأوردو. كما أسّسوا مجلة (صدى باكستان).

وأسس المسلمون من الدانمارك والدول الاسكندينافية الأخرى عام ١٤٠١ هـ (دار الدعوة) التي تصدر مجلة (وجهة نظر الإسلام).

ويلقى المسلمون عنتاً من اليهود والقاديانيين في كل مشروع يريدون القيام به.

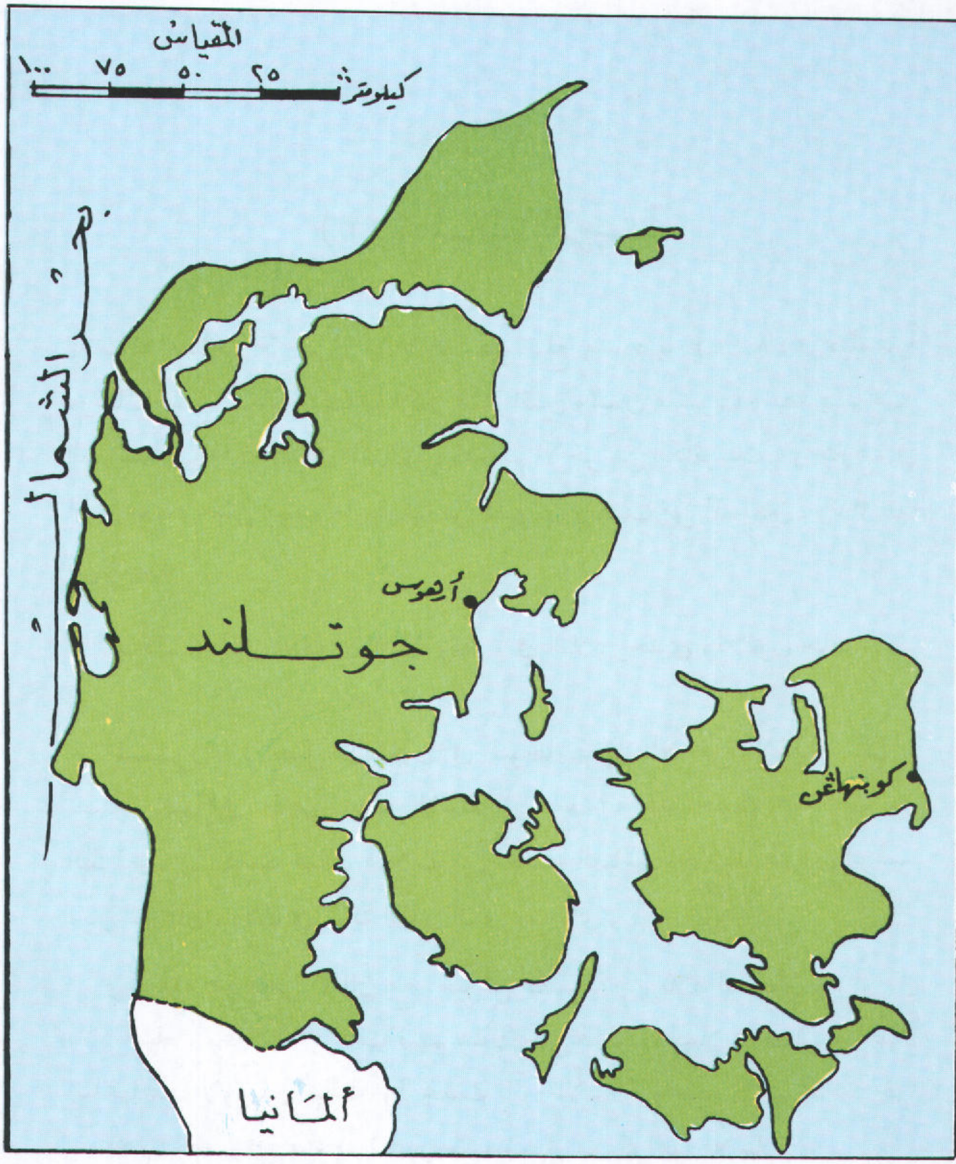

المقياس
١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ كيلومتر
بحر الشمال
أرهوس
جوتلند
كوبنهاجن
ألمانيا

مصور رقم [٤٩] .

(١٢) ألمـانيـا الغربيـة

دولة صناعية من دول أوربا الوسطى تبلغ مساحتها ٢٤٨,٤٥٤ كيلومتراً مربعاً، يبلـغ عـدد سكـانها أكثر مـن اثنين وستين مليـونـاً، نصفهـم مـن البروتستانت وأكثرهم في الشمال، ونصفهم الآخر من الكاثوليك، وأكثرهم في الجنوب، **ويعيش بينهم ما يقرب من مليونين ونصف من المسلمين، و٣١ ألفاً** من اليهود.

يتكلّم السكان اللغة الألمانية، وتقوم في البلاد إحدى وثلاثون جامعة.

المسلمون: لم يصل المسلمون في فتوحاتهم إلى الأرض الألمانية، كما لم يصلوا إليها في الماضي بغية الاستقرار، مع أنه قد حدث احتكاك بين الطرفين، إذ كانت هناك صلات بين الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد وبين شارلمان وذلك في نهاية القرن الثاني الهجري.

وسارت جموع من الألمان مع الجيوش الصليبية إلى بلاد المسلمين ونزلوا في بلاد الشام، وعاشت جماعات منهم هناك حتى فشلت الحملات الصليبية وطُرد أتباعها من الأوربيين نهائياً. ولم يحدث تأثر بالإسلام واضح لأنهم قد خرجوا يقودهم الحقد وفي نفوسهم تصوّر سيء مسبق مع كراهية للإسلام.

وعندما نشأت دولة بروسيا، وبدأت تتصل مع دول العالم تَمّت بينها وبين

الدولة العثمانية علاقات سياسية، وتوطّدت تلك العلاقات حتى استعان البروسيون بالمدرّبين المسلمين على الفروسية وذلك في عهد السلطان العثماني محمود الأول (١١٤٣-١١٦٨)، ووصل عدد المدرّبين في نهاية القرن الثاني عشر إلى حوالي ألف مُدّرب مسلم، وربما كان العثمانيون يُفكّرون بالدعوة إلى الإسلام بين الألمان من وراء هذه الصلات، وهذا ما يبدو من طلب العثمانيين المسلمين هناك بإقامة مصليات لهم، وربما كان أولها عام ١١٤٤ أي منذ بدء توطّد العلاقات، ثم إن مبعوث السلطان عبد الحميد (١١٨٧-١٢٠٣) وهو (أحمد أفندي) قد جاء في أحد تقاريره التي كان يرفعها إلى السلطان: (إن سكان برلين يعترفون بالنبي محمد، ولا يتردّدون عن إعلان استعدادهم لقبول الإسلام)[١]، وإن كان هذا من باب المجاملة التي عُرف بها الألمان، ما دامت لا تُؤدّي إلى شيء.

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري انتقل عدد من الألمان إلى إفريقية لتأسيس مستعمراتهم في الكاميرون، وتانزانيا، والتوغو واحتكّوا هناك بالمسلمين وأسلم قسم منهم، وبقي منهم من بقي وذاب في المجتمع هناك، ومنهم من عاد إلى بلاده يحمل عقيدته الجديدة معه، ومنهم الألماني الذي اختصّ بالدراسات الإفريقية وهو (ادوارد شينتس) الذي اعتنق الإسلام عام ١٢٩٣ وتسمّى باسم (محمد أمين) وحصل على رتبة باشا، وبها عُرف، وأصبح حاكماً للمديرية الاستوائية (أوغندا) في أواخر عهد الخديوي اسماعيل باشا عام ١٢٩٦ هـ.

كما سبق أن أسلم دوق (بادن) في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وتزوّج بفتاةٍ تركيةٍ وبنى مسجداً بين مدينتي (هيدلبرغ) و(فرانكفورت)،

---

(١) بعض مشكلات المسلمين في مجتمع الاغتراب ـ محمد محمود هواري.

كما أسلم عام ١٢٥١ هـ (غوستاف آدولف فون فريدي) وظهر فيما بعد في عدة مواقع في خدمة الجيش العثماني في (استانبول) وشمالي إفريقية.

وفي الحرب العالمية الأولى أُقيم معسكر في الأراضي الألمانية للمعتقلين المسلمين بالقرب من مدينة برلين في (ونسدروف)، وأُقيم مسجد في تلك الجهات، وقد بقي حتى عام ١٣٣٧ حيث عاد الأسرى إلى بلادهم، غير أن بعض هؤلاء قد آثر البقاء في ألمانيا.

وبعد الحركة الشيوعية في روسيا فرّ عدد من المسلمين إلى ألمانيا، وكان أكثرهم من أصل ألماني، ثم تبعهم بعض التتار من القرم وشرقي روسيا بعد أن وئدت فكرة استقلالهم إثر دخول الجيش الأحمر أراضيهم، فأُعطي لهؤلاء الفارين موضع المعسكر السابق ليقيموا على أرضه منازلهم، وبقي المسجد يُؤدّي دوره.

وبدأت جماعات من إيران وأفغانستان تفد إلى الموانىء الألمانية وخاصةً هامبورغ على شكل عمال وتُجّار، ويستقرّ بعضها هناك.

وأثناء الحرب العالمية الثانية وفد إلى ألمانيا عدد من اللاجئين المسلمين من المناطق التي تُسيطر عليها روسيا، كما فرّ عدد من جنود الجيش الروسي هرباً بدينهم من الشيوعية والروس، وأعقبهم آخرون من المناطق التي وصلت إليها الشيوعية وتسلّمت الحكم فيها مثل بلغاريا، ورومانيا، ويوغوسلافيا، وبولندا وأقام أكثر هؤلاء اللاجئين في مدينة ميونيخ وضواحيها ومقاطعة (بايرن) الجنوبية.

واستقلّت ألمانيا الغربية عام ١٣٧٥، وبدأت الصناعة تتطوّر بسرعة أو تعود إلى سابق أيامها واقتضى تطوّرها الحاجة إلى اليد العاملة، وبدأ الطلب من العمال الأتراك فتوافدوا من مطلع عام ١٣٨١، ووصل عدد المسلمين مباشرة إلى ١,٢٥٠,٠٠٠ مسلم عام ١٣٩٣، ويمكن ملاحظة هذه الزيادة من الجدول الآتي:

١٣٣٨ هـ	١,٠٠٠	مسلم.
١٣٧١ هـ	٢٠,٠٠٠	مسلم.
١٣٩١ هـ	١,١٥٠,٠٠٠	مسلم.
١٣٩٣ هـ	١,٢٥٠,٠٠٠	مسلم.
١٤٠٧ هـ	٢,٥٠٠,٠٠٠	مسلم.

كما يمكن ملاحظة الجاليات المسلمة وتطور زيادتها.

	عام ١٣٩١	عام ١٤٠٧
أتراك	٩٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠,٠٠٠
مغاربة	١٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
يوغوسلاف	١٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
آخرون	٥٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
المجموع	١,١٥٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠

وبذا تكون نسبة المسلمون في المانيا هي ٤٪ من مجموع السكان، وبين هؤلاء المسلمين أكثر من ثلاثين ألفاً من اللاجئين المسلمين الروس، ثم الألمان الذين اعتنقوا الإسلام.

وتُقدّر المصادر الألمانية الكنسية عدد المسلمين ذوي الجنسية الألمانية بستة آلاف وخمسمائة مسلم فقط، من بينهم ألف وخمسمائة من أصلٍ ألماني. ويبدو أن هذا الرقم أقل من الواقع بكثير إذ اعتمد على التسجيلات الرسمية فأهمل من اعتنق الإسلام من الألمانيات، وكذلك أغفل الأولاد الذين ولدوا من آباء مسلمين بالأصل وتزوّجوا من ألمانيات، ويعدّ هؤلاء بالآلاف وخاصة إذا علمنا أن أخذ الجنسية الألمانية في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري كانت واسعة النطاق وخاصةً على صعيد العمال، ولم تكن هناك قيود أمامها كما هو اليوم، مع العلم أن عدداً من المسلمين يتزوج بالفتيات الألمانيات

ليحصل على الجنسية وخاصةً أولئك المشرّدين الذين لا يستطيعون الحصول على جوازات سفر من سفارات بلادهم، وأكثر هؤلاء من بلاد الشام.

كما تُردّد المصادر الكنسية نفسها أن مجموع عدد المسلمين في ألمانيا الاتحادية يتراوح بين ١,٥ ـ ١,٨ مليون مسلم، وإن هذا التقدير يُهمل أيضاً عدد الأطفال المسلمين، والزوجات اللواتي لا يعملن.... وإن عدد المسلمين إنما هو مليونان ونصف بينهم نصف مليون دون الخامسة عشرة وسبعمائة ألف امرأة.

وأهم مناطق تجمع المسلمين مقاطعة (رينانيا وستفاليا) ولا سيما في (كولن)، ثم في برلين الغربية، وفرانكفورت، وميونيخ، وشتوتغارت، وهامبورغ، فضلاً عن التجمّعات الطلابية في الجامعات.

التنظيمات الإسلامية: ١ً ـ تأسّست جمعيات بعد الحرب العالمية الأولى لكنها لم تلبث أن تفرّقت إذ عاد كثير من أعضائها إلى بلادهم حيث كانت تضمّ كثيراً من الأسرى.

٢ً ـ تشكّلت بعدئذٍ جمعية إسلامية من الألمان المسلمين لكن لم يلبث أن تسرّب إليها القاديانيون، فكان عبثهم شديداً وخطرهم كبيراً.

٣ً ـ وتألّفت جمعية الجالية الإسلامية في ألمانيا.

٤ً ـ وتأسّست الإدارة الدينية للمسلمين المهاجرين في ألمانيا الاتحادية، وكان كثير من أعضائها جنوداً مسلمين فرّوا من الجيش الروسي، وكانوا يتكلّمون اللغة التركية، وبنوا مركزهم في مدينة (ميونيخ)، وأصدروا مجلة (المهاجرون) باللغة الألمانية، وتصدر مرةً كل ثلاثة أشهر، وكان لهم سبع مدارس مُوزّعة في مدينة (ميونيخ) والمدن الأخرى القريبة منها مثل (نوريمبرغ) و(أولم) و(أوغزبرغ).

٥ً - وأسّس الإيرانيون مركزاً إسلامياً في (هامبورغ) ومسجداً، وكان المسجد يتسع لمائة وخمسين مصلياً.

٦ً - أُقيم مسجد آخن عام ١٣٨٤، وأصبح مركزاً للمسلمين في مقاطعة (وستفاليا) ومنذ أن وصل إليه عصام العطار دبّ النشاط في ذلك المركز، ويُشرف الآن على اتحاد الطلاب المسلمين في أوربا، وعلى اتحاد العمال المسلمين في أوربا، وعلى الدار الإسلامية للإعلام في العاصمة مدينة (بون) والتي تُصدر مجلة (الرائد) باللغة العربية وبعض الكتب الإسلامية. ويتبع هذا المركز عدد من المراكز الإسلامية وخاصةً في مدن المقاطعة إضافةً إلى المراكز في كثيرٍ من دول أوربا الغربية، وهذا النشاط أثار عليه منافسة المسلمين وخصومة الأعداء. ويُعدّ تنظيم الطلائع الإسلامية المشرف على هذا النشاط.

ويقوم المركز بتعليم أطفال المسلمين الإسلام ومبادىء اللغة ويُخصص يومين للأطفال العرب، ويومين لأطفال الأتراك، ويعقد ندوةً أسبوعيةً للمسلمين المقيمين في مدينة آخن وما حولها، وأُخرى شهرية يحضرها المسلمون في المناطق القريبة وتكون يوم السبت الأول من كل شهر، كما يُقيم مخيماً سنوياً.

٧ً - وتأسّس مركز إسلامي ومسجد في ميونيخ في الجنوب عام ١٣٨٥ واشتريت أرض عام ١٣٨٦ لإقامة مسجد ومركز بشكل دائم، ويتولّى هذا المركز النشاط الإسلامي في جنوبي ألمانيا، ويتبع التنظيم الدولي للإخوان المسلمين.

٨ً - أسّس المسلمون الاتراك في ميونيخ جمعيةً خاصةً بهم عُرفت باسم (جمعية المسلمين الأتراك - ميونيخ) وذلك لأنهم لم يُشاركوا في مركز ميونيخ رغم أن ٩٥ ٪ من المسلمين في منطقة ميونيخ وضواحيها من الأتراك.

٩ً - يقوم مركز إسلامي في (بوخم).

١٠ً - بنت الجالية التركية في مدينة (لوبيك) في الشمال مسجداً، ويزيد عدد أفراد هذه الجالية في هذه المدينة على خمسة آلاف مسلم.

١١ً - وأسّس الايرانيون في هامبورغ اتحاد الطلبة المسلمين (مكتب مبرز).

١٢ً - الجمعية الاسلامية في هامبورغ.

١٣ً - الرابطة الإسلامية الألمانية في هامبورغ.

١٤ً - جمعية الطلبة المسلمين في كولن.

١٥ً - الجمعية الثقافية الإسلامية في كولن.

١٦ً - ندوة اللغة العربية والإسلام في مونستر.

١٧ً - تذيع إذاعة (كولن) يوم الجمعة باللغة التركية بعض الموضوعات الإسلامية.

ويقف في وجه النشاط الإسلامي البهائيون الذين لهم مركز في فرانكفورت، والقاديانيون الذين معابد في كل من هامبورغ، وبرلين، وفرانكفورت، ومما يُؤسف له أنهم قد ترجموا معاني القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية حسب معتقداتهم التي تُخالف أصول الإسلام، وهي التي تُوزّع في الأسواق، ولا يوجد سواها. واليهود وأخطر ما فيهم أن بعضهم يظهر الإسلام ويعمل على حربه في الداخل ويدّعي ادعاءات كاذبة ويفتري الكذب وهو يعلم، ومنهم رجل من أصلٍ قفقاسي متزوج بنصرانيةٍ يُشرف على مقبرة ميونيخ، وفتاة تُدعى (بهتان) وتملك مكتباً للسياحة في مدينة ميونيخ.

المقياس
كيلومتر ٤٠ ٨٠ ١٢٠ ١٦٠ ٢٠٠
بحر البلطيق
بحر الشمال
لوبيك
هامبورغ
هولندا
ألمانيا الشرقية
برلين
دوسلدورف
كولن
آخن
بون
بلجيكا
لوكسمبورغ
فرانكفورت
نورمبرغ
هيدلبرغ
تشيكوسلوفاكيا
فرنسا
شتوتغارت
أولم
أوغزبرغ
ميونيخ
سويسرا
النمسا

مصور رقم [٥٠] .

(١٣) النمسا

دولة قارية صغيرة تقع وسط أوربا تبلغ مساحتها ٨٣,٨٤٩ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها على ثمانية ملايين. وهي دولة ألمانية تتكلّم اللغة الألمانية، وإن كان للشعب لهجة محلية. كانت في الماضي تتألّف من مناطق واسعة وتدعى امبراطورية النمسا ـ هنغاريا وتشرف على الإمارات الألمانية التي استقلت عنها فيما بعد، وأسّست دولةً خاصةً بها طغت على النمسا.

تجزأت النمسا بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبحت ضعيفة بعد هزيمتها مع ألمانيا، وفي عام ١٣٥٧ غزاها هتلر وضمّها إلى ألمانيا، ثم أسّست من جديد بعد الحرب، ولكنها بقيت تحت السيطرة الروسية حتى استقلّت عام ١٣٧٥ هـ.

يدين السكان بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي ٨٥٪ منهم، والباقي على المذهب البروتستانتي، ويعيش معهم أربعون ألف مسلم، وخمسة عشر ألفاً من اليهود، ولليهود أثر كبير على الصحافة، وفي النمسا أربع جامعات.

المسلمون: جرى احتكاك بين النمسا والمسلمين في الحروب التي شنّتها أوربا ضدّ الدولة العثمانية لتقف في وجه تقدّمها في أوربا، وقد تمكّن العثمانيون من حصار النمسا عدة مرات أولها كان عام ٩٣٥ أيام السلطان سليمان القانوني، واضطرت النمسا لدفع الجزية للعثمانيين، لكنها تخلّصت من

هذه الجزية عام ١٠١٥ بدفع مائتي ألف دوكا دفعةَ واحدةَ بينما كانت تدفع سنوياً ثلاثين ألف دوكا. ثم وصل العثمانيون مرة أخرى إلى فينيا بإمرة قره مصطفى، وحاصروها مدة شهرين في عهد السلطان محمد الرابع.

وضعف أمر الدولة العثمانية، وأخذت النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك إثر مؤتمر برلين في رجب من عام ١٢٩٠، فانتقل عدد من مسلمي هذه المقاطعة إلى بلاد النمسا ما داموا قد أصبحوا تابعين لها. وتزوّج بعض المسلمين هناك من نساء نمساويات.

وبعد الحرب العالمية الثانية هاجر عدد من اليوغوسلافيين إلى النمسا أو فرّوا بعد سيطرة الشيوعية، وبعد أن انسحب الروس من النمسا عام ١٣٧٥ هـ بدأ العمال الأتراك يفدون إليها للعمل. وقد تطوّر عدد المسلمين في النمسا حسب الجدول الآتي:

عام ١٣٧١ كان عدد المسلمين في النمسا ٣,٠٠٠ مسلم.
عام ١٣٨٥ كان عدد المسلمين في النمسا ٢٠,٠٠٠ مسلم.
عام ١٣٩١ كان عدد المسلمين في النمسا ٣٥,٠٠٠ مسلم.
عام ١٤٠٧ كان عدد المسلمين في النمسا ٤٠,٠٠٠ مسلم.

ويتوزّع هذا العدد حسب الجنسيات كما يلي:

١٨,٠٠٠ يوغوسلافي.
١٣,٠٠٠ تركي.
٣,٠٠٠ طالب.
٣,٠٠٠ نمساوي بعضهم من أصلٍ مسلم من البوسنة (يوغوسلافيا).
٣,٠٠٠ من جنسيات أخرى.

٤٠,٠٠٠ المجموع.

ويتجمّع أكثر المسلمين في مدن فينيا، وسالزبورغ، ولينز، وكلاجنفورت.

التنظيمات الإسلامية: أسس المسلمون الذين قدموا إلى النمسا من البوسنة والهرسك قبيل الحرب العالمية الأولى «الجمعية الثقافية الإسلامية»، وكانت النمسا يومذاك قد اعترفت بالدين الإسلامي رسمياً، وقدّمت مساعدةً لبناء مسجد غير أن ظروف الحرب قد قضت على المشروع من أساسه. واستمرّت هذه الجمعية حتى أُلغيت عام ١٣٥٨ إبان الحكم الألماني.

وتأسّست عام ١٣٧٠ «جمعية مسلمي النمسا» ولكنها حُلّت عام ١٣٨٢.

وتأسست عام ١٣٨٢ «جمعية الخدمات الإسلامية الاجتماعية» وانضمّت اليها معظم المجموعات الإسلامية، ولها مركز للصلاة في فيينا، ومكتبة إسلامية، وتُصدر مجلة (الصراط المستقيم) باللغات الألمانية، واليوغوسلافية، والتركية، وللجمعية فروع في عددٍ من مدن النمسا.

وهناك اتحاد الطلبة المسلمين ومقرّه المعهد الإفريقي الآسيوي في فيينا الذي هو مؤسسة كاثوليكية.

ووجدت جمعية الطلبة الإسلاميين الايرانيين ومقرّها المعهد الافريقي الآسيوي نفسه.

وحتى الآن لم تعترف بالإسلام، إذ ألغت اعترافها السابق، وعمل سفراء بعض الدول الإسلامية على فتح مركز إسلامي في فيينا.

ولا توجد مدارس إسلامية، والمسلمون هناك مهملون وقد ارتدّت ٧٦ عائلة عن الإسلام للجهل، والدعاية والتشكيك.

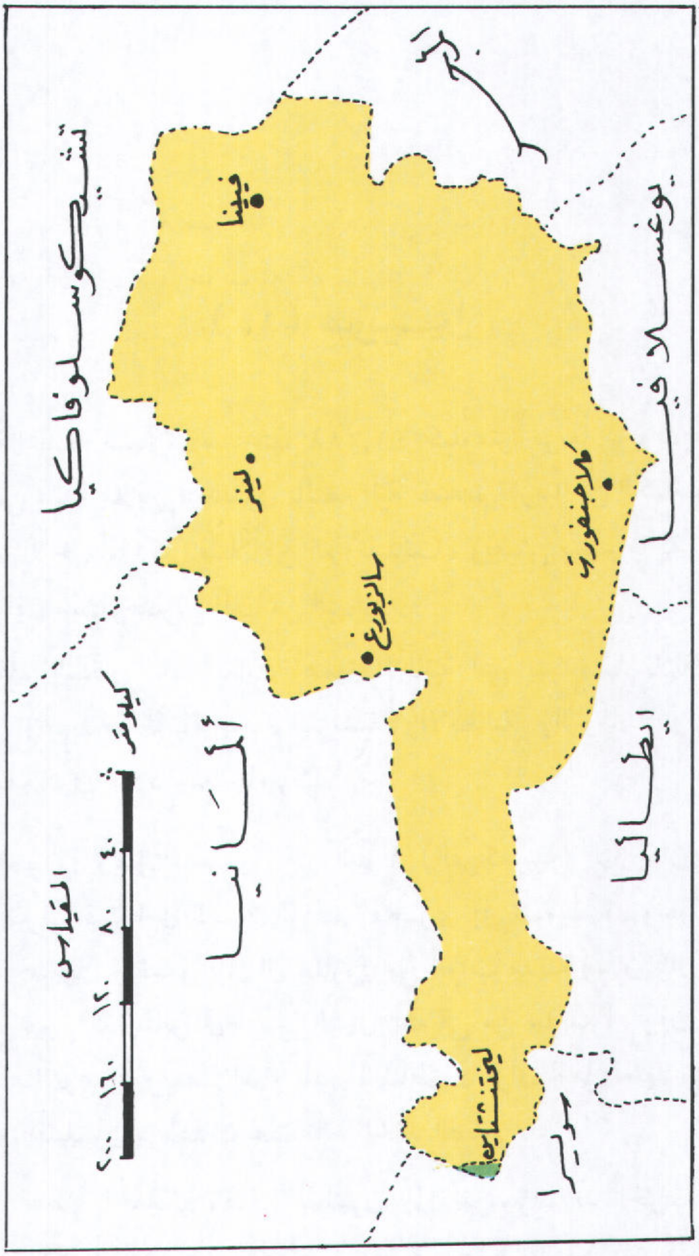
تشيكوسلوفاكيا
يوغسلافيا
المجر
ألمانيا
إيطاليا
سويسرا
فيينا
لينز
سالزبورغ
كلاجنفورت
ليختنشتاين
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٥١] .

(١٤) سويسرا

دولة اتحادية صغيرة، مساحتها ٤١,٢٨٨ كيلومتراً مربعاً. ويزيد سكانها قليلاً على سبعة ملايين، يدينون بالنصرانية نصفهم تقريباً من الكاثوليك والنصف الآخر أو أكثر قليلاً من البروتستانت، ويعيش بينهم ما يقرب من أربعين ألف مسلم وعشرين ألف من اليهود.

ويتكلّم السكان أربع لغات أهمها الألمانية التي يتكلم بها ثلاثة أرباع السكان، ولهم لهجة خاصة بهم، ثم الفرنسية، والايطالية، والرومانية، والأخيرة لغة لاتينية. وفي البلاد سبع جامعات.

المسلمون: وصل المسلمون من الدولة (الفركسينية) التي كان مقرها جنوب شرقي فرنسا في القرن الرابع الهجري إلى سويسرا، وتجوّلوا في أرجائها جميعها، وتقدّموا إلى أن صاروا على أبواب مدينة (سان غال) وعلى ضفاف بحيرة كونستانز في أقصى الشمال الشرقي من سويسرا، وإن لم يطل مُقامهم هناك غير أن بعض أسماء المدن والمناطق لا تزال تحمل لغتهم وأثرهم، وقد زال المسلمون من هناك تحت تأثير الحقد الصليبي.

وفي العصر الحديث وصل المسلمون إلى سويسرا بعد الحرب العالمية الأولى، وكان أكثرهم من اللاجئين السياسيين، ولكن العدد بقي قليلاً حتى عام ١٣٧١ حيث لم يزد على الألفين، كما اعتنق بعض السويسريين الإسلام،

وبعد هذه المرحلة بدأ العمال المسلمون يفدون إلى البلاد فوصل العدد إلى ثلاثين ألفاً عام ١٣٩١، وأكثرهم كانوا يُقيمون بصورةٍ موقتةٍ (٢٣ ألفاً) و(٢ ألف) يُقيمون بصورةٍ دائمةٍ والباقي وهو خمسة آلاف من السويسريين، ألفان حصلوا على الجنسية السويسرية، وثلاثة آلاف اعتنقوا الإسلام من غير أن يُعلنوا ذلك خوفاً من حقد النصارى عليهم، ويصل العدد اليوم إلى أربعين ألفاً.

التنظيمات الإسلامية: ١ً - سافر سعيد رمضان إلى سويسرا في مطلع الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، وأقام في مدينة جنيف، وافتتح مركزاً إسلامياً، وأصدر مجلة (المسلمون) التي كانت تصدر في القاهرة ثم في دمشق، ولكن لم تطل أيام المركز.

٢ً - وتأسّست جمعية إسلامية عام ١٣٩٢، وقامت ببناء مسجدٍ ومركزٍ إسلامي، وكانت تُشرف على تعليم أطفال المسلمين في المسجد.

٣ً - وقامت المؤسسة الإسلامية في مدينة جنيف عام ١٣٩٣، وأقامت مسجداً، ومكتبةً، ومدرسةً وقاعةً للمحاضرات، وأنفقت المملكة العربية السعودية على هذا المشروع.

٤ً - يقوم المعهد الإسلامي في مدينة جنيف.

٥ً - يقوم المعهد الإسلامي في مدينة زوريخ.

٦ً - وهناك الجمعية الإسلامية للناطقين بالألمانية في مدينة زوريخ.

٧ً - ويوجد معهد الطلاب العرب والمسلمين في ليونسيديكس.

ويجد المسلمون عنتاً كبيراً من اليهود الذين لهم تأثير كبير على الرأي العام، ومن القاديانيين الذين لهم معبد في مدينة زوريخ وقد أُقيم منذ عام ١٣٨٢ هـ.

وإلى الشرق من سويسرا بينها وبين النمسا توجد مملكة صغيرة تُسمّى

(ليختنشتاين) لا تزيد مساحتها على ١٥٧ كيلو متراً مربعاً، وقد استقلّت عن النمسا في أواخر عام ١٣٣٦، ولا يزيد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألفاً يتكلّمون اللغة الألمانية، ويدينون بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، ويعيش بينهم سبعة آلاف مسلم بصورة موقتة يحيون كعمال.

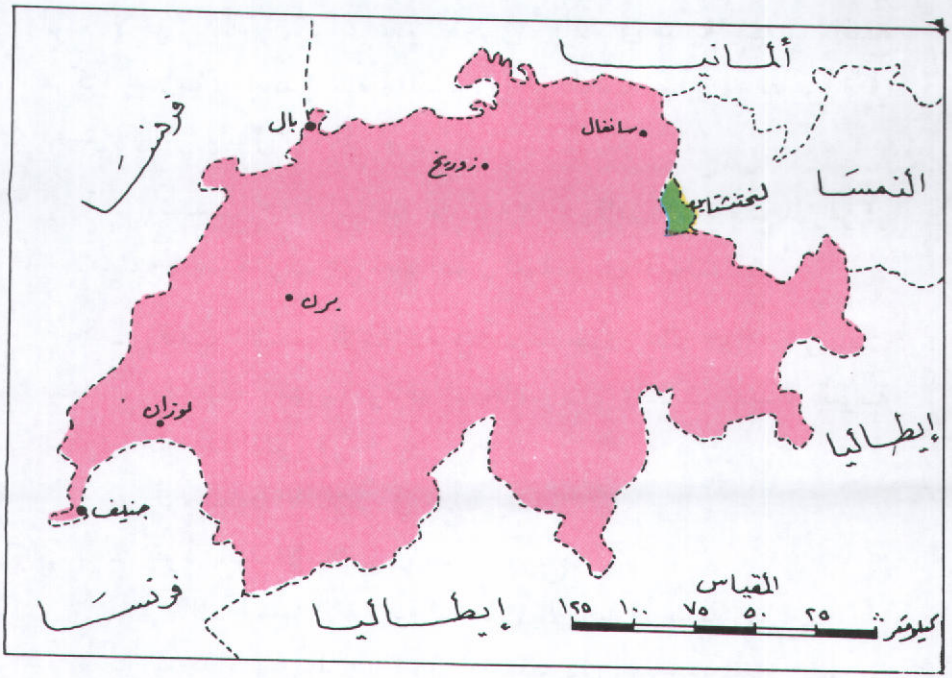

مصور رقم [٥٢].

(١٥) إيطاليـــا

جمهورية متوسطية تبلغ مساحتها ٣٠١,٢٤٤ كيلومتراً مربعاً، فهي من الدول الكبيرة المساحة في أوربا، ويزيد عدد سكانها على خمسةٍ وخمسين مليوناً، عاصمتها مدينة روما التي تضمّ دولة الفاتيكان، كما توجد في داخل ايطاليا أيضاً جمهورية (سان مارينو) التي لا تصل مساحتها إلى اثنين وستين كيلومتراً مربعاً ولا يزيد عدد سكانها على تسعة عشر ألفاً. ويدين الايطاليون بالنصرانية على المذهب الكـاثـوليكـي، ويعيش بينهـم مـائـة ألـف نصراني بروتستانتي، وثمانين ألف مسلم، وخمسة وثلاثين ألفاً من اليهود.

وكانت مُجزّأةً وتوحّدت عام ١٢٨٨ هـ، وأُلغيـت الملكيـة فيهـا بعـد الحرب العالمية الثانية وأُعلنت الجمهورية. ويتكلّم السكان اللغة الإيطالية، وفيها أربع مقاطعات ذات استقلالٍ ذاتي وهي: جزيرة صقلية، وجزيرة سردينيا التي تتكلّم لغةً خاصةً بها، ووادي (الأديج) حيث يتكلم السكان اللغة الألمانية وهي على حدود النمسا وقاعدتها مدينة (ترنتو)، والوادي الأوسط حيث تسود اللغة الفرنسية على الحدود السويسرية الفرنسية، وقاعدتها مدينة (الأوسط).

وتتبع ايطاليا عدة جزر أهمها: صقلية وسردينيا، وقوصرة، وإلبا.

المسلمون: فتح المسلمون جزر البحر المتوسط ومنها صقلية، وسردينيا، وقوصرة، كما فتحوا جنوبي ايطاليا ولذا فإن احتكاكاً كبيراً قد حدث بين المسلمين وبين الطليان، وربما كان أكثره في جزيرة صقلية حيث طال بقاء المسلمين حتى انتشرت حضارتهم، وعمت لغتهم، وساد دينهم.

قوصرة: جزيرة صغيرة لا تزيد مساحتها على مائة كيلومتر مربع، تقع بين تونس وصقلية، ولا تبعد عن تونس أكثر من سبعين كيلومتراً، وتُعرف اليوم باسم (بانتيليرا)، وتتبع ايطاليا. وتأتي أهميتها من موقعها.

فتح المسلمون قوصرة في وقتٍ مبكرٍ، في عهد الفتوحات الأولى، أيام عبد الملك بن مروان، وعمّ فيها الإسلام، وانتشرت العربية، وبقيت الجزيرة في حوزة المسلمين حتى قوي شأن أوربا فقامت حرب الإبادة في الجزيرة، كما هُجرّ قسم من السكان عن أرضه، وبقي في قوصرة عدد ضئيل من المسلمين انقطعت صلتهم مع إخوانهم في الأمصار الإسلامية الأمر الذي أدخل كثيراً من التشويهات على العقيدة، وعدد المسلمين اليوم فيها محدود.

صقلية: جزيرة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٥,٤٦٠ كيلومتراً مربعاً، ويزيد سكانها على خمسة ملايين، وهي ذات موقع مهم إذ تقسم البحر المتوسط إلى قسمين، وتتحكم في ممراته، ولا يفصلها عن شبه جزيرة ايطاليا سوى مضيق (مسينا) الذي لا يزيد عرضه على خمسة كيلومترات.

فتح المسلمون صقلية أيام دولة بني الأغلب عام ٢١٢ إذ أرسلوا لها جيشاً بقيادة الفقيه أسد بن الفرات فدخل الجزيرة وحرّرها من الطغيان البيزنطي الذي زال نهائياً عنها عام ٢٩٠، وبقيت بيد المسلمين، وعادت غارات البيزنطيين على الجزيرة في عام ٣٥٥، واستطاع النورمانديون دخولها عام ٤٨٤ هـ بأمر من البابا بعد أن تجزأت إلى عددٍ من الإمارات الصغيرة. فلما استقرّ الوضع للنورمانديين بدأت حرب الإبادة والتنصير، وحدثت مجازر وأحداث تقشعر لها الأبدان، وكتم بعض الناس إسلامهم مدة، وأظهروا

النصرانية، ومنهم الحسن الوزّان المشهور [١]. وقد كان معظم سكان الجزيرة من المسلمين، واللغة السائدة هي العربية، حتى اضطر روجر النورماندي أن يُبقي على اللغة ريثما تسنح له الفرصة لإلغائها كما استفاد من العلماء الذين كانوا في الجزيرة إذ كانت الحضارة هي السائدة. واستمرّت حرب الإبادة ضدّ المسلمين حتى خلت الجزيرة منهم، وإن بقي أثرهم الحضاري.

سردينيا: جزيرة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٤,٠٨٩ كيلومتراً مربعاً. غزاها المسلمون عام ٩١ هـ، واستطاع بنو الأغلب فتحها عام ١٩٤، وبقيت في أيدي المسلمين حتى عام ٤٢٣ حيث تمكّن النصارى من دخولها ومع تسلّطهم بدأت إبادة المسلمين وتهجيرهم حتى خلت الجزيرة من المسلمين.

جنوبي ايطاليا: فتح المسلمون جنوبي إيطاليا عام ٢٢٤ هـ، وقامت هناك حكومة إسلامية، ووصل الغزو إلى قرب مدينة روما، غير أن خلاف المسلمين فيما بينهم قد أضعف أمرهم وقوّى عدوهم، فاشتدّ ضغط الصليبيين على المسلمين حتى زالت دولتهم، واضطروا إلى مغادرة مواقعهم، ومن بقي منهم قُتل أو أُجبر على التنصّر، ومع الزمن زال الإسلام الذي كتم في القلوب عدة قرون.

وكذلك وصل المسلمون إلى شمالي ايطاليا حوالي عام ٢٩٤ هـ من الدولة (الفركسينية) إذ وصلوا إلى شواطىء جنوه، وإلى البيه مونت في وادي (سوزا) غرب (تورينو)، ولا تزال الأسماء التي أطلقوها على المناطق في وادي التيرول كما هي، ومنها (الأوسط) وغيرها. وبقي المسلمون هناك حتى عام ٣٦٥ حيث سقط آخر معاقلهم، وهو حصن (فركسينت) بيد النصارى. واستولت الكنيسة على كثيرٍ من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين.

وفي أيام الدولة العثمانية دخل المسلمون ميناء اوترانتو في الجنوب عام

---

(١) يمكن الرجوع إلى رحلة ابن جبير.

٨٨٥ أيام السلطان محمد الفاتح، وبقوا فيها حتى عام ١١٢٤ هـ. وزال أثر الإسلام من ايطاليا بعد هذه المدة حتى العصر الحديث.

وفي الوقت المعاصر جاء مسلمون مهاجرون من أوربا الشرقية فارين من الضغط الشيوعي، فاستقرّ بهم المقام في ايطاليا، كما وفد إليها عمال للعمل في المصانع الايطالية إضافةً إلى الطلاب الذين يدرسون في جامعاتها، ورجال السلك السياسي، والايطاليون الذين اعتنقوا الإسلام.

التنظيمات الإسلامية: ١ً - تأسست جمعية (الاتحاد الإسلامي في الغرب) لرعاية المسلمين القادمين من أوربا الشرقية وذلك بعد الحرب العالمية الثانية، وقد حصلت على مقبرةٍ للمسلمين، وكانت تقوم بالواجبات المترتبة عليها تجاه المسلمين. ومقرّها مدينة روما، وتعمل لتأسيس مدرسة لأبناء المسلمين.

٢ً - أُنشىء المركز الإسلامي في مدينة روما عام ١٣٨٦.

٣ً - اتحاد الطلبة المسلمين وله فروع في خمس مدن.

٤ً - المركز الصحافي للدراسات الإسلامية في روما.

٥ً - المركز الإسلامي في ميلانو.

ويقف في وجه المسلمين اليهود الذين لهم تأثير على الصحافة وعلى الرأي العام، والقاديانيون الذين يطبعون كتبهم ويوزعونها، والبهائيون الذين ترجموا معاني القرآن الكريم إلى الإيطالية حسب عقيدتهم الزائفة.

المقياس
كيلومتر
٧٥ ١٥٠ ٢٢٥
ترنتو
ميلانو
الأوسط
تورينو
جنوه
سان مارينو
كورسيكا
إلبا
روما
سردينيا
نابولي
برنديزي
اوترانتو
مسينا
صقلية
تونس
قوصرة

مصور رقم [٥٣] .

(١٦) مَالطَـة

دولة تتألّف من مجموعة جزر، تُعـرف بـاسم أكبرهـا (مـالطـة)، تبلـغ مساحتها جميعها ٣٢٦ كيلومتراً مربعاً، تغطي جـزيـرة مـالطـة منهـا ٢٣٦ كيلومتراً مربعاً، وغوزو ٦٣ كيلومتراً مربعاً، وكومينو ٢٦ كيلومتر مربعاً، وفليفلا كيلومتراً مربعاً واحداً.

تبعد هذه الجزر عن جزيرة صقلية ٩٣ كيلومتراً، وعن تونس ٢٩٠ كيلومتراً. ولا يزيد عدد سكانها على ثلاثمائةٍ وخمسين ألفاً، بينهم أربعون ألف مسلم أي يُشكّلون ١١ ٪ من مجموع السكان.

المسلمون: فتح الأغالبة مالطة عام ٢٥٦، واستمرّ المسلمون فيها حتى عام ٤٨٣، فعمّ الإسلام، وانتشرت اللغة العربية، فلما جاء النورمانديون أيام روجر أرغموا أهلها على الخروج من الإسلام.

استمرّ حكم النورمانديين مالطة حتى عام ٩٣٧ إذ انتقل إليها فرسان القديس يوحنا عام ٩٢٩ بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودوس، وفي عام ٩٣٧ تمكّن هؤلاء الفـرسـان مـن السيطـرة على مـالطة، وأنهوا حكـم النورمانديين.

نزل العثمانيون في مالطة مدةً قصيرةً عام ٩٥٩ وغادروها بعدئذ، ثم ألقوا الحصار عليها أربعة أشهر عام ٩٧١ ولكنهم أخفقوا في فتحها.

بقي فرسان القديس يوحنا حتى طردهم من مالطة نابليون بونابرت عام ١٢١٣ وهو في طريقه إلى مصر يقود حملةً للسيطرة عليها، ولكن الانكليز أخرجوا الفرنسيين منها عام ١٢١٧، وبقيت مالطة بعدها بيد الانكليز حتى حصلت على استقلالها عام ١٣٨٤ ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، وبقي للانكليز قواعد فيها.

يتكلّم السكان لغةً يسمونها المالطية، وما هي في الحقيقة سوى لهجةٍ خاصةٍ قريبة من اللهجة التونسية، ومن اللغة العربية، وقد كتبت هذه اللهجة بالحرف اللاتيني في القرن الثاني عشر الهجري، وكانت من قبل تكتب بالحرف العربي. ويقال: إن هذه اللغة من أصل فينيقي. ويدين أغلب السكان بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي. وفي البلاد جامعة واحدة.

وجاء مسلمون من ليبيا وتونس مهاجرين إليها، وأقامت ليبيا عام ١٣٩٤ مركزاً إسلامياً ومسجداً تُؤدّى فيه الصلاة: الجماعة وصلاة الجمعة والأعياد.

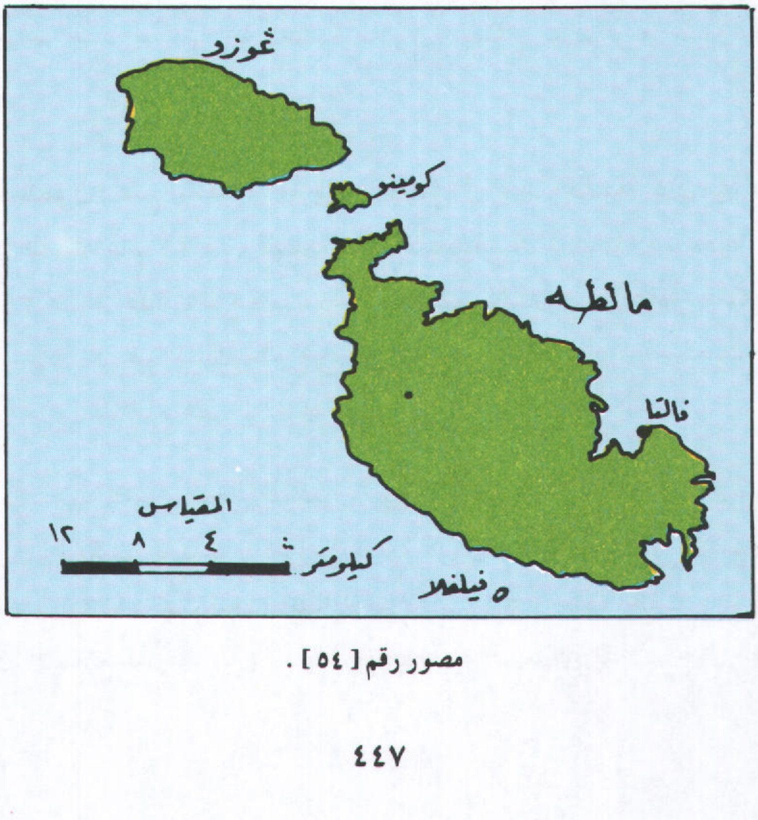

مصور رقم [٥٤].

(١٧) اليونـان

جمهورية صغيرة تبلغ مساحتها ١٣١,٩٤٤ كيلومتراً مربعاً، وتشمل عدداً كبيراً من الجزر منتشرة في بحر ايجه الذي بينها وبين تركيا، وتتبعها حتى الجزر التي تقوم قرب السواحل التركية، وأهم الجزر اليونانية، رودوس، وكريت. كانت مملكةً، وأُعلنت فيها الجمهورية عام ١٣٩٣ هـ.

ويزيد عدد سكانها على عشرة ملايين، يعيش بينهم ربع مليون مسلم تقريبا.

المسلمون: فتح المسلمون جزيرة رودوس في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٣١ هـ، تمهيداً لفتح القسطنطينية، ثم عادوا فانسحبوا منها عام ٣٩ هـ للأحداث التي قامت داخل المجتمع الإسلامي، ثم عادوا ففتحوها أيام سليمان بن عبد الملك عام ٩٩ للغرض نفسه لكن عادوا فانسحبوا منها بعد عامٍ واحدٍ أيام عمر بن عبد العزيز.

وفي العهد العثماني دخل المسلمون رودوس عام ٩٢٩ أيام السلطان سليمان القانوني، وبقيت بأيديهم أكثر من أربعة قرون، ثم أُجبروا على الانسحاب منها عام ١٣٣١ حيث تبعت ايطاليا حتى عام ١٣٦٧ حيث ألحقت باليونان، وكان الإسلام قد ساد بين أهلها، وبعد مجيء النصارى بدأت أعمال العنف

والإبادة والتهجير حتى لم يبق من المسلمين سوى عشرة آلاف مسلم. وهي لا تبعد عن الشواطىء التركية سوى ثمانية كيلومترات، وتبلغ مساحتها ١٢٥٠ كيلومتراً مربعاً.

وغزا المسلمون جزيرة كريت التي تبلغ مساحتها ٨,٣٠٠ كيلومتر مربع في منتصف القرن الأول الهجري أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ولكن لم يتمكنوا من فتحها، وجاءتها جماعة من الأندلس بإمرة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي عام ٢١٢، وأسّسوا فيها حكومةً لهم استمرّت حتى عام ٣٥٠ حيث عاد إليها الروم، ويُسمّيها المسلمون (اقريطش) وفي أيام الحكم الإسلامي اعتنق جميع أهلها الإسلام فلما جاء البيزنطيون بدؤوا بحرب الإبادة والتهجير والتنصير حتى لم يبق للمسلمين أي أثر... ومع ذلك فقد بقي الظلم يلحق أهلها النصارى.

وجاء العثمانيون إلى جزيرة كريت عام ١٠٨٠ بناءً على طلب أهلها المضطهدين في سبيل إزالة الظلم عنهم، ورجع كثير من أهلها إلى الإسلام، كما أسلم الكثير من جديد، وغدا معظم أهلها من المسلمين، وضعفت الدولة العثمانية، ودخل محمد علي باشا والي مصر عام ١٢٣٩ كريت، واستمرّت تتبع مصر حتى عام ١٢٥٦ حيث أُعيدت للدولة العثمانية، وأجبرت على الانسحاب منها عام ١٣١٦، واستقلت، ثم تبعت اليونان عام ١٣٣١ هـ. عندما خرج العثمانيون من جزيرة كريت كان عدد المسلمين فيها ٨٩ ألف مسلم بقوا بعد عشر سنوات ٣٣ ألفاً، واستمرّ العدد في النقصان نتيجة الإبادة والتهجير والتنصير حتى خلت نهائياً من المسلمين.

أما أرض اليونان فلم يصل إليها المسلمون إلا في العهد العثماني فقد فتح السلطان مراد الأول مقدونيا عام ٧٨٢، وفتح السلطان بايزيد الأول منطقة تساليا، وفتح السلطان محمد الفاتح بلاد الموره عام ٨٦٣، كما فتح السلطان نفسه جزر بحر إيجه وهكذا أصبحت بلاد اليونان اليوم كلها ضمن أراضي

العثمانيين. وانتقل إلى الأرض اليونانية عدد كبير من المسلمين من الأتراك والبلغار والألبان، ووصل عدد المسلمين في اليونان إلى ما يقرب من نصف السكان.

وعندما ضعفت الدولة العثمانية وبدأت الدول الصليبية تُثير في وجهها المشكلات فكان مما أثارته دفع اليونانيين للثورة ضدّ العثمانيين فجرت حروب بين الطرفين دفع النصارى في أوربا كلها اليونانيين وأمدوهم بالسلاح والمال والقوات، **وانتهى القتال بين الجانبين واستقلّت اليونان، وعندما سيطرت على الوضع** بدأت تمارس ضغوطاً عنيفةً ضدّ المسلمين، إذ ألزمت أعداداً من المسلمين في مقدونيا على الهجرة، كما طردت المسلمين الألبان من منطقة الجنينة التي استولت عليها من ألبانيا عام ١٣٣٢، ونتيجة هذا الضغط فقد غادر اليونان **١,٢٠٠,٠٠٠ مسلم. وبذا بدأ عدد المسلمين في اليونان بالتناقص حسب الجدول** الآتي:

كان عدد المسلمين في اليونان عام ١٣٣٩ ١,٤٠٠,٠٠٠ مسلم أي ما يزيد على ربع السكان عامةً.

فأصبح عام ١٣٥٩ ١٣٤,٧٢٢ **مسلماً**.
عام ١٣٧١ ١٣٤,٠٠٠ مسلم.
عام ١٣٨١ ١٢٦,٠٠٠ مسلم.

وكان قد بقي عدد من المسلمين في منطقة غربي اليونان فذُبح أكثرهم بعد الحرب العالمية الثانية والباقي قد طُرد.

وينتمي المسلمون في اليونان إلى ثلاث مجموعات هي الأتراك، والألبان، والبلغار (البوماك)، وبعض الشراكسة، ويُشكّل الأتراك ثلاثة أرباع المسلمين، ويتجمّع المسلمون في خمس مناطق هي:

١ - **تراقيا الغربية:** وهي تتمة لتراقيا التي تقع في تركيا، ويُقدّر عدد سكانها بأربعمائة وخمسين ألفاً يعيش بينهم مائة وثلاثون ألفاً من المسلمين أي ٢٩٪ من مجموع سكان هذه المقاطعة، على حين كانوا يُشكّلون عام ١٣٣٧ بالنسبة إلى سكان المقاطعة ٦٠٪ إذ كانوا ١١٤,٨١٠ مسلم، على حين كان عدد سكان المقاطعة هو ١٩١,٣٥٠ إنسان في ذلك العام، وبدأ التناقص حسب الجدول الآتي:

عام ١٣٣٧ كان المسلمون ١١٤,٨١٠ مسلم.
عام ١٣٤١ كان المسلمون ١٢٩,١٢٠ مسلماً.
عام ١٣٩١ كان المسلمون ٩٠,٠٠٠ مسلم.
عام ١٣٩٥ كان المسلمون ١١٧,٠٠٠ مسلم.
عام ١٤٠٧ كان المسلمون ١٣٠,٠٠٠ مسلم.

ويُقدّر عدد المهاجرين من تراقيا الغربية بـ ٥٤٠,٠٠٠ من عام ١٣٣٨ حتى عام ١٣٩٥، وقد انتقل معظمهم إلى تركيا، وهاجر بعضهم إلى استراليا. وفي الوقت نفسه انخفض عدد القرى المسلمة في المدة نفسها من ثلاثمائة قرية إلى اثنتين وأربعين قرية. وأكثر المسلمين في تراقيا الغربية يعود إلى أصلٍ تركي.

١ - **مقدونيا:** ويُقيم فيها خمسة عشر ألفاً من المسلمين معظمهم من الألبان، والبلغار (البوماك)، والغجر، وأكثرهم يسكن مدينة (سالونيك).

٢ - **جزر بحر ايجه:** ويوجد ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من المسلمين يتوزعون في جزر بحر ايجه، وأكثرهم من الأتراك.

٤ - **مقاطعة إيبروس:** في الشمال الغربي، وهذه المنطقة تتبع إلى ألبانيا بالأصل احتلتها اليونان عام ١٣٣٢، وقد جرى تبادل سكان مع ألبانيا. وكان يُقيم في هذه المقاطعة أكثر من خمسين ألف مسلم معظمهم في مدينة (جنينة) عاصمة المقاطعة، ويقرب عددهم الآن من خمسة عشر ألفاً.

٥ً - **أثينا**: بصفتها العاصمة، ويسكنها اليوم ما يزيد على خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين، منهم الأتراك، ومنهم الألبان الذين انتقلوا إليها، كما توجد فيها جالية عربية.

مع العلم أن اليونانيين لا يضطهدون المسلمين لأنهم أتراك أو بلغار، أو ألبان وإنما لأنهم من المسلمين فالحقد ليس قومياً وإنما صليبياً، وهذا يبدو من إبادة المسلمين في جزيرة كريت رغم أنهم من أصلٍ يوناني، ويتكلّمون لغةً يونانيةً أيضاً.

المساجد: كان عدد المساجد كبيراً أيام الحكم العثماني، وقد انخفض إلى ٣٠٠ مسجد عندما آل الأمر إلى اليونانيين، ثم انخفض العدد ولا يزال في تناقص مستمر، ويوجد الآن أربعة عشر مسجداً في عاصمة تراقيا الغربية (كومونيتي)، ويزيد سكانها على ثلاثين ألفاً نصفهم من المسلمين. كما يوجد عشرة مساجد في (ايزكيدي)، وخمسة مساجد في جزيرة (رودوس).

المدارس: يوجد ما يقرب من مائتي قرية مسلمة في كل قرية مدرسة ابتدائية للأطفال المسلمين. وتقوم خمس مدارس تُعلّم اللغة التركية بالحرف العربي، ومتوسطتان، وثانويتان، ومدرستان إسلاميتان لتخريج الأئمة أحدهما تُسمّى بالرشادية والثانية بالخيرية. وتوضع القيود الكثيرة في وجه مدارس المسلمين.

التنظيمات: أُسّس عام ١٣٥١ منظمة اتحاد الإسلام، وتصدر مجلةً نصف شهرية تحمل اسم (المحافظون). وهناك جمعية يقظة الإسلام، وتصدر مجلة (الثبات) التي تصدر أسبوعياً.

وهناك اللجنة الإسلامية في مدينة كيوركاو.

وفي الوقت الذي تجد هذه المنظمات كل الضغوط في وجهها، نجد دعم منظمة قومية هي منظمة (الشباب الاتراك)، وهي تحمل أفكار كمال أتاتورك، وتصدر ثلاث صحف اسبوعية هي: الهجوم، القومية، وبريد الأقلية.

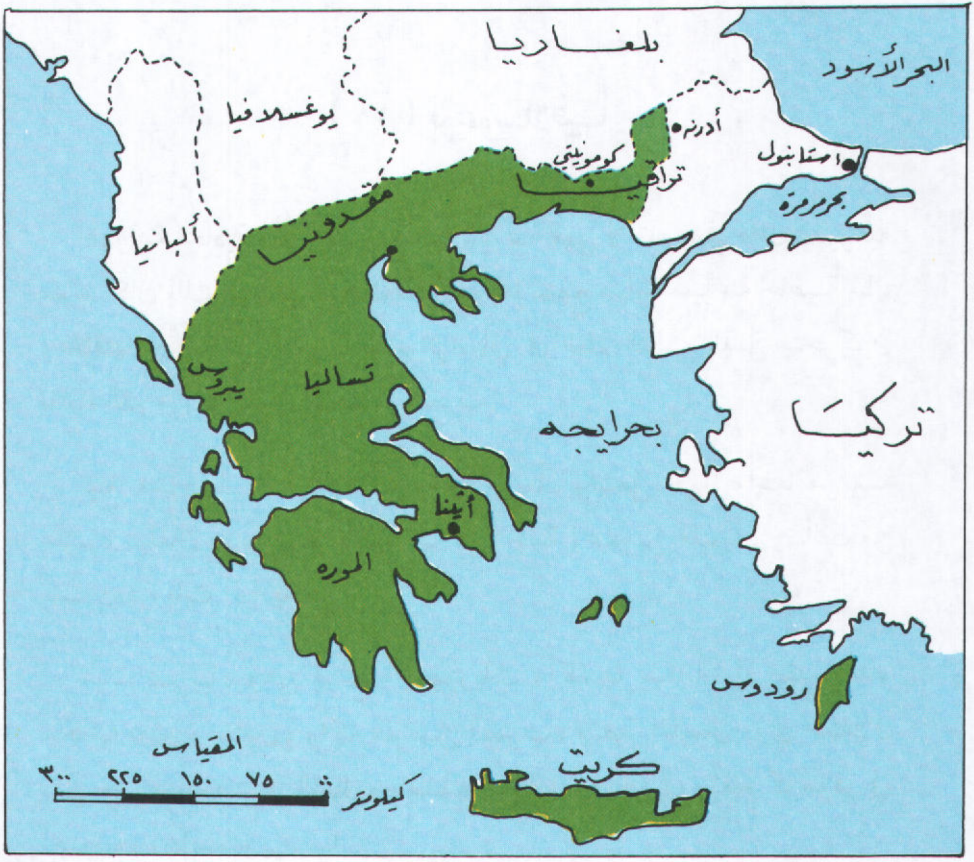

بلغاريا
البحر الأسود
يوغسلافيا
أدرنه
كوموتيني
تراقيا
استانبول
بحرمرمرة
مقدونيا
ألبانيا
يبروس
تساليا
بحرايجه
تركيا
أثينا
المورة
رودوس
كريت
المقياس
٣٠٠ ٢٢٥ ١٥٠ ٧٥ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٥٥] .

(١٨) يوغوسلافيـا

جمهورية اتحادية شيوعية، ومع أنها شيوعية فهي لا تدور في فلك الشيوعية سواء أكان فلك موسكو أم فلك بكين، وإنما تنتهج سياسة شيوعيةً خاصـةً بها، وعلاقتها جيدة مع أعوان النظام الرأسمالي في العالم الثالث الذين يتحرّكون باتجاه الشرق، ويتلقّون الدعم من الغرب.

تبلغ مساحتها ٢٥٥,٨٠٤ كيلومتراً مربعاً، وتشغل جزءاً واسعاً من شبه جزيرة البلقان، ويزيد عدد سكانها على خمسةٍ وعشرين مليوناً، وتتألف من ست جمهوريات اتحادية هي:

١ً - **صربيا**: وهي أوسع الجمهوريات وأكثرها سكاناً، إذ يقدر عدد سكانها بعشرة ملايين، وأكثرهم مـن الصرب، وتضمّ إقليمين ذوي استقلال ذاتي هما: فويفودينا في الشمال وعاصمته مدينة (نوفيساد)، وإقليم كوسوفو في الجنوب، وعاصمته برشتينا.

٢ً - **سلوفينا**: ويبلغ عدد سكانها ١,٩٠٠,٠٠٠، ويقطنها (السلوفين)، وعاصمتها (لوبليانا).

٣ً - **كرواتيا**: ويـزيـد عـدد سكـانها على ٥,٥٠٠,٠٠٠، وهـم مـن الكروات، وعاصمتها مدينة (زغرب).

٤ً - **البوسنة والهرسك:** ويقدر عدد سكانها بخمسة ملايين، وتضمّ البشانقة بشكل رئيسي ثم الكروات، والصرب، وعاصمتها مدينة (سيراجيفو).

٥ً - **مقدونيا:** ويقطنها مليونان معظمهم من المقدونيين، وعاصمتها مدينة (سكوبيا).

٦ً - **الجبل الأسود:** أصغر الجمهوريات، ولا يزيد عدد سكانها على ثمانمائة ألف، وعاصمتها (تيتوغراد).

ينتمي سكان يوغوسلافيا إلى عدة مجموعات أكبرها: السلاف الجنوبيون (الصقالبة الجنوبيون) ومنهم الصرب، والكروات، والبوشناق، ومنها الألبان، والمقدونيون، والأتراك وبناءً على ذلك تتعدد اللغات واللهجات.

واللغة الصربية هي الرسمية، ولكنها تستعمل أبجدتين، فالصرب والبوشناق يستعملون أبجدية هي الروسية، والكروات والسلوفين يكتبون أبجدية أخرى هي اللاتينية.

احتل الرومان المنطقة، وبدأت النصرانية تنتشر في أرجائها عن طريق روما، ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية على نفسها **عام ٣٩٥**، أخذت النصرانية تصل إلى المنطقة عن طريق القسطنطينية، وهكذا وجد الكاثوليك كما وجد الأرثوذكس. لقد اعتنق السلوفين والكروات الكاثوليكية، ودان الصرب بالأرثوذكسية.

المسلمون: وفي أواخر القرن الرابع الهجري وصل البشانقة والكومان إلى المنطقة من بُلغار في حوض نهر الفولغا، وكان بعضهم يحمل عقيدة الإسلام، وإن لم تكن تعاليمه قد رسخت تماماً في نفوسهم، وقد أقاموا في المنطقة الجبلية، وشكّلوا لهم حكومةً خاصةً بين الكروات والسلوفين الكاثوليك والصرب الأرثوذكس، واعتنق بعض البشانقة النصرانية تأثّراً بالمحيط الذي

يعيشون فيه ولأن عقيدة الإسلام لم تكن عميقة الجذور في قلوبهم، غير أنهم لم تقبل نفوسهم كل ما في النصرانية سواء أكانت كاثوليكيةً أم أرثوذكسيةً بسبب بعض المفاهيم التي كانت لديهم، لذا كانت لهم كنيسة خاصة لا مثيل لها في العالم عرفت بـ (البوغوميل)، وقد اعتنقها مع الألبان أيضاً، ولا شك أن هذه الكنيسة متأثّرة بالإسلام تأثّراً كبيراً للخلفية السابقة لديهم ولاحتكاكهم بإخوانهم البشانقة الذين سبق لهم أن أسلموا في مواطنهم الأولى وإن لم يتمسّكوا بذلك. وقد اضطهدت الكنيسة الكاثوليكية البشانقة كما اضطهدتم الكنيسة الأرثوذكسية سواء أكانوا مسلمين أم نصارى بوغوميل، واستمرّ ذلك حتى جاء العثمانيون.

دخل السلطان العثماني مراد الأول بلاد الصرب، كما دخلها ابنه بايزيد الأول، وبعد معركة (كوسوفو) عام ٧٩٢ اعتنق عدد من الصرب الإسلام. وبعد عام ٨٦٤ في عهد السلطان محمد الفاتح غدت بلاد الصرب ولايةً عثمانيةً إذ فتحها بناءً على طلب المضطهدين من البشانقة، والكومان، والألبان وجميع أتباع كنيسة البوغوميل، فلما تمّ الفتح أقبل هؤلاء على الإسلام طواعيةً ورغبة. كما أسلم عدد من الصرب إضافةً إلى الأتراك الذين استقرّوا في المنطقة، واستمرّ ذلك أكثر من أربعة قرون.

ضعف أمر العثمانيين واضطروا إلى التنازل عن منطقة البوسنة والهرسك في مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ إلى دولة النمسا التي أخذت في اضطهاد المسلمين وأجبرت عدداً كبيراً منهم إلى الهجرة نحو بلاد الأناضول والمناطق التي بقيت بيد العثمانيين. أما البشانقة الذين ظلّوا في ديارهم فقد ثاروا ضدّ حُكّامهم الطغاة النمساويين بسبب ما أصابهم من بلاء على أيديهم وكانت ثورتهم عام ١٣١٨ بقيادة (علي فهمي جاتيش) فحصلوا على الاستقلال الذاتي. وعندما زار ولي عهد النمسا وزوجته المنطقة أُطلق عليهما النار وكان نتيجة ذلك أن اندلعت الحرب العالمية الأولى. وزال النمساويون من المنطقة.

كان البشانقة أكثريةً في منطقتهم قبل مجيء النمسـاويين، غير أن المُتسلّطين النمساويين لم يقوموا بإجراء إحصاء إلا بعد أن هاجر الكثير من المسلمين، ووفد الكثير من النصارى لامتلاك الأراضي التي هجرها أصحابها هاربين من الضغط وخوفاً من أن يفتنهم الذين كفروا، ومع ذلك فإن إحصاء النمساويين قدر المسلمين بنسبة ٣٨,٧٪ من مجموع سكان المقاطعة، واستمرت هذه النسبـة في التدني حتى عام ١٣٥٠ هـ، حيث وصلت الى ٣٠,٩٪ وبلغ عدد البوشناق الذين هاجروا من بلادهم أكثر من ثلاثمائة ألف هذا عدا عن الأتراك والجماعات الإسلامية الأخرى التي تركت المنطقة نتيجة الضغط والاضطهاد، فقد هاجر مثلاً جميع الشراكسة الذين كانوا يسكنون المنطقة.

ظهرت مملكة الصرب بعد الحرب العالمية الأولى فظنّ المسلمون أن الفرج قد اقترب ما دام النمساويون قد زالوا وزالت معهم النسيطرة الكاثوليكية، ولكن لم يلبثوا أن عرفوا أن ملّة الكفر واحدة، إذ غدر بهم الأرثوذكس، وصبّوا عليهم كامل الحقد والغضب فهدّموا المساجد، وقضوا على المدارس والكتاتيب. لقد هدّم ٢٦٨ مسجداً من أصل ٢٧٠ مسجداً كانت قائمةً في مدينة بلغراد عاصمة الصرب العاصمة الحديثة. أما المسجدان الباقيان فقد أصبح أحدهما وهو مسجد (بتار) مقرّاً للمجلس النيابي الصربي، وكـان أجمل مساجد بلغراد وأوسعها، وأما مسجد (بيرقلي) وهو الأخير فقد بقي لقدمه وتاريخه إذ يُعدّ أقدم المساجد في بلاد الصرب حيث بني عام ٨٢٨ هـ. كما أُلغي ٢٧٠ من الكتاتيب وانتهت المدارس الإسلامية الكثيرة كلها.

أسّس المسلمون الحزب الإسلامي برئاسة محمد سباهو عام ١٣٣٨ إثر الحرب العالمية الأولى، وقد ألّف عدداً من الحكومات بين الحربين.

وقامت الحرب العالمية الثانية عام ١٣٥٨ هـ، وواجه المسلمون عدواناً شرساً من الكاثوليك، ولم ينج منه الأرثوذكس، واحتلّ الألمان منطقة الصرب، ووصل في النهاية الشيوعيون إلى الحكم، فسادت موجة عنيفة ضدّ المسلمين

خاصةً باسم محاربة الأديان عامةً، فقُتل ٢٤ ألفاً من المسلمين بعد الحرب مباشرةً، منهم ١٥ ألفاً من منطقة (طوزلا) شرقي مقاطعة البوسنة، وثلاثة آلاف من مدينة (سيراجيفو) عاصمة مقاطعة البوسنة. وستة آلاف من مقدونيا وكوسوفو، وقُتل مفتي مقاطعة (كرواتيا) الشيخ مصطفى يوصولاجيتش. وحكمت محكمة سكوبيا في مقدونيا على سبعة عشر زعيماً ألبانيا كانوا يُقيمون في يوغوسلافيا بالإعدام، وبعد عام حكمت على ثلاثة آخرين بالإعدام أيضاً، وعلى أربعةٍ وعشرين بالأشغال الشاقة. وأعدم أربعة من زعماء جمعية الشبان المسلمين في سيراجيفو، وحكم على تسعةٍ آخرين بالأشغال الشاقة، كما حكم على اثني عشر عالما بالأشغال الشاقة، منهم الشيخ قاسم دوراجا شيخ علماء البوسنة والهرسك، والشيخ عبدالله دروبسيوفتش، وأما المساجد، فقد كان في بلاد البوسنة والهرسك ١٧٠ ألف مسجد، و٨٧٠ مسجداً في العاصمة سيراجيفو، و٢٧٠ مسجداً باقية في بلغراد هُدّمت كلها عدا واحد منها بقي، وإن كانت قد هُدّمت مئذنته ثم أُعيدت. وأُغلقت الكلية العليا للتربية الإسلامية في سيراجيفو، والمدارس الدينية جميعها باستثناء واحدةٍ فقط أبقوا عليها للدعاية بكفالة الحرية الدينية عندهم على ما يبدو.

المجموعات الإسلامية: يعود المسلمون في يوغوسلافيا إلى ثلاث مجموعات رئيسية وأخرى ثانوية. أما الرئيسية فهي:

١ً ـ البوشناق. ٢ً ـ الألبان. ٣ً ـ الأتراك.

أما المجموعات الفرعية فهي:

١ً ـ الصرب. ٢ً ـ الكروات. ٣ً ـ السلوفين.

ولا تتزايد هذه المجموعات بنسبةٍ واحدةٍ، فأكثرها تزايداً الألبان فالأتراك فالبوشناق، ومع ذلك يبقى البوشناق أكثر تزايداً من أية مجموعة أخرى غير إسلامية، ويُوضّح الجدول التالي ذلك:

	عام ١٣٥٠	عام ١٣٩١	النسبة المئوية للزيادة
البوشناق	١,٠١١,٠٠٠	١,٥٢٠,٠٠٠	٥٠,٢
الألبان	٤٠٠,٠٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠	٢٠٠
الأتراك	١٥٠,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠	١٥٣
بقية المجموعات	٦٦,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٥٠,١
مجموع المسلمين	١,٦٢٧,٠٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	٩٩
غير المسلمين	١٢,٣٧٣,٠٠٠	١٧,٤٠٥,٠٠٠	٤٠,٦
مجموع السكان	١٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٦٠٥,٠٠٠	

ومن هذا يتضح أن نسبة المسلمين تتزايد باستمرار بالنسبة إلى غيرهم من السكان، ولن يمضي وقت طويل حتى يصبح عدد المسلمين يساوي ربع سكان يوغوسلافيا.

يكثر البوشناق في جمهورية البوسنة والهرسك.

يسكن أكثرية الألبان في إقليم كوسوفو، كما يعيش بعضهم في جمهورية الجبل الأسود.

ويُقيم أكثر الأتراك في جمهورية مقدونيا.

ويتوزّع المسلمون عام ١٣٩١ حسب المناطق التالية:

جمهورية صربيا	١,٣٥٠,٠٠٠
البوسنة والهرسك، وكرواتيا، وسلوفينا	١,٨٥٠,٠٠٠
مقدونيا	٤٥٠,٠٠٠
الجبل الأسود	١٥٠,٠٠٠
المجموع	٣,٨٠٠,٠٠٠

وقد تحسّنت أوضاع المسلمين بعد عام ١٣٩٣ إذ اعترفت الدولة بكيان المسلمين، وأُعيدت لهم بعض مساجدهم ومدارسهم، وأصبح للمسلمين حرية العبادة، وإقامة المساجد، وتشييد المدارس، ونشر الكتب وشراؤها.

ويُقدّر عدد المسلمين اليوم في يوغوسلافيا بأكثر من أربعة ملايين ونصف وتكون نسبتهم ٢٠,٤٥ ٪ من مجموع السكان.

يكثر البوشناق في جمهورية البوسنة والهرسك ويُشكّل المسلمون اليوم ما يقرب من نصف السكان ويمكن ملاحظة تطوّر السكان وارتفاع نسبة المسلمين من الجدول الآتي:

عام	عدد سكان المقاطعة	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١٢٩٧	١,١٥٣,٠٠٠	٤٤٩,٠٠٠	٪ ٣٨,٩
١٣٢٨	١,٨٤٨,٠٠٠	٥٥٨,٠٠٠	٪ ٣٢
١٣٥٠	٣,٣١١,٠٠٠	١,٠١١,٠٠٠	٪ ٣٠,٥
١٣٩١	٣,٦٦٣,٠٠٠	١,٥٢٠,٠٠٠	٪ ٤١,٥
١٤٠٧	٤,٦٠٠,٠٠٠	٢,٢٨٠,٠٠٠	٪ ٤٩,٨

أما الألبان فيزيد عددهم اليوم على مليون ونصف المليون، ويعدّ إقليم كوسوفو أكبر مناطق تجمعهم، وقد أخذ هذا الإقليم من ألبانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

وأما الأتراك فإن عددهم قد بدأ يتناقص بسبب هجرة أعداد منهم إلى تركيا نتيجة الضغط والاكراه، ولا يزيد عددهم اليوم على أربعمائة ألف.

وأما البلغار (البوماك) أو الغجر فإن عددهم حوالي مائة ألف.

ويزيد عدد المسلمين من الصرب على ربع مليون، أما الكروات فإن الإسلام قليل بينهم، ولا يزيد عدد معتنقيه على خمسة عشر ألفاً وأقل من

ذلك السلوفين حيث عدد المسلمين السلوفين هو خمسة آلاف فقط. ويكون توزع المسلمين حسب المجموعات العنصرية كما يأتي:

البوشناق	٢,٢٨٠,٠٠٠
الألبان	١,٥٠٠,٠٠٠
الأتراك	٤٠٠,٠٠٠
البلغار	١٠٠,٠٠٠
الصرب	٢٥٠,٠٠٠
الكروات	١٥,٠٠٠
السلوفين	٥,٠٠٠
المجموع	٤,٥٥٠,٠٠٠

والبوشناق أحسن حالاً من بقية المجموعات الإسلامية، ولكل مجموعةٍ لغتها الخاصة، ومدارسها الإسلامية الخاصة بها أيضاً.

وفي يوغوسلافيا اتحاد إسلامي عام يرأسه كبير العلماء، وفي أربع جمهوريات مجالس للعلماء يُنظّمون شؤون المسلمين.

ففي مدينة سيراجيفو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك مركز رئيس للهيئة الإسلامية العليا التي تشرف على المسلمين في كل من جمهورية البوسنة والهرسك، وسلوفينا، وكرواتيا.

وفي مدينة برشتينا عاصمة إقليم كوسوفو مركز رئيسي للهيئة الاسلامية العليا التي تشرف على شؤون المسلمين في جمهورية صربيا بما فيها إقليمي (كوسوفو) و (فويفودينا).

وفي مدينة سكوبيا عاصمة مقدونيا مركز رئيسي للهيئة الإسلامية العليا التي تشرف على شؤون المسلمين في جمهورية مقدونيا.

وفي مدينة تيتوغراد عاصمة جمهورية الجبل الأسود مركز رئيسي للهيئة الإسلامية العليا التي تشرف على شؤون المسلمين في جمهورية الجبل الأسود.

الوضع الحالي للمسلمين: أخذ عدد المساجد يزداد بعد عام ١٣٩٣ حيث اعترفت جمهورية يوغوسلافيا بكيان المسلمين فيها، وقد وصل عدد المساجد إلى ٢٧٠٠ مسجد، كما استردّ المسلمون أكثر المساجد التي سُلبت منهم. وتتوزّع في مختلف المناطق وإن كان أكثرها يوجد في:

منطقة سيراجيفو حيث يوجد	١٠٩٢	مسجداً.
وفي إقليم كوسوفو حيث يوجد	٦٧٠	مسجداً.
وفي جمهورية مقدونيا حيث يوجد	٣٧٢	مسجداً.
وفي جمهورية الجبل الأسود حيث يوجد	٧٦	مسجداً.
	٢١١٠	
في بقية المناطق حيث يوجد	٥٩٠	مسجداً.
	٢٧٠٠	مسجد.

كما استعاد المسلمون الكثير من المدارس، وبدأ عدد الحجاج اليوغوسلاف يزداد سنة بعد أخرى. وربما بعد هلاك تيتو عاد الوضع إلى السواد تدريجياً.

يتعلّم أطفال المسلمين مبادىء الإسلامي والقرآن الكريم في كتاتيب. وكان عدد أطفال المسلمين عام ١٣٩١ ما يزيد على ١٢٠ ألف طفل مسلم. وكان من هذه الكتاتيب في:

منطقة سيراجيفو	٥٦٩
إقليم كوسوفو	١٢٥

وفي مقدونيا	١٩
وفي الجبل الأسود	٢

والتعليم حرّ في هذه المرحلة في كل جمهوريات يوغوسلافيا.

أما المرحلة المتوسطة والثانوية فالتعليم رسمي يتبع الدولة مع إمكانية وجود مدارس خاصة بشرط السير على منهج وزارة التعليم فتوجد للمسلمين مدرسة ثانوية في مدينة سيراجيفو (مدرسة خسروبك)، وثانوية ثانية في مدينة برتشينا، وافتتحت عام ١٣٩٧ الكلية الإسلامية في سراجيفو، وافتتح فرع فيها للفتاة المسلمة وتوجد مكتبة خسروبك في سيراجيفو أيضاً تضمّ الكثير من الكتب العربية.

ومن الآثار الإسلامية العثمانية مسجد الغازي خسروبك المتوفى ٩٤٨ في سيراجيفو، وكان والياً على المنطقة، وأنشأ المكتبة التي ذكرناها، وتعدّ من الآثار أيضاً، وفي مدينة سكوبيا عاصمة مقدونيا جامع السلطان مراد الذي بني عام ٨٢٤، وجامع الغازي (أُوزبك).

الأحداث الأخيرة: لقد تمتع إقليم كوسوفو بالاستقلال الذاتي منذ عام ١٣٥٤ (١٩٧٤ م)، غير أن القادة الصرب الجدد بعد هلاك تيتو عدّوا أن الألبان في هذا الإقليم قد أخذوا أكثر من حقهم في عهد تيتو الأخير الذي امتد أربع عشرة سنة ١٣٨٦ ـ ١٤٠٠ هـ (١٩٦٦ ـ ١٩٨٠ م)، كذا وجّهت أنظار الحقد الصليبي نحو سكان هذا الإقليم.

وكان الجيش الصربي قد دخل هذا الإقليم ثلاث مرات في العهد السابق، وكان في كل مرةٍ يرتكب أبشع أنواع الوحشية ضد المسلمين، وها هي المرة الرابعة، إذ تحرّكت مائة وأربعون دبابة مع خمسة وأربعين ألف جندي يوم ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠١ هـ (٢٨ آذار ١٩٨١ م) بحجة القضاء على الانتفاضة القائمة في الإقليم للمطالبة بالحقوق، ووقف المجازر التي تلحق

بالمسلمين. وقد تمّ اعتقال ثمانية وعشرين ألف مواطن.

وتكررت العمليات الوحشية، فقد فرض منع التجوّل في ٢٠ رجب ١٤٠٩ هـ (٢٥ شباط ١٩٨٩ م) وبدأت أعمال القتل والإبادة.

وبمناسبة مرور ستمائة عام على معركة كوسوفو التي جرت عام ١٣٨٩ م والتي دخل إثرها العثمانيون الصرب، قامت أعمال رهيبة في ٢٥ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ (٢٨ حزيران ١٩٨٩ م).

وألحق الإقليم إثر ذلك بجمهورية الصرب مباشرة، وأبطل الاستقلال الذاتي.

وقد منع التعليم الإسلامي في كوسوفو بعد الحرب العالمية الثانية، ولا يزال المنع ساري المفعول. وعملت السلطة الصربية على تحديد النسل، وقتل الأطفال، وأصدرت مرسوماً بحرمان الطفل الثالث من أية حقوق للإنسان وذلك في سبيل القضاء على المسلمين بوقف النسل.

وقامت السلطات الصربية بهدم مسجد (نامازغاه) في بلدة (برزرن) في إقليم كوسوفو، لبناء مصنع للنصارى الصرب الذين سيحلون محل المسلمين الذين سيبعدون عن أرضهم.

ولم يقتصر الأمر في محاربة الإسلام ومحاولة إبادة المسلمين على إقليم كوسوفو، وإنما كان الأمر عاماً في مختلف المقاطعات، وإن كان إقليم كوسوفو قد نال أهله الظلم والقتل أكثر من غيرهم، الأمر الذي دعاهم للانتفاضة فعدّ الصرب ذلك حجة لتنفيذ مخططاتهم في الإبادة.

وقد حوّلت السلطة الصربية المدرسة الإسلامية في (ترافينك) في مقدونية إلى سوق تجارية. وهدّمت مسجد (فائق باشا) الأثري الذي يعود إلى القرن التاسع الهجري في مدينة (سكوبيا) عاصمة مقدونية في ٢٥ ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٩ م)، كما نسفت قبل عامين مسجداً، وسبّب

الانفجار أذىً كبيراً للجوار إذ قتل الكثير، وجرح الأعداد.

وشكّلت السلطة هيئةً دينيةً من بعض المسلمين التابعين لها، وأطلقت عليها اسم (المشيخة الإسلامية) برئاسة أحد الضباط المتقاعدين هو (حسين موكيج)، وكانت هذه المشيخة تُبرّر للسلطة تصرفاتها، وتُصدر الفتاوى بصحة ما يقوم به رجال الحكومة.

التجزئة: وهبّت على يوغوسلافيا رياح التغيير التي عصفت بحلف وارسو والنظام الشيوعي في أوروبا الشرقية والامبراطورية الروسية فأزالت النظام وفتّت الدولة.

فالنظام غير صالحٍ، والاتحاد كان متأرجحاً، مشدود بعضه إلى بعض بخيط أوهى من خيط العنكبوت، يربطه الظلم، ويمسكه الخوف، فلما بدأ بشرقي أوربا طار الخوف وتصدّى الناس للظلم.

وسبق أن قلنا: إن الصرب تختلف عن كرواتيا وسلوفينا عقيدةً، فالصرب أرثوذكس والكروات والسلوفين كاثوليك، كما يختلف الطرفان من حيث كتابة اللغة فالصرب يكتبون لغتهم بالحرف الروسي على حين يكتبها الكروات والسلوفين بالحرف اللاتيني.

قامت كرواتيا تطالب بالانفصال عن الاتحاد اليوغوسلافي والاستقلال، ووقفت الصرب في وجه هذا الطلب، ووقعت الحرب بينهما، حتى تمّ الانفصال.

ثم قامت البوسنة والهرسك تطالب بالانفصال، وقد لقي أهلها العنت لإسلامهم من النصارى سواء أكانوا أرثوذكس أم كاثوليك. واستقلت جمهورية البوسنة والهرسك برئاسة علي عزت، واعترفت بعض الدول بهذا الاستقلال.

ولكن الصليبية لن تسكت عن هذا الاستقلال إلا إن كان هناك مخطط

تعمل لتنفيذه. وقد بدأ الصراع داخل البوسنة والهرسك، بين الصربيين، والكروات، والبوشناق المسلمين، ولا شك أن الجيش اليوغوسلافي يدعم الصربيين، ويمدهم، على حين أن البوشناق لا سلاح عندهم، ولا دعم لهم، ولا إمكانات لديهم، وأخذت النكبات تحلّ بالمسلمين، وحرب الإبادة تعمل على استئصالهم، فقد أخذ الجيش يحصد بالمسلمين.

مصور رقم [٥٦].

(١٩) فنلندا

جمهورية، إحدى الدول الاسكندينافية، كانت تتبع مملكة السويد حتى احتلّها الروس عام ١٢٢٤، ثم نالت استقلالها بعد سيطرة الشيوعية على روسيا في مطلع عام ١٣٣٦ هـ، غير أن الروس عادوا فاحتلّوها عام ١٣٦٠ أثناء الحرب العالمية الثانية، وحصلت بعد الحرب على استقلالها بعد أن فقدت عشر مساحتها حيث ضُمّت إلى روسيا. وتُعدّ الآن دولةً حيادية.

تبلغ مساحتها ٣٣٧,٠٣٢ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها خمسة ملايين، يُشكّل العنصر الفنلندي ٩٢٪ من الشعب، والباقي أكثرهم من السويديين، ثم من الترك. ونتيجة المناخ القاسي لشدّة البرد فإن خمس السكان يقيمون في الجزء الجنوبي منها في العاصمة هلسنكي وما حولها.

يتكلّم السكان اللغة الفنلندية وهي لغة آسيوية قريبة من اللغة التركية إن لم تكن من فروعها، وتعدّ اللغة السويدية هي اللغة الثانية في البلاد، وينطق بها عشر الشعب، وفي البلاد ست جامعات.

يدين السكان بالنصرانية على المذهب البروتستانتي المذهب الرسمي للدولة، ويشكل أتباعه ٩٥٪ من مجموع أصحاب الديانات، ثم توجد قلة من النصارى الأرثوذكس وأخرى من الكاثوليك، وما يقرب من ثلاثة آلاف مسلم وألف وخمسمائة من اليهود.

المسلمون: عندما احتلّت روسيا بلاد فنلندا عام ١٢٢٤ انتقل إليها عدد من المسلمين التتار من منطقة قازان للتجارة للفراء، وأسّسوا لهم جميعة عام ١٢٤٦ كانت تتبع في إدارتها الدينية إلى الدائرة الإسلامية في مدينة أوفا عاصمة الباشكير. فلما استقلّت فنلندا عن روسيا عام ١٣٣٦ فضّل هؤلاء التتار البقاء حيث هم. ووصلت بعدئذٍ هجرات أخرى من المسلمين، فحاول الجميع تنظيم أنفسهم، وشكّلوا هيئةً، وطالبوا الحكومة بالاعتراف بالإسلام كدين رسمي فحصلوا على ذلك عام ١٣٤٤ هـ، ولم يزد عددهم بعد على الخمسمائة، ثم ارتفع العدد عام ١٣٥١ إلى ستمائة وخمسين مسلماً.

وتطوّرت الصناعة الفنلندية بعد الحرب العالمية الثانية، وزادت تجارة الأخشاب، فاتجه بعض العمال المسلمين وبعض رجال الأعمال منهم إلى فنلندا، فوصل عدد المسلمين عام ١٣٧٥ إلى تسعمائة مسلم، ثم إلى ألفين عام ١٣٩١، ويُقارب عددهم اليوم الثلاثة آلاف، ويعود أكثرهم إلى أصولٍ تركيةٍ وتتاريةٍ، ويوغوسلافيةٍ، وباكستانية، ومغربيةٍ.

أسّس المسلمون في العاصمة هلسنكي مركزاً إسلامياً يضمّ مسجداً، ومدرسة، ومكتبة، وقاعةً للمحاضرات، ومقرّاً للإمام، كما أقاموا نادياً للشباب المسلم.

ومع عدد المسلمين القليل فإنهم يتوزّعون في أكثر المدن والقرى وهذا ما يُعيق التنظيم والعمل، ويصعب معه التعليم الذي يجد أمامه عقبةً أخرى هي تنوّع لغات المسلمين. وأهم المدن التي يتوزّع فيها المسلمون هي: هلسنكي، وتامبيري، وتوركو، وكوتكا.

وتوجد جميعة للمسلمين في هلسنكي، وأخرى في تامبيري. كما توجد الجمعية التركية الفنلندية في هلسنكي ولها فروع في عدة مدن.

(٢٠) السويــد

مملكة، إحدى الدول الاسكندينافية، تبلغ مساحتها ٤٤٩,٧٥٠ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين ونصف. يتكلمون اللغة السويدية التي تعود إلى أصل جرماني، ويدينون بـالنصرانيــة على المذهــب البروتستــانتي، وبينهم خمسة وخمسون ألفاً من النصارى الكــاثــوليــك، وثلاثــون ألفــاً مــن المسلمين، وثلاثة عشر ألفاً من اليهود، وفي البلاد ثلاث جامعات.

المسلمون: يبدو أن التجار المسلمين قد وصلوا في رحلاتهم إلى الســويــد، ولكن لم يظهر لهم أي أثر من ناحية العقيدة. كما حارب التتار المسلمون في القرم البولنديون، والسويديون في القرن التاسع الهجري، فكان احتكاك كراهيةٍ لا صلة مودة أو معاملة.

وأول من وصل من المسلمين إلى السويد تتار من الامبراطورية الروسية، ومن بعض مسلمي فنلندا، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ بعض أهل السويد يعتنقون الإسلام، ومع ذلك فلم يزد عدد المسلمين عام ١٣٧١ على الألف. وبعدها أخذ العمال المسلمون يتّجهون إلى السويد فوصل عدد المسلمين عام ١٣٩٢ إلى ثمانية عشر ألفاً، نصفهم تقريباً من الأتراك والتتار والنصف الباقي من المجموعات الأخرى يأتي في طليعتهم العرب واليوغوسلاف. ثم بدأت جماعات من الأكراد تفد إلى السويد، ويُقدّر عدد المسلمين عام

١٤٠٧ بثلاثين ألفاً. كما وصل إسماعيليون من أوغندا.

واعترفت حكومة السويد بالإسلام ديناً رسمياً في بلادها في مطلع القرن الخامس عشر.

التنظيمات الإسلامية: ١ً - أسّس بعض مسلمي فنلندا الجامعة الإسلامية السويدية عام ١٣٦٧ هـ، وقد ضمّت مسجداً في بنائها. ولكنها لم تلبث أن زالت بعد عودة مؤسسها إلى فنلندا.

٢ً - أسّس أحد مسلمي السويد نادياً ومسجداً على حسابه، ولكنه أقفله بعد عام لأنه لم يستطع أن يتحمّل أعباءه إذ لم تكن في حسابه النفقات على تلك الدرجة.

٣ً - تأسست عام ١٣٩٣ (الجمعية الإسلامية)، وأنشأت لها مركزاً في العاصمة استوكهولم، كما افتتحت مدرسة في العاصمة، وتمكّنت من الحصول على اعتراف الحكومة السويدية بالإسلام، ثم أسّست مركزاً إسلامياً في استوكهولم وآخر في مدينة مالمو، وسيضمّ هذا الأخير مكتبةً، ومدرسةً، وداراً للحضانة، ومأوى للعجزة، ومركزاً لبيع اللحوم الحلال. كما توجد في مدينة مالمو نفسها رابطة الجمعيات الإسلامية.

ويُعاني المسلمون من خطر القاديانيين الذين يقومون بالنشاط منذ عام ١٣٧٨ في المدن الكبرى، والإسماعيليين الذين جاءوا من أوغندا، واليهود الذين يملكون أهم الصحف والمجلات ولهم تأثير على الرأي العام.

كما يُعاني المسلمون من توزّعهم في المدن مع قلتهم، ومع تعدّد لغاتهم لتعدّد أصولهم.

(٢١) النرويج

مملكة، إحدى الدول الاسكندينافية، استقلّت عن السويد عام ١٣٢٣ هـ، تبلغ مساحتها ٣٢٤,٢١٩ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من أربعة ملايين ونصف.

يتكلّم السكان اللغة النرويجية وهي من أصلٍ جرماني، قريبة من اللغة السويدية، واللغة الدانماركية. وأكثرية السكان من النرويجيين، وتوجد أقلية فلندية لا تتجاوز خمسة عشر ألفاً، ومجموعة من اللاب الذين يعيشون في السكان، ولا يزيدون أيضاً على ثلاثين ألفاً.

يُقيم أكثر السكان في المناطق الساحلية ذات المناخ المعتدل نسبياً، ويعمل كثير منهم في صيد السمك، حتى لتعدّ أول دول أوربا بهذه المهنة، كما تملك الدولة أسطولاً تجارياً يُعدّ من أكبر أساطيل العالم.

يدين السكان بالنصرانية على المذهب البروتستانتي، وهو دين الدولة الرسمي، وتوجد أقلية من الكاثوليك يُقدّر عددها بثلاثة عشر ألفاً، كما يوجد أحد عشر ألف مسلم، وألف واحد من اليهود.

المسلمون: بدأ بعض العمال المسلمين يتجهون إلى النرويج بعد عام ١٣٨٠، وكان أكثرهم من باكستان إذ يُشكّلون نصف المسلمين، والباقي من تركيا، ويوغوسلافيا، والمغرب.

تأسست الجمعية الإسلامية الحنيفية في العاصمة (أوسلو). وكذلك المركز الإسلامي الثقافي، وفي عام ١٣٩٤ تأسس اتحاد الجمعيات الإسلامية بجهود العاملين في مركز رابطة العالم الإسلامي في عاصمة الدانمارك كوبنهاغن والذي افتتح فرعاً لها في أوسلو.

ويُعاني المسلمون مُشكلةً في التعليم لتعدّد اللغات بتعدّد المجموعات مع قلة المسلمين.

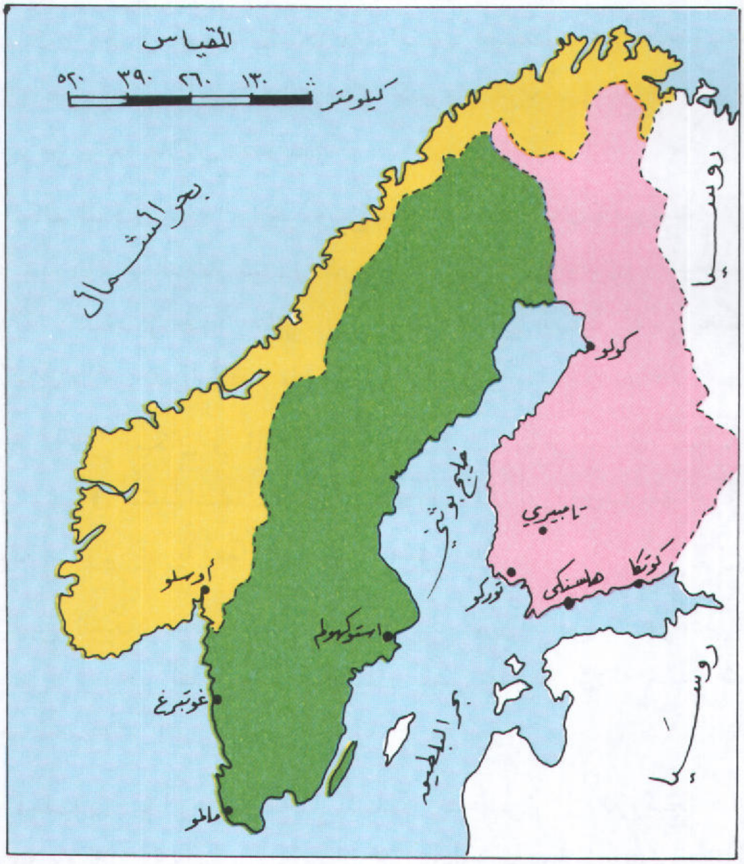

مصور رقم [٥٧].

ونُلاحظ في دول غربي أوربا الأقليات المسلمة كما يأتي:

الدولة	عدد السكان بالآلاف	عدد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين
١ - إسبانيا	٤٠,٠٠٠	١٠٠	٠,٢٥٪
٢ - أندوره	٦	—	—
٣ - البرتغال	١٠,٠٠٠	١,٢	—
٤ - جبل طارق	٣٠	٣,٢	١٠,٧٪
٥ - فرنسا	٥٤,٠٠٠	٣,٠٠٠	٣,٧٪
٦ - بلجيكا	١٠,٤٠٠	١٧٢	١,٧٪
٧ - هولندا	١٥,٠٠٠	٢٠٠	١,٣٣٪
٨ - لوكسمبورغ	٤٠٠	٢	٠,٥٠٪
٩ - انكلترا	٥٧,٠٠٠	١,٥٠٠	٢,٦٠٪
١٠ - ايرلندا	٣,٠٠٠	٢	—
١١ - ايسلندا	٢٥٠	٠,٧	—
١٢ - الدانمارك	٥,٥٠٠	٤٠	٠,٣٨٪
١٣ - ألمانيا الغربية	٦٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٤٪
١٤ - النمسا	٨,٠٠٠	٤٠	٠,٥٠٪
١٥ - سويسرا	٧,٠٠٠	٤٠	٠,٥٧٪
١٦ - ليختنشتاين	٢٥	٧	٢٨٪
١٧ - ايطاليا	٥٥,٠٠٠	٨٠	٠,١٤٪
١٨ - سان ريمو	١٩	—	—
١٩ - مالطة	٣٥٠	٤٠	١١٪
٢٠ - اليونان	١٠,٠٠٠	٢٥٠	٢,٥٠٪
٢١ - يوغوسلافيا	٢٥,٠٠٠	٤,٥٠٠	١٨٪

٢٢ ـ فنلندا	٥,٠٠٠	٣	—
٢٣ ـ السويد	٨,٥٠٠	٣٠	٪٠,٣٥
٢٤ ـ النرويج	٤,٥٠٠	١٥	٪٠,٣٣
المجموع	٣٨٠,٩٨٠	١٢,٥٢٦,١	٪٣,٣

تتوزّع الأقليات المسلمة في اثنتين وعشرين وحدةً سياسيةً في غربي أوربا، ولا تكاد تخلو منطقة من المسلمين إلا إذا استثنينا إمارتي (أندوره) بين فرنسا وإسبانيا و (سان ريمو) وسط ايطاليا، وهما صغيرتان لدرجةٍ ليس غريباً معها ألا يوجد فيهما مسلمون.

يبلغ عدد المسلمين في دول أوربا الغربية أكثر من اثني عشر مليوناً ونصف المليون، وبذا تكون نسبتهم ٣,٣٪ من مجموع سكان هذه الدول البالغ ما يقرب من ٣٨١ مليوناً. وتكون هذه النسبة مرتفعةً لأنهم يزدادون في البلدان الكبيرة ذات السكان الكثيرين. فإن أكثر هذه الدول سكاناً هي ألمانيا الاتحادية (الغربية) [٦٢ مليوناً] يبلغ عدد المسلمين فيها أكثر من مليونين ونصف، وتكون نسبتهم ٤٪ من مجموع سكانها، ويلي ذلك انكلترا [٥٧ مليوناً] وفيها ١,٥ مليوناً من المسلمين، ونسبتهم فيها ٢,٦٪ ثم فرنسا [٥٤ مليوناً] وفيها ثلاثة ملايين مسلم، ونسبتهم ٣,٧٪، وهذه هي الدول الصناعية الكبرى في غربي أوربا، والمتطوّرة أكثر من غيرها، فيفد إليها العمال للصناعة، كما يأتي الطلاب للعلم، إضافةً إلى أنها تُعدّ في طليعة الدول المستعمرة في الماضي، وكان لها في الماضي مستعمرات في بلاد المسلمين الأمر الذي يجعل صلة بين الطرفين من الناحية السياسية، وقد استمرّت هذه الصلة بعد الاستقلال، وهذا ما يدعو الكثير للسفر فيها، وللأسباب كلها يتجه إليها أعداد من المسلمين للسياحة والنزهة وزيادة المعارف والأبناء. وإذا كانت تقلّ النسبة في الدول التي تليها وهي ايطاليا [٥٥ مليوناً] وإسبانيا [٤٠ مليوناً]

ولعلّ سبب انخفاض هذه النسبة يعود إلى إبادة وتشريد المسلمين الذين دخلوا هذه البلاد فاتحين فنشأ حقد بين الطرفين إضافةً إلى عدم التطوّر الواسع في هذين البلدين غير أن عدداً من العمال قد اتجهوا إليها لأن إسبانيا وايطاليا كانتا تستعمران أجزاء من بلاد المغرب فنشأ عن ذلك معرفة للغة ، والصلة ، يُضاف لها القرب لذا فأكثر العمال والطلاب إنما هو من بلاد المغرب. ولكن الدولة السادسة في عدد السكان وهي يوغوسلافيا [٢٥ مليوناً] ترتفع فيها نسبة المسلمين إلى ١٨٪، ويعود ذلك إلى أثر الفتح العثماني. وهكذا فإن الدول الست الكبرى في غربي والبالغ عدد سكانها [٢٩٣ مليوناً] تعيش فيها أكثر الأقليات المسلمة في أوربا [١١,٦٨ مليوناً] وتكون نسبة المسلمين فيها مجتمعةً ٣,٩٨٪ من مجموع سكان هذه الدول:

الدولة	عدد السكان بالآلاف	عدد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين
ألمانيا الاتحادية	٦٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٤,٠٠٪
انكلترا	٥٧,٠٠٠	١,٥٠٠	٢,٦٠٪
فرنسا	٥٤,٠٠٠	٣,٠٠٠	٣,٧٠٪
ايطاليا	٥٥,٠٠٠	٨٠	٠,١٤٪
إسبانيا	٤٠,٠٠٠	١٠٠	٠,٢٥٪
يوغوسلافيا	٢٥,٠٠٠	٤,٥٠٠	١٨,٠٠٪
	٢٩٣,٠٠٠	١١,٦٨٠	٣,٩٨٪

وتأتي بعدئذٍ إحدى عشرة دولة متوسطة يتراوح عدد سكان الدولة الواحدة بين ثلاثة ملايين وخمسة عشر مليوناً ، يبلغ عدد سكانها جميعها [٨٦,٩ مليوناً] ، ولا يزيد عدد المسلمين فيها على [٧٩٣,٢ ألفاً] وبذا فلا تصل النسبة للمسلمين فيها على ١٪، وذلك لأن هذه الدول لا تعدّ متطوّرة

صناعياً باستثناء بلجيكا وهولندا اللتين ترتفع فيهما نسبة المسلمين وتزيد على ١ ٪ [بلجيكا ١,٧ ٪] وهولندا [١,٣٣ ٪]، وربما كانت النسبة مرتفعةً أيضاً لكونهما دولتين استعماريتين في السابق إذ كانت هولندا تستعمر أندونيسيا، ولبلجيكا مستعمرات في وسط إفريقية فيها نسبة من المسلمين. وقد انتهى المسلمون من البلدان التي وصلوا إليها فاتحين في سويسرا، والبرتغال، والنمسا انتهوا بالإبادة والتشريد، ولا شك فإن عدم التطوّر الصناعي له دور في انخفاض النسبة في هذه البلدان إذ لا تحتاج إلى أيدٍ عاملةٍ، وإذا كانت سويسرا ذات مركز سياحي فإن هذا يجعل النسبة ترتفع إلى أكثر من نصف بالمائة قليلاً [٠,٥٧ ٪] لأن السياح إنما تكون إقامتهم موقتة. وأما الدول الثانية ايرلندا، والدانمارك، والنرويج، والسويد، فهي شمالية باردة إضافة إلى ضعف شأنها الدولي نسبياً. وإذا كانت ترتفع نسبة المسلمين في اليونان فإن ذلك يعود إلى أثر الفتح العثماني مع العلم أن النسبة يجب أن تكون أعلى من هذا بسبب دخول المسلمين في صدر الإسلام إلى بعض جزر اليونان غير أن الحرب الصليبية قد أبادت الكثير وشرّدت الأكثر.

الدولة	عدد السكان بالآلاف	عدد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين
١ - البرتغال	١٠,٠٠٠	١,٢	—
٢ - بلجيكا	١٠,٤٠٠	١٧٢	١,٧٠
٣ - هولندا	١٥,٠٠٠	٢٠٠	١,٣٣ ٪
٤ - ايرلندا	٣,٠٠٠	٢	—
٥ - الدانمارك	٥,٥٠٠	٤٠	٠,٣٨ ٪
٦ - النمسا	٨,٠٠٠	٤٠	٠,٥٠ ٪
٧ - سويسرا	٧,٠٠٠	٤٠	٠,٥٧ ٪

الدولة	عدد السكان بالآلاف	عدد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين
٨ - اليونان	١٠,٠٠٠	٢٥٠	٢,٥٠٪
٩ - فنلندا	٥,٠٠٠	٣	—
١٠ - السويد	٨,٥٠٠	٣٠	٠,٣٥٪
١١ - النرويج	٤,٥٠٠	١٥	٠,٣٣٪
	٨٦,٩٠٠	٧٩٣,٢	٠,٩١٪

أما الوحدات السياسية الباقية فسبع وهي صغيرة لا يزيد عدد سكانها مجموعةً على المليون كثيراً [١,٠٨ مليون]، أما عدد المسلمين فلا يزيد كثيراً على اثنين وخمسين ألفاً [٥٢,٢٧ ألف]، وبذا تكون نسبة المسلمين قريبةً من ٥٪ من مجموع السكان، رغم أن (أندوره) و (سان ريمو) ليس فيهما مسلمين أصلاً غير أن نسبة المسلمين ترتفع في مالطة إلى ١١٪ من مجموع سكانها، وقريبة من ذلك تكون نسبة المسلمين في جبل طارق (١٠,٧٪) لأن هاتين المنطقتين قد دخلهما المسلمون فاتحين، وخضعتا للسيادة الإسلامية وفي الوقت نفسه خضعتا لحرب الإبادة والتشريد، وكذلك تعدّ مالطة كثيرة السكان بين هذه المجموعة (٣٥٠ ألفاً]، ونُلاحظ أيضاً أن نسبة المسلمين مرتفعة كثيراً في إمارة (ليختنشتاين) فهي [٢٨٪] وإن كان المسلمون فيها من العمال ويُقيمون إقامة موقتةً. وأما (لوكسمبورغ) فهي أكبر هذه المجموعة سكاناً [٤٠٠ ألف] لكن لا يوجد فيها إلا عدد قليل من المسلمين [ألفان] وهم من العمال لأن (لوكسمبورغ) منطقة صناعية. أما ايسلندا فالبعد شمالاً والبرد الشديد، وعدم وجود صناعة كل هذا لا يستدعي إقبال الناس من خارجها إليها إلا للسياحة.

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١ ـ أندورة	٦,٠٠٠	—	—
٢ ـ سان ريمو	١٩,٠٠٠	—	—
٣ ـ مالطة	٣٥٠,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٪١١
٤ ـ جبل طارق	٣٠,٠٠٠	٣,٢٠٠	٪١٠,٧
٥ ـ ليختنشتاين	٢٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٪٢٨
٦ ـ لوكسمبورغ	٤٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٪٠,٥٠
٧ ـ ايسلندا	٢٥٠,٠٠٠	٠,٠٧٠	—
	١,٠٨٠,٠٠٠	٥٢,٢٧٠	٪ ٥

ويمكن أن نقول: إن الأقليات المسلمة في دول أوربا الغربية كلها قد وجدت حديثاً عدا الأقلية في يوغوسلافيا واليونان فإنهما من أثر الفتوحات العثمانية في أوربا. وأن المسلمين الذين جاءوا مع الفتوحات الأولى قد أُبيدوا أو فرّوا مُشرّدين نتيجة الحقد الصليبي اللهم إلا إن كانت هناك بقية في مالطة.

نحن والأقليات المسلمة في غربي أوربا

يختلف وضع الأقليات المسلمة في غربي أوربا عما رأيناه في آسيا وإفريقية، يختلف بتميّز الأقليات عن المجتمعات التي يعيشون بينها، وتختلف المجتمعات كما يختلفون هم، وبعدئذ يختلف المسلمون باهتمامهم بالأقليات في أوربا عن اهتمامهم بالأقليات في آسيا وإفريقية.

إن أغلب الأقليات المسلمة في غربي أوربا مختلفة عن المجتمع الذي تعيش فيه عنصراً ولغةً عدا العناصر التي اعتنقت الإسلام من المجتمعات الأوربية نفسها وهي قليلة نسبياً أما الأغلبية فهي غريبة، وربما نستثني أيضاً ما في يوغوسلافيا من مسلمي البوشناق والصرب، والألبان، على حين أن الأقليات المسلمة في آسيا وإفريقية غالباً ما تكون من المجتمع نفسه، لذا فإن الأوربيين ينظرون إلى المسلمين الذين يعيشون بينهم على أنهم غرباء عنهم على حين لا تكون هذه النظرة بالنسبة إلى مسلمي آسيا وإفريقية.

لما كان أغلب المسلمين في أوربا قد جاءوا إليها عمالاً أو طلاباً، أو لاجئين سياسيين أو مُشرّدين لذا فهم في وضع أدنى من وضع الأوربيين غير المسلمين. فالعمال إنما جاءوا لفقرهم وسوء أوضاعهم الاقتصادية في أوطانهم التي خرجوا منها، واضطروا بناءً على ذلك إلى العمل في مختلف المهن العادية أو الوضيعة أو التي هي دون ذلك، وهذا ما يجعلهم يشعرون أنهم دون

الشعوب التي يعيشون بينها وفي الوقت نفسه فإن الأوربيين ينظرون إليهم نظرة الازدراء لحالتهم المادية وأوضاعهم المعاشية وأعمالهم وتخلّفهم، ولا شك فإن النظرة قائمة أيضاً من أنهم قادمون من بلدانٍ مُتخلّفةٍ. وأما الطلاب فإنهم أيضاً قد جاءوا ليحصلوا على العلم لأن أوطانهم غير مُتقدّمةٍ، وهم بحاجةٍ إلى هذا العلم، وليس وضع اللاجئين السياسيين أو المشرّدين بأفضل حالاً فإن أوضاع البلدان الإسلامية الاقتصادية والسياسية هي التي تدفع بهذه الأفواج من العمال أو المشرّدين إلى تلك الجهات. على حين أن الأقليات في آسيا وإفريقية لا توجد هذه النظرة لهم، وليس لديهم تلك الهزيمة النفسية التي يُعانيها أولئك المسلمون في ديار الغرب إذ أنهم جزء من المجتمع الذي يعيشون فيه.

إن المسلمين الذين استقرّوا في بلدان أوربا سواء أكان ذلك بالحصول على الإقامة الدائمة أم بالتجنّس أم بأية صورةٍ من الصوّر إنما يُواجهون مشكلاتٍ جديدة هي التفتيش عن وسيلةٍ في سبيل المحافظة على عقيدة أبنائهم، فالتعليم الإسلامي غير ميسورٍ، والحياة وسط جوٍّ إسلامي غير مُتوفّرة والاحتكاك مع المجتمع الغربي له خطره على السلوك والمفاهيم و...

كان اهتمام المسلمين في الأمصار الإسلامية يتّجه إلى أوربا أكثر من أن يتجه إلى المسلمين فيها، فأوربا بلاد حضارةٍ فيجب أن نبني فيها ونشيد ما يتناسب مع حضارتها ومع أبنائها أكثر مما يحتاج إليه المسلمون فيها. المسلمون بحاجةٍ إلى التعليم وإلى التوجيه والرعاية وإعطاء الثقة غير أنه لا يُقدّم لهم هذا وإنما يتوجّه أصحاب الامكانات ومن بيدهم الأمر إلى بناء المراكز الفخمة في بنائها وفنّها وزخرفتها أكثر مما يجب لتقوم بالإشراف على العمل وتوحيد الجهود للتأييد والدعاية للدولة التي تتبنّى العمل. المسلمون بحاجةٍ إلى أن يكون إخوانهم القادمون إليهم يتمثّلون الإسلام سلوكاً ومنهاجاً فتذهب إليهم العناصر التي تُريد أن تُساير الغرب في سلوكه ومنهاجه خوفاً من اتهامها

بالرجعية فهي مهزوزة نفسياً قبل أن تنطلق إلى أوربا وقبل أن تحتكّ بالأوربيين.

إن أوربا ذات حضارةٍ ماديةٍ لا تتأثّر بالدين كثيراً ولا تهتمّ بعقيدتها أصلاً سوى من كان من أبنائها من موظفي الكنيسة ورجال الدين لذا فإنه يصعب التأثير عليهم وأخذهم نحو الإسلام إلا إذا قرؤوا كثيراً واتّجهوا بقلوبٍ مفتوحةٍ نحو الحقّ بعيدةٍ عن التعصّب والهوى، وهذا ما يصل إليه بعض أهل العلم ورجال الفكر الذين لا يرون أنفسهم إلا وقد أصبحوا مسلمين، أما الشعوب فهي بحاجةٍ إلى رؤية الحضارة على المسلمين، ورؤية التصرّف المادي السليم ولكنهم لا يرون إلا تخلّفاً من القادمين الجدد، ومن العمال، ويرون تصرّفاً غير طبيعيٍ، فقادمون يُنفقون في هوى النفس كأنهم يأخذون من وادٍ من ذهبٍ في ليلةٍ واحدةٍ بل في بضع ساعات، على حين أن إخوانهم يعيشون في حالةٍ تعدّ من أصعب حالات البؤس، فيقولون في أنفسهم لو كان دين هؤلاء حقاً لما كان فيه هذا التباين. وينظر الأوربيون إلى المراكز الفخمة التي تُشاد، وليس فيها رواد على حين أن مراكز أخرى بحاجةٍ إلى ترميم لا يصل إليها دينار واحد، وهم يظنّون أنه ما دام الأمر كله لله فيجب أن يتعادل هذا المركز وذاك حيث لا يعرفون أن هذا يتبع دولة كذا وكذا وذاك يرفض التبعية ويأبى إلا أن يكون العمل كله خالصاً لله. ويرون أن القائمين على مركز يتقاضون المعونات وينفقون بغير حساب على حين أن القائمين على مركزٍ آخر يبدو عليهم التعب والضيق للسبب نفسه... وبشكلٍ عام يرى الأوربيون أن الإسلام لو كان صحيحاً لكفى المال الذي يُنفق في أوربا لإنقاذ وضع المسلمين من التخلّف الذي يُعانونه، ولكان العطاء للمراكز الإسلامية واحداً، ولكان التصرّف الفردي ـ وهو عام تقريباً بنظرهم ـ يتفق مع الخلق فالداعية ينسجم قوله مع فعله، لهذا كلّه فإن التأثير الإسلامي في أوربا قليل، وإحجام الأوربيين عن الإسلام يرفد إحجامهم عن

الدين عامةً، وبقاؤهم ضمن الإطار المادي البحت مع افتقارهم إلى الروح وهو ما يحسّون به أحياناً.

ووضع المسلمين في أوربا يحتاج إلى بحثٍ فالعمّال في سنٍ معينةٍ وفي مستوىً معينٍ وفي ظروفٍ معينةٍ وكلها أمور تحتاج إلى دراسة للأخذ بأيدهم وإنقاذهم مما يُعانون نفسياً ومادياً وسلوكياً. والطلاب في سنّ معينةٍ، وتفتّحٍ نحو الحياة يختلف عما هو عند العمال، وانتقالٍ من بيئةٍ لها سماتها الخاصة بها إلى بيئةٍ أُخرى تتباين مع الأولى تبايناً واضحاً، فيحتاج إلى التوجيه للمحافظة على مقوماته، وإمكانية متابعة العلم الذي أرسل لتحصيله كي تفيد منه أمته. والمشرّدون وما يُعانون من مشكلاتٍ وانقسامات بل إن انقسامهم في أوطانهم قد نقلوه معهم إلى أوربا وعاشوا فيه وعقلية الخلافات والعصبيات كلها قائمة وتحتاج إلى معالجة.

وبصورةٍ عامةٍ فإن اهتمام بعض الحكومات وبعض المؤسسات بالأقليات المسلمة في أوربا الغربية جيد، إذ ينطلقون من أن أوربا ذات حضارةٍ، ومنهل للعلم، ومركز للتجارة، ومكان للسياحة، ومأوى للهرب، ويذهب إليها الزوّار للأهل المشرّدين والأبناء المتعلمين، ففي هذا الاهتمام دعاية لهم وشهرة سواء أكان لدى الأوساط الإسلامية أم الغربية، ويُعرفون، ويُظنّ بهم أنهم ذو مكانةٍ لدى المسلمين فيُقدمون، وتحرص الأوساط الغربية على بقائهم في مراكزهم، كما تحرص الأوساط الإسلامية على الوقوف بجانبهم، وهذا ما يفقد العمل الأجر، كما يفقده جانب العدل إذ ينال الدعم من يقبل التبعية ويُحرم منه من يريد الاستقامة في العمل والإخلاص لله. فهذا الاهتمام سياسي بالدرجة الأولى ولو بُذل في إفريقية لأثمر ونما بشكلٍ جيدٍ ولتحوّلت إفريقية كلها إلى الإسلام.

إن من الحقّ أن يُدعم المخلصون دعماً صادقاً ليس فيه طلب انضواء تحت الجناح كي يثمر، وأن يدعى المُتزلّفون إلى طريق الصواب. إن من الحق أن

يكون دعم الدول التي تُقدّم المساعدات للجمعيات والمنظمات الإسلامية في أوربا دعماً لله، لا للدعاية والشهرة والأشخاص، حتى تتفاهم المنظمات ولا تفترق. إن من الحق أن تهتم المنظمات الإسلامية على تأليف القلوب وتوحيد الجهود كي تصبّ الجهود كلها في مكان واحد هو الدعوة الصادقة. إن من الحق أن يكون مبعوثو المؤسسات الإسلامية يتمثّلون الإسلام سلوكاً ومنهاجاً. وأخيراً فإن الرجال الذين يرسلهم مركز البحوث والدعوة والإرشاد والافتاء في المملكة العربية السعودية على مستوى جيد نسبياً غير أن عددهم غير كافٍ ويحتاجون إلى زيادةٍ في رفع المستوى وبُعد النظر.

إن الحركة الدائبة من وإلى دول غربي أوربا تجعلنا على معرفةٍ تامةٍ بالأقليات المسلمة فيها، غير أن هذه المعرفة لا تُقدّم الفائدة المرجوة لها، فما يُعطى لا يتناسب مع الواجب المُلقى على عاتق مسؤولي الأمر في المسلمين بل ولا يُشكّل جزءاً منه، كما أن الأسلوب الذي يُعطى فيه لا يتفق مع المبدأ الذي يقوم عليه، ومع هذا كله فإن الأمل كبير في الدعوات الصادقة والجهود الخالصة لإنقاذ أوربا مما تُعاني من الضلال والانحراف والغرق في المادة بل وإنقاذ الذين ينتمون إلى الإسلام ويسيرون في الاتجاه نفسه لاهثين وراء أوربا.

الأقلية المسلمة في دول شرقي أوربا

أقصد بدول شرقي أوربا الدول التي تأخذ بالنظام الشيوعي وتُطبّقه حسب مفهومها، وهي الدول التي تدور في فلك موسكو، وتنتظم في حلف وارسو. فدولة ألبانيا لا تدخل ضمن هذه الدول رغم أنها شيوعية ورغم أنها تقع في جنوب شرقي أوربا، لا تدخل ضمن هذه الدول لأن أكثرية سكانها من المسلمين فهي ليست دولة أقلية مسلمة وإنما أكثرية، وبذا تكون ضمن أمصار العالم الإسلامي، ولا تدخل ضمن هذه الدول أيضاً لأنها لا تدور في فلك موسكو، وإنما تسير حسب المنهج الصيني. ولا تدخل دولة يوغوسلافيا ضمن هذه الدول رغم أنها شيوعية ورغم أنها في جنوب شرقي أوربا لا تنتظم ضمن هذه الدول لأن شيوعيتها من نوعٍ خاصٍ، ولا تدور في فلك موسكو، لذا كانت دراسة الأقلية فيها ضمن المجموعة الأولى ـ كما رأينا ـ.

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة ثلاث مرات، الأولى منها: عندما هجرت مجموعة من القبائل السلافية التي كانت تُقيم في حوض نهر الفولغا الأعلى حول عاصمتها (بُلغار) موقع قازان اليوم، هجرت مواطنها في أواخر القرن الرابع الهجري، واتجهت نحو الجنوب الغربي مُيمّمةً وجهها نحو جنوب شرقي أوربا، وكان الإسلام قد انتشر بين هذه القبائل ولكن بشكلٍ مبدئي، ولم يكن عاماً يشمل أفرادها جميعاً. ولما وصلت هذه القبائل إلى جنوب شرقي

أوربا حطّت رحالها وتوزّعت بطونها في المنطقة. نزل أكثرها قرب سواحل البحر الأسود وأعطوا البقعة التي حلّوا بها اسم عاصمتهم القديمة (بُلغار) فكانت أرضي بلغاريا، ونزنت بعض بطون قبائل الباشغرد (الباشكير) في منطقة المجر اليوم لأن أكثر هذه القبائل قد بقي في موطنه الأول، ولهم اليوم جمهورية خاصة بهم، وقاعدتها مدينة (أوفا). أما قبائل البوشناق والكومان فقد سكنوا في جمهورية البوسنة والهرسك اليوم (في يوغوسلافيا).

ووصل الإسلام في المرة الثانية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري عندما دخل التتار روسيا ووصلوا إلى بولندا ثم لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، فلما ضعف أمرهم وخرجوا من المنطقة بقيت بعض تجمعات لهم في روسيا، وعلى سواحل البحر البلطيق، وبولندا، بل وانتقلت جماعات منهم نحو تشيكوسلوفاكيا و...، وقد حافظ التتار على إسلامهم رغم الضغوط الكثيرة التي تعرّضوا لها. بينما أضاع المسلمون في المرة الأولى عقيدتهم مع الزمن.

ووصل الإسلام في المرة الثالثة عن طريق العثمانيين الذين فتحوا المنطقة، وأصبحت بلغاريا، ورومانيا، والمجر ضمن دولتهم بل وضمّت أجزاء من بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، والدولة الوحيدة التي لم يصل إليها العثمانيون من هذه الدولة إنما هي ألمانيا الشرقية. وقد استقرّ عدد من العثمانيين في البلاد التي دخلوا إليها، كما اعتنق الإسلام عدد من أبناء البلاد المفتوحة فشكّل العنصران أقلية إسلامية ذات شأن، فلما اشتدّ الضغط الصليبي على العثمانيين وأجبروا على الانسحاب بقي أكثر الذين استقرّوا في المواطن التي استوطنوها غير أن الحرب الصليبية بقيت تُضيّق الخناق على المسلمين في سبيل إخراجهم من الأماكن التي حلّوا بها، واضطر عدد إلى الهجرة، وصمد الباقون غير أن الحرب عليهم قد استمرّت وبين الآونة والأخرى يضطر فريق للفرار أو الهجرة ولا يزال الأمر قائماً حتى الآن.

من هذه البلدان ما وصل إليها الإسلام مرتين مثل: بلغاريا، والمجر

وبعض أجزاء من بولندا، ومنها ما وصل إليها مرةً واحدةً مثل، رومانيا ومنها ما لم يصل أبداً في الماضي مثل ألمانيا الشرقية.

إن الوضع الإسلامي في هذه المناطق في تراجعٍ وانحسارٍ فالضغط عليهم شديد، منه باسم القومية لإخراج الأتراك من المنطقة، ومنه باسم الشيوعية التي تُحارب الدين، ومنه باسم الوحدة الوطنية لتغيير الأسماء الإسلامية، والأعياد، واللباس، والعادات الاجتماعية كالزواج، وأسلوب الدفن والمقابر الخاصة كما يحدث في بلغاريا اليوم.

ولن نتعرّض إلى روسيا الآن لأننا قد بحثناها في الكتاب السابق (الجزء الحادي والعشرون) غير أننا نشير إلى أنه تعيش فيها أقلية مسلمة كبيرة يعود أكثرها إلى التتار، وإن كان عدد منها يعود إلى العهد العثماني، وهو الذي يوجد في منطقة مولدافيا، وهذه الدول هي:

(١) بـلغاريـا

دولة صغيرة تُشرف على البحر الأسود تبلغ مساحتها ١١٠,٩٢٨ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ١١,٥ مليوناً، ويُقدّر عدد المسلمين فيها بمليونين ونصف المليون وبذا تكون نسبتهم ٢١,٠٪ من مجموع السكان. والبُلغار من أصلٍ تركي قدموا من الشرق من حوض نهر الفولغا الأعلى، وغزوا هذه الأراضي التي كانت تنتقل فيها قبائل صقلبية من أصلٍ سلافي، وأعطوا المنطقة التي سيطروا عليها اسم عاصمتهم السابقة التي خرجوا من منطقتها (بُلغار)، ولكن هؤلاء البلغار سرعان ما تعلّموا لغة السلافيين وتكلّموها، فأصبحوا سلافاً، وتأثّروا بأهل البلاد، وتشبه هذه اللغة التي تعلّموها اللغة الروسية. كذلك دانوا بالنصرانية حوالي عام ٣٥١ هـ.

الفتح العثماني: فتح السلطان مراد الأول صوفيا والجزء الجنوبي من بلغاريا عام ٧٧٤ هـ، ثم فتح ابنه السلطان بايزيد الجزء الشمالي عام ٧٩٦، لكنها خرجت عن سيادة العثمانيين عندما هُزموا أمام تيمورلنك في أرض الأناضول، غير أنها لم تلبث أن رجعت أيام السلطان محمد الفاتح وبقيت تخضع للدولة العثمانية حتى مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ حيث نالت الاستقلال الذاتي، ونالت منطقة الروميللي الشرقية استقلالها الذاتي أيضاً عام ١٣٠٣، وبقي الأمر هكذا حتى عام ١٣٢٦ حيث استقلّت، وأسّست مملكة خاصة بها

تُعرف باسم (مملكة بلغاريا) . وأثناء الحكم العثماني استوطن عدد من العثمانيين المنطقة، كما اعتنق الإسلام عدد من أهل البلاد، وقد عُرف هؤلاء باسم (البوماك) .

وانحازت في الحرب العالمية الأولى إلى جانب العثمانيين والألمان، وأصابها أذى بسبب الهزيمة التي لحقت بدول الاتفاق هذا . وبعد الحرب العالمية الثانية تسلّم الشيوعيون الحكم فأصاب المسلمين الحيف حقداً من الشيوعيين الصليبيين عليهم، إذ لو لم يكونوا صليبيين ـ حسب دعواهم ـ لنال النصارى من الأذى ما ينال المسلمين، ولكننا نجد أن أذى المسلمين يأتي من قبل الصنارى بدعوى الإلحاد ومحاربة الأديان، وتارةً باسم العصبية القومية ومحاربة الأتراك... مع العلم أن الحيف لا يلحق سوى المسلمين فاليهود، والنصارى، والملحدون في منأى عن ذلك.

المسلمون: قلنا : إن عدد المسلمين في بُلغاريا يبلغ المليونين ونصف المليون مع العلم أن السكان المسلمين في بُلغاريا يرفعون هذا الرقم إلى أكثر من هذا، ومع هذا الرقم الكبير، ونسبتهم الكبيرة (٢١٪) فإنه ليست لهم مدارس خاصة بهم، ويُمنعون من الحج، كما يمنعون من اقتناء المصاحف، ومن الهجرة، وليس لهم وجود في مؤسسات ودوائر الدولة على الرغم من عددهم الكبير نسبياً .

يتوزّعون في ست مناطق، ولهم ١٢٠٠ مسجد، ويرعى شؤونهم مفت أكبر تختاره الحكومة ممن يُؤيدّونها ويتزلّفون لها، ويغلب عليهم طابع الفقر والبؤس، وتعدّ مناطقهم من أكثر مناطق بلغاريا تخلّفاً .

وإن تكاثر المسلمين كان وما زال يُسبب قلقاً دائماً للسلطات الحاكمة في بلغاريا مما جعلهم يُفكرّون في وسيلةٍ لإذابتهم في المجتمع البلغاري وذلك بمحو طابع الإسلام، ولتحقيق هذا الهدف ارتـأى المسؤولـون في بلغـاريـا في

منتصف القرن الرابع عشر الهجري وضع مشروع شامل يبدأ بتنصير المسلمين بصورة جماعية عن طريق العنف إذا اقتضى الأمر، وقد تصدّى المسلمون لهذا المشروع وقاوموه مقاومةً قويةً، وذهب الكثير منهم إلى السجون نتيجة ذلك، ومات بعضهم تحت سياط التعذيب الوحشي. وعندما تسلّم الشيوعيون السلطة أُلغي هذا القرار إلغاءً موقتاً لكسب المسلمين إلى جانبهم في الوقت الذي كانوا فيه بحاجةٍ إليهم فلما تمكّنوا بعثوا المشروع من جديد وبشكل أكثر عنفاً وبربريةً حقداً على الإسلام وخوفاً من زيادة المسلمين.

يعود المسلمون في بلغاريا إلى مجموعات ثلاث، وتختلف زيادة كل مجموعة عن الأخرى مع العلم أن أقلها زيادة يُعادل ضعف زيادة غير المسلمين من أي عنصر كانوا وهذه المجموعات هي:

١ - الأتراك: ومعظمهم من أصل عثماني، وليس فيهم سوى عدد ضئيل من التتار الذين نزحوا إلى المنطقة من الامبراطورية الروسية. ولا يزيد عدد هؤلاء التتار على عشرة آلاف مسلم، وأهم مراكزهم مدينة (بورغاز) الميناء على البحر الأسود. وتُشكّل هذه المجموعة ٦١٪ من المسلمين.

٢ - البُلغار: ويُعرفون بالبوماك، ويكثرون في الجنوب، وأشهر مدنهم (سموليان)، وتُشكّل هذه المجموعة ٢٢٪ من مسلمي بلغاريا.

٣ - الغجر: وهم من البدو الرحل، ومعظم الغجر في بلغاريا من المسلمين، وتُشكّل هذه المجموعة ١٧٪ من المسلمين. ويمكن ملاحظة زيادة هذه المجموعات من الجدول الآتي.

المجموعة	عام ١٣٦٩	عام ١٣٧٦	عام ١٣٩١	الزيادة
الأتراك	٦٨٣,٠٠٠	٧٤٠,٠٠٠	٨٩٠,٠٠٠	٣٠ ٪
البلغار	١٥٠,٠٠٠	١٩٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠	١١٣٪
الغجر	١١٥,٠٠٠	١٤٥,٠٠٠	٢٤٠,٠٠٠	١٠٩٪
مجموع المسلمين	٩٤٨,٠٠٠	١,٠٧٥,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠	٥٣ ٪

ومن المعلوم أن قلة زيادة الأتراك إنما تعود إلى هجرة الكثير منهم إلى تركيا تحت الضغط، ولكن على الرغم من هذه الزيادة القليلة فإنها تعادل ضعف زيادة غير المسلمين ويمكن ملاحظة ذلك بالمقارنة مع زيادة غير المسلمين من الجدول الآتي:

	عام ١٣٦٩	عام ١٣٧٦	عام ١٣٩١	الزيادة المئوية
غير المسلمين	٦,٠٧٤,٠٠٠	٦,٥٢٥.٠٠٠	٧,١٥٢,٠٠٠	١٥٪

وبهذه الزيادة التي يتفوّق بها المسلمون على غيرهم فإن نسبتهم تزداد بشكلٍ دائم وستصل إلى الربع في وقتٍ قريب، وهذا ما تخشاه السلطة التي هي من الشيوعيين النصارى. ويمكن ملاحظة ذلك من الجدول الآتي:

المجموعة	١٣٦٩	١٣٧١	١٣٩١	١٤٠٧	الزيادة المئوية
المسلمون	٩٤٨,٠٠٠	١,٠٧٥,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠	٢,٦٧٩,٦٠٠	٥٣٪
غير المسلمين	٦,٠٧٤,٠٠٠	٦,٥٢٥,٠٠٠	٧,١٥٢,٠٠٠	٨,٨٦٨,٤٨٠	١٥٪
سكان بلغاريا	٧,٠٢٢,٠٠٠	٧,٦٠٠,٠٠٠	٨,٦١٢,٠٠٠	١١,٥٤٨,٠٨٠	
نسبة المسلمين	١٣,٣٪	١٤٠١٪	١٧٪	٢١٪	

ويتلخص المشروع الشيوعي الجديد في النقاط الآتية:

١ً ـ تغيير أسماء المسلمين إلى أسماء بلغارية (نصرانية) واتبعت في ذلك الخطوات الآتية:

أ ـ يُعطى للمسلمين طلبات جاهزة يُسجّل فيها ربّ الأسرة اسمه وأسماء أفراد عائلته وما يُقابلها من أسماء نصرانية يختارها لنفسه ولأفراد أسرته من بين قائمة أسماء مرفقة من قبل السلطات الشيوعية.

ب ـ عدم تسجيل المواليد الجدد بأسماء إسلامية.

جـ ـ لا تتمّ إجراءات الزواج وتسجيله إلاّ بأسماء غير إسلامية.
د ـ لا تُعطى شهادات من أي نوعٍ أو بطاقة شخصية إلاّ بأسماء غير إسلامية.
هـ ـ لا تُصرف مرتبات العمال والأجور إلا بعد تغيير الأسماء.

هذا بالإضافة إلى عدة إجراءاتٍ تعسفيةٍ أخرى تجعل من العسير بل من المستحيل على أي مسلم أن يُنجز أبسط الأعمال إلاّ بعد تغيير اسمه.

ويلاحظ أن المسلمين البُلغار ينطبق عليهم هذا الذي يُطبّق على الأتراك إذن فالقضية ليست قومية وإنما صليبية، وكذلك فأسماء البلغار المسلمين يجب تغييرها فالموضوع ضدّ الإسلام وصليبي بحت رغم ادعاء محاربة الأديان جميعها، فجورج، وانطونيوس، ونيقولا أسماء نصرانية وليست بلغارية وهي مقبولة بل مطلوبة.

٢ً ـ بدأت السلطات الشيوعية في منع النساء المسلمات من ارتداء الزي الإسلامي (المحتشم) إذ لا تستطيع المرأة المسلمة بلباسها المحتشم أن تشتري أبسط الحاجيات من تعاونيات الدولة.

٣ً ـ صدرت الأوامر بإلغاء مقابر المسلمين على أن تكون هناك مقابر مشتركة للجميع من مسلمين وغير مسلمين، وأن تُلغى إجراءات الدفن التي تقوم على الطريقة الإسلامية.

٤ً ـ منع الأضاحي في عيد الأضحى المبارك.

تقدّم المسلمون بعريضة إلى الحزب الشيوعي لأنه الجهة الوحيدة التي يسمح لهم بالتحدث معها، فكان الردّ أن عليهم مسايرة تطوّر الديالكتيك الماركسي.

ولا يزال المسلمون يقاومون هذه الإجراءات التي تتنافى مع أبسط حقوق الإنسان والمبادىء الإنسانية، فالمسلمون يُقادون يومياً بالعشرات إلى

السجون، ويُكابدون أشدّ أنواع العذاب النفسي والبدني[1]. وقد أُبيد عدد ممن عارض هذه الإجراءات. وتتعاون الكنيسة الارتوذكسية مع الشيوعية في محاربة الإسلام.

وكان في بُلغاريا ١٢٠٠ مسجد، ويبدو أن بعضها قد هُدّم، وحُوّل بناء بعضها الآخر إلى مُهمّةٍ أُخرى، وأُقفل ما بقي منها أخيراً. وإن متحف صوفيا قد كان بالأصل مسجداً، ولا يُسمح ببناء مساجد من جديد كما لا يُسمح بالأذان، ولا تُوجد في البلاد مدارس إسلامية.

(١) عن مجلة الغرباء التي تصدر في لندن ـ السنة العاشرة ـ العدد الثالث تموز وآب ١٩٧٢ م.

(٢) رومانيا

دولة شيوعية تُشرف على البحر الأسود، تبلغ مساحتها ٢٣٧,٥٠٠ كيلومتر مربع، ويُقدّر سكانها بأربعة وعشرين مليوناً، وهي من الدول التي يتزايد عدد سكانها بسرعة بالنسبة إلى دول شرقي أوربا ويمكن أن نلاحظ من الجدول التالي:

١٣٧١ كان عدد السكان ١٦,٤٥٠,٠٠٠
١٣٩١ كان عدد السكان ٢٠,٤٧٠,٠٠٠
١٤٠٧ كان عدد السكان ٢٤,٠٠٠,٠٠٠.

احتلّ الرومان المنطقة من عام ١٠١ حتى ٢٧١ ميلادية، فكثر جنودهم، وسادت لغتهم، حتى عُرفت المنطقة بهم.

فتح العثمانيون البقعة التي تحتلّها اليوم رومانيا أيام السلطان محمد الفاتح، واستمرّ الحكم العثماني حتى مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ حيث استقلّت مقاطعات الأفلاق، والبغدان، وترانسلفانيا واتخذت اسم رومانيا. وأثناء الحكم العثماني استوطن كثير من العثمانيين في المنطقة وخاصة الجزء الساحلي المعروف باسم دوبروجه والواقع بين نهر الدانوب والبحر الأسود، كما أسلم عدد من أبناء البلاد، وهاجر جماعات من التتار واستقرّت في المنطقة.

أغلبية السكان من الرومان وتُقيم بجانبهم أقلية مجرية يصل عدد أبنائها إلى المليونين، كما توجد أقلية ألمانية، وأخرى تركية وهي مسلمة.

واللغة الرسمية هي الرومانية وهي من أصل لاتيني فتشبه الايطالية، والفرنسية، والبرتغالية، والاسبانية، وتقوم ست جامعات.

يدين ٨٤٪ من السكان بالنصرانية على المذهب الارثوذكسي، وتتعهد الدولة بالانفاق على الكنائس الأرثوذكسية دون سائر مراكز العبادات والجماعات الدينية الأخرى حتى النصرانية منها كالكاثوليكية. و١٣٪ يدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي والباقي، وهو ٣٪ هو من نصيب المجموعات المسلمة، واليهود. والنصارى البروتستانت وهم من الأقلية الألمانية. ولا يزيد عدد اليهود على مائة وعشرين ألفاً.

إن عدد المسلمين قد أخذ في التناقص منذ خروج العثمانيين، ويعود هذا التناقص لسببين اثنين، أولهما الاضطهاد الذي لحق بالمسلمين حتى أُجبر عدد منهم على الهجرة نحو تركيا، ولا شك أن هذا الاضطهاد قد أودى أيضاً بحياة الكثير، وثانيهما وهو فقدان أجزاء من الأرض الرومانية لصالح الجوار إذ ضمّت روسيا إليها منطقة بسارابيا التي يُسكنها كثير من المسلمين، وكذلك

ضمّت الجزء الشمالي من منطقة (بوكوفينا) التي فيها عدد من المسلمين، وفي الوقت نفسه استولت بلغاريا على جنوبي منطقة دوبروجا التي يقطنها عدد من المسلمين، وذلك في بدء الحرب العالمية الثانية، وبذا تناقص عدد المسلمين في منطقة رومانيا، ويُمكن أن نلاحظ ذلك من متابعة تطور عدد المسلمين.

كان عدد المسلمين في رومانيا عام ١٣٥٨ هـ ما يعادل ٢٦٠,٠٠٠ من أتراك، وتتار، وغجر، وكانت نسبتهم يومذاك ١,٣٪ من مجموع السكان.

كان يُقيم ١٢٠,٠٠٠ في منطقة بسارابيا و١٢٠,٠٠٠ آخرون في جنوبي منطقة دوبروجا (أي ٢٠,٠٠٠ فقط في منطقة رومانيا الحالية).

وأصبح عدد المسلمين في رومانيا عام ١٣٧٣ ما يعادل ٦٠,٠٠٠ مسلم نتيجة الزيادة الطبيعية، ولا تزيد نسبتهم على ٠,٣٦ ٪ من السكان، منهم ٣٥,٠٠٠ من الأتراك والتتار والباقي وهو ٢٥,٠٠٠ من جنسيات أخرى، وكان عددهم عام ١٣٩١ يساوي ٩٠,٠٠٠ مسلم نتيجة الزيادة الطبيعية أيضاً مع هجرة بعضهم، وغدت نسبتهم ٠,٤٤ ٪ من مجموع السكان، وذلك لأن زيادة المسلمين أكثر من غيرهم.

ويُقدّر عددهم اليوم بحوالي ١٢٠,٠٠٠ مسلم. ويُقيم أكثر المسلمين في منطقة دوبروجا، وتُعدّ مدينة كونسطانطة أكبر مركزٍ لتجمعهم، فهي مقرّ المفتي، ولهم مسجد فيها.

يلاقي المسلمون ضغطاً من الشيوعيين ومن النصارى معاً. فليس لهم أي تنظيم إذ لا يسمح النظام القائم بهذا أبداً. وكانت لهم جريدة قبل الحرب فأُوقفت بعد تسلّم الشيوعيين السلطة مباشرةً.

وربما يسعى المسلمون للمحافظة على كيانهم فتعدّ جزيرة (اده قلعة) بلداً إسلامياً، وكذلك بلدة المجيدية في الجنوب، وبلدة (باباداغ) في الشمال.

وربما كان الضغط عليهم أقل مما هو على إخوانهم في بلغاريا لقلة عددهم إذ لا يخشى منهم لقلة عددهم. مع العلم أن الكراهية والحقد ينصبّ على الأتراك بصفتهم مسلمين لا من وجهة نظر قومية كما يخيل لبعضهم أحياناً.

(٣) المجـــر

دولة شيوعية تبلغ مساحتها ٩٣,٠٣٦ كيلومتراً مربعاً، وهي قارية، لا منفذ لها على البحر، يبلغ عدد سكانها أحد عشر مليوناً حسب تقديرات عام ١٤٠٧ هـ. يتكلم السكان اللغة المجرية، التي تعدّ لغة آسيوية، وهي قريبـة مـن التركية والفنلندية أي من لغات العرق الأُصفر. ويدين السكان بالنصرانية ثلثاها على مذهب الكاثوليك والثلث الآخر على مذهب البروتستانت، ويعيش بينهم ثمانون ألفاً من اليهود، وستة آلاف من المسلمين.

كانت تعيش في منطقة المجر قبائل ألمانية وصقلبية فغزتهم قبائل قادمة من الشرق من آسيا في القرن الرابع الهجري بزعامة أربد، واستبدت هذه القبائل الغازية بالمنطقة وكاثرت السكان. وفي أواخر القرن الرابع الهجري وصلت قبائل الباشغرد المسلمة إلى المجـر قـادمـةً مـن حـوض نهر الفـولغـا الأعلى واستوطنت المنطقة، واحتفظت بإسلامها في الوسط الذي كانت تعيش فيه غير أنه في القرن الخامس الهجري دان سكان المجر بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، فبدأ الضغط على المسلمين والتضييق عليهم، وإن كان يسمح لهم بالسفر إلى الدول الإسلامية كي يتعلموا أمور دينهم، وقد ذكر ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان أنه التقى بأحد أفراد هذه المجموعة عام ٦٢٦ هـ في مدينة حلب فقال: «وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفةً

كبيرةً يقال لهم الباشغردية، شقر الشعور والوجوه، يتفقهون على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، فسألت رجلاً منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أُمّةٍ من الإفرنج يقال لهم الهُنْكَر، ونحن مسلمون رعيةً لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قريةً، كل واحدةٍ تكاد تكون بليدة، إلا أن ملك الهُنْكَر لا يُمكّننا أن نعمل على شيءٍ منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني روميا، والبابا رئيس الإفرنج، وهو عندهم نائب المسيح، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين، يُنفّذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم. قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزيّنا زيّهم، ونخدم معهم في الجندية ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام ـ فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد كفر؟ فقال: سمعت جماعةً من أسلافنا يتحدّثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفرٍ من المسلمين في بلاد البُلغار، وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله، والحمدلله، فأسلمنا جميعاً، وشرح الله صدورنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولّونا أمور دينهم»[1].

وإن ملوك المجر قد أصدروا ضدّ المسلمين قوانين تعسفية إذ كان هؤلاء الملوك قد اعتنقوا النصرانية، وقامت أوربا بحرب صليبية ضدّ المسلمين، وأول هؤلاء الملوك من المجر (لا ديسلاوس) الذي تسلّم الملك عام ٤٧١ هـ واستمرّ حتى عام ٤٨٩ حيث شنّت أوربا حربها الصليبية في آخر عامٍ من حكمه فأصدر تلك القوانين وتبعه الملوك الذين جاءوا بعده، حتى كانت أيام الملك شارل روبرت (٧٠٨ـ٧٤٣) حيث أرغم جميع رعاياه الذين لم يكونوا نصارى على أن يعتنقوا النصرانية أو يغادروا البلاد.

---

(١) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ مادة باشغرد.

وربما زاد من حقد المجر الصليبي أنها تعرّضت لغزو المغول من ناحية الشرق إذ غزاها باتو بن جوجي بن جنكيزخان في الربع الثاني من القرن السابع الهجري، ولم يلبث هؤلاء المغول أن اعتنقوا الإسلام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

وإضافةً إلى مجيء الباشغرد من الشرق جاء من جهة الغرب مسلمون من المغرب ومن الأندلس، وعملوا على نشر الإسلام، وهذا ما ذكره أبو حامد الغرناطي في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الآداب) وذلك في القرن السادس الهجري.

وجاء الفتح العثماني في أوربا، وانتصر السلطان سليمان القانوني على المجر عام ٩٣٣ وتمكن من دخول بودابست عام ٩٣٦، وأصبحت المجر ولايةً عثمانيةً، وأخذت الدولة بالضعف بعد السلطان سليمان، واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من المجر عام ١١١١ هـ، وما أن انسحبوا حتى شُنّت الحرب ضدّ المسلمين في المجر. وكان المسلمون قد كثروا أثناء الحكم العثماني، وخاصةً في الجنوب فقد كان في مدينة بودابست وحدها ثلاثة وثمانون مسجداً منها اثنان وعشرون جامعاً، وكذلك كانت هذه المدينة تضمّ عشر مدارس إسلامية، غير أن التعصّب الصليبي قد أجبر الكثيرين إلى الهجرة بعد حرب الإبادة التي تعرّضوا لها. كما أن النصارى قد هدّموا جميع المساجد والمدارس ولم يبق سوى مسجد واحد حُوّل إلى كنيسة.

ولمعرفة هذه الوحشية الصليبية يمكن أن نقول: إن عدد المسلمين في المجر قُدّر عام ٦٢٦ أي في عهد ياقوت الحموي بمائة ألف مسلم، أجبروا على النصرانية في النصف الأول من القرن الثامن. وأن عدد المسلمين في المجر كان في عام ١١٠٠ هـ في نهاية الحكم العثماني ما يزيد على الربع مليون أُبيدوا، أو هجروا، ولم يبق منهم سوى بضعة مئات.

كان عدد المسلمين في المجر عام ١٣٦٨ هـ ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة، خمسمائة منهم في العاصمة بودابست، ووصل هذا العدد عام ١٣٩١ إلى خمسة آلاف منهم ألف في العاصمة. ويُقدّر عددهم الآن بستة آلاف، وليس لهم أية مدرسة أو مسجد، ولا يستطيعون المطالبة بذلك.

(٤) بولـــــندا

دولة شيوعية تبلغ مساحتها ٣١٢,٦٨٣ كيلومتراً مربعاً، ميزة هذه الدولة أنها ظهرت واختفت عدة مرات في التاريخ. لقد تقاسمت كل من بروسيا، وروسيا، والنمسا أراضي بولندا في القرن الثاني عشر الهجري، غير أن دولة بولندا عادت فظهرت بعد الحرب العالمية الأولى لكن الألمان احتلّوها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب عادت للظهور إلاّ أن الروس قد استولوا على القسم الشرقي منها وعوّضوها عن ذلك بضمّ جـزءٍ مـن ألمانيـا لها، وتبلـغ مساحة هذا الجزء ١١٥,٥٠٠ كيلومتر مربع، وفي عام ١٣٧٢ هـ سيطر الشيوعيون على السلطة.

يبلغ عدد سكان بولندا عام ١٤٠٧ هـ ما يزيد على ثمانية وثلاثين مليوناً، وتعدّ بولندا من أكثر شعوب أوربا نمواً في السكان. وغالبية السكان من البولنديين وتوجد بينهم أقلية ألمانية، وأخرى روسية.

يتكلم السكان اللغة البولندية، وهي لغة صقلبية تشبه اللغة الروسيـة، غير أنها تكتب بأحرف لاتينية على حين تكتب اللغة الروسية بأحرفٍ كيريلية، وتتكلم الأقليات بلغات أصولها إضافةً إلى البولندية.

يدين السكان بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي الذي يعتنقه ٩٥٪ من السكان، وتوجد مجموعة من البروتستانت، وهم غالباً من الألمان، ومجموعـة مـن

الأرثوذكس وهم غالباً من الروس، وإضافةً إلى النصرانية يعيش في البلاد خمسة وعشرون ألفاً من المسلمين ومثلهم من اليهود.

وبولندا هي الدولة الوحيدة التي تعترف بالتعليم الديني بين الدول الشيوعية، وهذا ما يسبب نقمةً شعبية ضدّ السلطة تظهر أحياناً.

المسلمون: وصل التتار في غزوهم أوربا إلى بولندا، وتوقفوا هناك، وكانت صدامات بين الطرفين. وأسلم التتار، ولم يلبث البولنديون أن تعرضوا لهجومٍ من قبل الألمان من ناحية الغرب فاضطروا إلى الاستعانة بالتتار المسلمين فوافق التتار شريطة أن يُضمن لهم إقامة الشعائر... واستقرّ عدد من الجنود التتار بالأرض البولندية. وبنيت مساجد ومدارس في مدينة (لوبلين) التي تقع في شرقي بولندا. غير أنه قد تعرّض المسلمون لحربٍ صليبيةٍ في القرن العاشر الهجري نتيجة الحقد، وإن كان القتال بين البولنديين وبين دولة القرم قد ساعد على إثارة الحقد، واستمر هذا الاضطهاد حتى القرن الثاني عشر حيث زالت بولندا نتيجة اقتسام الدول لأراضيها وأصبح أكثر المسلمين في بولندا تحت سلطة الروس الذين يمارسون الضغط على المسلمين في المناطق المسلمة التي يُسيطرون عليها وعلى الأقليات المسلمة التي تعيش في بلادهم. وبذا فقد استمرّ الضغط على المسلمين.

لقد كان ملوك بولندا في الماضي يستفيدون من المسلمين الذين يعيشون في دولتهم إذ كانوا يرسلونهم إلى الدول الإسلامية لمعرفتهم اللغات الشرقية، وكذلك يسمحون لهم باستقدام أئمةٍ وعلماء للدين من الأمصار الإسلامية، وبإرسال أبنائهم إلى مصر لطلب العلم والتفقه في الدين فضلاً عن السماح لهم بأداء فريضة الحج. واستعمل التتار الحرف العربي في كتابتهم، وتحوي المتاحف نسخاً من القرآن الكريم، وكتب الحديث والتفسير وغيرها مكتوبة بالحرف العربي بأيدي تتار بولنديين، غير أن الظروف التي خضعوا لها قد جعلتهم يتركون لغتهم التركية والحرف العربي الذي يكتبون به، وأصبحوا يتكلمون اللغة البولندية، والروسية، والليتوانية.

ولما عادت بولندا إلى الظهور بعد الحرب العالمية الأولى وجد فيها ما يزيد على مائة ألف مسلم، وفسح لهم المجال فبنوا المساجد والمدارس، وكانت مدينة (ولينوس) في شمال شرقي البلاد، اكثر المناطق نشاطاً لهم إذ كانت مقرّ المفتي، ومقرّ الجمعية الثقافية الإسلامية، وبدأ العمل في بناء مسجد في العاصمة (وارسو) غير أن الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من ضمّ أجزاء لروسيا قد أثّر على المسلمين.

وظهرت دولة بولندا من جديد بعد الحرب العالمية الثانية لكن مع تغييراتٍ واسعةٍ في الحدود حيث أصبح مركز نشاط المسلمين (ولينوس) ضمن روسيا أي خارج حدود بولندا، وبذا قلّ عدد المسلمين في بولندا، وكان مجموع عددهم عام ١٣٨٣ هـ ما يزيد على أحد عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف من أصلٍ بولندي، ووصل عددهم عام ١٣٩١ إلى خمسة عشر ألفاً، ويُقدّر عددهم عام ١٤٠٧ بخمسة وعشرين ألفاً، وقد أسسوا لأنفسهم الجمعية الإسلامية البولندية، ولهم ثلاثة مساجد أحدهما في العاصمة (وارسو) واثنان في مقاطعة (بيالستوك) في الشمال الشرقي، وواحد في بلدة (بوهنكي) والآخر في بلدة (كروزنياني). كما أُسّست جريدة باللغة البولندية عام ١٣٩٣ اسمها (المجلة الإسلامية)، ويوجد بعض المعلمين يعلمون الأطفال مبادىء الإسلام.

ولا يُعرف أين غابت أعداد المسلمين الكبيرة بين الحربين [١٠٠ ألف بعد الحرب العالمية الأولى تناقص العدد حتى بقي ١١ ألف بعد الحرب الثانية]، كما كان عدد المساجد بعد الحرب الأولى ستة عشر مسجداً بقي منها المساجد الثلاثة التي ذكرناها.

(٥) تشيكوسلوفاكيـا

دولة شيوعية تبلغ مساحتها ١٢٧,٨٦٩ كيلومتراً مربعاً ، وهي دولة قارية لا منفذ لها على البحر . كانت أرضها مملكةً بوهيميةً في مطلع القرن العاشر غير أن ملكها قد قتل في مواجهة العثمانيين عام ٩٣٣ أيام السلطان العثماني سليمان القانوني ، ودخل العثمانيون منطقة سلوفاكيا ، أما بوهيمية وفي المنطقة الغربية فقد خضعت للنمسا والتي ضمّت إليها سلوفاكيا أيضاً بعد انسحاب العثمانيين عام ١١١١ هـ ، وأصبحت ضمن امبراطورية النمسا .

ظهرت دولة تشيكوسلوفاكيا من جديد بعد الحرب العالمية الأولى ، غير أن الألمان قد احتلّوها قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكنها عادت فظهرت بعد الحرب ، وسيطر الشيوعيون على السلطة عام ١٣٦٧ هـ . وهي جمهورية اتحادية تتألف من اتحاد جمهوريتي التشيك في الغرب ، ويُشكّل أبناؤها ٦٥٪ من السكان ، وعاصمتهم براغ ، وهي العاصمة الاتحادية ، وجمهورية سلوفاكيا في الشرق ، ويُشكّل السلوفاك ٣٢٪ من السكان ، وعاصمتهم برتسلافا ، وهنـاك أقليات ألمانية ، ومجرية ، وبولندية ، وروسية وتشكل ٣٪ من السكان .

ويتكلّم التشيك لغةً خاصةً بهم ، وكذلك يتكلّم السلوفاك لغةً سلوفاكيـة ، وكلتا اللغتين من أصل صقلبي ، تشبهان اللغتين الروسية والبولندية . ويُقدّر عدد السكان عام ١٤٠٧ بستة عشر مليوناً .

يدين ثلاثة أرباع السكان بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، والباقي من النصارى البروتستانت، ويعيش في تشيكوسلوفاكيا ٢٠,٠٠٠ يهودي، وثلاثة آلاف مسلم.

المسلمون: خضعت سلوفاكيا للعثمانيين فأقام بعضهم فيها كما اعتنق بعض أبناء البلاد الإسلام، فلما أُجبر العثمانيون على الانسحاب وتبعت المنطقة إلى النمسا بدأ الحقد الصليبي يظهر وبدأ الضغط على المسلمين، فهاجر الكثير، وتحمل الأذى والضغط الذين بقوا في البلاد، ولكن أُزيلت المساجد، والمدارس الإسلامية، ولم يبق سوى مسجد واحد.

وكان عدد المسلمين في تشيكوسلوفاكيا عام ١٣٩١ ألفي مسلم، ويُقدّر عددهم الآن بثلاثة آلاف. وعمل هؤلاء المسلمون على إقامة مدرسة لأطفالهم وتمكّنوا من ذلك بفضل الله، وأنشيء مركز إسلامي في براغ عام ١٣٩٤ هـ بجهود بذلها سفراء الدول الإسلامية، وما عدا ذلك فليس للمسلمين أي كيان هناك.

(٦) ألمـانيـا الشرقيـة

دولة شيوعية ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وفُصلت من ألمانيا، تبلغ مساحتها ١٠٨,١٧٩ كيلومتراً مربعاً، كما أُخذ منها ١١٥,٥٠٠ كيلومتر مربع وألحقت ببولندا عوضاً عما احتلّته روسيا من أراضي بولندا، وتقاسمت روسيا وبولندا منطقة بروسيا، وجُزئت برلين إلى مدينتين، وعُدّ الجزء الشرقي منها عاصمة لألمانيا الشرقية، وبين الجزأين بنى الشيوعيون سوراً كي لا يفرّ الشرقيون إلى الغرب.

يُقدّر عدد سكان ألمانيا الشرقية بسبعة عشر مليوناً، وهم في تناقص للهرب إلى ألمانيا الغربية، وقد قلّ السكان بمعدل ٦٪، يتكلّم السكان اللغة الألمانية، ويدين ٩٠٪ منهم بالبروتستانت، و١٠٪ بالكاثوليكية.

المسلمون: بني مسجد للأسرى من الحلفاء في مدينة برلين أثناء الحرب العالمية الأولى، وهؤلاء الأسرى من المغرب، والهند، والتتار، والبوشناق (يوغوسلاف)، وذلك في معتقل (ونسدروف)، وعاد الأسرى بعد الحرب إلى أوطانهم، وبقي بعضهم في ألمانيا، وهدم المسجد عام ١٣٤٦.

وبعد الحرب العالمية الثانية عندما تسلّط الشيوعيون على الحكم فرّ كثير من المسلمين إلى ألمانيا الغربية، فلم تبق إلا قلّة منهم في ألمانيا الشرقية وقُدّر عددهم عام ١٣٧١ بـ ٥٠٠ مسلم.

وأصبح عددهم عام ١٣٩١ ٢٠٠٠ مسلم.
ووصل العدد عام ١٤٠٧ إلى ٣٠٠٠ مسلم.

وليس للمسلمين أي كيان أو تنظيم، وإنما هم في مرحلة من الضياع.

ويمكن أن نُلخّص الأقليات المسلمة في دول شرقي أوربا بالجدول الآتي:

الدولة	عدد السكان بالآلاف	عدد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين
١ ـ بلغاريا	١١,٥٠٠	٢,٥٠٠	٢١٪
٢ ـ رومانيا	٢٤,٠٠٠	١٢٠	٠,٥٠٪
٣ ـ المجر	١١,٠٠٠	٦	
٤ ـ بولندا	٣٨,٠٠٠	٢٥	
٥ ـ تشيكوسلوفاكيا	١٦,٠٠٠	٣	
٦ ـ ألمانيا الشرقية	١٧,٠٠٠	٣	
	١١٧,٥٠٠	٢,٦٥٧	٢,٢٦٪
ويُضاف إلى ذلك روسيا	١٧٧,٥٦٣	١,٢٥٧	
	٢٩٥,٠٦٣	٣,٩١٤	

أما منطقة الفولغا ـ أورال، وشمالي القفقاس، والقرم، وألبانيا فهي مناطق ذات أكثرية إسلامية، فلا تدخل في موضوع الأقليات، ويمكن الرجوع إليها في الجزء السابق من هذه الموسوعة (المسلمون في الامبراطورية الروسية).

بحر البلطيق
بولندا
وارسو
لوبلين
روسيا
برلين
ألمانيا الشرقية
ألمانيا الغربية
براغ
تشيكوسلوفاكيا
بوكوفينا
النمسا
المجر
بودابست
رومانيا
بخارست
البحر الأسود
يوغوسلافيا
صوفيا
بوغاز
تركيا
اليونان
المقياس
٤٠٠ ٣٢٠ ٢٤٠ ١٦٠ ٨٠
كيلومتر

مصور رقم [٥٨].

نحن والأقليات المسلمة في شرقي أوربا

تعيش الأقليات المسلمة في شرقي أوربا في حالةٍ بئيسةٍ جداً فالحرب تُشنّ على الإسلام بشكلٍ دائمٍ، ويُنظر إلى المسلمين نظرةً خاصةً ملؤها الحقد والكراهية، وكل تصرّفٍ من قبلهم يُفسّر تفسيراً مُعادياً للدولة والنظام وتحلّ نتيجته بالمسلمين المصائب والنكبات، وتحت وطأة هذا الضغط تخلّى كثير من المسلمين عن عقيدتهم. ولا يسمح النظام في تلك الدول للمسلمين بتنظيم أنفسهم أو تعليم أطفالهم الإسلام، أو اللقاء فيما بينهم لتدارس أمور دينهم، وهذا ما أنساهم المعرفة بمبادىء الإسلام، فتخلّى بعضهم عن الدين، وكل لقاءٍ أو تجمّع مهما كان صغيراً يُعدّ خطيراً على النظام لذا فإن القائمين عليه يُهجرّون من الدنيا بسرعةٍ.

ودول أوربا الشرقية أو كل الدول التي تأخذ بالمبدأ الشيوعي بلدان مُغلقة لا يدخل إليها إنسان إلا بعد موافقة السلطات وفرض الرقابة. فالمسلمون لا يستطيعون الخروج من مناطقهم حتى لا يتصلوا بإخوانهم في بقية المناطق ويتأثّروا بهم، بل لا يمكنهم الارتحال لتأدية فريضة الحج إذ أنه محرم عليهم. ولا يستطيع أحد أن يزورهم وإذا وافقت السلطات لأحدٍ كان مُراقَباً ويُرافقه رجال من الأمن. هذه العزلة أورثت لديهم الجهل بأمور الدين فسهُل على بعضهم التخلّي عنه.

إن المسلمين تحت السيطرة الشيوعية يُحرمون من أي فكرٍ أو علمٍ أو قراءةٍ للكتب سوى ما يُوفّرها لهم الشيوعيون حسب آرائهم، فحرية الفكر مُقيّدة، وحرية الرأي مُعطّلة، هذا الانقطاع بين المسلمين في دول أوربا الشرقية وبين الأفكار الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي قد حدّ من تفكيرهم وضيّق أفقهم، وعطّل عقولهم فيّسر ذلك على بعضهم التخلّي عن عقيدتهم.

إن الاضطرار لتأمين القوت اليومي مع الجهل بالإسلام إضافةً إلى المصلحة ورغبات النفس والخوف من السيف المصلت فوق الرقاب باستمرار قد دفع ببعض المسلمين في دول أوربا الشرقية إلى مُسايرة السلطات رغم علمه بباطلها وظُلمها، ومع ذلك فإن الحكومات الشيوعية لا تثق بالمسلمين مهما تخلّوا عن دينهم، ودافعوا عن الشيوعية صدقاً أم ظاهراً فالمسلمون في موضع الاتهام باستمرار.

ويُضاف إلى هذا كله أن المسلمين في الأمصار الإسلامية قد عدّوا هؤلاء المسلمين قد التحقوا بالشيوعية وقبلوا مبادئها، فأهملوهم إهمالاً كلياً مُتذرّعين بأن بلادهم مُغلقة فاعتبروا هذه حجةً لهم وتراخوا والواقع أن هذا ليس إلا بسبب الكسل إذ يمكن التعريف بهم، وتوجيه الإذاعات لهم بلغاتهم، والعمل على إدخال الكتب لهم، ولا يعدم المرء الوسيلة إلى ذلك.

والواقع أن الدول الإسلامية فريقان: فريق يدرس البلدان الشيوعية من وجهة نظرٍ عنصريةٍ، أو دراسةً جغرافيةً بحتة بعيدة عن أي معلوماتٍ عن الإسلام إذ لا يُبالون بذلك، ولذا فإن المسلمين في دول هذا الفريق لا يعرفون شيئاً عن إخوانهم في البلدان الشيوعية، وربما كانت الدراسة من وجهة التأييد أي الثناء على التسلّط الشيوعي وتصرّف الحكومات، وهذا ما يُفقد البحث الجوانب العلمية كلها. وأما الفريق الثاني فإنه لا يهتمّ بهذه الدول ولا يُعير سكانها أيّ بالٍ ما دام الإلحاد هو المسيطر، وهذا ما يُبعد عن الخط العلمي الصحيح أيضاً، فالتعريف بالمسلمين واجب، وفيه تشجيع لإخوانهم لينهضوا بالمهمة الملقاة على عاتقهم.

ومع هذا كله فإن هناك من المسلمين من تصلّب في موقفه أمام الأعداء وحافظ على انتمائه للإسلام ـ مجرد انتماء ـ حتى ارتبط العنصر بالعقيدة وأكثر ما ينطبق هذا على التتار إذ أصبحت كلمة تتار تعني المسلم، ويتمسّك التتاري بانتمائه لا من باب العصبية العنصرية وإنما لأنه يُرادف الإسلام.

وكثيراً ما يخشى بعض السكان من ذكر الدين فلا يُعلن عن عقيدته في الإحصاء وتأخذ السلطة أعداد المسلمين من انتماءاتهم العنصرية فالتتار، والترك، والداغستان والباشغرد (الباشكير) تعني الإسلام، ومن هذا المنطلق فإن أعداد المسلمين تتناقص في الاحصاءات الروسية. وهذا غير صحيح فالمسلمون أكثر المجموعات تزايداً، غير أن إخفاء ذكر الدين يُسبّب هذا التناقص وتُسجّل المجموعات الصغيرة من المسلمين ضمن المجموعات الوثنية أو النصرانية إن كانت في المجموعة بعض البطون تعتنق النصرانية أو تُعلن عن وثنيتها. ولا شك فإن الإبادة والتهجير عاملان من عوامل عدم الزيادة الواضحة في عدد السكان.

ولما كانت الأقليات المسلمة في دول شرقي أوربا ضعيفة الشأن لقلّة عددها باستثناء بلغاريا فإنه لا يخشى منها لذا لا نجد هجوماً دائماً عليها، وتخطيطاً لإذابتها وصهرها في المجتمع الذي تعيش فيه، ووضع المشروعات لتهجيرها أو إبادتها ولكن نجد هذا فقط في بلغاريا التي يُعدّ المسلمون فيها كثرة.

نظرة عامة على المسلمين في أوربا

المنطقة	السكان	المسلمون	النسبة
أوربا الغربية	٣٨٠,٩٨٠,٠٠٠	١٢,٥٢٦,١٠٠	٣,٣٪
أوربا الشرقية	٢٩٥,٠٦٣,٠٠٠	٣,٩١٤,٠٠٠	١,٣٪
دول الأكثرية المسلمة	٢٤,٦٨٧,٠٠٠	١٤,٧٣٣,٠٠٠	٥٩,٠٪
المجموع	٧٠٠,٧٣٠,٠٠٠	٣١,١٧٣,١٠٠	٤,٤ ٪

يُلاحظ أن عدد المسلمين في دول أوربا الشرقية هو أقل من عدد المسلمين في دول أوبا الغربية، غير أن دول ومناطق الأكثرية المسلمة إنما تقع في أوربا الشرقية فإذا أضفناها انعكست الآية، وأصبح المسلمون في الشرق أكثر مما هم في الغرب.

يُلاحظ أن عدد المسلمين في أوربا الشرقية ثابت بل يتناقص بسبب حرب الإبادة، والتهجير، والانتقال إلى الإلحاد على حين يتزايد المسلمون في أوربا الغربية مع زيادة التجنس، وطلب العلم، والهجرة إلى العمل، والتشريد في أمصار العالم الإسلامي حيث ما تنفكّ النوائب تحلّ بها، وأكثر ما تصيب المسلمين بل ربما نستطيع أن نقول: إن المسلمين هم المستهدفون بالدرجة الأولى، ويجب ألاّ ننسى الإقبال على الإسلام في الغرب، واعتناقه من قبل بعض سكان أوربا الغربية، وإن كان العدد قليلاً نسبياً.

ويُلاحظ أن المسلمين في أوربا الشرقية في الغالب من أبناء البلاد على حين أنهم في أوربا الغربية غرباء عنها يحلّون فيها موقتاً، وإن كان بعضهم قد حصل على جنسية البلد الذي يُقيم فيه أو على الإقامة الدائمة، وهناك بعض الذين اعتنقوا الإسلام ـ كما ذكرنا ـ من دول الغرب.

إن ما يحلّ بالمسلمين من بلاء في أوربا يختلف في الشرق عما هو في الغرب، ففي الشرق مفروض عليهم، خارج عن إرادتهم، سببه التسلّط والحقد على الإسلام الحقد من الإلحاد الذي تتبنّاه الحكومات، والصليبية المتوارثة عند أبناء البلاد النصارى، ونتحمّل قسطاً مما ينشأ من إهمالنا لإخواننا وتقصيراً بطبعنا، أما في الغرب فيعود البلاء إلى المسلمين أنفسهم، فالخلاف فيما بينهم، والعصبيات التي تحملها بعض الفئات، والعنصرية، والإقليمية، والرغبة في الدعاية للدول التي تُقدّم بعض الدعم كل هذا له أثره الكبير ويُضاف له أيضاً الصليبية الكامنة في شعوب أوربا.

إن المسلمين في أوربا الغربية على صلةٍ مستمرةٍ بإخوانهم في الأمصار الإسلامية، وبالتيارات الفكرية المعاصرة، لانفتاح دول تلك المنطقة، بينما يُحرم المسلمون في شرقي أوربا من هذه الصلة لانغلاق الحكومات المتسلّطة عليهم، بل يُحرمون من نسخٍ من القرآن الكريم فهم لا يرون النور ولا يسمعون بالأفكار، على أفواههم أقفال وعقولهم مُعطّلة، ورجال الرقابة يسترقون السمع منهم ويحصون أنفاسهم.

ولقد عانى سكان أوربا الشرقية كثيراً من النظام الذي يحكمهم فإضافةً إلى الضغط قد لحقهم الفقر، وشعروا بالتخلّف بالنسبة إلى حياة إخوانهم في أوربا الغربية.

وزاد الضغط حتى انفجر الوضع، وخرج منه السكان، فتخلّوا عن نظامهم، ومعسكرهم، وانطلقوا يتبعون النظام الحرّ، وتنفّس الناس بعد طول كبتٍ، وتوحّدت ألمانيا.

ولكن حظ المسلمين لن يكون كبيراً فالصليبية تلاحقهم أينما كانوا سواء أكان أتباعها من النصارى ملحدين أو علمانيين، أم عاديين، وسواء أكانوا كاثوليك أم أرثوذكس، أم بروتستانت.

الأقليّات المُسْلِمَة في قَارة أمريكا

تُشير الأخبار إلى احتمال وصول المسلمين إلى أمريكا قبل معرفتها من قبل الأوربيين، وإذا كان ذلك فإن المسلمين الذين كانوا هناك قد أُبيدوا مع من أُبيد من السكان الأصليين أو مع من هلك في نطاق المحاولات الصليبية لإبادة المسلمين من قبيل ما اقترف النصارى الإسبان ضدّ المسلمين في الأندلس إثر سقوطها بأيديهم عقب ما أسموه بحرب الاسترداد، ويُلاحظ أن خروج المسلمين من الأندلس عام ٨٩٧ قد أعقبه معرفة أمريكا الذي حدث مصادفةً في محاولة الإسبان تتبع المسلمين بعد طردهم من الأندلس والعمل على تطويقهم عسكرياً واقتصادياً. وهناك بعض ما يُشير إلى وجود مسلمين في أمريكا عندما وصل إليها الأوربيون، ويبدو أن بعضهم كان يُقيم في أمريكا الشمالية على أرض الولايات المتحدة اليوم، وقد وصلوا إليها من الأندلس أو من بلاد المغرب، كما كان يُقيم بعضهم الآخر في أمريكا الجنوبية على أرض البرازيل اليوم وقد وصلوا إليها من غربي إفريقية من مملكة مالي التي كانت قائمةً في القرن السابع الهجري، وقد تركوا هناك بعض الآثار، غير أن كلا الجماعتين قد أُبيد على أيدي الصليبيين الإسبان الذين كانوا يمتلئون حقداً على الإسلام والمسلمين وربما لم يكن هناك شيء أكره إليهم من هذا الاسم فهم قد طردوهم من الأندلس ويُلاحقونهم، وقد وجدوا أمامهم جماعةً صغيرةً ضعيفةً مُوزّعةً من المسلمين في هذه الأرض التي نزلوا بها، ولم يعلموا بعد أنها أرض

جديدة لذا فقد قضوا عليهم مباشرةً ودكّوا كل أثر من آثارهم.

ومن المعلوم أن بعض المسلمين قد أظهروا النصرانية في الأندلس خوفاً على حياتهم أو أُكرهوا على قبول النصرانية عقيدةً لهم ولكنهم احتفظوا بدينهم في قلوبهم وقد عُرف هؤلاء باسم (الموريسكيين) أي المسلمين الصغار. واستعان الإسبان ببعض هؤلاء في سيرهم إلى الأرض الجديدة، وفي التحرّك داخلها لأنهم كانوا أكثر ثقافةً وحضارةً ومعرفةً من الإسبان إضافةً إلى لغتهم العربية التي كانت هي الشائعة، وهي التي يتحدّث بها المسلمون القدماء في أمريكا وهذا ما يدلّ على أن الإسبان كانوا يجزمون بوجود مسلمين هناك، غير أنه قد ضاع كل خبرٍ عنهم بتصرّف الإسبان الحاقدين، ثم جاءتنا أخبار هذه المرحلة وتاريخها من أوربا برأيها وتحليلها وأهدافها وتخطيطها فكانت هذه معلوماتنا لا غير، وكان من هؤلاء الموريسكيين (استفانكو) كما كان دليل (مرقص وتيزا) لمعرفة أريزونا أحد هؤلاء المسلمين أيضاً، وقد أقام هذا الدليل كما أقام غيره هناك، غير أن قلّتهم جعلتهم لا يتركون أثراً بل ربما هم ضاعوا وسط البيئة التي عاشوا فيها إذ كانوا يُظهرون النصرانية، ولا يجرؤون على إعلان إسلامهم.

وفي القرن الثاني عشر الهجري وصلت إلى أمريكا أفواج من زنوج إفريقية استرقّهم النخاسون، ونُقلوا للعمل في الولايات المتحدة، وكان من بين هؤلاء الزنوج عدد من المسلمين غير أنهم قد أضاعوا دينهم نتيجة العمل الشاق الذي كانوا يُمارسونه، ونتيجة السيف المصلت فوق رؤوسهم، وقد هلك الكثير منهم بالعمل، وقُتل الكثير بأيدي السادة من غير حساب، لأن العبيد كانوا عندهم كجزءٍ من المتاع يتصرّفون به تصرّفهم بالمتاع تماماً فهو ملكهم، وهم المسؤولون عنه فقط. وقد صوّرت رواية (الجذور) الأصول الإسلامية للزنوج الإفريقيين المقتلعين من أوطانهم، والمنقولين لتعمير العالم الجديد، وقد نبش كاتبها (اليكس هالي) قصة جده الأعلى، وهو زنجي

إفريقي مسلم يُدعى (كونتاكانتي) اصطاده النخّاسون من موطنه في غامبيا حوالي عام ١١٦٤، وشحنوه إلى الولايات المتحدة حيث فشلت محاولاته المتكررة للفرار، وعُوقب في إحداها بقطع نصف قدمه، ثم لم يكن هناك من مناص في أن يعيش حيث المكان الذي نُقل إليه، ويتزوج ويُنجب، ويرى الأحفاد وذريتهم.

وفي القرن الرابع عشر زادت الاتصالات بين أجزاء العالم، واحتاجت البلدان الجديدة إلى إعمارٍ، وتوالت النكبات على الأمصار الإسلامية، وزاد ضغط المُتسلّطين عليها والمُسخّرين فيها على المسلمين فارتحلت أعداد منهم واتجهت نحو البلدان الجديدة، كما أن طلاّب العلم قد زاد رحيلهم إلى تلك الجهات، وبذا ظهرت جالية إسلامية.

وإذا كان المسلمون الأوائل قد أُبيدوا، والذين ساروا مع المكتشفين قد ضاعوا فإن عدداً من السود قد عرفوا واقعهم ورجعوا إلى دينهم في أمريكا الشمالية، كما دخل أمريكيون في الإسلام سواء أكانوا من شمالي أمريكا أم من جنوبيها، وكذلك رفدتهم عناصر جديدة من الأمصار الإسلامية جاءت لأسبابٍ كثيرةٍ، وحصل بعضها على الجنسية، وأقام بعضها الآخر بشكلٍ دائمٍ، وفيهم من ذوي الفكر وأصحاب الإمكانات الكبيرة، وهناك أيضاً الذين يُقيمون إقامةً موقتةً، وإن كل جزءٍ من قارة أمريكا يختلف عن الجزء الآخر، فهناك الشمال، والوسط، والجنوب.

ونجد في أمريكا الشمالية الدول الآتية:

(١) الولايات المتحدة الأمريكية

عالم واسع، تبلغ مساحتها ٩,٣٦٣,٤٩٨ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها حسب تقديرات عام ١٤٠٧ هـ ما يزيد على ٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠.

استقلت عن انكلترا عام ١١٩٠ وكانت ثلاث عشرة ولايةً، ثم أخذت الولايات تنضمّ إليها حتى غدت ثمان وأربعين ولايةً، ثم انضمّت إليها آلاسكا وجزر هاواي عام ١٣٧٩ فأصبحت إحدى وخمسين ولايةً.

يعود ٨٥٪ من السكان إلى أصل أوربي، ويعود الباقي إلى أصول إفريقية وآسيوية. ويُشكّل الزنوج ما يزيد على ثلاثين مليوناً، ونستطيع أن نقول: يتألّف السكان في الولايات المتحدة من:

٢٠٢,٣٥٠,٠٠٠	من أصول أوربية، ومعظمهم من الانكلوسكسون
١,٥٠٠,٠٠٠	هنود حمر.
٣٠,٠٠٠,٠٠٠	زنوج من أصول إفريقية.
١٥٠,٠٠٠	أفارقة.
٦,٠٠٠,٠٠٠	من أصول مختلفة من آسيويين (فيليبين ـ يابانيون ـ صينيون ـ هنود ـ ماليزيون ـ أندونيسيون ـ عرب ـ ايرانيون ـ أفغان).
٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠	

واللغة الانكليزية هي اللغة الرسمية، مع أن لكل مجموعة لغتها الخاصة، ولكن تذوب مع الزمن في المجتمع الأمريكي، وإن كان بعضها يحرص على المحافظة على لغته الخاصة.

يدين معظم السكان بالنصرانية على المذهب البروتستانتي، غير أنه يوجد لبقية المذاهب النصرانية أتباع كما توجد أعداد من الديانات الأخرى، ويمكن أن نبينها في الجدول الآتي.

بروتستانت	١٧٢,٧٨٩,٠٠٠
كاثوليك	٥٣,٢٥٠,٠٠٠
أرتوذكس	٤,٥٠٠
يهود	٦,١٠٠,٠٠٠
مسلمون	٣,٢١١,٠٠٠
بوذيون	١٥٠,٠٠٠
	٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠

المسلمون: يمكن أن نُؤرّخ للمسلمين في الولايات المتحدة في هذه المرحلة الأخيرة بأوائل القرن الرابع عشر الهجري أواخر القرن الثالث عشر، إذ هاجرت أعداد إلى الولايات المتحدة من المسلمين لكن كانت قليلة لا يتسنّى لها مع عددها الضئيل التأثير وبخاصة في ذلك المحيط الواسع، كما أن هؤلاء المهاجرين قدموا إلى البلاد ومقصدهم الرئيسي كسب العيش، ولم يكونوا على درجةٍ من الثقافة تتيح لهم تأثيراً على المجتمع الذي يعيشون فيه، إضافةً إلى الذين فرّوا من وجه النكبات التي نزلت بهم في بلادهم أو حلّت بأوطانهم فهم مُشرّدون يخشون العاقبة ويخافون النتيجة، ولم يكونوا بحالةٍ أفضل كثيراً من الناحية العلمية من أولئك الذين جاءوا لكسب القوت، وقد سُدّت في وجههم السبل، ولم يكن هؤلاء المسلمون على أمرٍ جامعٍ أو نظام فقد جاءوا من مناطق مختلفة وعاشوا مُتفرّقين، وإن شعروا بحاجةٍ إلى مؤسساتٍ تجمعهم غير

أن مستواهم، واختلاف ديارهم، وتباين لغاتهم، وفقرهم، وسعيهم وراء العمل وتفرّقهم لم يفسح لهم المجال بذلك.

لقد اتصلت الولايات المتحدة بالعالم الإسلامي اقتصادياً في بداية الأمر، ثم زادت هذه الصلات مع الزمن وظاهرتها صلات ثقافية ثم سياسية. لقد وصل إلى الولايات المتحدة مهاجرون من شتى الأمصار الإسلامية. جاء إليها في أواخر القرن الثالث عشر الهجري مهاجرون غالبيتهم من القبائل التتارية التي كانت قد استوطنت في شرقي بولندا وغربي روسيا وأصابها اضطهاد القياصرة الروس ثم تابع الشيوعيون الاضطهاد نفسه وزادوا عليه في القرن التالي فاتجه بعضهم إلى الولايات المتحدة هاربين، ووصل منهم إليها أكثر من ألفي شخص أقام معظمهم في مدينة نيويورك في حي (بروكلين).

وجاء مغتربون من بلاد الشام وبخاصة في أوائل القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر الهجريين لما نزل في بلاد الشام من محن. وأقام أكثر النصارى في مدينة (ديترويت) على البحيرات العظمى، واستوطن أكثر المسلمين في ولاية (إيوا) في مدينة (سيدار رابيداز) التي تقع غرب نهر المسيسيبي على أحد روافده الصغيرة، وأسّسوا لهم مسجداً هناك عام ١٣٥٢، وتبع هؤلاء مهاجرون من بلاد عربية أُخرى مثل اليمن ومصر وغيرهما، وكان معظمهم بحارة تركوا سفنهم واستقرّوا في الولايات المتحدة، ثم حذا حذوهم آخرون من ايران، وتركيا، والهند، وماليزيا، واندونيسيا، وأفغانستان، واستوطن بعض هؤلاء في غربي الولايات المتحدة. وكذلك هاجر عدد من اليوغوسلاف المسلمين، وعاش أكثرهم في مدينة شيكاغو، وقد انتقلوا من بلادهم إلى هناك إثر الاضطهاد الذي لحق بهم في بلادهم عندما تسلّم الشيوعيون حكمها. ثم انتقلت أعداد من ألبانيا عندما سيطر الشيوعيون على الحكم فيها أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية، وأقاموا في مدينة (ديترويت).

ويذهب عدد من المسلمين في كل عام إلى الولايات المتحدة لتلقّي العلم في جامعاتها المختلفة التي تُعدّ بالمئات، وقد أصبح بعضهم يشغل مناصب علمية كبيرة، ومنهم من حصل على الجنسية الأمريكية بالمولد، وبعض هؤلاء من سكان الفيليبين، وقد ولدوا عندما كانت الولايات المتحدة هي صاحبة السلطة المباشرة في جزر الفيليبين. كما أن الولايات المتحدة كثيراً ما تحرص على استبقاء النوابغ في بلادها فتعرض عليهم التسهيلات والإغراءات.

وأقبل على اعتناق الإسلام بعض الذين هم من أصل أمريكي نتيجة الاحتكاك بالمسلمين سواء أكان داخل الولايات المتحدة أم خارجها إذ عاش بعضهم في بلدانٍ إسلاميةٍ. ومن الصور المعبرة لهذا التأثّر بالإسلام خارج الولايات المتحدة الأمريكية ما كان من (محمد اسكندر) الذي كان قنصلاً لبلاده في (مانيلا) بالفيليبين، وهناك اطلع على بعض الكتب الإسلامية فأسلم عام ١٣٠٦ هـ، وعاد إلى بلاده عن طريق الهند بعد أن استقال من منصبه، واتصل في الهند ببعض المسلمين، واستقرّ أخيراً في نيويورك حيث أنشأ مكتباً باسم (شركة النشر الشرقية)، وأصدر العدد الأول من مجلة (العالم الإسلامي) عام ١٣١١ هـ، وتوفي عام ١٣١٤، وقد أتاحت الحرب العالمية الثانية السبيل للتعرّف بين الجنود الأمريكيين بالمسلمين عندما عملوا في بلادهم، ومنهم من تأثّر بالإسلام، ودان به، ويُقدّر عددهم بخمسين ألف أمريكي مسلم.

ورجع عدد من الزنوج إلى أصولهم الإسلامية، وقد بدأت هذه الحركة في أحد أحياء مدينة (ديترويت) عام ١٣٤٩ على يد تاجرٍ عربي كان يبيع الزنوج الملابس ومعاطف المطر، ويُعلّمهم أصول الدين الإسلامي، ويُعرف هذا الشخص باسم (محمد فريد) ويُسمّونه بالانكليزية (فارد محمد)، وأغلب الظنّ أنه شامي من فلسطين درس العلوم السياسية في جامعة كمبردج بانكلترا، وتوفي عام ١٣٥٣، وكان قد تعرّف على شخص من بين الزنوج

اسمه (اليجابول) ونشأت بينهما صداقة وطيدة فسمّى نفسه (أليجـا محمد)، ومن تعاون هذين الرجلين نشأت حركة الزنوج أو حركة المسلمين السود، إذ تطوّرت الدعوة الفردية إلى عقد اجتماعات.

وهناك رواية تقول: هناك رجل يُدعى (دورعلي) قـام بـالـدعـوة بين الزنوج، وركّز جهده في منطقة (نيوجرسي) وقد نجح في مهمته، وكان يلقب كل رجل من أتبـاعـه اسماً ينتهـي بلقـب (بيـك) وقـد تـوفي عـام ١٣٤٨ هـ، وبوفاته تفرّق أصحابه، وتبع الكثير منهم الإسلام، وبقي اسم جمعيتـه. وعلى أنقـاض هـذا العمـل قـام (أليجـا محمد) الذي ادعـى أنـه أرسل إلى السود في أميركا، وتبعه الكثير من السود نتيجة ما كانوا يُعـانـون من ظلم، فجعل لجماعته فروعاً في مناطق متعددة وأنشأ أماكن للعبادة في مختلف المدن الكبرى وسمّاها (المعابد)، وكان في كل معبد مدرسة لجماعته وأولادهم سمّاها الجامعة الإسلامية.

وأنشأت هذه الحركـة محلات تجاريـة لها، وداراً للطبـاعـة، وجـريـدة أسبوعية، ومطاعم، وفنادق خاصة بهم، وتبنّى (أليجا محمد) نظاماً دقيقاً فرضه على أتباعه، وأنشأ المزارع وأقام المنشآت. وعرفت هذه الجماعة باسم (المسلمين السود) ثم أطلقوا على أنفسهم (أمة الإسلام)، وكانوا يسعون لإنشاء دولة خاصة بهم في المكان الذي يتهيّأ لهم في الولايات المتحدة، ولهم نظام عسكري يُسمّونه (ثمرة الإسلام).

وفي الوقت الذي كانت تتكوّن فيه حركة المسلمين السود أسلم عدد من الزنـوج وسـار بخطٍ سليمٍ وزاد عـددهـم وأسّسـوا جمعيـاتٍ لهم مثـل (دار الإسلام) و(أنصار الإسلام) و(معهد التبشير الإسلامي)، و(معهد الأمة) و(مسجد المهاجرين) و(مسجد ياسين) والمشكلة أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم بين المدة والأخرى فينشق بعضهم عن بعض، ويُؤسّس كل فريق لنفسه مؤسسةً خاصةً به.

ومن روّاد الدعوة الإسلامية في الولايات المتحدة بين المسلمين السود (صوفي عبد الحميد) وهو من سكان حي (هارلم) بنيويورك، اعتنق الإسلام عام ١٣٥٠ ومضى يدعو إليه، فأسلم على يديه عام ١٣٥٥ حوالي مائتين وأربعين رجلاً وقد آزره في دعوته رجل مصري يُدعى (حافظ مندلي).

ولكن بقيت حركة المسلمين السود هي البارزة بين كل الحركات بسبب تنظيمها وكثرة أتباعها وشخصية قائدها (أليجا محمد). ولد (أليجا محمد) في مدينة (ساندرافيل) في مقاطعة جورجيا عام ١٣٢٥، ونشأ على بغض البيض إذ شاهد في طفولته غارات البيض على السود ليلاً، وما كان يُصيب أبناء جلدته من قتلٍ ومن تعذيب. وهكذا أثّرت رواسب مُعاناة السود الطويلة من البيض في الولايات المتحدة لذا فقد تبنّت حركة المسلمين السود وشجّعت على أسلوب الحقد والعنف بطرقٍ بشعةٍ.

وثمة شخصية بارزة أُخرى بين المسلمين السود في الولايات المتحدة هو (ريمون شريف) ختن (محمد فريد)، ويُعدّ زعيم منظمة (ثمرة الإسلام) وقائد (ضباط الشعب الأسود) إذ كان لهذه المنظمة شرطة خاصة بها.

ويبدو أن (أليجا محمد) كان متأثّراً بالقاديانية، وربما كان على صلةٍ بهم ولا نعرف فيما إذا كان (محمد فريد) الذي أثّر به كان أحدهم. وما ادعاؤه بالنبوة للشعب الأسود إلا من هذا الباب، وقبل الكثير من الزنوج هذه الفكرة بسبب ما يُعانونه من اضطهاد وعنف البيض.

وظهر من بين المسلمين السود من لاحظ انحراف خط الحركة عن الإسلام فدعا إلى التصحيح، وكان من أبرزهم (مالكوم إكس) وكان يُدعى (مالك التباز) إذ تعرّف عليه (أليجا محمد) في السجن، فلما أطلق سراحه عام ١٣٧٢ هـ، كان أكثر وضوحاً، وقد اختلف الرجلان بعضهما مع بعض، وكادت تطغى شخصية (مالك) على (أليجا) لذا قرر فصله من الحركة،

وأحرق منزله، وقرر التخلّص منه فأطلق عليه الرصاص وقتل عام ١٣٨٥ هـ.

وتوفي (أليجا محمد) عام ١٣٩٥ فتولّى رئاسة الحركة بعده ابنه (ولاس محمد) وتسمّى باسم (محمد وارث الدين)، وكان على رأي (مالكوم) فأخذ يتجه بالحركة نحو الإسلام، وأصبح يُطلق على جماعته اسم البلاليين، كما غيّر اسم المعبد إلى مسجد، وحاول إبعاد فكرة التعصّب من ذهن أنصاره، وبدأت الصلة تتحسّن مع التنظيمات الإسلامية الأخرى.

للبلاليين أكثر من مائتين وخمسةٍ وعشرين مسجداً في أنحاء الولايات المتحدة، وأكثر من مائتي مركز إسلامي إضافةً إلى مؤسساتهم العامة. كما أن هناك منظمة نسائية تعمل لتربية المسلمات السوداوات على العفاف وعلى طاعة الرجل الذي له القوامة في الأسرة.

وبجانب منظمة البلاليين توجد هيئتان في الولايات المتحدة للمسلمين السود أيضاً وهما:

أ - المسلمون الحنفيون. وقد انفصلوا عن البلاليين عام ١٣٧٨.
ب - الحزب الإسلامي لأمريكا الشمالية.

يُقدّر عدد المسلمين السود بمليونين، وإن كان هناك خلاف في هذا الرقم، إذ يدّعي البلاليون أن عددهم وحدهم مليونان.

الجنسيات التي ينتمي إليها المسلمون: ينتمي المسلمون في الولايات المتحدة إلى عددٍ كبيرٍ من الجنسيات، ويقرب عددهم من مليون وربع مليون، يُشكّل العرب منهم نصف مليون تقريباً، و٦٢٪ منهم من بلاد الشام.

٤٨١,٠٠٠ عرب منهم:	١٥٠,٠٠٠	من سوريا
	١٠٠,٠٠٠	من لبنان
	٥٠,٠٠٠	من فلسطين
	١٥,٠٠٠	من الأردن
	٣١٥,٠٠٠	مجموع الشاميين
	٢٠,٠٠٠	من السعودية، أكثرهم من الطلاب
	٥,٠٠٠	من الكويت، أكثرهم من الطلاب
	٣,٠٠٠	من عُمان، أكثرهم من الطلاب
	٤,٠٠٠	من الإمارات، أكثرهم من الطلاب
	٩,٠٠٠	يمانيون، من العمال والتجار
	٤٠,٠٠٠	مجموع القادمين من جزيرة العرب
	٢٥,٠٠٠	من العراق
	٦٠,٠٠٠	من مصر
	٥,٠٠٠	من السودان
	٣,٠٠٠	من ليبيا
	٨,٠٠٠	من تونس
	١٥,٠٠٠	من الجزائر
	١٠,٠٠٠	من المغرب
١٩٠,٠٠ أتراك منهم:	١٥٠,٠٠٠	من تركيا
	١٥,٠٠٠	من تركستان
	٢٥,٠٠٠	من التتار
	٢٥٠,٠٠٠	إيرانيون
	٥٠,٠٠٠	باكستان
	٤٠,٠٠٠	يوغوسلاف، معظمهم من البوشناق

٤٠,٠٠٠	ألبان
٢٥,٠٠٠	هنود
١٥,٠٠٠	اندونيسيا
٤٥,٠٠٠	من ماليزيا، وافغانستان، وكامبوديا، وفيتنام، وشراكسة
٢٥,٠٠٠	أفارقة
١,١٦١,٠٠٠	
٥٠,٠٠٠	أمريكيون بيض
٢,٠٠٠,٠٠٠	أمريكيون سود
٣,٢١١,٠٠٠	

ولا شك فإن عناصر كل مجموعةٍ يتوزّعون في مناطق متعددةٍ، وإن كانت هناك مدن تضمّ أفراداً كثيرين من مجموعةٍ معينةٍ حتى ليُقال عنها إنها مركز تجمّعٍ لهم.

الجمعيات: عندما يحلّ المهاجرون في الولايات المتحدة، وينخرطون في المجتمع الأمريكي يفقدون الكثير من مفاهيمهم وأسلوب حياتهم، ومع الزمن ينسون لغاتهم، ويتركون واجباتهم الدينية، ويحيون الحياة الأمريكية وبخاصةٍ إذا علمنا أنهم ليسوا على المستوى العلمي أو الفكري المطلوب، وأنهم مُتخلّفون، مُشرّدون، فقراء، جاءوا يلتمسون الرزق، وإن كان بعضهم قد جاء مهاجراً لأسبابٍ سياسيةٍ وعنده خلفية فكرية غير أنه لا يلبث أن تضيع أسرته في الجو الجديد إن لم يضع هو، لكن زيادة عدد المسلمين نتيجة قدوم مهاجرين جدد قد جعل بعضهم يفكر في نفسه، وفي أسرته، وفي إخوانه، وواجبه تجاه عقيدته، أو تجاه بلاده وقومه حسب رأي بعضهم فبدأ لذلك

اللقاء والتنظيم، فأسّس العرب أول جمعيةٍ لهم في مدينة (ديترويت) عام ١٣٣٠ ثم لم يلبثوا أن أقاموا مسجداً عام ١٣٣٧ هـ، ثم تأسّست ثاني جمعية في مدينة (ميشيغان) في ولاية أنديانا عام ١٣٣٣ هـ، وأُطلق عليها اسم (البدر المنير)، وتبع ذلك تأسيس جمعياتٍ إقليميةٍ، فكان لكل جاليةٍ في منطقة يزداد عدد أفرادها جمعية خاصة بهم، فكانت جمعية شباب العرب، والأتراك، والألبان و... وأُقيم مسجد في (سيدار رابيدز) عام ١٣٤٧، وتم بناؤه عام ١٣٥٨...

كما بدأ الطلاب يُنظّمون أنفسهم، ولكنه على أساسٍ إقليميٍ أيضاً فكانت جمعية الطلبة الباكستانيين، والماليزيين، والأتراك، والإيرانيين و... هذا إضافةً إلى البلاليين الذين تُعدّ مدينة شيكاغو مقرّهم الرئيسي إلا أن مُؤسّساتهم خاصة بهم أيضاً.

ثم أخذت هذه الجمعيات يلتقي بعضها مع بعض وتُؤلّف اتحاداً فيما بينها يقوم على أساس الوشائج الوثيقة فيما بينها وهو الإسلام، فقد قام اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا عام ١٣٨٤، ويُصدر مجلة (الاتحاد)، وقام اتحاد الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا، ويضمّ خمسة وعشرين مركزاً وجمعية عام ١٣٩٢، وفي العام نفسه قام مجلس الجمعيات الإسلامية في أمريكا. وتلا ذلك إقامة جمعيات إسلامية على أساس الاختصاص مثل: جمعية الأطباء المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، وجمعية العلماء والمهندسين المسلمين، وجمعية العلماء الاجتماعيين. وقامت اتحادات لجمعيات في منطقةٍ واحدةٍ مثل: اتحاد الجمعيات في الشمال الشرقي عام ١٣٩٧ هـ.

المساجد: ولما كانت العقيدة ذات أثرٍ كبيرٍ في حياة الإنسان لذا فإن المسلمين عندما يحلّون في مكانٍ لا بدّ أن يُفكّروا في المسجد الذي يُؤدّون فيه عباداتهم، ولعلّ الجالية البولندية المسلمة، وهي من التتار كانت أول من

أقام مسجداً وذلك في مدينة (ديترويت) عام ١٣٢١ هـ، وأعيد بناؤه عام ١٣٨٠ هـ. كما أقامت الجالية نفسها مسجداً لها أيضاً في نيويورك. وتبعتها بقية الجاليات فاشترت الجالية المصرية مطعماً في (نيوجرسي) وحوّلته إلى مسجد عام ١٣٩١، كما حوّلت كنيسةً اشترتها عام ١٣٩٩، وألحقت بالمسجد مدرسة لتعليم الأطفال مبادىء الإسلام واللغة العربية، وتهتم بالتربية والتوجيه لهم في مواجهة المجتمع المدرسي الأمريكي الذي يعيشون فيه.

وأقام المسلمون السود معابدهم التي أصبحت فيما بعد مساجد في كثيرٍ من أرجاء البلاد، وهذه خاصة بهم لا يُشاركهم فيها أحد.

وكان بعض الذين يدخلون في الإسلام يبنون المساجد حماسةً لدينهم الجديد كالمسجد الذي بناه (محمد عبد الله يرنولوز) في (لوس انجلوس) عندما أسلم، وربما كان أول مسجد بني على الساحل الغربي.

وزاد عدد المساجد حتى وصل إلى ستمائة مسجدٍ مُوزّعةً في أنحاء البلاد غير أن صفة الإقليمية كانت هي الغالبة عليها فلكل جاليةٍ مسجدها، غير أن هذه المرحلة قد انتهت وأتت مرحلة اللقاء فكان مجلس الأئمة عام ١٣٩٢ هـ، وتلاه اللقاء في ٢ ربيع الثاني عام ١٣٩٨ في المركز الإسلامي في (فيلادلفيا) والذي انبثق عنه مجلس المساجد، وتدور أبحاث المجلس في خطب الجمعة، والمناسبات الإسلامية، ومواقيت الصلوات في كل مدينة، والعمل على بناء المساجد و...

المراكز: بدأت فكرة تأسيس مركز إسلامي في العاصمة واشنطون منذ عام ١٣٥٦، وبدأ العمل لها، فوُضع الحجر الأساسي عام ١٣٦٧، وانتهى العمل منه بعد عشر سنوات حيث افتتح عام ١٣٧٧ وحضر حفل الافتتاح الرئيس الأمريكي (آيزنهاور). كما افتتح المركز الإسلامي في نيويورك،

قارة أمريكا الشمالية
المقياس
١٦٠٠ ١٢٠٠ ٨٠٠ ٤٠٠
آسيا
كندا
خليج هدسن
الولايات المتحدة
المحيط الهادي
المحيط الأطلسي
سان فرانسيسكو
لوس انجلوس
سكرامنتو
شيكاغو
توليدو
انديانا بوليس
مونتريال
كويبك
نيويورك
فيلادلفيا
واشنطن
برمودا
خليج المكسيك
المكسيك
مكسيكو
هايتي
جامايكا
نيكاراغوا
غوادالوب
بنما

مصور رقم [٥٩] .

وغالباً ما يُشارك السلك السياسي الإسلامي في بناء المراكز الإسلامية، وتُنفق بعض الدول على بنائها وتأثيثها والإشراف عليها. ويتبع المركز في نيويورك مدرسة لتعليم اللغة العربية ومبادىء الإسلام.

وأُقيم مكتب لرابطة العالم الإسلامي في نيويورك عام ١٣٩٦ هـ.

توزّع المسلمين: لما كانت البلاد واسعةً، والمسلمون مُوزّعون في أرجائها أرى من المفيد إعطاء لمحةٍ عن توزّعهم في الولايات كلها عسى أن يضع المرء يده على بعض الداء الذي يُعاني منه المسلمون هناك من التفرقة، والإقليمية، والنزعات الشخصية للبحث في موضوع شمولية العمل، وإعطاء بعض العلاج أو الحلول لتقدّم الدعوة لعلّ في ذلك فائدة.

سبق أن قلنا: إن عدد الولايات إحدى وخمسون ولايةً وسنبدأ فيها ـ إن شاء الله ـ ولايةً ولاية بدءاً من الشمال الشرقي باتجاه الجنوب، وننتقل بعدها نحو الداخل تدريجياً حتى نصل إلى ساحل المحيط الهادي، ونشير بعدها إلى الولايات البعيدة عن الأرض الأم (آلاسكا وجزر هاواي)، ونكون بذلك كأننا سرنا مع الزمن لقيام الولايات المتحدة وانضمام الولايات إليها تدريجياً، وتقع هذه الولايات ضمن أقاليم:

إقليم نيو انكلندا (انكلترا الجديدة): توجد ست ولايات في الشمال الشرقي تعرف باسم (نيو انكلندا) وهي أساس الولايات المتحدة، تبلغ مساحتها ١٧٢,٤٥٤ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة عشر مليوناً، وهي:

١ً ـ **الماين:** وهي أكبر هذه الولايات إذ تزيد مساحتها على ستة وثمانين ألف كيلومتر مربع، كما يزيد عدد سكانها على المليون، وعاصمتها مدينة (أوغوستا)، وليس فيها مسلمون.

٢ً ـ **نيوهامشير:** وتبلغ مساحتها ٢٤,٠٩٧ كيلومتراً مربعاً، وسكانها

حوالي ثمانمائة ألف، وعاصمتها مدينة (كونكورد)، وليس فيها مسلمون.

٣ً - **فرمونت:** وتبلغ مساحتها ٢٤,٨٨٧ كيلومتراً مربعاً، وسكانها حوالي نصف مليون، وعاصمتها مدينة (مونبليه)، وليس فيها مسلمون، وهذه الولايات الثلاث تحدّ كندا، وتعدّ المقاطعات الكبيرة في هذه المجموعة.

٤ً - **ماساتشوستس:** وتبلغ مساحتها ٢١,٣٨٦ كيلومتراً مربعاً، يزيد عدد سكانها على ستة ملايين، وعاصمتها مدينة (بوسطن)، وفي الولاية ثلاث جمعيات إسلامية في كل من مدن كوينسي، وروكسبري قرب بوسطن، وفي (سبرنغفيلد).

في مدينة (كوينسي) تأسست الجمعية الإسلامية في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر، وقامت ببناء مسجد أسمته (مركز انكلترا الجديدة الإسلامي) وتلحق به مدرسة للأطفال، ومكتبة.

وفي مدينة (سبرنغفيلد) أكثر المسلمين فيها من أصل شامي من لبنان، وفيها مركز إسلامي أيضاً.

وفي مدينة (روكسبري) مركز إسلامي فيه مسجد، ومكان للاجتماعات.

٥ً - **رودآيلاند:** وهي صغيرة تبلغ مساحتها ٣,١٤٤ كيلومتراً مربعاً، ويزيد سكانها على المليون، وفي عاصمتها (بروفيداس) مركز إسلامي.

٦ً - **كونيكتيكوت:** وتبلغ مساحتها ١٢,٩١٣ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين، عاصمتها (هارتفورد)، وفيها جالية إسلامية في مدينة (فيرفيلد) الساحلية، كما توجد جمعية إسلامية للألبانيين في مدينة (ولكوت).

يزيد عدد المسلمين في هذه المنطقة (نيوانكلند) على خمسةٍ وستين ألفاً، وأول ما قدم إليها من المسلمين كانوا من الشاميين من لبنان، ثم قدم إليها المسلمون من ألبانيا، والهند، وباكستان، وجاءها التتار من الامبراطورية

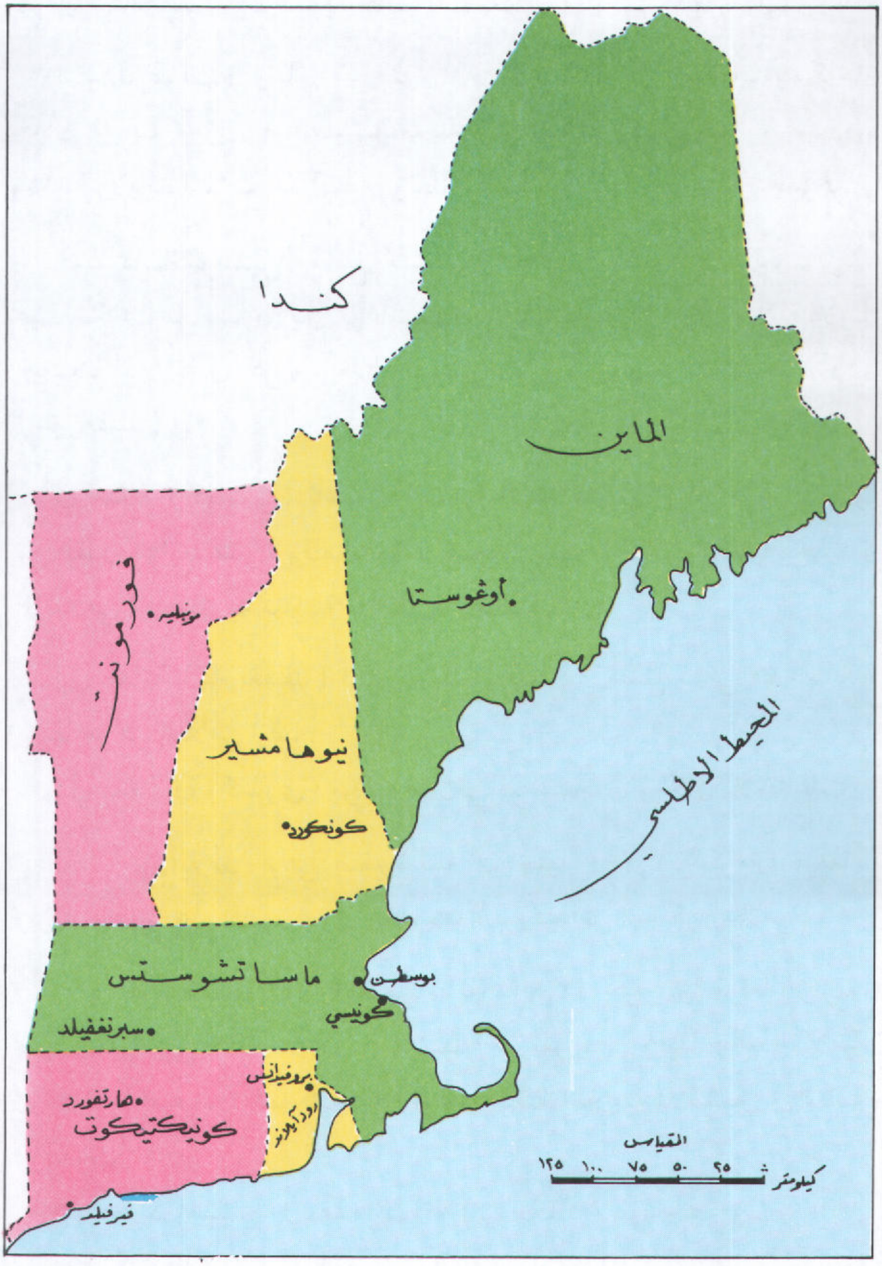
كندا
الماين
أوغوستا
المحيط الاطلسي
فرمونت
مونبلييه
نيوهامشير
كونكورد
ماساتشوستس
بوسطن
كوينسي
سبرنغفيلد
بروفيدانس
رود آيلند
هارتفورد
كونيكتيكوت
فيرفيلد
المقياس
كيلومتر ٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥

مصور رقم [٦٠] .

وفلوريدا التي أخذت من إسبانيا في القرن الثالث عشر الهجري، وأما كولومبيا التي تشمل العاصمة الاتحادية فقد أخذت من أراضي ماريلاند.

١٠ً - **ديلاوير**: وهي ولاية صغيرة تبلغ مساحتها ٥,٣٢٨ كليومتراً مربعاً أي ما يُعادل نصف مساحة لبنان. ويبلغ عدد سكانها ٦٢٥,٠٠٠ نسمة. عاصمتها مدينة (دوفر). وتُشرف المقاطعة من ناحية الشرق على الخليج المعروفة باسم (خليج ديلاوير).

١١ً - **ماريلاند**: وتبلغ مساحتها ٢٧,٣٩٤ كيلومتراً مربعاً أي ما يُعادل مساحة فلسطين، ويُقدّر عدد سكانها بأربعة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (أنابوليس)، وأكبر مدنها (بالتيمور) التي يتجمع فيها أكثر المسلمين في هذه الولاية، وقد أسّس الأمريكيون الأفارقة فيها مسجد الصفا، كما تقوم فيها جمعية إسلامية. وتوجد جالية من المسلمين في مدينة كولومبيا إلى الجنوب الغربي من (بالتيمور) وعلى بعد عشرين كيلومتراً منها.

هذه الولاية تحيط بخليج (تشيزابيك)، وقد أخذت منها أراضي العاصمة الاتحادية (واشنطون) والتي تعرف باسم (كولومبيا)، وفي هذه الولاية مدينة تُعرف باسم (دمشق) تقع إلى الغرب من مدينة (بالتيمور) وعلى بعد خمسين كيلومتراً منها، وهذا يدل على أن الذين أسّسوها إنما هم شاميون جاءوا مهاجرين واستوطنوا أرضها.

١٢ً - **كولومبيا**: وتشمل العاصمة الاتحادية (واشنطون)، وتبلغ مساحتها ١٧٩ كيلومتراً مربعاً فقط، ولا يزيد عدد سكانها على ثمانمائة ألف.

تألّفت في واشنطون عام ١٣٧٢ جمعية إسلامية، وكانت تسعى إلى تأسيس مركزٍ إسلامي، وتعاون رجال السلك السياسي في عددٍ من الدول الإسلامية، وأنشيء المسجد عام ١٣٨٠، وأُلحقت به مدرسة، غير أن السياسيين - مع الأسف - لم يهتموا بالجانب الإسلامي كما يجب لذا لم يُؤدّ المركز مهمته كاملة رغم ما أنفق عليه، وقد انسحب منه الامريكيون المسلمون. ويُعدّ المركز الإسلامي في واشنطون معلماً رئيسياً.

وأسّس أحد المسلمين من منطقة الكاريبي عام ١٣٧٠ جمعية الأخوة العالمية الإسلامية في حي هارلم، ولهذه الجمعية جريدة أسبوعية، تحمل اسم (شروق الشمس المغربية)، ولها عدد من المطاعم لتقديم اللحم الحلال، مثل مطعم بني هلال، ولهم مدارس، ومسجد.

وتأسّست جمعية المهورست في المستشفى المركزي للمدينة، ولها مسجد لإقامة صلاة الجمعة والجماعة.

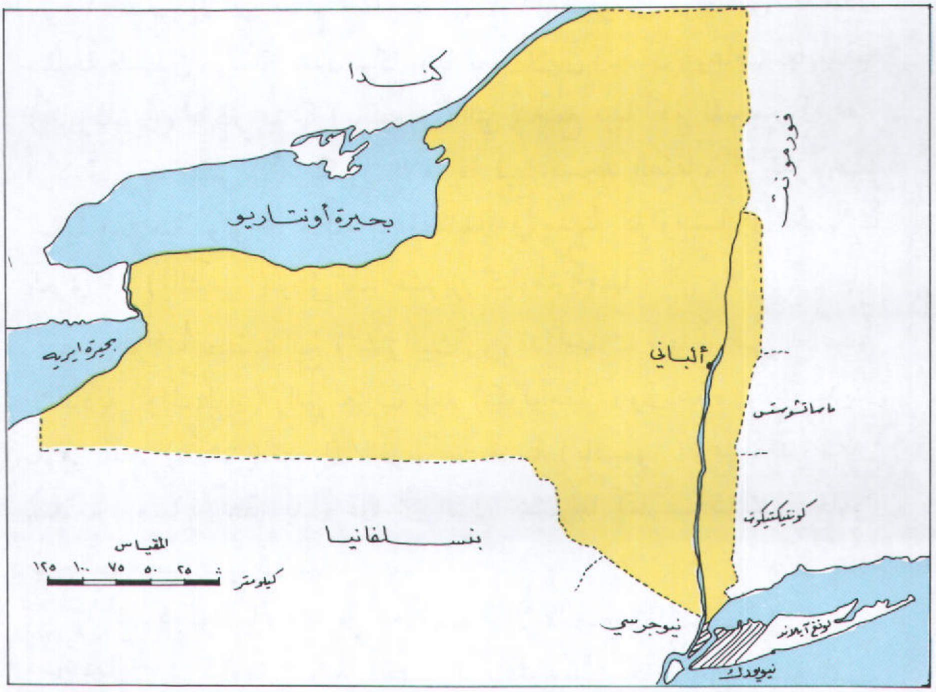

مصور رقم [٦١].

وفي حي برونكس يقوم مسجد الله، ويتبع الجمعية التي تحمل الاسم نفسه.

وفي حي ستاتن آيلاند يقوم مسجد الأكاديمية الإسلامية حيث يتجمع المسلمون هناك، وأكثرهم من الهنود، والأتراك.

وفي كينيغ بوينت يقوم مسجد للجالية التركية.

ويحظى حي بروكلين بأكبر نصيب من المساجد حيث نجد:

- مسجد الألبانيين.
- مسجد الدعوة: وهو للأمريكان من أصل إفريقي.
- مسجد ياسين وهو للأمريكان من أصل إفريقي.
- مسجد الأنصار وهو للأمريكان من أصل إفريقي. ويتبع جمعية انصار الإسلام.
- مسجد التتار البولنديين.
- مسجد الفاروق.
- مسجد أبو بكر الصديق.

مصور رقم [٦٢].

وفي نيويورك اتحاد المسلمين الأمريكيين، ومعهد غويانا، وجمعية أنجمان في لونغ آيلاند، والمركز الإسلامي في كورونا.

٨ - **نيوجرسي:** وتبلغ مساحتها ٢٠,٢٩٥ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على تسعة ملايين، وهي تقابل مدينة نيويورك، وتزيد فيها المؤسسات على أية ولايةٍ أخرى، إذ توجد في كل مدنها تقريباً.

في مدينة جرسي (جرسي سيتي) توجد جالية مصرية، وقد استأجرت عام ١٣٩١ مطعماً وحوّلته إلى مسجد، ثم اشترت كنيساً ماسونياً وحوّلته إلى مسجد عام ١٣٩٣، وتقوم بإصدار نشرة تحمل اسم «الدعوة».

كما ألحقت بالمسجد مدرسةً لتعليم أبنائها مبادىء الإسلام.

وفي مدينة (نيوأرك) التي تُعدّ المدينة الأولى، والتي تقع إلى الغرب من (جرسي سيتي) على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً، بل تتصل بها، وكلاهما تتمّان مدينة نيويورك حيث لا يفصل (جرسي سيتي) عن نيويورك سوى نهر هدسون، في هذه المدينة (نيوأرك) ثلاثة مساجد، وعدة مؤسساتٍ، وأكثر المسلمين فيها إنما هم أمريكيون من أصل إفريقي. تقوم مُؤسّسة (بيت قريش) وهي اقتصادية اجتماعية، أنشأها الأمريكيون الأفارقة ويتبعها مسجد، ومدرسة تدرس مناهج التعليم في الولايات المتحدة وتُضيف إليه اللغة العربية، ومبادىء الإسلام. كما أسّس الأمريكيون الأفارقة مسجد دين الله ويتبع الجمعية التي تحمل الاسم نفسه. وأقام الأذربيجانيون الفارّون من أذربيجان (جمهورية اتحادية تخضع للامبراطورية الروسية وتقع على حدود إيران) مسجداً يعرف بالمسجد الأذري.

وفي مدينة باترسون يكثر المسلمون من العرب، والتتار، واليوغوسلاف، والأمريكيين الأفارقة، حتى غدوا يُشكّلون عشر سكان المدينة، وقد أقاموا فيها ثمانية مساجد، منها التتاري، والعباد و... وقد وحّدوا جهودهم فيها

نهر هدسون
باترسون
نيوجرسي
نيوآرك
اليزابيث
نيويورك
بنسلفانيا
نيوبرانشويك
أولدبريدغ
ترنتون
نهر ديلاوير
كامدن
سالم
المحيط الاطلسي
المقياس
٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠
كيلومتر

مصور رقم [٦٣] .

عام ١٣٩١ وأسّسوا جمعية (المركز الإسلامي الموحد)، وبدؤوا ببناء المراكز الإسلامية، وإقامة بعض المؤسسات.

وفي مدينة (كامدن) جمعية لها فرع للنساء المسلمات، وأقاموا مسجداً لها، يُعرف باسم (مسجد الأخوة) على اسم الجمعية (الأخوة العالمية الإسلامية) وهم من الأمريكيين الأفارقة. وتُعدّ مدينة (كامدن) تتمةً لمدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا ولا يفصل بينهما سوى نهر ديلاوير.

وفي مدينة (هامنتون) أقام الأمريكيون مسجد (الدين الإلهي)، ومسجد المهاجرين.

وفي مدينة (ريفرديل) أقام العرب جمعيةً إسلاميةً ومركزاً.

وفي مدينة (أولدبريدغ) تقوم منظمة الخدمة الإسلامية، وتصدر نشرة باللغة الانكليزية تحمل اسم (الفجر). وهناك مشروع لإقامة مركز إسلامي في هذه المدينبة يضمّ مسجداً، ومدرسةً، وقاعةً للمحاضرات، وقد بُدىء العمل به منذ عام ١٤٠٠، ولم ينته بعد.

وأقام الشراكسة في بلدة (هالدون) مسجداً.

وفي مدينة نيوبرانشديق جمعية إسلامية لها فرع للنساء المسلمات.

وفي بلدة كاردواك مؤسسة المسجد التي أقامت مسجداً.

وفي مدينة ترنتو تقوم الجمعية الإسلامية.

وفي مدينة اليزابيت توجد مدرسة الجهاد.

وفي مدينة سالم توجد جمعية دين الله.

٩ً - **بنسلفانيا**: وتبلغ مساحتها ١١٧,٤١٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على اثني عشر مليوناً ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (هـاريسبرغ)، ويتجمّع المسلمون في المدينتين الكبريين فيها وهما فيلادلفيا، وبتسبورغ، هذا بالإضافة إلى العاصمة حيث يُقيم بعض المسلمين.

ففي مدينة فيلادلفيا التي يزيد عدد سكانها على المليونين يوجد مركز جمعية الأمة الإسلامية الإفريقية التي أسسها أبو بكر علي بعد أن أسلم عام ١٣٨٢ وتضم الأمريكيين الأفارقة مع بعض البيض. وتوجد جمعية الأخوة العالمية الإسلامية، وهي من الأمريكيين الأفارقة أيضاً، ولها مسجد يحمل اسم مسجد الأخوة. وفيها الجمعية الإسلامية الألبانية، ومسجد المجاهدين الذي هو للأمريكيين الأفارقة، وتقوم مؤسسة المسجد التي تعمل إلى بناء مسجد واسع. وفي فيلادلفيا مدرسة كوبا.

وفي مدينة بتسبورغ تقوم ثلاثة مساجد أحدها للحزب الإسلامي. وفي العاصمة هاريسبرغ جمعية إسلامية، وأخرى في مدينة (ويست شستر).

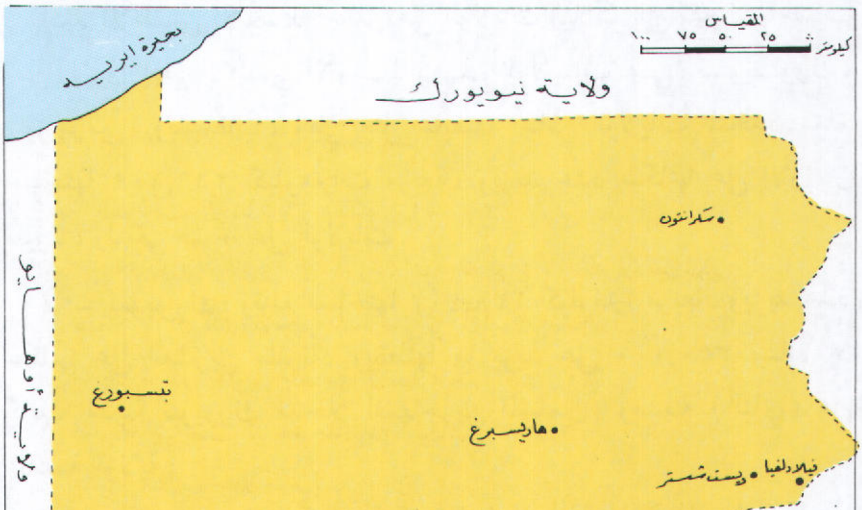

مصور رقم [٦٤].

إقليم الأطلسي الجنوبي: ويضم تسع ولايات وهي أيضاً من أساس الاتحاد الذي قامت عليه الدولة عدا فرجينيا الغربية التي ظهرت أيام الحرب الأهلية،

الروسية فارين من الاضطهاد هذا بالإضافة إلى المسلمين السود من الامريكيين.

ويوجد أعداد من الطلاب في جامعات هذه المنطقة، ولاتحاد الطلبة المسلمين فروع في هذه الجامعات، وتُقام صلاة الجمعة بانتظام في جامعة (هارفارد)، وفي معهد (ماسّاتشوستس) للتكنولوجيا، كما تلقى محاضرات في هذه الجامعات عن الإسلام.

ويبدو أن ميناء بوسطن هو الذي جذب المهاجرين المسلمين إلى هذه المنطقة، وربما كان هذا ما يفسر وجود المسلمين في الولايات الثلاث القريبة منه (ماساتشوستس، ورودآيلاند، وكونكتيكوت) وعدم وجودهم في الولايات الثلاث الأخرى (المين، ونيوهامشير، وفورمونت).

إقليم الأطلسي الأوسط: يُطلق على الولايات الثلاث التي تقع إلى الجنوب من الأولى إقليم الأطلسي الأوسط وهذه الولايات هي: نيويورك، ونيوجرسي، وبنسلفانيا، وهي مثل سابقتها أساس الولايات المتحدة، تبلغ مساحتها ٢٦٦,١٠٩ كيلومترات مربعة، ويزيد عدد سكانها على الأربعين مليوناً، ولنلقي ضوءاً على الولايات.

٧ - **نيويورك:** وتبلغ مساحتها ١٢٨,٤٠٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على العشرين مليوناً، ويقطنها ما يزيد على ٣٥٠,٠٠٠ مسلم، إذ كانت مدينة نيويورك مدخلاً للمهاجرين المسلمين، ومدينة (ألباني) هي عاصمة الولاية.

وتعدّ مدينة نيويورك مكان تجمّع المسلمين في الولاية ففيها كافة مؤسساتهم، ومساجدهم، ومراكزهم، والتي تتوزع في مختلف أحياء المدينة.

لقد أسّس المهاجرون العرب جمعيةً في حيّ منهاتن عام ١٣٧٢، وعملوا على مشروع بناء مركزٍ واسع ليكون مقراً للجمعيات الإسلامية، وقد ارتبط به فعلاً جمعية الأطباء المسلمين، والجمعية النسائية الإسلامية.

وأسّس الحنفيون من الأمريكيين الأفارقة الذين يرأسهم حماس عبد الخالص المسجد الحنفي بعد أن انفصل رئيسهم عن (محمد أليجا) عام ١٣٨٤ .

وأقام المسلمون الأمريكيون الأفارقة مسجد الأمة ، ومسجد المهاجرين في واشنطون .

كما تشمل العاصمة الاتحادية على المركز الإسلامي الذي يتبع الحزب الإسلامي ، وقد أسّس هذا المركز عام ١٣٩٤ هـ .

مصور رقم [٦٥] .

١٣ً - **فرجينيا**: تبلغ مساحتها ١٠٥,٧١١ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ستة ملايين، وعاصمتها مدينة (ريتشموند).

لقد أسس المسلمون من الأمريكيين الأفارقة مركزاً إسلامياً في العاصمة (ريتشموند). وتوجد جالية إسلامية في مدينة الاسكندرية حيث توجد مؤسسة التنمية الإسلامية. ويقوم مسجد التقوى في مدينة نورفولك. وأقيم أخيراً في مدينة هامبتون مركز إسلامي بإشراف الجمعية الإسلامية في المدينة.

١٤ً - **غربي فرجينيا**: تبلغ مساحتها ٦٢,٦٢٩ كيلومتراً مربعاً، ويقرب سكانها من المليونين، وهي منطقة داخلية، عاصمتها مدينة (شارلستون).

١٥ً - **كارولينا الشمالية**: وتبلغ مساحتها ١٣٦,٥٢٤ كيلومتراً مربعاً، ويزيد سكانها على خمسة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (راليه).

يقوم مسجد عباد الرحمن في مدينة (دورهام)، ومسجد الجماعة في مدينة غرينزبورو، ومسجد الإسلام في (شارلوت).

١٦ً - **كارولينا الجنوبية**: تبلغ مساحتها ٨٠,٤٣٢، ويقرب سكانها من ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة كولومبيا يوجد مسجد يحمل اسم (مسجد المسلمين).

١٧ً - **جورجيا**: تبلغ مساحتها ١٥٢,٥٨٩ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها خمسة ملايين، وعاصمتها مدينة (أطلنطا) التي أقام فيها المسلمون من الأمريكيين الأفارقة مسجداً سمّوه (مسجد طالب)، كما ستنتهي إقامة المركز الإسلامي، ويقدر عدد المسلمين فيها بستة آلاف وخمسمائة مسلم.

١٨ً - **فلوريدا**: تبلغ مساحتها ١٥١,٦٧٠ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على سبعة ملايين، وقد أسس الأمريكيون الأفارقة المسلمون في مدينة جاكسونفيل مسجداً. وتوجد في مدينة (وينتربارك) جمعية وسط فلوريدا الإسلامية، وجمعية إسلامية أخرى في مدينة (تامبا).

مصور رقم [٦٦] .

وبعد الانتهاء من الأقاليم الشرقية المشرفة على المحيط الأطلسي ننتقل إلى الأقاليم الوسطى.

الأقاليم الوسطى: تُعدّ المناطق الواقعة بين جبال الأبلاش في الشرق وجبال الروكي (الصخرية في الغرب) أقاليم وسطى، وتشمل السهول أكبر مساحات منها، ويرويها نهر الميسيسيبي وروافده، ويُعدّ هذا النهر أساس التقسيم

في هذه الأقاليم، فالمناطق التي تقع إلى الشرق منه تُعرف بالشرقية، وتُسمّى التي إلى الغرب منه بالغربية، وتختلف بين الشمال والجنوب ايضاً، ولهذا تُعرف بالشكل الآتي. الإقليم الأوسط الشمال الشرقي، والأوسط الجنوب الشرقي، والأوسط الشمال الغربي، والأوسط الجنوب الغربي.

مصور رقم [٦٧].

الإقليم الأوسط الشمال الشرقي: يُعدّ هذا الإقليم من المناطق التي هاجر إليها المسلمون في مراحل هجرتهم الأولى، كما يُعدّ المنطقة الثانية التي يتجمّع فيها المسلمون بعد الإقليم الأطلسي الأوسط، إذ يزيد عدد المسلمين فيه على ثلاثمائة ألف مسلم، ولا تكاد تخلو مدينة من مدنه أو قرية من مسلمين، وأما ولاياته فتشرف كلها على البحيرات الكبرى، فلكل ولاية شاطىء على هذه

البحيرات يطول أو يقصر ، وهذه الولايات هي :

١٩ً - **ميشيغان:** تقع أراضيها بين بحيرتي سوبيريور وميشيغان، ثم بين ميشيغان من جهة الغرب وبحيرتي هورون وايريه، تبلغ مساحتها ١٥٠,٧٧٩ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على عشرة ملايين، وعاصمتها مدينة (لانسينغ).

يتجمّع كثير من المسلمين في هذه الولاية في مدينة (ديترويت) وضواحيها إذ يقرب عددهم في هذه المنطقة من خمسين ألفاً. وقد أسّس العرب المهاجرون جمعية إسلامية عام ١٣٣٠ ، واشتروا مكاناً كانوا يُؤدّون فيه صلاتهم، ويلتقون فيه، وبنوا مسجداً انتهى عمرانه عام ١٣٨٨ ، وألحقت به مدرسة. وتأسّست جمعية الأخوة العالمية الإسلامية عام ١٣٦٧ أنشأها اسماعيل شمسان بعد أن اعتنق الإسلام، وهو من الأمريكيين الأفارقة، واشترت بيتاً وجعلته مسجداً، ثم ألحقت به مدرسة صغيرة، ويُعرف المسجد باسم مسجد المؤمنين. وإضافةً إلى هذا يوجد مسجدان للأمريكيين الأفارقة، وثالث للشيعة، وخامس للجالية الألبانيين، وهذا يعدّ مركزاً إسلامياً ويقوم في إحدى ضواحي ديترويت، ويُصدر مجلة باللغتين الألبانية والانكليزية، وتصدر كل ثلاثة أشهر.

وفي مدينة (ديربورن) التي تقع جنوب غربي ديترويت بل تكاد تلتصق بها، أسّس المسلمون من لبنان جمعيةً اسمها «جمعية ديربورن الإسلامية الأمريكية» وذلك عام ١٣٤٢ ، ثم أقاموا مسجداً، وضمّوا إليه نادياً، ومدرسة للأطفال عام ١٣٥٩ ، وأسّس الشيعة جمعية النادي العربي الهاشمي عام ١٣٤٢ ، فكان مركزاً إسلامياً، وبنى كذلك الأمريكيون الأفارقة مسجداً، كما أسّس الباكستانيون جمعيةً إسلاميةً عام ١٣٩٢ . ثم قام (مجلس ديترويت الاسلامي) لتوحيد جهود الجاليات الإسلامية.

وتوجد جالية في مدينة (آنّ اربوْر) إلى الغرب من ديترويت، وهي مدينة

جامعية ، وقد عمل الطلاب على تأسيس (بيت الطلبة المسلمين) ويلحق به مسجد ، ومدرسة للأطفال ، وغرف للطلبة .

وفي مدينة (غراند رابيدز) جمعية إسلامية تعمل على تعليم الأولاد ومحاولة اجتماع المسلمين بعضهم مع بعض .

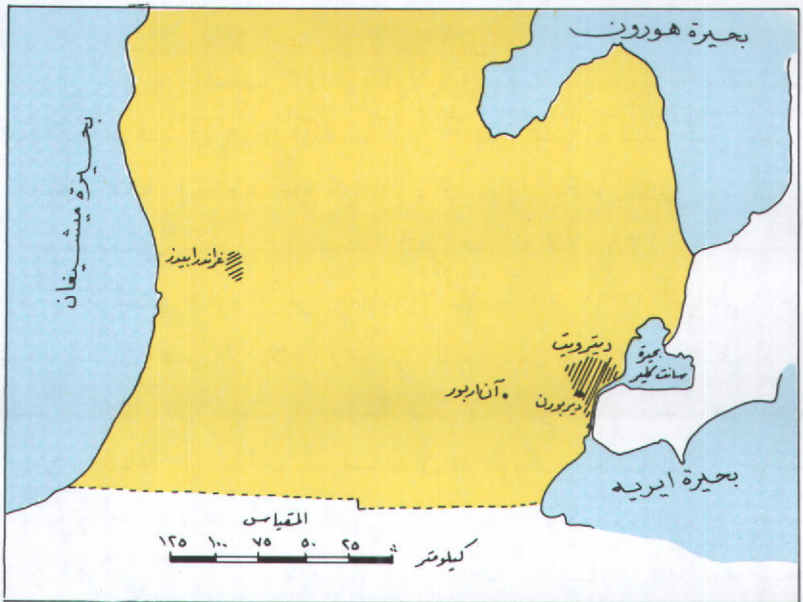

مصور رقم [٦٨] .

٢٠ً - **أوهايو :** وتبلغ مساحتها ١٠٦,٧٦٥ كيلومتراً مربعاً ، ويزيد عدد سكانها على اثني عشر مليوناً . وعاصمتها مدينة كولومبوس . وتقوم تجمّعات إسلامية في مدنها الكبرى ، والمسلمون فيها من المهاجرين ومن الأمريكيين الأفارقة وإن بدأ الأمريكيون يزيدون على المهاجرين .

أسّس (ولي أكرم) عام ١٣٥٠ جمعية إسلاميةً للأمريكيين الأفارقة في مدينة كليفلاند ، فأقامت مسجداً يُعدّ أول مسجد في هذه المدينة ، وتلحق به مدرسة ، وقاعة اجتماعات ، ونادٍ . وأقام الأمريكيون الأفارقة (مسجد المؤمن) و(مسجد التبليغ) ، على حين أقام المهاجرون مركزاً إسلامياً .

وفي مدينة سنسناتي مركز إسلامي أقامه المهاجرون.

وفي مدينة توليدو (طليطلة) جالية من المسلمين المهاجرين أكثرهم من العرب، وقد أقاموا مسجداً، وأسّسوا جمعيةً إسلاميةً عام ١٣٦٧، وبنوا مسجداً عام ١٣٧٤ وتلحق به مدرسة ونادٍ، وقاعة للقاءات.

وفي مدينة آكرون أسس المهاجرون جمعية ومركزاً إسلامية، كما أقام الأمريكيون مسجداً يطلق عليه (مسجد الفلق).

وفي مدينة يونغستون أقامت جمعية الأخوة العالمية الإسلامية مسجد الأخوة.

وتوجد جالية إسلامية في كل من (كانتون) و(سبرنغفيلد).

مصور رقم [٦٩].

٢١ - **انديانا:** تبلغ مساحتها ٩٣,٩٩٤ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ستة ملايين، وعاصمتها مدينة انديانا بوليس.

أسّس الأمريكيون الأفارقة مسجد الفجر في عاصمة الولاية انديانا بوليس.

وأسّس اللبنانيون مسجد الأمين عام ١٣٨٠، ثم تسلّمه الطلبة المسلمون الذين أنشؤوا جمعية الطلبة المسلمين فأصبح مقرّاً لهم.

وأنشأ اللبنانيون أيضاً مسجداً في مدينة (ساوث بند).

وبنى المسلمون في مدينة ميشيغان سيتي مسجداً عام ١٣٤٢.

وهكذا يبدو أن المسلمين يتجمّعون في عاصمة الولاية، وفي الشمال على شواطىء بحيرة ميشيغان وبالقرب منها.

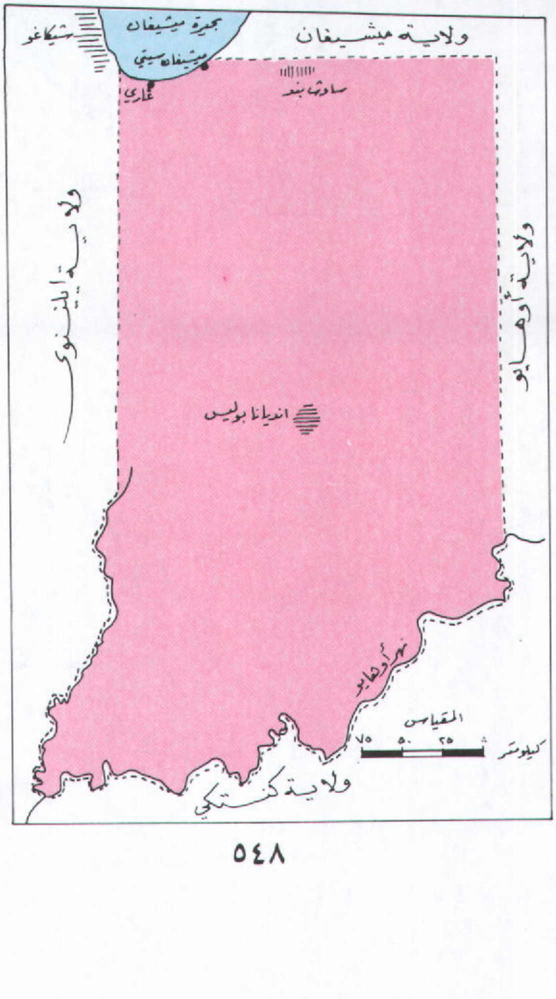

مصور رقم [٧٠].

٢٢ - **إيلينوي:** وتبلغ مساحتها ١٤٦,٠٧٦ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة عشر مليوناً، وعاصمتها مدينة سبرينغفيلد.

يتجمّع أكثر المسلمين في أكبر مدنها وهي شيكاغو حيث تقوم فيها وفي ضواحيها أكثر المنظمات الإسلامية. فقد تأسّست فيها جمعية إسلامية عام ١٣٨٩، وتمكنت من إقامة مركز إسلامي فيه مسجد، وقاعة للاجتماعات، ونادٍ، وينتمي أعضاؤها إلى أصول مختلفة.

وأسّس العرب في شيكاغو جمعية (مؤسسة المسجد) عام ١٣٧١، واشتروا كنيسة وحوّلوها إلى مسجد عام ١٣٧٤، ولم يمض سوى أربع سنوات حتى اختلفوا وباعوا المسجد، لكن عادوا فاشتروا أرضاً على نية إقامة مركز إسلامي.

وأقام المسلمون الألبانيون مركزاً إسلامياً في ضاحية ستيكني، وكذلك فعل اليوغوسلاف (المركز البوسنوي الإسلامي) ومركز آخر في شيكاغو، وأقام المسلمون الأمريكيون الأفارقة (مسجد الشهيد). وأنشأ المسلمون الهنود في شيكاغو جمعية اسمها (اللجنة الاستشارية للمسلمين الهنود) وذلك عام ١٣٨٧ هـ.

٢٣ - **ويسكونسن:** وتبلغ مساحتها ١٤٥,٤٣٩ كيلومتراً مربعاً، ويقرب سكانها من ستة ملايين وعاصمتها مدينة (ماديسون) التي تقوم فيها جمعية إسلامية مركزها اسمه (البيت الإسلامي)، وتلحق بها مدرسة وفرع للنساء المسلمات.

الإقليم الجنوبي الشرقي: لا يزيد عدد المسلمين في هذا الإقليم على الثلاثين ألفاً، وأكثرهم من أصلٍ عربي، جاءوا مهاجرين في بداية الأمر، كما أن للطلاب المسلمين في الجامعات دوراً في النشاط الإسلامي، وولايات هذا الإقليم هي:

٢٤ً - **كنتاكي:** وتبلغ مساحتها ١٠٤,٦٢٣ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ٣,٨٢٠,٠٠٠، وعاصمتها مدينة (فرانكفورت).

وفي مدينة لويسفيل تقوم في جامعتها جمعية الطلاب المسلمين.

٢٥ً - **تنيسي:** وتبلغ مساحتها ١٠٩,٤١٢ كيلومتراً مربعاً، ويربو عدد سكانها على ٤,٨٠٠,٠٠٠ نسمة، وعاصمتها مدينة (ناشفيل)، وتشتهر مدينة ممفيس على نهر الميسيسبي.

ويوجد مركز إسلامي في مدينة (جاكسون)، وتقوم الجمعية العلمية الإسلامية في المدينة نفسها (جاكسون).

٢٦ً - **ألباما:** وتبلغ مساحتها ١٢٣,٦٦٧ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على أربعة ملايين، وعاصمتها مدينة (مونتغمري). وتوجد جمعية إسلامية في مدينة (هانتسفيل) وأكثر أعضائها من الشاميين. وتسمّى الجمعية (الجمعية العلمية الإسلامية).

٢٧ً - **ميسيسبي:** وتبلغ مساحتها ١٢٣,٥٨٤ كيلومتراً مربعاً، ويقرب عدد سكانها من الثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (جاكسون).

وفي بلدة ستاركفيل مسجد.

الإقليم الشمالي الغربي: يتناقص السكان في غرب نهر الميسيسبي، كما يتناقص المسلمون بينهم، ولذا نجد أكثر المسلمين في هذا الإقليم إنما يتجمعون في المدن التي تقع قريبةً من النهر، فنجد الولايات الآتية:

٢٨ً - **مينيزوتا:** تبلغ مساحتها ٢١٧,٧٣٦ كيلومتراً مربعاً، ويقدر عدد سكانها بأربعة ملايين ونصفها وعاصمتها سان بول.

يوجد مركز إسلامي في مدينة مينابوليس الواقعة على نهر الميسيسبي.

٢٩ً - **إيوا:** تبلغ مساحتها ١٤٥,٧٩١ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد

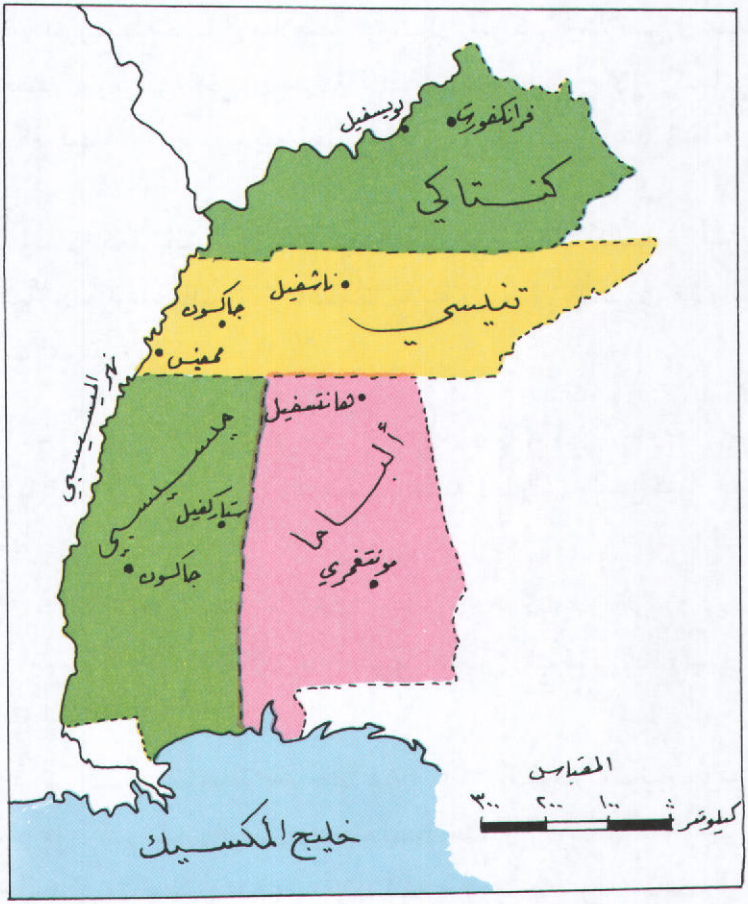

مصور رقم [٧١] .

سكانها على ثلاثه ملايين، وعاصمتها (دي موان) . ويقوم مسجد في مدينة (سيدر رابيدز) القريبة من نهر الميسيسبي .

٣٠ - **ميسوري**: تبلغ مساحتها ١٨٠,٤٥٦ ، ويزيد عدد سكانها على أربعة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة جيفرسن سيتي، وتقوم في مدينة سانت لويس جمعية الطلبة المسلمين، كما تقوم شركة (المنتوجات الإسلامية

الدولية) بتوزيع الكتب الإسلامية. وهناك مركز إسلامي في مدينة سبرينغفيلد، ومركز آخر في مدينة كنساس على حدود ولاية كنساس بل ومشتركة فيها. وتوجد مدينة القاهرة على نهر الميسيسبي عند التقائه بنهر أوهايو.

٣١ - **داكوتا الشمالية:** تبلغ مساحتها ١٨٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنها ثلاثة أرباع المليون، وعاصمتها مدينة (راني)، وليس في هذه الولاية تجمّعات للمسلمين.

٣٢ - **داكوتا الجنوبية:** تبلغ مساحتها ١٩٩,٥٥٠ كيلومتراً مربعاً، ويسكنها ثلاثة أرباع المليون، وعاصمتها مدينة (بيار). وليس فيها تجمّعات إسلامية.

٣٣ - **نبراسكا:** وتبلغ مساحتها ٢٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع: ويسكنها مليون وسبعمائة ألف إنسان، وعاصمتها مدينة (لينكولن)، وليس فيها تجمّعات إسلامية.

٣٤ - **كنساس:** وتبلغ مساحتها ٢١٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد سكانها على المليونين والنصف، وعاصمتها مدينة (توبيكا). وتوجد فيها (الرابطة الإفريقية الإسلامية) ومقرّها مدينة (ويشبتا) وقد أقامت في هذه المدينة (مسجد المغرب). وفي مدينة (مانهاتان) جمعية للطلبة المسلمين وتقوم بنشاط في نطاق الجامعة، وقد أنشأت مركزاً إسلامياً. وفي مدينة (أمبوريا) اتحاد للطلبة المسلمين.

ويُلاحظ أن مساحة الولايات قد أخذت بالزيادة، ويزيد عدد المسلمين في هذا الإقليم على مائة ألف مسلم، وقد جاء عدد من البلدان العربية مهاجراً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، غير أن الزيادة قد جاءت من إسلام الأمريكيين الأفارقة.

الإقليم الجنوبي الغربي: ويضمّ أربع ولايات وينتهي في الجنوب بخليج

مصور رقم [٧٢] .

المكسيك ، ودولة المكسيك ، إذ تشرف ولايتان من هذا الإقليم على مياه الخليج ، وهاتان الولايتان يوجد فيهما مسلمون إذ جاءوا إليهما عن طريق البحر ، ولا تزال ولاية تكساس محط أنظار المهاجرين ، حيث لا تزال بحاجةٍ إلى إعمار ، ويزيد عدد المسلمين في هذا الأقليم على سبعين ألفاً ، يعود قسم منهم إلى بلاد الشام ، وإلى مصر ، وبقية البلدان الإسلامية ، إضافةً إلى عددٍ

من الأمريكيين الأفارقة الذين دخلوا في الإسلام، أما ولايات هذا الإقليم فهي:

٣٥ - **أوكلهوما:** وتبلغ مساحتها ١٨١,٠٠٠ كيلومتر مربع أي قريباً من سوريا في بلاد الشام، ويقرب سكانها من ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (أوكلهوما سيتي)، وقد بدأ المسلمون يتجهون إلى هذه الولاية، وتوجد جالية مسلمة في مدينة (طولوزا) في شمال شرقي الولاية، ولهم مسجد يدعى (مسجد السلام).

٣٦ - **أركنساس:** وتبلغ مساحتها ١٣٧,٥٣٩ كيلومتراً مربعاً، ويصل عدد سكانها إلى مليون وربع المليون، وعاصمتها مدينة (ليتل روك). ولا تقيم فيها جالية مسلمة.

٣٧ - **لويزيانا:** وتبلغ مساحتها ١٢٥,٦٧٥ كيلومتراً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بأربعة ملايين ونصف، وإن زيادة السكان تعود إلى كونها تشرف على البحر، وعاصمتها مدينة (باتون روج)، وفيها مدينة الاسكندرية. واسمها نسبة إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا إذ كانت تتبع فرنسا قبل قيام الاتحاد.

وفي العاصمة (باتون روج) جمعية إسلامية، ومركز إسلامي، كما توجد جمعية أخرى في مدينة (نيو أورليانز).

٣٨ - **تكساس:** وهي ولاية واسعة تقرب مساحتها من ٦٩٢,٤٢٠ كيلومتراً مربعاً، ويقرب عدد سكانها من أربعة عشر مليوناً. وعاصمتها مدينة (أوستن).

يزداد المسلمون في هذه المقاطعة إذ تقوم جمعية هيوستن الإسلامية في المدينة التي تحمل الجمعية اسمها. ويوجد في العاصمة (أوستن) مسجد يحمل اسم المدينة.

وهناك جمعيات إسلامية في مدن (فورت ورث) و(غرانديريو)

و(رتيشردس) ، وهناك المؤسسة الإسلامية بأميركا في مدينة (تكساس سيتي) .

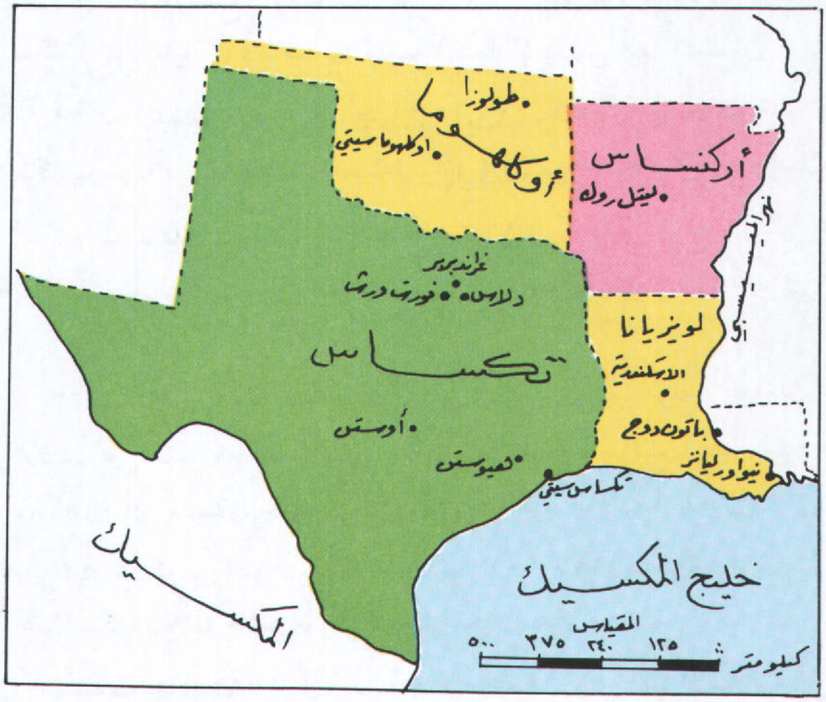

مصور رقم [٧٣] .

إقليم الجبال: ويمتدّ من حدود كندا إلى حدود المكسيك ، ويشمل مناطق جبلية ، وصحارى بينها في الجنوب ، وقد امتدت يد الإعمار إليه حديثاً ، لذا فقد كان السكان الأصليون هم الأكثرية ، ثم كاثرهم الأوربيون ، ومع هذا الإعمار ، انتقل إليه بعض المهاجرين المسلمين ، وخاصة إلى الأجزاء الجنوبية منه ، إذ يعيش معظمهم في ولايتي (كولورادو) و(أريزونا) .

ورغم أن مساحة هذا الإقليم واسعة إلا أن سكانه قلّة بسبب طبيعة المنطقة الجبلية والصحارى . وأما ولايات هذا الإقليم فهي :

٣٩ - **مونتانا:** وتبلغ مساحتها ٣٨١,٠٠٠ كيلومتر مربع ، ويقرب

سكانها من تسعمائة ألف، وعاصمتها مدينة هلينا. ولا تقيم فيها جالية مسلمة.

٤٠ .. **وايومينغ:** ومساحتها ٢٥٣,٥٩٧ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على المليون، وعاصمتها مدينة (تشيان) وليس فيها مسلمون.

٤١ - **ايداهو:** وتبلغ مساحتها ٢١٦,٤١٣ كيلومتراً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بستمائة ألف، وعاصمتها مدينة (بوازو). وليس في هذه الولاية تجمع إسلامي.

٤٢ - **نيفادا:** وتبلغ مساحتها ٢٨٦,٣٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها تسعمائة ألف، وعاصمتها مدينة (كارسون سيتي) ولا يُقيم في هذه الولاية مسلمون.

٤٣ - **يوتا:** وتبلغ مساحتها ٢٢٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على المليون وستمائة ألف، وعاصمتها مدينة (سولت ليك سيتي) Salt lake city أي مدينة البحيرة المالحة، وليس في هذه الولاية مسلمون.

٤٤ - **كولورادو:** وتبلغ مساحتها ٢٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (دنفر).

تأسّست عام ١٣٩٢ في مدينة دنفر جمعية كولورادو الإسلامية، وبدأ العمل لإنشاء مركزٍ إسلامي. وتوجد مراكز إسلامية في كل من مدن نوروالك، ونيوكاسل. وتقوم جمعية إسلامية في مدينة (كومرس).

٤٥ - **أريزونا:** تبلغ مساحتها ٢٩٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (فونيكس).

تأسّست جمعية إسلامية في مدينة (فونيكس)، واستأجرت مكاناً اتخذته مركزاً لها، وأطلق عليه مركز أريزونا الإسلامي، وفيه تعليم لأبناء المسلمين.

وفي مدينة (توكسن) مركز إسلامي، وكذلك في كل من (سكوتسدال) و(تمبي) وهما ضاحيتان لمدينة فونيكس.

ويبدو أن ولاية أريزونا قد وطأت أقدام المسلمين أرضها مع المكتشفين الإسبان الذين اصطحبوا معهم بعض مسلمي الأندلس، وكذلك جاء الجمّال

الحاج علي عام ١٢٥٦ ليعمل فيها بناء على رغبة الولايات المتحدة في تربية الجمال فيها، ثم تركها وأقام في كاليفورنيا، وجاء المسلمون إليها أخيراً في القرن الرابع عشر الهجري.

٤٦ - **نيومكسيكو**: وتبلغ مساحتها ٣١٥,١٢٠ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها مليون ونصف، وعاصمتها مدينة (سنتافي).

مصور رقم [٧٤].

إقليم المحيط الهادي: ويضمّ هـذا الإقليم خمس ولايـات تشرف على المحيط الهادي، ثلاث منها ملتصق بجسم الدولة الأساس، واثنتان تبعدان عنه، ألحقتا حديثاً به. وبسبب بعد هذا الإقليم فقد تأخّرت هجرة المسلمين إليه، وفي السنوات الأخيرة بدأت تتجه نحوه وإن كادت تنحصر في ولاية كاليفورنيا لُمناخها وطبيعة أرضها. وزاد عدد المسلمين على مائة وثلاثين ألف مسلم، وهذه الولايات هي:

مصور رقم [٧٥] .

٤٧ - **واشنطون:** وتبلغ مساحتها ١٧٦,٧١٧ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على أربعة ملايين وستمائة ألف، وعاصمتها مدينة (أولمبيا).

وقد أنشأ المسلمون المهاجرون جمعيةً إسلامية في مدينة (سياتل)، وأقاموا لهم مسجداً.

٤٨ - **أوريغون:** وتبلغ مساحتها ٢٥١,١٨٠ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (سالم).

وأسّس المسلمون المهاجرون من العرب جمعية إسلامية في مدينة (كالامات فولز).

٤٩ ـ **كاليفورنيا**: وتبلغ مساحتها ٤١١,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويُقدّر عدد سكانها بستة وعشرين مليوناً، وعاصمتها مدينة (سكرمنتو).

وصل إلى كاليفورنيا الحاج علي وهو الجمّال الذي استقدمته الحكومة الأمريكية إلى أريزونا لاختراق صحرائها عام ١٢٥٦ هـ، ثم انتقل منها الى كاليفورنيا واستوطن فيها. ثم جاء مسلمون من منطقة البنجاب في شبه القارة الهندية عام ١٣٢٤ غير أن القاديانيين قد أضلّوهم فتركوا الإسلام وأصبحوا قاديانيين. غير أن المسلمين لم يلبثوا أن ابتدؤوا بالهجرة إليها حتى كثر عددهم.

يتوزّع المسلمون في أكثر مدن ولاية كاليفورنيا، ولعل أشهر مناطق تجمعهم هي: لوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو، وسكرمنتو، وسان دياغو، وسان جوز.

تكثر المساجد والمراكز الإسلامية، والجمعيات في هذه الولاية، وإن كان أكثرها يتجمّع حول المدينتين الرئيسيتين ([illegible]ن فرانسيسكو) و(لوس أنجلوس).

تقوم في مدينة سان فرانسيسكو جمعية إسلامية، ومثلها في لوس انجلوس، وسكرمنتو، وسان جوز، وسان دياغو، وريفرسايد، وغاردن غروف، وجمعية خاصة بالتتار في مدينة بورلينغام.

وتوجد مساجد في كل من لوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو، وسكرمنتو، وسان جوز، وغاردن غروف، وسان دياغو، وأنغل وود، ومسجد للتتار في بورلينغام. وقد بنى الهنود المسلمون مسجد سكرمنتو، على حين بنى المسلمون الأمريكيون (مسجد المؤمن) في لوس أنجلوس.

وتقوم مراكز إسلامية في كل من سان فرانسيسكو ولوس انجلوس، وهناك اتحاد الطلبة المسلمين في جامعات كاليفورنيا.

وتأسس في لوس انجلوس عام ١٣٩٥ معهد الدراسات الإسلامية، ويضم مدرسةً للتعليم، ومركزاً للمعلومات، وقسماً للترجمة، ومكتبةً، وقسماً داخلياً للطلبة. وهناك مشروع لبناء جامعةٍ إسلاميةٍ في المنطقة. ويكون التعليم باللغة العربية والانكليزية.

مصور رقم [٧٦].

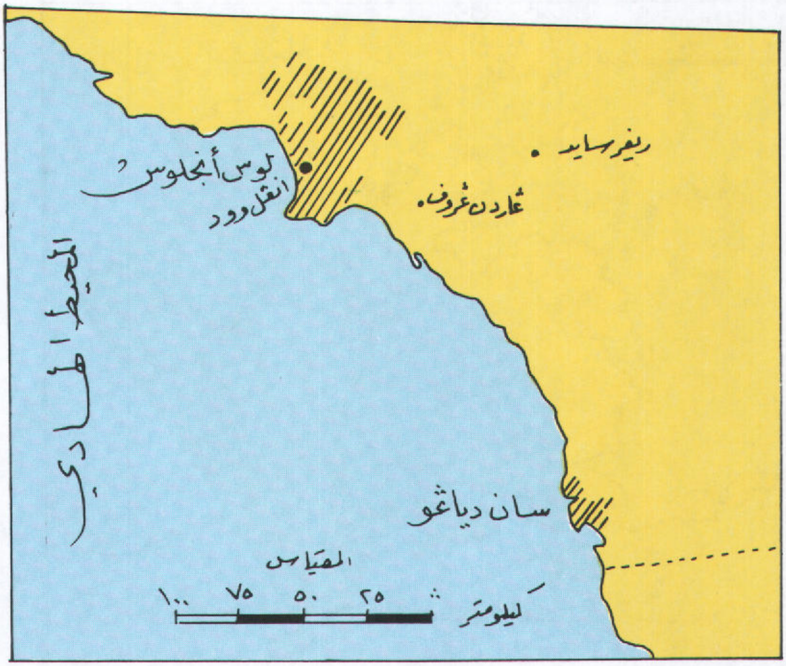

مصور رقم [٧٧] .

٥٠ ـ الآسكا : تبلغ مساحتها ١,٥١٨,٧٧٦ كيلومتراً مربعاً، وهي بذلك أكبر الولايات مساحةً، ولكن لا يزيد عدد سكانها على النصف مليون. وعاصمتها مدينة (جنوه).

أصل السكان من قبائل الأسكيمو، وجاءها بعدئذ الأوربيون، وتعني كلمة آلاسكا في لغة الأسكيمو (الأرض الأم).

اشترت الولايات المتحدة هذه المقاطعة من الامبراطورية الروسية عام ١٢٨٤ هـ بسبعة ملايين ومائتي ألف دولار. ثم انضمّت إلى دولة الولايات عام ١٣٧٩ هـ.

ولا يُقيم مسلمون في أرض الآسكا.

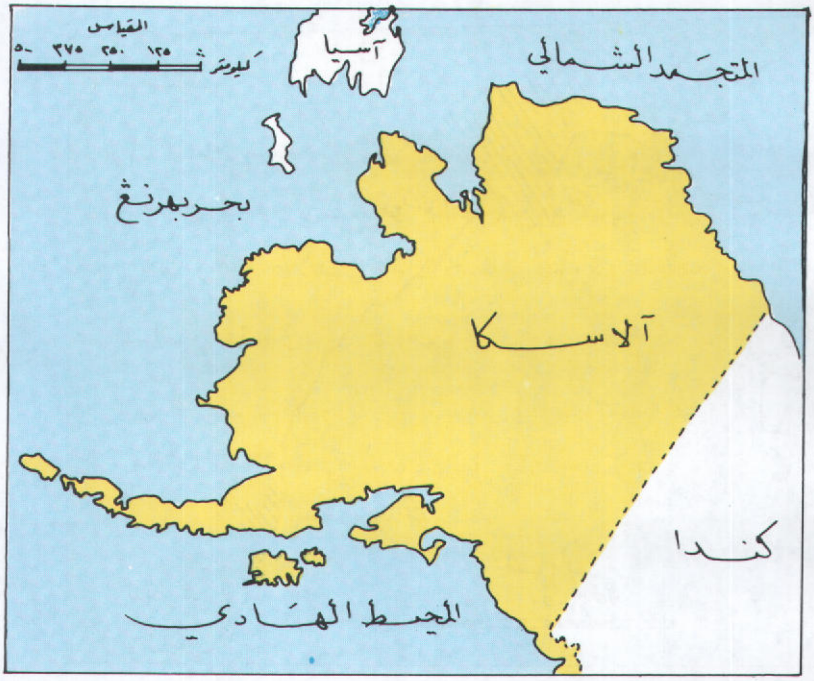

مصور رقم [٧٨] .

٥١َ - **جزر هاواي:** مجموعة جزر وسط المحيط الهادي، يزيد عددها على ثلاث وعشرين جزيرة، ثمان منها مأهولة، والباقي غير مسكون.

عرفها الأوربيون عام ١١٩٤ ، وأسموها جزر الساندويتش، وكانت تحت حكم أربعة ملوك محليين. ثم توّحدت، وكانت تتبع انكلترا، ثم خضعت للولايات المتحدة. وأُعلنت فيها الجمهورية عام ١٣٠٢ هـ. وأصبحت جزءاً من الولايات المتحدة عام ١٣١٦ ، وأصبحت مقاطعة عام ١٣١٨ هـ وأخيراً أصبحت ولايةً أمريكيةً عام ١٣٨٠ هـ.

تبلغ مساحتها ١٦٦,٦٤٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد سكانها على المليون، وعاصمتها مدينة (هونولولو). يعيش في جزر هاواي ما يقرب من ٥٥٠

مسلما، وينتمون لجنسياتٍ مختلفةٍ، ومستواهم المادي والثقافي جيد، وقد بنوا مركزاً ومسجداً لهم.

إن معظم المسلمين في الولايات المتحدة ينتمون إلى أهل السنة والجماعة، وتوجد إلى جانبهم أعداد ضئيلة من الشيعة، وتعدّ مدينة ديترويت وما حولها أكبر تجمّعٍ لهم. ويقوم خلاف وجدل أحياناً بينهم وبين المسلمين.

ويجد المسلمون عقبةً في وجه نشاطهم ووجودهم يتمثل في.

١ً - اليهود الذين يحقدون على المسلمين خاصةً وعلى أصحاب الديانات الأخرى، والأمم، والأجناس كلها، ولعلّ أشدّ خطرهم ما يوجّه إلى المسلمين.

٢ً - الصليبية: المتمثّلة في النصارى بسبب الحقد الديني، والخلفية التاريخية، والدعايات ضد الإسلام، والمعلومات الخاطئة الثابتة في أذهانهم عن الإسلام والتي يروّجها الأعداء في وسائل الإعلام، والفكر المادي والرغبة في المحافظة عليه وعلى الشهوة.

٣ً - البهائيون: الذين لهم مجلس في (تينك) في ولاية نيوجرسي، ثم انتقل إلى (ويلميت) في ولاية الينوى، ويدّعون أحياناً أنهم من المسلمين، وهم كفار من ألد أعداء الإسلام.

٤ً - القاديانيون الذين بدا نشاطهم في ولاية كاليفورنيا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وتوسّعوا إلى الغرب، ويزيد عددهم على خمسة آلاف ولهم مراكز في كل من: واشنطون، ونيويورك، ولوس أنجلوس، ودايتون (أوهايو)، وبتسبورغ (بنسلفانيا)، وشيكاغو (الينوى)، ولهم مؤسسة فضل الأمريكية، ويُصدرون مجلة شروق الشمس.

ويدّعون الإسلام أحياناً، وليسوا هم من أهله.

٥ً ـ الإسماعيليون: ويدّعون الإسلام أحياناً، ولا يمتوّن إليه بصلة إلا ما كان من الناحية التاريخية أما من ناحية العقيدة فالبعد واسع جداً بينهما.

وإن ادعاء البهائيين، والقاديانيين، والاسماعيليين الإسلام إنما هو دعاية ضدّ الإسلام لما عندهم من شركٍ وتأليه البشر.

٦ً ـ وهناك جماعة تدعى (المورمان) ويوجد أتباعها في (بروفو) بولاية يوتا.

(٢) كنـــدا

دولة اتحادية، عرفتها أوربا عام ٩٠٣ هـ، تنافست انكلترا وفرنسا على استعمارها، وأخيراً خضعت للنفوذ الإنكليزي، تبلغ مساحتها ما يقرب من عشرة ملايين كيلومتر مربع، ويقرب سكانها اليوم من اثنين وثلاثين مليوناً.

حصلت على استقلالها الذاتي عام ١٢٨٤ هـ، واستقلّت عن انكلترا عام ١٣٤٥ هـ. ثم ضمّت إليها عام ١٣٦٩ مستعمرتي اللابرادور، والأرض الجديدة اللتين كانتا لا تزالان تحت استعمار انكلترا. وقد زاد عدد سكانها بسرعة بسبب الهجرة إليها، ونوضّح ذلك بما يلي:

كان عدد سكانها عام ١٢٢١ هـ ما يقرب من ٤٣٣,٠٠٠
كان عدد سكانها عام ١٣٢١ هـ ما يقرب من ٦,٠٠٠,٠٠٠
كان عدد سكانها عام ١٤٠١ هـ ما يقرب من ٢٤,٠٠٠,٠٠٠
كان عدد سكانها عام ١٤٠٨ هـ ما يقرب من ٣١,٩٩٠,٠٠٠.

وسكانها من أصول مختلفةٍ، ٤٢٪ منهم من أصلٍ إنكليزي، و٣٠٪ من أصل فرنسي، والباقي وهو ٢٨٪ من أجناسٍ متعددةٍ، وإن كان ما يزيد على الربع مليون منهم من سكان البلاد الأصليين من أسكيمو، وهنود حمر.

اتجه بعض المسلمين إلى كندا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، وكان معظمهم من بلاد الشام، وبلاد البلقان (ألبان وبوشناق) وجلّ هؤلاء كانت

هجرتهم للأسباب السياسية التي كانت تتعرّض لها بلادهم. لقد وصل ثلاثة عشر مسلماً إلى كندا عام ١٢٨٩ هـ واستوطنوا في اونتاريو، وهم طليعة المهاجرين. ولما كانت تلك المرحلة مرحلة جهل بالنسبة إلى المسلمين فإن أكثر الذين هاجروا قد ضاعوا في المجتمع الذين يعيشون فيه. وبعد الحرب العالمية الأولى بدأ المسلمون يُهاجرون إلى كندا، وكانوا في هذه المرة أفضل نسبياً من سابقيهم، وتلا ذلك هجرة بعد الحرب العالمية الثانية، وهم أيضاً أفضل ممن سبقهم، ولا تزال الهجرة قائمةً، فالبلاد تحتاج إلى إعمارٍ إذ هي مترامية الأطراف، وفي الوقت نفسه تتوالى الخطوب على المسلمين. والهجرة تتكوّن في هذه المرة من الشباب المثقّفين وأهل العلم والحركيين الذين لم يُرغب بإقامتهم في بلادهم أو لم يستطيعوا البقاء لما يرون من مآسي، أو لم يتحمّل الطغاة وجودهم، ولم ترغب الصنائع بقاءهم، وهم في المهجر يقومون بنشاطهم الذي يخدم الذين سبقوهم بصورةٍ عامةٍ ويفيد الجميع، إضافةً إلى ما يُقدّمونه من خدمات للبلاد التي يحلّون فيها.

يُقيم معظم المسلمين في كندا في المناطق الجنوبي الشرقية، وإن كان توزّعهم يشمل معظم الولايات، والإعمار بدأ من الجنوب الشرقي، وتكاثر السكان، وبالتالي كان المسلمون، بأكثرهم يستوطن في ولاية أونتاريو ثم في كويبك.

و ٩٢ ٪ من المهاجرين هم من المسلمين، و ٤ ٪ من الشيعة، و ٣ ٪ من فرقة الاسماعيلية الضالة. أما جنسياتهم فإن ما يقرب من ٣٠٪ هم من أصولٍ عربية، و٣٠ ٪ من أصلٍ هندي، والباقي وهو ٤٠ ٪ من أصولٍ مختلفةٍ.

وقد اعترفت حكومة كندا بالإسلام رسمياً عام ١٣٩٣ هـ.

ولا تزال الهجرة قائمة إلى كندا لقد وصل إليها عام ١٤٠١ من المهاجرين ٢٤٢,٤٣٩، وفي عام ١٤٠٢ وصل إليها ١٢٨,٦١٥ من أممٍ مختلفةٍ من بينها المسلمون التي تتوالى عليهم الخطوب، وهذا ما يجعل أعدادهم تزيد بسرعة.

تتألف كندا من ثلاث عشرة ولاية، تتباين في عدد سكانها، وفي عدد المسلمين الذين يعيشون فيها، وفي تنظيماتهم ومؤسساتهم، وهذه الولايات هي:

الولاية	عدد السكان	عدد المسلمين	الجمعيات الإسلامية
المقاطعات البحرية:			
١ - برانشويك الجديدة	١,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠	٠
٢ - الأمير ادوارد	١٨٠,٠٠٠	٢٠٠	٠
٣ - سكوتيا الجديدة	١,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠٠	١
٤ - الأرض الجديدة	٧٥٠,٠٠٠	٤٠٠	١
مقاطعات الجنوب الشرقي:			
٥ - كويبك	٨,٠٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	١
٦ - أونتاريو	١٢,٠٠٠,٠٠٠	١٢٥,٠٠٠	٢٤
مقاطعات الوسط:			
٧ - منيتوبا	١,٥٠٠,٠٠٠	٦,٠٠٠	١
٨ - ساسكاتشيوان	١,٠٠٠,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢
٩ - البرتا	٣,٠٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٣
مقاطعات الغرب:			
١٠ - كولومبيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٣
مقاطعات الشمال الغربي:			
١١ - الشمال الشرقي (بافن)	٧,٠٠٠		٠
١٢ - ماكنزي	٢٢,٠٠٠	٢٠٠	٠
١٣ - يوكون	٣١,٠٠٠	٣٠٠	٠
	٣١,٩٩٠,٠٠٠	٢٣٧,٣٠٠	٣٦

وبذا تكون نسبة المسلمين في كندا أقل من ١٪ (٠,٧٢٪) ولكن هذه النسبة تتزايد بسرعة بسبب الهجرة.

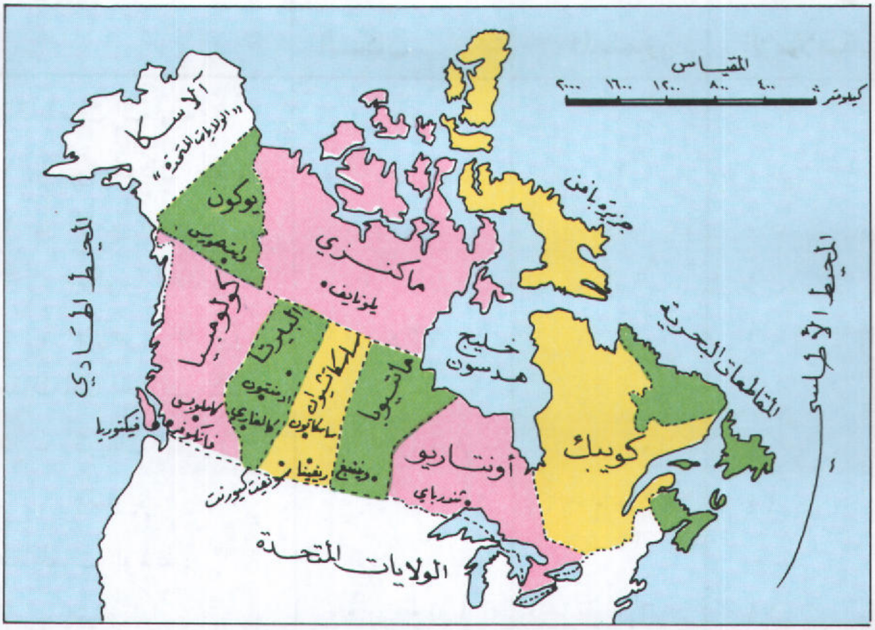

مصور رقم [٧٩] .

تضمّ الولايات البحرية أربع ولاياتٍ صغيرةٍ وهي :

١ً - **برانشويك الجديدة:** وتبلغ مساحتها ٧٣,٤٣٧ كيلومتراً مربعاً. وتحدّ الولايات المتحدة، ويقرب عدد سكانها من المليون. وعاصمتها مدينة (فريدريكتون). ويعيش في هذه الولاية ما يقرب من مائتي مسلم.

٢ً - **الأمير ادوارد:** جزيرة في خليج سانت لورانس تبلغ مساحتها ٥,٦٥٧ كيلومتراً مربعاً، ويقرب عدد سكانها من ١٨٠ ألفاً، وعاصمتها شارلوت تاون. ويعيش في هذه الجزيرة ما يقرب من مائتي مسلم.

٣ً - **سكوتيا الجديدة:** وهي شبه جزيرة ملتصقة بأرض ولاية برانشويك الجديدة، تبلغ مساحتها ٥٥,٥٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد سكانها على المليون قليلاً، وعاصمتها مدينة هاليفاكس.

تأسست جمعية إسلامية في مدينة دارتموث تحمل اسم (جمعية الولايات البحرية الإسلامية) وذلك في عام ١٣٥٨.

وبنى المسلمون مركزاً إسلامياً في بلدة ترورر، وتقام فيه صلاة الجمعة، كما تقام أيضاً في جامعة (دلهوسي)، وفي هذا المركز مدرسة يتعلّم فيها الأطفال مبادىء الإسلام أيام العطل.

وللمسلمين مسجد ومركز في مدينة هاليفاكس التي تضمّ أكبر تجمّعٍ إسلاميٍ في المقاطعات البحرية إذ يُقدّر عدد المسلمين فيها بخمسمائة مسلم، وهو ما يعادل نصف المسلمين في هذه الولاية.

٤ً - **الأرض الجديدة:** وهي واسعة المساحة إذ تبلغ مساحتها ٤٠٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتشمل ساحل لابرادور، وجزيرة الأرض الجديدة التي تقع في مدخل خليج سانت لورانس، ويزيد سكانها على ثلاثة ارباع المليون. ويعيش بينهم ما يزيد على أربعمائة مسلم أكثرهم من العمال المغاربة، وعاصمتها مدينة سانت جونز التي تضمّ مركزاً ومسجداً للمسلمين. كما تقوم فيها جمعية إسلامية تعرف باسم (جمعية مسلمي الأرض الجديدة).

أما بقية الولايات الثمان فهي كبيرة وهي:

٥ً - **كويبك:** فهي أكبر ولايات كندا مساحة إذ تضمّ بقية منطقة اللابرادور، وتبلغ مساحتها أكثر من مليون ونصف كيلومتر مربع (١,٥٤٠,٦٦٨ كم٢)، ويقرب عدد سكانها من ثمانية ملايين. وعاصمتها مدينة (كويبك).

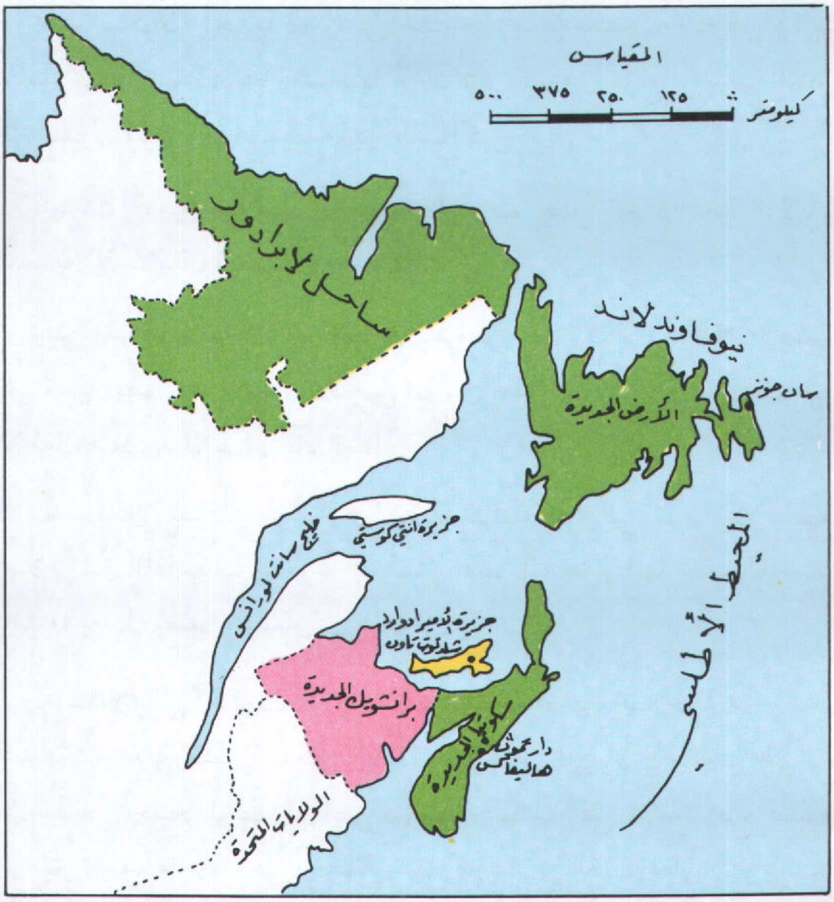

مصور رقم [٨٠] .

عرف الفرنسيون هذه المقاطعة عام ٩٤١ هـ. وعُدّت مستعمرةً فرنسيةً عام ١٠٧٤ هـ، وعُرفت باسم (فرنسا الجديدة) أو كندا، وبقيت بيد فرنسا عام ١١٧٧ حيث سيطر عليها الإنكليز، وعُرفت باسم (مقاطعة كويبك)، ثم سُمّيت عام ١٢٠٥ باسم كندا الدنيا، ثم كندا الشرقية. ومع خضوعها للإنكليز إلا أن الفرنسيين بقوا يُهاجرون إليها، ويُشكّلون الآن ثلث سكان الولاية.

وفي عام ١٤٠٠ هـ جرت محاولة لانفصال هذه الولاية عن الاتحاد الكندي، غير أن الانتخابات قد أعطت ٥٩,٥٪ لمصلحة بقاء الولاية ضمن الاتحاد الكندي، و٤٠,٥٪ لمصلحة الانفصال الأمر الذي أبقى الاتحاد الكندي كما هو.

وبولاية كويبك لغتان رسميتان هي: الإنكليزية والفرنسية.

يعيش في كويبك ما يزيد على ستين ألف مسلم، ويعيش نصفهم تقريباً في مدينة مونتريال وضواحيها. وأكثر من ثلث المسلمين في هذه الولاية هم من العمال المغاربة.

بدأ العرب يُهاجرون إلى كندا في بداية القرن الرابع عشر الهجري، غير أنهم لم يحافظوا على دينهم إذ اندمجوا في المجتمع الكندي، فتساهل بعضهم في أمور دينهم حتى ضاعوا، بل ارتدّ بعضهم واعتنق النصرانية، وبعد الحرب العالمية الثانية توافد المهاجرون المسلمون من تركيا، والهند، والمغرب، وبعد عام ١٣٨٧ اتجه بعض المصريين إلى كندا. وبعد عام ١٤٠٠ عاد الشاميون للهجرة إلى كندا وخاصةً بعد أحداث سوريا، وتشريد السكان. وأنشط المسلمين الهنود والباكستانيون.

تأسّست في مدينة مونتريال عام ١٣٨٢ جمعية إسلامية، وبعد عشر سنوات أقامت مسجداً في ضاحية سانت لورانس، ويتبع المسجد مركز إسلامي، وناد، ومدرسة، ومكتبة، وتعتمد الجمعية على مساهمة الجالية المسلمة. وللعرب جمعية قومية تُدعى «الرابطة العربية الكندية» وليس لها اهتمام في الجانب الإسلامي، ولذا فإن مساهمة العرب في المركز الإسلامي ضعيفة.

ولاتحاد الطلبة المسلمين فروع في الجامعات في ولاية كويبك حيث يوجد ثلاث جامعات (ماك غيل) و(لويولا) و(دوسون). كما أن إذاعة كويبك

تُقدّم للمسلمين برامج يومية وأسبوعية. وتُعدّ مدينة مونتريال أكبر مدن كنـدا ويزيد عدد سكانها على الثلاثة ملايين.

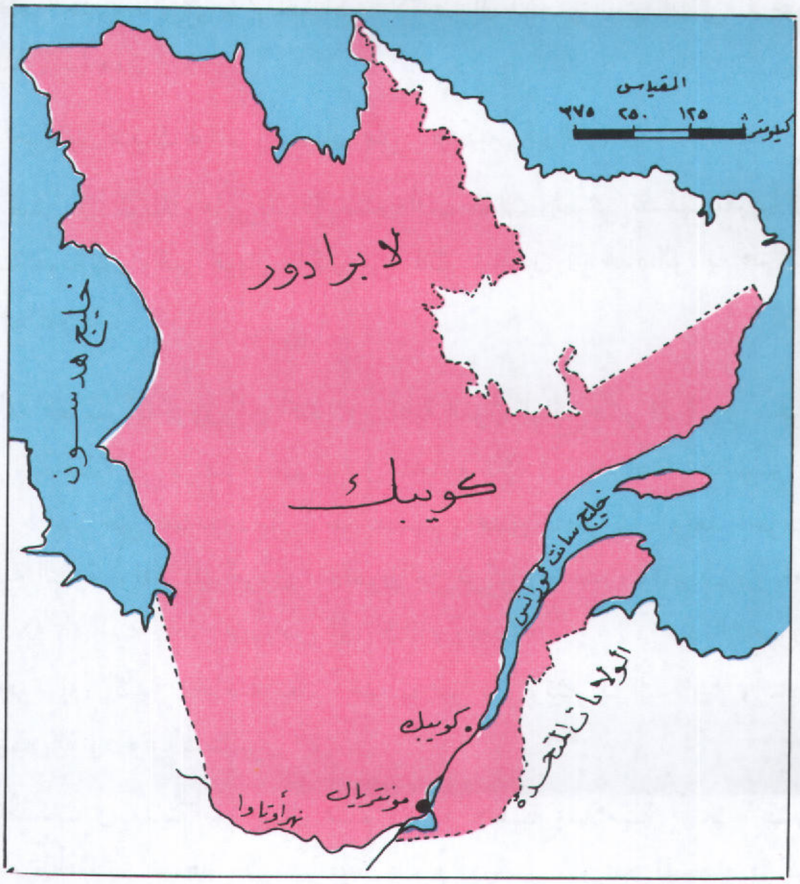

مصور رقم [٨١].

٦ً ـ **أونتاريو:** تعدّ مركز الثقل السكاني والعلمي في كندا، يُقيم فيها أكثر من ٤٠ ٪ من سكان كندا أي ما يزيد على اثني عشر مليوناً: وهي ثاني ولايات كندا مساحةً بعد (كويبك) حيث تبلغ مساحتها ١,٠٦٨,٣٦٠ كيلومتراً مربعاً. وعاصمتها مدينة تورنتو التي يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين.

يزيد عدد المسلمين في أونتاريو على نصف المسلمين في اتحاد كندا، حيث يبلغ عددهم ١٢٥ ألفاً، يسكن معظمهم المدن الكبرى، وهي التي تقع في الجنوب على شواطىء البحيرات الكبرى أو على مقربةٍ منها، وهي المناطق ذات الأهمية في كندا كلها.

لعل أول من هاجر من المسلمين إلى ولاية أونتاريو الشاميون ثم الألبان، وبعد الحرب العالمية الثانية جاء مسلمون من أمريكا الوسطى وجنوبي إفريقية ومن البلدان العربية وخاصةً الشام ومصر والمغرب، ثم من الهند وباكستان.

يُقيم ٦٣٪ من مسلمي أونتاريو في مدينة تورنتو، وقد تأسّست فيها أول جمعية إسلامية عام ١٣٧٥، وكانت تُعرف باسم الجمعية الإسلامية الألبانية، ثم أصبح اسمها بعد مدة «جمعية تورنتو الإسلامية». وافتتحت فرعاً للنساء المسلمات في عام ١٣٨١ باسم جمعية النساء المسلمات، واشترت كنيسةً وحوّلتها إلى مسجد. غير أن الكسل لم يلبث أن دبّ فيها... فأرادت بيع المسجد، فاشترته المملكة العربية السعودية من أعضاء الجمعية السابقين وسلمته إلى اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. ثم تشكّلت جمعية جديدة هي (جمعية مسلمي تورنتو) وأصبحت تُشرف على المسجد بالتعاون مع اتحاد الطلبة المسلمين، وعاد النشاط إلى المسجد حيث تُعطى فيه دروس عن الإسلام واللغة العربية، ويلتقي فيه المسلمون. وتأسّست جمعية أخرى عام ١٣٨٩، وهي جمعية المركز الإسلامي، وقد اشترت نادياً اجتماعياً للنصارى الكاثوليك وحوّلته إلى مسجد، وتُقام فيه صلاة الجمعة، وفيه قاعة للمحاضرات، وتُلقى فيه دروس باللغة العربية، وبلغة الأوردو. وتوجد جمعية مسلمي ألبانيا، وجمعية المسلمين الكندية. ويوجد في جامعة تورنتو فرع لجمعية الطلبة المسلمين، وتؤدى صلاة الجمعة في إحدى قاعات الجامعة. وتوجد جمعية للشيعة. كما تقوم جمعية لطائفة الإسماعيلية ولكن الإسماعيليين غير مسلمين.

وفي مدينة أتاوا تأسّست (جمعية أتاوه الإسلامية) عام ١٣٨٢، وتُعطى الدروس في مركزها، ولها فرع للنساء، وآخر للأشبال. وأخيراً قامت هذه الجمعية ببناء مسجدٍ لها على ضفة نهر أتاوا. وهناك مجلس للجاليات الإسلامية بكندا، ومؤسسة مسلمي أتاوا، والمدرسة الإسلامية.

وفي مدينة هاملتون تأسّست (جمعية هاملتون الإسلامية) عام ١٣٨٥، اتخذت شقةً اشترتها مركزاً لها، ثم بنت مركزاً خارج المدينة، ويتبعه مسجد، ومدرسة. وقدّمت جامعة هاملتون للطلبة المسلمين قاعةً لأداء صلاة الجمعة فيها. وفي هذه المدينة جمعية باكستانية، وجمعية مسلمي هاملتون.

وفي مدينة لندن (جمعية مسجد لندن)، وقد تأسّست عام ١٣٦٨ هـ، وقد أقامت مسجداً عام ١٣٨٥، ويُقدّم تلفزيون مدينة لندن برنامجاً اسمه (إسلام كندا) يُعرض يومي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع.

وتقع مدينة (ويندسور) مقابل ديترويت في الولايات المتحدة، وأكثر المسلمين فيها من المهاجرين العرب، وتأسّست فيها جمعية عام ١٣٧٤، وقامت ببناء مسجد عام ١٣٨٢، وتُعطى فيه دروس دينية.

وفي مدينة (أوشاوا) جمعية أوشاوا الإسلامية التي تأسّست عام ١٣٩٢، وقد استأجرت مركزاً لأداء صلاة الجمعة وإلقاء المحاضرات.

وفي مدينة برانتفورد جمعية إسلامية تأسست عام ١٣٩٤ هـ.

وفي مدينة (تندرباي) الواقعة على بحيرة سوبيريور جمعية (المؤسسة الإسلامية). وتوجد جمعيات إسلامية في كلٍ من (نورث باي) وتسمى جمعية كندا الإسلامية، وفيها مسجد الملة الإسلامية. وفي مدينة كامبردج، ومدينة كينغ ستون، ونياغارا، وواترلو، وبلوفيل، وسارنيا.

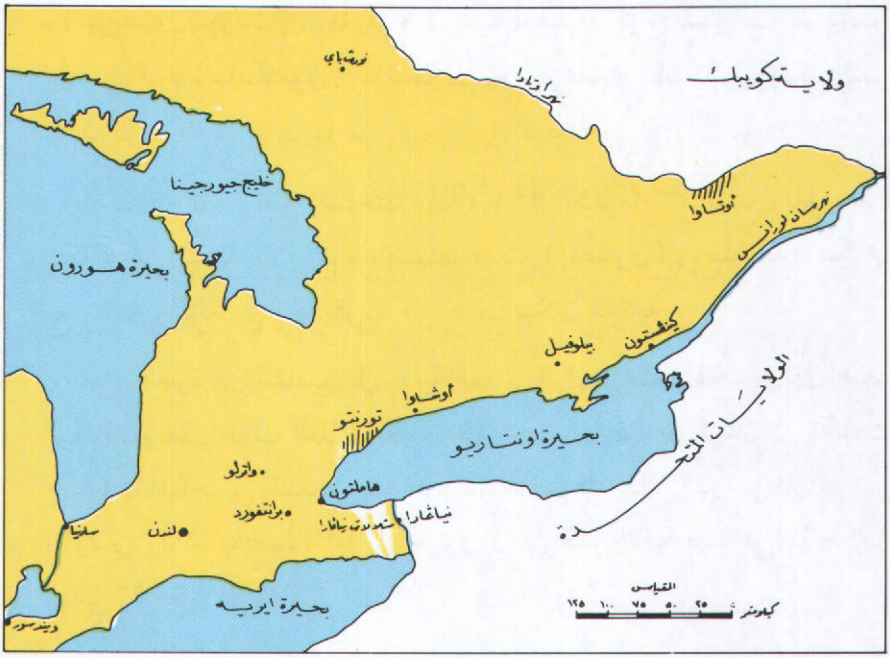

مصور رقم [٨٢] .

٧ - **مينتوبا:** تبلغ مساحتها ٦٤٩ ألف كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها مليون ونصف المليون، عاصمتها مدينة (وينّنبغ) التي يُقيم فيها نصف سكان الولاية تقريباً . وإعمارها حديث، وهجرة المسلمين إليها قريبة العهد .

يعيش في مينتوبا ستة آلافِ مسلم، يُقيم نصفهم في العاصمة، وقد أسّسوا جمعية مينتوبا الإسلامية عام ١٣٨٨ ، وقد بنت هذه الجمعية مسجداً .

٨ - **ساسكاتشيوان:** وتبلغ مساحتها ٥٧٠,١١٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على المليون قليلاً، وعاصمتها مدينة (ريجينا) .

يسكن ثلاثة آلاف مسلم في هذه الولاية، نصفهم في العاصمة (ريجينا)، وأول المسلمين هجرة إليها هم الشاميون . وتأسّست جمعية ساسكاتشيوان الإسلامية عام ١٣٨٥ ولها فروع في كل من (ريجينا) و(ساسكاتون)،

و(سويفت كيورنت). أما فرع (ريجينا) فيتبعه فرع للسيدات المسلمات، ويُسمّي فرع (ساسكاتون) المؤسسة الإسلامية بمدينة ساسكاتون ولكن ليس لها مركز.

٩ - **البرتا:** وتبلغ مساحتها ٦٦١,١٨٨ كيلومتراً مربعاً، ويقل عدد سكانها عن الثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (ادمنتون)، ويبلغ عدد سكانها مع مدينة (كالغاري) ما يقرب من نصف سكان الولاية.

جاء هجرة من الشاميين في بداية القرن الرابع عشر الهجري إلى هذه الولاية، وبعد الحرب العالمية الثانية جاء شاميون أيضاً من لبنان، ثم تعددت جنسيات المهاجرين المسلمين بعد عام ١٣٨٠، وقد ضاع كثير من المهاجرين الأولين وارتدّ بعضهم، أما المهاجرون في المرحلة الثانية فهم على درجةٍ من الوعي والتفكير الإسلامي.

يوجد في هذه الولاية أكثر من ٢١ ألف مسلم نصفهم من البلدان العربية. يعيش نصف المسلمين في العاصمة ادمنتون، وخمسة آلاف في مدينة كالغاري، وألف في مدينة (لاك لابيش).

أسّس اللبنانيون في العاصمة جمعية (المركز الإسلامي الكندي) عام ١٣٤٨، وأقامت مسجد الرشيد عام ١٣٥٧ ويُعدّ أول مسجد بني في كندا، وقد ارتدّ عدد من المسلمين على الرغم من أن حالتهم المادية جيدة.

ونشأت جمعية كالغاري الإسلامية، وهي من أحسن الجمعيات تنظيماً، تأسست عام ١٣٧٦، واشترت عام ١٢٨٠ كنيسةً وحوّلتها إلى مسجدٍ، ثم بنت مسجداً وتلحق به مدرسة، ومكتبة، وقاعة للاجتماعات، وداراً للضيافة. وتلقى في المسجد المحاضرات، وتقوم النساء المسلمات بنشاطٍ ملحوظٍ.

وفي مدينة (لاك لابيش) التي تبعد ٢٢٥ كيلومتراً عن العاصمة شمالاً، يُقيم فيها عدد من الشاميين اللبنانيين، وقد تأسّست فيها جمعية عام ١٣٧٧،

وتسمى جمعية لاك لابيش العربية الإسلامية، وقامت بعد عام من تأسيسها ببناء مسجدٍ وتلحق به مدرسة إسلامية.

١٠ - **كولومبيا:** تبلغ مساحتها ٩٤٩,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة فيكتوريا. ويعيش أكثر من ٩٠٪ من سكان الولاية في الجزء الجنوبي منها، و٦٥٪ منهم في الجزء الجنوبي الغربي، أما الأجزاء الشمالية فتكاد تكون خاليةً.

يعيش في كولومبيا واحد وعشرون ألف مسلم أكثرهم من البلاد العربية، والهند، وباكستان، وجزر فيجي فقد جاء الهنود عام ١٣٢٤، غير أن هجرة الآسيويين قد حددتها السلطات الكندية، وعاد بعضهم إلى أوطانهم أثناء الحرب، ثم رجعت الهجرة إلى كولومبيا بعد عام ١٣٨٠. يعيش تسعة آلاف منهم في مدينة فانكوفر، وثلاثة آلاف في العاصمة فيكتوريا، وألف في مدينة كاملوبس. ويُعاني المسلمون من التفرقة العنصرية.

تأسّست في فانكوفر عام ١٣٨٣ جمعية (مركز كولومبيا البريطانية الإسلامي)، وكان أكثر أعضائها من مسلمي جزر فيجي، وقد أقامت مركزاً موقتاً للصلاة ولتعليم الأطفال، ثم بنت مسجداً. كما توجد المؤسسة الإسلامية التي تضم أعداداً من المسلمين ينتمون إلى جنسيات مختلفة.

وفي العاصمة فيكتوريا جمعية إسلامية، ولها مركز، غير أن المسلمين مُوزّعون بين العرب والباكستانيين بسبب اللغة، وعدم الوعي الإسلامي.

وتعيش جالية من الشاميين اللبنانيين في مدينة كاملوبس منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ومع انهم ينظمون أنفسهم بشكل جيدٍ إلا أنهم في مرحلة من الضياع وسط المجتمع الكندي لعدم تمسكهم ومحافظتهم على عقيدتهم.

وشمال خط العرض ٦٠ شمالاً تمتدّ المقاطعات الشمالية الغربية التي تزيد

مساحتها على ٣,٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، وأكثرها متجمد، لذا لا يزيد عدد سكانها على الستين ألفاً، نصفهم من قبائل الأسكيمو. وقاعدتها كلها (يلونايف) في الوسط في ولاية (ماكنزي)، وهذه الولايات هي:

١١ً - **جزيرة بافن والجزر الشمالية:** وأكثرها متجمد، وتبلغ مساحتها ١,٨٧٧,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتعرف باسم المقاطعة الشمالية الشرقية.

١٢ً - **ماكنزي:** وتبلغ مساحتها ١,٥٠٢,٥٠٠ كيلومتر مربع، وتقع فيها عاصمة المقاطعات (يلونايف)، وفيها بعض المسلمين اللبنانيين. وتعتمد المقاطعة على الفراء والأخشاب، والثروة المعدنية.

١٣ً - **يوكون:** وهي المقاطعة الشمالية الغربية، وتبلغ مساحتها ٥٣٦,٣٢٤ كيلومتراً مربعاً، ويعيش فيها بعض المسلمين اللبنانيين، وهي مثل سابقتها تعتمد على الفراء، والأخشاب، والثروة المعدنية.

رأينا أن عدد المسلمين في كندا يزيد على مائتين وسبعةٍ وثلاثين ألف مسلم، وأن نسبتهم هي ٠,٧٢٪ من مجموع السكان، وإذا كانت هذه النسبة قليلةً إلا أنها تزيد بسرعة بسبب الهجرة المتزايدة نتيجة الخطوب التي تتزايد على المسلمين، وإن كانت حكومة كندا تطلب من المهاجر أن يكون لديه رصيد يزيد على نصف مليون دولار كندي. كما رأينا أنه تقوم أكثر من ست وثلاثين جمعية موزعة في أنحاء البلاد، ولا بدّ من تنظيمها أو تجميعها لإمكانية التعاون فيما بينها.

بدأ هذا التنظيم من قبل اتحاد الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة الذي قام بعد تأسيس (الجمعية الإسلامية الدولية) في ٤ شوال ١٣٧١ (رابع عيد الفطر)، وفي اللقاء الثالث للجنة التنفيذية للجمعية المذكورة في شيكاغو تم تغيير الاسم حيث أصبح (اتحاد الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا) وذلك عام ١٣٧٤ إذ ضمّ هذا الاتحاد ثمان وعشرين جمعيةً من بينها بعض جمعيات كندا.

كما تأسّست جمعية الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، وهكذا فإن التنظيم إنما جاء عن طريق المسلمين في الولايات المتحدة في بداية الأمر.

أما تنسيق العمل في كندا فقد بدأ عام ١٣٨٨ في بداية شهر شوال أيضاً بدعوة من الجالية الإسلامية في مدينة هاملتون في ولاية أونتاريو لباقي الجمعيات في الولاية، وتمّ اللقاء في مدينة لندن في الولاية نفسها، واتفق الحضور على تشكيل (مجلس الجماعات الإسلامية في اونتاريو)، ثم توسّع هذا المجلس عام ١٣٩٢، وأصبح يضم كافة الجمعيات في كندا، وحمل اسم (مجلس الجماعات الإسلامية في كندا)، واتفقوا على إصدار نشرةٍ شهرية تحمل اسم (إسلام كندا)، وقد انضمّ إليه آنذاك ست عشرة جمعية وترك الباب مفتوحاً لانتساب باقي الجمعيات إذ نص الدستور على أن لكل جمعية إسلامية في كندا يتفق دستورها وقانونها الأساسي وتعاليمها مع القرآن والسنة، وبحيث تكون عضويتها مفتوحة لكل مسلم مهما كان لونه أو جنسيته أو مذهبه الفقهي أن تنضمّ إلى المجلس، وهكذا تمّ بين الجمعيات شبه تنسيق.

ويقوم هذا المجلس بإلقاء المحاضرات، ونشر الكتب، وتنظيم معسكرات لأبناء المسلمين.

مع الأقليات المسلمة في أمريكا الشمالية

يعيش مسلمون في أمريكا الشمالية في عالمٍ واسعٍ يموج بالحركية والدأب، ولسعة رقعته يحتاج إلى إعمار فيتطلب أيدي عاملة، ولنموه وتطوّره يحتاج إلى فكرٍ، كما يلزمه البناء، وهذا ما استدعى هجرة المسلمين إليه والذين ينـوءون بظروفهم الاقتصادية، وأحوالهم المعاشية، وأوضاعهم السياسية، وإذا كانت الولايات المتحدة قد حدّت من الهجرة إليها لزيادة سكانها، أو لاكتفاء أرضها على رأي المخططين، إلّا أنّ الواقع يُؤكّد أنها ما زالت بحاجةٍ إلى الكثير، وإن طلب العلم والسياسة يدفعان بالكثير من الناس نحوها، كما أنها تستقطب الكثير من النابغين والنابهين وإذن فإن الاتجاه نحوها ما زال قائماً وبخاصةٍ من الأمصار الإسلامية المحكومة من صنائع الولايات المتحدة إذ تتشرّد أفواج نتيجة الضغط والإرهاب وأكثرهم من الـمُفكّرين، وأهل العلم، وأصحاب الاختصاص. كما أن كندا لا تزال تتقبّل الهجرة وإن كانت ضمن شروط، ويجب ألا ننسى الذين يدخلون في الإسلام من سكان أمريكا الشمالية، وأن الزنوج في الولايات المتحدة قـد أخـذوا في الإقبـال نحو الإسلام أو في العودة إليه، وهذا كله ما يجعل عدد المسلمين يزداد بسرعة، ونسبتهم ترتفع في الوسط الذين يعيشون فيه.

إن الاتجاه نحو العلم، والاتجاه نحو التصنيع، والاتجاه نحو التجارة، والاتجاه

نحو السياحة يقتضي السفر إلى أمريكا الشمالية، وينتج عن هذا الاحتكاك المتزايد مع سكان تلك الجهات، واللقاء مع المسلمين هناك، وهذا يُؤدّي بدوره إلى التعرّف عليهم، وفي الوقت نفسه العمل على محاولة الدعم والمساعدة في بناء المراكز والمساجد رغبةً أحياناً وللدعاية أحياناً أخرى، ولذا فقد نشط البناء والدفع، ونشط التنظيم، ونشط معه الاتصال بالجهات المساعدة، غير أن هذا النشاط لم يكن يُلازمه دائماً نشاط في العمل والحركية، ونشاط في الالتزام وتمثّل الإسلام عملاً وسلوكاً، وربما كان عملاً مساعداً للتحلّل، أو الإنفاق في غير محله، أو البناء للمساجد والمراكز الإسلامية في غير المكان المناسب، وهذا يُؤدّي بدوره إلى الخلاف بين أعضاء الجمعيات تبعاً للجهات الداعمة فيزيد خلاف المسلمين خلافاً، كما يُؤدّي إلى الخلاف بين الجمعيات والمراكز التي تتلقّى دعماً والتي لا تتلقّى مساعدةً إذ يمرح الأوائل ولا يُقدّمون شيئاً إن لم نقل يُسيئون في أكثر الأحيان، ويُقدّم الآخرون ولا يحصلون على شيء بل أحياناً لا يريدون الحصول إذ لا يرغبون أن يكونوا مطيةً أو أداةً تتحرّك حسب توجيهات من لا يُرضى عن سلوكهم وارتباطهم.

ويُعاني المسلمون في أمريكا الشمالية نفسياً من وجودهم وسط مجتمعٍ حضاريٍ متطورٍ على حين أنهم قادمون من بلادٍ مُتخلّفةٍ إضافةً إلى الوضع الذي هم فيه والذي دفعهم للهجرة، مع ما تأتي به الأخبار مما يحلّ في أوطانهم من نوازل ونكبات بسبب التخلّف والاختلاف، وفي الوقت نفسه فإن السكان ينظرون إلى المسلمين نظرةً خاصةً لما هم فيه سواء أكانوا ملّونين أم قادمين من بلادٍ غير متطوّرة، أم فقراء.

ويُعاني المسلمون في أمريكا الشمالية من توزّعهم في عالمٍ واسعٍ إذ قلما توجد في منطقةٍ جماعة مسلمة كبيرة تتكلّم لغةً واحدةً يمكنها الانطلاق والتفاهم، وإذا وجدت مثل هذه الجماعة في المدن الكبرى فإنها تسكن في

جهاتٍ مُتباعدةٍ يفرض عليها ذلك عملها فلا يمكنها الالتقاء والعمل بالشكل المثمر.

ويُعاني المسلمون في أمريكا الشمالية من التجمّعات العنصرية التي تنشأ من عدم المعرفة الصحيحة للإسلام، ومن اختلاف اللغة في أحسن أحوالها ولكن قد تصل إلى العصبية القومية التي تُؤدّي إلى الخلافات وإلى تقوقع بعض الجماعات على أنفسهم، وتأسيس جمعياتٍ خاصةٍ بهم، وإضافةً إلى العصبيات القومية نرى تجمع الزنوج الأفارقة وحدهم، وإن كانوا في عددٍ من الجمعيات المختلفة أيضاً، والتي يتّهم بعضها بعضاً في العقيدة أحياناً. وإذا وجدت المؤسسات الموحّدة والمنظمة لهذه الجمعيات إلا أن اللقاء يتمّ بين التنظيمات ولم يتعرّض للأفكار إذ يبقى كل سائراً في طريقه.

ويُعاني المسلمون من المسلمين الذين يزورون تلك البلاد، ولم يتمثّلوا الإسلام إذ تُعطي تصرّفاتهم صورةً سيئةً عن المسلمين تُؤيّد الدعاية التي تُروّج ضدّ الإسلام وأهله، على حين يجب أن تكون سليمةً لتمحو الصورة المأخوذة عن المسلمين من أعدائهم.

ويُعاني المسلمون من ضياع بعض المسلمين هناك وسط ذلك المجتمع المادي باسم الحضارة والتقدّم، ومن ارتداد بعضهم عن دينهم وهذا ما يُسهم في حملة الدعاية ضدّ الإسلام، إذ يذكرون أن العقيدة لو كانت صحيحةً لما تركها أهلها، وينسون من يدخل من النصارى في الإسلام، ويتجاهلون أن المصالح كثيراً ما تجعل العامة والجهلة يتركون عقيدتهم، وإن كان الذي يحدث بين المسلمين لا يُعادل واحداً من ألف مما يحدث بين النصارى.

ويُعاني المسلمون من الحرب التي تشنّها اليهودية، والصليبية، والقاديانية، والبهائية، والإسماعيلية، وما تحمله بعضها من أفكارٍ باليةٍ باسم الإسلام أحياناً.

ويُعاني المسلمون من عدم وجود هيئةٍ إسلاميةٍ ذات إمكاناتٍ تدعمها

الأمصار الإسلامية كلها، وتتمثل الإسلام بشكلٍ جيدٍ يُطيعها الجميع لتقيُّدها بالإسلام وسلوكها المنسجم مع المبدأ الذي تدعو له وتعمل من أجله.

وأكثر حلول هذه المشكلات التي يتعرّض لها المسلمون هناك إنما هي بأيدينا، والأمصار الإسلامية مسؤولة مسؤوليةً جماعيةً عن تفاهمها وتقديم ما يجب لتلك الأقليات.

الأقليّات المُسْلِمَة
في
أمريكا الوسْطى

تضيق الأرض بعد أمريكا الشمالية بالاتجاه جنوباً، وهذا يعني أنها لا تحتاج إلى سكانٍ كثيرين كي يعمروها، وبالتالي لا تحتاج إلى مهاجرين زيادةً عما فيها لذا فإن عدد المسلمين فيها قلّة. ويزيد الأمر في عدم الحاجة كثرة دول المنطقة مما يجعلها ضعيفةً لا تتطوّر بسرعةٍ أو بالصورة التي تطوّرت فيها الأجزاء الشمالية من القارة. وفي الوقت نفسه فقد بقيت تابعةً لدولٍ أوربيةٍ أو مستعمرةً لها مدةً طويلةً مما حال دون الأخذ بأساليب العلم والتطوّر إضافةً إلى أن أكثر هذه الدول الأوربية المستعمرة لم تكن مُتقدّمةً وهذا ما زاد في التخلّف.

ولما كانت هذه الدول غير متقدّمةٍ علمياً لذا لم يتجه إليها طلاب العلم من بلاد المسلمين. ولما كانت غير متطوّرةٍ لذا فإن الزيارة إليها للسياحة أو للتجارة قليلة لذا بقيت أعداد المسلمين فيها قلةً، ويعيشون بعيدين عن عيون إخوانهم في الأمصار الإسلامية، وبالتالي فإن المسلمين قد قلّ اهتمامهم بمن يعيش في هذه الجهات من المسلمين. حتى لا يُعرف عدد المسلمين في أكثر هذه الدول، وإنما تقديرات فيها تضارب كبير.

ويُطلق اسم أمريكا الوسطى على الجزء القاري الضيّق الذي يصل بين أمريكا الشمالية والجنوبية، إضافةً إلى الجزر المنتشرة في البحر الكاريبي وخليج المكسيك والتي تُشكّل عدة دولٍ أيضاً، لذا سنأخذ لمحةً عن المسلمين في كل جزءٍ من هذين الجزأين، وفي كل وحدةٍ سياسيةٍ من وحداتها.

الجـــزء القـــاري

يشمل هذا الجزء الدول الآتية:

١ً - **المكسيك:** تبلغ مساحتها ١,٩٥٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وقد فقدت جزءاً كبيراً من أراضيها لصالح الولايات المتحدة عام ١٣٦٧ هـ. وتتألف من ٣٢ مقاطعة، فهي جمهورية اتحادية.

يتزايد عدد سكانها بسرعة، ويمكن معرفة هذه الزيادة من هذا الجدول.

كان عدد سكان المكسيك عام ١٣٧١	٢٦,٢٠٠,٠٠٠
كان عدد سكان المكسيك عام ١٣٩١	٥١,٥٠٠,٠٠٠
أصبح عدد السكان عام ١٤٠٧	٨٠,٠٠٠,٠٠٠

يتكلّم السكان اللغة الإسبانية، وهي اللغة الرسمية، وبجانبها يوجد ٥٦ لهجةً محليةً هندية.

يدين ٩٧٪ من السكان بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، ويوجد بجانبهم مليون وربع من البروتستانت، كما يوجد ثلاثون ألف يهودي. وقد جُلب أكثر من ربع مليون إفريقي كعبيد إلى المكسيك في القرن الحادي عشر الهجري.

وتعدّ مدينة نيومكسيكو العاصمة أكبر تجمع سكاني في العالم، إذ وصل عدد سكانها إلى ثمانية عشر مليوناً. وتدفّقت كميات كبيرة من النفط عام ١٣٩٢ فتحسّنت أوضاع البلاد الاقتصادية.

تدلّ كثير من المؤشرات إلى وصول الأفارقة المسلمين إلى أرض المكسيك قبل وصول الإسبان إليها بمدةٍ تزيد على القرنين، ولكن أُبيد أكثر هؤلاء، ومن بقي ضاع في المجتمع النصراني الذي نشأ بعد الاستعمار الإسباني.

وجاء مع الاستعمار الإسباني عدد من الموريسكيين (المسلمون الذين قبلوا النصرانية ظاهراً تحت الضغط وأخفوا إسلامهم)، ولكن قُضي عليهم إذ كان يُحرق الواحد منهم حياً عندما يُعرف أمره، ومن بقي انصهر بعد مدةٍ.

ووصل شاميون من لبنان مهاجرين إلى المكسيك في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ونتيجة جهلهم، وانقطاعهم عن بلادهم، وحياتهم متباعدين بعضهم عن بعض ذابوا في المجتمع، وفقدوا شخصيتهم، إذ تزوج أبناؤهم بالنصرانيات ومع الزمن انسلخوا من عقيدتهم.

أسلم عدد من أبناء المكسيك بعد عام ١٣٩٠، ويوجد بعض المسلمين في العاصمة نيو مكسيكو، ولا يزيد عددهم على ١٥ مسلماً، وهناك تجمّع في مدينة توريون من المسلمين اللبنانيين يزيد على المائة مسلم.

وهناك تضارب كبير في عدد المسلمين في المكسيك فبعضهم يعدّهم بالمئات، ومنهم من يجعلهم بضعة آلاف، ومنهم من يصل بهم إلى ما يزيد على المائة ألف، وعلى كل حالٍ فليس لهم أي تنظيم، أو جمعية، أو مسجد، أو نادٍ. ولا أي أثر في الحياة العامة، وكل ما هنالك أن أحد المسلمين أصبح منذ عام ١٤٠٦ يُصدر صحيفة يُطلق عليها اسم (الإسلام)، ويرتبط إصدارها بـه، وبجهده الخاص جزاه الله خيراً. على حين أن النصارى الشاميين اللبنانيين يُصدرون مجلةً شهريةً باللغة العربية والإسبانية تُسمّى (الغربال).

ويلقى المسلمون عنتاً من الصليبية إذ للكنيسة الكاثوليكية سلطة واسعة في المكسيك، ومن اليهودية، ومن فرقة البهائية الضالة التي لها بعض الأتباع هناك.

٢ً - **هوندوراس البريطانية (بليز):** تبلغ مساحتها ٢٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويُقدّر عدد سكانها بمائتي ألف، عاصمتها مدينة (بليز) التي تضمّ ثلث السكان.

خضعت للاستعمار الإنكليزي عام ١٢٧٩، وأُلحقت بجمايكا، ثم فُصلت عنها عام ١٣٠٢، وحصلت على استقلالها الذاتي عام ١٣٨٣.

وينتمي أكثر السكان إلى أصلٍ إفريقيٍ، ويتكلّمون اللغة الإنكليزية، وهي اللغة الرسمية، أما في مناطق الحدود مع غواتيمالا والمكسيك فيتكلّم السكان اللغة الاسبانية.

يدين ثلثا السكان بالنصرانية الكاثوليكية، والثلث بالنصرانية البروتستانتية.

يوجد في البلاد أكثر من ثلاثة آلاف عربي مُعظمهم من النصارى، أما المسلمون فلا يزيد عددهم على ثلاثمائة مسلم، نصفهم من أصلٍ إفريقيٍ، وربعهم من العرب، والربع الباقي من شعوبٍ ثانيةٍ، وتُقام صلاة الجمعة في مدينة بليز، ولكن ليس لهم أي تنظيم أو جمعية.

٣ً - **غواتيمالا:** وهي كلمة إسبانية مُحرّفة عن العربية (وادي المالح) تبلغ مساحتها ١٠٩,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين، وعاصمتها مدينة غواتيمالا.

يرجع نصف السكان إلى أصولٍ هنديةٍ، ثم تأتي مجموعة تدعى اللاندمينوس وهي هجين من الإسبان والهنود، وهناك أقليات من البيض والزنوج، ولا تزيد نسبة الأوربيين على ٩ ٪ من مجموع السكان.

يتكلّم السكان اللغة الإسبانية، وهي اللغة الرسمية، وتنتشر بين الشعب أكثر من عشرين لغةً محليةً، ويدين أكثر السكان بالنصرانية الكاثوليكية، وإلى جانبهم مائتا ألف بروتستانتي، وألفا يهودي.

غزا الإسبان غواتيمالا عام ٩٣١ هـ، ولكن حصلت على استقلالها عام ١٢٥٥، وفيها الآن خمس جامعات.

هاجر إليها عدة آلاف من العرب غير أن أكثرهم من النصارى، ويوجد عدد منهم من المسلمين يُقدّرون بمائتي مسلم وهم من الشاميين اللبنانيين والفلسطينيين، وليس لهم أي جمعية أو تنظيم كما لا يجدون أي اهتمام من قبل إخوانهم في الأمصار الإسلامية.

٤ً - **هوندوراس:** تبلغ مساحتها ١١٢,٠٨٨ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (تيغو سيغالبا).

أغلب السكان من (الميستيزو) الذين هم خليط من البيض والهنود، وهناك عناصر زنجية جُلبت كرقيقٍ للعمل في مزارع الموز. ولا يُشكّل الإسبان أكثر من ١٪ من السكان.

لغة البلاد الرسمية هي الإسبانية، ويتحدّث الزنوج الإنكليزية. ويدين معظم السكان بالنصرانية الكاثوليكية.

احتلّت إسبانيا البلاد عام ٩٠٨ هجرية، ولكنها انفصلت عام ١٢٣٧، وكانت عضواً في اتحاد جمهوريات أمريكا الوسطى، ثم استقلّت عام ١٢٥٤ هـ.

في البلاد ستة آلاف عربي أكثرهم من النصارى، ويوجد بينهم مائة مسلم من الشاميين من سوريا، وفلسطين، ولبنان، وليس لهم أية جمعية أو تنظيم، أو مسجد، كما لم يلقوا أي اهتمام من إخوانهم في الأمصار الإسلامية بل لم يسمعوا بهم.

٥ - سان سلفادور: تبلغ مساحتها ٢١,٣٩٣ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها خمسة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (سان سلفادور).

أغلب السكان من المستيزو ٧٥٪، و ٢٠٪ من الهنود الحمر، و ٥٪ من البيض.

تدين أكثرية السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد ١٥٠ ألفاً من البروتستانت و ٣٥٠ من اليهود.

احتلّت اسبانيا البلاد عام ٩٣٢ هـ، وبقيت حتى عام ١٢٥٤ حيث نالت البلاد الاستقلال.

هاجر إلى سان سلفادور ما يزيد على خمسة وعشرين ألفاً من العرب معظمهم من الشاميين الفلسطينيين وخاصةً من بلدة بيت لحم، ويوجد بين هؤلاء المهاجرين ما يزيد على المائة مسلم، ليس لهم أي تنظيم ولا يجدون أي اهتمام.

٦ - نيكاراغوا: تبلغ مساحتها ١٢٧,٦٦٤ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (ماناغوا).

احتلّت اسبانيا البلاد عام ٩٢٨، واستمرّت في استعمارها لها حتى عام ١٢٣٧، حيث شكّلت مع جاراتها اتحاد جمهوريات أمريكا الوسطى، ثم استقلّت عام ١٢٥٤ هـ.

أغلبية السكان من عنصر المستيزو، ويُشكّل الأوربيون ١٧٪ من مجموع السكان. وتدين الأغلبية بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد بينهم مائة ألف من البروتستانت.

يوجد في نيكاراغوا مائتا مسلم من أصلٍ شاميٍ من لبنان وفلسطين يعيشون على هامش الحياة.

٧ً - **كوستاريكا**: تبلغ مساحتها ٥٠,٩٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها مليونين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (سانت جوز).

سيطر عليها الإسبان عام ٩٧١ هـ، وانفصلت عن إسبانيا ضمن اتحاد جمهوريات أمريكا الوسطى عام ١٢٣٧، ثم سيطرت عليها المكسيك عام ١٢٣٩، وأخيراً استقلّت عام ١٢٦٤ هـ.

ينتمي السكان إلى عدة أصولٍ، وترتفع نسبة الإسبان فيها، وعنصر الميستيزو هو الغالب. وتعدّ اللغة الإسبانية هي اللغة الرسمية.

يدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، وهي دين الدولة الرسمي، ويعيش معهم ثمانون ألف نصراني بروتستانت، وألف وخمسمائة من اليهود.

ينتشر الفقر والإدمان على الخمر وبقية المخدرات، وتسود الرذيلة. وتخضع الصحافة للسيطرة اليهودية.

يوجد ما يزيد على مائة مسلمٍ، منهم بعض الفلسطينيين، وأسرة من سنغافورة، ذات مركزٍ ونفوذٍ اقتصادي، وقد حصلت على رخصةٍ لبناء مسجدٍ وجميعةٍ إسلامية. وهناك عدد من الشيعة.

وتُدّرس اللغة العربية في معهد اللغات بجامعة كوستاريكا، ويقوم بتدريسها اثنان من المسلمين الفلسطينيين، أحدهما طبيب، وثالث من كوستاريكا، يعمل لمصلحة المسلمين ضد اليهود.

٨ً - **بنما**: تبلغ مساحتها ٧٦,٧٣٨ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها مليونين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (بنما سيتي). وأهمية البلاد تعود إلى القناة التي تصل المحيطين الأطلسي والهادي، والتي تحمل اسم البلاد (قناة بنما).

كانت بنما جزءاً من كولومبيا، ثم انفصلت عنها بسعي من الولايات المتحدة التي لم تستطع التفاهم مع كولومبيا على فتح القناة. وفور الانفصال عام ١٣٢١ تمّ توقيع الاتفاقية لشقّ القناة الذي انتهى عام ١٣٣٣، وسيبقى للولايات المتحدة حقّ الإشراف على القناة حتى عام ١٤٢٠ هـ.

احتلّت اسبانيا منطقة بنما عام ٩٥٨ هـ، واستمرّ هذا الاحتلال حتى عام ١٢٣٧ حيث كانت جزءاً من كولومبيا.

ينتمي ٧١٪ من السكان إلى عنصر الميستيزو، و ١٥٪ يعودون إلى أصولٍ إفريقيةٍ، و ١٢٪ إلى أصولٍ أوربيةٍ أكثرها من الإسبان، و ٢٪ من سكان البلاد الأصليين. وقد وفد إلى البلاد بعض سكان جزر البحر الكاريبي وخاصةً من هايتي.

يدين ٩٠٪ من السكان بالنصرانية الكاثوليكية و ١٠٪ بالنصرانية البروتستانتية، وتوجد قلّة من اليهود تصل إلى الألفين ولكن تسيطر على التجارة والصحافة، وقلة من المسلمين.

ويتكلم السكان اللغة الإسبانية، وهي اللغة الرسمية، وأصبحت الإنكليزية معروفةً وتعدّ اللغة الثانية، ويوجد عدد من العرب يزيد عددهم على الألف أكثرهم من النصارى.

عند حفر قناة بنما وصل إلى البلاد عدد من العمال البنغاليين، وهم من المسلمين، ثم وصلت مجموعة من مسلمي الصين عام ١٣٢٦، وقد بلغ عدد أفرادها خمسمائة مسلم. وقد ذابت هذه المجموعة في المجتمع الذي تعيش فيه إذ نشأ أطفال المسلمين لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، ولا يرتبطون بأية قيمة، وحاول القاديانيون إيقاع بقايا المسلمين في شركهم عام ١٣٤٨ غير أنهم فشلوا في ذلك.

وأصدرت الكنيسة الكاثوليكية عام ١٣٥٧ قانوناً منعت من هجرة العرب، والأتراك، والهنود، والعناصر السوداء التي لا تتكلّم الإسبانية.

يزيد عدد المسلمين اليوم على ألف وخمسمائة مسلم نصفهم يعود إلى أصلٍ هنديٍ وبنغاليٍ، والنصف الآخر يعود أصلٍ شاميٍ فلسطيني. والهنود حالتهم جيدة إذ هم من التجار وأكثرهم يعود إلى مدينة (سورت) قرب مدينة (بومباي)، وأما الفلسطينيون فهم فقراء يعمل أكثرهم باعةً مُتجوّلين، وقد جاءوا بالأصل سياحةً وتزوجوا فتياتٍ من سكان البلاد ليحصلوا على الجنسية. ويتجمع أكثر المسلمين في العاصمة (بنما سيتي)، وفي مدينة (كولون).

بنما سيتي: أسّس القاديانيون جمعيةً عام ١٣٤٩ وأعطوها اسم الإسلام، وسار معهم المسلمون لجهلهم وعدم معرفتهم بحقيقة القاديانية، وبنوا معبداً عُرف باسم (البعثة التبشيرية الإسلامية).

ويوجد في العاصمة ما يقرب من مائتي شامي أكثرهم من فلسطين وما يقرب من مائتي عائلةٍ مسلمةٍ من الهند، ويُقدّر عدد أبنائها بحوالي سبعمائة شخص، وهم التجار أصحاب اليسار، ويعرفون حقيقة القاديانية إذ أنها من نبات بلادهم، لذا لقد عملوا على تأسيس جمعيةٍ عُرفت باسم (الجمعية السنية لمسلمي الهند في بنما)، وقد استأجرت هذه الجمعية مكاناً لتأدية الصلاة فيه، وذلك عام ١٣٦٦، فلما رأى المسلمون ما حدث تركوا القاديانيين واتجهوا نحو الجمعية الإسلامية، والتي غدا اسمها (الجمعية الإسلامية الهندية ـ الباكستانية) لأن الهند كانت قد تجزأت لذا حملت الجمعية اسم البلدين، ولكن حدث عام ١٣٨٨ خلاف بين أعضاء الجمعية، ثم عادت إلى الظهور عام ١٣٩٣، وانضمّ إليها العرب، وأصبح اسمها (جمعية بنما الإسلامية).

وقد اشترى وجيه تجار الهنود (سليمان بيهيكو) أرضاً، وأقام عليه مسجداً عام ١٤٠١، وتشكّلت جمعية للإشراف عليه عُرفت باسم (مؤسسة جامع بنما)، وتقوم بتعليم أطفال المسلمين في الجامع، وفي مكانٍ مستأجرٍ وسط المدينة، وآخر مستأجر في الضاحية. وتخلّى المسلمون عن جمعية القاديانيين حتى

لم يبق فيها سوى فرد توفي عام ١٣٩١ فآلت أرضها إلى الجمعية الإسلامية. ثم باع المسلمون هذه الأرض، واشتروا مكاناً وسط المدينة، وأقاموا فيه مسجداً ومدرسةً أو مركزاً لهم، وتوحّد المسلمون والتفّوا حول الجمعية، حيث انضمّ الشاميون إليها، وأصبحوا يرسلـون أبنـاءهـم إلى المركـز كـي يتعلّموا مبادىء الإسلام، ويأتون هم لتعليم اللغة العربية.

وإذا كان قد انقرض القاديانيون إلا أن البهائيين قد جاءوا، وبدأ نشاطهم، وأقاموا لهم معبداً في إحدى ضواحي المدينة.

كولون: وتقع في المنطقة الحرة، وتُقيم فيها خمسون عائلةً مسلمةً معظمها من الشاميين من فلسطين ومن البقاع في لبنان بينهم نسبة ضئيلة من الشيعة، كما توجد منها عشر عائلات اعتنقت الإسلام من (بنما). وتأسّست في المدينة جمعية إسلامية عُرفت باسم (المركز الثقافي الإسلامي). وقد اشترى المركز مقرّاً لها يُعدّ مُصلىً، ومكاناً للاجتماع، ومدرسةً للتعليم، وساحةً للرياضة.

وحصل المركز على قطعة أرضٍ مساحتها ٣٥ ألف متر مربع لبناء جامعٍ ومدرسةٍ.

جزر البحر الكاريبي

تنتشر جزر كثيرة في البحر الكاريبي.

ويمكن ملاحظة أربع مجموعات من الجزر هي:

١ ـ جزر الآنتيل الكبرى: وتضم عدداً من الجزر الكبيرة نسبياً تمتد من الغرب إلى الشرق تقريباً، وتشمل: جزيرة كوبا، وجزيرة جامايكا، وجزيرة هيسبانيولا (هايتي والدومنيكان)، وبويرتوريكو وبعض الجزر الصغيرة الأخرى.

٢ ـ جزر الآنتيل الصغيرة: وتمتد من شرق جزر الآنتيل الكبرى حتى قرب فنزويلا في أمريكا الجنوبية وتشمل: غواديلوب، ودومنيكا، والمارتينيك، ولوسيا، وفينسانت، وغرناطة وغيرها.

٣ ـ جزر الباهاما: وتمتدّ من جنوب شرقي شبه جزيرة فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية حتى جمهورية الدومنيكان.

٤ ـ جزر الآنتيل الهولندية: وتمتد شمال ساحل فنزويلا في أمريكا الجنوبية، وهي جزر قليلة العدد، ضئيلة المساحة.

وكل مجموعة تضمّ عدداً من الدول أو الوحدات السياسة، وسنبيّن وضع الأقليات المسلمة في كل جزء ـ إن شاء الله ـ.

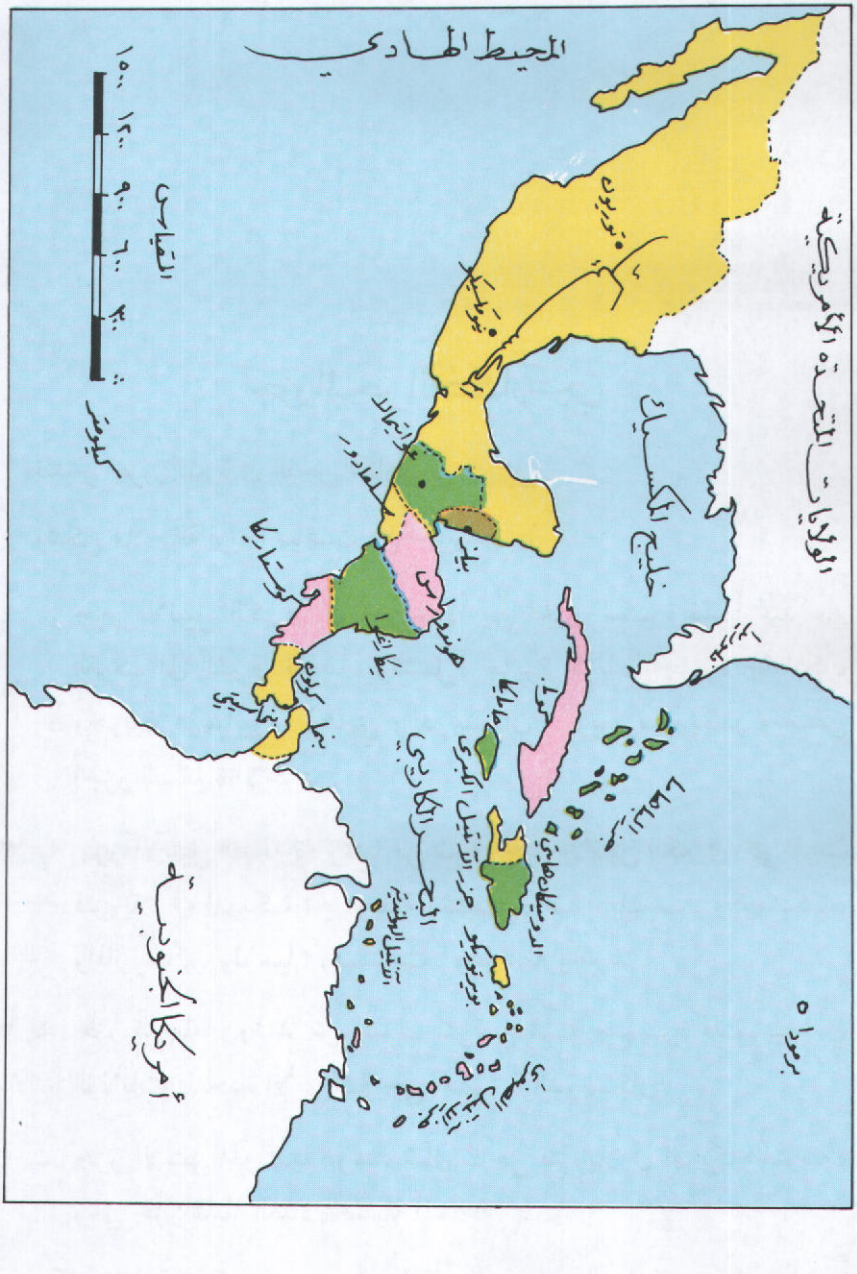
المحيط الهادي
الولايات المتحدة الأمريكية
خليج المكسيك
البحر الكاريبي
أمريكا الجنوبية
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٨٣] .

جـزر الأنـتيل الكبرى

١ - **كوبا**: تبلغ مساحتها ١١٤,٩٢٢ كيلومتراً مـربعـاً، ويبلـغ عـدد سكانها حوالي عشرة ملايين، وعاصمتها مدينة (هافانا).

عرفها كولومبوس عام ٨٩٨، واحتلّتها اسبـانيـا عـام ٩١٧، وأبـادت سكانها الأصليين، وتدفّق عليها الإسبان، وجلبوا إليها الرقيق من إفريقية، وبقي الاحتلال الإسباني حتى عام ١٣١٦ حيث تدخّلت الولايات المتحدة، وبقيت فيها مدة أربع سنوات، وأعلنت فيها الجمهورية عام ١٣١٩، واستولى باتستا على الحكم عام ١٣٥٢، واستمرّ في حكمه حتى عام ١٣٧٣ حيث سيطر الشيوعيون بزعامة كاسترو.

يتكلّـم السكـان اللغـة الإسبـانيـة، ويـديـن ٨٠٪ منهـم بـالنصرانيـة الكاثوليكية، و١٩٪ بالنصرانية البروتستانتية، ويوجد ألفان من اليهود. وينتمي ٧٣٪ منهم إلى العنصر الأبيض، و٢٧٪ إلى أصل إفريقي.

وصل المسلمون إلى كوبا مع المستعمرين الإسبان، إذ كان عدد منهم من الموريسكيين، غير أنهم ذابوا في المجتمع مع الزمن، مع أن أحد ملاحي كريستوف كولومبوس وهو ردريك دي لب قد اعتنق الإسلام عندما رجع إلى إسبانيا رغم وضع المسلمين السيء.

ووصل شاميون في مطلع القرن الرابع عشر هجري، ثم جاء إليها مسلمون من الصين عام ١٣٢٦، ووصل عدد المسلمين عام ١٣٧١ إلى خمسة آلاف مسلم، ثم تراجع هذا العدد بعد السيطرة الشيوعية، ويُقدّر عددهم اليوم بألف مسلم، ولكنهم في طريق الضياع لطبيعة الحكم، والجهل بالإسلام، والبعد عن المسلمين، والإهمال.

٢ - **جمايكا:** تبلغ مساحتها ١١,٤٢٤ كيلومتراً مربعاً، أي أنها أكبر مساحةً من لبنان بقليل، يقرب عدد سكانها من المليونين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (كينغستون).

وصل إليها كريستوف كولومبس عام ٩٠٠ هـ فأباد سكانها الأصليين، وبقي الاستعمار الإسباني فيها حتى عام ١٠٦٦ حيث حلّ محلّه الاستعمار الإنكليزي الذي استمرّ حتى نالت الاستقلال عام ١٣٨٢ هـ، وأصبحت عضواً في رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

ينتمي أغلب السكان إلى أصولٍ إفريقيةٍ جُلبت كرقيق أيام الاستعمار حيث يُشكّلون ٨٥٪ من مجموع السكّان، واستقدم الانكليز عمالاً من شبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا، وهاجر إليها الصينيون، وانتقل إليها بعض الأوربيين، وهؤلاء جميعاً يُشكّلون ١٥٪.

يتكلّم أكثر السكان اللغة الإنكليزية، وهي اللغة الرسمية في البلاد، وتدين الغالبية بالنصرانية البروتستانتية بشُعبها التي أفقدت الديانة معناها فأُهملت، ويعيش كذلك ما يزيد على مائتي ألف نصراني كاثوليكي في جمايكا، وعشرة آلاف هندوسي، وستمائة يهودي.

جاءت أعداد من المسلمين بين أفواج الرقيق، وكانوا في بداية أمرهم يُؤدّون بعض شعائرهم سرّاً، ويتعلّمون بعض أمور دينهم، غير أن ضغط العمل، وضغط الجلاّدين المستعمرين ومع الزمن انصهر هؤلاء ضمن مجتمع الرقيق، ونسوا ما كانوا عليه.

وعندما جاء الهنود كانت بينهم أعداد من المسلمين أيضاً ضاع معظمهم مع مرور الأيام، ويُقدّر عدد المسلمين اليوم بأكثر من ألف، إذ تنبّه بعضهم فعمل على تنظيم المسلمين بعد أن خفّ الضغط، وتكوّنت جمعية (مسلمي جمايكا) في عام ١٣٧٨. وللمسلمين اليوم مسجد في العاصمة (كينغستون)، ومسجدان في مدينة (اسبانش تاون)، وفي هذه المساجد الثلاثة تعليم لمبادىء الإسلام، وتدريس لأبناء المسلمين.

٣ - **هايتي**: تُشكّل ثلث جزيرة هيسبانيولا الغربي، تبلغ مساحتها ٢٧,٧٥٠ كيلومتراً مربعاً، أي ما يعادل مساحة فلسطين، ويبلغ عدد سكانها سبعة ملايين، وعاصمتها مدينة (بورت او برنس).

وصل إليها كريستوف كولومبوس عام ٨٨٩، وبقيت تحت الاستعمار الاسباني حتى احتلّتها فرنسا عام ١٠٢٦، واضطرت إسبانيا أن تعترف بهذا الاحتلال عام ١١٠٩ هـ، وجاء الفرنسيون بالرقيق من إفريقية، واستقلّت عن الاستعمار الفرنسي عام ١٢١٩ هـ، ولكنها خضعت لحماية الولايات المتحدة عام ١٣٢٣ واستمرّت على ذلك حتى استقلّت عام ١٣٥٣، وكانت أول جمهوريةٍ للأفارقة السود في أمريكا، ويُشكّل هؤلاء غالبية السكان.

يتكلّم السكان اللغة الفرنسية، وهي اللغة الرسمية، إلى جانب لغةٍ خاصةٍ بهم تُسمّى (الكريول)، وهي إحدى لغات غربي إفريقية. وتدين غالبية السكان بالنصرانية الكاثوليكية، كما تنتشر بعض الوثنيات الإفريقية.

كان أكثر الرقيق الذي حمل إلى هايتي من المسلمين من غربي إفريقية حيث الغالبية السكانية مسلمة، وحيث السيطرة للاستعمار الفرنسي، وإن الشدّة قد أنست الكثير إسلامهم مع الجهل الذي كان موجوداً، وقد قاد أحدهم وهو (ماكندال) وأصله من قبائل مالي (الماندينغ) ثورة ضدّ الفرنسيين عام ١١٧٢، فأحرقه الفرنسيون حياً عندما تمكّنوا منه. ومع الزمن ضاع المسلمون

هناك، ثم بدأت الآن أحفادهم تعود إليه، ويُقدّر عدد المسلمين اليوم في (هايتي) بألف مسلم، ولكن لا تنظيم لهم ولا رابط يجمعهم.

٤ً - **الدومنيكان:** تشغل الجزء الأكبر والشرقي من جزيرة هيسبانيولا، تبلغ مساحتها ٤٤,٤٤٢ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ستة ملايين ونصف المليون، وعاصمتها مدينة (سانت دومينكو).

وصل كريستوف كولومبوس إلى جزيرة هيسبانيولا عام ٨٩٨، وترك ابنه والياً عليها، وبقيت تحت الاستعمار الإسباني حتى عام ١٢١٠ حيث حلّ محله الاستعمار الفرنسي، غير أن السكان قد ثاروا في القسم الشرقي على المستعمرين عام ١٢٢٤ وشكّلوا حكومةً فعادت إسبانيا واحتلّت ذلك القسم الذي عُرف باسم الدومنيكان، غير أنها حصلت على استقلالها عام ١٢٦٠ بعد أن سيطرت عليها هايتي مدة عشرين سنة، ثم احتلّتها البحرية الأمريكية عام ١٣٣٤ حتى عام ١٣٤٢ حيث استقلّت بعدها.

ينتمي ١٥٪ من السكان إلى أصولٍ إفريقيةٍ، ومثلهم إلى أصولٍ إسبانيةٍ و١٠٪ هنود أمريكيون و٥٪ أوربيون و٥٥٪ من أصولٍ مختلفةٍ أغلبها خليط من الأوربيين والزنوج. ويدين معظم السكان بالنصرانية الكاثوليكية مع ١٥٠ ألف من النصارى البروتستانت.

وصل المسلمون الأندلسيون إلى جزيرة هيسبانيولا في القرن العاشر تجاراً وفارين من الاضطهاد الصليبي الإسباني، وأظهروا هناك دينهم، غير ان الكاردينال سيسنيروس أرسل عام ٩٢٣ مبعوثاً إلى الدومنيكان لإقامة محاكم التفتيش هناك ضدّ المسلمين. إلاّ أن الهجرة الإسلامية قد تتابعت، فأصدرت ملكة اسبانيا قراراً عام ٩٣٨ تمنع فيه هجرة المسلمين أو من هم من أصولٍ إسلاميةٍ حتى ولو كانوا عبيداً أو على الدين النصراني ظاهراً. وفي عام ٩٥٠ أصدر طاغية الإسبان كارلوس الخامس أمراً بطرد المسلمين المقيمين في أمريكا أحراراً كانوا أم عبيداً، وحدّد غرامةً قدرها عشرة آلاف

دينار مرابطي لكل من يُخالف هذا الأمر. ورغم كل هذه القوانين الجائرة لم يُقض على الإسلام في الجزيرة، بل نجح المسلمون في نشره بين أهل البلاد الأصليين إذ أصدر ملك الإسبان أمراً لحاكم الجزيرة نصه ما يلي: « نخبركم أن المغاربة (أي المسلمين) إذا كانوا كذلك ديناً أو أصلاً أو علّموا العقائد الإسلامية لغيرهم أو حاربوكم أو حاربوا الهنود الحمر الذين هم تحت حكمكم فإن لكم الحق في أن تستعبدوهم. أما المسلمون بين الهنود الحمر الذين اعتنقوا الإسلام فلا تستعبدوهم بأي حالٍ من الأحوال، وبالعكس حاولوا أن تغيّروا دينهم بالإقناع وبالطرق الشرعية حتى يقبلوا عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة »[1] ولقد وصل رعب الإسبان من المسلمين إلى درجةٍ أنهم خافوا من غزوٍ عثمانيٍ على مستعمراتهم الأمريكية عام ١٠٧٠ هـ. وقد ذاب المسلمون في القرن الحادي عشر الهجري من الدومنيكان.

وقد وصل بعض الشاميين المسلمين في مطلع القرن الرابع عشر الهجري إلى الجزيرة، ويوجد اليوم ما يزيد على المائة، ولكن لا تنظيم لهم، ولا معرفة عندهم، ولا اهتمام بهم.

٥ً - **بويرتوريكو**: تبلغ مساحتها ٨,٨٩٦ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة سان جوان.

عرف كريستوف كولومبوس الجزيرة عام ٨٩٩، واحتلّتها إسبانيا عام ٩١٤ وأبادت السكان الأصليين، وجلبت أعداداً من الأفارقة كرقيقٍ للعمل في الأرض، واستمرّ الاستعمار الإسباني حتى خلفته الولايات المتحدة عام ١٣١٦ كمستعمرةٍ جديدةٍ، وحصلت الجزيرة على استقلالها عام ١٣٧٢، ولكنها بقيت في شبه اتحاد مع مستعمرتها السابقة.

---

(١) المسلمون في أوربا وأمريكا ـ علي المنتصر الكتاني ـ المجلد الثاني ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

يدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ومعهم ثلاثمائة ألف من النصارى البروتستانت، وألف من اليهود. واللغة الرسمية هي الإنكليزية مع أن الإسبانية لا تزال لها جذور بين السكان.

وأكثرية السكان خليط من الإسبان والأفارقة مع أقليةٍ من الهنود الحمر، والأمريكيين. وهاجرت إلى البلاد جماعة من بلاد الشام من فلسطين ولبنان تشكل الأقلية المسلمة جزءاً منهم، ويُقدّر عدد المسلمين بأكثر من ألفي مسلم يُؤلّف الشاميون معظمهم، وقد حصلوا على الجنسية الأمريكية كأغلب السكان.

وهم ١,٦٠٠ من فلسطين. وهم جميع الفلسطينيين إذ لا يوجد بينهم نصارى.

٣٠٠ من لبنان. يوجد غيرهم من لبنان ولكنهم نصارى.

١٠٠ من جنسيات أخرى.

يعمل أكثر المسلمين تجاراً غير أن بعضهم أصحاب محلاتٍ وعندهم ثروات، وبعضهم باعة متجولون، حالتهم المادية غير حسنة. ويوجد أستاذان مسلمان في الجامعة أحدهما مصري والآخر مغربي.

يُقيم أكثر المسلمين في العاصمة سان جوان، ثم في مدن بونسي، أرسيبو، ريوبدراس.

وقد أهملوا أنفسهم إسلامياً، وأهملوا تعليم أبنائهم لذا فهم سائرون في طريق الضياع إذ غيّر بعضهم أسماءهم إلى أسماء نصرانية، وأباح بعضهم الزواج المختلط، فزوّجوا بناتهم للنصارى. ويتزوجون في الكنائس ولكنهم نظموا أنفسهم على أساسِ العصبية العربية فأسّسوا نادياً باسم «النادي العربي الثقافي» في ضاحية العاصمة في بلدة ريوبدراس عام ١٣٨٧، وتطوّع أربعة لتعليم اللغة العربية، ولكن لم يلبثوا أن اختلفوا عام ١٣٩٢ على أساسٍ سياسي، وأهمل النادي أخيراً عام ١٣٩٤.

فتح العرب نادياً آخر في مدينة أرسيبو ثم اختلفوا بعد عدة سنوات.

ولا توجد أية مؤسسة إسلامية أو مسجد رغم استعداد بعضهم لبناء مسجد وعنده الإمكانات الكافية، كما أن الحكومة مستعدة لتقديم قطعة أرض لإقامة البناء عليها.

٦ - **الجزر العذراء**: مجموعة من الجزر الكثيرة تقع إلى الشرق من جزيرة بويرتوريكو بأربعين كيلومتراً منها تسع جزر كبيرة نسبياً تخضع ست منها لانكلترا ومساحتها ١٥٢ كيلومتراً مربعاً فقط، ولا يزيد سكانها على العشرين ألفاً، وأهم هذه الجزر (تورتولا) و (انغادا) و (غوروا)، وتملك الولايات المتحدة ثلاثاً وهي (سانت توماس) وفيها العاصمة (شارلوت أمالي)، وجزيرة (سانت جون) و(سانت كرمريكس) إضافةً إلى خمسين جزيرة صغيرة أخرى أغلبها غير مأهول. وتبلغ مساحتها ٣٤٥ كيلومتراً مربعاً، ويزيد سكانها قليلاً على المائة ألف.

وصل كريستوف كولومبوس إلى هذه الجزر عام ٨٩٩، وخضعت للاستعمار الإسباني، غير أن انكلترا سيطرت على جزء منها عام ١٠٧٧ هـ، كما استولت الدانمارك على ثلاثٍ منها ثم باعتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٣٣٦.

ينتمي ثلاثة أرباع السكان إلى أصولٍ إفريقيةٍ كانت قد جلبتهم إسبانيا كرقيقٍ أثناء استعمارها للجزر، والباقي خليط من الإسبان والأفارقة مع بعض الأوربيين والأمريكان. ويدينون بالنصرانية الكاثوليكية والبروتستانتية.

وقد انقرض المسلمون الذين جاءوا في المرحلة الأولى من إسبانيا كموريسكيين، إذ ظنّوا أنهم سيجدوون مخرجاً لهم لما يُعانون في الأندلس تحت سيطرة الإسبان فوجدوا الأمر نفسه، فقُتل من قُتل، وأُحرق حياً من أُحرق، وبقي يكتم إيمانه بعضهم غير أن الأجيال التالية قد ضاعت ثم ذابت.

وجاء في العصر الحديث بعض التجار الشاميين، ورجع بعض الأفارقة إلى الإسلام، وأصبح عدد الجالية الإسلامية ألفين وثلاثمائة مسلم، وهو ما يُعادل ٢٪ من مجموع السكان، وقد نظمّوا أنفسهم حديثاً فألفوا (الجمعية الإسلامية العالمية للجزر العذراء)، ولا يلقون أي اهتمامٍ من إخوانهم في الأمصار الإسلامية.

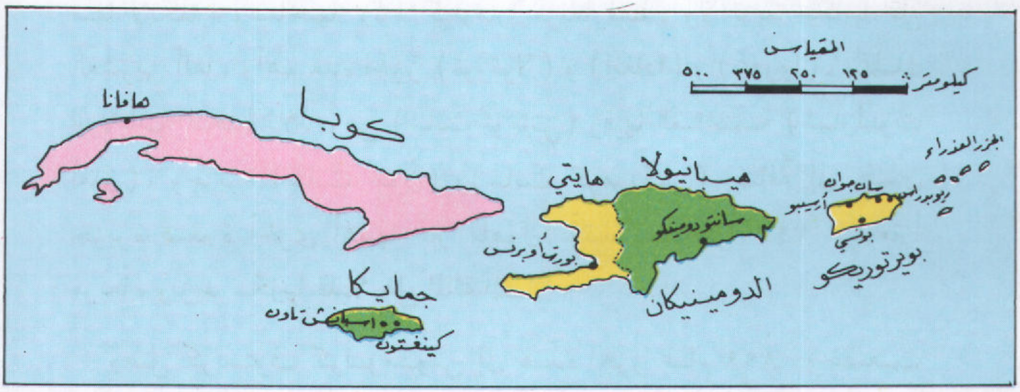

مصور رقم [٨٤].

جـزر الآنـتيل الصغرى

وهي مجموعة جزرٍ صغيرةٍ كثيرة العـدد أكبرهـا واديلـوب، دومنيكـا، والمارتينيك، وسانت لوشيا، وسانت فينسنت، وغرناطة، وتمتدّ من الشمال إلى الجنوب، وتسدّ البحر الكاريبي تقريباً، أو تصل بين جزر الآنتيل الكبرى وساحل فنزويلا، وإلى الشرق منها تقع جزيرة بربادوس.

بعض هذه الجزر كان يتبع انكلترا، وبعضها يلحق بفرنسا، وكل من القسمين يُنسب إلى الدولة التي كان يرتبط بها وإن أخذت أجزاؤه استقلالها الذاتي، وربما حمل اسم الجزيرة الكبرى، وللسهولة نُنظمُها في مجموعتين مع بعض الجزر التي لها صفة الاستقلالية.

الجزر الفرنسية: وهما جزيرتان مع ما يتبعهما من جزر صغرى:

٢ً ـ مارتينيك: وتبلغ مساحتها ١,١١٠ كيلومترات مربعة، ويقلّ عدد سكانها أيضاً عن خمسمائة ألف، وعاصمتها مدينة (فورت دي فرانس).

احتلّ الفرنسيون هذه الجزر عام ١٠٤٥، وجلبوا إليها أعداداً كبيرة من الإفريقيين كعنصر رقيق لإعمار الأرض، ويُشكّل هؤلاء الأفارقة معظم السكان.

يُقيم في هذه الجزر بعض المغاربة المسلمين الذين يأتون للعمل بصورةٍ موقتةٍ، وليس لديهم أي تنظيم أو الأثر الإسلامي.

الجزر الإنكليزية: وهي جزر كثيرة بعضها حصل على استقلاله الذاتي، وبعضها لا يزال مُستعمراً، وأهم جزر القسم الأول:

١ - انتيغوا: وتقع شمال الجزر الفرنسية، وتبلغ مساحتها ٤٤٢ كيلومتراً مربعاً، ويقل سكانها عن المائة ألف، وعاصمتها (سانت جونز).

٢ - سان كيتس: وتبلغ مساحتها ٢٥٩ كيلومتراً مربعاً، ويقلّ سكانها عن ثمانين ألفاً، وعاصمتها مدينة (باستير).

٣ - دومنيكا: وتبلغ مساحتها ٧٥١ كيلومتراً مربعاً، ويقل عدد سكانها عن المائة ألف، وعاصمتها مدينة (ماليغوت).

٤ - سان لوشيا: وتبلغ مساحتها ٦١٦ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها مائةً وخمسين ألفاً، وعاصمتها مدينة (كروس ايسلت).

٥ - سانت فينسنت: وتبلغ مساحتها ٣٨٨ كيلومتراً مربعاً. ويبلغ عدد سكانها مائةً وعشرين ألفاً، وعاصمتها مدينة (كينغستاون).

أما القسم الثاني وهو الجزر التي لا تزال مستعمرات فأهمها.

١ - **باربودا:** وهي جزيرة تقع في الشمال بالقرب من الجزر العذراء، وتبلغ مساحتها ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها على الستين ألفاً، وعاصمتها مدينة (كودريغتا).

٢ - **مونت سيرّات:** وتبلغ مساحتها ٨٣ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً، وعاصمتها مدينة (بلايموث).

٣ - **نيفيس:** وتبلغ مساحتها ٨٠ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً، وعاصمتها (شارلستون).

ويمكن أن نضيف إليها جزيرة برمودا التي تقع شرق الولايات المتحدة الأمريكية في المحيط الأطلسي مقابل ولاية كارولينا وعلى بعد ١١٠٠ كيلومتر منها. تبلغ مساحة هذه الجزيرة ٥٤ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها مائة ألف، وعاصمتها مدينة هاملتون.

لقد اعتنق بعض سكان هذه الجزر الإسلام عن طريق هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو إلى انكلترا، ويُقدّر عدد المسلمين فيها بالمئات، ويوجد مسجد في جزيرة (برمودا) يدعى (مسجد محمد).

غرينادا (غرناطة): تبلغ مساحتها ٣١١ كيلومتراً مربعاً، وتتبعها بعض الجزر الصغيرة التي تصل مساحتها إلى ٣٣ كيلومتراً مربعاً فتكون مساحة الدولة ٣٤٤ كيلومتراً مربعاً. ويبلغ عدد سكانها ١٢٠ ألفاً. وعاصمتها مدينة (سان جورج).

خضعت للسيطرة الفرنسية، ثم آل أمرها عام ١١٧٦ هـ إلى الإنكليز، وبقيت بيدهم حتى حصلت على الاستقلال الذاتي عام ١٣٨٧، ثم أصبحت مستقلةً ضمن دول رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) عام ١٣٩٤.

ينتمي أغلب السكان إلى مجموعة الزنوج الإفريقيين، و١١٪ من المولدين من تزاوج العناصر الفرنسية والإفريقية، و٥٪ من الهنود الأمريكيين. ولغة البلاد الرسمية هي الإنكليزية.

يدين السكان بالنصرانية، ويعيش بينهم مائتان وعشرون مسلماً، أكثرهم من أصلٍ إفريقي عادوا إلى الإسلام، وبعضهم من الهنود الأمريكيين، ويقوم البلاليون بنشاطٍ في غرينادا ولهم المؤسسة الإسلامية.

بربادوس: جزيرة تبلغ مساحتها ٤٣٠ كيلومتراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ثلاثمائة وعشرين ألفاً، وعاصمتها مدينة (بريدج تاون).

احتلّ الإسبان الجزيرة، وأبادوا سكانها الأصليين بدءاً من نزولهم فيها عام ٩٢٥ هـ، وجاءها البرتغاليون عام ٩٤٣، ثم خضعت للسيطرة الإنكليزية عام ١٠٣٨، فاستقدم الإنكليز الأفارقة الزنوج كرقيقٍ للعمل في الجزيرة، كما هاجر إليها الإنكليز أنفسهم، وفي القرن الرابع عشر الهجري استقدم الإنكليز العمال من شبه القارة الهندية للعمل في مزارع قصب السكر، وبين هؤلاء العمال نسبة من المسلمين.

٩٠٪ من السكان يعودون إلى أصولٍ إفريقية، والباقي من العناصر المولّدة والآسيويين. ويتكلّم السكان اللغة الإنكليزية، وهي اللغة الرسمية، ويدين أكثرهم بالنصرانية البروتستانتية، وبينهم أكثر من ١٢٠٠ مسلم.

أسّس المسلمون جمعية أهل السنة والجماعة (الآسجاه)، ونقابة الدعاة (الغيلد). وبنوا مركزاً إسلامياً عام ١٣٩٧ هـ، وتقام فيه صلاة الجمعة والجماعة، وتُعطى الدروس لتعليم اللغة العربية، والقرآن الكريم.

وفي الجزيرة ثلاثة مساجد وتلحق بها كتاتيب لتعليم اللغة العربية، والقرآن الكريم، ومبادىء الإسلام.

ويُذاع يوم الأحد من الإذاعة برنامج إسلامي.

باربودا
سان كيتس
أنتيغوا
نيفيس
مونت سيرات
واديلوب
دومينيكا
مارتينيك
سان لوشيا
بربادوس
سانت فينسنت
بريدج تاون
جزر الأنتيل الصغرى
غرينادا
سانت جورج
المقياس
١٦٥ ١١٠ ٥٥
كيلومتر

مصور رقم [٨٥] .

الآنتيل الهولندية

وهي مجموعة جزر قسم منها قريب من ساحل فنزويلا وهي ثلاث جزر: كورساو، وبونير، وأروبا. وقسم يقع إلى الشمال الغربي من القسم الأول، وعلى بُعد تسعمائة كيلومتر منه في شمال جزر الآنتيل الصغرى، وشرق جزيرة بويرتوريكو وهي: ثلاث جزر غير أنها صغيرة. وهي: سان أوستاشيو، وسبا، ثلث جزيرة سان مارتن، والقسم الباقي من هذه الجزيرة يتبع واديلوب الفرنسية. تبلغ مساحتها جميعها ١٠٢٠ كيلومتراً مربعاً، وتتوزّع المساحة على الشكل التالي:

جزيرة كورساو	٤٦١ كيلومتراً مربعاً
جزيرة بونير	٢٩٠ كيلومتراً مربعاً
جزيرة أروبا	١٨٤ كيلومتراً مربعاً
جزيرة الجزر الشمالية	٨٥ كيلومتراً مربعاً
	١٠٢٠ كيلومتراً مربعاً.

ولا يزيد عدد سكانها على ربع مليون نسمة. وعاصمتها مدينة ويلمستاد الواقعة في جزيرة كورساو.

عرف الإسبان هذه الجزر عام ٩٠٥ هـ، وفرضوا سيطرتهم عليها، وبقوا

فيها حتى نزل الهولنديون فيها، وبدؤوا باحتلالها عام ١٠٤٤، وتمت سيطرتهم عليها عام ١٢٣١، واستمرّوا فيها حتى عام ١٣٧٤ حيث حصلت على الاستقلال، وتمّ اتحاد بينها وبين سورينام مع هولندا.

عمل المستعمرون سواء أكانوا من الإسبان أم من الهولنديين بالقضاء على السكان الأصليين تدريجياً منذ وصولهم إليها حتى عام ١٢٦٥، وما جاء عام ١٢٦٦ ويوجد إنسان من السكان الأصليين، وكان المستعمرون يجلبون الرقيق من إفريقية، ويُشكّل أحفادهم اليوم ٨٠٪ من مجموع السكان، والباقي وهو ٢٠٪ من المهاجرين الأوربيين والأمريكان.

يتكلّم سكان الجزر الشمالية اللغة الإنكليزية، أما سكان الجزر الجنوبية فيتكلمون لغةً مزيجةً من الإسبانية والبرتغالية والهولندية تُعرف بلغة (بابامياتو). وتدين الأغلبية بالنصرانية ويوجد بينهم ألف من اليهود، ولهم معبدان أحدهم في جزيرة (أروبا) والآخر في جزيرة كورساو، كما يوجد ألفا مسلم. ومعظم اليهود من أصلٍ أندلسي.

هاجر إليها الشاميون، منهم النصارى من لبنان ولهم نفوذ كبير في الحياة الاقتصادية والسياسية، ومنهم المسلمون وأكثرهم من مدينة طرابلس الشام، ويُشكّل هؤلاء المسلمون نصف مسلمي البلاد، أما النصف الباقي فهو من الهند وباكستان، ويُقيم أكثرهم في الجزر الشمالية، وهناك الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام أو رجعوا إليه، وقد اعترفت الدولة رسمياً بالدين الإسلامي، غير أنها لا تقدّم للمسلمين ما تُقدّمه من مساعدات لأصحاب الديانتين النصرانية واليهودية من رواتب للأئمة ، مدرسي الدين.

وقد تنصرّت أعداد من المسلمين الذين هاجر أجدادهم إلى تلك الديار إذ أضاعوا عقيدتهم تدريجياً مع الزمن حتى انتهت فتنصروا، غير أنه في الوقت نفسه أقبلت أعداد أخرى من الأفارقة السود نحو الإسلام أو عادوا إليه.

تأسست جمعية إسلامية عام ١٣٨٤ في العاصمة ويلمستاد، وفي العام نفسه

قامت ببناء مسجد، غير أنه حدثت حركة تمرّد في البلاد عام ١٣٨٩ أتت على الكثير من أملاك المسلمين ومحلاتهم، فأدّى ذلك إلى ضعف الحالة المادية عندهم، ولم يتمكّنوا من تأدية رواتب لإمام المسجد فبقي ذلك العام دون إمام.

وتعمل الجمعية حالياً على إقامة مدرسة لتعليم أبناء المسلمين اللغة العربية ومبادىء الإسلام كي تحميهم من التحديات الكبيرة التي تُواجههم والتي تتمثّل في اليهودية والصليبية.

جـزر البـاهـامـا

مجموعة من الجزر يصل عددهم إلى ٣٠٠٠ جزيرة، غير ان المأهول فيها لا يزيد عددها على السبعمائة جزيـرة، وتصـل مسـاحتهـا كلهـا إلى ١٣,٩٣٨ كيلومتراً مربعاً، أي ما يُعادل مرة ونصف من مساحة لبنان. إلا أن أكبر الجزر فيها لا تصل مساحته إلى ١٥٠ كيلومتر مربعاً.

تمتدّ هذه الجزر من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي على مسافة ١٣٠٠ كيلومتر، من جنوب شرقي شبه جزيرة فلوريدا في الولايات المتحدة إلى قرب شرق جزيرة كوبا. ويسكن فيها ما يزيد على ربع مليون إنسان وعاصمتها مدينة (ناساو).

عرف كولومبوس الجزر عام ٨٩٨ هـ، واحتلّتها إسبانيا على مراحل زمنيةٍ. وأخيراً انتزعتها انكلترا عام ١١٢٩، ومنحتها الاستقلال الداخلي عام ١٣٨٤، وأعطتها الاستقلال عام ١٣٩٣، وأصبحت عضواً في رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث). وكانت في الماضي أهم مراكز بيع الرقيق.

ينتمي ٨٥٪ مـن السكـان إلى أصـولٍ إفـريقيـةٍ سـوداء، و١٥٪ إلى المهاجرين من انكلترا، وكندا، وأمريكا. وتدين أكثرية السكان بالنصرانية البروتستانتية مع وجود أقليةٍ من النصارى الكاثوليك.

يُقدّر عدد المسلمين بثلاثمائة مسلمٍ معظمهم من الإفريقيين السود الذين عادوا إلى الإسلام، ويقوم البلاليون بنشاط بينهم، وقد أقاموا عدة مساجد وهيئاتٍ إسلاميةٍ.

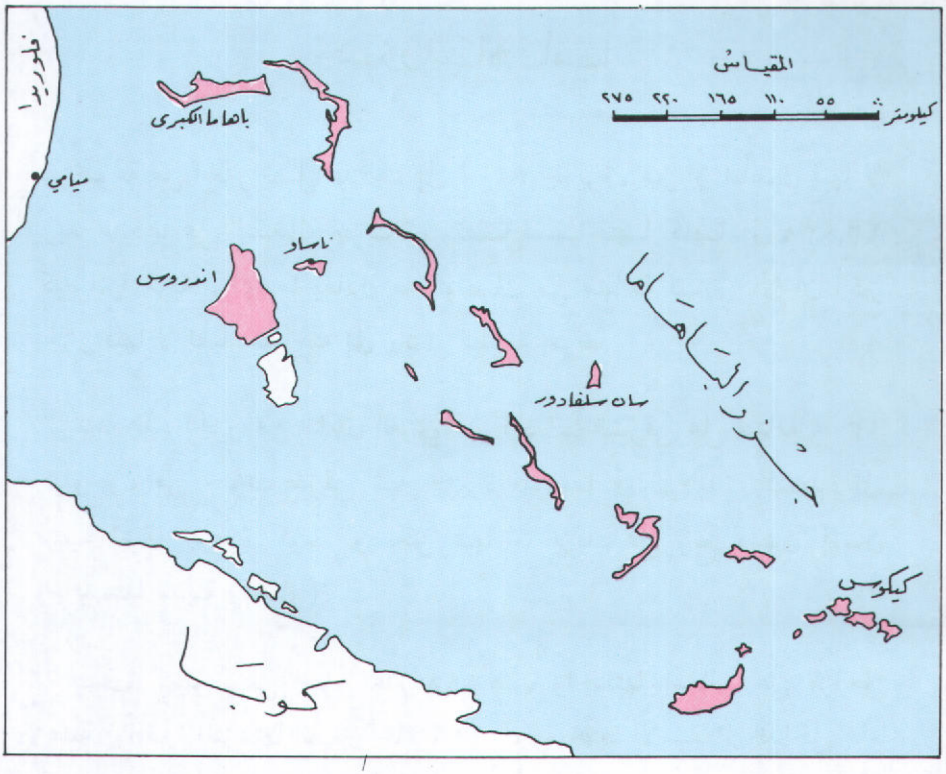

مصور رقم [٨٦] .

الجزء القاري:

	عدد المسلمين	عدد السكان
١ ـ المكسيك	٥٠٠٠	٨٠,٠٠٠,٠٠٠
٢ ـ بيلز	٣٠٠	٢٠٠,٠٠٠
٣ ـ غواتيمالا	٢٠٠	٨,٠٠٠,٠٠٠
٤ ـ هوندوراس	١٠٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
٥ ـ سلفادور	١٠٠	٥,٥٠٠,٠٠٠
٦ ـ نيكاراغوا	٢٠٠	٣,٥٠٠,٠٠٠
٧ ـ كوستاريكا	١٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
٨ ـ بنما	١٥٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
	٧٥٠٠	١٠٦,٧٠٠,٠٠٠

جزر البحر الكاريبي

أ ـ جزر الآنتيل الكبرى:

١ ـ كوبا	١,٠٠٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠
٢ ـ جمايكا	١٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
٣ ـ هايتي	١,٠٠٠	٧,٠٠٠,٠٠٠
٤ ـ الدومينيكان	١٠٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
٥ ـ بويرتوريكو	٢,٠٠٠	٣,٥٠٠,٠٠٠
٦ ـ الجزر العذراء	٢,٣٠٠	١٢٠,٠٠٠
	١٦,٤٠٠	٢٠,٦٢٠,٠٠٠

ب - جزر الآنتيل الصغرى:

الجزر الفرنسية	٢٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
الجزر الإنكليزية	٤٠٠	٧٥٠,٠٠٠
غرينادا	٢٢٠	١٢٠,٠٠٠
بربادوس	١٢٠٠	٣٢٠,٠٠٠
	٢٠٢٠	٢٢,٨١٠,٠٠٠

	عدد المسلمين	عدد السكان
ج - جزر الآنتيل الهولندية	٢,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠
د - جزر الباهاما	٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠
	٢,٣٠٠	٥٠٠,٠٠٠

وبذا يكـون عـدد سكـان أمـريكـا الوسطـى وجـزر البحـر الكـاريبي ١٥٠,٦٣٠,٠٠٠ نسمة.

ويكون عدد المسلمين في هذه المنطقة ٢٨,٢٢٠ مسلماً.

وتكون نسبة المسلمين أقل من ٢ بالألف.

مع الأقليات المسلمة في أمريكا الوسطى

يعيش في أمريكا الوسطى وجزر البحر الكاريبي أكثر من ثمانية وعشرين ألف مسلم تسير بهم عجلة الزمن نحو الضياع لإهمال إخوانهم في الأمصار الإسلامية لهم حيث يتفاعلون مع المجتمع الذي يعيشون فيه تدريجياً فيذوبون شيئاً فشيئاً، إذ لا يملكون المقاومة وليس لديهم المناعة، يتحلّلون من العقيدة فكرة بعد فكرة ومسلكاً بعد مسلك، لا يتلقّون شحنات جديدة من الإيمان ولا ترفدهم عناصر مُشجّعة تحدّ من انحدارهم وتقف أمام انجرافهم في خضم التيار المادي الضاغط. وذلك لأسباب:

إن الأرض التي يحيون عليها ضيقة لا تستدعي إقبال مجموعات من البشر نحوها لإعمارها والعمل فيها كما هي الحال في أمريكا الشمالية أو الجنوبية، لذا فهي تكاد تقتصر على أبنائها الذي وصلوا إليها في السابق إن لم نقل: إن جماعات من أهلها ينطلقون منها يبتغون معايش أخرى في الأرض.

وإن بلادهم ليست متطوّرة لدرجةٍ تجذب إليها طلاب العلم من البلاد المتخلّفة عنها، والأمصار الإسلامية ـ مع الأسف ـ اليوم هي الشعوب المتخلّفة فلا يأتي منها إلى هذه البلاد عناصر فتية بإسلامها تُشجّع من هرم من إخوانها.

وإن بلادهم ليست صناعيةً تستقدم التجار والفنيين، وتستقدم السوّاح والزوار... فكل ما فيها يجعلها مقتصرةً على ما فيها من مسلمين، وربما تصل إليها وفود بعض المؤسسات والهيئات الإسلامية للتعرّف فيستقبلهم المسلمون هناك ويطرحون لهم مشكلاتهم، ويظنون أن الفرج قد جاء، وأن الحيوية قد عادت تدبّ في الأمصار الإسلامية، ويعود الوفد إلى بلده فيكتب التقرير المطلوب منه، فينام ويغطّ الناس في نومهم أيضاً، وتتكرر الوفود وكلما جاء وفد ابتعد الأمل وزاد اليأس، وأُضيف تقرير إلى تقرير، وأضاف السكان ظنّاً سيئاً إلى ظنونهم السابقة... حتى غدوا لا يحبون طرح مشكلاتهم إذ تعوّدوا على معرفة النتائج... والمشكلة أن المسلمين في تلك الجهات يُعاملون معاملة فيها كثير من التمييز بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى من نصارى ويهود، ويجدون تحدّيات عنيفة من أصحاب تلك الديانات ومن البهائيين والقاديانيين وفي الوقت نفسه لا يجدون أي دعم من قبل إخوانهم في الأمصار الإسلامية، فعقيدتهم سبب ما يتحملون لذا يتساهل كل جيلٍ في أمر دينه عن الجيل الذي سبقه حتى...

كان على المسلمين أصحاب الإمكانات والمسؤولية في أي جهة كانوا أن يدركوا هذا ويعطوه حقّ قدره إن كانوا يُؤمنون بالله ورسوله، ويعملون من أجل دينهم، لقد ذاب مسلمون سابقون في هذه البلاد، كانوا أكثر إيماناً وأكثر صلابة... لقد أخفوا دينهم في الأندلس عندما تسلّط عليهم النصارى وأظهروا النصرانية، وانتقلوا إلى الأرض الجديدة كي يُمكنهم أن يُحافظوا على دينهم، وأن يُؤدّوا شعائرهم، وهم على علم أن الموت يُلاحقهم إن عُرف منهم ذلك، فاستُشهد منهم من استُشهد، بعضهم أُحرق حيّاً، وبعضهم قُتل، وبعضهم استُعبد، وبعضهم لُوحق وشُرّد، وبعضهم من بقي يكتم إيمانه، وينقله إلى أبنائه وأحفاده ويُعلّمهم مبادئه ومع ذلك فقد ذابوا في بوتقة الزمن وكانت الأيام كفيلةً لأن تفعل ما لم يتمكّن البشر على فعله، وسيذوب هؤلاء إن لم يتدارك الأمر أهلُه.

إن أعداء الإسلام يُسرّون عندما يـرون أن المسلمين كـانـوا يـركبـون الصعاب فيما لو أُصيب مسلم بمكروه واليوم ليس عندهـم مـن استعـدادٍ لأن يتركوا ما هم فيه من النعيم أو أن ينزلوا عما يمتطونه من سهل ولو أطبقت مصائب الدنيا على المسلمين جميعاً وهنا يشعر الأعداء أنهم قد اقتربوا من النتائج التي يعملون لها ويسعون للوصول إليها.

إن المنصفين ولو كانوا من غير المسلمين لو تخلّوا عن حقدهم لبكوا دماً مما آل إليه أمر هذه العصبة من المؤمنين، لقد كشّر أعداؤهم الأنياب عليهم، وبدؤوا بتمزيقهم وتخلّي إخوانهم عنهم... ثم يُريـدون منهـم الثبـات والصبر وإنا لنرجو أن يكون الايمان سلاحهم، والصبر عدتهم، وأن يُغيّر همة المؤسسات والهيئات الإسلامية وأصحاب الإمكانات والمسؤولية.

الأقليّات المُسْلِمَة
في
أمريكا الجنوبيّة

تتسع الأرض في أمريكا الجنوبية فهي بحاجةٍ إلى أعدادٍ وفيرةٍ من البشر لإعمارها وقد وفد عليها المهاجرون، وكان بينهم جماعات من المسلمين. وإذا كانت البلاد قد بقيت مستعمرةً من قبل دولٍ غير متطوّرة لذا لم تتقدّم كثيراً في مضمار العلم فلم يُقبل عليها الطلبة، ولا في مجال الصناعة فيُقبل عليها التجار، ولا في جانب التطوّر فيأتي إليها السوّاح إلا أن كثرة المهاجرين إليها قد جعلت أعداد المسلمين كبيرة نسبياً، وفي الكثرة ما يُساعد على التعاون في الحياة، وما يُخفّف على الغربة، وما يُهوّن من مشقّة التنظيم وايجاد وسائل التعليم. وهذا ما ينطبق على البلدان الواسعة الأرض التي وفدت عليها أعداد كثيرة لإعمارها مثل البرازيل والأرجنتين، والبلدان التي تتـوجّـه نحو الشرق والشمال الشرقي باتجاه البلدان التي تدفع بأبنائها للهجرة مثل بلاد غويّانا وفنزويلا. أما البلدان الصغيرة والجبلية والفقيرة والتي تقع في الغرب فيقلّ فيها المسلمون، وبالتالي يقلّ اهتمام إخوانهم بهم على حين يزداد ذلك الاهتمام ولو نسبياً في البلدان التي يكثر فيها المسلمون.

تقوم في أمريكا الجنوبية أربع عشرة وحدة سياسية. تسود اللغة الهولندية في سورينام، واللغة الفرنسية في غويانا الفرنسية، والبرتغالية في البرازيل، والإنكليزية في ترينداد وتوباكو، وغويّانا، أما الدول التسع الباقية فتعم اللغة الإسبانية فيها.

تسود النصرانية الكاثوليكية في أكثر دول أمريكا الجنوبية وهي الدول التي تتكلم الإسبانية، والفرنسية، والبرتغالية، أما النصرانية البروتستانتية فيزداد أتباعها في الدول التي تتكلم الانكليزية والهولندية، أي أن الديانة تتعلّق بالدول المستعمرة وهذا يعني أن الاستعمار قد فرض ديانته ومذهبه فرضاً على السكان فالنصرانية في أمريكا الجنوبية شأنها في كل المناطق مرتبطة بالاستعمار.

يُشكّل السكان الأصليون نسبة كبيرة من السكان الحاليين باستثناء الأرجنتين، والشيلي، والأورغواي حيث تقلّ نسبة السكان الأصليين.

وترتفع نسبة المسلمين في المناطق التي يكثر فيها الافارقة، والهنود، والعرب وهي غالباً المناطق الشمالية الشرقية والبرازيل والأرجنتين.

وسنتتبع الأقليات المسلمة في كل وحدة سياسية من هذه الدول الأربع عشرة.

كاراكاس
ترينيداد وتوباغو
فنزويلا
جورجتاون
باراماريبو
كايان
غويانا
سورينام
بوغوتا
كولومبيا
كيتو
اكوادور
غواياكيل
ماناوس
بالم
ريسيف
البرازيل
كويابا
سلفادور
« باهيا »
ليما
البيرو
بوليفيا
لاباز
سانتاكروز
كوتشابامبا
برازيليا
سان باولو
ريو دي جانيرو
سانتوس
باراناغوا
كوريتيبة
باراغواي
اوسونسيون
تكومان
قرطبة
روزاريو
سنتياغو
بورتو اليغري
أوروغواي
مونتفيديو
بوينس ايرس
الأرجنتين
المحيط الهادي
المحيط الأطلسي
المقياس
٠ ٤٠٠ ٨٠٠ ١٢٠٠ ١٦٠٠ ٢٠٠٠
كيلومتر
جزر فوكلاند

مصور رقم [٨٧] .

(١) ترينداد وتوباكو

اسم للجزيرتين الكبيرتين اللتين تتألف منهما الدولة، ورغم أن الدولة مجموعة جزر في البحر الكاريبي إلا أننا وضعناها ضمن مجموعة دول أمريكا الجنوبية لأن جزيرة ترينداد تكاد تلاصق ساحل أمريكا الجنوبية، ولأن طبيعة السكان وارتفاع نسبة المسلمين تجعلها بعيدةً عن ميزات جزر البحر الكاريبي، وهي أقرب إلى أمريكا الجنوبية.

تبلغ مساحة الدولة ٥١٣٠ كيلومتراً مربعاً أي ما يزيد على نصف مساحة لبنان، وتبلغ مساحة الجزيرة الكبرى ترينداد ٤٨٢٨ كيلومتراً مربعاً، أي أكثر من ٩٤٪ من مساحة الدولة. ويبلغ عدد سكانها ١,٣٥٠,٠٠٠ نسمة. وعاصمتها مدينة بورت أوف اسبين (ميناء إسبانيا). وتبعد جزيرة توباكو عن ترينداد اثنين وثلاثين كيلومتراً.

وعرف كريستوف كولومبوس جزيرة ترينداد عام ٩٠٤ وكان يسكنها من قبل الهنود الحمر، واحتلتها اسبانيا رسمياً عام ٩٤٠، ثم خضعت للسيطرة الانكليزية عام ١٢١٢، وجلبت اسبانيا من قبل الرقيق من إفريقية، وكذلك فعلت انكلترا من بعد للعمل في الأرض، غير أن انكلترا قد ألغت الرقيق عام ١٢٥٤، وبدأت تستقدم العمال من شبه القارة الهندية (من الهند وباكستان)، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٣٠، وحصلت البلاد على استقلالها

عام ١٣٨٢ ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، وتشترك الولايات المتحدة الأمريكية في الدفاع عنها حسب اتفاقية عام ١٣٦٠ هـ.

يُشكّل الأفارقة ٤٣٪ من السكان ومعظمهم من الذين جلبوا إلى البلاد كرقيق.
والصينيون والهنود ٤١٪ وهم الذين استقدموا للعمل.
والشاميون ١١٪ وقد هاجروا إليها في القرن الماضي.
والأوربيون ٥ ٪ من إنكليز وإسبان وفرنسيين وبرتغاليين و...
١٠٠٪

واللغة الإنكليزية هي اللغة الرسمية في البلاد.
أما من حيث العقيدة فنلاحظ أن

النصارى يشكلون ٥٣,٤٪ من مجموع السكان، وهم كاثوليك وبروتستانت.
والهندوس ٣٤,٦٪ من مجموع السكان.
والمسلمون ١٢٪ من مجموع السكان ومعظمهم من أهل السنة والجماعة.
١٠٠,٠٪

المسلمون: لعل الموجة الأولى من المسلمين التي وصلت إلى ترينداد وتوباكو كانت من الأفارقة الذين اختطفوا من مناطقهم، وبيعوا، وحملوا إلى أمريكا للعمل بأشقّ الأعمال. وقد ضاع أكثر هؤلاء المسلمين لجهلهم، والعمل على تنصيرهم، وقسوة العمل، وتفرّقهم، وإن بدأ أحفادهم يرجعون إلى الإسلام تدريجياً.

وجاءت الموجه الثانية بين الهنود من ١٢٦٠ حتى عام ١٣٣٠ وقد جاءوا للعمل بعد إلغاء الرقيق، وكانوا أفضل من الذين سبقوهم إذ حافظوا على عقيدتهم.

وهاجر الشاميون إلى هذه الدولة منذ مطلع القرن الماضي وبينهم نسبة من المسلمين. ولكن ارتدّ عدد من المسلمين لتمييز الإنكليز في المعاملة، وضاع عدد أيضاً بسبب الزواج من النصرانيات والتساهل التدريجي في أمر الدين، إضافةً إلى الجهل السائد بينهم.

ويُقدّر عدد المسلمين اليوم بمائة وخمسة وستين ألف مسلم، ويتوزعون في المدن الكبرى وأكثر القرى وخاصةً في جنوبي جزيرة ترينداد. ويُمثّلهم خمسة نواب في المجلس النيابي، ومرّ يوم كان فيه رئيس مجلس الشيوخ أحدهم، كما يضم مجلس الوزراء ثلاثة وزراء من المسلمين. والدين الإسلامي معترف به رسمياً من قبل الدولة.

أسّس المسلمون عام ١٣٤٣ جمعية تقوية الإسلام، غير أن القاديانيين قد تسلّلوا إليها فضعف أمرها، فتركها أكثر المسلمين، وأسّسوا جمعية أهل السنة والجماعة (الآسيجاه) عام ١٣٥٤، فقامت بنشاط كبير، وكُشف أمر القاديانيين فتركوا الجمعيات الإسلامية، وأسسوا لأنفسهم جميعة (رابطة مسلمي ترينداد) إذن بقوا يدّعون الإسلام، ويبلغ عدد القاديانيين أكثر من ألفي قادياني. ثم انفصلت عن جمعية السنة والجماعة جمعية الدعاة المسلمين (الغيلد) وذلك عام ١٣٨٠. كما يقوم البلاليون بنشاطٍ واسعٍ، فأسسوا عام ١٣٩٥ جمعية الحزب الإسلامي، وفي عام ١٣٩٧ بنوا مسجداً ومدرسةً وكليةً وقاعةً للمحاضرات في مركزهم.

يقوم في البلاد أكثر من سبعين مسجداً، وتشرف الجمعيات على التعليم الإسلامي، وتتحمل الدولة ثلثي نفقات المدارس لاعترافها الرسمي بالدين

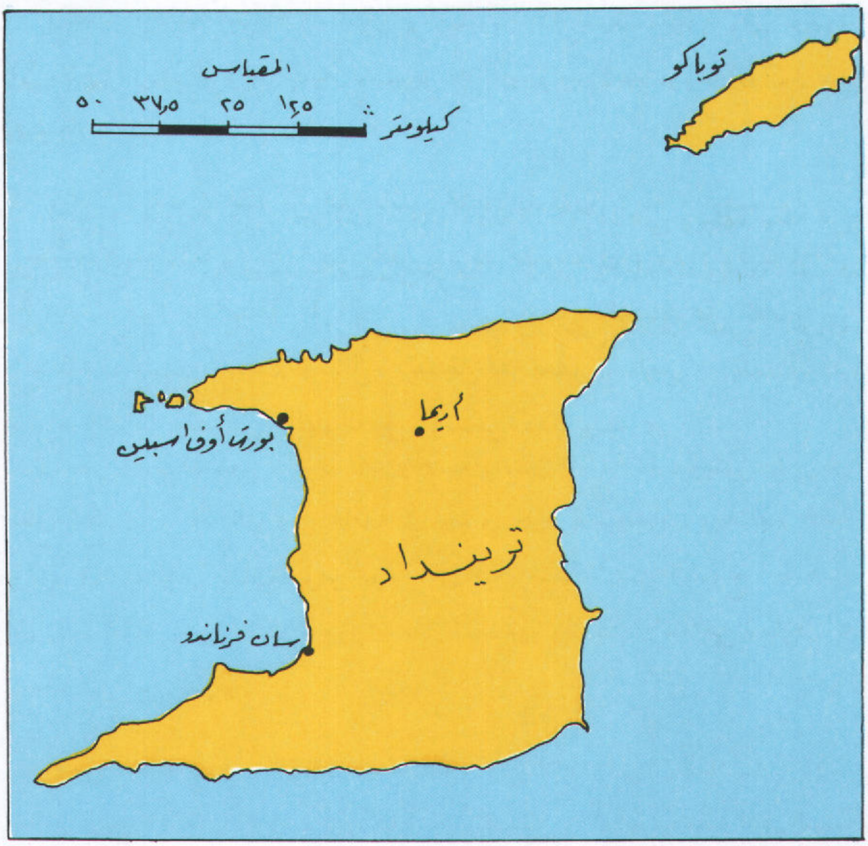

مصور رقم [٨٨] .

الإسلامي. ويتجمّع المسلمون في العاصمة، وأريما، وسان فرناندو وقرى جنوبي ترينداد.

تُشرف جمعية أهل السنة والجماعة على أكثر من سبعين من الكتاتيب الموزعة في أنحاء البلاد، والتي تقوم على تعليم الأطفال للقرآن الكريم، وتتبعها سبع مدارس ابتدائية وثلاث مدارس ثانوية.

وتُشرف جمعية تقوية الإسلام على خمس مدارس ابتدائية.

وتُصدر جميعة الدعاة المسلمين (الغيلد) مجلةً نصف شهرية هي (شعلة الإسلام)، وفي الوقت نفسه تبثّ برنامجاً اسبوعياً دينياً، ولها مركز يضمّ مكتبةً.

ويجد المسلمون عنتاً من القاديانيين الذين يدعون الإسلام ليُضلّلوا من يستطيعون إضلاله، ومن اليهود الذين يزيد عددهم في ترينداد وتوباكو على خمسمائة، هذا بالإضافة إلى النصرانية التي تعمل جاهدةً على تنصير من استطاعت عليهم بمختلف الوسائل، وتستغلّ فقر بعض المسلمين وجهلهم فتُقدّم لهم المساعدات وتعرض عليهم العمل، وتدعي كذباً وتفتري.

(٢) غويـانـا

تبلغ مساحتها ٢١٤,٩٦٩ كيلـومتراً مـربعـاً ، وعـدد سكـانها المليـون ، وعاصمتها مدينة جورج تاون. وصل إليها الإسبان عام ٩٠٥ وفرضوا سيطرتهم عليها حتى عام ١٠٣٠ حيث خضعت للسيطرة الهولندية ، وأخيراً سيطرت عليها انكلترا عام ١٢٩١ ، ثم حصلت على الاستقلال الذاتي عام ١٣٤٧ ، والاستقلال التام ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) عام ١٣٩٠ .

يعود ٥٥٪ من السكان إلى أصلٍ هندي (هند وباكستان).
و٣٣٪ من السكان إلى أصلٍ إفريقي.
و ٤ ٪ من السكان من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين.
و ٧ ٪ من السكان إلى عناصر مختلفة.
و ١ ٪ من السكان إلى أصل صيني.

وثلاثة آلاف من الأوربيين من عدة جنسيات.

أما من حيث العقيدة فيشكل:

النصارى	٤٠٪
والهندوس	٣٥٪

والمسلمون	١٥٪
وثنيات مختلفة	١٠٪ وتوجد بضع مئات من اليهود.
	١٠٠٪

واللغة الرسمية هي اللغة الإنكليزية، كما توجد إلى جانبها لغات كثيرة منها الأوردو، والصينية، والبرتغالية، ولكل مجموعةٍ لغتها الخاصة بها.

ويتنافس في البلاد حزبان رئيسيان هما: حزب الشعب التقدمي وأتباعه من الهنود، ومجلس الشعب الوطني وأنصاره من الذين يعودون إلى أصل إفريقي.

المسلمون: كانت هناك أعداد من المسلمين بين الأفارقة الذين حُملوا إلى العالم الجديد كرقيق، غير أن التحديات كانت تُواجههم، وتقف في وجههم، ومنها التعب الشديد حتى الإعياء، والحقد الصليبي الذي يصل إلى حد الابادة، والمحاولات الدائمة للتنصير، والجهل لذا فقد ضاع هؤلاء المسلمون الأوائل مع الزمن، إذ استمرت هذه التحديات حتى عام ١٢٢٧، ولم تعترف السلطة القائمة بالزواج الإسلامي حتى عام ١٢٧٧، إذ كان يُفرض عليهم الزواج بالكنائس.

ثم جاء الهنود وفيهم نسبة من المسلمين، وقد استُقدموا للعمل، والمسلمون بينهم يُشكّلون ٩٧٪ من عدد المسلمين في غويانا، أي أن عدد المسلمين الهنود هو ١٣٥,٠٠٠، وعدد المسلمين من الأفارقة هو ١٠,٠٠٠، والباقي وهو خمسة آلاف من المجموعات الثانية، وبذا فإن عدد المسلمين في غويانا هو مائة وخمسون ألفاً. والأفارقة رجعوا إلى الإسلام حديثاً. ويوجد في البلاد أكثر من مائتي مسجد، وفي معظمها كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم أو مجموعاتٍ لتعلّم مبادىء الإسلام، ويتجمع أكثر المسلمين في العاصمة جورج تاون (ديمارارا) وما حولها وفي بلدة (انتربرايز).

نظم المسلمون أنفسهم عام ١٣٥٥ ، وأسّسوا جمعية صدر أنجمان ، ولما كان أكثر المسلمين من الهنود ، ولهم حزب سياسي هو حزب الشعب التقدمي لذا كانت هذه الجمعية تناصر هذا الحزب بحكم العصبية العنصرية التي لا يعترف عليها الإسلام. وهذا ما أدّى إلى انقسامها ، وإلى دخولها معترك السياسة ، ويتبع هذه الجمعية اتحاد الطلبة المسلمين ، والجمعية النسائية ، والحزب الإسلامي.

ونشأ نتيجة انقسام جمعية أنجمان عدة تنظيمات إسلامية منها جمعية الإحسان ، والمجلس العام للأخوة الإسلامية ، والمركز الإسلامي ، ورابطة الشباب المسلم ، والمجلس العام للإخوان المسلمين.

ويُصدر المسلمون مجلة (الغارديان الإسلامية) ، وبعض النشرات في المناسبات ، ومنها عيد الفطر.

ويجد المسلمون عنتاً من القومية الهندية المتمثّلة في حزب الشعب التقدمي ، ومن الاتجاه العلماني الذي يُمثّله الحزب نفسه ، ومن اليهودية إذ أقام اليهود (بيت إسرائيل) ، ويعملون جادين ضدّ المسلمين ، ومن الصليبية التي تحرص على تنصير المسلمين ، وتقدّم كل المغريات في سبيل ذلك ، إضافة إلى الحقد القائم ضد الإسلام ، وأخيراً فإن العنت قائم من المسلمين أنفسهم بدعمهم بعض الأحزاب ، واختلافهم فيما بينهم ، وبذل كافة الجهود لنجاح الحزب الذي يُؤيّدونه ، وإضاعة هذا الجهد بلا فائدة.

المقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
"ديمارارا" جورج تاون
باريكا
غويانا
فنزويلا
سورينام
البرازيل

مصور رقم [٨٩] .

(٣) سورينام

تبلغ مساحتها ١٦٣,٢٦٥ كيلومتراً مربعاً، ويسكنها ما يقرب من نصف مليون، وعاصمتها مدينة (باراماريبو). عرفها الإسبان عام ٨٩٨ هـ، وادّعوا ملكيتها، ونازعهم الانكليز والهولنديون، ومكّن الهولنديون قبضتهم عليها عام ١٠٧٨ بعد أن احتلها الانكليز عدة مرات. وحصلت على استقلالها الداخلي عام ١٣٧٤، ثم شكّلت هولندا اتحاداً منها ومن كل من سورينام وجزر الآنتيل الهولندية.

جلب الهولنديون الرقيق من إفريقية، ونتيجة الاستعباد والظلم ثار الإفريقيون بقيادة أحد المسلمين، والتجؤوا إلى الغابات، وبدؤوا بصراعٍ مع الهولنديين، وتمّ الاتفاق بين الهولنديين والثائرين الذين عرفوا باسم زنوج الغابة (جيوكا) وذلك عام ١١٧٢. وبدأ الهولنديون بعدها يستقدمون العمال من الهند، والصين، واندونيسيا، ثم هاجر إلى البلاد بعض الشاميين، ويتألف السكان اليوم من:

الهنود ويشكلون	٣٧,٦ ٪ من السكان
الأفارقة	٤١,٧ ٪ من السكان.
أندونيسيين	١٥,٢ ٪ من السكان.
هنود حمر	٢,١ ٪ من السكان.

صينيين	١,٥ ٪ من السكان.
أوربيين	١ ٪ من السكان.
مجموعات ثانية	٠,٩ ٪ من السكان.

يتكلم السكان لغةً خليطة هي (تاكي تاكي) وتعدّ مزيجاً من الهولندية، والاسبانية، والإنكليزية مع عبارات من الأردو، والملايوية، ولكل مجموعةٍ لغتها فالهنود يتكلمون الأردو، والأندونيسيون يتحدثون بالملايوية، ولكن اللغة الرسمية هي الهولندية.

أما من حيث العقيدة فنجد ما يلي:

يُشكّل النصارى	٤٧,٦ ٪ من السكان.
ويشكل المسلمون	٢٥,٢ ٪ من السكان.
ويشكل الهندوس	٢٥,٠ ٪ من السكان.
ويشكل الوثنيون	٢,٢ ٪ من السكان. وهناك بضع مئات من اليهود.
	١٠٠,٠ ٪ من السكان.

ولكن ارتفعت نسبة المسلمين وهي اليوم تزيد على ٣٣٪ وذلك لإقبال أعداد جديدة على الإسلام، وفي الوقت نفسه تُهاجر جماعات من البلاد وغالباً ما تكون من غير المسلمين، ولذلك نلاحظ أن عدد السكان عامةً قلما يزيد، وإن كانت هناك زيادات فقليلة، وتُسجّل بعض الأعوام تناقصاً واضحاً في السكان. وبذا تكون سورينام أعلى بلدان العالم الجديد نسبة في المسلمين، وربما تصبح بعد قليل من جملة أمصار العالم الإسلامي.

المسلمون: يُعدّ الأفارقة الذين جُلبوا كرقيق أول المسلمين الذين وصلوا إلى سورينام، غير أن الظلم، وتفكُّك الأسرة، والجهل، والأشغال الشاقة، ونشأة الأجيال في مجتمعٍ بعيدٍ عن الإسلام كل هذا قد جعل هؤلاء المسلمين

ينتهون. غير أن الذين جاءوا من أندونيسيا كانوا كلهم من المسلمين، وهناك نسبة من المسلمين من الذين قدموا من الهند. إضافةً إلى عدة آلاف مسلم من مجموعاتٍ أخرى، ومنهم أفارقة عادوا إلى الاسلام. ويكون عدد المسلمين ١٧٠,٠٠٠ وهذا ما يُشكّل ٣٣٪ من مجموع السكان، منهم:

١٠٥,٠٠٠	اندونيسي.
٤٨,٠٠٠	هندي.
٥,٠٠٠	أفارقة.
١٣,٠٠٠	مجموعات ثانية.
١٧٠,٠٠٠	

وقد أسّس المسلمون الهنود جمعيةً لهم باسم جمعية المسلمين السورينامية (أهل السنة والجماعة على المذهب الحنفي) عام ١٣٧٥ هـ، وبنوا مسجد الأنصاري في العاصمة (باراماريبو)، والمسجد الجامع، وستة مساجد أخرى في مناطق متفرقة، وشيّدوا في العاصمة أيضاً مدرسة ابتدائية، وأخرى ثانوية، ومدرسة ابتدائيةً ثانيةً في جهة بعيدة عن العاصمة، ولهم منظمة جامعة العلماء التي تضمّ أئمة المساجد، ويُصدرون مجلة (الإسلام) باللغة الهولندية.

وأسس أهل جاوه الاندونيسيون الاتحاد الإسلامي السورينامي على المذهب الشافعي. ولا شك أن قيام الجمعيات على أساسٍ عنصري لا خير فيه إذ يُولّد الخلاف والشقاق، وهنا يحدث الخلاف حتى على اتجاه القبلة إذ يمكن التوجه شرقاً كما يمكن التوجه غرباً بسبب أن البعد يصبح واحداً تقريباً عن مكة لكروية الأرض، فالهنود يبنون مساجدهم ويجعلون قبلتها نحو الشرق على حين أن الأندونيسيين يتجهون نحو الغرب. ونشاط الهنود واضح وأكبر من نشاط الاندونيسيين بكثير.

ويجد المسلمون عقبةً في وجههم إضافة إلى الصليبية واليهودية يجدون القاديانية، فقد تشكّلت عام ١٣٦٧ جمعية سورينام الإسلامية التي كانت تريد أن تبعد المسلمين عن التعصب المذهبي إذ يتعصّب الهنود لمذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ويتعصّب الأندونيسيون لمذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ غير أن القاديانيين قد تسلّلوا إلى هذه الجمعية، وبدؤوا بالدسّ حتى انتهت، وكسبوا بعض عناصرها المغفّلين، ويقدر عدد القاديانيين بسورينام بستة آلاف قادياني.

وفي سورينام ينتشر أكثر من خمسين مسجداً في مختلف أنحاء البلاد، وإن كان معظم المسلمين يتجمّع في العاصمة باراماريبو.

(٤) غويانا الفرنسية

تبلغ مساحتها ٩٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على خمسة وسبعين ألفاً، وعاصمتها مدينة (كايان). عرفها الإسبان، واحتلّها الفرنسيون عام ١٠٣٥، وأقاموا فيها سجناً للسياسيين الذين يثورون ضدّهم في مستعمراتهم، وضمّ هذا السجن الكثير من مسلمي بلاد المغرب الذين ثاروا ضدّ الفرنسيين في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وحاول بعضهم الفرار إلى البرازيل، منهم من ساعدته الظروف فنجح ووصل إلى مقصده، ومنهم من فشل ولقي حتفه، ومنهم من بقي داخل السجن حتى أغلق بعد الحرب العالمية الثانية، وأُفرج عنه، وكان عدد المسلمين الذين خرجوا من هذا السجن يوم إغلاقه والإفراج عن نزلائه ألفين وخمسمائة مسلم، وخرجوا من السجن وليس لديهم الإمكانات العودة إلى بلادهم، وفي الوقت نفسه يريدون الزواج، وليس بينهم نساء، فتزوجوا من فتيات البلد، وفضّلوا البقاء في أماكنهم فلم يلبث أن ازداد عددهم الذي يُقدّر اليوم بسبعة آلاف وخمسمائة، وهو ما يُعادل ١٠٪ من مجموع السكان، ولا شك أن بينهم عدداً من الإفريقيين الذين عادوا إلى الإسلام ومن المهاجرين الشاميين الذين وفدوا إلى البلاد في القرن الهجري الماضي. ولكن ليس للمسلمين ـ مع الأسف ـ أي مسجد يلتقون فيه أو تنظيم يجمعهم، ويُقيم أكثرهم في العاصمة كايان، وكورو، وسان لوران.

وأكثر السكان من العناصر الإفريقية التي جُلبت كرقيق في أيامه السوداء، إضافةً إلى بعض المهاجرين من الصين، والهند، وبلاد الشام، ودول أوربا.

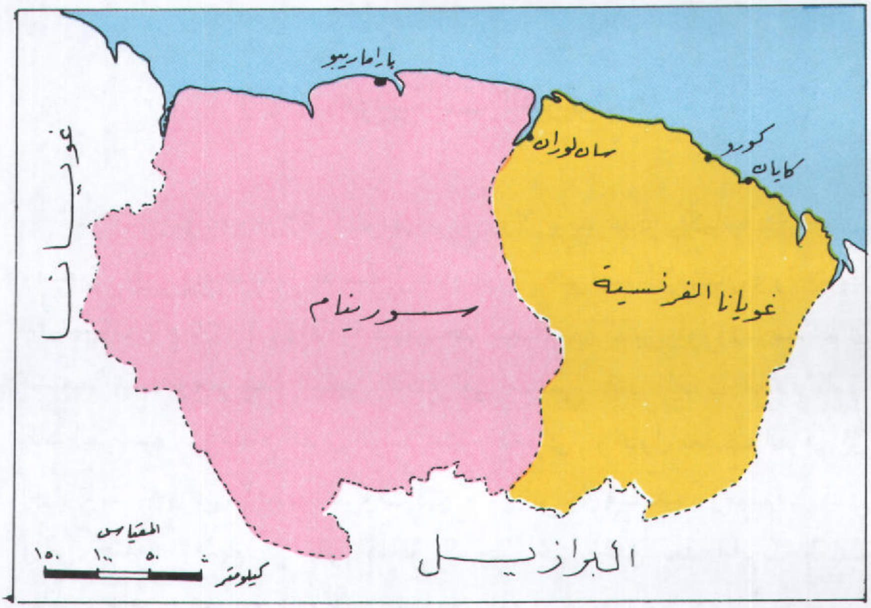

مصور رقم [٩٠].

(٥) فـــنزويـــلا

تبلغ مساحتها ٩١٢ ألف كيلومتر مربع، ويزيد سكانها على خمسة عشر مليوناً، وعاصمتها مدينة (كاراكاس). عرف كـريستـوف كـولـومبـوس فنزويلا عام ٩٠٤، وبدأ الإسبان باحتلالها عام ٩٠٦، وبقيت في قبضتهـم حتى استقلت مع كولومبيا عام ١٢٣٦، ثم انفصلت عن كولومبيا عام ١٢٤٦.

يتألف ٧٠٪ مـن السكـان مـن عنصر الميستيـزو النـاشيء مـن اختلاط الإسبان مع الزنوج الإفريقيين، و٢٥٪ خليـط مـن الإسبـان والأمـريكيين الهنود مع نسبةٍ ضئيلـةٍ مـن الهنـود الحمـر المعـزولين في الجبـال، وبعـض الأوربيين، والعرب الشاميين.

أما من حيث العقيدة فيدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ومائة ألف من النصارى البروتستانت، وبضعة آلاف من النصارى الأرثوذكس هذا بالإضافة إلى أربعين ألف مسلم، وعشرة آلاف يهودي. واللغة الرسمية هي الإسبانية.

المسلمون: وصل إلى فنزويلا مع الإسبان بعض الموريسكيين (الذين يظهـرون النصرانيـة ويخفـون الإسلام) غير أنهم انتهـوا مـع الزمن، وتحت الإرهاب الصليبي.

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري وصل مهاجرون من بلاد الشام قُدّر عددهم بمائة وخمسين ألفاً، أكثرهم من النصارى وفيهم نسبة من المسلمين. كما هاجر إلى فنزويلا حديثاً بعض المسلمين من جزر البحر الكاريبي وترينداد.

يُقدّر عدد المسلمين اليوم بأربعين ألفاً كلهم من بلاد الشام سوى ألفين من مناطق ثانية، من مصر، وترينداد وغيرهما. يعيش عشرة آلاف منهم في العاصمة كاراكاس، ويتوزّع الآخرون، وأكثرهم يسكن بلنسية، وبرشلونة، ومراكيبو، وماراكي، وماتورين، وحوض نهر أورينكو.

تأسست عام ١٣٨٨ جمعية لبناء مسجد فنزويلا في العاصمة، وقد أقامته عام ١٣٩٢، ويتألف من دورين يقوم في أحدهما المسجد، وفي الآخر مركز، ومدرسة، وقاعة للاجتماعات.

ويوجد في العاصمة مركز فلسطيني، ويُصدر مجلة فلسطين باللغة الإسبانية.

ويجد المسلمون عنتاً من الصليبية، واليهودية، ورغم قلة عدد اليهود إلا أن دورهم كبير.

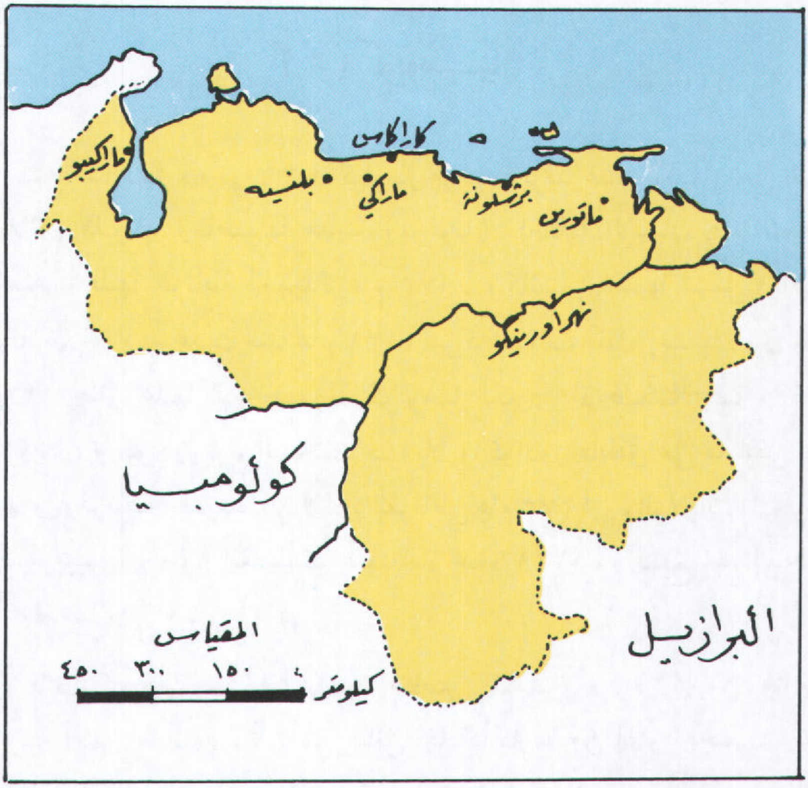

كاراكاس
ماراكيبو
بلنسيه
ماركي
برشلونة
ماتورين
نهر اورينكو
كولومبيا
البرازيل
المقياس
٤٥٠ ٣٠٠ ١٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٩١] .

(٦) كولومبيا

تبلغ مساحتها ١,٣٩٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على اثنين وثلاثين مليوناً، وعاصمتها مدينة (بوغوتا). احتلّها الإسبان عام ٩١٥، وأطلقوا عليها غرناطة الجديدة عام ٩٧٢، وكانت أراضيها تشمل أراضي دولة بنما اليوم، وغدت منذ عام ١١٣١ مركزاً لنائب ملك إسبانيا، وفي عام ١٢٣٣ أُطلق عليها اسم جمهورية كولومبيا الكبرى إذ ضمّت أيضاً أراضي فنزويلا، واكوادور، ثم انسحبت فنزويلا واكوادور فأُطلق على ما تبقّى اسم جمهورية غرناطة الجديدة، ثم الاتحاد الغرناطي عام ١٢٧٣، ثم الولايات المتحدة الكولومبية، وأخيراً انفصلت عنها بنما عام ١٣٢١، وأصبح اسم الدولة (كولومبيا).

يتألف السكان من ٥٨٪ من عناصر الميستيزو، و٢٠٪ من عناصر أوربية أكثر إسبانية، و٧٪ من قبائل محلية أكثرها من الهنود الحمر، و٥٪ من أصولٍ إفريقية، و١٠٪ من جنسيات مختلفة بينهم ٦٠ ألف من بلاد الشام وأكثرهم من النصارى.

يدين معظم السكان بالنصرانية الكاثوليكية وهناك مائتا ألف نصراني بروتستانت، وثلاثون ألفاً من اليهود. إضافةً إلى عشرة آلاف مسلم.

وتنتشر المخدرات على نطاقٍ واسع، وتقوم حرب العصابات.

المسلمون: وصل بعض الموريسكيين إلى كولومبيا مع طلائع الإسبان

ولكنهم زالوا مع الإرهاب ومرور الأيام، وجاءت هجرة من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ضاع أكثرهم نتيجة الجهل، والزواج من النصرانيات، وإهمال إخوانهم لهم، والتوزّع.

مصور رقم [٩٢].

وزادت هجرة الشاميين بعد الحرب العالمية الثانية وخاصةً من فلسطين.

ويتوزّع المسلمون في كولومبيا في المدن الآتية:

١ ـ بوغوتا: وهي العاصمة، وتقع في وسط البلاد، على ارتفاع ٣٧٠٠ م، الأمر الذي يجعل المناخ فيها يميل إلى الاعتدال رغم وقوعها في المنطقة الحارة، وعلى مقربةٍ من خط الاستواء. يبلغ عدد سكان المدينة ما يقرب من ستة ملايين، ويعيش بينهم ما يقرب من خمسمائة مسلم، أكثرهم من الشاميين من منطقة فلسطين، وقليل منهم من جبل لبنان. أسس المسلمون «الجمعية الخيرية» عام ١٤٠٧ هـ، وتبع ذلك قيام مدرسة عربية، ومنحت الحكومة المسلمين قطعة أرض لبناء مدرسة ومسجد.

وكان المسلمون يؤدون صلاتهم في مسجد أقامه إبراهيم علي سالم، من بلاد الشام، ولكن اشترته الجمعية منه، وجعلته وقفاً للمسلمين.

٢ ـ ميكاو: وتقع في الشمال، ويزيد سكانها على المائة ألف، ويعيش بينهم أكثر من ثلاثة آلاف مسلم ٧٥٪ منهم من أهل السنة والجماعة، و٢٥٪ من الشيعة، وغالبية المسلمين في هذه المدينة من بلاد الشام. وحاول أصحاب النزعة العصبية إقامة نادٍ عربي غير أنهم فشلوا. واستأجر بعض الشباب المسلمين مكاناً صغيراً، وجعلوه مسجداً، وفي عام ١٤٠٠ هـ تأسست الجمعية الخيرية التي اشترت قطعة أرض كبيرة، وأقاموا عليها مدرسةً للعربية، حيث كان يتمّ تعليم الأطفال يومي السبت والأحد في مكانٍ مستأجرٍ. وبنيت المدرسة خلال أربع سنوات، وتمّ افتتاحها في الأول من ربيع الأول عام ١٤٠٠ هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٨٠ م)، ووصل عدد طلابها عام ١٤١٠ هـ إلى أربعمائة طالب.

وانفصل الشيعة عن المسلمين، واشتروا قطعة أرض لبناء مدرسةٍ لتعليم أطفالهم، وتشييد «حسينية» لهم.

كما انفصل عن المسلمين أصحاب العصبية القومية، وأسّسوا « النادي العربي ».

٣ ـ سان اندرس: وهي جزيرة في البحر الكاريبي، قريبة من نيكاراغوا، ويوجد خلاف بين الدولتين على هذه الجزيرة. وكانت الولايات المتحدة قد قدّمتها لكولومبيا عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) بعد أن انتزعت منها (بناما).

هذه الجزيرة سياحية، يسكنها ما يقرب من مائة ألف، يعيش قسم من سكانها عرايا أو شبه عراة، ويقيم بينهم ما يقرب من ستين مسلماً معظمهم من الشام، أكثرهم من لبنان، وأقلّهم من فلسطين، كما توجد أسر من الشيعة، والدروز، وبعض النصارى العرب من الموارنة. وأكثر الشباب لا يتزوج إلا من مسلمات ـ ولله الحمد ـ. ومع الفساد الصارخ في هذه الجزيرة فقد استأجر بعض الشباب مكاناً لهم، وجعلوه مصلىً لهم وذلك عام ١٤٠٦ هـ، وفي العام التالي استدعوا رجلاً داعيةً من الشام من منطقة لبنان لتوجيههم، فاستطاع التأثير عليهم، واشتروا قطعة أرض، وبدؤوا بتأسيس مسجد ومدرسة، ولكن كثرة المشكلات جعل الداعية يرجع إلى بلده، وعاد الخلاف.

٤ ـ بارانغويلا: وتقع في الشمال على ساحل المحيط الأطلسي، ويزيد سكانها على المليونين، ويعيش فيها أكثر من خمسمائة مسلم، أكثرهم من الشام من مناطق لبنـان وفلسطين. وهنـاك النـادي العـربي الذي يشرف عليـه النصارى اللبنانيون، كما يوجد مركز لتجمّع الفلسطينيين، ويقوم على العصبية الاقليمية. وليس للمسلمين أية هيئة.

٥ ـ سانتا مارتا: وتقع قرب بارانغويلا على ساحل المحيط الأطلسي، ويعيش فيها ما يقرب من مائة وخمسين مسلماً، معظمهم من الشام من منطقة لبنان، من بلدة (بعلول)، وثلاث أسر من منطقة فلسطين، والعلاقة الاجتماعية جيدة بين المسلمين نتيجة صغر المدينة، والانتماء إلى بلدةٍ واحدةٍ.

وفي عام ١٤٠٧ هـ استأجر المسلمون منزلاً، وجعلوه مسجداً ومكاناً لتعليم أطفالهم مبادىء الإسلام، واللغة العربية. ثم تأسست الجمعية الخيرية الإسلامية.

٦ - **ألبي دوبار**: وتقع في الشمال أيضاً، ويزيد سكانها على مائتي ألف، بينهم ثمانون مسلماً، كلهم من الشام من منطقة لبنان سوى أسرةٍ واحدةٍ من منطقة فلسطين. ولكن أكثرهم متزوج من نصرانيات. وهم في شبه ضياع. ثم هداهم الله، وأسسوا الجمعية الخيرية الإسلامية، وقدّم لهم أحد المسلمين الفلسطينيين غرفة من بنائه لتكون مسجداً، تبعه مكتبة، وبدأ النشاط.

٧ - **كالي**: وتقع في الجنوب الغربي، ويزيد سكانها على المليون. ويعيش بينهم ما يقرب من مائتي مسلم، وعندهم عصبية إقليمية فلسطينية، وهم في شباع ضياع لدينهم، كما يوجد أكثر من مائة من الشيعة ولكن أكثرهم قد تزوج من نصرانيات وهم من الشام من منطقة لبنان.

٨ - **بالميرا**: وتبعد عن كالي عشرين كيلومتراً فقط، وتقع إلى الشمال الشرقي منها، ويعيش فيها ما يقرب من خمسين مسلماً، ونشاطهم جيد، ويُعلّم العربية لأبناء المسلمين شاب من بلاد الشام من منطقة فلسطين، اسمه (عبد الحميد طه)، ورغم أنه مولود هناك في كولومبيا إلا أنه ذهب إلى الشام، ورجع يجيد العربية، ويلتزم بهدي الإسلام. وقد استأجر للمسلمين جزءاً من عمارة، وجعله مصلىً لهم. وهو يدرس الطب في جامعة (كالي).

٩ - **باستو**: وتقع في الجنوب، وتعني بالإسبانية العشب. ويزيد سكانها على مائتي ألف، يعيش بينهم أكثر من مائة وعشرين مسلماً، وجميعهم من الشام من فلسطين، ومعظمهم من بلدة (كفر مالك)، ويعملون بتجارة الأقمشة والأحذية. ويحرصون على الزواج من مسلمات، ويرسلون أبناءهم الى الشام لتعلّم العربية. ولهم نادٍ يلتقون على أساس العصبية الإقليمية، وبدأ

الخلاف بينهم، وينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

١٠ - **أبيالز**: وتقع في الجنوب بالقرب من باستو، وإلى الجنوب منها. ولا يزيد عدد سكانها على المائة ألف، ويعيش بينهم ما يقرب من مائة وثلاثين مسلماً، وجميعهم من الشام من منطقة فلسطين، ومن بلدة (كفر مالك) أيضاً. ولهم نادٍ على أساس العصبية الإقليمية، وقد أثار الخلاف بينهم.

١١ - **مديين**: وتقع إلى الشمال الغربي من العاصمة بوغوتا، ويقرب سكانها من المليون ونصف، يعيش بينهم ما يقرب من مائة مسلم، كلهم من الشام من أقاليمها المختلفة، ويعيشون في شبه ضياع، ولا توجد صلات بينهم، وغالبهم قد تزوج من نصرانيات.

وفي المدينة مراكز لعصابات المخدرات، وتعدّ أشهر المراكز العالمية في هذه التجارة.

١٢ - **كوكوتا**: وتقع في الشمال الشرقي على الحدود مع فنزويلا، ويقارب سكانها النصف مليون، ويعيش بينهم ستون مسلماً، وكلهم من الشام، من منطقة فلسطين، من بلدة (كفر مالك)، وحالتهم المادية جيدة، وهي شغلهم الشاغل، وليس عندهم تفكير بدين، ولم يقبلوا فكرة العصبية أيضاً.

١٣ - **بيونا فونتورا**: مدينة ساحلية على ساحل المحيط الهادي، غرب مدينة كالي، وسكانها من الإفريقيين الذين حملهم المستعمرون أرقاء، وانتشر الإسلام فيها عام ١٣٩٦ هـ عن طريق مسافر مسلم جاء من الولايات المتحدة، التقى ببعض السكان فدعاهم، فاستمعوا منه، ثم رحل عنهم، لكنه بقي على صلةٍ معهم.

وانتقل بعضهم الى العاصمة بوغوتا، وأسسوا مع المسلمين هناك الاتحاد

الإسلامي الكولومبي، وجعلوا بيونا فونتورا مركزاً له، وجعلوا غرفة مسجداً ومركزاً للاتحاد، ودعمت السفارة الإيرانية المركز حيث استأجرت مقراً واسعاً، وأقامت فيه مدرسةً إلى جانب المسجد ثم وقع الخلاف.

هذا إضافة إلى أعداد موزّعين في كل أنحاء البلاد، وضائعين، ويُقدّر عدد المسلمين عامةً بحدود عشرة آلاف. فتكون نسبتهم ضعيفة لا تزيد على ٠,٠٣٪.

(٧) إكوادور

وتعني بالإسبانية الاستوائية، وتبلغ مساحتها ٢٨٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويصل عدد سكانها إلى عشرة ملايين، وعاصمتها مدينة (كيتو).

احتلّها الإسبان عام ٩٣٩، واستمرّ احتلالهم لها حتى عام ١٢٣٧، وانضمت بعد عام إلى كولومبيا، ثم انفصلت عنها عام ١٢٤٦ هـ.

يُشكل الهنود الأمريكيون ٦٠٪ من مجموع السكان.

وعنصر الميستيزو ٣٣٪ من مجموع السكان.

ويُقيم بعض الإسبان في المرتفعات، والزنوج في الساحل.

يتكلم السكان لغةً محليةً تُعرف بـ (الكشوية)، أما اللغة الرسمية فهي الإسبانية.

أما من حيث العقيدة فيدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، وبينهم ٣٥ ألف من النصارى البروتستانت، وألفان من اليهود، وبضع مئات من المسلمين لا يزيدون على أربعمائة مسلم.

المسلمون: وصل مهاجرون من الشام إلى اكوادور في بداية القرن الرابع عشر الهجري، ويزيد عددهم على خمسة وعشرين ألفاً، بينهم بضع مئات من المسلمين، وأكثرهم من فلسطين، ويقيم معظمهم في العاصمة (كيتو)، وفي ميناء (غواياكيل).

وليس لهم أي تنظيم ولا أي مسجد يُؤدّون فيه عبادتهم.

(٨) البـــيرو

تبلغ مساحتها ١,٢٨٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويقرب عدد سكانها من العشرين مليوناً، وعاصمتها مدينة (ليما) . غزاها الإسبان عام ٩٣٩ هـ ، ولكـن اصطدموا بدولة الأنيكا القـائمة، والتي لم تستسلم حتى عـام ٩٥١ ، واستمـرّ الاحتلال الإسباني حتى عام ١٢٣٦ .

يُشكّل شعب الأنيكاس، وهم من أهل البلاد الأصليين ٤٩ ٪ من مجموع السكان، أما عنصر الميستيزو الذي هو خليط من الإسبان والأهالي فيشكل ٣٥ ٪، وهناك مجموعة من الأوربيين وأكثرهم من إسبانيا ويشكلون ١٥ ٪ وهناك ١ ٪ من عناصر مختلفة.

ويدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ومعهم ٢٢٥ ألفاً من النصارى البروتستانت، وأربعة آلاف من اليهود، وأربعة من البهائيين، وألف من المسلمين. واللغة الرسمية هي الإسبانية، ولكن تسود اللغة (الكشوية) بين السكان.

المسلمون: هاجـر الشـاميـون إلى البيرو في مطلـع القـرن الرابـع عشر الهجري، وهاجر صينيون عام ١٣٢٦ ، فكان المسلمون خمسمائة مسلم، ويصل عددهم اليوم إلى الألف معظمهم من فلسطين، ويُقيم أكثرهم في العاصمة (ليما)، كما أسلم عدد من سكان البلاد الأصليين.

وحالة المسلمين في البيرو جيدة من الناحية المادية والاجتماعية، ويملك أحدهم فندق (دمشق) في العاصمة. ولكن ليس لهم أي تنظيم، ولا توجد مساجد في البلاد. ويقوم في العاصمة معهد (البيروني) للدراسات الإسلامية، كما تذيع محطة إذاعة (ليما) ساعة كل يوم باللغة العربية، ويُخصّص يوم الجمعة للحديث عن الإسلام.

(٩) بوليفيـــا

وتزيد مساحتها قليلاً على المليون كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ستة ملايين، وعاصمتها مدينة (لاپاز). كانت جزءاً من امبراطورية الانيكا، غزاها الإسبان عام ٩٤٥، واحتلّوها، واستمرّ الاحتلال حتى عام ١٢٢١ حيث قامت ثورة نالت بعد نجاحها الاستقلال عام ١٢٣٧ هـ.

يُشكّل السكان المحليون من الهنود الحمر	٥٤٪ من مجموع السكان.
ويُؤلّف عنصر الميستيزو	٣١٪ من مجموع السكان.
ويعيش من الأوربيين وخاصة من الإسبان	١٥٪ من مجموع السكان.
	١٠٠٪

وهناك ما يزيد على خمسة آلاف من العرب الشاميين، وأكثرهم من النصارى الكاثوليك.

أما من حيث العقيدة فيدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، وبينهم ستون ألفاً من النصارى البروتستانت، وأربعة آلاف يهودي، وعدة مئات من المسلمين. واللغة الرسمية هي الإسبانية، غير أن ثلث السكان يتكلّم اللغة (الكشوية)، ويتكلم آخرون باللغة (الايمرية).

بين العرب عدة مئات من المسلمين، يُقيم نصفهم في العاصمة (لاباز)، ويسكن بعضهم في (سانتاكروز) وفي (كوتشابامبا). وهناك بعض أبناء

البلاد الذين اعتنقوا الإسلام، ومنهم عبد المؤمن أحمد الذي كان أبوه قنصلاً لبلاده في المغرب فاعتنق ابنه الإسلام هناك، وعاد بحماسة للعمل الإسلامي، ويسعى جاهداً لتنظيم المسلمين وبناء مركز لهم.

ويجد المسلمون عنتاً من اليهود الذين لهم نفوذ في بوليفيا وخاصةً في الصحافة، والتجارة، والمصارف، كما أن العرب النصارى يبذلون جهودهم ليرتد المسلمون عن دينهم، ويدعونهم باسم العصبية العنصرية لهذا على الرغم من أن هؤلاء النصارى العرب ليس لهم أية إحساسات تجاه القضايا العربية.

وليس للمسلمين في بوليفيا أي تنظيم أو مركز لتأدية الشعائر.

(١٠) البرازيل

أكبر دول أمريكا الجنوبية مساحةً وسكاناً، تُشكّل أراضيها ٤٣٪ من مساحة أمريكا الجنوبية، وهو ما يزيد على ثمانية ملايين ونصف من الكيلومترات المربعة، ويزيد عدد سكانها على مائة وثلاثين مليوناً، وعاصمتها الجديدة مدينة برازيليا. وتتألّف البرازيل من اتحاد اثنتين وعشرين ولاية، وخمس مقاطعات، ومنطقة العاصمة.

عرفها البّحار البرتغالي بيدروكابرال عام ٩٠٦، وبدأ الصراع بين إسبانيا والبرتغال على استعمارها حتى وقع الطرفان اتفاقية أصبحت البرازيل بموجبها للبرتغال. وقد أُطلق على البلاد اسم (البرازيل) باسم الخشب الذي حمله منها البحار البرتغالي الأول إلى بلاده.

تدفّق المهاجرون البرتغاليون اليها منذ عام ٩٣٦، وأسّسوا أول مدينة فيها واسموها (سانتوس)، وفي الوقت نفسه استعبد البرتغاليون الأفارقة، وبدؤوا ينقلون أفواجاً منهم كرقيق، وقد قُدّر عدد المنقولين بستة ملايين إفريقي. واتخذ البرتغاليون من مدينة باهيا (سلفادور) عاصمة لهم. ولما احتلت اسبانيا البرتغال غدت البرازيل تابعةً لإسبانيا، ولما عادت فانفصلت عنها عام ١١٧٤ رجعت البرازيل تتبع البرتغال، ولكن انتقلت العاصمة من باهيا إلى ريودي جانيرو. ولما احتلّ نابوليون بونابرت البرتغال عام ١٢٢٢ انتقل ملك البرتغال إلى البرازيل، ولكن لم يلبث نابوليون أن هُزم، ورجع ملك البرتغال إلى

بلاده، ولكن ترك ولي عهده في البرازيل وذلك عام ١٢٣٦ فلم يلبث ولي العهد أن أعلن نفسه امبراطوراً في البرازيل عام ١٢٣٧ ، وأعلنت الجمهورية عام ١٣٠٧ هـ. وانتقلت العاصمة من ريودي جانيرو إلى برازيليا التي أُنشئت حديثاً عام ١٣٨٠ هـ.

تُشكل العناصر الأوربية	٦٣ ٪ من مجموع سكان البلاد .
وعنصر الميستيزو	٢١ ٪ من مجموع سكان البلاد .
والأفارقة	١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد .
هنود أمريكيون وعرب	١ ٪ من مجموع سكان البلاد .
	١٠٠ ٪

ويدين ٩٣ ٪ من السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد سبعة ملايين نصراني بروتستانتي، و٣٢٠ ألف مسلم و١٣٥ ألف يهودي إضافةً إلى بعض الوثنيين. واللغة البرتغالية هي اللغة الرسمية، كما توجد لغات محلية.

المسلمون: وصل إلى البرازيل مع البرتغاليين فوج من الموروسكيين، وليس هؤلاء أول المسلمين الذين وصلوا إلى أمريكا الجنوبية، وإنما هناك مُؤشرات ودلائل كثيرة تُبيّن وصول المسلمين من إفريقية الغربية إلى أمريكا الجنوبية قبل البرتغاليين بما يقرب القرنين من الزمن، ولكن أُبيدوا مع من أُبيد من السكان على أيدي الأوربيين الذين وصلوا إلى هناك يحملون الحقد، ويُشحنون به.

وقد منع البرتغاليون الموروسكيين من الهجرة إذ اتجهت أعداد منهم ترغب ذلك فراراً من الخوف والضغط الذي يُعانون علهم يجدون في الأرض الجديدة فرجاً ومجالاً يظهرون فيه دينهم، ومع هذا المنع الذي مارسه البرتغاليون إلا أنه قد هاجرت مجموعات منهم، وانطلقت مجموعات أخرى هرباً من جنوب البرتغال، ويعتقد أن عدداً من بحارة البرتغاليين كانوا من المسلمين

(الموروسكيين) إذ كانوا على مهارةٍ بهذا الفنّ على حين لم يكن الإسبان والبرتغاليون قد أجادوه بعد. ولما أحسّت السلطات البرتغالية بهذا أقامت محاكم التفتيش على أرض البرازيل، وأعطت صفاتٍ عامةً للمسلمين المتسترين منها نظافة الملبس، والاستيقاظ المبكر، والغسل، والصيام، والقسم بالله بصورةٍ عفويةٍ و... وقد اتهمت أُناساً بالإسلام وأحرقتهم أحياناً. وتوجد أُسر نصرانية في البرازيل إلى اليوم تملك مصاحف قديمة انتقلت إليها بالإرث عن الأجداد، وورثوا معها المحافظة عليها والسرية، وهؤلاء قد كتموا إسلامهم ولكنه ضاع مع الزمن.

ولما جلب البرتغاليون الرقيق من إفريقية كان كثير منهم من المسلمين من قبائل الماندينغ (مالي)، والفولاني (البهل)، والهاوسا، وكان منهم بعض العلماء وتمسّكوا بدينهم، وكانوا يلتقون على تعلُّمه، بل أسلم على أيديهم بعض العبيد، وكانت لهم مُصليات سرية، ولقاءات تعليمية أشبه بالمدارس، وقد ثاروا على البرتغاليين وظلمهم عام ١٢٥١، وفشلوا، وتكرّرت ثوراتهم الفاشلة، فقام البرتغاليون بحربٍ صليبيةٍ حاقدة فقتلوا وأبادوا الكثير بل كل من تمكنوا منهم، وعاد دور التستُّر بالإسلام، وكتم الإيمان مرةً ثانيةً، وارتدّ كثيرون، وعاشت جماعات حياةً نصرانيةً، وهي تدّعي الإسلام.

وجاءت هجرة من بلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر الهجري (١٢٧٨) وأكثرها من النصارى مع قلّة من المسلمين ثم زادت هذه الهجرة في مطلع القرن الرابع عشر وزاد فيها عدد المسلمين وذلك لأسبابٍ اقتصادية وسياسية، وكان أكثر المهاجرين الشاميين من سوريا ولبنان، ولكن بعد كارثة فلسطين عام ١٣٦٧ وما تلاها من محن ونكبات لم تنقطع أخذ الشاميون الفلسطينيون طريقهم إلى البرازيل.

ويُقدّر عدد المسلمين في البرازيل اليوم بـ ٣٢٠ ألف مسلم، ٨٠٪ شاميون، و٢٠٪ من الأفارقة، أما الشاميون فأكثر من نصفهم من سوريا

وتُعدّ مدينة سان باولو أكبر تجمّعٍ لهم، والنصف الآخر من اللبنانيين الذين يتجمّعون في مقاطعة بارانا في جنوب سان باولو، ومن الفلسطينيين الذين يكثرون في العاصمة برازيليا، وفي منطقة الجنوب في ولاية (ريوغراندي دوسول) في مدينة بورتو أليغرو. أما الأفارقة فيتركّزون في ولاية (باهيا).

وتوجد أقليات من فرق النصيرية والدروز. ولنعط لمحة عن توزّع المسلمين في الولايات بدءاً من الجنوب.

١ - **ريوغراندي دوسول** (وادي الجنوب الكبير): ويتجمّع فيها ما يزيد على عشرين ألف مسلم، جلّهم من فلسطين، هاجروا إليها مُؤخّراً، ويعمل أكثرهم تُجّاراً، ويتركّزون في مدينة (بورتو أليغرو)، كما يوجد مجموعات منهم في مدينة (ريوغراندي دوسول)، وليس للمسلمين أي تنظيم.

٢ - **سانتا كتارينا**: والمسلمون فيها قلّة.

٣ - **بارانا**: ويوجد فيها أكثر من أربعين ألف مسلم، معظمهم من الشاميين اللبنانيين، ويتركزون في المدن الكبيرة، وأهم هذه المدن:

قُريطبة: ويتجمّع فيها ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، وهي قاعدة الولاية. وتأسّست فيها الجمعية الخيرية الإسلامية عام ١٣٧٧، وقد بنت نادياً عام ١٣٨٢، ومدرسةً عام ١٣٩١، ومسجداً عام ١٣٩٣. وأسّس الجزائريون ضاحيةً بالقرب من مدينة قُريطبة أطلقوا عليها اسم (أم الغيث).

لوندرينا: وفيها ما يزيد على عشرة آلاف مسلم أيضاً مع ضواحيها، وقد أسّسوا عام ١٣٨٨ (جمعية لندرينا وشمالي بارانا الخيرية الإسلامية)، وبنوا عام ١٣٩٣ مسجداً وبجانبه مدرسة.

باراناغوا: وهي ميناء الولاية ويعيش فيها ما يزيد على ستة آلاف مسلم، أغلبهم من الشاميين من البقاع، وأسّسوا جمعية باراناغوا الخيرية الإسلامية، وبنوا مسجداً، ومدرسة، ونادياً، ومركزاً إسلامياً.

وتقوم تجمّعات إسلامية في المدن الأخرى في الولاية.

٤ - **سان باولو:** ويتجمّع فيها ثلث مسلمي البرازيل، وأغلبهم من الشاميين السوريين، ويتركّز المسلمون في مدينتين أولاهما عاصمة الولاية (سان باولو) والثانية (بريتوس).

سان باولو: وتأسّست فيها (جمعية سان باولو الخيرية الإسلامية) عام ١٣٤٨، وانتهوا من بناء المسجد عام ١٣٧٠. وبنوا في ضاحية (فيلاكارون) مدرسة، واشتروا مزرعةً في ضاحيةٍ أخرى هي (سانتو أمارو)، وأقاموا عليها مدرسةً ونادياً. وبنوا مسجداً في ضاحية (غوا رولوس) قرب مقبرةٍ يمتلكونها، وأوقفوا الوقف للمدرسة والمسجد. ووقع الخلاف بين المسلمين بسبب الدعوة إلى العنصرية العربية، حتى المجلة الأسبوعية التي كانت تصدر باسم المسلمين منذ عام ١٣٥١، وتحمل اسم (الذكرى) تغيّر اسمها إلى (العروبة). وتنصّرت أعداد مُرتدّةً عن دينها، وشاع الزواج المختلط، وأخذت الأسماء النصرانية تشيع بينهم.

وتوجد جمعيات خاصة بفرق النصيرية، والدروز، فهناك الجمعية العلوية، وجمعية البيت الدرزي.

ويوجد مركز للدراسات العربية، ومركز إسلامي كبير، وبعض الجمعيات الإسلامية الصغيرة. مثل جمعية أبي بكر الصديق، وجمعية (السانتو أمارو) الإسلامية التي تحمل اسم المنطقة، وجمعية الرفاهية والثقافة الإسلامية في منطقة (سان ميغيل)، وجمعية للشيعة تحمل اسم الجمعية الجعفرية. والنادي الإسلامي، والنادي الذي يحمل اسم قرية (السلطان) التي جميع سكانها من المسلمين المغتربين.

بريتوس: ويوجد فيها اثنا عشر ألفاً من المسلمين، أكثرهم من الشام من لبنان، وقد أسّسوا الجمعية الخيرية الإسلامية عام ١٣٨٢، وأقاموا مسجداً على أرض اشتروها، وافتتحوا مدرسةً صغيرةً.

٥ ـ ريو دي جانيرو: تضم المنطقة ثلاث ولايات هي: (غوانبارا)، وتشمل مدينة ريو دي جانيرو وما حولها، وولاية (ريو دي جانيرو) و(اسبريتو سانتو).

يوجد في المنطقة اثنا عشر ألف مسلم يتركّزون في مدينة ريو دي جانيرو، وقد أسّسوا (الجمعية الخيرية الإسلامية)، وقد بنت مسجداً، ومركزاً إسلامياً.

وفي المدينة جمعية نصيرية تحمل اسم (الرابطة) العلوية.

وفي ولاية (اسبريتو سانتو) تجمّع إسلامي صغير، وليس له تنظيم.

٨ ـ **ميناس چرايس:** يتوزّع في هذه الولاية أكثر من خمسة عشر ألف مسلم، يعود أكثرهم إلى أصولٍ عربية، وليس لهم أي تنظيم أو مؤسسة أو مكانٍ يُؤدّون فيه العبادات.

٩ ـ برازيليا: وهي عاصمة البلاد، ويقيم فيها أكثر من ثمانية آلاف مسلم، أكثرهم من الشام من فلسطين، وقد أسّسوا لهم جمعية عام ١٣٩٤ بعد أن انتزعت منهم الأرض التي خصصت لبناء مسجد، وعوض لهم بعدئذٍ عنها بأرضٍ داخل المدينة لبناء مسجد ومركزٍ إسلامي. كما يستفيدون من مدرسة للحكومة لتعليم أبنائهم الإسلام والعربية بعد الدوام.

١٠ ـ **ماتوغروسو:** وعاصمتها مدينة (كويابا) وفيها عشرة آلاف مسلم، وقد أسّسوا (جمعية كويابا الخيرية الإسلامية)، وأقاموا مسجداً على أرض اشتروها لهذا الغرض، ويعود أكثرهم إلى أصلٍ شامي من لبنان.

١١ ـ **باهيا:** يكثر فيها المسلمون الأفارقة وأصولهم من نيجيريا من قبائل الهاوسا، والفولاني، واليوروبا، وقد تخلّوا عن الإسلام، وإن لم يدخلوا في دين آخر، وبقيت عندهم بعض العادات من الآثار الإسلامية، ويدّعي بعض الذين درسوا أحوالهم أنهم قد تنصّروا. ويُقدّر عدد هؤلاء بستين ألفاً،

ومن المؤسف أنه لم يهتم بهم أحد، ولم يقم بدراسة أوضاعهم بحّاثة على حين أن كثيراً من الغربيين قد قاموا بدراسة أحوالهم، ويرغبون بشدّهم نحو النصرانية، لذا يدّعون أنهم قد أصبحوا نصارى.

١٢ - **بارا:** ويوجد سبعمائة مسلم في عاصمتها مدينة (بالم)، وليس لهم أي تنظيم، وقد اعتنق حاكم المدينة الإسلام في عام ١٣٩٢ هـ.

١٣ - **الأمازون:** ويجتمع عدد من المسلمين في عاصمتها (ميناؤس) والتي تقع بعد التقاء نهر الأمازون برافده (ريو نغرو)، وفي العاصمة عدة آلاف من الشاميين السوريين، ولكن ليس لهم أي تنظيم وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ بل تجاوزه كثيراً، إذ أن الرذيلة منتشرة في تلك الجهات، وقد اندمج المسلمون في ذلك المجتمع، وبدؤوا يتزوّجون من النصارى، وينشأ أبناؤهم على عقيدة السكان، ويُقلّدون تصرّفات الأهالي. ويملك أحد المسلمين محطة تلفزيون المدينة، وقد اعتنق أحد قضاة النصارى الإسلام عام ١٣٩٢ هـ.

هذه أهم الولايات التي تعيش فيها تجمّعات إسلامية أما بقية الولايات فهناك مسلمون مبعثرون، وهذا التوزّع يزيد في سرعة ضياعهم بل إنهم لا يهتمون بإسلامهم من الأساس - مع الأسف - فهم يعيشون كبقية أفراد المجتمع البرازيلي لا همّ لهم سوى الحصول على المادة والشهوة.

(١١) بَـاراغوايْ

تُسمّى باسم النهر الذي يمرّ فيها، وتبلغ مساحتها ٤٠٦,٧٥٢ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (أوسونسيون).

حاول الإسبان غزوها عام ٩٣٣ هـ، ولكن سيطر عليها الرهبان اليسوعيون، وبقوا فيها حتى طردهم منها الإسبان عام ١١٨١. وقاوم السكان الاحتلال الإسباني حتى حصلوا على الاستقلال عام ١٢٣٠.

يُشكّل عنصر الميستيزو ٩٨٪ من سكان البلاد، والبقية أقليات من الهنود الحمر، والأوربيين، والأفارقة. واللغة الإسبانية هي اللغة الرسمية، ويتكلّم السكان لغةً محليةً تُدعى (الغوارانية)، وتدين الأغلبية بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد في البلاد ما يزيد على ستين ألفاً من النصارى البروتستانت، وألف وخمسمائة من اليهود.

هاجر الشاميون إليها في القرن الرابع عشر هجري، ويُقدّر عددهم بستة آلاف عربي، غير أن اكثرهم من النصارى، ويوجد بينهم ألف مسلم، يعمل كثيرٍ منهم باعة مُتجوّلون، ويقيمون قرب الحدود البرازيلية، وليس لهم أي تنظيم أو مؤسسة إسلامية أو مسجد يُؤدّون فيه شعائرهم، وغالبيتهم من لبنان وفلسطين.

(١٢) الأورغواي

وتبلغ مساحتها ١٨٥,٢٢٦ كيلومتراً مربعاً أي ما يُعادل مساحة سوريا، ويزيد سكانها على ثلاثة ملايين، وعاصمتها مدينة (مونتفيديو).

وصل إليها الإسبان عام ٩٢٩ هـ، واحتلّها البرتغاليون عام ١٠٩١، واستردّها الإسبان عام ١١٩٢، وبقوا فيها حتى نالت استقلالها عام ١٢٤١.

يُشكّل الأوربيون ٩٠٪ من السكان، ومعظمهم من الإسبان والايطاليين الذين وفدوا إليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، والباقي من عنصر الميستيزو مع أقليةٍ من الزنوج الأفارقة.

يدين السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد خمسون ألفاً من النصارى البروتستانت، ومثلهم من اليهود، وتُعدّ اللغة الإسبانية اللغة الرسمية.

هاجر إليها ما يزيد على خمسة عشر ألفاً من الشاميين، ومعظمهم من النصارى، وبينهم ألف مسلم، لا تنظيم لهم، ولا مؤسسة تجمعهم، ولا مسجد، ولا اهتمام من إخوانهم بهم ويسيرون نحو الضياع.

(١٣) الأرجنتين

تبلغ مساحتها ٢,٧٧٧,٠٠٠ كيلومتر مربع، فهي ثاني دول أمريكا الجنوبية مساحةً بعد البرازيل، ويبلغ عدد سكانها ثلاثين مليوناً، وعاصمتها مدينة (بونيس آيرس). وتتألّف البلاد من اثنتين وعشرين ولايةً اتحادية مع إقليم العاصمة الاتحادي.

احتلّها الإسبان عام ٩٢٢، واستمرّ استعمارهم لها حتى عام ١٢٣٢، وتدفّق المهاجرون إلى الأرجنتين من أوربا وخاصةً من إسبانيا وإيطالية، وجاء مهاجرون عرب وخاصةً من الشام. ويُشكّل الأوربيون اليوم ٩٠٪ من السكان منهم ٤٥٪ من ايطاليا، و ٣٠٪ من إسبانيا، و ١٥٪ من بقية دول أوربا. وهناك أقليات من العرب الشاميين، ومن الهنود الحمر. واللغة الإسبانية هي الرسمية.

يدين معظم السكان بالنصرانية الكاثوليكية، ويوجد ما يزيد على سبعمائة ألف نصراني بروتستانتي، وستمائة ألف يهودي، وأربعمائة ألف مسلم، وعدة آلاف من النصارى الأرثوذكس.

المسلمون: لقد دخل إلى الأرجنتين عدد من الموروسكيين الأندلسيين، ولكن انصهروا في المجتمع النصراني مع توالي الأجيال، والسرية خوفاً من السلطات الحاكمة الحاقدة على الإسلام.

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري بدأ الشاميون يرتحلون إلى الأرجنتين وزادت هجرتهم بين الحربين العالميتين. ووصلت نسبتهم إلى ١,٣٪ من مجموع السكان، غير أن أكثرهم من النصارى، وبينهم أربعمائة ألف مسلم، وإذا كان الإسلام يغلب عليهم إلا أنه بينهم ما يزيد على خمسةٍ وعشرين ألفاً من النصيرية. وقد ارتدّ بعض المسلمين نتيجة حقد النصارى العرب على الإسلام وعلى العثمانيين، فكانوا يُطلقون على المسلمين أتراكاً من باب الازدراء - حسب زعمهم -. ولا تعترف الحكومة الأرجنتينية بالدين الإسلامي.

ويتوزّع المسلمون في المدن الكبرى وعدة ولايات ومنها:

بونيس آيرس: العاصمة وهي مدينة كبيرة يزيد عدد سكانها مع ضواحيها على عشرة ملايين، وفيها أكثر من مائة ألف مسلم. ويوجد حي أكثر سكانه من العرب، وهو حيّ (كونستيتوسيون) الذي معظم أهله من بلدة يبرود التي تقع شمال مدينة دمشق، وتبعد عنها ثمانين كيلومتراً وسكانها من المسلمين والنصارى.

وتأسّست في العاصمة عام ١٣٣٧ الجمعية الإسلامية السنية، وأنشأت نادياً إسلامياً فيه مسجد، ومكتبة، وقاعة اجتماعات.

كما تأسّست عام ١٣٨٠ الجمعية الأرجنتينية العربية الإسلامية، وقد تألّفت من انضمام ثلاث جمعيات، وأنشأت هذه الجمعية مدرسة وساهم فيها النصارى العرب، ثم هددوا، وعملوا على إلغاء التعليم الإسلامي، بل وأزالوا كلمة الإسلامية من اسم الجمعية. وقد تمّ لهم كل ذلك... ولكن عام ١٣٩٤ هـ. أعادت الجمعية صبغتها الإسلامية، وانسحب منها النصارى العرب مغاضبين. وتصدر هذه الجمعية مجلة (الإسلام) باللغة الإسبانية.

ويوجد في بونيس آيرس المركز الإسلامي الذي يعمل على الإشراف على الجمعيات الإسلامية. ومركز الدراسات الإسلامية. والمعهد الأرجنتيني العربي، والنشرة العربية الأرجنتينية (النيل).

ومما يُؤسف له أنه توجد أندية ذات صبغة إقليمية ضيقة جداً مثل النادي الحمصي، والجمعية اليبرودية. كما توجد جمعيات للفرق الضالة فهناك الجمعية الخيرية النصيرية (العلوية)، والاتحاد النصيري (العلوي)، والجمعية الدرزية.

هذا في الوقت الذي يرتدّ عدد من المسلمين عن دينهم، وزواج بعضهم بالنصرانيات، وتسمية أبناء بعضهم بأسماء نصرانية.

ويتجمّع عدد من المسلمين في ضاحية (فلورس) إحدى ضواحي بونيس آيرس، كما يوجد فيها عدد من طائفة النصيرية.

روزاريو: ويتجمع المسلمون في ولاية (شنتافي) في مدينة روزاريو حيث جمعية الاتحاد الإسلامي التي تأسّست عام ١٣٥٠، ويشترك في إدارتها مسلمون، ونصيرية، ودروز، وتشرف الجمعية على مدرسة صغيرة لتعليم اللغة العربية، ويعيش في هذه المدينة سبعة آلاف من الشيعة.

قرطبة: يعيش في ولاية قرطبة أكثر من ثلاثين ألف مسلم، يسكن مدينة قرطبة قاعدة الولاية أكثر من ثمانية آلاف مسلم، وقد تأسّست فيها عام ١٣٤٧ الجمعية الإسلامية العربية، ولها مقرّ صغير، وقد بنت المسجد الجامع، وهو أول جامع بني في الأرجنتين. ويقوم في المدينة أيضاً معهد التربية الإسلامية. وللمسلمين أيضاً مقبرة خاصة بهم.

مندوزا: يعيش في هذه الولاية أكثر من أربعين ألف مسلم، يتركز معظمهم في مدينة (مندوزا) عاصمة الولاية. وأكثر المسلمين فيها من بلدة (دير عطية) في الشام والتي تبعد مائة كيلومتر إلى الشمال من دمشق. وتأسّست فيها عام ١٣٤٤ الجمعية العربية السورية، وقد انسحب منها النصارى، وأنشأوا النادي السوري. وفي المدينة مركز إسلامي.

تكومان: وتوجد جمعية إسلامية في مدينة تكومان عاصمة الولاية التي تحمل اسم العاصمة، وتقع في شمالي الأرجنتين.

هذه أهم مراكز تجمّع المسلمين في الأرجنتين، وهناك أعداد كثيرة موزعة في مختلف الولايات والمدن.

ويُعاني المسلمون في الأرجنتين من اليهود والنصارى، وأشدّ النصارى مقاومةً للمسلمين النصارى العرب، كما يُعانون من إهمال إخوانهم في الأمصار الإسلامية إذ ينقصهم العلماء، والأئمة والأساتذة، والكتب، والتوجيه، والدعم.

(١٤) الشـــيلي

وتبلغ مساحتها ٧٥٦,٦٢٦ كيلومتراً مربعاً ، ويبلغ عدد سكانها اثني عشر مليوناً ، وعاصمتها مدينة (سنتياغو) . كانت جزءاً من إمبراطورية الأنيكا ، واحتلتّها إسبانيا عام ٩٤٧ ، وبقي الاستعمار الإسباني فيها حتى عام ١٢٣٣ .

يُشكّل عنصر الميستيزو ٦٥ ٪ من سكان البلاد ، ويؤلف الإسبان ٢٥ ٪، وهناك أقلية أوربية أكثرها من الألمان ، وتُشكّل ٥ ٪، والباقي وهو ٥ ٪أكثرهم من السكان الأصليين ، ويقطن الشيلي أكثر من مائة وثلاثين ألف عربي من الشاميين ، أكثرهم من النصارى ، وبينهم ألف مسلم ، ولهم نادٍ ضخم قرب العاصمة (سنتياغو) ، ولهم مركزهم الاقتصادي .

يدين ٨٨ ٪ من السكان بالنصرانية الكاثوليكية ، و ١٠ ٪ بالنصرانية البروتستانتية ، و ٢ ٪ هم من النصارى الأرثوذكس العرب ، وخمسة وثلاثين ألفاً من اليهود ، وأربعين ألفاً من البهائيين .

واللغة الرسمية هي اللغة الإسبانية .

المسلمون: وصل إلى الشيلي فوج من الموروسكيين وقد ضاعوا مع الزمن ، ومع الهجرة الشامية في القرن الرابع عشر الهجري دخل ألف مسلم وتزايدوا ،

ويُقدّر عدد المسلمين اليوم بألفي مسلم. يُقيم ثمانمائة منهم في العاصمة سنتياغو، ويتوزّع الباقون، وقد دخلت البلاد مجموعات من مسلمي يوغوسلافيا وباكستان. وقد ارتدّ عدد من المسلمين عن دينهم عن طريق النصارى العرب الأرثوذكس الذين يسعون جاهدين لذلك بل أثّر هؤلاء على الكاثوليك من الشيلي فترك بعضهم الكاثوليكية واعتنق الأرثوذكسية. وبعض المسلمين يسمون أبناءهم بأسماء نصرانية.

تأسّست عام ١٣٤٥ جمعية إسلامية في سنتياغو، ولكن توقّف نشاطها بعد الحرب العالمية الثانية لقلّة عدد المسلمين إذ هاجر قسم، وارتدّ قسم، وآخرون لا يبالون، ثم عاد النشاط إلى الجمعية عام ١٣٧٥، ولكن ليس لهم مسجد. ولكن يقوم بتعليم الأطفال بعض العارفين للعربية، وأُنشئت مدرسة ثم انتهت.

وتشترك الجمعية مع جمعيةٍ عنصرية (اسمها الاتحاد القومي العربي) في البناء، ويرأس الجمعيتين رجل واحد.

وفي جامعة سنتياغو قسم للدراسات العربية والإسلامية، كما تبث الإذاعة الشيلية من سنتياغو ساعةً يومية برنامج (صوت فلسطين) تُشرف عليه منظمة التحرير. ويُصدر النصارى العرب جريدة (العالم العربي).

ويجد المسلمون عنتاً من اليهود، ومن النصارى، ومن العرب النصارى. ويشعرون بتقصير إخوانهم في الأمصار الإسلامية تجاههم.

ويمكن أن نلخص أعداد المسلمين ونسبتهم في دول أمريكا الجنوبية بما يأتي:

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١ ـ تريناداد وتوباكو	١,٣٥٠,٠٠٠	١٦٥,٠٠٠	١٢٪
٢ ـ غويانا	١,٠٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	١٥٪
٣ ـ سورينام	٥٠٠,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠	٣٣٪
٤ ـ غويانا الفرنسية	٧٥,٠٠٠	٧,٥٠٠	١٠٪
٥ ـ فنزويلا	١٥,٠٠٠,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	—
٦ ـ كولومبيا	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	—
٧ ـ إكوادور	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٤٠٠	—
٨ ـ البيرو	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	—
٩ ـ بوليفيا	٦,٠٠٠,٠٠٠	٥٠٠	—
١٠ ـ البرازيل	١٣٠,٠٠٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠	—
١١ ـ باراغوي	٣,٥٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	—
١٢ ـ أوروغواي	٣,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	—
١٣ ـ الأرجنتين	٣٠,٠٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	١,٣٪
١٤ ـ الشيلي	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	—
	٢٦٠,٤٢٥,٠٠٠	١,٢٦٨,٤٠٠	٠,٤٦٪

مع الأقليات المسلمة في أمريكا الجنوبية

يعيش في أمريكا الجنوبية أكثر من مليون وربع مسلم، ولكن لا يُشكّلون سوى نسبةٍ ضئيلة تقلّ عن نصف بالمائة (٠,٤٦ ٪)، ويتوزّعون في بلدان القارة كلها، غير أنهم في بعض بلدانها يرتفع عددهم نسبياً فيُساعدهم ذلك على تنظيم أنفسهم والوقوف في وجه التيارات التي تُريد أن تعصف بهم، ولكن هذا الوقوف ليس ثابتاً إذ أن جذوره غير عميقة في الأرض، ولا تستند على دعائم خارجية، والإمكانات المحلية ضعيفة، إذ لا علماء بينهم، ولا مساعدات تأتي إليهم، وإذا ما أرسل إليهم عنصر، فإن شخصاً واحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً أو يُقدّم شيئاً لعشرات الآلاف يعيشون بين مجتمع يخالفهم في العقيدة والحياة، وله إمكانات ضخمة، ويهبّ تياره بعنف، وإذا كان هذا الداعية نشيطاً واعياً مخلصاً أمكنه أن يدبّ النشاط في الحي الذي يعيش فيه أو المسجد الذي أرسل له، أو الجمعية التي تشرف على مؤسسةٍ إسلاميةٍ معينةٍ، كما حدث في مدينة لوندرينا في مقاطعة بارانا في البرازيل عندما وصل إليهم أحمد صالح المحايري، وإذا كان غير ذلك أوقع الخلاف بين المسلمين، كما حدث في مدينة سان باولو في البرازيل عندما جاء إليهم داعية للعصبية العنصرية.

أضف إلى ذلك أن المسلمين ليسوا جميعاً ينتظمون في جمعية أو مؤسسة أو يساهمون في النشاط الإسلامي وبناء المسجد أو افتتاح المدرسة وذلك لأسبابٍ

كثيرة: منها اختلاف المشارب والأهواء، ومنها الأفكار الدخيلة كالعصبيات وغيرها. ولا شك فإن البعيدين عن النشاط يتعرّضون للضياع أكثر من غيرهم لاندماجهم في المجتمع الأمريكي، والزواج من فتياته اللواتي يُربين أطفالهن تربيةً نصرانيةً، ولا شك فإن الأجيال القادمة ستضيع نهائياً ولا يتعدّى ذلك جيلاً أو جيلين. فالمرء قوي بأخيه يحول دون انزلاقه ويُسدّد من خطاه، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وما ينطبق على الدول ينطبق على المناطق إذ أن بعض الدول ذات مساحات واسعة، فالمدن والجهات التي يتجمّع فيها كثير من المسلمين يساعد بعضهم بعضاً، والبقاع التي يقلّ فيها المسلمون أو يتبعثرون فيها يسيرون بطبيعة الحال نحو الضياع، وهذه النواحي والدول التي يقلّ فيها المسلمون عامةً يقلّ أيضاً اهتمام إخوانهم بهم، فلا يرسلون إليهم أحداً، ولا يتفقدونهم، ولا يدعمونهم، وهذا لا شك يُؤدّي إلى ذوبان الشخصية أو الارتداد، وكثير من الجهات تسير في هذا الاتجاه، وعلى أصحاب الامكانات والمسؤوليات في أمصار العالم الإسلامي تدارك هذا الأمر قبل وقوعه.

ولعلّ من أهمّ العوامل الذاتية التي تُهدّد الأقليات المسلمة في أمريكا الجنوبية هي الدعوة العنصرية أو العصبية القومية فإضافةً إلى مخالفتها إلى الإسلام نراها تُفرّق المسلمين، وتُوقع بينهم الخلاف، وتشتت شملهم، ومما يزيد خطرها في هذا الجزء من العالم أن نسبة العرب مرتفعة ونسبة النصارى بينهم عالية وهذا ما يجعلهم يُعايشونهم ويتزوّجون منهم بسبب اللغة المشتركة والعادات المتقاربة أحياناً، فيضيع المسلمون، ويفقدون شخصيتهم، وهذا ما يعمل له النصارى، ويخططون له، والمسلمون في غفلةٍ لا أحد يُوقظهم، ولا يرعى شؤونهم.

ونزيد على هذا أن الخلاف القائم بين الدول التي انطلق منها المهاجرون قد حملوه معهم، أو تعصّبوا له مع أنهم في كثيرٍ من الأحيان ما خرجوا من بلدانهم

إلا وقد ضاقوا بهـا ذرعاً أو شرّدهم الطغاة فيها . وأحياناً أخرى يحمل هؤلاء المهاجرون الأفكار السائدة في أمصارهم الأصلية ، وقد يتبنّـونها ، أو يعمـل لها السفراء فيقع الخلاف وتحتدم الأزمات .

ونضيف إلى هذا التشتت القائم والتبعثر الموجود في تلك الجهات الواسعة حيث يصعب إقامة مؤسسة أو مسجد أو مدرسة لقلّةٍ قليلةٍ تعيش في جهاتٍ بعيدةٍ عن تجمّعات المسلمين ومناطق تمركُزهم في المدن الكبرى ونواحٍ معينةٍ . ويجب ألا ننسى أبداً النزوات الشخصية والعقليات الغريبة وبخاصةٍ أن أكثر المسلمين في دول أمريكا الجنوبية من الشاميين الذين عُرفوا بالمخالفة ، والتشبُّـث بالرأي ، وحبّ الزعامة وهذا ما يُؤدّي إلى زيادة التفرقة .

ويجب أن نضع في اعتبارنا الحالة النفسية التي يعيشها المسلمون هناك ، والحالة المادية التي يحياها كثير منهم ، وأوضاع بلدانهم المؤسفة والتي خرجوا منها ومن أجلها . وعـدم اهتمام إخـوانهم في الأمصـار الإسلاميـة الأخـرى وخاصةً التي تبدو بمظهر العاملة للإسلام أو الداعية له ، والتي أحياناً تدفع الكثير من أجل ذلك .

وهناك العوامل الخارجية والتي تتمثّل في اليهود والنصارى وأخطر منهما الفرق الضالة التي تنتسب للإسلام أحياناً ، وتعمل على هدمه ، وفي الوقت نفسـه فإن في عقائدها وتصرّفاتها وسلوك أبنائها ما يُنفّـر مـن الإسلام ، ويحول دون الإقبال إليه ولا شك فإن أعداداً أخرى من الذين ينتمون إلى الإسلام فعلاً ليس سلوكهم بأفضل من أولئك ، وهؤلاء وأولئك يُشكّلون عبئاً على الإسلام ، ووقوفاً في وجه انطلاقه ، ودعماً للتحدّيات له .

وفي الوقت الذي يعيش المسلمون هناك تلك الصعوبات والتحديات يحيا إخوانهم في بعض الأمصار في نعيمٍ ويديرون لهم ظهرهم ، وإن كان يُشاطرهم الشقاء إخوان لهم في أمصار ثانيةٍ ، وينوءون بما يحملونه وربما زاد ذلك عنهم أضعافاً مُضاعفة ، وإن ظلم ذوي القربى لشديد .

الأقلّيّات المُسْلِمَة
في
قَارة أوقيانوسيَا

قارة أوقيانوسيا أصغر القارات إذ لا تزيد مساحتها على تسعة ملايين من الكيلومترات المربعة، وفي الوقت نفسه فهي أحدث القارات معرفةً إذ تعـود هذه المعرفة إلى القرن الحادي عشر الهجري، عندما تمكّن تسمان الهولنـدي أن يصل إلى سواحلها الجنوبية عام ١٠٥٢ هـ، ولم تعرف كامل سواحلها إلّا في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (١١٩٥). كما أن هذه القارة أقل قارات العالم سكاناً حيث لا يزيد عدد سكانها على عشرين مليوناً. كذلك تضمّ أقل القارات دولاً، إذ لا تتعدّى دولها الست، وأكثرها جزر متناثرة في المحيط الهادي، ومن هنا جاء اسم القارة (أوقيانوسيا) أي القارة المحيطية، ويمكن أن نستثني من ذلك أستراليا التي تشمل ٨٧٪ من مساحة القارة لذا كثيراً ما تحمل القارة اسمها فيقال قارة أسترالىا، وهذا غلط، أو هكذا يُحبّ بعضهم أن يُطلق عليها.

ولما كانت القارة حديثة المعرفة فإن وصول الإسلام إليها قد جاء حديثاً أيضاً في الوقت الذي يعيش فيه المسلمون ضعفاء، فهم فيها مُتأثّرون لا مُؤثّرين غير أن طبيعة عقيدتهم تجعل بعض السكان يقبلون نحوها، فهذا بفضل العقيدة التي هي من عند الله لا بجهدهم، ولو كانت الدعوة ترتبط فقط بوضع المسلمين اليوم لما أقبل أحد نحوهم لما أحـدثـوا، ولما أصـابهم مـن ضعفٍ، ووهنٍ، واستكانة، وذلّ.

وإذا كان بعض أفـراد مـن المسلمين قـد أسهمـوا في اكتشـاف داخـل استراليا، فإنما جاء هؤلاء مأجورين لغيرهم، أو جاءوا مدفوعين غير مندفعين حيث لم يكونوا سوى أصحاب جمالٍ، وأصحاب صبرٍ أكثر من غيرهم. وربما وجد الانكليز أن التضحية فيهم خير من التضحية بغيرهم، وعلى كل فقد كان جهد في معرفة هذا الجزء من العالم.

لقد هاجر معظم المسلمين إلى هذه القارة للعمل وإيجاد مجالٍ للرزق، فانطلقوا متفرقين، وعاشوا مُوزّعين، فلما زاد عددهم وخشي بعضهم على أبنائه أو على نفسه من الضياع عمل لتنظيم المسلمين، والتقت الجهود، وقامت بعض الجمعيات ولكن غالباً ما تكون دون الحاجة المطلوبـة، أو لا تستطيـع أن تُؤدّي دورها كاملاً لضعف الإمكانات وقلّة الطاقات المطلوبة.

وتنظر هذه الجمعيات، وينظر المسلمون في الغربة عامةً إلى إخوانهم في الأمصار الإسلامية، ويتوقّعون منهم شيئاً كثيراً، ولكن لا يصل إلا القليل القليل إن وصل، ومن جهاتٍ قليلةٍ إن وجدت بسبب نأي الأفكار بهم بعيداً عن الإسلام في بعض الأمصار، والتقوقع والالتفات إلى الذات إلى أمصارٍ أُخرى، وعدم الإمكانات في ثالثـةٍ، والانصراف إلى النعيم أو الملـذات التي تُشغلهم عن غيرهم ولو كانوا إخوانهم في رابعةٍ و...

وأما دول قارة أوقيانوسيا التي تضمّ تجمّعاتٍ إسلاميةٍ بارزةٍ فهي:

(١) أستراليـــا

تبلغ مساحتها ٧,٦٨٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ستة عشر مليوناً، وعاصمتها مدينة (كانبرا). وهي دولة اتحادية تشمل ست ولايات ومقاطعتين وهي:

١ - نيو ساوث ويلز. ٢ - فيكتوريا. ٣ - كوينزلاند. ٤ - استراليا الجنوبية. ٥ - تسمانيا. ٦ - غربي استراليا. والمقاطعة الشمالية ومقاطعة العاصمة.

بعد أن عرف جيمس كول سواحل استراليا في رحلاته الثلاث والتي انتهت عام ١١٩٥ هـ نشط العمل الانكليزي فيها، وتحوّلت إلى مستعمرةٍ إنكليزيةٍ، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣١٩ حيث اتحدت الولايات بعضها مع بعض، وحصلت على شيءٍ من الاستقلال، ودخلت الحرب العالمية الأولى بجانب انكلترا، وخرجت من الحرب مستقلةً.

وصول المسلمين: استقدمت السلطات الإنكليزية عام ١٢٦٧ هـ اثني عشر جمّالاً من بلاد الأفغان ومعهم مائة وعشرون جملاً للولوج إلى داخل البلاد، والتعرّف على داخل فيافي أستراليا، واستمرّ استقدام الجمّالين وتعدّى الأفغان إلى الهند وإيران إلا أن الجميع كان يُطلق عليهم أفغان لسبقهم واقتران الجمال بهم، بل كان يختصر الاسم إلى (غان) بدلاً من كلمة أفغان.

وزاد بذلك عدد المسلمين حتى وصل عام ١٢٩٩ إلى ٥٠٠٣ مسلمين وعام ١٣١٩ إلى ٦٥٩٩ مسلماً.

لقد كان هؤلاء المسلمون يقيمون مصليات على طول الطرق التي يسلكونها، ولم يكن الدخول إلى قلب الصحراء من جهةٍ واحدةٍ بل كان من جهاتٍ متعددةٍ، إذ استقدمت السلطات في استراليا الغربية بين عامي (١٣١٢ و ١٣١٥ هـ) ستة آلاف وستمائة جمل مع أصحابها. وقد أقام بعضهم في مدينة (بورث)، وشيّدوا مسجداً لهم عام ١٣٢٣ هـ، ثم مدينة (كولغاري).

وأسهم رجال القوافل هؤلاء في مدّ الخط الحديدي بين (أدليد) و (أليس سبرينغ) عام ١٣١٤ هـ، ولما انتهت معرفة فيافي أستراليا غادر بعض الأفغان البلاد، ورجعوا إلى وطنهم، ومنهم من استقرّ، وعمل في ميدانٍ آخر مثل التعدين والتجارة، وظهر أن عدد الأفغان قد بدأ بالتناقص من عام ١٣٣٩.

ومنذ عام ١٣٣٤ بدأ مسلمون آخرون يتجهون مهاجرين نحو استراليا من أندونيسيا، والهند، ومصر، والشام، وتركيا، وألبانيا ويوغوسلافيا لما تتعرض لها بلادهم من ضائقاتٍ اقتصاديةٍ أو هزاتٍ سياسيةٍ، وما أكثر هذه وتلك في أمصار العالم الإسلامي. وتوقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم زادت بعدها، وتكاثر المسلمون حتى زاد عددهم على ربع مليون مسلم في استراليا، وإن كان هذا الرقم قد أعطاه الاتحاد الإسلامي الاسترالي في نشرته التي يُصدرها [١]، إلا أن آخرين قد رحلوا إلى استراليا وذكروا عدد المسلمين، فوصل عند بعضهم إلى مائتين وستين ألفاً [٢]، على حين هبط عند آخرين إلى

(١) النشرة الصادرة عن الاتحاد الاسلامي الاسترالي في ٢٠ جمادى الأولى عام ١٤٠١، ونقلته كذلك جريدة الجزيرة التي تصدر بمدينة الرياض.

(٢) من تقرير للدكتور عبدالله الزايد مدير معهد الدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ورئيس بعثة دار البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية إلى أوقيانوسيا. =

أربعة عشر ألفاً وخمسمائة[1]. وأعطى فريق ثالث عدد العرب وبالغ فيه[2].

والذي يمكن الاعتماد عليه هو ما ورد عن اتحاد المجالس الإسلامية الإسترالية الذي ذكر أن عدد المسلمين في استراليا هو مائتان وخمسون ألفاً، وأنهم ينتمون إلى ثلاث وعشرين جنسية، ويتوزّعون كما يلي:

١٢٠,٠٠٠ في ولاية نيو ساوث ويلز، منهم تسعون ألفاً في مدينة سدني.
٨٠,٠٠٠ في ولاية فيكتوريا، منهم سبعون ألفاً في مدينة ملبورن.
٥٠,٠٠٠ في باقي جهات استراليا.

٢٥٠,٠٠٠

وقد اعترفت الحكومة الاسترالية عام ١٣٩٦ باتحاد المجالس الإسلامية الاسترالية الذي مقره مدينة ملبورن، وله فرع في سدني، ويضمّ ممثلاً عن كل ولايةٍ استراليةٍ، ويتبعه اتحاد المجالس المحلية بكل ولايةٍ، ويُضاف إلى هذا الاتحاد الجمعيات الطلابية الإسلامية، وعدد المجالس الإسلامية الاسترالية المحلية تسعة، ستة في استراليا وثلاثة في المناطق التابعة لها خارج استراليا.

ويُصدر الاتحاد صحيفةً باللغة الانكليزية والعربية، والتركية، واليوغوسلافية، وتصدر كل شهرين مرة تُعرف باسم (المنارة الإسلامية)،

= كما ذكرت مجلة المسلمون في عددها ٢١ تاريخ ٢٤ جمادى الأولى عام ١٤٠٢ هـ أن عدد المسلمين في استراليا ثلاثمائة ألف مسلم، منهم ثلاثة آلاف وخمسمائة قد اعتنقوا الإسلام، وهم من سكان أستراليا.

(١) من تقرير السيد عبدالقادر بخش ممثل رابطة الشباب المسلم الفيجية بباكستان.

(٢) ذكرت مجلة العربي الكويتية في استطلاعٍ لها أن عدد العرب من مسلمين وغيرهم يبلغ نحو مائتين وعشرة آلاف نسمة، غالبيتهم يعيشون حول (سدني) و (ملبورن) وتتعدد المساجد في مدنٍ متفرقةٍ من استراليا، وكل جماعةٍ من المسلمين تبني لها مسجداً: الألبان، والأتراك، والقبارصة أقاموا المساجد في (ملبورن)، والمنتمون إلى اندونيسيا، وماليزيا، وباكستان أقاموا المساجد في (كانبرا) و (بورث)، ويجري بناء مسجدٍ جديدٍ في (دارون) في أقصى الشمال.

كما ان فرع الاتحاد في ولاية (كوينزلاند) يُصدر صحيفةً شهريةً اسمها (الهلال). كما يُصدر اتحاد الطلاب المسلمين نشرةً شهريةً اسمها (الإسلام) ومجلة أخرى تُدعى (النور).

وألّف الاتحاد جمعيةً تجاريةً عام ١٣٨٨ عُرفت باسم (شركة الهلال التجارية الاسترالية) والإسهام فيها متاح لأي مسلم يعيش في استراليا، وهدفها مراعاة أحكام الشريعة في ذبح الحيوانات التي تُعدّ لحومها في صورٍ مختلفةٍ، ويُستهلك الإنتاج محلياً بصفةٍ أساسيةٍ، ويُصدر الباقي إلى البلدان الإسلامية.

وقام الاتحاد ببناء مدرستين إسلاميتين إحداهما في مدينة (سدني)، وسميت باسم الملك خالد، والثانية في مدينة (ملبورن)، وحملت اسم الملك فهد، وذلك للتبرع السخي من هذين الملكين السعوديين.

وأما المساجد فتكثر في استراليا، وقد بُني أول مسجد في مدينة أليدد عام ١٣٢٣ وأما اليوم فيوجد في:

سدني	ثلاثة مساجد وثلاثة مراكز إسلامية.
ملبورن	ثلاثة مساجد وثلاثة مراكز إسلامية.
كانبرا	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.
داروان	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.
أليس سبرينغ	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.
بورث	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.
برزبين	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.
نيوكاسل	مسجد واحد ومركز إسلامي واحد.

كما يوجد مسجدان في جزيرة تاسمانيا.

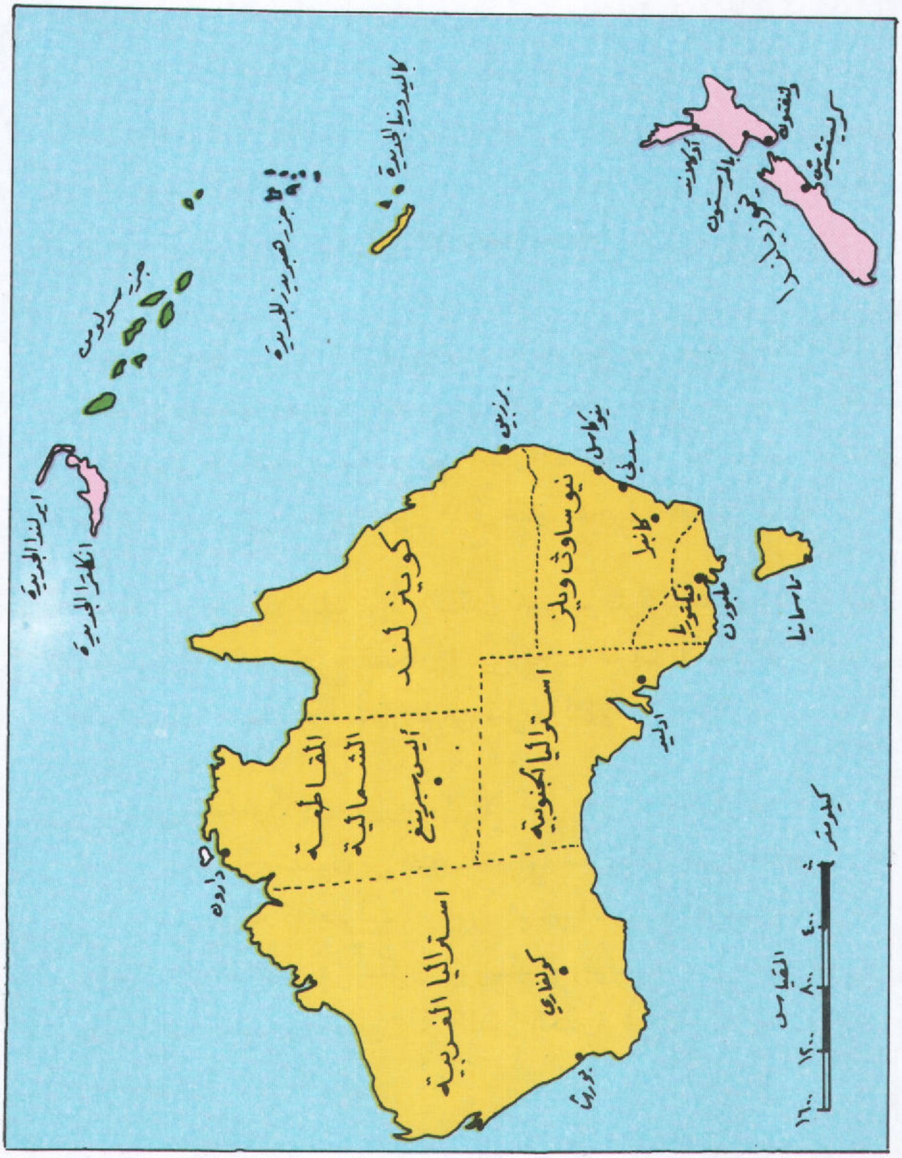
القاطعة الشمالية
استراليا الغربية
استراليا الجنوبية
كوينزلند
نيو ساوث ويلز
فكتوريا
تاسمانيا
ملبورن
سدني
نيوكاسل
كانبرا
برزبن
دارون
كولغاردي
أليس سبرنغ
بيرث
أدليد
نيوزيلندا
أوكلاند
ولنغتون
كريستشرش
كاليدونيا الجديدة
جزر سليمان
جزر هبريدز الجديدة
ايرلندا الجديدة
انكلترا الجديدة
كيلومتر

مصور رقم [٩٣] .

(٢) نيوزيـــلندا

تبلغ مساحتها ٢٦٩,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف، وعاصمتها مدينة (ولنغتون)، وهي اتحادية تتألف من تسع ولايات، وتشمل جزيرتين كبيرتين وعدداً من الجزر الصغيرة. عرفها تسمان الهولندي عام ١٠٥٢ هـ.، ثم زارها في القرن الثاني عشر الهجري جيمس كوك.

ينحدر سكانها الأصليون من سكان جنوب شرقي آسيا، ولا يُشكّلون اليوم سوى ٩ ٪ من مجموع السكان الذين يغلب عليهم الأصل الإنكليـزي، والذين تدفقوا إليها بعد استعمارها من قبل دولتهم.

لم يصل المسلمون إلى نيوزيلندا إلا من عهدٍ قريبٍ لا يبعد عن عام ١٣٩٠، إذ هاجر مسلمون من جنوب شرقي آسيا، ومن جـزر فيجـي، وتجار من الهند من منطقة كوجـرات، ثم مـن ألبـانيـا، ويوغوسلافيـا، وتـركيـا، وباكستان، وأسلم عدد من سكان نيوزيلندا، ويزيد عدد المسلمين اليوم على أربعة آلاف مسلم، ويتجمّعون في المدن الكبيرة في (أوكلاند) والعاصمة (ولنغتون) و(كريستشيرش).

تأسّست في أوكلاند (جمعية حماية الإسلام النيوزيلاندية)، ثم تبعها تأسيس جمعيات إسلامية في (ولنغتون) و(بلمرستون) و(كريستشيرش).

وفي مدينة أوكلاند أيضاً مركـز إسلامـي يُعـرف بـالمركـز الإسلامـي النيوزيلاندي، وله فرع في العاصمة (ولنغتون). وقد بُني مسجد في المدينة نفسه عام ١٣٩٩، ويضمّ مقراً للمركز وقاعاتٍ للاجتماعات. وقد قامت الجمعية في أوكلاند بجهودٍ لقيام اتحادٍ يضمّ الجمعيات الإسلامية في مختلف مدن نيوزيلندا. كما تتصل بالمسلمين في جزر فيجي، واستراليا، والهند، وجنوبي إفريقية.

(٣) جـــزر فيـجي

تبلغ مساحتها ١٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتضمّ ٨٢٠ جزيـرة، ولكـن ليس بينها سوى مائةٍ وست جزرٍ مأهولةٍ بالسكان، والباقي لا يُقيم عليه البشر. ومن هذه الجزر اثنتان كبيرتان هما: (فيتي لفيو) و(فانيو لفيو)، وتُشكلان ٨٧٪ من مساحة البلاد، وهما من أصل بركاني وتُحيط بالجزر عادة شواطىء مرجانية.

استولت انكلترا على هذه الجزر عام ١٢٩١، وجعلتها مستعمرةً لها، واستقدمت لها العمال من الهند لزراعة قصب السكر، وحصلت على الاستقلال عام ١٣٩٠، وعاصمتها مدينة (سوقا).

يزيد عدد سكان جزر فيجي على ستمائة ألف، ينتمي نصفهم على الأقل إلى أصلٍ هندي، والنصف الآخر من سكان البلاد الأصليين، ويوجد ما يقرب من ٤٥ ألف ساكن ينتمون إلى جنسيـات مختلفـة، منهـم الأوربيـون، ومنهم الصينيون.

وصل الإسلام إلى هذه الجزر عن طريق المهاجرين الذين وفدوا من شبه القارة الهندية (الهند وباكستان)، والذين استطاعوا أن يُـؤثـروا على بعـض السكان فيعتنقون الإسلام. كما جاء مهاجرون من المسلمين أيضاً من الملايو، وأندونيسيا، وشرقي إفريقية.

يُقدّر عدد المسلمين في جزر فيجي بأربعة وخمسين ألفاً وهو ما يُعادل ٩ ٪من مجموع السكان، يُقيم خمسهم في العاصمة، ويتوزّع الباقي في أنحاء البلاد، وإن كان معظمهم يسكن القرى.

شكّل المسلمون في جزر فيجي عام ١٣٤٥ هيئةً إسلاميةً، وتشرف هذه الهيئة على المساجد، على خمسة وعشرين مسجداً موزعة في كل البلاد. وعلى ثلاث عشرة مدرسةً ابتدائية غالبها يلحق بالمساجد، وعلى ست مدارس متوسطةٍ وثانويةٍ، وللشباب المسلم رابطة تُعرف باسم (رابطة الشباب الفيجية).

ويعمل الهندوس على محاربة المسلمين، وخاصةً أبناء جلدتهم الذين هم من الهند.

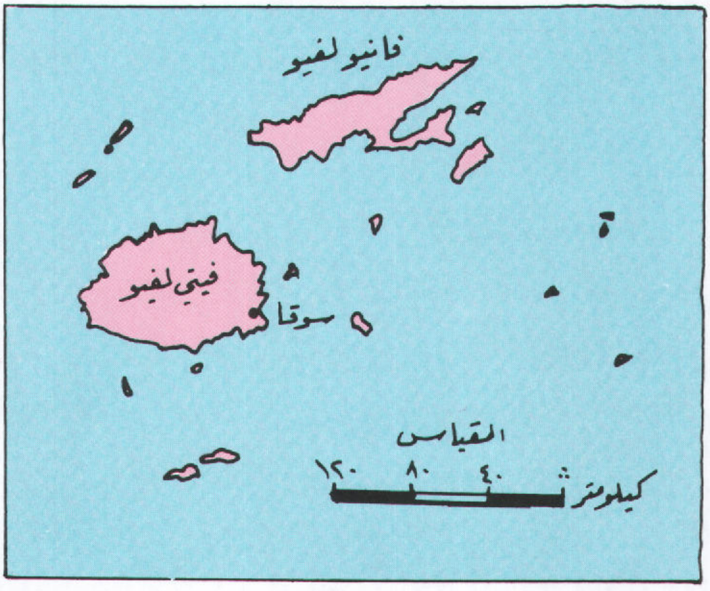

مصور رقم [٩٤].

وثمة جزر مبعثرة في المحيط الهادي تُؤلّف بقية أجزاء القارة الأوقيانوسية، وتُعدّ كاليدونيا الجديدة أكبرها، ومنها جزر سولومون، وهبريدز الجديدة، وجزر سانتاكروز، وكثير من مجموعات الجزر، ولا تزال كلها تحت السيطرة الفرنسية أو الإنكليزية، وتعيش فيها أعداد قليلة من المسلمين لا يكاد يبدو أثرهم في المجتمعات التي يعيشون فيها.

مشكلات الأقليات المسلمة

تُعاني الأقليات المسلمة في البلاد التي تعيش فيها مشكلاتٍ كثيرةً تقف في وجه نموها وازدهارها ورقيها وتطورها وتأدية دورها بل تقف في وجه حياتها وبقائها في تلك الأرض، وتعود هذه المشكلات إلى عدة أسبابٍ منها:

١ ـ أسباب ذاتية تتعلّق بالأقلية نفسها.

٢ ـ أسباب وطنية تتعلق بالبلد الذي تعيش فيه.

٣ ـ أسباب عنصرية وفكرية ترتبط بالبلد الذي تنتمي إليه.

٤ ـ أسباب عالمية.

٥ ـ أسباب محلية.

٦ ـ ضعف الإمكانات.

الأسباب الذاتية: يقوم كثير من أفراد الأقلية المسلمة، بتصرفاتٍ وأعمال تضعف شأن الجالية المسلمة وتفرّق صفها وتمنعها من التطور، وما هذه الأعمال إلا بسبب البعد عن الإسلام أو عدم معرفة الأفكار والمبادئ التي يقوم عليها، ومن هذه الأعمال:

أ ـ التجمّع على أساسٍ عنصريٍ، فغالباً ما نرى قيام مجموعة من بلدٍ معينٍ ببناء مسجدٍ لأفراد جماعتهم أو تسميته باسمها، أو إنشاء مُؤسّسةٍ

خاصة بهم، وربما يجد الإنسان مبرراً لافتتاح مدرسةٍ باسم جماعةٍ مُعيّنةٍ بسبب اللغة ومع ذلك فهذا أمر غير مقبول.

ب - تبنّي العصبية العنصرية، بشكلٍ صريحٍ أو المزج بين الدعوة إلى الإسلام والعصبية.

جـ - احتضان بعض الفرق التي تُظهر الإسلام، وتُبطن الكفر، وتعمل بكل جهد للصدّ عن دين الله، هذا إضافةً إلى أن سلوكها وعقيدتها يُعطيان صورة تُنفّر من الإسلام وصفائه.

د - الانتماء إلى فكر يُعادي الإسلام.

هـ - الانضمام إلى المجموعات المتنافسة سياسياً أو فكرياً في داخل البلد الذي تعيش فيه، وهذا يُؤدّي بطبيعة الحال إلى الوقوف في وجه الإسلام فيما إذا فاز الفريق الخصم.

و - الوضع الاجتماعي الذي عند بعض أبناء الأقلية بسبب الحالة المادية، غير أن الإيمان يتجاوز هذا والأمر لا يحتاج إلّا إلى التذكير، ورفع المعنوية.

ز - الحالة النفسية الناشئة عن الشعور بالتفوّق الحضاري للمجتمعات الغربية على المسلمين أو التي تظهر نتيجة التشرّد وأوضاع المسلمين في أمصارهم ودولهم. وهذا يحلّ مشكلته الإيمان أيضاً.

حـ - الرغبة في الحصول على إقامةٍ دائمةٍ في البلد الذي يعيش فيه أو يصل إليه، وهذا غالباً ما يتمّ عن طريق الزواج بإحدى الفتيات من البلد نفسه، وفي الوقت نفسه تُؤيّد ذلك وتدعمه الرغبة في الزواج الأمر الذي يجعله يقدم على الزواج من نصرانيةٍ، ويضطر لمسايرتها ومجاملة أهلها فينشأ الأولاد على النصرانية ويتمّ الضياع.

وأخيراً لا بدّ من النظر إلى الجهل، والتخلّف، وعدم المعرفة الصحيحة بالإسلام وهذا ما ينشأ عنه كل ما ذكرنا من تفرقةٍ وخلافٍ، وعدم بذل الجهود الواحدة لتطوّر الأقلية ورفع مستواها.

الأسباب الوطنية: وهي ترتبط بالبلد الذي تعيش فيه الأقلية، ومع أن هذه البلاد مُختلفة الديانات مُتباينة الأجناس إنما تعمل كلها ضدّ المسلمين ويعود ذلك لعدة أسباب منها:

ـ الأسباب الدينية: وتقع من جانب النصارى وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى كالبوذية مثلاً في تايلاند وبورما، والهندوكية في الهند، كما تحدث في دول إفريقية، وفي البلدان التي يسيطر عليها الروس، وأوروبا الشرقية باسم الشيوعية، والنصرانية في الفيليبين ودول أوربا والعالم الجديد، واليهود في كل بقعةٍ من العالم، وحتى من الفرق الباطنية حيثما وُجدت. وربما كان لها بعض الدوافع يمكن أن نستعرض بعضها.

يتزايد المسلمون أكثر من غيرهم، وهذا ما يجعل نسبتهم في ارتفاعٍ مستمرٍ الأمر الذي يجعل أصحاب الديانات الأخرى يخشون الطغيان عليهم فيعملون على الوقوف في وجه المسلمين، وعمل القتل فيهم باستمرار، أو بين حينٍ وآخر بإيجاد سببٍ أو اختلاق حادثةٍ، ويحرص أصحاب الديانات الأخرى من مسؤولين في الحكم أو من الإرساليات التنصيرية في كل منطقةٍ تعيش فيها أقلية مسلمة أن يقلّلوا من شأن المسلمين وعددهم في بلدانهم فينشرون إحصاءاتٍ غير صحيحة يُعطونها صفة الرسمية. وإذا كان أصحاب بعض الديانات يتزايدون كالمسلمين وربما أكثر في بعض المناطق إلا أن الحقد يدفعهم للعمل ضدّ المسلمين ومحاولة التخلّص منهم والقضاء عليهم، وهذا أمر معروف لدى أتباع الديانتين الهندوكية والبوذية وما يحدث للمسلمين في الهند وما يحلّ بهم في تايلاند وبورما أمر شائع ومعروف ويتكرر باستمرار وما مذابح المسلمين في دهلي في الهند في أيام رمضان الأخيرة وعيد الفطر من عام

١٤٠٧ بخافيةٍ على أحد حتى اضطر المسلمون إلى ترك صلاة العيد والجمعة يومذاك لما نزل بهم، وخوفاً من أن يُبيدهم الهندوس بصورةٍ جماعية أثناء أدائهم العبادة فتزيد جراحهم جراحاً وألماً.

وتعمل الإرساليات التنصيرية على الوقوف في وجه الإسلام وتعدّ هذا من مهماتها الأساسية، ومن أولى واجباتها، وهي من أوسع المؤسسات في العالم، وأكثرها غنى، وأكبرها طاقة، وأضخمها إمكانات إذ تدعم من قبل اتحاد الكنائس العالمي الذي تموله معظم الدول في أوربا وأمريكا أو التي بيدها الثروة، ولها النفوذ والسيطرة في أكثر جهات العالم.

إن هدف هذه الإرساليات إنما هو نشر النصرانية ديانةً، وتثبيتاً لأقدام الدول التي تنتمي إليها هذه الإرساليات، وتصطدم أثناء عملها بالإسلام الذي ينتشر في المنطقة نفسها أيضًا، ولكن المسلمين لا يملكون من الامكانات ما يجعلهم يستطيعون منافسة هذه الإرساليات التنصيرية في كسب الناس وإعطائهم الوظائف، وافتتاح المدارس لهم، وتقديم الخدمات الطبية والأغذية لهم، ومدهم بالمساعدات المادية، بل والإغراءات في كل جوانب الحياة، وليس هناك من دولٍ أو جهاتٍ قويةٍ تدعمهم بما يمكنهم من الوقوف في وجه تلك الإرساليات ومن وراءها، وكل ما يملكه المسلمون طبيعة دينهم التي تتفق وفطرة البشر، على حين أن بقية الديانات تخالفها، لذا فإن انتشار الإسلام كان أوسع من انتشار النصرانية، ويكاد نموه يُعادل ضعف تقدمها الأمر الذي يجعل تلك الإرساليات تحقد على الإسلام والمسلمين ويُضاف إلى ما تحمله من أحقادٍ صليبيةٍ دفينةٍ تعود إلى التاريخ وكوامن النفس.

إن تزايد انتشار الإسلام، وتزايد المسلمين الكبير نتيجة زيادة الولادات، والحقد القائم يجعل المسلمين يتعرّضون لأخطار الإبادة كلما سنحت الفرصة لتلك المؤسسات التنصيرية والقوة بأيديها، والسلطة تعمل برأيها، فالدول الأوربية مثلاً هي صاحبة الكلمة في إفريقية، ولها السيطرة والنفوذ، وهي التي

تدعم تلك الأرساليات التنصيرية حيث استعمرت هذه الدول القارة الإفريقية وراء الإرساليات التي مهدت لها الطريق، ثم أوجدت لها القواعد والأتباع من الذين أدخلتهم في دينها وقدّمت لهم الإمكانات، وإذا كانت الدول الاستعمارية قد خرجت من غالبية دول إفريقية إلا أنه لا يزال عدد من الحكام يدينون لها بالولاء أو التبعية. وأن الدول الإفريقية التي يعيش فيها المسلمون أقليات إنما تحكم غالباً من قبل النصرانية بل إن عدداً من الدول الإسلامية لا تزال الأقلية النصرانية هي المتحكمة فيها حتى إنه ليظنّ كثير من الناس ومنهم المسلمون أن هذه الدول نصرانية، وقد سلّم الاستعمار هذه الأقلية الحكم قبل رحيله، وادّعى أنها أكثرية، وأعطى إحصاءاتٍ خاطئةً يبدو فيها المسلمون أقليةً، وقدّم تقديراتٍ غير صحيحةٍ ويمكن أن نذكر من ذلك (تشاد) و (السنغال) و (سيراليون) و (ساحل العاج) و (التوغو) و (بنين) و (إفريقية الوسطى) و (تانزانيا) و (الحبشة)، ويمكن أن نقول: إن كل الدول التي يعيش فيها المسلمون أقليات يتعرّضون للحرب الدينية والإبادة من قبل النصارى، حتى ولو كانوا أكثريةً وتتحكم فيهم الأقلية تعرّضوا للحرب نفسها، ويكفي أن نذكر أوغندا وما حلّ بها، وتانزانيا وما نزل بها، والحبشة وما يُصيب المسلمين فيها. وقد عهّد المستعمرون رجال الإرساليات التنصيرية بالحكام النصارى الذين آل إليهم الأمر، وطلب منهم أن يبتلعوا المناطق الإسلامية التي حولهم إن كانت ذات مواقع مُهمّةٍ وتُشكّل خطراً، ومن هنا نرى أن زنجبار قد ابتُلعت من قبل تانزانيا، وابتلعت اريتريا وبلاد عفر من قبل الأحباش. وإذا صدف أن تسلّم المسلمون السلطة نتيجة حركةٍ قاموا بها لأكثريتهم أوقعوا بينهم الخلاف، وتدخلت دول أوربا تُساند الطرفين، كي يفني المسلمون بعضهم بأيدي بعض، وما شأن (تشاد) عنا ببعيد، ولا وضع نيجيريا بغامض على أحد. وربما سلّم المستعمرون السلطة لمسلمين عندما لا يوجد غيرهم لكثرتهم المطلقة، أعطوا الحكم من ربوه على أيديهم، ولقنوه أفكارهم حتى غدا كأحدهم، وأوكلوا إليه المهمة نفسها،

وهذا أفضل لهم إذ يقتل المسلم المسلم والعدو ينظر مسروراً وكأنه لا دخل له، أو كأن ما يقع إنما يحدث على كوكب آخر.

إن وضع إفريقية وما يحدث فيها ينطبق على الجهات كلها، وإنما ضربت الأمثلة جميعها في دولها لأنها ذات صدى أكبر عندنا لقربها منا وصلتنا ببعض أحداثها على حين أن البلدان البعيدة لا نسمع عنها، ولا عما يحدث فيها، وفيما إذا كانت تضمّ مسلمين بين رعاياها أم لا، لجهلنا وعدم اهتمامنا بإخواننا الذي ينتج عن عدم أثر الدين في كثيرٍ منا.

ويُمكن أن نضيف إلى هذا الصراع القائم على أساسٍ ديني ما يحدث في البلدان التي يسيطر عليها الروس ودول أوربا الشرقية والبلاد الشيوعية حيث تقوم حرب ضدّ الأديان عامةً ولكنها في الواقع لا تُوجّه إلا ضدّ الإسلام، ويطلب من المسلمين تغيير أسمائهم، وترك عقيدتهم وكل ما يتعلّق بها من حياةٍ اجتماعيةٍ وشخصيةٍ، ومن يرفض ذلك فإن مصيره إلى القتل إن لم يتمكّن من الهرب.

والأمر الذي يُلفت الانتباه أن معظم الدول النصرانية تدّعي أنها علمانية، ولا تهتمّ بالديانات ولا تُفرّق بين أصحابها، وفي الوقت الذي تُعلن فيه هذا، وتُدوّنه في قوانينها أحيانًا تراها تُدعم اتحاد الكنائس العالمي وتمدّه بالأموال، وتبعث بالإرساليات التنصيرية وتُقدّم لها حاجاتها المادية كاملةً، وتُسخّر لها كل ما لديها من نفوذ، وتقف بجانبها في كل قضاياها بل كثيراً ما أثارت حرباً من أجل قضيةٍ بسيطةٍ تعرّض لها أحد رجال الإرساليات أو القساوسة. وإن ما ينال أصحاب الديانات في بلدانها من أذىً لا يُصيب إلا المسلمين، وإن القوانين التي تصدر وتتعلّق بالأديان لا تُوجّه إلا للمسلمين. وإن أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية في ممر هذه الدول التي تدّعي العلمانية، ويرفلون بثياب الحرية والنعيم في أحضانها. ولا يختلف هذا الأمر بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية التي من مبادئها محاربة الأديان غير أن هذه الحرب

لا تحلّ إلا بالمسلمين. أما اليهود والنصارى ففي ثياب العزّ ينعمون، ولا غرابة في ذلك فالرأسمالية والشيوعية من نتاج التخطيط اليهودي، وأكثرية سكانها من النصارى الذين يدفنون في صدورهم الحقد على الإسلام ويّورّثونه الجيل بعد الجيل. وحدث في التاريخ أن النازية اضطهدت اليهود ودبّرت لهم مذبحةً أثارت نقمة العالم، ولا يزال اليهود يُرددونها، ويُتاجرون بها، ويدّعون أنهم المضطهدون، وأن ما نالهم لم يكن لينزل بغيرهم. ولم تكن هذه المذبحة إلا نزوةً من نزوات النازية وانفعال زعيمها هتلر لما ارتكبه اليهود من خيانةٍ لألمانيا وراء مصالحهم الشخصية منهم لا ينظرون إلى الدول وحقوقها على مواطِنيها، وإنما يتجهون بتفكيرهم كله إلى أهداف اليهود، فهم لا يُؤمنون بالمواطنة، وإنما باليهودية العالمية، وأنهم شعب الله المختار، وليس عليهم في الأميين من سبيل. وتُدبّر للمسلمين في كل يوم مذبحة، وتنزل بهم في كل مكانٍ نائبةٍ من غير ذنب ومن دون تقصير بواجب، ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله ولا تتحرّك شعرة من الضمير العالمي بل ولا من المسلمين أنفسهم، ولا من ولاة أمورهم لما نحن فيه من ذلٍّ وبُعدٍ عن الإسلام.

والأمر الغريب أيضاً أن كثيراً من المسلمين في أمصارهم يُصدّقون ادعاءات هذه الدول وعلمانيتها، ويرون تطوّرها فيظنّون أن هذا التطوّر إنما هو نتاج السياسة العلمانية المزعومة فيُنادون بذلك، ويتحرّكون في هذا الاتجاه دون تفكيرٍ ومن غير نظرةٍ إلى الواقع الذي تنتهجه تلك الدول العلمانية.

الوحدة الوطنية: تدّعي كثير من الدول التي فيها أقليات مسلمة أنها تريد أن تكون هناك وحدة وطنية بين سكانها كي يكون انسجام تام بين أفراد الشعب، ولن يتمّ هذا الانسجام إلا إذا كانوا جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً أو يعيشون على نمطٍ واحدٍ من الحياة على الرغم من أن عدداً من هذه الدول تُحارب العقيدة أياً كانت العقيدة أو تدّعي أنها تُعطي حرية الاعتقاد لجميع الأفراد الذين يُقيمون على الأرض التي تفرض سيطرتها عليها، وإن

أكثر من يدعي فكرة الوحدة الوطنية بصهر السكان جميعاً في بوتقةٍ واحدةٍ هم دول شرقي أوربا وجنوب شرقي آسيا وعلى الرغم من أن دول شرقي أوربا دول شيوعية لا تعترف بدينٍ من الأديان ـ حسب زعمها ـ ولا تقرّ بعقيدةٍ سوى العقيدة المادية التي يراها (كارل ماركس) ويُقرّها (لينين)، وكذا بعض دول آسيا القائمة في جنوب شرقي القارة، ثم في الفيليبين الدولة النصرانية، وفي بورما، وتايلاند الدولتين البوذيتين، وفي الهند الدولة البراهمية.

تدّعي بعض هذه الدول أن المسلمين المقيمين على أرضها يجب أن يعودوا إلى ديانة آبائهم وأجدادهم القدماء حتى تتم الوحدة الوطنية بين أفراد الشعب كله، وكأن العقيدة أمر سهل التغيير، ميسر تبديله، وهذا ما تقوله أكثر الدول التي ذكرناها، ولما كان هذا الأمر غير ممكن فإن الحرب تُشنّ على المسلمين بأشكال مختلفةٍ، منها الإبادة الجماعية كما حدث لمسلمي (تشامبا) في فيتنام، أو شنّ حربٍ عامةٍ عليهم كما حصل في الفيليبين، أو تُدبّر لهم المذابح وتُتخذ إجراءات ضدّهم بمنتهى السوء والوحشية وهي طريقة العقم، كما فعلت الهند وتفعل، ويقول الروس إن السبيل الوحيدة للوحدة الوطنية هي أن يكون السكان جميعهم من السلاف، كما يقولون: إن كلمة (سلاف) وإن كانت تدلّ على مجموعةٍ من الناس يعودون إلى أصلٍ واحدٍ إلا أنها تعني عقيدتهم أيضًا، وهي النصرانية الأرثوذكسية، لذا يجب تحويل السكان جميعهم، وصبغتهم الصبغة التامة بما تعني كلمة (سلاف) وإلا فلن تتمّ الوحدة الوطنية ولن يكون هناك تجانس بين السكان، وتسير على نهج روسيا دول أوربا الشرقية الشيوعية في رغبة تحويل السكان عن عقيدتهم، وتغيير أسمائهم، وتبديل عاداتهم، وترك أحوالهم الشخصية المتوارثة عندهم والتي تنبع من العقيدة، وإذا رفض المسلمون ذلك، وهذا أمر طبيعي تدّعي أنهم يُقاومون الإصلاح الاجتماعي، ويقفون في وجه الثورة الإصلاحية، وأنهم مُنظّمون مرتبطون بالدول الإسلامية الأخرى، وأنهم عملاء للإمبرايالية والرأسمالية،

وهذا ما يحدث تماماً اليوم في بلغاريا، ويمكن الرجوع إلى الجزء الخاص ببلغاريا من هذا الكتاب. وبهذه الصورة تُفسّر الحركات، وتنعت المعاملات الطيبة البريئة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وتكون المذابح الجماعية أو التشريد الجماعي، ولا يزال سكان القرم يهيمون على وجوههم في مجاهل سيبيريا.

وفي الصين يُقضى على المسلمين، ويفتنوا عن دينهم باسم الوحدة الثقافية، وبهذه الدعوة تُحرق المصاحف والكتب الدينية، وتهدم المساجد، وينتهي عمل الجمعيات الاجتماعية.

ولما كان للإسلام تنظيم خاص للمجتمع، وللمسلمين لغتهم الخاصة التي يريدون أن يُحافظوا عليها حفاظاً على شخصيتهم، ولهم تقاليدهم وعاداتهم الذاتية النابعة من عقيدتهم، لذا فإن انقياد المسلمين لنظامهم يُعدّ أمرًا طبيعياً وأساسياً، ولكن حُكّامهم يعدّون هذا تنظيماً سياسياً يُقاتلون عليه، أو انعزالاً خاصاً أو محافظةً على ذاتيةٍ مُعيّنةٍ خارجةٍ عن المجتمع يجب كسرها وصهر ما في داخلها ببقية المجتمع، ومن هنا تقوم المذابح فيهم، فإذا كانوا يتجمّعون في منطقةٍ واحدةٍ أو يتكاثرون في بقعةٍ معينةٍ طالبوا باستقلالهم الذاتي كي يُحافظوا على كيانهم وشخصيتهم كما تفرض عليهم عقيدتهم، وتُؤيّد ذلك القوانين الدولية وهيئة الأمم المتحدة وهذا ما يحدث في فطاني في تايلاند، وجنوبي الفيليبين، واريتريا، وعفر في الحبشة، غير أن المطالبة بالحكم الذاتي تجرّ عليهم حرب إبادة. أما إذا كانوا مُوزّعين ومتفرقين فإنه لا يمكنهم أن يُطالبوا بالاستقلال، وتقع فيهم النكبات باستمرار ويتعرّضون للقتل أو التشريد أو الرضوخ لما يُطلب منهم وهذا ما يحدث لمعظم الأقليات المسلمة في العالم، وإن كانت تبرز الآن قضية المسلمين في الهند، وفي بلغاريا.

وتتهم الحكومات الأقلية المسلمة التي تعيش في أرضها أن لها علاقات مشبوهة فإن كانت الدولة شيوعية اتهمت المسلمين بصلتهم مع أمريكا

والامبريالية العالمية، كما هي الحال في كل الدول الشيوعية، وإن كانت الدولة رأسمالية أو مُعادية للشيوعية اتهمتهم بالعمالة للشيوعية العالمية والصلة مع إحدى الدول الشيوعية، وهذا ما يتهم به المسلمون في الفيليبين وتايلاند، والواقع أن المسلمين ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء وإنما التهمة لإيجاد المبرر لشنّ الحرب عليهم أو تدبير المذابح لهم، وقد يكون بينهم أفراد من هنا وأفراد من هناك ولكن جمعتهم المصلحة العامة للمحافظة على البقاء.

الأسباب العنصرية: وهي ترتبط بالبلد الذي ينتمي إليه بعض أفراد الأقلية المسلمة. وتتباين ـ مع الأسف ـ الامصار الإسلامية في الأفكار التي تتبنّاها، وأكثرها بعيد عن الإسلام، أو متناقض معه، وفي الانتماءات الدولية والأفلاك التي تدور فيها، ويحرص المسؤولون في كل مصر أن يكون المهاجرون من مصره ضمن الخط الذي يسيرون فيه هم، ويبذلون جهدهم في سبيل ذلك تارةً عن طريق سفرائهم، وأُخرى عن طريق مبعوثيهم والذين يُرسلونهم أحيانًا لدعم المسلمين هناك كدُعاةٍ أو مُعلمين مرةً بالضغط والتحذير وأُخرى بالإغراء والمساعدة، ولما كان المهاجرون على درجةٍ من قلّة الوعي، أو فيهم عدد كبير من هذا النوع، لذا فإن بعضهم يتأثّر بهذا ويسير في الخط الذي يُراد له أن يتحرّك فيه، ولما كان المسؤولون في الأمصار الإسلامية مُختلفي الآراء، مُتبايني الأفكار، منقسمي الانتماءات لذا فإن الافتراق ينعكس على الأقليات المسلمة فيختلف بعضها مع بعض ويقع الصراع أحياناً وبهذا فإن المسؤولين في الامصار الإسلامية هم سبب الانقسام في الأقليات على حين يجب أن يكونوا عامل اللقاء والجمع وسبباً في النهوض والتطوّر عن طريق المساعدة والدعم، وتُضاف مُشكلة إلى الأقليات المسلمة تعدّ من أكبر المشكلات وأعقدها.

وتزداد المشكلة عندما يكون بين أفراد الجالية التي تنتمي إلى مصرٍ من الأمصار مجموعات غير مسلمة مثل الهندوس من الهند أو النصارى من بلاد

الشام إذ تنشأ عندها عصبية قومية فيضيع معها جزء من الأقلية المسلمة باتباعهم فكرة القومية المعادية للإسلام وسيرهم في طريق آخر، فيبتعدون عن إخوانهم المسلمين وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

ومما يُؤسف له أن بعض المسؤولين يعملون للدعاية لأنفسهم ولبناء أمجادهم على حساب تفريق أبناء الأقلية المسلمة، ويرسلون المبعوثين لهم لهذا الغرض باسم مساعدة الأقلية ومناصرتها وشدّ أزرها وتعليم أطفالها، ثم تكون الطامة.

أما بالنسبة إلى الأمصار الإسلامية فإن أكثرها قليل الاهتمام بالأقليات المسلمة لأنه من الأساس لا يقوم على مبادىء الإسلام أو يتبنّى الإسلام، وإنما بعضها يقوم على أسسٍ عنصريةٍ أو اقتصاديةٍ سواء أكان اشتراكياً أم شيوعياً أم رأسمالياً، وكلها تعمل على معاداة الدين أو تدّعي العلمانية على الأقل، ويُضاف إلى هذا الجهل والتخلّف السائد، أو الاهتمام بذاتها للتنمية أو للتمكين أو العمل للدعاية لنفسها، وقد يكون الفقر والضعف سبباً وإن كان ثانوياً جداً. وكثيراً ما تعمل بعض هذه الأمصار على محاربة الحركات الإسلامية ومعاداة هذا الإتجاه وبالتالي لا يمكنها أن تعمل هذا في بلدها ثم تتجه لتقوية هذا الخط خارج حدودها. وأما الأمصار التي تعمل لخدمة الأقليات المسلمة فقليلة ويبذل بعضها الكثير، ولكن يحتاج إلى التخطيط وتهيئة الكفاءات اللازمة والإخلاص بطرح العمل للذات وإبعاد فكرة احتواء المؤسسات والتنظيمات الإسلامية بين الأقليات أو في داخل بلدها، ومع ذلك فإن خيوط المساعدة مهما كانت دقيقة فإن أثرها جيد، ويجعل أفراد الأقليات المسلمة أكثر حركيةً ونشاطاً وشعوراً بارتباطهم بإخوانهم المسلمين في أمصارهم مهما نأت ديارهم.

الأسباب الدولية: تعمل أكثر دول العالم غير المسلمة وخاصةً الكبرى منها على إذابة الأقليات المسلمة في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ليقضوا على المسلمين جزءاً بعد جزء، والأقليات أسهل الأجزاء قضاءً عليها لانفصالها

عضوياً عن جسم الأمة المسلمة وبُعدها عنها. وبذا يلتقي هذا الهدف مع هدف بعض الدول التي تعيش فيها هذه الأقليات كالهند، وبورما، وتايلاند، والفيليبين، وبلغاريا مثلاً.

وتكون الإذابة بإبعاد الأقليات عقيدةً وفكراً عن الأمة المسلمة بعد أن ابتعدت جسماً، ويكون الإبعاد باندماجها في المجتمع غير المسلم الذي تعيش فيه اندماجاً كلياً وصهرها في بوتقته حتى يتكلّم المسلمون لغته وينسون لغتهم ولغة القرآن الكريم التي يتعبدون بها، ويتعوّدون عاداته، ويتركون عاداتهم وتقاليدهم التي تنبع من عقيدتهم، ويتزوّجون من فتياته، وتُربّي نساؤهم أبنائهن على ديانة أهلهن فينشؤون على عقيدة أهلهن، ويُنكحون بناتهم إلى أبنائه تاركين ما يُحرّمه عليهم دينهم، وما هو إلا جيل ينقضي حتى يصبح المسلمون من مجتمع البلاد فكراً وعاداتٍ وعقيدةً.

وبعد ضياع المسلمين أو اندماجهم يُمكن بعدئذٍ للدول الكبرى إن تُلقي أمامهم شباكها لتجرّهم إلى فلكها، وتُغذّيهم بأفكارها وتسير بهم حيث تشاء، فدول العالم تتفق إذن في المرحلة الأولى على صهر المسلمين في مجتمعها ثم تختلف فيما بينها بعدئذٍ أو في المرحلة الثانية لاقتسامهم أو لجذبهم نحو فلكها إذ يسهل ذلك عندئذٍ. وسواء أساروا نحو اليمين أم اتجهوا نحو اليسار فالمصلحة لليهود الذين نشأت الرأسمالية وترعرعت في أحضانهم، ونمت الشيوعية من زراعتهم لها وريّها من قبلهم. وقد تربح الفرق الضالة من بهائيةٍ وقاديانيةٍ وغيرها وما هي منهم ببعيد فهم سدنتها أيضاً والذين أوجدوها، والمهم إفساد العقيدة، والأمر بعدها سهل، إذ يمكن للمخططين السيطرة وتحقيق الهدف.

لا شك أنه يضيع ويذوب في المجتمع غير المسلم من كان عنده استعداد للانحراف والانجراف في تيار المفاسد ومن كان بالأصل ضعيف الإيمان، وقد ارتدّ بالفعل عدد من المسلمين وتنصّروا، وربما تبع بعضهم البهائية أو القاديانية عن جهلٍ إضافةً إلى ما ذكرنا، ولها بعضهم حتى وقع، وخاض في

المياه الآسنة وبُؤر الفساد لا يُبالي بأي قيمة وفي الوقت نفسه قاوم كثيرون، ولكن مع مرور الزمن وتوالي الأيام أصاب بعضهم الوهن حتى انجرف، وثبت آخرون، ووُجّهت لهم التّهم، وأُطلقت عليهم الألقاب كي يسيروا في التيارات التي سار فيها بعضهم، وحتى يندمجوا في مجتمعهم كما اندمج غيرهم، فأُلصقت بهم عبارات الرجعية لمحافظتهم على أخلاقهم وسلوكهم، ووُصفوا بالتعصّب لتمسّكهم بعقيدتهم، وأُعطوا صفة التطرّف لتأديتهم بعض عباداتهم، ولن تزول عنهم هذه التّهم حتى ينسلخوا من دينهم، ويتركوا عقيدتهم، ويندمجوا في مجتمعهم، وما هذه التهم إلّا لهذا الهدف فإن فعلوا فقد زالت عنهم، وإن استمرّوا بقيت ملازمةً لهم، فإما أن يرضخوا، وإما أن يستعلوا لا يبالون ما داموا يعلمون أنهم على الحق، وأنهم الأعلون ما داموا مؤمنين.

وقد أصبحت هذه التهم تطلق على المسلمين في أي مكانٍ كانوا سواء في بلاد المسلمين أم في غيرها فإذا تركوا عباداتهم زالت عنهم صفة التعصّب، وإذا ساروا في دروب المفاسد غدوا تقدميين، وإذا تركوا الدعوة إلى التميّز والعمل على إبراز الشخصية الإسلامية زالت عنهم سمة التطرّف، وإن كانت هذه الصفة تزول بمجرد بداية المجاملة التي يليها الاحتواء من قبل التيارات العالمية أو الأنظمة المرتبطة بها، حتى لو بقي المسلمون من هذا النوع يُؤدّون عباداتهم ويُجيدون الحديث عن الإسلام، لأن قواعدهم تبقى بعيدةً عن هذه الألاعيب.

الأسباب المحلية: على الرغم مما يحيق بالأقليات المسلمة من أخطار تُهدّد كيانها، وتُعرّضها للإبادة فإنها لا تُشكّل مُنظّمةً واحدةً تسعى لدرء الخطر عنها، وتصدّ الهجوم عليها وتعمل في سبيل أفرادها يداً واحدةً للوقوف في وجه عدوها، وتحرص على رفع مستوى جماعتها تعليمياً، وصحياً، واجتماعياً، ومادياً وإنما تقوم في كل مكانٍ منظمات متعددة ـ كما رأينا ـ وتبقى كلها ضعيفة لصغر حجمها، وتعمل كل واحدةٍ مُفردةً محاولةً تأمين بعض الجوانب

التي يحتاج إليها أعضاؤها من مدارس وكتاتيب أو مستوصفات ومشافي بل تقوم أحياناً ببناء مساجد خاصة، وتقوم هذه الجمعيات أو المنظمات على أساس الأصل الواحد أو اللغة أو المذهب إن وجد هذا، وفي كثير من الأحيان لا يوجد أي مجال للافتراق سوى التعصب لهذه الجمعية أو تلك المنظمة، أو تسلّم هذا المركز أو ذاك، وفي كثير من الأحيان ما يصطدم بعضها مع بعض الأمر الذي يسهل على خصومها ضربها حركةً إثر حركةٍ، ومع التنبيه والتحذير من مغبة هذا التفرّق والانقسام فقلما يرعوي المسؤولون عنه، هذا بالإضافة إلى أن بعض المسلمين يمالئون هذا المسؤول أو ذاك، ويتقرّبون منه ويتزلّفون له وراء مصلحة دنيوية أو في محاولة لضرب إخوانهم المختلفين معهم، وهذا ما يزيد من تفرقة المسلمين إذ ينتقد بعضهم السلطة ويقف بعضهم بجانبها. وربما نرى أعداداً من المسلمين لا تنضم إلى المؤسسات الإسلامية بُعداً عن العقيدة أو لقناعتهم بعدوى جدواها أو انصرافاً عنها لاختلافاتها تارةً يتعلّلون بأعذار كهذه وتارةً من غير أعذار.

هذا في الحالات التي تقوم فيها مؤسسات إسلامية، وهي أحسن الظروف، ولكن هناك بلدان كثيرة ومناطق متعددة لا تقوم فيها مثل هذه المنظمات إما لقلة عدد المسلمين فيها، وإما لضعفهم وقلّة إمكاناتهم، وإهمال إخوانهم الذين لا يسعون لهذا، وقد اندمج أعضاء الأقلية المسلمة في مجتمعهم تدريجياً ومجموعة إثر مجموعة ولا بدّ لهم ممن يُنقذهم من وضعهم الذي هم فيه ويسير بهم نحو جادة الصواب.

وإن مما يقف في وجههم ويحول دون تأسيس منظمات لهم أحياناً توزّعهم في مناطق واسعة كما هي الحال في كندا، والولايات المتحدة، والبرازيل حيث البلاد واسعة وقد توجد مجموعة منهم في مناطق نائية اقتضت ظروفهم العمل فيها، فعددهم القليل هناك وبعدهم عن مناطق التجمعات الرئيسية، واختلافهم في اللغة، وافتراقهم في الوعي والمستوى الفكري، وضعفهم المادي،

وطبيعة عملهم، وجهلهم كل هذا يحول دون إقامة مؤسسات لهم تجمعهم وتعمل على النهوض بهم والدفاع عن حقوقهم.

وما يحدث في البلدان الواسعة يقع نفسه في الكبيرة أمثال نيويورك، وشيكاغو، وفيلادلفيا، وسانت لويس، ولوس انجلوس، وريو دي جانيرو، وبونيس آيرس وغيرها إذ أن هذه المدن تجعل سكانها المقيمين في جهةٍ يصعب عليهم الانتقال إلى جهةٍ ثانيةٍ أو من الأطراف إلى المركز صعوبة مادية، وصعوبة زمنية، وصعوبة في انتقال الأطفال إن رغبوا في الانتقال وحدهم، وهذا التوزّع يُؤدّي إلى عدم التمركز والتجمع في منطقة لإقامة جمعية مثلاً تعمل على تعليم أبناء المسلمين وتربيتهم، ولا شك فإن لطبيعة العمل دوراً في التقصير فقد يكون العمل ليلاً، وقد يكون شاقاً، وقد يكون في منطقة نائية يضطر معها إلى الغياب عن المنزل مدةً من الزمن.

ضعف الإمكانات: عندما جاء المستعمرون إلى المناطق التي سيطروا عليها، ومنها التي تضمّ أقلياتٍ مسلمةً، وهذا في إفريقية وآسيا خاصة، صرف المستعمرون نظرهم عن المسلمين حيث تركوهم في حالةٍ بئيسةٍ ينتابهم المرض، ويُؤثّر فيهم الجهل، ويعمل بهم الفقر فلم تُبْنَ في مناطقهم المشافي، ولم يسمح لهم بدخول دوائر الصحة الحكومية إلا إذا أظهروا ميلاً نحو عقيدة المستعمرين وهي النصرانية، وإلى الاستماع إلى المحاضرات التي تُلقى عليهم قبل الموافقة على المعالجة، أو أبدوا على الأقل بُعداً عن عقيدتهم الإسلامية، ولمحافظة المسلمين على عقيدتهم فضّلوا في كثير من الأحيان أن يفتك بهم المرض من أن يخضعوا لرغبات رجال الإرساليات التنصيرية.

وبقيت أحياء المسلمين وقراهم دون مدارس، وتقتصر على الكتاتيب التي يتعلّمون فيها مبادئ القراءة والكتابة، واللغة العربية، والحساب، وترتيل القرآن، وهذه إن وجدت، وفي أحسن حالات التعليم، وفي أحيان كثيرة سعى المستعمرون للوقوف في وجه هذه الكتاتيب أو إغلاقها. وأما المدارس

الحكومية والبعيدة عن مناطق المسلمين فقد كانت غالباً بأيدي رجال الإرساليات التنصيرية، ومناهجها بصورة عامة تُحارب الإسلام وتدعو إلى النصرانية، وتُشوّه الحقائق، وتفتري الكذب، ولهذا السبب فضّل أكثر المسلمين أيضاً إبقاء أبنائهم في حالةٍ من الجهل من أن يفقدوا عقيدتهم في تلك المدارس التنصيرية.

وإن المستعمرين قد أبعدوا المسلمين عن وظائف الدولة وأعمالها، ووضعوا يدهم على أملاك المسلمين، وأخصب أراضيهم بصورة من الصور، منها الشراء، ومنها التهجير، ومنها الاغتصاب، ومنها وضع اليد بدعوى الإهمال بسبب الفقر و.... فتركوهم بذلك في حالةٍ من الفقر بحيث لا يجدون ما يسدّون به رمقهم.

وخرج المستعمرون وبقيت حالة المسلمين على ما كانت عليه إذ أن الحكم الجديد الذي خلف الاستعمار قد سار على طريقة سلفه، وإن حمل صفة الوطنية، أو تستّر بها، لأن المستعمرين هم الذين سلّموا السلطة للحكام الجدد، إما لأنهم على عقيدةٍ واحدةٍ، وإما لأنهم قد تعهدوا بالسير على الخط الذي رسمه المستعمرون لهم، ولذا فلا يزال المسلمون يعيشون في حالة سيئةٍ فالفقر ينتابهم، والأمراض تفتك بهم، والجهل يعمّ أكثرهم، ومن سار من المسلمين في طريق التعليم الغربي، ووافق المستعمرين، وسار على خطهم، وقلّدهم في كل شيء فقد تحسنت أوضاعهم المادية نسبياً، ولكن نهجوا طريقاً لا يرضى عنها المسلمون، ولا يقبلها منهم خالقهم.

وأما الأقليات المسلمة في العالم الجديد فقد هاجرت من بلادها لتعيش في ظل حكوماتٍ تعرف خططها مسبقاً، ولكنها مضطرة إلى ذلك، ولا يمكنها إلا أن ترضخ للأمر الواقع، وتندمج مع المجتمع، وتسير في طريق الضياع، وترى أبناءها بعد مدة قد تنصروا وساروا في طريق آخر، وإما أن تنكفىء على نفسها وتعيش منعزلةً، وهذا أمر صعب لا يقدر عليه إلاّ الجيل الأول

والمتمسكون منهم بعقيدتهم، وذلك لقلّة العدد وضعف الإمكانات، وعندما زاد عدد المسلمين في ديار الغرب وجدوا المشكلات الشائكة أمامهم منهم من تخطّاها، ونظّموا أنفسهم وحاولوا الوقوف في وجه التيارات التي تريد أن تبتلعهم والمجتمعات التي تريد أن تصهرهم داخلها، ومنهم من وقع بين الأشواك يريد أن يجد المخرج فيستغيث، وينظر إلى إخوانه في الأمصار الإسلامية لينقذوه.

هذا بالإضافة إلى ما أوجده المستعمرون النصارى من فئات تدعي الإسلام أحياناً، وتعمل ضده ويمدّونها بكل ما تحتاج إليه من دعم كالقاديانية والبهائية مع الفرق الضالة الأخرى من حركاتٍ باطنيةٍ، وجماعات تميت الجهاد، وتُحبّب الناس بالعزلة والزهد والقناعة بالقليل ولبس الصوف وترك الحبل على الغارب أي الاستسلام للأعداء والسكوت عن كل ما يحدث باسم الزهد في الحياة الدنيا.

الخاتمة

هذه فكرة عامة عن أوضاع الأقليات المسلمة وما ينتابها في كل بقعةٍ من بقاع الأرض، لم أترك أية رقعةٍ منها مهما صغرت ـ على حدّ معرفتي ـ إلا وأعطيت لمحةً موجزةً عن المسلمين فيها، وما يُعانون عسى أن تكون موضع تدبُّر ودراسةٍ من قبل إخوانهم في الأمصار جميعها ليأخذ كل منا المهمة الملقاة على عاتقه حسب إمكاناته وطاقاته فالدعاة لهم دور، والهيئات الإسلامية عليهم مسؤولية، والأغنياء عليهم مهمة، والمسؤولون عليهم واجب كبير يتناسب كل مع دور بلده، وإمكاناتها، ووعي أبنائها، وتفهُّمه شخصياً للأمانة التي يحملها، بل ولكل مسلمٍ دوره في هذا المجال، منهم من يعمل على التعريف بالأقليات وأوضاعها ومشكلاتها وما تحتاج إليه، ومنهم من يتعرّف ويُعلّم ما عرفه ويدعو إلى المساعدة والدعم، ومنهم من يبذل، ومنهم من يتحرّك سياسياً، ومن يتصرف اجتماعياً، وهكذا فلكل دوره في هذا الجانب المهم من حياة المسلمين.

إن من أول الواجبات علينا معرفة إخواننا، والعمل على إنقاذهم مما هم فيه، والدعم لحلّ مُشكلاتهم، والمطالبة بالعمل للمحافظة على عقيدتهم ومساعدتهم على مختلف الجهات، وإن ضاعوا فنحن المسؤولون عن ضياعهم، وإن حققوا شيئاً من التقدّم فلنا الأجر ـ بإذن الله ـ.

وأخيراً فإني قد انتهيت ـ ولله الحمد ـ من هذه الموسوعة التاريخية بعد عملٍ وجهدٍ استمرّ عشرين عاماً، أرجو أن أكون قد وُفِّقت في عملي هذا وقدّمت فيه جديداً، وتركت بالياً ومدسوساً، ورسمت خطاً مُتميزاً للسير عليه، وعسى أن يُكمل آخرون ما بدأت به، ويُصحّحوا بعض ما وقعت فيه، ويُوسّعوا فيما أوجزته. كما أرجو أن يتقبل ربي مني عملي هذا، وأن يكون في سجل حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون حيث لم أبـغ إلا رضا الله بتوضيح بعض الحقائق التي حاول بعض المغرضين قلبها، وأن أذب عن بعض الصحابة والمصلحين الذين شوّه الدسّاسون سيرتهم، حتى كاد الدخيل أن يعـمّ، وأوشك الباطل أن ينتشر لولا أن تداركه رحمة من ربك فسخّر للحق من ينصره وللباطل من يطمسه، وحسبنا الله ونعم الوكيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرة ذي القعدة من عام ١٤٠٧ من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

محمود شاكر

المراجـــع

١ ـ الأقليات المسلمة	سيد عبد المجيد بكر	إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي ـ دعوة الحق ـ الأعداد ٢٣ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤.
٢ ـ انتشار الإسلام في اليابان	عبد الرشيد إبراهيم	مكتبة القدر ـ دار الخلافة استانبول ١٣٢٩ هـ باللغة التركية ـ ترجمة محمد صبحي فرزات ـ مخطوط.
٣ ـ تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر	بدر الدين. و. ل. جيّ.	دار الإنشاء للطباعة والنشر ـ طرابلس ـ لبنان رمضان ١٣٩٤ هـ.
٤ ـ جولة في جزائر البحر الزنجي	محمد ناصر العبودي	توزيع دار العلوم ـ الرياض ١٤٠٢ هـ.
٥ ـ الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد	الترجمة إلى العربية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٠ م.
٦ ـ الرحلة اليابانية	علي أحمد الجرجاني	مطبعة جريدة الشورى ـ مصر ـ الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ.

الكتاب	المؤلف	الناشر
٧ ـ مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين	محمد ناصر العبودي	النادي الأدبي ـ الرياض عام ١٤٠١ هـ.
٨ ـ المسلمون في أوربا وأمريكا	علي المنتصر الكتاني	دار إدريس ١٣٩٦ هـ ـ مجلدان.
٩ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي	دار بيروت ـ دار صادر.
١٠ـ مواطن الشعوب الإسلامية	محمود شاكر	المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ سلسلة كتب.
١١ـ الوجود الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية	عبد الله أحمد الداري	الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون جدة عام ١٤٠٣ هـ.

فهرس الموضوعات